الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الرابع والثلاثون

الاجزاء من ٦٥٧ الى ٦٨٠

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
657	سورة ص	فصول مهمة	2
658	=	الآية 1 الى الآية 20	347
659	=	الآية 21 الى الآية 25	721
660	=	الآية 26 الى الآية 40	1060
661	=	الآية 41 الى الآية 44	1601
662	=	الآية 45 الى الآية 83	2243
663	=	الآية 84 الى الآية 88	2557
664	سورة الزمر	فصول مهمة	3034
665	=	الآية 1 الى الآية 7	3374
666	=	الآية 8 الى الآية 20	3583
667	=	الآية 21 الى الآية 31	3920
668	=	الآية 32 الى الآية 52	4467
669	=	الآية 53 الى الآية 64	4957
670	=	الآية 65 الى الآية 72	5143
671	=	الآية 73 الى الآية 75	5372
672	سورة غافر	فصول مهمة	5920
673	=	الآية 1 الى الآية 17	6212
674	=	الآية 18 الى الآية 20	6507
675	=	الآية 21 الى الآية 40	6814
676	=	الآية 41 الى الآية 63	7265
677	=	الآية 64 الى الآية 81	7611
678	=	الآية 82 الى الآية 85	7835
679	سورة فصلت	فصول مهمة	8374
680	=	الآية 1 الى الآية 18	8617

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والخمسون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والخمسون بعد الستمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة ص)

(4/657)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة ص)

(5/657)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السورة

فيه حديث أُبىّ الواهى : مَن قرأَ سورة ص كان له بوزن كلّ جبل

سخّره الله لداود عشرُ حسنات ، وعُصِم أَن يُصرّ على ذنب صغير أَو كبير ، وحديث

علىّ مثله : يا على من قرأَ (ص والقرآن(.

فكأَنما قرأَ التَّوراة ، وله بكلِّ آية قرأَها ثوابُ الأَسخياءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 402 ﴾

(6/657)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

(سورة ص)

المقصود منها بيان ما ذكر في آخر الصافات من أن جند الله هم الغالبون – وإن رئي أنهم ضعفاء ، وإن تأخر نصرهم – غلبة آخرها سلامة للفريقين ، لأنه سبحانه واحد لكونه محيطا بصفات الكمال كما أفهمه آخر الصافات من التنزيه والحمد وما معهما ، وعلى ذلك دلت تسميتها بحرف " ص " لأن مخرجه من طرف اللسان ، وبين أصول الثنيتين السفليتين ، ولهمن الصفات الهمس والرخاوة والإطباق والاستعلاء والصفير ، فكان دالا على ذلك لأن مخرجه أمكن مخارج الحروف وأوسعها وأخفها وأرشقها وأغلبها ، ولأن ما له من الصفات العالية أكثر من ضدها وأفخم وأعلى وأضخم ، ولذلك ذكر من فيها من الأنبياء

الذين لم يكن على أيديهم إهلاك ، بل ابتلوا وعرفوا وسلمهم الله من أعدائهم من الجن والإنس ، وإلى ذلك الإشارة بما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن غيره من أن معناه : الله صادق فيما وعد ، أو صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) ، أو صاد محمد (صلى الله عليه وسلم) ، قلوب الخلق واستمالها ، وبه قرأ أبو عمرو في رواية شاذة على أنه فعل ماض من الصيد ، وقرأ الحسن وغيره بكسر الصاد على أنه أمر من المصاداة وهي المعارضة أي عارض بما أنزلناه إليك الخلائق وجادلهم به فإنك تغلبهم لأن الصدق سيف الله في أرضه ، ما وضعه على شيء إلا قطعه ، وقد انبسط هذا الصدق الذي أشار إليه الصاد على كل صدق في الوجود فاستمال كل من فيه نوع من الصدق ، ولهذا قال في السورة التي بعدها) والذي جاء بالصدق وصدق به) [الزمر : 33] فذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام شاهد وجودي على ما هو معنى الصاد عند العلماء الربانيين من أنه مطابقة ما بين الخلق والأمر ، وتسمى سورة داود عليه السلام – كما قاله ابن الجوزي رحمه الله – وحاله (صلى الله عليه وسلم) أدل أحوال من فيها من الأنبياء على هذا المقصود ، لما كان فيه من الضعف أولا والملك آخرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 356 ﴾

(7/657)

فصل

قال الآلوسى :

سورة ص

مكية كما روي عن ابن عباس وغيره وقيل مدنية وليس بصحيح كما قال الداني وهي ثمان وثمانون آية في الكوفي وست وثمانون في الحجازي والبصري والشامي وخمس وثمانون في عد أيوب بن المتوكل وحده قيل ولم يقل أحد إن

ص وحدها آية كما قيل في غيرها من الحروف في أوائل السور وفيه بحث وهي كالمتممة لما قبلها من حيث أنه ذكر فيها ما لم يذكر في تلك من الأنبياء عليهم السلام كداود وسليمان ولما ذكر سبحانه فيما قبل عن الكفار أنهم قالوا لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم بدأ عز وجل في هذه السورة بالقرآن ذي الذكر وفصل ما اجمل هناك من كفرهم وفي ذلك من المناسبة ما فيه ومن دقق النظر لاح مناسبات أخر والله تعالى الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ 160 ﴾

(8/657)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . ص . والقرآن)

السّورة مكِّيّة إجماعاً .

وآياتها ثمان وثمانون فى عدّ الكوفة ، وستّ فى عدّ الحجاز ، والشأم ، والبصر ، وخمس فى عَدّ أَيوب بن المتوكِّل وحده .

وكلماتها سبعمائة واثنتان وثلاثون .

وحروفها ثلاثة آلاف وسبع وستّون .

المختلف فيها ثلاث : الذكر ، وغوّاص ، ﴿ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ مجموع فواصل آياتها (صدّ قُطْرُب مَن لجّ) ولها اسمان سورة صاد ؛ لافتتاحها بها ، وسورة داود ؛ لاشتمالها على مقصد قصَّته فى قوله : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيدِ ﴾ .

معظم مقصود السورة : بيان تعجّب الكفَّار من نبوّة المصطفى – صلَّى الله عليه وسلَّم ، ووصف المنكرين رسول الله – صَلَّى الله عليه وسلَّم – بالاختلاق والافتراءِ ، واختصاص الحقّ تعالى بمُلْك الأَرض والسّماءِ ، وظهور أَحوال يوم القضاءِ ، وعجائب حديث داود وأُوريَا وقصّة سليمان فى حديث المَلَك ، على سبيل المِنَّة والعطاءِ ، وذكر أَيوب فى الشفاءِ ، والابتلاءِ ، وتخصيص إبراهيم وأَولاده من الأَنبياءِ ، وحكاية أَحوال

ساكنى جَنَّةِ المأْوَى ، وعجز حال الأَشقياءِ فى سقر ولَظَى ، وواقعة إبليس مع آدم وحوّاء وتهديد الكفَّار على تكذيبهم للنبىّ المجتبى فى قوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ آيتان : ﴿ إِن يُوحَى إِلَيَّ ﴾ م آية السّيف ن ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ ﴾ م آية السّيف ن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 399 . 400 ﴾

(9/657)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة ص

364 - مسألة :

قوله تعالى : (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) وفى سورة ق (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) الأول بالواو والثانى بالفاء ؟

جوابه :

أن ما قبل سورة ق يصلح سببا لما قالوا بعده ، فجاء بالفاء . وما قبل سورة ص لا يصلح أن يكون سببا لقولهم : (سَاحِرٌ كَذَّابٌ) فجاء بالواو العاطفة .

365 - مسألة :

قوله تعالى : (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ)

ما وجه تعلق صبره بذكر داود ؟ .

جوابه :

لما استعجلوا العذاب في قوله تعالى : (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا) همَّ رسول - صلى الله عليه وسلم - بالدعاء بنزول العذاب عليهم فأمره الله تعالى بالصبر عليهم وأن يذكر داود حيث دعا على الخطائين فابتلى بخطيئته (1)

(10/657)

---

366 - مسألة :

قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ) و (إِنَّمَا) يفيد الحصر . وقال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) ؟ .

جوابه :

أن ما يتقدمه التخويف يناسب أن يليه الإنذار .

وها هنا كذلك لأنه جاء بعد ذكر جهنم والنار وعذاب أهلها ومحاجتهم فيها .

---

(1) هذا الكلام فيه نظر ولا يصح وسيأتى الرد مفصلا إن شاء الله تعالى فى قصة داوود - عليه السلام - فى السورة الكريمة . والله أعلم .

وآية تقدمه الترجيه أو التخويف والترجيه يليها الوصفان .

وآية الأحزاب كذلك ، وكذلك آية فاطر ، لما تقدم الأمران قال : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 312.310 ﴾

(11/657)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

ومن المتشابهات : قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ بالواو ، وفى ق : (فقال) بالفاءِ ؛ لأَنَّ اتّصاله بما قبله فى هذه السّورة معنوى ، وهو أَنَّهم عجِبُوا من مجئ المنذر وقالوا : هذا المنذر ساحر كذاب ، واتِّصاله فى ق معنوىّ ولفظىّ ؛ وهو أَنهم عجبُوا ، فقالوا : هذا شئ عجيب .

فراعى المطابقة بالعَجُز والصّدر ، وختم بما بدأَ به ، وهو النّهاية فى البلاغة .

قوله : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ وفى القمر ﴿ أَأُلْقِيَ ﴾ لأَنَّ ما فى هذه السّورة حكاية عن كفَّار قريش يُجيبون محمّدا – صلى الله عليه وسلَّم – حين قرأَ عليهم ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فقالوا : أأُنزل عليه الذكر .

ومثله ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ وهو كثير .

وما فى القمر حكاية عن قوم صالح .

وكان يأْتى الأَنبياءَ يومئذ صحفٌ مكتوبة ، وأَلواح مسطورة ؛ كما جاءَ إبراهيمَ وموسى .

فلهذا قالوا : ﴿ أَأُلْقِيَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ مع أَنَّ لفظ الإلقاء يستعمل لما يستعمل له الإنزال .

قوله : ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ ، وفى الأَنبياءِ : ﴿ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ ؛ لأَنَّ الله – سبحانه وتعالى – ميّز أَيُّوب بحسن صبره على بلائه ، من بين أَنبيائه ، فحيث قال لهم : من عندنا قال له : منَّا ، وحيث لم يقل لهم : من عندنا قال له : من عندنا [فخصت هذه السورة بقوله : منا لما تقدم فى حقهم (من عندنا)] فى مواضع .

وخُصّت سورة الأَنبياء بقوله : (من عندنا) لتفرّده بذلك .

قوله ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ﴾ وفى ق : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَحَقَّ وَعِيْد ﴾ قال الإمام : سورة ص بُنيت فواصلها على رَدْف أَواخرها [بالأَلف ؛ وسورة ق على ردف أَواخرها] بالياءِ والواو .

فقال فى هذه السّورة : الأَوتاد ، الأَحزاب ، عقاب ، وجاءَ بإزاءِ ذلك فى ق : ثمود ، وعيد ، ومثله فى الصافات : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴾ وفى ص ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ فالقصد إلى التَّوفيق بين الأَلفاظ مع وضوح المعانى .

قوله فى قصّة آدم : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ قد سبق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 400.402 ﴾

(13/657)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة ص

434 – قوله تعالى وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون 4 بالواو وفي ق فقال 2 بالفاء لأن اتصاله بما قبله في هذه السورة معنوي وهو أنهم عجبوا من مجيء المنذر وقالوا

هذا المنذر ساحر كذاب واتصاله في ق معنوي ولفظي وهو أنهم عجبوا فقالوا هذا شيء عجيب 2 فراعى المطابقة والعجز والصدر وختم بما بدأ به وهو النهاية في البلاغة

435 – قوله أأنزل عليه الذكر من بيننا 8 وفي القمر أألقى الذكر عليه من بيننا 25 لأن ما في هذه السورة حكاية عن كفار قريش يجيبون محمدا صلى الله عليه و سلم حين قرأ عليهم وأنزلنا إليك

الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم فقالوا أنزل عليه الذكر من بيننا 8 ومثله الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب 1 18 و تبارك الذي نزل الفرقان على عبده 1 25 وهو كثير وما في القمر حكاية عن قوم صالح وكان يأتي الأنبياء يومئذ صحف مكتوبة وألواح مسطورة كما جاء إبراهيم وموسى فلهذا قالوا أألقى الذكر عليه 25 مع أن لفظ الإلقاء يستعمل لما يستعمل له الإنزال

436 – قوله ومثلهم معهم رحمة منا 43 وفي الأنبياء رحمة من عندنا 84 لأن الله سبحانه وتعالى ميز أيوب بحسن صبره على بلائه بين أنبيائه فحيث قال لهم من عندنا قال له منا وحيث لم يقل لهم من عندنا قال له من عندنا

فخصت هذه السورة بقوله منا لما تقدم في حقهم من عندنا في مواضع وخصت سورة الأنبياء بقوله من عندنا لتفرده بذلك

437 – قوله كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد 12 وفي ق كذبت قبلهم قوم

نوح وأصحاب الرس وثمود إلى قوله فحق وعيد 12 14

قال الخطيب سورة ص بنيت فواصلها على ردف أواخرها بالباء والواو فقال في هذه السورة الأوتاد 12 الأحزاب 13 عقاب 14 وجاء بإزاء ذلك في ق ثمود 12 وعيد 14

ومثله في الصافات قاصرات الطرف عين 48 وفي ص قاصرات الطرف أتراب 42

فالقصد للتوفيق بالألفاظ مع وضوح المعاني

438 - قوله في قصة آدم إني خالق بشرا من طين 71 قد سبق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أسرار التكرار فى القرآن صـ 182.184 ﴾

(14/657)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

38ـ سورة ص

سميت في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة والآثار عن السلف " سورة صاد " كما ينطق باسم حرف الصاد تسمية لها بأول كلمة منها هي صاد " بصاد فألف فدال ساكنة

سكون وقوف " شأن حروف التهجي عند التهجي بها أن تكون موقوفة ، أي ساكنة الأعجاز .

وأما قول المعري يذكر سليمان عليه السلام :

وهو من سخرت له الإنس والج . . .

ن بما صح من شهادة صاد

فإنما هي كسرة القافية الساكنة تغير إلى الكسرة " لأن الكسر أصل في التخلص من السكون " كقول امرئ القيس :

عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

وفي " الإتقان " عن كتاب " جمال القراء " للسخاوي : " أن سورة ص تسمى أيضا سورة داود " ولم يذكر سنده في ذلك .

وكتب اسمها في المصاحف بصورة حرف صاد مثل سائر الحروف المقطعة في أوائل السور اتباعا لما كتب في الصحف .

وهي مكية في قول الجميع ، وذكر في " الإتقان " أن الجعبري حكى قولا بأنها مدنية,وقال السيوطي : " وهو خلاف حكاية جماعة الإجماع على أنها مكية " .

وعن الداني في كتاب " العدد " بأنها مدنية وقال : " إنه ليس بصحيح " .

وهي السورة الثامنة والثلاثون في عداد نزول السورة نزلت بعد سورة ﴿ اقْتَرَبَتِ

السَّاعَةُ﴾ وقبل سورة الأعراف .

وعدت آيها ستا وثمانين عند أهل الحجاز والشام والبصرة وعدها أيوب بن المتوكل البصري خمسا وثمانين .

وعدت عند أهل الكوفة ثمانا وثمانين .

روى الترمذي عن ابن عباس قال : " مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبي صلى الله عليه وسلم

(15/657)

وعند أبي طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل يمنع النبي صلى الله عليه وسلم من أن يجلس وشكوه إلى أبي طالب ، فقال : " يا بن أخي ما تريد من قومك؟ " قال : " إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم الجزية " .

قال : " كلمة واحدة " .

قال : " يا عم يقولوا لا إله إلا الله " فقالوا : " أإلها واحدا ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ، قال فنزل فيهم القرآن ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [ص : 1] إلى قوله : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ [ص : 7] "

قال : " حديث حسن " .

فهذا نص في أن نزولها في آخر حياة أبي طالب وهذا المرض مرض موته كما في أبن عطية فتكون هذه الصورة قد نزلت في سنة ثلاث قبل الهجرة .

أغراضها

أصلها ما علمت من حديث الترمذي في سبب نزولها .

وما اتصل به من توبيخ المشركين على تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وتكبرهم عن قبول ما أرسل به ، وتهديدهم بمثل ما حل بالأمم المكذبة قبلهم وأنهم إنما كذبوه لأنه جاء بتوحيد الله تعالى ولأنه اختص بالرسالة من دونه وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وأن يقتدي بالرسل من قبله داود وأيوب وغيرهم وما جوزوا عن صبرهم ، واستطراد الثناء على داود وسليمان وأيوب ، وأتبع ذكر أنبياء آخرين لمناسبة سنذكرها .

وإثبات البعث لحكمة جزاء العاملين بأعمالهم من خير وشر .

وجزاء المؤمنين المتقين وضده من جزاء الطاغين والذين أضلوهم وقبحوا لهم الإسلام والمسلمين .

ووصف أحوالهم يوم القيامة .

وذكر أول غواية حصلت وأصل كل ضلالة وهي غواية الشيطان في قصة السجود لآدم .

وقد جاءت فاتحتها مناسبة لجميع أغراضها إذ ابتدئت بالقسم بالقرآن الذي كذب به المشركون ، وجاء المقسم عليه أن الذين كفروا في عزة وشقاق وكل ما ذكر فيها من أحوال المكذبين سببه اعتزازهم وشقاقهم ، ومن أحوال المؤمنين سببه ضد ذلك ، مع ما في الافتتاح بالقسم من التشويق إلى ما بعده فكانت فاتحتها مستكملة خصائص حسن الابتداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ 106 . 107 ﴾

(16/657)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة ص

الوحدة الأولى: 1 – 16 تعريف بسورة ص

هذه السورة مكية , تعالج من موضوعات السور المكية قضية التوحيد , وقضية الوحي إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) وقضية الحساب في الآخرة . وتعرض هذه القضايا الثلاث في مطلعها الذي يؤلف الشوط الأول منها . وهو الآيات الكريمة التي فوق هذا الكلام . وهي تمثل الدهش والاستغراب والمفاجأة التي تلقى بها كبار المشركين في مكة دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) لهم إلى توحيد الله ; وإخبارهم بقصة الوحي واختيارهم رسولاً من

عند الله: (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون هذا ساحر كذاب , أجعل الآلهة إلهاً واحداً :إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم:أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟) . . كما تمثل استهزاءهم واستنكارهم لما أوعدهم به جزاء تكذيبهم من عذاب:(وقالوا :ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) . .

(17/657)

لقد استكثروا أن يختار الله – سبحانه – رجلاً منهم , لينزل عليه الذكر من بينهم . وأن يكون هذا الرجل هو محمد بن عبد الله . الذي لم تسبق له رياسة فيهم ولا إمارة ! ومن ثم ساءلهم الله في مطلع السورة تعقيباً على استكثارهم هذا واستنكارهم وقولهم: (أأنزل عليه الذكر من بيننا)ساءلهم:(أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما ؟ فليرتقوا في الأسباب) . . ليقول لهم:إن رحمة الله لا يمسكها شيء إذا أراد الله أن يفتحها على من يشاء . وإنه ليس للبشر شيء من ملك السماوات والأرض , وإنما يفتح الله من رزقه ورحمته على من يشاء وإنه يختار من عباده من يعلم استحقاقهم للخير , وينعم عليهم بشتى الإنعامات بلا قيد ولا حد , ولا حساب .

. وفي هذا السياق جاءت قصة داود وقصة سليمان ; وما أغدق الله عليهما من النبوة والملك , ومن تسخير الجبال والطير , وتسخير الجن والريح , فوق الملك وخزائن الأرض والسلطان والمتاع .

وهما – مع هذا كله – بشر من البشر ; يدركهما ضعف البشر وعجز البشر ; فتتداركهما رحمة الله ورعايته , وتسد ضعفهما وعجزهما , وتقبل منهما التوبة والإنابة , وتسدد خطاهما في الطريق إلى الله .

وجاء مع القصتين توجيه النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى الصبر على ما يلقاه من المكذبين , والتطلع إلى فضل الله ورعايته كما تمثلهما قصة داود وقصة سليمان: (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . . .)الخ . .

كذلك جاءت قصة أيوب تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده بالضراء . وصبر أيوب مثل في الصبر رفيع . وتصور حسن العاقبة , وتداركه برحمة الله , تغمره بفيضها , وتمسح على آلامه بيدها الحانية . . وفي عرضها تأسية للرسول (صلى الله عليه وسلم) وللمؤمنين , عما كانوا يلقونه من الضر والبأساء في مكة ; وتوجيه إلى ما وراء الابتلاء من رحمة , تفيض من خزائن الله عندما يشاء .

(18/657)

وهذا القصص يستغرق معظم السورة بعد المقدمة , ويؤلف الشوط الثاني منها .

كذلك تتضمن السورة رداً على استعجالهم بالعذاب , وقولهم: (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) . . فيعرض بها – بعد القصص – مشهد من مشاهد القيامة , يصور النعيم الذي ينتظر المتقين . والجحيم التي تنتظر المكذبين . ويكشف عن استقرار القيم الحقيقية في الآخرة بين هؤلاء وهؤلاء . حين يرى الملأ المتكبرون مصيرهم ومصير الفقراء الضعاف الذين كانوا يهزأون بهم في الأرض ويسخرون , ويستكثرون عليهم أن تنالهم رحمة الله , وهم ليسوا من العظماء ولا الكبراء . وبينما المتقون لهم حسن مآب(جنات عدن مفتحة لهم الأبواب , متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب) . . فإن للطاغين لشر مآب(جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق , وآخر من شكله أزواج) . . وهم يتلاعنون في جهنم ويتخاصمون , ويذكرون كيف كانوا يسخرون بالمؤمنين:(وقالوا:ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار . أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ؟)فإنهم لا يجدونهم في جهنم . وقد عُرف أنهم هنالك في الجنان ! فهذا هو جواب ذلك الاستعجال والاستهزاء !

وهذا المشهد يؤلف الشوط الثالث في السورة .

كما يرد على استنكارهم لما يخبرهم به الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أمر الوحي .

ويتمثل هذا الرد في قصة آدم في الملأ الأعلى . حيث لم يكن النبي (صلى الله عليه وسلم) حاضراً ; إنما هو إخبار الله له بما كان , مما لم يشهده - غير آدم - إنسان . . وفي ثنايا القصة يتبين أن الذي أردى إبليس , وذهب به إلى الطرد واللعنة , كان هو حسده لآدم - عليه السلام - واستكثاره أن يؤثره الله عليه ويصطفيه . كما أنهم هم يستكثرون على محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يصطفيه الله من بينهم بتنزيل الذكر ; ففي موقفهم شبه واضح من موقف إبليس المطرود اللعين !

(19/657)

وتختم السورة بختام هذا الشوط الرابع والأخير فيها ; بقول النبي (صلى الله عليه وسلم) لهم: إن ما يدعوهم إليه لا يتكلفه من عنده , ولا يطلب عليه أجراً , وإن له شأناً عظيماً سوف يتجلى: (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين) . .

هذه الأشواط الأربعة التي تجري بموضوعات السورة هذا المجرى ; تجول بالقلب البشري في مصارع الغابرين , الذين طغوا وتجبروا واستعلوا على الرسل والمؤمنين , ثم انتهوا إلى الهزيمة والدمار والخذلان: (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب . كذبت قبلهم قوم نوح وعاد

وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) . .

تعرض على القلب البشري هذه الصفحة . صفحة الهزيمة والدمار والهلاك للطغاة المكذبين . ثم تعرض بإزائها صفحة العز والتمكين والرحمة والرعاية لعباد الله المختارين , في قصص داود وسليمان وأيوب .

هذا وذلك في واقع الأرض . . ثم تطوف بهذا القلب في يوم القيامة وما وراءه من صور النعيم والرضوان . وصور الجحيم والغضب . حيث يرى لونا آخر مما يلقاه الفريقان في دار البقاء . بعد ما لقياه في دار الفناء . .

والجولة الأخيرة في قصة البشرية الأولى وقصة الحسد والغواية من العدو الأول , الذي يقود خطى الضالين عن عمد وعن سابق إصرار . وهم غافلون .

كذلك ترد في ثنايا القصص لفتة تلمس القلب البشري وتوقظه إلى الحق الكامن في بناء السماء والأرض . وأنه الحق الذي يريد الله بإرسال الرسل أن يقره بين الناس في الأرض . فهذا من ذلك: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً) . . وهي لفتة لها في القرآن نظائر . وهي حقيقة أصيلة من حقائق هذه العقيدة التي هي مادة القرآن المكي الأصيلة . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 3004 . 3006 ﴾

(20/657)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة ص

مكية وآياتها ثمان وثمانون آية

بين يدي السورة

سورة ص مكية ، وهدفها نفس هدف السور المكية ، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية

*ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن المعجز المنزل على النبي الأمي ، المشتمل على المواعظ البليغة ، والأخبار العجيبة – على أن القرآن حق ، وأن محمدا نبي مرسل [ص . والقرآن ذي الذكر . بل الذين كفروا في عزة وشقاق . .] الآيات .

*ثم تحدثت عن الوحدانية وإنكار المشركين لها ، ومبالغتهم في العجب من دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لهم إلي توحيد الله [أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب] .

*وانتقلت السورة لتضرب الأمثال لكفار مكة بمن سبقهم من الطغاة المتجبرين ، الذين أسرفوا بالتكذيب والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال ، بسبب إفسادهم وإجرامهم [كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد] الآيات .

* ثم تناولت قصص بعض الرسل الكرام ، تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام ، عما يلقاه من

كفار مكة من الاستهزاء والتكذيب ، وتخفيفا لآلامه وأحزانه ، فذكرت قصة نبي الله (داود) ، وولده (سليمان) ، الذي جمع الله له بين النبوة والملك ، وما نال كلا منهما من الفتنة والابتلاء ، ثم أعقبتها بذكر فتنة (أيوب ، وإسحاق ويعقوب ، وإسماعيل وذا الكفل) ، هكذا في عرض سريع لبيان سنة الله ، في إبتلاء أنبيائه وأصفيائه [اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . .] الآيات .

*وأشارت السورة الكريمة إلي دلائل القدرة والوحدانية ، في هذا الكون المنظور وما فيه من بدائع الصنعة ، للتنبيه على أن هذا الكون لم يخلق عبثا ، وأنه لابد من دار ثانية يجازي فيها المحسن والمسيء [وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . .] الآيات .

(21/657)

---

* وختمت السورة الكريمة ببيان وظيفة الرسول ومهمته الأساسية التي هي مهمة جميع الرسل الكرام [قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار . رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار . .] الآيات .

التسمية :

تسمى السورة الكريمة " سورة ص " وهو حرف من حروف الهجاء للإشادة بالكتاب المعجز الذي تحدى الله به الأولين والآخرين ، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 49 ﴾

(22/657)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة ص

الذكر : الشرف كما قال " وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ " الذين كفروا هم رؤساء قريش ، فى عزة : أي في استكبار عن اتباع الحق ومتابعة غيرهم فيه والعزة أيضا الغلبة والقهر كما قالوا في أمثالهم : من " عزّ بزّ " أي : من غلب سلب ، شقاق : أي مخالفة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من قولهم : فلان في شقّ غير شق صاحبه ، فنادوا : أي استغاثوا ، لات : أي ليس الحين ، مناص : أي فرار وهرب ، عجاب : أي بالغ في العجب نحو قولهم طويل وطوال أي إنه من نوائب الدهر فلا حيلة لنا إلا الصبر عليه ، الملة :

الآخرة : هى ملة النصارى ، اختلاق : أي كذب وافتراء ، فليرتقوا : أي فليصعدوا ، فى

الأسباب : أي في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى الاستيلاء على العرش ، قاله مجاهد وقتادة . ومنه قول زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلّم

جند ما : أي جند كثير عظيم كقولهم " لأمر ما جدع قصير أنفه " ، مهزوم : أي مغلوب ، الأحزاب : أي المجتمعين لإيذاء محمد وكسر شوكته وإبطال دينه

القط : النصيب والحظ والكتاب بالجوائز والجمع القطوط ، قال الأعشى يمدح النعمان بن المنذر :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بغبطته يعطى القطوط ويأفق

ويأفق : أي يصلح .

الأيد والآد : القوة في العبادة وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، أوّاب : أي رجاع إلى اللّه وإلى طاعته من قولهم آب . إذا رجع ، قال عبيد بن الأبرص :

وكلّ ذى غيبة يئوب وغائب الموت لا يئوب

والإشراق : أي وقت الإشراق ، يقال أشرقت الشمس : أضاءت ، وشرقت : طلعت ، محشورة : أي محبوسة في الهواء ، أواب : أي منقاد يسبح تبعا له ، شددنا ملكه : أي قويناه بالهيبة والنصر ، والحكمة : هى إصابة الصواب في القول والعمل ، الفصل : الحاجز بين الشيئين ، وفصل الخطاب : الكلام الذي يفصل بين الحق والباطل .

هل : هنا كلمة يراد منها التعجيب والتشويق إلى سماع ما يرد بعدها ، والخصم :

جماعة المخاصمين ويستعمل للمفرد والجمع مذكرا ومؤنثا قال الشاعر :

وخصم عضاب ينفضون لحاهم كنفض البرازين العراب المخاليا

وتسوروا : أي أتوه من أعلى السور ودخلوا إلى المنزل ، والمحراب : الغرفة التي كان يتعبد

فيها ويشتغل بطاعة ربه ، والفزع : انقباض ونفار يعترى الإنسان من شيء مخيف ، بغى :

أي جار وظلم ، ولا تشطط : أي لا تبعد عن الحق ولا تجر في الحكومة ، سواء الصراط :

أي وسط الطريق ، والنعجة أنثى الضأن ويكنى بها عن المرأة كما قال عنترة :

يا شاة ما قنص لمن حلّت له حرمت عليّ وليتها لم تحرم

فبعث جاريتى فقلت لها اذهبي فتحسّسى أخبارها لى واعلم

قالت رأيت من الأعادى غرّة والشاة ممكنة لمن هو مرتمى

أكفلنيها : أي ملكنيها ، وأصل ذلك اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى ، وعزّنى : أي

غلبنى ، وفي المثل : من عزّ بزّ أي من غلب سلب ، وقال الشاعر :

قطاة عزّها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

فى الخطاب : أي في مخاطبته إياى ومحاجته ، إذ قد أتى بحجاج لم أستطع رده ، والخلطاء : هم المعارف أو الأعوان ممن بينهم ملابسة شديدة وامتزاج : واحدهم خليط ، فتنّاه : أي ابتليناه ، خر : أي سقط ، راكعا : أي ساجدا وقد يعبر بالركوع عن السجود ، قال الشاعر :

فخرّ على وجهه راكعا وتاب إلى اللّه من كل ذنب

وأناب : أي رجع إلى ربه ، والزلفى : القرب من اللّه ، والمآب : المرجع .

باطلا : أي عبثا ولعبا ، ويل : أي هلاك ، مبارك : أي كثير المنافع الدينية والدنيوية ، ليدبروا : أي ليتفكروا ، ليتذكر : أي ليتعظ ، الألباب : واحدها لبّ ، وهو العقل ، وقد يجمع على ألبّ ويفك إدغامه في ضرورة الشعر ، قال الكميت :

إليكم ذوى آل النبىّ تطلّعت نوازع من قلبى ظماء وألبب

الصافن من الخيل : الذي يرفع إحدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافرها كما قال :

(24/657)

ألف الصّفون فما يزال كأنّه مما يقوم على الثلاث كسيرا

وقال النابغة :

لنا قبّة مضروبة بفنائها عتاق المهارى والجياد الصوافن

والجياد : واحدها جواد ، وهو السريع العدو ، كما أن الجواد من الناس السريع البذل قاله المبرد ، والخير هنا : الخيل : توارت : أي غيبت عن البصر ، طفق : شرع ، المسح إمرار اليد على الجسم .

فتنّا سليمان : أي ابتليناه بمرض ، جسدا : أي جسما ضعيفا كأنه جسد بلا روح ، أناب : أي رجع إلى صحته ، لا ينبغى لأحد من بعدي : أي لا ينتقل منى إلى غيرى ، رخاء : أي لينة ، أصاب : أي قصد وأراد ، فقد حكى الزجاج عن العرب أنها تقول :

أصاب الصواب فأخطأ الجواب ، قال الشاعر :

أصاب الكلام فلم يستطع فأخطأ الجواب لدى المفصل

مقرّنين : أي مربوطين ، والأصفاد : واحدها صفد (بالتحريك) وهو الغلّ الذي يجمع اليدين إلى العنق ، قال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنّهاب وبالسّبايا وأبنا بالملوك مصفّدينا

والزلفى : الكرامة ، والمآب : المرجع

أيوب : هو أيوب بن أموص بن أروم بن عيص بن إسحاق عليه السلام ، فهو من بنى إسرائيل قاله ابن جرير . والنّصب : (بضم فسكون) والنّصب (بفتحتين) كالرشد والرشد : المشقة والتعب ، عذاب : أي ألم مضر كما جاء في قوله : " أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ " اركض

برجلك : أي اضرب بها على الأرض ، مغتسل : أي ماء تغتسل به

وتشرب منه ، والضغث : الحزمة الصغيرة من الكلأ والريحان ، ويقال حنث في يمينه :

إذا لم يفعل ما حلف عليه

الأيدى : أي القوى في طاعة اللّه ، والأبصار : واحدها بصر ويراد به هنا البصيرة والفقه في

الدين ومعرفة أسراره ، أخلصناهم : أي جعلناهم خالصين لنا ، بخالصة :

أي بخصلة خالصة لا شوب فيها ، هى تذكّر الدار الآخرة والعمل لها ، المصطفين : أي

المختارين من أبناء جنسهم ، والأخيار : واحدهم خيّر وهو المطبوع على فعل الخير ، هذا

ذكر : أي هذا المذكور من الآيات فصل من الذكر وهو القرآن

(25/657)

الطاغي : المتجاوز للحد في ترك الأوامر وفعل النواهي ، جنات عدن : أي جنات استقرار

وثبات ، من قولهم : عدن بالمكان أي أقام به ، متكئين فيها : أي متكئين فيها

على الأرائك كما جاء في الآية الأخرى ، أتراب : أي لدات متساوون في السن حتى لا

تحصل الغيرة بينهن ، نفاد : أي انقطاع .

الطاغين : هم الكفار الذين تجاوزوا حدود اللّه وكذبوا رسله ، يصلونها : أي يدخلونها

ويقاسون حرها ، والمهاد : كالفراش لفظا ومعنى ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، والغساق : شديد البرودة يغسق من صديد أهل النار ، يقال غسقت العين : أي سال دمعها ، من شكله : أي من مثل المذوق في الشدة والفظاعة ، أزواج : أي أجناس ، فوج : أي جمع كثير من أتباعكم في الضلال ، والاقتحام : ركوب الشدة والدخول فيها ، لا مرحبا بهم . قال أبو عبيدة : العرب تقول لا مرحبا بك : أي لا رحبت عليك الأرض ولا اتسعت ، من الأشرار : أي الأراذل الذين لا خير فيهم ، يريدون بذلك المؤمنين ، زاغت عنهم : أي مالت عنهم ، والتخاصم : مخاصمة بعضهم بعضا ومدافعة كل منهم الآخر .

فقعوا له : أي اسجدوا له ، ما منعك : أي ما صرفك وصدك ، واليد : القدرة قال :

تحمّلت من عفراء ما ليس لى به ولا للجبال الراسيات يدان

من العالين : أي المستحقين للترفع عن طاعة اللّه المتعالين عن ذلك ، رجيم : أي مرجوم ومطرود من كل خير ، لعنتى : أي طردى ، أنظرنى : أي أمهلنى ، من المنظرين : أي الممهلين ، لأغوينهم : أي لأضلنهم ، المخلصين : أي الذين أخلصتهم للعبادة .

من المتكلفين : أي المدّعين معرفة ما ليس عندهم ، نبأه : أي ما أنبأ به من وعد ووعيد ، بعد حين : أي بعد الموت انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 23 صـ 95 . 138 ﴾ . باختصار .

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

تفسير سورة ص

مكية وآياتها 88 آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة ص وهي مكية 1 - من ذلك قوله جل وعز (ص) بإسكان الدال لأنها من حروف التهجي وتقرأ صاد والأجود عند سيبويه فيها الإسكان ولا تعرب لأن حكمها الوقوف عليها فهي مثل حروف الهجاء (آلم) (وآلمر) و (ص) إذا جعلته اسما للسورة لم ينصرف قال مجاهد هو فاتحة السورة وقال قتادة هو اسم من أسماء الرحمن وقال محمد بن كعب هو مفتاح اسماء الله تعالى صمد وصادق الوعد

وروي أن الضحاك قال صاد صدق الله وقراءة الحسن (صاد) بكسر الدال معناها صاد القرآن بعملك يقال صاديته أي قابلته وهذا مشهور عند أهل اللغة ويجوز أن يكون كسر لالتقاء الساكنين والفتح من ثلاث جهات: أ - قيل منها أن يكون قسما الله لأفعلن ب - ومنها أن يكون بمعنى اتل صاد والقرآن ج - ومنها ان يكون فتح لالتقاء الساكنين والقراءة بكسر الدال والتنوين لحن عند أكثر النحويين وإن كان ابن أبي إسحاق من كبراء النحويين إلا ان بعض النحويين قد أجازها على أن تخفض على القسم أجاز ذلك سيبويه 2

- وقوله جل وعز (والقرآن ذي الذكر) (آية 1) روى سفيان عن إسماعيل بن أبي خالد ومسعر عن أبى حصين في قول الله جل وعز والقرآن ذي الذكر أي ذي الشرف وهذا مثل قوله جل وعز (وإنه لذكر لك ولقومك) وقيل معنى (ذي الذكر) فيه ذكر الأمم وغيرهم فاما جواب القسم فقيل إنه في قوله (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) وهذا بعيد جدا لأنه قد اعترضت أقاصيص وأخبار وقيل الجواب في وقوله تعالى (كم اهلكنا من قبلهم من قرن) والمعنى لكم أهلكنا وحذفت اللام كما قال تعالى (قد أفلح من زكاها) وهو مذهب الفراء وقيل الجواب (إن كل إلا كذب الرسل) وقيل الجواب محذوف أي ما الأمر كما يقول هؤلاء الكفار ودل على هذا قوله تعالى (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) وهو مذهب قتادة

(27/657)

وهو أولى الأقوال لأن بل قد حلت محل الجواب فاستغنى بها عنه 3 - ثم خبر الله جل وعز بعنادهم وانحرافهم عن الحق فقال (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) (آية 2) أي خلاف 4 - ثم قال جل وعز (كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص) (آية 3) و (كم) للتكثير في كلام العرب 5 - ثم قال جل وعز (فنادوا) أي بالتوبة والاستغاثة (ولات حين

مناص) (آية 3) روى أبو إسحاق عن التميمي عن ابن عباس (ولات

حين مناص) قال ليس حين نزو ولا فرار وقال عكرمة ليس حين انقلاب وقال قتادة نادوا

حين لاحين نداء قال أبو جعفر هذه الأقوال متقاربة أي ليس حين نداء منجي والمعنى ليس

حين فوت واصله من ناص ينوص إذا تأخر وباص يبوص الله تقدم كما قال الشاعر: أفمن

ذكر ليلى إذ نأتك تنوص * فتقصر عنه تارة وتبوص

وقوله جل وعز (إن هذا لشئ عجاب) (آية 5) عجاب وعجيب بمعنى واحد كما تقول

طويل

وطوال وكذلك (عجاب) قرأ به أبو عبد الرحمن 7 – ثم قال جل وعز (وانطلق الملأ منهم

أنا امشوا واصبروا على آلهتكم) (آية 6) روى سفيان عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد

(وانطلق الملأ منهم) قال هو وعقبة بن أبي معيط أن

امشوا أن تفسير ويجوز أن يكون معناه بأن امشوا واصبروا على آلهتكم فخبر الله جل وعز

بإقامتهم على الكفر 8 – وقوله جل وعز (ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا

اختلاق) (آية 7) روى إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس

قالا (في الملة الآخرة) في النصرانية

وقال محمد بن كعب يعنون ملة عيسى صلى الله عليه وسلم وروى ابن أبي نجيح عن

مجاهد (في الملة الآخرة) قال ملة قريش وقال قتادة في الملة الآخرة أي ملتنا التي نحن عليها 9 - وقوله جل وعز (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) (آية 9)

(28/657)

قال أبو جعفر هذه الاية مشكلة لذكره هذا بعدما تقدم وفيها قولان: أحدهما أنها متصلة بقوله (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) أي إن الله جل وعز له خزائن السموات والأرض وملكهما فيرسل من يشاء

والقول الآخر أنه لما ذكر عنادهم وكفرهم وصبرهم على آلهتهم كان المعنى أم عندهم خزائن رحمة ربك فيحظروها قال على من يريدون أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فقررهم بهذا 10 - ثم قال جل وعز (أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب) (آية 10) أي إن كانوا صادقين فليرتقوا في أبواب السموات قال مجاهد وقتادة الأسباب أبواب السموات وقال زهير

: ولو نال أسباب السماء بسلم وقيل الأسباب الجبال أي فليرتقوا في السماء حتى يأتوا بآية وحكى أهل اللغة أنه يقال للدين الفاضل ارتقى أسباب السموات كما يقال قد بلغ السماء على التمثيل 11 - ثم قال جل وعز (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب)

(آية 11) أي هم جند لهؤلاء الآلهة مهزوم أي مقموع ذليل أي قد انقطعت حجتهم لأنهم لا يصلون إلى أن يقولوا هذا لنا ويقال تهزمت القرية إذا انكسرت وهزمت الجيش

كسرته ثم قال من الأحزاب قال مجاهد أي من الأمم الخالية قال أبو جعفر والمعنى أنهم

حزب من الأحزاب الذين تحزبوا على انبيائهم 12 - عن وقوله جل وعز (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد) (آية 12) روى سعيد عن قتادة في وقوله تعالى وفرعون ذو الأوتاد قال كانت له أوتاد وارسان من وملاعب يلعب بها بين يديه قال أبو جعفر وقيل كان يجعل الإنسان بين أربعة أوتاد ثم يقتله

وقال الضحاك ذو الأوتاد ذو البناء المحكم كما قال: في ظل ملك ثابت الأوتاد 13 - ثم قال جل وعز (وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة

أولئك الأحزاب) (آية 13) قال قتادة كان أصحاب الأيكة أصحاب شجر أكثره من الدوم 14 - وقوله جل وعز (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) (آية 15) قال مجاهد (ما لها من فواق) أي من رجوع

(29/657)

وقال قتادة أي ما لها من مثنوية وأبو عبيدة يذهب إلى أن معنى من فواق بفتح الفاء من راحة ومن فواق بضم الفاء من انتظار وقال غيره هما لغتان بمعنى وقال السدي مالهم بعدها إفاقة ولا رجوع إلى الدنيا قال أبو جعفر أصل هذا من قولهم فواق الناقة وهو ما بين الحلبتين المعنى أنها لا تلبثهم بن حتى يموتوا ولا يحتاج فيها إلى رجوع وافاق من مرضه رجع إلى الصحة والراحة وإلى هذا ذهب أبو

عبيدة في قوله مالها من راحة 15 – وقوله جل وعز (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) (آية 16) قال سعيد بن جبير قطنا أي نصيبنا من الجنة وقال الحسن أي عقوبتنا وقال مجاهد أي عذابنا

وقال قتادة أي نصيبنا من العذاب وقال عطاء الخراساني أي قضاءنا أي حسابنا

قال أبو جعفر أصل هذا من قولهم قططت الشئ أي قطعته فالمعنى عجل لنا نصيبنا أي ما قطع لنا ويجوز أن يكون المعنى عجل لنا ما يكفينا من قولهم قطني من هذا أي يكفيني

ويروى أنهم قالوا هذا لما انزل الله جل وعز (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره) استهزاء وهذا كما قال: يعطي القطوط ويأفق يعني الكتب بالجوائز ويدل على هذا قوله تعالى (إصبر على ما يقولون) (آية 17) 16 – ثم قال جل وعز (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) (آية 17)

قال سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة أي ذا القوة في طاعة الله جل وعز قال أبو جعفر الأيد

والآد في اللغة القوة وأيده قواه فاناآد هذه كما قال: لم يك يناد فأمسى اناآدا

ثم قال تعالى إنه أواب قال مجاهد أي راجع عن الذنوب وقال قتادة أي مطيع قال أبو جعفر

يقال آب يؤويف سنة هو آيب إذا

(30/657)

رجع وأواب على التكثير 17 - ثم قال جل وعز (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي

والإشراق) (آية 18) إشراق الشمس ضوءها وصفاؤها 18 - ثم قال جل وعز

(والطير محشورة كل له أواب) (آية 19) يجوز أن يكون المعنى كل لله جل وعز أواب يعني

داود والجبال والطير ويجوز أن يكون المعنى في (كل) للجبال والطير أي ترجع مع داود

التسبيح 19 - ثم قال جل وعز (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) (آية

20)

قال مجاهد لم يكن في الأرض سلطان أعز من سلطانه قال السدي كان يحرسه في كل ليلة

أربعة آلاف وقيل (شددنا ملكه) بأن الوحي كان يأتيه وهذا عن ابن عباس وقد روى

عكرمة عن ابن عباس أن رجلين اختصما إلى

داود ففال المستعدي إن هذا اغتصبني بقرا فجحده الآخر فأوحى الله إلى داود أن يقتلا

الذي استعدى عليه فأرسل داود إلى الرجل إن الله قد أوحى إلي أن أقتلك فقال الرجل أتقتلني بغير بينة فقال لا يرد أمر الله فيك فلما عرف الرجل أنه قاتله قال والله ما أخذت بهذا الذنب ولكن كنت اغتلت والد هذا فقتلته فأمو عمرو به داود فقتل فاشتدت هيبة بني إسرائيل عند ذلك له

وهو قول الله عز وجل (وشددنا ملكه) 20 - ثم قال جل وعز (وآتيناه الحكمة) (آية 20) قال أبو العالية أي المعرفة بكتاب الله جل وعز وقال السدي النبوة وقال مجاهد هو عدله 21 - ثم قال جل وعز (وفصل الخطاب) (آية 20) قال الحسن أي الفهم في القضاء وقال أبو عبد الرحمن وقتادة أي وفصل القضاء وقال شريح والشعبي وكعب الشهود والأيمان وكذلك روى الحكم عن مجاهد وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال ما قال أنفذ وقال الشعبي فصل الخطاب أما بعد قال أبو جعفر الخطاب في اللغة والمخاطبة واحد فالمعنى على حقيقة اللغة أنه يفصل أي يقطع المخاطبة

بالحكم الذي آتاه الله إياه ويقطع ايضا فصلها في الشهود والأيمان وقيل ش (وفصل الخطاب) البيان الفاصل بين الحق والباطل

(31/657)

22 – وقوله جل وعز (وهل اتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب) (آية 21) تسوروا أي علو والمحراب كل مكان مرتفع وقيل محراب للذي يصلى إليه على التمثيل أي هو أرفع موضع في المسجد وخصم يقع للواحد والاثنين والجميع بلفظ واحد على معنى ذو خصم ولا اختلاف بين أهل التفسير انه يراد به ههنا ملكان

23 – وقوله جل وعز (إذ دخلوا على داود ففزع منهم) (آية 22) قيل دخلا عليه ليلا في غير وقت الخصومة فلذلك قال (ففزع منهم) وقيل فزع منهما لدخول هما من غير الباب الذي كان منه المدخل 24 – وقوله جل وعز (قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض) (آية 22) على جهة المسألة كما تقول رجل يقول لامرأته كذا ما يجب عليه ؟ 25 – ثم قال جل وعز (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط) (آية 22) (فاحكم بيننا بالحق) أي بالعدل ولا تشطط أي ولا تجر يقال أشط يشط إذا جار وشط يشط إذا بعد وقد قرى ولا تشطط أي لا تبعد في الحكم كما قال الشاعر: شطت مزار العاشقين فأصبحت * عسرا علي طلابها ابنة مخرم واهدنا إلى سواء الصراط أي إلى قصد السبيل وقال تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) بغير إلى والعرب تحذف حرف الخفض مما يتعدى إلى مفعولين كما قال الشاعر: ومنا الذي اختير الرجال سماحة * وبرا إذا هب الرياح الزعازع وقيل معنى اهدنا الصراط أعلمنا الصراط ومعنى

اهدنا إلى الصراط ارشدنا إلى الصراط 26 - ثم قال عز وجل (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة (آية 23) قال وهب (إن هذا أخي) أي على ديني (له تسع وتسعون نعجة) والعرب تكني عن المرأة بالنعجة والشاة كما قال الشاعر:

فرميت غفلة عينه عن شاته * فاصبت حبة قلبها وطحالها وفي قراءة ابن مسعود (إن هذا أخي كان له تسع وتسعون نعجة أنثى

(32/657)

وكان ههنا مثل قوله (وكان الله غفورا رحيما) فاما قوله أنثى فقيل هو على جهة التوكيد وقيل لما كان يقال هذه مائة نعجة وإن كان فيها من الذكور شئ يسير جاز أن يقال أنثى ليعلم انه لاذكر فيها 27 - ثم قال جل وعز (ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها) (آية 23) قد جاءت أخبار وقصص في أمر داود صلى الله عليه وسلم وأوريا وأكثرها لا يصح ولا يتصل إسناده ولا ينبغي ان يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها

وأصح ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال ما زاد داود صلى الله عليه وسلم على ان قال أكفلنيها أي انزل لي عنها وروى المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ما زاد داود على أن قال أكفلنيها أي تحول لي عنها وضمها

إلي قال أبو جعفر فهذا أجل ما روي في هذا

والمعنى عليه أن داود عليه السلام سأل أو ريا أن يطلق له امرأته كما يسال الرجل الرجل ان يبيعه جاريته فنبهه الله جل وعز على ذلك وعاتبه لما كان نبيا وكان له تسع وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا وبالتزيد قبل منها فأما غير هذا فلا ينبغي الاجتراء عليه ومعنى أكفلنيها إنزل لي عنها واجعلني كافلها قال الضحاك (وعزني في الخطاب) أي قهرني وفي قراءة عبد الله وعازني

قال أبو جعفر يقال عازه أي غالبه وعزه أي غلبه قال الحسن أي قهره في المحاورة قال أبو جعفر ومنه قولهم من عز بز ومنه قول زهير: فعزته يداه وكاهله 28 - ثم قال جل وعز (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) (آية 24) المعنى بسؤاله نعجتك كما قال تعالى لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ومعنى إلى نعاجه أي مضمومة إلى نعاجه (وإن كثيرا من الخلطاء)

أي الشركاء والخليط الشريك

(33/657)

29 - ثم قال جل وعز (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب) (آية 24)

أي ايقن وقرأ قتادة (أنما فتناه) بتخفيف النون يعني الملكين وقال معناه صمدا له (فاستغفر ربه وخر راكعا) قال أبو الأحوص والحسن خر ساجدا وقال مجاهد سجد أربعين يوما من قبل أن يسأل ربه

شيئا قال سفيان يروى انها قام أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا لصلاة أو حاجة لابد منها قال قتادة (وأناب) أي تاب 30 - وقوله جل وعز (فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) (آية 25) قال الضحاك (لزلفى) أي منزلة رفيعة قال أبو جعفر الزلفى في اللغة القربة ومنه قوله تعالى (وأزلفنا ثم الآخرين) ومنه قوله: مر الليالي زلفا فزلفا * سماوة الهلال حتى احقوقفا

أي ساعة تقرب من أخرى ثم قال (وحسن مآب) قال الضحاك أي وحسن

مرجع 31 - ثم قال جل وعز (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) (آية 26) يقال إنه من هذا جاز ان يقال خلفاء 32 - وقوله جل وعز (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) (آية 26) (بما نسوا يوم الحساب) أي تركوا العمل له وكانوا ناسين له هذا مذهب السدي وقال عكرمة هذا من التقديم والتأخير أي لهم يوم الحساب عذاب شديد (بما نسوا) أي بما تركوا أمر الله عز وجل والقضاء بالعدل 33 - ثم قال جل وعز (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا) (آية 27) أي لما

قالوا إنه لاحساب ولا جنة ولا نار قيل لهم هذا ثم قال جل وعز (فويل للذين كفروا من النار) (آية 27) فأخبر أنه يعذبهم على ذلك

34 - وقوله جل وعز (كتاب أنزلناه إليك مبارك) (آية 29) على إضمار هذا

(34/657)

ثم قال تعالى (ليدبروا آياته) أي ليفكروا في عواقب ما يكون منه (وليتذكر أولوا الألباب) أي العقول 35 - وقوله جل وعز (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب) (آية 30) فيه سبعة أقوال: أ - قال ابن المسيب الأواب الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب ب - وقال سعيد بن جبير الأواب المسبح ج - وقال قتادة المطيع

د - وقال عبيد بن عمير الذي يذكر ذنبه في الخلاء فيستغفر منه ه - ووقيل الراحم و - وقيل التائب ز - وقال أهل اللغة الرجاع الذي يرجع إلى التوبة 36 - وقوله جل وعز (إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد) (آية 31) قال مجاهد (الصافنات) من الخيل التي ترفع إحدى يديها وتقف على ثلاث وقال الفراء الصافن القائم

وهذا المعروف في كلام العرب

قال مجاهد الجياد السراع 37 - وقوله جل وعز (فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر

ربي) (آية 32) قال الفراء الخير في كلام العرب والخيل واحد قال أبو جعفر في الحديث الشريف الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة فكأنها سميت خيرا لهذا وفي الحديث (لما وفد زيد الخيل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له لن تزيد الخير)

وهو زيد بن مهلهل الشاعر قال الفراء المعنى إني آثرت حب الخير قال أبو جعفر أحسن ما قيل في هذا ان المعنى إني أحببت حب الخير حبا فالهاني يحيى عن ذكر ربي قال قتادة عن صلاة العصر 38 - ثم قال جل وعز (حتى توارت بالحجاب) (آية 32) في معناه قولان:

أحدهما أن المعنى حتى توارث الشمس وانه قد عرف معنى الضمير كما قال:

على مثلها أمضي إذا قال صاحبي * الا ليتني افديك منها وأفتدي أي منها يعني من الفلاة ولم يجر لها ذكر

(35/657)

قال أبو إسحاق لما قال بالعشي كان المعنى بعد زوال الشمس فجئ بالضمير على هذا وروى أبو اسحاق عن الحارث عن علي رضي الله عنه قال (الصلاة التي فرط فيها سليمان صلاة العصر) وقيل حتى توارت بالحجاب يعني الخيل وروى سعيد بن مسروق عن عكرمة قال كانت الخيل التي شغل بها سليمان عشرين ألف فرس فقطعها

39 – وقوله جل وعز (ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق) (آية 33) قال الحسن في قوله تعالى فطفق مسحا بالسوق والأعناق فقطع أسوقها وأعناقها فأبدله الله جل وعز مكانها خيرا منها وقيل معنى (فطفق مسحا) اقبل يمسحها بيده من غير قتل كما روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال يقول: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبا لها ومن قال قتلها فذلك على أنه ذكاة أو أنه أبيح ذلك كما روي عن عبد الله بن عمر أنه أعجبه غلام فأعتقه 40 – وقوله جل وعز (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم اناب) (آية 34) قد رويت في ذلك أخبار: أ – منها أن شيطانا غلب على ملكه أياما ب – ومنها أن الشياطين قتلت ابنه خوفا من أن يملكهم بعده والقته على كرسيه والله اعلم بما كان من ذلك والكلام يوجب انه أزيل ملكه فجلس آخر على كرسيه 41 – وقوله جل وعز (قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) (آية 35) أي اعطني فضيلة ومنزلة كما قال إبراهيم (رب أرني كيف

تحيي الموتى) 42 – وقوله جل وعز (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) (آية 36) قال قتادة الرخاء اللينة قال الحسن الرخاء ليست بعاصفة ولا هينة بين ذلك وروى علي بن أبى طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (رخاء حيث اصاب) قال مطيعة حيث أراد حكى الأصمعي أصاب الصواب فأخطأ الجواب أي أراد الصواب وحقيقته في اللغة أنه بمعنى قصد من قولهم أصبت أي قصدت فلم تخطئ

43 - ثم قال جل وعز (والشياطين كل بناء وغواص) (آية 37) أي من يبني له المحاريب والتماثيل ومن يغوص في البحر فيخرج الحلية

(36/657)

وقوله جل وعز (وآخرين مقرنين في الأصفاد) (آية 38) قال قتادة أي في الأغلال قال أبو جعفر يقال صفدت الرجل إذا شددته وأصفدته أعطيته 44 - ثم قال جل وعز (هذا عطاؤنا أو أمسك بغير حساب) (آية 39)

قال الحسن والضحاك (هذا عطاؤنا) الملك فأعط وامنع وقال قتادة هؤلاء الشياطين فاحبس من شئت وسرح من شئت وعن ابن عباس كان له ثلاثمائة امرأة وتسعمائة سرية هذا عطاؤنا قال أبو جعفر وأولاها الأول لأن الأول مشتمل على كل ما أعطي وهو عقيب تلك الأشياء

وروى سفيان عن ابيه عن عكرمة عن ابن عباس (فامنن) أي أعط أو أمسك بغير حساب أي أمسك فليس عليك حساب وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد (بغير حساب) أي بغير حرج

وقال الحسن ليس أحد ينعم عليه بنعمة إلا وهو يحاسب عليها إلا سليمان ثم قرأ هذا

عطاؤنا أي بغير تقتير ويجوز أن يكون بمعنى لا يحاسب عليه 45 - ثم قال جل وعز (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) (آية 40) قال قتادة أي حسن مصير 46 - ثم قال جل وعز (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب) (آية 41)

ويروى عن الحسن والجحدري وأبي جعفر (بنصب) بفتح النون والصاد وهما عند أكثر أهل اللغة بمعنى واحد كما يقال حزن وحزن إلا أن القتبي حكى أن أبا عبيدة قال النصب الشر والنصب الإعياء قال أبو جعفر يقال أنصبه ينصبه إذا عذبه وآذاه ومنه: كليني لهم يا أميمة ناصب قال أبو جعفر وأحسن ما قيل في معنى (أني مسني الشيطان بنصب وعذاب) ما رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس قال لما أصاب أيوب صلى الله عليه وسلم البلاء أخذ إبليس تابوتا وقعد على

الطريق يداوي الناس فجاءته امرأة أيوب فقالت أتداوي روى رجلا

(37/657)

به علة كذا وكذا فقال نعم بشرط واحد على أني إذا شفيته قال لي أنت شفيتني لا أريد منه أجرا غير هذا فجاءت امرأة أيوب إلى ايوب فأخبرته فقال لها ذاك الشيطان والله لئن برأت لأضربنك مائة فلما برأ أخذ شمراخا فيه مائة فضربها به ضربة قال أبو جعفر فمعنى

النصب على هذا هو ما ألقاه إليه أي يكون شيئا وسوس به

فأما قول من قال إن النصب ما أصابه في بدنه والعذاب ما أصابه في ماله فبعيد قال مجاهد عن ابن عباس ضربها بالأسل قال قتادة أخذ عودا فيه تسعة وتسعون عودا وهو تمام المائة فضربها به قال مجاهد هذا له خاص وقال عطاء هذا لجميع الناس قال أبو جعفر البين من هذا أنه خاص لأنه قال

(ولا تحنث) فأسقط عنه الحنث وقال الله جل وعز (فاجلدوهم ثمانين جلدة) ومن جلد بشمراخ فيه مائة فإنما جلد جلدة واحدة 47 – وقوله جل وعز (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار) (آية 45)

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (أولي الأيدي) قال القوة والعبادة والأبصار قال الفقه في دين الله جل وعز قال أبو جعفر واحد الأيدي يد واليد تقع للقوة وفي قراءة عبد الله بن مسعود (أولي الأيد) بلا ياء

وهذا بين من قولهم أيده إذا قواه 48 – ثم قال جل وعز (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) (آية 46) قال قتادة أي يذكرون بالآخرة وبطاعة الله جل وعز قال أبو جعفر وهذا قول بين أي إنهم يزهدون في الدنيا ويرغبون في الآخرة وكذا الأنبياء صلى الله عليهم وسلم وقال الضحاك أي بخوف الآخرة قال أبو جعفر والمعنى على هذا القول أنهم يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون في الدنيا

وهذا القول ظاهر معنى الكلمة وقد يكون من صفتهم أيضا الترغيب في الآخرة وهذان التأويلان على قراءة من قرأ بالتنوين ومن أضاف قال معناه أخلصناهم بافضل ما في الآخرة هذا قول ابن زيد والمعنى على هذا القول أنهم يذكرون بالآخرة ويرغبون فيها

(38/657)

ويزهدون في الدنيا وفي القراءة بالإضافة قول آخر وهو قول مجاهد يكون المعنى إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم 49 - ثم قال جل وعز (وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) (آية 47)

أي هم مصطفون من الذنوب والأدناس 50 - وقوله جل وعز (واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفيل وكل من الأخيار) (آية 48) قال الأشعري قيل ذو الكفل لأنه كفل بعمل رجل صالح كان يصلي في كل يوم مائة صلاة فاثنى الله جل وعز عليه بحسن كفالته ولم يكن نبيا وقيل كفل لبعض الملوك بالجنة وكتب له كتابا بذلك

والكفل في اللغة النصيب والحظ 51 - وقوله جل وعز (هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب) (آية 49) (هذا ذكر) أي شرف وذكر حسن في الدنيا ثم قال (وإن للمتقين لحسن مآب) أي لهم مع الذكر الحسن في الدنيا حسن مرجع في الآخرة 52 - ثم بين ذلك فقال (جنات عدن

مفتحة لهم الأبواب) (آية 50)

أي أبوابها 53 - وقوله جل وعز (وعندهم قاصرات الطرف أتراب) (آية 52) روى سعيد عن قتادة قال قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم قال أبو جعفر وانشد أهل اللغة:

من القاصرات الطرف لودب محول * من الذر فوق ولم الأتب منها لأثرا الإتب الجلد ثم قال تعالى (أتراب) قال قتادة على سن واحدة قال مجاهد أي أمثال وحكى السدي متواخيات لا يتعادين ولا يتغايرن 54 - وقوله جل وعز (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) (آية 54) أي انقطاع

قال السدي كلما أخذ منه شئ عاد مثله 55 - وقوله جل وعز (هذا فليذوقوه حميم وغساق) (آية 57) يجوز أن يكون المعنى هذا حميم وغساق فليذوقوه ويجوز أن يكون المعنى هذا فليذوقوه منه حميم ومنه غساق كما قال الشاعر: لها متاع وأعوان غدون لها * قتب وغرب إذا ما أفرغ انسحقا

قال قتادة كنا نحدث أن الغساق ما يسيل من بين الجلد واللحم قال الفراء وهو مذهب الضحاك قيل الغساق شئ

بارد يحرق كما يحرق الحميم قال أبو جعفر قول قتادة أولى لأنه يقال غسقت عينه إذا سالت وقال ابن زيد الحميم دموع أعينهم يجمع في حياض النار يسقونه والغساق الصديد الذي يخرج من جلودهم والاختيار على ذلك (غساق) حتى يكون مثل سيال 56 – ثم قال جل وعز (وآخر من شكله أزواج) (آية 58)

وقرأ مجاهد وأبو عمرو بن العلاء (واخر من شكله) وأنكر أبو عمرو (آخر) لقوله (أزواج) أي لا يخبر عن واحد بجماعة وأنكر عاصم الجحدري (وأخر) قال ولو كانت وأخر لكان من شكلها قال أبو جعفر كلا الردين لا يلزم لأنه إذا قرأ وأخر من شكله جاز أن يكون المعنى وأخر من شكل ما ذكرنا وأخر من شكل الحميم وأخر من شكل الغساق

وأن يكون المعنى وأخر من شكل الجميع ومن قرأ وآخر من شكله فقراءته حسنة لأن المعنى للفعل وإذا كان المعنى للفعل خبر عن الواحد باثنين وجماعة كما تقول

عذاب فلان ضربان وعذابه ضروب شتى ويجوز أن يكون أزواج لحميم وغساق وآخر قال قتادة من شكله من نحوه قال يعقوب الشكل المثل والشكل الدل قال عبد الله بن مسعود وآخر من شكله أزواج الزمهرير حدثنا محمد بن جعفر الأنباري قال حدثنا الحسن بن محمد الزعفراني قال حدثنا إسماعيل بن علية عن أبي رجاء عن الحسن في قوله أزواج قال ألوان من العذاب

ثم قال جل وعز (هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار) (آية 59) (هذا فوج) أي جماعة 0 وفرقة (مقتحم معكم) أي شئ بعد شئ (لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار) لا مرحبا بمعنى لا أصبت رحبا أي سعة بمعنى لا اتسعت منازلهم في النار الفراء يذهب إلى أن الكلام معترض وأن المعنى قالوا لا

مرحبا بهم 58 - وقوله جل وعز (قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار) (آية 61) قال عبد الله بن مسعود يعني الحيات والأفاعي

(40/657)

---

59 - ثم قال جل وعز (وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار اتخذناهم سخريا) (آية 62 63) ويقرأ أتخذناهم على الاستفهام وفي القراءة الأولى قولان: أحدهما وهو قول الفراء أنها على التوبيخ والتعجب قال والعرب تأتي بالاستفهام في التوبيخ والتعجب ولا تأتي به والقول الآخر وهو قول أبي حاتم أن المعنى وقالوا ما لنا لا نرى رجالا اتخذناهم سخريا يجعله نعتا للرجال

ومعنى سخري وسخري بين عند أكثر أهل اللغة واحد إلا ابا عمرو فإنه زعم أن سخريا يسخرون منهم وسخريا يسخرونهم ويستذلونهم 60 - ثم قال جل وعز (أم زاغت عنهم

الأبصار) (آية 63) روى ليث عن مجاهد وقالوا ما لنا لا نرى رجالا قال قال أبو جهل والوليد بن المغيرة ما لنا لا نرى رجالا ؟ قال قالوا أين سلمان أي خباب اين بلال أين عمار وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال أتخذناهم سخريا

فأخطأنا أمرهم في النار فزاغت أبصارنا عنهم

قال أبو جعفر وهذا قول حسن لأن أم للتسوية فصار المعنى على قوله أأخطأنا حديث أم لم نخطئ وقيل هي بمعنى (بل) والقراءة بوصل الألف بينة حسنة 61 - وقوله جل وعز (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) (آية 68) قال مجاهد يعني القرآن 62 - وقوله جل وعز (ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون) (آية 69) قال الحسن يعني الملائكة اختصموا كما أخبر تعالى عنهم بقوله (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين) أي حين خلق آدم عليه السلام بيده قال أبو جعفر وفي الحديث يختصمون في الكفارات وهي إسباغ الوضوء في المكاره وانتظار الصلاة بعد الصلاة قال أبو جعفر الملأ في اللغة الأشراف الأفاضل كأنهم مليئون بما يسند إليهم وقد قيل يجوز أن يكون يعني بالملأ الأعلى ههنا الملائكة (إذ يختصمون) يعني قريشا لأن منهم من قال الملائكة بنات

الله جل وعز فأعلم الله جل وعز النبي صلى الله عليه وسلم ذلك واعلمه أنهم عباده وأنهم (لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) وقيل يجوز أن يراد بالملأ الأعلى ههنا أشراف قريش إذ يختصمون فيما بينهم فيوحي الله عز وجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذلك والله اعلم بما أراد وأولى ما قيل فيه ما قاله ابن عباس والسدي وقتادة أن الملأ الأعلى ههنا الملائكة اختصموا في أمر آدم عليه السلام حين خلق فقالوا لا تجعل في الأرض خليفة 63 – ثم قال جل وعز (إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين) (آية 70)

يجوز أن يكون المعنى: إلا إنذار وأن يكون المعنى إلا بأنما أنا نذير مبين 64 – وقوله جل وعز (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين) (آية 74) قال الضحاك قال ابن عباس كان إبليس من أشراف الملائكة وكان خازن الجنان وكان أمينا على السماء الدنيا والأرض ومن فيهما فأعجبته نفسه ورأى أن له فضلا على الملائكة ولم يعلم بذلك أحد إلا الله جل وعز فلما أمر الله جل وعز الملائكة بالسجود لآدم امتنع وظهر تكبره

65 – وقوله جل وعز قال (فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين) (آية 78) قال أبو جعفر ومعنى إلى يوم الدين إلى اليوم الذي يدان فيه الناس بأعمالهم قال أهل التفسير رجيم أي ملعون والمعنى مرجوم باللعنة 66 – وقوله جل وعز (قال فإنك من

المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) (آية 81) ومعناه إلى يوم الوقت المعلوم الذي لا يعلمه إلا الله جل وعز

(42/657)

---

67 - وقوله جل وعز (قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) (آية 85) ويقرأ بنصب الأول وحكى الفراء أنه يجوز الخفض في الأول قال أبو جعفر رفعه على ثلاثة معان أ - روي عن ابن عباس فأنا الحق ب - وروى أبان بن تغلب عن الحكم عن مجاهد قال فالحق مني وأقول الحق ج - والقول الثالث على مذهب سيبويه والفراء بمعنى فالحق لأملأن جهنم بمعنى فالحق أن أملأ جهنم وكذا يقول سيبويه في وقوله تعالى (ثم بدا لهم من بعد ما

رأوا الايات ليسجننه) والنصب بمعنى فالحق قلت وأقول الحق وقد قال أبو حاتم المعنى فالحق لأملأن أي فحقا لأملأن وقال قولا آخر وهو أن المعنى فاقول الحق والحق لأملأن والأولى في النصب القول الأول وهو مذهب أبي عبيدة والخفض بمعنى القسم حذف الواو ويكون الحق لله جل وعز وقد اجاز سيبويه الله لأفعلن إلا أن هذا أحسن من ذاك إلا ان الفاء ههنا تكون بدلا من الواو كما تكون بدلا من الواو في قوله: فمثلك حبلى قد طرقت

ومرضع * فالهيتها عن ذي تمائم محول

68 - وقوله جل وعز (قل ما أسالكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) (آية 86) قال ابن زيد أي لا أتخرص وأتكلف ما لم يأمرني الله جل وعز به 69 - وقوله جل وعز (ولتعلمن نباه بعد حين) (آية 88) أي ولتعلمن أن القرآن وما أوعدتم فيه حق وروى معمر عن قتادة (ولتعلمن نبأه بعد حين) قال بعد الموت

وقال السدي يوم بدر

وقال ابن زيد يوم القيامة والحين مبهم فهو مطلق يقع لكل وقت علموه فيه تمت بعونه تعالى سورة ص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 6 صـ 73 . 143 ﴾

(43/657)

وقال الفراء :

سورة (ص)

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾

قوله: ﴿ ص وَالْقُرْآنِ . . . ﴾

جَزَمَها القراء ، إلاّ الحَسَن فإنه خفضَهَا بلاَ نون لاجتماع السَّاكنين . كانت بمنزلة مَنْ قرأ

﴿ نُونَ والقلم ﴾ و ﴿ ياسينَ والقرآنِ الحَكيم ﴾ جُعلت بمنزلة الأداة كقولِ العرب: تركته (حاثِ باث) و (خَازِ بازِ) يُخفضان ؛ لأن الذى يلى آخر الحرف اِلف . فالخفض مع الألف ، والنصبُ مع غير الاِلف . يقولون: تركته حَيْثَ بَيْثَ ، ولأجعلنّك حَيْصَ بَيْصَ إذا ضُيّق عَلَيْهِ .

وقال الشاعر:

* لم يَلتحِصنى حَيْصَ بَيْصَ الحاصى *

يريد الحائِص فقلبَ كَمَا قَالَ: (عاقِ) يريد : عائِق .

وص فى معنَاهَا كقولكَ: / ب وجبَ والله ، ونزل والله ، وحقّ والله . فهىَ جواب لقوله ﴿ والقرآن ﴾ كَمَا تقول: نزلَ والله . وقد زعم قوم أنّ جَوَاب ﴿ والقرآن ﴾ ﴿ إنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تخاصُمُ أَهْلِ النارِ ﴾ وذلك كلام قد تأخّر تأخُّراً كثيراً عن قوله ﴿ والقرآن ﴾ جرت بينهما قِصص مختلِفة ، فلا نَجد ذلكَ مُستقيماً فى العربيَّة والله أعلم .

ويقال: إن قوله ﴿ وَالقرآنِ ﴾ يمين اعترض كلام دون مَوقع جوابها ، فصَار جوابها جواباً للمعترِض ولهَا ، فكأنه أراد: والقرآن ذى الذكر لكَمْ أهلكنَا ، فلمّا اعترض قوله: ﴿ بل الذين كَفَرُوا فى عِزَّة وشقاق ﴾ : صارت (كم) جَوَاباً للعزَّة ولليمين . ومثله قوله ﴿ والشَمسِ وضُحَاهَا ﴾ اعْترض دون الجواب قولُه ﴿ ونَفْسٍ وما سَوَّاها فألْهَمهَا ﴾ فصَارت ﴿ قد أفلح ﴾ تابعةً لقوله ﴿ فألهمها ﴾ وكفى من جَواب القسم ، وكأنه كان:

والشمس وضحَاهَا لقد أفلح .

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾

وقوله: ﴿ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . . . ﴾

يقول: لَيْسَ بحِينِ فِرار . والنَوْص: التّأخّر فى الكلام العرب ، والبَوْص: التقدم وقد بُصْته .

وقال امرؤ القيس:

أَمِن ذكر ليلى إذ نَأَتكَ تَنُوص * وتَقْصُر عَنْهَا خُطوةً وتَبُوص

(44/657)

فمناص مَفْعَل ؛ مثل مقامٍ . ومن العرب من يضيفُ لات فيخفض . أنشدونى:

* . . . لات ساعةِ مَنْدَمِ *

ولا أحفظ صَدْره . والكلام أن ينصب بهَا لأنها فى معنَى لَيْسَ . أنشدنى المفضّل:

تذكّرَ حبّ ليلى لاَتَ حينا * وأضحَى الشيب قد قطعَ القرينَا

فهذا نَصْب . وأنشدنى بعضهم:

طلبوا صُلحنا ولاَتَ أوانِ * فأجبنَا أن لَيْسَ حِينَ بقَاءِ

فخفض (أَوانِ) فهذا خَفْض .

قال الفراء: أقف عَلى (لاتَ) بالتاء، والكسَائىّ يقف بالهاء.

﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ الهاً وَاحِداً إِنَّ هَاذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾

وقوله: ﴿ لَشَيْءٌ عُجَابٌ... ﴾

وقرأ أبو عبد الرَّحمن السُّلمى (لشىء عُجَّابٌ) والعرب تقول: هذا رجل كريم وكُرَّام وكُرَام، والمعْنى كله وَاحِدٌ مثله قوله تعالى ﴿ وَمَكَرُوا مَكراً كُبَّاراً ﴾ معناه: كبيراً فشدّد. وقَالَ الشاعر:

كحلفة من أبى رياح * يسمعها الهِمّةُ الكُبار

والهمّ والهمةُ الشيخ الفانى.

وأنشدنى الكسَائى:

* يسمعها الله والله كبار *

وقال الآخر:

وآثرت إدلاجى عَلى ليل حُرَّة * هَضيم الحَشَا حُسّانِة المَتجرَّد

وقال آخر:

نحن بذلنا دونها الضِّرابَا * إنا وجدنا ماءها طُيّابَا

يريد: طيّباً وقال فى طويل، طُوَال السَاعدين أشم.

* طُوال الساعدين أشمّ *

وقال الآخر:

جاء بصيد عَجَب من العجب * أزيرق العينين طُوَّال الذَّنَبْ

فشدّ الواو على ذلكَ المجرى. فكلّ نعت نعتّ به اسْماً ذكراً أو أنثى أتاك عَلى فُعّال مُشَدَّدا ومخفَّفا فهو صَوَاب.

﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَاذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾

وقوله: ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُواْ . . . ﴾

(45/657)

انطَلَقُوا بهذا القول. فأَن فى موضع نصب لفقدهَا الخافض. كأنك قلت: انطلقوا مشياً ومُضِيّا على دينكم. وهى فى قراءة عبد الله (وانطلق الملأ منهم يمشون أن اصبروا عَلى آلهتكم) ولو لم تكنْ (أن) لكان صَوَاباً؛ كما قال ﴿ والمَلاَئِكةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا ﴾ ولم يقل: أَنْ أَخرجُوا؛ لأَنَّ النّية مضمر فيهَا القول.

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَاذَا فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَاذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ ﴾

وقوله: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَاذَا فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ . . . ﴾

يعنى اليهوديّة والنصرانيّة.

﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾

وَقوله: ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ . . . ﴾

وهى فى قراءة عبد الله (أَمْ أنزِلَ عليه الذكر) وهذا مما وصفت لك فى صدر الكتاب: أن الاستفهَام إذا توسّط الكلام ابتدئ بالألف وبأم. وإذا لم يسبقه كلام لم يكن إلاّ بالألف أو بهل.

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الأَسْبَابِ ﴾

وقوله: ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِى الأَسْبَابِ . . . ﴾

يريد: فليصْعَدوا فى السّموات، وليسُوا بقادرين عَلَى ذلكَ أى لم يصدّقوك وليْسُو بقادرين على الصُّعود إلى السَّموات فما هم! فأين يذهبونَ.

﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحزَابِ ﴾

وقوله: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحزَابِ . . . ﴾

يقول مغلوب عن أن يصعد إلى السَّمَاءِ. و (مَا) هَا هنا صلةٌ. والعرب تجعل (ما) صلةً فى المواضع التى دخولها وخروجُهَا فيها سواء، فهَذَا من ذلكَ.

وقوله ﴿ عَمَّا قليلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ من ذلكَ.

وقوله ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ من ذلكَ؛ لأن دخولها وخروجها لا يغيّر المعْنَى.

وأمّا قوله ﴿ إِلاَّ الذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ فإنه قد يكون عَلَى هَذَا المعْنَى .

(46/657)

ويكون أن تجعل (ما) اسْماً وتجعل (هم) صلة لمَا ؛ ويكون المعْنى: وقليل ما تجدَنَّهم فتوجّه (مَا) والاسْم إلى المصْدر ؛ ألاَ ترى أَنك تقول: قد كنت أراكَ أعقل ممَّا أنت فجعلتَ (أنت) صلةً لمَا ؛ والمعْنَى ، كنت أرى عقلك أكثر ممَّا هو ، ولَو لَمْ ترد المصدر لم تجعل (مَا) للناس ، لأنَّ منْ هىَ التى تكونُ للناس وأَشبَاهِهم . والعرب تقول: قد كُنت أراك أعْقل منكَ ومعناهما واحد ، وكذلك قولهم: قد كنتُ أراه غير ما هو المعنى: كنت أراه عَلى غَير مَا رَأَيتُ منه .

﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾

وقوله: ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ . . . ﴾

وفى قراءة عبد الله (إِنْ كُلُّهُمْ لَمَّا كَذَّبَ الرُسُلَ) .

﴿ وَمَا يَنظُرُ هؤلاء إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾

وقوله: ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ . . . ﴾

من راحةٍ ولا إفاقة . وأصْله منَ الإفاقة فى الرّضَاع إذا ارتضعت البَهْمَة أمّها ثم تركتها حَتى تُنْزل شيئًا من اللبن ، فتلكَ الإفاقة والفُواق بغير همزٍ . وجَاء عن النبىّ صَلى الله عيله وسلم أنه قالَ: "العيادة قدر فُوَاق ناقة" وقرأهَا الحسَنُ وَأهل المدينَة وَعَاصمُ بن أبى النَجُود (فَوَاق) بالفتح وهى لغة جَيّدة عالية ، وضمّ حمزة ويَحيى والأعمش والكسَائىّ .

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾

وقوله: ﴿ عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا . . . ﴾

القِطّ: الصَّحيفة المكتوبة . وإنما قالُوا ذلك حينَ نزل ﴿ فأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ فاستهزءوا بذلك ، وقالوا: عجّل لنا هذا الكتاب قبل يوم الحسَاب . والقِطّ فى كلام العرب . الصكّ وهو الخط والكتاب .

﴿ اصْبِر عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

وقوله: ﴿ ذَا الأَيْدِ . . . ﴾

يريد : ذا القوّة .

﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً . . . ﴾

ذكروا أنه كان إذا سَبَّح أجابته الجبال بالتسبيح ، واجتمعتْ إليْه الطير فسَبَّحت . فذلكَ حَشْرهَا ولو كَانت: والطيرُ محشورةٌ بالرفع لَمَّا يظهر الفعْل مَعَهَا كانَ صَوَاباً . تكون مثل قوله ﴿ خَتَم اللهُ عَلى قلُوبِهِمْ وعَلى سَمْعِهِمْ وعَلَى أبصارِهم غِشَاوَةٌ ﴾ وقَالَ الشاعر:

ورأيتُمُ لجاشعٍ نَعَماً * وبنى أبيه جَامل رُغُب

ولم يقل: جَاملاً رُغباً والمعْنى: ورأيتم لهم جاملاً رُغُباً . فلمَّا لم يظهر الفعل جَاز رفعُه .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾

وقوله: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ . . . ﴾

اجتمعت القراء عَلى تخفيفها ولو قَرَأ قارئ ﴿ وشَدَّدْنا ﴾ بالتشديد كان وجهاً حسَناً .

ومعنى التشديد أنّ محرابه كان يحرسه ثلاثة وثلاثون ألفاً .

وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ . . . ﴾

قال الفراء: حدّثنى عمرو بن أبى المِقدام عن الحكم بن عتيبَة عن مجاهِدٍ فى قوله ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ قال: الشهود والأَيمان . وقال بعض المفسّرينَ: فصْل الخطاب أَمّا بعد .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ

الصِّرَاطِ ﴾

وقوله: ﴿ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ . . . ﴾

﴿ إِذْ دَخَلُواْ . . . ﴾

(48/657)

قد يجاء بإذ مَرَّتين ، (وقَد) يكون مَعْنَاهمَا كالواحد ؛ كقولكَ: ضَربتك إذْ دخلت عَلىَّ إذ اجترأت ، فيكون الدخول هو الاجتراء . ويكون أن تجعَل أحدهمَا عَلى مذهَب لمَّا ، فكأنه قال: ﴿ إذ تسَوَّرُوا المحرابَ لَمَّا دَخَلوا ﴾ . إن شئت جعَلت لَمّا فى الأوَّل . فإذا كانت لَمّا أوّلاً وآخِراً فهى بعد صَاحبِتهَا ؛ كما تقول: أعطيته لمَّا سَألنى . فالسؤال . قبل الإعْطَاء فى تقدّمه وتأخّره .

وقوله: ﴿ خَصْمَانِ ﴾ رفعته بإضمار (نحن خصْمَان) والعرب تضمر للمتكلّم والمكلَّم المخاطب ما يرفع فِعْله . ولا يكادون يفعلون ذلك بغير المخاطَب أو المتكلّم . منْ ذلكَ أن تقول للرَّجل: أذاهب ، أو أنْ يقول المتكلم: وَاصلكم إن شاء الله ومحسن إليكم . وذلكَ أن المتكلّم والمكلَّم حاضِران ، فتُعرف مَعْنى أسْمائهمَا إذا تُركت . وأكثره فى الاسْتفهَام ؛ يقولونَ: أجَادّ ، أمنطلق . وقد يكون فى غير الاسْتفهام . فقوله (خَصْمَان) من ذلك . وقال

الشاعر:

وَقولا إذا جاوزتمَا أرض عَامرٍ * وجاوزتما الحيَّيْنِ نَهداً وخَثْعما

نَزيعَانِ من جَرْم بن زَبَّان إنهم * أبوا أن يميرُوا فى الهزاهز مِحْجَما

وقال الآخر:

تقول ابنَة الكَعبىّ يوم لقيتُها * أمُنْطلق فى الجيش أم متثاقِلُ

وقد جَاء فى الآثار للراجع من سَفر: تائبونَ آئبونَ، لربنا حامدونَ. وقال: من أمثال العرب: مُحسنَة فهِيلى.

قال الفراء: جاء ضيف إلى امرأة ومَعه جِرابُ دقيق، فأقبلت تأخذ من جرابه لنفسهَا، فلَما أقبَل أخَذت من جِرابهَا إلى جرابه. فقال: ما تصنعين؟ قالت: أزيدك منْ دقيقى. قالك محسنة فهيلى. أى أَلقِى. وجَاء فى الآثار: مَن أعانَ على قتل مؤمنٍ بشَطر كلمة جَاء يوم القيامَة مكتوباً بَيْنَ عينَيْه: يائس من رحمة الله. وكلّ هذا بضمير ما أنبا تك به.

ولو جاء فى الكتاب: خصْمَين بغى بعضُنَا لكان صَوَاباً بضمير أَتيناك خصمين، جئناك خَصْمين فلا تَخَفنا. ومثله قول الشاعر:

وقالت أَلا يا اسمعِ نعظك بخُطَّةٍ * فقلت سَميعاً فانطقى وأَصيبى

ا أى سميعاً أَسمعُ منكَ، أو سميعاً وعَظْتِ. والرفع فيه جائز على الوجوه الاوَل.

وقوله ﴿ وَلَا تَشْطِطْ ﴾ يقول: ولا تَجُر: وقد يقول بعض العرب: شططتَ عَلىّ فى السَّوم، واكثر الكلام أَشططت. فلو قرأ قارئ ﴿ وَلَا تَشْطِطْ ﴾ كأنه يذهَبُ له إلى مَعْنى التباعد و ﴿ تَشْطُطْ ﴾ أيضاً. العرب تقول: شطَّت الدار فهى تشِطّ وتَشُطّ.

وقوله ﴿ وَاهْدِنَآ إِلَى سَوَآءِ الصِّرَاطِ ﴾ إلى قَصْد الصراط. وهذا ممَّا تدخل فيه (إلى) وتخرج منه.

قال الله ﴿ اهدِنَا الصراطَ المستقيم ﴾ وقال ﴿ وهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ وقال ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ ولم يقل (إلى) فحذفت إلى من كل هذا. ثم قال فى موضع آخر ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِى إلى الحَقّ ﴾ وقال ﴿ يَهْدِى إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ويقال هديتك للحق وإليهِ قال الله ﴿ الذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لنَهْتَدِى ﴾ وكأن قوله ﴿ اهدنَا الصراط ﴾ أعلمنا الصراط، وكأن قوله ﴿ اهدنا إلى الصّراط ﴾ أرشِدنا إليْه والله أعلم بذلكَ.

﴿ إِنَّ هَذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ هَذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً . . . ﴾

وفى قراءة عبد الله (كَانَ لَهُ) وربّما أدخلت العرب (كان) على الخبر الدائم الذى لا ينقطع.

ومنه قول الله فى غير موضع ﴿ وكان ربُّك قديراً ﴾ ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ فهذا دائم . والمعْنى البيّن أن تُدخل (كان) عَلى كل خبر قد كان ثم انقطع ؛ كما تقول للرجل: قد كنت موسرا ، فمْعنى هَذَا : فأنتَ الآنَ مُعْدِم .

(50/657)

وفى قراءة عبد الله (نَعْجَةً أُنْثَى) والعَرَب تؤكّد التأنيث بأُنْثاه ، والتذكير بمثل ذلكَ ، فيكون كالفَضْل فى الكلام فهذا منْ ذلكَ . ومنه قولكَ للرجل: هذا والله رجل ذَكَر . وإنما يدخل هذا فى المؤنّث الذى تأنيثه فى نفسه ؛ مثل المرأة والرجل والجمل والناقة . فإذا عدَوت ذلكَ لم يجز . فخطأ أن تقول: هذه دارٌ أنثى ، ومِلحفة أنثى ؛ لأنَّ تأنيثهَا فى اسمها لا فى مَعْنَاهَا . فابنِ على هذا .

وقوله ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أى غلبنى . ولو قرئتْ ﴿ وَعَازَّنى ﴾ يريد : غَالبنى كان وَجْهاً .

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾

وقوله: ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ . . . ﴾

المعنى فيه: بسؤاله نعجتك ، فإذا ألقيت الهَاء من السؤال أضفت الفعل إلى النعجة . ومثله قوله ﴿ لاَ يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دعَاءِ الخَيْرِ ﴾ ومَعْنَاهُ من دَعائِه بالخير: فلمَّا أَلقى الهاء أضاف الفعْل إلى الخير وألقى من الخير الباء ، كقول الشاعر:

ولَسْتُ مُسَلِّماً ما دمتُ حَيّاً * عَلى زيدٍ بتَسليم الأَمِير

(51/657)

إنما معناه: بتسليمى عَلى الأميرِ . ولا يصلح أن تذكر الفاعل بعد المفعول به فيما أُلقيْت منه الصفة . فمن قَالَ: عجبتُ من سؤال نعجتكَ صَاحِبُكَ لم يجز لَهُ أنْ يقول: عجبت مِنْ دعاء الخير الناسُ ، لأنك إذا أظهرت الآخِر مرفوعاً فإنما رَفعُه بنيَّةِ أن فَعَل أو أن يفعل ، فلا بُدَّ من ظهور الباء وما أشبَهها من الصّفاتِ . فالقول فى ذلكَ أن تقول عَجِبْتُ من دعاء بالخير زَيْدٌ ، وعجبت منْ تسليمٍ عَلى الأمير زيْدٌ . وجَاز فى النعجة لأنَّ الفعل يقع عليها بلا صفة ؛ فتقول: سألتكَ نعجة ، ولا تقول: سَالتك بنعجة . فابن على هذا .

وقوله ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أىْ عِلم . وكلّ ظنٍّ أدخلته عَلى خبرٍ فجائز أنْ تجعلهُ عِلماً ؛ إلاّ إنه عِلم ب ما لا يُعَاين .

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾

وقوله: ﴿ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ . . . ﴾

(52/657)

يعنى الخيل ، كان غَنِمها سُليمان بن داود من جَيشٍ قاتله فظفِر به . فلمّا صَلّى الظهر دَعا بها ، فلم يزل يَعرضها حتّى غابت الشمس ولم يصلِّ العصر . وكان عندهم مهيباً . لا يبْتَدأ بشىء حتى يَأمر به ، فلم يذكر العَصْر . ولم يَكنْ ذلكَ عن تجبُّر منه ، فلمَّا ذكرها قَالَ ﴿ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ ﴾ يقول: آثرت حُبّ الخيل ، والخير فى الكلام العرب: الخيل .

والصَّافنات – فيما ذكر الكلبى بإسناده – القائِمة عَلى ثلاث قوائم وقد أقامت الأخرى عَلى طرف الحافر من يدٍ أو رجلٍ . وهى فى قراءة عبد الله (صَوَافِنَ فإذَا وَجَبَتْ) يريد : معقولة عَلى ثلاث . وقد رأيت العرب تجعَل الصَّافن القائِم عَلى غير ثلاث . وأشعَارهم تدلّ عل أنها القِيام خاصّةً والله أعلم بصوابه: وفى قراءة عبد الله (إنّى أحببت) بغير (قال) ومثله ممّا حذف فى قراءتنا منه القول وأثبت فى قراءة عبد الله ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبراهيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتَ وإسْمَاعِيلُ ويَقُولاَنِ ﴾ وليْسَ فى قراءتنا ذلك . وكلّ صَوَاب .

﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ﴾

وقوله: ﴿ فَطَفِقَ . . . ﴾

يريد أَقبل يمسح: يضرب سوقها وأعناقها . فالمسح القطع .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾

وقوله: ﴿ عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً . . . ﴾

يريد : صَنَما . ويقال: شيطان .

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾

وقوله: ﴿ لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي . . . ﴾

فيريد سُخرة الريح والشياطين .

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾

وقوله: ﴿ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ . . . ﴾

والرُخاء: الريح اللّينة التى لا تعصف . وقوله ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ : حيث أراد .

﴿ هَذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

وقوله: ﴿ هَذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . . . ﴾ .

يقول فمُنَّ به أى أعط ، أو أمسك ، ذاك إليك . وفى قراة عبد الله (هذا فامنن أو أمسك عطاؤنا بغير حساب) مقدّم ومؤخّر .

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾

وقوله: ﴿ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . . . ﴾ .

اجتمعت القراء على ضمّ النون منْ (نُصبٍ) وتخفيفها . وذكروا أن أبا جعفر المَدَنىّ قَرأ (بنَصَبٍ وعذابٍ) ينصب النون والصاد . وكلاهما فى التفسير واحد .

وذكروا أنه المرض وما أصابه منَ العَناء فيه . والنُّصْبُ والنَّصَبُ بمنزلة الحُزْن والحَزَن ، والعُدْمِ والعَدَمِ ، والرُّشْد والرَشَد ، والصُّلْب والصَّلَب: إذا خُفّف ضُمّ أوله ولم يثقّل لأنهم جعلوهما على سَمْتَين: إذا فتحُوا أوّله ثقّلوا ، وإذا ضَمُّوا أوله خَفَّفُوا ، قال: وأنشدنى بعض العرب:

لِئن بعثت أم الحُميدَينِ مَائِرا * لقد غنِيت فى غير بؤسٍ ولا جُحْد

والعرب تقول: جَحِد عيشُهم جَحَدا إذا ضاق واشتدّ ، فلمّا قال: جُحْد وضمّ أوله خَفَّفَ . فابن على ما رأيت من هاتين اللغتين .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

وقوله: ﴿ ضِغْثًا . . . ﴾

والضِّغث: ما جمعته من شيء ؛ مثل حُزْمة الرَطْبَة ، وما قام على سَاقٍ واستطال ثم جَمعته فهو ضِغْث .

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيدِي وَالأَبصَارِ ﴾

وقوله: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا . . . ﴾

قرأتِ القراء ﴿ عِبَادَنَا ﴾ يريدونَ: إبراهيم وولده وقرأ ابن عباس: (واذكر عَبْدَنا إبراهيم) وقال: إنما ذكر إبراهيم . ثم ذكرت ذريّتُه منْ بعده . ومثله: ﴿ قالُوا نَعْبُدُ إلهَكَ وإلهَ أبيك ﴾ على هذا المذهب فى قراءة ابن عباس . والعَامَّة ﴿ آبائِكَ ﴾ وكلّ صَواب .

(54/657)

وقوله ﴿ أُوْلِي الأَيدِي وَالأَبصَارِ ﴾ يريد : أولى القوّة والبصر فى أمر الله . وهى فى قراءة عبدالله: (أولِى الأيدِ) بغير ياء ، فقد يكون لَهُ وجهان . إن أراد : الأيدى وحذف الياء فهو صواب ؛ مثل: ﴿ الجوَارِ ﴾ و ﴿ المُنادِ ﴾ ، وأشباه ذاكَ . وقد يكون فى قراءة عبدالله من القوّة من التأييد .

﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . . . ﴾

فردّ ﴿ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ وهى مَعرفة على (خَالِصَةٍ) وهى نكرة. وهى كقراءة مَسْروق (بِزِينةِ الكواكب) ومثله /ا قوله ﴿ هَذَا وإنَّ لِلطَّاغين لشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ فردّ جهنّم وهى معرفة على ﴿ شرّ مآبٍ ﴾ وهى نكرة. وكذلك قوله: ﴿ وإنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحة ﴾ والرفع فى المعرفة كلّها جائز على الابتداء. أنشدنى بعض العرب:

لعمرك ما نخلى بدارِ مَضِيعَةٍ * ولاَ ربُّهَا إن غاب عَنْهَا بخائف

وإن لها جارين لن يغدِرا بهَا * رَبِيبُ النَّبِيِّ وابنُ خير الخلائف

فرفع على الابتداء.

وقد قرأ أهل الحجاز (بخالصَةِ ذِكْرَى الدار) أضافوها. وهو وجه حَسَنٌ. ومنهُ: ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ ﴾ ومَنْ قال ﴿ قلبٍ متكبّرٍ ﴾ جَعَل القلب هو المتكبّر.

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾

وقوله: ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ . . . ﴾

قرأه أصحاب عبد الله بالتشديد . وقرأه العوامّ ﴿ الْيَسَعَ ﴾ بالتخفيف . والأوّل أشبه بالصَّواب وبأسماء الأنبياء من بنى إسرائيل . حدّثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى محمد بن عبد العزيز التَّيْمِىّ عن مُغيرة عن ابراهيم أنه قرأ (واللَّيْسَع) بالتشديد . وأما قولهم ﴿ والْيَسَع ﴾ فإن العرب لا تُدخل على يفعَل إذا كان فى مَعْنى فلانٍ أِلفاً ولاماً . يقولونَ: هَذا يَسَع ، وهذا يَعْمر ، وهذا يزيد . فهكذا الفصيح من الكلام . وقد أنشدنى بعضهم:

وجدنا الوليد بن اليزيد مباركاً * شديداً بأَحناء الخِلاَفة كَاهلُهْ

فلمّا ذَكَر الوليد فى أول الكلمة بالأِلف واللام أَتبعه يزيد بالألف واللام وكلّ صواب .

وقوله ﴿ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ يقال إنه سُمّى ذا الكفل أن مائة من بنى إسرائيل انفلتوا من القتل فآواهم وكَفَلَهُمْ . ويقال: إنه كَفَل لله بشىء فوفى به . والكِفْل فى كلام العرب: الجَدّ والحَظّ فلو مُدح بذلك كان وَجهاً على غير المذهبين الأوّلين .

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ ﴾

وقوله: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ . . . ﴾

ترفع ﴿ الأبواب ﴾ لأن المعْنى: مفتَّحَةً لهم أبْوَابها . والعرب تجعَل الألف واللام خَلفا من الإضافَة فيقولون: مررت عَلى رجلٍ حَسَنةٍ العَيْنُ قبيحٍ الأنفُ والمعْنى: حسنةٍ عَينُه قبيحٍ أنفُه . ومنه قوله ﴿ فَإِنّ الجَحيمَ هِىَ المَأْوَى ﴾ فالمعنَى – والله أعلم – : مأْواه . ومثله قول

الشاعر:

ما ولدتكم حيَّةُ بنة مالك * سِفَاحاً ومَا كانتْ أحاديث كاذب

ولكن نرى أقدامنا فى نعالكم * وآنفُنَا بين اللحى والحواجب

ومعناه: ونرى آنفنا بين لِحاكم وحواجبكم فى الشبَه. ولو قال: ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبوَابَ ﴾ عَلى أن تجْعَل المفتّحة فى اللفظ للجنات وفى المعْنَى للأبواب، فيكون مثل قول الشاعر:

ومَا قومى بثعلبة بن سَعْدٍ * ولا بفزارة الشُعْر الرقابَا

(56/657)

والشُعْرى رقابا. ويروى: الشُّعْر الرقابا.

وقال عدِيّ:

مِن ولىٍّ أوْ أخى ثِقَةٍ * والبعيد الشاحِط الدّارا

وكذلك تجعَل معنى الأبواب فى نَصْبها، كأنك أردت: مفتَّحة الأبوابِ ثم نوّنت فنصبت.

وقد يُنشَد بيت النابغة:

ونأخذ بعده بذُناب دَهرٍ * أجَبَّ الظهرَ ليسَ له سَنَامُ

وأجَبِّ الظهرِ.

﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾

/ب وقوله: ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ . . . ﴾

مرفوعة لأنّ ﴿ قاصرات ﴾ نكرة وإن كانت مضافة إلى معرفة ؛ ألا ترى أن الألف واللام يَحْسنان فيها كقول الشاعر:

من القاصرات الطَرْفِ لو دَبّ مُحْوِل * من الذرّ فوق الإتْب منها لأثَّرا

(الإتب: المئزِر) فإذا حسُنت الألف واللام فى مثل هذا ثم ألقيتها فالاسم نكرة. وربما شبَّهت العرب لفظه بالمعْرفةِ لِمَا أضيف إلى الألف واللام، فينصبون نعته إذا كان نكرة؛ فيقولونَ: هَذَا حَسَن الوجه قائماً وذاهباً. ولو وضَعْت مكان الذاهب والقائم نكرة فيها مدح أو ذمّ آثرت الإتباع، فقلت: هذا حَسَنُ الوجه موسر، لانَّ اليَسارة مدح. ومثله قول الشاعر:

ومَن يُشوِه يوم فإن وراءه * تِبَاعة صَيّاد الرّجالِ غَشُومِ

قال الفراء: (وَمَن يُشوِه) أى يأخذ شوَاه وأطايبه. فخفض الغشوم لأنه مدح، ولو نصب لأنَّ لفظه نكرة ولفظ الذى هو نعت له معرفة كان صوَابا ؛ كما قالُوا: هذا مِثْلك قائماً، ومثلك جميلاً.

﴿ هَاذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾

وقوله عزّ وجل: ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . . . ﴾

رفعت الحميم والغسَّاق بهذا مقدّماً ومؤخراً . والمعْنَى هذا حَمِيم وغسَّاق فليذوقوه .

وإن شئت جعلته مستانفاً ، وجعلت الكلام قبله مكتفِياً ؛ كأنك قلت: هذا فليذوقوه ، ثم قلت: منه حميم ومنه غسَّاق كقول الشاعر:

حَتّى إذا مَا أضَاء الصُّبحُ فى غَلَسٍ * وغودر البقلُ مَلْوِىّ ومحصودُ

(57/657)

ويكون (هذا) فى موضع رفعٍ ، وموضع نصبٍ . فمن نصب أَضمر قبلهَا نَاصِباً كقول الشاعر:

زيادتَنا نُعمان لا تَحْرِمَنَّهَا * تَقِ اللهَ فينَا والكتَابَ الذى تتلو

ومنْ رفع رفع بالهاء التى فى قوله: ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ كما تقول فى الكلام: الليلَ فبادرُوه واللَّيْلُ .

والغساق تشدّد سينُه وتخفّف شدّدها يحيى بن وثّاب وعامّة أصحاب عبد الله ، وخفّفها الناس بَعْدُ . وذكروا أنّ الغسّاق بارد يُحرق كإحراق الحميم . ويقال إنه ما يَغْسِق ويسيل من صَديدهم وجلودهم .

﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ . . . ﴾

قرأ الناس (وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ) إلاّ مجاهداً فإنه قرأ (وَأُخَرُ) كأنه ظنّ أن الأزواج لا تكون من نعتٍ واحِدٍ . وإذا كان الاسم فعلاً جاز أن ينعت بالاثنين والكثير ؛ كقولك فى الكلام: عذاب فلان ضروب شتّى وضربان مختلفان . فهذا بَيّن . وإن شئت جَعلت الأزاوج نعتاً للحَميم وللغساق ولآخر ، فهنّ ثلاثة ، وأن تجعَله صفة لواحد أشبهُ ، والذى قال مجاهد جَائز ، ولكنى لا أستحبّه لاتّباع العَوَامّ وبيانِه فى العربيَّة .

﴿ هَاذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ ﴾

وقوله: ﴿ هَاذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ . . . ﴾

هى الأُمَّة تدخل بعد الأُمَّة النار .

ثم قَالَ: ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ الكلام متَّصل ، كأنه قول واحِدٍ ، وإنما قوله: ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ من قول أهل النار ، وهو كقوله: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ وهو فى اتّصاله . كقوله: ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُم بسحره فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ فاتصل قول فرعون بقول أصحَابه .

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَاذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ ﴾

وقوله: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَاذَا . . . ﴾

معناهُ: من شرع لَنا وسَنّهُ ﴿ فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ ﴾ .

﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَار ﴾

وقوله: ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا . . . ﴾

قال زهير عن أبان عن مجاهِدٍ - قال الفَراء ولم أسْمَعه من زهير - ﴿ اتَّخَذْنَاهُمْ سخريّاً ﴾ ولم يكونوا كذلكَ. فقرأ أصْحَابُ عبد الله بغير استفهَامٍ، واستفهم الحسن وعاصم وأهل المدينة، وهو من الاستفهام الذى معناه التعجّب والتوبيخ فهو يجوز بالاستفهام وبطرحِهِ.

﴿ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

وقوله: ﴿ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . . . ﴾

إن شئتَ جَعَلت (أنّما) فى موضع رَفع، كأنك قلت: ما يوحى إلى إلاّ الإنذار. وإن شئتَ جعلت المعنى: ما يوحى إلىّ لأنى نذير ونبىّ؛ فإذا ألقيت اللام كان موضع (أنَّما) نصباً. ويكون فى هذا الموضع: ما يوحى إلىّ إلاّ أنك نذير مبين لأن المعنى حكاية، كما تقول فى الكلام: أخبرونى أنى مسىء وأخبرنى أنك مسىء، وهو كقوله:

رَجْلاَن من ضَبّةَ أخبرانَا * أنّا رأَينا رجلاً عُرْيانَا

والمعْنى: أخبرانا أنهما رأَيا، فجاز ذلك لأن أصله الحكاية.

وقوله: ﴿ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ اجتمع القراء على التثنية ولو قرأ قارئ ﴿ بيدِى ﴾ يريد يداً عَلَى واحدة كان صَدابا ؛ كقول الشاعر:

أيها المبتغى فناء قريشٍ * بيد الله عُمرهَا والفناء

والواحد من هذا يكفى من الاثنين ، وكذلك العينان والرجلان واليدان تكتفى إحداهما منَ الأخرى ؛ لأن مَعْنَاهما واحد .

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾

وقوله: ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ . . . ﴾

قرأ الحسن وأهل الحجاز بالنصب فيهما . وقرأ الأعْمَش وعاصم وأكبر منهم: ابن عباسٍ ومجاهد بالرفع فى الأولى والنصب فى الثانية .

(59/657)

حدّثنا أبو العباس قال حدّثنا محمد قال حدثنا الفراء قال: حدّثنى بِهرام – وكان شيخاً يُقرئ فى مسجد المطمورة ومسجد الشعبيين – عن أبانَ بن تَغْلِب عن مجاهد أنه قرأ (فالحقُّ منى والحقَّ أقولُ) : وأقول الحقَّ . وهو وجه: ويكون رفعه على إضمار: فهو الحقّ . وذُكر عن ابن عبّاس أنه قال: فأنا الحَقُّ وأقولُ الحَقَّ . وقد يكون رَفعه بتأويل جَوَابه ؛ لأن

العرب تقول: الحقُّ لأقومَنَّ ، ويقولون: عَزْمَةٌ صَادقة لآتينَّك ؛ لأن فيه تأويل: عَزْمة صَادقة أن آتيك .

ويبّين ذلك قوله: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ أَلا ترى أنه لا بدّ لقوله ﴿ بَدَا لَهُمْ ﴾ من مرفوع مضمرٍ فهو فى المعْنى يكون رَفعاً ونصباً . والعرب تنشد بيت امرئ القيس:

فقلتُ يَمينُ الله أبرحُ قاعداً * ولو قطَّعوا رَأْسِى لديكَ وَأوصَالى

والنصب فى يمين أكثر . والرفع عَلَى ما أَنبَأتك به من ضمير (أن) وعَلَى قولك عَلَىَّ يمين .

وانشدونا :

فإنّ علىّ اللهَ إنْ يحملوننى * عَلَى خُطّة إلا انطلقت أَسيرها

ويروى لا يحملوننى .

فلو ألقيت إن لقلت علىّ الله لأضربنك أى علىّ هذه اليمين . ويكون عَلَىّ اللهُ أن أضربك فترفع (الله) بالجواب . ورفعه بعلى أحَبُّ إلىَّ . ومن نصَبَ (الحقَّ والحقَّ) فعَلى معنى قولك حقّاً لآتينّكَ ، والألف واللام وطرحهما سواء . وهو بمنزلة قولك حمداً لله والحمدَ لله . ولو خفض الحقّ الأوّل خافِضٌ يجعله الله تعالى يعْنى فى الإعراب فيقسم به كان صَوَابَاً والعرب تُلقى الواو من القسم ويَخفضونه سمعناهم يقولون: اللهِ لتَفعَلنّ فيقولُ / ب المجيب: أَللهِ لأفعلنّ ؛ لأن المعنى مستعمل والمستعمل يجوز فيه الحذف ، كما يقول القائل للرجل: كيف

أصْبحت ؟ فيقول: خيرٍ يريد بخيرٍ ، فلمّا كثرت فى الكلام حُذِفت .

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ . . . ﴾

(60/657)

نبأ القرآن أنه حَقّ ، ونبأ محمَّدٍ عليه السلام أنه نبىّ .

وقوله: ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ يقول: بعدَ الموت وقبله: لمَّا ظهر الأمر علمُوه ، ومن ماتَ علِمه يَقينًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 396.413 ﴾

(61/657)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة ص

(ذي الذكر) [1] ذي الشرف . وقيل: ذكر ما قبله من أحاديث الأمم ، وأقاصيص الأنبياء [عليهم] السلام . وقيل: ذكر ما فيه من جميع أغراض القرآن . وجواب القسم محذوف ،

ليذهب فيه القلب إلى كل مذهب ، فيكون دليله أغزر وبحره أزخر . وقيل: جوابه: (كم أهلكنا) .

وقيل: (إن كل إلا كذب) . وقيل: (بل الذين كفروا) ، وبل للإضراب عن الأول من غير إبطال . (في عزة) [2] حمية الجاهلية . (وشقاق) خلاف وعداوة . ([و]لات حين) [3] ليس حين ، ولا تعمل "لات" بالنصب إلا في الحين وحده ، [لأنها] مشبهة بـ"ليس" فلا تقوى قوة المشبه به ، قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

1043- يا نبي [الهدى] [إليك] [لجا] حي قريش ، ولات حين [لجاء] 1044- حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم إله السماء . (مناص) [3] ملجأ . وقيل: مفر . قال: 1045- ولقد شهدت تغاؤراً يوم اللقاء على أبوص 1046- إني لأروع ماجد سمح الخلائق لا أنوص/ . (في الملة الأخرة) [7]

ملة النصرانية ، لأنها آخر الملل . وقال مجاهد : في ملة قريش . (فليرتقوا في الأسباب) [10] أي: أبواب السماء وطرقها ، فليأتوا منها بالوحي إلى من شاؤوا . (مهزوم من الأحزاب) [11] بشره الله بهزيمتهم ، فكانت يوم بدر . (وفرعون ذو الأوتاد) [12] ذو الأبنية العالية ، كالجبال التي هي الأوتاد في الأرض . وقيل: ذو الملك الثابت كثبوت ما يشدد بالأوتاد . كما قال الأسود بن يعفر: 1047- ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد

1048- فإذا النعيم وكل ما يلهي به يوماً يصير إلى بلى ونفاد . (ما لها من فواق) [15] بالفتح والضم ، مثل [غمار] الناس وغمارهم . وقيل: الفواق -بالضم-: ما بين الحلبتين ، مقدار ما يفوق اللبن فيه إلى الضرع ويجتمع ، والفواق: مصدر كالإفاقة ، مثل: الجواب والإجابة ، فالأول [يرجع] إلى مقدار وقت الراحة . والثاني: إلى نفي الإفاقة عن الغشية . ويحتمل المعنيين قول الهذلي:

(62/657)

1049- إذا ماتت من الدنيا حياتي فيا ليت القيامة عن فواق . وفي معنى [الفواق] - بالضم- قول الجعدي: 1050- وبنو فزارة إنها لا تلبث الحلب الحلائب . أي: لا تلبث الحلائب قدر حلب ناقة حتى تهزمهم . (عجل لنا قطنا) [16] ما كتب لنا من الرزق . وقيل: من الجنة ونعيمها . وقيل: من العذاب .

وأصله القطع ، ومنه قط القلم ، وما رأيته قط ، أي: قطعاً ، ثم سمي الكتاب قطاً ، لأنه يقطع ثم يكتب . قال أمية بن أبي الصلت:/ 1051- قوم لهم ساحة العراق وما يجبى إليه والقط والقلم . (ذا الأيد) [17] ذا [ا]لقوة في الدين ، فكان يقوم نصف كل ليلة ، ويصوم نصف كل شهر . (إنه أواب) مسبح . كقوله: (يا جبال أوبي) ، وكذلك قوله:

(كل له أواب) [19] أي: مطيع له مسبح معه. (وفصل الخطاب) [20] علم الحكم بين الناس، كأنه قطع المخاطبة، وفصل ما خاطب به بعض بعضاً. (وهل أتاك نبأ الخصم) [21] الخصم يتناول العدد والواحد، لأن لفظه لفظ المصدر، والمصدر للجنس. (تسوروا) [21] أتوه من أعلى سوره، وقال "تسوروا" بلفظ الجمع، وهما اثنان، لأن الاثنين جمع في الحقيقة، إذ الجمع ليس إلا ضم عدد إلى عدد. (ولا تشطط) [22] أشط في الحكم، إذا عدل عن العدل، متباعداً من قولهم: شطت به النوى، أي: تباعدت، قال الأحوص: 1052- ألا يا القوم قد أشطت عواذلي ويزعمن قد أودى بحقي باطلي. وقد كثر اختلاف المفسرين في هذه الآيات، وأوسطها طريقة: ما ذكر في كتاب عصمة الأنبياء: أن جماعة من أعدائه تسوروا محرابه الذي يصلي فيه، وقصدوه بسوء في وقت غفلته، فلما رأوه متيقظاً انتقض عليهم تدبيرهم، فاخترع بعضهم خصومة، وأوهموه أنهم قصدوه لأجلها، ففزع منهم، فقالوا: لا بأس (خصمان) إلى قوله: (ولي نعجة واحدة). فقال داود: (لقد ظلمك بسؤال نعجتك) أي: إن كان الأمر كما تقول،

فحلم عنهم وصبر مع القدرة والأيد ، وشدة الملك . (وخر راكعاً) [24] وقع من ركوعه إلى سجوده . (وأناب) إلى الله شكراً لما وفقه له من الصبر والحلم . واستغفر لذنوب/القوم ، أو قال: اللهم اغفر لي ولهم . وقوله: (فغفرنا له ذلك) [25] أي: لأجله . ويجوز أن يكون استغفاره على مذهب الصالحين إذا دهمهم مكروه ، رجعوا إلى أنفسهم ، وقالوا: إنما أخذنا بذنوبنا .

وإن ثبت حديث أوريا فخطيئته: خطبته على خطبته ، أو استكثاره من النساء . وإن كانت القصة من الملكين -كما يقوله القصاص- فلا بد من أن يكون في كلامهما من المعاريض ما يبعد عن الكذب ، ولكن استغنى عن ذكرها ، إذ كان الغرض اقتصاص غيرها .

وعلى أنهم لم يقولوا: نحن خصمان ، وإنما ذكر ذلك على طريق المثل والسؤال ، فظن داود أنهم عرضوا له بكثرة أزواجه ، وميله إلى الشهوات الدنيا ، فاستغفر ربه . (وعزني في الخطاب) [23] غلبني . قال الشاعر -أنشده المبرد-: 1053- لقد علمت أم الصبيين أنني إلى الضيف قوام السنات خروج 1054- إذ المرغث العوجاء بات يعزها على ضرعها ذو تومتين لهوج. (الصافنات) [31]

الخيل القائمة على ثلاث قوائم ، الثانية رابعتها . (أحببت حب الخير) [32] آثرت حب المال على ذكر ربي . (فطفق مسحا بالسوق والأعناق) [33] قيل: كواها في الأعناق والقوائم ، وجعلها حبيساً في سبيل الله مسومة بها ، كفارة لصلاته الفائتة . وقيل: ذبحها

وعرقبها ، وتصدق بلحومها كفارة أيضاً . (توارت بالحجاب) أي: الشمس ، وإن لم يجر لها ذكر ، كما قال لبيد :

1055- حتى إذا ألقت يداً في كافر وأجن عورات الثغور ظلامها . (ولقد فتنا سليمان) [34] قيل: خلصناه . وقيل: ابتليناه . وسبب فتنته قربانه/بعض نسائه في حالة الحيض عن الحسن . وعن ابن المسيب: احتجابه عن الناس ثلاثة أيام . (وألقينا على كرسيه جسداً)

أي: ألقيناه ، لأنه مرض فكان على كرسيه كالجسد الملقى . وتفسير [النقاش]: ولد له شق إنسان فألقي على كرسيه ميتاً .

(64/657)

وعن ابن عباس: أنه كان على شاطئ البحر يعبث بخاتمه فوقع في البحر ، ثم بعد أربعين يوماً من زوال أمره ، أخذ سمكة أجراً على عمله ، فوجد الخاتم في جوفها ، فأناب إلى ملكه .

وعلى القول الأول: أناب إلى الصحة . (لا ينبغي) [35] لا يكون . قال ابن أحمر:

1056- في رأس خلقاء من عنقاء [مشرفة] لا ينبغي دونها سهل ولا جبل . وإنما سأل بهذا أن لا يسلب الملك مرة ثانية . وعلى القول الأول: أنه لما مرض عرض لقلبه زوال ملك

الدنيا عنه إلى غيره ، فسأل ملك الآخرة .

(حيث أصاب) [36] قصد وأراد . كما يقال: "أصاب الصواب ، فأخطأ الجواب" ، قال بشر: 1057- وغيرها ما غير الناس قبلها فبانت وحاجات الفؤاد يصيبها . (بنصب وعذاب) [41] بضر . والنصب -بالفتح-: التعب . وقيل: هما واحد كالضعف والضعف . قال طرفة:

1058- من عائدي الليلة أم من نصيح بت بنصب ففؤادي قريح . وإنما اشتكى أيوب وسوسة الشيطان لا [ا]لمرض ، لقوله: (إنا وجدناه صابراً) . وقيل: إن الشيطان كان يوسوس إلى الناس أن داءه يعدي ، حتى أخرجوه واستقذروه وتركت امرأته تعهدها .

(اركض برجلك) [42] حركها ، واضرب بها الأرض ، فضرب فنبعت عينان ، اغتسل في إحداهما ، فذهب ظاهر دائه ، وشرب من الأخرى فذهب باطن دائه . (ووهبنا له أهله) [43] كانوا مرضى/فشفاهم . وقيل: غائبين فردهم . وقيل: موتى فأحياهم . (ومثلهم معهم) الخول والمواشي . وعن الحسن: وهب لهم من أولادهم مثلهم . (وخذ بيدك ضغثاً) [44] جاءته بأكثر مما كانت تأتيه من خبز الخبز ، فخاف خيانتها .

وقيل: إن الشيطان وسوس لها ببعض التبرم والكراهية لما قضى الله عليهم . والضغث: الحزمة من الحشيش . وقيل: عثكال النخل الجامع لشماريخه . (أولي الأيدي والأبصار) [45] أي: القوى في العبادة ، والبصائر في الدين . (بخالصة ذكرى الدار) [46] إذا نونت

الخالصة ، كانت ذكرى الدار بدلاً عنها ، أي: أخلصناهم بذكرى الدار . أو يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي: بخالصة هي ذكرى الدار .

(65/657)

وإذا لم تنون الخالصة ، كانت الخالصة صفة لموصوف محذوف ، أي: بخصلة خالصة ذكرى الدار . ويجوز أن يكون المصدر أو الخالصة بمعنى الخلوص ، والإضافة إلى الفاعل ، كما تقول: "عجبت من ضرب زيد " أي من أن ضرب زيد ، وتقديره: بخلوص ذكرى الدار لهم وهم في الدنيا . وفي الخبر تفسير (إنا أخلصناهم بخالصة) : هي الكتب المنزلة التي فيها ذكرى الدار . وعن مقاتل: أخلصناهم بالنبوة ، وذكرى الدار الآخرة ، والرجوع إلى الله عز وجل . (وغساق) [57] بالتخفيف والتشديد ، لغتان ، ومعناهما :

المنتن المظلم ، من غسق الجرح: سال ، وغسق الليل: أظلم . والمشدد : صفة لموصوف محذوف ، أي: وصديد غساق . والمخفف: يجوز اسماً كالشراب والنكال ، ويجوز مصدراً كالذهاب والثبات ، ثم وصف بالمصدر ، أي: ذو غساق . (وءاخر من شكله) [58] أي: وعذاب آخر . و(أزواج) نعت [لـ]لثلاثة ، أو لآخر/ ، فإن آخر بمعنى الجنس ، أو العذاب يكون أنواعاً في نفسه ، أو كل خرزة منه عذاب . كما قال الشاعر:

1059- [أ]يا ليلة خرس الدجاج طويلة ببغداد ما كادت عن الصبح تنجلي . فقال: خرس الدجاج وإن كانت الليلة واحدة ، لأنه ذهب إلى الدجاج ، أو جعل كل جزء من الليلة أخرس الدجاج . و(من) متعلقة بالأزواج ، أي: وعذاب آخر أزواج من شكله ، أي: شكل ما تقدم ذكره ، ويجوز أن يتعلق بـ(آخر) أي: وعذاب آخر كائن من هذا الشكل ، ثم أزواج صفة بعد صفة . (هذا فوج مقتحم معكم) [59] هم فوج بعد فوج يقتحمون النار . وقال الحسن: الفوج الأول: بنو إبليس ، والثاني: بنو آدم . وقيل: الأول: الرؤساء ، والثاني: الأتباع . (أتخذناهم سخريا) [63]

(66/657)

على الاستفهام . (أم زاغت عنهم الأبصار) [فلا نراهم] وهم معنا . وهذا من الاستفهام الذي معناه التعجب ، أو التوبيخ . أي: كانوا من السقوط بحيث يسخر منهم ، فما لهم لم يدخلوا معنا النار . (لما خلقت بيدي) [75] توليت خلقه بنفسي . أو خلقته ، فتكون اليد بمعنى التأكيد والصلة ، كقوله: (ويبقى وجه ربك) . وقيل: خلقت بقوتي وقدرتي ، وتثنيتها على هذا ليس بخارج عن عادة العرب .

. . .

كما قال: 1060- فإن [تزجراني يا ابن] عفان أنزجر وإن تدعاني أحم عرضاً ممنعا .

وقال آخر:

1061- وقلت لصاحبي [لا تحبسانا] [بنزع] أصوله [واجتز شيحا] . (فالحق) [84] نصبه على التفسير فقدمه ، أي: لأملأن جهنم حقاً ، (والحق أقول) اعتراض . وكذلك من قال: إنه قسم ، والمقسم عليه: (لأملأن) كان (والحق/أقول) أيضاً اعتراضاً . وقيل: إنه نصب على الإغراء ، أي: فاتبعوا الحق ، (والحق أقول) كلام آخر .

[تمت سورة "ص"] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1128.1254 ﴾

(67/657)

وقال الأخفش :

سورة (ص)

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾

قال ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ فيزعمون ان موضع القسم في قوله ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ [14] .

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾

وقال ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ فشبهو ﴿ لاتَ ﴾ بـ ﴿ ليسَ ﴾ واضمروا فيها اسم الفاعل ولا تكون ﴿ لاتَ ﴾ إلاَّ مع "حِين" ورفع بعضهم ﴿ وَلاتَ حينُ مناصٍ ﴾ فجعله في قوله مثل ﴿ ليسَ ﴾ كأنه قال "ليسَ أَحَدٌ" واضمر الخبر. وفي الشعر: [من الخفيف وهو الشاهد الرابع والستون بعد المئتين]:

طَلَبُوا صُلْحَنَا وَلاتَ أَوَانٍ * فَأَجَبْنَا أَنْ لَيْسَ حِينُ بقاءِ

فجرّ "أَوانٍ" وحذف وأمضر "الحين" واضاف الى "أَوانٍ" لأنَّ ﴿ لاتَ ﴾ لا تكون الا مع "الحين".

﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ الهاً وَاحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾

وقال ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ الهاً وَاحِداً ﴾ كما تقول: "أَتَجْعَلُ مِئَةَ شاهدٍ شاهداً واحداً".

﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ﴾

[و]قال ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً ﴾ [163 ب]أيْ: يَمْسَحُ مَسْحاً.

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾

وقال ﴿ رُخَآءً ﴾ فانتصاب ﴿ رُخاءً ﴾ - والله أعلم - على "رَخَّيْناهَا رُخَاءً". انتهى

انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 492. 493 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة ص

مكية كلها

1 - وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ أي ذي الشرف . مثل قوله تعالى : لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ . [سورة الأنبياء آية 10] .

ويقال : فيه ذكر ما قبله من الكتب .

2 - وَشِقاقٍ : عدواة ومباعدة .

3 - وَلاتَ حِينَ مَناصٍ أي لات حين مهرب . والنوص : التأخر في كلام العرب .

و«البوص» : التقدم . قال امرؤ القيس :

أمن ذكر ليلى - إذ نأتك - تنوص فتقصر عنها خطوة وتبوص ؟ !

وقال ابن عباس : ليس حين نزو ، و[لا] فرار .

5 - عُجابٌ وعجيب واحد . مثل طوال وطويل ، وعراض وعريض وكبار وكبير .

10 - فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ أي في أبواب السماء ، إن كانوا صادقين .

قال زهير :

ولو نال أسباب السماء بسلم [وقال السدي : في الأسباب : في الفضل والدين] قال أبو عبيدة :

تقول العرب للرجل – إذا كان ذا دين فاضل – : قد ارتقي فلان في الأسباب .

وقال غيره : كما يقال : قد بلغ السماء .

وأول هذه السورة مفسر في كتاب «تأويل المشكل» .

12 – وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ : ذو البناء المحكم . والعرب تقول :

هم في عز ثابت الأوتاد . وملك ثابت الأوتاد يريدون أنه دائم شديد .

وأصل هذا أن البيت من بيوتهم يثبت بأوتاده .

قال الأسود بن يعفر :

في ظل ملك ثابت الأوتاد وقال قتادة وغيره : هي أوتاد كانت لفرعون ، يعذب بها الرجل ، فيمده بين أربعة منها ، حتى يموت .

13 – والْأَيْكَةِ : الغيضة .

أُولئِكَ الْأَحْزابُ يريد الذين تحزنوا على أنبيائهم .

ما لَها مِنْ فَواقٍ قال قتادة : ما لها من مثنوية .

وقال أبو عبيدة : من فتحها أراد : ما لها من راحة ولا إفاقة . كأنه يذهب بها إلى إفاقة

المريض من علته ومن ضمها جعلها : فواق ناقة ، وهو : ما بين .

الحلبتين . يريد ما لها من انتظار .

و«والفواق» والفواق واحد - كما يقال : جمام المكوك وجمامه - وهو : أن تحلب الناقة ،

وتترك ساعة حتى ينزل شيء من اللبن ، ثم تحلب . فما بين

(70/657)

الحلبتين فواق . فأستعير الفواق في موضع التكمث والانتظار .

16 - و17 - عَجِّلْ لَنا قِطَّنا والقط : الصحيفة المكتوبة ، وهي :

الصك .

19 - وروي في التفسير : أنهم قالوا ذلك - حين انزل عليه : فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ

[سورة الحاقة آية : 19 و25] و(بشماله) - يستهزئون . أي عجل لنا هذا الكتاب قبل يوم

الحساب . فقال اللّه : اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ .

إِنَّهُ أَوَّابٌ

رجاع تواب .

20 - وفَصْلَ الْخِطابِ يقال : أما بعد . ويقال : الشهود والأيمان ، لأن القطع في الحكم بهم .

21 - تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ أي صعدوا .

22 - وَلا تُشْطِطْ أي لا تجر علينا . يقال : أشططت ، إذا جرت . وشطت الدار : إذا بعدت : فهي تشطّ وتشطّ . وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ أي قصد الطريق .

23 - فَقالَ أَكْفِلْنِيها أي ضمها إلى واجعلني كافلها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ أي غلبني في القول .

ويقال : صار أعز مني . عاززته فعززته ، وعزّني .

24 - بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ أي مضمومة إلى نعاجه ، فأختصر .

ويقال : «إلى» بمعنى «مع» .

والْخُلَطاءِ : الشركاء .

25 - وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى تقدما وقربة .

31 – والصَّافِناتُ الْجِيادُ : الخيل . يقال : هي القائمة على ثلاث قوائم ، وقد أقامت اليد الأخرى على طرف الحافر من يد كان أو رجل . وهذا قول بعض المفسرين .

والصافن – في كلام العرب : الواقف من الخيل وغيرها .

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «من سرّه أن يقوم الرجال له صفونا ، فليتبوّأ مقعده من النار»

، أي يديمون له القيام .

33 – فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ أي أقبل يمسح بضرب سوقها وأعناقها .

34 – وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً يقال : شيطان . ويقال : صنم .

36 – رُخاءً أي رخوة لينة حَيْثُ أَصابَ أي حيث أراد من النواحي . قال الأصمعي : العرب تقول : أصاب الصواب ، فأخطأ الجواب .

أي أراد الصواب .

38 – الْأَصْفادِ : الأغلال ، في التفسير .

39 – هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ أي فأعط او أمسك . كذلك قيل في التفسير [سورة المدثر] . ومثله : وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ . أي لا تعط لتأخذ من المكافأة أكثر مما أعطيت .

قال الفراء أراد : هذا عطاؤنا ، فمن به في العطية . أراد انه إذا أعطاه فهو منّ . فسمّي العطاء منا .

41 - النُّصُبِ والنصب واحد - مثل حزن وحزن - وهو : العناء والتعب .

وقال أبو عبيدة النّصب : الشر . والنصب الإعياء .

(72/657)

---

42 - ارْكُضْ بِرِجْلِكَ أي اضرب الأرض برجلك . ومنه ركضت الفرس .

و(المغتسل) الماء . وهو : الغسول أيضا .

44 - و(الضغث) : الحزمة من الخلى والعيدان .

52 - أَتْرابٌ : أسنان واحدة .

58 - (الغساق) ما يسيل من جلود أهل النار وهو الصديد . يقال :

غسقت عينه ، إذا سالت .

ويقال : هو البارد المنتن .

58 - وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أي من نحوه ، أَزْواجٌ أي اصناف .

قال قتادة : هو الزمهرير .

61 - مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا أي من سنة وشرعه .

63 - أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أي كنا نسخر منهم .

ومن ضم أوله جعله من «السخرة» . أي يتسخرونهم ويستذلونهم .

كذلك قال أبو عبيدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 324. 328 ﴾

(73/657)

وقال الغزنوى :

ومن سورة ص

1 ذِي الذِّكْرِ : [ذي] الشّرف ، أو ذكر الأنبياء والأمم ، أو ذكر جميع أغراض القرآن «1» ، وجواب القسم محذوف ليذهب فيه القلب كلّ

---

(1) انظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 376 ، وتفسير الطبري : 23/ 118 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 319 ، وتفسير الماوردي : 3/ 433 ، وزاد المسير : 7/ 98 .

(74/657)

مذهب ، فيكون دليله أغزر وتجوزه أزجر «1» .

[83/أ] 2 فِي عِزَّةٍ : / منعة ، وقيل «2» : حميّة الجاهلية .

شِقاقٍ : خلاف وعداوة .

3 لاتَ حِينَ مَناصٍ : ليس حين ملجأ «3» ، ولا تعمل «لات» بالنصب إلا في «الحين» وحده لأنّها مشبّهة ب «ليس» فلا تقوى قوة المشبّه به «4» .

7 وفِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ : التّنصر ، لأنها آخر الملل «5» .

9 أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ : فيمنعونك ما منّ اللّه به عليك من الرسالة .

10 فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ : أي : إلى السّماء فليأتوا منها بالوحي إلى من يشاءوا .

11 جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ : بشارة بهزيمتهم ، فكانت يوم

---

(1) في «ك» وكتاب وضح البرهان : «وبحره أزخر» .

(2) ذكره الطبري في تفسيره : 23/ 119 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 434 عن قتادة .

(3) معاني القرآن للفراء : 2/ 397 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 176 ، والمفردات : 509 .

(4) راجع هذا المعنى في الكتاب لسيبويه : (1/ 57 ، 58) ، ومعاني القرآن للأخفش : 2/ 670 ، وتفسير الطبري : (23/ 121 ، 122) ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/

320 ، وإعراب القرآن للنحاس : 3/ 451 .

(5) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 23/ 126 عن ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظي ، والسدي .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 436 عن ابن عباس ، وقتادة ، والسدي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 146 ، وعزا إخراجه إلى الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير عن مجاهد .

كما نسبه إلى عبد حميد عن قتادة .

وانظر هذا القول في تفسير البغوي : 4/ 49 ، وزاد المسير : 7/ 103 ، وتفسير ابن كثير :

7/ 47 .

(75/657)

بدر «1» .

وما صلة مقوية للنكرة المبتدأة .

12 ذُو الْأَوْتادِ : ذو الأبنية العالية كالجبال التي هي أوتاد الأرض .

أو ذو الملك الثابت ثبات الوتد في الجدار «2» .

15 ما لَها مِنْ فَواقٍ : بالفتح والضم «3» مثل غمار النّاس وغمارهم ، بل «الفواق» ما بين الحلبتين مقدار ما يفوق اللّبن فيه إلى الضّرع ويجتمع .

و«الفواق» – بالضم – مصدر كالإفاقة مثل الجواب والإجابة ، فالأول مقدار وقت الراحة والثاني نفي الإفاقة عن الغشية «4» .

16 عَجِّلْ لَنا قِطَّنا : حظّنا ، أي : ما كتبت لنا من الرزق «5» . وقيل «6» :

من الجنّة . وقيل»

: من العذاب .

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 23/ 130 عن قتادة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 147 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة .

(2) في «ج» : الجبال .

(3) قراءة الضم لحمزة ، والكسائي ، وقرأ باقي السبعة بفتح الفاء .

السبعة لابن مجاهد : 552 ، والتبصرة لمكي : 311 ، والتيسير لأبي عمرو الداني : 187 .

(4) انظر توجيه القراءتين في معاني الفراء : 2/ 400 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/

179 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : (377 ، 378) ، وتفسير الطبري : (23/ 132 ، 133) ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 323 .

(5) أخرجه الطبري في تفسيره : 23/ 135 عن إسماعيل بن أبي خالد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 439 ، والقرطبي في تفسيره : 15/ 157 عن إسماعيل بن أبي خالد أيضا .

(6) أخرجه الطبري في تفسيره : 23/ 135 عن السدي ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 439 عن سعيد بن جبير ، وكذا البغوي في تفسيره : 4/ 50 ، وابن الجوزي في زاد المسير :

7/ 109 .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 148 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 23/ 134 عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

وعقب الطبري – رحمه اللّه تعالى – على الأقوال السالفة بقوله : «و أولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال : إن القوم سألوا ربهم تعجيل صكاكهم بحظوظهم من الخير أو الشر

الذي وعد اللّه عباده أن يؤتيهموها في الآخرة قبل يوم القيامة في الدنيا استهزاء بوعيد اللّه ...». [.....]

(76/657)

---

17 ذَا الْأَيْدِ : ذا القوّة في الدين «1» ، فكان يقوم نصف كلّ ليلة ويصوم نصف كلّ شهر «2» .

19 كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ : يرجّع التسبيح معه «3» . وقيل «4» : رجّاع إلى ما يريده .

20 وَفَصْلَ الْخِطابِ : علم الحكم بين الناس «5» ، أو قطع ما خاطب

---

(1) ورد هذا المعنى في أثر أخرجه عبد الرازق في تفسيره : 2/ 161 عن قتادة رحمه اللّه تعالى .

وأخرجه الطبري في تفسيره : 23/ 136 عن قتادة ، وابن زيد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 148 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد عن قتادة .

وانظر هذا المعنى في معاني القرآن للفراء : 2/ 401 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 179 ، ومعاني الزجاج : 4/ 323 .

(2) ذكره الزجاج في معانيه : 4/ 323 ، والماوردي في تفسيره : 3/ 439 .

وأخرج الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحيهما عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال : قال لي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «أحبّ الصيام إلى اللّه صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وأحب الصلاة إلى اللّه صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه» .

صحيح البخاري : 4/ 134 ، كتاب الأنبياء ، باب «أحب الصلاة إلى اللّه صلاة داود . . . » .

وصحيح مسلم : 2/ 816 ، كتاب الصيام ، باب «النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به . . . » .

(3) معاني القرآن للزجاج : 4/ 324 ، وتفسير البغوي : 4/ 51 ، وزاد المسير : 7/ 111 .

(4) تفسير البغوي : 4/ 51 ، وزاد المسير : 7/ 111 .

قال ابن الجوزي : «هذا قول الجمهور» .

(5) هو علم القضاء ، وقد أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 23/ 139 عن مجاهد ، والسدي ، وابن زيد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 440 عن ابن عباس ، والحسن .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 154 ، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

(77/657)

بعض بعضا «1» .

21 نَبَأُ الْخَصْمِ : يتناول العدد والفرد لأنّه لفظ المصدر ، والمصدر للجنس «2» .

تَسَوَّرُوا : أتوه من أعلى سوره ، وجاء تَسَوَّرُوا ، وهما اثنان لأن الاثنين جمع لأن الجمع ضم عدد إلى عدد «3» .

22 وَلا تُشْطِطْ : أشطّ في الحكم : عدل عن العدل وبعد عن الحق .

شطّت به النّوى : تباعدت «4» . وشأنها أنّ جماعة من أعدائه «5»

---

(1) العبارة في وضح البرهان للمؤلف : 2/ 245 : «كأنه قطع المخاطبة وفصل ما خاطب به بعض بعضا» .

(2) تفسير الطبري : 23/ 140 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 325 ، والبيان لابن الأنباري :

2/ 314 .

(3) ينظر التبيان للعكبري : 2/ 1098 ، والبحر المحيط : 7/ 391 .

(4) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 403 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 378 ، والمفردات للراغب : 260 ، واللسان : 7/ 334 (شطط) .

(5) جمهور المفسرين على أن «الخصم» كانوا ملائكة .

قال ابن عطية في المحرر الوجيز : 12/ 437 : «ولا خلاف بين أهل التأويل أن هؤلاء الخصم إنما كانوا ملائكة بعثهم اللّه ضرب مثل لداود عليه السلام ، فاختصموا إليه في نازله قد وقع هو في نحوها . . .» .

وقال القرطبي في تفسيره : 15/ 165 : «ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به ها هنا ملكان» .

ينظر أيضا تفسير الماوردي : 3/ 441 ، وزاد المسير : 7/ 118 ، وتفسير الفخر الرازي :

26/ 189 ، وتفسير البيضاوي : 2/ 307 ، وروح المعاني : 23/ 178 .

قال الكرماني في غرائب التفسير : 2/ 996 : «اختلف المفسرون في «الخصم» فذهب الأكثرون إلى أنهم الملائكة . الغريب : كانا آدميين . العجيب : كانا ملكين على صورة آدميين . وقيل : لو كان ملكين لم يقولا : خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ ، ولم يقولا : إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ، لأن الملائكة لا تكذب ولا يبغي بعضهم على بعض ،

ولا يكونان خصمين ، ولا يملكان النعجة ولا غيرها ، بل كانا آدميين ، دخلا بغير إذنه في غير وقت الخصوم ففزع منهم ، ولا يأمرهم اللّه بالكذب أيضا .

وذهب بعضهم إلى أنهما كانا ملكين ، وقالا : أرأيت إن كنا خصمين بغى بعضنا على بعض . . . إلى آخر الآية . وقيل : تقديره ، ما تقول : خصمان قال بغى بعضنا على بعض «الآيات ، إنما هو مثل» اه - .

(78/657)

تسوّروا محرابه وقصدوه بسوء في وقت غفلة «1» ، فلما رأوه متيقظا انتقض تدبيرهم ، فاخترع بعضهم خصومة أنهم قصدوه لأجلها ، ففزع منهم ، فقالوا :

لا بأس .

[83/ب] خَصْمانِ «2» : / فقال داود : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ .

أي [إن] «3» كان الأمر كما تقول ، فحلم عنهم وصبر مع الأيد «4» وشدّة الملك .

24 وَخَرَّ راكِعاً : وقع من ركوعه إلى سجوده «5» .

وَأَنابَ : إلى اللّه شكرا لما وفّقه من الصّبر والحلم .

فَاسْتَغْفَرَ : لذنوب القوم ، أو قال : ربّ اغفر لي ولهم .

25 فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ : أي : لأجله .

وقيل في تأويل خطيئته : إنّ الخصم لما قال : إِنَّ هذا أَخِي لَهُ كان الواجب أن يسأله تصحيح دعواه ، أو يسأل الخصم الآخر عنه ، فعجّل وقال :

لَقَدْ ظَلَمَكَ «6» ، وإن ثبت حديث . . . . .

---

(1) في «ج» : غفلته .

(2) يريد قوله تعالى : خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ . . . وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ .

(3) ما بين معقوفين عن «ك» .

(4) أي : القوة ، وقد تم بيان هذا المعنى قبل قليل . [. . . . .]

(5) قال ابن العربي في أحكام القرآن : 4/ 1639 : «لا خلاف بين العلماء أن الركوع ها هنا السجود لأنه أخوه إذ كل ركوع سجود ، وكل سجود ركوع فإن السجود هو الميل ، والركوع هو الانحناء ، وأحدهما يدل على الآخر ، ولكنه قد يختص كل واحد منهما بهيئة ، ثم جاء على تسمية أحدهما بالآخر ، فسمى السجود ركوعا» .

وانظر تفسير الماوردي : 3/ 443 ، وزاد المسير : 7/ 122 ، وتفسير القرطبي : 15/ 182 .

(6) أورده النحاس في إعراب القرآن : 3/ 461 ، والماوردي في تفسيره : 3/ 443 .

وقال ابن العربي – رحمه اللّه – في أحكام القرآن : 4/ 1638 : «أما من قال : إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز ذلك على الأنبياء . . . » .

(79/657)

أوريا «1» ، فخطيئته خطبته على خطبته «2» ، أو استكثاره من النساء ، ويكون فَغَفَرْنا لَهُ بعد الإنابة وإن كانت خطيئته مغفورة فتكون مغفرة على مغفرة .

23 أَكْفِلْنِيها : اجعلني كافلها وانزل أنت عنها «3» .

وَعَزَّنِي : غلبني «4» .

31 الصَّافِناتُ الْجِيادُ : القائمة على ثلاث قوائم «5» [الثّانية] «6» رابعتها .

---

(1) لم يثبت هذا الحديث ورد جماهير العلماء هذه الرواية الدخيلة ، الذي يتنزه عن ارتكاب بعض ما جاء فيها الفضلاء من الناس فضلا عن أنبياء اللّه المعصومين .

قال القاضي – رحمه اللّه تعالى – في الشفا : 2/ 827 : «و أما قصة داود عليه السلام فلا يجب أن يلتفت إلى ما سطّره فيه الأخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ، ونقله بعض المفسرين ، ولم ينص اللّه على شيء من ذلك ولا ورد في حديث صحيح . . . » .

ورده – أيضا – ابن العربي في أحكام القرآن : 4/ 1636 ، والفخر الرازي في تفسيره :

26/ 189 الذي أورد أدلة قوية في بطلان هذه القصة .

وانظر البحر المحيط : 7/ 393 ، وتفسير ابن كثير : 7/ . 51

(2) ذكره ابن العربي في أحكام القرآن : 4/ 1639 ، وقال : «وهذا باطل يرده القرآن والآثار التفسيرية كلها» .

(3) عن معاني القرآن للزجاج : 4/ 327 .

وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 379 ، وتفسير الطبري : 23/ 143 ، وتفسير القرطبي : 15/ 174 .

(4) معاني القرآن للفراء : 2/ 404 ، وغريب القرآن لليزيدي : 322 ، ومعاني الزجاج :

4/ 327 .

(5) قال الزجاج في معانيه : 4/ 330 : «الصافنات : الخيل القائمة ، وقال أهل اللّغة وأهل التفسير : الصافن : القائم الذي يثني إحدى يديه أو إحدى رجليه حتى يقف بها على سنبكه – وهو طرف الحافر – فثلاث من قوائمه متصلة بالأرض ، وقائمة منها تتصل بالأرض طرف حافرها . . .» .

ينظر – أيضا – تفسير الماوردي : 3/ 445 ، وتفسير البغوي : 4/ 60 ، واللسان :

13/ 248 (صفن) .

(6) في الأصل : «النايئة» ، والمثبت في النص عن «ك» .

(80/657)

---

32 أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ : آثرت حبّ المال «1» على ذكر ربّي .

حَتَّى تَوارَتْ : أي : الخيل «2» ، أو الشمس «3» ، ودلّ عليها إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ .

33 فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ : كواها في الأعناق والقوائم «4» ، وجعلها حبيسا في سبيل اللّه مسوّمة كفارة لصلاة فاتته ، أو ذبحها وعرقبها «5» وتصدّق بلحومها كفارة .

وقيل «6» : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبّا لها .

---

(1) أخرج عبد الرزاق نحو هذا القول في تفسيره : 2/ 163 عن الحسن ، وقتادة .

وأخرجه الطبري في تفسيره : 23/ 155 عن قتادة ، والسدي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 177 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن الحسن ، وقتادة رحمهما اللّه تعالى .

كما عزا إخراجه إلى ابن المنذر عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما .

(2) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 446 ، وقال : «حكاه ابن عيسى» .

ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز : 12/ 456 عن بعض المفسرين ولم يسمهم ، وعده الكرماني في غرائب التفسير : 2/ 1000 من غرائب الأقوال ، وعزاه إلى ابن عيسى .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 23/ 155 عن ابن مسعود رضي اللّه عنه .

ونقله البغوي في تفسيره : 4/ 60 عن مقاتل . وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز : 12/ 456 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 130 ، والقرطبي في تفسيره : 15/ 196 ، وقال : «الأكثر في التفسير أن التي تواترت بالحجاب هي الشمس» .

(4) ذكره البغوي في تفسيره : 4/ 61 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 132 ، وقال : «حكاه الثعلبي» .

(5) أي : قطع عرقوبهما ، وفي الصحاح : 1/ 180 (عرقب) : العصب الغليظ . . . وعرقوب الدابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها .

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 23/ 446 عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 178 ، وزاد نسبته إلى أبي حاتم عن ابن عباس أيضا ، ونقله البغوي في تفسيره : 4/ 61 عن الزهري ، وابن كيسان ، ثم قال : «وهذا قول ضعيف» . [. . . . .]

34 فَتَنَّا سُلَيْمانَ : خلّصناه «1» ، أو ابتليناه «2» .

وسبب فتنته قربانه بعض نسائه في الحيض . وقيل : احتجابه عن النّاس ثلاثة أيام . وقيل «3» : تزوّجه في غير بني إسرائيل .

وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً : أي : ألقيناه لأنه مرض فصار كالجسد الملقى «4» .

ثُمَّ أَنابَ : إلى الصحة .

35 لا يَنْبَغِي : لا يكون لأنه لما مرض عرض لقلبه زوال ملك الدنيا ،

---

(1) من قولهم : فتنت الذهب إذا خلصته ، وهو أن يذاب بالنار ليتميز الرديء من الجيد . الصحاح : 6/ 2175 ، والمفردات للراغب : 371 ، واللسان : 13/ 317 (فتن) .

(2) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 446 عن السدي .

(3) وردت هذه الأقوال في كتب التفسير ، مثل تفسير الماوردي : 3/ 447 ، وتفسير البغوي :

4/ 64 ، وزاد المسير : (7/ 133 ، 134) ، وتفسير القرطبي : 15/ 199 .

وأوردها الفخر الرازي في تفسيره : 26/ 208 ، وعقب عليها بقوله : «واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام . . .» ، ثم ذكر الوجوه التي رد بها هذه الأقوال .

(4) ذكر الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 448 عن ابن بحر .

وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز : 12/ 461 ، وغيره من الأقوال في الآية ، ثم قال : «و هذا كله غير متصل بمعنى هذه الآية» .

وذكر القرطبي في تفسيره : 15/ 202 القول الذي ذكره المؤلف فقال : «و قيل : إن الجسد كان سليمان نفسه وذلك أنه مرض مرضا شديدا حتى صار جسدا ، وقد يوصف به المريض المضني فيقال : كالجسد الملقى» اه .

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه : 3/ 209 ، كتاب الجهاد والسير ، باب «من طلب الولد للجهاد» عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على مائة امرأة – أو تسع وتسعين – كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل اللّه ، فقال له صاحبه : قل إن شاء اللّه ، فلم يقل إن شاء اللّه ، فلم يحمل منهن إلّا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذي نفس محمد بيده لو قال : إن شاء اللّه لجاهدوا في سبيل اللّه فرسانا أجمعون» .

قال القاضي عياض في الشفا : 2/ 835 ، «قال أصحاب المعاني : والشق هو الجسد الذي ألقى على كرسيه حين عرض عليه ، وهي عقوبته ومحنته» .

فسأل ملك الآخرة «1» .

36 حَيْثُ أَصابَ : قصد وأراد «2» . يقال : أصاب الصواب فأخطأ الجواب «3» .

41 بِنُصْبٍ : بضرّ «4» ، وبِنُصْبٍ «5» تعب ، وإنما اشتكى وسوسة الشّيطان لا المرض ، لقوله : إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً : كان الشّيطان يوسوس أن [84/أ] داءه يعدي ، فأخرجوه واستقذروه ، وتركته امرأته «6» / .

42 ارْكُضْ بِرِجْلِكَ : حرّكها واضرب بها الأرض ، فضرب فنبعت عينان «7» .

43 وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ : كانوا مرضى فشفاهم ، وقيل «8» : غائبين فردّهم .

وقيل «9» : موتى فأحياهم .

---

(1) ذكر نحوه الفخر الرازي في تفسيره : 6/ 210 .

(2) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 405 ، وأبو عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 183 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 379 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 23/ 167 عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، والسدي ، والضحاك ، وابن زيد .

قال الزجاج في معانيه : 4/ 333 : «إجماع المفسرين وأهل اللغة أنه حيث أراد ، وحقيقته :

قصد وكذلك قولك للمجيب في المسألة : أصبت ، أي : قصدت فلم تخطئ الجواب» .

(3) عن الأصمعي في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 380 ، وتفسير الماوردي : 3/ 450 ، وتفسير القرطبي : 15/ 205 ، واللسان : 1/ 535 (صوب) .

(4) معاني القرآن للفراء : 2/ 406 ، ومعاني الزجاج : 4/ 334 ، وتفسير القرطبي : 15/ 207 .

(5) بفتح النون والصاد ، قراءة يعقوب من القراء العشرة ، وتنسب هذه القراءة أيضا إلى الحسن ، وعاصم الجحدري .

ينظر الغاية لابن مهران : 250 ، والنشر : 3/ 277 ، والبحر المحيط : 7/ 400 .

(6) ينظر تفسير الطبري : 23/ 168 ، وتفسير ابن كثير : 7/ 65 .

(7) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 23/ 166 عن قتادة ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 193 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد عن قتادة أيضا .

(8) ذكر الماوردي هذين القولين في تفسيره : (3/ 452 ، 453) ، وقال : «حكاهما ابن بحر» .

(9) ذكر الزجاج في معاني القرآن : 4/ 335 ، والماوردي في تفسيره : 3/ 453 ، وقال : «عليه الجمهور» .

مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ : أي : الخول والمواشي ، أو وهب لهم من أولادهم مثلهم «1» .

44 وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً : جاءته بأكثر مما كانت تأتيه من خير الخبز ، فاتهمها «2» .

والضغث : الحزمة من الحشيش «3» .

45 أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ : القوى في العبادة والبصائر في الدين «4» .

46 بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ : إذا نونت الخالصة كانت ذِكْرَى الدَّارِ بدلا عنها ، أي : أخلصناهم بذكرى الدار بأن يذكروا بها ، أو يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي : بخالصة هي ذكر الدار .

وإن لم تنون «5» كانت «الخالصة» صفة لموصوف محذوف ، أي :

---

(1) تفسير الماوردي : 3/ 453 ، والمحرر الوجيز : 12/ 468 . [. . . . .]

(2) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 543 عن سعيد بن المسيب ، وكذا القرطبي في تفسيره :

15/ 212 .

(3) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 185 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 381 ، ومعاني الزجاج : 4/ 335 ، واللسان : 2/ 164 (ضغث) .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 23/ 170 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 197 ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أيضا .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 197 ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أيضا .

وانظر هذا القول في معاني الزجاج : 4/ 336 ، وتفسير الماوردي : 3/ 454 ، وتفسير البغوي : 4/ 66 .

(5) هذه قراءة نافع كما في السبعة لابن مجاهد : 554 ، والتبصرة لمكي : 311 ، والتيسير للداني : 188 .

وانظر توجيه القراءتين في معاني القرآن للزجاج : 4/ 336 ، وإعراب القرآن للنحاس : 3/ 467 ، والكشف لمكي : (2/ 231 ، 232) ، والبحر المحيط : 7/ 402 .

بخصلة خالصة ذكر الدار . وفي الخبر «1» : أن «الخالصة» هي الكتب المنزلة التي فيها ذكر الدار .

وعن مقاتل «2» : أَخْلَصْناهُمْ : بالنّبوّة ، وذكر الدار : الآخرة ، أي :

يكثرون ذكرها .

49 هذا ذِكْرٌ : أي : شرف يذكرون به ، وإنّ لهم مع ذلك لَحُسْنَ مَآبٍ .

52 أَتْرابٌ : على مقدار أسنان الأزواج «3» .

57 هذا فَلْيَذُوقُوهُ : الأمر هذا حميم منه ، حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ منتن مظلم «4» بالتخفيف

«5» ، والتشديد غسق الجرح سال ، وغسق اللّيل : أظلم «6» .

58 وَآخَرُ : عذاب آخر .

مِنْ شَكْلِهِ : شكل ما تقدم ذكره ، ويجوز أن يتعلق ب آخَرُ .

أي : وعذاب آخر كائن من هذا الشّكل ، ثم أَزْواجٌ صفة بعد صفة «7» .

59 هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ : هم فوج بعد فوج يقتحمون النّار ، فالفوج

---

(1) أورده الماوردي في تفسيره : 3/ 455 ، وقال : «و هذا قول مأثور» .

(2) ينظر قول مقاتل في تفسير الماوردي : 3/ 455 .

(3) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 455 .

(4) تفسير الطبري : 23/ 178 ، وتفسير الماوردي : 3/ 456 ، وتفسير البغوي :

4/ 67 ، وتفسير القرطبي : 15/ 222 .

(5) بتخفيف السين قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبي عمرو ، وابن عامر ، وأبي بكر عن

عاصم ، وتشديد السين قراءة حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم .

السبعة لابن مجاهد : 555 ، والتبصرة لمكي : 312 ، والتيسير للداني : 188 .

(6) ينظر المفردات للراغب : 361 ، والكشاف : 3/ 379 ، واللسان : 10/ 288 (غسق) .

(7) التبيان للعكبري : 2/ 1105 ، والبحر المحيط : 7/ 406 .

(85/657)

الأول : الشّياطين ، والثاني : الإنس «1» ، أو الأول الرؤساء ، والثاني الأتباع «2» .

لا مَرْحَباً بِهِمْ : لا اتسعت أماكنهم .

63 أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا : من الاستفهام الذي معناه التوبيخ ، أي : كانوا من السّقوط بحيث يسخر منهم .

61 عَذاباً ضِعْفاً : لكفرهم ولدعائهم إليه .

69 بِالْمَلَإِ الْأَعْلى : بالملائكة «3» اختصموا في آدم حين قيل لهم «4» :

إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .

72 نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي : توليت خلقه من غير سبب كالولادة التي تؤدي إليها ، وكذا

تفسيرِ لما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ كلّ ذلك لتحقيق الإضافة ، وأنّه لم يكن بأمّ أو بسبب .

84 فَالْحَقُّ : [رفعه على أنه خبر المبتدأ ، أي : قال : أنا الحق] «5» نصبه على التفسير «6» ، فقدّمه ، أي : لأملأنّ جهنّم حقّا / . [84/ ب]

---

(1) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 456 عن الحسن .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 23/ 180 عن قتادة ، ونقله البغوي في تفسيره :

4/ 67 ، والقرطبي في تفسيره : 15/ 223 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(3) ورد هذا القول في أثر أخرجه الطبري في تفسيره : (23/ 183 ، 184) عن ابن عباس ، وقتادة ، والسدي .

وأخرجه عبد الرازق في تفسيره : (2/ 168 ، 169) عن الحسن .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 202 ، وزاد نسبته إلى محمد بن نصر المروزي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

كما عزا إخراجه إلى عبد بن حميد ، ومحمد بن نصر المروزي عن قتادة .

ينظر هذا القول – أيضا – في تفسير الماوردي : 3/ 458 ، وتفسير البغوي : 4/ 69 ، وزاد المسير : 7/ 154 ، وتفسير القرطبي : 15/ 226 . [. . . . .]

(4) سورة البقرة : آية : 30 .

(5) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» .

(6) على قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبي عمرو ، وابن عامر ، والكسائي .

السبعة لابن مجاهد : 557 ، والتبصرة لمكي : 312 ، والتيسير للداني : 188 .

وانظر توجيه هذه القراءة في تفسير الطبري : 23/ 187 ، وإعراب القرآن للنحاس :

3/ 474 ، والكشف لمكي : 2/ 234 ، والبحر المحيط : 7/ 411 .

(86/657)

وَالْحَقَّ أَقُولُ : اعتراض أو قسم «1» ، كقولك : عزمة «2» صادقة لآتينّك . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 705. 718 ﴾

---

(1) معاني القرآن للفراء : 2/ 412 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 320 ، والتبيان للعكبري :

2/ 1107 .

(2) أشار ناسخ الأصل إلى نسخة أخرى ورد فيها «عزيمتي» .

وانظر هذه العبارة في معاني الفراء : 2/ 412 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة ص

عدد 38 - 38

نزلت بمكة بعد القمر وهي ثمان وثمانون آية ، وسبعمائة واثنتان وثلاثون كلمة ، وثلاثة آلاف وسبعة وتسعون حرفا ، وتسمى سورة داوود ، لا يوجد سورة مبدوءة أو مختومة بما بدئت أو ختمت به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "ص" ابتدأ تعالى بعض سور كتابه العظيم بحرف من الحروف على سبيل التحدي والبينة والاعجاز وان إتباعه بقسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه واعجاز البشر عن الإتيان بمثله وقد تسمى السورة بما بدئت به كهذه وسورتي ن وق ويجوز أن يكون مفتاحا لبعض أسمائه الحسنى كالصمد والصادق والصبور والصانع ويقرأ بالسكون وبالكسر اختلاسا ومع التنوين وبالضم ، أيضا وهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه سورة ص أو مبتدأ لخبر محذوف أي سورة ص هذه سورته المعجزة "وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ 1"

والموعظة الحسنة وجواب القسم أنك يا محمد لمن المرسلين وأنه ما كفر من كفر بك لخلل وجده فيك أو فيما أنزل عليك "بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ 2" أنفة وخلاف وإنما اخترت أن يكون جواب القسم جملة (لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) لمناسبتها للمقام وموافقتها للمعنى وإن من المفسّرين من قدره بجملة (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ) الآية الآتية ومنهم من جعل جملة (إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ) الآية الآتية بعد تلك جواب للقسم ومنهم من قال جوابه (كَمْ أَهْلَكْنا) الآية أيضا ومنهم من قدره (بَلِ الَّذِينَ) إلخ الآية المارة وكلها أقوال تعقبت وفندت لعدم انطباقها على المراد في الآية المقسم بها لذلك لم نعتمد شيئا منها ولما كان القرآن يفسر بعضه وتشير بعض آياته إلى بعض وإلى شيء لا يوجد في بعضها وكان مثل هذا الحذف المقدر هنا موجودا في مثل هذه الآية في سورة يس الآتية قدرناه هنا بمثل ما هو هناك ، ويقويه ذكر النذارة هناك وهنا أيضا لأن الرسالة تتضمن البشارة والنذارة وعليه

تكون (بَلِ) في الآية المتقدمة بعد القسم للانتقال من القسم والمقسم به والمقسم عليه إلى ذكر أنفة المشركين وغلظتهم ومخالفتهم لما جاء به حضرة الرسول لأن عزتهم تلك عبارة عن حمية جاهلية وتكبر عن الحق الصريح مشاحنة وعداوة به صلّى اللّه عليه وسلم ليس إلا

قال تعالى "كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ" أي قومك أيها المخاطب النبيل "مِنْ قَرْنٍ" أي أهله من اطلاق الظرف وإرادة المظروف "فَنادَوْا" عند نزول العذاب بهم بالويل والثبور والاستغاثة قصد النجاة منه فلم يجابوا وأرادوا الفرار فلم يقدروا "وَلاتَ حِينَ مَناصٍ 3" أي ليس الحين حين فرار وخلاص مما نزل بهم وجاء هذا على ما كانت تعتاده كفرة قريش عند مضايقتها في الحروب إذ يقول بعضهم لبعض مناص أي اهربوا وخذوا حذركم والمعنى هنا أن عذاب اللّه لا مخلص منه .

وما قيل إن هذه الآية نزلت في حادثة بدر لا صحة له لأن هذه السورة كلها مكية والآية جارية في معرض ذكر هلاك الأمم الماضية المنوه بها في السورة قبلها وأن سياقها يأبى ذلك "وَعَجِبُوا" هؤلاء الكفرة "أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ" من أنفسهم نسبا وأحسنهم حسبا وأعظمهم مكانة "وَقالَ الْكافِرُونَ" أني بالظاهر بدل المضمر في معرض الذم اعلاما بأنه لا يقدم على هذا إلا المنهمك في الكفر المتوغل في الفسوق "هذا" أي محمد الذي جاءكم يدعي النبوة "ساحِرٌ كَذَّابٌ 4" مع أنهم يسمونه الأمين قبل أن يكون نبيا ، ويعلمون أنه ليس بساحر ولا يوجد بمكة من يعرف السحر إذ ذاك ، ولم يخرج من بين أظهرهم فوصمهم لحضرته بالسحر محض افتراء وبهتان .

قالوا : لما أسلم عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه شق إسلامه على قريش وفرح المؤمنون به فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش وهم خمسة وعشرون صنديدا امشوا إلى أبي طالب ، فأتوه ، وبينوا له حال ابن أخيه واستغوائه قريشا واحدا بعد واحد واشرحوا له حالته التي لم يبق بوسعنا السكوت عليها ، فأتوه فقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء (يعنون محمد وأصحابه) وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك وأنك قاضينا فيه وفي غيره .

فدعاه فقال : يا ابن أخي إن هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا

تمل كل الميل فقال صلّى اللّه عليه وسلم : وماذا يسألون ؟ قالوا ارفض آلهتنا وندعك وإلهك .

فقال صلّى اللّه عليه وسلم : أعطوني كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم الأمم .

(90/657)

فقال أبو جهل نعطيكها وعشرة أمثالها ، فقال : قولوا لا إله إلا اللّه ، فنفروا وقالوا كيف يسع الخلق إله واحد ؟ فأنزل اللّه جل أنزاله "أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا" الذي يقوله محمد

"لَشَيْءٌ عُجابٌ 5" بليغ في العجب والتعجب "وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ" من مجلس ابي طالب قائلين بعضهم لبعض "أَنِ امْشُوا" عنه حيث كان هذا مراد ابن أخيه ولم يصده عنه "وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ" واثبتوا على عبادتها وتحملوا ما يقدح فيها "إِنَّ هذا" الذي قاله محمد وتعليمه على دعوته لإله واحد وما نراه من ازدياد أتباعه يوميا وسكوت عمه عليه وعدم اصغائه لشكايتنا منه "لَشَيْءٌ يُرادُ 6" بنا بأن يتحكم فينا وفي ذرارينا ، ويترفع علينا ويستولي على أموالنا وأملاكنا ، ثم قال بعضهم لبعض "ما سَمِعْنا بِهذا" الذي يقوله محمد قبلا ولا "فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ" ملة عيسى عليه السلام التي هي آخر الملل وهي ملة غير موحدة إذ يدعون آلهة ثلاثة ومن أدركنا من آبائنا لهم آلهة متعددة "إِنْ هذا" القول بالتوحيد الذي يدعوا اليه محمد ما هو "إِلَّا اخْتِلاقٌ 7" من تلقاء نفسه لم يسبقه به أحد وانه يريد به التولي علينا وان نكون تبعا له فيما يريد ، فيا قومنا أخبرونا "أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ" الذي يدعيه وحيا من ربّه ، هل اختص به وحده "مِنْ بَيْنِنا" يتفوق به علينا ويحتفي به دوننا ونحن رؤساء الناس وأشرافهم ، وما هي هذه الميزة التي اختص بها وحده .

(91/657)

قال تعالى "بَلْ هُمْ" هؤلاء الحسدة لرسولي على ما فضلته به عليهم "فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي" الذي أنزلته عليه المشحون بالتوحيد وهذا دائما من التعجب بتخصيص محمد به "بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ 8" حتى يزول حسدهم لرسولي ورميهم لذكري فاذا ذاقوه زال ذلك منهم واتعظوا بمن قبلهم واعترفوا برسالته وإلهه وإن ما يقوله حق لا مرية فيه "أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ" يا محمد ليهبوا ما فيها من مفاتح النبوة لمن شاءوا وأرادوا ويصرفوها عنك . قال تعالى "أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ" الآية 32 من سورة الزخرف وبمعناها الآية 134 من الأنعام في ج 2

كلا لا دخل لهم بها ولا بشيء من مختارات الإله بل هو من خصائص "الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ 9" القاهر الذي لا يقابلة شيء ، كثير المواهب التي من جملتها تخصيصك بالنبوة "أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما" حتى يتداخلوا فيما بستأثر به مالكهما من إعطاء ومنع فإذا كان لهم شيء من ذلك "فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ 10" التي توصلهم إلى أقطارها ليديروا أمر العالم وينزلوا الوحي على من يريدونه في الأرض ، وهذه الجملة في معرض التهديد إذ ليس لأحد من قدرة على ذلك غيره ، واستدل حكماء الإسلام بهذه على ان الاجرام الفلكية وما أودع فيها من خواص وقوى اسباب لحوادث العالم السفلي لأن اللّه تعالى سمّى الفلكيات أسبابا ومهما كان ذلك ، ولهذا فإن ما يزعمه الفلكيون من صعودهم إلى المريخ والقمر وغيرهما من الكواكب زعم بعيد عليهم لم يدركوه ولن يدركوه لأن اللّه تعالى قال لا تنفذوا إلا

بسلطان راجع الآية 32 من سورة الرحمن إذ تحدى بها الجن والإنس وأذلهم ذلك السلطان الذي يتوصلون به إلى النفوذ في أقطار السموات والأرض .

(92/657)

هذا ثم وعد نبيه بالنصر على هؤلاء العتاة المعاندين بقوله انهم "جُنْدٌ ما" قبل هذا بالنسبة لمن سبقهم من الجنود الذين تحزبوا على أنبيائهم قبلك وسيكون لك يا حبيبي معهم شأن "هنالك" عند اللقاء الآتي في بدر ، عند ما يكون ذلك الجند "مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ 11" كما هزم من قبلهم فلا يهمنك شأنهم ، ولا تكترث بهذيانهم .

مطلب الآيات السبع التي تأخر حكمها عن نزولها :

وهذا من الإخبار بالغيب لأنها من الآيات السبع التي سبق ذكرها في الآية 46 من سورة القمر المارة وقد أنزلت تسلية لحضرة الرسول داعية لحمل أذاهم ما دام في مكة وأن قريشا كغيرها من الأجناد الذين أجمعوا على تكذيب الرسل وأنه سيظهر عليهم ويرى مصارعهم في محل غيهم ، وإشارة إلى حادثة بدر الآتية في الآية 5 من سورة الأنفال في ج 3 التي حققها اللّه له وأقر عينيه بها .

ثم شرع يعزيه بما لاقى منهم ويقول له ليس أمتك أول من كذبت الرسل ولا أنت أول من سخر

به وأوذي فقد "كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ 12" الذين كانوا أكثر عددا وعددا من قومك الذين ليس بشيء بالنسبة لهم "وَثَمُودُ"

(93/657)

"وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ" أيضا لا يقاسون بقومك من حيث القلة والكثرة ، وتقدم تفسير ذي الأوتاد في الآية 10 من سورة الفجر وقصته مفصلة كما تقدم بيان قصص الآخرين في الآية 12 من سورة ق المارة "أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ 13" الذين بضرب بهم المثل "إِنْ كُلٌّ" من أولئك "إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ" المرسلين إليهم "فَحَقَّ عِقَابِ 14" على كل من الطوائف الأول لتكذيبهم أنبيائهم ، لأن كل هؤلاء يا سيد الرسل عملوا برسلهم ما عمل بك قومك وقد أصابهم البلاء لعدم إيمانهم بهم "ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ" الذين يجادلونك من قومك إذا لم يؤمنوا "إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً" من ملكنا إسرافيل "ما لَها مِنْ فَواقٍ 15" إذا جاءتهم لم تصرف عنهم ولم تتأخر عن الوقت المقرر لها ولو بمقدار فواق الناقة (وهو الزمن بين الحليتين) بل هو أقل من ذلك بكثير ، وإنما جاء هذا اللفظ على عادتهم ، لأنهم يستقلون هذا الزمن ويضربون به المثل في القلة والسرعة ، وفي هذه الآية زجر لهم عظيم ، وتهديد وخيم ، إذ خوفهم فيها مغبة أمرهم ، وقيل معنى فواق رجوع أي إذا جاءت تلك الصيحة لم ترد عنهم بقطع النظر

عن الزمن ، والمراد بهذه الصيحة الصيحة الثانية لأن سياقها يدل عليها ولأن الصيحة الأولى لا يشاهد هولها ، وإنما يصعق فيها من كان حيا من الخلق عند وقوعها حالا ، ولا يكون العذاب الموعودون به إذ ذاك واقعا ، ولا العذاب المطلق مؤخرا لوقوعها ، وما قاله صاحب الغالية بأن النفخات ثلاثة ، نفخة الإماتة ونفخة الإحياء ونفخة الفزع المنوه بها آخر سورة النمل الآتية لا يتجه لأن نفخة الفزع هي النفخة الثانية التي يكون فيها الخروج من القبر والحشر والنشر .

(94/657)

تدبر ، قالى تعالى "وَقالُوا" كفرة قريش عند سماعهم من حضرة الرسول ما وعد اللّه به المؤمنين وأوعد به الكافرين أمثالهم "رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا" حظنا ونصيبنا من هذا العذاب الذي توعدنا به على لسان محمد "قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ 16" على الأعمال ، الذي يذكره لنا ويهددنا فيه ، وقائل هذا ، النضر بن الحارث على سبيل السخرية والاستهزاء ، أي أسرع بإنزاله علينا إن كان ما تقوله حقا ، قال تعالى يا محمد : "اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ" فيك وفي ربك وكتابك "وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ" القوة

(95/657)

العظيمة واذكر ذلته التي عاتبته عليها مع كرامته عليّ ومعزته عندي وتأسّ به "إِنَّهُ أَوَّابٌ 17" أي كثير الرجوع إلى ربه بالتوبة والندم ، ثم شرع يقص نعمه على داود فقال "إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ" بتسبيحه إذا سبح "بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ 18" صباح مساء ، فالعشي من العصر إلى الليل ، والإشراق من طلوع الشمس إلى الضحى ، قال ابن عباس ما عرفت صلاة الضحى إلا في هذه الآية "وَالطَّيْرَ" تسبح بتسبيحه أيضا "مَحْشُورَةً" حالة كونها مجموعة لديه ، قال ابن عباس كان داود إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير "كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ 19" رجّاع يردد تسبيحه كل منهم "وَشَدَدْنا مُلْكَهُ" قوّيناه بالحرس والجنود ، كما قويناه بأمر الدين ولهذا وصفه بكلمة ذي الأيد بما يشمل القوتين ، ويدل على الأخير قوله أواب ، وعلى الأول وشددنا ملكه "وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ" هي المعرفة بحقائق الأشياء وكنهها وماهيتها وكل كلام وافق الحق فهو حكمة "وَفَصْلَ الْخِطابِ" التمييز بين الحق والباطل والحكم بما يوافق مراد اللّه ، فاجتمعت له القوى الأربع : قوة الدين وقوة الملك وقوة الحكمة وقوة الحكم وقيل فصل الخطاب جملة (أما بعد) لأنه أول من تكلم بها ، لأن الأمر الذي له شأن يستفتح فإذا أراد الشروع في الغرض المسوق إليه فصل بين الخطبة وبينه بها والأول أولى ، ومن جملة نعم اللّه على داود إذ أعطاه النبوة والسلطان ، راجع نسبه وكيفية

إعطائه الملك بتفسير قوله تعالى (وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ) الآية 250 من البقرة في ج 3 وكان قبله الملك في سبط والنبوة في سبط آخر من أسباط يعقوب الاثني عشر أي أولاده

(96/657)

ثم طفق يقص على رسوله زلة داوود فقال "وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ" يطلق على الجماعة المتخاصمين "إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ 21" بيت عبادة داوود وخلوته مع ربه ، إذ كانوا يسمونه محرابا ومنه محراب زكريا ومريم الواردين في الآية 15 من مريم الآتية و 37 من آل عمران في ج 3 ويطلق على صدر المسجد ومحل وقوف الإمام عندنا أي هل بلغك ذلك "إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ" لعدم دخولهم من الباب وقفزهم من أعلى الجدار وعدم استئذانهم إذ لم يحس بهم إلا وهم بين يديه ،

فقال لهما : لما ذا دخلتما متسورين الجدار ولم تستأذنوا وتدخلوا من الباب وكان عليه علامة الفزع لما رأى من جراءتهما هذه "قَالُوا لَا تَخَفْ" ولا تظن بنا سوءا انما نحن "خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ" وهذا من معاريض الكلام لا من تحقيق البغي لأنهما جبريل واسرافيل عليهما السلام أوفدهما الله إلى نبيه داود ليعرفاه زلته وذلك انه عليه السلام رأى آباءه إبراهيم ويعقوب وإسحق أفضل منه فسأل ربه عن ذلك ، فقال : إنهم

ابتلوا فصبروا ففضلوا ، فقال يا رب لو ابتليتني لصبرت ولم يسأله العافية مما ابتلاهم طلبا لعلو الدرجات عنده لا اختبارا ، فامتحنه اللّه بما ذكر هنا قال تعالى "فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ" تجر وتحف وتمل عنه "وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ 22" في هذه الخصومة بان تتبع الحق فيها وتعدل عن الباطل ، قال تكلما ، فقال أحدهما "إِنَّ هذا أَخِي" في الدين والخلقة لأن الملائكة لا تناسب بينهم ولا تقارب لأنهم خلقوا بلا شهوة ولا توالد بل بطريق التولد بلفظ كن بين الكاف والنون وإذا لم يكن توالد فلا تكون قرابة "لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً" امرأة والعرب تكني عن المرأة بالنعجة ، قال ابن عون :

أنا أبوهن ثلاث هن رابعة في البيت صغراهن

ونعجتي خمس توفيهن آلا فتى سمح يغذيهن

(97/657)

"وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ" وهذا على سبيل التعريض وتصوير المسألة إذ ليس في الواقع هناك نعاج ولا يعني ولا يمنع فعل ذلك على فرض وجوده على الملائكة "فقال" صاحب للتسع والتسعين لصاحب الواحدة "أَكْفِلْنِيها" أعطينها وتنازل عنها واجعلها نصيبي لأن الكفيل النصيب "وَعَزَّنِي" غلبني وفي المثل من عزيز أي تفوّق عليّ وأخذني بفصاحته "فِي

الْخِطابِ 23" المخاطبة أو في الخطبة حين طلبها منه وقد صور الملكان الحادثة ومثلاها حرفيّا ولم يتركا منها الا إبدال المرأة بالنعجة قال داود عليه السلام بعد أن سأل الخصم الآخر واعترف له بالحادثة كما قررها الخصم الأول ، لأنه لا يمكن أن يحكم قبل أخذ الجواب من الخصم ولهذا بين بحكمه سبب الظلم فقال واللّه انّ هذا "لَقَدْ ظَلَمَكَ" يا صاحب النعجة

(98/657)

الواحدة "بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ" وضمها "إِلى نِعاجِهِ" التسع والتسعين ولكن ليس هذا وحده الباغي "وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ" الشركاء أمثاله الذين يخلطون أموالهم باموال غيرهم وتطلق كلمة الخلطاء على غير المحمودين من الناس ولذلك قال "لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ" بسائق الطمع والحرص وحب التكاثر بالأموال التي تميل بذويها إلى الباطل إن لم يتولّهم اللّه بلطفه وهم المتشبثون بقوله عز قوله "إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" فإنهم لا يبغون ولا يطمعون "وَقَلِيلٌ ما هُمْ" الصالحون المؤمنون المبعدون عن الظلم جدا قليلون ولما فهمهما حكمه هذا نظرا إلى بعضهما وصعدا إلى السماء على مرأى من داود فعرفهما أنهما أنها ملكان بعثهما اللّه اليه ليذكراه ما وقع منه من الخطيئة ، ويروى أن داود حينما سأل المدعى

عليه عن سبب أخذه النعجة أجابه بانه يريد إكمال نعاجه مائة بها فقال داود ان رمت ذلك ضربنا منك هذا وأشار إلى أنفه وجبهته ، فقال يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا ، لأنك فعلت كيت وكيت ، ثم نظر داود فلم ير أحدا .

فإن صح قول الملك إلى داود هذا الكلام يحمل على ان ذنوب الأنبياء مهما صغرت فهي كبائر بالنظر لعلو شأنهم .

والقصد من قوله فعلت كيت وكيت انك كلفت الرجل بالتنازل عن زوجته أو خطيبته لك مع استغناءك عنها تبعا لإرادة نفسك قال ابن عباس : ان داود لما دخل عليه الملكان وقضى على نفسه تحولا في صورتها وعرجا إلى السماء وهما يقولان قضى الرجل على نفسه فعلم أنهما عنياه وانهما ملكان وتنبه لعمله ولهذا قال تعالى "وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ" ابتليناه واختبرناه حتى عرف زلته "فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ" مما وقع منه "وَخَرَّ" سقط على الأرض "راكِعاً" ساجدا لأن الركوع مجاز من السجود ولأن الخرّ السقوط وتقول العرب نخلة راكعة وساجدة إذا رأوها ساقطة على الأرض .

قال قائلهم :

فخر على وجهه راكعا وتاب إلى اللّه من كل ذنب

فمعناه السجود الا انه يعبر عنه أحيانا بالركوع مجازا "وَأَنَابَ 24" إلى ربه راجعا عن خطأه تائبا من زلته تعظيما لامتحان ربه واستعطافا لجلب رحمته فقبل

اللّه منه وسترها عليه وأظهر له قبول توبته بقوله "فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ" الذي وقع منه "وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى " قربة ومكانة حسنة "وَحُسْنَ مَآبٍ 25" مرجع ومعاد فوق المغفرة بسبب اعترافه وندمه الآتي ، وهذه السجدة عند أبي حنيفة من عظ ثم السجود لما روى البخاري .

قال مجاهد قلت لابن عباس أأسجد في (ص) فقرأ (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ) إلى (فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ) الآيات 84 إلى 91 من الأنعام في ج 2 .

فقال نبيكم أمران نقتدي بهم فسجدها داود وسجدها محمد صلوات اللّه عليهم وسلامه .

وعند الشافعي ، انها سجدة نبيّ لا توجب سجود التلاوة ، وقدمنا ما يتعلق بهذا أواخر سورتي والنجم والعلق المارتين فراجعهما ففيهما كفاية .

هذا ما قصه اللّه علينا من زلة داود عليه السلام ،

مطلب قصة داود وسجود أبو بكر :

ولكن القصاص ذكروا وجوها كثيرة فيما وقع من السيد داود عليه السلام ، أقوالا أعدلها وأقربها إلى المنطق وأصدقها عقلا هو ان داود عليه السلام كان رأى زوجة عامله أوريا فأعجبته ، وكان في زمانه جواز سؤال الرجل أن يتنازل للغير عن زوجته ، وكانت هذه عادة متفشية بينهم فسأله النزول عنها إليه ، فلم يسعه أن يرده لما له من الهيبة والوقار في مقام النبوة والملك ، فتنازل له عنها ثم تزوجها وأولدها سليمان عليه السلام ، فعتب اللّه عليه لعظم منزلته عنده وكثرة نسائه ووجود أمثالها في أمته وعدم منع إرادته ، وانه لا ينبغي لمثله وعنده النساء الكثيرات وقدرته على تزوج من شاء فيهن أن يسأل رجلا من رعيته ليس له غير امرأة واحدة التنازل عنها له ، بل كان عليه أن يغلب هواه ويقهر نفسه ويصبر على ما امتحن به من رؤيتها وإعجابها ، وليس في هذا ما يدل على الذنب بمعناه الحقيقي ، لأن أهل زمانه لا يرون به بأسا لكثرة وقوعه ، إلا أن مقام النبوة أشرف المقامات وأعلاها شرفا ، فيطالبون بأكمل الأخلاق وأسمى الأوصاف فإذا نزلوا من ذلك إلى طبع البشر الذين هم دونهم مرتبة ومقاما وعزة عاقبهم اللّه عقاب معاتبة ليتيقظوا ويتنزهوا عن أمثاله ، ثم يغفره لهم .

وإن مثل هذا لا يعدّ ذنبا في حق بقية البشر ، ألا ترى أن المهاجرين لما نزلوا على الأنصار في

المدينة ساووهم بمالهم وتشبهم وتخلوا لهم عن بعض نسائهم ، فتزوجوهن ولم يروا بأسا بذلك ، ولمت (20)

(101/657)

يتورعوا عن زواجهن ، لأن هذا مما تعورف عند الأعراب ، ولا تزال هذه العادة حتى الآن لدى عرب البادية ، وإن الرجل منهم قد يأتي إلى الآخر ويقول له على ملأ من الناس (خلّ لي زوجتك) أي تنازل لي عنها طلقها وأعطنيها لأتزوجها فيفعل ، وكثيرا ما تقول المرأة لزوجها خلني لفلان فيخليها أي يطلقها فتتزوج به ، الا ان الأنبياء لما فضلوا على غيرهم ورفعهم اللّه بالنبوة لا يليق بمقامهم الشريف التنازل لبعض ما فيه بأس من عادات الناس لأنها تحط بقدرهم ، وكذلك الأمثل فالأمثل ينبغي أن لا يقارب أمثال هذا وأن يتورع عنه كل ذي مروءة لأن الزمن هذا غير ذاك ، ورحم اللّه امرأ جب المغيبة عن نفسه ، هذا وقيل أن أوريا خطب تلك المرأة وغاب في غزاة فخطبها داود بعده وتزوجها ، فاغتم أوريا لذلك ، فعاتب اللّه داود عليه ، واستدل صاحب هذا القيل بقوله تعالى (وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ) أي الخطبة ، ووجه العتب عليه خطبة على خطبته وقد جاءت شريعتنا بها حيث نهى رسول اللّه الخطبة على الخطبة والبيع على البيع راجع كتب الفقه بذلك ، فالحادث عبارة

عن إحدى هاتين وهي موافقة في المعنى لما أخبر اللّه به عنه وقد اعتمد جهابذة المفسرين ، أما ما ذكره بعض الأخباريين ، في أنه عليه السلام حين رأى المرأة أحبها وبعث زوجها أوريا إلى الغزو أو أمر بإرساله ، وأن يتقدم التابوت لا يرجع حتى يقتل بقصد أخذ زوجته ، فهو باطل بعيد عن الصحة ، تتحاشى غير الأنبياء ومروءتهم عنه ، وإن إرشادهم للخلق وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر يحول دون ذلك ، ويتباعد مقامهم الشريف عنه ، بل غيرهم من الصالحين لا يقدر عليه ، ولأنه لو نسب إلى آحاد المؤمنين لاستنكف عن قربه وأنف من إحداهما مثله ، فكيف يجوز إذا نسبته إلى صفوة خلق اللّه وأمينه على الوحي ، روى سعيد بن المسيب والحارث الأعور عن علي كرم اللّه وجهه أنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة جلدة مضاعفا .

(102/657)

لأن الجلد غايته ثمانون وهذا حد الفرية على الأنبياء ، قال القاضي عياض لا يجوز أن يلتفت إلى ما سطر الأخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا في مثل حادثة داود وسليمان ويوسف وأيوب عليهم السلام لانهم لم ينقلوها من كتاب صحيح ، ولم يتلقوها من ثقة .

وإن اللّه تعالى لم ينص على شيء من ذلك ولا رسوله أخبر به ، وقال الإمام فخر الدين الرازي : حاصل ما ذكره القصاص يرجع إلى أمرين : السعي إلى قتل رجل مؤمن بغير حق ، والطمع في أخذ زوجة ذات زوج ، وكلاهما منكر عظيم ، فلا يليق بعاقل أن يظن أبدا بداود عليه السلام أنه أقدم على ذلك ، كيف وإن اللّه أثنى عليه قبل ذكر القصة المسطورة في القرآن وبعدها ، مما يدل على استحالة ما نقله القصاصون

، وكيف يتوهم من له مسكة من عقل ، أن يقع ذم بين مدحين في كلام اللّه ، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا ، إذ لو وقع مثله بين كلام الناس لاستهجن ، ولقال العقلاء للقائل أنت في مدح فكيف تذم من تمدح أثناء مدحك له ؟

ومن المعلوم أن الأنبياء أنموذج البشر فلا يقع منهم إلا ما يكون قدوة لهم في الأخلاق والآداب لأنهم كاملون ولا يصدر من الكامل إلا الكامل ، وقيل كلام اللّه ملك الكلام ، ورأي العاقل عقل من الآثام .

(103/657)

قال تعالى "يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً" عنا "فِي الْأَرْضِ" لتدبير أمر أهلها في معاشهم ومعادهم نيابة عنا وأعلم أن هذه الآية تشير إلى أن التوبة تمحو الذنب كما جاءت الآثار

الصحيحة به وإلى أن حالة داود عليه السلام بعد التوبة كحالته قبلها فلم يتبدل أو يتغير عليه شيء من اللّه بدلالة قوله "فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ" الذي شرعته لك لتقوم به بينهم ، وبما أوحيه إليك فيما تردد فيه "وَلا تَتَّبِعِ" منه في حكمك "الْهَوى " فنقض بما تراه نفسك لان اتباع هوى النفس لا يكاد يقع من معصوم مثلك ، وهذا على سبيل الإرشاد لمقتضى الخلافة وتنبيه لغيره ممن يتولى القضاء بين الناس ، ولان الحكم بغير ما شرعه اللّه غير مناسب لمقامه تعالى ، ولهذا كان حضرة الرسول الأعظم عند ما يسأل عن شيء لم ينزل به اللّه قرآنا ، يرجىء الجواب حتى يتلقى الوحي فيه خوفا من أن يفتي بغير مراد اللّه "فَيُضِلَّكَ" اتباع الهوى في القضاء وغيره "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" طريقه السوي الذي سنه لعباده .

ومما يدل على أن في هذه الآية تنبيه ولاة الأمور على الإطلاق من الوقوع في الخطأ والحكم بالرأي أو العلم قوله جل قوله "إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ"

في الأحكام وغيرها "لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ" في الآخرة "بِما نَسُوا" غفلوا عما أمروا به في الدنيا ، ومن أعظم ذلك عذابا ترك العدل في القضاء "يَوْمَ الْحِسابِ 26" والجزاء لأنهم لو تذكروا عذاب اللّه في ذلك اليوم العظيم لما فرطوا في الأمر ولما حصلت لهم الغفلة والنسيان والخطأ .

كان إسماعيل الساماني إذا قضى بشيء قال : إلهي هذا جهدي وطاقتي ولا أعلم أجنفت

أم ظلمت فاغفر لي .

وأنا ممن يقول هذا ، وأستغفر اللّه .

(104/657)

هذا ، وإذا أردت استيفاء هذا البحث فعليك بمراجعة تفسير الآية 58 من النساء في ج 3 لأنا سنبين فيها إن شاء اللّه ما تقف عليه مما يتعلق في هذا البحث ، قال بعض المفسرين إن ذنب داوود الذي أستغفر منه ليس بسبب أوريا وزوجته ، بل بسبب قضائه للخصم قبل سماع كلام الآخر ، ولحكمه بالظلم عليه بمجرد الدعوى ، وهذا مخالف للعدل ، فتاب وقبلت توبته ويستدل بهذا على نزاهة داود عليه السلام مما أسند اليه ولكن الأول أولى وأحرى .

مطلب الحكم الشرعي في الأحكام :

الحكم الشرعي : لا يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه ولا قبل سماع دفاع الخصم وإن فصل الخطاب في شريعتنا ، هو البينة على من أدعى واليمين على من أنكر ويجب عليه أن يتبصر بكلام الطرفين ويسوي بينهما بالمكان والكلام ، والنظر ويتروى بالحكم بأن يتحقق من صحة الدعوى ، ومطابقة الشهادة لها ، ولبعضها ، ومن عدالة الشهود وعدم المانع من

قبولهم حتى تقطع الخصومة بوجه صحيح يكسر من عزم المنكر وجحوده ، وأن يفهم حكمه إلى المحكوم عليه بلين ورفق ويبين له خطأه في إنكاره ويفصل أسباب الحكم وصحة الدعوى ليقع في قلبه عدم الحيف عليه ومنه ، فهذا إذا لم يحمل المدعى عليه على الانحراف بالحق يحمله على الاعتراف بعدل الحاكم ويحمل ما يراه من الخطأ حسب زعمه على اجتهاد القاضي ، والاجتهاد قد يحتمل الخطأ فيسلك طريق المراجعة إلى محكمة أخرى إذا كان يعتقد الخطأ فيه برضى واختيار وسكينة ، راجع حديث البطاقة في الآية 7 من الأعراف الآتية ، وهذا كله يتوقف

(105/657)

على تحري العدل ومعرفه العلم وأصول القضاء ، فيا ويل قضاة زماننا – وأنا منهم – إذا لم يسلكوا ما سنه اللّه لهم ورسوله ، ويا ويل من ولاهم إذا كان في رعيته من هو خير منهم ، ولا حول عن اجتناب المعصية ، ولا قوة على فعل الطاعة إلا بإرادة اللّه وتوفيقه ، قال بعض المفسرين : لما أنتبه داوود إلى خطأه الذي هو من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين ، سجد للّه أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا لحاجة أو لصلاة مكتوبة عليه ، ثم يعود ساجدا تمام الأربعين يوما لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه ، وهو ينادي ربه

عز وجل ويسأله قبول توبته وكان من جملة دعائه في سجوده : سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلق بما يشاء سبحان خالق النور ، سبحان الحائل بين القلوب ، إلهي خليت بيني وبينك عدوي إبليس فلم أقم لفتنته إذ نزلت بي ، سبحان خالق النور ، إلهي أنت خلقتني وكان في سابق علمك ما أنا إليه صائر ، سبحان خالق النور ، إلهي الويل لداوود يوم يكشف عنه الغطاء ، فيقال هذا داوود الخاطئ ، سبحان خالق النور ، إلهي بأي عين أنظر إليك يوم القيامة ، وإنما ينظر الصالحون من طرف خفي ، سبحان خالق النور ، إلهي بأي قدم أقوم أمامك يوم القيامة يوم تزل فيه أقدام الخائنين ولم يزل كذلك حتى قبل اللّه توبته ، على أن ظاهر القرآن يشعر بقبول توبته آنيا لقوله تعالى : "فَغَفَرْنَا لَهُ" والفاء تفيد التعقيب والترتيب وهناك أخبار أخرى من قبول توبته أعرضنا عنها لعدم الوقوف بها اكتفاء بما ذكره اللّه القائل "وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا" عبثا لعبا ولهوا "ذلِكَ" أي خلقهما باطلا "ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا" ليس إلا "فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ 27" على ظنهم الباطل هذا لأنا لم نخلق شيئا إلا لحكمة بالغة "أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" الذين يتفكرون في عجائبهما ويمعنون النظر

فيما بينهما من الصنع البديع والمخلوقات المتنوعة والانتظام في سير الكواكب وما يحدث عنها من المنافع وكيفية نبات الأرض واختلاف أصنافه وألوانه وأشكاله وما فيها من المياه والأودية والجبال وما خد فيها من الطرق والمغاور والوديان ، وما أودعه فيها من المعادن والدواب والحيات والطير

وما أودع فيها من الداء والدواء في نباتها ومعادنها ، أي لا نجعل الصالحين المصلحين "كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ" الذين لا يفقهون شيئا من ذلك ولا يتدبرون مراد اللّه فيهما وما فيهما ، وفضلا عن هذا يزعمونها باطلا ، كلا لا يجعلهم اللّه سواء في الدنيا ولا في الآخرة "أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ" ما نهوا عنه الملازمين ما أمروا به لأن الخير كل الخير في التقوى وما أحسن ما قيل فيها :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقيّ هو السعيد

وتقوى اللّه خير الزاد ذخرا وعند اللّه للأتقى مزيد

وما لا بدّ أن يأتي قريب ولكنّ الذي يمضي بعيد

أي لا نجعل هؤلاء المتقين أبدا "كَالْفُجَّارِ 28" في الآخرة وان اتفقا في بعض الأشياء في الدنيا فبينهما في الآخرة بون شاسع ، فهذا التقي يكون في عليين ، وذلك الشقي في سجين ، وهذا منعم ، وذاك معذب "وأم" هذه والتي قبلها منقطعة وتقدر ب (بل) لأنها تفيد الإضراب والانتقال ، والهمزة لإنكار التسوية بين الفريقين وتعيينها على أبلغ وجه وهذا القرآن العظيم

هو "كِتابٌ" كثير البركة والخير "أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ" يا سيد الرسل "مُبارَكٌ" جليل النفع في الدنيا والآخرة فأمر قومك "لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ" فيعرفوا أسرار التكوين والتشريع منها "وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ 29" فيه بأنا لم ننزله إلا لهذه الغاية كما انا لم نخلقهم إلا للعبادة ونظير هذه الآية الآية 155 من الأنعام والآية 50 من الأنبياء في ج 2 .

(107/657)

قال تعالى "وَوَهَبْنا لِداوُدَ" زيادة على نعمنا السابقة "سُلَيْمانَ" خلفا له في نبوته وملكه ونعم الهبة الولد الصالح وهو "نِعْمَ الْعَبْدُ" المخصوص بالمدح هو سليمان عليه السلام وبعض المفسرين جعل المخصوص بالمدح داود وهو أهل للمدح إلا أن القول به غير سديد لأن سياق الآية ينفيه ، وما بعده لا يقتضيه ، لأن عود الاختصاص لا قرب مذكور هو المشهور ، وإن اللّه مدح داود قبل ، وإن قوله "إِنَّهُ أَوَّابٌ 30" يصلح رجوعه إلى كل منهما وإن كانت بحسب الواقع تنصرف للقريب أيضا ، ومعناه كثير الرجوع إلى ربه بالتوبة والندم الذي ديدنه الالتجاء

إلى فضل اللّه والخضوع لأمره ، وهو من أسماء المبالغة أي كل ما بدرت منه بادرة ، أو فرط منه شيء تاب منه واستغفر ربه عنه .

مطلب صلاة الأوّابين وقصة سليمان وفي حادثة السيد سليمان هذه شرعت صلاة الأوابين وهي من السنن في شريعتنا وتسمّى صلاة الغفلة ، لأن سيدنا سليمان غفل عن صلاة العصر بسبب اشتغاله باستعراض الخيل ، صلاها بعد المغرب ، مع أن المفروض عليه صلاة العصر ، فلما غفل عنها صلاها بعد المغرب وقبل العشاء وهو وقت غفلة . وأقلها ركعتان ، وغالبها ست وأكثرها عشرون كما في البيجوري علي ابن قاسم ، ونقل الطحطاوي عن شرح الوقاية لشيخي زاده أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال أفضل الصلوات عند اللّه المغرب ، لم يحطها عن مسافر ولا مقيم ، فتح اللّه بها صلاة الليل ، وختم بها صلاة النهار ، فمن صلّى بعد المغرب ركعتين بنى اللّه له قصرين في الجنة ، ومن صلّى بعدها أربعا غفر له ذنوب عشرين سنة ، وقال المنادي الصلاة بين العشاءين هي ناشئة الليل المنوه بها في الآية 6 من المزمل المارة .

وقال الغزالي إحياء ما بين العشاءين سنة مؤكدة ، ولهذا البحث صلة في الآية 25 من الإسراء الآتية فراجعها ،

(108/657)

و اذكر يا محمد لقومك قصة "إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ" على سليمان قولا واحدا متفق عليه "بِالْعَشِيِّ" هو من العصر إلى الليل "الصَّافِناتُ الْجِيادُ 31" سميت الخيل صافنات لأنها تصفن أي تقوم على ثلاث وطرف الرابعة وسميت جيادا لسرعة ركضها وجريها ، وما لم يكن كذلك فهي الكدش أي غير الأصيل من الخيل ، وبقي يستعرضها حتى غابت الشمس فقال "إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ" سميت الخيل خيرا لسبق الخير فيها لأنها آلة الجهاد ، قال تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ) الآية 60 من الأنفال في ج 3 .

وقال صلّى اللّه عليه وسلم الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة .

ومصداق هذا الحديث ظاهر لأنه مع احداث العجلات والسيارات والطيارات وغيرها لم يستغن عن الخيل ، أي آثرتها فأشغلتني "عَنْ ذِكْرِ رَبِّي" في صلاة العصر لأنها مكتوبة عليه ، وعلى أبيه قبله كتبت صلاة الظهر ، ولا زال يستعرضها "حَتَّى تَوارَتْ" الشمس "بِالْحِجابِ 32" أي غربت ولم تر .

وقيل الحجاب جبل دون جبل (ق) بمسيرة سنة تغرب الشمس وراءه وبعض أهل العصر يقولون : ق هو جبل القوقاز وسيقولون غير هذا إذا انكشف لهم غير ما اطلعوا عليه الآن من مكنونات اللّه تعالى القائل (وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) الآية 85 من الإسراء الآتية وعود الضمير إلى غير معهود إذا كان معلوما جائز .

راجع تفسير (إِنَّا أَنْزَلْناهُ) المارة لا سيما وذكر العشى قبله ولما رأى عليه السلام انه اخطأ بتمادي استعراضه لضياع صلاة العصر ، قال لحرسه "رُدُّوها عَلَيَّ" فردوا الخيل عليه "فَطَفِقَ" شرع يضربها "مَسْحاً" ضربا شديدا مبرحا "بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ 33" وكان ذلك جائزا في شريعته لأن فيها ، من يتسبب بالذنب يعاقب عليه كفاعله ، وهذا مخالف لشريعتنا لأن فيها (جناية العجماء جبار) وجاء في التنزيل (وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى) الآية 38 من النجم المارة ومثلها في الآية 18 من سورة فاطر والآية 15 من الإسراء الآتية ، وفي الآية 162 من الأنعام ، والآية 7 من الزّمر في ج 2 .

وكان في شريعته يجوز أكل لحم الخيل فلا تترك بعد قتلها عبثا ، ولأنه يعتبر أن قتلها كفارة لما فرط منه في شريعته ، وشكرا للّه حيث ردّ له الشمس وأدى صلاته على قول آخر ، مروي عن علي كرم اللّه وجهه ، وقد سبق أن ردت الشمس لسيدنا يوشع عليه السلام كما سيأتي بيانه وسببه في تفسير الآية 24 من سورة المائدة في ج 3 .

مطلب في رد الشمس لسيدنا محمد وغيره :

وقد صارت هذه المعجزة لسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم ايضا إذ ردت له الشمس

حينما شغله المشركون بحفر الخندق يوم الأحزاب ، وصلّى العصر ، وهي مشهورة متعارفة ، وردت لعلي كرم اللّه وجهه حينما نام المصطفى في حجره كما روى عن أسماء رضي اللّه عنها وروى الطبراني في معجمه بإسناد حسن ، كما حكاه شيخ الإسلام ابن العراقي في شرح التقريب ، ورواه ابن مردويه عن أبي هريرة ، وكان احمد بن صالح يقول لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء لأنه من علامات النبوة ، وفيه بالغ ابن الجوزي وابن تيمية في عدم صحته حتى عدّاه من الموضوع وهذا هو ديدنهما

(110/657)

رحمهما اللّه ، في كل ما كان من شأنه أن يعد كرامة أو خارقا للعادة ، على ان انكار هذا قد يؤدي إلى انكار انشقاق القمر وما وقع في الإسراء والمعراج وأن ما أورده من الطعن فيه هو ذاك لا غير فراجعه في أوائل سورة القمر المارة لينشرح صدرك وتتيقن مغالاة النافين له ، هذا وما جرينا عليه في تفسير هذه الآية أولى من التفسير بخلافه لأن ظاهر الآية يؤيده وسياق التنزيل يؤكده وهدف العقل يأبى غيره .

ثم ان بعض المفسرين أعاد ضمير (توارت) إلى الخيل وهو غير وجيه ، ولا يستحسن عود ضميرين إلى كلمة واحدة إذ يصير المعنى حتى توارت الخيل رودا على الخيل وان صاحب

هذا القول يعبّر عن الحجاب بالاصطبل ، قال الإمام الرازي في تفسيره :

احتاج سليمان عليه السلام إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وإجرائها أمامه حتى غابت الشمس عن بصره ، ثم أمر برد الخيل اليه ، وهو قوله تعالى (رُدُّوها عَلَيَّ) فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها تشريفا لها لكونها عونا في دفع العدو ، وليظهر للناس حيطته لسياسة الملك ، حتى انه يباشر هكذا أمرا بنفسه ، وانه عالم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، وقال هذا التفسير ينطبق على لفظ القرآن .

على ان مسح تأتي بمعنى ضرب في اللغة الفصحى وعليه يكون ما مشينا عليه من تأويل المسح بالضرب لا يخالف ظاهر القرآن الذي جعلناه أساسا في تفسيرنا هذا وبعض المفسرين أعاد ضمير (رُدُّوها) إلى الملائكة أي ردوا عليّ الشمس أيها الملائكة لأصلي العصر مستدلا بما جاء عن علي كرم اللّه وجهه أنه قال معنى ردوها علي يقوله للملائكة الموكلين بالشمس ردوها عليّ بأمر اللّه ، فردوها حتى صلّى العصر بوقتها ، على أنه لو كان لهذا القول صحة لقال سليمان لرب الملائكة لأنه أعلى رتبة منهم ، وأقدم عند ربهم فكان الأجدر أن يخاطب ربه لا الملائكة فضلا عن انه لم يسبق ذكر للملائكة حتى يعود الضمير إليهم .

مطلب قصة سليمان عليه السلام :

وقال القصاص والأخباريون : إن سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس وصلّى الظهر وقعد على كرسيه واستعرضها فعرض له تسعمائة رأس ثم تنبه لصلاة العصر عند غروب الشمس ، ولم يقدر أحد من رجاله أن يعلمه

بضيق الوقت لعظمة هيبته ، فاغتمّ لذلك ، وقال ردوها عليّ ، فصار يضرب سوقها وأعناقها بالسيف .

كفارة لما وقع منه ، وتقربا إلى اللّه تعالى وطلبا لمرضاته ، وإعلاما بأنها من حطام الدنيا ، وأن الدنيا لا قيمة لها عنده ، وان ذلك كان مباحا في شريعته ، وبقي منها مائة فرس ، وان جلّ ما في أيدي الناس من نسلها ، فأبدله اللّه خيرا منها إذ سخر له الريح وجعلها تحت أمره كما سيأتي .

وقد ذكرنا أن أقوال القصاص والأخباريين لا ننقلها ثقة بصحتها لأنهم مولعون بنقل كل غريب من غير تثبيت ، ولكن ننقلها على طريق الاستئناس أسوة بأكثر المفسرين للاطلاع عليه ، إذ قد يوافق نقلهم الواقع أحيانا كما هي الحال هنا من حيث المعنى على ما نرى ، ولا ننقل إلا المعقول منه شرعا ، وهذا مما يوافق ما جرينا عليه في التفسير قال تعالى :

"وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ" ابتليناه لنختبره كسائر الأنبياء الذين امتحناهم لنظهر له وللناس ما كان معلوما ومدونا في لوحنا من قصة "وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ" المختص بجلوسه للملك "جَسَداً" لا روح فيه "ثُمَّ أَنابَ 34" إلى ربه وندم على ما وقع منه ، وخلاصة قصته أنه ولد له ولد فقالت الشياطين لئن عاش لم ننفك عن الخدمة كما هي الحال في زمن أبيه ، وتآمروا على قتله ، فلما علم بذلك صار يغذيه في السماء خوفا عليه منهم فلم يحس إلا وقد ألقي ميتا على كرسيه فتنبه بأنه لم يتوكل على اللّه بشأنه ، فطلب مغفرة ربه فغفر له ، يؤيد هذا ما أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال قال عليه الصلاة والسلام قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل اللّه ولم يقل إن شاء اللّه ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا واحدة منهن جاءت بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع في حجره ، فو الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء اللّه لجاهدوا في سبيل اللّه فرسانا أجمعون ، وجاء مثله في صحيح البخاري عدا أربعين بدل سبعين وزيادة أن الملك قال له إن شاء اللّه فلم يقل ، فالشق هو الجسد الذي ألقي على كرسيه عقوبة له لأنه لم يستثن ، وفيه قال المعري :

خاف غدر الأنام فاستودع الريح سليلا تغذوه درّ العهاد

ومكسور له النجاة وقد يوقن أن الحمام بالمرصاد

مكسور به على جانب الكرسي أم اللهيم أخت الناد

(113/657)

أي الميتة الداهية ، والعهاد الأمطار المتتابعة ، وغاية ما وقع منه عليه السلام عدم الاستثناء وهذا عبارة عن خلاف الأولى وليس بذنب ، وإنما عده ذنبا لأن ترك الأفضل والأولى وما لا يعد ذنبا عند الغير ، وصغار الذنوب أيضا تعدها الأنبياء ذنوبا كبارا بالنسبة لمقامهم ، لأنه إذا كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فمن باب أولى أن تكون هذه من الكبائر عند الأنبياء والمرسلين ، ويحتمل أن هذا الشق هو الذي رباه بالسحاب على ما جاء في القصة ، أما ما ذكره وهب بن منبه من أنه أمر الشياطين أن تصور له أبا زوجته التي أصابها بالغزو في جزيرة حيدون وصارت هي وجواريها يسجدن عند غيابه حتى أخبره آصف بن برخيا بعد أربعين يوما ، ونسي أن شيطانا جاء إلى أم ولده أمينة بصورته وأخذ خاتمه منها وكان ملكه فيه وكان يضعه عندها إذا دخل الخلاء أو أتى إحدى نسائه ، وان ذلك الشيطان لبس الخاتم وجلس على كرسيه ، وان سليمان جاء إلى أمينة وطلب منها الخاتم فقالت لست بسليمان وقد أعطيته له ، وانه إذ ذاك عرف

خطيئته ، وصارت الناس تحثو عليه التراب كلما قال أنا سليمان ، وبقي أربعين يوما ينقل الحيتان لأهل السوق بالأجرة وهي مدة عبادة الصنم في بيته ، وأن آصف وعظماء بني إسرائيل أنكروا حاله في التشبيه وسألوا نساءه فقالوا مثل ذلك ، ولما علم الشيطان ذلك طار وطرح الخاتم في البحر فبلعته سمكة أعطاها الصيادون لسليمان عن أجرته فبقر بطنها ليشويها فوجد الخاتم فلبسه ووقع ساجدا للّه تعالى ورجع كما كان وغير هذا من الترهات كذب محض من أباطيل اليهود أهل الجحود الناقضين للعهود أهل كل شر في الوجود ، والعجيب كل العجيب كيف نقلوا هذه الحكاية السخيفة مع ما فيها من الطعن في عصمة الأنبياء المتفق عليها وعلى حصانة نسائهم الطاهرات ، قال الحسن ما كان اللّه سبحانه ليسلط الشيطان على نساء نبيه صلّى اللّه عليه وسلم ثم إنه عليه السلام سأل ربه المغفرة عما

(114/657)

وقع منه ، "قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي
لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ 35"

كثير العطاء غزير المن وهذا لا يقصد التفوق على غيره من الأنبياء لأن الملك يعطى للنبي

وغيره بل يقصد المعجزة الخارقة للعادة لان ملكه إذا لم يكن بالغا المنتهى لم يكن معجزة خارقة وأنه عليه السلام أراد بدعوته هذه تخصيصه بشيء خاص كما خصص أباه من قبله بإلانة الحديد وغيرها ولم يكن حرصا على الدنيا والانغماسة فيها وانظر لقول المعري :

إذا عامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

(115/657)

و روى في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : ان عفريتا من الجن انفلت عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني اللّه منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان (في الآية المارة) فرددته خاسئا ، فيعلم من هذا أن اللّه تعالى أعطى حبيبه محمد صلّى اللّه عليه وسلم جميع معجزات الأنبياء أي في نوعها كلها وهو كذلك قال تعالى مجيبا لدعوته "فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً" لينة لا تزعج الراكب عليها فتعدمه الراحة إتماما للنعمة فتوصله "حَيْثُ أَصابَ 36" قعد وأراد في الامكنة التي يرومها دون انزعاج "و"

سخرنا له أيضا "الشَّيَاطِينَ" جميعهم ثم خص منهم على طريق البدلية "كُلَّ بَنَّاءٍ" يبتون له ما يشاء من محاريب وقصور "وَ" سخرنا أيضا منهم "كلّ غَوَّاصٍ 37" ماهر في غوص البحار ليخرجوا له الدر واللؤلؤ وغيره "وَآخَرِينَ" من الجن المسخرين تركهم "مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ 38" والاغلال بالقيود والجوامع ، ومنها الأغلال التي توضع بالأعناق ، لان الجوامع لليدين والاغلال لها والرأس ويطلق الغل على العطاء لانه ارتباط للمنعم عليه قال علي كرم اللّه وجهه من برّك فقد أسرك ، ومن جفاك فقد أطلقك ، وقال غيره ، غل يدا مطلقها وفك رقبة معتقها ، قال أبو تمام :

همي معلقة عليك رقابها مغلولة إن العطاء إسار

وقال المتنبي :

وقيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

(116/657)

إلا أنهم فرقوا بين الفعل فقالوا صفده قيده وأصفده ، أعطاه عكس ، وعد وأوعد وقد صفد هذه الطائفة بأمر اللّه درأ لأذاهم الناس لعلمه تعالى أن ذاك ديدنهم قال تعالى "هذا" العطاء العظيم "عَطاؤُنا" أيها الناس فتعرضوا له نصبكم منه "فَامْنُنْ" به يا عبدنا سليمان

إلى من شئت وأحسن به على من أردت فهو غير نافد "أَوْ أَمْسِكْ" امنع من شئت منه من لا تريد إعطاءه وارفع رفدك عنه فأنت مخير بذلك مطلق الارادة "بِغَيْرِ حِسابٍ 39" عليك فيما تعطي وتمنع وهذه خصوصية له عليه السلام لانه يؤجر إن أعطى ولا يأثم إذا منع بخلاف غيره "وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا" نحن الإله العظيم المانّ عليه بما ذكر عدا ذلك "لَزُلْفى" قربة وكرامة "وَحُسْنَ مَآبٍ 40" في الآخرة وقد جمع له خيرهما وهو للآخرة أتوق لأنها دار راحة ونعيم دائم وفيها يقول المعري :

متى أنا للدار المريحة ضاعن فقد طال في دار الفناء مقامي

وقد ذقتها ما بين شهد وعلقم وخبرتها من صحة وسقام

وقال أبو العتاهية :

ألم تر ريب الدهر في كل ساعة له عارض فيه المنية تلمع

أيا باني الدنيا لغيرك تبتني ويا جامع الدنيا لغيرك تجمع

أرى المرء وثابا على كل فرحة وللمرء يوما لا محالة مصرع

هذا ومن عرف أن هذا حال الدنيا رغب عنها إلى الآخرة

قال تعالى "وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ" في معرض الأنبياء المبتلين أمثالك يا محمد "إِذْ نادى رَبَّهُ" لما اشتد به البلاء فقال يا رب "أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ" اتعاب كثيرة ومشقات "وَعَذابٍ 41" أضربي لا طاقة لي عليه يا رب فأعني فأجابه بقوله جل جلاله "ارْكُضْ" اضرب

الأرض "بِرِجْلِكَ" فضربها فنبعت ماء فقال له ربه "هذا" الماء لك منه "مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ 42" تشرب منه فاغتسل فذهب

(117/657)

ما فيه ظاهرا من آثار المرض ، وشرب فذهب ما فيه من آلامه الداخلية "وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ" أي مثل ما فقد له منهم من المال والولد "وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ" على سبيل التفضل "رَحْمَةً مِنَّا" وجزاء لصبره على ابتلائنا وثباته على عبادتنا "وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ 43" العقول السليمة والبصائر الحاذقة ، ليعلموا أن من صبر على بلائي ولم يضجر وشكر نعمائي ولم يفرح ، أعامله معاملة أخصّائي ، ثم بين له المخرج من صلفه كما سيأتي في القصة بعد مفصلة في الآية 84 من الأنبياء في ج 2 ، وكذلك قصص الأنبياء الآتي ذكرهم فراجعها ، ثم قال له "وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً" حزمة حشيش صغيرة بملء اليد .

"فَاضْرِبْ بِهِ" امرأتك التي حلفت عليها أن تجلدها "وَلا تَحْنَثْ" بيمينك لأن البرّ به واجب .

مطلب التخفيف وكفارة اليمين بحيلة في محله الملائم :

وقد حلل اللّه يمينه بأهون شيء عليه وعليها شكرا لصبرها عليه مدة مرضه الحكم

الشرعي اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده مائة سوط فجمعها بيده وضربه بها ضربة واحدة ، فقال مالك والليث بن سعد وأحمد لا يبرّ ، وقال مجاهد : هذا خاصّ بأيوب عليه السلام .

وقال أبو حنيفة والشافعي : إذا ضربه بها ضربة واحدة فأصابه كل سوط على حدة فقد برّ بيمينه ، استدلالا بهذه الآية .

وقال ابن عباس وعطاء ابن أبي رباح إنه يبرّ مطلقا بقطع النظر عن خصوص السبب .

وهذا هو الأوفق بالقاعدة وهي العبرة للعام ما لم يقيّد ، وهذا إذا استوعبت يد الضارب المائة سوط لا المائة قصلة من الحشيش لأنها خاصة ولا يسقط بها الحنث ، ويشترط ان يصيب جسد المضروب كل واحد منها وإلا لا ، وسنأتي على بحث كفارة اليمين وما يتعلق بها في الآية 92 من المائدة في ج 3 .

(118/657)

قال تعالى مبينا سبب إعطائه ضعفي أهله رماله وولده وتخفيف الكفارة عليه بقوله "إِنَّا وَجَدْنَاهُ صابِراً" على بلائنا ولم يشك منه ولم يضجر ولم يتوسل بغيرنا على كشفه ولذلك أجبنا دعوته وزدناه على ما طلب لأنه أظهر لعدوه إبليس وللناس أنه يعبدنا لذاتنا لا للمال

والولد والأهل وغيرها ، وإنما أفتيناه بتخفيف الكفارة لأنه حلف عليها من أجلنا بسبب المحنة

التي قدرناها عليه "نِعْمَ الْعَبْدُ" أيوب الصابر الشاكر "إِنَّهُ أَوَّابٌ 44" رجاع إلينا كثير الأيادي على غيرنا "وَاذْكُرْ" يا أكمل الرسل "عِبادَنا" الصابرين الشاكرين أمثال أيوب "إِبْراهِيمَ" إذ امتحناه بإلقائه بالنار واختبرنا وفاءه بالعهد حينما ألقي فيها ، إذ جاءه جبريل ليغيثه فقال : إني عاهدت ربي أن لا أسأل غيره .

(119/657)

وقد قال له سله ليكشف عنك فقال : علمه بحالي يغني عن سؤالي "وَإِسْحاقَ" إذ ابتلي بالذبح وهذا على القول بأنه هو الذبيح وليس بشيء كما سنبينه في الآية 88 من يوسف في ج 2 ولعله ابتلي ببلاء آخر لم نعلمه أو بما كان على أبيه وأخيه إسماعيل عليهم السلام "و يعقوب" إذ ابتلي بفقد ولده وغشاوة بصره من البكاء عليه "أُولِي الْأَيْدِي" القوة العاملة على الطاعة والعبادة والجهاد والصبر على المصائب وعدم الاستعانة بغير اللّه ، وفي هذه الآية تنديد على أولي البطالة والكسالى بأمر الدين والدنيا لأن اللّه يبغض العبد البطال وكتبت الأيدي بالياء ويجوز حذفها بلا حاذف كياء (يسر) في الآية 4 من الفجر المارة وقوله

"وَالْأَبْصارِ 45" جمع بصيرة لا جمع بصر لأن البصيرة تجمع على أبصار وبصائر والمراد بها هنا والله أعلم القوة العالمية والمعرفة الحاذقة اللتين يصدر عنهما معرفة الله والعلم بخصائص مكوناته فهؤلاء وأمثالهم "إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ" لعبادتنا "بِخالِصَةٍ" أي خصلة خالصة لا شوب فيها "ذِكْرَى الدَّارِ 46" الدائمة وهي الآخرة أي اصطفيناهم ليذكروا الناس في الآخرة فيعملوا لها يزهدوهم في الدنيا لئلا يتوغلوا فيها "وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا" بسبب صبرهم وشكرهم وتفاديهم في سبيلنا وقيامهم بأوامرنا "لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ 47" المصفّين من الأدناس المختارين من جنسهم "وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ" المبتلين الصابرين أيضا "وكلّ" منهم عندنا "مِنَ الْأَخْيارِ 48" إذ كل منهم امتحن واختبر فرضي وشكر وسنأتي على قصة كل منهم بانفراده عند ذكره إن شاء الله كي لا تتكرر وقد عدد الله تعالى جمعا من رسله المصابين بالبلاء بأجسادهم وأهلهم ومن قومهم تسلية لحضرة محمد صلّى الله عليه وسلم وتشجيعا له على تحمل أذى قومه وجفاهم له والصبر على سوء أخلاقهم معه إرشادا لأن يسلك

طريقهم ويقتفي أثرهم ويفكر بما كان على

هؤلاء الأبرار من أقوامهم الفجار ، وكيفية نصرهم عليهم بالوقت الذي قدره ، لا الذي أرادوه ، وانه سينصره عليهم بالوقت المقدر لذلك في علمه الأزلي .

قال تعالى : (فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) الآية 85 من مريم الآتية قال تعالى :

"هذا" الذي نتلوه عليك يا محمد "ذِكْرُ" عظيم شريف جميل يذكر فيه هؤلاء الأنبياء الأبرار مدى الدنيا "وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ" هؤلاء وأمثالهم في الآخرة "لَحُسْنَ مَآبٍ 49" مأوى جليل ومرجع كريم هو "جَنَّاتِ عَدْنٍ" خالدة وحينما يأتونها يرونها "مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ 50" حيث تتقدمهم الملائكة فتفتحها لهم زيادة في إكرامهم لا يكلفون فتحها بأيديهم ومفتحة هنا واقعة حالا كالواو في قوله تعالى :

(وَفُتِحَتْ أَبْوابُها) الآية 73 من الزمر في ج 2 فإنها واو الحال ولهذا البحث صلة في تفسير هذه الآية ، هناك يجلسون في تلك الجنان حالة كونهم

(121/657)

"مُتَّكِئِينَ فِيها" على الأرائك الطرية القوية زيادة في البسط والتنعم "يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ" متنوعة مختلفة بالطعم واللون والشكل والرائحة "وَشَرابٍ 51" كثير يحضر لهم معها وحذفت كلمة كثير هنا لدلالة الأولى عليها راجع الآية 17 من ق المارة تجد الشاهد

والمثل "وَعِنْدَهُمْ" مع ذلك النعيم العظيم بنات أبكار "قاصِراتُ الطَّرْفِ" على كل منهم دون غيره فكل زوجة مقصور نظرها على زوجها فقط ، وفي تمام السرور أنهن "أَتْرابٌ 52" متساوين في السن والحسن والخلق والخلق وكل منهم يتحقق أن زوجته لا مثيل لها وكذلك الزوجة "هذا" الذي أعددناه لكم في الدار الآخرة أيها المتقون هو "ما تُوعَدُونَ" به في كتبنا على لسان رسلنا مهيا لكم "لِيَوْمِ الْحِسابِ 5" والجزاء على الأعمال "إِنَّ هذا" كله وأضعافه معه "لَرِزْقُنا" الذي قدرناه لكم جزاء أعمالكم "ما لَهُ مِنْ نَفادٍ 54" دائم أبدا إذا أخذت منه شيئا صار مثله مكانه لا ينقص أبدا فهو باق كالدار الآخرة باقية لا نفاد لها ولا يتطرق لما فيها تغيير أو تبديل بخلاف ما في الدنيا فإنه معرض لذلك وللفناء مثلها "هذا" الأمر الذي ذكرناه لمن ذكرنا من عبادنا الخاشعين الخاضعين لأوامرنا ، وفي هذه الاشارة تنبيه على هول ما قاله تعالى بعدها وهو

"وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ 55" مرجع قبيح ومصير مخزي ومأوى مخجل ، وهذا بمقابلة ما للمتقين .

(122/657)

ثم بين ذلك المآب بقوله : "جهنم" يجوز أن تكون بدلا من المآب أو عطف بيان وهي منصوبة على الذم "يَصْلَوْنَهَا" يحرقون فيها حرقا فظيعا "فَبِئْسَ الْمِهَادُ 56" جهنم المخصوصة بالذم فهي شر الفراش أعاذنا اللّه منها "هذا" العذاب الأليم "فَلْيَذُوقُوهُ" الطغاة أعداء اللّه فهو "حَمِيمٌ" ماء شديد الغليان "وَغَسَّاقٌ 57" ماء آخر شديد البرودة يؤذي كالشديد الحرارة ، ألم تر أيها القارئ فعل البرد في الزرع كيف يصيره أسود كأنه محروق بالنار لا بالحر الشديد لأنه يسوده بل ييبسه فقط وقد تصيبه سمرة راجع الآية 5 من الأعلى المارة قال تعالى : "وَآخَرُ" نوع وجنس آخر من العذاب "مِنْ شَكْلِهِ" أي الحميم والغساق "أَزْوَاجٌ 58" كثيرة وأضعاف متنوعة ثم يقال للقادة والرؤساء إذا أدخلوا النار وجاءت الزبانية بأتباعهم وزجوهم فيها معهم "هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ" العذاب أيضا كما اقتحموا أسبابه معكم في الدنيا ، أي هؤلاء أتباعكم الضلال فيقولون "لا مَرْحَباً بِهِمْ" ضاقت الدار بهم لا وسعت وهذا على ما تعورف عند العرب إذ يقولون للقادم مرحبا أي دارنا رحبة واسعة بمقدمك ، وأهلا أي نزلت على أهلك ، وسهلا أي ما تطلبه يسر علينا إنفاذه هذا إذا كان خيرا وإذا كان شرا فبالعكس ، كما هنا ، ويقولون "إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ 59" مثلنا فيردون عليهم بقولهم : "قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ" لأنكم رؤساؤنا بالكفر والشرك والضلال والإضلال لأنكم "أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ" أي العذاب المذكور "لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ 60" الذي أوصلتمونا اليه ثم يبادرون بالدعاء عليهم إذ لم تنفعهم المخاصمة

(123/657)

"قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا" العذاب الأليم أي تسبب به "فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ 61"
لضلالهم أنفسهم وإضلالهم إيانا "وَقالُوا" أي الرؤساء والقادة الطغاة بعضهم لبعض ،
الأولون والآخرون ، ومنهم بغاة قريش "ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ 62" في
الدنيا يعنون بذلك أتباع الرسل إذ كانوا يسمونهم في الدنيا أشرارا قال قوم هود لهود عليه
السلام (ما نَراكَ اتَّبَعَكَ ت (21)

(124/657)

إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا) الآية 27 من ج 2 وقال قوم محمد لمحمد عليه الصلاة والسلام أنؤمن
كما آمن السفهاء الآية 13 من البقرة حتى ان قريشا لم ترض بمجالسة فقراء المسلمين كما
سيأتي في الآية 51 من الأنعام والآية 27 من الكهف في ج 2 وقالوا أيضا "أَتَّخَذْناهُمْ
سِخْرِيًّا" بهمزة الاستفهام أسقطت معها همزة الوصل أي ما لهم لم يدخلوا معنا النار وكنا
نسخر منهم في الدنيا ولا نرضى مجالستهم ، سموهم أشرارا لكونهم على خلاف دينهم ،

وأراذل لأنهم فقراء "أم" أنهم موجودون ولكن "زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ 63" فلم ترهم لكثرة أهل النار ، واعلموا أيها الناس "إِنَّ ذِلكَ" الأخذ والردبين التابعين والمتبوعين "لحق" واقع لأنه "تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ 64" في النار كائن لا مرية فيه وهذا التشاحن بين العابدين والمعبودين والضالين والمضلين لا محالة صائر بينهم في بعض مواقف القيامة راجع الآية 35 من المرسلات المارة والآية 21 من ابراهيم في ج 2 والآية 166 من البقرة في ج 3 "قُلْ" يا سيد الرسل لمشركي قومك "إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ" لكم من هذا المصير السيء "وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ 65" لكل شيء وان ما تزعمونه من الآلهة كلها مخلوقة للّه ومقهورة له لا تملك من خلقه شيئا ولا لنفسها نفعا وان إلهي "رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ" الغالب الذي لا يمتنع عنه شيء "الْغَفَّارُ 66" لمن رجع اليه نادما من ضلاله وأن عظمت ذنوبه كرما منه لأنه واسع المغفرة .

قال الأبوصيري :

يا نفس لا تقنطي من زلة عظمت إن الكبائر في الغفران كاللمم .

أي إذا أراد غفرانها راجع الآية 52 من سورة الزمر في ج 2 "قُلْ" يا أكمل الرسل لقومك ان هذا الذي أنبأتكم به من حالتي أهل الجنة والنار وكوني رسولا منذرا بأن الإله واحد وأن القرآن منزل من لدنه وأن شركاءكم لا يغنون عنكم من اللّه شيئا "هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ 67" قدره ، جليل أمره ، ولكنكم "أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ 68" مع أنه لا يغفل عنه ويجب الانتباه له والتمسك به وأن اللّه تعالى أنزله إليّ لأقصه عليكم والا أنا "ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ" أبدا "بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ 69" لأني لم اقرأ الكتب القديمة ولا أحسن الكتابة لأنقلها إليكم وأن جميع ما قرأته لكم من الآيات وما سأتلوه عليكم بعد ليس من نفسي "إِنْ يُوحى إِلَيَّ" أي ما علمته إلا بوحي إليّ من اللّه "إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ" لكم من عذاب اللّه وبشير لكم بما عنده للمؤمنين "مُبِينٌ" ما يأمرني به ربي وشارح لكم عاقبة أمره معكم وكلما أذكره لكم عن الملأ الأعلى وعن أحوال الدنيا والآخرة ما هو من تلقاء نفسي ، إنما هو بوحي منه ، وأراد بالملأ الأعلى الملائكة وبالخصومة هو ما وقع بينهم وبين آدم عليه السلام مما قصه قبل وما يقصه بعد من اعتراضهم على خلافته كما سيأتي في الآية 30 من البقرة في ج 3 .

قال تعالى .

واذكر يا محمد لقومك "إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ 71" لا من نور كالملائكة ولا من نار كالجن "فَإِذا سَوَّيْتُهُ" أتممت خلقه كما هو في علمي "وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي" أضاف الروح لنفسه المنزهة على سبيل التشريف اضافة ملك كبيت اللّه وناقة اللّه ، والروح جوهر لطيف يسري في بدن الإنسان سريان الضوء في الفضاء ، والنار في الفحم ، والماء في العود ، والشمس في الظل ، والرائحه في الماء ، أي إذا أفضت عليه ما يحيا به من الروح الطاهرة المقدسة الشريفة التي هي أمري وجعلته حيا حساسا متنفسا "فَقَعُوا لَهُ" حالا بلا توان "ساجِدِينَ" تعظيما له واحتراما لقدرتي حيث خلقته من تراب على غير مثال سابق وجعلته على أحسن صورة ، فلما سمعوا ما أمرهم به ربهم أجابوه فورا كما يدل عليه قوله : "فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ 73" لم يتخلف منهم أحد امتثالا لأمره "إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ" على ذلك المخلوق آدم عليه السلام الذي اصطفاه اللّه واجتباه أن يكون أبا لأكمل الخلائق وأحسنها "وَكانَ" هذا الخبيث بسبب امتناعه عن السجود "مِنَ الْكافِرِينَ 74" الملعونين المطرودين "قالَ" تعالى "يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ" على آدم الذي توليت خلقه بنفسي "أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ 75" المتفوقين عليه ، والعالون صنف من الملائكة المقربين كحملة العرش والروح ، قيل إن هؤلاء لم يؤمروا بالسجود

وإنما الأمر صدر من اللّه تعالى لعوام الملائكة ، فظن هذا الخبيث نفسه منهم فلم يسجد مع علمه أنه داخل فيمن أمر بالسجود ولهذا احتج وقال "أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ" فلا أسجد لمن هو دوني لانك "خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ 76" والنار على زعمه أشرف من الطين فيكون على ظنه أنه أفضل منه والفاضل لا يتواضع المفضول عادة ولم يعلم الخبيث خطأ قياسه الذي سنبينه في الآية 11 من الأعراف الآتية لأن النار مصيرها الرماد ولا ينتفع به والطين أصل كل نام من الحيوان والأشجار ، ولا شك أن من الأشجار ما هو مثمر ومن الحيوان الإنسان ، وكل منها خير من الرماد وإذا كان للنار خاصة الإحراق والضياء فللطين خواص كثيرة فلو فرض أن رجلا نسيبا مجردا من كل فضيلة وآخر غير نسيب جامع للفضائل كلها فهل يفضل ذلك عليه لمجرد نسبه كلا ، وكان على الخبيث أن يمتثل لمجرد الأمر من غير أن ينطرق للسبب وللمسجود له لما هو عليه من معرفة ربه على أن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع قال ابن الوردي :

إنما الورد من الشوك وما ينبت النرجس إلا من بصل

قد يسود المرء من غير أب وبحسن السبك قد ينفى الدغل

لكنه عليه اللعنة لم يكن هذا قصده ومغزاه وإنما أراد التكبر عليه لأنه يقول في نفسه قبل أن يصرح بما انتحله من السبب والعلة أنه لو فرض أنه خلق من النار ما سجدت له لأنه مثلي

فكيف وقد خلق من الطين ويريد التفوق علي فإني ان سجدت له صرت دونه ولا أرضى لنفسي الدون .

(128/657)

هذا وجاء لفظ أستكبرت بهمزة الاستفهام وأصلها بهمزة الوصل ولكن لما دخلت همزة الاستفهام حذفتها ويجوز بدون الاستفهام لدلالة (أم) التي أتت بعدها عليها "قال" تعالى تنفيذا لما هو في سابق علمه الأزلي أن يكون "فَاخْرُجْ مِنْها" أي الجنة ، وإنما رمز إليها بالضمير ولم يسبق لها ذكر لشهرة كونه من سكانها ، والمعلوم دائما يرمز إليه بالضمير كما بيناه في أول سورة القدر المارة وزاد في إخسائه بقوله : "فَإِنَّكَ رَجِيمٌ 77" طريد منها "وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ 78" الجزاء والحساب

(129/657)

و لا يقال ان غاية هذه اللعنة منتهية إلى يوم القيامة ، لأنه إذا كان مطرودا في أوان الرحمة الشاملة للمؤمن والكافر فلأن يكون مطرودا في غير أوانها يوم القيامة من باب أولى لأن

الرحمة فيها خاصة بالطائعين وكيف تنقطع وقال تعالى : (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) الآية 43 من الأعراف الآتية وعلى هذا فإن اللعنة باقية عليه في الدنيا فإذا كان يوم القيامة زيد له عليها من أجناس العذاب ما ينسيه إياها ويكون كأنها انقطعت عنه ، والرجيم في الآية الاولى محمول على الطرد من الجنة والمعنى في الآية الثانية محمول عن الطرد من الرحمة فلا تكرار فيهما ولما أيس الخبيث ورأى ان صورته تغيرت عما كانت عليه لظهور آثار غضب اللّه عليه حيث اسود جسمه وازرقت عيناه بعد أن كان يباهي الملائكة بخلقه وعرف ان لا يبدل قول اللّه ولا يتغير لفرط حذاقته التي استعملها بالخبث "قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي" أخرني ولا تمتني "إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ 79" يعني آدم وذريته ، وقد استمهل الملعون ليتمادى في البغي والطغيان وليجد فسحة للاضلال مع علمه ان لا سبيل للبقاء ليأخذ ثأره من آدم وذريته باغوائهم وعلى زعمه انه بإجابة دعوته ينجو من الموت لأنه لا يكون بعد البعث موت وهو امر معروف عند الملائكة وقد كان معهم كأنه منهم ولشدة مخالفته لهم علموا أنه منهم "قالَ" تعالى : "فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ 80" جمع الضمير مع عدم وجود منظر غيره لأن الذين يحضرون القيامة الاولى منظرون إليها بآجالهم فجعله منهم في هذه الحيثية ليس إلا وهذا الانظار

"إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ 81" للنفخة الأولى الموقت والمقدر لموت كافة الخلق اجمع ولما لم يفز الملعون ببغيته كما أراد صرح لربه عما في ضميره ، وهو أعلم به "قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ 82" آدم وذريته ولما عرف أنه لم يقدر على إغواء الجميع استثنى فقال "إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ 83" بفتح اللام اي الذين استخلصتهم لعبادتك وبكسرها أي المخلصين لك منهم ، أقسم الخبيث بسلطان اللّه وقهره على إغواء عامة الخلق اولا ، ثم استثنى منهم من لم يقدر على اغوائه والتوصل إليه لا لأجل إخلاصهم ، قاتله اللّه ما ألعنه "قَالَ" تعالى "فَالْحَقُّ"

أنا الإله القاهر "وَالْحَقَّ أَقُولُ 84" أقسم بذاته جلت وعلت وهذا أعظم قسم به "لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ" نفسك وذريتك وجنسك من الشياطين والجن والمردة "مِمَّنْ تَبِعَكَ" في الإغواء والضلالة والغواية والإضلال "مِنْهُمْ" من ذرية آدم الذين أقسمت على إغوائهم "أَجْمَعِينَ 85" توكيد للضميرين في منك ومنهم أي التابعين والمتبوعين .

وليعلم القارئ الفطن أن هذه القصة قد تكرر في سور أخرى كثيرة في القسم المكي والمدني ولكن يوجد في بعضها ما لا يوجد في الأخرى للايجاز ، وقد يكون فيها لفظان متحدان مآلا ، مختلفان لفظا رعاية للتفنن وقد يحمل الاختلاف على تعدد الصدور فيقال إنه أقسم مرة بعزة اللّه كما هنا وأخرى باغوائه كما في الأعراف الآتية في الآية 67 ، وقد يحمل الاختلاف

على اختلاف المقام كإثبات الفاء هنا في (فانظرني) وتركها في الأعراف وغيرها ، فالذي يجب اعتباره هو أصل المعنى ونفس المدلول ، وحيث أن مقام الحكاية اقتضى ذلك وهو ملاك الأمر ، فلا يخلّ تغير الألفاظ في أصل المعنى كما ترى ، وسنأتي على تفصيل القصة في الآية المذكورة من الأعراف إن شاء اللّه بأوضح من هذا .

(131/657)

قال تعالى يا محمد "قُلْ" لقومك ان ما أنذركم به عن اللّه واجب عليّ حتما تنفيذا لأمر اللّه به واثبه إليكم مجازا "ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ" ما أبدا ولا أطلب منكم جعلا البتة "وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ 86" المتعصّبين المتحلّين بما ليسوا من أهله ، ولا المتخلفين المتقولين من أنفسهم ، ولا من المدعين بما ليس عندهم حتى أنتحل لكم وأتقول بالقرآن والادعاء بالنبوة "إِنْ هُوَ" الذي أنذركم به ليس "إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ 87" أجمع ، أنزله اللّه عليّ لأذكركم به علّكم تتعظون بأوامره ونواهيه "و" إن لم تفعلوا وعزة ربي وجلاله "لَتَعْلَمُنَّ" يا قومي ويا أيها الناس أجمع "نَبَأَهُ" الصادق وخبره الحق اليقين "بَعْدَ حِينٍ 88" أي مطلق زمن معلوم عند اللّه لم يظهر لأحد ، إلا أن الآية تفيد أن من بقي حيا علم ذلك إذا ظهر أمره وعلا ، ومن يموت علمه بعد موته ، والكل يعلمه يوم القيامة حقا ، قال الحسن : عند الموت يأتيك الخبر اليقين .

أخرج ابن عدي عن ابي برزة

قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم : ألا أنبئكم باهل الجنة ، قلنا بلى يا رسول اللّه ، قال : هم الرحماء بينهم ، قال ألا أنبئكم بأهل النار ، قلنا بلى يا رسول اللّه قال : هم الآيسون القانطون الكذابون المتكلفون .

والمتكلف من ينازل من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم .

وروى البخاري ومسلم عن مسروق قال دخلنا على ابن مسعود فقال : يا أيها الناس من علم شيئًا فليقل ومن لم يعلم فليقل اللّه أعلم ، فإن من العلم أن تقول لما لا تعلم اللّه أعلم ، قال اللّه تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم (قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) الآية المارة ، فعلى العاقل ان يتعظ بما تضمنه هذا الخبر الكريم .

(132/657)

هذا ، وأستغفر اللّه ، واللّه أعلم ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه واتباعه ومن تبعهم بإحسان أجمعين إلى يوم الدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 297 . 327 ﴾

(133/657)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة ص

مكية

وتقدم الكلام على ص والواو بعدها للقسم ذي الذكر حسن وقال أبو عمرو كاف هذا إن جعل جواب القسم ص أخذت ص من إحدى صفات الله تعالى وتقديره القرآن ذي الذكر انه لصادق وان جعل ص قسما أيضا فجوابهما بل الذين كفروا أوكم اهلكا وتقديرهما بص وبالقرآن ذي الذكر إن الذين كفروا أوكم أهلكنا وعلى كل من الجوابين لا يوقف على ذي الذكر بل على وشقاق في الأول وهو حسن وعلى مناص في الثاني وهو كاف منذر منهم كاف ولا على كذاب لان ما بعده من تمامه عجاب حسن يراد صالح وان كان ما بعده من تمام الحكاية لانه رأس آية وكذا اختلاق من بيننا حسن عذاب كاف في الأسباب حسن من الأحزاب تام ذو الأوتاد صالح أولئك الأحزاب حسن وكذا عقاب فواق كاف الحساب حسن اصبر على ما يقولون تام ذا الأيد مفهوم انه أواب تام والإشراف كاف محشورة حسن أواب كاف الخطاب تام ففزع منهم كاف لا تخف حسن وقال أبو عمرو تام ويبتدئ خصمان بمعنى نحن خصمان الصراط حسن إن هذا أخي صالح عند وكذا له تسع وتسعون نعجة

وأصلح من ذلك ولي نعجة واحدة في الخطاب كاف إلى نعاجه حسن وعملوا الصالحات تام وقليل ما هم أتم منه وأناب كاف وكذا فغفرنا له ذلك والأخير أكفأها ومحل ذلك على الثاني مناه نصب أي فعلنا ذلك أو رفع أي الأمر ذلك أو ذلك أمره وحسن مآب تام وكذا عن سبيل الله ويوم الحساب باطلا كاف وكذا الذين كفروا ومن النار وكالفجار وأولو الألباب ولداود سليمان وبالحجاب والأعناق تام ثم أناب كاف وكذا الوهاب في الأصفاد حسن وكذا بغير حساب مآب تام عبدنا أيوب صالح وعذاب حسن وشراب كاف وكذا أولى الألباب ولا تحنث تام صابرا كاف انه أواب تام وكذا أولي الأيدي والإبصار ذكرى الدار حسن الإخبار تام وذا الكفل كاف وكذا هذا ذكر لحسن مآب رأس آية ولا يوقف عليه لان ما بعده بدل منه ولا على الأبواب لان حال مما قبله وشراب حسن وكذا أتراب وليوم الحساب لرزقنا كاف من نفاد تام ويجوز الوقف على هذا ومحله في الوقف عليه

(134/657)

والابتداء به نصب بمقدر كخذ أو رفع مبتدأ أو خبر المحذوف لشر مآب كاف ومنهم منهم من قال الوقف على جهنم وهو صالح فبئس المهاد كاف وكذا فليذوقوه إن جعل خبرا لهذا أو نصب هذا بفعل يفسره فليذوقوه ويكون حميم خبر مبتدأ محذوف فان رفع هذا مبتدأ

أخبره حميم فالوقف على غسان وهو كاف أزواج تام معكم كاف لأمر حبابهم صالح صالوا لنار حسن لأمر حبابكم صالح قدمتموه لنا كاف وكذا القرار وفي النار ومن الأشرار لمن قرا اتخذناهم بقطع الهمزة على الاستفهام لأنه استئناف تقدير أو من قرا بوصلها لم يقف على الأشرار لان اتخذناهم حينئذ نعت لقوله رجالا والجملة المعادلة لام محذوفة والقدير مفقودون أم زاغت منهم الابصار تام على الوجهين تخاصم أهل النار تام انا منذر جائز الغفار تام نبأ عظيم جائز معرضون حسن يختصمون كاف مبين حسن ساجدين كاف الا إبليس صالح من الكافرين كاف وكذا بيدي ومن العالين ومن طين ويم الدين ويوم يبعثون والمعلوم والمخلصين فالحق كاف لمن قراه بالرفع بتقدير فأنا الحق أو فالحق مني وليس بوقف لمن قراه بالنصب بأقول أجمعين تام من المتكلفين كاف للعالمين جائز آخر السورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ 654.662 ﴾

(135/657)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة صَ

مكية كلمها سبعمائة واثنتان وثلاثون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف وتسع وستون حرفاً وآيها

خمس أو ست أو ثمان وثمانون آية تقدم الكلام على الحروف أوائل السور

ص الواو بهدها للقسم والقسم لابد له من جواب فإذا عرف الجواب عرف أين الوقف

قللعلماء في جوابه سبعة أوجه قيل جوابه ص كما يقال حقاً والله كذا فعلى هذا الوقف

على قوله ذي الذكر كاف وليس بوقف إن جعل جوابه إن ذلك لحق ومثله في عدم الوقف إن

جعل جوابه إن كل إلا كذب الرسل ومثله أيضاً في عدم الوقف إن جعل جوابه بل الذين

كفروا في عزة وشقاق والوقف على هذا على شقاق تام وقيل جوابه محذوف والتقدير

والقرآن ذي الذكر ما الأمر كما زعمه هؤلاء الكفار والوقف على هذا أيضاً على شقاق

وقيل جوابه كم أهلكنا والتقدير لكم أهلكنا فلما طال الكلام حذفت اللام والوقف على

هذا أيضاً من قرن وقيل جوابه إن هذا لرزقنا ماله من نفاد

سئل ابن عباس عن ص فقال كان بحراً بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار وفي

خبر إن موضع الكعبة كان غشاء على الماء قبل خلق الله السماء والأرض وقال سعيد بن

جبير بحر يحيي الله به الموتى بين النفختين وقرأ الحسن صاد بكسر الدال من المصاداة وهي

المعارضة يقال صاديت فلاناً وهو أمر من ذلك أي عارض القرآن بقلبك وقالبك فاعمل

بأوامره وانته بنواهيه وقرأ عيسى بن عمر صاد بفتح الدال لاجتماع الساكنين حركها

بأخف الحركات وقيل صاد محمد قلوب الخلق واستمالها حتى آمنوا به

فنادوا (جائز)

مناص (حسن)

منذر منهم (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده معطوفاً على ما قبله 0

كذاب (كاف) على استئناف الاستفهام وليس بوقف إن جعل متعلقاً بما قبله متصلاً به 0

واحداً (حسن)

عجاب (كاف)

(136/657)

منهم (حسن) إن جعلت أن بمعنى أي فكأنه قال أي امشوا وهو تفسير لما قبله متصل به من جهة المعنى وهذا قول سيبويه وليس بوقف إن جعل موضع إن نصباً بانطلق وعليه فلا يوقف على منهم

على آلهتكم (كاف)

يراد (جائز) لأنه رأس آية وما بعده من تمام الحكاية

الآخرة (حسن)

اختلاق (جائز) وإنما جاز هنا على يراد وإن لم تتم الحكاية لأنه آخر آية ولطول الكلام

من بيننا (حسن) للفصل مما قبلها ومعناها معنى بل كأنه قال بل أعندهم خزائن

الوهاب (كاف) إن جعلت أم منقطعة بمعنى ألف الاستفهام كالأولى وليس بوقف إن

جعلت عاطفة

وما بينهما (جائز) لتناهي الاستفهام

في الأسباب (كاف)

من الأحزاب (تام)

ذو الأوتاد ليس بوقف لأن وثمود معطوف على فرعون

الأيكة (حسن) إن جعل أؤلئك مبتدأ وليس بوقف إن جعل نعتاً

الأحزاب (تام) للابتداء بعد بالنفي وكذا عقاب

واحدة (حسن)

من فواق (كاف) فواق بفتح الفاء وضمها الزمان الذي ما بين رفع يدك عن ضرع الناقة

وردها وقيل هو ما بين –الحلبتين والمعنى زمن يسير يستريحون فيه من العذاب قرأ الأخوان

فواق بضم الفاء والباقون بفتحها

الحساب (كاف)

على ما يقولون (تام) عند أبي حاتم

ذا الأيد (حسن)

إنه أواب (تام)

والإشراق (كاف) ولو وصل بما بعد لم يحسن لأن معنى والطير محشورة أي مجموعة ولو أوقع تحشر موقع محشورة لم يحسن أيضاً لأن تحشر يدل على الحشر دفعة واحدة وذلك أبلغ في القدرة

محشورة (كاف) لأن الذي بعده مبتدأ

أواب (كاف)

الخطاب (تام)

نبأ الخصم ليس بوقف ومثله في عدم الوقف المحراب لأن الذي بعده ظرف في محل نصب بمحذوف تقديره وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا فالعامل في إذ تحاكم لما فيه من معنى الفعل وإذ في قوله إذ دخلوا بدل من إذا الأولى فلا يوقف على نبأ الخصم ولا على المحراب

ففزع منهم (حسن)

ولا تخف (أحسن منه) ولا يجمع بينهما

على بعض (حسن) ومثله ولا تشطط

الصراط (كاف)

إن هذا أخي (جائز) عند بعضهم فاسم الإشارة اسم ان وأخي خبرها ثم تبتدئ له تسع وتسعون نعجة وليس بوقف إن جعل هذا اسم إن وأخي بدلاً منه والخبر قوله تسع وتسعون نعجة مجموع الجملة والوقف على نعجة وهذا أولى وأحسن منهما نعجة واحدة ونعجة كناية عن المرأة وهي أم سليمان عليه السلام إمرأة أوريا قبل أن ينكحها داود عليه السلام أكفلنيها (كاف)

في الخطاب (أكفى) لأنه آخر قول الملك

إلى نعاجه (حسن)

على بعض ليس بوقف للاستثناء

الصالحات (كاف)

وقليل ما هم (تام) فقليل خبر مقدم وما زائدة وهم مبتدأ مؤخر أي وهم قليل ويجوز أن تكون ما مبتدأ وما بعدها خبراً والجملة خبر قليل قرأ العامة فتناه بالتشديد وقرأ قتادة بتخفيف النون أي حملاه على الفتنة وهي تروى عن أبي عمر وجعل الفعل للملكين وقراءة العامة الفعل لله

وأناب (كاف) ومثله فغفرنا له ذلك أي ذلك الذنب فيجوز في ذلك الرفع والنصب فالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي ذلك أمره أنشد سيبويه

وذاك إني على ضيفي لذو حدب أحنو عليه كما يحنى على الجار

بكسر إن بعد ذاك كما في قوله وإن له عندنا ولذلك ابتدأت بذلك ووصلته بما بعده وهذا

أي جعل ذلك منقطعاً مما قبله وجعله مبتدأ يحوج إلى أن يضمر لذلك مرجع وما لا يحوج أولى

وجعله في محل نصب من الكلام الأول أولى لأن فاء السببية ما بعدها مسبب عما قبلها

وقد يكون سابقاً عليها نحو أهلكناها فجاءها بأسنا ويكون المعنى غفرنا له ذلك الذنب

وحسن مآب (تام) على الوجهين

في الأرض ليس بوقف لمكان الفاء

بالحق (جائز)

الهوى ليس بوقف لأن قوله فيضلك منصوب لأنه جواب النهي

عن سبيل الله الأول (تام) عند نافع للابتداء بأن والثاني ليس بوقف لأن ما بعده خبر إن

الحساب (تام)

(138/657)

باطلاً (حسن) ومثله الذين كفروا للابتداء بالتهديد وكذا من النار لأن أم بمعنى ألف

الاستفهام والوقف على الفجار وأولو الألباب ولداود سليمان 0 ونعم العبد إنه أواب إن

نصب إذ بمضمر محذوف يعمل فيها غير أواب وتقديره اذكر إذ عرض عليه بالعشي كلها

حسان 0

وليس أواب بوقف إن علق إذ بما قبله 0

ومثله في عدم الوقف الجياد للعطف وكذا عن ذكر ربي لأن حتى متصلة بما قبلها فهي غاية

لقوله أحببت أي آثرت حب الخيل على الصلاة إلى أن توارت الشمس بالحجاب ويجوز أن

تكون للابتداء أي حتى إذا توارت بالحجاب قال ردوها عليّ

بالحجاب (كاف)

عليّ (جائز) لأن جواب فطفق محذوف كأنه قال فردوها فطفق يمسح مسحاً لأن خبر

هذه الأفعال لا يكون إلا مضارعاً في الأمر العام

والأعناق (كاف) قال ابن عباس مسحه بالسوق والأعناق لم يكن بالسيف بل بيديه تكريماً

لها قاله أبو حيان

ولقد فتنا سليمان (جائز)

ثم أناب (كاف) ومثله من بعدي للابتداء بإن وكذا الوهاب

حيث أصاب ليس بوقف لأن والشياطين معطوف على الريح ومثله في عدم الوقف غواص

لأن وآخرين منصوب بالعطف على كل بناء

في الأصفاد (كاف)

عطاؤنا (جائز)

بغير حساب (حسن)

مآب (تام)

عبدنا أيوب (جائز) إن نصب إذ بمقدر وليس بوقف إن جعل بدل اشتمال

وعذاب (كاف) ومثله برجلك لأن هذا مبتدأ

وشراب (حسن)

لأولي الألباب (كاف)

ولا تحنث (تام)

صابراً (حسن) ومثله نعم العبد

إنه أواب (تام) ومثله والأبصار

ذكر الدار (كاف)

الأخيار (تام)

وذا الكفل (كاف) وتام عند أبي حاتم والتنوين في كل عوض من محذوف تقديره وكلهم 0

(139/657)

الأخيار (كاف) ومثله هذا ذكر لما فرغ من ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ذكر نوعاً آخر وهو ذكر الجنة وأهلها فقال هذا ذكر وفصل به بين ما قبله وما بعده إيذاناً بأن القصة قد تمت وأخذ في أخرى وهذا عند علماء البديع يسمى تخلصاً وهو الخروج من غرض إلى غرض آخر مناسب للأول ويقرب منه الاقتضاب وهو الخروج من غرض إلى آخر لا يناسب الأول نحو هذا وإن للطاغين فهذا مبتدأ والخبر محذوف والواو بعده للاستئناف ثم يبتدئ وإن للطاغين ويجوز أن يكون هذا مفعولاً بفعل مقدر والواو بعده للعطف

لحسن مآب رأس آية ولا يوقف عليه لأن ما بعده بدل منه أي من حسن مآب كأنه قال وإن للمتقين جنات عدن ومثله في عدم الوقف الأبواب لأن متكئين حال مما قبله وإن نصب متكئين بعامل مقدر أي يتنعمون متكئين فهو حسن لأن الاتكاء لا يكون في حال فتح الأبواب 0

متكئين فيها (كاف) على استئناف ما بعده 0

وشراب (حسن) ومثله أتراب وكذا الحساب 0

ماله من نفاد (تام) وقيل الوقف على هذا بإضمار شيء أي هذا الذي وصفنا لمن آمن وأتقى وهكذا الحكم في قوله فبئس المهاد هذا أي الذي ذكرنا لمن كفر وطغى ثم يبتدئ فليذوقوه وإن جعل فليذوقوه خبراً لهذا أو نصب بفعل يفسره فليذوقوه أي فليذوقوا هذا فليذوقوه حسن الوقف على فليذوقوه ويكون قوله حميم وغساق ومن رفع هذا بالابتداء

وجعل حميم وغساق خبراً له لم يقف على فليذوقوه بل على غساق0

أزواج (حسن) ومثله معكم

لا مرحباً بهم (جائز)

صالوا النار (كاف)

لا مرحباً بكم (جائز)

قدمتموه لنا (حسن)

القرار (كاف) من قدم لنا هذا ليس بوقف لأن قوله فزده جواب الشرط

(140/657)

في النار (كاف) ومثله الأشرار لمن قرأ اتخذناهم بقطع همزة الاستفهام وبها قرأ نافع وابن كثير وعاصم وابن عامر وأم مردودة على الاستفهام وليس بوقف لمن وصل وحذف الاستفهام لأن اتخذناهم حينئذ صفة لرجالاً وهي قراءة أبي عمرو وحمزة والكسائي لأنه كله كلام واحد متصل بعضه ببعض وقوله أم زاغت مردود على ما لنا لا نرى رجالاً اتخذناهم سخرياً أزاغت عنهم أبصارنا وهم فيها فنفوا أوّلاً ما يدل على كونهم ليسوا معهم ثم جوزوا أن يكونوا معهم ولكن أبصارهم لم ترهم فأم منقطعة في الأول متصلة في الثاني

الأبصار (تام) على الوجهين

إن ذلك لحق ليس بوقف لأن قوله تخاصم بدل من الضمير في لحق وكذا إن جعل خبراً ثانياً

وإن جعل تخاصم خبر مبتدأ محذوف كان الوقف عليه تاماً

أهل النار (تام)

منذر (جائز)

وما من إله إلا الله ليس بوقف لأن قوله الواحد القهار نعتان لله فلا يفصل بين النعت والمنعوت

وإن جعل الواحد مبتدأ والقهار نعتاً له ورب السموات خبراً له حسن الوقف على إلا الله

وما بينهما (حسن) إن رفع ما بعده خبر مبتدأ محذوف أي هو العزيز وليس بوقف إن جعلا

نعتين لما قبلهما لما قبلهما

الغفار (تام)

نبأ عظيم (جائز)

معرضون (جائز)

بالملأ الأعلى ليس بوقف لأن ما بعده ظرف لما قبله

يختصمون (كاف) لأن أن بمعنى ما فكأنه قال ما يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين

ومبين (حسن) أن نصب إذ بمقدر وليس بوقف إن جعلت إذ بدلاً من إذ يختصمون

وحينئذ لا يوقف على شيء من قوله إذ يختصمون إلى هذا الموضع

من طين (جائز) ومثله ساجدين

أجمعون ليس بوقف للاستثناء

إلا إبليس (جائز) لأن المعرف لا يوصف بالجملة

الكافرين (كاف) ومثله بيديّ للابتداء بالاستفهام فالهمزة في استكبرت للتوبيخ دخلت

على همزة الوصل فحذفتها فلذلك يبتدأ بها مفتوحة

العالين (كاف)

منه (جائز) علل للخيرية بقوله لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين

ومن طين (كاف)

رجيم (جائز)

(141/657)

يوم الدين (كاف) ومثله يبعثون وكذا الوقت المعلوم و المخلصين

فالحق والحق قرئ بنصبهما ورفعهما ورفع الأول ونصب الثاني فأما من نصبهما فنصب

الأول بأقول والثاني بالعطف عليه والوقف على هذا على أقول وبذلك قرأ ابن كثير ونافع

وأبو عمرو والكسائي وابن عامر وأما من رفعهما فرفع الأول خبر مبتدأ محذوف أي فأنا

الحق ورفع الثاني بالعطف عليه وأقول صفة وحذفت الهاء من الصفة كما قال جرير

أبحت حمى تهامة بعد نجد وما شيء حميت بمستباح

أراد حميته وقرأ ابن عباس ومجاهد والأعمش برفعهما وقرأ الحسن بجرهما فجر الأول بواو القسم المقدرة أي فوالحق والحق عطف عليه وأقول معترض بين القسم وجوابه وأجمعين توكيداً للضمير في منك وعليها لا يوقف على الحق لأن لأملأن جواب القسم وأما رفع الأول ونصب الثاني فرفع الأول أما خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أي من الحق أو فالحق أنا أو مبتدأ خبره لأملأن قاله ابن عطية قال أبو حيان وهذا ليس بشيء لأن لأملأن جواب القسم وهي قراءة عاصم وحمزة وعليها يوقف على الحق الأول ونصب الثاني بأقول وليس الحق الأول بوقف لمن نصبه بأقول

أجمعين (كاف) ومثله المتكلفين

للعالمين (جائز)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 654.662 ﴾

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة ص :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قراءة أبي بن كعب والحسن وابن أبي إسحاق : "صَادِ" 1 ، بكسر الدال .

وقرأ : "صَادَ وَالْقُرْآن" – بفتح الدال – الثقفي .

قال أبو الفتح : المأثور عن الحسن أنه إنما كان يكسر الدال من "صاد" لأنه عنده أمر من المصاداة ، أي : عارض عملك بالقرآن .

قال أبو علي : هو فاعل من الصدى ، وهو يعارض الصوت في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة ، قال : وليس فيه أكثر من جعل "الواو" بمعنى الباء في غير القسم ، وقد يمكن أن تكون كسرة الدال [139ظ] لالتقاء الساكنين ، كما أن فتحها فتح لذلك ، وقد يجوز أن يكون من فتح جعل "صاد" علما للسورة ، فلم يصرف ، فالفتحة على هذا إعراب .

ومن ذلك قراءة السلمي : "لَشَيْءٌ عُجَاب" 2 .

قال أبو الفتح : قد كثر عنهم مجيء الصفة على فعيل وفعال – بالتخفيف – وفعال ، بالتشديد قالوا : رجل وضيء ووضاء ، وأنشدوا :

والمرء يلحقه بفتيان الندى خلق الكريم وليس بالوضاء 3

أي : ليس بالوضئ وقال :

نحن بذلنا دونها الضرابا إنا وجدنا ماءها طيابا 4

---

1 سورة ص : 1 .

2 سورة ص : 5 .

3 البيت لصدقة الديري . وانظر الخصائص : 3 : 266 ، واللسان "وضأ" .

4 رواه اللسان "طيب" ولم ينسبه ، وفيه "وجدنا" مكان "بذلنا" .

وقال :

جاءوا بصيد عجب من العجب أزيرق العين وطوال الذنب

ومثله : رجل كريم ، وكرام ، وكرام . وزادوا مبالغة فيه بإلحاق التاء ، فقالوا : كرامة .

والشواهد كثيرة ، إلا أنه كتاب سئلنا اختصاره ، لئلا يطول على كاتبه ، فأوجبت الحال الإجابة إلى ذلك .

ومن ذلك قراءة أبي رجاء وقتادة : "وَلَا تَشْطِط 1" ، بفتح التاء ، وضم الطاء .

قال أبو الفتح : يقال : شط يشط ، ويشط : إذا بعد ، وأشط : إذا أبعد . وعليه قراءة

العامة : ﴿ وَلَا تُشْطِط ﴾ ، أي : ولا تبعد ، وهو من الشط ، وهو الجانب ، فمعناه أخذ الجانب الشيء وترك وسطه وأقربه ، كما قيل : تجاوز ، وهو من الجيزة ، وهي جانب الوادي ، وكما قيل : تعدى ، وهو من عدوة الوادي ، أي : جانبه . قال عنترة :

شطت مزار العاشقين فأصبحت عسرا على طلابك ابنة مخرم2

أي : بعدت عن مزار العاشقين . وكما بالغ في ذكر استضراره خاطبها بذلك ؛ لأنه أبلغ فعدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ، فقال : "طلابك" ، فافهم ذلك ، فإنه ليس الغرض فيه وفي نحوه السعة في القول ، لكن تحت ذلك ونظيره أغراض من هذا النحو ، فتفطن لها .

ومن ذلك قراءة الحسن – بخلاف – : "تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً3" .

قال أبو الفتح : قد كثر عنهم مجيء الفعل والفعل على المعنى الواحد ، نحو البزر والبزر ، والنفط والنفط ، والسكر4 والسكر ، والحبر والحبر ، والسبر5 والسبر . فلا ينكر – على ذلك – "التسع" بمعنى التسع ، لاسيما وهي تجاور العشرة ، بفتح الفاء .

---

1 سورة ص : 22 .

2 يروى شطره الأول : حلت بأرض الزائرين فأصبحت .

والزائرين : الذين يزارون كالأسد . ويريد بهم أعداءه . والبيت من المعلقة . وانظر الديوان : والمعلقات السبع للزوزني : 126 .

3 سورة ص : 23 .

4 السكر : سد النهر .

5 السبر : من معانية الهيئة الحسنة .

(144/657)

ومن ذلك قراءة الحسن والأعرج : "نَعْجَة1" ، بكسر النون .

قال أبو الفتح : هذا أيضا كالذي قبله سواء ، وقد اعتقبت فعله وفعله على المعنى الواحد ، قالوا للعقاب : لقوة ولقوة ، وقوم شجعة وشجعة للشجعاء ، والمهنة والمهنة للخدمة ، وله نظائر . فكذلك تكون "النَّعْجَة" ، و"النَّعْجَة" ، ولم يمرر بنا الكسر إلا في هذه القراءة .

ومن ذلك قراءة أبي حيوة : " وَعَزَّنِي2" ، مخففة .

قال أبو الفتح : أصله "عزني" ، غير أنه خفف الكلمة بحذف الزاي الثانية أن الأولى ، كما حكاه ابن الأعرابي من قولهم : ظنت ذاك ، أي : ظننت ، وكقول أبي زبيد :

خلا أن العتاق من المطايا أَحَسْنَ به فهن إليه شوس3

وقالوا في مست : مست ، [140و] وفي ظللت : ظلت . وحكى أحمد بن يحيى الحذف في نحو ذلك من المكسور ، نحو شممت وبابه . وذلك كله على تشبيه المضاعف بالمعتل العين لكن "عزني" أغرب منه كله ، غير أنه مثله في أنه محذوف للتخفيف .

ومن ذلك قراءة عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" : "فَتَّنَّاه4" .

وقرأ : "فَتَّنَّاه" قتادة وأبو عمرو في قراءة عبد الوهاب5 وعلي بن نصر6 عنه .

قال أبو الفتح : أما "فتناه" ، بتشديد التاء والنون ففعلناه ، وهي للمبالغة . ولما دخلها معنى نبهناه ويقظناه جاءت على فعلناه ؛ انتحاء للمعنى المراد .

---

1 من الآية 23 السابقة .

2 من الآية السابقة أيضا .

3 انظر الصفحة 123 من الجزء الأول .

4 سورة ص : 24 .

5 هو عبد الوهاب بن عطاء بن مسلم أبو نصر الخفاف العجلي البصري ثم البغدادي ، ثقة مشهور . روى القراءة عن أبي عمرو وغيره . وروى الحروف عنه أحمد بن جبير وغيره ، وحدث عنه بالحروف محمد بن عمر الواقدي . مات ببغداد سنة 204 وقيل سنة ست أو سبع . طبقات القراء لابن الجزري : 1 : 479 .

6 هو علي بن نصر بن صهبان أبو الحسن الجهضمي البصري . روى القراءة عن أبي عمرو ابن العلاء وغيره . وروى عنه القراءة ابنه نصر بن علي وغيره . مات سنة 189 ، ويقال سنة ثمان . طبقات القراء لابن الجزري : 1 : 582 .

وأما "فَتَنَّاه" فإن المراد بالتثنية هما الملكان وهما الخصمان اللذان اختصما إليه ، أي : علم أنهما اختبراه ، فخبراه بما ركبه من التماسه امرأة صاحبه ، فاستغفر داود ربه .

ومن ذلك قراءة الحسن والثقفي والأعمش - بخلاف عنهم - : " أولى الْأَيْد 1 " ، بغير ياء .

قال أبو الفتح : يحتمل ذلك أمرين :

أحدهما أن أراد "بالأيد" : "بالأيدي" على قراءة العامة ، إلا أنه حذف الياء تخفيفا ، كما قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُر 2 ﴾ وغير ذلك مما حذفت فيه الياء تخفيفا .

والآخر أن يكون أراد : "بالأيد" : القوة ، أي : القوة في طاعة الله والعمل بما يرضيه . ألا تراه مقرونا بقوله : ﴿ وَالْأَبْصَار ﴾ ، أي : البصر بما يحظى عند الله ؟ . وعلى ذلك فـ"الأيدى" هنا إنما هي جمع اليد التي هي القوة ، لا التي هي الجارحة ولا النعمة ، لكنه كقولك : له يد في الطاعة ، وقدم في المتابعة . فالمعنيان إذا واحدن وهو البصيرة والنهضة في طاعة الله ، فهو إذا من قول لبيد :

حتى إذا ألقت يدا في كافر وأجن عورات الثغور ظلامها 3

ألا تراهم قالوا في تفسيره : بدأت في المغيب ؟ وأصله لثعلبة بن صغير المازني في قوله يصف

الظليم والنعامة وقد جدا في طلب بيضهما :

---

1 سورة ص : 45 .

2 سورة القمر : 6 .

3 قبله :

فعلوت مرتقبا على ذي هبوة حرج إلى أعلامهن قتامها

وبعده :

أسهلت وانتصبت كجذع منيفة جرداء يحصر دونها جرامها

ويروى "مرهوبة" مكان "ذي هبوة" . والهبوة : الغبار . والحرج : الضيق جدا . وضمير ألقت الشمس . والكافر : الليل . وأجن : ستر . وعورات الثغور : مواضع المخافة منها . وضمير انتصبت للفرس . ومنيفة : يريد نخلة منيفة ، أي : عالية . جرداء : انجرد سعفها . ويحصر : يضيق . وجرامها : جمع الجارم ، وهو الذي يجرم النخل ، أي : يقطع أحماله, يقول : علوت لحماية الحي مرتفعا ، فكنت ربيئة لهم على جبل قريب من الأعداء ولما اقبل الليل اتيت سهلا من الأرض ، وانتصبت فرسي كأن عنقها جذع نخلة ، جرداء تضيق صدور الذين يريدون قطع حملها لضعفهم عن ارتقائها . وانظر الديوان : 215 ، والمعلقات السبع : للزوزني : 111 .

فتذكر ثقلا رثيدا بعدما ألقت ذكاء يمينا في كافر 1

يعني بكافر الليل ، وهذا أبلغ معنى من قول لبيد . ألا تراه ذكر اليمين خصوصية ، وهي أشبه بالقوة ؛ لأنها أقوى من الشمال ؟ ولبيد اقتصر على ذكر اليد ، فقد تكون شمالا كما قد تكون يمينا . ومثله قول الشماخ :

تلقاها عرابة باليمين 2

أي : بالقوة . وإنما سميت القوة يمينا تشبيها لها بالجارحة اليمنى ، وإذا شبه العرض والجوهر فذلك تناه به ، وإعلاء منه . ولهذا ما ذم الطائي الكبير قلب ذلك ، فقال :

مودة ذهب أثمارها شبه وهمة جوهر معروفها عرض 3

ووصف بالجواهر لقوته ، كما وصف الآخر بالحديد لقوته ، فقال في أحد التأويلين :

بمنجرد قيد الأوابد هيكل 4

وعليه أيضا قال : "هيكل" ، فوصف بالاسم غير المماس للفعل ، لما في الهيكل من العلو والرحابة والشدة ، فاعرف ذلك مذهبا للقوم ، وانتحه تصب بإذن الله .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر : "إِنْ يُوحَى [140ظ] إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا 5" ، بكسر الألف .

---

1 الثقل : متاع السفر . ورثيد : من رثد المتاع نضده ، ووضع بعضه فوق بعض اللسان "كفر" .

2 صدره :

إذا ما رأيه رفعت لمجد

وعرابة : هو عرابة بن أوس القيظي . وانظر الخصائص : 3 : 249 ، والخزانة 1 : 450 ، والاشتقاق : 445 .

3 الطائي الكبير هو أبو تمام . والشبه : النحاس الأصفر ، وللشاعر قصيدة على روي البيت ووزنه ، ولكن لم نعثر عليه فيها .

4 لامرئ القيس من معلقته ، صدره :

وقد اغتدى والطير في وكناتها

اغتدى : أبكر . والوكنات : جمع الوكنة ، وهي عش الطائر . ومنجرد : ماض في سيره ، وقيل : هو القليل الشعر . والأوابد : الوحوش . والهيكل : الفرس الطويل ، وقيل : العظيم الجرم وانظر شرح المعلقات السبع للزوزني : 28 .

5 سورة ص : 70 .

قال أبو الفتح : هذا على الحكاية ، حتى كأنه قال : إن يوحى ، أي : إن يقال لي : إلا أنت نذير مبين .

فإن قيل : فإذا كان حكاية فقد كان يجب أن يرد اللفظ عينه ، وهو لم يقل له : أنا نذير مبين ، فهلا أعاده البتة ، فقال : إن يوحي إلا أنت نذير مبين ؟

قيل : هذا أراد ، إلا أنه إذا قال : إلا إنما أنا نذير مبين فكأنه قد قال : أنت نذير مبين ، ألا تراك تقول لصاحبك : أنت قلت : إنك شجاع ، فزدت الحرف ، وهو لم يقل : إنك شجاع ، وإنما قال : أنا شجاع . فلما أردت 1 قوله حاكيا له أوقت موقع "أنا" إنك .

وعله تحريف هذا الحرف الواحد من الجملة المحكية أنك مخاطب له ، فغلب لفظ الخطاب الحاضر اللفظ – المنقضي لقوة الحاضر على الغائب . هذا أيضا مع ارتفاع الشبهة والإشكال في أن الغرض بهما جميعا شيء واحد . ونحو من هذا في بعض الانحراف عن المحكي لدلالة عليه قول الشاعر :

تنادوا بالرحيل غدا وفي ترحالهم نفسي

أجاز لي فيه أبو علي بحلب سنة سبع وأربعين ثلاثة أضرب من الإعراب : بالرحيل ، والرحيل ، والرحيل : رفعا ، ونصبا ، وجرا .

فمن رفع أو نصب فقدر في الحكاية اللفظ المقول البتة فكأنه قالوا : الرحيل غدا ، والرحيل

غدا .

فأما الجر فعلى إعمال الباء فيه ، وهي معنى ما قالوه ، لكن حكيت منه قولك : غدا وحده ، وهو خبر المبتدأ وفي موضع رفع ، لأنه خبر المبتدأ .

ولا يكون ظرفا لقوله : تنادوا ؛ لأن الفعل الماضي لا يعمل في الزمان الآتي . وإذا قال : تنادوا بالرحيل غدا ، فنصب الرحيل فإن "غدا" يجوز أن يكون ظرفا لنفس الرحيل ، فكأنهم قالوا : أجمعنا الرحيل غدا ، ويجوز أن يكون ظرفا لفعل نصب الرحيل آخر ، أي : نحدث الرحيل غدا . فأما أن يكون ظرفا لتنادوا فمحال ، لما قدمنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحتسب حـ 2 صـ 228.234 ﴾

---

1 في ك : أوردت .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة ص

مكية وآيها ثمانون وخمس للجحدري وست حرمي وشامي وأيوب وثمان كوفي خلافها خمس آيات ذي الذكر كوفي وغواص غير بصري نبأ عظيم غير حمصي والحق أقول كوفي

وحمصي وأيوب مشبه الفاصلة أربعة من ذكرى وقوم نوح وعاد وقوم لوط لداوود سليمان القراآت سكت على ص أبو جعفر وعن الحسن صاد بكسر الدال لالتقاء الساكنين وقرأ القرآن بالنقل ابن كثير ووقف على لات بالهاء الكسائي على أصله في تاء التأنيث والباقون بالتاء للرسم

(149/657)

واتفقوا على كسر النون في ( ) أن امشوا (الآية 6 لعدم لزوم الضمة إذ الأصل امشيوا وسهل الثانية كالواو من ﴿ ءأنزل عليه) ﴾ الآية 8 مع الفصل بالألف قالون وأبو عمرو بخلف عنهما في الفصل وأبو جعفر وبلا فصل ورش وابن كثير ورويس واختلف عن هشام على ثلاثة أوجه الأول التحقيق مع المد من طريق الجمال عن الحلواني وأحد وجهي التيسير وبه قرأ مؤلفه على فارس يعني من طريق ابن عبدان عن الحلواني الثاني التسهيل مع المد وهو الثاني في التيسير وعليه جمهور المغاربة الثالث التحقيق مع القصر وعليه الجمهور وبه قرأ الباقون والثلاثة في الشاطبية كالطيبة ونظيره أءلقي بالقمر وأثبت الياء في عذاب أم و عقاب وما يعقوب وقرأ ﴿ ليكة) ﴾ بلام مفتوحة بلا ألف وصل قبلها ولا همز بعدها مع فتح التاء غير منصرف نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر والباقون الأيكة بلام التعريف كما

تقدم مبينا بالشعراء وسهل الأولى من هؤلاء إلا قالون والبزي وسهل الثانية ورش وابو جعفر ورويس بخلفه وللأزرق وجه ثان إبدالها من جنس ما قبلها ياء ساكنة مع المد للساكنين والوجهان لقنبل وله ثالث إسقاط الأولى وبه قرأ أبو عمرو ورويس في وجهه الثاني والباقون بالتحقيق واختلف في (فواق) الآية 15 فحمزة والكسائي وخلف بضم الفاء وهي لغة تميم وأسد وقيس وافقم الأعمش والباقون بفتحها لغة الحجاز وهو الزمان بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع ورقق الأزرق راء (والإشراق) الآية 18 بخلفه من أجل كسر حرف الاستعلاء وغلظ

(150/657)

الأزرق لام فصل وصلا واختلف عنه وقفا والأرجح التغليظ ويوقف على نبؤا على رسمه بالواو لحمزة وهشام بخلفه بإبدال الهمزة ألفا لانفتاح ما قبلها على القياس وبتخفيفها بحركة نفسها فتبدل واوا مضمومة ثم تسكن للوقف ويتحد معه وجه اتباع الرسم ويجوز الروم والإشمام فهذه أربعة والخامس تسهيلها كالواو وأدغم ذال إذ في التاء من إذ تسوروا وفي الدار من إذ دخلوا أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف لكن اختلف عن ابن ذكوان في إذ دخلوا فأدغمها من طريق الأخفش وأظهرها من طريق الصوري وأمال المحراب ابن

ذكوان من طريق النقاش عن الأخفش عنه وفتحها عنه الصوري وابن الأخرم عن الأخفش ورقق الراء الأزرق وعن الحسن ﴿ ولا تشاطط ﴾ بضم التاء وألف من المفاعلة والجمهور بغير ألف وسكون الشين والشطط مجاوزة الحد وقرأ (الصراط) الآية 22 بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وأشم الصاد زايا حمزة بخلف عن خلاد والإشمام له في الروضة لأبي علي وعليه جمهور العراقيين وعن الحسن تسع وتسعون بفتح التاء وهي لغة وفتح ياء الإضافة من ولي نعجة هشام بخلفه وحفص والوجهان صحيحان عن هشام كما في النشر وأدغم دال لقد ظلمك ورش وأبو عمرو وابن عامر بخلف عن هشام وحمزة والكسائي وخلف والإدغام لهشام في المستنير وغيره وفاقا لجمهور العراقيين وبعض المغاربة والإظهار له في الشاطبية كأصلها وفاقا لجمهور المغاربة وكثير من العراقيين وهو في المبهج وغيره عنه من طريقيه وعن الشنبوذي فتناه بتخفيف النون فالألف ضمير الخصمين واختلف في ليدبروا فأبو جعفر بالتاء من فوق وتخفيف الدال على حذف إحدى التاءين على الخلاف فيها أهي تاء المضارعة أم التالية لها والأصل لتتدبروا والباقون بياء الغيب وتشديد الدال والأصل ليتدبروا أدغمت التاء في الدال وفتح ياء إني أحببت نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر

وقرأ ﴿ (بالسؤق ﴾ الآية 33 بهمزة ساكنة بدل الواو قنبل وعنه أيضا زيادة واو ساكنة بعد الهمزة المضمومة وتقدم ما فيه بالنمل وفتح ياء بعدي إنك نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وقرأ (الريح) الآية 36 بالجمع أبو جعفر وسكن ياء مسني حمزة واختلف في (بنصب) فأبو جعفر بضم النون والصاد وقرأ يعقوب بفتحهما وافقه الحسن والباقون بضم النون وإسكان الصاد وكلها بمعنى واحد وهو التعب والمشقة وقرأ بكسر تنوين عذاب اركض أبو عمرو وقنبل وابن ذكوان بخلفهما وعاصم وحمزة وصلا وأجمعوا على ضم الهمزة في الابتداء واختلف في ( ) واذكر عبادنا إبراهيم ( ) الآية 45 فابن كثير ﴿ عبدنا ﴾ بغير ألف على التوحيد والمراد الجنس أو الخليل وإبراهيم بدل أو

عطف بيان وافقه ابن محيصن والباقون بالجمع على إرادة الثلاثة وإبراهيم وما عطف عليه بدل أو بيان وعن المطوعي أولي الأيد بغير ياء في الحالين اجتزاء عنها بالكسرة واختلف في ( ) بخالصة ذكرى ( ) الآية 46 فنافع والحلواني عن هشام وأبو جعفر بغير تنوين مضافا للبيان لأن الخالصة تكون ذكرى وغير ذكرى كما في بشهاب قبس ويجوز أن تكون مصدرا

كالعاقبة بمعنى الإخلاص وأضيف لفاعله أي بأن خلصت لهم ذكرى الدار الآخرة أو لمفعوله والفاعل محذوف أي بأن أخلصوا ذكرى الدار وتناسوا ذكرى الدنيا والباقون بالتنوين وعدم الإضافة وذكرى بدل فهو جر أي خصصناهم بذكر معادهم أو بأن يثنى عليهم في الدنيا وعلى جعل خالصة مصدرا يكون ذكرى منصوبا به أو خبرا لمحذوف أو منصوبا بأعني وبذلك قرأ الداجوني عن هشام وأمال ذكرى الدار وصلا السوسي بخلفه وأمال الدار و الأخبار أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه والدوري عن الكسائي وقللهما الأزرق وقرأ واليسع بتشديد اللام المفتوحة وإسكان الياء بعدها حمزة والكسائي وخلف وافقهم الأعمش والباقون بتخفيفها وفتح الياء ومر بالأنعام وقرأ متكين بحذف الهمزة أبو جعفر ووقف عليه حمزة كذلك وبالتسهيل كالياء واختلف في هذا ما توعدون هنا وق فابن كثير بالياء من تحت فيهما على الغيب وافقه ابن محيصن وقرأ أبو عمرو بالغيب هنا فقط وافقه اليزيدي والباقون بالخطاب فيهما وبه قرأ عمرو وفي ق وافقه اليزيدي واختلف فيه غساق هنا وفي النبأ فحفص وحمزة والكسائي وخلف بتشديد السين فيهما صفة كالضراب مبالغة لأن فعالا في الصفات أغلب منه في الأسماء فموصوفه محذوف وافقهم الأعمش والباقون بالتخفيف فيهما اسم لا صفة لأن فعالا مخففا في الأسماء كالعذاب أغلب منه في الصفات وهو الزمهرير أو صديد أهل النار أو القيح يسيل منهم فيسقونه وعن الحسن

عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى إذ الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثوابا في قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي الخ وأخفوا معصية

(153/657)

فأخفى لهم عقوبة

واختلف في (وآخر) الآية 58 فأبو عمرو ويعقوب بضم الهمزة مقصورة جمع أخرى كالكبرى والكبر لا ينصرف للعدل عن قياسه والوصف وهو مبتدأ ومن شكله في موضع الصفة وأزواج بمعنى أجناس خبرا وصفة والخبر محذوف أي لهم أو أزواج مبتدأ ومن شكله خبره والجملة خبر آخر وافقهما اليزيدي والباقون بالفتح والمد على الإفراد لا ينصرف أيضا للوزن الغالب والصفة

وأمال من الأشرار أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري والكسائي وخلف عن نفسه وقلله الأزرق وأما حمزة فعنه الإمالة الكبرى والصغرى من روايتيه وعنه الفتح من رواية خلاد ومر تفصيله في باب الإمالة كآل عمران

واختلف في (أتخذناهم) الآية 63 فأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب

وخلف بوصل الهمزة بما قبلها ويبتدأ لهم بكسر همزة على الخبر وتكون الجملة في محل

نصب صفة ثانية لرجالا وأم منقطعة أي بل أزاغت كقولك إنها لا بل أم شاء أي بل شاء وافقهم الأعمش واليزيدي والباقون بقطع الهمزة مفتوحة وصلا وابتداء على الاستفهام وأم متصلة لتقدم الهمزة وقرأ (سخريا) بضم السين نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف والباقون بكسرها وسبق مبينا بالمؤمنين ومر اتفاقهم على عدم إمالة زاغت وحكم الوقف لحمزة وهشام على نبؤ عظيم تقدم في نبؤ الخصم أول السورة وفتح ياء ما كان لي من حفص

(154/657)

واختلف في ( ) إلا أنما أنا ( ) الآية 70 فأبو جعفر بكسر الهمزة من ﴿ إنما ﴾ على الحكاية أي ما يوحى إلى إلا هذه الجملة والباقون بفتحها على أنها وما في حيزها نائب الفاعل أي ما يوحى إلى إلا الإنذار أي إلا كوني نذيرا مبينا ويحتمل أن يكون نصب أو جر بعد إسقاط لام العلة ونائب الفاعل حينئذ الجار والمجرور أي ما يوحى إلي إلا للإنذار وعن ابن محيصن ( ) بيدي أستكبرت ( ) بوصل الهمزة على الخبر أو حذفت همزة الاستفهام لدلالة أم عليها والجمهور بالقطع والفتح في الحالين استفهام إنكار وتوبيخ فأم متصلة عادلت الهمزة وافقهم ابن محيصن من المفردة ويبتدىء على القراءة الأولى بالكسر وفتح ياء ( ) لعنتي إلى ( ) نافع وأبو جعفر

وقرأ (المخلصين) الآية 83 بفتح اللام نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف ومر بيوسف

واختلف في ( ) قال فالحق ( ) الآية 84 فعاصم وحمزة وخلف بالرفع على الابتداء ولأملأن خبره أو مني أو قسمي أو يميني أو على الخبرية أي أنا الحق أو قولي الحق وعن المطوعي رفعهما فالأول على ما مر والثاني بالابتداء وخبره الجملة بعده على غير التقدير الأول وقولي أو نحوه عليه وحذف العائد على الأول كقراءة ابن عامر وكل وعد الله الحسنى والباقون بنصبهما فالأول إما مفعول مطلق أي أحق الحق أو مقسم به حذف منه حرف القسم فانتصب ولأملأن جواب القسم ويكون قوله والحق أقول معترضا أو على الإغراء أي الزموا الحق والثاني منصوب بأقول بعده وسهل الهمزة الثانية من لأملأن الأصبهاني ويوقف عليه لحمزة بتخفيف الأولى وتسهيلها مع تسهيل الثانية

(155/657)

المرسوم كتبوا أولي الأيدي بالياء وفي مصحف عثمان الخاص كما قال أبو عبيدة ولا تحين التاء متصلة بحين وباقي الرسوم بالفصل بل أنكر الأول واتفقوا على كتابة نبؤا عظيم بواو وألف وكذا نبؤا الخصم في بعض المصاحف ياءات الإضافة ست ( ) ولي نعجة ( ) الآية

23 ( ) إني أحببت (الآية 35 ( ) بعدي إنك ( ) الآية 35 ( ) لعنتي إلى ( ) الآية 78) لي من ( ) الآية 69 ( ) مسني الشيطان ( ) الآية 41 وزائد تان (عقاب) الآية 14 و (عذاب) الآية 8 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 476.479 ﴾

(156/657)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة ص "

" ص والقرآن " سكت أبو جعفر على ص سكتة خفيفة من غير تنفس ، ونقل المكي همزة القرآن إلى الراء كحمزة إن وقف .

" ولات حين " التاء مفصولة عن الحاء فيقف الكسائي بالهاء وغيره بالتاء .

" أن امشوا " اتفقوا على كسر النون وصلا لأن ضمة الشين عارضة .

" واصبروا " لشيء . الآخرة . الذكر . هؤلاء إلا . والطير . وفضل . تقدم كله غير مرة .

" ءأنزل " قرأ قالون وأبو جعفر بالتسهيل مع الإدخال وورش وابن كثير ورويس بالتسهيل من غير إدخال ، وأبو عمرو بالتسهيل مع الإدخال وتركه . ولهشام ثلاثة أوجه:

الأول: كقالون . والثاني: التحقيق مع الإدخال . والثالث: التحقيق بلا إدخال وهو قراءة

الباقين .

" عذاب ، وعقاب " أثبت الياء فيهما يعقوب في الحالين ، وحذفها غيره كذلك .

" وأصحاب الأيكة " حكمه حكم ما في سورة الشعراء .

" فواق " ضم الفاء الأخوان وخلف وفتحها غيرهم .

" والإشراق " فيه لورش التفخيم فقط لوجود حرف الاستعلاء بعده ، وهذا هو المقروء به من طريق الشاطبية .

" الخطاب " آخر الربع .

الممال

" أصطفى " عند الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . جاءهم لحمزة وخلف وابن ذكوان .

المدغم

" الصغير " ولقد سبقت للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " خزائن رحمة ، ولا إدغام في داود ذا لأن الدال مفتوحة بعد ساكن .

" نبؤا " رسمت الهمزة على واو ففيه لهشام وحمزة وقفا خمسة أوجه ذكرت مرات .

" المحراب " كثيرا . الصراط . ظلمك . ذكر . كثيرة . متكئين . لا يخفى كله .

" ولي نعجة " فتح الياء حفص وأسكنها غيره .

" بسؤال " فيه لورش ثلاثة البدل من غير إبدال الهمزة واوا ، وفيه لحمزة وقفا إبدالها واوا خالصة .

" فيضلك ، يضلون " لا خلاف بينهم في ضم الياء في الأول وفتحها في الثاني .

" ليدبروا " قرأ أبو جعفر بتاء فوقية بعد اللام ، مع تخفيف الدال وغيره بالياء التحتية وتشديد الدال .

(157/657)

" إني أحببت " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها سواهم .

" بالسوق " قرأ قنبل بهمزة ساكنة بعد السين ، وعنه كذلك بهمزة مضمومة بعد السين ، وبعدها واو ساكنة مدية ، والوجهان عنه صحيحان والباقون بغير همز .

" بعدي إنك " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم .

" الريح " قرأ أبو جعفر بالجمع وغيره بالإفراد .

" مسني الشيطان " قرأ حمزة بإسكان الياء وغيره بفتحها .

" بنصب " قرأ أبو جعفر بضم النون والصاد ويعقوب بفتحهما ، والباقون بضم النون وإسكان الصاد .

" وعذاب اركض " كسر التنوين وصلا ابن ذكوان والبصريان وعاصم وحمزة وضمه غيرهم .

" عبادنا إبراهيم " قرأ ابن كثير بفتح العين وإسكان الباء على الإفراد وغيره بكسر العين وفتح الباء وألف بعدها على الجميع .

" بخالصة " قرأ المدنيان وهشام بحذف التنوين والباقون بإثباته .

" ذكرى الدار " لورش في ذكرى حال الوصل ترقيق الراء على أصله . وقال السيد هاشم لورش في ذكرى الدار وصلا الترقيق والتفخيم ، والمختار الترقيق ، والعمل عليه وله حال الوقف التقليل قولا واحدا .

" واليسع " قرأ الأخوان وخلف بتشديد اللام مفتوحة مع إسكان الياء ، والباقون بإسكان اللام وفتح الياء .

" وشراب " آخر الربع .

الممال

" أتاك " وبغى والهوى ونادى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . المحراب لابن ذكوان بخلف عنه . نعجة وواحدة للكسائي قولا واحدا إن وقف . لزلفى معا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . وذكرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش ذكرى الدار عند الوقف على ذكرى بالإمالة للبصري والأصحاب وبالتقليل

لورش عند وصله بالدار فبالإمالة للسوسي بخلف عنه . وقد سبق أن ورشا يرقق الراء وصلا على الأرجح الناس لدوري البصري النار كالفجار والأبصار والدار والأخيار معا بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

المدغم

(158/657)

" الصغير " " إذ تسوروا " للبصري وهشام والأخوين وخلف ، إذ دخلوا للبصري والشامي والأخوين وخلف . لقد ظلمك لورش والبصري وابن ذكوان والأخوين وخلف ، اغفر لي للبصري بخلف عن الدوري .

" الكبير " " وتسعون نعجة " قال لقد ، فاستغفر ربه ، سليمان نعم ، ذكر ربي ، قال رب ، ولا إدغام في لداود سليمان لكون الدال مفتوحة بعد ساكن .

" توعدون " قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة وغيرهما بتاء الخطاب .

" يصلونها " فبئس . منذر ، نذير ، خير ، إلى ، بيدي ، المخلصين تقدم مثله مرات .

" وغساق " السين شددها حفص والأخوان وخلف وخففها سواهم .

" وآخر " قرأ البصريان ، بضم الهمزة والباقون بفتحها وألف بعدها .

" أتخذناهم " قرأ البصريان وخلف والأخوان بوصل الهمزة فيسقطونها في الدرج ويبتدئون بها مكسورة والباقون بهمزة قطع مفتوحة وصلا وابتداء .

" سخريا " ضم السين المدنيان والأخوان وخلف وكسرها سواهم .

" نبؤا " مثل نبؤا الخصم في أوجهه لهشام وحمزة .

" لي من علم " فتح الياء حفص وأسكنها غيره .

" إلا أنما " قرأ أبو جعفر بكسر همزة أنما والباقون بفتحها .

" لعنتي إلى " فتح الياء المدنيان وأسكنها غيرهما .

" فالحق " قرأ عاصم وخلف وحمزة برفع القاف والباقون بنصبها ولا خلاف بينهم في نصب والحق .

" لأملأن " فيه لحمزة وقفا تحقيق الأولى وتسهيلها وعلى كل تسهيل الثانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 277 . 280 ﴾

(159/657)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة ص

قوله تعالى ﴿ ما لها من فواق ﴾ يقرأ بضم الفاء وفتحها

فقيل هما لغتان بمعنى واحد وقيل من ضم أراد قدر ما بين الحلبتين للناقة ومن فتح أراد من راحة

قوله تعالى ﴿ بالسوق ﴾ إسكان الواو إجماع إلا ما روي عن ابن كثير من الهمز وقد ذكر آنفا

قوله تعالى ﴿ بنصب ﴾ أجمع القراء على ضم النون إلا ما رواه حفص عن عاصم بالفتح وهما لغتان معناهما ما يصيب البدن من تعب الضر وألم الوجع ومعنى العذاب ها هنا ذهاب المال والولد

فإن قيل ما وجه مدحه بالصبر وقد شكا بهذا القول فقل إن شكواه ها هنا على طريق الاستغاثة بالله والسؤال له وإنما وجه الذم أن يشكو إلى مخلوق مثله لا يملك له ضرا ولا نفعا ودليل ذلك قول يعقوب عليه السلام ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ لأن كل غني فقير إليه وكل قوي ضعيف لديه ولم يعط أحد الاسترجاع عند المصائب إلا نبينا صلى الله عليه وسلم وأمته ودليل ذلك قول يعقوب لما تولى عن أولاده ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾

قوله تعالى ﴿ ولي نعجة واحدة ﴾ إسكان الياء إجماع إلا ما رواه حفص عن عاصم بالفتح لقلة الاسم وكذلك قوله وعزني بالتشديد إجماع إلا ما رواه أيضا عنه بالتشديد

وإثبات الألف وهما لغتان معناهما غالبتني وغلبتني

قوله تعالى ﴿ أأنزل عليه الذكر ﴾ يقرأ بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مضمومة وبهمزة واحدة وبهمزة وواو بعدها ومثله ? < أألقي الذكر عليه من بيننا > ? فالحجة لمن أثبت الهمزتين أنه أتى بالكلام على أصله ووفاه ما أوجبه القياس له الأولى همزة الاستفهام والثانية ألف القطع والحجة لمن قرأه بهمزة واحدة أنه أخبر ولم يستفهم والحجة لمن قرأه بهمزة وواو أنه حقق الاولى وخفف الثانية وكانت مضمومة فصارت في اللفظ واوا

(160/657)

قوله تعالى ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم ﴾ إجماع القراء على لفظ الجمع إلا ما قرأه ابن كثير من التوحيد فالحجة لمن جمع أنه أتى بالكلام على ما أوجب له من تفصيل الجمع بعده والحجة لمن وحد أنه اجتزأ بلفظ الواحد من الجمع لدلالة ما يأتي عليه

قوله تعالى ﴿ بخالصة ذكرى الدار ﴾ يقرأ بالتنوين والإضافة فمن نون أبدل ذكرى من خالصة وموضعها على هذا خفض ومن حذف التنوين أضاف لاختلاف اللفظ كقوله ﴿ ولدار الآخرة ﴾ ولا يبين فيها إعراب لحلول ألف التأنيث فيها طرفا ولم يأت على بنائها إلا شعري اسم نجم

قوله تعالى ﴿ هذا ما توعدون ﴾ يقرأ ها هنا بالياء والتاء فالتاء لمعنى مخاطبة الحاضر والياء للإخبار عن الغائبين وقد شرحت علله في مواضعه

قوله تعالى ﴿ وغساق ﴾ يقرأ بتشديد السين وتخفيفها ها هنا وفي ﴿ عم يتساءلون ﴾ وهما لغتان وقيل معناه شراب قاتل ببرده ونتنه وقيل ما يسيل من صديد أهل النار

قوله تعالى ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾

إجماع القراء على فتح الهمزة والتوحيد إلا ما قرأه أبو عمرو من ضمها دلالة على الجمع فالحجة لمن قرأه بالتوحيد قوله تعالى ﴿ من شكله ﴾ ولم يقل من شكلهم والحجة لمن جمع أنه شاكل بالجمع بينه وبين قوله أزواج ولم يقل زوج وهما في الوجهين لا ينصرفان لأن آخر وزنه أفعل ففيه علتان الصفة ومثال الفعل وأخر وزنه فعل ففيه علتان الجمع والعدل ووجه عدله أن أصله أن يعرف بالألف واللام فلما عرف بغيرهما تركوا صرفه ومثله سحر إذا أردت به سحر يومك بعينه لم تصرفه لأنه معدول عن مثل ذلك

قوله تعالى ﴿ من الأشرار أتخذناهم ﴾ يقرأ بقطع الألف ووصلها فالحجة لمن قطع أنه جعلها ألف الاستفهام دخلت على ألف الوصل فسقطت لدخولها

ولمن وصل وجهان أحدهما أنه أخبر بالفعل ولم يدخل عليه استفهاما والثاني أنه طرح ألف الاستفهام لدلالة قوله ﴿ أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ عليها وهذا من كلام العرب

قال امرؤ القيس :

تروح من الحي أم تبتكر

وماذا يضيرك لو تنتظر

أراد أتروح فحذف الألف ويحتمل أن يكون حذف الألف لتقدم الاستفهام في قوله ﴿ ما لنا لا نرى رجالا ﴾

قوله تعالى ﴿ سخريا ﴾ يقرأ بضم السين وكسرها وقد ذكر فيما سلف

قوله تعالى ﴿ قال فالحق والحق أقول ﴾ يقرآن بالنصب معا وبرفع الحق الأول ونصب الثاني فالحجة لمن نصبهما أنه اراد في الأول الإغراء معناه فاتبعوا الحق وأعمل الفعل المؤخر في الثاني والحجة لمن رفع الأول أنه اضمر له ما يرفعه يريد فهذا الحق ونصب الثاني بالفعل المؤخر أو يكون أراد فأنا الحق وأقول الحق فأقام الفاء في الأول مقام أنا وهذا بعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 304 . 308 ﴾

(162/657)

وقال ابن زنجلة :

38 – سورة ص

أءنزل عليه الذكر من بيننا 8

قرأ الحلواني عن نافع وابن اليزيدي آنزل عليه الذكر بهمزة واحدة مطولة

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو أنزل بهمزة واحدة من غير مد

وقرأ الباقون بهمزتين و قد ذكرت الحجة في سورة البقرة

ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق 15

قرأ حمزة والكسائي ما لها من فواق بضم الفاء أي من رجوع

وقرأ الباقون بالفتح أي من راحة وقال الفراء هما لغتان

واذكر عبدنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصر 45

قرأ ابن كثير واذكر عبدنا إبراهيم واحدا وقرأ الباقون عبادنا جماعة وحجتهم أنه ذكر أسماءهم فقال إبراهيم وإسحق ويعقوب وهم بدل من قوله عبادنا وذلك أنه أجملهم ثم بين أسماءهم كقولك رايت أصحابك ثم تقول زيدا وعمرا و وجه إفراد عبدنا أنه اختصه بالإضافة على التكرمة له والاختصاص بالمنزلة الرفيعة كما قيل في مكة بيت الله وكما اختص بالخلة في قوله واتخذ الله إبراهيم خليلا

إنا أخلصنهم بخالصة ذكرى الدار 46

قرأ نافع إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار مضافا وقرأ الباقون بخالصة بالتنوين

من نون جعل ذكرى الدار بدلا من خالصة بدل المعرفة

من النكرة ويكون المعنى إنا أخلصناهم بذكرى الدار فموضع ذكرى جر ويجوز أن يكون

نصبا بإضمار أعني ويجوز أن يكون رفعا بإضمار هي ذكرى كما قال تعالى قل أفأنبئكم

بشر من ذلكم النار أي هي النار ومن لم ينون جعل خالصة مضافة إلى ذكرى كقولك

اختصصت زيدا بخالصة خير فأراد بخالصة ذكر لا يشوبها شيء من رياء ولا غيره

هذا ما توعدون ليوم الحساب 53

قرأ ابن كثير وأبو عمرو هذا ما يوعدون بالياء وحجتهما أن الكلام أتى عقيب الخبر عن

المتقين فأتبع ذلك فقال مفتحة لهم الأبواب وعندهم قاصرات الطرف أتراب 50 و52

فجرى الكلام بعد ذلك بالخبر عنهم إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد

وقرأ الباقون هذا ما توعدون بالتاء وحجتهما أن الخبر عنهم قد تناهى عند قوله أتراب ثم

ابتدئ الكلام بعد ذلك بالخبر عن حكاية ما خوطبوا به نظير قوله يطاف عليهم بصحاف

من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ثم تناهى الخبر عنهم ثم جاء الكلام

بعده على حكاية ما خوطبوا به فقال وأنتم فيها خالدون أي وقيل لهم

هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج 57 و58

قرأ حمزة والكسائي وحفص وغساق بالتشديد وكذلك في عم يتساءلون أي سيال وهو

فعال من غسق يغسق أي ما يسيل من جلود أهل النار

وقرأ الباقون وغساق بالتخفيف وحجتهم أنه اسم موضوع على هذا الوزن مثل عذاب

وشراب ونكال وفي التفسير أنه الشديد البرد

قرأ أبو عمرو وأخر من شكله أزواج بضم الألف وقرأ الباقون وغساق وآخر واحد

من أفرد فإنه عطف على قوله حميم وغساق و آخر أي وعذاب آخر من شكله أي مثل

ذلك وحجته ما روي عن ابن مسعود أنه قال في تفسير قوله وآخر من شكله الزمهرير

فتفسيره حجة لمن قرأ وآخر بالتوحيد لأن الزمهرير واحد فإن قيل لم جاز أن ينعت الآخر

وهو واحد في اللفظ ب أزواج وهي جمع قيل إن الأزواج نعت للحميم والغساق والآخر

فهي ثلاثة وحجة من قرأ أخر على الجمع أن الأخر قد نعتت بالجمع فدل على أن المنعوت

جمع مثله قال سفيان لو كانت و آخر لم يقل أزواج وقال زوج وقال الزجاج من قرأ وأخر

فالمعنى وأقوام أخر لأن قوله أزواج معناه أنواع

وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعده من الأشرار أتخذنهم

سخريا أم زاغت عنهم الأبصر 62 و63

قرأ أبوعمرو وحمزة والكسائي من الأشرار اتخذناهم موصولة قال نحويو البصرة والجملة المعادلة ل أم محذوفة المعنى أتفقدونهم أم زاغت عنهم الأبصار وكذلك قوله أم كان من الغائبين لأن المعنى مالي لا أرى الهدهد أي أخبروني عن الهدهد أحاضر هو أم كان من الغائبين وقال أبو عبيد بهذه القراءة نقول من وجهين أحدهما أن الاستفهام متقدم في قوله ما لنا لا نرى رجالا والوجه الآخر أن المشركين لم يشكوا أنهم اتخذوا المسلمين في الدنيا سحريا فكيف يستفهمون عن شيء علموه وفيه وجه آخر وهو أن يجعل قوله اتخذناهم سخريا من نعت الرجال كأنه قال ما لنا لا نرى رجالا اتخذناهم سخريا ثم رجع فقال أم زاغت عنهم الأبصار أي بل زاغت عنهم الأبصار

وقال السدي إن أهل النار أبا جهل وكفار قريش ذكروا ضعفاء المسلمين عمار بن ياسر وخبابا وبلالا وصهيبا الذين كانوا يستهزئون

بهم في الدنيا فقالوا ما لنا لا نرى رجالا أي ما لنا لا نراهم في النار وكنا نعدهم من الأشرار في الدنيا فنقول لهم كنتم خالفتمونا في الدنيا فما نراكم إلا معنا في النار أم زاغت عنهم الأبصار إلى غيرهم

وقرأ أهل الحجاز والشام وعاصم أتخذناهم بفتح الألف وهي ألف استفهام دخلت على ألف الوصل وسقطت ألف الوصل فصار أتخذناهم ألا ترى أنه قال أم زاغت فعودلت ب أم لأنها على لفظ الاستفهام وإن لم يكن استفهاما في المعنى قال محمد بن يزيد المبرد في هذه القراءة بعض البعد لأنهم علموا أنهم اتخذوهم سخريا فكيف يستفهمون عن اتخاذهم سخريا وهم قد علموا ذلك يدل على علمه به أنه قد أخبر عنهم بذلك في قوله فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري ولكن نقول إنما الاستفهام على معنى التقرير كأنهم اعترفوا

(165/657)

وقال الفراء هو من الاستفهام الذي معناه التوبيخ والإنكار على أنفسهم كما يقول القائل وقد ضرب ولده ثم ندم ماذا فعلت أضربت ابني وهو غير شاك أنه قد ضربه وجتهم أن مجاهدا قرأ بالاستفهام وقال أتخذناهم سخريا وليسوا كذلك أم هم في النار ولا نراهم

قرأ نافع وحمزة والكسائي سخريا بالرفع وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان وقد ذكرنا في قد أفلح

قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين 84 و85

قرأ عاصم وحمزة قال فالحق بالضم والحق بالنصب وقرأ الباقون بالنصب فيهما

من نصب الحق الأول كان منصوبا بفعل مضمر وذلك الفعل هو ما ظهر في نحو قوله ويحق الله الحق وقوله ليحق الحق وهذا هو الوجه ويجوز أن تنصب على التشبيه بالقسم فيكون الناصب ل الحق ما ينصب القسم في نحو الله لأفعلن فيكون التقدير والحق لأملأن فإن قلت فقد اعترض بين القسم وجوابه قوله والحق أقول فإن اعتراض هذه الجملة لا يمنع أن يفصل بين القسم والمقسم عليه لأن ذلك مما يؤكد القصة وقد يجوز أن يكون الحق الثاني الأول وكرر على وجه التوكيد

ومن رفع كان الحق محتملا لوجهين أحدهما يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره أنا الحق والحق أقول ويدل على ذلك قوله جل وعز ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق فكما جاز وصفه سبحانه بالحق كذلك يجوز أن يكون خبرا في قوله أنا الحق والوجه الثاني أن يكون الحق مبتدأ وخبره محذوفا وتقديره فالحق مني كما قال الحق من ربك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ619.612 ﴾

(166/657)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة ص

مكية وقيل مدنية وليس بصحيح لأن فيها ذكر الآلهة

حدثنا فارس بن أحمد قال ثنا أحمد بن محمد قال أنا أبو بكر الرازي قال أنا الفضل قال أنا محمد بن يحيى القطيعي عن محمد بن عمر الدوري قال اختلف في ص مكية أو مدنية وقد ذكر نظيرتها في الكوفي ونظيرتها في الشامي غافر ولا نظير لها في غيرها

وكلمها سبع مئة واثنتان وثلاثون كلمة

وحروفها ثلاثة آلاف وتسعة وستون حرفا

وهي ثمانون وخمس آيات في البصري وهو عدد عاصم الجحدري وست في عدد المدنيين والمكي والشامي وأيوب بن المتوكل وثمان في الكوفي

اختلافها ثلاث آيات (﴿ ص والقرآن ذي الذكر ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ كل بناء وغواص ﴾) لم يعدها البصري وعدها الباقون

(﴿ والحق أقول ﴾) عدها الكوفي وأيوب بن المتوكل ولم يعدها الباقون ولا الجحدري

وقد قيل إن الجحدري يعدها وأيوب يسقطها وكلهم لم يعد ص

وأخبرنا فارس بن أحمد قال أنا أحمد بن محمد قال أنا أحمد بن عثمان قال أنا ابن شاذان قال أنا أحمد قال أنا هارون بن حاتم عن ابن أبي حماد عن حريز بن جرموز عن عمرو بن مرة أنه عد ص آية وأجمع العادون من أهل الأمصار على ترك عدها

وليس فيها مما يشبه الفواصل شيء

مرؤوس الآي

وشقاق

2 مناص

3 كذاب

4 عجاب

5 يراد

6 اختلاق

7 عذاب

8 الوهاب

9 الأسباب

10 الأحزاب

11 الأوتاد

12 الأحزاب

13 عقاب

14 فواق

15 الحساب

16 أواب

17 والإشراق

18 أواب

19 الخطاب

20 المحراب

21 الصراط

22 الخطاب

23 وأناب

24 مآب

25 الحساب

26 النار

27 كالفجار

28 الألباب

29 أواب

30 الجياد

31 بالحجاب

32 والأعناق

33 أناب

34 الوهاب

35 أصاب

36 وغواص

37 الأصفاد

38 حساب

39 مآب

40 وعذاب

41 وشراب

42 الألباب

43 أواب

44 والأبصار

45 الدار

46 الأخيار

47 الأخيار

48 مآب

49 الأبواب

50 وشراب 51 أتراب

52 الحساب

53 نفاد

54 مآب

55 المهاد

56 وغساق

57 أزواج

58 النار

59 القرار

60 النار

61 الأشرار

62 الأبصار

63 النار

64 القهار

65 الغفار

66 عظيم

67 معرضون

68 يختصمون

69 مبين

70 طين

71 ساجدين

72 أجمعون

73 الكافرين

74 العالمين

75 طين

76 رجيم

77 الدين

78 يبعثون

79 المنظرين

80 المعلوم

81 أجمعين

82 المخلصين

83 أجمعين

84 المتكلفين

85 للعالمين

86 حين. انتهى انتهى. اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 214.215﴾

(168/657)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى:

سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الجمهور على إسكان الدال ، وقد ذكر وجهه ، وقرئ بكسرها .

وفيه وجهان: أحدهما هي كسرها التقاء الساكنين ، والثانى هي أمر من صادى ، وصادى الشئ قابله وعارضه: أي عارض بعملك القرآن ، ويقرأ بالفتح: أي اتل صاد ، وقيل حرك لالتقاء الساكنين (والقرآن) قسم ، وقيل معطوف على القسم وهو صاد ، وأما جواب القسم فمحذوف: أي لقد جاءكم الحق ونحو ذلك ، وقيل هو معنى (بل الذين كفروا) أي وحق القرآن لقد خالف الكفار وتكبروا عن الإيمان ، وقيل الجواب (كم أهلكنا) واللام محذوفة: أي لكم أهلكنا ، وهو بعيد لأن كم في موضع نصب بأهلكنا ، وقيل هو معنى هذه الجملة: أي لقد أهلكنا كثيرا من القرون ، أو قيل هو قوله تعالى " إن كل إلا كذب الرسل " وقيل هو قوله تعالى " إن ذلك لحق " وبينهما كلام طويل يمنع من كونه جوابا .

قوله تعالى (ولات حين مناص) الأصل " لا " زيدت عليها التاء ، كما زيدت على رب وثم فقيل ربت وثمت ، وأكثر العرب يحرك هذه التاء بالفتح ، فأما في الوقف فبعضهم يقف بالتاء لأن الحروف ليست موضع تغيير ، وبعضهم يقف بالهاء كما يقف على قائمة ، فأما حين فمذهب سيبويه أنه خبر لات ، واسمها محذوف لأنها عملت عمل ليس: أي ليس الحين حين هرب ، ولايقال هو مضمر لأن الحروف لا يضمر فيها .

وقال الأخفش: هي العاملة في باب النفى ، فحين اسمها ، وخبرها محذوف: أي لاحين مناظر لهم أو حينهم ، ومنهم من يرفع ما بعدها ، ويقدر الخبر المنصوب كما قال بعضهم: * فأنا ابن قيس لابراح * وقال أبو عبيدة التاء موصولة بحين لابلا ، وحكى أنهم يقولون تحين وثلاث ، وأجاز قوم جرما بعد لات ، وأنشدوا عليه

أبياتا ، وقد استوفيت ذلك في علل الإعراب الكبير .

قوله تعالى (أن امشوا) أي امشوا ، لأن المعنى انطلقوا في القول ، وقيل هو الانطلاق حقيقة ، والتقدير: وانطلقوا قائلين امشوا .

(169/657)

قوله تعالى (فليرتقوا) هذا كلام محمول على المعنى: أي إن زعموا ذلك فليرتقوا .

قوله تعالى (جند) مبتدأ ، و (ما) زائدة ، و (هنالك) نعت ، و (مهزوم) الخبر ، ويجوز أن يكون هنالك ظرفا لمهزوم ، و (من الأحزاب) يجوز أن يكون نعتا لجند : وأن يتعلق بمهزوم ، وأن يكون نعتا لمهزوم .

قوله تعالى (أولئك الأحزاب) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون خبرا والمبتدأ من قوله وعاد ، وأن يكون من ثمود ، وأن يكون من قوله تعالى " وقوم لوط " والفواق بالضم والفتح

لغتان قد قرئ بها ، و (داود) بدل ، و (سخرنا) قد ذكر في الأنبياء .

قوله تعالى (الخصم) هو مصدر في الأصل وصف به ، فلذلك لا يثني ولا يجمع و (إذ) الأولى ظرف لنبأ ، والثانية بدل منها أو ظرف ل (تسوروا) وجمع الضمير وهو في الحقيقة لاثنين ، وتجوز لأن الاثنين جمع ، ويدل على ذلك قوله تعالى (خصمان) والتقدير: نحن خصمان .

قوله تعالى (وعزني) بالتشديد : أي غلبني ، وقرئ شاذا بالتخفيف ، والمعنى واحد ، وقيل هو من وعز بكذا إذا أمر به ، وهذا بعيد لأن قبله فعلا يكون هذا معطوفا عليه ، كذا ذكر بعضهم ، ويجوز أن يكون حذف القول: أي فقال أكفلنيها ،

وقال: وعزني في الخطاب .

أي الخطابة ، و (سؤال نعجتك) مصدر مضاف إلى المفعول به .

قوله تعالى (إلا الذين آمنوا) استثناء من الجنس ، والمستثنى منه بعضهم ، وما زائدة وهم مبتدأ وقليل خبره ، وقيل التقدير: وهم قليل منهم .

قوله تعالى (فتناه) بتشديد النون على إضافة الفعل إلى الله عزوجل ، وبالتخفيف على إضافته إلى الملكين (راكعا) حال مقدرة ، و (ذلك) مفعول " غفرنا " وقيل خبر مبتدإ: أي الأمر ذلك (فيضلك) منصوب على الجواب ، وقيل مجزوم عطفا على النهى ، وفتحت اللام لالتقاء الساكنين ، و (باطلا) قد ذكر في آل عمران وأم في الموضعين منقطعة ، و (كتاب) أي

هذا كتاب ، و (مبارك) صفة أخرى (نعم العبد) أي سليمان ، وقيل داود فحذف المخصوص بالمدح ، وكذا في قصة أيوب .

(170/657)

قوله تعالى (إذ عرض) يجوز أن يكون ظرفا لأواب ، وأن يكون العامل فيه نعم ، وأنه يكون التقدير : اذكر ، و (الجياد) جمع جواد ، وقيل جيد .

قوله تعالى (حب الخير) هو مفعول أحببت ، لأن معنى أحببت آثرت ، لإن مصدر أحببت الأحباب ، ويجوز أن يكون مصدرا محذوف الزيادة .

وقال أبو على .

أحببت بمعنى جلست من إحباب البعير وهو بروكه ، وحب الخير مفعول له مضاف إلى المفعول و (ذكر ربى) مضاف إلى المفعول أيضا ، وقيل إلى الفاعل : أي عن أن يذكرنى ربى ، وفاعل (توارت) الشمس ، ولم يجر لها ذكر ، ولكن دلت الحال عليها ، وقيل دل عليها ذكر الإشراق في قصة داود عليه السلام ، و (ردوها) الضمير للجياد ، و (مسحا) مصدر في موضع الحال ، وقيل التقدير : يمسح مسحا .

قوله تعالى (جسدا) هو مفعول ألقينا ، وقيل هو حال من مفعول محذوف : أي ألقيناه ، قيل

سليمان ، وقيل ولده على ما جاء في التفسير ، و (تجرى) حال من الريح ، و (رخاء) حال من الضمير في تجرى ؟ ؟: أي لينة ، و (حيث) ظرف لتجرى وقيل لسخرنا ، و (الشياطين) عطف على الريح ، و (كل) بدل منهم .

قوله تعالى (بغير حساب) قيل هو حال من الضمير في امنن أو في أمسك ، والمعنى غير محاسب ، وقيل هو متعلق بعطاؤنا ، وقيل هو حال منه: أي هذا عطاؤنا واسعا ، لأن الحساب بمعنى الكافي .

قوله تعالى (وإن له عندنا لزلفى) اسم إن والخبر له ، والعامل في عند الخبر .

قوله تعالى (بنصب) فيه قراءات متقاربة المعنى ، و (رحمة) مفعول له .

قوله تعالى (عبادنا) يقرأ على الجمع ، والاسماء التى بعده بدل منه ، وعلى الإفراد فيكون (إبراهيم) بدلا منه ، وما بعده معطوف على عبدنا ، ويجوز أن يكون جنسا في معنى الجمع ، فيكون كالقراءة الأولى .

(171/657)

قوله تعالى (بخالصة) يقرأ بالإضافة ، وهى هاهنا من باب إضافة الشئ إلى ما يبينه لأن الخالصة قد تكون ذكرى وغير ذكرى ، وذكرى مصدر ، وخالصة مصدر أيضا بمعنى

الإخلاص كالعافية ، وقيل خالصة مصدر مضاف إلى المفعول: أي بإخلاصهم ذكرى الدار: وقيل خالصة بمعنى خلوص ، فيكون مضافا إلى الفاعل: أي بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، وقيل خالصة اسم فاعل تقديره: بخالص ذكرى الدار: أي خالص من أن يشاب بغيره ، وقرئ بتنوين خالصة فيجوز أن يكون ذكرى بدلا منها ، وأن يكون في موضع نصب مفعول خالصة ، أو على إضمار أعنى ، وأن يكون في موضع رفع فاعل خالصة ، أو على تقديره هي ذكرى ، وأما إضافة ذكرى إلى الدار فمن إضافة المصدر إلى المفعول: أي بذكرهم الدار الآخرة ، وقيل هي في المعنى ظرف: أي ذكرهم في الدار الدنيا ، فهو إما مفعول به على السعة مثل يا سارق الليلة ، أو على حذف حرف الجر مثل ذهبت الشام .

قوله تعالى (جنات عدن) هي بدل من حسن مآب ، و (مفتحة) حال من جنات في قول من جعلها معرفة لإضافتها إلى عدن ، وهو علم كما قالوا جنة الخلد

وجنة المأوى .

وقال آخرون: هي نكرة ، والمعنى جنات إقامة فتكون مفتحة وصفا وأما ارتفاع (الأبواب) ففيه ثلاثة أوجه: أحدها هو فاعل مفتحة ، والعائد محذوف أي مفتحة لهم الأبواب منها ، فحذف كما حذف في قوله " فإن الجحيم هي المأوى " أي لهم .

والثانى هي بدل من الضمير في مفتحة ، وهو ضمير الجنات ، والأبواب غير أجنبي منها لأنها من الجنة ، تقول: فتحت الجنة وأنت تريد أبوابها ، ومنه " وفتحت السماء فكانت

أبوابا " والثالث كالأول ، إلا أن الألف واللام عوضا من الهاء العائدة وهو قول الكوفيون وفيه بعد .

قوله تعالى (متكئين) هو حال من المجرور في لهم ، والعامل مفتحة ، ويجوز أن يكون حالا من المتقين لأنه قد أخبر عنهم قبل الحال ، وقيل هو حال من الضمير في يدعون ، وقد تقدم على العامل فيه .

(172/657)

قوله تعالى (ما يوعدون) بالياء على الغيبة ، والضمير للمتقين وبالتاء ، والتقدير وقيل لهم هذا ما توعدون ، والمعنى هذا ما وعدتم .

قوله تعالى (ماله من نفاد) الجملة حال من الرزق ، والعامل الإشارة ، أي إن هذا لرزقنا باقيا .

قوله تعالى (هذا) أي الأمر هذا .

ثم استأنف فقال (وإن للطاغين) و (جهنم) بدل من شر ، و (يصلونها) حال العامل فيه الاستقرار في قوله تعالى " للطاغين " وقيل التقدير : يصلون جهنم ، فحذف الفعل لدلالة ما بعده عليه .

قوله تعالى (هذا) هو مبتدأ .

وفي الخبر وجهان: أحدهما (فليذوقوه) مثل قولك زيدا ضربه .

وقال قوم: هذا ضعيف من أجل الفاء ، وليست في معنى الجواب كالتى في قوله " والسارقة فاقطعوا " فأما (حميم) على هذا الوجه فيجوز أن يكون بدلا من هذا ، وأن يكون خبر مبتدإ محذوف: أي هو حميم ، وأن يكون خبرا

ثانيا .

والوجه الثاني أن يكون حميم خبر هذا ، وفليذوقوه معترض بينهما ، وقيل هذا في موضع نصب ، أي فليذوقوه هذا ، ثم استأنف فقال حميم: أي هو حميم ، وأما (غساق) فيقرأ بالتشديد مثل كفار وصبار ، وبالتخفيف اسم للمصدر: أي ذو غسق أو يكون فعال بمعنى فاعل .

قوله تعالى (وآخر) يقرأ على الجمع .

وفيه وجهان: أحدهما هو مبتدأ ، و (من شكله) نعت له: أي من شكل الحميم ، و (أزواج) خبره .

والثانى أن يكون الخبر محذوفا : أي ولهم أخر .

ومن شكله وأزواج صفتان ، ويجوز أن يكون من شكله صفة ، وأزواج يرتفع بالجار ، وذكر الضمير لأن المعنى من شكل ما ذكرنا .

ويقرأ على الإفراد وهو معطوف على حميم ، ومن شكله نعت له ، وأزواج يرتفع بالجار ويجوز أن يرتفع على تقدير هي : أي الحميم والنوع الآخر .

(173/657)

قوله تعالى (مقتحم) أي النار ، و (معكم) يجوز أن يكون حالا من الضمير في مقتحم ، أو من فوج لانه قد وصف ، ولايجوز أن يكون ظرفا لفساد المعنى ، ويجوز أن يكون نعتا ثانيا ، و (لا مرحبا) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون حالا : أي هذا فوج مقولا له لا مرحبا ، ومرحبا منصوب على المصدر ، أو على المفعول به أي لا يسمعون مرحبا .

قوله تعالى (من قدم) هي بمعنى الذى ، و (فزده) الخبر ، ويجوز أن يكون من نصبا : أي فرد من قدم ، وقيل هي استفهام بمعنى التعظيم ، فيكون مبتدأ ، وقدم الخبر ، ثم استأنف وفيه ضعف : و (ضعفا) نعت لعذاب : أي مضاعفا ، و (في النار) ظرف لزد ، ويجوز أن يكون حالا من الهاء والميم : أي زده كائنا في النار ، وأن يكون نعتا ثانيا لعذاب ، أو حالا لأنه قد وصف .

قوله تعالى (أتخذناهم) يقرأ بقطع الهمزة لأنها للاستفهام ، وبالوصف على حذف حرف الاستفهام لدلالة أم عليه ، وقيل الأول خبر ، وهو وصف في المعنى لرجال ،

وأم استفهام: أي أهم مفقودون أم زاغت ، و (سخريا) قد ذكر في المؤمنون .

قوله تعالى (تخاصم أهل النار) هو بدل من حق ، أو خبر مبتدإ محذوف: أي هو تخاصم ، ولو قيل هو مرفوع لحق لكان بعيدا لأنه يصير جملة ولا ضمير فيها يعود على اسم " إن " .

قوله تعالى (رب السموات) يجوز أن يكون خبر مبتدإ محذوف ، وأن يكون صفة ، وأن يكون بدلا ، وأن يكون مبتدأ والخبر (العزيز) .

قوله تعالى (إذ يختصمون) هو ظرف لعلم ، و (أنما) مرفوع بيوحى إلى ، وقيل قائم مقام الفاعل ، وإنما في موضع نصب: أي أوحى إلى الإنذار ، أو يأتي نذير .

قوله تعالى (إذ قال) أي اذكر إذ قال (من طين) يجوز أن يكون نعتا لبشر ، وأن يتعلق بخالق .

قوله تعالى (فالحق) في نصبه وجهان: أحدهما مفعول لفعل محذوف: أي فأحق الحق ، أو فاذكر الحق .

(174/657)

والثانى على تقدير حذف القسم: أي فبالحق لأملأن (والحق أقول) معترض بينهما ، وسيبويه يدفع ذلك لأنه لا يجوز حذفه إلا مع اسم الله عزوجل ، ويقرأ بالرفع: أي فأنا الحق أو فالحق منى ، وأما الحق الثاني فنصبه بأقول ، فيقرأ بالرفع على تقدير تكرير المرفوع قبله ،

أو على إضمار مبتدإ: أي قولي الحق ، ويكون أقول على هذا مستأنفا موصولا بما بعده: أي أقول لأملأن ، وقيل يكون أقول خبرا عنه والهاء محذوفة: أي أقوله وفيه بعد .

قوله تعالى (ولتعلمن) أي لتعرفن ، وله مفعول واحد ، وهو (نبأه) ويجوز أن يكون متعديا إلى اثنين والثاني (بعد حين) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 208 . 213 ﴾

(175/657)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة ص

[سورة ص (38) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ (3)

"ص" حرف لا محل له من الإعراب "وَالْقُرْآنِ" الواو حرف قسم القرآن مجرور بواو القسم وهما متعلقان بفعل أقسم المحذوف "ذِي" صفة للقرآن مجرورة بالياء "الذِّكْرِ" مضاف إليه

وجواب القسم محذوف "بَلِ" حرف عطف وإضراب "الَّذِينَ" مبتدأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "فِي عِزَّةٍ" متعلقان بخبر محذوف "وَشِقاقٍ" الواو حرف عطف وشقاق معطوف على عزة والجملة الاسمية معطوفة على جملة محذوفة لا محل لها "كَمْ" خبرية في محل نصب مفعول به مقدم لأهلكنا "أَهْلَكْنا" ماض وفاعله "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بأهلكنا "مِنْ قَرْنٍ" تمييز لكم "فَنادَوْا" الفاء حرف عطف وماض والواو فاعله "وَلاتَ" الواو حالية ولات حرف مشبه بليس يعمل عملها واسمها محذوف تقديره ليس الحين "حِينَ" خبرها منصوب "مَناصٍ" مضاف إليه وجملة نادوا معطوفة على ما قبلها لا محل لها وجملة الفعل الناقص في محل نصب حال.

[سورة ص (38) : الآيات 4 الى 6]

وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (5) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (6)

"وَعَجِبُوا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَنْ" مصدرية وهي وما بعدها مؤولة بمصدر مجرور بحرف جر محذوف "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله "مُنْذِرٌ" فاعل مؤخر "مِنْهُمْ" متعلقان بصفة لمنذر "وَقالَ" الواو حرف عطف وماض "الْكافِرُونَ" فاعل مرفوع بالواو والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "هذا" مبتدأ "ساحِرٌ" خبره والجملة مقول القول "كَذّابٌ" خبر ثان. "أَجَعَلَ" الهمزة حرف استفهام إنكاري وماض وفاعله مستتر "الْآلِهَةَ" مفعول به أول "إِلهاً" مفعول به ثان "واحِداً" صفة والجملة مقول القول "إِنَّ هذا" إن واسمها "لَشَيْءٌ" اللام المزحلقة وشيء خبرها "عُجابٌ" صفة شيء "وَانْطَلَقَ" الواو حرف عطف وماض "الْمَلَأُ" فاعله "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف حال "أَنِ" مصدرية مؤولة وما بعدها بمصدر في محل نصب مقول القول المحذوف "امْشُوا" أمر وفاعله "وَاصْبِرُوا" الواو حرف عطف وأمر وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلى آلِهَتِكُمْ" متعلقان باصبروا "إِنَّ هذا" إن واسمها "لَشَيْءٌ" اللام المزحلقة وشيء خبرها والجملة تعليل لاصبروا "يُرادُ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صفة لشيء.

[سورة ص (38) : الآيات 7 الى 9]

ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ (7) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (8) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهّابِ (9)

"ما" نافية "سَمِعْنا" ماض وفاعله "بِهذا" متعلقان بسمعنا "فِي الْمِلَّةِ" متعلقان بسمعنا "الْآخِرَةِ" صفة "إِنْ" نافية "هذا" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "اخْتِلاقٌ" خبر "أَأُنْزِلَ" الهمزة حرف استفهام إنكاري وماض مبني للمجهول "عَلَيْهِ" متعلقان بأنزل "الذِّكْرُ" نائب فاعل "مِنْ بَيْنِنا" متعلقان بمحذوف حال والجملة الفعلية مقول القول "بَلْ" حرف إضراب "هُمْ" مبتدأ "فِي شَكٍّ" الجار والمجرور خبر والجملة استئنافية لا محل لها "مِنْ ذِكْرِي" صفة لشك "بَلْ" حرف إضراب "لَمَّا" حرف نفي وقلب وجزم "يَذُوقُوا" مضارع مجزوم بلما والواو فاعله "عَذابِ" مفعوله "أَمْ" حرف عطف "عِنْدَهُمْ" ظرف متعلق بخبر مقدم محذوف "خَزائِنُ" مبتدأ مؤخر "رَحْمَةِ" مضاف إليه "رَبِّكَ" مضاف إليه ثان "الْعَزِيزِ" صفة لربك "الْوَهَّابِ" صفة ثانية والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها .

[سورة ص (38) : الآيات 10 الى 13]

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (10) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (13)

"أَمْ" حرف عطف "لَهُمْ" جار ومجرور خبر مقدم "مُلْكُ" مبتدأ مؤخر "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوفة على السموات والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "وَما" الواو حرف عطف وما موصولية معطوفة على السموات "بَيْنَهُما" ظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول "فَلْيَرْتَقُوا" الفاء الفصيحة واللام لام الأمر ومضارع مجزوم والواو فاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "فِي الْأَسْبابِ" متعلقان بيرتقوا "جُنْدٌ" مبتدأ "ما" زائدة "هُنالِكَ" اسم إشارة في محل نعت والهاء للتنبيه "مَهْزُومٌ" خبر "مِنَ الْأَحْزابِ" متعلقان بمهزوم "كَذَّبَتْ" ماض "قَبْلَهُمْ" ظرف زمان "قَوْمُ" فاعل "نُوحٍ" مضاف إليه "وَعادٌ" عطف "وَفِرْعَوْنُ" عطف "ذُو" صفة لفرعون مرفوعة بالواو "الْأَوْتادِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَثَمُودُ" الواو حرف عطف وثمود معطوف على سابقه "وَقَوْمُ" معطوف على سابقه أيضا "لُوطٍ" مضاف إليه "وَأَصْحابُ" معطوف أيضا على سابقه "الْأَيْكَةِ" مضاف إليه و "أُولئِكَ" بدل مما قبله "الْأَحْزابُ" بدل من أولئك.

[سورة ص (38) : الآيات 14 الى 17]

إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (14) وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ

فَواقٍ (15) وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (16) اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17)

"إِنْ" نافية "كُلٌّ" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "كَذَّبَ" ماض والجملة خبر المبتدأ "الرُّسُلَ" مفعول به "فَحَقَّ" الفاء حرف عطف وماض "عِقابِ" فاعل مرفوع بالضمة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة مراعاة للفاصلة

(179/657)

"وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "يَنْظُرُ" مضارع مرفوع "هؤُلاءِ" اسم الإشارة فاعله "إِلَّا" حرف حصر "صَيْحَةً" مفعول به "واحِدَةً" صفة لصيحة "ما" نافية عاملة عمل ليس "لَها" الجار والمجرور خبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "فَواقٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا اسم ما والجملة في محل نصب صفة ثانية لصيحة. "وَقالُوا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله "رَبَّنا" منادى مضاف "عَجِّلْ" فعل دعاء فاعله مستتر "لَنا" الجار والمجرور متعلقان بعجل وجملة النداء مقول القول وجملة قالوا استئنافية لا محل لها "قِطَّنا" مفعول به "قَبْلَ" ظرف زمان "يَوْمِ" مضاف إليه "الْحِسابِ" مضاف إليه ثان "اصْبِرْ" أمر وفاعل مستتر "عَلى ما" جار ومجرور متعلقان باصبر "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة

صلة "وَاذْكُرْ" الواو حرف عطف وأمر فاعله مستتر "عَبْدَنا" مفعول به "داوُدَ" بدل منه "ذَا" صفة لداود "الْأَيْدِ" مضاف إليه "إِنَّهُ" إن واسمها "أَوَّابٌ" خبرها والجملة تعليلية.

[سورة ص (38) : الآيات 18 الى 21]

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ (20) وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (21)

(180/657)

"إِنَّا" إن واسمها "سَخَّرْنَا" ماض وفاعله "الْجِبالَ" مفعوله والجملة خبر إن "مَعَهُ" ظرف مكان والهاء مضاف إليه "يُسَبِّحْنَ" مضارع ونون النسوة فاعله والجملة حال "بِالْعَشِيِّ" متعلقان بيسبحن "وَالْإِشْراقِ" معطوفة على العشي والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "وَالطَّيْرَ" الواو حرف عطف والطير معطوفة على الجبال "مَحْشُورَةً" حال منصوبة "كُلٌّ" مبتدأ "لَهُ" متعلقان بالخبر "أَوَّابٌ" خبر "وَشَدَدْنا" الواو حرف عطف وماض وفاعله "مُلْكَهُ" مفعول به والهاء في محل جر بالإضافة والجملة معطوفة على سخرنا فهي مثلها في محل رفع "وَآتَيْناهُ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله الأول "الْحِكْمَةَ" مفعوله

الثاني والجملة معطوفة على ما قبلها فهي مثلها في محل رفع أيضا "وَفَصْلَ" معطوف على الحكمة "الْخِطابِ" مضاف إليه "وَهَلْ" الواو حرف استئناف وهل حرف استفهام وتعجب "أَتاكَ نَبَأُ" ماض ومفعوله وفاعله "الْخَصْمِ" مضاف إليه "إِذْ" ظرف زمان "تَسَوَّرُوا" ماض وفاعله "الْمِحْرابَ" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة للظرف وجملة أتاك استئنافية لا محل لها .

[سورة ص (38) : الآيات 22 الى 23]

إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ (22) إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ (23)

"إِذْ" بدل من إذ السابقة "دَخَلُوا" ماض وفاعله "عَلى داوُدَ" متعلقان بدخلوا والجملة في محل جر بالإضافة "فَفَزِعَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "مِنْهُمْ" متعلقان بفزع والجملة معطوفة على ما قبلها فهي مثلها في محل جر "قالُوا" ماض وفاعله "لا" ناهية "تَخَفْ" مضارع مجزوم بلا وفاعله

مستتر "خَصْمانِ" خبر لمبتدأ محذوف مرفوع بالألف لأنه مثنى والجملة مقول القول "بَغى" ماض "بَعْضُنا" فاعل "عَلى بَعْضٍ" متعلقان ببغى وجملة بغى صفة لخصمان "فَاحْكُمْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "بَيْنَنا" ظرف مكان "بِالْحَقِّ" متعلقان باحكم "وَلا" الواو حرف عطف ولا ناهية "تُشْطِطْ" مضارع مجزوم والجملة معطوفة على احكم لا محل لها وجملة احكم جواب شرط مقدر لا محل لها "وَاهْدِنا" الواو حرف عطف واهدنا أمر فاعله مستتر ونا مفعوله "إِلى سَواءِ" متعلقان باهدنا "الصِّراطِ" مضاف إليه والجملة معطوفة على تشطط لا محل لها "إِنَّ هذا" إن واسمها "أَخِي" خبرها والجملة مقول القول المحذوف "لَهُ" جار ومجرور خبر مقدم "تِسْعٌ" مبتدأ مؤخر "وَتِسْعُونَ" معطوف على تسع مرفوع بالواو والجملة خبر ثان "نَعْجَةً" تمييز منصوب "وَلِيَ" خبر مقدم أيضا "نَعْجَةً" مبتدأ مؤخر "واحِدَةٌ" صفة لنعجة والجملة معطوفة على ما قبلها . "فَقالَ" الفاء حرف عطف وقال ماض فاعله مستتر "أَكْفِلْنِيها" أمر ومفعوله الأول والها مفعوله الثاني والفاعل مستتر والجملة مقول القول "وَعَزَّنِي" الواو حرف عطف وماض ومفعوله "فِي الْخِطابِ" متعلقان بعزني والجملة معطوفة على قال لا محل لها .

[سورة ص (38) : الآيات 24 الى 25]

قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ

إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ (24) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (25)

(182/657)

"قالَ" ماض "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق وجملة قال استئنافية لا محل لها "ظَلَمَكَ" ماض وفاعله المستتر والكاف مفعوله "بِسُؤالِ" متعلقان بظلمك "نَعْجَتِكَ" مضاف إليه "إِلى نِعاجِهِ" متعلقان بمحذوف حال "وَإِنَّ كَثِيراً" الواو حالية وإن واسمها "مِنَ الْخُلَطاءِ" الجار والمجرور صفة لكثيرا والجملة الاسمية حال "لَيَبْغِي" اللازم المزحلقة ومضارع "بَعْضُهُمْ" فاعله "عَلى بَعْضٍ" متعلقان بيبغي وجملة يبغي خبر إن "إِلَّا" حرف استثناء "الَّذِينَ" مستثنى "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوفة على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "وَقَلِيلٌ" الواو حالية وقليل خبر مقدم "ما" اسم موصول صفة "هُمْ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية حال "وَظَنَّ" الواو حرف عطف وماض "داوُدُ" فاعل "أَنَّما" كافة ومكفوفة "فَتَنَّاهُ" ماض وفاعل ومفعوله وأنما والفعل سدت مسد مفعولي ظن "فَاسْتَغْفَرَ" الفاء حرف عطف واستغفر ماض والفاعل مستتر "رَبَّهُ" مفعول به والجملة عطف على ظن لا محل لها "وَخَرَّ" الواو حرف عطف

وماض فاعله مستتر "راكِعاً" حال والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "وَأَنابَ" الواو حرف استئناف وأناب ماض فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "فَغَفَرْنا" الفاء حرف استئناف وماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "لَهُ" متعلقان بغفرنا "ذلِكَ" اسم إشارة مفعول به "وَإِنَّ" الواو حالية وحرف مشبه بالفعل "لَهُ" خبر إن المقدم "عِنْدَنا" ظرف متعلق بمحذوف حال "لَزُلْفى" اللام المزحلقة واسم إن المؤخر "وَحُسْنَ" عطف على زلفى "مَآبٍ" مضاف إليه.

123

[سورة ص (38) : آية 26]

(183/657)

يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (26)

"يا داوُدُ" يا حرف نداء ومنادى مفرد علم مبني على الضم وجملة النداء ابتدائية لا محل لها "إِنَّا" إن واسمها "جَعَلْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر إن "خَلِيفَةً" مفعوله الثاني "فِي الْأَرْضِ" جار ومجرور صفة لخليفة "فَاحْكُمْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "بَيْنَ"

ظرف مكان والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "النَّاسِ" مضاف إليه "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "وَلا" حرف عطف ولا ناهية "تَتَّبِعِ" مضارع مجزوم بلا وفاعله مستتر "الْهَوى" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "فَيُضِلَّكَ" الفاء فاء السببية ومضارع منصوب بأن مضمرة والكاف مفعوله والفاعل مستتر "عَنْ سَبِيلِ" متعلقان بيضلك "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "يَضِلُّونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "عَنْ سَبِيلِ" متعلقان بيضلون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "لَهُمْ" جار ومجرور خبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر والجملة في محل رفع خبر إن "شَدِيدٌ" صفة "بِما" الباء حرف جر وما مصدرية والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالباء وهما متعلقان بعذاب "نَسُوا" ماض وفاعله "يَوْمَ" ظرف زمان "الْحِسابِ" مضاف إليه.

[سورة ص (38) : الآيات 27 الى 28]

وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28)

"وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "خَلَقْنَا" ماض وفاعله "السَّماءَ" مفعول به "وَالْأَرْضَ" معطوف على السماء "وَما" معطوف "بَيْنَهُما" ظرف مكان "باطِلًا" صفة لمفعول مطلق محذوف "ذِلكَ" اسم إشارة مبتدأ "ظَنُّ" خبره "الَّذِينَ" مضاف إليه "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "فَوَيْلٌ" الفاء حرف عطف ومبتدأ "لِلَّذِينَ" جار ومجرور متعلقان بالخبر المحذوف "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنَ النَّارِ" متعلقان بمحذوف خبر ثان "أَمْ" حرف عطف "نَجْعَلُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "الَّذِينَ" مفعوله الأول والجملة مستأنفة "آمَنُوا" ماض وفاعله "وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على آمنوا "كَالْمُفْسِدِينَ" الكاف اسم بمعنى مثل مفعول نجعل الثاني والمفسدين مضاف إليه "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالمفسدين "أَمْ" حرف عطف "نَجْعَلُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "الْمُتَّقِينَ" مفعوله الأول "كَالْفُجَّارِ" الكاف مفعوله الثاني والفجار مضاف إليه.

[سورة ص (38) : الآيات 29 الى 31]

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (29) وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (31)

"كِتابٌ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا "أَنْزَلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صفة لكتاب والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "إِلَيْكَ" متعلقان بأنزلناه "مُبارَكٌ" خبر ثان "لِيَدَّبَّرُوا" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة "آياتِهِ" مفعول به "وَلِيَتَذَكَّرَ" إعرابه مثل ليدبروا والمصدر المؤول في محل جر باللام وهما متعلقان بأنزلنا "أُولُوا" فاعل مرفوع بالواو "الْأَلْبابِ" مضاف إليه والكلام عطف على ما قبله "وَوَهَبْنا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله "لِداوُدَ" متعلقان بوهبنا "سُلَيْمانَ" مفعوله والجملة استئنافية لا محل لها "نِعْمَ" ماض جامد "الْعَبْدُ" فاعل "إِنَّهُ أَوَّابٌ" إن واسمها وخبرها والجملة تعليلية لجملة نعم "إِذْ" ظرف زمان "عُرِضَ" ماض مبني للمجهول "عَلَيْهِ" متعلقان بعرض "بِالْعَشِيِّ" متعلقان بمحذوف حال "الصَّافِناتُ" نائب فاعل "الْجِيادُ" صفة والجملة في محل جر بالإضافة.

[سورة ص (38) : الآيات 32 الى 34]

فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (32) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ (33) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (34)

"فَقالَ" الفاء حرف عطف وماض وفاعل مستتر "إنّي" إن واسمها والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها فهي في محل جر "أَحْبَبْتُ" ماض وفاعله "حُبَّ" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مقول القول "الْخَيْرِ" مضاف إليه "عَنْ ذِكْرِ" متعلقان بأحببت "رَبِّي" مضاف إليه "حَتَّى" حرف غاية وجر "تَوارَتْ" ماض وفاعل مستتر "بِالْحِجابِ" متعلقان بتوارت "رُدُّوها" أمر مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة والواو فاعله وها مفعوله والجملة مقول لقول محذوف "عَلَيَّ" متعلقان بردوها "فَطَفِقَ" الفاء حرف عطف وماض من أفعال الشروع واسمه مستتر تقديره هو "مَسْحاً" مفعول مطلق لفعل محذوف والجملة الفعلية المقدرة في محل نصب خبر طفق "بِالسُّوقِ" جمع ساق متعلقان بمسحا "وَالْأَعْناقِ" معطوفة على السوق "وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "فَتَنَّا" ماض وفاعله "سُلَيْمانَ" مفعول به والجملة جواب قسم لا محل لها "وَأَلْقَيْنا" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على فتنا "عَلى كُرْسِيِّهِ" متعلقان بألقينا "جَسَداً" مفعول به "ثُمَّ" حرف عطف "أَنابَ" ماض وفاعل مستتر والجملة معطوفة على ألقينا .

[سورة ص (38) : الآيات 35 الى 38]

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35)

فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (36) وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ

(37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (38)

"قالَ" ماض فاعله مستتر "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة والجملة مقول القول "اغْفِرْ" فعل دعاء فاعله مستتر "لِي" متعلقان باغفر "وَهَبْ" الواو حرف عطف وفعل دعاء

(187/657)

فاعله مستتر "لِي" متعلقان بهب "مُلْكاً" مفعول به "لا" نافية "يَنْبَغِي" مضارع مرفوع فاعله مستتر "لِأَحَدٍ" متعلقان بينبغي والجملة صفة لملكا "مِنْ بَعْدِي" متعلقان بمحذوف صفة لأحد "إِنَّكَ" إن واسمها "أَنْتَ" ضمير فصل "الْوَهَّابُ" خبر إن والجملة الاسمية تعليل للدعاء "فَسَخَّرْنا" الفاء حرف استئناف وماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "لَهُ" متعلقان بسخرنا "الرِّيحَ" مفعول به "تَجْرِي" مضارع مرفوع وفاعل مستتر والجملة في محل نصب حال "بِأَمْرِهِ" متعلقان بتجري "رُخاءً" حال "حَيْثُ" ظرف مكان مبني على الضم

في محل نصب متعلق بتجري "أَصابَ" ماض وفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "وَالشَّياطِينَ" الواو حرف عطف والشياطين معطوف على الريح "كُلَّ" بدل من الشياطين "بَنَّاءٍ" مضاف إليه "وَغَوَّاصٍ" معطوف على بناء "وَآخَرِينَ" الواو حرف عطف وآخرين معطوف على كل "مُقَرَّنِينَ" صفة لآخرين "فِي الْأَصْفادِ" متعلقان بمقرنين.

[سورة ص (38) : الآيات 39 الى 42]

هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (39) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (40) وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ (42)

(188/657)

"هذا" مبتدأ "عَطاؤُنا" خبر "فَامْنُنْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "أَوْ" حرف عطف "أَمْسِكْ" أمر فاعله مستتر والجملة الفعلية امنن جواب شرط غير جازم لا محل لها وجملة أمسك معطوفة على امنن لا محل لها مثلها "بِغَيْرِ" متعلقان بعطاؤنا "حِسابٍ" مضاف إليه "وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ" سبق إعرابها. "وَاذْكُرْ" الواو حرف عطف وأمر فاعله مستتر "عَبْدَنا" مفعول به "أَيُّوبَ" بدل "إِذْ" ظرف زمان متعلق باذكر

"نادى " ماض فاعله مستتر "رَبَّهُ" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "أَنِّي" أن واسمها "مَسَّنِيَ" ماض والنون للوقاية والياء مفعول به "الشَّيْطانُ" فاعل وجملة مسني خبر أني وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف وهما متعلقان بنادى "بِنُصْبٍ" متعلقان بمسني "وَعَذابٍ" معطوف على نصب "ارْكُضْ" أمر بمعنى اضرب فاعله مستتر "بِرِجْلِكَ" متعلقان باركض والجملة مقول قول محذوف "هذا" اسم إشارة مبتدأ "مُغْتَسَلٌ" خبره "بارِدٌ" صفة لمغتسل "وَشَرابٌ" معطوف عليه.

[سورة ص (38) : الآيات 43 الى 45]

وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44) وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ (45)

"وَوَهَبْنا" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "لَهُ" متعلقان بوهبنا "أَهْلَهُ" مفعول به "وَمِثْلَهُمْ" معطوفة على أهله "مَعَهُمْ" ظرف مكان والهاء مضاف إليه "رَحْمَةً" مفعول لأجله "مِنَّا" جار ومجرور صفته "وَذِكْرى " معطوف على رحمة

"لِأُولِي" اللام حرف جر وأولي اسم مجرور بالياء وهما متعلقان بمحذوف صفة لذكرى "الْأَلْبابِ" مضاف إليه. "وَخُذْ" الواو حرف عطف وأمر فاعله مستتر "بِيَدِكَ" متعلقان بخذ والجملة معطوفة على ما قبلها "ضِغْثاً" مفعول به "فَاضْرِبْ" الفاء حرف عطف وأمر فاعله مستتر "بِهِ" متعلقان باضرب "وَلا" الواو حرف عطف "لا" ناهية "تَحْنَثْ" مضارع مجزوم بلا "إِنَّا" إن واسمها "وَجَدْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر إن والجملة الاسمية تعليل لاضرب "صابِراً" مفعول وجدنا الثاني "نِعْمَ" ماض لإنشاء المدح "الْعَبْدُ" فاعل "إِنَّهُ" إن واسمها "أَوَّابٌ" خبرها والجملة تعليلية أيضا "وَاذْكُرْ" الواو حرف عطف وأمر فاعله مستتر "عِبادَنا" مفعول به "إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ" ابراهيم بدل من عبادنا وما بعدها عطف "أُولِي" صفة منصوبة بالياء "الْأَيْدِي" مضاف إليه "وَالْأَبْصارِ" معطوفة على الأيدي.

[سورة ص (38) : الآيات 46 الى 50]

إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (47) وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (48) هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (50)

"إِنَّا" إن واسمها "أَخْلَصْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر إن والجملة الاسمية تعليل للأمر "بِخالِصَةٍ" متعلقان بأخلصناهم "ذِكْرَى" بدل من خالصة "الدَّارِ" مضاف إليه "وَإِنَّهُمْ" الواو واو الحال وإن واسمها والجملة في محل نصب حال "عِنْدَنا" ظرف مكان "لَمِنَ" اللام المزحلقة من حرف جر "الْمُصْطَفَيْنَ" اسم مجرور والجار والمجرور خبر إنهم "الْأَخْيارِ" صفة "وَاذْكُرْ" الواو حرف عطف وأمر فاعله مستتر "إِسْماعِيلَ" مفعول به "وَالْيَسَعَ" معطوف على إسماعيل "وَذَا الْكِفْلِ" معطوف أيضا "وَكُلٌّ" الواو واو الحال وكل مبتدأ مرفوع "مِنَ الْأَخْيارِ" الجار والمجرور خبر والجملة الاسمية في محل نصب حال "هذا" اسم الإشارة مبتدأ "ذِكْرٌ" خبر والجملة استئنافية لا محل لها "وَإِنَّ" الواو استئنافية حرف مشبه بالفعل "لِلْمُتَّقِينَ" جار ومجرور خبر مقدم "لَحُسْنَ" اللام المزحلقة واسمها المؤخر "مَآبٍ" مضاف إليه وجملة إن استئنافية لا محل لها "جَنَّاتِ" بدل من حسن "عَدْنٍ" مضاف إليه "مُفَتَّحَةً" حال "لَهُمُ" متعلقان بمفتحة "الْأَبْوابُ" نائب فاعل لاسم المفعول مفتحة.

[سورة ص (38) : الآيات 51 الى 55]

مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ (51) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (52) هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (53) إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (54) هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55)

"مُتَّكِئِينَ" حال منصوبة بالياء "فِيها" متعلقان بمتكئين "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "فِيها" متعلقان بيدعون "بِفاكِهَةٍ" متعلقان بيدعون أيضا "كَثِيرَةٍ" صفة "وَشَرابٍ" معطوفة على فاكهة "وَعِنْدَهُمْ" الواو حرف عطف وظرف مكان خبر مقدم "قاصِراتُ" مبتدأ مؤخر "الطَّرْفِ" مضاف إليه "أَتْرابٌ" صفة لقاصرات "هذا" مبتدأ "ما" خبر "تُوعَدُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل "لِيَوْمِ" متعلقان بتوعدون "الْحِسابِ" مضاف إليه وجملة توعدون صلة "إِنَّ هذا" إن واسمها "لَرِزْقُنا" اللام المزحلقة ورزقنا خبرها "ما" نافية "لَهُ" جار ومجرور خبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "نَفادٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر وجملة إن وما بعدها مقول قول محذوف "هذا" مبتدأ خبره محذوف والجملة استئنافية لا محل لها "وَإِنَّ" الواو حرف عطف إن حرف مشبه بالفعل "لِلطَّاغِينَ" الجار والمجرور خبر إن "لَشَرَّ" اللام المزحلقة وشر اسمها المؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "مَآبٍ" مضاف إليه.

[سورة ص (38) : الآيات 56 الى 60]

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (56) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (58) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (59) قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (60)

(192/657)

"جَهَنَّمَ" بدل من شر "يَصْلَوْنَها" مضارع مرفوع وفاعله ومفعوله والجملة حالية "فَبِئْسَ" الفاء الفصيحة وماض جامد "الْمِهادُ" فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "هذا" مبتدأ "فَلْيَذُوقُوهُ" الفاء حرف استئناف ومضارع مجزوم بلام الأمر والواو فاعله والهاء مفعوله "حَمِيمٌ" خبر المبتدأ هذا "وَغَسَّاقٌ" معطوف عليه "وَآخَرُ" الواو حرف عطف وآخر معطوف على حميم "مِنْ شَكْلِهِ" الجار والمجرور صفة لآخر "أَزْواجٌ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي أزواج "هذا" مبتدأ "فَوْجٌ" خبر "مُقْتَحِمٌ" صفة لفوج "مَعَكُمْ" ظرف متعلق بمحذوف حال "لا" نافية والجملة الاسمية مقول قول محذوف "مَرْحَباً" مفعول مطلق لفعل محذوف "بِهِمْ" متعلقان بمرحبا والجملة استئنافية لا محل لها "إِنَّهُمْ" إن واسمها "صالُوا" خبرها مرفوع بالواو "النَّارِ" مضاف إليه والجملة تعليل "قالُوا" ماض وفاعله "بَلْ" حرف إضراب "أَنْتُمْ" مبتدأ "لا" نافية "مَرْحَباً" مفعول مطلق لفعل محذوف والجملة خبر المبتدأ

والجملة الاسمية مقول القول "بِكُمْ" متعلقان بمرحبا "أَنْتُمْ" مبتدأ "قَدَّمْتُمُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "لَنا" متعلقان بقدمتموه "فَبِئْسَ" الفاء حرف استئناف وماض جامد "الْقَرارُ" فاعل والجملة استئنافية لا محل لها .

[سورة ص (38) : الآيات 61 الى 63]

قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (61) وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (62) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (63)

(193/657)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة استئنافية لا محل لها "رَبَّنا" منادى مضاف "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "قَدَّمَ" ماض فاعله مستتر "لَنا" متعلقان بقدم "هذا" اسم الإشارة مفعول به "فَزِدْهُ" الفاء واقعة في جواب الشرط وأمر ومفعوله الأول "عَذاباً" مفعوله الثاني "ضِعْفاً" صفة لعذابا "فِي النَّارِ" متعلقان بمحذوف صفة ثانية لعذابا وجملة زده في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ . "وَقالُوا" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "ما" اسم استفهام مبتدأ "لَنا" متعلقان بخبر محذوف "لا" نافية "نَرى" مضارع مرفوع وفاعله مستتر والجملة حالية وجملة ما لنا مقول

القول "رِجالًا" مفعول به "كُنَّا" ماض ناقص واسمه "نَعُدُّهُمْ" مضارع مرفوع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر كنا وجملة كنا صفة لرجالا "مِنَ الْأَشْرارِ" متعلقان بنعدهم

"أَتَّخَذْناهُمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري

وماض وفاعله ومفعوله الأول "سِخْرِيًّا" مفعوله الثاني والجملة استئنافية لا محل لها "أَمْ" حرف عطف "زاغَتْ" ماض "عَنْهُمُ" متعلقان بزاغت "الْأَبْصارُ" فاعل وجملة زاغت معطوفة على ما قبلها .

[سورة ص (38) : الآيات 64 الى 68]

إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64) قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68)

"إِنَّ ذلِكَ" إن واسمها "لَحَقٌّ" اللام المزحلقة وحق خبرها "تَخاصُمُ" بدل من حق "أَهْلِ" مضاف إليه "النَّارِ" مضاف إليه ثان والجملة استئنافية لا محل لها "قُلْ" أمر فاعله مستتر "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أَنَا" مبتدأ "مُنْذِرٌ" خبر والجملة مقول القول "وَما" الواو حرف

عطف وما نافية "مِنْ" حرف جر زائد "إِلهٍ" لفظ الجلالة مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبر المبتدأ "الْواحِدُ" صفة "الْقَهَّارُ" صفة ثانية والجملة معطوفة على ما قبلها "رَبُّ" بدل من لفظ الجلالة "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "وَما" معطوفة على الأرض "بَيْنَهُمَا" ظرف مكان والها مضاف إليه وما علامة التثنية "الْعَزِيزُ" صفة "الْغَفَّارُ" صفة ثانية "قُلْ" أمر فاعله مستتر "هُوَ" مبتدأ "نَبَأٌ" خبر "عَظِيمٌ" صفة والجملة الفعلية استئنافية لا محل لها والجملة الاسمية مقول القول "أَنْتُمْ" مبتدأ "عَنْهُ" متعلقان بمعرضون "مُعْرِضُونَ" خبر مرفوع بالواو والجملة صفة ثانية لنبأ .

[سورة ص (38) : الآيات 69 الى 72]

ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70) إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (71) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (72)

"ما" نافية "كانَ" ماض ناقص "لِي" الجار والمجرور خبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "عِلْمٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا اسمه المؤخر "بِالْمَلَإِ" متعلقان بعلم "الْأَعْلى" صفة للملأ "إِذْ" ظرف زمان "يَخْتَصِمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة في محل جر بالإضافة وجملة كان مستأنفة "إِنْ" نافية "يُوحى" مضارع مبني للمجهول "إِلَيَّ" متعلقان بيوحى والجملة مقول القول "إِلَّا" حرف حصر "أَنَّما" كافة ومكفوفة وأنما وما بعدها في تأويل مصدر سد مسد نائب الفاعل ليوحى "أَنَا" مبتدأ "نَذِيرٌ" خبر "مُبِينٌ" صفة "إِذْ" منصوبة بفعل اذكر المحذوف أو بدل "قالَ" ماض "رَبُّكَ" فاعل "لِلْمَلائِكَةِ" متعلقان بقال والجملة في محل جر بالإضافة "إِنِّي" إن واسمها "خالِقٌ" خبرها والجملة الاسمية مقول قول "بَشَراً" مفعول به لخالق "مِنْ طِينٍ" الجار والمجرور صفة لبشرا "فَإِذا" الفاء حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "سَوَّيْتُهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "وَنَفَخْتُ" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها فهي مثلها في محل جر "فِيهِ" متعلقان بنفخت "مِنْ رُوحِي" متعلقان بنفخت "فَقَعُوا" الفاء واقعة في جواب الشرط وأمر وفاعله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "لَهُ" متعلقان بساجدين "ساجِدِينَ" حال منصوبة.

[سورة ص (38) : الآيات 73 الى 75]

فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكافِرِينَ (74) قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (75)

(196/657)

"فَسَجَدَ" الفاء حرف عطف وماض "الْمَلائِكَةُ" فاعل "كُلُّهُمْ" توكيد أول "أَجْمَعُونَ" توكيد ثان "إِلَّا" حرف استثناء "إِبْلِيسَ" مستثنى بإلا منصوب "اسْتَكْبَرَ" ماض فاعله مستتر والجملة في محل نصب حال "وَكانَ" الواو حرف عطف وماض ناقص "مِنَ الْكافِرِينَ" الجار والمجرور خبر كان واسمها مستتر تقديره هو والجملة معطوفة على ما قبلها "قالَ" ماض فاعله مستتر "يا" حرف نداء "إِبْلِيسُ" منادى علم مبني على الضم "ما" استفهامية مبتدأ وجملة النداء مقول القول "مَنَعَكَ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر ما "أَنْ" حرف ناصب "تَسْجُدَ" مضارع منصوب وفاعله مستتر "لِما" اللام حرف جر وما موصولية مجرورة وهما متعلقان بتسجد وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر مقدر "خَلَقْتُ" ماض وفاعله والجملة صلة "بِيَدَيَّ" متعلقان بخلقت "أَسْتَكْبَرْتَ" الهمزة حرف استفهام إنكاري توبيخي وماض وفاعله والجملة مقول القول "أَمْ" حرف عطف "كُنْتَ" ماض ناقص واسمه "مِنَ الْعالِينَ" الجار والمجرور خبره والجملة معطوفة على

ما قبلها .

[سورة ص (38) : الآيات 76 الى 79]

قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (78) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79)

(197/657)

"قالَ" ماض فاعله مستتر "أَنَا" مبتدأ "خَيْرٌ" خبر والجملة الاسمية مقول القول والجملة الفعلية استئنافية لا محل لها "مِنْهُ" متعلقان بخير "خَلَقْتَنِي" ماض وفاعله ومفعوله والنون للوقاية والجملة تعليلية "مِنْ نارٍ" متعلقان بخلقتني "وَخَلَقْتَهُ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله "مِنْ طِينٍ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "قالَ" ماض فاعله مستتر "فَاخْرُجْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "مِنْها" متعلقان باخرج "فَإِنَّكَ" الفاء حرف تعليل وإن واسمها "رَجِيمٌ" خبرها والجملة الاسمية تعليل لا محل لها "وَإِنَّ" الواو حالية وإن حرف مشبه بالفعل "عَلَيْكَ" الجار والمجرور خبرها المقدم "لَعْنَتِي" اسمها المؤخر "إِلى يَوْمِ" متعلقان بحال محذوفة "الدِّينِ" مضاف إليه والجملة الاسمية في محل نصب حال "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها

"رَبِّ" منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة للتخفيف "فَأَنْظِرْنِي" الفاء الفصيحة وفعل دعاء ومفعوله والفاعل مستتر والنون للوقاية والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "إِلى يَوْمِ" متعلقان بالفعل "يُبْعَثُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب الفاعل والجملة في محل جر بالإضافة.

[سورة ص (38) : الآيات 80 الى 84]

قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84)

(198/657)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة استئنافية لا محل لها "فَإِنَّكَ" الفاء زائدة وإن واسمها "مِنَ الْمُنْظَرِينَ" الجار والمجرور خبر إن والجملة الاسمية مقول القول "إِلى يَوْمِ" متعلقان بأنظرني "الْوَقْتِ" مضاف إليه "الْمَعْلُومِ" صفة للوقت "قالَ" ماض فاعله مستتر "فَبِعِزَّتِكَ" الفاء زائدة والباء حرف جر وقسم وعزتك مجرور بالباء وهما متعلقان بفعل القسم المحذوف "لَأُغْوِيَنَّهُمْ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع فاعله مستتر ومفعوله الهاء وهو مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة "أَجْمَعِينَ" توكيد وجملة أغوينا هم جواب قسم لا محل لها

"إِلَّا" حرف استثناء "عِبادَكَ" مستثنى منصوب "مِنْهُمُ" متعلقان بما بعدهما "الْمُخْلَصِينَ" صفة لعبادك منصوبة بالياء "قالَ" ماض فاعله مستتر "فَالْحَقُّ" الفاء حرف استئناف ومبتدأ خبره محذوف "وَالْحَقَّ" مفعول به مقدم لأقول "أَقُولُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر وجملة الحق أقول اعتراضية لا محل لها .

[سورة ص (38) : الآيات 85 الى 88]

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88)

"لَأَمْلَأَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة فاعله مستتر والجملة جواب قسم لا محل لها "جَهَنَّمَ" مفعول به "مِنْكَ" متعلقان بالفعل "وَمِمَّنْ"

(199/657)

عطف على منك "تَبِعَكَ" ماض ومفعوله وفاعل مستتر والجملة صلة من لا محل لها "مِنْهُمْ" متعلقان بحال محذوفة "أَجْمَعِينَ" توكيد "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة استئنافية "ما" نافية "أَسْئَلُكُمْ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والكاف مفعوله الأول والجملة مقول القول

"عَلَيْهِ" متعلقان بحال محذوفة "مِنْ أَجْرٍ" من حرف جر زائد وأجر مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به ثان لأسألكم "وَما" الواو حرف عطف وما نافية حجازية عاملة عمل ليس "أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ" أنا اسمها والجار والمجرور خبرها والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها فهي في محل نصب مقول القول "إِنْ" نافية "هُوَ" الضمير مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "ذِكْرٌ" خبر "لِلْعالَمِينَ" متعلقان بذكر والجملة الاسمية مقول القول "وَلَتَعْلَمُنَّ" الواو حرف عطف واللام في جواب قسم ومضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعله ونون التوكيد لا محل لها "نَبَأَهُ" مفعوله "بَعْدَ" ظرف زمان منصوب "حِينٍ" مضاف إليه والجملة الفعلية جواب قسم لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 119. 130﴾

(200/657)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة ص

ذكر فِيهَا أحد عشر حَدِيثا

1097 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَنه لما أسلم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه فَرِح بِهِ الْمُؤْمِنُونَ فَرحا شَدِيدا وشق عَلَى قُرَيْش وَبلغ مِنْهُم فَاجْتمع خَمْسَة وَعِشْرُونَ من صَنَادِيدهمْ وَمَشوا إِلَى أبي طَالب وَقَالُوا أَنْت شَيخنَا وَكَبِيرنَا وَقد علمت مَا فعل السُّفَهَاء يُرِيدُونَ الَّذين دخلُوا فِي الْإِسْلَام وَجِئْنَاك يَا أَبَا طَالب لِتَقضِي بَيْننَا وَبَين بن أَخِيك فَاسْتَحْضر أَبُو طَالب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَقَالَ يَا ابْن أخي هَؤُلَاءِ قَوْمك يَسْأَلُونَك السُّؤَال فَلَا تمل عَلَيْهِم كل الْميل فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (مَاذَا يَسْأَلُونِي) قَالُوا ارْفُضْنَا وَارْفض ذكر آلِهَتنَا وَإِلَهك وَندَعك وَإِلَهك فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أَرَأَيْتُم إِن أَعطيتكُم مَا سَأَلْتُم أمعطي أَنْتُم كلمة وَاحِدَة تَمْلِكُونَ بهَا الْعَرَب وَتَدين لكم بهَا الْعَجم) قَالُوا نعم فَقَالَ (قُولُوا لَا إِلَه إِلَّا الله) فَقَامُوا فَقَالُوا أجعَل الْآلِهَة إِلَهًا وَاحِدًا قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ مُخْتَصرا من حَدِيث يَحْيَى بن عمَارَة عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ مرض أَبُو طَالب فَجَاءَت قُرَيْش وَجَاء النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَعند رَأس أبي طَالب مجْلِس رجل فَقَامَ أَبُو جهل كي يمنعهُ ذَلِك وَشَكَوْهُ إِلَى أبي طَالب فَقَالَ يَا بن أخي مَا تُرِيدُ من قَوْمك قَالَ (يَا عَم أُرِيد مِنْهُم كلمة تدين لَهُم الْعَرَب وَتُؤَدِّي إِلَيْهِم بهَا الْجِزْيَة الْعَجم) قَالَ كلمة وَاحِدَة

(201/657)

قَالَ مَا هِيَ قَالَ (لَا إِلَه إِلَّا الله) فَقَالُوا أجعَل الْآلِهَة إِلَهًا وَاحِدًا إِن هَذَا لشَيْء عُجَاب قَالَ وَنزل فيهم ص وَالْقُرْآن ذِي الذّكر حَتَّى إِن هَذَا إِلَّا اخْتِلَاق انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّامِن وَالسِّتِّينَ من الْقسم الثَّالِث وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسانيدهم وَابْن مرْدَوَيْه والطبري وَابْن أبي حَاتِم فِي تفاسيرهم وَابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه وَالْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة وَذكره الثَّعْلَبِيّ بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء من غير سَنَد وَكَذَلِكَ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول

(202/657)

وَابْن الْقطَّان فِي كتَاب الْوَهم وَالْإِيهَام يَجْعَل مثل هَذَا الحَدِيث مُرْسلا قَالَ لَا إِلَّا من جهَة الِاحْتِمَال الَّذِي فِي قَول الصَّحَابِيّ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من أَن لَا يكون سَمعه من النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ وَلَكِن من جهَة أَن الصَّحَابِيّ إِذا أخبر بقصَّة وَلم يذكر أَنه شَاهدهَا وَلَا حَدثهُ بهَا من شَاهدهَا وَلَا فِيهِ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أخبرهُ

فَإِنَّهُ يكون مُرْسلا لِأَنَّهُ يحْتَمل أَن يكون تَلقاهُ عَن صَحَابِيّ آخر مِمَّن شَاهد أَو سمع من النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ وَيصير هَذَا بِمَنْزِلَة مَا لَو قَالَ ابْن عَبَّاس نَام النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عِنْد الْبَيْت فَجَاءَهُ جِبْرِيل فَأَسْرَى بِهِ أَو تَحنث فِي غَار حراء فَجَاءَهُ الْملك وَنَحْو ذَلِك مِمَّا علم أَنه لم يُشَاهِدهُ قَالَ وَلَيْسَ بِنَافِع فِي مثل هَذَا أَن يُقَال يحْتَمل انه شَاهد أَو سمع من النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذْ لَيْسَ بِالِاحْتِمَالِ يثبت الِاتِّصَال وَاعْترض بِهَذَا الْكَلَام عَلَى أَحَادِيث كَثِيرَة وَقعت من صَحِيح مُسلم فِي هَذَا النَّوْع فِي مَوَاضِع مُتَفَرِّقَة مِنْهَا حَدِيث الْمسيب بن حزن قَالَ لما حضرت أَبَا طَالب الْوَفَاة جَاءَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَوجدَ عِنْده أَبَا جهل وَعبد الله بن أبي أُمَيَّة فَذكره وَمِنْهَا حَدِيث أنس أَن أهل مَكَّة سَأَلُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن يُرِيهم آيَة فَأَرَاهُم انْشِقَاق الْقَمَر

1098 - الْحَدِيث الثَّانِي

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (ضمُّوا فَوَاشِيكُمْ)

(203/657)

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي كتاب الْأَشْرِبَة من حَدِيث أبي الزُّبَيْر عَن جَابر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَا تُرْسِلُوا فَوَاشِيكُمْ وَصِبْيَانكُمْ إِذا غَابَتْ الشَّمْس

حَتَّى تذْهب فَحْمَة الْعشَاء) انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه وَلَفظه (كفوا فَوَاشِيكُمْ)

وَالْفَوَاشِي جمع فَاشِية وَهِي الْمَوَاشِي كَالْإِبِلِ وَالْبَقر وَالْغنم وَغَيرهَا سميت بِهِ لِأَنَّهَا تَفْشُو أَي تَنْتَشِر وَفَحْمَة الْعشَاء الظلمَة الَّتِي بَين الصَّلَاتَيْنِ وَالَّتِي بَين الْغَدَاة وَالْعشَاء عسعسة

1099 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن أم هَانِئ دخل علينا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَدَعَا بِوضُوء فَتَوَضَّأ ثمَّ صَلَّى صَلَاة الضُّحَى وَقَالَ (يَا أم هَانِئ هَذِه صَلَاة الْإِشْرَاق)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه ثَنَا الْعَبَّاس بن مُحَمَّد الْمُجَاشِعِي ثَنَا مُحَمَّد بن أبي يَعْقُوب الْكرْمَانِي ثَنَا الْحجَّاج بن نصير ثَنَا أَبُو بكر الْهُذلِيّ واسْمه سلْمَى عَن عَطاء ابْن أبي رَبَاح عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كنت أَمر بِهَذِهِ الْآيَة فَمَا أَدْرِي مَا هِيَ قَوْله بالْعَشي وَالْإِشْرَاق حَتَّى حَدَّثَتنِي أم هَانِئ بنت أبي طَالب أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم دخل عَلَيْهَا فَدَعَا بِوضُوء فِي جفْنه كَأَنِّي أنظر إِلَى أثر الْعَجِين فَتَوَضَّأ ثمَّ قَامَ فَصلى الضُّحَى فَقَالَ (يَا أم هَانِئ هَذِه صَلَاة الْإِشْرَاق) انْتَهَى

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث حجاج بن نصير بِهِ

وَمن طَرِيق الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الْبَغَوِيّ وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه كَذَلِك

وَعَن الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط

وَيقرب مِنْهُ مَا رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي فَضَائِل أم هَانِئ من حَدِيث سعيد ابْن أبي عرُوبَة عَن أَيُّوب بن صَفْوَان عَن عبد الله بن الْحَارِث أَن ابْن عَبَّاس كَانَ لَا يُصَلِّي الضُّحَى حَتَّى أدخلْنَاهُ عَلَى أم هَانِئ فَقلت لَهَا أَخْبرِي ابْن عَبَّاس بِمَا أخبرتينا بِهِ فَقَالَت أم هَانِئ دخل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي بَيْتِي فَصلى صَلَاة الضُّحَى ثَمَانِي رَكْعَات فَخرج ابْن عَبَّاس وَهُوَ يَقُول لقد قَرَأت مَا بَين اللَّوْحَيْنِ فَمَا عرفت صَلَاة الْإِشْرَاق إِلَّا السَّاعَة يسبحْنَ بالْعشي وَالْإِشْرَاق ثمَّ قَالَ ابْن عَبَّاس هَذِه صَلَاة الْإِشْرَاق انْتَهَى وَسكت عَنهُ

1100 - الْحَدِيث الرَّابِع

فِي وصف كَلَام النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا نذر وَلَا هذر

قلت هُوَ فِي حَدِيث أم معبد وَقد تقدم بِطرقِهِ فِي سُورَة الْأَعْرَاف

وَقَالُوا فِي تَفْسِير هَذَا إِن مَعْنَاهُ لَيْسَ فِيهِ اخْتِصَار مخل وَلَا تَطْوِيل مُمل بل هُوَ وسط لَيْسَ بقَلِيل وَلَا كثير

وَرَوَى أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب الْأَدَب من حَدِيث عَائِشَة قَالَت كَانَ كَلَام رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فصلا يفهمهُ من سَمعه انْتَهَى

1101 - قَوْله عَن سعيد بن الْمسيب والْحَارث الْأَعْوَر عَن عَلّي بن أبي طَالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أَنه قَالَ من حَدثكُمْ بِحَدِيث دَاوُد عَلَى مَا يَرْوُونَهُ الْقصاص جلد ته مائَة وَسِتّينَ جلدَة وَهُوَ حد الْفِرْيَة عَلَى الْأَنْبِيَاء صلوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ

1102 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من سره أَن يقوم لَهُ النَّاس صُفُونا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَده من النَّار) قلت غَرِيب

(205/657)

وَرَوَى أَبُو دَاوُد فِي الْأَدَب وَالتِّرْمِذِيّ فِي الاسْتِئْذَان من حَدِيث لَاحق بن حميد أبي مجلز أَن مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان دخل بَيْتا فِيهِ ابْن عَامر وَابْن الزُّبَيْر فَقَامَ ابْن عَامر وَجلسَ ابْن الزُّبَيْر فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَة اجْلِسْ فَإِنِّي سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول (من سره أَن يتَمَثَّل لَهُ النَّاس قيَاما فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَده من النَّار) انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَزَاد فِيهِ من سره أَن يتَمَثَّل لَهُ النَّاس قيَاما إِذا جَاءَ مُقبلا فَلْيَتَبَوَّأْ الْحَدِيث

وَرَوَى أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي غَرِيب الحَدِيث ثَنَا هشيم أَنا الْعَوام ابْن حَوْشَب عَن عزْرَة بن الْحَارِث عَن الْبَراء بن عَازِب قَالَ كُنَّا إِذا صلينَا مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَرفع رَأسه قمنا مَعَه صُفُوفا فَإِذا سجد تَبِعْنَاهُ انْتَهَى قَالَ وَللنَّاس فِي تَفْسِير الصَّافِن وَجْهَان فَمنهمْ من قَالَ كل صَاف قَدَمَيْهِ قَائِما فَهُوَ صَافِن وَالْقَوْل الآخر إِن الصَّافِن من الْخَيل الَّذِي قلب أحد حَوَافِره وَقَامَ عَلَى ثَلَاث قَوَائِم وَمِنْه قِرَاءَة عبد الله بن مَسْعُود واذْكُرُوا اسْم الله عَلَيْهَا صَوَافِن

1103 - الحَدِيث السَّادِس

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (الْخَيل مَعْقُود فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْر إِلَى يَوْم الْقِيَامَة)

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي الْجِهَاد من حَدِيث مَالك عَن نَافِع عَن ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَذكره

قَالَ التِّرْمِذِيّ وَفقه هَذَا الحَدِيث أَن الْجِهَاد قَائِم مَعَ كل إِمَام إِلَى يَوْم الْقِيَامَة انْتَهَى

(206/657)

وَأَخْرَجَاهُ عَن عُرْوَة بن الْجَعْد الْبَارِقي مَرْفُوعا بِنَحْوِهِ وَبِزِيَادَة الْأَجر وَالْغنيمَة

وَأَخرجه مُسلم عَن جرير بِنَحْوِ حَدِيث عُرْوَة سَوَاء

1104 - الحَدِيث السَّابِع

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي زيد الْخَيل حِين وَفد عَلَيْهِ وَأسلم (مَا وصف لِي رجل فرأيته إِلَّا كَانَ دون مَا بَلغنِي إِلَّا زيد الْخَيل) وَسَماهُ زيد الْخَيْر

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي بَاب الْوُفُود فِي بَاب وَفد طَيئ أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ ثَنَا أَبُو الْعَبَّاس مُحَمَّد بن يَعْقُوب ثَنَا أَحْمد بن عبد الْجَبَّار ثَنَا يُونُس عَن ابْن إِسْحَاق قَالَ قدم عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَفد طَيئ مِنْهُم زيد الْخَيل فَلَمَّا انْتَهوا إِلَيْهِ كَلمُوهُ وَعرض عَلَيْهِم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْإِسْلَام فأسلموا وَحسن إِسْلَامهمْ فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (مَا ذكر لِي رجل من الْعَرَب بِفضل ثمَّ جَاءَنِي إِلَّا رَأَيْته دون مَا يُقَال لِي مِنْهُ إِلَّا زيد الْخَيل) ثمَّ سَمَّاهُ زيد الْخَيْر الحَدِيث بِطُولِهِ وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي ذكر الْوُفُود أخبرنَا مُحَمَّد بن عمر يَعْنِي الْوَاقِدِيّ ثني أَبُو بكر بن عبد الله أبي سُبْرَة عَن أبي عُوَيْمِر الطَّائِي وَكَانَ

(207/657)

يَتِيم الزُّهْرِيّ قَالَ وَحدثنَا هِشَام بن مُحَمَّد بن السَّائِب الْكَلْبِيّ ثَنَا عباد الطَّائِي عَن أَشْيَاخهم قَالُوا قدم وَفد طَيء عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خَمْسَة عشر رجلا

رَأْسهمْ زيد الْخَيل عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَعرض عَلَيْهم الْإِسْلَام فاسلموا وَأَجَازَهُمْ بِخَمْسَة أَوَاقٍ فضَّة لكل رجل مِنْهُم فَأَعْطَى زيد الْخَيل اثْنَتَيْ عشر أوقيه وَنَشَأ وَقَالَ (مَا ذكر لي رجل) إِلَى آخر لفظ الْبَيْهَقِيّ

1105 - قَوْله

وَسَأَلَ رجل بلَال رَضِيَ اللَّهُ عَنْه عَن قوم يَسْتَبقُونَ من السَّابق فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ لَهُ الرجل أردْت الْخَيل قَالَ وَأَنا أردْت الْخَيْر

قلت رَوَاهُ إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي كِتَابه حَدثنَا ابْن عَائِشَة عَن أبي عوَانَة عَن مُغيرَة عَن الشّعبيّ قَالَ كَانَ رهان فَقَالَ رجل لبلَال من سبق قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ فَمن صَلَّى قَالَ أَبُو بكر قَالَ إِنَّمَا أَعنِي فِي الْخَيل قَالَ وَأَنا أَعنِي فِي الْخَيْر انْتَهَى ذكره فِي بَاب صَلَّى قَالَ وَالْمُصَلي الَّذِي يَجِيء عَلَى أثر السَّابق انْتَهَى كَلَامه

1106 - الْحَدِيث الثَّامِن

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (قَالَ سُلَيْمَان لأطوفن اللَّيْلَة عَلَى سبعين امْرَأَة تَأْتي كل وَاحِدَة بفَارِس يُجَاهد فِي سَبِيل الله وَلم يقل إِن شَاءَ الله فَطَافَ عَلَيْهِنَّ فَلم تحمل إِلَّا امْرَأَة) وَاحِدَة جَاءَت بشق رجل وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لو قَالَ إِن شَاءَ الله لَجَاهَدُوا فِي سَبِيل الله فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ)

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم فِي كتَاب الْإِيمَان من حَدِيث أبي الزِّنَاد عَن الْأَعْرَج عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (قَالَ سُلَيْمَان بن دَاوُد لأطوفن اللَّيْلَة عَلَى سبعين امْرَأَة كلهنَّ يَأْتِين بفَارِس يُجَاهد فِي سَبِيل الله فَقَالَ لَهُ صَاحبه قل إِن شَاءَ الله فَلم يقل إِن شَاءَ الله فَلم تحمل مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَة جَاءَت بشق رجل وَايْم الَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ لَو قَالَ إِن شَاءَ الله لَجَاهَدُوا فِي سَبِيل الله فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ) انْتَهَى

وَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي بَدْء الْخلق فِي بَاب قَوْله تَعَالَى وَوَهَبْنَا لداود سُلَيْمَان وَقَالَ فِي آخِره قَالَ شُعَيْب وَابْن أبي الزِّنَاد تسعين امْرَأَة وَهُوَ أصح انْتَهَى

1107 - قَوْله

وَأما مَا يُحْكَى من حَدِيث الْخَاتم والشيطان وَعبادَة الوثن فِي بَيت سُلَيْمَان فَالله أعلم بِصِحَّتِهِ ثمَّ ذكره

قلت رَوَى ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره من حَدِيث ابْن عَبَّاس فَذكر حَدِيث الْخَاتم والشيطان قَرِيبا مِمَّا حَكَاهُ المُصَنّف

وَذكره ابْن كثير فِي تَفْسِيره وَقَالَ إِسْنَاده قوي وَكَأَنَّهُ مِمَّا تَلقاهُ ابْن عَبَّاس من أهل الْكتاب إِن صَحَّ عَنْهُم وَفِيهِمْ طَائِفَة لَا يَعْتَقِدُونَ نبوة سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَام فَالظَّاهِر أَنهم يكذبُون عَلَيْهِ وَفِيه مُنكرَات من أَشدّهَا ذكر النِّسَاء وَالْمَشْهُور عَن مُجَاهِد وَغَيره من أَئِمَّة السّلف أَن

ذَلِك الجني لم يُسَلط عَلَى نسَاء سُلَيْمَان بل عَصَمَهُنَّ الله مِنْهُ تَشْرِيفًا لنَبيه عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ وَقد رويت هَذِه الْقِصَّة عَن سعيد بن الْمسيب وَزيد بن أسلم وَجَمَاعَة من السّلف وَكلهَا مُتَلَقَّاة من قصَص أهل الْكتاب

(209/657)

قلت رَوَى النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير عِنْد قَوْله تَعَالَى وَمَا كفر سُلَيْمَان وَلَكِن الشَّيَاطِين كفرُوا أخبرنَا مُحَمَّد بن الْعَلَاء ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة ثَنَا الْأَعْمَش عَن الْمنْهَال ابْن عَمْرو عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كَانَ الَّذِي أصَاب أَصْحَاب سُلَيْمَان ابْن دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَام بِسَبَب امْرَأَة من أَهله يُقَال لَهَا جرَادَة وَكَانَت أحب نسَائِهِ

(210/657)

إِلَيْهِ وَكَانَ إِذا أَرَادَ أَن يَأْتِي نسَاءَهُ أَو يدْخل الْخَلَاء أَعْطَاهَا الْخَاتم فجَاء نَاس من أهل جرَادَة يُخَاصِمُونَ قوما إِلَى سُلَيْمَان فَكَانَ هوى سُلَيْمَان أَن يكون الْحق لأهل جرَادَة فَيَقْضِي لَهُم فَعُوقِبَ إِذْ لم يكن هَوَاهُ عَلَيْهِم وَإِنَّمَا أَرَادَ الله أَن يَبْتَلِيه دخل الْخَلَاء وَأَعْطَاهَا

الْخَاتم فجَاء الشَّيْطَان فِي سُورَة سُلَيْمَان وَقَال لَهَا هَاتِي خَاتِمِي فَدَفَعته إِلَيْهِ فَلَمَّا لبسه دَانَتْ لَهُ الشَّيَاطِين وَالْإِنْس وَالْجِنّ وكل شَيْء فَجَاءَهَا سُلَيْمَان فَطلب مِنْهَا الْخَاتم فَقَالَت لَهُ اخْرُج لست بِسُلَيْمَان قَال سُلَيْمَان إِن ذَلِك أَمر الله أَبْتَلِي بِهِ فَخرج فَجعل كلما قَال أَنَا سُلَيْمَان رَجَمُوهُ حَتَّى يدمون عقبه وَمكث هَذَا الشَّيْطَان فيهم مُقيما ينْكح نِسَاءَهُ وَيَقْضِي بَينهم وَانْطَلَقت الشَّيَاطِين فَكَتَبُوا كتبا فِيهَا سحر وكفر وَدَفَنُوهَا تَحت كرْسِي سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَام ثمَّ أَثَارُوهَا وَقَالُوا كَانَ سُلَيْمَان يفتن بِهَذَا الْأنس وَالْجِنّ قَال فَأَكفر النَّاس سُلَيْمَان حَتَّى بعث الله مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأنزل الله عَلَيْهِ وَمَا كفر سُلَيْمَان وَلَكِن الشَّيَاطِين كفرُوا وَلما أنكر النَّاس من أَمر سُلَيْمَان وَأَرَادَ الله أَن يرد عَلَيْهِ ملكه جَاءُوا إِلَى نِسَائِهِ فَسْأَلُوهُنَّ فَقُلْنَ إِنَّه لَيَأْتِينَا وَنحن حيض وَمَا كَانَ يأتينا قيل ذَلِك فَلَمَّا رَأَى الشَّيْطَان أَنه حضر هَلَاكه هرب وَأَلْقَى الْخَاتم فِي الْبَحْر فَتَلَقَّتْهُ سَمَكَة وَخرج سُلَيْمَان يحمل عَلَى سَاحل بَحر فَحمل لرجل سمكًا بِسَمَكَةٍ مِنْهُ فَلَمَّا بلغ بِهِ أعطَاهُ السَّمَكَة الَّتِي فِي بَطنهَا الْخَاتم فَذهب بهَا فشق بَطنهَا يُرِيد أَن يشويها فَإِذا الْخَاتم

(211/657)

فِيهَا فَلَمَّا لبسه أقبل إِلَيْهِ الْإِنْس وَالْجنّ وَالشَّيَاطِين وَأرْسل فِي طلب الشَّيْطَان فَجعلُوا لَا يطيقُونَهُ حَتَّى احْتَالُوا عَلَيْهِ فوجدوه نَائِما قد سكر فَأَخَذُوهُ وَجَاءُوا بِهِ إِلَى سُلَيْمَان فَأمر بتخت من رُخَام فَنقر ثمَّ أدخلهُ فِي جَوْفه ثمَّ سَده بِالنُّحَاسِ ثمَّ أَمر بِهِ فَطرح فِي الْبَحْر انْتَهَى

1108 - الْحَدِيث التَّاسِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه أَتَى بِمَخْدَعٍ قد خبث بِأُمِّهِ فَقَالَ (خُذُوا عثْكَالًا فِيهِ مائَة شِمْرَاخ فَاضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَة)

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ وَابْن ماجة فِي سننَيْهِمَا الأول فِي الرَّجْم وَالثَّانِي فِي الْحُدُود من حَدِيث مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن يَعْقُوب بن عبد الله بن الْأَشَج عَن أبي أُمَامَة سهل بن حنيف عَن سعيد بن سعد بن عبَادَة قَالَ كَانَ بَين أَبْيَاتنَا رجل ضَعِيف مُخْدج فَلم يرع الْحَيّ إِلَّا وَهُوَ عَلَى أمة من إِمَائِهِمْ يخْبث بهَا قَالَ ذَلِك سعد بن عبَادَة لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ (اضْرِبُوهُ حده) قَالُوا يَا رَسُول الله هُوَ أَضْعَف من ذَلِك لَو ضَرَبْنَاهُ مائَة قَتَلْنَاهُ فَقَالَ (خُذُوا لَهُ عثْكَالًا فِيهِ مائَة شِمْرَاخ فَاضْرِبُوهُ بِهِ ضَرْبَة وَاحِدَة) قَالَ فَفَعَلُوا انْتَهَى

وَكَذَلِك رَوَاهُ أَحْمد وَابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم

وَمن طَرِيق ابْن أبي شيبَة رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

قَالَ الْبَزَّار وَلَا نعلم أسْند سعيد بن سعد إِلَّا هَذَا الحَدِيث وَقد اخْتلف فِيهِ عَلَى أبي أُمَامَة فَرَوَاهُ ابْن عُيَيْنَة عَن أبي الزِّنَاد عَن أبي أُمَامَة مُرْسلا وَرَوَاهُ دَاوُد بن مهْرَان عَن ابْن عُيَيْنَة عَن أبي الزِّنَاد عَن أبي أُمَامَة عَن الْخدْرِيّ وَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاشد عَن الزُّهْرِيّ عَن أبي أُمَامَة عَن أَبِيه وَغير إِسْحَاق يرويهِ عَن الزُّهْرِيّ عَن أبي أُمَامَة بن سهل مُرْسلا انْتَهَى كَلَامه

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي الْحُدُود من حَدِيث أبي أُمَامَة بن سهل بن حنيف أَنه أخبرهُ بعض أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَذكره باخْتلَاف لفظ

1109 - الحَدِيث الْعَاشِر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (لِلْمُتَكَلِّفِ ثَلَاث عَلَامَات يُنَازع من فَوْقه وَيَتَعَاطَى مَا لَا ينَال وَيَقُول مَا لَا يعلم)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره أخبرنَا الْحسن بن مُحَمَّد بن الْحُسَيْن الدينَوَرِي ثَنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن إِسْحَاق السّني ثَنَا أَحْمد بن عُمَيْر بن يُوسُف ثَنَا مُحَمَّد ابْن عَوْف ثَنَا مُحَمَّد بن الصفي ثَنَا حَيْوَة بن شُرَيْح بن يزِيد ثَنَا أَرْطَاة بن الْمُنْذر

عَن ضَمرَة بن حبيب عَن سَلمَة بن نفَيْل قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لِلْمُتَكَلِّفِ ثَلَاث عَلَامَات) إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث وَالثَّلَاثِينَ من كَلَام أَرْطَاة ابْن الْمُنْذر فَقَالَ أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ أَنا أَبُو بكر مُحَمَّد بن عَلّي الْفَقِيه الإِمَام الشَّاشِي ثَنَا أَبُو بكر بن أبي دَاوُد ثَنَا كثير بن عبيد ثَنَا بَقِيَّة بن الْوَلِيد عَن أَرْطَاة بن الْمُنْذر قَال آيَة الْمُتَكَلف ثَلَاث إِلَى آخِره إِلَّا أَنه قَال وَيتَكَلَّم فِيمَا لَا يعلم

وَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي كتاب الْحِلْية من كَلَام وهب بن مُنَبّه بِسَنَدِهِ إِلَيْهِ

1110 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من قَرَأَ سُورَة ص كَانَ لَهُ بوَزْن كل جبل سَخَّرَهُ الله لداود عَلَيْهِ السَّلَام عشر حَسَنَات وَعَصَمَهُ أَن يصر عَلَى ذنْب صَغِير أَو كَبِير)

قلت ذكره الثَّعْلَبِيّ عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من غير سَنَد

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمُتَقَدّمين فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 185.195 ﴾

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة ص

قوله تعالى : (يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ) ، الآية/ 18 .

عن ابن عباس أنه قال :

لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى قرأت : (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ) .

وعلى صلاة الضحى تأول ابن عباس قوله تعالى : (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ) «1» .

قوله تعالى : (وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ) ، الآية/ 21 .

ذكر المحققون الذين يرون تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر ، أن داود عليه السلام كان قد أقدم على خطبة امرأة كان قد خطبها غيره ، ويقال : هي أوريا ، فمال القوم إلى تزويجها من داود راغبين فيه «2» ،

(1) سورة النور آية 36 .

(2) انظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري .

وزاهدين في الخاطب الأول ، ولم يكن لذلك عارفا ، وقد كان يمكنه أن يعرف فيعدل عن هذه الرغبة وعن الخطبة لها ، فلم يفعل ذلك من حيث أعجب بها . إما وصفا أو مشاهدة على غير تعمد ، وقد كان لداود من النساء العدد الكثير ، وذلك الخاطب لا امرأة له ، فنبهه اللّه تعالى على ما فعل ، بما كان من تسور الملكين ، وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض ، لكي يفهم من ذلك موضع العتب ، فيعدل عن هذه الطريقة ، ويستغفر ربه من هذه الصغيرة .

ومتى قيل : فكيف يجوز أن يقول الملكان خصمان بغى بعضنا على بعض ، وهو كذب ، والملائكة لا تكذب وهي منزهة عن ذلك ؟

فالجواب عنه : أنه لا بد في الكلام من مقدمة ، فكأنهما قالا : قدرنا كأنا خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ، وعلى هذا يحمل قولهما : إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ، لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر ، فالمراد به إيراده على سبيل التقدير لينبه

داود على ما فعل .

والقول في هذا مستقصى في تبرئة الأنبياء صلوات اللّه عليهم «1» .

قوله تعالى : (وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ) ، الآية/ 24 :

لا يرى فيه الشافعي سجدة لها ، لأنه لا يرى التعلق بشريعة من قبلنا ، ولأنها توبة ، فليس فيه دلالة على الأمر بالسجود لنا ، وإنما يعلم السجود عند ذلك توقيفا .

قوله تعالى : (يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى) ، الآية/ 26 .

---

(1) انظر تفسير محاسن التأويل ج 14 في تفسيره لسورة ص .

فيه بيان وجوب الحكم بالحق ، وأن لا يميل إلى أحد الخصمين ، لقرابة أو لجاهه ، أو سبب يقتضى الميل .

وقوله تعالى : (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ) ، الآية/ 44 .

فروى عن ابن عباس أن امرأة أيوب قال لها إبليس :

إذا داويته وشفيته تقولين لي : أنت داويته ، فأخبرت بذلك أيوب ، فغضب وقال : ذلك

الشيطان ، وحلف أنه إن شفاني اللّه تعالى لأضربنك مائة سوط ، فأخذ شماريخ فيها قدر مائة ، فضربها ضربة واحدة «1» .

وذلك خلاف قياس الأصول ، والضغث هو ملء الكف من الخشب والعود والشماريخ ، ونحو ذلك . فأخبر اللّه تعالى أنه إذا فعل ذلك ، فقد بر في يمينه ، لقوله تعالى : (وَلا تَحْنَثْ) . وهو قول الشافعي ومذهب أبي حنيفة ومحمد وزفر . . وقال مالك : لا يبر . ورأى أن ذلك مختصا بأيوب ، وقال لا يحنث .

وإذا قال افعل ذلك ، ولا تحنث ، علم أنه جعله بارا إذ لا واسطة .

وفي الآية دليل على أن للزوج أن يضرب زوجته ، وأن للرجل أن يحلف ولا يستثني ، فهذا تمام القول في المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 359 .

﴿361

---

(1) انظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري .

وقال السايس :

من سورة ص

قال الله تعالى : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)

وهذه قصة من قصص حياة نبي الله أيوب عليه السلام ، ولقد عرض القرآن الكريم لذكر أيوب عليه السلام في أربعة مواضع منه . فقد جاء ذكره في سورة النساء [163] في عداد الأنبياء الذين أوحي إليهم .

إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (163) .

وجاء ذكره في سورة الأنعام [83 ، 84] في عداد الأنبياء من ذرية نوح عليه السلام :

وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) .

وجاء ذكره وذكر كشف الضرّ عنه في سورة الأنبياء [83 ، 84] بعد ذكر تسخير الريح عاصفة لسليمان ، وعمل الجن له في قوله تعالى : وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ (84) .

وجاء ذكره في سورة ص [41 - 44] في قوله تعالى : وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) إلى وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44) .

فأنت ترى أنّ أيوب قد ذكر مرّة في عداد النبيين الذين أوحي إليهم ، ومرّة في عداد من كان من ذرية نوح من النبيين ، ومرّة ثالثة في سورة الأنبياء حيث ذكر بعض ما أصابه من ضرّ مسه ، وقد سأل أرحم الراحمين كشفه ، فاستجاب له ، فكشف ما به من ضرّ ، وآتاه أهله رحمة من عنده وذكرى للعابدين .

وقد جاء ذكره في سورة ص تفصيلا بعض التفصيل لهذا الضر الذي أصابه ، وبيانا لطريق كشف الضرّ عنه ، فقد جاء في تفصيل الضرّ أنّ الشيطان مسّه بنصب

وعذاب ، والنصب : بضم النون وإسكان الصاد : التعب ، كالنّصب بالفتح فيهما ، والعذاب : النكال .

وجاء في بيان كشف الضر عنه أمره أن يركض برجله ، والقول له : هذا مغتسل بارد وشراب . والمغتسل : مكان الغسل ، والشراب : ما يشرب . ثم جاء في هذا البيان أيضا

أنه وهبه أهله ومثلهم معهم ، وأنّ ذلك كان رحمة منه وذكرى لأولي الألباب ، على نحو ما جاء في سورة الأنبياء تماما بفارق بسيط ، ذلك أنّه قيل في الأنبياء :

وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وقيل في ص : وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وقيل في الأنبياء : رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ وقيل في ص [43] رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ .

وقد جاء في سورة ص زيادة لم تظهر في (سورة الأنبياء) ذلك هو قول اللّه تعالى : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ وإنما جعلنا هذه زيادة لم تظهر ، مع أنّها طريق من طرق كشف الضر الذي أصاب أيوب ، لأنا رأينا القرآن قد فصل بين الضّرّ الذي أصاب أيوب في شخصه ، وبين ما أصابه في أهله .

فقال في الأول : فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ .

وقال في الثاني : وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ . فدلّ ذلك على أنه أصابه ضران : ضرّ في النفس ، وضرّ في الأهل ، وقد جاء إيتاء الأهل في السورتين نصا ، وجاء كشف الضّرّ في الأنبياء بلفظه ، وفي ص بالأمر بالرّكض بالرجل .

أما الأمر بأخذ الضّغث ، والضرب به ، فشيء جديد ، جاءت به آية مستقلة ، وهي في شأن من شؤون أيوب كان من الخير ألا يفعله حتّى لا يتأذّى به غيره .

ويكاد القرآن الكريم يكون صريحا في أنّ الضرّ الذي مسّ أيوب عليه السلام ضر حسيّ ، تلمسه من قول أيوب : مسني الضر ، وقوله في سورة ص : مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ

وفي قول اللّه : فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وقوله لأيوب : ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ (42) وليس بلازم في ثبوت صبر أيوب أن يكون الضر الذي أصابه قد وصل إلى الحدّ الذي عصم منه الأنبياء ، وعلى الوجه الذي ينقله المفسرون من الإسرائيليات التي لا يكاد يثبت منها شيء . بل يكفي أن يكون مرضا من الأمراض المستعصية التي ينوء بحملها الناس عادة ، ويضجرون من ثقلها ، وخصوصا إذا امتدّ الزمن بها ، وإنّك لتفهم من التعبير عنها بمس الشيطان أنها مما لا يؤلف عادة ، وكلّ غريب غير مألوف يقال فيه : إنّه من فعل الشيطان .

وقد يكون التعبير عنها بأنها مس الشيطان للتأدب ، على حد ما يقال : (إن كان خيرا فمن اللّه ، وإن كان شرّا فمني ومن الشيطان) .

(219/657)

فإذا احتملها الإنسان وصبر عليها صحّ أن يقال فيه : إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ .

وأما اللجوء إلى القول بأن ذلك الضرّ هو إعراض قوم أيوب عن دعوته فرارا مما رواه المفسرون من خرافات لا تصح ، فهو ظنّ لا يغني من الحق شيئا .

فالقرآن الكريم في المواضع الأربعة التي جاء فيها ذكر أيوب لم يذكر فيها شيئا عن دعوته في قومه ، ولا شيئا مما كان من قومه ، ولو أنّ الذي أصاب أيوب من قومه في دعوته كان شيئا يصحّ أن يذكر لذكره اللّه في عبارة صريحة واضحة جلية ، كما هو الشأن في الذين لقوا عنتا في سبيل دعوتهم ، على أنّا لا نعتقد أنّ أحدا من الرسل لقي عنتا مثل الذي لقي إبراهيم ونوح وموسى .

لقد بلغ من عداوة قوم إبراهيم له أن قالوا : حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ [الأنبياء : 68] .

وبلغ من عناد قوم نوح أن قال فيهم : قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهاراً (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً (6) [نوح : 5 ، 6] وأن اضطر إلى أن يسأل اللّه : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً (27) [نوح : 26 ، 27] .

وحتى ابنه كان في معزل عنه ، ولم يستمع لأبيه حتى في طلب النجاة من الغرق .

ولم يكن شأن موسى مع قومه بأقلّ من هذا ، فقد أخرجه عنادهم إلى التيه ، كلّ هذا وغيره أصاب الأنبياء في دعوتهم ، ولم يحك القرآن أن أحدا منهم قال : مسني الضر ، ولا مسني الشيطان بنصب وعذاب .

وقد أمر اللّه نبينا صلّى اللّه عليه وسلّم أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولم يقل أحد :

إنّ أيوب كان من أولي العزم ، مع أنّ اللّه يقول فيه : إِنَّا وَجَدْنَاهُ صابِراً ولقد كان صبر أيوب مضرب الأمثال ، وأولو العزم من الرسل هم الذين أصابهم عنت معارضة الدعوى ، فصبروا ، وأمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يتأسّى بهم .

ترانا قد أطلنا في غير ما هو مقرّر علينا ، ولكن جرّنا إليه أنّا أردنا أن نبيّن المخاطب في قوله تعالى : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ .

والضغث : في اللغة قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس . وقال ابن عباس : وهو عثكال النخل .

والحنث : يطلق على الإثم ، وعلى الخلف في اليمين ، وعلى هذا فقد أمر اللّه أيوب أن يأخذ قبضة من حشيش ، أو حزمة حطب ، فيضرب بها ، ونهاه أن يحنث .

وإذن لقد كان أيوب حلف ليضرب ، وكان هذا الضرب مؤذيا وإذا تركه أيوب يكون حانثا مخالفا ليمينه ، فنهاه اللّه أن يحنث ، وأوجد له المخرج من إيقاع الذي

(220/657)

يترتب على البر باليمين ، وهو أن يأخذ الضغث فيضرب به ، فلا يتأذّى المضروب ، فيكون قد برّ بيمينه ، وابتعد من الحنث ، وتجنّب إيقاع الأذى بالغير .

وقد جعل المفسرون يعيّنون من كان سيلحقه الأذى ، ويذكرون السبب الذي انبنى عليه عزم إيقاع الأذى ، وأخذوا يصوّرون الذي كان من أيوب تارة على أنه كان يمينا ، وتارة على أنه كان نذرا ، وقد ذكروا في كل ذلك روايات لم تثبت صحتها ، فرووا أنّ امرأة أيوب هي المحلوف عليها ، وقالوا في سبب الحلف إنّها كانت تخدمه ، وضجرت من طول مرضه ، فتمثّل لها الشيطان طبيبا ، فقالت له :

هل لك أن تشفي هذا المريض ؟ فقال : بشرط أن يقول كلمة واحدة هي : أني شفيته : فقالت لأيوب : كلمة واحدة تقولها ، وتشفى ، ثم تستغفر اللّه ، فحلف أو نذر لئن شفي ليضربنّها مئة جلدة .

وقيل بل كانت تأتي له بالطّعام ، فأتت يوما بطعام أكثر من المعتاد ، وكانت قد باعت ذوائبها ، فارتاب في أمرها ، فحلف أو نذر .

وقيل : بل طلبت إليه أن يسأل ربّه أن يشفيه ، فظنّ ذلك منافيا للصبر فحلف .

وقالوا في الضر الذي أصابه أقوالا كثيرة ينافي ما ثبت للأنبياء من العصمة من المنفّرات .

وقد فهمت قبلا أنّ القرآن يدلّ على أنّ الضرّ حسي تناول البدن بإشارة (مسّني الضّرّ) ومَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ وبإشارة فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وبإشارة اركُضْ برِجْلِكَ إذ هو ظاهر في أنّه إنما أمر بذلك كطريق من طرق العلاج ، وكذلك قول اللّه هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ فهو ظاهر في أنّ المراد أن يغتسل من المغتسل ، وأن يشرب من

الشراب فيشفى .

وكذلك يدلّ القرآن على أنّه قد أصيب في أهله بغير تعيين لنوع الإصابة ، أكانت بالموت أم بالمرض ، أم بهما معا ، فكشف عنه هذا الضر ، فآتاه أهله ومثلهم معهم ، واللّه يعلم كيف كان هذا الإيتاء ، أبإحياء من مات ؟ أم بمباركة من بقي وزيادة نسله ؟

وقد كان منه حلف بضرب كان من الخير ألا يفعله ، فنهاه عن الحنث ، وأوجد له المخرج من شرّ الأذى ، فأمره بأخذ الضّغث والضرب به . ذلك كلّ ما يدل عليه القرآن الكريم ، وهو ليس في حاجة إلى ما جاء في الإسرائيليات ، ولو علم اللّه في البيان أكثر من هذا خيرا لبيّنه .

ثم قال اللّه تعالى : إِنَّا وَجَدْنَاهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ صبر على ما أصابه من أذى في بدنه وأهله وماله ، والأواب : كثير التأويب والرجوع إلى اللّه في كلّ أموره .

فأنت ترى أنّ أيوب كان قد حلف على ضرب يتكرّر مرارا ، وذلك يؤذي

المضروب ، فأوجد له تحلّة القسم ، وذلك بالضرب بالضغث ، ويظهر أنّه لم يكن عنده كفارة اليمين .

وبناء على رأي بعض الأصوليين الذين يقولون : إنّ شرع من قبلنا شرع لنا قال الحنفية : إنّ من حلف ليضرب مئة ضربة ، فأخذ حزمة من حطب عدد عيدانها مئة ، فضرب بها برّ بيمينه ، ولا كفارة عليه ، لأنّ اللّه قد رخّص لأيوب هذا ، وجعله غير حانث به ، وما دام غير حانث فهو بار ، لأنّه لا واسطة بين الحنث والبر ، ومن أجل أنّه برّ لا تجب الكفارة ، لأن الكفارة في شريعتنا إنّما تجب عند الحنث .

والمالكية – وإن كانوا يقولون بهذه القاعدة الأصولية – ويقولون : هي رخصة خاصة بأيوب ، بدليل توجيه الخطاب له ، وبما ذكر للترخيص من العلة . ويقول ابن العربي « 1 » : إنّما انفرد مالك عن القاعدة لتأويل بديع هو أنّ مجرى الأيمان عند مالك في سبيل النية والقصد أولى ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّما الأعمال بالنيات» «2» ، وقصة أيوب عليه السلام ولم يصح فيها شيء يبيّن كيفية اليمين حتى نلتزم شريعته فيها . انتهى ملخصا فلا معنى لترك ما دلت عليه شريعتنا لشيء لا نعرف ما هو ، وشريعتنا تقضي بحمل الأيمان على اللغة ، أو على العرف ، واللغة لا تجعل الضارب مرة بسوط ذي شعب ضاربا مرات بعدد الشعب ، وكذا العرف ، فوجب أن نجري على ما هو الحكم عندنا بموجب العرف واللغة .

ولذلك لا يجوز هذا فيمن وجب عليه الحد إذا كان صحيحا ، وأما إذا كان مريضا فهذه رخصة في حدّ المريض خاصّة ، وإن شئت فقل : إنّها حدّ المريض إذا كان لا يقوى على

احتمال الحد ، ولذلك نرى أنّ الأولى الأخذ برأي مالك في المسألة خصوصا وأنّ الكفارة شرعت عند إرادة العدول عن مقتضى اليمين إلى ما هو خير ، بل لقد قال بعضهم : إنّ المخالفة إلى الخير كفارة .

بقي أنّ بعض العلماء يريد أن يأخذ من هذه الآية مشروعية الحيلة ، وسنسمعك شيئًا من حججهم ، وشيئًا من ردّ ابن القيم في كتابه «أعلام الموقعين» عليهم ، ونوصيك بقراءته في هذا الموضوع ، فهو نفيس .

وقبل أن ننقل لك عن ابن القيم نقول : إنّ الحيلة – كما هو ظاهر من اسمها – ما يقصد به الاحتيال لدفع شيء عن وجهه الذي هو عليه ، أو جلبه من غير وجهه الذي

---

(1) انظر أحكام القرآن للإمام ابن العربي (4/ 1640) .

(2) رواه مسلم في الصحيح (3/ 1515) ، 33 – كتاب الإمارة ، 45 – باب قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنما الأعمال» حديث رقم (155/ 1907) ، والبخاري في الصحيح (1/ 3) ، 1 – كتاب الوحي ، 1 – باب كيف بدء الوحي حديث رقم (1) .

هو عليه ، كأولئك الذين يتظاهرون أنّهم يؤدون الزكاة ، فيجيئون بفقير يعطونه شيئًا من المال ، وقد تواضعوا على أن يهبه لهم ، ثم وثم ، حتى ينتهي ما عليهم من الزكاة ، عدّا على الفقير ، وهبة من الفقير لهم .

ومثل آخر ذلك الذي أسماه الحنفية إسقاط الصلاة ، وقاسوها على الحج عن الغير ، وعلى فدية الصوم ، ولسنا نريد أن نقول لهم شيئًا في القياس والجامع والفارق ، وإنما هو شيء أوجدوه ، قصدوا منه الإحسان إلى الفقراء ، ثم أجازوا الحيلة في إسقاط ما يسقط الصلاة ، فقالوا : يعطى الفقير نصف صاع ، ثم يهبه ، وتتكرّر العملية بعدد الصلوات المتروكة ، أو بعدد الأيام المتروكة ، فيكونون قد أحسنوا إلى الفقراء ، وتسقط الصلاة عن ميتهم .

وهناك أمثلة كثيرة ، فقد أدخلوا الحيلة في كلّ شيء : أدخلوها في التحليل في المطلق ثلاثا ، وأدخلوها في الزكاة ، وفي الاستبراء ، وفي كفارة الصيام . وما ندري لما ذا شرعت الأحكام بعد إذ جاءت الحيل ، وانفتح بابها لعدم التزام الأحكام ، وللعلماء آراء في مشروعية الحيلة ، فبعضهم يمنعها مطلقا ، وبعضهم يجيزها مطلقا ، وبعضهم يقول : إن عطلت مصلحة شرعية كالتحيّل في الزكاة لا تقبل ، وإلا قبلت .

ونحن ننقل لك طرفا من أدلة المجيزين وأدلة المانعين عن العلّامة ابن القيم رحمه اللّه قال :

قال أرباب الحيل : قد أكثرتم من ذمّ الحيل ، وأجلبتم بخيل الأدلة ورجلها ، وسميتها

ومهزولها ، فاستمعوا الآن تقريرها ، واشتقاقها من الكتاب والسنة ، وأقوال الصحابة وأئمة الإسلام ، وأنّه لا يمكن لأحد إنكارها .

قال اللّه تعالى لنبيه أيوب : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ فأذن لنبيه أيوب أن يتحلّل من يمينه بالضرب بالضّغث ، وقد كان نذر أن يضربها ضربات معدودة . وهي في المتعارف الظاهر إنما تكون متفرقة ، فأرشده تعالى إلى الحيلة في خروجه من اليمين ، فنقيس عليه سائر الباب ، ونسميه وجوه المخارج من المضائق ولا نسميه بالحيل التي ينفر الناس من اسمها .

وأخبر تعالى عن نبيه يوسف عليه السلام أنّه جعل صواعه «1» في رحل أخيه ، ليتوصل بذلك إلى أخذه من إخوته ، ومدحه بذلك ، وأخبر أنّه برضاه وإذنه ، كما قال :

كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ [يوسف : 76] .

---

(1) إناء يشرب فيه ، انظر لسان العرب لابن منظور (8/ 215) مادة صوع .

[.....]

وقال تعالى : وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (50) [النمل : 50] فأخبر اللّه أنّه مكر بمن مكر بأنبيائه ورسله .

وكثير من الحيل هذا شأنها ، يمكر بها على الظالم والفاجر ، ومن يعسر تخليص الحق منه ، فتكون وسيلة إلى نصر مظلوم ، وقهر ظالم ، ونصر حق ، وإبطال باطل ، واللّه تعالى قادر على أخذهم بغير وجه المكر الحسن ، ولكن جازاهم بجنس عملهم ، وليعلّم عباده أنّ المكر الذي يتوصّل به إلى إظهار الحق ، ويكون عقوبة للماكر ، ليس قبيحا .

وقد ساق ابن القيم بعد ذلك آثارا ، عن الصحابة ، وأحاديث من السنة ، وأقوالا عن السلف والأئمة ، يتمسك بها القائلون بمشروعية الحيلة ، يطول المقام بذكرها ، فنحيلك على «أعلام الموقعين» «1» إن أردتها .

ثم أخذ يرد على هذا الذي تمسّك به القوم ، فأطال في إبداع ، ونحن نذكر هنا طرفا منه .

قال : ونحن نذكر ما تمسكتم به في تقرير الحيل والعمل بها ، ونبيّن ما فيه ، متحرّين العدل والإنصاف ، منزّهين لشريعة اللّه وكتابه وسنة رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم عن المكر والخداع والاحتيال المحرم ، ونبيّن انقسام الحيل والطرق إلى ما هو كفر محض ، وفسق ظاهر ، ومكروه ، وجائز ، ومستحب ، وواجب عقلا أو شرعا ، ثم نذكر فصلا نبيّن فيه التعويض بالطرق الشرعية عن الحيل الباطلة ، فنقول وباللّه التوفيق ، وهو المستعان وعليه التكلان :

أما قوله تعالى لنبيه أيوب عليه السلام وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ فقال شيخنا : الجواب : أنّ هذا ليس مما نحن فيه ، فإنّ للفقهاء في موجب هذه اليمين في شرعنا قولين : يعني إذا حلف ليضربنّ امرأته أو عبده مئة ضربة :

أحدهما : قول من يقول موجبها الضرب مجموعا أو مفرقا ، ثم منهم من لا يشترط مع الجمع الوصول إلى المضروب ، فعلى هذا تكون هذه الفتيا موجب هذا اللفظ عند الإطلاق ، وليس هذا بحيلة ، إنما الحيلة بصرف اللفظ عن موجبه عن الإطلاق .

والقول الثاني : أن موجبه الضرب المعروف ، وإذا كان هذا موجبه لم يصح الاحتجاج علينا بما يخالف شرعنا من شرائع من قبلنا ، لأنّا إن قلنا : «ليس شرعا لنا مطلقا» فظاهر ، وإن قلنا : «هو شرع لنا» فهو مشروط بعدم مخالفته شرعنا ، وقد انتفى الشرط .

وأيضا فمن تأمّل الآية علم أنّ هذه الفتيا خاصة الحكم ، فإنّها لو كانت عامة الحكم في حقّ كلّ أحد لم يخف على نبي كريم موجب يمينه ، ولم يكن في قصّها علينا كبير عبرة ، فإنما يقصّ علينا ما خرج عن نظائره ، لنعتبر به ، ونستدل به على حكمة اللّه فيما قصّه علينا .

---

(1) انظر أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم بيروت ، دار الجيل (3/ 290 - 403) .

ثم قال : ويدل عليه اختصاص قوله تعالى : إِنَّا وَجَدْنَاهُ صابِراً وهذه الجملة خرجت مخرج التعليل ، كما في نظائرها ، فعلم أنّ اللّه سبحانه إنما أفتاه بذلك جزاء له على صبره ، وتخفيفا عن امرأته ورحمة بها .

وأيضا فإنّه تعالى إنما أفتاه بهذا لئلا يحنث ، كما قال : وَلا تَحْنَثْ وهذا يدلّ على أنّ الكفارة لم تكن مشروعة في شريعته : بل ليس في اليمين إلا البرّ أو الحنث ، وقد كان ذلك مبررا في شريعتنا قبل شروع الكفّارة «لم يكن أبو بكر يحنث في يمين حتّى أنزل اللّه كفارة اليمين» .

وإذا كان كذلك ، يكون كأنّه نذر ضربها ، وهو نذر لا يجب الوفاء به ، لما فيه من الضرر عليها . ولا يغني عنه كفارة يمين ، لأنّ تكفير النذر فرع عن تكفير اليمين ، فإذا لم تكن كفارة النذر مشروعة إذ ذاك ، فكفارة اليمين أولى : وقد علم أنّ الواجب بالنذر يحتذى به حذو الواجب بالشرع وإذا كان الضرب الواجب بالشرع . يجب تفريقه إلّا إذا كان المضروب ميؤوسا من شفائه ، فيكون الواجب أن يجتمع الضرب ، لمكان العذر .

وبعد كلام طويل قال في قصة يوسف : نحن نسأل القائلين بجواز الحيل : هل تجيزون أنتم مثل هذا في شريعتنا حتى يكون لكم أن تحتجّوا بمثله ؟ وأما مجرد وجوده في شريعة يوسف فليس ينفعكم .

قال شيخنا : ومما قد يظنّ أنّه من جنس الحيل التي بيّنا تحريمها ، وليس من جنسها قصة يوسف ، حين كاد اللّه له في أخذ أخيه ، كما قصّ ذلك في كتابه [يوسف : 70] ، فإن فيه ضروبا من الحيل الحسنة :

منها : جعله بضاعتهم في رحالهم ، ليرجعوا بعد المعرفة .

ومنها : جعل السقاية في رحل أخيه ليظهره بمظهر السارق ، فيحتجزه . وقد ذكروا أنّ ذلك كان بمواطأة بينه وبين أخيه ، وعلى ذلك فليس هناك حيلة .

ثم أطال في بيان الموضوع ، ونحن نجتزئ منه بهذا .

وبعد فإنّ التحايل على إسقاط التكاليف الشرعية أمر تنفر منه الطباع ، وما ندري هل علم المحتالون أنّ حيلهم تنطلي فتسقط التكاليف أو هم قد اتخذوا عند اللّه عهدا أنه لا يجازيهم على هذا التحايل ؟ ثم من يخادعون ! ! ! التحايل في الحرب في اتقاء الظالمين أمر مقبول إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ [آل عمران : 28] أما التحايل لإسقاط التكاليف ، ولأكل الأموال من غير وجهها فما نظنّ أحدا يقول به .

وفي هذا القدر كفاية ، ونكرر الوصية بمطالعة الموضوع في مراجعه ، فإنّه نفيس ، ويكفي أن نبهناك إليه ، واللّه وليّ التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 685.678 ﴾

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة ص» (38)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله «ص» (1) مجازها مجاز ابتداء فواتح السور . .

«فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ» (3) إنما هى «و لا» وبعض العرب تزيد فيها الهاء فتقول «لاه» فتزيد فيها هاء الوقف فإذا اتصلت صارت تاء والمناص مصدر ناص ينوص وهو المنجاة والفوت . قال عمرو بن شأى «1» الأسدىّ :

تذكّرت ليلى لات حين تذكر

[802] وقال أبو النّجم :

آساد غيل حين لا مناص

[803] أي لا تحرك . .

«إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ» (5) مجازه مجاز عجيب وقد تحوّل العرب «فعيلا» إلى «فعال»

قال عبّاس بن مرداس :

(1) . - 6 «عمرو بن شأى» : انظر ترجمته وأخباره فى الجمهرة ص 44 والأغانى 10/ 60.

(226/657)

إنّك عين حذلت مضاعه تبكى على جار بنى جداعه [788]

أين دريد وهو ذو براعه حتى تروه كاشفا قناعه

تعدو به سلهبة سراعه «1»

أي سريعة. والحذل فى العين سقوط الهدب واحتراق الأشفار، وقد قالوا للهدب أيضا «أشفار»، وقال المعقّر بن حمار البارقىّ «2» وكان أعمى:

فأخلفها الذي ظنّت وقاظت ومأقى عينها حذل نطوف

«3» [789] جداعه «4» رهط الصمّة وهو من بنى غزّية من بنى جشم بن سعد بن بكر..

«فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ «5»» (10) تقول العرب للرجل الفاضل فى الدين:

---

(1) . - 788: الأشطار فى اللسان (حذل) الرابع والخامس فيه أيضا (سرع) والخامس فى فتح الباري 8/ 418 نسبهما أي الرابع والخامس صاحب اللسان (سرع)

لعمرو بن معد يكرب وقال فى أثناء إنشاده كلها : رأيت حاشية بخط بعض الأفاضل قال نقلت من شعر دريد بن الصمة بخط جعفر بن محمد بن مكى قال : كان عمرو بن ناعصة السلمى جارا لدريد ، فقتل عمرو بن ناعصة رجلا من بنى غاضرة بن صعصعة يقال له قيس بن رواحة فخرج ابن قيس يطلب بدمه فلقى عمرو بن ناعصة فقتله فقالت امرأة ابن ناعصة الأشطار .

والسلهبة : من النساء الجسيمة وليست بمدحة ويقال فرس سلهب وسلهبة للذكر إذا عظم وطال وطالت عظامه (اللسان) .

(2) . – 5 «المعقر . . . البارقي» : شاعر جاهلى انظر ترجمته فى الاشتقاق ص 82 ، والأغانى 1/ 44 ، والخزانة 2/ 290 .

(3) . – 789 : البيت من كلمة فى السمط ص 484 وتهذيب الإصلاح ، 1/ 23 والخزانة 2/ 289 ، 3/ 15 وهو فى اللسان (حذل) .

(4) . – 7 جداعة : وانظرها ورهط الصمة فى المؤتلف ص 144 والأغانى 9/ 2 والخزانة 4/ 446 .

فترى بعضهم يروون جداعة . . . خذاعة .

(5) . – 8 «تقول . . . الأسباب» : نقل ابن حجر هذا الكلام عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 419) .

قد ارتقى فلان فى الأسباب والسبب الحبل أيضا ، والسبب أيضا ما تسببت به من رحم أو يد أو دين وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «كل سبب ونسب يوم القيامة منقطع إلّا سببى ونسبى «1» . والمسلم إذا تقرّب إلى رجل ليس بينهما نسب قال :

إن الإسلام أقوى سبب وأقرب نسب . .

«كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ» (12) فقوم من العرب يؤنثون القوم وقوم منهم يذكرون ، فإن احتجّ عليهم بهذه الآية قالوا : وقع المعنى على العشيرة واحتجوا بهذه الآية «كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ» (74/ 54 - 55) المضمر فيه مذكّر . .

«أَصْحابُ الْأَيْكَةِ» (13) كان أبو عمرو بن العلاء يقول : أصحاب الأيكة الحرجة من النّبع والسدر وهو الملتفّ ، قال رجل من عبد القيس وهو مسند إلى عنترة :

أفمن بكاء حمامة فى أيكة يرفضّ دمعك فوق ظهر المحمل

«2» [790] يعنى يحمل السيف «3» وهى الحمالة والحمائل وجماع المحمل محامل وبعضهم يقول «ليكة» لا يقطعون الألف ولم يعرفوا معناها .

---

(1) . - 2 - 3 «كل . . . ونسبى» : قد أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي وانظره فى

فيض القدير 5/ 20 .

(2) . - 790 : البيت من كلمة فى ديوان عنترة من الستة ص 41 وهو فى الطبري 23/ 74 من غير عزو .

(3) . - 9 - 13 «كان . . . السيف» : الطبري روى هذا الكلام عنه 23/ 74 .

(228/657)

«ما لَها مِنْ فَواقٍ» (15) من فتحها قال : ما لها من راجة ، ومن ضمّها قال : فواق وجعلها من فواق ناقة ما بين الحلبتين ، وقوم قالوا : هما واحد بمنزلة حمام المكول وحمام المكّول وقصاص الشّعر وقصاص الشّعر «1» «2» . .

«عَجِّلْ لَنا قِطَّنا» (16) القطّ : الكتاب «3» ، قال الأعشى :

ولا الملك النّعمان يوم لقيته بأمّته يعطى القطوط ويأفق

«4» [791] القطوط : الكتب بالجوائز ويأفق : يفضل ويعلو يقال : ناقة أفقة وفرس أفق إذا فضله على غيره . .

«ذَا الْأَيْدِ» (17) ذا القوة وبعض العرب تقول آد ، قال العجّاج :

من أن تبدّلت بآدى آدا

(51) .

«أَوَّابٌ» (17) الأوّاب الرّجّاع وهو التواب مخرجها ، من آب إلى أهله أي رجع ، قال يزيد بن ضبّة الثقفيّ : والبيت لعبيد بن الأبرص :

---

(1) . – 1 – 3 «من فتحها . . . الشعر» : قال الطبري (23/ 75 – 76 : واختلف القراء فى قراءة ذلك فقرأته عامة قراء أهل المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة من فواق بفتح الفاء وقرأته عامة أهل الكوفة من فواق بضم الفاء واختلف أهل العربية فى معناها إذا قرأت بفتح الفاء وضمها فقال بعض البصريين منهم (لعله أبو عبيدة) معناها إذا فتحت الفاء ما لها من راحة وإذا ضممت جعلتها (فى المطبوع تصحيف) فواق ناقة . . . وقصاص الشعر وقصاصه .

(2) . – 1 – 2 «من قرأ . . . انتظار» الذي ورد فى الفروق : روى صاحب اللسان هذا الكلام عنه ورواه القرطبي (15/ 156) عن الفراء وعن أبى عبيدة مجملا .

[. . . . .]

(3) . – 4 «القط الكتاب» : روى ابن حجر تفسيره هذا عنه (فتح الباري 8/ 418) .

(4) . – 791 : ديوانه ص 146 والطبري 23/ 76 والجمهرة 1/ 108 وقد روى ابن دريد احتجاجه بهذا البيت . واللسان (قطط ، أفق) .

وكل ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

«1» [792] أي لا يرجع . .

«إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ» (21) أشرف كل مجلس وبيت ومقدّمه هو محرابه ، وقال

الشاعر «2» :

ربّة محراب إذا جئتها لم ألقها أو ارتقى سلّما

(729) .

«نَبَأُ الْخَصْمِ» (21) الخصم يقع لفظه على الواحد والجميع قال لبيد :

وخصم يعدّون الذحول كأنهم قروم غيارى كلّ أزهر مصعب

«3» [793] .

«قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ» (22) رجع إلى معنى الواحد منه . .

«وَلا تُشْطِطْ» (22) أي لا تسرف «4» قال الأحوص :

ألا يا لقوم قد أشطّت عواذلى ويزعمن أن أودى بحقي باطلى

(459) ويقال : كلفتنى شططا ، منه أيضا : وشطّت الدار بعدت وقال الشاعر «5»

---

(1) . - 792 : البيت من القصيدة الأولى فى ديوان عبيد بن الأبرص وهو فى اللسان (أوب) القرطبي 15/ 159]

(2) . - 3 «الشاعر» : هو وضاح اليمن كما مر .

(3) . - 793 : ديوانه 1/ 45 واللسان (خصم) .

(4) . - 9 «أي لا تصرف» : كذا فى البخاري 4/ 169]

(5) . - 794 : ديوانه من الستة ص 1953]

(230/657)

وهو عمر بن أبى ربيعة :

تشطّ غدا دار جيراننا وللدار بعد غد أبعد

«1» [795] .

«فَقال أَكْفِلْنِيها» (23) مجازه مجاز «كَفَّلَها زَكَرِيَّا» (3/ 37) أي ضمّها إليه وكفلت بالمال والنفس أي ضمنت «2» . .

«وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ» (23) أي صار أعزّ منى فيه «3» . .

«وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ» (23) مجازها مجاز امرأة قال الأعشى :

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبّة قلبها وطحالها

«4» «5» [796] يعنى امرأة الرجل . .

«بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ» (24) مصدر «سألت» استعطيت . .

«الْخُلَطاءِ» (24) الشركاء .

«وَظَنَّ داوُدُ» (24) أي أيقن . .

«أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ» (28) ليس لها جواب استفهام فخرجت مخرج التوعد . .

«كِتابٌ أَنْزَلْناهُ» (29) ابتداء .

---

(1) . - 795 : ديوانه ص 300 والطبري 23/ 81 ، واللسان (شطط) .

(2) . - 5 - 6 «مجازه . . . ضمنت» : وقال أبو عبيدة : هو كقوله وكفلها زكرياء أي ضمها إليه .

وتقول : كفلت بالنفس أو بالمال ضمنته (فتح الباري 6/ 328) .

(3) . - 7 «وعزنى . . . فيه» : كذا رواه ابن حجر فى الفتح 6/ . 328

(4) . - 796 : ديوانه ص 23 والكامل ص 160 ، 377 وفتح الباري 6/ 328 .

(5) . - 797 : فى اللسان (صفن ، أبو) .

«إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ» (31) من الخيل ، والصافن الذي يجمع بين يديه «1» ويثنى طرف سنبك احدى رجليه والسنبك مقدم الحافر وقال بعض العرب : بل الصافن الذي يجمع يديه والذي يرفع طرف سنبك رجله فهو مخيم . .

«إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي» (32) مجازه أحببته : حبّا ثم أضاف الحب إلى الخير . .

«حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ» (32) المعنى للشمس وهى مضمرة . «2» «3»

---

(1) . - 1 - 3 «الصافن . . . يديه» : هذا الكلام فى الطبري 23/ 88 وانظر فتح الباري 6/ 328 .

«قاسم» : الذي ورد اسمه فى الفروق : هو القاسم الجوهري .

(2) . - 472 قطعة بيت لعمرو بن كلثوم راجعه فى مرجعه . [. . . . .]

(3) . - 798 : هو لأبى ذؤيب الهذلي فى ديوان الهذليين 1/ 159]

«فَطَفِقَ مَسْحاً» (33) ما زال يفعل ذاك و«كرب» مثلها مجازها يمسح مسحا والمعنى يضرب، يقال: مسح علاوته أي ضربها . .

«هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي» (35) لا يكون لأحد من بعدي «1»، قال أبو عبيدة: قال الحجاج: إن كان لحسودا، قال ابن أحمر:

ما أم غفر على دعجاء ذى علق ينفى القراميد عنها الأعصم الوقل (611)

فى رأس خلقاء من عنقاء مشرفة لا يبتغى دونها سهل ولا جبل

لا يبتغى أي لا يكون فوقها سهل ولا جبل أحصن منها . .

«بِأَمْرِهِ رُخاءً» (36) أي رخوة لتينة وهى من الرخاوة . .

«حَيْثُ أَصابَ» (36) حيث أراد يقال: أصاب اللّه بك خيرا أي أراد اللّه بك خيرا . .

«الْأَصْفادِ» (38) الأغلال واحدها صفد، والصفد أيضا الغطاء قال الأعشى:

وأصفدنى على الزّمانة قائدا

«2» [799] وبعضهم يقول صفدنى «3».

---

(1). - 5 «لا ينبغى . . . بعدي» قال الطبري 23/ 91: وكان بعض أهل العربية (لعله يريد أبا عبيدة، يوجه معنى قوله: » لا ينبغى . . . بعدي» إلى أن لا يكون لأحد من

بعدي كما قال بن أحمر . البيتان .

(2) . - 799 : ديوانه ص 49 «الإصفاد . . . صفد» : رواه ابن حجر (6/ 326) .

(3) . - 816 : ديوانه 1/ 26]

(233/657)

«أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ» (39) سبيلها سبيلان فأحدهما بغير جزاء والآخر بغير ثواب وبغير منّة ولا قلة «1» . .

«بِنُصْبٍ وَعَذابٍ» (41) قال بشر بن أبى خازم :

تعنّاك نصب من أميمة منصب

«2» [800] أي بلاء وشرّ وقال النابغة :

كلينى لهمّ يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

«3» [801] تقول العرب : أنصبنى أي عذبنى وبرّح بي وبعضهم يقول : نصبنى والنصب إذا فتحت وحرّكت حروفها كانت من الأعياء ، والنصب إذا فتح أولها وأسكن ثانيها واحدة أنصاب الحرم وكل شيء نصبته وجعلته علما يقال : لانصبنّك نصب العود

«4» .

---

(1) . - 1 - 2 «وجهان . . . قلة» : قال الطبري (23/ 94) وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من البصريين (لعله يريد أبا عبيدة) يقول فى قوله بغير حساب . . . ولا قلة . وانظر فتح الباري (6/ 329) .

(2) . - 800 : هذا صدر بيت (فى الطبري 23/ 95 والجمهرة 1/ 299) عجزه : وجاء من الأخبار ما لا يكذب

(3) . - 801 : مطلع القصيدة فى ديوانه وهو فى اللسان (نصب)

(4) . - 3 - 10 «بنصب . . . نصب العود» : قال الطبري (23/ 95) : وقال بعض أهل العلم بكلام العرب من البصريين النصب . . . إلخ .

(234/657)

«ارْكُضْ بِرِجْلِكَ» (42) وهو مختصر والركض هو الدفع بالرجل وهى حركة الرجل ، يقال : ركضنى الدابة ويقال : لم تركض ثوبك برجلك . .

«هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ» (42) وضوء غسول وهو ما اغتسلت به من الماء .

«وَشَرابٌ» (42) أي وتشرب منه والموضع الذي يغتسل فيه يسمّى مغتسلا . .

«وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً» (44) وهو ملء الكف من الشجر أو الحشيش والشّماريخ وما أشبه ذلك «1» «2» «3» قال عوف بن الخرع:

وأسفل منى نهدة قد ربطتها وألقيت ضغثا من خلى متطيّب

(356).

«إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ» (46) تنوين خالصة عمل في «ذكرى» . .

«الْأَخْيارِ» (47) والخيار واحد مثل الشّرار والأشرار . .

«أَتْرابٌ» (52) أسنان واحدها [ترب] . .

«مِنْ شَكْلِهِ» (58) من ضربه ما أنت من شكلى ما أنت من ضربى والشكل من المرأة ما علقت مما تحسّن به وتشكّل تغنّج قال رؤبة:

---

(1) . - 575) قد مر تمامه.

(2) . - 802: قطعة بيت لسلامة بن جندل تمامة:

ولى حثيثا وهذا الشيب يتبعه لو كان يدركه ركض اليعاقيب

.

وهو فى اللسان (عقب، ركض).

(3) . - 5 - 6 «ملء . . . ذلك»: قد أخذ الطبري (23/ 96) هذا الكلام ببعض نقص وزيادة مع البيت المستشهد به.

لمّا اكتست «1» من ضرب كل شكل صفرا وخضرا كاخضرار البقل

«2» [803].

«هذا فَوْجٌ» (59) والفوج الفرقة . .

«لا مَرْحَباً بِهِمْ» (59) تقول العرب للرجل: لا مرحبا بك أي لا رحبت عليك أي لا اتسعت قال أبو الأسود:

إذا جئت بوّابا له قال مرحبا ألا مرحب واديك غير مضيّق

«3» [804].

«فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً» (61) أي مضعّفا إليه مثله . .

«أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا» (62) من فتح الأول جعلها استفهاما وجعل «أم» جوابا لها قال طرفة:

أشجاك الرّبع أم قدمه أم رماد دارس حممه

«4» [805] ومن لم يستفهم ففتحها على القطع فإنها خبر ومجاز «أم» مجاز بل وفى القرآن.

«أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ «5»» (43/ 51) مجازها بل أنا خير من هذا

---

(1) . - 10 - من ص 185 «ترب . . . واحد» الذي ورد فى الفروق: قد روى ابن حجر هذا الكلام عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 440) .

(2) . - 803: ديوانه ص 13 .

(3) . - 804: فى شعره المطبوع فى مجلة فى 27/ 391 وديوانه المطبوع ببغداد ص 229 والبيت فى الكتاب 1/ 125 والشنتمرى 1/ 149 والعجز فقط فى الطبري 23/ 103] [. . . . .]

(4) . - 805: ديوانه من الستة ص 72]

(5) . - 7 - 11 «من فتح . . . مهين» الذي ورد فى الفروق: روى هذا الكلام ابن حجر عنه فتح الباري 8/ 420:

(236/657)

لأن فرعون لم يشك فيسأل أصحابه، إنما أوجب لنفسه ومن كسر «سخريا» جعله من الهزء ويسخر به ومن ضمّ أولها جعله من السّخرة يتسخرونهم «1» ويستذلونهم «2» . .

«إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» (83) الذين أخلصهم اللّه والمخلصين الذين أخلصوا . .

«قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ» (84) أقول: نصبها على «قال حقا» ، و«يقول الحق» . انتهى

انتهى. اهـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 176. 187 ﴾

---

(1) . - 1 - 2 «من كسر . . . التسخير» الذي ورد فى الفروق: رواه القرطبي (15/ 225) عن أبى عبيدة.

(2) . - 1 - 2 «من كسر . . . يستذلونهم»: الطبري (23/ 104) روى هذا الكلام عن بعض أهل العلم بالعربية من أهل البصرة لعله يريد أبا عبيدة.

(237/657)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى:

ومن السورة التي يذكر فيها «ص»

[سورة ص (38): آية 12]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (12)

قوله تعالى: وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ [12] وهذه استعارة على بعض الأقوال، وهو أن يكون

معنى ذى الأوتاد يعنى ذو الملك الثابت ، والأمر الواطد ، والأسباب التي بها يثبت السلطان ، كما يثبت الخباء بأوتاده ، ويقوم على عماده .

وقد يجوز أيضا أن يكون معنى ذى الأوتاد ، أي ذو الأبنية المشيّدة ، والقواعد الممهدة ، التي تشبّه بالجبال فى ارتفاع الرءوس ورسوخ الأصول . لأن الجبال تسمى أوتاد الأرض .

قال سبحانه : وَالْجِبالَ أَوْتاداً «1» .

[سورة ص (38) : آية 15]

وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (15)

وقوله سبحانه : وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ [15] .

وقرىء : من فواق «2» بالضم . وقد قيل إنهما لغتان ، وذلك قول الكسائي .

وقال أبو عبيدة : من فتح أراد مالها من راحة ، ومن ضمّ أراد مالها فى إهلاكهم من مهلة بمقدار فواق الناقة ، وهى الوقفة التي بين الحلبتين . والموضع الذي يحقق الكلام بالاستعارة على قراءة من قرأ من فواق بالفتح ، أن يكون سبحانه وصف تلك الصيحة بأنها لا إفاقة من سكرتها ، ولا استراحة من كربتها ، كما يفيق المريض من علته ، والسكران من نشوته . والمراد أنه لا راحة للقوم منها . فجعل سبحانه الراحة لها على طريق المجاز والاتساع . ومثله كثير فى الكلام .

---

(1) فى سورة «عم» قوله تعالى : «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً ، وَالْجِبالَ أَوْتاداً» الآية 7 .

(2) الضم هو قراءة حمزة والكسائي . وبقية القراء قرءوها بفتح الفاء . وقال الجوهري : الفواق بالفتح والفواق بالضم ما بين الحلبتين من الوقت . وفى الحديث الشريف : (العيادة قدر فواق الناقة) انظر «الجامع لأحكام القرآن» ج 15 ص 156 .

(238/657)

[سورة ص (38) : آية 23]

إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ (23)

وقوله سبحانه : إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ ، فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ [23] . وهذا الكلام داخل فى حيّز الاستعارة . لأن النعاج ها هنا كناية عن النساء . وقد جاءت فى أشعارهم الكناية عن المرأة بالشاة ، وعلى ذلك قول الأعشى .

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها «1»

أي : عن امرأته . وقال عنترة :

يا شاة ما قنص لمن حلّت له حرمت علىّ وليتها لم تحرم «2»

وربما سمّوا الظّبية نعجة ، والظّبية شبيهة بالمرأة ، فتكون اللفظة مستعارة على هذا التركيب .

وإنما شبّهت النساء بالنعاج لأن النعاج يرتبطن للاحتلاب والاستنتاج ، والنساء يصطفين للاستمتاع والاستيلاد .

وقوله تعالى فى ذكر الخيل حاكيا عن سليمان عليه السلام لما عرضت عليه ، فكاد أن يفوته للشّغل بها وقت صلاة كان يصلّيها ، فضرب رءوسها وعراقيبها بالسيف ، على ما وردت به الأخبار :

[سورة ص (38) : آية 33]

رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ (33)

رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ [33] وهذه استعارة . لأن المسح ها هنا - فى أكثر أقوال أهل التأويل -

---

(1) هذا البيت من قصيدة للأعشى يمدح بها قيس بن معديكرب . ومطلعها :

رحلت سمية غدوة أجمالها غضبى عليك ، فما تقول بدالها وتبلغ أبياتها 54 بيتا ، كما فى ديوانه الكبير الذي نشرته مكتبة الآداب بتحقيق الدكتور م . محمد حسين - ص 27 .

والعرب تكنى بالشاة عن المرأة والزوجة . والأعشى من شعراء العصر الجاهلى الذين اشتهروا بشعر الخمر ووصف مجالسها وآلاتها مما كان له أثر فى الشعراء بعده كالأخطل

وأبى نواس .

(2) قال ابن مطرف الكناني فى شرح هذا البيت : (يعرض بجارية يقول : أي صيد أنت لمن حل له أن يصيدك ، فأما أنا فإن حرمة الجوار قد حرمتك على) ، وتجد شرحه فى «شرح القصائد العشر» للإمام التبريزي ص 200 . وقال بعض النحاة : إن «ما» زائدة والأصل يا شاة قنص .

(239/657)

كناية عن الضّرب بالسيف . وامتسح رأسه : إذا فعل به ذلك . وهذه الباء ها هنا للإلصاق . فكأنه تعالى قال : وألصق السيف بسوقها وأعناقها . كما يقول القائل : مسحت يدى بالمنديل . أي ألصقتها به . وعلى ذلك قول الشاعر «1» :

نمشّ «2» بأعراف الجياد أكفّنا إذا نحن قمنا عن شواء مضهّب

أي نلصق أيدينا بأعرافها ، كما نلصقها بالمناديل التي تمسح بها الأيدى . وقد صرّح بذلك الشاعر الآخر «3» فقال :

أعرافهنّ لأيدينا مناديل

والشاهد الأعظم على ذلك ما ورد فى التنزيل من قوله سبحانه : وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ

وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ «4» على قراءة من قرأ : وَأَرْجُلَكُمْ حرّا . أي ألصقوا المسح بهذه المواضع . وهذه الآية يستدل بها أهل العراق على أنّ استيعاب الرأس بالمسح ليس بواجب ، خلافا لقول مالك . وقال لى الشيخ أبو بكر محمد

---

(1) هو امرؤ القيس بن حجر الكندي ، أمير شعراء الجاهلية .

(2) فى الأصل «نمس» بالسين المهملة وهو تحريف من الناسخ ، كما أنه ترك كلمة مضهب بدون نقط على الضاد المعجمة . والبيت من بائية امرئ القيس التي يقول فى مطلعها :

خليلى مرا بي على أم جندب نقض لبانات الفؤاد المعذب انظر «شعراء النصرانية» للأب لويس شيخو اليسوعى . ص 23 .

(3) هو عبدة بن الطبيب الشاعر الجاهلى . والبيت كاملا هو :

ثمت قمنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل ويقول ابن قتيبة فى «الشعر والشعراء» إنه أخذه من قول امرئ القيس :

نمش بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

(4) سورة المائدة . الآية رقم 6 .

ابن موسى «1» الخوارزمي - أدام اللّه توفيقه - عند بلوغي عليه فى القراءة من مختصر أبى جعفر الطحاوي «2» إلى هذه المسألة: سألت أبا على الفارسي النحوي «3» وأبا الحسن على ابن عيسى الرماني «4»: هل يقتضى ظاهر الآية إلصاق الفعل بجميع المحل أو بالبعض؟

فقالا جميعا: إذا ألصق الفعل ببعض المحل تناوله الاسم. قال: وهذا يدل على الاقتصار على مسح بعض الرأس كما يقوله أصحابنا.

[سورة ص (38): آية 45]

وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ (45)

وقوله سبحانه: وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ [45]

وهذه استعارة. والمراد بها - واللّه أعلم - أولى القوى فى العبادة، والبصائر فى الطاعة. ولا يجوز أن يكون المراد بالأبصار هاهنا الجوارح والحواس، لأن سائر الناس يشاركون الأنبياء عليهم السلام فى خلق ذلك لهم. ولا يحسن مدح الإنسان بأن له يدا وقدما وعينا وفما. وإنما يحسن أن يمدح بأن له نفسا شريفة، وهمة منيفة، وأفعالا جميلة، وخلالا محمودة.

وقيل أيضا معنى أولى الأيدى: أي أولى النّعم فى الدين، لأن ورود اليد بمعنى النعمة

---

(1) كدت أيأس من الحصول على ترجمة له إلى أن وجدته «فى تاريخ بغداد» ج 3 ص

.247

قالوا : ما شاهد الناس مثله فى حسن الفتوى والإصابة فيها وحسن التدريس ، وقد دعى إلى ولاية الحكم مرارا فامتنع منه . توفى سنة 403 ه أي قبل وفاة الشريف الرضى بثلاث سنوات .

(2) هو الإمام أبو جعفر الطحاوي المصري ، برع فى الفقه والحديث ، وإليه انتهت رياسة الحنفية بمصر ، وتفقه فى مذهب الإمام أبى حنيفة حتى صار إماما . توفى سنة 321 ه

(3) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي كان إماما فى النحو والعربية . وتقدمت ترجمته فى الهامش عند الكلام على سورة طه .

(4) هو مفسر ونحوى كبير ، ولد ببغداد وتوفى بها سنة 384 ه وله كتب «التفسير» و«شرح أصول ابن السراج» و«شرح سيبويه» و«معانى الحروف» وترجمته فى «بغية الوعاة» و«ابن خلكان» و«الأعلام» للزركلى .

(241/657)

مشهور فى كلامهم ، فإنهم أسدوا إلى الناس أيديا بدعايتهم إلى الإيمان ، وافتلاتهم من حبائل الضّلال .

[سورة ص (38) : آية 75]

قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (75)

وأما قوله سبحانه وتعالى فى هذه السورة : ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ [75]

فقد مضى من الكلام على قوله تعالى فى يس : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ «1» ما هو بعينه الكلام على هذا الموضع ، فلا فائدة فى إعادته .

وجملته أن المراد بقوله تعالى : لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ مزية الاختصاص بخلق آدم عليه السلام من غير معونة معين ، ولا مظاهرة ظهير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 278 .

282 ﴾

---

(1) سورة يس . الآية رقم 71 .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة ص

" ص والقرآن ذي الذكر " ذى المكانة والشرف ، يهبهما لمن تبعه كما قال فى آية أخرى " لقد

أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم " . وقد يكون الذكر ما يذهب النسيان والغفلة ، ويورث الانتباه واليقظة " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر " . لكن هناك متكبرين على الحق ، إذا عرض عليهم أخذتهم العزة بالإثم ، وهؤلاء عقباهم الهلاك ، مهما طال المدى ! " وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب " . وقد قيل للرسول تصبيرا وتسلية " اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب " . وهذا أمر جدير بالتأمل . هل عانى داود وسليمان فى شأن الدعوة ما يتدبره الرسول صلى الله عليه وسلم ويأخذ منه الأسوة ؟ والجواب أن هناك أنبياء ملوكا وأنبياء من سواد الناس ، وربما توهم أن المرسلين الملوك مراحون من الأعباء ، وأن الرسل الضعاف الفقراء هم المتعرضون للبلايا . . ! فشرح الله لنبيه أن الكل سواء فى المحنة . وأن أشد الناس بلاء الأنبياء على اختلاف حظوظهم من الدنيا ، وذكر نبتين ملكين هما داود وسليمان وبين ما أصابهما فى أثناء الدعوة من متاعب . وبدأت قصة داود من قوله تعالى " وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق . . " . وشرح المظلوم قصته " إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب . . . " . وسكت الظالم سكوت إقرار وهزيمة . وتكلم

داود قائلا " قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض . . " . وشعر داود أنه

(243/657)

المعنى بهذه القضية ، فقد كانت له زوجات كثيرات ، ومع ذلك خطب فتاة يبدو أن آخر كان يريدها لنفسه ، فلما ظهر هو طاشت كفة الآخر ، وكيف يبقى وقد نافسه ملك نبى ؟ لقد ضمها إلى زوجاته وعاد الآخر محروما . ولم يرض رب العالمين بما حدث ، فأشعر داود بخطئه ، وأثرته " وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب" . إن داود - فى رأينا - كان من الأغنياء الشاكرين . ونحسب أنه توسع فيما أباح الله له توسعا امتدت فيه نفسه ورغباته ، وما كان له أن يمضى فى خطبة امرأة تقدم لها آخر ! ! حتى لو كان هو السابق ، فالأفضل أن ينزل عن حقه . وأيا ما كان الأمر فقد أشعره الله بذنبه ، وعفا عنه . ثم تتابعت النصائح الإلهية ترفعه إلى المكانة التى تليق به " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله " . إن هذا النبى الملك أخطأ وغسل خطأه بدموعه . وقد عثر فى طريق الدعوة عثرة كادت تودى به ، لكن الآلام ردته إلى الله تائبا مقبولا . هل حصنه الملك

والجاه عن خوض هذه التجارب ؟ إن التكذيب والإنكار اللذين عاناهما محمد أسهل من هذا البلاء . . وقد رفع الله شأن محمد بكتاب تضمن صحائف الوحى الأول والأخير ، واستودعه حكما تعصم من الزلل ، وتقود إلى الله ، وتعانق الحق " أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار * كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب " . وقد اتهم اليهود نبيهم بالزنا والقتل . زعموا أنه زنى بامرأة " أوريا " ، وتآمر على قتله حتى يملك المرأة بعد اغتيال رجلها . . ولكن قرآن محمد هو الذى أنصف الرجل الشريف ، ونفى عنه هذه الموبقات ! إن الأنبياء الملوك ليسوا نفرا من الناس أذهب طيباته فى الحياة الدنيا . بل إنهم بذلوا ما يملكون فى سبيل مرضاة الله . وقد رأينا سليمان يعد جيشه لمحاربة اليمن وملكتها بلقيس حتى تدع عبادة

الشمس وتدخل فى عبادة الله الواحد وتعلن إسلامها له " ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين " . وفى هذه السورة يقول الله سبحانه " ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب" . وقد أعد سليمان جيشا من الفرسان للقتال فى سبيل الله ، وكان يستعرض الخيل ليطمئن إلى أهبتها ، وربما استغرق هذا وقتا منه ، ولكنه يعلم أن تربية الخيل للجهاد قربى تستحق

العناية والإقبال " إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد * فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب * ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق" . إنه مسح عطف وإعزاز ، وليس قطع دابرها بالسيف كما ذكر بعض الجاهلين . . وليت قومى يحبون أدوات الحرب على هذا النحو ! إذن لنجوا من الخزى العظيم الذى حل بهم مع فراغ اليد من السلاح ! وحكوا أن سليمان عزم على الطواف بمائة من نسائه . وكن ألفا كما تحكى التوراة . قال: ينجبن مائة فارس يجاهدون فى سبيل الله ! ! وطاف بالمائة فكانت الحصيلة سقط جنين رمى به على كرسيه ! قالوا وذاك معنى الآية " ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب" وفى نفسى شىء من هذه الرواية ؟ فلا الطاقة تسع ، ولا الوقت يكفى ! ولا كل نكاح يثمر ، ولا كل ثمرة تكون فارسا مجاهدا ! ! إن شيئا ما حدث لا أستطيع تحديده جعل سليمان يرجع إلى ربه تائبا مستغفرا . كان سليمان ملكا كبيرا ، والذى نلفت النظر إليه أنه نال هذا الملك من الخدمة الصالحة والعبودية الخاشعة والتوبة السريعة والفقه العميق . ولقد وصفه ربه بذلك كله ، عندما قال فيه "نعم العبد" . ومن منطلق هذه العبودية ، ومن إحساسه بمدى عطاء الله ، طلب المزيد ! إن بصيرته انفتحت على اسم الوهاب ، فرأت البشر وغيرهم يمرحون فى فضول الهبات العليا ، ورأت البر والفاجر يستمدان من عطاء الله ، فطمحت نفسه إلى قطرة من هذا البحر

الدافق ، فدعا : " رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب "
. والحق أنه مع النظر إلى سيب الله لا يقف الطماح

(245/657)

عند حد ، فبحر العطاء يفيض ولا يغيض . ومعنى لا ينبغى لأحد من بعدى - فيما أرجح - لا يبلغه أحد من المنافسين لى ! وكان لسليمان خصوم يطمعون فى ملكه . والرأى الآخر : ملك لا يحصل بشر على مثله . . ! فى حاضر أو مستقبل . " فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل بناء وغواص " .

وقد بقى لسليمان هذا الملك يديره ويتسلط عليه حتى جاءه الموت فوقع من على كرسيه ، وهو يسخر الجن والإنس لأمره ! وقد وعده الله بمستقبل فى الآخرة خير مما لقى فى الدنيا " وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب " . وتضمنت " ص " نبأ أمير آخر من رجال المال والأعمال أصابته نكبة جائحة ذهبت بصحته وماله ، هو أيوب عليه السلام . " واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب " . يعنى أن الشيطان يريد أن يلقى فى نفسه سوء الظن بالله والسخط على ما أصابه ، فإن الشيطان لا يصيب الناس بالأمراض الحسية . وفى سورة الأنبياء " وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم

الراحمين" . فهو يطلب رفع الضر حتى يسد أبواب هذه الوساوس . " اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب " . وقد ساق الله لأيوب الشفاء مما ابتلاه به " ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب " . يعنى أصحاب العقول الذين يستفيدون من العبر ويتوثق رباطهم بالله . . ثم ذكرت السورة أسماء ستة من الأنبياء ، منهم واحد من أولى العزم هو إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب ، ووصفتهم بأنهم أولو الأيدى والأبصار . وهذا الوصف يعطى أن التدين قوة وبصيرة ، وليس وهنا وغباء ، إنه إنسانية رفيعة " إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار * وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار " . والثلاثة الباقون هم إسماعيل واليسع وذو الكفل ، وكلهم من الأخيار . والآيات من أول قوله تعالى " . . . واذكر عبدنا داود ذا الأيد " تفيد أن الذكر الحسن نعمة يفيئها الله على الصالحين من عباده ، يرفع بها قدرهم ويستبقى أخرهم . وقد قيل: الذكر للإنسان

عمر ثان . والمفروض أن المسلم يطلب بعمله وجه ربه لا وجه بشر ، فإذا تقبله الله أحبه ووضع له الحب فى القلوب والثناء على الألسنة . وليس ذلك فقط ! بل هناك الجزاء الهنيء " هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب * جنات عدن مفتحة لهم الأبواب * متكئين

فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب" .

أما أعداء الله وخصوم دعوته ، فلهم جزاء آخر " هذا وإن للطاغين لشر مآب * جهنم يصلونها فبئس المهاد " . وعلى عادة القرآن الكريم فى ذكر مشاهد القيامة ، وما يدور من حوار بين الأتباع والرؤساء يقول الله لأهل جهنم " هذا فوج مقتحم معكم " – من أهل الكفر – "لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ" . وظاهر أن المقتحمين من الأتباع ، وأن الذى رفض الترحيب بهم الرؤساء . ولم يرحبوا بهم وقد أيدوهم فى كفرهم ؟ وطالما حفُّوا بهم وهتفوا لهم ! ! " قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار" . وتشعر بالعجب عندما يقول الطغاة وقد تذكروا الدنيا ، وتذكروا ما كانوا يفعلون بالمستضعفين من المؤمنين " وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار * أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار " إن هؤلاء المستضعفين لهم شأن آخر " في جنات ونهر" . أما المتحاورون من أهل النار ، ففى الدرك الأسفل " إن ذلك لحق تخاصم أهل النار " . ويرتبط آخر السورة بأولها فى قوله تعالى: " قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار" فهذا راجع إلى قول الكافرين عن رسول الله " هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب" . إنه ليس للوجود إلا سيد واحد ، وماعداه عبد له ، وقد قرر محمد هذه الحقيقة بأجلى بيان ولكن الناس غافلون " قل هو نبأ عظيم * أنتم عنه معرضون * ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون * إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين " . يقول

الرسول للناس من أين لى العلم بما يدور فى الملأ الأعلى من حوار ؟ إننى أتلقى ما يجيئنى ، كقول الله له " وما كنت

(247/657)

بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين" . إن الله اختار محمدا ليلقى على قلبه هذا الكتاب ، فيشرح حقيقة التوحيد ، ويرفض كل أنواع التعدد ، ويعلق الناس برب واحد تعنو له الوجوه وترجع إليه الأمور " قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين * إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نبأه بعد حين" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 351.355 ﴾

(248/657)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والخمسون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والخمسون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة ص

وحتى الآية ﴿ 20 ﴾ من نفس السورة

" فصل "

قال السيوطى :

سورة ص

أقول: هذه السورة بعد الصافات ، كطس بعد الشعراء ، وكطه والأنبياء بعد مريم ، وكيوسف بعد هود ، في كونها متممة لها بذكر من بقى من الأنبياء ، ممن لم يذكروا فيها ، فإنه سبحانه ذكر في الصافات نوحاً ، وإبراهيم ، والذبيخ ، وموسى ، وهارون ولوطاً ، وإلياس ، ويونس ، وذكر هنا داود ، وسليمان ، وأيوب ، وأشار إلى بقية من ذكر ، فهي بعدها أشبه شيء بالأنبياء وطس ، بعد مريم والشعراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 128﴾

قوله تعالى ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (3) وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي يعز من انتمى إليه وإن كان ضعيفا لأنه العزيز

(الرحمن) الذي له القدرة التامة على أن يرحم بالضراء كما يرحم بالسراء (الرحيم) الذي أكرم أهل وده ، بالإعانة على لزوم شكره وحمده .

ولما نزه ربنا سبحانه نفسه الأقدس في ختام تلك عن كل شائبة نقص ، وأثبت له كل كمال ناصاً على العزة ، وأوجب للمرسلين السلامة ، افتتح هذه بالإشارة إلى دليل ذلك بخذلان من ينازع فيه

فقال : ﴿ ص ﴾ أي إن أمرك – يا من أمرناه باستفتاء العصاة آخر الصافات وبشرناه بالنصر – مهيأ مع الضعف الذي أنتم به الآن والرخاوة والإطباق ، وعلو وانتشار يملأ الآفاق ﴿ والقرآن ﴾ أي الجامع – مع البيان لكل خير – لأتباع لا يحصيهم العد ، ولا يحيط بهم الحد .

ولما كان القسم لا يليق ولا يحسن إلا بما يعتقد المقسم له شرفه قال : ﴿ ذي الذكر ﴾ أي الموعظة والتذكير بما يعرف ، والعلو والشرف والصدق الذي لا ريب فيه عند كل أحد ، فكل من سمعه اعتقد شرفه وصدق الآتي به ليملأن شرفه المنزل عليه الأقطار ، وليزيدن على كل مقدار ، كما تقدمت الدلالة عليه بالحرف الأول ، والذين كفروا وإن أظهروا الشك في ذلك وانتقصوه قولاً فإنهم لا ينتقصونه علماً ﴿ بل الذين كفروا ﴾ بما يظهرون من تكذيبه ﴿ في عزة ﴾ أي عسر وصعوبة ومغالبة بحمية الجاهلية مظروفون لها ، فهي معمية لهم عن الحق لإحاطتهم بهم ، وأنثها إشارة إلى ضعفها ، وبشارة بسرعة زوالها وانقلابها إلى ذل ﴿ وشقاق ﴾ أي إعراض وامتناع واستكبار على قبول الصدق من لساني الحال الذي أفصح به الوجود ، والقال الذي صرح به الذكر فهداهم إلى ما هو في فطرهم وجبلاتهم

بأرشق عبارة وأوضح إشارة لو كانوا يعقلون ، فأعرضوا عن تدبره عناداً منهم لا اعتقاداً فإنهم لا يكذبوك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، وتنكيرهما للتعظيم ، قال الرازي : حذف الجواب ليذهب فيه القلب كل مذهب ليكون أغزر وبحوره أزخر - انتهى .

(8/658)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما ذكر تعالى حال الأمم السالفة مع أنبيائهم في العتو والتكذيب ، وأن ذلك أعقبهم الأخذ الوبيل والطويل ، كان هذا مظنة لتذكير حال مشركي العرب وبيان سوء مرتكبهم وأنهم قد سبقوا إلى ذلك الارتكاب ، فحل بالمعاند سوء العذاب ، فبسط حال هؤلاء وسوء مقالهم ليعلم أنه لا فرق بينهم وبين مكذبي الأمم السالفة في استحقاق العذاب وسوء الانقلاب ، وقد وقع التصريح بذلك في قوله تعالى ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ﴾ إلى قوله : ﴿ إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ ولما أتبع سبحانه هذا بذكر استعجالهم في قوله ﴿ عجل لنا قطناً قبل يوم الحساب ﴾ أتبع ذلك بأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالصبر فقال ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ ثم آنسه بذكر الأنبياء وحال المقربين الأصفياء ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ - انتهى .

ولما كان للعلم الذي أراد الله إظهاره في هذا الوجود طريقان : حال ومقال ، فأما الحال فهو ما تنطق به أحوال الموجودات التي أبدعها سبحانه في هذا الكون من علوم يدرك منها من أراد الله ما أراد ، وأما المقال فهو هذا الذكر الذي هو ترجمة عن جميع الوجود ، وكان سبحانه قد قدم الذكر لأنه أبين وأظهر ، وأخبر أنهم أعرضوا عنه وشاققوه ، وكان من شاقق الملك استحق الهلاك ، وكان ما أبدوه من المغالبة أمراً غائظاً للمؤمنين ، أتبعه ما يصلح لتخويف الكافرين وترجية المؤمنين مما أفصح به لسان الحال من إهلاك المنذرين ، وهو أبين ما يكون من دلالاته ، وأظهر ما يوجد من آياته ، فقال استئنافاً : ﴿كم أهلكنا﴾ وكأن المنادين بما يذكر كانوا بعض المهلكين ، وكانوا أقرب المهلكين إليهم في الزمان ، فأدخل الجار لذلك ، فقال دالاً على ابتداء الإهلاك : ﴿من قبلهم﴾ وأكد كثرتهم بقوله مميزاً : ﴿من قرن﴾ أي كانوا في شقاق مثل شقاقهم ، لأنهم كانوا في نهاية الصلابة والحدة والمنعة - بما دل عليه " قرن " .

(9/658)

ولما تسبب عن مسهم بالعذاب دلهم قال جامعاً على معنى " قرن " لأنه أدل على عظمة الإهلاك : ﴿فنادوا﴾ أي بما كان يقال لهم : إنه سبب للنجاة من الإيمان والتوبة ،

واستعانوا بمن ينقذهم ، أو فعلوا النداء ذعراً ودهشة من غير قصد منادي ، فيكون الفعل لازماً ، وقال الكلبي : كانوا إذا قاتلوا فاضطروا تنادوا " مناص " أي عليكم بالفرار ، فأجيبوا بأنه لا فرار لهم .

ولما قرر سبحانه في غير موضع أن التوبة لا تنفع إلا عند التمكن والاختيار لا عند الغلبة والاضطراب ، قال تعالى مؤكداً لهذا المعنى في جملة حالية بزيادة التاء التي أصلها هاء في " لا " أو في " حين " كما أكدوا بزيادتها في رب وثم ، والهاء في أراق والتاء في مثال والان فقالوا : ربت وثمت وأهراق وتمثال وتالان ﴿ ولات ﴾ أي وليس الحين ﴿ حين مناص ﴾ أي فراراً بتحرك بتقدم ولا تأخر ، بحركة قوية ولا ضعيفة ، فضلاً عن نجاة ، قال ابن برجان : والنوص يعبر به تارة عن التقدم وتارة عن التأخر وهو كالجماح والنفار من الفرس ، ونوص حمار رفعه رأسه كأنه نافر جامح .

ولما كان جعل المنذر منهم ليس محلاً للعجب فعدوه عجباً لما ظهر من تقسيمهم القول فيه ، عجب منهم في قوله : ﴿ وعجبوا أن ﴾ أي لأجل أن ﴿ جاءهم ﴾ ولما كان تعجبهم من مطلق نذارته لا مبالغته فيها أتى باسم الفاعل دون فعيل فقال : ﴿ منذر منهم ﴾ أي من البشر ثم من العرب ثم من قريش ولم يكن من الملائكة مثلاً وكان ينبغي لهم أن لا يعجبوا من ذلك فإن كون النذير بما يحل من المصائب من القوم المنذرين – مع كونه أشرف لهم – أقعد في

النذارة لأنهم أعرف به وبما هو منطو عليه من صدق وشفقة وغير ذلك ، وهو الذي جرت به العوائد في القديم والحديث لكونهم إليه أميل ، فهم لكلامه أقبل .

(10/658)

ولما كانوا أعرف الناس بهذا النذير ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أنه أصدقهم لهجة وأعلاهم همة وأنه منفي عنه كل نقيصة ووصمة ، زاد في التعجيب بأن قال معبراً بالواو دون الفاء لأن وصفهم له بالسحر ليس شبيه هذا العجب : ﴿ وقال ﴾ ولما كانوا يسترون الحق مع معرفتهم إياه فهم جاحدون لا جاهلون ، ومعاندون لا غافلون ، أظهر موضع الإضمار إشارة إلى ذلك وإيذاناً بشديد غضبه في قوله : ﴿ الكافرون هذا ﴾ أي النذير .

ولما كان ما يبديه من الخوارق إعجازاً فعلاً وقولاً يجذب القلوب ، وكان أقرب ما يقدحون به فيه السحر قذفوه به ولم يعبروا بصيغة مبالغة لئلا يكون ذلك إيضاحاً جاذباً للقلوب إليه فقالوا : ﴿ ساحر ﴾ أي لأنه يفرق بما أتى به بين المرء وزوجه ، فاعترفوا – مع نسبتهم له إلى السحر وهم يعلمون أنهم كاذبون في ذلك – أن ما أتى به فوق ما لهم من القوى ﴿ كذاب ﴾ أي في ادعائه أن ما سحر به حق ليس هو كسحر السحرة ، وأتوا بوقاحة

بصيغة المبالغة وقد كانوا قبل ذلك يسمونه الأمين وهم يعلمون أنه لم يتجدد له شيء إلا إتيانه بأصدق الصدق وأحق مع ترقيه في معارج الكمال من غير خفاء على أحد له أدنى تأمل .

(11/658)

ولما ذكر قولهم الناشىء عن عجبهم ، ذكر سببه ليعلم أن حالهم هو الذي يعجب منه لا حال من أنذرهم بقوله حاكياً قولهم إنكاراً لمضمون ما دخل عليه : ﴿أجعل﴾ أي صير بسبب ما يزعم أنه يوحى إليه ﴿الآلهة﴾ أي التي نعبدها ﴿إلهاً واحداً﴾ ولما كان الكلام في الإلهية التي هي أعظم أصول الدين ، وكان هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكل من تبعه بل وكل منصف ينكرون أن يكون هذا عجباً ، بل العجب كل العجب ممن يقبل عقله أن يكون الإله أكثر من واحد ، أكدوا قولهم لذلك وإعلاماً لضعفائهم تثبيتاً لهم بأنهم على غاية الثقة والاعتقاد لما يقولون ، لم يزلزلهم ما رأوا من منذرهم من الأحوال الغريبة الدالة ولا بد على صدقه ، فسموها سحراً لعجزهم عنها : ﴿إن هذا﴾ أي القول بالوحدانية ﴿لشيء عجاب﴾ أي في غاية العجب – بما دلت عليه الضمة والصيغة ، ولذلك قرئ شاذاً بتشديد الجيم ، وهي أبلغ قال الاستاذ أبو القاسم القشيري : فلا هم عرفوا الإله ولا معنى الإلهية فإن الإلهية هي القدرة على الاختراع ، وتقدير القادرين على الاختراع غير

صحيح لما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه ، وذلك يمنع من كمالهما ، ولو لم يكونا كاملي الوصف لم يكونا إلهين ، وكل أمر جر ثبوته سقوطه فهو باطل مطرح - انتهى .

وستأتي الإشارة إلى الرد عليهم بقوله : ﴿ العزيز الوهاب ﴾ ثم بقوله : ﴿ وما من إله إلا الله الواحد القهار ﴾ .

(12/658)

ولما كان العجب فكيف بالعجاب جديراً بأن يلزم صاحبه ليزداد الناظر عجباً ، بين أنهم فعلوا خلاف ذلك تصديقاً لمن نسبهم إليه من الشقاق فقال : ﴿ وانطلق ﴾ ولما كان ما فعلوه لا يفعله عاقل فربما ظن السامع أن المنطلق منهم أسقاط من الناس من غيرهم قال : ﴿ الملأ ﴾ أي الأشراف ، وقال : ﴿ منهم ﴾ أي لا من غيرهم فكيف بالأسقاط منهم وكيف بغيرهم ، ثم حقق الانطلاق مضمناً له القول لأنه من لوازمه بقوله : ﴿ أن امشوا ﴾ أي قائلاً كل منهم لذلك آمراً لنفسه ولصاحبه بالجد في المفارقة حالاً ومقالاً ، وإذا وقف على " أن " ابتدئ بكسر الهمزة لأن أصله : امشيوا فالثالث مكسور كما أنه لو قيل لأمرأة : اغزي يبتدأ بالضم لأن الأصل : اغزوي كاخرجي ﴿ واصبروا على آلهتكم ﴾ أي لزوم عبادتها وعدم الالتفات إلى ما سواها ، قال القشيري : وإذا تواصى الكفار فيما بينهم

بالصبر على آلهتهم فالمؤمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة في دينهم .

ولما كان كل منهم قد أخذ ما سمعه من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلب وسلب لبه ، على ما أشار إليه " ذي الذكر بل " فهو خائف من صاحبه أن يكون قد استحال عن اعتقاد التعدد بما يعرف من تزحزحه في نفسه ، أكدوا قولهم : ﴿ إن هذا ﴾ أي الصبر على عبادة الآلهة ﴿ لشيء يراد ﴾ أي هو أهل للإرادة فهو أهل لئلا ينفك عنه ، أو الذي يدعو إليه شيء يريده هو ولا نعلم نحن ما هو على ما نحن عليه من الحذق ، فهو شيء لا يعلم في نفسه .

(13/658)

ولما كان كأنه قيل : فما حال ما يقوله ؟ قالوا جواباً واقفاً مع التقليد والعادة التي وجدوا عليها أسلافهم : ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أي الذي تذكره من الوحدانية ﴿ في الملة الآخرة ﴾ وتقييدهم لها يدل على أنهم عالمون به في الملة الأولى ، وأنهم عارفون بأن إبراهيم عليه السلام ومن وجد من أولاده الذين هم آباؤهم إلى عمرو بن لحي كانوا بعيدين من الشرك ملازمين للتوحيد وأنه لا شبهة لهم إلا كونه سبحانه لم يغير عليهم في هذه المدد الطوال ، وكانوا أيضاً يعرفون البعث ولكنهم تناسوه ، ذكر ابن الفرات في تأريخه يوم حليمة من أيام

العرب وقال : إن حجر بن عمرو آكل المرار سار إلى بني أسد فقتلهم وسيرهم إلى تهامة

فقال عبيد بن الأبرص من أبيات :

ومنعتهم نجداً فقد حلوا على وحل تهامه . . .

أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامه . . .

(14/658)

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إن أول من سيب السوايب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر وأني رأيته يجر أمعاءه في النار " وروى الطبراني عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " أول من غير دين إبراهيم عليه السلام عمرو بن لحي بن قمية " وروى البخاري في فتح مكة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخرج من البيت صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في أيديهما الأزلام فقال : " قاتلهم الله ! لقد علموا ما استقسما بها قط " فبطل ما يقال من أن أهل الفترة جهلوا جهلاً أسقط عنهم اللوم ، ويؤيده ما في الصحيح عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً قال : يا رسول الله ! أين أبي ؟ قال : " في النار ، فلما قفى دعاه فقال : إن أبي وأباك في النار "

أخرجه مسلم في آخر كتاب الإيمان ، وقد مر في سبحان في قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ ما ينفع هنا ، والقاطع للنزاع في هذا قوله ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ [النحل : 36] فما تركت هذه الآية أحداً حتى شملته وحكمت عليه بالجنة أو النار .

(15/658)

ولما كان قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده جديراً بأن يزلزلهم فكيف إذا انضم إليه علمهم بأن أسلافهم لا سيما إسماعيل وأبوه إبراهيم عليهما السلام كانوا عليه ، أكدوا قولهم : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هذا ﴾ أي الذي يقوله ﴿ إلا اختلاق ﴾ أي تعمد الكذب مع أنه لا ملازمة بين عدم سماعهم فيها وبين كونه اختلاقاً ، بل هو قول يعرف معانيه بأدنى تأمل ، روى الترمذي – وقال : حسن صحيح – والنسائي وابن حبان في صحيحه وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبري وابن أبي حاتم وغيرهم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : مرض أبو طالب فجاءته قريش ، وجاءه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعند أبي طالب مجلس رجل فقام أبو جهل كي يمنعه ، قال : وشكوه ألى أبي طالب – زاد النسائي في

الكبير وأبو يعلى : وقالوا : يقع في آلهتنا فقال : يا ابن أخي ! ما تريد من قومك ؟ قال : " أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم الجزية ، قال : كلمة واحدة ، قال : كلمة واحدة ، فقال : وما هي ؟ فقال : يا عم ، قولوا " لا إله إلا الله " فقالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن إلا اختلاق ، قال : فنزل فيهم القرآن " ﴿ ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفورا في عزة وشقاق ﴾ إلى قوله : ﴿ اختلاق ﴾ وفي التفاسير أنهم قالوا : كيف يسع الخلق كلهم إله واحد .

(16/658)

ولما كان مرادهم بهذه التأكيدات الدلالة على أنهم في غاية الثبات على ما كانوا عليه قبل دعائه ، وأبى الله أن يبقى باطلاً بغير إمارة يقرنه بها تفضحه ، وسلطان يبطله ويهتكه ، أتبع ذلك حكاية قولهم الذي جعلوه دليلاً على حرمهم ، فكان دالاً على عدم صدقهم في هذا الحكم الجازم غاية الجزم بالاختلاق المنادى عليهم بأن أصل دائهم والحامل لهم على تكذيبهم إنما هو الحسد ، فقال دالاً بتعبيرهم بالإنزال على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان جديراً بأن يتوهم فيه النبوة بما كان له قبل الوحي من التعبد والأحوال الشريفة وقدموا ما يدل على اختصاصه عناداً لما يعلمون من أحواله المقتضية للخصوصية بخلاف ما يذكر في

القمر ، وعبروا بحرف الاستعلاء إشارة إلى أن مثل هذا الذي يذكره لا يقوله إلا من غلب على عقله فقالوا : ﴿ أءنزل عليه ﴾ أي خاصة ﴿ الذكر ﴾ أي الذي خالف ما نحن عليه وصار يذكر به ، وزادوا ما دلوا به على الاختصاص تصريحاً فقالوا : ﴿ من بيننا ﴾ ونحن أكبر سناً وأكثر شيئاً ، وهذا كله كما ترى مع مناداته عليهم بالحسد العظيم ينادي عليهم غاية المناداة بالفضيحة ، لأنه إن كان المدار على رعاية حق الآباء حتى لا يسوغ لأحد تغيير دينهم والطعن عليهم بدين محدث وإن قامت عليه الأدلة وتعاضدت على حقيته البراهين فما لآبائهم غيروا دين آبائهم لأجل ما أحدثه عمرو بن لحي - شخص ليس من قبيلتهم ، وشهدوا على آبائهم بالضلال وهم عالمون بأن ما غيروه دين إسماعيل ومن قبله إبراهيم ومن تبعهما من صالحي أولادهما عليهم السلام ، وإن كان المدار على المحدث حتى ساغ تغيير دين الأنبياء ومن تبعهم بإحسان عليهم السلام بما أحدثه عمرو بن لحي فما لهم لا يغيرون ما ابتدع من الضلال بما أتاهم به النبي - صلى الله عليه وسلم - وسموه محدثاً ، وإن كان المدار على الحق فما لهم لا ينظرون الأدلة ويتبعون الحجج .

(17/658)

ولما كان هذا دالاًّ على أنهم ليسوا على ثقة مما جزموا به قال : ﴿ بل ﴾ أي إنهم ليسوا جازمين بما قالوا وإن أكدوه غاية التأكيد ، بل ﴿ هم في شك ﴾ أي تردد محيط بهم مبتدئ لهم ﴿ من ذكري ﴾ أي فلهذا لا يثبتون فيه على قول واحد ، أي إن أحوالهم في أقوالهم وأفعالهم أحوال الشاك .

وعدل عن مظهر العظمة إلى الإفراد لأن هذا السياق للتوحيد فالإفراد أولى به وليكون نصاً على المراد بعد ذكر آلهتهم قطعاً لشبه متعنتيهم .

ولما كانوا في الحقيقة على ثقة من حقيقته وإن كان قولهم وفعلهم قول الشاك قال : ﴿ بل ﴾ أي ليسوا في شك منه في نفس الأمر وإن كان قولهم قول من هو في شك .

ولما كانوا قد جرت لهم مصايب ومحن ، وشدائد وفتن ، ربما : ظنوا أنه لا يكون شيء من العذاب فوقها ، نفى أن يكونوا ذاقوا شيئاً من عذابه الذي يرسله عند إرادة الانتقام ، فعبر بما يفيد استغراق النفي في جميع الزمن الماضي فقال : ﴿ لما يذوقوا ﴾ من أول أمرهم إلى الآن ﴿ عذاب ﴾ أي الذي أعددته للمكذبين فهم في عزة وشقاق ، ولو ذاقوه لانحلت عرى عزائمهم ، وصاروا أذل شيء وأحقره أدناه وأصغره ! وإطباق أهل الرسم وأكثر القراء على حذف يائه رسماً وقراءة إشارة إلى أنه العذاب الأدنى المذهب لحمية الجاهلية ، وإثبات يعقوب وحده لها في الحالين إشارة إلى أنه العذاب المعد لإهلاك الأمم الطاغية لا مطلق العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 356 . 363 ﴾

(18/658)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ أو أنزل ﴾ بالواو مثل ﴿ أونبئكم ﴾ [الآية : 15] في آل عمران ﴿ عذابي ﴾ و ﴿ عقابي ﴾ بالياء في الحالين : يعقوب والسرندي عن قنبل وافق سهل وعباس في الوصل ﴿ أيكة ﴾ مذكور في " الشعراء " ﴿ من فواق ﴾ بضم الفاء : حمزة وعلي وخلف . الباقون : بالفتح ﴿ ولي نعجة ﴾ بفتح الياء : حفص والأعشى والبرجمي ﴿ فتناه ﴾ بتخفيف النون على أنه مثنى والضمير للخصمين : عباس ﴿ لتدبروا ﴾ بحذف إحدى التاءين على أنه خطاب : يزيد والأعشى والبرجمي . الباقون : على الغيبة وإدغام تاء التفعل في الدال ﴿ إني أحببت ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو من بعدي بالفتح ابو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ والرياح ﴾ مجموعة : يزيد .

(19/658)

الوقوف: ﴿ ذي الذكر ﴾ ط ﴿ وشقاق ﴾ 5 ﴿ مناص ﴾ 5 ﴿ منهم ﴾ ز لتصريح ذكر الكافرين مع إمكان الاكتفاء بالضمير وقد اتفقت الجملتان ﴿ كذاب ﴾ ج للاستفهام واتحاد العامل ﴿ واحداً ﴾ ج لمثل ما مر ﴿ عجاب ﴾ 5 ﴿ آلهتكم ﴾ ج لما مر ﴿ يراد ﴾ ج 5 لذلك ﴿ الآخرة ﴾ ج لذلك ﴿ اختلاق ﴾ 5 ج لما قلنا ﴿ من بيننا ﴾ ط ﴿ من ذكري ﴾ 5 لعطف الجملتين المختلفتين والابتداء بالتهديد ﴿ عذاب ﴾ 5 لأن "أم" بمعنى ألف استفهام إنكار ﴿ الوهاب ﴾ 5 ج "أم" تصلح ابتداء إنكار ﴿ الأسباب ﴾ 5 ﴿ الأحزاب ﴾ 5 ﴿ الأوتاد ﴾ 5 لا ﴿ الأيكة ﴾ ط ﴿ الأحزاب ﴾ 5 ﴿ عقاب ﴾ 5 ﴿ فواق ﴾ 5 ﴿ الحساب ﴾ 5 ﴿ الأيد ﴾ ج للابتداء بإن ولاحتمال التعليل ﴿ أوّاب ﴾ 5 ﴿ والإشراق ﴾ 5 ﴿ أوّاب ﴾ 5 ﴿ الخطاب ﴾ 5 ﴿ الخصم ﴾ م لأن "إذ" ليس بظرف للإتيان ولتناهي الاستفهام إلى الأمر أي اذكر إذ تسوّروا ﴿ المحراب ﴾ 5 لا لأن "إذ" بدل من الأولى ﴿ لا تخف ﴾ ج لحق الحذف أي نحن خصمان مع اتحاد المقول ﴿ الصراط ﴾ 5 ﴿ في الخطاب ﴾ 5 ﴿ نعاجه ﴾ ج ﴿ ما هم ﴾ ط ﴿ وأناب ﴾ 5 ﴿ ذلك ﴾ ط ﴿ مآب ﴾ 5 ﴿ عن سبيل الله ﴾ الأولى ط ﴿ الحساب ﴾ 5 ﴿ باطلاً ﴾ ط ﴿ كفروا ﴾ ج للابتداء بالتهديد مع فاء التعقيب ﴿ النار ﴾ 5 ج لأن "أم" لاستفهام إنكار. ﴿ كالفجار ﴾ 5 ﴿ الألباب ﴾ 5 ﴿ سليمان ﴾ ط ﴿ العبد ﴾ ط ﴿ أوّاب ﴾ 5 لا والأصح

الوقف والتقدير : اذكر إذ فإِن أوُبَهُ غير مقيد بل مطلق الجياد 5 لا للعطف ﴿ ربي ﴾ ج لاحتمال أن " حتى " للابتداء وأن تكون لانتهاء الحب أي آثرت حب الخير حتى توارت ﴿ بالحجاب ﴾ 5 لحق الحذف تقديره : قال ردّوها عليّ فطفق . ﴿ والأعناق ﴾ 5 ﴿ أناب ﴾ 5 ﴿ بعدي ﴾ لا لاحتمال أن يكون التقدير فإنك ﴿ الوهاب ﴾ 5 ﴿ اصاب ﴾ 5 ﴿ وغوّاص ﴾ 5 ﴿ الأصفاد ﴾ 5 ﴿ حساب ﴾ 5 ﴿ مآب ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 581.582 ﴾

(20/658)

فصل

قال الفخر :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الكلام المستقصى في أمثال هذه الفواتح مذكور في أول سورة البقرة ولا بأس بإعادة بعض الوجوه فالأول : أنه مفتاح أسماء الله تعالى التي أولها صاد ، كقولنا صادق الوعد ، صانع

المصنوعات ، صمد والثاني : معناه صدق محمد في كل ما أخبر به عن الله الثالث : معناه صد الكفار عن قبول هذا الدين ، كما قال تعالى : ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [النحل : 88] الرابع : معناه أن القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضة القرآن ، فدل ذلك على أن القرآن معجز الخامس : أن يكون صاد بكسر الدال من المصادة وهي المعارضة ومنها الصدى وهو ما يعارض صوتك في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة ، ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه السادس : أنه اسم السورة والتقدير هذه صاد ، فإن قيل ههنا إشكالان أحدهما : أن قوله : ﴿ والقرءان ذِى الذكر ﴾ قسم وأين المقسم عليه ؟ والثاني : أن كلمة (بل) تقتضي رفع حكم ثبت قبلها ، وإثبات حكم بعدها يناقض الحكم السابق ، فأين هذا المعنى ههنا ؟ والجواب : عن الأول من وجوه الأول : أن يكون معنى صاد ، بمعنى صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، فيكون صاد هو المقسم عليه ، وقوله : ﴿ والقرءان ذِى الذكر ﴾ هو القسم الثاني : أن يكون المقسم عليه محذوفاً ، والتقدير سورة (ص والقرآن ذي الذكر) أنه لكلام معجز ، لأنا بينا أن قوله ﴿ ص ﴾ تنبيه على التحدي والثالث : أن يكون صاد اسماً للسورة ، ويكون التقدير هذه ص والقرآن ذي الذكر ، ولما كان المشهور ، أن محمداً عليه السلام يدعي في هذه السورة كونها معجزة ، كان قوله هذه ص جارياً مجرى قوله : هذه هي السورة المعجزة ، ونظيره قولك هذا حاتم والله ، أي هذا

هو المشهور بالسخاء والجواب : عن السؤال الثاني أن الحكم المذكور قبل كلمة ﴿ بَلِ ﴾ (1) أما ما ذكره المفسر كون محمد صادقاً في تبليغ الرسالة أو كون القرآن أو هذه السورة معجزة والحكم

---

(1) الحكم الذي قبل كلمة (بل) هو وصف القرآن بأنه تذكير لهم بوجوب التوحيد والإيمان بالله ورسله واليوم الآخر وكل ما تفيده كلمة ذي الذكر وهذا هو الحكم المتبادر من ظاهر الآية ، وبهذا يكون للإضراب ببل معنى ويجري الكلام على الأساليب العرابية . فهو قبيل الاستنتاج والاعتماد على ما جاء بعد (بل) من الآيات والإضراب لا يكون عن حكم لم يذكر .

(21/658)

المذكور بعد كلمة ﴿ بَلِ ﴾ ههنا هو المنازعة والمشاقة في كونه كذلك فحصل المطلوب ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

قرأ الحسن صاد بكسر الدال لأجل التقاء الساكنين ، وقرأ عيسى بن عمر بنصب صاد ونون وبحذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم الله لأفعلن ، وأكثر القراء على الجزم لأن

الأسماء العارية عن العوامل تذكر موقوفة الأواخر .

المسألة الثالثة :

في قوله ذي الذكر وجهان الأول : المراد ذي الشرف ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 10] ومجاز هذا من قولهم لفلان ذكر في الناس ، كما يقولون له صيت الثاني : ذي البيانين أي فيه قصص الأولين ، والآخرين ، وفيه بيان العلوم الأصلية والفرعية ومجازه من قوله :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرءان لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 22] .

المسألة الرابعة :

قالت المعتزلة القرآن ذي الذكر والذكر محدث بيان الأول : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ [الأنبياء : 50] ﴿ والقرءان ذِى الذكر ﴾ [ص : 1] ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ [يس : 69] وبيان الثاني : قوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء : 2] وقوله ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن الرحمن مُحْدَثٍ ﴾ والجواب : أنا نصرف دليلكم إلى الحروف والأصوات وهي محدثه .

أما قوله : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ ﴾ فالمراد منه الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الإجماع على الحسد والكبر على الإنقياد إلى الحق ، والعزة ههنا التعظيم وما يعقده الإنسان في نفسه من الأحوال التي تمنعه من متابعة الغير لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتق الله أَخَذَتْهُ العزة بالإثم ﴾ [البقرة : 206] والشقاق هو إظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف أو على جهة الفضلية عليه ، وهو مأخوذ من الشق كأنه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه في شق وخصمه في شق ، فيريد أن يكون في شقة نفسه ولا يجري عليه حكم خصمه ، ومثله المعاداة وهو أن يكون أحدهما في عدوة والآخر في عدوة ، وهي جانب الوادي ، وكذلك المحادة أن يكون هذا في حد غير حد الآخر ، ويقال انحرف فلان عن فلان وجانب فلان فلاناً أي صار منه على حرف وفي جانب غير جانبه ، والله أعلم ، ثم إنه تعالى لما وصفهم بالعزة والشقاق خوفهم فقال : ﴿ كَم أَهْلَكْنَا قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ فَنَادَواْ ﴾ والمعنى أنهم نادوا عند نزول العذاب في الدنيا ولم يذكر بأي شيء نادوا ، وفيه وجوه الأول : وهو الأظهر أنهم نادوا بالاستغاثة لأن نداء من نزل به العذاب ليس إلا بالاستغاثة الثاني : نادوا بالإيمان والتوبة عند معاينة العذاب الثالث : نادوا أي رفعوا أصواتهم ، يقال فلان أندى صوتاً من فلان أي ارفع صوتاً ، ثم قال : ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ يعني ولم يكن ذلك الوقت وقت فرار من العذاب وهو كقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا

قالوا آمنا ﴾ [غافر : 84] وقال : ﴿ حتى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بالعذاب إِذَا هُمْ يَجْئَرُونَ ﴾ [المؤمنون : 64] والجؤار رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة وكقوله : ﴿ ءالئَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ [يونس : 91] وقوله : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمانهم لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 85] بقي ههنا أبحاث :

(23/658)

البحث الأول : في تحقيق الكلام في لفظ ﴿ لات ﴾ زعم الخليل وسيبويه أن لات هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتأكيد ، وبسبب هذه الزيادة حدثت لها أحكام جديدة ، منها أنها لا تدخل إلا على الأحيان ، ومنها أن لا يبرز إلا أحد جزءيها ، إما الاسم وإما الخبر ويمتنع بروزهما جميعاً ، وقال الأخفش إنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء ، وخصت بنفي الأحيان ﴿ وَحِينَ مَنَاصٍ ﴾ منصوب بها كأنك قلت ولات حين مناص لهم ويرتفع بالابتداء أي ولات حين مناص كائن لهم .

البحث الثاني : الجمهور يقفون على التاء من قوله : ﴿ وَّلَاتَ ﴾ والكسائي يقف عليها بالهاء كما يفق على الأسماء المؤنثة ، قال صاحب "الكشاف" : وأما قول أبي يعبيدة التاء داخلة على الحين فلا وجه له ، واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين في مصحف عثمان

فضعيف فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط .

البحث الثالث : المناص المنجا والغوث ، يقال ناصه إذا أغاثه ، واستناص طلب المناص ، والله أعلم .

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4)

(24/658)

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة فقال : ﴿ وَعَجِبُواْ أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ في قوله : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ وجهان الأول : أنهم قالوا : إن محمداً مساو لنا في الخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة والنسب والشكل والصورة ، فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي والدرجات الرفيعة والثاني : أن الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال جهالتهم ، وذلك لأنه جاءهم رجل يدعوهم إلى التوحيد وتعظيم الملائكة والترغيب في الآخرة ، والتنفير عن الدنيا ، ثم إن هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيداً من الكذب والتهمة ؛ وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ، ثم إن هؤلاء الأقوام لحماقتهم يتعجبون من قوله ، ونظيره قوله : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [المؤمنون : 69] فقال : ﴿ وَعَجِبُواْ أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ ومعناه أن

محمداً كان من رهطهم وعشيرتهم وكان مساوياً لهم في الأسباب الدنيوية فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه ، وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله وأن يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة ، وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب إلا الحسد .

(25/658)

ثم قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الكافرون هذا ساحر كَذَّابٌ ﴾ وإنما لم يقل وقالوا بل قال : ﴿ وَقَالَ الكافرون ﴾ إظهاراً للتعجب ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام ، فإن الساحر هو الذي يمنع من طاعة الله ويدعو إلى طاعة الشيطان ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام ، فإن الساحر هو الذي يمنع من طاعة الله ويدعو إلى طاعة الشيطان وهو عندكم بالعكس من ذلك والكذاب هو الذي يخبر عن الشيء لا على ما هو عليه وهو يخبر عن وجود الصانع القديم الحكيم العليم وعن الحشر والنشر وسائر الأشياء التي تثبت بدلائل العقول صحتها فكيف يكون كذاباً ، ثم إنه تعالى حكى جميع ما عولوا عليه في إثبات كونه كاذباً وهي ثلاثة أشياء أحدها : ما يتعلق بالإلهيات وثانيها : ما يتعلق بالنبوات وثالثها : ما يتعلق بالمعاد ، أما الشبهة المتعلقة بالإلهيات فهي قولهم : ﴿ أَجَعَلَ

الآلهة إلها واحدا إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ روي أنه لما أسلم عمر فرح به المسلمون فرحاً شديداً وشق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم ومشوا إلى أبي طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يعنون المسلمين فجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك ، فقال صلى الله عليه وسلم ماذا يسألونني ، قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أتعطوني أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم ؟ قالوا نعم ، قال تقولوا لا إله إلا الله ، فقاموا وقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا وَأَنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ أي بليغ في التعجب وأقول منشأ التعجب من وجهين الأول : هو أن القوم ما كانوا من أصحاب النظر والاستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا في الشاهد

(26/658)

أن الفاعل الواحد لا تفي قدرته وعلمه بحفظ الخلق العظيم قاسوا الغائب على الشاهد ، فقالوا : لا بد في حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفل كل واحد منهم بحفظ نوع آخر

الوجه الثاني : أن أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا جاهلين مبطلين ، وهذا الإنسان الواحد يكون محقاً صادقاً ، وأقول لعمري لو سلمنا إجراء حكم الشاهد على الغائب من غير دليل وحجة ، لكانت الشبهة الأولى لازمة ، ولما توافقنا على فسادها علمنا أن إجراء حكم الشاهد على الغائب فاسد قطعاً ، وإذا بطلت هذه القاعدة فقد بطل أصل كلام المشبهة في الذات وكلام المشبهة في الأفعال ، أما المشبهة في الذات فهو أنهم يقولون لما كان كل موجود في الشاهد يجب أن يكون جسماً ومختصاً بحيز وجب في الغائب أن يكون كذلك ، وأما المشبهة في الأفعال فهم المعتزلة الذين يقولون إن الأمر الفلاني قبيح منا ، فوجب أن يكون قبيحاً من الله ، فثبت بما ذكرنا أنه إن صح كلام هؤلاء المشبهة في الذات وفي الأفعال لزم القطع بصحة شبهة هؤلاء المشركين ، وحيث توافقنا على فسادها علمنا أن عمدة كلام المجسمة وكلام المعتزلة باطل فاسد .

وأما الشبهة الثانية فلعمري لو كان التقليد حقاً لكانت هذه الشبهة لازمة وحيث كانت فاسدة علمنا أن التقليد باطل بقي ههنا أبحاث :

البحث الأولى : أن العجاب هو العجيب إلا أنه أبلغ من العجيب كقولهم طويل وطوال وعريض وعراض وكبير وكبار وقد يشدد للمبالغة كقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ [نوح : 22] .

الثاني : قال صاحب "الكشاف" قرىء عجاب بالتخفيف والتشديد فقال والتشديد أبلغ من التخفيف كقوله تعالى : ﴿ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ .

(27/658)

ثم قال تعالى : ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا وَاْصْبِرُواْ على ءالِهَتِكُمْ ﴾ قد ذكرنا أن الملأ عبارة عن القوم الذين إذا حضروا في المجلس فإنه تمتلىء القلوب والعيون من مهابتهم وعظمتهم ، قوله : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي من قريش انطلقوا عن مجلس أبي طالب ، بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض ﴿ أَنِ امشوا واصبروا على آلهتكم ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : القراءة المشهورة (أن امشوا) وقرأ ابن أبي عبلة امشوا بحذف أن ، قال صاحب : "الكشاف" (أن) بمعنى أي لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما يجري في المجلس المتقدم ، فكان انطلاقهم مضمناً معنى القول ، وعن ابن عباس : وانطلق الملأ منهم يمشون .

البحث الثاني : معنى أن امشوا أنه قال بعضهم لبعض امشوا واصبروا ، فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد ، إن هذا لشيء يراد ، وفيه ثلاثة أوجه أحدها : ظهور دين محمد صلى الله

عليه وسلم ليس له سبب ظاهر يثبت أن تزايد ظهوره ، ليس إلا لأن الله يريده ، وما أراد الله كونه فلا دافع له وثانيها : أن الأمر كشيء من نوائب الدهر فلا انفكاك لنا منه وثالثها : أن دينكم لشيء يراد أي يطلب ليؤخذ منكم ، قال القفال هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف وكأن معناها أنه ليس غرض محمد من هذا القول تقرير الدين ، وإنما غرضه أن يستولى علينا فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد .

(28/658)

ثم قال : ﴿ مَّا سَمِعْنَا بهذا فِي الملة الأخرة ﴾ والملة الآخرة هي ملة النصارى فقالوا إن هذا التوحيد الذي أتي به محمد صلى الله عليه وسلم ما سمعناه في دين النصارى ، أو يكون المراد بالمراد بالملة الآخرة ملة قريش التي أدركوا آباءهم عليها ، ثم قالوا : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ﴾ افتعال وكذب ، وحاصل الكلام من هذا الوجه أنهم قالوا نحن ما سمعنا عن أسلافنا القول بالتوحيد ، فوجب أن يكون باطلاً ، ولو كان القول بالتقليد حقاً لكان كلام هؤلاء المشركين حقاً ، وحيث كان باطلاً علمنا أن القول بالتقليد باطل .

أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (8)

(29/658)

اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لأولئك الكفار وهي الشبهة المتعلقة بالنبوات وهي قولهم إن محمداً لما كان مساوياً لغيره في الذات والصفات والخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة فكيف يعقل أن يختص هو بهذه الدرجة العالية والمنزلة الشريفة ؟ وهو المراد من قولهم : ﴿ أأنزل عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ فإنه استفهام على سبيل الإنكار ، وحكى الله تعالى عن قوم صالح أنهم قالوا مثل هذا القول فقالوا : ﴿ أأُلقي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِر ﴾ [القمر : 25] وحكى الله تعالى عن قوم محمد صلى الله عليه وسلم أيضاً أنهم قالوا : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] وتمام الكلام في تقرير هذه الشبهة : أنهم قالوا النبوة أشرف المراتب ، فوجب أن لا تحصل إلا لأشرف الناس ومحمد ليس أشرف الناس ، فوجب أن لا تحصل له والنبوة ، والمقدمتان الأوليان حقيتان لكن الثالثة كاذبة وسبب رواج هذا التغليط عليهم أنهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان وذلك باطل ، فإن مراتب السعادة ثلاثة أعلاها هي النفسانية وأوسطها هي البدنية وأدونها هي الخارجية وهي المال والجاه ، فالقوم عكسوا القضية وظنوا بأخس المراتب أشرافها فلما وجدوا المال والجاه عند غيره أكثر ظنوا أن غيره أشرف منه ، فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد في أفكارهم ، ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجوه الأول : قوله تعالى : ﴿ بَل هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ وفيه

وجهان أحدهما : أن قوله : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ﴾ أي من الدلائل التي لو نظروا فيها لزال هذا الشك عنهم وذلك لأن كل ما ذكروه من الشبهات فهي كلمات ضعيفة وأما الدلائل التي تدل بنفسها على صحة نبوته ، فهي دلائل قاطعة فلو تأملوا حق التأمل في الكلام لوقفوا على ضعف الشبهات التي تمسكوا بها في إبطال النبوة ، ولعرفوا صحة الدلائل

(30/658)

الدالة على صحة نبوته ، فحيث لم يعرفوا ذلك كان لأجل أنهم تركوا النظر والاستدلال ، فأما قوله تعالى : ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ فموقعه من هذا الكلام أنه تعالى يقول هؤلاء إنما تركوا النظر والاستدلال لأني لم أذقهم عذابي ، ولو ذاقوه لم يقع منهم إلا الإقبال على أداء المأمورات والانتهاء عن المنهيات وثانيها : أن يكون المراد من قوله : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ﴾ هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم من عذاب الله لو أصروا على الكفر ، ثم إنهم أصروا على الكفر ، ولم ينزل عليهم العذاب ، فصار ذلك سبباً لشكهم في صدقه ، وقالوا : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السماء ﴾ [الأنفال : 32] فقال : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ﴾ معناه ما ذكرناه ، وقوله

تعالى : ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ معناه أن ذلك الشك إنما حصل بسبب عدم نزول العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 152 . 157 ﴾

(31/658)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ص ﴾

قراءة العامة "صا" بجزم الدال على الوقف ؛ لأنه حرف من حروف الهجاء مثل : "الاما" و "الامار" .

وقرأ أبيّ بن كعب والحسن وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم "صادِ" بكسر الدال بغير تنوين .

ولقراءته مذهبان : أحدهما أنه من صادى يصادي إذا عارض ، ومنه ﴿ فَأَنتَ لَهُ تصدى ﴾ [عبس : 5] أي تعرّض .

والمصاداة المعارضة ، ومنه الصَّدَى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية .

فالمعنى صادِ القرآنَ بعملك ؛ أي عارضه بعملك وقابله به ، فاعمل بأوامره ، وانته عن نواهيه .

النحاس : وهذا المذهب يروى عن الحسن أنه فسر به قراءته رواية صحيحة .

وعنه أن المعنى اتله وتعرّض لقراءته .

والمذهب الآخر أن تكون الدال مكسورة لالتقاء الساكنين .

وقرأ عيسى بن عمر "صاد" بفتح الدال مثله : "قافَ" و "نونَ" بفتح آخرها .

وله في ذلك ثلاثة مذاهب : أحدهنّ أن يكون بمعنى اتل .

والثاني أن يكون فتح لالتقاء الساكنين واختار الفتح للإتباع ؛ ولأنه أخفّ الحركات .

والثالث أن يكون منصوباً على القسم بغير حرف ؛ كقولك : اللَّه لأفعلنّ ، وقيل : نصب على الإغراء .

وقيل : معناه صادَ محمدٌ قلوب الخلق واستمالها حتى آمنوا به .

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً "صادٍ" بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضاً على حذف حرف القسم ، وهذا بعيد وإن كان سيبويه قد أجاز مثله .

ويجوز أن يكون مشبهاً بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها .

وقرأ هارون الأعور ومحمد بن السَّمَيْقَع : "صادُ" و "قافُ" و "نونُ" بضم آخرهن ؛ لأنه المعروف بالبناء في غالب الحال ، نحو منذُ وقطُ وقبلُ وبعدُ .

و "صا" إذا جعلته اسما للسورة لم ينصرف ؛ كما أنك إذا سميت مؤنثاً بمذكر لا ينصرف وإن قلّت حروفه .

وقال ابن عباس وجابر بن عبد اللّه وقد سئلا عن "صا" فقالا : لا ندري ما هي .

وقال عكرمة : سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن "صا" فقال : "صا" كان بحراً بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار .

(32/658)

وقال سعيد بن جبير : "صا" بحر يُحيي اللّه به الموتى بين النفختين .

وقال الضحاك : معناه صدق اللّه .

وعنه أن "صا" قسم أقسم اللّه به وهو من أسمائه تعالى .

وقال السدي ، وروي عن ابن عباس .

وقال محمد بن كعب : هو مفتاح أسماء اللّه تعالى صمدُ وصانعُ المصنوعات وصادقُ الوعد .

وقال قتادة : هو اسم من أسماء الرحمن .

وعنه أنه اسم من أسماء القرآن .

وقال مجاهد : هو فاتحة السورة .

وقيل : هو مما استأثر اللّه تعالى بعلمه ، وهو معنى القول الأوّل .

وقد تقدّم جميع هذا في "البقرة" .

قوله تعالى : ﴿ والقرآن ﴾ خفض بواو القسم والواو بدل من الباء ؛ أقسم بالقرآن تنبيهاً على جلالة قدره ؛ فإن فيه بيان كل شيء ، وشفاء لما في الصدور ، ومعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ ذِي الذكر ﴾ خفض على النعت وعلامة خفضه الياء ، وهو اسم معتل والأصل فيه ذَوَى على فَعَل .

قال ابن عباس ومقاتل معنى "ذِي الذِّكْرِ" ذي البيان .

الضحاك : ذي الشرف أي من آمن به كان شرفاً له في الدارين ؛ كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ أي شرفكم .

وأيضاً القرآن شريف في نفسه لإعجازه واشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره .

وقيل : "ذِي الذِّكْرِ" أي فيه ذكر ما يحتاج إليه من أمر الدين .

وقيل : "ذِي الذِّكْرِ" أي فيه ذكر أسماء اللّه وتمجيده .

وقيل : أي ذي الموعظة والذكر .

وجواب القسم محذوف .

واختلف فيه على أوجه : فقيل جواب القسم "صا" ؛ لأن معناه حقّ فهي جواب لقوله : ﴿ والقرآن ﴾ كما تقول : حقًّا واللّهِ ، نزل واللّهِ ، وجب واللّهِ ، ؛ فيكون الوقف من هذا

الوجه على قوله : ﴿ والقرآن ذِي الذكر ﴾ حسَنًا ، وعلى "فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ" تماما .

قاله ابن الأنباري .

وحكى معناه الثعلبي عن الفراء .

(33/658)

وقيل : الجواب "بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ" لأن "بل" نفي لأمر سبق وإثبات لغيره ؛ قاله القتبيّ ؛ فكأنه قال : ﴿ والقرآن ذِي الذكر بَلِ الذين كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ عن قبول الحق وعداوة لمحمد صلى الله عليه وسلم .

أو "وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ" ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب ؛ لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة بل هم في تكبر عن قبول الحق .

وهو كقوله : ﴿ ق والقرآن المجيد بَلْ عجبوا ﴾ [ق : 1] .

وقيل : الجواب "كَمْ أَهْلَكْنَا" كأنه قال : والقرآنِ لَكَمْ أهلكنا ؛ فلما تأخرت "كَمْ" حذفت اللام منها ؛ كقوله تعالى : ﴿ والشمس وَضُحَاهَا ﴾ [الشمس : 1] ثم قال : "قَدْ أَفْلَحَ" أي لقد أفلح .

قال المهدوي : وهذا مذهب الفراء .

ابن الأنباري : فمن هذا الوجه لا يتم الوقف على قوله : "فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ" .

وقال الأخفش : جواب القسم ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص : 14]

ونحو منه قوله تعالى : ﴿ تالله إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 97] وقوله : ﴿ والسمآء والطارق - إِن كُلُّ نَفْسٍ ﴾ [الطارق : 1-4] .

ابن الأنباري : وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما وكثرت الآيات والقصص .

وقال الكسائي : جواب القسم قوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ [ص : 64] .

ابن الأنباري : وهذا أقبح من الأوّل ؛ لأن الكلام أشدّ طولاً فيما بين القسم وجوابه .

وقيل الجواب قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص : 54] .

وقال قتادة : الجواب محذوف تقديره "وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ" لتبعثنّ ونحوه .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ ﴾ أي في تكبر وامتناع من قبول الحق ؛ كما قال جل وعز : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتق الله أَخَذَتْهُ العزة بالإثم ﴾ [البقرة : 206] والعزّة عند العرب : الغَلَبة والقَهْر .

(34/658)

يقال : من عَزَّ بَزَّ ؛ يعني من غَلَب سَلَب .

ومنه : "وَعَزَّنِي فِي الخِطْابِ" أراد غلبني .

وقال جرير :

يَعُزُّ عَلَى الطريقِ بِمَنْكِبيهِ . . .

كما ابترك الخَلِيعُ على القِداحِ

أراد يغلب .

﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أي في إظهار خلاف ومباينة .

وهو من الشَّق كأنّ هذا في شَقّ وذلك في شَقّ .

وقد مضى في "البقرة" مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أي من قوم كانوا أمنع من هؤلاء .

و"كَمْ" لفظة التكثير ﴿ فَنَادَوا ﴾ أي بالاستغاثة والتوبة .

والنداء رفع الصوت ؛ ومنه الخبر : " أَلقِه على بلالٍ فإنّه أَنْدى منك صوتاً " أي أرفع .

﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال الحسن : نادوا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل .

النحاس : وهذا تفسير منه لقوله عز وجل : ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ فأما إسرائيل فروى عن أبي إسحاق عن التميمي عن ابن عباس : "وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ" قال : ليس بحين نَزْوٍ ولا فِرار ؛ قال : ضُبِط القوم جميعاً قال الكلبي : كانوا إذا قاتلوا فاضطروا قال بعضهم لبعض

مناص ؛ أي عليكم بالفرار والهزيمة ، فلما أتاهم العذاب قالوا مناص ؛ فقال اللّه عز وجل : ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال القشيري : وعلى هذا فالتقدير : فنادوا مناص فحذف لدلالة بقية الكلام عليه ؛ أي ليس الوقت وقت ما تنادون به .

وفي هذا نوع تحكم ؛ إذ يبعد أن يقال : كل من هلك من القرون كانوا يقولون مناص عند الاضطرار .

وقيل : المعنى "وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ" أي لا خلاص وهو نصب بوقوع لا عليه .

قال القشيري : وفيه نظر لأنه لا معنى على هذا للواو في "وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ" وقال الجرجاني : أي فنادوا حين لا مناص ؛ أي ساعة لا منجىً ولا فوت .

(35/658)

فلما قدم "لا" وأخّر "حين" اقتضى ذلك الواو ، كما يقتضي الحال إذا جعل ابتداء وخبرا ؛ مثل قولك جاء زيد راكباً ؛ فإذا جعلته مبتدأ وخبرا اقتضى الواو مثل جاءني زيد وهو راكب ، فحين ظرف لقوله : ﴿ فَنَادَوا ﴾ .

والمناص بمعنى التأخر والفِرار والخلاص ؛ أي نادوا لطلب الخلاص في وقت لا يكون لهم فيه خلاص .

قال الفرّاء :

أَمِنْ ذكر ليلى إذ نَأَتكَ تَنُوصُ . . .

يقال : ناص عن قِرْنه يَنُوص نَوْصاً ومناصاً أي فرَّ وزاغ .

النحاس : ويقال : ناص ينوص إذا تقدم .

قلت : فعلى هذا يكون من الأضداد ، والنَّوْص الحمار الوحشي .

واستناص أي تأخر ؛ قاله الجوهري .

وتكلم النحويون في "وَلاَتَ حِينَ" وفي الوقف عليه ، وكثّر فيه أبو عبيدة القاسم بن سلاّم في كتاب القراءات وكل ما جاء به إلا يسيراً مردود .

فقال سيبويه : "لات" مشبّهة بليس والاسم فيها مضمر ؛ أي ليست أحياننا حين مناص .

وحكي أن من العرب من يرفع بها فيقول : ولات حِينُ مناصٍ .

وحكي أن الرفع قليل ويكون الخبر محذوفاً كما كان الاسم محذوفاً في النصب ؛ أي ولات حينُ مناصٍ لنا .

والوقف عليها عند سيبويه والفراء "ولات" بالتاء ثم تبتدىء "حِينَ مَنَاصٍ" وهو قول ابن كيسان والزجاج .

قال أبو الحسن بن كيسان : والقول كما قال سيبويه ؛ لأنه شبهها بليس فكما يقال ليست يقال لات .

والوقوف عليها عند الكسائي بالهاء ولَاْه .

وهو قول المبردّ محمد بن يزيد .

وحكى عنه علي بن سليمان أن الحجة في ذلك أنها دخلت عليها الهاء لتأنيث الكلمة ، كما يقال ثُمَّهْ ورُبَّهْ .

وقال القشيري : وقد يقال ثُمَّتْ بمعنى ثُمَّ ، ورُبَّتْ بمعنى رُبَّ ؛ فكأنهم زادوا في لا هاء فقالوا لاه ، كما قالوا في ثُمَّ ثُمَّهْ ثم عند الوصل صارت تاء .

وقال الثعلبي : وقال أهل اللغة : و "لاَتَ حِينَ" مفتوحتان كأنهما كلمة واحدة ، وإنما هي "لا" زيدت فيها التاء نحو ربّ وربّتْ ، وثمّ وثُمّتْ .

قال أبو زبيد الطائي :

(36/658)

طَلَبُوا صُلْحَنا ولاَتَ أَوَانِ . . .

فأَجَبْنَا أَنْ ليس حينَ بقَاءِ

وقال آخر :

تذكَّر حُبَّ ليلى لاَتَ حِينَا . . .

وأمسى الشَّيْبُ قد قَطَعَ الْقَرينا

ومن العرب من يخفض بها ؛ وأنشد الفراء :

فَلَتَعْرِفَنّ خَلائقًا مَشْمُولَةً . . .

ولَتَنْدَمَنَّ ولاَتَ ساعةِ مَنْدَمِ

وكان الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش يذهبون إلى أن "وَلاَتَ حِينَ" التاء منقطعة من حين ، ويقولون معناها وليست .

وكذلك هو في المصاحف الجدد والعتق بقطع التاء من حين .

وإلى هذا كان يذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلاّم : الوقف عندي على هذا الحرف "ولا" والابتداء "تحين مناصٍ" فتكون التاء مع حين .

وقال بعضهم : "لات" ثم يبتدىء فيقول : "حين مناصٍ" .

قال المهدوي : وذكر أبو عبيد أن التاء في المصحف متصلة بحين وهو غلط عند النحويين ، وهو خلاف قول المفسرين .

ومن حجة أبي عبيد أن قال : إنا لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان والآن ؛

وأنشد لأبي وَجْزَةَ السعدي :

العاطفُون تَحِينَ ما مِنْ عاطِفٍ . . .

والمُطْعِمون زَمانَ أَيْنَ الْمُطْعِمُ

وأنشد لأبي زبيد الطائي :

طلبوا صلحنا ولا تأوانِ . . .

فأجبنا أن ليس حين بقاءِ

فأدخل التاء في أوان .

قال أبو عبيد : ومن إدخالهم التاء في الآن ، حديث ابن عمر وسأله رجل عن عثمان بن عفان رضي اللّه عنه ، فذكر مناقبه ثم قال : اذهب بها تَلاَنَ معك .

وكذلك قول الشاعر :

نَوِّلِي قَبل نأْيِ دَارِي جُمانا . . .

وصِلِينا كما زَعمْتِ تَلاناً

قال أبو عبيد : ثم مع هذا كله إني تعمدت النظر في الذي يقال له الإمام مصحف عثمان فوجدت التاء متصلة مع حين قد كتبت تحين .

قال أبو جعفر النحاس : أما البيت الأول الذي أنشده لأبي وجزة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه ، كلها على خلاف ما أنشده ؛ وفي أحدها تقديران ؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد :

العاطِفونَ ولاتَ ما مِن عاطِفٍ . . .

والرواية الثانية :

العاطِفونَ ولاَتَ حِينَ تَعاطفٍ . . .

والرواية الثالثة رواها ابن كيسان :

العاطِفونَةَ حِينَ ما مِن عاطِفٍ . . .

جعلها هاء في الوقف وتاء في الإدراج ، وزعم أنها لبيان الحركة شبهت بهاء التأنيث .

الرواية الرابعة :

العاطِفونهُ حين ما مِن عاطِفٍ . . .

وفي هذه الرواية تقديران ؛ أحدهما وهو مذهب إسماعيل بن إسحاق أن الهاء في موضع نصب ؛ كما تقول : الضاربون زيداً فإذا كنّيت قلت الضاربوه .

وأجاز سيبويه في الشعر الضاربونهُ ، فجاء إسماعيل بالتأنيث على مذهب سيبويه في إجازته مثله .

والتقدير الآخر العاطفونهْ على أن الهاء لبيان الحركة ، كما تقول : مرّ بنا المسلمونهْ في الوقف .

ثم أجريت في الوصل مجراها في الوقف ؛ كما قرأ أهل المدينة : ﴿ مَآ أغنى عَنّي مَالِيَهْ هَلَكَ

عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة : 28 29] وأما البيت الثاني فلا حجة له فيه ؛ لأنه يوقف عليه (ولات أوان) غير أن فيه شيئاً مشكلاً ؛ لأنه يروى (ولات أوانِ) بالخفض ، وإنما يقع ما بعد لات مرفوعاً أو منصوباً .

وإن كان قد روي عن عيسى بن عمر أنه قرأ "ولاتِ حِينِ مناصِ" (بكسر التاء من لات والنون من حين فإن الثبت عنه أنه قرأ "ولاتِ حينَ مناص") فبنى "لاتِ" على الكسر ونصب "حين" .

فأما "ولاَتَ أوانِ" ففيه تقديران ؛ قال الأخفش : فيه مضمر أي ولات حين أوان .

قال النحاس : وهذا القول بيّن الخطأ .

والتقدير الآخر عن أبي إسحاق قال : تقديره ولات أواننا فحذف المضاف إليه فوجب ألا يعرب ، وكسره لالتقاء الساكنين .

وأنشده محمد بن يزيد (ولات أوانُ) بالرفع .

وأما البيت الثالث فبيت مولّد لا يعرف قائله ولا تصح به حجة .

على أن محمد بن يزيد رواه (كما زعمت الآن) .

وقال غيره : المعنى كما زعمت أنت الآن .

فأسقط الهمزة من أنت والنون .

وأما احتجاجه بحديث ابن عمر ، لما ذكر للرجل مناقب عثمان فقال له : اذهب بها تَلاَنَ إلى أصحابك فلا حجة فيه ؛ لأن المحدّث إنما يروي هذا على المعنى .

والدليل على هذا أن مجاهداً يروي عن ابن عمر هذا الحديث وقال فيه : اذهب فاجهد جهدك .

ورواه آخر : اذهب بها الآن معك .

وأما احتجاجه بأنه وجدها في الإمام "تحِينَ" .

فلا حجة فيه ؛ لأن معنى الإمام أنه إمام المصاحف فإن كان مخالفاً لها فليس بإمام لها ، وفي المصاحف كلها "وَلاَتَ" فلو لم يكن في هذا إلا هذا الاحتجاج لكان مقنعاً .

وجمع مناص مناوص .

قوله تعالى : ﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ "أن" في موضع نصب والمعنى من أن جاءهم .

قيل : هو متصل بقوله : ﴿ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ أي في عزة وشقاق وعجبوا ، وقوله : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ معترض .

وقيل : لا بل هذا ابتداء كلام ؛ أي ومن جهلهم أنهم أظهروا التعجب من أن جاءهم منذر منهم .

﴿ وَقَالَ الكافرون هذا سَاحِرٌ ﴾ أي يجيء بالكلام المموَّه الذي يخدع به الناس ؛ وقيل : يفرق بسحره بين الوالد وولده والرجل وزوجته ﴿ كَذَّابٌ ﴾ أي في دعوى النبوّة .

قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً ﴾ مفعولان أي صيّر الآلهة إلها واحداً .

﴿ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ أي عجيب .

وقرأ السلمي : "عُجَّابٌ" بالتشديد .

والعُجَاب والعُجّاب والعَجَب سواء .

وقد فرّق الخليل بين عَجِيب وعُجَاب فقال : العَجِيب العَجَب ، والعُجَاب الذي قد تجاوز حدّ العَجَب ، والطويل الذي فيه طول ، والطُّوال ، الذي قد تجاوز حدّ الطُّول .

وقال الجوهري : العَجِيب الأمر الذي يتعجّب منه ، وكذلك العُجَاب بالضم ، والعُجّاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة .

وقال مقاتل : "عُجَّابٌ" لغة أزد شنوءة .

(39/658)

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : " مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه ، وجاء النبي صلى الله عليه وسلم ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كي يمنعه ،

قال : وشكوه إلى أبي طالب ، فقال : يا بن أخي ما تريد من قومك ؟ فقال : "يا عم إنما أريد منهم كلمة تذلّ لهم بها العرب وتؤدّي إليهم بها الجزيةَ العجم" فقال : وما هي ؟ قال : "لا إله إلا اللّه" قال : فقالوا "أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلها وَاحِداً" قال : فنزل فيهم القرآن ﴿ ص والقرآن ذِي الذكر بَلِ الذين كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ﴾ " خرّجه الترمذي أيضاً بمعناه .

وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وقيل : " لما أسلم عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه شق على قريش إسلامه فاجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا : اقض بيننا وبين ابن أخيك .

فأرسل أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا بن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء ، فلا تمل كل الميل على قومك .

قال : "وماذا يسألونني" قالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أتعطونني كلمة واحدة وتملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم"فقال أبو جهل : للّه أبوكا لنعطينكها وعشر أمثالها .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "قولوا لا إله إلا اللّه" فنفروا من ذلك وقاموا " ؛ فقالوا : "أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلها واحِداً" فكيف يسع الخلق كلهم إله واحد .

فأنزل اللّه فيهم هذه الآيات إلى قوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا ﴾ "الملأ" الأشراف ، والانطلاق الذهاب بسرعة ؛ أي انطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول عليه السلام يقول بعضهم لبعض : "أَن امشوا" أي امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه ﴿ وَاصْبِرُواْ على آلِهَتِكُمْ ﴾ .

وقيل هو إشارة إلى مشيهم إلى أبي طالب في مرضه كما سبق .

(40/658)

وفي رواية محمد بن إسحاق أنهم أبو جهل بن هشام ، وشيبة وعُتبة أبناء ربيعة بن عبد شمس ، وأميّة بن خلف ، والعاص بن وائل ، وأبو مُعيط ؛ جاءوا إلى أبي طالب فقالوا : أنت سيدنا وأنصفنا في أنفسنا ، فاكفنا أمر ابن أخيك وسفهاء معه ، فقد تركوا آلهتنا وطعنوا في ديننا ؛ " فأرسل أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : إن قومك يدعونك إلى السواء والنَّصَفَة .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إنما أدعوهم إلى كلمة واحدة" فقال أبو جهل وعشرا . قال : "تقولون لا إله إلا الله" فقاموا وقالوا : "أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلها وَاحِداً" " الآيات .

﴿ أَنِ امشوا ﴾ في موضع نصب والمعنى بأن امشوا .

وقيل : "أن" بمعنى أي ؛ أي "وانطلق الْمَلأُ مِنْهُمْ" أي امشوا ؛ وهذا تفسير انطلاقهم لا أنهم

تكلموا بهذا اللفظ .

وقيل : المعنى انطلق الأشراف منهم فقالوا للعوام : "امشوا واصبروا عَلَى آلِهَتِكُمْ" أي على عبادة آلهتكم "إِنَّ هَذَا" أي هذا الذي جاء به محمد عليه السلام ﴿ لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ أي يراد بأهل الأرض من زوال نعم قوم وغير تنزل بهم .

وقيل : ﴿ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ كلمة تحذير ؛ أي إنما يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا ، ونكون له أتباعاً فيتحكم فينا بما يريد ، فاحذروا أن تطيعوه .

وقال مقاتل : إن عمر لما أسلم وقوي به الإسلام شقّ ذلك على قريش فقالوا : إن إسلام عمر في قوّة الإسلام لشيء يراد .

قوله تعالى : ﴿ مَا سَمِعْنَا بهذا فِى الملة الآخرة ﴾ قال ابن عباس والقرظيّ وقتادة ومقاتل والكلبيّ والسديّ : يعنون ملّة عيسى النصرانية وهي آخر الملل .

والنصارى يجعلون مع اللّه إلها .

وقال مجاهد وقتادة أيضاً : يعنون ملة قريش .

وقال الحسن : ما سمعنا أن هذا يكون في آخر الزمان .

وقيل : أي ما سمعنا من أهل الكتاب أن محمداً رسول حقّ .

﴿ إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ﴾ أي كذب وتخرّص ؛ عن ابن عباس وغيره .

يقال : خلق واختلق أي ابتدع .

وخلق اللّه عز وجل الخلق من هذا ؛ أي ابتدعهم على غير مثال .

قوله تعالى : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ هو استفهام إنكار ، والذكر ها هنا القرآن .

أنكروا اختصاصه بالوحي من بينهم ؛ فقال اللّه تعالى : ﴿ بْل هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ﴾

أي من وحي القرآن .

أي قد علموا أنك لم تزل صدوقاً فيما بينهم ، وإنما شكُّوا فيما أنزلته عليك هل هو من عندي أم لا .

﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ أي إنما اغتروا بطول الإمهال ، ولو ذاقوا عذابي على الشرك لزال عنهم الشك ، ولما قالوا ذلك ؛ ولكن لا ينفع الإيمان حينئذ .

و"لَمَّا" بمعنى لم وما زائدة كقوله : ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ [المؤمنون : 40] و ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ ﴾ [النساء : 155] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) ﴾

﴿ ص ﴾ بالسكون على الوقف عند الجمهور ، وقرأ أبي .

والحسن .

وابن أبي إسحاق وأبو السماء .

وابن أبي عبلة .

ونصر بن عاصم ﴿ صاد ﴾ بكسر الدال ؛ والظاهر أنه كسر لالتقاء الساكنين وهو حرف من حروف المعجم نحو ﴿ تَعْمَلُونَ ق ﴾ و ﴿ ن ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه أمر من صادي أي عارض ، ومنه الصدى وهو ما يعارض الصوت الأول ويقابله بمثله في الأماكن الخالية والأجسام الصلبة العالية ، والمعنى عارض القرآن بعملك أي إعمل بأوامره ونواهيه ، وقال عبد الوهاب : أي أعرضه على عملك فانظر أين عملك من القرآن ، وقيل هو أمر من صادى أي حادث ، والمعنى حادث القرآن ، وهو رواية عن الحسن أيضاً وله قرب من الأول .

وقرأ عيسى .

ومحبوب عن أبي عمرو .

وفرقة ﴿ صاد ﴾ بفتح الدار ، وكذا قرؤا قاف ونون بالفتح فيهما فقيل هو لالتقاء

الساكنين أيضاً طلباً للخفة ، وقيل هو حركة إعراب على أن ﴿ صاد ﴾ منصوب بفعل مضمر أي اذكر أو اقرأ صاد أو بفعل القسم بعد نزع الخافض لما فيه من معنى التعظيم المتعدي بنفسه نحو الله لأفعلن أو مجرور بإضمار حرف القسم ، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث بناء على أنه علم للسورة ، وقد ذكر الشريف أنه إذا اشتهر مسمى بإطلاق لفظ عليه يلاحظ المسمى في ضمن ذلك اللفظ وأنه بهذا الاعتبار يصح اعتبار التأنيث في الاسم .

وقرأ ابن أبي إسحاق في رواية ﴿ صاد ﴾ بالجر والتنوين ، وذلك إما لأن الثلاثي الساكن الوسط يجوز صرفه بل قيل إن الأرجح ، وإما لاعتبار ذلك اسماً للقرآن كما هو أحد الاحتمالات فيه فلم يتحقق فيه العلتان فوجب صرفه ، والقول بأن ذاك لكونه علماً لمعنى السورة لا للفظها فلا تأنيث فيه مع العلمية ليكون هناك علتان لا يخلو عن دغدغة .

وقرأ ابن السميقع .

وهرون الأعور .

(43/658)

والحسن في رواية ﴿ صاد ﴾ بضم الدال ، وكأنه اعتبر اسماً للسورة وجعل خبر مبتدأ محذوف أي هذه صاد ، ولهم في معناه غير متقيدين بقراءة الجمهور اختلاف كاضرابه من أوائل السور ، فأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال : سئل جابر بن عبد الله وابن عباس عن ﴿ العالمين ص ﴾ فقالا : ما ندري ما هو ، وهو مذهب كثير في نظائره ، وقال عكرمة : سئل نافع بن الأزرق عبد الله بن عباس عن ﴿ ص ﴾ فقال : ص كان بحراً بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار .

وقال ابن جبير : هو بحر يحيي الله تعالى به الموتى بين النفختين ، والله تعالى أعلم بصحة هذين الخبرين .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال ﴿ ص ﴾ صدق الله ، وأخرج ابن مردويه عنه أنه قال : ﴿ ص ﴾ يقول إني أنا الله الصادق ، وقال محمد بن كعب القرظي : هو مفتاح أسماء الله تالى صمد وصانع المصنوعات وصادق الوعد .

وقيل هو إراشة إلى صدور الكفار عن القرآن ، وقيل حرف مسرود على منهاج التحدي ، وجنح إليه غير واحد من أرباب التحقيق ، وقيل اسم للسورة وإليه ذهب الخليل وسيبويه .

والأكثرون ، وقيل اسم للقرآن وقيل غير ذلك باعتبار بعض القراآت كما سمعت عن قريب ، ومن الغريب أن المعنى صاد محمد صلى الله عليه وسلم قلوب الخلق واستمالها حتى آمنوا به ، ولعل القائل به اعتبره فعلاً ماضياً مفتوح الآخر أو ساكنه للوقف ، وأنا لا أقول به ولا أرتضيه وجهالً ، وهو على بعض هذه الأوجه لا حظ له من الإعراب ، وعلى بعضها يجوز أن يكون مقسماً به ومفعولاً لمضمر وخبر مبتدأ محذوف ، وعلى بعضها يتعين كونه مقسماً به ، وعلى بعض ما تقدم في القراءات يتأتى ما يتأتى مما لا يخفى عليك ، وبالجملة إن لم يعتبر مقسماً به فالواو في قوله سبحانه : ﴿ ص والقرءان ذِى ﴾ للقسم وإن اعتبر مقسماً به فهي للعطف عليه لكن إذا كان قسماً منصوباً على الحذف والإيصال يكون العطف عليه باعتبار المعنى والأصل ، ثم المغايرة بينهما قد تكون حقيقية كما إذا أريد بالقرآن كله و﴿ بص ﴾ السورة أو بالعكس أو أريد ﴿ بص ﴾ البحر الذي قيل به فيما مر وبالقرآن كله أو السورة ، وقد تكون اعتبارية كما إذا أريد بكل السورة أو القرآن على ما قيل ، ولا يخفى ما تقتضيه الجزالة الخالية عن التكلف .

وضعف جعل الواو للقسم أيضاً بناء على قول جمع أن توارد قسمين على مقسم عليه واحد ضعيف ، والذكر كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس الشرف ومه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] أو الذكرى والموعظة للناس على ما روى

عن قتادة .

والضحاك ، أو ذكر ما يحتاج إليه في أمر الدين من الشرائع والأحكام وغيرها من أقاصيص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبار الأمم الدارجة والوعد والوعيد على ما قيل ، وجواب القسم قيل مذكور فقال الكوفيون .

(45/658)

والزجاج : هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ [ص : 64] وتعقبه الفراء بقوله : لا نجده مستقيماً لتأخر ذلك جداً عن القسم ، وقال الأخفش هو ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل ﴾ وقال قوم : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ [ص : 6] وحذفت اللام أي لكم لما طال الكلام كما حذفت من ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ [الشمس : 9] بعد قوله تعالى : ﴿ والشمس ﴾ [الشمس : 1] حكاه الفراء .

وثعلب ، وتعقبه الطبرسي بأنه غلط لأن اللام لا تدخل على المفعول و ﴿ كَمْ ﴾ مفعول .

وقال أبو حيان : إن هذه الأقوال يجب إطراحها ، ونقل السمرقندي عن بعضهم أنه ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ ﴾ [ص : 2] الخ فإن ﴿ بَلِ ﴾ لنفي ما قبله وإثبات ما بعده فمعناه ليس الذين كفروا إلا في عزة وشقاق .

وجوز أن يريد هذا القائل أن ﴿ بَلِ ﴾ زائدة في الجواب أو ربط بها الجواب لتجريدها لمعنى الإثبات ، وقيل هو صاد إذ معناه صدق الله تعالى أو صدق محمد صلى الله عليه وسلم ونسب ذلك إلى الفراء .

(46/658)

وثعلب ، وهو مبني على جواز تقدم جواب القسم واعتقاد أن ﴿ ص ﴾ تدل على ما ذكر ، ومع هذا في كون ص نفسه هو الجواب خفاء ، وقيل هو جملة هذه صاد على معنى السورة التي أعجزت العرب فكأنه : قيل هذه السورة التي أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر وهذا كما تقول : هذا حاتم والله تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله ، وهو مبني على جواز التقدم أيضاً ، وقيل هو محذوف فقدره الحوفي لقد جاءكم الحق ونحوه ، وابن عطية ما الأمر كما تزعمون ونحوه ، وقدره بعض المحققين ما كفر من كفر لخلل وجده ودل عليه بقوله تعالى : ﴿ بَلِ الذين ﴾ الخ ، وآخر إنه لمعجز ودل عليه ما في ﴿ ص ﴾ من الدلالة على التحدي بناء على أنه اسم حرف من حروف المعجم ذكر على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز أو ما في أقسم بص أو هذه ص من الدلالة على ذلك بناء على أنه اسم للسورة أو أنه لواجب العمل به دل عليه ﴿ ص ﴾ بناء على كونه أمراً من المصاداة ، وقدره

بعضهم غير ذلك ، وفي "البحر" ينبغي أن يقدر هنا ما أثبت جواباً للقسم بالقرآن في قوله تعالى : ﴿ يس والقرءان الحكيم إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ [يس : 1-3] .

ويقوى هذا التقدير ذكر النذارة هنا في قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُواْ أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ص : 4] وهناك في قوله سبحانه : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ فالرسالة تتضمن النذارة والبشارة وجعل بل في قوله تعالى :

(47/658)

﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ للانتقال من هذا القسم والمقسم عليه إلى ذكر حال تعزز الكفار ومشاقتهم في قبولهم رسالته صلى الله عليه وسلم وامتثال ما جاء به وهي كذلك على كثير من الوجوه السابقة ، وقد تجعل على بعضها للإضراب عن الجواب بأن يقال مثلاً : إنه لمعجز بل الذين كفروا في استكبار من الإذعان لإعجازه أو هذه السورة التي أعجزت العرب بل الذين كفروا لا يذعنون ، وجعلها بعضهم للإضراب عما يفهم مما ذكر ونحوه من أن من كفر لم يكفر لخلل فيه فكأنه قيل : من كفر لم يكفر لخلل فيه بل كفر تكبراً عن اتباع الحق وعناداً ، وهو أظهر من جعل ذلك إضراباً عن صريحه ، وإن قدر نحو هذا المفهوم جواباً فالإضراب عنه قطعاً .

وفي "الكشف" عد هذا الإضراب من قبيل الإضراب المعنوي على نحو زيد عفيف عالم بل قومه استخفوا به على الإضراب عما يلزم الأوصاف من التعظيم كما نقل عن بعضهم عدول عن الظاهر ، ويمكن أن يكون الجواب الذي عنه الإضراب ما أنت بمقصر في تذكير الذين كفروا وإظهار الحق لهم ، ويشعر به الآيات بعد وسبب النزول الآتي ذكره إن شاء الله تعالى فكأنه قيل ص والقرآن ذي الذكر ما أنت بمقصر في تذكير الذين كفروا وإظهار الحق لهم بل الذين كفروا مقصرون في اتباعك والاعتراف بالحق ، ووجه دلالة ما في النظم الجليل على قولنا بل الذين كفروا مقصرون الخ ظاهر ، وهذه عدة احتمالات بين يديك وإليك أمر الاختيار والسلام عليك .

والمراد بالعزة ما يظهرونه من الاستكبار عن الحق لا العزة الحقيقية فإنها لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وأصل الشقاق المخالفة وكونك في شق غير شق صاحبك أو من شق العصا بينك وبينه ، والمراد مخالفة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والتنكير للدلالة على شدتهما ، والتعبير بفي على استغراقهم فيهما .

وقرأ حماد بن الزبرقان .

وسورة عن الكسائي .

وميمونة عن أبي جعفر .

والجحدري من طريق العقيلي في ﴿ غرة ﴾ بالغين المعجمة المكسورة والراء المهملة أي في غفلة عظيمة عما يجب عليهم من النظر فيه ، ونقل عن ابن الأنباري أنه قال في كتاب الرد على من خالف الإمام : إنه قرأ بها رجل وقال : إنها أنسب بالشقاق وهو القتال بجد واجتهاد وهذه القراءة افتراء على الله تعالى اه وفيه ما فيه .

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾

وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب اضرابهم ، و ﴿ كَمْ ﴾ مفعول ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ و ﴿ مِّن قَرْنٍ ﴾ تمييز ، والمعنى ، قرناً كثيراً أهلكنا من القرون الخالية ﴿ فَنَادَوْاْ ﴾ عند نزول بأسنا وحلول نقمتنا استغاثة لينجوا من ذلك ، وقال الحسن . وقتادة : رفعوا أصواتهم بالتوبة حين عاينوا العذاب لينجو منه ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ حال من ضمير ﴿ نَادُواْ ﴾ والعائد مقدر وإن لم يلزم أي مناصهم ولات هي لا المشبهة بليس عند سيبويه زيدت عليها تاء التأنيث لتأكيد معناها وهو النفي لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى أو لأن التاء تكون للمبالغة كما في علامة أو لتأكيد شبهها بليس بجعلها على ثلاثة أحرف ساكنة الوسط ، وقال الرضى : إنها لتأنيث الكلمة فتكون فتأكيد التأنيث واختصت بلزوم الأحيان ولا يتعين لفظ الحين إلا عند بعض وهو محجوج بسماع دخولها على مرادفه ، وقول المتنبي

: لقد تصبرت حتى لات مصطبر . . .

والآن أقحم حتى لات مقتحم

(49/658)

وإن لم يهمنا أمره مخرج على ذلك بجعل المصطبر والمقتحم اسمي زمان أو القول بأنها داخلة فيها على لفظ حين مقدر بعدها ؛ والتزموا حذف أحد الجزأين والغالب حذف المرفوع كما هنا على قراءة الجمهور أي ليس الحين حين مناص ، ومذهب الأخفش أنها لا النافية للجنس العاملة عمل إن زيدت عليها التاء فحين مناص اسمها والخبر محذوف أي لهم ، وقيل إنها لا النافية للفعل زيدت عليها التاء ولا عمل لها أصلاً فإن وليها مرفوع فمبتدأ حذف خبره أو منصوب كما هنا فبعدها فعل مقدر عامل فيه أي ولا ترى حين مناص ، وقرأ أبو السمال ﴿ وَلَاتَ حِينَ ﴾ بضم التاء ورفع النون فعلى مذهب سيبويه ﴿ حِينٍ ﴾ اسم ﴿ لَأَتٍ ﴾ والخبر محذوف أي ليس حين مناص حاصلاً لهم ، وعلى القول الأخير مبتدأ خبره محذوف وكذا على مذهب الأخفش فإن من مذهبه كما في "البحر" أنه إذا ارتفع ما بعدها فعلى الابتداء أي فلاحين مناص كائن لهم .

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ وَلَاتَ حِينَ ﴾ بكسر التاء مع النون كما في قول المنذر بن حرملة

الطائي النصراني

: طلبوا صلحنا ولات أوان . . .

فأجبنا أن لات حين بقاء

وخرج ذلك إما على أن لات تجر الأحيان كما أن لولا تجر الضمائر كلولاك ولولاه عند سيبويه ، وإما على إضمار من كأنه قيل : لات من حين مناص ولات من أوان صلح كما جروا بها مضمرة في قولهم على كم جذع بيتك أي من جذع في أصح القولين ، وقولهم

: ألا رجل جزاه الله خيراً . . .

يريدون ألا من رجل ، ويكون موضع من حين مناص رفعاً على أنه اسم لات بمعنى ليس كما تقول ليس من رجل قائماً ، والخبر محذوف على قول سيبويه وعلى أنه مبتدأ والخبر محذوف على قول غيره ، وخرج الأخفش ولات أوان على إضمار حين أي ولات حين أوان صلح فحذفت حين وأبقى أوان على جره ، وقيل : أن أوان في البيت مبني على الكسر وهو مشبه باذ في قول أبي ذؤيب

: نهيتك عن طلابك أم عمرو . . .

بعاقبة وأنت إذ صحيح

ووجه التشبيه أنه زمان قطع عنه المضاف إليه لأن الأصل أوان صلح وعوض التنوين فكسر للالتقاء الساكنين لكونه مبنياً مثله فهما شبهان في أنهما مبنيان مع وجود تنوين في آخرها للعوض يوجب تحريك الآخر بالكسر وإن كان سبب البناء في أوان دون إذ شبه الغايات حيث جعل زماناً قطع عنه المضاف إليه وهو مراد وليس تنوين العوض مانعاً عن الإلحاق بها فإنها تبني إذا لم يكن تنوين لأن علته الاحتياج إلى المحذوف كاحتياج الحرف إلى ما يتم به ، وهذا المعنى قائم نون أو لم ينون فإن التنوين عوض لفظي لا معنوي فلا تنافي بين التعويض والبناء لكن اتفق أنهم لم يعوضوا التنوين إلا في حال إعرابها وكأن ذلك لئلا يتمحض للتعويض بل يكون فيها معنى التمكن أيضاً فلا منافاة ، وثبت البناء فيما نحن فيه بدليل الكسر وكانت العلة التي في الغايات قائمة فأحيل البناء عليها ، واتفق أنهم عوضوا التنوين ههنا تشبيهاً باذ في أنها لما قطعت عن الإضافة نونت أو توفية لحق اللفظ لما فات حق المعنى ، وخرجت القراءة على حمل ﴿ مَنَاصٍ ﴾ على أوان في البيت تنزيلاً لما أضيف إليه الظرف وهو ﴿ حِينٍ ﴾ منزلة الظرف لأن المضاف والمضاف إليه كشيء واحد فقدرت ظرفيته وهو قد كان مضافاً إذا أصله مناصهم فقطع وصار كأنه ظرف مبني مقطوع عن الإضافة منون لقطعه ثم بنى ما أضيف إليه وهو ﴿ حِينٍ ﴾ على الكسر لإضافته إلى ما هو مبني فرضاً وتقديراً وهو ﴿ مَنَاصٍ ﴾ المشابه لأوان .

وأورد عليه أن ما ذكر من الحمل لم يؤثر في المحمول نفسه فكيف يؤثر فيما يضاف إليه على أن في تخريج الجر في البيت على ذلك ما فيه ، والعجب كل العجب ممن يرتضيه ، وضم التاء على قراءة أبي السمال وكسرها على قراءة عيسى للبناء ، وروى عن عيسى ﴿ وَّلَاتَ حِينَ ﴾ بالضم ﴿ مَنَاصٍ ﴾ بالفتح ، قال "صاحب اللوامح" : فإن صح ذلك فلعله بني ﴿ حِينٍ ﴾ على الضم تشبيهاً بالغايات وبني ﴿ مَنَاصٍ ﴾ على الفتح مع ﴿ لأَتٍ ﴾ وفي الكلام تقديم وتأخير أي ولات مناص حين لكن لا إنما تعمل في النكرات المتصلة بها دون المنفصلة عنها ولو بظرف ، وقد يجوز أن يكون لذلك معنى لا أعرفه انتهى ، وأهون من هذا فيما أرى كون ﴿ حِينٍ ﴾ معرباً مضافاً إلى ﴿ مَنَاصٍ ﴾ والفتح لمجاورة واو العطف في قوله تعالى :

﴿ وَعَجِبُواْ ﴾ [ص : 4] نظير فتح الراء من غير في قوله

: لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت . . .

حمامة في غصون ذات أرقال

على قول والأغلب على الظن عدم صحة هذه القراءة .

وقرأ عيسى أيضاً كقراءة الجمهور إلا أنه كسر تاء ﴿ لأَتٍ ﴾ وعلم من هذه القراءات أن في تائها ثلاث لغات ، واختلفوا في أمر الوقف عليها فقال سيبويه ، والفراء وابن كيسان . والزجاج : يوقف عليها بالتاء ، وقال الكسائي : والمبرد .

(52/658)

بالهاء ، وقال أبو علي : ينبغي أن لا يكون خلاف في أن الوقف بالتاء لأن قلب التاء هاء مخصوص بالأسماء ؛ وزعم قوم أن التاء ليست ملحقة بلا وإنما هي مزيدة في أول ما بعدها واختاره أبو عبيدة ، وذكر أنه رأى في الإمام ﴿ وَلاَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ برسم التاء مخلوطاً بأول حين ، ولا يرد عليه أن خط المصحف خارج عن القياس الخطي إذ لم يقع في الإمام في محل آخر مرسوماً على خلاف ذلك حتى يقال ما هنا مخالف للقياس والأصل اعتباره إلا فيما خصه الدليل ، ومن هنا قال السخاوي في "شرح الرائية" أنا أستحب الوقف على لا بعد ما شاهدته في مصحف عثمان رضي الله تعالى عنه ، وقد سمعناهم يقولون : اذهب تلان وتحين بدون لا وهو كثير في النثر والنظم انتهى ، ومنه قوله

: العاطفون تحين لا من عاطف . . .

والمطعمون زمان ما من مطعم

وكون أصله العاطفونه بها السكت فلما أثبتت في الدرج قلبت تاء مما لا يصغى إليه ، نعم الأول اعتبار التاء مع لا لشهرة حين دون تحين ، وقال بعضهم : إن لات هي ليس بعينها وأصل ليس ليس بكسر الياء فأبدلت ألفاً لتحركها بعد فتحة وأبدلت السين تاء كما في ست فإن أصله سدس ، وقيل : إنها فعل ماض ولات بمعنى نقص وقل فاستعملت في النفي كقل وليس بالمعول عليه ، والمناص المنجا والفوت يقال : ناصه ينوصه إذا فاته ، وقال الفراء : النوص التأخر يقال ناص عن قرنه ينوص نوصاً ومناصاً أي فروزاغ ، ويقال استناص طلب المناص قال حارثة بن بدر يصف فرساً له

: غمر الجراء إذا قصرت عنانه . . .

بيدي استناص ورام جرى المسحل

وعلى المعنى الأول حمله بعضهم هنا وقال : المعنى نادوا واستغاثوا طلباً للنجاة والحال أن ليس الحين حين فوات ونجاة ؛ وعن مجاهد تفسيره بالفراء ، وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : اخبرني عن قوله تعالى : ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ فقال : ليس بحين فرار وأنشد له قول الأعشى

: تذكرت ليلى لات حين تذكر . . .

وقد بنت عنها والمناص بعيد

وعن الكلبي أنه قال : كانوا إذا قاتلوا فاضطروا قال بعضهم لبعض : مناص أي عليكم بالفرار فلما أتاهم العذاب قالوا : مناص فقال الله تعالى : ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال القشيري : فعلى هذا يكون التقدير فنادوا مناص فحذف لدلالة ما بعده عليه أي ليس الوقت وقت ندائكم به ، والظاهر أن الجملة على هذا التفسير حالية أي نادوا بالفرار وليس الوقت وقت فرار ، وقال أبو حيان : في تقرير الحالية وهم لات حين مناص أي لهم ، وقال الجرجاني : أي فنادوا حين لا مناص أي ساعة لا منجا ولا فوت فلما قدم لا وأخر حين اقتضى ذلك الواو كما يقتضي الحال إذا جعل مبتدأ وخبراً مثل جاء زيد راكباً ثم تقول جاء زيد وهو راكب فحين ظرف لقوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْاْ ﴾ انتهى .

وكون الأصل ما ذكر أن ﴿ حِينٍ ﴾ ظرف لنادوا دعوى أعجمية مخالفة لذوق الكلام العربي لا سيما ما هو أفصح الكلام ولا أدري ما الذي دعاه لذلك .

﴿ وَعَجِبُواْ أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ حكاية لأباطيلهم المتفرعة على ما حكى من استكبارهم وشقاقهم أي عجبوا من أنجاءهم رسول من جنسهم أي بشر أو من نوعهم وهم معروفون بالأمية فيكون المعنى رسول أمي ، والمراد أنهم عدوا ذلك أمراً عجيباً خارجاً عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الإنكار لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه ﴿ وَقَالَ الكافرون ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وذماً لهم وإيذاناً بأنه لا

يتجاسر على مثل ما يقولون إلا المتوغلون في الكفر والفسوق ﴿ هذا ساحر ﴾ فيما يظهره مما لا نستطيع له مثلاً ﴿ كَذَّابٌ ﴾ فيما يسنده إلى الله عز وجل من الإرسال والإنزال .

﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾

(54/658)

بأن نفي الألوهية عنها وقصرها على واحد فالجعل بمعنى التصيير وليس تصييراً في الخارج بل في القول والتسمية كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ [الزخرف : 19] وليس ذلك من باب إنكار وحدة الوجود في شيء ليقال إن الله سبحانه نعى على الكفرة ذلك الإنكار فتثبت الوحدة فإنه عليه الصلاة والسلام ما قال باتحاد إلهتهم معه عز وجل في الوجود ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ أي بليغ في العجب فإن فعالاً بناء مبالغة كرجل طوال وسراع ، ووجه تعجبهم أنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على تعدد الآلهة وواظبوا على عبادتها وقد كان مدارهم في كل ما يأتون ويذرون التقليد فيعدون خلاف ما اعتادوه عجيباً بل محالاً ، وقيل مدار تعجبهم زعمهم عدم وفاء علم الواحد وقدره بالأشياء الكثيرة وهو لا يتم إلا إن ادعوا لآلهتهم علماً وقدرة ، والظاهر أنهم لم يدعوهما لها ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [

لقمان : 25]

.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

والسلمي .

وعيسى .

وابن مقسم ﴿ عُجَابٌ ﴾ بشد الجيم وهو أبلغ من المخفف ، وقال مقاتل ﴿ عُجَابٌ ﴾ لغة أزد شنوءة ، أخرج أحمد .

وابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

والترمذي وصححه .

والنسائي .

وابن جرير .

(55/658)

وغيرهم عن ابن عباس قال : لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جعفل فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويقول ويقول فلو بعثت إليه فنهيته فبعث إليه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس فخشى أبو جهل إن جلس إلى أبي طالب أن يكون أرق عليه فوثب فجلس في ذلك المجلس فلم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب فقال له أبو طالب : أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول قال وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها يدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية ففرحوا لكلمته ولقوله فقال القوم : ما هي ؟ وأبيك لنعطينكها وعشراً قال ؛ لا إله إلا الله فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون : أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب .

وفي رواية أنهم قالوا : سلنا غير هذا فقال عليه الصلاة والسلام : " لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها فغضبوا وقاموا غضاباً وقالوا والله لنشتمنك وإلهك الذي يأمرك بهذا . "

﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ ﴾ أي وانطلق الأشراف من قريش من مجلس أبي طالب بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاهدوا تصلبه في الدين ويئسوا مما كانوا يرجونه منه عليه الصلاة والسلام بواسطة عمه وكان منهم أبو جهل .

والعاص بن وائل .

والأسود بن المطلب بن عبد يغوث .

وعقبة بن أبي معيط .

(56/658)

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مجلز قال : قال رجل يوم بدر ما هم إلا النساء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل هم الملأ وتلا ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ ﴾ ﴿ أَنِ امشوا ﴾ الظاهر أنه أمر بالمشي بمعنى نقل الأقدام عن ذلك المجلس ، و ﴿ إن ﴾ مفسرة فقيل في الكلام محذوف وقع حالاً من الملأ أي انطلق الملأ يتحاورون والتفسير لذلك المحذوف وهو متضمن معنى القول دون لفظه ، وقيل لا حاجة إلى اعتبار الحذف فإن الانطلاق عن مجلس التقاول يستلزم عادة تفاوض المنطلقين وتحاورهم بما جرى فيه وتضمن المفسر لمعنى القول أعم من كونه بطريق الدلالة وغيرها كالمقارنة ومثل ذلك كاف فيه ، وقيل الانطلاق هنا الاندفاع في القول فهو متضمن لمعنى القول بطريق الدلالة وإطلاق الانطلاق على ذلك الظاهر أنه مجاز مشهور نزل منزلة الحقيقة ، وجوز أن يكون التجوز في الإسناد وأصله انطلقت ألسنتهم والمعنى شرعوا في التكلم بهذا القول ، وقال بعضهم : المراد بامشوا سيروا على طريقتكم

وداوموا على سيرتكم ، وقيل هو من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها ومنه الماشية وسميت بذلك لأنها من شأنها كثرة الولادة أو تفاؤلاً بذلك والمراد لازم معناه أي أكثروا واجتمعوا ، وقيل : هو دعاء بكثرة الماشية افتتحوا به كلامهم للتعظيم كما يقال أسلم أيها الأمير واختاروه من بين الأدعية لعظم شأن الماشية عندهم .

وتعقب بأنه خطأ لأن فعله مزيد يقال أمشي إذا كثرت ماشيته فكان يلزم قطع همزته والقراءة بخلافه مع أن إرادة هذا المعنى هنا في غاية البعد ، وأياً ما كان فالبعض قال للبعض ذلك ، وقيل قال الأشراف لأتباعهم وعوامهم ، وقرىء ﴿ امشوا ﴾ بغير أن على إضمار القول دون إضمارها أي قائلين امشوا ﴿ وَٱصْبِرُواْ على ءَالِهَتِكُمْ ﴾ أي أثبتوا على عبادتها متحملين لما تسمعونه في حقها من القدح .

(57/658)

وقرأ ابن مسعود ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ يَمْشُونَ إن اصبروا ﴾ فجملة ﴿ يَمْشُونَ ﴾ حالية أو مستأنفة والكلام في ﴿ إن اصبروا ﴾ كما في ﴿ أَنِ امشوا ﴾ سواء تعلق تعليق بانطلق أو بما يليه ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ تعليل للأمر بالصبر أو لوجوب الامتثال به ، والإشارة إلى ما وقع وشاهدوه من أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتصلبه في أمر التوحيد

ونفي ألوهية آلهتهم أي إن هذا لشيء عظيم يراد من جهته صلى الله عليه وسلم إمضاؤه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لا قول يقال من طرف اللسان أو أمر يرجى فيه المسامحة بشفاعة إنسان فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إراتكم واصبروا على عبادة آلهتكم ، وقيل : إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا حيلة إلا تجرع مرارة الصبر ، وقيل : إن هذا الذي يدعيه من أمر التوحيد أو يقصده من الرياسة والترفع على العرب والعجم لشيء يتمنى أو يرده كل أحد ولكن لا يكون لكل ما يتمنتاه أو يريده فاصبروا ، وقيل : أن هذا أي دينكم يطلب لينتزع منكم ويطرح أو يراد إبطاله ، وقيل : الإشارة إلى الصبر المفهوم من ﴿ اصبروا ﴾ أي أن الصبر لشيء مطلوب لأنه محمود العاقبة .

وقال القفال : هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف ، والمعنى أنه ليس غرضه من هذا القول تقرير الدين وإنما غرضه أن يستولي علينا فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد فتأمل .

﴿ مَّا سَمِعْنَا بهذا ﴾ الذي يقوله ﴿ فِى الملة الآخرة ﴾ قال ابن عباس .

ومجاهد .

ومحمد بن كعب .

ومقاتل أرادوا ملة النصارى ، والتوصيف بالآخرة بحسب الاعتقاد لأنهم الذين لا يؤمنون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ومرادهم من قولهم ما سمعنا الخ إنا سمعنا خلافه وهو

عدم التوحيد فإن النصارى كانوا يثلثون ويزعمون أنه الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام وحاشاه ، وعن مجاهد أيضاً .

(58/658)

وقتادة أرادوا ملة العرب ونحلتها التي أدركوا عليها آباءهم ، وجوز أن يكون في الملة الآخرة حالاً من اسم الإشارة لا متعلقاً بسمعنا أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه من التوحيد كائناً في الملة التي تكون آخر الزمان أرادوا أنهم لم يسمعوا من أهل الكتاب والكهان الذين كانوا يحدثونهم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بظهور نبي أن في دينه التوحيد ولقد كذبوا في ذلك فإن حديث إن النبي المبعوث آخر الزمان يكسر الأصنام ويدعو إلى توحيد الملك العلام كان أشهر الأمور قبل الظهور ، وإن أرادوا على هذا المعنى إنا سمعنا خلاف ذلك فكذبهم أقبح ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي ما هذا .

﴿ إِلاَّ اختلاق ﴾ أي افتعال وافتراء من غير سبق مثل له .

﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾

(59/658)

أي القرآن ﴿ مِّن بَيْنِنَا ﴾ ونحن رؤساء الناس وأشرافهم كقولهم : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] ومرادهم إنكار كونه ذكراً منزلاً من عند الله تعالى كقولهم ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : 11] وأمثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذبهم ليس إلا الحسد وقصر النظر على الحطام الدنيوي ﴿ بْل هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ﴾ من القرآن الذي أنزلته على رسولي المشحون بالتوحيد لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الأدلة المؤدية إلى العلم بحقيته وليس في عقيدتهم ما يقطعون به فلذا تراهم ينسبونه إلى السحر تارة وإلى الاختلاق أخرى فبل للإضراب عن جميع ما قبله ، وبل في قوله تعالى : ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ إضراب عن مجموع الكلامين السابقين حديث الحسد في قوله تعالى : ﴿ أَءنزِلَ ﴾ الخ وحديث الشك في قوله تعالى : ﴿ بْل هُمْ فِى شَكٍّ ﴾ أي لم يذوقوا عذابي بعد فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الحسد والشك حينئذ يعني أنهم لا يصدقون إلا أن يمسهم العذاب فيضطروا إلى التصديق أو إضراب عن الإضراب قبله أي لم يذوقوا عذابي بعد فإذا ذاقوه زال شكهم واضطروا إلى التصديق بذكري ، والأول على ما في "الكشف" هو الوجه السديد وينطبق عليه ما بعد من الآيات ، وقيل المعنى لم يذوقوا عذابي الموعود في القرآن ولذلك شكوا فيه

وهو كما ترى" وفي التعبير بلما دلالة على أن ذوقهم العذاب على شرف الوقوع . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 23 صـ ﴾

(60/658)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ ص ﴾ : خبر مبتدأ محذوف ؛ أي : هذه سورة ص كما مرّ في أخواته :

وقال الشعبي : إتعالى في كل كتاب سراً وسره في القرآن فواتح السور .

وقال بعضهم : ﴿ ص ﴾ : مفتاح اسمه الصادق والصبور والصمد والصانع .

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى القسم بصاد صمديته في الأزل وبصاد صانعيته في الوسط وبصاد صبوريته إلى الأبد وبصاد صدق الذي جاء بالصدق وصاد صديقية الذي صدق به وبصاد صفوته في مودته ومحبته .

هـ .

وقال ابن جبير رضي الله عنه : ﴿ ص ﴾ يحيي الله به الموتى بين النفختين .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ ص ﴾ كان بحراً بمكة وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار .

وفي بعض المعتبرات : كان جبلاً بمكة ومضى شرح هذا الكلام في أول ﴿ المص ﴾ .

وقيل في ﴿ ص ﴾ : معناه أن محمداً عليه السلام صاد قلوب الخلائق ، واستمالها حتى آمنوا به كما قال في إنسان العيون ، ومما لا يكاد يقضى منه العجب حسن تدبيره عليه السلام للعرب الذين هم كالوحوش الشاردة كيف ساسهم واحتمل جفاءهم وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه واجتمعوا عليه صلى الله عليه وسلّم واختاروه على أنفسهم ، وقاتلوا دونه أهلهم وآباءهم وأبناءهم وهجروا في رضاه أوطانهم .

انتهى .

يقول الفقير أغناه الله القدير : سمعت

شيخي وسندي قدس سره ، وهو يقول : إن قوله تعالى ﴿ ق ﴾ إشارة إلى مرتبة الأحدية التي هي التعيين الأول كما في سورة الإخلاص المصدرة بكلمة : قل المبتدأة بحرف ق .

(61/658)

وقوله ﴿ ص ﴾ : إشارة إلى مرتبة الصمدية التي هي التعيين الثاني المندرجة تحته مرتبة بعد مرتبة وطوراً بعد طور إلى آخر المراتب والأطوار .

﴿ وَالْقُرْءَانِ ذِى ﴾ : (الواو) : للقسم ، والذكر : الشرف والنباهة ، أو الذكرى والموعظة

أو ذكر ما يحتاج إليه في أمر الدين من الشرائع والأحكام ، وغيرها من أقاصيص الأنبياء وأخبار الأمم الماضية والوعد والوعيد ، وحذف جواب القسم في مثل ذلك غير عزيز والتقدير : على ما هو الموافق لما في أول يس ولسياق الآية أيضاً ، وهو عجبوا الخ .

إن محمداً الصادق في رسالته وحق نبوته ليس في حقيته شك ، ولا فيما أنزل عليه من القرآن ريب .

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ :

من رؤساء أهل مكة فهو إضراب عن المفهوم من الجواب ﴿ فِى عِزَّةٍ ﴾ .

قال الراغب : العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب ويمدح بالعزة تارة كما في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِه وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون : 8) ؛ لأنها الدائمة الباقية ، وهي العزة الحقيقية ويذم بها أخرى ، كما في قوله تعالى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ ﴾ : لأن العزة التي هي التعزز وهي في الحقيقة ذل ، وقد تستعار للحمية والأنفة المذمومة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالاثْمِ ﴾ (البقرة : 206) . انتهى .

وقد حمل أكثر أهل التفسير العزة في هذا المقام على الثاني لما قالوا ، بل هم في استكبار عن الاعتراف بالحق والإيمان وحمية شديدة : وبالفارسية (در سركشي اند ازقبول حق) .

﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ ؛ أي : مخالفة وعداوة عظيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم فلذا لا ينقادون .

وفي "التأويلات النجمية" وبقوله : ﴿ وَالْقُرْءَانِ ذِى ﴾ يشير إلى القسم بالقرآن الذي هو مخصوص بالذكر ، وذلك لأن القرآن قانون معالجات القلوب المريضة وأعظم مرض القلب نسيان الله تعالى كما قال : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ ، وأعظم علاج مرض النسيان بالذكر كما قال : ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ﴾ (البقرة : 152) ، ولأن العلاج بالضد وبقوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ ﴾ إلخ .

يشير إلى انحراف مزاج قلوب الكفار بمرض نسيان الله من اللين والسلامة إلى الغلظة والقساوة ومن التواضع إلى التكبر ومن الوفاق إلى الخلاف ومن الوصلة إلى الفرقة ومن المحبة إلى العداوة ، ومن مطالعة الآيات إلى الإعراض عن البحث في الأدلة والسير للشواهد .

﴿ كَمْ ﴾ : مفعول قوله : ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ .

ومن في قوله : ﴿ مِن قَبْلِهِم ﴾ : لابتداء الغاية .

وقوله : ﴿ مِّن قَرْنٍ ﴾ : تمييز .

والقرن : القوم المقترنون في زمن واحد .

والمعنى : قرناً كثيراً أهلكنا من القرون المتقدمة ؛ أي : أمة من الأمم الماضية بسبب الاستكبار والخلاف .

﴿ فَنَادَوا ﴾ عند نزول بأسنا وحلول نقمتنا استغاثة أو توبة واستغفاراً لينجوا في ذلك ،

(63/658)

﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ : حال من ضمير نادوا ؛ أي : نادوا ، واستغاثوا طلباً للنجاة ، والحال أن ليس الحين حين مناص ؛ أي : فوت وفرار ونجاة لكونه حالة اليأس : وبالفارسية : (ونيست آن هنكام وقت رجوع بكريزكاه) .

فقوله : لا هي المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب وثم وخصت بنفي الأحيان ، ولم يبرز إلا أحد معموليها اسمها أو خبرها ، والأكثر حذف اسمها .

وفي بعض التفاسير لات بمعنى ليس بلغة أهل اليمن .

انتهى .

والوقف عليها بالتاء عند الزجاج وأبي علي وعند الكسائي نحو قاعدة وضاربة وعند أبي عبيد على لا .

ثم يبتدىء تحين مناص ، لأنه عنده أن هذه التاء تزاد مع حين ، فيقال : كان هذا تحين كان ذاك كذا في "الوسيط" .

والمناص : المنجأ ؛ أي : النجاة والفوت عن الخصم على أنه مفعل من ناصه ينوصه إذا فاته أريد به المصدر .

ويقال : ناص ينوص ؛ أي : هرب .

ويقال : أي : تأخر ، ومنه : ناص قرنه ؛ أي : تأخر عنه حيناً .

وفي "المفردات" : ناص إلى كذا ، التجأ إليه ، وناص عنه تنحى ينوص نوصاً .

والمناص : الملجأ . انتهى .

(64/658)

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾

أي : عجب كفار أهل مكة من أن جاءهم منذر ينذرهم النار ؛ أي : رسول من جنسهم بل أدون منهم في الرياسة الدنيوية والمال على معنى أنهم عدوا ذلك خارجاً عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الإنكار لا أنهم اعتقدوا وقوعه ، وتعجبوا منه ، وقالوا : إن محمداً مساوٍ لنا في الخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة والنسب والشكل والصورة ، فكيف يعقل أن يختص

من بيننا بهذا المنصب العالي ولم يتعجبوا من أن تكون المنحوتات آلهة ، وهذه مناقضة ظاهرة ، فلما تحيروا في شأن النبي عليه السلام نسبوه إلى السحر والكذب كما قال حكاية .

﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ : وضع فيه الظاهر موضع المضمر غضباً عليهم وإيذاناً بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولونه إلا المتوغلون في الكفر والفسوق ﴿ هَذَا سَاحِرٌ ﴾ فيما يظهره من الخوارق ﴿ كَذَّابٌ ﴾ فيما يسنده إلى الله من الإرسال والإنزال لم يقل كاذب لرعاية الفواصل ، ولأن الكذب على الله ليس كالكذب على غيره ولكثرة الكذب في زعمهم ، فإنه يتعلق بكل آية من الآيات القرآنية بخلاف إظهار الخوارق فإنه قليل بالنسبة إليه .

هكذا لاح لي هذا المقام .

وفي "التأويلات النجمية" : لما كانوا منحرفي مزاج القلوب لمرض نسيان الحق جاءت النبوة على مذاق عقولهم المتغيرة سحراً والصدّيق كذاباً .

(65/658)

واعلم : أن إثبات النبوة والولاية سهل بالنسبة إلى أهل العناية والتوفيق فإن قلوبهم ألفت الإعراض عما سوى الله بخلاف أهل الإنكار والخذلان ، فإن قلوبهم ألفت الإعراض عن

الله ، فلذا صحبتهم الوقيعة في أنبياء الله وأوليائه .

قال الأستاذ أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه التصديق بعلمنا هذا ولاية يعني : الولاية الصغرى دون الكبرى .

قال اليافعي : والناس على أربعة أقسام :

القسم الأول : حصل لهم التصديق بعلمهم ، والعلم بطريقتهم والذوق لمشربهم وأحوالهم .

والقسم الثاني : حصل لهم التصديق ، والعلم المذكور دون الذوق .

والقسم الثالث : حصل لهم التصديق دونهما .

والقسم الرابع : لم يحصل لهم من الثلاثة شيء ، نعوذ بالله من الحرمان ونسأله التوفيق والغفران ، فهم الذين أطالوا ألسنتهم في حق الخواص ورموهم بالسحر والكذب والجنون لكونهم ليسوا من المحارم في شأن من الشؤون : وفي "المثنوي" :

(66/658)

﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ :

(الهمزة) : للإنكار والاستبعاد .

والآلهة : جمع إله وحقه أن لا يجمع إذ لا معبود في الحقيقة سواه تعالى لكن العرب لاعتقادهم

أن ههنا معبودات جمعوه .

فقالوا : آلهة .

وإلهاً واحداً : مفعول ثان لجعل ؛ لأنه بمعنى صير ؛ أي : صيرهم إلهاً واحداً في زعمه وقوله لا في فعله ؛ لأن جعل الأمور المتعددة شيئاً واحداً بحسب الفعل محال

أجعل إلخ ؛ أي : أصير محمد بزعمه الآلهة إلهاً واحداً بأن نفى الألوهية عنهم وقصرها على واحد ولم يعلموا أنهم جعلوا الإله الواحد آلهة ﴿ إِنَّ هَذَآ ﴾ :

(67/658)

﴿ لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ : العجاب : بمعنى العجيب ، وهو الأمر الذي يتعجب منه كالعجب إلا أن العجيب أبلغ منه ، والعجاب بالتشديد أبلغ من العجاب بالتخفيف مثل كبار في قوله : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ (نوح : 22) ، فإنه أبلغ من الكبار بالتخفيف ونحوه طويل وطوال .

والمعنى : بليغ في العجب ، لأنه خلاف ما اتفق عليه آباؤنا إلى هذا الآن .

وقال بعضهم :

يعني : أنهم ما كانوا أهل النظر والبصيرة ، بل أوهامهم كانت تابعة للمحسوسات ، فقاسوا

الغائب على الشاهد ، وقالوا : لا بدّ لحفظ هذا العالم الكبير من آلهة كثيرة يحفظونه بأمره وقضائه تعالى ولم يعرفوا الإله ، ولا معنى الآلهية ، فإن الآلهية هي القدرة على الاختراع وتقدير قادرين على الاختراع غير صحيح لما يجب من وجوده التمانع بينهما وجوازه ، وذلك يمنع من كمالها ، ولو لم يكونا كاملي الوصف لم يكونا إلهين وكل أمر جرّ ثبوته سقوطه فهو مطروح باطل .

﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ ﴾ : الانطلاق الذهاب والملأ الأشراف لا مطلق الجماعة ، ويقال لهم : ملأ لأنهم إذا حضروا مجلساً ملأت العيون وجاهتهم والقلوب مهابتهم ؛ أي : وذهب الأشراف من قريش وهم خمسة وعشرون عن مجلس أبي طالب بعد ما أسكتهم رسول الله عليه السلام بالجواب الحاضر ، وشاهدوا تصلبه عليه السلام في الدين وعزيمته على أن يظهره على الدين كله ويئسوا مما كانوا يرجونه بتوسط أبي طالب من المصالحة على الوجه المذكور .

﴿ إِنَّ ﴾ : مفسرة للمقول المدلول عليه بالانطلاق لأن الانطلاق عن مجلس التقاول لا يخلو عن القول ؛ أي : وانطلق الملأ منهم بقول هو قول بعضهم لبعض على وجه النصيحة .

﴿ امْشُوا ﴾ : سيروا على طريقتكم وامضوا فلا فائدة في مكانة هذا الرجل .

وحكى المهدوي أن قائلها عقبة بن أبي معيط .

﴿ وَاصْبِرُوا عَلَى ءَالِهَتِكُمْ ﴾ ؛ أي : واثبتوا على عبادتها متحملين لما تسمعونه في حقها من القدح .

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى أن الكفار إذا تراضوا فيما بينهم بالصبر على آلهتهم فالمؤمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة في دينهم بل الطالب الصادق والعاشق الوامق أولى بالصبر والثبات على قدم الصدق في طلب المحبوب المعشوق .

﴿ إِنَّ هَذَآ ﴾ : تعليل للأمر بالصبر أو لوجوب الامتثال به ؛ أي : هذا الذي شاهدناه من محمد من أمر التوحيد ونفي آلهتنا وإبطال أمرنا .

﴿ لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ : من جهته عليه السلام إمضاؤه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لا قول يقال من طرف اللسان ، أو أمر يرجى فيه المسامحة بشفاعة أو امتناع ، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله عن رأيه بواسطة أبي طالب وشفاعته وحسبكم أن لا تمنعوا من عبادة آلهتكم بالكلية فاصبروا عليها وتحملوا ما تسمعونه في حقها من القدح وسوء المقالة هذا ما ذهب إليه المولى أبو السعود في "الإرشاد" .

وقال في "تفسير الجلالين" : لأمر يراد بنا ومكر يمكر علينا .

وقال سعدي المفتي : وسنح بالبال أنه يجوز أن يكون المراد أن دينكم لشيء يستحق أن يطلب ويعض عليه بالنواجذ ، فيكون ترغيباً وتعليلاً للأمر السابق .

ويقول الفقير أمده الله القدير بالفيض الكثير ويجوز أن يكون المعنى : أن الصبر والثبات على عبادة الآلهة التي هي الدين القديم يراد منكم فإنه أقوى ما يدفع به أمر محمد كما قالوا نتربص به ريب المنون ، فيكون موافقاً لقرينه في الإشارة إلى المذكور فيما قبله أو أن شأن محمد لشيء يراد دفعه وإطفاء نائرته بأي وجه كان قبل أن يعلو ويشيع ، كما قيل :

علاج واقعه بيش از وقوع بايد كرد

ودل عليه اجتماعهم على مكره عليه السلام مراراً فأبى الله إلا أن يتم نوره .

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ : الذي يقوله من التوحيد .

﴿ فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ ﴾ : ظرف لغو سمعنا ؛ أي : في الملة التي أدركنا عليها آباءنا ، وهي ملة قريش ودينهم الذي هم عليه ، فإنها متأخرة عما تقدم عليها من الأديان والملل .

وفيه إشارة إلى ركون الجهال إلى التقليد والعادة وما وجدوا عليه أسلافهم من الضلال وإخطاء طريق العبادة :

والملة كالدين اسم لما شرع الله لعباده على يد الأنبياء ليتوصلوا به إلى ثواب الله وجواره فإطلاق كل منهما على طريقة المشركين مجاز مبني على التشبيه .

﴿ إِنَّ هَذَآ ﴾ : نافية بمعنى ما ﴿ إِلا اخْتِلَاقٌ ﴾ .

(الاختلاق دروغ كفتن ازنزد خود) ؛ أي : كذب اختلقه من عند نفسه .

قال في "المفردات" : وكل موضع استعمل فيه الخلق في وصف الكلام ، فالمراد به الكذب ومن هذا امتنع كثير من الناس من إطلاق لفظ الخلق على القرآن ، وعلى هذا قوله : أن هذا إلاّ اختلاق .

(70/658)

﴿ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ ﴾ : ونحن رؤساء الناس وأشرافهم وأكبرهم سناً وأكثرهم أموالاً وأعواناً وأحقاء بكل منصب شريف ومرادهم إنكار كون القرآن ذكراً منزلاً من الله تعالى .

وأمثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد على اختصاصه عليه السلام بشرف النبوة من بينهم وحرمانهم منه وقصر النظر على متاع الدنيا وغلطوا في القصر والقياس .

أما الأول فلأن الشرف الحقيقي إنما هو بالفضائل النفسانية دون الخارجية .

وأما الثاني فلأن قياس نفسه عليه السلام بأنفسهم فاسد إذ هو روح الأرواح وأصل الخليقة

، فأنى يكون هو مثلهم وأما الصورة الإنسانية فميراث عام من آدم عليه السلام لا تفاوت فيها بين شخص وشخص نعم وجهه عليه السلام كان يلوح منه أنوار الجمال بحيث لم يوجد مثله فيما بين الرجال :

وفيه إشارة إلى حال أكثر علماء زماننا وعبادهم أنهم إذا رأوا عالماً ربانياً من أرباب الحقائق يخبر عن حقائق لم يفهموها ويشير إلى دقائق لم يذوقوها دعتهم النفوس المتمردة إلى تكذيبه ، فيجحدونه بدل الاغتنام بأنفاسه والاقتباس من أنواره ويقولون أكوشف هو بهذه الحقائق من بيننا ويقعون في الشك من أمرهم كما قال تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ﴾ ؛ أي : القرآن أو الوحي بميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن النظر في الأدلة المؤدية إلى العلم بحقيته وليس في عقيدتهم ما يجزمونه فهم مذبذبون بين الأوهام ينسبونه تارة إلى السحر وأخرى إلى الاختلاق .

وفيه إشارة إلى أن القرآن قديم لأنه سماه الذكر ثم أضافه إلى نفسه ، ولا خفاء بأن ذكره قديم ، لأن الذكر المحدث يكون مسبوقاً بالنسيان ، وهو منزه عنه .

(71/658)

﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ في لما دلالة على أن ذوقهم العذاب على شرف الوقوع ، لأنها للتوقع ؛ أي : بل لم يذوقوا بعد عذابي ، فإذا ذاقوه تبين لهم حقيقة الحال .

وفيه تهديد لهم ؛ أي : سيذوقون عذابي فيلجئهم إلى تصديق الذكر حين لا ينفع التصديق .

(72/658)

وفيه إشارة إلى أنهم مستغرقون في بحر عذاب الطرد والبعد ونار القطيعة لكنهم عن ذوق العذاب بمعزل لغلبة الحواس إلى أن يكون يوم تبلى السرائر فتغلب السرائر على الصور والبصائر على البصر ، فيقال لهم : ذوقوا العذاب ، يعني : كنتم معذبين وما كنتم ذائقي العذاب ، فالمعنى : لو ذاقوا عذابي ووجدوا ألمه لما قدموا على الجحود دل على هذا قوله عليه السلام : "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 8 صـ 5 12. ﴾

(73/658)

وقال ابن عاشور :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) ﴾

﴿ ص ﴾ القول في هذا الحرف كالقول في نظائره من الحروف المقطعة الواقعة في أوائل بعض السور بدون فرق أنها مقصودة للتهجّي تحدّياً لبلغاء العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن وتورّكاً عليهم إذ عجزوا عنه واتفق أهل العدّ على أن ﴿ ص ﴾ ليس بآية مستقلة بل هي في مبدأ آية إلى قوله : ﴿ ذِي الذِّكرِ ﴾ وإنما لم تعد ﴿ ص ﴾ آية لأنها حرف واحد كما لم يعد ﴿ ق ﴾ [ق : 1] و ﴿ ن ﴾ [القلم : 1] ; ﴿ والقرءان ذِى لذِّكْرِ ﴾

الواو للقسم أقسم بالقرآن قسَم تنويه به .

ووصف بـ ﴿ ذِي الذِّكر ﴾ لأن ﴿ ذي ﴾ تضاف إلى الأشياء الرفيعة فتجري على متصف مقصود التنويه به .

و ﴿ الذكر ﴾ : التذكير ، أي تذكير الناس بما هم عنه غافلون .

ويجوز أن يراد بالذكر ذكر اللسان وهو على معنى : الذي يُذكر ، بالبناء للنائب ، أي والقرآن المذكور ، أي الممدوح المستحِق الثناء على أحد التفسيرين في قوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ [الأنبياء : 10] أي شرفكم .

وقد تردد المفسرون في تعيين جواب القسم على أقوال سبعة أو ثمانية وأحسن ما قيل فيه هنا أحد وجهين : أولهما أن يكون محذوفاً دلّ عليه حرف ﴿ ص ﴾ فإن المقصود منه

التحدّي بإعجاز القرآن وعجزهم عن معارضته بأنه كلام بلُغتهم ومؤلَّفٌ من حروفها فكيف عجزوا عن معارضته .

فالتقدير : والقرآن ذي الذكر أنه لمن عند الله لهذا عجزتم عن الإِتيان بمثله .

(74/658)

وثانيهما : الذي أرى أن الجواب محذوف أيضاً دل عليه الإِضراب الذي في قوله : ﴿ بَلِ الذين كفروا في عزَّة وشِقَاقٍ ﴾ [ص : 2] بعد أن وُصف القرآن بـ ﴿ ذِي الذِّكر ﴾ ، لأن ذلك الوصف يشعر بأنه ذِكر ومُوقظ للعقول فكأنه قيل : إنه لذكر ولكن الذين كفروا في عزة وشقاق يجحدون أنه ذكر ويقولون : سِحر مفترىً وهم يعلمون أنه حق كقوله تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات اللَّه يجحدون ﴾ [الأنعام : 33] ، فجواب القسم محذوف يدل عليه السياق ، وليس حرف ﴿ ص ﴾ هو المقسم عليه مقدماً على القسم ، أي ليس دليلُ الجواب من اللفظ بل من المعنى والسياق .

والغرض من حذف جواب القسم هنا الإِعراض عنه إلى ما هو أجدر بالذكر وهو صفة الذين كفروا وكذبوا القرآن عناداً أو شقاقاً منهم .

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2)

﴿ بل ﴾ للإِضراب الإِبطالي وهذا نوع من الإِضراب الإِبطالي نبّه عليه الراغب في "مفردات القرآن" وأشار إليه في "الكشاف" ، وتحريرُه أنه ليس إبطالاً محضاً للكلام السابق بحيث يكون حرفُ ﴿ بل ﴾ فيه بمنزلة حرف النفي كما هو غالب الإِضراب الإِبطالي ، ولا هو إضراب انتقالي ، ولكن هذا إبطال لتوهمٍ ينشأ عن الكلام الذي قبله إذ دل وصف القرآن بـ ﴿ ذِي الذِّكر ﴾ [ص : 1] أن القرآن مذكِّرٌ سامعيه تذكيراً ناجعاً ، فعقب بإزالة توهم مَن يتوهم أن عدم تذكّر الكفار ليس لضعفٍ في تذكير القرآن ولكن لأنهم متعزّزون مُشاقُّون ، فحرف ﴿ بل ﴾ في مثل هذا بمنزلة حرف الاستدراك ، والمقصود منه تحقيق أنه ذُو ذكر ، وإزالة الشبهة التي قَد تعرض في ذلك .

ومثله قوله تعالى : ﴿ ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ [ق : 1 ، 2] ، أي ليس امتناعهم من الإِيمان بالقرآن لنقص في علوّه ومجده ولكن لأنهم عجبوا أن جاءهم به رجل منهم .

(75/658)

ولك أن تجعل ﴿ بل ﴾ إضرابَ انتقال من الشروع في التنويه بالقرآن إلى بيان سبب إعراض المعرضين عنه ، لأن في بيان ذلك السبب تحقيقاً للتنويه بالقرآن كما يقال : دع ذا

وخذ في حديث .

.

، كقول امرىء القيس :

فدَعْ ذا وَسَلِّ الهمَّ عنك بجَسرة

ذمول إذا صام النهارُ وهَجرا . . .

وقال زهير :

دَعْ ذا وعَدِّ القولَ في هَرَم

خير البُداة وسيد الحَضر . . .

وقول الأعشى :

فَدعْ ذا ولكن ما ترى رأيَ كاشح

يرى بيننا من جهله دَقَّ مَنْشم . . .

وقول العَجاج :

دع ذا وبَهِّجْ حَسباً مُبَهَّجاً

ومعنى ذلك أن الكلام أخذ في الثناء على القرآن ثم انقطع عن ذلك إلى ما هو أهم وهو بيان سبب إعراض المعرضين عنه لاعتزازهم بأنفسهم وشقاقهم ، فوقع العدول عن جواب القسم استغناء بما يفيد مُفاد ذلك الجواب .

وإنما قيل : ﴿ الذين كفروا ﴾ دون (الكافرون) لما في صلة الموصول من الإِيماء إلى الإِخبار عنهم بأنهم في عزة وشقاق .

والعزة تَحوم إطلاقاتها في الكلام حول معاني المنعة والغلبة والتكبر فإن كان ذلك جارياً على أسباب واقعة فهي العزة الحقيقية وإن كان عن غرور وإعجاب بالنفس فهي عزة مزوَّرة قال تعالى : ﴿ وإذا قيل له اتقّ اللَّه أخذته بالعزّة بالإثم ﴾ [البقرة : 206] ، أي أخذته الكبرياء وشدة العصيان ، وهي هنا عزة باطلة أيضاً لأنها إباء من الحق وإعجاب بالنفس .

وضدُّ العزة الذلة قال تعالى : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ [المائدة : 54] وقال السمَوْأل أو غيره :

وما ضَرنا أنَّا قليل وجارنا

عزيزٌ وجار الأكثرين ذَليل . . .

و ﴿ في للظرفية المجازية مستعارة لقوة التلبس بالعزة .

والمعنى : متلبسون بعزة على الحق .

والشقاق : العناد والخصام .

والمراد : وشقاق لله بالشرك ولرسوله بالتكذيب .

والمعنى : أن الحائل بينهم وبين التذكير بالقرآن هو ما في قرارة نفوسهم من العزة والشقاق .

كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (3)

(76/658)

استئناف بياني لأن العزة عن الحق والشقاق لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم مما يثير في خاطر السامع أن يسأل عن جزاء ذلك فوقع هذا بياناً له ، وهذه الجملة معترضة بين جملة ﴿ بل الذين كفروا في عزَّةٍ وشقاق ﴾ [ص : 2] ، وبين جملة ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم ﴾ [ص : 4] .

وكان هذا البيان إخبَاراً مُرفَقاً بحجة من قبيل قياس تمثيل ، لأن قوله : ﴿ مِن قبلهم ﴾ يؤذن بأنهم مثلهم في العزة والشقاق ومتضمناً تحذيراً من التريث عن إجابة دعوة الحق ، أي ينزل بهم العذاب فلا ينفعهم ندم ولا متاب كما لم ينفع القرون من قبلهم .

فالتقدير : سيجازَوْن على عزتهم وشقاقهم بالهلاك كما جُوزِيَتْ أمم كثيرة من قبلهم في ذلك فليحذروا ذلك فإنهم إن حقت عليهم كلمة العذاب لم ينفعهم متاب كما لم ينفع الذين من قبلهم متاب عند رؤية العذاب .

و﴿ كم ﴾ اسم دال على عدد كثير .

و﴿ مِن قَرنٍ ﴾ تمييز لإبهام العدد ، أي عدداً كثيراً من القرون ، وهي في موضع نصب بالمفعولية ل ﴿ أهْلَكنا ﴾ .

والقرن : الأمة كما في قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾ [المؤمنون : 42] .

و﴿ من قبلهم ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً مستقراً جعل صفة ل ﴿ قَرْنٍ ﴾ مقدمة عليه فوقعت حالاً ، وإنما قدم للاهتمام بمضمونه ليفيد الاهتمامُ إيماء إلى أنهم أسوة لهم في العِزّة والشقاق وأن ذلك سبب إهلاكهم .

ويجوز أن يكون متعلقاً بـ ﴿ أهلكنا ﴾ على أنه ظرف لغو ، وقدم على مفعول فعله مع أن المفعول أولى بالسبق من بقية معمولات الفعل ليكون تقديمه اهتماماً به إيماء إلى الإِهلاك كما في الوجه الأول .

وفرع على الإِهلاك أنهم نادوا فلم ينفعهم نداؤهم ، تحذيراً من أن يقع هؤلاء في مثل ما وقعت فيه القرون من قبلهم إذ أضاعوا الفرصة فنادوا بعد فواتها فلم يفدهم نداؤهم ولا دعاؤهم .

والمراد بالنداء في ﴿ فنَادوا ﴾ نداؤهم الله تعالى تَضرعاً ، وهو الدعاء كما حكي عنهم في قوله تعالى : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ [الدخان : 12] .

وقوله : ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾ [المؤمنون : 64] .

وجملة ﴿ ولاَتَ حينَ مَناصٍ ﴾ في موضع الحال ، والواو واو الحال ، أي نادوا في حال لا حين مناص لهم .

و ﴿ لات ﴾ حرف نفي بمعنى (لا) المشبهة بـ (ليس) و ﴿ لات ﴾ حرف مختص بنفي أسماء الأزمان وما يتضمن معنى الزمان من إشارة ونحوها .

وهي مركبة من (لا) النافية وصُلت بها تاء زائدة لا تفيد تأنيثاً لأنها ليست هاء وإنما هي كزيادة التاء في قولهم : رُبَّت وثُمَّت .

والنفي بها لغير الزمان ونحوه خطأ في اللغة وقع فيه أبو الطيب إذ قال :

لقد تَصبرت حتى لاتَ مصطبَر

والآن أقحم حتى لات مقتحم . . .

وأغفل شارحو ديوانه كلُّهم وقد أدخل ﴿ لات على غير اسم زمان .

وأيًّا مَّا كان فقد صارت (لا) بلزوم زيادة التاء في آخرها حرفاً مستقلاً خاصاً بنفي أسماء الزمان فخرجت عن نحو : رُبَّت وثَمَّتَ .

وزعم أبو عبيد القاسم بن سلام أن التاء في ولاَتَ حينَ مناصٍ ﴾ متصلة بـ ﴿ حِينَ ﴾

وأنه رآها في مصحف عثمان متصلة بـ ﴿ حين ﴾ وزعم أن هذه التاء تدخل على : حين وأوان وآن يريد أن التاء لاحقة لأول الاسم الذي بعد (لا) ولكنه لم يفسر لدخولها معنى .

وقد اعتذر الأيمة عن وقوع التاء متصلة بـ ﴿ حين ﴾ في بعض نسخ المصحف الإِمام بأن رسم المصحف قد يخالف القياس ، على أن ذلك لا يوجد في غير المصحف الذي رآه أبو عبيد من المصاحف المعاصرة لذلك المصحف والمرسومة بعده .

والمناص : النجاء والفوت ، وهو مصدر ميمي ، يقال : ناصه ، إذا فاته .

والمعنى : فنادَوا مبتهلين في حال ليس وقت نجاء وفَوت ، أي قد حق عليهم الهلاك كما قال تعالى : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة اللَّه التي قد خلت في عباده ﴾ [غافر : 85] .

(78/658)

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4)

﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكافرون هذا ساحر كَذَّابٌ ، أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَّذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ .

عطف على جملة ﴿ الذين كفروا في عزَّةٍ وشقاقٍ ﴾ [ص : 2] فهو من الكلام الواقع

الإِضراب للانتقال إليه كما وقع في قوله تعالى : ﴿ ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ [ق : 1 - 2] .

والمعنى : أنه استقرّ في نفوسهم استحالة بعثة رسول منهم فذلك سبب آخر لانصرافهم عن التذكر بالقرآن .

والعجب حقيقته : انفعال في النفس ينشأ عن علم بأمر غير مترقب وقوعه عند النفس ، ويطلق على إنكار شيء نادر على سبيل المجاز بعلاقة اللزوم كما في قوله تعالى : ﴿ قالوا أتعجبين من أمر اللَّه ﴾ في سورة [هود : 73] فإن محل العتاب هو كون امرأة إبراهيم أحالت أن تلد ، وهي عجوز وكذلك إطلاقه هنا .

والمعنى : وأنكروا وأحالوا أن جاءهم منذر منهم .

والمنذر : الرسول ، أي منذر لهم بعذاب على أفعال هم متلبسون بها .

وعبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف المنذر : ووُصف بأنه منهم للإِشارة إلى سوء نظرهم من عجبهم لأن شأن النذير أن يكون من القوم ممن ينصح لهم فكونه منهم أولى من أن يكون من غيرهم .

ثم إن كان التبعيض المستفاد من حرف (من) مراداً به أنه بعض العرب أو بعض قريش فأمر تجهيلهم في عجبهم من هذا النذير بيّن ؛ وإن كان مراداً به أنه بعض البشر وهو الظاهر فتجهيلهم لأن من كان من جنسهم أجدرُ بأن ينصح لهم من رسول من جنس آخر كالملائكة

، وهذه جدارة عرفية .

وهذا العجب تكرر تصريحهم به غير مرة فهو مستقر في قرارة نفوسهم ، وهو الأصل الداعي لهم إلى الإِعراض عن تصديقه فلذلك ابتُدئت به حكاية أقوالهم التي قالوها في مجلس شيخ الأباطح كما تقدم في ذكر سبب النزول .

(79/658)

﴿ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكافرون هذا ساحر ﴾ ﴿ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الالهة إلها واحدا إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ .

بعد أن كُشف ما انطوت عليه نفوسهم من العزة والشقاق وإحالة بعثة رسول للبشر من جنسهم ، حوسبوا بما صرحوا به من القول في مجلسهم ذلك ، إشارةً بهذا الترتيب إلى أن مقالتهم هذه نتيجة لعقيدتهم تلك .

وفي قوله : ﴿ الكافِرونَ ﴾ وضْعُ الظاهر موقع المضمر وكان مقتضى الظاهر أن يقال : "وقالوا هذا ساحر" الخ ، وهذا لقصد وصْفهم بأنهم كافرون بربهم مقابَلَة لما وَصَمُوا به النبي صلى الله عليه وسلم فوُصفوا بما هو شتم لهم يجمع ضروباً من الشتم تأصيلاً وتفريعاً وهو الكفر الذي هو جماع فساد التفكير وفاسد الأعمال .

ولفظ ﴿ هذا ﴾ أشاروا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم استعملوا اسم الإِشارة لتحقير مثله في قولهم : ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ [الأنبياء : 36] وإنما قالوا مقالتهم هذه حين انصرافهم من مجلس أبي طالب المذكورِ في سبب نزول السورة جعلوا النبي صلى الله عليه وسلم لقرب عهدهم بمحضره كأنه حاضر حين الإِشارة إليه .

وجَعلوا حالهُ سحراً وكذباً لأنهم لما لم تقبَل عقولهم ما كلمهم به زعموا ما لا يفهمون منه مثل كون الإله واحداً أو كونه يعيد الموتى أحياء سحراً إذ كانوا يألفون من السحر أقوالاً غير مفهومة كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ في سورة [البقرة : 102] .

وزعموا ما يفهمونه ويحيلونه مثل ادعاء الرسالة عن الله كذباً .

وبينوا ذلك بجملتين : إحداهما ﴿ أجعل الآلهة إلها واحداً ﴾ ، والثانية جملة ﴿ أءُنزلَ عليه الذكر من بيننا ﴾ [ص : 8] .

(فجملة ﴿ أجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً ﴾ بيان لجملة ﴿ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ، أي حيث عدوه مباهتاً لهم بقلب الحقائق والأخبار بخلاف الواقع .

(80/658)

والهمزة للاستفهام الإِنكاري التعجيبي ولذلك أتبعوه بما هو كالعلة لقولهم : ﴿ ساحر ﴾ وهو ﴿ إنَّ هذا لشيء عجاب ﴾ أي يتعجب منه كما يتعجب من شعوذة الساحر .

و ﴿ عُجاب ﴾ : وصف الشيء الذي يتعجب منه كثيراً لأن وزن فُعال بضم أوله يدل على تمكن الوصف مثل : طُوال ، بمعنى المفرط في الطول ، وكُرام بمعنى الكثير الكرم ، فهو أبلغ من كريم ، وقد ابتدأوا الإِنكار بأول أصل من أصول كفرهم فإن أصول كفرهم ثلاثة : الإِشراكُ ، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وإنكار البعث ، والجزاءِ في الآخرة .

وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6)

الانطلاق حقيقته : الانصراف والمشي ، ويستعمل استعمال أفعال الشروع لأن الشارع ينطلق إليه ، ونظيره في ذلك : ذَهب بفعل كذا ، كما في قول النبهاني :

فإن كنتَ سيِّدنَا سدْتَنا . . .

وإن كنت للخال فاذْهب فَخلْ

وكذلك قام في قوله تعالى : ﴿ إذ قاموا فقالوا ﴾ في سورة [الكهف : 14] .

(وقيل : إن الانطلاق هنا على حقيقته ، أي وانصرف الملأ منهم عن مجلس أبي طالب .

و ﴿ الملأ ﴾ : سادة القوم قال ابن عطية : قائل ذلك عقبة بن أبي معيط .

وقال غير ابن عطية : إن من القائلين أبا جهل ، والعاصي بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث .

و ﴿ أن ﴾ تفسيرية لأن الانطلاق إن كان مجازاً فهو في الشروع فقد أريد به الشروع في

الكلام فكان فيه معنى القول دون حروفه فاحتاج إلى تفسيرٍ بكلام مقول ، وإن كان الانطلاقُ على حقيقته فقد تضمن انطلاقهم عقب التقاول بينهم بكلامهم الباطل ﴿ هذا ساحِرٌ ﴾ [ص : 4] إلى قوله : ﴿ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5] يقتضي أنهم انطلقوا متحاورين في ماذا يصنعون .

ولما أسند الانطلاق إلى الملأ منهم على أنهم ما كانوا لينطلقوا إلا لتدبير في ماذا يصنعون فكان ذلك مقتضياً تحاوراً وتقاولاً احتيج إلى تفسيره بجملة ﴿ أن امشوا واصبروا على ءَالِهَتِكُم ﴾ الخ .

(81/658)

والأمر بالمشي يحتمل أن يكون حقيقة ، أي انصرفوا عن هذا المكان مكان المجادلة ، واشتغلوا بالثبات على آلهتكم .

ويجوز أن يكون مجازاً في الاستمرار على دينهم كما يقال : كما سار الكرام ، أي اعمل كما عملوا ، ومنه سميت الأخلاق والأعمال المعتادة سيرة .

والصبر : الثبات والملازمة ، يقال : صبر الدابة إذا ربطها ، ومنه سمي الثبات عند حلول الضُرّ صبراً لأنه ملازمة للحلم والأناة بحيث لا يضطرب بالجزع ، ونظير هذه الآية قوله تعالى

: ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ [الفرقان : 42] .

وحرف ﴿ على ﴾ يدلّ على تضمين ﴿ اصبروا ﴾ معنى : اعكفوا وأثبتوا ، فحرف ﴿ على ﴾ هنا للاستعلاء المجازي وهو التمكن مثل ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] .

وليس هو حرف ﴿ على ﴾ المتعارف تعدية فعل الصبر به في نحو قوله : ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ [المزمل : 10] فإن ذلك بمعنى (مع) ، ولذلك يخلفه اللام في مثل ذلك الموقع نحو قوله تعالى : ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ [القلم : 48] ، ولا بدّ هنا من تقدير مضاف ، أي على عبادة آلهتكم ، فلا يتعدى إلى مفعول إن كان مجازاً فهو في الشروع فقد أريد به الشروع في الكلام فكان .

وجملة ﴿ إن هذا لشيءٌ يُرادُ ﴾ تعليل للأمر بالصبر على آلهتهم لقصد تقوية شكهم في صحة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بأنها شيء أرادهُ لغرض أي ليس صادقاً ولكنه مصنوع مراد منه مقصد كما يقال : هذا أمر دُبِّر بليل ، فالإِشارة بـ ﴿ هذا ﴾ إلى ما كانوا يسمعونه في المجلس من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم أن يقولوا : لا إله إلا الله .

وقوله : ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ من كلام المَلأ .

والإِشارة إلى ما أشير إليه بقولهم : ﴿ إن هذا لشيء يراد ﴾ ، أي هذا القول وهو ﴿ أجعَلَ الآلهة إلها واحداً ﴾ [ص : 5] .

والجملة مستأنفة أو مبينة لجملة ﴿ إِنَّ هذا لشيءٌ يُرادُ ﴾ لأن عدم سماع مثله يبين أنه شيء مصطنع مبتدع.

(82/658)

وإعادة اسم الإِشارة من وضع الظاهر موضع المضمر لقصد زيادة تمييزه.

وفي قوله: ﴿ بهذا ﴾ تقدير مضاف، أي بمثل هذا الذي يقوله.

ونفي السماع هنا خبر مستعمل كناية عن الاستبعاد والاتّهام بالكذب.

و﴿ الملة ﴾: الدين، قال تعالى: ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ في سورة [البقرة: 120]، وقال: ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون باللَّه وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ في سورة [يوسف: 37 - 38].

(و﴿ الآخِرة ﴾: تأنيث الآخِر وهو الذي يكون بعد مضي مدة تقررت فيها أمثاله كقوله تعالى: ﴿ ثم اللَّه ينشىء النشأة الآخرة ﴾ [العنكبوت: 20].

(والمجرور من قوله: ﴿ في الملة الآخرة ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً مستقراً في موضع الحال من اسم الإِشارة بياناً للمقصود من الإِشارة متعلقاً بفعل ﴿ سَمِعْنَا ﴾.

والمعنى : ما سمعنا بهذا قبل اليوم فلا نعتدّ به .

ويجوز على هذا التقدير أن يكون المراد بـ ﴿ المِلَّةِ الآخرة ﴾ دين النصارى ، وهو عن ابن عباس وأصحابه وعليه فالمشركون استشهدوا على بطلان توحيد الإله بأن دين النصارى الذي ظهر قبل الإِسلام أثبتَ تعدد الآلهة ، ويكون نفي السماع كناية عن سماع ضده وهو تعدد الآلهة .

ويجوز أن يريدوا بـ ﴿ المِلَّةِ الآخِرة ﴾ الملّة التي هُم عليها ويكون إشارة إلى قول ملأ قريش لأبي طالب في حين احْتضاره حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم " يا عَم قُلْ لا إله إلاّ الله كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله .

فقالوا له جميعاً : أترغب عن ملة عبد المطلب " فقولهم : ﴿ في الملة الآخِرَة ﴾ كناية عن استمرار انتفاء هذا إلى الزمن الأخير فيعلم أن انتفاءه في ملتهم الأولى بالأحرى .

وجملة ﴿ إن هذا إلاَّ اختلاقٌ ﴾ مبينة لجملة ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ وهذا هو المتحصل من كلامهم المبدوء بـ ﴿ امشوا واصبروا على ءَالِهَتِكُم ﴾ فهذه الجملة كالفذلكة لكلامهم .

(83/658)

والاختلاق : الكذب المخترع الذي لا شبهة لقائله .

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ .

يجوز أن يكون ﴿ أءُنزِلَ عليه الذكر من بيننا ﴾ من كلام عموم الكافرين المحكي بقوله : ﴿ وقال الكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كذَّابٌ ﴾ [ص : 4] فيكون متصلاً بقوله : ﴿ أجعَلَ الآلِهة إلها واحداً ﴾ [ص : 5] ويكون قوله ﴿ أءُنزِلَ عليه الذكرُ ﴾ بياناً لجملة ﴿ كَذَّابٌ ﴾ [ص : 4] ، لأن تقديره : هذا كذّاب إذ هو خبر ثان ل (كان) ، ولكونه بياناً للذي قبله لم يعطف عليه ويكون ما بينهما من قوله : ﴿ وانطلق الملأُ منهم ﴾ [ص : 6] إلى قوله : ﴿ إن هذا إلا اختلاقٌ ﴾ [ص : 7] اعتراضاً بين جملتي البيان .

ويجوز أن يكون من تمام كلام الملأ واستغني به عن بيان جملة ﴿ كَذَّابٌ ﴾ لأن نطق الملأ به كافٍ في قول الآخرين بموجَبه فاستغنوا عن بيان جملة ﴿ كذابٌ ﴾ .

والاستفهام إنكاري ، ومناط الإنكار هو الظرف ﴿ من بيننا ﴾ وهو في موضع حال من ضمير ﴿ عليه ﴾ ، فأنكروا أن يُخص محمد صلى الله عليه وسلم بالإرسال وإنزالِ القرآن دون غيره منهم ، وهذا هو المحكي في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] أي من مكة أو الطائف ولم يريدوا بهذا الإنكار تجويز أصل الرسالة عن الله وإنما مرادهم استقصاء الاستبعاد فإنهم أنكروا أصل الرسالة كما اقتضاه قوله تعالى : ﴿ وعَجِبوا أن جاءَهم مُنذرٌ منهم ﴾ [ص : 4] وغيره

من الآيات ، وهذا الأصل الثاني من أصول كفرهم التي تقدم ذكرها عند قوله تعالى : ﴿ أجعل الآلهة إلها واحداً ﴾ [ص : 5] وهو أصل إنكار بعثه رسول منهم ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِ ﴾

(84/658)

يجوز أن يكون هذا جواباً عن قولهم : ﴿ أءُنزِلَ عليه الذكر من بيننا ﴾ أي ليس قصدهم الطعن في اختصاصك بالرسالة ولكنهم شاكُّون في أصل إنزاله ، فتكون ﴿ بل ﴾ إضراباً إبطالياً تكذيباً لما يظهر من إنكارهم إنزال الذكر عليه من بينهم على ما تقدم ، أي إنما قصدهم الشك في أن الله يوحي إلى أحد بالرسالة ، فيكون معنى ﴿ في شَكّ من ذِكري ﴾ شكّاً من وقوعه .

والشك يطلق على اليقين مجازاً مرسلاً بعلاقة الإطلاق والتقييد فيكون كمعنى قوله تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات اللَّه يجحدون ﴾ [الأنعام : 33] .

ويجوز أن يكون انتقالاً من خبر عنهم إلى خبر آخر فيكون استئنافاً وتكون ﴿ بل ﴾ للإضراب الانتقالي ، والمعنى : وهم في شك من ذكري ، أي في شك من كنه القرآن ، فمرة يقولون : افتراه ، ومرة يقولون : شعر ، ومرة : سحر ، ومرة : أساطير الأولين ، ومرة : قول

كاهن .

فالمراد بالشك حقيقتهُ أي التردد في العلم .

وإضافة الذكر إلى ضمير المتكلم وهو الله تعالى إضافة تشريف ولتحقيق كونه من عند الله .

والذكر على هذا الوجه هو عين المراد من قوله : ﴿ أءُنزل عليه الذكر ﴾ وإنما وقع التعبير عنه بالظاهر دون الضمير توصلاً إلى التنويه به بأنه من عند الله .

و﴿ في ﴾ للظرفية المجازية ، جُعلت ملابسة الشك إياهم بمنزلة الظرف المحيط بمحويه في أنه لا يخلو منه جانب من جوانبه .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ مِن ذِكري ﴾ ابتدائية لكون الشك صفة لهم ، أي نشأ لهم الشك من شأن ذكري ، أي من جانب نفي وقوعه ، أو في جانب ما يصفونه به .

﴿ ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ ﴾ .

أتبع ذلك الإِضراب بإضراب آخر يبين أن الذي جرّأهم على هذا الشقاق أنهم لما تأخر حلول العذاب بهم ظنوا وعيده كاذباً فأخذوا في البذاءة والاستهزاء ولو ذاقوا العذاب لألقمت أفواههم الحجر .

و ﴿ لمّا ﴾ حرف نفي بمعنى (لم) إلاّ أن في ﴿ لمّا ﴾ خصوصية ، وهي أنها تدلّ على المنفي بها متصل الانتفاء إلى وقت التكلم بخلاف (لم) فلذلك كان النفي بـ ﴿ لمّا ﴾ قد يُفهم منه ترقب حصول المنفي بعد ذلك قال صاحب "الكشاف" في قوله تعالى : ﴿ ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ في سورة الحجرات ﴾ (14) ما في ﴿ لمّا من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعدُ ، أي دال بطريق المفهوم الحاصل من معنى غاية النفي إلى زمن التكلم ، أي لا أضمن ما بعد ذلك ، وقد ذاقوا عذاب السيف يوم بدر بعد نزول هذه الآية بأربع سنين .

وإضافة عذاب ﴾ إلى ياء المتكلم لاختصاصه بالله لأنه مُقدّره وقاض به عليهم ولوقوعه على حالة غير جارية على المعتاد إذ الشأن أن يستأصل الجيش القوي الجيشَ القليل .

وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً للفاصلة ، وأبقيت الكسرة دليلاً عليها وهو حذف كثير في الفواصل والشعر على نحو حذفها من المنادَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(86/658)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) (ص : 4) وفي سورة ق : (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) (ق : 2) ، للسائل أن يسأل عن ورود قوله في ص : (وَقَالَ الْكَافِرُونَ) بواو النسق وفي سورة ق بفاء التعقيب والإخبار عن حالهم واحد ؟

والجواب – والله أعلم – أن آية ص وردت مورد الإخبار بمرتكبات من أفعال كفار العرب وأقوالهم فجيء بتلك الجمل منسوقاً بعضها على بعض ، فأخبر تعالى أنهم في عزة وشقاق ، وأنهم عجبوا أن جاءهم منذر منهم ولم يكن من الملائكة كما قالوا : (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا) (الفرقان : 21) ، وأنهم رموه بالسحر والكذب ، وتعجبوا من جعله الآلهة إلهاً واحداً ، وأنهم تمالؤوا على قولهم : (أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ) ، وأنهم قالوا : (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ) (ص : 7) أي في ملة عيسى ، عليه السلام ، ومن هذا قولهم في إخبار الله تعالى عنهم : (أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ) (الزخرف : 58) ، وتحريهم على الإفصاح بمرتكب النصارى في التثليث ، وأنهم أقرب الملل إليهم وآخر من تقدمهم وهم مثلثون ، فكيف تجعل أنت يا محمد الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، فجعلوا ما

جاء به اختلافاً وتقويلاً ، إلى ما ارتكبوه من هذا ، فلما قصد هنا الإخبار بجملة مرتكباتهم جاءت منسوقاً بعضها على بعض بالواو التي لا تقضي ترتيباً ولا تعقيباً .

(87/658)

وأما آية ق فمقصود بها التعريف بتعجبهم من البعث الأخراوي واتسبعادهم إياه ، ولم يقصد هناك غير ما قصده ، ألا ترى إقامة الدلالة عليهم باعتبار خلق السماوات ، وتزيينها بالنجوم ، وإحكام صنعها ، ومد الأرض ، وإرسائها بالجبال ، وإخراج أصناف النبات ، وإنزال الماء من السماء ، وإنبات الجنات وضروب الحبوب والنخل الباسقات ذات الطلع النضيد ، ثم قال : (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) (ق : 11) ، (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) (الأنبياء : 104) ، (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) (يس : 81) ، فلما كان قولهم : (هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) مبيناً على ما جاءهم به ، عليه السلام ، وأعلمهم من البعث بعد الموت جعل الأول – أعني مجيئه ، مخبراً بذلك – سبباً في تعجيزهم فربط فيه بالفاء ، أي عجبوا من البعث بعد الموت فقالوا كذا ، فجيء لكل بما يحرزه ، ولم تكن الفاء لتقع هناك ، ولا الواو لتقع هنا ، بل ورد كل على ما يجب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 414.415 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة ص

قوله جل ذكره (بسم الله الرحمن الرحيم)

اسم عزيز اعترفت بالقصور عن إدراكه ، اسم جليل تقنعت العلوم خجلا من الطمع في إحاطته ، اسم كريم صغرت الحوائج عند ساحات جوده ، اسم رحيم تلاشت قطرات زلات عباده في تلاطم أمواج رحمته .

قوله جل ذكره : (ص والقرآن ذي الذكر)

الصَّادُ مفتاحُ اسمه الصادق والصبور والصمد والصانع . . . أقسم بهذه الأشياء .

وبالقرآنِ . وجواب القسم : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ .

ويقال : أقسم بصفاءِ مودةِ أحبابه والقرآنِ ذي الذكر أي : ذي الشرف . . . وشَرفُه أنه ليس بمخلوق .

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2)

في صلابةٍ ظاهرة ، وعدواة بَيّنة ، وإعراضٍ عن البحث للأدلة ، والسّرّ للشواهد .

كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (3)

بادوا حين هَجَمَ البلاءُ مستغيثين ، وقد فات وقتُ الإشكاء والإجابة .

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4)

عَجِبُوا أن جاءَهم مُنْذِرٌ منهم ، ولم يعجبوا أن تكون المنحوتاتُ آلهةً ، وهذه مناقضة ظاهرة . فلمَّا تحيَّروا في شأن أنبيائهم رَمَوْهم بالسحر ، وقسَّموا فيهم القول .

أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5)

لم تباشر خلاصةُ التوحيد قلوبَهم ، وبعدوا عن ذلك تجوزاً ، فضلاً عن أن يكون إثباتاً وحُكْماً ، فلا عَرَفُوا الإلهَ ولا معنى الإلهية ؛ فإنَّ الإلهيةَ هي القدرة على الاختراع . وتقديرُ قادِرَيْنِ على الاختراع غيرُ صحيحٍ لما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه ، ثم إنَّ ذلك يمنع من كمالهما ، ولو لم يكونا كامِلي الوصفِ لم يكونا إِلَهَيْن ، وكلُّ أمرٍ جرى ثبوتُ سقوطِ فهو مطروحٌ باطل .

(89/658)

وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6)

إذا تواصى الكفارُ فيما بينهم بالصبر على آلهتهم ، فالمؤمنون أَوْلى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة في دينهم .

مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7)

ركنوا إلى السوء والعادة ، وما وجدوا عليه أسلافَهم من الضلالة ، واستناموا إلى التقليد والهوادة .

أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (8)

أي لو استبصروا في دينهم لَمَا أَقدموا على ما أسرفوا فيه من جحودهم ، ولولا أَنَّا أَدَمْنا لهم العوافيَ لَما تَفَرَّغُوا إلى طغيانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 245. 246 ﴾

(90/658)

قوله تعالى ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (10) جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ

الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (13) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (15) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أرشد إنكارهم خصوصيته بالذكر بنفي شكهم اللازم منه إثبات أنهم على علم بأنه مرسل ، وأنه أحقهم بالرسالة إلى أن التقدير : أفيهم غيره من هو أهل لتلقي هذا الذكر حتى ينزله الله عليه ويترك هذا البشير النذير ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، عادل به قوله : ﴿ أم عندهم ﴾ أي خاصة دون غيرهم ﴿ خزائن رحمة ﴾ ولما كان إنزال الوحي إحساناً إلى المنزل عليه ، عدل عن إفراد الضمير إلى صفة الإحسان المفيدة للتربية ، فقال مخاطباً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه أضخم لشأنه ، وأفخم لمقداره ومكانه : ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك بإنزاله ليخصوا به من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ [الزخرف : 32] ولما كان لا يصلح للربوبية إلا الغالب لكل ما سواه ، المفيض على من يشاء ، ما يشاء ، قال : ﴿ العزيز الوهاب ﴾ أي الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ، ويفيض على جهة التفضل ما يشاء على من يريد ، وله صفة الإفاضة متكررة الآثار على الدوام ، فلا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى .

ولما سلب عنهم التصرف في الخزائن ، أتبعه نفي الملك عما شاهدوا منها وهو جزء يسير جداً فقال : ﴿ أم لهم ﴾ أي خاصة ﴿ ملك السماوات والأرض ﴾ ولما كان الحكم على ذلك لا يستلزم الحكم على الفضاء قال : ﴿ وما بينهما ﴾ أي لتكون كلمتهم في هذا الكون هي النافذة ويتكلموا في الأمور الإلهية ويسندوا ما شاؤوا من الأمور الجليلة إلى من شاؤوا ، ثم بين عجزهم وبكتهم وقرعهم ووبخهم بما سبب عن ذلك من قوله : ﴿ فليرتقوا ﴾ أي يتكلفوا الرقي إن كان لهم ذلك ﴿ في الأسباب ﴾ أي الطرق الموصلة إلى السماء ليستووا على العرش الذي هو أمارة الملك فيدبروا العالم فيخصوا من شاؤوا بالرسالة ليعلم أن لهم ذلك وأنه لا يسوغ لأحد أن يختص دونهم بشيء .

ولما انتفى عنهم بما مضى وعن كل من يدعون مما لأته ومناصرته عن آلهتهم وغيرها خصائص الإلهية ، أنتج ذلك أنهم من جملة عباده سبحانه ، فعبر عن حالهم بأعلى ما يصلون إليه من التجمع والتعاضد الذي دل عليه ما تقدم الإخبار عنه من عزتهم وشقاقهم ، ونفرتهم عن القبول وانطلاقهم ، فقال مخبراً عن مبتدأ حذف لوضوح العلم به : ﴿ جند ما ﴾ أي ليسوا في شيء مما مضى وإنما هم جند حقيرون من بعض جنودنا متعاونون في

نجدة بعضهم لبعض ، قال أبو حيان : ويجوز أن تكون " ما " صفة أريد بها التعظيم على سبيل الهزء بهم أو التحقير لأن " ما " الصفة تستعمل لهذين المعنيين .

(92/658)

وبين بعدهم من غير ما أقامهم فيه واستعملهم له من الرتب التي فرضها لهم وسفولهم عنها بقوله واصفاً لجند : ﴿ هنالك ﴾ أي في الحضيض عن هذه المرامي العالية ، وبين أنه كثيراً ما تحزب أمثالهم على الرسل فما ضروا إلا أنفسهم بقوله واصفاً بعد وصف مفرداً تحقيراً : ﴿ مهزوم ﴾ أي له الانهزام صفة راسخة ثابتة ﴿ من الأحزاب ﴾ أي الذين جرت عادتهم عزة وشقاقاً بالتحزب على الأنبياء ثم تكون عليهم الدائرة ، وللرسل عليهم السلام العاقبة ، فلا تكترث بهم أصلاً قال ابن برّجان : فكان أول جند مهزوم منهم جند غزوة بدر ، ثم انبسط صدق الحديث على جنود كثيرة في وقائع مختلفة .

ولما أوجب ذلك التشوف إلى بيان الأحزاب الماضية ، وكانوا أحقر شيء بالنسبة إليه سبحانه مع شدتهم في أنفسهم ، بين ذلك بالتاء الدالة على الرتبة الثانية المؤخرة ، وهي رتبة التأنيث اللازم منه الضعف فقال : ﴿ كذبت ﴾ ولما كانت نيتهم التكذيب لا إلى آخر ، عدّوا مستغرقين للزمان فنزع الجار وقيل : ﴿ قبلهم ﴾ أي مثل تكذيبهم .

ولما كان لأول المكذبين من الكثرة والقوة والاجتماع على طول الأزمان ما لم يكن لمن بعدهم ، كانوا مع تقدمهم في الزمان أحق بالتقديم في هذا السياق فقال : ﴿ قوم نوح ﴾ واستمروا في عزتهم وشقاقهم إلى أن رأوا الماء قد أخذهم ، ولم يسمحوا بالإذعان ولا بالتضرع إلى نوح عليه السلام في أن يركبوا معه أو يدعو لهم فينجوا .

(93/658)

ولما كان لقوم هود عليه السلام بعدهم من الضخامة والعز ما ليس لغيرهم مع قوة الأبدان وعلوا الهمم واتساع الملك حتى بنوا جنة في الأرض ، أتبعهم بهم ، ومن مناسبتهم لهم في أن عذابهم بالريح التي هي سبب السحاب الحامل للماء فقال : ﴿ وعاد ﴾ مسمياً لهم بالاسم المنبه على ما كان لهم من المكنة بالملك ، واستمروا في شقاقهم إلى أن خرجت عليهم الريح ، ورأوها تحمل الإبل فيما بين السماء والأرض ، وهجم عليهم أوائلها وهم يرون هوداً عليه السلام ومن معه من المؤمنين ـ رضى الله عنه ـ م في عافية منها ، ولم يدعهم الشقاق يسألونه في الدعاء لهم ولا يذعنون لما دعاهم إليه .

ولما كان لهم من القوة والملك في جميع الأرض وبناء إرم ذات العماد ما يتضاءل معه ملك كل ملك ، أتبعهم ملكاً ضخماً قهر غيره بعز سلطانه وكثرة أعوانه ، حتى ادعى الألهية في

زمانه ، وتكبر بسعة ملكه والأنهار الجارية من تحته مع ما له من الوفاق لهم بأن عذابه كان بالريح باطناً وإن كان بالماء ظاهراً وذلك أن موسى عليه السلام لما ضرب البحر أرسل الله الريح ففرقته طرقاً وأيبست تلك الطرق ، ولما خلص بنو إسرائيل أمرها الله تعالى فسكنت ، فانطبق البحر على فرعون وآله ، فقال تعالى : ﴿ وفرعون ﴾ ذكره باسمه نصاً على حقيقة أمره وتصريحاً بكفره إبطالاً لما أظهره الأخابث من شره طعناً في الدين وتشكيكاً لضعفاء المسلمين .

ولما نص على كفره ، وصفه بما يدل مع الدلالة على مشاركة عاد في ضخامة الأمر وعلى كفر قومه فقال : ﴿ ذو الأوتاد ﴾ أي الأسباب الموجبة لثبات الملك وتقويته من علو السلطان بكثرة الأعوان والتفرد بالأوامر وسعة العقل ودقة المكر وكثرة الحيل بالسحر وغيره وجودة التدبير بالعدل فيما يزعم وصولة القهر ، قال أبو حيان : وأصله من البيت المطنب بأوتاده – قال الأفوه الأودي :

والبيت لا يبتنى إلا له عمد . . .

ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

(94/658)

واستمروا في عزة وشقاق وهم يضربون تارة بالطوفان وتارة بالجراد وتارة بالقمل ، وأخرى بالضفادع وبغير ذلك ، إلى أن رأوا آية البحر التي هي الغاية ولم يردهم شيء من ذلك عن شقاقهم إلى أن غرقوا على كفرهم عن بكرة أبيهم كما صرحت به هذه الآية .

ولما كانت ثمود أضخم الناس بعدهم بما لهم من إتقان الأبنية في الجبال والسهول والتوسع بعمارة الحدائق وإنباط العيون وغير ذلك من الأمور ، مع مناسبتهم لهم في رؤية الآيات المحسوسة الظاهرة العظيمة أتبعهم بهم فقال : ﴿ وثمود ﴾ واستمروا فيما هم فيه إلى أن رأوا علامات العذاب من صفرة الوجوه ثم حمرتها ثم سوادها ، ولم يكن لهم في ذلك زاجر يردهم عن عزتهم وشقاقهم .

ولما كان الحامل لثمود على المعصية الموجبة العذاب النساء لأن عاقر الناقة ما اجترأ على عقرها إلا لامرأة منهم جعلت له على عقرها زواجها ، وكان الموجب لعذاب قوم لوط إتيان الذكور ، فالجامع بينهم الشهوة الفرج مع الطباق بالذكور والإناث ، مع أن عذاب ثمود برجف ديارهم ، وعذاب قوم لوط بقلع مدائنهم وحملها ثم قلبها ، أتبعهم بهم فقال معبراً بما يدل على قوتهم مضيفاً لهم إلى نبيهم عليه السلام لأنهم عدة مداين ليس لهم اسم جامع كقوم نوح عليه السلام : ﴿ وقوم لوط ﴾ أي الذين لهم قوة القيام بما يحاولونه واستمروا في عزتهم وشقاقهم حتى ضربوا بالعشا وطمس الأعين ، ولم يقدروا على الوصول إلى ما أرادوا من

الدخول إلى بيت لوط عليه السلام ولا التمكن مما أرادوا ولم يردهم ذلك عن عزتهم وشقاقهم ، بل توعدوه بطلوع النهار .

(95/658)

ولما ذكر أهل المدر ، أتبعهم طائفة من أهل الوبر يقاربونهم في الاستعصاء بالشجر ، مع أن عذابهم بظلة النار كما كان لقوم لوط عليه السلام حجارة من نار فقال : ﴿ وأصحاب لئْيكَةِ ﴾ ثم عظم أمرهم تهويناً لأمر قريش وردعاً لهم بالحث على استحضار عذابهم فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي العظماء في التجند والاجتماع على من يناوونه ﴿ الأحزاب ﴾ أي الذين أقصى رتب هؤلاء في المخالفة أن يكونوا مثل حزب منهم .

ولما كان في معرض المعارضة لتألبهم وشقاقهم ، وتجمعهم على المناواة باطلاً واتفاقهم ، ولما كانوا لما عندهم من العناد وحمية الجاهلية ربما أنكروا أن يكون هلاك هؤلاء الأحزاب لأجل التكذيب ، وقالوا : هو عادة الدهر في الإهلاك والتخالف في أسباب الهلاك ، قال مؤكداً بأنواع التأكيد : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ كل ﴾ من هذه الفرق كان لهلاكه سبب من الأسباب ﴿ إلا ﴾ أنه ﴿ كذب الرسل ﴾ أي كلهم بتكذيب رسوله ، فإن من كذب رسولاً واحداً مع ثبوت رسالته فقد استهان بمن أرسله ، وذلك ملزوم لتكذيب جميع من يرسله

لتساوي أقدام المعجزات التي ثبتت رسالتهم بها في إيجاب التصديق ﴿ فحق ﴾ أي فتسبب عن ذلك التكذيب أنه حق ﴿ عقاب ﴾ أي ثبت عليه فلم يقدر على التخلص منه بوجه من الوجوه والعدول إلى إفراد الضمير مع أسلوب التكلم لأن المقام للتوحيد كما مضى وهو أنص على المراد ، وتقدم السر في حذف الياء رسماً في جميع المصاحف ، وقراءة عند أكثر القراء وفي إثباتها في الحالين ليعقوب وحده .

ولما كان السياق للشقاق والإذعان للذكر الذي هو الموعظة ذات الشرف :

ولا يسلم الشرف الرفيع من الأذى . . .

حتى يراق على جوانبه الدم

كان الحال مقتضياً للعقوبة بخلاف ما في " ق " فإن السياق لإنكارهم البعث وصحة النذارة وإثبات المجد ، فكان الوعيد في ذلك كافياً .

(96/658)

ولما كان التقدير : فلقد أعقبنا كلاًّ من أولئك الأحزاب لما حق عليهم العقاب بنوع من الأنواع لا شك فيه عند أحد ولا ارتياب ، عطف عليه قوله : ﴿ وما ﴾ ولما كانت قريش في شدة

العناد والتصميم على الكفر والاستكبار عن الإذعان للحق وتعاطي جميع أسباب العذاب كأنهم ينتظرونه ويستعجلونه ، عبر بما يدل على الانتظار .

(97/658)

ولما كانوا لمعرفتهم بصدق الآتي إليهم والقطع بصحة ما يقول كأنهم يرون العذاب ولا يرجعون ، جرد فعل الانتظار فقال : ﴿ ينظر ﴾ وحقرهم بقوله : ﴿ هؤلاء ﴾ أي الذين أدبروا عنك في عزة وشقاق ، وغاية جهدهم أن يكونوا من الأحزاب الذين تحزبوا على جندنا فأخذناهم بما هو مشهور من وقائعنا ومعروف من أيامنا بأصناف العذاب ، ولم تغن عنهم كثرتهم ولا قوتهم شيئاً ولم يضر جندنا ضعفهم ولا قلتهم ﴿ إلا صيحة ﴾ وحقر أمرهم بالإشارة إلى أن أقل شيء من عذابه كافٍ في إهلاكهم فقال ﴿ واحدة ﴾ ولما كان السياق للتهديد فعلم به أن الوصف بالوحدة للتعظيم ، بينه بقوله : ﴿ ما لها ﴾ أي الصيحة ﴿ من فواق ﴾ أي مزيد أيّ شيء من جنسها يكون فوقها ، يقال : فاق أصحابه فوقاً وفواقاً ، علاهم ، وقرأه حمزة بالضم فيكون كناية عن سرعة الهلاك بها من غير تأخر أصلاً ، فإن الفواق كغراب ما يأخذ المحتضر عند النزاع ، والمعنى أنه لا يحتاج في إهلاكهم إلى زيادة على الصيحة الموصوفة لأنه لا صيحة فوقها ، ففي ذلك تعظيم أقل شيء من

عذابه وتحقير أعلى شيء من أمرهم ويجوز أن تكون القرءاتان من فواق الحلب ، قال الصغائي : والفواق والفواق أي بالضم والفتح : ما بين الحلبتين من الوقت لأنها تحلب ثم تترك سريعة يرضعها الفصيل لتدر قال في القاموس : أو ما بين فتح يدك وقبضها على الضرع ، فالمعنى : ما لها من رجوع كما يرجع اللبن في الضرع عن الفواق وكما يرجع المريض بالإفاقة من المرض إلى الصحة ، أو ما لها من انفصال وافتراق بقدر ما يتنفس فيه أحد أقل تنفس وأقصره زمناً كما هي عادة الأصوات المألوفة يكون فيها ترجيع يوجب في الصوت تقطعاً يصير به وقعه ضعيفاً فاتراً ، واعتماده على مخرجه رخواً ، بل هي صماء على نمط واحد لا تفجأ أحداً إلا مات إلا من ثبته الله تعالى ، ويجوز أن يكون من فواق المحتضر ، أي أنه ليس فيها مقدمة للموت غير قرع الصوت ، وهذا موافق لقولهم : ما لها من نظرة وراحة – والله أعلم .

(98/658)

ولما عجب منهم بما مضى ، وأبطل شبههم وعرفهم أنهم قد عرضوا أنفسهم للهلاك تعريضاً قريباً ، أتبع ذلك تعجيباً أشد من الأول فقال : ﴿ وقالوا ﴾ أي استهزاء غير هائبين ما هددناهم به ولا ناظرين في عاقبته : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا ﴿ عجل لنا ﴾ أي

إحساناً إلينا ﴿ قطنا ﴾ أي نصيباً من العذاب الذي توعدنا به وكتابنا الذي كتبت فيه ذلك وأحصيت فيه أعمالنا ، وأصله من قط الشيء – إذا قطعه ، ومنه قط القلم ، وأكثر استعماله في الكتاب .

ولما كان المراد بهذا المبالغة في الاستهزاء بطلب العذاب في جميع الأزمان التي بينهم وبين القيامة ، أسقطوا حرف الجر وقالوا : ﴿ قبل يوم الحساب ﴾ فجعلوا جميع الزمان الذي بينهم وبينه ظرفاً لذلك ، وجعلوا تعجيله من الإحسان إليهم دلالة على الإعراق في الاستهزاء ، وعبر بالقط زيادة في التنبيه على ركوب الهوى من غير دليل فإن مادته دائرة في الأغلب على ما يكره ، واشتقاقه من القط وهو القطع ، فالقط النصيب والصك وكتاب المحاسبة لأنه قطعه من الورق ، والحساب قطعة من الأمور وهو يقطع فيه بما هو له والساعة – لأنها قطعة من الزمان وتقطقط الرجل : ركب رأسه أي تبع هواه الذي هو قطعة من أمره ، وجاءت الخيل قطاقط أي قطعاً وجماعات في تفرقة ، والقط : القطع ، والقطط : القصير الجعد ، والطقطقة : حكاية صوت الحجارة ، فكأنهم قالوا : عجل من ذلك ما يكون مقطوعاً به لا شك فيه ويسمع صوته على غاية الشدة فيهلك ويفرق بين الأحباب ويكتب في كل صك ، ويتلى خبره في سائر الأحقاب ، فإن ذلك هو أنا لا نرجع عنه لشيء أصلاً ، فسبحان الحليم الذي أكرمنا ورحمنا بنبي الرحمة ، فلم يعجل لنا النقمة ، وأقبل بقلوبنا إليه ،

وقصر هممنا بعد أن كانت في أشد بعد عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 368.363 ﴾

(99/658)

فصل

قال الفخر :

والوجه الثاني : من الوجوه التي ذكرها الله تعالى في الجواب عن تلك الشبهة

(100/658)

قوله تعالى : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العزيز الوهاب ﴾ وتقرير هذا الجواب أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون عزيزاً أي كامل القدرة ووهاباً أي عظيم الجود وذلك هو الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان هو تعالى كامل القدرة وكامل الجود ، لم يتوقف كونه واهباً لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنياً أو فقيراً ، ولم يختلف ذلك أيضاً بسبب أن أعداءه يحبونه أو يكرهونه والوجه الثالث : في

الجواب عن هذه الشبهة قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِي الأسباب ﴾ واعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الكلام مغايراً للمراد من قوله : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ والفرق أن خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ ومن جملة تلك الخزائن هو هذه السموات والأرض ، فلما ذكرنا الخزائن أولاً على عمومها أردفها بذكر ﴿ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ يعني أن هذه الأشياء أحد أنواع خزائن الله ، فإذا كنتم عاجزين عن هذا القسم ، فبأن تكونوا عاجزين عن كل خزائن الله كان أولى ، فهذا ما أمكنني ذكره في الفرق بين الكلامين ، أما قوله تعالى : ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِي الأسباب ﴾ فالمعنى أنهم أن ادعوا أن لهم ملك السموات والأرض فعند هذا يقال لهم ارتقوا في الأسباب واصعدوا في المعارج التي يتوصل بها إلى العرش حتى يرتقوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي على من يختارون ، واعلم أن حكماء الإسلام استدلوا بقوله : ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِي الأسباب ﴾ على أن الأجرام الفلكية وما أودع الله فيها من القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلي لأن الله تعالى سمى الفلكيات أسباباً وذلك يدل على ما قلناه ، والله أعلم ، أما قوله تعالى : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأحزاب ﴾ ففيه مقامان من البحث أحدهما : في

تفسير هذه الألفاظ والثاني : في كيفية تعلقها بما قبلها أما المقام الأول : فقوله : ﴿ جُندٌ ﴾ مبتدأ وما للإيهام كقوله جئت لأمر ما ، وعندي طعام ما ، و ﴿ مّن الأحزاب ﴾ صفة لجند و ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ خبر المبتدأ وأما قوله : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فيجوز أن يكون صفة لجند أي جند ثابت هنالك ، ويجوز أن يكون متعلقاً بمهزوم معناه أن الجند من الأحزاب مهزوم هنالك ، أي في ذلك الموضع الذي كانوا يذكرون فيه هذه الكلمات الطاعنة في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأما المقام الثاني : فهو أنه تعالى لما قال إن كانوا يملكون السموات والأرض فليرتقوا في الأسباب ، ذكر عقيبه أنهم جند من الأحزاب منهزمون ضعيفون ، فكيف يكونون مالكي السموات والأرض وما بينهما ، قال قتادة هنالك إشارة إلى يوم بدر فأخبر الله تعالى بمكة أنه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر ، وقيل يوم الخندق ، والأصوب عندي حمله على يوم فتح مكة ، وذلك لأن المعنى أنهم جند سيصيرون منهزمين في الموضع الذي ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة ، فوجب أن يكون المراد أنهم سيصيرون منهزمين في مكة وما ذاك إلا يوم الفتح ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأوتاد ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الجواب عن شبهة القوم أنهم إنما توانوا وتكاسلوا في النظر والاستدلال ، لأجل أنهم لم ينزل بهم العذاب ، بيَّن تعالى في هذه الآية أن أقوام سائر الأنبياء هكذا كانوا ثم بالآخرة نزل ذلك العقاب ، والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول في إخباره عن نزول العقاب عليهم ، فذكر الله ستة أصناف منهم أولهم قوم نوح عليه السلام ولما كذبوا نوحاً أهلكهم الله بالغرق والطوفان والثاني : عاد قوم هود لما كذبوه أهلكهم الله بالريح والثالث : فرعون لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق والرابع : ثمود قوم صالح لما كذبوه فأهلكوا بالصيحة والخامس : قوم لوط كذبوه بالخسف والسادس : أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب كذبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلة ، قالوا : وإنما وصف الله فرعون بكونه ذا الأوتاد لوجوه الأول : أن أصل هذه الكلمة من ثبات البيت المطنب بأوتاده ، ثم استعير لإثبات العز والملك قال الشاعر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة . . في ظل ملك ثابت الأوتاد

قال القاضي حمل الكلام على هذا الوجه أولى لأنه لما وصف بتكذيب الرسل ، فيجب فيما وصف به أن يكون تفخيماً لأمر ملكه ليكون الزجر بما ورد من قبل الله تعالى عليه من الهلاك مع قوة أمره أبلغ والثاني : أنه كان ينصب الخشب في الهواء وكان يمد يدي المعذب ورجليه إلى تلك الخشب الأربع ، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتداً ، ويتركه

معلقاً في الهواء إلى أن يموت والثالث : أنه كان يمد المعذب بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات والرابع : قال قتادة كانت أوتاداً وأرساناً وملاعب يلعب بها عنده والخامس : أن عساكره كانوا كثيرين ، وكانوا كثيري الأهبة عظيمي النعم ، وكانوا يكثرون من الأوتاد لأجل الخيام فعرف بها

والسادس : ذو الأوتاد والجموع الكثيرة ، وسميت الجموع أوتاداً لأنهم يقرون أمره ويشدون مملكته كما يقوي الوتد البناء . (1)

---

(1) الأولى أن تفسر الأوتاد هنا بالأهرام ، فإنها خاصة بالفراعين في مصر ، وإنما جاز أن نسميها أوتادا تشبيها لها بالجبال في الرسوخ في الأرض والعظم والسموق والعلو والارتفاع ، والله تعالى سمى الجبال أوتادا في القرآن بقوله وَالْجِبالَ أَوْتاداً . [النبأ : 7] .

(103/658)

وأما الإيكة فهي الغيضة الملتفة .

ثم قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الأحزاب ﴾ وفيه أقوال الأول : أن هؤلاء الذين ذكرناهم من الأمم هم الذين تحزبوا على أنبيائهم فأهلكناهم ، فكذلك نفعل بقومك ، لأنه تعالى بيَّن بقوله : ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ [ص : 11] أن قوم محمد صلى الله عليه وسلم

جند من الأحزاب ، أي من جنس الأحزاب المتقدمين ، فلما ذكر أنه عامل الأحزاب المتقدمين بالإهلاك كان ذلك تخويفاً شديداً لقوم محمد صلى الله عليه وسلم الثاني : أن معنى قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الأحزاب ﴾ مبالغة لوصفهم بالقوة والكثرة ، كما يقال فلان هو الرجل ، والمعنى أن حال أولئك الأحزاب مع كمال قوتهم لما كان هو الهلاك والبوار ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين .

واعلم أن هؤلاء الأقوام إن صدقوا بهذه الأخبار فهو تحذير ، وإن لم يصدقوا بها فهو تحذير أيضاً ، لأن آثار هذه الوقائع باقية وهو يفيد الظن القوي فيحذرون ، ولأن ذكر ذلك على سبيل التكرير يوجب الحذر أيضاً ثم قال : ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أي كل هذه الطوائف لما كذبوا أنبياءهم في الترغيب والترهيب ، لا جرم نزل العقاب عليهم وإن كان ذلك بعد حين ، والمقصود منه زجر السامعين ، ثم بين تعالى أن هؤلاء المكذبين وإن تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلآء إِلاَّ صَيْحَةً واحدة مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ وفي تفسير هذه الصيحة قولان الأول : أن يكون المراد عذاباً يفجؤهم ويجيئهم دفعة واحدة ، كما يقال صاح الزمان بهم إذا هلكوا قال الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة . . خروا لشدتها على الأذقان

ويشبه أن يكون أصل ذلك من الغارة إذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [يونس : 102] الآية والقول الثاني : أن هذه الصيحة هي صيحة النفخة الأولى في الصور ، كما قال تعالى في سورة يس : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ [يس : 49] والمعنى أنهم وإن لم يذوقوا عذابي في الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة ، فكأنهم بذلك العذاب وقد جاءهم فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم ، كالرجل الذي ينتظر الشيء فهو ماد الطرف إليه يطمع كل ساعة في حضوره ، ثم إنه سبحانه وصف هذه الصيحة فقال : ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ فُوَاقٍ ﴾ بضم الفاء ، والباقون بفتحها ، قال الكسائي والفراء وأبو عبيدة والأخفش : هما لغتان من فواق الناقة .

وهو ما بين حلبتي الناقة وأصله من الرجوع ، يقال أفاق من مرضه ، أي رجع إلى الصحة ، فالزمان الحاصل بين الحلبتين لعود اللبن إلى الضرع يسمى فواقاً بالفتح وبالضم ، كقولك قصاص الشعر وقصاصه ، قال الواحدي : والفواق والفواق إسمان من الأفاقة ، والأفاقة معناها الرجوع والسكون كأفاقة المريض ، إلا أن الفواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر ، والفواق بالضم اسم لذلك الزمان الذي يعود فيه اللبن إلى الضرع ، وروى الواحدي في البسيط عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية : " يأمر الله

إسرافيل فينفخ نفخة الفزع ، قال فيمدها ويطولها " وهي التي يقول : ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ ثم قال الواحدي : وهذا يحتمل معنيين أحدهما : ما لها سكون والثاني : ما لها رجوع ، والمعنى ما تسكن تلك الصيحة ولا ترجع إلى السكون ، ويقال لكل من بقي على حالة واحدة ، إنه لا يفيق منه ولا يستفيق ، والله أعلم .

(105/658)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب * اصبر على مَا يَقُولُونَ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأيد إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ .

اعلم أنا ذكرنا في تفسير قوله : ﴿ وَعَجِبُواْ أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكافرون هذا ساحر كَذَّابٌ ﴾ [ص : 4] أن القوم إنما تعجبوا لشبهات ثلاثة أولها : تتعلق بالإلهيات ، وهو قوله : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا ﴾ والثانية : تتعلق بالنبوات ، وهو قوله : ﴿ أأنزل عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ [ص : 8] والثالثة : تتعلق بالمعادة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ وذلك لأن القوم كانوا في نهاية الإنكار للقول بالحشر والنشر ، فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته ، والقط القطعة من الشيء لأنه قطع منه من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط ، ولما ذكر رسول الله

صلى الله عليه وسلم وعد المؤمنين بالجنة ، قالوا على سبيل الاستهزاء : عجل لنا نصيبنا من الجنة ، أو عجل لنا صحيفة أعمالنا حتى ننظر فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 157.160 ﴾

(106/658)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العزيز الوهاب ﴾

قيل : أم لهم هذا فيمنعوا محمداً عليه السلام مما أنعم اللّه عز وجل به عليه من النبوة .

و"أم" قد ترد بمعنى التقريع إذا كان الكلام متصلاً بكلام قبله ؛ كقوله تعالى : ﴿ الم تَنزِيلُ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين أَمْ يَقُولُونَ افتراه ﴾ [السجدة : 1-3] وقد قيل إن قوله : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ متصل بقوله : ﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ص : 4] فالمعنى أن اللّه عز وجل يرسل من يشاء ؛ لأن خزائن السموات والأرض له ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي فإن ادعوا ذلك ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأسباب ﴾ أي فليصعدوا إلى السموات ، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محمد .

يقال : رَقِيَ يَرْقَى وارتقى إذا صَعِد .

ورَقَى يَرْقِي رَقْياً مثل رَمَى يَرْمي رَمْياً من الرُّقْية .

قال الربيع بن أنس : الأسباب أرقّ من الشَّعر وأشدّ من الحديد ولكن لا ترى .

والسبب في اللغة كل ما يوصل به إلى المطلوب من حبل أو غيره .

وقيل : الأسباب أبواب السموات التي تنزل الملائكة منها ؛ قاله مجاهد وقتادة .

قال زهير :

* ولَوْ رَامَ أسبابَ السماءِ بِسُلَّم V . . .

وقيل : الأسباب السموات نفسها ؛ أي فليصعدوا سماء سماء .

وقال السدي : "في الأَسْبَابِ" في الفضل والدين .

وقيل : أي فليعلوا في أسباب القوّة إن ظنوا أنها مانعة .

وهو معنى قول أبي عبيدة .

وقيل : الأسباب الحبال ؛ يعني إن وجدوا حبلاً أو سبباً يصعدون فيه إلى السماء فليرتقوا ؛

وهذا أمر توبيخ وتعجيز .

ثم وعد نبيّه صلى الله عليه وسلم النصر عليهم فقال : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ ﴾ "ما" صلة

وتقديره هم جند ، ف"جُنْدٌ" خبر ابتداء محذوف .

﴿ مَهْزُومٌ ﴾ أي مقموع ذليل قد انقطعت حجتهم ؛ لأنهم لا يصلون إلى أن يقولوا هذا لنا .

ويقال : تهزّمت القربة إذا انكسرت ، وهزمتُ الجيش كسرته .

والكلام مرتبط بما قبل ؛ أي ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ وهم جند من الأحزاب مهزومون ، فلا تغمك عزتهم وشقاقهم ، فإني أهزم جمعهم وأسلب عزهم .

وهذا تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقد فُعِل بهم هذا في يوم بدر .

قال قتادة : وعد اللّه أنه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلها يوم بَدْر .

و "هُنَالِكَ" إشارة لبدر وهو موضع تحزُّبهم لقتال محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : المراد بالأحزاب الذين أتوا المدينة وتحزبوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقد مضى ذلك في "الأحزاب" .

والأحزاب الجند ، كما يقال : جند من قبائل شتّى .

وقيل : أراد بالأحزاب القرون الماضية من الكفّار .

أي هؤلاء جند على طريقة أولئك ؛ كقوله تعالى : ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مني ﴾ [البقرة : 249] أي على ديني ومذهبي .

وقال الفراء : المعنى هم جندٌ مغلوب ؛ أي ممنوع عن أن يصعد إلى السماء .

وقال القتبي : يعني أنهم جند لهذه الآلهة مهزوم ، فهم لا يقدرون على أن يدّعوا الشيء من آلهتهم ، ولا لأنفسهم شيئاً من خزائن رحمة اللّه ، ولا من ملك السمواتِ والأرض .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكرها تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له ؛ أي هؤلاء من قومك يا محمد جندٌ من الأحزاب المتقدّمين الذين تحزّبوا على أنبيائهم ، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأهلكوا .

وذكر اللّه تعالى القوم بلفظ التأنيث ، واختلف أهل العربية في ذلك على قولين : أحدهما أنه قد يجوز فيه التذكير والتأنيث .

(108/658)

الثاني أنه مذكر اللفظ لا يجوز تأنيثه ، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة ، فيغلب في اللفظ حكم المعنى المضمر تنبيهاً عليه ؛ كقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ [عبس : 11 12] ولم يقل ذكرها ؛ لأنه لما كان المضمر فيه مذكراً ذكره ؛ وإن كان اللفظ مقتضياً للتأنيث .

ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد .

وقد اختلف في تأويل ذلك ؛ فقال ابن عباس : المعنى ذو البناء المحكم .

وقال الضحاك : كان كثير البنيان ، والبنيان يسمى أوتاداً .

وعن ابن عباس أيضاً وقتادة وعطاء : أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يُلْعَب له عليها .

وعن الضحاك أيضاً : ذو القوّة والبطش .

وقال الكلبي ومقاتل : كان يعذِّب الناس بالأوتاد ، وكان إذا غضب على أحد مدّه مستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض ، ويرسل عليه العقارب والحيات حتى يموت .

وقيل : كان يشبح المعذب بين أربع سوارٍ ؛ كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وَتَد من حديد ويتركه حتى يموت .

وقيل : ذو الأوتاد أي ذو الجنود الكثيرة فسميت الجنود أوتاداً ؛ لأنهم يقوّون أمره كما يقوّي الوتد البيت .

وقال ابن قتيبة : العرب تقول هم في عزّ ثابت الأوتاد ، يريدون دائماً شديداً .

وأصل هذا أن البيت من بيوت الشَّعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد .

قال الأسود بن يَعْفُر :

ولقد غَنَوْا فيها بأنعَمِ عِيشةٍ . . .

في ظلِّ مُلْكٍ ثابِتِ الأوتادِ

وواحد الأوتاد وِتد بالكسر ، وبالفتح لغة .

وقال الأصمعي : يقال وتَد واتِد كما يقال : شغل شاغل .

وأنشد :

لاقتْ على الماءِ جُذَيْلاً وَاتِداً . . .

ولم يكن يُخْلِفُها المَوَاعِدَا

قال : شبَّه الرجل بالجِذْل .

﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ ﴾ أي الغيضة .

وقد مضى ذكرها في "الشعراء" .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر : "لَيْكَةَ" بفتح اللام والتاء من غير همز .

وهمز الباقون وكسروا التاء .

وقد تقدّم هذا .

(109/658)

﴿ أولئك الأحزاب ﴾ أي هم الموصوفون بالقوّة والكثرة ؛ كقولك فلان هو الرجل .

﴿ إِن كُلٌّ ﴾ بمعنى ما كل .

﴿ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أي فنزل بهم العذاب لذلك التكذيب .

وأثبت يعقوب الياء في "عَذَابِي" و"عِقَابِي" في الحالين وحذفها الباقون في الحالين.

ونظير هذه الآية قوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ الذي آمَنَ يا قوم إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الأحزاب مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [غافر: 31] فسمى هذه الأمم أحزاباً.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هؤلاءآء إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ "يَنْظُرُ" بمعنى ينتظر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد: 13].

"هؤلاء" يعني كفار مكة.

"إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً" أي نفخة القيامة.

أي ما ينتظرون بعد ما أصيبوا ببدر إلا صيحة القيامة.

وقيل: ما ينتظر أحياؤهم الآن إلا الصيحة التي هي النفخة في الصور، كما قال تعالى: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ [يس: 49] وهذا إخبار عن قرب القيامة والموت.

وقيل: أي ما ينتظر كفار آخر هذه الأمة المتدّينين بدين أولئك إلا صيحة واحدة وهي النفخة.

وقال عبد الله بن عمرو: لم تكن صيحة في السماء إلا بغضب من الله عز وجل على أهل الأرض.

﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ أي من ترداد؛ عن ابن عباس.

مجاهد : ما لها رجوع .

قتادة : ما لها من مثنوية .

السدّي : ما لها من إفاقة .

وقرأ حمزة والكسائي : "مَا لَهَا مِنْ فُوَاقٍ" بضم الفاء .

الباقون بالفتح .

الجوهري : والفَواق والفُواق ما بين الحَلْبتين من الوقت ؛ لأنها تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتَدِرّ ثم تُحلَب .

(110/658)

يقال : ما أقام عنده إلا فُوَاقاً ؛ وفي الحديث : " العيادة قدر فواق الناقة " وقوله تعالى : ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ يقرأ بالفتح والضم أي ما لها من نظرة وراحة وإفاقة .

والفِيقة بالكسر اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين : صارت الواو ياء لكسر ما قبلها ؛ قال الأعشى يصف بقرة :

حتى إذا فِيقَةٌ في ضَرعِها اجتمعت . . .

جاءتْ لِتُرضِع شِقَّ النَّفْسِ لَوْ رَضَعَا

والجمع فِيق ثم أفواق مثل شِبر وأشبار ثم أفاويق .

قال ابن همّام السّلُوليّ :

وذَمُّوا لنا الدنيا وهُمْ يَرْضَعُونَها . . .

أَفَاوِيقَ حتى ما يدِرُّ لها ثُعْلُ

والأفاويق أيضاً ما اجتمع في السحاب من ماء ، فهو يمطر ساعة بعد ساعة .

وأفاقت الناقة إفاقة أي اجتمعت الفِيقة في ضرعها ؛ فهي مُفِيقٌ ومُفِيقَةٌ عن أبي عمرو

والجمع مفاويق .

وقال الفرّاء وأبو عبيدة وغيرهما : "مِنْ فَوَاقٍ" بفتح الفاء أي راحة لا يفيقون فيها ، كما يفيق

المريض والمغشيّ عليه .

و"مِنْ فُواقٍ" بضم الفاء من انتظار .

وقد تقدّم أنهما بمعنىً وهو ما بين الحلبتين .

قلت : والمعنى المراد أنها ممتدّة لا تقطيع فيها .

وروى أبو هريرة قال : حدّثنا رسول صلى الله عليه وسلم ونحن في طائفة من أصحابه . .

.

الحديث .

وفيه : " يأمر اللّه عز وجل إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول انفخ نفخة الفزع فيفزع أهل

السموات وأهل الأرض إلا من شاء اللّه ويأمره فيمدّها ويديمها ويطوّلها يقول اللّه عز وجل : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هؤلاءآء إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ " وذكر الحديث ، خرجه علي بن معبد وغيره كما ذكرناه في كتاب التذكرة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ قال مجاهد : عذابنا .

وكذا قال قتادة : نصيبنا من العذاب .

الحسن : نصيبنا من الجنة لنتنعم به في الدنيا .

وقاله سعيد بن جُبير .

ومعروف في اللغة أن يقال للنصيب قِطّ وللكتاب المكتوب بالجائزة قِط .

(111/658)

قال الفراء : القِط في كلام العرب الحظ والنصيب .

ومنه قيل للصك قِط .

وقال أبو عبيدة والكسائي : القِط الكتاب بالجوائز والجمع القطوط ؛ قال الأعشى :

ولا المِلكُ النّعْمانُ يومَ لَقِيتُهُ . . .

بِغِبْطَتِهِ يُعطِي القُطوطَ وَيَأْفِقُ

يعني كتب الجوائز .

ويروى : بأُمَّتِهِ بدل بغبطته ، أي بنعمته وحاله الجليلة ، ويأفِق يصلح .

ويقال : في جمع قِط أيضاً قِططة وفي القليل أقط وأُقْطاط .

ذكره النحاس .

وقال السدي : سألوا أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ليعلموا حقيقة ما يوعدون به .

وقال إسماعيل بن أبي خالد : المعنى عجّل لنا أرزاقنا .

وقيل : معناه عجل لنا ما يكفينا ؛ من قولهم : قَطْنِي ؛ أي يكفيني .

وقيل : إنهم قالوا ذلك استعجالا لكتبهم التي يعطونها بأيمانهم وشمائلهم حين تلي عليهم بذلك القرآن .

وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الانشقاق : 7] .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ ﴾ [الانشقاق : 10] .

وأصل القطّ القَطّ وهو القطع ، ومنه قَطّ القلم ؛ فالقِط اسم للقطعة من الشيء كالقَسْمِ والقِسْم فأطلق على النصيب والكتاب والرزق لقطعه عن غيره ؛ إلا أنه في الكتاب أكثر استعمالا وأقوى حقيقة .

قال أمية بن أبي الصَّلْت :

قومٌ لهم ساحةُ العِراقِ وما . . .

يُجْبَى إليهِ وَالقِطُّ والقَلَمُ

﴿ قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ أي قبل يوم القيامة في الدنيا إن كان الأمر كما يقول محمد .

وكل هذا استهزاء منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(112/658)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) ﴾

لات : هي لا ، ألحقت بها التاء كما ألحقت في ثم ورب ، فقالوا : ثمت وربت ، وهي تعمل عمل ليس في مذهب سيبويه ، وعمل إن في مذهب الأخفش .

فإن ارتفع ما بعدها ، فعلى الابتداء عنده ؛ ولها أحكام ذكرت في علم النحو ، ويأتي شيء منها هنا عند ذكر القراءات التي فيها .

والمناص : المنجا والغوث ، يقال ناصه ينوصه : إذا فاته .

قال الفراء : النوص : التأخير ، يقال ناص عن قرنه ينوص نوصاً ومناصاً : أي فر وزاغ ،

وأنشد لامرىء القيس :

أم ذكر سلمى ان نأتك كنوص . . .

واستناص طلب المناص

قال حارثة بن بدر : . . .

غمر الجراء إذا قصرت عنانه

بيدي استناص ورام جري المسحل . . .

وقال الجوهري : استناص : تأخر .

وقال النحاس : ناص ينوص : تقدم .

الوتد : معروف ، وكسر التاء أشهر من فتحها .

ويقال : وتد واتد ، كما يقال : شغل شاغل .

قال الأصمعي وأنشد :

لاقت على الماء جذيلاً واتداً . . .

ولم يكن يخلفها المواعدا

وقالوا : ودّ فأدغموه ، قال الشاعر :

تخرج الودّ إذا ما أشحذت . . .

وتواريه إذا ما تشتكر

وقالوا فيه : دت ، فأدغموا بإدال الدال تاء ، وفيه قلب الثاني للأول ، وهو قليل .

﴿ ص والقرآن ذي الذكر ، بل الذين كفروا في عزّة وشقاق ، كم أهلكنا من قبلكم من قرن فنادوا ولات حين مناص ، وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكفارون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن أمشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ، أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب ، أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ، أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقبوا في الأسباب ، جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ، كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ، إن كل إلا كذَّب الرسل فحق عقاب ﴾ .

هذه السورة مكية ، ومناسبتها لآخر ما قبلها أنه لما ذكر عن الكفار أنهم كانوا يقولون : ﴿ لو أن عندنا ذكراً من الأولين ﴾ لأخلصوا العبادة لله .

وأخبر أنهم أتاهم الذكر فكفروا به .

بدأ في هذه السورة بالقسم بالقرآن ، لأنه الذكر الذي جاءهم ، وأخبر عنهم أنهم كافرون ، وأنهم في تعزز ومشاقة للرسول الذي جاء به ؛ ثم ذكر من أهلك من القرون التي شاقت الرسل ليتعظوا .

" وروي أنه لما مرض أبو طالب ، جاءت قريش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كي يمنعه ، وشكوه إلى أبي طالب ، فقال : يا ابن أخي ، ما تريد من قومك ؟ فقال : يا عم ، إنما أريد منهم كلمة تذل لهم بها العرب ، وتؤدّي إليهم الجزية بها العجم .

قال : وما الكلمة ؟ قال : كلمة واحدة ، قال : وما هي ؟ قال : لا إله إلا الله ، قال فقاموا وقالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ "

قال : فنزل فيهم القرآن : ﴿ ص والقرآن ذي الذكر ﴾ ، حتى بلغ ، ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ .

قرأ الجمهور : ص ، بسكون الدال .

(114/658)

وقرأ أبي ، والحسن ، وابن أبي إسحاق ، وأبو السمال ، وابن أبي عبلة ، ونصر بن عاصم : ص ، بكسر الدال ، والظاهر أنه كسر لالتقاء الساكنين .

وهو حرف من حروف المعجم نحو : ق ونون .

وقال الحسن : هو أمر من صادى ، أي عارض ، ومنه الصدى ، وهو ما يعارض الصوت في

الأماكن الصلبة الخالية من الأجسام ، أي عارض بعملك القرآن .

وعنه أيضاً : صاديت : حادثت ، أي حادث ، وهو قريب من القول الأول .

وقرأ عيسى ، ومحبوب عن أبي عمرو ، وفرقة : صاد ، بفتح الدال ، وكذا قرأ : قاف ونون ، بفتح الفاء والنون ، فقيل : الفتح لالتقاء الساكنين طلباً للتخفيف ؛ وقيل : انتصب على أنه مقسم به ، حذف منه حرف القسم نحو قوله : ألله لأفعلن ، وهو اسم للسورة ، وامتنع من الصرف للعلمية والتأنيث ، وقد صرفها من قرأ صاد بالجر والتنوين على تأويل الكتاب والتنزيل ، وهو ابن أبي إسحاق في رواية .

وقرأ الحسن أيضاً : صاد ، بضم الدال ، فإن كان اسماً للسورة ، فخبر مبتدأ محذوف ، أي هذه ص ، وهي قراءة ابن السميفع وهارون الأعور ؛ وقرأ قاف ونون ، بضم الفاء والنون .

وقيل : هو حرف دال على معنى من فعل أو من اسم ، فقال الضحاك : معناه صدق الله .

وقال محمد بن كعب : مفتاح أسماء الله محمد صادق الوعد صانع المصنوعات .

وقيل : معناه صدق محمد .

قال ابن عباس ، وابن جبير ، والسدّي : ذي الذكر : ذي الشرف الباقي المخلد .

وقال قتادة : ذي التذكرة ، للناس والهداية لهم .

وقيل : ذي الذكر ، للأمم والقصص والغيوب والشرائع وجواب القسم ، قيل : مذكور ، فقال الكوفيون والزجاج : هو قوله : ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ وقال الفراء : لا

نجده مستقيماً في العربية لتأخره جداً عن قوله : ﴿ والقرآن ﴾ .

وقال الأخفش : هو ﴿ إن كل إلا كذّب الرسل ﴾ ، وقال قوم : ﴿ كم أهلكنا ﴾ ، وحذف اللام أي لكم ، لما طال الكلام ؛ كما حذفت في ﴿ والشمس ﴾ ثم قال : ﴿ قد أفلح ﴾ حكاه الفراء وثعلب ، وهذه الأقوال يجب اطراحها .

(115/658)

وقيل : هو صاد ، إذ معناه : صدق محمد وصدق الله .

وكون صاد جواب القسم ، قاله الفراء وثعلب ، وهذا مبني على تقدم جواب القسم ، واعتقاد أن الصاد يدل على ما ذكروه .

وقيل : الجواب محذوف ، فقدره الحوفي : لقد جاءكم الحق ونحوه ، والزمخشري : إنه لمعجز ، وابن عطية : ما الأمر كما تزعمون ، ونحو هذا من التقدير .

ونقل أن قتادة والطبري قالا : هو محذوف قبل ﴿ بل ﴾ ، قال : وهو الصحيح ، وقدره ما ذكرنا عنه ، وينبغي أن يقدر ما أثبت هنا جواباً للقرآن حين أقسم به ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين ﴾ ويقوي هذا التقدير ذكر النذارة هنا في قوله : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ ، وقال هناك : ﴿ لتنذر قوماً ﴾ فالرسالة تتضمن

النذارة والبشارة ، وبل للانتقال من هذا القسم والمقسم عليه إلى حالة تعزز الكفار ومشاقهم في قبول رسالتك وامتثال ما جئت به ، واعتراف بالحق .

وقرأ حماد بن الزبرقان ، وسورة عن الكسائي ، وميمون عن أبي جعفر ، والجحدري من طريق العقيلي : في غرة ، بالغين المعجمة والراء ، أي في غفلة ومشاقة .

﴿ قبلهم ﴾ : أي قبل هؤلاء ذوي المنعة الشديدة والشقاق ، وهذا وعيد لهم .

﴿ فنادوا ﴾ : أي استغاثوا ونادوا بالتوبة ، قاله الحسن ؛ أو رفعوا أصواتهم ، يقال : فلان أندى صوتاً : أي أرفع ، وذلك بعد معاينة العذاب ، فلم يك وقت نفع .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولات حين ﴾ ، بفتح التاء ونصب النون ، فعلى قول سيبويه ، عملت عمل ليس ، واسمها محذوف تقديره : ولات الحين حين فوات ولا فرار .

وعلى قول الأخفش : يكون حين اسم لات ، عملت عمل إن نصبت الاسم ورفعت الخبر ، والخبر محذوف تقديره : ولات أرى حين مناص .

وقرأ أبو السمال : ولات حين ، بضم التاء ورفع النون ؛ فعلى قول سيبويه : حين مناص اسم لات ، والخبر محذوف ؛ وعلى قول الأخفش : مبتدأ ، والخبر محذوف .

(116/658)

وقرأ عيسى بن عمر : ولات حين ، بكسر التاء وجر النون ، خبر بعد لات ، وتخريجه مشكل ، وقد تمحل الزمخشري في تخريج الخبر في قوله :

طلبوا صلحنا ولات حين أوان . . .

فأجبنا أن لات حين بقاء

قال : شبه أوان بإذ في قوله : وأنت إذ صحيح في أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض ، لأن الأصل : ولات أوان صلح .

فإن قلت : فما تقول في حين مناص ، والمضاف إليه قائم ؟ قلت : نزل قطع المضاف والمضاف إليه ، وجعل تنوينه عوضاً من الضمير المحذوف ، ثم بنى الحين لكونه مضافاً إلى غير متمكن . انتهى .

هذا التمحل ، والذي ظهر لي في تخريج هذه القراءة الشاذة ، والبيت النادر في جر ما بعد لات : أن الجر هو على إضمار من ، كأنه قال : لات من حين مناص ، ولات من أوان صلح ، كما جروا بها في قولهم : على كم جذع بيتك ؟ أي من جذع في أصح القولين ، وكما قالوا : لا رجل جزاه الله خيراً ، يريدون : لا من رجل ، ويكون موضع من حين مناص رفعاً على أنه اسم لات بمعنى ليس ، كما تقول : ليس من رجل قائماً ، والخبر محذوف ، وهذا على قول سيبويه ، أو على أنه مبتدأ أو الخبر محذوف ، على قول الأخفش .

وقال بعضهم : ومن العرب من يخفض بلات ، وأنشد الفراء :

ولتندمن ولات ساعة مندم . . .

وخرج الأخفش ولات أوان على إضمار حين ، أي ولات حين أوان ، حذف حين وأبقى أوان على جره .

وقال أبو إسحاق : ولات أواننا ، فحذف المضاف إليه ، فوجب أن لا يعرب ، وكسره لالتقاء الساكنين ؛ وهذا هو الوجه الذي قرره الزمخشري ، أخذه من أبي إسحاق الزجاج ، وأنشده المبرد : ولات أوان بالرفع .

وعن عيسى : ولات حين ، بالرفع ، مناص : بالفتح .

(117/658)

وقال صاحب اللوامح : فإن صح ذلك ، فلعله بنى حين على الضم ، فيكون في الكلام تقديم وتأخير ، وأجراه مجرى قبل وبعد في الغاية ، وبنى مناص على الفتح مع لات ، على تقدير : لات مناص حين ، لكن لا إنما تعمل في النكرات في اتصالها بهن دون أن يفصل بينهما ظرف أو غيره ، وقد يجوز أن يكون لذلك معنى لا أعرفه . انتهى .

وقرأ عيسى أيضاً : ولات بكسر التاء ، وحين بنصب النون ، وتقدم تخريج نصب حين .

ولات روي فيها فتح التاء وضمها وكسرها والوقف عليها بالتاء ، قول سيبويه والفراء وابن

كيسان والزجاج ، ووقف الكسائي والمبرد بالهاء ، وقوم على لا ، وزعموا أن التاء زيدت في حين ؛ واختاره أبو عبيدة وذكر أن رآه في الإمام مخلوطاً تاؤه بحين ، وكيف يصنع بقوله : ولات ساعة مندم ، ولات أوان .

وقال الكلبي : كانوا إذا قاتلوا فاضطروا ، قال بعضهم لبعض : مناص ، أي عليكم بالفرار ، فلما أتاهم العذاب قالوا : مناص ، فقال الله : ﴿ ولات حين مناص ﴾ .

قال القشيري : فعلى هذا يكون التقدير : فنادوا مناص ، فحذف لدلالة ما بعده عليه ، أي ليس الوقت وقت ندائكم به ، وفيه نوع تحكم ، إذ كل من هلك من القرون يقول مناص عند الاضطرار . انتهى .

وقال الجرجاني : أي فنادوا حين لا مناص ، أي ساعة لا منجا ولا فوت .

فلما قدم لا وأخر حين اقتضى ذلك الواو ، كما تقتضي الحال إذا جعل مبتدأ وخبراً مثل : جاء زيد راكباً ، ثم تقول : جاء زيد وهو راكب ، فحين ظرف لقوله : ﴿ فنادوا ﴾ .

انتهى .

وكون أصل هذه الجملة : فنادوا حين لا مناص ، وأن حين ظرف لقوله : ﴿ فنادوا ﴾ دعوى أعجمية مخالفة لنظم القرآن ، والمعنى على نظمه في غاية الوضوح ، والجملة في موضع الحال ، فنادوا وهم لات حين مناص ، أي لهم .

ولما أخبر تعالى عن الكفار أنهم في عزة وشقاق ، أردف بما صدر عنهم من كلماتهم الفاسدة ، من نسبتهم إليه السحر والكذب .

(118/658)

ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله : ﴿ وقال الكافرون ﴾ ، أي : وقالوا تنبيهاً على الصفة التي أوجبت لهم العجب ، حتى نسبوا من جاء بالهدى والتوحيد إلى السحر والكذب .

﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾ ، قالوا : كيف يكون إله واحد يرزق الجميع وينظر في كل أمورهم ؟ وجعل : بمعنى صير في القول والدعوى والزعم ، وذكر عجبهم مما لا يعجب منه .

والضمير في ﴿ وعجبوا ﴾ لهم ، أي استغربوا مجيء رسول من أنفسهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ عجاب ﴾ ، وهو بناء مبالغة ، كرجل طوال وسراع في طويل وسريع .

وقرأ علي ، والسلمي ، وعيسى ، وابن مقسم : بشم الجيم ، وقالوا : رجل كرّام وطعام طياب ، وهو أبلغ من فعال المخفف .

وقال مقاتل : عجاب لغة أزد شنوءة .

والذين قالوا : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾ ، قال ابن عباس : صناديد قريش ، وهم ستة وعشرون .

﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ : الظاهر انطلاقهم عن مجلس أبي طالب ، حين اجتمعوا هم والرسول عنده وشكوه على ما تقدّم في سبب النزول ؛ ويكون ثم محذوف تقديره : يتحاورون .

﴿ أن امشوا ﴾ ، وتكون أن مفسرة لذلك المحذوف ، وامشوا أمر بالمشي ، وهو نقل الأقدام عن ذلك المجلس .

وقال الزمخشري : وأن بمعنى أي ، لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم ، فكان انطلاقهم مضمناً معنى القول والأمر بالمشي ، أي بعضهم أمر بعضاً .

وقيل : أمر الأشراف أتباعهم وأعوانهم .

ويجوز أن تكون أن مصدرية ، أي وانطلقوا بقولهم امشوا ، وقيل : الانطلاق هنا الاندفاع في القول والكلام ، وأن مفسرة على هذا ، والأمر بالمشي لا يراد به نقل الخطا ، إنما معناه : سيروا على طريقتكم ودوموا على سيرتكم .

وقيل : ﴿ امشوا ﴾ دعاء بكسب الماشية ، قيل : وهو ضعيف ، لأنه كان يلزم أن تكون

الألف مقطوعة ، لأنه إنما يقال : أمشي الرجل إذا صار صاحب ماشية ؛ وأيضاً فهذا المعنى غير متمكن في الآية .

(119/658)

وقال الزمخشري : ويجوز أنهم قالوا : امشوا ، أي أكثروا واجتمعوا ، من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها ؛ ومنه الماشية للتفاؤل . انتهى .

وأمروا بالصبر على الآلهة ، أي على عبادتها والتمسك بها .

والإشارة بقوله : ﴿ إن هذا ﴾ أي ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلوه بالنبوة ، ﴿ لشيء يراد ﴾ : أي يراد منا الانقياد إليه ، أو يريده الله ويحكم بإمضائه ، فليس فيه إلا الصبر ، أو أن هذا الأمر شيء من نوائب الدهر مراد منا ، فلا انفكاك عنه ، وأن دينكم لشيء يراد ، أي يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه ، احتمالات أربعة .

وقال القفال : هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف ، المعنى : أنه ليس غرضه من هذا القول تقرير للدين ، وإنما غرضه أن يستولي علينا ، فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد .

﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب ، ومقاتل : ملة النصارى ، لأن فيها التثليث ، ولا توحد .

وقال مجاهد ، وقتادة : ملة العرب : قريش ونجدتها .

وقال الفراء ، والزجاج : ملة اليهود والنصرانية ، أشركت اليهود بعزير ، وثلث النصارى .

وقيل : في الملة الآخرة التي كنا نسمع أنها تكون في آخر الزمان ، وذلك أنه قبل المبعث ، كان الناس يستشعرون خروج نبي وحدوث ملة ودين .

ويدل على صحة هذا ما روي من أقوال الأحبار أولي الصوامع ، وما روي عن الكهان شق وسطيح وغيرهما ، وما كانت بنو إسرائيل تعتقد من أنه يكون منهم .

وقيل : في الملة الآخرة ، أي لم نسمع من أهل الكتاب ولا الكهان أنه يحدث في الملة الآخرة توحيد الله .

﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ : أي افتعال وكذب .

﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ : أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم وينزل عليه الكتاب من بينهم ، وهذا الإنكار هو ناشىء عن حسد عظيم انطوت عليه صدورهم فنطقت به ألسنتهم .

(120/658)

﴿ بل هم في شك من ذكري ﴾ : أي من القرآن الذي أنزلت على رسولي يرتابون فيه ، والإخبار بأنهم في شك يقتضي كذبهم في قولهم : ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ .

﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ : أي بعد ، فإذا ذاقوه عرفوا أن ما جاء به حق وزال عنهم الشك .

﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك ﴾ : أي ليسوا متصرفين في خزائن الرحمة ، فيعطون ما شاؤوا ، ويمنعون من شاؤوا ما شاؤوا ، ويصطفون للرسالة من أرادوا ، وإنما يملكها ويتصرف فيها ﴿ العزيز ﴾ : الذي لا يغالب ، ﴿ الوهاب ﴾ : ما شاء لمن شاء .

لما استفهم استفهام إنكار في قوله : ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك ﴾ ، وكان ذلك دليلاً على انتفاء تصرفهم في خزائن رحمة ربك ، أتى بالإنكار والتوبيخ بانتفاء ما هو أعم فقال : ﴿ أم لهم ملك السموات والأرض ﴾ : أي ليس لهم شيء من ذلك .

﴿ فليرتقوا ﴾ : أي ألهم شيء من ذلك ، فليصعدوا ، ﴿ في الأسباب ﴾ ، الموصولة إلى السماء ، والمعارج التي يتوصل بها إلى تدبير العالم ، فيضعون الرسالة فيمن اختاروا .

ثم صغرهم وحقرهم ، فأخبر بما يؤول إليه أمرهم من الهزيمة والخيبة .

قيل : وما زائدة ، ويجوز أن تكون صفة أريد به التعظيم على سبيل الهزء بهم ، أو التحقير ، لأن مال الصفة تستعمل على هذين المعنيين .

و ﴿ هنالك ﴾ : ظرف مكان يشار به للبعيد .

والظاهر أنه يشار به للمكان الذي تفاوضوا فيه مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، بتلك الكلمات السابقة ، وهو مكة ، فيكون ذلك إخباراً بالغيب عن هزيمتهم بمكة يوم الفتح ، فالمعنى أنهم يصيرون مهزومين بمكة يوم الفتح .

وقيل : ﴿ هنالك ﴾ ، إشارة إلى الإرتقاء في الأسباب ، أي هؤلاء القوم إن راموا ذلك جند مهزوم .

وقيل : أشير بهنالك إلى جملة الأصنام وعضدها ، أي هم جند مهزوم في هذه السبيل .

وقال مجاهد ، وقتادة : الإشارة إلى يوم بدر ، وكان غيباً ، أعلم الله به على لسان رسوله .

وقيل : الإشارة إلى حصر عام الخندق بالمدينة .

(121/658)

وقال الزمخشري : وهنالك ، إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم من قولهم : لمن يندبه لأمر ليس من أهله ، لست هنالك . انتهى .

و ﴿ هنالك ﴾ ، يحتمل أن يكون في موضع الصفة لجند ، أي كائن هنالك ؛ ويحتمل أن يكون متعلقاً بمهزوم ، وجند خبر مبتدأ محذوف ، أي هم جند ، ومهزوم خبره .

وقال أبو البقاء : جند مبتدأ ، وما زائدة ، وهنالك نعت ، ومهزوم الخبر . انتهى .

وفيه بعد لفصله عن الكلام الذي قبله .

ومعنى ﴿ من الأحزاب ﴾ : من جملة الأحزاب الذين تعصبوا في الباطل وكذبوا الرسل .

ولما ذكر تعالى أنه أهلك قبل قريش قروناً كثيرة لما كذبوا رسلهم ، سرد منهم هنا من له تعلق بعرفانه .

و﴿ ذو الأوتاد ﴾ : أي صاحب الأوتاد ، وأصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده .

قال الأفوه العوذي :

والبيت لا يبتنى إلا على عمد . . .

ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر ، كما قال الأسود :

في ظل ملك ثابت الأوتاد . . .

قاله الزمخشري ، وأخذه من كلام غيره .

وقال ابن عباس ، وقتادة ، وعطاء : كانت له أوتاد وخشب يلعب بها وعليها .

وقال السدي : كان يقتل الناس بالأوتاد ، ويسمرهم في الأرض بها .

وقال الضحاك : أراد المباني العظيمة الثابتة .

وقيل : عبارة عن كثرة أخبيته وعظم عساكره .

وقيل : كان يشج المعذب بين أربع سواري ، كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروبة فيها

وتد من حديد ، ويتركه حتى يموت .

روي معناه عن الحسن ومجاهد ، وقيل : كان يمده بين أربعة أوتاد في الأرض ، ويرسل عليه العقارب والحيات .

وقيل : يشدهم بأربعة أوتاد ، ثم يرفع صخرة فتلقى عليه فتشدخه .

وقال ابن مسعود ، وابن عباس ، في رواية عطية : الأوتاد : الجنود ، يشدون ملكه ، كما يقوي الوتد الشيء .

وقيل : بنى مناراً يذبح عليها الناس ، قاله ابن جبير .

﴿ أولئك الأحزاب ﴾ : أي الذين تحزبوا على أنبيائهم ، كما تحزب قريش على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

(122/658)

والظاهر أن الإشارة بأولئك إلى أقرب مذكور ، وهم قوم نوح ومن عطف عليهم ؛ وفيه تفخيم لشأنهم وإعلاء لهم على من تحزب على رسول الله ، أي هؤلاء العظماء لما كذبوا عوقبوا ، وكذلك أنتم .

﴿ إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ : فوجب عقابهم .

كذبت قوم نوح ، آذوا نوحاً فأغرقوا ؛ وقوم هود فأهلكوا بالريح ؛ وفرعون فأغرق ؛ وثمود بالصيحة ؛ وقوم لوط بالخسف ؛ والأيكة بعذاب الظلة .

ومعنى ﴿ إن كل ﴾ : ما كان من قوم نوح فمن بعدهم ، ﴿ فحق عقاب ﴾ : أي وجب عقابهم ، فكذلك يحق عليكم أيها المكذبون بالرسول .

قال الزمخشري : ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ ، قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم هم هم ، وأنهم الذين وجد منهم التكذيب ، ولقد ذكرت تكذيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام ، ثم جاء بالجملة الاستثنائية ، فأوضحه فيها بأن كل واحد من الأحزاب كذب الرسل ، لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم ، فقد كذبوا جميعاً ، وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه ، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً ، وبالاستثناء ثانياً ، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشدّ العذاب وأبلغه .

ثم قال : ﴿ فحق عقاب ﴾ : أي فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم . انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(123/658)

وقال الآلوسى :

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العزيز الوهاب ﴾

في مقابلة قوله سبحانه : ﴿ أَءنزِلَ ﴾ [ص : 8] الخ ، ونظيره في رد نظيره ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾] [الزخرف : 32] وأم منقطعة مقدرة ببل والهمزة ، والمراد بالعندية الملك والتصرف لا مجرد الحضور .

وتقديم الظرف لأنه محل الإنكار أي بل أيملكون خزائن رحمته تعالى ويتصرفون فيها حسبما يشاؤن حتى أنهم يصيبون بها من شاؤا ويصرفونها عمن شاؤا ويتحكمون فيها بمقتضى رأيهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم .

وإضافة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم للتشريف واللطف به عليه الصلاة والسلام ، والعزيز القاهر على خلقه ، والوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها ، وحديث العزة والقهر يناسب ما كانوا عليه من ترفعهم بالنبوة عنه صلى الله عليه وسلم تجبراً .

والمبالغة في الوهاب من طريق الكمية تناسب قوله تعالى : ﴿ خَزَائِنِ ﴾ وتدل على حرمان لهم عظيم ، وفي ذلك إدماج أن النبوة ليست عطاء واحداً بالحقيقة بل يتضمن عطايا جمة تفوت الحصر وهي من طريق الكيفية المشار إليها بإصابة المواقع للدلالة على أن مستحق العطاء ومحله من وهب ذلك وهو النبي صلى الله عليه وسلم وفي الوصف المذكور أيضاً إشارة إلى أن النبوة موهبة ربانية

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ترشيح لما سبق أي بل ألهم ملك هذه الأجرام العلوية والأجسام السفلية حتى يتكلموا في الأمور الربانية ويتحكموا في التدابير الإلهية التي يستأثر بها رب العزة والكبرياء ، وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِى الاسباب ﴾ جواب شرط محذوف أي إن كان لهم ما ذكر من الملك فليصعدوا في المعارج والمناهج التي يتوصل بها إلى السموات فليدبروها وليتصرفوا فيها فإنهم لا طريق لهم إلى تدبيرها والتصرف فيها إلا ذاك أو إن ادعوا ما ذكر من الملك فليصعدوا وليتصرفوا حتى يظن صدق دعواهم فإنه لا أمارة عندهم على صدقها فلا أقل من أن يجعلوا ذلك امارة ، وقال الزمخشري ومتابعوه : أي فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله تعالى وينزلوا الوحي إلى من يختارون ويستصوبون ، وهو مناسب للمقام بيد أن فيه دغدغة ، وأياً ما كان ففي أمرهم بذلك تهكم بهم لا يخفى ، والسبب في الأصل الوصلة من الحبل ونحوه .

وعن مجاهد الأسباب هنا أبواب السموات ، وقيل السموات أنفسها لأن الله تعالى جعلها أسباباً عادية للحوادث السفلية .

﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مّن الاحزاب ﴾ أي هم جند الخ ، فجند خبر مبتدأ محذوف مقدر مقدماً كما هو الظاهر وما مزيدة قيل للتقليل والتحقير نحو أكلت شيئاً ما ، وقيل للتعظيم والتكثير ، واعترض بأنه لا يلائمه ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ وأجيب بأن الوصف بالعظمة والكثرة على سبيل الاستهزاء فهي بحسب اللفظ عظمة وكثرة وفي نفس الأمر ذلة وقلة ، ورجح بأن الأكثر في كلامهم كونها للتعظيم نحو لأمر ما جدع قصير أنفسه لأمر ما يسود من يسود .

وقول امرىء القيس

: وحديث الركب يوم هنا . . .

وحديث ما على قصره

مع أن الكلام لتسليته صلى الله عليه وسلم وتبشيره بانهزامهم وذلك أكمل على هذا التقدير بل قيل إن التبشير بخذلان عدد حقير ربما أشعر بإهانة وتحقير

.

(125/658)

أم تر أن السيف ينقص قدره . . .

إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

وفيه نظر ، و﴿ هُنَالِكَ ﴾ صفة ﴿ جُندٌ ﴾ أو ظرف ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ وهو إشارة إلى المكان البعيد وأريد به على قول المكان الذي تفاوضوا فيه مع الرسول صلى الله عليه وسلم بتلك الكلمات السابقة وهو مكة وجعل ذلك إخباراً بالغيب عن هزيمتهم يوم الفتح ، وقيل يوم بدر وروي ذلك عن مجاهد .

وقتادة ، وأنت خبير بأن هنالك إذا كان إشارة إلى مكة ومتعلقاً بمهزوم لا يتسنى هذا إلا إذا أريد من مكة ما يشمل بدراً ، و﴿ مَهْزُومٌ ﴾ خبر بعد خبر ، وأصل الهزم غمز الشيء اليابس حتى ينحطم كهزم الشن وهزم القثاء والبطيخ ومنه الهزيمة لأنه كما يعبر عنه بالحطم والكسر ، والتعبير عما لم يقع باسم المفعول المؤذن بالوقوع على ما في بعض شروح الكشاف للإيذان بشدة قربه حتى كأنه محقق ، و﴿ مّن الاحزاب ﴾ صفة ﴿ جُندٌ ﴾ أي هم جند قليلون أذلاء أو كثيرون عظماء كائنون هنالك من الكفار المتحزبين على الرسل مكسورون عن قريب أو جند من الأحزاب مكسورون عن قريب في مكانهم الذي تكلموا فيه بما تكلموا فلا تبال بما يقولون ولا تكترث بما يهذون .

وقال أبو البقاء ﴿ جُندٌ ﴾ مبتدأ وما زائدة وهنالك نعت وكذا من الأحزاب ومهزوم خبر ، وتعقبه أبو حيان بأن فيه بعد التفاتة عن الكلام الذي قبله ، واعتبر الزمخشري الحصر

أي ما هم إلا جند من المتحزبين مهزوم عن قريب لا يتجاوزون الجندية المذكورة إلى الأمور الربانية ، وهو حسن إلا أنه اختلف في منشأ ذلك فقيل : إنه كان حق الجند أن يعرف لكونه معلوماً فنكر سوقاً للمعلوم مساق المجهول كأنه لا يعرف منهم إلا هذا القدر وهو أنهم جند بهذه الصفة .

(126/658)

وقال صاحب الكشف : إنه التفخيم المدلول عليه بالتنكير ، وزيادة ما الدالة على الشيوع وغاية التعظيم لدلالتهما على اختصاص الوصف بالجندية من بين سائر الصفات كأنه لا وصف لهم غيرها ، وفيه منع ظاهر ، ويفهم كلام العلامة الثاني أنه اعتبار كون ﴿ جُندٌ ﴾ خبراً مقدماً لمبتدأ محذوف لأن المقام يقتضي الحصر فتدبر ولا تغفل .

وجعل الزمخشري ﴿ هُنَالِكَ ﴾ الموضع للإشارة إلى المكان البعيد مستعاراً للمرتبة من العلو والشرف على أنه إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم كما في قولهم لمن انتدب لأمر ليس من أهله لست هنالك ؛ وفيه إيماء إلى علة الذم ؛ وجوز على هذا أن تكون ما نافية أي هم جند ليسوا حيث وضعوا أنفسهم .

وتعقب بأنه مما لم يقله أحد من أهل العربية ولا يليق بالمقام وفيه بحث ، وجوز أن تكون ﴿

هُنَالِكَ ﴾ إشارة إلى الزمان البعيد وهي كما قال ابن مالك قد يشار بها إليه نحو قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ [يونس : 03] وتتعلق بمهزوم ، والكلام إخبار بالغيب إما عن هزيمتهم يوم الفتح أو يوم بدر كما تقدم حكايته أو يوم الخندق ولا يخفى ما فيه ، وقيل : إشارة إلى زمان الارتقاء في الأسباب أي هؤلاء القوم جند مهزوم إذا ارتقوا في الأسباب وليس بالمرضى ، وقيل : ما اسم موصول مبتدأ وهنالك في موضع الصلة وجند خبر مقدم ومهزوم ومن الأحزاب صفتان وهما المقصودان بالإفادة وما هنالك إشارة إلى مكة ، والمراد من الذين فيها المشركون والتعبير عنهم بما لأنهم كالأنعام بل هم أضل ، وقيل الأصنام وعبدتها ، وأمر التعبير بما عليه أظهر ويقال فيه نحو ما قاله أبو حيان في كلام أبي البقاء وزيادة لا تخفى .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12)

(127/658)

إلى آخره استئناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان أحوال العتاة الطغاة مما فعلوا من التكذيب وفعل بهم من العقاب ، و ﴿ ذُو الاوتاد ﴾ صفة فرعون لا لجميع ما قبله وإلا لقيل ذوو الأوتاد ، و ﴿ الاوتاد ﴾ جمع وتد وهو معروف ، وكسر التاء فيه أشهر من فتحها ويقال

وتد واتد كما يقال شغل شاغل قاله الأصمعي وأنشد

: لاقت على الماء جذيلاً واتدا . . .

ولم يكن يخلفها المواعدا

وقالوا : ود بإبدال التاء دالاً والإدغام ووت بإبدال الدال تاء ، وفيه قلب الثاني للأول وهو قليل ، وأصل إطلاق ذلك على البيت المطنب بأوتاده وهو لا يثبت بدونها كما قال الأعشى :

والبيت لا يبتنى إلا على عمد . . .

ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فقيل إنه شبه هنا فرعون في ثبات ملكه ورسوخ سلطنته ببيت ثابت أقيم عماده وثبتت أوتاده تشبيهاً مضمراً في النفس على طريق الاستعارة المكنية ووصف بذي الأوتاد على سبيل التخييل ، فالمعنى كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون الثابت ملكه وسلطنته وقيل : شبه الملك الثابت من حيث الثبات والرسوخ بذي الأوتاد وهو البيت المطنب بأوتاده واستعير ذو الأوتاد له على سبيل الاستعارة التصريحية قيل وهو أظهر مما مر نهايته أنه وصف بذلك فرعون مبالغة لجعله عين ملكه ، والمعنى على وصفه بثبات الملك ورسوخ السلطنة واستقامة الأمر .

وقال ابن مسعود .

وابن عباس في رواية عطية : الأوتاد الجنود يقوون ملكه كما يقوى الوتد الشيء أي وفرعون ذو الجنود فالاستعارة عليه تصريحية في الأوتاد ، وقيل : هو مجاز مرسل للزوم الأوتاد للجند ، وقيل المباني العظيمة الثابتة وفيه مجاز أيضاً ، وقال ابن عباس في رواية أخرى .

وقتادة .

وعطاء : كانت له عليه اللعنة أوتاد وخشب يلعب له بها وعليها ، وقيل : كان يشبح المعذب بين أربع سوار كل طرف من أطرافه إلى سارية ويضرب في كل وتداً من حديد ويتركه حتى يموت ، وروي معناه عن الحسن .

ومجاهد .

(128/658)

وقيل : كان يمده بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات ، وقيل : يشده بأربعة أوتاد ثم يرفع صخرة فتلقى عليه فتشدخه .

وعلى هذه الأقوال الأربعة فالأوتاد ثابتة على حقيقتها .

﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وأصحاب ﴾ أصحاب الغيضة وهم الذين أرسل إليهم شعيب عليه السلام نسبوا إلى غيضة كانوا يسكنونها ، وقيل الأيكة اسم بلد لهم ﴿ بآياتنا أولئك ﴾

المكذبون ﴿ الاحزاب ﴾ أي الكفار المتحزبون على الرسل عليهم السلام المهزومون ؛ وهو مبتدأ وخبر ويفهم من ذلك أن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وأنهم الذين وجد منهم التكذيب لأن المبتدأ والخبر في مثله متعاكسان رأساً برأس لا لأن ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الأحزاب أولاً والأحزاب ثانياً هم المكذبون

(129/658)

﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرسل ﴾ استئناف جيء به تقريراً لتكذيبهم على أبلغ وجه وتمهيداً لما يعقبه ، فإن نافية ولا عمل لها لانتقاض النفي بإلا ، و ﴿ كُلٌّ ﴾ مبتدأ والاستثناء مفرغ من أعم العام وهو الخبر أي ما كل حزب من الأحزاب محكوماً عليه بحكم إلا محكوماً عليه بأنه كذب الرسل أو مخبراً عنه بخبر إلا مخبراً عنه بأنه كذب الرسل لأن الرسل يصدق كل منهم الكل وكلهم متفقون على الحق فتكذيب كل واحد منهم تكذيب لهم جميعاً ، وجوز أن يكون من مقابلة الجمع بالجمع أي ما كلهم محكوماً عليه بحكم أو مخبراً عنه بشيء إلا محكوماً عليه أو إلا مخبراً عنه بأنه كذب رسوله ، والحصر مبالغة كأن سائر أوصافهم بالنظر إلى ما أثبت لهم بمنزلة العدم فيدل على أنهم غالون في التكذيب ، ويدل على غلوهم فيه أيضاً إعادته متعلقاً بالرسل وتنويع الجملتين إلى اسمية استثنائية وغيرها أعني قوله تعالى : ﴿

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ [ص : 12] الخ ، وجعل كل فرقة مكذبة للجميع على الوجه الأول ، ويسجل ذلك عليهم استحقاقهم أشد العقاب ولذا رتب عليه قوله تعالى : ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أي ثبت ووقع على كل منهم عقابي الذي كانت توجبه جناياتهم من أصناف العقوبات فأغرق قوم نوح وأهلك فرعون بالغرق وقوم هود بالريح وثمود بالصيحة وقوم لوط بالخسف وأصحاب الأيكة بعذاب الظلة .

وجوز أن يكون ﴿ أُوْلَئِكَ الاحزاب ﴾ [ص : 13] بدلاً من الطوائف المذكورة والجملة بعد مستأنفة لما سمعت وأن يكون مبتدأ والجملة بعده خبر بحذف العائد أي أن كل منهم أو كلهم إلا كذب الرسل ، والمجموع استئناف مقرر لما قبله مع ما فيه من بيان كيفية تكذيبهم وكلاهما خلاف الظاهر ، وأما ما قيل من أنه خبر والمبتدأ قوله تعالى : ﴿ وَعَادٌ ﴾ [ص : 12] الخ أو قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ [ص : 13] الخ فمما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله .

(130/658)

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلآءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ شروع في بيان عقاب كفار مكة إثر بيان عقاب اضرابهم فإن الكلام السابق مما يوجب ترقب السامع بيانه ، والنظر بمعنى

الانتظار وعبر به مجازاً بجعل محقق الوقوع كأنه أمر منتظر لهم ، والإشارة بهؤلاء للتحقير ، والمراد بالصيحة الواحدة النفخة الثانية ، أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة الحقيرون الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة في الكفر والتكذيب شيئاً إلا النفخة الثانية التي تقوم بها الساعة قاله قتادة وليس المراد أنها نفسها عقاب لهم لعمومها للبر والفاجر من جميع الأمم بل المراد أنه ليس بينهم وبين ما أعد لهم من العذاب إلا هي لتأخير عقوبتهم إلى الآخرة لما أن تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه والنبي صلى الله عليه وسلم موجود خارج عن السنة الإلهية المبنية على الحكم الباهرة كما نطق به قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33] إذ المراد من ﴿ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ وجوده عليه الصلاة والسلام لا مجاورته لهم كما توهم حتى يقال : لا دلالة في الآية على امتناع وقوعه بعد الهجرة لمخالفته للتفسير المشهور ، وقيل المراد بالصيحة المذكورة النفخة الأولى .

وتعقب بأنه مما لا وجه له أصلاً لما أنه لا يشاهد هولها ولا يصعق بها إلا من كان حياً عند وقوعها وليس عقابهم الموعود واقعاً عقيبها ولا العذاب المطلق مؤخراً إليها بل يحل بهم من حيث موتهم .

وقيل المراد صيحة يهلكون بها في الدنيا كما هلكت ثمود ، ولا يخفى أن هذا تعذيب بالاستئصال وهو مما لا يقع كما سمعت فلا يكون منتظراً ، وقال أبو حيان : الصيحة ما نالهم

من قتل وأسر وغلبة كما تقول صاح بهم الدهر فهي مجاز عن الشر كما في قولهم ما ينتظرون إلا مثل صيحة الحبلى أي شراً يعاجلهم ، وفيه بعد .

(131/658)

وجوز جعل هؤلاء إشارة إلى الأحزاب ولما سبق ذكرهم مكرراً مؤكداً استحضرهم المخاطب في ذهنه فنزل الوجود الذهني منزلة الخارجي المحسوس وأشير إليهم بما يشار به للحاضر المشاهد ، واحتمال التحقير قائم ولا ينبو عنه التعبير بأولئك لأن البعد في الواقع مع أنه قد يقصد به التحقير أيضاً والكلام بيان لما يصيرون إليه في الآخرة من العقاب بعد ما نزل بهم في الدنيا من العذاب ، وجعلهم منتظرين له لأن ما أصابهم من عذاب الاستئصال ليس هو نتيجة ما جنوه من قبيح الأعمال إذ لا يعتد به بالنسبة إلى ما ثمت من الأهوال فهو تحذير لكفار قريش وتخويف لمن يساق له الحديث فلا وجه لما قاله أبو السعود من أن هذا ليس في حيز الاحتمال أصلاً لأن الانتظار سواء كان حقيقة أو استهزاءً إنما يتصور في حق من لم يترتب على أعماله نتائجها بعد ، وبعد ما بين عقاب الأحزاب واستئصالهم بالمرة لم يبق مما أريد بيانه من عقوباتهم أمر منتظر بخلاف كفار قريش حيث ارتكبوا ما ارتكبوا ولما يلاقوا بعد شيئاً قاله الخفاجي ، ولا يخفى أن المنساق إلى الذهن هو الاحتمال الأول وهو المأثور

عن السلف ، والفواق الزمن الذي بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع ويقال للبن الذي يجتمع في الضرع بين الحلبتين فيقة ويجمع على أفواق وأفاويق جمع الجمع ، والكلام على تقدير مضافين أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة ما لها من توقف مقدار فواق أو على ذكر الملزوم الذي هو الفواق وإرادة اللازم الذي هو التوقف مقداره ، وهو مجاز مشهور والمعنى أن الصيحة إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان .

وعن ابن عباس .

ومجاهد .

وقتادة تفسيره بالرجوع والترداد ، وهو مجاز أطلق فيه الملزوم وأريد اللازم فإن في الزمان بين الحلبتين يرجع اللبن إلى الضرع ، والمعنى أنها صيحة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد فالجملة عليه صفة مؤكدة لوحدة الصيحة .

وقرأ السلمي .

وابن وثاب .

والأعمش .

وحمزة .

والكسائي .

وطلحة بضم الفاء فقيل هما بمعنى واحد وهو ما تقدم كقصاص الشعر وقصاصه ، وقيل : المفتوح اسم مصدر من أفاق المريض إفاقة وفاقة إذا رجع إلى الصحة وإليه يرجع تفسير ابن زيد .

والسدي .

وأبي عبيدة .

والفراء له بالإفاقة والاستراحة ، والمضموم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع .

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ حكاية لما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة أي قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية ربنا عجل لنا قسطنا ونصيبنا من العذاب الذي توعدنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذي مبدؤه الصيحة المذكورة ، وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للإمعان في الاستهزاء كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال والقائل على ما روي عن عطاء النضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة وهو الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج : 1] وأبو جهل على ما روي عن قتادة ، وعلى القولين الباقون راضون فلذا جيء بضمير الجمع ، والقط القطعة من الشيء من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس ، ومن ذلك قول الأعشى

: ولا الملك النعمان يوم لقيته . . .

بنعمته يعطي القطوط ويطلق

قيل وهو في ذلك أكثر استعمالاً وقد فسره بها هنا أبو العالية .

والكلبي أي عجل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها وهي رواية عن الحسن ، وجاء في رواية أخرى عنه أنهم أرادوا نصيبهم من الجنة ، وروي هذا أيضاً عن قتادة .

(133/658)

وابن جبير ، وذلك أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر وعد الله تعالى المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزء : عجل لنا نصيبنا منها لنتنعم به في الدنيا ، قال السمرقندي : أقوى التفاسير أنهم سألوا أن يعجل لهم النعيم الذي كان يعده عليه الصلاة والسلام من آمن لقولهم ربنا ولو كان على ما يحمله أهل التأويل من سؤال العذاب أو الكتاب استهزاءً لسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسألوا ربهم ، وفيه بحث يعلم مما مر آنفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 23 صـ ﴾

(134/658)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ ص ﴾ قرأ الجمهور بسكون الدال كسائر حروف التهجي في أوائل السور ، فإنها ساكنة الأواخر على الوقف .

وقرأ أبيّ بن كعب ، والحسن ، وابن أبي إسحاق ، ونصر بن عاصم ، وابن أبي عبلة ، وأبو السماك بكسر الدال من غير تنوين ، ووجه الكسر أنه لالتقاء الساكنين ، وقيل : وجه الكسر أنه من صادى يصادي إذا عارض ، والمعنى : صاد القرآن بعملك ، أي : عارضه بعملك ، وقابله ، فاعمل به ، وهذا حكاه النحاس عن الحسن البصري ، وقال : إنه فسر قراءته هذه بهذا ، وعنه أن المعنى : أتله ، وتعرّض لقراءته .

وقرأ عيسى بن عمر : " صاد " بفتح الدال ، والفتح لالتقاء الساكنين ، وقيل : نصب على الإغراء .

وقيل : معناه : صاد محمد قلوب الخلق ، واستمالها حتى آمنوا به ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو ، وروي عن ابن أبي إسحاق أيضاً : أنه قرأ : " صاد " بالكسر والتنوين تشبيهاً لهذا الحرف بما هو غير متمكن من الأصوات .

وقرأ هارون الأعور ، وابن السميفع : " صاد " بالضم من غير تنوين على البناء نحو : منذ ، وحيث .

وقد اختلف في معنى "صاد" ، فقال الضحاك : معناه : صدق الله .

وقال عطاء : صدق محمد .

وقال سعيد بن جبير : هو : بحر يحيي الله به الموتى بين النفختين .

وقال محمد بن كعب : هو : مفتاح اسم الله .

وقال قتادة : هو : اسم من أسماء الله .

وروي عنه أنه قال : هو اسم من أسماء الرحمن .

وقال مجاهد : هو : فاتحة السورة .

وقيل : هو : مما استأثر الله بعلمه ، وهذا هو الحقّ كما قدّمنا في فاتحة سورة البقرة .

قيل : وهو إما اسم للحروف مسروداً على نمط التعبد ، أو اسم للسورة ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوب بإضمار اذكر ، أو اقرأ ، والواو في قوله : ﴿ والقرءان ذِى الذكر ﴾ هي : واو القسم ، والإقسام بالقرآن فيه تنبيه على شرف قدره ، وعلوّ محله ، ومعنى ﴿ ذِى الذكر ﴾ : أنه مشتمل على الذكر الذي فيه بيان كل شيء .

(135/658)

قال مقاتل : معنى ﴿ ذِى الذكر ﴾ : ذي البيان .

وقال الضحاك : ذي الشرف كما في قوله : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 10] أي : شرفكم ، وقيل : أي : ذي الموعظة .

واختلف في جواب هذا القسم ما هو ؟ فقال الزجاج ، والكسائي ، والكوفيون غير الفراء : إنه قوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ ﴾ [ص : 64] ، وقال الفراء : لا نجده مستقيماً لتأخره جدًّا عن قوله : ﴿ والقرءان ﴾ ، ورجح هو ، وثعلب : أن الجواب قوله : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ ، وقال الأخفش : الجواب هو : ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ ، وقيل : هو صاد ، لأن معناه : حقّ ، فهو : جواب لقوله : ﴿ والقرءان ﴾ كما تقول : حقاً والله ، وجب والله .

ذكره ابن الأنباري ، وروي أيضاً عن ثعلب ، والفراء ، وهو مبنيّ على أن جواب القسم يجوز تقدّمه ، وهو ضعيف .

وقيل : الجواب محذوف ، والتقدير : والقرآن ذي الذكر لتبعثنّ ، ونحو ذلك .

وقال ابن عطية : تقديره ما الأمر كما يزعم الكفار ، والقول بالحذف أولى .

وقيل : إن قوله : ﴿ ص ﴾ مقسم به ، وعلى هذا القول تكون الواو في ﴿ والقرءان ﴾ للعطف عليه ، ولما كان الإقسام بالقرآن دالاً على صدقه ، وأنه حقّ ، وأنه ليس بمحل للريب قال سبحانه : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ ، فأضرب عن ذلك ، وكأنه

قال : لا ريب فيه قطعاً ، ولم يكن عدم قبول المشركين له لريب فيه .

بل هم في عزّة عن قبول الحقّ ، أي : تكبر ، وتجبر .

وشقاق ، أي : وامتناع عن قبول الحقّ ، والعزّة عند العرب : الغلبة ، والقهر ، يقال : من عزَّ بزَّ ، أي : من غلب سلب ، ومنه ﴿ وَعَزَّنِى فِى الخطاب ﴾ [ص : 23] أي : غلبني ، ومنه قول الشاعر :

يعزّ على الطريق بمنكبيه . . . كما ابترك الخليع على القداح

والشقاق : مأخوذ من الشقّ ، وقد تقدّم بيانه .

(136/658)

ثم خوّفهم سبحانه ، وهدّدهم بما فعله بمن قبلهم من الكفار ، فقال : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ ﴾ يعني : الأمم الخالية المهلكة بتكذيب الرسل ، أي : كم أهلكنا من الأمم الخالية الذين كانوا أمنع من هؤلاء ، وأشدّ قوة ، وأكثر أموالاً ، وكم هي : الخبرية الدالة على التكثير ، وهي في محل نصب بأهلكنا على أنها مفعول به ، و [من قرن] تمييز ، و "من" في ﴿ مِن قَبْلِهِمُ ﴾ هي لابتداء الغاية .

﴿ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ النداء هنا : هو نداء الاستغاثة منهم عند نزول العذاب

بهم ، وليس الحين حين مناص .

قال الحسن : نادوا بالتوبة ، وليس حين التوبة ، ولا حين ينفع العمل .

والمناص مصدر ناص ينوص ، وهو الفوت ، والتأخر .

ولات بمعنى : ليس ، بلغة أهل اليمن .

وقال النحويون : هي : لا التي بمعنى ليس زيدت عليها التاء كما في قولهم : ربّ ، وربت ، وثمّ وثمت قال الفراء : النوص : التأخر ، وأنشد قول امرىء القيس :

أمن ذكر ليلى إذ نأتك تنوص . . . قال : يقال : ناص عن قرنه ينوص نوصاً أي : فرّ ، وزاغ .

قال الفراء : ويقال : ناص ينوص : إذا تقدّم .

وقيل : المعنى : أنه قال بعضهم لبعض : مناص ، أي : عليكم بالفرار ، والهزيمة ، فلما أتاهم العذاب قالوا : مناص ، فقال الله : ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال سيبويه : لات مشبهة بليس ، والاسم فيها مضمر ، أي : ليس حيننا حين مناص .

قال الزجاج : التقدير : وليس أواننا .

قال ابن كيسان : والقول كما قال سيبويه ، والوقف عليها عند الكسائي بالهاء ، وبه قال المبرد ، والأخفش .

قال الكسائي ، والفرّاء ، والخليل ، وسيبويه ، والأخفش : والتاء تكتب منقطعة عن حين ، وكذلك هي في المصاحف .

وقال أبو عبيد : تكتب متصلة بحين ، فيقال : (ولا تحين) ، ومنه قول أبيّ ، وجرة السعدي :

العاطفون تحين ما من عاطف . . . والمطعمون زمان ما من مطعم

وقد يستغنى بحين عن المضاف إليه كما قال الشاعر :

(137/658)

تذكر حبّ ليلى لات حينا . . . وأمسى الشيب قد قطع القرينا

قال أبو عبيد : لم نجد العرب تزيد هذه التاء إلا في حين ، وأوان ، والآن .

قلت : بل قد يزيدونها في غير ذلك كما في قول الشاعر :

فلتعرفن خلائقا مشمولة . . . ولتندمنّ ولات ساعة مندم

وقد أنشد الفراء هذا البيت مستدلاً به على أن من العرب من يخفض بها ، وجملة : ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير نادوا .

قرأ الجمهور : ﴿ لات ﴾ بفتح التاء ، وقرىء : " لات " بالكسر كجير ﴿ وَعَجِبُوا۟ أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي : عجب الكفار الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم في عزّة وشقاق أن جاءهم منذر منهم ، أي : رسول من أنفسهم ينذرهم بالعذاب إن استمرّوا على

الكفر ، وأن وما في حيزها في محل نصب بنزع الخافض ، أي : من أن جاءهم ، وهو كلام مستأنف مشتمل على ذكر نوع من أنواع كفرهم ﴿ وَقَالَ الكافرون هذا ساحر كَذَّابٌ ﴾ قالوا هذا القول لما شاهدوا ما جاء به من المعجزات الخارجة عن قدرة البشر ، أي : هذا المدّعي للرسالة ساحر فيما يظهره من المعجزات كذاب فيما يدّعيه من أن الله أرسله .

قيل : ووضع الظاهر موضع المضمر لإظهار الغضب عليهم وأن ما قالوه لا يتجاسر على مثله إلا المتوغلون في الكفر .

ثم أنكروا ما جاء به صلى الله عليه وسلم من التوحيد ، وما نفاه من الشركاء لله ، فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا ﴾ أي : صيرها إلها واحداً ، وقصرها على الله سبحانه ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ أي : لأمر بالغ في العجب إلى الغاية .

قال الجوهري : العجيب : الأمر الذي يتعجب منه .

وكذلك العجاب بالضم ، والعجاب بالتشديد أكثر منه ، قرأ الجمهور : ﴿ عجاب ﴾ مخففاً .

وقرأ عليّ ، والسلمي وعيسى بن عمر ، وابن مقسم بتشديد الجيم .

قال مقاتل : عجاب يعني بالتخفيف لغة أزد شنوءة ، قيل : والعجاب بالتخفيف والتشديد يدلان على أنه قد تجاوز الحدّ في العجب ، كما يقال : الطويل الذي فيه طول .

والطوال : الذي قد تجاوز حدّ الطول ، وكلام الجوهري يفيد اختصاص المبالغة بعجاب مشدّد الجيم لا بالمخفف ، وقد قدّمنا في صدر هذه السورة سبب نزول هذه الآيات .

﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ ﴾ المراد بالملأ : الأشراف كما هو مقرر في غير موضع من تفسير الكتاب العزيز ، أي : انطلقوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب كما تقدم قائلين : ﴿ أَنِ امشوا ﴾ أي : قائلين لبعضهم بعضاً امضوا على ما كنتم عليه ، ولا تدخلوا في دينه .

﴿ وَاصْبِرُواْ على ءالِهَتِكُمْ ﴾ أي : اثبتوا على عبادتها ، وقيل : المعنى : وانطلق الأشراف منهم ، فقالوا للعوامّ : امشوا ، واصبروا على آلهتكم ، و "أن" في قوله : ﴿ أَنِ امشوا ﴾ هي : المفسرة للقول المقدّر ، أو لقوله : ﴿ وانطلق ﴾ ، لأنه مضمن معنى القول ، ويجوز أن تكون مصدرية معمولة للمقدر ، أو للمذكور ، أي : بأن امشوا .

وقيل : المراد بالانطلاق : الاندفاع في القول ، وامشوا من مشت المرأة .

إذا كثرت ولادتها ، أي : اجتمعوا ، وأكثروا ، وهو بعيد جدًّا ، وخلاف ما يدل عليه الانطلاق ، والمشي بحقيقتهما ، وخلاف ما تقدم في سبب النزول ، وجملة ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ تعليل لما تقدمه من الأمر بالصبر ، أي : يريده محمد بنا ، وبآلهتنا ، ويودّ تمامه ، ليعلو علينا ، ونكون له أتباعاً ، فيتحكم فينا بما يريد ، فيكون هذا الكلام خارجاً مخرج

التحذير منه ، والتنفير عنه .

وقيل : المعنى : إن هذا الأمر يريده الله سبحانه ، وما أراده فهو كائن لا محالة ، فاصبروا على عبادة آلهتكم .

وقيل : المعنى : إن دينكم لشيء يراد ، أي : يطلب ، ليؤخذ منكم ، وتغلبوا عليه ، والأوّل أولى .

﴿ مَّا سَمِعْنَا بهذا فِى الملة الآخرة ﴾ أي : ما سمعنا بهذا الذي يقوله محمد من التوحيد في الملة الآخرة .

وهي : ملة النصرانية ، فإنها آخر الملل قبل ملة الإسلام ، كذا قال محمد بن كعب القرظي ، وقتادة ، ومقاتل ، والكلبي ، والسدي .

(139/658)

وقال مجاهد : يعنون : ملة قريش ، وروي مثله عن قتادة أيضاً .

وقال الحسن : المعنى : ما سمعنا أن هذا يكون آخر الزمان .

وقيل : المعنى : ما سمعنا من اليهود ، والنصارى أن محمداً رسول ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ﴾ أي : ما هذا إلا كذب اختلقه محمد ، وافتراه .

ثم استنكروا أن يخصّ الله رسوله بمزية النبوّة دونهم ، فقالوا : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ والاستفهام للإنكار أي : كيف يكون ذلك ، ونحن الرؤساء ، والأشراف .

قال الزجاج : قالوا : كيف أنزل على محمد القرآن من بيننا ، ونحن أكبر سناً ، وأعظم شرفاً منه ، وهذا مثل قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] فأنكروا أن يتفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده بما شاء .

ولما ذكر استنكارهم لنزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم دونهم بين السبب الذي لأجله تركوا تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ، فقال : ﴿ بْل هُمْ فِى شَكّ مّن ذِكْرِى ﴾ أي : من القرآن ، أو الوحي لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه ، وإهمالهم للأدلة الدالة على أنه حقّ منزل من عند الله ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ أي : بل السبب أنهم لم يذوقوا عذابي ، فاغترّوا بطول المهلة ، ولو ذاقوا عذابي على ما هم عليه من الشرك والشكّ لصدّقوا ما جئت به من القرآن ، ولم يشكوا فيه .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبّكَ العزيز الوهاب ﴾ أي : مفاتيح نعم ربك ، وهي النبوّة ، وما هو دونها من النعم حتى يعطوها من شاءوا ، فما لهم ، ولإنكار ما تفضل الله به على هذا النبيّ ، واختاره له ، واصطفاه لرسالته .

والمعنى : بل أعندهم ، لأن أم هي المنقطعة المقدّرة ببل والهمزة .

والعزيز : الغالب القاهر .

والوهاب : المعطي بغير حساب .

(140/658)

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي : بل ألهم ملك هذه الأشياء حتى يعطوا من شاءوا ، ويمنعوا من شاءوا ، ويعترضوا على إعطاء الله سبحانه ما شاء لمن شاء ؟ وقوله : ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأسباب ﴾ جواب شرط محذوف ، أي : إن كان لهم ذلك ، فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء ، أو إلى العرش حتى يحكموا بما يريدون من عطاء ، ومنع ، ويدبروا أمر العالم بما يشتهون ، أو فليصعدوا ، وليمنعوا الملائكة من نزولهم بالوحي على محمد صلى الله عليه وسلم .

والأسباب : أبواب السماوات التي تنزل الملائكة منها ، قاله مجاهد ، وقتادة ، ومنه قول زهير :

ولو رام أسباب السماء بسلم . . . قال الربيع بن أنس : الأسباب : أدقّ من الشعر ، وأشدّ من الحديد ، ولكن لا ترى .

وقال السدّي : ﴿ فِى الاسباب ﴾ : في الفضل ، والدين .

وقيل : فليعملوا في أسباب القوّة إن ظنوا أنها مانعة ، وهو قول أبي عبيدة .

وقيل : الأسباب : الحبال ، يعني : إن وجدوا حبالاً يصعدون فيها إلى السماء فعلوا ، والأسباب عند أهل اللغة : كل شيء يتوصل به إلى المطلوب كائناً ما كان .

وفي هذا الكلام تهكم بكم ، وتعجيز لهم ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مّن الأحزاب ﴾ هذا وعد من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم بالنصر عليهم ، والظفر بهم ، و ﴿ جند ﴾ مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هم جند ، يعني : الكفار ، مهزوم : مكسور عما قريب ، فلا تبال بهم ، ولا تظن أنهم يصلون إلى شيء مما يضمرونه بك منا لكيد ، و "ما" في قوله : ﴿ مَّا هُنَالِكَ ﴾ هي : صفة لجند لإفادة التعظيم ، والتحقير ، أي : جند أيّ جند .

(141/658)

وقيل : هي زائدة ، يقال : هزمت الجيش : كسرته ، وتهزمت القربة : إذا تكسرت ، وهذا الكلام متصل بما تقدّم ، وهو قوله : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ وهم جند من الأحزاب مهزومون ، فلا تحزن لعزّتهم ، وشقاقهم ، فإني أسلب عزّهم ، وأهزم جمعهم ، وقد وقع ذلك ، ولله الحمد في يوم بدر ، وفيما بعده من مواطن الله .

وقد أخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال : سئل جابر بن عبد الله ، وابن عباس عن ﴿ ص ﴾ ، فقال : لا ندري ما هو .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : ﴿ ص ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير عنه ﴿ والقرءان ذِى الذكر ﴾ قال : ذي الشرف .

وأخرج أبو داود الطيالسي ، وعبد الرزاق ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن التميمي قال : سألت ابن عباس عن قول الله تعالى : ﴿ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال : ليس بحين نزو ، ولا فرار .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عنه في الآية قال : نادوا النداء حين لا ينفعهم ، وأنشد :

تذكرت ليلى لات حين تذكر . . . وقد بنت منها والمناص بعيد

وأخرج عنه أيضاً في الآية قال : ليس هذا حين زوال .

وأخرج ابن المنذر من طريق عطية عنه أيضاً قال : لا حين فرار .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ ﴾ الآية قال : نزلت حين انطلق أشراف قريش إلى أبي طالب ، فكلموه في النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه عنه ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ ﴾ قال : أبو جهل .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ مَّا سَمِعْنَا بهذا فِى

الملة الآخرة ﴾ قال : النصرانية .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأسباب ﴾ قال : في السماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(142/658)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) ﴾

﴿ أم ﴾ منقطعة وهي للإِضراب أيضاً وهو إضراب انتقالي فإن ﴿ أم ﴾ مشعرة باستفهام بعدها هو للإِنكار والتوبيخ إنكاراً لقولهم : ﴿ أءُنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ [ص : 8] أي ليست خزائن فضل الله تعالى عندهم فيتصدّوا لحرمان من يشاءون حرمانه من مواهب الخير فإن المواهب من الله يصيب بها من يشاء فهو يختار للنبوءة من يصطفيه وليس الاختيار لهم فيجعلوا من لم يقدموه عليهم في دينهم غير أهل لأن يَختاره الله .

وتقديم الظرف للاهتمام لأنه مناط الإِنكار وهو كقوله تعالى : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ [الزخرف : 32] .

والخزائن : جمع خزانة بكسر الخاء .

وهي البيت الذي يخزن فيه المال أو الطعام ، ويطلق أيضاً على صندوق من خشب أو حديد يخزن فيه المال .

والخزن : الحِفْظ والحِرْز .

والرحمة : ما به رفق بالغير وإحسان إليه ، شبهت رحمة الله بالشيء النفيس المخزون الذي تطمح إليه النفوس في أنه لا يُعطَى إلا بمشيئة خازنه على طريقة الاستعارة المكنية .

وإثبات الخزائن : تخييل مثل إثبات الأظفار للمنية ، والإِضافة على معنى لام الاختصاص .

والعدول عن اسم الجلالة إلى وصف لأن له مزيد مناسبة للغرض الذي الكلام فيه إيماء إلى أن تشريفه إياه بالنبوءة من آثار صفة ربوبيته له لأن وصف الربّ مؤذن بالعناية والإِبلاغ إلى الكمال .

وأجري على الرب صفة ﴿ العَزِيزِ ﴾ لإِبطال تدخلهم في تصرفاته ، وصفة ﴿ الوَهَّابِ ﴾ لإِبطال جعلهم الحرمان من الخير تابعاً لرغباتهم دون موادة الله تعالى .

و﴿ العزيز ﴾ : الذي لا يغلبه شيء ، و ﴿ الوهاب ﴾ : الكثير المواهب فإن النبوءة رحمة عظيمة فلا يخول إعطاؤها إلا لشديد العزة وافر الموهبة .

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (10)

إضراب انتقالي إلى رد يأتي على جميع مزاعمهم ويشمل بإجماله جميع النقوض التفصيلية لمزاعمهم بكلمة جامعة كالحوصلة فيشبه التذييل لما يتضمنه من عموم المُلك وعموم الأماكن المقتضي عموم العلم وعمومَ التصرف ينعَى عليهم قولهم في المغيبات بلا علم وتحكمهم في مراتب الموجودات بدون قدرة ولا غنى .

والاستفهام المقدر بعد ﴿ أم ﴾ المنقطعة تهكمي وليس إنكارياً لأن تفريع أمر التعجيز عليه يعيّن أنه تهكمي .

فالمعنى : إن كان لهم مُلك السماوات والأرض وما بينهما فكان لهم شيء من ذلك فليصعدوا إن استطاعوا في أسباب السماوات ليَخبُروا حقائق الأشياء فيتكلموا عن علم في كنه الإله وصفاته وفي إمكان البعث وعدمه وفي صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أو ضده وليفتحوا خزائن الرحمة فيفيضوا منها على من يعجبهم ويحرموا من لا يرْمقونه بعين استحسان .

والأمر في ﴿ فليرتقوا ﴾ للتعجيز مثل قوله : ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ [الحج : 15] .

والتعريف في ﴿ الأسْبابِ ﴾ لعهد الجنس لأن المعروف أن لكل محل مرتفع أسباباً يُصعد بها إليه كقول زهير :

ومن هاب أسباب المنايَا ينلْنه

وإن يرق أسباب السماء بسلّم . . .

وقول الأعشى :

فلو كنتَ في حِبّ ثمانين قامة

ورُقيتَ أسباب السماء بسُلّم . . .

والسبب : الحبل الذي يَتعلق به الصاعد إلى النخلة للجذاذ ، فإن جعل من حبلين ووصل بين الحبلين بحبال معترضة مشدودة أو بأعواد بين الحبلين مضفورٍ عليها جنبتَا الحبلين فهو السُلَّم .

وحرف الظرفية استعارة تبعية للتمكن من الأسباب حتى كأنها ظروف محيطة بالمرتقين .

جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (11)

يجوز أن يكون استئنافاً يتصل بقوله : ﴿ كمْ أهلكنا من قبلهم من قَرنٍ ﴾ [ص : 3] الآية أريد به وصل الكلام السابق فإنه تقدم قوله : ﴿ بل الذين كفروا في عزَّةٍ وشقاقٍ ﴾ [ص : 2] وتلاه قوله : ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ الآية .

فلما تقضى الكلام على تفصيل ما للذين كفروا من عزة وشقاق وما لذلك من الآثار ثُني العِنان إلى تفصيل مَا أَهلَك من القرون أمثالهم من قبلهم في الكفر ليفضي به إلى قوله : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ [ص : 12] إلى قوله : ﴿ فحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص : 14] . فتكون جملة ﴿ كذبت قبلهم قومُ نوح ﴾ بدلاً من جملة ﴿ جندٌ ما هنالِكَ مهزومٌ من الأحزابِ ﴾ بدلَ بعض من كلّ .

ويجوز أن يَكون استئنافاً ابتدائياً مستقلاً خارجاً مخرج البشارة للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء جند من الأحزاب مهزوم ، أي مقدّر انهزامه في القريب ، وهذه البشارة معجزة من الإِخبار بالغيب ختم بها وصف أحوالهم .

قال قتادة : وعد الله أنه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلها يوم بدر .

وقال الفخر : إشارة إلى فتح مكة .

وقال بعض المفسرين : إشارة إلى نصر يوم الخندق .

وعادة الأخبار الجارية مجرى البشارة أو النذارة بأمر مغيب أن تكون مرموزة ، والرمز في هذه البشارة هو اسم الإِشارة من قوله : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فإنه ليس في الكلام ما يصلح لأن يشار إليه بدون تأوُّل فلْنجعله إشارة إلى مكان أَطْلَع الله عليه نبيئه صلى الله عليه وسلم وهو مكان بدر .

ويجوز أن يكون لفظ ﴿ الأحزابِ ﴾ في هذه الآية إشارة خفية إلى انهزام الأحزاب أيام

الخندق فإنها عرفت بغزوة الأحزاب .

وسمّاهم الله ﴿ الأحزابِ ﴾ في السورة التي نزلت فيهم ، فتكون تلك التسمية إلهاماً كما ألهم الله المسلمين فسمَّوا حَجَّة النبي صلى الله عليه وسلم حجَّة الوَداع وهو يومئذٍ بينهم سليم المزاج ، وهذا في عداد المعجزات الخفية التي جمعنا طائفة منها في كتاب خاص .

ولعل اختيار اسم الإشارة البعيد رمزٌ إلى أن هذا الانهزام سيكون في مكان بعيد غير مكة فلا تكون الآية مشيرة إلى فتح مكة لأن ذلك الفتح لم يقع فيه عذاب للمكذبين بل عفا الله عنهم وكانوا الطلقاء .

(145/658)

وهذه الإِشارة قد علمها النبي صلى الله عليه وسلم وهي من الأسرار التي بينه وبين ربه حتى كان المستقبل تأويلَها كما علم يعقوب سرَّ رؤيا ابنه يوسف ، فقال له : ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك ﴾ [يوسف : 5] .

ولم يعلَم يوسف تأويلها إلا يوم قال : ﴿ يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قبلُ قد جعلها ربي حقّاً ﴾ [يوسف : 100] يشير إلى سجود أبويه له .

وأما ظاهر الآية الذي تلقاه الناس يوم نزولها فهو أن الجند هم كفار أهل مكة وأن التنوين فيه

للنوعية ، أي ما هم إلا جند من الجنود الذين كذبوا فأُهلكوا ، وأن الإِشارة بـ ﴿ هُنَالِكَ ﴾ إلى مكان اعتباري وهو ما هم فيه من الرفعة الدنيوية العرفية وأَن الانهزام مستعار لإِضعاف شوكتهم ، وعلى التفسيرين الظاهر والمؤول لا تعدو الآية أن تكون تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيتاً له وبشارة بأن دينه سيظهر عليهم .

والجند : الجماعة الكثيرة قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود ﴾ [البروج : 17 - 18] .

و ﴿ ما ﴾ حرف زائد يؤكد معنى مَا قبله فهي توكيد لما دلّ عليه ﴿ جُندٌ ﴾ بمعناه ، وتنكيره للتعظيم ، أي جند عظيم ، لأن التنوين وإن دلّ على التعظيم فليس نصاً فصار بالتوكيد نصاً .

وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ إن اللَّه لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ﴾ في سورة [البقرة : 26] ، فإن كانت الآية مشيرة إلى يوم بدر فتعظيم ﴿ جُندٌ ﴾ لأن رجاله عظماء قريش مثل أبي جهل وأمية بن خلف ، وإن كانت مشيرة إلى يوم الأحزاب فتعظيم ﴿ جُندٌ ﴾ لكثرة رجاله من قبائل العرب .

ووصف ﴿ جُندٌ ﴾ بـ ﴿ مَهْزومٌ ﴾ على معنى الاستقبال ، أي سيهزم ، واسم المفعول كاسم الفاعل مجاز في الاستقبال ، والقرينةُ حاليَّة وهو من باب استعمال ما هو للحال في معنى المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه فكأنه من القرب بحيث هو كالواقع في الحال .

و ﴿ الأحزاب ﴾ : الذين على رأي واحد يتحزَّب بعضهم لبعض ، وتقدم في سورة الأحزاب .

و ﴿ مِن ﴾ للتبعيض .

والمعنى : أن هؤلاء الجند من جملة الأمم وهو تعريض لهم بالوعيد بأن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم ، قال تعالى : ﴿ وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴾ [غافر : 30 - 31] .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12)

لما كان قوله : ﴿ جندٌ ما هُنالكَ مهزومٌ من الأحزاب ﴾ [ص : 11] تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم ووَعْداً له بالنصر وتعريضاً بوعيد مكذِّبيه بأنهم صائرون إلى ما صارت إليه الأحزاب الذين هؤلاء منهم كما تقدم آنفاً جيء بما هو كالبيان لهذا التعريض .

والدليلِ على المصير المقصود على طريقة قياس المساواة وقد تقدم آنفاً أن هذه الجملة : إمّا بدل من جملة ﴿ جُندٌ ما هُنَالِكَ ﴾ الخ ، وإمّا استئناف ولذلك فصلت عن التي قبلها .

وحذف مفعول ﴿ كذَّبَتْ ﴾ لأنه سيرد ما يُبيّنه في قوله : ﴿ إن كلٌّ إلاَّ كذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ كما سيأتي .

وخصّ فرعون بإسناد التكذيب إليه دون قومه لأن الله أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون ليطلق بني إسرائيل فكذب موسى فأمر الله موسى بمجادلة فرعون لإبطال كفره فتسلسل الجدال في العقيدة ووجب إشهار أن فرعون وقومه في ضلال لئلا يغتر بنو إسرائيل بشبهات فرعون ، ثم كان فرعون عقب ذلك مضمراً أذى موسى ومعلناً بتكذيبه .

ووُصف فرعون بأنه بـ ﴿ ذُو الأَوْتَادِ ﴾ لعظمة ملكه وقوته فلم يكن ذلك ليحول بينه وبين عذاب الله .

وأصل ﴿ الأوتاد ﴾ أنه : جمع وتد بكسر التاء : عود غليظ له رأس مفلطح يدقّ في الأرض ليشد به الطُّنُب ، وهو الحبل العظيم الذي تشد به شقّة البيت والخَيمة فيشد إلى الوتد وترفع الشقة على عماد البيت قال الأفوه الأوديّ :

والبيتُ لا يبتَنَى إلا على عَمَد

ولا عِماد إذا لم تُرْسَ أوتاد . . .

و ﴿ الأَوْتَادِ ﴾ في الآية مستعار لثبات الملك والعز ، كما قال الأسود بن يعفر :

ولقد غَنُوا فيها بأنعم عيشة

في ظلّ ملك ثَابت الأوتاد . . .

وقيل : ﴿ الأوتاد ﴾ : البناءات الشاهقة .

وهو عن ابن عباس والضحّاك ، سميت الأبنية أوتاداً لرسوخ أسسها في الأرض .

وهذا القول هو الذي يتأيد بمطابقة التاريخ فإن فرعون المعنيّ في هذه الآية هو (منفتاح الثاني) الذي خرج بنو إسرائيل من مصر في زمنه وهو من ملوك العائلة التاسعة عشرة في ترتيب الأُسَر التي تداولت ملك مصر ، وكانت هذه العائلة مشتهرة بوفرة المباني التي بناها ملوكها من معابد ومقابر وكانت مدة حكمهم مائة وأربعاً وسبعين سنة من سنة (1462) قبل المسيح إلى سنة (1288) ق .

م .

وقال الأستاذ محمد عبده في "تفسيره" للجزء الثلاثين من القرآن في سورة الفجر : وما أجمل التعبير عما ترك المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد فإنها هي الأهرام ومنظرها في عين الرائي مَنظر الوتد الضخم المغروز في الأرض ا .

ه .

وأكثر الأهرام بنيت قبل زمن فرعون موسى منفتاح الثاني فكان منفتاح هذا مالك تلك

الأهرام فإنه يفتخر بعظمتها وليس يفيد قوله : ﴿ ذُو الأَوْتَادِ ﴾ أكثر من هذا المعنى إذ لا يلزم أن يكون هو الباني تلك الأهرام .

وذلك كما يقال : ذو النيل ، وقال تعالى حكاية عنه:

﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ [الزخرف : 51] .

وأما ﴿ ثمود وقوم لوط ﴾ فتقدم الكلام عليهم غير مَرة .

و ﴿ أصحاب لَيكة ﴾ : هم أهل مدين ، وقد تقدم خبرهم وتحقيق أنهم من قوم شعيب وأنهم مختلطون مع مدين في سورة الشعراء .

وتقديم ذكر فرعون على ثمود وقوم لوط وأصحاب ليكة مع أن قصته حدثت بعد قصصهم لأن حالهُ مع موسى أشبه بحال زعماء أهل الشرك بمكة من أحوال الأمم الأخرى فإنه قاوم موس بجيش كما قاوم المشركون المسلمين بجيوش .

وجملة ﴿ أولئك الأحزابُ ﴾ معترضة بين جملة ﴿ كذبت قبلهم ﴾ وجملة ﴿ إن كلٌّ إلاَّ كذَّبَ الرُّسلَ ﴾ .

(148/658)

واسم الإِشارة مستعمل في التعظيم ، أي تعظيم القوة .

والتعريف في ﴿ الأحزاب ﴾ استغراق ادعائي وهو المسمى بالدلالة على معنى الكمال مثل : هُمُ القوم وأنت الرجلُ .

والحصر المستفاد من تعريف المسند والمسند إليه حصر ادعائي ، قُصرت صفة الأحزاب على المشار إليهم بـ ﴿ أولئك ﴾ بادعاء الأمم وأن غيرهم لمّا يبلغوا مبلغ أن يُعَدُّوا مِن الأحزاب فظاهر القَصر ولام الكمال لتأكيد معنى الكمال كقول الأشهب بن رُميلة :

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم
هم القومُ كلُّ القوم يا أم خالد . . .

والمعنى : أولئك المذكورون هم الأمم لا تُضاهيهم أمم في القوة والشدة .

وهذا تعريض بتخويف مشركي العرب من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك على حد قوله تعالى : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم اللَّه بذنوبهم وما كان لهم من اللَّه من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم اللَّه إنه قويٌّ شديد العقاب ﴾ في سورة [غافر : 21 - 22] .

وجملة إن كلٌّ إلا كذَّبَ الرسل ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ كذَّبتْ قبلهم قوم نوح ﴾ إلى قوله : ﴿ وأصحابُ لَيْكَةِ ﴾ ، أخبر أوّلاً عنهم بأنهم كذبوا وأُكد ذلك بالإِخبار عنهم بأنهم ليسوا إلاّ

مُكذبين على وجه الحصر كأنهم لا صفة لهم إلا تكذيب الرسل لتوغلهم فيها وكونها هِجّيراهم .

و﴿ إنْ ﴾ نافية ، وتنوين ﴿ كل ﴾ تنوين عوض ، والتقدير : إنْ كُلُّهم .

وجيء بالمسند فعلاً في قوله : ﴿ كذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ ليفيد تقديمُ المسند إليه عليه تخصيصَ المسند إليه بالمسند الفعلي فحصل بهذا النظم تأكيد الحصر .

وتعدية ﴿ كذَّبَ ﴾ إلى ﴿ الرُّسُلَ ﴾ بصيغة الجمع مع أن كل أمة إنما كذبت رسولها ، مقصود منه تفظيع التكذيب لأن الأمة إنما كذّبت رسولها مستندة لحجة سفسطائية هي استحالة أن يكون واحد من البشر رسولاً من الله فهذه السفسطة تقتضي أنهم يكذبون جميع الرسل .

(149/658)

وقد حصل تسجيل التكذيب عليهم بفنون من تقوية ذلك التسجيل وهي إبهام مفعول ﴿ كَذَّبَتْ ﴾ في قوله : ﴿ كذَّبتْ قبلهم ﴾ ثم تفصيله بقوله : ﴿ إلاَّ كذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ وما في قوله : ﴿ إن كلٌّ إلاَّ كذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ من الحصر ، وما في تأكيده بالمسند الفعلي في قوله : ﴿ إلاَّ كذَّبَ ﴾ ، وما في جعل المكذَّب به جميعَ الرسل ، فأنتج ذلك التسجيلُ استحقاقهم

عذاب الله في قوله : ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ ، أي عقابي ، فحذفت ياء المتكلم للرعاية على الفاصلة وأبقيت الكسرة في حالة الوصل .

وحق : تحقق ، أي كان حقّاً ، لأنه اقتضاه عظيم جُرمهم .

والعقاب : هو ما حلّ بكل أُمة منهم من العذاب وهو الغرق والتمزيق بالريح ، والغرق أيضاً ، والصيحة ، والخسف ، وعذاب يوم الظّلة .

وفي هذا تعريض بالتهديد لمشركي قريش بعذابٍ مثل عذاب أولئك لاتحادهم في موجبه .

وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (15)

لما أشعر قوله : ﴿ فحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص : 14] بتهديد مشركي قريش بعذاب ينتظرهم جَرْياً على سنة الله في جزاء المكذبين رسلَه ، عطف على جملة الإخبار عن حلول العذاب بالأحزاب السابقين جملةُ تَوعد بعذاب الذين ماثلوهم في التكذيب .

و﴿ هؤلاء ﴾ إشارة إلى كفار قريش لأن تجدد دعوتهم ووعيدهم وتكذيبهم يوماً فيوماً جعلهم كالحاضرين فكانت الإشارة مفهوماً منها أنها إليهم ، وقد تتبعتُ اصطلاح القرآن فوجدتُه إذا استعمل ﴿ هؤلاء ﴾ ولم يكن معه مشار إليه مذكور : أنه يريد به المشركين من أهل مكة كما نبهتُ عليه فيما مضى غير مرة .

و﴿ يَنظُرُ ﴾ مشتق من النظر بمعنى الانتظار قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم

الملائكة ﴾ [الأنعام : 158] ، أي ما ينتظر المشركون إلا صيحة واحدة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فهل ينتظرون إلاّ مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ [يونس : 102] .

(150/658)

والمتبادر من الآية أنها تهديد لهم بصيحة صاعقة ونحوها كصيحة ثمود أو صيحة النفخ في الصور التي يقع عندها البعث للجزاء ، ولكن ما سبق ذكره آنفاً من أن قوله تعالى : ﴿ جُندٌ ما هُنالكَ مهزومٌ منَ الأحزابِ ﴾ [ص : 11] إيماءٌ إلى بشارة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن معانديه سيهزمون ويَعمل فيهم السيف يوم بدر ، يقتضي أن الصيحة صيحة القتال وهي أن يصيح النذير : يَا صباحاه كما صَاح الصارخ بمكة حين تعرَّض المسلمون لعير قريش ببدر .

ووصفها بـ ﴿ واحِدَةً ﴾ إشارة إلى أن الصاعقة عظيمة مهلكة ، أو أن النفخة واحدة وهي نفخة الصعق ، وفي خفيّ المعنى إيماء إلى أن القوم يبتدرون إلى السلاح ويخرجون مسرعين لإنقاذ غيرهم فكانت الوقعة العظيمة وقعة يوم بدر أو صيحة المبارزين للقتال يومئذٍ .

وأسند الانتظار إليهم في حين أنهم غافلون عن ذلك ومكذبون بظاهره إسناد مجازي على

طريقة المجاز العقلي فإنهم يَنتظر بهم ذلك المسلمون الموعودون بالنصر ، أو ينتظِر بهم الملائكة الموكّلون بحشرهم عند النفخة ، فلما كانوا متعلَّق الانتظار أسند فعل ﴿ يَنظُرُ ﴾ إليهم لملابسة المفعولية على نحو ﴿ في عيشةٍ راضية ﴾ [الحاقة : 21] .

والفواق ، بفتح الفاء وضمها : اسم لما بين حلبتي حالب الناقة ورضعتي فَصيلها ، فإن الحالب يحلب الناقة ثم يتركها ساعة ليرضعها فصيلها ليَدر اللبن في الضرع ثم يعودون فيحلبونها ، فالمدة التي بين الحلبتين تسمى فَواقاً .

وهي ساعة قليلة وهم قبل ابتداء الحلب يتركون الفصيل يرضعها لتدرّ باللبن .

وجمهور أهل اللغة على أن الفتح والضم فيه سواء ، وذهب أبو عبيدة والفراء إلى أن بين المفتوح والمضموم فَرقاً فقالا : المفتوح بمعنى الراحة مثل الجَواب من الإِجابة ، والمضمومُ اسم للمدة .

واللبن المجتمع في تلك الحصة يسمى : الفِيقَة بكسر الفاء ، وجمعُها أفاويق .

(151/658)

ومعنى ﴿ ما لَها من فَواقٍ ﴾ ليس بعدها إمهال بقدر الفواق ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصِّمون فلا يستطيعون توصية ﴾ [يس : 49

وقرأ الجمهور ﴿ فَوَاقٍ ﴾ بفتح الفاء .

وقرأه حمزة والكسائي بضم الفاء .

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16)

حكاية حالة استخفافهم بالبعث والجزاء وتكذيبهم ذلك ، وتكذيبهم بوعيد القرآن إياهم فلمّا هدّدهم القرآن بعذاب الله قالوا : ربّنا عجل لنا نصيبنا من العذاب في الدنيا قبل يوم الحساب إظهاراً لعدم اكتراثهم بالوعيد وتكذيبه ، لئلا يظن المسلمون أن استخفافهم بالوعيد لأنهم لا يؤمنون بالبعث فأبانوا لهم أنهم لا يصدّقون النبي صلى الله عليه وسلم في كل وعيد حتى الوعيد بعذاب الدنيا الذي يعتقدون أنه في تصرف الله .

فالقول هذا قالوه على وجه الاستهزاء وحكي عنهم هنا إظهاراً لرقاعتهم وتصلبهم في الكفر .

وهذا الأصل الثالث من أصول كفرهم المتقدم ذكرها وهو إنكار البعث والجزاء فهو عطف على ﴿ وقال الكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كذَّابٌ ﴾ [ص : 4] فذكر قولهم : ﴿ أجعل الآلِهَةَ إلها واحِداً ﴾ [ص : 5] ، ثم ذكر قولهم : ﴿ أءُنزِلَ عليهِ الذِكرُ مِن بيننَا ﴾ [ص : 8] وما عقبه من عواقب مثل ذلك القول ، أفضى القول إلى أصلهم الثالث .

قيل : قائل ذلك النضر بن الحارث ، وقيل : أبو جهل والقوم حاضرون راضون فأسند القول

إلى الجميع .

والقط : هو القسط من الشيء ، ويطلق على قِطعة من الوَرق أو الرقّ أو الثوب التي يكتب فيها العَطاء لأحد ولذلك يفسر بالصكّ ، وقد قال المتلمس في صحيفة عمرو بن هند التي أعطاه إياها إلى عامله بالبحرين يوهمه أنه أمر بالعطاء وإنما هي أمر بقتله وعرف المتلمس ما تحتوي عليه فألقاها في النهر وقال في صحيفته المضروب بها المثل :

وألقيتُها بالثني من جنب كافر

كذلك يلقى كل قِطَ مضلِّل . . .

(152/658)

فالقط يطلق على ما يكتب فيه عطاء أو عقاب ، والأكثر أنه ورقة العطاء ، قال الأعشى:

ولا الملك النعمان يوماً لقيتُه . . .

بأُمته يعطي القُطوط ويَأْفق

ولهذا قال الحسن : إنما عَنوا عجّل لنا النعيم الذي وعدتَنا به على الإِيمان حتى نراه الآن فنُوقِن .

وعلى تسليم اختصاص القطّ بصكّ العطاء لا يكون ذلك مانعاً من قصدهم تعجيل العقاب

بأن يكونوا سموا الحظ من العقاب قِطًّا على طريق التهكم ، كما قال عمرو بن كلثوم إذ جعل القتال قِرى :

قرينا كم فعجلنا قِراكم

قُبيل الصبح مِرْدَاة طحونا . . .

فيكونون قد أدمجوا تهكماً في تهكم إغراقاً في التهكم .

وتسميتهم ﴿ يَومِ الحسابِ ﴾ أيضاً من التهكم لأنهم لا يؤمنون بالحساب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(153/658)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ) (ص : 12 - 13) ، وفي سورة ق : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ) (ق : 12 - 14) ، للسائل أن يسأل عن وجه ورود هاتين الآيتين في السورتين

على خلاف الترتيب المتقرر من ذكر الرسل وأممهم وما جرى بين الرسل والأمم في سورة الأعراف وهود والشعراء ؟ ثم عن وجه الخلاف الوارد في سياق آيتي صاد وقاف من جهة الترتيب في السورتين ؟ ووجه اختصاص كل واحدة منهما بما ورد فيها ؟ وتعقيب آية ص بقوله : (فَحَقَّ عِقَابِ) (ص : 14) وآية ق بقوله : (فَحَقَّ وَعِيدِ) (ق : 14) ؟ فهذه أربعة أسئلة .

(154/658)

والجواب عن ذلك – والله أعلم : عن الجملة أن الوارد في السور الثلاث مقصود فيه إخبار الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما كان من الرسل المذكورين مع أممهم تثبيتاً لفؤاده صلى الله عليه وسلم وتأنيساً ، قال تعالى : (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) (هود : 120) ، فذكر أنباءهم ، عليه السلام ، على الترتيب في أزمنتهم وإرسالهم ، أما سورة ص وسورة ق فلم يُبين ما ورد فيهما على ذلك القصد ، وإنما بناء ما في السورتين من ذلك على تسليته صلى الله عليه وسلم فيما كان يكابده من عتاة قريش وكفار العرب في توقفهم عن الإيمان ، فجرد لهذا القصد ذكر عتاة قريش وكفار العرب في توقيفهم عن الإيمان ، فجرد لهذا القصد ذكر عتاة المكذبين وأخذه سبحانه إياهم ، وقيل له ، عليه السلام ،

تعريفاً بمآل كفار قريش : (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ) (ص : 15) مخالفاً لإيراد ما في هاتين السورتين ما تقدم في غيرهما لاختلاف المقاصد ، وجاء في كل واحدة منهما من الترتيب ما يلائم ويناسب على ما تبين بحلول الله تعالى .

فإن قيل : فإن سورة الحج ورد فيها ذكر الأمم السالفة المكذبين في قوله تعالى : (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ . . . .) (الحج : 42 - 44) فجرد ذكرهم عن ذكر الرسل إخباراً بمجرد تكذيبهم وأخذهم كما في سورة ص وسورة ق ، وقد وردت

علي الترتيب الوارد في السور الثلاث ، فقد خالفت مقصود ما في تلك السور ، ثم جرت على ما فيها من الترتيب ، فما الفرق بينهما وبين هاتين السورتين ؟ قلت : الفرق بينهما أن مقصد آية سورة الحج الإخبار بتكذيب أولئك الأمم وأخذهم تسلية لنبينا صلى الله علية وسلم من غير زيادة لما تعرضت لة آية ص وآية ق ، وأما هاتان الآيتان فقد انجز فيهما مع ذكر التكذيب والأخذ التعريف بتعزز عتاة قريش ومن وافقهم وذكر شقاقهم . وقبيح

ردهم وتعاميهم عن النظر في الآيات والاعتبار بما نصب منها في الأرض والسماوات ، فلهذا المنجر هنا انفردت سورة ص وسورة ق بالوارد فيهما من الترتيب عن سورة الحج .

(156/658)

فإن قلت : فإذا اجتمعت السورتان فيما ذكر فما وجه اختصاص كل واحدة منهما بما خصت به عن أختها من الترتيب ؟ قلت : أما آية ص فوجه اختصاصها بما ورد ترتيبها عليه أنه سبحانه لما وصف كفار قريش والعرب بالاعتزاز والشقاق في قوله : (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) (ص : 2) ، ثم أعقب بذكر القرون المهلكة في قوله : (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ) (ص : 3) ، ثم أعاد ذكرهم مفصلا قرنا قرنا وأمة أمة ، كان الأنسب لما قدم من ذكر عتو كفار العرب وشقاقهم ذكر أعتى القرون من الأمم وأجرمهم ، فذكر قوم نوح من حيث لم يجد عليهم نكرار الإنذار مع طول الأمد ، قال تعالى مخبرا عن طول مدتهم وبعد إجابتهم قال نوح : (رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا) (نوح : 5 – 6) ، إلى قوله : (وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) (نوح : 7) ، إلى دعائه ، عليه السلام ، عليهم عند قطع رجائه منهم بقوله : (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) (نوح : 26 – 27) ، إلى

ما وصفهم سبحانه به وأنه لم يؤمن منهم مع نوح إلا القليل ، فوجود ما تحلت به عتاه قريش ومتمردو كفار العرب من العزة والشقاق في قوم نوح أوضح شيئ ، ثم اتبع ذكرهم بدعاء عاد الموصوفين بالقوة والطغيان القائلين : من أشد منا قوة ، والقائلين لنبيهم عليه السلام : (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ) (الشعراء : 136) ، إلى قوله : (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) (الشعراء : 138) ، ثم اتبع بذكر فرعون ذي الأوتاد ، والمراد هو وآله وقومه . وقد تكرر في القرآن مع ذكر فرعون وعلوه في الأرض وطغيانه مع ما أوضح شنيع مرتكبة وبعد شقاقه ، ثم اتبع بمن ذكر بعدهم مراعي في

(157/658)

ذلك مناسبة ما قدم ، ثم ذكر اجتماعهم في موجب تمردهم وعتوهم وهو تكذيبهم للرسل ، فقال تعالى : (إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) (ص : 14) ثم أعاد الكلام إلى كفار قريش والعرب المبدو بهم والمنبهين لو تنبهوا بأخذ من عاند وكذب ممن تقدمهم فقال : (وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ) (ص : 15) ،

أي إنهم إن تمادوا على شقاقهم فلا فرق بينهم وبين ما تقدمهم من هؤلاء القرون (وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ) (الرعد : 6) ، (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ) (يونس :

102) ، ثم أتبع سبحانه بذكر شنيع مرتكبهم في استعجالهم العذاب وقولهم : (عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) (ص : 16) ، فأنبأ تعالى باستحكام كفرهم وتكذيبهم واستهزائهم الموجب لتعجيل أخذهم ، ثم أنصرف الكلام إلى أمره سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على معاندتهم وردي مقالتهم ، وتذكر أخيه داود والاعتبار بأمره ، وتسخيره سبحانه له الجبال ، وحشره له الطير منقادة إلى أمره ، وإلانته له الحديد ، وقلوب الآدميين أهين وأقرب ، فلو شاء لهدى هؤلاء كما سخر الجبال لداود (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) (السجدة : 13) وهذا وجه ذكر داود ، عليه السلام ، هنا ، لا ما قاله الزمخشري ، وقد تقدم (الإيماء) إليه عند قوله تعالى في سورة طه : (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) (طه : 130) ويستوفي عقب هذا بحول الله ، فهذا وجه اختصاص آية ص بما ورد فيها من الترتيب في ذكر القرون المهلكة بتكذيبها .

(158/658)

وأما آية ق فوجه الوارد فيها من إتباع ذكر قوم نوح بذكر أصحاب الرس ومخالفة الوارد في سورة ص ، إن آية ق قد انفردت عن آية ص بما قصد فيها مفصحاً به ، من ذكر تعامي كفار قريش والعرب عن النظر في خلق السماوات والأرض ، والاعتبار بمن تقدمهم من الأمم ،

وأخذهم بتكذيبهم ، ففي آية ص ذكر تجبرهم وشقاقهم وطغيانهم ، وفي ق ذكر تعاميهم عم الاعتبار والنظر ، فبدأ سبحانه بتذكيرهم بذكر حال السماء وإتقانهم فقال : (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا) (ق : 6) إلى قوله : (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) (ق : 11) ، والمراد أنهم لو وقفوا فأمعنوا النظر في بناء السماء ، وتزيينها بما جعل تعالى فيها من نجومها ، وسلامتها من فطور أو فروج ، وفي امتداد الأرض وإرسائها بالجبال ، وإنبات ما فيها من كل زوج بهيج ، وإنزال الماء من السماء ، وإنبات الجنات وحب الحصيد والنخل الباسقات ذات الطلع النضيد ، وإحياء البلاد الميته ، وتكرر ذلك عليها ، فلو اعتبروا بهذا لاستوضحوا العودة والبعثة ، الأخراوية (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) (ق : 11) ، (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) (الأنبياء : 104) ، فلما ذكرهم سبحانه بخلق السماوات والأرض أعقب ذلك تتميماً جارياً على التذكير المتكرر في الكتاب بذكر القرون السالفة المهلكة بتكذيبها فقال : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) (ق : 12) ، ولما (بني) (ما) تقدم من الاعتبار على الإشارة إلى الاستيفاء (في عجائب الأرض والسماء ، ناسب ذلك بناء ذكر من نبه عليه ممن هلك

(بتضييع) نظره واعتباره على الاستيفاء) ، فذكر طرفان ليحصل حصر من بينهما أمة ممن تقدم وهم قوم نوح وأمة ممن تأخر وهم أصحاب الرس ، ليحصل ما بينهما بإشارة الطرفين كما قال سبحانه في سورة الفرقان : (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا) (الفرقان : 38) ، وهذه الآية وآية ق مشيرتان إلى تأخير أصحاب الرس عن كل من ذكر في الفرقان من الأمم المهلكين بتكذيبهم ممن عين ذكره ، والله أعلم .

وقد اختلف المفسرون في أصحاب الرس ، والواقع في مختلف أقوالهم في ذلك ثمانية أقوال ، ومن جملتها أنهم أصحاب الأخدود ، وقيل كانوا قوماً قتلوا نبيهم ورموه في بئر لهم ، زاد بعضهم أنه كان اسم نبيهم حنظلة ، وقيل هم من قوم شعيب ، عليه السلام ، وقيل غير ذلك ، والمقطوع به ما نطق به القرآن من وجود قرون كثيرة بين قوم نوح وأصحاب الرس ، ويظهر من هذا الوارد في سورة ق أن مقصود الآية من استيفاء القرون المأخوذين بتكذيبهم غير وارد في غيرها ، ألا ترى أنه قد أفصح فيها بثمانية قرون منصوص عليها ، وهم قوم نوح ، وأصحاب الرس ، وثمود ، وعاد ، وفرعون ، وأخوان لوط ، وأصحاب الأيكة ، وقوم تبع والمراد هو وقومه ، ولم يرد في أوفى المتكرر من الكتاب العزيز غير سبعة . والأكثر ستة ، فدل على قصد الاستيفاء في هذه السورة على كل حال ، فقد ورد قوم نوح وأصحاب الرس طرفين لمن بينهما من القرون ، ومقصود بهما – والله أعلم – استيفاء ما بينهما ،

إشعاراً ، (في هذه الورة وإفصاحاً بكثرة من بيمهما بقوله في سورة الفرقان (وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا) (الفرقان : 38) .

(160/658)

وأما الوارد بعد الطرفين في سورة ق من ذكر ثمود وعاد ومن ذكر بعد ، فقد يكون – والله أعلم – من قبيل ما ورد في القرآن ممن شمله لفظ متقبل غير مصرح ثم نص عليه اعتناء واهتمام مع كونه قد ضمه ذلك اللفظ المتقدم ، كقوله تعالى : (وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) (البقرة : 98) بعد دخولها تحت لفظ الملائكة ، وعلى كل حال فأصحاب الرس متأخرون عن قرون كثيرة بعد قوم نوح بنص القرآن ، والله سبحانه أعلم .

فلما ورد هنا ما يشير إلى الاستيفاء بالاعتبار بهم جرياً مع ما تقدم من استيفاء الاعتبار بعجائب الأرض والسماء قدم ما يحصل بتقديمه ما اشير إليه من الاستيفاء ، ولم يكن القصد هنا ما قصد في آية ص ، فجاء كل على ما يجب ، والله أعلم .

وأما المعقب به كل واحدة من الآيتين من قوله في سورة ص : (إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) (ص : 14) ، وقوله بعد آية ق : (فَحَقَّ وَعِيدِ) (ق : 14) ، مراعي في

(161/658)

ذلك فواصل (في كل من السورتين وإلا فالعقاب والوعيد حق على كل من هؤلاء المكذبين ، فإنما روعي الفواصل) ، فقوله قبل آية ص : (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (8) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ) (ص : 8 – 9) ، واستمرت وفاصل الآي هكذا إلا ما بعد الآية فاستجعى ذلك مناسبة الآية المتكلم فيها فقيل : (إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) (ص : 14) ، وأما آية ق فوسب بها أيضاً ما تقدم من قوله : (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ) (ق : 9) ثم قال : (وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ) (ق : 10) وورد أيضاً في الفواصل بعدها : (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) (ق : 15) ، إلى بضع عشرة آية جارية في مقاطعها على ما ذكر ، فناسب ذلك قوله : (كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ) (ق : 14) وجاء كل على ما يناسب ، وذلك واضح .

(162/658)

لطيفة أخرى :

قوله تعالى : (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ *اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ

عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) (ص : 16 - 17) وفي سورة الأحقاف : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) (الأحقاف : 35) وفي سورة القلم : (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ) (القلم : 48) ، ورد في هذه السور الثلاث أمره صلى الله عليه وسلم بالصبر ، محالا في الأولى عل الاعتبار بحال داود وأبنائه وفي الثانية : على أولي العزم في أهتدائه وأقتدائه ، وفي الثالثة منبهاً بالجار لذي النون في مغاضبته وندائه ، والمتردد في غير هذه الآي إنما هو أمره ، عليه السلام ، فاصبر غير مناط بذكر أحد من الرسل ، كقوله تعالى : (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ) (النحل : 127) ، وكقوله : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) (الكهف : 28) ، وقوله : (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) (ق : 39) ، وقوله : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) (الطور : 48) ، إلى غير هذا من الآي ، فللسال أن يسأل عن وجه ذلك ؟ وعن اختصاص كل سورة من الثلاث بما ورد فيها إذ ليست الإحالة فيها على حد سواء ؟ فهذان سؤالان .

(163/658)

والجواب عن السؤال ، والله أعلم : أن تكرر أمره ، عليه السلام ، بالصبر في الآيات المترددة على كثرتها أدل دليل على الاعتناء به صلى الله عليه وسلم لعظم أمر الصبر وشدة الحاجة

إليه في كل مطلب ديني من أخذ أو ترك ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في صفته : " الصبر ضياء " ، وقال تعالى في قصة أيوب وحال أبتلائه : (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ) (ص : 44) وقال تعالى : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر : 10) ، وقال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (الأنفال : 10) وقال تعالى : (وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) (القصص : 80) ، وأحوج الخلق إلى الصبر الرسل ، عليهم السلام ، لعظم ما يلقونه من مكابدة الخلق ، فلشدة الحاجة إلى الصبر ما تكرر في عدة آيات أمراً له عليه السلام ، ولأمته .

والجواب عن السؤال الثاني : أن أمره ، عليه السلام ، بالاقتداء بالرسل قد ورد وتكرر في غير أية ، وتردد أيضاً أمره بالاقتداء بأبيه إبراهيم ، عليهما السلام ، لعظم مقام إبراهيم وجليل خلته وابوته وتنبيهاً للعرب لرجوعهم إليه انتساباً وإعترافهم مقرين بتعظيمه .

(164/658)

وأما تخصيص السور الثلاث بتعيين ما ورد فيهما فلما نذكره من الوجه الحامل والمناسبة في النظم ، أما سورة ص فوجه إختصاصها فيها إلتئام نظم الآية بما تقدمها ، وإرتباط قوله تعالى فيها : (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ) (ص : 17) ، بما اتصل به من قوله (اصْبِرْ عَلَى مَا

يَقُولُونَ) بيان النظم في ذلك وإلتئامه أوضح إلتئام ، إن الله سبحانه لما ذكر حال العتاة من كفار قريش وشنيع مقالهم لنبيه ، صلى الله عليه وسلم ، من لدن قولهم (سَاحِرٌ كَذَّابٌ) (ص : 4) إلى ختمهم ما ذكر تعالى من سوء مراجعتهم بقولهم إستهذاء وتكذيباً : (عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) (ص : 16) أتبع ذلك ملاطفة وتأنيساً لنبيه ، صلى الله عليه وسلم ، بقوله : (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) (ص : 17) (تذكيراً له بأن الجاري من ذلك إنما هو على ما شاءه لهم في أزله وقدره عليهم ، فليس خارجاً عن إرادته ، فكأنه يقول لنبيه ، عليه السلام ، أصبر على ما) يرد منهم وما يقولونه فإنه مرادي منهم في سابق قدري ، ولو شئت لهديت قلوبهم وسخرتها لإجابتك ، فقد سخرت الجبال مع داود والطير وإلنت له الحديد وقبل الادمي ألين وأقرب : (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) (السجدة : 13) فإذا علمت أن قلوبهم بيدي اقلبها كيف شئت ، فأصبر على ما يقولون ، واعتبر بما سخرته لداود وأقتد لما منحته من الايد والقوة ، فهذا وجه النظم والارتباط في هذه الآي ، والله أعلم .

وقد تعرض أبو الفضل بن الخطيب في تفسيره الكبير لتوجيه النظم فيما قدمناه فقال : إن قيل أي تعلق بين قوله تعالى : (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) : ((وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ) قولنا : من وجوه .

الأول : كأنه قيل : إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جرائتهم على الله وإنكارهم الحشر والنشر فذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله ومن يوم الحشر فإنه بقدر ما يزداد أحد الضدين شرفاً يزداد الأخر نقصاناً . أنتهى معنى كلامه . قلت وهذا الذي حكاه ضعيف ، لأن هذا الكلام يثمر التعجب من فعل الله سبحانه ولا يثمر تسلية ولا تأنيساً وهما أنسب في الموضع وذكر وجهاً ثانياً وهو أنه كأنه قيل لنبينا ، صلى

(166/658)

الله عليه وسلم : ولا يضيق صدرك بسبب إنكارهم لقولك ودينك فإنهم إن خالفوك فالأكابر من الأنبياء موافقوك ، قلت : وهذا أضعف من الاول ، لأنه ، عليه الصلاة والسلام إنما يأنس بمصداقية من امته ، وأيضاً فقد كان ذكر إبراهيم لو قصد هذا الغرض من الموافقة أنسب لتعظيم العرب إياه وللاتفاق عليه ولعظم خلته ، وذكر وجه ثالثاً وهو أن الخصمين الذين دخلا على داود ، عليه السلام ، كانا من البشر ، وإنما دخل عليه بقصد قتله ، فخاف داود ومع ذلك لم يتعرض لإيذاهما ولا دعى عليهما بل استغفر لهما ، فأمر نبيا عليه السلام أن يقتضي به في حسن الخلق . قلت : وهذا ضعيف كالذي قبله ، وذكر الأمام أبو

الفضل غير هذه الوجوه مما دون هذه في القوة ثم أعقب هذا بأن قال : ولي هنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ما تقدم ، ثم أعتمد في هذا التوجيه على أن قوله تعالى : (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ) ليس مما تقدمهم ، وإنما هو وجه اتصاله به ، وأن العقلاء قالوا من ابتلي بخصم جاهل مقر متعصب وراءه قد خاض في التعصب والاقرار وجب عليه أن يقطع الكلام معه في (تلك) المسئلة ، لأنه كلما كان خوضه في تقريره أكثر كان بعده عن القبول أشد ، فالوجه حين إذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسئلة ، وأن يؤخد في كلام آخر أجنبي عن المسئلة الأولى (بالكلية ، ويطنب في ذلك الكلام الاجنبي ، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسي تلك المسئل الأولى) أدرك له أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبي مقدمة تناسب ذلك المطلوب الأول ، فيحصل عن ذلك تسليم المتعصب لهذه المقدمه ، لذا اسلمها فحين إذ يتمسك بها في (ثبات) المطلوب الأول ، فيتمكن من إنقيادة ويرجى رجوعه إلى ما طلب به أولاً ، هذا معنى ما أرده أبو الفضل في هذا الفصل ، ثم أشار إلى أن المدرج في هذا الكلام من المقدمة المناسبة إلى المطلب الأول لقوله تعالى : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا) (ص : 27) ،

إلى قوله : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص : 29) قلت : وعندي أن ما ذكره من هذا وأن العقلاء قالوه ، إن كانت العرب تفعله ويعرف من كلامها إرتكابه فإن ما يكون – والله أعلم – على أوضح وأنسب مما ذكره ، والذي اراه جارياً على هذا المنهج الذي آراه – والله أعلم – قوله تعالى : (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) (ق : 1 – 3) فهذا إنكار منهم للبعث الأخراوي واستبعاد ، وهو نحو من الوارد في سورة ص ، فأعقب تعالى ذلك بقوله مما يشبه الالتفات ، وهو الذي زعم أبو الفضل أن العقلاء يرتكبونه عن لوز الخصم والأخذ فيما هو كالأجنبي ، فقال تعالى : (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا

(168/658)

مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (ق : 6 – 7) إلى قوله في ماء السماء : (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) (ق : 11) ، فبعد العدول عن جوابتهم في قولهم : (ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) وذكر اختلاطهم المسبب عن تكذيبهم وتجبرهم المعبر عنهم بقوله : (بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) (ق :

5) أي مختلط ، صرف تعالى الكلام إلي نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فقال : (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ) (ق : 6) إلى قوله : (وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا) (ق : 11) وذلك كله مدرك مشاهد لهم ، لا يمكنه التوقف في شيء منه ، ولا حفظ عنهم إنكاره ، فعند تكرر هذا قال تعالى : (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) فهذا – والله أعلم – أقرب فيما ذكره أبو الفضل فزعم أن العقلاء يرتكبونه .

وأما الوارد في سورة ص فيبعد – والله أعلم – أن يكون من هذا ، ثم أن القول بأن الوارد في سورة ص من قوله : (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ) أجنبي عما قبله ، وغير مناسب البته ، وأنه إنما أوتي به لما ذكر من شغل الخصم المتعصب عن ذلك الوجه الذي ذكر بعيد بالكلية ، وإن ورد شيء مما يمكن أن يقال أنه من ذلك الضرب فلا أنسب أن يكون منه الوارد في سورة ق لا الوارد في سورة ص ، وإذا تأملته وضح لك ذلك ، وأن الوجه في نظم الكلام ما قدمته أولاً وهو مما لا غبار عليه ، والله أعلم .

(169/658)

وقد تعرض الزمخشري لما تقدم في هذا الآي ، فأجاب عن ذلك بما جرى فيه على شنيع المرتكب وسوء الأدب ، بناء على استبداد العبيد ، وفعلهم ما لا يرضاه الخالق سبحانه

ولا يريد ، فجعل لله شركاء ، وأفرد العباد بأفعالهم واستبداداً أو ملكاً ، فأجاب بناء على ما اتصل ، وما وفق في هذا الموضوع لوجه المطابقة ولا حصل ، فإن قلت كيف تطابق قوله : (اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ) حتى عطف أحدهم على صاحبه ؟ ثم (قال) : قلت : كأنه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ، اصبر على ما يقولون ، وعظم امر معصية (الله) في أعينهم بذكر قصة داود ، وهو أنه نبي من أنبياء الله تعالى قد أولاه ما اولاه من النبوة والملك لكرامته عليه ورأفته لديه ، ثم ذل ذله فبعث الله الملائكه ووبخه عليها على طريق التمثيل والتعريض ، حتى فطن لما وقع فيه فاستغفر ربه ، وأناب ، ووجد منه ما يحكي من بكاءه الدائم . وغمه الواصب ، ونقش جنايته في بطن كفه حتى لا يزال مجدداً للندم عليها ، فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم ؟ أو قال له صلى الله عليه وسلم : اصبر على ما يقولون ، وصن نفسك ، وحافظ عليها إن تذل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل آذاهم ، وأذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف ذل تلك الذلة اليسيرة فلقي من توبيخ الله ونسبته

(170/658)

إلى البغي ما لقي . انتهى جوابه . وقد اجتمع فيهم مخالفة الصواب والبعد عن المطابقة فإن تعظيم معصية الله ، كما قال الزمخشري – فذكر قصة داود لقوم غير مؤمنين بأحد من الأنبياء فالتذكير بذلك لمن يقول استهزاء وكفراً : (عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) (ص : 16) فتذكيرهم بهذا مع ذكر الأنبياء بلفظ الذلل أقرب شيء لاستمرارهم على الاستهذاء (والكفر) مع عصمة الأنبياء عما وقع عليه الذلل حقيقة . ثم قوله في الجواب الثاني عن داود ، عليه السلام : أنه لقي من توبيخ الله وتظليمه ونسبته للبغي ، هذا كله خلف من المرتكب وإطلاق لا يجوز في حق الأنبياء ، فقد جمع جوابه سوء الادب وشنيع المرتكب والبعد عن المطابقة ، والذي جوابنا به لا غبار عليه ولا توقف في مطابقته ، نسأل الله سبحانه أن ينفعنا بذلك يوم تبلى السرائر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 423.415 ﴾

(171/658)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) ﴾

أي : هؤلاء الكفار الذين عارضوا أو نازعوا ، وكذّبوا واحتجُّوا . . . أعندهم شيءٌ من هذه لأشياء ؟ أم هل هم يقدرون على شيءٍ من هذه الأشياء فيفعلوا ما أرادوا ، ويعطوا من شاؤوا ، أو يرتقوا إلى السماء فيأتوا بالوحي على مَنْ أرادوا ؟

جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (11)

بل هم جُنْد من الأحزاب المحزبين . كُلُّهم عَجَزَةٌ لا يقدرون على ذلك ، مهزومون . شَبَّهَهُم في بقائهم عن مرادهم بالمهزومين ؛ فإن هؤلاء الكفار ليس معهم حُجَّةٌ ، ولا لهم قوة ، ولا لأصنامهم أيضاً من النفع والضر مُكْنَة ، ولا في الردِّ والدفع عن أنفسهم قدرة .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12)

ذَكَرَ هؤلاء الأقوام في هذا الموضع على الجمع ، وفي غير هذا الموضع على الإفراد ، وفي كل موضع فائدة زائدة في الفصاحة والإفادة بكل وجه .

إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14)

أي ما كان منهم أحدٌ إلاَّ كَذَّبَ الرسلَ فحقَّت العقوبةُ عليه ، واستوجَبَ العذابَ .

وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (15)

أي ليسوا ينتظرون إلا القيامة ، وما هي إلا صيحة واحدة ، وإذا قامت فإنها لا تسكن .

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16)

اصْبِرْ – يا محمد – على ما يقولون ، فإنه لن تطول مُدَّتُهم ، ولن نَمُدَّ – في مقاساتِكَ أَذَاهم –

لُبْثَكَ ومُكْثَكَ ، وعن قريبٍ سينزل اللَّهُ نَصْرَه ، ويصدق لك بالتحقيقِ وَعْدَه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 247 . 248 ﴾

(172/658)

قوله تعالى ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بلغ السيل في ركوبهم الباطل عناداً – الزبى ، وتجاوز في طغيانه رؤوس الربى ، وكان سؤالهم في تعجيل العذاب استهزاء مع ما قدموا من الإكذاب ، والكلام البعيد عن الصواب ، ربما اقتضى أن يسأل في تعجيل ما طلبوا ، وربما أوقع في ظن أن إعراضهم والابتلاء بهم ربما كان لشيء في البلاء أو المبلغ ، بين تعالى أن عادته الابتلاء للصالحين رفعة لدرجاتهم ، فقال تعالى مسلياً ومعزياً ومؤسياً لهذا النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمن تقدمه من إخوانه الأنبياء والمرسلين ، مذكراً له بما قاسوا من الشدائد وما لاقوا من المحن ، وحاثاً على

العمل بأعمالهم آمراً بالتأني والتؤدة والحلم ، ومحذراً من العجلة والتبرم والضجر ، وبدأ بأهل الشرف لأن السياق لشرف القرآن الذي يلزم منه شرف صاحبه تعريفاً بأنه لا يلزم من الشرف الراحة في الدنيا ، ومنبهاً على أن شرفه محوج عن قرب بكثرة الأتباع إلى الحكم بين ذوي الخصومات والنزاع الذي لا قوام له إلا بالحلم والأناة والصبر ، وبدأ من أهل الشرف بمن كان أول أمره مثل أول أمر هذا النبي الكريم في استضعاف قومه له وآخر أمره ملكاً ثابت الأركان مهيب السلطان ، ليكون حاله مثلاً له فيحصل به تمام التسلية : ﴿ اصبر ﴾ وأشار بحرف الاستعلاء إلى عظيم الصبر فقال : ﴿ على ما ﴾ وزاد في الحث عليه بالمضارع فقال : ﴿ يقولون ﴾ أي يجددون قوله في كل حين من الأقوال المنكية الموجعة المبكية ، فإنه ليس لنقص فيك ، ولكنه لحكم تجل عن الوصف ، مدارها زيادة شرفك ورفعة درجاتك ، وصرف الكلام إلى مقام العظمة لاقتضاء ما يذكر من التسخير لذلك : ﴿ واذكر عبدنا ﴾ أي الذي أخلصناه لنا وأخلص نفسه للنظر إلى عظمتنا والقيام في خدمتنا ، وأبدل منه أو بقوله : ﴿ داود ذا الأيد ﴾ أي القوى العظيمة في تخليص نفسه من علائق الأجسام ، فكانت قوته في ذلك سبباً لعروجه إلى المراتب العظام .

(173/658)

ولما كان أعظم الجهاد الإنقاذ من حفائر الهفوات وأوامر الشهوات ، بالإصعاد في مدارج الكمالات ، ومعارج الإقبال ، وكان ذلك لا يكاد يوجد في الآدميين لما حفوا به من الشهوات وركز في طباعهم من الغفلات ، علل قوته بقوله مؤكداً : ﴿ إنه أواب ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى ليصير إلى ما خلقه عليه من أحسن تقويم بالعقل المحض أطلق العلو درجة درجة على الرجوع ، لأن ذلك دون الرتبة التي تكون نهاية عند الموت ، فكان المقضي له بها أنزل نفسه عنها ، ثم صار يرجع إليها كل لحظة بما يكابد من المجاهدات والمنازلات والمحاولات حتى وصل إليها بعد التجرد عن الهوى كله .

ولما كان الإنسان لا يزال يتقرب إلى الله تعالى حتى يحبه فإذا أحبه صار يفعل به سبحانه ، وظهرت على يديه الخوارق ، قال مستأنفاً جواباً لمن سأل عن جزائه على ذلك الجهاد ، مؤكداً له لما طبع عليه البشر من إنكار الخوارق لتقيده بالمألوفات : ﴿ إنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة التي لا يعجزها شيء ﴿ سخرنا الجبال ﴾ أي التي هي أقسى من قلوب قومك فإنها أعظم الأراضي صلابة وقوة وعلواً ورفعة ، بأن جعلناها منقادة ذلولاً كالجمل الأنف ، ثم قيد ذلك بقوله : ﴿ معه ﴾ أي مصاحبة له فلم يوجد ذلك التسخير ظاهراً لأحد بعده ولا قبله ، ولما كان وجود التسبيح من الجبال شيئاً فشيئاً أعجب لأنها جماد ، عبر بالفعل المضارع ، فقال مصوراً لتلك الحال معبراً بضمير الإناث إشارة إلى أنها بعد ما لها من الصلابة صارت في غاية اللين والرخاوة ، يسبح كل جبل منها بصوت غير مشبه بصوت

الآخر ، لأن ذلك أقرب إلى التمييز والعلم بتسبيح كل على انفراده : ﴿ يسبحن ﴾ ولم يقل : " مسبحة " أو " تسبح " لئلا يظن أن تسبيحها بصوت واحد ليشكل الأمر في بعضها ، وهو يمكن أن يكون استئنافاً وأن يكون حالاً بمعنى أنهن ينقدن له بالتسبيح قالاً وحالاً انقياد المختار المطيع لله .

(174/658)

ولما كان في سياق الأوبة ، وكان آخر النهار وقت الرجوع لكل ذي إلف إلى مألفه مع أنه وقت الفتور والاستراحة من المتاعب قال : ﴿ بالعشي ﴾ أي تقوية للعامل وتذكيراً للغافل .

ولما كان في سياق الفيض والتشريف بالقرآن قال : ﴿ والإشراق ﴾ أي في وقت ارتفاع الشمس عن انتشاب الناس في الأشغال ، واشتغالهم بالمآكل والملاذ من الأقوال والأفعال ، تذكيراً لهم وترجيعاً عن مألوفاتهم إلى تقديس ربهم سبحانه ، وليس الإشراق طلوع الشمس ، إنما هو صفاؤها وضوءها ، وشروقها طلوعها ، وروت أم هانىء ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى في بيتها الضحى وقال لها : " هذه صلاة الإشراق " وفي الجامع لعبد الرزاق أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : صلاة الضحى

في القرآن ، ولكن لا يغوص عليها إلا غائص ، ثم قرأ هذه الآية .

وإليها الإشارة أيضاً – والله أعلم – بصلاة الأوابين ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب ﴾ ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد أنه أواب ﴾ ﴿ يا جبال أوبي معه ﴾ ﴿ والطير محشورة كل له أواب ﴾ روى مسلم في صحيحه وعبد بن حميد في مسنده والدارمي في جامعه المسمى بالمسند عن زيد بن أرقم ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " صلاة الأوابين حين ترمض الفصال " ، ولفظ الدارمي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج عليهم وهو يصلون بعد طلوع الشمس فقال : " صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال " ، ولفظ عبد أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتاهم في مسجد قباء فرآهم يصلون الضحى فقال : " هذه صلاة الأوابين وكانوا يصلونها إذا رمضت الفصال " أي بركت من شدة الحر وإحراقه أخفافها ، من الرمض – بالتحريك ، وهو شدة الشمس على الرمل وغيره ، والرمضاء : الشديدة الحر .

(175/658)

ولما أخبر سبحانه عن تسخير أثقل الأشياء وأثبتها له ، أتبعها أخفها وأكثرها انتقالاً ، وعبر فيها بالاسم الدال على الاجتماع جملة والثبات لأنه أدل على القدرة فقال معبراً باسم

الجمع دون الجمع إشارة إلى أنها في شدة الاجتماع كأنها شي واحد ، ذكر حالها في وصف صالح للواحد ، وجعله مؤنثاً إشارة إلى ما تقدم من الرخاوة اللازمة للإناث المقتضية لغاية الطواعية والقبول لتصرف الأحكام : ﴿ والطير ﴾ أي سخرناها له حال كونها ﴿ محشورة ﴾ أي مجموعة إليه كرهاً من كل جانب دفعة واحدة – بما دل التعبير بالاسم دون الفعل وهو أدل على القدرة وهي أشد نفرة من قومك وأعسر ضبطاً وهذا كما كان الحصى يسبح في يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وفي يد بعض أصحابه ، وكما تحرك الجبل فضربه برجله وقال : " اسكن أحد " فسكن ، وكما حشر الدبر على رأس عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ـ رضى الله عنه ـ فمنع من أخذه ليتلعب به ، فلما جاء الليل أرسل الله سيلاً فاحتمله إلى حيث لم يعرف له خبر ولا وقف له على أثر ﴿ كل ﴾ أي كل واحد من الجبال والطير ﴿ له أواب ﴾ أي رجاع لأجل داود عليه السلام خاصة عن مألوفه لا بمعنى آخر مما ألفته ، فكلما رجع هو عن حكمه وما هو فيه من الشغل بالخلق إلى تسبيح الحق رجعت معه بذلك الجبال والطير ، وجعل الخبر مفرداً إشارة إلى إلى شدة زجلها بالتأديب وعظمته ، والإفراد أيضاً يفيد الحكم على كل فرد ، ولو جمع لطرقه احتمال أن الحكم على المجموع يقيد الجمع ، فكأن داود عليه السلام يفهم تسبيح الجبال والطير ، وينقاد له كل منهما إذا أمره بالتسبيح ، وكل من تحقق بحاله ساعده كل شيء – قاله القشيري ، ففي هذا إشارة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنا متى شئنا جعلنا قومك

معك في التسخير هكذا ، فلا تيأس منهم على شدة نفرتهم وقوة سماجتهم وغرتهم ، فإنا جعلناهم كذلك لتروض نفسك بهم وتزداد بالصبر عليهم جلالاً ، وعلواً ورفعة وكمالاً - إلى غير ذلك من الحكم

(176/658)

التي لا تسعها العقول ، ولا تيأس من لينهم لك ورجوعهم إليك فإنهم لا يعدون أن يكونوا كالجبال قوة وصلابة ، أو الطير نفرة وطيشاً وخفة ، فمتى شئنا جعلناهم لك مثل ما جعلنا الجبال والطير مع داود عليه السلام ، بل أمرهم أيسر وشأنهم أهون .

ولما كان هذا دالاً على الملك من حيث أنه التصرف في الأشياء العظيمة قسراً ، فكان كأنه قيل : كل ذلك إثباتاً لنبوته وتعظيماً لملكه ، قال : ﴿ وشددنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ ملكه ﴾ بغير ذلك مما يحتاج إليه الملك ، قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : كان أشد ملوك الأرض سلطاناً .

ولما كان أعظم المثبتات للملك المعرفة قال : ﴿ وآتيناه ﴾ أي بعظمتنا ﴿ الحكمة ﴾ أي النبوة التي ينشأ عنها العلم بالأشياء على ما هي عليه ، ووضع الأشياء في أحكم مواضعها ، فالحكمة العمل بالعلم .

ولما كان تمامه بقطع النزاع قال : ﴿ وفصل الخطاب ﴾ أي ومعرفة الفرق بين ما يلتبس في كلام المخاطبين له من غير كبير روية في ذلك ، بل يفرق بديهة بين المتشابهات بحيث لا يدع لبساً يمكن أن يكون معه نزاع لغير معاند وكسوناه عزاً وهيبة ووقاراً يمنع أن يجترىء أحد على العناد في شيء من أمره بعد ذلك البيان الذي فصل بين المتشابهات ، وميز بين المشكلات الغامضات ، وإذا تكلم وقف على المفاصل ، فيبين من سرده للحديث معانيه ، ويضع الشيء في أحكم مبانيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 368 . 372 ﴾

(177/658)

فصل

قال الفخر :

واعلم أن الكفار لما بالغوا في السفاهة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قالوا : إنه ساحر كذاب وقالوا له على سبيل الاستهزاء : ﴿ عَجّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ أمره الله بالصبر على سفاهتهم ، فقال : ﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ فإن قيل .

(178/658)

أي تعلق بين قوله : ﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ وبيّن قوله : ﴿ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودُ ﴾ ؟

قلنا بيان هذا التعلق من وجوه الأول : كأنه قيل إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراءتهم على الله وإنكارهم الحشر والنشر ، فاذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن يوم الحشر ، فإن بقدر ما يزداد أحد الضدين شرفاً يزداد الضد الآخر نقصاناً والثاني : كأنه قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم لا يضيق صدرك بسبب إنكارهم لقولك ودينك ، فإنهم إذا خالفوك فالأكابر ، من الأنبياء وافقوك والثالث : أن للناس في قصة داود قولين : منهم من قال إنها تدل على ذنبه ، ومنهم من قال إنها لا تدل عليه فمن قال بالأول كان وجه المناسبة فيه كأنه قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم إن حزنك ليس إلا ، لأن الكفار يكذبونك ، وأما حزن داود فكان بسبب وقوعه في ذلك الذنب ولا شك أن حزنه أشد ، فتأمل في قصة داود وما كان فيه من الحزن العظيم حتى يخف عليك ما أنت فيه من الحزن ومن قال بالثاني قال الخصمان اللذان دخلا على داود كانا من البشر ، وإنما دخلا عليه لقصد قتله فخاف منهما داود ، ومع ذلك لم يتعرض لإيذائهما ولا دعا عليهما بسوء بل استغفر لهما على ما سيجيء تقرير هذه الطريقة فلا جرم أمر الله تعالى محمداً عليه السلام بأن يقتدي به في حسن الخلق والخامس : أن قريشاً إنما كذبوا محمداً عليه السلام واستخفوا به لقولهم في أكثر الأمر إنه يتيم فقير ، ثم إنه تعالى قص على محمد كمال مملكة داود ، ثم بين أنه

مع ذلك ما سلم من الأحزان والغموم ، ليعلم أن الخلاص عن الحزن لا سبيل إليه في الدنيا والسادس : أن قوله تعالى : ﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ غير مقتصر على داود فقط بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الأنبياء فكأنه قال : ﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ واعتبر بحال سائر الأنبياء ليعلمه أن كل واحد منهم كان مشغولاً بهم خاص وحزن خاص ، فحينئذٍ يعلم أن الدنيا

(179/658)

لا تنفك عن الهموم والأحزان ، وأن استحقاق الدرجات العالية عند الله لا يحصل إلا بتحمل المشاق والمتاعب في الدنيا ، وهذه وجوه ذكرناها في هذا المقام وههنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ما تقدم ، وسيجيء ذكره إن شاء الله تعالى عند الانتهاء إلى تفسير قوله :

﴿ كتاب أنزلناه إِلَيْكَ مبارك ليدبروا آياته ﴾ [ص : 29] واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك حال تسعة من الأنبياء فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل وحال ستة آخرين على الإجمال .

(180/658)

فالقصة الأولى : قصة داود ، واعلم أن مجامع ما ذكره الله تعالى في هذه القصة ثلاثة أنواع من الكلام فالأول : تفصيل ما آتى الله داود من الصفات التي توجب سعادة الآخرة والدنيا والثاني : شرح تلك الواقعة التي وقعت له من أمر الخصمين والثالث : استخلاف الله تعالى إياه بعد وقوع تلك الواقعة أما النوع الأول : وهو شرح الصفات التي آتاها الله داود من الصفات الموجبة لكمال السعادة فهي عشرة الأول : قوله لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودُ ﴾ فأمر محمداً صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بأن يقتدي في الصبر على طاعة الله بداود وذلك تشريف عظيم وإكرام لداود حيث أمر الله أفضل الخلق محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقتدي به في مكارم الأخلاق والثاني : أنه قال في حقه : ﴿ عَبْدَنَا دَاوُودُ ﴾ فوصفه بكونه عبداً له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم ، وذلك غاية التشريف ، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يشرف محمداً عليه السلام ليلة المعراج قال : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : 1] فههنا يدل على ذلك التشريف لداود فكان ذلك دليلاً على علو درجته أيضاً ، فإن وصف الله تعالى الأنبياء بعبوديته مشعر بأنهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة والثالث : قوله : ﴿ ذَا الأيد ﴾ أي ذا القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي ، وذلك لأنه تعالى لما مدحه بالقوة وجب أن تكون تلك القوة

موجبة للمدح ، والقوة التي توجب المدح العظيم ليست إلا القوة على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ﴿ والأيد ﴾ المذكور ههنا كالقوة المذكورة في قوله :

(181/658)

﴿ يايحيى خُذِ الكتاب بقُوَّةٍ ﴾ [مريم : 12] وقوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلواحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف : 145] أي باجتهاد في أداء الأمانة وتشدد في القيام بالدعوة وترك إظهار الوهن والضعف والأيد والقوة سواء ومنه قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ﴾ [الأنفال : 62] وقوله تعالى : ﴿ وأيدناه بِرُوحِ القدس ﴾ [البقرة : 87] وقال : ﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ [الذاريات : 47] وعن قتادة أعطى قوة في العبادة وفقهاً في الدين ، وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر الرابع : قوله : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي أن داود كان رجاعاً في أموره كلها إلى طاعتي والأواب فعال من آب إذا رجع كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ [الغاشية : 25] وفعال بناء المبالغة كما يقال قتال وضراب فإنه أبلغ من قاتل وضارب الخامس : قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق ﴾ (1) ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ياجبال أَوِّبِى مَعَهُ والطير ﴾ [سبأ : 10] وفيه مباحث :

---

(1) هنا موضع ذكر قوله تعالى : إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ الآية وقد أدمج المؤلف تفسيرها هنا مع التي قبلها فاضطر إلى الخروج عن طريقته التي سار عليها من ذكر الآية مجملة ثم ذكرها مع تفسيرها مفصلة .

(182/658)

البحث الأول : وفيه وجوه الأول : أن الله سبحانه خلق في جسم الجبل حياة وعقلاً وقدرة ومنطقاً وحينئذٍ صار الجبل مسبحاً لله تعالى ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ [الأعراف : 143] فإن معناه أنه تعالى خلق في الجبل عقلاً وفهماً ، ثم خلق فيه رؤية الله تعالى فكذا ههنا الثاني : في التأويل ما رواه القفال في تفسيره أنه يجوز أن يقال إن داود عليه السلام قد أوتي من شدة الصوت وحسنه ما كان له في الجبال دوي حسن ، وما يصغي الطير إليه لحسنه فيكون دوي الجبال وتصويت الطير معه وإصغاؤه إليه تسبيحاً ، وذكر محمد بن إسحاق أن الله تعالى لم يعط أحداً من خلقه مثل صوت داود حتى أنه كان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يأخذ بأعناقها الثالث : أن الله سبحانه سخر الجبال حتى أنها كانت تسير إلى حيث يريده داود وجعل ذلك السير تسبيحاً لأنه كان يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته .

البحث الثاني : قال صاحب "الكشاف" ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ في معنى مسبحات ، فإن قالوا هل من فرق بين يسبحن ومسبحات قلنا نعم ، فإن صيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد ، وصيغة الاسم على الدوام على ما بينه عبد القاهر النحوي في كتاب دلائل الإعجاز ، إذا ثبت هذا فنقول قوله : ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال وكان السامع حاضر تلك الجبال يسمعها تسبح .

البحث الثالث : قال الزجاج يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت وقيل هما بمعنى ، والأول أكثر تقول العرب شرقت الشمس والماء يشرق .

البحث الرابع : احتجوا على شرعية صلاة الضحى بهذه الآية ، عن أم هانىء قالت : "دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى ، وقال :

(183/658)

" يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق " وعن طاووس عن ابن عباس قال : "هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن ؟ قالوا لا ، فقرأ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق" وقال كان يصليها داود عليه السلام وقال لم يزل في نفسي شيء من صلاة

الضحى حتى وجدتها في قوله : ﴿يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق ﴾ .

الصفة السادسة : من صفات داود عليه السلام قوله تعالى : ﴿ والطير مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : قوله : ﴿ والطير ﴾ معطوفة على الجبال والتقدير وسخرنا الطير محشورة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما كان داود إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه ، واجتماعها إليه هو حشرها فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله ﴿ فَإِن قِيلَ ﴾ كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع أنه لا عقل لها ، قلنا لا يبعد أن يقال إن الله تعالى كان يخلق لها عقلاً حتى تعرف الله فتسبحه حينئذٍ ، وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام .

البحث الثاني : قال صاحب "الكشاف" قوله : ﴿ مَحْشُورَةً ﴾ في مقابلة ﴿يُسَبِّحْنَ ﴾ إلا أنه ليس في الحشر مثل ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء ، فلا جرم جيء به اسماً لا فعلاً ، وذلك أنه لو قيل وسخرنا الطير محشورة يسبحن على تقدير أن الحشر وجد من حاشرها جملة واحدة دل على القدر المذكور ، والله أعلم .

البحث الثالث : قرىء ﴿ والطير مَحْشُورَةٌ ﴾ بالرفع .

الصفة السابعة : من صفات داود عليه السلام ، قوله تعالى : ﴿ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ومعناه كل واحد من الجبال والطير أواب أي رجاع ، أي كلما رجع داود إلى التسبيح جاوبته ، فهذه الأشياء أيضاً كانت ترجع إلى تسبيحاتها ، والفرق بين هذه الصفة وبين ما قبلها أن فيما سبق علمنا أن الجبال والطير سبحت مع تسبيح داود عليه السلام ، وبهذا اللفظ فهمنا دوام تلك الموافقة وقيل الضمير في قوله : ﴿ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ لله تعالى أي كل من داود والجبال والطير لله أواب أي مسبح مرجع للتسبيح .

الصفة الثامنة : قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أي قويناه وقال تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص : 35] وقيل شددنا على المبالغة ، وأما الأسباب الموجبة لحصول هذا الشد فكثيرة ، وهي إما الأسباب الدنيوية أو الدينية ، أما الأول فذكروا فيه وجهين الأول : روى الواحدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل ، فإذا أصبح قيل ارجعوا فقد رضي عنكم نبي الله ، وزاد آخرون فذكروا أربعين ألفاً .

قالوا وكان أشد ملوك الأرض سلطاناً ، وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً ادعى عند داود على رجل أخذ منه بقرة فأنكر المدعى عليه ، فقال داود للمدعي أقم البينة فلم يقمها ، فرأى داود في منامه .

أن الله يأمره أن يقتل المدعي عليه فثبت داود وقال هو منام فأتاه الوحي بعد ذلك بأن تقتله فاحضره وأعلمه أن الله أمره بقتله ، فقال المدعى عليه صدق الله إني كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود .

فهذه الواقعة شددت ملكه ، وأما الأسباب الدينية الموجبة لهذا الشد فهي الصبر والتأمل التام والاحتياط الكامل .

(185/658)

الصفة التاسعة : قوله : ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ واعلم أنه تعالى قال : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 269] واعلم أن الفضائل على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية ، والفضائل النفسانية محصورة في قسمين العلم والعمل ، أما العلم فهو أن تصير النفس بالتصورات الحقيقية والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية ، وأما العمل فهو أن يكون الإنسان آتياً بالعمل الأصلح الأصوب بمصالح الدنيا والآخرة ، فهذا هو الحكمة وإنما سمي هذا بالحكمة لأن اشتقاق الحكمة من إحكام الأمور وتقويتها وتبعيدها عن أسباب الرخاوة والضعف ، والاعتقادات الصائبة الصحيحة لا تقبل النسخ والنقض فكانت في غاية الإحكام ، وأما الأعمال المطابقة لمصالح الدنيا والآخرة فإنها واجبة

الرعاية ولا تقبل النقض والنسخ ، فلهذا السبب سمينا تلك المعارف وهذه الأعمال بالحكمة .

(186/658)

الصفة العاشرة : قوله : ﴿ وَفَصل الخطاب ﴾ واعلم أن أجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام أحدهما : ما تكون خالية عن الإدراك والشعور وهي الجمادات والنباتات وثانيها : التي يحصل لها إدراك وشعور ولكنها لا تقدر على تعريف غيرها الأحوال التي عرفوها في الأكثر وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الإنسان وثالثها : الذي يحصل له إدراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الأحوال المعلومة له ، وذلك هو الإنسان وقدرته على تعريف الغير الأحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب ، ثم إن الناس مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما في الضمير ، فمنهم من يتعذر عليه إيراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول ، ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه ، ومنهم من يكون قادراً على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى أقصى الغايات ، وكل من كانت هذه القدرة في حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية في حقه أكمل ، وكل من كانت تلك القدرة في حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف ، ولما بيّن الله تعالى كمال حال

جوهر النفس النطقية التي لداود بقوله : ﴿ وآتيناهُ الحكمة ﴾ أردفه ببيان كمال حاله في النطق واللفظ والعبارة فقال وفصل الخطاب وهذا الترتيب في غاية الجلالة ، ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود أول من قال في كلامه أما بعد ، وأقول حقاً إن الذين يتبعون أمثال هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معاني كلام الله تعالى حرماناً عظيماً (1) ، والله أعلم ، وقول من قال المراد معرفة الأمور التي بها يفصل بين الخصوم وهو طلب البينة واليمين فبعيد أيضاً ، لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال ، بحيث لا يختلط شيء بشيء ، وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام ، وهذا معنى عام يتناول جميع الأقسام ، والله أعلم ، وههنا آخر الكلام في الصفات العشرة التي ذكرها الله تعالى في مدح داود عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 160.164 ﴾

---

(1) يقصد المؤلف بعبارته هذه الذين فسروا إيتاء داود الحكمة بأنه أول من قال أما بعد ، لبعدهم عن الفهم وعن الصواب ، وقد روي أن أول من قال أما بعد هو قس بن ساعدة الإيادي الخطيب المشهور .

وقال ابن العربي :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ سَبَأٍ : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ ؛ فَأَذِنَ اللَّهُ لِلْجِبَالِ ، وَخَلَقَ فِيهَا ، وَيَسَّرَ لَهَا أَنْ تُسَبِّحَ مَعَ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ إذَا سَبَّحَ وَكَذَلِكَ الطَّيْرُ ؛ وَكَانَ تَسْبِيحُ دَاوُد إثْرَ صَلَاتِهِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَعِنْدَ غُرُوبِهَا ، وَهِيَ صَلَاةُ الْأُمَمِ قَبْلَنَا فِيمَا يَرْوِي أَهْلُ التَّفْسِيرِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ وَهِيَ :

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ ﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أَيْ رَاجِعٌ إلَيْهِ ، تَرْجِعُ مَعَهُ ، وَتُسَبِّحُ بِتَسْبِيحِهِ ، وَتَحِنُّ إلَى صَوْتِهِ لِحُسْنِهِ ، وَتُمَثِّلُ مِثْلَ عِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ .

فَإِنْ قِيلَ : وَهَلْ لِلطَّيْرِ عِبَادَةٌ أَوْ تَكْلِيفٌ ؟ قُلْنَا : كُلٌّ لَهُ عِبَادَةٌ ، وَكُلٌّ لَهُ تَسْبِيحٌ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَالْكُلُّ مُكَلَّفٌ بِتَكْلِيفِ التَّسْخِيرِ ، وَلَيْسَ بِتَكْلِيفِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ؛ وَإِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهُ آيَةً لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَرَامَةً مِنْ تَسْخِيرِ الْكُلِّ لَهُ تَسْخِيرَ الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ ، وَآمَنَ الْجِنُّ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إيمَانَ الِاخْتِيَارِ وَالطَّاعَةِ ، فَقَالُوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا كُنْت أَعْلَمُ صَلَاةَ الضُّحَى فِي الْقُرْآنِ حَتَّى سَمِعْت اللَّهَ يَقُولُ ﴿ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ وَعَلَى هَذَا جَاءَ قَوْلُهُ أَيْضًا فِي أَحَدِ التَّأْوِيلَاتِ ، ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ ﴾ وَالْأَصَحُّ هَاهُنَا أَنَّهَا صَلَاةُ الضُّحَى وَالْعَصْرِ ، فَأَمَّا صَلَاةُ الضُّحَى فَهِيَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ نَافِلَةٌ مُسْتَحَبَّةٌ ، وَهِيَ فِي الْغَدَاةِ بِإِزَاءِ الْعَصْرِ فِي الْعَشِيِّ ، لَا يَنْبَغِي أَنْ تُصَلَّى حَتَّى تَبْيَضَّ الشَّمْسُ طَالِعَةً ، وَيَرْتَفِعَ كَدَرُهَا ، وَتُشْرِقَ بِنُورِهَا ، كَمَا لَا تُصَلَّى الْعَصْرُ إذَا اصْفَرَّتْ الشَّمْسُ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُبَادِرُ بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ اسْتِعْجَالًا لِأَجْلِ شُغْلِهِ ، فَيَخْسَرُ عَمَلَهُ ؛ لِأَنَّهُ يُصَلِّيهَا فِي الْوَقْتِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ ، وَيَأْتِي بِعَمَلٍ هُوَ عَلَيْهِ لَا لَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ لَيْسَ لِصَلَاةِ الضُّحَى تَقْدِيرٌ مُعَيَّنٌ إلَّا أَنَّهَا صَلَاةُ تَطَوُّعٍ ، وَأَقَلُّ التَّطَوُّعِ عِنْدَنَا رَكْعَتَانِ ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ رَكْعَةٌ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

(189/658)

وَفِي صَلَاةِ الضُّحَى أَحَادِيثُ أُصُولُهَا ثَلَاثَةٌ : الْأَوَّلُ : حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ وَغَيْرِهِ ، ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ ابْنِ آدَمَ صَدَقَةٌ : تَسْلِيمُهُ عَلَى مَنْ لَقِيَهُ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرُهُ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيُهُ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَإِمَاطَتُهُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ ، وَنَفَقَتُهُ عَلَى أَهْلِهِ صَدَقَةٌ ، وَيَكْفِي عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ رَكْعَتَانِ مِنْ الضُّحَى ﴾ .

الثَّانِي : حَدِيثُ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ قَعَدَ فِي مُصَلَّاهُ حِينَ يَنْصَرِفُ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى يُسَبِّحَ صَلَاةَ الضُّحَى لَا يَقُولُ إلَّا خَيْرًا غُفِرَتْ خَطَايَاهُ ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ ﴾ .

الثَّالِثُ : حَدِيثُ أُمِّ هَانِئٍ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْفَتْحِ ضَحَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ ﴾ ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ : ﴿ مَا سَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُبْحَةَ الضُّحَى قَطُّ ، وَإِنِّي لَأَسْتَحِبُّهَا ﴾ .

وَعَنْهَا أَيْضًا أَنَّهَا قَالَتْ : ﴿ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي الضُّحَى إلَّا أَنْ يَجِيءَ مِنْ مَغِيبِهِ ﴾ .

وَتَمَامُ ذَلِكَ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ : قَدْ بَيَّنَّا فِي كِتَابِ الْأَمَدِ وَغَيْرِهِ أَنَّ الشَّدَّ عِبَارَةٌ عَنْ كَثْرَةِ الْقَدْرِ ؛ وَفِي تَعْيِينِ ذَلِكَ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا الْهَيْبَةُ .

وَالثَّانِي : بِكَثْرَةِ الْجُنُودِ .

وَعِنْدِي أَنَّ مَعْنَاهُ شَدَدْنَاهُ بِالْعَوْنِ وَالنُّصْرَةِ ، وَلَا يَنْفَعُ الْجَيْشُ الْكَثِيرُ الْتِفَافُهُ عَلَى غَيْرِ مَنْصُورٍ وَغَيْرِ مُعَانٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ مُلْكَهُ ﴾ : قَدْ بَيَّنَّا فِي كِتَابِ الْأَمَدِ وَغَيْرِهِ الْمُلْكَ وَالْمَعْنَى فِيهِ ، وَفِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ﴾ .

وَحَقِيقَةُ الْمُلْكِ كَثْرَةُ الْمُلْكِ ، فَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ مَلِكًا وَلَكِنْ لَا يَكُونُ مَلِكًا ذَا مُلْكٍ حَتَّى يَكْثُرَ ذَلِكَ ، فَلَوْ مَلَكَ الرَّجُلُ دَارًا وَقُوتًا لَمْ يَكُنْ مُلْكًا حَتَّى يَكُونَ لَهُ خَادِمٌ يَكْفِيهِ مُؤْنَةَ التَّصَرُّفِ فِي الْمَنَافِعِ الَّتِي يَفْتَقِرُ إلَيْهَا لِضَرُورَةِ الْآدَمِيَّةِ حَسْبَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حَالَ النَّبِيِّ يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى مُلْكًا ، وَقَدْ رُوِيَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ الْعَبَّاسَ أَنْ يَحْبِسَ أَبَا سُفْيَانَ عِنْدَ خَطْمِ الْجَبَلِ ، حَتَّى يَمُرَّ بِهِ الْمُسْلِمُونَ ؛ فَحَبَسَهُ الْعَبَّاسُ فَجَعَلَتْ الْقَبَائِلُ تَمُرُّ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتِيبَةً كَتِيبَةً عَلَى أَبِي سُفْيَانَ ، فَمَرَّتْ كَتِيبَةٌ ، فَقَالَ : يَا عَبَّاسُ ؛ مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَ لَهُ : غِفَارٌ .

قَالَ : مَا لِي وَلِغَفَّارٍ ، ثُمَّ مَرَّتْ جُهَيْنَةُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ مَرَّتْ سَعْدُ بْنُ هُذَيْمٍ ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ مَرَّتْ سُلَيْمٌ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، حَتَّى أَقْبَلَتْ كَتِيبَةٌ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا ، فَقَالَ : مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ ، عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ لِلْعَبَّاسِ : لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الْيَوْمَ عَظِيمًا .

فَقَالَ : إِنَّهُ لَيْسَ بِمُلْكٍ ، وَلَكِنَّهَا النُّبُوَّةُ ﴾ .

وَلَمْ يُرِدْ الْعَبَّاسُ نَفْيَ الْمُلْكِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَرُدَّ عَلَى أَبِي سُفْيَانَ فِي نِسْبَةِ حَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى مُجَرَّدِ الْمُلْكِ ، وَتَرْكِ الْأَصْلِ الْأَكْبَرِ وَهُوَ النُّبُوَّةُ الَّتِي تَتَرَكَّبُ عَلَى الْمُلْكِ وَالْعُبُودِيَّةِ .

عَلَى أَنَّهُ رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ ﴿ جِبْرِيلَ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ : إنَّ اللَّهَ خَيَّرَكَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا أَوْ نَبِيًّا عَبْدًا ، فَنَظَرَ إلَى جِبْرِيلَ كَالْمُسْتَشِيرِ لَهُ ، فَأَشَارَ إلَيْهِ جِبْرِيلُ : أَنْ تَوَاضَعْ ، فَقَالَ : بَلْ نَبِيًّا عَبْدًا أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ .

قَدْ بَيَّنَّاهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ قِيلَ : هُوَ عِلْمُ الْقَضَاءِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْإِيجَازُ بِجَعْلِ الْمَعْنَى الْكَثِيرِ فِي اللَّفْظِ الْقَلِيلِ .

وَقِيلَ : هُوَ قَوْلُهُ : أَمَّا بَعْدُ .

(192/658)

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِهَا ، فَأَمَّا عِلْمُ الْقَضَاءِ فَلَعَمْرُ إلَهِك إنَّهُ لَنَوْعٌ مِنْ الْعِلْمِ مُجَرَّدٌ ، وَفَضْلٌ مِنْهُ مُؤَكَّدٌ غَيْرُ مَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ وَالْبَصَرِ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، فَفِي الْحَدِيثِ : ﴿ أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ ، وَأَعْلَمُكُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﴾ .

وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ بَصِيرًا بِأَحْكَامِ الْأَفْعَالِ عَارِفًا بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَلَا يَقُومُ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ فِيهَا ، وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ يَأْتِي الْقَضَاءَ مِنْ وَجْهِهِ بِاخْتِصَارٍ مِنْ لَفْظِهِ وَإِيجَازٍ فِي طَرِيقِهِ بِحَذْفِ التَّطْوِيلِ ، وَرَفْعِ التَّشْتِيتِ ، وَإِصَابَةِ الْمَقْصُودِ .

(193/658)

وَلِذَلِكَ يُرْوَى ﴿ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَالَ : لَمَّا بَعَثَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْيَمَنِ حَفَرَ قَوْمٌ زُبْيَةً لِلْأَسَدِ ، فَوَقَعَ فِيهَا الْأَسَدُ ، وَازْدَحَمَ النَّاسُ عَلَى الزُّبْيَةِ ، فَوَقَعَ فِيهَا رَجُلٌ ، وَتَعَلَّقَ بِآخَرَ ، وَتَعَلَّقَ الْآخَرُ بِآخَرَ ، حَتَّى صَارُوا أَرْبَعَةً ، فَحَرَجَهُمْ الْأَسَدُ فِيهَا ، فَهَلَكُوا ، وَحَمَلَ الْقَوْمُ السِّلَاحَ ، وَكَادَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ ، فَأَتَيْتُهُمْ فَقُلْتُ لَهُمْ : أَتَقْتُلُونَ مِائَتَيْ رَجُلٍ مِنْ أَجْلِ أَرْبَعَةِ أَنَاسِيَّ ، تَعَالَوْا أَقْضِ بَيْنَكُمْ بِقَضَاءٍ ، فَإِنْ رَضِيتُمْ فَهُوَ قَضَاءٌ بَيْنَكُمْ ، وَإِنْ أَبَيْتُمُوهُ رَفَعْتُ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَهُوَ أَحَقُّ بِالْقَضَاءِ ؛ فَجَعَلَ لِلْأَوَّلِ رُبُعَ الدِّيَةِ ، وَلِلثَّانِي ثُلُثَ الدِّيَةِ ، وَلِلثَّالِثِ نِصْفَ الدِّيَةِ ، وَجَعَلَ لِلرَّابِعِ الدِّيَةَ ، وَجَعَلَ الدِّيَاتِ عَلَى مَنْ حَفَرَ الزُّبْيَةَ عَلَى قَبَائِلِ الْأَرْبَعِ .

فَسَخِطَ بَعْضُهُمْ ، وَرَضِيَ بَعْضُهُمْ ، ثُمَّ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَصُّوا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ، فَقَالَ : أَنَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ .

فَقَالَ قَائِلٌ : إِنَّ عَلِيًّا قَدْ قَضَى بَيْنَنَا ، وَأَخْبَرُوهُ بِمَا قَضَى بِهِ عَلِيٌّ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْقَضَاءُ كَمَا قَضَاهُ عَلِيٌّ ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ فَأَمْضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَاءَ عَلِيٍّ ﴾ .

(194/658)

وَكَذَلِكَ يُرْوَى فِي الْمَعْرِفَةِ بِالْقَضَاءِ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ جَاءَ إِلَيْهِ رَجُلٌ ، فَقَالَ : إِنَّ ابْنَ أَبِي لَيْلَى وَكَانَ قَاضِيًا بِالْكُوفَةِ جَلَدَ امْرَأَةً مَجْنُونَةً قَالَتْ لِرَجُلٍ : يَا بْنَ الزَّانِيَيْنِ .

فَحَدَّهَا حَدَّيْنِ فِي الْمَسْجِدِ ، وَهِيَ قَائِمَةٌ .

فَقَالَ : أَخْطَأَ مِنْ سِتَّةِ أَوْجُهٍ .

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ أَبُو حَنِيفَةَ بِالْبَدِيهَةِ لَا يُدْرِكُهُ أَحَدٌ بِالرَّوِيَّةِ إِلَّا الْعُلَمَاءُ .

فَأَمَّا قِصَّةُ عَلِيٍّ فَلَا يُدْرِكُهَا الشَّادِي وَلَا يَلْحَقُهَا بَعْدَ التَّمَرُّنِ فِي الْأَحْكَامِ إِلَّا الْعَاكِفُ الْمُتَمَادِي .

وَتَحْقِيقُهَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةَ مَقْتُولُونَ خَطَأً بِالتَّدَافُعِ عَلَى الْحُفْرَةِ مِنْ الْحَاضِرِينَ عَلَيْهَا فَلَهُمْ الدِّيَاتُ عَلَى مَنْ حَفَرَ عَلَى وَجْهِ الْخَطَأِ ، بَيْدَ أَنَّ الْأَوَّلَ مَقْتُولٌ بِالْمُدَافَعَةِ قَاتِلٌ ثَلَاثَةً بِالْمُجَاذَبَةِ ، فَلَهُ الدِّيَةُ بِمَا قَتَلَ ، وَعَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِ الدِّيَةِ لِلثَّلَاثَةِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ .

وَأَمَّا الثَّانِي فَلَهُ ثُلُثُ الدِّيَةِ ، وَعَلَيْهِ الثُّلُثَانِ لِلِاثْنَيْنِ اللَّذَيْنِ قَتَلَهُمَا بِالْمُجَاذَبَةِ .

وَأَمَّا الثَّالِثُ فَلَهُ نِصْفُ الدِّيَةِ ، وَعَلَيْهِ النِّصْفُ ؛ لِأَنَّهُ قَتَلَ وَاحِدًا بِالْمُجَاذَبَةِ ، فَوَقَعَتْ الْمُحَاصَّةُ ، وَغَرِمَتْ الْعَوَاقِلُ هَذَا التَّقْدِيرَ بَعْدَ الْقِصَاصِ الْجَارِي فِيهِ .

وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ الِاسْتِنْبَاطِ .

(195/658)

وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَإِنَّهُ نَظَرَ إِلَى الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةِ فَرَآهَا سِتَّةً : الْأَوَّلُ : أَنَّ الْمَجْنُونَ لَا حَدَّ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الْجُنُونَ يُسْقِطُ التَّكْلِيفَ ، هَذَا إِذَا كَانَ الْقَذْفُ فِي حَالَةِ الْجُنُونِ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ يُجَنُّ مَرَّةً وَيُفِيقُ أُخْرَى فَإِنَّهُ يُحَدُّ

بِالْقَذْفِ فِي حَالِ إِفَاقَتِهِ .

الثَّانِي : قَوْلُهَا يَا بْنَ الزَّانِيَيْنِ ؛ فَجَلَدَهَا حَدَّيْنِ لِكُلِّ أَبٍ حَدٌّ ، فَإِنَّمَا خَطَّأَهُ أَبُو حَنِيفَةَ فِيهِ بِنَاءً عَلَى مَذْهَبِهِ فِي أَنَّ حَدَّ الْقَذْفِ يَتَدَاخَلُ ، لِأَنَّهُ عِنْدَهُ حَقٌّ لِلَّهِ تَعَالَى كَحَدِّ الْخَمْرِ وَالزِّنَى .

وَأَمَّا الشَّافِعِيُّ وَمَالِكٌ فَإِنَّهُمَا يَرَيَانِ الْحَدَّ بِالْقَذْفِ حَقًّا لِلْآدَمِيِّ ، فَيَتَعَدَّدُ بِتَعَدُّدِ الْمَقْذُوفِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ حَدٌّ بِغَيْرِ مُطَالَبَةِ الْمَقْذُوفِ ، وَلَا يَجُوزُ إِقَامَةُ حَدِّ الْقَذْفِ بِإِجْمَاعٍ مِنْ الْأُمَّةِ إِلَّا بَعْدَ الْمُطَالَبَةِ بِإِقَامَتِهِ مِمَّنْ يَقُولُ إِنَّهُ حَقٌّ لِلَّهِ ، وَمَنْ يَقُولُ إِنَّهُ حَقٌّ لِلْآدَمِيِّ .

وَبِهَذَا الْمَعْنَى وَقَعَ الِاحْتِجَاجُ لِمَنْ يَرَى أَنَّهُ حَقٌّ لِلْآدَمِيِّ ؛ إِذْ يَقُولُ : لَوْ كَانَ حَقًّا لِلَّهِ لَمَا تَوَقَّفَ عَلَى الْمُطَالَبَةِ كَحَدِّ الزِّنَا .

الرَّابِعُ أَنَّهُ وَالَى بَيْنَ الْحَدَّيْنِ ، وَمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ حَدَّانِ لَمْ يُوَالِ بَيْنَهُمَا ، بَلْ يُحَدُّ لِأَحَدِهِمَا ، ثُمَّ يُتْرَكُ حَتَّى يَنْدَمِلَ الضَّرْبُ أَوْ يَسْتَبِلَّ الْمَضْرُوبُ ، ثُمَّ يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ الْآخَرُ .

الْخَامِسُ أَنَّهُ حَدَّهَا قَائِمَةً ، وَلَا تُحَدُّ الْمَرْأَةُ إِلَّا جَالِسَةً مَسْتُورَةً .

قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : فِي زِنْبِيلٍ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ .

السَّادِسُ أَنَّهُ أَقَامَ الْحَدَّ فِي الْمَسْجِدِ ، وَلَا يُقَامُ الْحَدُّ فِيهِ إجْمَاعًا .

وَفِي الْقِصَاصِ فِي الْمَسْجِدِ وَالتَّعْزِيرِ فِيهِ خِلَافٌ قَدَّمْنَا بَيَانَهُ فِيمَا سَلَفَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ وَفِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ وَالْخِلَافِ ؛ فَهَذَا هُوَ فَصْلُ الْخِطَابِ وَعِلْمُ الْقَضَاءِ الَّذِي وَقَعَتْ الْإِشَارَةُ إلَيْهِ عَلَى أَحَدِ التَّأْوِيلَاتِ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ : ﴿ أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ ﴾ ، حَسْبَمَا أَشَرْنَا إلَيْهِ آنِفًا .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ الْإِيجَازُ فَذَلِكَ لِلْعَرَبِ دُونَ الْعَجَمِ ، وَلِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُونَ الْعَرَبِ ، وَقَدْ بَيَّنَ

هَذَا بِقَوْلِهِ : ﴿ أُوتِيت جَوَامِعَ الْكَلِمِ ﴾ ، وَكَانَ أَفْصَحَ النَّاسِ بَعْدَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي آيَاتِ الْكِتَابِ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٍ وَفِي سُورَةِ النُّورِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ قَوْلُهُ : " أَمَّا بَعْدُ ﴿ فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ : أَمَّا بَعْدُ ﴾ .

وَيُرْوَى أَنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ سَحْبَانُ وَائِلٌ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِالْبَعْثِ ، وَأَوَّلُ مَنْ

اتَّكَأَ عَلَى عَصًا ، وَعَمَّرَ مِائَةً وَثَمَانِينَ سَنَةً .

وَلَوْ صَحَّ أَنَّ دَاوُد قَالَهَا فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْهُ بِالْعَرَبِيَّةِ عَلَى هَذَا النَّظْمِ ، وَإِنَّمَا كَانَ بِلِسَانِهِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ الْحِكْمَةَ الْمَعْرِفَةُ بِالدِّينِ ، وَالْفِقْهُ فِيهِ ، وَالِاتِّبَاعُ لَهُ .

(197/658)

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ زَيْدٍ أَنَّ فَصْلَ الْخِطَابِ هُوَ الْفَهْمُ وَإِصَابَةُ الْقَضَاءِ .

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : وَهَذَا صَحِيحٌ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي وَصْفِ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ لِمَا فِيهِ مِنْ إِيجَازِ اللَّفْظِ ، وَإِصَابَةِ الْمَعْنَى ، وَنُفُوذِ الْقَضَاءِ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(198/658)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) ﴾

قرأ الحسن وأبي بن كعب وابن أبي إسحاق : " صادِ " بكسر الدال على أنه أمر من صادى يصادي إذا ضاهى وماثل ، أي صار كالصدى الذي يحكي الصياح ، والمعنى : ماثل القرآن بعلمك وقارنه بطاعتك ، وهكذا فسر الحسن ، أي انظر أين عملك منه ، وقال جمهور الناس : إنه حرف المعجم المعروف ، ويدخله ما يدخل سائر أوائل السور من الأقوال ، ويختص هذا الموضع بأن قال بعض الناس : معناه صدق محمد ، وقال الضحاك معناه : صدق الله ، وقال محمد بن كعب القرظي : هو مفتاح أسماء الله : صمد صادق الوعد ، صانع المصنوعات ، وقرأها الجمهور : " صادْ " بسكون الدال ، وقرأ ابن أبي إسحاق بخلاف عنه " صادٍ " بكسر الدال وتنوينها على القسم ، كما تقول : الله لأفعلن . وحكى الطبري وغيره عن ابن أبي إسحاق : " صادِ " بدون تنوين ، وألحقه بقول العرب : خاث باث ، وخار وباز . وقرأ فرقة منها عيسى بن عمر : " صادَ " بفتح الدال ، وكذلك يفعل في نطقه بكل الحروف ، يقول : قافَ ، ونونَ ، ويجعلها كأين وليت : قال الثعلبي ، وقيل معناه : صاد محمد القلوب ، بأن استمالها للإيمان .

وقوله : ﴿ والقرآن ذي الذكر ﴾ قسم . وقال السدي وابن عباس وسعيد بن جبير ، معناه ذي الشرف الباقي المخلد . وقال قتادة والضحاك : ذي التذكرة للناس والهداية لهم . وقالت فرقة معناه : ذي الذكر لأمم والقصص والغيوب . وأما جواب القسم فاختلف فيه ، فقالت فرقة : الجواب في قوله : ﴿ ص ﴾ إذ هو بمعنى صدق محمد ، أو صدق

الله . وقال الكوفيون والزجاج ، الجواب قوله : ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ [ص : 64] . وقال البصريين ومنهم الأخفش ، الجواب في قوله : ﴿ إن كل كذب الرسل ﴾ [ص : 14] .

قال القضي أبو محمد : وهذان القولان بعيدان .

(199/658)

وقال قتادة والطبري : الجواب مقدر قبل بل ، وهذا هو الصحيح ، تقديره : والقرآن ما الأمر كما يزعمون ، ونحو هذا من التقدير فتدبره . وحكى الزجاج عن قوم أن الجواب قوله : ﴿ كم أهلكنا ﴾ وهذا متكلف جداً . والعزة هنا : المعازة والمغالبة . والشقاق : نحوه أي هم في شق ، والحق في شق . و: ﴿ كم ﴾ للتكثير ، وهي خبر فيه مثال ووعيد ، وهي في موضع نصب ب ﴿ أهلكنا ﴾ . والقرن الأمة من الناس يجمعها زمن احد ، وقد تقدم تحريره مراراً .

وقوله : ﴿ فنادوا ﴾ معناه : مستغيثين ، والمعنى أنهم فعلوا ذلك بعد المعاينة فلم ينفع ذلك ، ولم يكن في وقت نفع . ﴿ ولات ﴾ بمعنى : ليس ، واسمها مقدر عند سيبويه ، تقديره ولات الحين حين مناص ، وهي : لا (لحقتها : تاء ، كما تقول) ربت وثمت . قال

الزجاج : وهي كتاء جلست وقامت ، تاء الحروف كتاء لأفعال دخلت على ما لا يعرب في الوجهين ، ولا تستعمل " لا " مع التاء إلا في الحين والزمان والوقت ونحوه ، فمن ذلك قول الشاعر [محمد بن عيسى بن طلحة] : [الكامل]

لات ساعة مندم . . . وقال الآخر : [الوافر]

تذكر حب ليلى لات حينا . . . وأضحى الشيب قد قطع القرينا

وأنشد بعضهم في هذا المعنى : [الخفيف]

طلبوا صلحنا ولات أوان . . . فأجبنا أن ليس حين بقاء

وأنشد الزجاج بكسر التاء ، وهذا كثير ، قراءة الجمهور : فتح التاء من : " لاتَ " والنون من : " حينَ " وروي عن عيسى كسر التاء من : " لاتِ " ونصب النون . وروي عنه أيضاً : " حينِ " بكسر النون ، واختلفوا في الوقف على : ﴿ لات ﴾ فذكر الزجاج أن الوقف بالتاء ، ووقف الكسائي بالهاء ، ووقف قوم واختاره أبو عبيد على " لا " ، وجعلوا التاء موصولة ب ﴿ حين ﴾ ، فقالوا " لا تحين " ، وذكر أبو عبيد أنها كذلك في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويحتج لهذا بقول أبي وجزة : [الكامل]

العاطفون تحين ما من عاطف . . . والمطعمون زمان ما من مطعم

يمدح آل الزبير. وقرأ بعض الناس: "لات حينُ" برفع النون من: ﴿ حين ﴾ على إضمار الخبر. والمناص: المفر، ناص ينوص، إذا فات وفر، قال ابن عباس: المعنى ليس بحين نزو ولا فرار ضبط القوم. والضمير في: ﴿ عجبوا ﴾ لكفار قريش، واستغربوا أن نبىء بشر منهم فأنذرهم، وأن وحد إلهاً، وقالوا: كيف يكون إله واحد يرزق الجميع وينظر في كل أمرهم؟ و: ﴿ عجاب ﴾ بناء مبالغة، كما قالوا سريع وسراع، وهذا كثير.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وعيسى بن عمر: "عجّاب" بشد الجيم، ونحوه قول الراجز: [الراجز]

جاؤوا بصيد عجب من العجب . . . أزيد والعينين طوال الذنب

وقد قالوا: رجل كرام، أي كريم.

وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6)

(201/658)

روي في قصص هذه الآية أن أشراف قريش وجماعتهم اجتمعوا عند مرض أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن من القبيح علينا أن يموت أبو طالب ونؤذي محمداً

بعده ، فتقول العرب : تركوه مدة عمه ، فلما مات آذوه ، ولكن لنذهب إلى أبي طالب فلينصفنا منه ، وليربط بيننا وبينه ربطاً ، فنهضوا إليه ، فقالوا يا أبا طالب إن محمداً يسب ويسفه آراءنا وآراء آبائنا ونحن لا نقاره على ذلك ، ولكن افصل بيننا وبينه في حياتك ، بأن يقيم في منزله يعبد ربه الذي زعم ، ويدع آلهتنا ، ولا يعرض لأحد منا بشيء من هذا ، فبعث أبو طالب في محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال يا محمد ، إن قومك قد دعوك إلى النصفة ، وهي أن تدعهم وتعبد ربك وحدك ، فقال : أو غير لك يا عم ؟ قال وما هو ؟ قال : يعطوني كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم الجزية بها العجم قالوا وما هي ؟ فإنا نبادر إليها ، قال : لا إله إلا الله ، فنفروا عند ذلك ، وقالوا ما يرضيك منا غير هذا ؟ قال : والله لو أعطيتموني الأرض ذهباً ومالاً . وفي رواية : لو جعلتم الشمس في يميني والقمر في شمالي ما أرضاني منكم غيرها ، فقاموا عند ذلك ، وبعضهم يقول : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن هذا لشيء عجاب ﴾ [ص : 5] ويرددون هذا المعنى ، وعقبة بن أبي معيط يقول : ﴿ امشوا واصبروا على آلهتكم ﴾ .

وجلبت هذا الخبر تام المعنى ، وفي بعض رواياته زيادة ونقصان ، والغرض متقارب ، ولما ذهبوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عم ، قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله " ، فقال : والله لولا أن تكون سبة في بني بعدي لأقررت بها عينك ، ومات وهو

يقول : على ملة عبد المطلب ، فنزلت في ذلك : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ [القصص : 56] وانطلق .

(202/658)

فقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ وانطلق الملأ ﴾ عبارة عن خروجهم عن أبي طالب وانطلاقهم من ذلك الجمع ، هذا قول جماعة من المفسرين . وقالت فرقة : هي عبارة عن إذاعتهم لهذه الأقاويل ، فكأنه كما يقول الناس : انطلق الناس بالدعاء للأمير ونحوه ، أي استفاض كلامهم بذلك ، و ﴿ الملأ ﴾ الأشراف والرؤوس الذي يسدون مسد الجميع في الآراء ونحوه .

وقوله : ﴿ أن امشوا ﴾ ﴿ أن ﴾ مفسرة لا موضع لها في الإعراب ، ويجوز أن يكون في موضع نصب بإسقاط حرف الجر ، أي بأن ، فهي بتقدير المصدر ، كأنه قال : وانطلق الملأ منهم بقولهم : امشوا ومعنى الآية أنه قال بعضهم لبعض امشوا واصبروا على كل أمر آلهتكم ، وذهب بعض الناس إلى أن قولهم : ﴿ امشوا ﴾ ، هو دعاء بكسب الماشية ، وفي هذا ضعف ، لأنه كان يلزم أن تكون الألف مقطوعة ، لأنه إنما يقال : أمشي الرجل إذا صار صاحب ماشية ، وأيضاً فهذا المعنى غير متمكن في الآية ، وإنما المعنى : سيروا على

طريقتكم ودوموا على سيركم ، أو يكون المعنى : أمر من نقل الأقدام ، قالوه عند انطلاقهم ، وهو في مصحف عبد الله بن مسعود : " وانطلق الملأ منهم يمشون أن اصبروا " .

وقولهم : ﴿ إن هذا لشيء يراد ﴾ يريدون ظهور محمد وعلوه بالنبوة ، أي يراد منا : الانقياد إليه : وقولهم : ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ يريدون بمثل هذه المقالة أن الإله واحد .

(203/658)

واختلف المتأولون في قولهم : ﴿ في الملة الآخرة ﴾ فقال مجاهد : أرادوا ملتهم ونحلتهم التي العرب عليها ، ويقال لكل ما تتبعه أمة ما ملة . وقال ابن عباس والسدي : أراد ملة النصارى ، وذلك متجه ، لأنها ملة شهير فيها التثليث ، وأن الإله ليس بواحد . وقالت فرقة معنى قولهم : ﴿ ما سمعنا ﴾ أنه يكون مثل هذا ، ولا أنه يقال في الملة الآخرة التي كنا نسمع أنها تكون آخر الزمان ، وذلك أنه قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم كان الناس يستشعرون خروج نبي وحدوث ملة ودين ، ويدل على صحة هذا ما روي من قول الأحبار ذوي الصوامع ، وروي عن شق وسطيح ، وما كانت بنو إسرائيل تعتقد من أنه يكون منهم .

وقولهم : ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ إشارة إلى جميع ما يخبر به محمد صلى الله عليه وسلم

عن الله تعالى ، ثم قالوا على جهة التقرير من بعضهم لبعض ، ومضمن ذلك الإنكار : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ بمعنى نحن الأشراف الأعلام ، فلم خص هذا ؟ وكيف يصح هذا ؟ فرد الله تعالى قولهم بما تقضيه بل ، لأن المعنى ليس تخصيص الله وإنعامه جار على شهواتهم ، ﴿ بل هم في شك من ذكري ﴾ أي في ريب أن هذا التذكير بالله حق ، ثم توعدهم بقوله : ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ أي لو ذاقوه لتحققوا أن هذه الرسالة حق ، أي هم لجهالتهم لا يبين لهم النظر ، وإنما يبين لهم مباشرة العذاب .

(204/658)

وقرأ ابن مسعود : " أم أنزل " بميم بين الهمزتين ، ثم وقفهم احتجاجاً عليهم ، أعندهم رحمة ربك وخزائنها التي فيها الهدى والنبوءة وكل فضل ، فيكون لهم تحكم في الرسالة وغيرها من نعم الله . و﴿ أم ﴾ : هنا ، لم تعادلها ألف ، فهي المقطوعة التي معناها إضراب عن الكلام الأول واستفهام ، وقدرها سيبويه ب " بل " والألف كقول العرب : إنها لإبل أم شاء . والخزائن للرحمة مستعارة ، كأنها موضع جمعها وحفظها من حيث كانت ذخائر البشر تحتاج إلى ذلك خوطبوا في الرحمة بما ينحوا إلى ذلك . وقال الطبري : يعني ب " الخزائن " المفاتيح ، والأول أبين ، والله أعلم .

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (10)

﴿ أم ﴾ في هذه الآية معادلة للألف المقدرة في ﴿ أم ﴾ [ص : 9] الأولى ، وكأنه تعالى يقول في هذه الآية : أم لهم هذا الملك فتكون النبوءة والرسالة على اختيارهم ونظرهم فليرتقوا في الأسباب إن كان الأمر كذلك ، أي إلى السماء ، قاله ابن عباس . و ﴿ الأسباب ﴾ : كل ما يتوصل به إلى الأشياء ، وهي هنا بمعنى الحبال والسلاليم . وقال قتادة : اراد أبواب السماء .

وقوله تعالى : ﴿ جند من هنالك مهزوم ﴾ اختلف المتأولون في الإشارة ب ﴿ هنالك ﴾ إلى ما هي ؟ فقالت فرقة : أشار إل الارتقاء في الأسباب ، أي هؤلاء القوم إن راموا ذلك جند مهزوم ، وهذا قوي . وقالت فرقة : الإشارة ب ﴿ هنالك ﴾ إلى حماية الأصنام وعضدها ، أي هؤلاء القوم حند مهزوم في هذه السبيل وقال مجاهد : الإشارة ب ﴿ هنالك ﴾ ، إلى يوم بدر ، وكان غيب أعلم الله به على لسان رسوله ، أي جند المشركين يهزمون ، فخرج في بدر . وقالت فرقه : الإشارة إل حصر عام الخندق بالمدينه . وقوله : ﴿ من الأحزاب ﴾ أي من جملة أجزاب الأمم الذين تعصبوا في الباطل وكذبوا الرسل فأخذهم الله تعالى . و ﴿ ما ﴾ ، في قوله : ﴿ جند ما ﴾ زائدة مؤكدة وفيها تخصيص .

واختلف المتأولون في قوله : ﴿ ذي الأوتاد ﴾ ، فقال ابن عباس وقتادة سمي بذلك لأنه كانت له أوتاد وخشب يلعب له بها وعليها . وقال السدي : كان يقتل الناس بالأوتاد ، يسمرهم في الأرض بها . وقال الضحاك : أراد المباني العظام الثابتة ، وهذا أظهر الأقوال ، كما يقال للجبال أوتاد لثبوتها ، ويحتمل أن يقال له ذو أوتاد عبارة عن كثرة أخبيته وعظم عساكره ، ونحو من هذا قولهم : أهل العمود .

وقرأت فرقة : " ليكة " . وقرأت فرقة : " الأيكة " ، وقد تقدم القول في شرح ذلك في سورة الشعراء ، ثم أخبر تعالى أن هؤلاء المذكورين هم الأحزاب ، وضرب بهم المثل لقريش في أنهم كذبوا ، ثم أخبر أن عقابه حق على جميعهم ، أي فكذلك يحق عليكم أيها المكذبون بمحمد وفي قراءة ابن مسعود : " إن كل لما " . وحكى أبو عمرو الداني إن فيها . " إن كلهم إلا كذب " .

وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (15)

﴿ ينظر ﴾ بمعنى ينتظر ، وهذا إخبار من الله لرسوله صدقه الوجود ، ف " الصيحة " على هذا عبارة عن جميع ما نابهم من قتل وأسر وغلبة ، وهذا كما تقول : صاح فيهم الدهر . وقال قتادة : توعدهم بصيحة القيامة والنفخ في الصور . قال الثعلبي : روي هذا التفسير مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه سلم . وقالت طائفة : توعدهم بصيحة يهلكون

بها في الدنيا ، وعلى هذين التأويلين فمعنى الكلام أنهم بمدرج عقوبة وتحت أمر خطير ، ما ينتظرون فيه إلا الهلكة ، وليس معناه التوعد بشيء معين ينتظره محمد فيه كالتأويل الأول .

(206/658)

وقرأ جمهور القراء : " فَواق " بفتح الفاء . وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب والأعمش وأبو عبد الرحمن : " فُواق " بضم الفاء . قال ابن عباس وغيره : هما بمعنى واحد ، أي ما لها من انقطاع وعودة ، بل هي متصلة حتى تهلكهم ، ومنه فواق الحلب : المهلة التي بين الشخبين : وجعلوه مثل قصاص الشعر وقصاص وغيره ذلك ، ومنه الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من رابط فوق ناقة حرم الله جسده على النار " وقال ابن زيد وأبو عبيدة ومؤرج والفراء : المعنى مختلف : الضم كما تقدم من معنى فواق الناقة ، والفتح بمعنى الإفاقة ، أي ما يكون لهم بعد هذه الصيحة إفاقة ولا استراحة ، ف " فواق " : مثل جواب ، من أجاب .

ثم ذكر عز وجل عنهم أنهم قالوا : ﴿ ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ والقط : الحظ والنصيب ، والقط أيضاً : الصك والكتاب من السلطان بصلة ونحوه ، ومنه قول الأعشى : [الطويل]

ولا الملك النعمان يوم لقيته . . . بغبطته يعطي القطوط ويافق

وهو من قططت ، أي قطعت .

واختلف الناس في " القط " هنا ما أرادوا به ، فقال سعيد بن جبير : أرادوا به عجل لنا نصيبنا من الخير والنعيم في دنيانا . وقال أبو العالية والكلبي : أرادوا عجل لنا صحفنا بإيماننا ، وذلك لما سمعوا في القرآن أن الصحف تعطى يوم القيامة بالأيمان والشمائل ، قالوا ذلك . وقال ابن عباس وغيره : أرادوا ضد هذا من العذاب ونحوه ، فهذا نظير قولهم : ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [الأنفال : 42] وقال السدي ، المعنى : أرنا منازلنا في الجنة حتى نتابعك ، وعلى كل تأويل ، فكلامهم خرج على جهة الاستخفاف والهزء ، ويدل على ذلك ما علم من كفرهم واستمر ، ولفظ الآية يعطي إقراراً بيوم الحساب .

(207/658)

وقوله تعالى : ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ أي من هذه الأقاويل التي يريدون بها الاستخفاف ولا يلتفت إليها : واذكر داود ذا الأيد في الدين والشرع والصدع به ، فتأس به وتأيد كما تأيد ، و: ﴿ الأيد ﴾ القوة ، وهي في داود متضمنة قوة البدن وقوته على الطاعة . و﴿ الأواب ﴾ الرجاع إلى طاعة الله ، وقاله مجاهد وابن زيد ، وفسره السدي

بالمسبح ، وذكر الثعلبي أن أبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الزرقة يمن .

وكان داود أزرق .

وأخبر تعالى عما وهب لداود من الكرامة في أن سخر الجبال تسبح بعه ، وظاهر الآية عموم الجبال . وقالت فرقة : بل هي الجبال التي كان فيها وعندها ، وتسبيح الجبال ها حقيقة . ﴿ والإشراق ﴾ وقت ضياء الشمس وارتفاعها ، ومنه قولهم : أشرق ثبير ، أي ادخل في الشروق ، وفي هذين الوقتين كانت صلاة بني إسرائيل . وقال ابن عباس : صلاة الضحى عندنا هي صلاة الإشراق ، وهي في هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ والطير ﴾ عطف على ﴿ الجبال ﴾ ، أي وسخرنا الطير ، و ﴿ محشورة ﴾ نصب على الحال ، ومعناه : مجموعة .

وقرأ ابن أبي عبلة : " والطيرُ محشورة " بالرفع فيهما . والضمير في : ﴿ له ﴾ قالت فرقة : هو عائد على داود ، ف ﴿ كل ﴾ للجبال والطير .

وقوله تعالى : ﴿ وشددنا ملكه ﴾ عبارة عامة لجميع ما وهبه الله تعالى من قوة وخير ونعمة ، وقد خصص بعض المفسرين في ذلك أشياء دون أشياء ، فقال السدي : بالجنود . وقال آخرون : بهيبة جلعها الله تعالى له .

وقرأ الجمهور : " وشدَدنا " بتخفيف الدال الأولى ، وروي عن الحسن : " شدّدنا " بشدها

على المبالغة .

و﴿ الحكمة ﴾ : الفهم في الدين وجودة النظر ، هذا قول فرقة . وقالت فرقة : أراد ب ﴿ الحكمة ﴾ النبوءة . وقال أبو العالية : ﴿ الحكمة ﴾ العلم الذي لا ترده العقول .

(208/658)

قال القاضي أبو محمد : هي عقائد البرهان واختلف الناس في ﴿ فصل الخطاب ﴾ ، فقال ابن عباس ومجاهد والسدي : فصل القضاء بين الناس بالحق وإصابته وفهمه . وقال علي بن أبي طالب وشريح والشعبي : ﴿ فصل الخطاب ﴾ إيجاب اليمين على المدعى عليه ، والبينة على المدعي . وقال الشعبي أيضاً وزياد : أراد قول أما بعد ، فإنه أول من قالها ، والذي يعطيه لفظ الآية أن الله تعالى آتاه أنه كان إذا خاطب في نازلة فصل المعنى وأوضحه وبينه ، لا يأخذه في ذلك حصر ولا ضعف ، وهذه صفة قليل من يدركها ، فكان كلامه عليه السلام فصلاً ، وقد قال الله تعالى في صفة القرآن : ﴿ إنه لقول فصل ﴾ [الطارق : 13] ويزيد محمد صلى الله عليه وسلم على هذه الدرجة بالإيجاز في العبارة وجمع المعاني الكثيرة في اللفظ اليسير ، وهذا هو الذي تخصص عليه السلام في قوله : "

وأعطيت جوامع الكلم " فإنها في الخلال التي لم يؤتها أحد قبله ، ذكر جوامع الكلم معدودة في ذلك مسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(209/658)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾

أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر لما استهزءوا به .

وهذه منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأيد ﴾ لما ذكر من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم ، أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم ، وسلاّه بكل ما تقدّم ذكره .

ثم أخذ في ذكر داود وقصص الأنبياء ؛ ليتسلى بصبر من صبر منهم ؛ وليعلم أن له في الآخرة أضعاف ما أعطيه داود وغيره من الأنبياء .

وقيل : المعنى اصبر على قولهم ، واذكر لهم أقاصيص الأنبياء ؛ لتكون برهاناً على صحة نبوّتك .

"ذَا الأَيدِ" ذا القوّة في العبادة.

وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وذلك أشد الصوم وأفضله؛ وكان يصلي نصف الليل، وكان لا يفر إذا لاقى العدوّ، وكان قوياً في الدعاء إلى الله تعالى.

وقوله: "عَبْدَنَا" إظهاراً لشرفه بهذه الإضافة.

ويقال: الأيد وَالآدُ كما تقول العيب والعاب.

قال:

لَمْ يَكُ يَنْآدُ فَأَمْسَى انآدا . . .

ومنه رجل أَيِدٌ أي قويّ.

وتأَيَّدَ الشيء تقوّى، قال الشاعر:

إذَا القوسُ وَتَّرهَا أَيِدٌ . . .

رَمَى فأَصابَ الكُلى وَالذُّرا

يقول: إذا اللّه وَتَّر القوس التي في السحاب رَمَى كُلى الإبل وأسنمَتها بالشحم.

يعني من النبات الذي يكون من المطر.

﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ قال الضحاك: أي توّاب.

وعن غيره: أنه كلما ذكر ذنبه أو خطر على باله استغفر منه؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني لأستغفر اللّه في اليوم والليلة مائة مرة"

ويقال آب يؤوب إذا رجع ؛ كما قال :

وكلُّ ذي غَيْبَةٍ يؤوبُ . . .

وغائبُ الموت لا يؤوبُ

فكان داود رجّاعاً إلى طاعة اللّه ورضاه في كل أمر فهو أهل لأن يقتدى به .

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18)

فيه أربع مسائل :

(210/658)

الأولى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ "يُسَبِّحْنَ" في موضع نصب على الحال ، ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسبيح الجبال معه .

قال مقاتل : كان داود إذا ذكر اللّه جل وعز ذكرت الجبال معه ، وكان يفقه تسبيح الجبال .

وقال ابن عباس : "يُسَبِّحْنَ" يصلّين .

وإنما يكون هذا معجزة إذا رآه الناس وعرفوه .

وقال محمد بن إسحاق : أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال دويّ حسن ، وما تصغي لحسنه (الطير) وتصوّت معه ، فهذا تسبيح الجبال والطير .

وقيل : سخرها اللّه عز وجل لتسير معه فذلك تسبيحها ؛ لأنها دالة على تنزيه اللّه عن شبه المخلوقين .

وقد مضى القول في هذا في "سبأ" وفي "سبحان" عند قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] وأن ذلك تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال .

واللّه أعلم .

(بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ) الإشراق أيضاً ابيضاض الشمس بعد طلوعها .

يقال : شَرَقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت .

فكان داود يسبّح إثر صلاته عند طلوع الشمس وعند غروبها .

الثانية روي عن ابن عباس أنه قال : كنت أمُّر بهذه الآية ﴿ بالعشي والإشراق ﴾ ولا أدري ما هي ، حتى " حدّثتني أم هانىء أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم دخل عليها ، فدعا بوضوء فتوضأ ، ثم صلى صلاة الضحى ، وقال : "يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق" " وقال عكرمة قال ابن عباس : كان في نفسي شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها في القرآن ﴿ يُسَبِّحْنَ بالعشي والإشراق ﴾ .

قال عكرمة : وكان ابن عباس لا يصلّي صلاة الضحى ثم صلاها بعد .

وروي أن كعب الأحبار قال لابن عباس : إني أجد في كتب اللّه صلاة بعد طلوع الشمس

هي صلاة الأوّابين .

فقال ابن عباس : وأنا أوجدك في القرآن ؛ ذلك في قصة داود "يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ والإِشْرَاقِ" .

(211/658)

الثالثة صلاة الضحى نافلة مستحبة ، وهي في الغداة بإزاء العصر في العشيّ ، لا ينبغي أن تصلي حتى تبيض الشمس طالعة ؛ ويرتفع كدرها ؛ وتشرق بنورها ؛ كما لا تصلي العصر إذا اصفرت الشمس .

وفي صحيح مسلم عن زيد بن أرْقَم أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة الأوّابين حين تَرْمَض الفصالُ " الفصال والفصلان جمع فَصيل ، وهو الذي يفطم من الرضاعة من الإبل .

والرمضاء شدّة الحر في الأرض .

وخصّ الفصال هنا بالذكر ؛ لأنها هي التي تَرْمَض قبل انتهاء شدّة الحر التي تَرْمَض بها أمهاتها لقلة جَلَدها ، وذلك يكون في الضحى أو بعده بقليل ، وهو الوقت المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها ؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي .

ومن الناس من يبادر بها قبل ذلك استعجالا ، لأجل شغله فيخسر عمله ؛ لأنه يصليها في الوقت المنهي عنه ويأتي بعمل هو عليه لا له .

الرابعة روى الترمذي من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلّى الضحى ثنتي عشرة ركعة بنى اللّه له قصراً من ذهب في الجنة " قال حديث غريب .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذرّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يصبح على كل سُلاَمَى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى " وفي الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حافظ على شَفْعة الضحى غُفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زَبد البحر " وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : " أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى ونوم على وتر " لفظ البخاري .

وقال مسلم " وركعتي الضحى " وخرّجه من حديث أبي الدرداء كما خرّجه البخاري من حديث أبي هريرة .

وهذا كله يدل على أن أقل الضحى ركعتان وأكثره ثنتا عشرة .

واللّه أعلم .

وأصل السُّلامي (بضم السين) عظام الأصابع والأكف والأرجل ، ثم استعمل في سائر عظام الجسد ومفاصله .

وروي من حديث عائشة رضي اللّه عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلثمائة مفصل فمن كبر اللّه وحمد اللّه وهلل اللّه وسبح اللّه واستغفر اللّه وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس وأمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلثمائة سلامى فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار " قال أبو توبة : وربما قال "يمسي" كذا خرجه مسلم .

وقوله : "ويجزي عن ذلك ركعتان" أي يكفي من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان .

وذلك أن الصلاة عمل بجميع أعضاء الجسد ؛ فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته التي عليه في الأصل .

واللّه أعلم .

قوله تعالى : ﴿ والطير مَحْشُورَةً ﴾ معطوف على الجبال .

قال الفراء : ولو قرىء "وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ" لجاز ؛ لأنه لم يظهر الفعل .

قال ابن عباس : كان داود عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه ، فاجتماعها إليه حشرها .

فالمعنى وسخرنا الطير مجموعة إليه لتسبح اللّه معه .

وقيل : أي وسخرنا الريح لتحشر الطيور إليه لتسبح معه ، أو أمرنا الملائكة تحشر الطيور .

﴿ كُلٌّ لَّهُ ﴾ أي لداود ﴿ أَوَّابٌ ﴾ أي مطيع ؛ أي تأتيه وتسبح معه .

وقيل : الهاء للّه عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أي قويناه حتى ثبت .

قيل : بالهيبة وإلقاء الرعب منه في القلوب .

وقيل : بكثرة الجنود .

وقيل : بالتأييد والنصر .

وهذا اختيار ابن العربي .

فلا ينفع الجيش الكثير التفافه على غير منصور وغير مُعانٍ .

وقال ابن عباس رضي اللّه عنه : كان داود أشدّ ملوك الأرض سلطاناً .

كان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون ألف رجل فإذا أصبح قيل : ارجعوا فقد رضي عنكم نبيّ اللّه .

والمُلْك عبارة عن كثرة المِلْك ، فقد يكون للرجل مِلك ولكن لا يكون مِلكاً حتى يكثر ذلك ؛ فلو ملك الرجل داراً وامرأة لم يكن ملكاً حتى يكون له خادم يكفيه مؤونة التصرف في المنافع التي يفتقر إليها لضرورته الآدمية .

وقد مضى هذا المعنى في "براءة" وحقيقة الملك في "النمل" مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكمة وَفَصْلَ الخطاب ﴾ فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكمة ﴾ أي النبوّة ؛ قاله السدي .

مجاهد : العدل .

أبو العالية : العلم بكتاب اللّه تعالى .

قتادة : السنة .

شريح : العلم والفقه .

﴿ وَفَصْلَ الخطاب ﴾ قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي وقتادة : يعني الفصل في القضاء .

وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل .

وقال ابن عباس : بيان الكلام .

عليّ بن أبي طالب : هو البينة على المدّعي واليمين على من أنكر .

وقاله شُرَيح والشَّعْبيّ وقتادة أيضاً .

وقال أبو موسى الأشعري والشّعبي أيضاً : هو قوله أما بعد ، وهو أول من تكلم بها .

وقيل : "فَصْلُ الْخِطَاب" البيان الفاصل بين الحق والباطل .

وقيل : هو الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل .

والمعنى في هذه الأقوال متقارب .

وقول عليّ رضي اللّه عنه يجمعه ؛ لأن مدار الحكم عليه في القضاء ما عدا قول أبي موسى .

الثانية قال القاضي أبو بكر بن العربي : فأما علم القضاء فَلَعَمْرُ إلهك إنه لنوع من العلم مجرد ، وفصل منه مؤكَّد ، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام ؛ ففي الحديث : " أقضاكم عليّ وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل " وقد يكون الرجل بصيراً بأحكام الأفعال ، عارفاً بالحلال والحرام ، ولا يقوم بفصل القضاء .

يروى " أن عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال : لما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن حفر قوم زُبْية للأسد ، فوقع فيها الأسد ، وازدحم الناس على الزبية فوقع فيها رجل وتعلق بآخر ، وتعلق الآخر بآخر ، حتى صاروا أربعة ، فجرحهم الأسد فيها فهلكوا ، وحمل القوم السلاح وكاد يكون بينهم قتال ؛ قال فأتيتهم فقلت : أتقتلون مائتي رجل من أجل أربعة أناس ! تعالوا أقض بينكم بقضاء ؛ فإن رضيتموه فهو قضاء بينكم ، وإن أبيتم رفعتم ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أحق بالقضاء .

فجعل للأوّل ربع الدية ، وجعل للثاني ثلث الدية ، وجعل للثالث نصف الدية ، وجعل للرابع الدية ، وجعل الدياتِ على من حفر الزُّبْيَة على قبائل الأربعة ؛ فسخط بعضهم ورضي بعضهم ، ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصوا عليه القصة ؛ فقال : "أنا أقضي بينكم" فقال قائل : إن علياً قد قضى بيننا .

فأخبروه بما قضى عليّ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "القضاء كما قضى عليّ" "

في رواية : فأمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء عليّ .

وكذلك يروى في المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجل فقال : إن ابن أبي ليلى وكان قاضياً بالكوفة جلد امرأة مجنونة قالت لرجل يا ابن الزانيين حدّين في المسجد وهي قائمة .

فقال : أخطأ من ستة أوجه .

قال ابن العربي : وهذا الذي قاله أبو حنيفة بالبديهة لا يدركه أحد بالروية إلا العلماء .

فأما قضية عليّ فلا يدركها الشادي ، ولا يلحقها بعد التمرن في الأحكام إلا العاكف المتمادي .

وتحقيقها أن هؤلاء الأربعة المقتولين خطأً بالتدافع على الحفرة من الحاضرين عليها ، فلهم الديات على من حضر على وجه الخطأ ، بَيْد أن الأوّل مقتول بالمدافعة قاتل ثلاثةٍ بالمجاذبة ، فله الديةُ بما قُتِل ، وعليه ثلاثة أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم .

وأما الثاني فله ثلث الدية وعليه الثلثان بالاثنين اللذين قتلهما بالمجاذبة .

(215/658)

وأما الثالث فله نصف الدية وعليه النصف ؛ لأنه قتل واحداً بالمجاذبة فوقعت المحاصة وغرمت العواقل هذا التقدير بعد القصاص الجاري فيه .

وهذا من بديع الاستنباط .

وأما أبو حنيفة فإنه نظر إلى المعاني المتعلقة فرآها ستة : الأوّل أن المجنون لا حدّ عليه ؛ لأن الجنون يسقط التكليف .

وهذا إذا كان القذف في حالة الجنون ، وأما إذا كان يجنّ مرة ويُفيق أخرى فإنه يحدّ

بالقذف في حالة إفاقته .

والثاني قولها يا ابن الزانيين فجلدها حدّين لكل أب حدّ ، فإنما خطأه أبو حنيفة على مذهبه في أن حدّ القذف يتداخل ، لأنه عنده حق الله تعالى كحدّ الخمر والزنى .

وأما الشافعي ومالك فإنهما يريان أن الحدّ بالقذف حق للآدمي ، فيتعدّد بتعدّد المقذوف .

الثالث أنه جَلَد بغير مطالبة المقذوف ، ولا تجوز إقامة حدّ القذف بإجماع من الأمة إلا بعد المطالبة بإقامته ممن يقول إنه حق لله تعالى ، ومن يقول إنه حق الآدمي .

وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حقّ للآدمي ؛ إذ لو كان حقاً لله لما توقف على المطالبة كحدّ الزنى .

الرابع أنه والى بين الحدّين ، ومن وجب عليه حدّان لم يُوالَ بينهما ، بل يحدّ لأحدهما ثم يترك حتى يندمل الضرب ، (أو يستبل المضروب) ثم يقام عليه الحد الآخر .

الخامس أنه حدّها قائمة ، ولا تحدّ المرأة إلا جالسة مستورة ؛ قال بعض الناس : في زنبيل .

السادس أنه أقام الحد في المسجد ولا تقام الحدود فيه إجماعاً .

وفي القضاء في المسجد والتعزير فيه خلاف .

قال القاضي : فهذا هو فصل الخطاب وعلم القضاء ، الذي وقعت الإشارة إليه على أحد التأويلات في الحديث المرويّ " أقضاكم عليّ " وأما من قال : إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العجم ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم دون العرب ؛ وقد بين هذا بقوله : " وأوتيت جوامع الكلم " وأما من قال : إنه قوله أما بعد ؛ " فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول في خطبته : "أما بعد" " ويروى أن أوّل من قالها في الجاهلية سحبان بن وائل ، وهو أوّل من آمن بالبعث ، وأوّل من توكأ على عصا ، وعمِّر مائة وثمانين سنة .

ولو صح أن داود عليه السلام قالها ، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النظم ، وإنما كان بلسانه .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(217/658)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

(سورة ص مكية وآياتها ثمان وثمانون آية)

﴿ بِسْمِ الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ ص ﴾ بالسُّكون على الوقفِ . وقُرِىء بالكسرِ والفتحِ لالتقاء السَّاكنينِ ويجوزُ أنْ يكونَ الفتحُ بإضمارِ حرفِ القسمِ في موضعِ الجرِّ كقولِهم الله لأفعلنَّ بالجرِّ وأنْ يكونَ ذلك نصباً بإضمارِ اذكُرْ أو اقرأْ لا فتحاً كما مرَّ في فاتحةِ سورةِ البقرةِ وامتناعُ الصرفِ للتَّعريفِ والتَّانيثِ لأنَّها عَلَمٌ للسُّورةِ وقد صرفَها من قرأ صادٌ بالتَّنوينِ على أنَّه اسمُ الكتابِ أو التَّنزيل . وقيل هو في قراءةِ الكسر أمرٌ من المصاداةِ وهي المعارضةُ والمقابلةُ ومنها الصَّدى الذي ينعكسُ من الأجسامِ الصَّلبةِ بمقابلة الصَّوتِ ومعناهُ عارضِ القُرآن بعملِك فاعملْ بأوامرِه وانتِه عن نواهيهِ وتخلَّقْ بأخلاقِه ثمَّ إنْ جُعل اسماً للحرفِ مسرُوداً على منهاجِ التَّحدي أو الرَّمزِ إلى كلامٍ مثل صدقَ الله أو صدقَ محمدٌ كما نقل عن أكابرِ السَّلفِ أو اسماً للسُّورة خبراً لمبتدأٍ محذوفٍ أو نصباً على إضمارِ اذكُر أو اقرأْ أو أمراً من المُصاداةِ فالواوُ في قولِه تعالى : ﴿ والقرءانِ ذِى الذكر ﴾ للقسمِ وإنْ جعلَ مُقسَماً به فهي للعطفِ عليه فإنْ أُريد بالقرآنِ كلِّه بالمغايرةُ بينَهما حقيقةٌ وإنْ أُريد عينُ السُّورةِ فهي اعتباريَّةٌ كما في قولِك مررتُ بالرَّجلِ الكريمِ وبالنَّسمةِ المُباركةِ وأيّاً ما كان ففي التَّكريرِ مزيدُ تأكيدٍ لمضمونِ الجملةِ المُقسَمِ عليها والذِّكرُ الشَّرفُ والنَّباهةُ كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ

﴿ أو الذِّكرى والموعظة أو ذكرُ ما يُحتاج إليه في أمر الدِّينِ من الشَّرائعِ والأحكام وغيرِها من أقاصيص الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وأخبار الأمم الدَّارجةِ والوعد والوعيد وجواب القسم على الوجه الأول والرَّابعِ والخامس محذوف هو ما يُنبئُ عنه التَّحدِّي والأمرُ والإقسامُ به من كون المُتحدَّى به معجزاً وكونِ المأمورِ به واجباً وكونِ المقسَم به

(219/658)

حقيقاً بالإعظامِ أي أُقسم بالقرآنِ أو بصادٍ وبه إنَّه لمعجز أو لواجب العمل به أو لحقيقٌ بالإعظامِ ، وأمَّا على الوجهينِ الباقيينِ فهو الكلامُ المرموزُ إليه ونفسُ الجملةِ المذكورةِ قبل القسم فإنَّ التَّسميةَ تنويه بشأن المُسمَّى وتنبيه على عظم خَطَرِه أي إنَّه لصادقٌ والقرآن ذي الذِّكرِ أو هذه السُّورة عظيمةُ الشَّأنِ والقرآنِ الخ على طريقة قولهم هذا حاتمٌ والله ، ولمَّا كان كل واحد من هذه الأجوبة مُنبئاً عن انتفاء الرِّيبِ عن مضمونه بالكُلِّيةِ أبناء بينا كان قوله تعالى :

﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ إضراباً عن ذلك كأنَّه قيل لا ريبَ فيه قطعاً وليس عدمُ إذعان الكَفَرةِ له لشائبةِ ريبٍ ما فيه ، بل هم في استكبارٍ وحميَّةٍ شديدةٍ وشقاقٍ بعيدٍ لله تعالى ولرسولِه ولذلك لا يُذعنون له وقيل الجواب ما دلَّ عليه الجملةُ الإضرابيَّةُ أي ما كفر

به مَن كفَر لخللٍ وجدَهُ فيه بل الذَّينَ كفروا الخ وقُرىء في غِرَّةٍ أي في غَفْلةٍ عمَّا يجب عليهم التَّنبهُ له من مبادىء الإيمان ودواعيه .

(220/658)

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ ﴾ وعيدٌ لهم على كُفرهم واستكبارِهم ببيان ما أصاب مَن قبلهم من المُستكبرينَ . وكم مفعول أُهلكنا ، ومِن قرنٍ تمييزٌ والمعنى وقرناً كثيراً أهلكنا من القُرون الخاليةِ ﴿ فَنَادَوْاْ ﴾ عند نزول بأسِنا وحلول نقمتِنا استغاثةً وتوبةً لينجُوا من ذلك . وقولُه تعالى : ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ حالٌ من ضمير نادَوا واستغاثوا طلباً للنَّجاةِ والحال أنْ ليسَ الحينُ حينَ مناصٍ أي فوتٍ ونجاةٍ ، من ناصَه أي فاتَه لا من ناصَ بمعنى تأخَّر ، ولا : هيَ المشبَّهةُ بليسَ زيدتْ عليها تاءُ التَّانيثِ للتَّأكيدِ كما زِيدتْ على رُبَّ وثُمَّ . وخُصَّتْ بنفي الأحيانِ ولم يبرزْ إلا أحدُ معمُوليها والأكثرُ حذفُ اسمِها . وقيلَ هي النَّافيةُ للجنسِ زيدتْ عليها التَّاءُ وخصَّتْ بنفيِ الأحيانِ ، وحينَ مناصٍ . منصوبٌ على أنَّه اسمُها أي ولا حينَ مناصٍ . وقُرىء بالرَّفعِ فهو على الأوَّلِ اسمُها والخبرُ محذوفٌ أي وليسَ حينُ مناصٍ حاصلاً لهم وعلى الثَّانِي مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ أي ولا حينُ مناصٍ كائنٌ لهم وقُرىء بالكسرِ كما في قوله

طلبُوا صلحَنا ولاتَ أوان . . . فأجبنا أنْ لاتَ حينِ بقاءِ

إمَّا لأنَّ لاتَ تجرُّ الأحيانَ كما أنَّ لولا تجرُّ الضَّمائرَ في نحوِ قوله

لولاكَ هذا العامَ لم أحجُجِ . . . أو لأنَّ أوانٍ شُبِّه بإذْ في قوله

نهيتُكَ عن طِلابِكَ أمَّ عمرو . . . بعافيةٍ وأنتَ إذٍ صحيحُ

(221/658)

في أنَّه زمانٌ قُطع منه المضافُ إليه وعُوِّض التَّنوين لأنَّ أصلَه أوانُ صُلحٍ ثم حُمل عليه حينِ مناصٍ تنزيلاً لقطعِ المضافِ إليه من مناصٍ إذْ أصلُه حينَ مناصِهم منزلةَ قطعِه من حينٍ لما بينَ المضافينِ من الإتِّحادِ ثمَّ بُني الحينُ لإضافتِه إلى غيرِ مُتمكِّنٍ . وقُرِىء لاتِ بالكسرِ كجَيْرِ . ويقفُ الكوفيُّون عليها بالهاءِ كالأسماءِ والبصريُّون بالتاءِ كالأفعالِ . وما قيل : منْ أنَّ التَّاءَ مزيدةٌ على حينٍ لاتِّصالِها به في الإمامِ مما لا وجهَ له فإنَّ خطَّ المصحفِ خارجٌ عن القياسِ .

﴿ وَعَجِبُواْ أَن جَاءَكُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ حكايةٌ لأباطيلِهم المتفرِّعةِ على ما حُكي من استكبارِهم وشقاقِهم أي عجبُوا من أنْ جاءهم رسولٌ من جنسِهم بل أدونُ منهم في الرِّياسةِ الدُّنيويَّةِ والمالِ على معنى أنَّهم عدُّوا ذلك أمراً عجيباً خارجاً عن احتمالِ الوقوعِ وأنكرُوه أشدَّ الإنكارِ لا أنَّهم اعتقدُوا وقوعَه وتعجَّبوا منه ﴿ وَقَالَ الكافرون ﴾ وُضعَ

فيه الظَّاهرُ موضعَ الضَّميرِ غضباً عليهم وإيذاناً بأنَّه لا يتجاسرُ على مثل ما يقولونَه إلا المتوغِّلون في الكُفر والفسوق ﴿ هذا ساحر ﴾ فيما يُظهره من الخوارقِ ﴿ كَذَّابٌ ﴾ فيما يُسنده إلى الله تعالى من الإرسالِ والإنزالِ ﴿ أَجَعَلَ الالهة إلها واحدا ﴾ بأنْ نفى الأُلوهيَّةَ عنهم وقَصرَها على واحدٍ ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ بليغٌ في العَجَبِ وذلك لأنَّه خلافُ ما أَلِفُوا عليهِ آباءَهم الذينَ أجمعُوا على ألوهيَّتِهم وواظبُوا على عبادتِهم كابراً عن كابرٍ فإنَّ مدارَ كلِّ ما يأتُون وما يذرُون من أمورِ دينِهم هو التَّقليدُ والاعتيادُ فيعدُّون ما يخالفُ ما اعتادُوه عجيباً بل مُحالاً .

(222/658)

وأما جعلُ مدارِ تعجبِهم عدمَ وفاءِ علمِ الواحدِ وقدرتِه بالأشياءِ الكثيرةِ فلا وجهَ له لما أنَّهم لا يدَّعُون أنَّ لآلهتِهم علماً وقدرةً ومدخلاً في حدوثِ شيءٍ من الأشياءِ حتَّى يلزمَ من نفي ألوهيَّتِهم بقاءُ الآثارِ بلا مُؤثِّرٍ . وقُرِىء عجَّاب بالتَّشديدِ وهو أبلغُ ككُرامٍ وكرَّامٍ . (رُوي أنَّه لما أسلَم عمرُ رضي الله عنه شقَّ ذلك على قُريشٍ فاجتمعَ خمسةٌ وعشرونَ من صناديدِهم فأتَوا أبَا طالبٍ فقالُوا أنتَ شيخُنا وكبيرُنا وقد علمتَ ما فعلَ هؤلاءِ السُّفهاءُ وقد جئناكَ لتقضِيَ بيننا وبينَ ابنِ أخيكَ فاستحضرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ،

وقال : يا ابنَ أخِي هؤلاءِ قومُك يسألونَك السُّؤالَ فلا تمل كلَّ الميلِ على قومِك فقالَ صلى الله عليه وسلم : " ماذَا تسألونِني " قالُوا ارفُضنا وارفُض ذكَر آلهتِنا وندعكَ وإلهَك فقالَ صلى الله عليه وسلم : " أرأيتُم إنْ أعطيتُكم ما سألتُم أمعطيَّ أنتُم كلمةً واحدةً تملكونَ بها العربَ وتدينُ لكم بها العجمُ " قالُوا نعم وعشراً فقال : " قولُوا لا إلَه إلاَّ الله " فقامُوا وقالُوا ذلكَ .

(223/658)

﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ ﴾ أي وانطلقَ الأشرافُ من قريشٍ عن مجلسِ أبي طالبٍ بعد ما بكَّتهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالجوابِ العتيدِ وشاهدُوا تصلُّبَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الدِّينِ وعزيمتَه على أنْ يُظهره على الدِّينِ كلِّه ويئسُوا ممَّا كانُوا يرجونَه بتوسطِ أبي طالبٍ من المصالحةِ على الوجهِ المذكورِ ﴿ أَنِ امشوا ﴾ أي قائلين بعضِهم لبعضٍ على وجهِ النَّصيحةِ امشُوا ﴿ وَاْصْبِرُواْ على ءالِهَتِكُمْ ﴾ أي واثبتُوا على عبادتِها متحمِّلين لما تسمعُونه في حقِّها من القدحِ ، وأنْ هي المفسِّرةُ ، لأنَّ الانطلاقَ عن مجلسِ التقاولِ لا يخلُو عن القولِ . وقيل : المرادُ بالانطلاقِ الاندفاعُ في القولِ وامشُوا من مشتِ المرأةُ إذا كثرتْ ولادتُها ومنه الماشيةُ للتفاؤلِ أي اجتمعُوا واكثرُوا . وقُرِىء امشُوا بغيرِ أنْ على إضمارِ القولِ

وقُرِىء يمشُون أنِ اصبرُوا ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالصَّبرِ أو لوجوبِ الامتثالِ به أي هذا الذي شاهدناهُ من محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم من أمرِ التَّوحيدِ ونفي آلهتِنا وأبطالِ أمرِها لشيءٌ يُراد أي من جهتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إمضاؤُه وتنفيذُه لا محالةَ من غيرِ صارفٍ يلويهِ ولا عاطفٍ يثنيهِ ، لا قولٌ يقال من طرفِ اللِّسان أو أمرٌ يُرجى فيه المسامحةُ بشفاعةٍ أو امتنانٍ فاقطعُوا أطماعَكم عن استنزالِه من رأيِه بوساطة أبي طالبٍ وشفاعته وحسبكم أي لا تمنعوا من عبادةِ آلهتِكم بالكلِّية فاصبروا علها وتحمَّلوا ما تسمعونَه في حقِّها من القدحِ وسُوءِ القالةِ . وقيل : إنَّ هذا الأمر لشيءٌ يريده الله تعالى ويحكم بإمضائِه وما أرادَ الله كونَه فلا مردَّ له ولا ينفعِ فيه إلاَّ الصَّبرُ ، وقيل : إن هذا الأمرَ لشيءٌ من نوائب الدَّهرِ يُراد بنا فلا انفكاكَ لنا منه وقيل : إنَّ دينَكم لشيءٌ يُراد أي يُطلب ليؤخذَ منكم وتُغلبوا عليه . وقيل : إنَّ هذا الذي

(224/658)

يدَّعيهِ من التَّوحيدِ أو يقصدُه من الرِّياسةِ والتَّرفعِ على العرب والعجم لشيءٌ يُتمنَّى ويرُيده كلُّ أحدٍ فتأمَّل في هذه الأقاويلِ واخترْ منها ما يساعدُه النَّظمُ الجليلُ ﴿ مَّا سَمِعْنَا بهذا ﴾ الذي يقولُه ﴿ فِى الملة الآخرة ﴾ أي المِلَّةِ النَّصرانيةِ التي هي آخرُ الملل فإنَّهم مُثلِّثةٌ أو في

المِلَّةِ التي أدركنا عليها آباءَنا . ويجوزُ أن يكون الجارُّ والمجرور حالاً من هذا أي ما سمعنا بهذا من أهلِ الكتابِ ولا الكُهَّانِ كائناً في المِلَّة المترقبة ولقد كذبُوا في ذلك أقبح كذب فإنَّ حديثَ البعثةِ والتَّوحيدِ كان أشهرَ الأمورِ قبل الظُّهور ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي ما هذا ﴿ إِلاَّ اختلاق ﴾ أي كذبٌ اختلَقه .

(225/658)

﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ أي القرآن ﴿ مِّن بَيْنِنَا ﴾ ونحن رؤساءُ النَّاسِ وأشرافُهم كقولهم : ﴿ لولا نزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتينِ عظيمٍ ﴾ ومرادهم إنكارُ كونه ذكراً منزَّلاً من عند الله عزَّ وجلَّ كقولهم : (لو كان خيراً ما سبقُونا إليه) وأمثالُ هذه المقالاتِ الباطلة ودليلٌ على أنَّ مناطَ تكذيبهم ليس إلاَّ الحسدُ وقِصرُ النَّظرِ على الحُطام الدنيويِّ ﴿ بْل هُمْ فِى شَكّ مِّن ذِكْرِى ﴾ أي من القرآنِ أو الوحي لميلهم إلى التَّقليدِ وإعراضِهم عن النَّظرِ في الأدِلَّةِ المؤدِّية إلى العلمِ بحقِّيته وليس في عقيدتِهم ما يبتُّون به فهم مذبذبون بين الأوهامِ ينسبونه تارةً إلى السِّحرِ وأخرى إلى الاختلاقِ ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ أي بل لم يذوقُوا بعد عذابي فإذا ذاقُوه تبيَّن لهم حقيقةُ الحال ، وفي لَمَّا دلالةٌ على أنَّ ذوقَهم على شرف الوقوع والمعنى أنهم لا يصدِّقون به حتى يمسَّهم العذاب وقيل لم يذوقوا عذابَى الموعودَ في

القرآنِ ولذلك شكُّوا فيه ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العزيز الوهاب ﴾ بل أعندهم خزائنُ رحمتِه تعالى يتصرَّفون فيها حسبما يشاءون حتَّى يُصيبوا بها من شاءوا ويُصرفُوها عمَّن شاءوا ويتحكَّموا فيها بمقتضي آرائِهم فيتخيَّروا للنُّبوةِ بعضَ صناديدهم . والمعنى أنَّ النُّبوةَ عطيةٌ من الله عزَّ وجلَّ يتفضَّلُ بها على مَن يشاءُ من عباده المصطَفينَ لا مانع له فإنَّه العزيزُ أي الغالبُ الذي لا يُغالب الوهَّابُ الذي له أنْ يهبَ كلَّ ما يشاءُ لكلِّ مَن يشاءُ . وفي إضافةِ اسم الربِّ المنبىء عن التَّربيةِ والتَّبليغِ إلى الكمال إلى ضميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من تشريفه واللُّطفِ به ما لا يَخْفى ، وقولُه تعالى : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ترشيحٌ لما سبق أي بل ألهُم ملكُ هذه العوالمِ العُلويةِ والسُّفليةِ حتَّى

(226/658)

يتكلَّموا في الأمورِ الرَّبانيةِ ويتحكَّموا في التَّدابيرِ الإلهيةِ التي يستأثرُ بها ربُّ العزَّةِ والكبرياءِ . وقولُه تعالى :

﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِى الاسباب ﴾ جوابُ شرطٍ محذوفٍ أي إنْ كان لهم ما ذُكر من الملك فليصعدُوا في المعارجِ والمناهج التي يتوصَّلُ بها إلى العرشِ حتَّى يستووا عليه ويدبِّروا أمر العالم ويُنزلوا الوحيَ إلى مَن يختارون ويستصوبُون وفيه من التَّهكُّمِ بهم ما لا غايةَ وراءه .

والسَّبَبُ في الأصل هو الوصلةُ وقيل : المرادُ بالأسبابِ السَّمواتُ لأنَّها أسبابُ الحوادثِ السُّفليةِ وقيل أبوابُها . ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الاحزاب ﴾ أي هم جندٌ ما من الكُفَّارِ المتحزِّبين على الرُّسلِ مهزومٌ مكسورٌ عمَّا قريب فلا تُبالِ بما يقولون ولا تكترثْ بما يهذُون . ومَا مزيدةٌ للتَّقليلِ والتَّحقيرِة نحو قولِك أكلتُ شيئاً ما ، وقيل : للتَّعظيمِ على الهُزءِ . وهنالك إشارةٌ إلى حيثُ وضعُوا فيه أنفسَهم من الانتدابِ لمثل ذلك القولِ العظيمِ . وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ ذُو الاوتاد ﴾ الخ استئناف مقررٌ لمضمون ما قبله ببيانِ أحوالِ العُتاةِ الطُّغاةِ الذين هؤلاءِ جندٌ ما جنودهم ممَّا فعلوا من التَّكذيبِ وفعل بهم من العقابِ . وذُو الأوتادِ معناه ذُو المُلك الثَّابتَ أصلُه من ثبات البيت المطنَّبِ بأوتادِه فاستُعير لثبات الملكِ ورسوخِ السَّلطنةِ واستقامةِ الأمرِ . قال الأسودُ بن يَعْفُر

وَلَقَد غَنُوا فيها بأَنْعمِ عِيْشة . . . فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابتِ الأَوْتَادِ

(227/658)

أو ذُو الجموعِ الكثيرةِ وسُمُّوا بذلك لأنَّ بعضَهم يشدُّ بعضاً كالوتدِ يشدُّ البناءَ وقيل : نصبَ أربعَ سوار وكان يمدُّ يَدَيْ المعذَّبِ ورجليه إليه ويضربُ عليها أوتاداً ويتركُه حتَّى يموتَ .

وقيل : كان يمدُّه بين أربعةِ أوتادٍ في الأرض ويرسلُ عليه العقاربَ والحيَّاتِ . وقيل : كانت له أوتادٌ وحبالٌ يلعب بها بين يديه ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وأصحاب الئيكة ﴾ أصحابُ الغَيضةِ من قومِ شُعيبٍ عليه السَّلامُ وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الاحزاب ﴾ إمَّا بدلٌ من الطَّوائفِ المذكورة كما أنَّ ذلك الكتابُ بدلٌ من ألم على أحدِ الوجوه وفيه فضلُ تأكيدٍ وتنبيهٌ على أنَّهم الذين جُعل الجندُ المهزومُ منهم وقوله تعالى : ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل ﴾ استئنافٌ جيء به تقريراً لتكذيبِهم وبياناً لكيفيَّتِه وتمهيداً لما يعقُبه أي ما كلُّ أحدٍ من آحادِ أولئكَ الأحزابِ أو ما كلُّ حزبٍ منُهم إلا كذَّبَ الرُّسلَ لأنَّ تكذيبَ واحد منهم تكذيبٌ لهم جميعاً لاتّفاقِ الكلِّ على الحقِّ . وقيل ما كلُّ حزبٍ إلاَّ كذَّب رسولَه على نهجِ مقابلةِ الجمعِ بالجمعِ ، وأيّاً ما كان فالاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ العام في خبر المبتدأ ، أي ما كلُّ أحدٍ منهم محكوماً عليه بحكم إلا محكومٌ عليه بأنه كذَّب الرُّسلَ وقيل ما كلُّ واحدٍ منهم مُخبَراً عنه بخبرٍ إلا مخبَرٌ عنه بأنَّه كذَّب الرُّسلَ وفي إسناد التَّكذيبِ إلى الطَّوائفِ المذكُورةِ على وجهِ الإبهامِ أوّلاً والإيذانِ بأنَّ كُلاًّ منهم حزبٌ على حيالِه تحزَّب على رسولِه ثانياً وتبيينِ كيفيةِ تكذيبِهم بالجملةِ الاستثنائيةِ ثالثاً فنونٌ من المبالغة مسجَّلةٌ عليهم باستحقاقِ أشدِّ العذابِ وأفظعِه ولذلك رُتّب عليه قولُه تعالى : ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أي ثبتَ ووقعَ على كلِّ منُهم عقابي الذي كانتْ تُوجبه جناياتُهم من أصنافِ العقوباتِ المفصَّلةِ في مواقعِها وإما مبتدأٌ .

وقوله

(228/658)

تعالى : ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل ﴾ خبرُه بحذفِ العائدِ أي إنْ كلٌّ منهم الخ والجملةُ استئنافٌ مقررٌ لما قبله مؤكّدٌ لمضمونِه مع ما فيه من بيانِ كيفيةِ تكذيبهم والتَّنبيهِ على أنَّهم الذين جُعل الجندُ المهزومُ منهم كما ذُكر وقيل : هو مبتدأٌ وخبرٌ ، والمَعنْى أنَّ الأحزابَ الذين جُعل الجندُ المهزومُ منهم هُم هُم وأنَّهم الذينُ وجد منهم التَّكذيبُ فتدبَّر . وأمَّا ما قيل مِن أنَّه خبرٌ والمبتدأُ قوله تعالى : ﴿ وَعَادٌ ﴾ الخ أو قوله : ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ الخ فممَّا يجب تنزيُه ساحةِ التَّنزيلِ عن أمثالِه .

(229/658)

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلآء ﴾ شروعٌ في بيانِ عقابِ كُفَّارِ مكَّة إثر بيانِ عقابِ أضرابِهم من الأحزابِ الذين أُخبر فيما سبقَ بأنَّهم جندٌ حقيرٌ منهم مهزومٌ عن قريبٍ فإنَّ ذلكَ ممَّا يوجبُ انتظارَ السَّامعِ وترقبه إلي بيانه قطعاً ، وفي الإشارةِ إليهم بهؤلاء تحقيرٌ لشأنِهم وتهوينٌ لأمرِهم ، وأمَّا جعلُه إشارةً إلى الأحزابِ باعتبارِ حضورِهم بحسبِ الذِّكرِ أو حضورِهم في علمِ

الله عزَّ وجلَّ فليس في حيّزِ الاحتمالِ أصلاً كيف لا والانتظار سواءٌ كان حقيقةً أو استهزاءً إنَّما يُتصوَّر في حقِّ من لم يترتب على أعمالِه نتائجُها بعْد ، وبعدَ ما بيّن عقابُ الأحزابِ واستئصالُهم بالمرَّةِ لم يبقَ ممَّا أُريد بيانُه من عقوباتهم أمرٌ منتظرٌ وإنَّما الذين في مرصدِ الأنتظارِ كفَّارُ مكَّةَ حيث ارتكبُوا من عظائمِ الجرائم وكبائرِ الجرائرِ الموجبة لأشدِّ العقوباتِ مثلَ ما ارتكب الأحزابُ أو أشدَّ منه ولمَّا يلاقوا بعد شيئاً من غوائِلها أي وما ينتظرُ هؤلاءِ الكَفَرةُ الذين هم أمثالُ أولئك الطَّوائفِ المهلكة في الكُفرِ والتَّكذيب ﴿ إلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ هي النَّفخةُ الثَّانيةُ لا بمعني أنَّ عقابهم نفسُها بما فيها من الشّدَّةِ والهَوْلِ فإنَّها داهيةٌ يعمُّ هولُها جميعَ الأُممِ برَّها وفاجرِها بل بمعنى أنَّه ليس بينهم وبين حلولِ ما أُعدَّ لهم من العقاب الفظيعِ إلاَّ هي حيثُ أُخّرتْ عقوبتُهم إلى الآخرةِ لما أنَّ تعذيبَهم بالاستئصال حسبما يستحقُّونه . والنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بين أظهرهم خارجٌ عن السُّنَّةِ الإلهيَّةِ المبنية على الحكم الباهرةِ كما نطقَ به قولُه تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ وأمَّا ما قيل : مِن أنَّها النَّفخةُ الأُولى فممَّا لا وجهَ له أصلاً لما أنَّه لا يشاهدُ هولَها ولا يُصعقُ بها إلاَّ من كانَ حيَّاً عند وقوعِها وليس عقابُهم الموعودُ

واقعاً عقيبها ولا العذابُ المطلَقُ مؤخَّراً إليها بل يحلُّ بهم من حينِ موتِهم ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ أي من توقُّفٍ مقدار فَوَاقٍ وهو ما بين الحَلْبتينِ . وقُرِىء بضمّ الفاءِ وهُما لغتانِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ حكايةٌ لما قالُوه عند سماعِهم بتأخيرِ عقابِهم إلى الآخرةِ أي قالوا بطريقِ الاستهزاءِ والسُّخريةِ عجِّل لنا قطَّنا من العذابِ الذي تُوعدنا به ولا تؤخِّره إلى يومِ الحسابِ الذي مبدؤه الصَّيحةُ المذكورةُ . والقطُّ : القطعةُ من الشَّيءِ من قطَّه إذا قطَعه ، ويقالُ لصحيفةِ الجائزةِ قطٌّ لأنَّها قطعةٌ من القرطاسِ ، وقد فسِّر بها أي عجِّل لنا صحيفةَ أعمالِنا لننظرَ فيها . وقيل ذكرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وعدَ الله تعالى المؤمنينَ الجنَّةَ فقالُوا على سبيلِ الهُزءِ به عجِّلْ لنا نصيبنَا منها . وتصديرُ دُعائِهم بالنِّداءِ المذكورِ للإمعانِ في الاستهزاءِ كأنَّهم يدعُون ذلك بكمالِ الرَّغبةِ والابتهالِ .

(231/658)

﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ من أمثالِ هذه المقالاتِ الباطلةِ ﴿ واذكر ﴾ لهم ﴿ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ أي قصَّتَه تهويلاً لأمرِ المعصيةِ في أعينهم وتنبيهاً لهم على كمالِ قُبحِ ما اجترؤُا عليه من المَعاصي فإنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع علوِّ شأنِه واختصاصِه بعظائمِ النِّعمِ

والكراماتِ لمَّا ألمَّ بصغيرةٍ نزلَ عن منزلتِه ووبَّخْته الملائكةُ بالتَّمثيلِ والتَّعريضِ حتَّى تفطَّنَ فاستغفرَ ربَّه وأنابَ ووُجد منه ما يُحكى من بكائِه الدَّائبِ وغمِّه الواصبِ وندمِه الدَّائمِ فما الظنُّ بهؤلاءِ الكَفَرةِ والأذلِّينَ من كلِّ ذليلٍ المرتكبينَ لأكبرِ الكبائرِ المصرِّين على أعظمِ المَعَاصي أو تذكَّر قصَّته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وصُنْ نفسَك أنْ تزلَّ فيما كُلِّفت من مصابرتِهم وتحمُّلِ أذيَّتِهم كيلا يلقاكَ ما لقيه من المعاتبةِ ﴿ ذَا الايد ﴾ أي ذَا القُوَّة يقال فلانٌ أيدٌ وذُو أيدٍ وآدٌ بمعنى ، وإيادُ كلِّ شيءٍ ما يُتقوَّى بهِ ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ رجَّاعٌ إلى مرضاةِ الله تعالى وهو تعليلٌ لكونِه ذَا الأيدِ ودليلٌ على أنَّ المرادَ به القُوَّةُ في الدِّينِ فإنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً ويقوم نصفَ اللَّيلِ .

(232/658)

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ ﴾ استئنافٌ سيقَ لتعليلِ قوَّتِه في الدِّينِ وأوابيَّتِه إلى مرضاتِه تعالى ومع متعلقة بالتَّسخيرِ ، وإيثارُها على اللامِ لما أُشيرَ إليه في سورةِ الأنبياءِ من أنَّ تسخيرَ الجبالِ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يكن بطريقِ تفويضِ التَّصرُّفِ الكلِّي فيها إليهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كتسخيرِ الرِّيحِ وغيرِها لسليمانَ عليه السَّلامُ بل بطريقِ التَّبعيةِ له عليه الصلاَّةُ والسَّلامُ والاقتداء به في عبادةِ الله تعالى . وقيل : بما بعدَها وهو أقربُ بالنسبةِ إلى

ما في سورة الأنبياء عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ أي يُقدسن الله عزَّ وجلَّ بصوتٍ يتمثلُ له أو بخلقِ الله تعالى فيها الكلامَ أو بلسانِ الحالِ وقيل : يسرن معه من السِّباحةِ وهو حالٌ من الجبالِ وضع موضعَ مُسبِّحات للدّلالةِ على تجدُّدِ التَّسبيحِ حالاً بعد حالٍ أو استئنافٌ مبينٌ لكيفيَّةِ التَّسخيرِ ﴿ بالعشى والإشراق ﴾ أي وقتَ الإشراقِ وهو حين تشرقُ الشَّمسُ أي تُضيء ويصفُو شعاعُها وهو وقت الضُّحى وأما شروقُها فطلُوعها يقال شرقتِ الشَّمسُ ولمَّا تشرقُ . وعن أمِّ هانىءٍ رضي الله عنها أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ صلَّى صلاة الضحى وقالَ : هذهِ الإشراقُ . وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهُمَا : ما عرفتُ صلاةَ الضُّحى إلاَّ بهذِه الآيةِ .

(233/658)

﴿ والطير ﴾ عطفٌ على الجبالَ ﴿ مَحْشُورَةً ﴾ حالٌ من الطَّيرَ والعاملُ سخَّرنا أي وسخَّرنا الطَّيرَ حال كونِها محشورةٌ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما كانَ إذا سبَّح جاوبْتُه الجبالُ بالتَّسبيحِ واجتمعتْ إليه الطَّيرُ فسبَّحتْ وذلك حشرُها . وقُرىء والطَّيرَ محشُورةً بالرَّفعِ على الابتداءِ والخبريةِ ﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ استئنافٌ مقررٌ لمضمون ما قبله مصرِّحٌ بما فُهم منه إجمالاً من تسبيحِ الطَّيرِ أي كلُّ واحدٍ من الجبالِ والطَّيرِ لأجلِ تسبيحِه رجَّاعٌ إلى

التَّسبيحِ ووضعُ الأوَّابِ موضعَ المسبّحِ إمَّا لأنَّها كانتْ ترجّعِ التَّسبيحَ والمرجّعُ رجَّاعٌ لأنَّه يَرْجعُ إلى فعله رجوعاً بعد رجوعٍ ، وإمَّا لأنَّ الأوَّابَ هو التَّوابُ الكثيرُ الرجوعِ إلى الله تعالى ، ومن دأبه إكثارُ الذِّكرِ وإدامةُ التَّسبيحِ والتَّقديسِ وقيل الضَّميرُ لله عزَّ وجلَّ أي كلٌّ من داودَ والجبالِ والطَّيرِ لله أوابٌ أي مسبّحٌ مرجّعٌ للتَّسبيحِ ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ قوَّيناهُ بالهَيبةِ والنُّصرةِ وكثرةِ الجنودِ . وقُرِىء بالتَّشديدِ للمبالغة قيل : كان يبيتُ حول محرابه أربعون ألفَ مستلئمٍ وقيل : ادَّعى رجلٌ على آخرَ بقرةً وعجزَ عن إقامةِ البيّنةِ فأوحى الله تعالى إليه في المنامِ أنِ اقتل المدَّعى عليهِ فتأخَّرَ فأُعيد الوحيُ في اليقظةِ فأعلَمه الرَّجلُ فقال : إنَّ الله تعالى لَمْ يأخذْني بهذا الذَّنبِ ولكنْ بأنِّي قتلتُ أبا هَذا غيلةً فقال النَّاسُ : إنْ أذنبَ أحدٌ ذنباً أظهرَهُ الله تعالى عليه فقتلَه فهابُوه وعظمتْ هيبتُه في القلوب ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ النُّبوةَ وكمالَ العلمِ وإتقانَ العملِ وقيل : الزَّبورَ وعلمَ الشَّرائعِ وقيل : كلُّ كلامٍ وافقَ الحقَّ فهو حكمةٌ ﴿ وَفَصْلَ الخطاب ﴾ أي فصل الخصام بتمييزِ الحقِّ عن الباطل أو الكلامَ المُلخَّصَ الذي ينبه المخاطَب على المرامِ من غير

(234/658)

التباس لما قد رُوعي فيه مظانُّ الفصل والوصل والعطفِ والاستئنافِ والإظهارِ والإضمارِ والحذفِ والتَّكرارِ ، وإنَّما سُمِّي به أمَّا بعدُ لأنَّه يفصل المقصودَ عمَّا سبق تمهيداً له كالحمدِ والصَّلاةِ وقيل : هو الخطابُ الفصلُ الذي ليس فيه إيجازٌ يخلُّ ولا إطنابٌ مُملٌّ كما جاء في نعت كلام النُّبوةِ فَصْلٌ لا نَزْر ولا هَذْر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(235/658)

وقال الآلوسى :

﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾

على ما يتجدد من أمثال هذه المقالات الباطلة المؤذية ﴿ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ أي اذكر لهم قصته عليه السلام تعظيماً للمعصية في أعينهم وتنبيهاً لهم على كمال قبح ما اجترؤا عليه فإنه عليه السلام مع علو شأنه وإيتائه النبوة والملك لما ألم بما هو خلاف الأولى ناله ما ألمه وأدام غمه وندمه فما الظن بهؤلاء الكفرة الأذلين الذين لم يزالوا على أكبر الكبائر مصرين أو اذكر قصته عليه السلام في نفسك وتحفظ من ارتكاب ما يوجب العتاب ، وقيل إنه تعالى أمره عليه الصلاة والسلام أن يذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الذين عرض لهم ما عرض

فصبروا حتى فرج الله تعالى عنهم وأحسن عاقبتهم ، ترغيباً له في الصبر وتسهيلاً لأمره عليه وإيذاناً ببلوغ ما يريده بذلك ، وهو كما ترى ، وقيل أمره بالصبر وذكر قصص الأنبياء ليكون ذلك برهاناً على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم ، والذكر على هذا والأول لساني وعلى ما بينهما قلبي وهو مراد من فسر ﴿ اذكر ﴾ على ذلك بتذكر ﴿ ذَا الايد ﴾ أي ذا القوة يقال فلان أيد وذو أيد وذو آد وأياد بمعنى وأياد كل شيء ما يتقوى به .

﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى وطاعته عز وجل ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس .

ومجاهد أنهما قالا : الأواب المسبح ، وعن عمرو بن شرحبيل أنه المسبح بلغة الحبشة ، وأخرج الديلمي عن مجاهد قال : سألت ابن عمر عن الأواب فقال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عنه فقال : هو الرجل يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله تعالى ، وهذا إن صح لا يعدل عنه ، والجملة تعليل لكونه عليه السلام ذا الأيد وتدل بأي معنى كان الأواب فيها على أن المراد بالأيد القوة الدينية وهي القوة على العبادة كما قال مجاهد .

وقتادة .

والحسن .

وغيرهم إذ لا يحسن التعليل لو حملت القوة على القوة في الجسم ، نعم قد كان عليه السلام قوي الجسم أيضاً إلا أن ذلك غير مراد هنا ؛ وفي التعبير عنه بعبدنا ووصفه بذي الأيد والتعليل بما ذكر دلالة على كثرة عبادته ووفور طاعته .

وقد أخرج البخاري في تاريخه عن أبي الدرداء قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر داود وحدث عنه قال : كان أعبد البشر ، وأخرج الديلمي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لأحد أن يقول إني أعبد من داود ، وروي أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وكان يقوم نصف الليل وفي ذلك دلالة على قوته في العبادة لما في كل من الصيام والقيام المذكورين من ترك راحة تذكرها قريباً .

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ ﴾ استئناف لبيان قصته عليه السلام ، وجوز كونه لتعليل قوته في الدين وأوا بيته إلى الله عز وجل ، ومع متعلقة بسخر ، وإيثارها على اللام لأن تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلي فيها إليه كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام بل بطريق الاقتداء به في عبادة الله تعالى .

وأخر الظرف المذكور عن ﴿ الجبال ﴾ وقدم في سورة الأنبياء فقيل : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودُ الجبال ﴾ [الأنبياء : 79] قال بعض الفضلاء : لذكر داود .

وسليمان ثمت فقدم مسارعة للتعيين ولا كذلك هنا ، وجوز تعلقها بقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ وهو أقرب بالنسبة إلى آية الأنبياء ، وتسبيحهن تقديس بلسان قال لائق بهن نظير تسبيح الحصى المسموع في كف النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : تقديس بلسان الحال وتقييد بالوقتين المذكورين بعد يأباه إذ لا اختصاص لتسبيحهن الحالي بهما وكذا لا اختصاص له بكونه معه ، وقيل المعنى يسرن معه على أن يسبحن من السباحة ، والجملة حال من ﴿ الجبال ﴾ والعدول عن مسبحات مع أن الأصل في الحال الأفراد للدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال نظير ما في قول الأعشى

: لعمري لقد لاحت عيون كثيرة . . .

إلى ضوء نار في يفاع تحرق

وجوز أن تكون مستأنفة لبيان كيفية التسخير ومقابلتها بمحشورة هنا كالمعينة للحالية ﴿ بالعشى ﴾ هو كما قال الراغب : من زوال الشمس إلى الصباح أي يسبحن بهذا الوقت وليس ذلك نصاً في استيعابه بالتسبيح ﴿ والإشراق ﴾ أي ووقت الإشراق ، قال ثعلب : يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت وصفت فوقت الإشراق وقت

ارتفاعها عن الأفق الشرقي وصفاء شعاعها وهو الضحوة الصغرى ، وروي عن أم هانىء بنت أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الضحى وقال : هذه صلاة الإشراق ، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء الخراساني أن ابن عباس قال : لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى قرأت هذه الآية ﴿ يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق ﴾ وفي رواية عنه أيضاً ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية ، ووجه فهم الحبر إياها من الآية أي كل تسبيح ورد في القرآن فهو عنده ما لم يرد به التعجب والتنزيه بمعنى الصلاة فحيث كانت صلاة لداود عليه السلام وقصت على طريق المدح علم منه مشروعيتها .

(238/658)

وفي "الكشف" وجهه أن الآية دلت على تخصيصه عليه السلام ذينك الوقتين بالتسبيح وقد علم من الرواية أنه كان يصلي مسبحاً فيهما فحكى في القرآن ما كان عليه وإن لم يذكر كيفيته فيكون في الآية ذكر صلاة الضحى وهو المطلوب أو نقول : إن تسبيح الجبال غير تسبيح داود عليه السلام لأن الأول مجاز فحمل تسبيح داود على المجاز أيضاً لأن المجاز بالمجاز أنسب اه .

وتعقب بأنه إذا علم من الرواية فكيف يقال إنه أخذه من الآية والتجوز ينبغي تقليله ما أمكن ، وهذا بناءً على أن ﴿ مَعَهُ ﴾ متعلق بيسبحن حتى يكون هو عليه السلام مسبحاً أي مصلياً وإلا فتسبيح الجبال لا دلالة له على الصلاة ، ومع هذا ففيه حينئذٍ جمع بين معنيين مجازيين إلا أن يقال به ، أو يجعل بمعنى يعظمن ويجعل تعظيم كل محمولاً على ما يناسبه ، وبعد اللتيا والتي لا يخلو عن كدر ، وارتضى الخفاجي الأول وأراه لا يخلو عن كدر أيضاً .

وقال الجلبي : في ذلك يجوز أن يقال : تخصيص هذين الوقتين بالذكر دل على اختصاصهما بمزيد شرف فيصلح ذلك الشرف سبباً لتعيينهما للصلاة والعبادة فإن لفضيلة الأزمنة والأمكنة أثراً في فضيلة ما يقع فيهما من العبادات ، وهذا عندي أصفى مما تقدم ، ويشعر به ما أخرجه الطبراني في الأوسط .

وابن مردويه عن ابن عباس قال : كنت أمر بهذه الآية ﴿ يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق ﴾ فما أدري ما هي حتى حدثتني أم هانىء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى يوم فتح مكة صلاة الضحى ثمان ركعات فقال ابن عباس : قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة لقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق ﴾ هذا ولهم في صلاة الضحى كلام طويل والحق سنيتها وقد ورد فيها كما قال الشيخ ولي الدين ابن العراقي : أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة حتى قال محمد بن جرير الطبري أنها بلغت مبلغ التواتر .

ومن ذلك حديث أم هانىء الذي في "الصحيحين" وزعم أن تلك الصلاة كانت صلاة شكر لذلك الفتح العظيم صادفت ذلك الوقت لا أنها عبادة مخصوصة فيه دون سبب أو أنها كانت قضاء عما شغل صلى الله عليه وسلم تلك الليلة من حزبه فيها خلاف ظاهر الخبر السابق عنها .

وكذا ما رواه أبو داود من طريق كريب عنها أنها قالت صلى عليه الصلاة والسلام سبحة الضحى ، ومسلم في كتاب الطهارة من طريق أبي مرة عنها أيضاً ففيه ثم صلى ثماني ركعات سبحة الضحى .

وابن عبد البر في التمهيد من طريق عكرمة بن خالد أنها قالت : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فصلى ثمان ركعات فقلت ما هذه الصلاة ؟ قال : هذه صلاة الضحى ، واحتج القائلون بالنفي بحديث عائشة إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم وما سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحة الضحى قط وإني لأسبحها ، رواه البخاري .

ومسلم .

وأبو داود .

وأبو مالك ، وحمله القائلون بالإثبات على نفي رؤيتها ذلك لما أنه روي عنها مسلم .

وأحمد .

وابن ماجه أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله تعالى ، وقد شهد أيضاً بأنه عليه الصلاة والسلام كان يصليها على ما قال الحاكم أبو ذر الغفاري وأبو سعيد .

وزيد بن أرقم .

وأبو هريرة .

وبريدة الأسلمي ، وأبو الدرداء .

وعبد الله بن أبي أوفى .

وعتبان بن مالك .

وعتبة بن عبد السلمي .

ونعيم بن همام الغطفاني .

وأبو أمامة الباهلي .

وأم هانىء .

وأم سلمة .

ومن القواعد المعروفة أن المثبت مقدم على النافي مع أن رواية الإثبات أكثر بكثير من رواية النفي وتأويلها أهون من تأويل تلك ، وذكر الشافعية أنها أفضل التطوع بعد الرواتب لكن النووي في شرح المهذب قدم عليها صلاة التراويح فجعلها في الفضل بين الرواتب والضحى والمذهب عنهم وجوبها عليه صلى الله عليه وسلم وأن ذلك من خصوصياته عليه الصلاة والسلام ، واحتج له بما أخرجه ابن العربي بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب على النحر ولم يكتب عليكم وأمرت بصلاة الضحى ولم تؤمروا بها " رواه الدارقطني أيضاً ، وقال شيخ الحفاظ أبو الفضل بن حجر : إنه لم يثبت ذلك في خبر صحيح ، وفي الأخبار ما يعكر على القول به ، وذكر أن أقلها ركعتان لخبر البخاري عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام أوصاه بهما وأن لا يدعهما ، وأدنى كمالها أربع لما صح كان صلى الله عليه وسلم يصلى الضحى أربعاً ويزيد ما شاء فست فثمان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة لخبر ضعيف يعمل به في مثل ذلك ، وذهب الكثير إلى أن الأكثر ثمان .

وذكروا أنها أفضل من اثنتي عشرة والعمل القليل قد يفضل الكثير فما يقتضيه أجرك على قدر نصبك أغلبي .

وصرح ابن حجر الهيتمي عليه الرحمة بالمغايرة بين صلاة الضحى وصلاة الإشراق قال :

ومما لا يسن جماعة ركعتان عقب الإشراق بعد خروج وقت الكراهة وهي غير الضحى ، وتقدم لك ما يفيد اتحادهما ويدل عليه غير ذلك من الأخبار ، وصح إطلاق صلاة الأوابين على صلاة الضحى كإطلاقها على الصلاة المعروفة بعد المغرب ، هذا وتمام الكلام فيها في كتب الفقه والحديث .

﴿ والطير ﴾ عطف على ﴿ الجبال ﴾ [ص : 18] على ما هو الظاهر .

(241/658)

﴿ مَحْشُورَةً ﴾ حال من ﴿ الطير ﴾ والعامل ﴿ سخرنا ﴾ [ص : 18] أي وسخرنا الطير حال كونها محشورة ، عن ابن عباس كان عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت وذلك حشرها ، ولم يؤت بالحال فعلاً مضارعاً كالحال السابقة ليدل على الحشر الدفعي الذي هو أدل على القدرة وذلك بتوسط مقابلته للفعل أو لأن الدفعية هي الأصل عند عدم القرينة على خلافها .

وقرأ ابن أبي عبلة .

والجحدري ﴿ والطير مَحْشُورَةٌ ﴾ برفعهما مبتدأ وخبراً ، ولعل الجملة على ذلك حال من ضمير ﴿ يسبحن ﴾ [ص : 18] ﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما

قبله مصرح بما فهم منهم إجمالاً من تسبيح الطير ، واللام تعليلية ، والضمير لداود أي كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجاع إلى التسبيح ، ووضع الأواب لأن الأواب موضع المسبح إما لأنها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لأنه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع وإما لأن الأواب هو التواب الكثير الرجوع إلى الله تعالى كما هو المشهور ومن دأبه إكثار الذكر وإدامة التسبيح والتقديس ، وقيل يجوز أن يكون المراد كل من الطير فالجملة للتصريح بما فهم ، وكذا يجوز أن يراد كل من داود عليه السلام ومن الجبال والطير والضمير لله تعالى أي كل من داود والجبال والطير لله تعالى أواب أي مسبح مرجع للتسبيح .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ومزيد النعمة ، واقتصر بعضهم على الهيبة ، والسدي على الجنود ، وروى عنه ابن جرير .

والحاكم أنه كان يحرسه كل يوم وليلة أربعة آلاف .

وحكي أنه كان حول محرابه أربعون ألف مستلئم يحرسونه ، وهذا في غاية البعد عادة مع عدم احتياج مثله عليه السلام إليه ، وكذا القول الأول كما لا يخفى على منصف ، وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ادعى رجل من بني إسرائيل عند داود عليه السلام رجلاً ببقرة فجحده فسئل البينة فلم تكن بينة فقال لهما عليه السلام : قوماً حتى أنظر في أمركما فقاما من عنده فأتى داود في منامه فقيل له : اقتل الرجل المدعى عليه فقال : إن هذه رؤيا ولست أعجل فأتى الليلة الثانية فقيل له : اقتل الرجل فلم يفعل ثم أتى الليلة الثالثة فقيل له : اقتل الرجل أو تأتيك العقوبة من الله تعالى فأرسل عليه السلام إلى الرجل فقال : إن الله تعالى أمرني أن أقتلك فقال : تقتلني بغير بينة ولا ثبت قال نعم : والله لأنفذن أمر الله عز وجل فيك فقال له الرجل لا تعجل علي حتى أخبرك إني والله ما أخذت بهذا الذنب ولكنني كنت اغتلت والد هذا فقتلته فبذلك أخذت فأمر به داود عليه السلام فقتل فعظمت بذلك هيبته في بني إسرائيل وشد به ملكه .

وقرأ ابن أبي عبلة بشد الدال ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ النبوة وكمال العلم وإتقان العمل ، وقيل الزبور وعلم الشرائع ، وقيل كل كلام وافق الحكمة فهو حكمة ﴿ وَفَصْلَ الخطاب ﴾ أي فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل فالفصل بمعناه المصدري والخطاب الخصام لاشتماله عليه أو لأنه أحد أنواعه خص به لأنه المحتاج للفصل أو الكلام الذي يفصل بين الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، والصواب والخطأ وهو كلامه عليه السلام في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات ، فالخطاب الكلام المخاطب به والفصل مصدر

بمعنى اسم الفاعل أو الكلام الذي ينبه المخاطب على المقصود من غير التباس يراعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والاضمار والحذف والتكرار ونحوها فالخطاب بمعنى الكلام المخاطب به أيضاً والفصل مصدر إما بمعنى اسم الفاعل أي الفاصل المميز للمقصود عن غيره أو بمعنى اسم المفعول أي المقصود أي الذي فصل من بين أفراد الكلام بتلخيصه مراعاة ما سمعت فيه أو الذي فصل بعضه عن بعض ولم يجعل ملبساً مختلطاً .

(243/658)

وجوز أن يراد بفصل الخطاب الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل كما جاء في وصف كلام نبينا صلى الله عليه وسلم : " لا نزر ولا هذر "
فالخطاب بمعنى الكلام المخاطب به كام سلف والفصل إما بمعنى الفاصل لأن القصد أي المتوسط فاصل بين الطرفين وهما هنا المختصر المخل والمطنب الممل أو لأن الفصل والتمييز بين المقصود وغيره أظهر تحققاً في الكلام القصد لما في أحد الطرفين من الإخلال وفي الطرف الآخر من الاملال المفضي إلى إهمال بعض المقصود وإما بمعنى المفصول ون الكلام المذكور مفصول مميز عند السامع على المخل والممل بسلامته عن الاخلال والإملال

، والإضافة على الوجه الأول من إضافة المصدر إلى مفعوله وعلى ما عداه من إضافة الصفة لموصوفها ، وما روي عن علي كرم الله تعالى وجهه .

والشعبي وحكاه الطبرسي عن الأكثرين من أن فصل الخطاب هو قوله : البينة على المدعى واليمين على المدعى عليه فقيل هو داخل في فصل الخطاب على الوجه الثاني فإن فيه الفصل بين المدعى عليه وهو من الفصل بين الحق والباطل ، وجاء في بعض الروايات هو إيجاب البينة على المدعى عليه فلعله أريد أن فصل الخطاب على الوجه الأول أعني فصل الخصام كان بذاك وجعله نفسه على سبيل المبالغة ، وما روي عن ابن عباس .

ومجاهد .

والسدى من أنه القضاء بين الناس بالحق والإصابة والفهم فهو ليس شيئاً وراء ما ذكر أولاً ، وأخرج ابن جرير عن الشعبي وابن أبي حاتم .

(244/658)

والديلمي عن أبي موسى الأشعري أن فصل الخطاب الذي أوتيه عليه السلام هو أما بعد ، وذكر أبو موسى أنه عليه السلام أول من قال ذلك فقيل : هو داخل في فصل الخطاب وليس فصل الخطاب منحصراً فيه لأنه يفصل المقصود عما سيق مقدمة له من الحمد والصلاة أو

من ذكر الله عز وجل مطلقاً ، وظاهره اعتبار فصل الخطاب بمعنى الكلام الذي ينبه المخاطب على المقصود إلى آخر ما مر ، ويوهم صنيع بعضهم دخوله فيه باعتبار المعنى الثاني لفصل الخطاب ولا يتسنى ذلك ، وحمل الخبر على الانحصار مما لا ينبغي إذ ليس في إيتاء هذا اللفظ كثير امتنان ، ثم الظاهر أن المراد من أما بعد ما يؤدي مؤداه من الألفاظ لا نفس هذا اللفظ لأنه لفظ عربي وداود لم يكن من العرب ولا نبيهم بل ولا بينهم فالظاهر أنه لم يكن يتكلم بالعربية ، والذي يترجح عندي أن المراد بفصل الخطاب فصل الخصام وهو يتوقف على مزيد علم وفهم وتفهيم وغير ذلك فايتاؤه يتضمن إيتاء جميع ما يتوقف هو عليه وفيه من الامتنان ما فيه ، ويلائمه أتم ملاءمة قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(245/658)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ اصْبِرْ ﴾ : يا محمد .

﴿ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ ؛ أي : ما يقوله كفار قريش من المقالات الباطلة التي من جملتها قولهم في تعجيل العذاب ربنا عجل لنا إلخ .

فعن قريب سينزل الله نصرك ويعطيهم سؤلهم .

قال شاه الكرماني : الصبر ثلاثة أشياء ترك الشكوى وصدق الرضا وقبول القضاء بحلاوة القلب .

قال البقلي : كان خاطر النبي عليه السلام أرق من ماء السماء بل ألطف من نور العرش والكرسي من كثرة ما ورد عليه من نور الحق فلكمال جلاله في المعرفة كان لا يحتمل مقالة المنكرين وسخرية المستهزئين ، لا أنه لم يكن صابراً في مقام العبودية .

﴿ وَاذْكُرْ ﴾ : من الذكر القلبي ؛ أي : وتذكر .

﴿ عَبْدَنَآ ﴾ : المخصوص بعنايتنا القديمة .

﴿ دَاوُۥدَ ﴾ : ابن إيشا من سبط يهودا بن يعقوب عليه السلام بينه وبين موسى عليه السلام خمسمائة وتسع وستون سنة .

وقام بشريعة موسى وعاش مائة سنة .

﴿ ذَا الأيدِ ﴾ : يقال : آد يئيد أيداً مثل باع يبيع بيعاً اشتد وقوي .

والأيد : القوة كما في "القاموس" والقوة الشديدة كما في "المفردات" ؛ أي : ذا القوة في الدين القائم بمشاقه وتكاليفه .

وفي "الكواشي" : ويجوز أن يراد القوة في الجسد والدين .

انتهى .

واعلم أنه تعالى ذكر أولاً قوة داود في أمر الدين ثم زلته بحسب القضاء الأزلي ، ثم توبته بحسب العناية السابقة وأمره عليه السلام بذكر حاله وقوته في باب الطاعة ليتقوى على الصبر ولا يزل عن مقام استقامته وتمكينه كما زل قدم داود فظهرت المناسبة بين المسندين واتضح وجه عطف واذكر على اصبر .

﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ : من الأوب ، وهو الرجوع ؛ أي : رجاع إلى الله ومرضاته ؛ أي : عن كل ما يكره الله إلى ما يحب الله ، وهو تعليل لكونه ذا الأيد .

ودليل على أن المراد به القوة في أمر الدين وما يتعلق بالعبادة لا قوة البدن ؛ لأن كونه راجعاً إلى مرضاة الله لا يستلزم كونه قوي البدن .

(246/658)

وقد روى أنه لم يكن جسيماً كسائر الأنبياء بل قصير القامة ، وأكثر القوى البدنية كان فيمن زاده الله بسطة في جسمه .

"وفي التأويلات النجمية" : تشير الآية إلى كماليته في العبودية بأنه لم يكن عبد الدنيا ولا عبد الآخرة ، وإنما كان عبدنا خالصاً ومخلصاً وله قوة في العبودية ظاهراً وباطناً .

فأما قوته ظاهراً فبأنه قتل جالوت ، وكثيراً من جنوده بثلاثة أحجار رماها عليهم وأما قوته

في الباطن فلأنه كان أواباً وقد سرت أوابيته في الجبال والطير ، فكانت تؤوب معه انتهى .

ومن قوة عبادة داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وذلك أشد الصوم ، وكان ينام النصف الأول من الليل ويقوم النصف الأخير منه مع سياسة الملك .

وفي بعض التفاسير كان ينام النصف الأول من الليل ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وهو الموافق لما في المشارق من قوله عليه السلام : "أحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وأحب الصلاة إلى الله" ؛ أي : في النوافل : "صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه" ، وإنما صار هذا النوع أحب ؛ لأن النفس إذا نامت الثلثين من الليل تكون أخف وأنشط في العبادة .

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ ﴾ : بيان لفضله مع داود ؛ أي : ذللناها ومع متعلق بالتسخير وإيثارها على اللام لكون تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق تفويض التصرف فيها إليه كتسخير الريح وغيرها لسليمان سيرها معه بطريق تفويض التبعية له ، فتكون مع على حالها ، ويجوز أن تكون مع متعلقة بما بعدها .

وهو قوله : ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ ؛ أي : حال كونها تقدس الله تعالى مع داود لم يقل مسبحات للدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال .

قال في "كشف الأسرار" : كان داود يسمع ويفهم تسبيح الجبال على وجه تخصيصه به كرامة له ومعجزة .

انتهى .

واختلفوا في كيفية التسبيح ، فقيل : بصوت يتمثل له وهو بعيد .

وقيل : بلسان الحال ، وهو أبعد .

(247/658)

وقيل : بخلق الله في جسم الجبل حياة وعقلاً وقدرة ونطقاً فحينئذٍ يسبح الله كما يسبح الأحياء العقلاء .

وهذا لسان أهل الظاهر ، وأما عند أهل الحقيقة فسر الحياة سار في جميع الموجودات حيواناً أو نباتاً أو جماداً ، فالحياة في الكل حقيقة لا عارضية أو حالية أن تمثيلية لكن إنما يدركها كُمَّل المكاشفين فتسبيح الجبال مع داود على حقيقته لكن لما كان على كيفية مخصوصة وسماعه على وجه غريب خارج عن العقول كان من معجزات داود عليه السلام وكراماته .

وقد سبق مراراً تحقيق هذا المقام بما لا مزيد عليه من الكلام .

﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ : في آخر النهار .

﴿ وَالاشْرَاقِ ﴾ : في أول النهار ووقت الإشراق هو حين تشرق الشمس ؛ أي : تضيء .

ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى .

وأما شروقها فطلوعها .

يقال : شرقت الشمس ولما تشرق .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : كنت أمر بهذه الآية ولا أدري ما هي حتى حدثتني أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم دخل عليها يوم فتح مكة فدعا بوضوء فتوضأ .

وفي "البخاري" : واغتسل في بيتها ثم صلى الضحى ثماني ركعات .

وقال : "يا أم هانيء هذه صلاة الإشراق" .

ومن هنا قال بعضهم : من دخل مكة وأراد أن يصلي الضحى أول يوم اغتسل وصلاها كما فعله عليه السلام يوم فتح مكة .

وقال بعضهم : صلاة الضحى غير صلاة الإشراق كما دل عليه قوله عليه السلام : "من صلى الفجر بجماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كان له كأجر حجة وعمرة تامة تامة" .

وهي صلاة الإشراق كما في "شرح المصابيح" وقوله عليه السلام : "صلاة الأوابين حين ترمض الفصال من الضحى" .

والمعنى : أن صلاة الضحى تصلى إذا وجد الفصيل حرّ الشمس من الرمضاء ؛ أي : من الأرض التي اشتد حرها من شدة وقع الشمس عليها ، فإن الرمض : شدة وقع الشمس على الرمل وغيره والفصيل الذي يفصل ويفطم عن الرضاع من الإبل وخص الفصال هنا بالذكر ؛ لأنها التي ترمض لرقة جلد رجلها .

(249/658)

وفيه إشارة إلى مدحهم بصلاة الضحى في الوقت الموصوف ؛ لأن الحر إذا اشتد عند ارتفاع الشمس تميل النفوس إلى الاستراحة ، فيرد على قلوب الأوابين المستأنسين بذكر الله تعالى أن ينقطعوا عن كل مطلوب سواه .

يقول الفقير : يمكن التوفيق بين الروايتين بوجهين :

الأول : يحتمل أن يكون الإشراق من أشرق القول إذا دخلوا في الشروق ؛ أي : الطلوع ، فلا يدل على الضحى الذي هو الوقت المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها .

والثاني : أن أول وقت صلاة الإشراق هو أن ترتفع الشمس قدر رمح وآخر وقتها هو أول وقت صلاة الضحى فصلاة الضحى في الغداة بإزاء صلاة العصر في العشي ، فلا ينبغي أن

تصلى حتى تبيض الشمس طالعة ويرتفع كدرها بالكلية وتشرق بنورها كما يصلى العصر إذا اصفرت الشمس .

فقوله عليه السلام : "هذه صلاة الإشراق" ، إما بمعنى : أنها إشراق بالنسبة إلى آخر وقتها ، وإما بمعنى : أنها ضحى باعتبار أول وقتها .

قال الشيخ عبد الرحمن البسطامي قدس سره في "ترويح القلوب" يصلي أربع ركعات بنية صلاة الإشراق فقد وردت السنة يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة سورة الشمس وضحاها .

وفي الثانية : والليل إذا يغشى ، وفي الثالثة : والضحى .

وفي الرابعة : ألم نشرح لك .

ثم إذا حان وقت صلاة الضحى ، وهو إذا انتصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر يصلي صلاة الضحى .

وأقلّ صلاة الضحى : ركعتان أو أربع ركعات أو أكثر إلى ثنتي عشرة ركعة ولم ينقل أزيد منها بثلاث تسليمات وإن شئت بست تسليمات ورد في فضلها أخبار كثيرة من صلاها ركعتين ، فقد أدى ما عليه من شكر الأعضاء لأن الصلاة عمل بجميع الأعضاء التي في البدن ، ومن صلاها ثنتي عشرة ركعة بني له قصر من ذهب في الجنة وللجنة باب يقال له : الضحى .

فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : أين الذين كانوا يدومون على صلاة الضحى هذا بابكم ،

فادخلوه برحمة الله عزّ وجلّ .

﴿ وَالطَّيْرَ ﴾ : عطف على الجبال .

(250/658)

جمع طائر كركب وراكب ، وهو كل ذي جناح يسبح في الهواء .

﴿ مَحْشُورَةً ﴾ : حال من الطير ، والعامل سخرنا ؛ أي : وسخرنا الطير حال كونها محشورة مجموعة إليه من كل جانب وناحية : وبالفارسية : (جمع كرده شد نزد وى وصف زده بالاى سروى) .

وكانت الملائكة تحشر إليه ما امتنع عليه منها كما في "كشف الأسرار" عن ابن عباس رضي الله عنهما : كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت . وذلك حشرها وإنما لم يراع المطابقة بين الحالين ، بأن يقال : يحشرن ؛ لأن الحشر جملة أدل على القدرة منه متدرجاً كما يفهم من لفظ المضارع .

﴿ كُلٌّ ﴾ ؛ أي : كل واحد من الجبال والطير ﴿ لَهُ ﴾ ؛ أي : لأجل داود لأجل تسبيحه ، فهو على حذف المضاف .

﴿ أَوَّابٌ ﴾ : رجاع إلى التسبيح إذا سبح سبحت الجبال والطير معه :

ووضع الأواب موضع المسبح ؛ لأنها كانت ترجح التسبيح والمرجع رجاع ؛ لأنه يرجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع .

والفرق بينه وبين ما قبله وهو يسبحن .

أن يسبحن يدل على الموافقة في التسبيح .

وهذا يدل على المداومة عليها .

وقيل : الضمير ؛ أي : كل من داود والجبال والطير أواب ؛ أي : مسبح مرجع .

التسبيح والترجيع بالفارسية (نغمت كردانيدن) . روي . أن الله تعالى لم يعط أحداً من خلقه ما أعطى داود من حسن الصوت ، فلما وصل إلى الجبال ألحان داود تحركت من لذة السماع فوافقته في الذكر والتسبيح ولما سمعت الطيور نغماته صفرت بصفير التنزيه والتقديس ولما أصغت الوحوش إلى صوته ودنت منه حتى كانت تؤخذ بأعناقها فقبل الكل فيض المعرفة والحالة بحسب الاستعداد إلا ترى إلى الهدهد والبلبل والقمرى والحمامة ونحوها .

فالتأثر والحركة والبكاء ونحوها ليست من خواص الإنسان فقط بل إذا نظرت بنظر الحقيقة وجدتها في الحيوانات بل في الجمادات أيضاً لكونها أحياء بالحياة الحقيقية كما أشير إليه فيما سبق .

قال بعض كبار المكاشفين : سبحت الجبال وكذا الطير لتسبيح داود ليكون له عملها ، لأن تسبيحها لما كان لتسبيحه منتشأ منه لا جرم يكون ثوابه عائداً إليه لا إليها لعدم استحقاقها لذلك بخلاف الإنسان فإنه إذا وافقه إنسان آخر في ذكره وتسبيحه ، أو عمل بقوله يكون له مثل ثواب ذكره وتسبيحه لإحيائه وإيقاظه فهو صيده ، وأحق به ، وإنما كان يسبح الجبال والطير لتسبيحه ، لأنه لما قوي توجهه عليه السلام بروحه إلى معنى التسبيح والتحميد سرى ذلك إلى أعضائه وقواه ؛ فإنها مظاهر روحه ومنها إلى الجبال والطير فإنها صور أعضائه وقواه في الخارج ، فلا جرم يسبحن لتسبيحه وتعود فائدة تسبيحها إليه وخاصية العشي والإشراق أن فيهما زيادة ظهور أنوار قدرته وآثار بركة عظمته ، وأن وقت الضحى وقت صحو أهل السكر من خمار شهود المقامات المحمودة ، وأن العشي وقت إقبال المصلين إلى المناجاة وعرض الحاجات .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ : قوينا ملكه بالهيبة والنصرة ونحوهما .

وقيل : كان أربعون ألف لابسي درع يحرسونه ، فإذا أصبح قيل : ارجعوا فقد رضي عنكم نبي الله وكان نبينا عليه السلام يحرس أيضاً إلى نزول قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (المائدة : 67) .

ومن ذلك أخذ السلاطين الحرس في السفر والحضر فلا يزالون يحرسونهم في الليالي ولهم

أجر في ذلك .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ادعى رجل على رخر بقرة وعجز عن إقامة البينة فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : أن اقتل المدعى عليه فأعلم الرجل فقال : صدقت يا نبي الله ، إن الله لم يأخذني بهذا الذنب .

(252/658)

ولكن بأني قتلت أبا هذا غيلة ، فقتله فقال الناس : إن أذنب أحد ذنباً أظهره الله عليه فقتله فهابوه ، وعظمت هيبته في القلوب .

والغيلة : بالكسر هو أن يخدع شخصاً فيذهب به إلى موضع فإذا صار إليه قتله .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ ؛ أي : العلم بالأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاه إن كان متعلقاً بكيفية العمل .

واعلم أن الحكمة نوعان :

أحدهما : الحكمة المنطوق بها وهي علم الشريعة والطريقة .

والثاني : الحكمة المسكوت عنها وهي أسرار الحقيقة التي لا يطلع عليها عوام العلماء على ما ينبغي فيضرهم أو يهلكهم .

كما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان يجتاز في بعض سكك المدينة مع أصحابه فأقسمت عليه امرأة أن يدخلوا منزلها ، فدخلوا فرأوا ناراً موقدة وأولاد المرأة يلعبون حولها ، فقالت : يا نبي الله أرحم بعباده أم أنا بأولادي ، فقال عليه السلام : "بل الله أرحم فإنه أرحم الراحمين" .

فقالت : يا رسول الله أتراني أحب أن ألقي ولدي في النار فقال : "لا" .

فقالت : فكيف يلقي الله عبيده فيها ، وهو أرحم بهم .

قال الراوي : فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال : "هكذا أوحي إلي" .

﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ : لبيان تلك الحكمة على الوجه المفهم كما في "شرح الفصوص" للمولى الجامي رحمه الله ، فيكون بمعنى الخطاب الفاصل ؛ أي : المميز والمبين ، أو الخطاب المفصول ؛ أي : الكلام الملخص الذي ينبه المخاطب على المرام من غير التباس .

وفي "شرح الجندي" : يعني الإفصاح بحقيقة الأمر وقطع القضايا والأحكام باليقين من غير ارتياب ، ولا شك ولا توقف ، فيكون بمعنى فصل الخصام بتمييز الحق من الباطل ، فالفصل على حقيقته ، وأريد بالخطاب المخاصمة لاشتمالها عليه .

وفي "التأويلات النجمية" : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ : في الظاهر بأن جعلناه أشد ملوك الأرض في الباطن بأن ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ .

والحكمة : هي أنواع المعارف من المواهب وفصل الخطاب بيان تلك المعارف بأدل دليل وأقل قليل .

انتهى .

وإنما سمي به .

أما بعد ، لأنه يفصل المقصود عما سبق تمهيداً له من الحمد والصلاة .

وقال زياد : أول من قال في كلامه أما بعد داود عليه السلام ، فهو فصل الخطاب ورد بأنه لم يثبت عنه أنه تكلم بغير لغته .

وأما بعد لفظة عربية وفصل الخطاب الذي أوتيه داود هو فصل الخصومة كما في "إنسان العيون" .

اللهم إلا أن يقال إن صح هذا القول لم يكن ذلك بالعربية على هذا النظم وإنما كان بلسانه عليه السلام .

وقال عليّ رضي الله عنه : فصل الخطاب أن يطلب البينة من المدعي ويكلف اليمين من أنكر ، لأن كلام الخصوم لا ينقطع ولا ينفصل إلا بهذا الحكم .

قالوا : كان قبل ذلك قد علق الله سلسلة من السماء وأمره بأن يقضي بها بين الناس ، فمن كان على الحق يأخذ السلسلة وتصل يده إليها .

ومن كان ظالماً لا يقدر على أخذ السلسلة ثم قال المدعى عليه : خذ مني العصا ، فأخذ عصاه فقال : إني دفعت اللؤلؤ إليه وإني صادق في مقالتي فجاء وأخذ السلسلة ، فاتفق أن رجلاً غصب من رجل آخر لؤلؤاً فجعل اللؤلؤ في جوف عصاه ، ثم خاصم المدعي إلى داود عليه السلام ، فقال : إن هذا قد أخذ لؤلؤاً وإني صادق في مقالتي فجاء وأخذ السلسلة فتحير داود في ذلك ورفعت السلسلة وأمر عليه السلام بأن يقضي بالبينات والإيمان فذلك قوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ ، يعني : العلم والفهم وفصل الخطاب يعني القضاء بالبينات والإيمان على الطالبين والمدعى عليهم كذا في "تفسير الإمام أبي الليث" رحمه الله .

وكان الحكم في شرعنا أيضاً بذلك ؛ لأنه أسدّ الطرق وأحسن الوسائل في كل مسألة من المسائل لكل سائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 8 صـ 17 . 23 ﴾

(255/658)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ » .

الأمر بالصبر : هو دعوة من اللّه سبحانه وتعالى إلى النبي الكريم ، بالمصابرة ، واحتمال المكروه من هؤلاء المكذبين ، وما يقولون من منكر القول ، كقولهم هذا : « عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ ! » . فإن لهؤلاء الظالمين يوما يجعل الولدان شيبا . .

(256/658)

وقوله تعالى : « وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ » أي واذكر فى هذا المقام الذي تدعى فيه إلى الصبر . « اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ . . إِنَّهُ أَوَّابٌ » ففى ذكره فى هذا المقام ما تجد فيه الروح الأنس ، لما يتمثل لك من سيرته ، التي يقصها اللّه عليك . .

والأيد : القوة . . وهى مأخوذة من اليد ، التي تتمثل فيها قوة الإنسان الجسدية . . ثم إنها ليست يدا واحدة ، بل أيديا كثيرة . . وإذن فهى قوة خارقة . .

والقوة هنا ليست قوة جسدية . وحسب . بل هى قوة روحية ونفسية أيضا ، تشتمل على طاقات عظيمة ، من الصبر على المكاره ، واحتمال الشدائد . .

والأوّاب : كثير الأوب ، والأوب هو الرجوع إلى المكان الذي كان منه الذهاب . . فهو

رجوع بعد ذهاب . . وقد غلب الأوب على المعنويات ، كما غلب الإياب على الماديات . .

والمراد بالرجوع هنا ، الرجوع إلى اللّه ، والاستقامة على طريقه ، بعد ميل عنه . .

فالأواب : هو الراجع إلى اللّه مرة بعد مرة . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً » (25 : الإسراء) .

والسؤال هنا هو :

لما ذا كان داود عليه السلام هو المثل الذي يقيمه النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - بين عينيه ، وهو بشدّ عزمه بالصبر على ما يقول قومه من زور وبهتان فيه ؟ وهل فى داود - عليه السلام - فصل خاص فى هذا المقام ، لم يبلغه الأنبياء ؟ إن القرآن يحدثنا عن إسماعيل ، وإدريس ، وذى الكفل ، على أنهم المثل البارز فى الصبر الكامل . . فيصفهم سبحانه بالصبر ، مجتمعين ، فيقول

سبحانه : « وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ » (85 : الأنبياء) ويقول سبحانه عن أيوب : « إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » ويقول سبحانه على لسان

إسماعيل لأبيه : « سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » فما تأويل هذا ؟ .

والجواب - والله أعلم - هو من وجوه :

فأولا : ليس المراد بالأمر الموجه من الله سبحانه ، للنبى - صلوات الله وسلامه عليه - بذكر داود عليه السلام ، فى مقام إلفات النبي إلى الصبر ، وإلى إقامة أمره عليه - ليس المراد به التأسى بهذا النبي الكريم ، وإنما المراد به الحذر من أن تطرقه حال من أحوال الضعف البشرى ، فيقع منه ما وقع من داود ، فيما كان موضع ندم منه ، واستغفار لربه ، وتوبة إليه . .

إن داود - عليه السلام - كان مع ما وصفه الله سبحانه به من قوة وأيد - غير قادر على مواجهة الفتنة التي ابتلى بها مواجهة كاملة ، فكان منه هذا الذي وقع منه ، والذي استغفر له ربه ، فغفر له . . فالنبى عليه الصلاة والسلام ، مطالب بأن يكون على عزم وقوة ، أشد وأقوى مما كان عليه داود ، من عزم وقوة ، لأنه فى وجه فتنة أعظم وأشد من فتنة داود . . فالأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - هم بشر قبل أن يكونوا أنبياء ورسلا . . والنبوة والرسالة ، لم تنزع عنهم ثوب البشرية ، وإن ألبستهم النبوة والرسالة حلل الصفاء ، والنقاء ، والطهر ، ولكنها مع هذا ، لم تسلبهم نوازع البشرية ، وضروراتها . . وإلا لكانوا خلقا آخر غير خلق الناس ، ولكانوا أبعد من أن يعيشوا فى دنيا الناس ، وأن يألفهم الناس ويألفوا الناس . .

والأنبياء ـ صلوات اللّه وسلامه عليهم ـ على هذا الحساب ، ليسوا على درجة واحدة .

وإن كانوا جميعا على قمة البشرية كلها ، فهم درجات ومنازل

(258/658)

عند اللّه . . وفى هذا يقول اللّه تعالى : « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ » (253 : البقرة) . . ولو أنهم كانوا على الكمال المطلق ، لكانوا درجة واحدة . . ولكنهم ـ على حدود الكمال البشرى ـ فى أعلى منازله . . وهم فى هذه الحدود ، درجات ومنازل . .

وثانيا : ليس هذا التأويل الذي ذهبنا إليه فى قوله تعالى : « وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ » ـ من أنه ليس مرادا به التأسى به ، وإنما المراد هو تخطّى هذا الحد الذي وقف عنده داود عليه السلام وتجاوزه ، فى مقام الصبر ، والعزم ـ نقول ليس هذا التأويل بالذي ينقص من قدر هذا النبي الكريم ، وإنما هو وضع له فى المقام الكريم الذي وضعه اللّه فيه ، وإن كان فوق هذا المقام مقامات ومقامات ! ! .

وهذا كلام قد لا يهضمه كثير من أهل العلم ، أو أدعياء العلم . . ويعدّونه تطاولا على مقام الأنبياء ، وعدوانا على عصمتهم . . ومن يدرى فقد يذهب ببعضهم الشطط إلى أن

يقولوا إن هذا كفر ! ! ونقول لهؤلاء مهلا . . فإننا على الإيمان بالله وبرسل الله ، وعلى التوقير لهم ، والصلاة والسلام عليهم . .

ومع هذا ، فإننا سنقول هذا القول ، لأنه مما تنطق به آيات الله ، وتجرى عليه سنة الحياة البشرية ، وترضاه العقول السليمة ، وتطمئن إليه القلوب المؤمنة .

ثم نسأل : إذا كان ما قلناه فى تأويل الآية الكريمة ، مما يعدّ تطاولا على مقام هذا النبي الكريم . . فماذا عند من ينكر هذا التأويل - من تأويل لقوله تعالى للنبى صلوات الله وسلامه عليه : « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » (48 - 50 : القلم) . .

ماذا فى تأويل قوله تعالى : « وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ » ؟ أليس فى هذا

إلفات للنبى الكريم ، ألا يكون على حال من الصبر كحال هذا النبي الكريم ، « يونس » عليه السلام ؟ أليس هذا صريح منطوق الآية الكريمة ؟ وهل هذا مما يضير يونس عليه السلام ؟ وهل ينقص ذلك من قدره فى موازين الناس ؟

وكلا ، فإنه وهو على تلك الحال كان بمنزلته العالية ، وبمقامه الكريم عند ربه ، الذي يقول سبحانه عنه : « فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » .

وثالثا : لم يكن من محامل الآية الكريمة ، وهى تحمل إلى النبي - صلوات الله وسلامه عليه - هذا التحذير الخفي من أن يكون على مستوى النبي الكريم « داود » فى مقام الصبر - لم يكن من محاملها شىء يمس مقام هذا النبي الكريم ، بل لقد حملت الآية الكريمة مع هذا ألطافا كثيرة من عند الله إلى عبده « داود » . . كلها تنويه به ، ورفع لقدره ، وإحسان بعد إحسان إليه ، وكفى داود شرفا وفضلا أن يكون عبدا لله ، مضافا إلى ذاته جل وعلا . . ثم إن فى قوله تعالى : « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ » عدولا عن اللفظ الذي يدل على الاحتراس والحذر والتجنب ، إلى اللفظ « اذكر » الذي لا يكون إلا فى مقام الإحسان وتذكر النعم . . ثم جاء بعد هذا إضافة داود إلى الله سبحانه وتعالى ، إضافة عبودية ، الأمر الذي لا يناله إلا المخلصون الأصفياء من عباد الله . .

ثم جاء بعد هذا وصفه بأنه « ذو الأيد » أي القوة والصبر على ما يبتلى به من ربه من منح أو منع . . ثم أتبع هذا الوصف بوصف آخر ، وهو أنه « أواب » أي كثير الأوب والرجوع إلى الله ، إذا هو شعر بأنه لم يؤد لله ما يجب فى مواقع الابتلاء ، من شكر ، أو صبر . .

ثم يذكر بعد هذا ما ساق الله إليه من سوابغ رحمته المادية والروحية معا ، فيقول سبحانه : « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ » . .

فهذه وهى الجبال أبرز وجوه ما على الأرض من عوالم ، تستجيب له ، وتأنم به ، وتسبّح للّه معه . . وهذه الطيور التي تبسط سلطانها فى

(260/658)

الجو ، تحشر إليه - بقدرة اللّه - من كل صوب ، . وكأنها بعض جنوده من البشر تسبّح اللّه معه ، وتردد ما يسبح به . .

ثم يقول سبحانه : « وَشَدَدْنا مُلْكَهُ » أي أعطيناه ملكا ، وثبتنا له قواعده ، « وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ » أي إلى جانب هذا الملك المتمكن ، آتيناه نبوة ، وعلما ، تتكشف له بهما موارد الأمور ومصادرها ، فيقيمها على ميزان العدل والإحسان . . ثم يقع لداود النبي - وهو قائم على سياسة هذا الملك الذي بين يديه - يقع له ابتلاء ، فيهتز ميزان العدل فى يده ، ويجد لهذا نحسة فى ضميره ، فيرجع إلى اللّه تائبا مستغفرا ، فيلقى من ربه قبولا ومغفرة ، ويكسى حلل الرضا والإحسان ، فيقول سبحانه : « فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ » وهكذا يفعل اللّه لعباده المؤمنين . . يبتليهم ، ثم يعافيهم ، ليريهم مواقع رحمته بهم ، وإحسانه إليهم ، فيزدادون حمدا له ، وقربا منه . . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 12 صـ 1059 . 1064 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) ﴾

أعقب حكاية أقوالهم من التكذيب ابتداء من قوله : ﴿ وقَالَ الكافرون هذا ساحِرٌ كذَّابٌ ﴾ [ص : 4] إلى هنا ، بأمرِ الله رسولَه صلى الله عليه وسلم بالصبر على أقوالهم إذ كان جميعها أذى : إما صريحاً كما قالوا : ﴿ ساحر كذَّاب ﴾ وقالوا : ﴿ إن هذا إلا اختلاقٌ ﴾ [ص : 7] ﴿ إن هذا لشيء يُرادُ ﴾ [ص : 6] ، وإمّا ضِمناً وذلك ما في سائر أقوالهم من إنكار ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والاستهزاء بقولهم : ﴿ ربَّنَا عَجِل لنا قِطَّنَا ﴾ [ص : 16] من إثبات أن الإله واحد ، ويشمل ما يقولونه مما لم يحك في أول هذه السورة .

وقوله : ﴿ واذكر عبدنا داوودَ ﴾ إلى آخره يجوز أن يكون عطفاً على قوله : ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ بأن أُتبع أمره بالصبر وبالائتساء ببعض الأنبياء السابقين فيما لَقُوه من الناس ثم كانت لهم عاقبة النصر وكشف الكرب .

ويجوز أن يكون عطفاً على مجموع ما تقدّم عطْفَ القصة على القصة والغرض هو هو .

وابتدىء بذكر داود لأن الله أعطاه مُلْكاً وسلطاناً لم يكن لآبائه ففي ذكره إيماء إلى أن شأن محمد صلى الله عليه وسلم سيصير إلى العزة والسلطان ، ولم يكن له سلف ولا جند فقد كان حال النبي صلى الله عليه وسلم أشبه بحال داود عليه السلام .

وأدمج في خلال ذلك الإيماء إلى التحذير من الضجر في ذات الله تعالى واتقاءِ مراعاة حظوظ النفس في سياسة الأمة إبعاداً لرسوله صلى الله عليه وسلم عن مهاوي الخطأ والزلَل وتأديباً له في أول أمره وآخره مما أن يتلقى بالعَذَل .

وكان داود أيضاً قد صبر على ما لقِيَه من حسد شاول (طالوت) ملك إسرائيل إياه على انتصاره على جالوت ملك فلسطين .

(262/658)

فالمصدر المتصرِّف منه ﴿ واذكر عبدنا داوود ﴾ هو الذكر بضم الذال وهو التذكُّر وليس هو ذِكر اللسان لأنه إنما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك لتسليته وحفظ كماله لا لِيُعْلمه المشركين ولا لِيُعْلِمه المسلمين على أن كِلا الأمرين حاصل تبعاً حين إبلاغ المنزَّل في شأن داود إليهم وقراءته عليهم .

ومعنى الأمر بتذكر ذلك تذكر ما سبق إعلام النبي صلى الله عليه وسلم به من فضائله

وتذكير ما عسى أن يكون لم يعلمه مما يعلم به في هذه الآية .

ووصفُ داود بـ ﴿ عَبْدَنَا ﴾ وصفُ تشريف بالإِضافة بقرينة المقام كما تقدم عند قوله : ﴿ إلا عباد اللَّه المخلصين ﴾ في سورة [الصافات : 40] .

و ﴿ الأَيد ﴾ : القوة والشدة ، مصدر : آدَ يئيد ، إذا اشتدّ وقَوي ، ومنه التأييد التقوية ، قال تعالى : ﴿ فآواكم وأيدكم بنصره ﴾ في سورة [الأنفال : 26] .

(وكان داود قد أعطي قوة نادرة وشجاعة وإقداماً عجيبين وكان يرمي الحجر بالمقلاع فلا يخطئُ الرميَّة ، وكان يلوي الحديد ليصنعه سرداً للدروع بأصابعه ، وهذه القوة محمودة لأنه استعملها في نصر دين التوحيد .

وجملة ﴿ إنَّه أوَّابٌ ﴾ تعليل للأمر بذكره إيماء إلى أن الأمر لقصد الاقتداء به ، كما قال تعالى:

﴿ فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام : 90] ، فالجملة معترضة بين جملة ﴿ واذكُرْ ﴾ وجملةِ بيانها وهي ﴿ إنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ معه .

والأوّاب : الكثير الأوْب ، أي الرجوع .

والمراد : الرجوع إلى ما أمر الله به والوقوف عند حدوده وتدارك ما فرط فيه .

والتائب يطلق عليه الأوّاب ، وهو غالب استعمال القرآن وهو مجاز ولا تسمّى التوبة أوباً ،

وزبور ﴾ داود المسمى عند اليهود ب"المزامير" مشتمل على كثير من الاستغفار وما في معناه من التوبة .

(263/658)

وجملة ﴿ إنَّا سخرنا الجبال معه ﴾ بيان لجملة ﴿ واذكر عبدنا ﴾ أي اذكر فضائله وما أنعمنا عليه من تسخير الجبال وكَيْت وكَيْتَ ، و ﴿ معهُ ﴾ ظرف ل ﴿ يُسَبِحْنَ ﴾ ، وقدم على متعلقه للاهتمام بمعيته المذكورة ، وليس ظرفاً ل ﴿ سَخَّرْنَا ﴾ لاقتضائه ، وتَقدم تسخير الجبال والطيرِ لداود في سورة الأنبياء .

وجملة ﴿ يُسَبِحْنَ ﴾ حال .

واختير الفعل المضارع دون الوصف الذي هو الشأن في الحال لأنه أريد الدلالة على تجدد تسبيح الجبال معه كلما حضر فيها ، ولِمَا في المضارع من استحضار تلك الحالة الخارقة للعادة .

والتسبيح أصله قول : سبحان الله ، ثم أطلق على الذكر وعلى الصلاة ، ومنه حديث عائشة : "لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يسبح سبحة الصبح وإني لأُسبحها" ، وليس هذا المعنى مراداً هنا لأن الجبال لا تصلي والطير كذلك ولأن داود لا يصلي في الجبال

إذ الصلاة في شريعتهم لا تقع إلا في المسجد وأما الصلاة في الأرض فهي من خصائص الإِسلام.

والعشي: ما بعد العصر.

يقال: عَشِيّ وعَشِيَّة.

و﴿ الإِشراق ﴾: وقت ظهور ضوء الشمس واضحاً على الأرض وهو وقت الضحى، يقال: أشرقت الأرض ولا يقال: أشرقت الشمس، وإنما يقال: شَرَقَت الشمس وهو من باب قَعَد، ولذلك كان قياس المكان منه المَشرَق بفتح الراء ولكنه لم يجيء إلاّ بكسر الراء. ووقت طلوع الشمس هو الشروق ووقت الإِشراق الضحى، يقال: شَرقت الشمس ولمَّا تُشْرِق، ويقال: كُلَّما ذَرَّ شَارق، أي كلما طلعت الشمس.

والباء في ﴿ بالعَشِي ﴾ للظرفية فتعين أن المراد بالإِشراق وقت الإِشراق.

والمحشورة: المجتمعة حوله عند قراءته الزبور.

وانتصب ﴿ مَحْشُورَةً ﴾ على الحال من ﴿ الطير.

ولم يؤت في صفة الطير بالحشر بالمضارع كما جيء به في يُسبِحْنَ ﴾ إذ الحشر يكون دفعة فلا يقتضي المقام دلالة على تجدد ولا على استحضار الصورة.

وتنوين ﴿ كُلٌّ له أوَّابٌ ﴾ عوض عن المضاف إليه.

والتقدير : كل المحشورة له أواب ، أي كثير الرجوع إليه ، أي يأتيه من مكان بعيد .

وهذه معجزة له لأن شأن الطير النفور من الإِنس .

وكلمة ﴿ كل ﴾ على أصل معناها من الشمول .

و ﴿ أوَّابٌ ﴾ هذا غير ﴿ أوَّابٌ ﴾ في قوله : ﴿ إنه أوّاب ﴾ فلم تتكرر الفاصلة .

واللام في ﴿ لَهُ أوَّابٌ ﴾ لام التقوية ، وتقديم المجرور على متعلقه للاهتمام بالضمير المجرور .

والشد : الإِمساك وتمكّن اليد مما تمسكه ، فيكون لقصد النفع كما هنا ، ويكون لقصد الضرّ كقوله : ﴿ واشدد على قلوبهم في سورة ﴾ [يونس : 88] .

فشدّ الملك هو تقوية ملكه وسلامته من أضرار ثورة لديه ومن غلبة أعدائه عليه في حروبه .

وقد ملك داود أربعين سنة ومات وعمره سبعون سنة في ظل ملك ثابت .

و ﴿ الحكمة ﴾ : النبوءة .

والحكمة في الأعم : العلم بالأشياء كما هي والعمل بالأمور على ما ينبغي ، وقد اشتمل كتاب "الزبور" على حِكَم جمّة .

و ﴿ فصل الخطاب ﴾ : بلاغة الكلام وجمعه للمعنى المقصود بحيث لا يحتاج سامعه إلى

زيادة تبيان ، ووصف القول بـ (الفصل) وصف بالمصدر ، أي فاصل .

والفاصل : الفارق بين شيئين ، وهو ضدّ الواصل ، ويطلق مجازاً على ما يميز شيئاً عن الاشتباه بضده .

وعطفه هنا على الحكمة قرينة على أنه استعمل في معناه المجازي كما في قوله تعالى : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ [النبأ : 17] .

والمعنى : أن داود أوتي من أصالة الرأي وفصاحة القول ما إذا تكلّم جاء بكلام فاصل بين الحقّ والباطل شأن كلام الأنبياء والحكماء ، وحسبك بكتابه "الزبور" المسمّى عند اليهود ب"المزامير" فهو مثل في بلاغة القول في لغتهم .

وعن أبي الأسود الدؤلي : ﴿ فصل الخطاب ﴾ هو قولُه في خطبه "أما بعد" قال : وداود أول من قال ذلك ، ولا أحسب هذا صحيحاً لأنها كلمة عربية ولا يعرف في كتاب داود أنه قال ما هو بمعناها في اللغة العبرية ، وسميت تلك الكلمة فصل الخطاب عند العرب لأنها تقع بين مقدمة المقصود وبين المقصود .

فالفصل فيه على المعنى الحقيقي وهو من الوصف بالمصدر ، والإِضافة حقيقية .

وأول من قال : "أما بعد" هو سحبان وائل خطيب العرب ، وقيل : ﴿ فصل الخطاب ﴾ القضاء بين الخصوم وهذا بعيد إذ لا وجه لإِضافته إلى الخطاب .

واعلم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد أعطي من كل ما أعطي داود فكان أوّاباً ، وهو القائل : "إني ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة" ، وسخر له جبل حراء على صعوبة مسالكه فكان يتحنّث فيه إلى أن نزل عليه الوحي وهو في غار ذلك الجبل ، وعَرضت عليه جبال مكة أن تصير له ذهباً فأبى واختار العبودية وسخرت له من الطير الحَمَام فبنت وكرها على غار ثور مدة اختفائه به مع الصديق في مسيرهما في الهجرة .

وشدّ الله مُلك الإِسلام له ، وكفاه عدوّه من قرابته مثل أبي لهب وابنه عتبة ومن أعدائه مثل أبي جهل ، وآتاه الحكمة ، وآتاه فصل الخطاب قال : "أوتيت جوامع الكَلِم واختصر لي الكلام اختصاراً" بَلْهَ ما أوتيه الكتاب المعجز بلغاء العرب عن معارضته ، قال تعالى في وصف القرآن : ﴿ إنه لقول فصل وما هو بالهزل ﴾ [الطارق : 13 - 14] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(266/658)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) ﴾

أخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال : سئل جابر بن عبد الله وابن عباس رضي الله عنهما عن ﴿ ص ﴾ فقالا : ما ندري ما هو .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ ص ﴾ قال : حادث القرآن .

وأخرج ابن جرير عن الحسن رضي الله عنه في قوله أنه كان يقرأ ﴿ ص ، والقرآن ﴾ بخفض الدال ، وكان يجعلها من المصاداة يقول عارض القرآن قال عبد الوهاب : أعرضه على عملك فأنظر أين عملك من القرآن .

وأخرج ابن مردويه عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ ص ﴾ يقول : إني أنا الله الصادق .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله ﴿ ص ﴾ قال : صدق الله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ﴿ ص ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ ص والقرآن ذي الذكر ﴾ قال : نزلت في مجالسهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ ص والقرآن ذي الذكر ﴾ قال : ذي الشرف .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف عن قتادة ﴿ بل الذين كفروا في عزة ﴾ قال : ههنا وقع القسم ﴿ في عزة وشقاق ﴾ قال : في حمية وفراق .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ قال : معازين ﴿ شقاق ﴾ قال : عاصين وفي قوله ﴿ فنادوا ولات حين مناص ﴾ قال : ما هذا بحين فرار .

وأخرج الطيالسي وعبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن التميمي قال : سألت ابن عباس رضي الله عنه عن قول الله ﴿ فنادوا ولات حين مناص ﴾ قال : ليس بحين تزور ولا فرار .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنه أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ ولات حين ﴾ قال : ليس بحين فرار قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت الأعشى وهو يقول :

تذكرت ليلى لات حين تذكر . . . وقد تبت عنها والمناص بعيد

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فنادوا ولات حين مناص ﴾ قال : نادوا والنداء حين لا ينفعهم وأنشد تذكرت .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي ظبيان عن ابن عباس ﴿ ولات حين مناص ﴾ قال : لا حين فرار .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ولات حين مناص ﴾ قال : ليس بحين مغاث .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿ ولات حين مناص ﴾ ليس بحين جزع .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ ولات حين مناص ﴾ قال : وليس حين نداء .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي في قوله ﴿ ولات حين مناص ﴾ قال : نادوا بالتوحيد والعقاب حين مضت الدنيا عنهم ، فاستناصوا التوبة حين زالت الدنيا عنهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ فنادوا ولات حين مناص ﴾ قال : نادى القوم على غير حين نداء ، وأرادوا التوبة حين عاينوا عذاب الله ، فلم ينفعهم ، ولم يقبل منهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ ولات حين مناص ﴾

قال : ليس حين انقلاب .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب بن منبه ﴿ ولات حين مناص ﴾ قال : إذا أراد السرياني أن يقول وليس يقول ولات .

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ فقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ قال : عجب المشركون أن دعوا إلى الله وحده ، وقالوا : إنه لا يسع حاجتنا جميعاً إله واحد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مجلز قال : قال رجل يوم بدر ما هم إلا النساء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بل هم الملأ وتلا ﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ " .

(268/658)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وانطلق الملأ منهم . . ﴾ قال : نزلت حين انطلق أشراف قريش إلى أبي طالب يكلموه في النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ قال : أبو جهل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا ﴾ قال : هو عقبة بن أبي معيط . وفي قوله ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ قال : النصرانية قالوا : لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصارى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ قال : ملة عيسى عليه السلام .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ قال : النصرانية .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ قال : النصرانية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ أي في ديننا هذا ، ولا في زماننا هذا ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ قال : قالوا إن هذا إلا شيء يخلقه . وفي قوله ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴾ قال : لا والله ما عندهم منها شيء ، ولكن الله يختص برحمته من يشاء ﴿ أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب ﴾ قال : في السماء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فليرتقوا في الأسباب ﴾ قال : في السماء .

وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال ﴿ الأسباب ﴾ أدق من الشعر ، وأحدّ من الحديد ، وهو بكل مكان ، غير أنه لا يرى .

(269/658)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فليرتقوا في الأسباب ﴾ قال : طرق السماء أبوابها . وفي قوله ﴿ جند ما هنالك ﴾ قال : قريش ﴿ من الأحزاب ﴾ قال : القرون الماضية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ قال : وعده الله وهو بمكة أنه سيهزم له جند المشركين ، فجاء تأويلها يوم بدر . وفي قوله ﴿ وفرعون ذو الأوتاد ﴾ قال : كانت له أوتاد ، وارسان ، وملاعب يلعب له عليها . وفي قوله ﴿ إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ قال : هؤلاء كلهم قد كذبوا الرسل فحق عليهم عقاب ﴿ وما ينظر هؤلاء ﴾ يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ يعني الساعة ﴿ ما لها من

فواق ﴾ يعني ما لها من رجوع ، ولا مثوبة ، ولا ارتداد ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا ﴾ أي نصيبنا حظنا من العذاب ﴿ قبل يوم ﴾ القيامة قد كان قال ذلك أبو جهل : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾ [الأنفال : 32] .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ما لها من فواق ﴾ قال : رجوع ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا ﴾ قال : عذابنا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ما لها من فواق ﴾ قال : من رجعة ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا ﴾ قال : سألوا الله أن يعجل لهم .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله تعالى ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ قال : القط الجزاء . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت الأعشى وهو يقول :

ولا الملك النعمان يوم لقيته . . . بنعمة يعطيني القطوط ويطلق

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ قال : عقوبتنا .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ قال : كتابنا .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ قال : حظنا .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء رضي الله عنه في قوله ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا ﴾ قال : هو النضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة أخو بني عبد الدار ، وهو الذي قال ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ [المعارج : 1] قال : سأل بعذاب هو واقع به ، فكان الذي سأل أن قال ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] قال عطاء رضي الله عنه : لقد نزلت فيه بضع عشرة آية من كتاب الله .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الزبير بن عدي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ قال : نصيبنا من الجنة .

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17)

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ داود ذا الأيد ﴾ قال : القوة في العمل في طاعة الله تعالى .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ذا الأيد ﴾ قال :

القوّة في العبادة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ اذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ قال : أعطي قوّة في العبادة ، وفقهاً في الإِسلام .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ ذا الأيد ﴾ قال : القوّة في العبادة ، والبصر في الهدى .

وأخرج البخاري في تاريخه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر داود عليه السلام وحدث عنه قال : كان أعبد البشر " .

وأخرج الديلمي عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ينبغي لأحد أن يقول إني أعبد من داود " .

(271/658)

وأخرج أحمد في الزهد عن ثابت رضي الله عنه قال : كان داود عليه السلام يطيل الصلاة من الليل ، فيركع الركعة ، ثم يرفع رأسه ، فينظر إلى أديم السماء ، ثم يقول : إليك رفعت رأسي يا عامر السماء ، نظر العبيد إلى أربابها .

وأخرج أحمد عن الحسن رضي الله عنه قال : قال داود عليه السلام : إلهي أي رزق

أطيب ؟ قال : ثمرة يدك يا داود .

وأخرج أحمد عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : كان داود عليه السلام يصنع القفة من الخوص وهو على المنبر ، ثم يرسل بها إلى السوق ، فيبيعها ثم يأكل بثمنها .

وأخرج أحمد عن سعيد بن أبي هلال رضي الله عنه قال : كان داود عليه السلام إذا قام من الليل يقول : اللهم نامت العيون ، وغارت النجوم ، وأنت الحي القيوم الذي لا تأخذك سنة ولا نوم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الأواب المسبح .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه قال : الأواب المسبح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن شرحبيل رضي الله عنه قال : الأواب المسبح بلغة الحبشة .

وأخرج الديلمي عن مجاهد رضي الله عنه قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عنه فقال " هو الرجل يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إنه أوّاب ﴾ قال : منيب راجع عن الذنوب .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه قال : الأواب التائب الراجع .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إنه أوّاب ﴾ قال : كان مطيعاً لربه ،

كثير الصلاة .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الأواب الموقن .

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18)

أخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن ﴾ قال : يسبحن معه إذا سبح ﴿ بالعشي والإِشراق ﴾ قال : إذا أشرقت الشمس .

(272/658)

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ بالعشي والإِشراق ﴾ قال : إذا أشرقت الشمس وجبت الصلاة قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت الأعشى وهو يقول :

لم ينم ليلة التمام لكي . . . يصيح حتى إضاءة الاشراق

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء الخراساني أن ابن عباس قال : لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى قرأت هذه الآية ﴿ سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : كان ابن عباس رضي الله عنهما لا

يصلي الضحى ، ويقول : أين هي في القرآن ؟ حتى قال بعد هي قول الله ﴿ يسبحن بالعشي والإِشراق ﴾ هي الإِشراق فصلاها ابن عباس رضي الله عنهما بعد .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لقد أتى علي زمان وما أدري ما وجه هذه الآية ﴿ يسبحن بالعشي والإِشراق ﴾ قال : رأيت الناس يصلون الضحى .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت أمر بهذه الآية ﴿ يسبحن بالعشي والإِشراق ﴾ فما أدري ما هي حتى حدثتني أم هانيء بنت أبي طالب رضي الله عنها . ذكرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى يوم فتح مكة صلاة الضحى ثمان ركعات ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : قد ظنت أن لهذه الساعة صلاة لقول الله تعالى ﴿ يسبحن بالعشي والإِشراق ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الحارث قال : دخلت على أم هانىء رضي الله عنها فحدثتني : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الضحى ، فخرجت فلقيت ابن عباس رضي الله عنهما فقلت : انطلق إلى أم هانىء ، فدخلنا عليها فقلت : حدثني ابن عمك عن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم الضحى ، فحدثته فقال : تأول هذه الآية صلاة الإِشراق ، وهي صلاة الضحى .

وأخرج ابن مردويه من طريق مجاهد عن سعيد عن أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت : " دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة وقد علاه الغبار ، فأمر بقصعة ، فإني أنظر إلى أثر العجين ، فسكبت فيها ، فأمر بثوب فيما بيني وبينه ، فاستتر ، فقام فأفاض عليه الماء ، ثم قام فصلى الضحى ثمان ركعات قال مجاهد : فحدثت ابن عباس رضي الله عنهما بهذا الحديث فقال : هي صلاة الإِشراق " .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الحرث رضي الله عنه قال : سألت عن صلاة الضحى في إمارة عثمان بن عفان ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون ، فلم أجد أحداً أثبت لي صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أم هانىء قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاها مرة واحدة ، ثمان ركعات ، يوم الفتح في ثوب واحد ، مخالفاً بين طرفيه ، لم أره صلاها قبلها ولا بعدها .

فذكرت ذلك لابن عباس رضي الله عنهما فقال : إني كنت لأمر على هذه الأية ﴿ يسبحن بالعشي والإِشراق ﴾ فأقول أي صلاة صلاة الإِشراق ؟ فهذه صلاة الإِشراق .

وأخرج ابن جرير والحاكم عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ كان لا يصلي الضحى حتى أدخلناه على أم هانىء ، فقلنا لها : أخبري ابن عباس رضي الله عنهما بما أخبرتنا به . فقالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتي ، فصلى

الضحى ثمان ركعات . فخرج ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول : لقد قرأت ما بين اللوحين ، فما عرفت صلاة الإِشراق إلا الساعة ﴿ يسبحن بالعشي والإِشراق ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : طلبت صلاة الضحى في القرآن ، فوجدتها ﴿ بالعشي والإِشراق ﴾ .

وأخرج البخاري في تاريخه والحاكم وصححه وابن مردويه والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أواب ، هي صلاة الأوابين " .

(274/658)

وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن أنس رضي الله عنه قال : أوصاني خليلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا أنس صل صلاة الضحى ، فإنها صلاة الأوابين " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والطبراني عن زيد بن أرقم رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أهل قباء ، وهم يصلون الضحى . وفي لفظ وهم يصلون بعد طلوع الشمس ، فقال صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال " .

وأخرج البيهقي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

: " لا يحافظ على سبحة الضحى إلا أواب " .

وأخرج الترمذي وابن ماجة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلى الضحى اثنتي عشرة ركعة بنى له الله في الجنة قصراً من ذهب " .

وأخرج أبو نعيم عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " صلِ صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين " .

وأخرج حميد بن زنجويه في فضائل الأعمال ، والبيهقي في شعب الإِيمان ، عن الحسن بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلى الفجر ، ثم جلس في مصلاه يذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم صلى من الضحى ركعتين حرمه الله على النار أن تلفحه أو تطعمه " .

وأخرج حميد بن زنجويه والطبراني والبيهقي عن عتيبة بن عبد الله السلمي وأبي أمامة الباهلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى الصبح في مسجد جماعة ، ثم ثبت فيه حتى يسبح تسبيحة الضحى ، كان له كأجر حاج أو معتمر ، قام له حجته وعمرته " .

وأخرج أبو داود والطبراني والبيهقي عن معاذ بن أنس الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " من قعد في مصلاه حين ينصرف من صلاة الصبح حتى يصبح ركعتي الضحى لا يقول إلا خيراً غفر له خطاياه وإن كانت أكثر من زبد البحر " .

وأخرج الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلى الضحى ركعتين لم يكتب من الغافلين ، ومن صلى أربعاً كتب من العابدين ، ومن صلى ستاً كفي ذلك اليوم ، ومن صلى ثمانياً كتب من القانتين ، ومن صلى إثنتي عشرة بنى الله له بيتاً في الجنة "

وأخرج حميد بن زنجويه والبزار والبيهقي عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن صليت الضحى ركعتين لم تكتب من الغافلين ، وإن صليتها أربعاً كنت من المحسنين ، وإن صليتها ستاً كتبت من القانتين ، وإن صليتها ثمانياً كتبت من الفائزين ، وإن صليتها عشراً لم يكتب لك ذلك اليوم ذنب ، وإن صليتها إثنتي عشرة بنى الله لك بيتاً في الجنة " .

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وأحمد وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من حافظ على سبحة الضحى غفر له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر " .

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ والطير محشورة ﴾ قال : مسخرة له ﴿ كل له أوّاب ﴾ قال : مطيع ﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة ﴾ أي السنة ﴿ وفصل الخطاب ﴾ قال : البينة على الطالب ، واليمين على المطلوب .

وأخرج عبد بن حميد والحاكم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وشددنا ملكه ﴾ قال : كان أشد ملوك أهل الدنيا لله سلطاناً ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ قال : ما قال من شيء أنفذه وعدله في الحكم .

(276/658)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ادعى رجل من بني إسرائيل عند داود عليه السلام [قتل ولده فسأل] الرجل على ذلك فجحده ، فسأل الآخر البينة فلم تكن بينة فقال لهما داود عليه السلام : قوما حتى أنظر في أمركما ، فقاما من عنده ، فأتى داود عليه السلام في منامه فقيل له : أقتل الرجل الذي استعدى ، فقال : إن هذه رؤيا ولست أعجل حتى أثبت ، فأتى الليلة الثانية في منامه فقيل له : أقتل الرجل ، فلم يفعل . ثم أتى الليلة الثالثة فقيل له : أقتل الرجل ، أو تأتيك العقوبة من

الله تعالى ، فأرسل داود عليه السلام إلى الرجل فقال : إن الله أمرني أن أقتلك فقال : تقتلني بغير بينة ولا تثبت قال : نعم . والله لأنفذن أمر الله فيك فقال له الرجل : لا تعجل عليَّ حتى أخبرك . إني ما أخذت بها الذنب ، ولكني كنت اغتلت والد هذا فقتلته ، فبذلك أخذت ، فأمر به داود عليه السلام فقتل ، فاشتدت هيبته في بني إسرائيل وشدد به ملكه . فهو قول الله تعالى ﴿ وشددنا ملكه ﴾ .

وأخرج ابن جرير والحاكم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وشددنا ملكه ﴾ قال : كان يحرسه كل يوم وليلة أربعة آلاف وفي قوله ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ قال : النبوة ﴿ وفصل الخطاب ﴾ قال : علم القضاء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ قال : أعطي الفهم .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ قال : الصواب ﴿ وفصل الخطاب ﴾ قال : الإِيمان والشهود .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فصل الخطاب ﴾ قال : إصابة القضاء وفهمه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي عبد الرحمن رضي الله عنه ﴿ وفصل الخطاب ﴾ قال : فصل القضاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه ﴿ وفصل الخطاب ﴾ قال : الفهم في القضاء .

(277/658)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي عن شريح رضي الله عنه ﴿ وفصل الخطاب ﴾ قال : الشهود والإيمان .

وأخرج البيهقي عن أبي عبد الرحمن السلمي رضي الله عنه .

إن داود عليه السلام أمر بالقضاء ، فقطع به ، فأوحى الله تعالى إليه : أن استحلفهم باسمي ، وسلهم البينات قال : فذلك ﴿ فصل الخطاب ﴾ .

وأخرج ابن جرير والبيهقي عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وفصل الخطاب ﴾ قال : البينة على المدعي ، واليمين على المدعى عليه .

وأخرج ابن جرير عن الشعبي رضي الله عنه في قوله ﴿ وفصل الخطاب ﴾ قال : هو قول الرجل : أما بعد .

وأخرج ابن أبي حاتم والديلمي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : أول من قال " أما بعد " داود عليه السلام ، وهو فصل الخطاب .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر عن الشعبي رضي الله عنه أنه سمع زياد بن أبي سفيان رضي الله عنه يقول ﴿ فصل الخطاب ﴾ الذي أوتي داود عليه السلام أما بعد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(278/658)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) ﴾

﴿ ذَا الأَيدِ ﴾ أي ذا القوة ، ولم تكن قُوَّتُه قوةَ نَفْسٍ ، وإنما كانت قوته قوةَ فِعْلٍ ؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً – وهو أشدُّ الصوم ، وكان قوياً في دين الله بِنَفْسِه وقلبه وهمته .

﴿ أَوَّابٌ ﴾ رَجَّاع .

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19)

كان داود يُسَبِّح ، والجبال تُسَبِّح ، وكان داود يفهم تسبيحَ الجبالِ على وجهِ تخصيصٍ له بالكرامة والمعجزة .

وكذلك الطير كانت تجتمع له فتسبّح الله ، وداود كان يعرف تسبيحَ الطير ؛ وكلُّ مَنْ تَحقَّقَ بحاله ساعَدَه كلُّ شيءٍ كان بقُرْبه ، ويصير غيرُ جنْسِه بحُكْمِه ، وفي معناه أنشدوا :

رُبَّ ورقاءَ هتوفٍ بالضُّحى . . . ذات شجوٍ صرَخَتْ في فَنَنِ

ذَكَرَتْ إلفاً ودهراً صالحاً . . . وبَكَتْ شوقاً فهاجَتْ حَزَني

فبُكائي رُبَّما أَرَّقَها . . . وبكاها ربما أَرَّقَني

ولقد تشكو فما أفهمها . . . ولقد أشكو فما تفهمني

وغير أني بالجوى أعرفها . . . وهي أيضاً باجوى تعرفني

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (20)

أي قوَّينا مُلْكَه بأنصاره ، وفي التفسير : كان يحفظ مُلْكَه كلَّ ليلةٍ ثلاثةٌ وثلاثون ألفَ رجلٍ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَشَدَدنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ .

أي شددنا مُلْكَه بنصرنا له ودَفْعِنا البلاءَ عنه .

ويقال شددنا مُلْكَه بالعدل في القضية ، وحُسْنِ السيرة في الرعية .

ويقال شددنا ملكه بقبض أيدي الظَّلَمَة .

ويقال شددنا ملكه بدعاء المستضعفين .

ويقال شددنا مُلْكَه بأن رأى النصرةَ مِنَّا ، وتَبرَّأَ من حَوْله وقُوَّته .

ويقال بوزراء ناصحين كانوا يدلُّونه على ما فيه صلاح مُلْكه .

ويقال بِتَيَقُظِه وحُسْنِ سياسته . ويقال بقبوله الحق من كلِّ أحد .

ويقال برجوعه إلينا في عموم الأوقات .

﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ : أي أعطيناه الرُّشْدَ والصوابَ ، والفَهْمَ والإصابة .

ويقال العلم بنفْسِه وكيفية سياسة أمته .

ويقال الثبات في الأمور والحكمة ، وإحكام الرأي والتدبُّر .

ويقال صحبة الأبرار ، ومجانبة الأشرار .

وأمَّا ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ فهو الحكم بالحق ، وقيل : البينة على مَنْ ادَّعى واليمين على مَنْ أنكر . ويقال : القضاء بين الخصوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 249.248 ﴾

(280/658)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والخمسون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والخمسون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 21 ﴾ من سورة ص

وحتى الآية ﴿ 25 ﴾ من نفس السورة

(4/659)

قوله تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان السياق للتدريب على الصبر والتثبيت الشافي والتدبر التام والابتلاء لأهل القرب ،

وكان المظنون بمن أوتي فصل الخطاب أن لا يقع له لبس في حكم ولا عجلة في أمر ، وكان التقدير : هل أتتك هذه الأنباء ، عطف عليه – مبيناً عواقب العجلة معلماً أن على من أعطى المعارف أن لا يزال ناظراً إلى من أعطاه ذلك سائلاً له التفهيم ، استعجازاً لنفسه متصوراً لمقام العبودية التي كرر التنبيه عليها في هذه السورة بنحو قوله : " نعم العبد " قوله في سياق ظاهره الاستفهام وباطنه التنبيه على ما في ذلك من الغرابة خبره العظيم جداً ، وأفرده وإن كان المراد الجمع دلالة على أنهم على كلمة واحدة في إظهار الخصومة لا يظهر لأحد منهم أنه متوسط مثلاً ونحو ذلك .

(5/659)

ولما كان الخصم مصدراً يقع على الواحد فما فوقه ذكراً كان أو أنثى ، وكان يصح تسمية ربقة المتخاصمين خصماً لأنهم في صورة الخصم قال : ﴿ إذ ﴾ أي خبر تخاصمهم حين ﴿ تسوروا ﴾ أي صعدوا السور ونزلوا من هم ومن معهم ، آخذاً من السور وهو الوثوب ﴿ المحراب ﴾ أي أشرف ما في موضع العبادة الذي كان داود عليه السلام به ، وهو كناية عن أنهم جاؤوه في يوم العبادة ومن غير الباب ، فخالفوا عادة الناس في الأمرين ، وكأن المحراب الذي تسوروه كان فيه باب من داخل باب آخر ، فنبه على ذلك بأن أبدل من " إذ "

الأول قوله : ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ دخلوا ﴾ وصرح باسمه رفعاً للبس وإشعاراً بما له من قرب المنزلة وعظيم الود فقال : ﴿ على داود ﴾ ابتلاء منا له مع ما له من ضخامة الملك وعظم القرب منا ، وبين أن ذلك كان على وجه يهول أمره إما لكونه في موضع لا يقدر عليه أحد أو غير ذلك بقوله : ﴿ ففزع ﴾ أي ذعر وفرق وخاف ﴿ منهم ﴾ أي مع ما هو فيه من ضخامة الملك وشجاعة القلب وعلم الحكمة وعز السلطان .

(6/659)

ولما كان كأنه قيل : فما قالوا له ؟ قال : ﴿ قالوا لا تخف ﴾ ولما كان ذلك موجباً لذهاب الفكر في شأنهم كل مذهب ، عينوا أمرهم بقولهم : ﴿ خصمان ﴾ أي نحن فريقان في خصومة ، ثم بينوا ذلك بقولهم : ﴿ بغى بعضنا ﴾ أي طلب طلبة علو واستطالة ﴿ على بعض ﴾ فأبهم أولاً ليفصل ثانياً فيكون أوقع في النفس ، ولما تسبب عن هذا سؤاله في الحكم قالوا : ﴿ فاحكم بيننا بالحق ﴾ أي الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع ، وإنما سألاه ذلك مع العلم بأنه لا يحكم إلا بالعدل ليكون أجدر بالمعاتبة عند أدنى هفوة ﴿ ولا تشطط ﴾ أي لا توقع البعد ومجاوزة الحد لا في العبارة عن ذلك بحيث يلتبس علينا المراد ولا في غير ذلك ، أو ولا تمعن في تتبع مداق الأمور فإني أرضى بالحق على أدنى الوجوه ،

ولذا أتى به من الرباعي والثلاثي بمعناه ، قال أبو عبيد : شط في الحكم وأشط - إذا جار ، ولذا أيضاً فك الإدغام إشارة إلى أن النهي إنما هو عن الشطط الواضح جداً .

ولما كان الحق له أعلى وأدنى وأوسط ، طلبوا التعريف بالأوسط فقالوا ﴿ واهدنا ﴾ أي أرشدنا ﴿ إلى سواء ﴾ أي وسط ﴿ الصراط ﴾ أي الطريق الواضح ، فلا يكون بسبب التوسط ميل إلى أحد الجانبين : الإفراط في تتبع مداق الأمر والتفريط في إهمال ذلك .

(7/659)

ولما كانت هذه الدعوى بأمر مستغرب يكاد أن لا يسمعه أحد إلا أنكره ساق الكلام مؤكداً فقال : ﴿ إن هذا ﴾ يشير إلى شخص من الداخلين ، ثم أبدل منه قوله : ﴿ أخي ﴾ أي في الدين والصحبة ، ثم أخبر عنه بقوله : ﴿ له تسع وتسعون نعجة ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ أخي ﴾ هو الخبر والتأكيد حينئذ لأجل استبعاد مخاصمة الأخ وعدوانه على أخيه ويكون ما بعده استئنافاً ﴿ ولي ﴾ أي أنا أيها المدعي ﴿ نعجة ﴾ ولما كان ذلك محتملاً لأن يكون جنساً أكده بقوله : ﴿ واحدة ﴾ ثم سبب عنه قوله : ﴿ فقال ﴾ أي الذي له الأكثر : ﴿ أكفلنيها ﴾ أي أعطنيها لأكون كافلاً لها ﴿ وعزني ﴾ أي غلبني وقوى عليّ واشتد وأغلظ بي ﴿ في الخطاب ﴾ أي الكلام الذي له شأن من جدال وغيره بأن حاورني

إلى أن أملّني فسكت عجزاً عن التمادي معه ، ولم يقنع مني بشيء دون مراده .

ولما تمت الدعوى ، حصل التشوف إلى الجواب فاستؤنف قوله : ﴿ قال ﴾ أي على تقدير صحة ما قلت ، وذلك أنه لما رأى الخصم قد سكت ولم ينكر مما قال المدعي شيئاً ، وربما أظهر هيئة تدل على تصديقه قال ذلك فعوتب وإن كان له مخرج ، كل ذلك تدريباً على التثبت في القضاء وأن لا ينحي نحو القرآئن ، وأن لا يقنع فيه إلا بمثل الشمس ، وأكد قوله في سياق القسم ردعاً للظالم على تقدير صحة الدعوى بالمبالغة في إنكار فعله لأن حال من فعل شيئاً مؤذن بإنكار كونه ظالماً وكون فعله ظلماً .

(8/659)

مفتتحاً لقوله بحرف التوقع لاقتضاء حال الدعوى له : ﴿ لقد ظلمك ﴾ أي والله قد أوقع ما فعله معك في غير موقعه على تقدير صحة دعواك ﴿ بسؤال نعجتك ﴾ أي بأن سألك أن يضمها ، وأفاد أن ذلك على وجه الاختصاص بقوله : ﴿ إلى نعاجه ﴾ بنفسه أو بغيره نيابة عنه ولذا لم يقل : بسؤاله ثم عطف على ذلك أمراً كلياً جامعاً لهم ولغيرهم واعظاً ومرغباً ومرهباً ولما كانت الخلطة موجبة لظن الألفة لوجود العدل والنصفة واستبعاد وجود البغي معها ، أكد قوله واعظاً للباغي إن كان وملوحاً بالإغضاء والصلح للمظلوم :

﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ﴾ أي مطلقاً منكم ومن غيركم ﴿ ليبغي ﴾ أي يتعدى ويستطيل ﴿ بعضهم ﴾ عالياً ﴿ على بعض ﴾ فيريدون غير الحق ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ من الخلطاء ﴿ وعملوا ﴾ أي تصديقاً لما ادعوه من الإيمان ﴿ الصالحات ﴾ أي كلها فإنهم لا يقع منهم بغي ﴿ وقليل ﴾ وأكد قلتهم وعجب منها بما أبهم في قوله : ﴿ ما ﴾ مثل نعماً ولأمرها ﴿ هم ﴾ وأخر هذا المبتدأ وقدم الخبر اهتماماً به لأن المراد التعريف بشدة الأسف على أن العدل في غاية القلة ، أي فتأس بهم أيها المدعي وكن منهم أيها المدعى عليه .

ولما أتم ذلك ذهب الداخلون عليه فلم ير منهم أحداً فوقع في نفسه أنه لا خصومة ، وأنهم إنما أرادوا أن يجربوه في الحكم ويدربوه عليه ، وأنه يجوز للشخص أن يقول ما لم يقع إذا انبنى عليه فائدة عظيمة تعين ذلك الكلام طريقاً للوصول إليها أو كان أحسن الطرق مع خلو الأمر عن فساد ، وحاصله أنه تذكر كلام ، والمراد به بعض لوازمه ، فهو مثل دلالة التضمن في المفردات ، وهذا مثل قول سليمان عليه السلام " ائتوني بالسكين أشقه بينهما " وليس مراده إلا ما يلزم عن ذلك من معرفة الصادقة والكاذبة بإباء الأم لذلك وتسليم المدعية كذباً ، وتحقيقه أنه لا ملازمة بين الكلام وإرادة المعنى المطابقي لمفردات ألفاظه بدليل لغو اليمين ، وقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لصفية ـ رضى الله عنه ـ ا

" عقرى حلقى " ولأم سلمة ـ رضى الله عنه ـ ا " تربت يمينك " وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ثلاث جدهن جد وهزلهن جد " مشير إلى أن الكلام قد لا يراد به معناه ، ومن هنا كان الحكم في ألفاظ الكنايات أنه لا يقع بها شيء إلا إن اقترن بقصد المعنى ، ولما كان هذا القدر معلوماً عطف عليه قوله : ﴿ وظن داود ﴾ أي بذهابهم قبل فصل الأمر وقد دهمه من ذلك أمر عظيم من عظمة الله لا عهد له بمثله ﴿ أنما فتناه ﴾ أي اختبرناه بهذه الحكومة في الأحكام التي يلزم الملوك مثلها ليتبين أمرهم فيها .

وعلم أنه بادر إلى نسبة المدعى عليه إلى أنه ظلم من قبل أن يسمع كلامه ويسأله المدعي الحكم ، فعاتبه الله على ذلك ، والأنبياء عليهم السلام لعلو مقاماتهم يعاتبون على مثل هذا ، وهو من قصر الموصوف على الصفة قلباً ، أي هذه القصة مقصورة على الفتنة لا تعلق لها بالخصوصة ، ولو كان المراد ما قيل من قصة المرأة التي على كل مسلم تنزيهه وسائر إخوانه عليهم السلام عن مثلها لقيل " وعلم داود " ولم يقل : وظن – كما يشهد بذلك كل من له أدنى ذوق في المحاورات – والله الموفق ، وقال الزمخشري : وعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور أن علي بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين ، وهو حد الفرية على الأنبياء عليهم السلام ، وروي أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز ، وعنده رجل من أهل الحق ، فكذب المحدث به وقال :

إن كانت القصة على ما في كتاب الله عز وجل فما ينبغي أن يلتمس خلافها ، وأعظم بأن يقال غير ذلك ، وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها ستراً على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما ينبغي إظهارها عليه ، فقال عمر بن عبد العزيز : لسماعي هذا الكلام أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس .

(10/659)

وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود ، وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام لأن عيسى عليه السلام من ذريته ليجدوا السبيل إلى الطعن فيه .

ولما ظن هذا ، سبب له تحقيق ما وصفه الله من الأوبة فعبر عن ذلك بقوله :

﴿ فاستغفر ﴾ ولما استغرقته العظمة التي هذا مخرها ، رجع إلى ذكر الإحسان واللطف فقال : ﴿ ربه ﴾ أي طلب الغفران من مولاه الذي أحسن إليه بإحلاله ذلك المحل العظيم من أن يعود للحكم للأول بدون أن يسمع الآخر ﴿ وخر ﴾ أي سقط من قيامه توبة لربه عن ذلك ، ولما كان الخرور قد يكون لغير العبادة قال : ﴿ راكعاً ﴾ أي ساجداً لأن الخرور لا يكون إلا للسقوط على الأرض ، ولأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسره بالسجود فيما روى النسائي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سجد في

" ص " وقال : " سجدها داود توبة ونسجدها شكراً " وعبر بالركوع عن السجود ليفهم أنه كان عن قيام وأنه في غاية السرعة لقوة الاهتمام به وتوفر الداعي إليه بحيث إنه وصل إلى السجود في مقدار ما يصل غيره إلى الركوع ، قال ابن التياني في كتابه الموعب : وكل شيء يكب لوجهه فتمس ركبته الأرض بعد أن يطأطىء رأسه فهو راكع .

ابن دريد : الراكع الذي يكبو على وجهه - انتهى .

والركعة - بالضم : الهوة من الأرض ، كأنها سميت بذلك لأنها تسقط فيها على الوجه ، وكأنها هي أصل المادة ، وقال في القاموس : ركع أي صلى ، فحينئذ يكون المعنى : سقط مصلياً ، ومعلوم أن صلاتهم لا ركوع فيها وقد تقدم ذلك في آل عمران والبقرة ﴿ وأناب ﴾ أي تاب أي رجع عن أن يعود لمثلها .

(11/659)

ولما كان الحال قد يشكل في الإخبار عن المغفرة لو عبر بضمير الغائب لإيهام أن ربه غير المتكلم ، وكان الغفران لا يحسن إلا مع القدرة ، عاد إلى مظهر العظمة إثباتاً للكمال ونفياً للنقص : فقال : ﴿ فغفرنا ﴾ أي بسبب ذلك وفي أثره على عظمتنا وتمام قدرتنا غفراً يناسب مقداره ما لنا من العظمة ﴿ له ذلك ﴾ أي الوقوع في الحديث عن إسناد الظلم إلى

أحد بدون سماع لكلامه ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اشترط على ربه سبحانه لأجل هذه القصة أن كل من سبه أو دعا عليه وليس أهلاً لذلك أن يكون ذلك له صلاة وبركة ورحمة ، والحاصل أن هذه القضية لتدريب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الصبر على قومه ، والثاني فإن هذه السورة على ما روي عن جابر بن زيد من أوائل ما أنزل بمكة ، وعلى هذا دل الحديث السابق عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ في شكوى المشركين منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عمه أبي طالب الوقوع في آلهتهم فإنه كان في أوائل الأمر ، فإن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول ما دعاهم لم يؤمر بذكر آلهتهم فلم يجيبوه ولم يبعدوا عن كل البعد ، ثم أمره الله بذكر ألهتهم فناكروه حينئذ وباعدوه ، وتقدموا ذلك بالشكوى إلى أبي طالب مرة بعد أخرى ليرده عنه ، فكانت هذه الدعوى تدريباً لداود عليه السلام في الأحكام ، وذكرها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تدريباً له على الأناة في جميع أموره على الداوم .

(12/659)

ولما كان ذكر هذا ربما أوهم شيئاً في مقامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، سيق في أسلوب التأكيد قوله : ﴿ وإن له ﴾ أي مع الغفران ، وعظم ذلك بمظهر العظمة لأن ما ينسب إلى

العظيم لا يكون إلا عظيماً فقال : ﴿ عندنا ﴾ وزاد في إظهار الاهتمام بذلك نفياً لذلك الذي ربما توهم فأكد قوله : ﴿ لزلفى ﴾ أي قربة عظيمة ثابتة بعد المغفرة ﴿ وحسن مآب ﴾ أي مرجع في كل ما يؤمل من الخير ، وفوق ذلك فهذا معلم ولا بد بأن هذه القضية لم يجر إلى ذكرها إلا الترقية في رتب الكمال لا غير ذلك ، وأدل دليل على ما ذكرته – أن هذه الفتنة إنما هي بالتدريب في الحكم لا بامرأة ولا غيرها وأن ما ذكروه من قصة المرأة باطل وإن اشتهر فكم من باطل مشهور ومذكور هو عين الزور . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 372 . 377 ﴾

---

(1) لله در الإمام البقاعى هذا ما ندين لله تعالى به فيما ذكر من زور وبهتان على نبى الله داود عليه السلام ، كما هو المعتقد فيما يذكر لاحقا فى قصتى سليمان وأيوب . عليهما السلام . فيجب تنزيههما عما نسب إليهما من خرافات وأساطير هى عين الزور والأباطيل . والله أعلم .

(13/659)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في قصة داود عليه السلام :

ومن الإسرائيليات التي تخل بمقام الأنبياء ، وتنافي عصمتهم ، ما ذكره بعض المفسرين في قصة سيدنا داود عليه السلام عند تفسير قوله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا 1 وَعَزَّنِي 2 فِي الْخِطَابِ ، قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ 3 .

فقد ذكر ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبغوي ، والسيوطي في : "الدر المنثور" 4

---

1 أكفلنيها : ضمها إلى .

2 عزني : غلبني في القول لقوته ، وجاهه ، وضعفي .

3 ص الآية : 21-25 .

4 ج 5 ص 300-302 .

من الأخبار ما تقشعر منه الأبدان ، ولا يوافق عقلا ، ولا نقلا ، عن ابن عباس ، ومجاهد ، ووهب بن منبه ، وكعب الأحبار ، والسدي ، وغيرهم ما محصلها : أن داود عليه السلام حدث نفسه : إن ابتلي أن يعتصم فقيل له : إنك ستبتلى وستعلم اليوم الذي تبتلى فيه ، فخذ حذرك ، فقيل له : هذا اليوم الذي تبتلى فيه فأخذ الزبور 1 ، ودخل المحراب ، وأغلق بابه ، وأقعَدَ خادمه على الباب ، وقال : لا تأذن لأحد اليوم ، فبينما هو يقرأ الزبور ، إذ جاء طائر مذهب يدرج بين يديه ، فدنا منه ، فأمكن عليه لينظر أين وقع ، فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض ، فلما رأت ظله نفضت شعرها ، فغطت جسدها به ، وكان زوجها غازيا في سبيل الله ، فكتب داود إلى رأس الغزاة : أن اجعله في حملة التابوت2 ، وكان حملة التابوت إما أن يفتح عليهم ، وإما أن يقتلوا ، فقدمه في حملة التابوت ، فقُتِل ، وفي بعض هذه الروايات الباطلة أنه فعل ذلك ثلاث مرات ، حتى قتل في الثالثة ، فلما انقضت عدتها ، خطبها داود عليه السلام ، فتسور عليه الملكان ، وكان ما كان ، مما حكاه الله تعالى : "رُفِع ذلك إلى النبي" .

ولم يقف الأمر عند هذه الروايات الموقوفة عن بعض الصحابة والتابعين ، ومسلمة أهل الكتاب بل جاء بعضها مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قال صاحب : "الدر" : وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وابن جرير ، وابن أبي

حاتم بسند ضعيف ، عن أنس رض الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقمل : "إن داود عليه السلام حين نظر إلى المرأة ، قطع3 على بنى إسرائيل وأوصى صاحب الجيش ، فقال : إذا حضر العدو فقرب فلانا بين يدي التابوت" ، وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به ، من قدم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم معه الجيش ، فقتل ، وتزوج المرأة ، ونزل الملكان على داود عليه السلام فسجد ، فمكث أربعين ليلة ساجدا حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه ،

---

1 كتاب داود عليه السلام .

2 صندوق فيه بعض مخلفات أنبياء بني إسرائيل فكانوا يقدمونه بين يدي الجيش كي ينصروا .

3 هي هكذا في "الدر المنثور" وفي تفسير البغوي ولعلها قطع .

(15/659)

فأكلت الأرض جبينه ، وهو يقول في سجوده : "رب ذل داود ذلة أبعد مما بين المشرق والمغرب ، رب إن لم ترحم ضعف داود ، وتغفر ذنوبه جعلت ذنبه حديثا في المخلوق من بعده ، فجاء جبريل عليه السلام من بعد أربعين ليلة ، فقال : يا داود إن الله قد غفر لك ،

وقد عرفت أن الله عدل لا يميل ، فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة ، فقال : يا رب دمي الذي عند داود قال جبريل : ما سألت ربك عن ذلك ، فإن شئت لأفعلن ، فقال ، نعم ، فعرج جبريل ، وسجد داود عليه السلام ، فمكث ما شاء الله ، ثم نزل ، فقال : قد سألت الله يا داود عن الذي أرسلني فيه ، فقال : قل لداود : إن الله يجمعكما يوم القيامة ، فيقول له : هب لي دمك الذي عند داود ، فيقول : هو لك يا رب ، فيقول : فإن لك في الجنة ما شئت ، وما اشتهيت عوضاً" ، وقد رواها البغوي أيضا عن طريق الثعلبي 1 والرواية منكرة مختلقة على الرسول . وفي سند هذه الرواية المختلقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم : ابن لهيعة ، وهو مضعف في الحديث ، وفي سندها أيضا : يزيد بن أبان الرقاشي ، كان ضعيفا في الحديث .

وقال فيه النسائي ، والحاكم أبو أحمد : إنه متروك ، وقال فيه ابن حبان : كان من خيار عباد الله ، من البكائين بالليل ، غفل عن حفظ الحديث شغلا بالعبادة ، حتى كان يقلب كلام الحسن يجعله عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا تحل الرواية عنه إلا على جهة التعجب2 .

وقال العلامة ابن كثير في تفسيره3 : "وقد ذكر المفسرون ههنا قصة ، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده ؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي ، عن أنس رضي الله عنه ، ويزيد

وإن كان من الصالحين ، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة" .

ومن ثم يتبين لنا : كذب رفع هذه الرواية المنكرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نكاد نصدق ورود هذا عن المعصوم ، وإنما هي اختلاقات ، وأكاذيب من إسرائيليات أهل

---

1 تفسير البغوي على هامش تفسير ابن كثير ج7 ص 191 ، 192 ، الدر المنثور ج5 ص 300-301 .

2 تهذيب التهذيب ج11 ص 309 .

3 ج7 ص 189 "ط المنار" .

الكتاب ، وهل يشك مؤمن عاقل يقر بعصمة الأنبياء في استحالة صدور هذا عن داود عليه السلام ، ثم يكون على لسان من ؟ على لسان من كان حريصا على تنزيه إخوانه الأنبياء عما لا يليق بعصمتهم ، وهو : نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومثل هذا التدبير السيء ، والاسترسال فيه على ما رووا لو صدر من رجل من سوقة الناس وعامتهم ، لاعتبر هذا أمرا مستهجنا مستقبحا ، فكيف يصدر من رسول جاء لهداية الناس ، زكت نفسه ، وطهرت سريرته ، وعصمه الله من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وهو الأسوة

الحسنة لمن أرسل إليهم ؟ ! !

ولو أن القصة كانت صحيحة كانت صحيحة لهذبت بعصمة داود ، ولنفرت منه الناس ، ولكان لهم العذر في عدم الإيمان ، فلا يحصل المقصد الذي من أجله أرسل الرسل ، وكيف يكون على هذه الحال من قال الله تعالى في شأنه : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ ، قال ابن كثير في تفسيرها : "وإن له يوم القيامة لقربة الله عز وجل بها وحسن مرجع وهو : الدرجات العالية في الجنة لنبوته وعدله التام في ملكه ، كما جاء في الصحيح : "المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يقسطون في حكمهم وما ولوا" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أحب الناس إلى يوم القيامة وأقربهم مني مجلسًا إمام عادل ، وإن أبغض الناس إليَّ يوم القيامة ، وأشدهم عذابا : إمام جائر" رواه أحمد ، والترمذي1 .

ولكي يستقيم هذا الباطل قالوا : إن المراد بالنعجة هي : المرأة ، وأن القصة خرجت مخرج الرمز والإشارة ، ورووا أن الملكين لما سمعا حكم داود ، وقضاءه بظلم صاحب التسع والتسعين نعجة لصاحب النعجة ، قالا له : وما جزاء من فعل ذلك ؟ قال : يقطع هذا ، وأشار إلى عنقه ، وفي رواية : "يضرب من ههنا ، وههنا وههنا" وأشار إلى جبهته ، وأنفه ، وما تحته ، فضحكا ، وقالا ، "أنت أحق بذلك منه ، ثم صعدا" .

وذكر البغوي في تفسيره وغيره ، عن وهب بن منبه : أن داود لما تاب الله عليه بكى على

خطيئته ثلاثين سنة ، لا يرقأ دمعه ليلا ، ولا نهارا ، وكان أصاب الخطيئة ، وهو ابن

---

1 المرجع السابق ص 195 .

سبع وسبعين سنة ، فقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام : يوم للقضاء بين بني إسرائيل ، ويوم لنسائه ، ويوم يسيح في الفيافي ، والجبال ، والسواحل ، ويوم يخلو في دار له فيها أربعة آلاف محراب ، فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه ، فيساعدونه على ذلك ، فإذا كان يوم نياحته يخرج في الفيافي ، فيرفع صوته بالمزامير ، فيبكي ، ويبكي معه الشجر ، والرمال ، والطير ، والوحش ، حتى يسيل من دموعهم مثل الأنهار ، ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته بالمزامير ، فيبكي ، وتبكي معه الجبال ، والحجارة ، والدواب والطير ، حتى تسيل من بكائهم الأودية ، ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته بالمزامير ، فيبكي ، وتبكى معه الحيتان ، ودواب البحر وطير الماء والسباع1 . . .

والحق : أن الآيات ليس فيها شيء مما ذكروا ، وليس هذا في شيء من كتب الحديث المعتمدة ، وهي التي عليها المعول ، وليس هناك ما يصرف لفظ النعجة من حقيقته إلى مجازه ، ولا ما يصرف القصة عن ظاهرها إلى الرمز والإشارة .

وما أحسن ما قال الإمام القاضي عياض : "لا تلتفت إلى ما سطره الأخباريون من أهل الكتاب ، الذين بدلوا ، وغيروا ونقله بعض المفسرين ، ولم ينص الله تعالى على شيء من ذلك في كتابه ، ولا ورد في حديث صحيح ، والذي نص عليه في قصة داود : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ وليس في قصة داود ، وأوريا خبر ثابت2 .

والمحققون ذهبوا إلى ما ذهب إليه القاضي ، قال الداودي : ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت ، ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم ، وقد روي عن سيدنا علي أنه قال : من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة ، وذلك حد الفرية على الأنبياء3 ، وهو كلام مقبول من حيث المعنى ، إلا أنه لم يصح عن الإمام ذلك كما قال العراقي .

---

1 تفسير البغوي على هامش ابن كثير ج7 ص 195 .

2 الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى ج2 ص 158 .

3 لأن حد القذف لغير الأنبياء ثمانين ، فرأى رضي الله عنه تضعيفه بالنسبة إلى الأنبياء وفي الكذب عليهم رمي لهم بما هم براء منه ففيه معنى القذف لداود بالتعدي على حرمات الأعراض والتحايل في سبيل ذلك .

التفسير الصحيح للآيات :

وإذا كان ما روي من الإسرائيليات الباطلة التي لا يجوز أن تفسر بها الآيات ، فما التفسير الصحيح لها إذاً ؟

والجواب : أن داود عليه السلام كان قد وزع مهام أعماله ، ومسئولياته نحو نفسه ، ونحو الرعية على الأيام ، وخص كل يوم بعمل ، فجعل يومًا للعبادة ، ويومًا للقضاء وفصل الخصومات ، ويومًا للاشتغال بشئون نفسه وأهله ، ويومًا لوعظ بني إسرائيل ففي يوم العبادة : بينما كان مشتغلا بعبادة ربه في محرابه ، إذ دخل عليه خصمان تسورا عليه من السور ، ولم يدخلا من المدخل المعتاد ، فارتاع منهما ، وفزع فزعًا لا يليق بمثله من المؤمنين ، فضلاً عن الأنبياء المتوكلين على الله غاية التوكل ، الواثقين بحفظه ، ورعايته ومثل الأنبياء في علوم شأنهم ، وقوة ثقتهم بالله والتوكل عليه ألا تعلق نفوسهم بمثل هذه الظنون بالأبرياء ، ومثل هذا الظن وإن لم يكن ذنبا في العادة ، إلا أنه بالنسبة وظن بهما سوءا ، وأنهما جاءا ليقتلاه ، أو يبغيا به شرًّا ، ولكن تبين له أن الأمر على خلاف ما ظن ، وأنهما خصمان جاءا يحتكمان إليه ، فلما قضى بينهما ، وتبين له أنهما بريئان مما ظنه بهما ، استغفر ربه ، وخر ساجدا لله تعالى ؛ تحقيقًا لصدق توبته والإخلاص له ، وأناب إلى الله غاية الإنابة .

للأنبياء يعتبر خلاف الأولى ، والأليق بهم ، وقديما قيل : "حسنات الأبرار سيئات المقربين"

، فالرجلان خصمان حقيقة ، وليسا ملكين كما زعموا ، والنعاج على حقيقتها ، وليس ثمة رموز ولا إشارات ، وهذا التأويل هو الذي يوافق نظم القرآن ويتفق وعصمة الأنبياء ، فالواجب الأخذ به ، ونبذ الخرافات ، والأباطيل ، التي هي من صنع بني اسرائيل ، وتلقفها القصاص وأمثالهم ممن لا علم عندهم ، ولا تمييز بين الغث والسمين . وقيل : إن الذي صنعه داود : أنه خطب على خطبة أوريا ، فآثره أهلها عليه ، وقد كانت الخطبة على الخطبة حرام في شريعتهم ، كما هي حرام في شريعتنا .

وقيل : إنه طلب من زوجها أوريا أن ينزل له عنها وقد كان هذا في شريعتهم ، ومستساغا عندهم ، وقيل : إنه أوخذ ؛ لأنه حكم بمجرد سماعه لكلام أحد الخصمين ،

(19/659)

وكان عليه أن يسمع كلام الخصم الآخر 1 ، وقد قيل : إذا جاءك أحد الخصمين ، وقد فقئت عينه ، فلا تحكم له ؛ لجواز أن يكون خصمه قد فقئت عيناه ، وهذه الأقوال الثلاثة ونحوها لست منها على ثلج ، ولا اطمئنان ، فإنها وإن كانت لا تخل بالعصمة لكنها تخدشها ، ثم هي لا تليق بالصفوة المختارة من الخلق ، وهم الأنبياء ، فالوجه الجدير بالقبول في تفسير الآيات هو الأول فعض عليه ، واشدد به يديك . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

الإسرائيليات والموضوعات صـ 264. 270 ﴾

---

1 الشفا ج2 صـ 158 .

(20/659)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) ﴾

اعلم أن الله تعالى لما مدحه وأثنى عليه من الوجوه العشرة أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الأحوال الواقعة في هذه القصة لا يبين شيء منها كونه عليه السلام مستحقاً للثناء والمدح العظيم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الخصم ﴾ فهو نظير قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى ﴾ [طه : 9] وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ، ليكون داعياً إلى الإصغاء لها والاعتبار بها ، وأقول للناس في هذه القصة ثلاثة أقوال أحدها : ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه وثانيها : دلالتها على الصغيرة وثالثها : بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة .

فأما القول الأول فحاصل كلامهم فيها ؛ أن داود عشق امرأة أوريا ، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته ، وعرضا تلك الواقعة عليه .

فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً ، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة .

(21/659)

والذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه الأول : أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجوراً لاستنكف منها والرجل الحشوي الخبيث الذي يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه وربما لعن من ينسبه إليها ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه الثاني : أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع في زوجته أما الأول : فأمر منكر قال صلى الله عليه وسلم : " من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله " وأما الثاني : فمنكر عظيم قال صلى الله عليه وسلم : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " وإن أوريا لم يسلم من داود لا في روحه ولا في منكوحه والثالث : أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة

بالصفات العشرة المذكورة ، ووصفه أيضاً بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة ، وكل هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفاً بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح ، ولا بأس بإعادة هذه الصفات لأجل المبالغة في البيان .

فنقول أما الصفات الأولى : فهي أنه تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقتدي بداود في المصابرة مع المكابدة ، ولو قلنا إن داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى في إراقة دم امرىء مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمداً أفضل الرسل بأن يقتدي بداود في الصبر على طاعة الله .

وأما الصفة الثانية : فهي أن وصفه بكونه عبداً له ، وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملاً في موقف العبودية تاماً في القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات ، ولو قلنا إن داود عليه السلام اشتغل بتلك الأعمال الباطلة ، فحينئذٍ ما كان داود كاملا في عبوديته لله تعالى بل كان كاملاً في طاعة الهوى والشهوة .

(22/659)

الصفة الثالثة : هو قوله : ﴿ ذَا الأيد ﴾ [ص : 17] أي ذا القوة ، ولا شك أن المراد منه القوة في الدين ، لأن القوة في غير الدين كانت موجودة في ملوك الكفار ، ولا معنى للقوة في

الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات ، والاجتناب عن المحظورات ، وأي قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة في زوجة المسلم ؟

الصفة الرابعة : كونه أواباً كثير الرجوع إلى الله تعالى ، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفاً بالقتل والفجور ؟ .

الصفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ ﴾ [ص : 18] أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذه وسيلة إلى القتل والفجور ؟ .

الصفة السادسة : قوله : ﴿ والطير مَحْشُورَةً ﴾ [ص : 19] ، وقيل إنه كان محرماً عليه صيد شيء من الطير وكيف يعقل أن يكون الطير آمناً منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه ؟ .

الصفة السابعة : قوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شدد ملكه بأسباب الدنيا ، بل المراد أنه تعالى شد ملكه بما يقوي الدين وأسباب سعادة الآخرة ، والمراد تشديد ملكه في الدين والدنيا ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك ؟ .

الصفة الثامنة : قوله تعالى : ﴿ وءاتيناه الحكمة وَفَصْلَ الخطاب ﴾ [ص : 20] والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علماً وعملاً ، فكيف يجوز أن يقول الله تعالى : إنا ﴿ ءاتيناه الحكمة وَفَصْلَ الخطاب ﴾ مع إصراره على ما يستنكف عنه الخبيث الشيطان من

مزاحمة أخلص أصحابه في الروح والمنكوح ، فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الأكاذيب .

(23/659)

وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهي عشرة الأول : قوله : ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته في طاعة الله ، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه في القتل والفجور لم يكن قوله : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ لائقاً به الثاني : قوله تعالى : ﴿ ياداوود إِنَّا جعلناك خَلِيفَةً فِى الأرض ﴾ وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه أحدهما : أن الملك الكبير إذا حكى عن بعض عبيده أنه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصة على ملأ من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه أيها العبد إني فوضت إليك خلافتي ونيابتي ، وذلك لأن ذكر تلك القبائح والأفعال المنكرة يناسب الزجر والحجر ، فأما جعله نائباً وخليفة لنفسه فذلك ألبتة مما لا يليق وثانيها : أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف ، فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة ، ثم قال بعده : ﴿ إِنَّا جعلناك خَلِيفَةً فِى الأرض ﴾ أشعر هذا بأن الموجب لتفويض هذه

الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة ؛ ومعلوم أن هذا فاسد ، أما لو ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصي والذنوب وعلى شدة مصابرته على طاعة الله تعالى فحينئذٍ يناسب أن يذكر عقيبه

(24/659)

﴿ إِنَّا جعلناك خَلِيفَةً فِى الأرض ﴾ [ص : 26] فثبت أن هذا الذي نختاره أولى

والثالث : وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ومؤخرتها أيضاً دالة على ذلك ، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال فلان عظيم الدرجة عالي المرتبة في طاعة الله يقتل ويزني ويسرق وقد جعله الله خليفة في أرضه وصوب أحكامه ، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا ، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعي في القتل من أعظم أبواب العيوب والرابع : وهو أن القائلين بهذا القول ذكروا في هذه الرواية أن داود عليه السلام تمنى أن يحصل له في الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء في النار وحصل للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب فأوحى الله إليه أنهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء

، فأوحى الله إليه أنك ستبلى في يوم كذا فبالغ في الاحتزاز ثم وقعت الواقعة ، فنقول أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذي يزيد في منقبته ويكمل مراتب إخلاصه فالسعي في قتل أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذي يزيد في منقبته ويكمل مراتب إخلاصه فالسعي في قتل النفس بغير الحق والإفراط في العشق كيف يليق بهذه الحالة ، ويثبت أن الحكاية التي ذكروها يناقض أولها آخرها الخامس : أن داود عليه السلام قال : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطاء لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ استثنى الذين آمنوا عن البغي ، فلو قلنا إنه كان موصوفاً بالبغي لزم أن يقال إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه وذلك باطل السادس : حضرت في بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيئة لسبب اقتضى ذلك ، فقلت له لا شك أن داود عليه

(25/659)

السلام كان من أكابر الأنبياء والرسل ، ولقد قال الله تعالى : ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : 124] ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ الطعن فيه ، وأيضاً فبتقدير أنه ما كان نبياً فلا شك أنه كان مسلماً ، ولقد قال صلى

الله عليه وسلم :

" لا تذكروا موتاكم إلا بخير " ثم على تقدير أنا لا نلتفت إلى شيء من هذه الدلائل إلا أنا نقول إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التي ذكرتموها حقيقية صحيحة فإن روايتها وذكرها لا يوجب شيئاً من الثواب ، لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب ، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة ، فإن ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التي هذا شأنها وصفتها ، فإن صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه ، وأن شرح تلك القصة محرم محظور فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت .

ولم يذكر شيئاً السابع : أن ذكر هذه القصة ، وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضي إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرماً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الفاحشة فِى الذين ءامَنُواْ ﴾ [النور : 19] الثامن : لو سعى داود في قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله : " من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله " وأيضاً لو فعل ذلك لكان ظالماً فكان يدخل تحت قوله : ﴿ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ التاسع : عن سعيد بن المسيب أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : " من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين " وهو حد الفرية على

الأنبياء ، ومما يقوي هذا أنهم لما قالوا إن المغيرة بن شعبة زنى وشهد ثلاثة من عدول الصحابة بذلك ، وأما الرابع فإنه لم يقل بأني رأيت ذلك العمل .

(26/659)

يعني فإن عمر بن الخطاب كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة لأجل أنهم قذفوا ، وإذا كان الحال في واحد من آحاد الصحابة كذلك ، فكيف الحال مع داود عليه السلام مع أنه من أكابر الأنبياء عليهم السلام العاشر : روي أن بعضهم ذكر هذه القصة على ما في كتاب الله تعالى فقال لا ينبغي أن يزاد عليها ، وإن كانت الواقعة على ما ذكرت ، ثم إنه تعالى لم يذكرها لأجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام ، فلا يجوز للعاقل أن يسعى في هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر فقال عمر (1) : "سماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس" فثبت بهذه الوجوه التي ذكرناها أن القصة التي ذكروها فاسدة باطلة ، فإن قال قائل : إن كثيراً من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة ، فكيف الحال فيها ؟ فالجواب الحقيقي أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة أولى ، وأيضاً فالأصل براءة الذمة ، وأيضاً فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان جانب التحريم أولى ، وأيضاً طريقة

الاحتياط توجب ترجيح قولنا ، وأيضاً فنحن نعلم بالضرورة أن بتقدير وقوع هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة لم لم تسعوا في تشهير هذه الواقعة ؟ وأما بتقدير كونها باطلة فإن علينا في ذكرها أعظم العقاب ، وأيضاً فقال عليه السلام : " إذا علمت مثل الشمس فاشهد " وههنا لم يحصل العلم ولا الظن في صحة هذه الحكاية ، بل الدلائل القاهرة التي ذكرناها قائمة فوجب أن لا تجوز الشهادة بها ، وأيضاً كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول بل الأكثرون المحقون والمحققون منهم يردونه ويحكمون عليه بالكذب والفساد ، وأيضاً إذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت وبقي الرجوع إلى الدلائل التي ذكرناها فهذا تمام الكلام في هذه القصة .

---

(1) لم ينص فيما سبق على عمر هذا ولم يشر إليه ، والخبر يفيد أن ذلك البعض الذي حكى القول العاشر حكى القصة أمام شخص اسمه عمر فقال هذه الكلمة ولا ندري أهو عمر بن الخطاب أم ابن عبد العزيز أم شخص غيرهما ولعله سقط بيان ذلك من الناسخ أو المطبعة الأميرية . [. . . . .]

أما الاحتمال الثاني : وهو أن تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة ، فنقول في كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه الأول : أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها ، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه الثاني : قالوا إنه وقع بصره عليها فمال قلبه إليها وليس له في هذا ذنب ألبتة ، أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب ، وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضاً ذنباً لأن هذا الميل ليس في وسعه ، فلا يكون مكلفاً به بل لما اتفق أن قتل زوجها لم يتأذ تأذياً عظيماً بسبب قتله لأجل أنه طمع أن يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو أنه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل والثالث : أنه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم في هذا المعنى مألوفة معروفة أوى أن الأنصار كانوا يساوون المهاجرين بهذا المعنى فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهي أم سليمان فقيل له هذا وإن كان جائزاً في ظاهر الشريعة ، إلا أنه لا يليق بك ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم في حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل والأولى .

وأما الاحتمال الثالث : وهو أن هذه القصة على وجه لا يلزم إلحاق الكبيرة والصغيرة بداود عليه السلام ، بل يوجب إلحاق أعظم أنواع المدح أعظم أنواع المدح والثناء به وهو أن نقول روي أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود عليه السلام ، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل بطاعة ربه ، فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم وتسوروا المحراب ، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً يمنعونه منهم فخافوا فوضعوا كذباً ، فقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض إلى آخر القصة ، وليس في لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به في إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة أحدهما : قوله : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فتناه ﴾ ، وثانيها : قوله تعالى : ﴿ فاستغفر ربه ﴾ وثالثها : قوله : ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ورابعها : قوله : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذلك ﴾ ثم نقول ، وهذه الألفاظ لا يدل شيء منها على ما ذكروه ، وتقريره من وجوه الأول : أنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق ، وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم ، إلا أنه قال إلى الصفح والتجاوز عنهم طلباً لمرضاة الله ، قال وكانت هذه الواقعة هي الفتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء والامتحان ، ثم إنه استغفر ربه مما هم به من الانتقام منهم وتاب عن ذلك الهم وأناب ، فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم والثاني : أنه وإن غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه ، إلا أنه ندم على ذلك الظن ، وقال : لما لم تقم دلالة ولا أمارة على أن الأمر كذلك ، فبئسما علمت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن

الرديء ، فكان هذا هو المراد من قوله : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فتناه فاستغفر رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ منه فغفر الله له ذلك الثالث : أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام ، إلا أنه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله ، كما قال في حق محمد صلى الله عليه وسلم :

(29/659)

﴿ واستغفر لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ [محمد : 19] فداود عليه السلام استغفر لهم وأناب ، أي رجع إلى الله تعالى في طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل ، وقوله : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذلك ﴾ أي غفرنا له ذلك الذنب لأجل احترام داود ولتعظيمه ، كما قال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ ﴾ [الفتح : 2] أن معناه أن الله تعالى يغفر لك ولأجلك ما تقدم من ذنب أمتك الرابع : هب أنه تاب داود عليه السلام عن زلة صدرت منه ، لكن لا نسلم أن تلك الزلة وقعت بسبب المرأة ، فلم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة إنما حصلت ، لأنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثاني ، فإنه لما قال : ﴿ لَقَدِ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ فحكم عليه بكونه ظالماً بمجرد دعوى الخصم بغير بينة ، لكون هذا الحكم مخالفاً للصواب ، فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة

، إلا أن هذا في باب ترك الأفضل والأولى (1) فثبت بهذه البيانات أنا إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه ، فإنه لا يلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود عليه السلام ، بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه ، ثم نقول وحمل الآية عليه أولى لوجوه الأول : أن الأصل في حال المسلم البعد عن المناهي ، لا سيما وهو رجل من أكابر الأنبياء والرسل والثاني : أنه أحوط والثالث : أنه تعالى قال في أول الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم :

---

(1) قال مصحح الكتاب :

: لم لا تكون هذه القصة راجعة إلى قصة الغنم التي نفشت في الزرع وجاء ذكرها في سورة الأنبياء ، وقد ذكرت هناك بلفظ الغنم وهنا بلفظ النعاج وفتنة داود كانت بالاجتهاد في الحكم والخطأ فيه وقد نص اللّه على أنه فهمها سليمان عليه السلام ، والقاعدة أن من اجتهد في حكم وأخطأ فله أجر ، ومن أصاب فله أجران وكأنه عليه السلام لم يدرك هذه القاعدة أو لم يكن العمل عليها في عهده ولهذا استغفر ربه والدلائل على ذلك كثيرة منها ظاهر الآية ولا داعي إلى التأويل بالمرأة أو غيرها ، ومنها قوله وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ والتعقيب بقوله تعالى : يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى .

﴿ واصبر على مَا يَقُولُونَ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ [ص : 17] فإن قوم محمد عليه السلام لما أظهروا السفاهة حيث قالوا : ﴿ هذا ساحر كَذَّابٌ ﴾ [ص : 4] واستهزأوا به حيث قالوا : ﴿ رَبَّنَا عَجّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ [ص : 16] فقال تعالى في أول الآية : اصبر يا محمد على سفاهتهم وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود ، فهذا الذكر إنما يحسن إذا كان داود عليه السلام قد صبر على إيذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب ، وهذا المعنى إنما يحصل إذا حملنا الآية على ما ذكرناه ، أما إذا حملناها على ما ذكروه صار الكلام متناقضاً فاسداً والرابع : أن تلك الرواية إنما تتمشى إذا قلنا الخصمان كانا ملكين ، ولما كانا من الملائكة وما كان بينهما مخاصمة وما بغى أحدهما على الآخر كان قولهما خصمان بغى بعضنا على بعض كذباً ، فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين أحدهما : إسناد الكذب إلى الملائكة والثاني : أن يتوسل بإسناد الكذب إلى الملائكة إلى إسناد أفحش القبائح إلى رجل كبير من أكابر الأنبياء ، فأما إذا حملنا الآية على ما ذكرنا استغنينا عن إسناد الكذب إلى الملائكة ، وعن إسناد القبيح إلى الأنبياء ، فكان قولنا أولى ، فهذا ما عندنا في هذا الباب ، والله أعلم بأسرار كلامه ، ونرجع الآن إلى تفسير الآيات .

أما قوله : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الخصم ﴾ قال الواحدي : الخصم مصدر خصمته أخصمه

خصماً ، ثم يسمى به الإثنان والجمع ولا يثنى ولا يجمع ، يقال هما خصم وهم خصم ، كما يقال هما عدل وهم عدل ، والمعنى ذوا خصم وذوو خصم ، وأريد بالخصم ههنا الشخصان اللذان دخلا على داود عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ يقال تسورت السور تسوراً إذا علوته ، ومعنى : ﴿ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ أي أتوه من سوره وهو أعلاه ، يقال تسور فلان الدار إذا أتاها من قبل سورها .

(31/659)

وأما المحراب فالمراد منه البيت الذي كان داود يدخل فيه ويشتغل بطاعة ربه ، وسمي ذلك البيت المحراب لاشتماله على المحراب ، كما يسمى الشيء بأشرف أجزائه ، وههنا مسألة من علم أصول الفقه ، وهي أن أقل الجمع اثنان عند بعض الناس ، وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية ، لأنه تعالى ذكر صيغة الجمع في هذه الآيات في أربعة مواضع أحدهما : قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ [ص : 21] ، وثانيها : قوله : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ ﴾ ، وثالثها : قوله : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ ، ورابعها : قوله : ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ فهذه الألفاظ الأربعة كلها صيغ الجمع ، وهم كانوا اثنين بدليل أنهم قالوا خصمان ، قالوا فهذه الآية تدل على أن أقل الجمع اثنان والجواب : لا يمتنع أن يكون كل واحد من الخصمين جمعاً كثيرين ، لأنا بينا أن الخصم إذا

جعل اسماً فإنه لا يثنى ولا يجمع ، ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودُ ﴾ والفائدة فيه أنهم ربما تسوروا المحراب وما دخلوا عليه ، فلما قال : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ دل على أنهم بعد التسور دخلوا عليه ، قال الفراء : وقد يجاء بإذ مرتين ويكون معناهما كالواحد ، كقولك ضربتك إذ دخلت علي إذ اجترأت ، مع أنه يكون وقت الدخول ووقت الاجتراء واحداً ، ثم قال تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ والسبب أن داود عليه السلام لما رآهما قد دخلوا عليه لا من الطريق المعتاد ، علم أنهم إنما دخلوا عليه للشر ، فلاجرم فزع منهم ، ثم قال تعالى : ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

خصمان خبر مبتدأ محذوف ، أي نحن خصمان .

المسألة الثانية :

(32/659)

ههنا قولان الأول : أنهما كانا ملكين نزلا من السماء وأرادا تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذي أقدم عليه والثاني : أنهما كانا إنسانين دخلا عليه للشر والقتل ، فظنا أنهما يجدانه خالياً ، فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر ، وأما

المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بأنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين في قولهما ﴿ خَصْمَانِ ﴾ فإنه ليس بين الملائكة خصومة ، ولكانا كاذبين في قولهما : ﴿ بغى بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ ولكانا كاذبين في قولهما : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ فثبت أنهما لو كانا ملكين كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول ﴾ [الأنبياء : 27] ولقوله : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : 50] أجاب الذاهبون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا إن الملكين إنما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب ، وأجيب عن هذا الجواب بأن ما ذكرتم يقتضي العدول عن ظاهر اللفظ ، ومعلوم أنه على خلاف الأصل ، أما إذا حملنا الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر ثم وضعا هذا الحديث الباطل ، فحينئذٍ لزم إسناد الكذب إلى شخصين فاسقين فكان هذا أولى من القول الأول ، والله أعلم ، وأما القائلون بكونهما ملكين فقد احتجوا بوجوه الأول : اتفاق أكثر المفسرين عليه والثاني : أنه أرفع منزلة من أن يتسور عليه آحاد الرعية في حال تعبده فيجب أن يكون ذلك من الملائكة الثالث : أن قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ كالدلالة على كونهما ملكين لأن من هو من رعيته لا يكاد يقول له مثل ذلك مع رفعة منزلته الرابع : أن قولهما : ﴿ وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ كالدلالة على كونهما ملكين لأن أحداً من رعيته لا يتجاسر أن يقول له لا تظلم ولا تتجاوز عن الحق ، واعلم أن ضعف هذه الدلائل ظاهر ، ولا حاجة إلى الجواب ، والله

أعلم.

المسألة الثالثة:

﴿ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ ﴾ أي تعدى وخرج عن الحد يقال بغى الجرح إذا أفرط وجعه وانتهى إلى الغاية، وقال بغت المرأة إذا زنت، لأن الزنا كبيرة منكرة، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تُكْرِهُواْ فتياتكم عَلَى البغاء ﴾ [النور: 33] ثم قال: ﴿ فاحكم بَيْنَنَا بالحق ﴾ معنى الحكم إحكام الأمر في إمضاء تكليف الله عليهما في الواقعة، ومنه حكمة الدابة لأنها تمنع من الجماح، ومنه بناء محكم إذا كان قوياً، وقوله: ﴿ بالحق ﴾ أي بالحكم الحق وهو الذي حكم الله به ﴿ وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ يقال شط الرجل إذا بعد، ومنه قوله: شطت الدار إذا بعدت، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ [الكهف: 14] أي قولاً بعيداً عن الحق، فقوله: ﴿ وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ أي لا تبعد في هذا الحكم عن الحق، ثم قال: ﴿ واهدنا إلى سَوَاء الصراط ﴾ وسواء الصراط هو وسطه، قال تعالى: ﴿ فاطلع فَرَءاهُ فِى سَوَاء الجحيم ﴾ [الصافات: 55] ووسط الشيء أفضله وأعدله، قال تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطاً ﴾ [البقرة: 143] وأقول إنهم عبروا عن المقصود الواحد بثلاث

عبارات أولها : قولهم فاحكم بالحق وثانيها : قولهم : ﴿ وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ وهي نهي عن الباطل وثالثها : قولهم : ﴿ واهدنا إلى سَوَاء الصراط ﴾ يعني يجب أن يكون سعيك في إيجاد هذا الحق .

وفي الاحتراز عن هذا الباطل أن تردنا من الطريق الباطل إلى الطريق الحق ، وهذا مبالغة تامة في تقرير المطلوب ، واعلم أنهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الإجمال أردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل ، فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(34/659)

قال صحاب "الكشاف" ﴿ أَخِى ﴾ يدل من هذا أو خبر لقوله : ﴿ إن ﴾ والمراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطاء ﴾ وكل واحدة من هذه الأخوات توجب الامتناع من الظلم والاعتداء .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" قرىء ﴿ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ ﴾ بفتح التاء ونعجة بكسر النون ،

وهذا من اختلاف اللغات نحو نطع ونطع ، ولقوة وهي الأنثى من العقبان .

المسألة الثالثة :

قال الليث : النعجة الأنثى من الضأن والبقرة الوحشية والشاة الجبلية ، والجمع النعجات ، والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة .

المسألة الرابعة :

قرأ عبد الله : ﴿ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنثَى ﴾ وهذا يكون لأجل التأكيد كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [النحل : 51] ، ثم قال : ﴿ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ حقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي ﴿ وَعَزَّنِي ﴾ غلبني ، يقال عزه يعزه ، والمعنى جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أورده به ، وقرىء وعازني من المعازة ، وهي المغالبة ، واعلم أن الذين قالوا إن هذين الخصمين كانا من الملائكة زعموا أن المقصود من ذكر النعاج التمثيل ، لأن داود كان تحته تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة ، فذكرت الملائكة تلك الواقعة على سبيل الرمز والتمثيل .

(35/659)

ثم قال تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ أي سؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه ، وروي أنه قال له : إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى الأنف والجبهة فقال : يا داود أنت أحق أن نضرب منك هذا وهذا ، وأنت فعلت كيت وكيت ، ثم نظر داود فلم ير أحداً فعرف الحال ، فإن قيل كيف جاز لداود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرد قول خصمه ؟ قلنا ذكروا فيه وجوهاً الأول : قال محمد بن إسحاق : لما فرغ الخصم الأول من كلامه نظر داود إلى الخصم الذي لم يتكلم وقال لئن صدق لقد ظلمته ، والحاصل أن هذا الحكم كان مشروطاً بشرط كونه صادقاً في دعواه والثاني : قال ابن الأنباري : لما ادعى أحد الخصمين اعترف الثاني فحكم داود عليه السلام ولم يذكر الله تعالى ذلك الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه ، كما تقول أمرتك بالتجارة فكسبت تريد اتجرت فكسبت ، وقال تعالى : ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ ﴾ [الشعراء : 63] أي فضرب فانفلق ، والثالث : أن يكون التقدير أن الخصم الذي هذا شأنه يكون قد ظلمك .

(36/659)

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطاء لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ قال : الليث خليط الرجل مخالطه ، وقال الزجاج : الخلطاء الشركاء ، فإن قيل لم خص داود الخلطاء يبغي بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء قد يفعلون ذلك ، والجواب لا شك أن المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة ، وذلك لأنهما إذا اختلطا اطلع كل واحد منهما على أحوال الآخر فكل ما يملكه من الأشياء النفيسة إذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه ، فيفضي ذلك إلى زيادة المخاصمة والمنازعة ، فلهذا السبب خص داود عليه السلام الخلطاء بزيادة البغي والعدوان ، ثم استثنى عن هذا الحكم الذي آمنوا وعلموا الصالحات لأن مخالطة هؤلاء لا تكون إلا لأجل الدين وطلب السعادات الروحانية الحقيقية ، فلا جرم مخالطتهم لا توجب المنازعة ، وأما الذين تكون مخالطتهم لأجل حب الدنيا لا بد وأن تصير مخالطتهم سبباً لمزيد البغي والعدوان ، واعلم أن هذا الاستثناء يدل على أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يبغي بعضهم على بعض ، فلو كان داود عليه السلام قد بغى وتعدى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لا يكون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ومعلوم أن ذلك باطل ، فثبت أن قول من يقول المراد من واقعة النعجة قصة داود قول باطل .

ثم قال تعالى : ﴿ وَقَليل مَّا هُم ﴾ واعلم أن الحكم بقلة أهل الخير كثير في القرآن ، قال تعالى

: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ﴾ [سبأ : 13] وقال داود عليه السلام في هذا الموضع ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ وحكى تعالى عن إبليس أنه قال :

(37/659)

﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾ [الأعراف : 17] وسبب القلة أن الدواعي إلى الدنيا كثيرة ، وهي الحواس الباطنة والظاهرة وهي عشرة والشهوة والغضب والقوى الطبيعية السبعة فالمجموع تسعة عشر واقفون على باب جهنم البدن ، وكلها تدعو إلى الخلق والدنيا واللذة الحسية ، وأما الداعي إلى الحق والدين فليس إلا العقل واستيلاء القوة الحسية والطبيعية على الخلق أكثر من القوة العقلية فيهم ، فلهذا السبب وقعت القلة في جانب أهل الخير والكثرة في جانب أهل الشر ، قال صاحب "الكشاف" وما في قوله : ﴿ وَقليل مَّا هُم ﴾ للإبهام وفيه تعجب من قلتهم ، قال وإذا أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرىء القيس : وحديث ما على قصره – وانظر هل بقي له معنى قط .

ثم قال تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فتناه ﴾ قالوا معناه وعلم داود أنما فتناه أي امتحناه ، قالوا والسبب الذي أوجب حمل لفظ الظن على العلم ههنا أن داود عليه السلام لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ، ثم صعد إلى السماء قبل وجهه ، فعلم داود أن

الله ابتلاه بذلك فثبت أن داود علم ذلك وإنما جاز حمل لفظ الظن على العلم لأن العلم الاستدلالي يشبه الظن مشابهة عظيمة ، والمشابهة علة لجواز المجاز ، وأقول هذا الكلام إنما يلزم إذا قلنا الخصمان كانا ملكين أما إذا لم نقل ذلك لا يلزمنا حمل الظن على العلم ، بل لقائل أن يقول إنه لما غلب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والإنابة .

(38/659)

أما قوله : ﴿ فاستغفر رَبَّهُ ﴾ أي سأل الغفران من ربه ، ثم ههنا وجهان إن قلنا بأنه قد صدرت زلة منه ، حملنا هذا الاستغفار عليها ، وإن لم نقل به قلنا فيه وجوه الأول : أن القوم لما دخلوا عليه قاصدين قتله ، وإنه كان سلطاناً شديد القهر عظيم القوة ، ثم أنه مع أنه مع القدرة الشديدة على الانتقام ومع حصول الفزع في قلبه عفا عنهم ولم يقل لهم شيئاً قرب الأمر من أن يدخل في قلبه شيء من العجب ، فاستغفر ربه عن تلك الحالة وأناب إلى الله ، واعترف بأن إقدامه على ذلك الخير ما كان إلا بتوفيق الله ، فغفر الله له وتجاوز عنه بسبب طريان ذلك الخاطر الثاني : لعله هم بإيذاء القوم ، ثم قال : إنه لم يدل دليل قاطع على أن هؤلاء قصدوا الشر فعفا عنهم ثم استغفر عن ذلك الهم الثالث : لعل القوم تابوا إلى الله

وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم لأجل أن يقبل توبتهم فاستغفر وتضرع إلى الله ، فغفر الله ذنوبهم بسبب شفاعته ودعائه ، وكل هذه الوجوه محتملة ظاهرة ، والقرآن مملوء من أمثال هذه الوجوه وإذا كان اللفظ محتملاً لما ذكرناه ولم يقم دليل قطعي ولا ظني على التزام المنكرات التي يذكرونها ، فما الذي يحملنا على التزامها والقول بها ، والذي يؤكد أن الذي ذكرناه أقرب وأقوى أن يقال ختم الله هذه القصة بقوله : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ ومثل هذه الخاتمة إنما تحسن في حق من صدر منه عمل كثير في الخدمة والطاعة ، وتحمل أنواعاً من الشدائد في الموافقة والانقياد ، أما إذا كان المذكور السابق هو الإقدام على الجرم والذنب فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به ، قال مالك بن دينار ؛ إذا كان يوم القيامة أتى بمنبر رفيع ويوضع في الجنة ، ويقال يا داود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا ، والله أعلم ، بقي ههنا مباحث فالأول : قرىء فتناه وفتناه على أن الألف ضمير الملكين الثاني : المشهور أن الاستغفار إنما كان بسبب قصة

(39/659)

النعجة والنعاج ، وقيل أيضاً إنما كان بسبب أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن سمع كلام الثاني وذلك غير جائز الثالث : قوله ؛ ﴿ خَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ يدل على حصول الركوع ،

وأما السجود فقد ثبت بالأخبار وكذلك البكاء الشديد في مدة أربعين يوماً ثبت بالأخبار الرابع : أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن هذا الموضع ليس فيه سجدة التلاوة قال لأن توبة نبي فلا توجب سجدة التلاوة الخامس : استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية في سجود التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 165.173 ﴾

(40/659)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُد فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ .

الْآيَةُ فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الْخَصْمُ كَلِمَةٌ تَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ وُقُوعَ الْمَصَادِرِ عَلَى ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُمَا كَانَا اثْنَيْنِ ، فَيَنْتَظِمُ الْكَلَامُ بِهِمَا ، وَيَصِحُّ الْمُرَادُ فِيهِمَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ يَعْنِي جَاءُوا مِنْ أَعْلَاهُ .

وَالسُّورَةُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ كَانَتْ بُقْعَةً مَحْسُوسَةً أَوْ مَنْزِلَةً مَعْقُولَةً ؛ قَالَ الشَّاعِرُ : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ فَهَذَا هُوَ الْمَنْزِلَةُ .

وَسُورُ الْمَدِينَةِ الْمَوْضِعُ الْعَالِي مِنْهَا ، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِغَيْرِ هَمْزٍ .

وَالسُّؤْرُ مَهْمُوزٌ : بَقِيَّةُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي الْإِنَاءِ .

وَالسُّؤْرُ : الْوَلِيمَةُ بِالْفَارِسِيَّةِ وَفِي الْحَدِيثِ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ : يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ ؛ إنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ لَكُمْ سُؤْرًا فَحَيَّ هَلًا بِكُمْ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ فِي الْمِحْرَابِ ، قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ إذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُد ﴾ : قِيلَ : إنَّهُمَا كَانَا إنْسِيَّيْنِ ؛ قَالَهُ النَّقَّاشُ . وَقِيلَ : مَلَكَيْنِ ؛ قَالَهُ جَمَاعَةٌ .

(41/659)

وَعَيَّنَهُمَا جَمَاعَةٌ ، فَقَالُوا : إنَّهُمَا كَانَا جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ ، وَرَبُّك أَعْلَمُ فِي ذَلِكَ بِالتَّفْصِيلِ ، بَيْدَ أَنِّي أَقُولُ لَكُمْ قَوْلًا تَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى الْغَرَضِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ مِحْرَابَ دَاوُد كَانَ مِنْ الِامْتِنَاعِ بِالِارْتِفَاعِ بِحَيْثُ لَا يَرْقَى إلَيْهِ آدَمِيٌّ بِحِيلَةٍ إلَّا أَنْ يُقِيمَ إلَيْهِ أَيَّامًا أَوْ أَشْهُرًا بِحَسْبِ طَاقَتِهِ ، مَعَ

أَعْوَانٍ يَكْثُرُ عَدَدُهُمْ ، وَآلَاتٍ جَمَّةٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَنْوَاعِ .

وَلَوْ قُلْنَا إنَّهُ يُوصَلُ إلَيْهِ مِنْ بَابِ الْمِحْرَابِ لَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذَلِكَ : ﴿ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ ؛ إذْ لَا يُقَالُ تَسَوَّرَ الْمِحْرَابَ وَالْغُرْفَةَ لِمَنْ طَلَعَ إلَيْهَا مِنْ دَرَجِهَا ، وَجَاءَهَا مِنْ أَسْفَلِهَا ، إلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَجَازًا .

وَإِذَا شَاهَدْت الْكُوَّةَ الَّتِي يُقَالُ إنَّهُ دَخَلَ مِنْهَا الْخَصْمَانِ عَلِمْت قَطْعًا أَنَّهُمَا مَلَكَانِ ؛ لِأَنَّهَا مِنْ الْعُلُوِّ بِحَيْثُ لَا يَنَالُهَا إلَّا عُلْوِيٌّ ، وَلَا نُبَالِي مَنْ كَانَا فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُك بَيَانًا ، وَإِنَّمَا الْحُكْمُ الْمَطْلُوبُ وَرَاءَ ذَلِكَ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ : فَإِنْ قِيلَ : لِمَ فَزِعَ وَهُوَ نَبِيٌّ وَقَدْ قَوِيَتْ نَفْسُهُ بِالنُّبُوَّةِ ، وَاطْمَأَنَّتْ بِالْوَحْيِ ، وَوَثِقَتْ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ الْمَنْزِلَةِ ، وَأَظْهَرَ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ الْآيَاتِ ؟ قُلْنَا : لِأَنَّهُ لَمْ يَضْمَنْ لَهُ الْعِصْمَةَ ، وَلَا أَمِنَ مِنْ الْقَتْلِ وَالْإِذَايَةِ ، وَمِنْهُمَا .

كَانَ يَخَافُ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا تَخَفْ .

(42/659)

وَقَبْلَهُ قِيلَ ذَلِكَ لِلُوطٍ ؛ فَهُمْ فَزِعُونَ مِنْ خَوْفٍ مَا لَمْ يَكُنْ قِيلَ لَهُمْ [فِيهِ] : إنَّكُمْ مِنْهُ مَعْصُومُونَ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ : أَيْ نَحْنُ خَصْمَانِ .

وَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ لَمْ يَأْمُرْ بِإِخْرَاجِهِمْ إِذْ عَلِمَ مَطْلَبَهُمْ ، وَقَدْ دَخَلُوا عَلَيْهِ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، وَهَلَّا أَدَّبَهُمْ عَلَى تَعَدِّيهِمْ ؟ فَالْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّا لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ شَرْعِهِ فِي الْحِجَابِ وَالْإِذْنِ ، فَيَكُونُ الْجَوَابُ عَلَى حَسْبِ تِلْكَ الْأَحْكَامِ .

وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي ابْتِدَاءِ شَرْعِنَا مُهْمَلًا عَنْ هَذِهِ الْأَحْكَامِ ، حَتَّى أَوْضَحَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْبَيَانِ .

الثَّانِي : إِنَّا لَوْ نَزَّلْنَا الْجَوَابَ عَلَى أَحْكَامِ الْحِجَابِ لَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ الْفَزَعُ الطَّارِئُ عَلَيْهِ أَذْهَلَهُ عَمَّا كَانَ يَجِبُ فِي ذَلِكَ لَهُ .

الثَّالِثُ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَسْتَوْفِيَ كَلَامَهُمَا الَّذِي دَخَلَا لَهُ حَتَّى يَعْلَمَ آخِرَ الْأَمْرِ مِنْهُ ، وَيَرَى هَلْ يَحْتَمِلُ التَّقَحُّمُ فِيهِ بِغَيْرِ إِذْنٍ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ يَقْتَرِنُ بِذَلِكَ عُذْرٌ لَهُمَا ، أَمْ لَا يَكُونُ لَهُمَا عُذْرٌ عَنْهُ . وَكَانَ مِنْ آخِرِ الْحَالِ مَا انْكَشَفَ مِنْ أَنَّهُ بَلَاءٌ وَمِحْنَةٌ وَمَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ فِي الْقِصَّةِ ، وَأَدَبٌ وَقَعَ عَلَى دَعْوَى الْعِصْمَةِ .

الرَّابِعُ أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فِي الْمَسْجِدِ ، وَلَا إِذْنَ فِي الْمَسْجِدِ لِأَحَدٍ ، وَلَا حَجْرَ فِيهِ عَلَى أَحَدٍ .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ .

فِيهَا وَفِي الْآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا أَرْبَعَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى كَنَّى بِالنَّعْجَةِ عَنْ الْمَرْأَةِ ، لِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ السُّكُونِ وَالْمُعْجِزَةِ وَضَعْفِ الْجَانِبِ .

وَقَدْ يُكْنَى عَنْهَا بِالْبَقَرَةِ وَالْحَجَرِ وَالنَّاقَةِ ؛ لِأَنَّ الْكُلَّ مَرْكُوبٌ .

أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ الْهُذَلِيُّ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ : إنَّهُ يُكَنَّى عَنْ الْمَرْأَةِ بِأَلْفِ مِثْلٍ فِي الْمَقَامِ يُعَبِّرُ بِهِ الْمَلِكُ عَنْ الْمَعْنَى الَّذِي يُرِيدُهُ ، وَقَدْ قَيَّدْنَاهَا كُلَّهَا عَنْهُ فِي سِفْرٍ وَاحِدٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ ﴿ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ إنْ كَانَ جَمِيعُهُنَّ أَحْرَارًا فَذَلِكَ شَرْعُهُ ، وَإِنْ كُنَّ إمَاءً فَذَلِكَ شَرْعُنَا .

وَالظَّاهِرُ أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا لَمْ يَكُنْ مَحْصُورًا بِعَدَدٍ ، وَإِنَّمَا الْحَصْرُ فِي شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِضَعْفِ الْأَبْدَانِ وَقِلَّةِ الْأَعْمَارِ .

وَهْمٌ وَتَنْبِيهٌ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : لَمْ يَكُنْ لِدَاوُدَ مِائَةُ امْرَأَةٍ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ التِّسْعَةَ وَالتِّسْعِينَ مَثَلًا .

الْمَعْنَى هَذَا غَنِيٌّ عَنْ الزَّوْجَةِ وَأَنَا مُفْتَقِرٌ إلَيْهَا ، وَهَذَا فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ الْعُدُولَ عَنْ الظَّاهِرِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ لَا مَعْنَى لَهُ ، وَلَا دَلِيلَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا كَانَ مَقْصُورًا مِنْ النِّسَاءِ عَلَى مَا فِي شَرْعِنَا .

الثَّانِي : أَنَّهُ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ سُلَيْمَانَ قَالَ : لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ تَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَنَسِيَ أَنْ يَقُولَ إنْ شَاءَ اللَّهُ وَهَذَا نَصٌّ قَدَّمْنَا تَحْقِيقَهُ قَبْلُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ :

الْأَوَّلُ : مِنْ كَفْلِهَا أَيْ ضَمِّهَا أَيْ اجْعَلْهَا تَحْتَ كَفَالَتِي .

الثَّانِي : أَعْطِنِيهَا .

وَيَرْجِعُ إلَى الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّهُ أَعَمُّ مِنْهُ مَعْنًى .

الثَّالِثُ : تَحَوَّلْ لِي عَنْهَا ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

وَيَرْجِعُ إلَى الْعَطَاءِ وَالْكَفَالَةِ إلَّا أَنَّهُ أَعَمُّ مِنْ الْكَفَالَةِ وَأَخَصُّ مِنْ الْعَطَاءِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ .

يَعْنِي غَلَبَنِي ، مِنْ قَوْلِهِمْ : مَنْ عَزَّ بَزَّ .

وَاخْتُلِفَ فِي سَبَبِ الْغَلَبَةِ ؛ فَقِيلَ مَعْنَاهُ : غَلَبَنِي بِبَيَانِهِ .

وَقِيلَ : غَلَبَنِي بِسُلْطَانِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا سَأَلَهُ لَمْ يَسْتَطِعْ خِلَافَهُ .

كَانَ بِبَلَدِنَا أَمِيرٌ يُقَالُ لَهُ سَيْرُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ، فَكَلَّمْتُهُ فِي أَنْ يَسْأَلَ لِي رَجُلًا حَاجَةً ، فَقَالَ لِي : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ طَلَبَ السُّلْطَانِ الْحَاجَةَ غَصْبٌ لَهَا .

فَقُلْتُ : أَمَّا إذَا كَانَ عَدْلًا فَلَا .

(45/659)

فَعَجِبْتُ مِنْ عُجْمَتِهِ وَحِفْظِهِ لِمَا تَمَثَّلَ بِهِ ، وَفِطْنَتِهِ ، كَمَا عَجِبَ مِنْ جَوَابِي لَهُ وَاسْتَغْرَبَهُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ فِي الْآيَةِ الْخَامِسَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلَى نِعَاجِهِ ﴾ .

الظُّلْمُ : وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ مُحَرَّمًا وَقَدْ يَكُونُ مَكْرُوهًا شَرْعًا ، وَقَدْ يَكُونُ مَكْرُوهًا عَادَةً ، فَإِنْ كَانَ غَلَبَهُ عَادَةً عَلَى أَهْلِهِ فَهُوَ ظُلْمٌ مُحَرَّمٌ ، وَإِنْ كَانَ سَأَلَهُ إيَّاهَا فَهُوَ ظُلْمٌ مَكْرُوهٌ شَرْعًا وَعَادَةً ، وَلَكِنْ لَا إثْمَ عَلَيْهِ فِيهِ الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ فِي تَقْيِيدِ مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْهُمْ بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَأَحْوَالٍ مُتَفَاوِتَةٍ ؛

أَمْثَلُهَا أَنَّ دَاوُد حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ إِذْ ابْتُلِيَ أَنْ يَعْتَصِمَ ، فَقِيلَ لَهُ .

إِنَّك سَتُبْتَلَى وَتَعْلَمُ الَّذِي تُبْتَلَى فِيهِ ، فَخُذْ حِذْرَك ؛ فَأَخَذَ الزَّبُورَ وَدَخَلَ الْمِحْرَابَ ، وَمَنَعَ مِنْ الدُّخُولِ عَلَيْهِ ؛ فَبَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ الزَّبُورَ إِذْ جَاءَ طَائِرٌ كَأَحْسَنِ مَا يَكُونُ ، وَجَعَلَ يُدْرِجُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَهَمَّ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ بِيَدِهِ ، فَاسْتُدْرِجَ حَتَّى وَقَعَ فِي كُوَّةِ الْمِحْرَابِ ، فَدَنَا مِنْهُ لِيَأْخُذَهُ ، فَطَارَ فَاطَّلَعَ لِيُبْصِرَهُ فَأَشْرَفَ عَلَى امْرَأَةٍ تَغْتَسِلُ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ غَطَّتْ جَسَدَهَا بِشَعْرِهَا ، فَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ ، وَكَانَ زَوْجُهَا غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَكَتَبَ دَاوُد إِلَى أَمِيرِ الْغَزَاةِ أَنْ يَجْعَلَ زَوْجَهَا فِي حَمْلَةِ التَّابُوتِ ، إِمَّا أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَإِمَّا أَنْ يُقْتَلُوا .

(46/659)

فَقَدَّمَهُ فِيهِمْ ، فَقُتِلَ .

فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا خَطَبَهَا دَاوُد ، فَاشْتَرَطَتْ عَلَيْهِ إِنْ وَلَدَتْ غُلَامًا أَنْ يَكُونَ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَكَتَبَتْ عَلَيْهِ بِذَلِكَ كِتَابًا ، وَأَشْهَدَتْ عَلَيْهِ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَلَمْ تَسْتَقِرَّ نَفْسُهُ حَتَّى وَلَدَتْ سُلَيْمَانَ ، وَشَبَّ وَتَسَوَّرَ الْمَلَكَانِ وَكَانَ مِنْ قِصَّتِهَا مَا قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ .

﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : فِي التَّنْقِيحِ : قَدْ قَدَّمْنَا لَكُمْ فِيمَا سَلَفَ ، وَأَوْضَحْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ عَنْ الْكَبَائِرِ إجْمَاعًا ، وَفِي الصَّغَائِرِ اخْتِلَافٌ ؛ وَأَنَا أَقُولُ : إنَّهُمْ مَعْصُومُونَ عَنْ الصَّغَائِرِ وَالْكَبَائِرِ ، لِوُجُوهٍ بَيَّنَّاهَا فِي كِتَابِ النُّبُوَّاتِ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ ، وَقَدْ قَالَ جَمَاعَةٌ : لَا صَغِيرَةَ فِي الذُّنُوبِ وَهُوَ صَحِيحٌ ، كَمَا قَالَتْ طَائِفَةٌ : إنَّ مِنْ الذُّنُوبِ كَبَائِرُ وَصَغَائِرُ ، وَهُوَ صَحِيحٌ .

(47/659)

وَتَحْقِيقُهُ أَنَّ الْكُفْرَ مَعْصِيَةٌ لَيْسَ فَوْقَهَا مَعْصِيَةٌ ، كَمَا أَنَّ النَّظْرَةَ مَعْصِيَةٌ لَيْسَ دُونَهَا مَعْصِيَةٌ ، وَبَيْنَهُمَا ذُنُوبٌ إنْ قَرَنْتَهَا بِالْكُفْرِ وَالْقَتْلِ وَالزِّنَا وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ وَالْقَذْفِ وَالْغَصْبِ كَانَتْ صَغَائِرَ ، وَإِنْ أَضَفْتَهَا إلَى مَا يَلِيهَا فِي الْقِسْمِ الثَّانِي الَّذِي بَعْدَهُ مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ كَانَتْ كَبَائِرَ وَالَّذِي أَوْقَعَ النَّاسَ فِي ذَلِكَ رِوَايَةُ الْمُفَسِّرِينَ وَأَهْلُ التَّقْصِيرِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فِي قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ مَصَائِبَ لَا قَدْرَ عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ اعْتَقَدَهَا رِوَايَاتٍ وَمَذَاهِبَ ، وَلَقَدْ كَانَ مِنْ حُسْنِ الْأَدَبِ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَلَّا تُبَثَّ عَثَرَاتُهُمْ لَوْ عَثَرُوا ، وَلَا تُبَثَّ فَلَتَاتُهُمْ لَوْ اسْتَفْلَتُوا ؛ فَإِنَّ إسْبَالَ السِّتْرِ عَلَى الْجَارِ وَالْوَلَدِ وَالْأَخِ وَالْفَضِيلَةُ أَكْرَمُ فَضِيلَةٍ ، فَكَيْفَ سَتَرْت عَلَى جَارِك حَتَّى لَمْ تَقُصَّ نَبَأَهُ فِي أَخْبَارِك ؛ وَعَكَفْت عَلَى أَنْبِيَائِك وَأَحْبَارِك تَقُولُ عَنْهُمْ مَا لَمْ يَفْعَلُوا ،

وَتَنْسُبُ إِلَيْهِمْ مَا لَمْ يَتَلَبَّسُوا بِهِ ، وَلَا تُلَوِّثُوا بِهِ ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا التَّعَدِّي وَالْجَهْلِ بِحَقِيقَةِ الدِّينِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُسْلِمِينَ وَالْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ أَخْبَارَهُمْ .

قُلْنَا : عَنْ ذَلِكَ جَوَابَانِ : أَحَدُهُمَا لِلْمَوْلَى أَنْ يَذْكُرَ مَا شَاءَ مِنْ أَخْبَارِ عَبِيدِهِ ، وَيَسْتُرَ وَيَفْضَحَ ، وَيَعْفُوَ وَيَأْخُذَ ،

(48/659)

وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يُنَبِّزَ فِي مَوْلَاهُ بِمَا يُوجِبُ عَلَيْهِ اللَّوْمَ ، فَكَيْفَ بِمَا عَلَيْهِ فِيهِ الْأَدَبُ وَالْحَدُّ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَالَ فِي كِتَابِهِ لِعِبَادِهِ فِي بِرِّ الْوَالِدَيْنِ : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ فَكَيْفَ بِمَا زَادَ عَلَيْهِ ؟ فَمَا ظَنُّكَ بِالْأَنْبِيَاءِ ، وَحَقُّهُمْ أَعْظَمُ ، وَحُرْمَتُهُمْ آكَدُ ، وَأَنْتُمْ تَغْمِسُونَ أَلْسِنَتَكُمْ فِي أَعْرَاضِهِمْ ، وَلَوْ قَرَّرْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ حُرْمَتَهُمْ لَمَا ذَكَرْتُمْ قِصَّتَهُمْ .

الثَّانِي : أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ فِيمَا أَتَوْا مِنْ ذَلِكَ عِلْمُهُ بِأَنَّ الْعِبَادَ سَيَخُوضُونَ فِيهَا بِقَدْرٍ ، وَيَتَكَلَّمُونَ فِيهَا بِحِكْمَةٍ ، وَلَا يُسْأَلُ عَنْ مَعْنَى ذَلِكَ وَلَا عَنْ غَيْرِهِ ، فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ أَمْرَهُمْ كَمَا وَقَعَ ، وَوَصَفَ حَالَهُمْ بِالصِّدْقِ كَمَا جَرَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ يَعْنِي أَصْدَقَهُ .

وَقَالَ : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ .

وَقَدْ وَصَّيْنَاكُمْ إذَا كُنْتُمْ لَا بُدَّ آخِذِينَ فِي شَأْنِهِمْ ذَاكِرِينَ قَصَصَهُمْ أَلَّا تَعْدُوا مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَتَقُولُوا ذَلِكَ بِصِفَةِ التَّعْظِيمِ لَهُمْ وَالتَّنْزِيهِ عَنْ غَيْرِ مَا نَسَبَ اللَّهُ إلَيْهِمْ ، وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : قَدْ عَصَى الْأَنْبِيَاءُ فَكَيْفَ نَحْنُ ، فَإِنْ ذَكَرَ ذَلِكَ كَفَرَ . .

(49/659)

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ فِي ذِكْرِ قِصَّةِ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْخُصُوصِ بِالْجَائِزِ مِنْهَا دُونَ الْمُمْتَنِعِ : أَمَّا قَوْلُهُمْ : إنَّ دَاوُد حَدَّثَ نَفْسَهُ أَنْ يَعْتَصِمَ إذَا ابْتُلِيَ فَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ حَدِيثَ النَّفْسِ لَا حَرَجَ فِيهِ فِي شَرْعِنَا آخِرًا ، وَقَدْ كُنَّا قَبْلَ ذَلِكَ قِيلَ لَنَا إنَّا نُؤَاخَذُ بِهِ ، ثُمَّ رَفَعَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنَّا بِفَضْلِهِ ، فَاحْتُمِلَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُؤَاخَذًا بِهِ فِي شَرْعِ مَنْ قَبْلَنَا ، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ ، فَلَيْسَ فِي وُقُوعِهِ مِمَّنْ يَقَعُ مِنْهُ نَقْصٌ ؛ وَإِنَّمَا الَّذِي يُمْكِنُ دَفْعُهُ هُوَ الْإِصْرَارُ بِالتَّمَادِي عَلَى حَدِيثِ النَّفْسِ وَعَقْدِ الْعَزْمِ عَلَيْهِ .

الثَّانِي أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ نَظَرَ مِنْ حَالِهِ وَفِي عِبَادَتِهِ وَخُشُوعِهِ وَإِنَابَتِهِ وَإِخْبَاتِهِ ، فَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ يُعْطِيهِ عَادَةَ التَّجَافِي عَنْ أَسْبَابِ الذُّنُوبِ ، فَضْلًا عَنْ التَّوَغُّلِ فِيهَا ،

فَوَثِقَ بِالْعِبَادَةِ ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُرِيَهُ أَنَّ ذَلِكَ حُكْمُهُ فِي الْعِبَادَةِ وَاطِّرَادِهَا .

الثَّالِثُ : أَنَّ هَذَا النَّقْلَ لَمْ يَثْبُتْ ؛ فَلَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ .

(50/659)

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إنَّ الطَّائِرَ دَرَجَ عِنْدَهُ فَهَمَّ بِأَخْذِهِ ، فَدَرَجَ فَاتَّبَعَهُ ، فَهَذَا لَا يُنَاقِضُ الْعِبَادَةَ ؛ لِأَنَّ هَذَا مُبَاحٌ فِعْلُهُ لَا سِيَّمَا وَهُوَ حَلَالٌ ، وَطَلَبُ الْحَلَالِ فَرِيضَةٌ ، وَإِنَّمَا اتَّبَعَ الطَّائِرَ لِذَاتِهِ لَا لِجَمَالِهِ فَإِنَّهُ لَا مَنْفَعَةَ لَهُ فِيهِ ؛ وَإِنَّمَا ذِكْرُهُمْ لِحُسْنِ الطَّائِرِ حِذْقٌ فِي الْجَهَالَةِ ، أَمَّا إنَّهُ قَدْ رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ طَائِرًا مِنْ ذَهَبٍ فَاتَّبَعَهُ لِيَأْخُذَهُ لِأَنَّهُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، كَمَا رُوِيَ فِي " الصَّحِيحِ " أَنَّ أَيُّوبَ كَانَ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا ، فَخَرَّ عَلَيْهِ رِجْلٌ مِنْ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَجَعَلَ يَحْثِي مِنْهُ ، وَيَجْعَلُ فِي ثَوْبِهِ ، فَقَالَ لَهُ اللَّهُ : يَا أَيُّوبُ ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُك عَمَّا تَرَى ، قَالَ : بَلَى يَا رَبِّ ، وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِك " .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إنَّهُ وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَى امْرَأَةٍ تَغْتَسِلُ عُرْيَانَةً فَلَمَّا رَأَتْهُ أَرْسَلَتْ شَعْرَهَا فَسَتَرَتْ جَسَدَهَا ، فَهَذَا لَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِيهِ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ ؛ لِأَنَّ النَّظْرَةَ الْأُولَى لِكَشْفِ الْمَنْظُورِ إلَيْهِ ، وَلَا يَأْثَمُ النَّاظِرُ بِهَا .

(51/659)

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : أَنَّهَا لَمَّا أَعْجَبَتْهُ أَمَرَ بِتَقْدِيمِ زَوْجِهَا لِلْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَهَذَا بَاطِلٌ قَطْعًا ؛ لِأَنَّ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ لِيُرِيقَ دَمَهُ فِي غَرَضِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ الْأَمْرِ أَنَّ دَاوُد قَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ : انْزِلْ لِي عَنْ أَهْلِك ، وَعَزَمَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، كَمَا يَطْلُبُ الرَّجُلُ مِنْ الرَّجُلِ الْحَاجَةَ بِرَغْبَةٍ صَادِقَةٍ كَانَتْ فِي الْأَهْلِ أَوْ الْمَالِ ، وَقَدْ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الرَّبِيعِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ حِينَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُمَا : وَلِي زَوْجَتَانِ ، أُنْزِلُ لَك عَنْ إحْدَاهُمَا ، فَقَالَ لَهُ : بَارَكَ اللَّهُ لَك فِي أَهْلِك وَمَالِك .

(52/659)

وَمَا يَجُوزُ فِعْلُهُ ابْتِدَاءً يَجُوزُ طَلَبُهُ ، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ ، وَلَا أَنَّهُ تَزَوَّجَهَا بَعْدَ زَوَالِ عِصْمَةِ الرَّجُلِ عَنْهَا ، وَلَا وِلَادَتُهَا لِسُلَيْمَانَ ، فَعَنْ مَنْ يَرْوِي هَذَا وَبِسَنَدٍ ؟ وَعَلَى مَنْ فِي نَقْلِهِ يَعْتَمِدُ ، وَلَيْسَ يُؤْثِرُهُ عَنْ الثِّقَاتِ الْأَثْبَاتِ أَحَدٌ ؟ أَمَا إنَّ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ نُكْتَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّ دَاوُد قَدْ صَارَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ زَوْجَةً ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ يَعْنِي فِي أَحَدِ الْأَقْوَالِ [كَانَ] تَزْوِيجُ الْمَرْأَةِ الَّتِي نَظَرَ إلَيْهَا ، "كَمَا زَوَّجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَهُ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ " إلَّا أَنَّ

تَزْوِيجَ زَيْنَبَ كَانَ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ لِلزَّوْجِ فِي فِرَاقٍ ، بَلْ أَمَرَهُ بِالتَّمَسُّكِ بِزَوْجِيَّتِهَا ، وَكَانَ تَزْوِيجُ دَاوُدَ الْمَرْأَةَ بِسُؤَالِ زَوْجِهَا فِرَاقَهَا ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْمَنْقَبَةُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى دَاوُدَ مُضَافَةً إلَى مَنَاقِبِهِ الْعَلِيَّةِ ، وَلَكِنْ قَدْ قِيلَ : إنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ تَزْوِيجُ الْأَنْبِيَاءِ بِغَيْرِ صَدَاقٍ مَنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا مِنْ النِّسَاءِ بِغَيْرِ صَدَاقٍ .

وَقِيلَ : أَرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ فُرِضَ لَهُمْ مَا يَمْتَثِلُونَهُ فِي النِّكَاحِ وَغَيْرِهِ ، وَهَذَا أَصَحُّ الْأَقْوَالِ .

(53/659)

وَقَدْ رَوَى الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ دَاوُدَ نَكَحَ مِائَةَ امْرَأَةٍ ، وَهَذَا نَصُّ الْقُرْآنِ .

وَرُوِيَ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَتْ لَهُ ثَلَاثُمِائَةِ امْرَأَةٍ وَسَبْعُمِائَةِ سَرِّيَّةٍ ، وَرَبُّك أَعْلَمُ ، وَبَعْدَ هَذَا قِفُوا حَيْثُ وَقَفَ بِكُمْ الْبَيَانُ بِالْبُرْهَانِ دُونَ مَا تَتَنَاقَلُهُ الْأَلْسِنَةُ مِنْ غَيْرِ تَثْقِيفٍ لِلنَّقْلِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَك بِسُؤَالِ نَعْجَتِك إلَى نِعَاجِهِ ﴾ : فِيهِ الْفَتْوَى فِي النَّازِلَةِ بَعْدَ السَّمَاعِ مِنْ أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ ، وَقَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ الْآخَرِ بِظَاهِرِ الْقَوْلِ ؛ وَذَلِكَ مِمَّا

لَا يَجُوزُ عِنْدَ أَحَدٍ وَلَا فِي مِلَّةٍ مِنْ الْمِلَلِ ، وَلَا يُمْكِنُ ذَلِكَ لِلْبَشَرِ ؛ وَإِنَّمَا تَقْدِيرُ الْكَلَامِ أَنَّ أَحَدَ الْخَصْمَيْنِ ادَّعَى ، وَالْآخَرُ سَلَّمَ فِي الدَّعْوَى ، فَوَقَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتْوَى .

وَقَدْ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إذَا جَلَسَ إلَيْك الْخَصْمَانِ فَلَا تَقْضِ لِأَحَدِهِمَا حَتَّى تَسْمَعَ مِنْ الْآخَرِ ﴾ .

وَقِيلَ : إنَّ دَاوُد لَمْ يَقْضِ لِلْآخَرِ حَتَّى اعْتَرَفَ صَاحِبُهُ بِذَلِكَ .

وَقِيلَ : تَقْدِيرُهُ لَقَدْ ظَلَمَك إنْ كَانَ كَذَلِكَ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِتَعْيِينِ مَا يُمْكِنُ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : قَوْله تَعَالَى : ﴿ إذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقَضَاءَ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ ، كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ ، لَمَا قَرَّرَهُمْ دَاوُد عَلَى ذَلِكَ ، وَلَقَالَ : انْصَرِفَا إلَى مَوْضِعِ الْقَضَاءِ .

(54/659)

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ : إنَّ الْقَضَاءَ فِي الْمَسْجِدِ مِنْ الْأَمْرِ الْقَدِيمِ يَعْنِي فِي أَكْثَرِ الْأَمْرِ ، وَلَا بَأْسَ أَنْ يَجْلِسَ فِي رَحْبَتِهِ لِيَصِلَ إلَيْهِ الضَّعِيفُ وَالْمُشْرِكُ وَالْحَائِضُ .

وَقَدْ قَالَ أَشْهَبُ : يَقْضِي فِي مَنْزِلِهِ وَأَيْنَ أَحَبَّ .

وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّهُ يُقَسِّمُ أَوْقَاتَهُ وَأَحْوَالَهُ لِيَبْلُغَ كُلُّ أَحَدٍ إِلَيْهِ وَيَسْتَرِيحَ هُوَ مِمَّا يَرِدُ مِنْ ذَلِكَ عَلَيْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُد أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ : يَعْنِي أَيْقَنَ .

وَالظَّنُّ يَنْطَلِقُ عَلَى الْعِلْمِ وَالظَّنِّ ؛ لِأَنَّهُ جَارُهُ ، وَقَدْ وَرَدَ ذَلِكَ كَثِيرًا فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إلَّا إلَيْهِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ : اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الذَّنْبِ الَّذِي اسْتَغْفَرَ مِنْهُ عَلَى أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قِيلَ : إنَّهُ نَظَرَ إلَى الْمَرْأَةِ حَتَّى شَبِعَ مِنْهَا .

الثَّانِي : أَنَّهُ أَغْزَى زَوْجَهَا فِي حَمْلَةِ التَّابُوتِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ نَوَى إنْ مَاتَ زَوْجُهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا .

الرَّابِعُ أَنَّهُ حَكَمَ لِأَحَدِ الْخَصْمَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ الْآخَرِ .

(55/659)

قَالَ الْقَاضِي : قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ عَلَى الصِّفَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ الذُّنُوبِ الْمَحْدُودَةِ عَلَى وَجْهٍ بَيِّنٍ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ حَكَمَ لِأَحَدِ الْخَصْمَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ الْآخَرِ فَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَكَذَلِكَ تَعْرِيضُ زَوْجِهَا لِلْقَتْلِ كَمَا قَدَّمْنَا تَصْوِيرٌ لِلْحَقِّ عَلَى رُوحِ الْبَاطِلِ

، وَالْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ نَظَرَ إلَيْهَا حَتَّى شَبِعَ فَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ عِنْدِي بِحَالٍ ؛ لِأَنَّ طُمُوحَ الْبَصَرِ لَا يَلِيقُ بِالْأَوْلِيَاءِ الْمُتَجَرِّدِينَ لِلْعِبَادَةِ ، فَكَيْفَ بِالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ هُمْ الْوَسَائِطُ الْمُكَاشَفُونَ بِالْغَيْبِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَوْضِعِهِ .

وَرَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : بَلَغَنِي أَنَّ تِلْكَ الْحَمَامَةَ أَتَتْ فَوَقَفَتْ قَرِيبًا مِنْ دَاوُد ، وَهِيَ مِنْ ذَهَبٍ ، فَلَمَّا رَآهَا أَعْجَبَتْهُ ، فَقَامَ لِيَأْخُذَهَا ، فَفَرَّتْ مِنْ يَدِهِ ، ثُمَّ صَنَعَ مِثْلَ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ طَارَتْ فَأَتْبَعَهَا بَصَرَهُ ، فَوَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى تِلْكَ الْمَرْأَةِ وَهِيَ تَغْتَسِلُ ، وَلَهَا شَعْرٌ طَوِيلٌ ، فَبَلَغَنِي أَنَّهُ أَقَامَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً سَاجِدًا حَتَّى نَبَتَ الْعُشْبُ مِنْ دُمُوعِ عَيْنَيْهِ ، فَأَمَّا النَّظْرَةُ الثَّانِيَةُ فَلَا أَصْلَ لَهَا .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ : لَا يَبْلُغُنِي عَنْ أَحَدٍ أَنَّهُ يَقُولُ : إنَّ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ ارْتَكَبَ مِنْ تِلْكَ الْمَرْأَةِ مُحَرَّمًا إلَّا جَلَدْته مِائَةً وَسِتِّينَ سَوْطًا ، فَإِنَّهُ يُضَاعَفُ لَهُ الْحَدُّ

(56/659)

حُرْمَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَهَذَا مِمَّا لَا يَصِحُّ عَنْهُ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا حُكْمُهُ عِنْدَكُمْ ؟ قُلْنَا : أَمَّا مَنْ قَالَ إنَّ نَبِيًّا زَنَى فَإِنَّهُ يُقْتَلُ .

وَأَمَّا مَنْ نَسَبَ إلَيْهِ دُونَ ذَلِكَ مِنْ النَّظْرَةِ وَالْمُلَامَسَةِ فَقَدْ اخْتَلَفَ نَقْلُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ صَمَّمَ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ فِيهِ وَنَسَبَهُ إلَيْهِ فَإِنَّهُ يُنَاقِضُ التَّعْزِيرَ الْمَأْمُورَ بِهِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إنَّهُ نَوَى إنْ مَاتَ زَوْجُهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فَلَا شَيْءَ فِيهِ ؛ إذَا لَمْ يُعَرِّضْهُ لِلْمَوْتِ ، وَبَعْدَ هَذَا فَإِنَّ الذَّنْبَ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ سُؤَالُهُ زَوْجَةً وَعَدَمُ الْقَنَاعَةِ بِمَا كَانَ مِنْ عَدَدِ النِّسَاءِ عِنْدَهُ ؛ وَالشَّهْوَةُ لَا آخِرَ لَهَا ، وَالْأَمَلُ لَا غَايَةَ لَهُ ؛ فَإِنَّ مَتَاعَ الدُّنْيَا لَا يَكْفِي الْإِنْسَانَ وَحْدَهُ فِي ظَنِّهِ ، وَيَكْفِيهِ الْأَقَلُّ مِنْهُ ؛ وَالَّذِي عَتَبَ اللَّهُ فِيهِ عَلَى دَاوُد تَعَلُّقُ بَالِهِ إلَى زَوْجِ غَيْرِهِ ، وَمَدُّ عَيْنِهِ إلَى مَتَاعِ سِوَاهُ حَسْبَمَا نَصَّ اللَّهُ عَنْهُ .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّهُ خَطَبَ عَلَى خِطْبَةِ أُورِيَا فَمَالَ إلَيْهَا ، وَلَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ عَارِفًا ، وَهَذَا بَاطِلٌ يَرُدُّهُ الْقُرْآنُ وَالْآثَارُ التَّفْسِيرِيَّةُ كُلُّهَا .

(57/659)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ : لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الرُّكُوعَ هَاهُنَا السُّجُودُ ؛ لِأَنَّهُ أَخُوهُ ؛ إذْ كُلُّ رُكُوعٍ سُجُودٌ ، وَكُلُّ سُجُودٍ رُكُوعٌ ؛ فَإِنَّ السُّجُودَ هُوَ الْمِيلُ ، وَالرُّكُوعُ هُوَ الِانْحِنَاءُ ، وَأَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى الْآخَرِ ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَخْتَصُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِهَيْئَةٍ ، ثُمَّ جَاءَ عَلَى تَسْمِيَةِ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ ، فَسُمِّيَ السُّجُودُ رُكُوعًا .

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ هَلْ هِيَ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ أَمْ لَا ؟ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ .

وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ عَلَى الْمِنْبَرِ : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ نَزَلَ فَسَجَدَ ، وَسَجَدَ النَّاسُ مَعَهُ ؛ فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ آخَرُ قَرَأَهَا فَهَيَّأَ النَّاسُ لِلسُّجُودِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّهَا تَوْبَةُ نَبِيٍّ ، وَلَكِنَّنِي رَأَيْتُكُمْ تَيَسَّرْتُمْ لِلسُّجُودِ ، وَنَزَلَ فَسَجَدَ ﴾ .

وَهَذَا لَفْظُ أَبِي دَاوُد .

وَفِي الْبُخَارِيّ وَغَيْرِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاس " أَنَّهُ قَالَ : ﴿ ص لَيْسَتْ مِنْ عَزَائِمِ الْقُرْآنِ . وَقَدْ رَأَيْت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْجُدُ فِيهَا ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ : إنَّهَا تَوْبَةُ نَبِيٍّ ، لَا يُسْجَدُ فِيهَا .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : إنَّهَا تَوْبَةُ نَبِيٍّ ؛ وَنَبِيُّكُمْ مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يُقْتَدَى بِهِ .

(58/659)

وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّهَا لَيْسَتْ مَوْضِعَ سُجُودٍ ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَجَدَ فِيهَا فَسَجَدْنَا لِلِاقْتِدَاءِ بِهِ .

وَمَعْنَى السُّجُودِ أَنَّ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ سَجَدَ خَاضِعًا لِرَبِّهِ ، مُعْتَرِفًا بِذَنْبِهِ ، تَائِبًا مِنْ خَطِيئَتِهِ

؛ فَإِذَا سَجَدَ أَحَدٌ فِيهَا فَلْيَسْجُدْ بِهَذِهِ النِّيَّةِ ؛ فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ بِحُرْمَةِ دَاوُد الَّذِي اتَّبَعَهُ ، وَسَوَاءٌ قُلْنَا إنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا أَمْ لَا

فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مَشْرُوعٌ فِي كُلِّ مِلَّةٍ لِكُلِّ أَحَدٍ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ وَاللَّفْظُ لِلْغَيْرِ ﴿ أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ يَسْتَتِرُ بِشَجَرَةٍ ، وَهُوَ يَعْرِضُ الْقُرْآنَ ؛ فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ سَجَدَ وَسَجَدَتْ الشَّجَرَةُ مَعَهُ ، فَسَمِعَهَا وَهِيَ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعْظِمْ لِي بِهَذِهِ السَّجْدَةِ أَجْرًا وَارْزُقْنِي بِهَا شُكْرًا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(59/659)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي قِصَّةِ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَكْثَرُوا .

وَذَلِكَ مَشْهُورٌ جِدًّا ، وَذَكَرُوا أُمُورًا مِنْهَا مَا هُوَ مُنْكَرٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ جِدًّا ؛ وَمِنْهَا مَا ارْتَضَاهُ بَعْضُهُمْ وَهُوَ عِنْدِي مُنْكَرٌ .

وَتَأَمَّلْت الْقُرْآنَ فَظَهَرَ لِي فِيهِ وَجْهٌ خِلَافُ ذَلِكَ كُلِّهِ .

فَإِنِّي نَظَرْت قَوْله تَعَالَى ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ فَوَجَدْته يَقْتَضِي أَنَّ الْمَغْفُورَ فِي الْآيَةِ ، فَطَلَبْته فَوَجَدْته أَحَدَ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ إمَّا ظَنُّهُ وَإِمَّا اشْتِغَالُهُ بِالْحُكْمِ عَنْ الْعِبَادَةِ وَإِمَّا اشْتِغَالُهُ بِالْعِبَادَةِ عَنْ الْحُكْمِ أَشْعَرَ بِهِ قَوْلُهُ " الْمِحْرَابَ " وَذَلِكَ أَنَّهُ صَحَّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّ دَاوُد أَعْبَدُ الْبَشَرِ ، وَكَانَ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ انْقَطَعَ فِي الْمِحْرَابِ لِلْعِبَادَةِ الْخَاصَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى فَجَاءَتْ الْخُصُومُ فَلَمْ يَجِدُوا طَرِيقًا فَتَسَوَّرُوا إلَيْهِ وَلَيْسُوا مَلَائِكَةً وَلَا ضُرِبَ بِهِمْ مَثَلٌ وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ تَخَاصَمُوا فِي نِعَاجٍ عَلَى ظَاهِرِ الْآيَةِ ، فَلَمَّا وَصَلُوا إلَيْهِ حَكَمَ فِيهِمْ ثُمَّ مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِ وَكَثْرَةِ عِبَادَتِهِ خَافَ أَنْ يَكُونَ سُبْحَانَهُ قَدْ فَتَنَهُ بِذَلِكَ إمَّا لِاشْتِغَالِهِ عَنْ الْعِبَادَةِ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَإِمَّا لِاشْتِغَالِهِ عَنْ الْعِبَادَةِ بِالْحُكْمِ تِلْكَ اللَّحْظَةَ وَظَنَّ أَنَّ اللَّهَ فَتَنَهُ أَيْ امْتَحَنَهُ وَاخْتَبَرَهُ هَلْ يَتْرُكُ الْحُكْمَ لِلْعِبَادَةِ أَوْ الْعِبَادَةَ لِلْحُكْمِ ؟ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ فَاسْتِغْفَارُهُ لِأَحَدِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْمَظْنُونَيْنِ ، أَعْنِي تَعَلُّقَ الظَّنِّ بِأَحَدِهِمَا .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ فَاحْتَمَلَ الْمَغْفُورُ أَحَدَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ وَاحْتَمَلَ ثَالِثًا وَهُوَ ظَنُّهُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ لَمْ يُرِدْ فِتْنَتَهُ .

وَإِنَّمَا أَرَادَ إظْهَارَ كَرَامَتِهِ .

وَانْظُرْ قَوْلَهُ ﴿ وَإِنَّ

لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ كَيْفَ يَقْتَضِي رِفْعَةَ قَدْرِهِ وَقَوْلُهُ ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً ﴾ يَقْتَضِي ذَلِكَ وَيَقْتَضِي تَرْجِيحَ الْحُكْمِ عَلَى الْعِبَادَةِ ، وَعَلَى أَيِّ وَجْهٍ مِنْ الْأَوْجُهِ الثَّلَاثَةِ حَمَلْته حَصَلَ تَبْرِئَةُ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا يَقُولُهُ الْقُصَّاصُ وَكَثِيرٌ مِنْ الْفُضَلَاءِ .

وَمُنَاسَبَةُ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى قِصَّتَهُ فِي سُورَةِ ص أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا ﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ كَانَ فِي ذَلِكَ الْكَلَامِ إشْعَارٌ بِهَضْمِهِمْ جَانِبَهُ فَغَارَ اللَّهُ لِذَلِكَ وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَتِهِ وَلَا لَهُمْ مِلْكٌ .

وَأَنَّهُمْ جُنْدٌ مَهْزُومُونَ .

وَكَأَنَّهُ يَقُولُ وَمَا قَدْرُ هَؤُلَاءِ ؟ ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ وَاذْكُرْ مَنْ آتَيْنَاهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ؛ وَهُوَ أَخُوك وَأَنْتَ عِنْدَنَا أَرْفَعُ رُتْبَةً مِنْهُ .

وَفِي ذَلِكَ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَفْرَحُ لِإِخْوَتِهِ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ الْخَيْرِ كَمَا لَوْ حَصَلَ لِنَفْسِهِ سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ وَأَكْثَرَ وَالثَّانِي أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ رُتْبَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ أَكْمَلُ وَإِذَا ذَكَرَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ احْتَقَرَ مَا قُرَيْشٌ فِيهِ .

وَعَلِمَ أَنَّ الَّذِي أُوتُوهُ وَافْتَخَرُوا بِهِ لَا شَيْءَ .

فَهَذَا وَجْهُ الْمُنَاسَبَةِ خِلَافًا لِمَا قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ مِمَّا لَا حَاجَةَ بِنَا إلَى ذِكْرِهِ ثُمَّ اسْتَطْرَدَ فَذَكَرَ

قِصَّةَ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَصْفُهُ بِقَوْلِهِ ﴿ ذَا الْأَيْدِ ﴾ لِأَنَّ الصَّبْرَ يَحْتَاجُ إلَى أَيْدٍ وَهُوَ الْقُوَّةُ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 103 . 104 ﴾

(61/659)

وقال ابن عطية :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) ﴾

هذه مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم واستفتحت بالاستفهام تعجيباً من القصة وتفخيماً لها ، لأن المعنى : هل أتاك هذا الأمر العجيب الذي هو عبرة ، فكأن هذا الاستفهام إنما هو تهيئة نفس المخاطب وإعدادها للتلقي . و ﴿ الخصم ﴾ جار مجرى عدل وزور ، يوصف به الواحد والاثنان والجميع ، ومنه قول لبيد : [الطويل]

وخصم يعدو الذخول كأنهم . . . قروم غيارى كل أزهر مصعب

وتحتمل هذه الآية أن يكون المتسور للمحراب اثنين فقط ، لأن نفس الخصومة إنما كانت بين اثنين ، فتجيء الضمائر في : ﴿ تسوروا ﴾ و : ﴿ دخلوا ﴾ و : ﴿ قالوا ﴾ على جهة التجوز ، والعبارة عن الاثنين بلفظ الجمع ، ويحتمل أنه جاء مع كل فرقة ، كالعاضدة والمؤنسة ، فيقع على جميعهم خصم ، وتجيء الضمائر حقيقة . و : ﴿ تسوروا ﴾ معناه :

علوا سوره وهو جمع سورة ، وهي القطعة من البناء ، هذا كما تقول : تسنمت الحائط أو البعير ، إذا علوت على سنامه . و﴿ المحراب ﴾ : الموضع الأرفع من القصر أو المسجد ، وهو مضوع التعبد ، والعامل في : ﴿ إذ ﴾ الأولى ﴿ نبأ ﴾ وقيل : ﴿ أتاك ﴾ . والعامل في : ﴿ إذ ﴾ الثانية ﴿ تسوروا ﴾ ، وقيل هي بدل من ﴿ إذ ﴾ الأولى وقوله تعالى : ﴿ ففزع منهم ﴾ يحتمل أن يكون فزعه من الداخلين أنفسهم لئلا يؤذوه ، وإنما فزع من حيث دخلوا من غير الباب ودون استئذان ، وقيل إن ذلك كان ليلاً ، ذكره الثعلبي ، ويحتمل أن يكون فزعه من أين يكون أهل ملكه قد استهانوه حتى ترك بعضهم الاستئذان ، فيكون فزعه على فساد السيرة لا من الداخلين . ويحتمل قولهم : ﴿ لا تخف ﴾ أنهم فهموا منه عليه السلام خوفه .

(62/659)

وهنا قصص طول الناس فيها ، واختلفت الروايات به ، ولا بد أن نذكر منه ما لا يقوم تفسير الآية إلا به ، ولا خلاف بين أهل التأويل أنهم إنما كانوا ملائكة بعثهم الله ضرب مثل لداود عليه السلام ، فاختصموا إليه في نازلة قد وقع هو في نحوها ، فأفتى بفتيا هي واقفة عليه في نازلته ، ولما شعر وفهم المراد ، خر وأناب واستغفر ، وأما نازلته التي وقع فيها ، فروي أنه

عليه السلام جلس في ملإ من بني إسرائيل فأعجب بعمله ، وظهر منه ما يقتضي أنه لا يخاف على نفسه الفتنة ، ويقال بل وقعت له في مثل هذا مجاورة مع الملكين الحافظين عليه فقال لهما : جرباني يوماً ، فإني وإن غبتما عني لا أواقع مكروهاً . وقال السدي : كان داود قد قسم دهره : يوماً يقضي فيه بين الناس ، ويوماً لعبادته ، ويوماً لشأن نفسه ، ففتن يوم خلوه للعبادة لما تمنى أن يعطى مثل فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، والتزم أن يمتحن كما امتحنوا ، وقيل في السبب غير هذا مما لا يصح تطويله . قال ابن عباس ما معناه : أنه أخذ داود يوماً في عبادته وانفرد في محرابه يصلي ويسبح إذ دخل عليه طائر من كوة ، فوقع بين يديه ، فروي أنه كان طائراً حسن الهيئة : حمامة ، فمد داود يده ليأخذه فزل مطمعاً له فما زال يتبعه حتى صعد الكوة التي دخل منها فصعد داود ليأخذه ، فتنحى له الطائر ، فتطلع داود عليه السلام ، فإذا هو بامرأة تغتسل عريانة ، فرأى منظراً جميلاً فتنه ، ثم إنها شعرت به ، فأسبلت شعرها على بدنها فتجللت به ، فزاده ولوعاً بها ، ثم إنه انصرف وسأل عنها ، فأخبر أنها امرأة رجل من جنده يقال له : أوريا وإنه في بعث كذا وكذا ، فيروى أنه كتب إلى أمير تلك الحرب أن قدم فلاناً يقاتل عند التابوت ، وهو موضع بركاء الحرب قلما يخلص منه أحد ، فقدم ذلك الرجل حتى استشهد هنالك .

ويروى أن داود كتب أن يؤمر ذلك الرجل على جملة من الرجال ، وترمى به الغارة والوجوه الصعبة من الحرب ، حتى قتل في الثالثة من نهضاته ، وكان لداود فيما روي تسع وتسعون امرأة ، فلما جاءه الكتاب بقتل من قتل في حربه ، جعل كلما سمي رجل يسترجع ويتفجع ، فلما سمي الرجل قال : كتب الموت على كل نفس ، ثم إنه خطب المرأة وتزوجها ، فكانت أم سليمان فيما روي عن قتادة فبعث الله تعالى إليه الخصم ليفتي بأن هذا ظلم . وقالت فرقة : إن هذا كله هم به داود ولم يفعله ، وإنما وقعت المعاتبة على همه بذلك . وقال آخرون : إنما الخطأ في أن لم يجزع عليه كما جزع على غيره من جنده ، إذ كان عنده أمر المرأة .

قال القاضي أبو محمد والرواة على الأول أكثر ، وفي كتب بني إسرائيل في هذه القصة صور لا تليق . وقد حدث بها قصاص في صدر هذه الأمة ، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : من حدث بما قال هؤلاء القصاص في أمر داود عليه السلام جلدته حدين لما ارتكب من حرمة من رفع الله محله .

وقوله : ﴿ خصمان ﴾ تقديره : نحن خصمان ، وهذا كقول الشاعر : [الطويل]

وقولا إذا جاوزتما أرض عامر . . . وجاوزتما الحيين نهداً وخثعما

نزيعان من جرم ابن زبان إنهم . . . أبوا أن يميروا في الهزاهز محجما

ونحوه قال العرب في مثل : محسنة فهيلي ، التقدير : أنت محسنة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " آيبون تائبون " و: ﴿ بغى ﴾ معناه : اعتدى واستطال ، ومنه قول الشاعر : [الوافر]

ولكن الفتى حمل بن بدر . . . بغى والبغي مرتعه وخيم

وقوله : ﴿ فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ﴾ إغلاظ على الحاكم واستدعاء بعدله ، وليس هذا بارتياب منه ، ومنه قول الرجل للنبي عليه السلام : فاحكم بيننا بكتاب الله .

(64/659)

وقرأ جمهور الناس : " ولا تُشطِط " بضم التاء وكسر الطاء الأولى ، معناه : ولا تتعد في حكمك . وقرأ أبو رجاء وقتادة : " تَشطُط " بفتح التاء وضم الطاء ، وهي قراءة الحسن والجحدري ، ومعناه : ولا تبعد ، يقال : شط إذا بعد ، وأشط إذا أبعد غيره .

وقرأ زر بن حبيش " تُشاطط " بضم التاء وبالألف . و: ﴿ سواء الصراط ﴾ معناه : وسط الطريق ولا حبه .

وقوله : ﴿ إن هذا أخي ﴾ إعراب أخي عطف بيان ، وذلك أن ما جرى من هذه الأشياء صفة كالخلق والخلق وسائر الأوصاف ، فإنه نعت محض ، والعامل فيه هو العامل

في الموصوف ، وما كان منها مما ليس ليوصف به بتة فهو بدل ، والعامل فيه مكرر ، وتقول : جاءني أخوك زيد ، فالتقدير : جاءني أخوك جاءني زيد ، فاقتصر على حذف العامل في البدل والمبدل منه في قوله : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ [يس : 31] وما كان منها مما لا يوصف به واحتيج إلى أن يبين به ويجري مجرى الصفة فهو عطف بيان ، وهو بين في قول الشاعر : [الرجز]

يا نصر نصراً نصرا . . . فإن الرواية في الثاني بالتنوين ، فدل ذلك على أن النداء ليس بمكرر عليه ، فليس ببدل ، وصح فيه عطف البيان ، وهذه الأخوة مستعارة ، إذ هما ملكان ، لكن من حيث تصورا آدميين تكلما بالأخوة التي بينهما في الدين والإيمان ، والله أعلم . و" النعجة " في هذه الآية ، عبر بها عن المرأة . والنعجة في كلام العرب تقع على أنثى بقر الوحش ، وعلى أنثى الضأن ، وتعبر العرب بها عن المرأة ، وكذلك بالشاة ، قال الأعشى : [الكامل]

فرميت غفلة عينه عن شاته . . . فأصبت حبة قلبها وطحالها

أراد عن امرأته ، وفي قراءة ابن مسعود : " وتسعون نعجة أنثى " . وقرأ حفص عن عاصم : " وليَ " بفتح الياء . وقرأ الباقون بسكونها ، وهما حسنان . وقرأ الحسن والأعرج : " نِعجة " بكسر النون ، والجمهور على فتحها . وقرأ الحسن : " تَسع وتَسعون " بفتح التاء فيهما وهي لغة .

وقوله : ﴿ أكفلنيها ﴾ أي ردها في كفالتي ، وقال ابن كيسان ، المعنى : اجعلها كفلي ، أي نصيبي . ﴿ وعزتي ﴾ : معناه غلبني ، ومنه قول العرب : من عز بز ، أي من غلب سلب وقرأ أبو حيوة : " وعزني " بتخفيف الزاي . قال أبو الفتح : أراد عززني ، فحذف الزاي الواحدة تخفيفاً كما قال أبو زيد :

أحسن به فهن إليه شوس . . . قال أبو حاتم : ورويت " عزني " بتخفيف الزاي عن عاصم . وقرأ ابن مسعود وأبو الضحى وعبيد بن عمير : " وعازني " ، أي غالبني .

ومعنى قوله : ﴿ في الخطاب ﴾ كان أوجه مني وأقوى ، فإذا خاطبته كان كلامه أقوى من كلامي ، وقوته أعظم من قوتي ، فيروى أن داود عليه السلام لما سمع هذه الحجة قال للآخر : ما تقول ؟ فأقر وألد ، فقال له داود : لئن لم ترجع إلى الحق لأكسرن الذي فيه عيناك . وقال للثاني : لقد ظلمك ، فتبسما عند ذلك ، وذهبا ولم يرهما لحينه ، فشعر حينئذ للأمر . وروي أنهما ذهبا نحو السماء بمرأى منه . وقيل بل بينا فعله في تلك المرأة وزوجها ، وقالا له : إنما نحن مثال لك . وقال بعض الناس : إن داود قال : لقد ظلمك ، قبل أن يسمع حجة الآخر ، وهذه كانت خطيئة ولم تنزل به هذه النازلة المروية قط .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق ابن عطية رضي الله عنه : وهذا ضعيف من جهات ، لأنه خالف متظاهر الروايات ، وأيضاً فقوله : ﴿ لقد ظلمك ﴾ إنما معناه إن ظهر صدقك ببينة أو باعتراف ، وهذا من بلاغة الحاكم التي ترد المعوج إلى الحق ، وتفهمه ما عند القاضي من الفطنة . وقال الثعلبي : كان في النازلة اعتراف من المدعى عليه حذف اختصاراً ، ومن أجله قال داود : ﴿ لقد ظلمك ﴾ .

وقوله عليه السلام : ﴿ لقد ظلمت بسؤال نعجتك ﴾ أضاف الضمير إلى المفعول ، و ﴿ الخلطاء ﴾ الأشراك والمتعاقبون في الأملاك والأمور ، وهذا القول من داود وعظ وبسط لقاعدة حق ليحذر من الوقوع في خلاف الحق . وما في قوله : ﴿ وقليل ما هم ﴾ زائدة مؤكدة .

(66/659)

وقوله تعالى : ﴿ وظن داود ﴾ معناه : شعر للأمر وعلمه . وقالت فرقة : ﴿ ظن ﴾ هنا بمعنى أيقن .

قال القاضي أبو محمد : والظن أبداً في كلام العرب إنما حقيقته توقف بين معتقدين يغلب أحدهما على الآخر ، وتوقعه العرب على العلم الذي ليس على الحواس ولا له اليقين التام ،

ولكن يخلط الناس في هذا ويقولون ظن بمعنى : أيقن ، ولسنا نجد في كلام العرب على العلم الذي ليس على الحواس شاهداً يتضمن أن يقال : رأى زيد كذا وكذا فظنه . وانظر لى قوله تبارك وتعالى في كتابه : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ﴾ [الكهف : 53]

وإلى قول دريد بن الصمة [الطويل]

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج . . . سراتهم بالفارسي المسرد

وإلى هذه الآية : ﴿ وظن داود ﴾ فإنك تجد بينها وبين اليقين درجة ، ولو فرضنا أهل النار قد دخلوها وباشروا ، لم يقل " ظن " ولا استقام ذلك ، ولو أخبر جبريل داود بهذه الفتنة لم يعبر عنها ب " ظن " ، فإنما تعبر العرب بها عن العلم الذي يقارب اليقين وليس به ، لم يخرج بعد إلى الإحساس وقرأ جمهور الناس : " فَتَنّاه " بفتح التاء وشد النون ، أي ابتليناه وامتحناه . وقرأ عمر بن الخطاب وأبو رجاء والحسن : بخلاف عنه ، " فتّنّاه " بشد التاء والنون على معنى المبالغة . وقرأ أبو عمرو في رواية علي بن نصر : " فتَنَاه " بتخفيف التاء والنون على أن الفعل للخصمين ، أي امتحناه عن أمرنا ، وهي قراءة قتادة . وقرأ الضحاك : " افتتناه " .

وقوله : ﴿ وخر ﴾ أي ألقى بنفسه نحو الأرض متضامناً متواضعاً ، والركوع والسجود : الانخفاض والترامي نحو الأرض ، وخصصتها الشرائع على هيئات معلوم . وقال قوم يقال : " خر " ، لمن ركع وإن كان لم ينته إلى الأرض .

وقال الحسن بن الفضل ، والمعنى : خر من ركوعه ، أي سجد بعد أن كان راكعاً . وقال أبو سعيد الخدري : رأيتني في النوم وأنا أكتب سورة : ﴿ ص ﴾ فلما بلغت هذه الآية سجد القلم ، ورأيتني في منام آخر وشجرة تقرأ : ﴿ ص ﴾ فلما بلغت هذا سجدت ، وقالت : اللهم اكتب لي بها أجراً ، وحط عني بها وزراً ، وارزقني بها شكراً ، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وسجدت أنت يا أبا سعيد ؟ قلت لا ، قال : أنت كنت أحق بالسجدة من الشجرة " ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات حتى بلغ : ﴿ وأناب ﴾ ، فسجد ، وقال كما قالت الشجرة . ﴿ وأناب ﴾ معناه : رجع وتاب ، ويروى عن مجاهد أن داود عليه السلام بقي في ركعته تلك لاصقاً بالأرض يبكي ويدعو أربعين صباحاً حتى نبت العشب من دمعه ، وروي غير هذا مما لا تثبت صحته . وروي أنه لما غفر الله له أمر المرأة ، قال : يا رب فكيف لي بدم زوجها إذا جاء يطلبني يوم القيامة ، فأوحى الله إليه أني سأستوهبه ذلك يا داود ، وأجعله أن يهبه راضياً بذلك ، فحينئذ سر داود عليه السلام واستقرت نفسه ، وروي عن عطاء الخراساني ومجاهد أن داود عليه السلام نقش خطيئته في كفه فكان يراها دائماً ويعرضها

على الناس في كل حين من خطبه وكلامه وإشاراته وتصرفه تواضعاً لله عز وجل وإقراراً ، وكان يسيح في الأرض ويصيح : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتد إلي روحي ، سبحانك ، إلهي أتيت أطباء الدين يداووا علتي ، فكلهم عليك دلني . وكان يدخل في صدر خطبته الاستغفار للخاطئين ، وما رفع رأسه إلى السماء بعد خطيئته حياء صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء المرسلين .

فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (25)

(68/659)

" غفرنا " : معناه سترنا ، وذلك إشارة إلى الذنب المتقدم . و: " الزلفى " : القربة والمكانة الرفيعة . و" المآب " : المرجع في الآخرة ، ومن آب يؤوب إذا رجع ، وبعد هذا حذف يدل عليه ظاهر الكلام ، تقديره : وقلنا له ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفه في الأرض ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(69/659)

وقال القرطبى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) ﴾

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ "الْخَصْم" يقع على الواحد والاثنين والجماعة ؛ لأن أصله المصدر .

قال الشاعر :

وَخَصْم غِضابٌ يَنْفُضُونَ لِحَاهُمُ . . .

كنفضِ البَرَاذينِ العِرابِ المَخَالِيَا

النحاس : ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يراد به ها هنا مَلَكان .

وقيل : "تَسَوَّرُوا" وإن كانا اثنين حملاً على الخصم ، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعاً له ، مثل الركب والصحب .

وتقديره للاثنين ذوا خصم وللجماعة ذوو خصمٍ .

ومعنى : "تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ" أتوه من أعلى سوره .

يقال : تسوّر الحائط تسلّقه ، والسور حائط المدينة وهو بغير همز ، وكذلك السُّوَرُ جمع سورةٍ مثل بُسْرَةٍ وبُسَرٍ وهي كل منزلة من البناء .

ومنه سورة القرآن ؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى .

وقد مضى في مقدّمة الكتاب بيان هذا .

وقول النابغة :

أَلَمْ تَرَ أَنَ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً . . .

تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذب

يريد شرفاً ومنزلة .

فأما السؤر بالهمز فهو بقية الطعام في الإناء .

ابن العربي : والسؤر الوليمة بالفارسي .

وفي الحديث : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب : " إن جابراً قد صنع لكم سؤراً فَحَيَّهلاً بكم " والمحراب هنا الغرفة ؛ لأنهم تسوّروا عليه فيها ؛ قاله يحيى بن سلام .

وقال أبو عبيدة : إنه صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد .

وقد مضى القول فيه في غير موضع .

﴿ إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودَ ﴾ جاءت "إِذْ" مرتين ؛ لأنهما فعلان .

وزعم الفرّاء : أن إحداهما بمعنى لما .

وقول آخر أن تكون الثانية مع ما بعدها تبييناً لما قبلها .

قيل : إنهما كانا إنسيين ؛ قاله النقاش .

وقيل : ملَكَين ؛ قاله جماعة .

وعينهما جماعة فقالوا : إنهما جبريل وميكائيل .

(70/659)

وقيل : ملَكَين في صورة إنسيين بعثهما الله إليه في يوم عبادته .

فمنعهما الحرس الدخول ، فتسوّروا المحراب عليه ، فما شعر وهو في الصلاة إلا وهما بين يديه جالسين ؛ وهو قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ أي علوا ونزلوا عليه من فوق المحراب ؛ قاله سفيان الثوري وغيره .

وسبب ذلك ما حكاه ابن عباس أن داود عليه السلام حدّث نفسه إن ابتلي أن يعتصم .

فقيل له : إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذي تبتلى فيه فخذ حِذرك .

فأخذ الزبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليه ، فبينا هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر كأحسن ما يكون من الطير ، فجعل يَدرُج بين يديه .

فهمّ أن يتناوله بيده ، فاستدرج حتى وقع في كوّة المحراب ، فدنا منه ليأخذه فطار ، فاطلع ليبصره فأشرف على امرأة تغتسل ، فلما رأته غطت جسدها بشعرها .

قال السدّي : فوقعت في قلبه .

قال ابن عباس : وكان زوجها غازياً في سبيل الله وهو أوريا بن حنان ، فكتب داود إلى أمير الغزاة أن يجعل زوجها في حملة التابوت ، وكان حملة التابوت إما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا ، فقدّمه فيهم فقتل ، فلما انقضت عدّتها خطبها داود ، واشترطت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة بعده ، وكتبت عليه بذلك كتاباً ، وأشهدت عليه خمسين رجلاً من بني إسرائيل ، فلم تستقر نفسه حتى ولدت سليمان وشَبَّ ، وتسوّر الملكان وكان من شأنهما ما قص الله في كتابه .

ذكره الماوردي وغيره .

ولا يصح .

قال ابن العربي : وهو أمثل ما روي في ذلك .

(71/659)

قلت : ورواه مرفوعاً بمعناه الترمذيّ الحكيم في "نوادر الأصول" عن يزيد الرقاشيّ ، سمع أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن داود النبي عليه السلام حين نظر إلى المرأة فهمّ بها قطع على بني إسرائيل بَعْثاً وأوصى صاحب البعث فقال : إذا حضر العدوّ قَرِّب فلاناً وسماه ، قال فقرَّبه بين يدي التابوت قال وكان ذلك التابوت في

ذلك الزمان يُستنصر به فمن قُدِّم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم عنه الجيش الذي يقاتله فقُدِّم فقُتِل زوج المرأة ونزل الملَكان على داود فقصّا عليه القصّة " وقال سعيد عن قتادة : كتب إلى زوجها وذلك في حصِار عَمَّان مدينة بلقاء أن يأخذوا بحلقة الباب ، وفيه الموت الأحمر ، فتقدّم فقتل .

وقال الثعلبي قال قوم من العلماء : إنما امتحن الله داود بالخطيئة ؛ لأنه تمنى يوماً على ربه منزلة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وسأله أن يمتحنه نحو ما امتحنهم ، ويعطيه نحو ما أعطاهم .

وكان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام ، يوم يقضي فيه بين الناس ، ويوم يخلو فيه بعبادة ربه ، ويوم يخلو فيه بنسائه وأشغاله .

وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

فقال : يا رب ! إن الخير كله قد ذهب به آبائي ؛ فأوحى الله تعالى إليه : إنهم ابتلوا ببلايا لم يبتل بها غيرهم فصبروا عليها ؛ ابتلي إبراهيم بنمروذ وبالنار وبذبح ابنه ، وابتلي إسحاق بالذبح ، وابتلي يعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره ، ولم تبتل أنت بشيء من ذلك .

فقال داود عليه السلام : فابتلني بمثل ما ابتليتهم ، وأعطني مثل ما أعطيتهم ، فأوحى الله تعالى إليه : إنك مبتلى في شهر كذا في يوم الجمعة .

فلما كان ذلك اليوم دخل محرابه ، وأغلق بابه ، وجعل يصلّي ويقرأ الزبور .

فبينا هو كذلك إذ مثل له الشيطان في صورة حمامة من ذهب ، فيها من كل لون حسن ، فوقف بين رجليه ، فمدّ يده ليأخذها فيدفعها لابن له صغير ، فطارت غير بعيد ولم تؤيسه من نفسها ، فامتد إليها ليأخذها فتنحت ، فتبعها فطارت حتى وقعت في كوّة ، فذهب ليأخذها فطارت ونظرُ داود يرتفع في إثرها ليبعث إليها من يأخذها ، فنظر امرأة في بستان على شط بركة تغتسل ؛ قاله الكلبي .

وقال السدي : تغتسل عريانة على سطح لها ؛ فرأى أجمل النساء خَلْقاً ، فأبصرت ظله فنفضت شعرها فغطى بدنها ، فزاده إعجاباً بها .

وكان زوجها أوريا بن حنان ، في غزوة مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود ، فكتب داود إلى أيوب أن ابعث بأوريا إلى مكان كذا وكذا ، وقدّمه قبل التابوت ، وكان من قدّم قبل التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله عليه أو يستشهد .

فقدّمه ففتح له فكتب إلى داود يخبره بذلك .

قال الكلبي : وكان أوريا سيف الله في أرضه في زمان داود ، وكان إذا ضرب ضربة وكبّر كبّر جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله ، وكبّرت ملائكة السماء بتكبيره حتى ينتهي ذلك

إلى العرش ، فتكبر ملائكة العرش بتكبيره .

قال : وكان سيوف الله ثلاثة ؛ كالب بن يوفنا في زمن موسى ، وأوريا في زمن داود ، وحمزة بن عبد المطلب في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما كتب أيوب إلى داود يخبره أن الله قد فتح على أوريا كتب داود إليه : أن ابعثه في بعث كذا وقدمه قبل التابوت ؛ ففتح الله عليه ، فقتل في الثالثة شهيداً .

فتزوج داود تلك المرأة حين انقضت عدّتها .

فهي أم سليمان بن داود .

وقيل : سبب امتحان داود عليه السلام أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يومٍ بغير مقارفة شيء .

قال الحسن : إن داود جزأ الدهر أربعة أجزاء ؛ جزءاً لنسائه ، وجزءاً للعبادة ، وجزءاً لبني إسرائيل يذاكرونه ويذاكرهم ويبكونه ويبكيهم ، ويوماً للقضاء .

(73/659)

فتذاكروا هل يمرّ على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً ؟ فأضمر داود أنه يطيق ذلك ؛ فأغلق الباب على نفسه يوم عبادته ، وأمر ألا يدخل عليه أحد ، وأكبَّ على قراءة الزبور ،

فوقعت حمامة من ذهب بين يديه .

وذكر نحو ما تقدّم .

قال علماؤنا : وفي هذا دليل وهي :

الثانية : على أنه ليس على الحاكم أن ينتصب للناس كل يوم ، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطء نسائه وإن كان مشغولاً بالعبادة .

وقد مضى هذا المعنى في "النساء" .

وحكم كعب بذلك في زمن عمر بمحضره رضي الله عنهما .

وقد " قال عليه السلام لعبد الله بن عمرو : "إنّ لزوجك عليك حقا" " الحديث .

وقال الحسن أيضاً ومجاهد : إن داود عليه السلام قال لبني إسرائيل حين استخلِف : والله لأعدلنّ بينكم ، ولم يستثن فابتلي بهذا .

وقال أبو بكر الورّاق : كان داود كثير العبادة فأعجب بعمله وقال : هل في الأرض أحد يعمل كعملي .

(فأرسل) الله إليه جبريل ؛ فقال : إن الله تعالى يقول لك : عجبتَ بعبادتك ، والعجب يأكل العبادة كما تأكل النار الحطب ، فإن أعجبت ثانية وَكَلْتُك إلى نفسك .

قال : يا رب كِلني إلى نفسي سنة .

قال : إن ذلك لكثير .

قال : فشهراً .

قال : إن ذلك لكثير .

قال : فيوماً .

قال : إن ذلك لكثير .

قال : يا رب فكِلني إلى نفسي ساعة .

قال : فشأنك بها .

فوكَّل الأحراس ، ولبس الصوف ، ودخل المحراب ، ووضع الزبور بين يديه ؛ فبينما هو في عبادته إذ وقع الطائر بين يديه ، فكان من أمر المرأة ما كان .

وقال سفيان الثوري : قال داود ذات يوم : يا رب ما من يوم إلا ومن آل داود لك فيه صائم ، وما من ليلة إلا ومن آل داود لك فيها قائم .

فأوحى الله إليه : يا داود منك ذلك أو مني ؟ وعزتي لأَكِلَنَّك إلى نفسك .

قال : يا رب اعف عنّي .

قال : أكلك إلى نفسك سنة .

قال : لا بعزتك .

قال : فشهراً .

قال : لا بعزتك .

قال : فأسبوعاً .

قال : لا بعزتك .

قال : فيوماً .

قال : لا بعزتك .

قال : فساعة .

قال : لا بعزتك .

قال : فلحظة .

(74/659)

فقال له الشيطان : وما قدر لحظة .

قال : كِلْني إلى نفسي لحظة .

فوكله الله إلى نفسه لحظة .

وقيل له : هي في يوم كذا في وقت كذا .

فلما جاء ذلك اليوم جعله للعبادة ، ووكل الأحراس حول مكانه .

قيل : أربعة آلاف .

وقيل : ثلاثين ألفاً أو ثلاثة وثلاثين ألفاً .

وخلا بعبادة ربه ، ونشر الزبور بين يديه ، فجاءت الحمامة فوقعت له ، فكان من أمره في لحظته مع المرأة ما كان .

وأرسل الله عز وجل إليه الملَكين بعد ولادة سليمان ، وضربا له المثل بالنعاج ؛ فلما سمع المثل ذكر خطيئته فخرّ ساجداً أربعين ليلة على ما يأتي .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم .

وقيل : لدخولهم عليه بغير إذنه .

وقيل : لأنهم تسوّروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب .

قال ابن العربي : وكان محراب داود عليه السلام من الامتناع بالارتفاع ، بحيث لا يرتقي إليه آدميّ بحيلة إلا أن يقيم إليه أياماً أو أشهراً بحسب طاقته ، مع أعوان يكثر عددهم ، وآلات جمة مختلفة الأنواع .

ولو قلنا : إنه يوصل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مخبراً عن ذلك : "تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ" إذ لا يقال تسوّر المحراب والغرفة لمن طلع إليها من درجها ، وجاءها من أسفلها إلا أن يكون ذلك مجازاً ؛ وإذا شاهدت الكوة التي يقال إنه دخل منها الخصمان علمت قطعاً أنهما ملَكَان ؛ لأنها من العلو بحيث لا ينالها إلا عُلْويّ .

قال الثعلبي : وقد قيل : كان المتسوِّران أخوين من بني إسرائيل لأب وأم .

فلما قضى داود بينهما بقضية قال له مَلَك من الملائكة : فهلا قضيت بذلك على نفسك يا داود .

قال الثعلبي : والأول أحسن أنهما كانا مَلَكين نبّهَا داود على ما فعل .

قلت : وعلى هذا أكثر أهل التأويل .

فإن قيل : كيف يجوز أن يقول الملكان "خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ" وذلك كذب والملائكة عن مثله منزَّهون .

(75/659)

فالجواب عنه أنه لا بد في الكلام من تقدير ؛ فكأنهما قالا : قدّرنا كأننا خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ، وعلى ذلك يحمل قولهما : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر فالمراد إيراده على طريق التقدير لينبه داود على ما فعل ؛ والله أعلم .

الرابعة : إن قيل : لِم فزع داود وهو نبيّ ، وقد قويت نفسه بالنبوّة ، واطمأنت بالوحي ، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة ، وأظهر على يديه من الآيات ، وكان من الشجاعة في غاية المكانة ؟ قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله ، لم يأمنوا القتل والأذية ومنهما كان يخاف .

ألا ترى إلى موسى وهارون عليهما السلام كيف قالا : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يطغى ﴾ [طه : 45] فقال الله عز وجل : "لَا تَخَافَا" .

وقالت الرسل للوط : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يصلوا إِلَيْكَ ﴾ [هود : 81] وكذا قال الملكان هنا : "لَا تَخَفْ" .

قال محمد بن إسحاق : بعث الله إليه ملكين يختصمان إليه وهو في محرابه مثلاً ضربه الله له ولأوريا فرآهما واقفين على رأسه ؛ فقال : ما أدخلكما عليّ ؟ قالا : ﴿ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ ﴾ فجئناك لتقضي بيننا .

الخامسة : قال ابن العربي : فإن قيل كيف لم يأمر بإخراجهما إذ قد علم مطلبهما ، وهلا أدّبهما وقد دخلا عليه بغير إذن ؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه : الأوّل : أنا لم نعلم كيفية شرعه في الحجاب والإذن ، فيكون الجواب بحسب تلك الأحكام ، وقد كان ذلك في ابتداء شرعنا مهملاً في هذه الأحكام ، حتى أوضحها الله تعالى بالبيان .

الثاني : أنا لو نزلنا الجواب على أحكام الحجاب ، لاحتمل أن يكون الفزع الطارىء عليه أذهله عما كان يجب في ذلك له .

الثالث : أنه أراد أن يستوفي كلامهما الذي دخلا له حتى يعلم آخر الأمر منه ، ويرى هل يحتمل التقحم فيه بغير إذن أم لا ؟ وهل يقترن بذلك عذر لهما أم لا يكون لهما عذر فيه ؟ فكان من آخر الحال ما انكشف أنه بلاء ومحنة ، ومثل ضربه الله في القصة ، وأدب وقع على دعوى العصمة .

الرابع : أنه يحتمل أن يكون في مسجد ولا إذن في المسجد لأحد إذ لا حجر فيه على أحد .

قلت : وقول خامس ذكره القشيري ؛ وهو أنهما قالا : لما لم يأذن لنا الموكلون بالحجاب ، توصلنا إلى الدخول بالتّسور ، وخفنا أن يتفاقم الأمر بيننا .

فقبل داود عذرهم ، وأصغى إلى قولهم .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ خَصْمَانِ ﴾ إن قيل : كيف قال : "خَصْمَانِ" وقبل هذا : "إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ" فقيل : لأن الاثنين جمع ؛ قال الخليل : كما تقول نحن فعلنا إذا كنتما اثنين .

وقال الكسائي : جمع لما كان خبراً ، فلما انقضى الخبر وجاءت المخاطبة ، خبّر الاثنان عن أنفسهما فقالا خصمان .

وقال الزجاج : المعنى نحن خصمان .

وقال غيره : القول محذوف ؛ أي يقول : ﴿ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ ﴾ قال الكسائي : ولو كان بغى بعضهما على بعض لجاز .

الماوردي : وكانا ملكين ، ولم يكونا خصمين ولا باغيين ، ولا يتأتى منهما كذب ؛ وتقدير كلامهما ما تقول : إن أتاك خصمان قالا بغى بعضنا على بعض .

وقيل : أي نحن فريقان من الخصوم بغى بعضنا على بعض .

وعلى هذا يحتمل أن تكون الخصومة بين اثنين ومع كل واحد جمع .

ويحتمل أن يكون لكل واحد من هذا الفريق خصومة مع كل واحد من الفريق الآخر ، فحضروا الخصومات ولكن ابتدأ منهم اثنان ، فعرف داود بذكر النكاح القصة .

وأغنى ذلك عن التعرّض للخصومات الأخر .

والبغي التعدّي والخروج عن الواجب .

يقال : بغى الجُرْح إذا أفرط وجعه وترامى إلى ما يفحش ، ومنه بغت المرأة إذا أتت الفاحشة .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ أي لا تَجُرْ ؛ قاله السدّي .

(77/659)

وحكى أبو عبيد : شططت عليه وأشططت أي جُرت .

وفي حديث تميم الداريّ : (إنك لشَاطِّي) أي جائر عليّ في الحكم .

وقال قتادة : لا تَمِل .

الأخفش : لا تُسرِف .

وقيل : لا تُفرط .

والمعنى متقارب .

والأصل فيه البعد من شطتِ الدار أي بعدت ؛ شطّتِ الدار تَشِطّ وتَشُطّ شطًّا وشُطوطاً بعدت .

وأشطَّ في القضية أي جار ، وأَشطّ في السَّوْم واشتط أي أبعد ، وأشطُّوا في طلبي أي أمعنوا .

قال أبو عمرو : الشطط مجاوزة القدر في كل شيء .

وفي الحديث : " لها مهر مثلها لا وَكْسَ ولا شطط " أي لا نقصان ولا زيادة .

وفي التنزيل : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ [الكهف : 14] أي جوراً من القول وبعداً عن الحق .

﴿ واهدنا إلى سَوَآءِ الصراط ﴾ أي أرشدنا إلى قصد السبيل .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ أي قال الملَكَ الذي تكلم عن أوريا "إِنَّ هَذَا أَخِي" أي على ديني ، وأشار إلى المدّعى عليه .

وقيل : أخي أي صاحبي .

"لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً" وقرأ الحسن : "تَسْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً" بفتح التاء فيهما وهي لغة شاذة ، وهي الصحيحة من قراءة الحسن ؛ قاله النحاس .

والعرب تكني عن المرأة بالنعجة والشاة ؛ لما هي عليه من السكون والمعجَزة وضعف الجانب .

وقد يكنى عنها بالبقرة والحِجْرة والناقة ؛ لأن الكل مركوب .

قال ابن عون :

أنا أبوهنّ ثلاثٌ هُنَّهْ . . .
رابعةٌ في البيت صُغْرا هُنَّهْ
ونعجتي خمسا تُوفِّيهِنَّهْ . . .
أَلاَ فتًى سمحٌ يُغذِّيهِنَّهْ
طَيَّ النَّقَا في الجوع يَطْوِيهِنَّهْ . . .
ويلُ الرَّغِيف ويلَهُ منْهُنَّهْ

وقال عنترة :

يا شاةَ ما قَنَصٍ لمن حَلَّتْ لَهُ . . .
حَرُمتْ عليّ وليتَها لم تَحْرُمِ
فَبَعَثْتُ جاريتي فقلتُ لها اذْهَبِي . . .

فَتَجَسَّسِي أخبارَها لِي وَاعْلَمِ

قالتْ رأيتُ مِن الأعادي غِرَّةً . . .

والشّاةُ مُمْكِنَةٌ لمن هو مُرْتَمِ

(78/659)

فكَأَنَّمَا الْتَفَتَتْ بجيدِ جدايةٍ . . .

رَشَإٍ مِنَ الغِزْلانِ حُرٍّ أَرْثَمِ

وقال آخر :

فرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ . . .

فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِها وطِحَالَهَا

وهذا من أحسن التعريض حيث كنى بالنعاج عن النساء .

قال الحسين بن الفضل : هذا من الملكين تعريض وتنبيه كقولهم ضرب زيد عمرا ، وما كان ضرب ولا نعاج على التحقيق ، كأنه قال : نحن خصمان هذه حالنا .

قال أبو جعفر النحاس : وأحسن ما قيل في هذا أن المعنى : يقول : خصمان بغى بعضنا على بعض على جهة المسألة ؛ كما تقول : رجل يقول لامرأته كذا ؛ ما يجب عليه ؟

قلت : وقد تأوّل المزنيّ صاحب الشافعي هذه الآية ، وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث ابن شهاب الذي خرجه "الموطأ" وغيره : " هو لكَ يا عبدُ بنَ زَمْعَة " على نحو هذا ؛ قال المزني : يحتمل هذا الحديث عندي والله أعلم أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أجاب عن المسألة فأعلمهم بالحكم أنّ هذا يكون إذا ادعى صاحب فراش وصاحب زنى ، لا أنه قبل على عتبة قول أخيه سعد ، ولا على زَمْعَة قول ابنه إنه ولد زنى ، لأن كل واحد منهما أخبر عن غيره .

وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحد على غيره .

وقد ذكر الله سبحانه في كتابه مثل ذلك في قصة داود والملائكة ؛ إذ دخلوا عليه ففزع منهم ، قالوا : لا تخف خصمان ولم يكونوا خصمين ، ولا كان لواحد منهم تسع وتسعون نعجة ، ولكنهم كلموه على المسألة ليعرِف بها ما أرادوا تعريفه .

فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم حكم في هذه القصة على المسألة ، وإن لم يكن أحد يؤنسني على هذا التأويل في الحديث ؛ فإنه عندي صحيح .

والله أعلم .

(79/659)

التاسعة : قال النحاس : وفي قراءة ابن مسعود "إِنَّ هَذَا أَخِي كَانَ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى" و"كان" هنا مثل قوله عز وجل : ﴿ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 96]

فأما قوله : "أنثى" فهو تأكيد ، كما يقال : هو رجل ذكر وهو تأكيد .

وقيل : لما كان يقال هذه مائة نعجة ، وإن كان فيها من الذكور شيء يسير ، جاز أن يقال : أنثى ليعلم أنه لا ذكر فيها .

وفي التفسير : له تسع وتسعون امرأة .

قال ابن العربي : إن كان جميعهن أحراراً فذلك شرعه ، وإن كنّ إماء فذلك شرعنا .

والظاهر أن شرع من تقدم قبلنا لم يكن محصوراً بعدد ، وإنما الحصر في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، لضعف الأبدان وقلة الأعمار .

وقال القشيري : ويجوز أن يقال : لم يكن له هذا العدد بعينه ، ولكن المقصود ضرب مثل ، كما تقول : لو جئتني مائة مرة لم أقض حاجتك ، أي مراراً كثيرة .

قال ابن العربي : قال بعض المفسرين : لم يكن لداود مائة امرأة ، وإنما ذكر التسعة والتسعين مثلاً ؛ المعنى : هذا غنيّ عن الزوجة وأنا مفتقر إليها .

وهذا فاسد من وجهين : أحدهما : أن العدول عن الظاهر بغير دليل لا معنى له ، ولا دليل يدلّ على أن شرع من قبلنا كان مقصوراً من النساءِ على ما في شرعنا .

الثاني : أنه روى البخاري وغيره أن سليمان قال : "لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل

امرأة غلاماً يقاتل في سبيل الله ونسي أن يقول إن شاء الله" وهذا نص .

العاشرة : قوله تعالى : ﴿ وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي امرأة واحدة : ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أي انزل لي عنها حتى أكفلها .

وقال ابن عباس : أعطنيها .

وعنه : تحوّل لي عنها .

وقاله ابن مسعود .

وقال أبو العالية : ضمها إليّ حتى أكفلها .

وقال ابن كيسان : اجعلها كِفلي ونصيبي .

﴿ وَعَزَّنِي فِي الخطاب ﴾ أي غلبني .

قال الضحاك : إن تكلم كان أفصح مني ، وإن حارب كان أبطش مني .

(80/659)

يقال : عزّه يَعُزُّه (بضم العين في المستقبل) عَزًّا غلبه .

وفي المثل : من عَزَّ بَزَّ ؛ أي من غَلَبَ سَلَب .

والاسم العزة وهي القوّة والغلبة .

قال الشاعر :

قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ . . .

تُجاذِبهُ وقد عَلِقَ الْجنَاحُ

وقرأ عبد الله بن مسعود وعبيد بن عمير : "وَعَازَّنِي فِي الْخطَابِ" أي غالبني ؛ من المعازَّة وهي المغالبة ؛ عازَّهُ أي غالبه .

قال ابن العربي : واختلف في سبب الغلبة ؛ فقيل : معناه غلبني ببيانه .

وقيل : غلبني بسلطانه ؛ لأنه لما سأله لم يستطع خلافه .

كان ببلادنا أمير يقال له : سير بن أبي بكر فكلمته في أن يسأل لي رجلاً حاجة ، فقال لي : أما علمت أن طلب السلطان للحاجة غصب لها .

فقلت : أما إذا كان عدلاً فلا .

فعجبت من عجمته وحفظه لما تمثل به وفطنته ، كما عجب من جوابي له واستغربه .

الحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ قال النحاس : فيقال إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام ؛ لأنه قال : لقد ظلمك من غير تثبت ببيّنة ، ولا إقرار من الخصم ؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن .

فهذا قول .

وسيأتي بيانه في المسألة بعد هذا ، وهو حسن إن شاء الله تعالى .

وقال أبو جعفر النحاس : فأما قول العلماء الذين لا يدفع قولهم ؛ منهم عبد الله بن مسعود وابن عباس ، فإنهم قالوا : ما زاد داود صلى الله على نبينا وعليه على أن قال للرجل انزل لي عن امرأتك .

قال أبو جعفر : فعاتبه الله عز وجل على ذلك ونبّهه عليه ، وليس هذا بكبير من المعاصي ، ومن تخطى إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصح عن عالم ، ويلحقه فيه إثم عظيم .

كذا قال : في كتاب "إعراب القرآن" .

وقال : في كتاب "معاني القرآن" له بمثله .

قال رضي الله عنه : قد جاءت أخبار وقصص في أمر داود عليه السلام وأوريا ، وأكثرها لا يصح ولا يتصل إسناده ، ولا ينبغي أن يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها .

(81/659)

وأصح ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : ما زاد داود عليه السلام على أن قال : "أَكْفِلْنِيهَا" أي انزل لي عنها .

وروى المنهال عن سعيد بن جبير قال : ما زاد داود صلى الله عليه وسلم على أن قال : "أَكْفِلْنِيهَا" أي تحوّل لي عنها وضمها إليّ .

قال أبو جعفر : فهذا أجلّ ما روي في هذا ، والمعنى عليه أن داود عليه السلام سأل أوريا أن يطلق امرأته ، كما يسأل الرجل الرجل أن يبيعه جاريته ، فنبهه الله عز وجل على ذلك ، وعاتبه لما كان نبياً وكان له تسع وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزيد منها ، فأما غير هذا فلا ينبغي الاجتراء عليه .

قال ابن العربي : وأما قولهم إنها لما أعجبته أمر بتقديم زوجها للقتل في سبيل الله فهذا باطل قطعاً ؛ فإن داود صلى الله عليه وسلم لم يكن ليريق دمه في غرض نفسه ، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه : انزل لي عن أهلك وعزم عليه في ذلك ، كما يطلب الرجل من الرجل الحاجة برغبة صادقة ؛ كانت في الأهل أو في المال .

وقد قال سعيد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما : إن لي زوجتين أنزل لك عن أحسنهما ؛ فقال له : بارك الله لك في أهلك .

وما يجوز فعله ابتداء يجوز طلبه ، وليس في القرآن أن ذلك كان ، ولا أنه تزوجها بعد زوال عصمة الرجل عنها ، ولا ولادتها لسليمان ، فعمن يروى هذا ويسند ؟! وعلى من في نقله يعتمد ، وليس يأثره عن الثقات الأثبات أحد .

(82/659)

أما أن في سورة "الأحزاب" نكتة تدل على أن داود قد صارت له المرأة زوجة ، وذلك قوله : ﴿ مَّا كَانَ عَلَى النبي مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ الله لَهُ سُنَّةَ الله فِي الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ [الأحزاب : 38] يعني في أحد الأقوال : تزويج داود المرأة التي نظر إليها ، كما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ؛ إلا أن تزويج زينب كان من غير سؤال للزوج في فراق ، بل أمره بالتمسك بزوجته ، وكان تزويج داود للمرأة بسؤال زوجها فراقها .

فكانت هذه المنقبة لمحمد صلى الله عليه وسلم على داود مضافة إلى مناقبه العلية صلى الله عليه وسلم .

ولكن قد قيل : إن معنى ﴿ سُنَّةَ الله فِي الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ [الأحزاب : 62] تزويج الأنبياء بغير صداق من وهبت نفسها لهم من النساء بغير صداق .

وقيل : أراد بقوله : ﴿ سُنَّةَ الله فِي الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ [الأحزاب : 62] أن الأنبياء صلوات الله عليهم فرض لهم ما يمتثلونه في النكاح وغيره .

وهذا أصح الأقوال .

وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مائة امرأة ؛ وهذا نص القرآن .

وروي أن سليمان كانت له ثلاثمائة امرأة وسبعمائة جارية ؛ وربك أعلم .

(83/659)

وذكر الكيا الطبري في أحكامه في قول الله عز وجل : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ الآية : ذكر المحققون الذين يرون تنزيه الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر ، أن داود عليه السلام كان قد أقدم على خِطبة امرأة قد خطبها غيره ، يقال : هو أوريا ؛ فمال القوم إلى تزويجها من داود راغبين فيه ، وزاهدين في الخاطب الأوّل ، ولم يكن بذلك داود عارفاً ، وقد كان يمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة ، وعن الخطبة بها فلم يفعل ذلك ، من حيث أعجب بها إما وصفاً أو مشاهدةً على غير تعمد ؛ وقد كان لداود عليه السلام من النساء العدد الكثير ، وذلك الخاطب لا امرأة له ، فنبهه الله تعالى على ما فعل بما كان من تسوّر الملَكَين ، وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض ؛ لكي يفهم من ذلك موقع العتب فيعدل عن هذه الطريقة ، ويستغفر ربه من هذه الصغيرة .

الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ فيه الفتوى في النازلة بعد السماع من أحد الخصمين ، وقبل أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول .

قال ابن العربي : وهذا مما لا يجوز عند أحد ، ولا في ملّة من الملل ، ولا يمكن ذلك للبشر . وإنما تقدير الكلام أن أحد الخصمين ادعى والآخر سلّم في الدعوى ، فوقعت بعد ذلك الفتوى .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى

تسمع من الآخر " وقيل : إن داود لم يقض للآخر حتى اعترف صاحبه بذلك .

وقيل : تقديره لقد ظلمك إن كان كذلك .

والله أعلم بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه .

قلت : ذكر هذين الوجهين القشيري والماورديّ وغيرهما .

قال القشيري : وقوله : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ من غير أن يسمع كلام الخصم مشكل ؛ فيمكن أن يقال : إنما قال هذا بعد مراجعة الخصم الآخر وبعد اعترافه .

(84/659)

وقد روي هذا وإن لم تثبت روايته ، فهذا معلوم من قرائن الحال ، أو أراد لقد ظلمك إن كان الأمر على ما تقول ، فسكّته بهذا وصبره إلى أن يسأل خصمه .

قال ويحتمل أن يقال : كان من شرعهم التعويل على قول المدّعي عند سكوت المدّعى عليه ، إذا لم يظهر منه إنكار بالقول .

وقال الحليمي أبو عبد الله في كتاب منهاج الدين له : ومما جاء في شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت ، أو كانت خافية فظهرت : السجود لله عز وجل .

قال والأصل في ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَحُسْنَ

مَآبٍ ﴾ .

أخبر الله عز وجل عن داود عليه السلام : أنه سمع قول المتظلم من الخصمين ، ولم يخبر عنه أنه سأل الآخر ، إنما حكى أنه ظلمه ، فكان ظاهر ذلك أنه رأى في المتكلم مخائل الضعف والهضيمة ، فحمل أمره على أنه مظلوم كما يقول ، ودعاه ذلك إلى ألاّ يسأل الخصم ؛ فقال له مستعجلاً : "لَقَدْ ظَلَمَكَ" مع إمكان أنه لو سأله لكان يقول : كانت لي مائة نعجة ولا شيء لهذا ، فسرق مني هذه النعجة ، فلما وجدتها عنده قلت له ارددها ، وما قلت له أكفلنيها ، وعلم أني مرافعه إليك ، فجرّني قبل أن أجرّه ، وجاءك متظلماً من قبل أن أحضره ، لتظنّ أنه هو المحق وأني أنا الظالم .

(85/659)

ولما تكلم داود بما حملته العجلة عليه ، علم أن الله عز وجل خلاه ونفسه في ذلك الوقت ، وهو الفتنة التي ذكرناها ، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه ، فاستغفر ربه وخَرَّ راكعاً لله تعالى شكراً على أن عصمه ، بأن اقتصر على تظليم المشكو ، ولم يزده على ذلك شيئاً من انتهار أو ضرب أو غيرهما ، مما يليق بمن تصوّر في القلب أنه ظالم ، فغفر الله له ثم أقبل عليه يعاتبه ؛ فقال : "يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ

الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" فبان بما قصه الله تعالى من هذه الموعظة ، التي توخاه بها بعد المغفرة ، أن خطيئته إنما كانت التقصيرَ في الحكم ، والمبادرةَ إلى تظليم من لم يثبت عنده ظلمه .

ثم جاء عن ابن عباس أنه قال : سجدها داود شكراً ، وسجدها النبي صلى الله عليه وسلم اتباعاً ، فثبت أن السجود للشكر سنة متواترة عن الأنبياء صلوات الله عليهم .

﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ أي بسؤاله نعجتك ؛ فأضاف المصدر إلى المفعول ، وألقى الهاء من السؤال ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَسْأَمُ الإنسان مِن دُعَآءِ الخير ﴾ [فصلت : 49] أي من دعائه الخير .

الثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطآء ﴾ يقال : خِليط وخلطاء ، ولا يقال طويل وطولاء ؛ لثقل الحركة في الواو .

وفيه وجهان : أحدهما أنهما الأصحاب .

الثاني أنهما الشركاء .

قلت : إطلاق الخلطاء على الشركاء فيه بعد ، وقد اختلف العلماء في صفة الخلطاء ، فقال أكثر العلماء : هو أن يأتي كل واحد بغنمه فيجمعهما راع واحد والدّلو والمراح .

وقال طاوس وعطاء : لا يكون الخلطاء إلا الشركاء .

وهذا خلاف الخبر ؛ وهو قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يُجْمع بين متفرّق ولا يفَرّق بين مجتمع خشية الصدقة وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية" وروي "فإنهما يترادّان الفضل " ولا موضع لتراد الفضل بين الشركاء ؛ فاعلمه .

وأحكام الخلطة مذكورة في كتب الفقه .

ومالك وأصحابه وجمع من العلماء لا يرون (الصدقة) على من ليس في حصته ما تجب فيه الزكاة .

وقال الربيع والليث وجمع من العلماء منهم الشافعي : إذا كان في جميعها ما تجب فيه الزكاة أخذت منهم الزكاة .

قال مالك : وإن أخذ المصَّدِّق بهذا ترادّوا بينهم للاختلاف في ذلك ، وتكون كحكم حاكم اختلف فيه .

الرابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ ليبغي بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ أي يتعدّى ويظلم .

﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فإنهم لا يظلمون أحداً .

﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ يعني الصالحين ، أي وقليل هم ف"ما" زائدة .

وقيل : بمعنى الذين وتقديره وقليل الذين هم .

وسمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقول في دعائه : اللهم اجعلني من عبادك القليل .

فقال له عمر : ما هذا الدعاء ؟ فقال أردت قول الله عز وجل : ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ فقال عمر : كل الناس أفقه منك يا عمر !

الخامسة عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أي ابتليناه .

"وَظَنَّ" معناه أيقن .

قال أبو عمرو والفراء : ظن بمعنى أيقن ، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز في المعاين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين .

والقراءة "فَتَنَّاهُ" بتشديد النون دون التاء .

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه "فَتَّنَّاهُ" بتشديد التاء والنون على المبالغة .

وقرأ قتادة وعبيد بن عمير وابن السَّمَيْقَع "فَتَنَاهُ" بتخفيفهما .

ورواه علي بن نصر عن أبي عمرو ، والمراد به الملَكَان اللذان دخلا على داود عليه السلام .

(87/659)

السادسة عشرة : قيل : لما قضى داود بينهما في المسجد ، نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ، فلم يفطن داود ؛ فأحبَّا أن يعرفهما ، فصعدا إلى السماء حِيال وجهه ، فعلم

داود عليه السلام أن الله تعالى ابتلاه بذلك ، ونبهه على ما ابتلاه .

قلت : وليس في القرآن ما يدل على القضاء في المسجد إلا هذه الآية ، وبها استدل من قال بجواز القضاء في المسجد ، ولو كان ذلك لا يجوز كما قال الشافعي لما أقرَّهم داود على ذلك .

ويقول : انصرفا إلى موضع القضاء .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء يقضون في المسجد ، وقد قال مالك : القضاء في المسجد من الأمر القديم .

يعني في أكثر الأمور .

ولا بأس أن يجلس في رحبته ؛ ليصل إليه الضعيف والمشرك والحائض ، ولا يقيم فيه الحدود ؛ ولا بأس بخفيف الأدب .

وقد قال أشهب : يقضي في منزله وأين أحب .

السابعة عشرة : قال مالك رحمه الله : وكان الخلفاء يقضون بأنفسهم ، وأوّل من استقضى معاوية .

قال مالك : وينبغي للقضاة مشاورة العلماء .

وقال عمر بن عبد العزيز : لا يستقضي حتى يكون عالماً بآثار من مضى ، مستشيراً لذوي الرأي ، حليماً نزها .

قال : ويكون ورعاً .

قال مالك : وينبغي أن يكون متيقظاً كثير التحذر من الحيل ، وأن يكون عالماً بالشروط ، عارفاً بما لا بُدَّ له منه من العربية ؛ فإن الأحكام تختلف باختلاف العبارات والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التي تتضمن حقوق المحكوم له .

وينبغي له أن يقول قبل إنجاز الحكم للمطلوب : أبقيت لك حجة ؟ فإن قال لا حكم عليه ، ولا يقبل منه حجة بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتي بما له وجه أو بينة .

وأحكام القضاء والقضاة فيما لهم وعليهم مذكورة في غير هذا الموضع .

الثامنة عشرة : قوله تعالى : ﴿ فاستغفر ربَّهُ ﴾ اختلف المفسرون في الذنب الذي استغفر منه على أقوال ستة : الأوّل أنه نظر إلى المرأة حتى شبع منها .

قال سعيد بن جبير : إنما كانت فتنته النظرة .

(88/659)

قال أبو إسحاق : ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها ، فصارت الأولى له والثانية عليه .

الثاني أنه أغزى زوجها في حملة التابوت .

الثالث أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها .

الرابع أن أوريا كان خطب تلك المرأة ، فلما غاب خطبها داود فزوّجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا ، فعتب الله على داود إذ لم يتركها لخاطبها ، وقد كان عنده تسع وتسعون امرأة .

الخامس أنه لم يجزع على قتل أوريا ، كما كان يجزع على من هلك من الجند ، ثم تزوج امرأته ، فعاتبه الله تعالى على ذلك ؛ لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله .

السادس أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر .

قال القاضي ابن العربي : أما قول من قال : إنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر فلا يجوز على الأنبياء ، وكذلك تعريض زوجها للقتل .

وأما من قال : إنه نظر إليها حتى شبع فلا يجوز ذلك عندي بحال ؛ لأن طموح النظر لا يليق بالأولياء المتجردين للعبادة ، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائط الله المكاشفون بالغيب !

وحكى السديّ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لو سمعت رجلاً يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرَّماً لجلدته ستين ومائة ؛ لأن حدّ (قاذف) الناس ثمانون وحدّ (قاذف) الأنبياء ستون ومائة .

ذكره الماوردي والثعلبي أيضاً .

قال الثعلبي : وقال الحارث الأعور عن عليّ : من حدّث بحديث داود على ما ترويه

القصاص معتقداً جلدته حدّين ؛ لعظم ما ارتكب برمي من قد رفع الله محله ، وارتضاه من خلقه رحمة للعالمين ، وحجة للمجتهدين .

قال ابن العربي : وهذا مما لم يصح عن عليّ .

(89/659)

فإن قيل : فما حكمه عندكم ؟ قلنا : أما من قال إن نبيًّا زنى فإنه يقتل ، وأما من نسب إليه ما دون ذلك من النظر والملامسة ، فقد اختلف (نقل) الناس في ذلك ؛ فإن صمم أحد على ذلك فيه ونسبه إليه قتلته ، فإنه يناقض التعزير المأمور به ، فأما قولهم : إنه وقع بصره على امرأة تغتسل عريانة ، فلما رأته أسبلت شعرها فسترت جسدها ، فهذا لا حرج عليه فيه بإجماع من الأمة ؛ لأن النظرة الأولى تكشف المنظور إليه ولا يأثم الناظر بها ، فأما النظرة الثانية فلا أصل لها .

وأما قولهم : إنه (نوى) إن مات زوجها تزوجها فلا شيء فيه إذ لم يعرّضه للموت .

وأما قولهم : إنه خطب على خطبة أوريا فباطل يردّه القرآن والآثار التفسيرية كلها .

وقد روى أشهب عن مالك قال : بلغني أن تلك الحمامة أتت فوقعت قريباً من داود عليه السلام وهي من ذهب ، فلما رآها أعجبته فقام ليأخذها فكانت قرب يده ، ثم صنع مثل

ذلك مرتين ، ثم طارت واتبعها ببصره فوقعت عينه على تلك المرأة وهي تغتسل ولها شعر طويل ؛ فبلغني أنه أقام أربعين ليلة ساجداً حتى نبت العشب من دموع عينيه .

قال ابن العربي : وأما قول المفسرين إن الطائر درج عنده فهمّ بأخذه واتبعه فهذا لا يناقض العبادة ؛ لأنه مباح فعله ، لاسيما وهو حلال وطلب الحلال فريضة ، وإنما اتبع الطير لذاته لا لجماله فإنه لا منفعة له فيه ، وإنما ذِكرهم لحسن الطائر خرقٌ في الجهالة .

أما أنه روي أنه كان طائراً من ذهب فاتبعه ليأخذه ؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روي في الصحيح : " "إن أيوب عليه السلام كان يغتسل عرياناً فخرَّ عليه رِجل من جراد (من ذهب) فجعل يحثي منه ويجعل في ثوبه ؛ فقال الله تعالى له : "يا أيوب ألم أكن أغنيتك" قال : "بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك" " وقال القشيري : فهمّ داود بأن يأخذه ليدفعه إلى ابن له صغير فطار ووقع على كُوّة البيت ، وقاله الثعلبي أيضاً وقد تقدّم .

(90/659)

التاسعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ أي خر ساجداً ، وقد يعبر عن السجود بالركوع .

قال الشاعر :

فخرّ على وَجهِه راكِعاً . . .

وتابَ إلى الله مِنْ كُلِّ ذنب

قال ابن العربي : لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع ها هنا السجود ؛ فإن السجود هو الميل ، والركوع هو الانحناء ، وأحدهما يدخل على الآخر ، ولكنه قد يختص كل واحد بهيئته ، ثم جاء هذا على تسمية أحدهما بالآخر ، فسمى السجود ركوعاً .

وقال المهدوي : وكان ركوعهم سجوداً .

وقيل : بل كان سجودهم ركوعاً .

وقال مقاتل : فوقع من ركوعه ساجداً لله عز وجل .

أي لما أحس بالأمر قام إلى الصلاة ، ثم وقع من الركوع إلى السجود ؛ لاشتمالهما جميعاً على الانحناء .

﴿ وَأَنَابَ ﴾ أي تاب من خطيئته ورجع إلى الله .

وقال الحسين بن الفضل : سألني عبد الله بن طاهر وهو الوالي عن قول الله عز وجل : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ فهل يقال للراكع خَرَّ ؟ .

قلت : لا .

قال : فما معنى الآية ؟ قلت : معناها فخرّ بعد أن كان راكعاً أي سجد .

الموفية عشرين : واختلف في سجدة داود هل هي من عزائم السجود المأمور به في القرآن أم

لا ؟ فروى أبو سعيد الخدري : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر ﴿ ص والقرآن ذِي الذكر ﴾ فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه ، فلما كان يوم آخر قرأ بها فتَشَزَّنَ الناس للسجود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها توبة نبيّ ولكني رأيتكم تَشَزَّنتم للسجود " ونزل وسجد .

وهذا لفظ أبي داود .

وفي البخاري وغيره عن ابن عباس أنه قال : "صا" ليست من عزائم القرآن ، وقد رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم يسجد فيها .

وقد روي من طريق عن ابن مسعود أنه قال : "صا" توبة نبيّ ولا يسجد فيها ؛ وعن ابن عباس أنها توبة نبيّ ونبيكم ممن أمر أن يقتدى به .

قال ابن العربي : والذي عندي أنها ليست موضع سجود ، ولكن النبيّ صلى الله عليه وسلم سجد فيها فسجدنا بالاقتداء به .

(91/659)

ومعنى السجود أن داود سجد خاضعاً لربه ، معترفاً بذنبه ، تائباً من خطيئته ؛ فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية ، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود الذي اتبعه ، وسواء

قلنا إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا ؟ فإن هذا أمر مشروع في كل أمة لكل أحد .

والله أعلم .

الحادية والعشرون : قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : قوله : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ فيه دلالة على أن السجود للشكر مفرداً لا يجوز ؛ لأنه ذكر معه الركوع ؛ وإنما الذي يجوز أن يأتي بركعتين شكراً فأما سجدة مفردة فلا ؛ وذلك أن البشارات كانت تأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة بعده ، فلم ينقل عن أحد منهم أنه سجد شكراً ، ولو كان ذلك مفعولاً لهم لنقل نقلاً متظاهراً لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قربة .

قلت : وفي سنن ابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى يوم بُشِّر برأس أبي جهل ركعتين .

وخرّج من حديث أبي بكرة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه أمر يسرّه أو يسّر به خر ساجداً شكراً لله .

وهذا قول الشافعي وغيره .

الثانية والعشرون : روى الترمذي وغيره واللفظ للغير : أن رجلاً من الأنصار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ : ﴿ ص والقرآن ذِي الذكر ﴾ فلما بلغ السجدة سجد وسجدت معه الشجرة ، فسمعها وهي تقول : اللهم أعظم لي بهذه السجدة أجراً ، وارزقني بها شكراً .

قلت : خرّج ابن ماجه في سننه عن ابن عباس قال : كنت عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأتاه رجل فقال : إني رأيت البارحة فيما يرى النائم ، كأني أصلي إلى أصل شجرة ، فقرأت السجدة (فسجدت) فسجدتْ الشجرة لسجودي ، فسمعتها تقول : اللهم احطط بها عني وزراً ، واكتب لي بها أجراً ، واجعلها لي عندك ذخراً .

(92/659)

قال ابن عباس : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ "السجدة" فسجد ، فسمعته يقول في سجوده مثل الذي أخبره الرجل عن قول الشجرة .

ذكره الثعلبي " عن أبي سعيد الخدري ؛ قال : قلت يا رسول الله رأيتُني في النوم كأني تحت شجرة والشجرة تقرأ "صا" فلما بلغت السجدة سجدتْ فيها ، فسمعتها تقول في سجودها : اللهم اكتب لي بها أجراً ، وحط عني بها وزراً ، وارزقني بها شكراً ، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود سجدته ، فقال لي النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أفسجدت أنت يا أبا سعيد" فقلت : لا والله يا رسول الله .

فقال : "لقد كنت أحق بالسجود من الشجرة" ثم قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم "صا" حتى بلغ السجدة فسجد ، ثم قال مثل ما قالت الشجرة" .

الثالثة والعشرون : قوله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أي فغفرنا له ذنبه .

قال ابن الأنباري : "فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ" تام ، ثم تبتدىء "وَإِنَّ لَهُ" وقال القشيري : ويجوز الوقف على "فَغَفَرْنَا لَهُ" ثم تبتدىء "ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ" كقوله : ﴿ هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ ﴾ [ص : 55] أي الأمر ذلك .

وقال عطاء الخراساني وغيره : إن داود سجد أربعين يوماً حتى نبت المرعى حول وجهه وغمر رأسه ، فنودي : أجائع فتطعَم أو عارٍ فتكسَى ؛ فَنَحب نحبة هاج المرعى من حرّ جوفه ، فغفِر له وستر بها .

فقال : يا رب هذا ذنبي فيما بيني وبينك قد غفرته ، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلاً من بني إسرائيل ، تركت أولادهم أيتاما ، ونساءهم أرامل ؟ قال : يا داود لا يجاوزني يوم القيامة ظلم أمكنه منك ثم أستوهبك منه بثواب الجنة .

قال : يا رب هكذا تكون المغفرة الهينة .

ثم قيل : يا داود ارفع رأسك .

فذهب ليرفع رأسه فإذا به قد نَشِب في الأرض ، فأتاه جبريل فاقتلعه عن وجه الأرض كما يقتلع من الشجرة صمغها .

رواه الوليد بن مسلم عن ابن جابر عن عطاء .

قال الوليد : وأخبرني مُنِير بن الزبير ، قال : فلزق مواضع مساجده على الأرض من فروة وجهه ما شاء الله .

قال الوليد قال ابن لهيعة : فكان يقول في سجوده سبحانك هذا شرابي دموعي ، وهذا طعامي في رماد بين يدي .

في رواية : إنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة ، فبكى حتى نبت العُشْب من دموعه .

وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن داود مكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت العشب من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبينه وهو يقول في سجوده : يا رب داود زلّ زلّة بَعُد بها ما بين المشرق والمغرب ربّ إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثاً في الخلق من بعده فقال له جبريل بعد أربعين سنة يا داود إن الله قد غفر لك الهَمّ الذي هممت به " وقال وهب : إن داود عليه السلام نودي إني قد غفرت لك .

فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل فقال : لم لا ترفع رأسك وربك قد غفر لك ؟ قال : يا رب كيف وأنت لا تظلم أحداً .

فقال الله لجبريل : اذهب إلى داود فقل له يذهب إلى قبر أوريا فيتحلل منه ، فأنا أسمعه

نداءه .

فلبس داود المسوح وجلس عند قبر أوريا ، ونادى يا أوريا فقال : لبيك ! من هذا الذي قطع عليّ لذتي وأيقظني ؟ فقال : أنا أخوك داود أسألك أن تجعلني في حلٍّ فإني عرّضتك للقتل ؛ قال : عرضتني للجنة فأنت في حلّ .

وقال الحسن وغيره : كان داود عليه السلام بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين ، ويقول : تعالوا إلى داود الخطَّاء ، ولا يشرب شراباً إلا مزجه بدموع عينيه .

وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قَصْعة فلا يزال يبكي حتى يبتل بدموعه ، وكان يذرّ عليه الرماد والملح فيأكل ويقول : هذا أكل الخاطئين .

وكان قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر ، ثم صام بعده الدهر كله وقام الليل كله .

وقال : يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته منقوشة في كفه .

(94/659)

فكان لا يبسطها لطعام ولا شراب ولا شيء إلا رآها فأبكته ، وإن كان ليؤتى بالقدح ثلثاه ماء ، فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه عن شفته حتى يفيض من دموعه .

وروى الوليد بن مسلم : حدّثني أبو عمرو الأوزاعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما مثل عيني داود مثل القِربتين تَنْطفان ولقد خدّد الدموع في وجه داود خديد الماء في الأرض " قال الوليد : وحدّثنا عثمان بن أبي العاتكة أنه كان في قول داود إذ هو خلوٌ من الخطيئة شدّة قوله في الخطائين أن كان يقول : اللهم لا تغفر للخطائين .

ثم صار إلى أن يقول : اللهم رب اغفر للخاطئين لكي تغفر لداود معهم ؛ سبحان خالق النور .

إلهي ! خرجت أسأل أطباء عبادك أن يداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني .

إِلهي ! أخطأت خطيئة قد خفت أن تجعل حصادها عذابك يوم القيامة إن لم تغفرها ؛ سبحان خالق النور .

إلهي ! إذا ذكرت خطيئتي ضاقت الأرض برحْبها عليّ ، وإذا ذكرت رحمتك ارتد إليّ روحي .

وفي الخبر : أن داود عليه السلام كان إذا علا المنبر رفع يمينه فاستقبل بها الناس ليريهم نقش خطيئته ؛ فكان ينادي : إِلهي ! إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليّ الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتد إليّ روحي ؛ رب اغفر للخاطئين كي تغفر لداود معهم .

وكان يقعد على سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد ، فكانت تستنقع دموعه تحت رجليه حتى تنفذ من الأفرشة كلها .

وكان إذا كان يوم نَوْحه نادى مناديه في الطرق والأسواق والأودية والشّعاب وعلى رؤوس الجبال وأفواه الغيران : ألا إن هذا يوم نوحِ داود ، فمن أراد أن يبكي على ذنبه فليأت داود فيسعده ؛ فيهبط السياح من الغيران والأودية ، وترتج الأصوات حول منبره والوحوش والسباع والطير عُكَّفٌ ؛ وبنو إسرائيل حول منبره ، فإذا أخذ في العويل والنوح ، وأثارت الحرقات منابع دموعه ، صارت الجماعة ضجة واحدة نوحاً وبكاء ، حتى يموت حول منبره بشر كثير في مثل ذلك اليوم .

(95/659)

ومات داود عليه السلام فيما قيل يوم السبت فجأة ؛ أتاه مَلَك الموت وهو يصعد في محرابه وينزل ؛ فقال : جئت لأقبض روحك .

فقال : دعني حتى أنزل أو أرتقي .

فقال : مالي إلى ذلك سبيل ؛ نفدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق ، فما أنت بمؤثر بعدها أثراً .

قال : فسجد داود على مرقاة من الدرج فقبض نفسه على تلك الحال .

وكان بينه وبين موسى عليهما السلام خمسمائة وتسع وتسعون سنة .

وقيل : تسع وسبعون ، وعاش مائة سنة ، وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة .

الرابعة والعشرون : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ قربة بعد المغفرة .

﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قالا : والله إن أوّل من يشرب الكأس يوم القيامة داود .

وقال مجاهد عن عبد الله بن عمر : الزلفى الدنو من الله عز وجل يوم القيامة .

وعن مجاهد : يبعث داود يوم القيامة وخطيئته منقوشة في يده : فإذا رأى أهاويل يوم القيامة لم يجد منها محرزاً إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى .

قال : ثم يرى خطيئته فيقلق فيقال له ها هنا ؛ ثم يرى فيقلق فيقال له ها هنا ، ثم يرى فيقلق فيقال له ها هنا ؛ (حتى يقرّب فيسكن) فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ ذكره الترمذي الحكيم .

قال : حدّثنا الفضل بن محمد ، قال حدّثنا عبد الملك بن الأصبغ قال : حدّثنا الوليد بن مسلم ، قال حدّثنا إبراهيم بن محمد الفزاري عن عبد الملك بن أبي سليمان عن مجاهد فذكره .

(96/659)

قال الترمذي : ولقد كنت أمر زماناً طويلاً بهذه الآيات فلا ينكشف لي المراد والمعنى من قوله : ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ [ص : 16] والقِط الصحيفة في اللغة ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا عليهم ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الانشقاق : 7] : وقال لهم : "إنكم ستجدون هذا كله في صحائفكم تعطونها بشمائلكم" فقالوا : "رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا" أي صحيفتنا "قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ" قال الله تعالى : ﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأيد ﴾ [ص : 17] فقص قصة خطيئته إلى منتهاها ، فكنت أقول : أمره بالصبر على ما قالوا ، وأمره بذكر داود فأي شيء أريد من هذا الذكر ؟ وكيف اتصل هذا بذاك ؟ فلا أقف على شيء يسكن قلبي عليه ، حتى هداني الله يوماً فألهمته أن هؤلاء أنكروا قول أنهم يعطون كتبهم بشمائلهم ، فيها ذنوبهم وخطاياهم استهزاء بأمر الله ؛ وقالوا : "رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ" فأوجعه ذلك من استهزائهم ، فأمره بالصبر على مقالتهم ، وأن يذكر عبده داود ؛ سأل تعجيل خطيئته أن يراها منقوشة في كفه ، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها اضطرب وامتلأ القدح من دموعه ، وكان إذا رآها بكى حتى تنفذ سبعة أفرشة من الليف محشوة بالرماد ، فإنما سألها بعد المغفرة وبعد ضمان تبعة الخصم ، وأن الله تبارك وتعالى اسمه يستوهبه منه ، وهو حبيبه ووليه وصفيه ؛ فرؤية نقش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صنعت به هكذا ، فكيف كان يحلّ بأعداء الله وبعصاته من خلقه وأهل خزيه ، لو عجلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك

الخطايا التي عملوها على الكفر والجحود ، وماذا يحل بهم إذا نظروا إليها في تلك الصحائف ، وقد أخبر الله عنهم فقال : ﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا

(97/659)

كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها .

وقد روينا في الحديث : إذا رآها يوم القيامة منقوشة في كفه قلق حتى يقال له هاهنا ، ثم يرى فيقلق ثم يقال هاهنا ، ثم يرى فيقلق حتى يُقرِّب فيسكن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(98/659)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (15) ﴾

الفواق ، بضم الفاء وفتحها : الزمان الذي ما بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع ، وفي الحديث : " العبادة قدر فواق الناقة " وأفاقت الناقة إفاقة : اجتمعت الفيقة في ضرعها فهي مفيق ومفيقة ، عن أبي عمرو .

والفيقة : اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين ، ويجمع على أفواق ، وأفاويق جمع الجمع .

وقال أبو عبيدة والفراء ومؤرج : الفواق ، بالفتح : الإفاقة والاستراحة .

القط ، قال الفراء : الحظ والنصيب ، ومنه قيل للصك : القط ، وقال أبو عبيدة والكسائي : القط : الكتاب بالجوائز ، وقال الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته . . .

بغبطته يعطي القطوط ويأفق

ويروى بأمته : أي بنعمته ، ويأفق : يصلح ، وهو في الكتاب أكثر استعمالاً .

قال أمية بن أبي الصلت :

قوم لهم ساحة أرض العراق وما . . .

يجبى إليهم بها والقط والعلم

ويجمع أيضاً على قططة ، وفي القليل قط وأقطاط .

تسور الحائط والسور وتسنمه والبعير : علا أعلاه .

والسور : حائط المدينة ، وهو غير مهموز .

الشطط : مجاوزة الحد وتخطي الحق .

وقال أبو عبيدة : شططت على فلان وأشططت : جرت في الحكم .

التسع : رتبة من العدد معروفة ، وكسر التاء أشهر من الفتح .

النعجة : الأنثى من بقر الوحش ومن الضأن ، ويكنى بها عن المرأة .

قال الشاعر :

هما نعجتان من نعاج تبالة . . .

لذي جؤذرين أو كبعض لدى هكر

وقال ابن عون :

أنا أبوهن ثلاث هنه . . .

رابعة في البيت صغراهنه

ونعجتي خمساً توفيهنه . . .

إلا فتى سجح يغذيهنه

عزة : غلبه ، يعزه عزاً ؛ وفي المثل : من عزَّبزَّ ، أي من غلب سلب .

وقال الشاعر :

قطاة عزها شرك فباتت . . .

تجاذبه وقد علق الجناح

﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ، وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ، اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ، وهل آتاك نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقيل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

﴿ وما ينظر ﴾ : أي ينظر ، ﴿ هؤلاء ﴾ : إشارة إلى كفار قريش ، والإشارة بهؤلاء مقوية أن الإشارة بأولئك هي للذين يلونها من قوم نوح وما عطف عليه .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب لاستحضارهم بالذكر ، أو

لأنهم كالحضور عند الله .

انتهى .

وفيه بعد ، وهو إخبار منه تعالى صدقه الوجود .

والصيحة : ما نالهم من قتل وأسر وغلبة ، كما تقول ؛ صاح فيهم الدهر .

وقال قتادة : توعدهم بصيحة القيامة والنفخ في الصور .

وقيل : بصيحة يملكون بها في الدنيا .

فالقول الأول فيه الانتظار من الرسول لشيء معين فيهم ، وعلى هذين القولين بمدرج عقوبة ، وتحت أمر خطر ما ينتظرون فيه إلا الهلكة .

وقرأ الجمهور : ﴿ من فواق ﴾ ، بفتح الفاء ؛ والسلمي ، وابن وثاب ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي ، وطلحة : بضمها ، فقيل : هما بمعنى واحد ، كقصاص الشعر .

وقال ابن زيد ، والسدي : بالفتح ، إفاقة من أفاق واستراح ، كجواب من أجاب .

قال ابن عباس : ﴿ من فواق ﴾ : من ترداد .

وقال مجاهد : من رجوع .

(100/659)

﴿ عجّل لنا قطّنا ﴾ : نصيبنا من الجنة لنتنعم به في الدنيا .

قاله الحسن وقتادة وابن جبير .

وقال أيضاً ، ومجاهد : نصيبنا من العذاب .

وقال أبو العالية والكلبي : صحفنا بإيماننا .

وقال السدي : المعنى : أرنا منازلنا من الجنة حتى نتابعك ، وعلى كل قول ، فإنما قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف والاستهزاء .

ومعنى ﴿ قبل يوم الحساب ﴾ : أي الذين يزعمون أنه واقع في العالم ، إذ هم كفرة لا يؤمنون بالبعث .

ولما كانت مقالتهم تقتضي الاستخفاف ، أمر تعالى نبيه بالصبر على أذاهم ، وذكر قصصاً للأنبياء : داود وسليمان وأيوب وغيرهم ، وما عرض لهم ، فصبروا حتى فرج الله عنهم ، وصارت عاقبتهم أحسن عاقبة .

فكذلك أنت تصبر ، ويؤول أمرك إلى أحسن مآل ، وتبلغ ما تريد من إقامة دينك وإماتة الضلال .

وقيل : ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ ، وعظم أمر مخالفتهم لله في أعينهم ، وذكرهم بقصة داود وما عرض له ، وهو قد أوتي النبوة والملك ، فما الظن بكم مع كفركم وعصيانكم ؟ انتهى .

وهو ملتقط من كلام الزمخشري مع تغيير بعض ألفاظه لا تناسب منصب النبوة .

وقيل : أمر بالصبر ، فذكر قصص الأنبياء ليكون برهاناً على صحة نبوته .

وقيل : ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ ، وحافظ على ما كلفت به من مصابرتهم ، وتحمل أذاهم ، واذكر داود وكرامته على الله ، وما عرض له ، وما لقي من عتب الله .

﴿ ذا الأيد ﴾ : أي ذا القوة في الدين والشرع والصدع بأمر الله والطاعة لله ، وكان من ذلك قوياً في بدنه .

والآوّاب : الرجّاع إلى طاعة الله ، قاله مجاهد وابن زيد .

وقال السدي : المسبح .

ووصفه بأنه أوأب يدل على أن ذا الأيد معناه : القوة في الدين .

ويقال : رجل أيد وأيد وذو أد وأياد : كل بمعنى ما يتقوى .

و ﴿ الإشراق ﴾ : وقت الإشراق .

قال ثعلب : شرقت الشمس ، إذا طلعت ؛ وأشرقت : إذا أضاءت وصفت .

(101/659)

وفي الحديث ، أنه عليه السلام ، صلى صلاة الضحى وقال : " يا أم هانىء ، هذه صلاة الإشراق ، وفي هذين الوقتين كانت صلاة بني إسرائيل " وتقدّم كل الكلام في تسبيح الجبال في قصة داود في سورة الأنبياء ، وأتى بالمضارع باسم الفاعل دلالة على حدوث التسبيح شيئاً بعد شيء ، وحالاً بعد حال ؛ فكأن السامع محاضر تلك الجبال سمعها تسبح .

ومثله قول الأعشى :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة . . .

إلى ضوء نار في بقاع تحرق

أي : تحرق شيئاً فشيئاً .

ولو قال محرقة ، لم يدل على هذا المعنى .

وقرأ الجمهور : ﴿ والطير محشورة ﴾ ، بنصبهما ، عطفاً على الجبال يسبحن ، عطف مفعول على مفعول ، وحال على حال ، كقولك : ضربت هنداً مجردة ، ودعداً لابسة .

وقرأ ابن أبي عبلة ، والجحدري : والطير محشورة ، برفعهما ، مبتدأ وخبر ، أو جاء محشورة باسم المفعول ، لأنه لم يرد أنها تحشر شيئاً ، إذ حاشرها هو الله تعالى ، فحشرها جملة واحدة أدل على القدرة .

والظاهر عود الضمير في له على داود ، أي كل واحد من الجبل والطير لأجل داود ، أي لأجل تسبيحه .

سبح لأنها كانت ترجع تسبيحه ، ووضع الأواب موضع المسبح .

وقيل : الضمير عائد على الله ، أي كل من داود والجبال والطير أواب ، أي مسبح مرجع للتسبيح .

وقرأ الجمهور : ﴿ وشددنا ﴾ ، مخففاً : أي قوينا ، كقوله : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ والحسن ، وابن أبي عبلة : بشد الدال ، وهي عبارة شاملة لما وهبه الله تعالى من قوة وجند ونعمة ، فالتخصيص ببعض الأشياء لا يظهر .

وقال السدي : بالجنود .

قيل : كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مسلم يحرسونه ، وهذا بعيد في العادة ؛ وقيل : بهيبة قذفها الله له في قلوب قومه .

و ﴿ الحكمة ﴾ هنا : النبوة ، أو الزبور ، أو الفهم في الدين ، أو كل كلام ، ولقن الحق أقوال .

﴿ وفصل الخطاب ﴾ ، قال علي والشعبي : إيجاب اليمين على المدعى عليه ، والبينة على المدعي .

(102/659)

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي : القضاء بين الناس بالحق وإصابته وفهمه .

وقال الشعبي : كلمة أما بعد ، لأنه أول من تكلم بها وفصل بين كلامين .

قال الزمخشري : لأنه يفتتح إذا تكلم في الأمر الذي له شأن بذكر الله وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه ، فصل بينه وبين ذكر الله بقوله : أما بعد .

ويجوز أن يراد بالخطاب : القصد الذي ليس له فيه اختصار مخل ، ولا إشباع ممل ؛ ومنه ما جاء في صفة كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فصل لا نذر ولا هذر . انتهى .

ولما كان تعالى قد كمل نفس نبيه داود بالحكمة ، أردفه ببيان كمال خلقه في النطق والعبادة فقال : ﴿ وفصل الخطاب ﴾ .

﴿ وهل أتاك نبؤ الخصم ﴾ : لما أثنى تعالى على داود عليه السلام بما أثنى ، ذكر قصته هذه ، ليعلم أن مثل قصته لا يقدح في الثناء عليه والتعظيم لقدره ، وإن تضمنت استغفاره ربه ، وليس في الاستغفار ما يشعر بارتكاب أمر يستغفر منه ، وما زال الاستغفار شعار الأنبياء المشهود لهم بالعصمة .

ومجيء مثل هذا الاستفهام إنما يكون لغرابة ما يجيء معه من القصص ، كقوله : ﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ فيتهيأ المخاطب بهذا الاستفهام لما يأتي بعده ويصغي لذلك .

وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء ، ضربنا عن ذكرها صفحاً ، وتكلمنا على ألفاظ الآية .

والنبأ : الخبر ، فالخبر أصله مصدر ، فلذلك تصلح للمفرد والمذكر وفروعهما ، وهنا جاء للجمع ، ولذلك قال : ﴿ إذ تسورو ﴾ : إذ دخلوا ، كما قال الشاعر :

وخصم يعدون الدخول كأنهم . . .

قروم غيارى كل أزهر مصعب

والظاهر أنهم كانوا جماعة ، فلذلك أتى بضمير الجمع .

فإن كان المتحاكمان اثنين ، فيكون قد جاء معهم غيرهم على جهة المعاضدة أو المؤانسة ، ولا خلاف أنهم كانوا ملائكة ، كذا قال بعضهم .

وقيل : كانا أخوين من بني إسرائيل لأب وأم ، والأول أشهر .

(103/659)

وقيل : الخصم هنا اثنان ، وتجوز في العبارة فأخبر عنهما أخبار ما زاد على اثنين ، لأن معنى الجمع في التثنية .

وقيل : معنى خصمان : فريقان ، فيكون تسوروا ودخلوا عائداً على الخصم الذي هو جمع الفريقين ، ويدل على أن خصمان بمعنى فريقان قراءة من قرأ : بغى بعضهم على بعض .

وقال تعالى : ﴿ هذا خصمان اختصموا في ربهم ﴾ بمعنى : فأما إن هذا أخي .

وما روي أنه بعث إليه ملكان ، فالمعنى : أن التحاكم كان بين اثنين ، ولا يمتنع أن يصحبهما غيرهما .

وأطلق على الجميع خصم ، وعلى الفريقين خصمان ، لأن من جاء مع متخاصم لمعاضدة فهو في سورة خصم ، ولا يبعد أن تطلق عليه التسمية ، والعامل في الظرف ، وهو إذ أتاك ، قاله الحوفي ورد بأن إتيان النبأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يقع إلا في عهده ، لا في عهد داود .

وقال ابن عطية ، وأبو البقاء : العامل فيه نبأ ورد بما رد به ما قبله أن النبأ الواقع في عهد داود عليه السلام لا يصح إتيانه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وإذا أردت بالنبأ القصة في نفسها ، لم يكن ناصباً .

وقيل : العامل فيه محذوف تقديره : وهل أتاك تخاصم الخصم ؟ قاله الزمخشري .

ويجوز أن ينتصب بالخصم ، لما فيه من معنى الفعل .

وإذ دخلوا بدل من إذ الأولى ؛ وقيل : ينتصب بتسوروا .

وروي أن الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين ، فطلبا أن يدخلا عليه ، فوجداه في يوم عبادته ، فمنعهما ، فتسورا عليه المحراب ، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان .

قال ابن عباس : جزأ زمانه أربعة أجزاء : يوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء ، ويوماً للاشتغال بخواص أموره ، ويوماً لجميع بني إسرائيل ، فيعظهم ويبكيهم .

فجاءوه في غير القضاء ، ففزع منهم لأنهم نزلوا عليه من فوق ، وفي يوم الاحتجاب ، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه ، فخاف أن يؤذوه .

(104/659)

وقيل : كان ذلك ليلاً ، ويحتمل أن يكون فزعه من أجل أن أهل ملكته قد استهانوه حتى ترك بعضهم الاستئذان ، فينكون فزعه على فساد السيرة ، لا من الداخلين .

وقال أبو الأحوص : فزع منهم لأنهما دخلا عليه ، وكل منهما آخذ برأس صاحبه .

وقيل : فزع منهم لما رأى من تسورهم على موضع مرتفع جداً لا يمكن أن يرتقي إليه بعد أشهر مع أعوان وكثرة عدد .

وقيل : إنهما قالا : لم نتوصل إليك إلا بالتسور لمنع الحجاب ، وخفنا تفاقم الأمر بيننا ، فقبل داود عذرهم .

ولما أدركوا منه الفزع قالوا : ﴿ لا تخف ﴾ ، أي لسنا ممن جاء إلا لأجل التحاكم .

﴿ خصمان ﴾ : يحتمل أن يكون هذا موصولاً بقولهما : ﴿ لا تخف ﴾ ، بادر بإخبار ما جاءا إليه .

ويحتمل أن يكون سألهم : ما أمركم ؟ فقالوا : خصمان ، أي نحن خصمان .

﴿ بغى ﴾ : أي جار ، ﴿ بعضنا على بعض ﴾ ، كما قال الشاعر :

ولكن الفتى حمل بن بدر . . .

بغى والبغي مرتعه وخيم

وقرأ أبو يزيد الجراد ، عن الكسائي : خصمان ، بكسر الخاء ؛ وفي أمرهم له ونهيهم ببعض فظاظة على الحكام ، حمل على ذلك ما هم فيه من التخاصم والتشاجر ، واستدعوا عدله من غير ارتياب في أنه يحكم بالعدل .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا تشطط ﴾ ، مفكوكاً من أشط رباعياً ؛ وأبو رجاء ، وابن أبي عبلة ، وقتادة ، والحسن ، وأبو حيوة : تشطط ، من شط ثلاثياً .

وقرأ قتادة أيضاً : تشط ، مدغماً من أشط .

وقرأ زر : تشاطط ، بضم التاء وبالألف على وزن تفاعل ، مفكوكاً .

وعن قتادة أيضاً : تشطط من شطط ، ﴿ سواء الصراط ﴾ : وسط طريق الحق ، لا ميل فيه من هنا ولا هنا .

﴿ إن هذا أخي ﴾ : هو قول المدعي منهما ، وأخي عطف بيان عند ابن عطية ، وبدل أو خبر لأن عند الزمخشري .

والأخوّة هنا مستعارة ، إذ هما ملكان ، لكنهما لما ظهرا في صورة انسانين تكلما بالأخوّة ، ومجازها أنها إخوة في الدين والإيمان ، أو على معنى الصحبة والمرافقة ، أو على معنى الشركة والخلطة لقوله : ﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ﴾ ، وكل واحدة من هذه الأخوات تقتضي منع الاعتداء ، ويندب إلى العدل .

وقرأ الجمهور : ﴿ تسع وتسعون ﴾ ، بكسر التاء فيهما .

وقرأ الحسن ، وزيد بن علي : بفتحها .

وقرأ الجمهور : ﴿ نعجة ﴾ ، بفتح النون ؛ والحسن ، وابن هرمز : بكسر النون ، وهي لغة لبعض بني تميم .

قيل : وكنى بالنعجة عن الزوجة .

﴿ فقال أكفلنيها ﴾ : أي ردها في كفالتي .

وقال ابن كيسان : اجعلها كفلي ، أي نصيبي .

وقال ابن عباس : أعطنيها ؛ وعنه ، وعن ابن مسعود : تحول لي عنها ؛ وعن أبي العالية : ضمها إلي حتى أكفلها .

﴿ وعزني في الخطاب ﴾ ، قال الضحاك : إن تكلم كان أفصح مني ، وإن حارب كان أبطش مني .

وقال ابن عطية : كان أوجه مني وأقوى ، فإذا خاطبته كان كلامه أقوى من كلامي ، وقوته أعظم من قوتي .

وقال الزمخشري : جاءني محجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أرده به .

وأراد بالخطاب : مخاطبة المحاج المجادل ، أو أراد خطيب المرأة ، وخطبها هو فخاطبني خطاباً : أي غالبني في الخطبة ، فغلبني حيث زوجها دوني ؛ وقيل : غلبني بسلطانه ، لأنه لما سأله لم يستطع خلافه .

قال الحافظ أبو بكر بن العربي : كان ببلادنا أمير يقال له سيري بن أبي بكر ، فكلمته في أن يسأل لي رجلاً حاجة ، فقال لي : أما علمت أن طلب السلطان للحاجة غضب لها ؟

فقلت : أما إذا كان عدلاً فلا .

وقرأ أبو حيوة ، وطلحة : وعزني ، بتخفيف الزاي .

قال أبو الفتح : حذف الزاي الواحدة تخفيفاً ، كما قال أبو زبيد :

أحسن به فهز إليه شوس . . .

وروي كذلك عن عاصم .

وقرأ عبيد الله ، وأبو وائل ، ومسروق ، والضحاك ، والحسن ، وعبيد بن عمير : وعازني ، بألف وتشديد الزاي : أي وغالبني .

والظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن ، ولا يكنى بها عن المرأة ، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك لأن ذلك الإخبار كان صادراً من الملائكة ، على سبيل التصوير للمسئلة والفرض لها مرة غير تلبس بشيء منها ، فمثلوا بقصة رجل له نعجة ، ولخليطه تسع وتسعون ، فأراد صاحبه تتمة المائة ، فطمع في نعجة خليطة ، وأراد انتزاعها منه ؛ وحاجة في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ﴾ ، وهذا التصوير والتمثيل أبلغ في المقصود وأدل على المراد .

﴿ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ : ليس هذا ابتداء من داود ، عليه السلام ، إثر فراغ لفظ المدعي ، ولا فتيا بظاهر كلامه قبل ظهور ما يجب ، فقيل ذلك على تقدير ، أي لئن كان ما تقول ، ﴿ لقد ظلمك ﴾ .

وقيل : ثم محذوف ، أي فأقر المدعي عليه فقال : ﴿ لقد ظلمك ﴾ ، ولكنه لم يحك في القرآن اعتراف المدّعي عليه ، لأنه معلوم من الشرائع كلها ، إذ لا يحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدّعى عليه .

فأما ما قاله الحليمي من أنه رأى في المدّعي مخايل الضعف والهضيمة ، فحمل أمره على أنه مظلوم ، كما تقول ، فدعاه ذلك إلى أن لا يسأل المدعى عليه ، فاستعجل بقوله : ﴿ لقد ظلمك ﴾ ، فقوله ضعيف لا يعول عليه .

وروي أن داود ، عليه السلام ، لما سمع كلام الشاكي قال للآخر : ما تقول ؟ فأقر فقال له : لئن لم ترجع إلى الحق لأكسرن الذي فيه عيناك ، وقال للثاني : ﴿ لقد ظلمك ﴾ ؛ فتبسما عند ذلك وذهبا ، ولم يرهما لحينه ، ورأى أنهما ذهبا نحو السماء بمرأى منه .

وأضاف المصدر إلى المفعول ، وضمن السؤال معنى الإضافة ، أي بإضافة نعجتك على سبيل السؤال والطلب ، ولذلك عداه بإلى .

﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض ﴾ : هذا من كلام داود ، ويدل على أن زمانه كان فيه الظلم والاعتداء كثيراً .

والخلطاء : الشركاء الذين خلطوا أموالهم ، الواحد خليط .

(107/659)

قصد داود بهذا الكلام الموعظة الحسنة ، والترغيب في إيثار عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة ، وأن يكره إليهم الظلم ، وأن يسلي المظلوم عن ما جرى عليه من خليطه ، وأن له في أكثر الخلطاء أسوة .

وقرىء : ليبغي ، بفتح الياء على تقدير حذف النون الخفيفة ، وأصله : ليبغين ، كما قال_@_ :

اضرب عنك الهموم طارقها . . .

يريد : اضربن ، ويكون على تقدير قسم محذوف ذلك القسم ، وجوابه خير لأن .

وعلى قراءة الجمهور ، يكون ليبغي خبراً لأن .

وقرىء : ليبغ ، بحذف الياء كقوله :

محمد تفد نفسك كل نفس . . .

_@_ أي : تفدي على أحد القولين .

و﴿ قليل ﴾ : خبره مقدّم ، وما زائدة تفيد معنى التعظيم والتعجب ، وهم مبتدأ .

﴿ وظنّ داود ﴾ : لما كان الظن الغالب يقارب العلم ، استعير له ، ومعناه : وعلم داود وأيقن أنا ابتليناه بمحاكمة الخصمين .

وأنكر ابن عطية مجيء الظن بمعنى اليقين .

وقال : لسنا نجده في كلام العرب ، وإنما هو توقيف بين معتقدين غلب أحدهما على الآخر ، وتوقعه العرب على العلم الذي ليس على الحواس ودلالة اليقين التام ، ولكن يخلط الناس في هذا ويقولون : ظن بمعنى أيقن ، وطول ابن عطية في ذلك بما يوقف عليه في كتابه .

وقرأ الجمهور : ﴿ فتناه ﴾ ؛ وعمر بن الخطاب ، وأبو رجاء ، والحسن : بخلاف عنه ، شد التاء والنون مبالغة ؛ والضحاك : أفتناه ، كقوله :

لئن فتنتني لهي بالأمس أفتنت . . .

وقتادة ، وأبو عمرو في رواية ؛ يخفف التاء والنون ، والألف ضمير الخصمين .

﴿ فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ﴾ ، راكعاً : حال ، والخرور : الهويّ إلى الأرض .

فإما أنه عبر بالركوع عن السجود ، وإما أنه ذكر أول أحوال الخرور ، أي راكعاً ليسجد .

وقال الحسن : لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع .

وقال الحسن بن الفضل : أخر من ركوعه ، أي سجد بعد أن كان راكعاً وقال قوم : يقال خر لمن ركع ، وإن لم ينته إلى الأرض .

(108/659)

والذي يذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس ، دخلوا عليه من غير المدخل ، وفي غير وقت جلوسه للحكم ، وأنه فزع منهم ظاناً أنهم يغتالونه ، إذا كان منفرداً في محرابه لعبادة ربه .

فلما اتضح له أنهم جاءوا في حكومة ، وبرز منهم اثنان للتحاكم ، كما قص الله تعالى ، وأن داود عليه السلام ظن دخولهم عليه في ذلك الوقت ومن تلك الجهة إنقاذ من الله له أن يغتالوه ، فلم يقع ما كان ظنه ، فاستغفر من ذلك الظن ، حيث أخلف ولم يكن يقع مظنونه ، وخر ساجداً ، أو رجع إلى الله تعالى فغفر له ذلك الظن ؛ ولذلك أشار بقوله : ﴿ فغفرنا له ذلك

﴾ ، ولم يتقدّم سوى قوله : ﴿ وظن داود إنما فتناه ﴾ ، ويعلم قطعاً أن الأنبياء ، عليهم السلام ، معصومون من الخطايا ، لا يمكن وقوعهم في شيء منها ضرورة أن لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك ، بطلت الشرائع ، ولم نثق بشيء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم ، فما حكى الله تعالى في كتابه يمر على ما أراده تعالى ، وما حكى القصاص مما فيه غض عن منصب النبوة طرحناه ، ونحن كما قال الشاعر :

ونؤثر حكم العقل في كل شبهة . . .

إذا آثر الآخبار جلاس قصاص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(109/659)

وقال أبو السعود :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الخصم ﴾

(110/659)

استفهامٌ معناه التَّعجيبُ والتَّشويقُ إلى استماع ما في حيّزِه لإيذانه بأنَّه من الأنباء البديعة التي حقُّها أنْ تشيعَ فيما بين كلِّ حاضرٍ وبادٍ . والخَصمُ في الأصل مصدرٌ ولذلك يُطلق على الواحدِ وما فوقه كالضَّيفِ ، ومعنى خصمانِ فريقانِ ﴿ إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ إذا تصعدوا سورَه ونزلُوا إليه . والسُّورُ الحائطُ المرتفعُ ونظيرُه تسنَّمه إذا علا سنامَهُ وتذرَّاهُ إذا علا ذِرْوَتَه . وإذْ متعلِّقةٌ بمحذوفٍ أي نبأ تحاكم الخصم إذْ تسوَّروا أو بالنبأ على أنَّ المرادَ به الواقع في عهد داودَ عليه السَّلامُ وأنَّ إسنادَ الإتيان إليه على حذف مضافٍ أي قصَّةَ نبأ الخصم أو بالخصم لما فيه من معنى الخُصومةِ لا بأتى لأنَّ إتيانَه الرَّسولَ صلى الله عليه وسلم لم يكن حينئذٍ وقوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودَ ﴾ بدلٌ ممَّا قبله أو ظرف لتسوَّروا ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ رُوي أنَّه تعالى بعثَ إليه مَلكين في صورة إنسانينِ قيل : هما جبريلُ وميكائيلُ عليهما السَّلامُ فطلبا أنْ يدخلا عليه فوجداهُ في يوم عبادته فمنعهُما الحَرَسُ فتسوَّروا عليه المحراب بمن معهُما من الملائكةِ فلم يشعرْ إلاَّ وهُما بين يديه جالسانِ ففزِع منهم لأنَّهم نزلُوا عليه من فوق على خلافِ العادةِ والحَرَسُ حوله في غير يوم الحُكومةِ والقضاء . قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما : إنَّ داودَ عليه السَّلامُ جزَّأ زمانَه أربعةَ أجزاءٍ يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للاشتغال بخاصَّةِ نفسه ويوماً للوعظ والتَّذكيرِ . ﴿ قَالُواْ ﴾ استئناق وقع جواباً عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ فزعِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وكأنَّه قيل : فماذا قالتِ الملائكةُ عند مشاهدتِهم لفزعِه ، فقيل قالوا إزالةً لفزعِه ﴿ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ

﴿ أي نحنُ فوجانِ متخاصمانِ على تسمية مصاحب الخصم خَصْماً ﴾ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ ﴾ هو على الفرض وقصد التَّعريضِ فلا كذبَ

(111/659)

فيه ﴿ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ أي لا تجُر في الحُكومةِ وقرىء ولا تشطُطْ أي لا تبعُد عن الحقِّ وقرىء ولا تشطّط ولا تشاطِطْ وكلُّها من معنى الشَّططِ وهو مجاوزةُ الحدِّ وتخطِّي الحقِّ ﴿ واهدنا إلى سَوَاء الصراط ﴾ إلى وسطِ طريقِ الحقِّ بزجر الباغي عمَّا سلكه من طريق الجَوْرِ وإرشاده إلى منهاجِ العدلِ .

(112/659)

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى ﴾ استئنافٌ لبيان ما فيه الخُصومة أي أخي في الدِّينِ أو في الصُّحبةِ ، والتَّعرُّضُ لذلك تمهيدٌ لبيان كمال قبحِ ما فعل به صاحبُه ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِى نَعْجَةٌ واحدة ﴾ هي الأُنثى من الضَّأْنِ وقد يُكنى بها عن المرأةِ والكنايةُ والتَّعريضُ أبلغُ في المقصودِ . وقُرىء تَسعٌ وتَسعونَ بفتحِ التَّاءِ ونِعجة بكسر النُّونِ . وقُرىء وليْ نعجةٌ بسكونِ

الياءِ . ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أي ملِّكْنيها ، وحقيقتُه اجعلِني أكفُلُها كما أكفلُ ما تحتَ يدي ، وقيل : اجعلْها كِفْلي أي نَصيبي . ﴿ وَعَزَّنِى فِى الخطاب ﴾ أي غلبِني في مخاطبتِه إيَّاي محاجَّةً بأنْ جاء بحجاجٍ لم أقدرْ على ردِّه في مغالبته إيَّاي . أو في الخِطبةِ يقال خَطَبتُ المرأةَ وخَطبها هو فخاطبني خِطاباً أي غالبني في الخِطبة فغلبِني حيثُ زوِّجها دُوني . وقُرِئ وعازَّني أي غالبني وعَزَني بتخفيف الزَّاي طلباً للخفَّةِ ، وهو تخفيفٌ غريبٌ كأنَّه قيسَ على ظِلْتُ ومِسْتُ ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ قصد به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ المبالغةَ في إنكار فعل صاحبه وتهجينَ طمعِه في نعجةِ من ليس له غيرُها مع أنَّ له قطيعاً منها ولعلَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال ذلك اعترافِ صاحبِه بما ادَّعاه عليه ، أو بناهُ على تقدير صدقِ المدَّعِي . والسُّؤالُ مصدرٌ مضافٍ إلى مفعولِه ، وتعديتُه إلى مفعولٍ آخرَ بإلى لتضمُّنه معنى الإضافةِ والضمِّ . ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطاء ﴾ أي الشُّركاءِ الذين خلطُوا أموالَهم ﴿ لَيَبْغِى ﴾ ليتعدَّى . وقُرِئ بفتح الياء على تقدير النُّون الخفيفةِ وحذفها وبحذف الياءِ اكتفاءً بالكسرة ﴿ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ غير مراعٍ لحقِّ الصُّحبةِ والشِّركةِ . ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ منهم فإنَّهم يتحامَون عن البغي

والعُدوانِ ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ أي وهم قليلٌ وما مزيدةٌ للإبهام والتَّعجبِ من قلَّتِهم ، والجملةُ اعتراضٌ ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فتناه ﴾ الظنُّ مستعارٌ للعلمِ الاستدلاليِّ لما بينهما من المشابهةِ الظَّاهرةِ أي عَلِمَ بما جرى في مجلس الحُكومةِ . وقيل : لما قَضَى بينهما نظرَ أحدُهما إلى صاحبِه فضحكَ ثم صعدَا إلى السَّماءِ حيال وجهِه فعلم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه تعالى ابتلاهُ . وليس المعنى على تخصيص الفتنةِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دون غيرِه بتوجيهِ القصرِ المُستفادِ من كلمة إنَّما إلى المفعول بالقياس إلى مفعولٍ آخرَ كما هو الاستعمالُ الشَّائعُ الوارد على توجيهِ القصرِ إلى متعلّقات الفعلِ وقيوده باعتبار النَّفي فيه والإثباتِ فيها كما في مثلِ قولِك إنَّما ضربتُ زيداً وإنَّما ضربته تأديباً بل على تخصيص حالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالفتنةِ بتوجيه القصر إلى نفسِ الفعلِ بالقياس إلى ما يُغايره من الأفعالِ لكن لا باعتبار النَّفي والإثبات معاً في خُصوصية الفعل فإنَّه غيرُ ممكنٍ قطعاً بل باعتبار النَّفي فيما فيه من معنى مُطلقِ الفعلِ واعتبار الإثبات فيما يقارنه من المعنى المخصُوص فإنَّ كلَّ فعلٍ من الأفعال المخصُوصة ينحلُّ عند التَّحقيقِ إلى معنى مطلقٍ هو مدلولُ لفظِ الفعلِ وإلى معنى مخصُوص يُقارنه ويقيّده وهو أثرُه في الحقيقةِ فإنَّ معنى نَصَرَ مثلاً فعلَ النَّصرِ يُرشدك إلى ذلك قولُهم معنى فلان يُعطي ويَمنعُ : يفعلُ الإعطاءَ والمنعَ فموردُ القصرِ في الحقيقةِ ما

يتعلَّق بالفعلِ باعتبار النَّفي فيه والإثبات فيما يتعلَّق به ، فالمعنى : وعلَم داودُ عليه السَّلامُ أنَّما فعلنا به الفتنةَ لا غيرَ .

(114/659)

قيل : ابتليناهُ بأمرأةِ أُوريَّا وقيل : امتحناهُ بتلك الحكومةِ هل يتنبه بها لما قُصد منها . وإيثارُ طريقِ التَّميلِ لأنَّه أبلغُ في التَّوبيخِ فإنَّ التَّأملَ فيه إذا أدَّاه إلى الشُّعورِ بما هو الغرضُ كانَ أوقعَ في نفسِه وأعظمَ تأثيراً في قلبِه وأدعى إلى التَّنبه للخطأ مع ما فيه من مراعاةِ حُرمتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتركِ المُجاهرة والإشعار بأنَّه أمرٌ يُستحى من التَّصريحِ به وتصويرِه بصُورة التَّحاكُم لإلجائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى التَّصريحِ بنسبة نفسِه إلى الظُّلم وتنبيهه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على أنَّ أُوريَّا بصددِ الخصامِ .

(115/659)

﴿ فاستغفر ربَّهُ ﴾ إثرَ ما علمَ أنَّ ما صدرَ عنه ذنبٌ ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ أي ساجداً على تسمية السجودِ ركوعاً لأنَّه مبدؤُه أو خرَّ للسُّجودِ راكعاً أي مُصلِّياً كأنَّه أحرم بركعتي

الاستغفارِ ﴿ وَأَنَابَ ﴾ أي رجع إلى الله تعالى بالتَّوبةِ . وأصلُ القصَّة أنَّ داودَ عليه السَّلامُ رأى امرأةَ رجلٍ يقال له أُوريَّا فمال قلبُه إليها فسأله أنْ يطلّقها فاستحيى أنْ يردَّه ففعلَ فتزوَّجها وهي أُمُ سليمانَ عليه السَّلامُ وكان ذلك جائزاً في شريعتِه مُعتاداً فيما بين أمَّتِهِ غيرَ مخلَ بالمروءة حيثُ كان يسأل بعضُهم بعضاً أنْ ينزلَ له عن امرأتِه فيتزوَّجها إذا أعجبته . وقد كان الأنصارُ في صدر الإسلامِ يُواسون المهاجرين بمثلِ ذلك من غيرِ نكيرٍ خلا أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لعظم منزلتِه وارتفاع مرتبتِه وعلوّ شأنه نُبِّه بالتَّمثيل على أنَّه لم يكنْ ينبغي له أنْ يتَعَاطى ما يتعاطاه آحادُ أمَّتِهِ ويسألَ رجلاً ليس له إلاَّ امرأةٌ واحدة أنْ ينزلَ عنها فيتزوَّجها مع كثرة نسائه بل كان يجبُ عليه أنْ يغالبَ هواهُ ويقهرَ نفسَه ويصبرَ على ما امتُحن به . وقيل : لم يكن أوريَّا تزوَّجها بل كان خطَبها ثمَّ خطبها داودُ عليه السَّلامُ فآثر عليه السَّلام أهلها فكان ذنبُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ خطبَ على خِطبةِ أخيه المسلمِ . هذا وأمَّا ما يُذكر من أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دخلَ ذاتَ يومٍ محرابَه وأغلق بابَه وجعل يُصلِّي ويقرأُ الزَّبورَ فبينما هو كذلك إذْ جاءَه الشَّيطانُ في صورةِ حمامةٍ من ذهبٍ فمدَّ يده ليأخذَها لابنٍ صغيرٍ له فطارتْ فامتدَّ إليها فطارتْ فوقعت في كُوَّةٍ فتبعها فأبصر امرأةً جميلةً قد نقضت شعرها فغطَّى بدنها وهي امرأةُ أُوريَّا وهو من غُزاة البلقاءِ فكتب إلى أيُّوبَ بن صُوريا وهو صاحبُ بعثِ البلقاءِ أنِ أبعثْ أُوريَّا وقدِّمه على التَّابوتِ وكان من يتقدَّم على

التَّابوتِ لا يحلُّ له أنْ يرجعَ حتَّى يفتحَ اللهُ علي يديه أو يُستشهدَ ففتح الله تعالى على يدِه وسلَم فأمرَ بردّه مرةً أُخرى وثالثةً حتَّى قُتل وأتاه خبرُ قتلِه فلم يحزنْ كما كان يحزنُ على الشهداء وتزوَّج امرأتَه فإفكٌ مبتَدعٌ مكروهٌ ومكرٌ مخترعٌ بئسما مكروه تمجُّه الأسماعُ وتنفرُ عنه الطِّباعُ ويلٌ لمن ابتدعَه وأشاعَه وتبًّا لمن اخترعه وأذاعَه ، ولذلك قال عليٌّ رضي الله عنه : مَن حدَّثَ بحديثِ داودَ عليه السَّلامُ على ما يرويهِ القُصَّاصُ جلدتُه مائةً وستِّين وذلك حدُّ الفريةِ على الأنبياءِ صلواتُ الله تعالى وسلامُه عليهم .

هذا وقد قيلَ إنَّ قوماً قصُدوا أنْ يقتلُوه عليه الصَّلاة والسَّلام فتسوّروا المحرابَ ودخلوا عليه فوجدُوا عنده أقواماً فتصنَّعوا بهذا التَّحاكمِ فعلم عليه الصَّلاة والسَّلام غرضَهم فهمَّ بأنْ ينتقمَ منهم فظنَّ أنَّ ذلك ابتلاءٌ له من الله عزَّ وجلَّ فاستغفرَ ربَّه ممَّا همَّ به وأنابَ .

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذلك ﴾ أي ما استغفرَ منه . ورُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بقي ساجداً أربعينَ يوماً وليلةً لا يرفعُ رأسَه إلا لصلاةٍ مكتوبةٍ أو لما لا بُدَّ منه ولا يرقأُ دمعُه حتَّى نبتَ منه العشبُ إلى رأسه ولم يشرب ماء إلا ثلثاه دمعٌ وجهد نفسَه راغباً إلى الله تعالى في العفوِ عنه حتَّى كادَ يهلك واشتغل بذلك عن المُلكِ حتَّى وثبَ ابنٌ له يقال له إيشا على ملكِه ودعا إلى

نفسِه فاجتمع إليه أهلُ الزَّيغِ من بني إسرائيلَ فلمَّا غُفر له حاربَه فهزمَه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ لقُربةٍ وكرامة بعد المغفرة ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ حسنَ مرجعٍ في الجنَّةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(117/659)

وقال الآلوسى :

﴿ وَهَلْ ءاتِيكَ نَبَؤُا الخصم ﴾

استفهام يراد منه التعجب والتشويق إلى استماع ما في حيزه لإيذانه بأنه من الأنباء البديعة التي حقها أن تشيع فيما بين كل حاضر وبادي ، والجملة قيل عطف على ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ﴾ [ص : 18] من قبيل عطف القصة ، وقيل : على ﴿ اذكر ﴾ [ص : 17] .

والخصم في الأصل مصدر لخصمه بمعنى خاصمه أو غلبه ويراد منه المخاصم ويستعمل للمفرد والمذكر وفروعهما ؛ وجاء للجمع هنا على ما قال جمع لظاهر ضمائره بعد وربما ثنى وجمع على خصوم واخصام ، وأصل المخاصمة على ما قال الراغب أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر أي بجانبه أو أن يجذب كل واحد خصم الجوالق من جانب .

(118/659)

﴿ إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ أي علوا سوره ونزلوا إليه فتفعل للعلو على أصله نحو تسنم الجمل أي علا سنامه وتذري الجبل علا ذروته ، والسور الجدار المحيط المرتفع ، والمحراب الغرفة وهي العلية ومحراب المسجد مأخوذ منه لانفصاله عما عداه أو لشرفه المنزل منزلة علوه قاله الخفاجي ، وقال الراغب : محراب المسجد قيل : سمي بذلك لأنه موضع محاربة الشيطان والهوى ، وقيل : لكون حق الإنسان فيه أن يكون حريبا من أشغال الدنيا ومن توزع الخاطر ، وقيل : الأصل فيه أن محراب البيت صدر المجلس ثم لما اتخذت المساجد سمي صدره به ، وقيل : بل المحراب أصله في المجد وهو اسم خص به صدر المجلس فسمي صدر البيت محراباً تشبيهاً بمحراب المسجد وكأن هذا أصح انتهى ، وصرح الجلال السيوطي أن المحاريب التي في المساجد بهيئتها المعروفة اليوم لم تكن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وله رسالة في تحقيق ذلك ، وإذ متعلقة بمحذوف مضاف إلى الخصم أي نبأ تخاكم الخصم إذ تسوروا أو بنبأ على أن المراد به الواقع في عهد داود عليه السلام ، وإسناد الإتيان إليه على حذف مضاف أي قصة نبأ الخصم ، وجوز تعلقها به بلا حذف على جعل إسناد الإتيان إليه مجازياً أو بالخصم وهو في الأصل مصدر والظرف قنوع يكفيه رائحة الفعل ، وزعم الحوفي تعلقها بأتى ولا يكاد يصح لأن اتيان نبأ الخصم لم يكن وقت تسورهم المحراب .

(119/659)

﴿ إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودُ ﴾ إذ هذه بدل من ﴿ إذ ﴾ [ص : 21] الأولى بدل كل من كل بأن يجعل زمان التسور وزمان الدخول لقربهما بمنزلة المتحدين أو بدل اشتمال بأن يعتبر الامتداد أو ظرف لتسوروا ويعتبر امتداد وقته وإلا فالتسور ليس في وقت الدخول ، ويجوز أن يراد بادخول إرادته وفيه تكلف لأنه مع كونه مجازاً لا يتفرع عليه قوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ فيحتاج إلى تفريعه على التسور وهو أيضاً كما ترى ، وجوز تعلقه باذكر مقدراً ، والفزع انقباض ونفار يعترى الإنسان من الشيء المخيف .

(120/659)

روي أن الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة انسانين قبل هما جبريل وميكائيل عليهما السلام فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسورا عليه المحراب فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان ، وكان عليه السلام كما روي عن ابن عباس جزأ زمانه أربعة أجزاء يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للاشتغال بخاصة نفسه ويوماً لجميع بني

إسرائيل فيعظهم ويبكيهم ، وسبب الفزع قيل : إنهم نزلوا من فوق الحائط وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتركون من يريد الدخول عليه فخاف عليه السلام أن يؤذوه لا سيما على ما حكى أنه كان ليلاً ، وقيل : إن الفزع من أجل أنه ظن أن أهل مملكته قد استهانوه حتى ترك بعضهم الاستئذان فيكون في الحقيقة فزعاً من فساده السيرة لا من الداخلين ، وقال أبو الأحوص : فزع منهم لأنهما دخلا عليه وكل منهما آخذ برأس صاحبه ، وقيل : فزع منهم لما رأى من تسورهم موضعاً مرتفعاً جداً لا يمكن أن يرتقي إليه بعد أشهر مع أعوان وكثرة عدد ، والظاهر أن فزعه ليس إلا لتوقع الأذى لمخالفة المعتاد فلما رأوه قد فزع ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ وهو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية فزعه عليه السلام كأنه قيل : فماذا قالوا عند مشاهدتهم فزعه ؟ فقيل : قالوا له إزالة لفزعه لا تخف ﴿ خَصْمَانِ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أن نحن خصمان ، والمراد هنا فوجان لا شخصان متخاصمان وقد تقدم أن الخصم يشمل الكثير فيطابق ما مر من جمع الضمائر ، ويؤيده على ما قيل قوله سبحانه : ﴿ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ ﴾ فإن نحو هذا أكثر فيطابق استعمالاً في قول الجماعة ، وقراءة بعضهم ﴿ بغى بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ أظهر في التأييد ، ولا يمنع ذلك كون التحاكم إنما وقع بين اثنين لجواز أن يصحب كلاً منهما من يعاضده والعرف يطلق الخصم على المخاصم ومعاضده وإن لم يخاصم بالفعل ، وجوز أن يكون المراد اثنين والضمائر المجموعة مراد بها التثنية فيتوافقان وأيد بقوله

سبحانه ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى ﴾ [ص : 23] وقيل : يجوز أن يقدر خصمان مبتدأ خبره محذوف أي فينا خصمان وهو كما ترى ، والظاهر أن جملة ﴿ بَغِىَ ﴾ الخ في موضع الصفة لخصمان وأن جملة نحن خصمان الخ استئناف في موضع التعليل للنهي فهي موصولة بلا تخف ، وجوز أن يكونوا قد قالوا لا تخف وسكتوا حتى سألوا ما أمركم ؟ فقالوا : خصمان بغي الخ أي جار بعضنا على بعض ، واستشكل قولهم هذا على القول بأنهم كانوا ملائكة بأنه إخبار عن أنفسهم بما لم يقع منهم وهو كذب والملائكة منزهون عنه .

وأجيب بأنه إنما يكون كذباً لو كانوا قصدوا به الأخبار حقيقة أما لو كان فرضا لأمر صوروه في أنفسهم لما أتوا على صورة البشر كما يذكر العالم إذا صور مسألة لأحد أو كان كناية وتعريضاً بما وقع من داود عليه السلام فلا ، وقرأ أبو يزيد الجرار عن الكسائي ﴿ خَصْمَانِ ﴾ بكسر الخاء .

﴿ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ أي ولا تتجاوزه ، وقرأ أبو رجاء .

وابن أبي عبلة وقتادة .

والحسن .

وأبو حيوة ﴿ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ من شط ثلاثيا أي ولا تبعد عن الحق ، وقرأ قتادة أيضاً ﴿ تشط ﴾ مدغما من أشط رباعيا ، وقرأ زر ﴿ تشاطط ﴾ بضم التاء وبألف على وزن تفاعل مفكوكاً ، وعنه أيضاً ﴿ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ من شطط ، والمراد في الجميع لا تجر في الحكومة وأرادوا بهذا الأمر والنهي إظهار الحرص على ظهور الحق والرضا به من غير ارتياب بأنه عليه السلام يحكم بالحق ولا يجوز في الحكم وأحد الخصمين قد يقول نحو ذلك للإيماء إلى أنه المحق وقد يقوله اتهاماً للحاكم وفيه حينئذ من الفظاظة ما فيه ؛ وعلى ما ذكرنا أولاً فيه بعض فظاظة ، وفي تحمل داود عليه السلام لذلك منهم دلالة على أنه يليق بالحاكم تحمل نحو ذلك من المتخاصمين لا سيما إذا كان ممن معه الحق فحال المرء وقت التخاصم لا يخفى .

(122/659)

والعجب من حاكم أو محكم أو من للخصوم نوع رجوع إليه كالمفتي كيف لا يقتدي بهذا النبي الأواب عليه الصلاة والسلام في ذلك بل يغضب كل الغضب لأدنى كلمة تصدر ولو فلتة من أحد الخصمين يتوهم منها الحط لقدره ولو فكر في نفسه لعلم أنه بالنسبة إلى هذا النبي الأواب لا يعدل والله العظيم متك ذباب ، اللهم وفقنا لأحسن الاخلاق واعصمنا من

الاغلاط ﴿ واهدنا إلى سَوَاء الصراط ﴾ أي وسط طريق الحق بزجر الباغي عما سلكه من طريق الجور وإرشاده إلى منهاج العدل .

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى ﴾ الخ استئناف لبيان ما فيه الخصومة ، والمراد بالاخوة أخوة الدين أو اخوة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطاء ﴾ [ص : 24] وكل واحد من هذه الأخوات يدلي بحق مانع من الاعتداء والظلم ، وقيل : هي أخوة في النسب وكان المتحاكمان أخوين من بني إسرائيل لأن وام ، ولا يخفى أن المشهور أنهما كانا من الملائكة بل قيل لا خلاف في ذلك .

و﴿ أَخِى ﴾ بيان عند ابن عطية وبدل أو خبر لأن عند الزمخشري ، ولعل المقصود بالإفادة على الثاني قوله تعالى : ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِى نَعْجَةٌ واحدة ﴾ وهي الأنثى من بقر الوحش ومن الضأن والشاء والجبلي وتستعار للمرأة كالشاة كثيراً نحو قول ابن عون

: أنا أبوهن ثلاث هنه . . .

رابعة في البيت صغراً هنه ونعجتي خمساً توفيهنه

ألا فتى سحج يغذيهنه . . .

وقول عنترة :

يا شاة ما قنص لمن حلت له . . .

حرمت على وليتها لم تحرم

وقول الأعشى

: فرميت غفلة عينه عن شاته . . .

فاصبت حبة قلبها وطحالها

والظاهر إبقاؤها على حقيقتها هنا ويراد بها أنثى الضان ، وجوز إرادة الامرأة ، وسيأتي إن شاء تعالى ما يتعلق بذلك ، وقرأ الحسن .

وزيد بن علي ﴿ تِسْعٌ وَتَسْعُونَ ﴾ بفتح التاء فيهما ، وكثر مجيء الفعل والفعل بمعنى واحد نحو السكر والسكر ولا يبعد ذلك في التسع لا سيما وقد جاور العشر ، والحسن .

(123/659)

وابن هرمز ﴿ ونعجة ﴾ بكسر النون وهي لغة لبعض بني تميم ، وقرأ ابن مسعود ﴿ وَلِى نَعْجَةٌ أُنثى ﴾ ووجه ذلك الزمخشري بأنه يقال امرأة أنثى للحسناء الجميلة والمعنى وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتثنيها ألا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال ، وقوله

: فتور القيام قطيع الكلام . . .

لغوب العشاء إذا لم تنم

وقول قيس بن الخطيم

: تنام عن كبر شأنها فإذا . . .

قامت رويداً تكاد تنغرف

وفي الكلام عليه توفية حق القسمين أعني ما يرجع إلى الظالم وما يرجع إلى المظلوم كأنه قيل : إنه مع وفور استغنائه وشدة حاجتي ظلمني حقي ، وهذا ظاهر إذا كانت النعجة مستعارة وإلا فالمناسب تأكيد الأنوثة بأنها كاملة فيها فيكون أدر وأحلب لما يطلب منها على أن فيه رمزاً إلى ما وري عنه ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ ملكنيها ، وحقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي ، وقال ابن كيسان : اجعلها كفلى أي نصيبي ، وعن ابن عباس .

وابن مسعود تحول لي عنها وهو بيان للمراد وألصق بوجه الاستعارة ﴿ وَعَزَّنِى ﴾ أي غلبني ، وفي المثل من عَزَّ بَزَّ أي من غلب سلب وقال الشاعر

: قطاة عزها شرك فباتت . . .

تجاذبه وقد علق الجناح

﴿ فِى الخطاب ﴾ أي مخاطبته إياي محاجة بأن جاء بحجاج لم أطق رده ، وقال الضحاك : أي إن تكلم كان أفصح مني وإن حارب كان أبطش مني ، وقال ابن عطية : كان أوجه مني وأقوى فإذا خاطبته كان كلامه أقوى من كلامي وقوته أعظم من قوتي ، وقيل : أي غلبني في مغالبته إياي في الخطبة على أن الخطاب من خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطاباً أي غالبني في الخطبة فغلبني حيث زوجها دوني ، وهو قول من يجعل النعجة مستعارة ، وتعقبه صاحب الكشف فقال : حمل الخطاب على المغالبة في خطبة النساء لا يلائم فصاحة التنزيل لأن التمثيل قاصر عنه لنبو قوله : ﴿ وَلِى نَعْجَةٌ ﴾ عن ذلك أشد النبوة وكذا قوله : ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ إذ ينبغي على ذلك أن يخاطب به ولي المخطوبة إلا أن يجعل الأول مجازاً عما يؤول إليه الحال ظناً والشرط في حسنه تحقق الانتهاء كما في ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ [يوسف : 36] والثاني مجاز عن تركه الخطبة ، ولا يخفى ما فيهما من التعقيد ، ثم إنه لتصريحه ينافي الغرض من التمثيل وهو التنبيه على عظم ما كان منه عليه السلام وأنه أمر يستحي من كشفه مع الستر عليه والاحتفاظ بحرمته انتهى فتأمل .

وقرأ أبو حيوة .

وطلحة ﴿ وَعَزَّنِى ﴾ بتخفيف الزاي ، قال أبو الفتح : حذفت إحدى الزائين تخفيفاً كما حذفت إحدى السينين في قول أبي زيد :

أحسن به فهن إليه شوس . . .

وروي كذلك عن عاصم .

وقرأ عبد الله .

وأبو وائل .

ومسروق .

والضحاك .

والحسن .

وعبيد بن عمير ﴿ وعازني ﴾ بألف بعد العين وتشديد الزاي أي وغالبني .

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾

(125/659)

جواب قسم محذوف قصد به المبالغة في إنكار فعل ذي النعجات الكثيرة وتهجين طمعه ، وليس هذا ابتداء من داود عليه السلام إثر فراغ المدعى من كلامه ولا فتيا بظاهر كلامه قبل ظهور الحال لديه فقيل : ذلك على تقدير ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ إن كان ما تقول حقا ؛ وقيل ثم كلام محذوف أي فاقر المدعى عليه فقال ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ الخ ولم يحك في القرآن اعتراف المدعى عليه لأنه معلوم من الشرائع كلها انه لا يحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدعى

عليه ، وجاء في رواية أنه عليه السلام لما سمع كلام الشاكي قال للآخر ما تقول فاقر فقال له : لترجعن إلى الحق أو لأكسرن الذي فيه عيناك ، وقال للثاني : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ الخ فتبسما عند ذلك وذهبا ولم يرهما لحينه ، وقيل : ذهبا نحو السماء بمرأى منه ، وقال الحليمي : إنه عليه السلام رأى في المدعى مخايل الضعف والهضيمة فحمل أمره على أنه مظلوم كما يقول فدعاه ذلك إلى أن لا يسأل المدعي عليه فاستعجل بقوله : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ ولا يخفى أنه قول ضعيف لا يعول عليه لأن مخايل الصدق كثيراً ما تظهر على الكاذب والحيلة أكثر من أن تحصى قديماً وحديثاً ؛ وفيما وقع من إخوة يوسف عليه السلام ولم يكونوا أنبياء على الأصح ما يزيل الاعتماد في هذا الباب ، وبعض الجهلة ذهب إلى نحو هذا ، وزعم أن ذنب داود عليه السلام ما كان إلا أنه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسألته ، والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة كأنه قيل : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ بإضافة نعجتك إلى نعاجه على وجه السؤال والطلب أو لقد ظلمك بسؤال نعجتك مضافة إلى نعاجه ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطاء ﴾ أي الشركاء الذي خلطوا أموالهم الواحد خليط وهي الخلطة وقد غلبت في الماشية وفي حكمها عند الفقهاء كلام ذكر بعضاً منه الزمخشري ﴿ لَيَبْغِى ﴾ ليتعدى ﴿ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ غير مراع حق الشركة والصحبة .

إلاَّ الَّذينَ ءَامَنُوا وَعَملُوا الصالحات ﴾ منهم فانهم يتحامون عن البغي والعدوان ﴿ ﴾ منهم فانهم يتحامون عن البغي والعدوان ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ أي وهو قليل جداً فقليل خبر مقدم و﴿ هُمْ ﴾ مبتدأ وما زائدة ، وقد جاءت المبالغة في القلة من التنكير وزيادة ما الإبهامية ويتضمن ذلك التعجب فإن الشيء إذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب منه فكأنه قيل : ما أقلهم ، والجملة اعتراض تذييلي ، وقرىء ﴿ لَيَبْغِى ﴾ بفتح الياء على تقدير حذف النون الخفيفة وأصله ليبغين كما قال طرفة بن العبد :

اضرب عنك الهموم طارقها . . .

ضربك بالسيف قونس الفرس

يريد اضربن ، ويكون على تقدير قسم محذوف وذلك القسم وجوابه خبر لأن ، وعلى قراءة الجمهور اللام هي الواقعة في خبر ان وجملة ﴿ يبغي ﴾ الخ هو الخبر ، وقرىء ﴿ ليبغ ﴾ بحذف الياء للتخفيف كما في قوله تعالى : ﴿ والليلِ إذَا يَسْرِ ﴾ [الفجر : 4] وقوله :

محمد تفد نفسك كل نفس . . .

إذا ما خفت من أمر تبالا

والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مّنَ الخلطاء ﴾ الخ من كلام داود عليه السلام تتمة لما ذكره أولاً وقد نظر فيه ما كان عليه التداعي كما هو ظاهر التعبير بالخلطاء فإنه غالب في

الشركاء الذين خلطوا أموالهم في الماشية وجعل على وجه استعارة النعجة ابتداء تمثيل لم ينظر فيه إلى ما كان عليه التداعي كأنه قيل : وان البغي أمر يوجد فيما بين المتلابسين وخص الخلطاء لكثرته فيما بينهم فلا عجب مما شجر بينكم وترتب عليه قصد الموعظة الحسنة والترغيب في إيثار عادة الخلطاء الذين حكم لهم بالقلة وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه من خليطة وأن له في أكثر الخلطاء أسوة أو كأنه قيل : إن هذا الأمر الذي جرى بينكما أيها الخليطان كثيراً ما يجرى بين الخلطاء فينظر فيه إلى خصوص حالهما ، قال في الكشف : والمحمل الأظهر هذا .

(127/659)

وعلى التقديرين هو تذييل يترتب عليه ما ذكر .

ثم قال : ولعل الأظهر حمل الخلطاء على ما التعارفين والمتضادين واضرابهم ممن بينهم ملابسة شديدة وامتزاج على نحو :

إن الخليط أجدوا البين فانجردوا . . .

والغلبة في الشركاء الذي خلطوا أموالهم في عرف الفقهاء فذكر الخلطاء لا ينافي ذكر الحلائل إذا لم ترد الخلطة اه .

(128/659)

وأنت خبير بأن ذلك وإن لم يناف ذكر الحلائل لكن أولوية عدم إرادة الحلائل وإبقاء النعجة على معناها الحقيقي مما لا ينبغي أن ينتطح فيه كبشان ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فتناه ﴾ الظن مستعار للعلم الاستدلالي لما بينهما من المشابهة الظاهرة ، وفي البحر لما كان الظن الغالب يقارب العلم استعير له ، فالمعنى وعلم داود وأيقن بما جرى في مجلس الحكومة أن الله تعالى ابتلاه ، وقيل لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ثم صعدا إلى السماء حيال وجهه فعلم بذلك أنه تعالى ابتلاه ، وجوز إبقاء الظن على حقيقته ، وأنكر ابن عطية مجيء الظن بعد العلم اليقيني وقال : لسنا نجده في كلام العرب وإنما هو توقيف بين معتقدين غلب أحدهما على الآخر وتوقعه العرب على العلم الذي ليس بواسطة الحواس فإنه اليقين التام ولكن يخلط الناس في هذا ويقولون : ظن بمعنى أيقن إلى آخر ما أطال ، ويفهم منه أن إطلاق الظن على العلم الاستدلالي حقيقة والمشهور أنه مجاز ، وظاهر ما بعد أنه هنا بمعنى العلم و﴿ إِنَّمَا ﴾ المفتوحة على ما حقق بعض الأجلة لا تدل على الحصر

كالمكسورة ، ومن قال بإفادتها إياه حملاً على المكسورة كالزمخشري لم يدع الأطرد فليس المقصود ههنا قصر الفتة عليه عليه السلام لأنه يقتضي انفصال الضمر ، ولا قصر ما فعل به على الفعل لأن كل فعل ينحل إلى عام وخاص فمعنى ضربته فعلت ضربه على أن المعنى ما فعلنا به إلا الفتنة كما قال أبو السعود لأنه على ما قيل تعسف وإلغاز ، ومن يدعي الأطراد يلتزم الثاني من القصرين المنفيين ويمنع كون ما ذكر تعسفاً وإلغازاً .

وقرأ عمر بن الخطاب .

وأبو رجاء .

والحسن بخلاف عنه ﴿ فتناه ﴾ بتشديد التاء والنون مبالغة ، والضحاك ﴿ افتناه ﴾ كقوله على ما نقله الجوهري عن أبي عبيدة :

لئن فتنتني لهي بالأمس افتنت . . .

سعيداً فأمسى قد غوى كل مسلم

وقتادة .

(129/659)

وأبو عمرو في رواية ﴿ دَاوُودُ أَنَّمَا فتناه ﴾ بضمير التثنية وهو راجع إلى الخصمين ﴿ فاستغفر رَبَّهُ ﴾ إثر ما علم أن ما صدر عنه ذنب ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ أي ساجداً على أن الركوع مجاز عن الجسود لأنه لا فضائه إليه جعل كالسبب ثم تجوز به عنه أو هو استعارة لمشابهته له في الانحناء والخضوع والعرب تقول نخلة راكعة ونخلة ساجدة ، وقال الشاعر :

فخر على وجهه راكعا . . .

وتاب إلى الله من كل ذنب

وقيل أي خر للسجود راكعاً أي مصلياً على أن الركوع بمعنى الصلاة لاشتهار التجوز به عنها ، وتقدير متعلق لخر يدل عليه غلبة فحواه لأنه بمعنى سقط على الأرض كما في قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : 26] .

وقال الحسين بن الفضل : أي خر من ركوعه أي سجد بعد إن كان راكعاً ، وظاهره إبقاء الركوع على حقيقته وجعل خر بمعني سجد .

والجمهور على ما قدمنا ، واستشهد به أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه وأصحابه على أن الركوع يقوم مقام السجود في سجدة التلاوة وهو قول الخطابي من الشافعية ولا فرق في ذلك بين الصلاة وخارجها كما في البزازية وغيرها .

وفي الكشف قالوا أي الحنفية : إن القياس يقتضي أن يقوم الركوع مقام السجود لأن الشارع جعله ركوعاً وتجوز بأحدهما عن الآخر لقيامه مقامه وإغنائه غناءه .

وأيدوه بأن السجود لم يؤمر به لعينه ولهذا لم يشرع قربة مقصودة بل للخضوع وهو حاصل بالركوع ﴿ فَإِن قُلْتَ ﴾ : إن سجدة داود عليه السلام كانت سجدة شكر والكلام في سجدة التلاوة قلت : لا علي في ذلك لأني لم أستدل بفعل داود عليه السلام بل بجعل الشارع إياه مغنياً غناء السجود ، ولأصحابنا يعني الشافعية أن يمنعوا أن علاقة المجاز ما ذكروه بل مطلق الميل عن الخضوع المشترك بينهما أو لأنه مقدمته كما قال الحسن : لا يكون ساجداً حتى يركع أو خر مصلياً والمعتبر غاية الخضوع وليست في الركوع اه .

(130/659)

ولا يخفى أن المعروف من النبي صلى الله عليه وسلم السجود ولم نقف في خبر على أنه عليه الصلاة والسلام ركع للتلاوة بدله ولو مرة وكذا أصحابه رضي الله تعالى عنهم ، وليس أمر القياس المذكور بالقوى فالأحوط فعل الوارد لا غير بل قال بعض الشافعية : إن قول الأصحاب لا يقوم الركوع مقام السجدة ظاهر في جواز الركوع وهو بعيد والقياس حرمته ، وعني صاحب الكشف بما ذكر في السؤال من أن سجدة داود عليه السلام كانت سجدة شكر أنها كانت كذلك من نبينا صلى الله عليه وسلم فقد أخرج النسائي .

(131/659)

وابن مردويه بسند جيد عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في ﴿ ص ﴾ وقال : سجدها داود توبة ونسجدها شكراً أي على قبول توبة داود عليه السلام من خلاف الأولى بعلى شأنه وقد لقي عليه السلام على ذلك من القلق المزعج ما لم يلقه غيره كما ستعلمه إن شاء الله تعالى ، وآدم عليه السلام وإن لقي أمراً عظيماً أيضاً لكنه كان مشوباً بالحزن على فراق الجنة فجوزى لذلك بأمر هذه الأمة بمعرفة قدره وانه أنعم عليه نعمة تستوجب دوام الشكر إلى قيام الساعة ، ولقصته على ما في بعض الروايات شبه لما وقع لنبينا صلى الله عليه وسلم في قصة زينب المقتضى للعتب عليه بقوله تعالى : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ﴾ [الأحزاب : 37] الآية فيكون ذكرها مذكراً له عليه لصلاة والسلام ما وقع وما آل الأمر إليه مما هو أرفع وأجل فكأن ذلك اقتضى دوام الشكر بإظهار السجود له ، ولعل ذلك وجه تخصيص داود بذلك مع وقوع نظيره لغيره من الأنبياء عليهم السلام فتأمله ، ولا تغفل عن كون السورة مكية على الصحيح وقصة زينب رضي الله تعالى عنها مدنية ، وينحل الإشكال بالتزام كون السجود بعد القصة فلينقر ، وهي عند الحنفية إحدى سجدات التلاوة الواجبة كما ذكر في الكتب الفقهية ، ومن فسر ﴿ خَرَّ رَاكِعاً ﴾ بخر للسجود مصلياً ذهب إلى أن ما وقع من داود عليه السلام صلاة مشتملة على الجسود وكانت للاستغفار وقد جاء في شريعتنا مشروعية صلاة ركعتين عند التوبة لكن لم نقف في

خبر على ما يشعر بحمل ما هنا على صلاة دواد عليه السلام لذلك وإنما وقفنا على أنه سجد ﴿ وَأَنَابَ ﴾ أي رجع إلى الله تعالى بالتوبة .

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذلك ﴾ أي ما استغفرنا منه .

أخرج أحمد .

(132/659)

وعبد بن حميد عن يونس بن حبان أن داود عليه السلام بكى أربعين ليلة حتى نبت العشب حوله من دموعه ثم قال : يا رب قرح الجبين ورقأ الدمع وخطيئتي على كما هي فنودي يا داود أجائع فتطعم ؟ أم طمآن فتسقي ؟ أم مظلوم فينتصر لك ؟ فنحب نحبة هاج ما هنالك من الخضرة فغفر له عند ذلك ، وفي رواية عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن مجاهد أنه خر ساجداً أربعين ليلة حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه ثم قال الخ ، وروي أنه لم يشرب ماء إلا وثلثاه من دمعه وجهد نفسه راغباً إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه فاجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسرائيل فلما غفر لهحاربه فهزمه .

وأخرج أحمد عن ثابت أنه عليه السلام اتخذ سبع حشايا وحشاهن من الرماد حتى

أنفذها دموعاً ولم يشرب شراباً إلا مزجه بدمع عينيه ، وأخرج عن وهب أنه اعتزل النساء وبكى حتى رعش وخددت الدموع في وجهه ، ولم ينقطع خوفه عليه السلام وقلقه بعد المغفرة ، فقد أخرج أحمد .

والحكيم الترمذي .

وابن جرير عن عطاء الخراساني أن داود نقش خطيئته في كفه لكي لا ينساها وكان إذا رآها اضطربت يداه .

وأخرج أحمد .

وغيره عن ثابت عن صفوان .

وعبد بن حميد من طريق عطاء بن السائب عن أبي عبد الله الجدلي ما رفع داود رأسه إلى السماء بعد الخطيئة حتى مات ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ قربة بعد المغفرة .

﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ وحسن مرجع في الجنة ، وأخرج عبد بن حميد عن عبيد بن عمير أنه قال في الآية : يدنو من ربه سبحانه حتى سضع يده عليه ، وهو إن صح من المتشابه .

وأخرج أحمد في الزهد .

والحكيم الترمذي .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار أنه قال فيها : يقام داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ثم يقول الرب عز وجل : يا داود مجدني بذلك الصوت الحسن الخرمي الذي كنت تمجدني به في الدنيا فيقول : يا رب كيف وقد سلبته ؟ فيقول : إني راده عليك اليوم فيندفع بصوت يستغرق نعيم أهل الجنة .

هذا واختلف في أصل قصته التي ترتب عليها ما ترتب فقيل إنه عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له أوريا من مؤمني قومه وفي بعض الآثار أنه وزيره فمال قلبه إليها فسأله أن يطلقها فاستحى أن يرده ففعل فتزوجها وهي أم سليمان وكان ذلك جائزاً في شريعته معتاداً فيما بين أمته غير مخل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته ، وقد كان الرجل من الأنصار في صدر الإسلام بعد الهجرة إذا كانت له زوجتان نزل عن إحداهما لمن اتخذه أخاً له من المهاجرين لكنه عليه السلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته وعلو شأنه نبه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغي له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد أمته ويسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة أن ينزل عنها فيتزوجها مع كثرة نسائه بل كان يجب عليه أن يغالب ميله الطبيعي ويقهر نفسه ويصبر على ما امتحن به ، وقيل إنه أضمر في نفسه إن قتل أوريا تزوج بها وإليه مال ابن حجر في تحفته .

وقيل لم يكن أوريا تزوجها بل كان خطبها ثم خطبها هو فآثره عليه السلام أهلها فكان ذنبه

أن خطب على خطبة أخيه المؤمن ، وفي بعض الآثار أنه فعل ذلك ولم يكن عالماً بخطبة أخيه فعوتب على ترك السؤال هل خطبها أحد أم لا ؟ وقيل إنه كان في شريعته أن الرجل إذا مات وخلف امرأة فأولياؤه أحق بها إلا أن يرغبوا عن التزوج بها فلما قتل أوريا خطب امرأته ظاناً أن أولياءه رغبوا عنها فلما سمعوا منعتهم هيبته وجلالته أن يخطبوها .

(134/659)

وقيل أنه كان في عبادة فأتاه رجل وامرأة متحاكمين إليه فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها وهو نظر مباح فمالت نفسه ميلاً طبيعياً إليها فشغل عن بعض نوافله فعوتب لذلك ، وقيل إنه لم يتثبت في الحكم وظلم المدعى عليه قبل سؤاله لما ناله من الفزع وكانت الخصومة بين المتخاصمين وكانا من الإنس على الحقيقة إما على ظاهر ما قص أو على جعل النعجة فيه كناية عن المرأة ، ونقل هذا عن أبي مسلم ، والمقبول من هذه الأقوال ما بعد من الإخلال بمنصب النبوة ، وللقصاص كلام مشهور لا يكاد يصح لما فيه من مزيد الإخلال بمنصبه عليه السلام .

(135/659)

ولذا قال علي كرم الله تعالى وجهه على ما في بعض الكتب : من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وذلك حد الفرية على الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين ، وهذا اجتهاد منه كرم الله تعالى وجهه ، ووجه مضاعفة الحد على حد الأحرار أنهم عليهم السلام سادة السادة وهو وجه مستحسن إلا أن الزين العراقي ذكر أن الخبر نفسه لم يصح عن الأمير كرم الله تعالى وجهه ، وقال أبو حيان : الذي نذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم وأنه فزع منهم ظاناً أنهم يغتالونه إذ كان منفرداً في محرابه لعبادة ربه عز وجل فلما اتضح له أنهم جاؤا في حكومة وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قص الله تعالى وأن داود عليه السلام ظن دخولهم عليه في ذلك الوقت ومن تلك الجهة ابتلاء من الله تعالى له أن يغتالوه فلم يقع ما كان ظنه فاستغفر من ذلك الظن حيث أخلف ولم يكن ليقع مظنونه وخر ساجداً ورجع إلى الله تعالى وأنه سبحانه غفر له ذلك الظن فإنه عز وجل قال : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذلك ﴾ ولم يتقدم سوى قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فتناه ﴾ [ص : 42] ونعلم قطعاً أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم في شيء منها ضرورة إنا لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك بطلت الشرائع ولم يوثق بشيء مما يذكرون أنه وحي من الله تعالى فما حكى الله تعالى في كتابه يمر على ما أراده

الله تعالى وما حكى القصاص مما فيه نقص لمنصب الرسالة طرحناه ، ونحن كما قال الشاعر

: ونؤثر حكم العقل في كل شبهة . . .

إذا آثر الأخبار جلاس قصاص

(136/659)

انتهى ؛ ويقرب من هذا من وجه ما قيل إن قوماً قصدوا أن يقتلوه عليه السلام فتسوروا المحراب فوجدوا عنده أقواماً فتصنعوا بما قص الله تعالى من التحاكم فعلم غرضهم فقصد أن ينتقم منهم فظن أن ذلك ابتلاء من الله تعالى وامتحان له هل يغضب لنفسه أم لا فاستغفر ربه مما عزم عليه من الانتقام منهم وتأديبهم لحق نفسه لعدوله عن العفو الأليق به ، وقيل : الاستغفار كان لمن هجم عليه وقوله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ﴾ على معنى فغفرنا لأجله ، وهذا تعسف وإن وقع في بعض كتب الكلام ، وعندي أن ترك الأخبار بالكلية في القصة مما لا يكاد يقبله المنصف ، نعم لا يقبل منها ما فيه إخلال بمنصب النبوة ولا يقبل تأويلاً يندفع معه ذلك ولا بد من القول بأنه لم يكن منه عليه السلام إلا ترك ما هو الأولى بعلى

شأنه والاستغفار منه وهو لا يخل بالعصمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(137/659)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) ﴾

لما ذكر سبحانه أحوال الكفار المعاصرين لرسول الله ذكر أمثالهم ممن تقدّمهم ، وعمل عملهم من الكفر والتكذيب ، فقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأوتاد ﴾ قال المفسرون : كانت له أوتاد يعذب بها الناس ، وذلك أنه كان إذا غضب على أحد ، وتد يديه ، ورجليه ، ورأسه على الأرض .

وقيل : المراد بالأوتاد : الجموع ، والجنود الكثيرة ، يعني : أنهم كانوا يقوّون أمره ، ويشدّون سلطانه كما تقوى الأوتاد ما ضربت عليه ، فالكلام خارج مخرج الاستعارة على هذا .

قال ابن قتيبة : العرب تقول : هم في عزّ ثابت الأوتاد ، وملك ثابت الأوتاد ، يريدون ملكاً دائماً شديداً ، وأصل هذا أن البيت من بيوت الشعر إنما يثبت ، ويقوم بالأوتاد .

وقيل : المراد بالأوتاد هنا البناء المحكم ، أي : وفرعون ذو الأبنية المحكمة .

قال الضحاك : والبنيان يسمى أوتاداً ، والأوتاد جمع وتد أفصحها فتح الواو ، وكسر التاء ، ويقال : وتد بفتحهما ، وودّ بإدغام التاء في الدال ، وودت .

قال الأصمعي : ويقال : وتد واتد مثل شغل شاغل ، وأنشد :

لاقت علي الماء جذيلاً واتدا . . . ولم يكن يخلفها المواعدا

(138/659)

﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وأصحاب الأَيْكَةِ ﴾ الأيكة : الغيضة ، وقد تقدّم تفسيرها ، واختلاف القرّاء في قراءتها في سورة الشعراء ، ومعنى ﴿ أُوْلَئِكَ الأحزاب ﴾ : أنهم الموصوفون بالقوّة ، والكثرة كقولهم : فلان هو الرجل ، وقريش وإن كانوا حزباً كما قال الله سبحانه فيما تقدّم : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مّن الأحزاب ﴾ [ص : 11] ؛ ولكن هؤلاء الذين قصهم الله علينا من الأمم السالفة هم أكثر منهم عدداً ، وأقوى أبداناً ، وأوسع أموالاً ، وأعماراً ، وهذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفة ، ويجوز أن تكون خبراً ، والمبتدأ قوله : ﴿ وَعَادٌ ﴾ كذا قال أبو البقاء ، وهو ضعيف ، بل الظاهر أن ﴿ عاد ﴾ ، وما بعده معطوفات على ﴿ قوم نوح ﴾ ، والأولى أن تكون هذه الجملة خبراً لمبتدأ محذوف ، أو بدلاً من الأمم المذكورة ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل ﴾ إن هي : النافية ، والمعنى : ما كلّ

حزب من هذه الأحزاب إلا كذب الرسل ، لأن تكذيب الحزب لرسوله المرسل إليه تكذيب لجميع الرسل ، أو هو من مقابلة الجمع بالجمع ، والمراد : تكذيب كلّ حزب لرسوله ، والاستثناء مفرغ من أعمّ الأحوال ، أي : ما كلّ أحد من الأحزاب في جميع أحواله إلا وقع منه تكذيب الرسل ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أي : فحقّ عليهم عقابي بتكذيبهم ، ومعنى حقّ : ثبت ، ووجب ، وإن تأخر ، فكأنه واقع بهم ، وكلّ ما هو آتٍ قريب .

قرأ يعقوب بإثبات الياء في ﴿ عقاب ﴾ ، وحذفها الباقون مطابقة لرؤوس الآي .

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً واحدة ﴾ أي : ما ينتظرون إلا صيحة ، وهي : النفخة الكائنة عند قيام الساعة .

وقيل : هي النفخة الثانية ، وعلى الأوّل المراد : من عاصر نبينا صلى الله عليه وسلم من الكفار ، وعلى الثاني المراد : كفار الأمم المذكورة ، أي : ليس بينهم ، وبين حلول ما أعدّ الله لهم من عذاب النار إلا أن ينفخ في الصور النفخة الثانية .

(139/659)

وقيل : المراد بالصيحة : عذاب يفجؤهم في الدنيا كما قال الشاعر :

صاح الزمان بآل برمك صيحة . . . خرّوا لشدّتها على الأذقان

وجملة : ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ في محل نصب صفة لصيحة .

قال الزجاج : فواق ، وفواق بفتح الفاء ، وضمها أي : ما لها من رجوع ، والفواق ما بين حلبتي الناقة ، وهو مشتقّ من الرجوع أيضاً ، لأنه يعود اللبن إلى الضرع بين الحلبتين ، وأفاق من مرضه ، أي : رجع إلى الصحة ، ولهذا قال مجاهد ، ومقاتل : إن الفواق : الرجوع .

وقال قتادة : ما لها من مثنوية .

وقال السدّي : ما لها من إفاقة ، وقيل : ما لها من مردّ .

قال الجوهري : ما لها من نظرة ، وراحة وإفاقة ، ومعنى الآية : أن تلك الصيحة هي ميعاد عذابهم ، فإذا جاءت لم ترجع ، ولا تردّ عنهم ، ولا تصرف منهم ، ولا تتوقف مقدار فواق ناقة ، وهي ما بين حلبتي الحالب لها ، ومنه قول الأعشى :

حتى إذا فيقة في ضرعها اجتمعت . . . جاءت لترضع شقّ النفس لو رضعا

والفيقة : اسم اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين ، وجمعها فيق ، وأفواق .

قرأ حمزّة ، والكسائي : " ما لها من فواق " بضم الفاء ، وقرأ الباقون بفتحها .

قال الفراء ، وأبو عبيدة : الفواق بفتح الفاء : الراحة ، أي : لا يفيقون فيها كما يفيق المريض ، والمغشيّ عليه ، وبالضم الانتظار ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ لما سمعوا ما توعدهم الله به من العذاب قالوا هذه المقالة استهزاء ، وسخرية ، والقط في اللغة : النصيب ، من القط ، وهو : القطع ، وبهذا قال قتادة ، وسعيد بن جبير ، قال الفراء :

القط في كلام العرب : الحظ والنصيب ، ومنه قيل للصك : قط .

قال أبو عبيدة ، والكسائي : القط : الكتاب بالجوائز ، والجمع القطوط ، ومنه قول الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته . . . بغبطته يعطي القطوط ويأفق

(140/659)

ومعنى يأفق : يصلح ، ومعنى الآية : سؤالهم لربهم أن يعجل لهم نصيبهم وحظهم من العذاب ، وهو مثل قوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ [الحج : 47] .

وقال السدّي : سألوا ربهم : أن يمثل لهم منازلهم من الجنة ، ليعلموا حقيقة ما يوعدون به ، وقال إسماعيل بن أبي خالد : المعنى : عجل لنا أرزاقنا ، وبه قال سعيد بن جبير ، والسدّي .

وقال أبو العالية ، والكلبي ، ومقاتل : لما نزل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الحاقة : 19] ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ [الحاقة : 25] قالت قريش : زعمت يا محمد أنا نؤتى كتابنا بشمالنا ، فعجل لنا قطنا قبل يوم الحساب .

ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يصبر على ما يسمعه من أقوالهم فقال : ﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ

﴿ من أقوالهم الباطلة التي هذا القول المحكي عنهم من جملتها .

وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

﴿ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودُ ذَا الأيد ﴾ لما فرغ من ذكر قرون الضلالة ، وأمم الكفر ، والتكذيب ، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يسمعه زاد في تسليته ، وتأسيته بذكر قصة داود ، وما بعدها .

ومعنى ﴿ اذكر عَبْدَنَا دَاوُودُ ﴾ : اذكر قصته ، فإنك تجد فيها ما تتسلى به ، والأيد : القوّة ، ومنه رجل أيد ، أي : قويّ ، وتأيد الشيء : تقوّى ، والمراد : ما كان فيه عليه السلام من القوّة على العبادة .

قال الزجاج : وكانت قوّة داود على العبادة أتمّ قوّة ، ومن قوّته ما أخبرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وكان يصلي نصف الليل ، وكان لا يفرّ إذا لاقى العدّو ، وجملة ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ تعليل لكونه ذا الأيد ، والأوابّ : الرجاع عن كل ما يكرهه الله سبحانه إلى ما يحبه ، ولا يستطيع ذلك إلا من كان قوياً في دينه .

(141/659)

وقيل : معناه : كلما ذكر ذنبه استغفر منه ، وناب عنه ، وهذا داخل تحت المعنى الأوّل ، يقال : آب يؤوب : إذا رجع ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق ﴾ أيّ : يقدّسن الله سبحانه ، وينزهنه عما لا يليق به .

وجملة : ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ في محل نصب على الحال ، وفي هذا بيان ما أعطاه الله من البرهان ، والمعجزة ، وهو : تسبيح الجبال معه .

قال مقاتل : كان داود إذا ذكر الله ذكرت الجبال معه ، وكان يفقه تسبيح الجبال .

وقال محمد بن إسحاق : أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال دويّ حسن ، فهذا معنى : تسبيح الجبال ، والأوّل أولى .

وقيل : معنى : ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ : يصلين ، و ﴿ مَعَهُ ﴾ متعلق بسخرنا .

ومعنى ﴿ بالعشى والإشراق ﴾ قال الكلبي : غدوة وعشية ، يقال : أشرقت الشمس : إذا أضاءت ، وذلك وقت الضحى .

وأما شروقها ، فطلوعها .

قال الزجاج : شرقت الشمس : إذا طلعت ، وأشرقت : إذا أضاءت .

﴿ والطير مَحْشُورَةً ﴾ معطوف على الجبال ، وانتصاب ﴿ محشورة ﴾ على الحال من الطير ، أي : وسخرنا الطير حال كونها محشورة ، أي : مجموعة إليه تسبح الله معه .

قيل : كانت تجمعها إليه الملائكة .

وقيل : كانت تجمعها الريح ﴿ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي : كل واحد من داود ، والجبال ، والطير رجاع إلى طاعة الله ، وأمره ، والضمير في له راجع إلى الله عزّ وجلّ .

وقيل : الضمير لداود ، أي : لأجل تسبيح داود مسبح ، فوضع أوّاب موضع مسبح ، والأوّل أولى .

وقد قدّمنا أن الأوّاب : الكثير الرجوع إلى الله سبحانه ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ قوّيناه وثبتناه بالنصر في المواطن على أعدائه وإلقاء الرعب منه في قلوبهم .

وقيل : بكثرة الجنود ﴿ وءاتيناه الحكمة وَفَصْلَ الخطاب ﴾ المراد بالحكمة : النبوّة ، والمعرفة بكل ما يحكم به .

وقال مقاتل : الفهم ، والعلم .

وقال مجاهد : العدل .

وقال أبو العالية : العلم بكتاب الله .

وقال شريح : السنة .

والمراد بفصل الخطاب : الفصل في القضاء ، وبه قال الحسن ، والكلبي ، ومقاتل .

وحكى الواحدي عن الأكثر : أن فصل الخطاب : الشهود ، والإيمان ؛ لأنها إنما تنقطع الخصومة بهذا .

وقيل : هو : الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ لما مدحه الله سبحانه بما تقدم ذكره أردف ذلك بذكر هذه القصة الواقعة له لما فيها من الأخبار العجيبة .

قال مقاتل : بعث الله إلى داود ملكين ، جبريل ، وميكائيل ؛ لينبهه على التوبة ، فأتياه ، وهو في محرابه .

قال النحاس : ولا خلاف بين أهل التفسير أن المراد بالخصم ها هنا الملكان ، والخصم مصدر يقع على الواحد ، والاثنين ، والجماعة .

ومعنى ﴿ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ : أتوه من أعلى سوره ، ونزلوا إليه ، والسور : الحائط المرتفع ، وجاء بلفظ الجمع في تسوروا مع كونهم اثنين ، نظراً إلى ما يحتمله لفظ الخصم من الجمع .

ومنه قول الشاعر :

وخصم غضاب قد نفضت لحاهم . . . كنفض البراذين العراب المخاليا

والمحراب : الغرفة ، لأنهم تسوروا عليه ، وهو فيها ، كذا قال يحيى بن سلام .

وقال أبو عبيدة : إنه صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد .

وقيل : إنهما كانا إنسيين ، ولم يكونا ملكين ، والعامل في "إذ" في قوله : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ ﴾ النبأ ، أي : هل أتاك الخبر الواقع في وقت تسورهم ؟ وبهذا قال ابن عطية ، ومكي ، وأبو البقاء .

وقيل : العامل فيه أتاك .

وقيل : معمول للخصم .

وقيل : معمول لمحذوف ، أي : وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم .

وقيل : هو معمول لتسوروا .

وقيل : هو بدل مما قبله .

وقال الفراء : إن أحد الظرفين المذكورين بمعنى : لما ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ ، وذلك لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم ، ودخلوا عليه بغير إذنه ، ولم يدخلوا من الباب الذي يدخل منه الناس .

(143/659)

قال ابن الأعرابي : وكان محراب داود من الامتناع بالارتفاع بحيث لا يرتقي إليه آدمي بحيلة ، وجملة : ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قالوا لداود لما فزع منهم ؟ وارتفاع ﴿ خَصْمَانِ ﴾ ، على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : نحن خصمان ، وجاء فيما سبق بلفظ الجمع ، وهنا بلفظ التثنية ، لما ذكرنا من أن لفظ الخصم يحتمل المفرد ، والمثنى ، والمجموع ، فالكل جائز .

قال الخليل : هو كما تقول : نحن فعلنا كذا : إذا كنتما اثنين .

وقال الكسائي : جمع لما كان خبراً ، فلما انقضى الخبر ، وجاءت المخاطبة أخبر الاثنان عن أنفسهما ، فقالا : خصمان ، وقوله : ﴿ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ ﴾ هو على سبيل الفرض ، والتقدير ، وعلى سبيل التعريض ؛ لأن من المعلوم أن الملكين لا يبغيان .

ثم طلبا منه أن يحكم بينهما بالحق ، ونهياه عن الجور ، فقالا : ﴿ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ أي : لا تجر في حكمك ، يقال : شط الرجل ، وأشط شططاً ، وإشطاطاً : إذا جار في حكمه .

قال أبو عبيد : شططت عليه ، وأشططت أي : جرت .

وقال الأخفش : معناه : لا تسرف ، وقيل : لا تفرط ، وقيل : لا تمل .

والمعنى متقارب ، والأصل فيه البعد ، من شطت الدار : إذا بعدت .

قال أبو عمرو : الشطط مجاوزة القدر في كل شيء ﴿ واهدنا إلى سَوَاء الصراط ﴾ سواء

الصراط : وسطه .

والمعنى : أرشدنا إلى الحق ، واحملنا عليه .

ثم لما أخبراه عن الخصومة إجمالاً شرعاً في تفصيلهما ، وشرحها ، فقالا : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ المراد بالأخوة هنا : أخوة الدين ، أو الصحبة ، والنعجة هي : الأنثى من الضأن ، وقد يقال لبقر الوحش : نعجة ﴿ وَلِى نَعْجَةٌ واحدة ﴾ قال الواحدي : النعجة البقرة الوحشية ، والعرب تكني عن المرأة بها ، وتشبه النساء بالنعاج من البقر .

قرأ الجمهور : ﴿ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ ﴾ بكسر التاء الفوقية .

وقرأ الحسن ، وزيد بن علي بفتحها .

(144/659)

قال النحاس : وهي : لغة شاذة ، وإنما عنى ب ﴿ هذا ﴾ : داود ؛ لأنه كان له تسع وتسعون امرأة ، وعنى بقوله : ﴿ ولي نعجة واحدة ﴾ (أوريا) زوج المرأة التي أراد أن يتزوجها داود كما سيأتي بيان ذلك ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أي : ضمها إليّ ، وانزل لي عنها حتى أكفلها ، وأصير بعلاً لها .

قال ابن كيسان : اجعلها كفلي ، ونصيبي ﴿ وَعَزَّنِى فِى الخطاب ﴾ أي : غلبني ، يقال :

عزه يعزه عزاً : إذا غلبه .

وفي المثل "من عزَّ بزَّ" أي : من غلب سلب ، والاسم العزة : وهي : القوة .

قال عطاء : المعنى : إن تكلم كان أفصح مني .

وقرأ ابن مسعود ، وعبيد بن عمير : (وعازني في الخطاب) أي : غالبني من المعازة ، وهي : المغالبة ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ﴾ أي : بسؤاله نعجتك ؛ ليضمها إلى نعاجه التسع والتسعين إن كان الأمر على ما تقول ، واللام هي : الموطئة للقسم ، وهي وما بعدها جواب للقسم المقدر .

وجاء بالقسم في كلامه مبالغة في إنكار ما سمعه من طلب صاحب التسع والتسعين النعجة أن يضم إليه النعجة الواحدة التي مع صاحبه ، ولم يكن معه غيرها .

ويمكن أنه إنما قال بهذا بعد أن سمع الاعتراف من الآخر .

قال النحاس : ويقال : إن خطيئة داود هي : قوله : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ ؛ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ وهم : الشركاء ، واحدهم خليط : وهو المخالط في المال ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي : يتعدى بعضهم على بعض ، ويظلمه غير مراع لحقه ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، فإنهم يتحامون ذلك ، ولا يظلمون خليطاً ، ولا غيره ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ أي : وقليل هم ، و " ما " زائدة للتوكيد ، والتعجيب .

وقيل : هي موصولة ، و ﴿ هم ﴾ مبتدأ ، و ﴿ قليل ﴾ خبره ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فتناه ﴾ ، قال أبو عمرو ، والفراء : ظن يعني : أيقن .

(145/659)

ومعنى ﴿ فتناه ﴾ : ابتليناه ، والمعنى : أنه عند أن تخاصما إليه ، وقال ما قال علم عند ذلك أنه المراد ، وأن مقصودهما التعريض به وبصاحبه الذي أراد أن ينزل له عن امرأته .

قال الواحدي : قال المفسرون : فلما قضى بينهما داود نظر أحدهما إلى صاحبه ، فضحك ، فعند ذلك علم داود بما أراده .

قرأ الجمهور : ﴿ فتناه ﴾ بالتخفيف للتاء ، وتشديد النون .

وقرأ عمر بن الخطاب ، والحسن ، وأبو رجاء بالتشديد للتاء ، والنون ، وهي : مبالغة في الفتنة .

وقرأ الضحاك : " افتناه " ، وقرأ قتادة ، وعبيد بن عمير ، وابن السميفع : " فتناه " بتخفيفهما ، وإسناد الفعل إلى الملكين ، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو ﴿ فاستغفر رَبَّهُ ﴾ لذنبه ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ أي : ساجداً .

وعبر بالركوع عن السجود ، قال ابن العربي : لا خلاف بين العلماء أن المراد بالركوع هنا

السجود ، فإن السجود هو : الميل ، والركوع هو : الانحناء ، وأحدهما يدخل في الآخر ، ولكنه قد يختص كل واحد منهما بهيئة .

ثم جاء في هذا على تسمية أحدهما بالآخر .

وقيل : المعنى للسجود راكعاً ، أي : مصلياً .

وقيل : بل كان ركوعهم سجوداً .

وقيل : بل كان سجودهم ركوعاً ﴿ وَأَنَابَ ﴾ أي : رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه .

وقد اختلف المفسرون في ذنب داود الذي استغفر له ، وتاب عنه على أقوال : الأول : أنه نظر إلى امرأة الرجل التي أراد أن تكون زوجة له ، كذا قال سعيد بن جبير ، وغيره .

قال الزجاج : ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة لكنه عاود النظر إليها ، وصارت الأولى له ، والثانية عليه .

القول الثاني : أنه أرسل زوجها في جملة الغزاة .

الثالث : أنه نوى إن مات زوجها أن يتزوجها .

الرابع : أن أوريا كان خطب تلك المرأة ، فلما غاب خطبها داود ، فزوّجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا ، فعتب الله عليه حيث لم يتركها لخاطبها .

الخامس : أنه لم يجزع على قتل أوريا كما كان يجزع على من هلك من الجند ، ثم تزوج امرأته ، فعاتبه الله على ذلك ، لأن ذنوب الأنبياء ، وإن صغرت ، فهي عظيمة .

السادس : أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر كما قدمنا .

وأقول : الظاهر من الخصومة التي وقعت بين الملكين تعريضاً لداود عليه السلام : أنه طلب من زوج المرأة الواحدة أن ينزل له عنها ، ويضمها إلى نسائه ، ولا ينافي هذا العصمة الكائنة للأنبياء ، فقد نبهه الله على ذلك ، وعرض له بإرسال ملائكته إليه ، ليتخاصموا في مثل قصته حتى يستغفر لذنبه ، ويتوب منه ، فاستغفر وتاب .

وقد قال سبحانه : ﴿ وعصى ءادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121] وهو أبو البشر ، وأوّل الأنبياء ، ووقع لغيره من الأنبياء ما قصه الله علينا في كتابه .

ثم أخبر سبحانه : أنه قبل استغفاره ، وتوبته قال : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذلك ﴾ أي : ذلك الذنب الذي استغفر منه .

قال عطاء الخراساني ، وغيره : إن داود بقي ساجداً أربعين يوماً حتى نبت الرعي حول وجهه ، وغمر رأسه .

قال ابن الأنباري : الوقف على قوله : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذلك ﴾ تامّ ، ثم يبتدىء الكلام بقوله : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ الزلفى : القربة ، والكرامة بعد المغفرة لذنبه .

قال مجاهد : الزلفى : الدنوّ من الله عزّ وجلّ يوم القيامة ، والمراد بحسن المآب : حسن المرجع ، وهو : الجنة .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ قال : من رجعة .

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ قال : سألوا الله أن يعجل لهم .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الزبير ابن عدي عنه : ﴿ عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ قال : نصيبنا من الجنة .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله : ﴿ ذَا الأيد ﴾ قال : القوّة .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : الأوّاب : المسبح .

(147/659)

وأخرج الديلمي عن مجاهد قال : سألت ابن عمر عن الأوّاب ، فقال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عنه ، فقال : " هو الذي يذكر ذنوبه في الخلاء ، فيستغفر الله " .

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس قال : الأوّاب : الموقن .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد عن عطاء الخراساني عنه قال : لم يزل في نفسي من

صلاة الضحى حتى قرأت هذه الآية : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق ﴾ .

وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : لقد أتى عليّ زمان ، وما أدري وجه هذه الآية ﴿ يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق ﴾ حتى رأيت الناس يصلون الضحى .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه عنه قال : كنت أمرّ بهذه الآية ﴿ يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق ﴾ فما أدري ما هي ؟ حتى حدّثتني أمّ هانىء بنت أبي طالب : أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوم الفتح ، فدعا بوضوء ، فتوضأ ، ثم صلى الضحى ، ثم قال : " يا أمّ هانىء هذه صلاة الإشراق " وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه من وجه آخر عنه نحوه .

والأحاديث في صلاة الضحى كثيرة جدًّا قد ذكرناها في شرحنا للمنتقى .

(148/659)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : استعدى رجل من بني إسرائيل عند داود على رجل من عظمائهم ، فقال : إن هذا غصبني بقراً لي ، فسأل داود الرجل عن ذلك ، فجحده ، فسأل الآخر البينة ، فلم يكن له بينة ، فقال لهما داود :

قوماً حتى أنظر في أمركما ، فقاما من عنده ، فأتى داود في منامه فقيل له : اقتل الرجل الذي استعدى ، فقال : إن هذه رؤيا ، ولست أعجل حتى أتثبت ، فأتى الليلة الثانية في منامه ، فأمر أن يقتل الرجل ، فلم يفعل ، ثم أتى الليلة الثالثة ، فقيل له : اقتل الرجل ، أو تأتيك العقوبة من الله ، فأرسل داود إلى الرجل ، فقال : إن الله أمرني أن أقتلك ، قال : تقتلني بغير بينة ، ولا تثبت ؟ قال : نعم ، والله لأنفذنّ أمر الله فيك ، فقال الرجل : لا تعجل عليّ حتى أخبرك ، إني والله ما أخذت بهذا الذنب ، ولكني كنت اغتلت والد هذا ، فقتلته ، فبذلك أخذت ، فأمر به داود ، فقتل ، فاشتدّت هيبته في بني إسرائيل ، وشدّد به ملكه ، فهو قول الله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكمة ﴾ قال : أعطي الفهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والديلمي عن أبي موسى الأشعري قال : أوّل من قال : أما بعد داود عليه السلام وهو ﴿ فَصْلُ الخطاب ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن سعد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن الشعبي : أنه سمع زياد بن أبيه يقول : فصل الخطاب الذي أوتي داود : أما بعد .

(149/659)

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس : أن داود حدّث نفسه إذا ابتلي أنه يعتصم ، فقيل له : إنك ستبتلى ، وستعلم اليوم الذي تبتلي فيه ، فخذ حذرك ، فقيل له : هذا اليوم الذي تبتلي فيه ، فأخذ الزبور ، ودخل المحراب ، وأغلق باب المحراب ، وأخذ الزبور في حجره ، وأقعد منصفاً يعني : خادماً على الباب ، وقال : لا تأذن لأحد عليّ اليوم ، فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهب كأحسن ما يكون للطير فيه من كل لون ، فجعل يدور بين يديه ، فدنا منه ، فأمكن أن يأخذه ، فتناوله بيده ؛ ليأخذه ، فاستوفز من خلفه ، فأطبق الزبور ، وقام إليه ، ليأخذه ، فطار ، فوقع على كوّة المحراب ، فدنا منه ؛ ليأخذه ، فأفضى ، فوقع على خصّ ، فأشرف عليه لينظر أين وقع ؟ فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض ، فلما رأت ظله حركت رأسها ، فغطت جسدها أجمع بشعرها ، وكان زوجها غازياً في سبيل الله ، فكتب داود إلى رأس الغزاة : انظر أوريا ، فاجعله في حملة التابوت ، وكان حملة التابوت إما أن يفتح عليهم ، وإما أن يقتلوا ، فقدّمه في حملة التابوت ، فقتل ، فلما انقضت عدّتها خطبها داود ، فاشترطت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة من بعده ، وأشهدت عليه خمسين من بني إسرائيل ، وكتب عليه بذلك كتاباً ، فما شعر بفتنته أنه افتتن حتى ولدت سليمان ، وشب ، فتسوّر عليه الملكان المحراب ، وكان شأنهما ما قصّ الله في كتابه ، وخرّ داود ساجداً ، فغفر الله له ، وتاب عليه .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب قال : ما أصاب داود بعد ما أصابه بعد القدر إلا من عجب عجب بنفسه ، وذلك أنه قال : يا ربّ ما من ساعة من ليل ولا نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك يصلي لك ، أو يسبح ، أو يكبر ، وذكر أشياء ، فكره الله ذلك ، فقال : يا داود إن ذلك لم يكن إلا بي ، فلولا عوني ما قويت عليه ، وعزّتي وجلالي لأكلنك إلى نفسك يوماً ، قال : يا ربّ فأخبرني به ، فأخبر به ، فأصابته الفتنة ذلك اليوم .

وأخرج أصل القصة الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن أنس مرفوعاً بإسناد ضعيف .

وأخرجها ابن جرير من وجه آخر عن ابن عباس مطوّلة .

وأخرجها جماعة عن جماعة من التابعين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى ﴾ قال : على ديني .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وأحمد في الزهد ، وابن جرير ، والطبراني عنه قال : ما زاد داود على أن قال ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن

عباس في قوله : ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ قال : ما زاد داود على أن قال : تحوّل لي عنها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ يقول : قليل الذي هم فيه ، وفي قوله : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فتناه ﴾ قال : اختبرناه .

وأخرج أحمد ، والبخاري ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عنه أيضاً : أنه قال في السجود في ﴿ ص ﴾ : ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها .

وأخرج النسائي ، وابن مردويه بسند جيد عنه أيضاً : أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في ﴿ ص ﴾ ، وقال : " سجدها داود ، ونسجدها شكراً " وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في ﴿ ص ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن أنس مثله مرفوعاً .

(151/659)

وأخرج الدارمي ، وأبو داود ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والدارقطني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن أبي سعيد قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو على المنبر ﴿ ص ﴾ ، فلما بلغ السجدة نزل ، فسجد ، وسجد الناس معه ،

فلما كان يوم آخر قرأها ، فلما بلغ السجدة تهيأ الناس للسجود ، فقال : إنما هي توبة ، ولكني رأيتكم تهيأتم للسجود ، فنزل ، فسجد .

وأخرج ابن مردويه ، عن عمر بن الخطاب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر يوم القيامة ، فعظم شأنه ، وشدّته قال : " ويقول الرحمن عزّ وجلّ لداود عليه السلام : مرّ بين يديّ ، فيقول داود : يا ربّ أخاف أن تدحضني خطيئتي ، فيقول : خذ بقدمي ، فيأخذ بقدمه عزّ وجلّ ، فيمرّ " ، قال : " فتلك الزلفى التي قال الله : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذلك وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(152/659)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ ﴾ :

استفهام معناه التعجب والتشويق إلى استماع ما في حيزه للإيذان بأنه من الأخبار البديعة التي حقها أن لا تخفى على أحد .

والنبأ : الخبر العظيم والخصم بمعنى المخاصم وأصل المخاصمة أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر بالضم ؛ أي : جانبه ولما كان الخصم في الأصل مصدراً متساوياً أفراده وجمعه ،

أطلق على الجمع في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ .

يقال : تسور المكان إذا علا سوره وسور المدينة حائطها المشتمل عليها .

وقد يطلق على حائط مرتفع وهو المراد هنا .

والمراد من المحراب البيت الذي كان داود عليه السلام يدخل فيه ويشتغل بطاعة ربه .

قيل : كان ذلك البيت غرفة وسمي ذلك البيت محراباً لاشتماله على المحراب على طريقة تسمية الشيء بأشرف أجزائه وإذ متعلقة بمحذوف ، وهو التحاكم ؛ أي : نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا المحراب ؛ أي : تصعدوا سور الغرفة ونزلوا إليه .

والمراد بالخصم المتسورين : جبرائيل وميكائيل بمن معهما من الملائكة على صورة المدعي والمدعى عليه ، والشهود والمزكين من بني آدم .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُادَ ﴾ : بدل مما قبله .

﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ : الفزع انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع ، ولا يقال : فزعت من الله كما يقال خفت منه وإنما فزع منهم ، لأنه كان الباب مغلقاً وهو يتعبد في البيت فنزلوا عليه بغتة من فوق ؛ أي : من غير الباب على خلاف العادة .

وفيه إشارة إلى كمال ضعف البشرية مع أنه كان أقوى إذ فزع منهم ، ولعل فزع داود كان لاطلاع روحه على أنه تنبيه له وعتاب فيما سلف منه كما سيأتي فلما رأوه فزعاً

﴿ قَالُوا ﴾ : إزالة لفزعه ﴿ لا تَخَفْ ﴾ منا .

قال في "التأويلات النجمية" : يشير إلى أنه لا تخف من صورة أحوالنا ، فإنا جئنا لتحكم بيننا بالحق ولكن خف من حقيقة أحوالنا ، فإنها كشف أحوالك التي جرت بينك وبين خصمك أوريا ﴿ خَصْمَانِ ﴾ ؛ أي : نحن فريقان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصماً تجوزاً .

والحاصل أنه أطلق لفظ الخصم فيما سبق على الجمع بدليل تسوروا ثم ثنى بتأويل الفريق ، وهم وإن لم يكونوا فريقين بل شخصين اثنين بدليل ﴿ إِنَّ هَذَآ أَخِى ﴾ الآية لكن جعل مصاحب الخصم خصماً فكانا بمن معهما فريقين من الخصوم ، فحصل الانطباق بين صيغة التثنية في قوله خصمان وبين ما مر من إرادة الجمع .

﴿ بَغَى ﴾ : (ستم وجور كرد) .

﴿ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ : هو على الفرض وقصد التعريض بداود لا على تحقيق البغي من أحدهما ، فلا يلزم الكذب إذ الملائكة منزهون عنه ، فلا يحتاج إلى ما قيل أن المتخاصمين كانا لصين دخلا عليه للسرقة ، فلما رآهما اخترعا الدعوى كما في "شرح المقاصد" .

﴿ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ : بالعدل : وبالفارسية : (بس حكم كن درميان ما براستى) .

﴿ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ : من الشطط وهو مجاوزة الحد وتخطي الحق .

والمعنى : لا تجر في الحكومة وهو تأكيد للأمر بالحكم بالحق والمقصود من الأمر والنهي والاستعطاف .

﴿ وَاهْدِنَآ إِلَى سَوَآءِ الصِّرَاطِ ﴾ إلى وسط طريق الحق بزجر الباغي عما سلكه من طريق الجور وإرشاده إلى منهاج العدل .

﴿ إِنَّ هَذَآ ﴾ : استئناف لبيان ما فيه الخصومة ﴿ أَخِى ﴾ في الدين أو في الصحبة والتعرض لذلك تمهيد لبيان كمال قبح ما فعل به صاحبه .

(154/659)

﴿ لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ ﴾ : قرأ حفص بن عاصم ولي بفتح الياء والباقون بإسكانها على الأصل .

﴿ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ : النعجة هي الأنثى من الضأن وقد يكنى بها عن المرأة والكناية والتعريض أبلغ في المقصود وهو : التوبيخ فإن حصول العلم بالمعرض به يحتاج إلى تأمل فإذا تأمله واتضح قبحه كان ذلك أوقع في نفسه وأجلب لخجالته وحيائه .

﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ : أي ملكنيها وحقيقته : اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي .

والكافل : هو الذي يعولها وينفق عليها .

﴿ وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ ﴾ ؛ أي : غلبني في مخاطبته إياي محاجة بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان أعز مني وأقوى على مخاطبتي ؛ لأنه كان الملك ، فالمعنى : كان أقدر على الخطاب لعزة ملكه كما في "الوسيط" .

﴿ قَالَ ﴾ : داود بعد اعتراف المدعى عليه أو على تقدير صدق المدعي وإلا فالمسارعة إلى تصديق أحد الخصمين قبل سماع كلام الآخر لا وجه له في الحديث : "إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر" .

﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ : جواب قسم محذوف قصد به عليه السلام المبالغة في إنكار فعل صاحبه وتهجن طعمه في نعجة من ليس له غيرها مع أن له قطيعاً منها .

﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ : السؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة والضم كأنه قيل بضم نعجتك إلى نعاجه على وجه السؤال والطلب .

وفي هذا إشارة إلى أن الظلم في الحقيقة من شيم النفوس ، فإن وجدت ذا عفة ، فالعلة كما قال يوسف : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى ﴾ (يوسف : 53) الآية .

فالنفوس جبلت على الظلم والبغي وسائر الصفات الذميمة ولو كانت نفوس الأنبياء عليهم

السلام كذا ، في "التأويلات النجمية" . (1)

---

(1) كلام فيه نظر وقد تداركه الشيخ رحمه الله .

(155/659)

يقول الفقير : هذا بالنسبة إلى أصل النفوس وحقيقتها وإلا فنفوس الأنبياء مطمئنة لا أمارة إذ لم يظهر فيهم إلا آثار المطمئنة وهي أول مراتب سلوكهم .

وقد إشار الشيخ إلى الجواب بقوله ، فإن وجدت الخ .

فاعرف ذلك ، فإنه من مزالق الأقدام وقد سبق التحقيق فيه في سورة "يوسف" .

ثم قال داود عليه السلام حملاً للنعجة على حقيقتها لا على كونها مستعارة للمرأة .

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَآءِ ﴾ ؛ أي : الشركاء الذين خلطوا أموالهم .

جمع : خليط ، كظريف .

والخلطة : الشركة ، وقد غلبت في الماشية .

﴿ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ؛ أي : ليتعدى غير مراعي لحق الصحبة والشركة : يعني : (ازحق خودزياده مى طلبند) .

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ : منهم فإنهم يجتنبون عن البغي والعدوان .

﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ : وهم قليل فهم : مبتدأ وقليل خبره .

قدم عليه للاهتمام به وإنما أفرد تشبيهاً بفعيل بمعنى مفعول وما مزيدة لتأكيد القلة أو للإبهام ، أو التعجب من قلة الموصوفين بالإيمان وصالح العمل .

﴿ وَظَنَّ دَاوُادُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ : الظن مستعار للعلم الاستدلالي لما بينهما من المشابهة .

يعني : أن الظن الغالب لما كان يقارب العلم استعير له فالظن يقين لكنه ليس بيقين عيان ، فلا يقال فيه إلا العلم .

وما في إنما كافة .

والمعنى : وعلم داود بما جرى في مجلس الحكومة أنما فعلنا به الفتنة والامتحان لا غير ، بتوجيه الحصر إلى نفس الفعل بالقياس إلى ما يغايره من الأفعال .

﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ : إثر ما علم أن ما صدر عنه ذنب كما استغفر آدم عليه السلام بقوله ربنا ظلمنا أنفسنا إلخ وموسى عليه السلام بقوله : تبت إليك وغيرهما من الأنبياء الكرام على ما بين في موضعه .

(156/659)

﴿ وَخَرَّ ﴾ : سقط حال كونه ﴿ رَاكِعًا ﴾ ؛ أي : ساجداً على تسمية السجود ركوعاً لأنه مبدأه ؛ لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع وفي كل من الركوع والسجود التحني والخضوع .

وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في سجدة التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود أو خرّ للسجود راكعاً ؛ أي : مصلياً إطلاقاً للجزء ، وإرادة الكل كأنه أحرم بركعتي الاستغفار والدليل على الأول ؛ أي : على الركوع هاهنا بمعنى السجود ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي عليه السلام كان يقول في سجدة ﴿ ص ﴾ وسجدة الشكر : "اللهم اكتب لي عندك بها أجراً ، واجعلها لي عندك ذخراً وضع عني بها وزراً ، واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود سجدته" .

﴿ وَأَنَابَ ﴾ ؛ أي : رجوع إلى الله بالتوبة من جميع المخالفات التي هي الزلات وما كان من قبيل ترك الأولى والأفضل لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي عليه السلام سجد في ﴿ ص ﴾ وقال : "سجدها داود توبة ونسجدها شكراً" .

وهذه السجدة من عزائم السجود عند أبي حنيفة ومالك رحمهما الله وكل منهما على أصله ، فأبو حنيفة يقول : هي واجبة .

ومالك : هي فضيلة عند الشافعي وأحمد سجدة شكر تستحب في غير الصلاة فلو سجد بها في الصلاة بطلت عندهما كما في فتح الرحمن .

(157/659)

يقال لها : سجدة الشكر في حضرة الأنوار ؛ لأن داود سجدها شكراً .

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ ؛ أي : ما استغفر منه ، وكان ذلك في شهر ذي الحجة كما في "بحر العلوم" ، وروي ، أنه عليه السلام بقي في سجوده أربعين يوماً وليلة لا يرفع رأسه لصلاة مكتوبة أو لما لا بدّ منه ، ولا يرقأ دمعه حتى نبت منه العشب حول رأسه ولم يشرب ماء إلا ثلثاه دمع وجهد نفسه راغباً إلى الله في العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له : إيشا على ملكه فاجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسرائيل ، فلما نزلت توبته بعد الأربعين وغفر له حاربه فهزمه .

وقد قال نبينا عليه السلام : "إذا بويع لخليفتين" ؛ أي : لأحدهما أولاً وللآخر بعده : "فاقتلوا الآخر منهما" ، لأنه كالباغي هذا إذا لم يندفع إلا بقتله .

(158/659)

﴿ وَإِنَّ لَهُ ﴾ ؛ أي : داود ﴿ عِندَنَا لَزُلْفَى ﴾ : لقربة وكرامة بعد المنفرة كما وقع لآدم عليه السلام .

والزلفى : القربة والإزلاف : التقريب .

والازدلاف : الاقتراب ومنه سميت المزدلفة لقربها من الموقف .

وعن مالك بن دينار في قوله : ﴿ وَإِنَّ لَهُ ﴾ إلخ .

يقول الله تعالى لداود عليه السلام وهو قائم بساق العرش يا داود مجدني بذلك الصوت الرخيم اللين ، فيقول : كيف وقد سلبتنيه في الدنيا فيقول : إني أرده عليك فيرفع داود صوته بالزبور ، فيستفرغ نعيم أهل الجنة كما في "الوسيط" .

﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ : حسن مرجع في الجنة .

وفي "كشف الأسرار" : هو الجنة يعني الجنة هي مآب الأنبياء والأولياء .

وأصل هذه القصة

أن داود عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له : أوريا بن حنانا ، ويقال لها : بنشاوع أو بنشاويع بنت شايع ، فمال قلبه إليها وابتلي بعشقها وحبها من غير اختيار منه كما ابتلي نبينا عليه السلام بزينب رضي الله عنها لما رآها يوماً حتى قال : يا مقلب القلوب فسأله داود أن يطلقها فاستحى أن يرده ففعل فتزوجها وهي أم سليمان عليه السلام ، وكان ذلك جائزاً في شريعته معتاداً فيما بين أمته غير مخل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضاً أن

ينزل عن امرأته ، فيتزوجها إذا أعجبته خلا أنه عليه السلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته ، وعلو شأنه نبه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغي له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد أمته ، ويسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة أن ينزل عنها ، فيتزوجها مع كثرة نسائه ، بل كان يجب عليه أن يصبر على ما امتحن به ، كما صبر نبينا عليه السلام حتى كان طالب الطلاق هو زوج زينب ، وهو المذكور في سورة الأحزاب لا هو عليه السلام ؛ أي : لم يكن هو عليه السلام طالب الطلاق . (1)

قال البقلي : عشق داود عليه السلام لعروس من عرائس الحق حين تجلى الحق منها له ؛ فإنه كان عاشق الحق فسلاه بواسطة من وسائطه .

---

(1) هذا الكلام وما بعد فيه نظر ، وما ذكر فى قصة أم المؤمنين زينب بنت جحش - رضى الله عنها - تقدم الرد عليه فى سورة الأحزاب . والله أعلم .

وهذه القصة تسلية لقلب نبينا عليه الصلاة السلام ، حيث أوقع الله في قلبه محبة زينب ، فضاق صدره ، فقال سبحانه : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ (الإسراء : 77) ، وفرح بذلك وزاد له محبة الله والشوق إلى لقائه .

قال أبو سعيد الخراز قدس سره زلات الأنبياء في الظاهر زلات وفي الحقيقة كرامات وزلفى ألا تَرى إلى قصة داود حين أحس بأوائل أمره كيف استغفر وتضرع ورجع ، فكان له بذلك عنده زلفى وحسن مآب صدق أبو سعيد فيما قال ؛ لأن بلاء الأنبياء والأولياء لا ينقص اصطفائيتهم بل يزيدهم شرفاً على شرفهم ، وذلك لأن مقام الخلافة مظهر الجمال والجلال ، فيتحقق تجليات الجلال بالافتتان والابتلاء .

وفي ذلك ترق له كما قال في "التأويلات النجمية" : إن من شأن النبي والولي أن يحكم كل واحد منهم بين الخصوم بالحق كما ورد الشرع به بتوفيق الله وأن الواجب عليهم أن يحكموا على أنفسهم بالحق كما يحكمون على غيرهم كما قال تعالى : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ ﴾ (النساء : 135) .

فلما تنبه داود أنه ما حكم على نفسه بالحق كما حكم على غيره استغفر ورجع إلى ربه متضرعاً خاشعاً باكياً بقية العمر معتذراً عما جرى عليه ، فتقبل الله منه ورحم عليه وعفا عنه كما قال : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى ﴾ ؛ أي : لقربة بكل تضرع وخضوع وخشوع وبكاء وأنين وحنين وتأوه صدر منه لهذه المراجعات ﴿ وَحُسْنَ

مَاَابٍ ﴾ عندنا .

انتهى .

وفي الحديث : "أوحى الله تعالى إلى داود يا داود قل للعاصين أن يسمعوني ضجيج أصواتهم ، فإني أحب أن أسمع ضجيج العاصين إذا تابوا إليّ يا داود ، لن يتضرع المتضرعون إلى من هو أكرم مني ولا يسأل السائلون أعظم مني جوداً ، وما من عبد يطيعني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني ومستجيب له ، قبل أن يدعوني وغافر له قبل أن يستغفرني" .

وقد أنكر القاضي عياض ما نقله المؤرخون والمفسرون في هذه القصة ، وهي قولهم فيها . ونقل عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم : أنهما قالا ما زاد داود على أن قال للرجل : انزل لي عن امرأتك وأكفلنيها ، فعاتبه الله على ذلك ونبه عليه وأنكر عليه شغله بالدنيا .

(161/659)

قال : وهذا هو الذي ينبغي أن يعول عليه من أمره . وحكى . بعضهم أن أوريا كان خطب تلك المرأة : يعني (أوريا آن زن را خطبه كره بود أورا بخواسته واز قوم وي أجابت يافته ودل

بروى نهاده "فأما عقد نكاح" هنوز نرفته بود "فلما غاب أوريا" يعني بغزا رفت) .

وكان من غزاة البلقاء ثم خطبها داود فزوجت منه لجلال قدره ، فاغتم لذلك أوريا ، فعاتبه الله على ذلك ، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المسلم مع عدم احتياجه ؛ لأنه كانت تحت نكاحه وقتئذٍ تسع وتسعون امرأة ، ولم يكن لأوريا غير من خطبها .

يقول الفقير : دلّ نظم القرآن على الرواية فقوله : ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ دلّ على أنها كانت تحت نكاح أوريا .

وأيضاً دل لفظ : ﴿ الْخَصْمِ ﴾ على أن أوريا بصدد الخصام ، ولا يكون بهذا الصدد إلا بكونها تحت نكاحه مطلوبة منه بغير حسن رضاه وصفاء قلبه ومجرد جواز استنزال الرجل عن امرأته في شريعتهم لا يستلزم جواز الجبر ، فلما طلقها أوريا استحياء من داود بقيت الخصومة بينه وبين داود إذ كان كالجبر كما دلّ : ﴿ وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ ﴾ ، فكان السائل العزيز الغالب فهاتان الروايتان أصح ما ينقل في هذه القصة ، فإنهم وإن أكثروا القول فيها لكن الأنبياء منزهون عما يشين بكمالهم أو لا يزين بجمالهم خصوصاً عما يقوله القصاص من حديث قتل أوريا وسببية داود في ذلك بتزوج امرأته .

ولذلك قال علي رضي الله عنه : من حدّث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين ، وذلك حدّ الفرية على الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

وفي "الفتوحات المكية" في الباب السابع والخمسين بعد المائة : ينبغي للواعظ أن يراغب الله

في وعظه ويجتنب عن كل ما فيه تجر على انتهاك الحرمات مما ذكره المؤرخون عن اليهود من ذكر زلات الأنبياء كداود ويوسف عليهما السلام مع كون الحق أثنى عليهم واصطفاهم ، ثم الداهية العظمى أن يجعل ذلك في تفسير القرآن .

(162/659)

ويقول : قال المفسرون : كذا وكذا مع كون ذلك كله تأويلات فاسدة بأسانيد واهية عن قوم غضب الله عليهم ، وقالوا في الله ما قصه الله علينا في كتابه ، وكل واعظ ذكر ذلك في مجلسه مقته الله وملائكته لكونه ذكر لمن في قلبه مرض من العصاة حجة يحتجّ بها .

ويقول : إذا كان مثل الأنبياء في مثل ذلك ، فأي شيء أنا فعلم أن الواجب على الواعظ ذكر الله وما فيه تعظيمه وتعظيم رسله وعلماء أمته وترغيب الناس في الجنة وتحذيرهم من النار وأهوال الموقف بين يدي الله تعالى ، فيكون مجلسه كله رحمة .

انتهى كلام "الفتوحات" على صاحبه أعلى التجليات .

(163/659)

قال الشيخ الشعراني قدس سره في "الكبريت الأحمر" : وكذلك لا ينبغي له أن يحقق المناط في نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ انفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران : 159) .

ولا نحو قوله : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ (آل عمران : 152) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ (المائدة : 13) .

فإن العامة إذا سمعوا مثل ذلك استهانوا بالصحابة ثم احتجوا بأفعالهم .

انتهى كلامه .

قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله : يحرم على الواعظ وغيره رواية مقتل الحسين رضي الله عنه وحكاية ما جرى بين الصحابة من التشاجر والتخاصم ، فإنه يهيج بغض الصحابة والطعن فيهم وهم أعلام الدين ، وما وقع بينهم من المنازعات ، فيحمل على محامل صحيحة ، فلعل ذلك الخطأ في الاجتهاد لا لطلب الرياسة أو الدنيا ، كما لا يخفى .

انتهى .

والحاصل : أن معاصي الخواص ليست كمعاصي غيرهم بأن يقعوا فيها بحكم الشهوة الطبيعية ، وإنما تكون معاصيهم بالخطأ في التأويل ، فإذا أظهر الله لهم فساد ذلك التأويل الذي أداهم إلى ذلك الفعل حكموا على أنفسهم بالعصيان ، وتابوا ورجعوا إلى حكم العزيز المنان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 8 صـ 24 ـ 30 ﴾

وقال الشيخ المراغى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) ﴾

تفسير المفردات

هل : هنا كلمة يراد منها التعجيب والتشويق إلى سماع ما يرد بعدها ، والخصم :

جماعة المخاصمين ويستعمل للمفرد والجمع مذكرا ومؤنثا قال الشاعر :

وخصم عضاب ينفضون لحاهم كنفض البرازين العراب المخاليا

وتسوروا : أي أتوه من أعلى السور ودخلوا إلى المنزل ، والمحراب : الغرفة التي كان يتعبد

فيها ويشتغل بطاعة ربه ، والفزع : انقباض ونفار يعترى الإنسان من شىء مخيف ، بغى :

أي جار وظلم ، ولا تشطط : أي لا تبعد عن الحق ولا تجر في الحكومة ، سواء الصراط :

أي وسط الطريق ، والنعجة أنثى الضأن ويكنى بها عن المرأة كما قال عنترة :

يا شاة ما قنص لمن حلّت له حرمت علىّ وليتها لم تحرم

فبعث جاريتى فقلت لها اذهبي فتحسّسى أخبارها لى واعلم

قالت رأيت من الأعادى غرّة والشاة ممكنة لمن هو مرتمى

أكفلنيها : أي ملكنيها ، وأصل ذلك اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى ، وعزّنى : أي غلبنى ، وفي المثل : من عزّ بزّ أي من غلب سلب ،

وقال الشاعر :

(165/659)

قطاة عزّها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

فى الخطاب : أي في مخاطبته إياى ومحاجته ، إذ قد أتى بحجاج لم أستطع رده ، والخلطاء : هم المعارف أو الأعوان ممن بينهم ملابسة شديدة وامتزاج : واحدهم خليط ، فتنّاه : أي ابتليناه ، خر : أي سقط ، راكعا : أي ساجدا وقد يعبر بالركوع عن السجود ، قال الشاعر :

فخرّ على وجهه راكعا وتاب إلى اللّه من كل ذنب

وأناب : أي رجع إلى ربه ، والزلفى : القرب من اللّه ، والمآب : المرجع .

المعنى الجملي

بعد أن مدح سبحانه داود وأثنى عليه بما سلف - أردف ذلك ذكر نبأ عجيب من أنبائه ، مشوّقا إليه السامع ، ومعجّبا له .

الإيضاح

(وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ . إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ) أي هل علمت ذلك النبأ العجيب ، نبأ الجماعة الذين تسلّقوا سور غرفة داود ودخلوا عليه وهو مشتغل بعبادة ربه في غير وقت جلوسه للحكم ، وحين رآهم فزع منهم ظنا منه أنهم جاءوا لاغتياله ، إذ كان منفردا في محرابه للعبادة ، فقالوا له : لا تخف منا ، نحن اثنان جار بعضنا على بعض فاحكم بيننا حكما عادلا ولا تجر واهدنا إلى الطريق السوىّ ، ولا تشطط في الحكومة .

ثم فصّلوا موضع الخصومة فقالوا :

(إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ) أي إن أخى هذا يملك تسعا وتسعين شاة وأملك شاة واحدة ، فقال ملكنيها وغلبنى في المحاجة ، فجاء بحجج لم أطق لها ردّا ولا دفعا .

ثم ذكر سبحانه حكم داود في الواقعة فقال :

(قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ) أي قال داود بعد أن أقرّ المدعى عليه بما قال المدّعى : لقد ظلمك بطلبه منك إضافة نعجتك إلى نعاجه .

ثم استطرد إلى بيان أن الظلم من شيمة الإنسان فقال :

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ) أي وإن كثيرا ممن يتعاملون معا يجور بعضهم على بعض حين التعامل كما قال المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

إلا من يخافون ربهم ويؤمنون به ويعملون صالح الأعمال ، فإن نفوسهم تعزف عن الظلم ، وترعوى خشية من خالقها ، وما أقل هؤلاء عددا ، وأندرهم وجودا كما قال :

« وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ » .

ثم ذكر أن داود كان قد ظن أنهما قد جاءا للاغتيال ثم تبين له غير ما كان قد ظن فقال :

(وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ) أي وظن داود أن دخولهما عليه في ذلك الوقت ومن تلك الجهة ابتلاء من اللّه تعالى لأجل أن يغتالوه ،

فلم يقع ما كان قد ظنه فاستغفر ربه من ذلك الظن إذ لم يقع ما كان قد ظنه فخرّ ساجدا ورجع إلى ربه طالبا منه المغفرة لما فرط منه .

ثم بين أنه أجاب طلبه وغفر له إنه كان غفورا رحيما فقال :

(فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ) أي فغفرنا له ما وقع منه من ذلك الظن ،

وإنه لمن المقربين لدينا وله حسن المرجع وهو النعيم في الجنة .

هذا خلاصة ما رآه أبو حيان في البحر في تفسير هذا القصص ، وهو حسن .

(167/659)

بيد أنا نرى أن ظن داود في الخصمين وقد دخلا عليه في مثل هذا الوقت ومن غير الباب لإرادة الاغتيال – ظن له ما يؤيده من الدلائل وشواهد الحال ، فلا يمكن أن يكون إثما حتى يطلب من ربه المغفرة عليه – إلى أن هذه الخصومة التي ترافعا إليه فيها وطلبا منه الحكومة – ليست من معضلات المشاكل التي يحتاج فيها إلى حكم داود ، إلى أنه قد كان لهما مندوحة منها بأن ينتظرا إلى اليوم التالي حتى يجلس للقضاء ولا يضيع عليهما حق إذا هما تأخرا يوما آخر ، لأن هذه الواقعة إن كانت على الوضع الذي قالاه ، فليس فيها ما يدعو إلى المبادرة والتقاضي فى غير موعد القضاء والوصول إلى القاضي على تلك الحال المريبة – فلا بد أنهما قد كانا يريدان غرضا آخر أخفياه غير ما كان قد ظهر منهما ، ذلك الغرض هو إرادة الاغتيال ، وما منعهما من تنفيذه إلا يقظة الحراس والخدم والحشم وإحاطته بهما ، فاخترعا سببا لمجيئهما إليه وهو مجيئها للاستفتاء فيما خفى عليهما ، ولأجله تسوّرا المحراب ، ومما يرشد إلى هذه النية المبيّتة نية الاغتيال أنّ تهجّم الناس على البيوت للتقاضى

ليس بالمألوف ولا المعروف في أي عصر ، إلى أن هذه الفتوى لا تحتاج إلى مثل داود ، فهى فتوى جاءت بنت ساعتها لم يفكرا فيها من قبل ، والذي ألجأهما إليها يقظة الحرس وظنهما أنهما هالكان لا محالة إذا لم يذكرا سببا يسوّغ لهما دخول القصر في ذلك الحين ، ومما يؤيد هذا أن اغتيال الأنبياء كان معروفا في بنى إسرائيل فقد قتلوا أشعيا وزكريا كما يرشد إلى ذلك قوله : « وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ »

وحين علم داود غرضهما وتظاهرت عليه الأدلة همّ أن ينتقم منهما ويجازى السيئة بمثلها « وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها » ولكنه رأى أن مقام النبوة أمثل به الصفح والعفو كما قال :

(168/659)

« فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » ومن ثم استغفر ربه لما كان قد عزم عليه من الانتقام تأديبا لهما ولأمثالهما .

وما جاء في بعض كتب التفسير من أن المراد بالنعاج النساء كما جاء كناية عن ذلك فى كلام العرب كما قال كنعاج الفلا تعسّفن رملا

فذلك يتوقف على أن كلمة

(نعجة) فى اللغة العبرية تستعمل كناية عن المرأة كما هى في العربية ، وتأباه كلمة (الْخُلَطاءِ)

وكذلك ما يقال من أن الخصمين كانا ملكين فإن (تَسَوَّرُوا) تأباه لأن الملائكة أجسام نورانية لا أجسام كثيفة فلا حاجة إلى التسوّر ، إلى أنّ ما جاء من القصص عن ذكر السبب في مجيء الملكين مما يخلّ بمنصب النبوة ، وفيه نسبة الكبائر إلى الأنبياء ، فيجب علينا أن نطرحه إذ يبطل الوثوق بالشرائع – إلى ما فيه من مطعن لأرباب الأديان الأخرى على المسلمين ، إذ نسبوا إلى الأنبياء ما يجلّ مقامهم عنه ، ويأباه عامة الناس فضلا عن الأنبياء الذين اصطفاهم اللّه لرسالاته ، ومن ثم أثر عن عليّ رضى اللّه عنه أنه قال : من حدّثكم بحديث داود على ما يرويه القصّاص جلدته مائة وستين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 23 صـ 107 . 111 ﴾

(169/659)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) ﴾

قرأه الجمهور : ص بالسكون منهم القراء السبعة ، والتحقيق أن ص من الحروف المقطعة في أوائل السور كص في قوله تعالى ﴿ المص ﴾ [الأعراف : 1] ، وقوله تعالى : ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : 1] .

وقد قدمنا الكلام مستوفى على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة هود ، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وبذلك التحقيق المذكور ، تعلم أن قراءة من قرأ ص بالكسر غير منونة ، ومن قرأها بكسر الدال منونة ، ومن قرأها بفتح الدال ومن قرأها بضمها غير منونة ، كلها قراءات شاذة لا يعول عليها .

وكذلك تفاسير بعض العلماء المبنية على تلك القراءات ، فإنها لا يعوّل عليها أيضاً .

كما روي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : إن صاد بكسر الدال فعل أمر من صادى يصادي مصاداة إذا عارض ، منه الصدى . وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الصلبة الخالية من الأجسام ، أي عارض بعملك القرآن وقابله به ، يعني امتثل أوامره واجتنب نواهيه واعتقد عقائده واعتبر بأمثاله واتعظ بمواعظه .

وعن الحسن أيضاً : أن ص بمعنى حادث وهو قريب من الأول .

وقرأءة ص بكسر الدال غير منونة : مروية عن أُبي بن كعب ، والحسن وابن أبي إسحاق وأبي السمال وابن أبي عيلة ونصر بن عاصم .

والأظهر في هذه القراءة الشاذة ، أن كسر الدال سببه التخفيف لالتقاء الساكنين وهو حرف هجاء لا فعل أمر من صادى .

وفي رواية عن ابن أبي إسحاق ، أنه أمر ﴿ ص ﴾ بكسر الدال الدال مع التنوين على أنه

مجرور بحرف قسم محذوف ، وهو كما ترى ، فسقوطه ظاهر .

وكذلك قراءة من قرأ ﴿ ص ﴾ بفتح الدال من غير تنوين ، فهي قراءة شاذة والتفاسير المبنية إليها ساقطة .

كقول من قال : صاد محمد قلوب الناس واستمالهم حتى أمنوا به .

وقول من قال : هو منصوب على الإغراء .

(170/659)

أي الزموا صاد ، أي هذه السورة ، وقول من قال معناه اتل ، وقول من قال : إنه منصوب بنزع الخافض ، الذي هو حرف القسم المحذوف .

وأقرب الأقوال على هذه القراءة الشاذة ، أن الدال فتحت تخفيفاً لالتقاء الساكنين ، واختير فيها الفتح إتباعاً للصاد ، ولأن الفتح أخف الحركات ، وهذه القراءة المذكورة قراءة عيسى بن عمر ، وتروى عن محبوب عن أبي عمرو .

وكذلك قراءة من قرأ صاد بضم الدال من غير تنوين ، على أنه علم للسورة ، وأنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير هذه صاد وأنه منع من الصرف للعلمية والتأنيث لأن السورة مؤنثة لفظاً .

وهذه القراءة مروية عن الحسن البصري وابن السميقع وهرون الأعور .

ومن قرأ صاد بفتح الدال قرأ : ق ، ون كذلك ، وكذلك من قرأها ﴿ ص ﴾ بضم الدال فإنه قرأ ﴿ ق ﴾ [ق : 1] : و ﴿ ن ﴾ [القلم : 1] بضم الفاء والنون .

والحاصل أن جميع هذه القراءات ، وجميع هذه التفاسير المبنية عليها ، كلها ساقطة ، لا معوّل عليها .

وإنما ذكرناها لأجل التنبيه على ذلك .

ولا شك أن التحقيق هو ما قدمنا من أن ﴿ ص ﴾ من الحروف المقطعة في أوائل السور ، وأن القراءة التي لا يجوز العدول عنها هي قراءة الجمهور التي ذكرناها .

وقد قال بعض العلماء : إن ص مفتاح بعض أسماء الله تعالى كالصبور والصمد .

وقال بعضهم معناه : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يبلغ عن الله ، إلى غير ذلك من الأقوال .

وقد ذكرنا أنا قدمنا الكلام على ذلك مستوفّى في أول سورة هود .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ والقرآن ذِي الذكر ﴾ [ص : 1] ، قد قدمنا أن أصل القرآن مصدر ، زيد فيه الألف والنون . كما زيدتا في الطغيان ، والرجحان ، والكفران ، والخسران ، وأن هذا المصدر أريد به الوصف .

وأكثر أهل العلم ، يقولون : إن هذا الوصف المعبر عنه بالمصدر هو اسم المفعول .

وعليه فالقرآن بمعنى المقروء من قول العرب : قرأت الشيء إذا أظهرته وأبرزته ، ومنه قرأت الناقة السلا والجنين إذا أظهرته وأبرزته من بطنها ، ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلقته :

تريك إذا دخلت على خلاء . . . وقد أمنت عيون الكاشحينا

ذراعي عيطل أدماء بكر . . . هجان اللون لم تقرأ جنينا

على إحدى في البيت .

ومعنى القرآن على هذا المقروء الذي يظهره القارئ ، ويبرزه من فيه ، بعباراته الواضحة .

وقال بعض أهل العلم : إن الوصف المعبر عنه بالمصدر ، هو اسم الفاعل .

وعليه فالقرآن بمعنى القارئ وهو اسم فاعل قرأت ، بمعنى جمعت .

ومنه قول العرب : قرأت الماء في الحوض أي جمعته فيه .

وعلى هذا فالقرآن بمعنى القارئ أي الجامع لأن الله جمع فيه ما في الكتب المنزلة .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ ذِي الذكر ﴾ فيه وجهان من التفسير معروفان عند العلماء .

أحدهما : أن الذكر بمعنى الشرف ، والعرب تقول فلان مذكور يعنون له ذكر أي شرف .

ومنه قول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] أي شرف لكم على أحد القولين .

الوجه الثاني : أن الذكر اسم مصدر بمعنى التذكير ، لأن القرآن العظيم فيه التذكير والمواعظ ، وهذا قول الجمهور واختاره ابن جرير .

تنبيه

اعلم أن العلماء اختلفوا في تعيين الشيء الذي أقسم الله عليه في قوله تعالى : ﴿ والقرآن ذِي الذكر ﴾ ، فقال بعضهم : إن المقسم عليه مذكور ، والذين قالوا إنه مذكور ، اختلفوا في تعيينه وأقوالهم في ذلك كلها ظاهرة السقوط .

فمنهم من قال : إن المقسم عليه هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ [ص : 64] .

ومنهم من قال هو قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص : 54] .

(172/659)

ومنهم من قال هو قوله تعالى : ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص : 14] كقوله ﴿ تالله إِن كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 97] . وقوله : ﴿ والسمآء

والطارق وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الطارق النجم الثاقب إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق : 14] .

ومنهم من قال هو قوله : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم ﴾ [الأنعام : 6] ، ومن قال هذا قال : إن الأصل لكم أهلكنا ولما طال الكلام ، حذفت لام القسم ، فقال : كم أهلكنا بدون لام .

قالوا : ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس وَضُحَاهَا ﴾ [الشمس : 1] لما طال الكلام بين القسم والمقسم عليه ، الذي هو قد أفلح من زكاها ، حذفت منه لام القسم .

ومنهم من قال : إن المقسم عليه هو قوله : ص قالوا معنى ص صدق رسول الله والقرآن ذي الذكر . وعلى هذا فالمقسم عليه هو صدقه صلى الله عليه وسلم .

ومنهم من قال المعنى : هذه ص أي السورة التي أعجزت العرب ، ﴿ والقرآن ذِي الذكر ﴾ إلى غير ذلك من الأقوال التي لا يخفى سقوطها .

وقال بعض العلماء إن المقسم عليه محذوف ، واختلفوا في تقديره ، فقال الزمخشري في الكشاف ، التقدير ﴿ والقرآن ذِي الذكر ﴾ إنه لمعجز ، وقدره ابن عيطة وغيره فقال : ﴿ والقرآن ذِي الذكر ﴾ ما الأمر كما يقوله الكفار ، إلى غير ذلك من الأقوال .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : الذي يظهر صوابه بدليل استقراء القرآن : أن جواب القسم محذوف وأن تقديره ﴿ والقرآن ذِي الذكر ﴾ ما الأمر كما يقوله الكفار ، وأن قولهم المقسم على نفيه شامل لثلاثة أشياء متلازمة .

الأول : منها أن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل من الله حقاً وأن الأمر ليس كما يقول الكفار في قوله تعالى عنهم : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ [الرعد : 43] .

(173/659)

والثاني : أن الإله المعبود جل وعلا واحد ، وأن الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهم : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5] .

والثالث : أن الله جل وعلا يبعث من يموت ، وأن الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهم : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل : 38] وقوله : ﴿ زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾ [التغابن : 7] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا الساعة ﴾ [سبأ : 3] .

أما الدليل من القرآن على أن المقسم عليه محذوف فهو قوله تعالى : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص : 2] ، لأن الإضراب بقوله بل ، دليل واضح على المقسم عليه المحذوف . أي ما الأمر كما يقوله الذين كفروا ، بل الذين كفروا في عزة ، أي في حمية وأنفة واستكبار عن الحق ، وشقاق ، أي مخالفة ومعاندة .

وأما دلالة استقراء القرآن على أن المنفي المحذوف شامل للأمور الثلاثة المذكورة ، فلدلالة

آيات كثيرة : أما صحة رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكون الإله المعبود واحداً لا شريك له فقد أشار لهما هنا .

أما كون الرسول مرسلاً حقاً ففي قوله تعالى هنا : ﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكافرون هذا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص : 4] يعني أي لا وجه للعجب المذكور . لأن يجيء المنذر الكائن منهم .

لا شك في أنه بإرسال من الله حقاً .

وقولهم ﴿ هذا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص : 4] إنما ذكره تعالى إنكاراً لهم . فعرف بذلك أن في ضمن المعنى والقرآن ذي الذكر إنك مرسل حقاً ولو عجبوا من مجيئك منذراً لهم ، وزعموا أنك ساحر كذاب ، أي فهم الذين عجبوا من الحق الذي لا شك فيه ، وزعموا أن خاتم الرسل ، وأكرمهم على الله ، ساحر كذاب .

(174/659)

وأما كون الإله المعبود واحداً لا شريك له ، ففي قوله هنا : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : 5] ، لأن الهمزة في قول : أجعل للإنكار المشتمل على معنى النفي ، فهي تدل على نفي سبب تعجبهم من قوله صلى الله عليه وسلم : إن الإله

المعبود واحد .

وهذان الأمران قد دلت آيات أخر من القرآن العظيم ، على أن الله أقسم على تكذيبهم فيها وإثباتها بالقسم صريحاً كقوله تعالى مقسماً على أن الرسل مرسل حقاً ﴿ يس والقرآن الحكيم إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ [يس : 13] فهي توضيح معنى ص والقرآن ذي الذكر إنك لمن المرسلين .

وقد جاء تأكيد صحة تلك الرسالة في آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق وَإِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ [البقرة : 252] ، وأما كونه تعالى هو المعبود الحق لا شريك له ، فقد أقسم تعالى عليه في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى ﴿ والصافات صَفًّا فالزاجرات زَجْراً فالتاليات ذِكْراً إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ [الصافات : 14] ونحو ذلك من الآيات فدل ذلك على أن المعنى تضمن ما ذكر أي والقرآن ذي الذكر ، إن إلهكم لواحد كما أشار إليه بقوله ﴿ أَجَعَلَ الآلهة ﴾ [ص : 5] الآية .

وأما كون البعث حقاً ، فقد أقسم صحيحاً صريحاً ، في آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ بلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن : 7] . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ بلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ : 3] أي الساعة . وقوله : ﴿ قُلْ إِي وربي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [يونس : 53] .

وأقسم على اثنين من الثلاثة المذكورة وحذف المقسم عليه الذي هو الاثنان المذكوران ، وهي كون الرسول مرسلاً ، والبعث حقاً ، وأشار إلى ذلك إشارة واضحة ، وذلك في قوله تعالى ﴿ ق والقرآن المجيد بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكافرون هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 13] فاتضح بذلك أن المعنى ق والقرآن المجيد ، إن المنذر الكائن منكم الذي عجبتم من مجيئه لكم منذراً رسول منذر لكم من الله حقاً ، وإن البعث الذي أنكرتموه واستبعدتموه غاية الإنكار ، والاستبعاد ، في قوله تعالى عنكم ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 3] أي ذلك الرجع الذي هو البعث .

رجع بعيد في زعمكم واقع لا محالة وإنه حق لا شك فيه ، كما أشار له في قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : 4] إذ المعنى أن ما أكلته الأرض ، من لحومهم ، ومزقه من أجسامهم ، وعظامهم ، يعلمه جل وعلا ، لا يخفى عليه منه شيء فهو قادر على رده كما كان .

وإحياء تلك الأجساد البالية ، والشعور المتمزقة ، والعظام النخرة كما قدمنا موضحاً بالآيات القرآنية ، في سورة يس في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] وكونه صلى الله عليه وسلم مرسل من الله

حقاً ، يستلزم استلزاماً لا شك فيه ، أن القرآن العظيم منزل من الله حقاً وأنه ليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين .

(176/659)

ولذلك أقسم تعالى ، في مواضع كثيرة ، على أن القرآن أيضاً منزل من الله كقوله تعالى في أول سورة الدخان ﴿ حمو الكتاب المبين إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان : 13] الآية ، وقوله تعالى في أول سورة الزخرف : ﴿ حمو الكتاب المبين إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف : 14]

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2)

قد قدمنا الكلام قريباً على الإضراب ببل في هذه الآية .

وقوله تعالى هنا في عزة أي حمية واستكبار عند قبول الحق ، وقد بين جل وعلا في سورة البقرة أن من أسباب أخذ العزة المذكورة بالإثم للكفار أمرهم بتقوى الله ، وبين أن تلك العزة التي هي الحمية والاستكبار عن قبول الحق من أسباب دخولهم جهنم ، وذلك في قوله تعالى عن بعض الكفار الذين يظهرون غير ما يبطنون ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتق الله أَخَذَتْهُ العزة بالإثم فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المهاد ﴾ [البقرة : 206] .

والظاهر أن وجه إطلاق العزة على الحمية والاستكبار : أن من اتصف بذلك كأنه ينزل نفسه منزلة الغالب ، القاهر ، وإن كان الأمر ليس كذلك ، لأن أصل العزة في لغة العرب الغلبة والقهر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : 8] الآية ، والعرب يقولون : من عز بز ، يعنون من غلب استلب ، ومنه قول الخنساء :

كأن لم يكونوا حمى يحتشى . . . إذ الناس ذاك من عز بزا

وقوله تعالى عن الخصم الذين تسوروا على داود : وعزني في الخطاب أي غلبني : وقهرني في الخصومة .

(177/659)

والدليل من القرآن على أن العزة التي أثبتها الله للكفار في قوله : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص : 2] الآية . وقوله : ﴿ أَخَذَتْهُ العزة بالإثم ﴾ [البقرة : 206] الآية ، ليست هي العزة التي يراد بها القهر والغلبة بالفعل ، أن الله خص بهذه العزة المؤمنين دون الكافرين والمنافقين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : 8] .

ولذلك فسرها علماء التفسير ، بأنها هي الحمية والاستكبار ، عن قبول الحق .

والشقاق : هي المخالفة ، والمعاندة كما قال تعالى : ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ [البقرة : 137] الآية . قال بعض العلماء : وأصله من الشق الذي هو الجانب ، لأن المخالف المعاند ، يكون في الشق أي في الجانب الذي ليس فيه من هو مخالف له ومعاند .

وقال بعض أهل العلم : أصل الشقاق من المشقة لأن المخالف المعاند يجتهد في إيصال المشقة إلى من هو مخالف معاند .

وقال بعضهم : أصل الشقاق من شق العصا وهو الخلاف والتفرق .

كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (3)

كم هنا هي الخبرية ، ومعناها الإخبار عن عدد كثير ، وهي في محل نصب ، على أنها مفعول به لأهلكنا وصيغة الجمع في أهلكنا للتعظيم ، ومن في قوله : من قرن ، مميزة لكم ، والقرن يطلق على الأمة وعلى بعض من الزمن ، أشهر الأقوال فيه أنه مائة سنة ، والمعنى أهلكنا كثيراً من الأمم السالفة من أجل الكفر ، وتكذيب الرسل فعليكم أن تحذروا يا كفار مكة من تكذيب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الكفر بما جاء به لئلا نهلككم بسبب ذلك كما أهلكنا به القرون الكثيرة الماضية .

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل :

الأولى : أنه أهلك كثيراً من القرون الماضية ، يهدد كفار مكة بذلك .

الثانية : انهم نادوا أي عند معاينة أوائل الهلاك .

الثالثة : أن ذلك الوقت الذي هو وقت معاينة العذاب ليس وقت نداء ، أي فهو وقت لا ملجأ فيه ، ولا مفر من الهلاك بعد معاينته .

وقد ذكر جل وعلا هذه المسائل الثلاث المذكورة هنا موضحة في آيات كثيرة من كتابه .

أما المسألة الأولى : وهي كونه أهلك كثيراً من الأمم ، فقد ذكرها في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القرون مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : 17] وقوله تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ [الحج : 45] الآية . وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ [ابراهيم : 9] الآية . والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقد ذكر جل وعلا في آيات كثيرة أن سبب إهلاك تلك الأمم الكفر بالله وتكذيب رسله كقوله في هذه الآية الأخيرة مبيناً سبب إهلاك تلك الأمم التي صرح بأنها (لا يعلمها إلا الله) ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات فردوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وقالوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [ابراهيم : 9] .

وقد قدمنا في الكلام على هذه الآية من سورة إبراهيم ، أقوال العلم في قوله تعالى : ﴿ فردوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [إبراهيم : 9] وبينا دلالة القرآن على بعضها ، وكقوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ [الطلاق : 89] وقوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ الرسل أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ﴾ [الفرقان : 37] إلى قوله تعالى : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَأَصْحَابَ الرس وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ [الفرقان : 3839] وقوله تعالى : ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص : 14] وقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق : 14] والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وقد بين تعالى أن المراد بذكر إهلاك الأمم الماضية بسبب الكفر وتكذيب الرسل تهديد كفار مكة ، وتخويفهم من أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك إن تمادوا على الكفر وتكذيبه صلى الله عليه وسلم .

ذكر تعالى ذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ

وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : 10] لأن قوله تعالى : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ تهديد عظيم بذلك .

(180/659)

وقوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هو : 8283] فقوله : وما هي من الظالمين ببعيد فيه تهديد عظيم لمن يعمل عمل قوم لوط من الكفر وتكذيب نبيهم ، وفواحشهم المعروفة ، وقد وبخ تعالى من لم يعتبر بهم ، ولم يحذر أن ينزل به مثل ما نزل بهم ، كقوله في قوله لوط : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137138] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القرية التي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السوء أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾ [الفرقان : 40] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : 35] . وقوله فيهم : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : 76] . وقوله فيهم وفي قوم شعيب ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 79] والآيات بمثل ذلك كثيرة .

وأما المسألة الثانية : وهي نداؤهم إذا أحسوا بأوائل العذاب فقد ذكر تعالى في آيات من كتابه نوعين من أنواع ذلك النداء .

(181/659)

أحدهما : نداؤهم باعترافهم أنهم كانوا ظالمين ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ [الأنبياء : 11] وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 1415] وقوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأعراف : 45] .

الثاني : من نوعي النداء المذكور نداؤهم بالإيمان بالله مستغيثين من ذلك العذاب الذي أحسوا أوائله ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّةَ اللّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : 8485] وهذا النوع الأخير هو الأنسب والأليق بالمقام ، لدلالة قوله : ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [ص : 3] عليه .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ الذي هو المسألة الثالة ، معناه : ليس الحين الذي نادوا فيه ، وهو وقت معاينة العذاب ، حين مناص ، أي ليس حين فرار ولا ملجأ من ذلك العذاب الذي عاينوهز

فقوله : ولات هي لا النافية زيدت بعدها تاء التأنيث اللفظية كما زيدت في ثم ، فقيل فيها ثمت ، وفي رب ، فقيل فيها ربت .

(182/659)

وأشهر أقوال النحويين فيها ، أنها تعمل عمل ليس وأنها لا تعمل إلا في الحين خاصة ، أو في لفظ الحين ونحوه من الأزمنة ، كالساعة والأوان ، وأنها لا بد أن يحذف اسمها أو خبرها والأكثر حذف المرفوع منهما وإثبات المنصوب ، وربما عكس ، وهذا قول سيبوية وأشار إليه ابن مالك في الخلاصة بقوله :

في النكرات أعملت كليس " لا " . . . وقد تلى " لات " و " أن " ذا العملا

وما للات في سوى حين عمل . . . وحذف ذي الرفع فشا والعكس قل

والمناص مفعل من النوص ، والعرب تقول : ناصه ينوصه إذا فاته وعجز عن إدراكه ، ويطلق المناص على التأخر لأن من تأخر ومال إلى ملجأ ينقذه مما كان يخافه فقد وجد

المناص .

والمناص والملجأ والمفر والمؤئل معناها واحد ، والعرب تقول : استناص إذا طلب المناص ، أي السلامة والمفر مما يخافه ، ومنه قول حارثة بن بدر :

غمر الجراء إذا قصرت عنانة بيدي استناص ورام جري المسحل

والأظهر أن إطلاق النوص على الفوت والتقدم ، وإطلاقه على التأخر والروغان كلاهما راجع إلى شيء واحد . لأن المناص مصدر ميمي معناه المنطبق على جزئياته ، أن يكون صاحبه في كرب وضيق ، فيعمل عملاً ، يكون به خلاصه ونجاته من ذلك .

فتارة يكون ذلك العمل بالجري والإسراع أمام من يريده بالسوء ، وتارة يكون بالتأخر والروغان حتى ينجو من ذلك .

والعرب تطلق النوص على التأخر . والبوص بالباء الموحدة التحتية على التقدم ، ومنه قول امرئ القيس :

أمن ذكر سلمى إذ نأتك تنوص فتقصر عنها خطوة وتبوص

وأصوب الأقوال في لات أن التاء منفصلة عن حين وأنها تعمل عمل ليس خلافاً لمن قال : إنها تعمل عمل إن ، ولمن قال : إن التاء متصلة بحين وأنه رآها في الإمام ، وهو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه متصلة بها .

وعلى قول الجمهور منهم القراء السبعة ، أن التاء ليست موصوله بحين ، فالوقف على لات بالتاء عند جميعهم ، إلا الكسائي فإنه يقف عليها بالهاء .

(183/659)

أما قراءة كسر التاء وضمها فكلتاهما شاذة لا تجوز القراءة بها ، وكذلك قراءة كسر النون من حين ، فهي شاذة لا تجوز ، مع أن تخريج المعنى عليها مشكل .

وتعسف له الزمخشري وجهاً لا يخفى سقوطه ، ورده عليه أبو حيان في البحر المحيط ، واختار أبو حيان أن تخريج قراءة الكسر أن حين مجرورة بمن محذوفة .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أصل النداء : رفع الصوت ، والعرب تقول : فلان أندى صوتاً من فلان ، أي أرفع ، ومنه قوله :

فقلت ادعى وأدعو إن أندا لصوت أن ينادي داعيان

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الأمم الماضية المهلكة ينادون عند معاينة العذاب ، وأن ذلك الوقت ليس وقت نداء إذ لا ملجأ فيه ولا مفر ولا مناص . ذكره في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر : 8485] الآية . وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ

أَحَسُّواْ بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ لاَ تَرْكُضُواْ وارجعوا إلى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ قَالُواْ يا ويلنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حتى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 1215] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد بين تعالى وقوع مثل ذلك في يوم القيامة في آيات من كتابه تعالى :

(184/659)

﴿ استجيبوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى : 47] . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ البصر وَخَسَفَ القمر وَجُمِعَ الشمس والقمر يَقُولُ الإنسان يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفر كَلاَّ لاَ وَزَرَ ﴾ [القيامة : 711] والوزر : الملجأ ، ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه

والناس إلب علينا فيك ليس لنا . . . إلا الرماح وأطراف القنا وزر

وكقوله تعالى : ﴿ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ [الكهف : 58] والموئل اسم مكان من وأل يئل إذا وجد ملجأ يعتصم به ، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس :

وقد أخالس رب البيت غفلته . . . وقد يحاذر مني ثم مائيل

أي ثم ما ينجو

قوله تعالى : ﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن كفار قريش عجبوا من أجل أن جاءهم رسورل منذر منهم ، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، من عجبهم المذكور ، ذكره في غير هذا الموضع ، وأنكره عليهم وأوضح تعالى سببه وروده عليهم في آيات أخر ، فقال في عجبهم المذكور ﴿ ق والقرآن المجيد بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ق : 12] .

وقال تعالى في إنكاره عليهم في أول سورة يونس ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ الناس ﴾ [يونس : 12] وذكر مثل عجبهم المذكور في سورة الأعراف عن قوم نوح وقوم هود ، فقال عن نوح مخاطباً لقومه ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ على رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : 63] .

(185/659)

وقال عن هود مخاطباً لعاد : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ على رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف : 69] الآية ، وبين أن سبب عجبهم من كون منذر منهم أنه بشر مثلهم زاعمين أن الله لا يرسل إليهم احداً من

جنسهم . وأنه لو أراد أن يرسل إليهم أحداً لأرسل إليهم ملكاً لأنه ليس بشراً مثلهم وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يمشي في الأسواق .

(186/659)

والآيات في ذلك كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 9495] وقوله تعالى : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون : 47] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ المَلأ مِن قَوْمِهِ الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الآخرة وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحياة الدنيا مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون : 3343] . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن : 6] . وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر فقالوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : 2324] الآية . وقوله تعالى : ﴿ قالوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم : 10] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ

أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : 89] وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَآءَتْهُمُ الرسل مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا

(187/659)

لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت : 1314] وقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ الله لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بهذا في آبَآئِنَا الأولين ﴾

[المؤمنون : 24] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ يا أيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بالملائكة إِن كُنتَ مِنَ الصادقين مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر : 68] وقوله تعالى : ﴿ لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 7] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبَّنَا لَقَدِ استكبروا في أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان : 2122] الآية . وقوله تعالى عن فرعون مع موسى : ﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ

مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الملائكة مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف : 53] .

وقد رد الله تعالى على الكفار عجبهم من إرسال الرسل من البشر في آيات من كتابه .

(188/659)

كقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق ﴾ [الفرقان : 20] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد : 38] وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى ﴾ [يوسف : 109] وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ فاسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 78] وقوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [ابراهيم : 11] أي بالرسالة والوحي ولو كان بشراً مثلكم إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا وَاصْبِرُواْ على آلِهَتِكُمْ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ

آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ [الفرقان : 42] .

قوله تعالى : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ .

(189/659)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن كفار مكة ، أنكروا أن الله خص نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بإنزال القرآن عليه وحده ، ولم ينزله على أحد آخر منهم ، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، جاء في آيات أخر ، مع الرد على الكفار في إنكارهم خصوصه صلى الله عليه وسلم بالوحي ، كقوله تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] يعنون بالقريتين مكة والطائف ، وبالرجلين من القريتين الوليد بن المغيرة في مكة ، وغروة بن مسعود في الطائف زاعمين أنهما أحق بالنبوة منهز

وقد رد جل وعلا ذلك عليهم في قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : 32] لأن الهمزة في قوله : أهم يقسمون ، للإنكار المشتمل على معنى النفي ، وكقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حتى نؤتى مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ الله ﴾ [الأنعام : 124] .

وقد رد الله تعالى ذلك عليهم في قوله : ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الذين

أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾ [الأنعام: 124] وأشار إلى رد ذلك عليهم في آية ص هذه في قوله: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [ص: 810] الآية. لأنه لا يجعل الرسالة حيث يشاء، ويخص بها من يشاء، إلا من عنده خزائن الرحمة. وله ملك السموات والأرض.

(190/659)

وقوله تعالى: ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ قد بين في موضع آخر أن ثمود قالوا مثله لنبي الله صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وذلك في قوله تعالى عنهم: ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر: 25] وقد رد الله تعالى عليهم ذلك في قوله: ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ [القمر: 26].

قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ الآية.

قد قدمنا بعض الكلام عليه في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر: 17].

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ

أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (13) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [الحج : 42] الآية وفي غير ذلك من المواضع .

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16)

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ [الأنعام : 57] . وفي سورة يونس في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ [يونس : 51] الآية وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ [الرعد : 6] الآية . وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ [الحج : 47] الآية .

وقد قدمنا أن القط ، النصيب من الشيء ، أي عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدنا به .

(191/659)

وأن أصل القط كتاب الجائزة لأن الملك يكتب فيه النصيب الذي يعطيه لذلك الإنسان ، وجمعه قطوط ، ومنه قول الأعشى :

ولا الملك النعمان حين لقيته . . . بغبطته يعطي القطوط ويأفق

وقوله : ويأفق أي يفضل بعضهم على بعض في العطاء المكتوب في القطوط .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوَّابٌ ﴾ .

وقد قدمنا الآيات الموضحة له ، في سورة الأنبياء ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ والطير وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : 79] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فاستغفر رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ الآية .

قد قدمنا الكلام على مثل هذه الآية ، من الآيات القرآنية التي يفهم منها صدور بعض الشيء ، من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وبينا كلام أهل الأصول في ذلك في سورة طه ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121] .

واعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة ، مما لا يليق بمنصب داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، كله راجع إلى الإسرائيليات ، فلا ثقة به ، ولا معوّل عليه ، وما جاء منه مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح منه شيء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) ﴾

داود . . وما خطيئته ؟

قلنا إن اللّه سبحانه وتعالى ، حين دعا النبي - صلى اللّه عليه وسلم - إلى الصبر ، لفته - فى رفق ولطف - إلى ألا يكون كداود عليه السلام فيما ابتلى به ، فلم يكن على المستوي المطلوب منه فى مواجهة هذا الابتلاء . . وقلنا إن ذلك لا ينقص من قدر هذا النبي الكريم ، وإن كان يزيد فى قدر النبي محمد - صلوات اللّه وسلامه عليه - ويشير إلى المقام الذي يجب أن يرتفع إليه ، متجاوزا مقام داود عليه السلام - وإن كان مقاما رفيعا عظيما . .

والذي نريد أن نقف عنده هنا ، هو : ماذا كان من داود عليه السلام ، فيما ابتلى به ، مما لفت النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - إلى أن يذكره فى مقام الصبر ، وأن يكون له من ذكره عبرة وعظة . . ؟

فماذا كان من داود عليه السلام ؟

تحدّث الآيات السابقة عن قصة حدثت لداود عليه السلام ، وتذكر أن خصمين دخلا

عليه مجلسه فى صورة غير مألوفة ، إذ تسورا عليه السور ، ولم يدخلا من المدخل الطبيعي إليه . . ففزع منهما ، وتوقع الشر من دخولهما على تلك الصورة ، التي يقتحمان عليه فيها مجلسه اقتحاما ، من غير استئذان ، وهو

(193/659)

الملك ، ذو البأس والسلطان ، الذي تقوم على حراسته الجنود ، والحجّاب . .

فبأىّ سلطان دخل عليه هذان الخصمان ؟ وكيف نفذا إليه ؟ وأين عيون الجند والحرس ؟ إن فى ملكه إذن لخللا ، وإن فى سلطانه لثغرة يمكن أن ينفذ منها الشر إليه ! ! ولكن سرعان ما يكشف الخصمان عن شخصيتهما ، فيهدئان من روعه ، ويقولان له : « لا تخف » ! ! ومم يخاف وهو السلطان ذو البأس والقوة ؟

وهل هما إلا بعض رعاياه ؟ وهل يخاف الراعي من رعيته ؟ وهو حصن أمنها ، وموطن سكنها ؟ وإذا كان ثمة خوف فهو خوف الرعية من سلطانها ، لا خوف السلطان من رعيته ! ! إن فى الأمر إذن لشيئا . ويمضى الخصمان يعرضان أمرهما : « خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ » ! ! ويزداد داود عجبا إلى عجب ، من هذا الأمر الصادر من المخصمين إليه : « فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ

» هكذا بالأمر ! وهل يحكم بغير الحق ؟

وهل يتوقعان منه غير هذا ؟ وإذا كانا يتوقعان غير ذلك ، فهل لهما أن يصدرا إليه هذا الأمر ؟ بل هل لهما أن يجهرا بما تحدثهما به نفسهما من جهته ؟ إن فى الأمر لأكثر من شى ء ؟ . . ثم لا يقف أمر الخصمين عند هذا الأمر الصريح لداود بأن يكون عادلا فى حكمه بينهما ، بل إنه ليحذّر منهما بألا يشتط فى الجور ، إن كان لا يملك أن يعدل أو لا يحسن أن يقيم ميزان العدل مستقيما . .

« ولا تشطط » ! ! تلك هى مقدمات القضية . . أما القضية ، فلم يرض الخصمان أن يعرضاها إلا بعد أن اشترطا لنفسهما على داود ، أن يكون عادلا فى الحكومة بينهما ، وألا يجور فى الحكم . . فإن قبل منهما هذا الشرط ، عرضا عليه أمرهما ، ورضياه حكما بينهما ، وإلا كان لهما شأن آخر معه . . ! إن الأمر فيما يبدو هو محاكمة لداود ، أكثر منه احتكاما إليه ؟ .

(194/659)

وأعجب ما فى الموقف هنا ، أن الخصمين يتفقان على هذا الأمر ، ويقفان موقفا واحدا فيه ، حتى لكأن كلا منهما قد وقع فى نفسه ، ما وقع فى نفس صاحبه ، من اتهام لداود

فى عدله ! . . والقضية ـ كما سنرى ـ واضحة لا تحتاج إلى نظر دقيق فى التعرف على وجه الحق فيها . . إذ كان الظلم فيها صارخا ، يكاد يمسك بتلابيب أحدهما . . فكيف يساغ لهذا الظالم ذلك الظلم الصارخ ، أن يطلب العدل ، وأن يتشدد فى طلبه ؟ إن فى القضية لأشياء وأشياء ، تخرج بها عن مألوف ما يجرى بين الناس من قضايا ، وما يقع من خصومات .

فما القضية ؟ .

إنها قضية موجزة ، واضحة ، قد جمعها القرآن الكريم فى كلمات :

« إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ » ! ! .

هذه هى القضية :

أخوان فى النسب ، أو فى الإنسانية ، لأحدهما تسع وتسعون نعجة ، وللآخر نعجة واحدة . . وصاحب التسع والتسعين نعجة ، لا يقنع بما فى يده ، بل يمدّ عينه إلى أخيه صاحب النعجة الواحدة ، ثم لا يزال به حتى يسلبه نعجته ، ويخلى يديه من كل شىء ، حتى يصبح هو صاحب مائة . . فيكمل بتلك النعجة ما يراه نقصا فى تمام العدد . . وإن تسعا وتسعين عدد ناقص ، ومائة عدد كامل . . فلا بد إذن أن يكملّ هذا العدد ، ولو كان بحرمان صاحب النعجة الواحدة ، من نعجته . . !

وماذا يفعل صاحب القليل بقليله هذا ؟ إنه لا غناء له فيه ، وإنه ليسدّ خللا فيما بين يدى صاحب الكثير ، ويكمل نقصا واضحا فيه . . فماذا عليه

(195/659)

لو ضاع منه هذا القليل ، ليوضع فى موضعه الذي ينتظره عند صاحب الكثير ؟

هكذا قدّر صاحب الكثير ، وهكذا أمضى حكمه فى صاحبه ! .

والظلم واضح صريح فى هذه القضية . . ولهذا بادر داود ببيان وجه الحق فيها ، على حسب ما سمع من المدعى : فقال ـ معلقا على دعواه :

«لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ» ! إن الأمر ـ فيما يبدو ـ ظلم صارخ ، وعدوان مبين . !

ولم يلتفت داود إلى الظالم ، ولم يواجهه بالحكم الذي يقتضيه الموقف ، بل عاش لحظاته تلك ، مع هذا المظلوم ، يواسيه ، ويخفف عنه مرارة الظلم الذي تجرعه من يد أخيه . . فيقول له : « وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ . . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ» . . فلست أنت يا صاحبى أول من ظلم من معاشريه ومخالطيه . . فما

أكثر بغى الخلطاء بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء الخلطاء . . وقليل هم أولئك الذين لا يظلمون ! .

وهنا يبحث داود عن هؤلاء القليل فى الناس ، ويتفرس فى وجوههم ، ثم يلتفت إلى نفسه ، وهل هو واحد من هؤلاء القليل ؟ وهنا يطلع عليه من صفحة أعماله ما يراه غير قائم على ميزان العدل . . وسرعان ما يرى نفسه طرفا فى هذه القضية التي بين يديه ، وأنه يأخذ موقف المدعى عليه فيها ، وأن هذا المدعى إنما يقيم دعواه عليه هو ، لا على هذا الشخص الذي جاء به إليه . . إن هذا الشخص ما هو إلا المرآة التي يرى فيها داود نفسه ! .

ومن إعجاز القرآن فى هذا ، أنه لم يضع هذا المدعى عليه موضع اتهام ،

(196/659)

فلم يسأل فى هذا الادعاء المدعى عليه به ، ولم يوجّه إليه أي حديث ، بل كان الحديث كله بين داود وبين صاحب الدعوى . . إذ يقول له معلقا على دعواه :

« لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ » . . وكان الموقف يقتضى أن يقول للمدعى عليه « لقد ظلمته بسؤال نعجته إلى نعاجك » ! . فما جوابك على هذا ؟ .

لم يكن شيء من هذا . . بل لقد ذهب الخصمان ، دون أن يفصل بينهما فيما اختصما فيه . . ويخليان مكانهما للخصمين اللذين هما أولى منهما بهذا الموقف :

داود وخصمه ، الذي تمثّل له فى خطيئته . .

وهنا يدرك داود أن هذين الخصمين ، إنما هما ابتلاء من اللّه سبحانه وتعالى له ، ليكشفا له عن أمر كان منه ، فيه مشابه كثيرة من هذه القضية التي بين يديه ، فيذكر هذا الأمر ، ويكون له من ذكره امتحان وابتلاء ، حيث يلتمس السبل فى تخليص نفسه مما وقع فيه ، فلا يجد إلا التوبة إلى اللّه ، والاستغفار لذنبه ، وهو فى ذلك المقام يتقلب على جمر من الحسرة والندم ، قد كربه الكرب واستبد به الجزع على ما فرّط فى جنب اللّه . . إنه أعرف بربه ، وبجلاله وعظمته ، وقدرته ، وبالنعم السابغة التي أضفاها عليه ، ثم هو أعرف بما للّه من غيرة على حرماته ، كما هو أعرف بما للّه من حساب لأوليائه على صغائرهم ، وهم فى هذا المقام الكريم الذي أنزلهم فيه . .

ومن هنا كان داود فى فتنة قاسية ، وابتلاء عظيم ، بعد أن كشفت له تلك القضية عن حال من أحواله ، لا يرضاه عنه ربه ، فغامت نفسه ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت . . وقد ظل هكذا فى كرب وبلاء عظيمين ، يستغفر ربه ، ويذرف دموع الندم ، إلى أن تلقى إشارة السماء بمغفرة اللّه سبحانه وتعالى له ، ورضوانه عنه ، وإحسانه إليه ! !

إنها هفوة من هفوات النفس البشرية ، وهى فى حساب الناس لا تكاد تعدّ شيئا ، بل حتى لا تحسب من اللمم المعفو عنه ، ولكنها فى مقام الأنبياء والرسل شىء عظيم ، وذنب كبير . . !

ونكاد نقف عند هذا الحد من هذه القضية ، أو القصة . فهذا ما نأخذه من آيات اللّه ، ودلالاتها القريبة ، دون تعسف فى التأويل ، ودون استجلاب للمقولات الغريبة ، التي تحمل عليها آيات اللّه حملا . .

نقول ، نكاد نقف عند هذا الحدّ من تلك القضية ، وحسبنا أن نعرف مما تحدثنا به آيات اللّه ، أنه كان من نبى من أنبياء اللّه الكرام هفوة ، ثم كان له من اللّه سبحانه ألطاف ، فتاب إلى اللّه واستغفر لذنبه ، فغفر اللّه له ، وزاد مقامه عنده رفعة ـ نقول ـ مرة ثالثة ـ كنا نريد أن نقف عند هذا الحد لا نتجاوزه ، ولكنا نجد بين أيدينا ، كتب التفاسير كلها ، قد جاءت بمقولات من وراء دلالات الآيات القرآنية ، وأكثرها مأخوذ عن روايات إسرائيلية يرويها اليهود عن كتابهم الذي حرّفوه ، وألقوا فيه بأهوائهم الفاسدة ، ومنازعهم الخبيثة . .

ثم توسّع الرواة والنقلة فى هذه المقولات ، وتصرفوا فيها كيف شاءوا ، ومن وراء ذلك اليهود ، يدسّون على المسلمين أحاديث عن الرسول ، يضعون لها سلسلة من الرواة الذين اشتهر عنهم الحديث عن رسول اللّه ، فتقع هذه الأحاديث المكذوبة من قلوب المسلمين

موقعا ، لا يجدون معه سبيلا إلى دفعها ، وإذا حصيلة هذه الأحاديث المكذوبة ، مجموعة من المتناقضات ، يدفع بعضها بعضا ، ويكذّب بعضها بعضا ، فلا يدرى المرء ماذا يأخذ منها وماذا يدع . وفى أكثر الأحوال ينتهى الأمر إلى الشك فيها جملة . . إذ كانت لا تتصل بالعقيدة أو الشريعة . .

(198/659)

وهذه قضية قد عرضنا لها فى أكثر من موضع ، وربما عرضنا لها فى دراسة خاصة - إذا شاء اللّه - بعد أن يعيننا اللّه سبحانه ، على أداء هذه المهمة التي نقوم بها فى خدمة كتابه الكريم ، . فإن مثل هذه الأحاديث التي تنسب إلى الرسول الكريم ، وإن لم تكن ذات أثر فى العقيدة أو الشريعة ، فإنها تسبب إزعاجا ، وخلخلة فى نفس المسلم إزاء الأحاديث النبوية الشريفة ، وتقيمه منها على مقام بين الشك واليقين ، فى كل ما يعرض له من أحاديث تنسب إلى الرسول . . وتلك هى جناية الأحاديث المكذوبة والملفقة على السنّة ، التي هى المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم .

ونعود فنقول :

إن الذي يدعونا إذن إلى الوقوف عند هذه القصة - قصة داود عليه السلام - هو تلك

المقولات الكثيرة المتناقضة المتضاربة ، التي قيلت عن الهفوة التي كانت من هذا النبي الكريم . . ولا نريد أن نعرض هذه المقولات ، ونناقشها ، ونعدّل أو نجرّح فيها ، فهذا يحتاج إلى بحث طويل ، يستنفد منا جهدا نحن حريصون على ألا يكون لغير كتاب اللّه . .

وإذن فلن نقول هنا فى هذه الهفوة ، وفى الكشف عن وجهها إلا قولا واحدا ، نختاره من بين هذه المقولات ، لأنه أقرب شىء إلى مفهوم تلك الإشارة الخصية التي يراها الناظر بقلبه وبعقله فى الآيات الكريمة التي تحدثت عن تلك القصة .

فالآيات القرآنية ، تحدث عن أن داود عليه السلام ، قد آتاه اللّه سبحانه ملكا ، وقد مكّن له فى هذا الملك - إلى جانب النبوة التي اختصه اللّه سبحانه بها ، فجمع للّه سبحانه بهذا بين يديه السلطة الدينية والدنيوية معا . .

(199/659)

هذه واحدة . .

وأخرى ، هى أن هذا النبي الكريم ، وإن لم تكن له رسالة خاصة فى قومه ، فإن رسالته فيهم ، كانت امتدادا لرسالة موسى . فهو - والأمر كذلك - لم يكن فى رسالته إليهم إلا أن يقيمهم على الشريعة التي فى أيديهم ، وأن يحقق العدل الذي اختلت موازينه فى أيديهم . .

وهذه ثانية . .

وثالثة ، هى أن معركة هذا النبىّ وميدانها ، هو فى هذا الصراع الذي يقوم بين السلطتين اللتين فى يديه . . سلطة الدين الذي يمثل سلطان اللّه الذي وضعه فى يده بمنصب النبوة ، وسلطة الدنيا التي تتمثل فى هذا الملك الذي يقوم عليه . .

ومن هنا كان على داود ـ عليه السلام ـ أن يمسك ميزان العدل فى يديه ، وأن يقيمه بالقسط ، فلا يميل ولا ينحرف . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ » الآية . .

ورابعة . . وهى أن إقامة هذا الميزان على حال سوى متوازن دائما ، أمر لا تكاد تحتمله طاقة البشر ، فقد يكون فى طاقة الإنسان أن يعمل للملك وحده ، فلا يعطى للدين ولا للآخرة شيئا . . وقد يكون فى طاقته أن يعمل للدين وحده ، فلا يعطى الدنيا من نفسه شيئا . . هذا وذاك أمران ممكنان . . وممكن كذلك ، أن يجمع الإنسان بين السلطان فى الدنيا ، والعمل للآخرة . . وذلك بأن يعمل للآخرة ، وأن يمسك بطرف من السلطان الدنيوي أو أن يعمل للدنيا ، ويمسك بطرف من الآخرة . . أما أن يجمع بين الدين والدنيا هذا الجمع المتوازن ، المستقيم على خط هندسى . . فهذا هو لذى لا يمكن أبدا . .

وننظر إلى داود ـ عليه السلام ـ فى موقفه هذا :

إنه سلطان ، يملك دنيا عريضة . . ولهذه الدنيا إغراؤها ، وشهواتها . .

وإنه نبى كريم . وللنبوة خطرها ، وجلالها ، وسموّها . .

والمطلوب منه هنا ، هو أن يجمع بين السماء والأرض . . أن يلبس الملك والنبوة معا . . فلا يرى فى حال من أحواله إلا ملكا نبيّا ، أو نبيّا ملكا . .

إنه ملك من عند اللّه ، ونبىّ من عند اللّه ، يسوس الملك بالنبوة ، ويؤيد النبوة بالملك ! . .

ولا شك أن هذا فضل عظيم ، ولكنه ابتلاء عظيم أيضا ، ولهذا كان هذا الإلفات السماوىّ لداود ، أن يأخذ حذره ، إذ يقول له الحق جل وعلا : « يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . . إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ » . ولهذا أيضا كان تقبل اللّه سبحانه لداود ، وتجاوزه عن ذنبه ، إذ كان إنما حمل أمرا عظيما ، تغتفر له فيه الهنات ، وتقال فيه العثرات ! فما هى هفوة هذا النبىّ الكريم ، وما هى عثرته ؟

إنها - واللّه أعلم - ملففة فى ستر من ألطاف اللّه ورحمته ، فيما كان من تلك القضية التي عرضها عليه الخصمان : « خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ » إن القضية تمثل صراعا بين قوىّ وضعيف . . بين من

يملك الكثير الكثير ، ومن لا يملك إلا القليل القليل . . بين صاحب سلطان يعتز بسلطانه ، ويمضى الأمور بكلمة تصدر من فمه ، وبين من لا يملك الكلمة بقولها أمام هذا السلطان !

. .

(201/659)

وداود - عليه السلام - يمثّل السلطان فى أعزّ مكان ، وأقوى سلطان . .

وبكلمة منه إلى أحد رعاياه نزل له هذا الرعية عن شىء - هو أعز ما يملك - كانت نفس داود قد مالت إليه ، ورغبت فيه . . ولم يستطع هذا « الرعية » أن يقول : لا . . توقيرا وهيبة ، أو خوفا وإشفاقا . .

وفى قوله تعالى : « وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ » - إشارة إلى أن كلمة « داود » كانت حكما قاطعا ، وقضاء نازلا ، لم يستطع له هذا « الرعية » ردّا .

يقال : عز فلان ، أي صار ذا عزة ، وعز فلان فلانا ، أي غلبه .

وفى المثل : « من عزّ بزّ » أي من قوى ، غلب وسلب ! وماذا أخذ « داود » من هذا الإنسان ؟

إنه شىء ما ، عزيز على هذا الإنسان ، مستغن به . . قد يكون فرسا ، يضمه داود إلى

مقتنياته من جياد الخيل . . وقد يكون مزرعة بين مزارع داود . . وليس من الحتم أن يكون امرأة ، كما ذهب إلى ذلك أكثر المفسرين ، مستندين فى هذا إلى ما جاء فى قضية الخصمين ، وإلى أن النزاع كان بينهما على « نعجة » . . والنعجة تطلق فى لسان العرب على المرأة ! ! ولو سلمنا بهذا ، لكان لنا أن نقول ، إن هذا مثل ، تراد دلالته ، ولا تراد صورته . .

فلو ذهبنا نأخذ صورة المثل هنا ، لكان من الحتم أن يكون لداود تسع وتسعون امرأة . . وهذه الكثرة فى النساء ، إن فرض التسليم بها ، فلم يوقف بها عند هذا العدد بالذات ؟ . ولم لا تزيد أو تنقص ؟

إن دلالة التسع والتسعين ـ كما قلنا ـ هى دلالة على أمرين :

أولا : كثرة الشيء ووفرته . .

وثانيا : نقص هذه الكثرة ، وحاجتها لشىء يبلغ به تمامها ، حتى تكون مائة ! .

(202/659)

هذه هى القصة أو القضية . . وقد أدين فيها داود ، أدان نفسه وحكم عليها بهذا اللوم الصارخ ، وهذا الاستغفار الدائب ، والضراعة السابحة فى دموع الندم . . ولعل هذا

الصوت الشجى ، المحمّل بزفرات الحسرة ، ونشيج الحرقة ، الذي كان يسبّح به داود ، ويتلو به آيات الزبور ، على أنغام مزاميره ، فتهتز له الجبال ، وتصغى إليه الطير . لعل هذا الصوت كان من مواليد هذه المحنة ، التي ولدت لداود أكثر من مولود ، ورفدته بأكثر من عطاء من عطايا اللّه ومننه . .

أمّا ما تقول به التوراة ، وما تلقاه عنهم المفسّرون ، ودعموه بالأحاديث من أن داود قد وقع فى حب امرأة قائد من قواد جيشه اسمه « أوريا » وأنه أراد أن يستخلص المرأة لنفسه ، بعد أن رآها من قصره وهى تستحم فى فى دارها القائمة تحت قصره ، أو وهى تمشط شعرها . فكان من تدبيره لهذا أن بعث بهذا القائد فى مهمة حربية ، وجعله فى مواجهة الموت الراصد له هناك . . فلما قتل فى المعركة تزوج داود امرأته . فهذا قول فيه جرأة على مقام هذا النبي ، الأمر الذي كان لا يتورع عنه اليهود مع أنبياء اللّه ، أحياء وأمواتا ، أو قتلى بأيديهم ، فضلا عن أن هذا العمل المشين مدفوع بأكثر من دفع ، على حسب ما جاء فى القرآن الكريم ، منطوقا ومفهوما ، كما رأينا . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 12 صـ 1065 . 1075 ﴾

(203/659)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) ﴾

جملة ﴿ وهل أتاكَ نَبأ الخصم ﴾ معطوفة على جملة ﴿ إنَّا سخرنا الجبال معه ﴾ [ص : 18] .

والإِنشاء هنا في معنى الخبر ، فإن هذه الجملة قصت شأناً من شأن داود مَع ربه تعالى فهي نظير ما قبلها .

والاستفهام مستعمل في التعجيب أو في البحث على العلم فإن كانت القصة معلومة للنبيء صلى الله عليه وسلم كان الاستفهام مستعملاً في التعجيب وإن كان هذا أول عهده بعلمها كان الاستفهام للحث مثل ﴿ هل أتاكَ حديثُ الغاشِيَةِ ﴾ [الغاشية : 1] .

والخطاب يجوز أن يكون لكل سامع والوجهان الأولان قائمان .

والنبأ : الخبر .

والتعريف في ﴿ الخَصْمِ ﴾ للعهد الذهني ، أي عهد فرد غير معيّن من جنسه أي نبأ خصم معيّن هذا خبره ، وهذا مثل التعريف في : ادخل السوق .

والخصام والاختصام : المجادلة والتداعي ، وتقدم في قوله : ﴿ هذان خصمان ﴾ في سورة [الحج : 19] .

و ﴿ الخصم ﴾ : اسم يطلق على الواحد وأكثر ، وأريد به هنا خصمان لقوله بعده ﴿

خَصْمَانِ ﴾ .

وتسميتهما بالخصم مجاز بعلاقة الصورة وهي من علاقة المشابهة في الذات لا في صفة من صفات الذات ، وعادة علماء البيان أن يمثلوها بقول القائل إذَا رأى صورة أسد : هذا أَسد .

وضمير الجمع مراد به المثنى ، والمعنى : إذ تسورا المحراب ، والعرب يعدلون عن صيغة التثنية إلى صيغة الجمع إذا كانت هناك قرينة لأن في صيغة التثنية ثقلاً لنْدرة استعمالها ، قال تعالى : ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ [التحريم : 4] أي قلباكما .

و ﴿ إذْ تَسَوَّرُوا ﴾ إذا جعلت ﴿ إذ ﴾ ظرفاً للزمن الماضي فهو متعلق بمحذوف دل عليه ﴿ الخَصم ﴾ ، والتقدير : تحاكم الخصم حين تَسوروا المحراب لداود .

ولا يستقيم تعلقه بفعل ﴿ أتاكَ ﴾ ولا بـ ﴿ نَبَأُ ﴾ لأن النبأ الموقت بزمنِ تسوّر الخصم محراب داود لا يأتي النبي صلى الله عليه وسلم

(204/659)

ولك أن تجعل ﴿ إذ ﴾ اسماً للزمن الماضي مجرداً عن الظرفية وتجعله بدل اشتمال من ﴿ الخصم ﴾ لما في قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها ﴾ [مريم :

16] ، فالخصم مشتمل على زمن تسورهم المحراب ، وخروج ﴿ إذ ﴾ عن الظرفية لا يختص بوقوعها مفعولاً به بل المراد أنه يتصرف فيكون ظرفاً وغير ظرف .

والتسور : تفعل مشتق من السور ، وهو الجدار المحيط بمكان أو بلدٍ يقال : تَسوّر ، إذا اعتلى على السور ، ونظيره قولهم : تسنم جملَهُ ، إذا علا سَنامه ، وتَذَرأه إذا علا ذروته ، وقريب منه في الاشتقاق قولهم : صَاهى ، إذا ركب صهوة فرسه .

والمعنى : أن بيت عبادة داود عليه السلام كان محوطاً بسُور لئلا يدخله أحد إلا بإذن من حارس السور .

و﴿ المحراب ﴾ : البيت المتّخذ للعبادة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب ﴾ في سورة [سبأ : 13] .

و﴿ إذْ دَخلُوا ﴾ بدل من ﴿ إذْ تَسَوَّرُوا ﴾ لأنهم تسوروا المحراب للدخول على داود .

والفزع : الذُّعر ، وهو انفعال يظهر منه اضطراب على صاحبه من توقع شدة أو مفاجأة ، وتقدم في قوله : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ في سورة [الأنبياء : 103] .

قال ابن العربي في كتاب "أحكام القرآن" : إن قيل : لِم فَزِع داود وقد قويت نفسه بالنبوءة ؟ وأجاب بأن الله لم يضمن له العصمة ولا الأمن من القتل وكان يخاف منهما وقد قال الله لموسى ﴿ لا تَخَفْ ﴾ وقبلَه قيل للوط .

فهم مُؤمَّنون من خوف ما لم يكن قيل لهم إنكم منه معصومون أ هـ .

وحاصل جوابه : أن ذلك قد عرض للأنبياء إذ لم يكونوا معصومين من إصابة الضرّ حتى يؤمّن الله أحدَهم فيطمئن والله لم يؤمن داود فلذلك فزع .

وهو جواب غير تام الإِقناع لأن السؤال تضمن قول السائل وقد قويت نفسه بالنبوءة فجعل السائل انتفاءَ تطرّق الخوف إلى نفوس الأنبياء أصلاً بنى عليه سؤاله ، وهو أجاب بانتفاء التأمين فلم يطابق سؤال السائل .

(205/659)

وكان الوجه أن ينفي في الجواب سلامة الأنبياء من تطرق الخوف إليهم .

والأحسن أن نجيب:

أولاً : بأن الخوف انفعال جبليّ وضعه الله في أحوال النفوس عند رؤية المكروه فلا تخلو من بوادره نفوس البشر فيعرض لها ذلك الانفعال بادِيءَ ذي بَدءٍ ثم يطرأ عليه ثبات الشجاعة فتدفعه على النفس ونفوس الناس متفاوتة في دوامه وانقشاعه ، فأمَّا إذا أمَّن الله نبيئاً فذلك مقام آخر كقوله لموسى ﴿ لا تخف ﴾ وقوله للنبيء صلى الله عليه وسلم ﴿ فسيكفيكهم اللَّه ﴾ [البقرة : 137] .

وثانياً : بأن الذي حصل لداود عليه السلام فزع وليس بخوف .

والفَزع أعمّ من الخوف إذ هو اضطراب يحصل من الإِحساس بشيء شأنُه أن يتخلص منه وقد جاء في حديث خسوف الشمس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فَزِعاً ، أي مسرعاً مبادراً للصلاة توقّعاً أن يكون ذلك الخسوف نذير عذاب " ، ولذلك قال القرآن ﴿ فَفَزِعَ منهم ﴾ ولم يقل : خاف .

وقال في إبراهيم عليه السلام ﴿ فأوجس منهم خِيفَة ﴾ [الذاريات : 28] أي توجُّساً ما لم يبلغ حدّ الخوف .

وأما قول الخصم لداود ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ فهو قول يقوله القادِم بهيئة غير مألوفة من شأنها أن تريب الناظر .

وثالثاً : أن الأنبياء مأمورون بحفظ حياتهم لأن حياتهم خير للأمة فقد يفزع النبي من توقع خطر خشية أن يكون سبباً في هلاكه فينقطع الانتفاع به لأمته .

وقد جاء في حديث عائشة : "أن النبي صلى الله عليه وسلم أرق ذات ليلة فقال : ليَت رجلاً صالحاً من أصحابي يَحرسِني الليلةَ إذ سمعنا صوت السلاح فقال : من هذا ؟ قال : سَعد بن أبي وقاص جئتُ لأحرسك .

قالت : فنام النبي صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا غطيطه" .

وروى الترمذي : أن العباس كان يحرس النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل قوله تعالى :

﴿ واللَّه يعصمك من الناس ﴾ [المائدة : 67] فتركت الحراسة .

ومعنى ﴿ بَغَى بعضنا ﴾ اعتدى وظلم .

(206/659)

والبغي : الظلم ، والجملة صفة ل ﴿ خَصْمَانِ ﴾ والرابط ضمير ﴿ بعضنا ﴾ ، وجاء ضمير المتكلم ومعه غيره رعياً لمعنى ﴿ خصمان ﴾ .

ولم يبينا الباغي منهما لأن مقام تسكين روع داود يقتضي الإِيجاز بالإِجمال ثم يعقبه التفصيل ، ولإِظهار الأدب مع الحاكم فلا يتوليان تعيين الباغي منهما بل يتركانه للحاكم يعيّن الباغي منهما في حكمه حين قال لأحدهما : ﴿ لقد ظلمكَ بسؤالِ نعجتك إلى نعاجه ﴾ .

والفاء في ﴿ فاحْكم بيننا بالحق ﴾ تفريع على قوله : ﴿ خصمان ﴾ لأن داود عليه السلام لمّا كان مَلِكاً وكان اللذان حضرا عنده خصمين كان طلب الحكم بينهما مفرعاً على ذلك .

والباء في ﴿ بالحق ﴾ للملابسة ، وهي متعلقة بـ ﴿ احكم .

﴿ وهذا مجرد طلب منهما للحق كقول الرجل للنبيء صلى الله عليه وسلم الذي افتدى ابنَه ممن زنى بامرأته : فاحكم بيننا بكتاب اللَّه .

والنهي في ﴿ لا تشطط ﴾ مستعمل في التذكير والإِرشاد .

و﴿ تشطط ﴾ : مضارع أشط ، يقال : أشط عليه ، إذا جَار عليه ، وهو مشتق من الشطط وهو مجاوزة الحد والقدر المتعارف .

ومخاطبة الخصم داود بهذا خارجة مخرج الحرص على إظهار الحق وهو في معنى الذكرى بالواجب فلذلك لا يعدّ مثلها جفاء للحاكم والقاضِي ، وهو من قبيل : اتَّق الله في أمري .

وصدوره قبل الحكم أقرب إلى معنى التذكير وأبعد عن الجفاء ، فإن وقع بعد الحكم كان أقرب إلى الجفاء كالذي قال للنبيء صلى الله عليه وسلم في قسمة قسمها "اعْدِل ، فقال له الرسول : ويلك فمن يعدل إن لم أعدل" .

وقد قال علماؤنا في قول الخصم للقاضي : (اتق الله في أمري) إنه لا يعد جفاء للقاضي ولا يجوز للقاضي أن يعاقبه عليه كما يعاقب من أساء إليه .

وأفتى مالك بسجن فتى ، فقال أبوه لمالك : اتق الله يا مالك ، فوالله ما خُلقت النار باطلاً ، فقال مالك : من الباطل ما فعله ابنك .

فهذا فيه زيادة بالتعريض بقوله فوالله ما خلقت النار باطلاً .

(207/659)

وقولهما : ﴿ واهدنا إلى سواء الصراطِ ﴾ يصرف عن إرادة الجفاء من قولهما : ﴿ ولا تُشْطِط ﴾ لأنهما عرفا أنه لا يقول إلا حقاً وأنهما تطلبا منه الهُدى .

والهدى : هنا مستعار للبيان وإيضاح الصواب .

و ﴿ سواء الصراط ﴾ : مستعار للحق الذي لا يشوبه باطل لأن الصراط الطريق الواسع ، والسواء منه هو الذي لا التواء فيه ولا شُعب تتشعب منه فهو أسرع إيصالاً إلى المقصود باستوائه وأبعد عن الالتباس بسلامته من التشعب .

ومجموع ﴿ اهدنا إلى سواء الصراط ﴾ تمثيل لحال الحاكم بالعدل بحال المرشد الدال على الطريق الموصلة فهو من التمثيل القابِل تجزئة التشبيه في أجزائه ، ويؤخذ من هنا أن حكم القاضي العدل يُحمل على الجري على الحق وأن الحكم يجب أن يكون بالحق شرعاً لأنه هدي فهو والفتيا سواء في أنهما هدي إلا أن الحكم فيه إلزام .

ومعنى ﴿ أَكفِلْنِيها ﴾ اجعلها في كفالتي ، أي حفظي وهو كناية عن الإِعطاء والهبة ، أي هَبْهَا لي .

وجملة ﴿ إنَّ هذا أخِي ﴾ إلى آخرها بيان لجملة ﴿ خصمان بغى بعضنا على بعضٍ ﴾ وظاهر الأخ أنهما أرادا أخوّة النسب .

وقد فرضا أنفسهما أخوين وفرضا الخصومة في معاملات القرابة وعلاقة النسب واستبقاء الصلات ، ثم يجوز أن يكون ﴿ أخِي ﴾ بدلاً من اسم الإِشارة .

ويجوز أن يكون خبر ﴿ إنَّ ﴾ وهو أولى لأن فيه زيادة استفظاع اعتدائه عليه .

و ﴿ عَزّني ﴾ غلبني في مخاطبته ، أي أظهر في الكلام عزّة عليّ وتطاولاً .

فجَعل الخطاب ظرفاً للعزّة مجازاً لأن الخطاب دل على العزة والغلبة فوقع تنزيل المدلول منزلة المظروف وهو كثير في الاستعمال .

والمعنى : أنه سأله أن يعطيه نعجته ، ولمّا رأى منه تمنّعاً اشتدّ عليه بالكلام وهدّده ، فأظهر الخصم المتشكي أنه يحافظ على أواصر القرابة فشكاه إلى الملك ليصدّه عن معاملة أخيه معاملة الجفاء والتطاول ليأخذ نعجته عن غير طيب نفس .

(208/659)

وبهذا يتبين أن موضع هذا التحاكم طلب الإِنصاف في معاملة القرابة لئلا يفضي الخلافُ بينهم إلى التواثب فتنقطع أواصر المبرة والرحمة بينهم .

وقد عَلم داود من تساوقهما للخصومة ومن سكوت أحد الخصمين أنهما متقاربان على ما وصفه الحاكي منهما ، أو كان المدعَى عليه قد اعترف .

فحكم داود بأن سؤال الأخ أخاه نعجته ظلم لأن السائل في غنى عنها والمسؤول ليس له غيرها فرغبة السائل فيما بيد أخيه من فرط الحرص على المال واجتلاب النفع للنفس

بدون اكتراث بنفع الآخر .

وهذا ليس من شأن التحابّ بين الأخوين والإِنصاف منهما فهو ظلم وما كان من الحق أن يسأله ذلك أعطاه أو منعه ، ولأنه تطاول عليه في الخطاب ولامه على عدم سماح نفسه بالنعجة ، وهذا ظلم أيضاً .

والإِضافة في قوله : ﴿ بسؤال نعجتِكَ ﴾ للتعريف ، أي هذا السؤال الخاص المتعلق بنعجة معروفة ، أي هذا السؤال بجذافره مشتمل على ظلم ، وإضافة سؤال من إضافة المصدر إلى مفعوله .

وتعليق ﴿ إلى نعاجه ﴾ ب"سؤال" تعليق على وجه تضمين "سؤال" معنى الضم ، كأنه قيل : بطلب ضم نعجتك إلى نعاجه .

فهذا جواب قولهما : ﴿ فاحكم بيننا بالحق ولا تُشطط ﴾ ثم أعقبه بجواب قولهما : ﴿ واهدنا إلى سواءِ الصراط ﴾ إذ قال : ﴿ وإنّ كثيراً من الخُلطاءِ ليبغي بعضهم على بعضٍ إلاَّ الذين ءَامنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ ﴾ المفيد أن بَغْي أحد المتعاشرين على عشيره متفشَ بين الناس غير الصالحين من المؤمنين ، وهو كناية عن أمرهما بأن يكونا من المؤمنين الصالحين وأن ما فعله أحدهما ليس من شأن الصالحين .

وذِكر غالب أحوال الخلطاء أراد به الموعظة لهما بعد القضاء بينهما على عادة أهل الخير من انتهاز فرص الهداية فأراد داود عليه السلام أن يرغبهما في إيثار عادة الخلطاء الصالحين

وأن يكرّه إليهما الظلم والاعتداء .

ويستفاد من المقام أنه يَأسف لحالهما ، وأنه أراد تسلية المظلوم عما جرى عليه من خليطه ، وأن له أسوة في أكثر الخلطاء .

(209/659)

وفي تذييل كلامه بقوله : ﴿ وقليلٌ ما هُم ﴾ حثّ لهما أن يكونا من الصالحين لما هو متقرر في النفوس من نفاسة كل شيء قليل ، قال تعالى : ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرةُ الخبيث ﴾ [المائدة : 100] .

والسبب في ذلك من جانب الحكمة أن الدواعي إلى لذات الدنيا كثيرة والمشي مع الهوى محبوب ومجاهدة النفس عزيزة الوقوع ، فالإِنسان محفوف بجواذب السيئات ، وأمّا دواعي الحق والكمال فهو الدين والحكمة ، وفي أسباب الكمال إعراض عن محركات الشهوات ، وهو إعراض عسير لا يسلكه إلا من سما بدينه وهمته إلى الشرف النفساني وأعرض عن الداعي الشهواني ، فذلك هو العلة في هذا الحكم بالقلة .

وزيادة ﴿ ما ﴾ بَعد ﴿ قليل ﴾ لقصد الإِبهام كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ جند ما هنالك ﴾ [ص : 11] ، وفي هذا الإِبهام إيذان بالتعجب من ذلك بمعونة السياق والمقام كما

أفادت زيادتها في قول امرىء القيس :

وحديث الركب يوم هُنا

وحديث مَّا على قِصره . . .

معنى التلهف والتشوق .

وقد اختلف المفسرون في ماهية هاذين الخصمين ، فقال السديّ والحسن ووهب بن مُنبّه : كانا ملَكَيْن أرسلهما الله في صورة رجلين لداود عليه السلام لإِبلاغ هذا المثل إليه عتاباً له .

ورواه الطبري عن أنس مرفوعاً .

وقيل كانا أخوين شقيقين من بني إسرائيل ، أي ألهمهما الله إيقاع هذا الوعظ .

واعلم أن سوق هذا النبأ عقب التنويه بداود عليه السلام ليس إلا تتميماً للتنويه به لدفع مَا قد يُتوهم أنه ينقض ما ذكر من فضائله مما جاء في كتاب "صمويل الثاني" من كتب اليهود في ذكر هذه القصة من أغلاط باطلة تنافي مقام النبوءة فأريد بيان المقدار الصادق منها وتذييله بأن ما صدر عن داود عليه السلام يستوجب العتاب ولا يقتضي العقاب ولذلك ختمت بقوله تعالى : ﴿ وإن له عندنا لزُلفى وحُسن مآبٍ ﴾ [ص : 40] .

وبهذا تعلم أن ليس لهذا النبأ تعلق بالمقصد الذي سيق لأجله ذكر داود ومن عطف عليه من الأنبياء .

وهذا النبأ الذي تضمنته الآية يُشير به إلى قصة تزوج داود عليه السلام زوجة (أُوريا الحثّي) من رجال جيشه وكان داود رآها فمال إليها ورام تزوجها فسأله أن يتنازل له عنها وكان في شريعتهم مباحاً أن الرجل يتنازل عن زوجه إلى غيره لصداقة بينهما فيطلقها ويتزوجها الآخر بعد مضيّ عدتها وتحقق براءة رحمها كما كان ذلك في صدر الإِسلام .

وخرج أُوريا في غزو مدينة (رَبة) للعمونيّين وقيل في غزو عَمَّان قصبة البلقاء من فلسطين فقُتل في الحرب وكان اسم المرأة (بثشبع بنت اليعام وهي أم سليمان) .

وحكى القرآن القصة اكتفاء بأن نبأ الخصمين يشعر بها لأن العبرة بما أعقبه نبأ الخصمين في نفس داود فعتب الله على داود أن استعمل لنفسه هذا المباح فعاتبه بهذا المثل المشخص ، أرسل إليه ملكين نزلا من أعلى سور المحراب في صورة خصمين وقصّا عليه القصة وطلبا حكمه وهديه فحكم بينهما وهداهما بما تقدم تفسيره لتكون تلك الصورة عظة له ويشعر أنه كان الأليق بمقامه أن لا يتناول هذا الزواج وإن كان مباحاً لما فيه من إيثار نفسه بما هو لغيره ولو بوجه مباح لأن الشعور بحسن الفعل أو قبحه قد لا يحصل عليه حين يفعله فإذا رأى أو سمع أن واحداً عمله شعر بوصفه .

ووقع في سفر "صمويل الثاني" من كتب اليهود سوق هذه القصة على الخلاف هذا .

وليس في قول الخصمين : ﴿ هذا أخِي ﴾ ولا في فرضهما الخصومة التي هي غير واقعة

ارتكابُ الكذب لأن هذا من الأخبار المخالفة للواقع التي لا يريد المخبِر بها أن يظن المخبَر (بالفتح) وقوعَها إلاّ ريثما يحصل الغرض من العبرة بها ثم ينكشف له باطنها فيعلم أنها لم تقع .

وما يجري في خلالها من الأوصاف والنسب غير الواقعة فإنما هو على سبيل الفرض والتقدير وعلى نية المشابهة .

(211/659)

وفي هذا دليل شرعي على جواز وضع القِصص التمثيلية التي يقصد منها التربية والموعظة ولا يتحمل واضعها جرحة الكذب خلافاً للذين نبزوا الحريري بالكَذب في وضع "المقامات" كما أشار هو إليه في ديباجتها .

وفيها دليل شرعي لجواز تمثيل تلك القصص بالأجسام والذوات إذا لم تخالف الشريعة ، ومنه تمثيل الروايات والقصص في ديار التمثيل ، فإن ما يجري في شرع من قبلنا يصلح دليلاً لنا في شرعنا إذا حكاه القرآن أو سنة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد في شرعنا ما ينسخه .

وأخذ من الآية مشروعية القضاء في المسجد ، قالوا : وليس في القرآن ما يدل على ذلك

سوى هذه الآية بناء على أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكاه الكتاب أو السنة .

وقد حكيت هذه القصة في سفر "صمويل الثاني" في الإِصحاح الحادي عشر على خلاف ما في القرآن وعلى خلاف ما تقتضيه العصمة لنبوءة داود عليه السلام فاحذروه .

والذي في القرآن هو الحق ، والمنتظم مع المعتاد وهو المهيمن عليه ، ولو حكي ذلك بخبر آحاد في المسلمين لوجب ردُّه والجزم بوضعه لمعارضته المقطوع به من عصمة الأنبياء من الكبائر عند جميع أهل السنة ومن الصغائر عند المحققين منهم وهو المختار .

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾

أي علم داود بعد انتهاء الخصومة أن الله جعلها له فتنة ليشعره بحال فعلته مع (أُوريا) وقد أشعره بذلك ما دلّه عليه انصراف الخصمين بصورة غير معتادة ، فعلم أنهما ملَكان وأن الخصومة صورية فعلم أن الله بعثهما إليه عَتْباً له على متابعة نفسه زوجةَ (أوريا) وطلبه التنازل عنها .

وعبر عن علمه ذلك بالظن لأنه علم نظري اكتسبه بالتوسم في حال الحادثة وكثيراً ما يعبر عن العلم النظري بالظن لمشابهته الظن من حيث إنه لا يخلو من تردد في أول النظر .

(212/659)

و ﴿ أنما مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فتناه فاستغفر ربَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذلك وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى وَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ مفتوحة الهمزة أخت (إنما) تفيد الحصر ، أي ظنّ أن الخصومة ليست إلاّ فتنة له ، أو ظن أن ما صدر منه في تزوج امرأة أوريا ليس إلا فتنة .

ومعنى ﴿ فتنَّاهُ ﴾ قدّرنا له فتنة ، فيجوز أن تكون الفتنة بالمعنى المشهور في تدبير الحيلة لقتل (أوريا) فعبر عنها بالفتنة لأنها أورثت داود مخالفةً للأليق به من صرف نفسه عن شيء غيره ، وعدم متابعته ميله النفساني وإن كان في دائرة المباح في دينهم ، فيكون المعنى : وعلم أن ما صدر منه فتنة من النفس .

وإنما علم ذلك بعد أن أحسّ من نفسه كراهية مثلها مما صوره له الخصمان .

ويجوز أن يكون الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار ، كقوله تعالى لموسى : ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ [طه : 40] ، أي ظن أنا اختبرنا زكانته بإرسال الملكين ، يصور أن له صورةً شبيهةً بفعله ففطن أن ما فعله أمر غير لائق به .

وتفريع ﴿ فاستغفر ربَّهُ ﴾ على ذلك الظنّ ظاهر على كلا الاحتمالين ، أي لما علم ذلك طلب الغفران من ربهِ لِما صنع .

وخرّ خروراً : سقط ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم في سورة ﴾ [النحل : 26] .

والركوع : الانحناء بقصد التعظيم دون وصول إلى الأرض قال تعالى : ﴿ تراهم ركعاً

سجداً ﴾ [الفتح : 29] ، فذكر شيئين .

قالوا : لم يكن لبني إسرائيل سجود على الأرض وكان لهم الركوع ، وعليه فتقييد فعل ﴿ خرّ ﴾ بحال ﴿ رَاكِعاً ﴾ تَمَجَّزَ في فعل ﴿ خرّ ﴾ بعلاقة المشابهة تنبيهاً على شدة الانحناء حتى قارب الخرور .

ومن قال : كان لهم السجود جعل إطلاق الرجوع عليه مجازاً بعلاقة الإِطلاق .

وقال ابن العربي : لا خلاف في أن الركوع ها هنا السجود ، قلت : الخلافُ موجود .

(213/659)

والمعروف أنه ليس لبني إسرائيل سجود بالجبهة على الأرض ، ويحتمل أن يكون السجود عبادة الأنبياء كشأن كثير من شرائع الإِسلام كانت خاصة بالأنبياء من قبل كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة : 132] ، وتقدم قوله تعالى : ﴿ وخروا له سجداً ﴾ في سورة [يوسف : 100] .

وكان ركوع داود عليه السلام تضرعاً لله تعالى ليقبل استغفاره .

والإِنابة : التوبة : يقال : أناب ، ويقال : نَاب .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب ﴾ في سورة [هود : 75] .

وعند قوله : ﴿ منيبين إليه ﴾ في سورة [الروم : 31] .

وهنا موضع سجدة من سجود القرآن من العزائم عند مالك لثبوت سجود النبي صلى الله عليه وسلم عندها .

ففي "صحيح البخاري" عن مجاهد "سألتُ ابن عباس عن السجدة في ص فقال : أوَما تقرأ ﴿ ومن ذريته داود وسليمان ﴾ [الأنعام : 84] إلى قوله : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام : 90] فكان داود ممن أُمر نبيئكم أن يقتدِيَ به فسجدها داود فسجدها رسول الله" .

وفي "سنن أبي داود" عن ابن عباس "ليس ص من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها" .

وفيه عن أبي سعيد الخُدْري قال : "قرأ رسول الله وهو على المنبر ص فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تَشَزَّنَ الناس للسجود (أي تهيّأوا وتحركوا لأجله) فقال رسول الله : إنما هي توبة نبيء ولكني رأيتكم تشزَّنْتم للسجود فنزل فسجد وسجدوا" ، وقول أبي حنيفة فيها مثل قول مالك ولم يرَ الشافعي سجوداً في هذه الآية إمَّا لأجل قول النبي صلى الله عليه وسلم "إنما هي توبة نبيء" فرجع أمرُها إلى أنها شرْعُ من قبلنا ، والشافعي لا يرى شرع من قبلنا دليلاً .

ووجه السجود فيها عند من رآه أن ركوع داود هو سجود شريعتهم فلما اقتدى به النبي صلى الله عليه وسلم أتى في اقتدائه بما يساوي الركوع في شريعة الإِسلام وهو السجود .

وقال أبو حنيفة : الركوع يقوم مقام سجود التلاوة أخذاً من هذه الآية .

واسم الإِشارة في قوله : ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ إلى ما دلت عليه خصومة الخصمين من تمثيل ما فعله داود بصورة قضية الخصمين ، وهذا من لطائف القرآن إذ طوى القصة التي تمثَّل له فيها الخصمان ثم أشار إلى المطوي باسم الإِشارة ، وأتبع الله الخبر عن الغفران له بما هو أرفع درجة وهو أنه من المقرّبين عند الله المرضيّ عنهم وأنه لم يوقف به عند حد الغفران لا غير .

والزلفى : القربى ، وهو مصدر أو اسم مصدر .

وتأكيد الخبر لإِزالة توهم أن الله غضب عليه إذ فتنه تنزيلاً لمقام الاستغراب منزلة مقام الإِنكار .

والمآب : مصدر ميمي بمعنى الأوْب .

وهو الرجوع .

والمراد به : الرجوع إلى الآخرة .

وسمي رجوعاً لأنه رجوع إلى الله ، أي إلى حكمة البحْث ظاهراً وباطناً قال تعالى : ﴿ إليه أدعو وإليه مآب ﴾ [الرعد : 36] .

وحسن المئاب : حسن المرجع ، وهو أن يرجع رجوعاً حسناً عند نفسه وفي مرأى الناس ، أي له حسن رجوع عندنا وهو كرامة عند الله يوم الجزاء ، أي الجنة يؤوب إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(215/659)

وقال صاحب التفسير الواضح :

ولما مدح اللّه داود وذكر له صفات عشرا كلها ثناء عليه أتبع ذلك بذكر حادثة له . وبدأها باستفهام للتنبيه على القصد وسمو الغرض ولفتا للنظر ، ألا ترى إلى قوله : « نبأ » والنبأ : هو الخبر المهم ، وهذه القصة كانت مثار نقاش كثير من قديم الزمن ، وخب فيها وأوضع القصاص ونقلة الأخبار ، وقد ساعدهم على ذلك أن في التوراة والإنجيل ما يثبت لبعض الأنبياء – كداود – ما يترفع عنه عامة الناس ، فكيف الحال مع الأنبياء والمرسلين ؟ ونحن – المسلمين – نقول بعصمة الأنبياء ، أى : ترفعهم عن الدنايا وبعدهم عن سفساف الأمور ، فإنا نرى أن زعماء الإصلاح قوم غير عاديين يكونون غالبا بعيدين عن الدنايا والأنبياء – عليهم السلام – أولى بذلك منهم ، وهم قوم اصطفاهم اللّه واختارهم ، وصنعهم على يده فأرواحهم طاهرة ، ونفوسهم عالية ، يستحيل عليهم ما قاله

الإسرائيليون في حقهم ونقله بعض علماء المسلمين ودونوه في كتبهم ، وإن كنا رأينا كثيرا من العلماء نفى مثل هذه الأقوال بشدة كالفخر والبيضاوي وغيرهم .

ونحن نسوق القصة على أساس أن داود نبي اللّه وهو معصوم من الزنا والقتل والدس والوقيعة ، فإن ذلك غير مقبول بحال من الأحوال ، وسياق القصة يثبت ذلك فالقرآن قد ذكر لداود صفات كلها مدح وثناء فإنه تواب أواب وله زلفى ومكانة عند ربه ، وصاحب قوة وفضل في عمله ثم ذكر القصة وأردفها بذكر مدائح له وهذا كله يتنافى مع وصفه بالفعل المنكر والعمل القبيح .

بعض الناس أثبت لداود أنه فعل الكبيرة كالزنا والقتل ، وبعضهم أثبت له بعض الصغائر التي لا تليق .

(216/659)

وفي الواقع تتلخص الحادثة : أن داود كان ملكا له سلطان ، وله أتباع وخدم ، وله مصالح مادية مع الناس ، وهذا كله يوجد له أعداء . واتفق أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن ينالوا من نبي اللّه داود ، وكان له يوم يخلو فيه للعبادة ، وانتهزوا الفرصة وتسوروا عليه المحراب ، فلما دخلوا عليه ووجدوا عنده ما يمنعهم من ذلك ، اختلقوا كذبا وزورا

سببا لدخولهم فقالوا : نحن خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ، ولا تجر ، واهدنا إلى سواء السبيل ، ويجوز أن يكونا متخاصمين حقيقة ، ولما دخلوا على داود بلا إذن ، وتوجس منهم خيفة وظن بهم الظنون ، وهم بذلك أن يصيبهم بسوء كانت هذه الواقعة فتنة وابتلاء لداود ، ثم إنه استغفر ربه مما هم به من الانتقام ، وتاب عما دار بخلده من ظن ، وخر راكعا فتاب اللّه عليه وغفر له .

أما قصتهما كما أخبر فهي : إن هذا أخى ، أى : في الدين والإنسانية له تسع وتسعون نعجة – هي الواحدة من الغنم أو بقر الوحش – ولى نعجة واحدة ، فقال صاحب الغنم الكثيرة أعطنى نعجتك أكفلها لك وأضمها لغنمي وغلبه في المخاصمة والمجادلة .

قال داود متسرعا قبل أن يسمع جواب الخصم الثاني – ولعل هذا هو الذنب الذي ألم به داود – : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخلطاء والشركاء ليبغى بعضهم على بعض حبا في الدنيا ، وشحا في النفوس إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلا يبغى بعضهم على بعض وقليل ما هم .

وظن داود أنما فتناه بهذه الحادثة فاستغفر ربه مما ألم به وتاب ، وخر راكعا وصلى للّه قائما وساجدا وأناب ، فغفر له ربه ذنبه – لا تنس أن حسنات الأبرار سيئات المقربين – وإن لداود عند ربه لقربى ومنزلة كريمة ، وحسن مآب ، أليس وصف داود بعد القصة بأن له

زلفى وحسن مآب يدل على أنه عبد صالح أواب يستحيل عليه الإلمام بمعصية تغضب الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير الواضح حـ 3 صـ 236. 237 ﴾

(217/659)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ الآية ،

هذه الآية تدل بظاهرها على أن الخصم مفرد ولكن الضمائر بعده تدل على خلاف ذلك ، والجواب أن الخصم في الأصل مصدر خصمه والعرب إذا نعتت بالمصدر أفردته وذكّرته ، وعليه فالخصم يراد به الجماعة والواحد والاثنان ويجوز جمعه وتثنيته لتناسي أصله الذي هو المصدر وتنزيله منزلة الوصف .

قال ابن مالك:

ونعتوا بمصدر كثيرا

فالتزموا الإفراد والتذكيرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 251 ﴾

(218/659)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ أن داود عليه السلام حدث نفسه إن ابتلي أن يعتصم ، فقيل له إنك ستبتلى وستعلم اليوم الذي تبتلى فيه ، فخذ حذرك فقيل له : هذا اليوم الذي تبتلى فيه ، فأخذ الزبور ، ودخل المحراب ، وأغلق باب المحراب ، وأدخل الزبور في حجره ، وأقعد منصفاً على الباب ، وقال لا تأذن لأحد عليّ اليوم .

فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهب كأحسن ما يكون للطير ، فيه من كل لون ، فجعل يدرج بين يديه ، فدنا منه ، فأمكن أن يأخذه ، فتناوله بيده ليأخذه ، فطار فوقه على كوّة المحراب ، فدنا منه ليأخذه ، فطار فأشرف عليه لينظر أين وقع ، فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض ، فلما رأت ظله حركت رأسها ، فغطت جسدها أجمع بشعرها ، وكان زوجها غازياً في سبيل الله ، فكتب داود عليه السلام إلى رأس الغزاة . انظر فاجعله في حملة التابوت ، أما أن يفتح عليهم ، وإما أن يقتلوا . فقدمه في حملة التابوت فقتل .

فلما انقضت عدتها خطبها داود عليه السلام ، فاشترطت عليه أن ولدت غلاماً أن يكون

الخليفة من بعده ، وأشهدت عليه خمساً من بني إسرائيل ، وكتبت عليه بذلك كتاباً ، فأشعر بنفسه أنه كتب حتى ولدت سليمان عليه الصلاة والسلام وشب ، فتسوّر عليه الملكان المحراب ، فكان شأنهما ما قص الله تعالى في كتابه ، وخر داود عليه السلام ساجداً ، فغفر الله له ، وتاب عليه .

(219/659)

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما أصابه القدر إلا من عجب عجب بنفسه . وذلك أنه قال يا رب ما من ساعة من ليل ونهار إلا وعابد من بني إسرائيل يعبدك ، يصلي لك ، أو يسبح ، أو يكبر ، وذكر أشياء ، فكره الله ذلك فقال " يا داود إن ذلك لم يكن إلا بي ، فلولا عوني ما قويت عليه ؛ وجلالي لأَكِلُكَ إلى نفسك يوماً . قال : يا رب فاخبرني به ، فأصابته الفتنة ذلك اليوم .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن أبي حاتم بسند ضعيف عن أنس رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن داود عليه السلام حين نظر إلى المرأة قطع على بني إسرائيل ، وأوصى صاحب الجيش فقال : إذا حضر العدو تضرب فلاناً بين يدي التابوت ، وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به ، من قدم بين

يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل ، أو ينهزم منه الجيش . فقتل وتزوّج المرأة ، ونزل الملكان على داود عليه السلام ، فسجد فمكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه ، فأكلت الأرض جبينه وهو يقول في سجوده : رب زل داود زلة أبعد مما بين المشرق والمغرب . رب إن لم ترحم ضعف داود ، وتغفر ذنوبه جعلت ذنبه حديثاً في المخلوق من بعده .

فجاء جبريل عليه السلام من بعد أربعين ليلة فقال : يا داود إن الله قد غفر لك ، وقد عرفت أن الله عدل لا يميل ، فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة فقال : يا رب دمي الذي عند داود ؟ قال جبريل : ما سألت ربك عن ذلك ، فإن شئت لأفعلن فقال : نعم . ففرح جبريل ، وسجد داود عليه السلام ، فمكث ما شاء الله ، ثم نزل فقال : قد سألت الله يا داود عن الذي أرسلتني فيه . فقال : قل لداود إن الله يجمعكما يوم القيامة فيقول " هب لي دمك الذي عند داود فيقول : هو لك يا رب فيقول : فإن لك في الجنة ما شئت ، وما اشتهيت عوضاً " " .

(220/659)

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه قال : لما أصاب داود عليه السلام الخطيئة ، وإنما كانت خطيئته ، أنه لما أبصرها أمر بها فعزلها فلم يقربها ، فأتاه الخصمان ، فتسورا في المحراب ، فلما أبصرهما قام إليهما فقال : أخرجا عني ما جاء بكما إليَّ فقالا : إنما نكلمك بكلام يسير ﴿ إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ﴾ وأنا ﴿ لي نعجة واحدة ﴾ وهو يريد أن يأخذها مني فقال داود عليه السلام : والله أنا أحق أن ينشر منه من لدن هذه إلى هذه . يعني من أنفه إلى صدره فقال رجل : هذا داود فعله فعرف داود عليه السلام إنما عني بذلك ، وعرف ذنبه ، فخر ساجداً لله عز وجل أربعين يوماً ، وأربعين ليلة ، وكانت خطيئته مكتوبة في يده ، ينظر إليها لكي لا يغفل حتى نبت البقل حوله من دموعه ، ما غطى رأسه ، فنودي أجائع فتطعم ، أم عار فتكسى ، أم مظلوم فتنصر ، قال : فنحب نحبة هاج ما يليه من البقل حين لم يذكر ذنبه ، فعند ذلك غفر له ، فإذا كان يوم القيامة قال له ربه : "كن امامي فيقول أي رب ذنبي ذنبي . . . فيقول الله : كن خلفي فيقول له : خذ بقدمي فيأخذ بقدمه " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب ﴾ قال : إن داود عليه السلام قال : يا رب قد أعطيت إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، من الذكر ما لو وددت أنك أعطيتني مثله . قال : الله عز وجل " إني

ابتليتهم بما لم ابتلك به ، فإن شئت ابتليتك بمثل ما ابتليتهم به ، وأعطيتك كما أعطيتهم "

قال : نعم . قال له : فاعمل حتى أرى بلاءك .

(221/659)

فكان ما شاء الله أن يكون ، وطال ذلك عليه ، فكاد أن ينساه ، فبينما هو في محرابه إذ وقعت عليه حمامة ، فأراد أن يأخذها ، فطارت على كوة المحراب ، فذهب ليأخذها ، فطارت فاطلع من الكوة ، فرأى امرأة تغتسل ، فنزل من المحراب فذهب ليأخذها ، فأرسل إليها ، فجاءته فسألها عن زوجها ، وعن شأنها ، فأخبرته أن زوجها غائب ، فكتب إلى أمير تلك السرية أن يؤمره على السرايا ليهلك زوجها ، ففعل فكان يصاب أصحابه وينجو ، وربما نصروا .

وإن الله عز وجل لما رأى الذي وقع فيه داود عليه السلام أراد أن ينفذ أمره ، فبينما داود عليه السلام ذات يوم في محرابه ، إذ تسور عليه الملكان من قبل وجهه ، فلما رآهما وهو يقرأ ، فزع وسكت وقال : لقد استضعفت في ملكي ، حتى أن الناس يتسوّرون على محرابي فقالا له ﴿ لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ﴾ ولم يكن لنا بد من أن نأتيك ، فاسمع منا فقال أحدهما ﴿ إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال

أكفلنيها ﴾ يريد أن يتم مائة ، ويتركني ليس لي شيء ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ قال : إن دعوت ودعا كان أكثر مني ، وإن بطشت وبطش كان أشد مني . فذلك قوله ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ قال له داود عليه السلام : أنت كنت أحوج إلى نعجتك منه ﴿ لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ إلى قوله ﴿ وقليل ما هم ﴾ ونسي نفسه صلى الله عليه وسلم ، فنظر الملكان أحدهما إلى الآخر حين قال ، فتبسم أحدهما إلى الآخر ، فراه داود عليه السلام ، فظن إنما فتن ﴿ فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ﴾ أربعين ليلة حتى نبتت الخضرة من دموع عينيه ، ثم شدد الله ملكه .

(222/659)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه أن داود عليه السلام جزأ الدهر أربعة أجزاء : يوماً لنسائه ، ويوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء بين بني إسرائيل ، ويوماً لبني إسرائيل . ذكروا فقالوا : هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً ؟ فاضمر داود عليه السلام في نفسه أنه سيطيق ذلك ، فلما كان في يوم عبادته غلق أبوابه ، وأمر أن لا يدخل عليه أحد ، وأكب على التوراة .

فبينما هو يقرأها إذ حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن قد وقعت بين يديه ، فاهوى

إليها ليأخذها ، فطارت فوقعت غير بعيد من غير مرتبتها ، فما زال يتبعها حتى أشرف على امرأة تغتسل ، فاعجبه حسنها وخلقها ، فلما رأت ظله في الأرض جللت نفسها بشعرها ، فزاد ذلك أيضاً بها اعجاباً ، وكان قد بعث زوجها على بعض بعوثه ، فكتب إليه أن يسير إلى مكان كذا وكذا . . . مكان إذا سار إليه قتل ولم يرجع ، ففعل ، فاصيب ، فخطبها داود عليه السلام ، فتزوجها .

فبينما هو في المحراب ، إذ تسور الملكان عليه ، وكان الخصمان إنما يأتونه من باب المحراب ، ففزع منهم حين تسوّروا المحراب فقالوا : ﴿ لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ﴾ أي لا تمل ﴿ واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ أي أعدله ، وخيره ﴿ إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ﴾ يعني تسعاً وتسعين امرأة لداود ، وللرجل نعجة واحدة فقال ﴿ أكفلْنيها وعزني في الخطاب ﴾ أي قهرني وظلمني ﴿ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ﴾ قال : سجد أربعين ليلة حتى أوحى الله إليه : أني قد غفرت لك .

(223/659)

قال : رب كيف تغفر لي وأنت حكم عدل لا تظلم أحداً ؟ قال " إني أقضيك له ، ثم استوهبه دمك ، ثم أثيبه من الجنة حتى يرضى " قال : الآن طابت نفسي ، وعلمت أن قد غفرت لي . قال الله تعالى ﴿ فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لَزُلْفى وحسن مآب ﴾ .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي عمران الجوني رضي الله عنه في قوله ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم ﴾ فجلسا فقال لهما قضاء فقال أحدهما إلى الآخر ﴿ أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ﴾ فعجب داود عليه السلام ، وقال ﴿ لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ فاغلظ له أحدهما وارتفع . فعرف داود إنما ذلك بذنبه ، فسجد فكان أربعين يوماً وليلة لا يرفع رأسه إلا إلى صلاة الفريضة حتى يبست ، وقرحت جبهته ، وقرحت كفاه وركبتاه ، فاتاه ملك فقال : يا داود إني رسول ربك إليك ، وإنه يقول لك ارفع رأسك فقد غفرت لك فقال : يا رب كيف وأنت حكم عدل كيف تغفر لي ظلامة الرجل ؟ فترك ما شاء الله ، ثم أتاه ملك آخر فقال : يا داود إني رسول ربك إليك ، وإنه يقول لك ، إنك تأتيني يوم القيامة وابن صوريا تختصمان إليّ ، فأقضي له عليك ، ثم أسألها إياه فيهبها لي ، ثم أعطيه من الجنة حتى يرضى .

وأخرج ابن جرير والحاكم عن السدي قال : إن داود عليه السلام قد قسم الدهر ثلاثة أيام : يوماً يقضي فيه بين الناس ، ويوماً يخلو فيه لعبادة ربه ، ويوماً يخلو فيه بنسائه ، وكان له تسع وتسعون امرأة ، وكان فيما يقرأ من الكتب قال : يا رب أرى الخير قد ذهب به آبائي الذين

كانوا قبلي . فاعطني مثل ما أعطيتهم ، وافعل بي مثل ما فعلت بهم ، فأوحى الله إليه " إن آباءك قد ابتلوا ببلايا لم تبتل بها . ابتلى إبراهيم بذبح ولده ، وابتلى إسحاق بذهاب بصره ، وابتلى يعقوب بحزنه على يوسف ، وإنك لم تبتل بشيء من ذلك . قال : رب ابتلني بما ابتليتهم به ، واعطني مثل ما أعطيتهم ، فأوحى الله إليه : إنك مبتلي فاحترس .

(224/659)

فمكث بعد ذلك ما شاء الله تعالى أن يمكث ، إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة حتى وقع عند رجليه ، وهو قائم يصلي ، فمدَّ يده ليأخذه فتنحى ، فتبعه فتباعد حتى وقع في كوّة ، فذهب ليأخذه ، فطار من الكوّة ، فنظر أين يقع ، فبعث في أثره ، فابصر امرأة تغتسل على سطح لها ، فرأى امرأة من أجمل الناس خلقاً ، فحانت منها التفاتة فابصرته ، فالتَفَّتْ بشعرها فاستترت به ، فزاده ذلك فيها رغبة ، فسأل عنها ، فاخبر أن لها زوجاً غائباً بمسلحة كذا وكذا .

. فبعث إلى صاحب المسلحة يأمره . أن يبعث إلى عدوّ كذا وكذا . . . فبعثه ففتح له أيضاً ، فكتب إلى داود عليه السلام بذلك ، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدوّ كذا وكذا . . . فبعثه فقتل في المرة الثالثة ، وتزوّج امرأته .

فلما دخلت عليه لم يلبث إلا يسيراً حتى بعث الله له ملكين في صورة انسيين ، فطلبا أن يدخلا عليه ، فتسورا عليه الحراب ، فما شعر وهو يصلي إذ هما بين يديه جالسين ، ففزع منهما فقالا ﴿ لا تخف ﴾ إنما نحن ﴿ خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ﴾ يقول : لا تخف ﴿ واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ إلى عدل القضاء فقال : قصا عليَّ قصتكما فقال أحدهما ﴿ إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ﴾ قال الآخر : وأنا أريد أن آخذها فاكمل بها نعاجي مائة قال وهو كاره قال إذاً لا ندعك وذاك قال : يا أخي أنت على ذلك بقادر قال : فإن ذهبت تروم ذلك ضربنا منك هذا وهذا . يعني طرف الأنف والجبهة .

(225/659)

قال : يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا . حيث لك تسع وتسعون امرأة ، ولم يكن لاوريا إلا امرأة واحدة ، فلم تزل تعرضه للقتل حتى قتلته . وتزوجت امرأته ، فنظر فلم ير شيئاً ، فعرف ما قد وقع فيه ، وما قد ابتلى به ﴿ فخر ساجداً ﴾ فبكى ، فمكث يبكي أربعين يوماً ، لا يرفع رأسه إلا لحاجة ، ثم يقع ساجداً يبكي ، ثم يدعو حتى نبت العشب من دموع عينيه ، فأوحى الله إليه بعد أربعين يوماً " يا داود ارفع رأسك قد غفر

لك قال : يا رب كيف أعلم أنك قد غفرت لي ، وأنت حكم عدل لا تحيف في القضاء ؟ إذا جاء يوم القيامة أخذ رأسه بيمينه أو بشماله ، تشخب أوداجه دماً فيّ يقول : يا رب سل هذا فيم قتلني ، فأوحى الله إليه : إذا كان ذلك دعوت أوريا ، فاستوهبك منه ، فيهبك لي ، فاثيبه بذلك الجنة " قال : رب الآن علمت أنك غفرت لي ، فما استطاع أن يملأ عينيه من السماء حياء من ربه حتى قبض صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه ، نحوه .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إذ تسوّروا المحراب ﴾ قال : المسجد .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبي الأحوص قال : دخل الخصمان على داود عليه السلام ، وكل واحد منهما آخذ برأس صاحبه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ففزع منهم ﴾ قال : كان الخصوم يدخلون من الباب ، ففزع من تسوّرهما .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ولا تشطط ﴾ أي لا تمل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ إن هذا أخي ﴾ قال : على ديني .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وأحمد في الزهد وابن جرير والطبراني عن ابن مسعود رضي

الله عنه قال : ما زاد داود عليه السلام على أن قال ﴿ أكفلنيها ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فقال أكفلنيها ﴾ قال : فما زال داود عليه السلام على أن قال : تحوّل لي عنها .

(226/659)

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما زاد داود عليه السلام على أن قال : انزل لي عنها .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ أكفلنيها ﴾ قال : أعطنيها ، طلقها لي أنكحها وخل سبيلها ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ قال : قهرني ذلك العز الكلام والخطاب .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ أكفلنيها ﴾ قال : أعطنيها ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ قال : إذا تكلم كان أبلغ مني ، وإذا دعا كان أكثر قال أحد الملكين : ما جزاؤه ؟ قال : يضرب ههنا وههنا وههنا . ووضع يده على جبهته ، ثم على أنفه ، ثم تحت الأنف ، قال : ترى ذلك جزاءه . فلم يزل يردد ذلك عليه حتى علم أنه ملك ، وخرج الملك ، فخر داود ساجداً قال : ذكر أنه لم يرفع رأسه أربعين صباحاً يبكي ، حتى أعشب

الدموع ما حول رأسه حتى إذا مضى أربعون صباحاً ، زفر زفرة هاج ما حول رأسه من ذلك العشب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وقليل ما هم ﴾ يقول : قليل الذين هم فيه . وفي قوله ﴿ إنما فتناه ﴾ قال : اختبرناه .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وظن داود ﴾ قال علم داود .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ قال : ظن إنما ابتلي بذلك .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : إنما كان فتنة داود عليه السلام النظر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ وخر راكعاً ﴾ قال : ساجداً .

وأخرج عبد بن حميد عن كعب رضي الله عنه قال : سجد داود نبي الله أربعين يوماً ، وأربعين ليلة لا يرفع رأسه حتى رقأ دمعه ويبس ، وكان من آخر دعائه وهو ساجد أن قال : يا رب رزقتني العافية فسألتك البلاء ، فلما ابتليتني لم أصبر ، فإن تعذبني فأنا أهل ذاك ، وإن تغفر لي فانت أهل ذاك .

قال : وإذا جبريل عليه السلام قائم على رأسه ، قال : يا داود إن الله قد غفر لك ، فارفع رأسك ، فلم يلتفت إليه ، وناجى ربه وهو ساجد فقال : يا رب كيف تغفر لي وأنت الحكم العدل ؟ قال " إذا كان يوم القيامة دفعتك إلى أوريا ، ثم استوهبك منه ، فيهبك لي ، وأثيبه الجنة قال : يا رب الآن علمت أنك قد غفرت لي ، فذهب يرفع رأسه ، فإذا هو يابس لا يستطيع ، فمسحه جبريل عليه السلام ببعض ريشه فانبسط ، فأوحى الله تعالى إليه بعد ذلك : يا داود قد أحللت لك امرأة أوريا ، فتزوجها فولدت له سليمان عليه الصلاة والسلام . لم تلد قبله ولا بعده " قال كعب رضي الله عنه : فوالله لقد كان داود بعد ذلك يظل صائماً اليوم الحار ، فيقرب الشراب إلى فيه ، فيذكر خطيئته ، فينزل دمعه في الشراب حتى يفيضه ، ثم يرده ولا يشربه .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد عن يونس بن خباب رضي الله عنه أن داود عليه السلام بكى أربعين ليلة ، حتى نبت العشب حوله من دموعه ، ثم قال : يا رب قرح الجبين ، ورقا الدمع ، وخطيئتي عليّ كما هي ، فنودي : أن يا داود أجائع فتطعم ، أم ظمآن فتسقى ، أم مظلوم فتنصر ، فنحب نحبة هاج ما هنالك من الخضرة ، فغفر له عند ذلك .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن عبيد بن عمير الليثي رضي الله عنه ، أن داود عليه السلام سجد حتى نبت ما حوله خضراً من دموعه ، فأوحى الله إليه : أن يا داود

سجدت أتريد أن أزيدك في ملكك ، وولدك ، وعمرك ؟ فقال : يا رب أبهذا ترد عليَّ ؟ أريد أن تغفر لي .

وأخرج أحمد في الزهد والحكيم الترمذي عن الأوزاعي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثل عيني داود كالقربتين ينطفان ماء ، ولقد خددت الدموع في وجهه خديد الماء في الأرض " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد من طريق عطاء بن السائب عن أبي عبد الله الجدلي قال : ما رفع داود عليه السلام رأسه إلى السماء بعد الخطيئة حتى مات .

(228/659)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد عن صفوان بن محرز قال : كان لداود عليه السلام يوم يتأوّه فيه يقول : أوه من عذاب الله ، أوه من عذاب الله ، أوه من عذاب الله ، قيل لا أوه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما أوحى الله إلى داود عليه السلام : ارفع رأسك فقد غفرت لك فقال : يا رب كيف تكون هذه المغفرة وأنت قضاء بالحق ، ولست بظلام للعبيد ؟ ورجل ظلمته ، غصبته ، قتلته ،

فأوحى الله تعالى إليه : بلى يا داود إنكما تجتمعان عندي ، فاقضي له عليك ، فإذا برز الحق عليك أستوهبك منه ، فوهبك لي وأرضيته من قبلي ، وأدخلته الجنة ، فرفع داود رأسه ، وطابت نفسه ، وقال : نعم . يا رب هكذا تكون المغفرة " .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير عن مجاهد قال : لما أصاب داود الخطيئة ﴿ خر ساجداً ﴾ أربعين ليلة ، حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه ، ثم نادى رب قرح الجبين ، وجمدت العين ، وداود لم يرجع إليه في خطيئته شيء . فنودي أجائع فَتُطعَم ؟ أم مريض فتشفى ؟ أم مظلوم فتنصر ؟ فنحب نحباً هاج منه نبت الوادي كله ، فعند ذلك غفر له ، وكان يؤتى بالاناء ، فيشرب فيذكر خطيئته ، فينتحب فتكاد مفاصله تزول بعضها من بعض ، فما يشرب بعض الاناء حتى يمتلىء من دموعه ، وكان يقال دمعة داود عليه السلام تعدل دمعة الخلائق ، ودمعة آدم عليه السلام تعدل دمعة داود ودمعة الخلائق ، فيجيء يوم القيامة مكتوبة بكفه يقرأها يقول : ذنبي ذنبي . . فيقول رب قدمني ، فيتقدم فلا يأمن ، ويتأخر فلا يأمن ، حتى يقول تبارك وتعالى : خذ بقدمي .

وأخرج أحمد في الزهد عن علقمة بن يزيد قال : لو عدل بكاء أهل الأرض ببكاء داود ما عدله ، ولو عدل بكاء داود وبكاء أهل الأرض ببكاء آدم عليه السلام حين أهبط إلى الأرض ما عدله .

وأخرج أحمد عن إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، أن داود عليه السلام كان يعاتب في كثرة البكاء ، فيقول : ذروني أبكي قبل يوم البكاء ، قبل تحريق العظام ، واشتعال اللحى ، وقبل أن يؤمر بي ﴿ ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [التحريم : 6] .

وأخرج أحمد والحكيم الترمذي وابن جرير عن عطاء الخراساني أن داود عليه السلام نقش خطيئته في كفه لكيلا ينساها ، وكان إذا رآها اضطربت يداه .

وأخرج عن مجاهد قال : يحشر داود عليه السلام . سبحانك إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليَّ الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إليَّ روحي ، سبحانك إلهي ! فكلهم [رآني] عليل بذنبي .

وأخرج أحمد عن ثابت قال : اتخذ داود عليه السلام سبع حشايا من سعد ، وحشاهن من الرماد ، ثم بكى حتى أنفذها دموعاً ، ولم يشرب شراباً إلا مزجه بدموع عينيه .

وأخرج أحمد عن وهب بن منبه قال : بكى داود عليه السلام حتى خددت الدموع في وجهه ، واعتزل النساء ، وبكى حتى رعش .

وأخرج أحمد عن مالك بن دينار قال : إذا خرج داود عليه السلام من قبره ، فرأى الأرض ناراً ، وضع يده على رأسه وقال : خطيئتي اليوم موبقتي .

وأخرج عن عبد الرحمن بن جبير ، أن داود عليه السلام كان يقول : اللهم ما كتبت في هذا اليوم من مصيبة ، فخلصني منها ثلاث مرات ، وما أنزلت في هذا اليوم من خير ، فائتني منه نصيباً ثلاث مرات ، وإذا أمسى قال مثل ذلك ، فلم ير بعد ذلك مكروهاً .

وأخرج أحمد عن معمر ؛ أن داود عليه السلام لما أصاب الذنب قال : رب كنت أبغض الخطائين ، فانا اليوم أحب أن تغفر لهم .

وأخرج عبد الله ابنه والحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن سعيد بن أبي هلال . أن داود عليه السلام كان يعوده الناس ، وما يظنون إلا أنه مريض ، وما به إلا شدة الفرق من الله سبحانه وتعالى .

(230/659)

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال : كان داود عليه السلام إذا أفطر استقبل القبلة . وقال : اللهم خلصني من كل مصيبة نزلت من السماء ثلاثاً ، وإذا طلع حاجب الشمس قال : اللهم اجعل لي سهماً في كل حسنة نزلت الليلة من السماء إلى الأرض ثلاثاً .

وأخرج أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس أنه قال : في السجود في ﴿ ص ﴾ ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها .

وأخرج النسائي وابن مردويه بسند جيد عن ابن عباس " أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في ﴿ ص ﴾ وقال : سجدها داود ، ونسجدها شكراً " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري عن العوام قال : سألت مجاهداً عن سجدة " ص " فقال : سألت ابن عباس من أين سجدت ؟ فقال : أو ما تقرأ ﴿ ومن ذريته داود وسليمان ﴾ [الأنعام : 84] إلى قوله ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام : 90] فكان داود ممن أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم أن يقتدي به ، فسجد بها داود عليه السلام ، فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسجد في " ص " حتى نزلت ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام : 90] فسجد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

(231/659)

وأخرج الترمذي وابن ماجة والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني

رأيت في هذه الليلة فيما يرى النائم كأني أصلي عند شجرة ، وكأني قرأت سورة السجدة ، فسجدت فرأيت الشجرة سجدت بسجودي ، وكأني أسمعها وهي تقول اللهم اكتب لي بها عندك ذكراً ، وضع عني بها وزراً ، واجعلها إليّ عندك ذخراً ، وأعظم بها أجراً ، وتقبل مني كما تقبلت من عبدك داود . قال ابن عباس فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم السجدة ، فسمعته يقول في سجوده كما أخبر الرجل عن قول الشجرة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد في " ص " .

وأخرج ابن مردويه عن السائب بن يزيد قال : صليت خلف عمر الفجر فقرأ بنا سورة " ص " فسجد فيها ، فلما قضى الصلاة قال له رجل : يا أمير المؤمنين ومن عزائم السجود هذه ؟ فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها .

أخرج ابن مردويه عن أنس . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد في " ص " .

وأخرج الدارمي وأبو داود وابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أبي سعيد الخدري قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر " ص " فلما بلغ السجدة ، نزل فسجد وسجد الناس معه ، فلما كان آخر يوم قرأها ، فلما بلغ السجدة تهيأ الناس للسجود فقال : إنما هي توبة نبي ، ولكني رأيتكم تهيأتم للسجود ، فنزل فسجد " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير " أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قرأ سورة " ص " وهو على المنبر ، فلما أتى على السجدة قرأها ، ثم نزل فسجد " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير ، أن عمر بن الخطاب كان يسجد في " ص " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : في " ص " سجدة .

(232/659)

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والطبراني والبيهقي في سننه عن ابن مسعود ، أنه كان لا يسجد في " ص " ويقول : إنما هي توبة نبي ذكرت .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي العالية قال : كان بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يسجد في " ص " وبعضهم لا يسجد ، فأي ذلك شئت فافعل .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي مريم قال : لما قدم عمر الشام أتى محراب داود عليه السلام ، فصلى فيه ، فقرأ سورة " ص " فلما انتهى إلى السجدة سجد .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي سعيد ، أنه رأى رؤيا أنه يكتب " ص " فلما انتهى إلى التي يسجد بها ، رأى الدواة ، والقلم ، وكل شيء

بحضرته انقلب ساجداً ، فقصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يسجد بها بعد .

وأخرج أبو يعلى عن أبي سعيد قال : " رأيت فيما يرى النائم كأني تحت شجرة ، وكأن الشجرة تقرأ " ص " فلما أتت على السجدة ، سجدت فقالت في سجودها : اللهم اغفر لي بها ، اللهم حط عني بها وزراً ، واحدث لي بها شكراً ، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود سجدته ، فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبرته فقال " سجدت أنت يا أبا سعيد ؟ فقلت : لا فقال : أنت أحق بالسجود من الشجرة " ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم " ص " ثم أتى على السجدة ، وقال في سجوده ما قالت الشجرة في سجودها " .

وأخرج الطبراني والخطيب عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " السجدة التي في " ص " سجدها داود توبة ، ونحن نسجدها شكراً " .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم في سفره وهو يقرأ " ص " فسجد فيها .

فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (25)

أخرج أحمد في الزهد والحكيم الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار في قوله ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ قال : مقام داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ، ثم يقول الرب جل وعلا " يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا فيقول : يا رب كيف وقد سلبته ؟ فيقول : إني راده عليك اليوم ، فيندفع بصوت يستفز نعيم أهل الجنة " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن محمد بن كعب أنه قال ﴿ وإن له عندنا لزلفى ﴾ أول الكائن يوم القيامة داود ، وابنه عليهما السلام .

وأخرج عبد بن حميد عن السدي بن يحيى قال : حدثني أبو حفص رجل قد أدرك عمر بن الخطاب ؛ أن الناس يصيبهم يوم القيامة عطش وحر شديد ، فينادي المنادي داود ، فيسقي على رؤوس العالمين ، فهو الذي ذكر الله ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه ذكر يوم القيامة ، فعظم شأنه وشدته قال : ويقول الرحمن لداود عليه السلام مر بين يدي فيقول داود : يا رب أخاف أن تدحضني خطيئتي . فيقول خذ بقدمي ، فيأخذ بقدمه عز وجل ، فيمر قال فتلك (الزلفى) التي قال الله ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد عن عبيد بن عمير رضي الله عنه ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن

مآب ﴾ قال : يدنو حتى يضع يده عليه .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه فغفرنا له ذلك الذنب ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ قال حسن : المنقلب .

وأخرج الحكيم الترمذي عن مجاهد رضي الله عنه قال : يبعث داود عليه السلام يوم القيامة وخطيئته في كفه ، فإذا رآها يوم القيامة لم يجد منها مخرجاً إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى ، ثم يرى فيقلق . فيقال له : ههنا . فذلك قوله ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(234/659)

فصل

قال الإمام فخر الدين الرازى :

[قصة داود عليه السلام]

[وفيها شبهتان] [الأولى] قوله (وهل أتاك نبأ الخصم) الآيات . فاعلم أن الذى أقطع به عدم دلالة هذه الآية على صدور الكبيرة من داود عليه السلام . وبيانه من وجوه * الأول أن الذى حكاه المفسرون عن داود وهو أنه عشق أمرأة أوريا فاحتال حتى قتل زوجها

فتزوجها لا يليق بالانبياء بل لو وصف به أفسق الملوك لكان منكرا *

[الثاني] أن الدخول في دم أوريا أعظم من التزوج بامرأته فكيف ترك الله الذنب الاعظم واقتصر على ذكر الاخف ؟ [الثالث] أن السورة من أولها إلى آخرها في محاجة منكري النبوة فكيف يلائمها القدح في بعض أكابر الأنبياء بهذا الفسق القبيح ؟ [الرابع] أن الله تعالى وصف داود عليه السلام في ابتداء القصة بأوصاف حميدة . وذلك ينافى ما ذكروه في الحكاية بيان وصفه تعالى بأوصاف حميدة من وجوه *

[الأول] قوله تعالى : (ذا الايد) والايد القوة ولا شك أن المراد منه القوة في الدين ، لان القوة في غير الدين كانت موجودة في الملوك الكفار ، وما استحقوا بها مدحا ، انما المستحق للمدح هو القوة في الدين *

[الثاني] أنه لما ثبت كونه موصوفا بالقوة في الدين ولا معنى للقوة في الدين إلا العزم الشديد على أداء الواجبات واجتناب المحظورات فكان داود عليه السلام من أولى العزم . وقد قال الله تعالى : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وأمر محمدا عليه الصلاة والسلام بالاقتداء بأولى العزم ، فإذا كان داود عليه السلام من أولى العزم ما كان قد أمر محمدا بالاقتداء بداود عليه السلام . وهذه درجة لا توازيها درجة *

[الثالث] أنه لما وصف بالقوة فأى قوة لمن لم يملك نفسه عن الفجور والقتل ؟ [الرابع] أنه وصفه بكونه أوابا . والاواب هو الرجاع والرجاع إلى ذكر الله يستحيل أن يكون مواظبا على أعظم الكبائر * (الخامس) قال . (سخرنا الجبال معه) الآيتين ، أفترى أنه سخر له ليتخذه وسيلة إلى القتل والزنا ؟ وقيل : إنه كان محرما عليه صيد كل شئ فكانت الطيور تأمنه ، فكيف يجوز أن تأمنه الطير ولا يأمنه المسلم على زوجته ؟ [السادس] قوله (وشددنا ملكه) ومحال أن يكون المراد منه شدة ملكه بالمال والعسكر مع كونه مسلما من طريق الدنيا لا من طريق الدين لان ذلك سبيل الملوك الكفرة ، لان قوله : (وشددنا ملكه) عام في الدين والدنيا *

[السابع] قوله : (وآتيناه الحكمة) والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغى علما وعملا ، فكيف يجوز أن يقول الله (وآتيناه الحكمة) مع إصراره على ما يستنكفه أخبث الشياطين من مزاحمة أفضل أصحابه وأحبائه في الزوج والمنكوح * فبان أن الله تعالى لما وصفه بهذه الصفة كان القول بما ذكروه من الفاحشة باطلا ، إذ ما قبل تلك الصفة هي هذه المدائح ، وما بعدها قوله تعالى (يا داود انا جعلناك خليفة) وهذا أيضا من أجل المدائح فلو توسطها ما يدل على أفحش المقابح لجرى ذلك مجرى قول من يقول فلان عظيم الدرجة في الدين على الرتبة في طاعة الله ، يقتل ويزنى ويلوط وقد جعله الله تعالى خليفة لنفسه وصوبه في

احكامه ، وأمر أكابر الأنبياء بالاقتداء به فكما ان هذا الكلام لا يليق بعاقل فكذا ها هنا

*

[الثامن] انه قال بعد تمام القصة (جعلناك خليفة في الارض) وترتيب الحكم على الوصف مشعر بكون الوصف علة لذلك الحكم فعلى ما ذكروه يلزم أن يكون تفويض خلافة الأرض إليه بسبب إقدامه على القتل والفسق ، وذلك مما لا يقول به عاقل *

(236/659)

[التاسع] انه قال في حق الرسل (انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وأنهم عندنا لمن المصطفين الاخيار) وكل ذلك ينافى وصفهم بالاقدام على الكبيرة والفاحشة *

[العاشر] أنهم ذكروا في روايتهم أن داود عليه السلام تمنى منزلة آبائه ابراهيم وإسحاق ويعقوب قال " رب إن آبائى قد ذهبوا بالخير كله فأوحى إليه : إنهم إنما وجدوا ذلك لانهم لما ابتلوا صبروا فسأل الابتلاء فأوحى الله إليه : إنك لمبتلى في يوم كذا فاحترس " ثم وقع فيما وقع فيه إلى آخر القصة ، فدل أول حكايتهم على أن الله تعالى

ابتلاه بالبلاء الذى يزيد في منقبته ، فكيف يليق العشق والقتل بذلك ؟ [الحادى عشر]

قول داود عليه السلام (وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات وقليل ما هم) استثنى الذين آمنوا من هذا البغى فان كان هو الفاعل لذلك وجب أن يكون حاكما على نفسه بعدم الايمان *

[الثاني عشر] أن قوله تعالى (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) لا يلائم العشق والقتل * فثبت بهذه الوجوه براءة نبى الله داود عما نسبه إليه الجهال *

[فإن قلت] إن كثيرا من المحدثين روى هذه الحكاية (1)

---

(1) أما هذه الدعوى الباطلة فهى مردودة على ما ينسب ذلك إلى ارباب الحديث فان أحدا من أصحاب الكتب الصحيحة لم يذكرها ولم يعرج عليها فليس من الانصاف العلمي أن يتهم المحدثون بهذه التهمة الشنيعة ، فان ذلك إنما يصدر من قلب موغور عليهم مملوء بالضغينة لهم ، والقصة إنما ذكرها المفسرون عن الاسرائيليات . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره قد ذكر المفسرون ههنا قصة اكثرها مأخوذ عن الاسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه . ولكن روى ابن ابى حاتم هنا حديثا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس . ويزيد وان كان من الصالحين ولكنه ضعيف الحديث جدا عند الائمة اه فانظر ايها المنصف إلى كلام أهل العلم الذين لا يلقون القول جزافا ولا يقدمون آراءهم وأهواءهم على العلم بدعوى خبر الآحاد وأنه لا يفيد إلا الظن وأمثال هذه الدعاوى الواهنة ولعل المصنف أراد بلفظ المحدثين – بضم الميم وسكون الحاء وفتح الدال وقال الإمام أبو محمد بن حزم – بعد أن ساق الآيات – : وهذا قول صادق صحيح لا يدل

على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود ، وانما كان ذلك الخصم قوما من بنى آدم بلا شك مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم . بغى أحدهما على الآخر على نص الآية . ومن قال : انهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء فقد كذب على الله عزوجل ، وقوله ما لم يقل وزاد في القرآن ما ليس فيه وكذب الله عزوجل ، وأقر على نفسه الخبيثة انه كذب الملائكة ، لان الله تعالى يقول (هل أتاك نبأ الخصم) فقال هو : لم يكونوا قط خصمين ، ولا بغى بعضهم على بعض ، ولا كان قط لاحدهما تسع وتسعون نعجة ولا كان للآخر نعجة واحدة ، ولا قال له : (أكفلنيها) فاعجبوا لما يقحم فيه أهل الباطل أنفسهم ، ونعوذ بالله من الخذلان . ثم كل ذلك بلا دليل ، بل الدعوى المجردة

(237/659)

[قلت] هذه الدلائل الباهرة لما أبطلت قولهم وجب القطع بفسادها . فالعجب اتفاق الناس على أن خبر الواحد لا يفيد الا الظن ، والظن إنما ينتفع به في العمليات وهذه المسألة ليست من العمليات ، فصارت روايتهم ساقطة العبرة من كل الوجوه . وعن سعيد بن المسيب والحارث الاعور أن عليا رضى الله عنه قال : " من حدثكم بحديث داود عليه

السلام على ما يرويه القصاص جلدته مأتين وستين وهو حد الفرية على الأنبياء " وروى أن واحدا ذكر ذلك الخبر عند عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به

(238/659)

وقال : إن كانت القصة على ما في كتاب الله تعالى فما ينبغي أن نلتمس خلافها ، وإن كان على ما ذكرت وكف الله عنها سترا على نبيه فيما ينبغي اظهار ما عليه ، فقال عمر : سماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت الشمس عليه * فإذا ثبت هذا فلنبحث أنه هل في الآية ما يدل على صدور الصغيرة عنه أم لا ؟ فنقول : قال كثير من اهل الحق قول الله (هل أتاك نبأ الخصم) أخبر عن جماعة أنهم تسوروا قصره قاصدين قتله والاساءة إلى أهله فدخلوا قصره في وقت ظنوا أنه غافل . فلما رآهم داود عليه السلام خافهم لما تقرر في العرف أنه لا يتسور أحد دار غيره بغير أمره إلا لسوء يريده من قتله أو لمكاره على أهله أو سرقة ماله خصوصا إذا كان صاحب الدار شخصا معظما فلما رأوه مستيقظا انتقض عليهم التدبير فاقترح بعضهم عند فزعه خصومة لا أصل لها زاعما أنهم قصدوه لاجلها دون ما توهمه فقالا (خصمان بغى بعضنا على بعض) ثم ادعى أحدهما على الآخر مالا .

فقال (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة) الآية فقال داود عليه السلام (لقد ظلمك) الآية ثم قال الله تعالى (فظن داود انما فتناه) أي امتحناه . لكنه لم يعمل على ظاهر الحال ، ولم ينتقم منهم مع كونه ذا أيد وقوة وسلطان وقدرة بل صار مستغفرا للقوم الذين قصدوه وطالبا من الله تعالى العفو عنهم وذلك إن الله تعالى لم يقل إنه أذنب ولا أنه استغفر لنفسه فان المستغفر قد يستغفر لنفسه تارة ولغيره

(239/659)

أخرى . قال الله تعالى في وصف الملائكة (ويستغفرون للذين آمنوا) وقال أولاد يعقوب لوالدهم (يا أبانا استغفر لنا) ثم قال الله تعالى (فغفرنا له ذلك) معنى غفرنا لاجل حرمة داود لاولئك وقبلنا شفاعته في التجاوز عنهم فهذا الذى قلناه مما ينطبق عليه لفظ الكتاب العزيز ، فلا يحتاج فيه إلى المجاز من حمل الخصمين على الملكين ، وادعاؤهما الخصومة على التمسك لا على التحقيق ، وحمل النعجة على المرأة ويناسبه أمر رسولنا عليه الصلاة والسلام بالاقتداء به في قوله (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) وتأدب به عليه الصلاة والسلام يوم أحد لما هشمت ثناياه فقال " اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون " ويناسبه ما حصل عقيبه من المنصب العظيم وهو خلافة الله في أرضه * ووجه آخر : لعل الاستغفار

انما كان لان القوم لما تسوروا ظن داود عليه السلام بهم أنهم يقصدون قتله فلما لم يظهر الأمر كما ظن ندم على ذلك الظن ، فكان الاستغفار عليه ، أو لأنه لما هضم نفسه ولم يؤدبهم ولم ينتقم منهم مع القدرة التامة دخله شئ من العجب على كمال حلمه ، فكان الاستغفار منه لان العجب من المهلكات . فهذا قول من يقول لا دلالة في الآية على شئ من الزلات وهو الحسن عندي *

[القول الثاني] وهو قول من سلم دلالتها على الصغيرة فلهم فيها وجوه خمسة [الأول] انه عليه السلام كان عالما بحسن امرأة اوريا فلما سمع انه قتل قل غمه لميل طبعه إلى نكاح زوجته ، فعوتب عليه

(240/659)

بنزول الملكين [الثاني] أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته ، وكان ذلك جائزا فيما بينهم ، فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على امرأة اوريا ، فأحبها فسأله النزول عنها فاستحى أن يرده ، ففعل فتزوجها وهى ام سليمان عليه السلام ، فقيل له . إنك مع ارتفاع قدرك وكثرة نسائك لم يكن ينبغى لك أن تسأل رجلا ليست له الا امرأة واحدة النزول عنها ، بل كان الواجب قهر

نفسك *

[الثالث] ان أوريا خطبها ثم خطبها داود عليه السلام فآثره أهله فكان ذنبه أنه خطب على خطبة المؤمن مع كثرة نسائه *

[الرابع] ان داود عليه السلام كان مشتغلا بعبادته فأتاه رجل وامرأة يتحاكمان فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها ليحكم لها أو عليها ، وذلك نظر مباح فمالت نفسه إليها ميل الخلقة ففصل بينهما وعاد إلى عبادته فشغله الفكر في امرها عن بعض نوافله فعوتب *

[الخامس] ان الصغيرة منه إنما كانت بالعجلة في الحكم قبل التثبت ، وكان يجب عليه لما سمع الدعوى من أحد الخصمين أن يسأل الآخر عما عنده فيها ولا يقضى عليه قبل المسألة * والمجيب بهذا الجواب قال : إن الفزع من دخولهما عليه في غير وقت العادة أنساه التثبت والتحفظ والقائلون بهذا القول حملوا التحاكم على ضرب المثال ، وإلا فيلزم إقدام الملك على الكذب وحملوا النعاج على النسوة ، وكل ذلك عدول عن الظاهر من غير دليل *

(241/659)

[فإن قيل] هب أنه لا دلالة في الآية على الذنب البتة ولكن مسارعته إلى تصديق أحد الخصمين على حكمه يكون الآخر ظالما غير جائز [قلنا] ليس في القرآن أنه صدقه من غير

ظهور الحجة ، إذ المراد إن كان الأمر كما ذكرت فقد ظلمك * (الشبهة الثانية) تمسكوا بقوله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان) قالوا فلو كان داود عليه السلام مصيبا في حكمه لما خص الله تعالى سليمان بقوله : (ففهمناها) جوابه أن تخصيص سليمان عليه السلام بالذكر لا يدل على أن داود بخلافه فان دليل الخطاب في اللقب لا يفيد باجماع المحققين ، ثم في هذا التخصيص فائدتان سوى ما ذكروه : [الأولى] أن داود عليه السلام كان متوقفا لتعارض الامارات وسليمان لم يكن كذلك *

[الثانية] أن داود عليه السلام كان عالما به لكنه ما أفتى امتحانا لابنه سليمان رجاء أن يفتى به ويستخرج حكمه ويكون تخصيص ابنه سليمان بأن فهمه ذلك تقريرا لعين والده وإعلاء درجته في الناس وإنما أعرض عن ذكر داود عليه السلام للعلم باشتهاره فيما بين الخلق بمعرفة الأحكام ، ثم إنه تعالى خلف الكلام بقوله : (وكلا آتينا حكما وعلما) لئلا يتوهم أنه كان جاهلا به وحاكما فيه بغير الصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ عصمة الأنبياء صـ 72.80 ﴾

(242/659)

بحث بعنوان :

*** داوود عليه الصّلاة والسّلام ***

للشيخ محمود غريب

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وسلام على

النبيّ المصطفى

أما بعد . . . . . .

مع القرآن الكريم . . . .

ومع النبيّ المظلوم . . . . . .

سيدّنا داوود عليه الصّلاة والسّلام

نعيش هذا اللقاء

قال تعالى في سورة (ص) :-----

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾

ص 21 -24

كثير من المسلمين أخطأ فهم هذه الآيات . . . . . .

مع أن ملامح الحق فيها واضحة . . . . . .

وسبب هذا الخطأ

هو رجوع المسلمين

إلى كتب الإسرائيليات

وأخذهم منها مع أنّها سهام موجّهة للإسلام

وحفظا على وقت القارئ الكريم اكتفي بذكر الحقّ الذي توحيه

الآيات

واضرب الذّكر صفحا عن قول البعض من المفسرين الذين شغلوا

أنفسهم بالنقل عن الإسرائيليات

- فشوهوا حقائق الإسلام -

فسامحهم الله

والبحث عن الفهم السّليم للقصة يتطلب نظرة عامة إلى الآيات

السابقة لنفهم القرآن فهما موضوعيا

أولا : ------ نلاحظ أن هذه القصة وردت في سياق مدح القرآن

لسيّدنا داوود عله الصّلاة والسّلام

ثانيا : ------- ليس في ألفاظ القرآن ولا في مفهومه العام ما يشير

إلى أن :---

القصة رمزية

(243/659)

--- رتبها الله تعالى لعتاب داوود عليه السّلام

على فعل يخالف شريعة الفضيلة ---

التي جاء بها كلّ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام

وذلك لان:--------

عصمة الأنبياء جزء من عقيدة القرآن

والآن مع الآيات :------

حتى لا نخطئ فهم القرآن

1- ساق القرآن هذه الآيات في مقام الأسوة لنبينا محّمد

صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسّلم

فكأنّ الله يقول لنبينا محّمد صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسّلم

إن ضاق صدرك من كُفر قومك

فاذكر

عبدنا داوود

وصف القرآن داوود بأوصاف عظيمة

هي قوله تعالى :----- ((عبدنا)) : وهذا اللفظ لا يستعمل إلا

في مقام التكريم

((ذا الأيد)) . . . . أي القوة في الحق

((انّه أواب)) . . . كثير الرجوع إلى الله

وقد اخبرنا القرآن بان :-----

الجبال مسّخرة معه . . . . . .

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ الأنبياء 79

والطير مجتمعة عنده . . . . . .

ورب العرش قوى ملكه . . . . .

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾البقرة251

ومنحه الحكمة في الأفعال . . . .

وعلّمه فصل الخطاب . . . . . .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ص20

وجعله خليفة في الأرض . . . . . .

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ص26

ثمّ كشف اللثام عن مقامه في الآخرة

(244/659)

فقال تعالى :ـــــــــ

﴿ . . . وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ ص25

أقول يا داوود

طبت حيّا وميّتا

هذا ما افهمه من القرآن الكريم . . .

كل هذه الأوصاف تصّحح فهم الذين ظلموا هذا النبيّ وتقوّلوا عليه

فما معنى الآيات إذن ؟

وما

خبر الخـــــصمان ؟

أقول :ـــــــــ

سيّدنا داوود عليه الصّلاة والسّلام

كان نبيّا وكان ملكا

وكلاهما عبء ثقيل

فكيف يقسم وقته . . . . . .

بين مطالب الرسالة وواجب الملك ؟ ؟

أضف إلى ذلك انّه كان يأكل من عمل يده . . .

و من أشق الإعمال البدنية . . .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ . أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ سبأ 10-11

وألنا له الحديد أن اعمل سابغات أي دروعا سابغات

وقدر في السّرد (إشارة إلى دقة صناعته)

فكيف يقسم الوقت بين :-----

النبوة . . .

والملك . .

والمصنع . . ؟

لقد أعطى

العبادة يوما لا يخرج فيه من المحراب

وأعطى الملك والمصنع يوما

ولكن الله تعالى أراد أن يعرّف داوود انه في اليوم الذي يخلو فيه

للعبادة يقع بين الناس مظالم تحتاج إلى عدل داوود

فمكن الله الرجلين (الخصمين) من الدخول عليه في يوم المحراب

يوم العبادة

وشرح احدهما قصته واظهر ما فيه من ظلم أخيه له

وكيف انّه وهو الثّري صاحب النعاج الكثيرة يطلب من أخيه

الفقير أن يعطيه نعجته . . .

ففصل داوود بين المتخاصمين . . .

وتنبّه أن الرعية يحدث بينها مظالم كثيرة في يوم العبادة فلا

يجد المظلوم من يدافع عنه . . .

إن الصّلح بين الناس

ونصرة المظلوم أفضل من عبادة المحراب

فظن داوود أنّما فتناه وشغلناه بعبادة المحراب عن نصرة المظلوم . .

فاستغفر ربه

وخرّ راكعا

وأنـــــــاب

فغفرنا له ذلك . . .

إنّ حسنات الأبرار سيئات المقربين

وكلما اشتد قرب العبد من ربه

أصبح موضع المؤاخذة من سيّده . . . ! !

أقول هذا :----

حتى لا نخطئ فهم القرآن . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ سلسلة حتى لا نخطئ فهم القرآن للشيخ محمود غريب ﴾

(246/659)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ ﴾ الآيات .

أرسل اللَّهُ إلى داود عليه السلام مَلَكَيْنِ من السماء على صورة رجلين فتحاكَمَا إليه تنبيهاً له على ما كان منه من تَزَوُّجِه بامرأة أوريا ، وكان تَرْكُ ذلك أَوْلَى –هذا على طريق مَنْ رأى تنزيهَ الانبياءِ عليهم السلام من جميع الذنوب .

وأمَّا مَنْ جَوَّزَ عليهم الصغائر فقال : هذا من جملته . وكَنَّى الخَصْمان باسم النعجة عن النساء .

وكان داود عليه السلام قال لله سبحانه وتعالى : إِنِّي لأَجِدُ في التوراة أَنَّكَ أعطيتَ الأنبياءَ الرُّتَبَ فأَعْطِنِيها ، فقال : إنهم صبروا فيما ابتَلَيْتُهم به ، فوعد داودُ من نَفْسِه الصبرَ إذا ابتلاه طمعاً في نَيْلِ الدرجات ، فأخبر اللَّهُ تعالى أنه يبتليه يومَ كذا ، فجعل داودُ ذلك اليوم يوم عبادة ، واختلى في بيته ، وأَمَرَ حُرَّاسَه ألا يؤذيَه أحدٌ بالدخول عليه ، وأغلق على نَفْسِه البابَ ، وأخذ يُصَلِّي زماناً ، ويقرأ التوراةَ زماناً يتعبَّد . أغلق على نفسه الباب ولكن لم يمكنه غَلْق بابِ السماء . وأَمَرَ حَرَسَه أن يدفعوا عنه الناسَ وكنوا ثلاثين ألف رجل – ويقال أربعة آلاف – ولكن لم يُمْكِنْهم أَنْ يدفعوا عنه حُكْمَ القضاء ، ولقد قال الحكماء : الهاربُ مما هو كائن في كَفِّ الطالبِ يتقلب .

وكانت في البيت كوَّةٌ يدخل منها الضوء ، فَدَخَلَ طيرٌ صغيرٌ من الذهب ، ووقع قريباً منه ، وكان لداود ابنٌ صغيرٌ فَهَمَّ أن يأخذَه ليدفعَه إلى ابنه ، فتباعَدَ عنه . وجاء في التفاسير : أنه كان إبليس ، قد تصوَّر له في صورة طير ، فَتَبِعَه داود ، ولم يزل الطائرُ يتباعد قليلاً قليلاً ، وداود يتبعه حتى خَرَجَ من الكوة ، ونَظَرَ داود في إثره فَوَقَعَ بَصَرُه على امرأة أوريا وهي تغتسل متجردةً ، فعاد إلى قلبه منها شيء ، فكان هذا السبب .

ويقال لم يَرْعَ الاهتمامَ بسبب وَلَدِه حتى فعل به ما فعل ، وفي ذلك لأولي الأبصار عِبْرَةٌ .

ويقال لم يكن أوريا قد تزوَّجَ بها بَعْدُ ، وقد كان خَطَبَها ، وأجابَتْه في التزوج به ، فَخَطَبَ داود على خِطْبَتِه . وقيل بل كانت امرأته وسأله أن ينزل عنها ، فَنَزَلَ على أمره وتزوجها . وقيل بل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء فقُتِلَ وتزوَّج بها . فلمَّا تَسَوَّرَ الخصمان عليه ، وقيل دَخَلاَ من سور المحراب أي أعلاه ولذلك : –

﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَا بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَآ إِلَى سَوَآءِ الصِّرَاطِ ﴾ .

نحن خصمان ظَلَمَ بعضُنا بعضاً ، فاحكُمْ بيننا بالعدل .

إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23)

﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أي انزلْ عنها حتى أكفلَها أنا ، ﴿ وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ ﴾ . أي غلبني ، فقال داود :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ فضحك أحدهما في وجه صاحبه ، وصَعدَ إلى السماء بين يديه ، فَعَلِمَ داودُ عند ذلك انه تنبيهٌ له وعتابٌ فيما سَلَفَ منه ، وظنَّ واستيقن أنه جاءَتْه الفتنةُ الموعودة :

﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ .

أخذ في التضرع ، وجاء في التفسير أنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسَه من السجود إلا (للصلاة) المكتوبة عليه ، وأخذ يبكي حتى نَبَتَ العُشبُ من دموعه ، ولم يأكل ولم يشرب في تلك المدة ، حتى أوحى اللَّهُ إليه بالمغفرة ، فقال : يا رب ، فكيف بحديث الخصم ؟ فقال : إني استوهبْتُك منه ، وقال تعالى :

فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (25)

(248/659)

إن له عندنا لَقُربةً وحُسْنَ رجوع ، وقيل : كان لا يشرب الماء إلا ممزوجاً بدموعه . ويقال لمَّا التجأ داود عليه السلام في أوائل البلاء إلى التوبة والبكاء والتضرع والاستخذاء وَجَدَ المغفرةَ والتجاوز . . . وهكذا مَنْ رجع في أوائل الشدائد إلى الله فاللَّهُ يكفيه مما ينوبه ، وكذلك مَنْ صَبَرَ إلى حين طالت عليه المحنة . ويقال إنَّ زلّةً أَسَفُكَ عليها يوصلك إلى ربِّك أَجْدَى عليك من طاعةٍ إعجابُكَ بها يُقْصِيكَ عن ربِّك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 250.252 ﴾

(249/659)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الستون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الستون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 26 ﴾ من سورة ص

وحتى الآية ﴿ 40 ﴾ من نفس السورة

(4/660)

قوله تعالى ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

قوله تعالى عقبها على هيئة الاستثمار منها صارفاً القول عن مظهر العظمة إلى المواجهة بلذيذ الخطاب ، على نحو ما يجري بين الأحباب ﴿ يا داود ﴾ .

ولما كان مضمون الخبر لزيادة عظمة مما من شأنه أن تستنكره نفوس البشر ، أكده لذلك وإظهاراً لأنه مما يرغب فيه لحسنه وجميل أثره وينشط غاية النشاط لذكره فقال : ﴿ إنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ جعلناك ﴾ فلا تحسب لشيء من أسبابه حساباً ولا تخش له عاقبة ﴿ خليفة ﴾ أي من قبلنا تنفذ أوامرنا في عبادنا فحكمك حكمنا ، وحذف ما يعلم أنه مراد من نحو ﴿ قلنا ﴾ إشارة إلى أنه استقبل بهذا الكلام الألذ عند فراغه من السجود إعلاماً بصدق ظنه ، وقال : ﴿ في الأرض ﴾ أي كلها إشارة إلى إطلاق أمره في جميعها ، فلا جناح عليه فيما فعل في أي بلد أرادها ، ولم يذكر المخلوف تعظيماً له بالإشارة إلى أن كل ما جوزه العقل فيه فهو كذلك فهو كان خليفة في بيت المقدس بالفعل على ما اقتضاه صريح الكلام بالتعبير بفي ، وأشار الإطلاق والتعبير بآل إلى أنها الأرض الكاملة لانبساط الحق منها بإبراهيم عليه السلام وذريته على سائر الأرض وهو خليفة في جميع الأرض بالقوة بمعنى أنه مهما حكم فيها صح ، وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يرسل إلى قومه خاصة فيكون ما يؤديه إليه واجباً عليه ، وأما بقية الناس فأمره معهم من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مهما فعله منه صح ومضى ، ثم كان خليفة في جميع الأرض حقيقة بالفعل بابنه سليمان عليه السلام فاستوفى الإطلاق ﴿ وآل ﴾ المكملة أقصى ما يراد منه ، إعلاماً بأن كلام القدير كله كذلك وإن لم يظهر في الحالة الراهنة ، وذلك كما أن المنزل عليه هذا الذكر وبسببه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان خليفة

بالفعل في أرض العرب التي هي الأرض كلها لأن الأرض دحيت منها وبيتها لأول بيت وضع للناس وهو قيام لهم ، ومن انبسط القيام بالنور والعدل على جميع الأرض وفي جميع الأرض بالقوة بمعنى أنه مهما حكم به فيها مضى ، فقد أعطى تميماً الداري ـ رضى الله عنه ـ أرض بلد الخليل من بلاد الشام قبل أن يفتح وصح ونفذ ، وأعطى شويلاً ـ رضى الله عنه

(5/660)

ـ بنت بقيلة من أهل الحيرة وصح ذلك ونفذ وقبض كل منهما عند الفتح ما أعطاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي هو من ذرية داود عليه السلام ثم في جميع الوجود يوم القيامة يوم الشفاعة العظمى يوم يكون الأنبياء كلهم تحت لوائه ، ويغبطه الأولون والاخرون بذلك المقام المحمود .

ولما تمت النعمة ، سبب عنها قوله : ﴿ فاحكم بين الناس ﴾ أي الذين يتحاكمون إليك من أي قوم كانوا ﴿ بالحق ﴾ أي الأمر الثابت الذي يطابقه الواقع .

ولما كان أعدى عدو للإنسان نفسه التي بين جنبيه لما لها من الشهوات ، وأعظم جناياته وأقبح خطاياه ما تأثر عنها من غير استناد إلى أمر الله ، مشيراً بصيغة الافتعال إلى أنه سبحانه عفا الخطرات ، وما بادر الإنسان الرجوع عنه والخلاص منه توبة إلى الله تعالى :

﴿ ولا تتبع الهوى ﴾ أي ما يهوى بصاحبه فيسقطه من أوج الرضوان إلى حضيض الشيطان ، ثم سبب عنه قوله : ﴿ فيضلك ﴾ أي ذلك الاتباع أو الهوى لأن النفس إذا ضربت على ذلك صار لها خلقاً فغلب صاحبها عن ردها عنه ، ولفت القول عن مظهر العظمة إلى الاسم الأعظم الجامع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى تعظيماً لأمر سبيله ، وحثاً على لزومه والتشرف بحلوله ، فقال : ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي طريقه التي شرعها للوصول إليه بما أنزل من النقل المؤيد بأدلة ما خلق من العقل ، ولا يوصل إليه بدونها لأن اتباعه يوجب الانهماك في اللذات الجسمانية ، والإهمال لتكميل القوى الروحانية ، الموصلة إلى السعادة الأبدية ، فإن دواعي البدن والروح متضادتان فبقدر زيادة إحداهما تنقص الأخرى .

(6/660)

ولما كانت النفس نزاعة إلى الهوى ، ميالة عن السوى ، قال معللاً للنهي مؤكداً لما للنفس من التعللات عند المخالفة بالكرم والمغفرة الدافع للعذاب : ﴿ إن الذين يضلون ﴾ أي يوجدون الضلال بإهمالهم التقوى الموجب لاتباع الهوى المقتضي لأن يكون متبعه ضالاً ﴿ عن سبيل الله ﴾ إعادة تفخيماً لأمره وتيمناً بذكره وإيذاناً بأن سبيله مأمور به مطلقاً

من غير تقييد بداود عليه السلام ولا غيره فيه ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ أي بسبب ضلالهم .

(7/660)

ولما أمر سبحانه ونهى ، وذكر أن السبب في النهي كراهة الضلال وعلم منه أن سبب الضلال الهوى ، ذكر سبب هذا السبب فقال معبراً بالنسيان إشارة إلى أنه من شدة ظهوره كما كان محفوظاً فنسي ، وفك المصدر لأنه أصرح لأنه لو عبر بالمصدر لأمكن إضافته إلى المفعول ، واختيرت ﴿ ما ﴾ دون ﴿ إن ﴾ لأن صورتها صورة الموصول الاسمي ، وهو أبلغ مما هو حرف صورة ومعنى : ﴿ بما نسبوا يوم الحساب ﴾ أي عاملوه معاملة المنسي بعضهم بالإنكار وبعضهم بخبث الأعمال ، فإنهم لو ذكروه حقيقة لما تابعوا الهوى المقتضي للضلال على أنه مما لا يجهله من له أدنى مسكة من عقل فإنه لا يخطر في عقل عاقل أصلاً أن أقل الناس وأجهلهم يرسل أحداً إلى مزرعة له يعملها ، ثم لا يحاسبه عليها فكيف إذا كان حكيماً فكيف إذا كان ملكاً فكيف وهو ملك الملوك ، وقال الغزالي في آخر كتاب العلم من الإحياء في الكلام على العقل : ثم لما كان الإيمان مركوزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى من أعرض فنسي ، وهم الكفار ، وإلى من جال فكره فتذكر ، وكان كمن حمل شهادة

فنسيها بغفلة ثم تذكرها ، ولذلك قال تعالى ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ ﴿ وليتذكر أولوا الألباب ﴾ ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به ﴾ [المائدة : 7] ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ [القمر : 17] وتسمية هذا النمط تذكراً ليس ببعيد ، وكأن التذكر ضربان : أحدهما أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه ، لكن غابت بعد الوجود ، والآخر أن يكون عن صورة كانت متضمنة فيه الفطرة ، وهذه حقائق ظاهرة لناظر بنور البصيرة ثقيلة على من يستروح إلى السماع والتقليد دون الكشف والعيان - انتهى .

وقد علم من هذه القصة وما قبلها أن المعنى : اصبر على ما يقولون الآن ، فلننصرك فيما يأتي من الزمان ، ولنؤيدنك كما أيدنا داود العظيم الشأن .

(8/660)

ولما كان التقدير : فما قضيناه في الأزل بيوم الحساب وتوعدنا به سدى ، عطف عليه قوله صارفاً الكلام عن الغيبة إلى مظهر العظمة إشارة إلى أن العظيم تأبى له عظمته غير الجد العظيم : ﴿ وما خلقنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ، ويجوز أن تكون الجملة حالية .

ولما كان السياق لما وقع من الشقاق عناداً لا جهلاً ، ذكر من السماوات ما لا يمكن النزاع

فيه مع أن اللفظ للجنس فيشمل الكل فقال : ﴿ السماء ﴾ أي التي ترونها ﴿ والأرض وما بينهما ﴾ مما تحسونه من الرياح وغيرها خلقا ﴿ باطلاً ﴾ أي لغير غاية أردناها بذلك من حساب من فيهما كما يحاسب أقل من فيكم إجزاء ، ومجازاة من فيهما بالثواب لمن أطاع والعقاب لمن عصى كما يفعل أقل ملوككم فإن أدنى الناس عقلاً لا يبني بناء ضخماً إلا لغاية أرادها ، وتلك الغاية هي الفصل بين الناس الذين أعطيناهم القوى والقدر في هذه الدار ، وبثثنا بينهم الأسباب الموجبة لانتشار الصفاء فيهم والأكدار ، وأعطيناهم العقول تنبيهاً على ما يراد ، وأرسلنا فيهم الرسل ، وأنزلنا إليهم الكتب ، بالتعريف بما يرضينا ويسخطنا ، فنابذوا كل ذلك فلو تركناهم بلا جمع لهم ولا إنصاف بينها لكان هذا الخلق كله باطلاً لا حكمة فيه أصلاً ، لأن خلقه للضر أو النفع أو لا لواحد منهما ، والأول باطل لأنه غير لائق بالرحيم الكريم ، والثالث باطل لأنه كان في حال العدم كذلك ، فلم يبق للإيجاد مرجح ، فتعين الوسط وهو النفع ، وهو لا يكون بالدنيا لأن ضرها أكثر من نفعها ، وتحمل ضر كثير لنفع غير لائق بالحكيم الكريم ، فتعين ما وقع الوعد الصادق به من نفع الآخرة المطابق لما ذكر من عقل العقلاء وسير النبلاء .

(9/660)

ولما كان هذا – وهو منابذة الحكمة – عظيماً جداً ، عظمه بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر البعيد عن الصواب ﴿ ظن الذين كفروا ﴾ أي من أوقع هذا الظن في وقت ما ، فقد أوجد الكفر لأنه جحد الحكمة التي هي البعث لإظهار صفات الكمال والمجازاة بالثواب والعقاب ، ومن جحد الحكمة فقد سفه الخالق ، فكان إقراره بأنه خالق كلا إقرار فكان كافراً به ، ثم سبب عن هذا الظن قوله : ﴿ فويل ﴾ أي هلاك عظيم بسبب هذا الظن ، وأظهر في موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال : ﴿ للذين كفروا ﴾ أي مطلقاً بهذا الظن وبغيره ﴿ من ﴾ أي مبتدأ من ﴿ النار ﴾ أي الحكم عليهم بها .

(10/660)

ولما كان التقدير : أفنحن نخلق ذلك باطلاً ؟ فلا يكون له مآل يظهر فيه حكمته ونحن منزهون عن العبث ، عطف عليه قوله إنكاراً لما يلزم من ترك البعث من التسوية بين ما حقه المفاوتة فيه ، وذلك أشد من العبث وإن كان له أن يفعل ذلك لأنه لا يقبح منه شيء : ﴿ أم نجعل ﴾ أي على عظمتنا ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي امتثالاً لأوامرنا ﴿ وعملوا ﴾ أي تصديقاً لدعواهم الإيمان ﴿ الصالحات ﴾ من الأعمال كالذين أفسدوا وعملوا السيئات أم نجعل المصلحين في الأرض ﴿ كالمفسدين ﴾ أي المطبوعين على الفساد الراسخين فيه ﴿ في

الأرض ﴾ أي بالكفر وغيره ، والتسوية بينهم لا يشك عاقل في أنها سفه ﴿ أم نجعل ﴾ على ما لنا من العز والمنعة الذين اتقوا كالذين فجروا أم نصيّر ﴿ المتقين ﴾ أي الراسخين من المؤمنين في التقوى الموجبة للتوقف عن كل ما لم يدل عليه دليل ﴿ كالفجار ﴾ أي الخارجين من غير توقف عن دائرة التقوى من هؤلاء الذين كفروا أو من غيرهم في أن كلاًّ من المذكورين يعيش على ما أدى إليه الحال في الدنيا ، وفي الأغلب يكون عيش الطالح أرفع من عيش الصالح ، ثم يموت ولا يكون شيء بعد ذلك ، ولا شك أن المساواة بين المصلح والمفسد والمتقي والمارق لا يراها حكيم ولا غيره من سائر أنواع العقلاء فهو لا يفعلها سبحانه وإن كان له أن يفعل ذلك ، فإنه لا يجب عليه شيء ولا يقبح منه شيء ، وقد علم أن الآية من الاحتباك ، وأنه مشير إلى احتباك آخر ، فإنه ذكر ﴿ الذين أمنوا ﴾ أولاً دليلاً على ﴿ الذين أفسدوا ﴾ ثانياً ، وذكر ﴿ المفسدين ﴾ ثانياً دليلاً ﴿ على المؤمنين ﴾ أولاً ، وأفهم ذلك ذكر ﴿ الذين اتقوا ﴾ وأضدادهم وسر ما ذكر وما حذف أنه ذكر أدنى أسنان الإيمان تنبيهاً على شرفه وأنه سبب السعادة وإن كان على أدنى الوجوه وذكر أعلى أحوال الفساد ، إشارة إلى أنه يغفر ما دون ذلك لمن يشاء وذكر أعلى أحوال التقوى إيماء إلى أنه لا يوصف بها ويستحق جزاءها إلا الراسخ فيها ترغيباً للمؤمن في أن يترقى إلى أوجها .

(11/660)

ولما ثبت بما ذكر من أول السورة إلى هنا ما ذكر في هذا الذكر من البراهين التي لا يأباها إلا مدخول الفكر مخالط العقل ، ثبت أنه ذو الذكر والشرف الأعظم فقال تعالى منبهاً على ذلك تنبيهاً على أنه القانون الذي يعرف به الصلاح ليتبع والفساد ليجتنب مخبراً على مبتدأ تقديره هو : ﴿ كتاب ﴾ أي له من العظمة ما لا يحاط به ، ووصفه بقوله : ﴿ أنزلناه ﴾ أي بما من العظمة ﴿ إليك ﴾ وذلك من عظمته لأنك اعظم الخلق ، ثم أخبر عن مبتدأ آخر مبين لما قبله على طريق الاستئناف فقال : ﴿ مبارك ﴾ أي دائم الخير كثير النفع ثابت كل ما فيه ثباتاً لا يزول أبداً ولا ينسخه كتاب ولا شيء .

ولما ذكر ما له من العظمة إشارة وعبارة ، ذكر غاية إنزاله المأمور بها فقال : ﴿ ليدبروا ﴾ بالفوقانية وتخفيف الدال بالخطاب في قراءة أبي جعفر مشرفاً للأمة بضمهم بالخطاب إلى حضرته الشماء ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولافتاً للقول في قراءة الجماعة بالغيب وتشديد الدال إلى من يحتاج إلى التنبيه على العلل ، لما له من الشواغل الموقعة في الخلل ، وأما هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففي غاية الإتعام للنظر ، والتدبر بأجلى الفكر ، من حين الإنزال ، لعلمه بعلة الإنزال بحيث إنه من شدة إتعابه لنفسه الشريفة بالتخفيف وضمن له تعالى جمعه وقرآنه ﴿ آياته ﴾ أي لينظروا في عواقب كل آية وما تؤدي إليه وتوصل إليه من المعاني الباطنة التي أشعر بها طول التأمل في الظاهر ، فمن رضي بالاقتصار على حفظ حروفه

كان كمن له لقحة درور لا يحلبها ، ومهرة نتوج لا يستولدها ، وكان جديراً بأن يضيع حدوده فيخسر خسراناً مبيناً .

ولما كان كل أحد مأموراً بأن ينتبه بكل ما يرى ويسمع على ما وراءه ولم يكن في وسع كل أحد الوصول إلى النهاية في ذلك ، قنع منهم بما دونها فأدغمت تاء التفعل في فاء الكلمة إشارة إلى ذلك كما تشير إليه قراءة أبي جعفر ، وربما كانت قراءة الجماعة إشارة إلى الاجتهاد في فهم خفاياه - والله أعلم .

(12/660)

ولما كان السياق للذكر ، وأسند إلى خلاصة الخلق ، وكان استحضار ما كان عند الإنسان وغفل عنه لا يشق لظهوره ، أظهر التاء حثاً على بذل الجهد في إعمال الفكر والمداومة على ذلك فإنه يفضي بعد المقدمات الظنية إلى أمور يقينية قطعية إما محسوسة أولها شاهد في الحس فقال : ﴿ وليتذكر ﴾ أي بعد التدبر تذكراً عظيماً جلياً - بما أشار إليه الإظهار ﴿ أولوا الألباب ﴾ أي كل ما أرشد إليه مما عرفه الله لهم في أنفسهم وفي الآفاق فإنهم يجدون ذلك معلوماً لهم بحس أو غيره في أنفسهم أو غيرها ، لا يخرج شيء مما في القرآن عن النظر إلى شيء معلوم للإنسان لا نزاع له فيه أصلاً ، ولكن الله تعالى يبديه لمن

يشاء ويخفيه عمن يشاء ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ [فصلت : 53] وأظهره يوم القيامة فإنه مركوز في طبع كل أحد أن الرئيس لا يدع من تحت يده بغير حساب أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 377 . 382 ﴾

(13/660)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾

اعلم أنه تعالى لما تمم الكلام في شرح القصة أردفها ببيان أنه تعالى فوض إلى داود خلافة الأرض ، وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول المشهور في تلك القصة ، لأن من البعيد جداً أن يوصف الرجل بكونه ساعياً في سفك دماء المسلمين ، راغباً في انتزاع أزواجهم منهم ثم يذكر عقيبه أن الله تعالى فوض خلافة الأرض إليه ، ثم نقول في تفسير كونه خليفة وجهان الأول : جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء في الدعاء إلى الله تعالى ، وفي سياسة الناس لأن خليفة الرجل من يخلفه ، وذلك إنما يعقل في حق من يصح عليه الغيبة ، وذلك على الله محال الثاني : إنا جعلناك مالكاً للناس ونافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل

يسمى خليفة ، ومنه يقال خلفاء الله في أرضه ، وحاصله أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم في رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة في حق الله ، فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم في تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم .

ثم قال تعالى : ﴿ فاحكم بَيْنَ الناس بالحق ﴾ واعلم أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع ، لأن الإنسان الواحد لا تنتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة حتى أن هذا يحرث ، وذلك يطحن ، وذلك يخبز ، وذلك ينسج ، وهذا يخيط ، وبالجملة فيكون كل واحد منهم مشغولاً بمهم ، وينتظم من أعمال الجميع مصالح الجميع .

(14/660)

فثبت أن الإنسان مدني بالطبع وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل فثبت أنه لا ينتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس ، ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه ، وذلك يفضي إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق ، وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك

ذلك الملك ، أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحق الإلهية انتظمت مصالح العالم ، واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه .

فهذا هو المراد من قولهم : ﴿ فاحكم بَيْنَ الناس بالحق ﴾ يعني لا بد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم ثم قال : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ الآية ، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله ، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب .

أما المقام الأول : وهو أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله فتقريره أن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية ، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التي هي الباقيات الصالحات ، لأنهما حالتان متضادتان فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر .

أما المقام الثاني : وهو أن الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ، فالأمر فيه ظاهر لأن الإنسان إذا عظم ألفه بهذه الجسمانيات ونسي بالكلية أحواله الروحانيات ، فإذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق ، ودخل ديارا ًليس له بأهل تلك الديار إلف وليس لعينه قوة مطالعة أنوار تلك الديار ، فكأنه فارق المحبوب ووصل إلى المكروه ، فكان لا محالة في أعظم العناء والبلاء ، فثبت أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله .

وثبت أن الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب ، وهذا بيان في غاية الكمال .

ثم قال تعالى : ﴿ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الحساب ﴾ يعني أن السبب الأول لحصول ذلك الضلال هو نسيان يوم الحساب ، لأنه لو كان متذكراً ليوم الحساب لما أعرض عن إعداد الزاد ليوم المعاد ، ولما صار مستغرقاً في هذه اللذات الفاسدة .

روي عن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز هل سمعت ما بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا يكتب عليه معصية ؟ فقال : يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء ؟ ثم تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّ الذين يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الحساب ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا سبحانك فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : 191] وقوله تعالى : ﴿ مَّا خَلَقَ الله السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ [الروم : 8] وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

احتج الجبائي بهذه الآية على أنه تعالى لا يجوز أن يكون خالقاً لأعمال العباد قال لأنها مشتملة على الكفر والفسق وكلها أباطيل .

فلما بين تعالى أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً دل هذا على أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد .

(16/660)

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ [الحجر : 85] وعند المجبرة أنه خلق الكافر لأجل أن يكفر والكفر باطل ، وقد خلق الباطل ، ثم أكد تعالى ذلك بأن قال : ﴿ ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي كل من قال بهذا القول فهو كافر ، فهذا تصريح بأن مذهب المجبرة عين الكفر ، واحتج أصحابنا رحمهم الله بأن هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقاً لأعمال العباد فقالوا هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقاً لكل ما بين السموات والأرض ، وأعمال العباد حاصلة بين السماء والأرض ، فوجب أن يكون الله تعالى خالقاً لها .

المسألة الثانية :

(17/660)

هذه الآية دالة على صحة القول بالحشر والنشر والقيامة ، وذلك لأنه تعالى خلق الخلق في هذا العالم ، فإما أن يقال إنه خلقهم للإضرار أو للإنفاع أو لا للإنفاع ولا للإضرار والأول باطل لأن ذلك لا يليق بالرحيم الكريم ، والثالث أيضاً باطل لأن هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين ، فلم يبق إلا أن يقال إنه خلقهم للإنفاع ، فنقول وذلك الإنفاع ، إما أن يكون في حياة الدنيا أو في حياة الآخرة ، والأول باطل لأن منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة ، وتحمل المضار الكثيرة للمنفعة القليلة لا يليق بالحكمة ، ولما بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيوية ، وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة ، واعلم أن هذا الدليل يمكن تقريره من وجوه كثيرة ، وقد لخصناها في أول سورة يونس بالاستقصاء ، فلا سبيل إلى التكرير فثبت بما ذكرنا أنه تعالى ما خلق السماء والأرض وما بينهما باطلاً وإذا لم يكن خلقهما باطلاً كان القول بالحشر والنشر لازماً ، وأن كل من أنكر القول بالحشر والنشر كان شاكاً في حكمة الله في خلق السماء والأرض ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ ولما بين الله تعالى على سبيل الإجمال أن إنكار الحشر والنشر يوجب الشك في حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل ، فقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِى الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ وتقريره أنا نرى في الدنيا من أطاع الله واحترز عن معصيته في الفقر والزمانة وأنواع البلاء ، ونرى الكفرة والفساق في الراحة والغبطة ، فلو لم يكن حشر

ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصي ، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم الرحيم ، وإذا كان ذلك قادحاً في الحكمة ، ثبت أن إنكار الحشر والنشر يوجب إنكار حكمة الله .

(18/660)

ثم قال تعالى : ﴿كتاب أنزلناه إِلَيْكَ مبارك لّيَدَّبَّرُواْ ءاياته وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الألباب﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قالت المعتزلة دلت الآية على أنه تعالى إنما أنزل هذا القرآن لأجل الخير والرحمة والهداية ، وهذا يفيد أمرين أحدهما : أن أفعال الله معللة برعاية المصالح والثاني : أنه تعالى أراد الإيمان والخير والطاعة من الكل بخلاف قول من يقول إنه أراد الكفر من الكافر .

المسألة الثانية :

(19/660)

في تقرير نظم هذه الآيات فنقول ، لسائل أن يسأل فيقول إنه تعالى حكى في أول السورة عن المستهزئين من الكفار ، أنهم بالغوا في إنكار البعث والقيامة ، وقالوا : ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ [ص : 16] ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب ، بل قال : ﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودُ ﴾ [ص : 17] ومعلوم أنه لا تعلق لذكر داود عليه السلام بأن القول بالقيامة حق ، ثم إنه تعالى أطنب في شرح قصة داود ، ثم أتبعه بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض ﴾ ومعلوم أنه لا تعلق لمسألة إثبات حكمة الله بقصة داود ، ثم لما ذكر إثبات حكمة الله وفرع عليه إثبات أن القول بالحشر والنشر حق ، ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير ، ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة ، وإذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولاً متباينة لا تعلق للبعض منها بالبعض ، فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتاباً شريفاً فاضلاً ؟ هذا تمام السؤال والجواب أن نقول : إن العقلاء قالوا من أبلى بخصم جاهل مصر متعصب ، ورآه قد خاض في ذلك التعصب والإصرار ، وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة ، لأنه كلما كان خوضه في تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشد ، فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة ، وأن يخوض في كلام آخر أجنبي عن المسألة الأولى بالكلية ويطنب في ذلك الكلام الأجنبي ، بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى ، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسي المسألة الأولى ، فحينئذ يدرج في أثناء الكلام في هذا

الفصل الأجنبي مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الأول ، فإن ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة ، فإذا سلمها ، فحينئذ يتمسك بها في إثبات المطلوب الأول ، وحينئذ يصير ذلك الخصم المتعصب منقطعاً مفحماً ، إذا عرفت هذا فنقول إن الكفار بلغوا في إنكار الحشر والنشر والقيامة إلى حيث قالوا

(20/660)

على سبيل الاستهزاء

﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ [ص : 16] فقال يا محمد اقطع الكلام معهم في هذه المسألة ، واشرع في كلام آخر أجنبي بالكلية عن هذه المسألة ، وهي قصة داود عليه السلام ، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر ، ثم إنه تعالى أطنب في شرح تلك القصة ، ثم قال في آخر القصة : ﴿ يا داوود إِنَّا جعلناك خَلِيفَةً فِى الأرض فاحكم بَيْنَ الناس بالحق ﴾ [ص : 26] وكل من سمع هذا قال نعم ما فعل حيث أمره بالحكم بالحق ، ثم كأنه تعالى قال : وأنا لا آمرك بالحق فقط ، بل أنا مع أني رب العالمين لا أفعل إلا بالحق ، ولا أقضي بالباطل ، فههنا الخصم يقول نعم ما فعل حيث لم يقض إلا بالحق ، فعند هذا يقال لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل ، لزمك أن تسلم

صحة القول بالحشر والنشر ، لأنه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحاً على المسلم في إيصال الخيرات إليه ، وذلك ضد الحكمة وعين الباطل ، فبهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الإلزام القاطع على منكري الحشر والنشر إيراداً لا يمكنهم الخلاص عنه ، فصار ذلك الخصم الذي بلغ في إنكار المعاد إلى حد الاستهزاء مفحماً ملزماً بهذا الطريق ، ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة الدقيقة في الإلزام في القرآن ، لا جرم وصف القرآن بالكمال والفضل ، فقال : ﴿ كتاب أنزلناه إِلَيْكَ مبارك لّيَدَّبَّرُواْ ءاياته وليتذكّر أُوْلُو الألباب ﴾ فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الإلهي لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم ، حيث يراه في ظاهر الحال مقروناً بسوء الترتيب ، وهو في الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب ، فهذا ما حضرنا في تفسير هذه الآيات ، وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 26 صـ 174 . 177 ﴾

(21/660)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا دَاوُد إِنَّا جَعَلْنَاك خَلِيفَةً فِي الْأَرْض فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالْحَقّ وَلَا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّك عَنْ سَبِيل اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيل اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ

الْحِسَابِ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى هَذَا كَلَامٌ مُرْتَبِطٌ بِمَا قَبْلَهُ وَصَّى اللَّهُ فِيهِ دَاوُد ؛ فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الَّذِي عُوتِبَ عَلَيْهِ طَلَبُ الْمَرْأَةِ مِنْ زَوْجِهَا ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِعَدْلٍ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَطْلُبْ امْرَأَةَ زَيْدٍ ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ فِي أَمْرِهَا بَعْدَ فِرَاقِ زَوْجِهَا وَإِتْمَامِ عِدَّتِهَا .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ هَذَا جَائِزٌ فِي الْجُمْلَةِ ، وَيَبْعُدُ مِنْ مَنْصِبِ النُّبُوَّةِ ؛ فَلِهَذَا ذُكِّرَ وَعَلَيْهِ عُوتِبَ وَبِهِ وُعِظَ .

(22/660)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ خَلِيفَةً ﴾ : قَدْ بَيَّنَّا الْخِلَافَةَ وَمَعْنَاهَا لُغَةً ، وَهُوَ قِيَامُ الشَّيْءِ مَقَامَ الشَّيْءِ ؛ وَالْحُكْمُ لِلَّهِ ، وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلْخَلْقِ عَلَى الْعُمُومِ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ وَعَلَى الْخُصُوصِ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا دَاوُد إنَّا جَعَلْنَاك خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ وَالْخُلَفَاءُ عَلَى أَقْسَامٍ : أَوَّلُهُمْ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ ، وَآخِرُهُمْ الْعَبْدُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ، " قَالَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ﴾ .

(23/660)

بَيْدَ أَنَّ الْإِمَامَ الْأَعْظَمَ لَا يُمْكِنُهُ تَوَلِّي كُلَّ الْأُمُورِ بِنَفْسِهِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ الِاسْتِنَابَةِ ، وَهِيَ عَلَى أَقْسَامٍ كَثِيرَةٍ : أَوَّلُهَا الِاسْتِخْلَافُ عَلَى الْبِلَادِ ، وَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يُقَدِّمَهُ عَلَى الْعُمُومِ ، أَوْ يُقَدِّمَهُ عَلَى الْخُصُوصِ ؛ فَإِنْ قَدَّمَهُ وَعَيَّنَهُ فِي مَنْشُورِهِ وَقَفَ نَظَرُهُ حَيْثُ خُصَّ بِهِ ، وَإِنْ قَدَّمَهُ عَلَى الْعُمُومِ فَكُلُّ مَا فِي الْمِصْرِ يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ فِي ثَلَاثَةِ أَحْكَامٍ : الْأَوَّلُ الْقَضَاءُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَلَهُ أَنْ يَقْضِيَ ، وَلَهُ أَنْ يُقَدِّمَ مَنْ يَقْضِي ، فَإِذَا قَدَّمَ لِلْقَضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ وَالْحُكْمِ بَيْنَ الْخَلْقِ كَانَ لَهُ النَّظَرُ فِيمَا فِيهِ التَّنَازُعُ بَيْنَ الْخَلْقِ ، وَذَلِكَ حَيْثُ تَزْدَحِمُ أَهْوَاؤُهُمْ ، وَهِيَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : النَّفْسِ ، وَالْعِرْضِ ، وَالْمَالِ ، يَفْصِلُ فِيمَا تَنَازَعَهُمْ ، وَيَذُبُّ عَنْهُمْ مَنْ يُؤْذِيهِمْ ، وَيَحْفَظُ مِنْ الضَّيَاعِ أَمْوَالَهُمْ بِالْجِبَايَةِ إنْ كَانَتْ مُفَرَّقَةً ، وَبِتَفْرِيقِهَا عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّهَا إذَا اجْتَمَعَتْ ، وَيَكُفُّ الظَّالِمَ عَنْ الْمَظْلُومِ .

وَيَدْخُلُ فِيهِ قَوَدُ الْجُيُوشِ ، وَتَدْبِيرُ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ هُوَ الثَّالِثُ .

(24/660)

وَقَدْ رَامَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ أَنْ يَحْصُرَ وِلَايَاتِ الشَّرْعِ فَجَمَعَهَا فِي عِشْرِينَ وِلَايَةً ، وَهِيَ : الْخِلَافَةُ الْعَامَّةُ ، وَالْوَزَارَةُ ، وَالْإِمَارَةُ فِي الْجِهَادِ ، وَوِلَايَةُ حُدُودِ الْمَصَالِحِ ، وَوِلَايَةُ الْقَضَاءِ ، وَوِلَايَةُ الْمَظَالِمِ ، وَوِلَايَةُ النِّقَابَةِ عَلَى أَهْلِ الشَّرَفِ ، وَالصَّلَاةُ ، وَالْحَجُّ ، وَالصَّدَقَاتُ ، وَقَسَمُ الْفَيْءِ ، وَالْغَنِيمَةِ ، وَفَرْضُ الْجِزْيَةِ ، وَالْخَرَاجِ ، وَالْمَوَاتُ وَأَحْكَامُهُ ، وَالْحِمَى ، وَالْإِقْطَاعُ ، وَالدِّيوَانُ ، وَالْحِسْبَةُ .

فَأَمَّا وِلَايَةُ الْخِلَافَةِ فَهِيَ صَحِيحَةٌ ، وَأَمَّا الْوَزَارَةُ فَهِيَ وِلَايَةٌ شَرْعِيَّةٌ ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ رَجُلٍ مَوْثُوقٍ بِهِ فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ يُشَاوِرُهُ الْخَلِيفَةُ فِيمَا يَعِنُّ لَهُ مِنْ الْأُمُورِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ فَلَوْ سَكَتَ هَاهُنَا كَانَتْ وَزَارَةَ مَشُورَةٍ ، وَلَكِنَّهُ تَأَدَّبَ مَعَ أَخِيهِ لِسِنِّهِ وَفَضْلِهِ وَحِلْمِهِ وَصَبْرِهِ فَقَالَ : ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ فَسَأَلَ وَزَارَةَ مُشَارَكَةٍ فِي أَصْلِ النُّبُوَّةِ .

وَعَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْحَسَنِ : ﴿ وَزِيرَايَ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، وَوَزِيرَايَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ﴾ .

(25/660)

وَأَمَّا الْوِلَايَةُ عَلَى الْجِهَادِ فَقَدْ ﴿ أَمَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْجُيُوشِ وَالسَّرَايَا كَثِيرًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي كُلِّ غَزْوَةٍ لَمْ يَشْهَدْهَا ، وَقَسَّمُوا الْغَنِيمَةَ فِيهَا ﴾ ، فَدَخَلَتْ إحْدَى الْوِلَايَتَيْنِ فِي الْأُخْرَى ، وَلِلْوَالِي أَنْ يُفْرِدَهُمَا .

وَأَمَّا حُدُودُ الْمَصَالِحِ فَهِيَ ثَلَاثَةٌ : الرِّدَّةُ ، وَقَطْعُ السَّبِيلِ ، وَالْبَغْيُ ؛ فَأَمَّا الرِّدَّةُ وَالْقَطْعُ لِلسَّبِيلِ فَكَانَا فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ فَإِنَّ نَفَرًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ ، فَجَعَلَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِبِلِ حَتَّى صَحُّوا ، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ ، وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ مُرْتَدِّينَ ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي آثَارِهِمْ ، فَجِيءَ بِهِمْ فَقَتَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ كَمَا فَعَلُوا ﴾ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَشَرْحُ الْحَدِيثِ .

وَاسْتَوْفَى اللَّهُ بَيَانَ حَرْبِ الرِّدَّةِ بِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ عَلَى يَدَيْهِ ، وَذَلِكَ مُسْتَوْفًى فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ .

(26/660)

وَأَمَّا قِتَالُ أَهْلِ الْبَغْيِ فَقَدْ نَصَّهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلَى

أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ؛ ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَى مَا شَرَحْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ الْحَدِيثِ وَالْمَسَائِلِ .

وَأَمَّا وِلَايَةُ الْقَضَاءِ ﴿ فَقَدَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا فِي حَيَاتِهِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ حِينَ بَعَثَهُ إلَى الْيَمَنِ .

وَقَالَ : لَا تَقْضِ لِأَحَدِ الْخَصْمَيْنِ حَتَّى تَسْمَعَ مِنْ الْآخَرِ ﴾ .

وَشُرُوطُهَا مَذْكُورَةٌ فِي الْفِقْهِ .

﴿ وَقَدَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَهُ مِنْ وُلَاتِهِ ﴾ .

(27/660)

وَأَمَّا وِلَايَةُ الْمَظَالِمِ فَهِيَ وِلَايَةٌ غَرِيبَةٌ أَحْدَثَهَا مَنْ تَأَخَّرَ مِنْ الْوُلَاةِ ، لِفَسَادِ الْوِلَايَةِ وَفَسَادِ النَّاسِ ؛ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ حُكْمٍ يَعْجَزُ عَنْهُ الْقَاضِي فَيَنْظُرُ فِيهِ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ يَدًا ؛ وَذَلِكَ أَنَّ التَّنَازُعَ إذَا كَانَ بَيْنَ ضَعِيفَيْنِ قَوَّى أَحَدَهُمَا الْقَاضِي ، وَإِذَا كَانَ بَيْنَ قَوِيٍّ وَضَعِيفٍ أَوْ قَوِيَّيْنِ وَالْقُوَّةُ فِي أَحَدِهِمَا بِالْوِلَايَةِ كَظُلْمِ الْأُمَرَاءِ وَالْعُمَّالِ فَهَذَا مِمَّا نُصِّبَ لَهُ الْخُلَفَاءُ أَنْفُسُهُمْ ، وَأَوَّلُ مَنْ جَلَسَ إلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ فَرَدَّهُ إلَى قَاضِيهِ ابْنِ إدْرِيسَ ، ثُمَّ جَلَسَ لَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَرَدَّ مَظَالِمَ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى الْمَظْلُومِينَ ؛ إذْ كَانَتْ فِي أَيْدِي الْوُلَاةِ وَالْعُتَاةِ الَّذِينَ تَعْجَزُ

عَنْهُمْ الْقُضَاةُ ، ثُمَّ صَارَتْ سُنَّةً ، فَصَارَ بَنُو الْعَبَّاسِ يَجْلِسُونَ لَهَا ، وَفِي قِصَّةِ دَارِسَةٍ عَلَى أَنَّهَا فِي أَصْلِ وَضْعِهَا دَاخِلَةٌ فِي الْقَضَاءِ ، وَلَكِنَّ الْوُلَاةَ أَضْعَفُوا الْخُطَّةَ الْقَضَوِيَّةَ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ ضَعْفِ الرَّعِيَّةِ ، لِيَحْتَاجَ النَّاسُ إلَيْهِمْ ، فَيَقْعُدُوا عَنْهُمْ ، فَتَبْقَى الْمَظَالِمُ بِحَالِهَا .

(28/660)

وَأَمَّا وِلَايَةُ النِّقَابَةِ فَهِيَ مُحْدَثَةٌ أَيْضًا ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَثُرَتْ الدَّعَاوَى فِي الْأَنْسَابِ الْهَاشِمِيَّةِ ، لِاسْتِيلَائِهَا عَلَى الدَّوْلَةِ ، نَصَّبَ الْوُلَاةُ قَوْمًا يَحْفَظُونَ الْأَنْسَابَ لِئَلَّا يَدْخُلَ فِيهَا مَنْ لَيْسَ مِنْهَا ، ثُمَّ زَادَتْ الْحَالُ فَسَادًا ، فَجَعَلُوا إلَيْهِمْ مَنْ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ، فَرَدُّوهُمْ لِقَاضٍ مِنْهُمْ لِئَلَّا تَمْتَهِنَهُمْ الْقُضَاةُ مِنْ سَائِرِ الْقَبَائِلِ ، وَهُمْ أَشْرَفُ مِنْهُمْ ، وَهِيَ بِدْعِيَّةٌ تُنَافِي الشَّرْعِيَّةَ .

وَأَمَّا وِلَايَةُ الصَّلَاةِ فَهِيَ أَصْلٌ فِي نَفْسِهَا وَفَرْعٌ لِلْإِمَارَةِ ؛ ﴿ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إذَا بَعَثَ أَمِيرًا كَانَتْ الصَّلَاةُ إلَيْهِ ﴾ ، وَلَمَّا فَسَدَ الْأَمْرُ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ تُرْضَى حَالُهُ لِلْإِمَامَةِ بَقِيَتْ الْوِلَايَةُ فِي يَدِهِ بِحُكْمِ الْغَلَبَةِ ، وَقَدَّمَ لِلصَّلَاةِ مَنْ يَرْضَى ؛ سِيَاسَةً مِنْهُمْ لِلنَّاسِ ، وَإِبْقَاءً عَلَى أَنْفُسِهِمْ ؛ فَقَدْ كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ ، حِينَ كَانُوا يُصَلُّونَ بِأَنْفُسِهِمْ ، يَتَحَرَّجُ أَهْلُ الْفَضْلِ مِنْ الصَّلَاةِ خَلْفَهُمْ ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى الْأَبْوَابِ ؛ فَيَأْخُذُونَهُمْ بِسِيَاطِ الْحَرَسِ ، فَيَضْرِبُونَ لَهَا حَتَّى يَفِرُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ الْمَسْجِدِ .

وَهَذَا لَا يَلْزَمُ ، بَلْ يُصَلِّي مَعَهُمْ ، وَفِي إعَادَةِ الصَّلَاةِ خِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ بَيَانُهُ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ .

وَأَمَّا وِلَايَةُ الْحَجِّ فَهِيَ مَخْصُوصَةٌ بِبِلَادِ الْحَجِّ .

(29/660)

﴿ وَأَوَّلُ أَمِيرٍ بَعَثَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، بَعَثَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَنَةَ تِسْعٍ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ ، وَأَرْسَلَهُ بِسُورَةِ بَرَاءَةٍ ، ثُمَّ أَرْدَفَهُ عَلِيًّا ﴾ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي السُّورَةِ الْمَذْكُورَةِ .

وَأَمَّا وِلَايَةُ الصَّدَقَةِ ﴿ فَقَدْ اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّدَقَاتِ كَثِيرًا ﴾ .

أَمَّا وَضْعُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ فَقَدْ صَالَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُكَيْدِرَ دَوْمَةَ وَأَهْلَ الْبَحْرَيْنِ ، فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ بَعْدَ تَقْرِيرِهِ " وَلَوْ لَمْ يَتَّفِقْ التَّقْرِيرُ لِخَلِيفَةٍ لَجَازَ أَنْ يَبْعَثَ مَنْ يُقَرِّرُهُ ، كَمَا فَعَلَ عُمَرُ حِينَ بَعَثَ إلَى الْعِرَاقِ عُمَّالَهُ ، وَأَمَرَهُمْ بِمِسَاحَةِ الْأَرْضِ ، وَوَضْعِ الْخَرَاجِ عَلَيْهَا .

وَأَمَّا مَا تَخْتَلِفُ أَحْكَامُهُ بِاخْتِلَافِ الْبُلْدَانِ فَلَيْسَ بِوِلَايَةٍ فَيَدْخُلُ فِي جُمْلَةِ الْوِلَايَاتِ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ النَّظَرُ فِي مَكَّةَ وَحَرَمِهَا وَدُورِهَا ، وَفِي الْمَدِينَةِ وَحَرَمِهَا ، وَفِيمَا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ فِيهَا ، وَأَحْوَالِ الْبِلَادِ فِيمَا فُتِحَ مِنْهَا عَنْوَةً وَصُلْحًا وَهَذِهِ الشَّرِيعَةُ فِيمَا اخْتَلَفَتْ الْأَسْبَابُ فِي تَمَلُّكِهِ مِنْ الْأَمْوَالِ ، وَلَيْسَ بِوِلَايَةٍ مَخْصُوصَةٍ حَتَّى يُذْكَرَ فِي جُمْلَةِ الْوِلَايَاتِ ؛ وَكَذَلِكَ إحْيَاءُ الْمَوَاتِ حُكْمٌ مِنْ الْأَحْكَامِ ، وَلَيْسَ مِنْ الْوِلَايَاتِ ، وَبَيَانُهُ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ .

وَأَمَّا وِلَايَةُ الْحِمَى وَالْإِقْطَاعِ فَهِيَ مَشْهُورَةٌ .

(30/660)

وَأَوَّلُ مَنْ وَلَّى فِيهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ مَوْلَاهُ أَبَا أُسَامَةَ عَلَى حِمَى الرَّبَذَةِ ، وَوَلَّى عُمَرُ عَلَى حِمَى السَّرِفِ مَوْلَاهُ يَرْفَأَ ، وَقَالَ : اضْمُمْ جَنَاحَك عَنْ النَّاسِ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهَا مُجَابَةٌ ، وَأَدْخِلْ رَبَّ الصُّرَيْمَةِ وَرَبَّ الْغُنَيْمَةِ ، وَإِيَّايَ وَنَعَمَ ابْنُ عَوْفٍ وَابْنُ عَفَّانَ فَإِنَّهُمَا إنْ تَهْلِكْ مَاشِيَتُهُمَا يَرْجِعَانِ إلَى نَخْلٍ وَزَرْعٍ ، وَإِنَّ رَبَّ الصُّرَيْمَةِ وَالْغُنَيْمَةِ يَأْتِينِي بِعِيَالِهِ فَيَقُولُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَفَتَارِكُهُمْ أَنَا ؟ لَا أَبَا لَك ، فَالْمَاءُ وَالْكَلَأُ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا الْمَالُ الَّذِي أَحْمِلُ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا حَمَيْت عَلَيْهِمْ مِنْ بِلَادِهِمْ شِبْرًا .

وَأَمَّا الْإِقْطَاعُ فَهُوَ بَابٌ مِنْ الْأَحْكَامِ ، ﴿ فَقَدْ أَقْطَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِبِلَالِ بْنِ

الْحَارِثِ الْمَزْنِيِّ مَعَادِنَ الْقَبَلِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةِ الْفَرْعِ ﴾ ، وَبَيَانُهَا فِي كُتُبِ الْفِقْهِ .

وَأَمَّا وِلَايَةُ الدِّيوَانِ فَهِيَ الْكِتَابَةُ ، وَقَدْ كَانَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُتَّابٌ وَلِلْخُلَفَاءِ بَعْدَهُ ، وَهِيَ ضَبْطُ الْجُيُوشِ بِمَعْرِفَةِ أَرْزَاقِهِمْ وَالْأَمْوَالِ لِتَحْصِيلِ فَوَائِدِهَا لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا .

(31/660)

وَأَمَّا وِلَايَةُ الْحُدُودِ فَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ : تَنَاوُلُ إيجَابِهَا ، وَذَلِكَ لِلْقُضَاةِ ؛ وَتَنَاوُلُ اسْتِيفَائِهَا ، ﴿ وَقَدْ جَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْمٍ مِنْهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﴾ ، وَهِيَ أَشْرَفُ الْوِلَايَاتِ ؛ لِأَنَّهَا عَلَى أَشْرَفِ الْأَشْيَاءِ ، وَهِيَ الْأَبْدَانُ ؛ فَلِنَقِيصَةِ النَّاسِ وَدَحْضِهِمْ بِالذُّنُوبِ أَلْزَمَهُمْ اللَّهُ بِالذِّلَّةِ بِأَنْ جَعَلَهَا فِي أَيْدِي الْأَدْنِيَاءِ وَالْأَوْضَاعِ بَيْنَ الْخَلْقِ .

وَأَمَّا وِلَايَةُ الْحِسْبَةِ فَهِيَ مُحْدَثَةٌ ؛ وَأَصْلُهَا أَكْبَرُ الْوِلَايَاتِ ، وَهِيَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ ، وَلِكَثْرَةِ ذَلِكَ رَأَى الْأُمَرَاءُ أَنْ يَجْعَلُوهَا إلَى رَجُلٍ يَتَفَقَّدُهَا فِي الْأَحْيَانِ مِنْ السَّاعَاتِ ؛ وَاَللَّهُ يَتَوَلَّى التَّوْفِيقَ لِلْجَمِيعِ ، وَيُرْشِدُ إلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ ، وَيَمُنُّ بِتَوْبَةٍ تُعِيدُ الْأَمْرَ إلَى أَهْلِهِ ، وَتُوسِعُنَا مَا نُؤَمِّلُهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ

الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

(32/660)

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : قِيلَ : نَزَلَتْ فِي بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ مِنْهُمْ : عَلِيٌّ ، وَحَمْزَةُ ، وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَالطُّفَيْلُ بْنُ الْحَارِثِ ابْنَيْ الْمُطَّلِبِ ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، وَأُمُّ أَيْمَنَ وَغَيْرُهُمْ ، وَيَقُولُ : أَمْ نَجْعَلُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ بِالْمَعَاصِي مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ؛ كَعُتْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنَيْ رَبِيعَةَ ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ وَحَنْظَلَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَالْعَاصِي بْنُ أُمَيَّةَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ فِي الْآخِرَةِ كَالْفُجَّارِ يَعْنِي مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ هَذِهِ أَقْوَالُ الْمُفَسِّرِينَ ، وَلَا شَكَّ فِي صِحَّتِهَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ نَفَى الْمُسَاوَاةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ وَبَيْنَ الْمُتَّقِينَ وَالْفُجَّارِ ، رُءُوسًا بِرُءُوسٍ وَأَذْنَابًا بِأَذْنَابٍ ، وَلَا مُسَاوَاةَ بَيْنَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُونَ ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ فِي الْجَنَّةِ وَالْمُفْسِدِينَ الْفُجَّارَ فِي النَّارِ ؛ وَلَا مُسَاوَاةَ أَيْضًا بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ مَعْصُومُونَ دَمًا وَعِرْضًا ،

وَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ وَالْفُجَّارَ فِي النَّارِ مُبَاحُو الدَّمِ وَالْعِرْضِ وَالْمَالِ ، فَلَا وَجْهَ لِتَخْصِيصِ الْمُفْسِدِينَ بِذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ دُونَ الدُّنْيَا .

(33/660)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَوَقَعَتْ فِي الْفِقْهِ نَوَازِلُ مِنْهَا قَتْلُ الْمُسْلِمِ بِالْكَافِرِ ، وَمِنْهَا إذَا بَنَى رَجُلٌ فِي أَرْضِ رَجُلٍ بِإِذْنِهِ ، ثُمَّ انْقَضَتْ الْمُدَّةُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْأَرْضِ إخْرَاجَهُ عَنْ الْبُنْيَانِ ، وَهَلْ يُعْطِيهِ قِيمَتَهُ قَائِمًا أَوْ مَنْقُوضًا ؟ وَمِنْهَا إذَا بَنَى الْمُشْتَرِي فِي الشِّقْصِ الَّذِي اشْتَرَى فَأَرَادَ الشَّفِيعُ أَخْذَهُ بِالشُّفْعَةِ فَإِنَّهُ يَزِنُ الثَّمَنَ ، وَهَلْ يُعْطِيهِ قِيمَةَ بِنَائِهِ قَائِمًا أَوْ مَنْقُوضًا ؟ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إذَا بَنَى فِي الْأَرْضِ رَجُلٌ بِإِذْنِهِ ثُمَّ وَجَبَ لَهُ إخْرَاجُهُ فَإِنَّهُ يُعْطِيهِ قِيمَةَ بِنَائِهِ قَائِمًا ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : يُعْطِي الشَّفِيعُ لِلْمُشْتَرِي قِيمَةَ بِنَائِهِ فِي الشِّقْصِ مَنْقُوضًا مُسَاوِيًا لَهُ بِالْغَاصِبِ .

وَقَالَهُ ابْنُ الْقَاسِمِ وَسَائِرُ عُلَمَائِنَا وَالشَّافِعِيَّةُ إلَّا الْقَلِيلَ .

يُعْطِيهِ قِيمَةَ بِنَائِهِ قَائِمًا ، لِأَنَّهُ بَنَاهُ بِحَقٍّ وَتَقْوَى وَصَلَاحٍ ، بِخِلَافِ الْغَاصِبِ ؛ وَلِذَلِكَ لَا يُقْتَلُ الْمُسْلِمُ إذَا قَتَلَ الذِّمِّيَّ ، وَإِنْ كَانَ يُقْتَلُ بِمُسْلِمٍ مِثْلِهِ ، وَتَعَلَّقُوا فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَمْ

نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ .

(34/660)

وَهَذَا يَنْبَنِي عَلَى الْقَوْلِ بِالْعُمُومِ ، وَهُوَ قَوْلٌ عَامٌّ يَقْتَضِي الْمُسَاوَاةَ بَيْنَهُمْ فِي كُلِّ حَالٍ وَزَمَانٍ ، أَمَّا أَنَّهُ يَبْقَى النَّظَرُ فِي أَعْيَانِ هَذِهِ الْفُرُوعِ فَتَفْصِيلٌ قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ ، لَا نُطِيلُ بِذِكْرِهِ هَاهُنَا فَلْيُنْظَرْ هُنَالِكَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(35/660)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾

واستدل بعض الناس من هذه الآية على احتياج الأرض إلى خليفة من الله تعالى .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق : وليس هذا بلازم من الآية ، بل لزومه من الشرع والإجماع ، ولا يقال خليفة الله إلا لرسوله ، وأما الخلفاء : فكل واحد منهم خليفة الذي قبله ، وما

يجيء في الشعر من تسمية أحدهم خليفة الله ، فذلك تجوز وغلو كما قال ابن قيس الرقيات : [المنسرح]

خليفة الله في بريته . . . جفت بذاك الأقلام والكتب

ألا ترى أن الصحابة رضي الله عنهم حرروا هذا المعنى فقالوا لأبي بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبهذا كان يدعى مدته ، فلما ولي عمر قالوا : يا خليفة خليفة رسول الله ، فطال الأمر ، ورأوا أنه في المستقبل سيطول أكثر ، فدعوه أمير المؤمنين ، وقصر هذا الاسم على الخلفاء .

وقوله عز وجل : ﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ﴾ . إلى قوله : ﴿ وليتذكر أولو الألباب ﴾ اعتراض بين الكلامين من أمر داود وسليمان ، هو خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وعظة لأمته ، ووعيد للكفرة به .

وقرأ أبو حيوة : "يُضلون" بضم الياء ، و ﴿ نسوا ﴾ في هذه الآية معناه : تركوا وأخبر تعالى أن الذين كفروا يظنون أن خلق السماء وما بينهما إنما هو باطل لا معنى له ، وأن الأمر ليس يؤول إلى ثواب ولا إلى عقاب .

(36/660)

وأخبر تعالى عن كذب ظنهم وتوعدهم بالنار ، ثم وقف تعالى على الفرق عنده بين المؤمنين العاملين بالصالحات ، وبين المفسدين بالكفرة ، وبين المتقين والفجار ، وفي هذ التوقيف حض على الإيمان وترغيب فيه ، ووعيد للكفرة . ثم أحال في طلب الإيمان والتقوى على كتابه العزيز بقوله : ﴿ كتاب أنزلناه ﴾ المعنى : هذا كتاب لمن أراد التمسك بالإيمان والقربة إلينا ، وفي هذه الآيات اقتضاب وإيجاز بديع حسب إعجاز القرآن العزيز ووصفه بالبركة لأن أجمعها فيه ، لأنه يورث الجنة وينقذ من النار ، ويحفظ المرء في حال الحياة الدنيا ويكون سبب رفعة شأنه في الحياة الآخرة .

وقرأ جمهور الناس : " ليدّبروا " بشد الدال والباء ، والضمير للعالم . وقرأ حفص عن عاصم : " لتدبروا " على المخاطبة . وقرأ أبو بكر عنه : " لتدَبروا " بتخفيف الدال ، أصله : تتدبروا ، وظاهر هذه الآية يعطي أن التدبر من أسباب إنزال القرآن ، فالترتيل إذاً أفضل من الهذ ، إذ التدبر لا يكون إلا مع الترتيل ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(37/660)

وقال القرطبى :

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرض ﴾ أي ملّكناك لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فتخلُف من كان قبلك من الأنبياء والأئمة الصالحين .

وقد مضى في "البقرة" القول في الخليفة وأحكامه مستوفى والحمد لله .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ فاحكم بَيْنَ الناس بالحق ﴾ أي بالعدل .

وهو أمر على الوجوب وقد ارتبط هذا بما قبله ، وذلك أن الذي عوتب عليه داود طلبه المرأة من زوجها وليس ذلك بعدل .

فقيل له بعد هذا ؛ فاحكم بين الناس بالعدل ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الهوى ﴾ أي لا تقتد بهواك المخالف لأمر الله ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي عن طريق الجنة .

﴿ إِنَّ الذين يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أي يحيدون عنها ويتركونها ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُ ﴾ في النار ﴿ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الحساب ﴾ أي بما تركوا من سلوك طريق الله ؛ فقوله : "نَسُوا" أي تركوا الإيمان به ، أو تركوا العمل به فصاروا كالناسين .

ثم قيل : هذا لداود لما أكرمه الله بالنبوّة .

وقيل : بعد أن تاب عليه وغفر خطيئته .

الثالثة : الأصل في الأقضية قوله تعالى : ﴿ ياداوود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرض فاحكم بَيْنَ الناس بالحق ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنِ احكم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ ﴾ [المائدة : 49] وقوله تعالى : ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله ﴾ [النساء : 105] وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَآ الذين آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للَّهِ شُهَدَآءَ بالقسط وَلاَ ﴾ [المائدة : 8] الآية .

وقد تقدّم الكلام فيه .

(38/660)

الرابعة : قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ياداوود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرض فاحكم بَيْنَ الناس بالحق وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ قال : إن ارتفع لك الخصمان فكان لك في أحدهما هوًى ، فلا تشته في نفسك الحق له لِيفلُج على صاحبه ، فإن فعلتَ محوتُ اسمك من نبوّتي ، ثم لا تكون خليفتي ولا أهل كرامتي .

فدلّ هذا على بيان وجوب الحكم بالحق ، وألاّ يميل إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع ، أو سبب يقتضي الميل من صحبة أو صداقة ، أو غيرهما .

وقال ابن عباس : إنما ابتلي سليمان بن داود عليه السلام ، لأنه تقدّم إليه خصمان فهوِي أن يكون الحق لأحدهما .

وقال عبد العزيز بن أبي روّاد : بلغني أن قاضياً كان في زمن بني إسرائيل ، بلغ من اجتهاده أن طلب إلى ربه أن يجعل بينه وبينه علَما ، إذا هو قضى بالحق عرف ذلك ؛ وإذا هو قصّر عرف ذلك ، فقيل له : ادخل منزلك ، ثم مدّ يدك في جدارك ، ثم انظر حيث تبلغ أصابعك من الجدار فاخطط عندها خطاً ؛ فإذا أنت قمت من مجلس القضاء ، فارجع إلى ذلك الخط فامدد يدك إليه ، فإنك متى ما كنت على الحق فإنك ستبلغه ، وإن قصّرت عن الحق قصّر بك ، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد فكان لا يقضي إلا بحق ، وإذا قام من مجلسه وفرغ لم يذق طعاماً ولا شراباً ، ولم يفِض إلى أهله بشيء من الأمور حتى يأتي ذلك الخط ، فإذا بلغه حمد الله وأفضى إلى كل ما أحلّ الله له من أهل أو مطعم أو مشرب .

(39/660)

فلما كان ذات يوم وهو في مجلس القضاء ، أقبل إليه رجلان يريدانه ، فوقع في نفسه أنهما يريدان أن يختصما إليه ، وكان أحدهما له صديقاً وخِدْناً ، فتحرّك قلبه عليه محبة أن يكون الحق له فيقضي له ، فلما أن تكلما دار الحق على صاحبه فقضى عليه ، فلما قام من مجلسه ذهب إلى خطه كما كان يذهب كل يوم ، فمدّ يده إلى الخط فإذا الخط قد ذهب وتشمّر إلى السقف ، وإذا هو لا يبلغه فخرّ ساجداً وهو يقول : يا ربّ شيئاً لم أتعمده ولم

أردْه فبيّنْه لي .

فقيل له ؛ أتحسبن أن الله تعالى لم يطلع على خيانة قلبك ، حيث أحببت أن يكون الحق لصديقك لتقضي له به ، قد أردته وأحببته ولكن الله قد ردّ الحق إلى أهله وأنت كاره .

وعن ليث قال : تقدّم إلى عمر بن الخطاب خصمان فأقامهما ، ثم عادا فأقامهما ، ثم عادا ففصل بينهما ، فقيل له في ذلك ، فقال : تقدّما إليّ فوجدت لأحدهما ما لم أجد لصاحبه ، فكرهت أن أفصل بينهما على ذلك ، ثم عادا فوجدت بعض ذلك له ، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما .

وقال الشعبي : كان بين عمر وأُبَيٍّ خصومة ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت ، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته ، فقال عمر : هذا أوّل جورك ؛ أجلسني وإياه مجلساً واحداً ؛ فجلسا بين يديه .

الخامسة : هذه الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه ؛ لأن الحكام لو مكّنوا أن يحكموا بعلمهم ، لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليّه ويهلك عدوّه إلا ادعى علمه فيما حكم به .

ونحو ذلك روي عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر ؛ قال : لو رأيت رجلاً على حدّ من حدود الله ، ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيري .

وروي ان امرأة جاءت إلى عمر فقالت له : احكم لي على فلان بكذا فإنك تعلم ما لي

عنده .

فقال لها : إن أردت أن أشهد لك فنعم وأما الحكم فلا .

(40/660)

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بيمين وشاهد ؛ وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه اشترى فرساً فجحده البائع ، فلم يحكم عليه بعلمه وقال : "من يشهد لي" فقام خزيمة فشهد فحكم " خرّج الحديث أبو داود وغيره وقد مضى في "البقرة" .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴾ أي هزلاً ولعباً .

أي ما خلقناهما إلا لأمر صحيح وهو الدلالة على قدرتنا .

﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي حسبان الذين كفروا أن الله خلقهما باطلاً .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ ثم وبخهم فقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ والميم صلة تقديره : أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ كالمفسدين فِي الأرض ﴾ فكان في هذا ردّ على المرجئة ؛ لأنهم يقولون : يجوز أن يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه .

وبعده أيضاً : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ أي أنجعل أصحاب محمد عليه السلام كالكفار ؛ قاله ابن عباس .

وقيل هو عام في المسلمين المتقين والفجّار الكافرين وهو أحسن ، وهو ردّ على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد .

قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ ﴾ أي هذا كتاب ﴿ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ يا محمد ﴿ ليدبروا ﴾ أي ليتدبروا فأدغمت التاء في الدال .

وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن ، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهَذِّ ؛ إذ لا يصح التدبر مع الهَذّ على ما بيناه في كتاب التذكار .

وقال الحسن : تدبر آيات الله اتباعها .

وقراءة العامة "لِيَدَّبَّرُوا" .

(41/660)

وقرأ أبو جعفر وشيبة : "لِتَدَّبَّرُوا" بتاء وتخفيف الدال ، وهي قراءة عليّ رضي الله عنه ، والأصل لتتدبروا فحذف إحدى التاءين تخفيفاً ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الألباب ﴾ أي أصحاب العقول واحدها لُبٌّ ، وقد جمع على أُلُبٍّ ، كما جمع بُؤسٌ على أبؤسٍ ، ونُعْم على أنعم ؛ قال

أبو طالب :

قلبي إليه مُشرِفُ الأُلُبِّ . . .

وربما أظهروا التضعيف في ضرورة الشعر ؛ قال الكُمَيت :

إليكم ذوِي آلِ النَّبيّ تَطَلَّعَتْ . . .

نوازِعُ من قلبِي ظِماءٌ وَأُلُبُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(42/660)

وقال أبو السعود :

﴿ يا داوود إنَّا جعلناك خَلِيفَةً فِى الأرض ﴾

إمَّا حكاية لمَّا خُوطب به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مبينة لزُلفاه عنده عزَّ وجلَّ وإمَّا مقولُ قولٍ مقدَّرٍ هو معطوف على غفرنا ، أو حالٌ من فاعله أو وقُلنا له أو قائلين له يا داودُ الخ أي استخلفناك على المُلك فيها والحكمِ فيما بينَ أهلِها أو جعلناك خليفةً ممَّن كان قبلك من الأنبياء القائمينَ بالحقِّ وفيه دليلٌ بيِّنٌ على أنَّ حالهَ عليه الصَّلاة والسَّلام بعد التَّوبةِ كما كانت قبلها لم تتغيَّرْ قَط .

(43/660)

﴿ فاحكم بَيْنَ الناس بالحق ﴾ بحكم الله تعالى فإنَّ الخلافةَ بكلا معنييه مقتضيةٌ له حتماً ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى ﴾ أي هوى النفس في الحكومات وغيرها من أمور الدِّين والدُّنيا ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ بالنَّصبِ على أنَّه جوابُ النَّهي . وقيل : هو مجزومٌ بالعطفِ على النَّهيِ مفتوحٌ لالتقاءِ السَّاكنينِ أي فيكون الهوى أو اتِّباعُه سبباً لضلالِك عن دلائِله التي نصبها على الحقِّ تكويناً وتشريعاً . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ تعليلٌ لما قبله ببيانِ غائلتِه وإظهار سبيلِ الله في موقعِ الإضمارِ لزيادة التَّقريرِ والإيذانِ بكمال شناعةِ الضَّلالِ عنه ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ جملة من خبرٍ ومبتدأٍ وقعت خبراً لأنَّ أو الظَّرفُ خبراً لأنَّ وعذابٌ مرتفع على الفاعليةِ بما فيه من معنى الاستقرارِ . ﴿ بِمَا نَسُواْ ﴾ بسبب نسيانِهم وقوله تعالى : ﴿ يَوْمِ الحساب ﴾ إما مفعولٌ لنسُوا فيكون تعليلاً صريحاً لثبوت العذابِ الشَّديدِ لهم بنسيان يوم الحسابِ بعد الإشعارِ بعلِّيةِ ما يستتبُعه ويستلزمه أعني الضَّلالَ عن سبيل الله تعالى فإنَّه مستلزمٌ لنسيانِ يوم الحساب بالمرَّةِ بل هذا فردٌ من أفرادِه أو ظرفٌ لقوله تعالى : لهم أي لهُم عذابٌ شديدٌ يومَ القيامةِ بسببِ نسيانِهم الذي هو عبارةٌ عن ضلالِهم ، ومن ضرورتِه أن يكون مفعولُه سبيلِ الله فيكون التَّعليلُ المصرح به حينئذٍ عينَ التَّعليلِ المشعر به بالذَّاتِ غيره بالعُنوان ومَن لم يتنبه لهذا السرِّ السريِّ

قال بسبب نسيانِهم وهو ضلالُهم عن السَّبيلِ فإنَّ تذكَّره يقتضي ملازمةَ الحقِّ ومخالفةَ الهَوَى فتدبَّر.

(44/660)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مقررٌ لما قبله من أمرِ البعثِ والحسابِ والجزاءِ وما خلقناهُما وما بينهما من المخلوقاتِ على هذا النِّظامِ البديعِ الذي تحارُ في فهمِه العقولُ خلقاً باطلاً أي خالياً عن الغايةِ الجليلةِ والحكمةِ الباهرةِ بل منطوياً على الحقِّ المُبين والحِكم البالغةِ حيثُ خلقنا من بينِ ما خلقنا نُفوساً أودعناها العقلَ والتَّمييزَ بين الحقِّ والباطلِ والنَّافعِ والضَّارِّ ومكَّنَّاها من التَّصرفاتِ العلميةِ والعمليةِ في استجلابِ منافعِها واستدفاعِ مضارِّها ونصبنا للحقِّ دلائلَ آفاقيةً وأنفسيةً ومنحناها القُدرةَ على الاستشهادِ بها ثم لم نقتصرْ على ذلك المقدارِ من الألطافِ بل أرسلنا إليها رُسلاً وأنزلنا عليها كُتباً بيَّنَّا فيها كلَّ دقيقٍ وجليلٍ وأزحنا عللَها بالكلِّية وعرضناها بالتكليفِ للمنافعِ العظيمةِ وأعددنا لها عاقبةً وجزاءً على حسبِ أعمالِها ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما نُفي من خلقِ ما ذُكر باطلاً ﴿ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي مظنونهم فإنَّ جحودَهم بأمرِ البعثِ والجزاءِ الذي عليه يدورُ فلكُ تكوينِ العالمِ قولٌ منهم ببطلانِ خلقِ ما

ذُكر وخلوّه عن الحكمةِ سبحانَهُ وتعالى عمَّا يقولون علوّاً كبيراً . ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ والفاءُ لإفادةِ ترتُّبِ ثبوتِ الويلِ لهم على ظنّهم الباطلِ كما أنَّ وضع الموصولِ موضعَ ضميرهم للإشعارِ بما في خيّزِ الصّلةِ بعلية كفرهم له ، ولا تنافى بينهما لأنَّ ظنَّهم من باب كُفرِهم . ومِن في قوله تعالى : ﴿ مِنَ النار ﴾ تعليليةٌ كما في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ ونظائره ، ومفيدةٌ لعليَّةِ النَّار لثبوتِ الويلِ لهم صَريحاً بعد الإشعارِ بعليةِ ما يُؤدّي إليها من ظنّهم وكفرِهم أي فويلٌ لهم بسببِ النَّارِ المترتّبةِ على ظنّهم وكفرِهم .

(45/660)

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِى الأرض ﴾ أم منقطعةً ، وما فيها من بلْ للإضرابِ الانتقاليّ عن تقريرِ أمرِ البعثِ والحسابِ والجزاء بما مرَّ من نفيِ خلقِ العالمِ خالياً عن الحكمِ والمصالحِ إلى تقريرِه وتحقيقِه بما في الهمزةِ من إنكارِ التَّسويةِ بين الفريقين ونفيها على أبلغِ وجهٍ وآكدِه أي بل أنجعلُ المؤمنينَ المُصلحينَ كالكَفَرةِ المُفسدين في أقطارِ الأرضِ كما يقتضيه عدمُ البعثِ وما يترتَّبُ عليه من الجزاءِ لاستواء الفريقين في التَّمتع بالحياةِ الدُّنيا بل الكَفَرةُ أوفرُ حظّاً منها من المؤمنينَ لكن ذلك الجعلُ محالٌ فتعيَّن البعثُ والجزاءُ حتماً لرفع الأوّلينَ إلى أعلى عِلّيّينَ وردّ الآخرينَ إلى أسفلِ سافلينَ . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ

نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ عن إثبات ما ذُكر بلزوم المحالِ الذي هو التَّسويةُ بين الفريقينِ المذكُورينِ على الإطلاقِ إلى إثباتِه بلزومِ ما هو أظهرُ منه استحالةً وهو التَّسويةُ بين أتقياءِ المؤمنينَ وأشقياءِ الكَفَرةِ وحملُ الفُجَّار على فَجَرةِ المُؤمنين ممَّا لا يساعدُه المقامُ ويجوزُ أنْ يرادَ بهذينِ الفريقينِ عينُ الأوَّلينِ ويكون التَّكريرُ باعتبارِ وصفينِ آخرينِ هما أدخلُ في إنكار التَّسوية من الوصفينِ الأوَّلين وقيل قال كفَّارُ قُريشٍ للمؤمنين : إنَّا نُعطَى في الآخرةِ من الخيرِ ما تُعطَون فنزلتْ . ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ هو عبارةٌ عن القُرآن أو السُّورةِ . وقولُه تعالى : ﴿ أنزلناه إلَيْكَ ﴾ صفتُه . وقوله تعالى : ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ خبرٌ ثانٍ للمتدأِ أو صفةٌ لكتابٌ عند مَن يُجوّز تأخيرَ الوصفِ الصَّريحِ عن غيرِ الصَّريحِ . وقُرىء مباركاً على أنَّه حالٌ من مفعولِ أنزلنا ومعنى المبارك الكثيرُ المنافعِ الدّينيةِ والدُّنيويةِ . وقولُه تعالى : ﴿ لّيَدَّبَّرُواْ ءاياته ﴾ متعلّقٌ بأنزلناه أي

(46/660)

أنزلنَاهُ ليتفكَّروا في آياتِه التي من جُملتها هذه الآياتُ المعربةُ عن أسرارِ التَّكوينِ والتَّشريعِ فيعرفُوا ما يدبر ظاهرها من المعانِي الفائقةِ والتَّأويلاتِ اللائقةِ وقرىء ليتدَّبروا على الأصل ولتدَّبروا على الخطابِ أي أنتَ وعلماءُ أمَّتك بحذفِ إحدى التَّاءينِ ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو

الالباب ﴾ أي وليتَّعظ به ذَوُو العقولِ السَّليمةِ أو ليستحضرُوا ما هو كالمركوزِ في عقولِهم من فرطِ تمكُّنهم من معرفتِه لما نُصبَ عليه من الدّلائلِ فإنَّ الكتبَ الإلهيةَ مبيّنةٌ لما لا يُعرف إلا بالشّرعِ ومرشدةٌ إلى ما لا سبيلَ للعقلِ إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(47/660)

وقال الآلوسى :

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾

﴿ ياداوود إِنَّا جعلناك خَلِيفَةً فِى الأرض ﴾

إما حكاية لما خوطب به عليه السلام مبنية لزلفاه عنده عز وجل وإما مقول لقول مقدر معطوف على ﴿ غفرنا ﴾ [ص : 25] أو حال من فاعله أي وقلنا له أو قائلين له يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض أي استخلفناك على الملك فيها والحكم فيما بين أهلها أو جعلناك خليفة ممن قبلك من الأنبياء القائمين بالحق ، وهو على الأول : مثل فلان خليفة السلطان إذا كان منصوباً من قبله لتنفيذ ما يريده ، وعلى الثاني : من قبيل هذا الولد خليفة عن أبيه أي ساد مسده قائم بما كان يقوم به من غير اعتبار لحياة وموت وغيرهما ،

والأول أظهر والمنة به أعظم فهو عليه السلام خليفة الله تعالى بالمعنى الذي سمعت ، قال ابن عطية : ولا يقال خليفة الله تعالى إلا لرسوله وأما الخلفاء فكل واحد منهم خليفة من قبله ، وما يجيء في الشعر من تسمية أحدهم خليفة الله فذلك تجوز كما قال قيس الرقيات :

خليفة الله في بريته . . .

جفت بذاك الأقلام والكتب

وقالت الصحابة لأبي بكر : خليفة رسول الله وبذلك كان يدعي إلى أن توفي فلما ولي عمر قالوا خليفة خليفة رسول الله فعدل عنه اختصاراً إلى أمير المؤمنين .

(48/660)

وذهب الشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره إلى أن الخليفة من الرسل من فوض إليه التشريع ولعله من جملة اصطلاحاته ولا مشاحة في الاصطلاح ، واستدل بعضهم بالآية على احتياج الأرض إلى خليفة من الله عز وجل وهو قول من أوجب على الله تعالى نصب الإمام لأنه من اللطف الواجب عليه سبحانه ، والجماعة لا يقولون بذلك والإمامة عندهم من الفروع وإن ذكروها في كتب العقائد ، وليس في الآية ما يلزم منه ذلك كما لا يخفى وتحقيق المطلب في محله ﴿ الأرض فاحكم بَيْنَ الناس بالحق ﴾ الذي شرعه الله تعالى لك فالحق

خلاف الباطل وأل فيه للعهد ، وجوز أن يراد به ما هو من أسمائه تعالى أي بحكم الحق أي الله عز وجل للعلم بأن الذوات لا يكون محكوماً بها .

وتعقب بأن مقابلته بالهوى تأبى ذلك ، ولعل من يقول به يجعل المقابل المضاف المحذوف والمقابلة باعتبار أن حكم الله تعالى لا يكون إلا بالحق ، وفرع الأمر بالحكم بالحق على ما تقدم لأن الاستخلاف بكلا المعنيين مقتض للحكم العدل لا سيما على المعنى الأول لظهور اقتضاء كونه عليه السلام خليفة له تعالى أن لا يخالف حكمه حكم من استخلفه بل يكون على وفق إرادته ورضاه .

وقيل المترتب مطلق الحكم لظهور ترتبه على كونه خليفة .

وذكر الحق لأن به سداده ، وقيل ترتب ذلك لأن الخلافة نعمة عظيمة شكرها العدل .

وفي "البحر" أن هذا أمر بالديمومة وتنبيه غليره ممن ولي أمور الناس أن يحكم بينهم بالحق وإلا فهو من حيث أنه معصوم لا يحكم إلا بالحق ، وعلى نحو هذا يخرج النهي عندي في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الهوى ﴾ فإن اتباع الهوى مما لا يكاد يقع من المعصوم .

وظاهر السياق أن المراد ولا تتبع هوى النفس في الحكومات ، وعمم بعضهم فقال : أي في الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا .

وأيد بهذا النهي ما قيل إن ذنبه عليه السلام المبادرة إلى تصديق المدعي وتظليم الآخر قبل مساءلته لا الميل إلى امرأة أوريا فكأنه قيل ولا تتبع الهوى في الحكم كما اتبعته أولاً ، وفيه أن اتباع الهوى وحكمه بغير ما شرع الله تعالى له غير مناسب لمقامه لا سيما وقد أخبر الله تعالى قبل الإخبار بمسألة المتحاكمين أنه أتاه الحكم وفصل الخطاب فليس هذا إلا إرشاداً لما يقتضيه منصب الخلافة وتنبيهاً لمن هو دونه عليه السلام ، وأصل الهوى ميل النفس إلى الشهوة ، ويقال للنفس المائلة إليها ويكون بمعنى المهوى كما في قوله :

هواي مع الركب اليمانين مصعد . . .

جنيب وجثماني بمكة موثق

وبه فسره هنا بعضهم فقال : أي لا تتبع ما تهوى الأنفس ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ بالنصب على أنه جواب النهي ، وقيل هو مجزوم بالعطف على النهي مفتوح لالتقاء الساكنين أي فيكون الهوى أو اتباعه سبباً لضلالك عن دلائله التي نصبها على الحق وهي أعم من الدلائل العقلية والنقلية ، وصد ذلك عن الدلائل إما لعدم فهمها أو العمل بموجبها ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُ ﴾ تعليل لما قبله ببيان غائلته وإظهار سبيل الله في موضع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بكمال شناعة الضلال عنه ، وخبر إن إما جملة ﴿ لَهُمْ عَذَابَ ﴾ على أن ﴿ لَهُمْ ﴾ خبر مقدم وعذاب مبتدأ

وأما الظرف وعذاب مرتفع على الفاعلية بما فيه من الاستقرار .

وقرأ ابن عباس .

والحسن بخلاف عنهما .

وأبو حيوة ﴿ يُضِلُّونَ ﴾ بضم الياء قال أبو حيان : وهذه القراءة أعم لأنه لا يضل إلا ضال في نفسه ، وقراءة الجمهور أوضح لأن المراد ب الموصول من أضلهم اتباع الهوى وهم بعد أن أضلهم صاروا ضالين .

(50/660)

وقوله تعالى : ﴿ بِمَا نَسُواْ ﴾ متعلق بالاستقرار والباء سببية وما مصدرية ، وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمِ الحساب ﴾ مفعول ﴿ نَسُواْ ﴾ على ما هو الظاهر أي ثابت لهم ذلك العذاب بسبب نسيانهم وعدم ذكرهم يوم الحساب ؛ وعليه يكون تعليلاً صريحاً لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الإشعار بعلية ما يستتبعه ويستلزمه أعني الضلال عن سبيل الله تعالى فإنه مستلزم لنسيان يوم الحساب بالمرة بل هذا فرد من أفراده .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة أن الكلام من التقديم والتأخير أي لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا فيكون يوم الحساب ظرفاً لقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ ﴾ وجعل النسيان عليه

مجازاً عن ضلالهم عن سبيل الله بعلاقة السببية ومن ضرورته جعل مفعول النسيان سبيل الله تعالى ، وعليه يكون التعليل المصرح به عين التعليل المشعر به بالذات غيره بالعنوان فتدبر .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ﴾

أي خلقاً باطلاً فهو منصوب على النيابة عن المفعول المطلق نحو كل هنيئاً أي أكلاً هنيئاً ، والباطل ما لا حكمة فيه ، وجوز كونه حالاً من فاعل ﴿ خَلَقْنَا ﴾ بتقدير مضاف أي ذوي باطل ، والباطل اللعب والعبث أي ما خلقنا ذلك مبطلين لاعبين كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ [الدخان : 38] وجوز كونه حالاً من المفعول أيضاً بنحو هذا التأويل ، وأياً ما كان فالكلام مستأنف مقرر لما قبله من أمر المعاد والحساب فإن خلق السماء والأرض وما بينهما من المخلوقات مشتملاً على الحكم الباهرة والأسرار البالغة والفوائد الجمة أقوى دليل على عظم القدرة وأنه لا يتعاصاها أمر المعاد والحساب فإن خلق ذلك كذلك مؤذن بأنه عز وجل لا يترك الناس إذا ماتوا سدى بل يعيدهم ويحاسبهم ولعله الأولى .

(51/660)

وجوز كون الجملة في موضع الحال في فاعل ﴿ نَسُواْ ﴾ [ص : 26] جيء بها لتفظيع أمر النسيان كأنه قيل : بما نسوا يوم الحساب مع وجود ما يؤذن به وهو كما ترى ، وجوز كون ﴿ باطلا ﴾ مفعولاً له ويفسر بخلاف الحق ويراد به متابعة الهوى كأنه قيل : ما خلقنا هذا العالم للباطل الذي هو متابعة الهوى بل للحق الذي هو مقتضى الدليل من التوحيد والتدرع بالشرع كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ولا يخفى بعده ، وعليه تكون الجملة مستأنفة لتقرير أمر النهي عن اتباع الهوى ، وقيل : تكون عطفاً على ما قبلها بحسب المعنى كأنه قيل : لا تتبع الهوى لأنه يكون سبباً لضلالك ولأنه تعالى لم يخلق العالم لأجل متابعة الهوى بل خلقه للتوحيد والتمسك بالشرع فلا تغفل .

(52/660)

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما نفى من خلق ما ذكر باطلاً ﴿ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي مظنونهم ليصح الحمل أو يقدر مضاف أي ظن ذلك ظن الذين كفروا فإن إنكارهم المعاد والجزاء قول بأن خلق ما ذكر خال عن الحكمة وإنما هو عبث ولذا قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خلقناكم عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115] أو فإن إنكارهم ذلك قول بنفي عظم القدرة وهو قول بنفي دليله وهو خلق ما ذكر مشتملاً على الحكم الباهرة

والإسرار ، وهذا بناءً على الوجه الأول في بيان التقرير وهو كما ترى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ مبتدأ وخبر والفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل كما أن وضع الموصول موضع ضميرهم لإشعار ما في حيز الصلة بعلية كفرهم له ، ولا تنافي بينهما لأن ظنهم من باب كفرهم فيتأكد أمر التعليل ، و﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مِنَ النار ﴾ ابتدائية أو بيانية أو تعليلية كما في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة : 79] ونظائره وتفيد على هذا علية النار لثبوت الويل لهم صريحاً بعد الإشعار بعلية ما يؤدى إليها من ظنهم وكفرهم أي فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم ، قيل والكلام عليه على تقدير مضاف أي من دخول النار .

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28)

(53/660)

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِى الأرض ﴾ أم منقطعة وتقدر ببل والهمزة ، والهمزة لإنكار التسوية بين الفريقين ونفيها على أبلغ وجه وآكده ، وبل للإضراب الانتقالي من تقرير أمر البعث والحساب بما مر من نفي خلق العالم باطلاً إلى تقريره

وتحقيقه بإنكار التسوية بين الفريقين أي بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين في الأرض التي جعلت مقراً له كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين في التمتع في الحياة الدنيا بل أكثر الكفرة أوفر حظاً منها من أكثر المؤمنين لكن ذلك الجعل محال مخالف للحكمة فتعين البعث والجزاء حتماً لرفع الأولين إلى أعلى عليين ورد الآخرين إلى أسفل سافلين كذا قالوا ، وظاهره أن محالية جعل الفريقين سواء حكمة تقتضي تعين المعاد الجسماني ، وفيه خفاء ، والظاهر أن المعاد الروحاني يكفي لمقتضى الحكمة من إثابة الأولين وتعذيب الآخرين فالدليل العقلي الذي تشير إليه الآية ظاهر في إثبات معاد لكن بعد إبطال التناسخ وهو كاف في الرد على كفرة العرب فإنهم لا يقولون بمعاد بالكلية ولم يخطر ببالهم التناسخ أصلاً ، ولإثبات المعاد الجسماني طريق آخر مشهور بين المتكلمين ، وجعل هذا الدليل العقلي طريقاً لإثباته يحتاج إلى تأمل فتأمل ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ إضراب وانتقال عن إثبات ما ذكر بلزوم المحال الذي هو التسوية بين الفريقين المذكورين على الإطلاق إلى إثباته بلزوم ما هو أظهر منه استحالة وهي التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة ، وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا يساعده المقام ، ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما أدخل في إنكار التسوية من الوصفين الأولين ، وأياً ما كان فليس المراد من الجمعين في الموضعين أناساً بأعيانهم ولذا قال ابن عباس : الآية عامة في جميع المسلمين

والكافرين .

وقيل : هي في قوم مخصوصين من مشركي قريش قالوا للمؤمنين إنا نعطي في الآخرة من الخير ما لا تعطون فنزلت ، وأنت تعلم أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أخرجها ابن عساكر أنه قال : الذين آمنوا علي .

وحمزة .

وعبيدة بن الحرث رضي الله تعالى عنهم والمفسدين في الأرض عتبة .

والوليد بن عتبة .

وشيبة وهم الذين تبارزوا يوم بدر ، ولعله أراد أنهم سبب النزول

﴿ كتاب ﴾ خبر مبتدأ محذوف هو عبارة عن القرآن أو السورة ، ويجوز على الثاني تقديره مذكراً أي هو أو هذا وهو الأولى عند جمع رعاية للخبر وتقديره مؤنثاً رعاية للمرجع ، وقوله تعالى : ﴿ أنزلناه إِلَيْكَ ﴾ صفته ، وقوله سبحانه : ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ أي كثير المنافع الدينية والدنيوية خبر ثان للمبتدأ أو صفة ﴿ كِتَابٌ ﴾ عند من يجوز تأخير الوصف الصريح عن غيرا لصريح .

وقرىء ﴿ مُبَارَكاً ﴾ بالنصب على أنه حال من مفعول ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ وهي حال لازمة لأن البركة لا تفارقه جعلنا الله تعالى في بركاته ونفعنا بشريف آياته ، وقوله عز وجل : ﴿ لِّيَدَّبَّرُواْ ءاياته ﴾ متعلق بأنزلناه ، وجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف يدل عليه وأصله ليتدبروا بتاء بعد الياء آخر الحروف ، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه بهذا الأصل أي أنزلناه ليتفكروا في آياته التي من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع فيعرفوا ما يدبر ويتبع ظاهرها من المعاني الفائقة والتأويلات اللائقة ، وضمير الرفع لأولي الألباب على التنازع واعمال الثاني أو للمؤمنين فقط أو لهم وللمفسدين ، وقرأ أبو جعفر ﴿ لتدبروا ﴾ بتاء الخطاب وتخفيف الدال وجاء كذلك عن عاصم .

(55/660)

والكسائي بخلاف عنهما ، والأصل لتتدبروا بتاءين فحذفت إحداهما على الخلاف الذي فيها أهي تاء المضارعة أم التاء التي تليها ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وعلماء أمته على التغليب أي لتدبر أنت وعلماء أمتك ﴿ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلباب ﴾ أي وليتعظ به ذوو العقول الزاكية الخالصة من الشوائب أو ليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم لفرط تمكنهم من معرفته لما نصب عليه من الدلائل فإن إرسال الرسل وإنزال الكتب لبيان ما لا

يعرف إلا من جهة الشرع كوجوب الصلوات الخمس والإرشاد إلى ما يستقل العقل بإدراكه كوجود الصانع القديم جل جلاله وعم نواله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(56/660)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾

مقول قول محذوف معطوف على ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ [ص : 25] أي صفَحنا عنه وذكرناه بنعمة المُلك ووعظناه ، فجمع له بهذا تنويهاً بشأنه وإرشاداً للواجب .

وافتتاح الخطاب بالنداء لاسترعاء وَعْيه واهتمامه بما سيقال له .

والخليفة : الذي يخلف غيره في عملٍ ، أي يقوم مقامه فيه ، فإن كان مع وجود المخلوف عنه قيل : هو خليفة فُلان ، وإن كان بعد ما مضى المخلوف قيل : هو خليفة مِن فلان .

والمراد هنا : المعنى الأول بقرينة قوله : ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ﴾ .

فالمعنى : أنه خليفة الله في إنفاذ شرائعه للأمة المجعول لها خليفة مما يوحي به إليه ومما سبق من الشريعة التي أوحي إليه العمل بها .

وخليفةٌ عن موسى عليه السلام وعن أحبار بني إسرائيل الأولين المدعوين بالقُضاة ، أو خليفة عمن تقدمه في الملك وهو شاول .

و ﴿ الأرض ﴾ : أرض مملكته المعهودة ، أي جعلناك خليفة في أرض إسرائيل .

ويجوز أن يجعل الأرض مراداً به جميع الأرض فإن داود كان في زمنه أعظم ملوك الأرض فهو متصرف في مملكته ويَخاف بأسَه ملوكُ الأرض فهو خليفة الله في الأرض إذ لا ينفلت شيء من قبضته ، وهذا قريب من الخلافة في قوله تعالى : ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم ﴾ [يونس : 14] وقوله : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ [النمل : 62] .

وهذا المعنى خلاف معنى قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : 30] فإن الأرض هنالك هي هذه الكرة الأرضية .

(57/660)

قال ابن عطية : ولا يقال خليفة الله إلا لرسوله صلى الله عليه وسلم وأما الخلفاء فكل واحد منهم خليفةُ الذي قبلَه ، ألاَ ترى أن الصحابة رضي الله عنهم حرّروا هذا المعنى فقالوا لأبي بكر رضي الله عنه : يا خليفة رسول الله ، وبهذا كان يدعى بذلك مدة حياته ، فلما ولي عمر قالوا : يا خليفةَ خليفة رسول الله فطال ورأوْا أنه سيطول أكثر في المستقبل

إذا ولي خليفة بعد عمر فدعوا عُمر أميرَ المؤمنين ، وقصر هذا على الخلفاء ، وما يجيء في الشعر من دعاء أحد الخلفاء خليفة الله فذلك تجوّز كما قال ابنُ قيسسِ الرقياتِ:

خليفة الله في بريته . . .

جَفَّت بذاك الأقلام والكتب

وفُرع على جعله خليفة أمرُه بأن يحكم بين الناس بالحق للدلالة على أن ذلك واجبه وأنه أحق الناس بالحكم بالعدل ، ذلك لأنه هو المرجع للمظلومين والذي تُرفع إليه مظالم الظلمة من الولاة فإذا كان عادلاً خشيهُ الولاة والأمراء لأنه ألف العدل وكره الظلم فلا يُقر ما يجري منه في رعيته كلما بلغه فيكون الناس في حذر من أن يصدر عنهم ما عسى أن يرفع إلى الخليفة فيقتص من الظالم ، وأمّا إن كان الخليفة يظلم في حكمه فإنه يألف الظلم فلا يُغضبه إذا رفعت إليه مظلمة شخص ولا يحرص على إنصاف المظلوم .

وفي "الكشاف" : أن بعض خلفاء بني أمية قال لعمر بن عبد العزيز أو للزهري : هل سمعتَ ما بلغَنا ؟ قال : وما هو ؟ قال : بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا تُكتب له معصية ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الخلفاء أفضل أم الأنبياء ، ثم تلا هذه الآية .

والمراد بـ ﴿ النَّاسِ ﴾ ناس مملكته فالتعريف للعهد أو هو للاستغراق العرفي .

والحق : هو ما يقتضيه العدل الشرعي من معاملة الناس بعضهم بعضاً وتصرفاتهم في خاصّتهم وعامّتهم ويتعين الحق بتعيين الشريعة .

والباء في ﴿ بالحَقِّ ﴾ باء المجازية ، جعل الحق كالآلة التي يعمل بها العامل في قولك : قطعه بالسكين ، وضربه بالعصا .

(58/660)

وقوله : ﴿ ولا تَتَّبِعِ الهوى ﴾ معطوف على التفريع ، ولعله المقصود من التفريع .

وإنما تقدم عليه أمره بالحكم بالحق ليكون توطئة للنهي عن اتباع الهوى سَدًّا لذريعة الوقوع في خطأ الحق فإن داود ممن حكم بالحق فأمره به باعتبار المستقبل .

والتعريف في ﴿ الهوى ﴾ تعريف الجنس المفيد للاستغراق ، فالنهي يعمّ كل ما هو هوى ، سواء كان هوى المخاطب أو هوى غيره مثل هوى زوجه وولده وسيده ، وصديقه ، أو هوى الجمهور : ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾ [الأعراف : 138] .

ومعنى الهوى : المحبة ، وأطلق على الشيء المحبوب مبالغة ، أي ولو كان هوى شديداً تعلقُ النفس به .

والهوى : كناية عن الباطل والجور والظلم لما هو متعارف من الملازمة بين هذه الأمور وبين

هوى النفوس ، فإن العدل والإنصاف ثقيل على النفوس فلا تهواه غالباً ، ومن صارت له محبة الحق سجية فقد أوتي العلم والحكمة وأيد بالحِفظ أو العصمة .

(59/660)

والنهي عن اتباع الهوى تحذير له وإيقاظ ليحذّر من جراء الهوى ويتّهم هوى نفسه ويتعقبه فلا ينقاد إليه فيما يدعوه إليه إلا بعد التأمل والتثبت ، وقد قال سهل بن حُنَيْف رضي الله عنه : "اتهموا الرَّأي" ، ذلك أن هوى النفس يكون في الأمور السهلة عليها الرائقة عندها ومعظم الكمالات صعبة على النفس لأنها ترجع إلى تهذيب النفس والارتقاء بها عن حضيض الحيوانية إلى أوج المَلكية ، ففي جميعها أو معظمها صرف للنفس عما لاصَقَها من الرغائب الجسمانية الراجع أكثرها إلى طبع الحيوانية لأنها إما مدعوةٍ لداعي الشهوة أو داعي الغضب فالاسترسال في اتباعها وقوع في الرذائل في الغالب ، ولهذا جُعل هنا الضلال عن سبيل الله مسبباً على اتباع الهوى ، وهو تسبب أغلبي عرفي ، فشبه الهوى بسائرٍ في طريق مهلكة على طريقة المكنية ورمز إليه بلازم ذلك وهو الإضلال عن طريق الرشاد المعبر عنه بسبيل الله ، فإن الذي يتبع سائراً غيرَ عَارف بطريق المنازل النافعة لا يلبث أن يجد نفسه وإياه في مهلكة أو مَقطعة طريق .

واتّباع الهوى قد يكون اختياراً ، وقد يكون كرهاً .

والنهي عن اتباعه يقتضي النهي عن جميع أنواعه ؛ فأما الاتّباع الاختياري فالحذر منه ظاهر ، وأما الاتباع الاضطراري فالتخلص منه بالانسحاب عما جرّه إلى الإِكراه ، ولذلك اشترط العلماء في الخليفة شروطاً كلّها تحوم حول الحيلولة بينه وبين اتباع الهوى وما يوازيه من الوقوع في الباطل ، وهي : التكليف ، والحُرّية ، والعدالة ، والذكورة ، وأما شرط كونه من قريش عند الجمهور فلئلا يضعف أمام القبائل بغضاضة .

وانتصب ﴿ فَيُضِلَّكَ ﴾ بعد فاء السببية في جواب النهي .

ومعنى جواب النهي جواب المنهي عنه فهو السبب في الضلال وليس النهي سبباً في الضلال .

وهذا بخلاف طريقة الجزم في جواب النهي .

(60/660)

و ﴿ سبيل الله ﴾ : الأعمال التي تحصُل منها مرضاته وهي الأعمال التي أمر الله بها ووعد بالجزاء عليها ، شُبّهت بالطريق الموصل إلى الله ، أي إلى مرضاته .

وجملة : ﴿ إنَّ الذين يضلون عن سبيل الله ﴾ إلى آخرها يظهر أنها مما خاطب الله به داود

، وهي عند أصحاب العدد آية واحدة من قوله : ﴿ يا داود إنَّا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ إلى ﴿ يومَ الحِسَابِ ﴾ ، فهي في موقع العلة للنهي ، فكانت (إنّ) مغنية عن فاء التسبب والترتب ، فالشيء الذي يفضي إلى العذاب الشديد خليق بأن يُنهى عنه ، وإن كانت الجملة كلاماً منفصلاً عن خطاب داود كانت معترضة ومستأنفة استئنافاً بيانياً لبيان خطر الضلال عن سبيل الله .

والعموم الذي في قوله ﴿ الذين يضلون عن سبيل الله ﴾ يُكسب الجملة وصف التذييل أيضاً وكلا الاعتبارين موجب لعدم عطفها .

وجيء بالموصول للإيماء إلى أن الصلة علة لاستحقاق العذاب .

واللام في ﴿ لهُم عَذَابٌ ﴾ للاختصاص ، والباء في ﴿ بِما نسُوا يومَ الحِسَابِ ﴾ سببية .

و(ما) مصدرية ، أي بسبب نسيانهم يوم الحساب ، وتتعلق الباء بالاستقرار الذي ناب عنه المجرور في قوله : ﴿ لَهُم عَذَابٌ ﴾ .

والنسيان : مستعار للإعراض الشديد لأنه يشبه نسيان المعرض عنه كما في قوله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ [التوبة : 67] ، وهو مراتب أشدها إنكار البعث والجزاء ، قال تعالى : ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم ﴾ [السجدة : 14] .

ودونه مراتب كثيرة تكون على وفق مراتب العذاب لأنه إذا كان السبب ذا مراتب كانت المسببات تبعاً لذلك .

والمراد بـ ﴿ يَوْمَ الحسابِ ﴾ ما يقع فيه من الجزاء على الخير والشر ، فهو في المعنى على تقدير مضاف ، أي جزاء يوم الحساب على حدّ قوله تعالى : ﴿ ونسي ما قدمت يداه ﴾ [الكهف : 57] ، أي لم يفكر في عاقبة ما يقدمه من الأعمال .

(61/660)

وفي جعل الضلال عن سبيل الله ونسيان يوم الحساب سببين لاستحقاق العذاب الشديد تنبيه على تلازمهما فإن الضلال عن سبيل الله يفضي إلى الإعراض عن مراقبة الجزاء .

وترجمة داود تقدمت عند قوله تعالى : ﴿ ومن ذريته داود ﴾ في [الأنعام : 84] وقوله : ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ في [النساء : 163] .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27)

لما جرى في خطاب داود ذكرُ نسيان يوم الحساب وكان أقصى غايات ذلك النسيان جحودُ وقوعه لأنه يفضي إلى عدم مراعاته ومراقبته أبداً اعتُرِض بين القصتين بثلاث آيات لبيان حكمة الله تعالى في جعل الجزاء ويومه احتجاجاً على منكريه من المشركين .

والباطل : ضد الحق ، فكل ما كان غير حقّ فهو الباطل ، ولذلك قال تعالى في الآية الأخرى

: ﴿ ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ [الدخان : 39] .

(والمراد بالحقّ المأخوذِ من نفي الباطل هنا ، هو أن تلك المخلوقات خلقت على حالة لا تخرج عن الحق ؛ إمّا حَالاً كخلق الملائكة والرسل والصالحين ، وإمّا في المآل كخلق الشياطين والمفسدين لأن إقامة الجزاء عليهم من بعد استدراك لمقتضى الحق .

وقد بنيت هذه الحجة على الاستدلال بأحوال المشاهدات وهي أحوال السماوات والأرض وما بينهما ، والمشركون يعلمون أن الله هو خالق السماوات والأرض وما بينهما ، فأقيم الدليل على أساس مقدمة لا نزاع فيها ، وهي أن الله خلق ذلك وأنهم إذا تأملوا أدنى تأمل وجدوا من نظام هذه العوالم دلالةً تحصل بأدنى نظر على أنه نظام على غاية الإِحكام إحكاماً مطرداً ، وهو ما نبههم الله إليه بقوله : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ .

(62/660)

ومصب النفي الحالُ وهو قوله : ﴿ باطِلاً ﴾ فهو عام لوقوعه في سياق النفي ، وبعد النظر يعلم الناظر أن خالقها حكيم عادل وأن تصرفات الفاعل يستدل بالظاهرِ منها على الخَفي ، فكان حقاً على الذين اعتادوا بتحكيم المشاهدات وعدم تجاوزها أن ينظروا بقياس من

خفي عنهم على ما هو مشاهد لهم ، فلما استقرّ أن نظام السماء والأرض وما بينهما كان جارياً على مقتضى الحكمة وكامل النظام ، فعليهم أن يتدبّروا فيما خفي عنهم من وقوع البعث والجزاء فإن جميع ما في الأرض جارٍ على نظام بديع إلا أعمال الإِنسان ، فمن المعلوم بالمشاهدة أن من الناس صالحين نافعين ، ومنهم دون ذلك إلى صنف المجرمين المفسدين ، وإن من الصالحين كثيراً لم ينالوا من حظوظ الخيرات الدنيوية شيئاً أو إلاّ شيئاً قليلاً هو أقلّ مما يستحقه صلاحه وما جاهده من الارتقاء بنفسه إلى معارج الكمال .

ومن المفسدين من هم بعكس ذلك .

والفساد : اختلال اجتلبه الإِنسان إلى نفسه باتّباعه شهواته باختياره الذي أودعه الله فيه ، وبقواه الباطنية قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [التين : 4 – 6] وفي هذه المراتب يدنو الناس دُنُوّاً متدرّجاً إلى مراتب الملائكة أو دُنُوّاً متدلّياً إلى أحضية الشياطين فكانت الحكمة الإلهية تقتضي أن يلتحق كل فريق بأشباهه في النعيم الأبدي أو الجحيم السرمدي .

(63/660)

ولولا أن حكمة نظام خلق العوالم اقتضت أن يُحال بين العوالم الزائلة والعوالم السرمدية في المدة المقدرة لبقاء هذه الأخيرة لأطار الله الصالحين إلى أوج النعيم الخالد ، ولَدَسّ المجرمين في دركات السعير المؤبد ، لعلل كثيرة اقتضت ذلك جُماعها رْعيُ الإِبقاء على خصائص المخلوقات حتى تؤدي وظائفها التي خلقت لها ، وهي خصائص قد تتعارض فلو أوثر بعضها على غيره بالإِبقاء لأفضى إلى زوال الآخر ، فمكّن الله كل نوع وكل صنف من الكدَح لنوال ملائمه وأرشد الجميع إلى الخير وأمر ونهى وبيّن وحدد .

وجعل لهم من بعد هذا العالم الزائل عالَماً خالداً يكون فيه وجود الأصناف محوطاً بما تستحقه كمالاتُها وأضدادُها من حُسْن أو سوء ، ولو لم يجعل الله العالَم الأبدي لذهب صلاح الصالحين باطلاً أجهدوا فيه أنفسهم وأضاعوا في تحصيله جمّاً غفيراً من لذائذهم الزائلة دون مقابل ، ولعاد فساد المفسدين غُنما أرضَوْا به أهواءَهم ونالوا به مشتهاهم فذهب ما جَرُّوه على الناس من أرزاء باطلاً ، فلا جرم لو لم يكن الجزاء الأبدي لعاد خلق الأرض باطلاً ولفاز الغويّ بغوايته .

فإذا استقرت هذه المقدمة تعين أن إنكار البعث والجزاء يلزمه أن يكون منكرُه قائلاً بأن خلق السماء والأرض وما بينهما شيء من الباطل ، وقد دلّت الدلائل الأخرى أن لا يكون في خلق ذلك شيء من الباطل بقياس الخفي على الظاهر ، فبطل ما يفضي إلى القول بأن في خلق بعض ما ذكر شيء من الباطل .

والمشركون وإن لم يصدر منهم ذلك ولا اعتقدوه لكنهم آيلون إلى لزومه لهم بطريق دلالة الالتزام لأن من أنكر البعث والجزاء فقد تقلد أن ما هو جارٍ في أحوال الناس باطل ، والناس من خلق الله فباطلهم إذا لم يؤاخِذهم خالقهم عليه يكون مما أقرّه خالقهم ، فيكون في خلق السماء والأرض وما بينهما شيء من الباطل ، فتنتقض كلية قوله : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، ﴾ وهو ما ألزمهم إياه قوله تعالى : ﴿ ذلك ظنُّ الذين كفروا . ﴾ والإِشارة إلى القضية المنفية لا إلى نفيها ، أي خَلق المذكورات باطلاً هو ظن الذين كفروا ، أي اعتقادهم .

وأُطلق الظن على العلم لأن ظنهم علم مخالف للواقع فهو باسم الظن أجدر لأن إطلاق الظن يقع عليه أنواع من العلم المُشْبِه والباطل .

وفي هذه الآية دليل على أن لازم القول يعتبر قولاً ، وأن لازم المذهب مذهب وهو الذي نحاه فقهاء المالكية في موجبات الردة من أقوال وأفعال .

وفرع على هذا الاستدلال وعدمِ جري المشركين على مقتضاه قوله : ﴿ فويلٌ للذين كفروا مِنَ النَّارِ ﴾ أي نار جهنم .

وعُبر عنهم بالموصول لما تشير إليه الصلة من أنهم استحقوا العقاب على سوء اعتقادهم وسوء أعمالهم ، وأن ذلك أيضاً من آثار انتفاء الباطل عن خلق السماوات والأرض وما بينهما ، لأنهم كانوا على باطل في إعراضهم عن الاستدلال بنظام السماوات والأرض ، وفي ارتكابهم مفاسد عوائد الشرك وملته ، وقد تمتّعوا بالحياة الدنيا أكثر مما تمتع بها الصالحون فلا جرم استحقوا جزاء أعمالهم .

ولفظ : "وَيل" يدل على أشدّ السوء .

وكلمة : وَيْلٌ له ، تقال للتعجيب من شدة سوء حالة المتحدث عنه ، وهي هنا كناية عن شدة عذابهم في النار .

و﴿ من ﴾ ابتدائية كما في قوله تعالى : ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم ﴾ [البقرة : 79] ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لابن الزبير حين شرب دم حِجامته : " ويل لك من الناس وويل للناس منك " .

(65/660)

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ

(28)

﴿ أم ﴾ منقطعة أفادت إضراباً انتقالياً وهو ارتقاء في الاستدلال على ثبوت البعث وبيان لما هو من مقتضى خلق السماء والأرض بالحق ، بعد أن سيق ذلك بوجه الاستدلال الجُمليّ ، وقد كان هذا الانتقال بناء على ما اقتضاه قوله : ﴿ ذلك ظنُّ الذين كفروا ﴾ [ص : 27] فلأجْل ذلك بني على استفهام مقدر بعد ﴿ أم ﴾ وهو من لوازم استعمالها ، وهو استفهام إنكاري .

والمعنى : لو انتفى البعث والجزاء كما تزعمون لاستوت عند الله أحوال الصالحين وأحوال المفسدين .

والتشبيه في قوله : ﴿ كالمُفْسِدِينَ ﴾ للتسوية .

والمعنى : إنكار أن يكونوا سواء في جعل الله ، أي إذا لم يُجاز كلَّ فريق بما يستحقه على عمله ، فالمشاهد في هذه الحياة الدنيا خلافُ ذلك فتعين أن يكون الجزاء في عالم آخر وهو الذي يسلك له الناس بعد البعث .

وقد أُخذ في الاستدلال جانبُ المساواة بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض ، لأنه يوجد كثير من الفريقين متساوِينَ في حالة الحياة الدنيا في النعمة أو في التوسط أو في البؤس والخصاصة ، فحالة المساواة كافية لتكون مناط الاستدلال على إبطال ظن الذين كفروا بقطع النظر عن حالة أخرى أولى بالدلالة ، وهي المقابلة بين فريق المفسدين أولي النعمة وفريق الصالحين أولي البؤس ، وعن حالة دون ذلك وهي فريق

المفسدين أصحاب البؤس والخصاصة وفريق الصالحين أولي النعمة لأنها لا تسترعي خاطر الناظر .

و﴿ أم ﴾ الثانية منقطعة أيضاً ومفادها إضراب انتقال ثانٍ للارتقاء في الاستدلال على أن الحكمة الربانية بمراعاة الحق وانتفاع الباطل في الخلق تقتضي الجزاء والبعثَ لأجله .

ومعنى الاستفهام الذي تقتضيه ﴿ أم ﴾ الثانية : الإِنكار كالذي اقتضته ﴿ أم ﴾ الأولى .

(66/660)

وهذا الارتقاء في الاستدلال لقصد زيادة التشنيع على منكري البعث والجزاء بأن ظنهم ذلك يقتضي أن جعل الله المتقين مُساوين للفجّار في أحوال وجود الفريقين ، وتقريره مِثلَ ما قُرّر به الاستدلال الأول .

والمتّقون : هم الذين كانت التقوى شعارهم .

والتقوى : ملازمة اتباع المأمورات واجتناب المنهيات في الظاهر والباطن ، وقد تقدم في أول سورة البقرة .

والفجّار : الذين شعارهم الفجور ، وهو أشد المعصية ، والمراد به : الكفر وأعماله التي لا

تراقب أصحابها التقوى كما في قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ [عبس : 42] وقد تقدم تفصيل من هذا عند قوله تعالى : ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يُعيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالقِسْطِ والَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وعَذَابٌ أَلِيمٌ بِما كَانُوا يَكْفُرُونَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمس ضياءً إلى قوله : ﴿ مَا خَلَقَ الله ذلك إلاَّ بِالحَقِّ ﴾ [يونس : 4 - 5] .

والمقصود من هذا الإطناب زيادة التهويل والتفظيع على الذين ظنوا ظنّاً يفضي إلى أن الله خلق شيئاً من السماء والأرض وما بينهما باطلاً فإن في الانتقال من دلالة الأضعف إلى دلالة الأقوى وفي تكرير أداة الإنكار شأناً عظيماً من فضح أمر الضالين .

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)

عقب الإمعان في تهديد المشركين وتجهيلهم على إعراضهم عن التدبر بحكمة الجزاء ويوم الحساب عليه والاحتجاج عليهم ، أعرض الله عن خطابهم ووجّه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالثناء على الكتاب المنزل عليه ، وكان هذا القرآن قد بيّن لهم ما فيه لهم مقنع ، وحجاجاً هو لشبهاتهم مقلع ، وأنه إن حَرَم المشركون أنفسهم من الانتفاع به فقد انتفع به أولو الألباب وهم المؤمنون .

وفي ذلك إدماجُ الاعتزاز بهذا الكتاب لمن أنزل عليه ولمن تمسك به واهتدى بهديه من المؤمنين.

وهذا نظير قوله تعالى عقب ذكر خلق الشمس والقمر: ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذلك إلاَّ بالحَقِّ يُفَصِّلُ الأَيَاتتِ لِقَومٍ يَعْلَمُون ﴾ في أول سورة [يونس: 5].

والجملة استئناف معترضٍ وفي هذا الاستئناف نظر إلى قوله في أول السورة ﴿ والقُرءَانِ ذي الذِكرِ ﴾ [ص: 1] إعادة للتنويه بشأن القرآن كما سيعاد ذلك في قوله تعالى: ﴿ هذا ذكر ﴾ [ص: 49].

فقوله: ﴿ كِتابٌ ﴾ يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هذا كتاب، وجملة ﴿ أنزلناهُ ﴾ صفة ﴿ كِتابٌ.

﴾ ويجوز أن يكون مبتدأ وجملة ﴿ أنزلناهُ ﴾ صفة ﴿ كِتاب ﴾ و ﴿ مُبارَكٌ ﴾ خبراً عن ﴿ كِتابٌ ﴾.

وتنكير كِتابٌ للتعظيم، لأن الكتاب معلوم فما كان تنكيره إلا لتعظيم شأنه وهو مبتدأ سوغ الابتداء به وصفه بجملة ﴿ أنزلناهُ ﴾ و ﴿ مُبارَكٌ ﴾ هو الخبر.

ولك أن تجعل ما في التنكير من معنى التعظيم مسوغاً للابتداء وتجعل جملة ﴿ أنزلناهُ ﴾ خبراً أول و ﴿ مُبارَكٌ ﴾ خبراً ثانياً و ﴿ لِيدَّبَّرُوا ﴾ متعلق بـ ﴿ أنزلناهُ ﴾ ولكن لا

يجعل ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف وتقدره : هذا كتاب ، إذ ليس هذا بمحَزّ كبير من البلاغة .

والمبارك : المُنبَثّة فيه البركة وهي الخير الكثير ، وكل آيات القرآن مبارك فيها لأنها : إمّا مرشدة إلى خير ، وَإمّا صارفة عن شرّ وفساد ، وذلك سبب الخير في العاجل والآجل ولا بركة أعظم من ذلك .

والتدبر : التفكر والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني ، وإنما يكون ذلك في كلام قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيه بحيث كلما ازداد المتدبر تدبراً انكشفت له معان لم تكن بادية له بادىء النظر .

(68/660)

وأقربُ مثل للتدبر هنا هو ما مر آنفاً من معاني قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً إلى قوله : أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ [ص : 27 - 28] ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ في سورة [النساء : 82] .

وقرأ الجمهور : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا ﴾ بياء الغيبة وتشديد الدال .

وأصل "يدبروا" يتدبروا ، فقلبت التاء دالاً لقرب مخرجيهما ليتأتى الإدغام لتخفيفه وهو

صيغة تكلف مشتقة من فعل : دَبَرَ بوزن ضرب ، إذا تبع ، فتدبَّره بمنزلة تتبَّعه ، ومعناه : أنه يتعقب ظواهر الألفاظ ليعلم ما يَدْبر ظواهرها من المعاني المكنونة والتأويلات اللائقة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾ في سورة [المؤمنين : 68] .

وقرأ أبو جعفر ﴿ لتَدَبروا ﴾ بتاء الخطاب وتخفيف الدال وأصلها : لتتدبروا فحذفت إحدى التاءين اختصاراً ، والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين .

والتذكُّر : استحضار الذهن ما كان يعلمه وهو صادق باستحضار ما هو منسي وباستحضار ما الشأن أن لا يُغفل عنه وهو ما يهمّ العلم به ، فجُعل القرآن للناس ليتدبروا معانيه ويكشفوا عن غوامضه بقدر الطاقة فإنهم على تعاقب طبقات العلماء به لا يصلون إلى نهاية من مكنونه ولتذكرهم الآية بنظيرها وما يقاربها ، وليتذكروا ما هو موعظة لهم وموقظ من غفلاتهم .

وضمير "يدبروا" على قراءة الجمهور عائد إلى ﴿ أولوا الألباب ﴾ على طريقة الإِضمار للفعل المهمل عن العمل في التنازع ، والتقدير : ليدبَّر أولو الألباب آياته ويتذكروا ، وأما على قراءة أبي جعفر فإسناد "يتذكر" إلى ﴿ أُولُوا الألبابِ ﴾ اكتفاء عن وصف المتدبرين بأنهم أولو الألباب لأن التدبر مُفْضٍ إلى التذكر .

والتذكر من آثار التدبر فوصف فاعل أحد الفعلين يُغني عن وصف فاعل الفعل الآخر .

و ﴿ أولوا الألباب ﴾ : أهل العقول وفيه تعريض بأن الذين لم يتذكروا بالقرآن ليسوا من أهل العقول ، وأن التذكر من شأن المسلمين الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه ، فهم ممن تدبروا آياته فاستنبطوا من المعاني ما لم يعلموا ، ومن قرأه فتذكر به ما كان علمه وتذكر به حقاً كان عليه أن يرعاه ، والكافرون أعرضوا عن التدبر فلا جرم فاتهم التذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(70/660)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾

أخرج الثعلبي من طريق العوّام بن حوشب قال : حدثني رجل من قومي شهد عمر رضي الله عنه ، أنه سأل طلحة ، والزبير ، وكعباً ، وسلمان ، ما الخليفة من الملك قال طلحة والزبير : ما ندري ! فقال سلمان رضي الله عنه : الخليفة الذي يعدل في الرعية ، ويقسم بينهم بالسوية ، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله ، ويقضي بكتاب الله تعالى . فقال

كعب : ما كنت أحسب أحداً يعرف الخليفة من الملك غيري .

وأخرج ابن سعد من طريق مردان عن سلمان رضي الله عنه ؛ أن عمر رضي الله عنه قال له : أنا ملك أم خليفة ؟ فقال له سلمان رضي الله عنه : الخليفة الذي يعدل إن أنت جَبَيْتَ من أرض المسلمين درهماً ، أو أقل ، أو أكثر ، ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر رضي الله عنه .

وأخرج ابن سعد عن ابن أبي العرجاء قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك ؟ قال قائل : يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقا قال : ما هو ؟ قال : الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ، ولا يضعه إلا في حق ، وأنت الحمد لله كذلك . والملك يعسف الناس ، فيأخذ من هذا ويعطي هذا .

وأخرج ابن سعد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : إن الامارة ما ائتمرتها ، وإن الملك ما غلب عليه بالسيف .

وأخرج الثعلبي عن معاوية رضي الله عنه ، أنه كان يقول إذا جلس على المنبر : يا أيها الناس إن الخلافة ليست بجمع المال ، ولكن الخلافة العمل بالحق ، والحكم بالعدل ، وأخذ الناس بأمر الله .

وأخرج الحكيم الترمذي عن سالم مولى أبي جعفر قال : خرجنا مع أبي جعفر أمير المؤمنين إلى بيت المقدس ، فلما دخل وشق بعث إلى الأوزاعي ، فأتاه فقال : يا أمير المؤمنين حدثني حسان بن عطية عن جدك ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ قال : إذا ارتفع إليك الخصمان ، فكان لك في أحدهما هوى ، فلا تشتهِ في نفسك الحق له ، فيفلح على صاحبه ، فأمحو اسمك من نبوتي ، ثم لا تكون خليفتي ، ولا كرامة . يا أمير المؤمنين حدثنا حسان بن عطية عن جدك قال : من كره الحق فقد كره الله ، لأن الحق هو الله . يا أمير المؤمنين حدثني حسان بن عطية عن جدك في قوله ﴿ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴾ [الكهف : 49] قال : الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك فكيف ما جنته الأيدي ؟

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ﴾ يعني بالعدل والانصاف ﴿ ولا تتبع الهوى ﴾ يقول : ولا تؤثر هواك في قضائك بينهم على الحق والعدل ، فتزوغ عن الحق ، فيضلك عن سبيل الله .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ قال : هذا من التقديم والتأخير . يقول : لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي السليل رضي الله عنه قال : كان داود عليه السلام يدخل المسجد ، فينظر أغمض حلقة من بني إسرائيل ، فيجلس إليهم ثم يقول : مسكيناً بين ظهراني مساكين .

وأخرج أحمد عن زيد بن أسلم رضي الله عنه ، أن ابنا لداود مات ، فاشتد عليه جزعه ، فقيل ما كان يعدل عندك ؟ قال : كان أحب إليَّ من ملء الأرض ذهباً . فقيل له : إن الأجر على قدر ذلك .

وأخرج عبد الله في زوائده والحكيم الترمذي عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : كان من دعاء داود عليه السلام : سبحان مستخرج الشكر بالعطاء ، ومستخرج الدعاء بالبلاء .

(72/660)

وأخرج عبد الله عن الأوزاعي رضي الله عنه قال : أوحى الله إلى داود عليه السلام " الا أعلمك علمين إذا عملتهما ألقيت وجوه الناس إليك ، وبلغت بهما رضاي . قال : بلى يا رب قال احتجز فيما بيني وبينك بالورع ، وخالط الناس باخلاقهم " .

وأخرج أحمد عن يزيد بن منصور رضي الله عنه قال : قال داود عليه السلام إلا ذاكر لله

فاذكر معه ، إلا مذكر فاذكر معه .

وأخرج أحمد عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : كان داود عليه السلام يصنع القفة من الخوص ، وهو على المنبر ثم يرسل بها إلى السوق ، فيبيعها فيأكل بثمنها .

وأخرج أحمد عن سعيد بن أبي هلال رضي الله عنه قال : كان داود عليه السلام إذا قام من الليل يقول : اللهم نامت العيون ، وغارت النجوم ، وأنت الحي القيوم الذي لا تأخذك سنة ولا نوم .

وأخرج أحمد عن عثمان الشحام أبي سلمة قال : حدثني شيخ من أهل البصرة كان له فضل ، وكان له سن قال : بلغني أن داود عليه السلام سأل ربه قال : يا رب كيف لي أن أمشي لك في الأرض بنصح ، واعمل لك فيها بنصح ؟ قال " يا داود تحب من يحبني من أحمر وأبيض ، ولا تزال شفتاك رطبتين من ذكري ، واجتنب فراش الغيبة قال : رب كيف لي أن تحببني في أهل الدنيا البر والفاجر ؟ قال : يا داود تصانع أهل الدنيا لدنياهم ، وتحب أهل الآخرة لآخرتهم ، وتختار إليك دينك بيني وبينك ، فإنك إذا فعلت ذلك لا يضرك من ضل إذا اهتديت قال : رب فأرني أضيافك من خلقك من هم ؟ قال : نقي الكفين ، نقي القلب ، يمشي تماماً ، ويقول صواباً " .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن يحيى بن أبي كثير رضي الله عنه قال : قال داود عليه السلام لابنه سليمان عليه السلام : أتدري ما جهد البلاء ؟ قال شراء الخبز من السوق ،

والانتقال من منزل إلى منزل .

وأخرج أحمد عن مالك بن دينار رضي الله عنه قال : قال داود عليه السلام : اللهم اجعل حبك أحب إليَّ من نفسي ، وسمعي ، وبصري ، وأهلي ، ومن الماء البارد .

(73/660)

وأخرج أحمد عن وهب رضي الله عنه قال : قال داود عليه السلام رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : مؤمن حسن الصورة قال : فأي عبادك أبغض إليك ؟ قال كافر حسن الصورة ، شكر هذا وكفر هذا قال : يا رب فأي عبادك أبغض إليك ؟ قال عبد استخارني في أمر ، فَخِرْتُ له ، فلم يرض به .

وأخرج عبد الله في زوائده عن عبد الله بن أبي مليكة رضي الله عنه قال : قال داود عليه السلام : إلهي لا تجعل لي أهل سوء ، فأكون رجل سوء .

وأخرج أحمد عن عبد الرحمن قال : بلغني أنه كان من دعاء داود عليه السلام : اللهم لا تفقرني فأنسى ، ولا تغنني فأطغى .

وأخرج أحمد عن الحسن رضي الله عنه قال : قال داود عليه السلام : إلهي أي رزق أطيب ؟ قال : ثمرة يدك يا داود .

وأخرج أحمد عن أبي الجلد رضي الله عنه ، أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود انذر عبادي الصديقين لا يعجبن بأنفسهم ، ولا يتكلن على أعمالهم ، فإنه ليس أحد من عبادي أنصبه للحساب ، وأقيم عليه عدلي إلا عذبته من غير أن أظلمه ، وبشر الخاطئين أنه لا يتعاظم ذنب أن أغفره ، وأتجاوز عنه .

وأخرج أحمد عن أبي الجلد رضي الله عنه ، أن داود عليه السلام أمر منادياً فنادى : الصلاة جامعة ، فخرج الناس وهم يرون أنه سيكون منه يومئذ موعظة ، وتأديب ، ودعاء ، فلما رقي مكانه قال : اللهم اغفر لنا وانصرف ، فاستقبل آخر الناس أوائلهم قالوا : ما لكم ! قالوا : إن النبي إنما دعا بدعوة واحدة ، فاوحى الله تعالى إليه : أن أبلغ قومك عني ، فإنهم قد استقلوا دعاءك . إني من أغفر له أصلح له أمر آخرته ودنياه .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن عبد الرحمن بن أبزي رضي الله عنه قال : كان داود عليه السلام اصبر الناس على البلاء ، وأحلمهم وأكظمهم للغيظ .

(74/660)

وأخرج أحمد عن سعيد بن عبد العزيز رضي الله عنه قال : قال داود عليه السلام يا رب كيف أسعى لك في الأرض بالنصيحة ؟ قال : تكثر ذكري ، وتحب من أحبني من أبيض

وأسود ، وتحكم للناس كما تحكم لنفسك ، وتجتنب فراش الغيبة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي عبد الله الجدلي رضي الله عنه قال : كان داود عليه السلام يقول : اللهم إني أعوذ بك من جار عينه تراني ، وقلبه يرعاني . إن رأى خيراً دفنه ، وإن رأى شراً أشاعه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن أبي سعيد رضي الله عنه قال : كان من دعاء داود عليه السلام : اللهم إني أعوذ بك من الجار السوء .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن بريدة رضي الله عنه ، أن داود عليه السلام كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من عمل يخزيني ، وهم يرديني ، وفقر ينسيني ، وغنى يطغيني .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال : أوحى الله إلى داود عليه السلام : أحبب عبادي ، وحببني إلى عبادي قال : يا رب هذا أحبك ، وأحب عبادك ، فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال تذكرني عندهم ، فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن .

وأخرج أحمد عن أبي الجعد رضي الله عنه قال : بلغنا أن داود عليه السلام قال : إلهي ما جزاء من عزى حزيناً لا يريد به إلا وجهك ؟ قال : جزاؤه إن ألبسه لباس التقوى قال : إلهي ما جزاء من شيع جنازة لا يريد بها إلا وجهك ؟ قال : جزاؤه أن تشيعه ملائكتي إذا مات ، وإن أصلي على روحه في الأرواح قال : إلهي ما جزاء من أسند يتيماً أو أرملة لا يريد بها

إلا وجهك ؟ قال جزاؤه إن أظله تحت ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي قال : إلهي ما جزاء من فاضت عيناه من خشيتك ؟ قال : جزاؤه أن أؤمنه يوم الفزع الأكبر ، وأن أقي وجهه فيح جهنم .

(75/660)

وأخرج أحمد عن أبي الجلد رضي الله عنه قال : قرأت في مساءلة داود عليه السلام أنه قال : إلهي ما جزاء من يعزي الحزين المصاب ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن أكسوه رداء من أردية الإِيمان أستره به من النار ، وأدخله الجنة قال : إلهي فما جزاء من شيع الجنازة ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن تشيعه الملائكة يوم يموت إلى قبره ، وإن أصلي على روحه في الأرواح قال : إلهي فما جزاء من أسند اليتيم والأرملة ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن أظله في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي قال : إلهي فما جزاء من بكى من خشيتك حتى تسيل دموعه على وجهه ؟ قال : جزاؤه إن أحرم وجهه على النار ، وأن أؤمنه يوم الفزع الأكبر .

وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن أبزى رضي الله عنه قال : قال داود عليه السلام لسليمان : كن لليتيم كالأب الرحيم ، وأعلم أنك كما تزرع تحصد ، واعلم أن خطيئة [أمام] القوم

كالمسيء عند رأس الميت ، واعلم أن المرأة الصالحة لأهلها كالملك المتوّج المخوّص بالذهب ، واعلم أن المرأة السوء لأهلها كالشيخ الضعيف على ظهره الحمل الثقيل ، وما أقبح الفقر بعد الغنى ، وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى ، وإن وعدت صاحبك فانجز ما وعدته ، فإنك إن لا تفعل تورث بينك وبينه عداوة ، ونعوذ بالله من صاحب إذا ذكرت لم يعنك ، وإذا نسيت لم يذكرك .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن الحسن رضي الله عنه قال : كان داود عليه السلام يقول : اللهم لا مرض يفنيني ، ولا صحة تنسيني ، ولكن بين ذلك .

وأخرج عبد الله بن زيد بن رفيع قال : نظر داود عليه السلام مبخلاً يهوي بين السماء والأرض فقال : يا رب ما هذا ؟ قال : هذه لعنتي ، أدخلها بيت كل ظلام .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن أبزى رضي الله عنه قال : قال داود عليه السلام : نعم العون اليسار على الدين .

(76/660)

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد رضي الله عنه قال : قال داود عليه السلام : يا رب طال عمري ، وكبر سني ، وضعف ركني ، فأوحى الله إليه " يا داود طوبى لمن طال عمره ،

وحسن عمله " .

وأخرج الخطيب من طريق الأوزاعي عن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال : أُعطي داود عليه السلام من حسن الصوت ما لم يُعْطَ أحد قط ، حتى إن كان الطير والوحش حوله حتى تموت عطشاً وجوعاً ، وإن الأنهار لتقف . والله أعلم .

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28)

أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ﴾ قال ﴿ الذين آمنوا ﴾ علي ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث ﴿ والمفسدين في الأرض ﴾ عتبة ، وشيبة ، والوليد ، وهم تبارزوا يوم بدر .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إلى قوله ﴿ كالفجار ﴾ قال : لعمري ما استووا ، لقد تفرق القوم في الدنيا عند الموت .

أما قوله تعالى : ﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ .

أخرج أبو يعلى عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : " كما أنه لا يجتنى من الشوك العنب كذلك لا تنال الفجار منازل الأبرار " .

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)

أخرج سعيد بن منصور عن الحسين رضي الله عنه في قوله ﴿ ليدبروا آياته ﴾ اتباعه بعمله .

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه ﴿ أولوا الألباب ﴾ قال : أولوا العقول من الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(77/660)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى هوى)

الهَوَى : مَيْلُ النَّفس إلى الشَّهْوَة .

ويُقال ذلك للنَّفْس المائلةِ إلى الشَّهْوة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾ .

وقال بعض العارفين :

*إنِّى بُليتُ بأَرْبَعٍ يَرْمِنَنِى * بالنَّبْل من قَوْسٍ لها تَوْتِيرُ*

*إِبْلِيسُ والدُّنيا ونَفْسِىَ والهَوَى * يا رَبِّ أَنتَ على الخَلاصِ قَدِيرُ*

وقيل : الهَوَى : العِشْقُ ، ويكون فى الخَيْر والشرّ .

والهَوَى أَيضا : إِرادةُ النَّفْس .

والهَوَى : المحَبَّة ، هَوِيَهُ يَهْوَاه ، وهو هَوٍ ، وهى هَوِيَةٌ ، قال :

*أَرَاكِ إِذا لم أَهْوَ أَمْراً هَوِيتَهُ * ولستَ لما أَهْوَى من الأَمرِ بالهَوى*

وهو من أَهلِ الأَهواء ، ذَمٌّ .

وقد عَظَّم اللهُ تعالَى ذَمَّ اتِّباعِ الهَوَى فى قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ الهَهُ هَوَاهُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ وقال بلفظ الجَمْع تَنبيهاً على أَنَّ لكل واحد هَوًى غيرَ هَوَى الآخَرِ ، ثمّ هَوَى كلِّ واحد لا يَتناهَى ، فإِذاً اتِّباعُ أَهوائهم نهايةُ الضلال والحَيْرَة .

وقال : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

وهَوَى الْعُقابُ هُوِيّاً : انقَضَّتْ على صَيْد أَو غيره .

وَهَوَى الشىءُ وأَهْوَى وانْهَوَى : سَقَط .

وهَوَتْ يَدى له ، وأَهْوَت : ارْتَفَعَت ؛ والرِّيحُ : هَبَّت ؛ وفلانٌ : ماتَ .

وهَوَى يَهْوِى هَوِيّاً وهُوِيّاً وهَوَيَاناً : سَقَط من عُلْوٍ إِلى سُفْل .

وهَوَى الجَبَلَ وإِلَيْه :

صَعِدَهُ هُوِيّاً .

قال الشَّمَّاخُ :

*على طَرِيقٍ كظَهْرِ الأَيم مُطَّرِد * يَهْوِى إلى قُنَّةٍ فى مَنْهَل عالى*

وقال آخر :

يَهْوِى مَخارِمَها هُوِىَّ الأَجْدَل

والناقةُ تَهْوِى براكبها : تُسْرِع .

(78/660)

واسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ : ذَهَبَتْ بِهَواهُ وعَقْلِه ، وقيل : اسْتهامَتْه وحَيَّرَتْه ، وقيل : زَيَّنَت له هَواهُ .

وهذه هُوّة عَمِيقة ، وهُوًى .

والهاوِى : الجرادُ .

وهاوِيَةُ والهاوِيَةُ : جَهَنَّم أَعاذَنا الله منها .

وطاحَ فى المَهْواة والهاوِيَة ، وهى ما بين الجَبَلَيْن .

وتَهاوَوْا فيها : تَساقَطوا .

والهَوِيَّة كغَنِيّة : البَعِيدَةُ القَعْر .

وسَمِعَ لأُذْنِه هَوِيّاً ، أَى دَوِيّاً .

وهاواهُ : دَاراه .

والهَواءُ بالمدّ : الجَوُّ ، قيل : ومنه قولُه تعالَى : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ إذْ هى بمنزلَة (الهواء) فى الخَلاءِ .

وأَهْواهُ : رَفَعَه فى الهَواءِ وأَسْقَطَه ، قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ .

ويقال للجبَان : إِنَّهُ لَهَواءٌ ، أَى خالِى القَلْبِ من الجُرْأَة ، والأَصل الجَوُّ .

وهَوَت الدَّلْوُ فى البئر هَوِيّاً ، بالفتح : نَزَلَتْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 359. 361 ﴾

(79/660)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾

﴿ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً ﴾ أي بعد مَنْ تَقَدَّمَكَ من الأنبياء عليهم السلام . وقيل حاكماً من قِبَلِي لتحكمَ بين عبادي بالحقِّ ، وأوصاه بألا يتبعَ في الحكم هواه تنبيهاً على أنَّ أعظمَ جنايات العبد وأقبحَ خطاياه متابعةُ الهوى .

ولما ذَكَرَ اللَّهُ هذه القصة أعقبها بقوله :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ ﴾ " باطلاً " أي وانا مُبْطِلُ في خلقهما ، وبل كان لي ما فعلْتُ وأنا فيه مُحِقٌّ .

ويقال ما خلقتهما للبطلان بل لأمرهما بالحقّ .

ثم أخبر أنه لا يجعل المفسدين كالمحسنين قط .

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ (29)

﴿ مُبَارَكٌ ﴾ وهو القرآن ، ومبارك أي كبيرُ النّفْعِ ، ويقال مباركٌ أي دائمٌ باقٍ لا ينسخه كتابٌ ؛ مِنْ قولهم بَرَكَ الطيرُ على الماء . ويقال مباركٌ لِمَنْ آمَنَ به وصَدَّقَ . ثم إنه بَيَّنَ أَنَّ البركةَ في تَدَبُّرِه والتفكُّرِ في معانيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 253.252 ﴾

(80/660)

قوله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (31) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (32) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ (33) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ

وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (39) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الإنسان وإن أطال التدبر وأقبل بكليته على التذكر لا بد له من نسيان وغفلة وذهول ، ولما كان الممدوح إنما هو الرجاع " لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم " وكان الله تعالى هو الملك الذي لا شريك له والمالك الذي له الملك كله فهو يرفع من يشاء ممن لا يخطر في وهم أن يرتفع ، ويخفض من يشاء ممن علا في الملك حتى لا يقع في خاطر أنه يحصل له خلل ولا سيما إن كان على أعلى خلال الطاعة ليبين لكل ذي لب أن الفاعل لذلك هو الفاعل المختار ، فلا يزال خيره مرجواً ، وانتقامه مرهوباً مخشياً ، قال تعالى : ﴿ ووهبنا ﴾ أي بما لنا من الحكمة والعظمة ﴿ لداود سليمان ﴾ فجاء عديم النظير في ذلك الزمان ديناً ودنياً وعلماً وحكمة وحلماً وعظمة ورحمة ، ولذلك نبه على أمثال هذه المعاني باستئناف الإخبار عما حرك النفس إلى السؤال عنها من إسناد الهبة إلى نون العظمة فقال : ﴿ نعم العبد ﴾ ولما كان السياق لسرعة الانتباه من الغفلات ،

والتفضي من الهفوات ، والتوبة من الزلات ، وبيان أن الابتلاء ليس منحصراً في العقوبات ، بل قد يكون لرفعة الدرجات ، وكان هذا بعيداً من العادات ، علل مدحه مؤكداً له بقوله : ﴿ إنه أواب ﴾ أي رجاع إلى الازدياد من الاجتهاد في المبالغة في الشكر والصبر على الضر كلما علا من مقام بالاستغفار منه وعده مع ما له من الكمال مما يرغب عنه .

(81/660)

ولما كانت الخيل من أعظم ما زين للناس من حب الشهوات ، وكان السياق للعزة والشقاق الدالين على عظيم الاحتياج إلى ما يكف ذلك مما أعظمه الخيل ، ذكر فيها آمراً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، دل على أنه مع ما له من عظمة الملك كثير الأوبة عظيمها لأن من لم يكن ذلك له طبعاً لم يقدر على ما فعل فقال : ﴿ إذ ﴾ أي اذكر لتقف على شاهد ما أخبرناك به حين ﴿ عرض عليه بالعشيّ ﴾ أي فيما بعد زوال الشمس ﴿ الصافنات ﴾ أي الخيول العربية الخالصة التي لا تكاد تتمالك بجميع قوائمها الاعتماد على الأرض اختيالاً بأنفسها وقرباً من الطيران بلطافتها وهمتها وإظهاراً لقوتها ورشاقتها وخفتها ، قال في القاموس : صفن الفرس يصفن صفوناً : قام على ثلاث قوائم وطرف حافز الرابعة ، وقال القزاز : قام على ثلاث قوائم وقائمة يرفعها عن الأرض أو ينال سنبكها الأرض ليستريح بذلك ، وأكثر

ما تصفن الخيل العتاق ، قال : وقالوا : كل ذي حافز يفعله ولكنه من الجياد أكثر ، لا يكاد يكون إلا في العراب الخلص ، وقيل : الصافن الذي يجمع يديه ويثني طرف سنبك إحدى رجليه ، وقيل : الصافن الذي يرفع سنبك إحدى يديه فإذا رفع طرف سنبك إحدى رجليه فهو مخيم ، وقد أخام - إذا فعل ذلك .

ولما تحرر أنه يجوز أن يجمل الصافن على غير العتيق وإن كان قليلاً ، حقق أن المراد الوصف بالجودة واقفة وجارية فقال : ﴿ الجياد ﴾ أي التي تجود في جريها بأعظم ما تقدر عليه ، جمع جواد ، فلم تزل تعرض عليه حتى فاتته صلاة آخر النهار ، وكان المفروض على من تقدمنا ركعتين أول النهار وركعتين آخره ، فانتبه في الحال .

(82/660)

ولما كان بيان ضخامة ملكه وكثرة هيبته وعزته مع زيادة أوبته لتحصل التأسية به في حسن ائتماره وانتهائه والتسلية بابتلائه مع ذلك من شرفه وبهائه ، أشار إلى كثرة الخيل جداً وزيادة محبته له وسرعة أوبته بقوله : ﴿ فقال ﴾ ولما كان اللائق بحاله والمعروف من فعاله أنه لا يؤثر على ذكر الله شيئاً فلا يكاد أحد ممن شاهد ذلك يظن به ذلك بل يوجهون له في ذلك وجوهاً ويحملونه على محامل تليق بما يعرفونه من حال من الإقبال على الله والغنا عما

سواه ، أكد قوله تواضعاً لله تعالى ليعتقدوا أنه بشر يجوز عليه ما يجوز عليهم لولا عصمة الله : ﴿ إني ﴾ ولما كان الحب أمراً باطناً لا يظهر في شيء إلا بكثرة الاشتغال به ، وكان الاشتغال قد يكون لغير الحب فهو غير دال عليه إلا بقرائن قال اعترافاً : ﴿ أحببت ﴾ أي أوجدت وأظهرت بما ظهر مني من الاشتغال بالخيل مقروناً ذلك بأدلة الود ﴿ حب الخير ﴾ وهو المال بل خلاصة المال وسبب كل خير دنيوي وأخروي

" الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة " أظهرت ذلك بغاية الرغبة غافلاً ﴿ عن ذكر ربي ﴾ المحسن إليّ بهذه الخيل التي شغلتني وغيرها ، فلم أذكره بالصلاة التي كانت وظيفة الوقت وإن كان غرضي لها لكونه في طاعته ذكراً له .

ولم يزل ذلك بي ﴿ حتى توارت ﴾ أي الشمس المفهومة من " العشي " ﴿ بالحجاب ﴾ وهي الأرض التي حالت بيننا وبينها فصارت وراءها حقيقة .

ولما اشتد تشوف السامع إلى الفعل الذي أوجب له الوصف بأواب بعد سماع قوله في لومه نفسه ليجمع بين معرفة القول والفعل ، أجيب بقوله : ﴿ ردوها ﴾ أي قال سليمان عليه السلام : ردوا ﴿ عليّ ﴾ الخيول التي شغلتني .

(83/660)

ولما كان التقدير : فردوها عليه ، نسق به قوله : ﴿ فطفق ﴾ أي أخذ يفعل ظافراً بمراده لازماً له مصمماً عليه واصلاً له معتمداً على الله في التقوية على العدو لا على الأسباب التي من أعظمها الخيل مفارقاً ما كان سبب ذهوله عن الذكر معرضاً عما يمكن أن يتعلق به القلب متقرباً به إلى الله تعالى كما يتقرب في هذه الملة بالضحايا ﴿ مسحاً ﴾ أي يوقع المسح - أي القطع - فيها بالسيف إيقاعاً عظيماً .

ولما كان السيف إنما يقع في جزء يسير من العضوين أدخل الباء فقال : ﴿ بالسوق ﴾ أي منها ﴿ والأعناق ﴾ يضربها ضرباً بسيف ماض وساعد شديد وصنع سديد يمضي فيها من غير وقفة أصلاً حتى كأنه يمسحه مسحاً على ظاهر جلودها كما يقال : مسح علاوته ، أي ضرب عنقه - والله أعلم .

ولما ظهر بهذا ما له من ضخامة الملك وعز السلطان ، وكانت الأوبة عظيمة جداً ، وكان الثبات على مقام الشهود مع حفظه من جميع جهاته أعظم ، نبه عليه بقوله مؤكداً لما طبعت عليه النفوس من ظن أن الأواب لا ينبغي أن يواجه بالعتاب : ﴿ ولقد فتنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ سليمان ﴾ أي مع إسراعه بالرجوع إلى الله والتنبه لما فيه رضاه نوعاً من الفتنة ، الله أعلم بحقيقتها ، فأسفرت تلك الفتنة عن رسوخه في مقام الأوبة فتنبه لما أردنا بها من تدريبه على ما أقمناه فيه كما فعلنا بأبيه داود عليهما السلام فاقتد بهما في الاستبصار

بالبلاء ، فإنا نريد بك أمراً عظيماً جليلاً شريفاً كريماً ﴿ وألقينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ على كرسيه ﴾ الذي كانت تهابه أسود الفيل .

(84/660)

ولما كانت العبرة إنما هي بالمعاني ، فمن كان معناه ناقصاً كان كأنه جسد لا روح فيه ، له صورة بلا معنى ، قال : ﴿ جسداً ﴾ فغلب على ذلك المكان الشريف مع ما كنا شرفناه به من هيبة النبوة المقرونة بالملك بحيث لم يكن أحد يظن أن أحداً يقدر على أن يدنو إليه فضلاً عن أن يغلب عليه ، فمكنا هذا الجسد منه تمكيناً لا كلفة عليه فيه ، بل كان ذلك بحيث كأنه ألقى عليه بغير اختياره ليعلم أن الملك إنما هو لنا ، نفعل ما نشاء بمن نشاء ، فالسعادة لمن رجانا والويل لمن يأمن مكرنا فلا يخشانا ، فعما قليل تصير هذه البلدة في قبضتك ، وأهلها مع العزة والشقاق طوع مشيئتك ويكون لك بذلك أمر لا يكون لأحد بعدك كما أنه ما كان لأحد كان قبلك من نفوذ الأمر وضخامة العز وإحلال الساحة الحرام بقدر الحاجة وسعة الملك وبقاء الذكر ، والذي أنت فيه الآن ابتلاء واختبار وتدريب على ما يأتي من الأمور الكبار .

ولما كان المراد بإطلاق الجسد عليه التعريف بأنه لا معنى له ، لا أنه لا روح فيه ، أطلقه ولم

يتبعه ما يبين أنه جماد كما فعل في العجل حيث قال " له خوار " فبين بذلك أنه لا روح له ، وإن صح أن هذا الجسد هو صخر الجني وأن سببه سجود الجرادة امرأة سليمان عليه السلام لصورة أبيها بغير علم نبي الله سليمان عليه السلام ولا إرادته ، فالإشارة بذلك في التسلية أنا سلبنا الملك من صفينا لصورة رفع سجود بعض من ينسب إليه لها في بيته أمره ولا إرادته ولا علمه ، فكيف بمن يسجد لهذه الأوثان في البيت الحرام فعما قليل نزيل أمرهم ونخمد شرهم ونمحو ذكرهم .

ولما كانت الإنابة رجوعاً إلى ما كان ، فهي استرجاع لما فات قال : ﴿ ثم أناب ﴾ وفسر الإنابة ليعلم أنه تعالى فتنه مع أنه عبد عظيم المنزلة مجاب الدعوة بقوله جوباً لمن سأل عنها : ﴿ قال ربّ ﴾ أي أيها المحسن إلي ﴿ اغفر لي ﴾ أي الأمر الذي كانت الإنابة بسببه .

(85/660)

ولما قدم أمر الآخرة ، أتبعه قوله : ﴿ وهب لي ﴾ أي بخصوصي ﴿ ملكاً لا ينبغي ﴾ أي لا يوجد طلبه وجوداً تحصل معه المطاوعة والتسهل ﴿ لأحد ﴾ في زمان ما طال أو قصر سواء كان كاملاً في الصورة والمعنى أو جسداً خالياً عن العز كما حصلت به الفتنة من قبل ، وبعّض الزمان بذكر الجار فقال : ﴿ من بعدي ﴾ حتى أتمكن من كل ما أريد من التقرب

إليك وجهاد من عاداك ، ويكون ذلك إمارة لي على قبول توبتي ولا تحصل لي فتنة بإلقاء شيء على مكان حكمي ولا غيره وهذا يشعر بأن الفتنة كانت في الملك وكذا ذكر الإلقاء على الكرسي مضافاً إليه من غير أن ينسب إليه هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيء ، وهو مناسب لعقر الخيل الذي هو إذهاب ما به العز – والله أعلم ، وبهذا التقدير علم أنه لو ذكر الظرف من غير حرف لأوهم تقيد الدعوة بملك يستغرق الزمان الذي بعده ، ثم علل ما طلبه من الإعطاء والمنع بقوله على سبيل التأكيد إسقاطاً لما غلب على النفوس من رؤية الأسباب : ﴿ إنك أنت ﴾ أي وحدك ﴿ الوهاب ﴾ أي العظيم المواهب مع التكرار كلما أردت ، فتعطي بسبب وبغير سبب من تشاء وتمنع من تشاء .

ولما تسبب عن دعائه الإجابة ، أعلم به سبحانه بقوله : ﴿ فسخرنا ﴾ أي ذللنا بما لنا من العظمة ﴿ له الريح ﴾ لإرهاب العدو وبلوغ المقاصد عوضاً عن الخيل التي خرج عنها لأجلنا ؛ ثم بين التسخير بقوله مستأنفاً : ﴿ تجري بأمره رخاء ﴾ أي حال كونها لينة غاية اللين منقادة يدرك بها ما لا يدرك بالخيل ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ وكل من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، وهو هنا مبالغة من الرخاوة .

(86/660)

ولما كانت إصابته لما يشاء ملازمة لإرادته ، عبر بها عنها لأنها المقصود بالذات فقال : ﴿ حيث أصاب ﴾ أي أراد إصابة شيء من الأشياء ، وقد جعل الله لنبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعظم من ذلك وهو أن العدو يرعب منه إلى مسيرة شهر من جوانبه الأربعة فيه أربعة أشهر ﴿ والشياطين ﴾ أي الذين عندهم خفة الريح مع الاقتران بالروح سخرناهم له ؛ ثم نبه على منفعتهم بالإبدال منهم فقال : ﴿ كل ﴾ وعبر ببناء المبالغة في سياق الامتنان فقال : ﴿ بناء وغواص ﴾ أي عظيم في البناء صاعداً في جو السماء والغوص نازلاً في أعماق الماء ، يستخرج الدر وغيره من منافع البحر .

ولما دل على مطلق تسخيرهم ، دل على أنه قهر وغلبة كما هو شأن أيالة الملك وصولة العز فقال : ﴿ وآخرين ﴾ أي سخرناهم له من الشياطين حال كونهم ﴿ مقرنين ﴾ بأمره إلى من يشاكلهم أو مقرونة أيديهم بأرجلهم أو بأعناقهم ، وعبر به مثقلاً دون " مقرونين " مثلاً إشارة إلى شدة وثاقهم وعظيم تقرينهم .

(87/660)

ولما كانت مانعة لهم من التصرف في أنفسهم ، جعلوا كأنهم بأجمعهم فيها وإن لم يكن فيها إلا بعض أعضائهم مثل ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ [نوح : 7] فقال : ﴿ في الأصفاد ﴾

أي القيود التي يوثق بها الأسرى من حديد أو قيد أو غير ذلك ، جمع صفد – بالتحريك ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخي سليمان ﴿ هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ فرددته خاسئاً " ، وقد حكمه الله في بعض الجن ، فحمي من الذين يطعنون دار مولده ودار هجرته ، روى أحمد في مسنده بسند حسن إن شاء الله عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة ، على كل نقب منهما ملك ، فلا يدخلهما الدجال ولا الطاعون " هذا في البلدين ، وأما المدينة خاصة ففيها أحاديث عدة عن عدة من الصحابة في الصحيحين وغيرهما ، وقد عوض الله نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الشياطين التأييد بجيوش الملائكة في غزواته ، وقد كان نبينا عبداً كما اختار فلم يكن له حاجة بغير ذلك .

ولما كان ذلك ملكاً عظيماً ، نبه على عظمته بكثرته ودوامه وعظمة مؤتيه فقال مستأنفاً بتقدير : قلنا له ونحوه : ﴿ هذا ﴾ أي الأمر الكبير ﴿ عطاؤنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ؛ ثم سبب عن ذلك إطلاق التصرف الذي هو أعظم المقاصد ، فكم من مالك لشيء وهو مغلول اليد عن التصرف فيه ، فقال بادئاً بما يوجب الحب ويقبل بالقلوب دالاً

على عظمته وظهور أمره بفك الإدغام : ﴿ فامنن ﴾ أي أعط من شئت عطاء مبتدئاً من غير تسبب من المعطي : ﴿ أو أمسك ﴾ أي عمن شئت .

(88/660)

ولما كان هذا عطاء يفوت الوصف عظمه ، زاده تعظيماً بكثرته وتسهيله وسلامة العاقبة فيه فقال : ﴿ بغير ﴾ أي كائناً كل ذلك من العطاء والمن خالياً عن ﴿ حساب ﴾ لأنك لا تخشى من نقصه وربك هو المعطي والآمر ، ولا من كونه مما يسأل عنه في الآخرة لأنه قد أذن لك ، فنفي الحساب عنه يفيد شيئين الكثرة وعدم الدرك في إعطاء أو منع ، وجعله مصدراً مزيداً يفهم أنه إنما ينفي عنه حساب يعتد به لا مطلق حسب بالتخمين كما يكون في الأشياء التي تعيي الحاصر فيقرب أمرها بنوع حدس .

ولما رفع الحرج عنه في الدارين ، أثبت المزيد فقال عاطفاً على ما تقديره : هذا له في الدنيا ، مؤكداً زيادة في الطمأنية لكونه خارقاً لما حكم به من العادة في أنه كل ما زاد عن الكفاف في الدنيا كان ناقصاً للحظ في الآخرة : ﴿ وإن له ﴾ أي خاصاً به ﴿ عندنا ﴾ أي في الآخرة ﴿ لزلفى ﴾ أي قربى عظيمة ﴿ وحسن مآب ﴾ أي مرجع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 382 . 388 ﴾

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في قصة سليمان عليه السلام :

ومن الإسرائيليات ما يذكره بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ 1 .

وقد ذكر الكثير منها في تفاسيرهم ، ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والثعلبي ، والبغوي ، وغيرهم ، وذكر كل ما روى منذ لك من غير تمييز بين الصحيح والضعيف ، والغث والسمين ، السيوطي ، في "الدر المنثور" وليته إذ فعل نقد كل رواية ، وبين منزلتها من القبول والرد ، وما هو من الإسرائيليات ، وما ليس منها ، قال السيوطي في "الدر" : أخرج النسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، بسند قوي عن ابن عباس –رضي الله عنهما – قال :

أراد سليمان –عليه السلام– أ ، يدخل الخلاء2 ، فأعطى الجرادة خاتمه ، وكانت جرادة امرأته ، وكانت أحب نسائه إليه ، فجاء الشيطان في صورة سليمان ، فقال لها : هاتي

خاتمي ، فأعطته ، فلما لبسه ، دانت له الجن ، والإنس ، والشياطين ، فلما خرج سليمان -عليه السلام- من الخلاء ، قال لها : هاتي خاتمي ، فقالت : قد أعطيته سليمان ، قال : أنا سليمان ، قالت : كذبت ، لست سليمان ، فجعل لا يأتي أحدا يقول له : أنا سليمان إلا كذبه ، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة ، فلما رأى ذلك : عرف أنه من أمر الله -عز وجل- وقام الشيطان يحكم بين الناس ، فلما أراد الله تعالى أن يرد على سليمان -عليه السلام- سلطانه ألقى الله في قلول الناس إنكار ذلك الشيطان ، فأرسلوا إلى

---

1 سورة ص : 34 .

2 المرحاض .

نساء سليمان -عليه السلام- فقالوا لهن : أيكون من سليمان شيء ؟ قلن : نعم ، إنه يأتينا 1 ونحن حيض ، وما كان يأتينا قبل ذلك ! فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له : ظن أن أمره قد انقطع ، فكتبوا كتبا فليها سحر ، ومكر ، فدفنوها تحت كرسي سليمان ، ثم أثاروها 2 ، وقرأوه على الناس ، قالوا : بهذا كان يظهر سليمان على الناس ، ويغلبهم ، فأكفر الناس سليمان ، فلم يزالوا يكفرونه ، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم ، فطرحه في البحر

، فتلقته سمكة ، فأخذته ، وكان سليمان –عليه السلام– يعمل على شط البحر بالأجر ، فجاء رجل ، فاشترى سمكا ؛ فيه تلك السمكة في بطنها الخاتم ، فدعا سليمان –عليه السلام– فقال له : تحمل لي هذا السمك ، ثم انطلق إلى منزله ، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم ، فأخذها سليمان –عليه السلام– فشق بطنها ، فإذا الخاتم في جوفها ، فأخذه ، فلبسه ، فلما لبسه دانت له الإنس ، والجن ، والشياطين ، وعاد إلى حاله ، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر ، فأرسل سليمان –عليه السلام– في طلبه ، وكان شيطانا مريدا يطلبونه ولا يقدرون عليه حتى وجدوه يوما نائما ، فجاؤوا فبنوا عليه بنايا من رصاص ، فاستيقظ ، فوثب ، فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا أن دار معه الرصاص ، فأخذوه وأوثقوه : وجاءوا به إلى سليمان –عليه السلام– ، فأمر به ، فنقب له في رخام ، ثم أدخل في جوفه ، ثم سد بالنحاس ، ثم أمر به ، فطرح في البحر ، فذلك قوله : ﴿ ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا . . . ﴾ ، يعني الشيطان الذي كان تسلط عليه .

وقد روى السيوطي في "الدر" روايات أخرى ، عن ابن عباس وقتادة ، في أن هذا الشيطان كان يسمى صخرا ، وروي عن مجاهد : أن اسمه آصف ، وأن سليمان سأله : كيف تفتنون الناس ؟ ! فقال الشيطان : أرني خاتمك أخبرك ، فلما أعطاه نبذه آصف في البحر ، فساح سليمان ، وذهب ملكه ، وقعد آصف على كرسيه ، حتى كان ما كان من

أمر السمكة ، والعثور على الخاتم ، ورجوع ملك سليمان إليه .

غير أن في رواية قتادة ، ومجاهد : أن الشيطان لم يسلط على نساء سليمان ، ومنعهن الله

---

1 يباشرنا .

2 أخرجوها .

(91/660)

منه ، فلم يقربهن ، ولم يقربنه1

ونحن لا نشك في أن هذه الخرافات من أكاذيب بني إسرائيل ، وأباطيلهم ، وأن ابن عباس وغيره تلقوها عن مسلمة أهل الكتاب وليس أدل على هذا مما ذكره السيوطي في "الدر" قال : وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أربع آيات من كتاب الله لم أدر ما هي ؟ حتى سألت عنهن كعب الاحبار رضي الله عنه . . . وذكر منها وسألته عن قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ قال : الشيطان أخذ خاتم سليمان عليه السلام الذي فيه ملكه ، فقذف به في البحر ، فوقع في بطن سمكة ، فانطلق سليمان يطوف ؛ إذ تصدق عليه بتلك السمكة فاشتواها ، فأكلها ، فإذا فيها خاتمه ، فرجع إليه ملكه2 .

وكذا ذكرها مطولة جدا البغوي في تفسيره ، عن محمد ابن إسحاق عن وهب بن منبه3 .

قوة السند لا تنافي كونها إسرائيليات :

وأحب أن أؤكد هنا ما ذكرته قبل : من أن قوة السند لا تنافي كونها مما أخذه ابن عباس وغيره عن كعب الأحبار وأمثاله من مسلمة أهل الكتاب ، فثبوتها في نفسها لا ينافي كونها من إسرائيليات بني إسرائيل ، وخرافاتهم ، وافتراءتهم على الأنبياء .

سلفي من العلماء في رد هذا الغثاء :

وقد سبق إلى التنبيه إلى ذلك : الإمام القاضي عياض في "الشفا" : "ولا يصح ما نقله الإخباريون من تشبه الشيطان به ، وتسلطه على ملكه ، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه ؛ لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا ، وقد عصم الأنبياء من مثله"4 ، وكذلك الإمام الحافظ الناقد : ابن كثير في تفسيره 5 قال بعد أن ذكر الكثير منها :

---

1 الدر المنثور ج5 ص 309-311 .

2 المرجع السابق ص 310 .

3 تفسير البغوي على هامش تفسير ابن كثير ج7 ص 2091 .

4 الشفا ج2 ص 162 .

5 ج6 ص 206 ، 207 .

وهذه كلها من الإسرائيليات ، ومن أنكَرِها ما قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين ، قال : حدثنا محمد بن العلاء ، وعثمان بن أبي شيبة ، وعلي بن محمد ، قالوا : حدثنا أبو معاوية "قال" : أخبرنا الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ قال : أراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يدخل الخلاء . . . . . ثم ذكر الرواية التي ذكرناها أولا .

ثم قال : إسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قوي ، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما إن صح عنه من أهل الكتاب ، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام ، فالظاهر أنهم يكذبون عليه ، ولهذا كان في هذا السياق منكرات من أشدها ذكر النساء ، فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف : أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان ، بل عصمهن الله عز وجل منه ، تشريفا ، وتكريما لنبيه عليه السلام ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضي الله عنهم كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم ، وجماعة آخرين ، وكلها متلقاة عن أهل الكتاب ، والله سبحانه

وتعالى أعلم بالصواب .

أقول : كلها أكاذيب ، وتلفيقات ، ولكن بعض الكذبة من بني إسرائيل كان أحرص ، وأبعد غورا من البعض الآخر ، فلم يتورط فيما تورط فيه البعض ، من ذكر تسلط الشيطان على نساء داود عليه السلام وذلك حتى يكون لما لفقه ، وافتراه ، بعض القبول عند الناس ، أمام البعض الآخر ، فكان ساذجا في كذبه ، مغفلا في تلفيقه ، ، فترك آثار الجريمة بينة واضحة ، وبذلك : اشتمل ما لفقه على دليل كذبه .

ومن العجيب : أن الإمام السيوطي نبه في كتابه : "تخريج أحاديث الشفاء" : أنها إسرائيليات ، تلقاها ابن عباس عن أهل الكتاب ، وليته نبه إلى ذلك في التفسير .

نسج القصة مهلهل :

والحق : أن نسج القصة مهلهل ، عليه أثر الصنعة والاختلاق ، ويصادم العقل السليم ، والنقل الصحيح في هذا .

(93/660)

وإذا جاز للشيطان أن يتمثل برسول الله سليمان عليه السلام فأي ثقة بالشرائع تبقى بعد هذا ؟ ! وكيف يسلط الله الشيطان على نساء نبيه سليمان ، وهو أكرم على الله من ذلك

؟ !

وأي ملك أو نبوة يتوقف أمرهما على خاتم يدومان بدوامه ، ويزولان بزواله ؟ ! وما عهدنا في التاريخ البشري شيئا من ذلك .

وإذا كان خاتم سليمان عليه السلام بهذه المثابة فكيف يغفل الله شأنه في كتابه الشاهد على الكتب السماوية ولم يذكره بكلمة ؟ ! وهل غير الله سبحانه خلقة سليمان في لحظة ، حتى أنكرته أعرف الناس به ، وهي : زوجته جرادة ؟ ! !

الحق : أن نسج القصة مهلهل ، لا يصمد أمام النقد ، وأن آثار الكذب والاختلاق بادية عليها .

نسبة بعض هذه الأكاذيب إلى رسول الله :

وقد تجرأ بعض الرواة ، أو غلط ، فرفع بعض هذه الإسرائيليات إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال السيوطي في "الدر المنثور" : وأخرج الطبراني في الأوسط 1 ، وابن مردويه بسند ضعيف ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ولد لسليمان ولد ، فقال الشيطان تواريه من الموت ، قالوا : نذهب به إلى المشرق ، فقال : يصل إليه الموت ، قالوا : فإلى المغرب قال : يصل إليه الموت ، قالوا : إلى البحار ، قال : يصل إليه الموت ، قالوا : نضعه بين السماء والأرض ، قال : نعم ، ونزل عليه ملك الموت ، فقال : إني أمرت بقبض نسمة طلبتها في البحار ، وطلبتها في تخوم الأرض فلم أصبها ، فبينا أنا

قاعد أصبتها ، فقبضتها وجاء جسده ، حتى وقع على كرسي سليمان ، فهو قول الله :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ " .

وهذا الحديث موضوع على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد يكون ذلك من عمل بعض الزنادقة ، أو غلط بعض الرواة ، وقد نبه على وضعه الإمام : الحافظ أبو الفرج ابن

---

1 يعني في كتابه "المعجم الأوسط" .

(94/660)

الجوزي ، وقال : يحيى -يعني : ابن كثير- يروي عن الثقات ما ليس من حديثهم ، ولا ينسب إلى نبي الله سليمان ذلك ، ووافقه السيوطي على وضعه1 ، ولا يشك في وضع هذا إلا من يشك في عصمة الأنبياء عن مثله ، وأحرى بمثل هذا أن يكون مختلفاً على نبينا صلى الله عليه وسلم ، وعلى نبي الله : سليمان عليه السلام ، وإنما هو من إسرائيليات بني إسرائيل وأكاذيبهم .

ما هو الصحيح في تفسير الفتنة ؟ ! :

والصحيح المتعين في تفسير الفتنة هو ما جاء في الصحيحين ، واللفظ للبخاري ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

"قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه2 : قل : إن شاء الله ، فلم يقل ، ولم تحمل واحدة منهن شيئا ، إلا واحدة جاءت بولد ساقط إحدى شقيه" ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لو قالها لجاهدوا في سبيل الله أجمعين" .

فهذا هو المتعين في تفسير الآية ، وخير ما يفسر به كلام الله هو ما صح عن رسول الله ، وقد بينت بعض الروايات : أن الترك كان نسيانا ، والمراد بصاحبه : الملك كما جاء في بعضها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 270.275 ﴾

---

1 اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ج2 ص 221 .

2 يعني : قرينه من الملائكة .

فصل

قال الفخر :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) ﴾

واعلم أن هذا هو القصة الثانية وقوله : ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ فيه مباحث :

الأول : نقول المخصوص بالمدح في ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ محذوف ، فقيل هو سليمان ، وقيل داود ، والأول أولى لأنه أقرب المذكورين ، ولأنه قال بعده ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ولا يجوز أن يكون المراد هو داود ، لأن وصفه بهذا المعنى قد تقدم في الآية المتقدمة حيث قال : ﴿ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأيد إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : 17] فلو قلنا لفظ الأواب ههنا أيضاً صفة داود لزم التكرار ، ولو قلنا إنه صفة لسليمان لزم كون الابن شبيهاً لأبيه في صفات الكمال في الفضيلة ، فكان هذا أولى .

الثاني : أنه قال أولاً ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ ثم قال بعده ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ وهذه الكلمة للتعليل ، فهذا يدل على أنه إنما كان ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ لأنه كان أواباً ، فيلزم أن كل من كان كثير الرجوع إلى الله تعالى في أكثر الأوقات وفي أكثر المهمات كان موصوفاً بأنه ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ وهذا هو الحق الذي لا شبهة فيه ، لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى ، ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شيء من الخيرات إلا بإعانة الله تعالى ، ومن كان كذلك كان كثير الرجوع إلى الله تعالى فكان أواباً ، فثبت أن كل من كان أواباً وجب أن يكون ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ .

أما قوله : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ ففيه وجوه الأول : التقدير ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ هو إذ كان من أعماله أنه فعل كذا الثاني : أنه ابتداء كلام .

والتقدير اذكر يا محمد إذ عرض عليه كذا وكذا ، والعشي هو من حين العصر إلى آخر النهار عرض الخيل عليه لينظر إليها ويقف على كيفية أحوالها ، والصافنات الجياد الخيل وصفت بوصفين أولهما : الصافنات ، قال صاحب "الصحاح" : الصافن الذي يصفن قدميه ، وفي الحديث "كنا إذا صلينا خلفه فرفع رأسه من الركوع قمنا صفونا " أي قمنا صافنين أقدامنا ، وأقول على كلا التقديرين فالصفون صفة دالة على فضيلة الفرس والصفة الثانية : للخيل في هذه الآية الجياد ، قال المبرد : والجياد جمع جواد وهو الشديد الجري ، كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل ، فالمقصود وصفها بالفضيلة والكمال حالتي وقوفها وحركتها .

أما حال وقوفها فوصفها بالصفون ، وأما حال حركتها فوصفها بالجودة ، يعني أنها إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها على أحسن الأشكال ، فإذا جرت كانت سراعاً في جريها ، فإذا طلبت لحقت ، وإذا طلبت لم تلحق ، ثم قال تعالى : ﴿ فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِى ﴾ وفي تفسير هذه اللفظة وجوه الأول : أن يضمن أحببت معنى فعل يتعدى بعن ، كأنه قيل أنبت حب الخير عن ذكر ربي والثاني : أن أحببت بمعنى ألزمت ، والمعنى أني ألزمت حب الخيل عن ذكر ربي ، أي عن كتاب ربي وهو التوراة ، لأن ارتباط الخيل كما أنه في القرآن ممدوح فكذلك في التوراة ممدوح والثالث : أن الإنسان قد

يحب شيئاً لكنه يحب أن لا يحبه كالمريض الذي يشتهي ما يزيد في مرضه ، والأب الذي يحب ولده الرديء ، وأما من أحب شيئاً ، وأحب أن يحبه كان ذلك غاية المحبة فقوله أحببت حب الخير بمعنى أحببت حبي لهذه الخيل .

ثم قال : ﴿ عَن ذِكْرِ رَبِّى ﴾ بمعنى أن هذه المحبة الشديدة إنما حصلت عن ذكر الله وأمره لا عن الشهوة والهوى ، وهذا الوجه أظهر الوجوه .

(97/660)

ثم قال تعالى : ﴿ حتى تَوَارَتْ ﴾ أقول الضمير في قوله : ﴿ حتى تَوَارَتْ ﴾ ، وفي قوله : ﴿ رُدُّوهَا ﴾ يحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الشمس ، لأنه جرى ذكر ماله تعلق بها وهو العشي ويحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الصافنات ، ويحتمل أن يكون الأول متعلقاً بالشمس والثاني بالصافنات ، ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك ، فهذه احتمالات أربعة لا مزيد عليها فالأول : أن يعود الضميران معاني إلى الصافنات ، كأنه قال حتى توارت الصافنات بالحجاب ردوا الصافنات علي ، والاحتمال الثاني : أن يكون الضميران معاً عائدين إلى الشمس كأنه قال حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم لما اشتغل بالخيل فاتته صلاة العصر ، فسأل الله أن يرد

الشمس فقوله : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ إشارة إلى طلب رد الشمس ، وهذا الاحتمال عندي بعيد والذي يدل عليه وجوه الأول : أن الصافنات مذكورة تصريحاً ، والشمس غير مذكورة وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر الثاني : أنه قال : ﴿ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِى حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ وظاهر هذا اللفظ يدل على أن سليمان عليه السلام كان يقول إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي .

(98/660)

وكان يعيد هذه الكلمات إلى أن توارت بالحجاب ، فلو قلنا المراد حتى توارت الصافنات بالحجاب كان معناه أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة إلى أن غابت عن عينه وذلك مناسب ، ولو قلنا المراد حتى توارت الشمس بالحجاب كان معناه أنه كان يعيد عين هذه الكلمة من وقت العصر إلى وقت المغرب ، وهذا في غاية البعد الثالث : أنا لو حكمنا بعود الضمير في قوله حتى توارت إلى الشمس وحملنا اللفظ على أنه ترك صلاة العصر كان هذا منافياً لقوله : ﴿ أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِى ﴾ فإن تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسي الصلاة ولما ترك ذكر الله الرابع : أنه بتقدير أنه عليه السلام بقي مشغولاً بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر ؟ ، فكان ذلك

ذنباً عظيماً وجرماً قوياً ، فالأليق بهذه الحالة التضرع والبكاء والمبالغة في إظهار التوبة ، فأما أن يقول على سبيل التهور والعظمة لإله العالم ورب العالمين ، ردوها علي بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الأدب عقيب ذلك الجرم العظيم ، فهذا لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير ، فكيف يجوز إسناده إلى الرسول المطهر المكرا الخامس : أن القادر على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها علي ولا يقول ردوها علي ، فإن قالوا إنما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب فنقول قوله : ﴿ رُدُّوهَا ﴾ لفظ مشعر بأعظم أنواع الإهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم السادس : أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان ذلك مشاهداً لكل أهل الدنيا ولو كان الأمر كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وإظهاره ، وحيث لم يقل أحد ذلك علمنا فساده السابع : أنه تعالى قال : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعشى الصافنات الجياد ﴾ ثم قال : ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ وعود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى ، وأقرب المذكورين هو الصافنات الجياد ، وأما العشي فأبعدهما فكان عود ذلك الضمير إلى الصافنات أولى

، فثبت بما ذكرنا أن حمل قوله : ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ على تواري الشمس وأن حمل قوله : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ على أن المراد منه طلب أن يرد الله الشمس بعد غروبها كلام في غاية البعد عن النظم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والأعناق ﴾ أي فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقها وأعناقها ، قال الأكثرون معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها أي قطعها ، قالوا إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقرباً إلى الله تعالى ، وعندي أن هذا أيضاً بعيد ، ويدل عليه وجوه الأول : أنه لو كان معنى مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله : ﴿ وامسحوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ [المائدة : 6] قطعها ، وهذا مما لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق ، أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم ألبتة من المسح العقر والذبح الثاني : القائلون لهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة فأولها : ترك الصلاة وثانيها : أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسي الصلاة ، وقال صلى الله عليه وسلم : " حب الدنيا رأس كل خطيئة " وثالثها : أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة ألبتة ورابعها : أنه خاطب رب العالمين بقوله : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ وهذه كلمة لا يذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم

الخسيس وخامسها : أنه أتبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم

(100/660)

" نهى عن ذبح الحيوان إلا لمأكله " فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لم يدل على شيء منها : وسادسها : أن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقيب قوله : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ [ص : 17] وأن الكفار لما بلغوا في السفاهة إلى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر يا محمد على سفاهتهم واذكر عبدنا داود : وذكر قصة داود ، ثم ذكر عقبيها قصة سليمان ، وكان التقدير أنه تعالى قال لمحمد عليه السلام اصبر يا محمد على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان ، وهذا الكلام إنما يكون لائقاً لو قلنا إن سليمان عليه السلام أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة ، وصبر على طاعة الله ، وأعرض عن الشهوات واللذات ، فأما لو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام في هذا الموضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لائقاً بهذا الموضع ، فثبت أن كتاب الله تعالى ينادي على هذه الأقوال الفاسدة بالرد والإفساد والإبطال بل التفسير المطابق للحق

لألفاظ القرآن والصواب أن نقول إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أنه كذلك في دين محمد صلى الله عليه وسلم ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربي ، ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره ، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور الأول : تشريفاً لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو الثاني : أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه الثالث : أنه كان

(101/660)

أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقاً ، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات ، وأقول أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها ، وليس لهم

في إثباتها شبهة فضلاً عن حجة ، فإن قيل فالجمهور فسروا الآية بذلك الوجه ، فما قولك فيه ؟ فنقول لنا ههنا مقامان :

المقام الأول : أن ندعي أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها ، وقد ظهر والحمد لله أن الأمر كما ذكرناه ، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه .

المقام الثاني : أن يقال هب أن لفظ الآية لا يدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس ، فما قولك فيه وجوابنا أن الدلالة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية ، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالي بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم ، والله أعلم .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34)

اعلم أن هذه الآية شرح واقعة ثانية لسليمان عليه السلام واختلفوا في المراد من قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان ﴾ ولأهل الحشو والرواية فيه قول ، ولأهل العلم والتحقيق قول آخر ، أما قول أهل الحشو فذكروا فيه حكايات :

الأولى : قالوا إن سليمان بلغه خبر مدينة في البحر فخرج إليها بجنوده تحمله الريح فأخذها وقتل ملكها ، وأخذ بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجها فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبها وكانت تبكي أبداً على أبيها فأمر سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشياً مع جواريها يسجدن لها ، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله تعالى ، وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوماً ، فأتاها الشيطان ساحب البحر على صورة سليمان .

وقال يا أمينة خاتمي فتختم به وجلس على كرسي سليمان فأتى عليه الطير والجن والإنس ، وتغيرت هيئة سليمان فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته .

فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف وإذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ، ثم أخذ يخدم السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة أربعين يوماً عدد ما عبد الوثن في بيته ، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان ، فقلن ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة ، وقيل بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم

فتختم به ووقع ساجداً لله ، ورجع إليه ملكه وأخذ ذلك الشيطان وأدخله في صخرة وألقاها في البحر .

والرواية الثانية للحشوية : أن تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان وكان يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيها ، فقال له آصف إنك لمفتون بذنبك فتب إلى الله .

(103/660)

والرواية الثالثة : (لهم) قالوا : إن سليمان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس ؟ فقال أرني خاتمك أخبرك فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيه ، ثم ذكر الحكاية إلى آخرها .

إذا عرفت هذه الروايات فهؤلاء قالوا المراد من قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان ﴾ أن الله تعالى ابتلاه وقوله : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ هو جلوس ذلك الشيطان على كرسيه .

والرواية الرابعة : أنه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه وألقى على سريره شيطان عقوبة له .

واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه الأول : أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء ، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع .

(104/660)

فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال ، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية الثاني : أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد ، وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم ، ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى والثالث : كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان ؟ ولا شك أنه قبيح الرابع : لو قلنا إن سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه ، وإن لم يأذن فيه ألبتة فالذنب على تلك المرأة ، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه ؟ فأما الوجوه التي ذكرها أهل التحقيق في هذا الباب فأشياء : الأول : أن فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين إن عاش صار مسلطاً علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان ذلك فكان يربيه في السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته

إذ ألقى ذلك الولد ميتاً على كرسيه فتنبه على خطيئته في أنه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأناب الثاني : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع في حجره ، فوالذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرساناً أجمعون " فذلك قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان ﴾ الثالث : قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان ﴾ بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه ، ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ ﴾ منه ﴿ جَسَداً ﴾ وذلك لشدة المرض .

(105/660)

والعرب تقول في الضعيف إنه لحم على وضم وجسم بلا روح ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أي رجع إلى حال الصحة ، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة ألبتة إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة الرابع : أقول لا يبعد أيضاً أن يقال إنه ابتلاه الله تعالى بتلسيط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه ، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي ، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف ، وأعاد إلى ما كان عليه من القوة وطيب

القلب .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اغفر لِى ﴾ فاعلم أن الذين حملوا الكلام المتقدم على صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية ، فإنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة ، ويمكن أن يجاب عنه بأن الإنسان لا ينفك ألبتة عن ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأنهم أبداً في مقام هضم النفس ، وإظهار الذلة والخضوع ، كما قال صلى الله عليه وسلم :

" إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة " ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكاً لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم بعده طلب المملكة .

(106/660)

وأيضاً الآية تدل على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم توسل به إلى طلب المملكة ، ونوح عليه السلام هكذا فعل أيضاً لأنه تعالى حكى عنه أنه قال : ﴿ فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ

السماء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بأموال وَبَنِينَ ﴾ [نوح : 10 - 12] وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ فإن قيل قوله عليه السلام : ﴿ مُلْكاً لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ مشعر بالحسد ، والجواب عنه أن القائلين بأن الشيطان استولى على مملكته قالوا معنى قوله لا ينبغي لأحد من بعدي ، هو أن يعطيه الله ملكاً لا تقدر الشياطين أن يقوموا مقامه ألبتة ، فأما المنكرون لذلك فقد أجابوا عنه من وجوه الأول : أن الملك هو القدرة فكان المراد أقدرني على أشياء لا يقدر عليها غيري ألبتة ، ليصير اقتداري عليها معجزة تدل على صحة نبوتي ورسالتي .

(107/660)

والدليل على صحة هذا الكلام أنه تعالى قال : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ ﴾ فكون الريح جارياً بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب ، ولا شك أنه معجزة دالة على نبوته فكان قوله : ﴿ هَبْ لِى مُلْكاً لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ هو هذا المعنى لأن شرط المعجزة أن لا يقدر غيره على معارضتها ، فقوله : ﴿ لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ يعني لا يقدر أحد على معارضته والوجه الثاني : في الجواب أنه عليه السلام لما

مرض ثم عاد إلى الصحة عرف أن خيرات الدنيا صائرة إلى الغير بإرث أو بسبب آخر ، فسأل ربه ملكاً لا يمكن أن ينتقل منه إلى غيره ، وذلك الذي سأله بقوله : ﴿ مُلْكاً لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ أي ملكاً لا يمكن أن ينتقل عني إلى غيري الوجه الثالث : في الجواب أن الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة عليها ، فكأنه قال : يا إلهي أعطني مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية ، حتى أحترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابي أكمل وأفضل الوجه الرابع : من الناس من يقول إن الاحتراز عن لذات الدنيا عسر صعب ، لأن هذه اللذات حاضرة وسعادات الآخرة نسيئة ، والنقد يصعب بيعه بالنسيئة ، فقال سليمان أعطني يا رب مملكة تكون أعظم الممالك الممكنة للبشر ، حتى أني أبقى مع تلك القدرة الكاملة في غاية الاحتراز عنها ليظهر للخلق أن حصول الدنيا لا يمنع من خدمة المولى الوجه الخامس : أن من لم يقدر على الدنيا يبقى ملتفت القلب إليها فيظن أن فيها سعادات عظيمة وخيرات نافعة ، فقال سليمان يا رب العزة أعطني أعظم الممالك حتى يقف الناس على كمال حالها ، فحينئذ يظهر للعقل أنه ليس فيها فائدة وحينئذ يعرض القلب عنها ولا يلتفت إليها ، وأشتغل بالعبودية ساكن النفس غير مشغول القلب بعلائق الدنيا ، ثم قال : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ ﴾

رخاء أي رخوة لينة وهي من الرخاوة والريح إذا كانت لينة لا تزعزع ولا تمتنع عليه كانت طيبة ، فإن قيل أليس أنه تعالى قال في آية أخرى ﴿ ولسليمان الريح عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ قلنا الجواب من وجهين الأول : لا منافاة بين الآيتين فإن المراد أن تلك الريح كانت في قوة الرياح العاصفة إلا أنها لما جرت بأمره كانت لذيذة طيبة فكانت رخاء والوجه الثاني : من الجواب أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى ولا منافاة بين الأمرين وقوله تعالى : ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي قصد وأراد ، وحكى الأصمعي عن العرب أنهم يقولون أصاب الصواب فأخطأ الجواب .

وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما ، فقال أين تصيبان ؟ فقالا هذا مطلوبنا .

وبالجملة فالمقصود أنه تعالى جعل الريح مسخرة له حتى صارت تجري بأمره على وفق إرادته ، ثم قال والشياطين كل بناء وغواص ، قال صاحب "الكشاف" الشياطين عطف على الريح وكل بناء بدل من الشياطين وآخرين عطف على قوله : ﴿ كُلَّ بَنَّاءٍ ﴾ وهو بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ ، وقوله : ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ يقال قرنهم في الحبال والتشديد للكثرة ﴿ والأصفاد ﴾ الأغلال واحدها صفد والصفد العطية أيضاً ، قال النابغة :

ولم أعرض أبيت اللعن بالصفد . . فعلى هذا الصفد القيد فكل من شددته شداً وثيقاً فقد صفدته ، وكل من أعطيته عطاء جزيلاً فقد أصفدته ، وههنا بحث ، وهو أن هذه الآيات دالة على أن الشياطين لها قوة عظيمة ، وبسبب تلك القوة قدروا على بناء الأبنية القوية التي لا يقدر عليها البشر ، وقدروا على الغوص في البحار ، واحتاج سليمان عليه السلام إلى قيدهم ، ولقائل أن يقول إن هذه الشياطين إما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة ، فإن كان الأول وجب أن يراهم من كان صحيح الحاسة ، إذ لو جاز أن لا نراهم مع كثافة أجسادهم ، فليجز أن تكون بحضرتنا جبال عالية وأصوات هائلة ولا نراها ولا نسمعها ، وذلك دخول في السفسطة ، وإن كان الثاني وهو أن أجسادهم ليست كثيفة ، بل لطيفة رقيقة ، فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفاً بالقوة الشديدة ، وأيضاً لزم أن تتفرق أجسادهم وأن تتمزق بسبب الرياح القوية وأن يموتوا في الحال ، وذلك يمنع من وصفهم ببناء الأبنية القوية ، وأيضاً الجن والشياطين إن كانوا موصوفين بهذه القوة والشدة ، فلم لا يقتلون العلماء والزهاد في زماننا ؟ ولم لا يخربون ديار الناس ؟ مع أن المسلمين مبالغون في إظهار لعنهم وعداوتهم .

وحيث لم يحس شيء من ذلك ، علمنا أن القول بإثبات الجن والشياطين ضعيف .

واعلم أن أصحابنا يجوزون أن تكون أجسامهم كثيفة مع أنا لا نراها ، وأيضاً لا يبعد أن يقال أجسامهم لطيفة بمعنى عدم اللون ، ولكنها صلبة بمعنى أنها لا تقبل التفرق والتمزق .

وأما الجبائي فقد سلم أنها كانت كثيفة الأجسام ، وزعم أن الناس كانوا يشاهدونهم في زمن سليمان ، ثم إنه لما توفي سليمان عليه السلام ، أمات الله أولئك الجن والشياطين ، وخلق نوعاً آخر من الجن والشياطين تكون أجسامهم في غاية الرقة ، ولا يكون لهم شيء من القوة ، والموجود في زماننا من الجن والشياطين ليس إلا من هذا الجنس .

(110/660)

ثم قال تعالى : ﴿ هذا عَطَاؤُنَا فامنن أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وفيه قولان الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : أعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب ، أي ليس عليك حرج فيما أعطيت وفيما أمسكت الثاني : أن هذا في أمر الشياطين خاصة ، والمعنى هؤلاء الشياطين المسخرون عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين فحل عنه ، واحبس من شئت منهم في العمل بغير حساب .

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على سليمان في الدنيا ، أردفه بإنعامه عليه في الآخرة ، فقال :

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ وقد سبق تفسيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 177.184 ﴾

(111/660)

وقال ابن العربي :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ : بِالْعَشِيِّ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَأَنَّهُ مِنْ زَوَالِ الشَّمْسِ إلَى الْغُرُوبِ ، كَمَا أَنَّ الْغَدَاةَ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إلَى الزَّوَالِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ يَعْنِي الَّتِي وَقَفَتْ مِنْ الدَّوَابِّ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمَ ، وَذَلِكَ لِعِتْقِهَا ، فَإِذَا ثَنَى الْفَرَسُ إحْدَى رِجْلَيْهِ فَذَلِكَ عَلَامَةٌ عَلَى كَرَمِهِ ، كَمَا أَنَّهُ إذَا شَرِبَ وَلَمْ يَثْنِ سُنْبُكَهُ دَلَّ أَيْضًا عَلَى كَرَمِهِ ، وَمِنْ الْغَرِيبِ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ : ﴿ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقُومَ لَهُ الرِّجَالُ صُفُونًا يَعْنِي يُدِيمُونَ لَهُ الْقِيَامَ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ ﴾ .

وَهَذَا حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ .

وَمِنْ الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ : ﴿ مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي سُورَةِ الْحَجِّ ، وَقَدْ يُقَالُ صَفَنَ لِمُجَرَّدِ الْوُقُوفِ ، وَالْمَصْدَرُ صُفُونًا قَالَ الشَّاعِرُ : أَلِفَ الصُّفُونَ فَمَا يُزَالُ كَأَنَّهُ مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ الْجِيَادُ هِيَ الْخَيْلُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ بِرَدِيءٍ يُقَالُ لَهُ جَيِّدٌ ، وَدَابَّةٌ جَيِّدَةٌ وَجِيَادٌ مِثْلُ سَوْطٍ وَسِيَاطٍ ؛ عُرِضَتْ الْخَيْلُ عَلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَشَغَلَتْهُ عَنْ صَلَاةِ الْعَشِيِّ بِظَاهِرِ الْقَوْلَيْنِ ؛ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : هِيَ الْعَصْرُ .

(112/660)

وَقَدْ رَوَى الْمُفَسِّرُونَ حَدِيثًا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ صَلَاةُ الْوُسْطَى صَلَاةُ الْعَصْرِ ، وَهِيَ الَّتِي فَاتَتْ سُلَيْمَانَ ﴾ ، وَهُوَ حَدِيثٌ مَوْضُوعٌ .

وَقِيلَ : كَانَتْ أَلْفَ فَرَسٍ وَرِثَهَا مِنْ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ أَصَابَهَا مِنْ الْعَمَالِقَةِ ، وَكَانَ لَهُ مَيْدَانٌ مُسْتَدِيرٌ يُسَابِقُ بَيْنَهَا فِيهِ ، فَنَظَرَ فِيهَا حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ خَلْفَ الْحِجَابِ ، وَهُوَ مَا كَانَ يَحْجُبُ بَيْنَهُ

(113/660)

وَبَيْنَهَا لَا غَيْرُ مِمَّا يَدَّعِيهِ الْمُفَسِّرُونَ ، وَقِيلَ أَرَادَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ، وَغَابَتْ عَنْ عَيْنَيْهِ فِي الْمُسَابَقَةِ ؛ لِأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ ؛ وَهَذَا فَاسِدٌ بَلْ قَدْ تَقَدَّمَ عَلَيْهَا دَلِيلٌ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : (بِالْعَشِيِّ) ، كَمَا تَقُولُ : سِرْتُ بَعْدَ الْعَصْرِ حَتَّى غَابَتْ يَعْنِي الشَّمْسَ ، وَتَرَكَهَا لِدَلَالَةِ السَّامِعِ لَهَا عَلَيْهَا بِمَا ذَكَرَ مِمَّا يَرْتَبِطُ بِهَا ، وَتَعَلَّقَ بِذِكْرِهَا ؛ وَالْغَدَاةُ وَالْعَشِيُّ أَمْرٌ مُرْتَبِطٌ بِمَسِيرِ الشَّمْسِ ، فَذِكْرُهُ ذِكْرٌ لَهَا ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ لَبِيدٌ بِقَوْلِهِ : حَتَّى إذَا أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهَا الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ فَلَمَّا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ قَالَ : ﴿ إنِّي أَحْبَبْت حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ يَعْنِي الْخَيْلَ ، وَسَمَّاهَا خَيْرًا لِأَنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ الْمَالِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ بِتَسْمِيَةِ الشَّارِعِ لَهُ بِذَلِكَ ، وَقَدْ قَدَّمْنَا بَيَانَهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَلِذَلِكَ قَرَأَهَا ابْنُ مَسْعُودٍ : ﴿ إنِّي أَحْبَبْت حُبَّ الْخَيْلِ ﴾ بِالتَّصْرِيحِ بِالتَّفْسِيرِ ؛ قَالَ : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا ﴾ بِسُوقِهَا وَأَعْنَاقِهَا ، فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا مَسْحُهَا بِيَدِهِ إكْرَامًا لَهَا ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُئِيَ وَهُوَ يَمْسَحُ عَنْ فَرَسِهِ عَرَقَهُ بِرِدَائِهِ ، وَقَالَ : إنِّي عُوتِبْت اللَّيْلَةَ فِي الْخَيْلِ ﴾ .

(114/660)

وَالثَّانِي : أَنَّهُ مَسَحَ أَعْنَاقَهَا وَسُوقَهَا بِالسُّيُوفِ عَرْقَبَةً ، وَهِيَ رِوَايَةُ ابْنِ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ ، وَكَانَ فِعْلُهُ هَذَا بِهَا حِينَ كَانَ سَبَبًا لِاشْتِغَالِهِ بِهَا عَنْ الصَّلَاةِ .

فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قَتَلَهَا ، وَهِيَ خَيْلُ الْجِهَادِ ؟ قُلْنَا : رَأَى أَنْ يَذْبَحَهَا لِلْأَكْلِ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَكَلْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَسًا ﴾ .

فَكَانَ ذَلِكَ لِئَلَّا تُشْغِلَهُ مَرَّةً أُخْرَى .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ إبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ أَنَّهُ قَالَ : مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ أَمْثَالَهُ ؛ أَلَا تَرَى إلَى سُلَيْمَانَ كَيْفَ أَتْلَفَ الْخَيْلَ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ فَعَوَّضَهُ اللَّهُ مِنْهَا الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ، غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .

وَمِنْ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ وَهِمَ فَقَالَ : وَسَمَهَا بِالْكَيِّ ، وَسَبَّلَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَيْسَتْ السُّوقُ مَحَلًّا لِلْوَسْمِ بِحَالٍ .

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إنَّك أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى كَيْفَ سَأَلَ سُلَيْمَانُ الْمُلْكَ ، وَهُوَ مِنْ نَاحِيَةِ الدُّنْيَا ؟ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّمَا سَأَلَهُ لِيُقِيمَ فِيهِ الْحَقَّ ، وَيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ يُوسُفُ : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى

خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

كَمَا تَقَدَّمَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ .

(115/660)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : كَيْفَ مَنَعَ مِنْ أَنْ يَنَالَهُ غَيْرُهُ ؟ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : فِيهِ أَجْوِبَةٌ سَبْعَةٌ : الْأَوَّلُ إنَّمَا سَأَلَ أَنْ يَكُونَ مُعْجِزَةً لَهُ فِي قَوْمِهِ وَآيَةً فِي الدَّلَالَةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ .

الثَّانِي : أَنَّ مَعْنَاهُ لَا تَسْلُبْهُ عَنِّي .

الثَّالِثُ : لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَسْأَلَ الْمُلْكَ ، بَلْ يَكِلُ أَمْرَهُ إلَى اللَّهِ .

الرَّابِعُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي مِنْ الْمُلُوكِ ، وَلَمْ يُرِدْ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ .

الْخَامِسُ أَنَّهُ أَرَادَ الْقَنَاعَةَ .

السَّادِسُ أَنَّهُ أَرَادَ مُلْكَهُ لِنَفْسِهِ .

السَّابِعُ عَلِمَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَلَمْ يَسْأَلْهُ إيَّاهُ لِيَفْضُلَ بِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي التَّنْقِيحِ لِمَنَاطِ الْأَقْوَالِ : أَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ : إنَّهُ سَأَلَ ذَلِكَ مُعْجِزَةً فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ تَخْصِيصٌ بِفَائِدَةٍ ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُعْجِزَةِ أَنْ تَكُونَ هَكَذَا .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مَعْنَاهُ لَا تَسْلُبْهُ عَنِّي ، فَإِنَّمَا أَرَادَ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَدَّعِيَهُ

بَاطِلًا ؛ إذْ كَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ أَخَذَ خَاتَمَهُ وَجَلَسَ مَجْلِسَهُ ، وَحَكَمَ فِي الْخَلْقِ عَلَى لِسَانِهِ ، حَسْبَمَا رُوِيَ فِي كُتُبِ الْمُفَسِّرِينَ .

وَهُوَ قَوْلٌ بَاطِلٌ قَطْعًا ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَصَوَّرُ بِصُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَا يَحْكُمُونَ فِي الْخَلْقِ بِصُورَةِ الْحَقِّ ، مَكْشُوفًا إلَى النَّاسِ : بِمَرْأًى مِنْهُمْ ؛ حَتَّى يَظُنَّ النَّاسُ أَنَّهُمْ مَعَ نَبِيِّهِمْ فِي حَقٍّ ، وَهُمْ مَعَ

(116/660)

الشَّيْطَانِ فِي بَاطِلٍ ؛ وَلَوْ شَاءَ رَبُّك لَوَهَبَ مِنْ الْمَعْرِفَةِ وَالدِّينِ لِمَنْ قَالَ هَذَا الْقَوْلُ مَا يَزَعُهُ عَنْ ذِكْرِهِ ، وَيَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يُخَلِّدَهُ فِي دِيوَانٍ مِنْ بَعْدَهُ ، حَتَّى يُضِلَّ بِهِ غَيْرَهُ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّ مَعْنَاهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَسْأَلَ الْمُلْكَ فَإِنَّ ذَلِكَ إنَّمَا كَانَ يَصِحُّ لَوْ جَاءَ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ فِي سَعَةِ الِاسْتِئْنَافِ لِلْقَوْلِ وَالِابْتِدَاءِ بِالْكَلَامِ . أَمَّا وَقَدْ جَاءَ مَجِيءَ الْجُمْلَةِ الْحَالَةِ مَحَلَّ الصِّفَةِ لِمَا سَبَقَ قَبْلَهَا مِنْ الْقَوْلِ فَلَا يَجُوزُ تَفْسِيرُهُ بِهَذَا لِتَنَاقُضِ الْمَعْنَى فِيهِ وَخُرُوجِ ذَلِكَ عَنْ الْقَانُونِ الْعَرَبِيِّ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّ مَعْنَاهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي مِنْ الْمُلُوكِ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ فَهَذَا قَوْلٌ قَلِيلٌ

الْفَائِدَةِ جِدًّا ؛ إذْ قَدْ عَلِمَ قَطْعًا وَيَقِينًا هُوَ وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ مَعَهُ أَنَّ الْمُلُوكَ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إلَى ذَلِكَ ، لَا بِالسُّؤَالِ ، وَلَا مَعَ ابْتِدَاءِ الْعَطَاءِ ، وَهُوَ مَعَ مَا بَعْدَهُ أَمْثَلُ مِنْ غَيْرِهِ مِمَّا يَسْتَحِيلُ وُقُوعُهُ .

(117/660)

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ عَلِمَ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى دَرَجَةٍ مِنْ الزُّهْدِ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدٌ لَا مَلِكٌ ، فَأَرَادَ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلِمَ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَهُ لَا يُؤْتَى ذَلِكَ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا مَعَ فَضْلِهِ لَا يَسْأَلُهُ ، لِأَنَّهُ نَبِيٌّ عَبْدٌ ، وَلَيْسَ بِنَبِيٍّ مَلِكٍ ، فَحِينَئِذٍ أَقْدَمَ عَلَى السُّؤَالِ ، وَهُوَ قَوْلٌ مُتَمَاثِلٌ وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى أَذِنَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ يُعْطِيهِ بِسُؤَالِهِ ، كَمَا غَفَرَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرْطِ اسْتِغْفَارِهِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ عِفْرِيتًا تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي ، فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ ، وَأَرَدْت أَنْ أَرْبِطَهُ إلَى جَنْبِ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ ، ثُمَّ ذَكَرْت قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ .

فَأَرْسَلْته ، فَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَصْبَحَ يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ الْمَدِينَةِ ﴾ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مُرَاعَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِدُعَائِهِ ، وَأَنَّ مَعْنَاهُ لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ فِي حَيَاتِهِ وَلَا بَعْدَ مَمَاتِهِ ، وَذَلِكَ بِإِذْنٍ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى مَشْرُوعٌ ؛ إذْ لَا يَجُوزُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(118/660)

وقال ابن عطية :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) ﴾

الهبة والعطية بمعنى واحد ، فوهب الله سليمان لداود ولداً ، وأثنى تعالى عليه بأوصاف من المدح تضمنها قوله : ﴿ نعم العبد ﴾ . و﴿ أواب ﴾ ، معناه : ولفظة : ﴿ أواب ﴾ هو العامل في ﴿ إذ ﴾ ، لأن أمر الخيل مقتض أوبة عظيمة .

واختلف الناس في قصص هذه الخيل المعروضة ، فقال الجمهور : إن سليمان عليه السلام عرضت عليه آلاف من الخيل تركها أبوه له ، وقيل : ألف واحد فأجريت بين يديه عشاء ، فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها حتى فاته وقت صلاة العشاء . قال قتادة : صلاة العصر ونحوه عن علي بن أبي طالب ، فأسف لذلك ، وقال : ردوا علي الخيل . قال الحسن : فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف عقراً لما كانت سبب فوت الصلاة ، فأبدله الله

أسرع منها : الريح . وقال قوم منهم الثعلبي : كانت بالناس مجاعة ولحوم الخيل لهم حلال ، فإنما عقرها لتؤكل على وجه القربة لها ونحو الهدي عندنا ، ونحو هذا ما فعله أبو طلحة الأنصاري بحائطه إذ تصدق به لما دخل عليه الدبسي في الصلاة فشلغه .

و" الصافن " : الفرس الذي يرفع إحدى يديه ويقف على طرف سنبكه ، وقد يفعل ذلك برجله ، وهي علامة الفراهية ، وأنشد الزجاج : [الكامل]

ألف الصفون فلا يزال كأنه . . . مما يقوم على الثلاث كسيرا

(119/660)

وقال أبو عبيدة : " الصافن الذي يجمع يديه ويسويها ، وأما الذي يقف على طرف السنبك فهو المخيم . وفي مصحف ابن مسعود : " الصوافن الجياد " . و﴿ الجياد ﴾ جمع جود ، كثوب وثياب ، وسمي به لأنه يجود بجريه . وقال بعض الناس : ﴿ الخير ﴾ هنا أراد به الخيل . والعرب تسمي الخيل الخير ، وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد الخيل : أنت زيد الخير . و﴿ حبَّ ﴾ منصوب على المفعول به عند فرقة ، كأن ﴿ أحببت ﴾ بمعنى آثرت . وقالت فرقة : المفعول ب ﴿ أحببت ﴾ محذوف ، و﴿ حبَّ ﴾ نصب على المصدر ، أي أحببت هذه الخيل حب الخير ، وتكون ﴿ الخير ﴾ على

هذا التأويل غير الخيل ، وفي مصحف ابن مسعود : " حب الحيل " ، باللام . وقالت فرقة : ﴿ أحببت ﴾ معناه : سقطت إلى الأرض لذنبي ، مأخوذ من أحب البعير إذا أعيا وسقط هزالاً . و﴿ حب ﴾ على هذا مفعول من أجله . والضمير في ﴿ توارت ﴾ للشمس ، وإن كان لم يجر لها ذكر صريح ، لأن المعنى يقتضيها ، وأيضاً فذكر العشي يقتضي لها ذكراً ويتضمنها ، لأن العشي إنما هو مقدر متوهم بها . وقال بعض المفسرين في هذه الآية : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ يريد الخيل ، أي دخلت اصطبلاتها . وقال ابن عيسى والزهري : إن مسحه بالسوق والأعناق لم يكن بالسيف ، بل بيده تكريماً لها ومحبة ، ورجحه الطبري . وقال بعضهم : بل غسلاً بالماء ، وقد يقال للغسل مسح ، لأن الغسل بالأيدي يقترن به ، وهذه الأقوال عندي إنما تترتب على نحو من التفسير في هذه الآية .

(120/660)

وروي عن بعض الناس ، وذلك أنه رأى أن هذه القصة لم يكن فيها فوت صلاة ولا تضمن أمر الخيل أوبة ولا رجوعاً ، فالعامل في : ﴿ إذ عرض ﴾ فعل مضمر تقديره : اذكر إذ عرض ، وقالوا عرض على سليمان الخيل وهو في الصلاة ، فأشار إليهم ، أي في الصلاة ، فأزالوها عنه حتى أدخلوها في الاصطبلات ، فقال هو لما فرغ من صلاته : ﴿ أني أحببت حب

الخير ﴾ أي الذي عند الله في الآخرة بسبب ذكر ربي ، كأنه يقول : فشغلني ذلك عن رؤية الخيل حتى أدخلت اصطبلاتها ﴿ ردوها علي ﴾ فطفق يمسح أعناقها وسوقها محبة لها ، وذكر الثعلبي أن هذا المسح إنما كان وسماً في السوق والأعناق بوسم حبس في سبيل الله . وجمهور الناس على أنها كانت خيلاً موروثة . قال بعضهم : قتلها حتى لم يبق منها أكثر من مائة فرس ، فمن نسل تلك المائة كل ما يوجد اليوم من الخيل ، وهذا بعيد . وقالت فرقة : كانت خيلاً أخرجتها الشياطين له من البحر وكانت ذوات أجنحة . وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كانت عشرين فرساً . و﴿ طفق ﴾ معناه : دام يقتل ، كما تقول : جعل يفعل .

وقرأ جمهور الناس : " بالسوْق " بسكون الواو وهو جمع ساق . وقرأ ابن كثير وحده : " السؤق " بالهمز . قال أبو علي : وهي ضعيفة ، لكن وجهها في القياس أن الضمة لما كانت تلي الواو قدر أنها عليها فهمزت كما يفعلون بالواو المضمومة ، وهذا نظير إمالتهم ألف " مقلات " من حيث وليت الكسرة القاف ، قدروا أن القاف هي المكسورة ، ووجه همزة السوق من السماع أن إباحية النميري كان يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة ، وكان ينشد : لحب الموقدين إليَّ موسى . . . وقرأ ابن محيصن : " بالسؤوق " بهمزة بعدها الواو .

وقوله تعالى : ﴿ عن ذكر ربي ﴾ فإن ﴿ عن ﴾ على كل تأويل هنا للمجاورة من شيء إلى شيء ، وتدبره فإنه مطرد .

ثم أخبر الله تعالى عن فتنته لسليمان وامتحانه إياه لزوال ملكه ، وروي في ذلك أن سليمان عليه السلام قالت له حظية من حظاياه إن أخي له خصومة ، فأرغب أن تقضي له بكذا وكذا بشيء غير الحق ، فقال سليمان عليه السلام : أفعل ، فعاقبه الله تعالى بأن سلط على خاتمه جنياً ، وذلك أن سليمان عليه السلام كان لا يدخل الخلاء بخاتم الملك ، توقيراً لاسم الله تعالى ، فكان يضعه عند امرأة من نسائه ، ففعل ذلك يوماً ، فألقى الله شبهه على جني اسمه صخر فيما روي عن ابن عباس . وقيل غير هذا ما اختصرناه لعدم الصحة ، فجاء إلى المرأة فدفعت إليه الخاتم فاستولى على ملك سليمان ، وبقي فيه أربعين يوماً ، وطرح خاتم سليمان في البحر ، وجعل يعبث في بني إسرائيل ، وشبه سليمان عليه حتى أنكروا أفعاله ، ومكنه الله تعالى من جميع الملك .

قال مجاهد : إلا من نساء سليمان فإنه لم يكشفهن ، وكان سليمان خلال ذلك قد خرج فاراً على وجهه منكراً ، لا ينتسب لقوم إلا ضربوه ، وأدركه جوع وفاقة فمر يوماً بامرأة تغسل حوتاً فسألها منه لجوعه ، وقيل بل اشتراه فأعطته حوتين ، فجعل يفتح أجوافها ، وإذا خاتمه في جوف أحدهما ، فعاد إليه ملكه ، وتسخرت له الجن والريح من ذلك اليوم

بدعوته ، وفي صخر الجني ، فأمر سليمان به فسيق وأطبق عليه في حجارة ، وسجنه في البحر إلى يوم القيامة ، فهذه هي الفتنة التي فتن سليمان عليه السلام وامتحن بها .

واختلف الناس في الجسد الذي ألقي على كرسيه ، فقال الجمهور : هو الجني المذكور ، سماه ﴿ جسداً ﴾ لأنه كان قد تمثل في جسد سليمان وليس به .

قال القاضي أبو محمد : وهذا أصح الأقوال وأبينها معنى .

(122/660)

وقالت فرقة : بل ألقي على كرسيه جسد ابن له ميت . وقالت فرقة : بل شق الولد الذي ولد له حين أقسم ليطوفن على نسائه ولم يستثن في قسمه . وقال قوم : مرض سليمان مرضاً كالإغماء حتى صار على كرسيه كأنه بلا روح ، وهذا كله غير متصل بمعنى هذه الآية و ﴿ أناب ﴾ معناه ارعوى وانثنى وأجاب إلى طاعة ربه ، ومعنى هذا من تلك الحوبة التي وقعت الفتنة بسببها ، ثم إن سليمان عليه السلام استغفر ربه واستوهبه ملكاً .

واختلف المتأولون في معنى قوله : ﴿ لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ فقال جمهور الناس : إراد أن يفرده بين البشر لتكون خاصة له وكرامة ، وهذا هو الظاهر من قول النبي صلى الله عليه وسلم في خبر العفريت الذي عرض له في صلاته فأخذه وأراد أن يوثقه بسرية من

سواري المسجد ، قال : " ثم ذكرت قول أخي سليمان : ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ فأرسلته " ، وقال قتادة وعطاء بن أبي رباح : إنما أراد سليمان : ﴿ لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ مدة حياتي ، أي لا أسلبه ويصير إلى أحد كما صار إلى الجني . وروي في مثالب الحجاج بن يوسف أنه لما قرأ هذه الآية قال : لقد كان حسوداً ، وهذا من فسق الحجاج . وسليمان عليه السلام مقطوع بأنه إنما قصد بذلك قصداً براً جائزاً ، لأن للإنسان أن يرغب من فضل الله فيما لا يناله أحد ، لا سيما بحسب المكانة والنبوءة ، وانظر أن قول عليه السلام : ﴿ ينبغي ﴾ إنما هي لفظة محتملة ليست بقطع في أنه لا يعطي الله نحو ذلك الملك لأحد ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لو ربط الجني لم يكن ذلك نقصاً لما أوتيه سليمان ، لكن لما كان فيه بعض الشبه تركه جرياً منه عليه السلام على اختياره أبداً أيسر الأمرين وأقربهما إلى التواضع .

فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36)

قرأ الحسن وأبو رجاء : " الرياح " ، والجمهور على الإفراد .

(123/660)

وسخر الله تعالى الريح لسليمان وكان له كرسي عظيم يقال يحمل أربعة آلاف فارس ، ويقال أكثر ، وفيه الشياطين وتظله الطير ، وتأتي عليه الريح الإعصار فتقله من الأرض حتى يحصل في الهواء يتولاه الرخاء ، وهي اللينة القوية المتشابهة لا يتأتي فيها دفع مفرطة فتحمله غدوها شهر ورواحها شهر ، و ﴿ حيث أصاب ﴾ حيث أراد ، قاله وهب وغيره ، وأنشد الثعلبي : [المتقارب]

أصاب الكلام فلم يستطع . . . فأخطى الجواب لدى المفصل

ويشبه أن ﴿ أصاب ﴾ معدى : صاب يصوب ، أي حيث وجه جنوده وجعلهم يصوبون صوب السحاب والمطر . قال الزجاج معناه : قصد ، وكذلك قولك للمتكلم أصبت : معناه قصدت الحق وقوله : ﴿ كل بناء ﴾ بدل من ﴿ الشياطين ﴾ ، والمعنى : كل من بنى مصانعه للحروب . و ﴿ مقرنين ﴾ معناه : موثقين قد قرن بعضهم ببعض و ﴿ الأصفاد ﴾ القيود والأغلال .

واختلف الناس في المشار إليه بقوله : ﴿ هذا عطاؤنا ﴾ فقال قتادة : أشار إلى ما فعله بالجن ﴿ فامنن ﴾ على من شئت منهم وأطلقه من وثاقه وسرحه من خدمته ﴿ أو أمسك ﴾ أمره كما تريد وقال ابن عباس : أشار إلى ما وهبه من النساء وأقدره عليه من جماعهن . وقال الحسن بن أبي الحسن : أشار إلى جميع ما أعطاه من الملك وأمره بأن يمن على من يشاء ويمسك عمن يشاء ، فكأنه وقفه على قدر النعمة ثم أباح له التصرف فيه

بمشيئته ، وهو تعالى قد علم منه أن مشيئته عليه السلام إنما تتصرف بحكم الطاعة الله ، وهذا أصح الأقوال (وأجمعها لتفسر الآية) ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(124/660)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ وُجُوهٍ تَشْتَمِلُ عَلَى الْمَعَانِي ، وَالنَّحْوِ ، وَالْبَيَانِ ، وَالْبَدِيعِ ، وَأُصُولِ الدِّينِ ، وَالْقِرَاءَاتِ ، وَاللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ ، وَأُصُولِ الْفِقْهِ فَنَذْكُرُهَا عَلَى تَرْتِيبٍ ؛ وَنُنَبِّهُ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ فِي مَوْضِعِهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(الْأَوَّلُ) : " قَالَ " يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ " أَنَابَ " وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ جُمْلَةً مُسْتَأْنَفَةً مُفَسِّرًا لِمَا قَالَهُ حِينَ إنَابَتِهِ وَهُوَ الْأَحْسَنُ لِأَنَّ عَلَى الْأَوَّلِ فِيهِ تَجَوُّزٌ لِأَنَّ الْإِنَابَةَ غَيْرُ الْقَوْلِ حَقِيقَةً لِأَنَّ الْإِنَابَةَ مِنْ الْأَفْعَالِ ، وَهِيَ غَيْرُ الْأَقْوَالِ وَعَلَى كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ بَيْنَهُمَا كَمَالُ الِاتِّصَالِ فَلِذَلِكَ فُصِلَتْ وَلَمْ تُعْطَفْ ، وَالضَّمِيرُ فِي " قَالَ " لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(الثَّانِي) : " رَبِّ " مُنَادَى مُضَافٌ حُذِفَ مِنْهُ حَرْفُ النِّدَاءِ وَالْمُضَافُ إلَيْهَا .

فَأَمَّا حَذْفُ حَرْفِ النِّدَاءِ مِنْهُ فَجَائِزٌ بِاتِّفَاقِ النُّحَاةِ ، وَهُوَ مَنْصُوبٌ لَفْظًا بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ لَازِمِ الْإِضْمَارِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ مِنْ الْبَصْرِيِّينَ ، وَذَهَبَ الْكِسَائِيُّ وَالرِّيَاشِيُّ إلَى أَنَّهُ نَصْبُ تَفْرِقَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُفْرَدِ ، وَاخْتِيرَ النَّصْبُ لِأَنَّهُ أَخَفُّ مِنْ الْجَرِّ وَالرَّفْعِ ، وَلَمَّا لَحِقَ الْمُضَافُ مِنْ الزِّيَادَةِ اُخْتِيرَ لَهُ مَا هُوَ أَخَفُّ .

وَقَالَ إنَّ حَرَكَةَ الْمُفْرَدِ إعْرَابٌ ، وَخَالَفْنَا فِي ذَلِكَ سَائِرَ الْكُوفِيِّينَ وَالْبَصْرِيِّينَ فِي قَوْلِهِمْ إنَّ حَرَكَةَ الْمُفْرَدِ بِنَاءٌ ، وَقِيلَ النَّاصِبُ لِلْمُنَادَى حَرْفُ النِّدَاءِ نَفْسُهُ ، وَلَا فِعْلَ مُضْمَرٍ بَعْدَهُ .

وَرَدَّ بِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْهُ تَرْكِيبُ كَلَامٍ مِنْ حَرْفٍ وَاسْمٍ .

وَقَالَ الْفَارِسِيُّ النَّاصِبُ الْحَرْفُ عِوَضًا مِنْ الْفِعْلِ النَّاصِبِ فَهُوَ مُشَبَّهٌ بِالْمَفْعُولِ ، وَقِيلَ أَدَاةُ النِّدَاءِ اسْمُ فِعْلٍ .

وَرُدَّ بِأَنَّ اسْمَ الْفِعْلِ إنَّمَا جَاءَ

(125/660)

أَمْرًا وَخَبَرًا ، وَالنِّدَاءُ غَيْرُهُمَا .

وَقِيلَ النَّاصِبُ لِلْمُنَادَى ، مَعْنَوِيٌّ وَهُوَ الْقَصْدُ .

وَرُدَّ بِأَنَّ عَامِلَ النَّصْبِ لَا يَكُونُ مَعْنَوِيًّا .

وَقِيلَ إِنَّ الْمُنَادَى إِذَا كَانَ صِفَةً كَانَ النِّدَاءُ خَبَرًا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ كَانَ إِنْشَاءً .

وَهَذَا ضَعِيفٌ بَلْ هُوَ إِنْشَاءٌ مُطْلَقًا ؛ وَيَا إِيَّاكَ قِيَاسٌ ، لِأَنَّ الْمَوْضِعَ مَوْضِعُ النَّصْبِ ، وَيَا أَبَتِ شَاذٌّ ، وَقَالَ الْأَحْوَصُ الْيَرْبُوعِيُّ لِأَبِيهِ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْطُبَ فِي عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ يَا إِيَّاكَ .

وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ إِنَّ "يَا " فِي إِيَّاكَ تَنْبِيهٌ وَإِنَّ الْقِيَاسَ أَنْ لَا يُنَادَى الْمُضْمَرُ أَصْلًا لَا مَرْفُوعًا وَلَا مَنْصُوبًا ، وَشَرْطُ الْمُنَادَى الْمُضَافِ أَنْ لَا يُضَافَ إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ .

لِأَنَّ الْمُنَادَى لَا يَكُونُ إِلَّا مُخَاطَبًا .

وَمِنْ تَمَامِ كَلَامِ أَبِي حَيَّانَ أَنَّ " إِيَّاكَ " مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْفِعْلُ الَّذِي بَعْدَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ أَيْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُوا .

وَقَالَ ابْنُ عُصْفُورٍ لَا يُنَادَى الْمُضْمَرُ إِلَّا نَادِرًا وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عُصْفُورٍ أَقْرَبُ إِلَى الصِّفَةِ وَالْقِيَاسِ .

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ عِلْمِ النَّحْوِ .

(الثَّالِثُ) : وَأَمَّا حَذْفُ الْيَاءِ مِنْهُ فَذَلِكَ جَائِزٌ فِي كُلِّ مُنَادَى مُضَافٍ إِلَى يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ إِضَافَةَ تَخْصِيصٍ ، وَقَوْلُنَا إِضَافَةَ تَخْصِيصٍ احْتِرَازٌ مِنْ يَا وَأَنْتَ تُرِيدُ الْحَالَ أَوْ الِاسْتِقْبَالَ فَإِنَّ إِضَافَتَهُ إِضَافَةُ تَخْفِيفٍ وَإِنَّ فَلَا تُحْذَفُ وَلَا تُقْلَبُ الْيَاءُ وَلَا يُفْتَحُ مَا قَبْلَهَا ، وَلَيْسَ لَهَا حَظٌّ فِي غَيْرِ الْفَتْحِ وَالسُّكُونِ أَمَّا مَا كَانَتْ إِضَافَتُهُ إِضَافَةَ تَخْصِيصٍ فَفِيهِ لُغَاتٌ ،

وَأَفْصَحُهَا حَذْفُ الْيَاءِ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ " رَبِّ " .

وَثَانِيهَا : إسْكَانُهَا ، وَثَالِثُهَا : قَلْبُهَا أَلِفًا ، وَرَابِعُهَا : أَنْ يُسْتَغْنَى عَنْهَا بِفَتْحَةِ مَا قَبْلَهَا .

وَهَذَا أَجَازَهُ الْأَخْفَشُ ، وَمَنَعَهُ غَيْرُهُ فِي غَيْرِ النِّدَاءِ .

وَاحْتَجَّ مَنْ أَجَازَهُ بِقِرَاءَةِ

(126/660)

حَفْصٍ (يَا بُنَيَّ) وَخَرَّجَهُ الْفَارِسِيُّ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ يَا بُنَيْيَ ثُمَّ يَا بُنَيًّا ، ثُمَّ حُذِفَتْ الْأَلِفُ كَقِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ (يَا أَبَتَ) بِفَتْحِ التَّاءِ وَخَامِسُهَا الضَّمُّ كَقِرَاءَةِ حَفْصٍ ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ وَقِرَاءَةِ بَعْضِهِمْ ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إلَيَّ ﴾ وَأَمَّا إعْرَابُهُ فَذَهَبَ الْجُرْجَانِيُّ وَابْنُ الْخَشَّابِ وَالْمُطَرِّزِيُّ وَعَامَّةُ كَلَامِ الزَّمَخْشَرِيِّ إلَى أَنَّهُ مَبْنِيٌّ .

وَقَالَ ابْنُ جِنِّي لَا مُعْرَبٌ وَلَا مَبْنِيٌّ .

وَمَذْهَبُ الْجُمْهُورِ أَنَّهُ مُعْرَبٌ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ ؛ وَتُقَدَّرُ فِيهِ الْحَرَكَاتُ الْإِعْرَابِيَّةُ .

وَذَهَبَ ابْنُ مَالِكٍ إلَى أَنَّهُ فِي حَالَةِ الْجَرِّ الْحَرَكَةُ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَفِي حَالَةِ الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ مُقَدَّرَةٌ

.

وَقَالَ بِهِ فِي الْجَمْعِ .

وَسَبَقَهُ إِلَيْهِ فِي الْجَمْعِ ابْنُ الْحَاجِبِ ، وَهَذِهِ الْمَسَائِلُ كُلُّهَا مِنْ عِلْمِ النَّحْوِ .

(الْخَامِسُ) : وَدَعَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذَا الِاسْمِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى التَّرْبِيَةِ .

وَالْمَقَامُ مَقَامُ الِاسْتِعْطَافِ ، وَحُذِفَ مِنْهُ حَرْفُ النِّدَاءِ إِشَارَةً إِلَى كَمَالِ الْقُرْبِ .

وَهَذَا مِنْ عِلْمِ الْبَيَانِ .

(السَّادِسُ) : وَقَوْلُهُ ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ الَّذِي نَخْتَارُهُ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ مَعْصُومُونَ مِنْ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ عَمْدًا وَسَهْوًا ، وَتَقْرِيرُهُ مَذْكُورٌ فِي أُصُولِ الدِّينِ ذَلِكَ .

وَإِنَّمَا قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ جَرْيًا عَلَى عَادَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَالصَّالِحِينَ فِي تَقْدِيمِهِمْ أَمْرَ الْآخِرَةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا وَتَوَاضُعًا وَسُلُوكًا لِلْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَجَعَلَ ذَلِكَ تَوْطِئَةً وَمُقَدِّمَةً لِقَوْلِهِ ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا ﴾ وَأَنَّ هِبَةَ الْمُلْكِ لَهُ أَيْضًا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ ، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ .

(السَّابِعُ) : أَدْغَمَ أَبُو عَمْرٍو الرَّاءَ فِي اللَّامِ وَبَقِيَّةُ الْقُرَّاءِ أَظْهَرُوهَا .

وَهُوَ أَرْجَحُ عِنْدَ النُّحَاةِ

وَنَسَبُوا قِرَاءَةَ أَبِي عَمْرٍو إِلَى الشُّذُوذِ لِأَنَّ الرَّاءَ عِنْدَهُمْ لَا تُدْغَمُ فِي شَيْءٍ قَالَ سِيبَوَيْهِ وَالرَّاءُ لَا تُدْغَمُ فِي اللَّامِ وَلَا فِي النُّونِ لِأَنَّهَا مُكَرَّرَةٌ وَهِيَ تُفْشَى إِذَا كَانَ مَعَهَا غَيْرُهَا فَكَرِهُوا أَنْ يُجْحِفُوا بِهَا فَتُدْغَمُ مَعَ مَا لَيْسَ يَتَفَشَّى فِي الْفَمِ مِثْلُهَا وَلَا يُكَرَّرُ وَيُقَوِّي هَذَا أَنَّ الطَّاءَ وَهِيَ مُطْبَقَةٌ لَا تَجْعَلُ مَعَ التَّاءِ تَاءً خَالِصَةً لِأَنَّهَا أَدْخَلُ مِنْهَا بِالْإِطْبَاقِ فَهَذِهِ أَجْدَرُ أَنْ لَا تُدْغَمَ إِذْ كَانَتْ مُكَرَّرَةً .

وَذَلِكَ قَوْلُكَ اجْبُرْ لِبَطَّةٍ وَاخْتَرْ نَقْلًا وَقَالَ الْآمِدِيُّ قِرَاءَةُ أَبِي عَمْرٍو فِي "يَغْفِرْ لَكُمْ" شَاذَّةٌ .

وَقَدْ قِيلَ إِنَّهَا إِخْفَاءٌ وَلَيْسَ بِإِدْغَامٍ .

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ عِلْمِ الْقِرَاءَاتِ وَالنَّحْوِ جَمِيعًا .

(الثَّامِنُ) : قَوْلُهُ ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ قِيلَ إِنَّ سَبَبَهُ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَشَأَ فِي بَيْتِ الْمُلْكِ وَالنُّبُوَّةِ وَكَانَ وَارِثًا لَهُمَا .

فَأَرَادَ أَنْ يَطْلُبَ مِنْ رَبِّهِ مُعْجِزَةً .

فَطَلَبَ عَلَى حَسَبِ إِلْفِهِ مُلْكًا زَائِدًا عَلَى الْمَمَالِكِ زِيَادَةً خَارِقَةً لِلْعَادَةِ بَالِغَةً حَدَّ الْإِعْجَازِ

.

لِيَكُونَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى نُبُوَّتِهِ قَاهِرًا لِلْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ وَأَنْ يَكُونَ مُعْجِزَةً حَتَّى يَخْرِقَ الْعَادَةَ .

وَإِذَا عُرِفَ هَذَا عُرِفَ أَنَّهُ لِأَجْلِ الدِّينِ لَا لِأَجْلِ الدُّنْيَا .

وَقِيلَ : إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ اللَّهَ عَلِمَ فِيمَا اخْتَصَّ بِهِ مِنْ ذَلِكَ الْمُلْكِ الْعَظِيمِ مَصَالِحَ فِي الدُّنْيَا

وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَضْطَلِعُ بِأَعْبَائِهِ غَيْرُهُ ، وَاقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ اسْتِيهَابَهُ ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَسْتَوْهِبَهُ إيَّاهُ فَاسْتَوْهَبَهُ بِأَمْرٍ مِنْ اللَّهِ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَصْطَبِرُ عَلَيْهَا إلَّا هُوَ وَحْدَهُ دُونَ سَائِرِ عِبَادِهِ .

وَقِيلَ إنْ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ مُلْكًا عَظِيمًا فَعَبَّرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ ﴿ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ وَلَمْ يَقْصِدْ إلَّا عِظَمَ الْمُلْكِ

(128/660)

وَسَعَتَهُ كَمَا تَقُولُ لِفُلَانٍ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ الْفَضْلِ وَالْمَالِ وَرُبَّمَا كَانَ لِلنَّاسِ أَمْثَالُ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ تُرِيدُ تَعْظِيمَ مَا عِنْدَهُ .

قُلْت هَذَا الْقَوْلُ الثَّالِثُ يَرُدُّهُ عَلَى مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ فَذَكَرْت دَعْوَةَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴾ وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ .

(التَّاسِعُ) : (هَبْ) لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ يُقَالُ هَبْ زَيْدًا مُنْطَلِقًا ؛ بِمَعْنَى احْسِبْ .

فَهَذَا يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ إلَى مَفْعُولَيْنِ وَلَا يُسْتَعْمَلُ مِنْهُ مَاضٍ وَلَا مُسْتَقْبَلٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى ؛ وَلَيْسَ هُوَ الْمُرَادُ فِي الْآيَةِ ، وَلَا أَدْرِي هَلْ هُوَ مِنْ وَهَبَ أَوْ هَابَ فَإِنَّ الْأَزْهَرِيَّ خَلَطَ التَّرْجَمَتَيْنِ .

وَهَذَا إنْ كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى فَيَقْتَضِي أَنَّهُ اسْتُعْمِلَ مِنْهُ مَاضٍ ، وَيُقَالُ بِمَعْنَى الْهِبَةِ قَالَ اللَّهُ

تَعَالَى ﴿ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ فِي الْآيَةِ .

وَيُسْتَعْمَلُ مِنْهُ فِي الْمَاضِي " وَهَبَ " وَفِي الْمُضَارِعِ " يَهَبُ " وَفِي الْأَمْرِ " هَبْ " وَهَا هُنَا مَسْأَلَةٌ مَلِيحَةٌ ، وَهِيَ أَنَّ الْفِعْلَ الْمَاضِيَ غَيْرَ الْمَزِيدِ وَلَا الْمَبْنِيَّ لِلْمُغَالِبَةِ إذَا كَانَ مُعْتَلَّ الْفَاءِ بِالْوَاوِ .

وَقَالَ ابْنُ عُصْفُورٍ فِي فَإِنَّ الْمُضَارَعَةَ أَبَدًا عَلَى يَفْعِلُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ ، نَحْوَ وَعَدَ يَعِدُ وَيَزِنُ وَزَنَ .

وَيُحْذَفُ الْوَاوُ لِوُقُوعِهَا بَيْنَ يَاءٍ وَكَسْرَةٍ ثُمَّ يُحْمَلُ أَعَدَّ وَيُعِدُّ عَلَيْهِ وَشَذَّتْ لَفْظَةٌ وَاحِدَةٌ وَهِيَ وَجَدَ يَجِدُ فَجَاءَتْ بِضَمِّ الْعَيْنِ وَحُذِفَتْ الْوَاوُ كَمَا حُذِفَتْ مَعَ الْكَسْرَةِ قَالَ الشَّاعِرُ لَوْ شِئْت قَدْ نَقَعَ الْفُؤَادُ بِشَرْبَةٍ تَدَعُ الصَّوَادِيَ لَا يَجُدْنَ غَلِيلَا وَجَاءَ يَضَعُ وَجَعَلُوا الْفَتْحَ لِأَجْلِ حَرْفِ الْحَلْقِ فَلِمَ لَمْ يَفْتَحُوا " يَعُدُّ " لِأَجَلِ حَرْفِ الْحَلْقِ .

فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ " يَعُدُّ " " وَيَهَبُ " وَكِلَاهُمَا حَرْفُ حَلْقٍ إنْ كَانَ حَرْفُ حَلْقٍ يَقْتَضِي الْفَتْحَ فَلِمَ لَمْ يَفْتَحُوهَا .

وَإِنْ لَمْ

يَقْتَضِ فَلِمَ لَمْ يَكْسِرُوهَا وَلِمَ فَتَحُوا "يَضَعُ" وَالْمَوْهِبَةُ بِكَسْرِ الْهَاءِ الْهِبَةُ وَبِفَتْحِهَا النُّقْرَةُ فِي الصَّخْرِ ، وَالْوَهَّابُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُنْعِمُ عَلَى الْعِبَادِ .

(الْعَاشِرُ) : (الْمُلْكُ) بِضَمِّ الْمِيمِ أَبْلَغُ مِنْهُ بِكَسْرِهَا فَإِنَّهُ بِالضَّمِّ يَسْتَدْعِي الْعِزَّ وَالْقُوَّةَ وَبِالْكَسْرِ يَسْتَدْعِي الْقُدْرَةَ عَلَى نَوْعٍ مِنْ التَّصَرُّفِ فِي عَيْنٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ .

وَقَدْ يَجْتَمِعَانِ وَقَدْ يُوجَدُ أَحَدُهُمَا بِدُونِ الْآخَرِ .

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ ﴿ لَا مَلِكَ إلَّا اللَّهُ ﴾ وَنَقَلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ اسْمَ الْمَلِكِ الْحَقِيقِيِّ الْمُشَارَ إلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مُلُوكِ الدُّنْيَا .

وَسَبَبُهُ أَنَّ الْمُلْكَ الَّذِي بِيَدِ الْعِبَادِ هُوَ مِنْ مِلْكِ اللَّهِ تَعَالَى آتَاهُمْ مِنْهُ نَصِيبًا فَيُطْلَقُ الِاسْمُ عَلَيْهِمْ لِحُصُولِ ذَلِكَ الْمَعْنَى فِيهِمْ ، كَالْمَالِ فِي يَدِ الْوَكِيلِ .

فَإِطْلَاقُ اسْمِ الْمُلْكِ عَلَى الْعِبَادِ إمَّا لِحُصُولِ ذَلِكَ النَّوْعِ مِنْ الْمِلْكِ فِيهِمْ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لِلَّهِ تَعَالَى كَمَا يُطْلِقُ الْقَائِلُ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُ مَحَلُّ الْقَوْلِ ، وَإِنْ كَانَ مَخْلُوقًا لِلَّهِ فَتَكُونُ حَقِيقَةً لُغَوِيَّةً .

وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ إنَّهُ اسْتِعَارَةٌ وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ عِلْمِ الْفِقْهِ .

(الْحَادِيَ عَشَرَ) : ﴿ لَا يَنْبَغِي ﴾ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ لَا يَسْهُلُ وَلَا يَكُونُ .

كَذَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ هَذِهِ اللَّفْظَةُ فِي الْمُسْتَحِيلِ وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي الْمُمْكِنِ الَّذِي لَا يَلِيقُ كَمَا تَقُولُ مَا يَنْبَغِي لِفُلَانٍ أَنْ يَقُولَ هَذَا ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَهُ .

وَأَصْلُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ الْبَغْيِ وَالْبَغْيُ : فِي عَدْوِ الْفَرَسِ بِاخْتِيَالٍ وَمَرَحٍ ، وَأَنَّهُ يَسْعَى فِي عَدْوِهِ وَلَا يُقَالُ فَرَسٌ بَاغٍ ، وَبَغَى عَلَى أَخِيهِ حَسَدَهُ ، وَبَغَى عَلَيْهِ ظَلَمَهُ ، وَأَصْلُهُ مِنْ الْحَسَدِ لِأَنَّ

(130/660)

الْحَاسِدَ يَظْلِمُ الْمَحْسُودَ جَهْدَهُ ؛ وَبَغَى الْحَاجَةَ وَالضَّالَّةَ طَلَبَهَا وَأَبْغَيْتُهُ أَعَنْته عَلَى الظُّلْمِ ، وَبَغَتْ الْمَرْأَةُ فَجَرَتْ ، وَالْبَاغِي الَّذِي يَطْلُبُ الشَّيْءَ الضَّالَّ وَمَا ابْتَغَى لَك أَنْ تَقُولَ هَذَا . وَمَا ابْتَغَى أَيْ مَا يَنْبَغِي وَالْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ الظَّالِمَةُ الْخَارِجَةُ عَنْ طَاعَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ .

(الثَّانِي عَشَرَ) : ﴿ مِنْ بَعْدِي ﴾ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : مَعْنَاهُ مِنْ دُونِي ، وَلَا أَدْرِي مَا الَّذِي أَلْجَأَ الزَّمَخْشَرِيَّ إلَى هَذَا التَّفْسِيرِ ، فَإِنْ أَرَادَ بِدُونِ غَيْرٍ فَصَحِيحٌ ؛ وَإِنْ أَرَادَ حَقِيقَتَهَا فَيَرُدُّهُ مَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ فَيَنْبَغِي أَنْ تَبْقَى "بَعْدَ" عَلَى ظَرْفِيَّتِهَا ، وَيُرَادُ مِنْ بَعْدِ هِبَتِهِ لِي ، وَقَدْ يُقَالُ إنَّهُ كَانَ لَهُ اسْتِيلَاءٌ عَلَيْهِ .

وَقَالَ لَمَّا ذَكَرَ دَعْوَةَ أَخِيهِ سُلَيْمَانَ لَوْلَا ذَلِكَ لَأَصْبَحَ مَوْثُوقًا تَلْعَبُ بِهِ صِبْيَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، فَلَعَلَّ الْمَانِعَ لَعِبُ صِبْيَانِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَهُمْ دُونَ سُلَيْمَانَ أَمَّا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا مَانِعَ مِنْ اسْتِيلَائِهِ عَلَيْهِ .

(الثَّالِثَ عَشَرَ) : قَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَبُو عَمْرٍو (مِنْ بَعْدِي) بِتَحْرِيكِ الْيَاءِ ، وَأَسْكَنَهَا الْبَاقُونَ .

(الرَّابِعُ عَشَرَ) : قَوْلُهُ ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ تَعْلِيلٌ لِسُؤَالِ الْهِبَةِ " وَإِنْ " كَانَتْ مَكْسُورَةً فَإِنَّهَا تَقْتَضِي التَّعْلِيلَ عَلَى مَا تَقَرَّرَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ، وَاقْتِضَاءُ " أَنَّ " الْمَفْتُوحَةِ التَّعْلِيلَ بِالْوَضْعِ لِتَقْدِيرِ اللَّامِ مَعَهَا ، وَالْمَكْسُورَةُ لَيْسَتْ كَذَلِكَ ، وَلَكِنَّهَا اقْتَضَتْ التَّعْلِيلَ مِنْ جِهَةِ الْإِيمَاءِ كَمَا فِي تَرْتِيبِ الْحُكْمِ عَلَى الْوَصْفِ وَنَحْوِهِ .

هَذَا الَّذِي يَظْهَرُ لِي فِي ذَلِكَ وَالْأُصُولِيُّونَ أَطْلَقُوا كَوْنَ " أَنَّ " تُفِيدُ التَّعْلِيلَ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ مِنْ قِسْمِ الْإِيمَاءِ بَلْ مِنْ قِسْمِ النَّصِّ الظَّاهِرِ فَإِنَّهُمْ قَسَّمُوا النَّصَّ عَلَى الْعِلَّةِ قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا مَا هُوَ صَرِيحٌ ؛ كَقَوْلِهِ الْعِلَّةُ

(131/660)

كَذَا أَوْ " مِنْ أَجْلِ كَذَا " وَالثَّانِي إدْخَالُ لَفْظٍ يُفِيدُ التَّعْلِيلَ وَهُوَ اللَّامُ " وَأَنَّ " وَ " الْبَاءُ " فَأَمَّا اللَّامُ وَإِنَّ فَصَحِيحَانِ يَقْتَضِيَانِ وَضْعًا ظَاهِرًا غَيْرَ قَطْعِيٍّ لِاحْتِمَالِهِمَا مَعْنًى آخَرَ وَأَمَّا " أَنَّ " الْمَفْتُوحَةُ فَكَذَلِكَ لِتَقْدِيرِ اللَّامِ مَعَهَا وَالْمُفِيدُ فِي الْحَقِيقَةِ إنَّمَا هُوَ اللَّامُ لَا " أَنَّ " وَإِنَّ الْمَكْسُورَةُ فَإِنَّمَا وُضِعَتْ لِتَأْكِيدِ الْجُمْلَةِ الَّتِي بَعْدَهَا وَأَمَّا كَوْنُهَا عِلَّةً لِمَا قَبْلَهَا فَلَيْسَ بِالْوَضْعِ

، لَكِنَّهُ يُرْشِدُ إِلَيْهِ الْكَلَامُ ، فَهُوَ نَوْعٌ مِنْ الْإِيمَاءِ .

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أُصُولِ الْفِقْهِ .

(الْخَامِسُ عَشَرَ) : خَتَمَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذَا الثَّنَاءِ مِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ ، فَيُسْتَحَبُّ لِلدَّاعِي إذَا دَعَا بِشَيْءٍ أَنْ يَخْتِمَهُ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ مُنَاسِبَةٍ لِمَا دَعَا بِهِ .

(السَّادِسَ عَشَرَ) : قَوْلُهُ ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ﴾ التَّسْخِيرُ التَّذْلِيلُ تَسْخِيرُهَا تَذْلِيلُهَا وَتَيْسِيرُهَا وَتَهْوِينًا لَهُ .

(السَّابِعُ عَشَرَ) : قَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيَاحَ) بِالْجَمْعِ وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْإِفْرَادِ .

(الثَّامِنَ عَشَرَ) : جَاءَ فِي الْحَدِيثِ ﴿ إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إذَا هَاجَتْ الرِّيحُ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا ﴾ وَقِيلَ فِي شَرْحِهِ : إنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ لَا يُلَقِّحُ السَّحَابُ إلَّا مِنْ رِيَاحٍ مُخْتَلِفَةٍ يُرِيدُ لَفْظَ السَّحَابِ وَلَا تَجْعَلْهَا عَذَابًا وَيُحَقِّقُ ذَلِكَ مَجِيءُ الْجَمْعِ فِي آيَاتِ الرَّحْمَةِ وَالْوَاحِدُ فِي قِصَصِ الْعَذَابِ كَ ﴿ الرِّيحِ الْعَقِيمِ ﴾ وَ ﴿ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ فَيَحْتَاجُ إلَى جَوَابٍ عَنْ مَجِيئِهَا عَلَى الْإِفْرَادِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ .

وَالْجَوَابُ أَنَّ الرِّيحَ الْمُسَخَّرَةَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي طَوَاعِيَتِهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَتَسْيِيرِ جُيُوشِهِ وَحَمْلِهَا لِبِسَاطِهِ وَمَا فَوْقَهُ وَمَا

تَحْتَهُ يُنَاسِبُ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً لَا اخْتِلَافَ فِيهَا وَأَنْ تَتَّفِقَ حَرَكَتُهَا فِي السُّرْعَةِ وَالسُّهُولَةِ وَالْوُقُوفِ عِنْدَ أَمْرِ سُلَيْمَانَ وَلَا الرِّيَاحُ فِي ذَلِكَ إذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ زَرْعٌ فَكَذَلِكَ جَاءَ الْإِفْرَادُ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْقَاعِدَةَ لَمْ يُقْصَدْ بِهَا الْعُمُومُ وَإِنَّمَا أُشِيرُ إلَى مَا جَاءَ مِنْهُ لِلرَّحْمَةِ وَأُشِيرُ إلَى مَا جَاءَ مِنْهُ لِلْعَذَابِ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ التَّعْمِيمِ فِي ذَلِكَ .

(التَّاسِعَ عَشَرَ) : ﴿ تَجْرِي ﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مُسْتَأْنَفَةً تَفْسِيرَ " نا " مِنْ " سَخَّرْنَا " فَإِنْ جَعَلْنَاهَا حَالًا فَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ حَالًا مُقَدَّرَةً مِنْ جِهَةِ أَنَّ أَوَّلَ التَّسْخِيرِ كَانَ قَبْلَ جَرْيِهَا وَإِنْ كَانَ مُسْتَمِرًّا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا لِأَنَّهَا فِي مُدَّةِ جَرَيَانِهَا أَيْضًا مُسَخَّرَةٌ .

(الْعِشْرُونَ) : ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَمْرًا حَقِيقِيًّا بِقَوْلٍ وَيَكُونُ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذَا أَرَادَ جَرْيَهَا إلَى جِهَةٍ قَالَ لَهَا ذَلِكَ بِلَفْظِ الْأَمْرِ ، وَعَلَى هَذَا إمَّا أَنْ يَكُونَ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا مِنْ الْإِدْرَاكِ مَا تَفْهَمُ ذَلِكَ عَنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عِنْدَ أَمْرِهِ إيَّاهَا يُحَرِّكُهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ لَا يَكُونَ أَمْرًا حَقِيقِيًّا بَلْ مَعْنَاهُ بِإِرَادَتِهِ وَعَلَى حَسَبِ اخْتِيَارِهِ ، فَمَتَى أَرَادَ جِهَةً جَرَتْ عَلَى حَسَبِ تِلْكَ الْإِرَادَةِ ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ احْتِمَالَاتٍ .

(الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ) : عَلَى احْتِمَالِ أَنَّهُ خَاطَبَهَا بِلَفْظِ الْأَمْرِ هَلْ تَقُولُ إنَّهَا مُكَلَّفَةٌ بِذَلِكَ أَوْ

لَا ، وَعَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِهَا مُكَلَّفَةً هَلْ نَقُولُ : إنَّ اللَّهَ رَكَّبَ فِيهَا الْعَقْلَ الَّذِي هُوَ شَرْطُ التَّكْلِيفِ فِينَا أَوْ لَا ؟ وَعَلَى الثَّانِي يَلْزَمُ الْقَوْلُ بِجَوَازِ تَكْلِيفِ الْجَمَادِ ، وَعَلَى تَقْدِيرِ أَنْ لَا تَكُونَ مُكَلَّفَةً فِيهِ جَوَازُ حُسْنِ مُخَاطَبَةِ الْجَمَادِ إذَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ فَائِدَةٌ .

وَهَذِهِ الِاحْتِمَالَاتُ كُلُّهَا تَأْتِي فِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى

(133/660)

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ اسْكُنْ أُحُدُ فَمَا عَلَيْك إلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ ﴾ (الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ) ﴿ رُخَاءً ﴾ حَالٌ مِنْ الضَّمِيرِ فِي تَجْرِي فَهِيَ حَالٌ (الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ) : بَيْنَ " رُخَاءً وَتَجْرِي " نَوْعٌ مِنْ الطِّبَاقِ لِأَنَّ الْجَرْيَ يَقْتَضِي الشِّدَّةَ وَالرُّخَاءُ يَقْتَضِي اللِّينَ وَكَوْنُ هَذِهِ تَجْرِي مَعَ اللِّينِ فِي غَايَةِ أَوْصَافِ الْكَمَالِ وَلِذَلِكَ أَخَّرَ " رُخَاءً " عَنْ " تَجْرِي " وَلَوْ قَدَّمَ لَمْ يَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهَا ذَلِكَ الْوَصْفُ حَالَةَ الْجَرْيِ .

(الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ) : ﴿ أَصَابَ ﴾ مَعْنَاهُ هُنَا أَرَادَ .

حَكَى الْأَصْمَعِيُّ عَنْ الْعَرَبِ أَصَابَ الصَّوَابَ فَأَخْطَأَ الْجَوَابَ وَعَنْ رُؤْبَةَ أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ قَصَدَاهُ أَنْ يَسْأَلَاهُ عَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فَخَرَجَ إلَيْهَا فَقَالَ أَيْنَ تُصِيبَانِ ؟ فَقَالَا : هَذِهِ طَلَبَتُنَا وَرَجَعَا .

وَيُقَالُ أَصَابَ اللَّهُ بِك خَيْرًا .

(السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ) : قَوْلُهُ ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ قَالُوا فِي تَفْسِيرِهِ حَيْثُ أَصَابَ حَيْثُ قَصَدَ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ حَيْثُ انْتَهَى قَصْدُهُ مِنْ الْمَسِيرَةِ فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ إلَى حَيْثُ قَصَدَهُ لِأَنَّ ذَلِكَ نِهَايَةُ الْجَرْيِ ، وَأَمَّا مَكَانُهُ مِمَّنْ حِينَ قَصَدَ إلَيْهِ .

وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ حَيْثُ وَجَدَ الْقَصْدَ ، وَالْقَصْدُ مُسْتَمِرٌّ مِنْ أَوَّلِ الْجَرْيِ إلَى آخِرِهِ ؛ وَهُوَ أَبْلَغُ ، فَإِنَّهَا يَكُونُ جَرْيُهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ مَنُوطًا بِقَصْدِهِ مِنْ غَيْرِ دَلَالَةٍ عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي تَجْرِي فِيهِ ؛ بِخِلَافِ " حَيْثُ " فَإِنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى أَمْكِنَةِ الْجَرْيِ .

وَالْمَقْصُودُ مُخْتَلِفٌ فَفِي الْآيَةِ الْمَقْصُودُ الْأَمْكِنَةُ ، وَلَوْ قِيلَ " مَتَى " كَانَ الْمَقْصُودُ الْجَرْيَ ، وَذَلِكَ مُسْتَغْنًى عَنْهُ بِالْأَمْرِ سَوَاءٌ كَانَ الْأَمْرُ مُلَازِمًا لِلْإِرَادَةِ أَوْ لَا .

فَجَاءَتْ الْآيَةُ عَلَى أَبْلَغِ الْوُجُوهِ لِتَضَمُّنِهَا عُمُومَ الْأَمْكِنَةِ الْمَقْصُودَةِ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إلَى تَعَلُّقِ الْقَصْدِ بِالْجَرْيِ بَلْ مَتَى قَصَدَ

(134/660)

مَكَانًا جَرَتْ فِيهِ وَهُوَ أَبْلَغُ مَا يَكُونُ .

(السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ) : تَسْخِيرُ الرِّيحِ بِيَدِهِ بِقَوْلِهِ ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ وَتَسْخِيرُ الشَّيَاطِينِ

أَطْلَقَهُ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ ، بَلْ نَفْسُ تَسْخِيرِهِمْ مُعْجِزَةٌ ، لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْقُوَّةِ وَالشَّيْطَنَةِ ، فَتَذْلِيلُهُمْ خَارِقُ الْعَادَةِ .

(الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ) : ﴿ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ بَدَلٌ مِنْ الشَّيَاطِينِ ؛ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ بَدَلُ كُلٍّ ، وَبِهِ صَرَّحَ الزَّمَخْشَرِيُّ ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ بَدَلَ بَعْضٍ لَاحْتَاجَ إِلَى تَقْدِيرِ ضَمِيرٍ ، وَلَكَانَ الْمُسَخَّرُ بَعْضَ الشَّيَاطِينِ لَا كُلُّهُمْ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ كَانُوا مُسَخَّرِينَ لَهُ وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُونَ فِي الْأَعْمَالِ وَالْبِنَاءِ وَالْغَوْصِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَفْعَالِ ، فَجَعَلَ هَذَانِ الْوَصْفَانِ لِلْجَمِيعِ ؛ وَيَبْقَى فِيهِ بَحْثٌ وَهُوَ أَنَّ بَدَلَ الْكُلِّ مِنْ الْكُلِّ الثَّانِي هُوَ الْأَوَّلُ وَالْأَوَّلُ الشَّيَاطِينُ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى الْمَجْمُوعِ وَالثَّانِي مَدْلُولُهُ كُلُّ فَرْدٍ ، فَكَيْفَ يَكُونُ إِيَّاهُ ؟ (التَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ) : قَوْلُهُ ﴿ وَآخَرِينَ ﴾ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : عَطْفُ كُلٍّ دَاخِلٌ فِي حُكْمِ الْبَدَلِ وَهُوَ بَدَلُ الْكُلِّ مِنْ الْكُلِّ .

(الثَّلَاثُونَ) : ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ كَانَ يَقْرُنُ مَرَدَةَ الشَّيَاطِينِ بَعْضَهُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي الْقُيُودِ وَالسَّلَاسِلِ لِلتَّأْدِيبِ وَالْكَفِّ عَنْ الْفَسَادِ .

وَعَنْ السُّدِّيِّ كَأَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَعْنَاقِهِمْ مُغَلَّلِينَ فِي الْجَوَامِعِ وَهُوَ مَا يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْيَدِ وَيَشُدُّ .

(الْحَادِي وَالثَّلَاثُونَ) : الْأَصْفَادُ جَمْعُ صَفَدٍ وَهُوَ الْقَيْدُ وَيُسَمَّى بِهِ الْعَطَاءُ كَمَا قِيلَ وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ قَالُوا صَفَدَهُ وَأَصْفَدَهُ أَعْطَاهُ كَ وَعَدَهُ وَأَوْعَدَهُ .

(الثَّانِي وَالثَّلَاثُونَ) : الْعَطَاءُ الْعَطِيَّةُ وَهُوَ الشَّيْءُ الْمُعْطَى وَفِي تَصْوِيرِهِ حَاضِرًا وَالْإِشَارَةُ إلَيْهِ بِهَذَا وَإِضَافَتُهُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى بَنُونَ

(135/660)

الْوَاحِدِ الْمُعَظِّمِ نَفْسَهُ خِطَابًا مِنْهُ تَنْبِيهٌ عَلَى عِظَمِ هَذَا الْعَطَاءِ .

(الرَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ) : ﴿ فَامْنُنْ ﴾ قِيلَ امْنُنْ عَلَى مَنْ شِئْت مِنْ الشَّيَاطِينِ أَوْ أَمْسِكْ مَنْ شِئْت مِنْهُمْ ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّ الْمُرَادَ امْنُنْ أَيْ أَنْعِمْ وَهُوَ مِنْ الْمِنَّةِ أَيْ أَعْطِ مَنْ شِئْت مَا شِئْت أَوْ أَمْسِكْ فَوَّضَ إلَيْهِ كُلًّا مِنْ الْأَمْرَيْنِ ، وَهَذَا تَخْيِيرٌ مَحْضٌ ، وَهُوَ أَحْسَنُ فِي أَمْثِلَةِ التَّخْيِيرِ مِنْ كُلِّ مَا ذَكَرَهُ الْأُصُولِيُّونَ ، لِأَنَّ قَوْلَهُ ﴿ اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾ الْمُرَادُ بِهِ التَّسْوِيَةُ وَلَعَلَّهُ مِمَّا خَرَجَ فِيهِ اللَّفْظُ عَنْ مَعْنَى الْأَمْرِ إلَى مَعْنَى التَّهْدِيدِ ، وَقَوْلُهُ ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ أَمْرُ إبَاحَةٍ لِكُلٍّ مِنْهُمَا أَنَّ هَذَا لَيْسَ أَرْجَحَ مِنْ الْآخَرِ .

(الْخَامِسُ وَالثَّلَاثُونَ) : ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِغَيْرِ مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ ﴿ فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ عَطَاؤُنَا بِغَيْرِ حِسَابٍ .

(السَّادِسُ وَالثَّلَاثُونَ) : ذَكَرُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وُجُوهًا : أَحَدُهَا بِلَا حِسَابٍ عَلَيْك فِي ذَلِكَ وَلَا تَبِعَةٍ .

الثَّانِي بِغَيْرِ حِسَابٍ مِنَّا كَثِيرًا لَا يَكَادُ يَقْدِرُ عَلَى حَسْبِهِ وَحَصْرِهِ .

الثَّالِثُ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِك .

فَالْأَوَّلُ وَالثَّانِي مِنْ الْمُحَاسَبَةِ وَالثَّالِثُ مِنْ الْحُسْبَانِ .

(السَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ) : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ خَتَمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بِالْقُرْبِ عِنْدَهُ فِي الْآخِرَةِ وَحُسْنِ الْمَآبِ .

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا ذَلِكَ بِنَبِيِّك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا . انْتَهَى .

انتهى . اهـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 104.112 ﴾

(136/660)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العبد إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

لما ذكر داود ذكر سليمان .

و"أَوَّابٌ" معناه مطيع .

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعشي الصافنات الجياد ﴾ يعني الخيل جمع جواد للفرس إذا كان شديد الحُضر ؛ كما يقال للإنسان جواد إذا كان كثير العطية غزيرها ؛ يقال : قوم أجواد

وخيل جِياد ، جاد الرجلُ بماله يجود جُوداً فهو جواد ، وقوم جُود مثال قَذَالٍ وقُذُلٍ ، وإنما سكنت الواو لأنها حرف علة ، وأجواد وأجاوِد وجُوداء ، وكذلك امرأة جَوَاد ونسوة جُود مثل نوارٍ ونُور ، قال الشاعر :

صَناعٌ بإِشْفاها حَصانٌ بشَكْرِهَا . . .

جوادٌ بقُوتِ البَطْنِ والعِرْقُ زاخِرُ

وتقول : سِرنا عُقْبة جَوَادا ، وعُقْبتين جَوَادين ، وعُقْبا جِيادا .

وجاد الفرس أي صار رائعاً يجود جُودة (بالضم) فهو جواد للذكر والأنثى ، من خيل جِياد وأجياد وأجاويد .

وقيل : إنها الطوال الأعناق مأخوذ من الجِيد وهو العنق ؛ لأن طول الأعناق (في) الخيل من صفات فَرَاهتها .

وفي الصافنات أيضاً وجهان : أحدهما أن صفونها قيامها .

قال القتبي والفراء : الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل أو غيرها .

ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من سرّه أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوّأ مقعده من النار " أي يديمون له القيام ؛ حكاه قطرب أيضاً وأنشد قول النابغة :

لنا قُبَّةٌ مضْروبةٌ بِفِنائها . . .

عِتاقُ المَهَارى والجِياد الصَّوَافن

وهذا قول قتادة .

الثاني أن صفونها رفع إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقوم على ثلاث ؛ كما قال الشاعر :

أَلِفَ الصُّفونَ فما يَزَال كَأَنَّهُ . . .

مِمَّا يقومُ على الثَّلاَثِ كَسِيرَا

وقال عمرو بن كُلْثوم :

تَرَكْنا الخيل عاكِفَةً عَلَيْهِ . . .

مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَهَا صُفونَا

وهذا قول مجاهد .

قال الكلبي : غزا سليمان أهل دمشق ونَصِيبِين فأصاب منهم ألف فرس .

(137/660)

وقال مقاتل : ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس ، وكان أبوه أصابها من العمالقة .

وقال الحسن : بلغني أنها كانت خيلاً خرجت من البحر لها أجنحة .

وقاله الضحاك .

وأنها كانت خيلاً أخرجت لسليمان من البحر منقوشة ذات أجنحة .

ابن زيد : أخرج الشيطان لسليمان الخيل من البحر من مروج البحر ، وكانت لها أجنحة .

وكذلك قال علي رضي الله عنه : كانت عشرين فرساً ذوات أجنحة .

وقيل : كانت مائة فرس .

وفي الخبر عن إبراهيم التيمي : أنها كانت عشرين ألفاً ، فالله أعلم .

فقال : ﴿ إِنِي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ يعني بالخير الخيل ، والعرب تسميها كذلك ، وتُعاقِب بين الراء واللام ؛ فتقول : انهملت العين وانهمرت ، وختلت وخترت إذا خدعت .

قال الفراء : الخير في كلام العرب والخيل واحد .

النحاس : في الحديث : " الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة " فكأنها سمّيت خيراً لهذا .

وفي الحديث : " لما وفد زيد الخيل على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال له : "أنت زيد الخير" "

وهو زيد بن مهلهل الشاعر .

وقيل : إنما سميت خيراً لما فيها من المنافع .

وفي الخبر : إن الله تعالى عرض على آدم جميع الدواب ، وقيل له : اختر منها واحداً فاختار

الفرس ؛ فقيل له : اخترت عزك ؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه .

وسمّي خيلاً ؛ لأنها موسومة بالعز .

وسمّي فرساً لأنه يفترس مسافات الجو افتراس الأسد وثبانا ، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شيء خبطاً وتناولا .

وسمّي عربياً لأنه جيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاء عن رفع قواعد البيت ، وإسماعيل عربي فصارت له نِحْلة من الله ؛ فسمي عربياً .

و"حُبَّ" مفعول في قول الفراء .

والمعني إني آثرت حبّ الخير .

وغيره يقدره مصدراً أضيف إلى المفعول ؛ أي أحببت الخير حبًّا فألهاني عن ذكر ربي .

وقيل : إن معنى "أَحْبَبْتُ" قعدت وتأخرت من قولهم : أحَبَّ البعيرُ إذا برك وتأخر .

وأحب فلان أي طأطأ رأسه .

(138/660)

قال أبو زيد : يقال : بعير مُحِبٌّ ، وقد أحبّ إحباباً وهو أن يصيبه مرض أو كسر فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت .

وقال ثعلب : يقال أيضاً للبعير الحسير مُحِبٌّ ؛ فالمعنى قعدت عن ذكر ربي .

و"حُبَّ" على هذا مفعول له .

وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان : أحببت بمعنى لزمت ؛ من قوله :

مِثْلَ بعيرِ السَّوْءِ إذْ أَحَبَّا . . .

﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ يعني الشمس كناية عن غير مذكور ؛ مثل قوله تعالى : ﴿ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] أي على ظهر الأرض ؛ وتقول العرب : هاجت باردة أي هاجت الريح باردة .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ [الواقعة : 83] أي بلغت النفس الحلقوم .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقصر ﴾ [المرسلات : 32] ولم يتقدم للنار ذكر .

وقال الزجاج : إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء أو دليل الذكر ، وقد جرى هاهنا الدليل وهو قوله : ﴿ بالعشي ﴾ .

والعشيّ ما بعد الزوال ، والتواري الاستتار عن الأبصار ، والحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق ؛ قاله قتادة وكعب .

وقيل : هو جبل قاف .

وقيل : جبل دون قاف .

والحجاب الليل سمّي حجاباً لأنه يستر ما فيه .

وقيل : "حَتَّى تَوَارَتْ" أي الخيل في المسابقة .

وذلك أن سليمان كان له ميدان مستدير يسابق فيه بين الخيل ، حتى توارت عنه وتغيب عن عينه في المسابقة ؛ لأن الشمس لم يجر لها ذكر .

وذكر النحاس أن سليمان عليه السلام كان في صلاة ، فجيء إليه بخيل لتعرض عليه قد غُنِمت فأشار بيده ، لأنه كان يصلّي حتى توارت الخيل ، وسترتها جُدر الاصطبلات ، فلما فرغ من صلاته قال : "رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً" أي فأقبل يمسحها مسحاً .

وفي معناه قولان : أحدهما أنه أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها ، وليرى أن الجليل لا يقبح أن يفعل مثل هذا بخيله .

(139/660)

وقال قائل هذا القول : كيف يقتلها ؟ وفي ذلك إفساد المال ومعاقبة من لا ذنب له .

وقيل : المسح هاهنا هو القطع أُذِن له في قتلها .

قال الحسن والكلبي ومقاتل : صلّى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه ، وكانت ألف فرس ؛ فعرض عليه منها تسعمائة فتنبه لصلاة العصر ، فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة ، ولم يُعلَم بذلك هيبة له فاغتم ؛ فقال : "رُدُّوهَا عَلَيَّ" فردّت

فعقرها بالسيف ؛ قربة لله وبقي منها مائة ، فما في أيدي الناس من الخيل العتاق اليوم فهي من نسل تلك الخيل .

قال القشيري : وقيل : ما كان في ذلك الوقت صلاة الظهر ولا صلاة العصر ، بل كانت تلك الصلاة نافلة فشغل عنها .

وكان سليمان عليه السلام رجلاً مهيباً ، فلم يذكّره أحد ما نسي من الفرض أو النفل وظنوا التأخر مباحاً ، فتذكر سليمان تلك الصلاة الفائتة ، وقال على سبيل التلهف : "إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي" أي عن الصلاة ، وأمر برد الأفراس إليه ، وأمر بضرب عراقيبها وأعناقها ، ولم يكن ذلك معاقبة للأفراس ؛ إذ ذبح البهائم جائز إذا كانت مأكولة ، بل عاقب نفسه حتى لا تشغله الخيل بعد ذلك عن الصلاة .

ولعله عرقبها ليذبحها فحبسها بالعرقبة عن النفار ، ثم ذبحها في الحال ليتصدق بلحمها ؛ أو لأن ذلك كان مباحاً في شرعه فأتلفها لما شغلته عن ذكر الله ، حتى يقطع عن نفسه ما يشغله عن الله ، فأثنى الله عليه بهذا ، وبين أنه أثابه بأن سخر له الريح ، فكان يقطع عليها من المسافة في يوم ما يقطع مثله على الخيل في شهرين غدوّاً ورواحاً .

وقد قيل : إن الهاء في قوله : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ للشمس لا للخيل .

قال ابن عباس : سألت عليًّا عن هذه الآية فقال : ما بلغك فيها ؟ فقلت سمعت كعباً يقول : إن سليمان لما اشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمس بالحجاب وفاتته الصلاة ، قال ؛ ﴿ إِنِي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ أي آثرت ﴿ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ الآية ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ يعني الأفراس وكانت أربع عشرة ؛ فضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، وأن الله سلبه ملكه أربعة عشر يوماً ؛ لأنه ظلم الخيل .

فقال علي بن أبي طالب : كذب كعب ؛ لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت ؛ أي غربت الشمس بالحجاب ؛ فقال بأمر الله للملائكة الموكّلين بالشمس : "رُدُّوهَا" يعني الشمس فردوها حتى صلّى العصر في وقتها ، وأن أنبياء الله لا يظلمون ؛ لأنهم معصومون .

قلت : الأكثر في التفسير أن التي توارت بالحجاب هي الشمس ، وتركها لدلالة السامع عليها بما ذكر مما يرتبط بها ويتعلق بذكرها ، حسب ما تقدّم بيانه .

وكثيراً ما يضمرون الشمس ؛ قال لبيد :

حتّى إذا أَلْقَتْ يداً في كافِرٍ . . .

وأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغورِ ظلاَمُها

والهاء في "رُدُّوهَا" للخيل ، ومسحها قال الزهري وابن كيسان : كان يمسح سوقها

وأعناقها ، ويكشف الغبار عنها حُبًّا لها .

وقاله الحسن وقتادة وابن عباس .

وفي الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رؤي وهو يمسح فرسه بردائه .

وقال : " إني عوتبت الليلة في الخيل " خرّجه الموطأ عن يحيى بن سعيد مرسلاً .

وهو في غير الموطأ مسند متصل عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس .

وقد مضى في "الأنفال" قوله عليه السلام : " وامسحوا بنواصيها وأكفالها " وروى ابن وهب عن مالك أنه مسح أعناقها وسوقها بالسيوف .

قلت : وقد استدل الشبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا .

وهو استدلال فاسد ؛ لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبيّ معصوم أنه فعل الفساد .

(141/660)

والمفسرون اختلفوا في معنى الآية ؛ فمنهم من قال : مسح على أعناقها وسوقها إكراماً لها وقال : أنت في سبيل الله ؛ فهذا إصلاح .

ومنهم من قال : عرقبها ثم ذبحها ، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز .

وقد مضى في "النحل" بيانه .

وعلى هذا فما فعل شيئاً عليه فيه جناح .

فأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز .

ومن الجائز أن يكون في شريعة سليمان جواز ما فعل ، ولا يكون في شرعنا .

وقد قيل : إنما فعل بالخيل ما فعل بإباحة الله جل وعز له ذلك .

وقد قيل : إن مسحه إياها وسمُها بالكيّ وجعلها في سبيل الله ؛ فالله أعلم .

وقد ضعف هذا القول من حيث أن السّوق ليست بمحل للوسم بحال .

وقد يقال : الكيّ على الساق علاطٌ ، وعلى العنق وِثاق .

والذي في الصحاح للجوهري : عَلط البعيرَ عَلْطاً كواه في عنقه بسمة العِلاَط .

والعِلاَطان جانبا العنق .

قلت : ومن قال إن الهاء في "رُدُّوهَا" ترجع للشمس فذلك من معجزاته .

وقد اتفق مثل ذلك لنبينا صلى الله عليه وسلم .

خرّج الطحاوي في مشكل الحديث عن أسماء بنت عُمَيْس من طريقين : " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه ورأسه في حجر عليّ ، فلم يصلّ العصر حتى غربت الشمس ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أصليت يا علي" قال : لا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد

عليه الشمس "قالت أسماء : فرأيتها غربت ثم رأيتها بعد ما غربت طلعت على الجبال والأرض ، وذلك بالصَّهْباء في خيبر " قال الطحاوي : وهذان الحديثان ثابتان ، ورواتهما ثقات .

قلت : وضعَّف أبو الفرج ابن الجوزي هذا الحديث فقال : وغلوّ الرافضة في حب عليّ عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضائله ؛ منها أن الشمس غابت ففاتت عليّاً عليه السلام العصر فردّت له الشمس ، وهذا من حيث النقل محال ، ومن حيث المعنى فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدّد لا يردّ الوقت .

(142/660)

ومن قال : إن الهاء ترجع إلى الخيل ، وأنها كانت تبعد عن عين سليمان في السباق ، ففيه دليل على المسابقة بالخيل وهو أمر مشروع .

وقد مضى القول فيه في "يوسف" .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾

قيل : فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة ، وملك بعد الفتنة عشرين سنة ؛ ذكره الزمخشري .

و"فَتَنَّا" أي ابتلينا وعاقبنا .

وسبب ذلك ما رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : اختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان أحدهما من أهل جرادة امرأة سليمان ؛ وكان يحبها فهوي أن يقع القضاء لهم ، ثم قضى بينهما بالحق ، فأصابه الذي أصابه عقوبة لذلك الهوى .

وقال سعيد بن المسيّب : إن سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد ، ولا ينصف مظلوماً من ظالم ؛ فأوحى الله تعالى إليه : إني لم أستخلفك لتحتجب عن عبادي ، ولكن لتقضي بينهم وتنصف مظلومهم .

وقال شَهْر بن حَوْشَب ووهب بن منبّه : إن سليمان عليه السلام سبى بنت ملك غزاه في البحر ، في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون .

فألقيت عليه محبتها وهي تعرض عنه ، لا تنظر إليه إلا شزرا ، ولا تكلمه إلا نزرا ، وكان لا يرقأ لها دمع حزنا على أبيها ، وكانت في غاية من الجمال ، ثم إنها سألته أن يصنع لها تمثالاً على صورة أبيها حتى تنظر إليه ، فأمر فصنع لها فعظمته وسجدت له ، وسجدت معها جواريها ، وصار صنماً معبوداً في داره وهو لا يعلم ، حتى مضت أربعون ليلة ، وفشا خبره في بني إسرائيل وعلم به سليمان فكسره ، وحرقه ثم ذرّاه في البحر .

وقيل : إن سليمان لما أصاب ابنة ملك صيدون واسمها جرادة فيما ذكر الزمخشري أعجب بها ، فعرض عليها الإسلام فأبت ، فخوفها فقالت : اقتلني ولا أسلم ، فتزوّجها

وهي مشركة ، فكانت تعبد صنماً لها من ياقوت أربعين يوماً في خفية من سليمان ؛ إلى أن أسلمت فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوماً .

وقال كعب الأحبار : إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه .

(143/660)

وقال الحسن : إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره .

وقيل : إنه أُمِرَ ألاّ يتزوّج امرأة إلا من بني إسرائيل ، فتزوّج امرأة من غيرهم ، فعوقب على ذلك ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ قيل : شيطان في قول أكثر أهل التفسير ؛ ألقى الله شبه سليمان عليه السلام عليه ، واسمه صخر بن عمير صاحب البحر ، وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس ، فصوتت الحجارة لما صنعت بالحديد ، فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوت .

قال ابن عباس : كان ماردا لا يقوى عليه جميع الشياطين ، ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان بن داود ، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه ، فجاء صخر في صورة سليمان

حتى أخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان أمّ ولد له يقال لها الأمينة ؛ قاله شهر ووهب .

وقال ابن عباس وابن جبير : اسمها جرادة .

فقام أربعين يوماً على ملك سليمان وسليمان هارب ، حتى ردّ الله عليه الخاتم والمُلْك .

وقال سعيد بن المسيّب : كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه ، فأخذه الشيطان من تحته .

وقال مجاهد : أخذه الشيطان من يد سليمان ؛ لأن سليمان سأل الشيطان وكان اسمه آصف : كيف تضلون الناس ؟ فقال له الشيطان : أعطني خاتمك حتى أخبرك .

فأعطاه خاتمه ، فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسيّ سليمان ، متشبهاً بصورته ، داخلاً على نسائه ، يقضي بغير الحق ، ويأمر بغير الصواب .

واختلف في إصابته لنساء سليمان ، فحكي عن ابن عباس ووهب بن منبّه : أنه كان يأتيهنّ في حيضهنّ .

وقال مجاهد : منع من إتيانهنّ .

وزال عن سليمان ملكه فخرج هارباً إلى ساحل البحر يتضيّف الناس ؛ ويحمل سموك الصيادين بالأجر ، وإذا أخبر الناس أنه سليمان أكذبوه .

قال قتادة : ثم إن سليمان بعد أن استنكر بنو إسرائيل حكم الشيطان أخذ حوتة من صياد .

قيل : إنه استطعمها .

وقال ابن عباس : أخذها أجرة في حمل حوت .

(144/660)

وقيل : إن سليمان صادها فلما شق بطنها وجد خاتمه فيها ، وذلك بعد أربعين يوماً من زوال ملكه ، وهي عدد الأيام التي عُبِد (فيها) الصنم في داره ، وإنما وجد الخاتم في بطن الحوت ؛ لأن الشيطان الذي أخذه ألقاه في البحر .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : بينما سليمان على شاطىء البحر وهو يعبث بخاتمه ، إذ سقط منه في البحر وكان ملكه في خاتمه .

وقال جابر بن عبد الله : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "كان نقش خاتم سليمان بن داود لا إله إلا الله محمد رسول الله " وحكى يحيى بن أبي عمرو الشيباني أن سليمان وجد خاتمه بعسقلان ، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعاً لله تعالى .

قال ابن عباس وغيره : ثم إن سليمان لما ردّ الله عليه ملكه ، أخذ صخراً الذي أخذ خاتمه ، ونقر له صخرة وأدخله فيها ، وسدّ عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص ، وختم عليها بخاتمه وألقاها في البحر ؛ وقال : هذا محبسك إلى يوم القيامة .

وقال علي رضي الله عنه : لما أخذ سليمان الخاتم ، أقبلت إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح ، وهرب الشيطان الذي خلف في أهله ، فأتى جزيرة في البحر ، فبعث إليه الشياطين فقالوا : لا نقدر عليه ، ولكنه يَرِد عينا في الجزيرة في كل سبعة أيام يوماً ، ولا نقدر عليه حتى يسكر ! قال : فنزح سليمان ماءها وجعل فيها خمراً ، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر ، فقال : والله إنك لشراب طيب إلا أنك تطيشين الحليم ، وتزيدين الجاهل جهلا .

ثم عطش عطشاً شديداً ثم أتاه فقال مثل مقالته ، ثم شربها فغلبت على عقله ؛ فأرَوه الخاتم فقال : سمعاً وطاعة .

فأتوا به سليمان فأوثقه وبعث به إلى جبل ، فذكروا أنه جبل الدخان فقالوا : إن الدخان الذي ترون من نفسه ، والماء الذي يخرج من الجبل من بوله .

وقال مجاهد : اسم ذلك الشيطان آصف .

وقال السدي اسمه حبقيق ؛ فالله أعلم .

(145/660)

وقد ضعف هذا القول من حيث إن الشيطان لا يتصوّر بصورة الأنبياء ، ثم من المحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطان بسليمان حتى يظنوا أنهم مع نبيهم في حقّ ، وهم مع الشيطان في باطل .

وقيل : إن الجسد وَلَدٌ وُلِدَ لسليمان ، وأنه لما ولد اجتمعت الشياطين ؛ وقال بعضهم لبعض : إن عاش له ابن لم ننفك مما نحن فيه من البلاء والسخرة ، فتعالوا نقتل ولده أو نخبله .

فعلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته إلى السحاب ، وغدا ابنه في السحاب خوفاً من مضرة الشياطين ، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين ، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتاً .

قال معناه الشعبي .

فهو الجسد الذي قال الله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ .

وحكى النقاش وغيره : إن أكثر ما وطىء سليمان جواريه طلباً للولد ، فولد له نصف إنسان ، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه جاءت به القابلة فألقته هناك .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال سليمان لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ؛ فقال له صاحبه قل إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهنّ جميعاً فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، وايمُ الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا

في سبيل الله فرساناً أجمعون " وقيل : إن الجسد هو آصف بن برخيا الصدّيق كاتب سليمان ، وذلك أن سليمان لما فُتِن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه ، فأعاده إلى يده فسقط فأيقن بالفتنة ؛ فقال له آصف : إنك مفتون ولذلك لا يتماسك في يدك ، ففِرّ إلى الله تعالى تائباً من ذلك ، وأنا أقوم مقامك في عالمك إلى أن يتوب الله عليك ، ولك من حين فتنت أربعة عشر يوماً .

ففرّ سليمان هارباً إلى ربه ، وأخذ آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت ، وكان عنده علم من الكتاب .

(146/660)

وقام آصف في ملك سليمان وعياله ، يسير بسيره ويعمل بعمله ، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائباً إلى الله تعالى ، وردّ الله عليه ملكه ؛ فأقام آصف في مجلسه ، وجلس على كرسيه وأخذ الخاتم .

وقيل : إن الجسد كان سليمان نفسه ؛ وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً .

وقد يوصف به المريض المضنى فيقال : كالجسد الملقى .

صفة كرسيّ سليمان وملكه

روي عن ابن عباس قال : كان سليمان يوضع له ستمائة كرسيّ ، ثم يجيء أشراف الناس فيجلسون مما يليه ، ثم يأتي أشراف الجن فيجلسون مما يلي الإنس ، ثم يدعو الطير فتظلّهم ، ثم يدعو الريح فتقلّهم ، وتسير بالغداة الواحدة مسيرة شهر .

وقال وهب وكعب وغيرهما : إن سليمان عليه السلام لما مَلَك بعد أبيه ، أمر باتخاذ كرسي ليجلس عليه للقضاء ، وأمر أن يعمل بديعاً مهولاً بحيث إذا رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وتهيب ؛ فأمر أن يعمل من أنياب الفيلة مُفصَّصة بالدر والياقوت والزبرجد ، وأن يحفَّ بنخيل الذهب ؛ فحف بأربع نخلات من ذهب ، شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ، على رأس نخلتين منهما طاووسان من ذهب ، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابل لبعض ، وجعلوا من جنبي الكرسيّ أسدين من ذهب ، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر .

وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر ؛ واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر ، بحيث أظل عريش الكروم النخل والكرسي .

وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى ، فيستدير الكرسيّ كلّه بما فيه دوران الرحى المسرعة ، وتنشر تلك النُّسور والطواويس أجنحتها ، ويبسط الأسدان أيديهما ، ويضربان الأرض بأذنابهما .

وكذلك يفعل في كل درجة يصعدها سليمان ، فإذا استوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأسه ، ثم يستدير الكرسي بما فيه ، ويدور معه النسران والطاووسان والأسدان مائلان برؤوسهما إلى سليمان ، وينضحن عليه من أجوافهن المسك والعنبر ، ثم تناوله حمامة من ذهب قائمة على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسي التوراة ، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء .

قالوا : ويجلس عظماء بني إسرائيل على كراسي الذهب المفصصة بالجواهر ، وهي ألف كرسيّ عن يمينه ، ويجلس عظماء الجن على كراسي الفضة عن يساره وهي ألف كرسيّ ، ثم تحف بهم الطير تظلهم ، ويتقدّم الناس لفصل القضاء .

فإذا تقدّمت الشهود للشهادات ، دار الكرسيّ بما فيه وعليه دوران الرحى المسرعة ، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما ، وينشر النسران والطاووسان أجنحتهما ، فتفزع الشهود فلا يشهدون إلا بالحق .

وقيل : إن الذي كان يدور بذلك الكرسيّ تنّين من ذهبٍ ذلك الكرسي عليه ، وهو عظيم مما عمله له صخر الجنيّ ؛ فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأسد والطواويس التي في أسفل الكرسيّ إلى أعلاه دُرْن معه ، فإذا وقفن وقفْن كلهنّ على رأس سليمان وهو جالس

، ثم ينضحن جميعاً على رأسه ما في أجوافهنّ من المسك والعنبر .

فلما توفي سليمان بعث بُخْتَنصَّر فأخذ الكرسيّ فحمله إلى أنطاكية ، فأراد أن يصعد إليه ولم يكن له علم كيف يصعد إليه ؛ فلما وضع رجله ضرب الأسد رجله فكسرها ، وكان سليمان إذا صعد وضع قدميه جميعاً .

ومات بُخْتَنصَّر وحُمل الكرسيّ إلى بيت المقدس ، فلم يستطع قط ملك أن يجلس عليه ، ولكن لم يدر أحد عاقبة أمره ، ولعله رُفع .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أي رجع إلى الله وتاب .

وقد تقدّم .

(148/660)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اغفِرْ لِي ﴾ أي اغفر لي ذنبي ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي ﴾ يقال : كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا ، مع ذمها من الله تعالى ، وبغضه لها ، وحقارتها لديه ؟ .

فالجواب أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، وإقامة حدوده ، والمحافظة على رسومه ، وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته

، ولزوم طاعته ، ونظم قانون الحكم النافذ عليهم منه ، وتحقيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ما صرّح بذلك لملائكته فقال : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 30] وحوشي سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلباً لنفس الدنيا ؛ لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها ، وإنما سأل مملكتها لله ، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله ؛ فكانا محمودين مجابين إلى ذلك ، فأجيب نوح فأهلك من عليها ، وأعطي سليمان المملكة . وقد قيل : إن ذلك كان بأمر من الله جل وعز على الصفة التي علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عباده ، أو أراد أن يقول ملكاً عظيماً فقال : ﴿ لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي ﴾ وهذا فيه نظر .

والأوّل أصح .

ثم قال له : ﴿ هذا عَطَآؤُنَا فامنن أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال الحسن : ما من أحد إلا ولله عليه تبعة في نعمه غير سليمان بن داود عليه السلام فإنه قال : ﴿ هذا عَطَآؤُنَا ﴾ الآية .

قلت : وهذا يردّ ما روي في الخبر : إن آخر الأنبياء دخول الجنة سليمان بن داود عليه السلام لمكان ملكه في الدنيا .

وفي بعض الأخبار : يدخل الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفاً ؛ ذكره صاحب القوت وهو حديث لا أصل له ؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعة فيه لأنه من طريق المنّة ، فكيف

يكون آخر الأنبياء دخولاً الجنة ، وهو سبحانه يقول : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

(149/660)

وفي الصحيح : " لكل نبيّ دعوة مستجابة فتعجل كل نبيّ دعوته " الحديث .

وقد تقدّم فجعل له من قبل السؤال حاجة مقضية ، فلذلك لم تكن عليه تبعة .

ومعنى قوله : ﴿ لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي ﴾ أي أن يسأله .

فكأنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة .

وقيل : إن سؤاله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده ؛ ليكون محلّه وكرامته من الله ظاهراً في خلق السموات والأرض ؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لهم تنافس في المحلّ عنده ، فكل يحب أن تكون له خصوصية يستدل بها على محلّه عنده ، ولهذا : لما أخذ النبيّ صلى الله عليه وسلم العفريت الذي أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه ، أراد ربطه ثم تذكر قول أخيه سليمان : "ربِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي" فردّه خاسِئاً .

فلو أعطى أحد بعده مثله ذهبت الخصوصية ، فكأنه كره صلى الله عليه وسلم أن يزاحمه في تلك الخصوصية ، بعد أن علم أنه شيء هو الذي خُصَّ به من سخرة الشياطين ، وأنه

أجيب إلى ألا يكون لأحد بعده .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً ﴾ أي لَيِّنة مع قوّتها وشدّتها حتى لا تضرّ بأحد ، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه .

وكان موكبه فيما روي فرسخاً في فرسخ ، مائة درجة بعضها فوق بعض ، كل درجة صنف من الناس ، وهو في أعلى درجة مع جواريه وحشمه وخدمه ؛ صلوات الله وسلامه عليه .

(150/660)

وذكر أبو نعيم الحافظ قال : حدّثنا أحمد بن جعفر ، قال حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن أيوب ، قال حدّثنا أبو بكر بن عياش عن إدريس بن وهب بن منبّه ، قال حدّثني أبي قال : كان لسليمان بن داود عليه السلام ألف بيت أعلاه قوارير وأسفله حديد ، فركب الريح يوماً فمرّ بحرّاث فنظر إليه الحرّاث فقال : لقد أوتي آل داود ملكاً عظيما فحملت الريح كلامه فألقته في أذن سليمان ، قال فنزل حتى أتى الحرّاث فقال : إني سمعت قولك ، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ؛ لتسبيحةٌ واحدة

يقبلها الله منك لخيرٌ مما أوتي آل داود .

فقال الحرّاث : أذهب الله هَمَّك كما أذهبتَ هَمّي .

قوله تعالى : ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي أراد ؛ قاله مجاهد .

والعرب تقول : أصاب الصواب وأخطأ الجواب .

أي أراد الصواب وأخطأ الجواب ؛ قاله ابن الأعرابي .

وقال الشاعر :

أَصَابَ الكلامَ فلم يَستطِعْ . . .

فأَخْطأ الجوابَ لَدى المفصَلِ

وقيل : أصاب أراد بلغة حِمْير .

وقال قتادة : هو بلسان هَجَر .

وقيل : "حيْثُ أَصَابَ" حيثما قصد ، وهو مأخوذ من إصابة السهم الغرض المقصود .

﴿ والشياطين كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أي وسخرنا له الشياطين وما سُخرت لأحد قبله .

"كُلَّ بنَّاءٍ" بدل من الشياطين أي كل بناء منهم ، فهم يبنون له ما يشاء .

قال :

إلاَّ سُلَيْمَانَ إذ قال الإله لَهُ . . .

قُمْ في البرِيَّةِ فاحْدُدْهَا عنِ الفَنَدِ

وَخَيّسِ الجِنَّ إِني قَد أَذِنْتُ لَهُمْ . . .

يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعُمُدِ

"وَغَوَّاصٍ" يعني في البحر يستخرجون له الدرّ .

فسليمان أوّل من استخرج له اللؤلؤ من البحر .

﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصفاد ﴾ أي وسخرنا له مردة الشياطين حتى قرنهم في سلاسل الحديد وقيود الحديد ؛ قاله قتادة .

السدّي : الأغلال .

ابن عباس : في وثاق .

ومنه قول الشاعر :

فآبوا بالنِّهاب وبالسَّبايا . . .

(151/660)

وأُبنا بالملوك مصفدينا

قال يحيى بن سلام : ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم ، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخّرهم .

قوله تعالى : ﴿ هذا عَطَآؤُنَا ﴾ الإشارة بهذا إلى الملك ، أي هذا الملك عطاؤنا ، فأعطِ

من شئت أو امنع من شئت لا حساب عليك ؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما .

قال الحسن : ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان عليه السلام ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿ هذا عَطَآؤُنَا فامنن أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وقال قتادة : الإشارة في قوله تعالى : ﴿ هذا عَطَآؤُنَا ﴾ إلى ما أعطيه من القوّة على الجماع ، وكانت له ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية ، وكان في ظهره ماء مائة رجل ؛ رواه عكرمة عن ابن عباس .

ومعناه في البخاري .

وعلى هذا "فَامْنُنْ" من المنيِّ ؛ يقال : أَمْنى يُمنِي ومنَى يمنِي لغتان ، فإذا أمرت من أمنى قلت أَمْنِ ؛ ويقال : من منَى يَمْنِي في الأمر امن ، فإذا جئت بنون الفعل نون الخفيفة قلت امنن .

ومن ذهب به إلى المِنّة قال : مَنَّ عليه ؛ فإذا أخرجه مخرج الأمر أبرز النونين ؛ لأنه كان مضاعفاً فقال امنُنْ .

فيروى في الخبر أنه سخر له الشياطين ، فمن شاء منّ عليه بالعتق والتخلية ، ومن شاء أمسكه ؛ قاله قتادة والسّدي .

وعلى ما روى عكرمة عن ابن عباس : أي جامع من شئت من نسائك ، واترك جماع من شئت منهن لا حساب عليك .

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي إن أنعمنا عليه في الدنيا فله عندنا في الآخرة قربة وحسن مرجع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(152/660)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾

الصافن من الخيل : الذي يرفع إحدى يديه ويقف على طرف سنبكه ، وقد يفعل ذلك برجله ، وهي علامة الفراهة ، وأنشد الزجاج :

ألف الصفون فما يزال كأنه . . .

مما يقوم على الثلاث كسيرا

وقال أبو عبيدة : الصافن : الذي يجمع يديه ويسويهما ، وأما الذي يقف على طرف السنبك فهو المتخيم .

وقال القتبي : الصافن : الواقف في الخيل وغيرها .

وفي الحديث : " من سره أن يقوم الناس له صفوناً فليتبوأ مقعده من النار " ، أي يديمون له القيام ، حكاه قطرب .

وأنشد النابغة :

لناقبة مضروبة بفنائها . . .

عتاق المهارى والجياد الصوافن

وقال الفراء : على هذا رأيت العرب وأشعارهم تدل على أنه القيام خاصة .

جاد الفرس : صار رابضاً ، يجود جودة بالضم ، فهو جواد للذكر والأنثى من خيل جياد وأجواد وأجاويد .

وقيل : الطوال الأعناق من الجيد ، وهو العنق ، إذ هي من صفات فراهتها .

وقيل : الجياد جمع جود ، كثوب وثياب .

(153/660)

الرخاء : اللينة ، مشتقة من الرخا وقيا داود إن جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ، وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا

الألباب ، ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ، إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ، فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ، ردوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ، ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ، قال رب إغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ، فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد ، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

جعله تعالى داود خليفة في الأرض يدل على مكانته ، عليه السلام ، عنده واصطفائه ، ويدفع في صدر من نسب إليه شيئاً مما لا يليق بمنصب النبوّة .

واحتمل لفظ خليفة أن يكون معناه : تخلف من تقدمك من الأنبياء ، أن يعلي قدرك بجعلك ملكاً نافذ الحكم ، ومنه قيل : خلفاء الله في أرضه .

واستدل من هذه الآية على احتياج الأرض إلى خليفة من الله ، ولا يلزم ذلك من الآية ، بل لزومه من جهة الشرع والإجماع .

قال ابن عطية : ولا يقال خليفة الله إلا لرسول .

وأما الخلفاء ، فكل واحد منهم خليفة الذي قبله ، وما يجيء في الشعر من تسمية أحدهم خليفة الله فذلك تجوز ، كما قال قيس الرقيات :

خليفة الله في بريته . . .

حقت بذاك الأقلام والكتب

وقالت الصحابة لأبي بكر : خليفة رسول الله ، وبذلك كان يدعى مدته .

(154/660)

فلما ولي عمر قالوا : خليفة خليفة رسول الله ، وطال الأمر وزاد أنه في المستقبل ، فدعوه أمير المؤمنين ، وقصر هذا الاسم على الخلفاء . انتهى .

﴿ فاحكم بين الناس بالحق ﴾ : أمر بالديمومة ، وتنبيه لغيره ممن ولي أمور الناس .

فمن حيث هو معصوم لا يحكم إلا بالحق ، أمر أولاً بالحكم ؛ ولما كان الهوى قد يعرض لغير المعصوم ، أمر باجتنابه ، وذكر نتيجة اتباعه ، وهو إضلاله عن سبيل الله .

و ﴿ فيضلك ﴾ : جواب للنهي ، والفاعل في فيضلك ضمير ﴿ الهوى ﴾ ، أو ضمير المصدر المفهوم من ﴿ ولا تتبع ﴾ ، أي فيضلك اتباع الهوى .

ولما ذكر ما ترتب على اتباع الهوى ، وهو الإضلال عن سبيل الله ، ذكر عقاب الضال .

وقرأ الجمهور : ﴿ يضلون ﴾ ، بفتح الياء ، لأنهم لما أضلهم اتباع الهوى صاروا ضالين .

وقرأ ابن عباس ، والحسن : بخلاف عنهما ؛ وأبو حيوة : بضم الياء ، وهذه القراءة أعم ،

لأنه لا يضل الإضال في نفسه ؛ وقراءة الجمهور أوضح .

و﴿ بما نسوا ﴾ : متعلق بما تعلق به لهم ، ونسوا : تركوا ، و﴿ يوم ﴾ : يجوز أن يكون منصوب بنسوا ، أو بما تعلق به لهم ، ويكون النسيان عبارة عن ضلالهم عن سبيل الله .

وانتصب ﴿ باطلاً ﴾ على أنه نعت لمصدر محذوف ، أي خلق باطلاً ، أو على الحال ، أي مبطلين ، أو ذوي باطل ، أو على أنه مفعول من أجله .

معنى باطلاً : عبثاً .

﴿ ذلك ﴾ : أي كون خلقها باطلاً ، ﴿ ظن الذين كفروا ﴾ : أي مظنونهم ، وهؤلاء ، وإن كانوا مقرين بأن خالق السموات والأرض هو الله تعالى ، فهم من حيث أنكروا المعاد والثواب والعقاب ظانون أن خلق ذلك ليس بحكمة ، وأن خلق ذلك إنما هو عبث ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ فنبه على المعاد والرجوع إلى جزائه ، ثم ذكر ما بين المؤمن ، عامل الصالحات ، والمفسد من التباين ، وأنهما ليسا سيين ، وقابل الصلاح بالفساد ، والتقوى بالفجور .

قال ابن عباس : هي عامة في جميع المسلمين والكافرين .

وقيل في قوم من مشركي قريش قالوا : نحن لنا في الآخرة أعظم مما لنا في الدنيا ، فأنزل الله هذه الآية .

وقيل في جماعة من المؤمنين والكافرين معينين بارزوا يوم بدر علياً وحمزة وعبيدة بن الحرث ، رضي الله عنهم ، وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة ؛ ووصف كلاً ناسبه .

والاستفهام بأم في الموضعين استفهام إنكار ، والمعنى : أنه لا يستوي عند الله من أصلح ومن أفسد ، ولا من اتقى ومن فجر ، وكيف تكون التسوية بين من أطاع ومن عصى ؟ إذن كان يبطل الجزاء ، والجزاء لا محالة واقع ، والتسوية منتفية .

ولما انتفت التسوية ، بين ما تصلح به لمتبعه السعادة الأبدية ، وهو كتاب الله تعالى ، فقال : ﴿ كتاب أنزلناه ﴾ ، وارتفاعه على إضمار متبدأ ، أي هذا كتاب .

وقرأ الجمهور : ﴿ مبارك ﴾ ، على الصفة .

وقرىء : مباركاً ، على الحال اللازمة ، أي هذا كتاب .

وقرأ الجمهور : ﴿ ليدبروا آياته ﴾ ، بياء الغيبة وشد الدال ، وأصله ليتدبروا .

وقرأ عليّ بهذا الأصل .

وقرأ أبو جعفر : بتاء الخطاب وتخفيف الدال ؛ وجاء كذلك عن عاصم والكسائي بخلاف عنهما ، والأصل : لتتدبروا بتاءين ، فحذفت إحداهما على الخلاف الذي فيها ، أهي تاء المضارعة أم التاء التي تليها ؟ واللام في ليدبروا لام كي ، وأسند التدبر في الجميع ، وهو

التفكر في الآيات ، والتأمل الذي يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء .

وأسند التذكر إلى أولي العقول ، لأن ذا العقل فيه ما يهديه إلى الحق وهو عقله ، فلا يحتاج إلا إلى ما يذكره فيتذكر ، والمخصوص بالمدح محذوف ، التقدير : ﴿ نعم العبد ﴾ هو ، أي سليمان .

وقرىء : نعم على الأصل ، كما قال :

نعم الساعون في القوم الشطر . . .

أثنى تعالى عليه لكثرة رجوعه إليه ، أو لكثرة تسبيحه .

﴿ إذ عرض ﴾ ، الناصب لإذ ، قيل : ﴿ أواب ﴾ ، وقيل : اذكر على الاختلاف في تأويل هذه الآية .

(156/660)

قال الجمهور : عرضت عليه آلاف من الخيل تركها أبوه له ، وقيل : ألف واحد ، فأجريت بين يديه عشياً ، فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها عن ذكر له ، فقال : ردوها عليّ .

فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف لما كانت سبب الذهول عن ذلك الذكر ، فأبدله الله أسرع منها الريح .

وقال قوم ، منهم الثعلبي : كانت بالناس مجاعة ، ولحوم الخيل لهم حلال ، فعقرها لتؤكل على سبيل القربة ، ونحر الهدى عندنا . انتهى .

وفي هذه القصة ألفاظ فيها غض من منصب النبوّة كفينا عنه .

والخير في قوله ﴿ حب الخير ﴾ : أي هذا القول يراد به الخيل .

والعرب تسمي الخيل الخير ، قاله قتادة والسدي : وقال الضحاك ، وابن جبير : الخير هنا المال ، وانتصب حب الخير ، قيل : على المفعول به لتضمن أحببت معنى آثرت ، قاله الفرّاء .

وقيل : منصوب على المصدر التشبيهي ، أي أحببت الخيل كحب الخير ، أي حباً مثل حب الخير .

وقيل : عدى بعن فضمن معنى فعل يتعدى بها ، أي أنبت حب الخير عن ذكر ربي ، أو جعلت حب الخير مغنياً عن ذكر ربي .

وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان أن أحببت بمعنى : لزمت ، من قوله :

مثل بعير السوء إذ أحبا . . .

وقالت فرقة : ﴿ أحببت ﴾ : سقطت إلى الأرض ، مأخوذ من أحب البعير إذا أعيى وسقط .

قال بعضهم : حب البعير : برك ، وفلان : طأطأ رأسه .

وقال أبو زيد : بعير محب ، وقد أحب إحباباً ، إذا أصابه مرض أو كسر ، فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت .

قال ثعلب : يقال للبعير الحسير محب ، فالمعنى : قعدت عن ذكر ربي .

وحب الخير على هذا مفعول من أجله ، والظاهر أن الضمير في ﴿ توارت ﴾ عائد على ﴿ الصافنات ﴾ ، أي دخلت اصطبلاتها ، فهي الحجاب .

وقيل : حتى توارت في المسابقة بما يحجبها عن النظر .

وقيل : الضمير للشمس ، وإن لم يجر لها ذكر لدلالة العشي عليها .

(157/660)

وقالت طائفة : عرض على سليمان الخيل وهو في الصلاة ، فأشار إليهم أني في صلاتي ، فأزالوها عنه حتى دخلت في الاصطبلات ؛ فقال هو لما فرغ من صلاته : ﴿ إني أحببت حب الخير ﴾ ، أي الذي عند الله في الآخرة بسبب ذكر ربي ، كأنه يقول : فشغلني ذلك عن رؤية الخيل حتى أدخلت اصطبلاتها ، ردوها عليّ فطفق يمسح أعرافها وسوقها محبة لها .

وقال ابن عباس والزهري : مسحه بالسوق والأعناق لم يكن بالسيف بل بيدية تكريماً لها

ومحبة ، ورجحه الطبري .

وقيل : بل غسلاً بالماء .

وقال الثعلبي : إن هذا المسح كان في السوق والأعناق بوسم حبس في سبيل الله . انتهى .

وهذا القول هو الذي يناسب مناصب الأنبياء ، لا القول المنسوب للجمهور ، فإن في قصته ما لا يليق ذكره بالنسبة للأنبياء .

و﴿ حتى توارت ﴾ : غاية ، فالفعل يكون قبلها متطاولاً حتى تصح الغاية ، فأحببت : معناه أردت المحبة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : بم اتصل قوله : ﴿ ردوها عليّ ﴾ ؟ قلت : بمحذوف تقديره : قال ردوها عليّ ، فأضمروا ضمير ما هو جواب له ، كأن قائلاً قال : فماذا قال سليمان ؟ لأنه موضع مقتض للسؤال اقتضاء ظاهراً .

ثم ذكر الزمخشري لفظاً فيه غض من النبوة فتركته .

وما ذهب إليه من هذا الإضمار لا يحتاج إليه ، إذ الجملة مندرجة تحت حكاية القول وهو : ﴿ فقال إني أحببت ﴾ .

فهذه الجملة وجملة ﴿ ردوها علي ﴾ محكيتان بقال ، وطفق من أفعال المقاربة للشروع في الفعل ، وحذف غيرها لدلالة المصدر عليه ، أي فطفق يمسح مسحاً .

وقرأ الجمهور : ﴿ مسحاً ﴾ : وزيد بن علي : مساحاً ، على وزن قتال ، والباء ﴿

بالسوق ﴾ زائدة ، كهي في قوله : ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ وحكى سيبويه : مسحت برأسه ورأسه بمعنى واحد ، وتقدم الكلام على ذلك في المائدة .

(158/660)

وقرأ الجمهور : بالسوق ، بغير همز على وزن فعل ، وهو جمع ساق ، على وزن فعل بفتح العين ، كأسد وأسد ؛ وابن كثير بالهمز ، قال أبو علي : وهي ضعيفة ، لكن وجهها في القياس أن الضمة لما كانت تلي الواو وقدر أنها عليها فهمزت ، كما يفعلون بالواو المضمومة .

ووجه همز السوق من السماع أن أبا حبة النميري كان يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة ، وكان ينشد _@_ :

حب المؤقدين إلى مؤسى . . .

انتهى .

وليست ضعيفة ، لأن الساق فيه الهمزة ، ووزن فعل بسكون العين ، فجاءت هذه القراءة على هذه اللغة .

وقرأ ابن محيصن : بهمزة بعدها الواو ، رواهما بكار عن قنبل .

وقرأ زيد بن علي : بالساق مفرداً ، اكتفى به عن الجمع لأمن اللبس .

ومن غريب القول أن الضمير في ردوها عائد على الشمس ، وقد اختلفوا في عدد هذه الخيل على أقوال متكاذبة ، سودوا الورق بذكرها .

﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ : نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها ، يوقف عليها في كتبهم ، وهي مما لا يحل نقلها ، وأما هي من أوضاع اليهود والزنادقة ، ولم يبين الله الفتنة ما هي ، ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان .

وأقرب ما قيل فيه : أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن في الحديث الذي قال : "لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة ، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، وجاءته بشق رجل" .

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " والذي نفسي بيده ، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون " فالمراد بقوله : ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ هو هذا ، والجسد الملقى هو المولود شق رجل .

وقال قوم : مرض سليمان مرضاً كالإغماء حتى صار على كرسيه جسداً كأنه بلا روح .

ولما أمر تعالى نبيه عليه السلام بالصبر على ما يقول كفار قريش وغيرهم ، أمره بأن يذكر من ابتلي فصبر ، فذكر قصة داود وقصة سليمان وقصة أيوب ليتأسى بهم ، وذكر ما لهم عنده من الزلفى والمكانة ، فلم يكن ليذكر من يتأسى به ممن نسب المفسرون إليه ما يعظم أن يتفوه به ويستحيل عقلاً وجود بعض ما ذكروه ، كتمثل الشيطان بصورة نبي ، حتى يلتبس أمره عند الناس ، ويعتقدون أن ذلك المتصور هو النبي ، ولو أمكن وجود هذا ، لم يوثق بإرسال نبي ، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية ، نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها .

﴿ ثم أناب ﴾ : أي بعد امتحاننا إياه ، أدام الإنابة والرجوع .

﴿ قال رب اغفر لي ﴾ : هذا أدب الأنبياء والصالحين من طلب المغفرة من الله هضماً للنفس وإظهاراً للذلة والخشوع وطلباً للترقي في المقامات ، وفي الحديث : " إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة " ، والاستغفار مقدمة بين يدي ما يطلب المستغفر بطلب الأهم في دينه ، فيترتب عليه أمر دنياه ، كقول نوح في ما حكى الله عنه : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ الآية .

والظاهر أن طلب الملك كان بعد هذه المحنة .

وذكر المفسرون أنه أقام في ملكه عشرين سنة قبل هذا الابتلاء ، وأقام بعدها عشرين سنة

، فيمكن أنه كان في ملك قبل المحنة ، ثم سأل بعدها ملكاً مقيداً بالوصف الذي بعده ، وهو كونه لا ينبغي لأحد من بعده ، واختلفوا في هذا القيد ، فقال عطاء بن أبي رباح وقتادة : إلى مدة حياتي ، لا أسلبه ويصير إلى غيري .

وقال ابن عطية : إنما قصد بذلك قصداً جائزاً ، لأن للإنسان أن يرغب من فضل الله فيما لا يناله أحد ، لا سيما بحسب المكانة والنبوة .

وانظر إلى قوله : ﴿ لا ينبغي ﴾ ، إنما هي لفظة محتملة ليست تقطع في أنه لا يعطي الله نحو ذلك الملك لأحد . انتهى .

(160/660)

وقال الزمخشري : كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنبوة ووارثاً لهما ؛ فأراد أن يطلب من ربه معجزة ، فطلب على حسب إلفه ملكاً زائداً على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ، ليكون ذلك دليلاً على نبوته ، قاهراً للمبعوث إليهم ، ولن يكون معجزة حتى تخرق العادات ، فذلك معنى قوله : ﴿ لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ .

وقيل : كان ملكاً عظيماً ، فخاف أن يعطي مثله أحد ، فلا يحافظ على حدود الله فيه ، كما قالت الملائكة : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك

ونقدّس لك ﴾ وقيل : ملكاً لا أسلبه ، ولا يقوم فيه غيري مقامي .

ويجوز أن يقال : علم الله فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين ، وعلم أنه لا يطلع بأحبا به غيره ، وأوجبت الحكمة استيها به ، فأمره أن يستوهبه بأمر من الله على الصفة التي علم الله أن لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباده .

أو أراد أن يقول : ملكاً عظيماً ، فقال : ﴿ لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ ، ولم يقصد بذلك إلا عظمة الملك وسعته ، كما تقول لفلان : ما ليس لأحد من الفضل والمال ، وربما كان للناس أمثال ذلك ، ولكنك تريد تعظيم ما عنده . انتهى .

ولما بالغ في صفة هذا الملك الذي طلبه ، أتى في صفته تعالى باللفظ الدال على المبالغة فقال : ﴿ إنك إنت الوهاب ﴾ : أي الكثير الهبات ، لا يتعاظم عنده هبة .

ولما طلب الهبة التي اختص بطلبها ، وهبه وأعطاه ما ذكر تعالى من قوله : ﴿ فسخرنا له الريح ﴾ .

وقرأ الجمهور : بالإفراد ؛ والحسن ، وأبو رجاء ، وقتادة ، وأبو جعفر : الرياح بالجمع ، وهو أعم لعظم ملك سليمان ، وإن كان المفرد بمعنى الجمع لكونه اسم جنس .

﴿ تجري ﴾ : يحتمل أن تكون جملة حالية ، أي جارية ، وأن تكون تفسيرية لقوله : ﴿ فسخرنا له الريح ﴾ .

﴿ بأمره ﴾ ؛ أي لا يمتنع عليه إذا أراد جريها .

﴿ رخاء ﴾ ، قال ابن عباس والحسن والضحاك : مطيعة .

وقال مجاهد : طيبة .

(161/660)

﴿ حيث أصاب ﴾ : أي حيث قصد وأراد ، حكى الزجاج عن العرب .

أصاب الصواب فأخطأ الجواب : أي قصد .

وعن رؤية أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة ، فخرج إليهما فقال : أين تصيبان ؟ فقال : هذه طلبتنا .

ويقال : أصاب الله بك خيراً ، وأنشد الثعلبي :

أصاب الكلام فلم يستطع . . .

فأخطأ الجواب لدى المفصل

وقال وهب : حيث أصاب ، أي أراد .

قيل : ويجوز أن يكون أصاب دخلت فيه همزة التعدية من صاب ، أي حيث وجه جنوده وجعلهم يصوبون صوب السحاب والمطر .

وقيل : أصاب : أراد ، بلغة حمير .

وقال قتادة : بلغة هجر .

﴿ والشياطين ﴾ : معطوف على الريح و﴿ كل بناء وغواص ﴾ : بدل ، وأتى ببنية المبالغة ، كما قال : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴾ الآية ، وقال النابغة :

إلا سليمان إذ قال الإله له . . .

قم في البرية فاحددها عن الفند

وجيش الجنّ إني قد أذنت لهم . . .

يبنون تدمر بالصفاح والعمد

والمعطوف على العام عام ، فالتقدير : وكل غواص ، أي في البحر يستخرجون له الحلية ، وهو أول من استخرج الدر .

﴿ وآخرين ﴾ : عطف على كل ، فهو داخل في البدل ، إذ هو بدل كل من كل بدل التفصيل ، أي من الجنّ ، وهم المردة ، سخرهم له حتى قرنهم في الأصفاد لكفرهم .

وقال النابغة في ذلك :

فمن أطاعك فانفعه بطاعته . . .

كما أطاعك وادلله على الرشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة . . .

تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد

تقدم تفسير ﴿ مقرّنين في الأصفاد ﴾ في آخر سورة إبراهيم عليه السلام ، وأوصاف من ملك سليمان في سورة النمل .

﴿ هذا عطاؤنا ﴾ : إشارة لما أعطاه الله تعالى من الملك الضخم وتسخير الريح والإنس والجنّ والطير ، وأمره بأن يمنّ على من يشاء ويمسك عن من يشاء .

وقفه على قدر النعمة ، ثم أباح له التصرف فيها بمشيئته ، وهو تعالى قد علم أنه لا يتصرف إلا بطاعة الله .

(162/660)

قال الحسن وغيره ، قاله قتادة : إشارة إلى ما فعله الجن ، أي فامنن على من شئت منهم ، وأطلقه من وثاقه ، وسرحه من خدمته ، وأمسك أمره كما تريد .

وقال ابن عباس : إشارة إلى ما وهبه من النساء وأقدره عليهنّ من جماعهنّ ، ولعله لا يصح عن ابن عباس ، لأنه لم يجر هنا ذكر النساء ، ولا ما أوتي من القدرة على ذلك ، و ﴿ بغير حساب ﴾ : في موضع الحال من ﴿ عطاؤنا ﴾ ، أي هذا عطاؤنا جماً كثيراً لا تكاد تقدر على حصره .

ويجوز أن يكون ﴿ بغير حساب ﴾ من تمام ﴿ فامنن ﴾ .

﴿ أو أمسك ﴾ : أي لا حساب عليك في إعطاء من شئت أو حرمانه ، وفي إطلاق من شئت من الشياطين أو إيثاقه .

وختم الله تعالى قصته بما ذكر في قصة والده ، وهو قوله : ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ وحسن مآب ﴾ ، بالنصب عطفاً على ﴿ زلفى ﴾ .

وقرأ الحسن ، وابن أبي عبلة : بالرفع ، ويقفان على ﴿ زلفى ﴾ ، ويبتدآن ﴿ وحسن مآب ﴾ ، وهو مبتدأ ، خبره محذوف تقديره : وحسب مآب له . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(163/660)

وقال الثعالبى :

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان ﴾ الآية

* ت * : اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أن الناسَ قَدْ أَكْثَرُوا في قَصَصِ هذهِ الآيةِ بما لاَ يُوقَفُ على صِحَّتِه ، وحكى الثعلبي في بعض الروايات ؛ أَنَّ سليمانَ عليه السلام لَما فُتِنَ ، سَقَطَ الخَاتَمُ مِنْ يَدِه ، وكَانَ فِيه مُلْكُهُ ، فأعاده إلى يده ، فَسَقَطَ ؛ وأَيْقَنَ بالفتنة ، وأَنَّ آصِفَ بْنَ بَرْخِيَّا

قال له : يا نبيَّ اللَّهِ ، إنَّكَ مَفْتُونٌ ؛ ولذلكَ لا يَتَمَاسَكُ الخَاتَمُ فِي يَدِكَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْماً ؛ فَفِرَّ إلى اللَّهِ تعالى تَائِباً مِنْ ذَنْبِكَ ، وَأَنَا أَقُومُ مَقَامَكَ فِي عَالَمِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تعالى إلى أَنْ يَتُوبَ اللَّهُ تعالى عَلَيْكَ ، فَفَرَّ سُلَيْمَانُ هَارِباً إلى رَبِّهِ مُنْفَرِداً لِعِبَادَتِهِ ، وأَخَذَ آصِفُ الخَاتَمَ ، فَوَضَعَهُ فِي يدِهِ ، فَثَبَتَ ، وقيلَ : إن الجَسَدَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ هُوَ آصِفُ كَاتِبُ سُلَيْمَانَ ، وهو الذي عندَهُ عِلْمٌ مِن الكِتَابِ ، وأقام آصِفُ فِي ملكِ سليمانَ وعيالِهِ يَسِيرُ بِسِيرَتِهِ الحسَنَةِ ، ويَعْمَلُ بِعَمَلِهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يوماً إلى أَنْ رَجَعَ سليمانُ إلى منزله تائِباً إلى اللَّه تعالى ، ورَدَّ اللَّه تعالى عليه مُلْكَهُ ، فأَقَامَ آصِفُ عن مجلسِهِ ، وجَلَسَ سليمانُ على كُرْسِيِّهِ ، وأعادَ الخَاتَمَ ، وقالَ سَعِيدُ بن المسيِّب : إن سليمانَ بنَ دَاوُدَ عليهمَا السلامُ احتجب عنِ الناسِ ثلاثةَ أَيَّامٍ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : أَنْ يا سُلَيْمَانُ ، احتجبت عنِ الناسِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ، فَلَمْ تَنْظُرْ فِي أُمُورِ عِبَادِي ، ولم تُنْصِفْ مَظْلُوماً مِنْ ظَالِمٍ ، وذكر حديثَ الخاتم كما تقدَّم ، انتهى ، وهذا الذي نقلناه أشْبَهُ ما ذُكِرَ ، وأَقْرَبُ إلى الصَّوَابِ ؛ واللَّه أعلم ،

(164/660)

وقال عِيَاضٌ: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان ﴾ معناه: ابتَلَيْنَاهُ، وابتلاؤه: هُو مَا حُكِي في الصحيحِ أنه قال: «لأَطُوفَنَّ الليلةَ على مِائَةِ امرأة كُلُّهُنَّ يَأْتِينَ بفَارِسٍ يُجاهِدُ في سَبِيلِ اللَّهِ، ولَمْ يَقُلْ: «إنْ شَاءَ اللَّهُ» تَحْمِلُ مِنْهُنَّ إلا امرأةٌ جاءَتْ بشِقِّ رَجُلٍ»، الحديث، قال أصحابُ المعانِي: والشِّقُّ هو الجسدُ الذي أُلْقِيَ على كرسيه حين عُرِضَ عليه؛ وهي كانتْ عقوبتُهُ ومحنته، وقيل: بَلْ مَاتَ، وأُلْقِيَ على كُرْسِيِّهِ مَيِّتاً، وأما عَدَمُ استثْنَائِه، فأحْسَنُ الأجوبةِ عنه، ما رُوِيَ في الحديثِ الصحيح أَنَّهُ نَسِيَ أَنْ يَقُولَ: «إنْ شَاءَ اللَّهُ»، ولا يَصِحُّ مَا نَقَلَهُ الإخباريُون من تَشَبُّه الشيطانِ به وتسَلُّطِهِ على مُلْكِهِ، وتصرُّفه في أُمَّتِه؛ لأن الشَيَاطِينَ لا يُسَلَّطُونَ على مِثْلِ هذا، وقد عُصِمَ الأنبياءُ من مثله، انتهى، * ت *: قالَ ابن العربي: ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ يَعني جسدَه لا أجْسَادَ الشَّيَاطِينِ؛ كما يقولُه الضعفاءُ، انتهى من «كتاب تفسير الأفعال» له،

قال ابنُ العربيِّ في «أحكامَه»: وما ذكره بعضُ المفسِّرينَ مِنْ أن الشيطان أخذَ خاتَمَهُ، وجَلَسَ مجلسَه، وحَكَمَ الخَلْقَ على لسانِه قولٌ باطلٌ قَطْعاً؛ لأن الشياطينَ لا يَتَصَوَّرُونَ بِصُوَرِ الأَنْبِيَاءِ؛ ولا يُمَكَّنُونَ من ذلك؛ حتى يظنَّ الناسُ أَنَّهم مع نبيِّهم في حَقٍّ، وهم مَعَ الشياطينِ في بَاطِلٍ؛ ولو شاءَ ربُّكَ لوَهَبَ من المعرفةِ (والدِّينِ) لمنْ قَالَ هذا القولَ ما يَزَعُهُ عن ذِكْرِه، ويَمْنَعُهُ مِن أَنْ يَسْطُرَهُ في دِيوَانٍ من بعده، انتهى.

وقوله: ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ ﴾ الآية، قال *ع*: من المقطوعِ به أَنَّ سُلَيْمَانَ عليه السلامُ إنما قَصَدَ بذلكَ قَصْداً بِرًّا؛ لأن للإنسان أن يرغبَ من فضلِ اللَّهِ فيما لا يَنَالهُ أحدٌ؛ لا سيما بِحَسَبِ المَكَانَةِ والنبوَّةِ.

(166/660)

وقوله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ . . . ﴾ الآية، كَانَ لسليمانَ كُرْسِيٌّ فيه جنودُهُ، وتأتي عليه الريحُ الإعصارُ، فَتَنْقُلُهُ من الأرضِ حتى يَحْصُلَ في الهواء، ثم تتولاَّهُ الرُّخَاءُ؛ وهي اللَّيِّنَةُ القويَّةُ لا تَأْتِي فيها دُفْعٌ مُفْرِطَةٌ فَتَحْمِلُهُ؛ غُدُوُّهَا شَهْرٌ ورَوَاحُهَا شَهْرٌ، ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾: معناه: حيثُ أراد؛ قاله وهْبٌ وغيره، قال *ع*: ويُشْبِهُ أَنَّ [أَصَابَ] معدى «صَابَ يَصُوبُ»، أي: حيث وَجَّه جنودَه، وقال الزَّجَّاج: معناه: قصدَ، قلت: وعليه اقْتَصَرَ أبو حيَّان؛ فإنه قال: أصاب: أي قَصَدَ؛ وأَنْشَدَ الثعلبيُّ: [المتقارب]

أَصَابَ الكَلاَمَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ . . . فَأَخْطَا الجوابَ لَدَى المَفْصِلِ

انتهى.

وقوله: ﴿ كُلَّ بَنَّاءٍ ﴾ بَدَلٌ من ﴿ الشياطين ﴾ و ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ معناه: مُوثَقِينَ؛ قد

قُرِنَ بعضُهم ببعضٍ ، و ﴿ الأصفاد ﴾ القيودُ والأغْلاَلُ ، قال الحَسَنُ : والإشارةُ بقوله : ﴿ هذا عَطَاؤُنَا . . . ﴾ الآية ، إلى جميع ما أعطاهُ اللَّه سبحانه مِنَ الملكِ ؛ وأمرَه بأن يَمُنَّ عَلى من يشاءُ ويُمْسِكُ عَمَّنْ يشاء ، فكأنه وَقَفَهُ على قَدْرِ النِّعمة ، ثم أباح له التصرُّفَ فيه بمشيئته ؛ وهذا أصح الأقوال وأجمعها لتفسير الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(167/660)

وقال أبو السعود :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سليمانَ نِعْمَ العبد ﴾

وقُرِىء نعم العبدُ أي سليمانُ كما ينبىءُ عنه تأخيرُه عن داودَ مع كونِه مفعولاً صريحاً لوهبنا ولأنَّ قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي رجَّاع إلى الله تعالى بالتَّوبة أو إلى التَّسبيح مرجع له تعليلٌ للمدح وهو من حاله لما أنَّ الضَّميرَ المجرورَ في قوله تعالى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ راجع إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قطعاً وإذْ منصوبٌ باذكُر أي اذكُر ما صدرَ عنه إذْ عُرِضَ عليه ﴿ بالعشى ﴾ هو من الظُّهرِ إلى آخرِ النَّهارِ ﴿ الصافنات ﴾ فإنَّه يشهدُ بأنَّه أوَّاب وقيل : لنعِم وتأخيرُ الصَّافنات عن الظَّرفينِ لما مرَّ مراراً من التَّشويقِ إلى المؤخَّرِ . والصَّافنُ

من الخيلِ : الذي يقومُ على طَرَفِ سُنبكِ يدٍ أو رجلٍ ، وهو من الصِّفاتِ المحمودةِ في الخيلِ لا يكادُ يتَّفقُ إلا في العِراب الخُلَّصِ ، وقيل : هو الذي يجمعُ يديهِ ويسوِّيهما . وأمَّا الذي يقفُ على سنبكهِ فهو المنخيم ﴿ الجياد ﴾ جمعُ جوادٍ وجودٍ وهو الذي يُسرع في جريه وقيل : الذي يجودُ عند الرَّكضِ ، وقيل : وُصفتْ بالصُّفون والجَودةِ لبيان جمعها بين الوصفينِ المحمودينِ واقفةً وجاريةً أي إذا وقفتْ كانتْ ساكنةً مطمئنة في مواقفها وإذا جرتْ كانت سِراعاً خِفافاً في جَريها . وقيل : هو جمعُ جيِّد . رُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسلام غزَا أهلَ دمشقَ ونصيبين وأصابَ ألفَ فرسٍ وقيل : أصابها أُبوه من العمالقةِ فورثها منه وقيل : خرجتْ من البحرِ لها أجنحةٌ فقعد يوماً بعد ما صلَّى الظُّهر على كرسيِّه فاستعرضَها فلم تزلْ تُعرض عليه حتَّى غربتِ الشَّمسُ وغفلَ عن العصرِ أو عن وِردٍ كان له من الذِّكرِ وقتئذٍ وتهيَّبُوه فلم يعلموه فاغتمَّ لما فاتَه فاستردَّها فعقَرها تقرباً لله تعالى وبقي مائةٌ فما في أيدي النَّاسِ من الجياد فمن نسلها وقيل : لمَّا عقرَها أبدلَه الله خيراً منها وهي الرِّيحُ تجري بأمره .

﴿ فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ

(168/660)

الخير عَن ذِكْرِ رَبِى ﴾ قاله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عند غروب الشَّمسِ اعترافاً بما صدرَ عنه من الاشتغالِ بها عن الصَّلاةِ وندماً عليه وتمهيداً لما يعقبُه من الأمر بردّها وعقرِها ، والتَّعقيب باعتبار أواخرِ العرض المستمرّ دون ابتدائِه والتَّأكيدُ للدّلالةِ على أنَّ اعترافَه وندمَهُ عن صميم القلبِ لا لتحقيقِ مضمونِ الخيرِ ، وأصل أُحببتُ أنْ يعدَّى بعلى لأَنَّه بمعنى آثرَ لكن لما أُنيب مُنابَ أنبتُ عُدّي تعديتَه وحبَّ الخيرِ مفعولُه كأَنَّه قيل : أنبتُ حبَّ الخيرِ عن ذكر ربّي ووضعتُه موضعه ، والخبرُ المالُ الكثيرُ والمراد به الخيلُ التي شغلته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ويحتمل أَنَّه سمَّاها خيراً لتعلُّق الخيرِ بها قال عليه الصَّلاة والسَّلام : " الخيرُ معقودٌ بنواصِي الخيلِ إلى يومِ القيامةِ " . وقُرِىء أَنِّي ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ متعلّق بقوله أحببتُ باعتبار استمرار المحبَّةِ ودوامِها حسب استمرارِ العرضِ أي أنبتُ حبَّ الخيرِ عن ذكر ربّي واستمرَّ ذلك حتَّى توارتْ أي غربتْ الشَّمسُ تشبيهاً لغروبِها في مغربِها بتوارى المخبأةِ بحجابها ، وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشي عليها وقيل : الضمير للصافنات أي توارتْ بحجابِ اللَّيلِ أي بظلامِه .

(169/660)

﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ من تمام مقالةِ سليمانَ عليه السَّلامُ ومرمى غرضِه من تقديم ما قدَّمه ومَن لم يتنبه له مع ظهورِه توهَّم أنَّه متَّصل بمضمرٍ هو جوابٌ لمضمرٍ آخرَ كأنَّ سائلاً قال : فماذا قال سليمانُ عليه السَّلامُ فقيل قال : ردُّوها فتأمَّلْ والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً ﴾ فصيحةٌ مفصحةٌ عن جملةٍ قد حُذفتْ ثقةً بدلالةِ الحالِ عليها وإيذاناً بغاية سرعةِ الامتثالِ بالأمرِ أي فردُّوها عليه فأخذ يمسحُ السَّيفَ مسحاً ﴿ بالسوق والاعناق ﴾ أي بسوقِها وأعناقِها يقطعها من قولِهم مسحَ عِلاوتَه أي ضربَ عنقَه عنه وقيل : جعل يمسحُ بيدِه أعناقَها وسوقَها حُبّاً لها وإعجاباً بها وليس بذاكَ وقُرِىء بالسُّؤُقِ على همز الواوِ لضمَّتها كما في أدؤُر وقرىء بالسُّؤوقِ تنزيلاً لضمَّةِ السِّينِ منزلة ضمَّه الواوِ وقُرِىء بالسَّاق اكتفاءً بالواحدِ عن الجمعِ لأمنِ الالباسِ .

(170/660)

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أظهرُ ما قيل في فتنتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما رُوي مرفُوعاً أنَّه قال : " لأطوفنَّ الليلةَ على سبعينَ امرأة تأتِي كلُّ واحدةٍ بفارسٍ يجاهدُ في سبيلِ الله تعالى ولم يقُل إنْ شاءَ الله تعالى فطافَ عليهنَّ فلم تحمل إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءتْ بشقِّ رجلٍ ، والذي نفسِي بيدِه لو قالَ إنْ شاء الله لجاهدُوا في سبيلِ الله

فُرساناً أجمعون " وقيل : وُلد له ابنٌ فاجتمعتِ الشَّياطينُ على قتلِه فعلم ذلكَ فكانَ يغذُوه في السَّحابِ فَما شعرَ به إلى أنْ أُلقي عَلَى كرسيّه ميتاً فتنبَّه لخطِئه حيثُ لَم يتوكَّل على الله عزَّ وعَلاَ . وقيل إنَّه غزَا صيدونَ من الجزائرِ فقتلَ ملكَها وأصابَ بنْتاً له تسمَّى جرادةَ من أحسنِ النَّاسِ فاصطفَاها لنفسِه وأسلمتْ وأحبَّها وكان لا يرقأُ دمعُها جزَعاً على أبيها فأمرَ الشَّياطينَ فمثَّلوا لها صورتَه وكانت تغدُو إليها وتروحُ مع ولائدِها يسجُدن لها كعادتهنَّ في مُلكِه فأخبرهَ آصفُ بذلك فكسرَ الصُّورةَ وعاقَب المرأةَ ثم خرج وحدَهُ إلى فَلاَة وفُرش له الرَّمادُ فجلس عليه تائباً إلى الله تعالى باكياً متضرّعاً وكانتْ له أمُّ ولدٍ يُقال لها أمينةُ إذا دخلَ للطَّهارةِ أو لإصابةِ امرأةٍ يعطيها خاتمه وكان ملكُه فيه فأعطاها يوماً فتمثَّل لها بصورتِه شيطانٌ اسمه صخر وأخذ الخاتمَ فتختَّم به وجلس على كُرسّيه فاجتمعَ عليه الخلقُ ونفَّذ حكمَه في كلِّ شيءٍ إلاَّ في نسائِه وغيَّر سليمانَ عن هيئتِه فأتى أمينةَ لطلبِ الخاتمِ فأنكرتْهُ وطردتْهُ فعرفَ أنَّ الخطيئةَ قد أدركتْهُ فكان يدورُ على البيوتِ يتكفَّفُ وإذا قال أنَا سليمانُ حثَوا عليه التُّرابَ وسبُّوه ثم عمد إلى السَّماكين ينقلُ لهم السَّمك فيعطونَه كلَّ يومٍ سمكتينِ فمكثَ على ذلك أربعينَ صباحاً عددَ ما عُبد الوثنُ في بيتِه فأنكر آصفُ

وعظماءُ بني إسرائيلَ حكمَ الشَّيطانِ ثم طارَ اللعينُ وقذفَ الخاتمَ في البحرِ فابتلعتْهُ سمكةٌ فوقعتْ في يدِ سليمانَ فبقرَ بطنَها فإذا هُو بالخاتمِ فتختَّم به وخرَّ ساجداً وعادَ إليه ملكه وجاب صخرةً لصخرٍ فجعلَه فيها وسدَّ عليه بأُخرى ثم أوثقهما بالحديدِ والرَّصاص وقذفه في البحرِ وعلى هذا . فالجسدُ عبارةٌ عن صخرٍ سمّي به وهو جسمٌ لا رُوحَ فيه لأنَّه تمثَّل بما لم يكن كذلكَ والخطيئةُ تغافلُه عليه الصَّلاةُ السَّلام عن حالِ أهلِه لأنَّ اتّخاذَ التَّماثيلِ لم يكُن محظُوراً حينئذٍ ، وسجودُ الصُّورةِ بغيرِ علمٍ منه لا يضرُّه .

﴿ قَالَ ﴾ بدل من أنابَ وتفسيره له ﴿ رَبِّ اغفرلِى ﴾ أي ما صدرَ عنّي من الزَّلَّةِ ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكاً لَّا يَنبَغِى لِاحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ لا يتسهل له ولا يكونُ ليكونَ معجزةً لي مناسبةً لحالي فإنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لمَّا نشأَ في بيتِ الملكِ والنُّبوة وورثهما معاً استدعى من ربِّه معجزةً جامعةً لحكمهما أو لا ينبغي لأحدٍ أنْ يسلبَه منّي بعد هذه السَّلبةِ أو لا يصحُّ لأحدٍ من بعدي لعظمتِه كقولِك لفلان ما ليسَ لأحدٍ من الفضلِ والمالِ على إرادة وصف الملكِ بالعظمةِ لا أنْ لا يعطى أحد مثله فيكون منافسة وقيل كان مُلكاً عظيماً فخاف أنْ يُعطى مثلَه أحدٌ فلا يحافظُ على حدودِ الله تعالى . وتقديمُ الاستغفارِ على الاستيهابِ لمزيد اهتمامِه بأمر الدِّينِ جرياً على سَننِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ والصَّالحين . وكون ذلك أدخلَ في الإجابةِ . وقُرىء لِيَ بفتحِ الياءِ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الوهاب ﴾ تعليلٌ للدُّعاءِ بالمغفرةِ والهبةِ معاً لا بالأخيرة فقط فإنَّ المغفرةَ أيضاً من أحكامِ وصفِ الوهَّابيةِ فقط .

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح ﴾ أي فذللناها لطاعتِه إجابةً لدعوتِه فعاد أمرُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى ما كان عليهِ قبل الفتنةِ . وقُرِىء الرِّياح ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ بيانٌ لتسخيرِها له ﴿ رُخَاء ﴾ أي لينةً من الرَّخاوةِ طيبة لا تزعزعُ وقيل : طيعةً لا تمنع عليه كالمأمورِ المنقادِ ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي حيثُ قصدَ وأرادَ . حَكَى الأصمعيُّ عن العربِ أصابَ الصَّوابَ فأخطأَ الجوابَ ﴿ والشياطين ﴾ عطفٌ على الرِّيح ﴿ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاص ﴾ بدلٌ من الشَّياطينَ ﴿ وَءاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الاصفاد ﴾ عطفٌ على كلَّ بنَّاءٍ داخلٌ في حُكمِ البدلِ كأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فصَّل الشَّياطينَ إلى عَمَلةٍ استعملهم في الأعمالِ الشَّاقةِ من البناء والغَوص ونحو ذلك وإلى مَرَدةٍ قرن بعضَهم مع بعضٍ في السَّلاسلِ لكفِّهم عن الشرِّ والفسادِ . ولعلَّ أجسامهم شفَّافةٌ فلا تُرى صلبةً فيمكن تقييدُها ويقدرون على الأعمال الصَّعبة وقد جُوِّز أن يكون الإقرانُ في الأصفادِ عبارة عن كفِّهم عن الشُّرورِ بطريق التَّمثيلِ . والصَّفدُ القَيدُ وسُمِّي به العطاءُ لأنَّه يرتبط بالمنعمِ عليه وفرَّقوا بين فعليهما فقالُوا صفَده قيَّده وأصفدَهُ أعطاهُ على عكسِ وَعَد وأَوْعدَ .

وقوله تعالى : ﴿ هذا ﴾ الخ إمَّا حكايةٌ لما خُوطب به سيلمانُ عليه السَّلامُ مبيِّنةٌ لعظمِ شأنِ ما أُوتي من الملكِ وأنَّه مفوَّضٌ إليه تفويضاً كلّياً وإما مقولٌ لقولٍ مقدَّرٍ هو معطوفٌ على سخَّرنا أو حالٌ من فاعلِه كما مرَّ في خاتمةِ قصَّةِ داودَ عليه السَّلامُ أي وقُلنا له أو قائلين له هذا الأمرُ الذي أعطيناكَه من المُلكِ العظيمِ والبسطةِ والتَّسلطِ على ما لَم يُسلَّطْ عليه غيرُك ﴿ عَطَاؤُنَا ﴾ الخاصُّ بك ﴿ فامنن أَوْ أَمْسِكْ ﴾ فأعطِ مَن شئتَ وامنْع مَن شئتَ ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ حال من المستكنِّ في الأمرِ أي غير محاسب على منّه وإمساكِه لتفويضِ التَّصرف فيه إليك على الإطلاقِ أو من العطاءِ أي هذا عطاؤنا مُلتبساً بغير حسابٍ لغاية كثرته ، أو صلةٌ له وما بينهما اعتراضٌ على التَّقديرين ، وقيل : الإشارةُ إلى تسخير الشَّياطينِ والمرادُ بالمنِّ والإمساكِ الإطلاقُ والتَّقييدُ ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ في الآخرةِ مع ما له من المُلك العظيمِ في الدُّنيا ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ هو الجنَّةُ قيل : فُتن سليمانُ عليه السَّلامُ بعد ما ملكَ عشرين سنةً وملك بعد الفتنةِ عشرينَ سنة . وذكر الفقيهُ أبو حنيفةَ أحمدُ بنُ داودَ الدِّينَوَريُّ في تاريخه أنَّ سُليمان عليه السَّلامُ ورثَ ملكَ أبيهِ في عصرِ كيخسرو بن سياوش وسارَ من الشَّامِ إلى العراقِ فبلغ خبُره كيخسرو فهربَ إلى خُراسانَ فلم يلبثْ حتَّى هلكَ ثمَّ سارَ سُليمانُ عليه السَّلامُ إلى مرو . ثمَّ إلى بلادِ التُّركِ فوغل فيها ثم جازَ بلادَ الصِّين ثم عطفَ إلى أنْ وافى بلادَ فارسٍ فنزلها أياماً ثم عاد إلى الشَّامِ ثمَّ أمرَ ببناءِ

بيتِ المقدسِ فلَّما فرغَ منه سار إلى تهامةَ ثم إلى صنعاءَ وكان من حديثِه مع صاحبتِها ما ذكرَه الله تعالى وغزا بلادَ المغربِ الأندلسِ وطنجةَ وغيرَهما والله تعالى أعلمُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(174/660)

وقال الآلوسى :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سليمانَ نِعْمَ العبد ﴾

وقرىء ﴿ نِعْمَ ﴾ على اوصل ، والمخصوص بالمدح محذوف أي نعم العبد هو أي سليمان كما ينبىء عنه تأخيره عن داود مع كونه مفعولاً صريحاً لوهبنا ولأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي رجاع إلى الله تعالى بالتوبة كما يشعر به السياق أو إلى التسبيح مرجع له أو إلى مرضاته عز وجل تعليل للمدح وهو من حاله لما أن الضمير المجرور في قوله سبحانه : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ يعود إليه عليه السلام قطعاً ، وإذ منصوب باذكر ، والمراد من ذكر الزمان ذكر ما وقع فيه أو ظرف لأواب أو لنعم والظرف قنوع لكن يرد على الوجهين أن التقييد يخل بكمال المدح فالأول أولى وهو كالاستشهاد على أنه أواب أي اذكر ما صدر عنه إذ عرض عليه ﴿ بالعشى ﴾ الخ فإنه يشهد بذلك ، والعشي على ما قال الراغب من

زوال الشمس إلى الصباح ، وقال بعض : منه إلى آخر النهار ، والظرفان متعلقان بعرض ، وقوله تعالى : ﴿ الصافنات ﴾ نائب الفاعل وتأخيره عنهما لما مر غير مرة من التشويق إلى المؤخر ، والصافن من الخيل الذي يرفع إحدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافرها وأنشد الزجاج

: ألف الصفون فما يزال كأنه . . .

مما يقوم على الثلاث كثيراً

وقال أبو عبيدة : هو الذي يجمع يديه ويسويهما وأما الذي يقف على طرف الحافر فهو المتخيم ، وعن التهذيب ومتن اللغة هو المخيم ، وقال القتبي الصافن الواقف في الخيل وغيرها ، وفي الحديث "من سره أن يقوم الناس له صفونا فليتبوأ مقعده من النار" أي يديمون له القيام حكاه قطرب وأنشد للنابغة

: لنا قبة مضروبة بفنائها . . .

عتاق المهاري والجياد الصوافن

(175/660)

وقال الفراء : رأيت العرب على هذا وأشعارهم تدل على أنه القيام خاصة والمشهور في الصفوف ما تقدم وهو من الصفات المحمودة في الخيل لا تكاد تتحقق إلا في العرب الخلص ﴿ الجياد ﴾ جمع جواد للذكر والأنثى يقال جاد الفرس صار رائضاً يجود جودة بالضم وهو جواد ويجمع أيضاً على أجواد وأجاويد ، وقال بعضهم : هو جمع جود كثوب وأثواب وفسر بالذي يسرع في مشيه ، وقيل هو الذي يجود بالركض ، وقيل : وصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية أي إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقعها وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها ، والخيل تمدح بالسكون في الموقف كما تمدح بالسرعة في الجري ، ومن ذلك قول مسلم بن الوليد

: وإذا احتبى قربوسه بعنانه . . .

علك الشكيم إلى انصراف الزائر

وقيل جيد ككيس ضد الردىء ويجمع على جيادات وجيائد ، وضعف بأنه لا فائدة في ذكره مع ﴿ الصافنات ﴾ حينئذٍ وبأنه يفوت عليه مدح الخيل باعتبار حاليها وكون الجياد أعم فذكره تعميم بعد تخصيص فيه نظر .

وفي "البحر" قيل الجياد الطوال الأعناق من الجيد وهو العنق ، وأنا في شك من ثبوته ، قال في "القاموس" : الجيد بالكسر العنق أو مقلده أو مقدمه جمعه أجياد وجيود وبالتحريك طولها أو دقتها مع طول وهو أجيد وهي جيداء وجيدانة جمعه جود اه ، وراجعت غيره فلم أجد فيه زيادة على ذلك فلينقر ، ويمكن أن يقال : أن الجياد جمع شاذ لأجيد أو جيداء أو جيدانة أو هو جمع لجيد بالتحريك كجعل وجمال ويراد بجيد أجيد أو نحوه نظير ما يراد بالخلق المخلوق والله تعالى أعلم ، وأياً ما كان فالوصفان يوصف بهما المذكر والمؤنث من الخيل ، والجمع بألف وتاء لا يخص المؤنث فلا حاجة بعد القول بأن ما عرض كان مشتملاً على ذكور الخيل وإناثها إلى القول بأن في الصافنات تغليب المؤنث على المذكر وأنه يجوز بقلة ، وأريد بالجمع هنا الكثرة فعن الكلبي أن هذه الخيل كانت ألف فرس غزا سليمان عليه السلام دمشق ونصيبين فأصابها .

واستشكلت هذه الرواية بأن الغنائم لم تحل لغير نبينا صلى الله عليه وسلم كما ورد في الحديث الصحيح .

وأجيب بأنه يحتمل أن تكون فيئاً لا غنيمة ، وعن مقاتل أنها ألف فرس ورثها من أبيه داود وكان عليه السلام قد أصابها من العمالقة وهم بنو عمليق بن عوص بن عاد بن ارم .

واستشكلت هذه زيادة على الأولى بأن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون كما جاء في

الحديث الذي رواه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه محتجاً به في مسألة فدك والعوالي بمحضر الصحابة وهم الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم .

(177/660)

وأجيب بأن المراد بالإرث حيازة التصرف لا الملك ، وعقرها تقرباً على ما في الأوجه في الآية بعد وجاء في بعض الروايات لا يتقضي الملك ، وقال عوف : بلغني أنها كانت خيلاً ذات أجنحة أخرجت له من البحر لم تكن لأحد قبله ولا بعده ، وروي كونها كذلك عن الحسن ، وأخرج ابن جرير وغيره عن إبراهيم التيمي أنها كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة ، وليس في هذا شيء سوى الاستبعاد ، وإذا لم يلتفت إلى الأخبار في ذلك إذ ليس فيها خبر صحيح مرفوع أو ما في حكمه يعول عليه فيما أعلم فلنا أن نقول : هي خيل كانت له كالخيل التي تكون عند الملوك وصلت إليه بسبب من أسباب الملك فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس ، قيل وغفل عن صلاة العصر ، وحكى هذا الطبرسي عن علي كرم الله تعالى وجهه .

وقتادة .

والسدي ثم قال : وفي روايات أصحابنا أنه فات أول الوقت .

وقال الجبائي : لم يفته الفرض وإنما فاته نفل كان يفعله آخر النهار .

﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ قاله عليه السلام اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال وندماً عليه وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها على ما هو المشهور ، والخير كثر استعماله في المال ومنه قوله تعالى : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [البقرة : 180] وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 273] وقوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : 8] وقال بعض العلماء : لا يقال للمال خير حتى يكون كثيراً ومن مكان طيب كما روي أن علياً كرم الله تعالى وجهه دخل على مولى له فقال : ألا أوصي يا أمير المؤمنين ؟ قال ، لا لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ وليس لك مال كثير ، وروى تفسيره بالمال هنا عن الضحاك .

وابن جبير ، وقال أبو حيان : يراد بالخير الخيل والعرب تسمى الخيل الخير ، وحكي ذلك عن قتادة .

(178/660)

والسدي ، ولعل ذلك لتعلق الخير بها ، ففي الخبر " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة " والأحباب على ما نقل عن الفراء مضمن معنى الإيثار وهو ملحق بالحقيقة لشهرته

في ذلك ، وظاهر كلام بعضهم أنه حقيقة فيه فهو مما يتعدى بعلى لكن عدى هنا بعن لتضمينه معنى الإنابة ﴿ وَحَبَّ الخير ﴾ مفعول به أي آثرت حب الخير منيباً له عن ذكر ربي أو أنبت حب الخير عن ذكر ربي مؤثراً له .

وجوز كون ﴿ حُبَّ ﴾ منصوباً على المصدر التشبيهي ويكون مفعول ﴿ أَحْبَبْتُ ﴾ محذوفاً أي أحببت الصافنات أو عرضها حباً مثل حب الخير منيباً لذلك عن ذكر ربي ، وليس المراد بالخير عليه الخيل وذكر أبو الفتح الهمداني أن أحببت بمعنى لزمت من قوله : ضرب بعير السوء إذ أحبا . . .

واعترض بأن أحب بهذا المعنى غريب لم يرد إلا في هذا البيت وغرابة اللفظ تدل على اللكنة وكلام الله عز وجل منزه عن ذلك ، مع أن اللزوم لا يتعدى بعن إلا إذا ضمن معنى يتعدى به أو تجوز به عنه فلم يبق فائدة في العدول عن المعنى المشهور مع صحته أيضاً بالتضمين وجعل بعضهم الأحباب من أول الأمر بمعنى التقاعد والاحتباس وحب الخير مفعولاً لأجله أي تقاعدت واحتبست عن ذكر ربي لحب الخير .

(179/660)

وتعقب بأن الذي يدل عليه كلام اللغويين أنه لزوم عن تعب أو مرض ونحوه فلا يناسب تقاعد النشاط والتلهي الذي كان عليه السلام فيه وقول بعض الأجلة : بعد التنزل عن جواز استعمال المقيد في المطلق لما كان لزوم المكان لمحبة الخيل على خلاف مرضاة الله تعالى جعلها من الأمراض التي تحتاج إلى التداوي بأضدادها ولذلك عقرها ففي ﴿ أَحْبَبْتُ ﴾ استعارة تبعية لا يخفى حسنها ومناسبتها للمقام ليس بشيء لخفاء هذه الاستعارة نفسها وعدم ظهور قرينتها ، وبالجملة ما ذكره أبو الفتح مما لا ينبغي أن يفتح له باب الاستحسان عند ذوي العرفان ، وجوز حمل ﴿ أَحْبَبْتُ ﴾ ، وجوز في عن كونها تعليلية وسيأتي إن شاء الله تعالى و ﴿ ذِكْرَ ﴾ مضاف إلى مفعوله وجوز أن يكون مضافاً إلى فاعله .

وقيل الإضافة على معنى اللام ولا يراد بالذكر المعنى المصدري بل يراد به الصلاة فمعنى عن ذكر ربي عن صلاة ربي التي شرعها وهو كما ترى .

وبعض من جعل عن للتعليل فسر ذلك الرب بكتابه عز وجل وهو التوراة أي أحببت الخيل بسبب كتاب الله تعالى وهو التوراة فإن فيه مدح ارتباطها وروي ذلك عن أبي مسلم ، وقرأ أبو جعفر .

ونافع .

وابن كثير .

وأبو عمرو ﴿ إِنِّى أَحْبَبْتُ ﴾ بفتح الياء ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿ أَحْبَبْتُ ﴾ باعتبار استمرار المحبة ودوامها حسب استمرار العرض أي أنبت حب الخير عن ذكر ربي واستمر ذلك حتى غربت الشمس تشبيهاً لغروبها في مغربها بتواري المخباة بحجابها على طريق الاستعارة التبعية ، ويجوز أن يكون هناك استعارة مكنية تخييلية وأياً ما كان فما أخرجه ابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

(180/660)

وأبو الشيخ عن كعب ، قال : الحجاب هو حجاب من ياقوت أخضر محيط بالخلائق منه اخضرت السماء ، وما قيل إنه جبل دون قاف بسنة تغرب الشمس وراءه لا يخفى حاله ، والناس في ثبوت جبل قاف بين مصدق ومكذب والقرافي يقول لا وجود له وإليه أميل وإن قال المثبتون ما قالوا ، والباء للظرفية أو الاستعانة أو الملابسة ، وعود الضمير إلى الشمس من غير ذكر لدلالة العشي عليها ، والضمير المنصوب في قوله تعالى :

﴿ رُدُّوهَا عَلَىَّ ﴾ للصافنات على ما قال غير واحد .

(181/660)

وظاهر كلامهم أنه للصافنات المذكور في الآية ، ولعلك تختار أنه للخيل الدال عليها الحال المشاهدة أو الخير في قوله : ﴿ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير ﴾ [ص : 32] لأن ردوها من تتمة مقالته عليه السلام والصافنات غير مذكورة في كلامه بل في كلام الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم ، والكلام على ما قال الزمخشري على إضمار القول أي قال ردوها عليّ ، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل : فماذا قال سليمان ؟ فقيل قال : ردوها ، وتعقبه أبو حيان بأنه لا يحتاج إلى الإضمار إذ الجملة مندرجة تحت حكاية القول في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ إِنِّى ﴾ [ص : 32] الخ ؛ والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً ﴾ فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذاناً بغاية سرعة الامتثال بالأمر كما في قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضرب بّعَصَاكَ الحجر فانفجرت مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [البقرة : 60] أي فردوها عليه فطفق الخ وطفق من أفعال الشروع واسمها ضمير سليمان و ﴿ مَسْحاً ﴾ مفعول مطلق لفعل مقدر هو خبرها أي شرع يمسح مسحاً لا حال مؤول بماسحاً كما جوزه أبو البقاء إذ لا بد لطفق من الخبر وليس هذا مما يسد الحال فيه مسده ، وقرأ زيد بن علي ﴿ مساحا ﴾ على وزن قتال ﴿ مَسْحاً بالسوق والاعناق ﴾ أي بسوقها وأعناقها على أن التعريف للعهد وإن أل قائمة مقام الضمير المضاف إليه ، والباء متعلقة بالمسح على معنى شرع يمسح السيف بسوقها وأعناقها ،

وقال : جمع هي زائدة أي شرع يمسح سوقها وأعناقها بالسيف ، ومسحته بالسيف كما قال الراغب : كناية عن الضرب .

وفي "الكشاف" يمسح السيف بسوقها وأعناقها يقطعها تقول مسح علاوته إذا ضرب عنقه ومسح المسفر الكتاب إذا قطع أطرافه بسيفه ، وعن الحسن كسف عراقيبها وضرب أعناقها أراد بالكسف القطع ومنه الكسف في ألقاب الزحاف والعروض ومن قاله بالشين المعجمة فمصحف ، وكون المراد القطع قد دل عليه بعض الأخبار .

(182/660)

أخرج الطبراني في "الأوسط" .

والإسمعيلي في "معجمه" .

(183/660)

وابن مردويه بسند حسن عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في قوله تعالى : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والاعناق ﴾ قطع سوقها وأعناقها بالسيف ، وقد

جعلها عليه السلام بذلك قرباناً لله تعالى وكان تقريب الخيل مشروعاً في دينه ، ولعل كسف العراقيب ليتأتى ذبحها بسهولة ، وقيل : إنه عليه السلام حبسها في سبيل الله تعالى وكان ذلك المسح الصادر منه وسما لها لتعرف أنها خيل محبوسة في سبيل الله تعالى وهو نظير ما يفعل اليوم من الوسم بالنار ولا بأس به في شرعنا ما لم يكن في الوجه ، ولعل عليه السلام رأى الوسم بالسيف أهون من الوسم بالنار فاختاره أو كان هو المعروف في تلك الإعصار بينهم ، ويروى أنه عليه السلام لما فعل ذلك خر له الريح كرامة له ، وقيل : إنه عليه السلام أراد بذلك إتلافها حيث شغلته عن عبادة ربه عز وجل وصار تعلق قلبه بها سبباً لغفلته ، واستدل بذلك الشبلي قدس سره على حل تحريق ثيابه بالنار حين شغلته عن ربه جل جلاله ؛ وهذا قول باطل لا ينبغي أن يلتفت إليه وحاشا نبي الله أن يتلف مالاً محترماً لمجرد أنه شغل به عن عبادة وله سبيل لأن يخرجه عن ملكه مع نفع هو من أجل القرب إليه عز وجل على أن تلك الخيل لم يكن عليه السلام اقتناها واستعرضها بطراً وافتخاراً معاذ الله تعالى من ذلك وإنما اقتناها للانتفاع بها في طاعة الله سبحانه واستعرضها للتطلع على أحوالها ليصلح من شأنها ما يحتاج إلى إصلاح وكل ذلك عبارة فغاية ما يلزم عليه السلام نسى عبادة لشغله بعبادة أخرى فاستدلال الشبلي قدس سره غير صحيح ، وقد نبه أيضاً على عدم صحته عبد الوهاب الشعراني من السادة الصوفية في كتابه اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر ولكن بحمل الآية على محمل آخر ، وما ذكرناه في محمولها وتفسيرها هو

المشهور بين الجمهور ولهم فيها كلام غير ذلك فقيل ضمير ﴿ رُدُّوهَا ﴾ للشمس والخطاب للملائكة عليهم السلام الموكلين بها ، قالوا : طلب ردها

(184/660)

لما فاته صلاة العصر لشغله بالخيل فردت له حتى صلى العصر ، وروى هذا القول عن علي كرم الله تعالى وجهه كما قال الخفاجي .

والطبرسي .

وتعقب ذلك الرازي بأن القادر على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها على دون ﴿ رُدُّوهَا ﴾ بضمير الجمع .

فإن قالوا : هو للتعظيم كما في ﴿ رَبِّ ارجعون ﴾ [المؤمنون : 99] قلنا .

لفظ ردوها مشعر بأعظم أنواع الإهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم ؛ وأيضاً إن الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان مشاهداً لكل أهل الدنيا ولو كان كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وحيث لم ينقله أحد علم فساده .

والذي يقول برد الشمس لسليمان يقول هو كردها ليوشع وردها لنبينا صلى الله عليه وسلم في حديث العير ويوم الخندق حين شغل عن صلاة العصر وردها لعلي كرم الله تعالى

وجهه ورضي عنه بدعائه عليه الصلاة والسلام ، فقد روى عن أسماء بنت عميس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوحي إليه ورأسه في حجر علي كرم الله تعالى وجهه فلم يصل العصر حتى غربت الشمس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صليت يا علي ؟ قال : لا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس قالت أسماء : فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت ووقعت على الأرض وذلك بالصهباء في خيبر "

وهذا الخبر في صحته خلاف فقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات ، وقال إنه موضوع بلا شك وفي سنده أحمد بن داود وهو متروك الحديث كذاب كما قاله الدارقطني ، وقال ابن حبان : كان يضع الحديث ، وقال ابن الجوزي : قد روى هذا الحديث ابن شاهين فذكره ثم قال : وهذا حديث باطل ومن تغفل واضعه أنه نظر إلى صورة فضيلة ولم يلمح عدم الفائدة فيها وأن صلاة العصر بغيبوبة الشمس تصير قضاء ورجوع الشمس لا يعيدها أداء انتهى .

وقد أفرد ابن تيمية تصنيفاً في الرد على الروافض ذكر فيه الحديث بطرقه ورجاله وأنه موضوع .

(185/660)

وقال الإمام أحمد : لا أصل له ، وصححه الطحاوي .

والقاضي عياض ، ورواه الطبراني في "معجمه الكبير" بإسناد حسن كما حكاه شيخ الإسلام ابن العراقي في "شرح التقريب" عن أسماء أيضاً لكن بلفظ آخر ورواه ابن مردويه عن أبي هريرة وكان أحمد بن صالح يقول : لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء لأنه من علامات النبوة ، وكذا اختلف في حديث الرد يوم الخندق فقيل ضعيف ، وقيل ؛ موضوع ، وادعى العلامة ابن حجر الهثمي صحته ، وما في حديث العير وأظن أنهم اختلفوا في صحته أيضاً ليس صريحاً في الرد فإن لفظ الخبر أنه لما أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير قالوا : متى يجيء ؟ قال : يوم الأربعاء فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون وقد ولي النهار ولم يجيء فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزيد له في النهار ساعة وحبست عليه الشمس والحبس غير الرد ولو كان هناك رد لأدركه قريش ولقالوا فيه ما قالوا في انشقاق القمر ولم ينقل ، وقيل : كأن ذلك كان بركة في الزمان نحو ما يذكره الصوفية مما يعبرون عنه بنشر الزمان وإن لم يتعلقه الكثير وكذا ما كان ليوشع عليه السلام فقد جاء في الحديث الصحيح " لم تحبس الشمس على أحد الا ليوشع بن نون " والقصة مشهورة وهذا الحديث الصحيح عند الكل يعارض جميع ما تقدم ، وتأويله بأن المراد لم تحبس على أحد من الأنبياء غيري إلا ليوشع أو بالتزام أن المتكلم غير داخل في عموم كلامه بعد تسليم قبوله لا ينفي معارضته خبر الرد

لسليمان عليه السلام فإنه بظاهره يستدعي نفي الرد الذي هو أعظم من الحبس له عليه السلام .

(186/660)

وبالجملة القول برد الشمس لسليمان عليه السلام غير مسلم ، وعدم قولي بذلك ليس لامتناع الرد في نفسه كما يزعمه الفلاسفة بل لعدم ثبوته عندي ، والذوق السليم يأبى حمل الآية على ذلك لنحو ما قال الرازي ولغيره من تعقيب طلب الرد بقوله تعالى : ﴿ فَطَفِقَ ﴾ الخ ثم ما قدمنا نقله من وقوع الصلاة بعد الرد قضاء هو ما ذهب إليه البعض .

وفي تحفة العلامة ابن حجر الهيتمي لو عادت الشمس بعد الغروب عاد الوقت كما ذكره ابن العماد ، وقضية كلام الزركشي خلافه وأنه لو تأخر غروبها عن وقته المعتاد قدر غروبها عنده وخرج الوقت وإن كانت موجودة انتهى كلام الزركشي ، وما ذكر آخراً بعيد وكذا أولاً فالأوجه كلام ابن العماد ولا يضر كون عودها معجزة له صلى الله عليه وسلم لأن المعجزة نفس العود وأما بقاء الوقت بعودها فحكم الشرع ومن ثم لما عادت صلى علي كرم الله تعالى وجهه العصر أداء بل عودها لم يكن إلا لذلك انتهى .

ولا يحضرني الآن ما لأصحابنا الحفنية في ذلك بيد أني رأيت في "حواشي تفسير

البيضاوي" لشهاب الدين الخفاجي وهو من أجلة الأصحاب ادعاء أن الظاهر أن الصلاة بعد الرد أداء ثم قال : وقد بحث الفهقاء فيه بحثاً طويلاً ليس هذا محله ، وقيل ضمير ﴿ تَوَارَتْ ﴾ للخيل كضمير ﴿ رُدُّوهَا ﴾ واختاره جمع فقيل الحجاب اصطبالاتها أي حتى دخلت اصطبلاتها ، وقيل حتى توارت في المسابقة بما يحجبها عن النظر ، وبعض من قال بإرجاع الضمير للخيل جعل عن للتعليل ولم يجعل المسح بالسوق والأعناق بالمعنى السابق فقالت طائفة : عرض على سليمان الخيل وهو في الصلاة فأشار إليهم إني في صلاة فأزالوها عنه حتى دخلت في الاصطبلات فقال لما فرغ من صلاته : ﴿ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير ﴾ [ص : 32] أي الذي لي عند الله تعالى في الآخرة بسبب ذكر ربي كأنه يقول فشغلني ذلك عن رؤية الخيل حتى دخلت اصطبلاتها ردوها على فطفق يمسح أعرافها وسوقها محبة لها وتكريماً .

(187/660)

وروى أن المسح كان لذلك عن ابن عباس .

والزهري .

وابن كيسان ورجحه الطبري ، وقيل كان غسلاً بالماء ولا يخفى أن تطبيق هذه الطائفة

الآية على ما يقولون ركيك جداً .

وقال الرازي : قال الأكثرون إنه عليه السلام فاته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى الخيل فاستردها وعقر سوقها وأعناقها تقرباً إلى الله تعالى ، وعندي أنه بعيد ويدل عليه وجوه ، الأول : أنه لو كان مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤسكم ﴾ [المائدة : 6] اقطعوها وهذا لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم منه ذلك البتة ، الثاني : أن القائلين بهذا القول جمعوا على سليمان أنواعاً من الأفعال المذمومة ، فأولها : ترك الصلاة ، وثانيها : أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسي الصلاة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : " حب الدنيا رأس كل خطيئة " وثالثها : أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة ، ورابعها : على القول برجوع ضمير ﴿ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ إلى الشمس أنه خاطب رب العالمين بكلمة لا يذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس ، وخامسها : أنه أتبع هذه المعاصي بعقر الخيل سوقها وأعناقها وقد ورد النهي عن ذبح الحيوان إلا لأكله .

فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لا يدل على شيء منها ، وسادسها : أن ذكر هذه القصة وكذا التي قبلها بعد أمره بالصبر على سفاهة الكفار يقتضي أن تكون مشتملة على الأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة والصبر على طاعة الله

تعالى والإعراض عن الشهوات واللذات وأما اشتمالها على الإقدام على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة فبمراحل عن مقتضى التعقيب أن كتاب الله تعالى ينادي على القول المذكور بالفساد .

(188/660)

والصواب أن يقال : إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أن كذلك في دين نبينا صلى الله عليه وسلم ثم أن سليمان احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر إني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس وإنما أحبها لأمر الله تعالى وتقوية دينه وهو المراد من قوله : ﴿ عَن ذِكْرِ رَبِّى ﴾ [ص : 32] ثم أنه عليه السلام أمر باعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك المسح أمور .

الأول : تشريف لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو ، والثاني : أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه ، والثالث : أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذي ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً

موافقاً ، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام ، ثم قال : وأقول أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا ما شاع من الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يراد أنها وليس لهم في إثباتها شبهة فضلاً عن حجة ولفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرها الجمهور كما قد ظهر ظهوراً لا يرتاب العاقل فيه ، وبفرض الدلالة يقال : إن الدلائل الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام ولم يدل دليل على صحة تلك الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالي بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم انتهى كلامه .

(189/660)

وكان عليه الرحمة قد اعترض القول برجوع ضمير ﴿ تَوَارَتْ ﴾ إلى الشمس دون الصافنات بأن الصافنات مذكورة بصريحها والشمس ليست كذلك وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر ، وأيضاً أنه قَالَ ﴿ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِى حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾

[ص : 32] وظاهره يدل على أنه كان يعيد ويكرر قوله إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي إلى أن توارت بالحجاب فإذا كانت المتوارية الشمس يلزم القول بأنه كرر ذلك من العصر

إلى المغرب وهو بعيد ، وإذا كانت الصافنات كان المعنى أنه حين وقع بصره عليها حال عرضها كان يقول ذلك إلى أن غابت عن عينه وذلك مناسب ، وأيضاً القائلون بالعود إلى الشمس قائلون بتركه عليه السلام صلاة العصر ويأباه أني أحببت الخ لأن تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله تعالى لما نسي الصلاة ولما ترك ذكر الله عز وجل ، وأقول : ما عند الجمهور أولى بالقبول وما ذكره عليهم من الوجوه لا يلتفت إليه ولا يعول عليه .

أما ما قاله من أنه لو كان مسح السوق والأعناق بمعنى القطع لكان امسحوا برؤسكم أمراً بقطعها ففيه أن هذا إنما يتم لو قيل إن المسح كلما ذكر بمعنى القطع ولم يقل ولا يقال وإنما قالوا : إن المسح في الآية بمعنى القطع وقد قال بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في خبر حسن وقد قدمناه لك عن الطبراني والإسمعيلي .

وابن مردويه وليس بعد قوله عليه الصلاة والسلام قول لقائل ، ويكفي مثل ذلك الخبر في مثل هذا المطلب إذ ليس فيه ما يخالف العقل أو نقلاً أقوى كما ستعرفه إن شاء الله تعالى .

(190/660)

وقد ذكر هذا المعنى للمسح الزمخشري أيضاً وهو من أجلة علماء هذا الشأن ، وصح نقله عن جماعة من السلف ، وقال الخفاجي : استعمال المسح بمعنى ضرب العنق استعارة

وقعت في كلامهم قديماً ، نعم احتياج ذلك للقرينة مما لا شبهة فيه ، والقرينة عند من يدعيه ههنا السياق وعود ضمير ﴿ تَوَارَتْ ﴾ على الشمس وهو كالمتعين كما سيتضح لك إن شاء الله تعالى .

وأما قوله : إنهم جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة ففرية من غير مرية .

وقوله : أولها : ترك الصلاة فيه أن الترك المذموم ما كان عن عمد وهم لا يقولون به وما يقولون به الترك نسياناً وهو ليس بمذموم إذ النسيان لا يدخل تحت التكليف على أن كون ما ترك فرضاً مما لم يجزم به الجميع ، وقوله : ثانيها : أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث ترك الصلاة ، فيه أن ذلك اشتغال بخيل الجهاد وهو عبادة .

وقوله : ثالثها : أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة ، فيه أنا لا نسلم أنه عليه السلام ارتكب ذنباً حقيقة فضلاً عن كونه عظيماً ، نعم ربما يقال : إنه عليه السلام لم يستحسن ذلك بمقامه فاتبعه التقرب بالخيل التي شغل بسببها وذلك يدل على التوبة دلالة قوية ولم يكن ليتعطل أمر الجهاد به فقد أوتي عليه السلام عير ذلك على أن كون ما ذكر كالاستشهاد على قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : 30] مشعر بتضمنه الأوبة وإن ذهبنا إلى تعلق ﴿ إِذْ عُرِضَ ﴾ [ص : 32] بأواب يكاد لا يرد هذا الكلام رأساً .

وقوله : رابعها : أنه خاطب ربه عز وجل بلفظ غير مناسب ، فيه أنه إن ورد فإنما يرد على القول برجوع ضمير ﴿ رُدُّوهَا ﴾ إلى الشمس ونحن لا نقول به فلا يلزمنا الجواب عنه ، والذي نقوله : إن الضمير للخيل والخطاب لخدمته ومع هذا لم يقل تلك الكلمة تهوراً وتجبراً كما يتوهم ، وقوله : خامسها : أنه اتبع هذه المعاصي بعقر الخيل وقد ورد النهي الخ ، فيه أنه عليه السلام لم يفعل معصية ليقال اتبع هذه المعاصي وأن الخيل عقرت قرباناً وكان تقريبها مشروعاً في دينه فهو طاعة ، ومن مجموع ما ذكرنا يعلم ما في قوله سادسها : الخ على أنه قد تقدم لك وجه ربط هذه القصص بما قبلها وهو لا يتوقف على التزام ما قاله في هذه القصة وما زعمه من أنه الصواب ففي إرجاع ضمير توارت إلى الخيل ، ولا يخفى على ذي ذوق سليم وطبع مستقيم أن توارى الخيل بالحجارة عبارة ركيكة يجل عنها الكتاب المتين ، وفيه أيضاً أنه لا يكاد ينساق إلى الذهن متعلق ﴿ حتى تَوَارَتْ ﴾ الذي أشار إليه في تقرير ما زعم صوابيته وتعلقه بقال على ما يشير إليه كلامه المنقول آخراً مما يستبعد جداً فإن الظاهر أن قوله : ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ [ص : 32] من المحكي كالذي قبله والذي بعده لا من الحكاية ، وأيضاً كون الرد للمسح الذي ذكره خلاف ما جاء في الخبر

الحسن وهو في نفسه بعيد ، والأغراض التي ذكرها فيه لا يخفى حالها ، ودعواه أن هذا التفسير هو الذي ينطبق عليه لفظ القرآن مما لا يتم لها دليل ولعل الدليل على عدم الانطباق ظاهر .

(192/660)

وقوله : أنا شديد التعجب من الناس الخ أقول فيه : أنا تعجبي منه أشد من تعجبه من الناس حيث خفي عليه حسن الوجه الذي استحسنه الجمهور ولم يطلع على ما ورد فيه من الأخبار الحسان وظن أن القول به مناف للقول بعصمة الأنبياء عليهم السلام حتى قال ما قال ورشق على الجمهور النبال ، وقوله في ترجيح رجوع ضمير ﴿ تَوَارَتْ ﴾ إلى ﴿ الصافنات ﴾ على رجوعه إلى الشمس أنها مذكورة بصريحها دون الشمس ليس بشيء فإن رجوعه إلى الشمس يجعل الكلام ركيكاً فلا ينبغي ارتكابه لمجرد أن فيه رجوع الضمير إلى مذكور صريحاً على أن في كونه راجعاً إلى الصافنات المذكورة صريحاً بحثاً ، ولا يرد على الجمهور لزوم تخالف الضمائر في المرجع وهو تفكيك لأن التخالف مع القرينة لا ضير فيه ، وأعجب مما ذكر زعمه أنه يلزم على ما قال الجمهور أن سليمان عليه السلام كرر قوله : ﴿ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَنْ ذِكْرِ رَبِى ﴾ [ص : 32] من العصر إلى المغرب فإن

الجمهور ما حاموا حول ما يلزم منه ذلك أصلاً إذ لم يقل أحد منهم بأن حتى متعلق بقال كما زعم هو بل هي عندهم متعلقة بأحببت على المعنى الذي أسلفناه ، ومن أنصف لا يرتضي أيضاً القول بأنه عليه السلام كرر ذلك القول إلى أن غابت الخيل عن عينه كما قاله به هذا الإمام ، ويرد على قوله القائلون بالعود إلى الشمس قائلون بتركه عليه السلام صلاة العصر وبأباه ﴿ إِنِّى أَحْبَبْتُ ﴾ الخ .

لأن تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله تعالى لما نسي الصلاة أن الجمهور لا يقولون بأن على للتعليل والاباء المذكور على تقدير تسليمه لا يتسنى إلا على ذلك وما يقولونه وقد أسلفناه لك بمراحل عنه .

(193/660)

وبالجملة قد اختلت أقوال هذا الإمام في هذا المقام ولم ينصف مع الجمهور وهم أعرف منه بالمأثور نعم ما ذكره في الآية وجه ممكن فيها على بعد إذا قطع النظر عن الاخبار وما جاء عن السلف من الآثار ، وقد ذكر نحوه عبد الوهاب الشعراني في كتابه اليواقيت والجواهر وهو في الحقيقة والله تعالى أعلم من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره وقد خالف الجمهور كالإمام ، قال في الباب المائة والعشرين من الفتوحات : ليس للمفسرين الذين جعلوا

التواري للشمس دليل فإن الشمس ليس لها هنا ذكر ولا للصلاة التي يزعمون ومساق الآية لا يدل على ما قالوه بوجه ظاهر البتة ، وأما استرواحهم فيما فسروه بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان ﴾ [ص : 34] فالمراد بتلك الفتنة إنما هو الاختبار بالخيل هل يحبها عن ذكر ربه تعالى لها أو يحبها لعينها فأخبر عليه السلام عن نفسه أنه أحبها عن ذكر ربه سبحانه إياها لا لحسنها وكمالها وحاجته إليها إلى آخر ما قال ، وقد كان قدس سره معاصراً للإمام وكتب إليه رسالة يرغبه فيها بسلوك طريقة القوم ولم يجتمعا ، وغالب الظن أنه لم يأخذ أحدهما من الآخر ما قال في الآية بل لم يسمعه وعلم كل منهما لا ينكر والشيخ بحر لا يدرك قعره ، وما ذكره في الاسترواح مما لم أقف عليه لأحد من المفسرين والله تعالى أعلم .

وقرأ ابن كثير ﴿ بالسؤق ﴾ بهمزة ساكنة قال أبو علي : وهي ضعيفة لكن وجهها في القياس أن الضمة لما كانت تلي الواو وقدر أنها عليها كما يفعلون بالواو المضمومة حيث يبدلونها همزة ، ووجهها من القياس أن اباحية النميري كان يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة وكان ينشد

.

أحب الوافدين إلى مؤسي . . .

وقال أبو حيان : ليست ضعيفة لأن الساق فيه الهمزة فوزنه فعل بسكون العين فجاءت

هذه القراءة على هذه اللغة .

وتعقب بأن همز الساق إبدال على غير القياس إذ لا شبهة في كونه أجوف فلا بد من التوجيه بما تقدم .

(194/660)

وقرأ ابن محيصن ﴿ بالسؤوق ﴾ بهمزة مضمومة بعدها واو ساكنة بوزن الفسوق ، ورواها بكار عن قنبل وهو جمع ساق أيضاً .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ الساق بالساق ﴾ مفرداً اكتفى به عن الجمع لأمن اللبس .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾

أظهر ما قيل في فتنته عليه السلام أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة وجاءت بشق رجل وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعاً وفيه : "فوالذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فراسنا" لكن الذي في "صحيح البخاري" أربعين بدل سبعين وأن الملك قال له : قل إن شاء الله فلم يقل وغايته ترك الأولى

فليس بذنب وإن عده هو عليه السلام ذنباً ، فالمراد بالجسد ذلك الشق الذي ولد له ، ومعنى إلقائه على كرسيه وضع القابلة له عليه ليراه .

وروى الإمامية عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه أنه ولد لسليمان ابن فقالت الجن والشياطين : إن عاش له ولد لنلقين منه من أبيه من البلاء فأشفق عليه السلام منهم فجعله وظئره في السحاب من حيث لا يعلمون فلم يشعر إلا وقد ألقى على كرسيه ميتاً تنبيهاً على أن الحذر لا ينجي من القدر وعوتب على تركه التوكل اللائق بالخواص من ترك مباشرة الأسباب ، وروى ذلك عن الشعبي أيضاً ، ورواه بعضهم عن أبي هريرة على وجه لا يشك في وضعه إلا من يشك في عصمة الأنبياء عليهم السلام ، وأنا في صحة هذا الخبر لست على يقين بل ظاهر الآية أن تسخير الريح بعد الفتنة وهو ظاهر في عدم صحة الخبر لأن الوضع في السحاب يقتضي ذلك .

وأخرج عبد بن حميد .

(195/660)

والحكيم الترمذي من طريق علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله تعالى إليه أن يا سليمان احتجبت عن الناس ثلاثة

أيام فلم تنظر في أمور عبادي ولم تنصف مظلوماً من ظالم وكان ملكه في خاتمه وكان إذا دخل الحمام وضع خاتمه تحت فراشه فجاء الشيطان فأخذه فأقبل الناس على الشيطان فقال سليمان : يا أيها الناس أنا سليمان نبي الله تعالى فدفعوه فساح أربعين يوماً فأتى أهل سفينة فأعطوه حوتاً فشقها فإذا هو بالخاتم فيها فتختم به ثم جاء فأخذ بناصيته فقال عند ذلك : ﴿ رَبِّ اغفر لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لاَّ يَنبَغِى لِاحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ [ص : 35]

وأخرج النسائي .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم قال ابن حجر .

(196/660)

والسيوطي بسند قوي عن ابن عباس أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء فأعطى الجرادة خاتمه وكانت امرأته وكانت أحب نسائه إليه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها : هاتي خاتمي فأعطته فلما لبسه دانت الإنس والجن والشياطين فلما خرج سليمان قال لها : هاتي خاتمي قالت : قد أعطيته سليمان قال أنا سليمان قالت كذبت لست سليمان فجعل لا يأتي أحداً فيقول له أنا سليمان إلا كذبه حتى جعل الصبيان يرمونه

بالحجارة فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله تعالى وقام الشيطان يحكم بين الناس فلما أراد الله تعالى أن يرد عليه سلطانه ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا : أتنكرن من سليمان شيئاً ؟ قلن : نعم إنه يأتينا ونحن حيض وما كان يأتينا قبل ذلك فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع فأمر الشياطين فكتبوا كتباً فيها سحر ومكر فدفنوها تحت كرسي سليمان ثم أثاروها وقرؤها على الناس وقالوا : بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم فاكفر الناس سليمان وبعث ذلك الشيطان بالخاتم فطرحه في البحر فتلقته سمكة فأخذته وكان عليه السلام يعمل على شط البحر بالأجر فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة ، فدعا سليمان فحمل معه السمك إلى باب داره فأعطاه تلك السمكة فشق بطنها فإذا الخاتم فيه فأخذه فلبسه فدانت له الإنس والجن والشياطين وعاد إلى حاله وهرب الشيطان إلى جزيرة في البحر فأرسل في طلبه وكان مريداً فلم يقدروا عليه حتى وجدوه نائماً فبنوا عليه بنياناً من رصاص فاستيقظ فأوثقوه وجاؤا به إلى سليمان فأمر فنقر له صندوق من رخام فأدخل في جوفه ثم سد بالنحاس ثم أمر به فطرح في البحر .

(197/660)

وذكر في سبب ذلك أنه عليه السلام كان قد غزا صيدون في الجزائر فقتل ملكها وأصاب ابنته وهي جرادة المذكورة فأحبها وكان لا يرقأ دمعها جزعاً على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته وكان ذلك جائزاً في شريعته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن لها كعادتهن في ملكه فأخبره آصف فكسر الصورة وضرب المرأة فعوتب بذلك حيث تغافل عن حال أهله .

واختلف في اسم ذلك الشيطان فعن السدي أنه حبقيق ؛ وعن الأكثرين أنه صخر وهو المشهور ، وإنما قال سبحانه : ﴿ جَسَداً ﴾ لأنه إنما تمثل بصورة غيره وهو سليمان عليه السلام وتلك الصورة المتمثلة ليس فيها روح صاحبها الحقيقي وإنما حل في قالبها ذلك الشيطان فلذا سميت جسداً وعبارة "القاموس" صريحة في أن الجسد يطلق على الجني .

وقال أبو حيان وغيره : إن هذه المقالة من أوضاع اليهود وزنادقة السوفسطائية ولا ينبغي لعاقل أن يعتقد صحة ما فيها ، وكيف يجوز تمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره عند الناس ويعتقدوا أن ذلك المتصور هو النبي ، ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي نسأل الله تعالى سلامة ديننا وعقولنا ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى وطئهن وهن حيض الله أكبر هذا بهتان عظيم وخطب جسيم ونسبة الخبر إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا تسلم صحتها ، وكذا لا تسلم دعوى قولا سنده إليه وإن قال بها

من سمعت .

وجاء عن ابن عباس برواية عبد الرزاق .

(198/660)

وابن المنذر ما هو ظاهر في أن ذلك من أخبار كعب ومعلوم أن كعباً يرويه عن كتب اليهود وهي لا يوثق بها على أن إشعار ما يأتي بأن تسخير الشياطين بعد الفتنة يأبى صحة هذه المقالة كما لا يخفى ، ثم إن أمر خاتم سليمان عليه السلام في غاية الشهرة بين الخواص والعوام ويستبعد جداً أن يكون الله تعالى قد ربط ما أعطى نبيه عليه السلام من الملك بذلك الخاتم وعندي أنه لو كان في ذلك الخاتم السر الذي يقولون لذكره الله عز وجل في كتابه والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

وقال قوم : مرض سليمان عليه السلام مرضاً كالإغماء حتى صار على كرسيه كأنه جسد بلا روح وقد شاع قولهم في الضعيف : لحم على وضم وجسد بلا روح فالجسد الملقى على الكرسي هو عليه السلام نفسه .

وروى ذلك عن أبي مسلم وقال في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أي رجع إلى الصحة وجعل ﴿ جَسَداً ﴾ حالاً من مفعول ﴿ ألقينا ﴾ المحذوف كأنه قيل ولقد فتنا سلميان أي

ابتليناه وأمرضناه وألقيناه على كرسيه ضعيفاً كأنه جسد بلا روح ثم رجع إلى صحته ، ولا يخفى سقمه ، والحق ما ذكر أولاً في الحديث المرفوع ، وعطف ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ بثم وكان الظاهر الفاء كما في قوله تعالى : ﴿ واستغفر ربَّهُ ﴾ قيل إشارة إلى استمرار إنابته وامتدادها فإن الممتد يعطف بها نظراً لأواخره بخلاف الاستغفار فإنه ينبغي المسارعة إليه ولا امداد في وقته ، وقيل : إن العطف بثم هنا لما أنه عليه السلام لم يعلم الداعي إلى الإنابة عقيب وقوعه وهذا بخلاف ما كان في قصة داود عليه السلام فإن العطف هناك على ظن الفتنة واللائق به أن لا يؤخر الاستغفار عنه ، وقيل : العطف بها هنا لما إن بين زمان الإنابة وأول زمان ما وقع منه عليه السلام من ترك الاستثناء مدة طويلة وهي مدة الحمل وليس بين زمان استغفار داود عليه السلام وأول زمان ما وقع منه كذلك .

(199/660)

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35)

﴿ قَالَ ﴾ بدل من ﴿ أَنَابَ ﴾ [ص : 34] وتفسير له على ما في "إرشاد العقل السليم" وهو الظاهر .

ويمكن أن يكون استئنافاً بيانياً نشأ من حكاية ما تقدم كأنه قيل فهل كان له حال لا يضر معه

مسح الخيل سوقها وأعناقها وهل كان بحيث تقتضي الحكمة فتنته ؟ فأجيب بما أجيب وحاصله نعم كان له حال لا يضر معه المسح وكان بحيث تقتضي الحكمة فتنته فد دعا بملك عظيم فوهب له ، ويمكن أن يقرر الاستئناف على وجه آخر ، وكذا يمكن أن يكون استئنافاً نحوياً لحكاية شيء من أحواله عليه السلام فتأمل ﴿ رَبِّ اغفِرلِى ﴾ ما لم أستحسن صدوره عني .

﴿ وَهَبْ لِى مُلْكاً لاَّ يَنبَغِى لِاحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ أي لا يصح لأحد غيري لعظمته فبعد هنا نظير ما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ﴾ [الجاثية : 23] أي غير الله تعالى ، وهم أعم من أن يكون الغير في عصره ، والمراد وصف الملك بالعظمة على سبيل الكناية كقولك لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال وربما كان في الناس أمثاله تريد أن له من ذلك شيئاً عظيماً لا أن لا يعطي أحد مثله ليكون منافسة ، وما أخرج عبد بن حميد .

والبخاري .

ومسلم .

والنسائي .

(200/660)

والحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن عفريتاً جعل يتفلت على البارحة ليقطع على صلاتي وإن الله تعالى أمكنني منه فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا فتنظوا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان ﴿ رَبِّ اغفر لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لاَّ يَنبَغِى لِاَحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ فرده الله تعالى خاسئاً " لا ينافي ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام أراد كمال رعاية دعوة أخيه سليمان عليه السلام بترك شيء تضمنه ذلك الملك العظيم وإلا فالملك العظيم ليس مجرد ربط عفريت إلى سارية بل هو سائر ما تضمنه قوله تعالى الآتي : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح ﴾ [ص : 36] الخ .

وقيل : إن عدم المنافاة لأن الكناية تجامع إرادة الحقيقة كما تجامع إرادة عدمها ، ولعله إنما طلب عليه السلام ذلك ليكون علامة على قبول سؤاله المغفرة وجبر قلب عما فاته بترك الاستثناء أو ليتوصل به إلى تكثير طاعته لله عز وجل ونعمة الدنيا الصالحة للعبد الصالح فلا إشكال في طلب الملك في هذا المقام إذا قلنا بما يقتضيه ظاهر النظم الجليل من صدور الطلبين معاً .

وقال الزمخشري : كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنبوة ووارثاً لهما فأراد أن يطلب من ربه عز وجل معجزة فطلب على حسب إلفه ملكاً زائداً على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ليكون ذلك دليلاً على نبوته قاهراً للمبعوث إليهم ولن

تكون معجزة حتى تخرق العادات فذلك معنى ﴿ لاَّ يَنبَغِى لِاحَدٍ مّن بَعْدِى ﴾ فقوله من بعدي بمعنى من دوني وغيري كما في الوجه السابق ، وحسن طلب ذلك معجزة مع قطع النظر عن الألف أنه عليه السلام كان زمن الجبارين وتفاخرهم بالملك ومعجزة كل نبي من جنس ما اشتهر في عصره ، ألا ترى أنه لما اشتهر السحر وغلب في عهد الكليم عليه السلام جاءهم بما يتلقف ما أتوا به .

(201/660)

ولما اشتهر الطب في عهد المسيح عليه السلام جاءهم بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، ولما اشتهر في عهد خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم الفصاحة أتاهم بكلام لم يقدروا على أقصر فصل من فصوله .

واعترض بأن اللائق بطلب المعجزة أن يكون في ابتداء النبوة وظاهر "النظم الجليل" أن هذا الطلب كان بعد الفتنة والإنابة كيف لا وقوله تعالى : ﴿ قَالَ ﴾ الخ بدل من ﴿ أَنَابَ ﴾ وتفسير له والفتنة لم تكن في الابتداء كما يشعر به النظم .

وأجيب بأنا لا نسلم أن اللائق بطلب المعجزة كونها في ابتداء النبوة وإن سلم فليس في الآية ما ينافي وقوعه ، وكذا وقوع الفتنة في ابتدائها لا سيما إن قلنا : إن قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبّ

اغفر لي ﴾ الخ ليس تفسيراً لأناب .

وأجيب على القول بأن الفتنة كانت سلب الملك بأن رجوعه بعد كالابتداء .

وذكر بعض الذاهبين إلى ذلك أنه عليه السلام أقام في ملكه قبل هذه الفتنة عشرين سنة وأقام بعدها عشرين سنة أيضاً وقالوا في هذه الآية : إن مصب الدعاء الوصف فمعنى الآية هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد غيري ممن هو في عصري بأن يسلبه مني كهذه السلبة .

وروي هذا المعنى عن عطاء بن أبي رباح .

وقتادة ، وحاصله الدعاء بعدم سلب ملكه عنه في حياته ، ويفهم مما في سياق التفريع إجابة سؤاله عليه السلام وأن ما وهب له لا يسلب عنه بعد .

وجوز أن يكون هذا دعاء بعدم السلب وإن لم يتقدم سلب ودوام نعمة الله عز وجل مما يحسن الدعاء به والآثار ملأى من ذلك فهذا الوجه لا يتعين بناؤه على تفسير الفتنة بسلب الملك على ما حكى سابقاً .

(202/660)

وقال الجبائي : إنه عليه السلام طلب ملكاً لا يكون لغيره أبداً ولم يطلب ذلك إلا بعد الإذن فإن الأنبياء عليهم السلام لا يطلبون إلا ما يؤذن لهم في طلبه وجائز أن يكون الله تعالى قد

أعلمه أنه إن سأل ذلك كان أصلح له في الدين وأعلمه أن لا صلاح لغيره فيه وهو نظير قول القائل : اللهم اجعلني أكثر أهل زماني مالاً إذا علمت أن ذلك أصلح لي فإنه حسن لا ينسب قائله إلى شح اه .

قيل ويجوز أن يكون معنى الآية عليه هب لي ملكاً ينبغي لي حكمة ولا ينبغي حكمة لأحد غيري وأراد بذلك طلب أن يكون عليه السلام متأهلاً لنعم الله عز وجل وهو كما ترى .

وقيل غير ذلك ، ومن أعجب ما رأيت ما قاله السيد المرتضى : إنه يجوز أن يكون إنما سأل ملك الآخرة وثواب الجنة ويكون معنى قوله : ﴿ لاَّ يَنبَغِى لِاَحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ لا يستحقه بعد وصوله إليه من حيث لا يصح أن يعمل ما يستحق به ذلك لانقطاع التكليف ، ولا يخفى أنه مما لا يرتضيه الذوق والتفريع الآتي آب عنه كل الإباء ، واستدل بعضهم بالآية على بعض الأقوال المذكورة فيها على تكفير من ادعى استخدام الجن وطاعتهم له وأيد ذلك بالحديث السابق ، والحق أن استخدام الجن الثابت لسليمان عليه السلام لم يكن بواسطة أسماء ورياضات بل هو تسخير إلهي من غير واسطة شيء وكان أيضاً على وجه أتم وهو مع ذلك بعض الملك الذي استوهبه فالمختص على تقدير إفادة الآية الاختصاص مجموع ما تضمنه قوله تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا ﴾ الخ فالظاهر عدم إكفار من يدعي استخدام شيء من الجن ، ونحن قد شاهدنا مراراً من يدعي ذلك وشاهدنا آثار صدق دعواه على وجه لا ينكره إلا سوفسطائي أو مكابر .

ومن الاتفاقيات الغريبة أني اجتمعت يوم تفسيري لهذه الآية برجل موصلي يدعي ذلك وامتحنته بما يصدق دعواه في محفل عظيم ففعل وأتى بالعجب العجاب ، وكانت الأدلة على نفي احتمال الشعبذة ونحوها ظاهرة لذوي الألباب إلا أن لي إشكالاً في هذا المقام وهو أن الخادم الجني قد يحضر الشيء الكثيف من نحو صندوق مقفل بين جمع في حجرة أغلقت أبوابها وسدت منافذها ولم يشعر به أحد ، ووجه الإشكال أن الجني لطيف فكيف ستر الكثيف فلم ير في الطريق وكيف أخرجه من الصندوق وأدخله الحجرة وقد سددت المنافذ ، وتلطف الكثيف ثم تكثفه بعد مما لا يقبله إلا كثيف أو سخيف ، ومثل ذلك كون الإحضار المذكور على نحو إحضار عرش بلقيس بالإعدام والإيجاد كما يقوله الشيخ الأكبر أو بوجه آخر كما يقول غيره ، ولعل الشرع أيضاً يأبى هذا ، وسرعة المرور إن نفعت ففي عدم الرؤية في الطريق ، وقصارى ما يقال لعل للجني سحراً أو نحوه سلب به الإحساس فتصرف بالصندوق ومنافذ الحجرة حسبما أراد وأتى بالكثيف يحمله ولم يشعر به أحد من الناس فإن تم هذا فبها وإلا فالأمر مشكل ، وظاهر جعل جملة ﴿ قَالَ رَبِّ اغفر لِى ﴾ تفسيراً للإنابة يقتضي أن الاستغفار مقصود لذاته لا وسيلة للاستيهاب ،

وفي كون الاستيهاب مقصوداً لذاته أيضاً احتمالان .

وتقديم الاستغفار على تقدير كونهما مقصودين بالذات لمزيد اهتمامه بأمر الدين وقد يجعل مع هذا وسيلة للاستيهاب المقصود أيضاً فإن افتتاح الدعاء بنحو ذلك أرجى للإجابة ، وجوز على بعد بعد التزام الاستئناف في الجملة كون الاستيهاب هو المقصود لذاته والاستغفار وسيلة له ، وسيجيء إن شاء الله تعالى ما قيل في الاستئناس له .

(204/660)

وقرىء ﴿ مِن بَعْدِى ﴾ بفتح الياء وحكى القراءة به في لي ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الوهاب ﴾ تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معاً لا للدعاء بالأخيرة فقط فإن المغفرة أيضاً من أحكام وصف الوهابية قطعاً ، ومن جوز كون الاستيهاب هو المقصود استأنس له بهذا التعليل ظناً منه أنه للدعاء بالأخيرة فقط وكذا بعدم التعرض لإجابة الدعاء بالأولى فإن الظاهر أن قوله تعالى :

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح ﴾ إلى آخره تفريع على طلبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ولو كان الاستغفار مقصوداً أيضاً لقيل فغفرنا له وسخرنا له الريح الخ .

وأجيب بأنه يجوز أن يقال : إن المغفرة لمن استغفر لا سيما الأنبياء عليهم السلام لما كانت

أمراً معلوماً بخلاف هبة ملك لمن استوهب لم يصرح بها واكتفى بدلالة ما ذكر في حيز الفاء مع ما في الآية بعد على ذلك ، وتقوى هذه الدلالة على تقدير أن يكون طلب الملك علامة على قبول استغفاره وإجابة دعائه فتأمل ، والتسخير التذليل أي فذللناها لطاعته إجابة لدعوته ، وقيل أدمنا تذليلها كما كان وقرأ الحسن .

وأبو رجاء .

وقتادة .

وأبو جعفر ﴿ الرياح ﴾ بالجمع قيل : وهو أوفق لما شاع من أن الريح تستعمل في الشر والرياح في الخير ، وقد علمت أن ذلك ليس بمطرد ، وقوله تعالى : ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ بيان لتسخيرها له عليه السلام أو حال أي جارية بأمره ﴿ رُخَاء ﴾ أي لينة من الرخاوة لا تحرك لشدتها .

واستشكل هذا بأنه ينافي قوله تعالى : ﴿ ولسليمان الريح عَاصِفَةً ﴾ [الأنبياء : 81] لوصفها ثمت بالشدة وهنا باللين .

وأجيب بأنها كانت في أصل الخلقة شديدة لكنها صارت لسليمان لينة سهلة أو أنها تشتد عند الحمل وتلين عند السير فوصفت باعتبار حالين أو أنها شديدة في نفسها فإذا أراد سليمان عليه السلام لينها لانت على ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ أو أنها تلين

وتعصف باقتضاء الحال ، وقال ابن عباس .

والحسن .

(205/660)

والضحاك : رخاء مطيعة لا تخالف إرادته كالمأمور المنقاد ، فالمراد بلينها انقيادها له وهو لا ينافي عصفها ، واللين يكون بمعنى الإطاعة وكذا الصلابة تكون بمعنى العصيان ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي قصد وأراد كما روي عن ابن عباس .

والضحاك .

وقتادة ، وحكى الزجاج عن العرب أصاب الصواب فأخطأ الجواب ، وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما فقال : أن تصيبان ؟ فقالا : هذه طلبتنا ورجعا ويقال أصاب الله تعالى بك خيراً ، وأنشد الثعلبي :

أصاب الكلام فلم يستطع . . .

فأخطأ الجواب لدى المعضل

وعن قتادة أن أصاب بمعنى أراد لغة هجر وقيل لغة حمير ، وجوز أن يكون أصاب من صاب يصوب بمعنى نزل ، والهمزة للتعدية أي حيث أنزل جنوده ، وحيث متعلقة بسخرنا

أو بتجري .

وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37)

﴿ والشياطين ﴾ عطف على ﴿ الريح ﴾ [ص : 36] ﴿ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ ﴾ بدل من ﴿ الشياطين ﴾ وهو بدل كل من كل إن أريد المعهودون المسخرون أو أريد من له قوة البناء والغوص والتمكن منهما أو بدل بعض إن لم يرد ذلك فيقدر ضمير أي منهم والغوص لاستخراج الحلية وهو عليه السلام على ما قيل أول من استخرج الدر .

وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38)

عطف على ﴿ كُلَّ ﴾ لا على ﴿ الشياطين ﴾ [ص : 37] لأنهم منهم إلا أن يراد العهد ولا على ما أضيف إليه ﴿ كُلَّ ﴾ لأنه لا يحسن فيه إلا الإضافة إلى مفرد منكر أو جمع معرف ، والأصفاد جمع صفد وهو القيد في المشهور ، وقيل الجامعة أعني الغل الذي يجمع اليدين إلى العنق قيل وهو الأنسب بمقرنين لأن التقرين بها غالباً ويسمى به العطاء لأنه ارتباط للمنعم عليه ومنه قول علي كرم الله تعالى وجهه : من برك فقد أسرك ومن جفاك فقد أطلقك ؛ وقول القائل : غل يداً مطلقها وفك رقبة معتقها ، وقال أبو تمام

: همي معلقة عليك رقابها . . .

مغلولة إن العطاء إسار

وتبعه المتنبي في قوله

: وقيدت نفسي في ذراك محبة . . .

ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا

وفرقوا بين فعليهما فقالوا : صفده قيده وأصفده أعطاه عكس وعده وأوعده .

ولهم في ذلك كلام طويل قال فيه الخفاجي ما قال ثم قال : والتحقيق عندي أن ههنا مادتين في كل منهما ضار ونافع وقليل اللفظ وكثيره وقد ورد في إحداهما الضار بلفظ قليل مقدم والنافع بلفظ كثير مؤخر وفي الأخرى عكسه ووجهه في الأول أنه أمر واقع لأنه وضع للقيد ثم أطلق على العطاء لأنه يقيد صاحبه وعبر بالأقل في القيد لضيقه المناسب لقلة حروفه وبالأكثر في العطاء لأنه من شأن الكرم .

وقدم الأول لأنه أصل أخف وعكس ذلك في وعد وأوعد فعبر في النافع بالأقل وقدم وأخر الضار وكثر حروفه لأنه مستقبل غير واقع والخير الموعود به يحمد سرعة إنجازه وقلة مدة وقوعه فإن أهنا البر عاجله وهذا يناسب قلة حروفه وفي الوعيد يحمد تأخيره لحسن الخلف والعفو عنه فناسب كثرة حروفه ثم قال : وهذا تحقيق في غاية الحسن وما عداه وهم فارغ فاعرفه والمراد بهؤلاء المقرنين المردة فتفيد الآية تفصيل الشياطين إلى عملة

استعملهم عليه السلام في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص ومردة قرن بعضهم ببعض بالجوامع ليكفوا عن الشر ، وظاهره أن هناك تقييداً حقيقة وهو مشكل لأن الشياطين إما أجسام نارية لطيفة قابلة للتشكل ، وإما أرواح خبيثة مجردة ، وأياً ما كان لا يمكن تقييدها ولا إمساك القيد لها .

وأجيب باختيار الأول وهو الصحيح .

والأصفاد غير ما هو المعروف بل هي أصفاد يتأتى بها تقييد اللطيف على وجه يمنعه عن التصرف ، والأمر من أوله خارق للعادة ، وقيل : إن لطافة أجسامهم بمعنى شفافتها والشفافة لا تأبى الصلابة كما في الزجاج والفلك عند الفلاسفة فيمكن أن تكون أجسامهم شفافة وصلبة فلا ترى لشفافتها ويتأتى تقييدها لصلابتها ، وأنكر بعضهم الصلابة لتحقق نفوذ الشياطين فيما لا يمكن نفوذ الصلب فيه وأنهم لا يدركون باللمس والصلب يدرك به .

(207/660)

وقيل : لا مانع من أنه عليه السلام يقيدهم بشكل صلب فيقيدهم حينئذٍ بالأصفاد والشيطان إذا ظهر متشكلاً بشكل قد يتقيد به ولا يمكنه التشكل بغيره ولا العود إلى ما كان ، وقد نص الشيخ الأكبر محيي الدين قدس سره أن نظر الإنسان يقيد الشيطان بالشكل

الذي يراه فيه فمتى رأى الإنسان شيطاناً بشكل ولم يصرف نظره عنه بالكلية لم يستطع الشيطان الخفاء عنه ولا التشكل بشكل آخر إلى أن يجد فرصة صرف النظر عنه ولو برمشة عين .

وزعم الجبائي أن الشياطن كان كثيف الجسم في زمن سليمان عليه السلام ويشاهده الناس ثم لما توفي عليه السلام أمات الله عز وجل ذلك الجن وخلق نوعاً آخر لطيف الجسم بحيث لا يرى ولا يقوى على الأعمال الشاقة ، وهذا لا يقبل أصلاً إلا برواية صحيحة وأنى هي ، وقيل : الأقرب أن المراد تمثيل كفهم عن الشرور بالأقران في الصفد وليس هناك قيد ولا تقييد حقيقة .

﴿ هذا عَطَاؤُنَا فامنن أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ إما حكاية لما خوطب به سليمان عليه السلام مبينة لعظم شأن ما أوتي من الملك وأنه مفوض إليه تفويضاً كلياً ، وإما مقول لقول مقدر هو معطوف على ﴿ سَخَّرْنَا ﴾ [ص : 36] أو حال من فاعله أي وقلنا أو قائلين له هذا الخ والإشارة إلى ما أعطاه مما تقدم أي هذا الذي أعطيناكه من الملك العظيم والبسطة والتسليط على ما لم يسلط عليه غيرك عطاؤنا الخاص بك فأعط من شئت وامنع من شئت غير محاسب على شيء من الأمرين ولا مسؤول عنه في الآخرة لتفويض التصرف فيه إليك على الإطلاق ، فبغير حساب حال من المستكن في الأمر والفاء جزائية و ﴿ هذا عَطَاؤُنَا ﴾ مبتدأ وخبر ، والإخبار مفيد لما أشرنا إليه من اعتبار الخصوص أي عطاؤنا

الخاص بك أو يقال : إن ذكره ليس للإخبار به بل ليترتب عليه ما بعده كقوله

: هذه دارهم وأنت مشوق . . .

ما بقاء الدموع في الآماق

(208/660)

وجوز أن يكون ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ حالاً من العطاء نحو ﴿ هذا بَعْلِى شَيْخاً ﴾ [هود : 72] أي هذا عطاؤنا متلبساً بغير حساب عليه في الآخرة أو هذا عطاؤنا كثيراً جداً لا يعد ولا يحسب لغاية كثرته ، وأن يكون صلة العطاء واعتبره بعضهم قيداً له لتتم الفائدة ولا يحتاج لاعتبار ما تقدم ، وعلى التقديرين ما في البين اعتراض فلا يضر الفصل به ، والفاء اعتراضية وجاء اقتران الاعتراض بها كما جاء بالواو كقوله

: واعلم فعلم المرء ينفعه . . .

أن سوف يأتي كل ما قدرا

وقيل : الإشارة إلى تسخير الشياطين ، والمراد بالمن والإمساك إطلاقهم وإبقاؤهم في الأصفاد ، والمن قد يكون بمعنى الإطلاق كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء ﴾ [محمد : 4] والأولى في قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ حينئذٍ كونه حالاً من

المستكن في الأمر ، وهذا القول رواه ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وما روي عنه من أنه إشارة إلى ما وهب له عليه السلام من النساء والقدرة على جماعهن لا يكاد يصح إذ لم يجر لذلك ذكر في الآية ، وإلى الأول ذهب الجمهور وهو اوظهر ، وقرأ ابن مسعود ﴿ هذا فامنن أَوْ أَمْسِكْ عَطَاؤُنَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ لقربة وكرامة مع ماله من الملك العظيم فهو إشارة إلى أن ملكه لا يضره ولا ينقصه شيئاً من مقامه .

﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ حسن مرجع في الجنة وهو عطف على ﴿ زلفى ﴾ وقرأ الحسن .

(209/660)

وابن أبي عبلة ﴿ وَحَسُنَ ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف أي له ، والوقف عندهما على ﴿ لزلفى ﴾ هذا وأمر سليمان عليه السلام من أعظم الأمور وكان مع ما آتاه الله تعالى من الملك العظيم يعمل الخوص بيده ويأكل خبز الشعير ويطعم بني إسرائيل الحواري أخرجه أحمد في الزهد عن عطاء ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رفع سليمان عليه السلام طرفه إلى

السماء تخشعاً " حيث أعطاه الله تعالى ما أعطاه وكان في عصره من ملوك الفرس كيخسرو فقد ذكر الفقيه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري في تاريخه أنه عليه السلام ورث ملك أبيه في عصر كيخسرو بن سباوش وسار من الشام إلى العراق فبلغ خبره كيخسرو فهرب إلى خراسان فلم يلبث حتى هلك ثم سار سليمان إلى مرو ثم إلى بلاد الترك فوغل فيها ثم جاوز بلاد الصين ثم عطف إلى أن وافى بلاد فارس فنزلها أياماً ثم عاد إلى الشام ثم أمر ببناء بيت المقدس فلما فرغ سار إلى تهامة ثم إلى صنعاء وكان من حديثه مع صاحبتها ما ذكره الله تعالى وغزا بلاد المغرب الأندلس وطنجة وغيرهما ثم انطوى البساط وضرب له بين عساكر الموتى الفسطاط فسبحان الملك الدائم الذي لا يزول ملكه ولا ينقضي سلطانه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(210/660)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26) ﴾

لما تمم سبحانه قصة داود أردفها ببيان تفويض أمر خلافة الأرض إليه ، والجملة مقولة لقول مقدر معطوف على غفرنا أي : وقلنا له ﴿ ياداوود إِنَّا جَعَلْنَاكَ ﴾ استخلفناك على الأرض ، أو ﴿ جعلناك خَلِيفَةً ﴾ لمن قبلك من الأنبياء لتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ﴿ فاحكم بَيْنَ الناس بالحق ﴾ أي : بالعدل الذي هو حكم الله بين عباده ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى ﴾ أي : هوى النفس في الحكم بين العباد .

وفيه تنبيه لداود عليه السلام أن الذي عوتب عليه ليس بعدل ، وأن فيه شائبة من اتباع هوى النفس ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ بالنصب على أنه جواب للنهي ، وفاعل يضلك هو الهوى ، ويجوز أن يكون الفعل مجزوماً بالعطف على النهي ، وإنما حرك لالتقاء الساكنين ، فعلى الوجه الأول يكون المنهي عنه الجمع بينهما ، وعلى الوجه الثاني يكون النهي عن كلّ واحد منهما على حدة .

وسبيل الله : هو طريق الحق ، أو طريق الجنة .

وجملة : ﴿ إِنَّ الذين يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُ ﴾ تعليل للنهي عن اتباع الهوى ، والوقوع في الضلال ، والباء في : ﴿ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الحساب ﴾ للسببية ، ومعنى النسيان : الترك ، أي : بسبب تركهم العمل لذلك اليوم .

قال الزجاج : أي : بتركهم العمل لذلك اليوم صاروا بمنزلة الناسين ، وإن كانوا ينذرون ، ويذكرون .

وقال عكرمة ، والسدّي : في الآية تقديم وتأخير ، والتقدير : ولهم عذاب يوم الحساب بما نسوا ، أي : تركوا القضاء بالعدل ، والأوّل أولى .

(211/660)

وجملة : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من أمر البعث والحساب ، أي : ما خلقنا هذه الأشياء خلقاً باطلاً خارجاً على الحكمة الباهرة ، بل خلقناها للدلالة على قدرتنا ، فانتصاب ﴿ باطلاً ﴾ على المصدرية ، أو على الحالية ، أو على أنه مفعول لأجله ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى المنفيّ قبله ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي : مظنونهم ، فإنهم يظنون أن هذه الأشياء خلقت لا لغرض ، ويقولون : إنه لا قيامة ، ولا بعث ، ولا حساب ، وذلك يستلزم أن يكون خلق هذه المخلوقات باطلاً ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ والفاء لإفادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل ، أي : فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم ، وكفرهم . ثم وبخهم ، وبكتهم فقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِى الأرض ﴾ قال مقاتل : قال كفار قريش للمؤمنين : إنا نعطي في الآخرة كما تعطون ، فنزلت ، و " أم " هي : المنقطعة المقدّرة ببل والهمزة ، أي : بل أنجعل الذين آمنوا بالله ، وصدقوا

رسله ، وعملوا بفرائضه كالمفسدين في الأرض بالمعاصي .

ثم أضرب سبحانه إضرابا آخر ، وانتقل عن الأول إلى ما هو أظهر استحالة منه ، فقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ أي : بل تجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء الكافرين ، والمنافقين ، والمنهمكين في معاصي الله سبحانه من المسلمين ، وقيل : إن الفجار هنا خاص بالكافرين ، وقيل : المراد بالمتقين الصحابة ، ولا وجه للتخصيص بغير مخصص ، والاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(212/660)

﴿ كتاب أنزلناه إِلَيْكَ مبارك ﴾ ارتفاع كتاب على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وأنزلناه إليك صفة له ، ومبارك خبر ثانٍ للمبتدأ ولا يجوز أن يكون صفة أخرى لكتاب لما تقرر من أنه لا يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح ، وقد جوزه بعض النحاة ، والتقدير : القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمد كثير الخير ، والبركة .

وقرىء : (مباركاً) على الحال ، وقوله : ﴿ لّيَدَّبَّرُواْ ﴾ أصله : ليتدبروا ، فأدغمت التاء في الدال ، وهو متعلق بأنزلناه .

وفي الآية دليل على أن الله سبحانه إنما أنزل القرآن للتدبر ، والتفكر في معانيه ، لا لمجرد

التلاوة بدون تدبر .

قرأ الجمهور : ﴿ ليدبروا ﴾ بالإدغام .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة : (لتدبروا) بالتاء الفوقية على الخطاب ، ورويت هذه القراءة عن عاصم ، والكسائي ، وهي قراءة علي رضي الله عنه ، والأصل لتتدبروا بتاءين ، فحذف إحداهما تخفيفاً ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ﴾ أي : ليتعظ أهل العقول ، والألباب جمع لب وهو : العقل .

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سليمان نِعْمَ العبد إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أخبر سبحانه : بأن من جملة نعمه على داود أنه وهب له سليمان ولداً ، ثم مدح سليمان ، فقال : ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ والمخصوص بالمدح محذوف ، أي : نعم العبد سليمان ، وقيل : إن المدح هنا بقوله : ﴿ نعم العبد ﴾ هو لداود ، والأول أولى ، وجملة : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ تعليل لما قبلها من المدح ، والأواب : الرجاع إلى الله بالتوبة كما تقدم بيانه ، والظرف في قوله : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ متعلق بمحذوف وهو : اذكر ، أي : اذكر ما صدر عنه وقت عرض الصافنات الجياد عليه ﴿ بالعشى ﴾ وقيل : هو متعلق بنعم ، وهو مع كونه غير متصرف لا وجه لتقييده بذلك الوقت ، وقيل : متعلق بأواب ، ولا وجه لتقييد كونه أواباً بذلك الوقت ، والعشي : من الظهر ، أو العصر إلى آخر النهار ، و ﴿ الصافنات ﴾ جمع صافن .

وقد اختلف أهل اللغة في معناه ، فقال القتيبي ، والفراء : الصافن في كلام العرب : الواقف من الخيل ، أو غيرها ، وبه قال قتادة ، ومنه الحديث : " من أحب أن يتمثل له الناس صفونا ، فليتبوأ مقعده من النار " ، أي : يديمون القيام له ، واستدلوا بقول النابغة :

لنا قبة مضروبة بفنائها . . . عتاق المهارى والجياد الصوافن

ولا حجة لهم في هذا فإنه استدلال بمحل النزاع ، وهو مصادرة ؛ لأن النزاع في الصافن ماذا هو ؟ وقال الزجاج : هو الذي يقف على إحدى اليدين ، ويرفع الأخرى ، ويجعل على الأرض طرف الحافر منها حتى كأنه يقوم على ثلاث ، وهي : الرجلان ، وإحدى اليدين ، وقد يفعل ذلك بإحدى رجليه ، وهي : علامة الفراهة .

وأنشد الزجاج قول الشاعر :

ألف الصفون فما يزال كأنه . . . مما يقوم على الثلاث كسيرا

ومن هذا قول عمرو بن كلثوم :

تركنا الخيل عاكفة عليه . . . مقلدّة أعنتها صفونا

فإن قوله : صفونا لا بدّ أن يحمل على معنى غير مجرّد القيام ، لأن مجرّد القيام قد استفيد من قوله : عاكفة عليه .

وقال أبو عبيد : الصافن هو : الذي يجمع يديه ، ويسويهما ، وأما الذي يقف على سنبكه ،

فاسمه : المتخيم ، والجياد جمع جواد ، يقال : للفرس إذا كان شديدا العدو .

وقيل : إنها الطوال الأعناق ، مأخوذ من الجيد ، وهو : العنق ، قيل : كانت مائة فرس ، وقيل : كانت عشرين ألفاً ، وقيل : كانت عشرين فرساً ، وقيل : إنها خرجت له من البحر ، وكانت لها أجنحة ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ انتصاب ﴿ حب الخير ﴾ على أنه مفعول أحببت بعد تضمينه معنى : آثرت .

قال الفراء : يقول : آثرت حب الخير ، وكل من أحب شيئاً ، فقد آثره .

وقيل : انتصابه على المصدرية بحذف الزوائد ، والناصب له أحببت ، وقيل : هو مصدر تشبيهي ، أي : حباً مثل حب الخير ، والأول أولى .

والمراد بالخير هنا : الخيل .

قال الزجاج : الخير هنا : الخيل .

(214/660)

وقال الفراء : الخير ، والخيل في كلام العرب واحد .

قال النحاس : وفي الحديث : " الخيل معقود بنواصيها الخير " ، فكأنها سميت خيراً لهذا .

وقيل : إنها سميت خيراً لما فيها من المنافع .

"وعن" في ﴿ عَن ذِكْرِ رَبِّى ﴾ بمعنى : على .

والمعنى : آثرت حبّ الخيل على ذكر ربي ، يعني : صلاة العصر ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ يعني : الشمس ، ولم يتقدّم لها ذكر ، ولكن المقام يدلّ على ذلك .

قال الزجاج : إنما يجوز الإضمار إذا جرى ذكر الشيء ، أو دليل الذكر ، وقد جرى هنا الدليل ، وهو قوله : بالعشيّ .

والتواري : الاستتار عن الأبصار ، والحجاب : ما يحجبها عن الأبصار .

قال قتادة ، وكعب : الحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق ، وهو جبل قاف ، وسمي الليل حجاباً ؛ لأنه يستر ما فيه ، وقيل : الضمير في قوله : ﴿ حتى تَوَارَتْ ﴾ للخيل ، أي : حتى توارت في المسابقة عن الأعين ، والأوّل أولى ، وقوله : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ من تمام قول سليمان ، أي : أعيدوا عرضها عليّ مرّة أخرى .

قال الحسن : إن سليمان لما شغله عرض الخيل حتى فاتته صلاة العصر غضب لله ، وقال : ردّوها عليّ ، أي : أعيدوها .

وقيل : الضمير : في ﴿ ردّوها ﴾ يعود إلى الشمس ، ويكون ذلك معجزة له ، وإنما أمر بإرجاعها بعد مغيبها لأجل أن يصلي العصر ، والأوّل أولى ، والفاء في قوله : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والأعناق ﴾ هي : الفصيحة التي تدل على محذوف في الكلام ، والتقدير هنا : فردّوها عليه .

قال أبو عبيدة : طفق يفعل ، مثل ما زال يفعل ، وهو مثل ظلّ ، وبات .

وانتصاب ﴿ مسحاً ﴾ على المصدرية بفعل مقدّر ، أي : يمسح مسحاً ؛ لأن خبر طفق لا يكون إلا فعلاً مضارعاً ، وقيل : هو مصدر في موضع الحال ، والأول أولى .

والسوق جمع ساق ، والأعناق جمع عنق ، والمراد : أنه طفق يضرب أعناقها ، وسوقها ، يقال : مسح علاوته ، أي : ضرب عنقه .

(215/660)

قال الفراء : المسح هنا : القطع ، قال : والمعنى : أنه أقبل يضرب سوقها ، وأعناقها ؛ لأنها كانت سبب فوت صلاته ، وكذا قال أبو عبيدة .

قال الزجاج : ولم يكن يفعل ذلك إلا وقد أباحه الله له ، وجائز أن يباح ذلك لسليمان ، ويحضر في هذا الوقت .

وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية ، فقال قوم : المراد بالمسح ما تقدّم .

وقال آخرون : منهم الزهري وقتادة : إن المراد به : المسح على سوقها ، وأعناقها لكشف الغبار عنها حباً لها .

والقول الأوّل أولى بسياق الكلام ، فإنه ذكر أنه آثرها على ذكر ربه حتى فاتته صلاة العصر

، ثم أمرهم بردّها عليه ؛ ليعاقب نفسه بإفساد ما ألهاه عن ذلك ، وما صدّه عن عبادة ربه ، وشغله عن القيام بما فرضه الله عليه ، ولا يناسب هذا أن يكون الغرض من ردّها عليه هو كشف الغبار عن سوقها ، وأعناقها بالمسح عليها بيده ، أو بثوبه ، ولا متمسك لمن قال : إن إفساد المال لا يصدر عن النبيّ ، فإن هذا مجرد استبعاد باعتبار ما هو المتقرّر في شرعنا مع جواز أن يكون في شرع سليمان أن مثل هذا مباح على أن إفساد المال المنهيّ عنه في شرعنا إنما هو مجرّد إضاعته لغير غرض صحيح ، وأما لغرض صحيح ، فقد جاز مثله في شرعنا كما وقع منه صلى الله عليه وسلم من إكفاء القدور التي طبخت من الغنيمة قبل القسمة ، ولهذا نظائر كثيرة في الشريعة ، ومن ذلك ما وقع من الصحابة من إحراق طعام المحتكر .

وقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِى الأرض ﴾ قال : الذين آمنوا : عليّ ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث ، والمفسدين في الأرض : عتبة ، وشيبة ، والوليد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : ﴿ الصافنات الجياد ﴾ .

خيل خلقت على ما شاء .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ الصافنات ﴾ قال : صفون الفرس : رفع إحدى يديه حتى يكون على أطراف الحافر ، وفي قوله : ﴿ الجياد ﴾ : السراع .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله : ﴿ حُبَّ الخير ﴾ قال : الماء ، وفي قوله : ﴿ ردّوها عليّ ﴾ قال : الخيل ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً ﴾ قال : عقراً بالسيف .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب قال : الصلاة التي فرّط فيها سليمان صلاة العصر .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي في قوله : ﴿ إذ عرض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد ﴾ قال : كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة ، فعقرها .

وأخرج ابن إسحاق ، وابن جرير عن ابن مسعود بقوله : ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ قال : توارت من وراء ياقوتة خضراء ، فخضرة السماء منها .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن عباس قال : كان سليمان لا يكلم إعظاماً له ، فلقد فاتته صلاة العصر ، وما استطاع أحد أن يكلمه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ عَن ذِكْرِ رَبِى ﴾ يقول :

من ذكر ربي ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والأعناق ﴾ قال : قطع سوقها ، وأعناقها بالسيف .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان ﴾ أي : ابتليناه ، واختبرناه .

قال الواحدي : قال أكثر المفسرين : تزوّج سليمان امرأة من بنات الملوك ، فعبدت الصنم في داره ، ولم يعلم بذلك سليمان ، فامتحن بسبب غفلته عن ذلك .

وقيل : إن سبب الفتنة : أنه تزوّج سليمان امرأة يقال لها : جرادة ، وكان يحبها حباً شديداً ، فاختصم إليه فريقان : أحدهما : من أهل جرادة ، فأحبّ أن يكون القضاء لهم ، ثم قضى بينهم بالحق .

وقيل : إن السبب : أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد .

وقيل : إنه تزوّج جرادة هذه ، وهي مشركة ؛ لأنه عرض عليها الإسلام ، فقالت : اقتلني ، ولا أسلم .

(217/660)

وقال كعب الأحبار : إنه لما ظلم الخيل بالقتل سلب ملكه .

وقال الحسن : إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره .

وقيل : إنه أمر أن لا يتزوّج امرأة إلا من بني إسرائيل ، فتزوّج امرأة من غيرهم .

وقيل : إن سبب فتنته ما ثبت في الحديث الصحيح : أنه قال : لأطوفنّ الليلة على تسعين امرأة تأتي كلّ واحدة بفارس يقاتل في سبيل الله ، ولم يقل : إن شاء الله .

وقيل غير ذلك .

ثم بيّن سبحانه ما عاقبه به ، فقال : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ انتصاب ﴿ جسداً ﴾ على أنه مفعول ﴿ ألقينا ﴾ ، وقيل : انتصابه على الحال على تأويله بالمشتق ، أي : ضعيفاً ، أو فارغاً ، والأوّل أولى .

قال أكثر المفسرين : هذا الجسد الذي ألقاه الله على كرسيّ سليمان هو شيطان اسمه : صخر ، وكان متمّرداً عليه غير داخل في طاعته ، ألقى الله شبه سليمان عليه ، وما زال يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان ، وذلك عند دخول سليمان الكنيف ؛ لأنه كان يلقيه إذا دخل الكنيف ، فجاء صخر في صورة سليمان ، فأخذ الخاتم من امرأة من نساء سليمان ، فقعد على سرير سليمان ، وأقام أربعين يوماً على ملكه ، وسليمان هارب .

وقال مجاهد : إن شيطاناً قال له سليمان : كيف تفتنون الناس ؟ قال : أرني خاتمك أخبرك ، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر ، فذهب ملكه ، وقعد الشيطان على كرسيه ، ومنعه الله نساء سليمان ، فلم يقربهنّ ، وكان سليمان يستطعم ، فيقول : أتعرفونني أطعموني ؟ فيكذبوه حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً ، فشقّ بطنه ، فوجد خاتمه في بطنه ، فرجع إليه

ملكه ، وهو معنى قوله : ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أي : رجع إلى ملكه بعد أربعين يوماً .

وقيل : معنى أناب : رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه ، وهذا هو الصواب ، وتكون جملة : ﴿ قَالَ رَبِّ اغفِرلِى ﴾ بدلاً من جملة أناب ، وتفسيراً له ، أي : اغفر لي ما صدر عني من الذنب الذي ابتليتني لأجله .

(218/660)

ثم لما قدّم التوبة ، والاستغفار جعلها وسيلة إلى إجابة طلبته ، فقال : ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكاً لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ قال أبو عبيدة : معنى لا ينبغي لأحد من بعده : لا يكون لأحد من بعدي .

وقيل : المعنى : لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلبة ، أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته ، وليس هذا من سؤال نبيّ الله سليمان عليه السلام للدنيا ، وملكها ، والشرف بين أهلها ، بل المراد بسؤاله الملك : أن يتمكن به من إنفاذ أحكام الله سبحانه ، والأخذ على يد المتمرّدين من عباده من الجنّ ، والإنس ، ولو لم يكن من المقتضيات لهذا السؤال منه إلا ما رآه عند قعود الشيطان على كرسيه من الأحكام الشيطانية الجارية في عباد الله ، وجملة : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الوهاب ﴾ تعليل لما قبلها مما طلبه من مغفرة الله له وهبة الملك الذي لا ينبغي

لأحد من بعده ، أي : فإنك كثير الهبات عظيم الموهوبات .

ثم ذكر سبحانه إجابته لدعوته ، وإعطاءه لمسألته ، فقال : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ أي : ذللناها له ، وجعلناها منقادة لأمره .

ثم بيّن كيفية التسخير لها بقوله : ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء ﴾ أي : لينة الهبوب ليست بالعاصف ، مأخوذ من الرخاوة ، والمعنى : أنها ريح لينة لا تزعزع ، ولا تعصف مع قوة هبوبها ، وسرعة جريها ، ولا ينافي هذا قوله في آية أخرى ﴿ ولسليمان الريح عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ [الأنبياء : 81] لأن المراد : أنها في قوة العاصفة ، ولا تعصف .

وقيل : إنها كانت تارة رخاء ، وتارة عاصفة على ما يريده سليمان ، ويشتهيه ، وهذا أولى في الجمع بين الآيتين ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي : حيث أراد .

قال الزجاج : إجماع أهل اللغة والمفسرين أن معنى ﴿ حيث أصاب ﴾ : حيث أراد ، وحقيقته حيث قعد .

وقال الأصمعي ، وابن الأعرابي : العرب تقول : أصاب الصواب ، وأخطأ الجواب .

وقيل : إن معنى أصاب بلغة حمير : أراد ، وليس من لغة العرب ، وقيل : هو بلسان هجر ، والأول أولى ، وهو مأخوذ من إصابة السهم للغرض ﴿ والشياطين ﴾ معطوف على الريح ، أي : وسخرنا له الشياطين ، وقوله : ﴿ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ ﴾ بدل من الشياطين ، أي : كل بناء منهم ، وغواص منهم يبنون له ما يشاء من المباني ، ويغوصون في البحر ، فيستخرجون له الدر منه ، ومن هذا قول الشاعر :

إلا سليمان إذ قال الجليل له . . . قم في البرية فاحددها عن الفند

وخيس الجن أني قد أذنت لهم . . . يبنون تدمر بالصفاح والعمد

﴿ وَءاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الأصفاد ﴾ معطوف على كل داخل في حكم البدل ، وهم مردة الشياطين سخروا له حتى قرنهم في الأصفاد .

يقال : قرنهم في الحبال إذا كانوا جماعة كثيرة ، والأصفاد : الأغلال واحدها صفد .

قال الزجاج : هي السلاسل ، فكل ما شددته شداً وثيقاً بالحديد ، وغيره ، فقد صفدته .

قال أبو عبيدة : صفدت الرجل ، فهو : مصفود ، وصفدته ، فهو : مصفد ، ومن هذا قول عمرو بن كلثوم في معلقته :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا . . . وأبنا بالملوك مصفدينا

قال يحيى بن سلام : ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفارهم ، فإذا آمنوا أطلقهم ، ولم يسخرهم ، والإشارة بقوله : ﴿ هذا ﴾ إلى ما تقدم من تسخير الريح ، والشياطين له ، وهو بتقدير

القول ، أي : وقلنا له : ﴿ هذا عَطَاؤُنَا ﴾ الذي أعطيناكه من الملك العظيم الذي طلبته ﴿ فامنن أَوْ أَمْسِكْ ﴾ قال الحسن ، والضحاك ، وغيرهما : أي فأعط من شئت ، وامنع من شئت ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ لا حساب عليك في ذلك الإعطاء ، أو الإمساك ، أو عطاؤنا لك بغير حساب لكثرته ، وعظمته .

(220/660)

وقال قتادة : إن قوله : ﴿ هذا عَطَاؤُنَا ﴾ إشارة إلى ما أعطيه من قوة الجماع ، وهذ لا وجه لقصر الآية عليه لو قدّرنا أنه قد تقدم ذكره من جملة تلك المذكورات ، فكيف يدعي اختصاص الآية به مع عدم ذكره ؟ ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ أي : قربة في الآخرة ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ ، وحسن مرجع ، وهو : الجنة .

وقد أخرج الفريابي ، والحكيم الترمذي ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ قال : هو الشيطان الذي كان على كرسيه يقضي بين الناس أربعين يوماً ، وكان لسليمان امرأة يقال لها : جرادة ، وكان بين بعض أهلها ، وبين قوم خصومة ، فقضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن الحق كان لأهلها ، فأوحى الله إليه أن سيصيبك بلاء ، فكان لا يدري أيأتيه من السماء أم من الأرض ؟ وأخرج

النسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، قال السيوطي بسند قوي : عن ابن عباس قال : أراد سليمان أن يدخل الخلاء ، فأعطى لجرادة خاتمه ، وكانت جرادة امرأته ، وكانت أحب نسائه إليه ، فجاء الشيطان في صورة سليمان ، فقال لها : هاتي خاتمي ، فأعطته ، فلما لبسه دانت له الإنس ، والجن ، والشياطين ، فلما خرج سليمان من الخلاء قال : هاتي خاتمي ، قالت : قد أعطيته سليمان .

(221/660)

قال : أنا سليمان ، قالت : كذبت لست سليمان ، فجعل لا يأتي أحداً يقول : أنا سليمان إلا كذبه ، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة ، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله ، وقام الشيطان يحكم بين الناس ، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان ، فأرسلوا إلى نساء سليمان ، فقالوا لهن : تنكرن من أمر سليمان شيئاً ؟ قلن : نعم إنه يأتينا ، ونحن نحيض ، وما كان يأتينا قبل ذلك ، فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع ، فكتبوا كتباً فيها سحر ، وكفر ، فدفنوها تحت كرسي سليمان ، ثم أثاروها ، وقرءوها على الناس ، وقالوا : بهذا كان يظهر سليمان على الناس ، ويغلبهم ، فأكفر الناس سليمان ، فلم يزالوا يكفرونه ، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم ،

فطرحه في البحر فتلقته سمكة ، فأخذته ، وكان سليمان يعمل على شط البحر بالأجر ، فجاء رجل ، فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم ، فدعا سليمان ، فقال : تحمل لي هذا السمك ؟ قال : نعم ، قال : بكم ؟ قال : بسمكة من هذا السمك ، فحمل سليمان السمك ، ثم انطلق به إلى منزله ، فلما انتهى الرجل إلى باب داره أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم ، فأخذها سليمان ، فشق بطنها ، فإذا الخاتم في جوفها ، فأخذه ، فلبسه ، فلما لبسه دانت له الجنّ ، والإنس ، والشياطين ، وعاد إلى حاله ، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر ، فأرسل سليمان في طلبه ، وكان شيطاناً مريداً ، فجعلوا يطلبونه ، ولا يقدرون عليه حتى وجدوه يوماً نائماً ، فجاءوا ، فبنوا عليه بنياناً من رصاص ، فاستيقظ ، فوثب ، فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا انماط معه الرصاص ، فأخذوه ، فأوثقوه ، وجاءوا به إلى سليمان ، فأمر به ، فنقر له تحت من رخام ، ثم أدخله في جوفه ، ثم شدّ بالنحاس ، ثم أمر به ، فطرح في البحر ، فذلك قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ

(222/660)

جَسَداً ﴾ يعني : الشيطان الذي كان سلط عليه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ قال : صخر الجني تمثل على كرسيه على صورته .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ عفريتاً من الجنّ جعل يتفلت عليّ البارحة ؛ ليقطع عليّ صلاتي ، وإن الله أمكنني منه ، فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا ، فتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ﴾ فردّه الله خاسئاً " وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فامنن ﴾ يقول : اعتق من الجنّ من شئت ، وأمسك منهم من شئت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(223/660)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُادَ سُلَيْمَانَ ﴾ :

والهبة : عطاء الواهب بطريق الإنعام لا بطريق العوض ، والجزاء الموافق لأعمال الموهوب

له .

فسليمان : النعمة التامة على داود ؛ لأن الخلافة الظاهرة الإلهية قد كملت لداود وظهرت أكمليتها في سليمان ، وكذا على العالمين لما وصل منه إليهم من آثار اللطف والرحمة .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أولادنا من مواهب الله ، ثم قرأ : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ﴾ (الشورى : 49) .

روي : أن داود عليه السلام عاش مائة سنة ومات يوم السبت فجأة .

ويوم السبت لهم كيوم الجمعة لنا أتاه ملك الموت وهو يصعد في محرابه ؛ أي : الغرفة وينزل .

وقال : جئت لأقبض روحك ، فقال : دعني حتى أنزل وأرتقي ، فقال : ما لي إلى ذلك سبيل ، نفدت الأيام والشهور والسنون والآثار والأرزاق ، فما أنت بمؤثر بعدها ، فسجد داود على مرقاة من الدرج فقبض نفسه على تلك الحال .

وموت الفجأة رحمة للصالحين وتخفيف ورفق بهم إذ هم المنقطعون المستعدون ، فلا يحتاجون إلى الإيصاء وتجديد التوبة ورد المظالم بخلاف غيرهم ولذا كان من آثار غضب الله على الفاسقين ، وأوصى داود لابنه سليمان بالخلافة .

﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ سليمان لصلاحية استعداده للكمال النوعي الإنساني وهو مقام النبوة والخلافة .

قال بعضهم : العبودية هي الذبول عن موارد الربوبية والخمول تحت صفات الألوهية .

﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ : رجاع إلى الحضرة بإخلاص العبودية بلا علة دنيوية ولا أخروية أو رجاع إلى الله في جميع الأحوال في النعمة بالشكر وفي المحنة بالصبر .

مسكين وجالس مسكيناً .

(224/660)

يقول الله تعالى : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ ﴾ (الإسراء : 64) فظهر من هذه الحكاية حال سليمان مع الله تعالى وكونه متخلياً عن المال فارغاً عن الملك في الحقيقة .

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي : اذكر ما صدر عنه إذ عرض عليه يقال : عرض له أمر كذا ؛ أي : ظهر وعرضته له ؛ أي : أظهرته وعرض الجند إذا أمرهم عليه ونظر ما حالهم .

﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ : هو من الظهر إلى آخر النهار .

﴿ الصَّافِنَاتُ ﴾ : مرفوع بعرض جمع صافن لا صافنة ، لأنه لذكور الخيل وصفة المذكر الذي لا يعقل يجمع هذا الجمع مطرداً كما عرف في النحو .

والصفن : الجمع بين الشيئين ضاماً بعضهما إلى بعض يقال : صفن الفرس قوائمه إذا قام على ثلاث وثنى الرابعة ؛ أي : قلب أحد حوافره وقام على طرف سنبك يد أو رجل .

والسنبك : طرف مقدم الحافر .

وهو من الصفات المحمودة في الخيل لا يكاد يتفق إلا في العربي الخالص .

﴿ الْجِيَادُ ﴾ : جمع جواد وجود وهو الذي يسرع في جريه تشبيهاً له بالمطر الجود .

كذا قاله صاحب "كشف الأسرار" ، وكأنه جمع بين معنى الجيد والجواد .

قال في "القاموس" : الجواد السخي والسخية .

والجمع : الأجواد .

والجيد ضد الرديء والجمع : الجياد .

(225/660)

وقيل : الجواد هو : الفرس الذي يجود عند الركض ؛ أي : العدو .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الجياد : الخيل السوابق ، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها .

روي أن سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين ، وهي قاعدة ديار ربيعة ، فأصاب ألف فرس عربي ، أو أصابها أبوه من العمالقة فورثها منه ، وهذا على تقدير عدم بقاء قوله عليه السلام : "نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة" على عمومه أو يحمل على الاستعارة بعلاقة المشابهة في ثبوت ولاية التصرف ، فإن لسليمان حق التصرف

فيما تركه أبوه في بيت المال ، كالدروع ونحوها كما كان للخلفاء حق التصرف فيما تركه نبينا عليه السلام ، ولذا منع أبو بكر رضي الله عنه فاطمة رضي الله عنها عن الميراث حيث طلبته وذلك أن ما تركه عليه السلام من صفايا أموال النفير وفدك كان مصروفاً إلى نفقة نسائه كما في حياته لكونهن محبوسات عليه إلى وفاتهن .

وأيضاً إلى نفقة خليفته لكونه خادماً له قائماً مقامه وما فضل من ذلك كان يصرف إلى مصالح المسلمين ، فلم يبق له بعد وفاته ما يكون ميراثاً لأهل بيته .

وسيجيء ما يؤيده

(226/660)

وعلى كل تقدير قعد سليمان يوماً بعد ما صلى الظهر على كرسيه وكان يريد جهاداً ، فاستعرض تلك الأفراس ؛ أي : طلب عرضها عليه ، فلم تزل تعرض عليه وهو ينظر إليها ويتعجب من حسنها حتى غربت الشمس وغفل عن العصر ، وكانت فرضاً عليه كما في "كشف الأسرار" ، وعن ورد : كان له من الذكر وقتئذٍ وتهيبه قومه فلم يعلموه فاغتم لما فاته بسبب السهو والنسيان فاستردها فعقرها تقرباً إلى الله وطلباً لمرضاته على أن يكون العقر قربة في تلك الشريعة ، ولذا لم ينكر عليه فعله أو مباحاً في ذلك اليوم ، وإنما أراد بذلك

الاستهانة بمال الدنيا لمكان فريضة الله كما قال أبو الليث فلم يكن من قبيل تعذيب الحيوان .

يقول الفقير : سر العقر ها هنا هو أن تلك الخيل لما شغلته عن القيام إلى الصلاة كان العقد كفارة موافقة له .

وقال بعضهم : المراد من العقر : الذبح فيكون تقديم السوق كما يأتي لرعاية الفاصلة ، فذبحها وتصدق بلحومها .

وكان لحم الخيل حلالاً في ذلك الوقت وإنما لم يتصدق بها ، لأنه يحتاج إلى زمان ووجدان محل صالح له .

والحاصل : أنه ذبح تسعمائة وبقي مائة وهو ما لم يعرض عليه بعد فما في أيدي الناس من الجياد ، فمن نسل تلك المائة الباقية كذا .

قالوا : وفيه أن هذا يؤيد كون تلك الخيل قد أخرجت من البحر إذ لو كانت من غنائم الغزو لم يلزم أن يكون نسل الجياد من تلك المائة لوجود غيرها في الدنيا ، وأيضاً على تقدير كونها ميراثاً من أبيه بالمعنى الثاني كما سبق تكون أمانة في يده .

والأمانة لا تعقر ولا تذبح كما لا يخفى .

(227/660)

﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ ، قاله عليه السلام عند غروب الشمس اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة وندماً عليه وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها ، والتعقيب بالفاء باعتبار آواخر العرض المستمر دون ابتدائه والتأكيد للدلالة على أن اعترافه وندمه عن صميم القلب لا لتحقيق مضمون الخبر وأصل أحببت : أن يعدى بعلى لأنه بمعنى آثرت كما في قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ (فصلت : 17) .

وكل من أحب شيئاً فقد آثره ، لكن لما أنيب مناب أنبت وضمن معناه عدي تعديته بعن وحب الخير مفعوله ؛ أي : مفعول به لانبت المضمن ، والذي أنيب مناب الذكر هو الاطلاع على أحوال الخيل لا حب الخيل إلا أنه عدى الفعل إلى حب الخيل للدلالة على غاية محبته لها فإن الإنسان قد يحب شيئاً ، ولكنه يحب أن لا يحبه كالمريض الذي يشتهي ما يضره ، ولذا لما قيل لمريض : ما تشتهي .

قال : أشتهي أن لا أشتهي ، وأما من أحب شيئاً وأحب أن يحبه فذلك غاية المحبة .

والخير : المال الكثير والمراد به : الخيل التي شغلته عليه السلام ؛ لأنها مال ويحتمل أنه سماها خيراً كأنها نفس الخير لتعلق الخير بها .

قال عليه السلام : "الخير" ؛ أي : الأجر والمغنم (معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة) .

والمراد بالذكر : صلاة العصر بدليل قوله : بالعشي ، وسميت الصلاة ذكراً ؛ لأنها مشحونة

بالذكر كما في "كشف الأسرار" أو الورد المعين وقتئذٍ .

ومعنى الآية : أنبت حب الخيل ؛ أي : جعلته نائباً عن ذكر ربي ووضعته موضعه ، وكان يحب لمثلي أن يشتغل بذكر ربه وطاعته .

﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ : التواري : الاستتار .

والضمير للشمس ، وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشي عليها إذ لا شيء يتوارى حينئذٍ غيرها ، فالحجاب : مغيب الشمس ومغربها ، كما في "المفردات" .

وحتى متعلق بقوله : أحببت .

(228/660)

وغاية له باعتبار استمرار المحبة ودوامها حسب استمرار العرض .

والمعنى : أنبت حب الخير عن ذكر ربي واستمر ذلك حتى توارت ؛ أي : غربت الشمس تشبيهاً لغروبها في مغربها بتواري الجارية المخبأة بحجابها ؛ أي : المستترة بخبائها وخدرها .

وقيل : الضمير في توارت للصافنات ؛ أي : حتى توارت بحجاب الليل ؛ أي : بظلامه ؛ لأن ظلام الليل يستر كل شيء .

﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ : من تمام مقالة سليمان ومرمى غرضه من تقديم ما قدمه ، والخطاب لأهل العرض من قومه ؛ أي : أعيدوا تلك الخيل عليّ .

﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ﴾ : الفاء : فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذاناً بغاية سرعة الامتثال بالأمر وطفق من أفعال المقاربة الدالة على شروع فاعلها في مضمون الخبر ، فهو بمعنى أخذ وشرع وخبر هذه الأفعال يكون فعلاً مضارعاً في الأغلب ومسحاً نصب على المصدرية بفعل مقدر ، هو خبر طفق .

والمسح : إمرار اليد على الشيء .

والجمهور على أن المراد به هنا القطع من قولهم : مسح علاوته ؛ أي : ضرب عنقه وقطع رأسه .

والعلاوة : بالكسر أعلى الرأس أو العنق .

قال في "المفردات" : مسحته بالسيف كناية عن الضرب .

والسوق : جمع ساق كدور ودار .

والساق : ما بين الكعبين كعب الركبة وكعب الرجل .

والأعناق : جمع عنق ، بالفارسية : (كردن) .

والباء : مزيدة كما في قوله تعالى : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ : فإن مسحت رأسه ومسحت برأسه بمعنى واحد .

والمعنى : فردوها عليه فأخذ يمسح بالسيف مسحاً سوقها وأعناقها ؛ أي : يقطع أعناقها ويعرقب أرجلها ؛ أي : هو وأصحابه ، أو يذبح بعضها ويعرقب بعضها إزالة للعلاقات ورفعاً للحجاب الحائل بينه وبين الحق واستغفاراً وإنابه إليه بالترك والتجريد .

وفي الآية إشارة إلى أن حب غير الله شاغل عن الله وموجب للحجاب ، وأن كل محبوب سوى الله إذا حجبك عن الله لحظة يلزمك أن تعالجه بسيف نفي لا إله إلا الله .

(229/660)

وقال الإمام في "تفسيره" : الصواب أن يقال : إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما هو مندوب إليه في شرعنا .

ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس على كرسيه وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها .

وذكر أني لا أجريها لأجل الدنيا وحظ النفس وإنما أجريها وأحبها لأمر الله تعالى وتقوية دينه ، وهو المراد من قوله : عن ذكر ربي ثم إنه أمر بإجرائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب ؛ أي : غابت عن بصره ، فإنه كان له ميدان واسع مستدير يسابق فيه بين الخيل حتى تتوارى عنه وتغيب عن عينه ، ثم إنه أمر الرائضين بأن يردوها فردوا تلك الخيل إليه

فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ؛ أي : بيده حبالها وتشريفاً وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في قهر الأعداء وإعلاء الدين ، وهو قول الزهري وابن كيسان ، وليس فيه نسبة شيء من المنكرات إلى سليمان عليه السلام ، فهو أحق بالقبول عند أولي الأفهام .

وفي "الفتوحات المكية" : معنى الآية : أحببت الخير عن ذكر ربي الخير بالخيرية فأحببته لذلك .

والخير : هي الصافنات : الجياد من الخيل .

وأما قوله : فطفق مسحاً ؛ أي : يمسح بيده على أعناقها وسوقها فرحاً وإعجاباً بخير ربه لا فرحاً بالدنيا ؛ لأن الأنبياء منزهون عن ذلك وهذه تشبه ما وقع لأيوب عليه السلام حين أرسل الله له جراداً من ذهب ، فصار يحثو في ثوبه منه ويقول : لا غنى لي عن بركتك يا رب ، فما أحب سليمان الخير إلا لكونه تعالى أحب حب الخير ولذلك اشتاق إليها لما توارت بالحجاب ، يعني : الصافنات الجياد لكونه فقد المحل الذي أوجب له حب الخير عن ذكر ربه ، فقال : ردوها عليّ .

وليس للمفسرين الذين جعلوا التواري للشمس دليل ، فإن الشمس ليس لها هنا ذكر ولا الصلاة التي يزعمون ومساق الآية لا يدل على ما قالوه بوجه ظاهر البتة .

انتهى كلام "الفتوحات" .

(230/660)

وعن علي رضي الله عنه : اشتغل سليمان عليه السلام بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت بالحجاب ؛ أي : غربت الشمس ، فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس : ردوها ، يعني : الشمس فردوها إلى موضع وقت العصر حتى صلى العصر في وقتها فذلك من معجزات سليمان عليه السلام .

(231/660)

ولا عبرة بقول بعضهم بوضعه :

واعلم أن حبس الشمس وردها وقع مراراً .

ومعنى حبسها : وقوفها عن السير والحركة بالكلية أو بطء حركتها أو ردها إلى ورائها .

ومعنى ردها : إعادتها بعد غروبها ومغيبها فقد

حبست لداود عليه السلام .

وذلك في رواية ضعيفة وردت لسليمان على ما قرر .

وحبست أيضاً لخليفة موسى عليه السلام ، وهو : يوشع بن نون ، فإنه سار مع بني إسرائيل لقتال الجبارين ، وكان يوم الجمعة ولما كاد يفتحها كادت الشمس تغرب ، فقال للشمس : أيتها الشمس إنك مأمورة وأنا مأمور بحرمتي عليك ، إلا ركدت ؛ أي : مكثت ساعة من النهار .

وفي رواية : اللهم احبسها عليّ فحبسها الله حتى افتتح المدينة ، وإنما دعا بحبسها خوفاً من دخول البيت المحرم عليهم فيه المقاتلة .

(232/660)

وردت أيضاً لعلي رضي الله عنه بدعاء نبينا عليه السلام على ما سبق .

وحبست أيضاً عن الغروب لنبينا عليه السلام ، وذلك أنه أخبر في قصة المعراج أن عير قريش تقدم يوم كذا ، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون ذلك ، وقد ولى النهار حتى كادت الشمس تغرب ، فدعا الله تعالى فحبس الشمس عن الغروب حتى قدمت العير ، وفي بعض الروايات حبست له عن الطلوع ؛ لأنه عليه السلام قال : "وتطلع العير عليكم من الثنية عند طلوع الشمس" ، فحبس الله الشمس عن الطلوع حتى قدمت العير .

وحبست أيضاً له عليه السلام في بعض أيام الخندق إلى الاحمرار والاصفرار وصلى حينئذٍ .

وفي بعضها لم تحبس بل صلى بعد الغروب .

وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : "شغلونا عن الصلاة الوسطى" ؛ أي : عن صلاة العصر .

في كلام سبط ابن الجوزي إن قيل : حبسها ورجوعها مشكل ؛ لأنها لو تخلفت أو ردّت لاختلت الأفلاك وفسد النظام ، قلنا : حبسها وردها من باب المعجزات ولا مجال للقياس في خرق العادات .

وذكر أنه وقع لبعض الوعاظ ببغداد أنه قعد يعظ بعد العصر ثم أخذ في ذكر فضائل آل البيت ، فجاءت سحابة غطت الشمس وظن الناس الحاضرون عنده أن الشمس غابت فأرادوا الانصراف فأشار إليهم ألا يتحركوا ، ثم أدار وجهه إلى ناحية المغرب ، وقال :

لا تغربي يا شمس حتى ينتهي

مدحي لآل المصطفى ولنجله

إن كان للمولى وقوفك فليكن

هذا الوقوف لولده ولنسله

فطلعت الشمس فلا يحصى ما رمي عليه من الحليّ والثياب .

هذا كلامه رحمه الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ : الفتنة : الاختبار والابتلاء .

﴿ وَأَلْقَيْنَا ﴾ : الإلقاء : الطرح.

﴿ عَلَى كُرْسِيِّهِ ﴾ : الكرسي : اسم لما يقعد عليه والمراد : سريره المشهور ، وقد سبق في سورة سبأ .

﴿ جَسَدًا ﴾ :

قال في "المفردات" : الجسد : الجسم لكنه أخص .

قال الخليل : لا يقال : الجسد لغير الإنسان من خلق الأرض ونحوه .

وأيضاً فإن الجسد يقال : لما له لون .

(233/660)

والجسم يقال : لما لا يبين له لون كالماء والهواء .

وقال في "أنوار المشارق" : الفرق بين الجسد والبدن ، أن الأول يعمّ لذي الروح وغيره .

ويتناول الرأس والشوى .

والثاني : مخصوص بذي الروح ولا يتناولهما .

ومن هذا قد اشتهر فيما بينهم حشر الأجساد بإضافة الحشر الخاص بذي الروح إلى

الأجساد العامة له ، ولغيره دون الأبدان المخصوصة وذلك لأن في إضافته إلى البدن باعتبار أنه لا يتناول الرأس والشوى على ما نص عليه الزمخشري في "الفائق" والخليل في كتاب "العين" قصوراً مخلاً بحكم الإعادة بعينه .

وأما ما في الجسد من العموم الزائد على قدر الحاجة ، فمندفع بقرينة إضافة الحشر .

انتهى كلام "الأنوار" .

والمراد به في الآية : القالب بلا روح كما سيأتي .

﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ ؛ أي : سليمان عليه السلام .

والإنابة : الرجوع إلى الله تعالى .

روي أن سليمان كان له ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية ، وكان في ظهره ماء مائة رجل ؛ أي : قوتهم .

وهكذا أنبياء الله أعطي كل منهم من القوة الجماعية ما لم يعط أحد من أفراد أمته ، وكذا الولي الأكمل ؛ فإن له قوة زائدة على سائر الآحاد ، وإن لم تبلغ مرتبة قوة النبي ، فقال سليمان عليه السلام يوماً : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ؛ أي : أجامعهن أو تسعين أو تسع وتسعين أو مائة ، تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فقال له صاحبه ؛ أي : وزيره آصف ، قل : إن شاء الله فلم يقل فطاف عليهن تلك الليلة ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق ولد له عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة فألقته القابلة

على كرسيه وهو الجسد المذكور .

قال نبينا عليه السلام : "لو قال : إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون" .

قال القاضي عياض رحمه الله : وإن سئل : لم لم يقل سليمان في تلك القصة المذكورة : إن شاء الله فعنه أجوبة .

(234/660)

أسدّها ما روي في الحديث الصحيح أنه نسي أن يقولها ؛ أي : كلمة إن شاء الله .

وذلك لينفذ مراد الله .

والثاني : أنه لم يسمع صاحبه وشغل عنه .

انتهى .

فمعنى ابتلائه قوله : لأطوفن إلخ ، وتركه الاستثناء ومعنى إلقاء الجسد على كرسيه ، إلقاء الشق المذكور عليه .

ومعنى إنابته : رجوعه إلى الله تعالى عن زلته ، وهو تركه الاستثناء في مثل ذلك الأمر الخطير ، لأن ترك الأولى زلة للأنبياء إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ألا ترى أن نبينا عليه السلام لما سئل عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين قال : "ائتوني غداً

أخبركم" ولم يستثن فحبس عنه الوحي أياماً ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (الكهف : 23 ، 24) .

(235/660)

روي أن سليمان عليه السلام ولد له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله وذلك أنهم كانوا يقدرون في أنفسهم أنهم سيستريحون مما هم فيه من تسخير سليمان إياهم على التكاليف الشاقة والأعمال المستمرة الدائمة بموته ، فلما ولد له ابن قال بعضهم لبعض : إن عاش له ولده لم ننفك عما نحن فيه من البلاء ، فسبيلنا أن نقتل ولده أو نخبله .

والتخبيل : إفساد العقل والعضو فلم سليمان بذلك فأمر السحاب ، فحكله وكانت الريح تعطيه غذاءه وربا فيه خوفاً من مضرة الشياطين فابتلاه الله لأجل خوفه هذا وعدم توكله في أمر ابنه على ربه العزيز بموت ابنه حيث مات في السجاب وألقي ميتاً على كرسيه ، فهو المراد من الجسد الملقى على كرسيه .

قال في "شرح المقاصد" : فتنبه لخطئه في ترك التوكل فاستغفر وتاب ، فهذا مما لا بأس به وغايته ترك الأولى إذ ليس في التحفظ ومباشرة الأسباب ترك الامتثال لأمر التوكل على ما قال عليه السلام : "اعقلها وتوكل" .

انتهى .

فإن قلت : كان الشياطين يصعدون إلى السماء وقتئذٍ فما فائدة رفعه في السحاب في المنع عنهم .

قلت : فائدته أن الشياطين التي خاف سليمان على ابنه منهم كانوا في خدمته الدائمة في الأرض فكان في الرفع إلى السحاب رفعه عن أبصارهم وتغييبه عن عملهم وتسليمه إلى محافظة الملائكة ، ولما ألقي ابنه الميت على كرسيه جزع سليمان عليه إذ لم يكن له إلا ابن واحد ، فدخل عليه ملكان ، فقال أحدهما : إن هذا مشى في زرعي ، فأفسده ، فقال له سليمان : لم مشيت في زرعه ؟ قال : لأن هذا الرجل زرع في طريق الناس ، فلم أجد مسلكاً غير ذلك .

فقال سليمان للآخر : لم زرعت على طريق الناس ، أما علمت أن الناس لا بد لهم من طريق يمشون فيه ، فقال لسليمان : صدقت لم ولدت على طريق الموت ، أما علمت أن ممر الخلق على الموت ، ثم غابا عنه ، فاستغفر سليمان وأناب إلى الله تعالى : قال الشيخ سعدي قدس سره :

مكن خانه در راه سيل اي غلام

فيكون المعنى : ولقد ابتليناه بسبب ملكه وألقينا على كرسيه جسداً ، يعني : العفريت الذي أخذ خاتمه وجلس على كرسيه وهو صخر صاحب البحر على أشهر الأقاويل وسمي جسداً ؛ لأنه تمثل بصورة سليمان ، ولم يكن هو فكان جسداً محضاً وصورة بلا معنى ، ثم أناب ؛ أي : رجع إلى ملكه بعد أربعين يوماً .

يقول الفقير : أرشده الله القدير هذا وإن كان مشهوراً محرراً خصوصاً في نظم بعض العرب والعجم ، لكنه مما ينكر جداً ولا يكاد يصح قطعاً ، وذلك لوجوه :

أحدها : أنه ليس في جلوس الجن على الكرسي معنى الإلقاء إلا أن يتكلف .

والثاني : أن جميع الأنبياء معصومون من أن يظهر شيطان بصورهم في النوم واليقظة لئلا يشتبه الحق بالباطل ؛ لأن الأنبياء عليهم السلام صور الاسم الهادي ومظاهر صفة الهداية والشيطان مظهر الاسم المضل والظاهر بصفة الضلالة فهما ضدان ، فلا يجتمعان ، ولا يظهر أحدهما بصورة الآخر .

وقس على الأنبياء أحوال الكمل من الأولياء ، فإنهم ورثتهم ومتحققون بمعارفهم وحقائقهم .

فإن قيل : عظمة الحق سبحانه أتم من عظمة كل عظيم ، فكيف امتنع على إبليس أن يظهر

بصورة الأنبياء مع أن اللعين قد تراءى لكثيرين وخاطبهم بأنه الحق طلباً لإضلالهم .

وقد أضل جماعة بمثل هذا حتى ظنوا أنهم رأوا الحق وسمعوا خطابه .

(237/660)

قلنا : إن كل عاقل يعلم أن الحق ليست له صورة معينة معلومة توجب الاشتباه ، ولذا جوز بعض العلماء رؤية الله في المنام في أي صورة كانت ، لأن ذلك المرئي غير ذات الله إذ ليس لها صورة .

وأما الأنبياء فإنهم ذوو صور معينة معلومة مشهودة توجب الاشتباه .

والثالث : أنه كيف يصح من الحكيم أن يجلس شيطاناً من الشياطين على كرسي نبي من الأنبياء ويسلطه على المسلمين ويحكمه عليهم مع أنه لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً أبداً .

والرابع : أن الخاتم كان نورانياً فكيف صح أن يستقر في يد الشيطان الظلماني بطريق تقلد الحكومة ، وقد ثبت أن الشيطان يحرقه النور مطلقاً ، ولذا جعل الشهاب رجماً للشياطين .

والخامس : أنه كان ملك سليمان في الخاتم ، فكيف يصح أن يجلس الجني على كرسيه على تقدير قذف الخاتم في البحر على ما قالوا .

وفي "عقد الدرر" : أنه كان خاتم آدم عليه السلام قبل خروجه من الجنة ألبسه الحق إياه ، ثم أودع في ركن من أركان العرش وكان مكتوب عليه في السطر الأول : "بسم الله الرحمن الرحيم" .

وفي الثاني : "لا إله إلا الله" ، وفي الثالث : "محمد رسول الله" .

فلما أنزله جبريل إلى سليمان اضطرب العالم من مهابته ، ولما وضعه في أصبعه غاب عن أعين الناس ، فقالوا : يا نبي الله نريد أن نتشرف بمشاهدة جمالك ، فقال : اذكروا الله ، فلما ذكروه رأوه فالتأثير من الله وبسليمان المظهرية والخاتم واسطة في الحقيقة .

وإنما وضع ملكه في فص خاتم ؛ لأنه تعالى أراه في ذلك أن ما أعطيت في جنب ما لم تعط قدر هذا الحجر من بين سائر الأحجار إذ كان ملك الدنيا عند الله تعالى كقدر حجر من الأحجار والله يعز من يشاء بما يشاء .

﴿ قَالَ ﴾ : سليمان وهو بدل من أناب وتفسير له .

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ : ما صدر مني من الزلة التي لا تليق بشأني وتقديم الاستغفار على

الاستيهاب الآتي لمزيد اهتمامه بأمر الدين جرياً على سنن الأنبياء والصالحين وكون ذلك أدخل في الإجابة.

(239/660)

﴿ وَهَبْ لِى ملكاً لا يَنبَغِى ﴾ : (نسنرد ونشايد) ﴿ لأحَدٍ ﴾ من الخلق ﴿ مِّن بَعْدِى ﴾ إلى يوم القيامة بأن يكون الظهور به بالفعل في عالم الشهادة في الأمور العامة والخاصة مختصاً بي، وهو الغاية التي يمكنه بلوغها دل على هذا المعنى قول نبينا عليه السلام: "إن عفريتاً من الجن".

وهو الخبيث المنكر "تفلت عليّ البارحة؛ أي: تعرض في صورة هر كما في حياة الحيوان.

وفي الحديث: "إن عفريتاً من الجن تفلّت عليّ البارحة"؛ أي: تعرض له فلتة؛ أي: فجأة "ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه".

الإمكان: القدرة على الشيء مع ارتفاع الموانع؛ أي: أعطاني الله مكنة من أخذه وقدرة عليه "فأخذته فأردت أن أربطه" بكسر الباء وضمنها؛ أي: أشده "على سارية من سواري المسجد"؛ أي: أسطوانة من أساطينه "حتى تنظروا إليه كلكم ويلعب به ولدان أهل المدينة فذكرت دعوة أخي سليمان: رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من

بعدي فرددته خاسئاً" ؛ أي : ذليلاً مطروداً ، لم يظفر بي ولم يغلب على صلاتي ، فدل على أن الملك الذي آتاه الله سليمان ولم يؤته أحداً غيره من بعده هو الظهور بعموم التصرف في عالم الشهادة لا التمكن منه ، فإن ذلك مما آتاه الله غيره من الكمل نبياً كان أو ولياً ألا ترى أن نبينا عليه السلام قال : "فأمكنني الله منه" ؛ أي : من العفريت فعلمنا أن الله تعالى قد وهب التصرف فيه بما شاء من الربط وغيره ، ثم إن الله تعالى ذكره فتذكر دعوة سليمان ، فتأدب معه كمال التأديب حيث لم يظهر بالتصرف في الخصوص فكيف في العموم فردّ الله ذلك العفريت ببركة هذا التأدب خاسئاً عن الظفر به .

وكان في وجود سليمان عليه السلام قابلية السلطنة العامة ولهذا ألهمه الله تعالى أن يسأل الملك المخصوص به ، فلم يكن سؤاله للبخل والحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة والرغبة فيها كما توهمه الجهلة .

(240/660)

وأما سلطان الأنبياء صلى الله عليه وسلّم فقد أفنى جميع ما في ملك وجوده من جهة الأفعال والصفات ، فلم يبق شيء فظهر مكانه شيء لا يوصف حيث وقع تجلي الذات في مرتبة لم ينلها أحد من أفراد الخلق سابقاً ولا لاحقاً ، وستظهر سلطنته الصورية أيضاً بحيث

يكون آدم ومن دونه تحت لوائه .

﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ : لجميع استعدادات كل ما سألت من الكمالات كما قال تعالى : ﴿ وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ (إبراهيم : 34) .

وفي "التأويلات النجمية" : بقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى ﴾ الآية .

يشير إلى معانٍ مختلفة .

منها : أنه لما أراد طلب الملك الذي هو رفعة الدرجة بنى الأمر في ذلك على التواضع الموجب للرفعة ، وهو قوله : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِى ﴾ .

ومنها : أنه قدم طلب المغفرة على طلب الملك ؛ لأنه لو كان طلب الملك زلة في حق الأنبياء كانت مسوقة بالمغفرة لا يطالب بها .

ومنها : أن الملك مهما يكن في يد مغفور له منظور بنظر العناية ما يصدر منه تصرف في الملك إلا مقروناً بالعدل والنصفة ، وهو محفوظ من آفات الملك وتبعاته .

(241/660)

ومنها : قوله : ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لاَّ يَنبَغِى لاَحَدٍ مِّنْ بَعْدِى ﴾ ؛ أي : يكون ذلك موهوباً له بحيث لا ينزعه منه ويؤتيه من ويؤتيه كما هي السنة الإلهية جارية فيه .

ومنها : قوله : ﴿ لاَ يَنبَغِى لاحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ ؛ أي : لا يطلبه أحد غيري لئلا يقع في فتنة الملك على مقتضى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الانسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ (العلق : 6 ، 7) ، فإن الملك جالب للفتنة كما كان جالباً لها إلى سليمان بقوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ .

ومنها : قوله : ﴿ لاَ يَنبَغِى لاحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ ؛ أي : لا يكون هذا الملك ملتمس أحد منك غيري للتمتع والانتفاع به ، وهو بمعزل عن قصدي ونيتي في طلب هذا ، فإن لي في طلب هذا الملك نية لنفسي ونية لقلبي ونية لروحي ونية للممالك بأسرها ونية للرعايا .

فأما نيتي لنفسي فتزكيتها عن صفاتها الذميمة وأخلاقها اللئيمة .

وذلك في منعها عن استيفاء شهواتها وترك مستلذاتها النفسانية بالاختيار دون الاضطرار وإنما يتيسر ذلك بعد القدرة الكاملة عليه بالمالكية والملكية بلا مانع ولا منازع ، وكماليته في المملكة بحيث لا يكون فيها ما يحرك داعية من دواعي البشرية المركوزة في جبلة الإنسان ليكون كل واحدة من المشتهيات والمستلذات النفسانية محركة لداعية تناسبها عند تملكها ، والقدرة عليها عند توقان النفس إليها وغلبات هواها فيحرم على النفس مراضعها ويحرمها من مشاربها وينهاها عن هواها خالصاً ، وطلباً لمرضاته فتموت النفس عن صفاتها كما يموت البدن عند إعواز فقدان ما هو غذاء يعيش به ، فإذا ماتت عن صفاتها

الذميمة يحييها الله بالصفات الحميدة كما قال : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل : 97) .

(242/660)

وقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ (الشمس : 9) ، فلا يبقى لها نظر إلى الدنيا وسائر نعمها كما كان حال سليمان لم يكن له نظر إلى الدنيا ونعيمها ، وإنما كان مع تلك الوسعة في المملكة يأكل كسرة من كسب يده مع جليس مسكين ويقول : مسكين جالس مسكيناً ، وأما نيته لقلبه فتصفيته عن محبة الدنيا وزينتها وشهواتها وتوجيهه إلى الآخرة بالإعراض عنها عند القدرة عليها والتمكن فيها ، ثم صرفها في سبيل الله وقلع أصلها من أرض القلب ، ليبقى القلب صافياً من الدنس قابلاً للفيض الإلهي ، فإنه خلق مرآة لجميع الصفات الإلهية .

وأما نيته لروحه فلتحليته بالأخلاق الحميدة الربانية ولا سبيل إليها إلا بعلو الهمة وخلوص النية ، فإن المرء يطير بهمته كالطائر يطير بجناحيه وتربية الهمة بحسب نيل المقاصد الدنيوية الدينية وصرفها في نيل المراتب الدينية الأخروية الباقية ، وإن ترك المقاصد الدنيوية الدينية ، وإن كان أثر التربية الهمة ولكن لا يبلغ حد أثر صرف ما يملك من المقاصد الدنيوية لنيل الدرجات العلية فلما كان من أخلاق الله أن يحب معالي الأمور ويبغض سفسافها .

التمس سليمان أقصى مراتب الدنيا ونهاية مقاصدها لئلا يلتفت ويستعملها في تربية الهمة لتتخلى روحه بأن يحسن إليهم ويؤلف قلوبهم ببذل المال والجاه ، فإن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها ، فإنهم إذا أحبوا نبي الله لزمهم حب الله ، فيكون حب الله وحب نبيه في قلوبهم محض الإيمان ، ومن لم يمكن أن يؤمن بالإحسان ، فيدخلهم في الإيمان بالقهر والغلبة بأن يأتيهم بجنود لم يروها كما أدخل بلقيس وقومها في الإيمان .

وأما نيته للممالك ، فبأن يجعل الممالك الدنيوية الفانية أخروية باقية بأن يتوسل بها إلى الحضرة بصرفها بإظهار الدين وإقامة الحق وإعلاء كلمة الإسلام .

فإن قيل قوله : ﴿ لا يَنبَغِى لاحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ ، هل يتناول النبي عليه السلام أو لا ؟ .

(243/660)

قلنا : أما بالصورة ، فيتناول ، ولكن لعلو همته وكمال قدره لا لعدم استحقاقه ؛ لأنه عرض عليه صلى الله عليه وسلّم ملك أعظم من ملكه ، فلم يقبله .

وقال : "الفقر فخري" .

وأما بالمعنى : فلم يتناول النبي صلى الله عليه وسلّم لأنه قال : "فضلت على الأنبياء بست" ، يعني على جميع الأنبياء ولا خفاء في أن سليمان عليه السلام ما بلغ درجة واحد

من أولي العزم من الرسل مع اختصاصه بصورة الملك منهم ، وهم معه مفضولون بست فضائل من النبي عليه السلام ، فمعنى الملك الحقيقي الذي كان ملك سليمان صورته بلا ريب يكون داخلاً في الفضائل التي اختصه الله بها وأخبر عنها بقوله : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء : 113) .

بل أعطاه الله ما كان مطلوب سليمان من صورة الملك ومعناه أوفر ما أعطى سليمان وفتنه به من غير زحمة مباشرة صورة الملك والافتتان به عزة ودلالاً .

انتهى كلام التأويلات على مكاشفة أعلى التجليات .

(244/660)

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ .

قال أبو عمرو : إنه ريح الصبا ؛ أي : فذللناها لطاعة سليمان ؛ أي : جعلناها مطيعة لا تخالفه إجابة لدعوته ، فعاد أمره عليه السلام على ما كان عليه قبل الفتنة فيكون ذلك مسبباً عن إنابته :

وفيه إشارة إلى أن سليمان لما فعل بالصافنات الجياد ما فعل في سبيل الله عوضه الله مركباً مثل الريح كان غدوها شهراً ورواحها شهراً كما في "التأويلات النجمية" .

وقد سبق أيضاً من "كشف الأسرار" .

قال البقلي رحمه الله : كان سليمان عليه السلام من حبه جمال الحق يحب أن ينظر إلى صنائعه وممالكه ساعة فساعة من الشرق إلى الغرب حتى يدرك عجائب ملكه وملكوته ، فسخر الله له الريح وأجراها بمراده .

وهذا جزاء صبره في ترك حظوظ نفسه .

﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ : بيان لتسخيرها له .

﴿ رُخَآءً ﴾ : حال من ضمير تجري .

والرخاء : الريح اللينة من قولهم شيء رخو كما في "المفردات" :

وفي "الفتوحات المكية" : أن الهواء لا يسمى ريحاً إلا إذا تحرك وتموج ، فإن اشتدت حركته كان زعزعاً ، وإن لم تشتد كان رخاء ، وهو ذو روح يعقل كسائر أجزاء العالم وهبوبه تسبيحه تجري به الجواري ، ويطفأ به السراج وتشتعل به النار وتتحرك المياه والأشجار ويموج البحر وتزلزل الأرض ويزجى السحاب .

انتهى .

والمعنى : حال كون تلك الريح لينة طيبة لا تزعزع ولا تنافي بين كونها لينة الهبوب ، وبين قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ (الأنبياء : 81) ؛ لأن المراد : أن تلك الريح أيضاً في قوة الرياح العاصفة إلا أنها لما جرت بأمره عليه السلام ، كانت لينة رخاء أو تسخر له كلا

نسيميها .

﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ : ظرف لتجري أو لسخرنا .

وأصاب بمعنى أراد لغة حمير أو هجر .

وفي "القاموس" : الإصابة : القصد ؛ أي : حيث قصد وأراد من النواحي والأطراف .

(245/660)

واعلم أن المراد بقوله بأمره جريان الريح بمجرد أمره من غير جمعية خاطر ولا همة قلب فهو الذي جعل الله من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده لا مجرد التسخير ، فإن الله تعالى سخر لنا أيضاً ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما ، لكن إنما تفعل أجرام العالم لهمم النفوس إذا أقيمت في مقام الجمعية ، فهذا التسخير عن أمر الله لا عن أمرنا كحال سليمان عليه السلام .

﴿ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ : عطف على الريح .

﴿ كُلَّ بَنَّآءٍ ﴾ : بدل من الشياطين ، وهو مبالغة بأن اسم الفاعل من بني ، وكانوا يعملون له عليه السلام ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ، وقدور راسيات لما سبق في سورة سبأ ويبنون له الأبنية الرفيعة بدمشق واليمن ، ومن بنائهم بيت المقدس وإصطخر ،

وهي من بلاد فارس ، تنسب إلى صخر الجني المراد بقوله تعالى : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ (النمل : 39) .

﴿ وَغَوَّاصٍ ﴾ : مبالغة غائص من غاص يغوص غوصاً ، وهو الدخول تحت الماء وإخراج شيء منه .

قال في "المفردات" : قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ (الأنبياء : 82) ؛ أي : يستخرجون له الأعمال الغريبة والأفعال البديعة وليس استنباط الدر فقط .

انتهى .

وكانوا يستخرجون الدرر والجواهر والحليّ من البحر ، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر .

﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الأَصْفَادِ ﴾ : عطف على كل بناء داخل في حكم البدل يقال : قرنت البعيرين إذا جمعت بينهما وقرنت على التكثير كما في الآية .

قال الراغب : والتقرين بالفارسية : (برهم كردن) .

قال ابن الشيخ : مقرنين صفة لآخرين ، وهو اسم مفعول من باب التفعيل منقول من قرنت الشيء بالشيء ؛ أي : وصلته به وشدد العين للمبالغة والكثرة .

والأصفاد : جمع صفد محركة ، وهو القيد وسمي به العطاء ؛ لأنه يرتبط بالمنعم عليه ، وفرقوا بين فعلهما ، فقالوا : صفده قيده وأصفده أعطاه على عكس وعد وأوعد ، فإن الثلاثي فيه للخير والمنفعة والرباعي للشر والمضرة ولكن في كون أصفد ، بمعنى : أعطى نكتة ، وهي أن الهمزة للسلب .

والمعنى : أزلت ما به من الاحتياج بأن أعطيته ما تندفع به حاجته بخلاف أوعد ، فإنه لغة أصلية موضوعة للتهديد .

ومعنى الآية : وسخرنا له شياطين آخرين لا يبنون ولا يغوصون ، كأنه عليه السلام فصل الشياطين إلى عملة استعملهم في أعمال الشاقة من البناء والغوص ونحو ذلك .

وإلى مردة قرن بعضهم مع بعض في السلاسل وأوثقهم بالحديد لكفهم على الشر والفساد .

(247/660)

فإن قيل : إن هذه الآية تدل على أن الشياطين لها قوة عظيمة ، قدروا بها على تلك الأبنية العظيمة التي لا يقدر عليها البشر وقدروا على الغوص في البحار ، واستخراج جواهرها ، وأنى يمكن تقييدهم بالأغلال والأصفاد .

وفيه إشكال ، وهو أن هذه الشياطين إما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة ، فإن كانت كثيفة وجب أن يراهم من كان صحيح الحاسة إذ لو جاز أن لا يراهم مع كثافة أجسادهم لجاز أن يكون بحضرتنا جبال عالية وأصوات هائلة لا نراها ، ولا نسمعها وذا سفسطة ، وإن كانت أجسادهم لطيفة واللطافة تنافي الصلابة ، فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفاً بالقوة الشديدة بحيث يقدر بها على ما لا يقدر عليه البشر ؛ لأن الجسم اللطيف يكون ضعيف القوام تتمزق أجزاؤه بأدنى المدافعة ، فلا يطيق تحمل الأشياء الثقيلة ومزاولة الأعمال الشاقة .

وأيضاً لا يمكن تقييده بالأصفاد والأغلال .

قلنا : إن أجسادهم لطيفة ولكن شفافة ولطافتها لا تنافي صلابتها بمعنى الامتناع من التفرق ، فلكونها لطيفة لا ترى ولكونها صلبة يمكن تقييدها وتحملها الأشياء الثقيلة ومزاولتها الأعمال الشاقة ، ولو سلم أن اللطافة تنافي الصلابة إلا أنا لا نسلم أن اللطيف الذي لا صلابة له يمتنع أن يتحمل الأشياء الثقيلة ويقدر على الأعمال الشاقة .

ألا ترى أن الرياح العاصفة تفعل أفعالاً عجيبة لا تقدر عليها جماعة من الناس .

وقال في "بحر العلوم" : والأقرب أن المراد تمثيل كفهم عن الشرور بالتقرين في الصفد ، يعني : أن قولهم : لا يمكن تقييده بالأصفاد والأغلال حقيقة مسلم .

ولكن ليس الكلام محمولاً على حقيقته ؛ لأنهم لما كانوا مسخرين مذللين لطاعته عليه السلام بتسخير الله إياهم له كان قادراً على كفهم عن الإضرار بالخلق .

(248/660)

فشبه كفهم عن ذلك بالتقرين في الأصفاد ، فأطلق على الكف المذكور لفظ التقريب استعارة أصلية ، ثم اشتق من التقرين ؛ يعني بمعنى المجازي لفظ مقرنين ، فهو استعارة تبعية بمعنى ممنوعين عن الشرور .

"وفي الأسئلة المقحمة" : الجن أجسام مؤلفة وأشخاص ممثلة ولا دليل يقضي ؛ بأن تلك الأجسام لطيفة أو كثيفة ، بل يجوز أن تكون لطيفة ، وإن تكون كثيفة ، وإنما لا نراهم لا للطافتهم كما يزعمه المعتزلة .

ولكن لأن الله تعالى لا يخلق فينا إدراكاً لهم .

انتهى .

قال القاضي أبو بكر : الأصل الذي خلقوا منه هي النار ، ولسنا ننكر مع ذلك أن يكثفهم الله تعالى ويغلظ أجسامهم ويخلق لهم أعراضاً زائدة على ما في النار ، فيخرجون عن كونهم ناراً ويخلق لهم صوراً وأشكالاً مختلفة ، فيجوز أن نراهم إذا قوى الله أبصارنا كما

يجوز أن نراهم لو كثف الله أجسامهم .

قال القاضي عبد الجبار : إن الله تعالى كثفهم لسليمان حتى كان الناس يرونهم وقواهم حتى كانوا يعملون له الأعمال الشاقة .

والمقرّن في الأصفاد لا يكون إلا جسماً كثيفاً .

وأما إقداره عليهم وتكثيفهم في غير أزمان الأنبياء فإنه غير جائز ؛ لأنه يؤدي إلى أن يكون نقضاً للعادة ، كما في "آكام المرجان في أحكام الجان" .

وقال بعضهم : إن الشياطين كانوا يشاهدون في زمن سليمان ، ثم إنه لما توفي أمات الله أولئك الشياطين وخلق نوعاً آخر في غاية الرقة واللطافة .

وفيه أن الشياطين منظرون ، فكيف يموتون إلا أن يختص الأنظار بإبليس أو إلا أن يحمل الشياطين على كفار الجن ، فإنهم ماردون أيضاً .

(249/660)

روي : أن الله تعالى أجاب دعاء سليمان بأن سخر له ما لم يسخره لأحد من الملوك ، وهو الرياح والشياطين والطير ، وسخر له من الملوك ما لم يتيسر لغيره مثل ذلك ، فإنه روي : أنه ورث ملك أبيه داود في عصر كيخسرو بن سياوش ، وسار من الشام إلى العراق فبلغ خبره

إلى كيخسرو ، فهرب إلى خراسان ، فلم يلبث قليلاً حتى هلك ، ثم سار إلى مرو ، ثم سار إلى بلاد الترك ، فوغل فيها ، ثم جاز بلاد الصين ، ثم عطف إلى اين وافى بلاد فارس ، فنزلها أياماً ، ثم عاد إلى الشام ثم أمر ببناء بيت المقدس ، فلما فرغ منه سار إلى تهامة ، ثم إلى صنعاء .

وكان من حديثه مع صاحبة صنعاء ، وهي بلقيس ما ذكره الله تعالى كتابه الكريم وغزا بلاد المغرب ، الأندلس وطنجة وإفرنجة ونواحيها .

﴿ هَذَآ ﴾ ؛ أي : فسخرنا وقلنا له : هذا الذي أعطيناك من الملك العظيم والبسطة والتسلط على ما لم يسلط عليه غيرك .

﴿ عَطَآؤُنَا ﴾ الخاص بك الذي لا يقدر عليه غيرنا ﴿ فَامْنُنْ ﴾ من قوله منّ عليه منّاً ؛ أي : أنعم ؛ أي : فأعط منه من شئت .

﴿ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ وامنع منه من شئت ، وأو للإباحة .

(250/660)

﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ : حال من المستكن في الأمر ؛ أي : غير محاسب على منّه وإحسانه ومنعه وإمساكه ، لا حرج عليك فيما أعطيت وفيما أمسكت لتفويض التصرف فيه إليك

على الإطلاق .

وفي "المفردات" : قيل تصرف فيه تصرف من لا يحاسب ؛ أي : تناول كما تحب وفي وقت ما تحب وعلى ما تحب وأنفقه كذلك .

انتهى .

قال الحسن : ما أنعم الله على أحد نعمه إلا كان عليه تبعة إلا سليمان ؛ فإن أعطى أجر عليه وإن لم يعط لم يكن عليه تبعة وإثم .

وهذا مما خص به والتبعة ما يترتب على الشيء من المضرة ، وكل حق يجب للمظلوم على الظالم بمقابلة ظلمه عليه .

قال بعض الكبار المحققين : كان سؤال سليمان ذلك عن أمر ربه ، والطلب إذا وقع عن الأمر الإلهي كان امتثال أمر وعبادة ، فللطالب الأجر التام على طلبه من غير تبعة حساب ولا عقاب ، فهذا الملك والعطاء لا ينقصه من ملك آخرته شيئاً ، ولا يحاسب عليه أصلاً ، كما يقع لغيره .

وأما ما روي : أن سليمان آخر الأنبياء دخولاً الجنة لمكان ملكه ، فعلى تقدير صحته لا ينافي الاستواء بهم في درجات الجنة ، ومطلق التأخر في الدخول لا يستلزم الحساب .

وقد روي : (إن الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة سنة) .

ويجوز أن يكون بغير حساب حالاً من العطاء ؛ أي : هذا عطاؤنا ملتبساً بغير حساب

لغاية كثرته كما يقال للشيء الكثير .

هذا لا يحيط به حساب أو صلة له وما بينها اعتراض على التقديرين .

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى ﴾ ؛ أي : لقربة في الآخرة مع ما له من الملك العظيم في الدنيا .

﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ ، وهو الجنة .

وفي الحديث : "أرأيتم ما أعطي سليمان بن داود من ملكه ، فإن ذلك لم يزده إلا تخشعاً ما كان يرفع بصره إلى السماء تخشعاً لربه" .

انتهى .

أي : ولذا وجد الزلفى ، وحسن المرجع ، فطوبى له حيث كان فقيراً في صورة الغنى .

(251/660)

وفي الإشارة إلى أن الإنسان إذا كمل في إنسانيته يصير قابلاً للفيض الإلهي بلا واسطة ، فيعطيه الله تعالى من آثار الفيض تسخير ما في السماوات من الملائكة كما سخر لآدم بقوله : ﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ (البقرة : 34) .

وما في الأرض كما سخر لسليمان الجن والإنس والشياطين والوحوش والطيور .

وذلك لأن كل ما في السماوات وما وفي الأرض أجزاء وجود الإنسان الكامل ، فإذا أنعم الله

عليه بفيضه سخر له أجزاء وجوده في المعنى .

أما في الصورة ، فيظهر على بعض الأنبياء تسخَر بعضها إعجازاً له كما ظهر على نبينا عليه السلام تسخر القمر عند انشقاقه بإشارة أصبع ، ولذا قال : هذا عطاؤنا إلخ يشير إلى أن للأنبياء بتأييد الفيض الإلهي ولاية إفاضة الفيض على من هو أهله عند استفاضته .

ولهم إمساك الفيض عند عدم الاستفاضة من غير أهله ولا حرج عليهم في الحالتين ، وإن له عندنا لزلفى في الإفاضة والإمساك وحسن مآب ؛ لأنه كان متقرباً إلينا بالعطاء والمنع كما في "التأويلات النجمية" .

روي : أن سليمان عليه السلام فتن بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة ثم انتقل إلى حسن مآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 8 صـ 38 . 56 ﴾

(252/660)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ يا داوود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرض فاحكم بَيْنَ الناس بالحق وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ الآية .

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرض ﴾ ، قد بينا الحكم

الذي دل عليه ، في سورة البقرة ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : 30] الآية . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فاحكم بَيْنَ الناس بالحق وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ قد أمر نبيه داود فيه ، بالحكم بين الناس بالحق ونهاه فيه عن اتباع الهوى ، وأن اتباع الهوى ، علة للضلال عن سبيل الله ، لأن الفاء في قوله فيضلك عن سبيل الله تدل على العلية .

وقد تقرر في الأصولن في مسلك الإيماء والتنبيه ، أن الفاء من حروف التعليل كقوله : سهى فسجد ، وسرق فقطعت يده ، أو لعلة السهو في الأول ، ولعلة السرقة في الثاني ، وأتبع ذلك بالتهديد الشديد لمن اتبع الهوى ، فأضله ربنا عن سبيل الله ، في قوله تعالى بعده يليه : ﴿ إِنَّ الذين يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الحساب ﴾ [ص : 26] . ومعلوم أن نبي الله داود ، لا يحكم بغير الحق ، ولا يتبع الهوى ، فيضله عن سبيل الله ، ولكن الله تعالى ، يأمر أنبياءه عليهم الصلاة والسلام ، وينهاهم ، ليشرع لأممهم .

(253/660)

ولذلك أمر نبينا صلى الله عليه وسلم ، بمثل ما أمر به داود ، ونهاه أيضاً عن مثل ذلك ، في آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فاحكم بَيْنَهُمْ بالقسط ﴾ [المائدة :

42] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احكم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ واحذرهم أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : 49] وكقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب : 1و48] وقول تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 24] وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتبع هَوَاهُ ﴾ [الكهف : 28] الآية .

وقد قدمنا الكلام على هذا ، في سورة بني إسرائيل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجْعَل مَعَ اللهِ إِلها آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ [الإسراء : 22] .

وبينا أن من أصرح الأدلة القرآنية الدالة على أن النبي يخاطب بخطاب ، والمراد بذلك الخطاب غيره يقيناً قوله تعالى : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ وبالوالدين إِحْسَاناً فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا ﴾ [الإسراء : 23] الآية ، ومن المعلوم أن أباه صلى الله عليه وسلم توفي قبل ولادته ، وأن أمه ماتت وهو صغير ، ومع ذلك فإن الله يخاطبه بقوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ [الإسراء : 23] ومعلوم أنه لا يبلغ عنده الكبر أحدهما ، ولا كلاهما لأنهما قد ماتا قبل ذلك بزمان .

فتبين أن أمره تعالى لنبيه ونهيه له في قوله ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ [الإسراء : 2324] الآية : إنما يراد التشريع على لسانه لأمته ، ولا يراد به هو نفسه صلى الله عليه وسلم ، وقد قدمنا هناك أن من أمثال العرب .

إياك أعني واسمعي يا جارة ، وذكرنا في ذلك رجز سهل بن مالك الفزاري الذي خاطب به امرأة ، وهو يقصد أخرى وهي أخت حارثة بن لأم الطائي وهو قوله :

يا أخت خير البدو والحضاره . . . كيف ترين في فتى فزاره

اصبح يهوى حرة معطاره . . . إياك أعني واسمعي يا جاره

وذكرنا هناك الرجز الذي أجابته به المراة ، وقول بعض أهل العلم إن الخطاب في قوله : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ﴾ [الإسراء : 23] الآية ، هو الخطاب بصيغة المفرد ، الذي يراد به عموم كل من يصح خطابه . كقول طرفة بن العبد في معلقته :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً . . . ويأتيك بالأخبار من لم تزود

أي ستبدي لك ويأتيك أيها الإنسان الذي يصح خطابك ، وعلى هذا فلا دليل في الآية ، غير صحيح ، وفي سياق الآيات قرينة قرآنية واضحة دالة على أن المخاطب بذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم هو النبي صلى الله عليه وسلم وعليه . فالاستدلال بالآية ، استدلال قرآني صحيح ، والقرينة القرآنية المذكورة ، هي أنه تعالى قال في تلك الأوامر

والنواهي التي خاطب بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، التي أولها ﴿ وبالوالدين إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر ﴾ [الإسراء : 23] الآية . ما هو صريح ، في أن المخاطب بذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم ، لا عموم كل من يصح منه الخطاب ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِمَّآ أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحكمة وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إلها آخَرَ فتلقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [الإسراء : 39] .

(255/660)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السمآء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾ [الحجر : 85] وفي آخر سورة قد أفلح المؤمنون . في الكلام على قوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً ﴾ [المؤمنون : 115] الآية .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ .

الإشارة في قوله ذلك راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي ، ذلك أي خلقنا السماوات والأرض باطلاً هو ظن الذين كفروا بنا ، والنفي في قوله ما خلقنا ، منصب على

الحال لا على عاملها الذي هو خلقنا ، لأن المنفي بأداة النفي التي هي ما : ليس خلقه للسماوات والأرض ، بل هو ثابت ، وإنما المنفي بها ، هو كونه باطلاً ، فهي حال شبه العمدة وليست فضلة صريحة ، لأن النفي منصب عليها هي خاصة ، والكلام لا يصح دونها . والكلام في هذا معلوم في محله ، ونفي كون خلقه تعالى للسماوات والأرض باطلاً نزه عنه نفسه ونزهه هنه عباده الصالحون ، لأنه لا يليق بكماله وجلاله تعالى .

أما تنزيهه نفسه عنه ففي قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115]

ثم نزه نفسه ، عن كونه خلقهم عبثاً ، وبقوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللهُ الملك الحق لاَ إله إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش الكريم ﴾ [المؤمنون : 116] أي تعالى وتقدس وتنزه عن كونه خلقهم عبثاً .

(256/660)

وأما تنزيه عباده الصالحين له عن ذلك ، ففي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب الذين يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السماوات والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : 190191] فقوله تعالى عنهم سبحانك أي تنزيهاً لك عن

أن تكون خلقت السماوات والأرض باطلاً . فقولهم سبحانك تنزيه له ، كما نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللهُ الملك الحق ﴾ [المؤمنون : 116] الآية .

وقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ يدل على أن من ظن بالله ما لا يليق به جل وعلا ، فله النار .

وقد بين تعالى في موضع آخر أن من ظن بالله ما لا يليق به أراده وجعله من الخاسرين ، وجعل النار مثواه . وذلك في قوله تعالى : ﴿ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخاسرين فَإِن يَصْبِرُواْ فالنار مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [فصلت : 222324] الآية .

وقولنا في أول هذا المبحث الإشارة في قوله ذلك راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي قد قدمنا إيضاحه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] ، وبينا هناك أن الفعل نوعان ، أحدهما الفعل الحقيقي ، والثاني الفعل الصناعي ، أما الفعل الحقيقي ، فهو الحدث المتجدد المعروف عند النحويين بالمصدر .

وأما الفعل الصناعي ، فهو المعروف في صناعة علم النحو بالفعل الماضي ، والفعل المضارع ، وفعل الأمر على القول بأنه مستقل عن المضارع .

ومعلوم أن الفعل الصناعي ينحل عند النحويين ، عن مصدر وزمن ، كما أشار له في الخلاصة بقوله :

(257/660)

المصدر اسم ما سوى الزمان من . . . مدلولي الفعل كأمن من أمن

وعند جماعات من البلاغيين ، أنه ينحل عن مصدر ، وزمن ونسبة ، وهو الأقرب ، كما حرره بعض علماء البلاغة في مبحث الاستعارة التبعية ، وبذلك تعلم أنه لا خلاف بينهم في أن المصدر ، والزمن كامنان في الفعل الصناعي فيصح رجوع الإشارة والضمير إلى كل من المصدر والزمن الكامنين في الفعل الصناعي .

فمثال رجوع الإشارة إلى المصدر الكامن في الفعل ، قوله هنا ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الآية ، فإن المصدر الذي هو الخلق ، كامن في الفعل الصناعي ، الذي هو الفعل الماضي في قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السمآء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِك ﴾ أي خلق السماوات المذكور الكامن في مفهوم خلقنا ظن الذين كفروا .

ومثال رجوع الإشارة إلى الزمن الكامن في مفهوم الفعل الصناعي ، قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ذَلِكَ يَوْمَ الوعيد ﴾ [ق : 20] أي ذلك الزمن الكامن في الفعل هو يوم الوعيد .

ومثال رجوع الضمير للمصدر الكامن في مفهوم الفعل قوله تعالى : ﴿ اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [المائدة : 8] فقوله : هو ، أي العدل الكامن في مفهوم اعدلوا ، كما تقدم إيضاحه .

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28)

أم في قوله : أم نجعل الذين ، وقوله ، أم نجعل المتقين ، كلتاهما ، منقطعة وأم المنقطعة ، فيها لعلماء العربية ثلاثة مذاهب :

الأول : أنها بمعنى همزة استفهام الإنكار .

الثاني : أنها بمعنى بل الإضرابية .

والثالث : أنها تشمل معنى الإنكار والإضراب معاً ، وهو الذي اختاره بعض المحققين .

وعليه فالإضراب بها هنا انتقالي لا إبطالي ووجه الإنكار بها عليهم واضح ، لأن من ظن بالله الحكيم الخبير ، أنه يساوي بين الصالح المصلح ، والمفسد الفاجر ، فقد ظن ظناً قبيحاً جديراً بالإنكار .

وقد بين جل وعلا هذا المعنى ، في غير هذا الموضع ، وذم حكم من يحكم به ، وذلك في قوله تعالى الجاثية : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : 21] .

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)

قوله تعالى : كتاب خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب ، وقد ذكر جل وعلا ، في هذه الآية الكريمة ، أنه أنزل هذا الكتاب ، معظماً نفسه جل وعلا ، بصيغة الجمع ، وأنه كتاب مبارك وأن من حكم إنزاله ، أن يتدبر الناس آياته ، أي يتفهموها ويتعقلوها ويمعنوا النظر فيها ، حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى ، وأن يتذكر أولوا الألباب ، أي يتعظ أصحاب العقول السليمة ، من شوائب الاختلال .

وكل ما ذكره في هذه الآية الكريمة جاء واضحاً في آيات أخر .

أما كونه جل وعلا ، هو الذي أنزل هذا القرآن ، فقد ذكره في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان : 3] وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران : 7] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وأما كون هذا الكتاب مباركاً ، فقد ذكره في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ

فاتبعوه واتقوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : 155] . والمبارك كثير البركات ، من خير الدنيا والآخرة .

(259/660)

ونرجو الله القريب المجيب ، إذ وفقنا لخدمة هذا الكتاب المبارك ، أن يجعلنا مباركين أينما كنا ، وأن يبارك لنا وعلينا ، وأن يشملنا ببركاته العظيمة في الدنيا والآخرة ، وأن يعم جميع إخواننا المسلمين ، الذين يأتمرون بأوامره بالبركات والخيرات ، في الدنيا والآخرة ، إنه قريب مجيب .

وأما كونه تدبر آياته ، من حكم إنزاله : فقد أشار إليه في بعض الآيات ، بالتحضيض على تدبره ، وتوبيخ من لم يتدبره ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 24] . وقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ القول أَمْ جَآءَهُمْ مَّا لَمْ يَأْتِ آبَآءَهُمُ الأولين ﴾ [المؤمنون : 68] .

وأما كون تذكر أولي الألباب ، من حكم إنزاله ، فقد ذكره في غير هذا الموضع ، مقترناً ببعض الحكم الأخرى ، التي لم تذكر في آية ص هذه كقوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ هذا

بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وليعلموا أَنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ﴾ [إبراهيم : 52] فقد بين في هذه الآية الكريمة ، أن تذكر أولي الألباب ، من حكم إنزاله مبيناً منها حكمتين أخريين ، من حكم إنزاله ، وهما إنذار الناس به ، وتحقيق معنى لا إله إلا الله ، وكون إنذار الناس وتذكر أولي الألباب ، من حكم إنزاله ، ذكره في قوله تعالى : ﴿ المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 12] لأن اللام في قوله لتنذر ، متعلقة بقوله : أنزل ، والذكرى اسم مصدر بمعنى التذكير ، والمؤمنون في الآية لا يخفى أنهم هم أولوا الألباب .

وذكر حكمة الإنذار في آيات كثيرة كقوله :

﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] . وقوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : 19] . وقوله تعالى : ﴿ تَنزِيلَ العزيز الرحيم لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : 56] الآية . وقوله تعالى : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القول عَلَى الكافرين ﴾ [يس : 70] الآية . وذكر في آيات أخر ، أن من حكم إنزاله ، الإنذار والتبشير معاً ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا

يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ [مريم : 97] . وقوله تعالى : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّماً لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ [الكهف : 12] الآية .

وبين جل وعلا أن من حكم إنزاله أن يبين صلى الله عليه وسلم للناس ما أنزل إليهم ولأجل أن يتفكروا ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ > [النحل : 44] . وقد قدمنا مراراً كون لعل من حروف التعليل ، وذكر حكمه التبيين المذكورة مع حكمة الهدى والرحمة ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اختلفوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : 64] . وبين أن من حكم إنزاله ، تثبيت المؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين في قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس مِن رَّبِّكَ بالحق لِيُثَبِّتَ الذين آمَنُواْ وَهُدًى وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : 102] .

وبين أن من حكم إنزاله ، إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يحكم بين الناس بما أراه الله ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَا أَرَاكَ الله ﴾ [النساء : 105] الآية .

والظاهر أن معنى قوله : ﴿ بِمَا أَرَاكَ الله ﴾ أي بما علمك من العلوم في هذا القرآن العظيم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى : 52] الآية . وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص بِمَآ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا القرآن وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ [يوسف : 3] .

وبين جل وعلا أن من حكم إنزاله إخراج الناس من الظلمات إلى النور وذلك في قوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [إبراهيم : 1] الآية .

وبين أن من حَكَم إنزاله التذكرة لمن يخشى في قوله تعالى : ﴿ طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يخشى ﴾ [طه : 13] أي ما أنزلناه إلا تذكرة لمن يخشى .

وهذا القصر على التذكرة إضافي ، وكذلك القصر في قوله تعالى الذي ذكرناه قبل هذا ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اختلفوا فِيهِ ﴾ [النحل : 64] الآية ، بدليل الحِكَم الأخرى التي ذكرناها .

وبين أن من حكم إنزاله قرآناً عربياً وتصريف الله فيه من أنواع الوعيد أن يتقي الناس الله ، أو يحدث لهم هذا الكتاب ذكراً ، أي موعظة وتذكراً ، يهديهم إلى الحق ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ [طه : 113] والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ﴾ الآية .

ذكر في هذه الآية الكريمة ، أنه وهب سليمان لداود ، وقد بين في سورة النمل أن المرهوب ورث الموهوب له ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُود ﴾ [النمل : 16] وقد بينا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى عن زكريا ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الموالي مِن وَرَآئِي وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ [مريم : 56] الآية أنها وراثة علم ودين لا وراثة مال .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ الآية .

وقد قدمنا الكلام على هذه الآية ، وعلى ما يذكره المفسرون فيها ، من الروايات التي لا يخفى سقوطها ، وأنها لا تليق بمنصب النبوة ، في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : 2324] . وما روي عنه من السلف من جملة تلك الروايات ، أن الشيطان أخذ خاتم سليمان ، وجلس على كرسيه وطرد سليمان إلى آخره يوضح بطلانه ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر : 42] واعتراف الشيطان بذلك في قوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : 40] .

فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36)

(263/660)

قد قدمنا الكلام عليه موضحاً بالآيات القرآنية في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾ [الأنبياء : 81] الآية .

وفسرنا هناك قوله هنا حيث أصاب وذكرنا هناك أوجه الجمع ، بين قوله هنا : ﴿ رُخَاءً ﴾ ، وقوله هنا : ، وقوله هناك : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ ووجه الجمع أيضاً بين عموم الجهات المفهوم من قوله هنا ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي حيث أراد وبين خصوص الأرض المباركة هناك في قوله ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأنبياء : 81] .

وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37)

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الشياطين مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ [الأنبياء : 82] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(264/660)

وقال الشيخ المراغى :

﴿ وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) ﴾

تفسير المفردات

الصافن من الخيل : الذي يرفع إحدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافرها كما قال :

ألف الصّفون فما يزال كأنّه مما يقوم على الثلاث كسيرا

وقال النابغة :

لنا قبّة مضروبة بفنائها عتاق المهارى والجياد الصوافن

والجياد : واحدها جواد ، وهو السريع العدو ، كما أن الجواد من الناس السريع البذل قاله المبرد ، والخير هنا : الخيل : توارت : أي غيبت عن البصر ، طفق : شرع ، المسح إمرار

اليد على الجسم .

الإيضاح

(وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ) أي وآتينا داود ابنا يسمى سليمان .

ونحو الآية قوله : « وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ » .

ثم مدحه سبحانه وأثنى عليه فقال :

(265/660)

(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) أي ما أحقه بالمدح والثناء ! لأنه كان كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى ربه في أكثر الأوقات ، وفي كثير من المهمات ، اعتقادا منه بأن كل شيء من الخير لا يتم إلا بإعانته وتوفيقه .

ثم ذكر حالا من أحواله التي تستحق الإطراء والثناء فقال :

(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ) أي امدحه حين عرضت عليه الجياد الصافنات من العصر حتى آخر النهار ، لينظر إليها ويتعرف أحوالها ، ومقدار صلاحيتها للقيام بالمهامّ التي توكل إليها حين الغزو وغيره .

وقد وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين وصفين ممدوحين واقفة وجارية ، فإذا وقفت

كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعا خفافا في جريها ، وقيل وصفها بالصفون لأنه لا يكون في الهجن ، بل يكون في العراب الخلّص .

(فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي) قد يحب الإنسان شيئا وهو يتمنى ألا يحبه ، كالمريض الذي يشتهى ما يزيد مرضه ، والوالد الذي يحب ولده السيّء السيرة والخلق ، وقد يحب شيئا وهو يرى أن من المصلحة أن يحبه ، ومن الخير أن يزداد شغفه به ، وتلك هى غاية المحبة ، فسليمان عليه السلام يقول : إنى أحب حبى لهذه الخيل ، وتلك المحبة إنما حصلت عن ذكر ربى وأمره لا عن الشهوة والهوى .

(حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ) أي حتى غابت عنى بسبب العثير المتطاير من سنابكها كما قال المتنبي :

أثارت سنابكها عليها عثيرا لو تبتغى عنقا عليه لأمكنا

فالمراد أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة « إنّى أحببت حبّ الخير عن ذكر ربّى » وما زال يرددها حتى غابت عن عينيه بسبب الغبار من جهة ، ولبعد المسافة من جهة أخرى .

وبعد أن اطمأن إلى حالها ، وحمد جميل أمرها قال :

(رُدُّوها عَلَيَّ) فقد كفى ما قامت به من حضر دلت به على نجابتها وفراهتها ، وأنها أهل لأن تقوم بما يطلب منها حين الملمّات ، وفيها الكفاية وفوق الكفاية حين حلول الأزمات ، من غزو وغيره .

ولما ارتاح إليها وسرّ بما بذلته من جهد ، وما ينتظر منها إذا جدّ الجدّ – أظهر استحسانه لها ولفرسانها .

(فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ) أي فجعل يمسح سوقها وأعناقها إظهارا لكرامتها لديه ، إذ هى أعظم الأعوان ، فى دفع العدوان ، ولا سيما وقد بلاها وخبر أمرها وعلم قوة أسرها ، وأنها خلو من الأمراض التي قد تعوقها عن عملها حين البأساء .

والخلاصة – إن سليمان احتياطا للغزو أراد أن يعرف قوة خيوله التي تتكوّن منها قوة الفرسان ، فجلس وأمر بإحضارها وإجرائها أمامه ، وقال إنى ما أحببتها للدنيا ولذاتها ، وإنما أحببتها لأمر اللّه وتقوية دينه ، حتى إذا ما أجريت وغابت عن بصره ، أمر راكضيها بأن يردوها إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها ، سرورا بها وامتحانا لأجزاء أجسامها ، ليعرف ما ربما يكون فيها من عيوب قد تخفى ، فتكون سببا في عدم أدائها مهمتها على الوجه المرضى .

[سورة ص (38) : الآيات 34 الى 40]

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (34) ﴾

تفسير المفردات

(267/660)

فتنّا سليمان : أي ابتليناه بمرض ، جسدا : أي جسما ضعيفا كأنه جسد بلا روح ، أناب : أي رجع إلى صحته ، لا ينبغى لأحد من بعدي : أي لا ينتقل منى إلى غيرى ، رخاء : أي لينة ، أصاب : أي قصد وأراد ، فقد حكى الزجاج عن العرب أنها تقول :

أصاب الصواب فأخطأ الجواب ، قال الشاعر :

أصاب الكلام فلم يستطع فأخطأ الجواب لدى المفصل

مقرّنين : أي مربوطين ، والأصفاد : واحدها صفد (بالتحريك) وهو الغلّ الذي يجمع اليدين إلى العنق ، قال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنّهاب وبالسّبايا وأبنا بالملوك مصفّدينا

والزلفى : الكرامة ، والمآب : المرجع .

الإيضاح

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ) أي ولقد ابتلينا سليمان بمرض

عضال صار بسببه ملقى على كرسيه ، لشدة وطأته عليه (والعرب تقول فى الضعيف : إنه لحم على وضم ، وجسم بلا روح) ثم رجع بعد إلى حاله الأولى واستقامت له الأمور كما كان .

(قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي) طلب المغفرة من ربه ، لأنه قد يترك الأفضل والأولى فاحتاج إلى طلب المغفرة من ربه ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأن

هذا في مقام التذلل والخضوع كما

قال عليه السلام « إنى لأستغفر اللّه في اليوم والليلة سبعين مرة »

وما روى من قصص الخاتم والشيطان ، وعبادة الوثن في بيت سليمان ، فذلك من أباطيل اليهود دسّوها على المسلمين ، وأبى قبولها العلماء الراسخون .

ومن ثم قال الحافظ ابن كثير : وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضى اللّه عنهم كسعيد بن المسيّب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين ، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب ا ه .

(وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي) أي هب لى ملكا لا يكون لأحد غيرى لعظمه .

(268/660)

قال صاحب الكشاف : كان سليمان عليه السلام ناشئا في بيت الملك والنبوة وارثا لهما ، فأراد أن يطلب من ربه عز وجل معجزة فطلب بحسب إلفه ملكا زائدا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ، ليكون ذلك دليلا على نبوته ، قاهرا للمبعوث إليهم ، ولن تكون معجزة حتى تخرق العادة ، فذلك معنى قوله : لا ينبغى لأحد من بعدي ا ه .

وقيل إنه أراد بقوله : لا ينبغى لأحد من بعدي – الدلالة على عظمه وسعته كما تقول : لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال . وربما كان للناس أمثال ذلك ، ولكنك تريد تعظيم ما عنده .

ثم علل المغفرة والهبة معا فقال :

(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) أي إنك أنت الكثير المواهب والعطاء ، فأجب طلبى ، وحقق رجائى .

ثم أخبر سبحانه بأنه أجاب دعاءه ووفقه لتحصيل ما أراد وعدّد نعمه عليه فقال :

(1) (فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ) أي فذللنا لطاعته إجابة لدعوته الريح تجرى لينة طيّعة له لا تمتنع عليه إلى أىّ جهة قصد .

ولا تنافى بين وصف الريح هنا بالرخاء ، ووصفها في آية أخرى بكونها عاصفة كما قال : « وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً » لأنها تكون بكلتا الحالين بحسب الحاجة إليها ، فهى تشتد حين الحلّ ، وتلين حين السير .

(2) (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ) أي وذللنا لأمره البنائين من الشياطين والغوّاصين في البحار منهم ، يسخرهم فيما يريد من الأعمال ، فإذا أراد بناء العمائر والقصور أو الحصون والقناطر أنجزوها له في الزمن القصير ، وإذا أحب استخراج اللؤلؤ والمرجان من البحار لجعلهما حلية لمن في قصوره لبّوا طلبه سراعا .

(3) (وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ) أي وآخرين من الشياطين مردة مشاكسين لا يلبون دعوة الداعي ، ويخالفون ما أمروا به فيوضعون في السلاسل والأغلال ليتقى شرهم .

(269/660)

وخلاصة ما سلف – إن سليمان قد استعمل الشياطين في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص في الماء ، ومن لم يطع أمره وضعه في السلاسل والأغلال ، كفّا لشره ، وعقابا له ، وعبرة لغيره .

وإنا لا نعلم حقيقة تلك القيود ولا كيف تكون العقوبة ، كما لا نعلم كيف يشتغل الشياطين وكيف يبنون أو يغوصون ؟ فكل ذلك في عالم لا ندرك شيئا من أحواله ، فعلينا أن نؤمن بأن سليمان لعظم ملكه لم يكتف بتسخير الإنس في أعماله بل سخّر معهم الجن فيما يصعب عليهم ، ونتقبل هذا كما قصه القرآن دون دخول في التفاصيل خوفا من الزلل الذي لا تؤمن

مغبّته ، ولا نصل أخيرا إلى معرفة الحق فيه ، ولنكتف بذلك ، فالعبرة به ماثلة ولا نتزيّد فيه .

ثم ذكر سبحانه أنه أباح له أن يتصرف في كل هذا الملك الواسع كما شاء دون رقيب ولا حسيب فقال :

(هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ) أي وقلنا له : إن هذا الذي أعطيناكه من الملك العظيم والبسطة في الغنى والتسليط على عالم لم يسلط عليه غيرك من العوالم الأخرى - عطاؤنا الخاص بك ، فأعط من شئت ، وامنع من شئت غير محاسب على شيء من ذلك ، فقد فوضنا لك التصرف فيه كما تشاء .

وبعد أن ذكر ما أوتيه من نعم الدنيا التي يحار العقل في إدراكها ، أبان ماله فى الآخرة عند ربه من مقام كريم وجنات ونعيم فقال :

(وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ) أي وإن له في الآخرة لقربى وكرامة لدينا فنبوّئه جنات النعيم ، ونؤتيه الإجلال والتعظيم ، فهو كما كان سعيدا في الدنيا يكون سعيدا في الآخرة ، ويفوز برضا ربه ، وعظيم كرامته . جعلنا اللّه ممن كتبت له السعادة فى الدارين والكرامة والمثوبة لديه في جنات النعيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المراغى حـ 23 صـ 117 . 123 ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ . . نِعْمَ الْعَبْدُ . . إِنَّهُ أَوَّابٌ » الواو للاستئناف ، وعطف حدث على حدث . . أو هى للعطف على قوله تعالى : « فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ » . . أي فغفرنا لداود ما كان منه ، ووهبنا له سليمان . . ويكون ما بين المتعاطفين اعتراضا ، يراد به التعقيب على القصة ، والإلفات إليها ، والوقوف موقف التأمل عندها .

(271/660)

وأيا ما كان ، فإن ذكر سليمان هنا ، وأنه مما وهبه اللّه لداود ، هو مما يشير إلى فضل اللّه سبحانه ، وإحسانه إلى عبده داود ، بعد خطيئته ، واستغفاره وندمه ، وقبول اللّه توبته . وهكذا يبتلى اللّه سبحانه المصطفين من عباده بما يبتليهم به من مكروه ، ثم يخرجهم من هذا المكروه ، أصفى جوهرا ، وأضوأ نورا ، وأكثر إشراقا وألقا . وأن سليمان هذا ، إنما هو هبة من هبات اللّه العظيمة ، وعطاء من عطاياه الجليلة المسوقة إلى عبد من عباده المحسنين ، بعد هذا الابتلاء العظيم ، وبعد تلك المحنة القاسية . .

وفى قوله تعالى : « نِعْمَ الْعَبْدُ » ثناء عظيم من المولى سبحانه وتعالى ، على سليمان ، وعلى داود أيضا ، إذ كان ذلك الابن هبة له من ربه . .

وقوله تعالى : « إِنَّهُ أَوَّابٌ » إشارة إلى أنه كثير الأوب والرجوع إلى اللّه وأنه مع الملك العظيم الذي جعله اللّه بين يديه ، كان على صلة وثيقة بربه . .

فلم يقطعه الملك عن ذكر ربه ، بل إنه كلما كانت له نظرة إلى ملكه كانت له إلى ربه نظرات . .

وفى وصف سليمان بالصفة التي وصف بها أبوه داود ، وهى « الأواب » إشارة إلى أنهما على درجة واحدة من الاتصال بربهم ، والرجوع إليه دائما . .

ثم إنه إشارة أخرى إلى أن سليمان سيقع منه ما وقع لأبيه من فتنة وابتلاء ، ثم من استغفار وندم ، ثم من توبة وقبول من اللّه ، وعطاء جزل عظيم ، بعد هذا القبول والرضا من رب العالمين . .

قوله تعالى : « إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ »

« إذ » ظرف يبيّن حالا من أحوال سليمان فى أوبه إلى اللّه . . أي ومن أوبه إلى اللّه ورجوعه إليه ، موقفه هذا الذي كان منه حين عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد . . والصافنات : الخيل الواقفة على ثلاث قوائم ، على حين تكون الرابعة قائمة على حرف الحافر . . وهذا من علامات الكرم والأصالة فى الخيل . . أما ذوات الحافر الأخرى ، كالحمير والخيل غير الكريمة ، فإنها تقف على قوائمها الأربعة ، متمكنة من الأرض على سواء . . يقول عمرو بن كلثوم فى معلقته ، يصف كرام الخيل التي يقتنونها ، ويحاربون عليها :

وسيّد معشر قد توّجوه بتاج الملك يحمى المحجرينا

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلّدة أعنتها صفونا

والجياد : جمع جواد ، وهو اسم غلب على الذكر من الخيل . . وأصله من الجودة . . والخير : هو الخيل . . وتسمى الخيل خيرا ، لأنها مظهر من مظاهر النعمة ، حيث لا يملكها إلا أصحاب الثراء والجاه ، فحيث كانت الخيل كان الخير معها . . وفى الحديث : « الخيل معقود بنواصيها الخير » والآيتان الكريمان تحدثان عن حال من أحوال سليمان ، وموقفه من الاشتغال بملكه وذكره لربه . .

فهو - عليه السلام - إذ يستعرض الخيل ، كبعض من سلطانه الذي بين يديه ، أو كنعمة من نعم الملك الذي آتاه اللّه - إنه إذ يفعل هذا ، وإذ يرى كثرة هذه الخيل المجراة بين يديه ، بسرجها ،

ولجمها ، يستعظم هذه النعمة ، ويرى أنها شيء كثير ، ما كان له أن يستكثر منه إلى هذا الحد ، وأن يحفل به إلى هذا المدى ، وأنه لو استكثر من ذكر الله ، وأعطى لهذا الذكر ذلك المجهود الذي بذله ، في انتقاء هذه الخيل ، وفي استجلاب كرائمها من كل أفق - لو أنه فعل هذا لكان أولى ، وأجدى . .

(273/660)

ولهذا ، فإنه عليه السلام ، ما إن يرى هذه الخيل تطلع عليه في جمالها وروائها وروعة منظرها ، حتى يلقى نفسه بهذا اللوم : « إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي » ! أي لقد آثرت حبّ الخير الدنيوي ، على ذكر ربّي . . فهذا الحب للخيل ، هو شهوة متمكنة في النفس ، وهو فتنة من فتن الدنيا ، كما يقول سبحانه : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعامِ وَالْحَرْثِ . . ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ » . وللخيل في ذاتها شهوة كشهوة المال ، ولها في النفوس موقع لا يعرفه إلا من عرف الخيل وشغف بها ، وخاصة في حياة البادية ، التي ترى الخيل فيها وجها من وجوه الجمال والحسن ، في هذه المواقع المجدبة المكفهرة التي لا يلمح فيها الحسن إلا لمحات خاطفة . .

وهذا ما تحدثنا به الحياة العربية ـ وخاصة فى الجاهلية ـ وما كان للخيل فيها من علقة بالنفوس ، وهوى فى الأفئدة ، حتى لقد عرفت الخيل بأسمائها ، كما يعرف الأبطال ، ومشاهير الفرسان . وحتى لقد كان للخيل أنساب كأنساب القبائل والعشائر ، وحتى لقد وسعت اللغة العربية من الكلمات فى أوصاف الخيل ، وفى وصف كل عضو من أعضائها ، وكل شية من شياتها ـ ما لم يكن يجتمع لشىء آخر غيرها من حيوان أو إنسان . . ولهذه العناية العظيمة بشأن الخيل عند العرب والاحتفاء بها ، كان ذلك النتاج العربي من كرائم الخيل وأصائلها ، والتي لا تزال محتفظة بمكانها فيه ، فوق عالم الخيل إلى اليوم .

وفى الشعر العربي ديوان كبير ، يتمدح فيه الشعراء بالخيل ، ويتغنون بها ، ويكشفون عن مشاعرها ، وأحاسيسها فى الحرب ، وفى السلم . . كما نرى فى شعر عنترة ، وعمرو بن كلثوم ، وامرئ القيس . . وغيرهم . .

يروى أن عربيا كان يملك فرسا اسمها « سكاب » وكانت من كرائم ،

الخيل . . وقد سامه أحد أصحاب السلطان أن يشتريها منه ، أو أن يهبها له ، إن ضنّ ببيعها ، وارتفع بقدرها عن أن تنزل منازل السلع ، فلم يجد العربي بدّا من أن يدفع هذا

المكروه ، متلطفا متوسلا بقصيدة يقول فيها .

أبيت اللّعن إن سكاب علق نفيس لا يعار ولا يباع

مفدّاة مكرّمة علينا نجاع لها العيال ولا تجاع !

فحبّ سليمان عليه السلام للخيل ، هو من هذا الحبّ ، خاصة وهو مولود فى بيت ملك ، تربّى من صغره على الفروسية . .

ونعود إلى القصة فنقول : إن سليمان - عليه السلام - إذ يقول هذا القول : « إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي » . إنما هو مراودة بينه وبين نفسه ، وخاطر من خطرات اللوم يدفع بها الزهو والعجب عنه ، وهو مواجهة هذه الفتنة ، ثم هو مع هذا يمضى فيما هو فيه ، ولا يقطع مراسم هذا الحفل العظيم الذي احتشد له رؤساء القوم وسادتهم فى هذا الاستعراض العظيم لجيشه مشاة وفرسانا . . وإنه لا بأس من أن يمضى فيما هو فيه الآن ، ثم ليكن له بعد هذا حساب مع نفسه ، وتدبير فيما يكون منه فى شأن هذه الخيل وغيرها ، مما يشغل منه وقتا يقطعه فترات عن ذكر اللّه ، بالاشتغال بهذا المتاع . .

وهكذا ظل - عليه السلام - يستعرض الخيل ، حتى دخل الظلام ، فتوارت عن نظره بالحجاب ، أي حجاب الظلام . . فلم يعد يرى ملامحها ، ويتحقق من شياتها ، وما ينكشف لعينيه من أعضائها ، التي تعطى الصفة الملاءمة لكل جواد منها . . وهذا ما

يشير إليه قوله تعالى : « حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ » أي أنه ـ عليه السلام ـ ما زال ينظر إليها ، ويستعرض بعينه تناسب أعضائها ، وتناسق بنائها ، حتى توارت عنه بهذا الحجاب الذي أرخاه الليل عليها ، إذ أن عرضها

(275/660)

عليه قد كان فى أخريات النهار ، كما يقول اللّه تعالى : « إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ » . .

هذا ، ولم يكن ـ عليه السلام ـ قد فرغ من الأمر الذي قصد إليه من هذا العرض للخيل ، وهذا هو حجاب الظلام يحول بينه وبين تفرسها بعينيه ، إذ كان العرض فى أخريات النهار بالعشي . . فماذا يفعل ؟

لقد أراد القائمون على أمر هذا الاستعراض من حاشيته ، أن يؤجّلوا ذلك إلى يوم آخر ، وأن يذهبوا ببقية الخيل التي لم تعرض إلى مرابطها . . وربما همّ الرجال بهذا فعلا ، بل وربما مضوا فى تنفيذه ـ بعد أخذ موافقته ضرورة ـ ولكن سرعان ما بدا له أن ينتهى من هذا الاستعراض فى مجلسه هذا ، حتى لا يعود إلى هذه الفتنة من غد . . فقال وقد أخذت الخيل طريقها إلى مرابطها : « ردّوها علىّ ! » فلما ردت إليه ، أخذ يتحسسها سريعا

بيديه ، بالمسح بيديه على سوقها وأعناقها « فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ » . .

وأعراف الخيل ، وأرجلها ـ وخاصة سيقانها ـ هى المواضع التي تنمّ عنها ، وتحدّث عن مكانها من الأصالة والجودة . . وفى هذا يقول امرؤ القيس فى وصف جواده :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

والأيطل : الكفل ، وهو أعلى الفخذ . . والسرحان الذئب ، والتتفل :

ولد الظبى .

فامرؤ القيس يصف ساق جواده بالضمور ، وعدم الامتلاء ، ويشبهه بساق النعامة فى دقته ، وتجرده من اللحم . على حين يشبّه كفله بكفل الظبى فى الامتلاء باللحم . . !

ونلخص مضمون القصة فنقول :

إن سليمان ـ عليه السلام ـ استعرض ما يملك من خيل ، وكان ذلك فى أخريات النهار ، فلما طلعت عليه ، هالته كثرتها ، وكثرة ما تتزين به من سروج وقلائد ، ولجم ، فوقع فى نفسه ، أن هذا حصيلة جهد كبير ، بذله فى هذا الوجه ، وأنه كان الأولى به أن يصرف جهده هذا فى ذكر اللّه . .

وقد حدثته نفسه أن يردّ الخيل على أعقابها ، وأن يلغى هذا الاحتفال ، ولكن وجد أن ذلك قد يثير كثيرا من الأقاويل والشائعات ، وأنه ربما يبلغ أعداءه عنه أنه انصرف عن اقتناء الخيل أو زهد فيها ، وهى أقوى عدد الحرب يومئذ ، فتحدثهم أنفسهم بحربه ، ويجدون الجرأة على قتاله ، فرأى لهذا أو لغيره أن يمضى فيما هو فيه ، وكان الليل قد أرخى حجابه قبل أن يفرغ من استعراض الخيل ، وكان من التدبير أن يؤجل بقية العرض إلى يوم آخر ، ولكنه ـ لأمر دبره لنفسه ـ رأى أن يفرغ من هذا العرض ، وأن يستعمل يديه فى التعرف على الجياد من هذه الخيل ، وذلك بإمرار يديه على المواضع التي تدل على الجودة أو الرداءة منها ، كل ذلك فى سرعة نراها فى قوله تعالى : « فَطَفِقَ » الذي يدل على الاستمرار مع التدفق والجريان للفعل .

أما الأمر الذي دبره سليمان عليه السلام فى نفسه بإنهاء هذا العرض فى هذا المجلس ، فهو أن يأخذ نفسه بسياسة غير تلك السياسة التي كان يصرف فيها هذا الجهد باقتناء الخيل ، والاحتفاء بها ، وأن يجعل ذكر اللّه همّه وأن يفرغ فيه جهده ، وأن يستغفر لما كان منه من تقصير أو تفريط فى جانب ذكره لربه . .

هذه هى قصة الخيل . . ولها ذيول سنعرض لها فيما بعد . . بعد أن نفرغ من قصة الكرسي والجسد الملقى عليه . .

قوله تعالى : « وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً . . ثُمَّ أَنابَ » . .

هذه الآية هى إشارة إلى هذه الفتنة التي فتن بها سليمان ، وهو اشتغاله بهذا المتاع من الخيل ، وحشد هذا الجهد منه ومن حاشيته ، ورعيته فى سبيله . .

ففى قوله تعالى : « وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً » . إشارة إلى أن اللّه سبحانه وتعالى قد فتنه بهذا المتاع الكثير ، الذي ساقه إليه . . وأن هذا المتاع كان عبئا ثقيلا على « كرسيه » أي سلطانه ، الذي كان ينبغى أن يكون مكان النبوة فيه أبرز وأظهر من مقام الملك . .

وهذا هو السر فى كلمة « جسدا » الذي يمثل المتاع الدنيوي الذي يضمه هذا الملك . .

إن كرسى سليمان قد ثقل فيه ميزان الملك ، وكاد يجور على المكان الذي ينبغى أن يكون للنبوة فيه ، الحظّ الأوفر ، والنصيب الأوفى ! .

ويجوز أن يكون قوله تعالى : « وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً » بمعنى وألقيناه على كرسيه جسدا ، فيكون جسدا حال ، بمعنى كائنا جسدا . . على حين أن روحه قد زايله فى تلك الحال ، فرأى . من عالم روحه . وجوده الجسدى قائما على الكرسي ، ملتصقا به . .

وهذا ما يعرف فى الروحية الحديثة باسم « الطرح الروحي » حيث تستطيع بعض الأرواح أن تنفصل عن أجسادها فى حال اليقظة ، فيرى الإنسان بروحه عوالم كثيرة بعيدة ، ويشهد من وراء حجب المادة الكثيفة ما يشهده عن قرب وعيان . . ومما يشهده فى

حاله تلك ، وجوده الجسدى .

وقد يكون سليمان - عليه السلام - رأى فى حال من أحوال الطرح الروحي ، ذاته الجسدية على كرسى ملكه ، على حين رأى ذاته الروحية بعيدة

(278/660)

عن هذا الكرسي ، فأنكر مقامه على هذا الكرسي وهو على تلك الحال التي انفصلت فيها أو كادت تنفصل عنه النبوة ! .

ولقد لفتنى إلى هذا المعنى الأستاذ العالم الأديب محمد شاهين حمزة ، الذي ينفق من ذخائر علمه ويسعى بها إلى طلاب العلم ، حاملا عنهم مشقة الطلب والسعى . . فجزاء اللّه عن العلم وأهله خير ما يجزى العالمين العاملين .

وفى قوله تعالى : « ثُمَّ أَنَابَ » - إشارة إلى معطوف عليه محذوف .

تقديره : فشغل سليمان وقتا ما بهذا المتاع أي (الجسد) الذي ألقى على كرسيه . . « ثم أناب » . .

أي رجع إلى ربه ، وصحح هذا الوضع الذي صار إليه « كرسيه » . .

فأفسح للنبوة فيه مكانها ، وأعطاها كل حقها . .

واقرأ الآية الكريمة : « وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ » .

تجد مفهوما واضحا لكلمات اللّه على هذا التأويل الذي تأولناها عليه . .

ثم تجد للعطف « بثم » مكانا مكينا فى الآية ، حيث أن هذه الإنابة قد جاءت متراخية زمنا ما ، كان لا بد منها لجمع هذه الأعداد الكثيرة من أصائل الخيل وجيادها ، وما يتصل بها من عدد وفرسان . .

قوله تعالى : « قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » . .

هو بيان لإنابة سليمان إلى ربه ، وأن إنابته هى قوله : « رَبِّ اغْفِرْ لِي

وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ »

. ولهذا لم يفصل بين الفعلين « أناب » « وقال » بفاصل ما ، من حرف عطف ، أو نحوه . .

وقد قرن سليمان فى إنابته إلى اللّه سبحانه . قرن طلب المغفرة بهبة هذا الملك الذي لا يكون لأحد من بعده ! وفى هذا ما يشير فى وضوح إلى أن ما طلبه من أن يهب اللّه له هذا الملك الذي لا ينبغى لأحد من بعده . فيه إشارة واضحة إلى أن هذا هو ما يصحح إنابته إلى

ربه ، ويجعلها إنابة سليمة ، خالية من كل معوق يعوقها عن اللّه ! فكيف هذا ؟ وهل بهذا الملك العجيب الذي لا يملكه أحد من بعده يكون أقرب إلى اللّه منه وهو على كرسى ملكه الذي هبت عليه منه ريح الفتنة ؟

وهل كان ما كان منه من اشتغال - أكثر مما ينبغى - عن ذكر ربّه ، إلا من الملك ، وسلطان الملك وما يحف به من شهوات ؟

فكيف يكون طلب هذا الملك الذي لم يكن لأحد غيره - إنابة ورجوعا إلى اللّه ، وتخففا من الاشتغال بالملك ؟

ندع هذا الآن . . وننظر فيما أجاب به اللّه سبحانه وتعالى هذا الطلب . .

يقول اللّه تعالى : «فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ» هذا هو ما أجاب به اللّه سبحانه ، سليمان فيما سأل . .

وقد جاءت الإجابة

فى غير مهل . . دعاء فإجابة . . وهذا يدل على ذلك الرضا العظيم من اللّه سبحانه عند عن هذا الذي أقبل عليه بقلب سليم ، منيبا إليه ، طامعا فى رحمته ومغفرته ! ولا بد من وقفة هنا :

فأولا : لقد أقام اللّه سبحانه سليمان فى منصب الملك ، كما أقامه فى منصب النبوة . . فهو - بتكليف من اللّه سبحانه - ملك ونبىّ معا . .

وثانيا : لقد جرب سليمان الحياة مع الملك والنبوة ، فوجد سلطان الملك يكاد يطغى على مقام النبوة . . ولقد رأى رأى العين كيف شغلته الخيل عن أن يؤدى للنبوة حقها ، وأن يذكر اللّه ذكر الأنبياء ، ووقف من نفسه موقف اللائم المؤنب ، فيقول لها : « إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي » ! وثالثا : بعد هذا العرض للخيل الذي رأى فيه سليمان وجه الفتنة كالحا مخيفا ، يهجم على نبوته ويكاد يحتويها ، رأى فى هذا الملك خطرا يتهدد نبوّته إن هو ظل قائما عليه ، ممسكا به ، ثم رأى - من جهة أخرى - أنه ملك من قبل اللّه ، كما هو نبىّ من عند اللّه ، وأنه لا سبيل له أن يخلى يده من هذا الملك . .

إنه ملك ونبىّ معا . .

ورابعا : لا بد إذن أن يكون سليمان ملكا ، وقد رأى ما يسوق إليه الملك من فتنة . . فليكن إذن ملكا ، ولكن ليكن هذا الملك على صورة غير هذا الملك الذي تجىء منه الفتن . !

وخامسا : فى طلب سليمان تغيير صفة هذا الملك ، نراه يقول : « هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » . . إنه ملك ، ولكنه على غير ما يملك

(281/660)

الملوك ، مما على هذه الأرض . . إنه ملك لا تجىء منه هذه الفتن التي ، لا يملك دفعها الملوك ، حتى الأنبياء . . !

وأين هذا الملك الذي يكون على هذه الصفة ؟ . .

إن سليمان لا يعرفه ، ولهذا طلب إلى اللّه سبحانه أن يهبه إياه ، وهو سبحانه لا يعجزه شىء ، وهو سبحانه « وهاب » لا تقف هبانه عند حدود أو قيود ! « إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

وسادسا : وجاء الملك الذي طلب سليمان ! : « فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ » . .

هذا هو ملك سليمان الجديد . . وهو ملك عجيب حقا . . إنه ليس جسدا . وليس فيه من عالم الجسد شىء . . ريح يمتطيها كما يمتطى الخيل . ،

وهى مطاياه التي أقامها اللّه سبحانه وتعالى له مقام الخيل بعد أن زهد فيها ، وصرف نفسه

عنها ابتغاء مرضاة اللّه . . فكان الجزاء الحسن من جنس العمل الحسن . . أضعافا مضاعفة .

ثم كان جنود من عالم الجن ، يعملون له بدلا من عالم الإنس . . !

وإذن فلا التفات إلى الخيل ، وما يتصل بها . . ولا التفات إلى الناس ، وإلى ما قد يقع عليهم من ظلم ، فيما يقيم به دعائم الملك ، من قلاع ، وحصون ، وقصور ! . .

فالريح تنقله إلى حيث يشاء ، بلا خدم ، ولا حشم ، ولا حرس . .

والجن . . «يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ . . مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ» ! !

(282/660)

وبهذا خرج سليمان من سلطان هذا الملك الذي يفتن به الملوك ، وقام على ملك لا تخلص إليه منه فتنة . . ! ! أو بمعنى آخر ، لقد صفّى ملكه من تلك الشوائب التي تجيء منها الفتن ، بما وضع اللّه سبحانه وتعالى فى يديه من قوّى يستغنى بها عما يكلف به الملوك رعاياهم ، وما يحملونهم عليه من أمور ، يحققون بها أبّهة سلطانهم ، ويقيمون عليها عظمة ملكهم ، فيكون الظلم والقهر والاستبداد . .

هذه هى قصة سليمان ، على هذا التأويل الذي تأولنا عليه آيات اللّه ، التي عرضت لهذه القصة . . وهو تأويل ، نرجو أن يكون - بتوفيق اللّه - أقرب إلى الصواب ، وأدنى إلى موقع الحق . . فإننا لم نر أحدا من المفسرين - فيما بين أيدينا من أمهات كتب التفسير - قد تأول الآيات هذا التأويل ، وأقامها على هذا الوجه . .

وإنه لا بأس من أن نعرض هنا بعضا من وجوه التأويل التي ذهب إليها المفسرون ، حتى ينكشف وجه الخلاف ، ويكون للناظر فى تفسيرنا هذا أن يأخذ به ، أو يأخذ ما يشاء من تلك المقولات :

فأولا : يذهب أكثر المفسرين لقوله تعالى : « حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ » يذهبون إلى أن الضمير فى « توارت » يعود إلى الشمس ، وأن سليمان عليه السلام ، شغل باستعراض الخيل ، حتى توارت الشمس فى مغربها . . فلما غربت الشمس تنبه إلى أن وقت الصلاة قد فاته ، فوقع فى نفسه الندم على هذا

التفريط فى جنب اللّه ، وقال ناعيا على نفسه هذا الذي كان منه : « إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ » ! ! ثم يختلف المفسّرون بعد هذا فى : هل

كانت هذه الخيل خيل زينة ، فيكون سليمان بهذا مقصرا فى حق اللّه ؟ أم أنها كانت خيلا يعدّها للجهاد فى سبيل اللّه ، فلا يكون ذلك محل لوم ، كما حدث للمسلمين يوم أحد ، حين فاتتهم صلاة العصر . .

وثانيا : يذهب المفسرون لقوله تعالى : « رُدُّوها عَلَيَّ » إلى أن هذا أمر من سليمان إلى الشمس أن تعود من حيث غربت ، فتظهر له على الأفق الغربي من جديد ، حتى يؤدى الصلاة التي فاتته ، فى وقتها . .

ثم يختلف المفسرون فى هذا الأمر ، وهل كان متجها به إلى اللّه ، وأن ضمير الجمع للتعظيم ، أم أنه أمر اتجه به إلى أعوانه وأتباعه كاللائم لهم أن لم ينبهوه إلى وقت الصلاة ، وأن عليهم - وقد قصّروا - أن يعملوا المستحيل لإصلاح ما أفسدوا ، وأن يعيدوا الشمس التي غربت ! .

ولا يختلف المفسرون الذين يقولون بأن الضمير فى ردوها يعود إلى الشمس - وهم جمهور المفسرين - لا يختلفون فى أن الشمس قد ردّت إليه ، فظلت على الأفق الغربي حتى أدى الصلاة فى وقتها . .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن الشمس لم تردّ ، وإنما حبست ، عن أن تغرب ، وقد لامست الأفق ، فظلت فى مكانها حتى أدى الصلاة . .

ولهذا تأويلات وتعليلات أكثر من أن تحصر . .

ثم إنهم يأتون لعودة الشمس من مغربها ، أو إمساكها على الأفق بشواهد لمثل هذا الحدث ، فى زمن النبوة ، وفى غير زمن النبوة.

(284/660)

تساق إليها كثير من الأحاديث والأخبار مسندة إلى ابن عباس وغيره من أعلام الصحابة . .

وثالثا : يذهب المفسرون لقوله تعالى : « فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ » إلى أن سليمان بعد أن تنبه إلى مغيب الشمس ، وطلب ردها إليه ، اتجه إلى الخيل ، وأخذ يضرب بالسيف فى سوقها وأعناقها ، ليكفّر بذلك عن خطيئته فى اشتغاله بها حتى فاته وقت الصلاة . .

فهذه الخيل هى التي شغلته ، وهى التي يجب أن يتخلص منها ، وأن يقدمها قربانا للّه يأكل من لحمها الفقراء والمساكين ! .

ولم يسأل الآخذون بهذا الرأى أنفسهم : ما ذنب هذه الخيل حتى تلاقى هذا المصير ، وهى فى موضع الاحتفاء والتكريم ؟ .

ورابعا : اختلف المفسرون فى تأويل قوله تعالى : « وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ

جَسَداً » . .

فمن قائل ، إن سليمان قال لنفسه مرة : لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة من نسائى فيولد لى منهن سبعون ولدا يجاهدون فى سبيل اللّه . . ! ! قالوا ، ولم يقل إن شاء اللّه ، فلم تحمل من نسائه فى تلك الليلة غير واحدة ، والذي ولدته جاء مسخا ، على صورة نصف إنسان ، فلما ولد جاءت به القابلة ، وسليمان على كرسى مملكته ، فوضعته بين يديه ! .

والقصة كما ترى ـ تفضح نفسها بهذا الخبال الصبيانى المريض . . !

ومن قائل ، إن سليمان دخل الحمام ، وكان جنبا ـ ودائما النساء وما يتصل بالنساء ! ـ فخلع خاتم الملك فأخذه الشيطان ، ولبسه ، وظهر فى

صورة سليمان ، وجلس على كرسىّ المملكة ، واتصل بنسائه ، وسليمان ينادى فى الناس معلنا أنه سليمان ، فلا يصدّقه أحد ، حتى زوجاته . . وقد ظل سليمان هكذا زمنا لا يجد مكانا يؤويه ، أو لقمة عيش يتبلغ بها ، وهو دائب التوبة والاستغفار ؟ ؟ ؟ قالوا ، وكان الشيطان قد خاف أن يقبل اللّه توبة سليمان ، وأن يعيد إليه الملك ، فأمسك بالخاتم ورمى به فى البحر . .

قالوا ، ولما قبل اللّه توبة سليمان ، وأراد ردّ ملكه إليه ، دفع به إلى شاطىء البحر ، فاصطاد سمكة فلما شقّ بطنها وجد خاتمه . . فلبسه ، وعاد إلى ما كان عليه . . ! !

ثم تمضى القصة فتقول : إن سليمان أخذ هذا الشيطان فحبسه فى قمقم ، ثم ختم عليه بالرصاص وألقاه فى البحر . . فهو فى هذا القمقم إلى يوم الدين ! .

وهذه القصة أيضا أكثر من سابقتها سخافة وسذاجة ، وتناقضا ، وفسادا ، فى كل حدث من أحداثها . .

وهكذا تمضى الروايات حول تأويل هذا الجسد الذي ألقى على كرسى سليمان ، وكلها من هذا العالم الخرافى ، الذي لا مكان فيه للعقل ، أو المنطق ، إذ كل ما ينبت ، فى هذا العالم هو أطياف وأشباح ، يموج بعضها فى بعض ، ويضرب بعضها وجه بعض ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 12 صـ 1079 . 1094 ﴾

(286/660)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ﴾

جُعل التخلصُ إلى مناقب سليمان عليه السلام من جهة أنه من مِنن الله على داود عليه

السلام ، فكانت قصة سليمان كالتكملة لقصة داود .

ولم يكن لحال سليمان عليه السلام شَبه بحال محمد صلى الله عليه وسلم فلذلك جزمنا بأن لم يكن ذكر قصته هنا مِثالاً لحال محمد صلى الله عليه وسلم وبأنها إتمام لما أنعم الله به على داود إذ أعطاه سليمان ابناً بهجةً له في حياته وورث ملكه بعد مماته ، كما أنبأ عنه قوله تعالى : ﴿ ووهبنا لداوُود سُليمان ﴾ الآية .

ولهذه النكتة لم تفتتح قصة سليمان بعبارة : واذكر ، كما افتتحت قصة داود ثم قصة أيوب ، والقصص بعدها مفصَّلها ومجملها غير أنها لم تخل من مواضع إسوة وعبرة وتحذير على عادة القرآن من افتراض الإِرشاد .

ومن حسن المناسبة لذكر موهبة سليمان أنه ولد لداود من المرأة التي عوتب داود لأجل استنزال زوجها أوريا عنها كما تقدّم ، فكانت موهبة سليمان لداود منها مكرمة عظيمة هي أثر مغفرة الله لداود تلك المخالفة التي يقتضي قدره تجنبها وإن كانت مباحة وتحققه لتعقيب الأخبار عن المغفرة له بقوله : ﴿ وإنَّ له عندنا لزلفى وحُسن مَآبٍ ﴾ [ص : 40] فقد رضي الله عنه فوهب له من تلك الزوجة نبيئاً ومَلِكاً عظيماً .

فجملة ﴿ ووهبنا لداود سُليمانَ ﴾ عطف على جملة ﴿ إنا سخرنا الجبال معه ﴾ [ص : 18] وما بعدها من الجمل .

وجملة ﴿ نِعْمَ العَبْدُ ﴾ في موضع الحال من ﴿ سُلَيْمانَ ﴾ وهي ثناء عليه ومدح له من

جملة من استحقوا عنوان العبد لله ، وهو العنوان المقصود منه التقريب بالقرينة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم ﴾ في سورة [الصافات : 40 - 41] .

والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة ما تقدم عليه وهو قوله : ﴿ سُلَيْمان ﴾ والتقدير : نعم العبد سليمان .

وجملة ﴿ إِنَّه أَوَّابٌ ﴾ تعليل للثناء عليه بـ ﴿ نِعْمَ العَبْدُ .

(287/660)

﴿ والأوّاب : مبالغة في الآيب أي كثير الأوْب ، أي الرجوع إلى الله بقرينة أنه مادحه .

والمراد من الأوب إلى الله : الأوب إلى أمره ونهيه ، أي إذا حصل له ما يبعده عن ذلك تذكر فآب ، أي فتاب ، وتقدم ذلك آنفاً في ذكر داود .

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (31)

يتعلق ﴿ إِذْ عُرِضَ ﴾ بـ ﴿ أَوَّابٌ ﴾ [ص : 30] .

وتعليق هذا الظرف بـ ﴿ أَوَّابٌ ﴾ تعليق تعليل لأن الظروف يراد منها التعليل كثيراً لظهور أن ليس المراد أنه أوّاب في هذه القصة فقط لأن صيغة أوّاب تقتضي المبالغة .

والأصل منها الكثرة فتعين أن ذكر قصة من حوادث أوبته كان لأنها ينجَلي فيها عِظم أوبته .

والعَرض : الإِمرار والإِحضار أمام الرائِي ، أي عرَض سُواس خيله إياها عليه .

والعَشيّ : من العصر إلى الغروب .

وتقدم في قوله : ﴿ بالغداة والعشي ﴾ في سورة [الأنعام : 52] .

وذلك وقت افتقاد الخيل والماشية بعد رواحها من مراعيها ومراتعها .

وذكر العشي هنا ليس لمجرد التوقيت بل ليبنى عليه قوله : ﴿ حتَّى توارتْ بالحجابِ ، ﴾ فليس ذكر العشيّ في وقع هذه الآية كوقعه في قول عمرو بن كلثوم :

ملوك من بني جشم بن بكر

يساقون العشيةَ يُقتلونا . . .

و﴿ الصافنات ﴾ : وصف لموصوف محذوف استغنى عن ذكره لدلالة الصفة عليه لأن الصافن لا يكون إلا من الخيل والأفراس وهو الذي يقف على ثلاث قوائم وطرف حافر القائمة الرابعة لا يمكّن القائمة الرابعة من الأرض ، وتلك من علامات خفته الدالة على كرم أصل الفرس وحسن خلاله ، يقال : صفن الفرس صُفوناً ، وأنشده ابن الأعربي والزجّاج في صفة فرس :

ألفَ الصُّفون فلا يزال كأنه

مما يقوم على الثلاثِ كَسيرا . . .

﴿ الجِياد ﴾ : جمع جواد بفتح الواو وهو الفرس ذو الجَودة ، أي النفاسة ، وكان سليمان مولَعاً بالإِكثار من الخيل والفرسان ، فكانت خيله تعد بالآلاف .

(288/660)

وأصل تركيب ﴿ أحْببتُ حبَّ الخيرِ : ﴾ أحببتُ الخير حُبًّا ، فحول التركيب إلى ﴿ أحببتُ حب الخيرِ ﴾ فصار ﴿ حُبَّ الخيرِ ﴾ تمييزاً لإِسناد نسبة المحبة إلى نفسه لغرض الإِجمال ثم التفصيل كقوله تعالى : ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ [القمر : 12] وقول كعب بن زهير :

أكرم بها خلة

وقولهم : لله دره فَارساً .

وضمن ﴿ أحْبَبْتُ ﴾ معنى عَوَّضت ، فعدِّي بـ ﴿ عن ﴾ في قوله : ﴿ عن ذِكرِ ربي ﴾ فصار المعنى : أحببت الخير حبّاً فجاوزت ذكر ربي .

والمراد بذكر الرّب الصلاة ، فلعلها صلاة كان رتبها لنفسه لأن وقت العشي ليست فيه صلاة مفروضة في شريعة موسى إلا المغرب .

و﴿ الخير ﴾ : المال النفيس كما في قوله تعالى : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ [البقرة : 180] .

والخيل من المال النفيس .

وقال الفراء : الخير بالراء من أسماء الخيل .

والعرب تعاقب بين اللام والراء كما يقولون : انهملت العين وانهمرت .

وختل وخترإذا خدع .

وقلت : إن العرب من عادتهم التفاؤل ولهم بالخيل عناية عظيمة حتى وصفوا شياتها وزعموا دلالتها على بخت أو نحس فلعلهم سموها الخير تفاؤلاً لتتمحض للسعد والبخت .

وضمير ﴿ تَوارَتْ ﴾ للشمس بقرينة ذكر العشي وحرف الغاية ولفظ الحجاب ، على أن الإِضمار للشمس في ذكر الأوقات كثير في كلامهم .

كما قال لبيد :

حتى إذا ألقتْ يداً في كافر

وأجنّ عَورات الثغور ظلامها . . .

أي ألقت الشمس يدها في الظلمة ، أي ألقت نفسها فهو من التعبير عن الذات ببعض أعضائها .

والتواري : الاختفاء ، والحجاب : الستر في البيت الذي تحتجب وراءه المرأة وغيرها ومنه قول أنس بن مالك : فأنزل الله آية الحجاب .

والكلام تمثيل لحالة غروب الشمس بتواري المرأة وراء الحجاب وكل من أجزاء هذه التمثيلية مستعار ؛ فللشمس استعيرت المرأة على طريقة المكنية ، ولاختفائها عن الأنظار استعير التواري ، ولأُفق غروب الشمس استعير الحجاب .

(289/660)

والمعنى : عرضت عليه خيله الصافنات الجياد فاشتغل بأحوالها حباً فيها حتى غربت الشمس ففاتته صلاة كان يصليها في المساء قبل الغروب ، فقال عقب عرض الخيل وقد انصرفت : إني أحببتُ الخيل فغفلت عن صلاتي لله .

وكلامه هذا خبر مستعمل في التحسر كقول أم مريم ﴿ رب إني وضعتها أنثى ﴾ [آل عمران : 36] .

والخطاب في قوله : ﴿ رُدّوها عليَّ ﴾ لسواس خيله .

والضمير المنصوب عائد إلى الخيل بالقرينة ، أي أرجعوا الخيل إليّ ، وقيل : هو عائد إلى الشمس والخطاب للملائكة ، وهذا في غاية البعد ولولا كثرة ذكره في كتب المفسرين لكان الأولى بنا عدم التعرض له .

وأحسن منه على هذا الاعتبار في معاد ضمير الغيبة أن يكون الأمر مستعملاً في التعجيز ،

أي هل تستطيعون أن تردوا الشمس بعد غروبها ، كقول مهلهل :

يَا لَبَكْرٍ انشروا لي كليبا

وقول الحارث الضبي أحد أصحاب الجمل :

رُدوا علينا شيخَنا ثم بَجل

يريد : عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فلا استبعاد في هذا المحمل .

والفاء في قوله : ﴿ فَطَفِقَ ﴾ تعقيبية ، وطفق من أفعال الشروع ، أي فشرع .

و ﴿ مَسْحاً ﴾ مصدر أقيم مقام الفعل ، أي طفق يمسح مَسحاً .

وحرف التعريف في ﴿ بالسُّوقِ والأعناقِ ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي بسوقها وأعناقها كقوله تعالى : ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ [النازعات : 41] .

والمسح حقيقته : إمرار اليد على الشيء لإِزالة ما عليه من غبش أو ماء أو غبار وغير ذلك مما لا يراد بقاؤه على الشيء ويكون باليد وبخرقة أو ثوب ، وقد يطلق المسح مجازاً على معان منها : الضرب بالسيف يقال : مسحه بالسيف .

ويقال : مسحَ السيفَ به .

ولعل أصله كناية عن القتل بالسيف لأن السيف يمسح عنه الدم بعد الضرب به .

والسُّوق : جمع ساق .

وقرأه الجمهور بواو ساكنة وبوزن فُعْل مثل : دار ودُور ، ووزن فُعل في جمع مثِله قليل .

وقرأه قنبل عن ابن كثير وأبو جعفر "السُّؤق" بهمزة ساكنة بعد السين جمع : ساأق بهمزة بعد السين وهي لغة في ساق .

(290/660)

و ﴿ الأعناق ﴾ : جمع عنق وهو الرقبة .

والباء في ﴿ بالسُّوقِ ﴾ مزيدة للتأكيد ، أي تأكيد اتصال الفعل بمفعوله كالتي في قوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] وفي قول النابغة :

لك الخير إن وارت بك الأرض واحدا

وأصبح جد الناس يضلع عاثرا . . .

وقد تردد المفسرون في المعنى الذي عنى بقوله : ﴿ فَطَفِق مسْحَاً بالسُّوقِ والأعناقِ ، ﴾ فعن ابن عباس والزهري وابن كيسان وقطرب : طفق يمسح أعراف الخيل وسوقها بيده حُبًّا لها .

وهذا هو الجاري على المناسب لمقام نبيءٍ والأوفق بحقيقة المسح ولكنه يقتضي إجراء ترتيب الجمل على خلاف مقتضى الظاهر بأن يكون قوله : ﴿ رُدُّوهَا عليَّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ متصلاً بقوله : ﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات ﴾ أي بعد أن

استعرضها وانصرفوا بها لتأوي إلى مذاودها قال : ﴿ ردُّوها عليَّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناقِ ﴾ إكراماً لها ولحبها .

ويجعل قوله : ﴿ فقَالَ إني أحببتُ حبَّ الخيرِ عن ذِكرِ ربي حتى توارتْ بالحجابِ ﴾ معترضاً بينهما ، وإنما قدم للتعجيل بذكر ندمه على تفريطه في ذكر الله في بعض أوقات ذكره ، أي أنه لم يستغرق في الذهول بل بادر الذكرى بمجرد فوات وقت الذكر الذي اعتاده ، إذ لا يناسب أن يكون قوله : ﴿ ردوها عليَّ فطفِقَ ﴾ الخ من آثار ندمه وتحسّره على هذا التفسير ، وهذا يفيد أن فوات وقت ذكره نشأ عن ذلك الرد الذي أمر به بقوله : ﴿ ردُّها عليَّ ﴾ فإنهم اعتادوا أن يعرضوها عليه وينصرفوا وقد بَقي ما يكفي من الوقت للذكر فلما حملته بهجته بها على أن أمر بإرجاعها واشتغل بمسح أعناقها وسُوقها خرج وقت ذكره فتندّم وتحسّر .

(291/660)

وعن الحسن وقتادة ومالك بن أنس في رواية ابنِ وَهب والفراء وثعلب : أن سليمان لما ندِم على اشتغاله بالخيل حتى أضاع ذكر الله في وقت كان يذكر الله فيه أمر أن تُردّ عليه الخيل التي شغلتْه فجعل يعرقب سوقها ويقطع أعناقها لحرمان نفسه منها مع محبته إياها توبة منه

وتربية لنفسه .

واستشعروا أن هذا فساد في الأرض وإضاعة للمال فأجابوا : بأنه أراد ذبحها ليأكلها الفقراء لأن أكل الخيل مباح عندهم وبذلك لم يكن ذبحها فساداً في الأرض .

وتجنّب بعضهم هذا الوجه وجعل المسح مستعاراً للتوسيم بسمة الخيل الموقوفة في سبيل الله بكي نار أو كَشط جلد لأن ذلك يزيل الجلدة الرقيقة التي على ظاهر الجلد ، فشبهت تلك الإِزالة بإِزالة المَسح ما على ظهر الممسوح من ملتصق به ، وهذا أسلم عن الاعتراض من القول الأول وهو معزو لبعض المفسرين في "أحكام القرآن" لابن العربي .

وقال ابن العربي : إنه وَهَم .

وهذه طريقة جليلة من طرائق تربية النفس ومظاهر كمال التوبة بالنسبة إلى ما كان سبباً في الهفوة .

وعلى هذين التأويلين يكون قوله : ﴿ فطفق ﴾ تعقيباً على ﴿ ردُّوها عليَّ ﴾ وعلى محذوف بعده .

والتقدير : فردُّوها عليه فطفق ، كقوله : ﴿ أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾ [الشعراء : 63] .

ويكون قوله : ﴿ ردوها عليَّ ﴾ من مقول : ﴿ فقال إني أحببت حبَّ الخير .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34)

قد قلت آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ ووهبنا لداود سليمان ﴾ [ص : 30] إن ما ذكر من مناقب سليمان لم يخل من مقاصد ائتساء وعبرة وتحذير على عادة القرآن في ابتدار وسائل الإرشاد بالترغيب والترهيب ، فكذلك كانت الآيات المتعلقة بندمه على الاشتغال بالخيل عن ذكر الله موقع أسوة به في مبادرة التوبة وتحذير من الوقوع في مثل غفلته ، وكذلك جاءت هذه الآيات مشيرة إلى فتنة عرضت لسليمان أعقبتها إنابة ثم أعقبتها إفاضة نعم عظيمة فذكرت عقب ذكر قصة ما ناله من السهو عن عبادته وهو دون الفتنة .

والفَتن والفتون والفتنة : اضطراب الحال الشديد الذي يظهر به مقدار صبر وثبات من يحلّ به ، وتقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ إنما نحن فتنة في سورة البقرة ﴾ (102 .

(وقد أشارت الآية إلى حدث عظيم حلّ بسليمان ، واختلفت أقوال المفسرين في تعيين هذه الفتنة فذكروا قصصاً هي بالخرافات أشبه ، ومقام سليمان عن أمثالها أنزه .

ومن أغربها قولهم : إنه ولد له ابن فخاف عليه الناسَ أن يقتلوه فاستودعه الريح لتحضنه وترضعه دَرّ ماء المُزن فلم يلبث أن أصابه الموت وألقته الريح على كرسي سليمان ليعلم أنه لا مردّ لمحتوم الموت .

وهذا ما نظمه المعري تبعاً لأوهام الناس فقال حكاية عن سليمان:

خَاف غدْر الأنامِ فاستودع الري . . .

حَ سَليلاً تغذوه دَرَّ العِهَاد

وتوخّى النجاةَ وقد أيْ . . .

قَنَ أن الحِمام بالمرصاد

فرمتْه به على جَانب الكُر . . .

سِيِّ أمّ اللّهَيْم أُخْتُ النّآد

والذي يظهر من السياق أن قوله تعالى : ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ إشارة إلى شيء من هذه الفتنة ليرتبط قوله : ﴿ ثمَّ أنابَ ﴾ بذلك .

ويحتمل أنه قصة أخرى غير قصة فتنته .

وأظهر أقوالهم أن تكون الآية إشارة إلى ما في "صحيح البخاري" "عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال سليمان لأَطُوفَنّ الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله .

فقال له صاحبه : قل إن شاء الله .

فلم يقل : إن شاء الله .

فطاف عليهن جميعاً فلم تحمل منهن إلا إمرأة واحدة جاءت بشقِّ رَجل ، وأيم الذي نفس محمد بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون" .

وليس في كلام النبي صلى الله عليه وسلم أن ذلك تأويل هذه الآية ولا وضع البخاري ولا الترمذي الحديثَ في التفسير من كتابيهما .

قال جماعة : فذلك النصف من الإِنسان هو الجَسد الملقَى على كرسيّه جاءت به القابلة فألقته له وهو على كرسيه ، فالفتنة على هذا خيبة أمله ومخالفة ما أبلغه صاحبُه .

وإطلاق الجسد على ذلك المولود ؛ إمّا لأنه وُلد ميتاً ، كما هو ظاهر قوله : "شق رجل" ، وإمّا لأنه كان خلقة غير معتادة فكان مجرد جسد .

وهذا تفسير بعيد لأن الخبر لم يقتض أن الشق الذي ولدته المرأة كان حيّاً ولا أنه جلس على كرسي سليمان .

وتركيب هذه الآية على ذلك الخبر تكلّف .

وقال وهب بن منبه وشَهْر بن حَوْشَب : تزوج سليمان ابنة ملك صيدون بعد أن غزا أباها وقتله فكانت حزينة على أبيها ، وكان سليمان قد شغف بحبها فسألته لترضى أن يأمر المصورين ليصنعوا صورة لأبيها فصنعت لها فكانت تغدو وتروح مع ولائدها يسجدن

لتلك الصورة فلما علم سليمان بذلك أمر بذلك التمثال فكسر ، وقيل : كانت تعبد صنماً لها من ياقوت خُفية فلما فطن سليمان أو أسلمت المرأة ترك ذلك الصنم .

وهذا القول مختزل مما وقع في "سفر الملوك" الأول من كتب اليهود إذ جاء في الإِصحاح الحادي عشر : وأحَب سليمان نساء غريبة كثيرة بنت فرعون ومعها نساء مؤابيات وعمونيات ، وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم التي قال عنهم الرب لبني إسرائيل : لا تدخلون إليهم لأنهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم .

فبنى هيكلاً للصنم (كموش) صنَم المؤابيين على الجبل الذي تُجاه أورشليم فقال الله له : من أجل أنك لم تحفظ عهدي فإني أمزق مملكتك بعدك تمزيقاً وأعطيها لعبدك ولا أعطي ابنك إلا سِبطاً واحداً الخ .

(294/660)

ويؤخذ من ذلك كله : أن سليمان اجتهد وسمح لنسائه المشركات أن يعبدْن أصنامهن في بيوتهن التي هي بيوته أو بنى لهن معابد يعبدْنَ فيها فلم يرضَ الله منه ذلك لأنه وإن كان قد أباح له تزوج المشركات فما كان ينبغي لنبيء أن يسمح لنسائه بذلك الذي أبيح لعامة الناس الذين يتزوجون المشركات وإن كان سليمان تأول أن ذلك قاصر على المرأة لا يتجاوز إليه .

وعلى هذا التأويل يكون المراد بالجسد الصنم لأنه صورة بلا روح كما سمى الله العجل الذي عبده بنو إسرائيل جَسداً في قوله : ﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ (طه : 88 .

(ويكون معنى إلقائه على كرسيّه نصبه في بيوت زوجاته المشركات بقرب من مواضع جلوسه إذ يكون له في كل بيت منها كرسي يجلس عليه .

وعطف ﴿ ثُمَّ أنابَ ﴾ بحرف ﴿ ثمّ ﴾ المفيد للتراخي الرتبي لأن رتبة الإِنابة أعظم ذكر في قوله : ﴿ فقال إِنّي أحببتُ حُبَّ الخيرِ ﴾ [ص : 32] .

والإِنابة : التوبة .

وجملة ﴿ قال ربّ اغفر لي ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ أَنابَ ﴾ لأن الإِنابة تشتمل على ترقب العفو عما عسى أن يكون قد صدر منه مما لا يرضي الله تعالى صدوره من أمثاله .

وإردافه طلب المغفرة باستيهاب مُلْك لا ينبغي لأحدٍ من بعده لأنه توقع من غضب الله أمرين : العقاب في الآخرة ، وسلب النعمة في الدنيا إذ قصّر في شكرها ، وكان سليمان يومئذٍ في مُلْك عظيم فسؤال موهبة الملك مراد به استدامة ذلك الملك وصيغة الطلب ترد لطلب الدوام مثل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ [النساء : 136] .

وتنكير ﴿ مُلْكاً ﴾ للتعظيم .

وارتقى سليمان في تدرج سؤاله إلى أن وصف ملكاً أنه لا ينبغي لأحد من بعده ، أي لا

يتأتى لأحد من بعده ، أي لا يعطيه الله أحداً يبتغيه من بعده .

فكنّى بـ ﴿ لا ينبغي ﴾ عن معنى لا يُعطَى لأحد ، أي لا تعطيه أحداً من بعدي .

(295/660)

ففعل : ﴿ ينبغِي ﴾ مطاوع بغاه ، يقال : بغاه فانبغى له وليس للملْك اختيار وانبغاء وإنما الله هو المعطي والميسّر فإسناد الانبغاء إلى الملك مجاز عقلي ، وحقيقته : انبغاء سببه .

وهذا من التأدّي في دعائه إذ لم يقل : لا تعطه أحداً من بعدي .

وسأل الله أن لا يقيم له منازعاً في ملكه وأن يبقى له ذلك الملكُ إلى موته ، فاستجاب فكان سليمان يخشى ظهور عبده (يربعام بن نباط) من سبط أفرايم عليه إذ كان أظهر الكيد لسليمان فطلبه سليمان ليقتله فهرب إلى (شيشق) فرعون مصر وبقي في مصر إلى وفاة سليمان .

فهذا أيضاً مما حمل سليمان أن يسأل الله تثبيت ملكه وأن لا يعطيه أحداً غيره .

وكان لسليمان عدوّان آخران هما (هدد) الأدومي و (رزون) من أهل صرفة مقيمين في تخوم مملكة إسرائيل فخشي أن يكون الله هيأهما لإزالة ملكه .

واستعمل ﴿ مِن بعدي ﴾ في معنى : من دوني ، كقوله تعالى : ﴿ فمن يهديه من بعد الله

﴾ [الجاثية : 23] ، فيكون معنى ﴿ لا ينبغِي ﴾ أنه لا ينبغي لأحد غيري ، أي في وقت حياتي فهذا دعاء بأن لا يُسلط أحد على ملكه مدة حياته .

وعلى هذا التفسير لا يكون في سؤاله هذا الملك شيء من الاهتمام بأن لا ينال غيره مثل ما ناله هو فلا يرد على ذلك أن مثل هذا يعدّ من الحسد .

ويجوز أن يبقى ﴿ مِن بعدي ﴾ على ظاهره ، أي بعد حياتي .

فمعنى ﴿ لا يَنبغِي ﴾ : لا ينبغي مثله لأحد بعد وفاتي .

وتأويل ذلك أنه قصد من سؤاله الإِشفاق من أن يلِي مثل ذلك الملك من ليس له من النُبوءة والحكمة والعصمة ما يضطلع به لأعباء ملك مثل ذلك الملك ومن ليس له من النفوذ على أمته ما لسليمان على أمته فلا يلبث أن يحسد على الملك فينجم في الأمة منازعون للمَلِك على مُلْكه ، فينتفِي أيضاً على هذا التأويل إيهام أنه سأل ذلك غيرة على نفسه أن يعطَى أحد غيرُه مثلَ ملكه (مما تشمّ منه رائحة الحسد) .

(296/660)

وقد تضمنت دعوته شيئين : هما أن يعطى ملكاً عظيماً ، وأن لا يُعطَى غيرُه مثلَه في عظمته .

وقد حكى الله دعاء سليمان وهو سرّ بينه وبين ربه إشعاراً بأنه ألهمه إياه ، وأنه استجاب له دعوته تعريفاً برضاه عنه وبأنه جعل استجابته مكرمة توبته .

ومعنى ذلك أنه لا يأتي ملك بعده له من السلطان جميع ما لسليمان فإن ملك سليمان عمّ التصرف في الجن وتسخير الريح والطير ، ومجموعُ ذلك لم يحصل لأحد من بعده .

وفي "الصحيح" عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن عفريتاً من الجن تفلَّتَ البارحةَ ليقطع عليَّ صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردتُ أن أربطه بسارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلُّكُم فذكرتُ دعوة أخي سليمان : "رب هَبْ لي مُلْكاً لا يَنْبَغي لأحَدٍ مِنْ بَعْدي فرددته خاسِئاً" .

وجملة ﴿ إنَّك أنتَ الوهابُ ﴾ علة للسؤال كله وتمهيد للإجابة ، فقامت (إنّ) مقام حرف التفريع ودلت صيغة المبالغة في ﴿ الوَهَّابُ ﴾ على أنه تعالى يهب الكثير والعظيم لأن المبالغة تفيد شدة الكمية أو شدة الكيفية أو كلتيهما بقرينة مقام الدعاء ، فمغفرة الذنب من المواهب العظيمة لما يرتب عليه من درجات الآخرة وإعطاء مثل هذا الملك هو هبة عظيمة .

و﴿ أنْتَ ﴾ ضميرُ فصل ، وأفاد الفصل به قصراً فصار المعنى : أنت القوي الموهبة لا غيرك ، لأن الله يَهَب ما لا يملك غيره أن يهبه .

فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36)

اقتضت الفاء وترتيب الجمل أن تسخير الريح وتسخير الشياطين كانا بعد أن سأل الله مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده أن أعطاه هاتين الموهبتين زيادة في قوة ملكه وتحْقِيقاً لاستجابة دعوته لأنه إنما سأل ملكاً لا ينبغي لأحد غيره ولم يسأل الزيادة فيما أعطيه من الملك .

(297/660)

ولعل الله أراد أن يعطيه هاتين الموهبتين وأن لا يعطيهما أحداً بعده حتى إذا أعطى أحداً بعده مُلكاً مثل ملكه فيما عدا هاتين الموهبتين لم يكن قد أخلف إجابته .

والتسخير الإِلجاء إلى عمل بدون اختيار ، وهو مستعار هنا لتكوين أسباب صرف الريح إلى الجهات التي يريد سليمان توجيه سفنه إليها لتكون معينة سفنَه على سرعة سيرها ، ولئلا تعاكس وجهه سفنه ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ في سورة [سبأ : 12] .

وقرأ أبو جعفر ﴿ الرّياحَ ﴾ بصيغة الجمع .

وتقدم قوله : ﴿ تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ في سورة [الأنبياء : 81] .

واللام في ﴿ له ﴾ للعلة ، أي لأجله ، أي ذلك التسخير كرامَة من الله له بأن جعل تصريف

الرياح مقدّراً على نحو رغبته .

والأمر في قوله : ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ مستعار للرغبة أو للدعاء بأن يدعو الله أن تكون الريح متجهة إلى صوب كذا حسب خطة أسفار سفائنه ، أو يرغب ذلك في نفسه ، فيصرف الله الريح إلى ما يلائم رغبته وهو العليم بالخفيّات .

والرُّخاء : اللينة التي لا زعزعة في هبوبها .

وانتصب ﴿ رُخَاءً ﴾ على الحال من ضمير ﴿ تَجْرِي ﴾ أي تجري بأمره لينة مساعدة لسير السفن وهذا من التسخير لأن شأن الريح أن تتقلب كيفياتُ هبوبِها ، وأكثر ما تهب أن تهب شديدة عاصفة ، وقد قال تعالى في سورة [الأنبياء : 81] : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة ومعناه : سخرنا لسليمان الريح التي شأنها العصوف ، فمعنى فسخَّرْنَا لهُ ﴾ جعلناها له رخاء .

فانتصب ﴿ عاصفة ﴾ في آية سورة الأنبياء على الحال من ﴿ الريح ﴾ وهي حال منتقلة .

ولما أعقبه بقوله : ﴿ تجري بأمره ﴾ علم أن عصفها يصير إلى لَيْن بأمر سليمان ، أي دعائه ، أو بعزمه ، أو رغبته لأنه لا تصلح له أن تكون عاصفة بحال من الأحوال ، فهذا وجه دفع التنافي بين الحالين في الآيتين .

و ﴿ أَصَابَ ﴾ معناه قصد ، وهو مشتق من الصَّوْب ، أي الجهة ، أي تجري إلى حيث أي جهة قصد السير إليها .

حكَى الأصمعي عن العرب : "أَصَابَ الصواب فأخطأ الجواب" أي أراد الصواب فلم يُصب .

وقيل : هذا استعمال لها في لغة حِمير ، وقيل في لغة هَجَر .

و ﴿ الشياطين ﴾ جمع شيطان ، وحقيقته الجنّي ، ويستعمل مجازاً للبالغ غاية المقدرة والحذق في العمل الذي يعمله .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيء عدواً شياطين الإنس والجن ﴾ [الأنعام : 112] ، فسخر الله النوع الأول لسليمان تسخيراً خارقاً للعادة على وجه المعجزة فهو مسخر له في الأمور الروحانية والتصرفات الخفية وليس من شأن جنسهم إيجاد الصناعات المتقنة كالبناء ، وسخر النوع الثاني له تسخير إذلال ومغلوبية لعظم سلطانه وإلقاء مهابته في قلوب الأمم فكانوا يأتون طوعاً للانضواء تحت سلطانه كما فعلت بلقيس وقد تقدم في سورة سبأ .

فيجوز أن يكون ﴿ الشياطين ﴾ مستعملاً في حقيقته ومجازه .

و ﴿ كُلَّ بناءٍ ﴾ بدل من ﴿ الشَيَاطِينَ ﴾ بدل بعض من كل ، أي كل بنّاء وغوّاص منهم ،

أي من الشياطين .

و﴿ كُلَّ ﴾ هنا مستعملة في معنى الكثير ، وهو استعمال وارد في القرآن والكلام الفصيح ، قال تعالى : ﴿ ولو جاءتهم كل آية ﴾ [يونس : 97] وقال : ﴿ ثم كلي من كل الثمرات ﴾ [النحل : 69] .

وقال النابغة :

بها كلُّ ذَيَّال وخنساءَ ترعوي

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ في سورة [الأنعام : 25] .

والبنَّاء : الذي يَبني وهو اسم فاعل مصوغ على زنة المبالغة للدلالة على معنى الصناعة مثل نَجَّار وقصَّار وحدَّاد .

والغواص : الذي يغوص في البحر لاستخراج محار اللؤلؤ ، وهو أيضاً مما صِيغ على وزن المبالغة للدلالة على الصناعة ، قال النابغة :

أو درّة صدفية غوّاصها

بَهج مَتَى يَرها يَهِلَّ ويَسْجُدِ . . .

قال تعالى : ﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ [الأنبياء : 82] .

وقد بلغت الصناعة في مُلك سليمان مبلغاً من الإِتقان والجودة والجلال ، وناهيك ببناء هيكل أورشليم وهو الذي سُمي في الإِسلام المسجد الأقصى وما جلب إليه من مواد إقامته من الممالك المجاورة له ، وكذلك الصرح الذي أقامه وأدخلت عليه فيه مملكة سبأ .

و﴿ ءَاخَرِينَ ﴾ عطف على ﴿ كُلَّ بناءٍ وغوّاصٍ ﴾ فهو من جملة بدل البعض .

وجمع آخر بمعنى مغاير ، فيجوز أن تكون المغايرة في النوع من غير نوع الجن ، ويجوز أن تكون المغايرة في الصفة ، أي غير بنائين وغوّاصين .

وقد كان يجلب من الممالك المجاورة له والداخلة تحت ظل سلطانه ما يحتاج إليه في بناء القصور والحصون والمدن وكانت مملكته عظيمة وكل الملوك يخشون بأسه ويصانعونه .

والمقرَّن : اسم مفعول من قرنه مبالغة في قرنه أي جعله قريناً لغيره لا ينفك أحدهما عن الآخر .

و﴿ الأصفاد ﴾ : جمع صَفَد بفتحتين وهو القيد .

يقال : صفده ، إذا قيّده .

وهذا صنف ممن عبر عنهم بالشياطين شديد الشكيمة يخشى تفلته ويرام أن يستمر يعمل أعمالاً لا يجيدها غيرُه فيصفد في القيود ليعمل تحت حراسة الحراس .

وقد كان أهل الرأي من الملوك يَجعلون أصحاب الخصائص في الصناعات محبوسين حيث لا

يتصلون بأحد لكيلا يستهويهم جواسيس ملوك آخرين يستصنعونهم ليتخصص أهل تلك المملكة بخصائص تلك الصناعات فلا تشاركها فيها مملكة أخرى وبخاصة في صنع آلات الحرب من سيوف ونبال وقِسِيّ ودرق ومَجَانَ وخُوذ وبيضات ودروع ، فيجوز أن يكون معنى : ﴿ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصفَادِ ﴾ حقيقة ، ويجوز أن يكون تمثيلاً لمنع الشياطين من التفلت .

وقد كان ملك سليمان مشتهراً بصنع الدروع السابغات المتقنة .

يقال : دروع سليمانية .

قال النابغة :

وكل صَموت نثلة تُبَّعِيّة

ونَسْج سُلَيم كلَّ قمصاء ذائل . . .

أراد نسج سليمان ، أي نسج صنّاعه .

هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (39)

(300/660)

والإِشارة إلى التسخير المستفاد من ﴿ فسخرنا له الريح ﴾ [ص : 36] إلى قوله : ﴿ والشياطين ﴾ [ص : 37] أي هذا التسخير عطاؤنا .

والإِضافة لتعظيم شأن المضاف لانتسابه إلى المضاف إليه فكأنه قيل : هذا عطاء عظيم أعطيناكه .

والعطاء مصدر بمعنى المعطى مثل الخلق بمعنى المخلوق .

و"امنن" أمر مستعمل في الإِذن والإِباحة ، وهو مشتق من المنّ المكنّى به عن الإِنعام ، أي فأنعم على مَن شئت بالإِطلاق ، أو أمسك في الخدمة من شئت .

فالمنّ : كناية عن الإِطلاق بلازم اللام ، كقوله تعالى : ﴿ فإما مناً بعدُ وإما فداء ﴾ [محمد : 4] .

وجملتا ﴿ فامنن أو أمْسِك ﴾ معترضتان بين قوله : ﴿ عَطَاؤُنَا ﴾ وقوله : ﴿ بِغَيرِ حسَابٍ ﴾ ، وهو تفريع مقدّم من تأخير .

والتقديم لتعجيل المسرة بالنعمة ، ونظيره قوله تعالى من بعد : ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ [ص : 57] وقول عنترة :

ولقد نزلت فلا تظنّي غيرَه
مني بمنزلة المُحَب المكْرَم . . .

وقول بشارة :

كقائلة إن الحمار فنحّه

عن القَتِّ أهلُ السمسم المتهذب . . .

مجازاً وكناية في التحديد والتقدير ، أي هذا عطاؤنا غير محدد ولا مقتَّر فيه ، أي عطاؤنا واسعاً وافياً لا تضييق فيه عليك .

ويجوز أن يكون ﴿ بغيرِ حسابٍ ﴾ حالاً من ضمير "أمنن أو أمسك" .

ويكون الحساب بمعنى المحاسبة المكنّى بها عن المُؤاخذة .

والمعنى : أُمنن أو أمسك لا مؤاخذة عليك فيمن منَنْتَ عليه بالإطلاق إن كان مفسداً ، ولا فيمن أمسكته في الخدمة إن كان صالحاً .

وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (40)

تقدم نظيره آنفاً في قصة داود وبيان نكتة التأكيد بحرف ﴿ إن ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(301/660)

وقال صاحب التفسير الواضح :

﴿ وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) ﴾

المفردات :

الصَّافِناتُ القائمات ، أو الصافن من الخيل : الذي يرفع إحدى رجليه ويقف على مقدم حافرها الْجِيادُ : جمع جواد ، وهو الذي يجود في سيره ، أى : يسرع مع الخفة تَوارَتْ : اختفت وغابت بِالْحِجابِ : بالحاجز وقيل : بالليل بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ أى : بسيقانها وأعناقها رُخاءً لينة مع قوتها وشدتها .

أَصابَ : أراد الْأَصْفادِ : جمع صفد ، وهو القيد .

المعنى :

ذكر بعض المفسرين في تفسير هذه الآية أن سليمان عرض عليه خيل جياد في وقت العصر فألهاه ذلك عن صلاة العصر فغضب ، وطلب من اللّه أن يرد عليه الشمس بعد غروبها ليصلى العصر فردت إليه ، ثم غضب على الخيل التي كانت سببا في فوات الصلاة فقطع أعناقها وسوقها ، والضمير في قوله : (حتى توارت بالحجاب) للشمس ، ثم قالوا في قوله تعالى : « أحببت حب الخير عن ذكر ربي » إنه أحب هذه الخيل معرضا عن ذكر ربه ، وهو الصلاة .

وهذا تأويل فاسد ، يدل على فساده بداهة أسلوب القرآن ، ومكان القصة هنا ، وسياق الآيات .

إن هذه القصص إنما ذكرها اللّه – تعالى – بعد قول المشركين : رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ وقد بلغوا مبلغا من السفاهة عظيما ، حتى قال اللّه للنبي :

اصبر على ما يقولون . واذكر عبدنا داود ، ثم ذكر بعد ذلك قصة سليمان وهذا الوضع والسياق يفيد أن القصص سيقت لبيان جلائل الأعمال ، وفضائل الخلال التي قام بها هؤلاء الأنبياء وأصحابهم ، وعلى هذا فداود وسليمان ليس من الحق أن نفهم فيهما أنهما أتيا أعمالا تتنافى مع مركز النبوة وشرف الرسالة ، وخاصة بعد قول اللّه لمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم :

اصبر واذكر داود وسليمان ، أى : تأس بهؤلاء ، وعلى هذا فيمكن أن نلخص ما يمكن فهمه من هذه الآيات بما يأتى : أن اللّه وهب لداود سليمان وكان نبيا من المرسلين ، وهو نعم العبد الصالح ، إنه أواب ومطيع ، واذكر وقت أن عرض عليه بالعشي الخيل المطهمة ، والصافنات الجياد ، ويمكن أن نقول : إن رباط الخيل كان مندوبا إليه في

دينهم ، لأنه ملك له دولة وله سلطان ، وله جيش منظم ، وخيل معدة ، وأمر بإحضارها وإمرارها عليه لينظرها ويبدي رأيه فيها ، وهو لا يحب الخيل لذاتها وإنما يحبها لأمر اللّه ، وتقوية دينه وتثبيت دعائمه .

ثم لما سارت الخيل أمامه وتم عرضها حتى توارت عنه ، وغابت عن بصره أمر قواده أن يردوها إليه فلما عادت طفق يمسح مسحا بسيقانها وأعناقها ، وإنما فعل ذلك تشريفا لها وتكريما ، وليرى رأيه في الخيل لأنه على علم بها وبعيوبها .

(303/660)

ولقد فتنا سليمان ، فتنة اللّه أعلم بها ، وألقينا على كرسيه جسدا ، ثم أناب ، وهذه الفتنة تكلم فيها القصاص والإسرائيليون كثيرا ، والذي نختاره ما ذكره أئمة التفسير المحققون من أمثال أبى السعود والفخر والآلوسي وغيرهم من أفاضل العلماء ، وكان مرجع آرائهم إلى القول بعصمة الأنبياء ومنع تمثل الشيطان بهم ، وغلق باب زعزعة الناس في معتقداتهم ، وأظهر ما قيل في فتنة سليمان – عليه السلام – ما

روى مرفوعا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : أنه قال : قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل اللّه تعالى ، ولم يقل (إن شاء اللّه) فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذي نفسي بيده لو قال : إن شاء اللّه لجاهدوا في سبيل اللّه فرسانا أجمعون

، هذا الحديث ثابت في الصحيحين البخاري ومسلم ، وروى بعدة طرق ، تلك هي فتنة

سليمان كما وردت في الحديث وأما إلقاؤه على كرسيه جسدا فأنه حين الفتنة كان يجلس على كرسي الحكم جسدا لا روح فيه لأنه لما لم يقل : إن شاء اللّه كأنه ارتكب ذنبا فصار بسببه جسدا ، ثم تاب وأناب .

وأما قول سليمان : رب اغفر لي فلا يصح أن يكون هذا دليلا على صدور الزلة منه كما قال القصاص مستندين إلى أن طلب المغفرة يدل على سبق الذنب .

فالإنسان ولو كان نبيا لا ينفك عن ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ألم تر إلى

قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « إني لأستغفر اللّه في اليوم والليلة سبعين مرة » .

وانظر إلى سليمان ، وقد طلب من اللّه المغفرة قبل طلبه الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، هذا دليل على طلب المغفرة ، والرجوع إلى اللّه سبيل وطريق إلى السعادة في الدنيا والآخرة

(304/660)

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً ﴾ [نوح 10 - 12]

ولقد طلب سليمان ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فسخر له ربه الريح حالة كونها جارية بأمره ، لينة لا تعب معها ، وإن كانت في الأصل عاصفة قوية فهي رخاء لينة تجرى بأمره حيث أراد .

وسخر الشياطين له تعمل تحت أمره من كل بناء وغواص يغوص في البحار لاستخراج الدر منها والأصداف ، وآخرين منهم مقرنين في الأصفاد والقيود خاضعين لأمره ، عاملين تحت إذنه .

هذا – والإشارة إلى ما تقدم من إعطاء الملك الواسع والتسلط على الرياح والجن والشياطين – عطاؤنا الخاص لك فأعط من تشاء وامنع من تشاء غير محاسب على ذلك يوم القيامة .

وإن لسليمان عند ربه لزلفى وقربة وكرامة وحسنى ، وله حسن مآب ومرجع في الجنة ، وإن ختام القصة بهذا لدليل على أن كل ما قيل عن سليمان مما هو ثابت في كتب أهل الكتاب أو عند قصاص الأخبار من المسلمين خرافة وأكاذيب لا تليق بمركز النبوة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التفسير الواضح حـ 3 صـ 240.242﴾

(305/660)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن مكحول قال : لما وهب الله لداود سليمان قال له : يا بني ما أحسن ؟ قال : سكينة الله والإيمان قال : فما أقبح ؟ قال : كفر بعد إيمان قال : فما أحلى ؟ قال : روح الله بين عباده قال : فما أبرد ؟ قال : عفو الله عن الناس ، وعفو الناس بعضهم عن بعض قال داود عليه السلام : فأنت نبي .

وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود عليه السلام . إني سائل ابنك عن سبع كلمات . فإن أخبرك فورِّثه العلمَ والنبوَّة فقال له داود عليه السلام : إن الله أوحى إليَّ أن أسألك عن سبع كلمات ، فإن أخبرتني وَرَّثْتُكَ العلمَ والنبوَّة قال : سلني عما شئت قال : أخبرني ما أحلى من العسل ، وما أبرد من الثلج ، وما الين شيئاً من الخز ، وما لا يرى أثره في الماء ، وما لا يرى أثره في الصفاء ، وما لا يرى أثره في السماء ، ومن يسمن في الخصب والجدب . قال : أما ما أحلى من العسل فروح الله للمتحابين في الله . واما ما أبرد من الثلج فكلام الله إذا قرع أفئدة أولياء الله . وأما ما الين شيئاً من الخز فحكمة الله تعالى إذا أنشدها أولياء الله بينهم . وأما ما لا يرى أثره في الماء فالفلك تمر فلا يرى أثرها . وأما ما لا يرى أثره في الصفاء فالنملة تمر على الحجر فلا يرى

أثرها . وأما ما لا يرى أثره في السماء فالطير يطير ولا يرى أثره في السماء وأما من يسمن في الجدب والخصب فهو المؤمن إذا أعطاه الله شكر ، وإذا ابتلاه صبر ، فقلبه أجرد أزهر .

(306/660)

قال : انظر إلى ابنك فاسأله عن أربع عشرة كلمة ، فإن أخبرك فورثه العلم والنبوّة ، فسأله فقال : ما لي من ذي علم فقال داود لسليمان عليه السلام : أخبرني يا بني أين موضع العقل منك ؟ قال : الدماغ قال : أين موضع الحياء منك ؟ قال : العينان قال : أين موضع الباطل منك ؟ قال : الأذنان قال : أين باب الخطايا منك ؟ قال : اللسان قال : أين الطريق منك ؟ قال : المنخران قال : أين موضع الأدب والبيان منك ؟ قال : الكلوتان قال : أين باب الفظاظة والغلظة منك ؟ قال : الكبد قال : أين بيت الريح منك ؟ قال : الرئة قال : أين باب الفرح منك ؟ قال : الطحال قال : أين باب الكسب منك ؟ قال : اليدان قال : أين باب النصب منك ؟ قال : الرجلان قال : أين باب الشهوة منك ؟ قال : الفرج قال : أين باب الذرية منك ؟ قال : الصلب قال : أين باب العلم والفهم والحكمة منك ؟ قال : القلب . إذا صلح القلب صلح ذلك كله ، وإذا فسد القلب فسد ذلك كله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم

العبد إنه أواب ﴾ قال : كان مطيعاً لله ، كثير الصلاة ﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ قال : يعني الخيل وصفونها قيامها وبسطها قوائمها ﴿ قال إني أحببت حب الخير ﴾ أي المال ﴿ عن ذكر ربي ﴾ عن صلاة العصر ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿ الصافنات الجياد ﴾ قال : الخيل خيل خلقت على ما شاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ الصافنات ﴾ قال : صفون الفرس : رفع إحدى يديه حتى يكون على أطراف الحافر . وفي قوله الجياد قال : السراع .

(307/660)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن وقتادة رضي الله عنهما في قوله ﴿ الصافنات الجياد ﴾ قال : الخيل إذا صفن قيامها عقرها تطلع أعناقها وسوقها . وفي قوله ﴿ أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ قال : الخير المال والخيل من ذلك ، فقوله شغلته عن الصلاة قال : لا والله لا تشغلني عن عبادة الله تعالى جرها عليك ،

فكشف عراقيبها ، وضرب أعناقها

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عوف رضي الله عنه قال : بلغني أن الخيل التي عقر سليمان عليه السلام كانت خيلاً ذات أجنحة ، أخرجت له من البحر ، لم تكن لأحد قبله ولا بعده .

وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ حب الخير ﴾ قال : المال وفي قوله ﴿ ردوها عليّ ﴾ قال : الخيل ﴿ فطفق مسحاً ﴾ قال : عقراً بالسيف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن علي رضي الله عنه قال : الصلاة التي فرط فيها سليمان عليه السلام صلاة العصر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن كعب رضي الله عنه في قوله ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ قال : حجاب من ياقوت أخضر محيط بالخلائق ، فمنه اخضرت السماء التي يقال لها السماء الخضراء ، واخضر البحر من السماء ، فمن ثم يقال : البحر الأخضر .

وأخرج أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أو خيبر ، فجئت فكشفت ناحية الستر عن بنات لعب لعائشة فقال : " ما هذا يا عائشة ؟ قالت : بناتي . ورأى بينهن فرساً لها جناحان من رقاع فقال : ما هذا

الذي أرى وسطهن ؟ قالت : فرس له جناحان قال : وما هذا الذي عليه ؟ فقلت : جناحان قال : فرس له جناحان ! قالت : أما سمعت أن لسليمان عليه السلام خيلاً لها أجنحة ، فضحك حتى رؤيت نواجذه " .

(308/660)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه في قوله ﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ قال : عشرين ألف فرس ذات أجنحة ، فعقرها .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ قال ﴿ توارت ﴾ من وراء قرية خضرة السماء منها .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان سليمان عليه السلام لا يكلم اعظاماً له ، فلقد فاتته صلاة العصر ، وما استطاع أحد أن يكلمه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ عن ذكر ربي ﴾ يقول : من ذكر ربي ﴿ فطفق مسحاً ﴾ يقول : يمسح اعراف الخيل وعراقيبها .

وأخرج الطبراني في الأوسط والاسماعيلي في معجمه وابن مردويه بسند حسن عن أُبيّ بن

كعب رضي الله عنه " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ قال : قطع سوقها وأعناقها بالسيف " .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34)

أخرج الفريابي والحكيم الترمذي والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ قال : هو الشيطان الذي كان على كرسيه يقضي بين الناس أربعين يوماً ، وكان لسليمان عليه السلام امرأة يقال لها جرادة ، وكان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة ، فقضى بينهم بالحق إلا أنه ودَّ أن الحق كان لأهلها ؛ فأوحى الله تعالى إليه : أنه سيصيبك بلاء ، فكان لا يدري يأتيه من السماء أم من الأرض .

(309/660)

وأخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم بسند قوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء ، فأعطى الجرادة خاتمه ، وكانت جرادة امرأته ، وكانت أحب نسائه إليه ، فجاء الشيطان في صورة سليمان ، فقال لها : هاتي خاتمي ، فأعطته ، فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين ، فلما خرج سليمان عليه

السلام من الخلاء قال لها : هاتي خاتمي . فقالت : قد أعطيته سليمان قال : أنا سليمان قالت : كذبت لست سليمان . فجعل لا يأتي أحداً يقول أنا سليمان إلا كذبه حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة ، فلما رأى ذلك عرف أنه من أمر الله عز وجل ، وقام الشيطان يحكم بين الناس .

فلما أراد الله تعالى أن يرد على سليمان عليه السلام سلطانه ، ألقى في قلوب الناس انكار ذلك الشيطان ، فارسلوا إلى نساء سليمان عليه السلام فقالوا لهن : أيكون من سليمان شيء ؟ قلن : نعم . إنه يأتينا ونحن حيض ، وما كان يأتينا قبل ذلك .

(310/660)

فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ، ظن أن أمره قد انقطع ، فكتبوا كتباً فيها سحر ومكر ، فدفنوها تحت كرسي سليمان ، ثم أثاروها وقرأوها على الناس قالوا : بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم ، فأكفر الناس سليمان ، فلم يزالوا يكفرونه ، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم ، فطرحه في البحر ، فتلقته سمكة فأخذته ، وكان سليمان عليه السلام يعمل على شط البحر بالأجر ، فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم ، فدعا سليمان عليه السلام فقال : تحمل لي هذه السمك ؟ ثم انطلق إلى منزله ، فلما

انتهى الرجل إلى باب داره ، أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم ، فأخذها سليمان عليه السلام ، فشق بطنها فإذا الخاتم في جوفها ، فأخذه فلبسه ، فلما لبسه دانت له الانس والجن والشياطين ، وعاد إلى حاله ، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزائر البحر ، فأرسل سليمان عليه السلام في طلبه ، وكان شيطاناً مريداً يطلبونه ولا يقدرون عليه ، حتى وجدوه يوماً نائماً ، فجاؤوا فنقبوا عليه بنياناً من رصاص ، فاستيقظ ، فوثب ، فجعل لا يثبت في مكان من البيت إلا أن دار معه الرصاص ، فأخذوه وأوثقوه وجاؤوا به إلى سليمان عليه السلام ، فأمر به فنقر له في رخام ، ثم أدخل في جوفه ، ثم سد بالنحاس ، ثم أمر به فطرح في البحر .

فذلك قوله ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ يعني الشيطان كان تسلط عليه .

(311/660)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أربع آيات من كتاب الله لم أدر ما هي حتى سألت عنهن كعب الأحبار رضي الله عنه في قوله ﴿ قوم تبع ﴾ [الدخان : 73] في القرآن ، ولم يذكر تبع فقال : إن تبعاً كان ملكاً ، وكان قومه كهاناً ، وكان

في قومه قوم من أهل الكتاب ، وكان الكهان يبغون على أهل الكتاب ويقتلون تابعهم فقال أهل الكتاب لتبع : أنهم يكذبون علينا فقال تبع : إن كنتم صادقين فقربوا قرباناً فأيكم كان أفضل أكلت النار قربانه . فقرب أهل الكتاب والكهان ، فنزلت نار من السماء ، فأكلت قربان أهل الكتاب ، فأتبعهم تبع فأسلم . فلهذا ذكر الله قومه في القرآن ولم يذكره قال ابن عباس رضي الله عنه وسألته عن قوله ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ﴾ قال : الشيطان أخذ خاتم سليمان عليه السلام الذي فيه ملكه ، فقذف به في البحر ، فوقع في بطن سمكة ، فانطلق سليمان يطوف إذ تصدق عليه بتلك السمكة ، فاشتواها فأكلها ، فإذا فيها خاتمه ، فرجع إليه ملكه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ﴾ قال : صخر الجني . مثل على كرسيه على صورته .

(312/660)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال : أمر سليمان عليه السلام ببناء بيت المقدس فقيل له : ابنه ولا يسمع فيه صوت حديد ، فطلب ذلك ،

فلم يقدر عليه ، فقيل له إن شيطاناً يقال له صخر شبه المارد ، فطلبه وكانت عين في البحر يردها في كل سبعة أيام مرة ، فنزح ماءها وجعل فيها خمراً ، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر فقال : إنك لشراب طيب ، تصيب من الحليم ، وتزيد من الجاهل جهلاً ثم جفل حتى عطش عطشاً شديداً ، ثم أتاها ، فشربها حتى غلب على عقله ، فأوتي بالخاتم ، فختم بين كتفيه ، فذل وكان ملكه في خاتمه ، فأتي به سليمان فقال : أنا قد أمرنا ببناء هذا البيت فقيل لنا : لا تسمعن فيه صوت حديد ، فأتى ببيض الهدهد ، فجعل عليه زجاجة ، فجاء الهدهد فدار حولها ، فجعل يرى بيضه ولا يقدر عليه ، فذهب فجاء بألماس ، فوضعها عليه ، فقطعها حتى أفضى إلى بيضه ، فأخذوا الماس ، فجعلوا يقطعون به الحجارة .

وكان سليمان عليه السلام إذا أراد أن يدخل الخلاء أو الحمام لم يدخل بخاتمه . فانطلق يوماً إلى الحمام ، وذلك الشيطان صخر معه ، فدخل الحمام ، وأعطى الشيطان خاتمه ، فألقاه في البحر ، فالتقمته سمكة ، ونزع ملك سليمان عليه السلام منه ، وألقى على الشيطان شبه سليمان ، فجاء فقعد على كرسيه ، وسلط على ملك سليمان كله غير نسائه ، فجعل يقضي بينهم أربعين يوماً حتى وجد سليمان عليه السلام خاتمه في بطن السمكة فأقبل ، فجعل لا يستقبله جني ولا طير إلا سجد له حتى انتهى إليهم ﴿ وألقينا على

كرسيه جسداً ﴾ قال : هو الشيطان صخر ﴿ ثم أناب ﴾ قال : تاب ثم أقبل يعني سليمان .

(313/660)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ قال : شيطاناً يقال له آصف . فقال له سليمان : كيف تفتنون الناس ؟ قال أرني خاتمك أخبرك . فلما أعطاه إياه نبذه آصف في البحر ، فساح سليمان عليه السلام ، وذهب ملكه ، وقعد آصف على كرسيه ، ومنعه الله تعالى نساء سليمان عليه السلام فلم يقربهن ولا يقربنه وأنكرنه ، وأنكر الناس أمر سليمان عليه السلام .

وكان سليمان عليه السلام يستطعم فيقول : أتعرفوني أنا سليمان ؟ فيكذبوه حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً ، وطيب بطنه ، فوجد خاتمه في بطنه ، فرجع إليه ملكه ، وفر الشيطان فدخل البحر فاراً .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ولد لسليمان ولد فقال للشيطان : تواريه من الموت ؟ قالوا نذهب به إلى المشرق . فقال يصل إليه الموت . قالوا فإلى المغرب . قال يصل

إليه . قالوا إلى البحار . قال يصل إليه الموت . قال نضعه بين السماء والأرض ، ونزل عليه ملك الموت فقال : إني أمرت بقبض نسمة طلبتها في البحار ، وطلبتها في تخوم الأرض ؛ فلم أصبها ، فبينا أنا صاعد أصبتها ، فقبضتها وجاء جسده حتى وقع على كرسي سليمان ، فهو قول الله ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ﴾ " .

وقال ابن سعد رضي الله عنه ، أخبرنا الواقدي ، حدثنا معشر عن المقبري : أن سليمان بن داود عليه السلام قال : لأطوفن الليلة بمائة امرأة من نسائي ، فتأتي كل امرأة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله . ولم يستثنِ ولو استثنى لكان ، فطاف على مائة امرأة ، فلم تحمل امرأة إلا امرأة واحدة ، حملت بشق إنسان ولم يكن شيء أحب إلى سليمان من تلك الشقة .

(314/660)

قال وكان أولاده يموتون ، فجاء ملك الموت في صورة رجل ، فقال له سليمان عليه السلام : إن استطعت أن تؤخر إبني هذا ثمانية أيام إذا جاءه أجله فقال : لا . ولكن أخبرك قبل موته بثلاثة أيام . قال لمن عنده من الجن : أيكم يُخَبِّيء لي إبني هذا ؟ قال أحدهم ؟ أنا أخبؤه لك في المشرق قال : ممن تخبئوه ؟ قال : من ملك الموت . قال يبصره . قال آخر : أنا أخبؤه لك بين قرنين لا يريان . قال سليمان عليه السلام إن كان شيء فهذا .

فلما جاء أجله ، نظر ملك الموت في الأرض ، فلم يره في مشرقها ، ولا في مغربها ، ولا شيء من البحار ، ورآه بين قرنين ، فجاءه ، فأخذه ، فقبض روحه على كرسي سليمان . فذلك قوله ﴿ ولقد فتنا سليمان ﴾ وهو قول الله ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : بينما سليمان بن داود جالساً على شاطىء البحر ، وهو يعبث بخاتمه إذ سقط منه في البحر ، وكان ملكه في خاتمه ، فانطلق وخلف شيطاناً في أهله ، فأتى عجوزاً ، فأوى إليها ، فقالت له العجوز : إن شئت أن تنطلق فتطلب وأكفيك عمل البيت ، وإن شئت أن تكفيني عمل البيت وانطلق فالتمس . قال : فانطلق يلتمس ، فأتى قوماً يصيدون السمك ، فجلس إليهم ، فنبذوا سمكات ، فانطلق بهن حتى أتى العجوز ، فأخذت تصلحه ، فشقت بطن سمكة ، فإذا فيها الخاتم ، فأخذته وقالت لسليمان عليه السلام : ما هذا ؟ فأخذه سليمان عليه السلام ، فلبسه ، فأقبلت إليه الشياطين ، والانس ، والجن ، والطير ، والوحش ، وهرب الشيطان الذي خلف في أهله ، فأتى جزيرة في البحر ، فبعث إليه الشياطين فقالوا : لا نقدر عليه أنه يرد عيناً في جزيرة في البحر في سبعة أيام ، ولا نقدر عليه حتى يسكر .

قال فصب له في تلك العين خمراً ، فأقبل فشرب فسكر ، فأروه الخاتم فقال : سمعاً وطاعة ، فأوثقه سليمان عليه السلام ، ثم بعث به إلى جبل ، فذكروا أنه جبل الدخان ، فالدخان الذي يرون من نفسه ، والماء الذي يخرج من الجبل بوله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ قال : هو الشيطان . دخل سليمان عليه السلام الحمام ، فوضع خاتمه عند امرأة من أوثق نسائه في نفسه ، فأتاها الشيطان ، فتمثل لها على صورة سليمان عليه السلام ، فأخذ الخاتم منها ، فلما خرج سليمان عليه السلام أتاها فقال لها : هاتي الخاتم فقالت : قد دفعته إليك . قال ما فعلت . . ! فهرب سليمان عليه السلام وجلس الشيطان على ملكه ، وانطلق سليمان عليه السلام هارباً في الأرض يتتبع ورق الشجر خمسين ليلة ، فأنكر بنو إسرائيل أمر الشيطان ، فقال بعضهم لبعض : هل تنكرون من أمر ملككم ما ننكر عليه ؟ قالوا : نعم . قال أما لقد هلكتم أنتم العامة ، وأما قد هلك ملككم ، فقالوا : والله ان عندكم من هذا الخبر ، نساؤه معكم ، فاسألوهن ، فإن كن أنكرن ما أنكرنا فقد ابتلينا . فسألوهن ، فقلن : أي والله لقد أنكرنا .

فلما انقضت مدته انطلق سليمان عليه السلام حتى أتى ساحل البحر ، فوجد صيادين يصيدون السمك ، فصادوا سمكاً كثيراً غلبهم بعضه ، فألقوه فأتاهم سليمان عليه السلام

، فاستطعمهم ، فأعطوه تلك الحيتان قال : لا بل أطعموني من هذا ، فأبوا فقال : أطعموني فإني سليمان ، فوثب إليه بعضهم بالعصا فضربه غضباً لسليمان ، فأتى إلى تلك الحيتان التي ألقوا ، فأخذ منها حوتين ، فانطلق بهما إلى البحر ، فغسلهما فشق بطن أحدهما ، فإذا فيه الخاتم ، فأخذه فجعله في يده ، فعاد في ملكه ، فجاءه الصيادون يبيعون إليه فقال لهم : لقد كنت استطعمتكم فلم تطعموني ، فلم أظلمكم إذا هنتموني ، ولم أحمدكم إذا أكرمتموني .

(316/660)

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان سليمان عليه السلام إذا دخل الخلاء أعطى خاتمه أحب نسائه إليه ، فإذا هو قد خرج وقد وضع له وضوءه فدفع خاتمه إلى امرأته ، فلبث ما شاء الله .

وخرج عليها شيطان في صورة سليمان ، فدفعت الخاتم إليه ، فضاق ذرعاً به ، فألقاه في البحر ، فالتقمته سمكة ، فخرج سليمان عليه السلام على امرأته ، فسألها الخاتم فقالت : قد دفعته إليك . فعلم سليمان عليه السلام أنه قد ابتلى ، فخرج وترك ملكه ، ولزم البحر ، فجعل يجوع ، فأتى يوماً على صيادين قد صادوا سمكاً بالأمس فنبذوه ، وصادوا يومهم

سمكاً فهو بين أيديهم ، فقام عليهم سليمان عليه السلام فقال : أطعموني بارك الله فيكم ، فإني ابن سبيل ، فلم يلتفتوا إليه ، ثم عاد فقال لهم : مثل ذلك ، فرفع رجل منهم رأسه إليه فقال : ائت ذلك السمك فخذ منه سمكة ، فأتاه سليمان عليه السلام فأخذ منه أدنى سمكة ، فلما أخذها إذا فيها ريح ، فأتى بها البحر ، فغسلها وشق بطنها فإذا هو بخاتمه ، فحمد الله وأخذه فتختم به ، ونطق كل شيء كان حوله من جنوده ، وفزع الصيادون لذلك ، فقاموا إليه ، وحيل بينهم ولم يصلوا إليه ، ورد الله إليه ملكه .

وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي من طريق علي بن زيد عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أن سليمان بن داود عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثة أيام ، فأوحى الله إليه أن يا سليمان احتجبت عن الناس ثلاثة أيام ، فلم تنظر في أمور العباد ، ولم تنصف مظلوماً من ظالم .

وكان ملكه في خاتمه ، وكان إذا دخل الحمام وضع خاتمه تحت فراشه . فجاء الشيطان فأخذه ، فأقبل الناس على الشيطان فقال سليمان : يا أيها الناس أنا سليمان نبي الله ، فدفعوه ، فساح أربعين يوماً ، فأتى أهل سفينة ، فأعطوه حوتاً فشقها ، فإذا هو بالخاتم فيها ، فتختم به ، ثم جاء فأخذ بناصيته فقال عند ذلك ﴿ رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ .

قال وكان أول من أنكره نساؤه . فقال بعضهم لبعض : أتنكرون منه شيئاً ؟ قلن : نعم . وكان يأتيهن وهن حيض فقال علي : فذكرت ذلك للحسن فقال : ما كان الله يسلطه على نسائه .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الرحمن بن رافع رضي الله عنه قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حدث عن فتنة سليمان عليه السلام قال : إنه كان في قومه رجل كعمر بن الخطاب في أمتي ، فلما أنكر حال الجان الذي كان مكانه أرسل إلى أفاضل نسائه ، فقال : هل تنكرن من صاحبكن شيئاً ؟ قلن : نعم . كان لا يأتينا حيضاً ، وهذا يأتينا حيضاً ، فاشتمل على سيفه ليقتله ، فرد الله على سليمان ملكه ، فأقبل فوجده في مكانه ، فأخبره بما يريد " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ قال : الجسد الشيطان الذي كان دفع سليمان عليه السلام إليه خاتمه ، فقذفه في البحر ، وكان ملك سليمان عليه السلام في خاتمه ، وكان اسم الجني صخراً .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ قال : الجسد الشيطان الذي كان دفع إليه سليمان خاتمه شيطاناً يقال له آصف .

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾

قال : الشيطان حين جلس على كرسيه أربعين يوماً . كان لسليمان عليه السلام مائة امرأة ، وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة ، وهي آثر نسائه عنده وآمنهن ، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه ، ولم يأتمن عليه أحداً من الناس غيرها ، فجاءته يوماً من الأيام فقالت : إن أخي بينه وبين فلان خصومة ، وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك فقال : نعم . ولم يفعل ، وابتلى فأعطاها خاتمه ، ودخل المخرج ، فخرج الشيطان في صورته فقال : هات الخاتم . فأعطته فجاء حتى جلس على مجلس سليمان ، وخرج سليمان عليه السلام بعد ، فسألها أن تعطيه خاتمه ، فقالت : ألم تأخذه قبل ؟ قال : لا .

(318/660)

قال وخرج مكانه تائهاً ، ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً ، فأنكر الناس أحكامه ، فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماؤهم ، فجاؤوا حتى دخلوا على نسائه فقالوا : إنا قد أنكرنا هذا ، وأقبلوا يمشون حتى أتوه ، فأحدقوا به ، ثم نشروا فقرأوا التوراة ، فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة والخاتم معه ، ثم طار حتى ذهب إلى البحر ، فوقع الخاتم منه في البحر ، فابتلعه حوت من حيتان البحر .

وأقبل سليمان في حالته التي كان فيها حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر وهو جائع ،

فاستطعمه من صيدهم ، فأعطاه سمكتين ، فقام إلى شط البحر ، فشق بطونهما ، فوجد خاتمه في بطن إحداهما ، فأخذه فلبسه ، فرد الله عليه بهاءه وملكه . فأرسل إلى الشيطان ، فجيء به فأمر به ، فجعل في صندوق من حديد ، ثم أطبق عليه ، وأقفل عليه بقفل ، وختم عليه بخاتمه ، ثم أمر به فألقي في البحر . فهو فيه حتى تقوم الساعة ، وكان اسمه حبقيق .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ ثم أناب ﴾ قال : دخل سليمان على امرأة تبيع السمك ، فاشترى منها سمكة ، فشق بطنها ، فوجد خاتمه ، فجعل لا يمر على شجرة ، ولا على شيء إلا سجد له ، حتى أتى ملكه وأهله . فذلك قوله ﴿ ثم أناب ﴾ يقول : ثم رجع .

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35)

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد في مسنده والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : " ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلا استفتحه بسبحان ربي الأعلى الوهاب " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ يقول : لا أسلبه كما سلبته .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ قال : لا تسلبنيه كما سلبتنيه .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " عرض لي الشيطان في مصلاي الليلة كأنه هرُّكم هذا ، فأردت أن أحبسه حتى أصبح ، فذكرت دعوة أخي سليمان ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ فتركته " .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن عفريتاً جعل يتلفت علي البارحة ليقطع عليَّ صلاتي ، وإن الله تعالى أمكنني منه ، فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا ، فتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ فرده الله خاسئاً " .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينا أنا قائم أصلي اعترض الشيطان ، فأخذت حلقه ، فخنقته حتى أني لأجد برد لسانه على ابهامي ، فيرحم الله سليمان لولا دعوته لأصبح مربوطاً تنظرون إليه

" .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خرجت لصلاة الصبح ، فلقيني شيطان في السدة . سدة المسجد ، فزحمني حتى أني لأجد مس شعره ، فاستمكنت منه ، فخنقته حتى أني لأجد برد لسانه على يدي ، فلولا دعوة أخي سليمان عليه السلام لأصبح مقتولاً تنظرون إليه " .

(320/660)

وأخرج أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قام يصلي صلاة الصبح فقرأ ، فألبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : لو رأيتموني وإبليس . فأهويت بيدي ، فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين ، الإِبهام والتي تليها ، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد ، فتلاعب به صبيان المدينة " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن مردويه والبيهقي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مر عليَّ الشيطان ، فتناولته ، فخنقته حتى وجدت برد لسانه على يدي فقال : أوجعتني أوجعتني . . ولولا ما دعا به سليمان لأصبح

مناطا إلى اسطوانة من أساطين المسجد ينظر إليه ، وِلْدَانُ أهل المدينة " .

وأخرج الطبراني عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان أراد أن يمر بين يدي ، فخنقته حتى وجدت برد لسانه على يدي . وأيم الله لولا ما سبق إليه أخي سليمان لربطته إلى سارية من سواري المسجد حتى يطيف به ولدان أهل المدينة " .

وأخرج الحاكم في المستدرك عن عمر بن علي بن حسين قال : مشيت مع عمي وأخي جعفر فقلت : زعموا أن سليمان عليه السلام سأل ربه أن يهبه ملكاً قال : حدثني أبي ، عن أبيه ، عن علي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لن يعمر ملك في أمة نبي مضى قبله ما بلغ بذلك النبي صلى الله عليه وسلم من العمر في أمته " .

وأخرج عبد بن حميد عن وهب بن منبه رضي الله عنه ، أنه ذكر من ملك سليمان ، وتعظيم ملكه ، أنه كان في رباطه اثنا عشر ألف حصان ، وكان يذبح على غدائه كل يوم سبعين ثوراً ، سوى الكباش ، والطير ، والصيد . فقيل لوهب : أكان يسع هذا ماله ؟ ! قال : كان إذا ملك الملك على بني إسرائيل اشترط عليهم أنهم رقيقه ، وإن أموالهم له ؛ ما شاء أخذ منها ، وما شاء ترك .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي خالد البجلي رضي الله عنه قال : بلغني أن سليمان عليه السلام ركب يوماً في موكبه ، فوضع سريره فقعد عليه ، وألقيت كراسي يميناً وشمالاً ، فقعد الناس عليها يلونه ، والجن وراءهم ، ومردة الجن والشياطين وراء الجن . فأرسل إلى الطير ، فأظلته بأجنحتها ، وقال للريح : احملينا يريد بعض مسيره ، فاحتملته الريح وهو على سريره ، والناس على كراسيهم يحدثهم ويحدثونه ، لا يرتفع كرسي ولا يتضع ، والطير تظلهم .

وكان موكب سليمان يسمع من مكان بعيد ، ورجل من بني إسرائيل آخذ مسحاته في زرع له ، قائماً يهيئه إذ سمع الصوت فقال : إن هذا الصوت ما هو إلا لموكب سليمان وجنوده ، فحان من سليمان التفاتة وهو على سريره ، فإذا هو برجل يشتد يبادر الطريق فقال عليه السلام في نفسه : إن هذا الرجل ملهوف ، أو طالب حاجة ، فقال للريح حين وقفت به : قفي . . فوقفت به وبجنود حتى انتهى إليه الرجل وهو منبهر ، فتركه سليمان حتى ذهب بهره ، ثم أقبل عليه فقال ألك حاجة ؟ وقد وقف عليه الخلق فقال : الحاجة جاءت بي إلى هذا المكان يا رسول الله .

إني رأيت الله أعطاك ملكاً لم يعطه أحداً قبلك ولا أراه يعطيه أحداً بعدك ، فكيف تجد ما مضى من ملكك هذه الساعة ؟ قال : أخبرك عن ذاك إني كنت نائماً فرأيت رؤيا ، ثم

تنبهت فعبرتها قال : ليس إلا ذاك قال : فأخبرني كيف تجد ما بقي من ملكك الساعة ؟ قال : تسألني عن شيء لم أره قال : فإنما هي هذه الساعة ، ثم انصرف عنه مولياً .

فجلس سليمان عليه السلام ينظر في قفاه ، ويتفكر فيما قاله ، ثم قال للريح إمضي بنا ، فمضت به قال الله ﴿ رخاء حيث أصاب ﴾ قال : الرخاء التي ليست بالعاصف ، ولا باللينة وسطاً ، قال الله تعالى ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ [سبأ : 12] ليست بالعاصف التي تؤذيه ، ولا باللينة التي تشق عليه .

(322/660)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن سلمان بن عامر الشيباني رضي الله عنه قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أرأيتم سليمان ، وما أعطاه الله تعالى من ملكه ، فلم يكن يرفع طرفه إلى السماء تخشعاً حتى قبضه الله تعالى " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما رفع سليمان عليه السلام طرفه إلى السماء تخشعاً حيث أعطاه الله تعالى ما أعطاه " .

وأخرج أحمد في الزهد عن عطاء رضي الله عنه قال : كان سليمان عليه السلام يعمل

الخوص بيده ، ويأكل خبز الشعير ، ويطعم بني إسرائيل الحواري .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن المنذر وابن عساكر عن صالح بن سمار رضي الله عنه قال : بلغني أنه لما مات داود عليه السلام ، أوحى الله تعالى إلى سليمان عليه الصلاة والسلام " سلني حاجتك قال : أسألك أن تجعل قلبي يخشاك كما كان قلب أمي ، وأن تجعل قلبي يحبك كما كان قلب أبي . فقال : أرسلت إلى عبدي أسأله حاجته ، فكانت حاجته أن أجعل قلبه يخشاني ، وأن أجعل قلبه يحبني ، لأهبن له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده قال الله تعالى ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ والتي بعدها مما أعطاه ، وفي الآخرة لا حساب عليه " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ فسخرنا له الريح . . ﴾ قال : لم يكن في ملكه يوم دعا الريح والشياطين .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه قال : لما عقر سليمان عليه السلام الخيل أبدله الله خيراً منها ، وأمر الريح تجري بأمره كيف يشاء ﴿ رخاء ﴾ قال : ليست بالعاصف ، ولا باللينة بين ذلك . وأخرج ابن المنذر عن الحسن وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ تجري بأمره رخاء ﴾ قال : مطيعة له حيث أراد .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ رخاء حيث أصاب ﴾ قال : حيث شاء .

(323/660)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ رخاء ﴾ قال : لينة ﴿ حيث أصاب ﴾ قال : حيث أراد ﴿ والشياطين كل بناء ﴾ قال : يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴿ وغواص ﴾ قال : يستخرجون له الحلى من البحر ﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ قال : مردة الشياطين في الأغلال .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ رخاء ﴾ قال : الطيبة ﴿ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ قال : يغوص للحلية ﴿ وبناء ﴾ بنوا لسليمان قصراً على الماء فقال : اهدموه من غير أن تمسه الأيدي . فرموه بالفادقات حتى وضعوه ، فبقيت لنا منفعته بعدهم ، فكان من عمل الجن ، وبقيت لنا منفعة السياط ، كان يضرب الجن بالخشب ، فيكسر أيديها وأرجلها ، فقالوا هل توجعنا فلا تكسرنا ؟ قال : نعم . فدلوه على السياط ، والتمويه أمر الجن فموهت على ثم أمر به ، فألقى على الأساطين تحت قوائم خيل بلقيس ، والقارورة لما أخرج الأعور شيطان البحر حيث أراد بناء بيت المقدس قال الأعور : ابتغوا

لي بيضة هدهد ، ثم قال اجعلوا عليها قارورة ، فجاء الهدهد ، فجعل يرى بيضته وهو لا يقدر عليها ، ويطيف بها فانطلق فجاء بماسة مثل هذه ، فوضعها على القارورة ، فانشقت فانشق بيت المقدس بتلك الماسة والقذافة . وكان في البحر كنز ، فدلوا عليه سليمان عليه السلام ، وزعموا أن سليمان عليه السلام يدخل الجنة بعد الأنبياء بأربعين سنة لما أعطيَ من الملك في الدنيا .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ هذا عطاؤنا ﴾ قال : كل هذا أعطاه إياه بعد رد الخاتم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فامنن ﴾ يقول : اعتق من الجن من شئت ﴿ أو أمسك ﴾ منهم من شئت .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ هذا عطاؤنا . . . ﴾ قال الحسن : الملك الذي أعطيناك ، فأعط ما شئت ، وامنع ما شئت ، فليس لك تبعة ، ولا حساب عليك في ذلك .

(324/660)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ قال : بغير حرج ، إن شئت أمسكت ، وإن شئت أعطيت .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه في الآية قال : ما أعطيت ، أو أمسكت ، فليس عليك فيه حساب .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : ما من نعمة أنعم الله على عبد إلا وقد سأله فيها الشكر إلا سليمان بن داود عليه السلام . قال الله لسليمان عليه السلام ﴿ فامنن أو أمسك ﴾ بغير حساب .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال : إن الله أعطى سليمان عليه السلام ملكاً هنيئاً فقال الله ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ قال : إن أعطيَ أجر ، وإن لم يعط لم يكن عليه تبعة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أي حسن مصير .

وأخرج ابن المنذر عن أبي صالح رضي الله عنه ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ قال : الزلفى القرب ﴿ وحسن مآب ﴾ قال : المرجع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الإمام فخر الدين الرازى :

[قصة سليمان عليه السلام]

[وفيها شبهات ثلاثة]

[الأولى] تمسكوا بقوله تعالى : (إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد) الآيات قالوا : ظاهر الآية يدل على أن مشاهدة الخيل ألهته عن ذكر ربه حتى روى أن الصلاة فاتته *

[جوابه] نذكر تفسير الآية فان بذكره تزول الشبهة ، فنقول : المخصوص بالمدح في (نعم العبد) محذوف فقيل : هو سليمان ، وقيل : هو داود عليهم السلام ، والاول أولى ، لأنه أقرب المذكورين ، ثم علل كونه ممدوحا بكونه أوابا رجاعا إليه بتوبته ، أو مؤوبا بالتسبيح مرجعا لان كل مؤب أواب (إذ عرض عليه) أي على سليمان عليه السلام لأنه أقرب المذكورين – الصفون – الوقوف عن ابن قتيبة وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية فإذا وقفت كانت مطمئنة في مواقفها وإذا جرت كانت سراعا في جريها (أحببت حب الخير عن ذكر ربى) وفيه ثلاثة أوجه : [الأول] أن تضمن

أحببت معنى فعل يتعدى بعن ، كأنه قيل : أتيت حب الخير عن ذكر ربى *

[الثاني] أحببت بمعنى لزمت الخير عن ذكر ربى عن كتاب ربى . وهو التوراة أو غيرها .

فكما أن ارتباط الخيل في كتابنا ممدوح فكذا في كتابهم ، وهذا أولى من الاول ، لان فيه

تقرير الظاهر *

[الثالث] أن الانسان قد يقول : إنى أحب كذا ولكني أحب أن لا أحبه كالمريض الذى

يشتهى ما يؤذيه فأما من أحب شيئا وأحب

(326/660)

محبته له كان ذلك غاية المحبة ، فقوله : أحببت حب الخير بمعنى أحببت حبى لهذه الخيل .

وهذا الوجه الذى استنبطته أظهر الوجوه والضمير في (حتى توارت) وفى (ردوها) يحتمل

أن يكون عائدا إلى الشمس لأنه جرى ذكر ماله تعلق بها وهى العشى ، وأن يكون عائدا إلى

الصافنات وهذا أولى الوجهين ، لأنها مذكورة صحيحا دون الشمس ولانه أقرب في الذكر

من لفظ العشى ، وعند ذلك يفرض ها هنا احتمالات أربعة : [الأول] أن يعود الضمير إلى

الصافنات ، كأنه قيل : حتى توارث الصافنات بالحجاب ردوا الصافنات إلى *

[الثاني] أن يعود إلى الشمس ، كأنه قيل : حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس ،

قيل : إنه عليه الصلاة والسلام لما فاتته الصلاة سأل الله أن يرد الشمس وهذا بعيد لان قوله (ردوها) خطاب للجمع والانبياء لا يخاطبون الله تعالى بمثل هذا [الثالث] أن يعود الأول إلى الشمس والثانى إلى الصافنات . وهو الذى ذهب إليه الاكثرون كأنه قيل حتى توارت الشمس بالحجاب . ردوا الصافنات إلى . وهذا أبعد لانهما ضميران وردا في موضع واحد فتفريقهما لا بالدليل غير جائز [الرابع] أن يعود الأول إلى الصافنات والثانى إلى الشمس . وهذا مما لم يذهب إليه أحد (فطفق مسحا بالسوق والاعناق) فجعل يمسح مسحا فالاكثرون أي يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ، يعنى يقطعها وهذا بعيد ، لأنه لو كان المسح بالسوق والاعناق هو القطع لكان

(327/660)

القائل إذا قال : مسحت رأس فلان ويده فهم منه أنه قطعها ولكان معنى قوله (فامسحوا برء وسكم وارجلكم) القطع بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق ، فأما إذا لم يذكر السيف فانه لا يفهم منه الضرب والقطع البتة ، على أن قوله : مسح عنقه بالسيف لا يفيد القطع إلا على سبيل المجاز . فكيف إذا ترك ذكر السيف ؟ * فإذا عرفت التفسير زعمت الحشوية انه عليه السلام غزا أهل دمشق فأصاب ألف فرس فقعد

يوما بعد ما صلى الأولى على كرسيه واستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غفل عن صلاة العصر ، أو عن ورد كان له من الذكر وقت العشى ، حتى غربت الشمس وهو المراد من قوله تعالى (توارت بالحجاب) ثم استرد الخيل ، وهو المراد بقوله (ردوها على) ثم عقرها تقربا إلى الله تعالى وهو المراد بقوله (فطفق مسحا بالسوق والاعناق) * واعلم ان هذه الحكاية مع أنه لادلالة في الآية عليها البتة ففى الآية ما ينافيها من وجوه خمسة [الأول] أنه تعالى وصف سليمان عليه السلام في مقدمة الآية بأن الله تعالى وهبه لداود عليه السلام في معرض الاكرام (1) وذلك ينافى أن يعقب ذلك بذكر أن سليمان كان تاركا للصلاة وبأنه أواب حال ما عرضت عليه الصافنات فإن لفظة (إذ) دالة على ذلك ، وكونه اوابا وتاركا للصلاة في زمان واحد محال *

---

(1) بل وقوله (نعم العبد) من أدل الدلائل على ان من أبعد الأمور أن يشتغل بالدنيا وحبها عن ذكر الله وطاعته فجاءت به القابلة وألقته على كرسيه بين يديه . ولو قال إن شاء الله لكان كما قال .

[الثاني] أن قوله (احببت حب الخير عن ذكر ربى) لو فسرنا * بأنى لزمت الخير عن ذكر ربى لكان ذلك منافيا لما أرادوه ، أما إذا فسرناه بأنى أتيت حب الخير عن ذكر ربى فربما استقام لهم ما ذكروه ، لكنا بينا أن الأول اولى [الثالث] أن رجوع الضمير في (توارت) إلى الشمس يقتضى ترجيح غير المذكور ، وترجيح البعيد على القريب ، وهو غير جائز . وعلى تسليم ذلك فالحكم برجوع الضمير في (ردوها) إلى الصافنات تفريق للضمائر المشاكلة على أشياء متباينة *

[الرابع] أن قوله تعالى (فطفق مسحا) لادلالة فيه ألبتة على قولهم [الخامس] ان هذه السورة إنما وردت في مناظرة الكفار ، والمقصود من هذه القصص أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على مشاق التكاليف ، ومتاعب الطاعات . وذلك المعنى لا يليق به ذكر أن الأنبياء كانوا تاركين للصلاة ، ومتها لكين في حب الدنيا بل التفسير الحق الذى ينطبق اللفظ عليه أن رباط الخيل مندوب إليه في دينهم كما أنه كذلك في ديننا . ثم إن سليمان عليه السلام جلس لتعرض عليه الخيل ، ثم بين أن ذلك لم يكن لحب الدنيا لان الله تعالى أقره على ما قال (إنى احببت حب الخير عن ذكر ربى) ثم أمر بركضها حتى توارت بالحجاب أي حتى غابت عن بصره ثم أمر بردها (فطفق مسحا) فطفق يمسح سوقها وأعناقها تشريفا لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الاعوان في دفع العدو . أو لأنه أراد أن يبين عن نفسه انه في السياسة وحفظ الدين والدنيا بحيث لا يخفى عليه شئ من مصالحه ، أو لأنه كان أعلم

بأحوال الخيل من غيره يفحصها ويمسحها ليعلم حالها في الصحة والسقم فهذا الذى ذكرناه كلام ينطبق عليه اللفظ ويلائمه ما قبل الآية وما بعدها . وفيه تعظيم الأنبياء فكان أولى بما يكون بالضد منه *

[فإن قلت] فكيف تعمل بإطباق الأكثرين على تلك الحكاية ؟

(329/660)

[قلت] الكلام في تفسير كتاب الله تعالى غيره في حكاية منفصلة عن كتاب الله تعالى . ومقصودنا الآن هو الاول . وقد بينا انه لا دلالة في الآية على تلك الحكاية البتة ، بل ظاهرها ينافيها من وجوه كثيرة . فاذن لم يبق إلا أن يقال : إنها حكاية منفصلة عن كتاب الله تعالى *

[فإن قلت] فما قولك فيها ؟ فنقول : الدلائل الباهرة عن المعقول والمنقول قد دلت على وجوب عصمة الأنبياء فاتباعها أولى من اتباع حكايات لا ندري انها في اول الأمر من رئيس الملاحدة أو موضوعات اليهود . وبالله التوفيق *

[الشبهة الثانية] تمسكوا بقوله تعالى : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا) الآية *

[جوابه] أما قوله : (ولقد فتنا سليمان) أي امتحناه ، وأما قوله : (وألقينا على كرسيه جسدا) فقد اختلفوا فيه أما الذى يقوله المحققون فأحد أمور ثلاثة : [الأول] أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : " إن سليمان قال : لاطوفن الليلة على مائة امرأة فتلد كل منها غلاما يقاتل في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله ، فطاف ولم تحبل إلا واحدة فولدت نصف غلام

(1) " فكان الابتلاء لأجل تركه الاستثناء *

(330/660)

[الثاني] أنه امتحنه بمرض شديد ، فصار جسد الاحراك به مشرفا على الموت ، كما يقال : لحم على وضم (2) وجسد بلا روح على معنى شدة الضعف ، والتقدير : وألقينا جسده على كرسيه ، فخذف الهاء للاختصار *

[الثالث] ولد لسليمان ولد ، فاحتال الشياطين في قتله ، وقالوا : تخاف أن يعذبنا كما يعذبنا أبوه ، فأمر السحاب فحملته وأمر الريح فغذته خوفا من الشياطين فمات الولد ، فألقى ميتا على سريره ابتلاءا حين خاف الشياطين * فأما الذى يذكره الأكثرون من القصاص من حديث الخاتم وآصف فتلك الحكاية باطلة لم يدل على صحتها شئ فلا يجوز الالتفات إليها *

[الشبهة الثالثة] تمسكوا بقوله : (رب اغفر لي وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى)

قالوا : هذا حسد فكيف يليق بالنبي صلى الله عليه وسلم ؟ [جوابه] من وجوه سبعة [الأول] أن معجزة كل نبى

---

(1) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم بغير هذا اللفظ عن أبى هريرة * (2) الوضم . الخشبة يوضع عليها اللحم ليأخذ كل من مر به عنه لا يمتنع على أحد إلا أن يذب عنه ويدفع *

يجب أن تليق بأحوال أهل زمانه ، ولما كانت منافسة أهل زمانه بالمال والجاه طلب مملكة فائقة على كل الممالك لتكون معجزة له *

[الثاني] أنه لما مرض ثم رجع إلى الصحة عرف أن خيرات الدنيا وما فيها صائرة إلى الغير بارث أو غيره ، فسأل ربه ملكا لا يمكن أن ينتقل منه ، وذلك ملك الآخرة *

[الثالث] ان في مراتب الرياضات والمجاهدات كثرة ولكل واحد من السالكين اختصاص بواحد منها فكأنه كان اختصاص سليمان عليه السلام بمقام رياضة النفس ومراقبتها ومحاسبتها أشد ، ومعلوم أن الدنيا حلوة خضرة والامتناع عن الانتفاع بها حال القدرة

أشق من الامتناع حال العجز فكأنه عليه السلام قال : أعطني من الدنيا أكمل المراتب حتى أتحمل في الاحتراز عنها أعظم المشاق *

[الرابع] إن من الناس من يقول الاحتراز عن لذات الدنيا أصعب لأنها نقد ولذات الآخرة نسيئة وترجيح النسيئة على النقد شاق ، فهو عليه السلام رد على هؤلاء الباطلين . وقال (رب هب لى ملكا) الآية حتى تروا كيف استحقره في جنب الالتذاذ بطاعة المولى *

[الخامس] هو أن الوصول إلى الله تعالى على نوعين : أحدهما – وهو الأكمل – أن يرفعه الله إليه ابتداءا فضلا منه ورحمة من غير تكليف شئ من المتاعب وهو طريقة رسولنا عليه الصلاة والسلام على ما قاله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) *

[والثانى] أن يتكلف العبد الذهاب إليه وهو الطريقة التى حصل أعلاها لموسى عليه السلام في قوله (ولما جاء موسى لميقاتنا) وان سليمان عليه السلام على شرع موسى عليه السلام وطريقته فكان أبدا في الرياضة والانسان لا يفرغ قلبه عن شئ ما لم يجربه فكأن نفس سليمان عليه السلام كانت ملتفتة إلى ملكة الدنيا فقال (رب اغفر لي وهب لى ملكا) الآية حتى أذوقه فيفرغ قلبى عنه فيزول شغل الالتفات إليه ، فيخلص السر إلى طاعتك والاشتغال بعبادتك *

[السادس] إن للسيارين إلى الله تعالي تارات ، فتارة يختارون مقام التواضع ، وذلك إذا ما نظروا إلى أنفسهم من حيث هم هم ، وتاره مقام الاستعلاء وذلك إذا ما رأوا أنفسهم من

حيث أنهم بالحق ، فلا يبعد أن يكون هذا الخاطر إنما ورد على سليمان عليه السلام في المقام الثاني [السابع] وهو جواب المتكلمين إنه عليه السلام كان مأذونا من الله فيه وعلى هذا التقدير لا يكون فيه عتب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ عصمة الأنبياء صـ 88.81 ﴾

(332/660)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ العامَّةُ بسكونِ الدالِ مِنْ " صادْ " كسائرِ حروف التهجّي في أوائلِ السُور .

وقد مرَّ ما فيه . وقرأ أُبَيٌّ والحسنُ وابنُ أبي إسحاق وابنُ أبي عبلة وأبو السَّمَّال بكسرِ الدالِ مِنْ غير تنوينٍ . وفيها وجهان ، أحدُهما : أنه كَسْرٌ لالتقاءِ الساكنين ، وهذا أقربُ . والثاني : أنه أمرٌ من المصاداة وهي المعارَضَةُ ومنه صَوْتُ الصَّدى لمعارضتِه لصوتك وذلك في الأماكن الصلبةِ الخاليةِ والمعنى : عارِضِ القرآنَ بعملك ، فاعمَلْ بأوامرِه وانتهِ عن نواهيه . قاله الحسن . وعنه أيضاً : أنه مِنْ صادَيْتُ أي : حادَثْتُ . والمعنى : حادِثِ الناسَ

بالقرآن .

وقرأ ابن أبي إسحاق كذلك ، إلاَّ أنه نَوَّنَه وذلك على أنَّه مجرورٌ بحرفِ قَسَمٍ مقدرٍ ، حُذِفَ وبقي عَمَلُه كقولِهم : " اللَّهِ لأفعلَنَّ " بالجرِّ . إلاَّ أنَّ الجرَّ يَقِلُّ في غيرِ الجلالة ، وإنما صَرَفه ذهاباً به إلى معنى الكتاب والتنزيل . وعن الحسنِ أيضاً وابن السَّمَيْفَعِ وهارون الأعور صادُ بالضمِّ من غيرِ تنوينٍ ، على أنه اسمٌ للسورةِ ، وهو خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هذه صاد . ومُنِعَ من الصرف للعَلميَّة والتأنيث ، وكذلك قرأ ابن السَّمَيْفَع وهارون : قاف ونون بالضمِّ على ما تقدَّمَ .

وقرأ عيسى وأبو عمروٍ في روايةِ محبوب " صادَ " بالفتح مِنْ غير تنوينٍ . وهي تحتمل ثلاثةَ أوجهٍ . البناءَ على الفتح تخفيفاً كأين وكيف ، والجرَّ بحرفِ القسمِ المقدرِ ، وإنما مُنع من الصرف للعلميَّةِ والتأنيثِ كما تقدَّم ، والنصبَ بإضمارِ فِعْل أو على حذفِ حَرْفِ القَسم نحوَ قولِه :

3829 . . . . . فذاكَ

أمانةَ اللَّهِ الثريدُ

وامتنعَتْ من الصرفِ لما تقدَّم ، وكذلك قرآ : " قاف " و " نون " بالفتح فيهما ، وهما كما تقدَّم ، ولم أحفَظْ التنوينَ مع الفتح والضم .

قوله : " والقرآنِ " قد تقدَّم مثلُه في ﴿ يس والقرآن ﴾ [يس : 1-2] ، وجوابُ القسم فيه أقوالٌ كثيرةٌ ، أحدها : أنه قولُه : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ ﴾ [ص : 64] ، قاله الزجاج والكوفيون غيرَ الفراءِ . قال الفراء : " لا نجده مستقيماً لتأخيره جداً عن قولِه : " والقرآن " . الثاني : أنه قولُه : " كم أهلَكْنا " والأصلُ : لكم أهلَكْنا ، فحذف اللامَ كما حَذَفها في قولِه : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [الشمس : 9] بعد قولِه : ﴿ والشمس ﴾ لَمَّا طال الكلام . قاله ثعلبٌ والفراء . الثالث : أنه قولُه : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرسل ﴾ [ص : 14] قاله الأخفش . الرابع : أنه قولُه : " صاد " ؛ لأنَّ المعنى : والقرآنِ لقد صدق محمد . قاله الفراء وثعلب أيضاً . وهذا بناءً منهما على جوازِ تقديمِ جوابِ القسم ، وأنَّ هذا الحرفَ مُقْتَطَعٌ مِنْ جملةٍ هو دالٌّ عليها . وكلاهما ضعيفٌ . الخامس : أنه محذوفٌ . واختلفوا في تقديره ، فقال الحوفي : / تقديرُه : لقد جاءكم الحقُّ ، ونحوُه . وقَدَّره ابن عطية : ما الأمرُ كما يَزْعمون . والزمخشري : إنه لَمُعْجِزٌ .

والشيخ : إنَّك لمن المُرْسَلين . قال : " لأنه نظيرُ ﴿ يس * والقرآن الحكيم * إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ [يس : 1-3] وللزمخشري هنا عبارةٌ بشعةٌ جداً . وهي : " فإنْ قلتَ : قولُه : ص والقرآنِ ذي الذكر بل الذين كفروا في عِزَّةٍ وشِقاقٍ كلامٌ ظاهرُه متنافٍ غيرُ منتظِمٍ . فما وجهُ انتظامِه ؟ قلت : فيه وجهان ، أَنْ يكونَ قد ذكر اسمَ هذا الحرفِ من حروفِ المعجمِ على سبيلِ التحدّي والتنبيه على الإعجازِ كما مَرَّ في أَول الكتاب ، ثم أتبعه القسمَ محذوفَ الجواب لدلالةِ التحدّي عليه ، كأنه قال : والقرآنِ ذي الذِّكْرِ إنه لَكلامٌ مُعْجِزٌ . والثاني : أَنْ يكونَ " صاد " خبرَ مبتدأ محذوفٍ على أنها اسمٌ للسورةِ كأنه قال : هذه صاد . يعني هذه السورةَ التي أَعْجَزَتِ العربَ والقرآنِ ذي الذِّكْر ، كما تقول : " هذا حاتِمٌ واللَّهِ " تريد : هو المشهورُ بالسَّخاءِ واللَّهِ ، وكذلك إذا أقسمَ بها كأَنَّه قال : أَقْسَمْتُ بصاد والقرآنِ ذي الذِّكْر إنه لَمُعْجِزٌ . ثم قال : بل الذين كفروا في عِزَّةٍ واستكبارٍ عن الإذعانِ لذلك والاعترافِ ، وشِقاقٍ لله ورسوله ، وإذا جَعَلْتَها مُقْسَماً بها ، وعَطَفْتَ عليها ﴿ والقرآن ذِي الذكر ﴾ جازَ لك أَنْ تريدَ بالقرآنِ التنزيلَ كلَّه ، وأَنْ تريدَ السورةَ بعينِها . ومعناه : أُقْسِمُ بالسورةِ الشريفة : والقرآنِ ذي الذِّكْر كما تقولُ : مَرَرْتُ بالرجلِ الكريم والنَّسْمَةِ المباركة ، ولا تريد بالنَّسْمَةِ غيرَ الرجلِ " .

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2)

قوله : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ ﴾ : إضْرابُ انتقالٍ من قصةٍ إلى أخرى . وقرأ الكسائيُّ في روايةِ سَوْرة وحماد بن الزبرقان وأبو جعفر والجحدري " في غِرَّةٍ " بالغَيْن معجمةً والراءِ . وقد رُوي أن حماداً الراوية قرأها كذلك تصحيفاً ، فلمَّا رُدَّتْ عليه قال : " ما ظَنَنْتُ أنَّ الكافرين في عِزَّة " وهو وهمٌ منه ؛ لأن العِزَّةَ المُشارَ إليها حَمِيَّةُ الجاهلية . والتنكيرُ في " عزَّة وشِقاق " دلالةً على شِدَّتِهما وتَفاقُمهما .

كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (3)

قوله : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ : "كم " مفعولُ " أهلَكْنا " ، و " مِنْ قَرْنٍ " تمييزٌ ، و " مِنْ قبلِهم " لابتداء الغاية .

قوله : " ولات حين " هذه الجملةُ في محلِّ نصبٍ على الحال مِنْ فاعل " نادَوْا " أي : استغاثوا ، والحالُ أنه لا مَهْرَبَ ولا مَنْجى .

وقرأ العامَّةُ " لاتَ " بفتح التاء و " حينَ " بالنصبِ ، وفيها أوجهٌ ، أحدها : – وهو مذهبُ سيبويه – أنَّ " لا " نافيةٌ بمعنى ليس ، والتاءُ مزيدةٌ فيها كزيادتِها في رُبَّ وثَمَّ ، ولا تعملُ إلاَّ في الأزمان خاصةً نحو : لاتَ حينَ ، ولات أوان ، كقوله :

3830 طلبُوا صُلْحَنا ولاتَ أَوانٍ . . . فَأَجَبْنا أنْ ليسَ حينَ بقاءِ

وقول الآخر :

3831 نَدِمَ البُغاةُ ولاتَ ساعةَ مَنْدَمِ . . . والبَغيُ مَرْتَعٌ مُبْتَغِيْه وخيمُ

والأكثرُ حينئذٍ حَذْفُ مرفوعِها تقديرُه : ولات الحينُ حينَ مناصٍ . وقد يُحْذَفُ المنصوبُ ويبقى المرفوعُ . وقد قرأ هنا بذلك بعضُهم كقوله :

3832 مَنْ صَدَّ عَنْ نيرانِها . . . فأنا ابنُ قَيْسٍ لا بَراحُ

أي : لا براحٌ لي . ولا تعملُ في غيرِ الأحيان على المشهور ، وقد تُمُسِّك بإعمالها في غير الأحيان بقولِه :

3833 حَنَّتْ نَوارُ ولاتَ هَنَّا حَنَّتِ . . . وبدا الذي كانَتْ نَوارُ أجَنَّتِ

(336/660)

فإنَّ " هَنَّا " مِنْ ظروفِ الأمكنةِ . وفيه شذوذٌ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ ، أحدها : عَمَلُها في اسمِ الإشارةِ وهو معرفةٌ ولا تعملُ إلاَّ في النكراتِ . الثاني : كونُه لا يَتَصَرَّفُ . الثالث : كونُه غيرَ زمانٍ . وقد رَدَّ بعضُهم هذا بأنَّ " هَنَّا " قد خرجَتْ عن المكانية واسْتُعْمِلت في الزمان ، كقولِه تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ابتلي المؤمنون ﴾ [الأحزاب : 11] وقولِ الشاعر :

3834 . . . . . .

فهناكَ يَعْتَرِفون أين المَفْزَعُ

كما تقدم في سورة الأحزاب ؛ إلاَّ أنَّ الشذوذَيْن الآخرَيْن باقيان . وتأوَّل بعضُهم البيتَ أيضاً بتأويلٍ آخرَ : وهو أنَّ "لاتَ" هنا مهملةٌ لا عملَ لها و "هَنَّا" ظرفٌ خبرٌ مقدمٌ/ و "حَنَّتِ" مبتدأ بتأويلِ حَذْفِ "أنْ" المصدرية تقديرُه : أنْ حَنَّتْ نحو "تَسْمَعُ بالمُعَيْدِيِّ خيرٌ مِنْ أَنْ تَراه" . وفي هذا تكلُّفٌ وبُعْدٌ . إلاَّ أنَّ فيه الاستراحةَ من الشذوذاتِ المذكورات أو الشذوذَيْن .

وفي الوقفِ عليها مذهبان : المشهورُ عند العربِ وجماهيرِ القراءِ السبعةِ بالتاءِ المجبورةِ إتْباعاً لمرسومِ الخطِّ الشريفِ . والكسائيُّ وحدَه من السبعةِ بالهاء . والأولُ مذهبُ الخليلِ وسيبويه والزجاج والفراء وابن كَيْسان ، والثاني مذهبُ المبرد . وأغرب أبو عبيد فقال : الوقفُ على "لا" والتاءُ متصلةٌ ب "حين" فيقولون : قُمْتُ تحينَ قمتَ ، وتحينَ كان كذا فعلتُ كذا . وقال : "رأيتها في الإمام كذا : "ولا تحين" متصلة . وأُنْشَدَ على ذلك أيضاً قولَ الشاعر :

3835 العاطفونَ تحينَ ما مِنْ عاطِفٍ . . . والمُطْعِمون زمانَ لا من مُطْعِمِ

والمصاحفُ إنما هي "ولاتَ حين" . وحَمَلَ العامَّةُ ما رآه على أنه ممَّا شَذَّ عن قياسِ الخَطِّ كنظائرَ له مَرَّتْ لك .

وأمَّا البيتُ فقيل : إنَّه شاذٌّ لا يُلْتَفَتُ إليه . وقيل : إنه إذا حُذِفَ الحينُ المضافُ إلى الجملة التي فيها "لات" جاز أَنْ تُحْذَفَ "لا" وحدها ويُسْتَغْنى عنها بالتاء . والأصل : العاطفونَ حين لات حينَ لا مِنْ عاطفٍ ، فحذف "حين" الأول و "لا" وحدَها ، كما أنه قد صَرَّح بإضافة "حين" إليها في قول الآخر :

3836 وذلك حينَ لاتَ أوانَ حِلْمٍ . . . . . .

. . . . . .

ذكر هذا الوجهَ ابنُ مالك ، وهو متعسِّفٌ جداً . وقد تُقَدَّرُ إضافةُ "حين" إليها مِنْ غيرِ حَذْفٍ لها كقوله :

3837 تَذَكَّرَ حُبَّ ليلى لاتَ حينَا . . . . . .

. . . . . .

أي : حين لاتَ حين . وأيضاً فكيف يصنع أبو عبيدٍ بقوله :

3838 . . . . . .

. . . . . ولاتَ ساعةَ مَنْدَمِ

[وقوله] :

3839 . . . . . لات أوانَ . . . . . .

. . . . . .

فإنه قد وُجِدت التاءُ مع "لا" دون "حين"؟

الوجه الثاني من الأوجه السابقة: أنها عاملةٌ عملَ "إنَّ" يعني أنها نافيةٌ للجنسِ فيكون "حينَ مناص" اسمَها، وخبرُها مقدر تقديرُه: ولات حينَ مناصٍ لهم، كقولك: لا غلامَ سفرٍ لك، واسمها معربٌ لكونِه مضافاً.

الثالث: أنَّ بعدها فعلاً مقدراً ناصباً ل "حين مَناص" بعدها أي: لات أَرى حينَ مَناصٍ لهم بمعنى: لستُ أرى ذلك ومثلُه: ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ ولا أهلاً ولا سهلاً أي: لا أَتَوْا مَرْحباً، ولا لَقُوا أهلاً، ولا وَطِئوا سهلاً. وهذان الوجهان ذهب إليهما الأخفش وهما ضعيفان. وليس إضمارُ الفعلِ هنا نظيرَ إضماره في قوله:

(338/660)

3840 ألا رَجُلاً جَزاه اللَّهُ خيراً . . . . . .

. . . . . .

لضرورةِ أنَّ اسمَها المفردَ النكرةَ مبنيٌّ على الفتح، فلمَّا رأينا هذا معرباً قدَّرْنا له فعلاً خلافاً للزجاج، فإنه يُجَوِّزُ تنوينَه في الضرورة، ويدَّعي أن فتحتَه للإعراب، وإنما حُذِف التنوينُ

للتخفيفِ ويَسْتَدِلُّ بالبيتِ المذكور وتقدَّم تحقيقُ هذا .

الرابع : أن " لات " هذه ليسَتْ هي " لا " مُزاداً فيها تاءُ التأنيث ، وإنما هي : " ليس " فأُبدلت السينُ تاءً ، وقد أُبْدِلت منها في مواضعَ قالوا : النات يريدون : الناس . ومنه " سِتٌّ " وأصله سِدْس . قال :

3841 يا قاتلَ اللَّهُ بني السَّعْلاتِ . . . عمرَو بنَ يَرْبُوعٍ شرارَ الناتِ

لَيْسوا بأخيارٍ ولا أَكْياتِ . . . وقُرِئ شاذاً " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النات " إلى آخره . يريد : شرارَ الناسِ ولا أكياسِ ، فأُبدل . ولَمَّا أبدل السينَ تاءً خاف من التباسها بحرفِ التمني فقلب الياءَ ألفاً فبقيَتْ " لات " وهو من الاكتفاء بحرف العلةِ ؛ لأنَّ حرف العلة لا يُبْدل ألفاً إلاَّ بشروطٍ منها : أن يتحرَّكَ ، وأَنْ ينفتحَ ما قبله ، فيكون " حينَ مناص " خبرَها ، والاسمُ محذوفٌ على ما تقدَّم ، والعملُ هنا بحقِّ الأصالةِ لا الفرعيةِ .

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ وَّلَاتِ حِينِ مَنَاصٍ ﴾ بكسر التاء وجرِّ " حين " وهي قراءةٌ مُشْكلةٌ جداً . زعم الفراء أنَّ " لات " يُجَرُّ بها ، وأنشد :

3842 . . . . . .

ولَتَنْدَمَنَّ ولاتَ ساعةِ مَنْدَمِ

وأنشد غيرُه :

3843 طلبوا صلحَنا ولاتَ أوانٍ . . . . . .

. . . . . .

البيت . وقال الزمخشري : " ومثلُه قول أبي زبيد الطائي : طلبوا صلحنا . البيت . قال : فإنْ قلتَ ما وجهُ الجرِّ في " أوان " ؟ قلت : شُبِّه ب " إذ " في قوله :

(339/660)

3844 . . . . . .

. . . . . وأنتَ إذٍ صحيحُ

في أنه زمانٌ قُطِع منه المضافُ إليه وعُوِّض منه التنوينُ لأن الأصلَ : ولات أوان صلح . فإن قلتَ : فما تقولُ في " حينَ مناصٍ " والمضافُ إليه قائمٌ ؟ قلت : نَزَّلَ قَطْعَ المضافِ إليه مِنْ " مناص " – لأنَّ أصلَه : حين مناصِهم – منزلةَ قَطْعِه مِنْ " حين " لاتحاد المضاف والمضاف إليه ، وجَعَل تنوينَه عوضاً من المضافِ المحذوفِ ، ثم بَنى الحين لكونِه مضافاً إلى غير متمكن " . انتهى .

وخرَّجه الشيخُ على إضمار " مِنْ " والأصل : ولات مِنْ حين مناص ، فحُذِفت " مِنْ " وبقي عملُها نحو قولِهم : على كم جِذْعٍ بَنَيْتَ بيتك ؟ أي : مِنْ جذع في أصحِّ القولَيْن . وفيه قولٌ آخر : أنَّ الجرَّ بالإضافة ، ومثله قوله :

3845 ألا رَجُلٍ جزاه اللَّهُ خَيْراً . . . . . .

. . . . . .

أنشدوه بجرِّ " رَجُل " أي : ألا مِنْ رجل .

قلت : وقد يتأيَّد بظهورِها في قوله :

3846 . . . . . وقالَ :

ألا لا مِنْ سبيلٍ إلى هندِ

قال : " ويكونُ موضعُ " مِنْ حين مناصٍ " رفعاً على أنه اسم لات بمعنى ليس ، كما تقولُ : ليس من رجلٍ قائماً ، والخبرُ محذوفٌ ، وعلى هذا قولُ سيبويه . وعلى أنه مبتدأٌ والخبرُ محذوفٌ على قولِ الأخفشِ . وخَرَّجَ الأخفشُ " ولاتَ أَوانٍ " على حَذْفِ مضافٍ ، يعني : أنه حُذِفَ المضافُ وبقي المضافُ إليه مجروراً على ما كان . والأصلُ : ولات حينُ أوانٍ .

وقد رَدَّ هذا الوجهَ مكيٌّ : بأنه كان ينبغي أَنْ يقومَ المضافُ إليه مَقامَه في الإِعراب فيُرفعَ .

قلت : قد جاء بقاءُ المضافِ إليه على جَرِّه . وهو قسمان : قليلٌ وكثيرٌ . فالكثيرُ أَنْ يكونَ في اللفظ مِثْلُ المضاف نحو :

3847 أكلَّ امرِىءٍ تَحْسَبين امرَأً . . . ونارٍ تَوَقَّدُ بالليلِ نارا

أي : وكلَّ نارٍ . والقليل أَنْ لا يكونَ كقراءة مَنْ قرأ ﴿ واللهُ يُرِيدُ الآخرة ﴾ بجر " الآخرةِ " فليكنْ هذا منه . على أنَّ المبردَ رواه بالرفعِ على إقامتِه مُقامَ المضافِ .

وقال الزجَّاج : " الأصل : ولات أواننا ، فحُذِفَ المضافُ إليه فوجَبَ أَنْ لا يُعْرَبَ ، وكسرُه لالتقاءِ الساكنين " . قال الشيخ : " هذا هو الوجهُ الذي قرَّره الزمخشريُّ ، أَخَذَه من أبي إسحاقَ " قلت : يعني الوجهَ الأولَ ، وهو قولُه : ولاتَ أوانَ صلحٍ .

هذا ما يتعلَّقُ بجرِّ " حين " .

وأمَّا كسرُ تاءِ " لات " فعلى أصلِ التقاءِ الساكنين كـ جَيْرِ ، إلاَّ أنه لا تُعْرف تاءُ تأنيثٍ إلاَّ مفتوحةً .

وقرأ عيسى أيضاً بكسرِ التاءِ فقط ، ونصبِ " حين " كالعامَّةِ . وقرأ أيضاً " ولات حينُ " بالرفعِ ، " مناصَ " بالفتح . وهذه قراءةٌ مشكلةٌ جداً لا تَبْعُدُ عن الغلطِ مِنْ راويها عن عيسى فإنه بمكانةٍ مِنْ العلمِ المانعِ له من مثلِ هذه القراءةِ . وقد خَرَّجها أبو الفضلِ الرازيُّ في " لوامحه " على التقديمِ والتأخيرِ ، وأنَّ " حين " أُجْرِي مُجْرى قبل وبعد في بنائِه على الضمِّ عند قَطْعِه عن الإضافة بجامع ما بينه وبينهما مِن الظرفيةِ الزمانيةِ . و " مَناصَ " اسمُها مبنيٌّ على الفتح فُصِل بينَه وبينها ب " حين " المقطوعِ عن الإضافة . / والأصلُ : ولاتَ

مناص حين كذا ، ثم حُذِفَ المضافُ إليه " حين " ، وبُني على الضم وقَدَّم فاصلاً بين " لات " واسمِها . قال : " وقد يجوز أَنْ يكونَ لذلك معنًى لا أَعْرِفُه " . وقد رُوِي في تاءِ " لاتَ " الفتحُ والكسرُ والضمُّ .

(341/660)

وقوله : " فنادَوْا " لا مفعولَ له ؛ لأنَّ القصدَ : فَعَلوا النداءَ ، مِنْ غيرِ قصدِ منادى . وقال الكلبيُّ : " كانوا إذا قاتلوا فاضْطُرُّوا نادى بعضُهم لبعضٍ : مناص أي : عليكم بالفرارِ ، فلَمَّا أتاهم العذابُ قالوا : مناص " . فقال اللَّهُ تعالى لهم : ولات حينَ مناصٍ " . قال القشيريُّ : " فعلى هذا يكونُ التقديرُ : فنادَوْا مناص ، فحُذِف لدلالةِ ما بعده عليه " . قلت : فيكون قد حَذَفَ المنادى وهو بعضاً وما ينادُوْن به ، وهو مناص ، أي : نادَوْا بعضَهم بهذا اللفظِ . وقال الجرجانيُّ : " أي : فنادَوْا حين لا مناص أي : ساعةَ لا مَنْجَى ولا فَوْتَ ، فلمَّا قَدَّم " لا " وأَخَّر " حين " اقتضى ذلك الواوَ كما تقتضي الحالُ إذا جُعِل ابتداءً وخبراً مثلَ ما تقول : " جاء زيدٌ راكباً " ثم تقول : جاء وهو راكبٌ . ف " حين " ظرفٌ لقولِه " فنادَوْا " . قال الشيخ : " وكونُ أصلِ هذه الجملةِ فنادَوْا : حين لا مناص ، وأنَّ " حين " ظرفٌ لقولِه : " فنادَوْا " دعوى أعجميةٌ في نَظْمِ القرآن ، والمعنى على نظمِه في غايةِ الوضوح " . قلت :

الجرجانيُّ لا يَعْني أنَّ حين ظرفٌ ل " نادَوْا " في التركيبِ الذي عليه القرآن الآن ، إنما يعني بذلك في أصلِ المعنى والتركيب ، كما شَبَّه ذلك بقولِك " جاء زيدٌ راكباً " ثم ب " جاء زيدٌ وهو راكبٌ " ف " راكباً " في التركيبِ الأولِ حالٌ ، وفي الثاني خبرُ مبتدأ ، كذلك " حين " كان في الأصل ظرفاً للنداء ، ثم صار خبرَ " لات " أو اسمَها على حسبِ الخلافِ المتقدّمِ .

والمناصُ : مَفْعَل مِنْ ناص يَنُوص أي : هَرَبَ فهو مصدرٌ يقال : نَاصه يَنُوصه إذا فاته فهذا متعدٍّ ، وناصَ يَنُوص أي : تأخَّر . ومنه ناص عن قِرْنه أي : تأخَّر عنه جُبْناً . قاله الفراء ، وأنشد قولَ امرئ القيس :

3848 أَمِنْ ذِكْرِ سَلْمى أَنْ نَأَتْكَ تَنُوْصُ . . . فَتَقْصُرُ عنها حِقْبَةً وتَبُوْصُ

(342/660)

قال أبو جعفر النحاس : " ناصَ يَنُوص أي : تقدَّم فيكون من الأضداد " . واستناص طلب المَناص . قال حارثة بن زيد :

3849 غَمْرُ الجِراءِ إذا قَصَرْتُ عِنانَه . . . بيديْ اسْتَناصَ ورام جَرْيَ المِسْحَلِ

ويقال : ناص إلى كذا ينوص نَوْصاً أي : التجأ إليه .

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4)

قوله : ﴿ أن جاءكم ﴾ : أي : مِنْ أَنْ ، وفيها الخلافُ المشهورُ .

وقوله : " وقال الكافرون " من بابِ وَضْعِ الظاهرِ مَوْضعَ المضمر شهادةً عليهم بهذا الوَصْفِ القبيح .

أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5)

قوله : ﴿ عُجَابٌ ﴾ : مبالغةً في " عجيب " كقولهم : رجل طُوال وأَمْرٌ سُراع هما أبلغُ مِنْ : طويل وسريع . وعلي والسلمي وعيسى وابن مقسم " عُجَّاب " بتشديد الجيم ، وهي أبلغُ مِمَّا قبلَها فهي مثلُ رجل كريم وكُرام بالتخفيف ، وكُرَّام بالتشديد . قال مقاتل : " وعُجاب - يعني بالتخفيفِ - لغةُ أزد شنوءة " . وهذه القراءةُ أعني بالتشديدِ كقوله : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ [نوح : 22] هو أبلغُ مِنْ كُبار ، وكُبار أبلغُ مِنْ كبير .

وقوله : " أجَعَلَ " أي : أصيَّرها إلهاً واحداً في قولِه وزَعْمه .

وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6)

(343/660)

قوله : ﴿ أَنِ امشوا ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ " أنْ " مصدريةً أي : انطلقوا بقولِهم : أن امْشُوا وأَنْ تكونَ مفسِّرةً : إمَّا لانطلق لأنه ضُمِّنَ معنى القول . قال الزمخشريُّ : " لأنَّ المنطلقين

عن مجلس التقاوُلِ/ لا بُدَّ لهم أَنْ يتكلموا ويتفاوضوا فيما جَرَى لهم " . انتهى . وقيل : بل هي مفسِّرةٌ لجملةٍ محذوفةٍ في محلِّ حالٍ تقديرُه : وانطلقوا يتحاورون أن امْشُوا . ويجوز أَنْ تكونَ مصدريةً معمولةً لهذا المقدرِ . وقيل : الانطلاقُ هنا الاندفاعُ في القولِ والكلامِ نحو : انطلق لسانُه ، فأَنْ مفسرةٌ له من غير تضمينٍ ولا حَذْفٍ . والمَشْيُ : الظاهر أنه هو المتعارَفُ . وقيل : بل هو دعاءٌ بكثرة الماشيةِ ، وهذا فاسِدٌ لفظاً ومعنى . أمَّا اللفظُ فلأنَّه إنما يقال من هذا المعنى " أَمْشَى الرجلُ " إذا كَثُرَتْ ماشيَتُه بالألفِ أي : صار ذا ماشيةٍ ، فكان ينبغي على هذا أَنْ يقرأَ " أَمْشُوا " بقطع الهمزة مفتوحةً . وأمَّا المعنى فليس مراداً البتةَ ، وأيُّ معنى على ذلك ! !

إلاَّ أنَّ الزمخشريَّ ذكر وجهاً صحيحاً من حيث الصناعةُ وأقربُ معنًى ممَّا تقدَّم ، فقال : " ويجوز أنَّهم قالوا : امشُوا أي : اكثروا واجتمعوا ، مِنْ مَشَتِ المرأةُ : إذا كَثُرَتْ ولادتها ، ومنه الماشيةُ للتفاؤل " . انتهى . وإذا وُقِفَ على " أنْ " وابْتُدِئ بما بعدَها فليُبْتَدَأْ بكسرِ الهمزةِ لا بضمِّها لأنَّ الثالثَ مكسورٌ تقديراً إذ الأصل : امْشِيُوا ثم أُعِلَّ بالحَذْفِ . وهذا كما يُبْتدأ بضم الهمزةِ في قولك " اغْزِي يا امرأةُ " . وإنْ كانت الزايُ مكسورةً لأنَّها مضمومةٌ في الأصل إذ الأصل : اغْزُوِي كاخْرُجي فأُعِلَّ بالحذفِ .

مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7)

قوله : ﴿ فِى الملة ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه متعلقٌ ب " سَمِعْنا " أي : لم نسمَعْ في المِلَّةِ الآخرة بهذا الذي جئتَ به . والثاني : أنه متعلقٌ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ هذا أي : ما سمعنا بهذا كائناً في المِلَّةِ الآخرةِ . أي : لم نسمَعْ من الكُهَّانِ ولا مِنْ أهلِ الكتبِ أنه يَحْدُثُ توحيدُ اللَّهِ في المِلَّةِ الآخرة ، وهذا مِنْ فَرْط كَذِبهم .

أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (8)

قوله : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ : قد تقدَّم حكمُ هاتَيْن الهمزتين في أوائل آل عمران ، وأنَّ الواردَ منه في القرآن ثلاثةُ أماكنَ . والإضراباتُ في هذه الآيةِ واضحةٌ و " أم " منقطعةٌ .

أَمْ لَهُمْ مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (10)

قوله : ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ ﴾ : قال أبو البقاء : " هذا كلامٌ محمولٌ على المعنى أي : إنْ زعموا ذلك فَلْيَرْتَقُوا " ، فجعلها جواباً لشرطٍ مقدرٍ ، وكثيراً ما يَفْعَلُ الزمخشريُّ ذلك .

جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ (11)

قوله : ﴿ جُندٌ ﴾ : يجوزُ فيه وجهان ، أحدُهما : وهو الظاهرُ أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هم جُنْدٌ . و " ما " فيها وجهان ، أحدهما : أنها مزيدةٌ . والثاني : أنَّها صفةٌ ل " جُنْدٌ " على سبيلِ التعظيم للهُزْءِ بهم أن للتحقير ، فإنَّ " ما " الصفة تُستعمل لهذين المعنيين .

ومثلُه قولُ امرىءِ القيس :

3850 . . . . . .

وحَديثٌ ما على قِصَرِهْ

(345/660)

وقد تقدَّم هذا في أوائلِ البقرة . و " هنالك " يجوز فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أَنْ يكونَ خبر الجند و " ما " مزيدةٌ و " مَهْزُوم " نعتٌ ل " جُنْد " ذكره مكيٌّ . الثاني : أَنْ يكون صفةً ل " جند " . والثالث : أَنْ يكونَ منصوباً بمهزوم . ومَهْزوم يجوزُ فيه أيضاً وجهان ، أحدهما : أنه خبرٌ ثانٍ لذلك المبتدأ المقدر . والثاني : أنه صفةٌ ل " جُنْد " إلاَّ أنَّ الأحسنَ على هذا الوجهِ أَنْ لا يُجْعَلَ " هنالك " صفةً بل متعلقاً به ، لئلا يَلْزَمَ تقدُّم الوصفِ غيرِ الصريح على الصَّريح . و " هنالك " مشارٌ به إلى موضعِ التقاوُلِ والمجاوزةِ بالكلمات السابقة وهو مكةُ أي : سيُهزمون بمكةَ وهو إخبارٌ بالمغيَّبِ . وقيل : مُشارٌ به إلى نُصرةِ الأصنامِ . وقيل : إلى حَفْرِ الخندقِ يعني : إلى مكانِ ذلك . الثاني من الوجهين الأولين : أَنْ يكونَ " جندٌ " مبتدأ و " ما " مزيدةٌ . و " هنالك " نعتٌ و " مهزوم " خبرُه قاله أبو البقاء . قال الشيخ : " وفيه بُعْدٌ لتفلُّتِه عن الكلامِ الذي قبلَه " . قلت : وهذا الوجهُ المنقولُ عن أبي البقاءِ سبقه إليه مكي

.

قوله : " من الأحزاب " يجوز أَنْ يكونَ صفةً ل " جُند " ، وأنْ يكونَ صفةً ل " مهزومٌ " .

وجَوَّزَ أبو البقاء أَنْ يكونَ متعلقاً به . وفيه بُعْدٌ ؛ لأنَّ المرادَ بالأحزاب هم المهزومون .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12)

قوله : ﴿ ذُو الأوتاد ﴾ : هذه استعارةٌ بليغةٌ : حيث شبَّه المُلْكَ ببيت الشَّعْر ، وبيتُ الشَّعْرِ لا يَثبتُ إلاَّ بالأوتادِ والأطناب ، كما قال الأفوه :

3851 والبيتُ لا يُبْتَنى إلاَّ على عمدٍ . . . ولا عمادَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ

فاسْتعير لثباتِ العزِّ والمُلْكِ واستقرار الأمر ، كقول الأسود :

3852 . . . . . في ظلِّ مُلْكٍ ثابتِ الأَوْتاد

(346/660)

/ والأَوْتادُ : جمعُ وَتِد . وفيه لغاتٌ : وَتِدٌ بفتح الواو وكسرِ التاءِ وهي الفصحى ، ووَتَد بفتحتين ، ووَدّ بإدغام التاء في الدال قال :

3853 تُخْرِجُ الوَدَّ إذا ما أَشْجَذَتْ . . . وتُوارِيْه إذا ما تَشْتَكِرْ

و " وَتّ " بإبدالِ الدالِ تاءً ثم إدغام التاء فيها . وهذا شاذٌّ لأنَّ الأصلَ إبدالُ الأولِ للثاني لا

العكسُ . وقد تقدَّم نحوٌ من هذا في آل عمران عند قولِه تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار ﴾ [آل عمران : 185] . ويُقال : وَتِدٌ واتِدٌ أي : قويٌّ ثابت ، وهو مِثْلُ مجازِ قولهم : شُغْل شاغِلٌ . وأنشد الأصمعي :

3854 ألاقَتْ على الماءِ جُذَيْلاً واتِداً . . . ولم يَكُنْ يُخْلِفُها المَواعدا

وقيل : الأوتادُ هنا حقيقةٌ لا استعارةٌ . ففي التفسير : أنه كان له أوتادٌ يَرْبط عليها الناسَ يُعَذِّبهم بذلك . وتقدم الخلافُ في الأَيكة في سورة الشعراء .

وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (13)

قوله : ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ : يجوز أَنْ تكون مستأنفةً لا محلَّ لها ، وأنْ تكونَ خبراً . والمبتدأ قال أبو البقاء : " من قوله : و " عادٌ " وأَنْ يكونَ من " ثمود " ، وأَنْ يكونَ مِنْ قولِه : " وقومُ لوط " . قلت : الظاهرُ عطفُ " عادٌ " وما بعدَه على " قومُ نوحٍ " واستئنافُ الجملةِ بعدَه . وكان يَسُوْغُ على ما قاله أبو البقاءِ أَنْ يكونَ المبتدأُ وحدَه " وأصحابُ الأَيكة " .

إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14)

قوله : ﴿ إِن كُلٌّ ﴾ : " إنْ " نافيةٌ ولا عملَ لها هنا البتةَ ولو على لغةِ مَنْ قال :

3854 ب إن هو مُسْتَوْلِياً على أحدٍ . . . . . .

. . . . .

وعلى قراءة ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَاداً ﴾ لانتقاض النفي ب " إلاَّ " فإنَّ انتقاضَه مع الأصلِ ، وهي " ما " مُبْطِلٌ فكيف بفَرْعِها ؟ وقد تقدَّم أنه يجوز أَنْ يكونَ جواباً للقَسم .

وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (15)

قوله : ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ " لها " رافعاً ل " مِنْ فَواق " بالفاعليةِ لاعتمادِه على النفي ، وأَنْ يكونَ جملةً مِنْ مبتدأ وخبرٍ ، وعلى التقديرَيْن فالجملةُ المنفيَّةُ في محلِّ نصبٍ صفةً ل " صَيْحةً " و " مِنْ " مزيدةٌ . وقرأ الأخَوان " فُواق " بضمِّ الفاءِ ، والباقون بفتحها . فقيل : [هما] لغتان بمعنًى واحدٍ ، وهما الزمانُ الذي بين حَلْبَتَيْ الحالبِ ورَضْعَتَيْ الراضِع ، والمعنى : ما لها مِنْ تَوَقُّفٍ قَدْرَ فُواقِ ناقةٍ . وفي الحديث : " العِيادَةُ قَدْرَ فُواقِ ناقة " وهذا في المعنى كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ﴾ [الأعراف : 34] . وقال ابن عباس : ما لها مِنْ رجوعٍ . مِنْ أفاق المريضُ : إذا رَجَعَ إلى صحته . وإفاقةُ الناقةِ ساعةَ يَرْجِعُ اللبنُ إلى ضَرْعِها . يقال : أفاقَتِ الناقةُ تُفِيْقُ إفاقَةً رَجَعَتْ واجتمعَتْ الفِيْقَةُ في ضَرْعِها . والفِيْقَةُ : اللبنُ الذي يَجْتمع بين الحَلَبَتين ويُجْمع على أَفْواق . وأمّا أفاوِيْقُ فجمعُ الجمع . ويُقال : ناقة مُفِيْقٌ ومُفِيْقَةٌ . وقيل : فَواق بالفتح : الإفاقة والاستراحة كالجواب من أجاب . قاله مُؤرِّج السدوسيُّ والفراء . ومن المفسِّرين

ابن زيد والسدّي . وأمّا المضمومُ فاسمٌ لا مصدرٌ . والمشهورُ أنهما بمعنىً واحدٍ كقَصاصِ [الشَّعْر] وقُصاصِه وحَمام المكُّوك وحُمامِه .

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16)

(348/660)

قوله : ﴿ قِطَّنَا ﴾ : أي : نصيبَنا وحَظَّنا . وأصلُه مِنْ قَطَّ الشيءَ أي : قطعَه . ومنه قَطَّ القلمَ . والمعنى : قَطْعه مِنْ ما وَعَدْتَنا به ولهذا يُطْلق على الصحيفةِ والصَّكِّ قِطٌّ لأنهما قطعتان تَقْطعان . ويقال للجائزة : أيضاً قِطٌّ لأنَّها قطعة من العَطِيَّةِ . قال الأعشى :

3855 ولا المَلِكُ النعمانُ يومَ لَقِيْتَه . . . بِغِبْطَتِه يُعْطي القُطوطَ ويَأْفِقُ

وأكثرُ استعمالِه في الكتاب . قال أمية :

3856 قومٌ لهمْ ساحَةُ أرضُ العراقِ وما . . . يُجْبَى إليهمْ بها والقِطُّ والقَلَمُ

ويُجمع على قُطوط كما تقدَّم ، وعلى قِطَطَة نحو : قِرْد وقِرَدَة وقُرود . وفي القِلَّة على أَقِطَّة وأَقْطاط / كقَدَح وأَقْدِحة وأَقْداح ، إلاَّ أن أَفْعِلة في فِعْل شاذ .

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17)

قوله : ﴿ دَاوُودَ ﴾ : بدل أو عطف بيانٍ ، أو منصوبٌ بإضمارِ أعني . و " ذا الأيدِ "

نعتٌ له . والأيدُ : القوةُ . يقال : رجلٌ أَيْدٌ وأَيادٌ .

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18)

قوله : ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ : جملةٌ حاليةٌ من " الجبال " . وأتى بها فِعْلاً مضارعاً دونَ اسمِ فاعلٍ فلم يَقُلْ مُسَبِّحات ، دلالةً على التجدُّدِ والحدوثِ شيئاً بعد شيء ، كقولِ الأعشى :

3857 لعَمْري لَقَدْ لاحَتْ عيونٌ كثيرةٌ . . . إلى ضوءِ نارٍ في يَفَاعٍ تُحَرَّقُ

أي : تُحَرَّقُ شيئاً فشيئاً . ولو قال : مُحَرَّقة لم يَدُلَّ على هذا المعنى .

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19)

(349/660)

قوله : ﴿ والطير مَحْشُورَةً ﴾ : العامَّةُ على نَصْبِهما ، عَطَفَ مفعولاً على مفعول وحالاً على حال ، كقولِك : ضربْتُ زيداً مكتوفاً وعمراً مُطْلَقاً . وأتى بالحالِ اسماً لأنه لم يَقْصِدْ أن الفعلَ وقع شيئاً فشيئاً لأنَّ حَشْرَها دُفْعَةً واحدةً أَدَلُّ على القدرة ، والحاشرُ اللَّه تعالى . وقرأ ابن أبي عبلة والجحدريُّ برفعِهما جعلاهما جملةً مستقلةً مِنْ مبتدأ وخبر .

قوله : " كُلٌّ له " أي : كلٌّ من الجبالِ والطيرِ لداودَ . أي : لأجلِ تسبيحِه مُسَبِّح ، فوضَعَ " أوَّاب " موضعَ مُسَبِّح . وقيل : الضمير للباري تعالى ، والمرادُ كلٌّ مِنْ داودَ والجبالِ والطيرِ

مُسَبِّح ورَجَّاع لله تعالى .

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (20)

قوله : ﴿ وَشَدَدْنَا ﴾ : العامَّةُ على تخفيفِ " شَدَدْنا " أي : قَوَّيْنا كقوله : " سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيك " . وابنُ أبي عبلة والحسن " شَدَّدْنا " بالتشديد وهي مبالَغَةٌ لقراءةِ العامَّةِ .

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21)

(350/660)

قوله : ﴿ نَبَأُ الخصم ﴾ : قد تقدَّم أنَّ الخَصْمَ في الأصل مصدرٌ فلذلك يَصْلُحُ للمفردِ والمذكرِ وضِدِّيهما ، وقد يطابِقُ . ومنه : ﴿ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ ﴾ [ص : 22] و ﴿ هذان خَصْمَانِ ﴾ [الحج : 19] . والمرادُ بالخَصْمِ هنا جمعٌ بدليلِ قولِه : " إذ تَسَوَّرُوا " وقوله : " إذ دَخَلُوا " . قال الزَمخشريُّ : " وهو يقعُ للواحدِ والجمعِ كالضَّيْفِ . قال تعالى : ﴿ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين ﴾ [الذاريات : 24] لأنه مصدرٌ في أصله يُقال : خَصَمه يَخْصِمُه خَصْماً كما تقول : ضافه ضَيْفاً . فإنْ قلتَ : هذا جمعٌ وقولُه : " خصمان " تثنيةٌ فكيف استقامَ ذلك ؟ قلت : معنى خصمان : فريقان خَصْمان ، والدليلُ عليه

قراءةُ مَنْ قرأ " [خَصْمَانِ] بغى بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ " ونحوُه قوله تعالى : ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا ﴾ . فإنْ قلتَ : فما تصنعُ بقولِه : ﴿ إِنَّ هَذَآ أَخِي ﴾ وهو دليلٌ على الاثنين ؟ قلت : هذا قولُ البعضِ المراد به : ﴿ بَعْضُنَا على بَعْضٍ ﴾ . فإنْ قلت : فقد جاء في الرواية : أنه بُعِثَ إليه مَلَكان . قلت : معناه أن التحاكمَ بين مَلَكَيْن ، ولا يمنعُ ذلك أَنْ يَصْحَبَهما آخرون . فإن قلت : كيف سَمَّاهم جميعاً خَصْماً في قوله : " نَبَأُ الخَصْمِ " و " خَصْمان " ؟ قلتُ : لَمَّا كان صَحِبَ كلَّ واحدٍ من المتحاكمَيْن في صورةِ الخَصْمِ صَحَّت التسميةُ به " .

(351/660)

قوله : " إذ تَسَوَّروا " في العامل في " إذ " أوجهٌ ، أحدها : أنه معمولٌ للنبأ إذا لم يُرِدْ به القصة . وإليه ذهبَ ابنُ عطيةَ وأبو البقاء ومكي . أي : هل أتاك الخبرُ الواقعُ في وقتِ تَسَوُّرِهم المحرابَ ؟ وقد رَدَّ بعضُهم هذا : بأنَّ النبأ الواقعَ في ذلك الوقتِ لا يَصِحُّ إتيانُه رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وإنْ أريد بالنبأ القصةُ لم يكن ناصباً . قاله الشيخ . الثاني : أنَّ العاملَ فيه " أتاك " ورُدَّ بما رُدَّ به الأولُ . وقد صرَّحَ الزمخشريُّ بالردِّ على هذين الوجهين ، فقال : " فإنْ قلتَ بم انتصبَ " إذ " ؟ قلت : لا يَخْلوا إمَّا أَنْ ينتصِبَ ب " أتاك " أو بالنبأ أو

بمحذوفٍ . فلا يَسُوغ انتصابُه ب " أتاك " لأنَّ إتيانَ النبأ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لا يقعُ إلاَّ في عهدِه لا في عهدِ دوادَ ، ولا بالنبأ ؛ لأنَّ النبأ واقِعٌ في عهدِ داودَ فلا يَصِحُّ إتيانُه رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم . وإن أَرَدْتَ بالنبأ القصةَ في نفسِها لم يكنْ ناصباً ، فبقي أَنْ يكونَ منصوباً بمحذوف ، وتقديره : وهل أتاك نبأُ تحاكُمِ الخَصْمِ إذ ، فاختار أن يكونَ معمولاً لمحذوفٍ . الرابع : أَنْ ينتصِبَ بالخصْمِ لما فيه من معنى الفعلِ .

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22)

(352/660)

قوله : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه بدل مِنْ " إذ " الأولى . الثاني : أَنَّه منصوبٌ ب " تَسَوَّرُوا " ومعنى تَسَوَّروا : عَلَوْا / أعلى السُّورِ ، وهو الحائطُ ، غيرُ مهموزٍ كقولك : تَسَنَّم البعيرَ أي : بَلَغَ سَنامَه . والضميرُ في " تَسَوَّروا " و " دخلوا " راجعٌ على الخصم لأنه جمعٌ في المعنى على ما تقدَّم ، أو على أَنَّه مثنى ، والمثنى جمعٌ في المعنى ، وقد مضى الخلافُ في هذا محققاً .

قوله : " خَصْمان " خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : نحن خَصْمان ؛ ولذلك جاء بقولِه : " بَعْضُنا " .

ومَنْ قرأ " بعضهم " بالغَيْبة يُجوّز أن يُقدّره كذلك ، ويكون قد راعى لفظَ " خَصْمان " ، ويُجوّز أنْ يُقدّرَ هم خصمان ليتطابَقَ . ورُوِي عن الكسائي " خِصْمان " بكسر الخاء . وقد تقدّم أنه قرأها كذلك في الحج .

قوله : " بَغَى بَعْضُنا " جملةٌ يجوز أَنْ تكون مُفَسِّرةً لحالِهم ، وأن تكونَ خبراً ثانياً .

قوله : " ولا تُشْطِطْ " العامَّةُ على ضَمِّ التاء وسكونِ الشينِ وكسرِ الطاءِ الأولى مِنْ أشْطَطَ يُشْطِطُ إشْطاطاً إذا تجاوز الحقَّ . قال أبو عبيدة : " شَطَطْتُ في الحُكْمِ ؛ وأَشْطَطْتُ فيه ، إذا جُرْتُ " فهو ممَّا اتفق فيه فَعَل وأَفْعَل ، وإنما فَكَّه على أحدِ الجائزَيْن كقولِه : " مَنْ يَرْتَدِدْ " وقد تقدَّم تحقيقُه . وقرأ الحسن وأبو رجاء وابنُ أبي عبلة " تَشْطُط " بفتح التاءِ وضَمِّ الطاءِ مِنْ شَطَّ بمعنى أشَطَّ كما تقدَّم . وقرأ قتادة " تُشِطَّ " مِنْ أشطَّ رباعياً ، إلاَّ أنه أدغم وهو أحد الجائزَيْن كقراءة مَنْ قرأ ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ ﴾ ، وعنه أيضاً " تُشَطِّطْ " بفتح الشين وكسرِ الطاءِ مُشَدَّدةً شَطَّطَ يُشَطِّطُ . والتثقيل فيه للتكثيرِ . وقرأ زر بن حبيش " تُشاطِطْ " من المفاعلة .

(353/660)

إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23)

قوله: ﴿ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ ﴾: العامَّةُ على كسر التاءِ، وهي اللغةُ الفاشيةُ. وزيد بن علي والحسن بفتحها فيهما، وهي لُغَيَّةٌ. وقرأ العامَّةُ "نَعْجة" بفتح النون، والحسن وابن هرمز بكسرها. قيل: وهي لغةٌ لبعضِ بني تميمٍ. وكَثُرَ في كلامِهم الكنايةُ بها عن المرأةِ قال ابنُ عَوْنٍ:

3858 أنا أُبوْهُنَّ ثلاثٌ هُنَّهْ . . . رابِعَةٌ في البيتِ صُغْراهُنَّهْ . . . ونَعْجتي خَمْساً تُوَفِّيْهِنَّهْ . . . وقال آخر:

3859 هما نَعْجَتانِ مِنْ نِعاجِ تَبالَةٍ . . . لَدى جُؤْذُرَيْنِ أو كبعضِ دُمَى هَكِرْ

وقوله: "وعَزَّني" أي: غَلَبني. قال الشاعر:

3860 قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ . . . تُجاذِبُهُ وقد عَلِقَ الجَناحُ

يقال: عَزَّهُ يَعُزُّه بضمِّ العينِ وتقدَّم تحقيقُه في سورة يس. وقرأ طلحة وأبو حيوة "وَعَزَنِي" بالتخفيف. قال ابن جني: "حَذْفُ الزاي الواحدةِ تخفيفاً. كما قال:

3861 . . . . . أَحَسْنَ به فهنَّ إليه شُوْسُ

يريد: أَحْسَسْنَ"، فحذف. وتُرْوَى هذه قراءةً عن عاصم. وقرأ عبد الله والحسن وأبو

وائل ومسروق والضحاك " وعازَّني " بألفٍ مع تشديد الزاي ، أي : غالبني .

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24)

(354/660)

قوله : ﴿ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ : مصدرٌ مضافٌ لمفعولِه ، والفاعلُ محذوفٌ أي : بأَنْ سَأَلك نعجَتك ، وضُمِّنَ السؤالُ معنى الإِضافةِ والانضمامِ أي : بإضافةِ نعجتِك على سبيل السؤال ، ولذلك عُدّي ب إلى .

قوله : " لَيَبْغي " العامَّةُ على سكونِ الياءِ وهو مضارعٌ مرفوعٌ في محلِّ الخبرِ ل " إنَّ " وقُرِئ " لَيَبْغيَ " بفتح ياءِه . ووُجِّهَتْ : بأن الأصلَ : لَيَبْغِيَنْ بنونِ التوكيد الخفيفة والفعل جواب قسم مقدر ، والقسم المقدر وجوابه خبر إنَّ تقديره : وإن كثيراً من الخلطاء والله ليبغين ، فحُذِفَت كما حُذِفَ في قوله :

3862 اضْرِبَ عَنْك الهمومَ طارِقَها . . . . . .

. . . . . .

وقُرِئ "أَلَمْ نَشْرَحَ" بالفتح وقوله :

3863 مِنْ يومِ لَمْ يُقْدَرَ أو يومَ قُدِرْ . . . بفتح الراء . وقُرِئَ "لَيَبْغِ" بحَذْف الياء . قال الزمخشري : "اكتفى منها بالكسرة" وقال الشيخ : "كقوله :

3864 محمدُ تَفِدْ نفسَك كلُّ نَفْسٍ . . . . . .

. . . . . .

يريد "تَفْدِي" على أحدِ القولين "يعني : أنه حذفَ الياءَ اكتفاءً عنها بالكسرةِ . والقول الثاني : أنه مجزومٌ بلامِ الأمرِ المقدرةِ . وقد تقدَّم هذا في سورة إبراهيم عليه السلام ، إلاَّ أنَّه لا يتأتَّى هنا لأنَّ اللامَ مفتوحةٌ .

قوله : ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ استثناءٌ متصلٌ مِنْ قولِه : "بعضهم" وقوله : "وقليلٌ" خبرٌ مقدمٌ و "ما" مزيدةٌ للتعظيم . و "هم" مبتدأ .

قوله : "فَتَنَّاه" بالتخفيفِ . وإسنادُه إلى ضميرِ المتكلمِ المعظِّم نفسَه قراءةُ العامَّةِ . وعمرُ بن الخطاب والحسن وأبو رجاء "فَتَّنَّاه" بتشديد / التاء وهي مبالغةٌ . وقرأ الضحاك "أفتنَّاه" يُقال : فَتَنَه وأَفْتَنَه أي : حَمَله على الفتنةِ . ومنه قولُه :

3865 لَئِنْ فَتَنَتْنِي لَهْيَ بِالأَمْسِ أَفْتَنَتْ . . . . . .

. . . . .

وقرأ قتادةُ وأبو عمرو في روايةٍ " فَتَناه " بالتخفيف . و " فتَّناه " بالتشديد والألفُ ضميرُ الخصمين . و " راكِعاً " حالٌ مقدرةٌ ، قاله أبو البقاء . وفيه نظرٌ لظهورِ المقارنة .

فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (25)

قوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ : الظاهرُ أنَّه مفعولُ " غَفَرْنا " . وجَوَّز أبو البقاءِ أَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي : الأمرُ ذلك وأيُّ حاجةٍ إلى هكذا ؟

يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26)

قوله : ﴿ فَيُضِلَّكَ ﴾ : فيه وجهان ، أظهرُهما : أنه منصوبٌ في جوابِ النهي . والثاني : أنه عطفٌ على " لا تَتَّبِعْ " فهو مجزومٌ ، وإنما فُتِحَتْ اللامُ لالتقاء الساكنين ، وهو نهيٌ عن كل واحدٍ على حِدَتِه ، والأولُ فيه النهيُ عن الجمع بينهما . وقد يَترَجَّح الثاني لهذا المعنى . وقد تقدَّم تقريرُ ذلك في البقرة في قوله : ﴿ وَتَكْتُمُواْ الحق ﴾ [البقرة : 42] . وفاعل " فَيُضِلَّك " يجوز أَنْ يكونَ " الهوى " ويجوز أَنْ يكونَ ضميرَ المصدرِ المفهوم من الفعل أي : فيُضِلَّك اتِّباعُ الهوى . والعامَّةُ على فتحِ " يَضِلُّون " ، وقرأ ابنُ عباس والحسن وأبو حيوة "

يُضِلُّون " بالضمِّ أي : يُضِلُّون الناسَ ، وهي مُسْتَلْزِمَةٌ للقراءةِ الأولى ، فإنه لا يُضِلُّ غيرَه إلاَّ ضالٌّ بخلافِ العكسِ .

(356/660)

قوله : " بما نَسُوا " " ما " مصدريَّةٌ . والجارُّ يتعلَّقُ بالاستقرار الذي تضمنَّه " لهم " . و " لهم عذابٌ " يجوز أَنْ تكونَ جملةً خبراً ل " إنَّ " ، ويجوز أَنْ يكونَ الخبرُ وحدَه الجارَّ . و " عذابٌ " فاعلٌ به وهو الأحسنُ لقُرْبِه من المفرد .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27)

قوله : ﴿ بَاطِلاً ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ ، أو حالاً مِنْ ضميرِه أي : خَلْقاً باطلاً ، ويجوز أَنْ يكونَ حالاً مِنْ فاعل " خَلَقْنا " أي : مُبْطِلين أو ذوي باطلٍ . ويجوز أَنْ يكونَ مفعولاً مِنْ أجلِه . أي : للباطل وهو العَبَثُ . و " أم " في الموضعَيْن منقطعةٌ وقد عَرَفْتَ ما فيها .

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)

قوله : ﴿ كِتَابٌ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي : هذا كتابٌ و " أَنْزَلْناه " صفةٌ و

" مباركٌ " خبرُ مبتدأ مضمرٍ أو خبرٌ ثانٍ ، ولا يجوزُ أَنْ يكونَ نعتاً ثانياً ، لأَنَّه لا يتقدَّمُ عند الجمهورِ غيرُ الصريحِ على الصريحِ . ومَنْ يرى ذلك استدلَّ بظاهِرِها ، وقد تقدَّم هذا محرَّراً في المائدة .

و" لِيَدَّبَّروا " متعلقٌ ب " أَنْزَلْناه " . وقُرِئ " مباركاً " على الحالِ اللازمةِ ؛ لأَنَّ البركةَ لا تفارِقُه . وقرأ علي رضي الله عنه " لِيَتَدَبَّروا " وهي أصلُ قراءةِ العامَّةِ فأُدْغِمَتْ التاءُ في الدالِ . وأبو جعفر – ورُوِيَتْ عن عاصم والكسائي – " لِتَدَّبَّروا " بتاءِ الخطاب وتخفيفِ الدالِ . وأصلُها لِتَتَدَبَّروا بتاءَيْن فحُذِفَتْ إحداهما . وفيها الخلافُ المشهورُ : هل هي الأُوْلى أو الثانية ؟

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30)

(357/660)

قوله : ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ : مخصوصُها محذوفٌ أي : نِعْمَ العبدُ سليمانُ . وقيل : داودُ . والأولُ أظهرُ لأنه هو المَسُوْقُ للحديثِ عنه . وقُرِئ بكسرِ العين ، وهي الأصلُ كقولِه :

3866 . . . . . .

نَعِمَ السَّاعونَ في القومِ الشُّطُرْ

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (31)

قوله : ﴿ إِذْ عُرِضَ ﴾ : في ناصبه أوجهٌ ، أحدها : نِعْم ، وهو أضعَفُها لأنه لا يَتَقَيَّدُ مَدْحُه بوقتٍ ، ولعدمِ تَصَرُّفِ نِعْمَ . والثاني : " أوَّاب " وفيه تقييدُ وَصْفِه بذلك بهذا الوقت . والثالث : اذكرْ مقدراً وهو أَسْلَمُها و " الصَّافِناتُ " جمعُ صافنٍ . وفيه خلافٌ بين أهلِ اللغةِ . فقال الزجَّاجُ : هو الذي يقفُ على إحدى يديْه ويَقِفُ على طَرَفِ سُنْبُكه ، وقد يفعل ذلك بإحدى رجلَيْه . قال : " وهي علامةُ الفَراهةِ فيه ، وأنشد :

3867 أَلِفَ الصُّفُوْنَ فما يَزال كأَنَّه . . . مِمَّا يقومُ على الثلاثِ كَسِيْرا

وقيل : هو الذي يَجْمَعُ يديه ويُسَوِّيهما . وأمَّا الذي يقفُ على سُنْبُكِه فاسمُه المُخِيْم قاله أبو عبيد . وقيل : هو القائمُ مطلقاً ، أي : سواءً كان من الخيل أم مِنْ غيرها قاله القُتَبِيُّ ، واستدلَّ بالحديث وهو قوله عليه السلام : " مَنْ سَرَّهُ أَنْ يقومَ الناسُ له صُفُوناً فَلْيتبوَّأْ مقعدَه من النار " أي : يُديمون له القيام . وحكاه قطرب أيضاً . وقيل : هو القيامُ مطلقاً سواءً وقفتَ على طَرَف سُنْبك أم لا . قال الفراء : " على هذا رأيتُ أشعارَ العرب " . انتهى

وقال النابغة : /

3868 لنا قُبَّةٌ مَضْروبة بِفِنائها . . . عِتاقُ المَهارى والجياد الصَّوافِنُ

والجِيادُ : إمَّا من الجَوْدَةِ يقال : جاد الفَرَسُ يجودُ جَوْدة وجُوْدة بالفتح والضم فهو جَوادٌ للذكر والأنثى ، والجمع : جِيادٌ وأَجْواد وأجاويد وقيل : جمع ل جَوْد بالفتح كثَوْب وثِياب . وقيل : جمع جَيِّد . وإما من الجِيْد وهو العُنُق والمعنى : طويلة الأجياد ، وهو دالٌّ على فَراهتِها

.

فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (32)

قوله : ﴿ حُبَّ الخير ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : هو مفعولُ " أَحْبَبْت " لأنه بمعنى آثَرْتُ ، و " عَنْ " على هذا بمعنى على ، أي : على ذِكْر ربي ؛ لأنه يُرْوَى في التفسيرِ – واللَّهُ أعلم – أنه عَرَضَ الخيلَ حتى شَغَلَتْه عن صلاة العصرِ أولَ الوقتِ حتى غَرَبَتِ الشمسُ . وقال الشيخ : " وكأنه منقولٌ عن الفراء أنه ضَمَّن أَحْبَبْتُ معنى آثَرْتُ حتى نصبَ " حُبَّ الخير " مفعولاً به . وفيه نظرٌ ؛ لأنه متعدٍّ بنفسه ، وإنما يَحتاج إلى التضمين إنْ لو لم يكنْ متعدِّياً . الثاني : أنَّ " حُبَّ " مصدرٌ على حَذْفِ الزوائد . والناصبُ له " أَحببتُ " . الثالث : أنه مصدرٌ تشبيهيٌّ أي : حُباً مثلَ حُبِّ الخير . الرابع : أنه قيل : ضُمِّن معنى أَنَبْتُ ، فلذلك تَعَدَّى ب " عن " . الخامس : أنَّ " أَحْبَبْتُ " بمعنى لَزِمْتُ . السادس : أنَّ " أَحْبَبْتُ " مِنْ أَحَبَّ البعيرُ إذا سَقَطَ وبَرَكَ من الإِعْياء . والمعنى : قَعَدْتُ عن ذِكْر ربي ، فيكون " حُبَّ الخيرِ " على هذا مفعولاً مِنْ أجله .

قوله : " حتى تَوارَتْ " في الفاعل وجهان ، أحدهما : هو " الصافنات " والمعنى : حتى دخلَتْ اصْطَبْلاتِها فتوارَتْ وغابَتْ . والثاني : أنه للشمس أُضْمِرَتْ لدلالة السِّياق عليها . وقيل : لدلالةِ العَشِيِّ عليها فإنها تشعر بها . وقيل : يدل عليها الإِشراق في قصة داود . وما أبعده .

(359/660)

وقوله : " ذِكْرِ ربي " يجوز أَنْ يكونَ مضافاً للمفعول أي : عن أَنْ أذكر ربي ، وأَنْ يكونَ مضافاً للفاعل أي : عَنْ أَنْ ذَكرني ربي . وضميرُ المفعولِ في " رُدُّوها " للصافناتِ . وقيل : للشمس ، وهو غريبٌ جداً .

رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (33)

قوله : ﴿ مَسْحاً ﴾ : منصوبٌ بفعلٍ مقدر ، وهو خبر " طَفِق " أي : فَطَفِق يَمْسَح مَسْحاً ؛ لأنَّ خبرَ هذه الأفعالِ لا يكونُ إلاَّ مضارعاً في الأمر العام . وقال أبو البقاء وبه بَدأ : " مصدرٌ في موضعِ الحالِ " . وهذا ليس بشيء لأنَّ " طَفِقَ " لا بُدَّ لها مِنْ خبر .

وقرأ زيد بن علي : " مِساحاً " بزنةِ قِتال . والباءُ في " بالسُّوْق " مزيدةٌ ، مِثْلُها في قولِه : ﴿ وامسحوا بِرُؤُوسِكُمْ ﴾ [المائدة : 6] . وحكى سيبويه " مَسَحْتُ رأسَه وبرأسِه "

بمعنًى واحدٍ . ويجوز أن تكونَ للإلصاق كما تقدَّم تقريرُه . وتقدَّم هَمْزُ السُّؤْق وعدمُه في النمل . وجعل الفارسي الهمزَ ضعيفاً . وليس كما قال ؛ لِما تقدَم من الأدلة . وقرأ زيد بن عليّ " بالساق " مفرداً اكتفاءً بالواحدِ لعَدمِ اللَّبْسِ كقولِه :

3869 . . . . . .

. . . . . وأمَّا جِلْدُها

فصَلِيْبُ

وقولِه :

3870 كلُوا في بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا . . . . . .

. . . . . .

وقولِه :

3871 . . . . . .

. . . . . في حَلْقِكم عَظْمٌ وقد شَجيْنا

وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : بمَ اتَّصلَ قولُه : " رُدُّوها عليَّ " ؟ قلت : بمحذوفٍ تقديرُه قال : " رُدُّوها " فأضمر ، وأضمر ما هو جوابٌ له . كأنَّ قائلاً قال : فماذا قال سليمان ؟ لأنه موضعٌ مُقتَضٍ للسؤالِ اقتضاءً ظاهراً " . قال الشيخ : " وهذا لا يُحتاجُ إليه ؛ لأنَّ هذه الجملةَ مُنْدَرِجَةٌ تحت حكايةِ القولِ وهو : ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ ﴾ .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34)

قوله : ﴿ جَسَداً ﴾ : فيه وجهان : أظهرُهما : أنه مفعولٌ به لأَلْقَيْنا . وفي التفسيرِ : أنه شِقُّ وَلَدٍ . والثاني : أنه حالٌ وصاحبُها : إمَّا سليمانُ ؛ لأنه يُرْوى أنه مَرِضَ حتى صار كالجسد الذي لا رُوْحَ فيه ، وإمَّا وَلَدُه . قالهما أبو البقاء : ولكنْ جسدٌ جامدٌ ، فلا بُدَّ مِنْ تأويله بمشتقٍّ ، أي : ضعيفاً أو فارغاً .

فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36)

قوله : ﴿ تَجْرِي ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ مُفَسِّرةً لقولِه : " سَخَّرْنا " ، وأَنْ تكونَ حالاً من الريح . والعامَّةُ على توحيد الريح ، والمعنى على الجمعِ . وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو جعفر وقتادة " الرياح " و " رُخاءً " حالٌ مِنْ فاعل " تَجْري " . والرُّخاءُ : اللِّيِّنَةُ مشتقةٌ من الرَّخاوة . ومعنى ذلك الطواعيةُ لأَمْرِه .

قوله : " حيث " ظرفٌ لـ " تَجْري " أول " سَخَّرْنا " . و " أصاب " : أراد بلغةِ حِمْير . وقيل : بلغة هَجَر . وعن [رجلين مِنْ أهل اللغة] أنهما خرجا يَقْصِدان رؤبة ليسألاه عن

هذا الحرف . فقال لهما : أين تُصيبان ؟ فعَرفاها وقالا : هذه بُغْيَتُنا . وأنشد الثعلبي على ذلك :

3872 أصابَ الجوابَ فلمْ يَسْتَطِعْ . . . فأخْطا الجوابَ لدى المِفْصَلِ

(361/660)

/ أي : أراد الجوابَ . ويُقال : " أَصاب اللَّهُ بك خيراً " أي : أرده بك . وقيل : الهمزةُ في " أصاب " للتعديةِ مِنْ صابَ يَصُوْبُ أي : نَزَلَ ، والمفعولُ محذوفٌ أي : أصاب جنودَه أي : حيث وجَّههم وجعلهم يصُوْبون صَوْبَ المطرِ .

وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37)

قوله : ﴿ والشياطين ﴾ : نَسَقٌ على " الريحَ " . و " كلَّ بنَّاءٍ " بدلٌ من " الشياطين " ، وأتى بصيغةِ المبالغةِ لأنَّه في مَعْرِضِ الامتنانِ . و " آخرين " عطفٌ على " كلَّ " فهو داخِلٌ في حكمِ البدلِ . وتقدَّم شَرْحُ ﴿ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصفاد ﴾ [إبراهيم : 49] في آخرِ سورة إبراهيم .

هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (39)

قوله : ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه متعلقٌ ب " عَطاؤُنا " أي :

أَعْطيناك بغَير حِسابٍ ولا تقديرٍ ، وهو دلالةٌ على كثرةِ الإعطاء . الثاني : أنه حالٌ مِنْ " عَطاؤنا " أي : في حال كونِه غيرَ محاسَبٍ عليه لأنه جَمٌّ كثيرٌ يَعْسُر على الحُسَّاب ضَبْطُه . الثالث : أنه متعلقٌ ب " امْنُنْ " أو " أمسِكْ " ، ويجوز أَنْ يكونَ حالاً مِنْ فاعلهما أي غيرَ محاسَب عليه .

وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (40)

قوله : ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ : العامَّةُ على نصبِه نسقاً على اسم " إنَّ " وهو " لَزُلْفَى " . وقرأ الحسن وابن أبي عبلة برَفعِه على الابتداءِ ، وخبرُه مُضْمَرٌ لدلالةِ ما تقدَّمَ عليه ويَقِفان على " لَزُلْفَى " ويَبتَدِئان ب " حُسْنُ مآب " أي : وحُسْنُ مآب له أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 343.380 ﴾

(362/660)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى صوب)

صاب المَطَرُ بمكان كذا ، وصاب أَرضَهم يَصُوبها ، كقولك : مَطَرها وجادها .

وسقاهم صَوْبُ السّماءِ وصيِّبُها ، قال تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ .

وسحابٌ صَيِّب ، وغَيْث صيِّب .

وأَصابته مُصيبة ، ومُصَاب ، و مصيبات ومصائب ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ .

وسهم صائب ومُصيب .

وصاب السّهمُ نحو الرّمِيَّة وهو يَصُوب نحوَه .

وَرَمى فأَصاب .

وأَصاب فى رأيه .

ورأىٌ مصيب وصائب .

وأَصاب الصّواب ، وصوّبت رأيه .

وقال تعالى : ﴿ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ .

والصّواب يقال على وجهين : أَحدهما باعتبار الشىء فى نفسه ، يقال : هذا صواب : إِذا كان محمودًا أَو مرضيّا فى العقل والشرع ؛ نحو قوله : تحرِّى العدلِ صوابٌ ، (والكرَم صواب) .

الثانى باعتبار الفاعلِ إِذا أَدرك المقصود بحسب ما يقصده ، فيقال : أَصاب كذا ، أَى وجد ما طلب ، (كقولك : أَصابه بالسهم) وذلك على أَضرب :

الأَوّل : أَن يقصد ما يَحسن قصدُه وفعله فيفعلَه ، وذلك هو الصّواب التَّامّ المحمود عليه .

والثانى : أَن يقصد ما يحسن فعله فيتأَتَّى منه غيره ؛ لتقديره بعد بذل جهده أَنه صواب .

وذلك هو المراد بما يُرْوَى : كلُّ مجتهد مصيب .

ومنه : مَن اجتهد فأَصاب فله أَجران ، وإِن أَخطأَ فله أَجر .

والثالث : أَن يقصد صوابا فيتأَتَّى منه خطأ لعارض (من خارج) ؛ نحو من يقصد رَمْى صيدٍ فأَصاب إِنسانًا ، فهذا معذور .

وَالرَّابع : أَن يقصد ما يقبح فعله ، ولكن يقع منه خلاف ما يقصده ، فيقال : أَخطأَ فى قصده فأَصاب الذى قصده ، (أَى وجده) .

والصَوْب : الإِصابة ، يقال : صابَه وأَصابَه .

وجُعل الصَوْب لنزول المطر إِذا كان بقدر ما ينفع ، وإِلى هذا القدر من المطر أَشار تعالى بقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ ﴾ .

قال الشاعر :

*فَسَقَى دِيارِكِ غيرَ مُفسِدِها * صَوْبُ الرّبيع وديمةٌ تَهْمِى*

(363/660)

وقيل : الصَيَب : السّحاب المختصّ بالصَوْب ، وهو فَيْعِل من صاب يَصُوب ، وقيل : هو السّحاب .

قيل : هو المطر ، وقيل : هو الغيم ذو المطر .

وأَصله صَيْوب فأبدل وأدغم .

وقال ابن دريد : أَصله صَوِيب ، على فَعِيل .

وقوله صلَّى الله عليه وسلَّم : "من يُرِدِ الله بهُ خيرًا يُصِب منه" ، أَى من أَراد به خيرًا ابتلاه بالمصائب لِيُثِيبَهُ عليها .

يقال : مصيبة ومُصَابة .

وقد أَجمعت العرب على همز المصائب وأَصلها الواو ، كأَنَّهم شبّهوا الأَصل بالزائد .

ويجمع أَيضًا على مَصاوِب على الأَصل .

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ .

وأَصاب جاءَ فى الخير والشرّ ، قال تعالى : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ .

وقال بعضهم : الإِصابة فى الخير اعتبارًا بالصَوْب ، أَى المطر ، وفى الشرّ اعتبارًا بإِصابة السّهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 447 . 449 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) ﴾

﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ لأنه كان أَوَّاباً إلى الله ، راجعاً إليه في جميع الأحوال ؛ في النعمة بالشكر ، وفي المحنة بالصبر .

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (31)

﴿ الصَّافِنَاتُ ﴾ جمع صافنة وهي القائمة ، وفي التفاسير هي التي تقوم على ثلاث قوائم ؛ إذ ترفع إحدى اليدين عل سُنْبُكِها . وجاء في التفاسير أن سليمان كان قد غَزَا أهلَ دمشق ، وأصابَها منهم ، وقيل وَرِثَهَا عن أبيه داود وكان قد أصابها من العمالقة ، وقيل كانت خيلاً لها أجنحة خرجت من البحر .

وفي بعض التفاسير عُرِضَ عليه عشرون ألف فرسٍ فَشَغَلَتْه عن بعض أذكاره لله .

﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ : في آخر النهار ، وقيل كان ذلك صلاة العصر .

فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (32)

أي لَصقْتُ بالأرض لحُبِّ المال . ويقال لَمَّا سَبَّلَ هذه الأفراس عَوَّضَه الله – سبحانه – بأن سَخَّرَ له الريح ، وهذا أبلغ ، وكلُّ مَنْ تَرَكَ شيئاً لله لم يخسر على الله .

رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (33)

قيل أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها بعد لها بعد أن فَرَغَ من صلاته .

وقيل عَرْقَبَها (ليذبحها فَحَبَسَها بالعرقبة عن النفار) ، وقيل وَضَعَ عليها الكيَّ فَسَبَّلَها ، وإيش ما كان فكلُّ ذلك كان جائزاً في شرعه .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (34)

(365/660)

اختلف الناسُ في هذه الفتنة ؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة فقال : " لأَطوفَنَّ على هؤلاء فيولد من كل واحدةٍ منهن غلام يقاتل في سبيل الله " ولم يَقُلْ إن شاء الله ، ولم تَحْمِلْ إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشق مولود ، فألقته على كرسيِّه ، فاستغفر ربه من تَرْكِ الاستثناء ، وكان ذلك ترك ما هو الأَوْلَى .

وقيل كان له ابن ، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه ، فَهَمُّوا بقَتْلِه ، فاستودعه الريح في الهواء لئلا تصل إليه الشياطين ، فمات الولد ، وألفته الريح على كرسيه ميتاً .

فالفتنة كانت في خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء ، وكان الأَوْلَى به التوكل وتَرْكَ الاستعانة بالريح .

وقيل في التفاسير : إنه تزوج بامرأة كانت زوجة مَلِكٍ قهره سليمان ، وسَبَاها ، فقالت له : إن أَذِنْتُ لي أَنْ اتَّخِذَ تمثالاً على صورةِ لأبي لأتسلَّى بنظري إليه ؟ فأَذِنَ لها ، فكانت (تعظمه وتسجد له مع جواريها أربعين يوماً) ، وكانت تعبده سِرّاً ، فعوقب عليه .

وقيل كان سبب بلائه أن امرأة كانت مِنْ أَحَبِّ نسائه إليه ، وكان إذا أراد دخول الخلاء نَزَعَ خاتمه ودَفَعَه إليها ، وهي على باب الخلاء ، فإذا خَرَجَ استردَّه . وجاء يوماً شيطانٌ يُقَال له " صخر " على صورة سليمان وقال لامرأته : ادفعي إليَّ الخاتم فدفعته ، ولبسه ، وقعد على كرسيه ، يُمَشِّي أمورَه –إلا التصرفَ في نسائه– فقد منعه اللَّهُ عن ذلك . فلمَّا خرج سليمانُ طَالَبَ المرأة بالخاتم ، فقالت : الساعةَ دَفَعْتُه إليك . فظَنَّ أنه فُتِنَ ، وكان إذا أخبر الناسَ أنه سليمان لا يُصَدِّقُونه ، فخرج (هارباً إلى ساحل البحر) ، وأصابته شدائد ، وحمل سَمَكَ الصيادين بأجرةٍ حتى يجدَ قُوتاً .

(366/660)

ولما اتهم (بنو إسرائيل) الشيطانَ (واستنكروا حُكْمَه) نشروا التوراة بين يديه ففرَّ ورمى بالخاتم في البحر ، وطار في الهواء . ولَمَّا أَذِنَ اللَّهُ رَدَّ مُلْكَ سليمان إليه ، ابتلعت سمكةٌ خاتمه ، ووقعت في حبال الصيادين ، ودفعوها إلى سليمان في أجرته ، فلمَّا شقَّ بَطْنَهَا

ورأى خاتَمه لبسه ، وسَجَدَ له الملاحون ، وعاد إلى سرير مُلْكَه .

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35)

أي مُلْكاً لا يسلبه أحدٌ مني هذا كما سُلِبَ مني في هذه المرة .

وقيل أراد انفراده به ليكونَ معجزةً له على قومه .

وقيل أراد أنه لا ينبغي لأحدٍ من بعدي أن يسأل المُلْكَ ، بل يجب أن يَكِلَ أمرَه إلى الله في اختياره له .

ويقال لم يقصد الأنبياء ، ولكن قال لا ينبغي من بعدي لأحدٍ من الملوك .

وإنما سأل المُلْكَ لسياسة الناس ، وإنصافِ بعضهم من بعض ، والقيام بحقِّ الله ، ولم يسأله لأَجْلِ مَيْلِه إلى الدنيا . . . وهو كقول يوسف : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : 55] .

ويقال لم يطلب المُلْكَ الظاهرَ ، وإنما أراد به أن يَمْلِكَ نَفْسَه ، فإن المَلِكَ –على الحقيقة– مَنْ يَمْلِكَ نَفْسَه ، ومَنْ مَلَكَ نَفْسَه لم يَتَّبِعْ هواه .

ويقال أراد به كمالَ حالِه في شهود ربِّه حتى لا يَرَى معه غيرَه .

ويقال سأل القناعةَ التي لا يبقى معها اختيار .

ويقال علم أن سِرَّ نبيِّنا – صلى الله عليه وسلم – ألا يلاحِظَ الدنيا ولا ملكَها فقال : ﴿ لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ [ص : 35] لا لأنه بَخِلَ به على نبيِّنا صلى الله عليه وسلم

ولكن لِعِلْمِه أنه لا ينظر إلى ذلك .

فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36)

(367/660)

شكَرَ اللَّهُ سَعْيَه ، وسَخَّرَ له الريحَ بَدَلاً من الأفراس ؛ فلا يحتاج في إمساكها إلى العَلَفِ والمُؤَنِ .

وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37)

كما سخَّرنا له الشياطين .

ثم قال : ﴿ هَذَا عَطَآؤُنَا . . . ﴾ أي فأَعْطِ أَو أَمْسِكْ ، واحفظْ وليس عليك حساب .

والمشيُ في الهواء للأَولياء ، وقَطْعُ المسافاتِ البعيدة في مدة يسيرة مما يعلم وجوده قطعاً في الأمه – وإنْ لم يعلمه الأفراد والآحاد على التعيين . وإظهاره على خَدَمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم لشرفه يَدُلُّ على أن مقامه – صلى الله عليه وسلم – أشرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 253 . 257 ﴾

(368/660)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) ﴾

التفسير : عن ابن عباس أن ﴿ ص ﴾ بحر عليه عرش الرحمن . وعن سعيد بن جبير : بحر يحيي الله به الموتى بين النفختين . وقيل : صدق محمد صلى الله عليه وسلم في كل ما أخبر به عن الله .

(369/660)

وقيل : صدّ الكفار عن قبول هذا الدين . وقيل : صدّ محمد صلى الله عليه وسلم قلوب العباد . وقيل : هو من المصاداة المعارضة ومنه الصدى وهو ما يعارض الصوت في الجبال يؤيده قراءة من قرأ ﴿ ص ﴾ بالكسر ، معناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه . والذكر الشرف والشهرة أو الموعظة ، وجواب القسم محذوف كأنه قيل : إنه المعجز وإن إلهكم لواحد . ويجوز إن كان ﴿ ص ﴾ اسم السورة أن يراد هذه ص ، والقرآن يعني هذه السورة هي التي أعجزت العرب بحق القرآن كما تخبر عن هذا حاتم والله

، تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله . ثم بين أن الكفار في استكبار عن الإذعان للحق وفي مخالفة الله ورسوله . ومعنى " بل " ترك كلام والأخذ في كلام آخر . ولئن سلم أنه للمغايرة الكلية فالكلام الأول هو كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقاً في تبليغ الرسالة ، أو كون القرآن ، أو هذه السورة معجزاً ، والحكم المذكور بد " بل " هو المعازة والمشاقة في كونه كذلك فحصل المطلوب . ثم خوف الكفار بقوله ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات ﴾ أي رفعوا اصواتهم بالدعاء والاستغاثة لأن نداء من نزل به العذاب لا يكون إلا كذلك . وعن الحسن : فنادوا بالتوبة كقوله ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا ﴾ ولهذا قال ﴿ ولات حين مناص ﴾ أي لم يكن ذلك الوقت وقت فرار من العذاب أو حين نداء ينجي . قال سيبويه والخليل : التاء في " لات " زائدة مثلها في " ربت " و " ثمت " وهي المشبهة بليس ، وقد تغير حكمها بزيادة التاء حيث لا تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا اسمها أو خبرها وتقدير الآية : ليس الحين حين مناص . ولو رفع لكان تقديره وليس حين مناص حاصلاً لهم . وقال الأخفش : إنها " لا " النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفي الأحيان كأنه قيل : اصل " لات " ليس قلبت الياء ألفاً والسين تاء . وقيل : التاء قد تلحق بحين كقوله :

العاطفون تحين ما من عاطف . . . والمطعمون زمان ما من مطعم

وإلى هذا ذهب أبو عبيدة . وتأكد هذا الرأي عنده حين رأى التاء في المصحف متصلاً بحين . وضعف بعد تسليم أنه في الإمام كذلك بأن خط المصحف غير مقيس عليه . أما الوقف على ﴿ لات ﴾ فعند الكوفيين بالهاء قياساً على الأسماء ، وعند البصريين بالتاء قياساً على الأفعال . والمناص مصدر ناص ينوص إذا هرب ونجا أو فات . قال ابن عباس : لما نزل بهم العذاب ببدر قالوا : مناص أي اهربوا وخذوا حذركم فأنزل الله ﴿ ولات حين مناص ﴾ . ثم حكى شر صنيعهم وسوء مقالتهم في حق النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ أي من جنس البشر .

(371/660)

ثم سجل عليهم بالكفر بوضع الظاهر موضع المضمر قائلاً ﴿ وقال الكافرون هذا ساحر ﴾ في إظهار خوارق العادات ﴿ كذاب ﴾ على الله . وإنما قيل في سورة ق ﴿ فقال الكافرون ﴾ [الآية : 2] بالفاء لأن القول هناك شيء عجيب وهو نتيجة العجب فاتصل الكلامان لفظاً ومعنى : وأما ههنا فلم يتصل إلا معنى ﴿ أجعل الآلهة ﴾ أي صيرها وحكم عليها بالوحدة ﴿ إن هذا لشيء عجاب ﴾ بليغ في العجب . يروى أنه لما أسلم

عمر بن الخطاب شق ذلك على قريش وفرح المؤمنون فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش وهم الأشراف والرؤساء : امشوا إلى أبي طالب فأتوه وقالوا : أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، وإنا أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك . فدعا أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألون السواء فلا تمل كل الميل على قومك . فقال : ماذا يسألونني ؟ فقالوا : ارفضنا وارفض آلهتنا وندعك وإلهك . فقال صلى الله عليه وسلم : أتعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم فقال له أبو جهل : والله لنعطينكها وعشر أمثالها . فقال صلى الله عليه وسلم : قولوا لا إله إلا الله . فنفروا من ذلك وقالوا : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾ كيف يسع الخلق كلهم إله واحد فأنزل الله هذه الآيات . يعني من أول السورة إلى قوله ﴿ كذبت قبلهم ﴾ ﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ أي نهضوا من ذلك المجلس و ﴿ أن ﴾ مفسرة أي ﴿ امشوا ﴾ من غير أن يتلفظوا به ﴿ واصبروا على ﴾ عبادة ﴿ آلهتكم ﴾ .

(372/660)

قال النحويون : الانطلاق ههنا مضمن معنى القول لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم . وقيل : وانطلق الملأ منهم وقالوا لغيرهم امشوا .

وقيل : انطلقوا بأن امشوا أي بهذا القول . وليس المراد بالمشي السير إنما المراد المضيّ على الأمر . وقيل : امشوا واتركوا محمداً صلى الله عليه وسلم . وقيل : هي من مشت الماشية إذا كثر نسلها مشاء ومنه الماشية للتفاؤل . وفي تهذيب اللغة عن الأزهري : مشى الرجل إذا استغنى فيكون هذا دعاء لهم بالبركة ﴿ إن هذا ﴾ الأمر وهو استعلاء محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لشيء يراد ﴾ أي حكم الله به فلا حيلة في دفعه ولا ينفع إلا الصبر أو إنه لشيء من نوائب الدهر اريد بنا فلا انفكاك لنا منه ، أو إن دينكم لشيء يراد أن يؤخذ منكم . وقيل : إن عبادة الأصنام لشيء نريده ونحتاج إليه . وقيل : إن هذا الاستعلاء والترفع لشيء يريده كل أحد وكل ذي همة وقريب منه قول القفال : إن هذه كلمة تذكر للتحذير والتخويف معناها إنه ليس غرض محمد صلى الله عليه وسلم من هذا القول تقرير الدين ولكن غرضه أن يستولي علينا ويحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد .

(373/660)

﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أي بقول محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ في الملة الآخرة ﴾ فيما أدركنا عليه آباءنا أو في ملة عيسى التي هي آخر الملل ، لأن النصارى مثلثة غير موحدة . قال جار الله : يجوز أن يكون التقدير ما سمعنا بهذا كائناً في الملة الآخرة فيكون الظرف

حالاً من هذا لا متعلقاً ب ﴿ سمعنا ﴾ والمعنى أنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا الكهان أنه يحدث في الملة الآخرة توحيد الله . ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ كذب اختلقه من عنده . ثم أظهروا الحسد وما كان يغلي به صدورهم قائلين ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ وذلك أنهم ظنوا أن الشرف بالمال والجاه فقط نظيره في القمر ﴿ أألقي الذكر عليه من بيننا ﴾ [القمر : 25] إلا أنه استعمل هناك الإلقاء لأن أذكارهم كانت صحفاً مكتوبة وألواحاً مسطورة . وقدم الظرف ههنا لشدّة العناية ولزيادة غيظهم وحمقهم فأجاب الله تعالى عن شبهتهم بقوله ﴿ بل هم في شك من ذكري ﴾ اي من دلائلي التي لو نظروا فيها لزال الشك عنهم ، فالقاطع لا يساوي المشكوك . وقيل : أراد أنهم لا يكذبونك ولكنهم جحدوا آياتي . ثم قال ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ أي لو ذاقوا لأقبلوا على أداء المأمورات والانتهاء عن المنهيات . وقيل : أراد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخوّفهم بالعذاب لو أصروا على الكفر . ثم إنهم أصروا ولم ينزل عليهم العذاب فصار ذلك سبباً لشكهم في صدقه صلى الله عليه وسلم فلا جرم لا يزول ذلك الشك إلا بنزول العذاب . ثم أجاب عن شبهتهم بوجه آخر وهو قوله ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك ﴾ والمراد أن النبوة من جملة النعمة المخزونة عنده يعطيها من يشاء من عباده . ثم خصص بعد التعميم قائلاً ﴿ أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ ولا ريب أن هذه الأشياء بعض خزائن الله وإذا

كانوا عاجزين عن البعض فعن الكل أولى . ثم تهكم بهم بقوله ﴿ فليرتقوا ﴾ اي فإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق وقسمة الرحمة فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوسل بها إلى

(374/660)

المقصود . وقيل : أسباب السموات أبوابها والمعنى إن ادّعوا ملك السموات وأنهم يعلمون ما يجري فيها فليرتقوا إليها . قال بعض حكماء الإسلام : في الأسباب إشارة إلى أن الأجرام الفلكية وما أودع الله فيها من القوى والخواص أسباب حوادث العالم السفلي . ثم حقر أمرهم بقوله ﴿ جند مّا ﴾ وهو خبر مبتدأ محذوف و " ما " مزيدة للاستعظام جارية مجرى الصفة أي هم جند من الجنود . ثم خصص الوصف بقوله ﴿ من الأحزاب ﴾ أي ما هم إلا جند من الكفار المتحزبين على رسل الله مهزوم مكسور عما قريب فلا تبال بهم . قال قتادة ﴿ هنالك ﴾ إشارة إلى يوم بدر . وقيل : يوم الخندق . وقيل : فتح مكة فإن مكة هي الموضع الذي ذكروا فيه هذه الكلمات .

وقال أهل البيان : هي إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم كقولك لمن ينتدب لأمر " ليس من أهله " " لست هنالك " . ثم مثل حالهم بحال من قبلهم من الأمم المكذبة وقصصهم مذكورة مراراً . والذي يختص بالمقام هو أنه وصف

فرعون بذي الأوتاد فعن قتادة أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يلعب بها عنده . وقال المبرد : بنى أبنية طويلة صارت كالأوتاد لبقائها . وقيل : هي أوتاد أربعة كان يعذب الناس بها على الأرض أو على رؤوس أخشاب أربعة . وقيل : اراد كثرة أوتاد خيام معسكره . وقيل : أراد ذو جموع كثيرة فبالجمعية يشتد الملك كما يشتد البناء بالأوتاد وهذا قريب . وقول أهل البيان إن أصل هذه الكلمة من ثبات البيت المطنب بأوتاد ، ثم استعير لثبات العز والملك والمقصود على الوجود كلها . وصف فرعون بالشدة والقوة ونفاذ الأمر ليعلم أنه تتعالى أهلك من كان هذه صفته فكيف بمن هو دونه .

(375/660)

قال أبو البقاء : قوله ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ مبتدأ وخبر ، ويجوز أن يكون خبراً والمبتدأ من قوله وعاد أو من ثمود أو من قوم لوط ، قلت : ويحتمل أن يكون ﴿ الأحزاب ﴾ صفة ﴿ أولئك ﴾ و ﴿ أولئك ﴾ بدلاً من مجموع المعطوفات والمعطوف عليه . قال جار الله : قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن هذه الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم وآباؤهم الذين وجد منهم التكذيب . لقد ذكر تكذيبهم أوّلاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام ، ثم جاء بالجملة الاستثنائية أعني قوله ﴿ إن كل إلا كذب الرسل ﴾ فبين أن كل واحد من

الأحزاب كذب جميع الرسل لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوا جميعهم ﴿ فحق ﴾ أي ثبت أو وجب لذلك عقابي إياهم في الدنيا ثم في الآخرة وذلك قوله ﴿ وما ينظر هؤلاء ﴾ المذكورون . وقيل : أهل مكة : ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ وهي النفخة الأولى ﴿ ما لها من ﴾ توقف مقدار ﴿ فواق ﴾ وهو بالفتح والضم زمان ما بين حلبتي الحالب . عن النبي صلى الله عليه وسلم " العيادة قدر فواق الناقة " ومعنى الآية إذا جاء وقتها لم يمهل هذا القدر . وقيل : الفواق بالفتح الإفاقة أي ما لها من رجوع وترداد لأن الواحدة تكفي أمرهم وما لها رجوع إلى الحالة الأولى بل تبقى ممتدة إلى أن يهلك كلهم واعلم أن القوم إنما تعجبوا لشبهات ثلاث وقعت لهم : أولاها في الإلهيات وهو قولهم ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾ والثانية في النبوات وهي قولهم ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ والثالثة تتعلق بالمعاد وهي قولهم ﴿ ربنا عجل لنا قطناً ﴾ وهو القطعة من الشيء لأنه قطع منه من قطة إذا قطعه . والقط أيضاً صحيفة الجائزة ونحوها لأنها قطعة من القرطاس استعجلوا نصيبهم من العذاب الموعود ، أو من اللذات العاجلة ، أو من صحيفة الأعمال ، كل ذلك استهزاء منهم فلذلك أمره بالصبر على ما يقولون .

قال جار الله : أراد اصبر على أذاهم وصن نفسك أن تزل فيما كلفت من مخابراتهم . ﴿ واذكر ﴾ أخاك ﴿ داود ﴾ كيف زل تلك الزلة اليسيرة فعوتب عليها ونسب إلى البغي ، أو اصبر وعظم أثر أمر معصية الله في أعينهم بذكر قصة داود وما أورثته زلته من البكاء الدائم والحزن الواصب . وقال غيره : اصبر على اذى قومك فإنك مبتلى بذلك كما صبر سائر الأنبياء على ما ابتلاهم به . ثم عدّهم وبدأ بداود وذلك أنه تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب فأوحى الله إليه أنهم وجدوها بالصبر على البلايا فسأل الابتلاء . ثم إن الدنيا لا تنفك من الهموم والأحزان واستحقاق الدرجات بقدر الصبر على البليات . ثم إن مجامع ما ذكر الله تعالى في قصة داود ثلاثة أنواع من الكلام : الأول : تفصيل ما آتاه الله تعالى من الفضائل . الثاني : شرح الواقعة التي وقعت له . والثالث : استخلاف الله تعالى إياه بعد ذلك . والأول عشرة أصناف : أحدها ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم إياه ليقتدي به في الصبر وسائر اصول الأخلاق . وثانيها تسميته بالعبد مضافاً إلى صيغة جمع التكلم للتعظيم والعبودية الصحيحة الجامعة لكمالات الممكنات كما سبق مراراً . ويمكن أن يكون التلفظ بذكر اسمه العلم أيضاً تشريفاً له . وثالثها قوله ﴿ ذا الأيد ﴾ ذا القوة في الحروب وعلى الطاعات وعن المعاصي وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً وهو أشد الصوم ويقوم نصف الليل . ويحتمل أن يكون الياء محذوفاً اكتفاء بالكسر فيكون جميع اليد بمعنى النعمة لأن الله تعالى أنعم عليه ما لم ينعم على غيره . رابعها قوله ﴿ إنه أوّاب ﴾ أي رجاع ي

الأمور كلها إلى طاعة الله ومرضاته من آب يؤب . خامسها تسبيح الجبال معه وقوله ﴿ يسبحن ﴾ حال والإشراق وقت إضاءة الشمس وهو بعد شروقها عند الضحى . يقال شرقت الشمس ولما تشرق . واستدل به ابن عباس على وجود صلاة الضحى في القرآن لما روى عن أم هانئ : دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى

(377/660)

صلاة الضحى وقال : يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق . قال ابن عباس : وكانت صلاة يصليها داود عليه السلام ويحتمل أن يكون معنى الإشراق الدخول في وقت الشروق فيراد وقت صلاة الفجر لانتهائه بالشروق قاله جار الله . سادسها قوله ﴿ والطير محشورة ﴾ أي وسخرنا الطير مجموعة من كل ناحية . قال ابن عباس : كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت فذلك حشرها وقد مر ذكر هذه المعجزة في " الأنبياء " وفي " سبأ " . قال أهل البيان : قوله ﴿ محشورة ﴾ في مقابلة قوله ﴿ يسبحن ﴾ ولكنه اختير الفعل في أحد الموضعين والاسم في الآخر لأنه أريد في الأول الدلالة على

حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال حتى كأن السامع يتصوّرها بتلك الحالة ، وأما الحاشر فهو الله وحشر الطيور جملة واحدة أدل على القدرة له تعالى .

(378/660)

سابعها قوله ﴿ كلّ له أوّاب ﴾ أي كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيح داود مسبح مرجع للتسبيح . وقيل : الضمير لله أي كل من داود والجبال والطير لله مسبح رجاع إلى فعله مرة بعد مرة ، وهذا الوصف كالتأكيد للوصف الذي يتقدّمه وهذا أخص لأنه أدل على الواقعة . ثامنها قوله ﴿ وشددنا ملكه ﴾ أي قوّيناه بالجنود والأعوان وبسائر الأسباب فكان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف حرس ، وزاد بعضهم فقال أربعون الفاً . وقيل : نصرناه بالهيبة ، وسببه أن غلاماً ادّعى على رجل بقرة فأنكر المدّعى عليه ولطم الغلام لطمة فسأل داود من الغلام البينة فعجز فرأى داود في المنام أن الله تعالى يأمره أن يقتل المدعى عليه ويسلم البقرة إلى الغلام . فقال داود : هذا منام فأتاه الوحي بذلك في اليقظة فأخبر بذلك بني إسرائيل فجزعوا وقالوا : أتقتل رجلاً بلطمة ؟ فقال داود : هذا أمر الله فسكتوا . ثم أحضر الرجل وأخبره إن الله أمره بقتله فقال الرجل : صدقت يا نبيّ الله إني قتلت أباه غيلة وأخذت البقرة ، فقتله داود وعظمت هيبته واشتدّ ملكه وقالوا :

إنه يقضي بالوحي من السماء . تاسعها قوله ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ وقد مر معناها مراراً وأنها منحصرة في قسمين : الأول العلم بالتصوّرات الحقيقية والتصديقات اليقينية بمقتضى الطاقة البشرية ، والثاني العمل بالأخلاق الفاضلة المفضية إلى السعادة الباقية . وخصصها بعضهم بالعلم بالنبوّة والفهم أو بالزبور والشرائع . عاشرها فصل الخطاب وهو القدرة على ضبط المعاني والتعبير عنها بأقصى الغايات حتى يكون كاملاً مكملاً فهماً مفهماً .

(379/660)

قال جار الله : الفصل بمعنى المفصول ومعناه البين من الكلام الملخص الذي لا يلتبس ولا يختلك بغيره . قلت : ومن ذلك أن لا يخطئ صاحبه مظان الفصل والوصل كما تذكره في الوقوف . وعن عليّ رضي الله عنه أنه قال : البينة على المدّعي واليمين على من أنكر . فالفصل بمعنى الفاصل كالصوم والصحب ويندرج فيه جميع كلامه في الأقضية والحكومات وتدابير الملك والمشورات . يروى أنه سبحانه علق لأجله سلسلة من السماء وأمره أن يقضي بها بين الناس ، فمن كان على الحق يأخذ السلسلة ، ومن كان على الباطل لا يقدر على أخذها . ثم إن رجلاً غصب من آخر لؤلؤه وجعلها في جوف عصاً له ثم خاصمه المدّعي إلى داود فقال المدعي : إن هذا أخذ مني لؤلؤة ولم يردّها عليّ وإني صادق في

مقالتي ، فجاء وأخذ السلسلة فتحير داود في ذلك فرفعت السلسلة وأمره أن يقضي بالبينة واليمين وهو فصل الخطب . وقيل : هو قوله " أما بعد " وهو أوّل من تكلم به . وقيل : هو أنه إذا تكلم في الحكم فصل وكل هذه الأقوال تخصيصات من غير دليل والأقوى ما قدمناه . ثم إنه سبحانه لما مدحه بالوجوه العشرة أردفه بذكر واقعته قائلاً ﴿ وهل أتاك ﴾ يا محمد ﴿ نبأ الخصم ﴾ أي ما أتاك خبرهم وقد أتاك الآن . وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ليكون أدعى إلى الإصغاء لها . وللناس في هذه الواقعة ثلاثة أقوال أقواها تقريرها على وجه لا يدل على صدور ذنب عن نبيّ الله ، وثانيها التقرير على وجه يدل على صدور الصغيرة عن نبيّ الله ، وثالثها التقرير على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه ، وأضعفها التقرير على وجه يدل على الكبيرة . ويختلف تفسير بعض الألفاظ بحسب اختلاف بعض المذاهب فلنفسر كلاً منها على حدة . وأما المشترك بين الأقوال فلا نفسره إلا مرة .

(380/660)

القول الأوّل : يروى أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبيّ الله داود – وكان له يوم يخلو بنفسه ويشتغل بطاعة ربه – فانتهضوا الفرصة في ذلك وتسوّروا المحراب أي تصعدوا

غرفته من سوره . وفي قوله ﴿ إذ دخلوا عليه ﴾ إشارة إلى أنهم بعد التسوّر نزلوا عليه . قال الفراء : قد يجاء بإذ مرتين ويكون معناهما كالواحد كقولك " ضربتك إذ دخلت عليّ إذ اجترأت عليّ " مع أنه يكون وقت الدخول ووقت الاجتراء واحداً . وحين رآهما قد دخلا عليه لا من الطريق المعتاد علم أنهم إنما دخلوا عليه للشر . ﴿ ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان ﴾ أي نحن خصمان والخصم في الأصل مصدر فلهذا لم يجمعه أوّلاً نظراً إلى أصله ، وثناه ثانياً بتأويل شخصان أو فريقان خصمان ، وجمع المائر في قوله ﴿ إذ تسوّروا ﴾ ﴿ إذ دخلوا ﴾ ﴿ ففزع منهم ﴾ ﴿ قالوا لا تخف ﴾ بناء على أن أقل الجمع اثنان ، أو على أن صحب كل منهما من جملتهما . والأوّل أظهر لأن القائلين كانا اثنين بالاتفاق ﴿ بغى بعضنا على بعض ﴾ أي بغى أحدنا على الآخر وتعدّى حدّ العدالة . ثم قرروا مقصودهم بثلاث عبارات متلازمة إحداها ﴿ فاحكم بيننا بالحق ﴾ أي بالعدل الذي هو حكم الله فينا . والثانية ﴿ ولا تشطط ﴾ وهو نهي عن الباطل بإلزام الحق والشط البعد . شط وأشط لغتان ، أرادوا لا تجر فالجور البعد عن الحق . والثالثة ﴿ واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ أي وسطه وهو مثل لمحض الحق وصدقه . وحين اخبروا عن وقوع الخصومة مجملاً شرعوا في التفصيل فقال أحدهما مشيراً إلى الآخر ﴿ إن هذا ﴾ وقوله ﴿ أخي ﴾ أي في الدين أو الخلطة أو النسب خبر أو بدل والخبر ﴿ له تسع وتسعون نعجة ﴾ وهي أنثى من الضأن ﴿ ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها ﴾ أي ملكنيها فأكفلها

كما أكفل ما تحت يدي ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ أي غلبني في المخاطبة فكان تكلمه أبين وبطشه اشدّ ﴿ قال ﴾ داود ﴿ لقد ظلمك بسؤال نعجتك ﴾ أضاف المصدر إلى المفعول الثاني وحذف الفاعل والمفعول الأوّل أي

(381/660)

بسؤاله إياك نعجتك .

(382/660)

وليس السؤال ههنا سؤال خضوع وتفضل وإنما هو سؤال مطالبة ومعازة . و ﴿ إلى ﴾ متعلقة بفعل دل عليه السؤال تقديره بسؤال أي ليضمها إلى نعاجه ، أو ضمن السؤال معنى الإضافة كأنه قيل : بإضافة نعجتك إلى نعاجه على وجه الطلب ﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم واطلع بسبب ذلك بعضهم على أحوال البعض ﴿ ليبغي بعضهم على بعض ﴾ وقد تغلب الخلطة في الماشية . والشافعي يعتبرها في باب الزكاة إذا اتحد الفحل والراعي والمراح والمسقى وموضع الحلب ، فإن كانت للخليطين أربعون شاة

فعليهما شاة . وعند أبي حنيفة لا شي عليهما وإن كانت لأحدهما واحدة وللآخر تسع وتسعون فعلى الأوّل أداء جزء من مائة جزء من شاة واحدة وعلى الآخر الباقي . هذا عند الشافعي ، وعند أبي حنيفة لا شيء على ذي النعجة . ثم بين أن أكثر الخلطاء موسوم بسمة الظلم إلا المؤمنين وإنهم لقليل . " وما " في قوله ﴿ وقليل ما هم ﴾ مزيدة للإبهام ، وفيه تعجيب من قلتهم . وقال ابن عيسى : هي موصولة أي وقليل الذين هم كذلك . قصد نبيّ الله بذكر حال الخطاء في هذا المقام الموعظة الحسنة والترغيب في اختيار عادة الخلطاء الصلحاء لا التي عليها أكثرهم من الظلم والاعتداء ، وفيه تسلية للمظلوم عما جرى عليه من خليطه وإن له في أكثر الخلطاء اسوة ﴿ وظن داود إنما فتناه ﴾ اي ابتليناه وذلك أن القوم لما دخلوا عليه قاصدين قتله وإنه كان سلطاناً شديد القوّة وقد فزع منهم . ثم إنه مع ذلك عفا عنهم دخل قلبه شيء من العجب فحمله على الابتلاء ﴿ فاستغفر ربه ﴾ من تلك الحالة ﴿ وأناب ﴾ إلى الله واعترف بأن إقدامه على تلك الخلة لم يكن إلا بتوفيق الله . ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ الخاطر أو لعله هم بإيذاء القوم . ثم تذكر أنه لم يدل دليل قاطع على أن هؤلاء قصدوا الشر فعفا عنهم ، ثم استغفر من تلك الهمة . أو لعل القوم تابوا إلى الله وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم فاستغفر لأجلهم متضرعاً إلى الله فغفر ذنبهم بسبب

شفاعته ودعائه . ﴿ و ﴾ معنى ﴿ خرّ راكعاً ﴾ سقط ساجداً . قال الحسن : لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع ، أو المراد أن خرّ للسجود مصلياً لأن الركوع قد يعبر به عن الصلاة . ومذهب الشافعي أن هذا الموضع ليس فيه سجدة التلاوة لأنه توبة نبيّ فلا توجب على غيره سجدة التلاوة ولا تستحب أيضاً . ومذهب أبي حنيفة بخلافه . وجوز مع ذلك أن يكون الركوع بدل السجود هذا تمام تقرير القول الأوّل . ولا يرد عليه إلا أن داود كان أرفع منزلة من أن يتسور عليه بعض آحاد الرعية في حال تعبده أو يتجاسر عليه بقوله ﴿ لا تخف ﴾ ﴿ ولا تشطط ﴾ وأنه كيف سارع إلى تصديق أحد الخصمين على ظلم الآخر قبل استماع كلامه والأول استبعاد محض ؟ وأجيب عن الثاني بأنه ما قال ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه لكنه لم يذكر في القرآن ، ومما يؤيد هذا القول ختم ذكر الواقعة بقوله : ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ والزلفى القربة ، والمآب الحسن الجنة .

قال مالك بن دينار : إذا كان يوم القيامة يؤتى بمنبر رفيع ويوضع في الجنة يقال : يا داود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا – وحاصل التفسير على هذا القول إن الخصمين كانا من الإنس وكانت الخصومة بينهما على الحقيقة ، وكانا خليطين في الغنم ، أو كان الخلطة خلطة الصدقة ، أو الجوار وكان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من الحرائر والسرائر . والعرب تشبه المرأة بالنعجة والظبية ، والثاني معسراً ما له إلا امرأة

واحدة واستنزله عنها ، وكانت الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك كما كانوا يقاسمونهم أموالهم ومنازلهم وما كان ذنب داود إلا خطرة أو همة .

(384/660)

القول الثاني : إن أهل زمان داود كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته فاتفق أن نظر داود وقع على امرأة رجل يقال له أوريا فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا ففعل فتزوجها وهي أم سليمان . فقيل له : إن مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكثرة نسائك لم يكن لك أن تسأل رجلاً ليس له امرأة واحدة النزول لك ، كان الواجب عليك مغالبة هواك والصبر على ما امتحنت به . وقيل : خطبها أوريا ثم خطبها داود فآثره أهلها وكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه ، وعلى هذا يجوز أن يكون الخطاب في قوله ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ من الخطبة أي غالبني في خطبتها حيث زوّجها دوني . وعلى هذا القول يجوز أن يكون الخصمان من الإنس كما مر . وحين وافق حالهما حال داود تنبه فاستغفر . وأن يكونا ملكين بعثهما الله ليتنبه على خطئه فيتداركه بالاستغفار ويرد على هذا أن الملكين لو قالا نحن خصمان بغى بعضنا على بعض فكذب والملائكة لا يكذبون ولا يأمرهم الله بالكذب . والجواب أن التقدير ما تقول

خصمان قالا بغى بعضنا على بعض . أو أرادوا : ارأيت لو كنا خصمين بغى بعضنا على بعض ألست تحكم بيننا ، ثم صوروا المسألة ومثلوا قصته بقصة رجل له نعجة واحدة ولخليطه تسع وتسعون فأراد صاحبه تتمة المائة وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده . وعن الحسن : لم يكن لداود تسع وتسعون امرأة وإنما هذا مثل .

(385/660)

القول الثالث : وهو المشهور عند الجمهور أن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء : يوماً للعبادة ، ويوماً للاشتغال بخواص أموره ، ويوماً يجمع بني إسرائيل للوعظ والتذكير فجاءه الشيطان يوم العبادة والباب مغلب في صورة حمامة من ذهب فمد يده ليأخذها لابن صغير له فطارت إلى قريب منه ، وهكذا مرة ثانية وثالثة إلى أن وقعت في كوة فتبعها فوقع بصره على امرأة جميلة تغتسل فنقضت شعرها فغطى جسدها فوقع في نفسه منها ما شغله عن الصلاة ، فنزل من محرابه ولبست المرأة ثيابها وخرجت إلى بيتها ، فخرج داود حتى عرف بيتها وسألها من أنت ؟ فأخبرته فقال لها : هل لك زوج ؟ فقالت : نعم .

(386/660)

قال : أين هو ؟ قالت : في جند كذا فرجع وكتب إلى أمير جيشه إذا جاءك كتابي هذا فقدم فلاناً في أول التابوت وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يده أو يستشهد ففتح الله على يده وسلم . فأمر برده مرة ثانية وثالثة حتى قتل ، فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء ، وتزوّج امرأته فبعث الله إليه ملكين في صورة إنسانين فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته ومنعهما الحرس فتسوّرا عليه المحراب فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان ففزع منهما ، وحين وجد قصتهما مطابقة لحاله علم أنه مبتلى من الله . يروى أنهما قالا حينئذ حكم على نفسه . وقيل : ضحكا وغابا فعلم أن الله ابتلاه بذنبه . ولا يخفى أن ذنبه بهذا التفسير والتقرير كبيرة لأنه يدل على الإفراط في العشق وعلى السعي في قتل النفس المسلمة بغير حق . فيروى أنه سجد أربعين ليلة لم يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة ولم يذق طعاماً ولا شراباً حتى أوحى الله إليه أن ارفع رأسك فإني قد غفرت لك . ويروى أن جبرائيل قال له اذهب إلى أوريا وهو زوج المرأة واستحل منه فإنك تسمع صوته موضع كذا ، فأتاه ، واستحل منه فقال : أنت في حل . قال : فلما رجع قال له جبريل : هل أخبرته بجرمك ؟ فقال : لا قال : فإنك لم تعمل شيئاً فارجع وأخبره بالذي صنعت . فرجع داود فأخبره بذلك فقال : أنا خصمك يوم القيامة فرجع مغتماً وبكى أربعين يوماً . فأتاه جبريل وقال : إن الله تعالى يقول : أنا أستوهبك من عبدي فيهبك

لي وأجزيه على ذلك أفضل الجزاء فسرى عنه وكان حزيناً في عمره باكياً على خطيئته . وروي أنه نقش خطيئته على كفه حتى لا ينساها . والمحققون كعلي رضي الله عنه وابن عباس وابن مسعود وغيرهم ينكرون القصة على هذا الوجه . روى سعيد بن المسيب والحرث بن الأعور أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء . قلت :

(387/660)

لا يخفى أن الأحوط السكوت عما لا يرجع إلى طائل ، بل يحتمل أن يعود إلى قائله لوم عاجل وعقاب آجل .

(388/660)

ومن الدلائل القوية التي اعتمد عليها فخر الدين الرازي في ضعف هذه الرواية قوله سبحانه عقيب ذكر الواقعة ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ فمن البعيد جداً أن يوصف الرجل بكونه ساعياً في سفك دم أخيه المسلم بغير حق وبانتزاع زوجته منه ثم يقال

: إنا فوضنا الخلافة إليه . وعندي أن ذلك عليه لا له لقوله تعالى ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ﴾ الخ فكأنه قيل له : إنا جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء في الدعاء إلى الله وفي سياسة المدن ، أو تخلفنا كما يقال " السلطان ظل الله في الأرض " فاللائق بهذا المنصب السعي لإصلاح حال المسلمين وحفظ فروجهم ودمائهم وأموالهم لا السعي في تحصيل هو النفس بأي وجه يمكن ، فإن صاحبه المصر عليه ضال معرض عن إعداد الزاد ليوم المعاد . يحكى عن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز أو الزهري : هل سمعت ما بلغنا ؟ قال : وما هو ؟ قال : بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا يكتب عليه معصية . فقال : يا أمير المؤمنين ، الخلفاء أفضل أم الأنبياء ثم تلا هذه الآية . وحين تم واقعة داود ونصحه وما فرض عليه في شأن الاستخلاف أشار إلى أن الأمور الدنيوية التابعة للحركات السماوية ليست واقعة على الجزاف ، وبمقتضى الطبائع ، ولكن لها غاية صحيحة فأجمل هذا المعنى أوّلاً بقوله ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ﴾ الذي ذكر من خلق هذه الأشياء بلا غاية ﴿ ظن الذين كفروا ﴾ لأنهم بإنكارهم البعث جحدوا الجزاء الذي هو غاية التكليف ﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ لأنهم بهذه العقيدة وقعوا في نار البعد والقطيعة فلم يستدلوا بالآفاق والأنفس على الصانع نظيره ما مر في آخر " آل عمران " ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار

﴿ [الآية : 191] ثم صرح بالغاية قائلاً ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الآية . " وأم " منقطعة بمعنى بل والهمزة للإنكار والمراد أنه لم يطل

(389/660)

الجزاء كما زعموا لاستوت حال الطائفتين المتقي المصلح للأرض بتهذيب الأخلاق وتدبير المنزل والسياسة المدنية على وفق العقل والشرع ، والفاجر المفسد في الأرض بهدم النواميس وتتبع الشهوات وهتك الحرمات ، ومن سوى بينهم كان إلى السفه أقرب منه إلى الحكمة ، ولا ينافي هذا إمكان التسوية من حيث المالكية . وحين ذكر هذه المعاني اللطيفة والقواعد الشريفة منّ على رسوله بقوله ﴿ كتاب ﴾ اي هذا كتاب ﴿ أنزلناه إليك مبارك ﴾ كثير المنافع والفوائد ﴿ ليدّبروا آياته ﴾ ليتأملوا فيها ويستنبطوا الأسرار والحقائق منها فمن حفظ حروفه وضيع حدوده كان مثله كمثل معلق اللؤلؤ والجواهر على الخنازير . قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله : يقال في وجه النظم إن العقلاء قالوا : من ابتلى بخصم جاهل مصر متعصب وجب عليه أن يقطع الكلام معه ويخوض في كلام آخر أجنبي حتى إذا اشتغل خاطره بالكلام الأجنبي أدرج في أثنائه مقدمة مناسبة للمطلوب الأول ،

فإن ذلك المتعصب قد يسلم هذه المقدمة فإذا سلمها فحينئذ يتمسك بها في إثبات المطلوب الأول فيصير الخصم ساكتاً مفحماً .

(390/660)

وإذ قد عرفت هذا فنقول : إن الكفار قد بلغوا في إنكار الحشر إلى حيث قالوا على سبيل الاستهزاء ﴿ ربنا عجل لنا قطعنا قبل يوم الحساب ﴾ فقال تعالى : يا محمد ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ واقطع الكلام معهم في هذه المسألة واشرع في كلام آخر أجنبي في الظاهر وهو قصة داود إلى قوله ﴿ إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ﴾ فكل من سمع هذا قال : نعم ما فعل حيث أمره بالحكم الحق كأنه قال : أيها المكلف إني لا آمرك مع أني رب العالمين إلا بالحق فههنا الخصم يقول : نعم ما فعل حيث لم يقض إلا بالحق ، فعند هذا يلتزم صحة القول بالحشر وإلاّ لزم التسوية بين من أصلح واتقى ومن افسد وفجر وذلك ضدّ الحكمة . وحين ذكر هذه الطيرقة الدقيقة في إلزام المنكرين وإفحامهم وصف القرآن بالبركة والإفادة والإرشاد ، لأن هذه اللطائف لا تستفاد إلا منه .

(391/660)

وبعد تتميم قصة داود شرع في قصة ابنه سليمان ومدحه بقوله ﴿ نعم العبد ﴾ أي هو فحذف المخصوص للعلم به . وفي قوله ﴿ إنه أوّاب ﴾ كما مر في قصة داود إشارة إلى أنه كان شبيهاً بالأب في الفضيلة والكمال فلذلك استويا في جهة المدح . وفي القصة واقعتان يمكن تقرير كل منهما كما في واقعة أبيه على وجه لا يقدح في الصعمة وهو المختار عند المحققين ، وعلى وجه دون ذلك وهو الأشهر فلنفسر كلاً منهما بالوجهين بتوفيق الله تعالى . أما الأوّل من الواقعة الأولى فقوله ﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات ﴾ وهي جمع صافن وهو الذي يقوم على ثلاث قوائم وعلى طرف الرابعة وهو نعت جيد للخيل . قيل : الصافن الذي يجمع بين يديه . وفي الحديث " من سرّه أن يقوم الناس له صفوفاً فليتبوّأ مقعده من النار " أي واقفين مثل خدم الجبابرة . و ﴿ الجياد ﴾ جمع جواد وهو جيد الجري يعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة من مواقفها على أحسن الأشكال . وإذا أجريت كانت سراعاً في جريها ، فإذا طلبت لحقت ، وإذا طلبت لم تلحق . يروى أن رباط الخيل كان مندوباً في شرعهم كما في شرعنا . ثم إن سليمان سلام الله عليه احتاج إلى الغزو فجلس بعد صلاة الظهر على كرسيه وأمر بإحضار الخيل ، وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا وحظ النفس وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله ﴿ إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ سمى الخيل خيراً لتعلق الخير بها كما جاء في الحديث

(392/660)

" الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة " أي آثرت حب الخير ولزمته لأن ربي أمرني بارتباطها ولم يصدر حب هذه المحبة الشديدة إلا عن ذكر الله وأمره . والضمير في قوله ﴿ حتى توارت ﴾ للخيل أي ما زالت تعرض عليه ويأمر بإعدائها وسيرها إلى أن غابت عن بصره ، ثم قال ﴿ ردّوها عليّ ﴾ أي أمر الرائضين بان يردوا الخيل عليه ، فلما عادت عليه طفق يمسح مسحاً بوسقها وأعناقها تشريفاً لها وإظهاراً لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدوّ ، أو لأنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، أو أراد إظهار أنه بلغ في اختبار أمور المملكة إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه . ويل : مسح الغبار عن أعناقها وسوقها بيده . وقيل : وسم أعناقهن وارجلهن فجعلهن في سبيل الله .

(393/660)

وأما الوجه الآخر في هذه الواقعة فما روي أن سليمان غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس . وقيل : ورثها من ابيه وكان أبوه اصابها من العمالقة . وقيل : أخرجها

الشياطين من مرج من المروج أو من البحر وكانت ذوات أجنحة . فقعد يوماً بعد الظهر واستعرضها فلم يزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وذلك قوله ﴿ حتى توارت ﴾ أي الشمس بدليل ذكر العشي ﴿ بالحجاب ﴾ حجاب الأفق . وقيل : حتى توارت الخيل بحجاب الليل وغفل عن العصر ، أو عن ورد من الذكر كان له وقت العشي فقال ﴿ إني أحببت حب الخير ﴾ وهو متضمن معنى فعل يتعدى بعن أي أنبت حب الخير عن ذكر ربي وجعلت حبها مغنياً عن ذكر ربي فاغتم لما فاته فاستردها وعقرها تقرباً لله وذلك قوله ﴿ فطفق مسحاً ﴾ قال جار الله : أي يمسح بالسيف سوقها وأعناقها فقلب لأمن الإلباس كقولهم " عرضت الناقة على الحوض " قال الراوي : قربها إلا مائة فما في ايدي الناس من الجياد فمن نسلها ، وحين عقرها أبدله الله خيراً منها وهي الريح تجري بأمره . وقيل : الضمير في ﴿ ردّوها ﴾ للشمس والخطاب للملائكة تضرع إلى الله فرد الله عليه الشمس فصلى العصر . ومحل القدح في هذه الرواية هو نسبة سليمان إلى حب الدنيا حتى غفل عن الصلاة وضم بعضهم إلى ذلك أن قطع أعناق الخيل وعرقبة أرجلها منهي عنه . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ذبح الحيوان إلا لمأكله . وأجيب بأنه فعل ذلك لأنها منعته عن الصلاة أو لأنه ذبحها للفقراء والمساكين ، قال الزجاج : لم يفعل ذلك إلا وقد أباحه الله له وما أباح الله فليس بمنهي . قال الإمام فخر الدين الرازي : إن الكفار لما بلغوا في الإيذاء والسفاهة إلى حيث قالوا ﴿ ربنا عجل لنا قطنا ﴾ قال لنبيه : اصبر يا

محمد على ما يقولون وذاكر عبدنا داود . ثم ذكر عقيبه قصة سليمان ، وهذا الكلام إنما يكون لائقاً لو قلنا إن سليمان أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله وأعرض عن

(394/660)

الشهوات ، فاما لو كان المقصود أنه أقدم على الكبيرة لم يكن ذكره مناسباً .

هذا تمام الكلام في الواقعة الأولى .

(395/660)

وأما الثانية وإليها الإشارة بقوله . ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ فالمحققون يروونه على وجوه : أحدها : أن سليمان ولد له ابن بعد أن ملك عشرين سنة فقالت الشياطين : إن عاش لم نتخلص من البلاء والتسخير فسبيلنا أن نقتله أو نخبله ، فعلم بذلك سليمان فأمر السحاب أن يحفظه ويغذوه خوفاً من مضرة الشياطين ، فما راعه إلا أن ألقي على كرسيه ميتاً فتنبه على خطئه في أن لم يتوكل فيه على ربه فاستغفر ربه وأناب .

وثانيها روي عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن سليمان قال ذات ليلة : لأطوفن الليلة على سبعين أمرأة . وفي رواية على مائة وفي رواية على ألف- كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل : إن شاء الله . فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل . والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجميعن فذلك قوله ﴿ ولقد فتنا سليمان " وثالثها قال أبو مسلم : مرض سليمان مرضاً شديداً امتحنه الله به حتى صار جسداً على كرسيه ملقي كما جاء في الحديث " لحم على وضم وجسد بلا روح " لأن الجسد يطلق في الأكثر على ما لا روح له . ﴿ ثم أناب ﴾ أي رجع إلى حالة الصحة . والمشهور عند الجمهور أن الجسد الملقى على كرسيه كان شيطاناً جلس على سرير ملكه اربعين يوماً ، وذلك أن ملكه كان في خاتمة فأخذ شيطاناً يقال له آصف وقال : كيف تفتنون الناس ؟ قال : أرني خاتمك أخبرك . فلما أعطاه إياه نبذه آصف في البحر فذهب ملكه وقعد آصف على كرسيه . وعن علي رض1ي الله عنه أنه قال : بينما سليمان جالس على شاطئ البحر وهو يعبث بخاتمه إذ سقط في البحر . وقيل : إنه وطئ امرأة في الحيض فذلك ذنبه . وقال في الكشاف : وغيره حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهي مدينة في بعض الجزائر وأن بها ملكاً عظيم الشأن . فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بها جنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وأصاب بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً ، فاصطفاها

لنفسه وأسلمت وأحبها وكانت لا يرقأ دمعها حزنا على أبيها . فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة ابيها فكستها مثل كسوته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدون لها كعادتهن في ملكه ، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها ، فوضعه عندها يوماً فأتاها الشيطان صاحب البحر وهو الذي دل سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس . واسمه صخر – على صورة سليمان فقال : يا أمينة أعطيني خاتمي فتختم به وجلس على كرسي سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس . وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف أن الخطيئة قد أدركته ، فكان يدور على البيوت يتكفف وإذا قال : أنا سليمان . حثوا عليه التراب وسبوه فمكث على ذلك أربعين يوماً عدد ما عبد الوثن في بيته . وكان ذلك الشيطان يقضي بين الناس ويتمكن من جميع ملكه إلا نساءه . وقيل : من جميع ملكه ونسائه وما يدع امرأة في دمها ولا يغتسل من جنابة ، فلما أراد الله أن يرد الملك إليه أنكر علماء بني إسرائيل قضية قضاها الشيطان فأحضروا التوراة ، فلما قرؤها فرّ الشيطان وألقى الخاتم في البحر فابتلعته سمكة فصادها صائد

ووهبها لسليمان وأعطاها على أجره عمله يوماً فأخرج من بطنها الخاتم ﴿ ثم أناب ﴾ أي رجع على ملكه أو ثاب ووقع ساجداً . ثم إن سليمان ظفر بالشيطان فجعله في تابوت وسده بالنحاس وألقاه في البحر . والعلماء المتقنون أبوا قبول هذه الرواية وقالوا : إنها من اباطيل اليهود ، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل وإلا ارتفع الأمان عن الشرائع والأديان ، وكيف يسلطهم الله على آحاد عباده فضلاً عن أنبيائه حتى يغيروا أحكامهم ويفجروا بنسائهم . وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع والسجود للصورة إذا كان بغير إذنه فلا عتب عليه .

(397/660)

وحكى الثعلبي هذه القصة بوجه أقرب إلى القبول وهو أن سليمان لما افتتن بأخذ التمثال في بيته سقط الخاتم من يده فأخذه سليمان فأعاده إلى يده فسقط ، فلما رآه لا يثبت في اليد ايقن بالفتنة فقال له آصف : إنك لمفتون فتب إلى الله واشتغل بالعبادة وأنا أقوم مقامك إلى أن يتوب الله عليك . فقام آصف في ملكه أربعة عشر يوماً وهو الجسد الذي ألقي على كرسيه ، فردّ الله إليه ملكه وأثبت الخاتم في يده . وعن سعيد بن السميب أن سليمان احتجب عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله إليه : يا سليمان احتجبت عن عبادي وما

أنصفت مظلوماً عن ظالم ، ثم ذكر القصة وأخذ الشيطان الخاتم ورجوعه إليه . ثم حكى الله تعالى أن سليمان قال ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً ﴾ قدم المغفرة على طلب الملك كما هو دأب الصالحين تقديماً لأمر الدين على أمر الدنيا ، ولأن الاستغفار يجر الرزق فإن الإنسان قلما ينفك عن ترك الأولى فإذا زال عنه شؤم ذلك ببركة الاستغفار انفتح عليه أبواب الخيرات . والذين حملوا الفتنة على صدور الذنب عنه فوجوب الاستغفار عندهم واضح وحملوا قوله ﴿ لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ على أنه سأل ملكاً لا يقدر الشيطان على أن تقوم مقامه .

(398/660)

والأوّلون ذهبوا إلى أنه لم يقل ذلك حسداً وإنما قصد به أن يكون معجزة له ، ومن شرط المعجز أن لا يقدر غيره على معارضته ولا سيما أمته الذين بعث إليهم ولهذا قال بعضهم : أراد غيري ممن بعثت إليهم ولم يرد من بعده إلى يوم القيامة . وحقيقة لا ينبغي لا ينفعل من بغيت الشيء طلبته أي لا يصير مطلوباً لأنه سماوي فوق طوق البشر ، أو قصد أن الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق فإذا كان ملكه آية كان ثوابه على الصبر عنه غاية ونهاية ، أو أراد أن يظهر للخلق أن حصول الدنيا لا يمنع من خدمة المولى ، وأن ملك سليمان

إذا كان عرضة للفناء فالأولى بالعاقل أن يشتغل بالعبودية ولا يلتفت إلى الدنيا وما فيها .

وقيل : إنه لما مرض ثم عاد إلى الصحة عرف أن خيرات الدنيا زائلة منتقلة إلى الغير بإرث ونحوه فطلب ملكاً لا يتصور انتقاله إلى الغير وهو ملك الدين والحكمة . وقال أهل البيان : لم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته كما تقول لفلان : ما ليس لأحد من الفضل والمال .

وربما كان للناس أمثال ذلك . والأقوى هو الأوّل بدليل قوله عقيبه ﴿ فسخرنا له الريح ﴾ ﴿ والشياطين ﴾ . ولا ريب أن هذا معجزة وملك عجيب دال على نبوّته ويؤيده ما جاء في الحديث " أردت أن اربطه – يعني الشيطان – على سارية من سواري المسجد إلا أني تذكرت دعوة أخي سليمان " والضمير في ﴿ بأمره ﴾ لسليمان . وقيل : لله . والرخاء الرخوة اللينة ولا ينافي هذا وصفها بالعصوف في الأنبياء فلعلها تختلف باختلاف الأحوال والأوقات ، أو هي طيبة في نفسها ولكنها عاصفة بالإضافة إلى الرياح المعهودة . ومعنى أصاب قصد واراد من إصابة السهم . وقوله ﴿ والشياطين ﴾ معطوف على ﴿ الريح ﴾ وقوله ﴿ كل بناء وغواص ﴾ بدل الكل من الشياطين . كانوا يبنون لأجله الأبنية الرفيعة ويستخرجون اللؤلؤ من البحر وهو أوّل من استخراج الدر من البحر ﴿ وآخرين ﴾ عطف على الشياطين أو على كل داخل في حكم البدل ، وكان يقرن مردة الشياطين

بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد . والصفد القيد والعطاء لأنه ارتباط للمنعم عليه ومنه قول عليّ رضي الله عنه :

من برك فقد أسرك . . . ومن جفاك فقد أطلقك

وقيل : حقيقته التفويض على الخير والشر . قال الجبائي : إن الشيطان كان كثيف الجسم في زمن سليمان ويشاهده الناس . ثم إنه لما توفي سليمان أمات الله ذلك الجنس وخلق نوعاً آخر لطيف الجسم بحيث لا يرى ولا يقوى على الأعمال الشاقة . قلت : هذا إخبار بالغيب إلا أن تكون رواية صحيحة . ولم لا يجوز أن تكون أجسامهم لطيفة بمعنى عدم اللون ولكنها صلبة بمعنى أنها لا تقبل التمزق والتفرق .

﴿ هذا عطاؤنا ﴾ أي قلنا لسيلمان هذا الملك عطاؤنا والإضافة للتعظيم . وقوله : ﴿ بغير حساب ﴾ يتعلق بالعطاء يعني أنه جم كثير لا يدخل تحت الضبط والحصر فأعط منه ما شئت أو أمسك مفوّضاً إليك زمام التصرف فيه . ويجوز أن يتعلق بالأمرين أي ليس عليك في ذلك حرج ولا تحاسب على ما تعطي وتمنع يوم القيامة . عن الحسن : أن الله لم يعط أحداً عطية إلا جعل عليه فيها حساباً سوى سليمان فإنه أعطاته عطية هنيئة إن أعطى أجر وإن لم يعط لم يكن عليه تبعة . ويحتمل أن يراد هذا التسخير تسخير الشياطين عطاؤنا فامنن على من شئت منهم الإطلاق ، أو أمسك منشئت منهم بالوثاق ، فأنت في

سعة من ذلك لا تحاسب في إطلاق من أطلقت وحبس من حبست وحين فرغ من تعداد النعم الدنيوية أردفه بما أنعم به عليه في الآخرة قائلاً : ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ كما في قصة داود وفيه أن ثوابه كفء ثواب أبيه كما أن سيرته سيرة أبيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 582. 598 ﴾

(400/660)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل بصاد صمديته في الأزل وصانعيته في الوسط وصبوريته إلى الأبد . أقسم بالقرآن ذي الذكر لأن القرآن قانون معالجات القلوب وأعظم مرض القلب من نسيان الله فأعظم علاجه ذكر الله . ثم أشار غلى انحراف مزاج الكفار بمرض نسيان الله من اللين والسلامة إلى لغلظ والقساوة ، ومن التواضع إلى التكبر ، ومن الوفاق إلى الخلاف ، ومن التصديق إلى التكذيب ، ومن التوحيد غلى تكثير الآلهة . وفي قوله ﴿ واصبروا على آلهتكم ﴾ إشارة إلى أن الكفار إذا تواصوا فيما بينهم بالصبر والثبات فالمؤمنون أولى بالثبات على قدم الصدق في طلب المحبوب الحقيقي ﴿ إن هذا لشيء يراد ﴾ في الأزل من المقبول

والمردود . ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ لأنهم في النوم فإذا ماتوا انتبهوا وأحسوا بالألم فعاينوا الأمر حين لا ينفع العيان ، ويزول الشك في يوم لا يجدي البرهان . ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ النفوس الخبيثة تميل بطبعها إلى السفليات العاجلة كما أن النفوس الكريمة تميل بطبعها إلى العلويات الباقية ، ولكل من الصنفين جذبة بالخاصية إلى شكله كجذب المغناطيس الحديد . ﴿ له تسع وتسعون نعجة ﴾ هن آثار فيوض الصفات الربانية بحسب الأسماء التسعة والتسعين ، فلكل منها مظهر في عالم الملك والخلق ﴿ ولي نعجة واحدة ﴾ هو ذات الله وحده ﴿ فقال أكفلنيها ﴾ أي صيرني أجمع بين الله وبين ما سواه . ثم ههنا أسار كثيرة تفهمها إن شاء الله . ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ امتحناه بالجمع بين الدين والدنيا ﴿ فاستغفر ﴾ للحق ﴿ ربه ﴾ ﴿ راكعاً وأناب ﴾ إلى الله معرضاً عما سواه . وهذا التأويل مما خطر ببالي أرجو أن يكون مضاهياً للحق : ﴿ إنا جعلناك خليفة ﴾ فيه أن الخلافة عطاء من الله وأنها مخصوصة بالإنسان خلق مستعدّاً لها بالقوة ، وفيه أن الجعلية تتعلق بعالم المعنى كما أن الخلقية تتعلق بعالم المعنى كما أن الخلقية تتعلق بعالم الصورة .

﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] ﴿ فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً ﴾ [فاطر : 1] ووجه الخلافة هو أن الروح الإنساني أوّل فيض بذاته وصفاته فذاته من ذات الله بلا واسطة ، وصفاته من صفاته بلا واسطة فخلق لخليفة منزلاً صالحاً وهو قالبه ، وأعد له عرشاً هو القلب ليكون محل استوائه ، ونصب له خادماً وهو النفس ، فلو بقي الإنسان على فطرة الله لكان روحه مستفيضاً من الله تعالى فائضاً لخلافة الحق على عرش القلب ، والقلب فائض لخلافة الروح على خادمه النفس ، والنفس فائضه لخلافة القلب على القالب ، والقالب فائض لخلافة النفس على الدنيا ، وهي أرض الله فلا يجري شيء من الأمور إلا على نهج الحق . ﴿ ووهبنا لداود ﴾ الروح ﴿ سليمان ﴾ اقلب ﴿ إذ عرض عليه بالعشي ﴾ وهو بعد زوال شمس التجلي ﴿ الصافنات الجياد ﴾ وهي مركب الصفات البشرية . وفي قوله ﴿ فطفق مسحاً ﴾ إشارة إلى أن كل محبوب سوى الله إذا حجبك عنه لحظة يلزمك أن تقتله بسيف " لا إله إلا الله " وإليه الإشارة بقوله ثانياً ﴿ ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه ﴾ صدره شيئاً من الشهوات الجسدانية فافتتن به فتاب ورجع إلى الحضرة . فإن قيل : قوله ﴿ لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ هل يتناول نبينا صلى الله عليه وسلم ؟ قلنا : يتناوله بالصورة لا بالمعنى : فإن الذي كان مطلوب سليمان من تزكية النفس عن محبة الدنيا مع القدرة عليها ، ومن تحلية القلوب بعلوّ الهمة وبذل المال والجاه وإفشاء العدل والنصفة وغير

ذلك كان حاصلاً للنبي صلى الله عليه وسلم من غير زحمة مباشرة صورة الملك والافتنان به عزة ودلالاً ولهذا قال في حديث تسلطه على الشيطان " ذكرت دعوة أخي سليمان فتركته " وكان يعرض عليه مقاليد الخزائن فيقول : " الفقر فخري " على أن صورة الملك أيضاً مما سيحصل لبعض أمته كما قال " وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 598 . 599 ﴾

(402/660)

من فوائد من قصة داود وسليمان عليهما السلام

أكثر من ستين فائدة من قصة داود وسليمان عليهما السلام . . من سورة ص فقط

للشيخ : فرحان العطار

1 – أن الله يقص على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم اخبار من قبله ، ليثبت فؤاده ، وليطمئن نفسه ، ويذكر له من عبادتهم وصبرهم وانابتهم ما يشوقه إلى منافستهم ، والتقرب إلى الله الذي تقربوا له والصبر على اذى قومه ، ولهذا – في هذا الموضع – لما ذكر الله ما ذكر من اذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به اوره بالصبر وان يذكر عبده داود فيتسلى به .

2- ومنها أن الله يمدح ويحب القوة في طاعته ، قوة القلب والبدن ، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ، مالا يحصل مع الوهن وعدم القوة ، وان العبد ينبغي له تعاطي اسبابها ، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضعفة بالنفس .

3- ومنها أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور من اوصاف أنبياء الله وخواص خلقه ، كما اثنى الله على داود وسليمان بذلك ، فليقتد بهما المقتدون ، وليهتد بهداهم السالكون (اولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده) ا . هـ من قوله تعالى لكل منهما (إنه اواب) اي رجاع إلى الله في جميع الأمور 4- ومنها ما اكرم الله به نبيه داود من حسن الصوت العظيم ، الذي جعل الله بسببه الجبال الصم ، والطيور البهم ، يجاوبنه اذ رجع صوته بالتسبيح ، ويسبحن معه بالعشي والاشراق .

5- ومنها أن من اكبر نعم الله على العبد ان يرزقه العلم النافع ، ويعرف الحكم والفصل بين الناس ، كما امتن الله على عبده داود عليه السلام .

6- ومنها اعتناء الله بأولياءه واصفياءه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته اياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذور ، ويعودونبه إلى اكمل من حالتهم الأولى ، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام .

7- ومنها أن أنبياء الله معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى لأن مقصود الرسالة لا يحصل الا بذلك ، وانه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي ، ولكن الله يتداركهم ويبادرهم بلطفه سبحانه وتعالى

8- ومنها أن داود عليه السلام كان في أغلب أحواله لازما لمحرابه لخدمة ربه ، لهذا تسور الخصمان عليه المحراب ، لأنه كان اذا خلا في محرابه لا يأتيه احد ، فلم يجعل كل وقته للناس ، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام ، بل قد جعل له وقتا يخلو فيه بربه ، وتقر عينه بعبادته ، وتعينه على الاخلاص له في جميع الأمور .

9- ومنها أنه ينبغي الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم ، فإن الخصمان لما دخلا على داود في حالة غير معتادة فزع منهم ، واشتد ذلك عليه ، ورآه غير لائق بالحال .

10- ومنها أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء ادب الخصم وفعله ما لا ينبغي .

11- ومنها جواز قول المظلوم لمن ظلمه " انت ظلمتني " او " يا ظالم " ونحو ذلك او " باغ علي " لقولهما (خصمان بغى بعضنا على بعض

12- ومنها أن الموعوظ والمنصوح ولو كان كبير القدر جليل العلم ، إذا نصحه احد او وعظه ، لا يغضب ولا يشمئز ، بل يبادر بالقبول والشكر ، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشمئز ولم يغضب ، ولم يثنه ذلك عن الحق ، بل حكم بالحق الصرف .

13- ومنها : ان المخالطة بين الأقارب والأصحاب ، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية ، موجبة للتعادي بينهم ، وبغي بعضهم على بعض ، وانه لا يرد عن ذلك الا استعمال تقوى الله عز وجل ، والصبر على الأمور ، بالإيمان والعمل الصالح ، وان هذا من اقل شيء في الناس .

14- ومنها أن الاستغفار والعبادة ، خصوصا الصلاة من مكفرات الذنوب ، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده .

(404/660)

15- ومنها إكرام الله لعبده داود وسليمان بالقرب منه ، وحسن الثواب ، ولا يظن ان ما حصل لهما منقص لدرجتهما عند الله تعالى ، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين ، انه إذا غفر لهم وأزال اثر ذنوبهم ، أزال الآثار المترتبة عليه كلها ، حتى ما يقع في قلوب الخلق ، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم ، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى ، فأزال الله تعالى هذه الآثار ، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار .

16 - ومنها أن الحكم بين الناس مرتبة دينية ، تولاها رسل الله وخواص خلقه ، وان وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى ، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية

، والعلم بصورة القضية المحكوم بها ، وكيفية ادخالها في الحكم الشرعي ، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم ، ولا يحل له الاقدام عليه .

17 – ومنها أنه ينبغي للحاكم ان يحذر الهوى ، ويجعله منه على بال فإن النفوس لا تخلو منه ، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده ، وان يلقي عنه وقت الحكم كل محبة او بغض لأحد الخصمين .

18 – ومنها أن سليمان عليه السلام من فضائل داود ومن منن الله عليه حيث وهبه له ، وان من اكبر نعم الله على عبده ان يهب له ولدا صالحا ، فإن كان عالما فإنه نور غلى نور .

19 – ومنها ثناء الله على سليمان ومدحه (نعم العبد إنه أواب)

20 – ومنها كثرة خير الله وبره بعبيده ، ان يمن عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق ، ثم يثني عليهم بها وهو المتفضل الوهاب .

21 – ومنها تقديم سليمان عليه السلام محبة الله تعالى على محبة كل شيء

22 – ومنها أن كل ما اشغل العبد عن الله فإنه مشؤم مذموم ، فليفارقه وليقبل على ما هو انفع له .

(405/660)

23- ومنها القاعدة المشهورة " من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرا منه " فسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس ، تقديما لمحبة الله ، فعوضه الله خيرا من ذلك ، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة ، التي تجري بأمره إلى حيث اراد وقصد ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وسخر له الشياطين اهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون .

24- ومنها أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عليه السلام .

25- ومنها أن سليمان كان ملكا نبيا ، يفعل ما اراد ، ولكنه لا يريد إلا العدل ، بخلاف النبي العبد فإنه تكون ارادته تابعة لأمر الله ، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر ، كحال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه الحال أكمل .

انتهت الفوائد من تفسير ابن سعدي رحمه الله

26- أن من اتى البيوت من غير أبوابها فإن فعله هذا سبب للخوف والفزع .

27- ان الأنبياء بشر يلحقهم من الطبائع البشرية كما يلحق غيرهم لقوله (ففزع منهم (.

28- أنه يجب ان يطمئن المفزع من فزع منه لقوله (لا تخف(

29- لباقة هذين الخصمين حيث لم تثر هذه الخصومة العداوة بينهما حيث قال (إن هذا أخي (

30- أنه ليس جميع الخلطاء يحصل منهم البغي لقوله (وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم

على بعض) ولم يقل كلهم .

31- أن الذين آمنوا لا يحصل منهم البغي ، يمنعهم ايمانهم وعملهم الصالح لقوله (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) .

32- أن الذي يجمع بين الايمان والعمل الصالح قليل لقوله

(وقليل ما هم)

33- أن الأنبياء قد يفتنون ويختبرون لقوله (وظن داود أنما فتناه) يعني ايقن

34- أن كل شخص محتاج إلى ربه مفتقر اليه لقوله (فاستغفر ربه)

35- أن السجود خضوعا لله من سنن الأنبياء لقوله (وخر راكعا) وهل يشرع أن يصلي ركعتين أم يفعل ما فعله داود عليه السلام ؟

جاءت شريعتنا : أن يتوضأ ويصلي ركعتين لا يحدث فيهما نفسه

36- في قوله (يا داود) إثبات كلام الله عز وجل ، وفيها رد على من انكر ذلك

37- أنه لا مانع أن يقال للسلطان ذوي السلطة العليا في الأرض أن يقال له : انه خليفة الله ، ولا يعني ذلك أن الله محتاج أن يستخلف أحدا ليقوم عنه بتدبير الخلق ، ولكنه خلفه أي

جعله حاكما بين الناس كما شرع سبحانه .

38- أن اتباع الهوى سبب للضلال لقوله (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله (

39- أن المتبعين للهوى متوعدون بالعذاب الشديد .

40- أن من أسباب الضلال نسيان يوم الحساب لقوله (بما نسوا يوم الحساب (

41- أن عادة عرض الخيول والتمتع بجريها آخر النهار عادة قديمة إلى اليوم ، وقل من تجده يفعل ذلك في أول النهار .

42- أنه ينبغي اختيار الخيل الجميلة الجيدة في هيئتها وسرعتها لقوله) الصافنات الجياد (ف(الصافنات) جمال في الهيئة والشكل و(الجياد) دليل على سرعتها وقوة جريها .

43- أن الانشغال بامور الدنيا يسبب الاعراض عن ذكر الله وهذا امر مذموم .

44- إثبات أن الشمس هي التي تدور على الأرض لقوله (حتى تورات بالحجاب) وهذا يؤيده كثير من النصوص مثل قوله تعالى (والشمس تجري) وقوله (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين (

45- في قوله تعالى (توارت بالحجاب) دليل على كروية الأرض لأنه لما أثبت أنها هي التي تتوراى " أي الشمس " بالحجاب ، دل على أن ألأرض هي التي تحجبها ، وهذا أمر مقطوع به .

46- جواز التعزير با تلاف المال ، وهذه المسألة اختلف فيها الفقهاء :

فمنهم من قال بأنه لا يجوز لأن إتلاف المال إفساد له ، ويمكن أن نعزره بأخذ المال دون إتلافه ، فنأخذه منه وننفقه في جهة اخرى .

(407/660)

ومنهم من قال : بأن ذلك جائز واستدلوا : بأن الغال من الغنيمة يحرق رحله وهذا اتلاف له مع أن الجيش قد يكون في حاجة ، وهذا هو القول الراجح أنه يجوز التعزير بإتلاف المال ، وذلك لأن السنة دلت على ذلك أولا ثم إن إتلافه أنكى وأعظم أثرا ، ثالثا : لو قلنا نأخذه ولا نتلفه لفتحنا بابا للولاة الظلمة ، إذا أرادوا المال أقاموا دعوى على شخص ما ، ثم قالوا نعزره بأخذ ماله ، ثم يأخذون ماله على أن يكون في بيت مال المسلمين ، فيأخذونه في جيوبهم !

47- أن الانسان لا بأس أن يعزر نفسه بإتلاف ماله بنفسه ، لفعل سليمان عليه السلام .

48- قوة سلطان سليمان عليه السلام وكثرة جنوده لقوله (ردوها على (فلم يقل ردها على ، بل قال (ردوها (

49- أن لسليمان عليه السلام كرسيا يجلس عليه كما يجلس الملوك ، لأن الله جمع له بين الملك والنبوة .

50- تعلق قلب سليمان عليه السلام بالآخرة ، يؤخذ من قوله (رب إغفر لي وهب لي . .) فطلب الآخرة قبل الدنيا .

51- جواز الذنوب على الأنبياء ، من قوله (رب إغفر لي) ، ولو لم يكن هناك ذنب لم يستغفر .

52- جواز طلب الانسان الملك ، تطلب من الله أن يملكك شيئا ، ولكن يشترط أن يكون له استعداد وقدرة للقيام بما يطلب .

53- التوسل إلى الله تعالى بالاسم المناسب ، فقوله (إنك أنت الوهاب) مناسب لطلبه (هب لي) ، وهذا من ضمن تفسير قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) انتهت فوائد ابن عثيمين رحمه الله وغفر له ، وهذه فوائد أخرى

54- مشروعية صلاة الضحى لقوله تعالى (والاشراق) قال البقاعي رحمه الله : في الجامع لعبد الرزاق أن ابن عباس رضي الله عنه قال : صلاة الضحى في القرآن ، ولكن لا يغوص عليها إلا غائص ثم قرأ الآية ، واليها الإشارة - والله أعلم بصلاة الأوابين (إنه أواب) وروى مسلم في الصحيح عن زيد بن أرقم رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " صلاة الأوابين حين ترمض الفصال " ا . هـ بتصرف

55–جواز استعراض الحاكم القائد قواته تفقدا لها وإظهارا للقوة ، ورفعا لمعنوياتها .

56– إطلاق لفظ الخير على الخيل ، فيه تقرير أن الخيل إذا ربطت في سبيل الله كان طعامها وشرابها حسنات لمن ربطها في سبيل الله كما في الحديث الصحيح (الخيل ثلاث (. . .

57– أن آلات الحرب اليوم من الطائرات وغيرها وإعدادها وتفقدها حل محل ربط الجياد .

58– الثناء على العبد بالتوبة الفورية التي تعقب الذنب مباشرة .

59– التثبت والأناة في جميع الأمور من أعظم الأمور المعينة على التوفيق للصواب قال البقاعي رحمه الله : فكانت هذه الدعوى تدريبا لداود عليه السلام في الأحكام ، وذكرها للنبي صلى الله عليه وسلم تدريبا له على الأناة في جميع اموره على الدوام . ا . هـ

60– أن في هذه الآيات تقرير لنبوة نبينا عليه الصلاة والسلام ، إذ مثل هذه القصص لا تتأتى إلا بوحي .

وسأقف هنا بانتظار المزيد من المشاركات لتعم الفائدة ، وستأتي بعض الفوائد ان شاء الله

ملاحظة : الفوائد السبع الأخيرة من تفسير الجزائري حفظه الله ما عدا الفقرة رقم 59 .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحث بعنوان : أكثر من ستين فائدة من قصة داود وسليمان عليهما السلام . . من سورة ص فقط / للشيخ : فرحان العطار ﴾

(409/660)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والستون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/661)

الجزء الحادى والستون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 41 ﴾ من سورة ص

وحتى الآية ﴿ 44 ﴾ من نفس السورة

(4/661)

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما انقضى الخبر عن الملك الأواب الذي ملك الدنيا بالفعل قهراً وغلبة شرقاً وغرباً ، وكان

أيوب عليه السلام في ثروة الملوك وإن لم يكن ملكاً بالفعل ، وكان تكذيب من كذب بالنبي - صلى الله عليه وسلم - إنما هو بتسليط الله الشياطين بوسوسته عليهم ، وأمره سبحانه بالصبر على ذلك وقص عليه من أخبار الأوابين تعليماً لحسن الأوبة إن وهن الصبر ، أتبعه الإخبار عن الصابر الأواب الذي لم يتأوه إلا من وسوسة الشيطان لزوجه بما كان يفتنها ليزداد النبي - صلى الله عليه وسلم - بذكر هذه الأخبار صبراً ويتضاعف إقباله على الله تعالى وتضرعه له اقتداء بإخوانه الذين لم تشغلهم عنه منحة السراء ولا محنة الضراء ، وتذكيراً لقدرة الله على كل ما يريده تنبيهاً على أنه قادر على رد قريش عما هم فيه ونصر المستضعفين من عباده عليهم بأيسر سعي فقال : ﴿ واذكر عبدنا ﴾ أي الذي هو أهل للإضافة إلى عظيم جنابنا ، وبينه بقوله : ﴿ أيوب ﴾ وهو من الروم من أولاد عيص بن إسحاق عليهم السلام لتتأسى بحاله فنصبر على قومك وإن رأيت ما لا صبر لك عليه دعوت الله في إصلاحه .

ولما أمره بذكره ، بين أن معظم المراد بعض أحواله الشريفة ليتأسى به فقال مبدلاً منه بدل اشتمال : ﴿ إذ ﴾ أي اذكر حاله الذي كان حين : ﴿ نادى ﴾ وصرف القول عن مظهر العظمة إلى صفة الإحسان لأنه موطنه لاقتضاء حاله ذلك فقال : ﴿ ربه ﴾ : أي المحسن إليه الذي عرف إحسانه إليه في تربيته ببلائه كما عرف امتنانه بظاهر نعمائه وآلائه ، ثم ذكر المنادى به حاكياً له بلفظه فقال مشيراً بالتأكيد إلى أنه - وإن كان حاله فيما عهد من شدة

صبره مقتضياً عدم الشكوى - أتاه ما لا صبر عليه : ﴿ إني ﴾ أي رب أدعوك بسبب أني .

(5/661)

ولما كان هنا في سياق التصبير عظم الأمر بإسناد الضر إلى أعدى الأعداء إلهاباً إلى الإجابة وأدباً مع الله فقال : ﴿ مسّني ﴾ أي وأنا من أوليائك ﴿ الشيطان ﴾ أي المحترق باللعنة البعيد من الرحمة بتسليطك له ﴿ بنصب ﴾ أي ضر ومشقة وهم داء ووجع وبلاء يثقل صاحبه فيتبعه ويعيده ويكده ويجهده ويصل به إلى الغاية من كل ذلك ، وقرئ بضم الصاد أيضاً وقرئ بالتحريك كالرُشد والرَشد ، وكان ذلك إشارة إلى أحوال الضر في الشدة والخفة فالمسكن أدناه ، والمحرك أوسطه ، والمثقل بالضم أعلاه ﴿ وعذاب ﴾ أي نكد قوي جداً دائم مانع من كل ما يلذ ، ويمكن أن يساغ ويستطعم أجمله ، ونكره تنكير لتعظيم استغنائه على وجازته عن جمل طوال ودعاء عريض إعلاماً بأن السيل قد بلغ الزبى ، وأوهن البلاء القوي ، ولم يذكره بلفظ إبليس الذي هو من معنى اليأس وانقطاع الرجاء دلالة على أنه هو راج فضل الله غير آيس من روحه ، وذلك أن الله تعالى سلطه على إهلاك أهله وولده وماله فصبر ثم سلطه على بدنه إلى أن سقط لحمه واستمر على

ذلك مدداً طوالاً ، فلذلك ثم تراءى لزوجته ـ رضى الله عنه ـ ا في زي طبيب وقال لها : أنا أداويه ولا أريد أن يقول لي ، إذا عوفي أنت شفيتني ، وقيل : قال لها : لو سجد لي سجدة واحدة شفيته ، فأتته وحدثته بذلك فأخبرها وعرفها أنه الشيطان ، وحذرها منه وخاف غائلته عليها ، فدعا الله بما تقدم وشدد النكير والتعظيم لما وسوس لها به بأن حلف ليضربنها مائة ضربة ، ردعاً لها عن الإصغاء إلى شيء من ذلك ، وتهويناً لما يلقاه من بلائه في جنبه .

(6/661)

ولما تشوف السامع إلى جوابه عن ذلك ، استأنف قوله : ﴿ اركض ﴾ أي قلنا له : اضرب الأرض وأوجد الركض وهو المشي والتحريك والإسراع والاستحثاث ﴿ برجلك ﴾ يخرج منها ماء نافع حسن لتغتسل فيه وتشرب منه ففعل فأنبعنا له عيناً ، فقيل له : ﴿ هذا ﴾ بإشارة القريب إشارة إلى تسهله ﴿ مغتسل ﴾ أي ماء يغتسل به وموضعه وزمانه ﴿ بارد ﴾ أي يبرد حر الظاهر ﴿ وشراب ﴾ يبرد حر الباطن .

(7/661)

ولما كان التقدير : ففعل اغتسل فبرأ ظاهره وسر باطنه ، عطف عليه قوله صارفاً القول إلى مظهر الجلال تنبيهاً على عظمة الفعل : ﴿ ووهبنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ له أهله ﴾ أي الذين كان الشيطان سلط عليهم بأن أحييناهم ، وجمع اعتباراً بالمعنى لأنه أفخم وأقرب إلى فهم المراد فقال : ﴿ ومثلهم ﴾ وأعلم باجتماع الكل في آنٍ واحد فقال : ﴿ معهم ﴾ جددناهم له وليعلم من يسمع ذلك أنه لا عبرة بشيء من الدنيا وأنها وكل ما فيها عرض زائل لا ثبات له أصلاً إلا ما كان لنا ، فإنه من الباقيات الصالحات ، فلا يغير أحد بشيء منها ولا يشتغل عنا أصلاً ، ويعلم من هذا من صدقه القدروة على البعث بمجرد تصديقه له ومن توقف فيه سأل أهل الكتاب فعلم ذلك بتصديقهم له ، ثم علل سبحانه فعله ذلك بقوله : ﴿ رحمة ﴾ ولما كان في مقام الحث على الصبر عظم الأمر بقوله : ﴿ منا ﴾ فإنه أعظم من التعبير في سورة الأنبياء بعندنا ، ليكون ذلك أحث على لزوم الصبر ، وإذا نظرت إلى ختام الآيتين عرفت تفاوت العبارتين ولاح لك أن مقام الصبر لا يساويه شيء ، لأن الطريق إليه سبحانه لا ينفك شيء منه عن صبر وقهر للنفس وجبر ، لأنها بالإجماع خلاف ما تدعو إليه الطبائع ﴿ وذكرى ﴾ أي إكراماً وتذكيراً عظيماً ﴿ لأولي الألباب ﴾ أي الأفهام الصافية ، جعلنا ذلك لرحمته ولتذكير غيره من الموصوفين على طول الزمان ليتأسى به كل مبتلى ويرجو مثل ما رجا ، فإن رحمة الله واسعة ، وهو عند القلوب

المنكسرة ، فما بينه وبين الإجابة إلا حسن الإنابة ، فمن دام إقباله عليه أغناه عن غيره :

لكل شيء إذا فارقته عوض . . .

وليس لله إن فارقت من عوض

(8/661)

ولما أجمل العذاب الصالح لألم الظاهر ، وذكر المخلص منه ، أتبعه التنبيه على أعظمه وهو ألم الباطن ، بل أبطن الباطن التعلق بالاعتقاد فيما وسوس لزوجه ـ رضى الله عنه ـ ا بما كاد يزلها فحلف ليضربنها مائة لئلا تعود إلى شيء من ذلك فيزلها عن مقامها كما أزل غيرها فأرشده سبحانه وتعالى إلى المخلص من ذلك الحلف على أخف وجه لأنها كانت صابرة محسنة ، فشكر الله لها ذلك ، وجعل هذا المخلص بعدها سنة باقية لعباده تعظيماً لأجرها وتطييباً لذكرها فقال عاطفاً على ﴿ اركض ﴾ ﴿ وخذ بيدك ﴾ أي التي قد صارت في غاية الصحة ﴿ ضغثاً ﴾ أي حزمة صغيرة من حشيش فيها مائة عود كشمراخ النخلة ، قال الفراء : هو كل ما جمعته من شيء مثل الحزمة الرطبة ، وقال السمين : وأصل المادة يدل على جميع المختلطات ﴿ فأضرب به ﴾ أي مطلق ضرب ضربة واحدة ﴿ ولا تحنث ﴾ في يمينك أي تأثم بترك ما حلفت على فعله ، فهذا تخفيف على

كل منهما لصبره ، ولعل الكفارة لم تكن فيهم وخصنا الله بها مع شرعه فينا ما أرخصه له تشريفاً لنا ، وكل هذا إعلاماً بأن الله تعالى ابتلاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بدنه وولده وماله ، ولم يبق له إلا زوجة فوسوس لها الشيطان طمعاً في إيذائهما كما آذى آدم وحواء عليهما السلام ، إلى أن قارب منها بعض ما يريد ، والمراد بالإعلام به تذكير النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه إن كان مكن الشيطان من الوسوسة لأقاربه والإغواء والإضلال فقد منّ عليه بزوجه أعظم وزراء الصدق وكثير من أقاربه الأعمام وبني الأعمام وغيرهم ، وحفظ له بدنه وماله ليزداد شكره لله تعالى ، وفي القصة إشارة إلى أنه قادر على أن يطيع له من يشاء ، فإنه قادر على التصرف في المعاني كقدرته على التصرف في الذوات ، وأنه سبحانه يهب لهذا النبي الكريم قومه العرب الذين هم الآن أشد الناس عليه وغيرهم فيطيعه الكل .

(9/661)

ولما كان الصبر والأفعال المرضية عزيزة في العباد لا تكاد توجد فلا يكاد يصدق بها ، علل سبحانه هذا الإكرام له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأكده ، فقال على سبيل الاستنتاج مما تقدم رداً على من يظن أن الشكوى إليه تنافي الصبر ، وإشارة إلى أن السر في التذكير به التأسي في الصبر : ﴿ إنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ وجدناه ﴾ أي في عالم الشهادة طبق ما كان

لنا في عالم الغيب ليتجدد للناس من العلم بذلك ما كنا به عالمين ، ولما كان السياق للحث على مطلق الصبر في قوله تعالى ﴿ واصبر على ما يقولون ﴾ [المزمل : 10] أتى باسم الفاعل مجرداً على مبالغة فقال : ﴿ صابراً ﴾ ثم استأنف قوله : ﴿ نعم العبد ﴾ ثم علل بقوله مؤكداً لئلا يظن أن بلاءه قادح في ذلك : ﴿ إنه أواب ﴾ أي رجاع بكليته إلى الله سبحانه على خلاف ما يدعو إليه طبع البشر ، قال الرازي في اللوامع : قال ابن عطاء : واقف معنا بحسن الأدب لا يغيره دوام النعمة ، ولا يزعجه تواتر البلاء والمحنة ، روى عبد بن حميد في مسنده عن أبي سعيد ـ رضى الله عنه ـ قال : وضع رجل يده على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : والله ما أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حماك ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر ، إن كان النبي من الأنبياء ليبتلي بالقمل حتى يقتله وإن كان النبي من الأنبياء ليبتلي بالفقر حتى يأخذ العباة فيحويها وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 388 . 391 ﴾

(10/661)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ مسني الشيطان ﴾ بسكون الياء : حمزة . بنصب بضمتين : يزيد ، وقرأ يعقوب بفتحتين ، وقرأ هبيرة بالفتح والسكون . والباقون : باضم والسكون ﴿ بخالصة ذكري ﴾ على الإضافة : أبو جعفر ونافع وهشام ﴿ عبدنا إبراهيم ﴾ على التوحيد : ابن كثير وعلى هذا يكون إبراهيم وحده عطف بيان ﴿ ما يوعدون ﴾ على الغيبة : ابن كثير وأبو عمرو ﴿ وغساق ﴾ بالتشديد حيث كان : حمزة وعليّ وخلف وحفص ﴿ أخر ﴾ بضم الهمزة على الجمع : أبو عمرو وسهل ويعقوب والمفضل . والباقون : بالمد على التوحيد . ﴿ الأشرار ﴾ بالإمالة والتفخيم مثل ﴿ الأبرار ﴾ غير ابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان ﴿ الأشرار ﴾ بالإمالة ﴿ اتخذناهم ﴾ موصولة والابتداء بكسر الألف : ابو عمرو وسهل ويعقوب وحمزة وعلي وخلف . والآخرون : بفتح الهمزة على الاستفهام ﴿ ما كان لي ﴾ بفتح الياء : حفص ﴿ إلا إنما ﴾ بكسر الهمزة على الحكاية : يزيد ﴿ لعنتي إلى ﴾ بفتح الياء : ابو جعفر ونافع ﴿ فالحق ﴾ بالرفع : حمزة وخلف وعاصم غير المفضل وهبيرة ويعقوب غير رويس .

(11/661)

الوقوف : ﴿ أيوب ﴾ م لا إذا جعل " إذ " بدلاً ﴿ وعذاب ﴾ 5 ط لتقدير القول أي فأرسلنا إليه جبريل فقال له اركض ﴿ برجلك ﴾ ج لأن هذا مبتدأ مع أه من تمام القول ﴿ وشراب ﴾ 5 ﴿ الألباب ﴾ 5 ﴿ ولا تحنث ﴾ ط ﴿ صابراً ﴾ ط ﴿ العبد ﴾ ط ﴿ أوّاب ﴾ 5 ﴿ والأبصار ﴾ 5 ﴿ الدار ﴾ 5 ج للآية مع العطف ﴿ الأخيار ﴾ 5 ﴿ وذا الكفل ﴾ ط ﴿ من الأخيار ﴾ 5 ﴿ ذكر ﴾ 5 ط ﴿ مآب ﴾ 5 لا لأن ﴿ جنات ﴾ بدل أو عطف بيان . ﴿ الأبواب ﴾ 5 ج لاحتمال أن عامل ﴿ متكئين ﴾ محذوف أي يتنعمون متكئين وإن جعل حالاً من ﴿ مفتحة ﴾ فهي مقدّرة لأن الاتكاء لا يكون في حال فتح الأبواب ﴿ وشراب ﴾ 5 ﴿ أتراب ﴾ 5 ﴿ الحساب ﴾ 5 ﴿ من نفاد ﴾ 5 ج ﴿ هذا ﴾ ط أي هذا بيان جزاء المتقين أو الأمر هذا ﴿ مآب ﴾ 5 لا ﴿ جهنم ﴾ ج لأن ما بعده يصلح حالاً واستئنافاً ﴿ يصلونها ﴾ ج ﴿ المهاد ﴾ 5 ﴿ هذا ﴾ لا لأن خبره ﴿ حميم ﴾ فقوله ﴿ فليذوقوه ﴾ اعتراض ﴿ وغساق ﴾ 5 لا للعطف ﴿ أزواج ﴾ 5 ط ﴿ معكم ﴾ ج لاتصال المعنى مع الابتداء بما في معنى الدعاء ﴿ بهم ﴾ 5 ﴿ النار ﴾ ط ﴿ بكم ﴾ ط ﴿ لنا ﴾ ج ﴿ القرار ﴾ 5 ﴿ النار ﴾ 5 ﴿ الأشرار ﴾ 5 ط لمن قرأ بكسر الهمزة لاحتمال إضمار همزة الاستفهام واحتمال كونها خبرية صفة أو حالاً ومن صرح بالاستفهام فوقفه مطلق ﴿

الأبصار ﴾ 5 ﴿ النار ﴾ 5 ﴿ القهار ﴾ 5ج لأن ما بعده يصلح بدلاً وخبراً لمحذوف أي هو الغفار ﴿ عظيم ﴾ 5لا لأن ما بعده وصف ﴿ معرضون ﴾ 5 ﴿ يختصمون ﴾ 5 ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ طين ﴾ 5 ﴿ ساجدين ﴾ 5 ﴿ أجمعون ﴾ 5لا ﴿ إبليس ﴾ ط ﴿ الكافرين ﴾ 5 ﴿ بيديّ ﴾ ط للاستفهام ﴿ العالين ﴾ 5 ﴿ منه ﴾ ط لأن ما بعده جواب سؤال كأنه علل الخيرية ﴿ طين ﴾ 5 ﴿ رجيم ﴾ 5ج والوصل أولى لاتصال لعنتي به ﴿ الدين ﴾ 5 ﴿ يبعثون ﴾ 5 ﴿ المنظرين ﴾ 5لا لتعلق إلى ﴿ المعلوم ﴾ 5 ﴿ أجمعين ﴾ 5 للاستثناء ﴿ المخلصين ﴾ 5 ﴿ فالحق ﴾ ز على قراءة الرفع أي فهذا الحق مع اتحاد المقول ﴿ أقول ﴾ ج لاحتمال أن ما بعده قسم مستأنف أو بدل من قوله ﴿ والحق ﴾ .

﴿ أجمعين ﴾ 5ج ﴿ المتكلفين ﴾ 5 ﴿ للعالمين ﴾ 5 ﴿ حين ﴾ 5 . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 600. 601 ﴾

(12/661)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة ، واعلم أن داود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليهما أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان ممن خصه الله تعالى بأنواع البلاء ، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار .

كأن الله تعالى قال : يا محمد اصبر على سفاهة قومك فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالاً وجاهاً من داود وسليمان عليهما السلام ، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : أيوب عطف بيان ، وإذ بدل اشتمال منه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ﴾ أي بأني مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ، ولو لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب ، وقرىء : ﴿ بِنُصْبٍ ﴾ بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وفتحها وضمها ، فالنصب والنصب ، كالرشد والرشد ، والعدم والعدم ، والسقم والسقم ، والنصب على أصل المصدر ، والنصب تثقيل نصب ، والمعنى واحد ، وهو التعب والمشقة والعذاب والألم .

واعلم أنه كان قد حصل عنده نوعان من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات ، والألم الشديد في الجسم ولما حصل هذان النوعان لا جرم ، ذكر الله

تعالى لفظين وهما النصب والعذاب .

المسألة الثانية :

للناس في هذا الموضع قولان الأول : أن الآلام والأسقام الحاصلة في جسمه إنما حصلت بفعل الشيطان الثاني : أنها إنما حصلت بفعل الله ، والعذاب المضاف في هذه الآية إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة ، وإلقاء الخواطر الفاسدة .

(13/661)

وأما القول الأول : فتقريره ما روي أن إبليس سأل ربه ، فقال هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني ؟ فقال الله : نعم عبدي أيوب ، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عياناً ولا يلتفت إليه ، فقال : يا رب إنه قد امتنع علي فسلطني على ماله ، وكان يجيئه ويقول له : هلك من مالك كذا وكذا ، فيقول الله أعطى والله أخذ ، ثم يحمد الله ، فقال : يا رب إن أيوب لا يبالي بماله فسلطني على ولده ، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية ، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه ، فقال يا رب لا يبالي بماله وولده فسلطني على جسده ، فأذن فيه ، فنفخ في جلد أيوب ، وحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه ، فمكث في ذلك البلاء سنين ، حتى صار بحيث استقذره أهل بلده ، فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه

أحد ، فجاء الشيطان إلى امرأته ، وقال لو أن زوجك استعان بي لخلصته من هذا البلاء ، فذكرت المرأة ذلك لزوجها ، فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة ، وعند هذه الواقعة قال : ﴿ إِنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ فأجاب الله دعاءه ، وأوحى إليه ﴿ أن اركض بِرِجْلِكَ ﴾ فأظهر الله من تحت رجله عيناً باردة طيبة فاغتسل منها ، فأذهب الله عنه كل داء في ظاهره وباطنه ، ورد عليه أهله وماله .

(14/661)

والقول الثاني : أن الشيطان لا قدرة له ألبتة على إيقاع الناس في الأمراض والآلام ، والدليل عليه وجوه الأول : أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان ، فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان ، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات ، فقد حصل بفعل الشيطان ، وحينئذٍ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطي الحياة والموت والصحة والسقم ، هو الله تعالى الثاني : أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء ، ولم لا يخرب دورهم ، ولم لا يقتل أولادكم الثالث : أنه تعالى حكى عن الشيطان أنه قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ [إبراهيم : 22] فصرح بأنه لا قدرة له في حق البشر إلا على إلقاء

الوساوس والخواطر الفاسدة ، وذلك يدل على قول من يقول إن الشيطان هو الذي ألقاه في تلك الأمراض والآفات ، فإن قال قائل : لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان ؟ قلنا فإذا كان لا بد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والأسقام هو الله تعالى ، فأي فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك ؟ بل الحق أن المراد من قوله : ﴿ إِنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ أنه بسبب إلقاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطنة كان يلقيه في أنواع العذاب والعناء ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أن تلك الوساوس كيف كانت وذكروا فيه وجوهاً الأول : أن علته كانت شديدة الألم ، ثم طالت مدة تلك العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته ، ولم يبق له شيء من الأموال ألبتة .

(15/661)

وامرأته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت ، ثم بلغت نفرة الناس عنه إلى أن منعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم ، والشيطان كان يذكره النعم التي كانت والآفات التي حصلت ، وكان يحتال في دفع تلك الوساوس ، فلما قويت تلك الوساوس في قلبه خاف وتضرع إلى الله ، وقال : ﴿ إِنِّى مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ لأنه كلما

كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد .

الثاني : أنها لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع فخاف من تأكد خاطر القنوط في قلبه فتضرع إلى الله تعالى وقال : ﴿ إِنِّي مَسَّنِيَ الشيطان ﴾ ، الثالث : قيل إن الشيطان لما قال لامرأته لو أطاعني زوجك أزلت عنه هذه الآفات فذكرت المرأة له ذلك ، فغلب على ظنه أن الشيطان طمع في دينه فشق ذلك عليه فتضرع إلى الله تعالى وقال : ﴿ إِنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ ، الرابع : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم :

" أنه بقي أيوب في البلاء ثمان عشرة سنة حتى رفضه القريب والبعيد إلا رجلين ، ثم قال أحدهما لصاحبه لقد أذنب أيوب ذنباً ما أتى به أحد من العالمين ، ولولاه ما وقع في مثل هذا البلاء ، فذكروا ذلك لأيوب عليه السلام ، فقال : لا أدري ما تقولان غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتي فأنفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في الحق " الخامس : قيل إن امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجيء به إلى أيوب ، فاتفق أنهم ما استخدموها ألبتة وطلب بعض النساء منها قطع إحدى ذؤابتيها على أن تعطيها قدر القوت ففعلت ، ثم في اليوم الثاني ففعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة .

وكان أيوب عليه السلام إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة ، فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية في قلبه واشتد غمه ، فعند ذلك قال : ﴿ إِنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ ، السادس : قال في بعض الأيام : يا رب لقد علمت ما اجتمع علي أمران إلا آثرت طاعتك ، ولما أعطيتني المال كنت للأرامل قيماً ، ولابن السبيل معيناً ، ولليتامى أباً ! فنودي من غمامة يا أيوب ممن كان ذلك التوفيق ؟ فأخذ أيوب التراب ووضعه على رأسه ، وقال منك يا رب ثم خاف من الخاطر الأول فقال : ﴿ مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ وقد ذكروا أقوالاً أخرى ، والله أعلم بحقيقة الحال ، وسمعت بعض اليهود يقول : إن لموسى بن عمران عليه السلام كتاباً مفرداً في واقعة أيوب ، وحاصل ذلك الكتاب أن أيوب كان رجلاً كثير الطاعة لله تعالى مواظباً على العبادة ، مبالغاً في التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله ، ثم إنه وقع في البلاء الشديد والعناء العظيم ، فهل كان ذلك لحكمة أم لا ؟ فإن كان ذلك لحكمة فمن المعلوم أنه ما أتى بجرم في الزمان السابق حتى يجعل ذلك العذاب في مقابلة ذلك الجرم ، وإن كان ذلك لكثرة الثواب فالإله الحكيم الرحيم قادر على إيصال كل خير ومنفعة إليه من غير توسط تلك الآلام الطويلة والأسقام الكريهة .

وحينئذٍ لا يبقى في تلك الأمراض والآفات فائدة ، وهذه كلمات ظاهرة جلية وهي دالة

على أن أفعال ذي الجلال منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد ، والحق الصريح أنه ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] .

المسألة الثالثة :

(17/661)

لفظ الآية يدل على أن ذلك النصب والعذاب إنما حصل من الشيطان ثم ذلك العذاب على القول الأول عبارة عما حصل في بدنه من الأمراض ، وعلى القول الثاني عبارة عن الأحزان الحاصلة في قلبه بسبب إلقاء الوساوس ، وعلى التقديرين فيلزم إثبات الفعل للشيطان ، وأجاب أصحابنا رحمهم الله بأنا لا ننكر إثبات الفعل للشيطان لكنا نقول فعل العبد مخلوق لله تعالى على التفصيل المعلوم .

أما قوله تعالى : ﴿ اركض بِرِجْلِكَ ﴾ فالمعنى أنه لما شكى من الشيطان ، فكأنه سأل ربه أن يزيل عنه تلك البلية فأجابه الله إليه بأن قال له : ﴿ اركض بِرِجْلِكَ ﴾ والركض هو الدفع القوي بالرجل ، ومنه ركضك الفرس ، والتقدير قلنا له اركض برجلك ، قيل إنه ضرب رجله تلك الأرض فنبعت عين فقيل : ﴿ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أي هذا ماء تغتسل به فيبرأ باطنك ، وظاهر اللفظ يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء اغتسل

فيه وشرب منه .

والمفسرون قالوا نبعت له عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى ، فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه بإذن الله ، وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ فقد قيل هم عين أهله وزيادة مثلهم ، وقيل غيرهم مثلهم ، والأول : أولى لأنه هو الظاهر فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : معناه أزلنا عنهم السقم فعادوا أصحاء ، وقال بعضهم : بل حضروا عنده بعد أن غابوا عنه واجتمعوا بعد أن تفرقوا .

وقال بعضهم : بل تمكن منهم وتمكنوا منه فيما يتصل بالعشرة وبالخدمة .

أما قوله : ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ﴾ فالأقرب أنه تعالى متعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك ، وقال الحسن رحمه الله : المراد بهبة الأهل أنه تعالى أحياهم بعد أن هلكوا .

(18/661)

ثم قال : ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي إنما فعلنا كل هذه الأفعال على سبيل الفضل والرحمة ، لا على سبيل اللزوم .

ثم قال : ﴿ وذكرى لِأُوْلِى الألباب ﴾ يعني سلطنا البلاء عليه أولاً فصبر ثم أزلنا عنه البلاء وأوصلناه إلى الآلاء والنعماء ، تنبيهاً لأولي الألباب على أن من صبر ظفر ، والمقصود منه التنبيه على ما وقع ابتداء الكلام به وهو قوله لمحمد : ﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودُ ﴾ وقالت المعتزلة قوله تعالى : ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا وذكرى لِأُوْلِى الألباب ﴾ يعني إنما فعلناها لهذه الأغراض والمقاصد ، وذلك يدل على أن أفعال الله وأحكامه معللة بالأغراض والمصالح والكلام في هذا الباب قد مر غير مرة .

أما قوله تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ فهو معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك .

واعلم أن هذا الكلام يدل على تقدم يمين منه ، وفي الخبر أنه حلف على أهله ، ثم اختلفوا في السبب الذي لأجله حلف عليها ، ويبعد ما قيل إنها رغبته في طاعة الشيطان ، ويبعد أيضاً ما روي أنها قطعت الذوائب عن رأسها لأن المضطر إلى الطعام يباح له ذلك بل الأقرب أنها خالفته في بعض المهمات ، وذلك أنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت فحلف في مرضه ليضربنها مائة إذا برىء ، ولما كانت حسنة الخدمة له لا جرم حلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها ، وهذه الرخصة باقية ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى بمجذم

خبث بأمة فقال :

" خذوا عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة " .

(19/661)

ثم قال تعالى : ﴿ إنا وجدناه صابراً ﴾ فإن قيل كيف وجده صابراً وقد شكى إليه ، والجواب من وجوه الأول : أنه شكى من الشيطان إليه وما شكى منه إلى أحد الثاني : أن الألم حين كان على الجسد لم يذكر شيئاً فلما عظمت الوساوس خاف على القلب والدين فتضرع الثالث : أن الشيطان عدو ، والشكاية من العدو إلى الحبيب لا تقدح في الصبر ، ثم قال : ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ وهذا يدل على أن تشريف نعم العبد ، إنما حصل لكونه أواباً ، وسمعت بعضهم قال : لما نزل قوله تعالى : ﴿ نعم العبد ﴾ في حق سليمان عليه السلام تارة ، وفي حق أيوب عليه السلام أخرى عظم الغم في قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقالوا إن قوله تعالى : ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ في حق سليمان تشريف عظيم ، فإن احتجنا إلى اتفاق مملكة مثل مملكة سليمان حتى يجد هذا التشريف لم نقدر عليه ، وإن احتجنا إلى تحمل بلاء مثل أيوب لم نقدر عليه ، فكيف السبيل إلى تحصيله .

فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ نِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير ﴾ [الأنفال : 40] والمراد أنك إن لم تكن

﴿نِعْمَ العبد﴾ فأنا ﴿نِعْمَ المولى﴾ وإن كان منك الفضول، فمني الفضل، وإن كان منك التقصير، فمني الرحمة والتيسير. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 185. 188﴾

(20/661)

وقال ابن العربى:

قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِك ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إنَّهُ أَوَّابٌ ﴾.

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: فِي سَبَبِ حَلِفِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: اتَّخَذَ إبْلِيسُ تَابُوتًا، فَوَقَفَ عَلَى الطَّرِيقِ يُدَاوِي النَّاسَ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةُ أَيُّوبَ، فَقَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ؛ إنَّ هَاهُنَا إنْسَانًا مُبْتَلًى فِي أَمْرِهِ كَذَا وَكَذَا، فَهَلْ لَك أَنْ تُدَاوِيَهُ؟ قَالَ لَهَا: نَعَمْ، عَلَى أَنِّي إنْ شَفَيْته يَقُولُ كَلِمَةً وَاحِدَةً: أَنْتَ شَفَيْتِنِي، لَا أُرِيدُ مِنْهُ غَيْرَهَا.

فَأَخْبَرَتْ بِذَلِكَ أَيُّوبَ، فَقَالَ: وَيْحَك، ذَلِكَ الشَّيْطَانُ، لِلَّهِ عَلَيَّ إنْ شَفَانِي اللَّهُ لَأَجْلِدَنَّك مِائَةَ جَلْدَةٍ.

فَلَمَّا شَفَاهُ اللَّهُ أَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ ضِغْثًا فَيَضْرِبَهَا بِهِ ، فَأَخَذَ شَمَارِيخَ قَدْرَ مِائَةٍ ، فَضَرَبَهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ : إنَّمَا كَانَ حِينَ بَاعَتْ ذَوَائِبَهَا فِي طَعَامِهِ ، وَقَدْ كَانَتْ عَدِمَتْ الطَّعَامَ ، وَكَرِهَتْ أَنْ تَتْرُكَهُ جَائِعًا ، فَبَاعَتْ ذَوَائِبَهَا وَجَاءَتْهُ بِطَعَامٍ طَيِّبٍ مِرَارًا ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا ، فَعَرَّفَتْهُ بِهِ ، فَقَالَ مَا قَالَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي عُمُومِ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَخُصُوصِهَا : رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهَا لِلنَّاسِ عَامَّةً .

(21/661)

وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ أَنَّهَا بِالنَّكِرَةِ خَاصَّةً ، وَكَذَلِكَ رَوَى ابْنُ زَيْدٍ عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ : مَنْ حَلَفَ لَيَضْرِبَنَّ عَبْدَهُ مِائَةً ، فَجَمَعَهَا فَضَرَبَهُ بِهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً لَمْ يَبَرَّ .

قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : يُرِيدُ مَالِكٌ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ .

قَالَ الْقَاضِي : شَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، وَإِنَّمَا انْفَرَدَ مَالِكٌ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ قِصَّةِ أَيُّوبَ هَذِهِ لَا عَنْ شَرِيعَتِهِ لِتَأْوِيلٍ بَدِيعٍ ، وَهُوَ أَنَّ مَجْرَى الْإِيمَانِ عِنْدَ مَالِكٍ فِي سَبِيلِ النِّيَّةِ وَالْقَصْدِ أَوْلَى لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ﴾ .

وَالنِّيَّةُ أَصْلُ الشَّرِيعَةِ ، وَعِمَادُ الْأَعْمَالِ ، وَعِيَارُ التَّكْلِيفِ ؛ وَهِيَ مَسْأَلَةُ خِلَافٍ كَبِيرَةٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَ فُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ قَدْ أَوْضَحْنَاهَا فِي كُتُبِ الْخِلَافِ .

وَقِصَّةُ أَيُّوبَ هَذِهِ لَمْ يَصِحَّ كَيْفِيَّةُ يَمِينِ أَيُّوبَ فِيهَا فَإِنَّهُ رَوَى أَنَّهُ قَالَ : إنْ شَفَانِي اللَّهُ جَلَدْتُك . وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ : وَاَللَّهِ لَأَجْلِدَنَّك وَهَذِهِ الرِّوَايَاتُ عَنْ كُتُبِ التِّرْمِذِيِّ لَا يَنْبَنِي عَلَيْهَا حُكْمٌ ، فَلَا فَائِدَةَ فِي النَّصْبِ فِيهَا وَلَا فِي إشْكَالِهَا بِسَبِيلِ التَّأْوِيلِ ، وَلَا طَلَبَ الْجَمْعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَيْرِهَا بِجَمْعِ الدَّلِيلِ .

(22/661)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَحَدِ وَجْهَيْنِ : إمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي شَرْعِهِ كَفَّارَةٌ ، وَإِنَّمَا كَانَ الْبِرُّ أَوْ الْحِنْثُ .

وَالثَّانِي : أَنْ يَكُونَ مَا صَدَرَ مِنْهُ نَذْرًا لَا يَمِينًا ، وَإِذَا كَانَ النَّذْرُ مُعَيَّنًا فَلَا كَفَّارَةَ فِيهِ عِنْدَ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : فِي كُلِّ نَذْرٍ كَفَّارَةٌ ، وَهَلْ مَخْرَجُهَا عَلَى التَّفْصِيلِ أَوْ الْإِجْمَالِ ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(23/661)

وقال ابن عطية :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ﴾

﴿ أيوب ﴾ هو نبي من بني إسرائيل من ذرية يعقوب عليه السلام ، وهو نبي ابتلي في جسده وماله وأهله ، وسلم دينه ومعتقده ، وروي في ذلك أن الله سلط الشيطان عليه ليفتنه عن دينه ، فأصابه في ماله ، وقال له : إن أطعتني رجع مالك ، فلم يطعه ، فأصابه في أهله وولده ، فهلكوا من عند آخرهم ، وقال له : لو أطعتني رجعوا ، فلم يطعه ، فأصابه في جسده ، فثبت أيوب على أمر الله سبع سنين وسبعة أشهر ، قاله قتادة . وروى أنس عن النبي عليه السلام أن أيوب بقي في محنته ثماني عشر سنة يتساقط لحمه حتى مله العالم ، ولم يصبر عليه إلا امرأته . وروي أن السبب الذي امتحن الله أيوب من أجله هو : أنه دخل على بعض الملوك فرأى منكراً فلم يغيره . وروي أن السبب : كان أنه ذبح شاة وطبخها وأكلت عنده ، وجار له جائع لم يعطه منها شيئاً . وروي أن أيوب لما تناهى بلاؤه وصبره ، مر به رجلان ممن كان بينه وبينهما معرفة فتقرعاه ، وقالا له : لقد أذنبت ذنباً ما أذنب أحد مثله ، وفهم منهما شماتاً به ، فعند ذلك دعا ونادى ربه .

وقوله عليه السلام : ﴿ مسني الشيطان ﴾ يحتمل أن يشير إلى مسه حين سلطه الله عليه حسبما ذكرنا ، ويحتمل أن يريد : مسه إياه حين حمله في أول الأمر على أن يواقع الذنب

الذي من أجله كانت المحنة ، إما ترك التغيير عند الملك ، وإما ترك مواساة الجار . وقيل أشار إلى مسه إياه في تعرضه لأهله وطلبه منه أن يشرك بالله ، فكان أيوب يتشكى هذا الفعل ، وكان أشد عليه من مرضه .

وقرأ الجمهور : " أني " بفتح الهمزة . وقرأ عيسى بن عمر : " إني " بكسرها .

وقوله : ﴿ أني ﴾ في موضع نصب بإسقاط حرف الجر .

(24/661)

وقرأ جمهور الناس : " بنُصْب " بضم النون وسكون الصاد . وقرأ هبيرة عن حفص عن عاصم : " بنَصَب " بفتح النون والصاد ، وهي قراءة الجحدري ويعقوب ، ورويت عن الحسن وأبي جعفر . وقرأ أبو عمارة عن حفص عن عاصم : " بنُصُب " بضم النون والصاد ، وهي قراءة أبي جعفر بن القعقاع والحسن بخلاف عنه ، وروى أيضاً هبيرة عن حفص عن عاصم بفتح النون وسكون الصاد ، وذلك كله بمعنى واحد ، معناه المشقة ، وكثيراً ما يستعمل النصب في مشقة الإعياء ، وفرق بعض الناس بين هذه الألفاظ ، والصواب أنها لغات بمعنى ، من قولهم أنصبني الأمر ونصبني إذا شق علي ، فمن ذلك الشاعر [الطويل]

تبغاك نصب من أميمة منصب . . . ومثله قول النابغة : [الطويل]

كليني لهمٍّ يا أميمة ناصب . . . قال القاضي أبو محمد : وقد قيل في هذا البيت إن ناصباً بمعنى منصب ، وأنه على النسب ، أي ذا نصب ، وهنا في الآية محذوف كثير ، تقديره : فاستجاب له .

وقال ﴿ اركض برجلك ﴾ والركض : الضرب بالرجل ، والمعنى : اركض الأرض . وروي عن قتادة أن هذا الأمر كان في الجابية من أرض الشام . وروي أن أيوب أمر بركض الأرض فيها ، فنبعت له عين ماء صافية باردة فشرب منها ، فذهب كل مرض في داخل جسده ، ثم اغتسل فذهب ما كان في ظاهر بدنه . وروي أنه ركض مرتين ونبع له عينان : شرب من إحداهما ، واغتسل في الأخرى وقرأ نافع وشيبة وعاصم والأعمش . " بعذاب اركض " ، بضم نون التنوين . وقرأ عامة قراء البصرة : " بعذاب اركض " ، بنون مكسورة و: ﴿ مغتسل ﴾ معناه : موضع غسل ، وماء غسل ، كما تقول : هذا الأمر معتبر ، وهذا الماء مغتسل مثله . وروي أن الله تعالى وهب له أهله وماله في الدنيا ، ورد من مات منهم ، وما هلك من ماشيته وحاله ثم بارك في جميع ذلك ، وولد له الأولاد حتى تضاعف الحال . وروي أن هذا كله وعد في الآخرة ، أي يفعل الله له ذلك في الآخرة ، والأول أكثر في قول المفسرين . و﴿ رحمة ﴾ نصب على المصدر .

وقوله : ﴿ وذكرى ﴾ معناه : موعظة وتذكرة يعتبر بها أهل العقول ويتأسون بصبره في الشدائد ولا ييأسون من رحمة الله على حال . وروي أن أيوب عليه السلام كانت زوجته مدة مرضه تختلف إليه ، فيلقاها الشيطان في صورة طبيب ، ومرة في هيسة ناصح وعلى غير ذلك ، فيقول لها : لو سجد هذا المريض للصنم الفلاني لبرىء ، لو ذبح عناقاً للصنم الفلاني لبرىء ويعرض عليها وجوهاً من الكفر ، فكانت هي ربما عرضت ذلك على أيوب ، فيقول لها : ألقيت عدو الله في طريقك ؟ فلما أغضبته بهذا ونحوه ، حلف لها لئن برىء من مرضه ليضربنها مائة سوط ، فلما برىء أمره الله أن يأخذ ضغثاً فيه مائة قضيب . و" الضغث " القبضة الكبيرة من القضبان ونحوها من الشجرة الرطب ، قاله الضحاك وأهل اللغة فيضرب به ضربة واحدة فتبر يمينه ، ومنه قولهم : ضغث على إبالة . والإبالة : الحزم من الحطب . و" الضغث " : القبضة عليها من الحطب أيضاً ، ومنه قول الشاعر [عوف بن الخرع] : [الطويل]

وأسفل مني نهدة قد ربطتها . . . وألقيت ضغثاً من خلى متطبب

ويروى متطيب . هذا حكم قد ورد في شرعنا عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله في حد زنا لرجل زمن ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعذق نخلة فيها شماريخ مائة أو نحوها ، فضرب به ضربة ، ذكر الحديث أبو داود ، وقال بهذا بعض فقهاء الأمة ، وليس

يرى ذلك مالك بن أنس وجميع أصحابه ، وكذلك جمهور العلماء على ترك القول به ، وأن الحدود والبر في الأيمان لا يقع إلا بإتمام عدد الضربات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(26/661)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واذكر عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾

أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم في الصبر على المكاره .

"أَيُّوبَ" بدل .

﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ وقرأ عيسى بن عمر "إِنِّي" بكسر الهمزة أي قال .

قال الفراء : وأجمعت القراء على أن قرؤوا "بِنُصْبٍ" بضم النون والتخفيف .

النحاس : وهذا غلط وبعده مناقضة وغلط أيضاً ؛ لأنه قال : أجمعت القراء على هذا ، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيد بن القعقاع أنه قرأ : "بِنَصَبٍ" بفتح النون والصاد فغلط على أبي جعفر ، وإنما قرأ أبو جعفر "بِنُصُبٍ" بضم النون والصاد ؛ كذا حكاه أبو عبيد

وغيره وهو مروي عن الحسن .

فأما "بِنَصَبٍ" فقراءة عاصم الجحدريّ ويعقوب الحضرميّ .

وقد رويت هذه القراءة عن الحسن .

وقد حكي "بِنَصْبٍ" بفتح النون وسكون الصاد عن أبي جعفر .

وهذا كله عند أكثر النحويين بمعنى النَّصَب ؛ فنُصْب ونَصَب كحزْن وحَزَن .

وقد يجوز أن يكون نُصْب جمع نَصَبٍ كوُثْن ووَثَنٍ .

ويجوز أن يكون نُصْب بمعنى نُصُب حذفت منه الضمة ، فأما ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النصب ﴾ [المائدة : 3] فقيل : إنه جمع نصاب .

وقال أبو عبيدة وغيره : النُّصْبُ الشر والبلاء .

والنَّصَب التعب والإعياء .

وقد قيل في معنى : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ أي ما يلحقه من وسوسته لا غير .

والله أعلم .

ذكره النحاس .

وقيل : إن النصب ما أصابه في بدنه ، والعذاب ما أصابه في ماله ؛ وفيه بُعْد .

وقال المفسرون : إن أيوب كان روميا من البَثَنِيَّة وكنيته أبو عبد الله في قول الواقدي ؛

اصطفاه الله بالنبوّة ، وأتاه جملة عظيمة من الثروة في أنواع الأموال والأولاد .

وكان شاكراً لأنْعُم الله ، مواسياً لعباد الله ، بَرًّا رحيماً .

ولم يؤمن به إلا ثلاثة نفر .

(27/661)

وكان لإبليس موقف من السماء السابعة في يوم من الأيام ، فوقف به إبليس على عادته ؛ فقال الله له أو قيل له عنه : أَقَدَرْتَ من عبدي أيوب على شيء ؟ فقال : يا رب ! وكيف أقدر منه على شيء ، وقد ابتليته بالمال والعافية ، فلو ابتليته بالبلاء والفقر ونزعت منه ما أعطيته لحال عن حاله ، ولخرج عن طاعتك .

قال الله : قد سلطتك على أهله وماله .

فانحط عدوُّ الله فجمع عفاريت الجن فأعلمهم ، وقال قائل منهم : أكون إعصاراً فيه نار أهلك ماله فكان ؛ فجاء أيوبَ في صورة قَيِّم ماله فأعلمه بما جرى ؛ فقال : الحمد لله هو أعطاه وهو منعه .

ثم جاء قصره بأهله وولده ، فاحتمل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده ، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسه ، وصعد إبليس إلى السماء فسبقته توبة أيوب .

قال : يا رب سلطني على بدنه .

قال : قد سلطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبه وبصره ، فنفخ في جسده نفخة اشتعل (منها) فصار في جسده ثآليل فحكها بأظفاره حتى دميت ، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه .

وقال عند ذلك : "مَسَّنِي الشَّيْطَانُ" .

ولم يخلص إلى شيء من حشوة البطن ؛ لأنه لا بقاء للنفس إلا بها فهو يأكل ويشرب ، فمكث كذلك ثلاث سنين .

فلما غلبه أيوب اعترض لامرأته في هيئة أعظم من هيئة بني آدم في القدر والجمال ، وقال لها : أنا إله الأرض ، وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت ، ولو سجدت لي سجدة واحدة لرددت عليه أهله وماله وهم عندي .

وعرض لها في بطن الوادي ذلك كله في صورته ؛ أي أظهره لها ، فأخبرت أيوب فأقسم أن يضربها إن عافاه الله .

وذكروا كلاماً طويلاً في (سبب بلائه و) مراجعته لربه وتبرمه من البلاء الذي نزل به ، وأن النفر الثلاثة الذين آمنوا به نهوه عن ذلك واعترضوا عليه ؛ وقيل : استعان به مظلوم فلم ينصره فابتلي بسبب ذلك .

وقيل : استضاف يوماً الناس فمنع فقيراً الدخول فابتلي بذلك .

وقيل : كان أيوب يغزو ملكاً وكان له غنم في ولايته ، فداهنه لأجلها بترك غزوه فابتلي .

وقيل : كان الناس يتعدّون امرأته ويقولون نخشى العدوى وكانوا يستقذرونها ؛ فلهذا قال :

﴿ مَسَّنِيَ الشيطان ﴾ .

وامرأته ليا بنت يعقوب .

وكان أيوب في زمن يعقوب وكانت أمه ابنة لوط .

وقيل : كانت زوجة أيوب رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام .

ذكر القولين الطبري رحمه الله .

قال ابن العربي : ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان في السماء السابعة يوماً من العام فقول باطل ؛ لأنه أهبط منها بلعنة وسخط إلى الأرض ، فكيف يرقى إلى محل الرضا ، ويجول في مقامات الأنبياء ، ويخترق السموات العلى ، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء ، فيقف موقف الخليل ؟! إن هذا لخطب من الجهالة عظيم .

وأما قولهم : إن الله تعالى قال له هل قدرت من عبدي أيوب على شيء فباطل قطعاً ؛ لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون ؛ فكيف يكلم من تَوَلَّى

إضلالهم ؟ .

ا وأما قولهم : إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده فذلك ممكن في القدرة ، ولكنه بعيد في هذه القصة .

وكذلك قولهم : إنه نفخ في جسده حين سلَّطه عليه فهو أبعد ، والباري سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان فيه كسب حتى تقِرّ له لعنةُ الله عليه عينٌ بالتمكن من الأنبياء في أموالهم وأهليهم وأنفسهم .

وأما قولهم : إنه قال لزوجته أنا إله الأرض ، ولو تركتِ ذكر الله وسجدتِ أنتِ لي لعافيته ، فاعلموا وإنكم لتعلمون أنه لو عرض لأحدكم وبه ألم وقال هذا الكلام ما جاز عنده أن يكون إلها في الأرض ، وأنه يسجد له ، وأنه يعافي من البلاء ، فكيف أن تستريب زوجة نبي ؟ا ولو كانت زوجة سواديّ أو فَدْم بربريّ ما ساغ ذلك عندها .

وأما تصويره الأموال والأهل في وادٍ للمرأة فذلك ما لا يقدر عليه إبليس بحال ، ولا هو في طريق السحر فيقال إنه من جنسه .

(29/661)

ولو تصوّر لعلمت المرأة أنه سحر كما نعلمه نحن وهي فوقنا في المعرفة بذلك ؛ فإنه لم يخل زمان قط من السحرِ وحديثه وجريه بين الناس وتصويره .

قال القاضي : والذي جرأهم على ذلك وتذرّعوا به إلى ذكر هذا قوله تعالى : ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ فلما رأوه قد شكا مسّ الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير في هذه الأقوال .

وليس الأمر كما زعموا والأفعال كلها خيرها وشرها ، في إيمانها وكفرها ، طاعتها وعصيانها ، خالقها هو الله لا شريك له في خلقه ، ولا في خلق شيء غيرها ، ولكن الشر لا ينسب إليه ذِكرا ، وإن كان موجوداً منه خَلْقا ؛ أدباً أدّبنا به ، وتحميداً علّمناه ، " وكان من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم لربه به قوله من جملته : "والخير في يديك والشر ليس إليك" " على هذا المعنى .

ومنه قول إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 80] وقال الفتى للكليم : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان ﴾ [الكهف : 63] وأما قولهم : إنه استعان به مظلوم فلم ينصره .

فمن لنا بصحة هذا القول .

ولا يخلو أن يكون قادراً على نصره ، فلا يحلّ لأحد تركه فيلام على أنه عصى وهو منزّه عن ذلك .

أو كان عاجزاً فلا شيء عليه في ذلك ، وكذلك قولهم : إنه منع فقيراً من الدخول ؛ إن كان علم به فهو باطل عليه ، وإن لم يعلم به فلا شيء عليه فيه .

وأما قولهم : إنه داهن على غنمه الملك الكافر فلا تقل داهن ولكن قل دارى .

ودفع الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز ؛ نعم وبحسن الكلام .

قال ابن العربي القاضي أبو بكر رضي الله عنه : ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين ؛ الأولى قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر ﴾ [الأنبياء : 83] والثانية في "صا" ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ .

(30/661)

وأما النبي صلى الله عليه وسلم فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله : " بينا أيوب يغتسل إذ خرّ عليه رِجل من جراد من ذهب " الحديث .

وإذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه ، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره ، أم على أيّ لسان سمعه ؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات ؛ فأعرض عن سطورها بصرك ، وأصمم عن سماعها أذنيك ، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا .

وفي الصحيح واللفظ للبخاري أن ابن عباس قال : يا معشر المسلمين ! تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله ، تقرؤونه مَحْضاً لم يُشَب ، وقد حدّثكم أن أهل الكتاب قد بدّلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب ؛ فقالوا : ﴿ هذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [البقرة : 79] ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم ، وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة .

قوله تعالى : ﴿ اركض بِرِجْلِكَ ﴾ الركض الدفع بالرجل .

يقال : رَكَض الدابةَ ورَكَض ثوبه برجله .

وقال المبرّد : الرَّكْض التحريك ؛ ولهذا قال الأصمعي : يقال رَكِضَت الدابّة ولا يقال رَكَضَت هي ؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لها في ذلك .

وحكى سيبويه : رَكَضتُ الدابةَ فركضتْ مثل جَبرتُ العظم فَجبَر وحزنته فحزن ؛ وفي الكلام إضمار أي قلنا له : "ارْكُضْ" قاله الكسائي .

وهذا لما عافاه الله .

﴿ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أي فركض فنبعت عين ماء فاغتسل به ، فذهب الداء من ظاهره ، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه .

وقال قتادة : هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها الجابية ، فاغتسل من إحداهما فأذهب الله تعالى ظاهر دائه ، وشرب من الأخرى فأذهب الله تعالى باطن دائه .

(31/661)

ونحوه عن الحسن ومقاتل ؛ قال مقاتل ؛ نبعت عين حارّة واغتسل فيها فخرج صحيحاً ، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذباً .

وقيل : أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء في جسده .

والمغتسل الماء الذي يغتسل به ؛ قاله القتبي .

وقيل : إنه الموضع الذي يغتسل فيه ؛ قاله مقاتل .

الجوهري : واغتسلت بالماء ، والغسول الماء الذي يغتسل به ، وكذلك المغتسل ، قال الله تعالى : ﴿ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ والمغتسل أيضاً الذي يغتسل فيه ، والمَغْسِل والمَغْسَل بكسر السين وفتحها مغسِل الموتى والجمع المغاسل .

واختلف كم بقي أيوب في البلاء ؛ فقال ابن عباس : سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

وقال وهب بن منبّه : أصاب أيوب البلاء سبع سنين ، وترك يوسف في السجن سبع سنين ،

وعُذِّب بُخْتَنصَّر وحُوِّل في السباع سبع سنين .

ذكره أبو نعيم .

وقيل : عشر سنين .

وقيل : ثمان عشرة سنة .

رواه أنس مرفوعاً فيما ذكر الماوردي .

قلت : وذكره ابن المبارك ؛ أخبرنا يونس بن يزيد ، عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوماً أيوب ، وما أصابه من البلاء ، وذكر أن البلاء الذي أصابه كان به ثمان عشرة سنة .

وذكر الحديث القشيري .

وقيل : أربعين سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ﴾ تقدّم في "الأنبياء" الكلام فيه .

﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي نعمة منا .

﴿ وذكرى لأُوْلِي الألباب ﴾ أي عبرة لذوي العقول .

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)

فيه سبع مسائل :

الأولى : كان أيوب حلف في مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة ؛ وفي سبب ذلك أربعة

أقوال : أحدها : ما حكاه ابن عباس أن إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب ؛ فقال أداويه على أنه إذا برىء قال أنت شفيتني ، لا أريد جزاء سواه .

(32/661)

قالت : نعم ! فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها .

وقال : وَيْحَكِ ذلك الشيطان .

الثاني : ما حكاه سعيد بن المسيّب ، أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز ، فخاف خيانتها فحلف ليضربنها .

الثالث : ما حكاه يحيى بن سلاّم وغيره : أن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقرّباً إليه وأنه يبرأ ؛ فذكرت ذلك له فحلف ليضربنها إن عوفي مائة .

و(الرابع) قيل : باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئاً تحمله إلى أيوب ، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام ، فلهذا حلف ليضربنها ، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثاً فيضرب به ، فأخذ شماريخ قدر مائة فضربها ضربة واحدة .

وقيل : الضغث قبضة حشيش مختلطة الرَّطب باليابس .

وقال ابن عباس : إنه إثكال النخل الجامع بشماريخه .

الثانية : تضمنت هذه الآية جواز ضرب الرجل امرأته تأديباً .

وذلك أن امرأة أيوب أخطأت فحلف ليضربنها مائة ، فأمره الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخل ، وهذا لا يجوز في الحدود .

إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب امرأته فوق حدّ الأدب .

وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب امرأته فوق حدّ الأدب ؛ ولهذا قال عليه السلام : " واضربوهنّ ضرباً غير مُبرِّح " على ما تقدم في "النساء" بيانه .

الثالثة : واختلف العلماء في هذا الحكم هل هو عام أو خاص بأيوب وحده ؛ فروي عن مجاهد أنه عام للناس .

ذكره ابن العربي .

وحكي عن القشيري أن ذلك خاص بأيوب .

وحكى المهدوي عن عطاء بن أبي رباح أنه ذهب إلى أن ذلك حكم باق ، وأنه إذا ضرب بمائة قضيب ونحوه ضربة واحدة بَرَّ .

وروى نحوه الشافعي .

وروي نحوه عن النبي صلى الله عليه وسلم في المقعد الذي حملت منه الوليدة ، وأمر أن يضرب بعثكول فيه مائة شمراخ ضربة واحدة .

وقال القشيري : وقيل لعطاء هل يعمل بهذا اليوم ؟ فقال : ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ويتبع .

ابن العربي : وروي عن عطاء أنها لأيوب خاصة .

(33/661)

وكذلك روى أبو زيد عن ابن القاسم عن مالك : من حلف ليضربنّ عبده مائة فجمعها فضربه بها ضربة واحدة لم يبرّ .

قال بعض علمائنا : يريد مالك قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة : 48] أي إن ذلك منسوخ بشريعتنا .

قال ابن المنذر : وقد روينا عن عليّ أنه جلد الوليد بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة .

وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل : ﴿ فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور : 2] وهذا مذهب أصحاب الرأي .

وقد احتج الشافعي لقوله بحديث ، وقد تُكلِّم في إسناده ؛ والله أعلم .

قلت : الحديث الذي احتج به الشافعي خرجه أبو داود في سننه قال : حدثنا أحمد بن سعيد الهَمْداني ، قال حدثنا ابن وهب ، قال : أخبرني يونس عن ابن شهاب ، قال :

أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار ، أنه اشتكى رجل منهم حتى أَضْنَى ، فعاد جِلدةً على عظم ، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهش لها فوقع عليها ، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال : استفتوا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإني قد وقعت على جارية دخلت عليّ .

فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : ما رأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذي هو به ؛ لو حملناه إليك لتفسخت عظامه ، ما هو إلا جلد على عظم ؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة .

قال الشافعي : إذا حلف ليضربنّ فلاناً مائة جلدة ، أو ضرباً ولم يقل ضرباً شديداً ولم ينو ذلك بقلبه يكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية ولا يحنث .

قال ابن المنذر : وإذا حلف الرجل ليضربن عبده مائة فضربه ضرباً خفيفاً فهو بارّ عند الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي .

وقال مالك : ليس الضرب إلا الضرب الذي يؤلم .

(34/661)

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ دليل على أن الاستثناء في اليمين لا يرفع حكماً إذا كان متراخياً .

وقد مضى القول فيه في "المائدة" يقال : حنث في يمينه يحنث إذا لم يَبرّ بها .

وعند الكوفيين الواو مقحمة أي فاضرب لا تحنث .

الخامسة : قال ابن العربي : قوله تعالى : ﴿ فاضرب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ يدل على أحد وجهين : إما أن يكون أنه لم يكن في شرعهم كفارة ، وإنما كان البرّ والحِنث .

والثاني أن يكون صدر منه نذر لا يمين ، وإذا كان النذر معيَّناً فلا كفارة فيه عند مالك وأبي حنيفة .

وقال الشافعي : في كل نذر كفارة .

قلت : قوله إنه لم يكن في شرعهم كفارة ليس بصحيح ؛ فإن أيوب عليه السلام لما بقي في البلاء ثمان عشرة سنة ، كما في حديث ابن شهاب ، قال له صاحباه : لقد أذنبت ذنباً ما أظنّ أحداً بلغه .

فقال أيوب صلى الله عليه وسلم : ما أدري ما تقولان ، غير أن ربي عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتزاعمان فكل يحلف بالله ، أو على النفر يتزاعمون فأنقلب إلى أهلي ، فأكفر عن أيمانهم إرادة ألاّ يأثم أحد يذكره ولا يذكره إلا بحق فنَادَى ربه .

﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ﴾

[الأنبياء : 83] وذكر الحديث .

فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب ، وأن من كفّر عن غيره بغير إذنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة .

السادسة : استدل بعض جهّال المتزهدة ؛ وَطَغام المتصوّفة بقوله تعالى لأيوب : "ارْكُضْ بِرِجْلِكَ" على جواز الرقص .

قال أبو الفرج الجوزي : وهذا احتجاج بارد ؛ لأنه لو كان أمر بضرب الرجل فرحاً كان لهم فيه شبهة ، وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء .

(35/661)

قال ابن عقيل : أين الدلالة في مبتلى أمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازاً من الرقص ولئن جاز أن يكون تحريك رجل قد أنحلها تحكم الهوامّ دلالة على جواز الرقص في الإسلام ، جاز أن يجعل قوله سبحانه لموسى : ﴿ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر ﴾ [الأعراف : 160] دلالة على ضرب المحادّ بالقضبان ! نعوذ بالله من التلاعب بالشرع .

وقد احتج بعض قاصريهم " بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعليّ : "أنت منّي وأنا

منك" فحَجل .

وقال لجعفر : "أشبهت خَلْقي وخُلُقي" فحَجَل .

وقال لزيد : "أنت أخونا ومولانا" فحجل " ومنهم من احتج بأن الحبشة زَفَنت والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر إليهم .

والجواب : أما الْحَجْل فهو نوع من المشي يُفعل عند الفرح فأين هو والرقص ، وكذلك زَفْن الحبشة نوع من المشي يفعل عند اللقاء للحرب .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ أي على البلاء .

﴿ نِعْمَ العبد إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي توّاب رجّاع مطيع .

وسئل سفيان عن عبدين ابتلي أحدهما فصبر ، وأنعم على الآخر فشكر ؛ فقال : كلاهما سواء ؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين ، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحداً ؛ فقال في وصف أيوب : "نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ" وقال في وصف سليمان : "نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ" .

قلت : وقد ردّ هذا الكلام صاحب "القوت" واستدل بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغنيّ وذكر كلاماً كثيراً شيد به كلامه ، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع من كتاب "منهج العباد ومحجة السالكين والزهاد" .

وخفي عليه أن أيوب عليه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده ، وإنما

ابتلي بذهاب ماله وولده وعظيم الداء في جسده .

وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به امتُحِنوا وفُتِنوا .

(36/661)

فأيوب عليه السلام دخل في البلاء على صفة ، فخرج منه كما دخل فيه ، وما تغيّر منه حال ولا مقال ، فقد اجتمع مع أيوب في المعنى المقصود ، وهو عدم التغير الذي يفضل فيه بعض الناس بعضاً .

وبهذا الاعتبار يكون الغني الشاكر والفقير الصابر سواء .

وهو كما قال سفيان .

والله أعلم .

وفي حديث ابن شهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم :

" إن أيوب خرج لما كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه : ﴿ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فاغتسل فأعاد الله لحمه وشعره وبشره على أحسن ما كان ثم شرب فأذهب الله كل ما كان في جوفه من ألم أو ضعف وأنزل الله عليه ثوبين من السماء أبيضين فائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ثم أقبل يمشي إلى منزله وراثَ على امرأته فأقبلت

حتى لقيته وهي لا تعرفه فسلّمت عليه وقالت أي يرحمك الله هل رأيت هذا الرجل المبتَلَى ؟ قال من هو ؟ قالت نبيّ الله أيوب ، أما والله ما رأيت أحداً قط أشبه به منك إذ كان صحيحاً .

قال فإني أيوب وأخذ ضِغْثاً فضربها به "

فزعم ابن شهاب أن ذلك الضغث كان ثماماً ، وردّ الله إليه أهله ومثلهم معهم ، فأقبلت سحابة حتى سجلت في أندر قمحه ذهباً حتى امتلأ ، وأقبلت سحابة أخرى إلى أُنْدَر شعيره وقطانِيه فسَجَلت فيه وَرِقا حتى امتلأ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(37/661)

وقال أبو السعود :

﴿ واذكر عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾

عطفٌ على اذكُر عبدنا داودَ . وعدمُ تصديرِ قصَّةِ سليمانَ بهذا العُنوان لكمالِ الاتّصالِ بينه وبينَ داودَ عليهما السَّلامُ . وأيُّوبُ هو ابنُ عِيصَ بنِ إسحاقَ عليه السَّلامُ ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾ بدلُ اشتمالٍ من عبدَنا ، وأيُّوبَ عطفُ بيانٍ له ﴿ إِنِّى ﴾ بأني ﴿ مَسَّنِىَ

الشيطان ﴿ بفتحِ ياءِ مسني . وقُرِىء بإسكانِها وإسقاطِها ﴿ بِنُصْبٍ ﴾ أي تعبٍ وقُرِىء بفتحِ النُّونِ وبفتحتينِ وبضمَّتينِ للتثقيلِ . ﴿ وَعَذَابٍ ﴾ أي ألمٍ ووصبٍ يريدُ مرضَه وما كان يُقاسيه من فنونِ الشَّدائدِ وهو المرادُ بالضُّرِّ في قوله إنيِّ مسنى الضُّرُّ وهو حكايةٌ لكلامِه الذي ناداهُ به بعبارتِه وإلاَّ لقيلَ أنَّه مسَّه الخ والإسنادُ إلى الشَّيطانِ إمَّا لأنَّه تعالَى مسَّه بذلك لما فعل بوسوسَتِه كما قيل إنَّه أُعجب بكثرةِ مالِه أو استغاثه مظلومٌ فلم يغثه أو كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزُه أو لامتحان صبره فيكون اعترافاً بالذَّنبِ أو مراعاةً للأدبِ أو لأنَّه وسوس إلى أتباعِه حتَّى رفضُوه وأخرجُوه من ديارِهم أو لأنَّ المرادَ بالنَّصَبِ والعذابِ ما كان يُوسوس به إليه في مرضِه من تعظيم ما نزل به من البلاءِ والقُنوطِ من الرَّحمةِ ويغريه على الكراهةِ والجَزَعِ فالتجأَ إلى الله تعالى في أنْ يكفيه ذلك بكشفِ البلاءِ أو بالتوفيقِ لدفعِه وردِّه بالصَّبرِ الجميلِ ، وليس هذا تمامَ دُعائه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بل من جُملتِه قولُه : ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرحمين ﴾ فاكتفى هَنُها عن ذكرِه بما في سُورةِ الأنبياءِ كما تركَ هناك ذكرَ الشَّيطانِ ثقةً بما ذُكر ههنا .

(38/661)

وقوله تعالى ﴿ اركض برِجْلِكَ ﴾ الخ إمَّا حكايةٌ لما قيل له أو مقولٌ لقولٍ مقدَّرٍ معطوفٍ على نادى أي فقلنا له اركض برجلك أي اضربْ بها الأرضَ وكذا قوله تعالى ﴿ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فإنَّه أيضاً إمَّا حكايةٌ لما قيل له بعدَ امتثالِه بالأمرِ وبنوعِ الماءِ أو مقولٌ لقولٍ مقدَّرٍ معطوفٍ على مقدَّرٍ ينساقُ إليه الكلامُ كأنَّه قيل : فضربَها فنبعتْ عينٌ فقلنا له هذا مغتسلٌ تغتسلُ به وتشربُ منه فيبرأُ ظاهرُك وباطنُك وقيل : نبعتْ عينانِ حارَّةٌ للاغتسالِ وباردةٌ للشُّربِ ويأباهُ ظاهرُ النَّظمِ الكريمُ وقوله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ معطوفٌ على مقدَّرٍ مترتّبٍ على مقدَّرٍ آخرَ يقتضيه القولُ المقدَّرُ آنفاً كأنَّه قيل : فاغتسل وشرب فكشفنا بذلكَ ما به من ضُرٍّ كما في سورة الأنبياء ووهبنا له أيضاً أهلَه إمَّا بإحيائِهم بعد هلاكِهم وهو المرويُّ عن الحسنِ أو بجمعِهم بعد تفرُّقِهم كما قيل ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ﴾ عطفٌ على أهلَه فكان له من الأولادِ ضِعفُ ما كان له قبل ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي لرحمةٍ عظيمةٍ عليه من قبلنا ﴿ وذكرى لأُوْلِى الالباب ﴾ ولتذكيرِهم بذلك ليصبروا على الشَّدائدِ كما صبرَ ويلجأوا إلى الله عزَّ وجلَّ فيما يحيقُ بهم كما لجأ ليفعلَ بهم ما فعلَ به من حُسن العاقبةِ ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ معطوفٌ على اركُض أو على وهبنَا بتقديرِ قُلنا أي وقُلنا خذْ بيدِك الخ والأوَّلُ أقربُ لفظاً وهذا أنسبُ معنى فإنَّ الحاجةَ إلى هذا الأمرِ لا تمسُّ إلا بعد الصِّحةِ ، فإنَّ امرأتَه رحمةَ بنتَ افرايمَ بنِ يوسفَ وقيل : ليَا بنتُ يعقوبَ وقيل : ماصرُ بنتُ ميْشا بنِ يُوسفَ عليه السَّلامُ ذهبتْ لحاجةٍ فأبطأتْ فحلفَ إنْ برئَ ليضربنَّها

مائةً ضربة فأمرَه الله تعالى بأخذِ الضِّغثِ ، والضِّغثُ الحزمةُ الصَّغيرةُ من الحشيشِ ونحوِه .

وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قبضةٌ من

(39/661)

الشَّجرِ . وقال ﴿ فاضرب بِّهِ ﴾ أي بذلك الضِّغثِ ﴿ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ في يمينك فإنَّ البرَّ يتحققُ به ولقد شرعَ الله سبحانه هذه الرُّخصةَ رحمةً عليه وعليها لحُسنِ خدمتِها إيَّاهُ ورضاهُ عنها وهي باقيةٌ ويجب أنْ يصيبَ المضروبَ كلُّ واحدٍ من المائةِ إما بأطرافِها قائمةً أو بأعراضِها مبسوطةً على هيئةِ الضَّربِ ﴿ إِنَّا وجدناه صَابراً ﴾ فيما أصابَه في النَّفسِ والأهلِ والمالِ وليسَ في شكواهُ إلى الله تعالى إخلالٌ بذلك فإنَّه لا يُسمَّى جزَعاً كتمنِّي العافيةِ وطلب الشِّفاءِ على أنَّه قال ذلك خيفةَ الفتنةِ في الدِّينِ حيث كانُ الشَّيطانُ يوسوسُ إلى قومِه بأنَّه لو كانَ نبيَّاً لما ابُتلي بمثلِ ما ابُتلي به وإرادة القوَّة على الطَّاعةِ فقد بلغ أمرُه إلى أنْ لم يبقَ منه إلاَّ القلبُ واللِّسانُ . ويُروى أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال في مناجاتِه : إلهي قد علمتَ أنَّه لم يُخالفْ لساني قلبيَ ولم يتبعْ بصريَ ولم يهبني ما ملكتْ يميني ولم آكلْ إلا ومعي يتيم ولم أبتْ شبعانَ ولا كاسياً ومعي جائعٌ أو عريانُ فكشفَ الله تعالى عنه ﴿ نِعْمَ العبد ﴾

أي أيُّوبُ ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ تعليلٌ لمدحِه أي رجَّاعٌ إلى الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(40/661)

وقال الآلوسى :

﴿ واذكر عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾

قال ابن إسحاق : الصحيح أنه كان من بني إسرائيل ولم يصح في نسبه شيء غير أن اسم أبيه أموص ، وقال ابن جرير : هو أيوب بن أموص بن روم بن عيص بن إسحاق عليه السلام ، وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط وأن أباه ممن آمن بإبراهيم فعلى هذا كان عليه السلام قبل موسى ، وقال ابن جرير : كان بعد شعيب ، وقال ابن أبي خيثمة : كان بعد سليمان ، وقوله تعالى : ﴿ اذكر ﴾ الخ عطف على ﴿ اذكر عَبْدَنَا دَاوُودُ ﴾ [ص : 17] وعدم تصدير قصة سليمان عليه السلام بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام ، و ﴿ أَيُّوبَ ﴾ عطف بيان لعبدنا أو بدل منه بدل كل من كل ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾ بدل اشتمال منه أو من ﴿ أَيُّوبَ ﴾ ﴿ إِنِّى ﴾ أي بأني .

وقرأ عيسى بكسر همزة ﴿ إِنِّى ﴾ ﴿ مَسَّنِىَ الشيطان ﴾ وقرىء بإسكان ياء ﴿

مَسَّنِىَ ﴾ وبإسقاطها ﴿ بِنُصْبٍ ﴾ بضم النون وسكون الصاد التعب كالنصب بفتحتين ، وقيل : هو جمع نصب كوثن ووثن ، وقرأ أبو جعفر .

وشيبة .

وأبو عمارة عن حفص .

والجعفي عن أبي بكر .

وأبو معاذ عن نافع بضمتين وهي لغة ، ولا مانع من كون الضمة الثانية عارضة للاتباع ، وربما يقال : إن في ذلك رمزاً إلى ثقل تعبه وشدته ، وقرأ زيد بن علي .

والحسن .

والسدي .

وابن أبي عبلة .

ويعقوب .

والجحدري بفتحتين وهي لغة أيضاً كالرشد والرشد ، وقرأ أبو حيوة .

ويعقوب في رواية وهبيرة عن حفص بفتح النون وسكون الصاد ، قال الزمخشري : على أصل المصدر ، ونص ابن عطية على أن ذلك لغة أيضاً قال : بعد ذكر القراآت : وذلك كله بمعنى واحد وهو المشقة وكثيراً ما يستعمل النصب في مشقة الاعياء .

وفرق بعض الناس بين هذه الألفاظ والصواب أنها لغات بمعنى من قولهم أنصبني الأمر إذا

شق علي انتهى .

والتنوين للتفخيم وكذا في قوله تعالى : ﴿ وَعَذَابٍ ﴾ وأراد به الألم وهو المراد بالضر في قوله : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ الضر ﴾ .

(41/661)

وقيل : النصب والضر في الجسد والعذاب في الأهل والمال ، وهذا حكاية لكلامه عليه السلام الذي نادى به ربه عز وجل بعبارته وإلا لقيل إنه مسه الخ بالغيبة ، وإسناد المس إلى الشيطان قيل على ظاهره وذلك أنه عليه اللعنة سمع ثناء الملائكة عليهم السلام على أيوب عليه السلام فحسده وسأل الله تعالى أن يسلطه على جسده وماله وولده ففعل عز وجل ابتلاءً له ، والقصة مشهورة .

وفي بعض الآثار أن الماس له شيطان يقال له مسوط ، وأنكر الزمخشري ذلك فقال : لا يجوز أن يسلط الله تعالى الشيطان على أنبيائه عليهم السلام ليقضي من إتعابهم وتعذيبهم وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب ، وجعل إسناد المس أليه هنا مجازاً فقال : لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه الله تعالى به من النصب والعذاب نسبه إليه ، وقد

راعى عليه السلام الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله سبحانه في دعائه مع أنه جل وعلا فاعله ولا يقدر عليه إلا هو ، وهذه الوسوسة قيل وسوسته إليه عليه السلام أن يسأل الله تعالى البلاء ليمتحن ويجرب صبره على ما يصيبه كما قال شرف الدين عمر بن الفارض

.

وبما شئت في هواك اختبرني . . .

فاختياري ما كان فيه رضاكا

وسؤاله البلاء دون العافية ذنب بالنسبة لمقامه عليه لا حقيقة ، والمقصود من ندائه بذلك الاعتراف بالذنب .

وقيل إن رجلاً استغاثه على ظالم فوسوس إليه الشيطان بترك إغاثته فلم يغثه فمسه الله تعالى بسبب ذلك بما مسه .

وقيل : كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه وسوسة من الشيطان فعاتبه الله تعالى بالبلاء ، وقيل وسوس إليه فأعجب بكثرة ماله وولده فابتلاه الله تعالى لذلك وكل هذه الأقوال عندي متضمنة ما لا يليق بمنصب الأنبياء عليهم السلام .

(42/661)

وذهب جمع إلى أن النصب والعذاب ليسا ما كانا له من المرض والألم أو المرض وذهاب الأهل والمال بل أمران عرضا له وهو مريض فاقد الأهل والمال فقيل هما ما كانا له من وسوسة الشيطان إليه في مرضه من عظم البلاء والقنوط من الرحمة والإغراء على الجزع كان الشيطان يوسوس إليه بذلك وهو يجاهده في دفع ذلك حتى تعب وتألم على ما هو فيه من البلاء فنادى ربه يستصرفه عنه ويستعينه عليه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ وقيل كانا من وسوسة الشيطان إلى غيره فقيل : إن الشيطان تعرض لامرأته بصورة طبيب فقالت له : إن ههنا مبتلى فهل لك أن تداويه فقال : نعم بشرط أن يقول : إذا شفيته أنت شفيتني فمالت لذلك وعرضت كلامه لأيوب عليه السلام فعرف أنه الشيطان وكان عليه ذلك أشد مما هو فيه ﴿ فنادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ ﴾ الخ ؛ وقيل : إن الشيطان طلب منها أن تذبح لغير الله تعالى إذا عالجه وبرأ فمالت لذلك فعظم عليه عليه السلام الأمر فنادى ، وقيل : إنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين فارتد أحدهم فسأل عنه فقيل له : ألقى إليه الشيطان أن الله تعالى لا يبتلي الأنبياء والصالحين فتألم من ذلك جداً فقال ما قال وفي رواية مر به نفر من بني إسرائيل فقال بعضهم لبعض : ما أصابه هذا إلا بذنب أصابه وهذا نوع من وسوسة الشيطان فعظم عليه ذلك فقال ما قال ، والإسناد على جميع ما ذكر باعتبار الوسوسة ، وقيل : غير ذلك والله تعالى أعلم .

وقوله سبحانه :

﴿ اركض بِرِجْلِكَ ﴾ إما حكاية لما قيل له أو مقول لقول مقدر معطوف على ﴿ نادى ﴾ [ص : 41] أي فقلنا له أركض برجلك أي اضرب بها وكذا قوله تعالى : ﴿ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فإنه أيضاً إما حكاية لما قيل له بعد امتثاله بالأمر ونبوع الماء أو مقول لقول مقدر معطوف على مقدر ينساق إليه الكلام كأنه قيل : فضربها فنبعت عين فقلنا له هذا مغتسل تغتسل به وتشرب منه فيبرأ ظاهرك وباطنك ، فالمغتسل اسم مفعول على الحذف والإيصال وكذا الشراب ، وعن مقاتل أن المغتسل اسم مكان أي هذا مكان تغتسل فيه وليس بشيء ، وظاهر الآية اتحاد المخبر عنه بمغتسل وشراب ، وقيل : إنه عليه السلام ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها وبرجله اليسرى فنبعت باردة فشرب منها ، وقال الحسن : ركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها ثم مشى نحواً من أربعين ذراعاً ثم ركض برجله فنبعت أخرى فشرب منها ، ولعله عنى بالأولى عيناً حارة ، وظاهر النظم عدم التعدد .

و ﴿ بَارِدٌ ﴾ على ذلك صفة ﴿ شَرَابٌ ﴾ مع أنه مقدم عليه صفة ﴿ مُغْتَسَلٌ ﴾ وكون هذا إشارة إلى جنس النابع أو يقدر وهذا بارد الخ تكلف لا يخرج ذلك عن الضعف ، وقيل

أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء بجسده .

وكان ذلك على ما روي عن قتادة .

والحسن .

ومقاتل بأرض الجابية من الشام ، وفي الكلام حذف أيضاً أي فاغتسل وشرب فكشفنا بذلك ما به من ضر .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ بإحيائهم بعد هلاكهم على ما روي عن الحسن .

(44/661)

وروى الطبرسي عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه أن الله تعالى أحيا له أهله الذين كانوا ماتوا قبل البلية وأهله الذين ماتوا وهو في البلية ، وفي "البحر" الجمهور على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله وعافى المرضى وجمع عليه من تشتت منهم ، وقيل وإليه أميل وهبه من كان حياً منهم وعافاه من الأسقام وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ﴾ فكان له ضعف ما كان ، والظاهر أن هذه الهبة كانت في الدنيا ، وزعم بعض أن هذا وعد وتكون تلك الهبة في الآخرة ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي لرحمة عظيمة عليه من قبلنا .

﴿ وذكرى لأُوْلِى الأَلباب ﴾ وتذكيراً لهم بذلك ليصيروا على الشدائد كما صبر ويلجؤا إلى الله تعالى فيما يصيبهم كما لجأ ليفعل سبحانه بهم ما فعل به من حسن العاقبة .

(45/661)

روي عن قتادة أنه عليه السلام ابتلي سبع سنين وأشهراً وألقي على كناسة بني إسرائيل تختلف الدواب في جسده فصبر ففرج الله تعالى عنه وأعظم له الأجر وأحسن ، وعن ابن عباس أنه صار ما بين قدميه إلى قرنه قرحة واحدة وألقى على الرماد حتى بدا حجاب قلبه فكانت امرأته تسعى إليه فقالت له يوماً : أما ترى يا أيوب قد نزل بي والله من الجهد والفاقة ما إن بعت قروني برغيف فأطعمتك فادع الله تعالى أن يشفيك ويريحك فقال : ويحك كنا في النعيم سبعين عاماً فاصبري حتى نكون في الضر سبعين عاماً فكان في البلاء سبع سنين ودعا فجاء جبريل عليه السلام فأخذ بيده ثم قال : قم فقام عن مكانه وقال : ﴿ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : 42] فاغتسل وشرب فبرأ وألبسه الله تعالى حلة من الجنة فتنحى فجلس في ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت : يا عبد الله أين المبتلى الذي كان ههنا ؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب وجعلت تكلمه ساعة فقال : ويحك أنا أيوب قد رد الله تعالى على جسدي ورد الله تعالى عليه ماله وولده

ومثلهم معهم وأمطر عليه جراداً من ذهب فجعل يأخذ الجراد بيده ويجعله في ثوبه وينشر كساءه فيجعل فيه فأوحى الله تعالى إليه يا أيوب أما شبعت ؟ قال : يا رب من الذي يشبع من فضلك ورحمتك ، وفي "البحر" روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : "أن أيوب بقي في محنته ثماني عشرة سنة يتساقط لحمه حتى مله العالم ولم يصبر عليه إلا امرأته" وعظم بلائه عليه السلام مما شاع وذاع ولم يختلف فيه اثنان لكن في بلوغ أمره إلى أن ألقي على كناسة ونحو ذلك فيه خلاف قال الطبرسي : قال أهل التحقيق إنه لا يجوز أن يكون بصفة يستقذره الناس عليها لأن في ذلك تنفيراً فأما الفقر والمرض وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنه الله تعالى بذلك .

(46/661)

وفي هداية المريد للقاني أنه يجوز على الأنبياء عليهم السلام كل عرض بشري ليس محرماً ولا مكروهاً ولا مباحاً مزرياً ولا مزمناً ولا مما تعافه الأنفس ولا مما يؤدي إلى النفرة ثم قال بعد ورقتين ، واحترزنا بقولنا ولا مزمناً ولا مما تعافه الأنفس عما كان كذلك كالإقعاد والبرص والجذام والعمى والجنون ، وأما الإغماء فقال النووي لا شك في جوازه عليهم لأنه مرض بخلاف الجنون فإنه نقص ، وقيد أبو حامد الإغماء بغير الطويل وجزم به البلقيني ، قال

السبكي : وليس كإغماء غيرهم لأنه إنما يستر حواسهم الظاهرة دون قلوبهم لأنها معصومة من النوم الأخف ، قال : ويمتنع عليهم الجنون وإن قل لأنه نقص ويلحق به العمى ولم يعم نبي قط ، وما ذكر عن شعيب من كونه كان ضريراً لم يثبت ، وأما يعقوب فحصلت له غشاوة وزالت اه .

وفرق بعضهم في عروض ذلك بين أن يكون بعد التبليغ وحصول الغرض من النبوة فيجوز وبين أن يكون قبل فلا يجوز ، ولعلك تختار القول بحفظهم مما تعافه النفوس ويؤدي إلى الاستقذار والنفرة مطلقاً وحينئذٍ فلا بد من القول بأن ما ابتلي به أيوب عليه السلام لم يصل إلى حد الاستقذار والنفرة كما يشعر به ما روي عن قتادة ونقله القصاص في كتبهم ، وذكر بعضهم أن داءه كان الجدري ولا أعتقد صحة ذلك والله تعالى أعلم .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ عطف على ﴿ اركض ﴾ أو على ﴿ وَهَبْنَا ﴾ [ص : 43] بتقدير قلنا خذ بيدك الخ .

والأول أقرب لفظاً وهذا أنسب معنى فإن الحاجة إلى هذا الأمر لا تمس إلا بعد الصحة واعتدال الوقت فإن امرأته رحمة بنت إفرائيم أو مشيا بن يوسف أولياً بنت يعقوب أو ما خير بنت ميشا بن يوسف على اختلاف الروايات .

ولا يخفى لطف ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ على الرواية الأولى ذهبت لحاجة فأبطأت أو بلغت أيوب عن الشيطان أن يقول كلمة محذورة فيبرأ وأشارت عليه بذلك فقالت له إلى متى هذا البلاء كلمة واحدة ثم استغفر ربك فيغفر لك أو جاءته بزيادة على ما كانت تأتي به من الخبز فظن أنها ارتكبت في ذلك محرماً فحلف ليضربنها إن برىء مائة ضربة فأمره الله تعالى بأخذ الضغث وهو الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو قضبان ، وقيل : القبضة الكبيرة من القضبان ، ومنه ضغث على إبالة والإبالة الحزمة من الحطب والضغث القبضة من الحطب أيضاً عليها ، ومنه قول الشاعر

: وأسفل مني نهدة قد ربطتها . . .

وألقيت ضغثاً من خلى متطيب

وقال ابن عباس هنا : الضغث عثكال النخل ، وقال مجاهد : الأثل وهو نبت له شوك ، وقال الضحاك : حزمة من الحشيش مختلفة ، وقال الأخفش : الشجر الرطب ، وعن سعيد بن المسيب أنه عليه السلام لما أمر أخذ ضغثاً من ثمام فيه مائة عود ، وقال قتادة : هو عود فيه تسعة وتسعون عوداً والأصل تمام المائة فإن كان هذا معتبراً في مفهوم الضغث ولا أظن فذاك وإلا فالكلام على إرادة المائة فكأنه قيل : خذ بيدك ضغثاً فيه مائة عود ﴿ فاضرب بِّهِ ﴾ أي بذلك الضغث ﴿ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ بيمينك فإن البر يتحقق به ولقد شرع

الله تعالى ذلك رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها وهي رخصة باقية في الحدود في شريعتنا وفي غيرها أيضاً لكن غير الحدود يعلم منها بالطريق الأولى فقد أخرج عبد الرزاق .

وسعيد بن منصور .

وابن جرير .

وابن المنذر عن أبي إمامة بن سهل بن حنيف قال : حملت وليدة في بني ساعدة من زنا فقيل لها : ممن حملك ؟ قالت : من فلان المقعد فسئل المقعد فقال : صدقت فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خذوا عثكولا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة واحدة ففعلوا ، وأخرج عبد الرزاق .

(48/661)

وعبد بن حميد عن محمد بن عبد الرحمن عن ثوبان أن رجلاً أصاب فاحشة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض على شفا موت فأخبر أهله بما صنع فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقنو فيه مائة شمراخ فضرب به ضربة واحدة ، وأخرج الطبراني عن سهل بن سعد أن النبي عليه الصلاة والسلام أتى بشيخ قد ظهرت عروقه قد زنى بامرأة

فضربه بضغث فيه مائة شمراخ ضربة واحدة ، ولا دلالة في هذه الأخبار على عموم الحكم من يطيق الجلد المتعارف لكن القائل ببقاء حكم الآية قائل بالعموم لكن شرطوا في ذلك أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة إما بأطرافها قائمة أو بأعراضها مبسوطة على هيئة الضرب .

وقال الخفاجي : إنهم شرطوا فيه الايلام أما مع عدمه بالكلية فلا فلو ضرب بسوط واحد له شعبتان خمسين مرة من حلف على ضربه مائة بر إذا تألم فإن لم يتألم لا يبر ولو ضربه مائة لأن الضرب وضع لفعل مئلم بالبدن بآلة التأديب ، وقيل : يحنث بكل حال كما فصل في "شروح الهداية" وغيرها انتهى .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس لا يجوز ذلك لأحد بعد أيوب إلا الأنبياء عليهم السلام ، وفي أحكام القرآن العظيم للجلال السيوطي عن مجاهد قال : كانت هذه لأيوب خاصة ، وقال الكيا : ذهب الشافعي .

وأبو حنيفة .

وزفر إلى أن من فعل ذلك فقد بر في يمينه ، وخالف مالك ورآه خاصاً بأيوب عليه السلام ، وقال بعضهم : إن الحكم كان عاماً ثم نسخ والصحيح بقاء الحكم ، واستدل بالآية على أن للزوج ضرب زوجته وأن يحلف ولا يستثنى وعلى أن الاستثناء شرطه الاتصال إذ لو لم يشترط لأمره سبحانه وتعالى بالاستثناء ولم يحتج إلى الضرب بالضغث .

واستدل عطاء بها على مسألة أخرى فأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح عنه أن رجلاً قال له : إني حلفت أن لا أكسو امرأتي درعاً حتى تقف بعرفة فقال : احملها على حمار ثم اذهب فقف بها بعرفة فقال : إنما عنيت يوم عرفة فقال عطاء : أيوب حين حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة أنوي أن يضربها بالضغث إنما أمره الله تعالى أن يأخذ ضغثا فيضربها به ثم قال : إنما القرآن عبر إنما القرآن عبر ، وللبحث في ذلك مجال ، وكثير من الناس استدل بها على جواز الحيل وجعلها أصلاً لصحته ، وعندي أن كل حيلة أوجبت إبطال حكمة شرعية لا تقبل كحيلة سقوط الزكاة وحيلة سقوط الاستبراء وهذا كالتوسط في المسألة فإن من العلماء من يجوز الحيلة مطلقاً ومنهم من لا يجوزها مطلقاً ، وقد أطال الكلام في ذلك العلامة ابن تيمية ﴿ إِنَّا وجدناه صَابِراً ﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال .

وقد كان عليه السلام يقول كلما أصابته مصيبة : اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت ويحمد الله عز وجل ، ولا يخل بذلك شكواه إلى الله تعالى من الشيطان لأن الصبر عدم الجزع ولا جزع فيما ذكر كتمني العافية وطلب الشفاء مع أنه قال ذلك على ما قيل خيفة الفتنة في

الدين كما سمعت فيما تقدم ، ويروى أنه قال في مناجاته : الهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ولم يتبع قلبي بصري ولم يلهني ما ملكت يميني ولم آكل إلا ومعي يتيم ولم أبت شبعان ولا كاسياً ومعي جائع أو عريان فكشف الله تعالى عنه ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ أي أيوب ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ تعليل لمدحه وتقدم مهنى الأواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(50/661)

وقال الشيخ المراغى :

قصص أيوب عليه السلام

[سورة ص (38) : الآيات 41 الى 44]

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ (41) ﴾

تفسير المفردات

أيوب : هو أيوب بن أموص بن أروم بن عيص بن إسحاق عليه السلام ، فهو من بنى إسرائيل قاله ابن جرير . والنّصب : (بضم فسكون) والنّصب (بفتحتين) كالرشد والرشد : المشقة والتعب ، عذاب : أي ألم مضر كما جاء في قوله : « أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ » اركض

برجلك : أي اضرب بها على الأرض ، مغتسل : أي ماء تغتسل به وتشرب منه ، والضغث : الحزمة الصغيرة من الكلأ والريحان ، ويقال حنث في يمينه :

إذا لم يفعل ما حلف عليه .

الإيضاح

(وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ) أي واذكر لقومك صبر أيوب حين نادى ربه وقال : رب إنى أصبت بالمرض ، وتفرق الأهل وضياع الولد .

ومن حديث مس الشيطان له ما

روى - إن الشيطان وسوس إليه فأعجب بكثرة ما له وولده ووافر صحته ، فابتلاه اللّه بالأمراض والأسقام ،

وأضاع ماله وتفرق ولده فى أنحاء البلاد ، وهلك منهم من هلك فصبر على ما أصابه من أذى وما ناله من ألم ممضّ ، وحسرة تقطّع نياط القلب .

(51/661)

ولا نعلم على وجه التحقيق قدر الزمن الذي لحقه فيه الضر ولا نوع هذا الضر ، إذ القرآن لم يصرح بهذا ، ولكنا نعلم على وجه لا يقبل الشك أنه لم يصب بأذى ينفر الناس منه ، ويمنعهم

من لقائه والجلوس معه ، لأن ذلك شرط من شروط النبوة ، كما أنا نعلم من وصف الدواء الآتي الذي أوحى اللّه به إليه أنه من الأمراض الجلدية التي تشفيها المياه المعدنية أو الكبريتية كما أشار إلى ذلك بقوله واصفا له الدواء :

(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ) أي حرك الأرض برجلك واضربها بها يخرج ينبوع من الماء تغتسل منه وتشرب ، فتبرأ مما أنت فيه من المرض .

وفي هذا إيماء إلى نوع المرض الذي كان به ، وأنه من الأمراض الجلدية غير المعدية كالإكزيما والحكّة ونحوهما مما يتعب الجسم ويؤذيه أشد الإيذاء لكنه ليس بقتّال ، وكلما تقدم الطب أمكن الطبيب أن يبين نوع هذا المرض على وجه التقريب لا على وجه التحديد - كما أن في ذلك إيماء إلى أن الماء كان من المياه الكبريتية ذات الفائدة الناجحة في تلك الأمراض ، وهى كما تفيد بالاستعمال الظاهري ، تفيد بالشرب أيضا كما نرى في العيون التي في البلاد التي أنشئت فيها الحمامات في أوروبا ومصر وغيرها ، واستعملت مشاتى ومصحات للأمراض الجلدية والأمراض الباطنية كمياه فيشى وسويسرا وحلوان .

وقد أراد بمس الشيطان إياه بالنصب والعذاب - ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى اللّه أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق لدفعه ورده بالصبر الجميل .

وعن أنس بن مالك : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : « إن نبى اللّه أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم واللّه لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه وما ذاك ؟ قال منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه اللّه تعالى فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدرى ما تقول ، غير أن اللّه عز وجل يعلم أنى كنت أمرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران اللّه تعالى فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر اللّه تعالى إلا في حق » .

ولا شك أن هذا الحديث من أخبار الآحاد التي تصادم أسس الدين الصحيحة من أن الأنبياء يجب ألا يكون فيهم من الأمراض ما ينفر الناس منهم ، لأن وظيفتهم تبليغ ما أرسلوا به إليهم ، وكيف يجتمع الناس بهم ويتحدثون إليهم وهم في تلك الحال وهذا البلاء ، ومن ثم فنحن نقف أمام هذه الأخبار موقف الحذر والاحتياط في قبولها أو نقطع بعدم صحتها لمخالفتها لقطعى لا شك فيه .

وكما دفع عنه سبحانه الضر أجاب لدعائه ، أجاب دعاءه في أهله وولده فقال :

(وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ) أي وجمعنا له أهله بعد التفرّق والتشتّت وأكثرنا نسلهم حتى صاروا ضعف ما كانوا عليه ، رحمة منا وتذكرة

لأولى العقول السليمة ، لنعتبر ونعلم أن رحمة اللّه قريب من المحسنين ، وأن مع العسر يسرا ، وأن الإنسان لا يقنط من الفرج بعد الشدة :

عسى فرج يأتى به اللّه إنه له كل يوم في خليقته أمر

ولم يذكر لنا الكتاب الكريم ماذا كانت حاله في ماله ، فنمسك عن الكلام كما أمسك .

ثم ذكر أنه رخص له سبحانه في تحلة يمينه فقال :

(53/661)

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ) أي وخذ حزمة صغيرة من ريحان أو كلأ فاضرب بها ، فيكون ذلك تحلة ليمينك التي حلفتها ، والكتاب لم يبين لنا علام حلف ؟ وعلى من حلف ؟ ويذكر الرواة أنه حلف على زوجه رحمة بنت إفرائيم ، وقد كانت ذهبت لحاجة فأبطأت ، فحلف ليضربنها إن برىء مائة ضربة ، فرخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة ويضربها بها ، وبذا يتحقق البر في يمينه رحمة به وبها ، لحسن خدمتها له وقيامها بواجباته المنزلية أثناء مرضه .

وفي هذا مخرج وفرج لمن اتقى اللّه وأناب إليه ، ولهذا قال عز اسمه :

(إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) أي إنا وجدنا أيوب صابرا على ما أصابه فى

النفس والأهل والمال من أذى ، فجازيناه بما فرّج كربته ، وأذهب لوعته ، وليس فى الشكوى إلى اللّه إخلال بالصبر ، وليس فيه شىء من الجزع ، فهو كتمنى العافية وطلب الشفاء .

وقد روى أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة : اللهم أنت أخذت ، وأنت أعطيت ، وكان يقول في مناجاته : إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ، ولم يتبع قلبى بصرى ، ولم يلهنى ما ملكت يمينى ، ولم آكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 23 صـ 123 . 126 ﴾

(54/661)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : «وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ» . .

هو دعوة أخرى إلى النبي الكريم من اللّه سبحانه وتعالى ، أن يذكر هذا الذي يذكره له ربّه من أمر عبد من عباده الصالحين ، ونبى من أنبيائه المقربين ، هو أيوب عليه السلام . .

والذي يدعى النبي - عليه الصلاة والسلام - إلى تذكره ، والوقوف على موضع العبرة والعظة منه ، من أمر أيوب - عليه السلام - هو ضراعته لربه ، ولجوؤه إليه ، فيما مسه من ضرّ . .

وأيوب ـ عليه السلام ـ إنما يقف على حدود هذا الأدب النبوي الرفيع ، حين يرفع إلى اللّه ـ سبحانه ـ شكواه مما به ، ولا يسأل العافية ، وكشف الضر . .

فذلك إلى اللّه سبحانه وتعالى ، حسب مشيئته وإرادته فى عبده . . فقد يكون هذا البلاء خيرا له من العافية . . وإنه كبشر ، يشكو إلى ربه ما يجد من آلام ، ويفوض الأمر إليه سبحانه فيما يريد به . . ولو أنه استطاع ألا يشكو لفعل ، فاللّه سبحانه وتعالى أعلم بحاله ، ولكنها ، أنّات موجوع ، وزفرات محموم ! « أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ » . .

والنّصب ، كالنّصب ، وهو الرهق والتعب ، والعذاب : الألم الناجم عن هذا التعب .

(55/661)

وفى إسناد المسّ إلى الشيطان ، إشارة إلى أن هذا الّذى نزل بأيوب ، هو من الأسباب المباشرة ، التي تجىء من النفس الأمارة بالسوء ، ومثل هذا ما كان من موسى عليه السلام ، حين قتل المصري فقال : « هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ » .

قوله تعالى : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ » .

وهذا جواب الحق سبحانه وتعالى على ما سأله أيوب ، ولم يفصل بين السؤال والجواب فاصل ، للإشارة إلى أن الإجابة كانت متصلة بالسؤال والطلب ، من غير تراخ . . فما هو

إلا أن سأل ، حتى وجد ما طلب حاضرا . .

وهذا يشير إلى أن أيوب صبر زمنا طويلا لا يشكو ، فلما شكا ، أزال اللّه سبحانه شكاته

. .

والركض : الجري ، والمراد به الضرب بالرجل على الأرض بقوّة ، حيث أن الرّجل تخدّ الأرض وتضربها أثناء الجري . .

وقد ضرب أيوب برجله الأرض ، كما أمره ربّه ، فتفجر نبع من الماء ! وماذا يعمل أيوب بهذا الماء ؟ هكذا وقف عليه متسائلا . . فكشف له ربّه عمّا وراء هذا الماء ، فقال له : « هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ » . . إنه ماء عذب ، بارد سائغ للشاربين . . فاغتسل به ، واشرب منه .

قوله تعالى : « وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ » .

أي وهبنا له أهله ، الذين كانوا قد نفروا منه ، وتخلّوا عنه أثناء محنته ، فلما لبس ثوب العافية ، وخرج من ضباب المحة ، عاد إليه أهله ، وعاد إليه الغرباء ، فكانوا له مثل أهله ، تقرّبا إليه ، وتودّدا له ، إذ أفاض اللّه سبحانه

وتعالى عليه من الخير ، ما جعل العيون تتطلع إليه ، والآمال تتجه نحوه . .

وهكذا الناس .

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ولأمّ المخطئ الهبل

وفى التعبير بالهبة عن عودة أهله وغير أهله إليه فى قوله تعالى : « وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ » . فى هذا التعبير إشارة إلى أن هذا التحول فى حال « أيوب » من تلك العزلة الموحشة بينه وبين أهله وغير أهله ، إلى إقبال القريب والبعيد عليه ، وتوددهم له . إنما كان هبة من هبات اللّه له ، ورحمة من رحماته ، على هذا العبد الذي ابتلى هذا الابتلاء العظيم ، فصبر راضيا بأمر اللّه سبحانه وتعالى فيه . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ » (10 : الزمر) . . وفى ذلك ذكرى وموعظة لأولى الألباب ، الذين يأخذون العبر من الأحداث التي تمر بهم ، أو بالناس من حولهم .

قوله تعالى : «وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » .

الضّغث : الخليط من كل شىء . . والمراد به هنا ، مجموعة من العيدان الدقيقة ، من حطب أو غيره . . والحنث : الذنب المؤثم ، واليمين الغموس .

والآية معطوفة على قوله تعالى : « وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ » الذي هو اعتراض بين الآيتين اللتين يحملان خطابا من اللّه سبحانه وتعالى إلى «

أيوب » . . فالأمر الموجّه من اللّه سبحانه وتعالى إلى « أيوب » هو : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ . . .

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ » . . وقد جاء قوله تعالى : « وَوَهَبْنا

(57/661)

لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ »

بين الأمرين - إشارة إلى أن هذه الأوامر ليست تكليفا ، كما هو الشأن فى الأمر ، وإنما هى دعوة إلى تناول هذا العطاء الكريم من ربّ كريم ، إلى عبده الصابر الشكور . . فهذان الأمران ، يحملان هبات من عند اللّه ، كما يحمل الخبر فى قوله تعالى : « وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ » . .

فإن قوله تعالى : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ » يحمل إليه الشفاء والعافية ، وقوله تعالى : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ » يحمل إليه الوفاء بيمينه ، ويدفع عنه الحرج . . إذ كان قد حلف وهو فى حال مرضه أن يضرب امرأته ، مائة سوط على أمر خرجت به عن رأيه . . وكان من لطف اللّه به وبامرأته ، أن جعل تحلّة يمينه بأن يضربها بعرجون يحمل مائة أو

أكثر من الشماريخ ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 12 صـ 1095 1098. ﴾

(58/661)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ﴾

هذا مَثَل ثانٍ ذُكّر به النبي صلى الله عليه وسلم إسوة به في الصبر على أذى قومه والالتجاء إلى الله في كشف الضر ، وهو معطوف على ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ [ص : 17] ولكونه مقصوداً بالمَثل أعيد معه فعل ﴿ اذْكُر ﴾ كما نبهنا عليه في قوله : ﴿ واذكر عبدنا داود ﴾ [ص : 17] ، وقد تقدم الكلام على نظير صدر هذه الآية في سورة الأنبياء .

وترجمة أيوب عليه السلام تقدمت في سورة الأنعام .

وإذ كانت تعدية فعل ﴿ اذكر ﴾ إلى اسم أيوب على تقدير مضاف لأن المقصود تذكّر الحالة الخاصة به كان قوله : ﴿ إذ نادى ربّه ﴾ بدل اشتمال من أيوب لأن زمن ندائه ربَّه مما تشتمل عليه أحوال أيوب .

وخص هذا الحال بالذكر من بين أحواله لأنه مظهر توكّله على الله واستجابة الله دعاءه بكشف الضر عنه .

والنداء : نداء دُعاء لأن الدعاء يفتتح بـ : يا رب ، ونحوه .

و﴿ أَنِّي مسَّنِي الشيطانُ ﴾ متعلق بـ ﴿ نادى ﴾ بحذف الباء المحذوفة مع (أن) ، أي نادى : بأنّي مسني الشيطان ، وهو في الأصل جملة مبيّنة لجملة ﴿ نادى ربَّهُ ﴾ ولولا وجود (أن) المفتوحة التي تصيِّر الجملة في موقع المفرد لكانت جملة مبينة لجملة ﴿ نادى ﴾ ، ولما احتاجت إلى تقدير حرف الجر ليتعدّى إليها فعل ﴿ نادى ﴾ وخاصة حيث خَلَت الجملة من حرف نداء .

فقولهم : إنها مجرورة بباء مقدرة جرى على اعتبارات الإِعراب تفرقة بين موقع (أنَّ) المفتوحة وموقع (إنَّ) المكسورة ولهذا الفرق بين الفتحِ والكسرِ اطّرد وجهَا فتحِ الهمزة وكسرِها في نحو "خيرُ القَول أني أحمد" .

وقد ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين في سورة ﴾ [الأنفال : 9] رأينا في كون (أن) المفتوحة الهمزة المشددة النون مركبة من (أَنْ) التفسيرية (وأنَّ) الناسخة .

والخبر مستعمل في الدعاء والشكاية ، كقوله : ﴿ رب إني وضعتها أنثى ﴾ [آل عمران : 36] ، وقد قال في آية سورة [الأنبياء : 83] ﴿ أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ والنُصْب ، بضم النون وسكون الصاد : المشقة والتعب ، وهي لغة في نَصَب بفتحتين ، وتقدم النَصَب في سورة الكهف .

وقرأ أبو جعفر بِنُصُبٍ ﴾ بضم الصاد وهو ضم إتباع لضمّ النون .

والعذاب : الألم .

والمراد به المرض يعني : أصابني الشيطان بتعَب وألم .

وذلك من ضرّ حل بجسده وحاجة أصابته في ماله كما في الآية الأخرى ﴿ أني مسني الضر ﴾ [الأنبياء : 83] .

وظاهر إسناد المسّ بالنُّصب والعذاب إلى الشيطان أن الشيطان مسّ أيوب بهما ، أي أصابه بهما حقيقة مع أن النصب والعذاب هما الماسان أيوب ، ففي سورةَ [الأنبياء : 83] ﴿ أني مسني الضر ﴾ فأسند المسّ إلى الضر ، والضرّ هو النصب والعذاب .

وتردّدت أفهام المفسرين في معنى إسناد المسّ بالنُّصب والعذاب إلى الشيطان ، فإن الشيطان لا تأثير له في بني آدم بغير الوسوسة كما هو مقرر من مُكرر آيات القرآن وليس النُّصب والعذاب من الوسوسة ولا من آثارها .

وتأولوا ذلك على أقوال تتجاوز العشرة وفي أكثرها سماجة وكلها مبني على حملهم الباء في قوله : بِنُصبٍ ﴾ على أنها باء التعدية لتعدية فعل ﴿ مَسَّنِي ﴾ ، أو باء الآلة مثل : ضربه بالعصا ، أو يؤول النُّصب والعذاب إلى معنى المفعول الثاني من باب أعطى .

والوجه عندي : أن تحمل الباء على معنى السببية بجعل النُّصْب والعذاب مسببين لمسّ الشيطان إياه ، أي مسّني بوسواس سببه نُصْب وعذاب ، فجعل الشيطان يوسوس إلى أيوب بتعظيم النُّصْب والعذاب عنده ويلقي إليه أنه لم يكن مستحقاً لذلك العذاب ليلقي في نفس أيوب سوء الظن بالله أو السخط من ذلك .

(60/661)

أو تحمل البَاء على المصاحبة ، أي مسّني بوسوسة مصاحبة لضرّ وعذاب ، ففي قول أيوب ﴿ أني مسَّني الشيطانُ بنُصبٍ وعذابٍ ﴾ كناية لطيفة عن طلب لطف الله به ورفع النُّصب والعذاب عنه بأنهما صارا مدخلاً للشيطان إلى نفسه فطلب العصمة من ذلك على نحو قول يوسف عليه السّلام : ﴿ وإلاَّ تصرف عنّي كيدَهن أَصْبُ إليهن وأكنْ من الجاهلين ﴾ [يوسف : 33] .

وتنوين "نصب وعذاب" للتعظيم أو للنوعية ، وعدل عن تعريفهما لأنهما معلومان لله .

وجملة ﴿ اركض برِجلِك ﴾ الخ مقولة لقول محذوف ، أي قلنا له اركض برجلك ، وذلك إيذان بأن هذا استجابة لدعائه .

والرَّكْض : الضرب في الأرض بالرجل ، فقوله : ﴿ بِرِجْلِكَ ﴾ زيادة في بيان معنى الفعل مثل : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] وقد سمّى الله ذلك استجابة في سورة [الأنبياء : 84] إذ قال : ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر .

وجملة هذا مُغْتسلٌ ﴾ مقولة لقول محذوف دل عليه المقول الأول ، وفي الكلام حذف دلّت عليه الإِشارة .

فالتقدير : فركض الأرض فنبع ماء فقلنا له : هذا مغتسل بارد وشراب .

فالإِشارة إلى ماء لأنه الذي يغتسل به ويشرب .

ووصْف الماء بذلك في سياق الثناء عليه مشير إلى أن ذلك الماء فيه شفاؤه إذا اغتسل به وشَرب منه ليتناسب قول الله له مع ندائه ربّه لظهور أن القول عقب النداء هو قول استجابة الدعاء من المدعو .

و ﴿ مغتسل ﴾ اسم مفعول من فعل اغتسل ، أي مغتسل به فهو على حذف حرف الجر وإيصال المغتسل القاصر إلى المفعول مثل قوله :

تَمرُّون الديارَ ولم تعُوجوا

ووصفه بـ ﴿ بَارِدٌ ﴾ إيماء إلى أن به زوال ما بأيوب من الحمى من القروح .

قال النبي صلى الله عليه وسلم " الحُمى من فَيْح جهنم فأطفئوها بالماء " ، أي نافع شاف ، وبالتنوين استُغني عن وصف ﴿ شراب ﴾ إذ من المعلوم أن الماء شراب فلولا إرادة التعظيم بالتنوين لكان الإخبار عن الماء بأنه شراب إخباراً بأمر معلوم ، ومرجع تعظيم ﴿ شراب ﴾ إلى كونه عظيماً لأيوب وهو شفاء ما به من مرض .

وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43)

اقتصار أيوب في دعائه على التعريض بإزالة النُّصْب والعذاب يشعر بأنه لم يُصب بغير الضر في بدنه .

ويحتمل أن يكون قد أصابه تلف المال وهلاك العيال كما جاء في كتاب "أيوب" من كتب اليهود فيكون اقتصاره على النُّصْب والعذاب في دعائه لأن في هلاك الأهل والمال نُصْباً وعذاباً للنفس .

ولم يتقدم في هذه الآية ولا في آية سورة الأنبياء أن أيوب رُزِيءَ أهله فيجوز أن يكون معنى ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ﴾ أن الله أبقى له أهله فلم يصب فيهم بما يكره وزاده بنين وحفدة .

ويكون فعل ﴿ وهبنا ﴾ مستعملاً في حقيقته ومجازه .

ويؤيد هذا المحمل وقوع كلمة ﴿ معهم ﴾ عقب كلمة ﴿ ومثلهم ﴾ فإن (مع) تشعر بأن الموهوب لاحق بأهله ومزيد فيهم فليس في الآية تقدير مضاف في قوله : ﴿ ووهبنا له أهله ﴾ .

وليس في الأخبار الصحيحة ما يخالف هذا إلا أقوالاً عن المفسرين ناشئة عن أفهام مختلفة .

ويحتمل أن يكون مما أصابه أنه هلَك وأولاده في مدة ضرّه كما جاء في كتاب "أيوب" من كتب اليهود وأقوال بعض السلف من المفسرين فيتعين تقدير مضاف ، أي وهبنا له عوض أهله .

وألفاظ الآية تنبو عن هذا الوجه الثاني .

ومعنى ﴿ ومثلهم ﴾ مماثلهم .

والمراد : مماثل عددهم ، أي ضعف عدد أهله من بنين وحفدة .

وتقدم نظير هذه الآية في قوله : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ في سورة [الأنبياء : 84] .

وما بين الآيتين من تغيير يسير هو مجرد تفنّن في التعبير لا يقتضي تفاوتاً في البلاغة .

وأما ما بينهما من مخالفة في قوله هنا : ﴿ وذِكرى لأُوْلِي الألباب ﴾ وقوله في سورة الأنبياء ﴿ وذكرى للعابدين ، فأما قوله هنا وذِكرى لأُوْلِي الألباب ﴾ فإن الذكر التذكير بما خفي أو بما يخفَى وأولو الألباب هم أهل العقول ، أي تذكرة لأهل النظر والاستدلال .

فإن في قصة أيوب مجملها ومفصَّلها ما إذا سمعه العقلاء المعتبِرون بالحوادث والقائسون على النظائر استدلوا على أن صبره قدوة لكل من هو في حرج أن ينتظر الفرج ، فلما كانت قصص الأنبياء في هذه السورة مسوقة للاعتبار بعواقب الصابرين وكان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون مأمورين بالاعتبار بها من قوله : ﴿ اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ كما تقدم حُقّ أن يشار إليهم "بأولي الألباب" .

وأما الذي في سورة الأنبياء فإنه جيء به شاهداً على أن النبوءة لا تنافي البشرية وأن الأنبياء تعْتريهم من الأحداث ما يعْتري البشر مما لا ينقص منهم في نظر العقل والحكمة وأنهم إنما يقومون بأمر الله ، ابتداءً من قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم ﴾ [الأنبياء : 7] وأنهم معرَّضون لأذَى الناس مما لا يخلّ بحرمتهم الحقيقية وأقصى ذلك الموت من قوله:

﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾ [الأنبياء : 34] .

وإذ كان المشركون يقولون : ﴿ نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30] ، وحاولوا قتله غير مرة فعصمه الله ، ثم من قوله : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ [الأنعام : 10] ثم قال : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴾ [الأنبياء : 48 ، 49] ، وذُكر من الأنبياء من ابتلي من قومه فصبَر ، ومن ابتلي من غيرهم فصبَر ، وكيف كانت عاقبة صبرهم واحدة مع اختلاف الأسباب الداعية إليه .

فكانت في ذلك آيات للعابدين ، أي الْممتثلين أمر الله المجتَنبين نهيَه ، فإن مما أمر به الله الصبر على ما يلحق المرء من ضرّ لا يستطيع دفعَه لكون دفعه خارجاً عن طاقته فختم بخاتمة أن في ذلك لآيات للعابدين .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فاضرب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ مقول لقول محذوف دلّت عليه صيغة الكلام ، والتقدير : وقلنا خذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ، وهو قول غيرُ القول المحذوف في قوله : ﴿ اركض برجلك ﴾ [ص : 42] لأن ذلك استجابة دعوة وهذا إفتاء برخصة ، وذلك له قصته ، وهذا له قصة أخرى أشارت إليها الآية إجمالاً ولم يرد في تعيينها أثر صحيح ومجملها أن زوج أيوب حاولت عملاً ففسد عليه صبره من استعانة

ببعض الناس على مواساته فلما علم بذلك غضب وأقسم ليضربنّها عدداً من الضرب ثم ندم وكان محبّاً لها ، وكانت لائذة به في مدة مرضه فلما سُرِّي عنه أشفق على امرأته من ذلك ولم يكن في دينهم كفارة اليمين فأوحى الله إليه أن يضربها بجُزمة فيها عددٌ من الأعواد بعدد الضربات التي أقسم عليها رفقاً بزوجه لأجله وحفظاً ليمينه من حنثه إذ لا يليق الحنث بمقام النبوءة .

وليست هذه القضية ذات أثر في الغرض الذي سيقت لأجله قصة أيوب من الأسوة وإنما ذكرت هنا تكملة لمظهر لطف الله بأيوب جزاء على صبره .

(64/661)

ومعاني الآية ظاهرة في أن هذا الترخيص رفق بأيوب ، وأنه لم يكن مثله معلوماً في الدّين الذي يدين به أيوبُ إبقاء على تقواه ، وإكراماً له لحبه زوجه ، ورفقاً بزوجه لبرّها به ، فهو رخصة لا محالة في حكم الحنث في اليمين .

فجاء علماؤنا ونظروا في الأصل المقرر في المسألة المفروضة في أصول الفقه وهي : أن شرع من قبلنا هل هو شرع لنا إذا حكاه القرآن أو السنة الصحيحة ، ولم يكن في شرعنا ما ينسخه من نص أو أصل من أصول الشريعة الإسلامية .

فأما الذين لم يروا أن شرع من قبلنا شرع لنا وهم أبو بكر الباقلاني من المالكية وجهورُ الشافعية وجميعُ الظاهرية فشأنهم في هذا ظاهر ، وأما الذين أثبتوا أصل الاقتداء بشرع مَن قبلنا بقيوده المذكورة وهم مالك وأبو حنيفة والشافعي فتخطَّوا للبحث في أن هذا الحكم الذي في هذه الآية هل يقرر مثلُه في فقه الإِسلام في الإِفتاء في الأيمان وهل يتعدى به إلى جعله أصلاً للقياس في كل ضَرب يتعين في الشرع له عدد إذا قام في المضروب عذر يقتضي الترخيص بعد البناء على إثبات القياس على الرخص ، وهل يتعدّى به إلى جعله أصلاً للقياس أيضاً لإِثبات أصل مماثل وهو التحيّل بوجه شرعي للتخلص من واجب تكليفٍ شرعي ، واقتحموا ذلك على ما في حكاية قصة أيوب من إجمال لا يتبصر به الناظر في صفة يمينه ولا لفظه ولا نيته إذ ليس من مقصد القصة .

فأما في الأيمان فقد كفانا الله التكلّف بأن شرع لنا كفارات الأيمان .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم " إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني فعلت الذي هو خير " ، فصار ما في شرعنا ناسخاً لما شرع لأيوب فلا حاجة إلى الخوض فيها ، ومذهب الحنفية العمل بذلك استناداً لكونه شرعاً لمن قبلنا وهو قول الشافعي .

وقال مالك : هذه خاصة بأيوب أفتى الله بها نبيئاً .

وحكى القرطبي عن الشافعي أنه خصه بما إذا حلف ولم تكن له نية كأنه أخرجه مُخرج أقل ما يصدق عليه لفظ الضرب والعدد .

وأما القياس على فتوى أيوب في كلّ ضرب معيّن بعدد في غير اليمين ، أي في باب الحدود والتعزيرات فهو تطوح في القياس لاختلاف الجنس بين الأصل والفرع ، ولاختلاف مقصد الشريعة من الكفارات ومقصدها من الحدود والتعزيرات ، ولترتب المفسدة على إهمال الحدود والتعزيرات دون الكفارات .

ولا شك أن مثل هذا التسامح في الحدود يفضي إلى إهمالها ومصيرها عبثاً .

وما وقع في "سنن أبي داود" من حديث أبي أمامة عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار "أنّ رجلاً منهم كان مريضاً مضنى فدخلت عليه جارية فهشّ لها فوقع عليها فاستفتوا له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : لو حملناه إليك لتفسخت عظامه ما هو إلا جلد على عظْم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربةً واحدة .

ورواه غير أبي داود بأسانيد مختلفة وعبارات مختلفة .

وما هي إلا قصة واحدة فلا حجة فيه لأنه تطرقته احتمالات .

أولها : أن ذلك الرجل كان مريضاً مضنى ولا يُقام الحد على مثله .

الثاني : لعلّ المرض قد أخل بعقله إخلالاً أقدمه على الزنا فكان المرض شبهة تدْرأ الحدَّ عنه .

الثالث : أنه خبر آحاد لا ينقض به التواتر المعنوي الثابتُ في إقامة الحدود .

الرابع : حمله على الخصوصية .

ومذهب الشافعي أنه يعمل بذلك في الحد للضرورة كالمرض وهو غريب لأن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال السلف متضَافرة على أن المريض والحامل يُنتظران في إقامة الحد عليهما حتى يبرآ ، ولم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن تضرب الحامل بشماريخ ، فماذا يفيد هذا الضرب الذي لا يزجر مُجرماً ، ولا يدفع مأثماً ، وفي "أحكام الجصّاص" عن أبي حنيفة مثل ما للشافعي .

وحكى الخطابي أن أبا حنيفة ومالكاً اتفقا على أنه لا حدّ إلا الحد المعروف .

(66/661)

فقد اختلف النقل عن أبي حنيفة .

﴿ تَحْنَثْ إِنَّا وجدناه صَابِراً نِّعْمَ العبد إِنَّهُ ﴾ .

علة لجملة ﴿ اركض برجِلِكَ ﴾ [ص : 42] وجملة ﴿ ووهبنا له أهلهُ ﴾ [ص : 43

] ، أي أنعمنا عليه بجبر حاله ، لأنا وجدناه صابراً على ما أصابه فهو قدوة للمأمور بقوله : ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ [المزمل : 10] صلى الله عليه وسلم فكانت (إِنَّ) مغنية عن فاء التفريع .

ومعنى ﴿ وجدناهُ ﴾ أنه ظهر في صبره ما كان في علم الله منه .

وقوله : ﴿ نِعم العبد إنَّهُ أوَّابٌ ﴾ مثل قوله في سليمان ﴿ نِعم العبد إنَّه أوَّابٌ ﴾ [ص : 30] ، فكان سليمان أوَّاباً لله من فتنة الغنى والنعيم ، وأيوب أوَّاباً لله من فتنة الضرّ والاحتياج ، وكان الثناء عليهما متماثلاً لاستوائهما في الأوبة وإن اختلفت الدواعي .

قال سفيان : أثنى الله على عبدين ابتليا : أحدهما صابر ، والآخر شاكر ، ثناءً واحداً . فقال لأيوب ولسليمان ﴿ نِعْمَ العبد إنَّه أوَّابٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(67/661)

وقال صاحب التفسير الواضح :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ﴾

المفردات :

ارْكُضْ بِرِجْلِكَ اركض : التحريك ، ومنه : ركض الدابة : إذا حرك راكبها رجليه والمراد : اثبت ضِغْثاً والضغث : الحزمة الصغيرة من الحشيش .

المعنى :

للناس فيما يقصون عن أيوب طريقان ، أحدهما يقول : إن أيوب مسه الشيطان في بدنه وماله بنصب وعذاب ، ثم يرسلون خيالهم في تصوير المرض الذي أصابه حتى نفر الناس منه إلى أبعد الحدود المعقولة وغير المعقولة ، وهذا بلا شك باطل وأى باطل لا يستسغيه عقل مسلم ، فإنا نعتقد أن النبي يستحيل عليه أن يصاب بمرض جسمي ينفر فإنه أرسل ليهدى الخلق ويحتك بهم ، فليس من الجائز عقلا أن يكون بحيث ينفر منه الناس ، وهل يقدر الشيطان على البلاء بالمرض إلى هذا الحد ، لو كان كذلك ما الذي منعه من إصابة أعدائه الألداء جميعا كالأنبياء والمرسلين والهداة والمرشدين بهذا أو أشد منه ؟ فإنهم أعداء حقيقة . وكيف يتصور مسلم في الشيطان غير ما حدده له ربه حيث يقول : ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي [يوسف 22] فقد صرح اللّه بأنه لا قدرة له في حق البشر إلا على إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة قال :

فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [ص 82 ، 83] .

وعلى هذا الأساس فالمعقول في قصة أيوب هو أن اللّه أمر محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم أن يذكر عبده الممتثل لأمره أيوب وقت أن نادى مستغيثا به : أنى مسنى الشيطان بنصب

وعذاب .

مسه الشيطان بوسوسته وإلقاء الخواطر الفاسدة في ذهنه ، وإبليس وجنده يتحينون الفرص . ويطرقون لكل إنسانا بابا خاصا به . ويدخلون عليه من النقطة الضعيفة عنده – والله أعلم – هل دخل الشيطان على أيوب من جهة بدنه إذ كان مريضا صابرا ، أو من جهة ماله أو ولده ، أو من جهة قومه ودعوته لهم ؟ الله أعلم .

ثم أمر من قبل الله أن يركض برجله وأن يضرب الأرض بها ثابتا مستقرا غير عابئ بما حوله من أعاصير ، فالعلاج الوحيد عنده هو ما أنزله الله عليه وهداه إلى العمل به فهو

الذي يغسل الأوضار والأدران وهو المغتسل البارد والشراب ، والقرآن كثيرا ما يكنى عن الوحى بالماء والمطر ، ولا شك أن كلام الله هو العلاج لكل داء والدواء لكل مرض وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً . [الإسراء 82] .

ووهبنا له أهله وأضعافهم معه ، ولعل المراد بالأهل أتباعه في الدين ، ووهبنا له ذلك رحمة منا وعظة وذكرى لأولى الألباب الذين يعلمون أن الأمر بيد الله ، وأنه يكشف السوء ويجيب المضطر ، ويدافع عن عباده المؤمنين الصابرين .

وأمر أيوب أن يأخذ بيده ضغثا فيضرب به ولا يحنث . قالوا : إن امرأته خالفته في أمر فأقسم ليضربنها مائة فأرشده اللّه إلى أخذ (قنو) فيه مائة شمروخ أو يأخذ حزمة فيها مائة عود فيضرب بها ولا يحنث .

إن ربك وجد أيوب صابرا على البلاء شاكرا على النعماء لأنه العبد أيوب ، وإنما مدحه ربه بهذا لأنه أواب .

وهذه ثالث قصة ذكرت في هذه السورة ، وكلها فيها بلاء وفتنة واختبار وصبر ، ثم نجاح في البلاء والفتنة ، ولأصحابها زلفى ومكانة وحسن مآب عند اللّه ، وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التفسير الواضح حـ 3 صـ 243.244 ﴾

(69/661)

وقال الشيخ الصابونى

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب (41) ﴾

سورة ص

[1] موقف الشريعة من الحيل

التحليل اللفظي

﴿ بنصب ﴾ : النصب بضم النون وسكون الصاد بمعنى التعب كالنصب . قال الفراء : هما كالرشد والرشد ، والحزن والحزن معناهما واحد .

قال في اللسان : والنصب ، والنصب والنصب : والبلاء والشر ، والنصب : الأعياء من العناء . وفي التنزيل : ﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ [الحجر : 48] أي تعب .

وقال أبو عبيدة : النصب : الشر والبلاء ، والنصب : التعب والإعياء .

والمراد في الآية : مرض أيوب وما كان يقاسيه من أنواع البلاء في جسده .

﴿ اركض ﴾ : الركض : الدفع بالرجل ، يقال : ركض الدابة إذا ضربها برجله لتعدو ، وقال المبرد : الركض التحريك والضرب ، ولهذا قال الأصمعي : يقال ركضت الدابة ، ولا يقال : ركضت هي ، لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لها في ذلك . والمراد في الآية : اضرب برجلك ينبع الماء فتغتسل وتشرب منه .

﴿ مغتسل ﴾ : المغتسل الماء الذي يغتسل به ، وقيل : الموضع الذي يغتسل فيه ، والصحيح الأول .

﴿ ضغثا ﴾ : الضغث في أصل اللغة : الشيء المختلط ومنه (أضغاث أحلام) للرؤيا المختلطة .

قال في اللسان : الضغث : قبضة من قضبان مختلفة يجمعها أصل واحد مثل الأسل والكراث قال الشاعر :

كأنه إذ تدلى ضغث كراث . . . وقيل : هي الحزمة من الحشيش ، مختلطة الرطب باليابس

.

وقال ابن عباس : هو عشكال النخل الجامع بشماريخه . أي عنقود النخل المتفرع الأغصان .

والمعنى : أمره الله أن يأخذ حزمة من العيدان فيها مائة عود ، ويضربها بها ضربة واحدة ، ليبر في يمينه ولا يحنث فيها .

﴿ تحنث ﴾ : الحنث : الخلف في اليمين ، يقال : حنث في يمينه ، يحنث إذا لم يبر بها .

(70/661)

قال في اللسان : الحنيث في اليمين : نقضها والنكث فيها ، وهو من الحنث بمعنى الإثم وفي الحديث : " اليمين حنث أو مندمة " ومعناه : إما أن يندم على ما حلف عليه ، أو يحنث فتلزمه الكفارة . والحنث : الذنب العظيم ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ وكانوا يصرون على الحنث العظيم ﴾ [الواقعة : 46] .

﴿ أواب ﴾ : الأوب : الرجوع ، والأواب : التواب ، الرجاع ، الذي يرجع إلى التوبة والطاعة ، ويرجع إلى الله في جميع أمورة ، وهي من صيغ المبالغة مثل (ظلام) و (قتال) .

المعنى الإجمالي

اذكر يا محمد لقومك قصة عبدنا (أيوب) إذ نادى ربه مستغيثا به ، ضارعا إليه ، فيما نزل به من البلاء ، راجيا أن يكشف الله عنه الضر حيث قال : رب إني أصبت ببلاء وشدة ، وتعب وضنى ، وأنت أرحم الراحمين ورب المستضعفين . . . فاستجاب الله الحليم الكريم دعاءه ، وكشف عنه شدته ، فأذهب عنه الآلام والأسقام ، وأمره أن يضرب برجله الأرض ، حتى تنبع له عين ماء يكون فيها شفاؤه ، وقلنا له : هذا مغتسل بارد وشراب ، تغتسل منه وتشرب فتشفى بإذن الله ، فلما ضرب الأرض نبعث له عين ماء ، فاغتسل منها فذهب الداء من ظاهره ، ثم شرب منها فذهب الداء من باطنه ، فعادت إليه الحياة الطبيعية التي كان يعيشها ، وشعر بأهله وأولاده ، ونعم بأسرته التي كانت بالنسبة إليه كالمفقودة ، ومتعه الله بصحته وقواه حتى كثر نسله وتضاعف عدد أولاده ، ورزقه من الأموال فضلا منه ونعمة ، وإكراما لعبده الصابر الطائع ، وتذكيرا لعباد الله بفضل الله وإكرامه لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب – وهو أفضل أهل زمانه – وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا ومصائبها ، واللجوء إلى الله عز وجل فيما يحيق بهم كما لجأ أيوب ليفعل الله بهم ما فعل به من حسن العاقبة ، وعظيم الإكرام .

(71/661)

وما كان الله – جلت حكمته – ليكرمه ويدع زوجه التي أحسنت إليه ، وأعانته في بلائه ومحنته ، وكان قد حلف لأمر فعلته ليضربنها مائة جلدة ، فجزاها الله بحسن صبرها أن أفتاه في ضربها تسهيلا عليه وعليها فأمره أن يجمع لها (مائة عود) ويضربها ضربة واحدة ، لا يحنث في يمينه .

ثم شهد الله تعالى لأيوب عليه السلام شهادة تبقى على مر الأزمان ، مظهره أنه كان في بلائه صابرا ، لا تحمله الشدة على الخروج عن طاعة ربه ، والدخول في معصيته ، فكان من خيره خلق الله وعباده ، مقبلا على طاعته ، رجاعا إلى رضاه ، فلم يكن دعاؤه عن تذمر وشكوى ، وإنما كان لجوءا إلى الله العلي القدير الذي بيده مقاليد السموات والأرض .

الغرض من ذكر القصة

المقصود من ذكر قصة (أيوب) عليه السلام ، وما قبلها من قصص الأنبياء الاعتبار بما يقع في هذه الحياة ، كأن الله تعالى يقول : يا محمد ، إصبر على سفاهة قومك ، وشدتهم في معاملتك ، ومقابلة دعوتك بالصدود والإعراض ، فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاها من (داود) و (سليمان) – عليهما السلام – وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب – عليه السلام – فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره .

وجوه القراءات

أولا : قوله تعالى : ﴿ أني مسني ﴾ قرأ الجمهور بفتح همزة ﴿ أني ﴾ وقرأ عيسى بن عمر (إني) بكسرها على تقدير : قال إني .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ بنصب وعذاب ﴾ قرأ الجمهور ﴿ بنصب ﴾ بضم النون وسكون الصاد ، وقرأ الحسن ﴿ بنصب ﴾ بضمهما .

وقرأ بعضهم ﴿ بنصب ﴾ بفتح النون وسكون الصاد ، ونسبها جماعة إلى أبي جعفر .

قال الطبري : " والصواب من القراءة في ذلك عندنا ما عليه قراءة الأمصار وذلك الضم في النون والسكون في الصاد "

وجوه الإعراب

أولا : قوله تعالى : ﴿ واذكر عبدنا أيوب ﴾ عطف على قوله ﴿ واذكر عبدنا داوود ﴾ [ص : 17] من عطف جملة على جملة .

و (أيوب) عطف بيان ، أو بدل من (عبدنا) بدل كل من كل .

ثانيا : قوله تعالى : ﴿ أني مسني الضر ﴾ [الأنبياء : 83] منصوب بنزع الخافض أي (

بأني مسني) حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ، ولو لم يحك قوله لقال : بأنه مسه ، لأنه غائب .

ثالثا : قوله تعالى : ﴿ رحمة منا وذكرى ﴾ رحمة مفعول لأجله ، ومثلها ﴿ وذكرى ﴾ أي لرحمتنا إياه وليتذكر أرباب العقول بما يحصل للصابر من الفضل والأجر .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ وخذ بيدك ضغثا ﴾ عطف على ﴿ اركض ﴾ أو على ﴿ وهبنا ﴾ بتقدير قلنا خذ بيدك ضغثا .

قال الألوسي : " والأول أقرب لفظا ، وهو أنسب معنى ، فإن الحاجة إلى هذا الأمر لا تكون إلا بعد الصحة واعتدال الوقت " .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : في قصة أيوب عليه السلام كان قد حصل له نوعان من البلاء : (المشقة الشديدة) بسبب زوال النعم والخيرات ، وحصول المكروه و (الألم الشديد) في الجسم ، ولما كان كل منهما قد لحق به وأصابه الضر بسببه ، أحدهما مادي ، والآخر جسدي ، ذكر الله تعالى في الآية الكريمة لفظين (النصب) و (العذاب) ليقابل بذلك الضر الذي أصابه ، فالنصب الضر في الجسد ، والعذاب البلاء في الأهل والمال .

اللطيفة الثانية : وصف الله تعالى نبيه (أيوب) عليه السلام بالصبر ، وأثنى عليه بقوله : ﴿ إنا وجدناه صابرا ﴾ مع أن أيوب كان قد اشتكى إلى ربه من الضر الذي أصابه فقال :

﴿ مسني الضر ﴾ في سورة الأنبياء [83] ، وقال هنا : ﴿ مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ فدل ذلك على أن الشكوى إلى الله تعالى لا تنافي الصبر ، وقد قال يعقوب عليه السلام : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ [يوسف : 86] ولهذا مدحه الله بقوله : ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ ولو كانت الشكوى إلى الله تعالى تنافي الصبر لما استحق هذا الثناء .

(73/661)

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ أني مسني الشيطان ﴾ أسند الضر الذي أصابه في جسمه وأهله ، وماله ، إلى الشيطان أدبا مع الله تعالى ، مع أن الفاعل الحقيقي هو الله رب العالمين ، فالخير والشر ، والنفع والضر ، بيد الله جل وعلا . ولكن لا ينسب الشر إلى الله وإنما ينسب إلى النفس أو الشيطان ، ولهذا راعى عليه السلام الأدب في ذلك فنسبه إلى الشيطان ، وهو على حد قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ [الشعراء : 79 - 80] حيث نسب الإطعام إلى الله ونسب المرض إلى نفسه أدبا .

قال الزمخشري : " لما كانت وسوسته إليه ، وطاعته له فيما وسوس ، سببا فيما مسه الله

به من النصب والعذاب نسبه إليه ، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو " .

اللطيفة الرابعة : سئل سفيان عن عبدين ، ابتلى أحدهما فصبر ، وأنعم على الآخر فشكر ، فقال : كلاهما سواء ، لأن الله تعالى أثنى على عبدين : أحدهما صابر ، والآخر شاكر ثناء واحدا فقال في وصف أيوب ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ وقال وفي وصف سليمان ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ [ص : 30] .

وفضل بعض العلماء : الغني الشاكر ، على الفقير الصابر ، لأن الغنى ابتلاء وفتنة ، والشاكر من عباد الله قليل

﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ : 13] بخلاف الصابر فإنه كثير والمسألة فيها نظر .

اللطيفة الخامسة : يضرب المثل بصبر أيوب عليه السلام فيقال : (صبر كصبر أيوب) وقد صبر على البلاء في جسمه ، وأهله ، وولده مدة ثمان عشرة سنة على الراجح من الأقوال ، ويروى أن زوجه لما طلبت منه أن يدعو الله أن يشفيه سألها : كم مكثنا في الرخاء ؟ قالت سبعين عاما ، فقال لها : ويحك كنا في النعيم سبعين عاما ، فاصبري حتى نكون في الضر سبعين عاما .

ويروى أنه قال لها : إني لأستحيي من الله أن أسأله أن يشفيني وما قضيت في بلائي ما قضيته في رخائي ! !

(74/661)

ولهذا يضرب به المثل في الصبر .

اللطيفة السادسة : روى البخاري والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل يحثي في ثوبه ، فناداه ربه يا أيوب : ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك " .

قال بعض العلماء : حين صبر أيوب أكرمه الله بالمال الوفير ، والأجر الجزيل ، وعوضه عن الأهل والولد ، بضعفهم وبارك فيهم كما قال تعالى : ﴿ فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ [الأنبياء : 84] .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما هو سبب حلف أيوب عليه السلام بضرب أهله ؟

دل ظاهر قوله تعالى : ﴿ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ﴾ على أن أيوب عليه

السلام كان قد صدر منه يمين على ضرب أهله ، ويقول المفسرون إنه حلف لئن شفاه الله ليجلدن زوجته مائة جلدة ، فأمره الله أن يأخذ قبضة من حشيش ، أو حزمة من الخلال والعيدان ، فيضرب بها ليبر بيمينه ولا يحنث ، ولم تذكر الآية سبب هذا الحلف ، وقد ذكر بعض المفسرين كلاما طويلا في سبب هذا اليمين ، فقيل : إن امرأة أيوب كانت تخدمه وضجرت من طول مرضه ، فتمثل لها الشيطان بصورة طبيب ، وجلس في طريقها فقالت له : يا عبد الله إن هاهنا إنسانا مبتلى ، فهل لك أن تداويه ؟ قال : نعم إن شاء شفيته ، على أن يقول إذا برأ : أنت شفيتني ، فجاءت إلى أيوب فأخبرته فقال : ذاك الشيطان ، لله علي إن شفاني الله أن أجلدك مائة جلدة .

وزعم بعضهم أن إبليس لقي زوجه أيوب فقال لها : أنا الذي فعلت بأيوب ما فعلت ، وأنا إله الأرض ، ولو سجدت لي سجدة واحدة لرددت عليه أهله وماله ، فجاءت فأخبرت أيوب فأقسم أن يضربها إن عافاه الله .

(75/661)

وكتاب الله تعالى لم يأت فيه تفصيل للقصة ، ولهذا انطلقت الخيالات تنسج قصصا في سبب بلائه وفي سبب حلفه على زوجه ، منها ما هو باطل لا يصح اعتقاده ومنها ما هو

ضعيف واهن .

يقول أبو بكر ابن العربي : " ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان في السماء السابعة ، وأنه طلب من ربه أن يسلطه على أيوب فقال له : قد سلطتك على أهله وماله . . إلخ إن هذا قول باطل ، لأن إبليس أهبط منها بلعنة الله وسخطه ، فكيف يرقى إلى محل الرضا ، ويجول في مقامات الأنبياء ، ويخترق السموات العلى ! !

إن هذا لخطب من الجهالة عظيم .

وأما قولهم : إن الله تعالى قال له : هل قدرت من عبدي أيوب على شيء ؟ فباطل قطعا ، لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس اللعين ، فكيف يكلم من تولى إضلالهم ؟ !

وأما قولهم : إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده ، فذلك ممكن في القدرة ، ولكنه بعيد في هذه القصة ، وكذلك قولهم : إنه نفخ في جسده حين سلطه عليه فهو أبعد ، والباري سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان كسب فيه حتى تقر له – لعنة الله عليه – عين بالتمكن من الأنبياء في أموالهم ، وأهليهم ، وأنفسهم .

وأما قولهم : إنه قل لزوجته أنا إله الأرض ، ولو تركت ذكر الله وسجدت لي لعافيته . .

فاعلموا أنه لو عرض لأحدكم وبه ألم وقال هذا الكلام ، ما جاز عنده أن يكون إلها في

الأرض ، وأنه يسجد له ، وأنه يعافى من البلاء ، فكيف أن تستريب زوجة نبي ؟ ولو كانت زوجة سوادي أو فدم بربري ما ساغ ذلك عندها " .

(76/661)

ثم قال : " ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين : الأولى قوله تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر ﴾ [الأنبياء : 83] والثانية في ص : ﴿ أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ وأما النبي صلى الله عليه وسلم فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله : " بينا أيوب يغتسل إذ خر عليه رجل من جراد من ذهب " الحديث وقد تقدم .

وإذا لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه ، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره ، أم على أي لسان سمعه ؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات ، فأعرض عن سطورها بصرك ، وأصمم عن سمعها أذنيك ، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالا ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا " .

أقول : " ليس بلازم في ثبوت صبر أيوب اعتقاد أمثال هذه القصص الإسرائيلية ، التي حشا بها بعض المفسرين كتبهن ، ولا أمثال هذه الغرائب التي لا يصح سندها ولا نسبتها إلى

الأنبياء الكرام لأنها تنافي " العصمة " ولا تتفق من المناصب الرفيعة للأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم ، ويكفي أن نقتصر على ما ذكره الله تعالى في كتابه ، ونعرض عن مثل هذه الخرافات والأباطيل ، كزعم بعضهم أن أيوب تساقط لحمه من شدة المرض ، وأصبح الدود يخرج من جسمه حتى استقذره القريب والبعيد ، وملّه الصديق والغريب ولم يصبر عليه إلا امرأته ، وأنه عظم بلاؤه حتى أخرج من بيته وألقي على كناسة (مزبلة) .

. . إلى آخر ما هنالك من حكايات مكذوبة وقصص إسرائيلية تلقفها بعض القصاص ، ودخلت إلى بعض كتب التفسير وهي مما تنافي (عصمة الأنبياء) .

(77/661)

والذي ينبغي أن يقتصر عليه المسلم أن ما أصاب (أيوب) من ضر إنما كان مرضا من الأمراض المستعصية ، التي ينوء بحملها الناس عادة ، ويضجرون من ثقلها ، وخصوصا إذا امتد الزمن بها ، وأن هذا المرض لم يصل إلى حد الاستقذار والنفرة ، وأنه غضب على زوجه لأمر من الأمور فحلف ان يضربها مائة جلدة ، فجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا ، وسهل عليه الأمر فجمع لها (مائة عود) فضربها بها ضربة واحدة ولم يحنث في يمينه ، وكشف الله عنه ضره وبلاءه .

الحكم الثاني : هل يباح للرجل ضرب امرأته تأديبا ؟

استدل بعض العلماء بالآية الكريمة على جواز ضرب الرجل امرأته تأديبا ، وذلك لأن امرأة أيوب أخطأت في حق زوجها فحلف ليضربنها مائة جلدة ، فأمره الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخيل أو بحزمة من العيدان ، وذلك ليبر في يمينه ولا يحنث ، ولو كان الضرب غير جائز لما أقره القرآن عليه ودله على ما هو أرحم .

وفي الآية إشارة إلى أنه لا يجوز ضرب المرأة فوق حدود الأدب ، ولهذا قال عليه السلام في حجة الوداع : " واضربوهن ضربا غير مبرح " ، والجواز لا ينافي الكراهة فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تضربوا إماء الله " فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ذأرن النساء على أزواجهن ، فرخص في ضربهن ، فأطاف بآل النبي صلى الله عليه وسلم نساء كثير يشكون أزواجهن ، فقال صلى الله عليه وسلم : " لقد طاف بآل محمد نساء يشكون أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم " .

(78/661)

قال الجصاص : " والذي ذكره الله في القرآن وأباحه من ضرب النساء إذا كانت ناشزا بقوله : ﴿ والاتي تخافون نشوزهن ﴾ [النساء : 34] إلى قوله ﴿ واضربوهن ﴾ [النساء

: 34] وقد دلت قصة أيوب على أن له ضربها تأديبا لغير نشوز وقوله تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النسآء ﴾ [النساء : 34] فما روي من القصة فيه يدل على مثل دلالة قصة أيوب ، لأنه روي أن رجلا لطم امرأته على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أهلها القصاص فأنزل الله : ﴿ الرجال قوامون على النسآء ﴾ [النساء : 34] .

الحكم الثالث : هل الحكم خاص بأيوب أم هو عام لجميع الناس ؟

اختلف العلماء في هذا الحكم الذي أرشده الله تعالى إليه نبيه (أيوب) عليه السلام هل هو خاص به أم عام لجميع الناس ؟

فذهب (مجاهد) إلى أنه خاص بأيوب عليه السلام ، وهو منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو مذهب (مالك ، وأحمد بن حنبل) رحمهما الله تعالى .

وذهب عطاء بن أبي رباح : وابن أبي ليلى إلى أن الحكم عام ، وأن هذه الرخصة لجميع الناس فضلا من الله تعالى وكرما ، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة رحمهما الله تعالى .

الحكم الرابع : هل يشترط في الضرب أن يكون مفرقا ؟

وبناء على ما سبق فقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده عشرة أسواط ، فجمعها كلها وضربه بها ضربة واحدة ، هل يكفي ذلك أم لا بد في الضرب أن يكون مفرقا ؟

فقال مالك وأحمد : لا يبر بيمينه حتى يفرق الضرب .

وقال أبو حنيفة والشافعي : إذا أصابه واحد منها فقد بر في يمينه ولا يشترط التفريق .

حجة المذهب الأول :

1- إن هذا الأمر خاص بأيوب وزوجه لأن الله تعالى قال : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ [المائدة : 48] ولأن زوجة أيوب لم تفعل أمرا تستحق معه جلد مائة ، فجعل الله سبحانه لأيوب فرجا ومخرجا بذلك .

2- ولأنه إذ أقسم بالضرب إنما أراد الإيلام ، وليس في الضرب بالجميع إيلام .

(79/661)

3- الأيمان مبناها على النية ، فإن لم توجد فعلى اللغة والعرف ، واللغة لا تجعل الضارب مرة بسوط ذي شعب ضاربا مرات بعدد الشعب ، وكذا العرف فوجب أن تجري على ما هو الحكم عندنا بموجب العرف واللغة .

حجة المذهب الثاني :

1- عموم قصة أيوب عليه السلام ، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يأت ناسخ ، وقد جاء في الشرع ما يؤيدها ، ولم يثبت الناسخ .

2- واستدلوا بحديث أبي أمامة عن بعض الصحابة من الأنصار : أنه أشتكى رجل منهم

فعاد جلدة على عظم ، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهش لها ، فوقع عليها ، فلما دخل عليه رجال من قومه يعودونه أخبرهم بذلك ، وقال : استفتوا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكروا له ذلك ، وقالوا : ما رأينا بأحد من الضر مثل ما به ، ولو حملناه لك لتفسخت عظامه ، ما هو إلا جلد على عظم .

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا له مائة سمراخ فيضربونه بها ضرة واحدة .

ودلالة الآية ظاهرة على صحة هذا القول .

وذلك لأن فاعل ذلك يسمى ضاربا لما شرط من العدد ، وذلك يقتضي البر في يمينه .

3- وقالوا : إن القرآن حكم بأنه لا يحنث بفعله لقوله تعالى : ﴿ فاضرب به ولا تحنث ﴾

.

ولكن يجب أن لا يطبق ذلك في الحدود إلا مقيدا بما ورد الحديث به ، فيكون ذلك حد المريض الذي وصل من المرض إلى الحد الذي وصف في الحديث الشريف .

الحكم الخامس : هل تجوز الحيلة في الشريعة الإسلامية ؟

3- قال الجصاص : في تفسيره " أحكام القرآن " : (وفي الآية دليل على جواز الحيلة في التوصل إلى ما يجوز فعله ، ودفع المكروه بها عن نفسه وعن غيره لأن الله تعالى أمره بضربها بالضغث ليخرج به من اليمين ولا يصل إليها كثير ضرر) .

أقول : هذا هو الحد المقبول من الحيل الشرعية التي توصل إلى ما يجوز فعله وتدفع المكروه عن نفسه وغيره . أما الحيل التي يتوصل بها إلى الهرب من فرائض الله ، والتخلص مما أوجبه الله على الإنسان ، فهذه لا يقبلها ذو قلب سليم ولا يقرها مسلم عاقل ، لأن فرائض الله إنما فرضت لتؤدى ، والواجبات إنما شرعت لتقام على وجه الأرض ، لا لتكون طريقا للتلاعب في أحكام الله .

وقد استدل بعض العلماء على جواز الحيلة مطلقا بهذه الآية . ويقول الله تعالى في قصة يوسف : ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ﴾ [يوسف : 70] ، وليس الأمر كما زعموا فإن ذلك بإذن الله ليظهر فضله على سائر إخوته بدليل قوله تعالى : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشآء الله ﴾ [يوسف : 76] .

قال الألوسي : " وعندي أن كل حيلة أوجبت إبطال حكمة شرعية لا تقبل كحيلة (سقوط الزكاة) وحيلة (سقوط الاستبراء) وهذا كالتوسط في المسألة فإن من العلماء من يجوز الحيلة مطلقا ومنهم من لا يجوزها مطلقا " .

الحكم السادس : هل أفعال الإله جل وعلا تابعة للمصالح ؟

قال الإمام الفخر رحمه الله : (وفي قصة أيوب عليه السلام دلالة على أن أفعال ذي الجلال

والإكرام منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : 23] . وذلك لأن أيوب لم يقترف ذنبا حتى يكون ابتلاؤه في مقابلة ذلك الجرم ، وإن كان البلاء ليجزل له الثواب ، فإن الله تعالى قادر على إيصال كل خير ومنفعة إليه من غير توسط تلك الآلام والأسقام ، وحينئذ لا يبقى في تلك الأمراض والآفات فائدة . وهذه كلمات ظاهرية جلية والحق الصريح أنه لا يسأل عما يفعل) .

الحكم السابع : هل البر في اليمين أفضل أم الكفارة عن اليمين ؟

في الآية الكريمة دليل على أن البر باليمين ما لم يكن في إثم أفضل من الكفارة .

(81/661)

وقد قال ابن تيمية – رحمه الله – إن الكفارة لم تكن مشروعة في زمنه وإلا لأمره الله تعالى بها . . . وذكره ابن العربي قبله .

قال القرطبي : قوله إنه لم يكن في شرعهم كفارة ، ليس بصحيح ، فإن أيوب عليه السلام لما بقي في البلاء ثمان عشرة سنة – كما في حديث ابن شهاب – قال له صاحباه : لقد أذنبت ذنبا ما أظن أحدا بلغه . فقال أيوب صلى الله عليه وسلم : ما أدري ما تقولان ، غير أن ربي عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتزاعمان فكل يحلف بالله ، أو على النفر

يتزاعمون فأنقلب إلى أهلي فأكفر عن أيمانهم إرادة أن لا يأثم أحد يذكره ، ولا يذكره إلا بحق فنادى ربه :

﴿ أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ [الأنبياء : 83] . فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب ، وأن من كفر عن غيره بغير إذه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولا : إبتلاء الله تعالى لنبيه أيوب عليه السلام كان امتحانا لإيمانه ، ورفعا لمقامه .

ثانيا : الإنسان يبتلى في هذه الحياة على قدر إيمانه ، ولهذا كان الأنبياء أعظم الناس ابتلاء .

ثالثا : التضرع إلى الله والشكوى إليه سبحانه لا ينافي مقام الصبر الممدوح .

رابعا : كما يبتلي الله سبحانه بالفقر يبتلي بالغنى ، والمؤمن من يشكر الله في السراء والضراء .

خامسا : إذا اتقى الإنسان ربه جعل الله له من أمره فرجا ومخرجا ، كما صنع بأيوب عليه السلام .

سادسا : زوجة أيوب جازاها الله بحسن صبرها ، فأفتاه في ضربها بمائة عود جملة واحدة .

سابعا : اتخاذ الحيلة جائز إذا لم يكن فيها إبطال حق أو هدم أمر من أمور الشرع الحنيف .

ثامنا : على الإنسان أن يبر في يمينه أو يكفر عنها إذا كان ثمة مصلحة وكان الحنث أفضل من البر .

حكمة التشريع

(82/661)

لقد نزل الإسلام بتشريعاته وتعاليمه ليحكم المجتمع البشري في كل ظروفه وأحواله ، فلهذا أعطى لكل أمر حكما ، وراعى المصالح في أحكامه وتشريعاته كما راعى اختلاف الطباع الإنسانية ، فعندما أجاز الشارع ضرب المرء زوجه إنما أجازه أولا وقبل كل شيء في حدود ، وأن يكون الضرب مبرحا ، ولا يتعدى حدود التأديب والتهذيب ، ومع ذلك فقد اعتبر ضرب الأزواج غير ممدوح فاعله ، وتبدو حكمة الترخيص بالضرب جلية في نساء مخصوصات تعودن عليه ، ونشأن في ظلاله ، فلم يعد من الممكن تأديبهن إلا بهذه الطريق فأجازها الشارع لذلك .

يقول شهيد الإسلام سيد قطب في كتابه " الظلال " ما نصه :

" وقصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة مشهورة ، وهي تضرب مثلا للابتلاء والصبر ولكنها

مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها ، والحد المأمون في هذه القصة هو أن أيوب عليه السلام كان كما جاء في القرآن عبدا صالحا أوابا ، وقد ابتلاه الله فصبر صبرا جميلا ، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعا ولكنه ظل على صلته بربه ، وثقته به ، ورضاه بما قسم له .

وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له ، ومنهم زوجته بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه ، وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه في نفسه أشد ما يؤذيه الضر والبلاء .

فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربها عددا عينه ، قيل مائة .

وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان ، ومداخله إلى نفوس خلصائه ، ووقع هذا الإيذاء في نفسه : ﴿ أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ .

فلما عرف ربه منه صدقه وصبره ، ونفوره من محاولات الشيطان وتأذيه بها ، أدركه برحمته ، وأنهى ابتلاءه ، ورد عليه عافيته إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ﴾ .

وتقول بعض الروايات : إن الله أحيا له أبناءه ، ووهب له مثلهم ، وليس في النص ما يحتم أنه أحيا له من مات ، وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين ، وأنه رزقه بغيرهم زيادة في الإنعام والرحمة والرعاية مما يصلح ذكرى لذوي العقول والإدارك .

والمهم في معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه ، وترضى نفوسهم بقضائه .

فأما قسمه ليضربن زوجه ، فرحمة من الله ، وبزوجه التي قامت على رعايته ، وصبرت على بلائه وبلائها به ، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذي حدده فيضربها به ضربة واحدة تجزئ عن يمينه فلا يحنث فيها : ﴿ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ﴾ هذا التيسير وذلك الإنعام ، كانا جزاء على ما علمه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روائع البيان حـ 2 صـ 423 . 441 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ﴾

أخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ قال : ذهاب الأهل والمال والضر الذي أصابه في جسده . قال : ابتلى سبع سنين وأشهراً ، فألقى على كناسة بني إسرائيل تختلف الدواب في جسده ، ففرج الله عنه ، وأعظم له الأجر ، وأحسن .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ بنصب وعذاب ﴾ قال ﴿ بنصب ﴾ الضر في الجسد ، ﴿ وعذاب ﴾ قال : في المال .

وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ أن الشيطان عرج إلى السماء قال : يا رب سلطني على أيوب عليه السلام قال الله : قد سلطتك على ماله وولده ، ولم أسلطك على جسده . فنزل فجمع جنوده فقال لهم : قد سلطت على أيوب عليه السلام ، فأروني سلطانكم ، فصاروا نيراناً ، ثم صاروا ماء ، فبينما هم بالمشرق إذا هم بالمغرب ، وبينما هم بالمغرب إذا هم بالمشرق ، فأرسل طائفة منهم إلى زرعه ، وطائفة إلى أهله ، وطائفة إلى بقره ، وطائفة إلى غنمه ، وقال : إنه لا

يعتصم منكم إلا بالمعروف . فأتوه بالمصائب بعضها على بعض . فجاء صاحب الزرع فقال : يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل على زرعك عدوّاً ، فذهب به . وجاء صاحب الإِبل فقال : يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل على إبلك عدواً ، فذهب بها ؟ ثم جاءه صاحب البقر فقال : ألم تر إلى ربك أرسل على بقرك عدواً ، فذهب بها ؟ وتفرد هو ببنيه جمعهم في بيت أكبرهم .

(85/661)

فبينما هم يأكلون ويشربون اذهبت ريح ، فأخذت بأركان البيت ، فألقته عليهم ، فجاء الشيطان إلى أيوب بصورة غلام فقال : يا أيوب ألم تر إلى ربك جمع بنيك في بيت أكبرهم ؟ فبينما هم يأكلون ويشربون اذهبت ريح ، فأخذت باركان البيت ، فألقته عليهم ، فلو رأيتهم حين اختلطت دماؤهم ولحومهم بطعامهم وشرابهم . فقال له أيوب : أنت الشيطان ، ثم قال له أنا اليوم كيوم ولدتني أمي ، فقام فحلق رأسه ، وقام يصلي ، فرن إبليس رنة سمع بها أهل السماء ، وأهل الأرض ، ثم خرج إلى السماء فقال : أي رب انه قد اعتصم ، فسلطني عليه ، فإني لا أستطيعه إلا بسلطانك قال : قد سلطتك على جسده ، ولم أسلطك على قلبه .

فنزل فنفخ تحت قدمه نفخة قرح ما بين قدميه إلى قرنه ، فصار قرحة واحدة ، وألقي على الرماد حتى بدا حجاب قلبه ، فكانت امرأته تسعى إليه حتى قالت له : أما ترى يا أيوب نزل بي والله من الجهد والفاقة ما أن بعت قروني برغيف . فأطعمك ، فادع الله أن يشفيك ويريحك قال : ويحك . . ! كنا في النعيم سبعين عاماً ، فأصبري حتى نكون في الضر سبعين عاماً ، فكان في البلاء سبع سنين ، ودعا فجاء جبريل عليه السلام يوماً ، فأخذ بيده ، ثم قال : قم .

(86/661)

فقام فنحاه عن مكانه وقال ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ فركض برجله ، فنبعت عين فقال : اغتسل . فاغتسل منها ، ثم جاء أيضاً فقال ﴿ اركض برجلك ﴾ فنبعت عين أخرى . فقال له : اشرب منها ، وهو قوله ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ وألبسه الله تعالى حلة من الجنة ، فتنحى أيوب ، فجلس في ناحية ، وجاءت امرأته ، فلم تعرفه فقالت : يا عبد الله أين المبتلي الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به ، والذئاب ؟ وجعلت تكلمه ساعة فقال : ويحك . . ! أنا أيوب قد رد الله عليّ جسدي ، ورد الله عليه ماله وولده عياناً ﴿ ومثلهم معهم ﴾ وأمطر عليهم جراداً من

ذهب ، فجعل يأخذ الجراد بيده ، ثم يجعله في ثوبه ، وينشر كساءه ، فيجعل فيه فأوحى الله إليه : يا أيوب أما شبعت ؟ قال : يا رب من ذا الذي يشبع من فضلك ورحمتك .

وأخرج أحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن إبليس قعد على الطريق ، فاتخذ تابوتاً يداوي الناس فقالت امرأة أيوب : يا عبد الله إن ههنا مبتلي من أمره كذا وكذا . . فهل لك أن تداويه ؟ قال : نعم . بشرط إن أنا شفيته أن يقول أنت شفيتني لا أريد منه أجراً غيره . فأتت أيوب عليه السلام فذكرت ذلك له فقال : ويحك . . ! ذاك الشيطان لله عليَّ إن شفاني الله تعالى أن أجلدك مائة جلدة ، فلما شفاه الله تعالى أمره أن يأخذ ضغثاً فأخذ عذقاً فيه مائة شمراخ ، فضرب بها ضربة واحدة .

وأخرج ابن أبي حاتم قال : الشيطان الذي مس أيوب يقال له مسوط . فقالت امرأة أيوب ادع الله يشفيك ، فجعل لا يدعو حتى مر به نفر من بني إسرائيل فقال بعضهم لبعض : ما أصابه ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه ، فعند ذلك قال : ﴿ ربِ أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ [الأنبياء : 83] .

(87/661)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير رضي الله عنه في قوله ﴿ اركض برجلك هذا ﴾ الماء ﴿ مغتسل بارد وشراب ﴾ قال : ركض رجله اليمنى فنبعت عين ، وضرب بيده اليمنى خلف ظهره فنبعت عين ، فشرب من إحداهما واغتسل من الأخرى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قال : ضرب برجله أرضاً يقال لها الحمامة ، فإذا عينان ينبعان فشرب من إحداهما واغتسل من الأخرى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن رضي الله عنه أن نبي الله أيوب عليه السلام لما اشتد به البلاء إما دعا وإما عرض بالدعاء ، فأوحى الله تعالى إليه ﴿ أن اركض برجلك ﴾ فنبعت عين ، فاغتسل منها فذهب ما به ، ثم مشى أربعين ذراعاً ، ثم ضرب برجله فنبعت عين فشرب منها .

(88/661)

وأخرج عبد بن حميد عن معاوية بن قرة رضي الله عنه قال : إن نبي الله أيوب عليه السلام لما أصابه الذي أصابه قال إبليس : يا رب ما يبالي أيوب أن تعطيه أهله ومثلهم معهم وتخلف له ماله وسلطانه سلطني على جسده قال : اذهب فقد سلطتك على جسده ، وإياك يا خبيث ونفسه قال فنفخ فيه نفخة سقط لحمه ، فلما أعياه صرخ صرخة اجتمعت إليه

جنوده قالوا يا سيدنا ما أغضبك ؟ فقال الا أغضب إني أخرجت آدم من الجنة وإن ولده هذا الضعيف قد غلبني فقالوا : يا سيدنا ما فعلت امرأته ؟ فقال : حية فقال : أما هي فقد كفيك أمرها فقال له : فإن أطلقتها فقد أصبت وإلا فأعطه فجاء إليها فاستبرأها ، فأتت أيوب فقالت له : يا أيوب إلى متى هذا البلاء ؟ كلمة واحدة ثم استغفر ربك فيغفر لك فقال لها : فعلتها أنت أيضاً . ثم قال لها أما والله لئن الله تعالى عافاني لأجلدنك مائة جلدة فقال ﴿ رب أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ فأتاه جبريل عليه السلام فقال ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ فرجع إليه حسنه وشبابه ، ثم جلس على تل من التراب فجاءته امرأته بطعامه فلم تر له أثراً فقالت لأيوب عليه السلام وهو على التل : يا عبد الله هل رأيت مبتلي كان ههنا ؟ فقال لها : إن رأيتيه تعرفينه ؟ فقالت له لعلك أنت هو ؟ قال : نعم . فأوحى الله إليه أن ﴿ خذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ﴾ قال : والضغث أن يأخذ الحزمة من السياط فيضرب بها الضربة الواحدة .

(89/661)

وأخرج أحمد في الزهد عن عبد الرحمن بن جبير رضي الله عنه قال : ابتلى أيوب عليه السلام بماله وولده وجسده وطرح في المزبلة ، فجعلت امرأته تخرج فتكتسب عليه ما

تطعمه ، فحسده الشيطان بذلك فكان يأتي أصحاب الخير والغنى الذين كانوا يتصدقوا عليها فيقول : اطردوا هذه المرأة التي تغشاكم فإنها تعالج صاحبها وتلمسه بيدها ، فالناس يتقذرون طعامكم من أجلها انها تأتيكم وتغشاكم ، فجعلوا لا يدنونها منهم ويقولون : تباعدي عنا ونحن نطعمك ولا تقربينا ، فأخبرت بذلك أيوب عليه السلام ، فحمد الله تعالى على ذلك وكان يلقاها إذا خرجت كالمتحزن بما لقي أيوب فيقول : لج صاحبك وأبى إلا ما أبى الله ، ولو تكلم بكلمة واحدة تكشف عنه كل ضر ، ولرجع إليه ماله وولده .

فتجيء فتخبر أيوب فيقول لها : لقيك عدوّ الله فلقنك هذا الكلام لئن أقامني الله من مرضي لأجلدنك مائة . فلذلك قال الله تعالى ﴿ وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ﴾ يعني بالضغث القبضة من الكبائس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وخذ بيدك ضغثاً ﴾ قال : الضغث القبضة من المرعى الطيب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وخذ بيدك ضغثاً ﴾ قال : حزمة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وخذ بيدك ضغثا ﴾ قال : عود فيه تسعة وتسعون عوداً ، والأصل تمام المائة . وذلك

أن امرأته قال لها الشيطان : قولي لزوجك يقول كذا وكذا . . ! فقالت له . . . فحلف أن يضربها مائة ، فضربها تلك الضربة فكانت تحلة ليمينه وتخفيف عن امرأته .

(90/661)

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أنه بلغه أن أيوب عليه السلام حلف ليضربن امرأته مائة في أن جاءته في زيادة على ما كانت تأتي به من الخبز الذي كانت تعمل عليه وخشي أن تكون قارفت من الخيانة ، فلما رحمه الله وكشف عنه الضر علم براءة امرأته مما اتهمها به ، فقال الله عز وجل ﴿ وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ﴾ فأخذ ضغثاً من ثمام وهو مائة عود ، فضرب به كما أمره الله تعالى .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وخذ بيدك ضغثاً ﴾ قال : هي لأيوب عليه السلام خاصة وقال عطاء : هي للناس عامة .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ وخذ بيدك ضغثاً ﴾ قال : جماعة من الشجر وكانت لأيوب عليه السلام خاصة ، وهي لنا عامة .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وخذ بيدك ضغثاً . .

﴾ . وذلك أنه أمره أن يأخذ ضغثاً فيه مائة طاق من عيدان القت ، فيضرب به امرأته لليمين التي كان يحلف عليها قال : ولا يجوز ذلك لأحد بعد أيوب إلا الأنبياء عليهم السلام .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال : " حملت وليدة في بني ساعدة من زنا فقيل لها : ممن حملك ؟ قالت : من فلان المقعد ، فسأل المقعد فقال صدقت ، فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " خذوا له عثكولاً فيه مائة شمراخ ، فاضربوه به ضربة واحدة " ففعلوا " .

(91/661)

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير والطبراني وابن عساكر من طريق أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال : " كان في أبياتنا إنسان ضعيف مجدع ، فلم يرع أهل الدار إلا وهو على أمة من إماء أهل الدار يعبث بها ، وكان مسلماً فرفع سعد رضي الله عنه شأنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " اضربوه حده فقالوا يا رسول الله : إنه أضعف من ذلك ان ضربناه مائة قتلناه قال : فخذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ ، فاضربوه ضربة واحدة وخلوا سبيله " " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن محمد بن عبد الرحمن عن ثوبان رضي الله عنه ،

أن رجلاً أصاب فاحشة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض على شفا موت ، فأخبر أهله بما صنع ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقنو فيه مائة شمراخ ، فضربه ضربة واحدة .

وأخرج الطبراني عن سهل بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بشيخ قد ظهرت عروقه قد زنى بامرأة ، فضربه بضغث فيه مائة شمراخ ضربة واحدة .

أما قوله تعالى : ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد ﴾ .

أخرج ابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أيوب عليه السلام رأس الصابرين يوم القيامة .

وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن العاصي رضي الله عنه قال : نودي أيوب عليه السلام يا أيوب لولا أفرغت مكان كل شعرة منك صبراً ما صبرت .

وأخرج ابن عساكر عن ليث بن أبي سليمان رضي الله عنه قال : قيل لأيوب عليه السلام لا تعجب بصبرك ، فلولا أني أعطيت موضع كل شعرة منك صبراً ما صبرت .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة أيوب قالت : يا أيوب إنك رجل مجاب الدعوة ، فادع الله أن يشفيك فقال : ويحك . . ! كنا في النعماء سبعين عاماً ، فدعينا نكون في البلاء سبع سنين .

وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : زوجة أيوب عليه السلام رحمة رضي الله عنها بنت ميشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .

(92/661)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن الحسن رضي الله عنه قال : كان أيوب عليه السلام كلما أصابه مصيبة قال : اللهم أنت أخذت ، وأنت أعطيت مهما تبقى نفسك أحمدك على حسن بلائك . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(93/661)

فروق لغوية دقيقة :

الفرق بين الحيلة والتدبير والسحر والشعبذة والمكر والكيد وما يقرب من ذلك وبين العجب والإمر وما بسبيله

الفرق بين الحيلة والتدبير

أن الحيلة ما أحيل به عن وجه فيجلب به نفع أو يدفع به ضر فالحيلة بقدر النفع والضر من

غير وجه وهي في قول الفقهاء على ضربين محظور ومباح فالمباح أن تقول لمن يحلف على وطء جاريته في حال شرائه لها قبل أن يشتريها اعتقها وتزوجها ثم طأها وأن تقول لمن يحلف على وطء امرأته في شهر رمضان اخرج في سفر وطأها والمحظور أن تقول لمن ترك صلوت اريد ثم أسلم يسقط عنك قضاؤها وإنما سمي ذلك حيله لأنه شيء أحيل من جهة إلى جهة أخرى ويسمى تدبيرا أيضا ومن التدبير ما لا يكون حيلة وهو تدبير الرجل لاصلاح ماله وإصلاح أمر ولده وأصحابه وقد ذكرنا اشتقاق التدبير قبل

الفرق بين السحر والشعبذة

أن السحر هو التمويه ويتخيل الشيء بخلاف حقيقته مع إرادة تجوزه على من يقصده به وسواء كان ذلك في سرعة أو بطء وفي القرأن (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) والشعبذة ما يكون من ذلك في سرعة فكل شعبذة سحر وليس كل سحر شعبذة

الفرق بين السحر والتمويه

أن التمويه هو تغطية الصواب

وتصوير الخطإ صورته وأصله طلاء الحديد والصفر بالذهب والفضة ليوهم أنه ذهب وفضة ويكون التمويه في الكلام وغيره تقول كلام مموه إذا لم تبين حقائقه وحلي إذا لم يعين جنسه والسحر أسم لما دق من الحيلة حتى لا تفطن الطريقة وقال بعضهم التمويه اسم لكل حيلة لا تأثير لها قال لاو يقال تمويه إلاى وقد عرف معناه والمقصد منه ويقال سحر وإن لم

يعرف المقصد منه ولهذا قيل التمويه ما لا يثبت قيل التمويه أن ترى شيئًا مجوزا له بغيره كما يفعل مموه الحديد فيجوزه بالذهب وسمى النبي البيان سحرا وذلك أن البليغ يبلغ ببلاغته ما لا يبلغ الساحر بلطافة حيلته

(94/661)

الفرق بين العجب والإمر

أن الإمر العجب الظاهر الكشوف والشاهد أن أصل الكلمة الظهور ومنه قيل للعلامة الأمارة لظهورها والإمر والأمارة ظاهر الحال وفي القرآن (لقد جئت شيئًا إمرا

الفرق بين العجب والإد

أن الإد العجب المنكر وأصله من قولك أد البعير كنا تقول ند أي شرد فالإد العجب الذي خرج عما في العادة من أمثاله والعجب استعظام الشيء لخفاء سببه والمعجب ما يتسعظم لخفاء سببه

الفرق بين العجيب والطريف

أن الطريف خلاف التليد وهو ما يستطرفه الإناسن من الأموال والتليد المال القديم (الموروث من المال أعجب إلى الأنسان) سمى كل عجيب طريفا وان لم يكن مالا

الفرق بين الخدع والكيك

أن الخدع هو إظهار ما يبطن خلافه أراد اجتلاب نفع أو دفع ضر ولا يقتضي أن يكون بعد تدبر

ونظر وفكر ألا ترى أنه يقال خدعه في البيع إذا غشه من جشع وأوهمه افنصاف وان كان ذلك بديهة من غير فكر ونظر واليد لا يكون إلا بعد تدبر وفكر ونظر ولهذا قال أهل العربية الكيد التدبير على العدو واراده إهلاكه وسميت الحيل التي يفعلها أصحاب الحروب بقصد إهلاك أعدائهم مكايد لأنها تكون بعد تدبر ونظر ويجي الكيد بمعنى الإرادة وقوله تعالى (كذلك كدنا ليوسف) أي أردنا ودل على ذلك بقوله (إلا أن يشاء الله) وإن شاء الله بمعنى المشيئة ويجوز أن يقال الكيد الحيلة التي تقرب وقوع المقصود به من المكروه وهو من قولهم كاد يفعل كذا أي قرب إلا أنه قيل هذا يكاد وفي الأولى يكيد للتصرف في الكلام والتفرقة بين المعنيين ويجوز أن يقال إن الفرق بين الخدع والكيد أن الكيد والتفرقة بين المعنيين ويجوز أن يقال إن ا لفرق بين الخدع والكيد أن الكيد اسم لفعل المكروه بالغير قهرا تقول كايدني فلان أي ضرني قهرا والخديعة أسم لفعل المكروه بالغير من غير قهر بل بأن يريد بانه ينفعه ومنه الخديعة في المعاملة وسمى الله تعال قصد أصحاب الفيل مكة كيدا في قوله تعالى (ألم يجعل كيدهم في تضليل) وذلك أنه كان على وجه القهر

الفرق بين الخدع والغرور

أن الغرور إيهام يحمل الإنسان على فعل ما يضره مثل أن يرى السراب فيحسبه ماء فيضيع ماء فيهلك عطشا وتضييع الماء فعل أداء اليه غرور السراب إياه وكذلك غر إبليس آدم ففعل آدم الأكل الضار اله والخدع أن يستر عنه وجه الصواب فيوقعه في مكروه وأصله من قولهم خدع الضب إذا توارى في جحره وخدعه في الشراء أو البيع غذا أظهر له خلاف ما أبطن فضره في ماله وقال علي بن عيس الغرور إيهام حال السرور في ما الأمر في المعلوم وليس كل

إيهام غرورا لأنه يوهمه مخوفا ليحذر منه فلا يكون قد غره والاغترار ترك الحزم في ما يمكن أن يتوثق فيه فلا عذر في ركوبه ويقال في الغرور فرة فضيع ماله وأهلك نفسه والغرو قد يسمى خدعا والخدع يسمى غرورا على التوسع والأصل ما قلناه وأصل الغرور الغفلة والغر والذي لم يجرب الأمور يرجع إلى هذا فكأن الغرور يوقع المغرور في ما هو غافل عنه من الضرر والخدع مرجع يستر عنه وجه الأمر

الغرق بين الكيد والمكر

أن المكر مثل الكيد في أنه لا يكون إلا مع تدبر وفكر إلا أن الكيد أقوى من المكر والشاهد أنه يتعدى بنفسه والمكر يتعدى بحرف فيقال كاده يكيهده ومكر به ولا يقال مكره والذي

يتعدى بنفسه أقوى والمكر أيضا تقدير ضرر الغير من أن يفعل به ألا ترى أنه لو قال له أقدر أن أفعل بك كذا لم يكن ذلك مكرا وإنما يكون مكرا غذا يعلمه به والكيد اسم لإيقاع المكروه بالغير قهرا سواء علم أو لا والشاهد قولك فلان يكايدني فسمى فعله كيدا وإن علم به وأصل الكيد المشقة ومنه يقال فلان يكيد لنفسه أي يقاسي المشقة ومنه الكيد لإيقاع ما فيه من المشقة ويجوز أن يقال لاكيد ما يقر بوقوع المقصود به من المكروه على ما ذكرناه والمكر ما يجتمع به المكروه من قولك جارية ممكورة الخلق اي ملتفة مجتمعة اللحم غير رهلة

(96/661)

الفرق بين الحيلة والمكر

أن من الحيل ما ليس بمكر وهو أن يقدر نفع الغير لا من وجهة فيسمى ذلك حيلة مع كونه نفعا والمكر لا يكون نفعا وفرق آخر وهو أن المكر بقدر ضرر الغير من غير أن يعلم به وسواء كان من وجهه أولا والحيلة لا تكون من غير وجهه وسمى الله تعالى ما توعد به الكفار مكرا في قوله تعالى (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) وذلك أن الماكر ينزل المكروه بالممكور به حيث لا يعلم فلما كان هذا سبيل ما توعدهم به من العذاب سماه مكرا ويجوز أن يقال

سماه مكرا لأنه دبره وأرسله في وقته المكر في اللغة التدبير على العدو فلما كان أصلهما وأحد قام أحد هكت مقام الآخر وأصل المكر في اللغة الفتل ومنه قيل جارية ممكوره أي ملتفة البدن وإنما سميت الحيلة مكرا لأنها قيلت على خلاف الرشد

الفرق بين الغرر والخطر

أن الغرر يفيد ترك الحزم والتوثق فيتمكن ذلك فيه والخطر ركوب المخاوف رجاء بلوغ الخطير من الأمور ولا يفيد مفارقه الحزم والتوثق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفروق اللغوية صـ 275.271 ﴾

(97/661)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ﴾

أي بما كان يوسوس إليه بتذكيره إياه ما كان به من البَلِيَّة ، وقيل لما كان قال (أي الشيطان) لامرأته : اسجدي لي حتى أردَّ عليكم ما سلبتكُم .

ويقال إن سبب ابتلائه أنه استعان به مظومٌ فلم يَنْصُرْه . . . فابتُلِيَ .

ويقال استضافَ الناسَ يوماً فلمَّا جاءَه ابنُ فقيرٍ مَنَعَه من الدخول .

ويقال كان يغزو مَلِكاً كافراً ، وكان لأيوب غَنَمٌ في ولايته ، فداهَنَه لأَجْلِ غَنَمِه في القتال .

ويقال حَسَدَه إبليسُ ، فقال : لَئِنْ سَلَّطْتني عليه لم يشكر لك .

ويقال كان له سبع بنات وثلاثة بنين في مكتب واحدٍ ، فَجَرَّ الشيطانُ الاسطوانة فانهدم البيت عليهم .

ويقال لبث أيوب في البلاء ثماني عشرة سنه ، وقيل أربعين سنة ، وقيل سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) (1)

لَمَّا أراد اللَّهُ كَشْفَ البلاءِ عنه قال له : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ ، فركض ، فظَهَرت عينُ ماءٍ باردٍ فاغتسل به ، فعاد إليه جمالُه وكمالُه . وقيل الأولى كانت عيناً حارةً والثانية باردة ، واغتسل ، ورَدَّ الله وشَعْرَه وبشره ، وأحيا أولاده وأهله ، وقيل بل يردُّهم إليه في الجنة في الآخرة .

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)

---

(1) رفض أبو الفرج الجوزي احتجاج بعض المتصوفة بهذه الآية على إباحة الرقص .

والواقع أن ذلك يمنح القشيري تقديرا خاصا لأنه لو كان يؤيد ذلك الاحتجاج لقال به ، بل لم يشر إليه ، كما لم يشر عند الآية التي سبقت في هذه السورة : «ردوها على فطفق . . .»

إلى ما يحتج به بعض المتصوفة من تمزيق الخرقة وتقطيع الثياب ، فهذه في رأيه استدلالات فاسدة يلجأ إليها الطغام .

(98/661)

الضِغْث الحزمة من القضبان ، وقيل كانت مائة ، وأُمِرَ بأن يضرب بها دفةً على امرأته لئلا يحنث في يمينه ، فإنه كان قد حلف أن يضربها مائةَ خشبةٍ إنْ صحَّ (أنها أخطأت) . فَشَكَرَ اللَّهُ لها لبراءةِ ساحتِها ، وصبرها على خدمته . وسببُ يمينه أنه لما قال لها إبليسُ : اسجدي لي ؛ أخبرت أيوبَ بذلك ، فغاظه حيث سمعت من إبليس ذلك وظنَّتْ أنه صادق . وقيل باعت ذوائبها برغيفين حملتهما إليه فتوهَّمَ في ذلك رِيبةً ، وكان أيوب يتعلَّق بذوائبها (إذا أراد القيام) . وقيل رابه شيءٌ منها فَحَلَف (أن يضربها بعد شفائه) .

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً . . . ﴾ : والصبرُ ألا تعترضَ على التقدير .

ويقال الصبر الوقوف تحت الحُكْم . ويقال التلذُّذ بالبلاء ، واستعذابُه دون استصعابه .

ويقال اصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب .

ولم يَنْفِ قولُه ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ [الأنبياء : 83] اسمَ الصبرِ عنه ؛ لأنَ ذلك لم يكن على وجه الشكوى ، ولأنه كان مرة واحدة ، وقد وقف الكثيرَ من الوقت ولم يَقُلْ مَسَّني الضُّرُّ ؛

فكان الحُكْمُ للغالب .

﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ لم يشغله البلاءُ عن المُبْلِي . ونِعْمَ العبدُ لأنه خرج من البلاء على الوجه الذي دخل فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 257 .

﴿ 259

(99/661)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ ص والقرءان ﴾

قرأ الحسن : صاد بالكسر .

وجعلها من المصادات .

يقول عارض القرآن : أي عارض عملك بالقرآن .

ويقال : بقلبك .

وروى معمر ، عن قتادة ، في قوله ﴿ ص ﴾ قال : هو كما تقول تلق كذا أي : هيىء نفسك لقدوم فلان .

يعني : طهر نفسك بآداب القرآن كما قال صلى الله عليه وسلم : " القُرْآنُ مَأْدُبَةُ اللهِ تَعَالَى فَتَطَعَّمُوا مِنْ مَأْدُبَتِهِ " وكان عيسى ابن مريم يعمر ، يقرأ صَادَ بالنصب ، وكذلك يقرأ قاف ، ونون بالنصب .

ومعناه : اقرأ صاد ، وقراءة العامة بسكون الدال ، لأنها حروف هجاء ، فلا يدخلها الإعراب ، وتقديرها الوقف عليها .

وقيل : في تفسير قول الله تعالى : ﴿ ص ﴾ يعني : الله هو الصادق .

ويقال : هو قسم .

﴿ والقرءان ﴾ عطف عليه قسم بعد قسم .

ومعناه أقسمت بصاد ، وبالقرآن .

وقال علي بن أبي طالب : الصاد اسم بحر في السماء .

وقال ابن مسعود في قوله : ﴿ ص والقرءان ﴾ يعني : صادقوا القرآن حتى تعرفوا الحق من الباطل .

وقال الضحاك : معناه صدق الله .

ثم قال ﴿ ص والقرءان ذِى ﴾ يعني : والقرآن ذي الشرف .

ويقال : فيه ذكر من كان قبله ، وجواب القسم عند قوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ [ص : 64] والجواب قد يكون مؤخراً عن الكلام كما قال : ﴿ والفجر وَلَيالٍ

عَشْرٍ ﴾ [الفجر: 1، 2] وجوابه قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: 14]

وقوله: ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ [البروج: 1] وجوابه قوله: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج: 12] وقال بعضهم: جواب القسم ها هنا ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ ومعناه: لكم أهلكنا، فلما طال الكلام حذف اللام.

ثم قال: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ ﴾ أي: في حمية.

كقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [البقرة: 206] يعني: الحمية.

(100/661)

ويقال: ﴿ فِى عِزَّةٍ ﴾ يعني: في تكبر ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ يعني: في خلاف من الدين بعيد.

ويقال: في عداوة، ومباعدة، وتكذيب.

وقال القتبي: بل في اللغة على وجهين أحدهما لتدارك كلام غلطت فيه.

تقول: رأيت زيداً بل عمراً.

والثاني أن يكون لترك شيء، وأخذ غيره من الكلام كقوله: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾.

ثم خوّفهم فقال عز وجل : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ يعني : من أمة ﴿ فَنَادَوْاْ ﴾ يعني : فنادوا في الدنيا ، واستغاثوا ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ يعني : وليس تحين فرار .

قال الكلبي : فكانوا إذا قاتلوا ، قال بعضهم لبعض : ﴿ مَنَاصٍ ﴾ يعني : يقول احمل حملة واحدة ، فينجو من نجا ، ويهلك من هلك .

فلما أتاهم العذاب قالوا : ﴿ مَنَاصٍ ﴾ مثل ما كانوا يقولون .

فقال الله تعالى : ليس تحين فرار وهي لغة اليمن .

وقال القتبي : النوص التأخر .

والبوص التقدم في كلام العرب .

وروى معمر عن قتادة في قوله : ﴿ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ قال : نادوا على غير حين النداء .

وقال عكرمة : نادوا وليس تحين انفلات .

وقال أبو عبيدة : اختلفوا في الوقف .

فقال بعضهم : يوقف عند قوله : ﴿ وَّلَاتَ ﴾ ثم يبتدأ ب ﴿ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ لأنا لا نجد في شيء من كلام العرب ولات .

أما المعروف لا ولأنَّ تفسير ابن عباس يشهد لها ، وذلك أنه قال : ليس تحين فرار .

وليس هي أخت لا ولا بمعناها .

قال أبو عبيد ومع هذا تعمدت النظر في الذي يقال له : مصحف الإمام .

وهو مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه فوجدت التاء متصلة مع حين .

(101/661)

ثم قال عز وجل : ﴿ وَعَجِبُواْ أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ يعني : مخوف منهم ، ورسول منهم يعني : من العرب وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَالَ الكافرون هذا ساحر كَذَّابٌ ﴾ يكذب على الله تعالى أنه رسوله ﴿ أَجَعَلَ الالهة إلها واحدا ﴾ يعني : كيف يتسع لحاجتنا إله واحد ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ يعني : لأمر عجيب .

والعرب تحول فعيلاً إلى فعال .

وها هنا أصله شيء عجيب .

كما قال في سورة ق ﴿ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله إِنَّنِى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [ق : 2] ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ ﴾ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله : أخبرنا الثقة بإسناده عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما مرض أبو طالب ، دخل عليه نفر من قريش ، فقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ، ويقول ويقول ، ويفعل ويفعل ، فأرسل إليه ، فانهه عن ذلك ، فأرسل إليه أبو طالب ، وكان إلى جنب أبي طالب موضع رجل ، فخشي أبو جهل

إن جاء النبي صلى الله عليه وسلم يجلس إلى جنب عمه ، أن يكون أرق له عليه .

فوثب أبو جهل ، فجلس في ذلك المجلس ، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم لم يجد مجلساً إلا عند الباب .

فلما دخل ، قال له أبو طالب : يا ابن أخي إن قومك يشكونك ، ويزعمون أنك تشتم آلهتهم ، وتقول وتقول ، وتفعل وتفعل .

(102/661)

فقال : "يَا عَمِّ إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً ، تُدِينُ لَهُمْ بِهَا العَرَبُ ، وَتُؤَدِّي إِلَيهِم بِهَا العَرَبُ والعَجَمُ الجِزْيَةَ" فقالوا : وما هي فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لا إله إلا الله" فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ، ويقولون : ﴿ أَجَعَلَ الالهة إلها واحدا إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عُجَابٌ وانطلق الملأ مِنْهُمْ ﴾ يعني : الأشراف من قريش ﴿ أَنِ امشوا ﴾ يعني : امكثوا ﴿ واصبروا ﴾ يعني : اثبتوا ﴿ على ءالِهَتِكُمْ ﴾ يعني : على عبادة آلهتكم ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ يعني : لأمر يراد كونه بأهل الأرض .

ويقال : إن هذا لشيء يراد .

يعني : لا يكون ولا يتم له ﴿ مَّا سَمِعْنَا بهذا فِى الملة الآخرة ﴾ يعني : في اليهود والنصارى

﴿ إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ﴾ يعني : يختلقه من قبل نفسه .

ويقال : في قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ يعني : أراد أن يكون .

ثم قال عز وجل : ﴿ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا بْل ﴾ يعني : أخصّ بالنبوة من بيننا .

يقول الله عز وجل : ﴿ بْل هُمْ فى شَكّ مّن ذِكْرِى ﴾ يعني : في ريب من القرآن والتوحيد ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ أي : لم يذوقوا عذابي كقوله : ﴿ قَالَتِ الاعراب ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الايمان فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مِّنْ أعمالكم شَيْئاً إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[الحجرات : 14] أي : لم يدخل فهذا تهديد لهم ، أي : سيذوقوا عذابي .

ثم قال : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبّكَ ﴾ يعني : مفاتيح رحمة ربك .

يعني : مفاتيح النبوة بأيديهم ، ليس ذلك بأيديهم ، وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴿ العزيز الوهاب ﴾ يعني : بيد الله ﴿ العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الوهاب ﴾ لمن يشاء .

(103/661)

بل الله يختار من يشاء للوحي ، فيوحي الله عز وجل وهي الرسالة لمن يشاء ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى الاسباب ﴾ يعني : إن لم يرضوا بما فعل الله تعالى ، فليتكلفوا الصعود إلى

السماء .

وقال القتبي : أسباب السماء أي : أبواب السماء ، كما قال القائل .

ولو نال أسباب السماء بسلم .

قال : ويكون أيضاً ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِى الاسباب ﴾ يعني : في الجبال إلى السماء كما سألوك أن ترقى إلى السماء ، فتأتيهم بآية ، وهذا كله تهديد ، وتوبيخ بالعجز .

ثم قال عز وجل : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ ﴾ يعني : جند عند ذلك ، وما زائدة .

يعني : حين أرادوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ يعني : مغلوب ﴿ مّن الاحزاب ﴾ يعني : من الكفار .

وقال مقاتل : فأخبر الله تعالى بهزيمتهم ببدر .

وقال الكلبي : يعني عند ذلك إن أرادوه ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ مغلوب .

ثم قال عز وجل : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ يعني : من قبل أهل مكة ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ ذُو الاوتاد ﴾ يعني : ذو ملك ثابت ، شديد دائم ويقال : ذو بناء محكم .

ويقال : يعني : في عز ثابت .

والعرب تقول : فلان في عز ثابت الأوتاد .

يريدون دائم شديد ، وأصل هذا أن بيوت العرب تثبت بأوتاد .

ويقال : هي أوتاد كانت لفرعون يعذب بها ، وكان إذا غضب على أحد شدّه بأربعة

أوتاد .

ثم قال : ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وأصحاب لَئْيكَةِ ﴾ يعني : الغيضة وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿ أُوْلَئِكَ الاحزاب ﴾ يعني : الكفار ، سموا أحزاباً لأنهم تحزبوا على أنبيائهم . أي : تجمعوا ، وأخبر في الابتداء أن مشركي قريش ، حزب من هؤلاء الأحزاب ﴿ إِن كُلٌّ ﴾ يعني : ما كل ﴿ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ يعني : وجب عذابي عليهم .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلآء ﴾ يعني : قومك ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ يعني : النفخة الأولى ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ يعني : من نظرة ، ومن رجعة .

(104/661)

قرأ حمزة والكسائي ﴿ فَوَاقٍ ﴾ بضم الفاء .

وقرأ الباقون : بالنصب .

ومعناهما واحد .

يسمى ما بين حلبتي الناقة ﴿ فَوَاقٍ ﴾ لأن اللبن يعود إلى الضرع .

وكذلك إفاقة المريض يعني : يرجع إلى الصحة .

فقال : ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ يعني : من رجوع .

وقال أبو عبيدة : من فتحها أراد ما لها من راحة ولا إفاقة يذهب بها إلى إفاقة المريض ، ومن ضمها جعلها من فواق الناقة ، وهو ما بين الحلبتين ، يعني : ما لها من انتظار .

وقال القتبي : الفُواق والفَواق واحد ، وهو ما بين الحلبتين .

ثم قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ قال ابن عباس وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : " مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ أُعْطِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ " فقالوا : ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ يعني : صحيفتنا ، وكتابنا في الدنيا ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ والقط في اللغة الصحيفة المكتوبة .

ويقال : لما نزل قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقرؤا كِتَابِيَه ﴾ [الحاقة : 19] فقالوا ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا ﴾ هذا الكتاب ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ استهزاء .

ثم عزّى نبيه صلى الله عليه وسلم فقال عز وجل : ﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ من التكذيب ﴿ واذكر عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الايد ﴾ يعني : ذا القوة على العبادة ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ يعني : مقبل على طاعة الله عز وجل .

وقال مقاتل : ﴿ أَوَّابٌ ﴾ يعني : مطيع .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ ﴾ يعني : ذلّلنا الجبال ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ مع داود عليه السلام ﴿ بالعشى والإشراق ﴾ يعني : في آخر النهار ، وأوله .

وروى طاوس أن ابن عباس قال لأصحابه : هل تجدون صلاة الضحى في القرآن ؟ قالوا :

لا .

قال : بلى .

قوله : ﴿ يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق ﴾ كانت صلاة الضحى يصليها داود عليه السلام .

(105/661)

ثم قال عز وجل : ﴿ والطير مَحْشُورَةً ﴾ يعني : مجموعة ﴿ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ يعني : مطيع .

وقال عمرو بن شرحبيل : الأواب بلغة الحبشة المسيح .

وقال الكلبي : المقبل على طاعة الله تعالى .

قوله عز وجل : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ يعني : قوّينا حراسه .

قال مقاتل والكلبي : كان يحرسه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل .

ويقال : قوينا ملكه ، وأثبتناه ، وحفظناه عليه .

وروي في الخبر أن غلاماً استعدى على رجل ، وادعى عليه .

بقراً فأنكر المدعى عليه ، وقد كان لطمه لطمة حين ادعى عليه ، فسأل داود من الغلام البينة ، فلم يقمها ، فرأى داود في منامه أن الله عز وجل يأمره أن يقتل المدعى عليه ، ويسلم

البقر إلى الغلام .

فقال داود : هو منام ثم أتاه الوحي بذلك ، فأخبر بذلك بنو إسرائيل ، فجزعت بنو إسرائيل وقالوا : رجل لطم غلاماً لطمة فقتله بذلك .

فقال داود عليه السلام : هذا أمر الله تعالى به ، فسكتوا .

ثم أحضر الرجل فأخبره أن الله تعالى أمره بقتله .

فقال الرجل : صدقت يا نبي الله : إني قتلت أباه غيلة ، وأخذت البقر ، فقتله داود ، فعظمت هيبته ، وشدد ملكه .

فلما رأى الناس ذلك جلّ أمره في أعينهم ، وقالوا : إنه يقضي بوحي الله تعالى ، ثم إن الله تعالى أرخى سلسلة من السماء ، وأمره بأن يقضي بها بين الناس ، فمن كان على الحق يأخذ السلسلة ، ومن كان ظالماً لا يقدر على أخذ السلسلة .

وقد كان غصب رجل من رجل لؤلؤاً ، فجعل اللؤلؤ في جوف عصاً له ، ثم خاصمه المدعي إلى داود عليه السلام فقال المدعي : إن هذا أخذ مني لؤلؤاً ، وإني لصادق في مقالتي .

فجاء ، وأخذ السلسلة ، ثم قال المدعى عليه : خذ مني العصا ، فأخذ عصاه ، وقال : إني قد دفعت إليه اللؤلؤ ، وإني لصادق في مقالتي ، فجاء وأخذ السلسلة .

فتحير داود عليه السلام في ذلك ، فرفعت السلسلة ، وأمره بأن يقضي بالبينات والأيمان ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ يعني : الفهم ، والعلم .

ويقال : يعني النبوة ﴿ وَفَصْلَ الخطاب ﴾ يعني : القضاء بالبينات ، والأيمان .

وقال قتادة ، والحسن ؛ ﴿ وَفَصْلَ الخطاب ﴾ يعني : البينة على الطالب ، واليمين على المطلوب .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الخصم ﴾ يعني : خبر الخصم .

ويقال : خبر الخصوم أي : وهل أتاك يا محمد ، ما أتاك ، حين أتاك ، ويقال : وقد أتاك ﴿ إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ والتسور أن يصعد في مكان مرتفع ، وإنما سمي المحراب سوراً ، لارتفاعه من الأرض .

ويقال ﴿ تَسَوَّرُواْ ﴾ يعني : دخلوا عليه من فوق الجدار .

وقال الحسن البصري : وذلك أن داود عليه السلام جزأ الدهر أربعة أيام .

فيوماً لنسائه ، ويوماً لقضائه ، ويوماً يخلو فيه لعبادة ربه ، ويوماً لبني إسرائيل ليسألونه فقال يوماً لبني إسرائيل : أيكم يستطيع أن يتفرغ لعبادة ربه يوماً لا يصيب الشيطان منه شيئاً ؟

فقالوا : يا نبي الله ، والله لا نستطيع .

فحدث داود نفسه أنه يستطيع ذلك .

فدخل محرابه ، وأغلق بابه ، فقام يصلي في المحراب ، فجاء طائر في أحسن صورة مزين كأحسن ما يكون ، فوقع قريباً منه ، فنظر إليه ، فأعجبه ، فوقع في نفسه منه ، فدنا منه ليأخذه ، فوقع قريباً منه وأطمعه ، أن سيأخذه ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، حتى إذا كان في الرابعة ، ضرب يده عليه فأخطأه ، ووقع على سور المحراب .

قال : وخلف المحراب حوض تغتسل فيه النساء ، فضرب يده عليه ، وهو على سور المحراب ، فأخطأه وهرب الطائر ، فأشرف داود ، فإذا بامرأة تغتسل ، فلما رأته نقضت شعرها ، فغطى جسدها ، فوقع في نفسه منها ما يشغله عن صلاته ، فنزل من محرابه ، ولبست المرأة ثيابها ، وخرجت إلى بيتها ، فخرج حتى عرف بيتها ، وسألها من أنت ؟ فأخبرته : فقال : هل لك زوج ؟ قالت : نعم .

قال أين هو ؟ فقالت : في بعث كذا وكذا ، وجند كذا وكذا .

فرجع ، وكتب إلى عامله إذا جاءك كتابي هذا ، فاجعل فلاناً في أول الخيل .

فقدم في فوارس ، فقاتل ، فقتل .

(107/661)

ثم انتظر حتى انقضت عدتها ، فخطبها ، وتزوجها .

فبينما هو في المحراب ، إذ تسور عليه ملكان ، وكان الباب مغلقاً ، ففزع منهما ، فقالا : لا تخف ﴿ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ فاحكم بَيْنَنَا بالحق ﴾ يعني : اقض بيننا بالعدل .

ثم خاصم أحدهما الآخر ، فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ إلى آخره .

فعلم داود عليه السلام أنه مراد بذلك ، فخرّ راكعاً وأناب .

قال الحسن : سجد أربعين ليلة ، لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة .

قال : ولم يذق طعاماً ، ولا شراباً ، حتى أوحى الله عز وجل إليه أن ارفع رأسك فإني قد غفرت لك .

وهكذا ذكر في رواية الكلبي عن ابن عباس ، أنه سجد أربعين يوماً حتى سقط جلد وجهه ، ونبت العشب من دموعه .

فقال : يا رب كيف ترحمني وأنا أعلم أنك منتقم مني بخطيئتي ، وذكر أن جبريل عليه السلام قال له : اذهب إلى أوريا فاستحل منه ، فإنك تسمع صوته في يوم كذا ، فأتاه ذات ليلة ، فناداه ، فأجابه ، فاستحل منه ، فقال : أنت في حلّ .

فلما رجع ، قال له جبريل : هل أخبرته بجرمك .

قال : لا .

قال : فإنك لم تفعل شيئاً .

قال : فارجع ، فأخبره بالذي صنعت ، فرجع داود فأخبره بذلك ، فقال : أنا خصمك يوم القيامة ، فرجع مغتماً ، وبكى أربعين يوماً فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله تعالى يقول : إني أستوهبك من عبدي فيهبك لي ، وأجزيه على ذلك أفضل الجزاء ، فسري عنه ذلك ، وكان محزوناً في عمره ، باكياً على خطيئته .

وروي في خبر آخر ، أن داود سمع بني إسرائيل كانوا يقولون في دعائهم : يا إله إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، فيستجاب لهم .

فقال لهم داود عليه السلام اذكروني فيهم .

فقولوا : يا إله إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وداود ، فقالوا : الله أمرك بهذا .

قال : لا .

فقالوا : لا نزيد فيهم ما لم يأمرك الله تعالى بذلك .

(108/661)

فسأل داود ربه أن يجعله فيهم ، فأوحى الله تعالى إليه ، وذكر له ما لقي إبراهيم من الشدائد ، وما لقي إسحاق ويعقوب عليهم السلام فسأل داود ربه أن يبتليه ببلية لكي يبلغ منزلتهم ،

فابتلي بذلك حتى بلغ مبلغهم .

وقال بعضهم : هذه القصة لا تصح لأنه لا يظن بالنبي مثل داود أنه يفعل مثل ذلك ، ولكن كانت خطيئته أنه لما اختصما إليه ، فقال للمدعي : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، فنسبه إلى الظلم بقول المدعي .

فكان ذلك منه زلة ، فاستغفر ربه عن زلته ، فذلك قوله : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودُ ﴾

وقال بعضهم : كانوا اثنين .

فذكر بلفظ الجماعة فقال : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودُ ﴾ وقال بعضهم : كانوا جماعة ، ولكنهم كانوا فريقين فقال : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودُ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ ﴾ يعني : استطال ، وظلم بعضنا على بعض ﴿ فاحكم بَيْنَنَا بالحق ﴾ يعني : اقض بيننا بالعدل ﴿ وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ أي ولا تجر في الحكم ، والقضاء .

ويقال : أشططت إذا جرت ﴿ واهدنا إلى سَوَاء الصراط ﴾ يعني : أرشدنا إلى أعدل الطريق .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِى نَعْجَةٌ واحدة فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ يعني : أعطني هذه النعجة .

وهذا قول الكلبي ومقاتل .

وقال القتبي ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ يعني : ضمها إليّ ، واجعلني كافلها ﴿ وَعَزَّنِى فِى الخطاب ﴾

يعني : غلبني في الكلام ﴿ قَالَ ﴾ داود ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ أي : مع نعاجه ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطاء ﴾ يعني : من الإخوان والشركاء ﴿ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ يعني : ليظلم بعضهم بعضاً ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فإنهم لا يظلمون ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ يعني : قليل منهم الذين لا يظلمون .

(109/661)

فلما قضى بينهما داود عليه السلام أحب أن يعرفهما ، فصعد إلى السماء حيال وجهه ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ ﴾ يعني : علم داود .

ويقال : ظن بمعنى أيقن .

إلا أنه ليس بيقين عياناً ، لأن العيان لا يقال فيه إلا العلم .

﴿ أَنَّمَا فتناه ﴾ يعني : ابتليناه ، واختبرناه .

ويقال : إنهما ضحكا ، وذهبا .

فعلم داود أن الله عز وجل ابتلاه بذلك .

وروي عن أبي عمرو في بعض الروايات أنه قرأ ﴿ أَنَّمَا فتناه ﴾ بالتخفيف ، ومعناه ظن أن الملكين اختبراه ، وامتحناه في الحكم وقراءة العامة ﴿ فتناه ﴾ بالتشديد يعني : أن الله عز

وجل قد اختبره ، وامتحنه بالملكين ﴿ فاستغفر ربَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ يعني : ﴿ وَخَرَّ ﴾ وقع راكعاً ساجداً ﴿ وَأَنَابَ ﴾ يعني : أقبل إلى طاعة الله تعالى بالتوبة .

وروى عطاء بن السائب ، عن أبي عبد الله البجلي قال : إن داود لم يرفع رأسه إلى السماء ، مذ أصاب الخطيئة حتى مات .

وذكر في الخبر أن داود كان له تسع وتسعون امرأة ، فتزوج امرأة أوريا على شرط أن يكون ولدها خليفة بعده ، فولد له منها سليمان ، وكان خليفته بعده .

يقول الله عز وجل : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذلك ﴾ يعني : ذنبه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ لقربة ﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ أي : المرجع في الآخرة .

وروي أن كاتباً كان يكتب قوله تعالى : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ وكان تحت شجرة ، فقرأها ، وكتبها ، فخرت الشجرة ساجدة لله تعالى ، وهي تقول : اللهم اغفر بها ذنباً ، وخرت الدواة ساجدة كذلك ، وهي تقول اللهم : احطط عني بها وزراً .

وكذلك الصحيفة التي في يده ، وهي تقول : اللهم أحدث مني بها شكراً .

(110/661)

وعن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله رأيتني الليلة ، وأنا نائم ، كأني أصلي خلف الشجرة ، فقرأت السجدة فسجدتُّ فسجدت الشجرة لسجودي ، فسمعتها وهي تقول : اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ، وضع عني بها وزراً ، واجعلها لي عندك ذخراً ، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود .

قال ابن عباس فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم آية سجدة ، ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة .

وأيضاً سئل ابن عباس عن سجدة ﴿ ص ﴾ من أين سجدت .

قال : أما تقرأ هذه الآية : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وسليمان ﴾ ، ثم قال : ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذكرى للعالمين ﴾ [الأنعام : 90] فكان داود ممن أمر نبيكم أن يقتدي به ، فسجدها داود ، فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتداءً به .

ثم قوله عز وجل : ﴿ مَئَابٍ يا داوود إِنَّا جعلناك خَلِيفَةً فِى الأرض ﴾ يعني : أكرمناك بالنبوة ، وجعلناك خليفة ، والخليفة الذي يقوم مقام الذي قبله ، فقام مقام الخلفاء الذين قبله ، وكان قبله النبوة في سبط ، والملك في سبط آخر ، فأعطاهما الله تعالى لداود .

ثم قال : ﴿ فاحكم بَيْنَ الناس بالحق ﴾ يعني : بالعدل ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى ﴾ أي : لا تمل إلى هوى نفسك ، فتقضي بغير عدل .

ويقال : لا تعمل بالجور في القضاء ، ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى ﴾ كما اتبعت في بتشايع ، وهي امرأة أوريا ، ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ يعني : عن طاعة الله تعالى .

ويقال : يعني : الهوى يستزلك ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ ﴿ إِنَّ الذين يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ يعني : عن دين الله الإسلام ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الحساب ﴾ يعني : بما تركوا من العمل ليوم القيامة ، فلم يخافوه .

ويقال : بما تركوا الإيمان بيوم القيامة .

(111/661)

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الخلق ﴿ باطلا ﴾ يعني : عبثاً لغير شيء ، بل خلقناهما لأمر هو كائن ﴿ ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : يظنون أنهما خلقتا لغير شيء ، وأنكروا البعث ﴿ فَوَيْلٌ للذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ يعني : جحدوا من النار يعني : من عذاب النار ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا : إنا نعطى في الآخرة ، من الخير أكثر مما تعطون فنزل : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ في الثواب ﴿ كالمفسدين فِى الأرض ﴾ يعني : كالمشركين .

وقال في رواية الكلبي : نزلت في مبارزي يوم بدر ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات

﴿ يعني : علياً ، وحمزة ، وعبيدة رضي الله عنهم ﴿ كالمفسدين فِى الأرض ﴾ يعني : عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد .

ويقال : نزلت في جميع المسلمين ، وجميع الكافرين .

يعني : لا نجعل جزاء المؤمنين كجزاء الكافرين في الدنيا والآخرة ، كما قال في آية أُخرى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَوَآءً محياهم ومماتهم سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : 21] .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ يعني : كالكفار في الثواب .

اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به الوعيد .

ثم قال عز وجل : ﴿ كتاب أنزلناه إِلَيْكَ مبارك ﴾ يعني : أنزلنا جبريل عليه السلام به إليك ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ يعني : كتاب مبارك فيه مغفرة للذنوب لمن آمن به ، وصدقه ، وعمل بما فيه ، ﴿ لّيَدَّبَّرُواْ ءاياته ﴾ أي : لكي يتفكروا في آياته .

قرأ عاصم في إحدى الروايتين : ﴿ لِتَدَّبَّرُوا ﴾ بالتاء مع النصب ، وتخفيف الدال .

وهو بمعنى : لتتدبروا .

فحذفت إحدى التاءين ، وتركت الأخرى خفيفة ، وقراءة العامة ﴿ مبارك لّيَدَّبَّرُواْ ﴾ بالياء ، وتشديد الدال .

وهو بمعنى : ليتدبروا .

فأدغمت التاء في الدال ، وشددت .

ثم قوله عز وجل : ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ ﴾ يعني : وليتعظ بالقرآن ﴿ أُوْلُوا الالباب ﴾ يعني : ذوو العقول من الناس .

﴿ وَوَهَبْنَا لداود سليمان ﴾ يعني : أعطينا لداود سليمان .

وروي عن ابن عباس أنه قال : أولادنا من مواهب الله عز وجل .

ثم قرأ : و ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِناثا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ [الشورى : 49] فوهب الله تعالى لداود سليمان ﴿ نِعْمَ العبد إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ يعني : مقبلاً إلى طاعة الله تعالى .

قوله عز وجل : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعشى ﴾ يعني : في آخر النهار ﴿ الصافنات الجياد ﴾ يعني : الخيل .

قال الكلبي ومقاتل : صفن الفرس إذا رفع إحدى رجليه ، فيقوم على طرف حافره .

وقال أهل اللغة : الصافن الواقف من الخيل .

وفي الخبر : " مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقُومَ لَهُ الرِّجَالُ صُفُوفاً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ " يعني : يديمون له القيام ، والجياد الحسان .

ويقال : الإسراع في المشي .

وقال ابن عباس في رواية الكلبي : إن أهل دمشق من العرب ، وأهل نصيبين جمعوا جموعاً ، وأقبلوا ليقاتلوا سليمان ، فقهرهم سليمان ، وأصاب منهم ألف فرس عراب ، فعرضت على سليمان الخيل ، فجعل ينظر إليها ، ويتعجب من حسنها ، حتى شغلته عن صلاة العصر ، وغربت الشمس ، ثم ذكرها بعد ذلك ، فغضب ، وقال : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ ، فضرب بسوقها ، وأعناقها بالسيف ، حتى خرّ منها تسعمائة فرس ، وهي التي كانت عرضت عليه ، وبقيت مائة فرس لم تعرض عليه كما كان في أيدي الناس الآن من الجياد ، فهو من نسلها أي : من نسل المائة الباقية .

(113/661)

قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير ﴾ يعني : آثرت حب المال ﴿ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ يعني : عن الصلاة ، وهي صلاة العصر ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ يعني : حتى غابت الشمس ، وهذا إضمار لما لم يسبق ذكره .

يعني : ذكر الشمس لأن في الكلام دليلاً فاكتفى بالإشارة عن العبارة .

قوله .

عز وجل ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ يعني : قال سليمان : ردوا الخيل عليّ ، فردت عليه ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق ﴾ يعني : يضرب السوق وهو جماعة الساق ﴿ والاعناق ﴾ وهو جمع العنق .

وروي عن إبراهيم النخعي قال : كانت عشرين ألف فرس .

وقال السدي : كانت خيل لها أجنحة .

وقال أبو الليث : يجوز أن يكون مراده في سرعة السير ، كأن لها أجنحة .

وقال بعضهم : كانت الجن والشياطين أخرجتها من البحر .

وقال عامة المفسرين في قوله : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والاعناق ﴾ يعني : فضرب سوقها ، وأعناقها .

وقال بعضهم : لم يعقر ولكن جعل على سوقهن ، وعلى أعناقهن ، سمة وجعلها في سبيل الله .

قال : لأن التوبة لا تكون بأمر منكر .

ولكن الجواب عنه أن يقال له : يجوز أن يكون ذلك مباحاً في ذلك الوقت ، وإنما أراد بذلك الاستهانة بمال الدنيا لمكان فريضة الله تعالى .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان ﴾ ابتليناه ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ يعني : شيطاناً .

قال ابن عباس في رواية أبي صالح : إن سليمان أمر بأن لا يتزوج إلا من بني إسرائيل ، فتزوج امرأة من غير بني إسرائيل ، فعاقبه الله تعالى .

فأخذ شيطان يقال له : صخر خاتمه ، وجلس على كرسيه أربعين يوماً ، وقد ذكرنا قصته في سورة البقرة ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ يعني : رجع إلى ملكه ، وأقبل على طاعة الله تعالى .

وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ قال : شيطاناً .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : سألت كعباً عن قوله : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ قال : شيطاناً .

(114/661)

يعني : أخذ خاتم سليمان الذي فيه ملكه ، فقذفه في البحر ، فوقع في بطن سمكة ، وانطلق سليمان يطوف ، فتصدق عليه بسمكة ، فشواها ليأكل ، فإذا فيها خاتمه .

وقال وهب بن منبه : إن سليمان تزوج امرأة من أهل الكتاب ، وكان لها عبد ، فطلبت منه أن يجزرها لعبدها .

يعني : ينحر الجزور فأجزرها ، فكره ذلك منه ثم ابتلي بالجسد الذي ألقي على كرسيه .

وروى معمر عن قتادة في قوله : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ قال : كان الشيطان

جلس على كرسيه أربعين ليلة ، حتى ردّ الله تعالى إليه ملكه .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ قال : شيطان يقال له صخر .

قال له سليمان يوماً : كيف تفتنون الناس ؟ فقال له : أرني خاتمك أخبرك .

فلما أعطاه إياه ، نبذه في البحر ، فذهب ملكه ، وقعد صخر على كرسيه ، ومنعه الله تعالى نساء سليمان ، فلم يقربهن ، فأنكرته أم سليمان ، أهو سليمان أم آصف ؟ فكان يقول : أنا سليمان .

فيكذبونه حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً ، فوجد خاتمه في بطنه ، فرجع إليه ملكه ، ودخل صخر البحر فاراً .

وذكر شهر بن حوشب نحو هذا ، وقال : لما جلس سليمان على سريره ، بعث في طلب صخر ، فأتي به ، فأمر به ، فقورت له صخرة ، وأدخله فيها ، ثم أطبق عليها ، وألقاه في البحر ، وقال : هذا سجنك إلى يوم القيامة .

(115/661)

وقال بعضهم : هذا التفسير الذي قاله هؤلاء الذين ذكروا أنه شيطان لا يصح ، لأنه لا يجوز من الحكيم أن يسلط شيطاناً من الشياطين على أحكام المسلمين ، ويجلسه على كرسي نبي من الأنبياء عليهم السلام ولكن تأويل الآية والله أعلم : أن سليمان كان له ابن ، فجاء ملك الموت يوماً زائراً لسليمان ، فرآه ابنه فخافه ، وتغيّر لونه ، ومرض من هيبته ، فأمر سليمان عليه السلام الريح بأن تحمل ابنه فوق السحاب ليزول ذلك عنه ، فلما رفعته الريح فوق السحاب ، ودنا أجله ، فقبض ابنه ، وألقي على كرسيه فذلك قوله : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ يعني : ابنه الميت .

قال : والدليل على ذلك أن الجسد في اللغة هو الميت الذي لا يأكل الطعام ، والشراب ، كالميت ونحوه .

وذكر أن سليمان جزع على ابنه ، إذ لم يكن له إلا ابن واحد ، فدخل عليه ملكان ، فقال أحدهما : إن هذا مشى في زرعي فأفسده .

فقال له سليمان : لم مشيت في زرعه ؟ فقال : لأن هذا الرجل زرع في طريق الناس ، ولم أجد مسلكاً غير ذلك .

فقال سليمان للآخر : لم زرعت في طريق الناس ، أما علمت أن الناس لا بد لهم من طريق يمشون فيه ؟ فقال لسليمان : صدقت .

لم ولدت على طريق الموت أما علمت أن ممر الخلق على الموت ؟ ثم غابا عنه .

فاستغفر سليمان فذلك قوله : ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ يعني : تاب ورجع إلى طاعة الله عز وجل .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ رَبِّ اغفِر لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً ﴾ أي : أعطني ملكاً ﴿ لاَّ يَنبَغِى لِاَحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ قال سعيد بن جبير : أعطني ملكاً لا تسلبه كما سلبت في المرة الأولى .

ويقال : إنما تمنى ملكاً لا يكون لأحد من بعده ، حتى يكون ذلك معجزة له ، وعلامة لنبوته .

﴿ إِنَّكَ أَنتَ الوهاب ﴾ يعني : المعطي الملك .

قوله عز وجل : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ وكان من قبل ذلك لم تسخر له الريح ، والشياطين .

فلما دعا بذلك ، سخرت له الريح والشياطين .

(116/661)

فقال : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح تَجْرِى بِأَمْرِهِ ﴾ يعني : بأمر سليمان .

ويقال : بأمر الله تعالى ﴿ رُخَاء ﴾ يعني : لينة مطيعة ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ يعني : حيث أراد من الأرض ، والنواحي ﴿ أَصَابَ ﴾ يعني : أراد .

وقال الأصمعي : العرب تقول : أصاب الصواب ، فأخطأ الجواب .

يعني : أراد الصواب ، فأخطأ الجواب .

﴿ والشياطين ﴾ يعني : سخرنا له كل شيء ، وسخرنا له الشياطين أيضاً ﴿ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ ﴾ يعني : يغوصون في البحر ، ويستخرجون اللؤلؤ ، وقال مقاتل : وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر ﴿ وَءاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ ﴾ يعني : مردة الشياطين موثقين ﴿ فِى الاصفاد ﴾ يعني : في الحديد ويقال : ﴿ الاصفاد ﴾ الأغلال .

ثم قال عز وجل : ﴿ هذا عَطَاؤُنَا ﴾ يعني : هذا عطاؤنا لك ، وكرامتنا عليك ﴿ فامنن ﴾ يعني : اعتق من شئت منهم ، فخلّ سبيله من الشياطين ﴿ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ يعني : احبس في العمل ، والوثاق ، والسلاسل من شئت منهم ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي : فلا تبعة عليك في الآخرة فيمن أرسلته ، وفيمن حبسته .

ويقال : ليس عليك بذلك إثم ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ يعني : لقربى ﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ يعني : حسن المرجع .

قوله عز وجل : ﴿ واذكر عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ يعني : واذكر صبر عبدنا أيوب ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾ يعني : دعا ربه ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ الشيطان ﴾ يعني : أصابني الشيطان ﴿ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ وهو المشقة والعناء والأمراض ، وعذاب في ماله .

يعني : هلاك أهله ، وماله وقد ذكرناه في سورة الأنبياء قوله عز وجل : ﴿ اركض بِرِجْلِكَ هذا ﴾ يعني : قال له جبريل : اضرب الأرض برجلك ، فضرب فنبعت عين من تحت

قدميه ، فاغتسل فيها ، فخرج منها صحيحاً ، ثم ضرب برجله الأخرى فنبعت عين أخرى ماء عذب بارد ، فشرب منها ، فذلك قوله ﴿ هذا مُغْتَسَلٌ ﴾ يعني : الذي اغتسل منها .

ثم قال : ﴿ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ يعني : الذي شرب منها .

(117/661)

قوله عز وجل : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وذكرى لِأُوْلِي الالباب وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ يعني : قبضة من سنبل فيها مائة سنبلة .

وقال الكلبي ﴿ ضِغْثاً ﴾ أي : مجتمعاً .

وقال مقاتل : الضغث القبضة الواحدة ، فأخذ عيداناً رطبة من الآس ، فيه مائة عود .

وقال القتبي : الضغث الحزمة من العيدان ، والكلأ ﴿ فاضرب بِّهِ ﴾ يعني : اضرب به امرأتك ﴿ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ في يمينك .

وقال الزجاج : قالت امرأته : لو ذبحت عناقاً باسم الشيطان ؟ فقال : لا ، وَلاَ كَفّاً مِن تُرَاب .

وحلف أنه يضربها مائة سوط ، وأمر بأن يبرّ في يمينه ﴿ إِنَّا وجدناه صَابِراً ﴾ على البلاء

الذي ابتليناه ﴿ نِعْمَ العبد إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ يعني : مقبل على طاعة ربه .

وقال وهب بن منبه : أصاب أيوب البلاء سبع سنين ، ومكث يوسف في السجن سبع سنين ، ويقال : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ لما هلك ماله .

قال : كان ذلك من عطاء الله ، ولما هلك أولاده قال : ﴿ الذين إِذَآ أصابتهم مُّصِيبَةٌ قالوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ راجعون ﴾ [البقرة : 156] ولما ابتلي بالنفس قال : إني له .

ويقال : واذكر أنت يا محمد صبر عبدنا أيوب ، إذ ضاق صدرك من أذى الكفار ، وأمر أمتك ليذكروا صبره ، ويعتبروا ، ويصبروا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 162.150 ﴾

(118/661)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ص ﴾

فيه تسعة تأويلات :

أحدها : أنه فواتح الله تعالى بها القرآن ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

الثالث : أنه اسم من أسماء الله تعالى أقسم به ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنه حرف هجاء من أسماء الله تعالى ، قاله السدي .

الخامس : أنه بمعنى صدق الله ، قاله الضحاك .

السادس : أنه من المصادة وهي المعارضة ومعناه عارض القرآن لعلمك ، قاله الحسن .

السابع : أنه من المصادة وهي الاتباع ومعناه اتبع القرآن بعلمك ، قاله سفيان .

﴿ والقرآن ذي الذكر ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : ذي الشرف ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي .

الثاني : بالبيان ، قاله قتادة .

الثالث : بالتذكير ، قاله الضحاك .

الرابع : ذكر ما قبله من الكتب ، حكاه ابن قتيبة . قال قتادة : ها هنا وقع القسم .

واختلف أهل التأويل في جوابه على قولين :

أحدهما : أن جواب القسم محذوف وحذفه أفخم له لأن النفس تذهب فيه كل مذهب .

ومن قال بحذفه اختلفوا فيه على قولين :

أحدهما : أن تقدير المحذوف منه لقد جاء الحق .

الثاني : تقديره ما الأمر كما قالوا .

والقول الثاني : من الأصل أن جواب القسم مظهر ، ومن قال بإظهاره اختلفوا فيه على قولين

:

أحدهما : قوله تعالى ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ قاله الفراء .

الثاني : من قوله تعالى ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ وهو قول مقاتل .

أحدها : يعني في حمية وفراق ، قاله قتادة .

الثاني : في تعزز واختلاف ، قاله السدي .

الثالث : في أنفة وعداوة .

ويحتمل رابعاً : في امتناع ومباعدة .

﴿ كم أهلكنا مِن قَبْلِهم ﴾ يعني قبل كفار هذه الأمة .

﴿ من قرن ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني من أمة ، قاله أبو مالك .

الثاني : أن القرن زمان مقدور وفيه سبعة أقاويل :

أحدها : أنه عشرون سنة ، قاله الحسن .

الثاني : أربعون سنة ، قاله إبراهيم .

الثالث : ستون سنة ، رواه أبو عبيدة الناجي .

الرابع : سبعون سنة ، قاله قتادة .

الخامس : ثمانون سنة ، قاله الكلبي .

السادس : مائة سنة ، رواه عبد الله بن بشر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

السابع : عشرون ومائة سنة ، قاله زرارة بن أوفى .

قوله عز وجل : ﴿ فنادوا ولات حين مناص ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : استغاثوا .

الثاني : دعوا . ولات حين مناص التاء من لات مفصولة من الحاء وهي كذلك في المصحف ، ومن وصلها بالحاء فقد أخطأ . وفيها وجهان :

أحدها : أنها بمعنى لا وهو قول أبي عبيدة .

الثاني : أنها بمعنى ليس ولا تعمل إلا في الحين خاصة ، قال الشاعر :

تذكر حب ليلى لات حيناً . . . وأضحى الشيب قد قطع القرينا

وفي تأويل قوله تعالى ﴿ ولات حين مناص ﴾ خمسة أوجه :

أحدها : وليس حين ملجأ ، قاله زيد بن أسلم .

الثاني : وليس حين مَغاث ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، ومنه قول علي رضي الله عنه في رجز له :

لأصبحنّ العاصي بن العاصي . . . سبعين ألفاً عاقِدي النواصي

قد جنبوا الخيل على الدلاصِ . . . آساد غيل حين لا مناص

الثالث : وليس حين زوال ، وراه أبو قابوس عن ابن عباس ، ومنه قول الشاعر :

فهم خشوع لدية لا مناص لهم . . . يضمهم مجلس يشفي من الصيد

الرابع : وليس حين فرار ، قاله عكرمة والضحاك وقتادة قال الفراء مصدر من ناص ينوص . والنوص بالنون التأخر ، والبوص بالباء التقدم وأنشد قول امريء القيس :

أمِن ذكر ليلى إن نأتك تنوص . . . فتقصر عنها خطوة وتبوص

فجمع في هذا البيت بين البوص والنوص فهو بالنون التأخر وبالباء التقدم .

الخامس : أن النوص بالنون التقدم ، والبوص بالباء التأخر ، وهو من الأضداد ، وكانوا إذا أحسوا في الحرب بفشل قال بعضهم لبعض : مناص : أي حملة واحدة ، فينجو فيها من نجا ويهلك فيها من هلك ، حكاه الكلبي : فصار تأويله على هذا الوجه ما قاله السدي أنهم حين عاينوا الموت لم يستطيعوا فراراً من العذاب ولا رجوعاً إلى التوبة .

(120/661)

قوله عز وجل : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ أمرهم أن يقولوا لا إله إلا الله أيسع لحاجَاتنا جميعاً إله واحد إن هذا لشيء عجاب بمعنى عجيب كما يقال رجل طوال وطويل ، وكان الخليل يفرق بينهما في المعنى فيقول العجيب هو الذي قد يكون مثله والعجاب هو الذي لا يكون مثله ، وكذلك الطويل والطوال .

قوله عز وجل : ﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ والانطلاق الذهاب بسهولة ومنه طلاقة الوجه وفي الملأ منهم قولان :

أحدهما : أنه عقبة بن معيط ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه أبو جهل بن هشام أتى أبا طالب في مرضه شاكياً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انطلق من عنده حين يئس من كفه ، قاله ابن عباس .

﴿ أَنِ امشوا واصبروا على آلهتكم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : اتركوه واعبدوا آلهتكم .

الثاني : امضوا على أمركم في المعاندة واصبروا على آلهتكم في العبادة ، والعرب تقول : امش على هذا الأمر ، أي امض عليه والزمه .

﴿ إن هذا لشيء يراد ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أسلم وقوي به الإسلام شق على قريش فقالوا إن الإسلام عمر فيه قوة للإسلام وشيء يراد ، قاله مقاتل .

الثاني : أن خلاف محمد لنا ومفارقته لديننا إنما يريد به الرياسة علينا والتملك لنا .

قوله عز وجل : ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ فيه أربعة أقويل :

أحدها : في النصرانية لأنها كانت آخر الملل ، قاله ابن عباس وقتادة والسدي .

الثاني : فيما بين عيسى ومحمد عليهما السلام ، قاله الحكم .

الثالث : في ملة قريش ، قاله مجاهد .

الرابع : معناه أننا ما سمعنا أنه يخرج ذلك في زماننا ، قاله الحسن .

﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ أي كذب اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله عز وجل : ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك ﴾ قال السدي مفاتيح النبوة فيعطونها من شاؤوا ويمنعونها من شاءُوا .

قوله عز وجل : ﴿ فليرتقوا في الأسباب ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : في السماء ، قاله ابن عباس .

(121/661)

الثاني : في الفضل والدين ، قاله السدي .

الثالث : في طرق السماء وأبوابها ، قاله مجاهد .

الرابع : معناه فليعلوا في أسباب القوة إن ظنوا أنها مانعة ، وهو معنى قول أبي عبيدة .

قوله عز وجل : ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ قال سعيد بن جبير : هم مشركو مكة و ﴿ ما ﴾ صلة للتأكيد ، تقول : جئتك لأمر ما . قال الأعشى :

فاذهبي ما إليك ادركني الحلم . . . عداني عن هيجكم أشغالي

ومعنى قوله جند أي أتباع مقلِّدون ليس فيهم عالم مرشد .

﴿ مهزوم من الأحزاب ﴾ يعني مشركي قريش أنه أحزاب إبليس وأتباعه وقيل لأنهم تحازبوا على الجحود لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم . قال قتادة : فبشره بهزيمتهم وهو بمكة فكان تأويلها يوم بدر .

قوله عز وجل : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ ذكر الله عز وجل القوم بلفظ التأنيث ، واختلف أهل العربية في تأنيثه على قولين :

أحدهما : أنه قد يجوز فيه التأنيث والتذكير .

الثاني : أنه مذكر اللفظ لا يجوز تأنيثه إلا أن يقع المعنى على العشيرة فيغلب في اللفظ حكم المعنى المضمر تنبيهاً عليه كقوله تعالى ﴿ كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ ولم يقل ذكرها لأنه لما كان المضمر فيه مذكوراً ذكره وإن كان اللفظ مقتضياً للتأنيث .

﴿ وعادٌ ﴾ وهم قوم هود كانوا بالأحقاف من أرض اليمن ، قال ابن اسحاق : كانوا أصحاب أصنام يعبدونها ، وكانت ثلاثة يقال لأحدها هدر وللآخر صمود للآخر الهنا ،

فأمرهم هود أن يوحدوا الله سبحانه ولا يجعلوا معه إلهاً غيره ويكفوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم إلا بذلك .

﴿ وفرعون ذُو الأوتاد ﴾ وفي تسميته بذي الأوتاد أربعة أقاويل :

أحدها : أنه كان كثير البنيان ، والبنيان يسمى أوتاداً ، قاله الضحاك .

الثاني : أنه كانت له ملاعب من أوتاد يلعب عليها ، قاله ابن عباس وقتادة .

الثالث : لأنه كان يعذب الناس بالأوتاد ، قاله السدي .

والرابع : أنه يريد ثابت الملك شديد القوة كثبوت ما يشج بالأوتاد كما قال الأسود بن يعفر :

(122/661)

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة . . . في ظل ملك ثابت الأوتاد

﴿ وثمود ﴾ وهم عرب وحكى مقاتل أن عاداً وثمود أبناء عم ، وكانت منازل ثمود بالحجر بين الحجاز والشام منها وادي القرى ، بعث الله إليهم صالحاً ، واختلف في إيمانهم به ، فذكر ابن عباس أنهم آمنوا ثم مات فرجعوا بعده عن الإيمان فأحياه الله تعالى وبعثه إليهم وأعلمهم أنه صالح فكذبوه وقالوا قد مات صالح فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فأتاهم الله الناقة ، فكفروا وعقروها ، فأهلكهم الله .

وقال ابن إسحاق : إن الله بعث صالحاً شاباً فدعاهم حتى صار شيخاً ، فقروا الناقة ولم يؤمنوا حتى هلكوا .

﴿ وقوم لوط ﴾ لم يؤمنوا حتى أهلكهم الله تعالى . قال مجاهد : وكانوا أربعمائة ألف بيت في كل بيت عشرة . وقال عطاء ما من أحد من الأنبياء إلا يقوم معه يوم القيامة قوم من أمته إلا آل لوط فإنه يقوم القيامة وحده .

﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ بعث الله إليهم شعيباً . وفي ﴿ الأيكة ﴾ قولان :

أحدهما : أنها الغيضة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه الملتف من النبع والسدر قاله أبو عمرو بن العلاء . قال قتادة : بعث شعيب إلى أمتين من الناس إلى أصحاب الإيكة وإلى مدين ، وعذبتا بعذابين .

﴿ أولئك الأحزاب ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أحزاب على الأنبياء بالعداوة .

الثاني : أحزاب الشياطين بالموالاة .

قوله عز وجل : ﴿ وما ينظر هؤلاء ﴾ يعني كفار هذه الأمة .

﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ يعني النفخة الأولى .

﴿ ما لها من فواق ﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم الفاء ، والباقون بفتحها ، واختلف في الضم والفتح على قولين :

أحدهما : أنه بالفتح من الإفاضة وبالضم فُواق الناقة وهو قدر ما بين الحلبتين تقديراً للمدة .

الثاني : معناهما واحد ، وفي تأويله سبعة أقاويل :

أحدها : معناه ما لها من ترداد ، قاله ابن عباس .

الثاني : ما لها من حبس ، قاله حمزة بن إسماعيل .

الثالث : من رجوع إلى الدنيا ، قاله الحسن وقتادة .

(123/661)

الرابع : من رحمة . وروي عن ابن عباس أيضاً .

الخامس : ما لها من راحة ، حكاه أبان بن تغلب .

السادس : ما لها من تأخير لسرعتها قال الكلبي ، ومنه قول أبي ذؤيب :

إذا ماتت عن الدنيا حياتي . . . فيا ليت القيامة عن فواق

السابع : ما لهم بعدها من إقامة ، وهو بمعنى قول السدي .

قوله عز وجل : ﴿ وقالوا ربنا عَجِّل لنا قِطنا . . . ﴾ الآية . فيه خمسة تأويلات :

أحدها : معنى ذلك عجل لنا حظنا من الجنة التي وعدتنا ، قاله ابن جبير .

الثاني : عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي وعدتنا استهزاء منهم بذلك ، قاله ابن عباس .

الثالث : عجل لنا رزقنا ، قاله إسماعيل بن أبي خالد .

الرابع : أرنا منازلنا ، قاله السدي .

الخامس : عجل لنا في الدنيا كتابنا في الآخرة وهو قوله ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه . . . وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾ استهزاء منهم بذلك . وأصل القط القطع ، ومنه قط القلم وقولهم ما رأيته قط أي قطع الدهر بيني وبينه وأطلق على النصيب . والكتاب والرزق لقطعه من غيره إلا أنه في الكتاب أكثر استعمالاً وأقوى حقيقة ، قال أمية بن أبي الصلت :

قوم لهم ساحة العراق وما . . . يجبى إليه والقط والقلح

وفيه لمن قال بهذا قولان :

أحدهما أنه ينطلق على كل كتاب يتوثق به .

الثاني : أنه مخص بالكتاب الذي فيه عطية وصلة ، قاله ابن بحر .

قوله عز وجل : ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ يعني كما صبر أولو العزم من الرسل لا كمن لم يصبر مثل يونس .

﴿ واذكر عبدنا داود ﴾ أي فإنا نحسن إليك كما أحسنا إلى داود قبلك بالصبر .

﴿ ذا الأيد ﴾ فيه قولان :

أحدهما : ذا النعم التي أنعم الله بها عليه لأنها جمع يد حذفت منه الياء ، واليد النعمة .

الثاني : ذا القوة ، قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد ، ومنه ﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ أي بقوة . وفيما نسب داود إليه من القوة قولان :

أحدهما : القوة في طاعة الله والنصر في الحرب ، قاله مجاهد .

(124/661)

الثاني : ذا القوة في العبادة والفقه في الدين قاله قتادة . وذكر أنه كان يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر .

﴿ إنه أواب ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أنه التواب ، قاله مجاهد وابن زيد .

الثاني : أنه الذي يؤوب إلى الطاعة ويرجع إليها ، حكاه ابن زيد .

الثالث : أنه المسبح ، قاله الكلبي .

الرابع : أنه الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها ، قاله المنصور .

قوله عز وجل : ﴿ وشَدَدنا ملكه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالتأييد والنصر .

الثاني : بالجنود والهيبة . قال قتادة : باثنين وثلاثين ألف حرس .

﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ فيها خمسة تأويلات :

أحدها : النبوة ، قاله السدي .

الثاني : السنّة ، قاله قتادة .

الثالث : العدل ، قاله ابن نجيح .

الرابع : العلم والفهم ، قاله شريح .

الخامس : الفضل والفطنة .

﴿ وفصل الخطاب ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : على القضاء والعدل فيه ، قاله ابن عباس والحسن .

الثاني : تكليف المدعي البينة والمدعَى عليه اليمين ، قاله شريح وقتادة .

الثالث : قوله أما بعد ، وهو أول من تكلم بها ، قاله أبو موسى الأشعري والشعبي .

الرابع : أنه البيان الكافي في كل غرض مقصود .

الخامس : أنه الفصل بين الكلام الأول والكلام الثاني .

قوله عز وجل : ﴿ وهل أتاك نبأ الخَصْم ﴾ والخصم يقع على الواحد والاثنين والجماعة لأن أصله المصدر .

﴿ إذ تسوروا المحراب ﴾ ومعنى تسوروا أنهم أتوه من أعلى سورة وفي المحراب أربعة أقاويل :

أحدها : أنه صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد ، قاله أبو عبيدة .

الثاني : مجلس الأشراف الذي يتحارب عليه لشرف صاحبه ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : أنه المسجد ، قاله يحيى بن سلام .

الرابع : أنه الغرفة لأنهم تسوروا عليه فيها .

(125/661)

﴿ إذ دخلوا على داود ففزع منهم ﴾ وسبب ذلك ما حكاه ابن عيسى : إن داود حدث نفسه إن ابتلي أن يعتصم ، فقيل له إنك ستبتلى وتعلم اليوم الذي تبتلى فيه فخذ حذرك ، فأخذ الزبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليه ، فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر كأحسن ما يكون من الطير فجعل يدرج بين يديه ، فهمّ أن يستدرجه بيده فاستدرج حتى وقع في كوة المحراب فدنا منه ليأخذه فانتفض فاطلع لينظره فأشرف على امرأة تغتسل فلما رأته غطت جسدها بشعرها ، قال السدي فوقعت في قلبه ، قال ابن عباس وكان زوجها غازياً في سبيل الله ، قال مقاتل وهو أوريا بن حنان ، فكتب داود إلى أمير الغزاة أن يجعل زوجها في حملة التابوت ، وكان حملة التابوت إما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا ، فقدمه فيهم فقتل ، فلما انقضت عدتها خطبها داود فاشترطت عليه إن ولدت غلاماً أن يكون الخليفة

بعده ، وكتبت عليه بذلك كتاباً وأشهدت عليه خمسين رجلاً من بني إسرائيل فلم يشعر بفتنتها حتى ولدت سليمان وشب وتسور عليه الملكان وكان من شأنهما ما قَصَّه الله في كتابه .

وفي فزعه منهما قولان :

أحدهما : لأنهم تسوروا عليه من غير باب .

الثاني : لأنهم أتوه في غير وقت جلوسه للنظر .

﴿ قالوا لا تخف خصمان بَغَى بعضنا على بعض ﴾ وكانا ملكين ولم يكونا خصمين ولا باغيين ، ولا يأتي منهما كذب ، وتقدير كلامها : ما تقول إن أتاك خصمان وقالا بغى بعضنا على بعض .

وثنى بعضهم هنا وجمعه في الأول حيث قال : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم ﴾ لأن جملتهم جمعت ، وهم فريقان كل واحد منهما خصم .

﴿ فاحكم بيننا بالحق ﴾ أي بالعدل .

﴿ ولا تشطط ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : لا تمِلْ ، قاله قتادة .

الثاني : لا تَجُر ، قاله السدي .

الثالث : لا تسرف ، قاله الأخفش .

وفي أصل الشطط قولان :

أحدهما : أن أصله البعد من قولهم شطط الدار إذا بعدت ، قال الشاعر :

تشطط غداً دار جيراننا . . . والدار بعد غد أبعد

الثاني : الإفراط . قال الشاعر :

(126/661)

ألا يالقومي قد اشطّت عواذلي . . . وزعمن أن أودى بحقّي باطلي

﴿ واهدِنا إلى سواءِ الصراط ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أرشدنا إلى قصد الحق ، قاله يحيى .

الثاني : إلى عدل القضاء ، قاله السدي .

﴿ إن هذا أخي ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني على ديني ، قاله ابن مسعود .

الثاني : يعني صاحبي ، قاله السدي .

﴿ له تسع وتسعونَ نعجةً وليَ نعجةٌ واحدةٌ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أنه أراد تسعاً وتسعين امرأة ، فكنى عنهن ، بالنعاج ، قاله ابن عيسى . قال

قطرب : النعجة هي المرأة الجميلة اللينة .

الثاني : أنه أراد النعاج ليضربها مثلاً لداود ، قاله الحسن .

﴿ فقال أكفلنيها ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ضمها إليَّ ، قاله يحيى .

الثاني : أعطنيها ، قاله الحسن .

الثالث : تحوّل لي عنها ، قاله ابن عباس وابن مسعود .

﴿ وعزّني في الخطاب ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أي قهرني في الخصومة ، قاله قتادة .

الثاني : غلبني على حقي ، من قولهم من عزيز أي من غلب سلب ، قاله ابن عيسى .

الثالث : معناه إن تكلم كان أبين ، وإن بطش كان أشد مني ، وإن دعا كان أكثر مني ، قاله الضحاك .

قوله عز وجل : ﴿ قال لقد ظَلَمَكَ بسؤال نعجتِك إلى نِعاجه ﴾ فإن قيل فكيف يحكم لأحد الخصمين على الآخر بدعواه ؟ ففيه جوابان :

أحدهما : أن الآخر قد كان أقر بذلك فحكم عليه داود عليه السلام بإقراره ، فحذف اكتفاء بفهم السامع ، قاله السدي .

الثاني : إن كان الأمر كما تقول لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه .

﴿ وإنّ كثيراً من الخُلَطاءِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : الأصحاب .

الثاني : الشركاء .

﴿ لَيَبْغِي بعضهم على بعض ﴾ أي يتعدى .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ تقديره فلا يبغي بعضهم على بعض ، فحذف اكتفاء بفهم السامع .

﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وقليل ما فيه من يبغي بعضهم على بعض ، قاله ابن عباس .

الثاني : وقليل من لا يبغي بعضهم على بعض ، قاله قتادة .

(127/661)

وفي ﴿ ما ﴾ التي في قوله ﴿ وقليل ما هم ﴾ وجهان :

أحدهما : انها فضلة زائدة تقديره : وقليل هم .

الثاني : أنها بمعنى الذي : تقديره : وقليل الذي هم كذلك .

﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ قال قتادة أي علم داود أنما فتناه وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : اختبرناه ، قاله ابن عباس .

الثاني : ابتليناه ، قاله السدي .

الثالث : شددنا عليه في التعبد ، قاله ابن عيسى .

﴿ فاستغفر ربَّه ﴾ من ذنبه . قال قتادة : قضى نبي الله على نفسه ولم يفطن لذلك ، فلما تبين له الذنب استغفر ربه .

واختلف في الذنب على أربعة أقاويل :

أحدها : أنه سمع من أحد الخصمين وحكم له قبل سماعه من الآخر .

الثاني : هو أن وقعت عينه على امرأة أوريا بن حنان واسمها اليشع وهي تغتسل فأشبع نظره منها حتى علقت بقلبه .

الثالث : هو ما نواه إن قتل زوجها تزوج بها وأحسن الخلافة عليها ، قاله الحسن .

وحكى السدي عن علي كرم الله وجهه قال : لو سمعت رجلاً يذكر أن داود قارف من تلك المرأة محرَّماً لجلدته ستين ومائة لأن حد الناس ثمانون وحد الأنبياء ستون ومائة ، حَدّان .

﴿ وخَرّ راكعاً وأناب ﴾ أي خرّ ساجداً وقد يعبر عن السجود بالركوع ، قال الشاعر :

فخر على وجهه راكعاً . . . وتاب إلى الله من كل ذنب

قال مجاهد : مكث أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموع عينه فغطى رأسه إلى أن قال الله تعالى :

﴿ فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أي مرجع .

في الزلفى وجهان :

أحدهما : الكرامة ، وهو المشهور .

الثاني : الرحمة قاله الضحاك . فرفع رأسه وقد قرح جبينه .

واختلف في هذه السجدة على قولين :

أحدهما : أنها سجدة عزيمة تسجد عند تلاوتها في الصلاة وغير الصلاة ، قاله أبو حنيفة .

الثاني : أنها سجدة شكر لا يسجد عند تلاوتها لا في الصلاة ، ولا في غير الصلاة وهو قول الشافعي .

(128/661)

قال وهب بن منبه : فمكث داود حيناً لا يشرب ماء إلا مزجه بدموعه ، ولا يأكل طعاماً إلا بلّه بدموعه ، ولا ينام على فراش إلا غرقه بدموعه . وحكي عن داود أنه كان يدعو على الخطائين فلما أصاب الخطيئة كان لا يمر بواد إلا قال : اللهم اغفر للخاطئين لعلك تغفر لي معهم .

قوله عز وجل : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : خليفة لله تعالى وتكون الخلافة هي النبوة .

الثاني : خليفة لمن تقدمك لأن الباقي خليفة الماضي وتكون الخلافة هي الملك .

﴿ فاحكم بين الناس بالحق ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالعدل .

الثاني : بالحق الذي لزمك لنا .

﴿ ولا تتبع الهوى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن تميل مع من تهواه فتجور .

الثاني : أن تحكم بما تهواه فتزلّ .

﴿ فيضلك عن سبيل الله ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عن دين الله .

الثاني : عن طاعة الله .

﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نَسُوا يوم الحساب ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بما تركوا العمل ليوم الحساب ، قاله السدي .

الثاني : بما أعرضوا عن يوم الحساب ، قاله الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ إذ عُرِض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ الخيل وفيه وجهان :

أحدهما : أن صفونها قيامها ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من سره أن يقوم الرجال له صفوفاً فليتبوأ مقعده من النار " أي يديمون له القيام حكاه قطرب وأنشد قول النابغة :

لنا قبة مضروبة بفنائها . . . عتاق المهاري والجياد الصوافن

الثاني : أن صفونها رفع احدى اليدين على طرف الحافر حتى تقوم على ثلاث كما قال الشاعر :

ألف الصفون فما يزل كأنه . . . مما يقوم على الثلاث كسيرا

وفي ﴿ الجياد ﴾ وجهان :

أحدهما : أنها الطوال العناق مأخوذ من الجيد وهو العنق لأن طول أعناق الخيل من صفات فراهتها .

الثاني : أنها السريع ، قاله مجاهد واحدها جواد سمي بذلك لأنه يجود بالركض .

قوله عز وجل : ﴿ فَقَالَ إِنِي أَحببت حُبَّ الخَيْرِ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : يعني حب المال ، قاله ابن جبير والضحاك .

الثاني : حب الخيل قاله قتادة والسدي . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة " وفي قراءة ابن مسعود : حب الخيل .

الثالث : حب الدنيا ، قاله أسباط .

وفي ﴿ أحببت حب الخير ﴾ وجهان :

أحدهما : أن فيه تقديماً وتأخيراً تقديره : أحببت الخير حباً فقدم ، فقال : أحببت حب الخير ثم أضاف فقال أحب الخير ، قاله بعض النحويين .

الثاني : أن الكلام على الولاء في نظمه من غير تقديم ولا تأخير ، وتأويله : آثرت حب الخير .

﴿ عَن ذِكر ربي ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عن صلاة العصر ، قاله علي رضي الله عنه .

الثاني : عن ذكر الله تعالى ، قاله ابن عباس .

وروى الحارث عن علي كرم الله وجهه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة الوسطى فقال : " هي صلاة العصر التي فرط فيها نبي الله سليمان عليه السلام " .

﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ فيه قولان :

أحدهما : حت توارت الشمس بالحجاب ، والحجاب جبل أخضر محيط بالخلائق ، قاله

قتادة وكعب .

الثاني : توارت الخيل بالحجاب أي شغلت بذكر ربها إلى تلك الحال ، حكاه ابن عيسى .

والحجاب الليل يسمى حجاباً لأنه يستر ما فيه .

قوله عز وجل : ﴿ رُدُّوها عليَّ ﴾ يعني الخيل لأنها عرضت عليه فكانت تجري بين يديه فلا يستبين منها شيء لسرعتها وهو اللهم أغضَّ بصري ، حتى غابت الحجاب ثم قال ردوها عليّ .

﴿ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه من شدة حبه لها مسح عراقيبها وأعناقها ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه لما رآها قد شغلته عن الصلاة ضرب عراقيبها وأعناقها ، قاله الحسن وقتادة .

ولم يكن ما اشتغل عنه من الصلاة فرضاً بل كان نفلاً لأن ترك الفرض عمداً فسق ، وفعل ذلك تأديباً لنفسه . والخيل مأكولة اللحم فلم يكن ذلك منه إتلافاً يأثم به .

(130/661)

قال الكلبي : كانت ألف فرس فعرقب تسعمائة وبقي منها مائة . فما في أيدي الناس من الخيل العتاق من نسل تلك المائة .

قوله عز وجل : ﴿ ولقد فتنا سُليمان ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني ابتليناه قاله السدي .

الثاني : عاقبناه ، حكاه النقاش .

وفي فتنته التي عوقب بها ستة أقاويل :

أحدهما : أنه كان قارب بعض نسائه في بعض الشيء من حيض أو غيره قاله الحسن .

الثاني : ما حكاه ابن عباس قال كانت لسليمان امرأة تسمى جرادة وكان بين أهلها وبين قوم خصومة فاختصموا إلى سليمان ففصل بينهم بالحق ولكنه ود أن الحق كان لأهلها فقيل له إنه سيصيبك بلاء فجعل لا يدري أمن الأرض يأتيه البلاء أم من السماء .

الثالث : ما حكاه سعيد بن المسيب أن سليمان احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد ولم ينصف مظلوماً من ظالم فأوحى الله تعالى إليه إني لم أستخلفك لتحجب عن عبادي ولكن لتقضي بينهم وتنصف مظلومهم .

الرابع : ما حكاه شهر بن حوشب أن سليمان سبى بنت ملك غزان في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون ، فألقيت عليه محبتها وهي معرضة عنه تذكر أمر أبيها لا تنظر إليه إلا شزراً ولا تكلمه إلا نزراً ، ثم إنها سألته أن يضع لها تمثالاً على صورته فصنع لها فعظمته وسجدت له وسجد جواريها معها ، وصار صنماً معبوداً في داره وهو لا يعلم به حتى مضت أربعون يوماً وفشا خبره في بني إسرائيل وعلم به سليمان فكسره وحرقه ثم ذراه في

الريح .

الخامس : ما حكاه مجاهد أن سليمان قال لآصف الشيطان كيف تضلون الناس ؟ فقال له الشيطان أعطني خاتمك حتى أخبرك ، فأعطاه خاتمه فألقاه في البحر حتى ذهب ملكه .

(131/661)

السادس : ما حكاه أبان عن أنس أن سليمان قال ذات ليلة : والله لأطوفن على نسائي في هذه الليلة وهن ألف امرأة كلهن تشتمل بغلام ، كلهم يقاتل في سبيل الله ، ولم يستثن . قال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " والذي نفس محمد بيده لو استثنى لكان ما قال " فما حملت له تلك الليلة إلا امرأة واحدة فولدت له شق إنسان .

﴿ وألقينا على كُرْسيِّه جسداً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : معناه وجعلنا في ملكه جسداً ، والكرسي هو الملك .

الثاني : وألقينا على سرير ملكه جسداً .

وفي هذا الجسد أربعة أقاويل :

أحدها : أنه جسد سليمان مرض فكان جسده ملقى على كرسيه ، قاله ابن بحر .

الثاني : أنه ولد له ولد فخاف عليه فأودعه في السحاب يغذى في اليوم كالجمعة ، وفي

الجمعة كالشهر وفي الشهر كالسنة ، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتاً ، قاله الشعبي .

الثالث : أنه أكثر من وطء جواريه طلباً للولد ، فولد له نصف إنسان ، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه ، حكاه النقاش .

الرابع : أن الله كان قد جعل ملك سليمان في خاتمه فكان إذا أجنب أو ذهب للغائط خلعه من يده ودفعه إلى أوثق نسائه حتى يعود فيأخذه ، فدفعه مرة إلى بعض نسائه وذهب لحاجته فجاء شيطان فتصور لها في صورة سليمان فطلب الخاتم منها فأعطته إياه ، وجاء سليمان بعده فطلبه ، فقالت قد أخذته فأحس سليمان .

واختلف في اسم امرأته هذه على قولين :

أحدهما : جرادة ، قاله ابن عباس وابن جبير .

الثاني : الأمينة ، قاله شهر بن حوشب .

(132/661)

وقال سعيد بن المسيب : كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه فأخذه الشيطان من تحته . وقال مجاهد : بل أخذه الشيطان من يده لأن سليمان سأل الشيطان كيف تضل الناس ؟ فقال الشيطان : أعطني خاتمك حتى أخبرك فأعطاه خاتمه ، فلما أخذ الشيطان

الخاتم جلس على كرسي سليمان متشبهاً بصورته داخلاً على نسائه ، يقضي بغير الحق ويأمر بغير صواب . واختلف في إصابته النساء ، فحكي عن ابن عباس : أنه كان يأتيهن في حيضهن . وقال مجاهد : منع من إتيانهن ، وزال عن سليمان ملكه فخرج هارباً إلى ساحل البحر يتضيف الناس ويحمل سموك الصيادين بالأجرة ، وإذا أخبر الناس أنه سليمان أكذبوه ، فجلس الشيطان على سريره ، وهو معنى قوله تعالى وألقينا على كرسيه جسداً .

واختلف في اسم هذا الشيطان على أربعة أقاويل :

أحدها : أن اسمه صخر ، قاله ابن عباس .

الثاني : آصف ، قاله مجاهد .

الثالث : حقيق ، قاله السدي .

الرابع : سيد ، قاله قتادة .

ثم إن سليمان بعد أن استنكر بنو إسرائيل حكم الشيطان أخذ حوته من صياد قيل إنه استطعمها ، وقال ابن عباس أخذها أجراً في حمل حوت حمله ، فلما شق بطنه وجد خاتمه فيها ، وذكل بعد أربعين يوماً من زوال ملكه عنه ، وهي عدة الأيام التي عُبد الصنم في داره . قاله مقاتل وملك أربعين سنة ، عشرين سنة قبل الفتنة وعشرين بعدها . وكانت الأربعون يوماً التي خرج فيها عن ملكه ذا القعدة وعشراً من ذي الحجة ، فسجد الناس له

حين عاد الخاتم إليه وصار إلى ملكه .

وحكى يحيى بن أبي عمرو الشيباني أن سليمان وجد خاتمه بعسقلان فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعاً لله .

قال ابن عباس : ثم إن سليمان ظفر بالشيطان فجعله في تخت من رخام وشده بالنحاس وألقاه في البحر . فهذا تفسير قوله تعالى ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ .

﴿ ثم أناب ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ثم رجع إلى ملكه ، قاله الضحاك .

الثاني : ثم أناب من ذنبه ، قاله قتادة .

الثالث : ثم برأ من مرضه ، قاله ابن بحر .

(133/661)

قوله عز وجل : ﴿ قال ربِّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ليكون ذلك معجزاً له يعلم به الرضا ويستدل به على قبول التوبة .

الثاني : ليقوى به على من عصاه من الجن ، فسخرت له الريح حينئذٍ .

الثالث : لا ينبغي لأحد من بعدي في حياتي أن ينزعه مني كالجسد الذي جلس على كرسيه ، قاله الحسن .

﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ أي المعطي ، قال مقاتل : سأل الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده بعد الفتنة فزاده الله تعالى الريح والشياطين بعدما ابتلى ، وقال الكلبي حكم سليمان في الحرث وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وملك وهو ابن اثنتي عشرة سنة .

قوله عز وجل : ﴿ فسخرنا له الريح ﴾ أي ذللناها لطاعته .

﴿ تجري بأمره ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : تحمل ما يأمرها .

الثاني : تجري إلى حيث يأمرها .

﴿ رخاء ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : طيبة ، قاله مجاهد .

الثاني : سريعة ، قاله قتادة .

الثالث : مطيعة ، قاله الضحاك .

الرابع : لينة ، قاله ابن زيد .

الخامس : ليست بالعاصفة المؤذية ولا بالضعيفة المقصرة ، قاله الحسن .

﴿ حيث أصاب ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : حيث أراد ، قاله مجاهد وقال قتادة : هو بلسان هجر . قال الأصمعي : العرب تقول أصاب الصواب فأخطأ الجواب ، أي أراد الصواب .

الثاني : حيث ما قصد مأخوذ من إصابة السهم الغرض المقصود .

قوله عز وجل : ﴿ والشياطين كلَّ بناءٍ وغواص ﴾ يعني سخرنا له الشياطين كل بناء يعني في البر ، وغواص يعني في البحر على حليّه وجواهره .

﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : في السلاسل : قاله قتادة .

الثاني : في الأغلال ، قاله السدي .

الثالث : في الوثاق ، قاله ابن عيسى ، قال الشاعر :

فآبوا بالنهابِ وبالسبايا . . . وأبنا بالملوك مُصَفّدينا

قال يحيى بن سلام : ولم يكن يفعل ذلك إلا بكفرهم ، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يسخرهم .

ووجد على سور مدينة سليمان عليه السلام :

لو أن حيّاً ينال الخُلد في مهل . . . لنال ذاك سليمان بن داوِد

سالت له العين عين القطر فائضة . . . فيه ومنه عطاءٌ غير موصود

لم يبق من بعدها في الملك مرتقياً . . . حتى تضمن رمْساً بعد أخدود

هذا التعْلَم أنّ الملك منقطع . . . إلاّ من الله ذي التقوى وذي الجود

قوله عز وجل : ﴿ هذا عطاؤنا . . . ﴾ في المشار إليه بهذا ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما تقدم ذكره من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بتسخير الريح والشياطين .

فعلى هذا في قوله ﴿ فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ وجهان :

أحدهما : امنن على من شئت من الجن بإطلاقه ، أو امسك من شئت منهم في عمله من غير حرج عليك فيما فعلته بهم ، قاله قتادة والسدي .

الثاني : اعط من شئت من الناس وامنع من شئت منهم .

﴿ بغير حساب ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بغير تقدير فيما تعطي وتمنع حكاه ابن عيسى .

الثاني : بغير حرج ، قاله مجاهد .

الثالث : بغير حساب تحاسب عليه يوم القيامة ، قاله سعيد بن جبير .

قال الحسن : ما أنعم الله على أحد نعمة إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان فإن الله تعالى يقول : ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ وحكى ابن أبي نجيح عن مجاهد في

قوله ﴿ هذا عطاؤنا ﴾ الآية . قال سليمان عليه السلام : أوتينا ما أوتي الناس وما لم يؤتوا ، وعلمنا ما علم الناس وما لم يعلموا فلم نر شيئاً هو أفضل من خشية الله في الغيب والشهادة ، والقصد في الغنى والفقر ، وكلمة الحق في الرضا والغضب .

والقول الثاني : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً تقديره هذا عطاؤنا بغير حساب فامنن أو أمسك ، فعلى هذا في قوله فامنن أو أمسك وجهان :

أحدهما : بغير جزاء .

الثاني : بغير قلة .

(135/661)

والقول الثالث : إن هذا إشارة إلى مضمر غير مذكور وهو ما حكي أن سليمان كان في ظهره ماء مائة رجل وكان له ثلاثمائة امرأته وسبعمائة سرية فقال الله تعالى ﴿ هذا عطاؤنا ﴾ يعني الذي أعطيناك من القوة على النكاح ﴿ فامنن ﴾ بجماع من تشاء من نسائِك ﴿ أو أمسك ﴾ عن جماع من تشاء من نسائِك . فعلى هذا في قوله بغير حساب وجهان :

أحدهما : بغير مؤاخذة فيمن جامعت أو عزلت .

الثاني : بغير عدد محصور فيمن استبحت أو نكحت . وهذا القول عدول من الظاهر إلى

ادعاء مضمر بغير دليل لكن قيل فذكرته .

قوله عز وجل : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصبٍ وعذابٍ ﴾ قيل هو أيوب بن حوص بن روعويل وكان في زمن يعقوب بن إسحاق ، وتزوج بنته إليا بنت يعقوب وكانت أمّه بنت لوط عليه السلام ، وكان أبوه حوص ممن آمن بإبراهيم عليه السلام .

وفي قوله ﴿ مسني الشيطان ﴾ وجهان :

أحدهما : أن مس الشيطان وسوسته وتذكيره بما كان فيه من نعمة وما صار إليه من محنة ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : الشيطان استأذن الله تعالى أن يسلطه على ماله فسلطه ، ثم أهله وداره فسلطه ، ثم جسده فسلطه ، ثم على قلبه فلم يسلطه ، قال ابن عباس فهو قوله : ﴿ مسني الشيطان ﴾ الآية .

﴿ بنصب وعذاب ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني بالنصب الألم وبالعذاب السقم ، قاله مبشر بن عبيد .

الثاني : النصب في جسده ، والعذاب في ماله ، قاله السدي .

الثالث : أن النصب العناء ، والعذاب البلاء .

قوله عز وجل : ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشرابٌ ﴾ قال قتادة هما عينان

بأرض الشام في أرض يقال لها الجابية . وفيهما قولان :

أحدهما : أنه اغتسل من إحداهما فأذهب الله تعالى ظاهر دائه وشرب من الأخرى فأذهب الله باطن دائه ، قاله الحسن .

الثاني : أنه اغتسل من إحداهما فبرىء ، وشرب من الأخرى فروي ، قاله قتادة .

وفي المغتسل وجهان :

أحدهما : أنه كان الموضع الذي يغتسل منه ، قاله مقاتل .

(136/661)

الثاني : أنه الماء الذي يغتسل به ، قاله ابن قتيبة .

وفي مدة مرضه قولان :

أحدهما : سبع سنين وسبعة أشهر ، قاله ابن عباس .

الثاني : ثماني عشرة سنة رواه أنس مرفوعاً .

قوله عز وجل : ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ﴾ وفيما أصابهم ثلاثة أقويل :

أحدها : أنهم كانوا مرضى فشفاهم الله .

الثاني : أنهم غابوا عنه فردهم الله عليه ، وهذا القولان حكاهما ابن بحر .

الثالث : وهو ما عليه الجمهور أنهم كانوا قد ماتوا .

فعلى هذا في هبتهم له ومثلهم معهم خمسة أقاويل :

أحدها : أن الله تعالى رد عليه أهله وولده ومواشيه بأعيانهم ، لأنه تعالى أماتهم قبل آجالهم ابتلاء ووهب له من أولادهم مثلهم ، قاله الحسن .

الثاني : أن الله سبحانه ردهم عليه بأعيانهم ووهب له مثلهم من غيرهم قاله ابن عباس .

الثالث : أنه رد عليه ثوابهم في الجنة ووهب له مثلهم في الدنيا ، قاله السدي .

الرابع : أنه رد عليه أهله في الجنة ، وأصاب امرأته فجاءته بمثلهم في الدنيا .

الخامس : أنه لم يرد عليه منهم بعد موتهم أحداً وكانوا ثلاثة عشرا ابناً فوهب الله تعالى له من زوجته التي هي أم من مات مثلهم فولدت ستة وعشرين ابناً ، قاله الضحاك .

﴿ رحمة منا ﴾ أي نعمة منا .

﴿ وذكرَى لأولي الألباب ﴾ أي عبرة لذوي العقول .

قوله عز وجل : ﴿ وخُذْ بيدك ضِغْثاً فاضرب له ولا تحنثْ ﴾ كان أيوب قد حلف في مرضه على زوجته أن يضربها مائة جلدة .

وفي سبب ذلك ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما قاله ابن عباس أن إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب ، فقال أداويه على أنه إذا برىء قال أنت شفيتني لا أريد جزاء سواه قالت نعم ، فأشارت على

أيوب بذلك فحلف ليضربنها .

الثاني : ما حكاه سعيد بن المسيب أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه به من الخبز فخاف خيانتها فحلف ليضربنها .

(137/661)

الثالث : ما حكاه يحيى بن سلام أن الشيطان أغواها على أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة ليبرأ بها فحلف ليجلدنها فلما برىء أيوب وعلم الله تعالى بإيمان امرأته أمره رفقاً بها وبراً له يأخذ بيده ضغثاً .

وفيه سبعة أقاويل :

أحدها : أنه أشكال النخل الجامع لشماريخه ، قاله ابن عباس .

الثاني : الأثل ، حكاه مجاهد وقاله مجاهد .

الثالث : السنبل ، حكاه يحيى بن سلام .

الرابع : الثمام اليابس ، قاله سعيد بن المسيب .

الخامس : الشجر الرطب ، قاله الأخفش .

السادس : الحزمة من الحشيش ، قاله قطرب وأنشد قول الكميت :

تحيد شِماساً إذا ما العسيفُ . . . بضِغثِ الخلاء إليها أشارا

السابع : أنه ملء الكف من القش أو الحشيش أو الشماريخ ، قاله أبو عبيدة .

﴿ فاضرب ﴾ فاضرب بعدد ما حلفت عليه وهو أن يجمع مائة من عدد الضغث فيضربها به في دفعة يعلم فيها وصول جميعها إلى بدنها فيقوم ذلك فيها مقام مائة جلدة مفردة .

﴿ ولا تحنث ﴾ يعني في اليمين وفيه قولان :

أحدهما : أن ذلك لأيوب خاصة ، قاله مجاهد .

الثاني : عام في أيوب وغيره من هذه الأمة ، قاله قتادة . والذي نقوله في ذلك مذهباً : إن كان هذا في حد الله تعالى جاز في المعذور بمرض أو زمانة ولم يجز في غيره ، وإن كان في يمين جاز في المعذور وغيره إذا اقترن به ألم المضروب ، فإن تجرد عن ألم ففي بره وجهان :

أحدهما : يبر لوجود العدد المحلوف عليه .

الثاني : لا يبر لعدم المقصود من الألم .

﴿ إنا وجدناه صابراً ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : على الطاعة .

الثاني : على البلاء .

﴿ نِعم العبد ﴾ يعني نعم العبد في صبره .

﴿ إنه أوّاب ﴾ إلى ربه .

وفي بلائه قولان :

أحدهما : أنه بلوى اختبار ودرجة ثواب من غير ذنب عوقب عليه .

الثاني : أنه بذنب عوقب عليه بهذه البلوى وفيه قولان :

أحدهما : أنه دخل على بعض الجبابرة فرأى منكراً فسكت عنه .

الثاني : أنه ذبح شاة فأكلها وجاره جائع لم يطعمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(138/661)

وقال الثعلبى :

﴿ ص ﴾ قرأ العامة بالجزم ، واختلفوا في معناه .

فقال الكلبي : عن أبي صالح ، سُئل جابر بن عبد الله وابن عباس عن ﴿ ص ﴾ فقالا : لا ندري .

وقال عكرمة : سأل نافع الأزرق عبد الله بن عباس عن ﴿ ص ﴾ فقال : كان بحراً بمكّة وكان عليه عرش الرّحمن ، إذ لا ليل ولا نهار .

سعيد بن جبير : ﴿ ص ﴾ بحر يُحيي الله به الموتى بين [النفختين] .

الضحّاك : صدق الله . مجاهد : فاتحة السّورة . قتادة : اسم من أسماء القرآن . السدّي : قسم أقسم الله سبحانه وتعالى به ، وهو اسم من أسماء الله عزّ وجلّ . وهي رواية الوالبي عن ابن عبّاس .

محمد بن كعب القرظي : هو مفتاح أسماء الله ، صمد ، وصانع المصنوعات ، وصادق الوعد .

وقيل : هو اسم السّورة ، وقيل : هو إشارة إلى صدود الكفّار من القرآن . وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق : صاد بخفض الدّال ، من المصادّاة ، أي عارض القرآن بعملك وقابله به ، واعمل بأوامره ، وانته عن نواهيه .

وقرأ عيسى بن عمر صاد بفتح الدّال ، ومثلهُ قاف ونون ، لإجتماع السّاكنين ، حرّكها إلى أخف الحركات .

وقيل : على الإغراء .

وقيل في ﴿ ص ﴾ : إنّ معناه صاد محمّد قلوبَ الخلق واستمالها حتّى آمنوا به .

﴿ والقرآن ذِي الذكر ﴾ قال ابن عباس ومقاتل : ذي البيان .

الضحاك : ذي الشرف ، دليله قوله عزّ وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 44] .

وقيل : ذي ذكر الله عزّ وجلّ .

واختلفوا في جواب القسم ، فقال قتادة : موضع القسم قوله : ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ ق والقرآن المجيد * بَلْ عجبوا ﴾ [ق : 1 - 2] . وقال الأخفش جوابه قوله : ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل ﴾ كقوله عزّ وجل : ﴿ تالله إِن كُنَّا . . . ﴾ [الشعراء : 97] وقوله : ﴿ والسمآء والطارق ﴾ [الطارق : 1] ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ ﴾ [الطارق : 4] . وقيل : قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ .

(139/661)

وقال الكسائي : قوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ .

وقيل : مقدم ومؤخر تقديره ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ ﴿ والقرآن ذِي الذكر ﴾ .

وقال الفراء : ﴿ ص ﴾ معناها وجب وحقّ ، فهي جواب لقوله ﴿ والقرآن ﴾ كما تقول : [نزل] والله .

وقال القتيبي من قال جواب القسم ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ ﴾ قال : " بل " إنما تجيء لتدارك كلام ونفي آخر ، ومجاز الآية أن الله أقسم ب ﴿ ص والقرآن ذِي الذكر * بَلِ الذين كَفَرُواْ

فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ ويعني حمية جاهلية وتكبر .

﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ يعني خلاف وفراق .

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا ﴾ بالأيمان والاستغاثة عند نزول العقوبة وحلول النقمة بهم .

﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ وليس بوقت فرار ولا بر .

وقال وهب : ﴿ وَّلَاتَ ﴾ بلغة السريانية إذا أراد السرياني أن يقول وليس يقول : ولات .

وقال أئمة أهل اللغة : ﴿ وَّلَاتَ حِينَ ﴾ مفتوحتان كأنّهما كلمة واحدة ، وإنّما هي " لا " زيدت فيها التاء كقولهم : رُبّ ورُبَّت ، وثمَّ وثمَّت .

قال أبو زيد الطائي :

طلبوا صلحنا ولات أوان . . . فأجبنا أن ليس حين بقاء

[وقال] آخر :

تذكّرت حبّ ليلى لات حيناً . . . وأمسى الشيب فقطع القرينا

وقال قوم : إن التاء زيدت في حين كقول أبي وجزة السعديّ :

العاطفون حين ما من عاطف . . . والمطعمون زمان ما من مطعم

وتقول العرب : تلان بمعنى الآن ، ومنه حديث ابن عمر سأله رجل عن عثمان رضي الله عنه فذكر مناقبه ثم قال : اذهب بها تلان إلى أصحابك يريد الآن .

وقال الشاعر :

تولى قبل يوم بين حمانا . . . وصلينا كما زعمت تلانا

فمن قال : إن التاء مع " لا " قالوا : قف عليه لأن بالتاء [. . .] .

(140/661)

وروى قتيبة عن الكسائي أنّه كان يقف : ولاه ، بالهاء ، ومثله روي عن أهل مكة ، ومن قال : إن التاء مع حين . قالوا : قف عليه ولا ، ثم يبتدىء بحين مناص . وهو اختيار أبي عبيد قال : لأني تعمدّت النظر إليه في الأمام مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه عنه فوجدت التاء متصلة مع حين قد ثبتت : " تحين " .

وقال الفراء : النوص بالنون التأخر ، والبوص بالباء التقدم . وجمعهما امرؤ القيس في بيت فقال :

أمن ذكر ليلى إذ نأتك تنوص . . . فتقصر عنها خطوة وتبوص

فمناص مفعل من ناص مثل مقام .

قال ابن عباس : كان كفار مكة إذا قاتلوا فاضطروا في الحرب قال بعضهم لبعض : مناص ، أي اهربوا وخذوا حذركم ، فلما نزل بهم العذاب ببدر قالوا : مناص ، فأنزل الله سبحانه

﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ .

﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكافرون هذا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً ﴾ .

(141/661)

وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسلم فشق ذلك على قريش وفرح به المؤمنون ، فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش ، وهم الصناديد والأشراف ، وكانوا خمسة وعشرين رجلاً ، الوليد بن المغيرة وهو أكبرهم سنّاً ، وأبو جميل ابن هشام ، وأُبي وأُميّة ابنا خلف ، وعمر بن وهب بن خلف ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وعبد الله بن أُميّة والعاص بن وائل ، والحرث بن قيس ، وعدي بن قيس ، والنضر بن الحرث ، وأبو البحتري بن هشام ، وقرط بن عمرو ، وعامر بن خالد ، ومحرمة بن نوفل ، وزمعة بن الأسود ، ومطعم بن عدي ، والأخنس بن سريق ، وحويطب ابن عبد العزى ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، والوليد بن عتبة ، وهشام بن عمر بن ربيعة ، وسهيل بن عمرو ، فقال لهم الوليد بن المغيرة : امشوا إلى أبي طالب . فأتوا أبا طالب فقالوا له : أنت شيخنا وكبيرنا ، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، وإنّا أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك . " فأرسل أبو طالب إلى النبيّ صلى الله

عليه وسلم فدعاه فقال له : يا بن أخ هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل على قومك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وماذا يسألوني ؟ " فقال : يقولون ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وآلهك .

فقال النبي (عليه السلام) : " أتعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟ " فقال أبو جهل : لله أبوك لنعطينكها وعشر أمثالها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قولوا لا إله إلاّ الله " . "

فنفروا من ذلك وقاموا وقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً ﴾ كيف يسع الخلق كلهم إله واحد .

﴿ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ أي عجيب .

قال مقاتل : بلغة أزد شنوه .

قال أهل اللغة : العجيب والعجاب واحد كقولك كريم وكرام وكبير ووكبار وطويل وطوال وعريض وعراض وسكين حديد وحداد .

أنشد الفراء :

كحلقة من أبي رماح . . . تسمعها لاهة الكبار

وقال آخر :

نحن أجدنا دونها الضرابا . . . إنّا وجدنا ماءها طيابا

(142/661)

يريد طيباً .

وقال عباس بن مرداس : تعدوا به سلميةٌ سُراعه . أي سريعة .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وعيسى بن عمر : عجّاب بالتشديد . وهو المفرط في العجب .

فأنشد الفراء :

آثرت إدلاجي على ليل جرّة . . . هضيم الحشا حسانة المتجرد

وأنشد أبو حاتم :

جاءوا بصيد عجّب من العجب . . . أُزيرق العينين طوال الذنب

﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا ﴾ يعني إلى أبي طالب فأشكوا إليه ابن أخيه ﴿ وَاصْبِرُواْ ﴾ واثبتوا ﴿ على آلِهَتِكُمْ ﴾ نظيرها في الفرقان ﴿ لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ [الفرقان : 42] .

﴿ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ أي لأمر يُراد بنا ﴿ مَا سَمِعْنَا بهذا ﴾ الذي يقول محمّد ﴿ فِى الملة الآخرة ﴾ .

قال ابن عبّاس والقرظي والكلبي ومقاتل : يعنون النصرانية ، لأن النصارى تجعل مع الله إلهاً .

وقال مجاهد وقتادة : يعنون ملة قريش ، ملة زماننا هذا .

﴿ إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق * أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ القرآن ﴿ مِن بَيْنِنَا ﴾ قال الله عزّ وجلّ : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ﴾ أيّ وحيي .

﴿ بَل لَّمَّا ﴾ أي لم ﴿ يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ ولو ذاقوه لما قالوا هذا القول .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ ﴾ نعمة ﴿ رَبِّكَ ﴾ يعني مفاتيح النبوة ، نظيرها في الزخرف ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : 32] أي نبوة ربك ﴿ العزيز الوهاب * أَمْ لَهُم مُّلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأسباب ﴾ أي فليصعدوا في الجبال إلى السماوات ، فليأتوا منها بالوحي إلى من يختارون ويشاؤن ، وهذا أمر توبيخ وتعجيز .

وقال الضحاك ومجاهد وقتادة : أراد بالأسباب : أبواب السماء وطرقها .

﴿ جُندٌ ﴾ أي هم جُند ﴿ مَّا هُنَالِكَ ﴾ أي هنالك و (ما) صلة ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ مغلوب ، ممنوع عن الصعود إلى السماء ﴿ مِّنَ الأحزاب ﴾ أي من جملة الأجناد .

وقال أكثر المفسرين : يعني أن هؤلاء الملأ الذين يقولون هذا القول ، جند مهزوم مقهور وأنت عليهم مظفر منصور .

قال قتادة : وعده الله عزّ وجلّ بمكة أنّه سيهزمهم ، فجاء تأويلها يوم بدر من الأحزاب ، أيّ كالقرون الماضية الذين قهروا وأهلكوا ، ثم قال معزّاً لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ﴾ قال ابن عبّاس : ذو البناء المحكم .

وقال القتيبي : والعرب تقول : هم في عز ثابت الأوتاد ، وملك ثابت الأوتاد .

يريدون أنّه دائم شديد ، وأصل هذا أن البيت من بيوتهم بأوتاده .

قال الأسود بن يعفر : في ظل ملك ثابت الأوتاد .

وقال الضحاك : ذو القوة والبطش .

وقال الحلبي ومقاتل : كان يعذب الناس بالأوتاد ، وكان إذا غضب على أحد مَدّهُ مستلقياً بين أربعة أوتاد كل رجل منه إلى سارية وكل يد منه إلى سارية ، فيتركه كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتّى يموت .

وقال مقاتل بن حيان : كان يمد الرجل مستلقياً على الأرض ثم يشده بالأوتاد .

وقال السدي : كان يمد الرجل ويشده بالأوتاد ويرسل عليه العقارب والحيّات .

وقال قتادة وعطاء : كانت له أوتاد وأرسال وملاعب يلعب عليها بين يديه .

﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أولئك الأحزاب * إِن كُلٌّ ﴾ ما كل منهم ﴿ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ فوجب عليهم ونزل بهم عذابي ﴿ وَمَا يَنظُرُ ﴾ ينتظر ﴿ هؤلاءآء ﴾ يعني كفار مكة ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ﴾ وهي نفخة القيامة .

وقد روي هذا التفسير مرفوعاً إلى النبي (عليه السلام) .

﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ .

قال ابن عبّاس وقتادة : من رجوع . الوالبي : يزداد . مجاهد : نظرة . الضحاك : مستوية .

وفيه لغتان : (فُواق) بضم الفاء وهي لغة تميم ، وقراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائي وخلف . و (فَواق) بالفتح وهي لغة قريش ، وقراءة سائر القرّاء واختيار أبي عبيد .

(144/661)

قال الكسائي : هما لغتان بمعنى واحد ، كما يقال حُمام المكوك وحُمامه ، وقصاص الشعر وقصاصه .

وفرّق الآخرون بينهما .

قال أبو عبيدة والمؤرخ : بالفتح بمعنى الراحة والإفاقة كالجواب من الإجابة ، ذهبا به إلى إفاقة المريض من علته ، و (الفُواق) بالضم ما بين الحلبتين ، وهو أن يحلب الناقة ثم تترك ساعة حتّى يجتمع اللبن فما بين الحلبتين فواق .

فاستعير في موضع الإنتظار مدة يسيرة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من رابط فواق ناقة في سبيل الله حرّم الله جسده على النار " .

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ .

قال سعيد بن جبير عن ابن عبّاس : يعني كتابنا .

وعنه أيضاً : القط الصحيفة التي أحصت كل شيء .

قال أبو العالية والكلبي : لمّا نزلت في الحاقة ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الحاقة : 19] ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ [الحاقة : 25] .

قالوا على جهة الاستهزاء : (عجّل لنا قطّنا) يعنون كتابنا عجلّه لنا في الدُّنيا .

قيل : يوم الحساب .

وقال الحسن وقتادة ومجاهد والسدي : يعني عقوبتنا وما كتب لنا من العذاب .

قال عطاء : قاله النظر بن الحرث ، وهو قوله : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] وهو الذي قال

الله سبحانه ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج : 1] قال عطاء : لقد نزلت فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عزّ وجلّ .

وقال سعيد بن جبير : يعنون حظنا ونصيبنا من الجنّة التي تقول .

قال الفراء : القَطّ في كلام العرب الحظ ، ومنه قيل للصك قطّ .

وقال أبو عبيدة والكسائي : القطّ الكتاب بالجوائة .

قال الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته . . . بغبطته يعطي القطوط ويأفق

(145/661)

يعني كتب الجوائز أيّ بفضل وبعلو ، يقال فرس أفق وناقة أفقه إذا كانا كريمين ، وفضّلا على غيرهما .

وقال مجاهد : قطّنا حسابنا ، ويقال لِكتاب الحساب : قطّ ، وأصل الكلمة من الكتابة .

فقال الله سبحانه لنبيه (عليه السلام) : ﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأيد ﴾ ذا القوة في العبادة ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ مطيع .

عن ابن عبّاس : رجّاع إلى التوبة .

عن الضحاك ، سعيد بن جبير : هو المسبّح بلغة الحبش .

أخبرني الحسين بن محمّد الدينوري قال : حدثنا الفضل بن الفضل الكندي قال : حدثنا أبو العبّاس عبد الله بن جعفر بن أحمد بن [فارس] ببغداد قال : حدثنا أحمد بن عبد الله بن القاسم قال : حدثنا عمرو بن حصين قال : حدثنا الحسين بن عمرو عن أبي بكر الهذلي عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الزرقة يمن وكان داود النبي (عليه السلام) أزرق " .

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ بتسبيحه .

قال ابن عبّاس : وكان يفهم تسبيح الحجر والشجر .

﴿ بالعشي والإشراق ﴾ .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا ابن شنبه قال : حدثنا الحسين بن يحيويه قال : حدثنا أبو أُميّة محمّد بن إبراهيم قال : حدثنا الحجاج بن نصير قال : حدثنا أبو بكر الهذلي عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عبّاس قال : كنت أمُرّ بهذه الآية لا أدري ما العشي والإشراق ، حتّى حدثتني أُم هاني بنت أبي طالب أن رسول الله (عليه السلام) دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ، ثم صلى الضحى وقال :

" يا أُم هاني هذه صلاة الإشراق " .

روى عطاء الخراساني عن ابن عبّاس قال : لم يزل في نفسي [من] صلاة الضحى شيء

حتّى طلبتها في القرآن فوجدتها في هذه الآية ﴿ يُسَبِّحْنَ بالعشي والإشراق ﴾ .

قال عكرمة : وكان ابن عبّاس لا يصلي صلاة الضحى ثم صلى بعدها .

(146/661)

وروي أن كعب الأحبار قال لابن عبّاس رضي الله عنه : إني لأجد في كتاب الله صلاة بعد طلوع الشمس .

فقال ابن عبّاس : أنا أوجدك ذلك في كتاب الله في قصة داود ﴿ يُسَبِّحْنَ بالعشي والإشراق ﴾ وليس الإشراق طلوع الشمس ، إنّما هو صفاؤها وضوؤها .

﴿ والطير ﴾ أيّ وسخّرنا له الطير ﴿ مَحْشُورَةً ﴾ مجموعة ﴿ كُلٌّ لَّهُ ﴾ أيّ لداود ﴿ أَوَّابٌ ﴾ مطيع ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أيّ قوّيناه .

وقرأ الحسن : وشدّدنا بتشديد الدال .

قال ابن عبّاس : كان أشد ملوك الأرض سلطاناً كان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل ، فذلك قوله ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ بالحرس .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمّد بن خالد بن الحسن قال : حدثنا داود بن سليمان قال : حدثنا عبد بن حميد قال : حدثنا محمّد بن الفضل قال : حدثنا داود بن أبي

الفرات عن عليّ بن أحمد عن عكرمة عن ابن عبّاس : أن رجلاً من بني إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم ، فاجتمعا عند داود النبي فقال المستعدي : ان هذا غصبني بقرتي .

فسأل داود الرجل عن ذلك فجحده ، وسأل الآخر البيّنة فلم يكن له بيّنة . قال لهما داود : قوما حتى أنظر في أمركما .

فقاما من عنده ، فأوحى الله سبحانه إلى داود (عليه السلام) في منامه : أن يقتل الرجل الذي استُعدي عليه .

فقال : هذه رؤيا ولست أعجل حتّى أتثبت .

فأوحى الله سبحانه إليه مرة أُخرى أن يقتله . فلم يفعل ، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه الثالثة : أن يقتله أو تأتيه العقوبة من الله ، فأرسل داود إلى الرجل فقال له : إن الله قد أوحى إليَّ أن أقتلك .

فقال له الرجل : تقتلني بغير بيّنة ولا ثبت فقال له داود : نعم ، والله لأُنفذن أمر الله فيك .

فلمّا عرف الرجل أنّه قاتله قال : لا تعجل حتّى أُخبرك أني والله ما أخذت بهذا الذنب ولكني كنت اغتلت والد هذا فقتلته ، فلذلك أُخذت .

(147/661)

فأمر به داود فقتل ، فاشتدت هيبته في بني إسرائيل عند ذلك لداود ، واشتد به ملكه فهو قوله سبحانه : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ .

﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكمة ﴾ يعني النبوة والاصابة في الأمور . وقال أبو العالية : العلم الذي لا تردّه العقول .

﴿ وَفَصْلَ الخطاب ﴾ قال ابن عبّاس : بيان الكلام .

وقال الحسن والكلبي وابن مسعود ومقاتل وأبو عبد الرحمن السلمي : يعني علم الحكم والبصر بالقضاء ، كأن لا يتتعتع في القضاء بين الناس ، وهي إحدى الروايات عن ابن عبّاس .

وقال علي بن أبي طالب : هو البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر .

وأخبرنا أبو حفص عمر بن أحمد بن محمّد بن عمر الجوري قال : أخبرنا أبو بكر بالويه بن محمّد بن بالويه المربتاني بها ، قال : حدثنا محمّد بن حفص الحوني قال : حدثنا نصر بن علي الخميصمي قال : أخبرنا أبو أحمد قال : اخبرنا شريك عن الأعمش عن أبي صالح عن كعب في قوله ﴿ وَفَصْلَ الخطاب ﴾ قال : الشهود والإيمان .

أنبأني عبد الله بن حامد قال : أخبرنا عبد الله بن محمّد قال : حدثنا محمّد بن يحيى قال : حدثنا وهب بن جرير قال : أخبرنا [شعبة] عن الحكم عن شريح في قوله ﴿ وَفَصْلَ

الخطاب ﴾ قال : الشهود والإيمان . وهو قول مجاهد وعطاء بن أبي رباح .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا عبد الله بن عبد الله بن أبي سمرة البغوي قال : حدثنا أحمد بن محمّد أبي شيبة قال : حدثنا إسحاق بن إبراهيم البغوي قال : حدثنا إسحاق بن يوسف الأزرق عن زكريا يعني ابن أبي زائدة عن [السبيعي] قال : سمعت زياداً يقول : ﴿ وَفَصْلَ الخطاب ﴾ الذي أُعطي داود ، أما بعد وهو أوّل من قالها .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم ﴾ الآية . اختلف العلماء بأخبار الأنبياء في سبب امتحان الله سبحانه نبيّه داود بما امتحنه به من الخطيئة .

(148/661)

فقال قوم : كان سبب ذلك أنه تمنى يوماً من الأيام على ربّه عزّ وجلّ منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) وسأله أن يمتحنه نحو الذي كان امتحنهم ، ويعطيه من الفضل نحو الذي كان أعطاهم .

وروى السدي والكلبي ومقاتل : عن أشياخهم دخل حديث بعضهم في بعض قالوا : كان داود قد قسّم الدهر ثلاثة أيام : يوماً يقضي فيه بين الناس ، ويوماً يخلوا فيه لعبادة ربّه ، ويوماً يخلوا فيه لنسائه وأشغاله . وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق

ويعقوب فقال : يارب أرى الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي .

فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : أنهم إبتلوا ببلاء مالم تبتلِ بشيء من ذلك فصبروا عليها . إبتلى إبراهيم بنمرود وبذبح ابنه ، وإبتلى إسحاق بالذبح وبذهاب بصره ، وإبتلى يعقوب بالحزن على يوسف . وأنك لم تبتلِ بشيء من ذلك .

فقال داود : ربِّ فإبتلني بمثل ما إبتليتهم وأعطني مثل ما أعطيتهم .

فأوحى الله سبحانه إليه : أنك مبتلى في شهر كذا في يوم كذا واحترس .

فلمّا كان ذلك اليوم الذي وعده الله تعالى ، دخل داود محرابه وأغلق بابه وجعل يصلي ويقرأ الزبور ، فبينا هو كذلك إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن ، فوقعت بين رجليه ، فمدَّ يده ليأخذها ويدفعها إلى ابن صغير له ، فلما أهوى إليها طارت غير بعيد ، من غير أن توئيسه من نفسها فامتد اليها ليأخذها فتنحت ، فتبعها فطارت حتّى وقعت في كوة ، فذهب ليأخذها فطارت من الكوة ، فنظر داود أين تقع ، فبعث إليها من يصيدها ، فأبصر امرأة في بستان على شط بركة لها تغتسل ، هذا قول الكلبي .

(149/661)

وقال السدي : رآها تغتسل على سطح لها ، فرأى امرأة من أجمل النساء خلقاً ، فتعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة وأبصرت ظله ، فنفضت شعرها فغطى بدنها ، فزاده ذلك إعجاباً بها فسأل عنها . فقيل : هي تشابع بنت شابع امرأة أوريا بن حنانا ، وزوجها في غزاة بالبلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود .

فكتب داود إلى ابن أخته أيوب صاحب بعث البلقاء : أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وقدّمه قبل التابوت وكان من قدّم على التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتّى يفتح الله سبحانه على يديه أو يستشهد ، فبعثه وقدّمه ففُتح له ، فكتب إلى داود بذلك ، فكتب إليه أيضاً : أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا . فبعثه ففُتح له ، فكتب إلى داود بذلك ، فكتب إليه أيضاً : أن ابعثه إلى عدو كذا أشدّ منه بأساً . فبعثه فقتل في المرة الثالثة ، فلمّا انقضت عدّة المرأة تزوجّها داود فهي أم سليمان .

وقال آخرون : سبب امتحانه أن نفسه حدثته أنّه يطيق قطع يوم بغير مقارفة .

وهو ما أخبرنا شعيب بن محمّد قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدثنا أحمد بن الأزهر قال : حدثنا روح بن عبادة قال : حدثنا سعيد عن مطر عن الحسن قال : إن داود جزّأ الدهر أربعة أجزاء : يوماً لنسائه ، ويوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء بين بني إسرائيل ، ويوماً لبني إسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه ويبكهم ويبكونه .

قال : فلما كان يوم بني إسرائيل ذكروا فقالوا : هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً ؟

فأضمر داود في نفسه أنه سيطبق ذلك ، فلماأ كان يوم عبادته غلق أبوابه وأمر أن لايدخل عليه أحد ، وأكبّ على قراءة التوراة ، فبينما هو يقرأ إذ حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن قد وقعت بين يديه ، فأهوى إليها ليأخذها ، فطارت فوقعت غير بعيد من غير أن توئيسه من نفسها ، فما زال يتبعها حتّى أشرف على امرأة تغتسل فأعجبه خلقها وحسنها ، فلمّا رأت ظله في الأرض جللت نفسها بشعرها ، فزاده ذلك بها إعجاباً ، وكان قد بعث زوجها على بعض جيوشه ، فكتب إليه أن أسر إلى مكان كذا وكذا مكاناً ، إذا سار إليه قُتل ولم يرجع ففعل فأصيب ، فخطبها داود فتزوجها .

وقال بعضهم : في سبب ذلك ما أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمّد قال : حدثنا مخلد ابن جعفر الباقرجي قال : حدثنا الحسين بن علوية قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثنا إسحاق قال : حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن قال : قال داود لبني إسرائيل حين ملك : والله لأعدلن بينكم ، فلم يستثن فابتلي به .

وقال أبو بكر محمّد بن عمر الوراق : كان سبب ذلك أن داود (عليه السلام) كان كثير العبادة فأعجب بعلمه فقال : هل في الأرض أحد يعمل عملي ؟

فأتاه جبرئيل فقال : ان الله عزّ وجلّ يقول : أعجبت بعبادتك والعُجب يأكل العبادة ، فإن أُعجبت ثانياً وكلتك إلى نفسك .

قال : يارب كلني إلى نفسي سنة .

قال إنها لكثيرة .

قال : فساعة .

قال : شأنك بها .

فوكل الأحراس ولبس الصوف ودخل المحراب ووضع الزبور بين يديه ، فبينا هو في نسكه وعبادته إذ وقع الطائر بين يديه وكان من أمر المرأة ما كان .

(151/661)

قالوا : فلمّا دخل داود بامرأة أوريا لم تلبث إلاّ يسيراً حتّى بعث الله سبحانه ملكين في صورة أنسيين فطلبا أن يدخلا عليه ، فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه ، فتسورا المحراب عليه ، فما شعر وهو يصلي إلاّ وهو بهما بين يديه جالسين ، فذلك قوله : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ وإنّما جعلوا جمع الفعل ، لأن الخصم اسم يصلح للواحد والجميع والإثنين والمذكر والمؤنث .

قال لبيد :

وخصم يعدون الدخول كأنهم . . . قروم غيارى كل أزهر مصعب

وقال آخر :

وخصم عضاب ينفضون لحاهم . . . كنفض البراذين العراب المخاليا

وإنّما جمع وهما إثنان ، لأن معنى الجمع ضم شيء إلى شيء فالإثنان فما فوقهما جماعة ، كقوله عزّ وجلّ ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : 4] .

﴿ إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودَ ﴾ قال الفراء : قد كرر إذ مرتين ، ويكون معناهما كالواحد ، كقولك : ضربتك إذ دخلت علي إذ اجترأت ، فالدخول هو الاجتراء ، ويجوز أن يجعل أحديهما على مذهب لما .

﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ حين همّا عليه محرابه بغير إذنه .

﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ ياداود ﴿ خَصْمَانِ ﴾ أي نحن خصمان ﴿ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ ولا تجز ، عن ابن عبّاس والضحاك .

وقال السدي : لاتسرف . المؤرخ : لاتفرط .

وقرأ أبو رجاء العطاردي : ولا تَشطُط بفتح التاء وضم الطاء الأولى ، والشطط والأشطاط مجاوزة الحد ، وأصل الكلمة من حدهم شطت الدار ، وأشطت إذا بعدت .

﴿ واهدنا إلى سَوَآءِ الصراط ﴾ أيّ وسط الطريق ، فإن قيل : كيف قال : إن هذا أخي

فأوجب الأخوة بين الملائكة ولا مناسبة بينهم ، لأنهم لا ينسلون .

في الجواب : أن معنى الآية : نحن لخصمين كما يقال وجهه : القمر حسناً ، أيّ كالقمر .

(152/661)

قال أحد الخصمين ﴿ إِنَّ هَذَآ أَخِي ﴾ على التمثيل لا على التحقيق ، على معنى كونهما على طريقة واحدة وجنس واحد ، كقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : 10] وقد قيل : إن المتسورين كانا أخوين من بني إسرائيل لأب وأم ، وإن أحدهما كان ملكاً والآخر لم يكن ملكاً ، فنبها داود على ما فعل .

﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ وهذا من أحسن التعريض ، حتّى كنّى بالنعاج عن النساء .

والعرب تفعل ذلك كثيراً توري عن النساء بالظباء والشاة والبقر وهو كثير وأبين في أشعارهم .

قال الحسن بن الفضل : هذا تعريض التنبيه والتفهيم ، لأنه لم يكن هناك نعاج ولا بغي ، وإنما هو كقول الناس ضرب زيد عمراً ، وظلم عمرو زيداً ، واشترى بكر داراً وما كان هناك ضرب ولا ظلم ولا شراء .

﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ . قال ابن عبّاس : أعطنيها .

ابن جبير عنه : تحوّل لي عنها .

مجاهد : أنزل لي عنها .

أبو العالية : ضمها إليَّ حتّى أكفلها .

ابن كيسان : اجعلها كفلي ، أي نصيبي .

﴿ وَعَزَّنِي ﴾ وغلبني ﴿ فِي الخطاب ﴾ .

قال الضحاك : إن تكلم كان أفصح مني ، وإن حارب كان أبطش مني .

وقرأ عبيد بن عمير : وعازني في الخطاب بالألف من المعاز وهي المغالبة .

فقال داود : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ فإن قيل : كيف جاز لداود أن يحكم وهو لم يسمع كلام الخصم الآخر ؟

قيل : معنى الآية أن أحدهما لمّا ادّعى على الآخر عرّف له صاحبه ، فعند اعترافه فصل القضية بقوله : (لقد ظلمك) فحذف الاعتراف ، لأن ظاهر الآية دال عليه ، كقول العرب : أمرتك بالتجارة فكسبت الأموال .

وقال الشاعر :

تقول ابنتي لما رأتني شاحباً . . . كأنك سعيد يحميك الطعام طبيب

تتابع أحداث تخر من إخوتي . . . فشيّبن رأسي والخطوب تشيب

﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطآء ﴾ الشركاء ﴿ ليبغي بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فليسوا كذلك ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ ودليل ماذكرنا من التأويل .

ما قاله السدي ، بإسناده : إن احدهما لما قال : ﴿ إِنَّ هَذَآ أَخِي ﴾ الآية فقال داود للآخر : ما تقول ؟ فقال إن لي تسعاً وتسعين نعجة ، ولأخي هذا نعجة واحدة ، وأنا أريد ان آخذها منه فأكمل نعاجي مائة . قال : وهو كاره .

قال : إذاً لاندعك وذلك ، وإن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا وهذا يعني طرف الأنف وأصله الجبهة .

فقال : ياداود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا ، حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلاّ امرأة واحدة ، فلم تزل به تعرضه للقتل حتّى قُتل وتزوجت امرأته .

قال : فنظر داود فلم ير أحداً ، فعرف ما قد وقع فيه ، فذلك قوله سبحانه : و ﴿ وَظَنَّ ﴾ وأيقن ﴿ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ ابتليناه .

قال سعيد بن جبير : إنما كانت فتنة داود النظر .

قلت : ولم يتعمد داود النظر إلى المرأة ، ولكنه أعاد النظر إليها فصارت عليه .

فهذه أقاويل السلف من أهل التفسير في قصة امتحان داود .

وقد روى عن الحرث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : من حدّث بحديث داود على ما روته القصاص معتقداً صحته جلدته حدّين لعظيم ما ارتكب وجليل ما احتقب من الوزر والإثم ، برمي من قد رفع الله سبحانه وتعالى محله ، وأبانه رحمة للعالمين وحجة للمهتدين .

فقال القائلون بتنزيه المرسلين في هذه القصة : إن ذنب داود لما كان أنه تمنى أن تكون له امرأة أوريا حلالاً له وحدث نفسه بذنب ، واتفق غزو أوريا وتقدمه في الحرب وهلاكه ، فلما بلغه قتله لم يجزع عليه ولم يتوجع له ، كما جزع على غيره من جنده إذا هلك ، ثم تزوج امرأته ، عاتبه الله سبحانه على ذلك ، لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله سبحانه وتعالى .

(154/661)

وقال بعضهم : كان ذنب داود أن أوريا كان قد خطب تلك المرأة ووطّن نفسه عليها ، فلما غاب في غزاته خطبها داود فزوجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا غماً شديداً ، فعاتبه الله تعالى على ذلك حيث لم تزل هذه الواحدة لخاطبها الأول ، وقد كانت عنده تسع

وتسعون امرأة .

وممّا يصدق ماذكرنا [ما] قيل عن المفسرين المتقدمين ، ما أخبرني عقيل بن محمّد بن أحمد الفقيه : أن المعافي بن زكريا القاضي ببغداد أحمد بن زكريا أخبره عن محمّد بن جرير قال : حدثني يونس بن عبد الأعلى قال : أخبرني ابن وهب قال : أخبرني ابن لهيعة عن أبي صخر عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك سمعه يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن داود النبيّ حين نظر إلى المرأة وأهم ، قطع على بني إسرائيل ، وأوصى صاحب البعث فقال : إذا حضر العدو فقرّب فلاناً بين يدي التابوت ، وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به من قدم بين يدي التابوت وكان التابوت لم يرجع حتّى يقتل أو ينهزم عنه الجيش ، فقتل زوج المرأة ونزل الملكان يقصان عليه قصته ، ففطن داود فسجد ، فمكث أربعين ليلة ساجداً حتّى نبت الزرع من دموعه وأكلت الأرضة من جبينه ، وهو يقول في سجوده : ربّ زلّ داود زلة أبعد ممّا بين المشرق والمغرب ، ربّ إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثاً في الخلوف من بعده .

فجاءه جبرئيل (عليه السلام) من بعد أربعين ليلة فقال : يا داود إن الله غفر لك الهمّ الذي هممت به .

فقال داود : عرفت أن الربّ قادر على أن يغفر لي الهمّ الذي هممت به ، وقد عرفت أن الله عدل لايميل ، فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة فقال : ربّ دمي الذي عند داود ؟

فقال جبرئيل : ما سألت ربك عن ذلك ، ولئن شئت لأفعلن .

قال : نعم .

(155/661)

فعرج جبرئيل وسجد داود فمكث ماشاء الله ثم نزل ، فقال : قد سألت الله تعالى يا داود عن الذي أرسلتني فيه فقال : قل لداود إن الله يجمعكما يوم القيامة فيقول له هِب [لي] دمك الذي عند داود . فيقول : هو لك يا رب . فيقول : فإن لك في الجنّة ما شئت وما اشتهيت عوضاً " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا الباقرجي قال : حدثنا الحسن بن علوية قال : حدثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدثنا إسحاق بن بشير قال : أخبرنا جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عبّاس قال : واخبرنا سعيد بن بشير وعصمة بن حداس القطعي ، عن قتادة عن الحسن وابن سمعان ، عمن يخبره عن كعب الأحبار قال : وأخبرني أبو الياس عن وهب بن منبه قالوا جميعاً : إن داود لما دخل عليه الملكان فقضى على نفسه ، فتحولا في صورتهما فعرجا وهما يقولان : قضى الرجل على نفسه . وعلم داود إنه عني به ، فخر ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلاّ لحاجة ولوقت صلاة مكتوبة ، ثم يعود ساجداً ثم

لايرفع رأسه إلاّ لحاجة لابدّ منها ، ثم يعود ويسجد تمام أربعين يوماً ، لايأكل ولايشرب وهو يبكي حتّى نبت [الزرع] حول رأسه وهو ينادي ربّه عزّ وجلّ ويسأله التوبة ، وكان يقول في سجوده :

(156/661)

سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلق بما يشاء ، سبحان خالق النور ، سبحان الحائل بين القلوب ، سبحان خالق النور ، إلهي خليت بيني وبين عدوي إبليس ، فلم أقم لفتنته إذ نزلت بي ، سبحان خالق النور ، إلهي تبكي الثكلى على ولدها إذا فقدته وداود يبكي على خطيئته ، سبحان خالق النور ، إلهي لم اتعظ بما وعظت به غيري ، سبحان خالق النور ، إلهي أنت خلقتني ، وكان في سابق علمك ما أنا إليه صائر ، سبحان خالق النور ، إلهي يُغسل الثوب فيذهب درنه ووسخه والخطيئة لازمة بي لا تذهب عني ، سبحان خالق النور ، إلهي أمرتني أن أكون لليتيم كالأب الرحيم وللأرملة كالزوج الرحيم فنسيت عهدك ، سبحان خالق النور ، إلهي الويل لداود إذا كشف عنه الغطاء فيقال : هذا داود الخاطىء ، سبحان خالق النور ، إلهي بأي عينين أنظر بهما إليك يوم القيامة ، وإنما ينظر الظالمون من طرف خفي ، إلهي بأي قدم أقوم بها أمامك يوم تزول أقدام الخاطئين ، سبحان

خالق النور ، إلهي ويل للخاطئين يوم القيامة من سوء الحساب ، سبحان خالق النور ، إلهي مضت النجوم وكنت أعرفها بأسمائها ، فتركتني والخطيئة لازمة بي ، سبحان خالق النور ، إلهي من أين تطلب المغفرة إلاّ من عند سيده ، سبحان خالق النور ، إلهي مطرت السماء ولم تمطر حولي ، سبحان خالق النور ، إلهي أعشبت الأرض ولم تعشب حولي بخطيئتي ، سبحان خالق النور ، إلهي أنا الذي لا أطيق حرّ شمسك فكيف أطيق حرّ نارك ، سبحان خالق النور ، إلهي أنا الذي لا أطيق صوت رعدك فكيف أطيق صوت جهنم ، سبحان خالق النور ، إلهي كيف يستتر الخاطئون بخطاياهم دونك وأنت شاهدهم حيث كانوا ، سبحان خالق النور ، إلهي قرح الجبين وجمدت العينان من مخافة الحريق على جسدي ، سبحان خالق النور ، إلهي الطير تسبّح لك بأصوات ضعاف تخافك وأنا العبد الخاطىء الذي لم ارع وصيتك ، سبحان خالق النور ، إلهي الويل لداود من الذنب العظيم الذي أصاب ، سبحان خالق النور ، إلهي

(157/661)

أنت المغيث وأنا المستغيث فمن يدعوا المستغيث إلاّ المغيث ، سبحان خالق النور ، إلهي قد تعلم سري وعلانيتي فاقبل عذري ، سبحان خالق النور .

اللهمّ إني أسألك إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، أن تعطيني سؤلي فإن إليك رغبتي ، سبحان خالق النور ، اللهم برحمتك اغفر لي ذنوبي ولا تباعدني من رحمتك لهواني ، سبحان خالق النور ، اللهمّ إني أعوذ بك من دعوة لا تستجاب وصلاة لا تُتَقَبَّل وذنب لا يغفر وعذر لا يقبل ، سبحان خالق النور ، إلهي أعوذ بنور وجهك الكريم من ذنوبي التي أوبقتني ، سبحان خالق النور ، فررت إليك بذنوبي وأعترف بخطيئتي ، فلا تجعلني من القانطين ولا تخزني يوم الدين ، سبحان خالق النور ، إلهي قرح الجبين وجمدت الدموع وتناثر الدود من ركبتي وخطيئتي الزم بي من جلدي ، سبحان خالق النور .

قال : فأتاه نداء : يا داود أجائع أنت فتطعم ، أظمآن أنت فتسقى ، أمظلوم أنت فتنصر ؟ ولم يجبه في ذكر خطيئته بشيء ، فصاح صيحة هاج ما حوله ثم نادى : يا رب الذنب الذنب الذي أصبته .

ونودي : يا داود ارفع رأسك فقد غفرت لك .

فلم يرفع رأسه حتّى جاء جبرئيل (عليه السلام) فرفعه .

قال وهب : إن داود (عليه السلام) أتاه نداء : أني قد غفرت لك .

قال : يا رب كيف وأنت لا تظلم أحداً .

قال : إذهب إلى قبر أوريا فناده وأنا أسمعه نداك فتحلل منه .

قال : فانطلق حتّى أتى قبره وقد لبس المسوح حتّى جلس عند قبره ثم نادى : يا أوريا .

فقال : لبيك من هذا الذي قطع عليَّ لذتي وايقظني ؟

قال : أنا داود .

قال : ما جاء بك يانبي الله ؟

قال : أسألك أن تجعلني في حل ممّا كان مني إليك

قال : وما كان منك إليَّ ؟

قال : عرضتك للقتل .

قال : عرضتني للجنّة وأنت في حلّ .

فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ألم تعلم أنّي حكم عدل لا أقضي بالتعنت والتغرير ، ألا أعلمته أنك قد تزوجت إمراته .

قال : فرجع إليه فناداه فأجابه .

فقال : من هذا الذي قطع عليَّ لذتي ؟

قال : أنا داود .

(158/661)

قال : يانبي الله أليس قد عفوت عنك ؟

قال : نعم ، ولكن إنما فعلت ذلك بك لمكان امرأتك وتزوجتها .

قال : فسكت فلم يجبه ، ودعاه فلم يجبه ، وعاوده فلم يجبه ، فقام عند قبره وجعل التراب على رأسه ثم نادى : الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يؤخذ برقبته فيدفع إلى المظلوم ، سبحان خالق النور ، الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النّار ، سبحان خالق النور ، الويل لداود ثم الويل الطويل له حين تقربه الزبانية مع الظالمين إلى النّار ، سبحان خالق النور .

قال : فأتاه نداء من السماء : يا داود قد غفرت لك ذنبك ورحمت بكاءك واستجبت دعاءك وأقلت عثرتك .

قال : يارب كيف لي أن تعفو عني وصاحبي لم يعف عني .

قال : ياداود أعطيه يوم القيامة مالم تر عيناه ولم تسمع أُذناه فأقول له : رضى عبدي ؟

فيقول : يارب من أين لي هذا ولم يبلغه عملي .

فأقول له : هذا عوض من عبدي داود فأستوهبك منه فيهبك لي .

قال : يا رب الآن قد عرفت أنك قد غفرت لي .

فذلك قوله سبحانه : ﴿ فاستغفر ربَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ يعني ذلك

الذنب ﴿ وَإِنَّ لَهُ ﴾ بعد المغفرة ﴿ عِندَنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ لزلفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ يعني حسنُ مرجع .

(159/661)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا مخلد بن جعفر قال : حدثنا الحسن بن علوية قال : حدثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدثنا إسحاق بن بشر قال : أخبرنا أبو الياس ومقاتل وأبو عبد الرحمن الجندي عن وهب بن منبه قال : إن داود لما تاب الله عزّ وجّل عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة ، لاترقأ له دمعة ليلاً ونهاراً ، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة ، فقسّم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام : فكان يوم للقضاء بين بني إسرائيل ، ويوم لنسائه ، ويوم يسيح في الفيافي وفي الجبال والساحل ، ويوم يخلوا في دار له فيها أربعة آلاف محراب ، فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه ويساعدونه على ذلك ، فإذا كان يوم سياحته ، يخرج في الفيا في فيرفع صوته بالمزامير ، فيبكي وتبكي معه الشجر والرمال والطير والوحوش حتّى تسيل من دموعهم مثل الأنهار ، ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته بالمزامير فيبكي وتبكي معه الحجارة والجبال والدواب والطير حتّى تسيل أودية من بكائهم ، ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته بالمزامير فيبكي وتبكي معه الحيتان ودواب

البحر والسباع وطير الماء ، فإذا أمسى رجع .

فإذا كان يوم نوحه على نفسه ، نادى مناديه : أن اليوم يوم نَوح داود على نفسه ، فليحضر من يساعده .

قال : فيدخل الدار التي فيها المحاريب فيبسط له ثلاث فرش من مسوح ، حشوها ليف فيجلس عليها وتجيء الرهبان أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وفي أيديهم العصي فيجلسون في تلك المحاريب ، ثم يرفع داود صوته بالبكاء والنوح على نفسه ، ويرفع الرهبان معه أصواتهم ، فلا يزال يبكي حتى يغرق الفراش من دموعه ، ويقع داود فيها مثل الفرخ يضطرب فيجيء ابنه سليمان فيحمله ، فيأخذ داود من تلك الدموع بكفيه ثم يمسح بها وجهه ويقول : يارب اغفر ما ترى ، فلو عدل بكاء داود ببكاء أهل الدُّنيا لعدله .

(160/661)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا ابن ماجَة قال : حدثنا الحسن بن أيوب قال : حدثنا عبد الله بن أبي زياد قال : حدثنا سيار عن جعفر قال : سمعت ثابتاً يقول : ما شرب داود شراباً بعد المغفرة إلاّ وهو ممزوج بدموع عينيه .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا ابن مالك قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال :

حدثنا أبي قال : حدثنا الوليد بن مسلم قال : حدثنا عثمان بن أبي العاتكة : أنه كان من دعاء داود :

سبحانك إلهي إذا ذكرت خطيئتي ، ضاقت عليَّ الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إليّ روحي ، إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووا إليّ خطيئتي ، فكلهم عليك يدلني .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك قال : حدثنا محمّد ابن موسى الحلواني قال : حدثنا مهنى بن يحيى الرملي قال : حدثنا الوليد بن مسلم قال : حدثنا الأوزاعي قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خَدّ الدموع في وجه داود (عليه السلام) خديد الماء في الأرض " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا ظفران بن الحسن بن جعفر بن هاشم قال : حدثنا أبو العباس أحمد بن موسى بن سليمان قال : حدثنا أبو حفص عمر بن محمّد النسائي قال : حدثني إبراهيم بن عبد الله عن ابن بشر بن محمّد بن أبان قال : حدثنا الحسن بن عبد الله القرشي قال : لما أصاب داود (عليه السلام) الخطيئة فزع إلى العباد ، فأتى راهباً في قلة جبل فناداه بصوت عال فلم يجبه ، فلما أكثر عليه الصوت قال الراهب : مَن هذا الذي يناديني ؟

قال : أنا داود نبي الله .

قال : صاحب القصور الحصينة والخيل المسوّمة والنساء والشهوات ، لئن نلت الجنّة بهذا

لأنت أنت .

فقال داود : فمن أنت ؟

قال : أنا راهب راغب مترقب .

قال : فمن أنيسك وجليسك ؟

قال : اصعد تره إن كنت تريد ذلك .

قال : فتخلل داود الجبل حتّى صار إلى القلة فإذا هو بميت مسجىً .

فقال له : هذا جليسك وهذا أنيسك ؟

قال : نعم .

قال : من هذا ؟

(161/661)

قال : تلك قصته مكتوب في لوح من نحاس عند رأسه .

قال : فقرأ الكتاب فإذا فيه : أنا فلان ابن فلان ملك الأملاك ، عشت ألف عام وبنيت ألف مدينة وهَزمت ألف عسكر وألف امرأة أحصنت وافتضضت ألف عذراء ، فبينا أنا في ملكي أتاني ملك الموت وأخرجني ممّا أنا فيه ، فهذا التراب فراشي والدود جيراني .

قال : فخرَّ داود مغشياً عليه .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا أحمد بن محمّد بن علي الهمداني قال : حدثنا عثمان بن نصر البغدادي قال : حدثنا محمّد بن عبد الرحمن بن غزوان قال : حدثنا الأشجعي عن الثوري عن عبيد الله بن عمر العمري عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كان الناس يعودون داود يظنون أن به مرضاً ، وما به مرض وما به إلاّ الحياء والخوف من الله سبحانه" .

وقال وهب : لما تاب الله تعالى على داود كان يبدأ إذا دعا [يستغفر] للخاطئين قبل نفسه .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا الباقرجي قال : حدثنا الحسن قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثنا إسحاق بن بشر قال : حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن قال : كان داود ساجداً من بعد الخطيئة لايجالس إلاّ الخاطئين ثم يقول : تعالوا إلى داود الخاطىء .

ولايشرب شراباً إلاّ مزجه بدموع عينيه ، وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعته ، فلا يزال يبكي حتّى يبتل بدموع عينيه ، وكان يذر عليه الملح والرماد فيأكل ويقول هذا أكل الخاطئين .

قال : وكان داود قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم النصف من الدهر ، فلما كان من

خطيئته ما كان ، صام الدهر كله وقام الليل كله .

وأخبرنا عن إسحاق قال : حدثنا مقاتل وأبو الياس قالا : حدثنا وهب بن منبه : أن داود لما تاب الله عليه قال : يارب غفرت لي ؟

قال : نعم .

قال : فكيف لي أن لا أنسى خطيئتي فأستغفر منها وللخطائين إلى يوم القيامة .

(162/661)

قال : فوسم الله عزّ وجلّ خطيئته في يده اليمنى ، فما رفع فيها طعاماً ولاشراباً إلاّ بكى إذا رآها ، وما كان خطيباً في الناس إلاّ بسط راحته فاستقبل الناس ، ليروا وسم خطيئته .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدثنا يوسف بن عبد الله بن ماهان قال : حدثنا موسى بن إسماعيل قال : حدثنا حماد عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الله الجدلي قال : مارفع داود رأسه بعد الخطيئة إلى السماء حتّى مات .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : حدثنا محمّد بن خالد قال : حدثنا داود بن سليمان قال : حدثنا عبد بن حميد قال : حدثنا أبو أسامة عن محمّد بن سليمان قال : حدثنا ثابت قال : كان داود إذا ذكر عقاب الله تخلعت أوصاله لايسدها إلاّ الأسر وإذا ذكر رحمته

تراجعت .

قال : وروى المسعودي عن يونس بن حباب وعلقمة بن مرثد قالا : لو أن دموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع داود أكثر حيث أصاب الخطيئة ، ولو أن دموع داود ودموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع آدم (عليه السلام) أكثر حيث أخرجه الله تعالى من الجنّة وأهبط إلى الأرض .

ويروى أن داود كان إذا قرأ الزبور بعد الخطيئة لايقف له الماء ولاتصغي إليه البهائم والوحوش والطيور كما كان قبلها ، ونقصت نعمته فقال : إلهي ماهذا ؟

فأوحى الله سبحانه : ياداود إن الخطيئة هي التي غيرّت صوتك وحالك .

فقال : إلهي أوليس قد غفرتها لي ؟

فقال : نعم قد غفرتها لك ، ولكن ارتفعت الحالة التي كانت بيني وبينك من الودّ والقربة ، فلن تدركها أبداً فذلك قوله : ﴿ فاستغفر ربَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ .

قال الحسين بن الفضل : سألني عبد الله بن طاهر وهو الوالي عن قوله سبحانه : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ هل يقال للراكع خرَّ ؟

قلت : لا .

قال : فما معنى الآية ؟

قلت : معناها فخرَّ بعد أن كان راكعاً ، أي سجد .

أخبرني الحسن بن محمّد بن الحسين قال : حدثنا هارون بن محمّد بن هارون العطار قال : حدثنا محمّد بن عبد العزي قال : حدثنا سليمان بن داود قال : حدثنا ابن أبي عدي ، عن حميد الطويل ، عن بكر بن عبد الله المزني ، عن أبي سعيد الخدري قال : رأيتني أكتب سورة ص والقرآن ذي الذكر ، فلما أتيت على هذه الآية ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فاستغفر رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ ، رأيت فيما يرى النائم كأنّ القلم خرّ ساجداً ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " تقول كما قال وتسجد كما سجد " فتلاها فسجدوا وأمرنا أن نسجد فيها .

وأخبرني الحسين بن محمّد قال : حدثنا صمد بن علي بن الحسن الصوفي قال : حدثنا أبو حفص بكر بن أحمد بن مقبل قال : حدثنا عمر بن علي الصيرفي قال : حدثنا اليمان بن نصر الكعبي قال : حدثنا عبد الله أبو سعد المدني قال : حدثني محمّد بن المنكدر عن محمّد بن عبد الرحمن بن عوف قال : حدثني أبو سعيد الخدري قال : " أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إني رأيت الليلة في منامي كأني تحت شجرة ،

والشجرة تقرأ ص ، فلما بلغت السجدة سجدت ، فسمعتها تقول في سجودها :

اللهم أكتب لي بها أجراً ، وحط عني بها وزراً ، وارزقني بها شكراً ، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود سجدته .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفسجدت أنت يا أبا سعيد ؟ " .

قلت : لا يا رسول الله .

قال : " أنت كنت أحق بالسجدة من الشجرة " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتّى بلغ السجدة فسجد ثم قال مثل ما قالت الشجرة " .

(164/661)

وأخبرني الحسين بن محمّد قال : حدثنا محمّد بن علي بن الحسن قال : حدثنا بكر بن أحمد بن مقبل قال : حدثنا نصر بن علي قال : حدثنا محمّد بن يزيد بن خنيس قال : حدثنا الحسن بن محمّد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال : قال لي ابن جريج : حدثنا حسن قال : حدثني جدّك عبيد الله بن أبي يزيد قال : حدثني ابن عبّاس قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني رأيت الليلة فيما يرى النائم كأني أُصلي خلف شجرة ، فرأيت كأني قرأت السجدة فسجدت فرأيت الشجرة كأنها سجدت ، فسمعتها

وهي ساجدة تقول :

اللّهم اكتب لي عندك بها أجراً ، واجعلها لي عندك ذخراً ، وضع عني بها وزراً ، واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود .

قال ابن عبّاس : فرأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ السجدة ثم سجد فسمعته وهو ساجد يقول مثل ما قال الرجل من كلام الشجرة ، قال الله سبحانه وتعالى فغفرنا له ذلك ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

روى أبو معشر عن محمّد بن كعب ومحمّد بن قيس أنهما قالا في قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

روى أبو معشر عن محمّد بن كعب قال : إن أول من يشرب الكأس يوم القيامة داود .

﴿ يا داوود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرض فاحكم بَيْنَ الناس بالحق وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله إِنَّ الذين يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الحساب ﴾ تركوا الأيمان بيوم الحساب ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السمآء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار * أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِي الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار * كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيدبروا ﴾ ليتدبروا ﴿ آيَاتِهِ ﴾ .

هذه قراءة العامة . وقرأ أبو جعفر وعاصم في رواية الأعشى والترجمني : (ليدبروا) بياء واحدة مفتوحة مخففة على الحذف .

قال الحسن : تُدبر آياته ، إتباعه .

﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ﴾

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العبد إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعشي ﴾ .

قال الكلبي : غزا سليمان (عليه السلام) أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهم ألف فرس .

وقال مقاتل : ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس وكان أبوه أصابها من العمالقة .

وقال عوف عن الحسن : بلغني أنها كانت خيلاً خرجت من البحر لها أجنحة .

قالوا : فصلى سليمان الصلاة الأولى وقعد على كرسيّه وهي تعرض عليه ، فعرضت عليه منها تسعمائة فتنبه لصلاة العصر ، فإذا الشمس قد غابت وفاتته الصلاة ولم يعلم بذلك بفتنته له ، واغتم لذلك فقال : ردوها عليَّ .

فردوها عليه فعرقبت وعقرت بالسيف ونحرها لله سبحانه ، وبقي منها مائة فرس ، فما في أيدي الناس اليوم من الخيل فهو من نسل تلك المائة .

قال الحسن : فلما عقر الخيل ، أبدله الله سبحانه مكانها خيراً منها وأسرع [من] الريح التي تجري بأمره كيف يشاء ، وكان يغدوا من إيليا فيقيل بقرير الأرض باصطخر ويروح من قرير

[بكابل] .

وقال ابن عبّاس : سألت علي بن أبي طالب عن هذه الآية فقال : ما بلغك في هذا يا ابن عبّاس ؟

فقلت له : سمعت كعب الأحبار يقول : إن سليمان اشتغل ذات يوم بعرض الأفراس والنظر اليها حتّى توارت الشمس بالحجاب .

فقال لما فاتته الصلاة : ﴿ إِنِي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِّي حتى تَوَارَتْ بالحجاب * رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ يعني الأفراس وكانت أربعة وعشرون ، ويقول : أربعة عشر ، فردوها عليه فأمر بضرب سوقها وأعناقها بالسيف فقتلها ، وأن الله سلبه ملكه أربعة عشر يوماً ، لأنه ظلم الخيل بقتلها .

(166/661)

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كذب كعب الأحبار ، لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس ذات يوم ، لأنه أراد جهاد عدو حتّى توارت الشمس بالحجاب ، فقال بأمر الله للملائكة الموطنين بالشمس : ردّوها عليَّ . يعني الشمس ، فردوها عليه حتّى صلى العصر في وقتها .

فإن أنبياء الله لايظلمون ولايأمرون بالظلم ولايرضون بالظلم ، لأنهم معصومون مطهّرون ، فذلك قوله سبحانه : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعشي الصافنات ﴾ وهي الخيل القائمة على ثلاث قوائم ، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل .

قال عمر بن كلثوم : تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا .

وقال القتيبي : الصافن في كلام العرب الواقف من الخيل وغيرها .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من سرّه أن يقوم له الرجال صفونا فليتبؤا مقعده من النار " أي وقوفاً ﴿ الجياد ﴾ الخيار السراع واحدها جواد ﴿ فَقَالَ إِنِي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير ﴾ يعني الخيل ، والعرب تعاقب بين الراء واللام فيقول : انهملت العين وانهمرت ، وختلت الرجل وخترته أي خدعته .

وقال مقاتل : ﴿ حُبَّ الخير ﴾ يعني المال وهي الخيل التي عرضت عليه ﴿ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ يعني الصلاة ، نظيرها

﴿ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله ﴾ [النور : 37] ، ﴿ حتى تَوَارَتْ ﴾ يعني الشمس ، كناية عن غير مذكور .

كقول لبيد :

حتّى إذا ألقت يداً في كافر . . . يعني الشمس ﴿ بالحجاب ﴾ وهو جبل دون قاف بمسيرة سنة ، تغرب الشمس من ورائها .

﴿ رُدُّوهَا ﴾ كرّوها ﴿ عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والأعناق ﴾ أي فأقبل يمسح سوقها وأعناقها بالسيف ، وينحرها تقرباً بها إلى الله سبحانه وطلباً لرضاه ، حيث اشتغل بها عن طاعته ، وكان ذلك قرباناً منه ومباحاً له ، كما أُبيح لنا ذبح بهيمة الأنعام .

وقال قوم : معناه حبسها في سبيل الله ، وكوى سوقها وأعناقها بكيّ الصدقة .

(167/661)

ويقال للكيّة على الساق : علاظ ، وللكيّة على العنق : دهاو .

وقال الزهري وابن كيسان : كان يمسح سوقها وأعناقها ، ويكشف الغبار عنها حباً لها .

وهي رواية ابن أبي طلحة عن ابن عبّاس .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ هذه قصة محنة نبي الله سليمان وسبب زوال ملكه مدة ، واختلفوا في سبب ذلك .

فروى محمّد بن إسحاق عن بعض العلماء قال : قال وهب بن منبه : سمع سليمان بمدينة في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون ، بها ملك عظيم الشأن لم يكن للناس إليه سبيل لمكانه في البحر ، وكان الله قد أتى سليمان في ملكه سلطاناً لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر ، إنما يركب إليه [إذا ركب على] الريح ، فخرج إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر

الماء حتى نزل بها بجنوده من الجنّ والإنس ، فقتل ملكها واستقام فيها وأصاب فيما أصاب بنتاً لذلك الملك يقال لها : جرادة ، لم يرَ مثلها حسناً وجمالاً ، واصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام ، فأسلمت على جفاء منها وقلة ثقة ، وأحبها حباً لم يحبه شيئاً من نسائه ، وكانت على منزلتها عنده ، لايذهب حزنها ولايرقأ دمعها ، فشق ذلك على سليمان فقال لها : ويحك ما هذا الحزن الذي لا يذهب والدمع الذي لايرقأ ؟

قالت : إن أبي أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصابه فيحزنني ذلك .

فقال سليمان : فقد أبدلك الله به ملكاً هو أعظم من ملكه ، وسلطاناً أعظم من سلطانه ، وهداك للإسلام وهو خير من ذلك كله .

قالت : إن ذلك لكذلك ، ولكنني إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن ، فلو أنك أمرت الشياطين فصوّروا صورته في داري التي أنا فيها أراها بكرة وعشياً ، لرجوت أن يُذهب ذلك حزني ، وأن يسلّى عني بعض ما أجد في نفسي .

فأمر سليمان الشياطين فقال : مثّلوا لها صورة أبيها في دارها حتّى لاتنكر منه شيئاً .

(168/661)

فمثّلوا لها حتّى نظرت إلى أبيها بعينه ، إلاّ أنّه لا روح فيه ، فعمدت إليه حين صنعوه فأزّرته وقمّصته وعمّمته ، وردّته بمثل ثيابه التي كان يلبس ، ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدوا عليه في ولائدها حتّى تسجد له ويسجدن معها كما كانت تصنع به في ملكه ، وتروح كل عشية بمثل ذلك ، وسليمان لايعلم بشيء من ذلك أربعين صباحاً وبلغ ذلك آصف بن برخيا ، وكان صدّيقاً وكان لايرد عن باب سليمان أيّ ساعة أراد دخول شيء من بيوته ، حاضراً كان [سليمان] أو غائباً ، فأتاه فقال : يانبي الله كبرت سني ، ودق عظمي ، ونفد عمري ، وقد حان مني الذهاب ، وقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت ، أذكر فيه من مضى من أنبياء الله ، وأثني عليهم بعلمي فيهم ، وأُعلم الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمورهم .

فقال : إفعل .

فجمع له سليمان الناس ، فقام فيهم خطيباً ، فذكر من مضى من أنبياء الله ، فأثنى على كل نبي بما فيه وذكر ما فضّله الله به ، حتّى انتهى إلى سليمان فقال : ما كان أحلمك في صغرك ، وأورعك في صغرك ، وأفضلك في صغرك ، وأحكم أمرك في صغرك ، أبعدك من كل ما يكره في صغرك ، ثم انصرف .

فوجد سليمان في نفسه من ذلك حتّى ملأه غضباً ، فلما دخل سليمان داره أرسل إليه فقال : يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله ، وأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم وعلى

كل حال من أمرهم ، فلما ذكرتني جعلت تثني عليَّ بخير في صغري ، وسكت عمّا سوى ذلك من أمري في كبري فما الذي أحدثت في آخر عمري ؟

قال : إن غير الله ليعبد في دارك منذ أربعين صباحاً في هوى امرأة .

فقال : في داري ؟

فقال : في دارك .

قال : إنّا لله وإنا إليه راجعون ، لقد علمت أنك ما قلت الذي قلت إلاّ عن شيء بلغك .

(169/661)

ثم رجع سليمان إلى داره فكسّر ذلك الصنم ، وعاقب تلك المرأة وولائدها ، ثم أمر بثياب الطهرة فأتى بها وهي ثياب لا يغزلها إلاّ الأبكار ولم تمسها امرأة رأت الدم فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده ، وأمر برماد ففرش له ، ثم أقبل تائباً إلى الله عزّ وجلّ حتّى جلس على ذلك الرماد وتمعك فيه بثيابه تذللاً لله سبحانه وتضرعاً إليه ، يبكي ويدعو ويستغفر ممّا كان في داره ويقول فيما يقول :

رب ماذا ببلائك عند آل داود أن يعبدوا غيرك وأن يقرّوا في دورهم وأهاليهم عبادة غيرك .

فلم يزل كذلك يومه ذلك حتى أمسى ، ثم يرجع إلى داره ، وكانت أم ولد له يقال لها : الأمينة ، كان إذا دخل مذهبه أو أراد إصابه امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتّى يتطهر ، وكان لايلبس خاتمة إلاّ وهو طاهر ، وكان ملكه في خاتمه ، فوضعه يوماً من تلك الأيام عندها كما كان يضعه ثم دخل مذهبه ، فأتاها الشيطان صاحب البحر وكان إسمه : صخر ، على صورة سليمان لاينكر منه شيئاً .

فقال : يا أمينة خاتمي .

فناولته إياه فجعله في يده ثم خرج حتّى جلس على سرير سليمان ، وعكفت عليه الطير والجن والانس ، وخرج سليمان فأتى الأمينة ، وقد غيرت حاله وهيبته عند كل من رأى

فقال : يا أمينة خاتمي .

فقالت : ومن أنت ؟

قال : أنا سليمان بن داود .

فقالت : كذبت لست بسليمان وقد جاء سليمان وأخذ خاتمه وهو جالس على سريره في ملكه .

عرف سليمان أن خطيئته قد أدركته ، فخرج فجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل فيقول : أنا سليمان بن داود . فيحثون عليه التراب ويسبونه ويقولون : انظروا إلى هذا المجنون أي شيء يقول يزعم أنه سليمان بن داود .

فلما رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر إلى السوق ، فيعطونه كل يوم سمكتين فإذا امسى باع إحدى سمكتيه بأرغفة وشوى الأُخرى فأكلها ، فمكث بذلك أربعين صباحاً ، عدة ما كان عُبِدَ ذلك الوثن في داره ، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم عدو الله الشيطان في تلك الأربعين اليوم .

فقال آصف : يا معشر بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيت ؟

قالوا : نعم .

قال : أمهلوني حتّى أدخل على نسائه فأسألهن : هل أنكرن منه في خاصة أمره ، ما أنكرناه في عامة أمر الناس وعلانيته ؟

فدخل على نسائه فقال : ويحكن هل أنكرتن من أمر ابن داود ما أنكرناه

فقلن : أشدّه مايدع امرأة منّا في دمها ، ولايغتسل من جنابة .

فقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون إن هذا لهو البلاء المبين .

ثم خرج إلى بني إسرائيل فقال : مافي الخاصة أعظم ممّا في العامة . فلما قضى أربعون صباحاً طار الشيطان عن مجلسه ، ثم مرَّ بالبحر فقذف الخاتم فيه ، فبلعته سمكة

وأخذها بعض الصيادين ، وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك حتّى إذا كان العشي أعطاه سمكته وأعطى السمكة التي أخذت الخاتم ، وخرج سليمان بسمكتيه فباع التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة ، ثم عمد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها ، فاستقبله خاتمه في جوفها فأخذه فجعله في يده ، ووقع ساجداً وعكفت عليه الطير والجنّ وأقبل عليه الناس ، وعرف الذي كان دخل عليه لما كان أحدث في داره ، فرجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه وأمر الشياطين فقال : ائتوني بصخر . فطلبته له الشياطين حتّى أُخذ له فأتى به فجاءت له صخرة ، فأدخله فيها ثم شد عليه أخرى ثم أوثقها بالرصاص والحديد ، ثم أمر به فقذف في البحر .

فهذا حديث وهب بن منبه .

(171/661)

قال السديّ في سبب ذلك : كان لسليمان (عليه السلام) مائة امرأة ، وكانت امرأة منهُنّ يقال لها : جرادة ، وهي أبرّ نسائه وآمنهن عنده ، فكان إذا أحدث أو أتى حاجة ، نزع خاتمه ولم يأتمن عليه أحداً من الناس غيرها ، فجاءته يوماً من الأيام فقالت له : إن أخي بينه وبين فلان خصومة ، وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك .

فقال : نعم . ولم يفعل ، فابتلي بقوله وأعطاها خاتمه ودخل المخرج فخرج الشيطان في صورته ، فقال لها : هات الخاتم .

فأعطته ، فجاء حتّى جلس على مجلس سليمان ، وخرج سليمان بعده فسألها أن تعطيه خاتمه .

فقالت : ألم تأخذه قبل ؟

قال : لا . وخرج من مكانه تائهاً ، ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً .

قال : فأنكر الناس حكمه ، فاجتمع قرّاء بني إسرائيل وعلمائهم ، فجاؤا حتّى دخلوا على نسائه ، فقالوا : إنّا قد أنكرنا هذا ، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله ، وأنكرنا أحكامه ، فبكى النساء عند ذلك قال : فأقبلوا يمشون حتّى أتوه فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرأوها ، فلما قرأوا التوراة طار من بين أيديهم حتّى وقع على شرفة والخاتم معه ، ثم طار حتّى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعته حوت .

قال : فأقبل سليمان في حاله التي كان فيها ، حتّى انتهى إلى صياد من صيادي البحر وهو جائع وقد إشتد جوعه ، فاستطعمه من صيدهم ، وقال : إني أنا سليمان .

فقام إليه بعضهم فضربه بعصاً فشجه .

قال : فجعل يغسل دمه وهو على شاطىء البحر ، فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه ، وقالوا : بئس ما صنعت حين ضربته .

فقال : إنه زعم أنه سليمان . فأعطوه سمكتين ممّا قد مذر عندهم ، فلم يشغله ما كان به من الضرب ، حتّى قام إلى شط البحر فشق بطونهما وجعل يغسلهما ، فوجد خاتمه في بطن أحديهما فأخذه فلبسه ، فردَّ الله عليه ملكه وبهاءه ، وجاءت الطير حتّى حامت عليه ، فعرف القوم أنه سليمان ، فقاموا يعتذرون مما صنعوا .

(172/661)

فقال : ما أحمدكم على عذركم ولا ألومكم على ما كان منكم هذا أمر كان لابدّ منه .

ثم جاء حتّى أُتي ملكه وأمر حتّى أتى بالشيطان الذي أخذ خاتمه ، وجعله في صندوق من حديد ثم أطبق عليه ، وأقفل عليه بقفل وختم عليه بخاتمه ثم أمره فألقي في البحر ، وهو كذلك حيٌّ حتّى الساعة .

وفي بعض الروايات : أن سليمان لما افتتن ، سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه ، فأخذه سليمان فأعاده إلى يده فسقط من يده ، فلما رآه سليمان لايثبت في يده أيقن بالفتنة ، وأن آصف قال لسليمان : إنك مفتون بذنبك والخاتم لايتماسك في يدك أربعة عشر يوماً .

ففرّ إلى الله تائباً من ذنبك ، وأنا أقوم مقامك وأسير في عالمك وأهل بيوتك بسيرتك ، إلى أن يتوب الله عليك ويردك إلى ملكك .

ففرّ سليمان هارباً إلى ربّه ، وأخذ أصف الخاتم فوضعه في يده فثبت ، وأن الجسد الذي قال الله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ كان هو أصف كاتباً لسليمان ، وكان عنده علم من الكتاب ، فأقام أصف في ملك سليمان وعالمه يسير بسيرته ويعمل بعمله أربعة عشر يوماً ، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائباً إلى الله سبحانه وردَّ الله عليه ملكه ، فقام أصف من مجلسه وجلس سليمان على كرسيه ، وأعاد الخاتم في يده فثبت فيها .

وأخبرنا شعيب بن محمّد قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : أخبرنا أحمد بن الأزهر قال : حدثنا روح بن عبادة قال : حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب : أن سليمان بن داود احتجب عن الناس ثلاثة أيام ، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : أن يا سليمان احتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر في أمور عبادي ، ولم تنصف مظلوماً من ظالم . وذكر حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه كما رويناه .

وقال في آخره : قال علي : فذكرت ذلك للحسن فقال : ما كان الله عزّ وجلّ يسلطه على نسائه .

(173/661)

وقال بعض المفسرين : كان سبب فتنة سليمان أنه أُمر أن لايتزوج امرأة [إلاّ] من بني إسرائيل ، فتزوج امرأة من غيرهم فعوقب على ذلك .

وقيل : ان سليمان لما أصاب ابنة ملك صيدون أعجب بها ، فعرض عليها الإسلام فأبت وامتنعت فخوّفها سليمان .

فقالت : إن أكرهتني على الإسلام قتلت نفسي .

فخاف سليمان أن تقتل نفسها ، فتزوج بها وهي مشركة ، وكانت تعبد صنماً لها من ياقوت أربعين يوماً في خفية من سليمان إلى أن أسلمت ، فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوماً .

وقال الشعبي في سبب ذلك : ولد لسليمان ابن ، فاجتمعت الشياطين وقال بعضهم لبعض : إن عاش له ولد لم ننفك مما نحن فيه من البلاء والسحرة ، فسبيلنا أن نقتل ولده أو نحيله .

فعلم سليمان بذلك فأمر السحاب حتّى حملته الريح وغدا ابنه في السحاب خوفاً من معرة الشيطان ، فعاقبه الله لخوفه من الشيطان ، ومات الولد فأُلقى ميتاً على كرسيّه ، فهو الجسد الذي قال الله سبحانه : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ .

وقيل : هو ان سليمان قال يوماً : لأطوفن الليلة على نسائي كلهن ، حتّى يولد لي من كل واحدة منهن ابن فيجاهد في سبيل الله . ولم يستثن ، فجامعهن كلهن في ليلة واحدة ، فما خرج له منهن إلاّ شق مولود ، فجاءت به القابلة والقته على كرسي سليمان .

فذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ وهو ما أخبرنا عبد الله بن حامد عن آخرين قالوا : حدثنا ابن الشرقي ، قال : حدثنا محمّد بن عقيل وأحمد بن حفص قالا : حدثنا حفص قال : حدثني إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة ، قال : اخبرني أبو الزناد عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة

(174/661)

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال سليمان بن داود لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة ، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله . فقال له صاحبه : قل إن شاء الله . فلم يقل : إن شاء الله . فطاف عليهن فلم تحمل منهن إلاّ امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذي نفس محمّد بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون " فذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ .

قال مقاتل : فُتِن سليمان بعد ملك عشرين سنة ، وملك بعد الفتنة عشرين سنة .

﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ أيّ شيطاناً ، عن أكثر المفسرين .

واختلفوا في اسمه ، فقال مقاتل وقتادة : اسمه صخر بن عمر بن عمرو بن شرحبيل وهو الذي دل سليمان على الألماس حين أُمر ببناء بَيْت المقدس وقيل له : لايسمعن فيه صوت

حديد ، فأخذوا الألماس فجعلوا يقطعون به الحجارة والجواهر ولا تصوت ، وكان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء والحمام لم يدخل بخاتمه ، فدخل الحمام وذكر القصة في أخذ الشيطان الخاتم .

قال : وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب في القوة فقال : أما والله لأُجربنّه ، فقال : يانبي الله وهو لا يرى أنه نبي الله أرأيت أحدنا تصيبه الجنابة في الليلة الباردة فيدع الغسل عمداً حتّى تطلع الشمس ، أترى عليه بأساً ؟ قال : لا . فرخص له في ذلك ، وذكر الحديث .

وروى أبو إسحاق عن عمارة بن عبد عن عليح قال : بينما سليمان جالس على شاطىء البحر وهو يلعب بخاتمه ، إذ سقط في البحر وكان ملكه في خاتمه .

وروى حماد بن سلمة عن عمر بن دينار عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كان نقش خاتم سليمان بن داود لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله" .

رجع إلى حديث علي قال : فانطلق سليمان وخلّف شيطاناً في أهله وأتى عجوزاً فآوى إليها فقالت له العجوز : أن شئت ان تنطلق فاطلب فأكفيك عمل البيت وإن شئت أن تكفيني البيت وانطلق والتمس .

قال : فانطلق يلتمس ، فأتى قوم يصيدون السمك فجلس إليهم فنبذوا إليه سمكات ، فانطلق بهن حتّى أتى العجوزة ، فأخذت تصلحه فشقت بطن سمكة ، فإذا فيها الخاتم فأخذته وقالت لسليمان : ما هذا ؟

فأخذه سليمان فلبسه ، فأقبلت الشياطين والجنّ والإنس والطير والوحوش ، وهرب الشيطان الذي خلّف في أهله ، فأتى جزيرة في البحر فبعث إليه الشياطين فقالوا : لانقدر عليه ، ولكنه يرد علينا في الجزيرة في كل سبعة أيام يوماً ، لانقدر عليه حتّى يسكر .

قال : فنزح ماءها وجعل فيها خمراً . قال : فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر فقال : والله إنك لشراب طيب إلاّ أنك تصبين الحليم وتزيدين الجاهل جهلاً .

ثم رجع حتّى عطش عطشاً شديداً ثم أتاها فقال : إنك لشراب طيب إلاّ أنك تصبين الحليم وتزيدين الجاهل جهلاً .

قال : ثم شربها حتّى غلبته على عقله ، ثم أروه الخاتم فقال : سمع وطاعة .

قال : فأتى به سليمان فأوثقه ثم بعث به إلى جبل ، فذكروا أنه جبل الدخان الذي يرون من نفسه ، والماء الذي يخرج من الجبل هو بوله .

وقال السدي : اسم ذلك الشيطان اسمذي وقيل خبفيق .

وقال مجاهد : اسمه آصف .

أخبرنا أبو صالح بن أبي الحسن البيهقي الفقيه قال : أخبرنا أبو حاتم التميمي قال : حدثنا أبو الأزهر العبدي قال : حدثنا روح بن عبادة قال : حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ قال : شيطاناً يقال له : آصف . قال له سليمان : كيف تفتنون الناس ؟

قال : أرني خاتمك أخبرك . فلما أعطاه نبذه آصف في البحر ، فساح سليمان فذهب ملكه وقعد آصف على كرسيّه ومنعه الله سبحانه نساء سليمان فلم يقربهن ، وأنكر الناس أمر سليمان ، وكان سليمان يستطعم فيقول : اتعرفونني ؟ أنا سليمان فيكذبونه حتّى أعطته امرأة يوماً حوتاً فبطّ بطنه ، فوجد خاتمه في بطنه فرجع إليه ملكه وفرّ آصف فدخل البحر . وقيل : إن الجسد هو آصف ابن برخيا الصدّيق ، وقد مضت القصة .

(176/661)

وقيل : هو الولد الميت الذي غدا في السحاب .

وقيل : هو الولد الناقص الخلق .

وقيل : معنى قوله : ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ أن سليمان ضرب بعلّة أشرف منها على الموت ، حتّى صار جسداً في المثل بلا روح ، وقد وصف المريض المضني بهذه

الصفة ، فيقال كالجسد المُلقى ولم يبق منه إلاّ جسده وتقدير الآية ﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ .

وأما صفة كرسي سليمان

فرويّ ان سليمان لما ملك بعد أبيه ، أمر باتخاذ كرسي ليجلس عليه للقضاء ، وأمر بأن يعمل بديعاً مهولاً ، بحيث إن لو رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وتهيّب .

قال : فعمل له كرسي من أنياب الفيل ، وفصصوه بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد وأنواع الجواهر ، وحففوه بأربع نخلات من ذهب شماريخها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ، على رأس نخلتين منها طاووسان من ذهب وعلى رأس الآخرين نسران من ذهب بعضها مقابل لبعض ، وقد جعلوا من جنبتي الكرسي أسدين من الذهب ، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر ، وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر ، واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر ، بحيث أظل عريش الكروم النخل والكرسي .

(177/661)

قال : وكان سليمان إذا أراد صعوده وضع قدميه على الدرجة السفلى ، فيستدير الكرسي كله بما فيه دوران الرحى المسرعة ، وتنشر تلك النسور والطواويس أجنحتها

ويبسط الأسدان أيديهما فيضربان الأرض بأذنابهما ، وكذلك يفعل في كل درجة يصعدها سليمان ، فإذا إستوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعاه على رأس سليمان ، ثم يستدير الكرسي بما فيه ويدور معه النسران والطاووسان والأسدان مائلات برؤسها إلى سليمان ينضحن عليه من أجوافها المسك والعنبر ثم تناولت حمامة من ذهب قائمة على عمود من جوهر من أعمدة الكرسي التوراة ، فيفتحها سليمان ويقرأها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء ، ويجلس عظماء بني إسرائيل على كراسي الذهب المفصصة وهي ألف كرسي عن يمينه ، ويجيء عظماء الجنّ ويجلسون على كراسي من الفضة عن يساره وهي ألف كرسي حافين جميعاً ، به ثم تحف بهم الطير تظلهم ، ويتقدم إليه الناس للقضاء ، فإذا دعى بالبينات وتقدمت الشهود لإقامة الشهادات ، دار الكرسي بما فيه من جميع ما حوله دوران الرحى المسرعة ، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض باذنابهما وينشر النسران والطاووسان أجنحتهما ، فيفزع منه الشهود ويدخلهم من ذلك رعب شديد ، فلا يشهدون إلاّ بالحق .

﴿ قَالَ رَبِّ اغفرلِي ﴾ ذنبي ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ ﴾ .

وقال ابن كيسان : أي لايكون لأحد .

﴿ مِّن بعدي إِنَّكَ أَنتَ الوهاب ﴾ المعطي .

قال عطاء بن أبي رباح : يريد هب لي ملكاً لا أُسلبه في باقي عمري كما سلبته في ماضي

عمري .

وقال مقاتل بن حيان : كان سليمان ملكاً ولكنه أراد بقوله ﴿ لاينبغي لأحد من بعدي ﴾ تسخير الرياح والطير ، يدل عليه ما بعده .

وقيل : إنما سأل ذلك ليكون آية لنبوته ودلالاً على رسالته ومعجزاً لمن سواه .

وقيل : إنما سأل ذلك ليكون علماً له على المغفرة وقبول التوبة ، حيث أجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه ورد إليه ملكه وزاد فيه .

(178/661)

وقال عمر بن عثمان الصدفي : أراد به ملك النفس وقهر الهوى .

يؤيده ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمّد بن خالد قال : حدثنا داود بن سليمان قال : حدثنا عبد بن حميد قال :

أخبرنا عبد الله بن يزيد قال : حدثنا عبد الرحمن بن زياد الأفريقي قال : حدثنا سلمان بن عامر الشيباني قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أرأيتم سليمان وما أعطاه الله من ملكه ؟ فإنه لم يرفع طرفه إلى السماء تخشعاً لله عز وجل حتّى قبضه الله عزّ وجلّ " .

وأخبرنا شعيب بن محمّد قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدثنا أبو الأزهر قال : حدثنا روح بن عبادة قال : حدثنا هشام عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قد عرض لي الشيطان في مصلاي الليلة كأنه هرّكم هذا ، فأخذته فأردت أن أحبسه حتّى أصبح ، فذكرت دعوة أخي سليمان ﴿ رَبِّ اغفر لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي ﴾ فتركته " .

ومنه عن روح عن شعبة عن محمّد بن زياد قال : سمعت أبا هريرة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن عفريتاً من الجن جعل يتقلب عليَّ البارحة ليقطع عليَّ صلاتي وأن الله عزّ وجلّ أمكنني منه [فرعته] فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتّى يصبح فتنظرون إليه كلكم ، فتذكرت قول سليمان : ﴿ رَبِّ اغفر لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي ﴾ فردّه الله عزّ وجلّ خاسئاً " .

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً ﴾ ليّنة رطبة ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ حيث أراد وشاء ، بلغة حمير .

تقول العرب : أصاب الصواب وأخطا الجواب ، أي أراد الصواب .

قال الشاعر :

أصاب الكلام فلم يستطع . . . فأخطأ الجواب لدى المفصل

﴿ والشياطين ﴾ أي وسخرنا له الشياطين ﴿ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ يستخرجون له اللآلىء من البحر ، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصفاد ﴾ يعني مشدودين في القيود واحدها صفد ﴿ هذا عَطَآؤُنَا فامنن ﴾ فأعط ، من قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : 6] .

وتقول العرب : منَّ عليَّ برغيف ، أي أعطانيه .

قال الحسن : إن الله عزّ وجلّ لم يعط أحداً عطية إلاّ جعل فيها حساباً ، إلاّ سليمان فإن الله سبحانه أعطاه عطاءً هنيئاً فقال : ﴿ هذا عَطَآؤُنَا فامنن ﴾ .

﴿ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال : إن أعطى أجر وان لم يعط لم يكن عليه تبعة .

قال مقاتل : هو في أمر الشياطين ، خذ من شئت منهم في وثاقك لا تبعة عليك فيما تعاطاه .

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ قربة ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ مصير .

﴿ واذكر عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ .

قال مقاتل : كنيته أبو عبد الله .

﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ بتعب ومشقة وبلاء وضر .

قال مقاتل : بنصب في الجسد وعذاب في المال .

وفيه أربع لغات : (نُصُب) بضمتين وهي قراءة أبي جعفر ، و (نَصَب) بفتح النون والصاد وهي قراءة يعقوبُ و (نَصْب) بفتح النون وجزم الصاد وهي رواية هبيرة عن حفص عن عاصم ، و (نُصْب) بضم النون وجزم الصاد وهي قراءة الباقين .

واختلفوا في سبب ابتلاء أيوب :

فقال وهب : استعان رجل أيوب على ظلم يدرأه عنه ، فلم يعنه فابتلي .

وروى حيان عن الكلبي : أن أيوب كان يغزوا ملكاً من الملوك كافراً ، وكانت مواشي أيوب في ناحية ذلك الملك ، فداهنه ولم يغزه فابتلي .

وقال غيرهما : كان أيوب كثير المال فأعجب بماله فابتلى .

﴿ اركض بِرِجْلِكَ ﴾ الأرض ، أي ادفع وحرك ﴿ هذا مُغْتَسَلٌ ﴾ .

(180/661)

ثم نبعث له عين أُخرى باردة فقال : هذا ﴿ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وذكرى لأُوْلِي الألباب * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ أي حزمة من الحشيش ﴿ فاضرب بِّهِ ﴾ امرأتك ﴿ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ في يمينك ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العبد إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 175.212 ﴾

وقال الزمخشري :

سورة ص

مكية ، وهي ست وثمانون آية ، وقيل ثمان وثمانون آية [نزلت بعد القمر] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة ص (38) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ (2)

ص على الوقف وهي أكثر القراءة . وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ، ويجوز أن ينتصب بحذف حرف القسم وإيصال فعله ، كقولهم : اللّه لأفعلنّ ، كذا بالنصب ، أو بإضمار حرف القسم ، والفتح في موضع الجرّ ، كقولهم : اللّه لأفعلنّ ، بالجرّ وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث ، لأنها بمعنى السورة ، وقد صرفها من قرأ ص بالجرّ والتنوين على تأويل الكتاب والتنزيل :

وقيل : فيمن كسر هو من المصاداة وهي المعارضة والمعادلة . ومنها الصدى وهو ما

يعارض الصوت في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة ، ومعناه : ما عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه . فإن قلت : قوله : ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ كلام ظاهره متنافر غير منتظم ، فما وجه انتظامه ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما :

أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدّى والتنبيه على الإعجاز كما مرّ في أوّل الكتاب ، ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدّى عليه ، كأنه قال وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ إنه لكلام معجز . والثاني : أن يكون ص خبر مبتدأ محذوف ، على أنها اسم للسورة ، كأنه قال : هذه ص ، يعنى : هذه السورة التي أعجزت العرب ، والقرآن ذى الذكر ، كما تقول :

هذا حاتم والله ، تريد : هذا هو المشهور بالسخاء والله ، وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال : أقسمت بص والقرآن ذى الذكر إنه لمعجز ، ثم قال : بل الذين كفروا في عزة واستكبار عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق وشقاق لله ورسوله ، وإذا جعلتها مقسما بها وعطفت عليها وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ جاز لك أن تريد بالقرآن التنزيل كله ، وأن تريد السورة بعينها . ومعناه : أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذى الذكر ، كما تقول : مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة ، ولا تريد بالنسمة غير الرجل . والذكر : الشرف والشهرة ، من قولك : فلان مذكور ، وإنه

لذكر لك ولقومك . أو الذكرى والموعظة ، أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع وغيرها ، كأقاصيص الأنبياء والوعد والوعيد . والتنكير في عِزَّةٍ وَشِقاقٍ للدّلالة على شدّتهما وتفاقمهما .

وقرئ : في غرّة ، أى : في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق .

[سورة ص (38) : آية 3]

كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ (3)

كَمْ أَهْلَكْنا وعيد لذوي العزة والشقاق فَنادَوْا فدعوا واستغاثوا ، وعن الحسن . فنادوا بالتوبة وَلاتَ هي لا المشبهة بليس ، زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب ، وثم للتوكيد ، وتغير بذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا أحد مقتضيها : إمّا الاسم وإما الخبر ، وامتنع بروزهما جميعا ، وهذا مذهب الخليل وسيبويه . وعند الأخفش :

أنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء ، وخصت بنفي الأحيان . وحِينَ مَناصٍ منصوب بها ، كأنك قلت : ولا حين مناص لهم . وعنه : أنّ ما ينتصب بعده بفعل مضمر ، أى : ولا

أرى حين مناص ، ويرتفع بالابتداء : أى ولا حين مناص كائن لهم ، وعندهما أنّ النصب على : ولات الحين حين مناص أى وليس حين مناص ، والرفع على ولات حين مناص حاصلا لهم .

وقرئ : حين مناص ، بالكسر ، ومثله قول أبى زبيد الطائي :

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء «1»

فإن قلت : ما وجه الكسر في أوان ؟ قلت : شبه بإذ في قوله : وأنت إذ صحيح ، في أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التنوين : لأنّ الأصل : ولات أوان صلح . فإن قلت : فما تقول في حين مناص والمضاف إليه قائم ؟ قلت : نزل قطع المضاف إليه من مناص ، لأنّ

---

(1) بعثوا حربنا عليهم وكانوا في مقام لو أبصروا ورخاء

ثم لما تشذرت وأنافت وتصلوا منها كريه الصلاء

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء

لأبى زبيد الطائي ، استعار البعث للتسبب . وتنوين مقام ورخاء للتعظيم . والتشذر : التهيؤ للقتال ، والتشمر بأطراف الثوب ، والتطاول ، والوعيد ، والركوب من خلف المركوب . والانافة : الارتفاع ، وكل هذا ترشيح لاستعارة البعث . ويجوز أنه شبه الحرب بفارس على طريق المكنية . والبعث والتشذر والانافة : تخييل . وشبهها بالنار أيضا فأثبت لها التصلى وهو التدفؤ بالنار تخييلا . أو استعار التصلى لاقتحام المكاره

تصريحية ، وطلبوا : جواب لما ، أى : لما ذاقوا بأسنا طلبوا صلحنا ، والحال أنه ليس الأوان أوان صلح ، فأجبناهم بأن هذا ليس وقت بقاء ، بل وقت فناء . وأوان : منى على الكسر لنية الاضافة . وقيل : إنه مبنى على الكسر أيضا لنية الاضافة ، ونون للضرورة . وشبهه بنزال في الوزن . وقيل : مجرور على إضمار «من» الاستغراقية الزائدة . وزعم الفراء أن لات هنا حرف جر ، وعليها فتنوين أوان للتمكين . وزعم الزمخشري أنه على البناء تنوين عوض ، ورد بأنه لو كان كذلك لأعرب ، وحين نصب على أنه خبر لات في بقاء ، ثم تنزيلها منزلة نيتها في حين ، لأن التقدير : أن لات حين بقائكم ، وهو بعيد عن المعنى الجزل .

(183/661)

أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين ، لاتحاد المضاف والمضاف إليه ، وجعل تنوينه عوضا من الضمير المحذوف ، ثم بنى الحين لكونه مضافا إلى غير متمكن . وقرئ : ولات بكسر التاء على البناء ، كجير . فإن قلت : كيف يوقف على لات ؟ قلت : يوقف عليها بالتاء ، كما يوقف على الفعل الذي يتصل به تاء التأنيث . وأمّا الكسائي فيقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة .

وأمّا قول أبى عبيد : إنّ التاء داخلة على حين فلا وجه له . واستشهاده بأنّ التاء ملتزقة بحين في الإمام لا متشبث به ، فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط .

والمناص : المنجا والفوت . يقال : ناصه ينوصه إذا فاته . واستناص : طلب المناص . قال حارثة بن بدر :

غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدي استناص ورام جري المسحل «1»

[سورة ص (38) : الآيات 4 إلى 5]

وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (5)

مُنْذِرٌ مِنْهُمْ رسول من أنفسهم وَقالَ الْكافِرُونَ ولم يقل : وقالوا ، إظهارا للغضب عليهم ، ودلالة على أنّ هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغىّ الذين قال فيهم أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وهل ترى كفرا أعظم وجهلا أبلغ من أن يسموا من صدّقه اللّه بوحيه كاذبا ، ويتعجبوا من التوحيد ، وهو الحق الذي لا يصح غيره ، ولا يتعجبوا من الشرك وهو الباطل الذي لا وجه لصحته . روى أنّ إسلام عمر رضى اللّه تعالى عنه فرح به المؤمنون فرحا شديدا ، وشق على قريش وبلغ منهم ، فاجتمع خمسة وعشرون نفسا من صناديدهم ومشوا إلى أبى طالب وقالوا : أنت شيخنا وكبيرنا «2» ، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، يريدون : الذين دخلوا في الإسلام ، وجئناك لتقضى

بيننا وبين ابن أخيك ، فاستحضر أبو طالب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال : يا ابن أخي ، هؤلاء قومك يسألونك السؤال «3» فلا تمل كل الميل على قومك ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ما ذا يسألونني ؟ قالوا ارفضنا

---

(1) . لحارثة بن بدر ، يصف فرسا بأنه كثير المجاراة لغيره من الأفراس ، إذا قصرت : أي جذبت عنانه ، استناص : أي طلب النوص والهرب والنجاء من الأعداء . وشبه الفرس بمن تصح منه الارادة على طريق المكنية ، والروم تخييل ، أي : أراد جريا كجرى السحل وهو حمار الوحش ، سمي به لكثرة سحاله ، أي شهيقه .

(2) . ذكره الثعلبي بغير سند . وروى الترمذي والنسائي وابن حبان وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبري وابن أبي حاتم وغيرهم من طريق يحيى بن عمارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال «مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاء النبي صلى اللّه عليه وسلم . . . . . الحديث نحوه» وليس فيه أوله .

(3) . قوله «يسألونك السؤال فلا تمل» لعله السواء ، كما في عبارة النسفي . (ع)

وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال عليه السلام : أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أمعطىّ أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟ فقالوا : نعم وعشرا ، أى نعطيكها وعشر كلمات معها ، فقال : قولوا لا إله إلا اللّه فقاموا وقالوا أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ أى : بليغ في العجب . وقرئ : عجاب ، بالتشديد ، كقوله تعالى مَكْراً كُبَّاراً وهو أبلغ من المخفف . ونظيره : كريم وكرام وكرام : وقوله أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً مثل قوله وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً في أن معنى الجعل التصيير في القول على سبيل الدعوى والزعم ، كأنه قال : أجعل الجماعة واحدا في قوله ، لأنّ ذلك في الفعل محال .

[سورة ص (38) : الآيات 6 إلى 7]

وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (6) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ (7)

الْمَلَأُ أشراف قريش ، يريد : وانطلقوا عن مجلس أبى طالب بعد ما بكتهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالجواب العتيد ، قائلين بعضهم لبعض امْشُوا وَاصْبِرُوا فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد إِنَّ هذا الأمر لَشَيْءٌ يُرادُ أى يريده اللّه تعالى ويحكم بإمضائه ، وما أراد اللّه كونه فلا مردّ له ولا ينفع فيه إلا الصبر ، أو أن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه : أو أن دينكم لشيء يراد ، أى : يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه . وأَنِ

بمعنى أى ، لأنّ المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم ، فكان انطلاقهم مضمنا معنى القول . ويجوز أن يراد بالانطلاق : الاندفاع في القول ، وأنهم قالوا : امشوا ، أى أكثروا واجتمعوا ، من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها . ومنه : الماشية ، للتفاؤل ، كما قيل لها : الفاشية : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم « 1 » «ضموا فواشيكم» « 2 » ومعنى وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ : واصبروا على عبادتها والتمسك بها حتى لا تزالوا عنها ، وقرئ :

وانطلق الملأ منهم امشوا ، بغير أَنِ على إضمار القول . وعن ابن مسعود : وانطلق الملأ منهم يمشون أن اصبروا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ في ملة عيسى التي هي آخر الملل ، لأنّ النصارى يدعونها وهم مثلثة غير موحدة . أو في ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا . أو ما سمعنا بهذا كائنا في الملة الآخرة ، على أن يجعل في الملة الآخرة حالا من هذا ولا تعلقه بما سمعنا كما في الوجهين .

والمعنى : أنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث في الملة الآخرة توحيد اللّه . ما هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ أى : افتعال وكذب .

---

(1) . أخرجه ابن حبان من حديث جابر رضى اللّه عنه بلفظ «كفوا» وأصله في مسلم .

(2) . قوله «ضموا فواشيكم» بقيته في الصحاح : «حتى تذهب فحمة العشاء» (ع)

[سورة ص (38) : الآيات 8 إلى 11]

أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (8) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (10) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (11)

أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم ، كما قالوا : لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد على ما أوتى من شرف النبوّة من بينهم بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ من القرآن ، يقولون في أنفسهم : إما وإما . وقولهم إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ كلام مخالف لاعتقادهم فيه يقولونه على سبيل الحسد بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ بعد فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد «1» حينئذ ، يعنى : أنهم لا يصدقون به إلا أن يمسهم العذاب مضطرين إلى تصديقه أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ يعنى ما هم بما لكي خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاءوا ويصرفوها عمن شاءوا ، ويتخيروا للنبوّة بعض صناديدهم ، ويترفعوا بها عن محمد عليه الصلاة والسلام .

وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها : العزيز القاهر على خلقه ، الوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها ، الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعدله ، كما قال أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا ثم رشح هذا المعنى فقال أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ حتى يتكلموا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء ، ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال :

وإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة ، وكانت عندهم الحكمة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإيتاء النبوّة دون من لا تحق له فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش ، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت اللّه ، وينزلوا الوحى إلى من يختارون ويستصوبون ، ثم خسأهم خساءة «2» عن ذلك بقوله

---

(1) . قال محمود : «معناه لم يذوقوه بعد ، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم . . . الخ» قلت : ويؤخذ منه أن لما لائقة بالجواب ، وإنما ينفى بها فعل يتوقع وجوده ، كما يقول سيبويه ، وفرق بينها وبين لم بأن لم نفى لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبته قد ، ولما نفى لما يتوقع وجوده أدخل على مثبته قد ، وإنما ذكرت ذلك لأنى حديث عهد بالبحث في قوله عليه الصلاة والسلام «الشفعة فيما لم يقسم» فانى استدللت به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة ، فقيل لي :

إن غايته أنه أثبت الشفعة فيما نفى عنه القسمة ، فاما أنها لا تقبل قسمة ، وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة ، فأبطلت ذلك بأن آلة النفي المذكورة «لم» ومقتضاها قبول المحل الفعل المنفي وتوقع وجوده . ألا تراك تقول : الحجر لا يتكلم» ولو قلت : الحجر لم يتكلم ، لكان ركيكا من القول ، لافهامه قبوله للكلام ،

(2) . قوله «ثم خسأهم خسأة» في الصحاح : خسأت الكلب خسأ : طردته . وخسأ بنفسه يتعدى ولا يتعدى . (ع)

(186/661)

جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ يريد ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل اللّه ، مهزوم مكسور عما قريب «1» فلا تبال بما يقولون ، ولا تكترث لما به يهذون . وما مزيدة ، وفيها معنى الاستعظام ، كما في قول امرئ القيس :

وحديث ما على قصره «2»

إلا أنه على سبيل الهزء ، وهُنالِكَ إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله : لست هنالك .

[سورة ص (38) : الآيات 12 إلى 15]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (13) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (14) وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (15)

ذُو الْأَوْتادِ أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده ، قال :

والبيت لا يبتنى إلّا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد «3»

---

(1) . قال محمود : «ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال : إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة فكانت عندهم المعرفة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإيتاء النبوة دون من لا يستحق ، فليرتقوا في المعارج والطرق الموصلة إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت اللّه تعالى ، وينزلوا الوحى على من يختارونه .

قال : ثم خسأهم بقوله جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ معناه : إن هؤلاء إلا جند متحزبون على النبي صلى اللّه عليه وسلم عما قليل يهزمون ويولون الأدبار» قال أحمد : الاستواء المنسوب للّه : ليس مما يتوصل إليه بالصعود في المعارج والوصول إلى العرش والاستقرار عليه والتمكن فوقه ، لأن الاستواء المنسوب إلى اللّه تعالى ليس استواء استقرار بجسم – تعالى اللّه عن ذلك – وإنما هو صفة فعل ، أى فعل فيه فعلا سماه استواء ، هذا تأويل القاضي أبى بكر .

وليست عبارة الزمخشري في هذا الفصل مطابقة للمفصل على جارى عاداته في تحرير

العبارة على مراده .

(2) جد بالوفاق لمشتاق إلى سهره إن لم تجد فحديث ما على قصره

المراد بالوفاق : الوصال . وضمير «سهره» للمشتاق أو للوفاق . وحديث : مبتدأ خبره محذوف ، أى : تجود به .

وما زائدة التعميم . ويجوز أنها للتعظيم . لكن الأول أوفق بالمقام . وعلى بمعنى مع ، وضمير «قصره» : للحديث .

(3) والبيت لا يبتنى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فان تجمع أسباب وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

للرافدة الأودى ، يقول : لا ينال الأمر إلا بتوافر أسبابه ، فالبيت من باب التمثيل : شبه توقف الأمر على أسبابه وتوقف أسبابه على أسبابها ، بتوقف ضرب الخيمة على انتصاب الأعمدة ، وتوقف انتصابها على إثبات الأوتاد المشدودة بالحبال ، ثم قال : فان اجتمعت الحبال المشدودة بالأوتاد الثابتة وانتصبت الأعمدة ووجد الساكن بلغ مراده ، وهو بمعنى الجمع ، فصح جمع ضميره ، وكاده كيدا عالجه علاجا ، أى : بلغوا الأمر الذي كادوه ، أي عالجوه لتحصيله .

فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر ، كما قال الأسود :

في ظل ملك ثابت الأوتاد «1»

وقيل : كان يشبح «2» المعذب بين أربع سوار : كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد ، ويتركه حتى يموت . وقيل : كان يمدّه بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات . وقيل : كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه أُولِئكَ الْأَحْزابُ قصد بهذه لإشارة الإعلام بأنّ الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم ، وأنهم هم الذين وجد منهم التكذيب «3» .

ولقد ذكر تكذيبهم أولا في الجملة الخبرية على وجه الإبهام ، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها :

بأنّ كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل ، لأنهم إذا كذبوا واحدا منهم فقد كذبوهم جميعا . وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه ، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أوّلا وبالاستثنائية ثانيا ، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص : أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه ، ثم قال فَحَقَّ عِقابِ أى فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم هؤُلاءِ أهل مكة . ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب

(1) ما ذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد أياد

جرت الرياح على مقر ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد

فإذا النعيم وكل ما يلهي به يوما يصير إلى بلى ونفاد

للأسود بن يعفر . يقول : لا أتمنى شيئا بعدهم من الدنيا . ومحرق : هو امرؤ القيس بن عمرو بن عدى اللخمي .

والاياد - في الأصل - : تراب يجمع حول الحوض والبيت ، يحفظه عن المطر والسيول ، من الأيدى : وهو القوة .

وإياد : علم على ابن نزار بن معد ، فهو أخو مضر وربيعة . والمراد به هنا القبيلة . وروى : وآل إياد ، عطفا على آل محرق . وغنى بالمكان ، كرضى : أقام به . والبلى : الانمحاق . والنفاد : الفناء . يقول : تركوا منازلهم :

جملة مستأنفة لبيان نفى التأميل ، واعتراضية بين المتعاطفين . وقوله «جرت الرياح» مستأنف لبيان حال القبيلتين ، يقول : تفانوا فجرت الرياح على محل ديارهم ، وجريان الرياح على مقر الديار ، لانهدام الجدران التي كانت تمنع الرياح ، وذلك كناية عن موتهم ، وأفاد أن فناءهم كان سريعا كأنه دفعة واحدة بقوله : فكأنهم كانوا على ميعاد واحد ، ولقد أقاموا بأرغد عيشة ، وشبه الملك الذي به عزهم وصونهم بخيمة مضروبة عليهم ،

والظل : الترشيح ، والأوتاد تخييل . وإذا معناها المفاجأة . أى فظهر بغتة أن كل نعيم لا محالة زائل ، أى : فأدركهم المحاق والفناء .

(2) . قوله «وقيل كان يشبح المعذب» أى يمده ، أفاده الصحاح . (ع) [. . . . .]

(3) . قال محمود : «قصد بهذه الاشارة الاعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم ، وأنهم الذين وجد التكذيب منهم» قال أحمد : وفي تكرار تكذيبهم فائدة أخرى : وهي أن الكلام لما طال بتعديد آحاد المكذبين ، ثم أريد ذكر ما حاق بهم من العذاب جزاء لتكذيبهم ، كرر ذلك مصحوبا بالزيادة المذكورة ، ليلي قوله تعالى فَحَقَّ عِقابِ على سبيل التطرية المعتادة عند طول الكلام وهو كما قدمته في قوله وَكُذِّبَ مُوسى حيث كرر الفعل ليقترن بقوله فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ .

(188/661)

لاستحضارهم بالذكر . أو لأنهم كالحضور عند اللّه . والصيحة : النفخة ما لَها مِنْ فَواقٍ وقرئ بالضم : ما لها من توقف مقدار فواق ، وهو ما بين حلبتى الحالب ورضعتى الراضع . يعنى : إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان ، كقوله تعالى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وعن ابن عباس : مالها من رجوع ، وترداد ، من أفاق المريض

إذا رجع إلى الصحة. وفواق الناقة: ساعة ترجع الدرّ إلى ضرعها، يريد: أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد.

[سورة ص (38): آية 16]

وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (16)

القط: القسط من الشيء، لأنه قطعة منه، من قطه إذا قطعه. ويقال لصحيفة الجائزة: قط، لأنها قطعة من القرطاس، وقد فسر بهما قوله تعالى عَجِّلْ لَنا قِطَّنا أى نصيبنا من العذاب الذي وعدته، كقوله تعالى وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وقيل: ذكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعد اللّه المؤمنين الجنة، فقالوا على سبيل الهزء: عجل لنا نصيبنا منها. أو عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها.

[سورة ص (38): الآيات 17 إلى 20]

اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ (20)

فإن قلت: كيف تطابق قوله اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وقوله وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ حتى عطف أحدهما على صاحبه؟ قلت: كأنه قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: اصبر على ما يقولون، وعظم أمر معصية اللّه في أعينهم بذكر قصة داود، وهو أنه نبىّ من أنبياء اللّه تعالى قد

أولاه ما أولاه من النبوّة والملك ، لكرامته عليه وزلفته لديه ، ثم زل زلة فبعث إليه الملائكة ووبخه عليها . على طريق التمثيل والتعريض ، حتى فطن لما وقع فيه فاستغفر وأناب ، ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائم وغمه الواصب «1» ، ونقش جنايته في بطن كفه حتى لا يزال يجدد النظر إليها والندم عليها فما الظنّ بكم مع كفركم ومعاصيكم ؟ أو قال له صلى اللّه عليه وسلم : اصبر على ما يقولون وصن نفسك وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم ، واذكر أخاك داود وكرامته على اللّه كيف زلّ تلك الزلة اليسيرة فلقى من توبيخ اللّه وتظليمه ونسبته إلى البغي ما لقى ذَا الْأَيْدِ ذا القوّة في الدين المضطلع بمشاقه وتكاليفه ، كان على نهوضه بأعباء

(1) . قوله «وغمه الواصب» أى : الدائم . (ع)

النبوّة والملك يصوم يوما ويفطر يوما وهو أشدّ الصوم ، ويقوم نصف الليل . يقال : فلان أيد ، وذو أيد ، وذو آد . وأياد كل شيء : ما يتقوّى به أَوَّابٌ توّاب رجاع إلى مرضاة اللّه فإن قلت : ما ذلك على أنّ الأيد القوّة في الدين ؟ قلت : قوله تعالى إِنَّهُ أَوَّابٌ لأنه تعليل لذي الأيد وَالْإِشْراقِ وقت الإشراق ، وهو حين تشرق الشمس ، أى : تضيء ويصفو شعاعها وهو

وقت الضحى . وأما شروقها فطلوعها ، يقال : شرقت الشمس ، ولما تشرق «1» .

وعن أمّ هانئ : دخل علينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال : يا أمّ هانئ هذه صلاة الإشراق «2» . وعن طاوس عن ابن عباس قال : هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن ؟ قالوا لا ، فقرأ : إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق وقال : كانت صلاة يصليها داود عليه السلام . وعنه : ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية .

وعنه : لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى طلبتها فوجدتها بهذه الآية يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وكان لا يصلى صلاة الضحى ، ثم صلاها بعد . وعن كعب أنه قال لابن عباس : إنى لا أجد في كتب اللّه صلاة بعد طلوع الشمس ، فقال : أنا أوجدك ذلك في كتاب اللّه تعالى ، يعنى هذه الآية . ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا في الشروق ، ومنه قوله تعالى فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ وقول أهل الجاهلية : أشرق «3» ثبير ، ويراد وقت صلاة الفجر لانتهائه بالشروق . ويسبحن : في معنى ومسبحات على الحال . فإن قلت : هل من فرق بين يسبحن ومسبحات «4» ؟ قلت : نعم ، وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك ، وهو الدلالة

---

(1) . قال محمود : «الاشراق حين تشرق الشمس ، أى يصفو نورها وهو وقت الضحى . وأما شروقها فطلوعها .

يقال : شرقت الشمس ولما تشرق . ومنه أخذ ابن عباس صلاة الضحى . قال : ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا في وقت الشروق ، ويكون المراد وقت صلاة الفجر لانتهائه بشروق الشمس» قال أحمد : الوجه الثاني يفرق بين العشى والاشراق ، فان العشى ظرف بلا إشكال ، فلو حمل الاشراق على الدخول في وقت الشروق لكان مصدرا ، مع أن المراد به الظرف ، لأنه فعل الشمس وصفتها التي تستعمل ظرفا كالطلوع والغروب وشبههما .

(2) . أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي والبغوي والطبراني كلهم من رواية أبى بكر الهذلي عن عطاء عن ابن عباس : حدثتني أم هانئ . ورواه الحاكم من وجه آخر عن عبد اللّه بن الحرث عن ابن عباس «كان لا يصلى الضحى حتى أدخلناه على أم هانئ فقلت لها : أخبرى ابن عباس قالت : دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في بيتي فصلى صلاة الضحى ثمان ركعات . قال : فخرج ابن عباس وهو يقول : هذه صلاة الاشراق» هذا موقوف وهو أصح .

(3) . قوله «أشرق ثبير» كانوا يقولون : أشرق ثبير كيما نغير ، كما في الصحاح . (ع)

(4) . قال محمود : «إن قلت لم اختار يسبحن على مسبحات وأيهما وقع كان حالا ، وأجاب بأن اختيارهما لمعنى وهو الدلالة على حدوث التسبيح شيئا بعد شيء كأن السامع محاضر لها فيسمعها تسبح . ومنه قول الأعشى :

إلى ضوء نار في يفاع تحرق

ولو قال : محرقة لم يكن شيئا . قال أحمد : ولهذه النكتة فرق سحنون من أصحابنا بين : أنا محرم يوم أفعل كذا «بصيغة اسم الفاعل . وبين أحرم بصيغة المضارع . فرأى أن المعلق بصيغة اسم الفاعل يكون محرما بوجود صيغة التعليق ، ولا كذلك المعلق بصيغة الفعل المضارع ، فانه لا يكون محرما حتى يحرم ويقال له أحرم ، فكأنه رأى أن صيغة الفعل خصوصية في الدلالة على حدوثه ، ولا كذلك اسم الفاعل وإن كان متأخرا . وأصحابنا اختلفوا في معنى قول سحنون في اسم الفاعل يكون محرما يوم يفعل ، فمنهم من قال : أراد الفور فينشئ إحراما ، ومنهم من قال : يكون محرما في الحال بالتعليق الأول ولا يجدد شيئا . ومذهب مالك : التسوية بين صيغتي اسم الفاعل والفعل في هذا المقام والله أعلم . وحقق الزمخشري هذا الفرق بين اسم الفاعل والفعل في قوله وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ فقال :

لما كان الواقع حشر الطير دفعة واحدة ، وكان ذلك أدل على القدرة ، لم يكن لاستعمال الفعل الدال على الحدوث شيئا فشيئا معنى ، فاستعمل فيه اسم المفعول على خلاف استعمال الفعل في الأول .

على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحالا بعد حال ، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح . ومثله قول الأعشى :

إلى ضوء نار في يفاع تحرق «1»

ولو قال : محرقة ، لم يكن شيئا . وقوله مَحْشُورَةٌ في مقابلة : يسبحن : إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شيء ، جيء به اسما لا فعلا .

وذلك أنه لو قيل : وسخرنا الطير يحشرن - على أنّ الحشر يوجد من حاشرها شيئا بعد شيء .

والحاشر هو اللّه عز وجل - لكان خلفا ، لأنّ حشرها جملة واحدة أدلّ على القدرة .

وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح ، واجتمعت إليه الطير فسبحت ، فذلك حشرها . وقرئ : والطير محشورة . بالرفع كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ كل واحد من الجبال والطير لأجل داود ، أى : لأجل تسبيحه مسبح ، لأنها كانت تسبح بتسبيحه . ووضع الأوّاب موضع المسبح : إمّا لأنها كانت ترجع التسبيح ، والمرجع رجاع ، لأنه يرجع إلى فعله رجوعا بعد رجوع وإمّا لأن الأواب - وهو التوّاب الكثير الرجوع إلى اللّه وطلب مرضاته - من عادته أن يكثر ذكر اللّه ويديم تسبيحه وتقديسه . وقيل : الضمير للّه ، أى :

كل من داود والجبال والطير للّه أوّاب ، أى مسبح مرجع للتسبيح وَشَدَدْنا مُلْكَهُ قوّيناه ، قال تعالى سَنَشُدُّ عَضُدَكَ وقرئ شددنا على المبالغة . قيل : كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلئم «2» يحرسونه وقيل :

الذي شدّ اللّه به ملكه وقذف في قلوب قومه الهيبة : أنّ رجلا ادّعى عنده على آخر بقرة ، وعجز عن إقامة البينة ، فأوحى اللّه تعالى إليه في المنام : أن اقتل المدّعى عليه ، فقال : هذا منام ، فأعيد الوحى في اليقظة ، فأعلم الرجل فقال : إنّ اللّه عزّ وجلّ لم يأخذنى بهذا الذنب ، ولكن بأنى قتلت أبا هذا غيلة ، فقتله ، فقال الناس : إن أذنب أحد ذنبا أظهره اللّه عليه ، فقتله ،

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات بالجزء الثالث صفحة 63 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) . قوله «مستلئم» أى : لا بس اللأمة ، وهي الدرع . أفاده الصحاح . (ع)

فها بوه الْحِكْمَةَ الزبور وعلم الشرائع . وقيل : كل كلام وافق الحق فهو حكمة . الفصل : التمييز بين الشيئين . وقيل للكلام البين : فصل ، بمعنى المفصول كضرب الأمير ، لأنهم قالوا :

كلام ملتبس ، وفي كلامه لبس . والملتبس : المختلط ، فقيل في نقيضه : فصل ، أى مفصول بعضه من بعض ، فمعنى فصل الخطاب : البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه ، ومن فصل الخطاب وملخصه : أن لا يخطئ صاحبه مظانّ الفصل والوصل ، فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه ، ولا يتلو قوله فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ إلا موصولا بما بعده ، ولا وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ حتى يصله بقوله لا تَعْلَمُونَ ونحو ذلك ، وكذلك مظانّ العطف وتركه ، والإضمار والإظهار والحذف والتكرار ، وإن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل ، كالصوم والزور ، وأردت بفصل الخطاب : الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، والصواب والخطأ ، وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات . وعن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه . هو قوله : البينة على المدّعى واليمين على المدّعى عليه ، وهو من الفصل بين الحق والباطل ، ويدخل فيه قول بعضهم : هو قوله «أمّا بعد» لأنه يفتتح إذا تكلم في الأمر الذي له شأن بذكر اللّه وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه : فصل بينه وبين ذكر اللّه بقوله : أمّا بعد . ويجوز أن يراد الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخلّ ولا إشباع مملّ . ومنه ما جاء في صفة كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : فصل لا نذر ولا هذر «1» .

[سورة ص (38) : الآيات 21 إلى 22]

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا

تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ (22)

كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته ، فيتزوّجها إذا أعجبته وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها . وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك ، فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا ، فأحبها ، فسأله النزول له عنها ، فاستحيا أن يردّه ، ففعل ، فتزوّجها وهي أمّ سليمان ، فقيل له : إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نسائك : لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة النزول ، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر

---

(1) . هو حديث أم معيد . وقد تقدم في سورة الأعراف ، وفي الأدب لأبي داود من حديث عائشة «كان كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فصلا يفهمه من سمعه» .

على ما امتحنت به . وقيل : خطبها أوريا ثم خطبها داود ، فآثره أهلها ، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن ، مع كثرة نسائه . وأمّا ما يذكر أنّ داود عليه السلام تمنى

منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال : يا رب إنّ آبائي قد ذهبوا بالخير كله ، فأوحى إليه : إنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها : قد ابتلى ابراهيم بنمروذ وذبح ولده ، وإسحاق بذبحه وذهاب بصره ، ويعقوب بالحزن على يوسف . فسأل الابتلاء فأوحى اللّه إليه : إنك لمبتلى في يوم كذا وكذا ، فاحترس ، فلما حان ذلك اليوم دخل محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور ، فجاءه الشيطان في صورة حمامة من ذهب ، فمدّ يده ليأخذها لابن له صغير ، فطارت ، فامتدّ إليها ، فطارت فوقعت في كوّة ، فتبعها ، فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها ، وهي امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء ، «1» فكتب إلى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء . أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت ، وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح اللّه على يده أو يستشهد ، ففتح اللّه على يده وسلم ، فأمر بردّه مرة أخرى ، وثالثة ، حتى قتل ، فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء ، وتزوج امرأته . فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين ، «2» فضلا عن بعض أعلام الأنبياء . وعن سعيد ابن المسيب والحرث الأعور : أنّ علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء «3» .

وروى أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق ، فكذب المحدث به وقال : إن كانت القصة على ما في كتاب اللّه فما ينبغي أن يلتمس خلافها ، وأعظم بأن يقال

غير ذلك .

وإن كانت على ما ذكرت وكف اللّه عنها سترا على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه . فقال عمر :

لسماعى هذا الكلام أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس . والذي يدل عليه المثل الذي ضربه اللّه لقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب . فإن قلت : لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح ؟ قلت : لكونها أبلغ في التوبيخ ، من قبل أن التأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرض به ، كان أوقع في نفسه ، أشد تمكنا من قلبه ، وأعظم أثرا فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبه على الخطإ فيه من أن يبادره به صريحا ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة . ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا

---

(1) . قوله «من غزاة البلقاء» في الصحاح : مدينة بالشام . (ع)

(2) . قوله «من أفناء المسلمين» في الصحاح : يقال : هو من أفناء الناس إذا لم يعلم ممن هو . وعبارة النسفي بدل قوله : فهذا ونحوه . . . الخ : فلا يليق من المتسمين . . . الخ . (ع)

(3) . لم أجده

وجدت منه هنة منكرة أن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح. وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية فاستسمج حال نفسه، وذلك أزجر له لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ومقياسا لشأنه، فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة، مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة. فإن قلت: فلم كان ذلك على وجه التحاكم إليه؟

قلت: ليحكم بما حكم به من قوله لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ حتى يكون محجوجا بحكمه ومعترفا على نفسه بظلمه وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ظاهره الاستفهام. ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه. والخصم:

الخصماء، وهو يقع على الواحد والجمع، كالضيف. قال اللّه تعالى حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ لأنه مصدر في أصله، تقول: خصمه خصما، كما تقول: ضافه ضيفا. فإن قلت:

هذا جمع. وقوله خَصْمانِ تثنية فكيف استقام ذلك؟ قلت: معنى خصمان: فريقان

خصمان ، والدليل عليه قراءة من قرأ : خصمان بغى بعضهم على بعض : ونحوه قوله تعالى هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ . فإن قلت : فما تصنع بقوله إِنَّ هذا أَخِي وهو دليل على اثنين ؟

قلت : هذا قول البعض المراد بقوله بعضنا على بعض . فإن قلت : فقد جاء في الرواية أنه بعث إليه ملكان . قلت : معناه أن التحاكم كان بين ملكين ، ولا يمنع ذلك أن يصحبهما آخرون . فإن قلت : فإذا كان التحاكم بين اثنين كيف سماهم جميعا خصما في قوله نَبَأُ الْخَصْمِ وخَصْمانِ ؟ قلت : لما كان صحب كل واحد من المتحاكمين في صورة الخصم صحت التسمية به . فإن قلت : بم انتصب إِذْ ؟ قلت : لا يخلو إما أن ينتصب بأتاك ، أو بالنبإ ، أو بمحذوف فلا يسوغ انتصابه بأتاك ، لأن إتيان النبأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا يقع إلا في عهده لا في عهد داود ، ولا بالنبإ ، لأن النبأ الواقع في عهد داود لا يصح إتيانه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وإن أردت بالنبإ : القصة في نفسها لم يكن ناصبا ، فبقى أن ينتصب بمحذوف ، وتقديره :

وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم . ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل . وأما إذ الثانية فبدل من الأولى تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ تصعدوا سوره ونزلوا إليه . والسور : الحائط المرتفع ونظيره في الأبنية : تسنمه ، إذ علا سنامه ، وتذرّاه : إذا علا ذروته . روى أنّ اللّه تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين ، فطلبا أن يدخلا عليه ، فوجداه في يوم عبادته ،

فمنعهما الحرس فتسوّرا عليه المحراب ، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان فَفَزِعَ مِنْهُمْ قال ابن عباس : إنّ داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء : يوما للعبادة ، ويوما للقضاء ، ويوما للاشتغال بخواص أموره ، ويوما يجمع بنى إسرائيل فيعظهم ويبكيهم ، فجاءوه في غير يوم القضاء ففزع منهم ، ولأنهم نزلوا عليه من فوق ، وفي يوم الاحتجاب ، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه خَصْمانِ

(194/661)

خبر مبتدإ محذوف ، أى : نحن خصمان وَلا تُشْطِطْ ولا تجر . وقرئ : ولا تشطط ، أى : ولا تبعد عن الحق . وقرئ : ولا تشطط . ولا تشاطط ، وكلها من معنى الشطط : وهو مجاوزة الحدّ وتخطى الحق . وسَواءِ الصِّراطِ وسطه ومحجته : ضربه مثلا لعين الحق ومحضه .

[سورة ص (38) : آية 23]

إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ (23)

أَخِي بدل من هذا أو خبر لإنّ . والمراد أخوّة الدين ، أو أخوّة الصداقة والألفة ، أو أخوة

الشركة والخلطة ، لقوله تعالى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ كل واحدة من هذه الأخوات تدلى بحق مانع من الاعتداء والظلم . وقرئ : تسع وتسعون ، بفتح التاء . ونعجة ، بكسر النون وهذا من اختلاف اللغات ، نحو نطع ونطع ، ولقوة ولقوة «1» أَكْفِلْنِيها ملكنيها .

وحقيقته : اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدي وَعَزَّنِي وغلبني . يقال : عزه يعزه . قال :

قطاة عزّها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح «2»

يريد : جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أردّه به . وأراد بالخطاب : مخاطبة المحاج المجادل :

أو أراد : خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطابا ، أى : غالبني في الخطبة فغلبني ، حيث زوّجها دوني . وقرئ : وعازني ، من المعازة وهي المغالبة . وقرأ أبو حيوة : وعزنى ، بتخفيف الزاى طلبا للخفة ، وهو تخفيف غريب ، وكأنه قاسه على نحو : ظلت ، ومست . فإن قلت : ما معنى ذكر النعاج ؟ قلت : كأن تحاكمهم في نفسه تمثيلا وكلامهم تمثيلا ، لأنّ التمثيل أبلغ في التوبيخ لما ذكرنا ، وللتنبيه على أمر يستحيا من كشفه ، فيكنى عنه كما يكنى عما يستسمج الإفصاح به ، وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته . ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة ولخليطه تسع وتسعون ، فأراد صاحبه تتمة المائة فطمع في نعجة خليطه وأراده على الخروج من ملكها إليه ، وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ

(1) . قوله «نحو نطع ونطع ، ولقوة ولقوة» في الصحاح : «النطع» فيه أربع لغات . وفيه «اللقوة» : داء في الوجه ، والناقة السريعة اللقاح ، والعقاب : الأنثى ، واللقوة - بالكسر - : مثله . (ع)

(2) كأن القلب ليلة قيل يفدى بليلى العامرية أو يراح

قطاة عزها شرك فباتت تعالجه وقد علق الجناح

لقيص بن الملوح مجنون ليلى العامرية ، وقطاة : خبر كأن . وعزها : بمهملة فمعجمة ، بمعنى : غلبها وحبسها ، يقال :

عز يعز بالكسر : تعظم ، وبالفتح : قوى . وعزه يعزه - بالضم - : غلبه ، وما هنا من الثالث : شبه قلبه حين سمع برحيلها بحمامة أمسك الشرك جناحها في كثرة الخفقان والاضطراب . [. . . . .]

(195/661)

مراده ، والدليل عليه قوله وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ وإنما خص هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بذكر النعجة . فإن قلت : إنما تستقيم طريقة التمثيل إذا فسرت الخطاب بالجدال ، فإن فسرته بالمفاعلة من الخطبة لم يستقم . قلت : الوجه مع هذا التفسير أن أجعل النعجة

استعارة عن المرأة ، كما استعاروا لها الشاة في نحو قوله :

يا شاة ما قنص لمن حلّت له «1»

فرميت غفلة عينه عن شاته «2»

وشبهها بالنعجة من قال :

كنعاج الملا تعسّفن رملا «3»

---

(1) يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت عليّ وليتها لم تحرم

لعنترة من معلقته يتذكر محبوبته بعد وقوع الحرب بينه وبين قبيلتها ، فلذلك حرمت عليه .

وقيل : كان تزوجها أبوه فحرمت عليه ، شبهها بالشاة الوحشية في الحسن والجمال والفرة عن الرجال ، وأن كلا يصطاد بالاحتيال على طريق الاستعارة التصريحية ، وذكر القنص ترشيح ، لأنه يلائم الشاة . وما زائدة ، أي يا شاة القنص تعالى ، فهذا وقت التفكر في شأنك . وقيل : المنادى محذوف ، أي : يا قوم أحضروا شاة قنص ، وتعجبوا من حالها .

والقنص :

الصيد ، والقنص - بالتحريك - والقنيص : المصيد . ويروى : يا شاة من قنص ، فقيل : من زائدة ، بناء على مذهب الكوفيين ، من جواز زيادة الأسماء . وقيل : نكرة موصوفة . وقنص صفتها من باب الوصف بالمصدر ، أي :

يا شاة إنسان قابص . ولمن حلت : متعلق بمحذوف صفة لها ، وحرمت على : التفات

على القول بندائها ، وهو صفة لها ، أو استئناف بين به شأنها ، وتمنى عدم حرمتها : ندم على ما وقع من سبب الحرمة .

(2) قد كنت رائدها وشاة محاذر حذر يقل بعينه إغفالها

فظللت أرعاها وظل يحوطها حتى دنوت إذا الظلام دنا لها

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها

للأعشى . وقيل : لعمر بن أبى ربيعة . وضمير رائدها مرجعه في البيت قبله كامرأة أو مفازة ، ثم قال : ورب شاة رجل محاذر ، فاستعار الشاة للمرأة الجميلة على طريق التصريحية . والمحاذر : الذي يحاذر غيره ويخاف مكره . والحذر : كثير الحذر مستمره ، يقل : بضم أوله ، من أقل الرباعي . وإغفالها ، أى : إغفال عينه ، فظللت أراقب الشاة وظل هو يحفظها ، حتى قربت لها حين قرب الظلام ودخل الليل ، فرميت شاته حين غفلة عينه عن شاته التي كان يحفظها وفيه نوع تهكم به ، وأضاف الغفلة إلى العين دون الشخص لأنها المذكورة أولا ، وللدلالة على قصر الزمن وسرعة الظفر ، ولأن القلب لا يغفل عنها لعزتها عنده ، بل يذكرها في النوم . وأما العين فتغفل ، فأصبت حبة ملبها أى وسطه ، وأصبت طحالها ، والرمي ترشيح للاستعارة ، لأنه من ملائمات الشاة . ويصح أن يكون هذا البيت استعارة تمثيلية ، حيث شبه حالة ظفره بمراده على حين غفلة من الرقيب وإصابة أحشاء المرأة بالحب ، بحال من ظفر برمي الشاة بالسهم على غفلة من

الراعي ، بل يصح أن يكون قوله : وشاة محاذر . . . إلى آخر الأبيات : استعارة تمثيلية لتلك الحال ، ولا استعارة في الشاة وحدها على هذا .

(3) قلت إذا أقبلت وزهر تهادى كنعاج الفلا تعسفن رملا

وتنقبن بالحرير وأبدين عيونا حور المداعج نجلا

لعمر بن أبي ربيعة . وزهر : عطف على ضمير الفاعل المتصل ، ومجيئه بلا فصل قليل . وتهادى : أصله تتهادى ، حذف منه إحدى التاءين ، وهو صفة زهر . وشبههن بالنعاج الوحشية في حسن المشية وسعة العيون وسوادها .

والزهر : جمع زهراء ، أي : بيضاء ، والفلا : القفر الخالي . والتعسف : الميل عن سواء السبيل ، وهو حال من النعاج . ورملا : نصب على نزع الخافض ، أي : تمايلن في رمل . وتنقبت المرأة : لبست النقاب . وحور : جمع حوراء ، أي : صافيات . والمداعج : الحدقات ، من الدعج وهو اتساع سواد العين . والنجل : جمع نجلاء ، أي : واسعات .

(196/661)

لولا أنّ الخلطاء تأباه ، إلا أن يضرب داود الخلطاء ابتداء مثلا لهم ولقصتهم «1» . فإن قلت .

الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يتلبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم ؟ قلت : هو تصوير للمسألة وفرض لها ، فصوّروها في أنفسهم وكانوا في صورة الأناسى ، كما تقول في تصوير المسائل : زيد له أربعون شاة ، وعمرو له أربعون ، وأنت تشير إليهما ، فخلطاها وحال عليها الحول ، كم يجب فيها ؟ وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد «2» وتقول أيضا في تصويرها : لي أربعون شاة وأربعون فخلطناها . وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعها فإن قلت : ما وجه قراءة ابن مسعود : ولي نعجة أنثى «3» ؟ قلت : يقال لك امرأة أنثى للحسناء الجميلة . والمعنى : وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها ، وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتثنيها . ألا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال . وقوله :

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : طريقة التمثيل إنما تستعمل على جعل الخطاب من الخطابة ، فان كان من الخطبة فما وجهه ؟ قال : الوجه حينئذ أن تجعل النعجة استعارة للمرأة ، كما استعاروا لها الشاة في قوله :

يا شاة ما قنص لمن حلت له

إلا أن لفظ الخلطاء يأباه : اللهم إلا أن يكون ابتداء مثل من داود عليه السلام» قال أحمد : والفرق بين التمثيل والاستعارة : أنه على التمثيل ، يكون الذي سبق إلى فهم داود عليه السلام : أن التحاكم على ظاهره ، وهو التخاصم في النعاج التي هي الهائم ، ثم انتقل

بواسطة التنبيه إلى فهم أنه تمثيل لحاله . وعلى الاستعارة يكون فهم عنهما : التحاكم في النساء المعبر عنهن بالنعاج كناية ، ثم استشعر أنه هو المراد بذلك .

(2) . قوله «و ما لزيد وعمرو سبد ولا لبد» في الصحاح : ما له سبد ولا لبد ، أى : لا قليل ولا كثير .

والسبد : من الشعر ، واللبد : من الصوف . (ع)

(3) . قال محمود : «فان قلت : فما وجه قراءة ابن مسعود : ولي نعجة أنثى . وأجاب بأنه يقال : امرأة أنثى للحسناء الجميلة ، ومعناه : وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتثنيها . ألا ترى إلى وصفهم إياها بالكسول والمكسال ، كقوله :

فتور القيام قطيع الكلام

قال أحمد : ولكن قوله وَلِيَ نَعْجَةٌ إنما أورده على سبيل التقليل لما عنده والتحقير ، ليستجل على خصمه بالبغي لطلبه هذا القليل الحقير وعنده الجم الغفير ، فكيف يليق وصف ما عنده والمراد تقليله بصفة الحسن التي توجب إقامة عذر ما لخصمه ، ولذلك جاءت القراءة المشهورة على الاقتصار على ذكر النعجة ، وتأكيد قلتها بقوله واحِدَةٌ فهذا إشكال على قراءة ابن مسعود ، يمكن الجواب عنه بأن القصة الواقعة لما كانت امرأة أوريا الممثلة

بالنعجة فيها مشهورة بالحسن ، وصف مثالها في قصة الخصمين بالحسن زيادة في التطبيق ، لتأكيد التنبيه على أنه هو المراد بالتمثيل .

(197/661)

فتور القيام قطيع الكلام «1»

وقوله :

تمشى رويدا تكاد تنغرف «2»

[سورة ص (38) : الآيات 24 إلى 25]

قال لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ (24) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (25)

لَقَدْ ظَلَمَكَ جواب قسم محذوف . وفي ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطمعه .

والسؤال : مصدر مضاف إلى المفعول ، كقوله تعالى مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وقد ضمن معنى الإضافة فعدّى تعديتها ، كأنه قيل بإضافة نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ على وجه السؤال والطلب .

فإن قلت :

كيف سارع إلى تصديق أحد الخصمين حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه «3» ؟ قلت : ما قال ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ، ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم . ويروى أنه قال : أنا أريد أن

---

(1) فتور القيام قطوع الكلام لعوب العشاء إذا لم تنم

تبذ النساء بحسن الحديث ودل رخيم وخلق عمم

الفترة : ضعف حركة الأعضاء في العمل ، فهي كثيرة الفترة في القيام . وقطوع الكلام : أى قليلته ، أو كأنها لا تقدر على إتمام الألفاظ للينها واستحيائها ، فكأنها تقطعها تقطيعا ، كثيرة اللعب في وقت العشاء مع زوجها ، وإذا لم تنم : إشارة إلى أنها قد تنام من أول الليل ، وهو وصف لها بالكسل الذي هو من توابع اللين والأنوثة .

وبذ الرجل : إذا ساء خلقه ورث حاله وبذه الرجل : إذا غلبه ، أى تغلبهن بحسن الحديث ، والدل والدلال ، والتيه ، والتغنج ، والتشكل ، والتكسر ، والرخاوة ، والرخامة ، ورقة الصوت ولينه ، والتمنع مع الرضاء . واعتم النبت : طال ، واعتم الشيء : تم ، وجسم عميم : تام ، والجمع عمم ، كسرير وسرر ، ورجل عمم - بالافراد - :

أى تام ، فالمراد أن خلقها أى جسمها تام حسن .

(2) ما أنس سلمى غداة تنصرف تمشى رويدا تكاد تنغرف

حذف ألف أنس للوزن ، أى : لا أنساها ، بل أتذكرها وقت انصرافها ، وتمشى : بدل مما

قبله . وعبر بالمضارع لاستحضار الصورة المستحسنة . ورويدا : نصب بتمش ، أى : مشيا بتؤدة وأناة ، تكاد تنغرف : أى تنقطع وتنكسر .

وغرفته فانغرف . قطعته فانقطع ، أو تكاد تؤخذ من الأرض ، كما يغرف الماء باليد ، فكأنها ماء لتنكلها وتقطعها في تبخترها . وفرس غروف : كثير الأخذ من الأرض بقوائمه .

(3) . قال محمود : «فان قلت كيف سارع بتصديق أحد الخصمين قبل سماع كلام الآخر ، وأجاب بأن ذلك كان بعد اعتراف خصمه ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم» قال أحمد : ويحتمل أن يكون ذلك من داود على سبيل الفرض والتقدير ، أى : إن صح ذلك فقد ظلمك .

(198/661)

آخذها منه وأكمل نعاجى مائة ، فقال داود : إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى طرف الأنف والجبهة ، فقال : يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا ، وأنت فعلت كيت وكيت ، ثم نظر داود فلم ير أحدا ، فعرف ما وقع فيه والْخُلَطاءِ الشركاء الذين خلطوا أموالهم ، الواحد : خليط ، وهي الخلطة ، وقد غلبت في الماشية ،

والشافعي رحمه اللّه يعتبرها ، فإذا كان الرجلان خليطين في ماشية بينهما غير مقسومة ، أو لكل واحد منهما ماشية على حدة إلا أنّ مراحهما ومساقهما وموضع حلبهما والراعي والكلب واحد والفحولة مختلطة : فهما يزكيان زكاة الواحد فإن كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة . وإن كانوا ثلاثة ولهم مائة وعشرون لكل واحد وأربعون ، فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد . وعند أبى حنيفة : لا تعتبر الخلطة ، والخليط والمنفرد عنده واحد ، ففي أربعين بين خليطين : لا شيء عنده ، وفي مائة وعشرين بين ثلاثة : ثلاث شياه . فإن قلت : فهذه الخلطة ما تقول فيها ؟ قلت : عليهما شاة واحدة ، فيجب على ذى النعجة أداء جزء من مائة جزء من الشاة عند الشافعي رحمه اللّه ، وعند أبى حنيفة لا شيء عليه ، فإن قلت : ما ذا أراد بذكر حال الخلطاء في ذلك المقام ؟ قلت : قصد به الموعظة الحسنة والترغيب في إيثار عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة ، وأن يكرّه إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم ، مع التأسف على حالهم ، وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه من خليطه ، وأنّ له في أكثر الخلطاء أسوة . وقرئ : ليبغى بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة ، وحذفها كقوله :

اضرب عنك الهموم طارقها «1»

وهو جواب قسم محذوف . وليبغ : بحذف الياء ، اكتفاء منها بالكسرة ، وما في وَقَلِيلٌ ما هُمْ للإبهام . وفيه تعجب من قلتهم . وإن أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها ، من

قول امرئ القيس :

وحديث ما على قصره «2»

---

(1) اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسوط قونس الفرس

لطرفة بن العبد ، وقال أبو حاتم وابن برى : هو مصنوع عليه . واضرب فعل أمر بنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة تقديرا ، وحذفها لغير وقف ولالتقاء الساكنين قليل . وقيل ضرورة كما هنا . والمعنى : ادفع عنك الهموم ، فهو استعارة مضرحة . وضربك بالسوط ، أى : كضربك به ترشيح ، وطارقها : بدل من الهموم ، أى الفاشي لك منها ، والسوط : معمول من جلد تساق به الفرس . ويروى : بالسيف ، لكنه غير ملائم للفرس ، بل للفارس . وقونسها : أعلى رأسها . وقيل : شعر عنقها . ويجوز تشبيه الهموم بحيوان يصح ضربه على طريق المكنية ، والضرب تخييل ، والطروق ترشيح .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 75 فراجعه إن شئت اه مصححه .

وانظر هل بقي له معنى قط . لما كان الظنّ الغالب يدانى العلم ، استعير له . ومعناه : وعلم داود وأيقن أَنَّما فَتَنَّاهُ أنا ابتليناه لا محالة بامرأة أوريا ، هل يثبت أو يزل ؟ وقرئ : فتناه ،

بالتشديد للمبالغة . وأفتناه ، من قوله :

لئن فتنتني لهى بالأمس أفتنت «1»

وفتناه وفتناه ، على أن الألف ضمير الملكين . وعبر بالراكع عن الساجد ، لأنه ينحنى ويخضع كالساجد . وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في سجدة التلاوة ، على أنّ الركوع يقوم مقام السجود . وعن الحسن : لأنه لا يكون ساجدا حتى يركع ، ويجوز أن يكون قد استغفر اللّه لذنبه وأحرم بركعتي الاستغفار والإنابة ، فيكون المعنى : وخرّ للسجود راكعا أى مصليا ، لأنّ الركوع يجعل عبارة عن الصلاة وَأَنَابَ ورجع إلى اللّه تعالى بالتوبة والتنصل . وروى أنه بقي ساجدا أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أو ما لا بدّ منه ولا يرقأ دمعه حتى نبت العشب من دمعه إلى رأسه ، ولم يشرب ماء إلا وثلثاه دمع ، وجهد نفسه راغبا إلى اللّه تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك ، واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه ، واجتمع إليه أهل الزيغ من بنى إسرائيل ، فلما غفر له حاربه فهزمه .

وروى أنه نقش خطيئته في كفه حتى لا ينساها . وقيل : إنّ الخصمين كانا من الإنس ، وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما : إما كانا خليطين في الغنم ، وإما كان أحدهما موسرا وله نسوان كثيرة من المهائر والسراري ، والثاني معسرا ماله إلا امرأة واحدة ، فاستنزله عنها وإنما فزع لدخولهما عليه في غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين ، وما كان ذنب داود

إلا أنه صدّق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسألته «2»

---

(1) لئن فتنتني لهى بالأمس أفتنت سعيدا فأمسى قد قلى كل مسلم

وألقى مصابيح القراءة واشترى وصال الغواني بالكتاب المنمنم

للأعشى الهمداني . وفتنته المرأة – بالتخفيف والتشديد – وأفتنته : دلهته وحيرته . و«لهى بالأمس أفتنت» جواب القسم المدلول عليه باللام في قوله : لئن فتنتني . وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم . والمعنى : إن فتنتني فلا أحزن ولا أتعجب ، فان تلك عادتها من قبل ، فالمراد بالأمس : الزمن الماضي . وسعيد : هو ابن جبير ، كان عالما تقيا . وقلى كل مسلم ، أى : بغض كل مسلم سواها . وعبر بالمسلم ، لأنه يبعد بغضه . والمصابيح : يجوز أنها حقيقة ، وأنها مجاز عن الكتب . والغواني : الجميلات . والمنمنم : المحسن بنقوش الكتابة .

(2) . قال محمود : «ونقل بعضهم أن هذه القصة لم تكن من الملائكة وليست تمثيلا وإنما كانت من البشر إما خليطين في الغنم حقيقة ، وإما كان أحدهما موسرا وله نسوان كثيرة من المهاتر والسراري والثاني معسرا وماله إلا امرأة واحدة ، فاستنزله عنها ، وفزع داود ، وخوفه أن يكونا مغتالين لأنهما دخلا عليه في غير وقت القضاء ، وما كان ذنب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر ونسبه إلى الظلم قبل مسألته» قال أحمد : مقصود هذا القائل تنزيه داود عن ذنب يبعثه عليه شهوة النساء ، فأخذ الآية على ظاهرها وصرف الذنب

إلى العجلة في نسبة الظلم إلى المدعى عليه ، لأن الباعث على ذلك في الغالب إنما هو التهاب الغضب وكراهيته أخف مما يكون الباعث عليه الشهوة والهوى ، ولعل هذا القائل يؤكد رأيه في الآية بقوله تعالى عقبها وصية لداود عليه السلام : يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فما جرت العناية بتوصيته فيما يتعلق بالأحكام إلا والذي صدر منه أولا وبان منه من قبيل ما وقع له في الحكم بين الناس ، وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : داود وغيره - منزهون من الوقوع في صغائر الذنوب مبرؤن من ذلك ، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة ، وهذا هو الحق الأبلج ، والسبيل الأبهج ، إن شاء اللّه تعالى .

(200/661)

[سورة ص (38) : آية 26]

يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (26)

خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ أى استخلفناك على الملك في الأرض ، كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها . ومنه قولهم : خلفاء اللّه في أرضه . وجعلناك خليفة ممن

كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق . وفيه دليل على أنّ حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ أى بحكم اللّه تعالى إذ كنت خليفته وَلا تَتَّبِعِ هوى النفس في قضائك وغيره مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا فَيُضِلَّكَ الهوى فيكون سببا لضلالك عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ عن دلائله التي نصبها في العقول ، وعن شرائعه التي شرعها وأوحى بها .

وَيَوْمَ الْحِسابِ متعلق بنسوا ، أى : بنسيانهم يوم الحساب ، أو بقوله لهم ، أى : لهم عذاب يوم القيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل اللّه . وعن بعض خلفاء بنى مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز أو للزهري : هل سمعت ما بلغنا ؟ قال : وما هو ؟ قال : بلغنا أن الخليفة لا يجرى عليه القلم ولا تكتب عليه معصية . فقال : يا أمير المؤمنين ، الخلفاء أفضل أم الأنبياء ؟ ثم تلا هذه الآية .

[سورة ص (38) : آية 27]

وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27)

باطِلًا خلقا باطلا ، لا لغرض صحيح وحكمة بالغة . أو مبطلين عابثين ، كقوله تعالى وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وتقديره : ذوى باطل . أو عبثا ، فوضع باطلا موضعه ، كما وضعوا هنيئًا موضع المدر ، وهو صفة ، أى ما

خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ، ولكن للحق المبين ، وهو أن خلقناها نفوسا «1» أودعناها العقل

---

(1) . قوله «و هو أن خلقنا نفوسا» عبارة النسفي : وهو أنا خلقنا نفوسا . (ع)

[.....]

(201/661)

والتمييز ، ومنحناها التمكين ، وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف ، وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم . وذِلكَ إشارة إلى خلقها باطلا ، والظن : بمعنى المظنون ، أى : خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا . فإن قلت : إذا كانوا مقرين بأن اللّه خالق السماوات والأرض وما بينهما بدليل قوله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة . قلت : لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب ، مؤديا إلى أن خلقها عبث وباطل ، جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه ، لأنّ الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها ، فمن جحده فقد جحد الحكمة من أصلها ، ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق ، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره ، فكان إقراره بكونه خالقا

كلا إقرار .

[سورة ص (38) : آية 28]

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28)

أَمْ منقطعة . ومعنى الاستفهام فيها الإنكار ، والمراد : أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند اللّه أحوال من أصلح وأفسد ، وأتقى وفجر ، ومن سوّى بينهم كان سفيها ولم يكن حكيما .

[سورة ص (38) : آية 29]

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (29)

وقرئ : مباركا ، وليتدبروا : على الأصل ، ولتدبروا : على الخطاب . وتدبر الآيات : التفكر فيها ، والتأمل الذي يؤدى إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة ، لأن من اقتنع بظاهر المتلوّ ، لم يحل منه بكثير طائل ، «1» وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ، ومهرة نثور لا يستولدها . وعن الحسن : قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله : حفظوا حروفه وضيعوا حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : واللّه لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد واللّه أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل ، واللّه ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، واللّه

ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة ، «2» لا كثر

---

(1) . قوله لم يحل منه بكثير طائل» في الصحاح : قولهم «لم يحل منه بطائل» أى : لم يستفد منه كبير فائدة وفيه : اللقح - بالكسر - : الإبل بأعيانها ، الواحدة : لقوح ، وهي الحلوب ، مثل : فلوص وقلاص : واللقحة :

اللقوح ، والجمع لقح مثل قربة قرب ، وفيه : ناقة درور ، أى : كثيرة اللبن . وفيه : النثور ، أى : كثيرة الولد .

(2) . قوله «ولا الوزعة» جمع وازع ، وهو الذي يكف عن الضرر ، والذي يتقدم الصف فيصلحه بالتقديم والتأخير . أفاده الصحاح . (ع)

(202/661)

اللّه في الناس مثل هؤلاء . اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، وأعذنا من القراء المتكبرين .

[سورة ص (38) : الآيات 30 إلى 33]

وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (31) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (32) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ (33)

وقرئ: نعم العبد ، على الأصل ، «1» والمخصوص بالمدح محذوف . وعلل كونه ممدوحا بكونه أوّابا رجاعا إليه بالتوبة . أو مسبحا مؤوّبا للتسبيح مرجعا له ، لأن كل مؤوّب أوّاب .

والصافن : الذي في قوله :

ألف الصّفون فما يزال كأنّه مما يقوم على الثّلاث كسيرا «2»

وقيل : الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل : هو المتخيم . وأما الصافن : فالذي يجمع بين يديه . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «من سره أن يقوم الناس له صفونا فليتبوّأ مقعده من النار» «3» أى : واقفين كما خدم الجبابرة . فإن قلت : ما معنى وصفها بالصفون ؟ قلت : الصفون لا يكاد يكون في الهجن ، وإنما هو في العراب الخلص . وقيل : وصفها بالصفون والجودة ، ليجمع لها بين الوصفين المحمودين : واقفة وجارية ، يعنى : إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعا خفافا في جريها . وروى أن سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين ، فأصاب ألف فرس . وقيل : ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة . وقيل :

خرجت من البحر لها أجنحة ، فقعد يوما بعد ما صلى الأولى على كرسيه «4» واستعرضها ، فلم

---

(1) . قوله «و قرئ نعم العبد على الأصل» لعله بفتح النون وكسر العين ، كما يفيده

الصحاح. (ع)

(2) . لامرئ القيس . وقيل : للعجاج يصف فرسا . والصفون – بالمهملة – : الوقوف على سنبك يد أو رجل .

والسنبك : طرف حافر الفرس . والصفون – بالمعجمة – : الجمع بين اليدين في الوقوف ، ومما يقوم : خبر كان ، أى : أحب الصفون ، كأنه من الجنس الذي يقوم على ثلاث قوائم . أو كأنه مخلوق من القيام على ثلاثة كخلق الإنسان من عجل ، حال كونه مكسور القائمة الرابعة ، أو كاسرها أى ثانيها ، فما موصولة أو مصدرية . وكسيرا :

حال ، والجملة : خبر يزال ، وهذا ما استقر عليه رأى ابن الحاجب في الأمالى بعد كلام طويل ، ولو جعلت ما مصدرية ، وكسيرا : خبر كأن ، كان حقه الرفع ، ولو جعلته خبر يزال كما اختاره ابن هشام ، لكان المعنى :

فلا يزال كسيرا ، كأنه مما يقوم على الثلاث على ما مر . ويجوز أن يكون المعنى : فلا يزال كسيرا من قيامه على الثلاث ، وكأنه اعتراض ، وخبره محذوف ، أى كأنه كسير . وفائدته الاحتراس .

(3) . لم أجده هكذا وفي السنن حديث معاوية «من سره أن يتمثل الناس له قياما» وفي الغريب لأبى عبيد من حديث البراء رضى اللّه عنه «كنا إذا صلينا مع رسول اللّه صلى

اللّه عليه وسلم فرفع رأسه قمنا معه صفوفا .

(4) . قوله «بعد ما صلى الأولى على كرسيه» عبارة النسفي . صلى الظهر . (ع)

(203/661)

تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر أو عن ورد من الذكر كان له وقت العشى ، وتهيبوه فلم يعلموه ، فاغتم لما فاته ، فاستردها وعقرها مقربا «1» للّه ، وبقي مائة ، فما بقي في أيدى الناس من الجياد فمن نسلها ، وقيل : لما عقرها أبدله اللّه خيرا منها ، وهي الريح تجرى بأمره . فإن قلت : ما معنى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ؟ قلت : أحببت : مضمن معنى فعل يتعدى بعن ، كأنه قيل : أنبت حب الخير عن ذكر ربى . أو جعلت حب الخير مجزيا أو مغنيا عن ذكر ربى . وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان : أن «أحببت» بمعنى : لزمت ، من قوله :

مثل بعير السوء إذ أحبّا «2»

وليس بذاك . والخير : المال ، كقوله إِنْ تَرَكَ خَيْراً وقوله وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ والمال : الخيل التي شغلته . أو سمى الخيل خيرا كأنها نفس الخير لتعلق الخير بها . قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة «3»» وقال في زيد

الخيل حين وفد عليه وأسلم : «ما وصف لي رجل فرأيته إلا كان دون ما بلغني إلا زيد الخيل» «4» وسماه زيد الخير . وسأل رجل بلالا رضى اللّه عنه عن قوم يستبقون : من السابق ؟ فقال :

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . فقال له الرجل : أردت الخيل . فقال : وأنا أردت الخير «5» .

---

(1) . قوله «وعقر ما مقربا للّه» عبارة النسفي : تقربا . (ع)

(2) كيف قربت عمك القرشبا حين أتاك لاغبا مخبا

حلت عليه بالقفيل ضربا تبا لمن بالهون قد ألبا

مثل بعير السوء إذ أحبا

لأبى محمد الفقعسي . والقرشب - بكسر أوله وفتح ثالثه - : المسن ، واللاغب ، من اللغوب : وهو التعب . والمخب من أخبه : إذا حمله على الخبب ، وهو نوع من السير . أو من أخب : إذا لزم المكان كما قيل . وحلت : أى قمت ووثبت عليه . والقفيل : السوط . وضربا : بمعنى ضاربا . أو تضربه ضربا . والتب : الهلاك ، وهو دعاء عليه ، وفعله محذوف وجوبا . والهون - بالضم - : الهوان . وألب بالمكان : أقام به ، ورواه الأصمعى هكذا :

كيف قربت شيخك الأذبا لما أتاك يابسا قرشبا

قمت عليه بالقفيل ضربا مثل بعير السوء إذ أحبا

والذيب : كثرة الشعر وطوله . والأذب : البعير الذي نبت على حاجبيه شعيرات ، فإذا ضربته الريح نفر وماج .

وقال الجوهري : الاخباب : البروك . وهو في الإبل كالحران في الخبل .

(3) . متفق عليه من حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما .

(4) . ذكره ابن إسحاق في المغازي بغير سند ، والبيهقي في الدلائل من طريقه . وذكره ابن سعد عن الواقدي بأسانيد له مقطوعة

(5) . أخرجه ابراهيم الحربي من رواية مغيرة عن الشعبي قال «كان رهان . فقال رجل لبلال : من سبق ، قال :

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . قال : فمن صلى ؟ قال : أبو بكر . قال : إنما أعنى في الخيل» قال : وأنا أعنى في الخير»

(204/661)

والتواري بالحجاب : مجاز في غروب الشمس عن توارى الملك . أو المخبأة بحجابهما .

والذي دل على أن الضمير للشمس مرور ذكر العشى ، ولا بد للمضمر من جرى ذكر أو

دليل ذكر .

وقيل : الضمير للصافنات ، أى : حتى توارت بحجاب الليل يعنى الظلام . ومن بدع التفاسير :

أن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه فَطَفِقَ مَسْحاً فجعل يمسح مسحا ، أى يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ، يعنى : يقطعها . يقال : مسح علاوته ، إذا ضرب عنقه ، ومسح المسفر الكتاب «1» إذا قطع أطرافه بسيفه . وعن الحسن : كسف عراقيبها وضرب أعناقها ، أراد بالكسف : القطع ، ومنه : الكسف في ألقاب الزحاف في العروض . ومن قاله بالشين المعجمة فمصحف . وقيل : مسحها بيده استحسانا لها وإعجابا بها . فإن قلت : بم اتصل قوله رُدُّوها عَلَيَّ ؟ قلت : بمحذوف تقديره : قال ردّوها علىّ ، فأضمر وأضمر ما هو جواب له ، كأن قائلا قال : فما ذا قال سليمان ؟ لأنه موضع مقتض للسؤال اقتضاء ظاهرا ، وهو اشتغال نبىّ من أنبياء اللّه بأمر الدنيا ، حتى تفوته الصلاة عن وقتها . وقرئ : بالسؤق ، بهمز الواو لضمتها ، كما في أدؤر . ونظيره : الغئور ، في مصدر غارت الشمس . وأما من قرأ بالسؤق فقد جعل الضمة في السين كأنها في الواو للتلاصق ، كما قيل : مؤسى : ونظير ساق وسوق : أسد وأسد . وقرئ : بالساق ، اكتفاء بالواحد عن الجمع ، لأمن الإلباس .

[سورة ص (38) : آية 34]

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (34)

قيل : فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة . وملك بعد الفتنة عشرين سنة . وكان من فتنته :

أنه ولد له ابن ، فقالت الشياطين : إن عاش لم ننفك من السخرة ، فسبيلنا أن نقتله أو نخبله ، فعلم ذلك ، فكان يغذوه في السحابة «2» فما راعه إلا أن ألقى على كرسيه ميتا ، فتنبه على خطئه في أن لم يتوكل فيه على ربه ، فاستغفر ربه وتاب إليه . وروى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، كل واحدة تأتى بفارس يجاهد في سبيل اللّه ، ولم يقل : إن شاء اللّه ، فطاف عليهنّ فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذي نفسي بيده ، لو قال : إن شاء اللّه ، لجاهدوا في سبيل اللّه فرسانا أجمعون «3» ، فذلك قوله تعالى وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ . وهذا ونحوه مما لا بأس به . وأما ما يروى من حديث الخاتم والشياطين وعبادة

---

(1) . قوله «و مسح المسفر الكتاب» الذي في الصحاح : سفرت الكتاب أسفره سفرا . وسفرت المرأة :

كشفت عن وجهها . وأسفر الصبح : أى أضاء . وأسفر وجهه حسنا ، أى : أشرق ، فليحرر . (ع)

(2) . قوله «فكان يغذوه» في الصحاح: غذوت الصبي باللبن، أي ربيته به فاغتذى. (ع)

(3) . متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه. [. . . . . .]

(205/661)

الوثن في بيت سليمان، فاللّه أعلم بصحته «1» حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهي مدينة في بعض الجزائر، وأنّ بها ملكا عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر، فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها وأصاب بنتا له اسمها جرادة من أحسن الناس وجها، فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها، وكانت لا يرقأ دمعها حزنا على أبيها، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها، فكستها مثل كسوته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن له كعادتهنّ في ملكه، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد، فجلس عليه تائبا إلى اللّه متضرّعا، وكانت له أمّ ولد يقال لها أمينة، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها، وكان ملكه في خاتمه، فوضعه عندها يوما وأتاها الشيطان صاحب البحر - وهو الذي دلّ سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه صخر - على صورة سليمان فقال: يا أمينة خاتمي، فتختم به وجلس على كرسي

سليمان ، وعكفت عليه الطير والجنّ والإنس ، وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته ، فعرف أنّ الخطيئة قد أدركته ، فكان يدور على البيوت يتكفف ، فإذا قال : أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ، ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كلّ يوم سمكتين ، فمكث على ذلك أربعين صباحا عدد ما عبد الوثن في بيته ، فأنكر آصف وعظماء بنى إسرائيل حكم الشيطان ، وسأل آصف نساء سليمان فقلنا : ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة .

وقيل : بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهنّ ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر ، فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان ، فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم ، فتختم به ووقع ساجدا ، ورجع إليه ملكه ، وجاب صخرة لصخر «2» فجعله فيها ، وسدّ عليه بأخرى ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه في البحر . وقيل : لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها ، فقال له آصف : إنك لمفتون بذنبك والخاتم لا يقرّ في يدك ، فتب إلى اللّه عز وجل . ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا : هذا من أباطيل اليهود ، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل . وتسليط اللّه إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام ، وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهنّ : قبيح ، وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع . ألا ترى إلى قوله مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وأما السجود للصورة فلا يظن بنبىّ اللّه أن يأذن فيه ، وإذا كان بغير علمه فلا عليه . وقوله وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً

ناب عن إفادة معنى إنابة الشيطان منابه نبوّا ظاهرا .

---

(1) . أخرجه النسائي في التفسير من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وإسناده قوى وأخرجه ابن أبى حاتم من حديث ابن عباس قريبا مما أورده المصنف .

(2) . قوله «وجاب صخرة لصخر» أى : خرق أو قطع أفاده الصحاح . (ع)

(206/661)

[سورة ص (38) : آية 35]

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35)

قدّم الاستغفار على استيهاب الملك جريا على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم لا يَنْبَغِي لا يتسهل ولا يكون . ومعنى مِنْ بَعْدِي دوني . فإن قلت : اما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطى اللّه ما لا يعطيه غيره ؟ قلت : كان سليمان عليه السلام ناشئا في بيت الملك والنبوّة ووارثا لهما ، فأراد أن يطلب من ربه معجزة ، فطلب على حسب ألفه ملكا زائدا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ، ليكون ذلك دليلا على نبوّته قاهرا للمبعوث إليهم ، وأن يكون معجزة حتى

يخرق العادات ، فذلك معنى قوله لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي وقيل : كان ملكا عظيما ، فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود اللّه فيه ، كما قالت الملائكة أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ وقيل : ملكا لا أسلبه ولا يقوم غيرى فيه مقامي ، كما سلبته مرّة وأقيم مقامي غيرى . ويجوز أن يقال : علم اللّه فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين ، وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره ، وأوجبت الحكمة استيهابه ، فأمره أن يستوهبه إياه ، فاستوهبه بأمر من اللّه على الصفة التي علم اللّه أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباده . أو أراد أن يقول ملكا عظيما فقال لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته ، كما تقول : لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال ، وربما كان للناس أمثال ذلك ، ولكنك تريد تعظيم ما عنده . وعن الحجاج أنه قيل له : إنك حسود ، فقال : أحسد منى من قال هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي وهذا من جرأته على اللّه وشيطنته ، كما حكى عنه : طاعتنا أوجب من طاعة اللّه ، لأنه شرط في طاعته فقال فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وأطلق طاعتنا فقال وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ .

[سورة ص (38) : الآيات 36 إلى 40]

فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (36) وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (38) هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ

(39) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (40)

قرئ : الريح ، والرياح رُخاءً لينة طيبة لا تزعزع . وقيل : طيعة له لا تمتنع عليه حَيْثُ أَصابَ حيث قصد وأراد . حكى الأصمعى عن العرب : أصاب الصواب فأخطأ الجواب . وعن

(207/661)

رؤبة أنّ رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة ، فخرج إليهما فقال : أين تصيبان ؟

فقالا : هذه طلبتنا ورجعا ، ويقال : أصاب اللّه بك خيرا وَالشَّيَاطِينَ عطف على الريح كُلَّ بَنَّاءٍ بدل من الشياطين وَآخَرِينَ عطف على كل داخل في حكم البدل ، وهو بدل الكل من الكل : كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ، ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ ، وهو أوّل من استخرج الدرّ من البحر ، وكان يقرّن مردة الشياطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد . وعن السدى : كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم مغللين في الجوامع «1» . والصفد القيد ، وسمى به العطاء لأنه ارتباط للمنعم عليه . ومنه قول علىّ رضى اللّه عنه : من برّك فقد أسرك ، ومن جفاك فقد أطلقك . ومنه قول القائل : غل يدا

مطلقها ، وأرقّ رقبة معتقها . وقال حبيب : إنّ العطاء إسار ، وتبعه من قال :

ومن وجد الإحسان قيدا تقيّدا «2»

وفرقوا بين الفعلين فقالوا : صفده قيده ، وأصفده أعطاه ، كوعده وأوعده ، أى هذا الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة عَطاؤُنا بغير حساب ، يعنى : جما كثيرا لا يكاد يقدر على حسبه وحصره فَامْنُنْ من المنة وهي العطاء ، أى : فأعط منه ما شئت أَوْ أَمْسِكْ مفوّضا إليك التصرف فيه . وفي قراءة ابن مسعود : هذا فامنن أو أمسك عطاؤنا بغير حساب ، أو هذا التسخير عطاؤنا ، فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق ، وأمسك من شئت منهم في الوثاق بغير حساب ، أى لا حساب عليك في ذلك .

[سورة ص (38) : الآيات 41 إلى 44]

وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ (42) وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)

---

(1) . قوله «في الجوامع» في الصحاح «الجامعة» : الغل ، لأنها تجمع اليدين إلى العنق . (ع)

(2) وقيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

للمتنبي ، يقول : تركت سير الليل وراء ظهري ، أى : بالغت في تركه لمن قل ماله ، لأنه لا زال

يبتغيه ، واكتفيت بنعمتك العظمى ، وشبه الآمال التي امتدت إليه وبلغت مناها ، بأفراس منعلة بالذهب على طريق التصريحية والانعال ترشيح . ويجوز أن ذلك كناية عن عظم النعمة ، واستعار التقييد للمنع عن التطلع لغير الممدوح وقصر المدح عليه .

ويجوز أنه شبه نفسه بحيوان ، والتقييد : تخييل . والذرا - بالفتح - : كل ما ستر الشيء ، يقال : أنا في ظل الجبل وفي ذراه ، أو في ظل فلان وفي ذراه ، أى : في كنفه وحماه ، ومحبة : مفعول لأجله ، وشبه الإحسان بالقيد لأنه سبب استملاك النفس .

(208/661)

أَيُّوبَ عطف بيان . وإِذْ بدل اشتمال منه أَنِّي مَسَّنِيَ بأنى مسنى : حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ، ولو لم يحك لقال بأنه مسه : لأنه غائب . وقرئ بِنُصْبٍ بضم النون وفتحها مع سكون الصاد ، وبفتحهما ، وضمهما ، فالنصب والنصب : كالرشد والرشد ، والنصب : على أصل المصدر ، والنصب : تثقيل نصب ، والمعنى واحد ، وهو التعب والمشقة . والعذاب : الألم ، يريد مرضه وما كان يقاسى فيه من أنواع الوصب «1» . وقيل : الضرّ في البدن ، والعذاب في ذهاب الأهل والمال فإن قلت : لم نسبه إلى الشيطان ، ولا يجوز أن يسلطه اللّه على أنبيائه ليقضى من إتعابهم وتعذيبهم وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع

صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرّر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة

فحسب ؟ قلت : لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سببا فيما مسه اللّه به

من النصب والعذاب ، نسبه إليه ، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى اللّه في

دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو . وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من

تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى اللّه تعالى في أن يكفيه

ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل . وروى أنه كان يعوده ثلاثة

من المؤمنين ، فارتدّ أحدهم ، فسأل عنه فقيل ألقى إليه الشيطان : إن اللّه لا يبتلى الأنبياء

والصالحين ، وذكر في سبب بلائه أنّ رجلا استغاثه على ظالم فلم يغثه . وقيل : كانت

مواشيه في ناحية ملك كافر ، فداهنه ولم يغزه . وقيل : أعجب بكثرة ماله ارْكُضْ بِرِجْلِكَ

حكاية ما أجيب به أيوب ، أى : اضرب برجلك الأرض . وعن قتادة : هي أرض الجابية

«2» فضربها ، فنبعت عين فقيل هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ أى هذا ماء تغتسل به

وتشرب منه ، فيبرأ باطنك وظاهرك ، وتنقلب مآبك قلبة «3» .

وقيل : نبعت له عينان ، فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى ، فذهب الداء من

ظاهره وباطنه بإذن اللّه ، وقيل : ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ،

ثم باليسرى فنبعت باردة فشرب منها رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى مفعول لهما . والمعنى : أنّ الهبة

كانت للرحمة له ولتذكير أولى الألباب ، لأنهم إذا سمعوا بما

(1) . قوله «من أنواع الوصب» في الصحاح «الوصب» : المرض . (ع)

(2) . قوله «هي أرض الجابية» مدينة بالشام كما في الصحاح . (ع)

(3) . قوله «و تنقلب ما بك قلبة» في الصحاح «القلاب» داء يأخذ البعير . وقولهم : ما به قلبة ، أي : ليست به علة . (ع)

(209/661)

أنعمنا به عليه لصبره ، رغبهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل اللّه بهم وَخُذْ معطوف على اركض . والضغث : الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك . وعن ابن عباس : قبضة من الشجر ، كان حلف في مرضه ليضربنّ امرأته مائة إذا برأ ، فحلل اللّه يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها ، وهذه الرخصة باقية . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه أتى بمخدج «1» قد خبث بأمة ، فقال : «خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة» «2» ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة ، إمّا أطرافها قائمة ، وإما أعراضها مبسوطة مع وجود صورة الضرب ، وكان السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة فحرج صدره ، وقيل : باعت ذؤابتيها برغيفين وكانتا متعلق أيوب إذا قام . وقيل : قال لها الشيطان اسجدي لي سجدة

فأردّ عليكم ما لكم وأولادكم ، فهمت بذلك فأدركتها العصمة ، فذكرت ذلك له ، فحلف . وقيل : أوهمها الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برأ ، فعرضت له بذلك . وقيل :

سألته أن يقرب للشيطان بعناق وَجَدْنَاهُ صابِراً علمناه صابرا . فإن قلت : كيف وجده صابرا وقد شكا إليه ما به واسترحمه ؟ قلت : الشكوى إلى اللّه عز وعلا لا تسمى جزعا ، ولقد قال يعقوب عليه السلام : نَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ

وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب ، وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمنى العافية وطلبها ، فإذا صحّ أن يسمى صابرا مع تمنى العافية وطلب الشفاء ، فليسم صابرا مع اللجإ إلى اللّه تعالى ، والدعاء بكشف ما به ومع التعالج ومشاورة الأطباء ، على أن أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة .

حيث كان الشيطان بوسوس إليهم كما كان يوسوس اليه أنه لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ما ابتلى به ، وإرادة القوة على الطاعة ، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان . ويروى أنه قال في مناجاته : إلهى قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ، ولم يتبع قلبي بصرى ، ولم يهبني ما ملكت يمينى ، «3» ولم آكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان ، فكشف اللّه عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 70 . 99 ﴾

---

(1) . قوله «إنه أتى بمخدج» الخداج : النقصان ، وأخدجت الناقة : إذا جاءت بولدها

ناقص الخلق ، وإن كانت أيامه تامة فهي مخدج ، والولد مخدج ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . أخرجه النسائي وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة والبزار والطبراني من رواية أبى أمامة بن سهل عن سعيد بن عبادة . قال «كان بين أبياتنا رجل ضعيف مخدج ، فلم يرع الحي إلا وهو على أمة من إمائهم يخبث بها - الحديث» قال البزار : لم يرد إلا هذا ، واختلف في إسناده . فقيل هكذا . وقيل عن أبى الزناد عن أبى أمامة مرسلا ورواه أبو داود من وجه آخر عن أبى أمامة أنه أخبره بعض أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم .

(3) . قوله «ولم يهبني ما ملكت يميني» أى لم ينشطنى ولم يهيجني ، من هبت الريح : أى هاجت ، وهب البعير :

أى نشط ، كما في الصحاح . (ع)

(210/661)

وقال ابن الجوزى :

واختلفوا في معنى ﴿ ص ﴾

على سبعة أقوال :

أحدها : أنه قَسَم أَقسم اللهُ به ، وهو من أسمائه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه بمعنى صَدَقَ محمدٌ ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : صَدَقَ اللهُ ، قاله الضحاك .

وقد روي عن ابن عباس أنه قال : معناه صادق فيما وَعَدَ .

وقال الزجاج : معناه : الصادقُ اللهُ تعالى .

والرابع : أنه اسم من أسماء القرآن ، أَقسَمَ اللهُ به ، قاله قتادة .

والخامس : أنه اسم حَيَّة رأسُها تحت العرش وذنَبُها تحت الأرض السُّفلى ، حكاه أبو سليمان الدمشقي ، وقال : أظنه عن عكرمة .

والسادس : أنه بمعنى : حادِثِ القرآن ، أي : انظُر فيه ، قاله الحسن ، وهذا على قراءة من كسروا ، منهم ابن عباس ، [والحسن] ، وابن أبي عبلة .

قال ابن جرير : فيكون المعنى : صادِ بعَمَلِكَ القرآن ، أي : عارِضْه .

وقيل : اعْرَضْه على عملك ، فانظُر أين هو [منه] .

والسابع : أنه بمعنى : صادَ محمدٌ قلوبَ الخَلْق واستمالها حتى آمَنوا به وأَحَبُّوه .

حكاه الثعلبي ، وهذا على قراءة من فتح .

وهي قراءة أبي رجاء ، وأبي الجوزاء ، وحميد ، ومحبوب عن أبي عمرو .

قال الزجاج : والقراءة " صادْ " ، بتسكين الدال ، لأنها من حروف التَّهجِّي ، وقد قُرِئتْ بالفتح وبالكسر ، فمن فتحها ، فعلى ضربين :

أحدهما : لالتقاء الساكنين .

والثاني : على معنى : أتْلُ " صاد " ، ويكون [صاد] اسماً للسورة لاينصرف ؛ ومن كسر ، فعلى ضربين :

أحدهما : لالتقاء الساكنين أيضاً .

والثاني : على معنى : صادِ القرآن بعملك ، من قولك : صَادَى يُصَادِي : إذا قابَل وعادَل ، يقال : صادَيْتُه : إذا قابَلْته .

قوله تعالى : ﴿ ذِي الذِّكْرِ ﴾ في المراد بالذِّكْر ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الشَّرَف ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والسدي .

والثاني : البيان ، قاله قتادة .

والثالث : التذكير ، قاله الضحاك .

(211/661)

فإن قيل : أين جواب القسَم بقوله : ﴿ ص والقرآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ؟

فعنه خمسة أجوبة :

أحدها : أن " ص " جواب لقوله : ﴿ والقرآن ﴾ ، ف ﴿ ص ﴾ في معناها ، كقولك :

وَجَبَ واللهِ ، نَزَلَ واللهِ ، حَقٌّ واللهِ ، قاله الفراء ، وثعلب .

والثاني : أن جواب ﴿ ص ﴾ قوله ﴿ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِم مِنْ قَرْنٍ ﴾ ، ومعناه : لَكَمْ .

فلمّا طال الكلام ، حُذفت اللامُ ، ومِثله : ﴿ والشَّمْسِ وضُحاها ﴾ [الشمس : 1]

﴿ قد أَفْلَحَ ﴾ [الشمس : 9] ، فإن المعنى : لقد أَفْلَحَ ، غير أنه لمّا اعترض بينهما كلام ،

تبعه قوله : ﴿ قد أَفْلَحَ ﴾ ، حكاه الفراء ، وثعلب أيضاً .

والثالث : أنه قوله : ﴿ إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ [ص : 14] ، حكاه الأخفش .

والرابع : أنه قوله : ﴿ إِنَّ ذلكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النّارِ ﴾ [ص : 64] ، قاله الكسائي .

وقال الفراء : لا نجده مستقيماً في العربية ، لِتأخُّره جداً عن قوله ﴿ والقرآنِ ﴾ .

والخامس : أن جوابه محذوف ، تقديره : والقرآنِ ذي الذِّكْر ما الأَمْرُ كما يقول الكُفَّار ،

ويدل على هذا المحذوف قولُه ﴿ بَلِ الذين كَفَروا في عِزَّةٍ وشقاقٍ ﴾ ، ذكره جماعة من

المفسرين ، وإلى نحوه ذهب قتادة .

والعِزَّةُ : الحَمِيَّةُ والتكبُّر عن الحَقّ .

وقرأ عمرو بن العاص ، وأبو رزين ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري ، ومحبوب عن أبي

عمرو : ﴿ في غِرَّةٍ ﴾ بغين معجمة وراء غير معجمة .

والشِّقاق : الخِلاف والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سبق بيان الكلمتين

مشروحاً [البقرة : 206 ، 138] .

ثم خوّفهم بقوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِم مِنْ قَرْنٍ ﴾ يعنى الأُمم الخالية ﴿ فنادَوْا ﴾ عند وقوع الهلاك بهم .

وفي هذا النداء قولان :

أحدهما : أنه الدُّعاء .

والثاني : الاستغاثة .

(212/661)

قوله تعالى : ﴿ ولاتَ حينَ مَناصٍ ﴾ وقرأ الضحاك ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري ، وابن يعمر : ﴿ ولاتَ حينُ ﴾ بفتح التاء ورفع النون .

قال ابن عباس : ليس حين يروه فِرار .

وقال عطاء : في لغة أهل اليمن ﴿ لاتَ ﴾ بمعنى " ليس " .

وقال وهب بن منبه : هي بالسريانية .

وقال الفراء : " لاتَ " بمعنى " ليس " .

والمعنى : ليس بحينِ فِرار .

ومن القرّاء من يَخْفضُ " لاتِ " ، والوجه النَّصْب ، لأنها في معنى " ليس " .

أنشدني المفضَّل :

تَذَكَّرَ حُبَّ لَيْلَى لاتَ حِينا . . .

وأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ القَرِينا

قال ابن الأنباري : كان الفراء والكسائي والخليل وسيبويه والأخفش وأبو عبيدة يذهبون إلى أن التاء في قوله تعالى : ﴿ ولاتَ ﴾ منقطعة من ﴿ حين ﴾ قال : وقال أبو عبيدة : الوقف عندي على هذا الحرف ﴿ ولا ﴾ ، والابتداء ﴿ تحين ﴾ لثلاث حُجج :

إحداهن : أن تفسير ابن عباس يشهد لها ، لأنه قال : ليس حِينَ يَرَوْهِ فِرار ؛ فقد عُلِمَ أنّ ﴿ ليس ﴾ هي أخت ﴿ لا ﴾ وفي معناها .

والحُجة الثانية : أنّا لا نَجِدُ في شيء من كلام العرب ﴿ ولات ﴾ ، إنما المعروفة ﴿ لا ﴾ .

والحجة الثالثة : أن هذه التاء ، إنما وجدناها تلحق مع ﴿ حين ﴾ ومع ﴿ الآن ﴾ ومع ال ﴿ أوان ﴾ فيقولون : كان هذا تحين كان ذلك ، وكذلك : " تأوان " ، ويقال : اذهب تَلانَ ، ومنه قول أبي وجزة السعدي :

العَاطِفُونَ تَحِينَ مَا مِنْ عَاطِفٍ . . .

والمُطْعِمُونَ زَمَانَ مَا مِنْ مُطْعِمِ

وذكر ابن قتيبة عن ابن الأعرابي أن معنى هذا البيت : " العاطفونة " بالهاء ، ثم تبتدىء :

" حينَ ما مِنْ عاطِفٍ " ، قال ابن الأنباري : وهذا غلط لأن الهاء إنما تُقْحَم على النُّون في مواضع القَطْعُ والسُّكون ، فأمّا مع الاتصال ، فإنه غير موجود .

(213/661)

وقال عليّ بن أحمد النيسابوري : النحويُّون يقولون في قوله ﴿ ولاتَ ﴾ هي ﴿ لا ﴾ زيدت فيها التاء ، كما قالوا : ثُمَّ وثُمَّتْ ، ورُبَّ ورُبَّتْ ، وأصلها هاءٌ وُصِلَتْ ب ﴿ لا ﴾ فقالوا : " لاه " فلمّا وَصَلُوها ، جعلوها تاءً ؛ والوقف عليها بالتاء عند الزجاج ، وأبي عليّ ، وعند الكسائي بالهاء ، وعند أبي عبيد الوقف على ﴿ لا ﴾ .

فأما المَناص ، فهو الفرار .

قال الفراء : النَّوْص في كلام العرب : التأخُّر ؛ والبَوْصُ : التقدّم .

قال إمرؤ القَيْس :

أَمِنْ ذِكْرِ سَلْمَى إذْ نأَتْكَ تَنُوصُ . . .

فتَقْصُرُ عَنْها خَطْوَةً وتَبُوصُ

وقال أبوعبيدة : المَنَاصُ : مصدر نَاصَ يَنُوصُ ، وهوالمنجى والفوز .

قوله تعالى : ﴿ وعَجِبوا ﴾ يعني الكفار ﴿ أَنْ جاءَهم مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ يعني رسولاً من

أَنْفُسهم يُنْذِرُهم النَّارَ .

﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾ لأنه دعاهم إلى الله وحده وأبطل عبادة آلهتهم ؛ وهذا قولهم لمّا اجتمعوا عند أبي طالب ، وجاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أتُعطوني كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ، وهي " لا إله إلا الله " ، فقاموا يقولون : ﴿ أَجَعَلَ الآلهةَ إلهاً واحداً ﴾ ونزلت هذه الآية فيهم .

﴿ إنّ هذا ﴾ [الذي] يقول محمد من أن الآلهة إله واحد ﴿ لَشَيءٌ عُجابٌ ﴾ أي : لأمرٌ عَجَبٌ .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، وابن السميفع : ﴿ عُجّابٌ ﴾ بتشديد الجيم .

قال اللغويون : العُجَاب والعجّاب والعجيب بمعنى واحد ، كما تقول : كَبِيرٌ وكُبَارٌ وكُبَّارٌ ، وكَرِيمٌ وكُرامٌ وكُرَّامٌ ، وطَوِيلٌ وطُوَالٌ وطُوَّالٌ ؛ وأنشد الفراء :

جاؤوا عَجَبٍ مِنَ العَجَبْ . . .

أُزَيْرِقِ العينينِ طُوَّالِ الذَّنَبْ

قال قتادة : عجب المشركون أن دُعي اللهُ وَحْدَه وقالوا : أَيَسْمَعُ لحاجاتنا جميعاً إلهٌ واحد ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ وانْطَلَقَ المَلأُ منهم ﴾ قال المفسرون : لمّا اجتمع أشراف قريش عند أبي طالب وشَكَوا إليه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على ما سبق بيانه ، نفروا من قوله : " لا إله إلا الله " ، وخرجوا من عند أبي طالب ، فذلك قوله ﴿ وانْطَلَقَ الملأُ منهم ﴾ .

والانطلاق : الذّهَابُ بسهولة ، ومنه طَلاَقَةُ الوَجْه ، والملأُ أشراف قريش ، فخرجوا يقول بعضهم لبعض : ﴿ امْشُوا ﴾ و ﴿ أن ﴾ بمعنى " أي " ؛ فالمعنى : أي : امْشُوا .

قال الزجاج : ويجوز أن يكون المعنى : انْطَلِقوا بأن امْشُوا ، أي : انْطَلَقوا بهذا القول .

وقال بعضهم : المعنى : انْطَلَقوا يقولون : امْشُوا إلى أبي طالب فاشْكُوا إليه ابنَ أخيه ، ﴿ واصبروا على آلهتكم ﴾ أي : اثْبُتوا على عبادتها ﴿ إنّ هذا ﴾ الذي نراه من زيادة أصحاب محمد ﴿ لَشَيءٌ يُراد ﴾ أي : لأمرٌ يُرادُ بِنَا .

﴿ ما سَمِعْنا بهذا ﴾ الذي جاء به محمدٌ من التوحيد ﴿ في المِلَّة الآخِرة ﴾ وفيها ثلاثة أقوال :

أحدها : النصرانية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وإبراهيم بن المهاجر عن مجاهد ، وبه قال محمد بن كعب القرظي ، ومقاتل .

والثاني : أنها مِلَّة قريش ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال قتادة .

والثالث : اليهودية والنصرانية ، قاله الفراء ، والزجاج ؛ والمعنى أن اليهود أشركت بعُزَير ،

والنصارى قالت : ثالث ثلاثة ، فلهذا أُنْكِرَتِ التوحيدَ .

﴿ إنْ هذا ﴾ الذي جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، ﴿ إلا اختلاقٌ ﴾ أي : كذب .

﴿ أأُنزل عليه الذِّكر ﴾ يعنون القرآن .

" عليه " يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ﴿ مِنْ بيننا ﴾ أي : كيف خُصَّ بهذا دونَنَا ، وليس بأعلانا نَسَبَا ولا أعظمَنا شَرَفَا ؟ ! قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ في شَكٍّ مِنْ ذِكْري ﴾ أي : من القرآن ؛ والمعن : أنهم ليسوا على يقين ممّا يقولون ، إنما هم شاكُّون ﴿ بَلْ لَمّا ﴾ قال مقاتل : " لمّا " بمعنى " لم " كقوله

(215/661)

﴿ ولمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلوبكم ﴾ [الحجرات : 14] .

وقال غيره : هذا تهديد لهم .

والمعنى : أنه لو نزل بهم العذاب ، علموا أن ما قاله محمدٌ حقٌّ .

وأثبت ياء ﴿ عذابي ﴾ في الحالين يعقوب .

قال الزجاج : ولما دَلَّ قولُهم : ﴿ أأُنْزِلَ عليه الذِّكْرُ ﴾ على حسدهم له ، أعلم اللهُ عز

وجل أن المُلْك والرِّسالة إليه ، فقال : ﴿ أَمْ عِنْدَهم خزائنُ رَحْمَةِ ربّكَ ﴾ ؟ ! قال المفسرون : ومعنى الآية : أبأيديهم مفاتيحُ النُّبوّة فيضعونها حيث شاؤوا ؟ ! والمعنى : ليست بأيديهم ، ولا مُلْكُ السموات والأرض لهم .

فإن ادّعَوْا شيئاً من ذلك ﴿ فَلْيَرْتَقُوا في الأَسبابِ ﴾ .

قال سعيد بن جبير : أي : في أبواب السماء .

وقال الزجاج : فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء .

قوله تعالى : ﴿ جُنْدٌ ﴾ أي : هُمْ جُنْدٌ .

والجُند : الأَتباع ؛ فكأنه قال : هُمْ أَتباعٌ مقلّدون ليس فيهم عالِمٌ راشد .

و﴿ ما ﴾ زائدة ، و ﴿ هنالك ﴾ إشارة إلى بدر .

والأحزاب : جميع مَنْ تقدّمهم من الكفار الذين تحزّبوا على الأنبياء .

قال قتادة : أخبر اللهُ نبيّه وهو بمكة أنه سيَهْزِمُ جُند المشركين ، فجاء تأويلُها يومَ بدر .

قوله تعالى : ﴿ كذَّبَتْ قَبْلَهم قومُ نُوحٍ ﴾ قال أبو عبيدة : قَوْمٌ من العرب يؤنّثون " القوم " ، وقوم يذكّرون ، فإن احتُجَّ عليهم بهذه الآية قالوا : وقع المعنى على العشيرة ، واحتَجُّوا بقوله ﴿ كَلاّ إنّها تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس : 11] ، قالوا : والمُضْمَر مذكَّر .

قوله تعالى : ﴿ وفرعونُ ذو الأوتاد ﴾ فيه ستة أقوال :

أحدها : أنه كان يعذِّب الناس بأربعة أوتاد يَشُدُّهم فيها ، ثُمَّ يرفع صخرة فتُلقى على

الإِنسان فتَشْدَخُه ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وكذلك قال الحسن ، ومجاهد : كان يعذِّب الناسَ بأوتاد يُوتِدُها في أيديهم وأرجُلهم .

(216/661)

والثاني : أنه ذو البِناء المُحْكَم ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال الضحاك ، والقرظي ، واختاره ابن قتيبة ، قال : والعرب تقول : هُمْ في عزٍّ ثابتِ الأوتاد ومُلكٍ ثابتِ الأوتاد ، يريدون أنه دائم شديد ، وأصل هذا ، أن البيت [من بيوتهم] يثبتُ بأوتاد ، قال الأسود بن يَعْفُرَ :

[ولقد غَنُّوا فيها بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ] . . .

في ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الأَوْتادِ

والثالث : أن المراد بالأوتاد : الجنودُ ، رواه عطية عن ابن عباس ، وذلك أنهم كانوا يَشُدُّونَ مُلكه ويُقَوُّون أمره كما يقوِّي الوَتِدُ الشيءَ .

والرابع : أنه كان يبني مَناراً يذبح عليها الناس .

والخامس : أنه كان له أربع أسطوانات ، فيأخذ الرَّجُلَ فيمُدُّ كلَّ قائمة إلى أُسْطوانة فيعذِّبه .

روي القولان عن سعيد بن جبير .

والسادس : أنه كانت له أوتاد وأرسان وملاعب يُلعَب له عليها ، قاله عطاء ، وقتادة .

ولّما ذكر المكذّبين ، قال : ﴿ أولئك الأحزابُ ﴾ فأعَلمنا أن مشركي قريش من هؤلاء ، وقد عذِّبوا وأُهلكوا ، ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ ، أثبت الياء في الحالين يعقوب .

﴿ وما ينظرُ ﴾ أي : وما يَنتظر ﴿ هؤلاء ﴾ يعني كفار مكة ﴿ إلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾

وفيها قولان :

أحدهما : أنها النفخة الأولى ، قاله مقاتل .

والثاني : النفخة الأخيرة ، قاله ابن السائب .

وفي الفَواق قراءتان : قرأ حمزة ، وخلف ، والكسائي : بضم الفاء ، وقرأ الباقون : بفتحها ، وهل بينهما فرق أم لا ؟ فيه قولان :

أحدهما : أنهما لغتان بمعنى واحد ، وهو معنى قول الفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج .

(217/661)

قال الفراء : والمعنى : مالها من راحة ولا إِفاقة ، وأصله من الإِفاقة في الرضاع إذا ارتضعت البهيمة أُمَّها ثم تركتْها حتى تنزل شيئاً من اللَّبَن ، فتلك الإفاقة ، وجاء عن النبي

صلى الله عليه وسلم أنه قال : " العِيادةُ قَدْرُ فُواق ناقة " ومن يفتح الفاء ، فهي لغة جيدة عالية ، وقال ابن قتيبة : الفُواق والفَواق واحد ، وهو أن تُحْلَبَ النّاقةُ وتُترك ساعةً حتى تُنزل شيئاً من اللَّبَن ، ثم تُحْلَب ، فما بين الحَلْبتين فواق ، فاستعير الفواق في موضع المكث والانتظار .

وقال الزجاج : الفُواق ما بين حلبتَي النّاقة ، وهو مشتق من الرُّجوع ، لأنه يَعُودُ اللَّبَن إلى الضّرع بين الحَلْبتين ، يقال : أفاق من مرضه ، أي : رَجَعَ إلى الصِّحَّة .

والثاني : أن مَنْ فتحها ، أراد : مالَها مِنْ راحة ، ومن ضمَّها ، أراد : فُواق الناقة ، قاله أبو عبيدة .

وللمفسرين في معنى الكلام أربعة أقوال :

أحدها : مالها من رجعة ، ثم فيه قولان .

أحدهما : مالها من ترداد ، قاله ابن عباس ، والمعنى : أن تلك الصيحة لا تُكَرَّرُ .

والثاني : مالها من رجوع إلى الدنيا ، قاله الحسن ، وقتادة ، والمعنى : أنهم لا يعودون بعدها إلى الدنيا .

والثاني : ما لهم منها من إفاقة ، بل تُهْلِكهم ، قاله ابن زيد .

والثالث : مالها من فُتور ولا انقطاع ، قاله ابن جرير .

والرابع : مالها من راحة ، حكاه جماعة من المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا ربَّنا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنا ﴾ في سبب قولهم هذا قولان :

أحدهما : أنه لمّا ذُكِر لهم ما في الجنّة ، قالوا هذا ، قاله سعيد بن جبير ، والسدي .

والثاني : أنه لمّا نزل قوله ﴿ فأمَّا مَنْ أُوتيَ كتابَه بيمينه . . .

﴾ الآيات [الحاقة : 19-37] ، قالت قريش : زعمتَ يا محمد أنّا نُؤتَى كتبنا

بشمائلنا ؟ ! فعجّل لنا قِطَّنا ، يقولون ذلك تكذيباً له .

قاله أبو العالية ومقاتل .

وفي المراد بالقِطِّ أربعة أقوال :

(218/661)

أحدها : أنه الصحيفة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

قال الفراء : القِطُّ في كلام العرب : الصَّكّ .

وقال أبو عبيدة : القِطُّ الكتاب ، والقُطُوط : الكتب بالجوائز ، وإلى هذا المعنى ذهب

الحسن ، ومقاتل ، وابن قتيبة .

والثاني : أن القِطَّ : الحساب ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أنه القضاء ، قاله عطاء الخراساني ، والمعنى أنهم لمّا وُعِدوا بالقضاء بينهم ،

سألوا ذلك .

والرابع : أنه النصيب ، قاله سعيد بن جبير .

[قال الزجاج : القِطُّ : النصيب ، وأصله : الصحيفة يُكْتَب للإنسان فيها شيء يَصِل إليه ، واشتقاقة من قَطَطْتُ ، أي : قَطَعْتُ ، فالنَّصيب : هو القطعة من الشيء .

ثم في هذا القول للمفسرين قولان :

أحدهما : أنهم سألوه نصيبهم من الجنة ، قاله سعيد بن جبير] .

والثاني : سألوه نصيبهم من العذاب ، قاله قتادة .

وعلى جميع الأقوال ، إنما سألوا ذلك استهزاءً ، لتكذيبهم بالقيامة .

﴿ اصْبِرْ على ما يقولونَ ﴾ أي : من تكذيبهم وأذاهم ، وفي هذا قولان :

أحدهما : أنه أُمِر بالصبر ، سلوكاً لطريق أُولي العزم ، وهذا مُحْكَم .

والثاني : أنه منسوخ بآية السيف فيما زعم الكلبي .

قوله تعالى : ﴿ واذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ﴾ في وجه المناسبة بين قوله : ﴿ إِصبر ﴾ وبين قوله : ﴿ واذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ﴾ قولان :

أحدهما : أنه أمِرَ أن يتقوّى على الصَّبر بذِكْر قُوَّة داوُد على العبادة والطاعة .

والثاني : أن المعنى : عرِّفهم أن الأنبياء عليهم السلام مع طاعتهم كانوا خائفين منِّي ، هذا

داوُد مع قوّته على العبادة ، لم يزل باكياً مستغفراً ، فكيف حالُهم مع أفعالهم .

فأما قوله : ﴿ ذَا الأيدِ ﴾ فقال ابن عباس : هي القُوّة في العبادة .

(219/661)

وفي " الصحيحين " من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " أَحَبُّ الصِّيام إلى الله صيامُ داوُدَ ، كان يصومُ يوماً ويُفْطِر يوماً ، وأَحَبُّ الصَّلاة إلى الله صلاةُ داوُد ، كان ينام نِصْفَ الليل ويقومُ ثُلُثه وينامَ سُدسه "

وفي ﴿ الأوّاب ﴾ أقوال قد ذكرناها في [بني اسرائيل : 25] .

﴿ إِنّا سَخَّرْنا الجبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ قد ذكرنا تسبيح الجبال معه في [الأنبياء : 79] ، وذكرنا معنى العَشِيّ في مواضع مما تقدم ، [آل عمران : 41] [الأنعام : 53] ، وذكرنا معنى الإشراق في [الحجر : 73] عند قوله ﴿ مُشْرِقِين ﴾ .

قال الزجاج : الإشراق : طلوعُ الشمس [وإضاءتُها] ، وروي عن ابن عباس أنه قال : طَلَبْتُ صلاةَ الضُّحى ، فلم أَجِدْها إلاّ في هذه الآية .

وقد ذكرنا عنه أن صلاة الضُّحى مذكورة في [النور : 36] في قوله ﴿ بالغُدُوِّ والآصال ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والطَّيْرَ مَحشُورَةً ﴾ وقرأ عكرمة ، وأبو الجوزاء ، والضحاك ، وابن أبي عبلة : ﴿ والطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ ﴾ بالرفع فيهما ، أي : مجموعة إليه ، تسبِّح اللهَ معه ﴿ كُلٌّ له ﴾ في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى داوُد ، أي : كُلٌّ لداود ﴿ أَوَّابٌ ﴾ أي : رَجّاعٌ إلى طاعته وأَمْره ، والمعنى : كُلٌّ له مُطِيع بالتسبيح معه ، هذا قول الجمهور .

والثاني : [أنها] ترجع إلى الله تعالى ، فالمعنى : كُلٌّ مسبِّحٌ لله ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ وشدَدْنا مُلْكَه ﴾ أي : قوَّيناه .

وفي ما شُدَّ به مُلْكُه قولان :

أحدهما : أنه الحَرَسُ والجنود ؛ قال ابن عباس : كان يحرسُه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل .

والثاني : أنه هَيْبَةٌ أُلْقِيَتْ في قلوب الناس ؛ وهذا المعنى مرويٌّ عن ابن عباس أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ وفيها أربعة أقوال : أحدها : أنها الفَهْم ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وابن زيد .

والثاني : الصَّواب ، قاله مجاهد .

والثالث : السُّنَّة ، قاله قتادة .

والرابع : النُّبُوَّة ، قاله السدي .

وفي فصل الخطاب أربعة أقوال :

أحدها : عِلْمُ القضاء والعدلُ ، قاله ابن عباس ، والحسن .

والثاني : بيان الكلام ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وذكر الماوردي أنه البيان الكافي في كل غرض مقصود .

والثالث : قوله ﴿ أما بعد ﴾ وهو أول من تكلَّم بها ، قاله أبو موسى الأشعري ، والشعبي .

والرابع : تكليف المدَّعي البيِّنة ، والمدَّعَى عليه اليمين ، قاله شريح ، وقتادة ، وهو قولٌ حسنٌ ، لأن الخُصومة إنما تُفْصَل بهذا .

قوله تعالى : ﴿ وهل أتاكَ نبأ الخَصْمِ ﴾ قال أبو سليمان : المعنى : قد أتاكَ فاسْتَمِعْ له نَقْصُصْ عليكَ .

واختلف العلماء في السبب الذي امتُحِن لأجْله داوُد عليه السلام بما امتُحن به ، على خمسة أقوال :

أحدها : أنه قال : ياربِّ قد أعطيتَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذِّكْر ما لو وددْتُ أنَّك

أعطيتني مِثْلَه ، فقال الله تعالى : إنّي ابتليتُهم بما لم أَبْتَلِكَ به ، فإن شئت ابتليتُكَ بمثْلِ ما ابتليتُهم به وأعطيتُك كما أعطيتُهم .

قال : نعم .

فبينما هو في محرابه إذ وقعتْ عليه حمامة فأراد أن يأخذها فطارت ، فذهب ليأخذها ، فرأى امرأة تغتسل ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال السدي .

والثاني : أنه ما زال يجتهد في العبادة حتى بَرَزَ له قرناؤه من الملائكة وكانوا يصلُّون معه ويُسْعِدونه بالبُكاء ، فلمّا استأنس بهم ، قال : أَخْبِروني بأيِّ شيء أنتم موكَّلون ؟ قالوا : ما نَكْتُب عليكَ ذَنْباً ، بل نكتب صالح عملك ونثبِّتُك ونوفِّقُك ونَصْرِف عنك السُّوء .

(221/661)

فقال في نفسه : ليت شِعري ، كيف أكون لو خلّوني ونفسي ، وتمنَّى أن يُخَلّى بينه وبين نفسه ليَعْلَم كيف يكون ، فأمر اللهُ تعالى قُرَناءَه أن يعتزلوه ليَعْلَم أنه لا غَناءَ به عن الله [عزوجل ، فلما فقدهم ، جَدَّ واجتهد ضِعْفَ عبادته إلى أن ظَنَّ أنه قد غَلَب نَفْسَه ، فأراد اللهُ تعالى] أن يُعَرِّفَه ضَعْفَه ، فأَرسَل إليه طائراً من طيور الجنة ، فسقط في محرابه ، فقطع صلاته ومَدَّ يده إليه ، فتنحّى عن مكانه ، فأَتْبَعَه بَصَرَه ، فإذا امرأة أوريا ، هذا قول وهب بن

منبّه .

والثالث : أنه تَذاكرَ هو وبنو إسرائيل ، فقالوا : هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً ؟ فأضمر داودُ في نفسه أنه سيُطيق ذلك ، فلمّا كان يوم عبادته ، أغلق أبوابه وأَمَرَ أن لا يدخُل عليه أحد وأكبَّ على قراءه الزَّبور ، فإذا حمامة من ذهب ، فأهوى إليها فطارت ، فتَبِعها فرأى المرأة ، رواه مطر عن الحسن .

والرابع : أنه قال لبني إسرائيل حين ملك : واللهِ لأَعْدِلَنَّ بينكم ، ولم يستثن ، فابتُلِيَ .

رواه قتادة عن الحسن .

والخامس : أنه أعجبه كثرة عمله ، فابتُلِيَ ، قاله أبو بكر الورّاق .

الإشارة إلى قصة ابتلائه :

قد ذكرنا عن وهب أنه قال : كانت الحمامة من طيور الجنة ، وقال السدي : تصوَّر له الشيطان في صورة حمامة .

(222/661)

قال المفسرون : إنه لمّا تبع الحمامة ، رأى امرأة في بستان على شطِّ بِرْكَة لها تغتسل ، وقيل : بل على سطح لها ، فعجب من حسنها ، فحانت منها التفاته فرأت ظِلَّه فنقضت شعرها

، فغطىّ بدنها ، فزاده ذلك إعجاباً بها ، فسأل عنها ، فقيل : هذه امرأة أوريا ، وزوجها في غزاة ، فكتب داود إلى أمير ذلك الجيش أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وكذا ، وقدّمه قبل التابوت ، وكان مَنْ قُدِّم على التابوت لا يَحِلُّ له أن يرجع حتى يُفْتَح عليه أو يستشهد ، ففعل ذلك ، ففُتِح عليه ، فكتب إلى داود يخبره فكتب إليه أن ابعثه إلى عدوٍّ كذا وكذا ، ففُتح له ، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا ، فقُتل في المرَّة الثالثة ، فلمّا انقضت عِدَّة المرأة تزوَّجها داوُد فهي أُمُّ سليمان ، فلمّا دخل بها ، لم يلبث إلا يسيراً حتى بعث اللهُ عز وجل مَلَكين في صورة إنسيَّين ، وقيل : لم يأته المَلَكان حتى جاء منها سليمان وشَبَّ ، ثم أتياه فوجداه في محراب عبادته ، فمنعهما الحرس من الدُّخول إليه ، فتسوروا المحراب عليه ؛ وعلى هذا الذي ذكرناه من القصة أكثر المفسرين ، وقد روى نحوه العوفي عن ابن عباس ، وروي عن الحسن ، وقتادة ، والسدي ، ومقاتل في آخرين ، وذكر جماعة من المفسرين أن داوُد لمّا نظر إلى المرأة ، سأل عنها ، وبعث زوجَها إلى الغَزاة مَرَّة بعد مَرَّة إلى أن قُتل ، فتزوَّجَها ؛ وروي مِثْلُ [هذا] عن ابن عباس ، ووهب ، والحسن في جماعة .

قال المصنِّف : وهذا لا يصح من طريق النقل ، ولا يجوز من حيث المعنى ، لأن الأنبياء منزَّهون عنه .

وقد اختلف المحقِّقون في ذنْبه الذي عُوتب عليه على أربعة أقوال :

أحدها : أنه لمَا هَويهَا ، قال لزوجها : تحوَّل لي عنها ، فعُوتب على ذلك .

وقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما زاد داوُد على أن قال لصاحب المرأة : أَكْفِلْنِيهَا وتحوّلْ لي عنها ؛ ونحو ذلك روي عن ابن مسعود .

(223/661)

وقد حكى أبو سليمان الدمشقي أنه بعث إلى أوريا فأقدمه من غَزاته ، فأدناه وأكرمه جدّاً ، إلى أن قال له يوماً : أَنْزِلْ لي عن امرأتك ، وانظُر أيَّ امرأة شئتَ في بني إسرائيل أزوّجكها ، أو أيَّ أَمَةٍ شئتَ أبتاعُها لكَ ، فقال : لا أُريد بامرأتي بديلاً ، فلمّا لم يُجِبْه إلى ما سأل أمَرَه أن يَرْجِع إلى غَزاته .

والثاني : أنه تمنّى تلك المرأة حلالاً ، وحدَّث نفسه بذلك ، فاتفق غزوُ أوريا وهلاكُه من غير أن يسعى في سبب قتله ، ولا في تعريضه للهلاك ، فلمّا بلغة قتلُه ، لم يَجْزَعْ عليه كما جَزِع على غيره مِنْ جُنْده ، ثُمَّ تزوَّج امرأتَه ، فعُوتب على ذلك ، وذُنوبُ الأنبياء عليهم السلام وإن صَغُرَتْ ، فهي عظيمةٌ عند الله عز وجل .

والثالث : أنه لمّا وقع بصرُه عليها ، أشبع النَّظر إليها حتى عَلِقَتْ بقلبه .

والرابع : أن أوريا كان قد خطب تلك المرأة ، فخطبها داودُ مع عِلْمه بأن أوريا قد خطبها فتزوَّجَها ، فاغتمَّ أوريا ، وعاتب اللهُ تعالى داوُدَ ، إذْ لم يتركْها لخاطبها الأوّل ، واختار

القاضي أبو يعلى هذا القول ، واستدل عليه بقوله ﴿ وعَزَّني في الخِطاب ﴾ قال : فدلَّ هذا على أن الكلام إنما كان بينهما في الخِطْبة ، ولم يكن قد تقدَّم تزوُّج الآخَر ، فعُوتب داوُدُ عليه السلام لشيئين ينبغي للأنبياء التَّنَزُّه عنهم ، :

أحدهما : خِطْبته على خِطْبته غيره .

والثاني : إظهار الحِرْص على التزويج مع كثرة نسائه ، ولم يعتقد ذلك معصية ، فعاتبه الله تعالى عليها ؛ قال : فأما ما رُوي أنه نظر إلى المرأة فهَوِيَها وقدَّم زَوْجَها للقتل ، فإنه وجهٌ لا يجوز على الأنبياء ، لأن الأنبياء لا يأتون المعاصي مع العِلْم بها .

قال الزجاج : إنما قال ﴿ الخَصْمِ ﴾ بلفظ الواحد ، وقال ﴿ تَسَوَّرُوا المِحْرابَ ﴾ بلفظ الجماعة ، لأن قولك : خصم ، يَصْلحُ للواحد والاثنين والجماعة ، والذكر والأنثى .

(224/661)

تقول : هذا خصم وهي خصم ، وهما خصم ، وهم خصم ؛ وإنما يصلح لجميع ذلك لأنه مصدر تقول : خَصَمْتُه أَخْصِمُه خَصْماً .

والمحراب هاهنا كالغُرفة ، قال الشاعر :

رَبَّةُ مِحْرابٍ إذا جِئْتُها . . .

لَمْ أُلْقَها أَوْ أرتَقي سُلَّماً

و﴿ تسوّروا ﴾ يدل على علوّ .

قال المفسرون : كانا مَلَكين ، وقيل : هما جبريل وميكائيل عليهما السلام ، أتياه لينبّهاه على التوبة ، وإنما قال ﴿ تسوَّروا ﴾ وهما اثنان ، لأن معنى الجمع ضمُّ شيء إلى شيء ، والاثنان فما فوقهما جماعة .

قوله تعالى : ﴿ إذْ دَخَلُوا على داوُدَ ﴾ قال الفراء : يجوز أن يكون معنى " تسوَّرُوا " : دَخَلوا ، فيكون تكراراً .

ويجوز أن تكون ﴿ إذ ﴾ بمعنى " لمّا " فيكون المعنى إذ تسوَّروا المحراب لمّا دَخَلوا ، ولمّا تسوَّروا إذ دخلوا .

قوله تعالى : ﴿ ففَزِع منهم ﴾ وذلك أنهما أتيا على غير صفة مجيء الخُصوم ، وفي غير وقت الحُكومة ، ودخلا تَسَوُّراً من غير إذن .

وقال أبو الأحوص : دَخَلا عليه وكُلُّ واحد منهما آخذٌ برأس صاحبه .

و﴿ خَصْمانِ ﴾ مرفوع بإضمار " نَحْنُ " ، قال ابن الأنباري : [المعنى] : نحن كخصمين ، ومِثْلُ خصمين ، فسقطت الكاف ، وقام الخصمان مقامها ، كما تقول العرب : عبد الله القمرُ حُسْناً ، وهم يريدون : مِثْل القمر ، قالت هند بنت عتبة ترثي أباها وعمَّها :

مَنْ حَسَّ لي الأخَوَيْنِ كال . . .

غُصْنَيْنِ أَوْ مَنْ راهُما

أسَدَيْنِ في عِيلٍ يَحِيدُ ال . . .

قَوْمُ عَنْ عُرْواهُما

صَقْرَيْنِ لا يَتَذَلَّلا . . .

نِ ولا يُباحُ حِماهُما

رُمْحَيْنِ خَطِّيَّيْنِ في . . .

كَبِدِ السَّماءِ تَراهُما

أرادت : مِثْل أسدين ، ومثل صقرين ، فأسقطت مِثْلاً وأقامت الذي بعده مقامه ، ثم صرف اللهُ عز وجل النون والألف في "بَعْضُنا " إلى " نحن " المضمر ، كما تقول العرب : نحن قوم شَرُف أبونا ، ونحن قوم شَرُف أبوهم .

والمعنى واحد .

والحق هاهنا : العدل .

(225/661)

﴿ ولا تُشْطِطْ ﴾ أي : لا تَجُرْ ، يقال : شَطَّ وأَشَطَّ إذا جار .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ ولا تَشْطُطْ ﴾ بفتح التاء وضم الطاء .

قال الفراء : وبعض العرب يقول : شَطَطْتَ عليَّ في السَّوْم ، وأكثر الكلام " أشططتَ " بالألف ، وشَطَّت الدّارُ : تباعدتْ .

قوله تعالى : ﴿ واهْدِنا إلى سَواءِ الصِّراطِ ﴾ أي : إلى قَصْد الطَّريق ؛ والمعنى : احْمِلْنا على الحق ، فقال داوُد : تَكَلَّما ، فقال أحدُهما : ﴿ إنَّ هذا أخي ﴾ قال ابن الأنباري : المعنى : قال أحد الخصمين اللَّذين شُبِّه المَلَكان بهما : إنَّ هذا أخي ، فأضمر القول لوضوح معناه ﴿ له تِسْعٌ وتِسعونَ نَعْجَةً ﴾ قال الزجاج : كُني عن المرأة بالنَّعْجة ، وقال غيره : العرب تشبِّه النِّساء بالنعاج ، وتورِّي عنها بالشاء والبقر .

قال ابن قتيبة : ورّى عن ذِكر النساء بذِكر النعاج ، كما قال عنترة :

ياشاةَ ما قَنْصٍ لمَنْ حَلَّتْ لَهُ . . .

حَرُمَتْ عَلَيَّ وليْتَها لَمْ تَحْرُمِ

يعرِّض بجارية يقول : أيّ صيد أنتِ لِمَنْ حَلَّ له أن يَصيدَكِ ! فأمّا أنا ، فإنَّ حُرْمَةَ الجوار قد حرَّمْتكِ عَلَيَّ .

وإنما ذَكَرَ المَلَكُ هذا العدد لأنه عدد نساء داوُد .

قوله تعالى : ﴿ وِلِيَ نَعْجَةٌ واحدةٌ ﴾ فتح الياء حفص عن عاصم وأسكنها الباقون .

﴿ فقال أَكْفِلْنِيها ﴾ قال ابن قتيبة : أي : ضُمَّها إليّ واجعلْني كافِلَها .

وقال الزجاج : انْزِلْ أنتَ عَنها واجعلْني أنا أَكْفُلُها .

قوله تعالى : ﴿ وعَزَّني في الخطاب ﴾ أي : غَلَبني في القول .

وقرأ عمر بن الخطاب ، وأبو رزين [العقيلي] ، والضحاك ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : ﴿ وعَازَّني ﴾ بألف ، أي : غالبَني .

قال ابن مسعود ، وابن عباس في قوله ﴿ وعَزَّني في الخطاب ﴾ : ما زاد على أن قال : انْزِلْ لي عنها .

وروى العوفي عن ابن عباس قال : إن دعوتُ ودعا كان أكثر ، وإن بَطَشْتُ وبَطَشَ كان أَشدَّ مني .

(226/661)

فإن قيل : كيف قال المَلَكان هذا ، وليس شيء منه موجوداً عندهما ؟

فالجواب : أن العلماء قالوا : إنما هذا على سبيل المَثَل والتشبيه بقصة داوُد ، وتقدير كلامهما : ما تقول إن جاءك خصمان فقالا كذا وكذا ؟ وكان داوُد لا يرى أن عليه تَبِعَةً فيما فَعَلَ فنبَّهه اللهُ بالمَلَكين .

وقال ابن قتيبة : هذا مَثَل ضربه اللهُ [له] ونبَّهه على خطيئته .

وقد ذكرنا آنفاً أن المعنى : نحنُ كخَصْمَين .

قوله تعالى : ﴿ قال ﴾ يعني داود ﴿ لقد ظَلَمَكَ بسؤال نَعْجتكَ إلى نعاجهِ ﴾ قال الفراء : أي : بسؤاله نعجتك ، فإذا ألقيتَ الهاء من السؤال ، أضفتَ الفعل إلى النَّعْجة ، ومِثْلُه : ﴿ لا يَسْأَمُ الإنسانُ مِنْ دُعَاءِ الخَيْرِ ﴾ [فصلت : 49] أي : من دعائه بالخير ، فلمّا ألقى الهاء ، أضاف الفعل إلى الخير ، وألقى من الخير الباء ، وأنشدوا :

فَلَسْتُ مُسَلِّماً ما دُمْتُ حَيّاً . . .

على زَيْدٍ بتسليمِ الأميرِ

أي : بتسليم على الأمير .

قوله تعالى : ﴿ إلى نعاجه ﴾ أي : لِيَضُمَّها إلى نعاجه .

قال ابن قتيبة : المعنى بسؤال نعجتك مضمومةً إلى نعاجه فاختُصر .

قال : ويقال " إلى " بمعنى " مع " .

فإن قيل : كيف حكم داود قبل أن يَسمع كلامَ الآخر ؟

فالجواب : أن الخصم الآخر اعترف ، فحكم عليه باعترافه ، وحذف ذِكر الاعتراف اكتفاءً بفهَم السامع .

والعرب تقول : أمرتُك بالتجارة فكسبتَ الأموال ، أي فاتَّجرتَ فكسبتَ .

ويدُلُّ عليه قولُ السدي : إن داوُد قال للخصم الآخر : ما تقول ؟ قال : نعم ، أريد أن آخذها منه فأُكمل بها نعاجي وهو كاره .

قال : إذاً لا ندعُك وإن رُمْتَ هذا ضربْنا منكَ هذا ويشير إلى أنْفه وجبهته فقال : أنت يا داوُدُ أَحَقُّ أن يُضرب هذا منكَ حيث لك تسع وتسعون امرأة ، ولم يكن لأوريا إلا واحدة ، فنظر داوُد فلم ير أحداً فعَرَف ما وقع فيه .

(227/661)

قوله تعالى : ﴿ وإنّ كثيراً من الخُلَطاءِ ﴾ يعني الشركاء ، واحدهم : خليط ، وهو المُخالِط في المال .

وإنما قال هذا ، لأنه ظنّهما شريكين ، ﴿ إلاّ الذين آمنوا ﴾ أي : فإنهم لا يَظْلِمون أحداً ، ﴿ وقليلٌ ما هم ﴾ " ما " زائدة ، والمعنى : وقليل هم .

وقيل المعنى : هم قليل ، يعني الصالحين الذين لا يَظلِمونَ .

قوله تعالى : ﴿ وظَنَّ داوُدُ ﴾ أي : أيقن وعَلِم ﴿ أنَّما فَتَنَّاه ﴾ فيه قولان :

أحدهما : اختبرناه .

والثاني : ابتليناه بما جرى له من نظره إلى المرأة وافتتانه بها .

وقرأ عمر بن الخطاب ﴿ أنّما فتَّنَاهُ ﴾ بتشديد التاء والنون جميعاً .

وقرأ أنس بن مالك ، وأبو رزين ، والحسن ، وقتادة ، وعليّ بن نصر عن أبي عمرو : ﴿ أَنَّما فَتَنَاهُ ﴾ بتخفيف التاء والنون جميعاً ، يعني المَلَكين .

قال أبو علي الفارسي : يريد صَمَدا له .

وفي سبب عِلْمه وتنبيهه على ذلك ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المَلَكين أفصحا له بذلك ، على ما ذكرناه عن السدي .

والثاني : أنهما عَرَّجا وهما يقولان : قضى الرجلُ على نفسه ، فعَلِم أنه عُني بذلك ، قاله وهب .

والثالث : أنه لمَا حكم بينهما ، نظر أحدُهما إلى صاحبه وضحك ، ثم صَعِدا إلى السماء وهو ينظُر ، فعلم أن الله تعالى ابتلاه بذلك ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ فاستغْفَرَ ربَّه ﴾ قال المفسرون : لمّا فطن داوُدُ بذنْبه خَرّ راكعاً .

قال ابن عباس : أي : ساجداً .

وعبَر عن السجود بالركوع ، لأنهما بمعنى الانحناء .

وقال بعضهم : المعنى : فخَرَّ بعد أن كان راكعاً .

فصل

واختلف العلماء هل هذه من عزائم السجود ؟ على قولين :

أحدهما : ليست من عزائم السجود ، قاله الشافعي .

والثاني : أنها من عزائم السجود ، قاله أبو حنيفة .

وعن أحمد روايتان .

(228/661)

قال المفسرون : فبقي في سجوده أربعين ليلة ، لا يرفع رأسه إلاّ لوقت صلاة مكتوبة أو حاجة لا بُدَّ منها ، ولا يأكل ولا يشرب ، فأكلتِ الأرضُ من جبينه ، ونَبَتَ العُشْبُ من دموعه ، ويقول في سجوده : ربَّ داود زَلَّ داودُ زلَّة أبعدَ ممّا بين المشرق والمغرب .

قال مجاهد : نبت البقلُ من دموعه حتى غطَّى رأسَه ثم نادى : ربِّ قَرِح الجبين وجَمَدت العينُ وداوُدُ لم يَرْجِعِ إليه في خطيئته شيء ، فنودي أجائع فتُطْعَم ، أم مريض فتُشْفَى أم مظلومٌ فيُنتصَر لك ؟ فنَحَبَ نَحيباً هاج كلَّ شيء نَبَتَ ، فعند ذلك غفر له .

وقال ثابت البناني : اتخذ داوُدُ سبع حشايا من شَعْر وحشاهُنَّ من الرَّماد ، ثم بكى حتى أنفذها دموعاً ، ولم يشرب شراباً إلا ممزوجاً بدموع عينيه .

وقال وهب بن منبه : نودي : يا داود ارفع رأسك فإنّا قد غَفَرْنا لكَ ، فرفع رأسه وقد زَمِن وصار مرعشاً .

فأمّا قوله : ﴿ وأنابَ ﴾ فمعناه : رَجَعَ مِنْ ذنْبه تائباً إلى ربّه ، ﴿ فَغَفَرْنا له ذلكَ ﴾ يعني الذنْب ﴿ وإنّ له عِنْدَنا لَزُلْفَى ﴾ [قال ابن قتيبة] : أي : تقدّمٌ وقُرْبة .

قوله تعالى : ﴿ وحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قال مقاتل : حُسْن مَرْجِع ، وهو ما أعدّ الله له في الجنة .

قوله تعالى : ﴿ يا داوُدُ ﴾ المعنى : وقلنا له يا داود ﴿ إنَّا جَعَلْناكَ ﴾ أي : صيّرْناكَ ﴿ خليفةً في الأرض ﴾ أي : تُدبّرُ أَمْرَ العباد مِنْ قِبَلنا بأمرنا ، فكأنك خليفة عنّا ﴿ فاحْكُم بين الناس بالحق ﴾ أي : بالعدل ﴿ ولا تَتَّبِعِ الهوى ﴾ أي : لا تَمِلْ مع ما تشتهي إذا خالف أَمْرَ الله عز وجل ﴿ فيُضِلَّكَ عن سبيل الله ﴾ أي : عن دينه ﴿ إنَّ الذين يَضِلُّونَ ﴾ وقرأ أبو نهيك ، وأبو حيوة ، وابن يعمر : ﴿ يُضِلُّونَ ﴾ بضم الياء .

قوله تعالى : ﴿ بما نَسُوا يومَ الحساب ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بما تَرَكُوا العمل ليوم الحساب ، قاله السدي .

(229/661)

قال الزجاج : لمّا تركوا العمل لذلك اليوم ، صاروا بمنزلة الناسين .

والثاني : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره : لهم عذاب شديد يومَ الحساب بما نَسُوا أي : تَرَكُوا القضاء بالعدل ، وهو قول عكرمة .

قوله تعالى : ﴿ وما خَلَقْنا السماءَ والأَرْضَ وما بينهما باطلاً ﴾ أي : عَبَثاً ﴿ ذلكَ ظَنُّ الذين كَفَروا ﴾ أن ذلك خُلِقَ لغَيْرِ شيء ، وإنما خُلِقَ للثواب والعقاب .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين آمنوا ﴾ قال مقاتل : قال كفار قريش للمؤمنين : إنّا نُعْطَى في الآخرة مثل ما تُعْطَوْن .

فنزلت هذه الآية .

وقال ابن السائب : نزلت في الستة الذين تبارزوا يوم بدر ، عليٍّ رضي الله عنه ، وحمزة رضي الله عنه ، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنه ، وعتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة ، فذكر أولئك بالفساد في الأرضِ لعَمَلهم فيها بالمعاصي ، وسمَّى المؤمنين بالمتَّقِين لاتِّقائهم الشِّرك .

وحُكْمُ الآية عامٌّ .

قوله تعالى : ﴿ كتابٌ ﴾ أي : هذا كتاب ، يعني القرآن ، وقد بيَّنّا معنى بَرَكَته في سورة [الأنعام : 92] .

﴿ لِيَدَّبَروا آياتِه ﴾ وقرأ عاصم في رواية : ﴿ لِتَدَّبَروا آياتِه ﴾ بالتاء خفيفة الدال ، أي : ليتفكروا فيها فيتقرر عندهم صِحَّتُها ﴿ ولِيَتَذَكَّرَ ﴾ بما فيه من المواعظ ﴿ أُولُو الألباب ﴾ وقد سبق بيان هذا [الرعد : 19] .

قوله تعالى : ﴿ نِعْمَ العَبْدُ ﴾ يعني به سليمان .

وفي الأوّاب أقوال قد تقدمت في [بني إسرائيل : 25] أُلْيَقُها بهذا المكان أنه رَجّاعٌ بالتَّوبة إلى الله تعالى ممّا يقع منه من السَّهو والغَفْلة .

قوله تعالى : ﴿ إذ عُرِضَ عليه بالعَشيّ ﴾ وهو ما بعد الزَّوال ﴿ الصّافناتُ ﴾ وهي الخيل .

وفي معنى الصّافنات قولان .

(230/661)

أحدهما : أنها القائمة على ثلاث قوائم ، وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رِجْل ؛ وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد ، وابن زيد ، واختاره الزجاج ، وقال : هذا أَكثرُ قيام الخيل إذا وقفت كأَنَّها تراوح بين قوائمها .

قال الشاعر :

أَلِفَ الصُّفُونَ فما يَزالُ كأَنَّهُ . . .

مِمّا يَقومُ على الثَّلاثِ كَسِيرا

والثاني : أنها القائمة ، سواء كانت على ثلاث أو غير ثلاث .

قال الفراء : على هذا رأيت العرب وأشعارهم تَدُلُّ على أنه القيام خاصة .

وقال ابن قتيبة : الصافن في كلام العرب الواقفُ من الخيلِ وغيرها ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ سَرَّهُ أن يقومَ له الرجلُ صُفُوناً ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّار " ، أي : يُديمون القيام له .

فأمّا الجِيادُ ، فهي السِّراعُ في الجَرْيِ .

وفي سبب عرضها عليه أربعة أقوال :

أحدها : أنه عَرَضَها لأنه أراد جهاد عدوٍّ له ، قاله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

والثاني : أنها كانت من دوابّ البحر .

قال الحسن : بلغني أنها كانت خيلاً خرجتْ من البحر لها أجنحة .

وقال إبراهيم التيمي : كانت عشرين فرساً ذات أجنحة .

وقال ابن زيد : أخرجتْها له الشياطين من البحر .

والثالث : أنه وَرِثَها من أبيه داود عليه السلام ، فعُرِضَتْ عليه ، قاله وهب بن منبّه ومقاتل .

والرابع : أنه غزا جيشاً ، فظَفِر به وغنمها ، فدعا بها فعُرِضَتْ عليه ، قاله ابن السائب .

وفي عددها أربعة أقوال :

أحدها : ثلاثة عشر ألفاً ، قاله وهب .

والثاني : عشرون ألفاً ، قاله سعيد بن مسروق .

والثالث : ألف فرس ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

والرابع : عشرون فرساً ، وقد ذكرناه عن إبراهيم التيمي .

(231/661)

قال المفسرون : ولم تزل تُعْرَض عليه إلى أن غابت الشمس ، ففاتته صلاة العصر ، وكان مَهيباً لا يبتدئه أحد بشيء ، فلم يذكِّروه ، ونسي هو ، فلمّا غابت الشمسُ ذكر الصلاة ، ﴿ فقال إِنِّي أَحْبَبْتُ ﴾ فتح الياء أهل الحجاز وأبو عمرو ﴿ حُبَّ الْخَيْرِ ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : أنه المال ، قاله سعيد بن جبير ، والضحاك .

والثاني : حُبُّ الخيل ، قاله قتادة ، والسدي .

والقولان يرجعان إلى معنى واحد ، لأنه أراد بالخير الخيلَ ، وهي مال .

وقال الفراء : العرب تسمِّي الخيل : الخير .

قال الزجاج : وقد سمَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زَيْدَ الخيل : زَيْدَ الخير ، ومعنى " أَحَبْبْتُ " آثرتُ حُبَّ الخَيْر على ذِكْر ربِّي ؛ وكذلك قال غير الزجاج .

" عن " بمعنى " على " .

وقال بعضهم : يحتمل المعنى فشَغَلَني عن ذِكْر ربِّي .

قال أبو عبيدة : ومعنى [الكلام] أَحْبَبْتُ حُبّاً ، ثم أضاف الحُبَّ إلى الخير .

وقال ابن قتيبة : سمَّى الخَيْل خَيْراً ، لما فيها من الخَيْر .

والمفسرون على أن المراد بذِكْر ربِّه ، صلاةُ العصر ، قاله عليّ ، وابن مسعود ، وقتادة في آخرين .

وقال الزجاج : لا أدري هل كانت صلاةُ العصر مفروضةً أم لا ! ، إلا أنّ اعتراضه الخيل شَغَلَه عن وقتٍ كان يذكُر الله فيه ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ قال المصنف : وأهل اللغة يقولون : يعني الشمس ، ولم يَرِ لها ذِكْر ولا أحسبهم أعطَوا في هذا الفِكْر حَقَّه ، لأن في الآية دليلاً على الشمس ، وهو قوله ﴿ بالعشيِّ ﴾ ومعناه : عُرِضَ عليه بعد زوال الشمس حتى توارت الشمس بالحجاب ، ولا يجوز الإِضمار ، إلا أن يجريَ ذِكْر أو دليل ذِكْر فيكون بمنزلة الذِّكْر ، وأما الحِجَاب ، فهو ما يحجُبها عن الأبصار .

(232/661)

قوله تعالى : ﴿ رُدُّها عَلَيَّ ﴾ قال المفسرون : لمّا شغله عَرْضُ الخَيْل عليه عن الصلاة ، فصلاّها بعد خروج وقتها ، اغتمَّ وغضب ، وقال : " رُدُّوها عَلَيَّ " ، يعني : أعيدوا الخَيْل

عَلَيَّ ﴿ فطَفِقَ ﴾ قال ابن قتيبة : أي : أقبل ﴿ مَسْحاً ﴾ قال الأخفش : أي : يَمْسَحُ مَسْحاً .

فأمّا السُّوق ، فجمع ساق ، مثل دُور ودار ، وهمز السُّؤق ابن كثير ، قال أبو علي : وغيرُ الهمز أحسنُ منه .

وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن محيصن : " بالسُّؤوق " مثل الرُّؤوس ، وفي المراد بالمسح هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ضربها بالسيف ، " وروى أُبيُّ بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ فطَفِقَ مَسْحاً بالسُّوق والأعناق ﴾ قال : "بالسيف" " وروى مجاهد عن ابن عباس قال : مسح أعناقها وسوقها بالسيف .

وقال الحسن ، وقتادة ، وابن السائب : قطع أعناقها وسُوقها ، وهذا اختيار السدي ، ومقاتل ، والفراء ، وأبي عبيدة ، والزجاج ، وابن قتيبة ، وأبي سليمان الدمشقي ، والجمهور .

والثاني : أنه جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حُبّاً لها ، رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقال مجاهد : مسحها بيده ، وهذا اختيار ابن جرير والقاضي أبي يعلى .

والثالث : أنه كَوَى سُوقها وأعناقها وحبسها في سبيل الله تعالى ، حكاه الثعلبي .

والمفسِّرون : على القول الأول .

وقد اعترضوا [على] القول الثاني ، وقالوا : أيّ مناسبة بين شغْلِها إيّاه عن الصلاة وبين مَسْح أعرافها حُبّاً لها ؟ ! ، ولا أعلم قوله : " حُبّاً لها " يثبت عن ابن عباس .

وحملوا قول مجاهد " مَسَحها بيده " أي تولىَّ ضَرْبَ أعناقها .

فإن قيل : فالقول الأول يفسُد بأنه لا ذنْب للحيوان ، فكيف وجّه العقوبة إليه ؟ وقصد التَّشفِّي بقتله ، وهذا يشبه فِعْلَ الجبّارين ، لا فِعْلَ الأنبياء ؟

(233/661)

فالجواب : أنه لم يكن لِيَفْعَلَ ذلك إلا وقد أُبيح له ، وجائز أن يُباح له ما يُمنَع منه في شرعنا ، على أنه إذا ذبحها كانت قرباناً ، وأكلُ لحمها جائز ، فما وقع تفريط .

قال وهب بن منبّه : لمّا ضَرَبَ سوقها وأعناقها ، شكر اللهُ تعالى له ذلك ، فسخَّر له الرِّيح مكانها ، وهي أحْسَنُ في المنظر ، وأَسْرَعُ في السَّيْر ، وأَعْجَبُ في الأُحْدُوثة .

قوله تعالى : ﴿ ولقد فَتَنّا سُلَيْمانَ ﴾ أي : ابتليناه وامْتَحَنّاه بِسَلْبِ مُلْكه ﴿ وأَلْقَيْنا على كُرْسِيِّه ﴾ أي : على سريره ﴿ جَسَداً ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : أنه شيطان ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

وفي اسم ذلك الشيطان ثلاثة أقوال :

أحدها : صخر ، رواه العوفي عن ابن عباس .

وذكر العلماء أنه كان شيطاناً مَرِيداً لم يُسَخَّر لسليمان .

والثاني : آصف ، قاله مجاهد ، إلاّ أنه ليس بالمُؤْمِن الذي عنده الاسم الأعظم ، إلاّ أنّ بعض ناقِلي التفسير حكى أنه آصف الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب ، وأنه لمّا فُتِن سليمان سقط الخاتم من يده فلم يثبُت ، فقال آصف : أنا أقوم مقامَك إلى أن يتوبَ الله عليك ، فقام في مقامه ، وسار بالسِّيرة الجميلة ، وهذا لا يَصِحُّ ، ولا ذكره مَنْ يوثَق به .

والثالث : حبقيق ، قاله السدي ، والمعنى : أجلسْنا على كرسيِّه في مُلْكه شيطاناً .

﴿ ثم أناب ﴾ أي : رَجَع .

وفيما رجع إليه قولان :

أحدهما : تاب من ذنْبه ، قاله قتادة .

والثاني : رَجَع إلى مُلْكه ، قاله الضحاك .

وفي سبب ابتلاء سليمان بهذا خمسة أقوال :

أحدها : أنه كانت له امرأة يقال لها : جرادة ، وكان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة ، فقضى بينهم بالحق ، إلا أنه وَدَّ أن الحق كان لأهلها ، فعوقب حين لم يكن هواه فيهم واحداً ، وأوحى اللهُ تعالى إليه أنه سيُصيبك بلاءٌ ، فكان لا يدري أيأتيه من السماء ، أو من

الأرض .

رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

(234/661)

والثاني : أن زوجته جرادة كانت آثَرَ النّساءِ عنده ، فقالت له يوماً : إن أخي بينه وبين فلان خصومة ، وإنّي أُحِبُ أن تَقْضِيَ له ، فقال : نعم ، ولم يفعل فابتُلِيَ لأجل ما قال ، قاله السدي .

والثالث : أن زوجته جرادة كان قد سباها في غَزاةٍ له ، وكانت بنتَ مَلِك فأسلمتْ ، وكانت تبكي عنده بالليل والنهار ، فسألها عن حالها ، فقالت : أذْكُر أبي وما كنتُ فيه ، فلو أنك أَمَرْتَ الشياطين فصوروا صورته في داري فأتسلىَّ بها ، [ففعل] ، فكانت إذا خرج سليمان ، تسجد له هي وولائدها [أربعين صباحاً ، فلمّا عَلِم سليمان ، كسر تلك الصورة ، وعاقب المرأة وولائدها] ثم تضرَّعَ إلى الله تعالى مستغفراً ممّا كان في داره ، فسُلِّط الشيطانُ على خاتمه ، [هذا قول وهب بن منبّه .

والرابع : أنه احتجب عن الناس ثلاثة أيام ، فأوحى اللهُ تعالى إليه : ياسليمان ، احتجبتَ عن الناس ثلاثةَ أيام ، فلم تنظرُ في أُمور عبادي ولم تُنْصِف مظلوماً من ظالم ؟ ! فسلّط

الشيطان على خاتمه] ، قاله سعيد ابن المسيب .

والخامس : أنه قارَبَ امرأةً من نسائه في الحيض أو غيره ، قاله الحسن .

والقول الثاني : أن المراد بالجسد الذي أُلقي على كرسيّه أنه وُلد [له ولد] فاجتمعت الشياطين ، فقال بعضهم لبعض : إن عاش له ولد ، لم ننفكَّ من البلاء ، فسبيلُنا أن نقتُلَ ولده أو نَخْبِلَه ، فعَلِم بذلك سليمان ، [فأمر السَّحاب] فحمله ، وعدا ابنه في السحاب خوفاً من الشياطين ، فعاتبه الله تعالى على تخوُّفه من الشياطين ، ومات الولد فأُلقي على كرسيه ميتاً جسداً .

قاله الشعبي .

والمفسرون على القول الأول .

ونحن نذكُر قصة ابتلائه على قول الجمهور .

الإشارة إلى ذلك :

اختلف العلماء في كيفية ذهاب خاتم سليمان على قولين :

أحدهما : أنه كان جالساً على شاطىء البحر ، فوقع منه في البحر ، قاله عليّ رضي الله عنه .

والثاني : أن شيطاناً أخذه ، وفي كيفية ذلك أربعة أقوال .

أحدها : أنه دخل ذات يوم الحمّام ووضع الخاتم تحت فِراشه ، فجاء الشيطان فأخذه وألقاه في البحر ، وجعل الشيطانُ يقول : أنا نبيُّ الله ، قاله سعيد ابن المسيّب .

والثاني : أن سليمان قال للشيطان : كيف تَفْتِنون النّاسَ ؟ قال : أَرِني خاتمك أُخْبِرْكَ ، فأعطاه إيّاه ، فنبذه في البحر ، فذهب مُلك سليمان ، وقعد الشيطان على كرسيه ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه دخل الحمّام ، ووضع خاتمه عند أوثق نسائه في نفسه ، فأتاها الشيطان فتمثَّل لها في صورة سليمان ، وأخذ الخاتم منها ، فلمّا خرج سليمانُ ، طلبه منها ، فقالت : قد دفعتُه إليك ، فهرب سليمان ، وجاء الشيطان فجلس على مُلكه .

قاله سعيد بن جبير .

والرابع : أنه دخل الحمّام وأعطى الشيطانَ خاتمه فألقاه الشيطان في البحر ، فذهب مُلك سليمان ، وأُلقي على الشيطان شِبْهُه ، قاله قتادة .

فأمّا قِصَّةُ الشيطان ، فذكر أكثر المفسرين أنه لمّا أخذ الخاتم رمى به في البحر ، وأُلقي عليه شِبْهُ سليمان ، فجلس على كرسيّه ، وتحكَّم في سُلطانه .

وقال السدي : لم يُلْقِه في البحر حتى فرّ من مكان سليمان .

وهل كان يأتي [نساءَ] سليمان ؟ فيه قولان :

أحدهما : أنه لم يَقْدِر عليهنّ ، قاله الحسن وقتادة .

والثاني : أنه كان يأتيهنّ في زمن الحيض فأَنْكَرْنَه ، قاله سعيد ابن المسيب .

والأول أصحّ ، قالوا : وكان يقضي بقضايا فاسدة ، ويحكُم بما لا يجوز ، فأنكره بنو إسرائيل ، فقال بعضُهم لبعض : إما أن تكونوا قد هَلَكتم أنتم ، وإمّا أن يكون مَلككُم قد هَلَكَ ، فاذْهَبوا إلى نسائه فاسألوهُنَّ ، فذهبوا ، فقُلْنَ : إنّا واللهِ قد أَنْكَرْنا ذلك ؛ فلم يزل على حاله إلى أن انقضى زمن البلاء .

وفي كيفيَّة بُعْدِ الشيطان عن مكان سليمان أربعة أقوال :

أحدها : أن سليمان وجد خاتمه فتختَّم به ، ثم جاء فأخذ بناصية الشيطان ، قاله سعيد بن المسيّب .

(236/661)

والثاني : أن سليمان لمّا رَجَع إلى مُلْكه وجاءته الرِّيح والطَّير والشياطين ، فرّ الشيطان حتى دخل البحر ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه لمّا مضى أربعون يوماً ، طار الشيطان من مجلسه ، قاله وهب .

والرابع : أن بني إسرائيل لمّا أنكروه ، أتوه فأحدقوا به ، ثم نَشَروا التَّوراة فقرؤوا ، فطار بين

أيديهم ، حتى ذهب إلى البحر ، فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت ، قاله السدي .

وفي قدر مكث الشيطان قولان :

أحدهما : أربعون يوماً ، قاله الأكثرون .

والثاني : أربعة عشر يوماً ، حكاه الثعلبي .

وأما قصة سليمان عليه السلام ، فإنه لما سُلب خاتمه ، ذهب ملكه ، فانطلق هارباً في الأرض .

قال مجاهد : كان يَسْتَطْعِمُ فلا يُطْعَم ، فيقول : لو عَرَفْتُموني أعطيتُموني ، أنا سليمان ، فيطردونه ، حتى أعطته امرأةٌ حوتاً ، فوجد خاتمه في بطن الحوت .

وقال سعيد بن جبير : انطلق سليمان حتى أتى ساحل البحر ، فوجد صيّادين قد صادوا سمكاً كثيرا ، وقد أنتن عليهم بعضُه ، فأتاهم يَسْتَطعِم فقالوا : اذهبْ إلى تلك الحيتان فخُذْ منها ، فقال : لا ، أطْعِموني من هذا ، فأَبوا عليه ، فقال : أَطْعِموني فإِنّي سليمان ، فوثب إليه رجُلٌ منهم فضربه بالعصا غَضَباً لسليمان ، فأتى تلك الحيتان فأخذ منها شيئاً ، فشقّ بطنَ حوت ، فإذا هو بالخاتم .

وقال الحسن : ذُكِر لي أنه لم يُؤْوِه أَحدٌ من الناس ، ولم يُعْرَف أربعينَ ليلةً ، وكان يأوي إلى امرأة مسكينة ، فبينا هو يوما على شطّ نهر ، وجد سمكة ، فأتى بها المرأة فشقَّتها فإذا بالخاتم .

وقال الضحاك : اشترى سمكة من امرأة فشقَّ بطنَها فوجد خاتمه .

وفي المدة التي سُلب فيها الملك قولان :

أحدهما : أربعون ليلة ، كما ذكرنا عن الحسن .

والثاني : خمسون ليلة ، قاله سعيد بن جبير .

(237/661)

قال المفسرون : فلمّا جعل الخاتم في يده ، ردَّ اللهُ عليه بهاءَه ومُلْكه ، فأظلَّته الطَّير ، وأقبل لا يستقبله جنيّ ولا طائر ولا حجر ولا شجر إلا سجد له ، حتى انتهى إلى منزله .

قال السدي : ثم أرسل إلى الشيطان ، فجيء به ، فأَمر به ، فجُعل في صندوق من حديد ، ثم أطبق عليه وأقفل ، وختم عليه بخاتمه ، ثم أمر به فأُلقي في البحر ، فهو فيه إلى أن تقوم الساعة .

وقال وهب : جابَ صخرةً فأدخله فيها ثم ، أوثقها بالحديد والرصاص ، ثم قذفه في البحر .

قوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ فتح الياء نافع ، وأبو عمرو .

وفيه قولان :

أحدهما : لا يكون لأحد بعدي ، قاله مقاتل ، وأبو عبيدة .

وقد أخرج البخاري ومسلم في " الصحيحين " من حديث أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ عِفْرِياً من الجِنّ تفلَّت عليّ البارحة لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صلاتي ، فأمكنني اللهُ منه ، فأخذتُه ، فأردتُ أن أَربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظُروا إليه كلُّكم ، فذكرتُ دعوة أخي سليمان ﴿ هَبْ لِي مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ فرددتُه خاسئاً "

والثاني : لا ينبغي لأحد أن يسلبُه مِنّي في حياتي ، كما فعل الشيطان الذي جلس على كرسيه ، قاله الحسن ، وقتادة .

وإنما طلب هذا المُلك ، ليَعلم أنه قد غُفر له ، ويعرف منزلته بإجابة دعوته ، قاله الضحاك .

ولم يكن في مُلْكه حين دعا بهذا الرِّيحُ ولا الشياطينُ ﴿ فسَخَّرْنا له الرِّيحَ ﴾ وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو جعفر ، وأبو المتوكل : " الرِّياح " على الجمع .

قوله تعالى : ﴿ رُخاءً ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : مُطيعة ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والضحاك .

والثاني : أنها الطيِّبة ، قاله مجاهد .

والثالث : اللَّيِّنة ، مأخوذ من الرَّخاوة ، قاله اللُّغويُّون .

فإن قيل : كيف وصفها بهذا بعد أن وصفها في سورة [الأنبياء : 81] بأنها عاصفة ؟

فالجواب : أن المفسرين قالوا : كان يأمُر العاصفَ تارةً ويأمُر الرُّخاءَ أُخرى .

وقال ابن قتيبة : كأنَّها كانت تشتدُّ إذا أراد ، وتَلَينَ إذا أراد .

قوله تعالى : ﴿ حيثُ أصابَ ﴾ أي : حيث قصد وأراد .

قال الأصمعي : تقول العرب : أصابَ فلانٌ الصَّوابَ فأَخطأَ الجوابَ ، أي : أراد الصَّوابَ .

قوله تعالى : ﴿ والشياطينَ ﴾ أي : وسخَّرْنا له الشياطينَ ﴿ كُلَّ بَنّاءٍ ﴾ يبنون له ما يشاء ﴿ وغَوّاصٍ ﴾ يغوصون له في البحار فيَستخرِجون الدُّرَّ ، ﴿ وآخَرِينَ ﴾ أي : وسخَّرْنا له آخَرِين ، وهم مَرَدَةُ الشياطين ، سخَّرهم له حتى قرَّنهم في الأصفادِ لكُفرهم .

قال مقاتل : أَوثَقَهم في الحديد .

وقد شرحنا معنى ﴿ مُقَرَّنِينَ في الأصفاد ﴾ في سورة نبي الله إبراهيم عليه السلام [إبراهيم : 49] ﴿ هذا عطاؤنا ﴾ المعنى : قُلنا له : هذا عطاؤنا .

وفي المشار إليه قولان :

أحدهما : أنه جميع ما أُعطي ، ﴿ فامْنُنْ أو أَمْسِكْ ﴾ أي : أَعْطِ مَنْ شئتَ من المال ، وامْنَعْ مَنْ شئتَ .

والمَنّ : الإحسان إلى من لا يطلب ثوابه .

والثاني : أنه إشارة إلى الشياطين المسخَّرين له ؛ فالمعنى : فامْنُنْ على مَنْ شئتَ بإطلاقه ، وأَمْسِكْ مَنْ شئتَ منهم ، وقد روي معنى القولين عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ بغير حساب ﴾ قال الحسن : لا تَبِعَةَ عليك في الدُّنيا ولا في الآخرة .

وقال سعيد بن جبير : ليس عليك حسابٌ يومَ القيامة .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير تقديره : هذا عطاؤنا بغير حساب فامْنُنْ أو أمْسِكْ .

وما بعد هذا قد سبق تفسيره [سبأ : 37] [الرعد : 29] [الأنبياء : 83] إلى قوله : ﴿ مَسَّنِيَ الشَّيطانُ ﴾ وذلك أن الشيطان سُلِّط عليه ، فأضاف ما أصابه إليه .

قوله تعالى : ﴿ بِنُصْبٍ ﴾ قرأ الأكثرون بضم النون وسكون الصاد ؛ وقرأ الحسن ، وابن أبي عبلة ، وابن السميفع ، والجحدري ، ويعقوب : بفتحهما .

وهل بينهما فرق ؟ فيه قولان :

أحدهما : أنهما سواء .

قال الفراء : هما كالرُّشْد والرَّشَد والعُدْم ، والعَدَم ، والحُزْن والحَزَن ؛ وكذلك قال ابن قتيبة

والزجاج.

قال المفسرون: والمراد بالنصب: الضُّرُ الذي أصابه.

والثاني: أن النُّصْب بتسكين الصاد: الشرُّ، وبتحريكها الإِعياء، قاله أبو عبيدة.

وقرأت عائشة، ومجاهد، وأبو عمران، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو عمارة عن حفص: ﴿ بنُصُب ﴾ بضم النون والصاد جميعاً.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وأبو الجوزاء، وهبيرة عن حفص: ﴿ بنَصْب ﴾ بفتح النون وسكون الصاد.

وفي المراد بالعذاب قولان:

أحدهما: أنه العذاب الذي أصاب جسده.

والثاني: أنه أخْذ ماله وولده.

قوله تعالى: ﴿ أُرْكُضْ ﴾ أي: اضْرِب الأرضَ ﴿ برِجْلِكَ ﴾ ومنه: رَكَضْتُ الفَرَس فرَكَضَ فنبعتْ عَيْنُ ماءٍ، فذلك قوله عز وجل: ﴿ هذا مُغْتَسَلٌ باردٌ وشرابٌ ﴾.

قال ابن قتيبة: المُغْتَسَلُ: الماءُ، وهو الغسول أيضاً.

قال الحسن: رَكَضَ برِجله فنبعتْ عَيْنٌ [فاغتَسلَ منها، ثم مشى نحواً من أربعين ذراعاً، ثم رَكَضَ برِجله فنبعتْ عَيْنٌ] فشَرِب منها؛ وعلى هذا جمهور العلماء أنه رَكَضَ رَكضتين فنبعتْ له عينان، فاغتسل من واحدة وشرب من الأُخرى.

قوله تعالى : ﴿ وخُذْ بيدك ضِغْثاً ﴾ كان قد حَلَفَ لئن شفاه الله لَيَجْلِدَنَّ زوجتَه مائةَ جَلْدة .

وفي سبب هذه اليمين ثلاثة أقوال :

أحدها : أن إبليس جلس في طريق زوجة أيُّوبَ كأنه طبيب ، فقالت له : يا عبد الله إنَّ هاهنا إنساناً مبتلىً ، فهل لكَ أن تداويَه ؟ قال : نعم ، إن شاء شفيتُه على أن يقول إذا بَرَأَ : أنت شفيتَني ، فجاءت فأخبرتْه فقال : ذاك الشيطان ، للهِ عَلَيَّ إن شفاني أن أجْلِدَكِ مائةَ جَلْدة .

رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس .

(240/661)

والثاني : أن إبليس لَقِيَها فقال : إنّي أنا الذي فعلت بأيوبَ ما به ، وأنا آله الأرض ، وما أخذتُه منه فهو بيدي ، فانطلِقي أُريكِ ، فمشى بها غيرَ بعيدٍ ، ثم سَحَرَ بَصَرَها ، فأراها وادياً عميقاً فيه أهلُها وولدُها ومالُها ، فأتت أيُّوبَ فأخبرتْه فقال : ذاكَ الشيطان ، ويحكِ كيفَ وعَى قولَه سَمْعُكِ ؟ واللهِ لئن شفاني اللهُ عز وجل لأَجْلِدَنَّكِ مائةً .

قاله وهب بن منبّه .

والثالث : أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة ، فقال : لِيَذْبَحْ لي هذه وقد بَرَأَ ، فأخبرتْه فحَلَفَ لَيَجْلِدَنَّها ، وقد ذكرنا هذا القول في سورة [الأنبياء : 83] عن الحسن .

فأمّا الضِّغْث فقال الفراء : هو كُلُّ ما جمعتَه من شيءٍ مثل الحِزْمة الرَّطْبة قال : وما قام على ساق واستطال ثم جمعتَه فهو ضِغْث .

وقال ابن قتيبة : هو الحُزْمَةُ من الخِلال والعيدان .

قال الزجاج : هو الحُزْمَةُ من الحشيش والرَّيحان وما أشبهه .

قال المفسرون : جزى اللهُ زوجتَه بحُسْن صبرها أن أفتاه في ضربها ، فسهّل الأمر ، فجمع لها مائة عود ، وقيل : مائة سنبلة .

وقيل : كانت أَسَلاً .

وقيل : من الإِذْخرِ .

وقيل : كانت شماريخ ، فضربها بها ضربةً واحدةً ولم يَحْنَثْ في يمينه .

وهل ذلك خاصٌّ له ، أم لا ؟ فيه قولان :

أحدهما : أنه عامٌّ وبه قال ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح [وابن أبي ليلى] .

والثاني : أنه خاصٌّ لأيوب ، قاله مجاهد .

فصل

وقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يَضْرِبَ عبده عشرة أسواط فجمعها كلَّها وضربه بها

ضربة واحدة ، فقال مالك ، والليث بن سعد : لا يَبَرُّ ، وبه قال أصحابنا .

وقال أبو حنيفة والشافعي : إذا أصابه في الضربة الواحدة كلُّ واحدٍ منها ، فقد بَرَّ ،

واحتجوا بعموم قصة أيُّوب عليه الصلاة والسلام .

قوله تعالى : ﴿ إِنّا وَجَدْناه صابراً ﴾ أي : على البلاء الذي ابتليناه به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 96.145 ﴾

(241/661)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ص ﴾ قيل هو قسم وقيل اسم للسورة وقيل مفتاح اسمه الصمد وصادق الوعد والصبور وقيل معناه صدق الله وعن ابن عباس صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ والقرآن ذي الذكر ﴾ قال ابن عباس أي ذي البيان وقيل ذي الشرف وهو قسم قيل وجوابه قد تقدم وهو قوله تعالى : ﴿ ص ﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بالقرآن إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لصادق وقيل جواب القسم محذوف تقديره والقرآن ذي الذكر ما الأمر كما تقول الكفار دل على هذا المحذوف قوله تعالى : ﴿ بل الذين كفروا ﴾ وقيل بل الذين كفروا موضع القسم وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره بل الذين كفروا ﴿ في عزة وشقاق

﴿ والقرآن ذي الذكر وقيل جوابه ﴾ إن كل إلا كذب الرسل ﴾ وقيل جوابه ﴿ إن هذا لرزقنا ﴾ وقيل ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ وهذا ضعيف لأنه تخلل بين القسم وهذا الجواب أقاصيص وأخبار كثيرة وقيل بل لتدارك كلام ونفي آخر ومجاز الآية أن الله تعالى أقسم بص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا من أهل مكة في عزة أي حمية وجاهلية وتكبر عن الحق وشقاق أي خلاف وعداوة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ يعني من الأمم الخالية ﴿ فنادوا ﴾ أي استغاثوا عند نزول العذاب وحلول النقمة ﴿ ولات حين مناص ﴾ أي ليس الحين حين فرار وتأخر قال ابن عباس : كان كفار مكة إذا قاتلوا فاضطروا في الحرب قال بعضهم لبعض مناص أي اهربوا وخذوا حذركم فلما نزل بهم العذاب ببدر قالوا مناص فأنزل الله : ﴿ ولات حين مناص ﴾ أي ليس الحين حين هذا القول .

(242/661)

﴿ وعجبوا ﴾ يعني كفار مكة ﴿ أن جاءهم منذر منهم ﴾ يعني رسولاً من أنفسهم ينذرهم ﴿ وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ قوله : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾ وذلك أن عمر بن الخطاب أسلم فشق ذلك على قريش وفرح به المؤمنون فقال الوليد بن

المغيرة للملأ من قريش وهم الصناديد والأشراف وكانوا خمسة وعشرين رجلاً أكبرهم سناً الوليد بن المغيرة امشوا إلى أبي طالب فأتوا إلى أبي طالب وقالوا له أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وإنما أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فأرسل إليه أبو طالب فدعا به فلما أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) إليه قال له يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل على قومك فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " وماذا يسألونني " قالوا ارفض آلهتنا وندعك وإلهك فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم " فقال أبو جهل لله أبوك لنعطينكها وعشرة أمثالها فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " قولوا لا إله إلا الله " فنفروا من ذلك وقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً كيف يسمع الخلق إله واحد ﴿ إن هذا لشيء عجاب ﴾ أي عجب ﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ أي من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب ﴿ أن امشوا ﴾ أي يقول بعضهم لبعض امشوا ﴿ واصبروا على آلهتكم ﴾ أي اثبتوا على عبادة آلهتكم ﴿ إن هذا لشيء يراد ﴾ أي لأمر يراد بنا وذلك أن عمر لما أسلم وحصل للمسلمين قوة بمكانه قالوا إن هذا الذي نراه من زيادة أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) لشيء يراد بنا وقيل يراد بأهل الأرض وقيل يراد بمحمد (صلى الله عليه وسلم) أن يملك علينا ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أي بالذي يقوله محمد من التوحيد ﴿ في الملة الآخرة ﴾ قال ابن عباس يعنون النصرانية لأنها آخر الملل وإنهم لا يوحدون الله بل

يقولون ثالث ثلاثة وقيل يعنون ملة قريش وهي دينهم الذي هم عليه ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾

(243/661)

أي كذب وافتعال ﴿ أأنزل عليه الذكر ﴾ أي القرآن ﴿ من بيننا ﴾ أي يقول أهل مكة ليس هو بأكبرنا ولا أشرفنا قال الله تعالى : ﴿ بل هم في شك من ذكري ﴾ أي وحيي وما أنزلت ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ أي لو ذاقوه لما قالوا هذا القول .

﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك ﴾ يعني مفاتيح النبوة يعطونها من شاؤوا ﴿ العزيز ﴾ أي في ملكه ﴿ الوهاب ﴾ الذي وهب النبوة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما ﴾ أي ليس لهم ذلك ﴿ فليرتقوا في الأسباب ﴾ يعني إن ادعوا شيئاً من ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء ليأتوا منها بالوحي إلى من يختارون .

وقيل أراد بالأسباب أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء وهذا أمر توبيخ وتعجيز ﴿ جند ما هنالك ﴾ أي هؤلاء الذين يقولون هذا القول جند ما هنالك ﴿ مهزوم ﴾ أي مغلوب ﴿ من الأحزاب ﴾ يعني أن قريشاً من جملة الأجناد الذين تجمعوا وتحزبوا على

الأنبياء بالتكذيب فقهروا وأهلكوا أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) وهو بمكة أنه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر وهناك إشارة إلى مصارعهم ببدر ثم قال معزياً لنبيه (صلى الله عليه وسلم) ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذي الأوتاد ﴾ قال ابن عباس : ذو البناء المحكم .

وقيل ذو الملك الشديد الثابت والعرب تقول هو في عز ثابت الأوتاد يريدون بذلك أنه دائم شديد وقال الأسود بن يعفر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة . . .

في ظل ملك ثابت الأوتاد

وقيل ذو قوة وأصل هذا أن بيوتهم تثبت بالأوتاد ، وقيل ذو القوة والبطش .

(244/661)

وفي رواية عن ابن عباس والجنود والجموع الكثيرة يعني أنهم يقرون أمره ويشدون ملكه كما يقوي الوتد الشيء وسميت الأجناد أوتاداً لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويوتدونها في أسفارهم وقيل الأوتاد جمع الوتد وكانت له أوتاد يعذب الناس عليها فكان إذا غضب على أحد مده مستلقياً بين أربعة أوتاد يشد كل طرف منه إلى وتد فيتركه حتى يموت .

وقيل يرسل عليه العقارب والحيات .

وقيل كانت له أوتاد وأحبال وملاعب يلعب عليها بين يديه .

(245/661)

﴿ وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ﴾ أي الذين تحزبوا على الأنبياء فأعلم الله تعالى أن مشركي قريش حزب من أولئك الأحزاب ﴿ إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ أي إن أولئك الطوائف والأمم الخالية لما كذبوا أنبياءهم وجب عليهم العذاب فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين إذا نزل بهم العذاب وفي الآية زجر وتخويف للسامعين ﴿ وما ينظر ﴾ أي ينتظر ﴿ هؤلاء ﴾ أي كفار مكة ﴿ إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ﴾ أي رجوع والمعنى أن تلك الصيحة التي هي ميعاد عذابهم إذا جاءت لم ترد ولم تصرف ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا ﴾ أي حظنا ونصيبنا من الجنة التي تقول وقيل نصيبنا من العذاب قاله النضر بن الحارث استعجالاً منه بالعذاب وقال ابن عباس يعني كتابنا والقط الصحيفة التي حصرت كل شيء قيل لما نزلت في الحاقة ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾ قالوا استهزاء عجل لنا كتابنا في الدنيا ﴿ قبل يوم الحساب ﴾ وقيل قطنا أي حسابنا يقال لكتاب الحساب قط وقيل القط كتاب الجوائز ،

قال الله لنبيه (صلى الله عليه وسلم) ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ أي على ما يقول الكفار من التكذيب ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ قال ابن عباس ذا القوة في العبادة (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه " وقيل معناه ذا القوة في الملك ﴿ إنه أواب ﴾ أي رجاع إلى الله بالتوبة عن كل ما يكره وقال ابن عباس مطيع لله وقيل مسبح بلغة الحبشة .

(246/661)

﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن ﴾ أي بتسبيحه إذا سبح ﴿ بالعشي والإشراق ﴾ أي غدوة وعشية والإشراق هو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوءها وفسره ابن عباس بصلاة الضحى وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس في قوله ﴿ بالعشي والإشراق ﴾ قال كنت أمر بهذه الآية لا أدري ما هي حتى حدثتني أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى الضحى فقال " يا أم هانىء إن هذه صلاة الإشراق " قلت والذي أخرجاه في الصحيحين من

حديث أم هانىء في صلاة الضحى قالت أم هانىء : " ذهبت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة بنته تستره بثوب فسلمت عليه فقال من هذه قلت أم هانىء بنت أبي طالب فقال مرحباً يا أم هانىء فلما فرغ من غسله قام وصلى ثمان ركعات ملتحفاً بثوب قالت أم هانىء وذلك ضحى " ولهما عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال " ما حدثنا أحد أنه رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) يصلي الضحى غير أم هانىء فإنها قالت إن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل بيتها يوم فتح مكة فاغتسل وصلى ثمان ركعات فلم أر صلاة قط أخف منها غير أنه يتم الركوع والسجود " .

قوله تعالى : ﴿ والطير ﴾ أي وسخرنا له الطير ﴿ محشورة ﴾ أي مجموعة إليه تسبح معه ﴿ كل له أواب ﴾ أي رجاع إلى طاعته مطيع له بالتسبيح معه ﴿ وشددنا ملكه ﴾ أي قويناه بالحرس والجنود قال ابن عباس كان أشد ملوك الأرض سلطاناً كان يحرس محراباً كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل .

(247/661)

وروي عن ابن عباس أن رجلاً من بني إسرائيل ادعى على رجل من عظمائهم عند داود فقال هذا غصبني بقرة فسأله داود فجحده فسأل الآخر البينة فلم يكن له بينة فقال لهما

داود قوما حتى أنظر في أمركما فأوحى الله إلى داود في منامه أن اقتل المدعى عليه فقال هذه رؤيا ولست أعجل عليه حتى أتثبت فأوحي إليه مرة أخرى فلم يفعل فأوحي إليه الثالثة أن يقتله أو تأتيه العقوبة فأرسل إليه داود فقال إن الله أوحى إليّ أن أقتلك فقال تقتلني بغير بينة فقال داود نعم والله لأنفذن أمر الله فيك فلما عرف الرجل أنه قاتله قال لا تعجل حتى أخبرك إني والله ما أخذت بهذا الذنب ولكني كنت اغتلت والد هذا فقتلته فبذلك أوخذت فأمر به داود فقتل فاشتدت هيبة بني إسرائيل عند ذلك لداود واشتد به ملكه فذلك قوله تعالى ﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة ﴾ يعني النبوة والإصابة في الأمور ﴿ وفصل الخطاب ﴾ قال ابن عباس يعني بيان الكلام وقال ابن مسعود علم الحكم والتبصر بالقضاء وقال علي بن أبي طالب هو أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر لأن كلام الخصوم ينقطع وينفصل به .

وقال أبيّ بن كعب فصل الخطاب الشهود والأيمان وقيل إن فصل الخطاب هو قول الإنسان بعد حمد الله تعالى والثناء عليه أما بعد إذا أراد الشروع في كلام آخر وأول من قاله داود .

قوله : ﴿ وهل أتاك ﴾ أي وقد أتاك يا محمد ﴿ نبأ الخصم ﴾ أي خبر الخصم فاستمع له نقصصه عليك .

وقيل ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأخبار العجيبة والتشويق إلى استماع كلام الخصماء والخصم يقع على الواحد والجمع ﴿ إذ تسوروا المحراب ﴾ أي صعدوا

وعلوا المحراب أي بالبيت الذي كان يدخل فيه داود يشتغل بالطاعة والعبادة والمعنى أنهم أتوا المحراب من سوره وهو أعلاه وفي الآية قصة امتحان داود .

(248/661)

واختلف العلماء بأخبار الأنبياء في سبب ذلك وسأذكر ما قاله المفسرون ثم أتبعه بفصل فيه ذكر نزاهة داود عما لا يليق بمنصبه (صلى الله عليه وسلم) لأن منصب النبوة أشرف المناصب وأعلاها فلا ينسب إليها إلا ما يليق بها ؛ وأما ما قال المفسرون (1) إن داود تمنى يوماً من الأيام منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وذلك أنه كان قد قسم الدهر ثلاثة أيام يوم يقضي فيه بين الناس ويوم يخلو فيه لعبادة ربه ويوم لنسائه وأشغاله .

وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فقال يا رب أرى الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي فأوحى الله تعالى إليه أنهم ابتلوا ببلايا لم تبتل بها فصبروا عليها ابتلي إبراهيم بنمرود وذبح ابنه وابتلي إسحاق بالذبح وبذهاب بصره وابتلي يعقوب بالحزن على يوسف .

فقال داود رب لو ابتليتني بمثل ما ابتليتهم صبرت أيضاً فأوحى الله إنك مبتلى في شهر كذا في يوم كذا فاحترس .

---

(1) قوله وأما ما قاله المفسرون إلخ لم يذكر جوابه وقد ذكره صاحب الكشاف فقال بعد ذكر القصة فهذا ونحوه ما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أبناء المسلمين فضلا عن بعض أعلام الأنبياء اه.

(249/661)

فلما كان اليوم الذي وعده الله به دخل داود محرابه وأغلق بابه وجعل يصلي ويقرأ الزبور فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان وقد تمثل له في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن وجناحاها من الدر والزبرجد فوقعت بين رجليه فأعجبه حسنها فمد يده ليأخذها ويريها بني إسرائيل لينظروا إلى قدرة الله تعالى فلما قصد أخذها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها فامتد إليها ليأخذها فتنحت فتبعها فطارت حتى وقعت في كوة فذهب ليأخذها فطارت من الكوة فنظر داود أين تقع فيبعث من يصيدها له فأبصر امرأة في بستان على شاطىء بركة تغتسل وقيل رآها تغتسل على سطح لها فرآها من أجمل النساء خلقاً فعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطى بدنها فزاده ذلك إعجاباً بها فسأل عنها فقيل هي تشابع بنت شابع امرأة أوريا بن حنانا وزوجها في غزاة بالبلقاء مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود فكتب داود إلى

ابن أخته أن أبعث أوريا إلى موضع كذا وقدمه قبل التابوت وكان من قدم على التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد فبعثه ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا أشد منه بأساً فبعثه ففتح له فكتب إلى داود بذلك فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا أشد منه بأساً فبعثه فقتل في المرة الثالثة فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود فهي أم سليمان .

(250/661)

﴿ إن هذا أخي ﴾ على ديني وطريقتي لا من جهة النسب ﴿ له تسع وتسعون نعجة ﴾ يعني امرأة ﴿ ولي نعجة واحدة ﴾ أي امرأة واحدة والعرب تكني بالنعجة عن المرأة وهذا على سبيل التعريض للتنبيه والتفهيم لأنه لم يكن هناك نعاج ولا بغي ﴿ فقال أكفلنيها ﴾ قال ابن عباس أي أعطنيها وقيل معناه انزل عنها وضمها إلي واجعلني كافلها والمعنى طلقها لأتزوجها ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ يعني غلبني وقهرني في القول لأنه أفصح مني في الكلام وإن حارب كان أبطش مني لقوة ملكه والمعنى أن الغلبة كانت له عليّ لضعفي في يده وإن كان الحق وهذا كله تمثيل لأمر داود مع أوريا زوج المرأة التي تزوجها داود حيث كان لداود تسع وتسعون امرأة ولأوريا امرأة واحدة فضمها داود إلى نسائه .

﴿ قال ﴾ داود ﴿ لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ أي بضمها إلى نعاجه .

فإن قلت كيف قال داود لقد ظلمك ولم يكن سمع قول الآخر قلت معناه إن كان الأمر كما تقول فقد ظلمك وقيل إنما قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما يقول ﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ﴾ أي الشركاء ﴿ ليبغي بعضهم على بعض ﴾ أي يظلم بعضهم بعضاً ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فإنهم لا يظلمون أحداً ﴿ وقليل ما هم ﴾ أي هم قليل وما صلة .

والمعنى أن الصالحين الذين لا يظلمون قليل فلما قضى داود بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه وضحك وصعد إلى السماء فعلم داود أن الله تعالى ابتلاه فذلك قوله تعالى : ﴿ وظن داود ﴾ أي أيقن وعلم ﴿ أنما فتناه ﴾ أي ابتليناه وامتحناه وقال ابن عباس : إن داود لما دخل عليه الملكان فقضى على نفسه تحولا في صورتهما وعرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه فعلم داود أنه إنما عنى به .

(251/661)

وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول إن داود النبي (صلى الله عليه وسلم) حين نظر إلى المرأة فهم ففظع على بني إسرائيل أوصى صاحب البعث فقال إذا حضر العدو فقرب فلاناً بين يدي التابوت وكان

التابوت في ذلك الزمان يستنصر به ومن قدم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو يهزم عنه الجيش فقتل زوج المرأة ونزل الملكان يقصان عليه قصته ففطن داود فسجد فمكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه وأكلت الأرض من جبهته وهو يقول في سجوده : رب زل داود زلة أبعد ما بين المشرق والمغرب رب إن لم ترحم ضعف داود ولم تغفر ذنبه جعلت ذنبه حديثاً في الخلق من بعده .

فجاء جبريل من بعد أربعين ليلة فقال يا داود إن الله تعالى قد غفر لك الهم الذي هممت به فقال داود : إن الرب قادر على أن يغفر لي الهم الذي هممت به وقد عرفت أن الله عدل لا يميل فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة فقال رب دمي الذي عند داود فقال جبريل ما سألت ربك عن ذلك وإن شئت لأفعلن قال نعم فعرج جبريل وسجد داود ما شاء الله تعالى ثم نزل جبريل فقال سألت الله يا داود عن الذي أرسلتني فيه فقال قل لداود إن الله تعالى يجمعكما يوم القيامة فيقول له هب لي دمك الذي عند داود فيقول : هو لك يا رب فيقول الله تعالى فإن لك في الجنة ما شئت وما اشتهيت عوضاً عن دمك فهذه أقاويل السلف من أهل التفسير في قصة امتحان داود .

(فصل في تنزيه داود عما لا يليق به وما ينسب إليه)

اعلم أن من خصه الله تعالى بنبوته وأكرمه برسالته وشرفه على كثير من خلقه وائتمنه على وحيه وجعله واسطة بينه وبين خلقه لا يليق أن ينسب إليه ما لو نسب إلى آحاد الناس

لاستنكف أن يحدث به عنه فكيف يجوز أن ينسب إلى بعض أعلام الأنبياء والصفوة الأمناء ذلك .

(252/661)

روى سعيد بن المسيب والحارث الأعور عن علي بن أبي طالب أنه قال من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة وهو حد الفرية على الأنبياء .

وقال القاضي عياض : لا يجوز أن يلتفت إلى ما سطره الأخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين ولم ينص الله تعالى على شيء من ذلك ولا ورد في حديث صحيح والذي نص عليه الله في قصة داود وظن داود أن ما فتناه وليس في قصة داود وأوريا خبر ثابت ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم وهذا هو الذي ينبغي أن يعول عليه من أمر داود .

قال الإمام فخر الدين حاصل القصة يرجع إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع في زوجته وكلاهما منكر عظيم فلا يليق بعاقل أن يظن بداود .

هذا وقال غيره إن الله تعالى أثنى على داود قبل هذه القصة وبعدها وذلك يدل على

استحالة ما نقوله من القصة فكيف يتوهم عاقل أن يقع بين مدحين ذم ولو جرى ذلك من بعض الناس في كلامه لاستهجنه العقلاء وقالوا أنت في مدح شخص كيف تجري ذمه أثناء مدحك والله تعالى منزه عن مثل هذا في كلامه القديم .

فإن قلت في الآية ما يدل على صدور الذنب منه وهو قوله تعالى وظن داود إنما فتناه وقوله فاستغفر ربه وقوله وأناب وقوله فغفرنا له ذلك .

قلت ليس في هذه الألفاظ شيء مما يدل على ذلك وذلك لأن مقام النبوة أشرف المقامات وأعلاها فيطالبون بأكمل الأخلاق والأوصاف وأسناها فإذا نزلوا من ذلك إلى طبع البشرية عاتبهم الله تعالى على ذلك وغفره لهم كما قيل " حسنات الأبرار سيئآت المقربين " .

فإت قلت فعلى هذا القول والاحتمال فما معنى الامتحان في الآية ؟

قلت ذهب المحققون من علماء التفسير وغيرهم في هذه القصة إلى أن داود ما زاد على أن قال للرجل .

انزل لي عن امرأتك واكفلنيها فعاتبه الله تعالى على ذلك ونبهه عليه وأنكر عليه شغله بالدنيا وقيل إن داود تمنى أن تكون امراة أوريا له فاتفق أن أوريا هلك في الحرب فلما بلغ داود قتله لم يجزع عليه كما جزع على غيره من جنده ثم تزوج امرأته فعاتبه الله تعالى على ذلك لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله تعالى .

وقيل إن أوريا كان قد خطب تلك المراة ووطَّن نفسه عليها فلما غاب في غزاته خطبها داود فزوجت نفسها منه لجلالته فاغتمَّ لذلك أوريا فعاتبه الله تعالى على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها وعنده تسعة وتسعون امرأة ويدل على صحة هذا الوجه قوله وعزني في الخطاب فدل هذا على أن الكلام كان بينهما في الخطبة ولم يكن قد تقدم تزوج أوريا لها فعوتب داود بسببين أحدهما : خطبته على خطبة أخيه والثاني : إظهار الحرص على التزوج مع كثرة نسائه .

وقيل إن ذنب داود الذي استغفر منه ليس هو بسبب أوريا والمرأة وإنما هو بسبب الخصمين وكونه قضى لأحدهما قبل سماع كلام الآخر وقيل هو قوله لأحد الخصمين لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه فحكم على خصمه بكونه ظالماً بمجرد الدعوى فلما كان هذا الحكم مخالفاً للصواب اشتغل داود بالاستغفار والتوبة فثبت بهذه الوجوه نزاهة داود مما نسب إليه والله أعلم .

وقوله : ﴿ فاستغفر ربه ﴾ أي سأل ربه الغفران ﴿ وخر راكعاً ﴾ أي ساجداً عبَّر

بالركوع عن السجود لأن كل واحد منهما فيه انحناء .

وقيل معناه وخرَّ ساجداً بعد ما كان راكعاً والله تعالى أعلم بمراده .

(فصل)

اختلف العلماء في سجدة ص هل هي من عزائم السجود ، فذهب الشافعي رحمه الله تعالى إلى أنها ليست من عزائم سجود التلاوة قال : لأنها توبة نبي فلا توجب سجدة التلاوة .

(254/661)

وقال أبو حنيفة : هي من عزائم سجود التلاوة واستدل بهذه الآية على أن الركوع يقوم مقام السجود في سجود التلاوة ، وعن أحمد : في سجدة ص روايتان وقد ثبت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) سجد فيها (خ) .

عن ابن عباس قال : سجدة ص ليست من عزائم السجود وقد رأيت النبي (صلى الله عليه وسلم) سجد فيها قال مجاهد قلت لابن عباس أسجد في ص فقرأ ومن ذريته داود وسليمان حتى أتى فبهداهم اقتده فقال نبيكم ممن أمر أن يقتدى بهم فسجدها داود فسجدها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وللنسائي " عن ابن عباس أن النبي (صلى

الله عليه وسلم) سجد في ص وقال سجدها داود توبة فنسجدها شكراً " عن أبي سعيد الخدري قال " قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سورة ص وهو على المنبر فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشوف الناس لسجوده فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنما هي توبة نبي ولكني رأيتكم تشوفتم فنزل وسجد وسجدوا "

أخرجه أبو داود قوله تشوف الناس يعني تهيؤا وتأهبوا واستعدوا للسجود وعن ابن عباس قال " جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال يا رسول الله رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها تقول اللهم اكتب لي بها أجراً وحطّ عني بها وزراً واجعلها لي عندك ذخراً وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود ".

(255/661)

قال ابن عباس : " سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قرأ سجدة ثم سجد فقال مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة " أخرجه الترمذي قال المفسرون سجد داود أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة أو لوقت صلاة مكتوبة ثم يعود ساجداً تمام أربعين يوماً لا يأكل

ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه وهو ينادي ربه ويسأله التوبة وكان من دعائه في سجوده سبحان الملك الأعظم الذي يبتلي الخلق بما يشاء سبحان خالق النور سبحان الحائل بين القلوب سبحان خالق النور إلهي خليت بيني وبين عدوي إبليس فلم أقم لفتنته إذ نزلت بي سبحان خالق النور إلهي أنت خلقتني وكان في سابق علمك ما أنا إليه صائر سبحان خالق النور إلهي الويل لداود يوم يكشف عنه الغطاء ، فيقال هذا داود الخاطئ سبحان خالق النور إلهي بأي عين أنظر إليك يوم القيامة وإنما ينظر الظالمون من طرف خفي ، سبحان خالق النور إلهي بأي قدم أقوم أمامك يوم القيامة يوم تزل أقدام الخاطئين ، سبحان خالق النور إلهي من أين يطلب العبد المغفرة إلا من عند سيده سبحان خالق النور ، إلهي أنا لا أطيق حر شمسك فكيف أطيق حر نارك سبحان خالق النور إلهي أنا لا أطيق صوت رعدك فكيف أطيق صوت جهنم سبحان خالق النور إلهي الويل لداود من الذنب العظيم الذي أصابه سبحان خالق النور إلهي كيف تستر الخطاؤون بخطاياهم دونك وأنت تشاهدهم حيث كانوا ، سبحان خالق النور إلهي قد تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي سبحان خالق النور إلهي اغفر لي ذنوبي ولا تباعدني من رحمتك لهواني سبحان خالق النور إلهي أعوذ بوجهك الكريم من ذنوبي التي أوبقتني سبحان خالق النور إلهي فررت إليك بذنوبي واعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ولا تخزني يوم الدين سبحان خالق النور وقيل مكث داود أربعين يوماً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من

دموع عينيه حتى غطى رأسه فنودي يا داود أجائع انت فتطعم أظمآن أنت فتسقى أمظلوم أنت فتنصر فأجيب في غير ما طلب ولم

(256/661)

يجب في ذكر خطيئته بشيء فحزن حتى هاج ما حوله من العشب فاحترق من حرجوفه ثم أنزل الله تعالى له التوبة والمغفرة .

قال وهب : إن داود أتاه نداء أني قد غفرت لك قال يا رب كيف وأنت لا تظلم أحداً قال اذهب إلى قبر أوريا فناده وأنا أسمعه نداءك فتحلل منه ، قال فانطلق داود وقد لبس المسوح حتى جلس عند قبره ثم نادى يا أوريا فقال من هذا الذي قطع علي لذتي وأيقظني قال أنا داود قال ما جاء بك يا نبي الله قال أسألك أن تجعلني في حل مما كان مني إليك قال وما كان منك إليّ قال عرضتك للقتل قال بل عرضتني للجنة فأنت في حل فأوحى الله تعالى إليه يا داود ألم تعلم أني حكم عدل لا أقضي بالغيب ألا أعلمته إنك قد تزوجت امرأته ، قال فرجع فناداه فأجابه فقال من هذا الذي قطع علي لذتي وأيقظني قال أنا داود قال ما جاء بك يا نبي الله أليس قد عفوت عنك قال نعم ولكن إنما فعلت ذلك بك لمكان امرأتك وقد تزوجتها قال فسكت ولم يجبه ودعاه مرة فلم يجبه وعاوده فلم يجبه فقام عند قبره وجعل

التراب على رأسه ثم نادى الويل لداود ثم الويل الطويل لداود إذا وضعت الموازين بالقسط سبحان خالق النور الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يسحب على وجهه مع الخاطئين إلى النار سبحان خالق النور فأتاه نداء من السماء يا داود قد غفرت لك ذنبك ورحمت بكاءك واستجبت دعاءك وأقلت عثرتك قال يا رب كيف وصاحبي لم يعف عني قال يا داود أعطيه يوم القيامة من الثواب ما لم تر عيناه ولم تسمع أذناه فأقول له رضيت عبدي فيقول يا رب من أين لي هذا ولم يبلغه عملي ، فأقول هذا عوض من عبدي داود فأستوهبك منه فيهبك لي قال يا رب الآن قد عرفت أنك قد غفرت لي فذلك قوله فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً ﴿ وأناب ﴾ أي رجع ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ أي الذنب ﴿ وإن له عندنا ﴾ أي يوم القيامة بعد المغفرة ﴿ لزلفى ﴾ أي لقربة ومكانة ﴿ وحسن مآب ﴾ أي حسن مرجع ومنقلب .

(257/661)

قال وهب بن منبه إن داود لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا يرقأ دمعه ليلاً ولا نهاراً وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة فقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام يوم للقضاء بين بني إسرائيل ، ويوم لنسائه ويوم يسيح في الجبال والفيافي والساحل ويوم

يخلو في دار له فيها أربعة آلاف محراب فيجتمع إليه الرهبان فينوح معهم على نفسه ويساعدونه على ذلك ، فإذا كان يوم سياحته يخرج إلى الفيافي ويرفع صوته بالمزامير فيبكي وتبكي الشجر والرمال والطير والوحوش حتى يسيل من دموعهم مثل الأنهار ثم يجيء إلى الجبال ويرفع صوته ويبكي فتبكي معه الجبال والحجارة والطير والدواب حتى تسيل من بكائهم الأودية ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته ويبكي فتبكي معه الحيتان ودواب البحر وطين الماء فإذا أمسى رجع فإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه إن اليوم يوم نوح داود على نفسه فليحضره من يساعده ويدخل الدار التي فيها المحاريب فيبسط فيها ثلاث فرش من مسوح حشوها ليف فيجلس عليها ويجيء أربعة آلاف راهب عليهم البرانس وفي أيديهم العصي فيجلسون في تلك المحاريب ثم يرفع داود صوته بالبكاء والنوح على نفسه ويرفع الرهبان معه أصواتهم فلا يزال يبكي حتى يغرق الفرش من دموعه ويقع داود فيها مثل الفرخ يضطرب فيجيء ابنه سليمان فيحمله ويأخذ داود من تلك الدموع بكفيه ويمسح بها وجهه ويقول يا رب اغفر ما ترى فلو عادل بكاء داود بكاء أهل الدنيا لعدله .

قوله : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ أي لتدبر أمر الناس بأمر نافذ الحكم فيهم ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ﴾ أي بالعدل ﴿ ولا تتبع الهوى ﴾ أي لا تمل مع ما تشتهي إذا خالف أمر الله تعالى ﴿ فيضلك عن سبيل الله ﴾ أي عن دين الله وطريقه ﴿ إن

الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ أي بما تركوا الإيمان بيوم الحساب .

وقيل بتركهم العمل بذلك اليوم وقيل بترك العدل في القضاء .

(258/661)

قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ قال ابن عباس : لا لثواب ولا لعقاب .

وقيل معناه ما خلقناهما عبثاً لا لشيء ﴿ ذلك ظن الذين كفروا ﴾ يعني أهل مكة هم الذين ظنوا أنما خلقناهم لغير شيء وأنه لا بعث ولا حساب ﴿ فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ﴾ قيل إن كفار قريش قالوا للمؤمنين إنما نعطي في الآخرة من الخير ما تعطون فنزلت هذه الآية ﴿ أم نجعل المتقين ﴾ يعني الذين اتقوا الشرك وهم أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ كالفجار ﴾ يعني الكفار والمعنى لا نجعل الفريقين سواء في الآخرة .

﴿ كتاب أنزلناه إليك ﴾ أي هذا كتاب يعني القرآن أنزلناه إليك ﴿ مبارك ﴾ أي كثير خيره ونفعه ﴿ ليدبروا آياته ﴾ أي ليتدبروا ويتفكروا في أسراره العجيبة ومعانيه اللطيفة

وقيل تدبر آياته اتباعه في أوامره ونواهيه ﴿ وليتذكر ﴾ أي وليتعظ ﴿ أولوا الألباب ﴾ أي ذوو العقول والبصائر .

(259/661)

قوله تعالى : ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ قيل إن سليمان غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهم ما أصاب وهو ألف فرس وقيل ورثها من أبيه وقيل إنها كانت خيلاً من البحر لها أجنحة فصلى سليمان الصلاة الأولى التي هي الظهر وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه فعرض عليه منها تسعمائة فرس فتنبه لصلاة العصر فإذا الشمس قد غربت وفاتت الصلاة ولم يعلم بذلك هيبة له فاغتمّ لذلك وقال ردّوها عليّ فأقبل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف تقرباً إلى الله تعالى وطلباً لمرضاته حيث اشتغل بها عن طاعته وكان ذلك مباحاً له وإن كن حراماً علينا وبقي منها مائة فرس فالذي في أيدي الناس من الخيل يقال إنه من نسل تلك المائة فلما عقرها الله تعالى أبدله الله تعالى خيراً منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره كيف شاء ، وقوله تعالى : ﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ قيل هي الخيل القائمة على ثلاث قوائم مقيمة الرابعة على طرف الحافر من رجل أو يد وقيل الصافن القائم وجاء في

الحديث " من سرَّه أن يقوم له الناس صفوفاً فليتبوأ مقعده من النار " أي قياماً الجياد : أي الخيار السراع في الجري واحده جواد قال ابن عباس يريد الخيل السوابق ﴿ فقال إني أحببت حب الخير ﴾ أي آثرت حب الخير وأراد بالخير الخيل سميت به لأنه معقود في نواصيها الخير الأجر والغنيمة وقيل حب الخير يعني المال ومنه الخيل التي عرضت عليه ﴿ عن ذكر ربي ﴾ يعني صلاة العصر ﴿ حتى توارت ﴾ أي استترت الشمس ﴿ بالحجاب ﴾ أي ما يحجبها من الأبصار يقال إن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه .

(260/661)

﴿ ردوها علي ﴾ أي ردوا الخيل علي ﴿ فطفق مسحاً بالسوق ﴾ جمع ساق ﴿ والأعناق ﴾ أي جعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين وكان ذلك مباحاً له لأن نبي الله سليمان لم يكن ليقدم على محرم ولم يكن ليتوب عن ذنب وهو ترك الصلاة بذنب آخر وهو عقر الخيل ، وقال محمد بن إسحاق : لم يعنفه الله تعالى على عقره الخيل إذ كان ذلك أسفاً على ما فاته من فريضة ربه ، وقيل إنه ذبحها

وتصدق بلحومها .

وقيل معناه إنه حبسها في سبيل الله تعالى وكوى سوقها وأعناقها بكي الصدقة .

(261/661)

وحكي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال : معنى ردوها عليّ يقول بأمر الله تعالى للملائكة الموكلين بالشمس ردوها عليّ فردوها عليه فصلى العصر في وقتها قال الإمام فخر الدين بل التفسير الحق المطابق لألفاظ القرآن أن نقول إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما أنه كذلك في ديننا ثم إن سليمان احتاج إلى غزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس وإنما أحبها لأمر الله تعالى وتقوية دينه وهو المراد بقوله عن ذكر ربي ثم إنه أمر بإعدائها وإجرائها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره ثم أمر برد الخيل إليه وهو قوله ردوها عليّ فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك المسح أمور الأول تشريف لها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو الثاني أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والمملكة يبلغ إلى أنه يباشر الأمور بنفسه الثالث أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها من غيره فكان يمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض فهذا التفسير الذي

ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن ولا يلزمنا شيء من تلك المنكرات والمحظورات والعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة فإن قيل فالجمهور قد فسروا الآية بتلك الوجوه فما قولك فيه ، فنقول : لنا هاهنا مقامات المقام الأول أن يدعي أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي ذكروها وقد ظهروا الحمد لله أن الأمر كما ذكرنا ظهوراً لا يرتاب عاقل فيه ، المقام الثاني : أن يقال هب أن لفظ الآية يدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس وأن الدلائل الكثيرة قد قامت على عصمة الأنبياء ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات .

(262/661)

قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ ولقد فتنا سليمان ﴾ أي اختبرناه وابتليناه بسلب ملكه وكان سبب ذلك ما ذكر عن وهب بن منبه قال : سمع سليمان بمدينة في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون وبها ملك عظيم الشأن ولم يكن للناس إليه سبيل لمكانه في البحر وكان الله تعالى قد أتى سليمان في ملكه سلطاناً لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر إنما يركب إليه الريح فخرج إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وسبى ما فيها وأصاب فيما أصاب بنتاً لذلك الملك يقال لها جرادة لم ير مثلها حسناً وجمالاً فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلة فقه وأحبها

حباً لم يحبه شيئاً من نسائه وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها ولا يرقأ دمعها فشقّ ذلك على سليمان ، فقال لها ويحك ما هذا الحزن الذي لا يذهب والدمع الذي لا يرقأ ، قالت : إني أذكر أبي وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصابه فيحزنني ذلك فقال سليمان : فقد أبدلك الله ملكاً هو أعظم من ملكه وسلطاناً أعظم من سلطانه وهداك إلى الإسلام وهو خير من ذلك قالت إن ذلك كذلك ولكني إذ ذكرته أصابني ما تراه من الحزن فلو أنك أمرت الشياطين فصوروا لي صورته في داري التي أنا فيها أراها بكرة وعشياً لرجوت أن يذهب ذلك حزني وأن يسلي عني بعض ما أجد في نفسي فأمر سليمان الشياطين ، فقال : مثلوا لها صورة أبيها في دارها حتى لا تنكر منه شيئاً فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه إلا أنه لا روح فيه فعمدت إليه حين صنعوه فألبسته ثياباً مثل ثيابه التي كان يلبسها ، ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو إليه في ولائدها فتسجد له ويسجدن معها كما كانت تصنع في ملكه وتروح في كل عشية بمثل ذلك وسليمان لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحاً .

(263/661)

وبلغ ذلك آصف بن برخيا وكان صديقاً له وكان لا يرد على أبواب سليمان أي ساعة أراد دخول شيء من بيوته دخل حاضراً سليمان أو غائباً ، فأتاه فقال : يا نبي الله كبر سني ورق عظمي ونفد عمري وقد حان مني الذهاب وقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله تعالى وأثني عليهم بعلمي فيهم وأعلم الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير أمرهم .

فقال : افعل فجمع له سليمان الناس ، فقام فيهم خطيباً فذكر من مضى من أنبياء الله تعالى وأثنى على كل نبي بما فيه وذكر ما فضله الله تعالى به حتى انتهى إلى سليمان فقال : ما كان أحكمك في صغرك وأورعك في صغرك وأفضلك في صغرك وأحكم أمرك في صغرك وأبعدك عن كل ما يكره الله تعالى في صغرك ثم انصرف ، فوجد سليمان في نفسه من ذلك حتى ملئ غضباً فلما دخل سليمان داره دعاه فقال : يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم وعلى كل حال من أمرهم فلما ذكرتني جعلت تثني علي خيراً في صغري وسكت عما سوى ذلك من أمري في كبري فما الذي أحدثت في آخر عمري ؟ قال آصف : إنَّ غير الله يعبد في دارك منذ أربعين صباحاً في هوى امرأة ، فقال سليمان في داري ؟ قال : في دارك قال : فإنا لله وإنا إليه راجعون قد عرفت أنك ما قلت الذي قلت إلا عن شيء بلغك .

ثم رجع سليمان إلى داره فكسر ذلك الصنم وعاقب تلك المرأة وولائدها ثم أمر بثياب الظهيرة فأتى بها وهي ثياب لا يغزلها إلا الأبكار ولا ينسجها إلا الأبكار ولا يغسلها إلا الأبكار لم تمسها يد امرأة قد رأت الدم فلبسها ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده وأمر برماد ففرش له ثم أقبل تائباً إلى الله تعالى حتى جلس على ذلك الرماد وتمعك به في ثيابه تذللاً إلى الله تعالى وتضرعاً إليه يبكي ويدعو ويستغفر مما كان في داره فلم يزل كذلك يومه حتى أمسى ثم رجع إلى داره وكانت له أم ولد يقال لها أمينة كان إذا دخل الخلاء أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر وكان لا يمسّ خاتمه إلا وهو طاهر وكان ملكه في خاتمه فوضعه يوماً عندها ثم دخل مذهبه ، فأتاها شيطان اسمه صخر المارد في صورة سليمان لا تنكر منه شيئاً فقال : خاتمي أمينة فناولته إياه فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان وعكفت عليه الطير والوحش والجن والإنس وخرج سليمان فأتى أمينة وقد تغيرت حالته وهيأته عند كل من رآه فقال : يا أمينة خاتمي قالت من أنت قال سليمان بن داود فقالت كذبت قد جاء سليمان وأخذ خاتمه وهو جالس على سرير ملكه فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته فخرج فجعل يقف على الدار من دور بني إسرائيل فيقول : أنا سليمان بن داود فيحثون عليه التراب ويقولون انظروا إلى هذا المجنون أي شيء يقول يزعم أنه سليمان .

فلما رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر فكان ينقل الحيتان لأصحاب السوق ويعطونه كل يوم سمكتين فإذ أمسى باع إحدى سمكتيه بأرغفة ويشوي الأخرى فيأكلها .

(265/661)

فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدة ما كان يعبد الوثن في داره ثم إن آصف وعظماء بني إسرائيل أنكروا حكم عدو الله الشيطان في تلك المدة فقال آصف يا معشر بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيتم قالوا نعم فقال أمهلوني حتى أدخل على نسائه فأسألهن هل أنكرن من خاصة أمره ما أنكرنا في عامة الناس وعلانيتهم فدخل على نسائه فقال : ويحكن هل أنكرتن من ابن داود ما أنكرنا ؟ فقلن : أشده ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من الجنابة ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

قال الحسن : ما كان الله سبحانه وتعالى ليسلط الشيطان على نساء نبيه (صلى الله عليه وسلم) قال وهب : ثم إن آصف خرج على بني إسرائيل فقال ما في الخاصة أشد مما في العامة فلما مضى أربعون صباحاً طار الشيطان عن مجلسه ثم مر بالبحر فقذف الخاتم فيه فبلعته سمكة فأخذها بعض الصيادين وقد عمل له سليمان صدر يومه فلما أمسى أعطاه سمكتيه فباع سليمان إحداهما بأرغفة وبقر بطن الأخرى ليشويها ، فاستقبله خاتمه في

جوفها فأخذه وجعله في يده ووقع لله ساجداً وعكفت عليه الطير والجن وأقبل الناس عليه وعرف الذي كان دخل عليه لما كان أحدث في داره فرجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه وأمر الشياطين أن يأتوه بصخر فطلبوه حتى أخذوه فأتي به فأدخله في جوف صخرة وسدَّ عليه بأخرى ثم أوثقها بالحديد والرصاص ثم أمر به فقذفوه في البحر .

وقيل في سبب فتنة سليمان أن جرادة كانت أبرَّ نسائه عنده وكان يأتمنها على خاتمه ، فقالت له يوماً إن أخي بينه وبين فلان خصومة فأحب أن تقضي له فقال نعم ولم يفعل فابتلي بقوله نعم وذكروا نحو ما تقدم .

وقيل إن سليمان لما افتتن سقط الخاتم من يده فأعاده في يده فسقط وكان فيه ملكه فأيقن سليمان بالفتنة فأتاه آصف فقال : إنك مفتون بذلك والخاتم لا يتماسك في يدك ففرَّ إلى الله تعالى تائباً فإني أقوم مقامك وأسير بسيرتك إلى أن يتوب الله عليك .

(266/661)

ففر سليمان إلى الله تعالى تائباً وأعطى آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت في يده فأقام آصف في ملك سليمان بسيرته أربعة عشر يوماً إلى أن رد الله تعالى على سليمان ملكه وتاب عليه فرجع إلى ملكه وجلس على سريره وأعاد الخاتم في يده فثبت فهو الجسد الذي

ألقي على كرسيه .

وروي عن سعيد بن المسيب قال : احتجب سليمان عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله تعالى إليه احتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر في أمور عبادي فابتلاه الله تعالى وذكر نحو ما تقدم من حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه ، قال القاضي عياض وغيره من المحققين : لا يصح ما نقله الأخباريون من تشبيه الشيطان به وتسليطه على ملكه وتصرفه في أمته بالجور في حكمه وإن الشياطين لا يسلطون على مثله هذا وقد عصم الله تعالى الأنبياء من مثل هذا ، والذي ذهب إليه المحققون أن سبب فتنته ما أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

﴿ قال رب اغفر لي ﴾ أي سأل ربه المغفرة ﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ أي لا يكون لأحد من بعدي وقيل لا تسلبنيه في باقي عمري وتعطيه غيري كما سلبته مني فيما مضى من عمري ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ فإن قلت قول سليمان لا ينبغي لأحد من بعدي مشعر بالحسد والحرص على الدنيا .

قلت لم يقل ذلك حرصاً على طلب الدنيا ولا نفاسة بها ولكن كان قصده في ذلك أن لا يسلط عليه الشيطان مرة أخرى وهذا على قول من قال إن الشيطان استولى على ملكه .

وقيل سأل ذلك ليكون علماً وآية لنبوته ومعجزة دالة على رسالته ودلالة على قبول توبته حيث أجاب الله تعالى دعاءه وردَّ ملكه إليه وزاده فيه وقيل كان سليمان ملكاً ولكنه أحب أن يخص بخاصية كما خص داود بإلانة الحديد وعيسى بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فسأل شيئاً يختص به كما روى في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " إن عفريتاً من الجن تفلت علي البارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخي سليمان : ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ فرددته خاسئاً "

﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء ﴾ أي لينة ليست بعاصفة ﴿ حيث أصاب ﴾ أي حيث أراد ﴿ والشياطين ﴾ أي وسخرنا له الشياطين ﴿ كل بناء ﴾ أي يبنون له ما يشاء ﴿ وغواص ﴾ يعني يستخرجون له اللالىء من البحر وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر ﴿ وآخرين ﴾ أي وسخرنا له آخرين وهم مردة الشياطين ﴿ مقرنين في الأصفاد ﴾ أي مشدودين في القيود سخروا له حتى قرنهم في الأَّصفاد ﴿ هذا عطاؤنا ﴾ أي قلنا له هذا عطاؤنا ﴿ فامنن ﴾ أي أحسن إلى من شئت ﴿ أو أمسك ﴾ أي عمن شئت ﴿ بغير حساب ﴾ أي لا حرج عليك فيما أعطيت ولا فيما أمسكت قال الحسن

: ما أنعم الله تعالى على أحد نعمة إلا عليه تبعة إلا سليمان فإنه إن أعطى أجر وإن لم يعط لم تكن عليه تبعة وقيل هذا في أمر الشياطين يعني هؤلاء الشياطين عطاؤنا فامنن على من شئت منهم فخل عنه وأمسك أي احبس من شئت منهم في العمل وقيل في الوثاق لا تبعة عليك فيما تتعاطاه ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ لما ذكر الله تعالى ما أنعم به عليه في الدنيا أتبعه بما أنعم به عليه في الآخرة .

(268/661)

قوله : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب ﴾ أي بمشقة ﴿ وعذاب ﴾ أي ضر وذلك في المال والجسد وقد تقدمت قصة أيوب ﴿ اركض ﴾ يعني أنه لما انقضت مدة ابتلائه قيل له اركض أي اضرب ﴿ برجلك ﴾ يعني الأرض ففعل فنبعت عين ماء عذب ﴿ هذا مغتسل بارد ﴾ أمره الله تعالى أن يغتسل منه ففعل فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فركض برجله الأرض مرة أخرى فنبعت عين ماء عذب أخرى فشرب منه فذهب كل داء كان في باطنه فذلك قوله : ﴿ وشراب ﴾ . ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا ﴾ أي إنما فعلنا ذلك معه على سبيل التفضل والرحمة لا على اللزوم ﴿ وذكرى لأولي الألباب ﴾ يعني سلَّطنا البلاء عليه فصبر ، ثم

أزلناه عنه وكشفنا ضره فشكر فهو موعظة لذوي العقول والبصائر ﴿ وخذ بيدك ضغثاً ﴾ أي ملء كفك من حشيش أو عيدان أو ريحان ﴿ فاضرب به ولا تحنث ﴾ وكان قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط فشكر الله حسن صبرها معه فأفتاه في ضربها وسهل له الأمر وأمره بأن يأخذ ضغثاً يشتمل على مائة عود صغار فيضربها به ضربة واحدة ففعل ولم يحنث في يمينه وهل ذلك لأيوب خاصة أم لا ؟ فيه قولان أحدهما أنه عام .

وبه قال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح والثاني أنه خاص بأيوب .

قاله مجاهد واختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده مائة سوط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة .

فقال مالك والليث بن سعيد وأحمد لا يبر .

وقال أبو حنيفة والشافعي إذا ضربه ضربة واحدة فأصابه كل سوط على حدة فقد بر واحتجوا بعموم هذه الآية ﴿ إنا وجدناه صابراً ﴾ أي على البلاء الذي ابتليناه به ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 40. 61 ﴾

(269/661)

وقال ابن جزى :

﴿ ص ﴾

تكلمنا على حروف الهجاء في البقرة ، ويختص بهذا أنه قال فيه : معناه صدق محمد ، وقيل : هو حرف من اسم الله الصمد أو صادق الوعد ، أو صانع المصنوعات ﴿ والقرآن ذِي الذكر ﴾ هذا قسم جوابه محذوف تقديره : إن القرآن من عند الله ، وإن محمداً لصادق وشبه ذلك . وقيل : جوابه في قوله ﴿ ص ﴾ إذ هو بمعنى صدق محمد ، وقيل : جوابه [الآتي] ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرسل ﴾ [ص : 14] وهذا بعيد ، وقيل : جوابه ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ [ص : 64] وهذا أبعد ، ومعنى ذي الذكر : الشرف والذكر بمعنى الموعظة ، أو ذكر الله وما يحتاج إليه من الشريعة .

﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ الذين كفروا يعني قريشاً ، وبل للإضراب عن كلام محذوف ، وهو جواب القسم أي : إن كفرهم ليس ببرهان بل هو بسبب العزة والشقاق ، والعزة التكبر ، والشقاق : العداوة وقصد المخالفة ، وتنكيرهما للدلالة على شدتهما ، وتفاخم الكفار فيهما .

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ إخبار يتضمن تهديداً لقريش ﴿ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ المعنى أن القرون الذين هلكوا دعوا واستغاثوا حين لم ينفعهم ذلك ، ولات بمعنى : ليس وهي لا النافية زيدت عليها علامة التأنيث ، كما زيدت في رُبَّتَ وثمة ، ولا تدخل

لات إلا على زمان ، واسمها مضمر ، وحين مناص خبرها ، والتقدير : ليس الحين الذين دعوا فيه حين مناص ، والمناص المفرّ والنجاة من قولك : ناص ينوص إذ فرّ .

(270/661)

﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ الضمير لقريش ، والمنذر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أي استبعدوا أن يبعث الله رسولاً منهم ، ويحتمل أن يريد من قبيلتهم ، أو يريد من البشر مثلهم ﴿ وَقَالَ الكافرون ﴾ كان الأصل وقالوا ؛ ولكن وضع الظاهر موضع المضمر قصداً لوصفهم بالكفر ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً ﴾ هذا إنكار منهم للتوحيد ، وسبب نزول هذه الآيات " أن قريشاً اجتمعوا وقالوا لأبي طالب : كُفَّ ابن أخيك عنا ، فإنه يعيب ديننا ويذم آلهتنا ويسفه أحلامنا . فكلمه أبو طالب في ذلك ، فقال : صلى الله عليه وسلم : إنما أريد منهم كلمة واحدة يملكون بها العجم ، وتدين لهم بها العرب ، فقالوا : نعم وعشر كلمات معها . فقال : قولوا لا إله إلا الله ، فقاموا وأنكروا ذلك وقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها وَاحِداً ﴾ " .

﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا وَاْصْبِرُواْ ﴾ انطلاق الملأ عبارة عن خروجهم عن أبي طالب وقيل : عبارة عن تفرّقهم في طرق مكة وإشاعتهم للكفر ، وأن امشوا : معناه يقول

بعضهم لبعض : امشوا واصبروا على عبادة آلهتكم ، ولا تطيعوا محمداً فيما يدعو إليه من عبادة الله وحده ﴿ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ هذا أيضاً مما حكى الله من كلام قريش ، وفي معناه وجهان : أحدهما إن الإشارة إلى الإسلام والتوحيد ، أي إن هذا التوحيد شيء يراد به الإنقياد إليه ، والآخر أن الإشارة إلى الشرك والصبر على آلهتهم ، أي إن هذا التوحيد الشيء ينبغي أن يراد ويتمسك به ، أو أن هذا شيء يريده الله منا لما قضى علينا من الأول أرجح ، لأن الإشارة فيما بعد إليه فيكون الكلام على نسق واحد .

(271/661)

﴿ مَا سَمِعْنَا بهذا فِى الملة الآخرة ﴾ هذا أيضاً مما حكى الله عنهم من كلامهم ، أي ما سمعنا بالتوحيد في الملة الآخرة ، والمراد بالملة الآخرة ملة النصارى ، لأنها بعد ذلك ملة موسى وغيره وهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد ، وقيل : المراد ملة قريش أي ما سمعنا بهذا في الملة التي أدركنا عليها آباءنا ، وقيل : المراد الملة المنتظرة إذ كانوا يسمعون من الأحبار والكهان أن رسولاً يبعث يكون آخر الأنبياء ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ﴾ هذا ايضاً مما حُكى من كلامهم ، والإشارة إلى التوحيد والإسلام ، ومعنى الاختلاق الكذب .

﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ الهمزة للإنكار ، والمعنى أنهم أنكروا أن يخص الله محمداً

صلى الله عليه وسلم بإنزال القرآن عليه دونهم ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ﴾ هذا ردّ عليهم ، والمعنى أنهم ليست لهم حجة ولا برهان ، بل هم في شك من معرفة الله وتوحيده ، فلذلك كفروا ، ويحتمل أن يريد بالذكر القرآن ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ هذا وعيد لهم وتهديد ، والمعنى أنهم إنما حملهم على الكفر كونهم لم يذوقوا العذاب ، فإذا ذاقوه زال عنهم الشك وأذعنوا للحق .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العزيز الوهاب ﴾ هذا ردّ عليهم فيما أنكروا من اختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة ، والمعنى أنهم ليس عندهم خزائن رحمة الله ، حتى يعطوا النبوة من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا ، بل يعطيها الله لمن يشاء ، ثم وصف نفسه بالعزيز يفعل ما يشاء والوهاب ينعم على من يشاء فلا حجة لهم فيها أنكروا .

(272/661)

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ هذا أيضاً ردّ عليهم ، والمعنى : أم لهم الملك فيتصرفون فيه كيف شاؤوا ، بل مالك الملك يفعل في ملكه ما يشاء ، وأم الأولى منقطعة بمعنى بل وهمزة الإنكار ، وأما أم الثانية فيحتمل أن تكون كذلك ، أو تكون عطافة معادلة لما قبلها ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأسباب ﴾ هذا تعجيز لهم ، وتهكم بهم ، ومعنى يرتقوا

يصعدوا ، والأسباب هنا السلالم الطرق ، وشبه ذلك ما يوصل به إلى العلو ، وقيل : هي أبواب السماء ، والمعنى إن كان لهم ملك السموات والأرض فليصعدوا إلى العرش ويدبروا الملك .

﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأحزاب ﴾ هذا وعيد بهزيمتهم في القتال ، وقد هزموا يوم بدر وغيره ، و ﴿ مَّا هُنَالِكَ ﴾ صفة لجند ، وفيها معنى التحقير لهم ، والإشارة بهنالك إلى حيث وصفوا أنفسهم من الكفر والاستهزاء ، وقيل : الإشارة إلى الارتقاء في الأسباب وهذا بعيد ؛ وقيل الإشارة إلى موضع بدر ، ومن الأحزاب معناه من جملة الأحزاب الذين تعصبوا للباطل فهلكوا .

﴿ وفِرْعَوْنُ ذُو الأوتاد ﴾ قال ابن عباس : كانت له أوتاد وخشب يلعب بها وعليها ، وقيل : كانت له أوتاد يسمرها في الناس لقتلهم ، وقيل : أراد المباني العظام الثابتة ، ورجحه ابن عطية ، وقال الزمخشري : إن ذلك استعارة في ثبات الملك كقول القائل : في ظل ملك ثابت الأوتاد ﴿ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ﴾ قد ذكر [الحجر : 78 ، والشعراء : 176] .

﴿ وَمَا يَنظُرُ هؤلاءآء إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ﴾ ينظر هنا بمعنى ينتظر ، وهؤلاء يعني قريشاً ، والصيحة الواحدة النفخة في الصور وهي نفخة الصعق ، وقيل : الصحية عبارة عما أصابهم من قتل أو شدة ، و الأول أظهر ، وقد روي تفسيرها بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : الأول ما لها رجوع أي لا يرجعون بعدها إلى الدنيا ، وهو على هذا مشتق من الإفاقة ، الثاني ما لها من ترداد : أي إنما هي واحدة لا ثانية لها : الثالث ما لها من تأخير ولا توقف مقدار فواق ناقة وهي ما بين حلبتي اللبن ، وهذا القول الثالث إنما يجري على قراءة فُواق بالضم لأن فواق الناقة بالضم ، والقولان الأولان على الفتح والضم .

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ القط في اللغة له معنيان : أحدها : الكتاب ، والآخر : النصيب ، وفي معناه هنا ثلاثة أقوال : أحدهما نصيبنا من الخير : أي دعوا أن يعجله الله لهم في الدنيا والآخر : نصيبهم من العذاب ، فهو كقولهم : ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء ﴾ [الأنفال : 32] . الثالث : صحائف أعمالنا .

﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأيد إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ الأيد القوة ، وكان داود جمع قوة البدن وقوة الدين والملك والجنود ، والأواب : الرجاع إلى الله ، فإن قيل : ما المناسبة بين أمر الله لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر على أقوال الكفار وبين أمره له بذكر داود ؟ فالجواب عندي أن ذكر داود ومن بعده من الآنبياء في هذه السورة فيه تسلية للنبي صلى لله عليه وسلم ، وووعد له بالنصر وتفريج الكرب ، وإعانة له على ما أمر به من الصبر ، وذلك أن الله ذكر ما أنعم به على داود من تسخير الطير والجبال ، وشدّة ملكه ، وإعطائه الحكمة وفصل الخطاب ، ثم الخاتمة له في الآخرة بالزلفى وحسن المآب ، فكأنه يقول : يا محمد كما أنعمنا على داود بهذه النعمم كذلك ننعم عليك ، فاصبر ولا تحزن على ما يقولون ، ثم ذكر ما أعطى سليمان من الملك العظيم ، وتسخير الريح والجن والخاتمة بالزلفى وحسن المآب ، ثم ذكر من ذكر بعد ذلك من الأنبياء . والمقصد : ذكر الإنعام عليهم لتقوية قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً فإن داود وسليمان وأيوب أصابتهم شدائد ثم فرّجها الله عنهم ، وأعقبها بالخير العظيم ، فأمر سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بذكرهم ، ليعلمه أنه يفرج عنه ما يلقى من إذاية قومه ، ويعقبها بالنصر والظهور عليهم ، فالمناسبة في ذلك ظاهرة وقال ابن عطية : المعنى : اذكر داود ذا الأيدي في الدين فتأسَّ به وتأيد كما تأيد ، وأجاب الزمخشري : عن السؤال فإنه قال : كأن الله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : اصبر على ما يقولون ، وعظم أمر المعصية في أعين الكفار

بذكر قصة داود ، وذلك أنه نبي كريم عند الله ثم زلَّ زلة فوبخه الله عليها فاستغفر وأناب ، فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم ؛ وهذا الجواب لا يخفى ما فيه من سوء الأدب مع داود عليه السلام حيث جعله مثالاً يهدد الله به الكفار ، وصرح بأنه زل وأن الله وبخه على زلته ،

(275/661)

ومعاد الله من ذكر الأنبياء بمثل هذا ﴿ والإشراق ﴾ يعني : وقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس ، وأي تضيء ويصفر شعاعها وهو وقت الضحى ، وأما شروقها فطلوعها .

﴿ مَحْشُورَةً ﴾ أي مجموعة ﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أي كل مسبح لأجل تسبيح داود ، ويحتمل أن يكون أوّاب هنا بمعنى رجاع أي ليرجع ألى مره .

﴿ وَآتَيْنَاهُ الحكمة ﴾ قيل : يعني النبوة ، وقيل : العلم والفهم وقيل : الزبور ﴿ وَفَصْلَ الخطاب ﴾ قال ابن عباس : هو فصل القضاء بين الناس بالحق ، وقال عليّ بن أبي طالب : هو إيجاب اليمين على المدعى عليه ، والبينة على المدعى ، وقيل : أراد قول : أما بعد فإنه أول من قالها ، وقال الزمخشري : معنى فصل الخطاب : البيّن من الكلام الذي يفهمه من

يخاطب به ، وهذا المعنى اختاره ابن عطية ، وجعله من قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ [الطارق : 13] .

(276/661)

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ جاءت هذه القصة بلفظ الاستفهام ؛ تنبيهاً للمخاطب ودلالة على أنها من الأخبار العجيبة ، التي ينبغي أن يلقى البال لها ، والخصم يقع على الواحد والاثنين والجماعة ، كقولك : عدل وزور ، واتفق الناس على أن هؤلاء الخصم كانوا ملائكة ، ورُوي أنهما جبريل وميكائيل بعثهما الله ، ليضرب بهما المثل لداود في نازلة وقع هو في مثلها ، فأفتى بفتيا هي واقعة عليه في نازلته ، ولما شعر وفهم المراد أناب واستغفر ، وسنذكر القصة بعد هذا ، ومعنى تسوّروا المحراب علَوْا على سوره ودخلوه ، والمحراب : الموضع الأرفع من القصر أو المسجد وهو موضع التعبد ، ويحتمل أن يكون المتسوّر المحراب اثنين فقط ، لأن نفس الخصومة إنما كانت بين اثنين فقط ، فتجيء الضمائر في تسّوروا ، ودخلوا ، وفزع منهم : على وجه التجوز ، والعبارة عن الاثنين بلفظ الجماعة ، وذلك جائز على مذهب من يرى أن أقل الجمع اثنان ، ويحتمل أنه جامع كل واحد من الخصمين جماعة فيقع على تجميعهم خصم ، وتجيء الضمائر المجموعة حقيقة ، وعلى هذا

عوّل الزمخشري .

﴿ إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ العامل في إذْ هنا تسوروا ، وقيل : هي بدل من الأولى ، وأما إذ الأولى فعامل فيها أتاك أو تسوروا وردَّ الزمخشري ذلك ، وقال : إن العامل فيها محذوف تقديره : هل أتاك نبأ تحكم الخصم إذ تسوروا ، وإنما فزع داود منهم لأنهم دخلوا عليه بغير إذن ، ودخلوا من غير الباب ، وقيل : إن ذلك كان ليلاً ﴿ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ ﴾ تقديره نحن خصمان ، ومعنى بغى تعدى ﴿ وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ أي لا تَجُرْ علينا في الحكم ، يقال : أشط الحاكم إذا جار ، وقرئ في الشاذ : لا تشطط بفتح التاء : أي لا تبعد عن الحق ، يقال : شط إذا بَعُد ﴿ سَوَآءِ الصراط ﴾ أي وسط الطريق ، ويعني القصد والحق الواضح .

(277/661)

﴿ إِنَّ هَذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخطاب ﴾ هذه حكاية كلام أحد الخصمين ، والأخوة هنا أخوة الدين ، والنعجة في اللغة تقع على أنثى بقر الوحش وعلى أنثى الضأن ، وهي هنا عبارة عن المرأة ، ومعنى أكفلنيها : أملكها لي وأصله اجعلها في كفالتي ، وقيل : اجعلها كفلي أي نصيبي ، ومعنى عزّني في

الخطاب أي : غلبني في الكلام والمحاورة يقال : عز فلان فلاناً إذا غلبه ، وهذا الكلام تمثيل للقصة التي وقع داود فيها . وقد اختلف الناس فيها أكثروا القول فيها قديماً وحديثاً حتى قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : من حدّث بما يقول هؤلاء القصاص في أمر داود عليه السلام جلدته حَدَّين لما ارتكب من حرمة من رفع الله محله ، ونحن نذكر من ذلك ما هو اشهر وأقرب إلى تنزيه داود عليه السلام : روي أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته ، وكانت لهم عادة في ذلك لا ينكرونها ، وقد جاء عن الأنصار في أول الإسلام شيء من ذلك ، فاتفق أن وقعت عين داود على امرأة رجل فأعجبته فسأله النزول عنها ففعل ، وتزوّجها داود عليه السلام فولد له منها سليمان عليه السلام ، وكان لداود تسع وتسعون امرأة ، فبعث الله إليه ملائكة مثالاً لقصته ، فقال أحدهما إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة إشارة إلى أن ذلك الرجل لم تكن له إلا تلك المرأة الواحدة ، فقال أكفلنيها إشارة إلى سؤال داود من الرجل النزول عن امرأته فأجابه داود عليه السلام بقوله : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، فقامت الحجة عليه بذلك ، فتبسم الملكان عند ذلك وذهبا ولم يرهما ، فشعر داود أن ذلك عتاب من الله على ما وقع فيه .

﴿ فاستغفر ربَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ ولا تقتضي هذه القصة على هذه الراوية أن داود عليه السلام وقع فيما لا يجوز شرعاً ، وإنما عوتب على أمر جائز ، كان ينبغي له أن يتنزه عنه لعلوّ مرتبته ومتانة دينه ، فإنه قد يعاتب الفضلاء على ملا يعاتب عليه غيرهم ، كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وأيضاً فإنه كان له تسع وتسعون امرأة ، فكان غنياً عن هذه المرأة فوقع العتاب على الاستكثار من النساء ، وإن كان جائزاً ، ورُوي هذه الخبر على وجه آخر ، وهو أن داود انفرد يوماً في محرابه للتعبد ، فدخل عليه طائر من كوه فوقع بين يديه فأعجبه ، فمد يده ليأخه فطار على الكوه فصعد داود ليأخذه ، فرأى من الكوة امراة تغتسل عريانة فأعجبته ، ثم انصرف فسأل عنها فأخبر أنها امرأة رجل من جنده ، وأنه خرج للجهاد مع الجند ، فكتب داود إلى أمير تلك الحرب أن يقدم ذلك الرجل يقاتل عند التابوت ، وهو موضع قل ما تخلص أحد منه ، فقدم ذلك الرجل فقاتل حتى قتل شهيداً ، فتزوج داود امرأته فعوتب على تعريضه ذلك الرجل للقتل ، وتزوجه امرأته بعده مع أنه كان له تسع وتسعون امرأة سواها ، وقيل : إن داود همَّ بذلك كله ولم يفعله ، وإنما وقعت المعاتبة على همه بذلك ، ورُوي أن السبب فيما جرى له مثل ذلك أنه أعجب بعلمه ، وظهر منه ما يقتضي أنه لا يخاف الفتنة على نفسه ففتن بتلك القصة ، ورُوي أيضاً أن السبب في ذلك أنه تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، والتزم أن يبتلى كما ابتلوا

فابتلاه الله بما جرى له في تلك القصة ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ سؤال مصدر مضاف إلى المفعول ، وإنما تعدى بإلى لأنه تضمن معنى الإضافة كأنه قال : بسؤال نعجتك مضافة إو مضمومة إلى نعاجه ، فإن قيل : كيف قال له داود : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ قبل أن يثبت عنده ذلك ؟ فالجواب أنه رُوي أن الآخر اعترف بذلك وحذف ذكر اعترافه اختصاراً ، ويحتمل

(279/661)

أن يكون قوله : لقد ظلمك على تقدير صحة قوله ، وقد قيل : إن قوله لأحد الخصمين : لقد ظلمك قبل أن يسمع حجة الآخر كانت خطيئته التي استغفر منها وأناب ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطآء ليبغي بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ الخلطاء هم الشركاء في الأموال ، ولكن الخلطة أعم من الشركة ، ألا ترى أن الخلطة في المواشي ليست بشركة في رقابها ، وقصد داود بهذا الكلام الوعظ للخصم الذي بغى ، والتسلية بالتأسي للخصم الذي بُغيَ عليه ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ ما زائدة للتأكيد .

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ ظن هنا بمعنى شعر بالأمر ، وقيل : بمعنى أيقن ، وفتناه معناه اختبرناه ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ معنى خرَّ : ألقى بنفسه إلى الأرض ، وإنما حقيقة ذلك

في السجود ، فقيل : إن الركوع هنا بمعنى السجود ، وقيل : خرَّ من ركوعه ساجداً بعد أن ركع ، ومعنى أناب : تاب ، ورُوي أنه بقي ساجداً أربعين يوماً يبكي حتى نبت البقل من دموعه ، وهذا الموضع فيه سجدة عند مالك خلافاً للشافعي ، إلا أنه اختلف في مذهب مالك هل يسجد عند قوله : ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ، أو عند قوله : ﴿ لزلفى . . مَآبٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ الزلفى القُربة والمكانة الرفيعة ، والمآب المرجع في الآخرة .

﴿ ياداوود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرض ﴾ تقديره قال الله يا داود ، وخلافة داود بالنبوة والملك ، قال ابن عطية : لا يقال خليفة الله إلا لنبيّ ، وأما الملوك والخلفاء فكل واحد منهم خليفة الذي قبله ، وقول الناس فيهم خليفة الله تجوّز .

(280/661)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السمآء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴾ أي عبثاً بل خلقهما الله بالحق للاعتبار بهما والاستدلال على خالقهما ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ المعنى أن الكفار لما أنكروا الحشر والجزاء كانت خلقة السموات والأرض عندهم باطلاً بغير الحمة ، فإن الحكمة في ذلك إنما تظهر في الجزاء الأخروي .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِي الأرض ﴾ أم هنا استفهامية يراد بها الإنكار : أي أن الله لا يجعل المؤمنين والمتقين كالمفسدين والفجار ، بل يجازي كل واحد بعلمه لتظهر حكمة الله في الجزاء ، ففي ذلك استدلال على الحشر والجزاء ، وفيه أيضاً وعد ووعيد .

(281/661)

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعشي الصافنات الجياد ﴾ الصافنات جمع صافن ، وهو الفرس الذي يرفع إحدى رجليه أو يديه ويقف على طرف الأخرى ، وقيل : الصافن هو الذي يسوّي يديه ، والصفن علامة على فراهة الفرس ، والجياد السريعة الجري واختلف الناس في قصص هذه الآية ، فقال الجمهور : إن سليمان عليه السلام عرضت عليه خيل كان ورثها عن أبيه وقيل : أخرجتها له الشياطين من البحر ، وكانت ذوات أجنحة ، وكانت ألف فرس ، وقيل : أكثر فتشاغل بالنظر إليها حتى غربت الشمس وفاتته صلاة العشي " العصر " ، فأسف لذلك ، وقال : ردوا عليّ الخيل وطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف حتى عقرها ؛ لما كانت سبب فوات الصلاة ، ولم يترك منها إلا اليسير ، فأبدله الله أسرع منها وهي الريح ، وأنكر بعض العلماء هذه الرواية ، وقال : تفويت الصلاة ذنب لا

يفعله سليمان وعقر الخير لغير فائدة لا يجوز ، فكيف يفعله سليمان عليه السلام ؟ وأي ذنب للخيل في تفويت الصلاة فقال بعضهم : إنما عقرها ليأكلها الناس ، وكان زمانهم زمان مجاعة فعقرها تقرباً إلى الله ، وقال بعضهم ، لم تفته الصلاة ولا عقر الخيل ، بل كان يصلي فعرضت عليه الخيل فأشار إليهم فأزالوها حتى دخلت اصطبلاتها فلما فرغ من صلاته قال ردّوها عليّ فطفق يمسح عليها بيده كرامة لها ومحبة ، وقيل إن المسح عليها كان وسماً في سوقها وأعناقها بسوم حبس في سبيل الله .

(282/661)

﴿ فَقَالَ إِنِي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ معنى هذا يختلف على حسب الاختلاف في القصة ، فأما الذين قالوا إن سليمان عقر الخيل لما اشتغل بها حتى فاتته الصلاة فاختلفوا في هذا على ثلاثة أقوال : أحدها أ ، الخير هنا يراد به الخيل ، وزعموا أن الخيل يقال لها خير ، وأحببت بمعنى : آثرت أو بمعنى فعل يتعدى بمن قال : آثرت حب الخيل فشغلني عن ذكر ربي ، والآخر : أن الخير هنا يراد به المال ، لأن الخيل وغيرها مال فهو كقوله تعالى : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْراً ﴾ [البقرة : 180] أي مالاً ، والثالث : أن المفعول محذوف ، وحب الخير مصدر والتقدير : أحببت هذه الخيل مثل حب الخير ، فشغلني عن

ذكر ربي ، وأما الذين قالوا : كان يصلي فعرضت عليه الخيل فأشار بإزالتها ؛ فالمعنى أنه قال : إني أحببت حب الخير الذي عند الله في الآخرة بسبب ذكر ربي ، وشغلني ذلك عن النظر إلى الخيل ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ الضمير للشمس وإن لم يتقدم ذكرها ، ولكنها تفهم من سياق الكلام وذكر العشي يقتضيها ، والمعنى حتى غابت الشمس ، وقيل : إن الضمير للخيل ، ومعنى ﴿ تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ دخلت اصطبلاتها والأول أشهر وأظهر

.

﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ أي قال سليمان : ردوا الخيل عليّ ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والأعناق ﴾ السوق جمع ساق يعني سوق الخيل ، وأعناقهم : أي جعل يمسحها مسحاً ، وهذا المسح يختلف على حسب الاختلاف المتقدم ، هل هو قطعها وعقرها أو مسحها باليد محبة لها ، أو وسمها للتحبيس .

(283/661)

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ تفسير هذه الآية يختلف على حسب الاختلاف في قصتها ، وفي ذلك أربعة أقوال : الأول أن سليمان كان له خاتم ملكه وكان فيه اسم الله ، فكان ينزعه إذا دخل الخلاء توقيراً لاسم الله تعالى ، فنزعه يوماً

ودفعه إلى جارية فتمثل لها جني في صورة سليمان وطلب منها الخاتم فدفعته له ، وري أن اسمه صخر ، فقعد على كرسيّ سليمان يأمر وينهي الناس يظنون أنه سليمان ، وخرج سليمان فارّاً بنفسه فأصابه الجوع فطلب حوتاً ففتح بطنه فوجد فيه خاتمه ، وكان الجني قد رماه في البحر فلبس سليمان الخاتم وعاد إلى ملكه ، ففتنة سليمان على هذا هي ما جرى له من سلب ملكه ، والجسد الذي ألقي على كرسيه هو الجنيّ الذي قعد عليه وسماه جسداً ، لأنه تصور في صورة إنسان ، ومعنى أناب رجع إلى الله بالاستغفار والدعاء ، أو رجع إلى ملكه والقول الثاني أن سليمان كان له امرأة يحبها وكان أبوها ملكاً كافراً قد قتله سليمان فسألته أن يضع لها صورة أبيها فأطاعها في ذلك فكانت تسجد للصورة ويسجد معها جواريها ، وصار صنماً معبوداً في داره ، وسليمان لا يعلم حتى مضت أربعون يوماً ، فلما علم به كسره فالفتنة على هذا عمل الصورة ، والجسد هو الصورة والقول الثالث أن سليمان كان له ولد وكان يحبه حباً شديداً ، فقالت الجن إن عاش هذا الولد ورث ملك أبيه فبقينا في السخرة أبداً فلم يشعر إلا وولده ميت على كرسيه ، فالفتنة على هذا حبه الولد ، والجسد هو الولد لما مات وسمي جسداً لأنه جسد بلا روح ، والقول الرابع أنه قال : لأطوفن الليلة على مائة امرأة تأتي كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فلما تحمل إلا واحدة بشق إنسان فالفتنة على هذا كونه لم يقل إن شاء الله ،

والجسد هو شق الإنسان الذي ولد له ، فأما القول الأول فضعيف من طريق النقل مع أنه يبعد ما ذكر فيه من سلب ملك

(284/661)

سليمان وتسليط الشياطين عليه ، وأما القول الثاني فضعيف أيضاً مع أنه يبعد أن يعبد صنم في بيت نبي ، أو يأمر نبي بعمل صنم ، وأما القول الثالث فضعيف أيضاً ، وأما القول الرابع فقد روي في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه لم يذكر في الحديث إن ذلك تفسير الآية .

(285/661)

﴿ قَالَ رَبِّ اغفر لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي ﴾ قدم الاستغفار على طلب الملك ، لأن أمور الدين كانت عندهم أهم من الدنيا فقدّم الأولى والاهمّ ، فإن قيل : لأي شيء قال لا ينبغي لأحد من بعدي ، وظاهر هذا طلب الانفراد به حتى قال فيه الحجاج أنه كان حسوداً ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أنه إنما قال ذلك لئلا يجري عليه

مثل ما جرى من أخذ الجني لملكه ، فقصد أن لا يسلب ملكه عنه في حياته ويصير إلى غيره ، والآخر أنه طلب ذلك ليكون معجزة ، دلالة على نبوته ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ معنى رخاء لينة طيبة ، وقيل : طائعة ، له ، وقد ذكرنا الجميع بين هذا وبين قوله ﴿ عَاصِفَةً ﴾ في [الأنبياء : 81] وحيث أصاب : أي حيث قصد وأراد ﴿ والشياطين كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ الشياطين معطوف على الريح ، وكل بناء يدل على الشياطين أي سخرنا له الريح والشياطين من يبني منهم ومن يغوص في البحر ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأصفاد ﴾ أي آخرين من الجنّ موثقون في القيود والأغلال ﴿ هذا عَطَآؤُنَا فامنن أَوْ أَمْسِكْ ﴾ الإشارة إلى الملك الذي أعطاه الله له ، والمعنى أن الله قال له : أعط من شئت وامنع من شئت ، وقيل : المعنى أمنن على من شئت من الجنّ بالاطلاق من القيود ، وأمسك من شئت منهم في القيود ، والأوّل أحسن وهو قول ابن عباس ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها أنه لا يحاسب في الآخرة على ما فعل ، والآخر بغير تضييق عليك في الملك ، والثالث بغير حساب ولا عدد بل خارج عن الحصر ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ قد ذكر في قصة داود .

﴿ واذكر عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ قد ذكرنا قصة أيوب عليه السلام في [الأنبياء : 83] والنصب يقال بضم النون وإسكان الصاد : وبفتح النون وإسكان الصاد وبضم النون والصاد وبفتحهما ، ومعناه واحد وهو المشقة ، فإن قيل : لم نسب ما أصابه من البلاء إلى الشيطان ؟ فالجواب من أربعة أوجه : أحدها أن سبب ذلك كان من الشيطان ، فإنه رُوِيَ أنه دخل على بعض الملوك فرأى منكراً فلم يغيره ، وقيل : إنه كانت له شاة فذبحها وطبخها ، وكان له جار جائع فلم يعط جاره منها شيئاً ، والثاني : أنه أراد ما وسوله الشيطان في مرضه من الجزع وكراهة البلاء ، فدعا إلى الله أن يدفع عنه وسوسة الشيطان بذلك ، والثالث : أنه روي أن الله سلط الشيطان عليه ليفتنه فأهلك ماله فصبر وأهلك أولاده فصبر وأصابه المرض الشديد فصبر فنسب ذلك إلى الشيطان لتسليط الشيطان عليه ، والرابع : روي أن الشيطان لقي امرأته فقال لها : قولي لزوجك إن سجد لي سجدة أذهبت ما به من المرض فذكرت المرأة ذلك لأيوب ، فقال لها : ذلك عدوّ الله الشيطان وحينئذ دعا .

﴿ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ التقدير قلنا له : اركض برجلك فضرب الأرض برجله فنبعت له عين ماء صافية باردة ، فشرب منها فذهب كل مرض كان داخل جسده ، واغتسل منها فذهب ما كان في ظاهر جسده ، وروي أنه ركض الأرض مرتين فنبع له عينان ، فشرب من أحدهما واغتسل من الأخرى .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ ذكر في الأنبياء ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فاضرب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ الضغث القبضة من القضبان ، وكان أيوب عليه السلام قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط إذا برئ من مرضه ، وكان سبب ذلك ما ذكرته له من لقاء الشيطان ، وقوله لها إن سجد لي زوجك أذهبت ما به من المرض ، فأمره أن يأخذ ضغثاً فيه مائة قضيب فيضربها بها ضربة واحدة فيبرَّ في يمينه ، وقد ورد مثل هذا عن نبينا صلى الله عليه وسلم في حدّ رجل زنى وكان مريضاً فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعذق نخلة فيه شماريخ مائة فضرب به ضربة واحدة ذكر ذلك أبو داود والنسائي ، وأخذ به بعض العلماء ، ولم يأخذ به مالك ولا أصحابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 178 .

﴿ 187

وقال النسفى :

﴿ ص ﴾ ذكر هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز ، ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه كأنه قال ﴿ والقرءآن ذِى الذكر ﴾ أي ذي الشرف إنه لكلام معجز ، ويجوز أن يكون ﴿ ص ﴾ خبر مبتدأ محذوف على أنه اسم للسورة كأنه قال : هذه ص أي هذه السورة التي أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر كما تقول : هذا حاتم والله ، تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله ، وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال : أقسمت ب ﴿ ص والقرءان ذِى الذكر ﴾ إنه لمعجز .

ثم قال ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ ﴾ تكبر عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ خلاف لله ولرسوله .

والتنكير في ﴿ عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ للدلالة على شدتهما وتفاقمهما .

وقريء ﴿ فِى غرة ﴾ أي في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا ﴾ وعيد لذوي العزة والشقاق ﴿ مِن قَبْلِهِمُ ﴾ من قبل قومك ﴿ مّن قَرْنٍ ﴾ من أمة ﴿ فَنَادَوْاْ ﴾ فدعوا واستغاثوا حين رأوا العذاب ﴿ وَّلَاتَ ﴾ هي "لا" المشبهة ب "ليس" زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على "رب" و "ثم" للتوكيد ، وتغير بذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا أحد مقتضييها إما الاسم أو الخبر وامتنع بروزهما جميعاً وهذا مذهب الخليل وسيبويه ، وعند الأخفش أنها "لا" النافية للجنس

زيدت عليها التاء وخصت بنفي الأحيان .

وقوله ﴿ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ منجا منصوب بها كأنك قلت : ولا حين مناص لهم .

وعندهما أن النصب على تقدير ولات الحين .

حين مناص أي وليس الحين حين مناص .

(289/661)

﴿ وَعَجِبُواْ أَن جَآءَهُم ﴾ من أن جاءهم ﴿ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ رسول من أنفسهم ينذرهم يعني استبعدوا أن يكون النبي من البشر ﴿ وَقَالَ الكافرون هذا ساحر كَذَّابٌ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ ولم يقل "وقالوا" إظهاراً للغضب عليهم ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغي إذ لا كفر أبلغ من أن يسموا من صدّقه الله كاذباً ساحراً ويتعجبوا من التوحيد وهو الحق الأبلج .

ولا يتعجبوا من الشرك وهو باطل لجلج .

ورُوي أن عمر رضي الله عنه لما أسلم فرح به المؤمنون وشق على قريش ، فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم ومشوا إلى أبي طالب وقالوا : أنت كبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يريدون الذين دخلوا في الإسلام وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك .

فاستحضر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل على قومك .

فقال عليه السلام : ماذا يسألونني ؟ فقالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك

فقال عليه السلام : أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟ قالوا : نعم وعشراً أي نعطيكها وعشر كلمات معها .

فقال : قولوا لا إله إلا الله .

فقاموا وقالوا ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا ﴾ أي أصيّر ﴿ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ أي بليغ في العجب .

وقيل : العجيب ما له مثل والعجاب ما لا مثل له .

(290/661)

﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا ﴾ وانطلق أشراف قريش عن مجلس أبي طالب بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض ﴿ أَنِ امشوا ﴾ و"أن" بمعنى أي لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم فكان انطلاقهم متضمناً معنى القول ﴿ وَاصْبِرُواْ على ﴾ عبادة ﴿

ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هذا ﴾ الأمر ﴿ لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ أي يريده الله تعالى ويحكم بإمضائه فلا مرد له ولا ينفع فيه إلا الصبر ، أو إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه ﴿ مَّا سَمِعْنَا بهذا ﴾ بالتوحيد ﴿ فِى الملة الآخرة ﴾ في ملة عيسى التي هي آخر الملل لأن النصارى مثلثه غير موحدة ، أو في ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا ﴿ إِن هَذَا ﴾ ما هذا ﴿ إِلاَّ اختلاق ﴾ كذب اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ القرآن ﴿ مِّن بَيْنِنَا ﴾ أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم وينزل عليه الكتاب من بينهم حسداً ﴿ بْل هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ﴾ من القرآن ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ بل لم يذوقوا عذابي بعد ، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد حينئذ أي أنهم لا يصدقون به إلا أن يمسهم العذاب فيصدقون حينئذ ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العزيز الوهاب ﴾ يعني ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاءوا ويصرفوها عمن شاءوا ، ويتخيروا للنبوة بعض صناديدهم ، ويترفعوا بها عن محمد ، وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه الوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها ، الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته .

ثم رشح هذا المعنى فقال ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السماوات والارض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ حتى يتكلموا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء .

ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال : فإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأسباب ﴾ فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى السماء حتى يدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي إلى من يختارون .

ثم وعد نبيه عليه السلام النصرة عليهم بقوله .

﴿ جُندٌ ﴾ مبتدأ ﴿ مَّا ﴾ صلة مقوية للنكرة المبتدأة ﴿ هُنَالِكَ ﴾ إشارة إلى بدر ومصارعهم ، أو إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله لست ﴿ هُنَالِكَ ﴾ خبر المبتدأ ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ مكسور ﴿ مِّنَ الأحزاب ﴾ متعلق ب ﴿ جُندٌ ﴾ أو ب ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ يريد ما هم إلا جند من الكفار المتحزبين على رسول الله مهزوم عما قريب ، فلا تبال بما يقولون ولا تكترث لما به يهذون .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ قبل أهل مكة ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ نوحاً ﴿ وَعَادٌ ﴾ هوداً ﴿ وَفِرْعَوْنُ ﴾ موسى ﴿ ذُو الأوتاد ﴾ قيل : كانت له أوتاد وجبال يلعب بها بين يديه .

وقيل : يوتد من يعذب بأربعة أوتاد في يديه ورجليه ﴿ وَثَمُودُ ﴾ وهم قوم صالح صالحاً ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ لوطاً ﴿ وأصحاب لَئْيكَةِ ﴾ الغيضة شعيباً ﴿ أُوْلَئِكَ الأحزاب ﴾ أراد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وأنهم الذين

وجد منهم التكذيب ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرسل ﴾ ذكر تكذيبهم أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام حيث لم يبين المكذب ، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها وبيّن المكذَّب وهم الرسل ، وذكر أن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل لأن في تكذيب الواحد منهم تكذيب الجميع لاتحاد دعوتهم .

(292/661)

وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً وبالاستثنائية ثانياً وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد ، أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه ، ثم قال ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أي فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم .

﴿ عذابي ﴾ و ﴿ عقابي ﴾ في الحالين : يعقوب .

﴿ عِقَابِ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلآءِ ﴾ وما ينتظر أهل مكة ، ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ أي النفخة الأولى وهي الفزع الأكبر ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ وبالضم : حمزة وعلي ، أي ما لها من توقف مقدار فواق وهو ما بين حلبتي الحالب أي إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ما لها من رجوع وترداد ، من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة وفواق الناقة ساعة يرجع الدر إلى ضرعها يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ حظنا من الجنة لأنه عليه السلام ذكر وعد الله المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزء : عجل لنا نصيبنا منها أو نصيبنا من العذاب الذي وعدته كقوله : ﴿ ويستعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ [الحج : 47] .

وأصل القط القسط من الشيء لأنه قطعة منه من قطه إذا قطعه ، ويقال لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الحساب اصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ فيك وصن نفسك أن تزلّ فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم .

﴿ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ وكرامته على الله كيف زل تلك الزلة اليسيرة فلقي من عتاب الله ما لقي ﴿ ذَا الأيد ﴾ ذا القوة في الدين وما يدل على أن الأيد القوة في الدين قوله ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي رجاع إلى مرضاة الله تعالى ، وهو تعليل لذي الأيد .

(293/661)

رُوي أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وهو أشد الصوم ويقوم نصف الليل ﴿ إنّا سخّرنا ﴾ ذللنا ﴾ الجبال مَعَهُ ﴾ قيل : كان تسخيرها أنها تسير معه إذا أراد سيرها إلى حيث يريد

﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ في معنى مسبحات على الحال .

واختار ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ على "مسبحات" ليدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال ﴿ بالعشى والإشراق ﴾ أي طرفي النهار ، والعشي وقت العصر إلى الليل ، والإشراق وقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أي تضيء وهو وقت الضحى ، وأما شروقها فطلوعها تقول : شرقت الشمس ولَمَّا تُشْرِق .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية ﴿ والطير مَحْشُورَةً ﴾ وسخرنا الطير مجموعة من كل ناحية .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت فذلك حشرها ﴿ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل داود أي لأجل تسبيحه مسبح لأنها كانت تسبح لتسبيحه .

ووضع الأواب موضع المسبح لأن الأواب وهو التواب الكثير الرجوع إلى الله وطلب مرضاته من عادته أن يكثر ذكر الله ويديم تسبيحه وتقديسه .

وقيل : الضمير لله أي كل من داود والجبال والطير لله أواب أي مسبح مرجّع للتسبيح ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ قويناه .

قيل : كان يبيت حول محرابه ثلاثة وثلاثون ألف رجل يحرسونه .

﴿ وءاتيناه الحكمة ﴾ الزبور وعلم الشرائع .

وقيل : كل كلام وافق الحق فهو حكمة ﴿ وَفَصْلَ الخطاب ﴾ علم القضاء وقطع الخصام والفصل بين الحق والباطل .

والفصل هو التمييز بين الشيئين .

وقيل : للكلام البين فصل بمعنى المفصول كضرب الأمير ، وفصل الخطاب البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه ، وجاز أن يكون الفصل بمعنى الفاصل كالصوم والزور .

والمراد بفصل الخطاب الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد والحق والباطل ، وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات .

(294/661)

وعن علي رضي الله عنه : هو الحكم بالبينة على المدعي واليمين على المدعي عليه ، وهو من الفصل بين الحق والباطل .

وعن الشعبي : هو قوله "أما بعد" وهو أول من قال "أما بعد" ، فإن من تكلم في الأمر الذي له شأن يفتتح بذكر الله وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له فصل بينه وبين ذكر الله بقوله "أما بعد" .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الخصم ﴾ ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة .

والخصم الخصماء وهو يقع على الواحد والجمع لأنه مصدر في الأصل تقول خصمه خصماً .

وانتصاب ﴿ إِذْ ﴾ بمحذوف تقديره : وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم أو بالخصم ملا فيه من معنى الفعل ﴿ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ تصعدوا سوره ونزلوا إليه ، والسور الحائط المرتفع ، والمحراب الغرفة أو المسجد أو صدر المسجد .

﴿ إِذْ ﴾ بدل من الأولى ﴿ دَخَلُواْ على دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ رُوي أن الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين ، فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان ، ففزع منهم لأنهم دخلوا عليه المحراب في غير يوم القضاء ، ولأنهم نزلوا عليه من فوق وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي نحن خصمان ﴿ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ ﴾ تعدى وظلم ﴿ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ ولا تجر من الشطط وهو مجاوزة الحد وتخطى الحق ﴿ واهدنا إلى سَوَآءِ الصراط ﴾ وأرشدنا إلى وسط الطريق ومحجته والمراد عين الحق ومحضه .

رُوي أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته ، وكان لهم عادة في المواساة بذلك وكان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك ، فاتفق أن داود عليه السلام وقعت عينه على امرأة أوريا فأحبها فسأله النزول له عنها فاستحى أن يرده ففعل فتزوجها وهي أم سليمان .

فقيل له : إنك مع عظم منزلتك وكثرة نسائك لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة النزول عنها لك بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به .

وقيل : خطبها أوريا ثم خطبها داود فآثره أهلها فكانت زلته أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه .

وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزوة البلقاء وأحب أن يقتل ليتزوجها فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء .

وقال علي رضي الله عنه : من حدثكم بحديث داود عليه السلام ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء .

ورُوي أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال : إن كانت القصة على ما في كتاب الله فما ينبغي أن يلتمس خلافها وأعظم بأن يقال

غير ذلك ، وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها ستراً على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه .

فقال عمر : لسماعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس .

والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله بقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب ، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التصريح لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه وأعظم أثراً فيه مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة .

(296/661)

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي ﴾ هو بدل من ﴿ هذا ﴾ أو خبر ل ﴿ إن ﴾ ، والمراد أخوة الدين أو إخوة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة لقوله ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطاء ﴾ ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ واحدة ﴾ ﴿ وَلِيَ ﴾ حفص .

والنعجة كناية عن المرأة .

ولما كان هذا تصويراً للمسئلة وفرضاً لها لا يمتنع أن يفرض الملائكة في أنفسهم كما تقول لي : أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعها ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا

﴿ ملكنيها وحقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : اجعلها كفلي أن نصيبي ﴿ وَعَزَّنِى ﴾ وغلبني يقال عزه يعزه ﴿ فِى الخطاب ﴾ في الخصومة أي أنه كان أقدر على الاحتجاج مني .

وأراد بالخطاب مخاطبة المحاج المجادل ، أو أراد خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطاباً أي غالبني في الخطبة فغلبني حيث زوجها دوني .

ووجه التمثيل أن مثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة ولخليطه تسع وتسعون ، فأراد صاحبه تتمة المائة فطمع في نعجة خليطة وأراده على الخروج من ملكها إليه وحاجّة في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده ، وإنما كان ذلك على وجه التحاكم إليه ليحكم بما حكم به من قوله ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ حتى يكون محجوجاً بحكمه .

وهذا جواب قسم محذوف وفي ذلك استنكار لفعل خليطه والسؤال مصدر مضاف إلى المفعول وقد ضمن معنى الإضافة فعدي تعديتها كأنه قيل : بإضافة نعجتك إلى نعاجه على وجه السؤال والطلب .

وإنما ظلّم الآخر بعد ما اعترف به خصمه ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم .

ويُروى أنه قال : أنا أريد أن آخذها منه وأكمل نعاجي مائة فقال داود : إن رمت ذلك

ضربنا منك هذا وهذا وأشار إلى طرف الأنف والجبهة .

فقال : يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا وأنت فعلت كيت وكيت .

(297/661)

ثم نظر داود فلم ير أحداً فعرف ما وقع فيه ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطآء ﴾ الشركاء والأصحاب ﴿ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ إِلاَّ الذين ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات ﴾ المستثنى منصوب وهو من الجنس والمستثنى منه بعضهم ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ ﴿ مَا ﴾ للابهام و ﴿ هُمْ ﴾ مبتدأ و ﴿ قَلِيلٌ ﴾ خبره ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ ﴾ أي علم وأيقن وإنما استعير له لأن الظن الغالب يداني العلم ﴿ أَنَّمَا فتناه ﴾ ابتليناه ﴿ فاستغفر رَبَّهُ ﴾ لزلته ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ أي سقط على وجهه ساجداً لله ، وفيه دليل على أن الركوع يقوم مقام السجود في الصلاة إذا نوي لأن المراد مجرد ما يصلح تواضعاً عند هذه التلاوة والركوع في الصلاة يعمل هذا العمل بخلاف الركوع في غير الصلاة ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ورجع إلى الله بالتوبة .

وقيل : إنه بقي ساجداً أربعين يوماً وليلة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أو ما لا بد منه ، ولا يرقأ دمعه حتى نبت العشب من دمعه ولم يشرب ماء إلا وثلثاه دمع ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذلك ﴾ أي زلته ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ لقربة ﴿ وَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ مرجع وهو الجنة .

﴿ ياداود إِنَّا جعلناك خَلِيفَةً فِى الأرض ﴾ أي استخلفناك على الملك في الأرض أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق ، وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير ﴿ فاحكم بَيْنَ الناس بالحق ﴾ أي بحكم الله إذ كنت خليفته أو بالعدل ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى ﴾ أي هوى النفس في قضائك ﴿ فَيُضِلَّكَ ﴾ الهوى ﴿ عَن سَبِيلِ الله إِنَّ الذين يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ دينه ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الحساب ﴾ أي بنسيانهم يوم الحساب .

(298/661)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السمآء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الخلق ﴿ باطلا ﴾ خلقاً باطلاً لا لحكمة بالغة ، أو مبطلين عابثين كقوله ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 16] وتقديره ذوي باطل ، أو عبثاً فوضع ﴿ باطلا ﴾ موضعه أي ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ولكن للحق المبين ، وهو أنا خلقنا نفوساً أودعناها العقل ومنحناها التمكين وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف وأعددنا لها عاقبة وجزاءً على حسب أعمالهم .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى خلقها باطلاً ﴿ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الظن بمعنى المظنون أي

خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا ، وإنما جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة مع إقرارهم بأنه خالق السماوات والأرض وما بينهما لقوله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] لأنه لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤدياً إلى أن خلقها عبث وباطل جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه ، لأن الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم ، فمن جحده فقد جحد الحكمة في خلق العالم ﴿ فَوَيْلٌ للذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار أَمْ نَجْعَلُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِى الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ "أم" منقطعة ، ومعنى الاستفهام فيها الإنكار ، والمراد أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكفار لاستوت أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر ، ومن سوّى بينهم كان سفيهاً ولم يكن حكيماً ﴿ كِتَابٌ ﴾ أي هذا كتاب ﴿ أنزلناه إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ صفة أخرى ﴿ لِّيَدَّبَّرُواْ ءاياته ﴾ وأصله ليتدبروا قرىء به ومعناه ليتفكروا فيها فيقفوا على ما فيه ويعملوا به .

(299/661)

وعن الحسن : قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده ﴿ لتدّبروا ﴾ على الخطاب بحذف إحدى التاءين : يزيد ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ

أُوْلُواْ الألباب ﴾ وليتعظ بالقرآن أولو العقول .

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سليمان نِعْمَ العبد ﴾ أي سليمان .

وقيل : داود ، وليس بالوجه فالمخصوص بالمدح محذوف ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ وعلل كونه ممدوحاً بكونه أواباً أي كثير الرجوع إلى الله تعالى ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ على سليمان ﴿ بالعشى ﴾ بعد الظهر ﴿ الصافنات ﴾ الخيول القائمة على ثلاث قوائم وقد أقامت الأخرى على طرف حافر ﴿ الجياد ﴾ السراع جمع جواد لأنه يجود بالركض ، وصفها بالصفون لأنه لا يكون في الهجان وإنما هو العراب .

وقيل : وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية ، يعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها .

وقيل : الجياد الطوال الأعناق من الجيد .

ورُوي أن سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين فأصاب ألف فرس .

وقيل : ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة .

وقيل : خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يوماً بعدما صلى الظهر على كرسيه واستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر وكانت فرضاً عليه ، فاغتم لما فاته فاستردها وعقرها تقرباً لله وبقي مائة ، فما في أيدي الناس من الجياد ، فمن نسلها .

وقيل : لما عقرها أبدله الله خيراً منها وهي الريح تجري بأمره .

﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِّيِّ ﴾ أي آثرت حب الخيل عن ذكر ربي كذا عن الزجاج .

(300/661)

فأحببت بمعنى آثرت كقوله تعالى ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ [فصلت : 17] و "عن" بمعنى "على" ، وسمى الخيل خيراً كأنها نفس الخير لتعلق الخير بها كما قال عليه السلام " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة " وقال أبو علي : أحببت بمعنى جلست من إحباب البعير وهو بروكه .

حب الخير أي المال مفعول له مضاف إلى المفعول ﴿ حتى تَوَارَتْ ﴾ الشمس ﴿ بالحجاب ﴾ والذي دل على أن الضمير للشمس مرر و ذكر العشي ولا بد للضمير من جري ذكر أو دليل ذكر ، أو الضمير للصافنات أي حتى توارت بحجاب الليل يعني الظلام ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ أي قال للملائكة : ردوا الشمس علي لأصلي العصر فردت الشمس له وصلى العصر ، أو ردوا الصافنات ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والأعناق ﴾ فجعل يمسح مسحاً أي يمسح السيف بسوقها وهي جمع ساق كدار ودور وأعناقها ، يعني

يقطعها لأنها منعته عن الصلاة .

تقول : مسح عُلاوته إذا ضرب عنقه ، ومسح المسفر الكتاب إذا قطع أطرافه بسيفه .

وقيل : إنما فعل ذلك كفارة لها أو شكراً لرد الشمس ، وكانت الخيل مأكولة في شريعته فلم يكن إتلافاً .

وقيل : مسحها بيده استحساناً لها وإعجاباً بها .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان ﴾ ابتليناه .

﴿ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ ﴾ سرير ملكه ﴿ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ رجع إلى الله .

قيل : فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة ، وكان من فتنته أنه ولد له ابن فقالت الشياطين : إن عاش لم ننفك من السخرة فسبيلنا أن نقتله أو نخبله ، فعلم ذلك سليمان عليه السلام فكان يغذوه في السحابة خوفاً من مضرة الشياطين ، فألفى ولده ميتاً على كرسيه فتنبه على زلته في أن لم يتوكل فيه على ربه .

(301/661)

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم " قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة منهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل

إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع في حجره ، فوالذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون " وأما ما يُروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام فمن أباطيل اليهود .

﴿ قَالَ رَبِّ اغفر لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً ﴾ قدم الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء عليهم السلام والصالحين في تقديم الاستغفار على السؤال ﴿ لاَّ يَنبَغِى ﴾ لا يتسهل ولا يكون ﴿ لأَحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ أي دوني .

وبفتح الياء : مدني وأبو عمرو ، وإنما سأل بهذه الصفة ليكون معجزة له لا حسداً وكان قبل ذلك لم يسخر له الريح والشياطين ، فلما دعا بذلك سخرت له الريح والشياطين ولن يكون معجزة حتى يخرق العادات ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الوهاب فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح ﴾ ﴿ الرياح ﴾ أبو جعفر .

﴿ تَجْرِى ﴾ حال من ﴿ الريح ﴾ ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ بأمر سليمان ﴿ رُخَآءً ﴾ لينة طيبة لا تزعزع وهو حال من ضمير ﴿ تَجْرِى ﴾ ﴿ حَيْثُ ﴾ ظرف ﴿ تَجْرِى ﴾ ﴿ أَصَابَ ﴾ قصد وأراد .

والعرب تقول : أصاب الصواب فاخطأ الجواب ﴿ والشياطين ﴾ عطف على ﴿ الريح ﴾ أي سخرنا له الشياطين ﴿ كُلَّ بَنَّآءٍ ﴾ بدل من ﴿ الشياطين ﴾ كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ﴿ وَغَوَّاصٍ ﴾ أي ويغوصون له في البحر لإخراج اللؤلؤ ، وهو أول من

استخرج اللؤلؤ من البحر .

والمعنى وسخرنا له كل بناء وغواص من الشياطين ﴿ وَءَاخَرِينَ ﴾ عطف على ﴿ كُلَّ بَنَّاء ﴾ داخل في حكم البدل ﴿ مُّقَرَّنِينَ فِى الأصفاد ﴾ وكان يقرن مردة الشياطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد .

(302/661)

والصفد : القيد وسمي به العطاء لأنه ارتباط للمنعم عليه ، ومنه قول علي رضي الله عنه : من برك فقد أسرك ومن جفاك فقد أطلقك ﴿ هذا ﴾ الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة ﴿ عَطَآؤُنَا فامنن ﴾ فأعط منه ما شئت من المنة وهي العطاء ﴿ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ عن العطاء ، وكان إذا أعطى أجر وإن منع لم يأثم بخلاف غيره ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ متعلق ب ﴿ عَطَاؤُنَا ﴾ وقيل : هو حال أي هذا عطاؤنا جماً كثيراً لا يكاد يقدر على حصره ، أو هذه التسخير عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق أو أمسك من شئت منهم في الوثاق بغير حساب أي لا حساب عليك في ذلك ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى وَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ ﴿ لزلفى ﴾ اسم "إن" والخبر ﴿ لَهُ ﴾ والعامل في ﴿ عِندَ ﴾ الخبر .

﴿ واذكر عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ هو بدل من ﴿ عَبْدَنَا ﴾ أو عطف بيان ﴿ إِذْ ﴾ بدل اشتمال منه ﴿ نادى رَبَّهُ ﴾ دعاه ﴿ إِنِّى مَسَّنِىَ ﴾ بأني مسني حكاية لكلامة الذي ناداه بسببه ولو لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب ﴿ الشيطان بِنُصْبٍ ﴾ قراءة العامة ﴿ بِنُصُب ﴾ ، يزيد تثقيل نُصْب ﴿ بِنَصَب ﴾ كرشد ورشد ، يعقوب ﴿ بِنصب ﴾ على أصل المصدر هبيرة والمعنى واحد وهو التعب والمشقة ﴿ وَعَذَابٍ ﴾ يريد مرضه وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب .

وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل .

ورُوي أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين فارتد أحدهم فسأل عنه فقيل : ألقى إليه الشيطان أن الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين .

(303/661)

وذكر في سبب بلائه أنه ذبح شاة فأكلها وجاره جائع ، أو رأى منكراً فسكت عنه ، أو ابتلاه الله لرفع الدرجات بلا زلة سبقت منه ﴿ اركض بِرِجْلِكَ ﴾ حكاية ما أجيب به

أيوب عليه السلام أي أرسلنا إليه جبريل عليه السلام فقال له : اركض برجلك أي اضرب برجلك الأرض وهي أرض الجابية فضربها فنبعت عين فقيل : ﴿ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أي هذا ماء تغتسل به وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهرك .

وقيل : نبعت له عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله تعالى .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ﴾ قيل : أحياهم الله تعالى بأعيانهم وزاده مثلهم ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا وذكرى لأُوْلِي الألباب ﴾ مفعول لهما أي الهبة كانت للرحمة له ولتذكير أولى الألباب ، لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره رغبهم في الصبر على البلاء ﴿ وَخُذْ ﴾ معطوف على ﴿ اركض ﴾ ﴿ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ حزمة صغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : قبضة من الشجر ﴿ فاضرب بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ وكان حلف في مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برأ ، فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ، وهذه الرخصة باقية ويجب أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة .

والسبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة فحرج صدره .

وقيل : باعت ذؤابتيها برغيفين وكانتا متعلق أيوب عليه السلام إذا قام ﴿ إِنَّا وجدناه ﴾ علمناه ﴿ صَابِراً ﴾ على البلاء نعم قد شكا إلى الله ما به واسترحمه لكن الشكوى إلى الله لا تسمى جزعاً فقد قال يعقوب عليه السلام ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى الله ﴾ [يوسف : 86] على أنه عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان الشيطان يوسوس إليهم أنه لو كان نبياً لما ابتلي بمثل ما ابتلي به وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ أيوب ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 33 . 44 ﴾

(305/661)

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ ص ﴾ وقرىء بالكسر لالتقاء الساكنين ، وقيل إنه أمر من المصاداة بمعنى المعارضة ، ومنه الصدى فإنه يعارض الصوت الأول أي عارض القرآن بعملك ، وبالفتح لذلك أو لحذف حرف القسم وإيصال فعله إليه ، أو إضماره والفتح في موضع الجر فإنها غير مصروفة لأنها

علم السورة وبالجر والتنوين على تأويل الكتاب . ﴿ والقرءان ذِى الذِّكْرِ ﴾ الواو للقسم إن جعل ﴿ ص ﴾ اسماً للحرف أو مذكور للتحدي ، أو للرمز بكلام مثل صدق محمد عليه الصلاة والسلام ، أو للسورة خبر المحذوف أو لفظ الأمر ، وللعطف إن جعل مقسماً به كقولهم : الله لأفعلن بالجر والجواب محذوف دل عليه ما في ﴿ ص ﴾ من الدلالة على التحدي ، أو الأمر بالمعادلة أي إنه لمعجز أو لواجب العمل به ، أو إن محمداً صادق أو قوله :

﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه ﴿ بَلِ الذين كَفَرُواْ ﴾ به . ﴿ فِى عِزَّةٍ ﴾ أي استكبار عن الحق . ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ خلاف لله ورسوله ولذلك كفروا به ، وعلى الأولين الإِضراب أيضاً من الجواب المقدر ولكن من حيث إشعاره بذلك والمراد بالذكر العظة أو الشرف والشهره ، أو ذكر ما يحتاج اليه في الدين من العقائد والشرائع والمواعيد ، والتنكير في ﴿ عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ للدلالة على شدتهما ، وقرىء في "غرة" أي غفلة عما يجب عليهم النظر فيه .

(306/661)

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ ﴾ وعيد لهم على كفرهم به استكباراً وشقاقاً . ﴿ فَنَادَوْاْ ﴾ استغاثة أو توبة أو استغفاراً . ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي ليس الحين حين مناص ، ولا هي المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب ، وثم خصت بلزوم الأحيان وحذف أحد المعمولين ، وقيل هي النافية للجنس أي ولا حين مناص لهم ، وقيل للفعل والنصب بإضماره أي ولا أرى حين مناص ، وقرىء بالرفع على أنه اسم لا أو مبتدأ محذوف الخبر أي ليس حين مناص حاصلاً لهم ، أو لا حين مناص كائن لهم وبالكسر كقوله :

طَلَبُوا صُلْحَنَا وَلَاتَ أَوَان . . . فَأَجَبْنَا أَنْ لَاتَ حِينَ بَقَاءِ

إما لأن لات تجر الأحيان كما أن لولا تجر الضمائر في قوله :

لَوْلَاكَ هَذَا العَامُ لَمْ أَحْجُجِ . . . أو لأن أوان شبه بإذ لأنه مقطوع عن الإضافة إذ أصله أوان صلح ، ثم حمل عليه ﴿ مَنَاصٍ ﴾ تنزيلاً لما أضيف إليه الظرف منزلته لما بينهما من الاتحاد ، إذ أصله يحن مناصهم ثم بني الحين لإضافته إلى غير متمكن ﴿ وَّلَاتَ ﴾ بالكسر كجير ، وتقف الكوفية عليها بالهاء كالأسماء والبصرية بالتاء كالأفعال . وقيل إن التاء مزيدة على حين لاتصالها به في الامام ولا يرد عليه أن خط المصحف خارج عن القياس إذ مثله لم يعهد فيه ، والأصل اعتباره إلا فيما خصه الدليل ولقوله :

العَاطِفُونَ تَحِينَ لَا مِنْ عَاطِفٍ . . . وَالمُطْعِمُونَ زَمَانَ مَا مِنْ مُطْعِمِ

والمناص المنجا من ناصه ينوصه إذا فاته .

﴿ وَعَجِبُواْ أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ بشر مثلهم أو أمي من عدادهم . ﴿ وَقَالَ الكافرون ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وذماً لهم ، وإشعاراً بأن كفرهم جسرهم على هذا القول . ﴿ هذا ساحر ﴾ فِيمَا يظهره معجزة . ﴿ كَذَّابٌ ﴾ فيما يقوله على الله تعالى .

(307/661)

﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا ﴾ بأن جعل الألوهية التي كانت لهم لواحد . ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ بليغ في العجب فإنه خلاف ما أطبق عليه آباؤنا ، وما نشاهده من أن الواحد لا يفي علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة ، وقرىء مشدداً وهو أبلغ ككرام وكرام .

وروي أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه شق ذلك على قريش ، فأتوا أبا طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا ، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وإنا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل عليهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : ماذا يسألونني ، فقالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال : " أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أمعطي أنتم

كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم " ، فقالوا : نعم وعشراً ، فقال : " قولوا لا إله إلا الله " ، فقاموا وقالوا ذلك .

﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ ﴾ وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعدما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ أَنِ امشوا ﴾ قائلين بعضهم لبعض ﴿ امشوا ﴾ . ﴿ اصبروا ﴾ واثبتوا . ﴿ على ءَالِهَتِكُمْ ﴾ على عبادتها فلا ينفعكم مكالمته ، و ﴿ أَنِ ﴾ هي المفسرة لأن الانطلاق عن مجلس التقاول يشعر بالقول . وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع في القول ، و ﴿ امشوا ﴾ من مشت المرأة إذا كثرت أولادها ومنه الماشية أي اجتمعوا ، وقرىء بغير ﴿ أَنِ ﴾ وقرىء "يمشون أن اصبروا" . ﴿ إِنَّ هذا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ إن هذا الأمر لشيء من ريب الزمان يراد بنا فلا مرد له ، أو أن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة ، والترفع على العرب والعجم لشيء يتمنى أو يريده كل أحد ، أو أن دينكم لشيء يطلب ليؤخذ منكم .

(308/661)

﴿ مَّا سَمِعْنَا بهذا ﴾ بالذي يقوله . ﴿ فِى الملة الآخرة ﴾ في الملة التي أدركنا عليها آباءنا ، أو في ملة عيسى عليه الصلاة والسلام التي هي آخر الملل فإن النصارى يثلثون .

ويجوز أن يكون حالاً من هذا أي ما سمعنا من أهل الكتاب ولا الكهان بالتوحيد كائناً في الملة المترقبة. ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ﴾ كذب اختلقه.

﴿ ءَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ إنكار لاختصاصه بالوحي وهو مثلهم أو أدون منهم في الشرف والرئاسة كقولهم ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ وأمثال ذلك دليل على أن مبدأ تكذيبهم لم يكن إلا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوي. ﴿ بْل هُمْ فِي شَكّ مّن ذِكْرِي ﴾ من القرآن أو الوحي لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الدليل، وليس في عقيدتهم ما يبتون به من قولهم ﴿ هذا ساحر كَذَّابٌ ﴾ ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ﴾. ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ بل لم يذوقوا عذابي بعد فإذا ذاقوه زال شكهم، والمعنى أنهم لا يصدقون به حتى يمسهم العذاب فيلجئهم إلى تصديقه.

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبّكَ العزيز الوهاب ﴾ بل أعندهم خزائن رحمته وفي تصرفهم حتى يصيبوا بها من شاؤوا ويصرفوها عمن شاؤوا فيتخير للنبوة بعض صناديدهم، والمعنى أن النبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده لا مانع له فإنه العزيز أي الغالب الذي لا يغلب، الوهاب الذي له أن يهب كل ما يشاء لمن يشاء، ثم رشح ذلك فقال:

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ كأنه لما أنكر عليهم التصرف في نبوته بأن

ليس عندهم خزائن رحمته التي لا نهاية لها ، أردف ذلك بأنه ليس لهم مدخل في أمر هذا العالم الجسماني الذي هو جزء يسير من خزائنه فمن أين لهم أن يتصرفوا فيها .

(309/661)

﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأسباب ﴾ جواب شرط محذوف أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في المعارج التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم ، فينزلوا الوحي إلى من يستصوبون . وهو غاية التهكم بهم ، والسبب في الأصل هو الوصلة ، وقيل المراد بالأسباب السموات لأنها أسباب الحوادث السفلية .

﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأحزاب ﴾ أي هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرسل ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ مكسور عما قريب فمن أين لهم التدابير الإلهية والتصرف في الأمور الربانية ، أو فلا تكترث بما يقولون و ﴿ مَا ﴾ مزيدة للتقليل كقولك أكلت شيئاً ما ، وقيل للتعظيم على الهزء وهو لا يلائم ما بعده ، وهنالك إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ ذُو الأوتاد ﴾ ذو الملك الثابت بالأوتاد كقوله :

وَلَقَدْ غَنوا فِيْهَا بِأَنْعَمِ عِيْشَةٍ . . . فِي ظِلِّ ملكٍ ثَابِتِ الأَوْتَادِ

مأخوذ من ثبات البيت المطنب بأوتاده ، أو ذو الجموع الكثيرة سموا بذلك لأن بعضهم يشد بعضاً كالوتد يشد البناء . وقيل نصب أربع سوار وكان يمد يدي المعذب ورجليه إليها ويضرب عليها أوتاداً ويتركه حتى يموت .

﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وأصحاب لْئَيْكَةِ ﴾ وأصحاب الغيضة وهم قوم شعيب ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر "ليكة" . ﴿ أُوْلَئِكَ الأحزاب ﴾ يعني المتحزبين على الرسل الذين جعل الجند المهزوم منهم .

﴿ إِن كُلٌّ كَذَّبَ الرسل ﴾ بيان لما أسند إليهم من التكذيب على الإبهام مشتمل على أنواع من التأكيد ليكون تسجيلاً على استحقاقهم للعذاب ، ولذلك رتب عليه : ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ وهو إما مقابلة الجمع بالجمع أو جعل تكذيب الواحد منهم تكذيب جميعهم .

(310/661)

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلآءِ ﴾ وما ينتظر قومك أو الأحزاب فإنهم كالحضور لاستحضارهم بالذكر ، أو حضورهم في علم الله تعالى : ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ هي النفخة الأولى .

﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ من توقف مقدار فواق وهو ما بين الحلبتين ، أو رجوع وترداد فإنه فيه يرجع اللبن إلى الضرع ، وقرأ حمزة والكسائي بالضم وهما لغتان .

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ قسطنا من العذاب الذي توعدنا به ، أو الجنة التي تعدها للمؤمنين وهو من قطه إذا قطعه ، وقيل لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بها أي : عجل لنا صحيفة أعمالنا للنظر فيها . ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ استعجلوا ذلك استهزاء .

﴿ اصبر على مَا يَقُولُونَ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ واذكر لهم قصته تعظيماً للمعصية في أعينهم ، فإنه مع علو شأنه واختصاصه بعظائم النعم والمكرمات لما أتى صغيرة نزل عن منزلته ووبخه الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفطن فاستغفر ربه وأناب فما الظن بالكفرة وأهل الطغيان ، أو تذكر قصته وصن نفسه أن تزل فيلقاك ما لقيه من المعاتبة على إهمال عنان نفسه أدنى إهمال . ﴿ ذَا الأيد ﴾ ذا القوة يقال فلان أيد وذو أيد وآد وأياد بمعنى .

﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ رجاع إلى مرضاة الله تعالى ، وهو تعليل ل ﴿ الأيد ﴾ ودليل على أن المراد به القوة في الدين ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ويقوم نصف الليل .

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ قد مر تفسيره ، و ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ حال وضع موضع مسبحان لاستحضار الحال الماضية والدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال . ﴿ بالعشى والإشراق ﴾ ووقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أي تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى ، وأما شروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق .

وعن أم هانىء رضي الله تعالى عنها : أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الضحى وقال

" هذه صلاة الإِشراق " وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية .

﴿ والطير مَحْشُورَةً ﴾ إليه من كل جانب ، وإنما لم يراع المطابقة بين الحالين لأن الحشر جملة أدل على القدرة منه مدرجاً ، وقرىء "والطير مَحْشُورَةٌ" بالمبتدأ والخبر . ﴿ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجاع إلى التسبيح ، والفرق بينه وبين ما قبله أنه يدل على الموافقة في التسبيح وهذا على المداومة عليها ، أو كل منهما ومن داوود عليه الصلاة والسلام مرجع لله التسبيح .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ وقويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ، وقرىء بالتشديد للمبالغة . قيل : إن رجلاً ادعى بقرة على آخر وعجز عن البيان ، فأوحى إليه أن اقتل المدعى عليه فأعلمه فقال : صدقت إني قتلت أباه وأخذت البقرة فعظمت بذلك هيبته . ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ النبوة أو كمال العلم واتقان العمل . ﴿ وَفَصْلَ الخطاب ﴾ وفصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل ، أو الكلام المخلص الذي ينبه المخاطب على المقصود من غير التباس يراعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف ، والإِضمار والحذف

والتكرار ونحوها ، وإنما سمي به أما بعد لأنه يفصل المقصود عما سبق مقدمة له من الحمد والصلاة ، وقيل هو الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل كما جاء في وصف كلام الرسول عليه الصلاة والسلام " فصل لا نزر ولا هذر " .

(312/661)

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الخصم ﴾ استفهام معناه التعجيب والتشويق إلى استماعه ، والخصم في الأصل مصدر ولذلك أطلق على الجمع . ﴿ إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ﴾ إذ تصعدوا سورة الغرفة ، تفعل من السور كتسنم من السنام ، وإذ متعلق بمحذوف أي نبأ تحاكم الخصم ﴿ إِذْ تَسَوَّرُواْ ﴾ ، أو بالنبأ على أن المراد به الواقع في عهد داوود عليه الصلاة والسلام ، وأن إسناد أتى إليه على حذف مضاف أي قصة نبأ الخصم لما فيه من معنى الفعل لا بأتى لأن إتيانه الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن حينئذ ﴿ وَإِذْ ﴾ الثانية في ﴿ إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودَ ﴾ بدل من الأولى أو ظرف ل ﴿ تَسَوَّرُواْ ﴾ . ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ نزلوا عليه من فوق في يوم الاحتجاب والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان جزأ زمانه : يوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء ، ويوماً للوعظ ، ويوماً للاشتغال بخاصته ، فتسور عليه ملائكة على صورة الإنسان في يوم الخلوة . ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ

خَصْمَانِ ﴾ نحن فوجان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصماً . ﴿ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ ﴾ وهو على الفرض وقصد التعريض إن كانوا ملائكة وهو المشهور . ﴿ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ ﴾ ولا تجر في الحكومة ، وقرىء "وَلاَ تُشْطِطْ" أي ولا تبعد عن الحق ولا تشطط ولا تشاط ، والكل من معنى الشطط وهو من مجاوزة الحد . ﴿ واهدنا إلى سَوَاء الصراط ﴾ أي إلى وسطه وهو العدل .

(313/661)

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى ﴾ بالدين أو بالصحبة . ﴿ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِى نَعْجَةٌ واحدة ﴾ هي الأنثى من الضأن وقد يكنى بها عن المرأة ، والكناية والتمثيل فيما يساق للتعريض أبلغ في المقصود ، وقرىء "تِسْعٌ وَتِسْعُونَ" بفتح التاء ونعجة بكسر النون ، وقرأ حفص بفتح ياء ﴿ لِى نَعْجَةً ﴾ . ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ ملكنيها وحقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي ، وقيل اجعلها كفلي أي نصيبي . ﴿ وَعَزَّنِى فِى الخطاب ﴾ وغلبني في مخاطبته إياي محاجة بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده ، أو في مغالبته إياي في الخطبة يقال : خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطاباً حيث زوجها دوني ، وقرىء "وعازني" أي غالبني "وعزني" على تخفيف غريب .

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ جواب قسم محذوف قصد به المبالغة في إنكار فعل خليطه وتهجين طمعه ولعله قال ذلك بعد اعترافه ، أو على تقدير صدق المدعي والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة . ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطاء ﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم جمع خليط ﴿ لَيَبْغِي ﴾ ليتعدى . ﴿ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ وقرىء بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها كقوله :

اضْرُبْ عَنْكَ الهُمُومِ . . . طَارِقُهَا

وبحذف الياء اكتفاء بالكسرة .

(314/661)

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ أي وهم قليل ، و ﴿ مَا ﴾ مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم . ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فتناه ﴾ ابتليناه بالذنب أو امتحناه بتلك الحكومة هل يتنبه بها . ﴿ فاستغفر رَبَّهُ ﴾ لذنبه . ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ ساجداً على تسمية السجود ركوعاً لأنه مبدؤه ، أو خر للسجود راكعاً أي مصلياً كأنه أحرم بركعتي الاستغفار . ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ورجع إلى الله بالتوبة ، وأقصى ما في هذه القضية الإشعار بأنه

عليه الصلاة والسلام ود أن يكون له ما لغيره ، وكان له أمثاله فنبهه الله بهذه القصة فاستغفر وأناب عنه . وما روي أن بصره وقع على امرأة فعشقها وسعى حتى تزوجها ولدت منه سليمان ، إن صح فلعله خطب مخطوبته أو استنزله عن زوجته ، وكان ذلك معتاداً فيما بينهم وقد واسى الأنصار المهاجرين بهذا المعنى . وما قيل إنه أرسل أوريا إلى الجهاد مراراً وأمر أن يقدم حتى قتل فتزوجها هزء وافتراء ، ولذلك قال علي رضي الله عنه : من حدث بحديث داوود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين . وقيل إن قوماً قصدوا أن يقتلوه فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواماً فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم غرضهم وأراد أن ينتقم منهم ، فظن أن ذلك ابتلاء من الله له ﴿ فاستغفر ربَّهُ ﴾ مما هم به ﴿ وَأَنَابَ ﴾ .

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذلك ﴾ أي ما استغفر عنه . ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ لقربة بعد المغفرة . ﴿ وَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ مرجع في الجنة .

(315/661)

﴿ ياداوود إِنَّا جعلناك خَلِيفَةً فِى الأرض ﴾ استخلفناك على الملك فيها ، أو جعلناك خليفة ممن قبلك من الأنبياء القائمين بالحق . ﴿ فاحكم بَيْنَ الناس بالحق ﴾ بحكم الله .

﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى ﴾ ما تهوى النفس ، وهو يؤيد ما قيل إن ذنبه المبادرة إلى تصديق المدعي وتظليم الآخر قبل مسألته . ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ دلائله التي نصبها على الحق . ﴿ إِنَّ الذين يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الحساب ﴾ بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل ، فإن تذكره يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ﴾ لا حكمة فيه ، أو ذوي باطل بمعنى مبطلين عابثين كقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ أو للباطل الذي هو متابعة الهوى ، بل للحق الذي هو مقتضى الدليل من التوحيد والتدرع بالشرع كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ على وضعه موضع المصدر مثل هنيئاً ﴿ ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ الإشارة إلى خلقها باطلاً والظن بمعنى المظنون . ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ بسبب هذا الظن .

(316/661)

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِى الأرض ﴾ ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة والاستفهام فيها لإنكار التسوية بين الحزبين التي هي من لوازم خلقها باطلاً ليدل على نفيه

وكذا التي في قوله : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ كأنه أنكر التسوية أولاً بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم ، ويجوز أن يكون تكريراً للإنكار الأول باعتبار وصفين آخرين يمنعان التسوية من الحكيم الرحيم ، والآية تدل على صحة القول بالحشر ، فإن التفاضل بينهما إما أن يكون في الدنيا والغالب فيها عكس ما يقتضي الحكمة فيه ، أو في غيرها وذلك يستدعي أن يكون لهم حالة أخرى يجازون بها .

﴿ كتاب أنزلناه إِلَيْكَ مبارك ﴾ نفاع ، وقرىء بالنصب على الحال . ﴿ لّيَدَّبَّرُواْ ءاياته ﴾ ليتفكروا فيها فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة وقرىء ليتدبروا على الأصل ولتدبروا أي أنت وعلماء أمتك . ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الألباب ﴾ وليتعظ به ذوو العقول السليمة ، أو ليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته بما نصب عليه من الدلائل ، فإن الكتب الإلهية بيان لما لا يعرف إلا من الشرع ، وإرشاد إلى ما يستقل به العقل ، ولعل التدبر للمعلوم الأول والتذكر الثاني . ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سليمان نِعْمَ العبد ﴾ أي نعم العبد سليمان إذ ما بعده تعليل للمدح وهو في حاله . ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ رجاع إلى الله بالتوبة ، أو إلى التسبيح مرجع له .

(317/661)

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ ﴾ ظرف ل ﴿ أَوَّابٌ ﴾ أول ﴿ نِعْمَ ﴾ ، والضمير ل ﴿ سليمان ﴾ عند الجمهور ﴿ بالعشى ﴾ بعد الظهر ﴿ الصافنات ﴾ الصافن من الخيل الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل ، وهو من الصفات المحمودة في الخيل الذي لا يكاد يكون إلا في العراب الخلص . ﴿ الجياد ﴾ جمع جواد أو جود ، وهو الذي يسرع في جريه وقيل الذي يجود في الركض ، وقيل جمع جيد . روي أنه عليه الصلاة والسلام غزا دمشق ونصيبين وأصاب ألف فرس ، وقيل أصابها أبوه من العمالقة فورثها منه فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر ، أو عن ورد كان له فاغتم لما فاته فاستردها فعقرها تقرباً لله .

﴿ فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِى ﴾ أصل ﴿ أَحْبَبْتُ ﴾ أن يعدى بعلى لأنه بمعنى آثرت لكن لما أنيب مناب أنبت عدي تعديته ، وقيل هو بمعنى تقاعدت من قوله :

مِثْلُ بَعِيرِ السُّوءِ إِذَا أَحَبَّا . . . أي برك ، و ﴿ حُبَّ الخير ﴾ مفعول له والخير المال الكثير ، والمراد به الخيل التي شغلته ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها . قال عليه الصلاة والسلام " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة " وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الياء .

﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ أي غربت الشمس ، شبه غروبها بتواري المخبأة بحجابها

وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشي عليها .

﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ الضمير ل ﴿ الصافنات ﴾ . ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً ﴾ فأخذ بمسح السيف مسحاً . ﴿ بالسوق والأعناق ﴾ أي بسوقها وأعناقها يقطعها من قولهم مسح علاوته إذا ضرب عنقه ، وقيل جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حبا لها ، وعن ابن كثير "بالسؤق" على همز الواو لضمة ما قبلها كمؤقن ، وعن أبي عمرو "بالسؤوق" وقرىء "بالساق" اكتفاء بالواحد عن الجمع لأمن الالباس .

(318/661)

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سليمان وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ وأظهر ما قيل فيه ما روي مرفوعاً " أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل ، فو الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرساناً " وقيل ولد له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله فعلم ذلك ، فكان يغدوه في السحاب فما شعر به إلا أن ألقي على كرسيه ميتاً فتنبه على خطئه بأن لم يتوكل على الله . وقيل إنه غزا صيدون من الجزائر فقتل ملكها وأصاب ابنته جرادة ، فأحبها وكان لا يرقأ دمعها جزعاً على أبيها ، فأمر الشياطين فمثلوا

لها صورته فكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن لها كعادتهن في ملكه ، فأخبره آصف فكسر الصورة وضرب المرأة وخرج إلى الفلاة باكياً متضرعاً ، وكانت له أم ولد اسمها أمينة إذا دخل للطهارة أعطاها خاتمه وكان ملكه فيه ، فأعطاها يوماً فتمثل لها بصورته شيطان اسمه صخر وأخذ الخاتم وتختم به وجلس على كرسيه ، فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه في كل شيء إلا في نسائه وغير سليمان عن هيئته ، فأتاها لطلب الخاتم فطردته فعرف أن الخطيئة قد أدركته ، فكان يدور على البيوت يتكفف حتى مضى أربعون يوماً عدد ما عبدت الصورة في بيته ، فطار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة فوقعت في يده فبقر بطنها فوجد الخاتم فتختم به وخر ساجداً وعاد إليه الملك ، فعلى هذا الجسد صخر سمي به وهو جسم لا روح فيه لأنه كان متمثلاً بما لم يكن كذلك ، والخطيئة تغافله عن حال أهله لأن اتخاذ التماثيل كان جائزاً حينئذ ، وسجود الصورة بغير علمه لا يضره .

(319/661)

﴿ قَالَ رَبِّ اغفر لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لاَّ يَنبَغِى لأَحَدٍ مِّن بَعْدِى ﴾ لا يتسهل له ولا يكون ليكون معجزة لي مناسبة لحالي ، أو لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلبة ، أو لا

يصح لأحد من بعدي لعظمته كقولك : لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال ، على إرادة وصف الملك بالعظمة لا أن لا يعطى أحد مثله فيكون منافسة ، وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين ووجوب تقديم ما يجعل للدعاء بصدد الإجابة . وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء . ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الوهاب ﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء .

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح ﴾ فذللناها لطاعته إجابة لدعوته وقرىء "الرياح" . ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً ﴾ لينة من الرخاوة لا تزعزع ، أو لا تخالف إرادته كالمأمور المنقاد . ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أراد من قولهم أصاب الصواب فأخطأ الجواب .

﴿ والشياطين ﴾ عطف على ﴿ الريح ﴾ . ﴿ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ بدل منه .

﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الأصفاد ﴾ عطف على كل كأنه فصل الشياطين إلى عملة استعملهم في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص ، ومردة قرن بعضهم مع بعض في السلاسل ليكفوا عن الشر ، ولعل أجسامهم شفافة صلبة فلا ترى ويمكن تقييدها ، هذا والأقرب أن المراد تميل كفهم عن الشرور بالإقران في الصفد وهو القيد ، وسمي به العطاء لأنه يرتبط به المنعم عليه . وفرقوا بين فعليهما فقالوا صفده قيده وأصفده أعطاه عكس وعد وأوعد وفي ذلك نكتة .

﴿ هذا عَطَاؤُنَا ﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك والبسطة والتسلط على ما لم يسلط به غيرك عطائنا . ﴿ فامنن أَوْ أَمْسِكْ ﴾ فاعط من شئت وامنع من شئت . ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ حال من المستكن في الأمر ، أي غير محاسب على منه وإمساكه لتفويض التصرف فيه إليك أو من العطاء أو صلة له وما بينهما اعتراض . والمعنى أنه عطاء جم لا يكاد يمكن حصره ، وقيل الإِشارة إلى تسخير الشياطين ، والمراد بالمن والإِمساك إطلاقهم وإبقاءهم في القيد .

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى ﴾ في الآخرة مع ما له من الملك العظيم في الدنيا . ﴿ وَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ هو الجنة .

﴿ واذكر عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ هو ابن عيص بن إسحاق وامرأته ليا بنت يعقوب صلوات الله عليه . ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾ بدل من ﴿ عَبْدَنَا ﴾ و ﴿ أَيُّوبَ ﴾ عطف بيان له . ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ﴾ بأن مسني ، وقرأ حمزة بإسكان الياء وإسقاطها في الوصل . ﴿ الشيطان بِنُصْبٍ ﴾ بتعب . ﴿ وَعَذَابٍ ﴾ ألم وهي حكاية لكلامه الذي ناداه به ولولا هي لقال إنه مسه ، والإِسناد إلى ﴿ الشيطان ﴾ إما لأن الله مسه بذلك لما فعل بوسوسته كما قيل إنه أعجب بكثرة ماله أو استغاثة مظلوم فلم يغثه ، أو كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه ، أو لسؤاله امتحاناً لصبره فيكون اعترافاً بالذنب أو مراعاة للأدب ، أو لأنه

وسوس إلى أتباعه حتى رفضوه وأخرجوه من ديارهم ، أو لأن المراد بالنصب والعذاب ما كان يوسوس إليه في مرضه من عظم البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الجزع ، وقرأ يعقوب بفتح النون على المصدر ، وقرىء بفتحتين وهو لغة كالرشد والرشد وبضمتين للتثقيل .

﴿ اركض بِرِجْلِكَ ﴾ حكاية لما أجيب به أي اضرب برجلك الأرض . ﴿ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أي فضربها فنبعت عين فقيل هذا مغتسل أي ماء تغتسل به وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهرك ، وقيل نبعث عينان حارة وباردة فاغتسل من الحارة واشرب من الأخرى .

(321/661)

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم أو أحييناهم بعد موتهم ، وقيل وهبنا له مثلهم . ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ﴾ حتى كان له ضعف ما كان . ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ لرحمتنا عليه ﴿ وذكرى لأُوْلِى الألباب ﴾ وتذكيراً لهم لينتظروا الفرج بالصبر واللجأ إلى الله فيما يحيق بهم .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ عطف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش

ونحوه . ﴿ فاضرب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ روي أن زوجته ليا بنت يعقوب وقيل رحمة بنت افراثيم بن يوسف ذهبت لحاجة فأبطأت فحلف إن برىء ضربها مائة ضربة ، فحلل الله يمينه بذلك وهي رخصة باقية في الحدود . ﴿ إِنَّا وجدناه صَابِراً ﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال ، ولا يخل به شكواه إلى الله من الشيطان فإنه لا يسمى جزعاً كتمني العافية وطلب الشفاء مع أنه قال ذلك خيفة أن يفتنه أو قومه في الدين . ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ أيوب . ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ مقبل بشراشره على الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 34 . 49 ﴾

(322/661)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة ص

مكية وهي ست أو ثمان وثمانون آية ، وسبعمائة واثنتان وثمانون كلمة ، وثلاثة آلاف وتسعة وتسعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ المنزه عن كل شائبة نقص ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم جوده سائر مخلوقاته ﴿ الرحيم ﴾ بمن خلقه ، واختلف في تفسير قوله تعالى:

﴿ ص ﴾ فقيل : قسم وقيل : هو اسم للسورة كما ذكرنا في سائر حروف التهجي في أوائل السور وقال محمد بن كعب القرظي : مفتاح اسمه الصمد وصادق الوعد ، وقال الضحاك : معناه صدق الله ، وروي عن ابن عباس : صدق محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : معناه أن القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضته . ﴿ والقرآن ﴾ أي : الجامع مع البيان لكل خير ﴿ ذي الذكر ﴾ أي : الموعظة والتذكير وقال ابن عباس : ذي البيان ، وقال الضحاك : ذي الشرف ودليله قوله تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ (الزخرف :) ، فإن قيل : هذا قسم فأين المقسم عليه ؟ أجيب : بأنه محذوف تقديره : ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدد الآلهة وقوله تعالى: ﴿ بل الذين كفروا ﴾ أي : من أهل مكة إضراب انتقال من قصة إلى أخرى ﴿ في عزة ﴾ أي : حمية وتكبر عن الإيمان ﴿ وشقاق ﴾ أي : خلاف وعداوة للنبي صلى الله عليه وسلم والتنكير في عزة وشقاق للدلالة على شدتهما ، وقيل : جواب القسم قد تقدم وهو قوله تعالى : ﴿ ص ﴾ أقسم الله تعالى بالقرآن أن محمد الصادق وقال الفراء : ﴿ ص ﴾ معناها وجب وحق فهو جواب قوله : ﴿ والقرآن ﴾ كما تقول : نزل والله ، وقال الأخفش : قوله تعالى : ﴿ إن كل إلا كذب الرسل ﴾ وقال السدي : إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ، قال البغوي : وهذا ضعيف لأنه تخلل بين القسم وبين هذا الجواب أقاصيص وأخبار كثيرة وقال مجاهد : في عزة متعازين .

﴿كم﴾ أي : كثيراً ﴿أهلكنا من قبلهم﴾ وأكد كثرتهم بقوله تعالى : ﴿من قرن﴾ أي : من أمة من الأمم الماضية كانوا في شقاق مثل شقاقهم .

(323/661)

تنبيه : كم مفعول أهلكنا ، ومن قرن تمييز ، ومن قبلهم لابتداء الغاية ﴿فنادوا﴾ أي : استغاثوا عند نزول العذاب وحلول النقمة وقيل : نادوا بالإيمان والتوبة ﴿ولات﴾ أي : وليس الحين ﴿حين مناص﴾ أي : منجى وفرار ، قال ابن عباس : كان كفار مكة إذا قاتلوا فاضطروا في الحرب ، قال بعضهم لبعض : مناص أي : اهربوا وخذوا حذركم ، فلما نزل بهم العذاب ببدر قالوا : مناص ، فأنزل الله تعالى ذلك ، والمناص مصدر ناص ينوص إذا تقدم ، ولات بمعنى : ليس بلغة أهل اليمن ، وقال النحويون : هي لا زيدت فيها التاء كقولهم : رب وربت ، وثم وثمت ، وأصلها هاء وصلت بلا فقالوا : لات كما قالوا : ثمت ولا تعمل إلا في الأزمان خاصة نحو لات حين ولات أوان كقول الشاعر :

*طلبوا صلحنا ولات أوان ** فأجبنا أن ليس حين بقاء*

والأكثر حينئذ حذف مرفوعها فتقديره ولات الحين حين مناص ، وقد يحذف المنصوب ويبقى المرفوع كقول القائل :

*من صد عن نيرانها **فأنا ابن قيس لا براح*

أي : لا براح لي ، ولما حكى تعالى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أتبعه بشرح كلماتهم الفاسدة بقوله تعالى:

(324/661)

﴿ وعجبوا ﴾ أي : الكفار الذين ذكرهم الله تعالى في قوله سبحانه : ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ ﴿ أن ﴾ أي : لأجل أن ﴿ جاءهم منذر ﴾ هو النبي صلى الله عليه وسلم وفي قوله تعالى : ﴿ منهم ﴾ وجهان أحدهما : أنهم قالوا أن محمداً مساو لنا في الخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنية والنسب والشكل والصورة فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي . والثاني : أن الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال جهلهم لأنهم جاءهم رجل يدعوهم إلى التوحيد والترغيب في الآخرة ثم إن هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيداً عن الكذب والتهمة وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ثم إنهم لحماقتهم يتعجبون من قوله : ﴿ وقال الكافرون ﴾ وضع الظاهر فيه موضع المضمر إشارة إلى أنهم يسترون الحق مع معرفتهم إياه فهم جاحدون لا جاهلون ومعاندون لا

غافلون وإيذاناً بشدة غضبه عليهم وذماً لهم على قولهم : ﴿ هذا ﴾ أي : النذير ﴿ ساحر ﴾ أي : فيما يظهره معجزة ﴿ كذاب ﴾ أي : فيما يقول على الله تبارك وتعالى:

(325/661)

﴿ أجعل ﴾ أي : صير بسبب ما يزعم أنه يوحى إليه ﴿ الآلهة ﴾ أي : التي نعبدها ﴿ إلهاً واحداً ﴾ كيف يسع الخلق كلهم إله واحد ﴿ إن هذا ﴾ أي : القول بالوحدانية ﴿ لشيء عجاب ﴾ أي : بليغ في العجب فإنه خلاف ما أطبق عليه آباؤنا ونشاهده من أن الواحد لا يفي عمله وقدرته بالأشياء الكثيرة ، وقال البغوي : العجب والعجاب واحد كقولهم : رجل كريم وكرام ، وكبير وكبار ، وطويل وطوال ، وعريض وعراض ، وسبب قولهم ذلك أنه روى أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه شق ذلك على قريش وفرح به المؤمنون فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش : ـ وهم الصناديد والأشراف وكانوا خمسة وعشرين رجلاً أكبرهم سناً الوليد بن المغيرة ـ اذهبوا إلى أبي طالب ، فأتوا إليه وقالوا له : أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وإنا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك ، فأرسل أبو طالب إليه فحضر فقال له : يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل على قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا تسألونني ؟ فقالوا :

ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا ، قال : أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أتعطوني أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟ فقال أبو جهل : لله أبوك نعطيكها وعشر أمثالها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قولوا لا إله إلا الله فنفروا من ذلك وقاموا" فقالوا ذلك .

﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ أي : أشراف قريش من مجلس اجتماعهم عند أبي طالب وسماعهم من النبي صلى الله عليه وسلم قولوا لا إله إلا الله ﴿ أن امشوا ﴾ أي : يقول بعضهم لبعض امشوا أي : اذهبوا ﴿ واصبروا ﴾ أي : اثبتوا ﴿ على آلهتكم ﴾ أي : على عبادتها ، قال الزمخشري : ويجوز أنهم قالوا : امشوا أي : أكثروا واجتمعوا ، من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها ، ومنه الماشية للتفاؤل .

فائدة : الجميع يكسرون النون في الوصل من أن امشوا والهمزة في الابتداء من امشوا .

(326/661)

ولما أسلم عمر وحصل للمسلمين قوة بمكانه قال المشركون ﴿ إن هذا ﴾ أي : الذي نراه من زيادة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لشيء يراد ﴾ أي : بنا فلا مرد له أو أن الصبر على عبادة الآلهة لشيء يراد وهو أهل للإرادة فهو أهل أن لا ننفك عنه ، وقيل : هذا

المذكور من التوحيد لشيء يراد منا وقيل : إن دينكم لشيء يطلب ليؤخذ منكم .

﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أي : الذي يقوله محمد من التوحيد ﴿ في الملة الآخرة ﴾ قال ابن عباس : يعنون في النصرانية لأنها آخر الملل وهم لا يوحدون بل يقولون : ثالث ثلاثة ، وقال مجاهد : يعنون ملة قريش دينهم الذي هم عليه ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هذا ﴾ أي : الذي يقوله ﴿ إلا اختلاق ﴾ افتعال وكذب .

﴿ أأنزل عليه ﴾ أي : محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ الذكر ﴾ أي : القرآن ﴿ من بيننا ﴾ وليس بأكبرنا ولا أشرفنا وهذا استفهام على سبيل الإنكار لاختصاصه عليه الصلاة والسلام بالوحي وهو مثلهم ، وفي ذلك دليل على أن مبدأ تكذيبهم لم يكن إلا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوي ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية كالواو ، وأدخل بينهما ألفاً قالون وأبو عمرو بخلاف عن ورش وابن كثير بغير إدخال ، وعن هشام فيها ثلاثة أوجه : تحقيق الهمزتين ، وإدخال ألف بينهما ، وتحقيقهما من غير إدخال ألف بينهما ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ بل هم في شك ﴾ أي : تردد محيط بهم مبتدأ لهم ﴿ من ذكري ﴾ أي : وحيي وما أنزلت لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن الدليل الذي لو نظروا فيه لزال هذا الشك عنهم ﴿ بل ﴾ أي : ليسوا في شك منه في نفس الأمر وإن كان قولهم قول من هو في شك ﴿ لما يذوقوا عذاب ﴾ أي : الذي أعددته للمكذبين ولو ذاقوه لما قالوا هذا القول ولصدقوا النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ولا ينفعهم التصديق

حينئذ .

﴿ أم ﴾ أي : بل ﴿ عندهم خزائن ﴾ أي : مفاتيح ﴿ رحمة ﴾ أي : نعمة ﴿ ربك ﴾ وهي النبوة يعطونها من شاؤوا ، ونظيره قوله تعالى ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ (الزخرف :)

(327/661)

أي : نبوة ربك ﴿ العزيز ﴾ أي : الغالب الذي لا يغلبه أحد ﴿ الوهاب ﴾ الذي له أن يهب كل ما يشاء من النبوة أو غيرها لمن يشاء من خلقه .

ولما كانت خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ (الحجر :)

ومن جملته السموات والأرض وما بينهما وهم عاجزون عن هذا القسم قال الله تعالى: ﴿ أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي : ليس لهم ذلك فلأن يكونوا عاجزين عن كل خزائن الله تعالى أولى ، وقوله تعالى : ﴿ فليرتقوا في الأسباب ﴾ جواب شرط محذوف أي : إن كان لهم ذلك فليصعدوا في المعارج التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم فينزلوا الوحي إلى من يريدونه وهذا غاية التهكم بهم

والتعجيز أو التوبيخ ، قال مجاهد : أراد بالأسباب أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء وكل ما يوصلك إلى شيء من باب أو طريق فهو سبب واستدل حكماء الإسلام بقوله تعالى : ﴿ فليرتقوا في الأسباب ﴾ على أن الأجرام الفلكية وما أودع الله تعالى فيها من القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلي لأن الله تعالى سمى الفلكيات : أسباباً وهذا يدل على ذلك وقوله تعالى:

﴿ جُندٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ خبر مبتدأ مضمر أي : هم قريش جند من الكفار المتحزبين على الرسل عليهم السلام ، مهزوم : مكسور عما قريب ، فمن أين لهم تدبير الإلهية والتصرف في الأمور الربانية ، فلا تكترث بما تقوله قريش ، قال قتادة : أخبر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وهو بمكة أنه سيهزم جند المشركين ، فقال تعالى :

﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ (القمر :)

فجاء تأويلها يوم بدر وهنالك إشارة إلى بدر ومصارعهم ، وقيل : يوم الخندق ، قال الرازي : والأصح عندي حمله على يوم فتح مكة لأن المعنى أنهم جند سيصيرون مهزومين في الموضع الذي ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة فوجب أن يكون المراد أنهم سيصيرون مهزومين في مكة وما ذاك إلا في يوم الفتح .

(328/661)

تنبيه : في ما وجهان ، أحدهما : أنها مزيدة ، والثاني : أنها لجند على سبيل التعظيم للمهزومين وللتحقير ، فإن ما الصفة تستعمل لهذين المعنيين ، وقد تقدم الكلام عليها في أوائل البقرة ، وهنالك صفة لجند وكذلك مهزوم ومن الأحزاب ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم معزياً له عليه السلام :

﴿ كذبت ﴾ أي : مثل تكذيبهم ﴿ قبلهم قوم نوحٍ ﴾ أنث قوم باعتبار المعنى واستمروا على عزتهم وشقاقهم إلى أن رأوا الماء قد أخذهم ولم يسمحوا بالإذعان ولا بالتضرع إلى نوح عليه السلام ﴿ وعادٌ ﴾ سماهم بالاسم المنبه على ما كان لهم من المكنة بالملك واستمروا في شقاقهم إلى أن خرجت عليهم الريح العقيم ورأوها تحمل الإبل فيما بين السماء والأرض وهم لا يذعنون لما دعاهم إليه هود عليه السلام ﴿ وفرعونُ ذو الأوتاد ﴾ كانت له أوتاد يعذب الناس عليها وكان إذا غضب على أحد مده مستلقياً بين أربعة أوتاد يشد كل يد وكل رجل منه إلى سارية وتركه كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتى يموت ، وقال مجاهد : كان يمد الرجل مستلقياً بين أربعة أوتاد على الأرض يشد رجليه ويديه ورأسه على الأرض بالأوتاد ، قال السدي : كان يشد الرجل بالأوتاد ويرسل عليه العقارب والحيات ، وقال ابن عباس : ذو البناء المحكم ، وقيل : ذو الملك الشديد الثابت ، وقال العتبي : تقول العرب : هم في عز ثابت الأوتاد يريدون أنه دائم شديد قال

الأسود بن يعقوب:

*ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة **في ظل ملك ثابت الأوتاد

وقال الضحاك : ذو القوة والبطش ، وقال عطية : ذو الجموع والجنود الكثيرة لأنهم كانوا يقوون أمره ويشدون ملكه كما يقوي الوتد الشيء ، والأوتاد جمع وتد وفيه لغات وتد بفتح الواو وكسر التاء وهو الفصحى ، ووتد بفتحتين ، وودّ بإدغام التاء في الدال .

(329/661)

﴿ وثمود ﴾ واستمروا فيما هم فيه إلى أن رأوا علامات العذاب من صفرة الوجوه ثم حمرتها ثم سوادها ولم يكن في ذلك زاجر يردهم عن عزتهم وشقاقهم ﴿ وقوم لوط ﴾ أي : الذين لهم قوة القيام بما يحاولونه واستمروا في عزتهم وفي شقاقهم حتى ضربوا بالعشاء وطمس الأعين ولم يقدروا على الوصول إلى ما أرادوا من الدخول إلى بيت لوط عليه السلام ولم يردهم ذلك عن عزتهم وشقاقهم ﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ أي : الغيضة ، وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ أي : المتحزبون على الرسل عليهم السلام الذين خص الجند المهزوم منهم ، وقيل : المعنى أولئك الأحزاب مبالغة في وصفهم بالقوة كما يقال : فلان هو الرجل أي : أولئك الأحزاب مع كمال قوتهم لما كان عاقبتهم هي

الهلاك والبوار فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين إذا نزل عليهم العذاب ، وفي الآية زجر وتخويف للسامعين .

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ كل ﴾ أي : من الأحزاب ﴿ إلا كذب الرسل ﴾ أي : لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذبوا جميعهم لأن دعوتهم واحدة وهي دعوة التوحيد ﴿ فحق عقاب ﴾ أي : فوجب عليهم ونزل بهم عذابي .

ثم بين تعالى أن هؤلاء المكذبين وإن تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال تعالى:

﴿ وما ينظر ﴾ وحقرهم بقوله تعالى : ﴿ هؤلاء ﴾ أي : وما ينتظر كفار مكة ﴿ إلا صيحة واحدة ﴾ وهي نفخة الصور الأولى ، كقوله تعالى : ﴿ ما ينظرون إلا صيحةً واحدةً تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ﴾ (يس :)

الآية والمعنى : أنهم وإن لم يذوقوا عذابي في الدنيا فهو معدٌّ لهم يوم القيامة ، فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم كالرجل الذي ينتظر الشيء فهو ماد الطرف إليه يقطع كل ساعة بحضوره ، قيل : المراد بالصيحة عذاب يفجؤهم ويجيئهم دفعة واحدة كما يقال : صاح الزمان بهم إذا هلكوا قال الشاعر :

*صاح الزمان بآل برمك صيحة ** خروا لشدتها على الأذقان*

ونظيره قوله تعالى : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ (يونس :)

الآية. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ ما لها ﴾ أي: الصيحة ﴿ من فواق ﴾ بضم الفاء، والباقون بفتحها، وهما لغتان بمعنى واحد وهو الزمان الذي بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع والمعنى: ما لها من توقف قدر فواق ناقة، وفي الحديث: "العبادة قدر فواق ناقة" وهذا في المعنى كقوله تعالى: ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (الأعراف:)

وقال ابن عباس: ما لها من رجوع من أفاق المريض إذا رجع إلى صحته وإفاقة الناقة ساعة يرجع اللبن إلى ضرعها يقال: أفاقت الناقة تفيق إفاقة، رجعت واجتمعت الفيقة في ضرعها، والفيقة اللبن الذي يجتمع بين الحلبتين، وهو أن يحلب الناقة ثم يترك ساعة حتى يجتمع اللبن فما بين الحلبتين فواق أي: العذاب لا يمهلهم بذلك القدر.

﴿ وقالوا ﴾ أي: كفار مكة استهزاءً لما نزل قوله تعالى في الحاقة: ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾ (الحاقة:)

﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾ (الحاقة:)

﴿ ربنا ﴾ أي: يا أيها المحسن إلينا ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ أي: كتاب أعمالنا في الدنيا ﴿ قبل يوم الحساب ﴾ وقال سعيد بن جبير: يعنون حظنا ونصيبنا من الجنة التي تقول، وقال مجاهد والسدي: يعنون عقوبتنا ونصيبنا من العذاب، قال عطاء: قاله النضر ابن

الحارث وهو قوله : ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ (الأنفال :)

وقال مجاهد : قطنا حسابنا ، يقال لكتاب الحساب : قط ، وقال أبو عبيدة والكسائي : القط الكتاب بالجوائز ويجمع على قطوط وقططة ، كقرد وقرود وقردة ، وفي القلة على أقطة وأقطاط ، كقدح وأقدحة وأقداح ، إلا أن أفعلة في فعل شاذ .

ولما أن القوم تعجبوا من أمور ثلاثة أولها : من أمر النبوات وإثباتها كما قال تعالى : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ (ص :)

(331/661)

وثانيها : تعجبهم من الإلهيات فقالوا ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾ وثالثها : تعجبهم من المعاد والحشر والنشر فقالوا : ﴿ ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ قالوا ذلك استهزاء أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بالصبر فقال سبحانه:

وأشار بحرف الاستعلاء إلى عظيم الصبر فقال ﴿ على ما يقولون ﴾ أي : على ما يقول الكافرون من ذلك ، ثم إنه تعالى لما أمر نبيه بالصبر ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام تسلية له فكأنه تعالى قال : فاصبر على ما يقولون واعتبر بحال سائر الأنبياء ليعلمه أن كل واحد

منهم كان مشغولاً بهم خاص ، وحزن خاص ، فيعلم حينئذ أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والأحزان وأن استحقاق الدرجات العالية عند الله تعالى لا يحصل إلا بتحمل المشاق والمتاعب في الدنيا .

وبدأ من ذلك بقصة داود عليه السلام فقال تعالى : ﴿ واذكر عبدنا ﴾ أي : الذي أخلصناه لنا وأخلص نفسه للنظر إلى عظمتنا والقيام في خدمتنا وأبدل منه أو بينه بقوله تعالى : ﴿ داود ذا الأيد ﴾ قال ابن عباس : أي : القوة في العبادة ، روي عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود وأحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه" وقيل : ذا القوة في الملك ووصفه تعالى بكونه عبداً له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم وذلك يدل على غاية التشريف ألا ترى أنه تعالى لما أراد أن يشرف محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج قال تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ (الإسراء :)

وأيضاً وصف الأنبياء عليهم السلام بالعبودية مشعر بأنهم قد حصلوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة ﴿ إنه أواب ﴾ أي : رجاع إلى مرضاة الله تعالى ، والأواب فعال من آب يؤب إذا رجع قال الله تعالى : ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ (الغاشية :)

وهذا بناء مغالبة كما يقال : قتال وضراب وهو أبلغ من قاتل وضراب وقال ابن عباس : مطيع ، وقال سعيد بن جبير : مسبح بلغة الحبشة ، ويؤيد هذا قوله تعالى:

﴿ إنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة التي لا يعجزها شيء ﴿ سخرنا الجبال ﴾ أي : التي هي أقسى من قلوب قومك وأنها أعظم الأراضي صلابة وقوةً وعلواً ورفعةً بأن جعلناها منقادة ذلولاً كالجمل الأنف ، ثم قيد ذلك بقوله تعالى : ﴿ معه ﴾ أي : مصاحبة له ﴿ يسبحن ﴾ أي : بتسبيحه وفي كيفية تسبيحها وجوه أحدها : أن الله تعالى يخلق في جسم الجبل حياة وعقلاً وقدرة ونطقاً وحينئذ يصير الجبل مسبحاً لله تعالى ، ثانيها : قال القفال : إن داود عليه السلام أوتي من شدة الصوت وحسنه ما كان له في الجبال دوي حسن وما يصغي الطير إليه لحسنه فيكون دوي الجبال وتصويت الطير معه وإصغاؤها إليه تسبيحاً . روى محمد بن إسحاق أن الله تعالى لم يعط أحداً من خلقه مثل صوت داود عليه السلام حتى أنه كان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يؤخذ بأعناقها ، ثالثها : أن الله تعالى سخر الجبال حتى أنها كانت تسير إلى حيث يريده داود عليه السلام فجعل ذلك السير تسبيحاً لأنه يدل على كمال قدرته تعالى واتقان حكمته ﴿ بالعشي والإشراق ﴾ قال الكلبي : غدوةً وعشياً ، والإشراق هو أن تشرق الشمس ويتناهى ضوءها ، قال الزجاج : يقال : شرقت الشمس ، إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت ، وقيل : هما بمعنى

واحد والأول أكثر استعمالاً ، تقول العرب : شرقت الشمس ولما تشرق ، وفسره ابن عباس بصلاة الضحى قال ابن عباس : كنت أمر بهذه الآية ولم أدر ما هي حتى حدثتني أم هانئ بنت أبي طالب : "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى الضحى وقال : يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق" ، وروى طاوس عن ابن عباس قال : هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن قالوا : لا فقرأ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق . وقوله تعالى:

(333/661)

﴿ والطير محشورةً ﴾ أي : مجموعة إليه تسبح معه ، عطف مفعول على مفعول ، وهما الجبال والطير ، أو حال على حال ، وهما يسبحن ، ومحشورة كقولك : ضربت زيداً مكتوفاً وعمراً مطلقاً وأتى بالحال اسماً لأنه لم يقصد أن الفعل وقع شيئاً فشيئاً لأن حشرها دفعة واحدة أدل على القدرة والحاشر هو الله تعالى ؟ فإن قيل : كيف يصدر تسبيح الله تعالى من الطير مع أنه لا عقل لها ؟

أجيب : بأنه لا يبعد أن يخلق الله تعالى لها عقولاً ولا حتى تعرف الله تعالى فتسبحه حينئذ ويكون ذلك معجزة لداود عليه السلام ﴿ كلٌّ ﴾ أي : من الجبال والطير ﴿ له ﴾ أي :

لداود أي : لأجل تسبيحه ﴿ أواب ﴾ أي : رجاع إلى طاعته بالتسبيح وقيل : كل مسبح فوضع أواب موضع مسبح وقيل : الضمير في له للباري تبارك وتعالى والمراد كل من داود والجبال والطير مسبح ورجاع لله تعالى .

(334/661)

﴿ وشددنا ﴾ أي : قوينا بما لنا من العظمة ﴿ ملكه ﴾ بالحرس والجنود ، قال ابن عباس : كان أشد ملوك الأرض سلطاناً كان يحرس محرابه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل ، وعن ابن عباس : أن رجلاً من بني إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم عند داود فقال : إن هذا قد غصبني بقراً فسأله داود فجحد فقال للآخر : البينة فلم تكن له بينة ، فقال لهما داود : قوما حتى أنظر في أمركما فأوحى الله تعالى إلى داود في منامه أن يقتل الذي استعدى عليه ، فقال : هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتثبت ، فأوحى الله تعالى إليه مرة ثانية فلم يفعل فأوحى الله تعالى إليه مرة ثالثة أن يقتله أو تأتيه العقوبة فأرسل داود إليه فقال له : إن الله تعالى أوحى إلي أن أقتلك فقال : تقتلني بغير بينة فقال : نعم والله لأنفذن أمر الله تعالى فيك ، فلما عرف الرجل أنه قاتله قال : لا تعجل حتى أخبرك أني والله ما أخذت بهذا الذنب ولكني كنت اغتلت ابن هذا فقتلته فبذلك أخذت ، فأمر به داود فقتل ،

فاشتدت هيبة داود عند ذلك في قلوب بني إسرائيل واشتد به ملكه فذلك قوله تعالى : ﴿ وشددنا ملكه ﴾ ﴿ وآتيناه ﴾ أي : بعظمتنا ﴿ الحكمة ﴾ أي : النبوة والإصابة في الأمور .

(335/661)

واختلف في تفسيره قوله تعالى : ﴿ وفصل الخطاب ﴾ فقال ابن عباس : بيان الكلام أي : معرفة الفرق بين ما يلتبس في كلام المخاطبين له من غير كبير رؤية في ذلك ، وقال ابن مسعود والحسن : علم الحكمة والبصر بالقضاء ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هو أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر لأن كلام الخصوم ينقطع وينفصل به ، وقال أبي بن كعب : فصل الخطاب الشهود والإيمان ، وقال مجاهد وعطاء ويروى عن الشعبي : إن فصل الخطاب هو قول الإنسان بعد حمد الله والثناء عليه ، أما بعد إذا أراد الشروع في كلام آخر وأول من قاله داود عليه السلام ، وقيل غيره كما ذكرته في شرح المنهاج عند قول المنهاج أما بعد ، وقيل : هو الخطاب الفصل الذي ليس باختصار مخل ولا إشباع ممل كما جاء وصف كلام النبي صلى الله عليه وسلم فصل لا نزر ولا هذر ، وقوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ وهل ﴾ استفهام معناه التعجب والتشويق إلى استماع ما بعده ﴿ أتاك ﴾ يا أفضل الخلق ﴿ نبأ ﴾ أي : خبر ﴿ الخصم ﴾ وهو في الأصل مصدر ولذلك يصلح للمفرد والمذكر والمراد به هنا الجمع بدليل قوله تعالى ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ تسوروا ﴾ أي : تصعدوا وعلوا ﴿ المحراب ﴾ أي : البيت الذي كان يدخل فيه داود ويشتغل فيه بالعبادة والطاعة ، قال الزمخشري : فإن قلت : بما انتصب إذ ؟ قلت : لا يخلو إما أن ينتصب بأتاك أو بنبأ أو بمحذوف فلا يسوغ انتصابه بأتاك لأن إتيان النبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقع إلا في عهده لا في عهد داود ولا بنبأ ؛ لأن النبأ واقع في عهد داود فلا يصح إتيانه رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن أردت بالنبأ القصة في نفسها لم تكن ناصباً ، فبقي أن يكون منصوباً بمحذوف تقديره وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا ، انتهى . فاختار أن يكون معمولاً لمحذوف ، ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل وقوله تعالى:

(336/661)

﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ دخلوا على داود ﴾ بدل من إذ الأولى أو ظرف لتسوروا ، وقرأ نافع وابن كثير وعاصم بإظهار الذال عند التاء في الأول وعند الدال في الثاني ووافقهم ابن ذكوان في الأول والباقون بالإدغام فيهما ﴿ ففزع منهم ﴾ أي : لأنهم نزلوا عليه من فوق في

يوم الاحتجاب والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه ، فإنه عليه السلام كان جزأ زمانه يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للوعظ ويوماً للاشتغال بحاجته فتسور عليه ملكان على صورة الإنسان في يوم الخلوة ﴿ قالوا لا تخف ﴾ وقولهم : ﴿ خصمان ﴾ خبر مبتدأ وضمر أي : نحن خصمان أي : فريقان ، ليطابق ما قبله من ضمير الجمع وقيل : اثنان ، والضمير بمعناهما وقد مر أن الخصم يطلق على الواحد والأكثر ، وقولهم : ﴿ بغى بعضنا على بعض ﴾ جملة يجوز أن تكون مفسرة لحالهم وأن تكون خبراً ثانياً ، فإن قيل : كيف قالوا بغى بعضنا على بعض وهم ملائكة على المشهور ؟

أجيب : بأن ذلك على سبيل الفرض أي : أرأيت خصمين بغى أحدهما على الآخر وهذا من معاريض الكلام لا من تحقيق البغي من أحدهما ﴿ فاحكم بيننا بالحق ﴾ أي : الأمر الثابت الذي يطابق الواقع ﴿ ولا تشطط ﴾ أي : ولا تجر في الحكومة ﴿ واهدنا ﴾ أي : أرشدنا ﴿ إلى سواء الصراط ﴾ أي : وسط الطريق الصواب فقال لهما : تكلما فقال أحدهما :

﴿ إن هذا أخي ﴾ أي : على ديني وطريقتي أو في النصح لا من جهة النسب ﴿ له تسع وتسعون نعجة ﴾ أي : امرأة ﴿ ولي نعجة واحدة ﴾ امرأة واحدة ، والنعجة هي الأنثى من الضأن ولكن كثر في كلامهم الكناية عن المرأة ، قال ابن عون:

*أنا أبوهن ثلاثة هنه **رابعة في البيت صغرا هنه*

ونعجتي خمساً توافيهنه

(337/661)

قال الحسن بن الفضل : هذا تعريض للتنبيه والتفهيم لأنه لم يكن ثم نعاج ولا بغي فهو كقولهم : ضرب زيد عمراً واشترى بكر داراً ولا ضرب هناك ولا شراء ، وقرأ حفص بفتح الياء والباقون بالسكون ﴿ فقال أكفلنيها ﴾ قال ابن عباس : أعطنيها وقال مجاهد : انزل لي عنها وحقيقته ضمها إلي واجعلني كافلها وهو الذي يعولها وينفق عليها والمعنى : طلقها لأتزوجها ﴿ وعزني ﴾ أي : غلبني ﴿ في الخطاب ﴾ أي : الجدال لأنه أفصح مني في الكلام ، وقيل : قهرني لقوة ملكه ، قال الضحاك : يقول : إن تكلم كان أفصح مني وإن حارب كان أبطش مني ، وحقيقة المعنى : أن الغلبة كانت له لضعفي في يده وإن كان الحق معي وهذا كله تمثيل لأمر داود مع أوريا زوج المرأة التي تزوجها داود وسيأتي الكلام على قصته إن شاء الله تعالى عن قريب .

﴿ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ وهذا جواب قسم محذوف أريد به المبالغة في إنكار فعل خليطه وتهجين طمعه والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول

آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة والانضمام أي : ليضمها مضافة إلى نعاجه ، فإن قيل : كيف قال : ﴿ لقد ظلمك ﴾ ولم يكن سمع قول صاحبه ؟

أجيب : بأن معناه : إن كان الأمر كما تقول فقد ظلمك أو أنه قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما يقول ولم يذكر الله تعالى ذلك لدلالة الكلام عليه ، وقيل : التقدير أن الخصم الذي هذا شأنه قد ظلمك ، وقرأ قالون وابن كثير وهشام وعاصم بإظهار الدال عند الظاء والباقون بالإدغام ، وقوله : ﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ﴾ أي : مطلقاً منكم ومن غيركم والخلطاء جمع خليط وهم الشركاء الذين خلطوا أموالهم ، وقال الليث : خليط الرجل مخالطه ﴿ ليبغي ﴾ أي : ليعتدي ﴿ بعضهم ﴾ غالباً ﴿ على بعض ﴾ فيريدون غير الحق . فإن قيل : لم خص الخلطاء ببغي بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء يفعلون ذلك ؟

(338/661)

أجيب : بأن المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة لأنهما إذا اختلطا اطلع كل منهما على أحوال صاحبه فكل ما يملكه من الأشياء النفيسة إذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه فيفضي ذلك إلى زيادة المنازعة والمخاصمة ، فلذلك خص داود عليه السلام الخلطاء

بالبغي والعدوان ثم استثنى فقال : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا ﴾ أي : تحقيقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ أي : الطاعات فإنهم لا يقع منهم شيء لأن مخالطة هؤلاء تكون لأجل الدين وهذا استثناء متصل من قوله : ﴿ بعضهم وقليل ما هم ﴾ أي : هم قليل فقليل خبر مقدم وما مزيدة للتعظيم وهو مبتدأ ، وقال الزمخشري : ما للإبهام وفيه تعجب من قلتهم قال : فإن أردت أن تحقق فائدتها وموقعها فأخرجها من قول امرئ القيس:

*وحديث ما على قصره

وانظر هل بقي لها معنى ﴿ وظن داود ﴾ أي : لذهابهم قبل فصل الأمر وقد همه من ذلك أمر من عظمه لا عهد له بمثله ﴿ أنما فتناه ﴾ أي : امتحناه ، قال المفسرون : إن الظن هنا بمعنى العلم لأن داود لما قضى الأمر بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ثم صعدا إلى السماء حيال وجهه فعلم أن الله تعالى ابتلاه بذلك فثبت أن داود علم ذلك ، وقال ابن عباس : إن داود لما دخل عليه الملكان فقضى على نفسه تحولا في صورتهما وعرجا وهما يقولان : قضى الرجل على نفسه ﴿ فاستغفر ربه ﴾ أي : طلب الغفران من مولاه الذي أحسن إليه ﴿ وخرّ ﴾ أي : سقط من قيامه توبة لربه عن ذلك ﴿ راكعاً ﴾ أي : ساجداً على تسمية السجود ركوعاً لأنه مبدؤه أو خر للسجود راكعاً أو مصلياً كأنه أحرم بركعتي الاستغفار ﴿ وأناب ﴾ أي : رجع إلى الله تعالى .

قال الرازي : وللناس في هذه القصة ثلاثة أحوال ؛ أحدها : أن هذه القصة دلت على صدور الكبيرة منه ، وثانيها : على الصغيرة ، وثالثها : لا تدل على كبيرة ولا صغيرة ، فأما القول الأول فقالوا : إن داود عليه السلام أحب امرأة أوريا فاحتال في قتل زوجها ثم تزوج بها ثم أرسل الله تعالى ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة تشبه واقعته وعرضا تلك الواقعة عليه ، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً ثم تنبه لذلك واشتغل بالتوبة ، قالوا : وسبب ذلك أن داود عليه السلام تمنى يوماً من الأيام منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسأل ربه : أن يمتحنه كما امتحنهم ويعطيه من الفضل ما أعطاهم فأوحى الله تعالى إليه أنك تبتلى في يوم كذا فاحترس ، فلما كان ذلك اليوم جاءه الشيطان فتمثل له في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن فأعجبه حسنها فمد يده ليأخذها ويريها بني إسرائيل لينظروا إلى قدرة الله تعالى فطارت غير بعيدة فتبعها فطارت من كوة ، فنظر داود أين تقع فأبصر داود امرأة في بستان تغتسل فعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطى بدنها فزاده إعجاباً ، فسأل عنها فقيل له : امرأة أوريا وزوجها في غزاة فأحب داود أن يقتله ويتزوج بها ، فأرسل داود إلى ابن أخته أن قدم أوريا قبل التابوت وكان من قدم على التابوت لا يحل أن يرجع وراءه حتى يفتح الله تعالى على يديه أو يقتل ، فقدمه ففتح على يديه فكتب إلى داود فأمر أن يقدمه بعد ذلك

ففعل ثلاث مرات فقتل في الثالثة فلما انقضت عدتها تزوج بها فهي أم سليمان عليهما السلام .

قال الرازي : والذي أدين الله تعالى به وأذهب إليه أن ذلك باطل لوجوه .

الأول : أن هذه الحكاية لا تناسب داود لأنها لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجوراً لانتفى منها والذي نقل هذه القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه وربما لعن من نسبه إليها فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصية إلى داود عليه السلام .

(340/661)

ثانيها : أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع في زوجته ، أما الأول : فأمر منكر قال صلى الله عليه وسلم "من سعى في ذم مسلم ولو بشطر كلمة جاء مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله" ، وأما الثاني : فمنكر أيضاً قال صلى الله عليه وسلم "المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه" فإن أوريا لم يسلم من داود عليه السلام لا في روحه ولا في منكوحه .

ثالثها : إن الله تعالى وصف داود عليه السلام بصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفاً بهذا الفعل المنكر .

الصفة الأولى : أنه تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بداود عليه السلام في المصابرة على المكاره فلو قلنا : إن داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى في إراقة دم عبد مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمداً أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم بأن يقتدي بداود في الصبر على طاعة الله تعالى .

الصفة الثانية : أنه وصفه بكونه عبداً له وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملاً في وصف العبودية في القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات ، فلو قلنا : إن داود اشتغل بتلك الأعمال الباطلة فحينئذ ما كان داود كاملاً إلا في طاعة الهوى والشهوة .

الصفة الثالثة : وهي قوله تعالى ﴿ ذا الأيد ﴾ أي : ذا القوة ولا شك أن المراد منه القوة في الدين لأن القوة الكاملة في أداء الواجبات والاجتناب عن المحظورات وأي قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة في زوجة المسلم .

الصفة الرابعة : كونه أواباً كثير الرجوع إلى الله فكيف يليق هذا الوصف بمن قلبه مشغول بالفسق والفجور .

الصفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن ﴾ أَفَتَرى أنه سخرت له الجبال ليتخذ سبيل القتل والفجور ؟ .

الصفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ والطير محشورة ﴾ قيل : إنه كان محرماً عليه صيد شيء من الطير فكيف يعقل أن يكون الطير آمناً منه ولا يجوز أمن الرجل المسلم على روحه ومنكوحه .

الصفة السابعة : قوله تعالى : ﴿ وشددنا ملكه ﴾ ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شد ملكه بأسباب الدنيا بل المراد إنا ملكناه بقوى الدين وأسباب سعادة الآخرة ، والمراد تشديد ملكه في الدين والدنيا ومن لم يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك .

الصفة الثامنة : قوله تعالى : ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علماً وعملاً فكيف يجوز أن يقال : إنا آتيناه الحكمة وفصل الخطاب مع إصراره على ما يستنكف من مزاحمة أخص أصحابه في الروح والمنكوح ، فهذه الصفات التي وصف بها قبل شرح القصة وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة .

فأولها : قوله تعالى : ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ وقوله تعالى:

﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ فكيف أن الله تعالى يجعله خليفة ويقع منه ذلك ، وقد روي عن سعيد بن المسيب أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : من حدثكم بحديث داود على ما ترويه القصاص فاجلدوه مائة جلدة وستين وهو حد الفرية أي : الكذب على الأنبياء ، ومما يقوي هذا أنهم قالوا : إن المغيرة بن شعبة زنا وشهد ثلاثة من

الصحابة بذلك وأما الرابع فلم يقل إني رأيت ذلك بعيني ، فإن عمر رضي الله عنه كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة لأجل أنهم قذفوا ، فإذا كان هذا الحال في واحد من آحاد الصحابة كذلك ، فكيف الحال مع داود عليه السلام مع أنه من أكابر الأنبياء عليهم السلام ، فثبت بما ذكرنا أن القصة الذي ذكرها هؤلاء باطلة لا يجوز ذكرها . d

(342/661)

قال الرازي : حضرت في مجلس وفيه بعض الأكابر فكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة بسبب اقتضى ذلك فقلت له : لا شك أن داود عليه السلام كان من أكابر الأنبياء والرسل ، وقال الله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ (الأنعام :)

ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ في الطعن فيه وأيضاً بتقدير أنه ما كان نبياً فلا شك أنه كان مسلماً وقال صلى الله عليه وسلم "لا تذكروا موتاكم إلا بخير" وذكرت له أشياء أخر قال : سكت ولم يذكر شيئاً .

فإن قيل : قد ذكر هذه القصة كثير من المحدثين والمفسرين . أجيب : بأنه لما وقع التعارض

بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القطعية واجباً والمحققون يردون هذا القول ويحكمون عليه بالكذب ، وأما القول الثاني : فقالوا : تحمل هذه القصة على حصول الصغيرة لا على حصول الكبيرة وذلك من وجوه : الأول : أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود عليه السلام فآثره أهلها فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه . الثاني : قالوا : إنه وقع بصره عليها فمال قلبه إليها وليس له في هذا ذنب البتة أما وقوع بصره عليها بغير قصد فليس بذنب وأما حصول الميل عقب النظر فليس أيضاً ذنباً لأن الميل ليس في وسعه فليس مكلفاً به بل لما اتفق أنه قتل زوجها تزوج بها . الثالث : أنه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن يطلق زوجته حتى يتزوجها وكانت عادة مألوفة معهودة في هذا المعنى فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهي أم سليمان ، فقيل له ذلك ، وإن كان جائزاً في ظاهر الشريعة إلا أنه لا يليق بك فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذه وجوه ثلاثة لو حملت هذه القصة على واحد منها لم يلزم في حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل والأولى .

(343/661)

وأما القول الثالث : فقال تحمل هذه القصة على وجه لا يلزم منه إيجاب كبيرة ولا صغيرة لداود عليه السلام بل يوجب أعظم أنواع المدح والثناء له وهو أنه قد روي أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود عليه السلام وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل فيه بطاعة ربه فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم وتسوروا المحراب فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً تمنعهم منه فخافوا ووضعوا كذباً ، وقالوا : ﴿ خصمان بغى بعضنا على بعض ﴾ إلى آخر القصة فعلم غرضهم وقصد أن ينتقم منهم وظن أن ذلك ابتلاء من الله تعالى فاستغفر ربه مما هم به وأناب ، فإن قيل : ههنا أربعة ألفاظ يمكن أن يحتج بها في إلحاق الذنب بداود عليه السلام أحدها : قوله تعالى : ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ وثانيها : قوله تعالى : ﴿ فاستغفر ربه ﴾ وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وأناب ﴾ ورابعها : قوله تعالى : ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ . أجيب : بأن هذه الألفاظ لا يدل شيء منها على ما ذكر لاحتمال أن تكون الزلة إنما حصلت من باب ترك الأفضل والأولى كما مر ، وحمل هذه الألفاظ على هذا الوجه لا يلزم منه إسناد شيء من الذنوب إليه بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه ، وقيل : إن ذنبه المبادرة إلى تصديق المدعي وتظليم الآخر قبل مسألته وهناك أشياء كثيرة ذكرها البغوي وغيره وفيما ذكرناه كفاية .

﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ أي : ما استغفر منه ﴿ وإن له عندنا لزلفى ﴾ أي : زيادة خير في الدارين بعد المغفرة ﴿ وحسن مآب ﴾ أي : مرجع في الجنة .

ولما تم الكلام في شرح القصة أردفها ببيان أن الله تعالى فوض إلى داود خلافة الأرض بقوله تعالى:

﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ أي : تدبر أمر العباد بأمرنا وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول الأول كما مر لأن من البعيد جداً أن يوصف الرسول بكونه ساعياً في سفك دماء المسلمين رغبة في انتزاع أزواجهم من أيديهم ثم يذكر عقبه أن الله تعالى فوض خلافة الأرض إليه ، ثم في تفسير كونه خليفة وجهان:

(344/661)

أحدهما : جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء في الدعاء إلى الله تعالى وفي سياسة الناس لأن خليفة الرجل من يخلفه وذلك إنما يعقل في حق من تصح عليه الغيبة وذلك على الله تعالى محال .

ثانيهما : إنا جعلناك ممكناً في الناس نافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة ومنه يقال : خليفة الله تعالى في أرضه .

وحاصله : أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم في رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة في حق الله تعالى فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة للزوم نفاذ الحكم في تلك الحقيقة ﴿ فاحكم بين

الناس ﴾ أي : الذين يتحاكمون إليك من أي قوم كانوا ﴿ بالحق ﴾ أي : بالعدل لأن الأحكام إذا كانت مطابقة للشريعة الحقة الإلهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات وإذا كانت الأحكام على وفق الأهوية وتحصيل مقاصد الأنفس أفضى ذلك إلى تخريب العالم ووقوع الهرج فيه والمرج في الخلق وذلك يفضي إلى هلاك ذلك الحاكم ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تتبع الهوى ﴾ أي : لا تمل مع ما تشتهي إذا خالف أمر الله تعالى ثم سبب عنه قوله تعالى : ﴿ فيضلك ﴾ أي : ذلك الاتباع أو الهوى ﴿ عن سبيل الله ﴾ لأن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب ﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله ﴾ أي : عن الإيمان بالله تعالى ﴿ لهم عذابٌ شديدٌ بما نسوا ﴾ أي : بسبب نسيانهم ﴿ يوم الحساب ﴾ أي : المرتب عليه تركهم الإيمان ولو أيقنوا بيوم الحساب لآمنوا في الدنيا ، وقال الزجاج : بتركهم العمل لذلك اليوم ، وقال عكرمة والسدي : في الآية تقديم وتأخير تقديره لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا أي : تركوا القضاء بالعدل .

﴿ وما خلقنا السماء ﴾ التي ترونها ﴿ والأرض وما بينهما ﴾ أي : مما تحسون به من الرياح وغيرها خلقاً ﴿ باطلاً ﴾ أي : عبثاً قال الله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ (المؤمنون :)

تنبيه : احتج أهل السنة بأن هذه الآية تدل على أنه تعالى خلق كل ما بين السماء والأرض وأعمال العباد مما بين السماء والأرض فوجب أن يكون تعالى خالقاً لها ، ودلت على صحة القول بالحشر والنشر لأنه تعالى لما خلق الخلق في هذا العالم فإما أن يكون خلقهم للإضرار والانتفاع أو لا لشيء ، والأول باطل لأن ذلك لا يليق بالرحيم الكريم ، والثالث أيضاً باطل ، لأن هذه الحالة حاصلة خالصة حين كانوا معدومين فلم يبق إلا أن يقال : خلقهم للانتفاع وذلك الانتفاع إما أن يكون في حياة الدنيا أو في حياة الآخرة . والأول باطل لأن منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة وتحمل الضرر الكثير لوجدان المنفعة القليلة لا يليق بالحكمة ، ولما بطل هذا القول ثبت القول بوجود حياة بعد هذه الحياة الدنيا وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة .

تنبيه : يجوز في باطلاً أن يكون نعتاً لمصدر محذوف أو حالاً من ضميره أي : خلقاً باطلاً وأن يكون حالاً من فاعل خلقنا أي : مبطلين أو ذوي باطل وأن يكون مفعولاً من أجله أي : للباطل وهو العبث ﴿ ذلك ﴾ أي : خلق ما ذكر لا لشيء ﴿ ظن الذين كفروا ﴾ أي : أهل مكة هم الذين ظنوا أنهما خلقا لغير شيء وأنه لا بعث ولا حساب ﴿ فويل ﴾ أي : هلاك عظيم بسبب هذا الظن أو واد في جهنم ﴿ للذين كفروا ﴾ أي : مطلقاً بهذا الظن وغيره من أي شرك كان ﴿ من النار ﴾ لأن من أنكر الحشر والنشر كان شاكاً في حكمة الله

تعالى في خلق السموات والأرض .

ونزل لما قال كفار مكة للمؤمنين إنا نعطى في الآخرة مثل ما تعطون .

(346/661)

﴿ أم نجعل ﴾ أي : على عظمتنا ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي : امتثالاً لأوامرنا ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ تحقيقاً لإيمانهم ﴿ كالمفسدين ﴾ أي : المطبوعين على الفساد والراسخين فيه ﴿ في الأرض ﴾ أي : في السفر وغيره لم نجعلهم مثلهم وأم منقطعة والاستفهام فيها لإنكار التسوية بين الحزبين التي هي من لوازم خلقها باطلاً ليدل على نفيه وكذا التي في قوله تعالى : ﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ كرر الإنكار الأول باعتبار وصفين آخرين يمنعان التسوية ، أولاً بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم وقوله تعالى: ﴿ كتاب ﴾ خبر مبتدأ مضمر أي : هذا كتاب ثم وصفه بقوله تعالى : ﴿ أنزلناه ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ إليك ﴾ يا أشرف الخلق ﴿ مبارك ﴾ أي : كثير خيره ونفعه ، وقوله تعالى : ﴿ ليدبروا ﴾ أصله ليتدبروا أدغمت التاء في الدال ﴿ آياته ﴾ أي : ليتفكروا في أسراره العجيبة ومعانيه اللطيفة فيأتمروا بأوامره ومناهيه فيؤمنوا ﴿ وليتذكر ﴾ أي : وليتعظ به ﴿ أولو الألباب ﴾ أي : أصحاب العقول .

القصة الثانية : قصة سليمان عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ ووهبنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ لداود سليمان ﴾ ابنه فجاء عديم النظير في ذلك الزمان ديناً ودنيا وعلماً وحكمة وعظمة ورحمة ، والمخصوص بالمدح في قوله تعالى : ﴿ نعم العبد ﴾ محذوف أي : سليمان ، وقيل : داود ﴿ إنه أواب ﴾ أي : رجاع إلى التسبيح والذكر في جميع الأوقات .

﴿ إذ ﴾ أي : اذكر إذ ﴿ عرض عليه ﴾ أي : سليمان ، وقوله تعالى : ﴿ بالعشي ﴾ وهو ما بعد الزوال إلى الغروب ، وقوله تعالى : ﴿ الصافنات ﴾ أي : الخيل العربية الخالصة جمع صافنة وفيه خلاف بين أهل اللغة فقال الزجاج : هو الذي يقف على إحدى يديه ويقف على طرف سنبكه وقد يفعل ذلك بإحدى رجليه قال وهي علامة الفراهة فيه وأنشد :

*ألف الصفون فلا يزال كأنه ** مما يقوم على الثلاث كسيرا *

(347/661)

وقيل : هو الذي يجمع يديه ويسويهما ، وقيل : هو القائم مطلقاً أي : سواء كان من الخيل أم من غيرها قاله القتيبي واستدل بقوله صلى الله عليه وسلم "من سره أن تقوم الناس له

صفوناً فليتبوأ مقعده من النار" أي : يديمون له القيام وجاء الحديث قمنا صفوناً أي : صافين أقدامنا ، وقيل : هو قيام الخيل مطلقاً ، أي : سواء وقف على طرف سنبكه أم لا ، قال الفراء : على هذا رأيت أشعار العرب ، واختلف أيضاً في قوله تعالى : ﴿ الجياد ﴾ فهي إما من الجودة ويقال : جاد الفرس يجود جودة وجودة بالفتح والضم فهو جواد للذكر والأنثى ، وهو الذي يجود في جريه بأعظم ما يقدر عليه ، والجمع جياد وأجواد وأجاويد ، وقيل : جمع لجود بالفتح كثياب وثوب ، وإما من الجيد وهو العنق ، والمعنى : طويلة الأجياد وهو دال على فراهتها .

قال الكلبي : غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين فأصاب منهم ألف فرس ، وقال مقاتل : ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس ، وقال عوف عن الحسن : بلغني أنها كانت خيلاً خرجت من البحر لها أجنحة ، وعن عكرمة : أنها كانت عشرين ألف فرس لها أجنحة فصلى سليمان الصلاة الأولى التي هي الظهر وقعد على كرسيه وهي تعرض عليه منها تسعمائة فرس فتنبه لصلاة العصر فإذا الشمس قد غربت وفاتته الصلاة ولم يعلم بذلك هيبة له فاغتم لذلك .

﴿ فقال إني أحببت ﴾ أي : أردت ﴿ حب الخير ﴾ أي : الخيل ﴿ عن ذكر ربي ﴾ أي : صلاة العصر ﴿ حتى توارت ﴾ أي : الشمس ﴿ بالحجاب ﴾ أي : استترت بما يحجبها عن الأبصار .

﴿ ردوها علي ﴾ أي : الخيل المعروضة ، وقيل : الضمير يرجع للشمس ، قال الرازي : وهذا بعيد لوجوه .

الأول : أن الصافنات مذكورة بالصريح والشمس غير مذكورة وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر .

(348/661)

وثانيها : أنه لو اشتغل بالخيل حتى غربت الشمس وفاتته صلاة العصر كان ذلك ذنباً عظيماً ومن كان هذا حاله فطريقه التضرع والبكاء والمبالغة في إظهار التوبة ، فأما أن يقول على سبيل العظمة لرب العالمين مثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الأدب عقب ذلك الجرم العظيم الذي لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير فكيف يجوز إسناده للرسول عليه السلام المطهر المكرم .

ثالثها : أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لصار ذلك مشاهداً لكل أهل الدنيا ولو كان كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وحيث لم ينقل علمنا فساده ، انتهى . قال أكثر المفسرين : فلما ردوا الخيل إليه أقبل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف أخذاً من قوله تعالى ﴿ فطفق مسحاً ﴾ أي : فأخذ يمسح السيف مسحاً ﴿ بالسوق والأعناق ﴾ أي : سوقها

وأعناقها يقطعها من قولهم : مسح علاوته إذا ضرب عنقه ، قالوا : فعل ذلك تقرباً إلى الله تعالى وطلباً لمرضاته حيث اشتغل عن طاعته وكان ذلك مباحاً له وإن كان حراماً علينا كما أبيح لنا ذبح بهيمة الأنعام وبقي منها مائة فرس فما بقي في أيدي الناس اليوم من الخيل من نسل تلك المائة .

قال الحسن : فلما عقر الخيل أبدله الله تعالى خيراً منها وأسرع وهي الريح تجري بأمره كيف شاء ، قال الرازي : وهذا عندي بعيد لوجوه .

الأول : أنه لو كان مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى فامسحوا برؤوسكم أي : اقطعوها وهذا لا يقوله عاقل بل لو قيل : مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم منه البتة من المسح العقر والذبح .

(349/661)

الثاني : أن القائلين بهذا القول أجمعوا على أن لسليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة فأولها : ترك الصلاة وثانيها : أنه استولى عليه الإشتغال بحب الدنيا حتى نسي الصلاة وقال صلى الله عليه وسلم "حب الدنيا رأس كل خطيئة" وثالثها : أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة البتة . ورابعها : أنه خاطب رب العالمين بقوله :

ردوها علي وهذه كلمة لا يقولها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس . وخامسها : أنه اتبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذبح الحيوان إلا لأكله ، وهذه أنواع من الكبائر ينسبونها إلى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لم يدل على شيء منها ، وخلاصتها : أن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقب قوله : ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ وأن الكفار لما بالغوا في السفاهة إلى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ثم ذكر عقبه قصة سليمان عليه السلام فقال تعالى : ﴿ ووهبنا لداود سليمان ﴾ الآية والتقدير : أنه تعالى قال لمحمد صلى الله عليه وسلم يا محمد اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان ، وهذا الكلام إنما يليق إذا قلنا : إن سليمان عليه السلام أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله تعالى وأعرض عن الشهوات واللذات ، فلو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام في هذا الموضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب لم يكن ذكر هذه القصة لائقاً .

(350/661)

قال : والصواب : أن تقول إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم كما هو في دين محمد صلى الله عليه وسلم ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أني لا أجريها لأجل الدنيا ونصيب النفس وإنما أجريها لأمر الله تعالى وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله : ﴿ عن ذكر ربي ﴾ ثم إنه عليه السلام أمر بإجرائها وسيرها حتى توارت بالحجاب أي : غابت عن بصره ثم إنه أمر الرابضين أن يردوها فردوا تلك الخيل إليه ، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك أمور :

الأول : تشريفاً لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو .

الثاني : أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه .

الثالث : أنه كان أعلم بأحوال الخيل ومراميها وعيوبها فكان يمسها ويمسح لها سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، فهذا التفسير هو الذي ينطبق عليه لفظ القرآن ولا يلزم منه نسبة شيء من المنكرات إلى سليمان عليه السلام والعجب منهم كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها وليس لهم في إثباتها شبهة فضلاً عن حجة .

قال : فإن قيل فالجمهور فسروا الآية بتلك الوجوه فالجواب أن نقول : لفظ الآية لا تدل على

شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها لما ذكرنا وأيضاً فإن الدلائل الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يدل على صحة هذه الحكايات دليل قطعي ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية فكيف الحكايات من أقوام لا يلتفت إلى أقوالهم والذي ذهبنا إليه قول الزهري وابن كيسان ا . ه ، وقد يجاب من جهة الجمهور أن ما نسبه إليهم ممنوع .

(351/661)

وبيان ذلك أن قوله : إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم منه البتة من المسح العقر والذبح يقال : القرينة كافية في ذلك وقوله أنهم جمعوا أنواعاً مذمومة أولها : ترك الصلاة إنما يكون ذلك مذموماً إذا تركها متعمداً ولم يكن ذلك بل نسيها وقد نام صلى الله عليه وسلم في الوادي حتى طلعت الشمس وقضى الصبح والنسيان والنوم لا مؤاخذة فيهما ، وقوله : ثانيها : أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إنما اشتغل بذلك لأمر الجهاد وهو مطلوب في حقه ، وقوله : ثالثها : أنه لم يشتغل بالتوبة يقال : إنه لم يأت بذنب ، وقوله : رابعها : أنه خاطب رب العالمين بقوله : ردوها علي ممنوع والمخاطب إنما هو جماعته ، وقوله : خامسها إلى أن قال : وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن عقر الحيوان قد مر عنهم أن ذلك كان مباحاً له

فليس فيما قالوه نسبة سليمان عليه الصلاة والسلام إلى معصية فلو قال : الأولى أن يقال : كذا كان أولى ، وقرأ قنبل بهمزة ساكنة بعد السين وقيل عنه أيضاً بضم الهمزة وواو بعدها ، واختلف في سبب الفتنة التي وقعت لسليمان عليه السلام في قوله تعالى:

﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ على كرسيه جسداً ثم أناب ﴾ فقال محمد بن إسحاق : عن وهب بن منبه قال : سمع سليمان بمدينة في جزيرة من جزائر البحر وكان الله تعالى قد أعطى سليمان في ملكه سلطاناً لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر إنما يركب إليه الريح ، فخرج إلى تلك المدينة تحمله الريح على ظهر الماء حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس ، فأخذها وقتل ملكها وسبا ما فيها وأصاب فيما أصاب بنتاً لذلك الملك يقال لها جرادة لم ير مثلها حسناً وجمالاً فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلة فقه ، وأحبها حباً لم يحبه شيئاً من نسائه وكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها ولا يرقأ دمعها فشق ذلك على سليمان عليه السلام .

(352/661)

فقال لها : ويحك ما هذا الحزن ؟ قالت له : إن أبي أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصاب فيحزنني ذلك فقال لها سليمان عليه السلام : قد أبدلك الله ملكاً هو أعظم من

ملكه وسلطاناً هو أعظم من سلطانه وهداك إلى الإسلام وهو خير من ذلك كله ، قالت : إن ذلك كذلك ولكن إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن فلو أنك أمرت الشياطين فصوروا صورته في داري أراها بكرة وعشياً لرجوت أن يذهب ذلك حزني ، فأمر سليمان عليه السلام الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فعمدت إليه حين صنعوه وألبسته ثياباً مثل ثيابه التي كان يلبسها ، ثم كانت إذا خرج سليمان عليه السلام تذهب إليه مع ولائدها فتسجد له ويسجدن معها له تبعاً لها كما كانت تصنع في ملكه ، وسليمان عليه السلام لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحاً ، فبلغ ذلك آصف بن برخيا وكان صديقاً لسليمان عليه السلام وكان لا يرد عن أبواب سليمان عليه السلام أي ساعة أراد دخول شيء من بيوت سليمان عليه السلام حاضراً كان سليمان عليه السلام أو غائباً .

(353/661)

فقال : يا نبي الله كبر سني ورق عظمي ونفد عمري وقد حان مني الذهاب وقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت أذكر فيه من مضى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأثني عليهم بعملي فيهم وأعلم الناس ببعض ما كانوا يجهلون من كثير أمرهم ، فقال : افعل فجمع سليمان عليه السلام الناس فقام فيهم خطيباً فذكر من مضى من أنبياء الله تبارك وتعالى

وأثنى على كل نبي بما فضله الله به حتى انتهى إلى سليمان عليه السلام فقال : ما كان أحكمك في صغرك ثم انصرف ، فوجد سليمان عليه السلام في نفسه من ذلك حتى امتلأ غضباً ، فلما دخل داره دعاه فقال : يا آصف ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى فأثنيت عليهم خيراً في كل زمانهم وكل حال أمرهم فلما ذكرتني جعلت تثني علي خيراً في صغري وسكت عما سوى ذلك من أمري فما الذي أحدثت في آخر عمري فقال آصف : إن غير الله تعالى يعبد في دارك ، فقال سليمان عليه السلام : إنا لله وإنا إليه راجعون لقد عرفت أنك ما قلت الذي قلت إلا عن شيء بلغك ، ثم رجع سليمان عليه السلام إلى داره فكسر الصورة وعاقب تلك المرأة وولائدها ، وخرج وحده إلى فلاة ففرش الرماد وجلس عليه تائباً إلى الله تعالى . ا

(354/661)

وكانت له أم ولد يقال لها : الأمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه فيه فوضعه عندها يوماً ، فأتاها الشيطان صاحب البحر واسمه صخر على صورة سليمان عليه السلام وقال لها : يا أمينة خاتمي فناولته الخاتم وتختم به وجلس على كرسي سليمان عليه السلام فعكف عليه الطير والجن والإنس وتغيرت صفة سليمان عليه

السلام ، فأتى الأمينة يطلب الخاتم فأنكرته فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف وإذا قال : أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه وأخذ ينقل السمك للسماكين فيعطونه كل يوم سمكتين فإذا أمسى باع إحداها بأرغفة وشوى الأخرى فأكلها فمكث كذلك أربعين صباحاً مدة ما كان عبد الوثن في داره فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان .

وسأل آصف نساء سليمان عليه السلام فقلن : ما يدع امرأة في دمها ولا يغتسل من جنابة فقال آصف : إنا لله وإنا إليه راجعون إن هذا لهو البلاء المبين ، ثم خرج على بني إسرائيل فقال : ما في الخاصة أعظم مما في العامة فلما مضى أربعون صباحاً طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة فأخذها بعض الصيادين وقد عمل له سليمان عليه السلام بسمكتين صدر يومه ذلك حتى إذا كان العشي أعطاه سمكتيه فأعطى السمكة التي أخذت الخاتم ، وخرج سليمان عليه السلام بسمكتيه فباع السمكة التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة ثم عمد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها فاستقبله الخاتم في جوفها فأخذه فجعله في يده ووقع ساجداً ، وعكفت عليه الطير والجن والأنس ورجع إلى ملكه وأخذ ذلك الشيطان وحبسه في صخرة وألقاه في البحر هذا ملخص حديث وهب ، وقال الحسن : ما كان الله ليسلط الشيطان على نسائه .

وقال السدي : كان سبب فتنة سليمان عليه السلام أنه كانت له مائة امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة : وهي آثر نسائه وآمنهن عنده وكان يأتمنها على خاتمه إذا أتى حاجته فقالت له يوماً : إن أخي بينه وبين فلان خصومة فأحب أن تقضي له فقال : نعم ولم يفعل فابتلى بقوله : نعم ، وذكر نحو ما تقدم وفي بعض الروايات أن سليمان عليه السلام لما افتتن سقط الخاتم من يده وكان فيه ملكه فأعاده سليمان عليه السلام إلى يده فسقط فأيقن سليمان عليه السلام بالفتنة ، فأتاه آصف فقال لسليمان عليه السلام : إنك مفتون بذنبك والخاتم لا يتماسك في يدك ففر إلى الله تعالى تائباً فإني أقوم مقامك وأسير بسيرك إلى أن يتوب الله تعالى عليك ، ففر سليمان عليه السلام إلى الله تعالى وأعطى آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت فأقام آصف في ملك سليمان عليه السلام يسير بسيره أربعة عشر يوماً إلى أن رد الله تعالى على سليمان عليه السلام ملكه وتاب عليه ورجع إلى ملكه وجلس على سريره وأعاد الخاتم في يده ، فهو الجسد الذي ألقي على كرسيه .

وروي عن سعيد بن المسيب قال : احتجب سليمان عليه السلام عن الناس ثلاثة أيام فأوحى الله تعالى إليه احتجبت عن الناس ثلاثة أيام فلم تنظر في أمور عبادي فابتلاه الله عز وجل وذكر نحو ما تقدم من حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه .

قال الرازي : واستبعد أهل التحقيق هذا الكلام من وجوه ؛ الأول : أن الشيطان لو قدر

على أن يشتبه في الصورة والخلقة بالأنبياء فحينئذٍ لا يبقى اعتماد على شيء من ذلك فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس على صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال وذلك يبطل الدين بالكلية .

(356/661)

الثاني : أن الشيطان لو قدر أن يعامل نبي الله تعالى سليمان عليه السلام بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد وحينئذ يجب أن يقتلهم ويمزق تصانيفهم ويخرب ديارهم ، ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلأن يبطل في حق أكابر الأنبياء أولى .

الثالث : كيف يليق بحكمة الله تعالى وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان عليه السلام ولا شك أنه قبيح أي : على غير رأي الحسن كما مر .

الرابع : لو قلنا إن سليمان عليه السلام أذن لتلك المرأة في عبادتها تلك الصورة فهذا كفر منه ، وإن لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة فكيف يؤاخذ الله تعالى سليمان عليه السلام بفعل لم يصدر منه أي : وقد يقال : إنما أوخذ بذلك لكونه كان سبباً في عملها .

قال : فأما أهل التحقيق فقد ذكروا وجوهاً ؛ الأول : أن فتنة سليمان عليه السلام أنه ولد له ابن فقالت : الشياطين إن عاش صار مسلطاً علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله ، فعلم سليمان عليه السلام ذلك فكان يربيه في السحاب فبينما هو يشتغل بمهماته إذ ألقي ذلك الولد ميتاً على كرسيه فتنبه على خطيئته في أنه لم يثق ولم يتوكل على الله تعالى فاستغفر ربه وتاب .

الثاني : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل امرأة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله تعالى ، فطاف عليهن فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذي نفسي بيده لو قال : إن شاء الله تعالى لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعين" فذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ (ص :)

الثالث : أنه أصابه مرض فصار يجلس على كرسيه وهو مريض فذلك قوله تعالى ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ وذلك لشدة المرض والعرب تقول في الضعيف : أنه لحم على وضم وجسم بلا روح ﴿ ثم أناب ﴾ أي : رجع إلى حال الصحة أي : وهذا أظهر ما قيل كما قاله البيضاوي .

الرابع : لا يبعد أيضاً أن يقال : إنه ابتلاه الله تعالى بتسليط وقوع خوف أو وقوع بلاء توقعه من بعض الجهات حتى صار بقوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الخفي على ذلك الكرسي ثم إن الله تعالى أزال عنه ذلك الخوف وأعاده إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب ، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة ، فإن قيل : لولا تقدم الذنب .

لما ﴿ قال رب اغفر لي ﴾ . أجيب : بأن الإنسان لا ينفك عن ترك الأفضل وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأنه أبدأ في مقام هضم النفس وإظهار الندم والخضوع كما قال صلى الله عليه وسلم "إني لاستغفر الله تعالى في اليوم والليلة سبعين مرة" مع أنه صلى الله عليه وسلم غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى واختلف في قول سليمان عليه السلام ﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ أي : سواي نحو فمن يهديه من بعد الله أي : سوى الله فقال عطاء بن أبي رباح : يريد هب لي ملكاً لا تسلبنيه في باقي عمري ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ وقال مقاتل : إن الشيطان لما استولى على ملكه طلب أن يعطيه الله ملكاً لا يقدر الشيطان على أن يقوم فيه مقامه البتة وقال : من أنكر أن الشيطان لم يستول على ذلك أن ذلك محتمل لوجوه ؛ الأول : أن الملك هو القدرة فكان المراد أقدرني على أشياء لا يقدر

عليها غيري البتة ليصير اقتداري عليها معجزة تدل على صحة نبوتي ورسالتي ويدل على صحة هذا القول قوله تعالى:

(358/661)

﴿ فسخرنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ له الريح تجري بأمره رُخاءً ﴾ أي : حالة كونها لينة غاية اللين منقادة يدرك بها ما لا تدرك الخيل غدوها شهر ورواحها شهر ﴿ حيث أصاب ﴾ أي : أراد فكون الريح جارية بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب دال على صحة نبوته لا يقدر أحد على معارضته ، وقد جعل الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ذلك وهو أن العدو يرعب منه إلى مسيرة شهر من جوانبه الأربعة فهي أربعة أشهر .

الثاني : أنه عليه السلام لما مرض ثم عاد إلى الصحة عرف أن خيرات الدنيا صائرة إلى التغيرات فسأل ربه ملكاً لا يمكن أن ينتقل مني إلى غيري .

الثالث : أن الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة فكأنه قال : يا إلهي أعطني مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية حتى احترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابي أكمل وأفضل .

الرابع : سأل ذلك ليكون علامة على قبول توبته حيث أجاب الله تعالى دعاءه ورد عليه ملكه وزاده فيه ، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن عفريتاً من الجن أتاني الليلة ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه فذكرت دعوة أخي سليمان ﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ فرددته خاسئاً" فعلم من هذه الأوجه أنه ليس في كلام سليمان عليه السلام ما يشبه الحسد وهو طلب ما لا ينبغي لأحد غيره ، وأجاب الزمخشري بأجوبة غير ذلك منها : أن سليمان عليه السلام كان ناشئاً في بيت الملك والنبوة ووارثاً لهما فأراد أن يطلب من ربه معجزة فطلب على حسب ألفه ملكاً زائداً على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ليكون ذلك دليلاً على نبوته قاهراً للمبعوث إليهم ثم قال : وعن الحجاج أنه قيل له : إنك حسود ، فقال : أحسد مني من قال : ﴿ وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ قال : وهذا من جراءته على الله تعالى وشيطنته ومن شيطنته ما حكي عنه طاعتنا أوجب من طاعة الله لأنه شرط في طاعته فقال : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ (التغابن :)

وأطلق في طاعتنا فقال ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ (النساء :) ، فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ رخاء ﴾ ينافيه قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾ أجيب عن ذلك بوجهين : الأول : أن المراد أن تلك الريح كانت في قوة الرياح العاصفة إلا أنها لما أمرت بأمره كانت لذيذة طيبة وكانت رخاء . الثاني : أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى فلا منافاة بين الآيتين .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ حيث ﴾ ظرف لتجري أو لسخرنا .

فائدة : روي أن رجلين خرجا يقصدان رؤية يسألانه عن معنى : أصاب فقال لهما : أين تصيبان ؟ فعرفا ، وقالا : هذا بغيتنا . وقوله تعالى:

﴿ والشياطين ﴾ عطف على الريح ، وقوله تعالى : ﴿ كل بناءٍ ﴾ بدل من الشياطين كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ، روي أن سليمان عليه السلام أمر الجان فبنت له اصطخر وكان فيها قرار مملكة الترك قديماً وبنت له الجان أيضاً تدمر وبيت المقدس وباب جيرون وباب البريد اللذين بدمشق على أحد الأقوال ، وبنوا له ثلاثة قصور باليمن غمدان وسلحين ويبنون ومدينة صنعاء ، وقوله تعالى : ﴿ وغواصٍ ﴾ عطف على بناء أي :

يغوصون له في البحر يستخرجون اللؤلؤ وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر ، وقوله تعالى: ﴿ وآخرين مقرنين ﴾ أي : مشدودين ﴿ في الأصفاد ﴾ أي : القيود بجمع أيديهم إلى أعناقهم عطف على كل فهو داخل في حكم البدل ، فكأنه فصل الشياطين إلى عملة استعملهم في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص ومردة قرن بعضهم مع بعض في السلاسل ليكفوا عن الشر ، فإن قيل : أجسامهم إما أن تكون كثيفة أو لطيفة فإن كانت كثيفة وجب أن يراها صحيح الحاسة وإن كانت لطيفة فلا تقوى على العمل ولا يمكن تقريبها ؟

أجيب : بأن أجسامهم شفافة صلبة فلا ترى وتقوى على العمل ويمكن تقريبها ، أو أن المراد : تمثيل كفهم عن الشرور بالإقتران في الصفد وهو القيد ويسمى به العطاء لأنه يربط المنعم عليه وفرقوا بين فعل الصفد بمعنى القيد وفعله بمعنى العطاء فقالوا : صفده قيده وأصفده أعطاه عكس وعد وأوعد في الخير والشر في ذلك نكتة وهي : أن القيد ضيق فناسبه تقليل حروف فعله والعطاء واسع فناسبه تكثير حروف فعله ، والوعد خير وهو خفيف فناسبه تقليل حروفه ، والإيعاد شر وهو ثقيل فناسبه تكثير حروفه .

(361/661)

﴿ هذا ﴾ أي : وقلنا هذا الأمر الكبير ﴿ عطاؤنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ فامنن أو أمسك ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أعط من شئت وامنع من شئت ، قال المفسرون : أي : لا حرج عليك فيما أعطيت وفيما أمسكت ، وقال الحسن : ما أنعم الله تعالى على أحد نعمة إلا عليه تبعة إلا سليمان عليه السلام فإنه إن أعطى أجر وإن لم يعط لم يكن عليه تبعة ، وقال مقاتل : هذا في أمر الشياطين يعني خل من شئت منهم وأمسك من شئت في وثاقك لا تبعة عليك فيما تتعاطاه وقوله تعالى ﴿ بغير حساب ﴾ فيه ثلاثة أوجه ؛ أحدها : أنه متعلق بعطاؤنا أي : أعطيناك بغير حساب ولا تقدير وهو دال على كثرة الإعطاء ، ثانيها : أنه حال من عطاؤنا أي : في حال كونه غير محاسب عليه لأنه جم كثير يعسر على الحاسب ضبطه ، ثالثها : أنه متعلق بامنن أو أمسك ويجوز أن يكون حالاً من فاعلهما أي : غير محاسب عليه .

ولما ذكر تعالى ما أنعم عليه به في الدنيا أتبعه بما أنعم عليه به في الآخرة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وإن له عندنا ﴾ أي : في الآخرة مع ما له من الملك العظيم في الدنيا ﴿ لزلفى ﴾ أي : قربى عظيمة ﴿ وحسن مآب ﴾ وهو الجنة .

القصة الثالثة قصة أيوب عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ واذكر عبدنا ﴾ أي : الذي هو أهل للإضافة إلى جنابنا ويبدل منه ﴿ أيوب ﴾ وهو ابن الروم بن عيص بن اسحق وامرأته ليا بنت يعقوب عليهما السلام وقوله تعالى : ﴿ إذ نادى ربه ﴾ بدل من عبدنا بدل اشتمال وأيوب عطف بيان له وقوله : ﴿ إني ﴾ أي : بأني ﴿ مسني الشيطان ﴾ أي : المحترق باللعنة البعيد من الرحمة ﴿ بِنُصبٍ ﴾ أي : بمشقة وضر ﴿ وعذاب ﴾ أي : ألم جيء به على حكاية كلامه الذي نادى بسببه ولو لم يحكه لقيل : إنه مسه لأنه غائب ، وقال قتادة رضي الله عنه : النصب في الجسد والعذاب في المال ، واختلف العلماء في هذه الآلام والأسقام الحاصلة في جسده على قولين ؛ أحدهما : أنها حصلت بفعل الشيطان ، والثاني : أنها حصلت بفعل الله تعالى ، والعذاب المضاف في هذه الآية إلى الشيطان وهو عذاب الوسوسة وإلقاء الخواطر الفاسدة ، أما تقرير القول الأول فهو ما روي أن إبليس لعنه الله سأل ربه فقال : هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني ، فقال الله تعالى : نعم عبدي أيوب فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عياناً ولا يلتفت إليه ، فقال : رب إنه قد امتنع علي فسلطني على ماله فكان الشيطان يجيئه ويقول له : يا أيوب هلك من مالك كذا وكذا ، فيقول أيوب له : الله أعطى والله أخذ ثم يحمد الله سبحانه وتعالى ، فقال : يا رب إن أيوب لا يبالي بماله فسلطني على جسده فأذن فيه فنفخ في جلد أيوب فحدث أسقام عليه وآلام شديدة فمكث في ذلك البلاء سنين حتى

استقذره أهل بلده فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد فجاء الشيطان إلى امرأته ، وقال : إن زوجك إن استغاث بي خلصته من هذا البلاء فذكرت المرأة ذلك لزوجها فحلف بالله لئن عافاه الله تعالى ليجلدنها مائة جلدة وعند هذه الواقعة قال ﴿ أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ فأجاب الله تعالى دعاءه وأوحى إليه أن ﴿ اركض برجلك ﴾ إلى آخر الآية .

وأما تقرير القول الثاني : فإن الشيطان لا قدرة له البتة على إيقاع الناس في الأمراض والأسقام ويدل عليه وجوه .

(363/661)

الأول : أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان ولعل ما عندنا من الخيرات والسعادات قد حصل بفعله وحينئذ لا سبيل إلى معرفة من يعطي الحياة والموت والصحة والسقم أهو الله تعالى أم الشيطان .

ثانيها : أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء ولم لا يخرب دورهم ولم لا يقتل أولادهم .

ثالثها : أن الله تعالى حكى عن الشيطان أنه قال : ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ (إبراهيم :)

فصرح بأنه لا قدرة له على البشر إلا بإلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة ، فدل ذلك على فساد القول بأن الشيطان هو الذي ألقاه في تلك الأمراض .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان ؟ .

أجيب : بأنه إذا كان لابد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والأسقام هو الله تعالى فأي فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك بل الحق أن المراد بقوله : ﴿ أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ أنه بسبب إلقاء الوساوس الفاسدة كاد يلقيه في أنواع العذاب ،

والقائلون بهذا القول اختلفوا في أن تلك الوساوس كيف كانت وذكروا أوجهاً ؛ أولها : أن علته كانت شديدة الألم ثم طالت تلك العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته ولم يبق له مال البتة وامرأته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت ثم بلغت نفرة الناس عنه إلى أن منعوا امرأته من الدخول عليهم ومن خدمتهم ، والشيطان كان يذكره النعمة التي كانت عليه والآفات التي حصلت له وكان يحتال في دفع تلك الوساوس ، فلما قويت تلك الوساوس في قلبه خاف وتضرع إلى الله تعالى وقال : مسني الشيطان بنصب وعذاب لأنه كلما كثرت تلك الخواطر كان تألم قلبه منها أشد .

ثانيها : أنه لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان ليقنطه مرة ويزلزله ليجزع مرة فخاف من خاطر القنوط في قلبه فتضرع إلى الله تعالى وقال : ﴿ إني مسني الشيطان ﴾ .

ثالثها : قيل : إن امرأته كانت تخدم الناس وتأخذ منهم قدر القوت وتجيء به إلى أيوب عليه السلام فاتفق لها أنهم لما استخدموها طلبت بعض النساء منها قطع إحدى ذؤابتيها على أن تعطيها قدر القوت ففعلت ، ثم في اليوم الثاني فعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة وكان أيوب عليه السلام إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر الرديئة في قلبه فعند ذلك قال : ﴿ مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ .

رابعها : روي أنه عليه السلام قال في بعض الأيام : يا رب لقد علمت أني ما اجتمع علي أمران إلا آثرت طاعتك ولما أعطيتني المال كنت للأرامل قيماً ولابن السبيل معيناً ولليتامى أباً ، فنودي يا أيوب ممن كان ذلك التوفيق فأخذ أيوب عليه السلام التراب فوضعه على رأسه وقال : منك يا رب ثم خاف من الخواطر الأولى فقال : ﴿ مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ وذكروا أقوالاً أخر في سبب بلائه ، منها : أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه ، وقيل : كانت مواشيه ترعى في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يعظه ، وقيل : أعجب بكثرة

ماله وأعلم أن داود وسليمان عليهما السلام كانا ممن أفاض الله عليهما أصناف الآلاء والنعماء وأيوب عليه السلام كان ممن خصه الله بأنواع البلاء والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار كأن الله تعالى قال : يا محمد اصبر على سفاهة قومك فإنه ما كان في الدنيا أكثر من الأنبياء نعمة ومالاً وجاهاً من داود وسليمان عليهما السلام ، وما كان فيهم أكثر بلاء ومحنة من أيوب عليه السلام ، فتأمل أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره .

ولما اشتكى أيوب عليه السلام الشيطان وسأل ربه أن يزيل عنه تلك البلية أجاب الله تعالى له بأن قال له:

(365/661)

﴿ اركض ﴾ أي : اضرب ﴿ برجلك ﴾ أي : الأرض فضرب فنبعت عين ماء ، فقيل له : ﴿ هذا مغتسل باردٌ ﴾ أي : ماء تغتسل منه فيبرأ ظاهرك ﴿ وشراب ﴾ أي : وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهر اللفظ يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء فاغتسل منه وشرب منه ، وأكثر المفسرين قالوا : نبعت له عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه بإذن الله تعالى وقيل : ضرب برجله اليمنى

فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها ، وقيل : ضرب الأرض فنبعت له عين ماء فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى أربعين خطوة فركض برجله الأرض مرة أخرى فنبعت عين ماء عذب فشرب منه فذهب كل داء كان في باطنه .

﴿ ووهبنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ له أهله ﴾ أي : بأن جعلناهم عليه بعد تفرقهم أو أحييناهم بعد موتهم ، وقيل : وهبنا له مثل أهله والأول هو ظاهر الآية فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة ﴿ ومثلهم معهم ﴾ حتى كان له ضعف ما كان ، وقوله تعالى :

﴿ رحمة ﴾ أي : نعمة ﴿ منا ﴾ مفعول لأجله أي : وهبناهم له لأجل رحمتنا إياه

﴿ وذكرى ﴾ أي : وتذكيراً بحاله ﴿ لأولي الألباب ﴾ أي : أصحاب العقول ليعلموا أن من صبر ظفر وأن رحمة الله تعالى واسعة وهو عند القلوب المنكسرة فما بينه وبين الإجابة الأحسن الإنابة فمن دام إقباله عليه أغناه عن غيره كما قيل:

*لكل شيء إذا فارقته عوض ** وما عن الله إن فارقت من عوض*

وهذا تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم كما مر وقوله تعالى:

(366/661)

﴿ وخذ بيدك ضغثاً ﴾ معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش والقضبان فيها مائة عود كشمراخ النخلة وقيل : الحزمة الكبيرة من القضبان ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فاضرب به ولا تحنث ﴾ يدل على تقدم يمين منه عليه الصلاة والسلام واختلفوا في سبب حلفه عليها ويبعد ما قيل أنها رغبته في طاعة الشيطان ويبعد أيضاً ما روي أنها قطعت ذؤابتيها لأن المضطر يباح له ذلك ، بل الأقرب ما روي أن زوجته ليا بنت يعقوب وقيل : رحمة بنت افراثيم بن يوسف عليه السلام ذهبت لحاجة فأبطأت عليه فحلف في مرضه ليضربنها مائة إذا برئ .

ولما كانت حسنة الخدمة جعل الله تعالى يمينه بأهون شيء عليه وعليها وهذه الرخصة باقية في الحدود لما روي أنه صلى الله عليه وسلم "أتي برجل ضعيف قد زنا بأمة فقال صلى الله عليه وسلم خذوا مائة شمراخ واضربوه بها ضربة واحدة" ﴿ إنا وجدناه صابراً ﴾ أي : فيما أصابه في النفس والأهل والمال .

فإن قيل : كيف وجده صابراً وقد شكا إليه ؟

أجيب بأوجه : أحدها : أن شكواه إلى الله تعالى كتمني العافية فلا يسمى جزعاً ولهذا قال يعقوب عليه السلام : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ (يوسف :)

وكذلك شكوى العليل وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمني العافية وطلبها ، فإذا صح أن يسمى صابراً مع تمني العافية أفلا يعد صابراً مع اللجوء إلى الله تعالى والدعاء بكشف ما به مع التعالج ومشاورة الأطباء . ثانيها : أن الآلام حين كانت على الجسد لم يذكر شيئاً فلما تعاظمت الوساوس على القلب تضرع إلى الله تعالى . ثالثها : أن الشيطان عدو والشكاية من العدو إلى الحبيب لا تقدح في الصبر ، ويروى أنه قال في مناجاته : إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ولم يتبع قلبي بصري ولم آكل إلا ومعي يتيم ولم أبت شبعاناً ولا كاسياً ومعي جائع أو عريان فكشف الله تعالى عنه ثم استأنف قوله تعالى : ﴿ نعم العبد ﴾ أي : أيوب عليه السلام ثم علل بقوله تعالى : مؤكداً لئلا يظن أن بلاءه قادح في ذلك ﴿ إنه أواب ﴾ أي : رجاع إلى الله تعالى روي : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ نعم العبد ﴾ في حق سليمان عليه السلام تارة وفي حق أيوب عليه السلام أخرى عظم في قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن قوله تعالى : ﴿ نعم العبد ﴾ تشريف عظيم فإن احتجنا إلى تحمل بلاء مثل أيوب عليه السلام لم نقدر عليه فكيف السبيل إلى تحصيله فأنزل الله تعالى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ (الأنفال :)

والمراد : أنك أيها الإنسان إن لم تكن نعم العبد فأنا نعم المولى وإن كان منك غير الفضل فأنا

مني الفضل ، وإن كان منك التقصير فمني الرحمة والتيسير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 187.219 ﴾

(368/661)

وقال القاسمي :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [1] .

﴿ ص ﴾ بالسكون على الوقف . وقرئ بالكسر والفتح . اسم للسورة ، على القول المتجه عندنا ، فيه وفي نظائره ، لما قدمنا غير ما مرة . وقيل : قسم رمزي ، وإليه نحا المهايمي . قال : أقسم الله سبحانه وتعالى بصدق محمد صلّى الله عليه وسلم الذي اعترف به الكل في غير دعوى النبوة ، حتى صدقه أهل الكتابين في إخباره عن الغيوب ، الدال على الصدق في دعوة النبوة ، أو بصفائه عن رذائل الأخلاق ، وقبائح الأفعال الدال على صفائه عن نقيصة الكذب ، أو بصعوده في مدارج الكمالات ، الدال على صعوده في مدارج القرب من الله ، أو بصبره الكامل هو لوازم الرسالة على أنه رسول . انتهى .

﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ أي : الشرف الدال على حقيقته وصدقه ، أو التذكير ، كآية : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : 10] ، والجواب محذوف لدلالة

السياق عليه ؛ أي : أنه لحق . وقوله :

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ ﴾

أي : كبر : ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أي : عداوة للحق ، والإذعان له . إضراب عما قبله ، كأنه قيل : لا ريب فيه قطعاً ، وليس عدم إيمان الكفرة به لشائبة ريبٍ مما فيه ، بل هم في حميّة جاهلية ، وشقاق بعيد لله ولرسوله ؛ ولذلك لا يذعنون له . وقيل : الجواب ما دل عليه الجملة الإضرابية ؛ أي : ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ ثم أوعدهم على شقاقهم بقوله تعالى :

(369/661)

: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أي : لكبرهم عن الحق ، ومعاداتهم لأهله : ﴿ فَنَادَوْا ﴾ أي : فدعوا واستغاثوا : ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي : وليس الحين حين فرار ، ومهرب ، ومنجاة . والكلام على " لات " ، وأصلها ، وعملها ، والوقف عليها ، ووصل التاء بها ، أو فصلها عنها ، مبسوط في مطولات العربية ، وفي معظم التفاسير هنا .

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ ﴾ أي : رسول : ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ أي : من أنفسهم ، يعني النبي صلّى الله عليه وسلم : ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ

هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ أي : بليغ في العجب ، وذلك لتمكن تقليد آبائهم في نفوسهم ، ورسوخه في أعماق قلوبهم ، ومضي قرون عديدة عليه ، وإلفهم به وأنسهم له ، حتى ران على قلوبهم ، وغشي على أبصارهم ، ونسي باب النظر والاستدلال . بل محي بالكلية من بينهم . وصار عندهم من أبطل الباطل ، وأمحل المحال .

(370/661)

﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ أي : الأشراف من قريش يحضّون بعضهم على التمسك بالوثنية ، ويتواصون بالصبر على طغيانهم قائلين : ﴿ أَنِ امْشُوا ﴾ أي : في طريق آبائكم : ﴿ وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ﴾ أي : عبادتها مهما سمعتم من تسفيه أحلامنا ، وتفنيد مزاعمنا : ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ تعليل للأمر بالصبر ؛ أي : يراد منا إمضاؤه وتنفيذه لا محالة ؛ أي : يريده محمد من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لا قول يقال من طرف اللسان . أو المعنى : إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد منا ، أي : بنا ، فلا انفكاك لنا عنه ، وما لنا إلا الاعتصام عليه بالصبر .

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ أي : ما سمعنا بهذا التوحيد الذي ندعى إليه في ملة النصارى ؛ لأنهم مثلثة غير موجودة ، أو في ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا : ﴿ إِنْ هَذَا

إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ أي : ما هذا التوحيد إلا فرية محضة ، لا مستند له سوى هذا الذكر بزعمهم .

(371/661)

﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ أي : مع أن فينا من هو أثرى وأعلى رياسة . قال الزمخشري : أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم ، وينزل عليه الكتاب من بينهم ، كما قالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] ، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد ، على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ﴾ إضراب عن مقدر ؛ أي : إنكارهم للذكر ليس عن علم ، بل هم في شك منه ، يقولون في أنفسهم : إما وإمّا : ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أي : على الإنكار . فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك ، والحسد ، وصدّقوا وتصديقهم لا ينفعهم حينئذ ؛ لأنهم صدقوا مضطرين .

قال الناصر في " الانتصاف " : ويؤخذ منه أن : ﴿ لَمَّا ﴾ لائقة بالجواب . وإنما ينفى بها فعل يتوقع وجوده ، كما يقول سيبويه ، وفرق بينها وبين " لَمْ " ، بأن لم : نفي لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبته ، قد . ولما : نفي لما يتوقع وجوده أُدخل على مثبته ، قد .

وقال : إنما ذكرت ذلك لأني حديث عهد بالبحث في قوله عليه الصلاة والسلام : < الشفعة فيما لم يقسم > . فإني استدللت به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة . فقيل لي : إن غايته أنه أثبت الشفعة فيما نفى عنه القسمة ، فإما لأنها لا تقبل قسمة ، وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة ، فأبطلت ذلك بأن آلة النفي المذكورة لم ، ومقتضاها ، قبول المحل الفعل المنفي وتوقع وجوده . ألا تراك تقول : الحجر لا يتكلم . ولو قلت : الحجر لم يتكلم . لكان ركيكاً من القول ؛ لإفهامه قبوله للكلام . انتهى . وهو لطيف جيد .

(372/661)

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ أي : حتى يتخيروا لنبوة ما تهوى أنفسهم . كلا : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [القصص : 68] ، ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : 124] .

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أي : فليصعدوا في المراقي التي توصلهم إلى السماء ، وليتحكموا بما شاءوا في الأمور الربانية ، والتدابير الإلهية .

روى ابن جرير بسنده عن الربيع بن أنس قال : الأسباب أدق من الشعر ، وأشد من الحديد

، وهو بكل مكان ، غير أنه لا يرى . انتهى .

وهذا البيان ينطبق على ما يعرّف به الأثير الموجود في أجزاء الخلاء المظنون أنها فارغة . فتأمل .

ثم قال ابن جرير : وأصل السبب عند العرب ، كل ما تسبب به إلى الوصول إلى المطلوب من حبل ، أو وسيلة ، أو رحم ، أو قرابة ، أو طريق ، أو محجة ، وغير ذلك . انتهى .

وقال المهايمي : أي : فليصعدوا في الأسباب التي هي معارج الوصول إلى العرش ، ليستووا عليه ، فيدبروا العالم ، وينزلوا الوحي على من شاءوا . وأنى لهم ذلك ؟ .

(373/661)

﴿ جُندٌ مَّا ﴾ أي : هم جند حقير : ﴿ هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أي : الذين كانوا يتحزبون على الأنبياء قبلك ، وأولئك قد قهروا وأهلكوا . وكذا هؤلاء . فلا تبال بما يقولون ، ولا تكترث لما به يهذون . و : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول ، فهو مجاز . وجوز أن يكون حقيقة ، للإشارة إلى مكان قولهم وهو مكة . قال قتادة : وعده الله وهو بمكة يومئذ ، أنه سيهزم جنداً من المشركين . فجاء تأويلها يوم بدر . وقال ابن كثير : هذه الآية كقوله جلت عظمته : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ

مُنْتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر : 44 - 45] . وكان ذلك يوم بدر ، وفي الآية أوجه من الإعراب أشار له السمين بقوله : ﴿ جُندٌ ﴾ يجوز فيه وجهان :

أحدهما - وهو الظاهر - أنه خبر مبتدأ ، أي : هم جند . و : ﴿ مَّا ﴾ فيها وجهان ، أحدهما - أنه مزيدة . والثاني أنها صفة لـ : جند ، على سبيل التعظيم ، للهزء بهم ، أو للتحقير . فإن ما ، إذا كانت صفة تستعمل لهذين المعنيين . و : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ يجوز فيه ثلاثة أوجه : أحدها - أن يكون خبراً لـ : جند . وما : مزيدة و : ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ نعت لـ : جند . والثاني - أن يكون صفة لـ : جند . الثالث - أن يكون منصوبا بـ : مهزوم . و : ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ يجوز فيه أيضاً وجهان : أحدهما - أنه خبر ثان لذلك المبتدأ المقدر ، والثاني أنه صفة لـ : جند . و : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ مشارٌ به إلى موضع التقاول ، والمحاورة بالكلمات السابقة ، وهو مكة ؛ أي : سيهزمون بمكة ، وهو إخبار بالغيب . وقيل : مشار به إلى نصرة الإسلام . وقيل : إلى حفر الخندق ، يعني إلى مكان ذلك .

الثاني - من الوجهين الأولين - أن يكون جند : مبتدأ ، وما : مزيدة و : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ نعت و : ﴿ مَهْزُومٌ ﴾ خبره . وفيه بعد ، لتفلّته عن الكلام الذي قبله . انتهى .

فائدة :

روى ابن عباس في هذه الآية أنه لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش ، فيهم أبو جهل ، فقالوا إن ابن أخيك يشتم آلهتنا , ويفعل ويفعل , ويقول ويقول ، فلو بعثت إليه فنهيته ! فبعث إليه . فجاء النبي صلّى الله عليه وسلم فدخل البيت ، وبينهم ، وبين أبي طالب قدر مجلس رجل . قال فخشي أبو جهل – لعنه الله – إن جلس إلى جنب أبي طالب ، أن يكون أرق له عليه . فوثب فجلس في ذلك المجلس . ولم يجد رسول الله صلّى الله عليه وسلم مجلساً قرب عمه ، فجلس عند الباب ، فقال له أبو طالب : أي : ابن أخي ! ما بال قومك يشكونك ! يزعمون أنك تشتم آلهتهم , وتقول وتقول , قال ، وأكثروا عليه من القول . وتكلم رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقال : < يا عم ! أريدهم على كلمة واحدة يقولونها , تدين لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية > . ففزعوا لكلمته ولقوله . فقال القوم : كلمة واحدة ؟ نعم ، وأبيك عشراً . فقالوا : وما هي ؟ وقال أبو طالب : وأي كلمة هي يا ابن أخي ؟ قال صلّى الله عليه وسلم : < لا إله إلا الله > . فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ونزلت الآية . رواه ابن جرير ، والإمام أحمد ، والنسائي ، والترمذي وحسنه .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي : قبل قريش : ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ ﴾ وهم قوم هود : ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ أي : الملك الثابت . وأصله البيت المطنّب ، أي : المربوطة أطنابه – أي : حباله – بأوتاده ، استعير للملك استعارة تصريحية ، وصف به فرعون مبالغة بجعله عين ملكه ، أو شبه فرعون في ثبات ملكه بذي بيت ثابت ، أقيم عموده ، وثبتت أوتاده . على طريق الاستعارة المكنية ، وأثبت له ما هو من خواصه تخييلاً ، وهو قوله : ﴿ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ فإنه لازم له ، أو هو كناية ، حيث أطلق اللازم ، وأريد الملزوم ، وهو الملك الثابت ، وقد جاء هذا في قول الأسود من شعراء الجاهلية :

~وَلَقَدْ غَنُوْا فِيْهَا بِأَنْعَمِ عِيْشَةٍ فِيْ ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ

أو المعنى : ذو الجموع الكثيرة ، سمّوا بذلك لأن بعضهم يشد بعضاً ، كالوتد يشد البناء . فالاستعارة تصريحية في الأوتاد ، أو هو مجاز مرسل للزوم الأوتاد للجند ، أو هو على حقيقته ، والمراد المباني العظيمة ، والهياكل الثابتة الفخيمة ، واللفظ صادق في الكل .

﴿ وَثَمُودُ ﴾ وهم قوم صالح : ﴿ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ أي : الغيضة ، وهم قوم شعيب : ﴿ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أي : الكفار المتحزبون على رسلهم ، الذين جعل الجند المهزوم منهم .

﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ أي : فوجبت عليهم عقوبتي . قال الشهاب : ﴿ إِن ﴾ نافية و : ﴿ كُلٌّ ﴾ محذوف الخبر . والتفريغ من أعم العام ؛ أي : ما كل أحد مخبر عنه بشيء ، إلا مخبر عنه بأنه كذب جميع الرسل ؛ لأن الرسل يصدق كل منهم الكل . فتكذيب واحد منه تكذيب للكل ، أو على أنه من مقابلة الجمع بالجمع ، فيكون كل كذب رسوله ، أو الحصر مبالغة ، كأن سائر أوصافهم بالنظر إليه ، بمنزلة العدم . فهم غالبون فيه . انتهى .

وقال الزمخشري : وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه ، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولاً ، والاستثنائية ثانياً . وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص – أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه .

وزاد الناصر فائدة أخرى للتكرير : وهي أن الكلام لما طال بتعديد آحاد المكذبين ، ثم أريد ذكر ما حاق بهم من العذاب جزاء لتكذيبهم ، كرّر ذلك مصحوباً بالزيادة المذكورة ، ليلي بقوله [في المطبوع : ليليبقوله] تعالى : ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ على سبيل التطرية المعتادة عند طول الكلام ، وهو كما قدمته في قوله : ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَى ﴾ [الحج : 44] ، حيث

كرر الفعل ليقترن بقوله : ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [الحج : 44] . انتهى .

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاء ﴾ أي : أهل مكة : ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ أي : أخذة واحدة بعذاب بئيس . يقال : صاح الزمان بهم ، إذا أهلكوا . كما قال :

~صَاحَ الزَّمَانُ بِآلِ بَرْمَكَ صَيْحَةً خَرُّوا لِشِدَّتِهَا عَلَى الْأَذْقَانِ

(377/661)

وأصله من الغارة إذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم : ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ أي : من توقف مقدار فواق ، وهو ما بين الحلبتين ، أو رجوع وترداد ؛ فإنه فيه يرجع اللبن إلى الضرع فـ : فواق ، إما بحذف مضافين ، أو مجاز مرسل بذكر الملزوم وإرادة لازمه . وقرئ بالضم ، وهما لغتان . وقيل : المفتوح اسم مصدر من : أفاق المريض ، إفاقة وفاقة ، إذا رجع إلى الصحة ، والمضموم اسم ساعة رجوع اللبن للضرع .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ أي : نصيبنا من العذاب الذي وعدته ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ [الحج : 47] و [العنكبوت : 53 و 54] ، ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي : الجزاء ، وقولهم ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية ، كما قص عنهم نظائره في عدة آيات .

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ أي : فقد وعدت بالنصر ، والظفر ، والملك ، والتأييد ، كما أوتي داود عليه السلام ، مما سارت به الأمثال ؛ ولذا قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ أي : القوة ؛ أي : الاجتهاد في أداء الأمانة ، والتشدد في القيام بالدعوة ، ومجانبة إظهار الضعف والوهن : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : رجّاع إليه تعالى بالإنابة ، والخشية ، والعبادة ، والصيام .

(378/661)

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ أي : تبعاً لتسبيحه : ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أي : مجموعة عنده يسبحن معه : ﴿ كُلٌّ لَهُ ﴾ أي : لله تعالى : ﴿ أَوَّابٌ ﴾ أي : مطيع منقاد ، يرجع بتسبيحه وتقديسه إليه .

قال ابن كثير : أي : أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار . كما قال عز وجل : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ : 10] ، وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه ، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء ، فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب . بل يقف في الهواء ويسبح معه ، وتجيبه الجبال الشامخات ترجّع معه ، وتسبح تبعاً له . انتهى . أي : بأن خلق فيها حياةً ونطقاً ، أو كان له عليه

السلام من شدة صوته الحسن دوي في الجبال ، وحنين من الطيور إليه ، وترجيع ، وقد عهد من الطير القمري أنه ينتظر سكتة المصوّت ، والقارئ بصوت حسن ، أو المنشد ، فيجيبه ، والله أعلم .

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أي : قويناه بوفرة العَدد والعُدد ، ونفوذ السلطة ، وإمداده بالتأييد والنصر : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أي : النبوة ، أو الكلام المحكم المتضمن للمواعظ والأمثال ، والحض على الأداب ، ومكارم الأخلاق ، وكان زبوره عليه السلام ، كله حكماً غرراً : ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ أي : فصل الخصام بتمييز الحق من الباطل ، ورفع الشبه ، وإقامة الدلائل ، وكان يقيم بذلك العدل الجالب محبة الخلائق ، ولا يخالفه أحد من أقاربه ، ولا من الأجانب .

ثم ذكر تعالى من حكمته عليه السلام وقضائه الفصل ، وشدة خوفه وخشيته مع ذلك ، ما قصه بقوله سبحانه :

(379/661)

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ أي : ولجوه . والمحراب مقدم كل بيت وأشرفه .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ أي : منا . فلسنا فاتكين وإنما نحن ﴿ خَصْمَانِ ﴾ أي : شخصان متخاصمان تحاكمنا إليك : ﴿ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي : تعدى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي : بما يطابق أمر الله : ﴿ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ أي : ولا تبعد عن الحق أو تجاوزه : ﴿ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاء الصِّرَاطِ ﴾ أي : بحيث لا تميل عن الحق أصلاً .

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ أي : أنثى من الضأن : ﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ أي : فلم ينظر إلى غناه عنها ، ولا إلى افتقاري إليها ، بل أراد التغلب عليّ : ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أي : ملكنيها ، بمعنى اجعلني كافلها كما أكفل ما تحت يدي . أو بمعنى اجعلها كفلي أي : نصيبي : ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أي : غلبني في المكالمة .

(380/661)

﴿ قال ﴾ أي داود ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ أي طلب نعجتك التي أنت أحوج إليها ليضمها ﴿ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ أي مع استغنائه عن هذا الضم ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ﴾ أي الإخوان الأصدعاء المتخالطين في شئونهم ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

﴿ أي بغى الأعداء مع أن من واجب حقهم النصفة على الأقل ، إن لم يقوموا بفضيلة الإيثار ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي فإنهم لا يبغون ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ أي وهم قليل . و (ما) مزيدة للإبهام والتعجيب من قلتهم .

قال الشهاب : فيه مبالغة من وجوه : وصفهم بالقلة ، وتنكير (قليل) وزيادة (ما) الإبهامية . والشيء إذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب منه ، فكأنه قيل : ما أقلهم .

(381/661)

وفي قضائه عليه السلام هذا ، من الحكمة وفصل الخطاب ما يهيج الأفئدة ويقر عين المغبون . ذلك صدع بالحق أبلغ صدع فجهر بظلم خصمه وبغيه جهرا لا محاباة فيه ولا مواربة فأقر عين المظلوم . وعرف الباغي ظلمه وحيفه ، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه . ثم نفس عن قلب المظلوم البائس ، وروح عن صدره بذكر ما عليه الأكثر من هذه الخلة – خلة البغي وعدم الإنصاف – مع الخلطة والخلة ، ليتأسى ويتسلى كما قيل (إن التأسي روح كل حزين) ثم أكد الأمر بقلة القائمين بحقوق الأخوة ، ممن آمن وعمل صالحا ، فكيف بغيرهم ؟ وكلها حكم وغرر ودرر ، حقائق تنطبق علي أكثر هذا السواد الأعظم من الناس ، الذين يدعون المحبة ، والصداقة . ولعظم شأن حقوق المحبة أسهب في آدابها

علماء الأخلاق ، إسهابا نوعوا فيه الأبواب ، ولونو فيه الفصول . و مع ذالك لا تزال الشكوى عامة . و قد امتلأت من منظومها و منثورها كتب الأدب ، كما لا يخفى على من له إلمام به . و بالله التوفيق ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أي ابتليناه بتلك الحكومة ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ . فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أي ما استغفر منه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ أي لقربا ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي مرجعا حسنا و كرامة في الآخرة .

تنبيهات :

الأول – للمفسرين في هذا النبأ أقوال عديدة و وجوه متنوعة . مرجعها إلى مذهبين : مذهب من يرى أنها تشير تعريضا إلى وزر ألم به داود عليه السلام ثم غفر له . و مذهب من يرى أنها حكومة في خصمين لا إشعار له بذالك . فممن ذهب إلى الأول ابن جرير . فإنه قال : هذا مثل ضربه الخصم المتسورون على داود محرابه . و ذلك أن داود كانت له ، فيما قيل ، تسع و تسعون امرأة . و كانت للرجل الذي أغزاه حتى قتل امرأة واحدة . فلما قتل نكح ، فيما ذكر ، داود امرأته . ثم لما قضى للخصمين بما قضى ، علم أنه ابتلي . فسأل غفران ذنبه و خر ساجدا لله و أناب إلى رضا ربه ، و تاب من خطيئته . هذا ما

قاله ابن جرير . ثم أسند قصته مطولة من روايات عن ابن عباس و السدي و عطاء و الحسن و قتادة و وهب و مجاهد . و من طريق عن أنس مرفوعا . و يشبه سياق بعضها ما ذكر في التوراة المتداولة الآن .

قال السيوطي في (الإكليل) : القصة التي يحكونها في شأن المرأة ، و أنها أعجبته ، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبي حاتم من حديث أنس مرفوعا . و في إسناده ابن لهيعة ، و حاله معروف ، عن ابن صخر عن يزيد الرقاشي و هو ضعيف . و أخرجها من حديث ابن عباس موقوفا . انتهى .

أقول : أما المرفوع إلى النبي صلى الله عليه و سلم فيها ، فلم يأت من طريق صحيح . , أما الموقوف من ذلك على الصحب و الأتباع رضي الله عنهم ، فمعولهم في ذلك ما ذكر في التوراة من هذا النبأ ، أو الثقة بمن حكي عنها . و ينبني على ذلك ذهابهم إلى تجويز مثل هذا على الأنبياء . و قد ذهبت طائفة إلى تجويز ما عدا الكذب في التبليغ . كما فصل في مطولات الكلام .

قال ابن حزم رحمه الله : و هو قول الكرامية من المرجئة ، و ابن الطيب الباقلاني من الأشعرية ، و من اتبعه ، و هو قول اليهود و النصارى . ثم رد هذا القول ، رحمه الله ، ردا متينا .

وأما المذهب الثاني ، فهو ما جزم به ابن حزم في (الفصل) وعبارته : ما حكاه تعالى عن داود عليه السلام قول صادق صحيح ، لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بالخرافات ولدها اليهود . وإنما كان ذاك الخصم قوما من بني آدم ، بال شك ، متخصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم . بغى أحدهم على الآخر على نص الآية . ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء ، فقد كذب على الله عز وجل ، وقوله ما لم يقل ، وزاد في القرآن ما ليس فيه ، وكذب الله عز وجل وأقر على نفسه الخبيثة ، أنه كذب الملائكة . لأن الله تعالى يقول (وهل أتاك نبؤا الخصم) فقال هو : لم يكونوا قط خصمين ، ولا بغى بعضهم على بعض ، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة ، ولا كان للآخر نعجة واحدة ، ولا قال له أكفلنيها . فأعجبوا . لم يقحمون فيه الباطل أنفسهم ؟ ونعوذ بالله من الخذلان . ثم كل ذلك بلا دليل ، بل الدعوى المجردة . وتالله ! إن كل امرىء منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره , ثم يعرض زوجها للقتل عمدا ، ليتزوجها . وعن أن يترك صلاته لطائر يراه . هذه أفعال السفهاء المتهوكين الفساق المتمردين . لا أفعال أهل البر والتقوى . فكيف برسول الله داود عليه السلام الذي أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه ؟ لقد نزهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله . فكيف أن يستضيف إلى أفعاله ؟ وأما استغفاره وخروره ساجداً ، ومغفرة الله له

، فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة . والاستغفار فعل خير لا ينكر من ملك ولا من نبي . ولا من مذنب ولا من غير مذنب . فالنبي يستغفر الله لمذنبي أهل الأرض . والملائكة كما قال الله تعالى (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ

(384/661)

الْجَحِيمِ) . وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ) فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة . فقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو في أن يثبت الله قلبه على دينه . فاستغفر الله تعالى من هذا الظن ، فغفر الله تعالى له هذا الظن . إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة . انتهى كلام ابن حزم ، وهو وقوف على ظاهر الآية ، مجردًا عن إشارة وإيماء .

وقال البرهان البقاعي في (تفسيره) : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود .

ثم قال : وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام لأن عيسى عليه السلام من ذريته ، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه . انتهى .

ثم قال : وقوله تعالى (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ) أي الوقوع في الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون

سماع لكلامه . وهذه الدعوى تدريب لداود عليه السلام في الأحكام . وذكرها للنبي - صلى الله عليه وسلم - تدريب له في الأناة في جميع أموره على الدوام ز ولما ذكر هذا ، ربما أوهم شيئا في مقامه - صلى الله عليه وسلم - ، فدفعه بقوله (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ) فالقصة لم يجر ذكرها إلا للترقية في رتب الكمال . وأول دليل على ما ذكرته ، أن هذه الفتنة إنما هي بالتدريب في الكحم ، لا بامرآة ولا غيرها . وأن ما ذكروه من قصة المرأة باطل وإن اشتهر . فكم من باطل مشهور ، ومذكور ، هو عين الزور . انتهى .

(385/661)

وقال ابن كثير : قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات . ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه . ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه . ويزيد ، وإن كان من الصالحين ، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة . الأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل . فإن القرآن حق ، وما تضمن فهو حق أيضا . انتهى .

وقال القاضي عياض في (الشفا) : وأما قصة داود عليه السلام ، فلا يجب أن يلتفت إلى ما

سطره فيها الإخباريون على أهل الكتاب الذين بدلوا و غيروا ، ونقله بعض المفسرين ولم ينص الله على شيء من ذلك ، ولا ورد في حديث صحيح . و الذي نص الله عليه قوله (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) و قوله فيه (أَوَّابٌ) فمعنى (فتنّاهُ) أي اختبرناه . و (أَوَّابٌ) قال قتادة : مطيع . وهذا التفسير أولى . قال ابن عباس وابن مسعود : ما زاد داود على أن قال للرجل : انزل عن امرأتك و أكفلنيها . فعاتبه الله على ذلك ونبهه عليه . وأنكر عليه شغله بالدنيا . وهذا هو الذي ينبغي أي يعول عليه من أمره . وقد قيل خطبها على خطبته ، وقيل: بل أحب بقلبه أن يستشهد . وحكى السمرقندي أن ذنبه الذي استغفر منه قوله (لَقَدْ ظَلَمَكَ) فظلمه بقول خصمه . وقيل: بل لما خشيه على نفسه ، وظن من الفتنة بما بسط له من الملك والدنيا . وإلى نفى ما أضيف في الأخبار إلى داود من ذلك ذهب أحمد بن نصر و أبو تمام ، وغيرهما من المحققين . قال الداودي: ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت . ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم . وقيل: إن الخصمين اللذين اختصما إليه ، رجلان في نتاج غنم على ظاهر الآية . وقيل: بل لما خشي على نفسه وظن من الفتنة لما بسط له من الملك والدنيا . انتهى .

(386/661)

وقال ابن القيم في أواخر كتابه (الجواب الكافي) في مباحث العشق : وقد أرشد – صلى الله عليه وسلم – المتحابين إلى النكاح . كما في سنن ابن ماجه مرفوعًا : لم ير للمتحابَّين مثل النكاح . ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذي جعله الله دواءه شرعا وقدرا . وبه تداوى نبي الله داود عليه السلام ولم يرتكب نبي الله محرما . وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها . وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته . ولا يليق بنا المزيد على هذا . انتهى .

وهذا منه تسليم ببعض القصة لا تمامها . وهو من الأوال فيها .

وأما دعوى بعضهم أن التوراة تعد داود ملكا حكيما ، لا نبيا ، بدليل ذكره في أسفار الملوك منها ، وما فيها من أنه بعث إليه نبي يقال له قاشان ، ضرب له المثل المذكور فدعوى مردودة من وجوه:

منها أن الاستدلال بالتوراة التي بين أيديهم في إهباتٍ أو نفي لا يعول عليه . كيف لا ؟ وقد أوتينا بيضاء نقية محفوظة من التغيير والتبديل بحمده تعالى . ومنها أن نبوة داود عليه السلام لا خلاف فيها عند المسلمين ، فلا عبرة بخلاف غيرهم .

ومنها أنه لا مانع أن تجتمع النبوة والملك لمن أراده الله واصطفاه . وقد فعل ذلك بداود وسليمان عليهما السلام .

ومنها أنه لا حاجة في كتابنا الكريم أن يتمم بما جاء في غيره ، أو يحاول رده إلى سواه من

الكتب ، أو هي إليه ، لاستغنائه بنفسه . بل وكونه مهيمنا على سائر الكتب ، كما أخبر الله تعالى عنه . فليتأمل ذلك . والله أعلم .

وقد روي أن عمر بن عبد العزيز حدَّث بنبأ داود على ما يرويه القصاص ، وعنده رجل من أهل الحق . فكذب المحدث به ، وقال : إن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترا على نبيه ، فما ينبغي إظهارها عليه . فقال عمر : لسماعي هذا الكلام ، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس . نقله الزمخشري .

(387/661)

قال الناصر في (الانتصاف) : وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام ، داود وغيره ، منزهون من الوقوع في صغائر الذنوب ، مبرءون من ذلك ، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة . وهذا هو الحق الأبلج ، والسبيل الأبهج ، إن شاء الله تعالى . انتهى .

التنبيه الثاني : قال ابن الفرس : في هذه القصة دليل على جواز القضاء في ا لمسجد (أي لظاهر المحراب . إلا أنه ليس نصًّا في محراب المسجد) والتلطف في رد الإنسان عن المكروه صنعه . وأنه لا يؤاخذ بعنف ما أمكن . وجواز المعاريض من القول .

قال الزمخشري: وإنما جاءت على طريقة التمثيل والتعريض ، دون التصريح ، لكونها أبلغ في التوبيخ . من قبل أن المتأمل إذا أداه إلى الشعور بالعرض به ، كان أوقع في نفسه و أشد تمكنا من قلبه ، وأعظم أثرا فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبيه على الخطأ فيه ، من أن يباده به صريحا ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة . ألا ترى إلى الحكماء ؟ كيف أوصوا في سياسة الولد ، إذا وجدت منه منة منكرة ، بأن يعرض له بإنكارها عليه ، ولا يصرح. وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله ، إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية ، فاستسمج حال نفسه . وذلك أزجر له . لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ، ومقياسا لشأنه . فتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة . مع أنه أصون لما بين الوالد و الولد من حجاب الحشمة .

الثالث: قال ابن مسعود في قوله تعالى (إِنَّ هَذَا أَخِي) : أي على ديني . أخرجه ابن أبي حاتم . فقيه جواز إطلاق (الأخ) على غير المناسب . واستدل بقوله تعالى (وَخَرَّ رَاكِعًا) من أجاز التعويض عن سجود التلاوة بركوع . والأكثرون على أن الركوع هنا مجاز مرسل ، عن السجود . لأنه لإفضائه إليه ن جعل كالسبب ، ثم تجوز به عنه . أو هو استعارة له ، لمشابهته له في الانحناء والخضوع .

الخامس: قال ابن كثير: اختلف الأئمة في سجدة (ص) هل هي من عزائم السجود ؟ على قولين: أحدهما أنها ليست من العزائم، بل هي سجدة شكر . لما روى عن ابن عباس رشي الله عنهما أنه قال: إنها ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يسجد فيها ، رواه أحمد و البخاري وأصحاب السنن . وعنه أنه قال: إن النبي – صلى الله عليه وسلم – سجد في (ص) وقال: سجدها داود عليه الصلاة والسلام توبة ، ونسجدها شكرا ، تفرد به النسائي وعن أبي سعيد الخدري رشي الله عنه قال : قرأ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو على المنبر (ص) فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه . فلما كان يوم آخر قرأها . فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود . فقال – صلى الله عليه وسلم – :إنما هي توبة نبي . ولكن رأيتكم تشزنتم ، فنزل وسجد . تفرد أبو داود . وإسناده على شرط الصحيح .

(389/661)

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : استخلفناك على الملك في الأرض كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها ، ومنه قولهم : خلفاء الله في

أرضه : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾ أي : هوى النفس ، من الميل إلى مال ، أو جاه ، أو قريب ، أو صاحب : ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : صراطه الموصل إلى الكمالات ، كحفظ المملكة ، والنصر على الأعداء ، والنجاة في الآخرة ورفع الدرجات فيها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ أي : بسبب نسيانهم ، وهو ضلالهم عن السبيل ، فإن تذكره يقتضي ملازمة الحق ، ومخالفة الهوى .

تنبيه :

في الآية بيان وجوب الحكم بالحق ، وأن لا يميل إلى أحد الخصمين لقرابة ، أو رجاء ، أو سبب يقتضي الميل ، واستدل بها بعضهم على احتياج الأرض إلى خليفة من الله . كذا في " الإكليل " . وقال ابن كثير : هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب ، بالوعيد الأكيد ، والعذاب الشديد . روى ابن أبي حاتم عن أبي زرعة ، أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة ، فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ؟ أقول ؟ قال : قل في أمان . قلت : يا أمير المؤمنين ! أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة

والسلام ؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة . ثم توعده في كتابه قال تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية .

(390/661)

وقال الرازي : اعلم أن الْإِنْسَانْ خلق مدنيّاً بالطبع ؛ لأن الْإِنْسَانْ الواحد لا تنتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة ، حتى هذا يحرث ، وذاك يطحن ، وذلك يخبز ، وذلك ينسج والآخر يخيط . وبالجملة ، فيكون كل واحد منهم مشغولاً بمهم ، وينتظم من أعمال الجميع مصالح الجميع . فثبت أن الْإِنْسَانْ مدني بالطبع . وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ، ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات ، ويفصل تلك الحكومات . وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل .

فثبت أنه لا تنتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس ، ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس ، إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه ، عظم ضرره على الخلق ، فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ، ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه ، وذلك يفضي إلى تخريب العالم ، ووقوع الهرج ، والمرج في الخلق . وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك

.

أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الإلهية ، انتظمت مصالح العالم ، واتسعت أبوب الخيرات على أحسن الوجوه . فهذا هو المراد من قوله : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ يعني لا بد من حاكم بين الناس بالحق ، فكن أنت ذلك . ثم قال : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية ، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله ، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب . فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب . انتهى .

(391/661)

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ أي : خلقاً باطلاً ، لا حكمة فيه ، أو مبطلين عابثين ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الدخان : 38 - 39] . وهو أن تقوم الناس بالقسط في المعتقدات ، والعبادات ، والمعاملات : ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : ولذا أنكروا البعث ، والجزاء على الأعمال ، وأخذوا يصدون عن سبيل الله ، ويبغون في الأرض الفساد .

قال الزمخشري : ومن جحد الخالق فقد جحد الحكمة من أصلها ، ومن جحد الحكمة في

خلق العالم فقد سفه الخالق ، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره ، فكان إقراره بكونه خالقاً ، كلا إقرار .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال المهايمي : أي : أنترك البعث بالكلية ، أم نبعث ونجعل الذين آمنوا فشكروا نعمة العقل والكتاب , وعملوا الصالحات فشكروا نعمة الأعضاء ، كالمفسدين ، بصرف العقل , والأعضاء إلى غير [في المطبوع : الغير] ما خلقت له ؟ : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي : مخالفة أمر الله ، رعاية لمحبته : ﴿ كَالْفُجَّارِ ﴾ أي : الذين يخالفون أوامر الله ، ولا يبالون بعداوته ؛ أي : لا نفعل ذلك ، ولا يستوون عند الله .

(392/661)

قال ابن كثير : وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ، ويعاقب فيها هذا الفاجر ، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، على أنه لا بدّ من معاد وجزاء ، فإذا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ، ويموت كذلك ، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده ، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة ، من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار ، فتعين أن هناك داراً أخرى

لهذا الجزاء والمواساة ، ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة ، قال تعالى :

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ أي : كثير الخير : ﴿ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ قال المهايمي : أي : لينظروا في ألفاظه وترتيبها ولوازمها ، فيستخرجوا منها علوماً بطريق الاستدلال . وقال الزمخشري : تدبر الآيات : التفكر فيها ، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة ، والمعاني الحسنة ، لأن من اقتنع بظاهر المتلو لم يَحْلَ منه بكثير طائل . وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ، ومرة نثور لا يستولدها . وعن الحسن : قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : والله ! لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً ، وقد - [و] الله ! - أسقطه كله ، ما يُرى للقرآن عليه أثر في خُلُق ولا عمل ، والله ! ما هو بحفظ حروفه ، وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء ، ولا الورعة ، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء . اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، وأعذنا من القراء المتكبرين .

(393/661)

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : كثير الرجوع [في المطبوع : الوجوع] إلى الله تعالى ، بالتوبة والإنابة .

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ ﴾ أي : من الخيل ، جمع : صافن ، وهو الذي يقوم على طرف سنبك يد ، أو رجل ﴿ الْجِيَادُ ﴾ جمع جواد ، وهو الذي يسرع في جريه ، أو بمعنى الحسان جمع جيد .

﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ أي : آثرته عليه ، عدل عنه للمناسبة اللفظية وقصد التجنيس ، وفائدة التضمين إشارة إلى عروضه ، و : ﴿ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ إما مضاف لفاعله أو لمفعوله .

(394/661)

قال الزمخشري : والخير المال كقوله : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْراً ﴾ [البقرة : 180] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : 8] ، والمال : الخيل التي شغلته ، أو سمي الخيل خيراً كأنها نفس الخير ، لتعلق الخير بها . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : < الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة > ، وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم : < ما وصف لي رجل فرأيته ، إلا كان دون ما بلغني ، إلا زيد الخيل > وسماه زيد الخير ، وسأل

رجل بلالاً رضي الله عنه عن قوم يستبقون ، من السابق ؟ فقال : رسول الله صلّى الله عليه وسلم . فقال له الرجل : أردت الخيل . فقال : وأنا أردت الخير ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ أي : غربت الشمس ، متعلق بقوله تعالى : ﴿ أَحْبَبْتُ ﴾ وفيه استعارة تصريحية ، أو مكنية لتشبيه الشمس بامرأة حسناء ، أو ملك . وباء : ﴿ بِالْحِجَابِ ﴾ للظرفية ، أو الاستعانة ، أو الملابسة .

﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ يعني الصافنات ، وهذا من مقول القول ، فلا حاجة إلى تقدير قول آخر ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ أي : فجعل يمسح مسحاً ، أي : يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ، يعني يقطعها .

(395/661)

تنبيه :

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أن سليمان عليه السلام اشتغل بعرض الخيل حتى فات وقت صلاة العصر ، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً ، كما شغل النبي صلّى الله عليه وسلم يوم الخندق عن صلاة العصر ، حتى صلاها بعد الغروب ، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه ، ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة

لعذر الغزو ، والقتال . والخيلُ تراد للقتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعا فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة حتى لا يمكن [في المطبوع : تمكن] صلاة ، ولا ركوع ، ولا سجود ، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح تستر ، وهو منقول عن مكحول ، والأوزاعي ، وغيرهما ، والأول أقرب ؛ لأنه قال بعد : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ قال الحسن البصري : قال : لا ، والله ! لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك ، ثم أمر بها فعقرت . وكذلك قال قتادة .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبّاً لها ، وهذا القول اختاره ابن جرير . قال : لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويهلك مالاً من ماله بلا سبب ، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها ، وهذا الذي رجح ابن جرير ، فيه نظر ؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ، ولاسيما إذا كان غضباً لله تعالى ، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى ، عوضه الله عز وجل ما هو خير منها ، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوّها شهر ، ورواحها شهر ، فهذا أسرع وخير من الخيل .

روى الإمام أحمد عن أبي [في المطبوع : ابن] قتادة ، وأبي الدهماء ، وكانا يكثران السفر نحو البيت ، قالا : أتينا على رجل من أهل البادية فقال لنا البدوي ، أخذ بيدي رسول الله صلّى الله عليه وسلم فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل ، وقال : < إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله تعالى ، إلا أعطاك الله عز وجل خيراً منه > . [في المطبوع : لا تدع سبباً] .

انتهى ما ذكره ابن كثير .

وقال القاشاني : أي : طفق يمسح السيف بسوقها ، يعرقب بعضها ، وينحر بعضها ، كسراً لأصنام النفس التي تعبدها بهواها ، وقمعاً لسورتها وقواها ، ورفعاً للحجاب الحائل بينه وبين الحق ، واستغفاراً وإنابة إليه بالتجريد والترك .

وقد ذهب الرازي إلى تأويل آخر استصوبه ، قال : إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم . كما أنه كذلك في دين الإسلام ، ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو ، فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها ، وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله ، وطلب تقوية دينه . وهو المراد من قوله : ﴿ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أي : غابت عن بصره . ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه . فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور :

الأول – تشريفاً لها وإبانة لعزتها ، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو .

والثاني – أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتصنع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه . الثالث – أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها . فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها ، حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض .

وقال : فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقاً مطابقاً موافقاً . ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات .

(397/661)

قال : وأنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة ، مع أن العقل والنقل يردها ، وليس لهم في إثباتها شبهة ، فضلاً عن حجة ، فإن قيل : إن الجمهور فسروا الآية بذلك الوجه ، فما قولك فيه ؟ فنقول : لنا ههنا مقامان :

المقام الأول – أن ندعي أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها . وقد ظهر ، والحمد لله ، أن الأمر كما ذكرناه ، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه .

المقام الثاني – أن يقال : هب أن لفظ الآية لا يدل عليه ، إلا أنه كلام ذكره الناس . فما قولك فيه ؟ وجوابنا أن الأدلة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام ، ولم يدل دليل

على صحة هذه الحكايات ، ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية ، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالي بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم ؟ والله أعلم . انتهى كلام الرازي .

وسبقه ابن حزم حيث قال : تأويل الآية على أنه قتل الخيل ؛ إذ اشتغل بها عن الصلاة . خرافة موضوعة مكذوبة سخيفة باردة ، قد جمعت أفانين من القول ؛ لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها ، والتمثيل بها ، وإتلاف مال منتفع به بلا معنى ، ونسبة تضييع الصلاة إلى نبي مرسل ، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها ، وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير . من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس ، أو تلك الصافنات بحجابها ، ثم أمر بردها . فطفق مسحاً بسوقها ، وأعناقها بيده ، براً بها ، وإكراما لها ، هذا هو ظاهر الآية الذي لا يحتمل غيره ، وليس فيها إشارة أصلاً إلى ما ذكروه من قتل الخيل وتعطيل الصلاة ، وكل هذا قد قاله ثقات المسلمين . فكيف ، ولا حجة في قول أحد دون رسول الله صلّى الله عليه وسلم ؟ انتهى كلام ابن حزم .

(398/661)

وأقول : الذي يتجه أن هذه القصة أشير بها إلى نبأ لديهم ؛ لأن التنزيل الكريم مصدق الذي بين يديه ، إلا أن له الهيمنة عليه ، فما وقف فيه على حدّ من أنباء ما بين يديه ، يوقف عنده

ولا يتجاوز ، وحينئذ ، فالقصة المعروفة عندهم هي التي أشير إليها . لكن مع الهيمنة عليها ؛ إذ لا تقبل على علّاتها . وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ أي : ابتليناه : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ أي : جسماً مجسداً كناية عن صنم – على ما رووه – وإنما أوثر الجسد عليه – إجلالاً لسليمان عليه السلام ، وإشارة إلى أن قصته – إن صحت – كانت أمراً عرض وزال ، بدليل قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أي : إلى ربه بالتوبة والاستغفار ، كما بينه بقوله سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ أي : غيري ؛ لفخامته وعظمته ، هبة فضل ، وإيثار امتنان : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ .

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ أي : فذللناها لطاعته إجابة لدعوته : ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء ﴾ أي : لينة سهلة ، مع شدة وقوة ، لذا وصفت في الآية الأخرى بـ : ﴿ عَاصِفَةً ﴾ ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي : أراد .

﴿ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ عطف على الريح : ﴿ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ ﴾ أي : في فعر البحر .

﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أي : مسلسلين في الأغلال لا يبعثهم إلى عمل .

﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ ﴾ أي : على من شئت من المقربين وغيرهم : ﴿ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ أي امنع : ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي : غير محاسب على المنّ والإمساك ، فيكون حالاً من المستكين ، أو هو حال من العطاء ، أو صلة له ، وما بينهما اعتراض . والمعنى : إنه عطاء جمٌّ لا يكاد يمكن حصره ، فقد يعبر عن الكثير بـ : لا يعدّ ، ولا يحسب ، ونحوه .

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى ﴾ أي : لقربى في الدرجات ، و : ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي : مرجع في الآخرة .

تنبيه :

روى الأثريّون هنا قصصاً مطولة ومختصرة ، مؤتلفة ومختلفة . قال ابن كثير : وكلها متلقاة من أهل الكتاب ، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام ، فالظاهر أنهم يكذبون عليه ، ولهذا كان في سياقها منكرات ، وتقوية ابن حجر لبعض منها بأنه خرجه النسائي بإسناد قوي لا عبرة له ، فليس المقام قاصراً على صحة السند فحسب [و] لو كان ذلك في الصحيحين ، فأنى بمروي غيرهما ؟

وذكر الرازي أن القصص المروية هنا هي لأهل الحشو من تأويلهم ، وأما أهل التحقيق فلهم تأويلات ، وقد ساقها فانظرها .

وقال الإمام ابن حزم : معنى قوله تعالى : ﴿ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ أي : آتيناه من الملك ما اختبرنا به طاعته ، كما قال تعالى مصدقاً لموسى عليه السلام في قوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ إذ من الفتنة ما يهدي الله بها من يشاء ، وقال تعالى : ﴿ الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : 1 – 3] فهذه الفتنة هي الاختبار حتى يظهر المهتدي من الضال ، فهذه فتنة الله تعالى لسليمان ، إنما هي اختباره حتى ظهر فضله فقط ، وما عدا هذا خرافات ولّدها زنادقة اليهود وأشباههم .

وأما الجسد الملقى على كرسيه فقد أصاب الله تعالى به ما أراد . نؤمن بهذا كما هو ، ونقول : صدق الله عز وجل ، كل من عند الله ربنا . ولو جاء نص صحيح في القرآن ، أو عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم بتفسير هذا الجسد ما هو ، لقلنا به ، فإذا لم يأت بتفسيره ما هو نص ولا خبر صحيح ، فلا يحل لأحد القول بالظن الذي هو أكذب الحديث في ذلك ، فيكون كاذباً على الله عز وجل ، إلا أننا لا نشك البتة في بطلان قول من قال إنه كان جنياً تصور بصورته ، بل نقطع على أنه كذب ، والله تعالى لا يهتك ستر رسوله صلّى الله عليه وسلم هذا الهتك ، وكذلك نبعد في قول من قال إنه كان ولداً له ، أرسله إلى السحاب ليربيه . فسليمان عليه السلام كان أعلم من أن يربي ابنه بغير ما طبع الله عز وجل

بنية البشر عليه من اللبن والطعام . وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة ، لم يصح إسنادها قط . انتهى .

وزعم القاشاني أن حكاية الجني والخاتم مع سليمان ، هي من موضوعات حكماء اليهود ، كسائر ما وضعت الحكماء في تمثيلاتهم من حكايات أبسال وسلامان .

(401/661)

ثم أخذ القاشاني في تأويلها ، إلا أنه حل الإشكال بإشكال أعظم منه ، عفا الله عنه ، وقال قبلُ : إن صحت الحكاية في مطابقتها للواقع ، كان قد ابتلي بمثل ما ابتلي به ذو النون ، وآدم عليهما السلام . انتهى ، والله أعلم .

﴿ وَاذْكُرْ ﴾ أي : في باب الابتلاء ، وحسن عاقبة الصبر عليه : ﴿ عَبْدَنَا ﴾ أي : الكامل في التحقيق بالعبودية : ﴿ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ أي : دعاه وابتهل إليه قائلاً : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ﴾ أي : أصابني : ﴿ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ ﴾ أي : مشقة ، بضم النون ، وفتحها مع سكون الصاد ، وبفتحهما وضمهما : ﴿ وَعَذَابٍ ﴾ أي : ألم شديد . وقوله تعالى : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ حكاية لما أجيب به دعاؤه عليه السلام . أي : فاستجبنا له ، وقلنا : اركض برجلك . أي : اعدُ بها وامش ، فقد برأت وشفيت من مرضك ، وقوي

جسمك ، وصح بدنك : ﴿ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ أي : ماء تغتسل به ، وتشرب منه . والإشارة إلى عين ، أو نهر ، أو نحوهما .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم : ﴿ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي ترحماً منا عليه بهذا الإضعاف ، والمباركة : ﴿ وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي : وتذكيراً لهم لينتظروا الفرج بالصبر والنوال بصدق الاتكال .

(402/661)

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ أي : حزمة صغيرة : ﴿ فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ أي : في كل ما ابتليناه به : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : كثير الرجوع إلى الله تعالى ، بالإنابة والابتهال والعبادة .

تنبيهات :

الأول – كان أيوب عليه السلام نبياً غنياً من أرباب العقار والماشية ، وكان أميراً في قومه ، وكانت أملاكه ، ومنزله في الجنوب الشرقي من البحر الميت ، بين بلاد أدوم وصحراء العربية ، وكانت إذ ذاك خصيبة رائعة التربة ، كثيرة المياه المتسلسلة ، وكان زمنه بعد زمن إبراهيم ، وقبل زمن موسى عليهم السلام . هذا ما حققه بعض الباحثين . والله أعلم .

الثاني – يذكر كثير من المفسرين ههنا مرويات وقصصاً إسرائيلية في ابتلائه عليه السلام . ولا وثوق من ذلك كله إلا بمجمله ، وهو ما أشار له التنزيل الكريم ؛ لأنه المتيقن ، وهو أنه عليه الصلاة والسلام أصابته بلوى عظيمة في نفسه ، وماله ، وأهله ، وأنه صبر على ذلك صبراً صار يضرب به المثل لثباته ، وسعة صدره ، وشجاعته ، وأنه جوزي بحسنة صبره أضعافها المضاعفة .

الثالث – قال الزمخشري : فإن قلت : لِمَ نسب المسَّ إلى الشيطان ، ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ، ليقضي من إتعابهم ، وتعذيبهم ، وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب ؟

(403/661)

قلت : لما كانت وسوسته إليه ، وطاعته له فيما وسوس ، سبباً فيما مسه الله به من النصب ، والعذاب – نسبه إليه ، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو . وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق في دمغه ، ورده بالصبر الجميل . انتهى . الرابع – دل قوله

تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ الآية ، على تقدم يمين منه عليه السلام ، وقد رووا هنا آثاراً في المحلوف عليه ، لم يصح منها شيء ، فالله أعلم به ، ولا ضرورة لبيانه ؛ إذ القصد الإعلام برحمة أخرى ونعمة ثانية عليه ، صلوات الله عليه . وهي الدلالة إلى المخرج من الحنث ، برخصة وطريقة سهلة سمحة ترفع الحرج ، ونحن نورد هنا أمثل ما كتب في الآية ، إيقافاً للقارئ عليه :

قال السيوطي في " الإكليل " : أخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم أن أيوب حلف ليجلدن امرأته مائة جلد . فلما كشف الله عنه البلاء أمر أن يأخذ ضغثاً فيضربها به . فأخذ شماريخ مائة ثم ضربها ضربة واحدة . قال سعيد بن جبير : وهي لهذه الأمة لمن حلف على مثل ما حلف عليه أيوب . ثم أخرج أيضاً عن عطاء قال : هي للناس عامة . وعن مجاهد قال : كانت لأيوب خاصة . قال الكيا الهراسي : ذهب الشافعي وأبو حنيفة وزفر ، إلى أن من فعل ذلك فقد برّ في يمينه ، وخالف مالك ، ورآه خاصاً بأيوب .

قال : وفي الآية دليل على أن للزوج ضرب زوجته ، وأن يحلف ولا يستثني .

انتهى .

واستدل بهذه الآية على أن الاستثناء شرطه الاتصال ؛ إذ لو لم يشترط لأمره تعالى بالاستثناء ، ولم يحتج إلى الضرب بالضغث ، واستدل عطاء بالآية على مسألة أخرى . فأخرج سعيد بن منصور عنه بسند صحيح ، أن رجلا قال له : إني أردت أن لا أكسي امرأتي ذراعاً حتى تقف بعرفة . فقال : احملها على حمار ثم اذهب فقف بها بعرفة . فقال : إنما عنيت يوم عرفة . فقال عطاء : وأيوب حين حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة ، ما نوى أن يضربها بالضغث ، إنما أمره الله أن يأخذ ضغثاً فيضربها به . قال عطاء : إنما القرآن عِبَرٌ . انتهى كلام " الإكليل " .

وقد رد الإمام ابن القيم في كتابه " إغاثة اللهفان " الاستدلال بهذه الآية على جواز الحيلة ، وعبارته : وأما قوله تعالى لأيوب عليه السلام : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ ﴾ فمن العجب أن يحتج بهذه الآية على من يقول : إنه لو حلف ليضربنه عشرة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة لم يبرّ في يمينه ، هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد . وقال الشافعي : إن علم أنها مسته كلها ، برّ في يمينه ، وإن علم أنها لم تمسه ، لم يبرّ ، وإن شك لم يحنث ، ولو كان هذا موجباً لبرّ الحالف ، لسقط عن الزاني والقاذف والشارب بعدد الضرب ، بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ، ويضربه بها ضربة واحدة ، وهذا إنما يجري في المرض كما قال الإمام أحمد ، في المريض عليه الحد ، ويضرب

بعثكال يسقط عنه الحد . واحتج بما رواه عن أبي أمامة بن سهل ، عن سعيد بن سعد بن عُبَادَةَ قال : كان بين أبنائنا إنسان مخدجٍ ضعيف ، لم يرع أهل الدار إلا وهو على أمةٍ من إماء الدار يخبث بها ، وكان مسلماً ، فرفع شأنه سعد إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم . فقال : < اضربوه حدّه > قالوا يا رسول الله ! إنه أضعف من ذلك إن ضربناه مائة قتلنه . فقال : < فخذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ ، فاضربوه ضربة واحدة ، وخلوا سبيله > .

(405/661)

وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق ؛ فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته ، وخلاصة من دائه ، تلتمس له الدواء بما عليه ، فلما لقيها الشيطان ، وقال ما قال ، أخبرت أيوب عليه السلام بذلك ، فقال : إنه الشيطان . ثم حلف لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوط فكانت معذورة محسنة في شأنه ، ولم يكن في شرعهم كفارة . فإنه لو كان في شرعهم كفارة ، لعدل إلى التفكير ، ولم يحتج إلى ضربها ، فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود . وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذوراً خفف عنه ، بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط فيضرب بها ضربة واحدة . وامرأة أيوب كانت معذورة ، لم تعلم أن الذي خاطبها

الشيطان ، وإنما قصدت الإحسان . فلم تكن تستحق العقوبة ، فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور ، هذا مع رفقها به وإحسانها إليه فجمع له بين البر في يمينه , والرفق بامرأته المحسنة المعذورة ، التي لا تستحق العقوبة . فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام ، لنص السنة ، في شأن الضعيف الذي زنى . فلا يتعدى بهما عن محلهما .

فإن قيل : فقولوا في نظير ذلك ممن حلف ليضربن امرأته ، أو أمته مائة ، وكانتا معذورتين لا ذنب لهما ، إنه يبر بجمع ذلك في ضربهما بمائة شمراخ . قيل : قد جعل الله له مخرجاً بالكفارة ، ويجب عليه أن يكفر يمينه ، ويقضي الله بالبر في يمينه ها هنا ، ولا يحل له أن يبر فيها ، بل بره هو حنثه مع الكفارة ، ولا يحل له أن يضربها ، لا مفرقاً ، ولا مجموعاً .

(406/661)

فإن قيل : فإذا كان الضرب واجباً كالحد ، هل تقولون ينفعه ذلك ؟ قيل : إما أن يكون العذر مرجو الزوال كالحر ، والبرد الشديد ، والمرض اليسير ، فهذا ينتظر زواله . ثم يحد الحد الواجب . كما روى مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه ، أن أمة رسول الله صلّى الله عليه وسلم زنت ، فأمرني أن أجلدها . فأتيتها فإذا هي حديثة عهد بنفاس ،

فخشيت إن جلدتها أن أقتلها ، فذكرت ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلم . فقال : < أحسنت اتركها حتى تَمَاثل > . انتهى كلام ابن القيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 122 . 151 ﴾

(407/661)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) ﴾

هذا الحرف . . " صاد " يقسم به الله سبحانه كما يقسم بالقرآن ذي الذكر . وهذا الحرف من صنعة الله تعالى . فهو موجده . موجده صوتاً في حناجر البشر ؛ وموجده حرفاً من حروف الهجاء التي يتألف من جنسها التعبير القرآني . وهي في متناول البشر ولكن القرآن ليس في متناولهم لأنه من عند الله . وهو متضمن صنعة الله التي لا يملك البشر الإتيان بمثلها لا في القرآن ولا في غير القرآن . وهذا الصوت . . " صاد " . . الذي تخرجه حنجرة الإنسان . إنما يخرج هكذا من هذه الحنجرة بقدرة الخالق المبدع ، الذي صنع الحنجرة وما تخرجه من أصوات . وما يملك البشر أن يصنعوا مثل هذه الجنجرة الحية التي تخرج هذه الأصوات ! وإنها لمعجزة خارقة لو كان الناس يتدبرون الخوارق المعجزة في كل جزئية من

جزئيات كيانهم القريب ! ولو عقلوها ما دهشوا لوحي يوحيه الله لبشر يختاره منهم .

فالوحي ليس أكثر غرابة من إيداع تكوينهم هذه الخصائص المعجزات !

﴿ صاد . والقرآن ذي الذكر ﴾ . .

والقرآن يشتمل الذكر كما يشتمل غيره من التشريع والقصص والتهذيب . . ولكن الذكر والاتجاه إلى الله هو الأول . وهو الحقيقة الأولى في هذا القرآن . بل إن التشريع والقصص وغيرهما إن هي إلا بعض هذا الذكر . فكلها تذكر بالله وتوجه القلب إليه في هذا القرآن .

وقد يكون معنى ذي الذكر . أي المذكور المشهور . وهو وصف أصيل للقرآن :

﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ . .

وهذا الإضراب في التعبير يلفت النظر .

(408/661)

فهو يبدو كأنه انقطاع عن الموضوع الأول . موضوع القسم بصاد وبالقرآن ذي الذكر . هذا القسم الذي لم يتم في ظاهر التعبير . لأن المقسم عليه لم يذكر واكتفى بالمقسم به ثم أخذ يتحدث بعده عن المشركين . وما هم فيه من استكبار ومن مشاقة . ولكن هذا الانقطاع عن القضية الأولى هو انقطاع ظاهري ، يزيد الاهتمام بالقضية التي تليه . لقد أقسم بصاد

وبالقرآن ذي الذكر . فدل على أنه أمر عظيم ، يستحق أن يقسم به الله سبحانه . ثم عرض إلى جانب هذا استكبار المشركين ومشاقتهم في هذا القرآن . فهي قضية واحدة قبل حرف الإضراب ﴿ بل ﴾ وبعده . ولكن هذا الالتفات في الأسلوب يوجه النظر بشدة إلى المفارقة بين تعظيم الله سبحانه لهذا القرآن ، واستكبار المشركين عنه ومشاقتهم فيه . وهو أمر عظيم !

وعقب على الاستكبار والمشاقة ، بصفحة الهلاك والدمار لمن كان قبلهم ، ممن كذبوا مثلهم ، واستكبروا استكبارهم ، وشاقوا مشاقتهم . ومشهدهم وهم يستغيثون فلا يغاثون ، وقد تخلى عنهم الاستكبار وأدركتهم الذلة ، وتخلوا عن الشقاق ولجأوا إلى الاستعطاف . ولكن بعد فوات الأوان :

﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ، فنادوا ، ولات حين مناص ﴾ !

فلعلهم حين يتملون هذه الصفحة أن يطامنوا من كبريائهم ؛ وأن يرجعوا عن شقاقهم . وأن يتمثلوا أنفسهم في موقف أولئك القرون . ينادون ويستغيثون . وفي الوقت أمامهم فسحة ، قبل أن ينادوا ويستغيثوا ، ولات حين مناص . ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخلاص !

يطرق قلوبهم تلك الطرقة ، ويوقع عليها هذا الإيقاع قبل أن يعرض تفصيل تلك العزة وهذا الشقاق . . ثم يفصل الأمر ويحكي ما هم فيه من عزة وشقاق :

﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة

إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب ! وانطلق الملأ منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم . إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق ﴾ . .

(409/661)

هذه هي العزة : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ . . وذلك هو الشقاق : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً . . ؟ ﴾ . . ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة . . ! ﴾ . . ﴿ هذا ساحر كذاب ﴾ . . ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ . . الخ . الخ . .

وقصة العجب من أن يكون الرسول بشراً قصة قديمة ، مكرورة معادة ، قالها كل قوم وتعللوا بها منذ بدء الرسالات . وتكرر إرسال الرسل من البشر ؛ وظل البشر مع هذا يكررون الاعتراض :

﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ . .

وأوجب شيء وأقرب شيء إلى الحكمة والمنطق أن يكون المنذر منهم . بشراً يدرك كيف يفكر البشر وكيف يشعرون ؛ ويحس ما يعتلج في نفوسهم ، وما يشتجر في كيانهم ، وما يعانون من نقص وضعف ، وما يجدون من ميول ونزعات ، وما يستطيعون أو لا يستطيعون من جهد وعمل ، وما يعترضهم من عوائق وعقبات ، وما يعتريهم من مؤثرات

واستجابات . .

بشراً يعيش بين البشر وهم منهم فتكون حياته قدوة لهم ؛ وتكون لهم فيه أسوة .

وهم يحسون أنه واحد منهم ، وأن بينهم وبينه شبهاً وصلة . فهم مطالبون إذن بالمنهج الذي يأخذ به نفسه ، ويدعوهم لاتباعه . وهم قادرون على الأخذ بهذا المنهج فقد حققه أمامهم بشر منهم في واقع حياته . .

بشراً منهم . من جيلهم . ومن لسانهم . يعرف مصطلحاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتفصيلات حياتهم . ويعرفون لغته ، ويفهمون عنه ، ويتفاهمون معه ، ويتجاوبون وإياه . ومن ثم لا تقوم بينه وبينهم جفوة من اختلاف جنسه . أو اختلاف لغته . أو اختلاف طبيعة حياته أو تفصيلات حياته .

(410/661)

ولكن أوجب شيء وأقربه إلى أن يكون ، هو الذي كان دائماً موضع العجب ، ومحط الاستنكار ، وموضوع التكذيب ! ذلك أنهم كانوا لا يدركون حكمة هذا الاختيار ؛ كما كانوا يخطئون تصور طبيعة الرسالة . وبدلاً من أن يروها قيادة واقعية للبشرية في الطريق إلى الله . كانوا يتصورونها خيالية غامضة محوطة بالأسرار التي لا يصح أن تكون مفهومة هكذا

وقريبة ! كانوا يريدونها مثلاً خيالية طائرة لا تلمس بالأيدي ، ولا تبصر في النور ، ولا تدرك في وضوح ، ولا تعيش واقعية في دنيا الناس ! وعندئذ يستجيبون لها كأسطورة غامضة كما كانوا يستجيبون للأساطير التي تؤلف عقائدهم المتهافتة !

ولكن الله أراد للبشرية وبخاصة في الرسالة الأخيرة أن تعيش بهذه الرسالة عيشة طبيعية واقعية . عيشة طيبة ونظيفة وعالية ، ولكنها حقيقة في هذه الأرض . لا وهماً ولا خيالاً ولا مثلاً طائراً في سماء الأساطير والأحلام ! يعز على التحقيق ويهرب في ضباب الخيالات والأوهام !

﴿ وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب ﴾ . .

قالوا كذلك استبعاداً لأن يكون الله قد أوحى إلى رجل منهم . وقالوه كذلك تنفيراً للعامة من محمد صلى الله عليه وسلم وتهويشاً على الحق الواضح في حديثه ، والصدق المعروف عن شخصه .

والحق الذي لا مرية فيه أن كبراء قريش لم يصدقوا أنفسهم لحظة وهم يقولون عن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذي يعرفونه حق المعرفة : إنه ساحر وإنه كذاب ! إنما كان هذا سلاحاً من أسلحة التهويش والتضليل وحرب الخداع التي يتقنها الكبراء ؛ ويتخذونها لحماية أنفسهم ومراكزهم من خطر الحق الذي يتمثل في هذه العقيدة ؛ ويزلزل القيم الزائفة والأوضاع الباطلة التي يستند إليها أولئك الكبراء !

ولقد نقلنا من قبل وننقل هنا واقعة الاتفاق بين كبراء قريش على استخدام حرب الدعاية ضد محمد صلى الله عليه وسلم والحق الذي جاء به ، لحماية أنفسهم وأوضاعهم بين الجماهير في مكة . ولصد القبائل التي كانت تفد إلى مكة في موسم الحج ، عن الدين الجديد وصاحبه صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق : إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم .

فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به .

قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ،

فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا له أمره . .

فذلك كان شأن الملأ من قريش في قولهم : ساحر كذاب . وهم يعلمون أنهم يكذبون فيما يقولون . ويعرفون أنه لم يكن صلى الله عليه وسلم بساحر ولا كذاب !

(412/661)

وعجبوا كذلك من دعوته إياهم إلى عبادة الله الواحد . وهي أصدق كلمة وأحقها بالاستماع :

﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا

اختلاق ﴾ . .

ويصور التعبير القرآني مدى دهشتهم من هذه الحقيقة الفطرية القريبة . . ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ ﴾ كأنه الأمر الذي لا يتصوره متصور ! ﴿ إن هذا لشيء عجاب ﴾ . . حتى البناء اللفظي ﴿ عجاب ﴾ يوحي بشدة العجب وضخامته وتضخيمه !

كما يصور طريقتهم في مقاومة هذه الحقيقة في نفوس الجماهير ، وتثبيتهم على ما هم عليه من عقيدة موروثة متهافتة . وإيهامهم أن وراء الدعوة الجديدة خبيئاً غير ظاهرها ؛ وأنهم هم الكبراء العليمون ببواطن الأمور ، مدركون لما وراء هذه الدعوى من خبيء ! ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ﴾ . . فليس هو الدين ، وليست هي العقيدة ، إنما هو شيء آخر يراد من وراء هذه الدعوة . شيء ينبغي أن تدعه الجماهير لأربابه ، ولمن يحسنون فهم المخبآت وإدراك المناورات ! وتنصرف هي إلى عادتها الموروثة ، وآلهتها المعروفة ، ولا تعني نفسها بما وراء المناورة الجديدة ! فهناك أربابها الكفيلون بمقاومتها .

فلتطمئن الجماهير ، فالكبراء ساهرون على مصالحهم وعقائدهم وآلهتهم !

إنها الطريقة المألوفة المكرورة التي يصرف بها الطغاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشؤون العامة ، والبحث وراء الحقيقة . وتدبر ما يواجههم من حقائق خطرة . ذلك أن اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق بأنفسم خطر على الطغاة ، وخطر على الكبراء ، وكشف

للأباطيل التي يغرقون فيها الجماهير . وهم لا يعيشون إلا بإغراق الجماهير في الأباطيل !

ثم يموهون على الناس بظواهر العقيدة القريبة منهم . عقيدة أهل الكتاب . بعدما دخلت إليها الأساطير التي حرفتها عن التوحيد الخالص فيقولون :

(413/661)

﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق ﴾ .

وكانت عقيدة التثليث قد شاعت في المسيحية . وأسطورة العزير قد شاعت كذلك في اليهودية . فكبراء قريش كانوا يشيرون إلى هذا وهم يقولون : ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ . . ما سمعنا بهذا التوحيد المطلق لله . الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فما يقول إذن إلا اختلاقاً !

ولقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على تجريد عقيدة التوحيد وتخليصها من كل ما علق بها من الأساطير والأوشاب والانحرافات التي طرأت على العقائد التي سبقته . حرص هذا الحرص لأن التوحيد حقيقة أولية كبيرة يقوم عليها هذا الوجود كله ؛ ويشهد بهذا هذا الوجود شهادة واضحة أكيدة . ولأن هذا التوحيد في الوقت ذاته قاعدة لا تصلح الحياة البشرية كلها في أصولها وفروعها إلا إذا قامت عليها .

ويحسن ونحن نستعرض مقاومة قريش لهذه العقيدة ودهشتها وعجبها من جعل الآلهة إلهاً واحداً . ومقاومة المشركين قبل قريش على مدار القرون ومدار الرسالات لهذه الحقيقة كذلك . وإصرار كل رسول عليها ، وقيام كل رسالة على أساسها . والجهد الضخم الذي بذل في إقرار هذه الحقيقة في نفوس البشر على مدار الزمان . . يحسن أن نتوسع قليلاً في بيان قيمة هذه الحقيقة .

إنها حقيقة أولية كبيرة يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما في الوجود . .

إن وحدة النواميس الكونية التي تتحكم في هذا الكون الذي نراه واضحة ؛ وناطقة بأن الإرادة التي أنشأت هذه النواميس لا بد أن تكون واحدة . وحيثما نظرنا إلى هذا الكون واجهتنا هذه الحقيقة ، حقيقة وحدة النواميس . وحدة تشي بوحدة الإرادة .

(414/661)

كل ما في هذا الكون في حركة دائمة منتظمة . . الذرة الصغيرة وهي الوحدة الأولى لكل ما في الكون من شيء حي أو غير حي في حركة مستمرة . فهي مؤلفة من الكترونات تتحرك حول النواة المؤلفة من بروتونات . كما تدور الكواكب حول الشمس في المجموعة الشمسية . وكما تدور المجرة المؤلفة من مجموعات شمسية ومن كتل سديمية حول نفسها . واتجاه

الدورة في الكواكب وفي الشمس وفي المجرة اتجاه واحد من الغرب إلى الشرق . عكس دورة الساعة ! .

والعناصر التي تتكون منها الأرض وبقية الكواكب السيارة واحدة . وعناصر النجوم هي كذلك من عناصر الأرض .

والعناصر مؤلفة من ذرات . والذرات مؤلفة من الكترونات وبروتونات ونيوترونات . . كلها مؤلفة من هذه اللبنات الثلاث بلا استثناء . .

" وفي الوقت الذي ترد فيه المادة إلى ثلاث لبنات . يرد العلماء " القوى " إلى أصل واحد : الضوء والحرارة . الأشعة السينية ، الأشعة اللاسلكية ، الأشعة الجيمية . وكل إشعاع في الدنيا . . كلها صور متعددة لقوة واحدة . تلك القوة المغناطيسية الكهربائية . إنها جميعاً تسير بسرعة واحدة ، وما اختلافها إلا اختلاف موجة .

" المادة ثلاث لبنات . والقوى موجات متأصلات .

" ويأتي أينشتين وفي نظريته النسبية الخاصة ، يكافئ بين المادة والقوى ؛ ويقول : إن المادة والقوى شيء سواء . وتخرج التجارب تصدق دعواه . وخرجت تجربة أخيرة صدقت دعواه بأعلى صوت تسمعه الدنيا . ذلك انفلاق الذرة في القنبلة اليودينوتية .

" المادة والقوى إذن شيء سواء " .

هذه هي الوحدة في تكوين الكون كما عرفها الإنسان أخيراً في تجاربه المحسوسة . . وهناك الوحدة الظاهرة في نظام الكون كما أشرنا إلى قانون الحركة الدائبة . ثم هي الحركة المنظمة المنسقة التي لا يشذ فيها شيء في هذا الكون . ولا يضطرب فيها شيء . . توازن هذه الحركة في جميع الكائنات بحيث لا يعطل بعضها بعضاً ولا يصدم بعضها بعضاً . وأقرب مثل هذه الكواكب والنجوم والمجرات الضخمة التي تسبح في الفضاء : ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ والتي تشهد بأن مجريها في هذا الفضاء ، المنظم لحركتها وأبعادها ومواقعها واحد لا يتعدد ، عارف بطبيعتها وحركتها . مقدر لهذا كله في تصميم هذا الكون العجيب .

ونكتفي بهذه اللمحة الخاطفة في تتبع حقيقة الوحدة التي ينطق بها نظام هذا الكون ويشهد بها كل ما فيه .

وهي حقيقة لا يستقيم أمر هذه البشرية إلا عليها . فوضوح هذه الحقيقة في الضمير البشري ذو أهمية بالغة في تصور البشر للكون من حولهم ، ولموضعهم هم في هذا الكون ، ولعلاقتهم بكل ما فيه من أشياء وأحياء . ثم في تصورهم لله الواحد ولحقيقة ارتباطهم به ، وبما عداه ومن عداه في هذا الوجود . . وكل ذلك ذو أهمية بالغة في تكييف مشاعر البشر وتصورهم لكل شؤون الحياة .

والمؤمن بالله الواحد . المدرك لمعنى هذه الوحدانية ، يكيف علاقته بربه على هذا الأساس ، ويضع علاقته بمن عدا الله وبما عداه ، في موضعها الذي لا تتعداه ، فلا تتوزع طاقاته ومشاعره بين آلهة مختلفة الأمزجة ! ولا بين متسلطين عليه غير الله من خلق الله ! والمؤمن بأن الله الواحد هو مصدر هذا الوجود الواحد يتعامل مع الوجود ومن فيه وما فيه على أساس من التعارف والتعاون والألفة والمودة ، يجعل للحياة طعماً وشكلاً غير ما لها في نفس من لا يؤمن بهذه الوحدة ، ولا يحسها بينه وبين كل ما حوله ومن حوله .

(416/661)

والمؤمن بوحدة الناموس الإلهي في الكون يتلقى تشريعات الله له وتوجيهاته تلقياً خاصاً ، لينسق بين القانون الذي يحكم حياة البشر والناموس الذي يحكم الكون كله ؛ ويؤثر قانون الله ، لأنه هو الذي ينسق بين حركة البشر وحركة الكون العام .

وعلى الجملة فإن إدراك هذه الحقيقة ضروري لصلاح الضمير البشري واستقامته واستنارته وتصالحه مع الكون من حوله . وتنسيق حركته مع الحركة الكونية العامة . ووضوح الارتباطات بينه وبين خالقه . ثم بينه وبين الكون حوله . ثم بينه وبين كل ما في الكون من أحياء ومن أشياء ! وما يتبع هذا من تأثرات أخلاقية وسلوكية واجتماعية

وإنسانية عامة في كل مجال من مجالات الحياة .

ومن ثم كان هذا الحرص على إقرار عقيدة التوحيد . وكان هذا الجهد الموصول المكرور مع كل رسالة وكل رسول . وكان هذا الإصرار من الرسل صلوات الله عليهم على كلمة التوحيد بلا هوادة .

وفي القرآن الكريم يتضح الحرص والجهد والإصرار في تكرار عرض قضية التوحيد ومقتضياتها في السور المكية على وجه التخصيص وفي السور المدنية كذلك في صور تناسب طبيعة الموضوعات التي تعالجها السور المدنية .

وهذه هي الحقيقة التي كان المشركون يعجبون ذلك العجب من إصرار محمد صلى الله عليه وسلم عليها ويحاورونه فيها ويداورونه ، ويعجبون الناس منه ومنها ، ويصرفونهم عنها بكل وسيلة .

وقد مضوا بعد هذا يعجبون من اختياره صلى الله عليه وسلم ليكون رسولاً :

﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ ﴾ . .

وما كان في هذا من غرابة . ولكنه كان الحسد . الحسد الذي يدعو إلى العناد والمكابرة والشقاق .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، أنه حدث ، أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو الثقفي حليف بني زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي من الليل في بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً . ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوه أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض . لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك . ثم تفرقوا . . فلما أصبح الأخنس ابن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك ! قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل

فدخل عليه في بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ! فقام عنه الأخنس وتركه . .

(418/661)

فهو الحسد كما نرى . يقعد بأبي جهل عن الاعتراف بالحق الذي غالب نفسه عليه فغلبته ثلاث ليال ! هو الحسد أن يكون محمد قد بلغ إلى مالا مطمع فيه لطامع . وهو السر في قولة من كانوا يقولون :

﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ ﴾ . .

وهم الذين كانوا يقولون : ﴿ لولا نزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ يقصدون بالقريتين مكة والطائف ، وفيهما كان كبراء المشركين وعظماؤهم الحاكمون المسودون ؛ الذين كانوا يتطلعون إلى السيادة عن طريق الدين ، كلما سمعوا أن نبياً جديداً قد أطل زمانه . والذين صدموا صدمة الحسد والكبر حينما اختار الله على علم نبيه محمداً صلى

الله عليه وسلم وفتح له أبواب رحمته وأفاض عليه من خزائنها ما علم أنه يستحقه دون العالمين .

ويرد على تساؤلهم ذاك رداً تفوح منه رائحة التهكم والإنذار والتهديد :

﴿ بل هم في شك من ذكري . بل لما يذوقوا عذاب ﴾ . .

إنهم يسألون : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ! ﴾ . . وهم في شك من الذكر ذاته ، لم تستيقن نفوسهم أنه من عند الله ؛ وإن كانوا يمارون في حقيقته ، وهو فوق المألوف من قول البشر مما يعرفون .

ثم يضرب عن قولهم في الذكر ، وعن شكهم فيه ، ليستقبل بهم تهديداً بالعذاب ، ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ . . وكأنما ليقول : إنهم يقولون ما يقولون لأنهم في منجاة بعد من العذاب ؛ فأما حين يذوقونه فلن يقولوا من هذا شيئاً ، لأنهم حينئذ سيعرفون !

ثم يعقب على استكثارهم رحمة الله لمحمد في اختياره رسولاً من بينهم ، بسؤالهم إن كانوا يملكون خزائن رحمة الله ، حتى يتحكموا فيمن يعطون ومن يمنعون :

﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ ﴾ . .

ويندد بسوء أدبهم مع الله ، وتدخلهم فيما ليس من شأن العبيد . والله يعطي من يشاء ويمنع من يريد . وهو العزيز القادر الذي لا يملك أحد أن يقف لإرادته . وهو الوهاب الكريم الذي لا ينفذ عطاؤه .

وهم يستكثرون على محمد صلى الله عليه وسلم أن يختاره الله . فبأي حق وبأية صفة يوزعون عطاء الله ؟ وهم لا يملكون خزائن رحمته ؟ !

﴿ أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما ؟ ﴾ .

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17)

هذا الدرس كله قصص وأمثلة من حياة الرسل صلوات الله عليهم تعرض كي يذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدع ما يعانيه من قومه من تكذيب واتهام وتعجيب وافتراء ؛ ويصبر على ما يواجهونه به مما تضيق به الصدور .

وهذا القصص يعرض في الوقت ذاته آثار رحمة الله بالرسل قبله : وما أغدق عليهم من نعمة وفضل ، وما آتاهم من ملك وسلطان ومن رعاية وإنعام . وذلك رداً على عجب قومه من اختيار الله له . وما هو ببدع من الرسل . وفيهم من آتاه الله إلى جانب الرسالة الملك والسلطان ؛ وفيهم من سخر له الجبال يسبحن معه والطير ؛ وفيهم من سخر له الريح والشياطين . . كداود وسليمان . . فما وجه العجب في أن يختار الله محمداً الصادق لينزل عليه الذكر من بين قريش في آخر الزمان ؟

كذلك يصور هذا القصص رعاية الله الدائمة لرسله ، وحياطتهم بتوجيهه وتأديبه . فقد كانوا بشراً كما أن محمداً صلى الله عليه وسلم بشر وكان فيهم ضعف البشر . وكان الله يرعاهم فلا يدعهم لضعفهم ؛ إنما يبين لهم ويوجههم ، ويبتليهم ليغفر لهم ويكرمهم . وفي هذا ما يطمئن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى رعاية ربه له ، وحمايته وحياطته في كل خطوة يخطوها في حياته .

﴿ اصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داود ذا الأيد ، إنه أواب إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ . .

(420/661)

﴿ اصبر ﴾ . . إنها الإشارة إلى الطريق المطروق في حياة الرسل عليهم صلوات الله الطريق الذي يضمهم أجمعين . فكلهم سار في هذا الطريق . كلهم عانى . وكلهم ابتلي . وكلهم صبر . وكان الصبر هو زادهم جميعاً وطابعهم جميعاً . كل حسب درجته في سلم الأنبياء . . لقد كانت حياتهم كلها تجربة مفعمة بالابتلاءات ؛ مفعمة بالآلام ؛ وحتى السراء كانت ابتلاء وكانت محكاً للصبر على النعماء بعد الصبر على الضراء . وكلتاهما في

حاجة إلى الصبر والاحتمال . .

ونستعرض حياة الرسل جميعاً كما قصها علينا القرآن الكريم فنرى الصبر كان قوامها ، وكان العنصر البارز فيها . ونرى الابتلاء والامتحان كان مادتها وماءها . .

لكأنما كانت تلك الحياة المختارة بل إنها لكذلك صفحات من الابتلاء والصبر معروضة للبشرية ، لتسجل كيف تنتصر الروح الإنسانية على الآلام والضرورات ؛ وكيف تستعلي على كل ما تعتز به في الأرض ؛ وتتجرد من الشهوات والمغريات ؛ وتخلص لله وتنجح في امتحانه ، وتختاره على كل شيء سواه . . ثم لتقول للبشرية في النهاية : هذا هو الطريق . هذا هو الطريق إلى الاستعلاء ، وإلى الارتفاع . هذا هو الطريق إلى الله .

﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ . . وقد قالوا : ﴿ هذا ساحر كذاب ﴾ . . وقالوا : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب ﴾ . . وقالوا : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ ﴾ . . وغير ذلك كثير . والله يوجه نبيه إلى الصبر على ما يقولون . ويوجهه إلى أن يعيش بقلبه مع نماذج أخرى غير هؤلاء الكفار . نماذج مستخلصة كريمة . هم إخوانه من الرسل الذين كان يذكرهم صلى الله عليه وسلم ويحس بالقرابة الوثيقة بينه وبينهم ؛ ويتحدث عنهم حديث الأخوة والنسب والقرابة . وهو يقول . . رحم الله أخي فلاناً . . أو أنا أولى بفلان .

﴿ اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾ . .

يذكر داود هنا بأنه ذو القوة . وبأنه أواب . . وقد جاء من قبل ذكر قوم نوح وعاد وفرعون ذي الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة . . وهم طغاة بغاة . كان مظهر قوتهم هو الطغيان والبغي والتكذيب . فأما داود فقد كان ذا قوة ، ولكنه كان أواباً ، يرجع إلى ربه طائعاً تائباً عابداً ذاكراً . وهو القوي ذو الأيد والسلطان .

وقد مضى في سورة البقرة بدء قصة داود ، وظهوره في جيش طالوت ، في بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم : ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله . فاختار لهم طالوت ملكاً . ولقي بهم عدوهم الجبار جالوت وجنوده . وقتل داود جالوت . وكان إذ ذاك فتى . ومنذ ذلك الحين ارتفع نجمه حتى ولي الملك أخيراً ؛ وأصبح ذا سلطان . ولكنه كان أواباً رجاعاً إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار .

ومع النبوة والملك آتاه الله من فضله قلباً ذاكراً وصوتاً رخيماً ، يرجع به تراتيله التي يمجد فيها ربه . وبلغ من قوة استغراقه في الذكر ، ومن حسن حظه في الترتيل ، أن تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون . وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال والطير في صلتها كلها ببارئها ، وتمجيدها له وعبادتها . فإذا الجبال تسبح معه ، وإذا الطير مجموعة عليه ، تسبح معه

لمولاها ومولاه :

﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق . والطير محشورة كل له أواب ﴾ . .

ولقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ . . الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشي والإشراق ، حينما يخلو إلى ربه ، يرتل ترانيمه في تمجيده وذكره . والطير تتجمع على نغماته لتسمع له وترجع معه أناشيده . . لقد يقف الناس مدهوشين للنبأ ، إذ يخالف مألوفهم ، ويخالف ما اعتادوا أن يحسوه من العزلة بين جنس الإنسان ، وجنس الطير ، وجنس الجبال !

(422/661)

ولكن فيم الدهش ؟ وفيم العجب ؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة . وراء تميز الأجناس والأشكال والصفات والسمات . . حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارئ الوجود كله : أحيائه وأشيائه جميعاً . وحين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء ، فإن تلك الحواجز تنزاح ؛ وتنساح الحقيقة المجردة لكل منهم . فتتصل من وراء حواجز الجنس والشكل والصفة والسمة التي تميزهم وتعزلهم في مألوف الحياة !

وقد وهب الله عبده داود هذه الخاصية ؛ وسخر الجبال معه يسبحن بالعشي

والإشراق .

وحشر عليه الطير ترجع مع ترانيمه تسبيحاً لله . وكانت هذه هبة فوق الملك والسلطان ، مع النبوة والاستخلاص .

﴿ وشددنا ملكه . وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ . .

فكان ملكه قوياً عزيزاً . وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعاً . وفصل الخطاب قطعه والجزم فيه برأي لا تردد فيه . وذلك مع الحكم ومع القوة غاية الكمال في الحكم والسلطان في عالم الإنسان .

ومع هذا كله فقد تعرض داود للفتنة والابتلاء ؛ وكان عين الله عليه لترعاه وتقود خطاه ، وكانت يد الله معه تكشف له ضعفه وخطأه ، وتوقيه خطر الطريق وتعلمه كيف يتوقاه :

﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ؟ إذ دخلوا على داود ففزع منهم . قالوا : لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض . فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط . واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ، فقال : اكفلنيها ، وعزني في الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه . فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ﴾ . .

وبيان هذه الفتنة أن داود النبي الملك ، كان يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك ، وللقضاء بين الناس . ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحاً لله في المحراب . وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس .

وفي ذات يوم فوجئ بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه . ففزع منهم . فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين ! فبادرا يطمئنانه . ﴿ قالوا : لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض ﴾ . وجئنا للتقاضي أمامك ﴿ فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ . . وبدأ أحدهما فعرض خصومته : ﴿ إنَّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة . فقال : اكفلنيها ﴾ (أي اجعلها لي وفي ملكي وكفالتي) ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ (أي شدد علي في القول وأغلظ) .

والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتمل التأويل . ومن ثم اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً ، ولم يطلب إليه بياناً ، ولم يسمع له حجة . ولكنه مضى يحكم : ﴿ قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . وإن كثيراً من الخلطاء (أي الأقوياء المخالطين بعضهم لبعض) ليبغي بعضهم على بعض . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ﴾ . .

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان : فقد كانا ملكين جاءا للامتحان !

امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس ، ليقضي بينهم بالحق والعدل ، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم .

وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة . . ولكن القاضي عليه ألا يستثار ، وعليه ألا يتعجل . وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد . قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته ؛ فقد يتغير وجه المسألة كله ، أو بعضه ، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً !

عند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء :

﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ . .

(424/661)

وهنا أدركته طبيعته . . إنه أواب . . ﴿ فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب ﴾ . .

﴿ فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ . . وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضاً كبيراً . تتنزه عنه طبيعة النبوة . ولا يتفق إطلاقاً مع حقيقتها . حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطاً . وهي

لا تصلح للنظر من الأساس . ولا تتفق مع قول الله تعالى : ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ . .

والتعقيب القرآني الذي جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة ؛ ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذي ولاه القضاء والحكم بين الناس :

﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ؛ فاحكم بين الناس بالحق . ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد . بما نسوا يوم الحساب ﴾ . .

فهي الخلافة في الأرض ، والحكم بين الناس بالحق ، وعدم اتباع الهوى . واتباع الهوى فيما يختص بنبي هو السير مع الانفعال الأول ، وعدم التريث والتثبت والتبين . . مما ينتهي مع الاستطراد فيه إلى الضلال . أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله . وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب . ومن رعاية الله لعبده داود ، أنه نبهه عند أول لفتة . ورده عند أول اندفاعة . وحذره النهاية البعيدة . وهو لم يخط إليها خطوة ! وذلك فضل الله على المختارين من عباده . فهم ببشريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة ، فيقيلها الله ، ويأخذ بيدهم ، ويعلمهم ، ويوفقهم إلى الإنابة ، ويغفر لهم ، ويغدق عليهم ، بعد الابتلاء . .

وعند تقرير مبدأ الحق في خلافة الأرض ، وفي الحكم بين الناس . . وقبل أن تمضي قصة داود إلى نهايتها في السياق . . يرد هذا الحق إلى أصله الكبير . أصله الذي تقوم عليه السماء والأرض وما بينهما . أصله العريق في كيان هذا الكون كله . وهو أشمل من خلافة الأرض ، ومن الحكم بين الناس . وهو أكبر من هذه الأرض . كما أنه أبعد مدى من الحياة الدنيا . إذ يتناول صميم الكون كما يتناول الحياة الآخرة . ومنه وعليه جاءت الرسالة الأخيرة ، وجاء الكتاب المفسر لذلك الحق الشامل الكبير :

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً . ذلك ظن الذين كفروا . فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟ كتاب أنزلناه إليك مبارك ، ليدبروا آياته ، وليتذكر أولوا الألباب ﴾ .

.

وهكذا : في هذه الآيات الثلاث ، تتقرر تلك الحقيقة الضخمة الهائلة الشاملة الدقيقة العميقة . بكل جوانبها وفروعها وحلقاتها . .

إن خلق السماء والأرض وما بينهما لم يكن باطلاً ، ولم يقم على الباطل . إنما كان حقاً وقام على الحق . ومن هذا الحق الكبير تتفرع سائر الحقوق . الحق في خلافة الأرض . والحق في الحكم بين الخلق . والحق في تقويم مشاعر الناس وأعمالهم ؛ فلا يكون الذين آمنوا وعملوا

الصالحات كالمفسدين في الأرض ؛ ولا يكون وزن المتقين كوزن الفجار . والحق الذي جا به الكتاب المبارك الذي أنزله الله ليتدبروا آياته وليتذكر أصحاب العقول ما ينبغي أن يتذكروه من هذه الحقائق الأصيلة ، التي لا يتصورها الكافرون ، لأن فطرتهم لا تتصل بالحق الأصيل في بناء هذا الكون ، ومن ثم يسوء ظنهم بربهم ولا يدركون من أصالة الحق شيئاً . . ﴿ ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ . .

(426/661)

إن شريعة الله للناس طرف من ناموسه في خلق الكون . وإن كتابه المنزل بيان للحق الذي يقوم عليه الناموس . وإن العدل الذي يطالب به الخلفاء في الأرض والحكام بين الناس إنما هو طرف من الحق الكلي ، لا يستقيم أمر الناس إلا حين يتناسق مع بقية الأطراف . وإن الانحراف عن شريعة الله والحق في الخلافة والعدل في الحكم إنما هو انحراف عن الناموس الكوني الذي قامت عليه السماء والأرض ؛ وهو أمر عظيم إذن ، وشر كبير ، واصطدام مع القوى الكونية الهائلة لا بد أن يتحطم في النهاية ويزهق . فما يمكن أن يصمد ظالم باغ منحرف عن سنة الله وناموس الكون وطبيعة الوجود . . ما يمكن أن يصمد بقوته الهزيلة الضئيلة لتلك القوى الساحقة الهائلة ، ولعجلة الكون الجبارة الطاحنة !

وهذا ما ينبغي أن يتدبره المتدبرون وأن يتذكره أولو الألباب . .

وبعد هذا التعقيب المعترض في صلب القصة لكشف تلك الحقيقة الضخمة ، يمضي السياق يعرض نعمة الله على داود في عقبه وولده سليمان ؛ وما وهبه الله من ألوان الإنعام والإفضال . كما يعرض فتنته وابتلاءه ورعاية الله له ، وإغداقه عليه بعد الفتنة والابتلاء :

﴿ ووهبنا لداود سليمان . نعم العبد . إنه أواب . إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد . فقال : إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب . ردوها عليّ . فطفق مسحاً بالسوق والأعناق . ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب . قال : رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ . .

والإشارتان الواردتان هنا عن الصافنات الجياد وهي الخيل الكريمة . وعن الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان .

. كلتاهما إشارتان لم تسترح نفسي لأي تفسير أو رواية مما احتوته التفاسير والروايات عنهما . فهي إما إسرائيليات منكرة ، وإما تأويلات لا سند لها . ولم أستطع أن أتصور طبيعة الحادثين تصوراً يطمئن إليه قلبي ، فأصوره هنا وأحكيه . ولم أجد أثراً صحيحاً أركن إليه في تفسيرهما وتصويرهما سوى حديث صحيح . صحيح في ذاته ولكن علاقته بأحد هذين الحادثين ليست أكيدة . هذا الحديث هو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجه البخاري في صحيحه مرفوعاً . ونصه : " قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة . كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله . ولم يقل : إن شاء الله . فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل . والذي نفسي بيده ، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون " . وجائز أن تكون هذه هي الفتنة التي تشير إليها الآيات هنا ، وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق . ولكن هذا مجرد احتمال . . أما قصة الخيل فقيل : إن سليمان عليه السلام استعرض خيلاً له بالعشي . ففاتته صلاة كان يصليها قبل الغروب . فقال ردوها عليّ . فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه . ورواية أخرى أنه إنما جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها لأنها كانت خيلاً في سبيل الله . . وكلتا الروايتين لا دليل عليها . ويصعب الجزم بشيء عنها .

ومن ثم لا يستطيع متثبت أن يقول شيئاً عن تفصيل هذين الحادثين المشار إليهما في القرآن .

وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبي الله سليمان عليه السلام في شأن يتعلق بتصرفاته في الملك والسلطان كما يبتلي الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم ، ويبعد خطاهم عن الزلل . وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع . وطلب المغفرة ؛ واتجه إلى الله بالدعاء والرجاء :

﴿ قال : رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ . .

(428/661)

وأقرب تأويل لهذا الطلب من سليمان عليه السلام أنه لم يرد به أثرة . إنما أراد الاختصاص الذي يتجلى في صورة معجزة . فقد أراد به النوع . أراد به ملكاً ذا خصوصية تميزه من كل ملك آخر يأتي بعده . وذا طبيعة معينة ليست مكررة ولا معهودة في الملك الذي يعرفه الناس .

وقد استجاب له ربه ، فأعطاه فوق الملك المعهود ، ملكاً خاصاً لا يتكرر :

﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ .

وتسخير الريح لعبد من عباد الله بإذن الله ؛ لا يخرج في طبيعته عن تسخير الريح لإرادة

الله . وهي مسخرة لإرادته تعالى ولا شك ، تجري بأمره وفق نواميسه ؛ فإذا يسر الله لعبد من عباده في فترة من الفترات أن يعبر عن إرادة الله سبحانه وأن يوافق أمره أمر الله فيها ؛ وأن تجري الريح رخاء حيث أراد ؛ فذلك أمر ليس على الله بمستبعد .

ومثله يقع في صور شتى . والله سبحانه يقول في القرآن للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾ فما معنى هذا ؟ معناه أنهم إذا لم ينتهوا فستتجه إرادتنا إلى تسليطك عليهم وإخراجهم من المدينة . وسيتم هذا بتوجيه إرادتك أنت ورغبتك إلى قتالهم وإخراجهم ؛ فتتم إرادتنا بهم عن طريقك . فهذا لون من توافق أمر الله سبحانه وأمر النبي صلى الله عليه وسلم وإرادة الله وأمره هما الأصيلان . وهما يتجليان في إرادة الرسول وأمره وفق ما أراد الله . وهذا يقرب إلينا معنى الريح لأمر سليمان عليه السلام تسخيرها لأمره المطابق لأمر الله في توجيه هذه الرياح ، الممثل لأمر الله المعبر عنه على كل حال .

(429/661)

كذلك سخر له الشياطين لتبني له ما يشاء ؛ وتغوص له في البحر والأرض في طلب ما يشاء . وأعطاه السلطة لعقاب المخالفين والمفسدين ممن سخرهم له وتكبيلهم بالأصفاد

مقرونة أيديهم إلى أرجلهم . أو مقرنين اثنين اثنين أو أكثر في القيود عند الاقتضاء .

ثم قيل له : إنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة . تعطي من تشاء كيف تشاء . وتمسك عمن تشاء قدر ما تشاء :

﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ . .

وذلك زيادة في الإكرام والمنة . ثم زاد على هذا كله أن له عند ربه قربى في الدنيا وحسن مآب في الآخرة :

﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ . .

وتلك درجة عظيمة من الرعاية والرضى والإنعام والتكريم .

ثم نمضي مع قصة الابتلاء والصبر ، والإنعام بعد ذلك والإفضال . نمضي في السياق مع قصة أيوب :

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك . هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب . وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ، إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ . .

وقصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة مشهورة ؛ وهي تضرب مثلاً للابتلاء والصبر . ولكنها مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها . والحد المأمون في هذه القصة هو أن أيوب عليه السلام كان كما جاء في القرآن عبداً صالحاً أوّاباً ؛ وقد ابتلاه الله فصبر صبراً جميلاً ، ويبدو أن

ابتلاءه كان بذهاب المال و الأهل والصحة جميعاً ولكنه ظل على صلته بربه ، وثقته به ، ورضاه بما قسم له .

وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له ومنهم زوجته بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه .

وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه في نفسه أشد مما يؤذيه الضر والبلاء . فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربنها عدداً عينه قيل مائة .

وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان ، ومداخله إلى نفوس خلصائه ، ووقع هذا الإيذاء في نفسه :

(430/661)

﴿ أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ . .

فلما عرف ربه منه صدقه وصبره ، ونفوره من محاولات الشيطان ، وتأذيه بها ، أدركه برحمته . وأنهى ابتلاءه ، ورد عليه عافيته . إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ :

﴿ اركض برجلك . هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ . .

ويقول القرآن الكريم :

﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ﴾ . .

وتقول بعض الروايات : إن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم ، وليس في النص ما يحتم أنه أحيا له من مات . وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين . وأنه رزقه بغيرهم زيادة في الإنعام والرحمة والرعاية . مما يصلح ذكرى لذوي العقول والإدراك .

والمهم في معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه .

فأما قسمه ليضربن زوجه . فرحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلائها به ، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذي حدده . فيضربها به ضربة واحدة . تجزئ عن يمينه ، فلا يحنث فيها :

﴿ وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ﴾ . .

هذا التيسير ، وذلك الإنعام ، كانا جزاء على ما علمه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء :

﴿ إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد ، إنه أوّاب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3022.3006 ﴾

(431/661)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والستون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/662)

الجزء الثاني والستون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 45 ﴾ من سورة ص

وحتى الآية ﴿ 83 ﴾ من نفس السورة

(4/662)

قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (47) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه من ابتلاه في بدنه وماله وولده ثم جعل له الماء برداً وسلاماً وعافية ونظاماً وشفاء وقواماً ، عطف عليه من ابتلاه بالنار على أيدي الجبابرة فجعلها عليه برداً وسلاماً باعتماده عليه وصبره لديه ، ونجاه من كيدهم ، وجعل أيده بمفرده فوق أيدهم ، ثم ابتلاه بالهجرة لوطنه وأهله وعشيرته وسكنه ، ثم بذبح ابنه ، فصبر على ذلك كله ، اعتماداً على فضل الله ومنّه فقال : ﴿ واذكر عبدنا ﴾ بالتوحيد في رواية ابن كثير للجنس أو

لإبراهيم وحده عليه السلام لأنه أصل من عطف عليه ديناً وأبوة ، فبين الله أساس عطفه عليه في المدح بالعبودية أيضاً ، ثم بين المراد بقوله : ﴿ إبراهيم ﴾ وعطف على العبد لا على مبينه لئلا يلزم بيان واحد بجماعة إذا أريد به إبراهيم وحده لا الجنس ابنه لصبره على دينه في الغربة بين عباد الأوثان ومباعدي الإيمان ، فلم يلفت لفتهم ولا داناهم ، بل أرسل إلى أقاربه في بلاد الشرق ، فتزوج منه من وافقته على دينه الحق ، واستمر على إخلاص العبادة لا يأخذه في الله لومة لائم إلى أن مضى لسبيله فقال : ﴿ وإسحاق ﴾ ثم أتبعه ولده الذي قفا أثره ، وصبر صبره ، وابتلى بفقد ولده ، وبهجة كبده ، فصبر أتم الصبر في ذلك الضر ، وأبلغ في الحمد والشكر ، فقال تعالى : ﴿ ويعقوب ﴾ وألحقهما سبحانه بأبيها بعد أن بينت قراءة الإفراد إصالته في المدح بالعبودية فعطفهما عليه نفسه في قراءة غير ابن كثير ﴿ عبادنا ﴾ بالجمع كما قال تعالى ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم ﴾ [الطور : 21] .

(5/662)

ولما اجتمعوا بالعطف أو البدل وصفهم بقوله : ﴿ أولي الأيدي ﴾ أي القوة الشديدة والأعمال السديدة لأن الأيدي أعظم آلات ذلك ﴿ والأبصار ﴾ أي الحواس الظاهرة

والباطنة التي هي حقيقة بأن تذكر وتمدح بها لقوة إدراكها وعظمة نفوذها فيما هو جدير بأن يراعى من جلال الله ومراقبته في الحركات والسكنات سراً وعلناً ، وعبر عن ذلك بالأبصار لأنها أقوى مبادئه ، ومن لم يكن مثلهم كان مسلوب القوة والعقل ، فلم يكن له عقل فكان عدماً ، فهو أعظم توبيخ لمن رزقه الله قوة وعقلاً ، ثم لا يصرفه في عبادة الله والمجاهدة فيه سبحانه .

ولما اشتد تشوف السامع لما استحقوا به هذا الذكر ، قال مؤكداً إشارة إلى محبته سبحانه لمدحهم ورداً على من ينسب إليهم أو إلى أحد منهم ما لا يليق كما كذبه اليهود فيما بدلوه من التوراة في حق إسحاق عليه السلام في بعض المواضع معدياً للفعل بالهمزة إشارة إلى أنه جذبهم من العوائق إليه جذبة واحدة هي في غاية السرعة : ﴿ إنا أخلصناهم ﴾ أي لنا إخلاصاً يليق بعظمتنا التي لا تدانيها عظمة ﴿ بخالصة ﴾ أي أعمال وأحوال ومقامات وبلايا ومحن هي سالمة عن شوب ما ، فصاروا بالصبر عليها في غاية الخلوص .

(6/662)

ولما كان سبب الإخلاص تذكر يوم الدين وما يبرز فيه من صفات الجلال والجمال وينكشف فيه من الأمور التي لا توصف عظمتها ، بينها بقوله : ﴿ ذكرى الدار ﴾ أي تذكرهم تلك

الخالصة تذكيراً عظيماً لا يغيب عنهم أصلاً الدار التي لا يستحق غيرها أن يسمى داراً بوجه بحيث نسوا بذكر هذا الغائب ذكر ما يشاهدونه من دار الدنيا فهم لا ينظرون إليه أصلاً بغضاً فيها فقد أنساهم هذا الغائب الثابت الشاهد الزائل عكس ما عليه العامة ، وإضافة نافع وأبي جعفر وهشام عن ابن عامر بخلاف عنه لخالصة مؤيد لما قلت من أن ذكرى بيان لأنها إضافة الصفة إلى الموصوف ، والمعنى أنهم لا يعملون شيئاً إلا وهو مقرب للآخرة ، فالمعنى أن ذكرهم لها خالص عن سواه لا يشاركه فيه شيء ولا يشوبه شوب أصلاً .

ولما دلت هذه الجملة على هذا المدح البليغ ، عطف عليه ما يلازم الإخلاص فقال مؤكداً لمثل ما تقدم من التنبيه على أنهم ممن يغتبط بمدحهم ، ورداً على من ربما ظن خلاف ذلك بكثرة مصائبهم في الدنيا : ﴿ وإنهم عندنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة والخبرة ﴿ لمن المصطفين ﴾ المبالغ في تصفيتهم مبالغة كأنها بعلاج ﴿ الأخيار ﴾ الذين كل واحد منهم بخير بليغ في الخير ، وإصابتنا إياهم بالمصائب دليل ذلك لا دليل عكسه كما يظنه من طمس قلبه ، والآية من الاحتباك : ذكر ﴿ أخلصناهم ﴾ أولاً دليل على ﴿ اصطفيناهم ﴾ ثانياً ، و ﴿ المصطفين ﴾ دليلاً على ﴿ المخلصين ﴾ أولاً ، وسر ذلك أن الإخلاص يلزم منه الاصطفاء ، لا سيما إذا أسنده إليه بخلاف العكس بدليل ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ﴾ [فاطر : 32] .

(7/662)

ولما أتم الأمر بذكر الخليل وابنه عليهما السلام الذي لم يخرج من كنفه قط ونافلته المبشر به للتأسي بهم في صبرهم الدين وإن خالفهم من خالفهم ، أتبعه ولده الذي أمر بالتجرد عنه مرة بالإسكان عند البيت الحرام ليصير أصلاً برأسه في أشرف البقاع ، ومرة بالأمر بذبحه في تلك المشاعر الكرام ، فصار ما أضيف إليه من الأحوال والأفعال من المناسك العظام عليه الصلاة والسلام ، وأفرده بالذكر دلالة على أنه أصل عظيم برأسه من أصول الأئمة الأعلام ، فقال : ﴿ واذكر إسماعيل ﴾ أي أباك وما صبر عليه من البلاء بالغربة والانفراد والوحدة والإشراف على الموت في الله غير مرة وما صار إليه بعد ذلك البلاء من الفرج والرئاسة والذكر في هذه البلدة ﴿ واليسع ﴾ أي الذي استخلفه إلياس عليه السلام على بني إسرائيل فجمعهم الله عليه بعد ذلك الخلاف الشديد الذي كان منهم لإلياس عليه السلام ﴿ وذا الكفل ﴾ أي النصيب العظيم بالوفاء بما يكفله من كل أمر عليّ ، وعمل صالح زكي .

(8/662)

ولما تقدم وصف من قبل إبراهيم عليه السلام بالأوبة وخصوا بالتصريح ، لما كان لهم من الشواغل عنها بكل من محنة السراء ومحنة الضراء وكذلك بالعبودية سواء ، وكان الأمر بالذكر مع حذف الوصف المذكور لأجله والإشارة إليه بالتلويح ولا مانع من ذكره – دالاً على غاية المدح له لذهاب الوهم في تطلبه كل مذهب ، قال معمّماً للوصف بالعبودية والأوبة بها جميع المذكورين ، عاطفاً بما أرشد إليه العطف على غير مذكور على ما تقديره : إنهم أوابون ، ليكون تعليلاً لذكرهم بما علل به ذكر أول مذكور فيهم : ﴿ وكل ﴾ أي من هؤلاء المذكورين في هذه السورة من الأنبياء قائمون بحق العبودية فهم من خيار عبادنا من هؤلاء الثلاثة ومن قبلهم ﴿ من الأخيار ﴾ أي كما أن كلاًّ منهم أواب بالعراقة في وصف الصبر – كما مضى في الأنبياء ، وبغير ذلك من كل خير على أن الصبر – جامع لجميع الطريق ، فهم الذين يجب الاقتداء بهم في الصبر على الدين ولزوم طريق المتقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 391 . 394 ﴾

(9/662)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن كثير : ﴿ عَبْدَنَا ﴾ على الواحد وهي قراءة ابن عباس ، ويقول إن قوله : ﴿ عَبْدَنَا ﴾ تشريف عظيم ، فوجب أن يكون هذا التشريف مخصوصاً بأعظم الناس المذكورين في هذه الآية وهو إبراهيم وقرأ الباقون : ﴿ عِبَادِنَا ﴾ قالوا لأن غير إبراهيم من الأنبياء قد أجري عليه هذا الوصف فجاء في عيسى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف : 59] وفي أيوب : ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ [ص : 44] وفي نوح : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : 3] فمن قرأ (عبدنا) جعل إبراهيم وحده عطف بيان له ، ثم عطف ذريته على عبدنا وهي إسحق ويعقوب ، ومن قرأ (عبادنا) جعل إبراهيم وإسحق ويعقوب عطف بيان لعبادنا .

المسألة الثانية :

تقدير الآية كأنه تعالى قال : فاصبر على ما يقولون واذكر عبادنا داود إلى أن قال : واذكر عبادنا إبراهيم أي واذكر يا محمد صبر إبراهيم حين ألقي في النار ، وصبر إسحق للذبح ، وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره .

ثم قال : ﴿ أُولِي الأيدى والأبصار ﴾ ، واعلم أن اليد آلة لأكثر الأعمال والبصر آلة لأقوى

الإدراكات ، فحسن التعبير عن العمل باليد وعن الإدراك بالبصر .

إذا عرفت هذا فنقول النفس الناطقة الإنسانية لها قوتان عاملة وعالمة ، أما القوة العاملة فأشرف ما يصدر عنها طاعة الله ، وأما القوة العالمة فأشرف ما يصدر عنها معرفة الله ، وما سوى هذين القسمين من الأعمال والمعارف فكالعبث والباطل ، فقوله : ﴿ أُوْلِى الأيدى والأبصار ﴾ إشارة إلى هاتين الحالتين .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(10/662)

قوله : ﴿ بِخَالِصَةٍ ﴾ قرىء بالتنوين والإضافة فمن نون كان التقدير أخلصناهم أي جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها وهي ذكرى الدار ، ومن قرأ بالإضافة فالمعنى بما خلص من ذكرى الدار ، يعني أن ذكرى الدار قد تكون لله وقد تكون لغير الله ، فالمعنى إنا أخلصناهم بسبب ما خلص من هذا الذكر .

المسألة الثانية :

في ذكرى الدار وجوه الأولى : المراد أنهم استغرقوا في ذكرى الدار الآخرة وبلغوا في هذا

الذكر إلى حيث نسوا الدنيا الثاني : المراد حصول الذكر الجليل الرفيع لهم في الدار الآخرة الثالث : المراد أنه تعالى أبقى لهم الذكر الجميل في الدنيا وقبل دعاءهم في قوله : ﴿ واجعل لّي لِسَانَ صِدْقٍ فِى الأخرين ﴾ [الشعراء : 84] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المصطفين الأخيار ﴾ أي المختارين من أبناء جنسهم والأخياء جمع خير أو خير على التخفيف كأموات في جمع ميت أو ميت ، واحتج العلماء بهذه الآية في إثبات عصمة الأنبياء قالوا لأنه تعالى حكم عليهم بكونهم أخياراً على الإطلاق ، وهذا يعم حصول الخيرية في جميع الأفعال والصفات بدليل صحة الاستثناء وبدليل دفع الإجمال .

ثم قال : ﴿ واذكر إسماعيل واليسع وَذَا الكفل وَكُلٌّ مّنَ الأخيار ﴾ وهم قوم آخرون من الأنبياء تحملوا الشدائد في دين الله ، وقد ذكرنا الكلام في شرح هذه الأسماء وفي صفات هؤلاء الأنبياء في سورة الأنبياء وفي سورة الأنعام ، فلا فائدة في الإعادة ، وههنا آخر الكلام في قصص الأنبياء في هذه السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 188 . 189 ﴾

(11/662)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واذكر عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

وقرأ ابن عباس : "عَبْدَنَا" بإسناد صحيح ؛ رواه ابن عُيينة عن عمرو عن عطاء عنه ، وهي قراءة مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصن وابن كثير ؛ فعلى هذه القراءة يكون "إِبْرَاهِيمَ" بدلاً من "عَبْدَنَا" و"إِسْحَاقَ وَيَعْقُوب" عطف .

والقراءة بالجمع أبين ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ، ويكون "إِبْرَاهِيمَ" وما بعده على البدل .

النحاس : وشرح هذا من العربية أنك إذا قلت : رأيت أصحابنا زيداً وعمراً وخالداً ، فزيد وعمرو وخالد بدل وهم الأصحاب ، وإذا قلت رأيت صاحبنا زيداً وعمراً وخالداً فزيد وحده بدل وهو صاحبنا ، وزيد وعمرو عطف على صاحبنا وليسا بداخلين في المصاحبة إلا بدليل غير هذا ، غير أنه قد علم أن قوله : ﴿ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ داخل في العبودية .

وقد استدل بهذه الآية من قال : إن الذبيح إسحاق لا إسماعيل ، وهو الصحيح على ما ذكرناه في كتاب "الإعلام بمولد النبي عليه السلام" .

﴿ أُوْلِي الأيدي والأبصار ﴾ قال النحاس : أما "الأَبصَارِ" فمتفق على تأويلها أنها البصائر في الدين والعلم .

وأما "الأَيدِي" فمختلف في تأويلها ؛ فأهل التفسير يقولون : إنها القوّة في الدين .

وقوم يقولون : "الأَيدِي" جمع يد وهي النعمة ؛ أي هم أصحاب النعم ؛ أي الذين أنعم الله عز وجل عليهم .

وقيل : هم أصحاب النعم والإحسان ؛ لأنهم قد أحسنوا وقدّموا خيراً .

وهذا اختيار الطبري .

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المصطفين الأخيار ﴾ أي الذين اصطفاهم من الأدناس واختارهم لرسالته .

ومصطفَين جمع مصطفى والأصل مصتفى وقد مضى في "البقرة" عند قوله : ﴿ إِنَّ الله اصطفى لَكُمُ الدين ﴾ [البقرة : 132] "والأَخْيَار" جمع خير .

وقرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن وعيسى الثقفي "أولِي الأَيدِ" بغير ياء في الوصل والوقف على معنى أولي القوّة في طاعة الله .

(12/662)

ويجوز أن يكون كمعنى قراءة الجماعة وحذف الياء تخفيفاً .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ﴾ قراءة العامة "بِخَالِصَةٍ" منونة

وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم .

وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر "بِخَالِصَةِ ذِكْرى الدَّارِ" بالإضافة فمن نوّن خالصة ف"ذِكْرَى الدَّار" بدل منها ؛ التقدير إنا أخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهبوا لها ، ويرغبوا فيها ويُرَغِّبوا الناس فيها .

ويجوز أن يكون "خالِصَةٍ" مصدراً لخَلَص و"ذِكْرَى" في موضع رفع بأنها فاعله ، والمعنى أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار ؛ أي تذكير الدار الآخرة .

ويجوز أن يكون "خالصة" مصدراً لأخلصت فحذفت الزيادة ، فيكون "ذِكْرَى" على هذا في موضع نصب ، التقدير : بأن أخلصوا ذكرى الدار .

والدار يجوز أن يراد بها الدنيا ؛ أي ليتذكروا الدنيا ويزهدوا فيها ، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [مريم : 50]

ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها .

ومن أضاف خالصة إلى الدار فهي مصدر بمعنى الإخلاص ، والذكرى مفعول به أضيف إليه المصدر ؛ أي بإخلاصهم ذكرى الدار .

ويجوز أن يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص ؛ أي بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، وهي الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدّم .

وقال ابن زيد : معنى أخلصناهم أي بذكر الآخرة ؛ أي يذكرون الآخرة ويرغبون فيها

ويزهدون في الدنيا .

وقال مجاهد : المعنى إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم .

قوله تعالى : ﴿ واذكر إِسْمَاعِيلَ واليسع وَذَا الكفل ﴾ مضى ذكر اليسع في "الأنعام" وذكر ذي الكفل في "الأنبياء" .

﴿ وَكُلٌّ مِّنَ الأخيار ﴾ أي ممن اختير للنبوّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(13/662)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ﴾

الضغث : حزمة صغيرة من حشيش أو ريحان أو قضبان ، وقيل : القبضة الكبيرة من القضبان ، ومنه قولهم : ضغث على إبالة ، والإبالة : الحزمة من الحطب ، والضغث : القبضة عليها من الحطب أيضاً ، ومنه قول الشاعر :

وأسفل مني نهدة قد ربطتها . . .

وألقيت ضغثاً من خلى متطيب

الحنث : فعل ما حلف على تركه ، وترك ما حلف على فعله ، الغساق : ما سال ، يقال : غسقت العين والجرح .

وعن أبي عبيدة : أنه البارد المنتن ، بلغة الترك ؛ وقال الأزهري : الغاسق : البارد ، ولهذا قيل : ليل غاسق ، لأنه أبرد من النهار .

الاقتحام : ركوب الشدة والدخول فيها ، والقحمة : الشدة .

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ، وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب ، واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ، إن أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ، واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل الأخيار ، ﴾ .

لما أمر نبيه بالصبر ، وذكر ابتلاء داود وسليمان ، وأثنى عليهما ، ذكر من كان أشدّ ابتلاء منهما ، وأنه كان في غاية الصبر ، بحيث أثنى الله عليه بذلك .

وأيوب : عطف بيان أو بدل .

قال الزمخشري : وإذ بدل اشتمال منه .

وقرأ الجمهور : ﴿ أني ﴾ بفتح الهمزة ، وعيسى : بكسرها ، وجاء بضمير التكلم

حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ، ولو لم يحك لقال : إنه مسه ، لأنه غائب ، وأسند المس إلى الشيطان .

(14/662)

قال الزمخشري : لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه الله به من النصب والعذاب ، نسبه إليه وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه ، مع أنه فاعله ، ولا يقدر عليه إلا هو .

وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به البلاء ، فالتجأ إلى الله في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل .

وذكر في سبب بلائه أن رجلاً استغاثه على ظالم ، فلم يغثه .

وقيل : كانت مواشيه في ناحية ملك كافر ، فداهنه ولم يفده .

وقيل : أعجب بكثرة ماله . انتهى .

ولا يناسب مناصب الأنبياء ما ذكره الزمخشري من أن أيوب كانت منه طاعة للشيطان فيما وسوس به ، وأن ذلك كان سبباً لما مسه الله به من النصب والعذاب ، ولا أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه ، ولا أنه داهن كافراً ، ولا أنه أعجب بكثرة ماله .

وكذلك ما رووا أن الشيطان سلطه الله عليه حتى أذهب أهله وماله لا يمكن أن يصح ، ولا قدرة له على البشر إلا بإلقاء الوساوس الفاسدة لغير المعصوم .

والذي نقوله : أنه تعالى ابتلى أيوب عليه السلام في جسده وأهله وماله ، على ما روي في الأخبار .

وروى أنس عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، أن أيوب بقي في محنته ثماني عشرة سنة يتساقط لحمه حتى مله العالم ، ولم يصبر عليه إلا امرأته ، ولم يبين لنا توالي السبب المقتضي لعلته .

وأما إسناده المس إلى الشيطان ، فسبب ذلك أنه كان يعوده ثلاث من المؤمنين ، فارتد أحدهم ، فسأل عنه فقيل : ألقى إليه الشيطان أن الله لا يبتلي الأنبياء والصالحين ، فحينئذ قال : ﴿ مسني الشيطان ﴾ ، نزل لشفقته على المؤمنين .

(15/662)

مس الشيطان ذلك المؤمن حتى ارتد منزلة مسه لنفسه ، لأن المؤمن الخير يتألم برجوع المؤمن الخير إلى الكفر ؛ ولذلك جاء بعده : ﴿ اركض برجلك ﴾ ، حتى يغتسل ويذهب عنه البلاء ، فلا يرتد أحد من المؤمنين بسبب طول بلائه ، وتسويل الشيطان أنه تعالى لا يبتلي

الأنبياء .

وقيل : أشار بقوله : ﴿ مسني الشيطان ﴾ إلى تعريضه لامرأته ، وطلبه أن تشرك بالله ، وكأنه بتشكي هذا الأمر كان عليه أشدّ من مرضه .

وقرأ الجمهور : ﴿ بنصب ﴾ ، بضم النون وسكون الصاد ، قيل : جمع نصب ، كوثن ووثن ؛ وأبو جعفر ، وشيبة ، وأبو عمارة عن حفص ، والجعفي عن أبي بكر ، وأبو معاذ عن نافع : بضمتين ، وزيد بن علي ، والحسن ، والسدّي ؛ وابن عبلة ، ويعقوب ، والجحدري : بفتحتين ؛ وأبو حيوة ، ويعقوب في رواية ، وهبيرة عن حفص : بفتح النون وسكون الصاد .

وقال الزمخشري : النصب والنصب ، كالرشد والرشد ، والنصب على أصل المصدر ، والنصب تثقيل نصب ، والمعنى واحد ، وهو التعب والمشقة .

والعذاب : الألم ، يريد مرضه وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب . انتهى .

وقال ابن عطية : وقد ذكر هذه القراءات ، وذلك كل بمعنى واحد معناه المشقة ، وكثيراً ما يستعمل النصب في مشقة الإعياء .

وفرق بعض الناس بين هذه الألفاظ ، والصواب أنها لغات بمعنى من قولهم : أنصبني الأمر ، إذا شق عليّ انتهى .

وقال السدّي : بنصب في الجسد وعذاب في المال ، وفي الكلام حذف تقديره : فاستجبنا

له وقلنا : ﴿ اركض برجلك ﴾ ، فركض ، فنبعت عين ، فقلنا له : ﴿ هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ فيه شفاؤك ، فاغتسل فبرأ ، ﴿ ووهبنا له ﴾ ، ويدل على هذه المحذوفات معنى الكلام وسياقه .

وتقدم الكلام في الركض في سورة الأنبياء .

وعن قتادة والحسن ومقاتل : كان ذلك بأرض الجابية من الشأم .

ومعنى ﴿ هذا مغتسل ﴾ : أي ما يغتسل به ، ﴿ وشراب ﴾ ، أي ما تشربه ، فباغتسالك يبرأ ظاهرك ، وبشربك يبرأ باطنك .

(16/662)

والظاهر أن المشار إليه كان واحداً ، والعين التي نبعت له عينان ، شرب من إحداهما واغتسل من الأخرى .

وقيل : ضرب برجله اليمنى ، فنبعت عين حارة فاغتسل .

وباليسرى ، فنبعت باردة فشرب منها ، وهذا مخالف لظاهر قوله : ﴿ مغتسل بارد ﴾ ، فإنه يدل على أنه ماء واحد .

وقيل : أمر بالركض بالرجل ، ليتناثر عنه كل داء بجسده .

وقال القتبي : المغتسل : الماء الذي يغتسل به .

وقال مقاتل : هو الموضع الذي يغتسل فيه .

وقال الحسن : ركض برجله ، فنبعت عين ماء ، فاغتسل منها ، ثم مشى نحواً من أربعين ذراعاً ، ثم ركض برجله ، فنبعت عين ، فشرب منها .

قيل : والجمهور على أنه ركض ركضتين ، فنبعت له عينان ، شرب من إحداهما ، واغتسل من الأخرى .

والجمهور : على أنه تعالى أحيا له من مات من أهله ، وعافى المرضى ، وجمع عليه من شتت منهم .

وقيل : رزقه أولاداً وذرية قدر ذريته الذين هلكوا ، ولم يردّ أهله الذين هلكوا بأعيانهم ، وظاهر هذه الهيئة أنها في الدنيا .

وقيل ذلك وعد ، وتكون تلك الهيئة في الآخرة .

وقيل : وهبه من كان حياً منهم ، وعافاه من الأسقام ، وأرغد لهم العيش ، فتناسلوا حتى تضاعف عددهم وصار مثلهم .

و﴿ رحمة ﴾ ، ﴿ وذكرى ﴾ : مفعولان لهما ، أي أن الهبة كانت لرحمتنا إياه ، وليتذكر أرباب العقول ، وما يحصل للصابرين من الخير ، وما يؤول إليه من الأجر .

وفي الكلام حذف تقديره : وكان حلف ليضربن امرأته مائة ضربة لسبب جرى منها ،

وكانت محسنة له ، فجعلنا له خلاصاً من يمينه بقولنا : ﴿ وخذ بيدك ضغثاً ﴾ .

قال ابن عباس : الضغث : عثكال النخل .

وقال مجاهد : الأثل ، وهو نبت له شوك .

وقال الضحاك : حزمة من الحشيش مختلفة .

وقال الأخفش : الشجر الرطب ، واختلفوا في السبب الذي أوجب حلفه .

ومحصول أقوالهم هو تمثل الشيطان لها في صورة ناصح أو مداو .

(17/662)

وعرض لها شفاء أيوب على يديه على شرط لا يمكن وقوعه من مؤمن ، فذكرت ذلك له ، فعلم أن الذي عرض لها هو الشيطان ، وغضب لعرضها ذلك عليه فحلف .

وقيل غير ذلك من الأسباب ، وهي متعارضة .

فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها ، لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها ، وقد وقع مثل هذه الرخصة في الإسلام .

أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمخدج قد خبث بأمة فقال : " خذوا عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة " وقال بذلك بعض أهل العلم في الإيمان ، قال : ويجب أن

يصيب المضروب كل واحد من المائة ، إما أطرافها قائمة ، وإما أعراضها مبسوطة ، مع وجود صورة الضربة .

والجمهور على ترك القول في الحدود ، وأن البر في الإيمان لا يقع إلا بإتمام عدد الضربات .

ووصف الله تعالى نبيه بالصبر .

وقد قال : ﴿ مسني الضر ﴾ فدل على أن الشكوى إلى الله تعالى لا تنافي الوصف بالصبر .

وقد قال يعقوب : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله على أن أيوب عليه السلام طلب الشفاء خيفة على قومه أن يوسوس إليهم الشيطان أنه لو كان نبياً لم يبتل ، وتألفاً لقومه على الطاعة ، وبلغ أمره في البلاء إلى أنه لم يبق منه إلا القلب واللسان .

ويروى أنه قال في مناجاته : إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ، ولم يتبع قلبي بصري ، ولم يمنعني ما ملكت يميني ، ولم آكل إلا ومعي يتيم ، ولم أبت شبعاناً ولا كاسياً ومعي جائع أو عريان ، فكشف الله عنه .

﴿ واذكر عبدنا إبراهيم ﴾ ، وقرأ ابن عباس وابن كثير وأهل مكة ، عبدنا على الإفراد ، وإبراهيم بدل منه ، أو عطف بيان .

والجمهور على الجمع ، وما بعده من الثلاثة بدل أو عطف بيان .

وقرأ الجمهور : ﴿ أولي الأيدي ﴾ ، بالياء .

قال ابن عباس ومجاهد : القوة في طاعة الله .

وقيل : إحسانهم في الدين وتقدمهم عند الله على عمل صدق ، فهي كالأيدي ، وهو قريب مما قبله .

وقيل : النعم التي أسداها الله إليهم من النبوة والمكانة .

(18/662)

وقيل ﴿ الأيدي ﴾ : الجوارح المتصرفة في الخير ، ﴿ الأبصار ﴾ الثاقبة فيه .

قال الزمخشري : لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت ، فقيل في كل عمل : هذا مما عملت أيديهم ، وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي ، أو كان العمال جذماً لا أيدي لهم ، وعلى ذلك ورد قوله عز وعلا : ﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ ، يريد : أولي الأعمال والفكر ؛ كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ، ولا يجاهدون في الله ؛ ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات ، ولا يستبصرون في حكم الزمنى الذين لا يقدرون على إعمال جوارحهم ، والمسلوبي العقول الذين لا استبصار بهم ؛ وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ، ولا من المستبصرين في دين الله ، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منها . انتهى ، وهو تكثير .

وقال أبو عبد الله الرازي : اليد آلة لأكثر الأعمال ، والبصر آلة لأقوى الإدراكات ، فحسن التعبير عن العمل باليد ، وعن الإدراك بالبصر .

والنفس الناطقة لها قوّتان : عاملة وعالمة ، فأولي الأيدي والأبصار إشارة إلى هاتين الحالتين .

وقرأ عبد الله ، والحسن ، وعيسى ، والأعمش : الأيد بغير ياء ، فقيل : يراد الأيدي حذف الياء اجتزاء بالكسرة عنها ، ولما كانت أل تعاقب التنوين ، حذفت الياء معها ، كما حذفت مع التنوين ، وهذا تخريج لا يسوغ ، لأن حذف هذه الياء مع وجود أل ذكره سيبويه في الضرائر .

وقيل : الأيدي : القوة في طاعة الله ، والأبصار : عبارة عن البصائر التي يبصرون بها الحقائق وينظرون بنور الله تعالى .

وقال الزمخشري : وتفسير الأيدي من التأييد قلق غير متمكن ، وإنما كان قلقاً عنده لعطف الأبصار عليه ، ولا ينبغي أن يعلق ، لأنه فسر أولي الأيدي والأبصار بقوله : يريد أولي الأعمال والفكر .

وقرىء : الأيادي ، جمع الجمع ، كأوطف وأواطف .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، والأعرج ، ونافع ، وهشام : بخالصة ، بغير تنوين ، أضيفت إلى ذكرى .

وقرأ باقي السبعة بالتنوين ، و﴿ ذكرى ﴾ بدل من ﴿ بخالصة ﴾ .

وقرأ الأعمش ، وطلحة : بخالصتهم ، و﴿ أخلصناهم ﴾ : جعلناهم لنا خالصين وخالصة ، يحتمل ، وهو الأظهر ، أن يكون اسم فاعل به عن مزية أو رتبة أو خصلة خالصة لا شوب فيها ، ويحتمل أن كون مصدراً ، كالعاقبة ، فيكون قد حذف منه الفاعل ، أي أخلصناهم بأن أخلصوا ذكرى الدار ، فيكون ذكرى مفعولاً ، أو بأن أخلصنا لهم ذكرى الدار ، أو يكون الفاعل ذكرى ، أي بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، والدار في كل وجه من موضع نصب بذكرى ، وذكرى مصدر ، والدار دار الآخرة .

قال قتادة : المعنى بأن خلص لهم التذكير بالدار الآخرة ، ودعا الناس إليها وحضهم عليها .

وقال مجاهد : خلص لهم ذكرهم الدار الآخرة ، وخوفهم لها .

والعمل بحسب ذلك .

وقال ابن زيد : وهبنا لهم أفضل ما في الدار الآخرة ، وأخلصناهم به ، وأعطيناهم إياه .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يريد بالدار دار الدنيا ، على معنى ذكر الثناء والتعظيم من

الناس ، والحمد الباقي الذي هو الخلد المجازي ، فتجيء الآية في معنى قوله : ﴿ لسان صدق ﴾ وقوله : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ انتهى .

وحكى الزمخشري هذا الاحتمال قولاً فقال : وقيل ﴿ ذكرى الدار ﴾ : الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق . انتهى .

والباء في بخالصة باء السبب ، أي بسبب هذه الخصلة وبأنهم من أهلها ، ويعضده قراءة بخالصهم ﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين ﴾ ، أي المختارين من بين أبناء جنسهم ، ﴿ الأخيار ﴾ : جمع خير ، وخير كميت وميت وأموات .

وتقدم الكلام في اليسع في سورة الأنعام ، وذا الكفل في سورة الأنبياء .

(20/662)

وعندنا ظرف معمول لمحذوف دل عليه المصطفين ، أي وأنهم مصطفون عندنا ، أو معمول للمصطفين ، وإن كان بأل ، لأنهم يتسمحون في الظرف والمجرور ما لا يتسمحون في غيرهما ، أو على التبيين ، أي أعني عندنا ، ولا يجوز أن يكون عندنا في موضع الخبر ، ويعني بالعندية : المكانة ، ولمن المصطفين : في موضع خبر ثان لوجود اللام ، لا يجوز أن زيداً قائم لمنطلق ، ﴿ وكل ﴾ : أي وكلهم ، من الأخيار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ واذكر عِبَادَنَا إبراهيم وإسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾

الثلاثة عطف بيان لعبادنا أو بدل منه .

وقيل : نصب باضمار أعني ، وقرأ ابن عباس .

وابن كثير .

وأهل مكة ﴿ عَبْدَنَا ﴾ بالإفراد فإبراهيم وحده بدل أو عطف بيان أو مفعول أعني ، وخص بعنوان العبودية لميزد شرفه ، وما بعده عطف على ﴿ عَبْدَنَا ﴾ وجوز أن يكون المراد بعبدنا عبادنا وضعاً للجنس موضع الجمع فتتحد القراءتان ﴿ أُوْلِى الايدى والابصار ﴾ أولى القوة في الطاعة والبصيرة في الدين على أن الأيدي مجاز مرسل عن القوة ، والأبصار جمع بصر بمعنى بصيرة وهو مجاز أيضاً لكنه مشهور فيه أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة على أن ذكر الأيدي من ذكر السبب وإرادة المسبب ، والأبصار بمعنى البصائر مجاز عما يتفرع عليها من العلوم كالأول أيضاً ، وفي ذلك على الوجهين تعريض بالجهلة الباطلين أنهم كفاقدى الأيدي والأبصار وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع

تمكنهم منهما ، وقيل : الأيدي النعم أي أولى التي اسداها الله تعالى إليهم من النبوة والمكانة أو أولى النعم والإحسانات على الناس بإرشادهم وتعليمهم إياهم ، وفيه ما فيه .

وقرىء ﴿ الأيادي ﴾ على جمع الجمع كأوطف وأواطف ، وقرأ عبد الله .

والحسن .

وعيسى .

والأعمش ﴿ ذَا الايد ﴾ بغير ياء فقيل يراد الأيدي بالياء وحذفت اجتزاء بالكسرة عنها ، ولما كانت أل تعاقب التنوين حذفت الياء معها كما حذفت مع التنوين حكاه أبو حيان ثم قال : وهذا تخريج لا يسوغ لأن حذف هذه الياء مع وجود أل ذكره سيبويه في الضرائر ،

وقيل : الأيد القوة في طاعة الله تعالى نظر ما تقدم .

وقال الزمخشري بعد تعليل الحذف بالاكتفاء بالكسرة وتفسيره بالأيد من التأييد قلق غير متمكن وعلل بأن فيه فوات المقابلة وفوات النكتة البيانية فلا تغفل .

(22/662)

﴿ إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ﴾ تعليل لما وصفوا به ، والباء للسببية وخالصة اسم فاعل وتنوينها للتفخيم ، وقوله تعالى : ﴿ ذِكْرَى الدار ﴾ بيان لها بعد إبهامها للتفخيم ، وجوز

أن يكون خبراً عن ضميرها المقدر أي هي ذكرى الدار ، وأياً ما كان فذكرى مصدر مضاف لمفعوله وتعريف الدار للعهد أي الدار الأخرة ، وفيه إشعار بأنها الدار في الحقيقة وإنما الدنيا مجاز أي جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة جليلة الشأن لا شوب فيها هي نذكرهم دائماً الدار الآخرة فإن خلوصهم في الطاعة بسبب تذكرهم إياها وذلك لأن مطمح انظارهم ومطرح أفكارهم في كل ما يأتون ويدرون جواز الله عز وجل والفوز بلقائه ولا يتسنى ذلك إلا في الآخرة .

وقيل أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم في اختيارها والباء كما في الوجه الأول للسببية والكلام نحو قولك : أكرمته بالعلم أي بسبب أنه عالم أكرمته أو أكرمته بسبب أنك جعلته عالماً ، وقد يتخيل في الثاني أنه صلة ، ويعضد الوجه الأول قراءة الأعمش .

وطلحة ﴿ بخالصتهم ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك أن ذكرى الدار تذكيرهم الناس الآخرة وترغيبهم إياهم فيها وتزهيدهم إياهم فيها على وجه خالص من الحظوظ النفسانية كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام ، وقيل المراد بالدار الدار الدنيا وبذكراها الثناء الجميل ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم .

وحكى ذلك عن الجبائي .

وأبي مسلم وذكره ابن عطية احتمالاً ، وحاصل الآية عليه كما قال الطبرسي إنا

خصصناهم بالذكر الجميل في الأعقاب .

وقرأ أبو جعفر .

وشيبة .

والأعرج .

ونافع .

وهشام بإضافة ﴿ الأنعام خَالِصَةٌ ﴾ إلى ﴿ ذِكْرِى ﴾ للبيان أي بما خلص من ذكرى الدار على معنى أنهم لا يشوبون ذكراها بهم آخر أصلاً أو على غير ذلك من المعاني ، وجوز على هذه القراءة أن تكون ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ مصدراً كالعاقبة والكاذبة مضافاً إلى الفاعل أي أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار .

(23/662)

وظاهر كلام أبي حيان أن احتمال المصدرية ممكن في القراءة الأولى أيضاً لكنه قال : الأظهر أن تكون اسم فاعل .

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المصطفين ﴾ أي المختارين من بين أبناء جنسهم ، وفيه إعلال معروف .

وعندنا يجوز فيه أن يكون من صلة الخبر وإن يكون من صلة محذوف دل عليه ﴿ لَمِنَ المصطفين ﴾ أي وإنهم مصطفون عندنا ، ولم يجوزوا أن يكون من صلة ﴿ المصطفين ﴾ المذكور لأن أل فيه موصولة ومصطفين صلة وما في حيز الصلة لا يتقدم معمولة على الموصول لئلا يلزم تقدم الصلة على الموصول .

واعترض بأنا لا نسلم أن أل فيه موصولة إذ لم يرد منه الحدوث ولو سلم فالمتقدم ظرف وهو يتوسع فيه ما لا يتوسع في غيره ، والظاهر أن الجملة عطف على ما قبلها ، وتأكيدها لمزيد الاعتناء بكونهم عنده تعالى من المصطفين من الناس .

﴿ الاخيار ﴾ الفاضلين أن لا يجمع على أفعال لكنه للزوم تخفيفه حتى أنه لا يقال أخير إلا شذوذاً أو في ضرورة جعل كأنه بنية أصلية ؛ وقيل جمع خير المشدد أو خير المخف منه كأموات في جمع ميت بالتشديد أو ميت بالتخفيف .

﴿ واذكر إسماعيل ﴾ فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه اعتنار بشأنه من حيث أنه لا يشرك العرب فيه غيرهم أو للأشعار بعراقته في الصبر الذي هو المقصود بالذكر ﴿ واليسع ﴾ قال ابن جرير هو ابن أخطوب بن العجوز ، وذكر أنه استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنبىء ، واللام فيه زائدة لازمة لمقارنتها للوضع ، ولا ينافي كونه غير عربي فإنها قد لزمت في بعض الأعلام الأعجمية كالاسكندر فقد لحن التبريزي من قال اسكندر مجرداً له منها ، والأولى عندي أنه إذا كان اسما أجمياً وأل فيه مقارنة للوضع أن لا يقال بزيادتها فيه ، وقيل

هو اسم عربي منقول من يسع مضارع وسع حكاه الجلال السيوطي في الاتقان .

وفي القاموس يسع كيضع اسم أعجمي أدخل عليه أل ولا تدخل على نظائره كيزيد .

وقرأ حمزة .

(24/662)

والكسائي ﴿ والليسع ﴾ بلامين والتشديد كان أصله ليس بوزن فيعل من اللسع دخل عليه أل تشبيهاً بالمنقول الذي تدخله للمح أصله ، وجزم بعضهم بأنه على هذه القراءة أيضاً علم أعجمي دخل عليه اللام .

﴿ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكفل ﴾ قيل هو ابن أيوب ، وعن وهب أن الله تعالى بعث بعد أيوب شرف بن أيوب نبياً وسماه الكفل وأمره بالدعاء إلى توحيده وكان مقيماً بالشام عمره حتى مات وعمره خمس وسبعون سنة .

وفي العجائب للكرماني قيل هو الياس ، وقيل هو يوشع بن نون ، وقيل هو نبي اسمه ذو الكفل ، وقيل كان رجلاً صالحاً تكفل بأمور فوفي بها ، وقيل هو زكريا من قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران : 37] اه ، وقال ابن عساكر : هو نبي تكفل الله تعالى له في عمله بضعف عمل غيره من الأنبياء ، وقيل لم يكن نبياً وان البسع استخلفه فتكفل له أن يصوم

النهار ويقوم الليل ، وقيل أن يصلي كل يوم مائة ركعة ، وقيل : كان رجلاً من الصالحين كان في زمانه أربعمائة نبي من بني إسرائيل فقتلهم ملك جبار إلا مائة منهم فروا من القتل فآواهم وأخفاهم وقام بمونتهم فسماه الله تعالى ذا الكفل ، وقيل هو اليسع وأن له اسمين ويأباه ظاهر النظم ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي ولكهم ﴿ مّنَ الاخيار ﴾ المشهورين بالخيرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(25/662)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) ﴾

القول فيه كالقول في نظائره لغةً ومعنى .

وذِكر هؤلاء الثلاثة ذكر اقتداء وائتساء بهم ، فأما إبراهيم عليه السّلام فيما عرف من صبره على أذى قومه ، وإلقائه في النار ، وابتلائه بتكليف ذبح ابنه ، وأما ذِكر إسحاق ويعقوبَ فاستطراد بمناسبة ذكر إبراهيم ولما اشتركا به من الفضائل مع أبيهم التي يجمعها اشتراكهم في معنى قوله : ﴿ أُولِي الأيدِي والأبصارِ ﴾ ليقتدي النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثتهم في القوة في إقامة الدين والبصيرة في حقائق الأمور .

وابتدىء بإبراهيم لتفضيله بمقام الرسالة والشريعة ، وعطف عليه ذكر ابنه وعطف على ابنِه ابنه يعقوب .

وقرأ الجمهور ﴿ واذكر عبادنا ﴾ بصيغة الجمع على أن ﴿ إبراهيم ﴾ ومن عطف عليه كله عطف بيان .

وقرأ ابن كثير ﴿ عَبدنا ﴾ بصيغة الإفراد على أن يكون ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ عطف بيان من ﴿ عبدنا ﴾ ويكون ﴿ إسحاق ويعقوب ﴾ عطف نسق على ﴿ عبدنا ﴾ .

ومآل القراءتين متّحد .

و ﴿ الأيدي ﴾ : جمع يد بمعنى القوة في الدين .

كقوله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيد ﴾ في سورة [الذاريات : 47] .

(و ﴿ الأبصار ﴾ : جمع بصر بالمعنى المجازي ، وهو النظر الفكري المعروف بالبصيرة ، أي التبصر في مراعاة أحكام الله تعالى وتوخّي مرضاته .

وجملة ﴿ إنَّا أخلصناهُم ﴾ علة للأمر بذكرهم لأن ذكرهم يكسب الذاكر الاقتداء بهم في إخلاصهم ورجاء الفوز بما فازوا به من الاصطفاء والأفضلية في الخير .

و ﴿ أَخْلَصْناهُم ﴾ : جعلناهم خالصين ، فالهمزة للتعدية ، أي طهرناهم من درَن النفوس فصارت نفوسهم نقية من العيوب العارضة للبشر ، وهذا الإِخلاص هو معنى العصمة اللازمة للنبوءة .

والعصمة : قوة يجعلها الله في نفس النبي تَصْرِفُه عن فعل ما هو في دينه معصية لله تعالى عمداً أو سهواً ، وعمّا هو موجب للنفرة والاستصغار عند أهل العقول الراجحة من أمة عصره .

وأركان العصمة أربعة:

الأول : خاصية للنفس يخلقها الله تعالى تقتضي ملكة مانعة من العصيان .

الثاني : حصول العلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات .

الثالث : تأكد ذلك العلم بتتابع الوحي والبيان من الله تعالى .

الرابع : العتاب من الله على ترك الأَوْلى وعلى النسيان .

وإسناد الإِخلاص إلى الله تعالى لأنه أمر لا يحصل للنفس البشرية إلا بجعل خاص من الله تعالى وعناية لَدُنِّيّة بحيث تنزع من النفس غلبة الهوى في كل حال وتصرف النفس إلى الخير المحض فلا تبقى في النفس إلا نزعات خفيفة تُقلع النفس عنها سريعاً بمجرد خطورها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم "إني لَيُغَانُ على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة" .

والباء في ﴿ بخالصةٍ ﴾ للسببية تنبيهاً على سبب عصمتهم .

وعبر عن هذا السبب تعبيراً مجملاً تنبيهاً على أنه أمر عظيم دقيق لا يتصور بالكنه ولكن يعرف بالوجه ، ولذلك استحضر هذا السبب بوصف مشتق من فعل ﴿ أخلصناهم ﴾ على نحو قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن اقْتناعه من أكل لحم الضبّ " أني تحضرني من اللَّه حاضرة "

أي حاضرة لا توصف ، ثم بُيّنت هذه الخالصة بأقصى ما تعبر عنه اللغة وهي أنها ﴿ ذِكرى الدَّارِ ﴾ .

والذكرى : اسم مصدر يدل على قوة معنى المصدر مثل الرّجعى والبُقيا لأن زيادة المبنَى تقتضي زيادة المعنى .

والدار المعهودة لأمثالهم هي الدار الآخرة ، أي بحيث لا ينسون الآخرة ولا يقبلون على الدنيا ، فالدار التي هي محلّ عنايتهم هي الدار الآخرة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم " فأقول مَا لي وللدنيا " .

(27/662)

وأشار قوله تعالى : ﴿ بخالصةٍ ذكرى الدَّارِ ﴾ إلى أن مبدأ العصمة هو الوحي الإلهي بالتحذير مما لا يرضي الله وتخويف عذاب الآخرة وتحبيب نعيمها فتحدث في نفس النبي

صلى الله عليه وسلم شدة الحذر من المعصية وحبُّ الطاعة ثم لا يزال الوحي يتعهده ويوقظه ويجنبه الوقوع فيما نُهي عنه فلا يلبث أن تصير العصمة ملكة للنبيء يكره بها المعاصي ، فأصل العصمة هي منتهى التقوى التي هي ثمرة التكليف ، وبهذا يمكن الجمع بين قول أصحابنا : العصمة عدم خَلق المعصية مع بقاء القدرة على المعصية ، وقولِ المعتزلة : إنها ملكة تمنع عن إرادة المعاصي ، فالأولون نظروا إلى المبدأ والأخيرون نظروا إلى الغاية ، وبه يظهر أيضاً أن العصمة لا تنافي التكليف وترتَّب المدحِ على الطاعات .

وقرأ نافع وهشام عن ابن عامر وأبو جعفر "خالصة" بدون تنوين لإِضافته إلى ﴿ ذكرى الدارِ ﴾ والإضافة بيانية لأن ﴿ ذِكرى الدَّارِ ﴾ هي نفس الخالصة ، فكأنه قيل : بذكرى الدار ، وليست من إضافة الصفة إلى الموصوف ولا من إضافة المصدر إلى مفعوله ولا إلى فاعله ، وإنما ذكر لفظ "خالصة" ليقع إجمال ثم يفصل بالإِضافة للتنبيه على دقة هذا الخلوص كما أشرنا إليه .

والتعريفُ بالإِضافة لأنها أقصى طريق للتعريف في هذا المقام .

وقرأ الجمهور بتنوين "خالصةً" فيكون ﴿ ذكرى الدار ﴾ عطف بيان أو بدلاً مطابقاً .

وغرض الإجمال والتفصيل ظاهر .

وإضافة "خالصة" إلى ﴿ ذِكرى الدَّارِ ﴾ في قراءة نافع من إضافة الصفة إلى الموصوف وإبدالها منها في قراءة الجمهور من إبدال الصفة من الموصوف .

ويجوز أن يكون ﴿ ذِكرى ﴾ مرادف الذكر بكسر الذال ، أي الذكر الحسن ، كقوله تعالى : ﴿ وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ [مريم : 50] وتكون ﴿ الدَّارِ ﴾ هي الدار الدنيا .

ويجوز أن يكون مرادفاً للذُّكر بضم الذال وهو التذكر الفكري ومراعاة وصايا الدين .

و﴿ الدار ﴾ : الدار الآخرة .

(28/662)

وعطف عليه : ﴿ إنهم عندنا لمن المصطفَيْن الأخيار ﴾ لأنه مما يبعث على ذكرهم بأنهم اصطفاهم الله من بين خلقه فقربهم إليه وجعلهم أخياراً .

و﴿ الأخيار ﴾ : جمع خيّر بتشديد الياء ، أو جمع خيْر بتخفيفها مثل الأموات جمعاً لميّت وميْت ، وكلتا الصيغتين تدل على شدة الوصف في الموصوف .

وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (48)

فُصل ذكر إسماعيل عن عدّه مع أبيه إبراهيم وأخيه إسحاق لأن إسماعيل كان جد الأمة العربية ، أي معظمِها فإنه أبو العدنانيين .

وجدّ للأم لمعظم القحطانيين لأن زوج إسماعيل جُرْهُمية فلذلك قطع عن عطفه على ذكر

إبراهيم وعاد الكلام إليه هنا .

وأمّا قرنه ذِكرَه بذكر اليسَع وذي الكفل بعطف اسميهما على اسمه فوجهه دقيق في البلاغة وليس يكفي في توجيهه ما تضمنه قوله : ﴿ وكُلٌّ مِنَ الأخيارِ ﴾ ، لأن التماثل في الخيريّة والاصطفاء ثابت لجميع الأنبياء والمرسلين ، فلا يكون ذكرُهما بعد ذكر إسماعيل أولى من ذكر غيرهما من ذوي الخيرية الذين شملهم لفظ الأخيار والاصطفاء ، فإن شرط قبول العطف بالواو أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه جامع عقلي أو وهمي أو خيالي كما قال في "المفتاح" ، قال ومن هنا عابوا أبا تمام في قوله :

لا والذي هو عالم أن النوى

صبر وأن أبا الحسين كريم . . .

حيث جمع بين مرارة النوى وكرم أبي الحسين وإن كانا مقترنين في تعلق علم الله بهما وذلك مساوٍ لاقتران إسماعيل واليسع وذي الكفل في أنهم من الأخيار في هذه الآية .

فبنا أن نطلب الدقيقة التي حسّنت في هذه الآية عطف اليسع وذي الكفل على إسماعيل .

(29/662)

فأما عطف اليسع على إسماعيل فلأن اليسع كان مقامه في بني إسرائيل كمقام إسماعيل في بني إبراهيم لأن اليسع كان بمنزلة الابن للرسول إلياس (إيليا) وكان إلياس يدافع ملوك يهوذا وملوكَ إسرائيل عن عبادة الأصنام ، وكان اليسع في إعانته كما كان إسماعيل في إعانة إبراهيم ، وكان إلياس لما رفع إلى السماء قام اليسع مقامه كما هو مبيّن في سفر "الملوك الثاني" الإصحاح (21 .

(وأما عطف ذي الكفل على إسماعيل فلأنه مماثل لإسماعيل في صفة الصبر قال الله تعالى في سورة الأنبياء (85) ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين .

وقرأ الجمهور الْيسع ﴾ بهمزة وصل وبلام واحدة وهي من أصل الاسم في اللغة العبرانية فعربته العرب باللام وليست لام التعريف ، فدع عنك ما أطالوا به .

وقرأه حمزة والكسائي بهمزة وصل وبلامين وتشديد الثانية وهو أقرب إلى أصله العبراني وهو اسم أعجميّ معرب ، والهمزة واللام ، أوْ واللامان أصلية .

وتنوين ﴿ كلٌ ﴾ في قوله : ﴿ وكُلٌّ من الأخيارِ ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي وكل أولئك الثلاثة من الأخيار .

وتقدم ذكر اليَسع في سورة الأنعام ، وذكر ذي الكفل في سورة الأنبياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى الأَيدِى وَالأَبصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ .

﴿ أُوْلِى الأَيدِى ﴾ : أي القوة. ﴿ وَالأَبصَارِ ﴾ أي البصائر .

﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ﴾ : أي بفضيلة خالصة وهي ذكر الجنة والنار ، أوبدعاء الناس إلى الجنة والهرب مِنَ النار . ويقال بسلامة القلب من ذكر الدارين ؛ فلا يكون العمل على ملاحظة جزاء . ويقال تجردوا لنا بقلوبهم عن ذكري الدار ، ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ .

وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (48)

﴿ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ : قيل كان تَكَفَّلَ لله بعمل رجلٍ صالحٍ مات في وقته ، وقيل كَفَلَ مائةً من بني إسرائيل هربوا من أمير لهم ظالمٍ ، فكان يُنْفِقُ عليهم .

ويقال كان اليسعُ وذو الكفل أَخَوَيْن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 260.259 ﴾

قوله تعالى ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (50) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (51) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (52) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (53) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (54) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم سبحانه ما أراد من ذكر هؤلاء الأصفياء عليهم السلام الذين عافاهم بصبرهم وعافى من دعوهم ، فجعلهم سبحانه سبب الفلاح ولم يجعلهم سبباً للهلاك ، قال مؤكداً لشرفهم وشرف ما ذكروا به ، حاثاً على إدامة تذكره وتأمله وتدبره للعمل به ، مبيناً ما لهم في الآخرة على ما ذكر من أعمالهم وما لمن نكب عن طريقهم على سبيل التفصيل :

﴿ هذا ﴾ أي ما تلوناه عليك من أمورهم وأمور غيرهم ﴿ ذكر ﴾ أي شرف في الدنيا وموعظة من ذكر القرآن ذي الذكر ، ثم عطف على قوله ﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ﴾ ما لأضدادهم ، فقال مؤكداً رداً على من ينكر ذلك من كفار العرب

وغيرهم : ﴿ وإن ﴾ ويجوز - وهو أحسن - أن يكون معطوفاً على " هذا " وتقديره : هذا ذكر للصابرين .

ولما أداهم إليه صبرهم في الدنيا وأن لهم على ما وهبناهم من الأعمال الصالحة التي مجمعها الصبر لمرجعاً حسناً ، ولكنه أظهر الوصف الذي أداهم إلى هذا المآب تعميماً لكل من اقتدى بهم حثاً على الاقتداء فقال : ﴿ للمتقين ﴾ أي جميع العريقين في وصف التقوى الذين يلزمون لتقواهم الصراط المستقيم ﴿ لحسن مآب ﴾ أي مصير ومرجع ولما شوق سبحانه إلى هذا الجزاء أبدل منه أو بينه بقوله : ﴿ جنات عدن ﴾ أي إقامة في استمراء وطيب عيش ونمو وامتلاء وشرف أصل .

ولما كانت من الأعلام الغالبة ، نصب عنها على الحال قوله : ﴿ مفتحة ﴾ أي تفتيحاً كثيراً وبليغاً من غير أن يعانوا في فتحها شيئاً من نصب أو طلب أو تعب ، وأشار جعل هذا الوصف مفرداً أن تفتحيها على كثرتها كان لهم في آن واحد حتى كأنها باب واحد ﴿ لهم ﴾ أي لا لغيرهم ﴿ الأبواب ﴾ التي لها والتي فيها فلا يلحقهم في دخولها ذل الحجاب ولا كلفة الاستئذان ، تستقبلهم الملائكة بالتبجيل والإكرام .

ولما ذكر إقامتهم ويسر دخولهم ، وصف حالهم إذ ذاك فقال : ﴿ متكئين فيها ﴾ أي ليس لهم شغل سوى النعيم ولا عليهم كلفة أصلاً .

ولما كان المتكىء لا يتم نعيمه إلا إن كان مخدوماً ، دل على سؤددهم بقوله : ﴿ يدعون فيها ﴾ اي كلما أرادوا من غير مانع أصلاً ولا حاجة إلى قيام ولا قعود يترك به الاتكاء .

ولما كان أكلهم إنما هو للتفكه لا لحفظ الجسد من آفة قال : ﴿ بفاكهة كثيرة ﴾ فسمى جميع مآكلهم فاكهة ، ولما كانت الفاكهة لا يمل منها ، والشراب لا يؤخذ إلا بقدر الكفاية ، وصفها دونه فقال : ﴿ وشراب ﴾ .

ولما كان الأكل والشرب داعيين إلى النساء لا سيما مع الراحة قال : ﴿ وعندهم ﴾ أي لهم من غير مفارقة أصلاً .

ولما كان سياق الامتنان مفهماً كثرة الممتن به لا سيما إذا كان من العظيم ، أتى بجمع القلة مريداً به الكثرة لأنه أشهر وأوضح وأرشق من " قواصر " المشترك بين جمع قاصر وقوصرة - بالتشديد والتخفيف - لوعاء التمر فقال : ﴿ قاصرات ﴾ ولما كن على خلق واحد في العفة وكمال الجمال وحد فقال : ﴿ الطرف ﴾ أي طرفهن لعفتهن وطرف أزواجهن لحسنهن ، ولما لم تنقص صيغة جمع القلة المعنى ، لكونه في سياق المدح والامتنان ، وكان يستعار للكثرة ، أتى على نمط الفواصل بقوله : ﴿ أتراب ﴾ أي على سن واحد مع أزواجهن وهو الشباب ، سمي القرين تراباً لمس التراب جلده وجلد قرينه في وقت واحد ، قال البغوي : بنات ثلاث وثلاثين سنة ، لأن ذلك ادعى للتآلف فإن التحاب بين الأقران أشد

وأثبت .

ولما ذكر هذا النعيم لأهل الطاعة ، وقدم ذلك العذاب لأهل المعصية قال : ﴿ هذا ﴾ أي الذي ذكر هنا والذي مضى ﴿ ما ﴾ وبني للمفعول اختصاراً وتحقيقاً للتحتم قوله : ﴿ توعدون ﴾ من الوعد والإيعاد ، وقراءة الغيب على الأسلوب الماضي ، ومن خاطب لفت الكلام للتلذيذ بالخطاب تنشيطاً لهممهم وإيقاظاً لقلوبهم ﴿ ليوم الحساب ﴾ أي ليكون في ذلك اليوم .

(33/662)

ولما كان هذا يصدق بأن يوجد ثم ينقطع كما هو المعهود من حال الدنيا ، أخبر أنه على غير هذا المنوال فقال : ﴿ إن هذا ﴾ أي المشار إليه إشارة الحاضر الذي لا يغيب ﴿ لرزقنا ﴾ أي للرزق الذي يستحق الإضافة إلينا في مظهر العظمة ، فلذلك كانت النتيجة : ﴿ ما له من نفاد ﴾ أي فناء وانقطاع ، بل هو كالماء المتواصل في نبعه ، كلما أخذ منه شيء أخلف في الحال بحيث إنه لا يميز المأخوذ من الموجود بوجه من الوجوه ، فيكون في ذلك تلذيذ وتنعيم لأهل الجنة بكثرة ما عنده ، وبمشاهدة ما كانوا يعتقدونه ويثبتونه لله

تعالى من القدرة على الإعادة في كل وقت ، جزاء وفاقاً عكس ما يأتي لأهل النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 394 . 395 ﴾

(34/662)

فصل

قال الفخر :

﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) ﴾

اعلم أن في قوله : ﴿ ذِكْرَ ﴾ وجهين الأول : أنه تعالى إنما شرح ذكر أحوال هؤلاء الأنبياء عليهم السلام لأجل أن يصبر محمد عليه السلام على تحمل سفاهة قومه فلما تم بيان هذا الطريق وأراد أن يذكر عقيبه طريقاً آخر يوجب الصبر على سفاهة الجهال ، وأراد أن يميز أحد البابين عن الآخر ، لا جرم قال : ﴿ هذا ذِكْرُ ﴾ ، ثم شرع في تقرير الباب الثاني فقال : ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ كما أن المصنف إذا تمم كلاماً قال هذا باب ، ثم شرع في باب آخر ، وإذا فرغ الكاتب من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر قال هذا وقد كان كيت وكيت ، والدليل عليه أنما لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يردفه بذكر أهل النار قال : ﴿ هذا وَإِنَّ للطاغين ﴾ [ص : 55] الوجه الثاني : في التأويل ، أن المراد هذا شرف وذكر جميل

لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام يذكرون به أبداً ، والأول هو الصحيح .

أما قوله : ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

فاعلم أنه تعالى لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبي صلى الله عليه وسلم بأن وصفوه بأنه ساحر كذاب ، وقالوا له على سبيل الاستهزاء ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ [ص : 16] فعند هذا أمر محمداً بالصبر على تلك السفاهة ، وبين أن ذلك الصبر لازم من وجهين الأول : أنه تعالى لما بين أن الأنبياء المتقدمين صبروا على المكاره والشدائد ، فيجب عليك أن تقتدي بهم في هذا المعنى الثاني : أنه تعالى بين في هذه الآية أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا ، ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا ، وكل ذلك يوجب الصبر على تكاليف الله تعالى ، وهذا نظم حسن وترتيب لطيف .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ المآب المرجع .

(35/662)

واحتج القائلون بقدم الأرواح بهذه الآية ، وبكل آية تشتمل على لفظ الرجوع ووجه الاستدلال ، أن لفظ الرجوع إنما يصدق لو كانت هذه الأرواح موجودة قبل الأجساد ، وكانت في حضرة جلال الله ثم تعلقت بالأبدان ، فعند انفصالها عن الأبدان يسمى ذلك

رجوعاً وجوابه : أن هذا إن دل فإنما يدل على أن الأرواح كانت موجودة قبل الأبدان ، ولا يدل على قدم الأرواح .

ثم قال تعالى : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ وهو بدل من قوله : ﴿ لَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ ثم قال : ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبواب ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا في تأويل هذا اللفظ وجوهاً الأول : قال الفراء : معناه مفتحة لهم أبوابها ، والعرب تجعل الألف واللام خلفاً من الإضافة ، تقول العرب : مررت برجل حسن الوجه ، فالألف واللام في الوجه بدل من الإضافة والثاني : قال الزجاج : المعنى : مفتحة لهم الأبواب منها الثالث : قال صاحب "الكشاف" ﴿ الأبواب ﴾ بدل من الضمير ، وتقديره مفتحة هي الأبواب ، كقولك ضرب زيد اليد والرجل ، وهو من بدل الاشتمال .

المسألة الثانية :

قرىء : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ مفتحة بالرفع على تقدير أن يكون قوله : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ مبتدأ و ﴿ مُّفَتَّحَةً ﴾ خبره ، وكلاهما خبر مبتدأ محذوف ، أي هو جنات عدن مفتحة لهم .

المسألة الثالثة :

اعلم أنه تعالى وصف من أحوال أهل الجنة في هذه الآية أشياء الأول : أحوال مساكنهم ،

فقوله : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ يدل على أمرين أحدهما : كونها جنات وبساتين والثاني : كونها دائمة آمنة من الانقضاء .

وفي قوله : ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبواب ﴾ وجوه الأول : أن يكون المعنى أن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا صاحب الجنة فتحوا له أبوابها وحيوه بالسلام ، فيدخل كذلك محفوفاً بالملائكة على أعز حال وأجمل هيئة ، قال تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سلام عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خالدين ﴾ [الزمر : 73] .

(36/662)

الثاني : أن تلك الأبواب كلما أرادوا انفتاحها انفتحت لهم ، وكلما أرادوا انغلاقها انغلقت لهم الثالث : المراد من هذا الفتح ، وصف تلك المساكن بالسعة ، ومسافرة العيون فيها ، ومشاهدة الأحوال اللذيذة الطيبة .

ثم قال تعالى : ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ يدعون فيها ، وفيه مباحث :

البحث الأول : أنه تعالى ذكر في هذه الآية كونهم متكئين في الجنة ، وذكر في سائر الآيات كيفية ذلك الاتكاء ، فقال في آية : ﴿ عَلَى الأرائك مُتَّكِئُونَ ﴾ [يس : 56] وقال في آية أخرى : ﴿ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ [الرحمن : 76] .

البحث الثاني : قوله : ﴿ متكئين فيها ﴾ حال قدمت على العامل فيها وهو قوله : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ والمعنى يدعون في الجنات متكئين فيها ثم قال : ﴿ بفاكهة كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ والمعنى بألوان الفاكهة وألوان الشراب ، والتقدير بفاكهة كثيرة وشراب كثير ، والسبب في ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه والأشربة ، فرغبهم الله تعالى فيه .

ولما بين تعالى أمر المسكن وأمر المأكول والمشروب ذكر عقيبه أمر المنكوح ، فقال : ﴿ وَعِندَهُمْ قاصرات الطرف ﴾ وقد سبق تفسيره في سورة والصافات ، وبالجملة فالمعنى كونهن قاصرات عن غيرهم مقصورات القلب على محبتهم ، وقوله : ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي على سن واحد ، ويحتمل كون الجواري أتراباً ، ويحتمل كونهن أتراباً للأزواج ، قال القفال : والسبب في اعتبار هذه الصفة ، أنهن لما تشابهن في الصفة والسن والحلية كان الميل إليهن على السوية ، وذلك يقتضي عدم الغيرة .

ثم قال تعالى : ﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحساب ﴾ يعني أن الله تعالى وعد المتقين بالثواب الموصوف بهذه الصفة ، ثم إنه تعالى أخبر عن دوام الثواب فقال : ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 190 . 191 ﴾

(37/662)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) ﴾

قرأ ابن كثير : " واذكر عبدنا " على الإفراد ، وهي قراءة ابن عباس وأهل مكة . وقرأ الباقون : " واذكر عبادنا " على الجمع ، فأما على هذه القراءة فدخل الثلاثة في الذكر وفي العبودية ، وأما على قراءة من قرأ " عبدنا " ، فقال مكي وغيره : دخلوا في الذكر ولم يدخلوا في العبودية إلا من غير هذه الآية وفي هذا نظر .

وتأول قوم من المتأولين من هذه الآية أن الذبيح ﴿ إسحاق ﴾ من حيث ذكره الله بعقب ذكر أيوب أنبياء امتحنهم بمحن كما امتحن أيوب ، ولم يذكر إسماعيل لأنه ممن لم يمتحن ، وهذا ضعيف كله وقرأ الجمهور : " أولي الأيدي " .

وقرأ الحسن والثقفي والأعمش وابن مسعود : " أولي الأيد " ، بحذف الياء ، فأما أولو فهو جمع ذو ، وأما القراءة الأولى ف " الأيدي " فيها عبارة عن القوة في طاعة الله ، قاله ابن عباس ومجاهد ، وقالت فرقة بل هي عبارة عن القوة في طاعة الله ، قاله ابن عباس ومجاهد ، وقالت فرقة بل هي عبارة عن إحسانهم في الدين وتقديمهم عند الله تعالى أعمال صدق ، فهي كالأيادي . وقالت فرقة : بل معناه : أولي الأيد والنعم التي أسداها الله إليهم من النبوءة والمكانة . وقال قوم المعنى : أيدي الجوارح ، والمراد الأيدي المتصرفة في الخير

والأبصار الثاقبة فيه ، لا كالتي هي منهملة في جل الناس ، وأما من قرأ " الأيد " دون ياء فيحتمل أن يكون معناها معنى القراءة بالياء وحذفت تخفيفاً ، ومن حيث كانت الألف واللام تعاقب التنوين وجب أن تحذف معها كما تحذف مع التنوين . وقالت فرقة : معنى " الأيدي " ، القوة ، والمراد طاعة الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ والأبصار ﴾ عبارة عن البصائر ، أي يبصرون الحقائق وينظرون بنور الله تعالى ، وبنحو هذا فسر الجميع .

(38/662)

وقرأ نافع وحده : " إنا أخلصناهم بخالصةِ ذكرى الدار " على إضافة " خالصةِ " إلى ﴿ ذكرى ﴾ ، وهي قراءة أبي جعفر والأعرج وشيبة . وقرأ الباقون والناس : " بخالصةٍ ذكر الدار " على تنوين " خالصة " ، وقرأ الأعمش : " بخالصتهم ذكر الدار " ، وهي قراءة طلحة .

وقوله : ﴿ بخالصة ﴾ يحتمل أن يكون خالصة اسم فاعل كأنه عبر بها عن مزية أو رتبة ، فأما من أضافها إلى " ذكرى " ، ف ﴿ ذكرى ﴾ مخفوض بالإضافة ، ومن نون " خالصةٍ " ، ف ﴿ ذكرى ﴾ بدل من " خالصة " ، ويحتمل قوله : ﴿ بخالصة ﴾ أن يكون " خالصة

" مصدراً كالعاقبة وخائنة الأعين وغير ذلك ، ف ﴿ ذكرى ﴾ على هذا ما أن يكون في موضع نصب بالمصدر على تقدير : ﴿ إنا أخلصناهم ﴾ بأن أخلصنا لهم ذكرى الدار ، ويكون " خالصة " مصدراً من أخلص على حذف الزوائد ، وإما أن يكون ﴿ ذكرى ﴾ في موضع رفع بالمصدر على تقدير ﴿ إنا أخلصناهم ﴾ بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، وتكون " خالصة " من خلص .

(39/662)

و ﴿ الدار ﴾ في كل وجه في موضع نصب ب ﴿ ذكرى ﴾ ، و ﴿ ذكرى ﴾ مصدر ، وتحتمل الآية أن يريد ب ﴿ الدار ﴾ دار الآخر على معنى ﴿ أخلصناهم ﴾ ، بأن خلص لهم التذكير بالدار الآخرة ودعاء الناس إليها وحضهم عليها ، وهذا قول قتادة ، وعلى معنى خلص لهم ذكرهم للدار الآخرة وخوفهم لها والعمل بحسب قول مجاهد . وقال ابن زيد : المعنى إنا وهبناهم أفضل ما في الدار الآخرة وأخلصناهم به وأعطيناهم إياه ، ويحتمل أن يريد ب ﴿ الدار ﴾ دار الدنيا على معنى ذكر الثناء والتعظيم من الناس والحمد الباقي الذي هو الخلد المجازي ، فتجيء الآية في معنى قوله : ﴿ لسان صدق ﴾ [مريم : 50 ، الشعراء : 84] وفي معنى قوله : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ [الصافات

: 78 ، 108 ، 119 ، 129 ﴾ . و﴿ المصطفين ﴾ أصله : المصطفيين ، تحركت الياء وما قبلها مفتوح فانقلبت ألفاً ، ثم اجتمع سكون الألف وسكون الياء التي هي علامة الجمع ، فحذفت الألف . و﴿ الأخيار ﴾ جمع خير ، وخير : مخفف من خير كميت وميت .

وقرأ حمزة والكسائي : " والليسع " ، كأنه أدخل لام التعريف على ﴿ اليسع ﴾ ، فأجراه مجرى ضيغم ونحوه ، وهي قراءة علي بن أبي طالب والكوفيين . وقرأ الباقون : " واليسع " ، قال أبو علي : الألف واللام فيه زائدتان غير معرفتين كما هي في قول الشاعر : [الكامل]

ولقد جنيتك أكمؤاً وعساقلاً . . . ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

(40/662)

وبنات الأوبر : ضرب من الكمأة . واختلف في نبوة " ذي الكفل " ، وقد تقدم تفسير أمره وقوله تعالى : ﴿ هذا ذكر ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما أن يشير إلى مدح من ذكر وإبقاء الشرف له ، فيتأيد بهذا التأويل قول من قال آنفاً : إن ﴿ الدار ﴾ يراد بها الدار الدنيا . والثاني : أن يشير بهذا إلى القرآن ، إذ هو ذكر للعالم . و" المآب " : المرجع حيث يؤوبون . و﴿ جنات ﴾ بدل من " حسن " و﴿ مفتحة ﴾ نعت للجنات . و﴿ الأبواب ﴾

مفعول لم يسم فاعله ، والتقدير عند الكوفيين : مفتحة لهم أبوابها ، ولا يجوز ذلك عند أهل البصرة ، والتقدير عندهم : الأبواب منها ، وإنما دعا إلى هذا الضمير أن الصفة لا بد أن يكون فيها عائداً على الموصوف . و ﴿ قاصرات الطرف ﴾ قال قتادة معناه : على أزواجهن . و ﴿ أتراب ﴾ معناه أمثال ، وأصله في بني آدم أن تكون الأسنان واحدة ، أي مست أجسادهم التراب في وقت واحد .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : " يوعدون " بالياء من تحت ، واختلفا في سورة : (ق) ، فقرأها أبو عمرو بالتاء من فوق . وقرأ الباقون في السورتين بالتاء من فوق . والنفاذ : الفناء والانقضاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(41/662)

وقال القرطبى :

﴿ هذا ذِكْرٌ ﴾

بمعنى هذا ذكر جميل في الدنيا وشرف يذكرون به في الدنيا أبداً .

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي لهم مع هذا الذكر الجميل في الدنيا حسن المرجع في القيامة .

ثم بيّن ذلك بقوله تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ والعدن في اللغة الإقامة ؛ يقال : عدن بالمكان إذا أقام .

وقال عبد الله بن عمر : إن في الجنة قصراً يقال له عَدْن حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حِبَرَة لا يدخله إلا نبيّ أو صِدّيق أو شهيد .

﴿ مُّفَتَّحَةً ﴾ حال ﴿ لَّهُمُ الأبواب ﴾ رفعت الأبواب لأنه اسم ما لم يسم فاعله .

قال الزجاج : أي مفتحة لهم الأبواب منها .

وقال الفرّاء : مفتحة لهم أبوابها .

وأجاز الفرّاء : "مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبوَابَ" بالنصب .

قال الفرّاء : أي مفتحة الأبوابِ ثم جئت بالتنوين فنصبت .

وأنشد هو وسيبويه :

ونأخذُ بعدهُ بِذِنَابِ عَيْشٍ . . .

أَجبَّ الظَّهْرَ ليس له سَنَامُ

وإنما قال : "مُفَتَّحَةً" ولم يقل مفتوحة ؛ لأنها تفتح لهم بالأمر لا بالمس .

قال الحسن : تُكلَّم : انفتحي فتنفتح انغلقي فتنغلق .

وقيل : تفتح لهم الملائكة الأبواب .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ هو حال قدمت على العامل فيها وهو قوله : ﴿ يَدْعُونَ

فِيهَا ﴾ أي يدعون في الجنات متكئين فيها .

﴿ بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أي بألوان الفواكه ﴿ وَشَرَابٍ ﴾ أي وشراب كثير فحذف لدلالة الكلام عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ أي على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم وقد مضى في "الصافات" .

﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي على سن واحد .

وميلاد امرأة واحدة ، وقد تساوين في الحسن والشباب ، بنات ثلاث وثلاثين سنة .

قال ابن عباس : يريد الآدميات .

و"أَتْرابٌ" جمع تِرْب وهو نعت لقاصرات ؛ لأن "قاصِرَاتُ" نكرة وإن كان مضافاً إلى المعرفة .

والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه كما قال :

(42/662)

مِن القاصِراتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ . . .

من الذَّرِّ فوق الإِتْبِ مِنها لأَثَّرا

قوله تعالى : ﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحساب ﴾ أي هذا الجزاء الذي وعدتم به .

وقراءة العامة بالتاء أي ما توعدون أيها المؤمنون .

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب بالياء على الخبر ، وهي قراءة السُّلمي واختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ فهو خبر .

"لِيوْمِ الْحِسَابِ" أي في يوم الحساب ، قال الأعشى :

المهِينِين مَا لَهُمْ لزمانِ السَّ . . .

وءِ حتى إِذا أفاق أفاقوا

أي في زمان السوء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا ينقطع ؛ كما قال : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] وقال : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [الانشقاق : 25] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(43/662)

وقال الآلوسى :

﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) ﴾

﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم ﴿ ذُكِرَ ﴾ أي شرف لهم وشاع الذكر بهذا المعنى لأن الشرف يلزمه الشهرة والذكر بين الناس فتجوز به عنه بعلاقة اللزوم ، والمراد في ذكر قصصهم وتنويه الله تعالى بهم شرف عظيم لهم أو المعنى هذا المذكور من الآيات نوع من الذكر الذي هو القرآن ، وذكر ذلك للانتقال من نوع من الكلام إلى آخر كما يقول الجاحظ في كتبه : فهذا باب ثم شرع في باب آخر ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر : هذا وكان كيت وكيت ، ويحذف على ما قيل الخبر في مثل ذلك كثيراً وعليه ﴿ هذا وَإِنَّ للطاغين لَشَرَّ مَئَابٍ ﴾ [ص : 55] وستسمع إن شاء الله تعالى الكلام فيه فلا يقال : إنه لا فائدة فيه لأنه معلوم أنه من القرآن .

وقال ابن عباس : هذا ذكر من مضي من الأنبياء عليهم السلام ، وقوله تعالى : ﴿ هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي مرجع شروع في بيان أجرهم الجزيل في الآجل بعد بيان ذكرهم الجميل في العاجل ، والمراد بالمتقين إما الجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً وإما نفس المذكورين عبر عنهم بذلك مدحاً لهم بالتقوى التي هي الغاية القصوى في الكمال ، والجلمة فيما أرى عطف على الجملة قبلها كأنه قيل : هذا شرف لهم في الدنيا وإن لهم ولأضرابهم أو إن لهم في الآخرة لحسن مآب أو هي من قبيل عطف القصة على القصة ، وقال الشهاب الخفاجي عليه الرحمة : هي حالية ولم يبين صاحب الحال ، ويبعد أن يكون ﴿ ذِكْراً ﴾ لأنه نكرة

متقدمة وأن يكون ﴿ هذا ﴾ لأنه مبتدأ ومع ذلك في المعنى على تقدير الحالية خفاء ، وقال بعض أجلة المعاصرين .

(44/662)

إنه أراد أن الكلام على معنى والحال كذا أي الأمر والشأن كذا ولم يرد أن الجملة حال بالمعنى المعروف الذي يقتضي ذا حال وعاملا في الحال إلى غير ذلك وادعى أن الأمر كذلك في كل جملة يقال إنها حال وليس فيها ضمير يعود على ما قبلها نحو جاء زيد والشمس طالعة وقال : إنه الذي ينبغي أن يعول عليه وإن لم يذكره النحويون اه ، والحال لا يخفي على ذي تمييز ، وإضافة ﴿ حُسْنُ ﴾ إلى ﴿ مَئَابٍ ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف إما بتأويل مآب ذي حسن أو حسن وأما بدونه قصداً للمبالغة .

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدل اشتمال ، وجوز أن يكون نصباً على المدح ، وجعله الزمخشري عطف بيان لحسن مآب ، وعدن قيل من الإعلام الغالبة غلبة تقديرية ولزوم الإضافة فيها أو تعريفها باللام أغلبي كما صرح به ابن مالك في التسهيل ، وجنات عدن كمدينة طيبة لا كإنسان زيد فإنه قبيح ، وقيل العلم مجموع ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ وهو أيضاً من غير الغالب لأن المراد من الإضافة التي تعوضها العلم بالغلبة إضافة تفيده تعريفاً ، وعلى القولين هو معين

فيصلح للسان لكن تعقب ذلك أبو حيان بأن للنحويين في عطف البيان مذهبين ، أحدهما أن ذلك لا يكون إلا في المعارف فلا يكون عطف البيان إلا تابعاً لمعرفة وهو مذهب البصريين ، والثاني أنه يجوز أن يكون في النكرات فيكون عطف البيان تابعاً لنكرة كما تكون المعرفة فيه تابعة لمعرفة وهذا مذهب الكوفيين وتبعهم الفارسي ؛ وأما تخالفهما في التنكير والتعريف فلم يذهب إليه أحد سوى الزمخشري كما قد صرح به ابن مالك في التسهيل فهو بناء للأمر على مذهبه .

وذهب آخرون أن عدنا مصدر عدن بمكان كذا استقر ، ومنه المعدن لمستقر الجواهر ولا علمية ولا نقل هناك ومعنى ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ جنات استقرار وثبات فإن كان عطف بيان فهو على مذهب الكوفيين والفارسي .

(45/662)

ومن الغريب ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال : سألت كعباً عن قوله تعالى : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ فقال : جنات كروم وأعناب بالسريانية ، وفي تفسير ابن جرير أنه بالرومية ، وقوله تعالى :

﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الابواب ﴾ إما صفة لجنات عدن وإليه ذهب ابن اسحق وتبعه ابن عطية

أو حال من ضميرها المستتر في خبر إن والعامل فيه الاستقرار المقدر أو نفس الظرف لتضمنه معناه ونيابته عنه وإليه ذهب الزمخشري ومختصر وكلامه أو حال من ضميرها المحذوف مع العامل لدلالة المعنى عليه والتقدير يدخلونها مفتحة وإليه ذهب الحوفي ، و ﴿ الابواب ﴾ نائب فاعل ﴿ مُّفَتَّحَةً ﴾ عند الجمهور والرابط العائد على الجنات محذوف تقديره الأبواب منها ، واكتفى الكوفيون عن ذلك بأل لقيامها مقام الضمير فكأنه قيل : مفتحة لهم أبوابها ، وذهب أبو علي إلى أن نائب فاعل ﴿ مُّفَتَّحَةً ﴾ ضمير الجنات والأبواب بدل منه بدل اشتمال كما هو ظاهر كلام الزمخشري ، ولا يصح أن يكون بدل بعض من كل لأن أبواب الجنات ليست بعضاً من الجنات على ما قال أبو حيان .

وقرأ زيد بن علي ، وعبد الله بن رفيع .

وأبو حيوة ﴿ جنات عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً ﴾ برفعهما على أنهما خبران لمحذوف أي هو أي المآب جنات عدن مفتحة لهم أبوابه أو هو جنات عدن هي مفتحة لهم أبوابها أو على أنهما مبتدأ وخبر .

ووجه ارتباط الجملة بما قبلها انها مفسرة لحسن المآب لأن محصلها جنات أبوابها فتحت أكراماً لهم أو هي معترضة .

﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بفاكهة كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ قيل حالان من ضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ وهما حالان مقدران لأن الاتكاء وما بعده ليس في حال تفتيح الأبواب بل بعده ، وقيل : الأول حال مقدرة من الضمير المذكور الثاني حال من ضمير متكئين ، وجوز جعلهما حالين من المتقين ، ولا يصح إلا إن قلنا بأن الفاصل ليس بأجنبي والظاهر أنه أجنبي ، وقال بعض الأجلة : الأظهر ان ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حال من ضمير ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ قدم رعاية للفاصلة ويدعون استئناف لبيان حالهم كأنه قيل ما حالهم بعد دخولها ؟ فقيل : يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب متكئين فيها ، والاقتصار على الفاكهة للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التعدي فإنه لتحصيل بدل ولا تحلل ثمت ولما كانت الفاكهة تتنوع وصفها سبحانه بالكثرة وكثرتها باختلاف أنواعها وكثرة كل نوع منها ، ولما كان الشراب نوعاً واحداً وهو الخمر افرد ، وقيل : وصفت الفاكهة بالكثرة ولم يوصف الشراب للإيذان بأنه يكون على الشراب نقل كثير سواء تعددت أنواعه أم اتحدت ، ويمكن أن يقال والله تعالى أعلم : التقدير وشراب كثير لكن حذفت كثير لدلالة ما قبل ورعاية للفاصلة .

﴿ وَعِندَهُمْ قاصرات الطرف ﴾ أي على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم أو قاصرات طرف أزواجهن عليهن فلا ينظرون إلى غيرهن لشدة حسنهن ، وتمام الكلام قد مر وحلا

﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي لذات على سن واحدة تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر أو لسقوطهن معا على الأرض حين الولادة ومسهن ترابها فكأن الترب بمعنى المتارب كالمثل بمعنى المماثل ، والظاهر أن هذا الوصف بينهن فيكون في ذلك إشارة إلى محبة بعضهن لبعض وتصادقهن فيما بينهن فإن النساء الأتراب يتحابين ويتصادقن وفي ذلك راحة عظيمة لأزواجهن كما أن في تباغض الضرائر نصباً عظيماً وخطباً جسيماً لهم ، وقد جرب ذلك وصح نسأل الله تعالى العفو والعافية .

(47/662)

وقيل : إن ذلك بينهن وبين أزواجهن أي أن اسنانهن كأسنانهم ليحصل كمال التحاب ، ورجح بأن اهتمام الرجل بحصول المحبة بينه وبين زوجته أشد من اهتمامه بحصولها بين زوجاته ، وفيه توقف ، ثم أن الوصف الأول على المعنى الأول متكفل بالدلالة على محبتهن لأزواجهن وعلى المعنى الثاني متكفل بالدلالة على محبة أزواجهن لهن وإذا حصلت المحبة من طرف فالغالب حصولها من الطرف الآخر ، وقد قيل : من القلب إلى القلب سبيل والأمر في الشاهد أن كون الزوجات أصغر من الأزواج أحب لهم لا التساوي ، واختار بعضهم كون ذلك بينهن وبين أزواجهن ويلزم منه مساواة بعضهن لبعض وهذا إذا كان المراد

بقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ ﴾ الخ وعند كل واحد منهم ولو كان المراد وعند مجموعهم وكان الجمع موزعاً بأن يكون لكل واحد واحد من أهل الجنة واحدة واحدة من قصارات الطرف الأتراب كان اعتبار كون الوصف بينهن وبين الأزواج كالمتعين لكن هذا الفرض خلاف ما نطقت به الأخبار سواء قلنا بما روي عن ابن عباس من أن الآية في الآدميات أو قلنا بما قاله صاحب الفينان من أنها في الحور ، وقيل بناء على ما هو الظاهر في الوصف إن التساوي في الأعمار بين الحور وبين نساء الجنة فالآية فيهما .

﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحساب ﴾ أي لأجل يوم الحساب فإن ما وعدوه لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة وهي تظهر بالحساب فجعل كأنه علة لتوقف إنجاز الوعد فالنسبة لليوم والحساب مجازية ، وجوز أن يكون اللام بمعنى بعد كما في كتب لخمس خلون من جمادي الآخرة مثلاً وهو أقل مؤونة .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو ﴿ يُوعَدُونَ ﴾ بياء الغيبة وعلى قراءة الجمهور بتاء الخطاب فيها التفات .

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي ما ذكر من ألوان النعم والكرامات ﴿ لَرِزْقُنَا ﴾ أعطيناكموه ﴿ مَالَهُ مِنْ ﴾ انقطاع أبدا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ واذكر عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ واذكر عَبْدَنَا دَاوُود ﴾ وأيوب عطف بيان ، و ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾ بدل اشتمال من عبدنا ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه حكاية لكلامه الذي نادى ربه به ، ولو لم يحكه لقال : إنه مسه .

وقرأ عيسى بن عمر بكسرها على إضمار القول .

وفي ذكر قصة أيوب إرشاد لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الاقتداء به في الصبر على المكاره .

قرأ الجمهور بضم النون من قوله : ﴿ بِنُصْبٍ ﴾ وسكون الصاد ، فقيل : هو جمع نصب بفتحتين نحو أسد ، وأسد ، وقيل : هو لغة في النصب ، نحو رشد ، ورشد .

وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، وشيبة ، وحفص ، ونافع في رواية عنه بضمتين ، ورويت هذه القراءة عن الحسن .

وقرأ أبو حيوة ، ويعقوب ، وحفص في رواية بفتح ، وسكون ، وهذه القراءات كلها بمعنى واحد ، وإنما اختلفت القراءات باختلاف اللغات .

وقال أبو عبيدة : إن النصب بفتحتين : التعب ، والإعياء ، وعلى بقية القراءات الشرّ ،

والبلاء ، ومعنى قوله : ﴿ وَعَذَابٍ ﴾ أي : ألم .

قال قتادة ، ومقاتل : النصب في الجسد ، والعذاب في المال .

قال النحاس : وفيه بعد كذا قال .

والأولى تفسير النصب بالمعنى اللغوي ، وهو : التعب ، والإعياء ، وتفسير العذاب بما يصدق عليه مسمى العذاب ، وهو : الألم ، وكلاهما راجع إلى البدن .

﴿ اركض بِرِجْلِكَ ﴾ هو بتقدير القول ، أي : قلنا له : اركض برجلك كذا قال الكسائي ، والركض : الدفع بالرجل ، يقال : ركض الدابة برجله : إذا ضربها بها .

وقال المبرد : الركض : التحريك .

(49/662)

قال الأصمعي : يقال : ركضت الدابة ، ولا يقال : ركضت هي ؛ لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ، ولا فعل لها في ذلك ، وحكى سيبويه : ركضت الدابة ، فركضت ، مثل جبرت العظم ، فجبر ﴿ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ هذا أيضاً من مقول القول المقدّر ، المغتسل : هو الماء الذي يغتسل به ، والشراب : الذي يشرب منه .

وقيل : إن المغتسل هو : المكان الذي يغتسل فيه .

قال قتادة : هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها : الجابية ، فاغتسل من إحداهما ، فأذهب الله ظاهر دائه ، وشرب من الأخرى فأذهب الله باطن دائه ، وكذا قال الحسن .

وقال مقاتل : نبعت عين جارية ، فاغتسل فيها ، فخرج صحيحاً ، ثم نبعت عين أخرى ، فشرب منها ماءً عذباً بارداً .

وفي الكلام حذف ، والتقدير : فركض برجله ، فنبعت عين ، فقلنا له : ﴿ هذا مغتسل ﴾ إلخ ، وأسند المسّ إلى الشيطان مع أن الله سبحانه هو الذي مسه بذلك : إما لكونه لما عمل بوسوسته عوقب على ذلك بذلك النصب ، والعذاب .

فقد قيل : إنه أعجب بكثرة ماله ، وقيل : استغاثه مظلوم ، فلم يغثه ، وقيل : إنه قال ذلك على طريقة الأدب ، وقيل : إنه قال ذلك ؛ لأن الشيطان وسوس إلى أتباعه ، فرفضوه ، وأخرجوه من ديارهم ، وقيل : المراد به .

ما كان يوسوسه الشيطان إليه حال مرضه ، وابتلائه من تحسين الجزع ، وعدم الصبر على المصيبة ، وقيل غير ذلك .

وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ معطوف على مقدّر كأنه قيل : فاغتسل ، وشرب ، فكشفنا بذلك ما به من ضرّ ، ووهبنا له أهله .

قيل : أحياهم الله بعد أن أماتهم ، وقيل : جمعهم بعد تفرقهم ، وقيل : غيرهم مثلهم ، ثم زاده مثلهم معهم ، وهو معنى قوله : ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ﴾ فكانوا مثلى ما كانوا من قبل ابتلائه ، وانتصاب قوله : ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا وذكرى لأُوْلِى الأَلباب ﴾ على أنه مفعول لأجله ، أي : وهبناهم له لأجل رحمتنا إياه ، وليتذكر بحاله أولو الألباب ، فيصبروا على الشدائد كما صبر ، وقد تقدّم في سورة الأنبياء تفسير هذه الآية مستوفى ، فلا نعيده .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ معطوف على ﴿ اركض ﴾ ، أو على ﴿ وهبنا ﴾ ؛ أو التقدير ، وقلنا له : ﴿ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ ، والضغث : عثكال النخل بشماريخه ، وقيل : هو قبضة من حشيش مختلط رطبها بيابسها ، وقيل : الحزمة الكبيرة من القضبان ، وأصل المادّة تدلّ على جمع المختلطات .

قال الواحدي : الضغث : ملء الكفّ من الشجر ، والحشيش ، والشماريخ ﴿ فاضرب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ ﴾ أي : اضرب بذلك الضغث ، ولا تحنث في يمينك ، والحنث : الإثم ، ويطلق على فعل ما حلف على تركه ، وكان أيوب قد حلف في مرضه أن يضرب امرأته مائة جلدة .

واختلف في سبب ذلك ، فقال سعيد بن المسيب : إنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه به من الخبز ، فخاف خيانتها ، فحلف ليضربنها .

وقال يحيى بن سلام ، وغيره : إن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقرّباً إليه ، فإنه إذا فعل ذلك برىء ، فحلف ليضربنها إن عوفي مائة جلدة .

وقيل : باعت ذؤابتها برغيفين إذ لم تجد شيئاً ، وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام ، فلهذا حلف ليضربنها .

وقيل : جاءها إبليس في صورة طبيب ، فدعته لمداواة أيوب ، فقال : أداويه على أنه إذا برىء قال : أنت شفيتني ، لا أريد جزاء سواه ، قالت : نعم ، فأشارت على أيوب بذلك ، فحلف ليضربنها .

وقد اختلف العلماء هل هذا خاصّ بأيوب ، أو عامّ للناس كلهم ؟ وأن من حلف خرج من يمينه بمثل ذلك .

(51/662)

قال الشافعي : إذا حلف ليضربنّ فلاناً مائة جلدة ، أو ضرباً ، ولم يقل : ضرباً شديداً ، ولم ينوِ بقلبه ، فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية ، حكاه ابن المنذر عنه ، وعن أبي ثور ، وأصحاب الرأي .

وقال عطاء : هو خاصّ بأيوب ، ورواه ابن القاسم عن مالك .

ثم أثنى الله سبحانه على أيوب ، فقال : ﴿ إِنَّا وجدناه صَابِراً ﴾ أي : على البلاء الذي ابتليناه به ، فإنه ابتلي بالداء العظيم في جسده ، وذهاب ماله ، وأهله ، وولده ، فصبر ﴿ نِعْمَ العبد ﴾ أي : أيوب ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : رجاع إلى الله بالاستغفار ، والتوبة .

﴿ واذكر عِبَادَنَا إبراهيم وإسحاق ويَعْقُوبَ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ عبادنا ﴾ بالجمع .

وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وحميد ، وابن محيصن ، وابن كثير : " عبدنا " بالإفراد .

فعلى قراءة الجمهور يكون إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب عطف بيان ، وعلى القراءة الأخرى يكون إبراهيم عطف بيان ، وما بعده عطف على عبدنا لا على إبراهيم .

وقد يقال : لما كان المراد بعبدنا الجنس جاز إبدال الجماعة منه .

وقيل : إن إبراهيم ، وما بعده بدل ، أو النصب بإضمار أعني ، وعطف البيان أظهر ، وقراءة الجمهور أبين ، وقد اختارها أبو عبيد ، وأبو حاتم ﴿ أُوْلِى الأيدى والأبصار ﴾

الأيدي ، جمع اليد التي بمعنى : القوّة ، والقدرة .

قال قتادة : أعطوا قوّة في العبادة ، ونصراً في الدين .

قال الواحدي : وبه قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والمفسرون .

قال النحاس : أما الأبصار ، فمتفق على أنها البصائر في الدين ، والعلم .

وأما الأيدي ، فمختلف في تأويلها ، فأهل التفسير يقولون : إنها القوّة في الدين ، وقوم يقولون : الأيدي جمع يد ، وهي النعمة ، أي : هم أصحاب النعم ، أي : الذين أنعم الله عزّ وجلّ

عليهم ، وقيل : هم أصحاب النعم على الناس ، والإحسان إليهم ، لأنهم قد أحسنوا ، وقدّموا خيراً ، واختار هذا ابن جرير .

قرأ الجمهور (أولي الأيدي) بإثبات الياء في الأيدي .

(52/662)

وقرأ ابن مسعود ، والأعمش ، والحسن ، وعيسى : (الأيد) بغير ياء ، فقيل معناها : معنى القراءة الأولى ، وإنما حذفت الياء لدلالة كسرة الدال عليها ، وقيل الأيد : القوّة

وجملة : ﴿ إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ﴾ تعليل لما وصفوا به .

قرأ الجمهور : ﴿ بخالصة ﴾ بالتنوين ، وعدم الإضافة على أنها مصدر ، بمعنى : الإخلاص ، فيكون ذكرى منصوباً به ، أو بمعنى : الخلوص ، فيكون ذكرى مرفوعاً به ، أو يكون خالصة اسم فاعل على بابه ، وذكرى بدل منها ، أو بيان لها ، أو بإضمار أعني ، أو مرفوعة بإضمار مبتدأ ، والدار يجوز أن تكون مفعولاً به لذكرى ، وأن تكون ظرفاً : إما على الاتساع ، أو على إسقاط الخافض ، وعلى كل تقدير ، فخالصة صفة لموصوف محذوف ، والباء للسببية ، أي : بسبب خصلة خالصة .

وقرأ نافع ، وشيبة ، وأبو جعفر ، وهشام عن ابن عامر بإضافة خالصة إلى ذكرى على أن

الإضافة للبيان ، لأن الخالصة تكون ذكرى ، وغير ذكرى ، أو على أن خالصة مصدر مضاف إلى مفعوله ، والفاعل محذوف .

أي : بأن أخلصوا ذكرى الدار ، أو مصدر بمعنى : الخلوص مضافاً إلى فاعله .

قال مجاهد : معنى الآية : استصفيناهم بذكر الآخرة ، فأخلصناهم بذكرها .

وقال قتادة : كانوا يدعون إلى الآخرة ، وإلى الله .

وقال السدّي : أخلصوا بخوف الآخرة .

قال الواحدي : فمن قرأ بالتنوين في خالصة كان المعنى : جعلناهم لنا خالصين بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، والخالصة مصدر بمعنى : الخلوص ، والذكرى بمعنى : التذكر ، أي : خلص لهم تذكر الدار ، وهو أنهم يذكرون التأهب لها ، ويزهدون في الدنيا ، وذلك من شأن الأنبياء .

(53/662)

وأما من أضاف ، فالمعنى : أخلصنا لهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، والخالصة مصدر مضاف إلى الفاعل ، والذكرى على هذا المعنى : الذكر ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المصطفين الأخيار ﴾ الاصطفاء : الاختيار ، والأخيار جمع خير بالتشديد والتخفيف كأموات في

جمع ميت مشدّداً ومخففاً ؛ والمعنى : إنهم عندنا لمن المختارين من أبناء جنسهم من الأخيار .

﴿ واذكر إسماعيل ﴾ قيل : وجه إفراده بالذكر بعد ذكر أبيه ، وأخيه ، وابن أخيه ؛ للإشعار بأنه عريق في الصبر الذي هو المقصود بالتذكير هنا ﴿ واليسع وَذَا الكفل ﴾ قد تقدّم ذكر اليسع ، والكلام فيه في الأنعام ، وتقدَّم ذكر ذا الكفل ، والكلام فيه في سورة الأنبياء ، والمراد من ذكر هؤلاء : أنهم من جملة من صبر من الأنبياء ، وتحملوا الشدائد في دين الله .

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يذكرهم ؛ ليسلك مسلكهم في الصبر ﴿ وَكُلٌّ مِّنَ الأخيار ﴾ يعني : الذين اختارهم الله لنبوّته ، واصطفاهم من خلقه .

﴿ هذا ذِكْر ﴾ الإشارة إلى ما تقدّم من ذكر أوصافهم ، أي : هذا ذكر جميل في الدنيا ، وشرف يذكرون به أبداً ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي : لهم مع هذا الذكر الجميل حسن مآب في الآخرة ، والمآب : المرجع ، والمعنى : أنهم يرجعون في الآخرة إلى مغفرة الله ، ورضوانه ، ونعيم جنته .

ثم بيّن حسن المرجع ، فقال : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ جنات ﴾ بالنصب بدلاً من حسن مآب ، سواء كان جنات عدن معرفة ، أو نكرة ؛ لأن المعرفة تبدل من النكرة ، وبالعكس ، ويجوز أن يكون جنات عطف بيان إن كانت نكرة ، ولا يجوز ذلك فيها

إن كانت معرفة على مذهب جمهور النحاة ، وقد جوزه بعضهم .

ويجوز أن يكون نصب جنات بإضمار فعل .

والعدن في الأصل : الإقامة ، يقال : عدن بالمكان : إذا أقام فيه ، وقيل : هو اسم لقصر في الجنة ، وقرىء برفع جنات على أنها مبتدأ .

(54/662)

وخبرها مفتحة ، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أي : هي جنات عدن ، وقوله : ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبواب ﴾ حال من جنات ، والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل ، والأبواب مرتفعة باسم المفعول : كقوله : ﴿ وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ [الزمر : 43] والرّابط بين الحال ، وصاحبها ضمير مقدر ، أي : منها ، أو الألف ، واللام لقيامه مقام الضمير ، إذ الأصل أبوابها .

وقيل : إن ارتفاع الأبواب على البدل من الضمير في مفتحة ، العائد على جنات ، وبه قال أبو عليّ الفارسي أي : مفتحة هي الأبواب .

قال الفراء : المعنى : مفتحة أبوابها ، والعرب تجعل الألف ، واللام خلفاً من الإضافة .

وقال الزجاج : المعنى : مفتحة لهم الأبواب منها .

قال الحسن : إن الأبواب يقال لها : انفتحي فتنفتح ، انغلقي ، فتنغلق .

وقيل : تفتح لهم الملائكة الأبواب ، وانتصاب ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ على الحال من ضمير لهم ، والعامل فيه مفتحة ، وقيل : هو حال من ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ قدّمت على العامل ﴿ فِيهَا ﴾ أي : يدعون في الجنات حال كونهم متكئين فيها ﴿ بفاكهة كَثِيرَةٍ ﴾ أي : بألوان متنوّعة متكثرة من الفواكه ﴿ وَشَرَاب ﴾ كثير ، فحذف كثيراً لدلالة الأوّل عليه ، وعلى جعل ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حالاً من ضمير لهم ، والعامل فيه مفتحة ، فتكون جملة ﴿ يَدَّعُونَ ﴾ مستأنفة لبيان حالهم .

وقيل : إن يدعون في محل نصب على الحال من ضمير متكئين .

﴿ وَعِندَهُمْ قاصرات الطرف أَتْرَابٌ ﴾ أي : قاصرات طرفهنّ على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ، وقد مضى بيانه في سورة الصافات .

والأتراب : المتحدات في السنّ ، أو المتساويات في الحسن .

وقال مجاهد : معنى أتراب : أنهنّ متواخيات لا يتباغضن ، ولا يتغايرن .

وقيل : أتراباً للأزواج .

والأتراب : جمع ترب ، واشتقاقه من التراب ، لأنه يمسهنّ في وقت واحد لاتحاد مولدهنّ .

﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحساب ﴾ أي : هذا الجزاء الذي وعدتم به لأجل يوم الحساب ، فإن الحساب علة للوصول إلى الجزاء ، أو المعنى : في يوم الحساب .

قرأ الجمهور : ﴿ ما توعدون ﴾ بالفوقية على الخطاب .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن محيصن ، ويعقوب بالتحتية على الخبر ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وأبو حاتم لقوله : ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، فإنه خبر ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا ﴾ أي : إن هذا المذكور من النعم ، والكرامات لرزقنا الذي أنعمنا به عليكم ﴿ مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ أي : انقطاع ، ولا يفنى أبداً ، ومثله قوله : ﴿ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] فنعم الجنة لا تنقطع عن أهلها .

وقد أخرج أحمد في الزهد ، وابن أبي حاتم ، وابن عساكر عن ابن عباس قال : إن الشيطان عرج إلى السماء ، فقال : يا رب سلطني على أيوب ، قال الله : لقد سلطتك على ماله ، وولده ، ولم أسلطك على جسده ، فنزل ، فجمع جنوده ، فقال لهم : قد سلطت على أيوب ، فأروني سلطانكم ، فصاروا نيراناً ، ثم صاروا ماء ، فبينما هم في المشرق إذا هم بالمغرب ، وبينما هم بالمغرب إذا هم بالمشرق .

فأرسل طائفة منهم إلى زرعه ، وطائفة إلى أهله ، وطائفة إلى بقره ، وطائفة إلى غنمه ، وقال : إنه لا يعتصم منكم إلا بالمعروف ، فأتوه بالمصائب بعضها على بعض ، فجاء صاحب الزرع ، فقال : يا أيوب ألم ترَ إلى ربك أرسل على زرعك ناراً ، فأحرقته ؟ ثم جاء صاحب الإبل ، فقال : يا أيوب ألم ترَ إلى ربك أرسل إلى إبلك عدواً ، فذهب بها ؟ ثم جاء صاحب البقر فقال : يا أيوب ألم ترَ إلى ربك أرسل إلى بقرك عدواً ، فذهب بها ؟ ثم جاءه صاحب الغنم فقال : يا أيوب ألم ترَ إلى ربك أرسل على غنمك عدواً ، فذهب بها ؟ وتفرد هو لبنيه ، فجمعهم في بيت أكبرهم ، فبينما هم يأكلون ، ويشربون إذ هبت ريح ، فأخذت بأركان البيت ، فألقته عليهم ، فجاء الشيطان إلى أيوب بصورة غلام بأذنيه قرطان ، فقال : يا أيوب ألم ترَ إلى ربك جمع بنيك في بيت أكبرهم ، فبينما هم يأكلون ، ويشربون إذ هبت ريح ، فأخذت بأركان البيت ، فألقته عليهم ، فلو رأيتهم حين اختلطت دماؤهم ، ولحومهم بطعامهم ، وشرابهم ؟ فقال له أيوب : فأين كنت ؟ قال : كنت معهم ، قال : فكيف انفلتّ ؟ قال : انفلت ، قال أيوب : أنت الشيطان ؛ ثم قال أيوب : أنا اليوم كيوم ولدتني أمي ، فقام ، فحلق رأسه ، وقام يصلي ، فرنّ إبليس رنة سمعها أهل السماء ، وأهل الأرض ، ثم عرج إلى السماء ، فقال : أي رب إنه قد اعتصم ، فسلطني عليه ، فإني لا أستطيعه إلا بسلطانك ، قال : قد سلطتك على جسده ، ولم أسلطك على قلبه ، فنزل ، فنفخ تحت

قدمه نفخة قرح ما بين قدمه إلى قرنه ، فصار قرحة واحدة ، وألقي على الرماد حتى بدا حجاب قلبه ، فكانت امرأته تسعى عليه ، حتى قالت له : ألا ترى يا أيوب قد نزل والله بي من الجهد والفاقة ما إن بعت قروني برغيف ، فأطعمتك ، فادع الله أن يشفيك ، ويريحك قال : ويحك كنا في النعيم سبعين عاماً ، فاصبري حتى نكون في الضراء سبعين عاماً ، فكان في البلاء سبع سنين ، ودعا ، فجاء جبريل يوماً ، فدعا بيده ، ثم قال

(57/662)

: قم ، فقام ، فنحاه عن مكانه ، وقال : اركض برجلك هذا مغتسل بارد ، وشراب ، فركض برجله ، فنبعت عين ، فقال : اغتسل ، فاغتسل منها ، ثم جاء أيضاً ، فقال : اركض برجلك ، فنبعت عين أخرى فقال له : اشرب منها ، وهو قوله : ﴿ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ، وألبسه الله حلة من الجنة ، فتنحى أيوب ، فجلس في ناحية ، وجاءت امرأته ، فلم تعرفه ، فقالت : يا عبد الله أين المبتلي الذي كان ها هنا ؟ لعل الكلاب قد ذهبت به ، أو الذئاب ، وجعلت تكلمه ساعة ، فقال : ويحك أنا أيوب قد ردّ الله عليّ جسدي ، ورد عليه ماله ، وولده عياناً ، ومثلهم معهم ، وأمطر عليه جراداً من ذهب ، فجعل يأخذ الجراد بيده ، ثم يجعله في ثوبه ، وينشر كساءه ، ويأخذه ، فيجعل

فيه ، فأوحى الله إليه : يا أيوب أما شبعت ؟ قال : يا رب من ذا الذي يشبع من فضلك ، ورحمتك ؟ وفي هذا نكارة شديدة ، فإن الله سبحانه لا يمكن الشيطان من نبي من أنبيائه ، ويسلط عليه هذا التسليط العظيم .

وأخرج أحمد في الزهد ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن عساكر عن ابن عباس قال : إن إبليس قعد على الطريق ، وأخذ تابوتاً يداوي الناس ، فقالت امرأة أيوب : يا عبد الله إن ها هنا مبتلى من أمره كذا وكذا ، فهل لك أن تداويه ؟ قال : نعم بشرط إن أنا شفيته أن يقول : أنت شفيتني لا أريد منه أجراً غيره .

فأتت أيوب ، فذكرت له ذلك ، فقال : ويحك ذاك الشيطان ، لله عليّ إن شفاني الله أن أجلدك مائة جلدة ، فلما شفاه الله أمره أن يأخذ ضغثاً ، فيضربها به ، فأخذ عذقاً فيه مائة شمراخ ، فضربها ضربة واحدة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ﴾ قال : هو الأسل .

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال : الضغث : القبضة من المرعى الرطب .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الضغث : الحزمة .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن عساكر من طريق أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال : " حملت وليدة في بني ساعدة من زنا ، فقيل لها : ممن حملك ؟ قالت : من فلان المقعد ، فسئل المقعد ، فقال : صدقت .

فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " خذوا عثكولاً فيه مائة شمراخ ، فاضربوه به ضربة واحدة " وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن عساكر نحوه من طريق أخرى عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ، عن سعيد بن سعد بن عبادة .

وأخرج الطبراني عن سهل بن سعد نحوه .

وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود قال : أيوب رأس الصابرين يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أُوْلِى الأيدى ﴾ قال : القوّة في العبادة ﴿ والأبصار ﴾ قال : الفقه في الدين .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ أُوْلِى الأيدى ﴾ قال : النعمة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ﴾ قال : أخلصوا بذكر دار الآخرة أن يعملوا لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ هذا ذِكْرٌ ﴾ جملة فَصلت الكلامَ السابق عن الكلام الآتي بعدها قصداً لانتقال الكلام من غرض إلى غرض مثل جملة : أما بعد فكذا ومثل اسم الإِشارة المجرّد نحو ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾ [ص : 55] ، وقوله : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله ﴾ [الحج : 30] ، ﴿ وذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ ، في سورة [الحج : 32] .

قال في "الكشاف" : وهو كما يقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر : هذا وقد كان كيْتَ وكَيت أ هـ .

وهذا الأسلوب من الانتقال هو المسمى في عرف علماء الأدب بالاقتضاب وهو طريقة العرب ومن يليهم من المخضرمين ، ولهم في مثله طريقتان : أن يذكروا الخبر كما في هذه الآية وقولِ المؤلفين : هذا باب كذا ، وأن يحذفوا الخبر لدلالة الإِشارة على المقصود ، كقوله تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله ﴾ [الحج : 30] ، أي ذلك شأن الذي عمِلوا بما دعاهم إليه إبراهيم وذكروا اسم الله على ذبائحهم ولم يذكروا أسماء الأصنام ، وقوله : ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ، أي ذلك مثل الذين أشركوا بالله ، وقوله بعد آيات هذا وإن

للطاغين لشر مئاب ﴾ [ص : 55] أي هذا مآب المتقين ، ومنه قول الكاتب : هذا وقد كان كَيْت وكَيْتتِ ، وإنما صرح بالخبر في قوله : ﴿ هذا ذِكرٌ ﴾ للاهتمام بتعيين الخبر ، وأن المقصود من المشار إليه التذكر والاقتداء فلا يأخذ السامع اسم الإِشارة مأخذ الفصل المجرَّد والانتقالِ الاقتضابي ، مع إرادة التوجيه بلفظ ﴿ ذكر ﴾ بتحميله معنى حُسن السمعة ، أي هذا ذكر لأولئك المسمَّيْن في الآخرين مع أنه تذكرة للمقتدِين على نحو المعْنَيَيْن في قوله تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك في سورة الدخان ﴾ [الزخرف : 44] .

(60/662)

ومن هنا احتمل أن تكون الإِشارة بـ ﴿ هذا ﴾ إلى القرآن ، أي القرآن ذِكر ، فتكون الجملة استئنافاً ابتدائياً للتنويه بشأن القرآن رَاجعاً إلى غَرض قوله تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ [ص : 29] .

والواو في ﴿ وإن للمتقين ﴾ الخ ، يجوز أن تكون للعطف الذكري ، أي انتهى الكلام السابق بقولنا ﴿ هذا ﴾ ونعطف عليه ﴿ إنَّ للمُتَّقينَ ﴾ الخ .

ويجوز أن تكون واو الحال .

وتقدم معنى ﴿ حسن مئاب .

﴿ واللام في ﴿ للمُتَّقينَ ﴾ لام الاختصاص ، أي لهم حسن مآب يوم الجزاء .

وانتصب ﴿ جنَّاتتِ عدنٍ ﴾ على البيان من ﴿ حسن مئاب .

﴿ والعدن : الخلود .

و ﴿ مُفَتَّحَةً ﴾ حال من ﴿ جنَّاتتِ عدنٍ ﴾ ، والعامل في الحال ما في ﴿ للمُتَّقينَ ﴾ من معنى الفعل وهو الاستقرار فيكون (ال) في ﴿ الأبوابُ ﴾ عوضاً عن الضمير .

والتقدير : أبوابها ، على رأي نحاة الكوفة ، وأما عند البصريين ف ﴿ الأبواب ﴾ بدل من الضمير في ﴿ مُفتَّحَةً ﴾ على أنه بدل اشتمال أو بعض والرابط بينه وبين المبدل منه محذوف تقديره : الأبواب منها .

وتفتيح الأبواب كناية عن التمكين من الانتفاع بنعيمها لأن تفتيح الأبواب يستلزم الإِذن بالدخول وهو يستلزم التخلية بين الداخل وبين الانتفاع بما وراء الأبواب .

وقوله ﴿ مُتَّكِئينَ فيها ﴾ تقدم قريب منه في سورة يس .

و ﴿ يَدْعُونَ ﴾ : يَأمرون بأن يجلب لهم ، يقال : دعا بكذا ، أي سأل أن يحضر له .

والباء في قولهم : دعا بكذا ، للمصاحبة ، والتقدير : دعا مدعُوّاً يصاحبه كذا ، قال عدي بن زيد :

ودعَوا بالصَّبوح يوماً فجاءت

قينَة في يمينها إبريق . . .

قال تعالى في سورة [يس : 57] ﴿ لهم فيها فاكهة ولهم ما يَدّعون ﴾

وانتصب مُتَّكِئِينَ ﴾ على الحال من "المتقين" وهي حال مقدرة .

وجملة ﴿ يَدْعُونَ ﴾ حال ثانية مقدرة أيضاً .

(61/662)

والشراب : اسم للمشروب ، وغلب إطلاقه على الخمر إذا لم يكن في الكلام ذكر للماء كقوله آنفاً ﴿ هذا مغتسَل بارد وشراب ﴾ [ص : 42] .

وتنوين ﴿ شراب ﴾ هنا للتعظيم ، أي شراب نفيس في جنسه ، كقول أبي خراش الهذلي :

لقد وقعت على لحم

و ﴿ عندهم قاصِراتُ الطَّرْفِ : عند ﴾ ظرف مكان قريب و ﴿ قَاصِرات الطرف ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أي نساء قاصرات النظر .

وتعريف ﴿ الطرف ﴾ تعريف الجنس الصادقُ بالكثير ، أي قاصرات الأطراف .

و ﴿ الطرف ﴾ : النظر بالعَين ، وقصر الطرف توجيهه إلى منظور غير متعدد ، فيجوز أن يكون المعنى : أنهن قاصرات أطرافَهن على أزواجهن .

فالأطراف المقصورة أطرافهن .

وإسناد ﴿ قاصرات ﴾ إلى ضميرهن إسناد حقيقي ، أيْ لا يوجّهْن أنظارهن إلى غيرهم وذلك كناية عن قصر محبتهن على أزواجهن .

ويجوز أن يكون المعنى : أنهن يقصرن أطرافَ أزواجهن عليهن فلا تتوجه أنظار أزواجهن إلى غيرهن اكتفاء منهم بحسنهن وذلك كناية عن تمام حسنهن في أنظار أزواجهن بحيث لا يتعلق استحسانهم بغيرهن ، فالأطراف المقصورة أطراف أزواجهن ، وإسناد ﴿ قاصرات ﴾ إليهن مجاز عقلي إذْ كان حسنهن سببَ قصْر أطراف الأزواج فإنهن ملابسات سَبب سَبَبِ القصر .

و﴿ أَتراب ﴾ : جمع تِرْب بكسر التاء وسكون الراء ، وهو اسم لمن كان عمره مساوياً عُمرَ من يُضاف إليه ، تقول : هو ترب فلان ، وهي ترب فلانة ، ولا تلحق لفظَ ترب علامةُ تأنيث .

والمراد : أنهن أتراب بعضُهن لبعض ، وأنهن أتراب لأزواجهن لأن التحابَّ بين الأقران أمكن .

والظاهر أن ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ وصف قائم بجميع نساء الجنة من مخلوقاتِ الجنةِ ومن النساء اللاتي كنّ أزواجاً في الدنيا لأصحاب الجنة ، فلا يكون بعضهن أحسن شباباً من بعض فلا

يلحق بعضَ أهل الجنة غَضّ إذا كانت نساء غيره أجدّ شباباً ، ولئلا تتفاوت نساء الواحد من المتقين في شرخ الشباب ، فيكون النعيم بالأقل شباباً دون النعيم بالأجدّ منهن .

(62/662)

وتقدم الكلام على ﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ﴾ في سورة [الصافات : 48] .

هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (53)

استئناف ابتدائي فيجوز أن يكون كلاماً قيل للمتقين وقت نزول الآية فهو مؤكِّد لمضمون جملة ﴿ وإن للمتقين لحسن مآبٍ ﴾ [ص : 49] والإشارة إذن إلى ما سبق ذكره من قوله : ﴿ لحسن مآب ﴾ فاسم الإشارة هنا مغاير لاستعماله المتقدم في قوله : ﴿ هذا ذِكرٌ ﴾ [ص : 49] .

وجيء باسم الإشارة القريب تنزيلاً للمشار إليه منزلة المشار إليه الحاضر إيماء إلى أنه محقق وقوعه تبشيراً للمتقين .

والتعبير بالمضارع في قوله : ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ على ظاهره .

ويجوز أن يكون كلاماً يقال للمتقين في الجنة فتكون الجملة مقولَ قول محذوف هو في محل حال ثانية من "المتقين" .

والتقدير : مقولاً لهم : هذا ما توعدون ليوم الحساب .

والقول : إما من الملائكة مثل قوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ [النحل : 32] ، وإما من جانب الله تعالى نظير قوله لضدهم : ﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ [آل عمران : 181] .

والإِشارة إذن إلى ما هو مشاهد عندهم من النعيم .

وقرأ الجمهور : ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ بتاء الخطاب فهو على الاحتمال الأول التفات من الغيبة إلى الخطاب لتشريف المتقين بعزّ الحضور لخطاب الله تعالى ، وعلى الاحتمال الثاني الخطاب لهم على ظاهره .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحده "يوعدون" بياء الغيبة فهو على الاحتمال الأول التفات عن توجيه الخطاب إليهم إلى توجيهه للطاغين لزيادة التنكيل عليهم .

والإِشارةُ إلى المذكور من "حسن المآب" ، وعلى الاحتمال الثاني كذلك وُجّه الكلام إلى أهل المحشر لتنديم الطاغين وإدخال الحسرة والغمّ عليهم .

والإِشارة إلى النعيم المشاهد .

واللام في ﴿ لِيَوْمِ الحِسَابِ ﴾ لام العلة ، أي وعدتموه لأجل يوم الحساب .

والمعنى لأجل الجزاء يوم الحساب ، فلما كان الحساب مؤذناً بالجزاء جعل اليوم هو العلة .

وهذه اللام تفيد معنى التوقيت تبعاً كقوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ [الإسراء : 78] تنزيلاً للوقت منزلة العلة .

ولذلك قال الفقهاء : أوقات الصلوات أسباب .

إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (54)

يجري محمل اسم الإِشارة هذا على الاحتمالين المذكورين في الكلام السابق .

والعدول عن الضمير إلى اسم الإِشارة لكمال العناية بتمييزه وتوجيه ذهن السامع إليه .

وأطلق الرزق على النعمة كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم " لو أن أحدهم قال حين يضاجع أهله : اللهم جنّبنا الشيطانَ وجنّب الشيطان ما رزَقْتنا ثم وُلِد لهما ولد لم يمسه شيطان أبداً " فسمّى الولد رزقاً .

والتوكيد بـ ﴿ إن ﴾ للاهتمام .

والنفاد : الانقطاع والزوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(64/662)

فائدة

قال ابن القيم :

وتأمل قوله سبحانه ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب متكئين فيها

يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ﴾

كيف تجد تحته معنى بديعا وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم بل تبقى مفتحة كما هي وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها كما قال تعالى إنها عليهم مؤصدة أي مطبقة ومنه سمي الباب وصيدا وهي مؤصدة في عمد ممددة قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب

(65/662)

قال مقاتل يعني أبوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لها باب ولا يخرج منها غم ولا يدخل فيها روح آخر الأبد وأيضا فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتبوئهم في الجنة حيث شاؤا ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت وأيضا إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتجون إلى ذلك في الدنيا وقد اختلف أهل العربية في الضمير العائد من الصفة على

الموصوف في هذه الجملة فقال الكوفيون التقدير مفتحة لهم أبوابها والعرب تعاقت بين الألف واللام والإضافة فيقولون مررت برجل حسن العين أي عينه ومنه قوله تعالى فإن الجحيم هي المأوى أي مأواه وقال بعض البصريين التقدير مفتحة لهم الأبواب منها فحذف الضمير وما اتصل به وقال هذا التقدير في العربية أجود من أن يجعل الألف واللام بدلا من الهاء والألف لأن معنى الألف واللام ليس من معنى الهاء والألف في شيء لأن الهاء والألف أسم والألف واللام دخلتا للتعريف ولا يبدل حرف من اسم ولا ينوب عنه قالوا وأيضا لو كانت الألف واللام بدلا من الضمير لوجب أن يكون في مفتحة ضمير الجنات ويكون معنى مفتحة هي ثم أبدل منها الأبواب ولو كان كذلك لوجب نصب الأبواب لكون مفتحة قد رفع ضمير الفاعل فلا يجوز أن يرفع به اسم آخر لامتناع ارتفاع فاعلين بفعل واحد فلما ارتفع الأبواب دل على أن مفتحة خال من ضمير والأبواب مرتفعة به وإذا كان في الصفة ضمير تعين نصب الثاني كما تقول مررت برجل حسن الوجه ولو رفعت

الوجه ونونت حسنا لم يجز فالألف واللام إذا للتعريف ليس إلا فلا بد من ضمير يعود على الموصوف الذي هو جنات عدن ولا ضمير في اللفظ فهو محذوف تقديره الأبواب منها

وعندي أن هذا غير مبطل لقول الكوفيين فإنهم لم يريدوا بالبدل إلا أن الألف واللام خلف وعوض عن الضمير تغني عنه وإجماع العرب على قولهم حسن الوجه وحسن وجهه شاهد بذلك وقد قالوا أن التنوين بدل من الألف واللام بمعنى أنهما لا يجتمعان وكذلك المضاف إليه يكون بدلا من التنوين والتنوين بدل من الإضافة بمعنى التعاقب والتوارد ولا يريدون بقولهم هذا بدل من هذا أن معنى البدل معنى المبدل منه بل قد يكون في كل منهما معنى لا يكون في الآخر فالكوفيون أرادوا أن الألف واللام في الأبواب أغنت عن الضمير لو قيل أبوابها وهذا صحيح

(67/662)

فإن المقصود الربط بن الصفة والموصوف بأمر يجعلها له لا مستقلة فلما كان الضمير عائدا على الموصوف نفي توهم الاستقلال وكذلك لام التعريف فإن كلا من الضمير واللام يعين صاحبه هذا بعين مفسرة وهذا يعين ما دخل عليه وقد قالوا في زيد نعم الرجل إن الألف واللام اغنت عن الضمير والله أعلم وقد أعرب الزمخشري هذه الآية أعرابا اعترض عليه فيه فقال جنات عدن معرفة كقوله جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب وانتصابها على أنها عطف بيان لحسن مآب ومفتحة حال والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل

وفي مفتحة ضمير الجنات والأبواب بدل من الضمير تقديره مفتحة هي الأبواب كقولهم ضرب زيد اليد والرجل وهو من بدل الاشتمال هذا إعرابه فاعترض عليه بأن جنات عدن ليس فيها ما يقتضي تعريفها وأما قوله التي وعد الرحمن عباده فبدل لا صفة وبأن جنات عدن لا يسهل أن تكون عطف بيان لحسن مآب على قوله لأن جريان المعرفة على النكرة عطف بيان لا قائل به فإن القائل قائلان أحدهما أنه لا يكون إلا في المعارف كقول البصريين والثاني أنه يكون في المعارف والنكرات بشرط المطابقة كقول الكوفيين وأبي على الفارسي وقوله أن في مفتحة ضمير الجنات فالظاهر خلافه وأن الأبواب مرتفع به ولا ضمير فيه وقوله أن الأبواب بدل اشتمال فبدل الاشتمال قد صرح هو وغيره أنه لا بد فيه من الضمير وأن نازعهم فيه آخرون ولكن يجوز أن يكون الضمير ملفوظا به وأن يكون مقدرا وهنا لم يلفظ به فلا بد من تقديره أي الأبواب منها فإذا كان التقدير مفتحة لهم هي الأبواب منها كان فيه تكثير للإضمار وتقليله أولى وفي الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد أن رسول الله قال في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون وفي الصحيحين من حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله دعى من أبواب الجنة يا

عبد الله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان فقال أبو بكر بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة فهل

يدعى أحد من تلك الأبواب كلها فقال نعم وأرجوا أن تكون منهم وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب عن النبي قال ما منكم من أحد يتوضأ فيبالغ او فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له واشهد أن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء زاد الترمذي بعد التشهد اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين زاد أبو داود والأمام أحمد ثم رفع نظره إلى السماء فقال وعند الأمام أحمد من رواية أنس يرفعه من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال ثلاث مرات اشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فتح له أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل وعن عتبة بن عبد الله السلمي قال سمعت رسول الله يقول ما من مسلم يتوفى له ثلاثا من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل رواه ابن ماجه وعبد الله بن أحمد عن ابن نمير ثنا إسحق بن سليمان ثنا جرير بن عثمان عن شرحبيل بن شفعة عن عتبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ حادى الأرواح صـ 53 ـ 57 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) ﴾

أي هذا القرآن فيه ذِكْرُ ما كان ، وذِكْرُ الأنبياء والقصص .

ويقال إنَّه شرفٌ لك ؛ لأن معجزةٌ تدل على صِدْقِك ، وإن للذين يتَّقُون المعاصِيَ لَحُسْنَ المُنْقَلَبِ .

جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (50)

أي إذا جاؤوها لا يلحقهم ذُلُّ الحجاب ، ولا كُلْفَةُ الاستئذان ، تستقبلهم الملائكةُ بالترحاب والتبجيل . متكئين فيها على أرائكهم ، يدعون فيها بفاكهةٍ كثيرة وشارب على ما يشتهون ، وعندهم حورٌ عين قاصراتُ الطَّرْفِ عن غير أزواجهن ، (أتراب) : لِداتٌ مُستَوِيَاتٌ في الحُسْنِ والجمال والشكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 260 ﴾

قوله تعالى ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (56) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (58) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (59) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (60) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (61) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (63) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت النفوس نزاعة للهوى ميالة إلى الردى ، فكانت محتاجة إلى مزيد تخويف وشديد تهويل ، قال تعالى متوعداً لمن ترك التأسي بهؤلاء السادة في أحوال العبادة ، مؤكداً لما مضى من إيعاد العصاة وتخويف العتاة : ﴿ هذا ﴾ أي الأمر العظيم الذي هو جدير بأن يجعل نصب العين وهو أنه لكل من الفريقين ما ذكر وإن أنكره الكفرة ، وحذف الخبر بعد إثباته في الأول أهول ليذهب الوهم فيه كل مذهب ﴿ وإن للطاغين ﴾ أي الذين لم يصبروا على تنزيلهم أنفسهم في منازلها بالصبر على ما أمروا به فرفعوا أنفسهم فوق قدرها ، وتجاوزوا الحد وعلوا في الكفر به وأسرفوا في المعاصي والظلم وتجبروا وتكبروا فكانوا أحمق الناس ﴿ لشر مآب ﴾ أي مصير ومرجع ، وأبدل منه أو بينه بقوله : ﴿ جهنم ﴾ أي الشديدة

الاضطرام الملاقية لمن يدخلها بغاية العبوسة والتجهم .

ولما كان اختصاصهم بها ليس بصريح في عذابهم ، استأنف التصريح به في قوله :

﴿ يصلونها ﴾ أي يدخلونها فيباشرون شدائدها .

ولما أفهم هذا غاية الكراهة لها وأنه لا فراش لهم غير جمرها ، فكان التقدير : فيكون مهاداً لهم لتحيط بهم فيعمهم صليها ، سبب عنه قوله : ﴿ فبئس المهاد ﴾ أي الفراش هي ، فإن فائدة الفراش تنعيم الجسد ، وهذه تذيب الجلد واللحم ثم يعود في الحال كلما ذاب عاد عقوبة لهم ليريهم الله ما كانوا يكذبون به من الإعادة في كل وقت دائماً أبداً ، كما كانوا يعتقدون ذلك دائماً أبداً جزاء وفاقاً عكس ما لأهل الجنة من التنعيم والتلذيذ بإعادة كل ما قطعوا من فاكهتها وأكلوا من طيرها ، لأنهم يعتقدون الإعادة فنالوا هذه السعادة .

(71/662)

ولما قدم أن لأهل الطاعة فاكهة وشراباً ، وكان ما وصف به مأوى العصاة لا يكون إلا عذاباً ، وكان مفهماً لا محالة أن الحرارة تسيل من أهل النار عصارة من صديد وغيره قال : ﴿ هذا ﴾ أي العذاب للطاغين ﴿ فليذوقوه ﴾ ثم فسره بقوله : ﴿ حميم ﴾ أي ماء حار ، وأشار بالعطف بالواو إلى تمكنه في كل من الوصفين فقال : ﴿ وغساق ﴾ أي سيل منتن

عظيم جداً بارد أسود مظلم شديد في جميع هذه الصفات من صديد ونحوه وهو في قراءة الجماعة بالتخفيف اسم كالعذاب والنكال من غسقت عينه ، أي سالت ، وغسق الشيء ، أي امتلأ ، ومنه الغاسق للقمر لامتلائه وكماله ، وفي قراءة حمزة والكسائي وحفص بالتشديد صفة كالخباز والضراب ، تشير إلى شدة أمره في جميع ما استعمل فيه من السيلان والبرد والسواد .

ولما كان في النار - أجارنا الله منها بعفوه ورحمته - ما لا يعد من أنواع العقاب ، قال عاطفاً على هذا ، ﴿ وآخر ﴾ أي من أنواع المذوقات - على قراءة البصريين بالجمع لأخرى ، ومذوق على قراءة غيرهما بالإفراد ، وهو حينئذ للجنس ، وأخبر عن المبتدأ بقوله : ﴿ من شكلة ﴾ أي شكل هذا المذوق ولما كان المراد الكثرة في المعذبين وهم الطاغون وفي عذابهم مع افتراقه بالأنواع وإن اتحد في جنس العذاب ، صرح بها في قوله : ﴿ أزواج ﴾ أي هم أو هي أو هو ، أي جنس عذابهم أنواع كثيرة .

(72/662)

ولما كان مما أفهمه الكتاب في هذا الخطاب أن الطاغين الداخلين إلى جهنم أصناف كثيرة ، وكانت العادة جارية بأن الأصناف إذا اجتمعوا كانت محاورات ولا سيما إن كانوا من

الطغاة العتاة ، تحرك السامع إلى تعرف ذلك فقال تعالى مستأنفاً جوابه بما يدل على تقاولهم بأقبح المقاولة وهو التخاصم الناشىء عن التباغض والتدابر الذي من شأنه أن يقع بين الذين دبروا أمراً فعاد عليهم بالوبال في أن كلاًّ منهم يحيل ما وقع به العكس على صاحبه ، وذلك أشد لعذابهم : ﴿ هذا ﴾ أي قال أطغى الطغاة لما دخلوها أولاً كما هم أهل له لأنهم ضالون مضلون ورأوا جمعاً من الأتباع داخلاً عليهم : هذا ﴿ فوج ﴾ أي جماعة كثيفة مشاة مسرعون .

ولما كانوا يدخلونها من شدة ما تدفعهم الزبانية على هيئة الواثب قال مشيراً بالتعبير بالوصف مفرداً إلى أنهم في الموافقة فيه والتسابق كأنهم نفس واحدة : ﴿ مقتحم ﴾ أي رام بنفسه في الشدة بشدة فجاءة بلا روية كائناً ﴿ معكم ﴾ .

ولما كان أهل النار يؤذي بعضهم بعضاً بالشهيق والزفير والزحام والدفاع والبكاء والعويل وما يسيل من بعضهم على بعض من القيح والصديد وغير ذلك من أنواع النكد ، ولا سيما إن كانوا أتباعاً لهم في الدنيا ، فصاروا مثلهم في ذلك الدخول في الرتبة ، لا يتحاشون عن دفاعهم وخصامهم ونزاعهم ، قالوا استئنافاً : ﴿ لا مرحباً ﴾ ثم بينوا المدعو عليه فقالوا : ﴿ بهم ﴾ وهي كلمة واقعة في أتم مواقعها لأنها دالة على التضجر والبغضة مع الصدق في أهل مدلولها الذي هو مصادقة الضيق ، مفعل من الرحب مصدر ميمي وهو السعة ، أي لا كان بهم سعة أصلاً ولا اتسعت بهم هذه الأماكن ولا هذه الأزمان ولا حصلت لهم ولا بهم

راحة ، ولذلك عللوا استحقاقهم لهذا الدعاء بقولهم مؤكدين لما كان استقر في نفوسهم وتطاول عليه الزمان من إنكارهم له : ﴿ إنهم صالوا النار ﴾ أي ومن صليها صادف من الضيق ما لم يصادفه أحد وآذى كل من جاوره .

(73/662)

ولما كان من المعلوم على ما جرت به العوائد أنهم يتأثرون من هذا القول فيحصل التشوق إلى ما يكون من أمرهم هل يجيبونهم أم تمنعهم هيبتهم على ما كانوا في الدنيا ، اعلم بما يعلم منه انقطاع الأسباب هناك ، فلا يكون من أحد منهم خوف من آخر ، فقال مستأنفاً :

﴿ قالوا ﴾ أي الأتباع المعبر عنهم بالفوج لسفولهم وبطون أمرهم : ﴿ بل أنتم ﴾ أي خاصة أيها الرؤساء ﴿ لا مرحباً ﴾ وبينوا بقولهم : ﴿ بكم ﴾ أي هذا الذي دعوتم به علينا أنتم أحق به منا ، ثم عللوا قولهم بما أفهم أنهم شاركوهم في الضلال وزادوا عليهم بالإضلال فقالوا : ﴿ أنتم ﴾ أي خاصة ﴿ قدمتموه ﴾ أي الاقتحام في العذاب بما أقحمتمونا فيه من أسبابه وقدمتم في دار الغرور من تزيينه ﴿ لنا ﴾ ولما كان الاقتحام وهو الوثوب أو الدخول على شيء بسرعة كأنها الوثوب ينتهي منه إلى استقرار ، وكان الفريقان قد استقروا في مقاعدهم في النار ، سببوا عن ذلك قولهم : ﴿ فبئس القرار ﴾ أي قراركم .

ولما كان قول الأتباع هذا مفهماً لأنهم علموا أن سبب ما وصلوا إليه من الشقاء هو الرؤساء ، وكان هذا موجباً لنهاية غيظهم منهم ، تشوف السامع لما يكون من أمرهم معهم ؟ هل يكتفون بما أجابوهم به أو يكون أمنهم شيء آخر ؟ فاستأنف قوله إعلاماً بأنهم لم يكتفوا بذلك وعلموا أنهم لا يقدرون على الانتقام منهم : ﴿ قالوا ﴾ أي الأتباع : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا الذي منعنا هؤلاء عن الشكر له ﴿ من قدم لنا هذا ﴾ أي العذاب بما قدم لنا من الأسباب التي اقتحمناه ، وقدموا ذلك اهتماماً به وأجابوا الشرط بقولهم : ﴿ فزده ﴾ أي على العذاب الذي استحقه بما استحققنا به نحن وهو الضلال ﴿ عذاباً ضعفاً ﴾ أي زائداً على ذلك مثله مرة أخرى بالإضلال ، وقيدوه طلباً لفخامته بقولهم معبرين بالظرف لإفهام الضيق الذي تقدم الدعاء المجاب فيه به ليكون عذاباً آخر فهو أبلغ مما في الأعراف لأن السياق هنا للطاغين وهناك لمطلق الكافرين ﴿ في النار ﴾ أي كائناً فيها ، وهذا مثل الآية الأخرى ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً أي مثل عذابنا مرّتين .

ولما ذكر من اقتحامهم في العذاب وتقاولهم بما دل على خزيهم وحسرتهم وحزنهم ، أعلم بما دل على زيادة خسرانهم وحسرتهم وهوانهم بمعرفتهم بنجاة المؤمنين الذين كانوا يهزؤون بهم ويذلونهم فقال : ﴿ وقالوا ﴾ أي الفريقان : الرؤساء والأتباع بعد أن قضوا وطرهم مما لم يغن عنهم شيئاً من تخاصمهم : ﴿ ما ﴾ أي أيّ شيء حصل ﴿ لنا ﴾ مانعاً في أنا ﴿ لا نرى ﴾ أي في المحل الذي أدخلناه ﴿ رجالاً ﴾ يعنون فقراء المؤمنين ﴿ كنا نعدهم ﴾ أي في دار الدنيا ﴿ من الأشرار ﴾ أي الأراذل الذين لا خير فيهم بأنهم قد قطعوا الرحم ، وفرقوا بين العشيرة وأفسدوا ذات البين ، وغيروا الدين بكونهم لا يزالون يخالفون الناس في أقوالهم وأفعالهم ، مع ما كانوا فيه من الضعف والذل والهوان وسوء الحال في الدنيا ، فيظن أهلها نقص حظهم منه وكثرة مصائبهم فيها لسوء حالهم عند الله وما دروا أنه تعالى يحمي أحباءه منها كما يحمي الإنسان عليله الطعام والشراب ومن يرد به خيراً يصب منه .

ولما كانوا يسخرون من المؤمنين ويستهزئون بهم ، وهم ليسوا موضعاً لذلك ، بل حالهم في جِدهم وجَدهم في غاية البعد عن ذلك ، قالوا مستفهمين ، أما على قراءة الحرميين وابن عامر وعاصم فتحقيقاً ، وأما على قراءة غيرهم فتقديراً : ﴿ اتخذناهم ﴾ أي كلفنا أنفسنا وعالجناها في أخذهم ﴿ سخرياً ﴾ أي نسخر منهم ونستهزئ بهم – على قراءة الكسر ، ونسخرهم أي نستخدمهم على قراءة الضم ، وهم ليسوا أهلاً لذلك ، بل كانوا

خيراً منا فلم يدخلوا هنا لعدم شرارتهم ، وكأنهم إلى تجويز كونهم في النار معهم ومنعهم من رؤيتهم أميل ، فدلوا على ذلك بتأنيث الفعل ناسبين خفاءهم عنهم إلى رخاوة في أبصارهم على قوتها في ذلك الحين فقالوا : ﴿ أم زاغت ﴾ أي مالت متجاوزة ﴿ عنهم ﴾ .

(76/662)

ولما كان تعالى يعيد الخلق في القيامة على غاية الإحكام في أبدانهم ومعانيها فتكون أبصارهم أحد ما يمكن أن تكون وأنفذه " اسمع بهم وابصر يوم يأتوننا فبصرك اليوم حديد " عدوا أبصارهم في الدنيا بالنسبة إليها عدماً ، فلذلك عرفوا قولهم : ﴿ الأبصار ﴾ أي منا التي لا أبصار في الحقيقة سواها فلم نرها وهم فينا ومعنا في النار ولكن حجبهم عنا بعض أوديتها وجبالها ولهبها .

ف ﴿ أم ﴾ معادلة لجملة السخرية ، وقد علم بهاذ التقدير أن معنى الآية إلى إنفصال حقيقي معناه : أهم معنا أم لا ؟ فهي من الاحتباك : أثبت الاتخاذ المذكور الذي يلزمه بحكم العناد بين الجملتين عدم كون المستسخر بهم معهم في النار أولاً دليلاً على ضده ثانياً ، وهو كونهم معهم فيها ، وأثبت زيغ الأبصار ثانياً اللازم منه بمثل ذلك كونهم معهم في النار دليلاً على ضده أولاً وهو كونهم ليسوا معهم ، وسر ذلك أن الموضع لتسحرهم ولومهم لأنفسهم ،

في غلطهم والذي ذكر عنهم أقعد في ذلك .

ولما كان هذا أمراً رائعاً جداً زاجراً لمن له عقل فتأمله مجرداً لنفسه من الهوى ، وكانت الجدود تمنعهم عن التصديق به ، كان موضعاً لتأكيد الخبر عنه فقال : ﴿ إن ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الذي تقدم الإخبار به ﴿ لحق ﴾ أي ثابت لا بد من وقوعه إذا وقع مضمونة وافق الواقع منه هذا الإخبار عنه ، ولما كان أشق ما فيه عليهم وأنكأ تخاصمهم جعله هو المخبر به وحده ، فقال مبيناً له مخبراً عن مبتدإ استئنافاً تقديره : هو ﴿ تخاصم أهل النار ﴾ لأنه ما أناره لهم إلا الشر والنكد فسمي تخاصماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 396. 400 ﴾

(77/662)

فصل

قال الفخر :

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) ﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف ثواب المتقين ، وصف بعده عقاب الطاغين ، ليكون الوعيد مذكوراً عقيب الوعد ، والترهيب عقيب الترغيب .

واعلم أنه تعالى ذكر من أحوال النار أنواعاً فالأول : مرجعهم ومآبهم ، فقال : ﴿ هذا وَإِنَّ للطاغين لَشَرَّ مَئَابٍ ﴾ [ص : 55] وهذا في مقابلة قوله : ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ [ص : 49] فبين تعالى أن حال الطاغين مضاد لحال المتقين ، واختلفوا في المراد بالطاغين ، فأكثر المفسرين حملوه على الكفار ، وقال الجبائي : إنه محمول على أصحاب الكبائر سواء كانوا كفاراً أو لم يكونوا كذلك ، واحتج الأولون بوجوه الأول : أن قوله : ﴿ لَشَرَّ مَئَابٍ ﴾ يقتضي أن يكون مآبهم شراً من مآب غيرهم ، وذلك لا يليق إلا بالكفار الثاني : أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ أتخذناهم سِخْرِيّاً ﴾ وذلك لا يليق إلا بالكفار ، لأن الفاسق لا يتخذ المؤمن سخرياً الثالث : أنه اسم ذم ، والاسم المطلق محمول على الكامل ، والكامل في الطغيان هو الكافر ، واحتج الجبائي على صحة قوله بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّءاهُ استغنى ﴾ [العلق : 6 ، 7] وهذا يدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل في حق صاحب الكبيرة ، ولأن كل من تجاوز عن تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى ، إذا عرفت هذا فنقول : قال ابن عباس رضي الله عنهما ، المعنى أن الذين طغوا وكذبوا رسلي لهم شر مآب ، أي شر مرجع ومصير ، ثم قال : ﴿ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ﴾ والمعنى أنه تعالى لما حكم بأن الطاغين لهم شر مآب فسره بقوله : ﴿ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ﴾ ثم قال : ﴿ فَبِئْسَ المهاد ﴾ وهو كقوله : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ

غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : 41] شبه الله ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم .

ثم قال تعالى : ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ وفيه مسائل :

(78/662)

المسألة الأولى :

فيه وجهان الأول : أنه على التقديم والتأخير ، والتقدير هذا حميم وغساق فليذوقوه الثاني : أن يكون التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه ، ثم يبتدىء فيقول : حميم وغساق .

المسألة الثانية :

الغساق بالتخفيف والتشديد فيه وجوه الأول : أنه الذي يغسق من صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين إذا سال دمعها .

وقال ابن عمر هو القيح الذي يسيل منهم يجتمع فيسقونه الثاني : قيل الحميم يحرق بحره ، والغساق يحرق ببرده ، وذكر الأزهري : أن الغاسق البارد ، ولهذا قيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار الثالث : أن الغساق المنتن حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة في المشرق لأنتنت أهل المغرب ، ولو قطرت منه قطرة في المغرب لأنتنت أهل المشرق الرابع : قال كعب

: الغساق عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية .

المسألة الثالثة :

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم غساق بتشديد السين حيث كان والباقون بالتخفيف .

قال أبو علي الفارسي الاختيار التخفيف لأنه إذا شدد لم يخل من أن يكون اسماً أو صفة ، فإن كان اسماً فالأسماء لم تجيء على هذا الوزن إلا قليلاً ، وإن كان صفة فقد أقيم مقام الموصوف والأصل أن لا يجوز ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أزواج ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمر ﴿ وَأَخَّرَ ﴾ بضم الألف على جمع أخرى أي أصناف أخر من العذاب ، وهو قراءة مجاهد والباقون آخر على الواحد أي عذاب آخر ، أما على قراءة الأولى فقوله وأخر أي ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق ، أي من مثله في الشدة والفظاعة ، أزواج أي أجناس ، وأما على القراءة الثانية فالتقدير وعذاب أو مذوق آخر ، وأزواج صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروباً أو صفة للثلاثة وهم حميم وغساق وآخر من شكله .

قال صاحب "الكشاف" : وقرىء من شكله بالكسر وهي لغة ، وأما الغنج فبالكسر لا غير .

(79/662)

واعلم أنه تعالى لما وصف مسكن الطاغين ومأكولهم حكى أحوالهم الذين كانوا أحباء لهم في الدنيا أولاً ، ثم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا ثانياً أما الأول : فهو قوله : ﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ واعلم أن هذا حكاية كلام رؤساء أهل النار يقوله بعضهم لبعض بدليل أن ما حكى بعد هذا من أقوال الأتباع وهو قوله : ﴿ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ ، وقيل إن قوله : ﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم ، وقوله : ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النار ﴾ كلام الرؤساء ، وقوله : ﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ أي هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار كما كانوا قد اقتحموا معكم في الجهل والضلال ، ومعنى اقتحم معكم النار أي دخل النار في صحبتكم ، والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها ، والقحمة الشدة .

(80/662)

وقوله تعالى : ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ دعاء منهم على أتباعهم ، يقول الرجل لمن يدعو له مرحباً أي أتيت رحباً في البلاد لا ضيقاً أو رحبت بلادك رحباً ، ثم يدخل عليه كلمة لا في دعاء السوء ، وقوله : ﴿ بِهِمُ ﴾ بيان للمدعو عليهم أنهم صالوا النار تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : 38] قالوا أي الأتباع ﴿ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ يريدون أن الدعاء الذي دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به ، وعللوا ذلك بقولهم : ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ والضمير للعذاب أو لصليهم ، فإن قيل ما معنى تقديمهم العذاب لهم ؟ قلنا الذي أوجب التقديم هو عمل السوء قال تعالى : ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ الحريق * ذلك بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [آل عمران : 181 ، 182] إلا أن الرؤساء لما كانوا هم السبب فيه بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل أنتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم ، والضمير في قوله : ﴿ قَدَّمْتُمُوهُ ﴾ كناية عن الطغيان الذي دل عليه قوله : ﴿ وَإِنَّ للطاغين لشَرَّ مَئَابٍ ﴾ وقوله : ﴿ فَبِئْسَ القرار ﴾ أي : بئس المستقر والمسكن جهنم ، ثم قالت الأتباع ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً ﴾ أي مضاعفاً ومعناه ذا ضعف ونظيره قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَئَاتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً ﴾ [الأعراف : 38] وكذلك قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا * رَبَّنَا ءاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب ﴾ [

الأحزاب : 67 ، 68] فإن قيل كل مقدار يفرض من العذاب فإن كان بقدر الاستحقاق لم يكن مضاعفاً ، وإن كان زائداً عليه كان ظالماً وإنه لا يجوز .

(81/662)

قلنا المراد منه قوله عليه السلام : " ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " والمعنى أنه يكون أحد القسمين عذاب الضلال ، والثاني عذاب الإضلال ، والله أعلم .

وههنا آخر شرح أحوال الكفار مع الذين كانوا أحباباً لهم في الدنيا ، وأما شرح أحوالهم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا فهو قوله : ﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لاَ نَرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الأشرار ﴾ يعني أن الكفار إذا نظروا إلى جوانب جهنم فيحنئذ يقولون : ﴿ مَا لَنَا لاَ نَرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الأشرار ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه بهم وسموهم من الأشرار ، إما بمعنى الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى ، أو لأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشراراً ثم قالوا : ﴿ أتخذناهم سِخْرِيّاً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿ مِّنَ الأشرار أتخذناهم ﴾ بوصل ألف ﴿ أتخذناهم ﴾

والباقون بفتحها على الاستفهام ، قال أبو عبيد وبالوصل يقرأ لأن الاستفهام متقدم في قوله : ﴿ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً ﴾ ، ولأن المشركين لا يشكون في اتخاذهم المؤمنين في الدنيا سخرياً ، لأنه تعالى قد أخبر عنهم بذلك في قوله : ﴿ فاتخذتموهم سِخْرِيّاً حتى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ [المؤمنون : 110] فكيف يحسن أن يستفهموا عن شيء علموه ؟ أجاب الفراء عنه بأن قال هذا من الاستفهام الذي معناه التعجيب والتوبيخ ، ومثل هذا الاستفهام جائز عن الشيء المعلوم ، أما وجه قول من ألحق الهمزة للاستفهام أنه لا بد من المصير إليه ليعادل قوله : ﴿ أتخذناهم ﴾ بأم في قوله : ﴿ أَمْ زَاغَتْ عنهُمْ ﴾ فإن قيل فما الجملة المعادلة لقوله : ﴿ أَمْ زَاغَتْ ﴾ على القراءة الأولى ؟ قلنا إنها محذوفة والمعنى المقصودون هم أم زاغت عنهم الأبصار .

المسألة الثانية :

قرأ نافع ﴿ سِخْرِيّاً ﴾ بضم السين والباقون بكسرها ، وقيل هما بمعنى واحد وقيل بالكسر هو الهزء وبالضم هو التذليل والتسخير .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في نظم الآية على قولين بناء على القراءتين المذكورتين أما القراءة على سبيل الإخبار فالتقدير ما لنا لا نراهم حاضرين لأجل أنهم لحقارتهم تركوا ، أو لأجل أنهم زاغت عنهم الأبصار .

ووقع التعبير عن حقارتهم بقولهم ﴿ أتخذناهم سِخْرِيّاً ﴾ وأما القراءة على سبيل الاستفهام ، فالتقدير لأجل أنا قد اتخذناهم سخرياً وما كانوا كذلك فلم يدخلوا النار ، أم لأجل أنه زاغت عنهم الأبصار ، واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه المناظرة قال إن ذلك الذي حكينا عنهم لحق لا بد وأن يتكلموا به ، ثم بين أن الذي حكيناه عنهم ما هو ، فقال : ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ وإنما سمى الله تعالى تلك الكلمات تخاصماً لأن قول الرؤساء ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ وقول الأتباع ﴿ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ من باب الخصومة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 192.195 ﴾

(83/662)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾

لما ذكر ما للمتقين ذكر ما للطاغين .

قال الزجاج: "هَذَا" خبر ابتداء محذوف أي الأمر هذا فيوقف على "هذا" قال ابن الأنباري: "هذا" وقف حسن ثم تبتدىء "وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ" وهم الذين كذبوا الرسل.

﴿ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ أي منقلب يصيرون إليه.

ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أي بئس ما مهدوا لأنفسهم، أو بئس الفراش لهم.

ومنه مهد الصبي.

وقيل: فيه حذف أي بئس موضع المهاد.

وقيل: أي هذا الذي وصفت لهؤلاء المتقين، ثم قال: وإن للطاغين لشر مرجع فيوقف على "هذا" أيضاً.

قوله تعالى: ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ "هَذَا" في موضع رفع بالابتداء وخبره "حَمِيمٌ" على التقديم والتأخير؛ أي هذا حميم وغساق فليذوقوه.

ولا يوقف على "فَلْيَذُوقُوهُ" ويجوز أن يكون "هَذَا" في موضع رفع بالابتداء و"فَلْيَذُوقُوهُ" في موضع الخبر، ودخلت الفاء للتنبيه الذي في "هَذَا" فيوقف على "فَلْيَذُوقُوهُ" ويرتفع "حَمِيمٌ" على تقدير هذا حميم.

قال النحاس: ويجوز أن يكون المعنى الأمر هذا، وحميم وغساق إذا لم تجعلهما خبرا فرفعهما على معنى هو حميم وغسّاق.

والفرّاء يرفعهما بمعنى منه حميم ومنه غسّاق وأنشد :

حتّى إذا ما أَضَاءَ الصُّبْحُ في غلَسٍ . . .

وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِيٌّ ومَحْصُودُ

وقال آخر :

لها مَتَاعٌ وأَعْوانٌ غَدَوْنَ بِهِ . . .

قِتْبٌ وغَرْبٌ إذا ما أُفْرِغَ انْسَحَقَا

ويجوز أن يكون "هذا" في موضع نصب بإضمار فعل يفسره "فَلْيَذُوقُوهُ" كما تقول زيداً اضربه .

والنصب في هذا أولى فيوقف على "فَلْيَذُوقُوهُ" وتبتدىء "حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ" على تقدير الأمر حميم وغسّاق .

وقراءة أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين في "وغَسَّاق" .

(84/662)

وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي "وغسَّاق" بالتشديد ، وهما لغتان بمعنى واحد في قول الأخفش .

وقيل : معناهما مختلف ؛ فمن خفّف فهو اسم مثل عذاب وجوَاب وصوَاب ، ومن شدّد قال : هو اسم فاعل نقل إلى فعّال للمبالغة ، نحو ضرّاب وقتّال وهو فعّال من غَسَق يغسِق فهو غسّاق وغاسِق .

قال ابن عباس : هو الزمهرير يخوّفهم ببرده .

وقال مجاهد ومقاتل : هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده .

وقال غيرهما .

إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحرّه .

وقال عبد الله بن عمرو : هو قيح غليظ لو وقع منه شيء بالمشرق لأنتن من في المغرب ، ولو وقع منه شيء في المغرب لأنتن من في المشرق .

وقال قتادة : هو ما يسيل من فروج الزناة ومن نَتْن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنَّتْن .

وقال محمد بن كعب : هو عصارة أهل النار .

وهذا القول أشبه باللغة ؛ يقال : غَسَق الجرح يغسِق غسقا إذا خرج منه ماء أصفر ؛ قال الشاعر :

إذا ما تَذَكَّرْتُ الحياةَ وطِيبهَا . . .

إليّ جَرَى دَمْعٌ من اللّيلِ غاسِقُ

أي بارد .

ويقال : ليل غاسق ؛ لأنه أبرد من النهار .

وقال السدّي : الغسّاق الذي يسيل من أعينهم ودموعهم يسقونه مع الحميم .

وقال ابن زيد : الحميم دموع أعينهم ، يجمع في حياض النار فيسقونه ، والصديد الذي يخرج من جلودهم .

والاختيار على هذا "وغَسّاق" حتى يكون مثل سيّال .

وقال كعب : الغسّاق عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذي حُمَةٍ من عقرب وحيَّة .

وقيل : هو مأخوذ من الظلمة والسواد .

والغسق أوّل ظلمة الليل ، وقد غَسقَ الليلُ يغسِق إذا أظلم .

وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن دَلْواً من غساق يُهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا " .

قلت : وهذا أشبه على الاشتقاق الأوّل كما بينا ، إلا أنه يحتمل أن يكون الغساق مع سيلانه أسود مظلماً فيصح الاشتقاقان .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ قرأ أبو عمرو : "وَأَخَرُ" جمع أخرى مثل الكبرى والكُبَر .

الباقون : "وَآخَرُ" مفرد مذكر .

وأنكر أبو عمرو "وَآخَرُ" لقوله تعالى : ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ أي لا يخبر بواحد عن جماعة .

وأنكر عاصم الجحدريّ "وَأَخَرُ" قال : ولو كانت "وَأُخَرُ" لكان من شكلها .

وكلا الردين لا يلزم والقراءتان صحيحتان .

"وَآخَرُ" أي وعذاب آخر سوى الحميم والغساق .

"مِنْ شَكْلِهِ" قال قتادة : من نحوه .

قال ابن مسعود : هو الزمهرير .

وارتفع "وآخر" بالابتداء و"أَزْوَاجٌ" مبتدأ ثانٍ و"مِنْ شَكْلِهِ" خبره والجملة خبر "آخر" .

ويجوز أن يكون "وآخر" مبتدأ والخبر مضمر دل عليه ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ لأن فيه دليلاً على أنه لهم ، فكأنه قال : ولهم آخر ويكون ﴿ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ صفة لآخر فالمبتدأ متخصص بالصفة و"أَزْوَاجٌ" مرفوع بالظرف .

ومن قرأ "وَأُخرُ" أراد وأنواع من العذاب أُخَرُ ، ومن جمع وهو يريد الزمهرير فعلى أنه جعل الزمهرير أجناساً فجمع لاختلاف الأجناس .

أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهريراً ثم جمع كما قالوا : شابت مفارقه .

أو على أنه جمع لما في الكلام من الدلالة على جواز الجمع ؛ لأنه جعل الزمهرير الذي هو نهاية البرد بإزاء الجمع في قوله : ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ والضمير في "شَكْلِهِ" يجوز أن يعود على الحميم أو الغسّاق .

أو على معنى : "وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ" ما ذكرنا ، ورفع "أُخَرُ" على قراءة الجمع بالابتداء و"مِنْ شَكْلِهِ" صفة له وفيه ذكر يعود على المبتدأ و"أَزْوَاجٌ" خبر المبتدأ .

ولا يجوز أن يحمل على تقدير ولهم أخر و"مِنْ شَكْلِهِ" صفة لأخر و"أَزْوَاجٌ" مرتفعة بالظرف كما جاز في الإفراد ؛ لأن الصفة لا ضمير فيها من حيث ارتفع "أَزْوَاجٌ" بالظرف ولا ضمير في الظرف ، والهاء في "شكله" لا تعود على "أخر" لأنه جمع والضمير مفرد ؛ قاله أبو علي .

(86/662)

و"أَزْوَاجٌ" أي أصناف وألوان من العذاب .

وقال يعقوب : الشكل بالفتح المثل وبالكسر الدل .

قوله تعالى : ﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم

دخل بعدهم الأتباع، قالت الخزنة للقادة: "هَذَا فَوْجٌ" يعني الأتباع والفوج الجماعة "مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ" أي داخل النار معكم؛ فقالت السادة: ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ أي لا اتسعت منازلهم في النار.

والرحب السعة، ومنه رحبة المسجد وغيره.

وهو في مذهب الدعاء فلذلك نصب؛ قال النابغة:

لاَ مَرْحَباً بِغَدٍ ولاَ أَهْلاً بِهِ . . .
إنْ كَانَ تَفْرِيقُ الأَحِبَّةِ في غَد

قال أبو عبيدة العرب تقول: لا مرحبا بك؛ أي لا رحبت عليك الأرض ولا اتسعت.

﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النار ﴾ قيل: هو من قول القادة، أي إنهم صالوا النار كما صليناها.

وقيل: هو من قول الملائكة متصل بقولهم: ﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ و ﴿ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ هو من قول الأتباع.

وحكى النقاش: إن الفوج الأوّل قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر، والفوج الثاني أتباعهم ببدر.

والظاهر من الآية أنها عامة في كل تابع ومتبوع.

﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أي دعوتمونا إلى العصيان ﴿ فَبِئْسَ القرار ﴾ لنا ولكم ﴿ قَالُواْ ﴾ يعني الأتباع ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا ﴾ قال الفراء: من سوّغ لنا هذا وسَنّه.

وقال غيره : من قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى المعاصي ﴿ فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النار ﴾ وعذاباً بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفاً .

وقال ابن مسعود : معنى عذاباً ضعفاً في النار الحيات والأفاعي .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار ﴾ [الأعراف : 38] .

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62)

(87/662)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ﴾ يعني أكابر المشركين ﴿ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الأشرار ﴾ قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول أبو جهل : أين بلال أين صُهَيْب أين عَمّار أولئك في الفردوس ! واعجباً لأبي جهل ! مسكين ؛ أسلم ابنه عكرمة ، وابنته جُوَيرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه ، وكفر هو ؛ قال :

ونوراً أضاءَ الأرضَ شَرْقاً ومَغْرِباً . . .

وموضِعُ رِجلي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلِمُ

﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً ﴾ قال مجاهد : أتخذناهم سخريا في الدنيا فأخطأنا ﴿ أَمْ زَاغَتْ

عَنْهُمُ الأبصر ﴾ فلم نعلم مكانهم.

قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا؛ اتخذوهم سخريًّا، وزاغت عنهم أبصارهم في الدنيا محقرة لهم.

وقيل: معنى ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصر ﴾ أي أهم معنا في النار فلا نراهم.

وكان ابن كثير والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي يقرؤون "مِنَ الأَشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُمْ" بحذف الألف في الوصل.

وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن عامر يقرؤون "أَتَّخَذْنَاهُمْ" بقطع الألف على الاستفهام وسقطت ألف الوصل؛ لأنه قد استغنى عنها؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على "الأَشْرَارِ" لأن "اتَّخَذْنَاهُمْ" حال.

وقال النحاس والسجستاني: هو نعت لرجال.

قال ابن الأنباري: وهذا خطأ؛ لأن النعت لا يكون ماضياً ولا مستقبلاً.

ومن قرأ: "أَتخذناهم" بقطع الألف وقف على "الأَشْرَارِ" قال الفراء: والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب.

"أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبصَارُ" إذا قرأت بالاستفهام كانت أم للتسوية، وإذا قرأت بغير الاستفهام فهي بمعنى بل.

وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضّل وهبيرة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي:

"سُخْرِيًّا" بضم السين.

الباقون بالكسر.

قال أبو عبيدة: من كسر جعله من الهزء ومن ضم جعله من التسخير.

وقد تقدّم.

(88/662)

﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ "لَحَقٌّ" خبر إنّ و"تَخَاصُمُ" خبر مبتدأ محذوف بمعنى هو تخاصم.

ويجوز أن يكون بدلاً من حق.

ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر.

ويجوز أن يكون بدلاً من ذلك على الموضع.

أي إنّ تخاصم أهل النار في النار لحق.

يعني قولهم: "لاَ مَرْحبَاً بِكُمْ" الآية وشبهه من قول أهل النار. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(89/662)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ واذكر عِبَادَنَا إبراهيم وإسحاق ويَعْقُوبَ ﴾ .

(90/662)

عطفُ بيانٍ لعبادَنا . وقُرِىء عبدَنا إمَّا على أنَّ إبراهيمَ وحدَهُ لمزيد شرفِهِ عطفُ بيانٍ ، وقيل : بدلٌ وقيل نُصبَ بإضمارِ أَعْنِي ، والباقيانِ عطفٌ على عَبدنا ، وإمَّا على أنَّ عبدَنا اسمُ جنسٍ وضعَ موضعَ الجمع . ﴿ أُوْلِى الايدى والابصار ﴾ أُولِي القوَّةِ في الطَّاعةِ والبصيرةِ في الدِّينِ أو أولِي الأعمالِ الجليلةِ والعلومِ الشَّريفةِ فعبَّر بالأيدِي عن الأعمالِ لأنَّ أكثرَها تُباشر بها ، وبالأبصارِ عن المعارفِ لأنَّها أقوى مباديها ، وفيه تعريضٌ بالجَهَلةِ البطَّالينَ أنَّهم كالزمنى والعُماةِ وتوبيخٌ على تركِهم المجاهدةِ والتَّأمُّلِ مع تمكُّنِهم منهما . وقُرِىء أُولِي الأيدِ بطرحِ الياءِ والاكتفاءِ بالكسر . وقُرِىء أُولِي الأيادِي على جمعِ الجمعِ . ﴿ إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ﴾ تعليلٌ لما وُصفوا به من شرفِ العُبوديَّةِ وعلوِّ الرُّتبةِ في العلم والعمل أي جعلناهم خالصينَ لنا بخصلةٍ خالصةٍ عظيمةِ الشَّأنِ كما يُنبىءُ عنه التَّنكيرُ التَّفخيميُّ . وقولُه تعالى ﴿ ذِكْرَى الدار ﴾ بيانٌ للخالصةِ بعد إبهامِها للتَّفخيم أي تذكرٍ

للدَّارِ الآخرةِ دائماً فإنَّ خُلوصَهم في الطَّاعةِ بسببِ تذكُّرِهم لها وذلكَ لأنَّ مطمحَ أنظارِهم ومطرحَ أفكارِهم في كلِّ ما يأتُون وما يذرون جوارُ الله عزَّ وجلَّ والفوزُ بلقائهِ ولا يتسنَّى ذلك إلاَّ في الآخرةِ وقيل : أخلصناهُم بتوفيقِهم لها واللُّطفِ بهم في اختيارِها ويعضد الأوَّلَ قراءةُ من قرأ بخالصتِهم . وإطلاق الدَّارِ للإشعارِ بأنَّها الدَّارُ في الحقيقةِ وإنَّما الدُّنيا مَعْبرٌ . وقُرِىء بإضافةِ خالصةٍ إلى ذِكرى أي بما خلُص من ذِكرى الدَّارِ على معنى أنَّهم لا يشوبُون ذكراها بهمِ آخرَ أصلاً أو تذكيرهم الآخرةَ وترغيبُهم فيها وتزهيدُهم في الدُّنيا كما هو شأنُ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ . وقيل : ذِكرى الدَّارِ الثَّناءُ الجميلُ في الدُّنيا ولسانُ

(91/662)

الصِّدقِ الذي ليس لغيرِهم .

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المصطفين الاخيار ﴾ لمن المُختارين من أمثالِهم المصطَفَين عليهم في الخيرِ . والأخيار جمعُ خَيْرٍ كشرَ وأشرارٍ ، وقيل : جمعُ خَيِّرٍ أو خَيْرٍ مُخفَّفٍ منْهُ كأمواتٍ في جمعِ مَيِّتٍ ومَيْتٍ ﴿ واذكر إسماعيل ﴾ فُصلَ ذكرُه عن ذكرِه أبيه وأخيهِ للإشعارِ بعراقتِه في الصَّبرِ الذي هُو المقصودُ بالتَّذكيرِ . ﴿ واليسع ﴾ هو ابن أخطوب بنِ العجوزِ استخلفَه الياسُ على بني إسرائيلَ ثم استُنبىء واللامُ فيه حرفُ تعريفٍ دخلَ على يسع كما

في قولِ مَن قال :

رأيتُ الوليدَ بنَ اليزيدِ مُبارَكاً . . . وقُرِىء واللَّيسع كأنَّ أصله لَيْسع فَيْعل من اللَّسعِ دخلَ عليه حرفُ التَّعريفِ وقيل : هو على القراءتينِ عَلَم أعجميٌّ دخل عليه اللامُ وقيل : هو يُوشع . ﴿ وَذَا الكفل ﴾ هو ابنُ عمِّ يسع أو بشر بن أيوب . واختُلف في نبوَّته ولقبهِ فقيل فرَّ إليه مائةُ نبيَ من بني إسرائيلَ من القتل فآواهُم وكَفَلهم ، وقيل كُفل بعملِ رجلٍ صالحٍ كان يُصلِّي كلَّ يومٍ مائةَ صلاة ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي وكلُّهم ﴿ مّنَ الاخيار ﴾ المشهورينَ بالخيريَّةِ .

(92/662)

﴿ هذا ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ من الآياتِ النَّاطقةِ بمحاسِنهم . ﴿ ذُكْرٌ ﴾ أي شَرفٌ لهم وذكرٌ جميلٌ يُذكرون به أبداً أو نوعٌ من الذِّكرِ الذي هو القرآنُ وبابٌ منه مشتملٌ على أنباءِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ . وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما : هذا ذكرُ مَن مضى من الأنبياءِ . وقولُه تعالى ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ شروعٌ في بيان أجرِهم الجزيل في الآجلِ بعد بيان ذكرِهم الجميلِ في العاجلِ وهو بابٌ آخرُ من أبواب التَّنزيلِ . والمرادُ بالمتَّقينَ إمَّا الجنسُ وهم داخلون في الحكم دُخولاً أوليَّاً وإما نفسُ المذكورين عبَّر عنهم بذلك مَدْحاً لهم بالتَّقوى التي هي الغايةُ القاصيةُ من الكمالِ . ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ عطفُ بيانٍ لحسنَ

مآبٍ عندَ من يجوّزُ تخالفَهما تعريفاً وتنكيراً فإنَّ عَدْناً مَعْرِفةٌ لقولِه تعالى : ﴿ جنات عَدْنٍ التي وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ ﴾ أو بدلٌ منه أو نصب على المدحِ. وقولُه تعالى : ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الابواب ﴾ حالٌ من جنَّاتِ عَدْنٍ ، والعاملُ فيها ما في للمتَّقين من معنى الفعلِ . والأبوابُ مرتفعةٌ باسمِ المفعولِ والرَّابطُ بين الحالِ وصاحبِها إمَّا ضميرٌ مقدَّرٌ كما هو رأيُ البصريّينَ أي الأبوابُ منها أو الألفُ واللاَّمُ القائمةُ مقامَه كما هو رأيُ الكوفيّينَ إذِ الأصلُ أبوابُها ، وقُرئتا مرفوعتينِ على الابتداءِ والخبرِ ، أو على أنَّهما خبرانِ لمحذوفٍ أي هي جنَّاتُ عدنٍ هي مفتّحةٌ .

(93/662)

﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ حالٌ من ضميرِ لَهُمُ والعاملُ فيها مفتَّحة . وقولُه تعالى ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بفاكهة كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ استئنافٌ لبيانِ حالِهم فيها وقيل : هو أيضاً حالٌ مّما ذُكر أو من ضمير متَّكئين والاقتصارُ على دعاءِ الفاكهةِ للإيذانِ بأنَّ مطاعَمهم لمحضِ التَّفكهِ والتَّلذذِ دُون التَّغذّي فإنَّه لتحصيل بدلِ المتحلّلِ ولا تحلَّلَ ثَمة ﴿ وَعِندَهُمْ قاصرات الطرف ﴾ أي على أزواجهنَّ لا ينظُرن إلى غيرِهم ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ لداتٌ لهم فإنَّ التَّحابَّ بين الأقرانِ أرسخُ أو بعضهن لبعضٍ لا عجوزَ فيهنَّ ولا صبيَّةَ . واشتقاقُه من التُّراب فإنَّه يمسُّهم في وقتٍ

واحدٍ ﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحساب ﴾ أي لأجلِه فإنَّ الحسابَ علَّةٌ للوصولِ إلى الجزاءِ . وقُرِىء بالياءِ ليوافقَ ما قبلَه . والالتفاتُ أليقُ بمقامِ الامتنانِ والتَّكريمِ .

(94/662)

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي ما ذُكر من أنواعِ النِّعم والكَرَاماتِ ﴿ لَرِزْقُنَا ﴾ أعطيناكموه ﴿ مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ انقطاعٍ أبداً ﴿ هذا ﴾ أي الأمرُ هذا أو هذا كما ذُكر أو هذا ذِكر وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ للطاغين لَشَرَّ ﴾ شروعٌ في بيان أضدادِ الفريق السَّابق ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ إعرابُه كما سلف ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي يدخلُونها ، حالٌ من جهنَّمَ . ﴿ فَبِئْسَ المهاد ﴾ وهو المهدُ والمفرشُ مستعار من فراشِ النَّائمِ ، والمخصوص بالذمّ محذوف وهو جهنَّم لقوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ أي ليذوقُوا هذا فليذوقُوه كقوله تعالى : ﴿ وإياى فارهبون ﴾ أو العذابُ هذا فليذوقوه أو هذا مبتدأٌ خبرُه ﴿ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ وما بينهما اعتراضٌ وهو على الأولين خبرُ مبتدأٍ محذوف أي هو حميم . والغسَّاقُ ما يغسِق من صديدِ أهلِ النَّارِ ، من غسَقتِ العينُ إذا سال دمعُها وقيل : الحميمُ يحرقُ بحرِّه والغسَّاقُ يحرقُ ببردِه . وقيل لو قَطرت منه قطرةٌ في المشرقِ لنتَّنتْ أهلَ المغربِ ، ولو قَطرت قطرةٌ في المغرب لنتنت أهلَ المشرقِ . وقيل : الغسَّاقُ عذابٌ لا يعلمه إلاَّ الله تعالى . وقُرِىء

بتخفيفِ السّينِ ﴿ وَءاخَرُ مِن شَكْلِهِ ﴾ أي ومذوقٌ آخرُ أو عذابٌ آخرُ من مثل هذا المذوقِ أو العذابِ في الشّدّةِ والفظاعةِ. وقُرِىء وأُخَرُ أي ومذوقاتٌ أخَرُ أو أنواع عذابٍ أُخر. وتوحيدُ ضميرِ شكله بتأويلِ ما ذُكر أو الشّرابُ الشّاملُ للحميمِ. والغسّاقِ أو هو راجعٌ إلى الغسّاقِ ﴿ أزواج ﴾ أي أجناس وهو خبر لآخر يجوز أن يكون ضروباً، أو صفةٌ له أو للثلاثة أو مرتفعٌ بالجار والخبرُ محذوفٌ مثلُ لهم.

(95/662)

﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ حكاية ما يقال من جهة الخَزَنَةِ لرُؤساء الطّاغينَ إذا دخلوا النّارَ واقتحمها معهم فوجٌ كانوا يتبعونهم في الكُفرِ والضّلالةِ. والاقتحامُ الدُّخولُ في الشّيء بشدّةٍ. قال الرّاغبُ "الاقتحامُ توسُّطُ شدّةٍ مخيفةٍ" وقولُه تعالى ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ من إتمام كلام الخَزنةِ بطيق الدُّعاءِ على الفوجِ، أو صفةٌ للفوجِ. أو حالٌ منه، أي مقولٌ أو مقولاً في حقّهم لا مرحباً بهم، أي لا أتَوا مرحباً أو لا رحُبتْ بهم الدّار مرحباً. ﴿ إِنَّهُمْ صَالُو النار ﴾ تعليل من جهةِ الخَزَنَةِ لاستحقاقهم الدُّعاءِ عليهم أو وصفهم بما ذُكر. وقيل: لا مرحباً بهم إلى هنا كلامُ الرُّؤساءِ في حقّ أتباعِهم عند خطاب الخَزَنَة لهم باقتحام الفوجِ

معهم تضجُّراً من مقارنتهم وتنفُّرا من مصاحبتِهم . وقيل : كلُّ ذلك كلامُ الرُّؤساءِ بعضِهم مع بعضٍ في حقِّ الأتباعِ .

(96/662)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي الأتباعُ عند سماعِهم ما قيل في حقِّهم ، ووجه خطابهم للرُّؤساءِ في قولهم ﴿ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ الخ على الوجهينِ الأخيرينِ ظاهرٌ ، وأمَّا على الوجهِ الأوَّلِ فلعلَّهم إنَّما خاطبُوهم مع أنَّ الظَّاهرَ أنْ يقولُوا بطريقِ الاعتذارِ إلى الخَزَنَةِ بل هُم لا مرحباً بهم الخ قَصْداً منهم إلى إظهارِ صدقِهم بالمُخاطبةِ مع الرُّؤساءِ والتَّحاكمِ إلى الخَزَنَةِ طمعاً في قضائِهم بتخفيفِ عذابِهم أو تضعيفِ عذابِ خُصَمائهم أي بل أنتم أحقُّ بما قيلَ لنا أو قلتُم . وقولُه تعالى ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ تعليلٌ لأحقِّيتهم بذلك أي أنتمُ قدَّمتم العذابَ أو الصِّليَّ لنا وأوقعتُمونا فيه بتقديمِ ما يُؤدِّي إليه من العقائدِ الزَّائغةِ والأعمالِ السَّيِّئةِ وتزيينها في أَعُيننا وإغرائِنا عليها لا أنَّها باشرناها من تلقاءِ أنفسنا ﴿ فَبِئْسَ القرار ﴾ أي فبئسَ المقرُّ جهنَّم قصدُوا بذمِّها تغليظَ جنايةِ الرُّؤساءِ عليهم ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الأتباعُ أيضاً وتوسيطُه بين كلاميهم لما بينهُما من التَّباينِ البيِّنِ ذاتاً وخِطاباً أي قالُوا مُعرضين عن خصومتِهم متضرِّعين إلى الله تعالى ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِى النار ﴾ كقولِهم ﴿

رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَئَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النار ﴾ أي عذاباً مُضاعفاً أي ذا ضعفٍ وذلك بأنْ يزيدَ عليه مثلَه ويكون ضعفينِ كقولِه ﴿ رَبَّنَا ءاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب ﴾ وقيل : المرادُ بالضِّعفِ الحيَّاتُ والأَفَاعي .

(97/662)

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي الطَّاغُون ﴿ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الاشرار ﴾ يعنون فقراءَ المُسلمينَ الذين كانُوا يسترذلونَهم ويسخرُون منهم ﴿ أتخذناهم سِخْرِيّاً ﴾ بهمزةِ استفهامٍ سقطتْ لأجلها همزةُ الوصل . والجملةُ استئنافٌ لا محلَّ لها من الإعراب قالُوه إنكاراً على أنفسِهم وتأنيباً لها في الاستسخارِ منهم ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصار ﴾ متَّصلٌ بـ أتَّخذناهم على أنَّ أم متَّصلة والمعنى أيَّ الأمرينِ فعلنَا بهم الاستسخارُ منهم أم الازدراءُ بهم وتحقيرُهم ، وإنَّ أبصارَنا كانت تزيغُ عنهم وتقتحمُهم على معنى إنكارِ كلِّ واحدٍ من الفعلينِ على أنفسهم توبيخاً لها أو على أنَّها منقطعةٌ والمعنى أتخذناهم سخرياً بل أزاغتْ عنهم أبصارُنا كقولك أزيدٌ عندك أم عندَك عمروٌ على معنى توبيخِ أنفسِهم على الاستسخارِ ثمَّ الإضرابُ والانتقالُ منه إلى التَّوبيخِ على الازدراءِ والتَّحقيرِ . وقُرِىء اتَّخذناهم بغير همزةٍ على أنَّه صفةٌ أُخرى لرجالاً فقوله تعالى أَمْ زاغتْ متَّصلٌ بقوله ما لنا لا نَرى والمعنى ما لنا لا

نراهُم في النار أليسوا فيها فكذلك لا نراهم أم زاغتْ عنهم أبصارُنا وهم فيها وقد جُوِّز أنْ تكونَ الهمزةُ مقدَّرةٌ على هذه القراءةِ وقُرِىء سُخريا بضمِّ السِّين.

﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي الذي حُكي من أحوالِهم ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لا بدَّ من وقوعةِ البتةَ. وقوله تعالى ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والجملةُ بيانٌ لذلك وفي الإبهامِ أوّلاً والتَّبيينِ ثانياً مزيدُ تقريرٍ له. وقيل: بدلٌ من محلِّ ذلك. وقيل بدلٌ من حقٌّ أو عطفُ بيانٍ له. وقُرِىء بالنَّصبِ على أنَّه بدلٌ من ذلكَ وما قيل: من أنَّه صفةٌ له فقد قيل عليه: إنَّ اسمَ الإشارةِ لا يُوصف إلا بالمعرَّفِ باللامِ يقال بهذا الرَّجلَ ولا يقال بهذا غلامِ الرَّجلِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(98/662)

وقال الآلوسى:

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) ﴾

﴿ هذا ﴾ قال الزجاج: أي الأمر هذا على أنه خبر مبتدأ محذوف، وقال أبو علي: أي هذا للمؤمنين على أنه مبتدأ خبره محذوف وقدره بعضهم كما ذكر.

وجوز أبو البقاء احتمال كونه مبتدأ محذوف الخبر واحتمال كونه خبراً محذوف المبتدأ،

وجوز بعضهم كونه فاعل فعل محذوف أي مضي هذا وكونه مفعولاً للفعل محذوف أي خذ هذا ، وجوز أيضاً كون ها اسم فعل بمعنى خذ وذا مفعوله من غير تقدير ورسمه متصلاً يبعده والتقدير أسهل منه ، وقوله تعالى : ﴿ هذا وَإِنَّ للطاغين لَشَرَّ ﴾ عطف على ما قبله ، ولزوم عطف الخبر على الإنشاء على بعض الاحتمالات جوابه سهل ، وأشار الخفاجي إلى الحالية هنا أيضاً ولعل أمرها على بعض الأقوال المذكورة هين ، والطاغون هنا الكفار كام يدل عليه كلام ابن عباس حيث قال : أي الذين طغوا علي وكذبوا رسلي ، وقال الجبائي : أصحاب الكبائر كفاراً كانوا أو لم يكونوا ، وإضافة ﴿ شَرُّ ﴾ إلى ﴿ مَئَابٍ ﴾ كإضافة ﴿ حُسْنُ ﴾ [ص : 49] إليه فيما تقدم ، وظاهر المقابلة يقتضي أن يقال : لقبح مآب هنا أو لبخير مآب فيما مضى لكن مثله لا يلتفت إليه إذا تقابلت المعاني لأنه من تكلف الصنعة البديعية كما صرح به المرزوقي في "شرح الحماسة" كذا قيل ، وقيل إنه من الاحتباك وأصله إن للمتقين لخير مآب وحسن مآب وإن للطاغين لقبح مآب وشر مآب واستحسنه الخفاجي وفيه نوع بعد

﴿ جَهَنَّمَ ﴾ يعلم إعرابه مما سلف ؛ وقوله سبحانه : ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي يدخلونها ويقاسون حرها حال من جهنم نفسها أو من الضمير المستتر في خبر إن الراجع لشر مآب المراد به هي والحال مقدرة ﴿ فَبِئْسَ المهاد ﴾ أي هي يعني جهنم فالمخصوص بالذم محذوف ، والمهاد كالفراش لفظاً ومعنى وقد استعير مما يفترشه النائم ، والمهد كالمهاد وقد

يخص بمقر الطفل .

هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57)

(99/662)

﴿ هذا ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي العذاب هذا ، وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ جملة مرتبة على الجملة قبلها فهي بمنزلة جزاء شرط محذوف ، وقوله تعالى : ﴿ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو حميم وغساق وذا قد يشار به للمتعدد أو مبتدأ محذوف الخبر أي منه حميم ومنه غساق كما في

قوله : حتى إذا ما أضاء الصبح في غلس . . .

وغودر البقل ملوى ومحصود

أي منه ملوى ومنه محصود أو ﴿ هذا ﴾ مبتدأ خبره ﴿ حَمِيمٍ ﴾ وجملة ﴿ فليذوقوه ﴾ معترضة كقولك زيد فافهم رجل صالح أو هذا مبتدأ خبره ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ على مذهب الأخفش في إجازته زيد فاضربه مستدلاً بقوله :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم . . .

أو ﴿ هذا ﴾ في محل نصب بفعل مضمر يفسره ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ أي ليذوقوا هذا

فليذوقوه ، ولعلك تختار القول بأن ﴿ هذا ﴾ مبتدأ وحميم خبره وما في البين اعتراض وقد قدمه في الكشاف والفاء تفسيرية تعقيبية وتشعر بأن لهم إذاقة بعد إذاقة ، وفي حميم وغساق على هذين الوجهين الاحتمالان المذكوران أولاً والحميم الماء الشديد الحرارة .

والغساق بالتشديد كما قرأ به ابن أبي اسحاق .

وقتادة .

وابن وثاب .

وطلحة .

وحمزة .

والكسائي .

وحفص والفضل .

وابن سعدان .

وهارون عن أبي عمرو ، وبالتخفيف كما قرأ به باقي السبعة اسم لما يجري من صديد أهل النار كما روي عن عطاء .

وقتادة .

وابن زيد ، وعن السدى ما يسيل من دموعهم .

وأخرج ابن جرير عن كعب أنه عين في جهنم تسيل إليها حمة كل ذي حمة من حية وعقرب وغيرهما يغمس فيها الكافر فيتساقط جلده ولحمه وأخرج ابن جرير .

(100/662)

وابن المنذر عن ابن عباس أنه الزمهرير ، وقيل : هو مشدداً ومخففاً وصف من غسق كضرب وسمع بمعنى سال يقال غسقت العين إذا سال دمعها فيكون على ما في البحر صفة حذف موصوفها أي ومذوق غساق ويراد به سائل من جلود أهل النار مثلا ، والوصيفة في المشدد أظهر لأن فعالا بالتشديد قليل في الأسماء ، ومنه الغياد ذكر البوم والخطار دهن يتخذ من الزيت والعقار ما يتداوي به من النبات ، ومن الغريب ما قاله الجواليقي .

والواسطي أن الغساق هو البارد المنتن بلسان الترك والحق أنه عربي نعم النتونة وصف له في الواقع وليست مأخوذة في المفهوم ، فقد أخرج أحمد .

والترمذي .

وابن حبان .

وجماعة وصححه الحاكم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ولو أن دلو من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا " وقيل الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله عز

وجل ويبعده هذا الخبر .

وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (58)

﴿ وَأَخَّرَ ﴾ أي ومذوق آخر وفسره ابن مسعود كما رواه عنه جمع بالزمهرير أو وعذاب آخر .

وقرأ الحسن .

ومجاهد .

والجحدري .

وابن جبير .

وعيسى .

وأبو عمرو و﴿ ءاخَرَ ﴾ على الجمع أي ومذوقات أو أنواع عذاب آخر ﴿ مِن شَكْلِهِ ﴾ أي من مثل هذا المذوق أو العذاب في الشدة والفظاعة ، وتوحيد الضمير دون تثنيته نظراً للحميم والغساق على أنه لما ذكر أو للشراب الشامل للحميم والغساق أو للغساق .

(101/662)

وقرأ مجاهد ﴿ شَكْلِهِ ﴾ بكسر الشين وهي لغة فيه كمثل وإذا كان بمعنى الغنج فهو بالكسر لا غير ﴿ أزواج ﴾ أي أجناس و ﴿ ءاخَرَ ﴾ على القراءتين يحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي وهذا مذوق أو عذاب آخر أو هذه مذوقات أو أنواع عذاب آخر ، والجلمة معطوفة على هذا حميم ، وإن شئت فقدر هو أو هي واعطف الجملة على هو حميم ، وأن يكون مبتدأ خبره محذوف أي ومنه مذوق أو عذاب آخر أو ومنه مذوقات أو أنواع عذاب أخر والعطف على منه حميم وجوز أن يقدر الخبر لهم أي ولهم مذوق أو عذاب آخر أو ولهم مذوقات أو أنواع عذاب أخر والعطف على ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ [ص : 57] ومن شكله وأزواج في جميع ذلك صفتاه لآخر أو أخر .

و ﴿ ءاخَرَ ﴾ وإن كان مفرداً في اللفظ فهو جمع وصادق على متعدد في المعنى .

ويحتمل أن يكون آخر أو أخر مبتدأ و ﴿ مِن شَكْلِهِ ﴾ صفته و ﴿ أزواج ﴾ خبر والجواب عن عدم المطابقة على قراءة الأفراد ما سمعت ، وأن يكون ذلك عطفاً على حميم عطف المفرد على المفرد ومن شكله صفته وأزواج صفة للثلاثة المتعاطفة ، وجوز أن يكون آخر مبتدأ ومن شكله خبره وأزواج فاعل الظرف ، وأن يكون الأول مبتدأ ومن شكله خبر مقدم وأزواج مبتدأ والجملة خبر المبتدأ الأول أعني آخر ، وصح الابتداء به لأنه من باب ضعيف عاذ بقرملة فالمبتدأ في الحقيقة الموصوف المحذوف أي نوع آخر أو مذوف آخر ، وقيل لأنه جيء به للتفصيل ، ومما ذكروا من المسوغات أن تكون النكرة

للتفصيل نحو الناس رجلان رجل أكرمته ورجل أهنته وبحث فيه ابن هشام في المغنى ، وجعلوا ضمير شكله على الوجهين عائداً على آخر وهما لا يكادات يتسنيان على القراءة بالجمع فتدبر ولا تغفل .

﴿ هذا فَوْجٌ ﴾ جمع كثير من أتباعكم في الضلال .

(102/662)

﴿ مُّقْتَحِمٌ ﴾ راكب الشدة داخل فيها أو متوسط شدة مخيفة ﴿ مَّعَكُمْ ﴾ والمراد هذا فوج داخل معكم النار مقاس فيها ما تقاسونه ، وهذا حكاية ما تقوله ملائكة العذاب لرؤساء الضلال عند دخول النار تقريعاً لهم فهو بتقدير فيقال لهم عند الدخول هذا الخ .

وفي الكشاف واستظهره أبو حيان أنه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض يخاطب بعضهم بعضاً في شأن أتباعهم يقول هذا فوج مقتحم معكم ، والظرف متعلق بمقتحم ، وجوز فيه أن يكون نعتاً ثانياً لفوج أو حالا منه لأنه قد وصف أو من الضمير المستتر فيه ، ومنع أبو البقاء جواز كونه طرفاً قائلاً : إنه يلزم عليه فساد المعنى وتبعه الكواشي وصاحب الأنوار .

(103/662)

وتعقبه صاحب الكشف بأنه إن كان الفساد لانبائه عن تزاحمهم في الدخول وليس المعنى على المزاحمة بين الفريقين الأتباع والمتبوعين ونهم بعد الدخول يقولون ذلك لا عند المزاحمة غير لازم لأن الاقتحام لا ينبىء عن التزاحم ولا هو لازم له وإنما مثل ضربت معه زيداً ينبىء عن المشاركة في الضرب والمقارنة فكذلك اقتحام المتبوعين النار مع الأتباع ينبىء عن المشاركة في ركوب كل من الطائفتين قحمة النار ومقاساة شدتها في زمان متقارب عرفاً ، ولو قيل هذا فوج معكم مقتحمون لم يفد أن المخاطبين أيضاً كذلك وفسد المعنى المقصود ، والعجب ممن جوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿ مُّقْتَحِمٌ ﴾ ولم يجوز أن يكون ظرفاً وإن كان بغير ذلك فليفد أولاً ثم ليعترض انتهى ، وقال بعضهم : إن وجه فساد الظرفية دون الحالية أنه ليس المراد أنهم اقتحموا في الصحبة ودخلوا فيها بل اقتحموا في النار مصاحبين لكم ومقارنين إياكم ، وهو كلام فاسد لا محصل له لأن مدلول مع المعبر عنه بالصحبة معناه الاجتماع في التلبس بمدلول متعلقها فيفيد اشتراك الطائفتين في الاقتحام لا في الصبحة كما توهمه ولا يدل على اتحاد زمانيهما كما صرح به في المغنى ، ولو سلم فهو لتقاربه عد متحدا كما أشير في عبارة الكشف إليه فالحق أنه لا فساد ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ دعاء من المتبوعين على أتباعهم سواء كان قائل ما تقدم الملائكة عليهم السلام أو بعض الرؤساء لبعض أو صفة لفوج أو حال منه لوصفه أو من ضميره ، وأياً ما كان يؤول بمقول لهم

لا مرحباً لأنه دعاء فهو إنشاء لا يوصف به ، وكذا لا يكون حالاً بدون تأويل ، والمعنى على استحقاقهم أن يقال لهم ذل لا أنهم قيل لهم ذلك بالفعل ، وهو على الوصفية والحالية من كلام الملائكة عليهم السلام إن كانوا هم القائلين أو من كلام بعض الرؤساء ، وجوز كونه ابتداء كلام منهم و ﴿ مَرْحَباً ﴾ من الرهب بضم الراء وهو السعة ومنه الرحبة للفضاء الواسع وهو مفعول

(104/662)

به لفعل واجب الإضمار و ﴿ بِهِمُ ﴾ بيان للمدعو عليهم ، وتكون الباء للبيان كاللام في نحو سقياً له ، وكون اللام دون الباء كذلك دعوى من غير دليل أي ما أتوا بهم رحباً وسعة ، وقيل : الباء للتعدية فمجرورها مفعول ثان لأتوا وهو مبني على زعم أن اللام لا تكون للبيان ، وكفى بكلام الزمخشري وأبي حيان دليلاً على خلافه ، ويقال : مرحباً بك على معنى رحبت بلادك رحباً كما يقال على معنى أتيت رحباً من البلاد لا ضيقاً ؛ ويفهم من كلام بعضهم جواز أن يكون ﴿ مَرْحَباً ﴾ مفعولاً مطلقاً لمحذوف أي لا رحبت بهم الدار مرحباً ، والجمهور على الأول ، وأياً ما كان فالمراد بذلك مثبتاً الدعاء بالخير ومنفياً الدعاء بالسوء .

﴿ إِنَّهُمْ صَالُو النار ﴾ تعليل من جهة الملائكة لاستحقاقهم الدعاء عليهم أو وصفهم بما ذكر أو تعليل من الرؤساء لذلك ، والكلام عليه يتضمن الإشارة إلى عدم انتفاعهم بهم كأنه قيل : إنهم داخلون النار بأعمالهم مثلنا فأي نفع لنا فلا مرحباً بهم .

قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (60)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي الأتباع وهم الفوج المقتحم للرؤساء .

﴿ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ أي بل أنتم أحق بما قيل لنا أو بما قلتم لنا ، ولعلهم إنما خاطبوهم بذلك على تقدير كون القائل الملائكة الخزنة عليهم السلام مع أن الظاهر أن يقولوا بطريق الاعتذار إلى أولئك القائلين بل هم لا مرحباً بهم قصداً منهم إلى إظهار صدقهم بالمخاصمة مع الرؤساء والتحاكم إلى الخزنة طمعاً في قضائهم بتخفيف عذابهم أو تضعيف عذاب خصائصهم .

(105/662)

وفي "البحر" خاطبوهم لتكون المواجهة لمن كانوا لا يقدرون على مواجهتهم في الدنيا بقبيح أشفى لصدورهم حيث تسببوا في كفرهم وأنكى للرؤساء ، وهذا أيضاً بتأويل القول بناء على أن الإنشاء لا يكون خبراً أي بل أنتم مقول فيكم لا مرحباً بكم ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾

تعليل لأحقيتهم بذلك ، وضمير الغيبة في ﴿ قَدَّمْتُمُوهُ ﴾ للعذاب لفهمه مما قبله أو للمصدر الذي تضمه ﴿ صَالُو ﴾ وهو الصلي أي أنتم قدمتم العذاب أو الصلى ودخول النار لنا بإغوائنا وإغرائنا على ما قدمنا من العقائد الزائغة والأعمال السيئة لا أنا باشرناها من تلقاء أنفسنا .

وفي الكلام مجازان عقليان ، الأول إسناد التقديم إلى الرؤساء لأنهم السبب فيه بإغوائهم ، والثاني إيقاعه على العذاب أو الصلي مع أنه ليس المقدم بل المقدم عمل السوء الذي هو سبب له ، وقيل : أطلق الضمير الذي هو عبارة عن العذاب أو الصلى المسبب عن العمل على العمل مجازاً لغوياً ، وقيل : لا حاجة إلى ارتكاب المجاز فيه فتقديم العذاب أو الصلى المسبب عن العمل على العمل مجازاً لغوياً ، وقيل : لا حاجة إلى ارتكاب المجاز فيه فتقديم العذاب أو الصلى بتأخير الرحمة منهم ﴿ فَبِئْسَ القرار ﴾ أي فبئس المقر جهنم ، وهو من كلام الأتباع وكأنهم قصدوا بذلك التشفي والإنكار وإن ذلك المقر مشترك ، وقيل : قصدوا بالذم المذكور تغليظ جناية الرؤياء عليهم .

قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (61)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي الأتباع أيضاً ، وقول ابن السائب : القائل جميع أهل النار خلاف الظاهر جداً فلا يصار إليه ، وتوسيط الفعل بين كلاميهم لما بينهما من التباين ذاتاً وخطاباً أي قالوا معرضين عن خصومة رؤسائهم متضرعين إلى الله عز وجل : ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِى النار ﴾ أي مضاعفاً ومعناه ذا ضعف أي مثل وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير بتلك الزيادة مثلين لعذاب غيره ، ويطلق الضعف على الزيادة المطلقة .

وقال ابن مسعود هنا : الضعف حيات وعقارب ، والظاهر من بعض عباراتهم أن ﴿ مِنْ ﴾ موصولة ، ونص الخفاجي على أنها شرطية .

وفي "البحر" ﴿ مَن قَدَّمَ ﴾ هم الرؤساء ، وقال الضحاك : هو إبليس وقابيل ، وهو أنسب بخلاف الظاهر المحكي عن ابن السائب .

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62)

﴿ وَقَالُواْ ﴾ الضمير للطاغين عند جمع أي قال الطاغون بعضهم لبعض على سبيل التعجب والتحسر ﴿ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً كُنَّا ﴾ في الدنيا ﴿ نَعُدُّهُمْ مّنَ الاشرار ﴾ أي الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى يعنون بذلك فقراء المؤمنين وكانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم لفقرهم ومخالفتهم إياهم في الدين ، وقيل : الضمير لصناديد قريش كأبي جهل .

وأمية بن خلف .

وأصحاب القليب ، والرجال عمار .

وصهيب .

وسلمان .

وخباب .

وبلال وأضرابهم رضي الله تعالى عنهم بناء على ما روي عن مجاهد من أن الآية نزلت فيهم ، واستضعف "صاحب الكشف" وسبب النزول لا يكون دليلاً على الخصوص ، واستظهر بعضهم أن الضمير للأتباع لأنه فيما قبل يعني قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ ﴾ [ص : 60] الخ لهم أيضاً ، وكانوا أيضاً يسخرون من فقراء المؤمنين تبعاً لرؤسائهم ، وأياً ما كان فجملة ﴿ كُنَّا ﴾ الخ صفة ﴿ رِجَالاً ﴾ .

وقوله تعالى :

(107/662)

﴿ أتخذناهم سِخْرِيّاً ﴾ بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل كما قرأ بذلك الحجازيان وابن عامر .

وعاصم .

وأبو جعفر .

والأعرج.

والحسن .

وقتادة استئناف لا محل له من الإعراب قالوه حيث لم يروهم معهم إنكاراً على أنفسهم وتأنيباً لهم في الاستسخار منهم ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصار ﴾ متصل بقوله تعالى : ﴿ مَا لَنَا لاَ نرى ﴾ [ص : 62] الخ ، وأم فيه متصلة وتقدم ما فيه معنى الهمزة يغني عن تقدمها على ما يقتضيه كلام الزمخشري ، والمعنى ما لنا لا نراهم في النار أليسوا فيها فلذلك لا نراهم بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها أو بقوله تعالى : ﴿ أتخذناهم ﴾ الخ ، وأم فيه إما متصلة أيضاً ، والمقابلة باعتبار اللازم ، والمعنى أي الأمرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم الإزدراء بهم وتحقيرهم وإن أبصارنا تعلو عنهم وتقتحمهم على معنى إنكار الأمرين جميعاً على أنفسهم ، وعن الحسن كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخرياً وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم ، وإما منقطعة كأنهم أضربوا عن إنكار الاستسخار وأنكروا على أنفسهم أشد منه وهو أنهم جعلوهم محقرين لا ينظر إليهم بوجه ، وفي ﴿ زَاغَتِ ﴾ دون أزغنا مبالغة عظيمة كأن العين بنفسها تمجهم لقبح منظرهم وأين هذا من السخر فقد يكون المسخور منه محبوباً مكرماً .

وجوز أن يكون معنى أم زاغت على الانقطاع بل زاغت أبصارنا وكلت أفهامنا حتى خفي

عنا مكانهم وأنهم على الحق المبين .

وقرأ النحويان .

وحمزة ﴿ أتخذناهم ﴾ بغير همزة فجوز أن تكون مقدرة لدلالة أم عليها فتتحد القراءتان ، وأن لا تكون كذلك ويكون الكلام إخباراً فقال ابن الأنباري : الجملة حال أي وقد اتخذناهم ، وجوز كونها مستأنفة لبيان ما قبلها .

وقال الزمخشري .

وجماعة : صفة ثانية لرجالاً و ﴿ أَمْ زَاغَتْ ﴾ متصل بقوله تعالى : ﴿ مَا لَنَا لاَ نرى ﴾ الخ كما سمعت أولاً .

(108/662)

وجوز أن تكون أم فيه منقطعة كأنهم أضربوا عما قبل وأنكروا على أنفسهم ما هو أشد منه أو أضربوا عن ذلك إلى بيان إن ما وقع منهم في حقهم كان لزيغ أبصارهم وكلال أفهامهم عن إدراك أنهم على الحق بسبب رثاثة حالهم ، وقرأ عبد الله .

وأصحابه .

ومجاهد .

والضحاك وأبو جعفر .

وشيبة .

والأعرج.

ونافع .

وحمزة .

والكسائي ﴿ سِخْرِيّاً ﴾ بضم السين ومعناه على ما في "البحر" من السخرة والاستخدام ، ومعنى سخرياً بالكسر على المشهور من السخر وهو الهزء وهو معنى ما حكى عن أبي عمرو قال : ما كان من مثل العبودية فسخري بالضم وما كان من مثل الهزء فسخري بالكسر ، وقيل : هو بالكسر من التسخير .

﴿ إِنَّ ذلك ﴾ أي الذي حكى عنهم ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لا بد أن يتكلموا به فالمراد من حقيته تحققه في المستقبل .

وقوله تعالى : ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو تخاصم ، والجملة بيان لذلك ، وفي الإبهام أولاً والتبيين ثانياً مزيد تقرير له ، وقال ابن عطية : بدل من حق والمبدل منه ليس في حكم السقوط حقيقة ، وقيل بدل من محل اسم إن ، والمراد بالتخاصم التقاول ، وجوز إرادة ظاهره فإن قول الرؤساء ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ [ص : 59] وقول الأتباع ﴿ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ [ص : 60] من باب الخصومة فسمي التفاوض كله تخاصماً

لاشتماله عليه ، قيل وهذا ظاهر أن التقاول بين المتبوعين والأتباع أما لو جعل الكل من كلام الخزنة فلا ، ولو جعل ﴿ لاَ مَرْحَباً ﴾ من كلام الرؤساء و ﴿ هذا فَوْجٌ ﴾ من كلام الخزنة فيصح أن يجعل تخاصماً مجازاً .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ تَخَاصُمُ ﴾ بالنصب فهو بدل من ذلك .

وقال الزمخشري : صفة له ، وتعقب بأن وصف اسم الإشارة وإن جاز أن يكون بغير المشتق إلا أنه يلزم أن يكون معرفاً بأل كما ذكره في المفصل من غير نقل خلاف فيه فبينه وبين ما يستدعيه القول بالوصفية تناقض مع ما في ذلك من الفصل الممتنع أو القبيح .

(109/662)

وأجاب "صاحب الكشف" بأن القياس يقتضي التجويز لأن اسم الإشارة يحتاج إلى رافع لإبهامه دال على ذات معينة سواء كان فيه اختصاص بحقيقة أخرى أو بحقائق أولاً ، وهذا القدر لا يخرج الاسم عن الدلالة على حقيقة الذات المعينة التي يصح بها أن يكون وصفاً لاسم الإشارة ، وأما الاستعمال فمعارض بأصل الاستعمال في الصفة فكما أن الجمهور حملوا على الصفة في نحو هذا الرجل مع احتمال البدل والبيان كذلك الزمخشري حمل على الوصف مع احتمال البدل لأنه التفت لفت المعنى ، ولا يناقض ما في المفصل لأنه

ذكر ذلك في باب النداء خاصة على تقدير عدم استقلال اسم الإشارة ولأن حال الاستقلال أقل لم يتعرض له ، وقد بين في موضعه أنه في النداء خاصة يمتنع وصف اسم الإشارة إذا لم يستقل بالمضاف إلى المعرف باللام على أنه كثيراً ما يخالف في أحد الكتابين الكشاف والمفصل الآخر ، والإشكال بأنه يلزم الفصل غير قادح فإنه يجوز لاسيما على تقدير استقلال اسم الإشارة اه .

ولا يخلو عن شيء .

وقرأ ابن السميقع ﴿ تَخَاصُمُ ﴾ فعلاً ماضياً ﴿ أَهْلُ ﴾ بالرفع على أهل فاعل له .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(110/662)

وقال ابن عاشور :

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) ﴾

اسم الإِشارة ﴿ هذا ﴾ مستعمل في الانتقال من غرض إلى غرض تنهية للغرض الذي قبله .

والقول فيه كالقول في ﴿ هذا ذِكْرٌ وإنَّ للمتقين لحُسنَ مَآبٍ ﴾ [ص : 49] .

والتقدير : هذا شأن المتقين ، أو هذا الشأن ، أو هذا كما ذُكر .

وجملة ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ حال من ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ وهي حال مؤكدة لمعنى اللام الذي هو عامل في "الطاغين" فإن معنى اللام أنهم تختصّ بهم جهنم واختصاصها بهم هو ذَوْق عذابها لأن العذاب ذاتي لجهنم .

والطاغي : الموصوف بالطغيان وهو : مجاوزة الحد في الكِبر والتعاظم .

والمراد بهم عظماء أهل الشرك لأنهم تكبّروا بعظمتهم على قبول الإِسلام ، وأعرضوا عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بكبر واستهزاء ، وحكموا على عامة قومهم بالابتعَاد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين وعن سماع القرآن ، وهم : أبو جهل وأميةُ بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، والعاصي بن وائل وأضرابهم .

والفاء في ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ لترتيب الإِخبار وتسببه على ما قبله ، نظير عطف الجمل بـ (ثُمّ) وهي كالفاء في قوله تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ [الأنفال : 17] بعد قوله : ﴿ فلا تولوهم الأدبار في ﴾ سورة [الأنفال : 15] .

وهذا استعمال بديع كثير في القرآن وهو يندرج في استعمالات الفاء العاطفة ولم يكشف عنه في "مغني اللبيب" .

والمعنى : جهنم يصلونها ، فيتسبب على ذلك أن نذكر ذَم هذا المقرّ لهم ، وعبر عن جهنم بـ ﴿ الْمِهَادُ ﴾ على وجه الاستعارة ، شبه ما هم فيه من النار من تحتهم بالمهاد وهو فراش

النائم كقوله تعالى : ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ [الأعراف : 41] .

هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57)

اسم الإِشارة هنا جار على غالب مواقعه وهو نظير قوله : ﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ [ص : 53] والقول فيه مثله .

(111/662)

وإشارة القريب لتقريب الإِنذار والمشار إليه ما تضمنه قوله : ﴿ جهنَّم يصلونها ﴾ [ص : 56] من الصلي ومن معنى العذاب ، أو الإِشارة إلى شرّ من قوله : ﴿ لَشَرَّ مَأَبٍ ﴾ [ص : 55] .

(و ﴿ حميم ﴾ خبر عن اسم الإِشارة .

ومعنى الجملة في معنى بدل الاشتمال لأن شر المآب أو العذاب مشتمل على الحميم والغساق وغيرِه من شكله ، والمعنى : أن ذلك لهم لقوله : ﴿ وإنّ للطاغِينَ لشرَّ مَأَبٍ ﴾ [ص : 55] فما فُصل به شر المآب وعذاب جهنم فهو في المعنى معمول للام .

والحميم : الماء الشديد الحرارة .

والغَساق : قرأه الجمهور بتخفيف السين .

وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتشديدها .

قيل هما لغتان وقيل : غَسَّاق بالتشديد مبالغة في غَاسق بمعنى سائل ، فهو على هذا وصف لموصوف محذوف وليس اسماً لأن الأسماء التي على زنة فَعَّال قليلة في كلامهم .

والغساق : سائل يسيل في جهنم ، يقال : غَسَق الجُرح ، إذا سال منه ماء أصفر .

وأحسب أن هذا الاسم بهذا الوزن أطلقه القرآن على سائل كريه يُسْقَوْنه كقوله : ﴿ بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب ﴾ [الكهف : 29] .

وأحسب أنه لم تكن هذه الزنة من هذه المادة معروفة عند العرب ، وبذلك يومىء كلام الراغب .

وهذا سبب اختلاف المفسرين في المراد منه .

والأظهر : أنه صيغ له هذا الوزن ليكون اسماً لشيء يشبه ما يغسِقَ به الجرح ، ولذلك سمّي بالمهل والصديد في آيات أخرى .

وجملة ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ معترضة بين اسم الإِشارة والخبر عنه ، وهذا من الاعتراض المقترن بالفاء دون الواو ، والفاء فيه كالفاء في قوله : ﴿ فبئس المِهادُ ﴾ [ص : 56] وقد تقدمت آنفاً .

وموقع الجملة كموقع قوله : ﴿ فامنن أو أمسك ﴾ [ص : 39] كما تقدم آنفاً .

وقوله : ﴿ وءَاخَرُ ﴾ صفة لموصوف محذوف دلت عليه الإِشارة بقوله : ﴿ هذا ﴾ وضمير ﴿ فليذوقوه ﴾ ووصفُ آخر يدل على مغاير .

(112/662)

وقوله : ﴿ مِن شَكلِهِ ﴾ يدل على أنه مغاير له بالذات وموافق في النوع ، فحصل من ذلك أنه عذاب آخر أو مذوق آخر .

والشّكل بفتح الشين : المثل ، أي المماثل في النوع ، أي وعذاب آخر غير ذلك الذي ذاقوه من الحميم والغساق هو مثل ذلك المشار إليه أو مثل ذلك الذوق في التعذيب والألم .

وأفرد ضمير ﴿ شَكلِهِ ﴾ مع أن معاده ﴿ حَميمٌ وغسَّاقٌ ﴾ نظراً إلى إفراد اسم الإِشارة ، أو إلى إفراد (مذوق) المأخوذ من (يذوقوه) ، فقوله : ﴿ مِن شكلِهِ ﴾ صفة ل ﴿ آخر .

والأزواج : جمع زوج بمعنى النوع والجنس ، وقد تقدم عند قوله : ﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ في سورة [الرعد : 3] .

والمعنى : وعذاب آخر هو أزواج أصناف كثيرة .

ولما كان اسماً شائعاً في كل مغاير صحّ وصفه بـ ﴿ أزواج ﴾ بصيغة الجمع .

وقرأ الجمهور : ﴿ وءَاخَرُ ﴾ بصيغة الإفراد .

وقرأه أبو عمرو ويعقوب ﴿ وأُخَر ﴾ بضم الهمزة جمع أخرى على اعتبار تأنيث الموصوف ، أي وأزواج أخر من شكل ذلك العذاب .

هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (59)

ابتداء كلام حكي به تخاصم المشركين في النار فيما بينهم إذا دخلوها كما دل عليه قوله تعالى في آخره : ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ [ص : 64] ، وبه فسر قتادة وابن زيد ، وجريانه بينهم ليزدادوا مقتاً بأن يضاف إلى عذابهم الجسماني عذاب أنفسهم برجوع بعضهم على بعض بالتنديم وسوء المعاملة .

وأسلوب الكلام يقتضي متكلماً صادراً منه ، وأسلوبُ المقاولة يقتضي أن المتكلم به هم الطاغون الذين لهم شر المآب لأنهم أساس هذه القضية .

(113/662)

فالتقدير : يقولون ، أي الطاغون بعضهم لبعض : هذا فوج مقتحم معكم ، أي يقولون مشيرين إلى فوج من أهل النار أُقحم فيهم لَيسوا من أكفائهم ولا من طبقتهم وهم فوج الأتباع من المشركين الذين اتبعوا الطاغين في الحياة الدنيا ، وذلك ما دل عليه قوله : ﴿ أنتم قدمتموه لنا

﴾ [ص : 60] أي أنتم سبب إحضار هذا العذاب لنا .

وهو الموافق لمعنى نظائره في القرآن كقوله تعالى : ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ [الأعراف : 38] إلى قوله : ﴿ بما كنتم تكسبون ﴾ في سورة [الأعراف : 39] ، وقوله : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾ في سورة [البقرة : 166] ، وقوله : ﴿ وأَقْبَلَ بَعْضُهُم على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ الآيات من سورة ﴿ الصافات : 27] .

وأوضحُ من ذلك كله قوله تعالى في آخر هذه الآية ﴿ إنَّ ذلك لحقٌّ تخاصم أهلِ النَّارِ ﴾ [ص : 64] .

فجملة القول المحذوف في موضع الحال من الطّاغين .

وجملة ﴿ هذا فوجٌ ﴾ إلى آخرها مقول القول المحذوف .

والفوج : الجماعة العظيمة من الناس ، وتقدم في قوله : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ في سورة [النمل : 83] .

والاقتحام : الدخول في الناس ، و (مع) مؤذنة بأن المتكلمين متبوعون ، وأن الفوج المقتحم أتباع لهم ، فأدخلوا فيهم مدخل التابع مع المتبوع بعلامات تشعر بذلك .

وجملة : ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ معترضة مستأنفة لإنشاء ذم الفوج .

و ﴿ لاَ مَرْحَباً ﴾ نفيٌ لكلمةٍ يقولها المزور لزائره وهي إنشاء دعاء الوافد .

و ﴿ مرحباً ﴾ مصدر بوزن المفعل ، وهو الرُّحب بضم الراء وهو منصوب بفعل محذوف

دل عليه معنى الرحب ، أي أتيت رحباً ، أي مكاناً ذا رحب ، فإذا أرادوا كراهية الوافد والدعاء عليه قالوا : لا مرحباً به ، كأنهم أرادوا النفي بمجموع الكلمة :

لا مرحباً بِغَدٍ ولا أهلاً به

إن كان تفريق الأحبة في غدِ . . .

وذلك كما يقولون في المدح : حبّذا ، فإذا أرادوا ذمّاً قالوا : لا حبّذا .

(114/662)

وقد جمعهما قول كنزة أمّ شملة المنقري تهجو فيه صاحبة ذي الرمة :

ألا حبّذا أهل الملا غير أنه

إذا ذكرت ميَّ فلا حبّذا هيا . . .

ومعنى الرحب في هذا كله : السعة المجازية ، وهي الفرح ولقاء المرغوب في ذلك المكان بقرينة أن نفس السعة لا تفيد الزائد ، وإنما قالوا ذلك لأنهم كرهوا أن يكونوا هم وأتباعهم في مكان واحد جرياً على خلق جاهليتهم من الكبرياء واحتقار الضعفاء .

وجملة ﴿ إنهم صَالُوا النَّارِ ﴾ خبر ثان عن اسم الإِشارة ، والخبر مستعمل في التضجّر منهم ، أي أنهم مضايقوننا في مضيق النار كما أوماً إليه قولهم : ﴿ مقتحِم معكم لا مرحباً

بهم ﴾ .

قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (60)

فسَمِعَهُم الأتباع فيقولون : ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ إضراباً عن كلامهم .

وجيء بحكاية قولهم على طريقة المحاورات فلذلك جرّد من حرف العطف ، أي أنتم أولى بالشتم والكراهية بأن يقال : لاَ مرحباً بِكم ، لأنكم الذين تسببتم لأنفسكم ولنا في هذا العذاب بإغرائكم إيانا على التكذيب والدوام على الكفر .

و﴿ بل ﴾ للإِضراب الإِبطالي لردّ الشتم عليهم وأنهم أولى به منهم .

وذكر ضمير المخاطَبين في قوله : ﴿ أنتُم لا مرحَباً بكم ﴾ للتنصل من شتمهم ، أي أنتم المشتومون ، أي أولى بالشتم منا ، وقد استفيد هذا المعنى من حرف الإِبطال لا من الضمير لأن الضمير لا مفهوم له ولأن موقعه هنا لا يقتضي حصراً ولا تقَوِّياً لأنه مخبر عنه بجملة إنشائية ، أي أنتم يقال لكم : لا مرحباً بكم .

وإذا قد كان قول : مَرْحباً ، إنشاءَ دعاء بالخير ، وكان نفيُه إنشاءَ دعاء بضده ، كان قوله "بهم" بياناً لمن وُجّه الدعاء لهم ، أي إيضاحاً للسامع أن الدعاء على أصحاب الضمير المجرور بالباء فكانت الباء فيه للتبيين .

قال في "الكشاف" : و"بهم" بيان لمدعوّ عليهم .

وقال الهمذاني في شرحه "للكشاف" : يعني : البيان المصطلح ، كأن قائلاً يقول : بمن يحصل هذا الرحب ؟ فيقول : بهم .

وهذا كما في ﴿ هيتَ لك ﴾ [يوسف : 23] .

يعني أن الباء فيه بمعنى لام التبيين .

وهذا المعنى أغفله ابن هشام في معاني الباء .

وأشار الهمذاني إلى أنه متولد من معنى السببية .

والأحسن عندي أن يكون متولداً من معنى المصاحبة بطريق الاستعارة التبعية ثم غلب استعمال الباء في مثله في كلامهم فصار كالحقيقة لأنه لما صار إنشاء دعاء لم تبق معه ملاحظة الإِخبار بحصول الرحب معهم أو بسببهم كما يتجه بالتأمل .

وجملة ﴿ أنتم قدمتموهُ لنا ﴾ علة لقلب سبب الشتم إليهم ، أي لأنكم قدمتم العذاب لنا ، فضمير النصب في ﴿ قدَّمْتُمُوهُ ﴾ عائد إلى العذاب المشاهد ، وهو حاضر في الذهن غير مذكور في اللفظ ، مثل ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] .

ووقوع ﴿ أنتُمْ ﴾ قبل ﴿ قدَّمْتُمُوهُ ﴾ المسندِ الفعلي يفيد الحصر ، أي لم يُضلنا غيركم فأنتم أحقّاء بالعذاب .

والتقديم : جعل الشيء قُدَّام غيره ، قال تعالى : ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت

أيديكم ﴾ [آل عمران : 181 ، 182] .

فتقديم العذاب لهم جعله قُدامهم ، أي جعله حيث يجدونه عند وصولهم .

وإسناد تقديم العذاب إلى المخاطبين مجاز عقلي لأن الرؤساء كانوا سبباً في تقديم العذاب لأتباعهم بإغوائهم وكان العذاب جزاءً عن الغواية .

وجُعل العذاب مقدماً وإنما المقدم العمل الذي استحق العذاب ، وهذا مجاز عقلي في المفعول فاجتمع في قوله : ﴿ قدَّمْتُمُوهُ ﴾ مجازان عقليان .

وقوله : ﴿ فَبِئْسَ القَرَارُ ﴾ موقعه كموقع قوله آنفاً ﴿ فبئس المهاد ﴾ [ص : 56] .

وهو ذَم لإقامتهم في جهنم تشنيعاً عليهم فيما تسببوا لأنفسهم فيه .

والمعنى : فبئس القرار ما قدَّمتموه لنا ، أي العذاب .

والقرار : المكث .

قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (61)

(116/662)

﴿ قالوا ﴾ أي الفوج المقتحم وهو فوج الأتباع ، فهذا من كلام الذين قالوا ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ [ص : 60] لأن قولهم : ﴿ من قدَّم لنا هذا ﴾ يعين هذا المحمل .

ولذلك حق أن يتساءل الناظر عن وجه إعادة فعل ﴿ قالوا ﴾ وعن وجه عدم عطفه على قولهم الأول .

فأما إعادة فعل القول فلإفادة أن القائلين هم الأتباع فأعِيد فعل القول تأكيداً للفعل الأول لقصد تأكيد فاعل القول تبعاً لأنه محتمل لضمير القائلين .

والمقصود من حكاية قولهم : ﴿ هذا ﴾ تحذير كبراء المشركين من عواقب رئاستهم وزعامتهم التي يجرون بها الويلات على أتباعهم فيوقعونهم في هاوية السوء حتى لا يجد الأتباع لهم جزاء بعد الفوت إلا طلب مضاعفة العذاب لهم .

وأما تجريد فعل ﴿ قالوا ﴾ عن العاطف فلأنهُ قصد به التوكيد اللفظي والتوكيد اللفظي يكون على مثال الموكَّد .

ولا تلتبس حكاية هذا القول على هذه الكيفية بحكاية المحاورات فيحسب أنه من كلام الفريق الآخر لأن الدعاء بعنوان ﴿ من قدَّم لنا هذا ﴾ يعين أن قائليه هم القائلون ﴿ أنتُم قدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ [ص : 60] ، وأن الذين قدّموا لهم هم الطاغون .

وفي معنى هذه الآية آية سورة [الأعراف : 38] ﴿ قالت أُخراهم لأُولاهم ربنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾

و﴿ مَن ﴾ في قوله : ﴿ من قدَّمَ لنا هذاَ ﴾ موصولة ، وجملة ﴿ فَزِدْهُ ﴾ خبر عن ﴿ مَن ﴾ ، واقتران الخبر بالفاء جرى على معاملة الموصول معاملة الشرط في قرن خبره بالفاء

وهو كثير ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل اللَّه فبشرهم بعذاب أليم ﴾ في سورة [براءة : 34] .

والضعف ، بكسر الضاد : يستعمل اسم مصدر ضَعَّف وضاعف ، فهو اسم التضعيف والمضاعفة ، أي تكرير المقدار وتكرير القوة ، وهو من الألفاظ المتضايفة المعاني كالنصف والزوج .

(117/662)

ويستعمل اسماً بمعنى الشيء المضاعف ، وهذا هو قياس زنة فِعْل بكسر الفاء وسكون العين ، فهو بمعنى : الشيء الذي ضوعف لأن زنه فِعْل تدلّ على ما سلط عليه فعل نحو ذِبْح ، أي مذبوح .

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62)

عطف على ﴿ هذا فوجٌ مُقتحمٌ معكُم ﴾ [ص : 59] على ما قدّر فيه من فعلِ قَول محذوفٍ كما تقدم ، فهذا من قول الطاغين فإنهم الذين كانوا يحقِّرون المسلمين .

والاستفهام في ﴿ ما لنا لا نرى رِجالاً ﴾ استفهام يلقيه بعضهم لبعض تلهّفاً على عدم رؤيتهم من عرفوهم من المسلمين مكنًّى به عن ملام بعضهم لبعض على تحقيرهم المسلمين

واعترافهم بالخطأ في حسبانهم .

فليس الاستفهام عن عدم رؤيتهم المسلمين في جهنم استفهاماً حقيقياً ناشئاً عن ظن أنهم يجدون رجال المسلمين معهم إذ لا يخطر ببال الطاغين أن يكون رجال المسلمين معهم ، كيف وهم يعلمون أنهم بضد حالهم فلا يتوهمونهم معهم في العذاب ، ويجوز أن يكون الاستفهام حقيقياً استفهموا عن مصير المسلمين لأنهم لم يروهم يومئذٍ ، إذ قد علموا أن الناس صاروا إلى عالَم آخر وهو الذي كانوا يُنذرون به ، ويكون قولهم : ﴿ ما لنا لا نرى رِجالاً ﴾ الخ تمهيداً لقولهم : ﴿ أتخذناهم سخرِيّاً ﴾ على كلتا القراءتين الآتي ذكرهما .

و﴿ الأشرار ﴾ : جمع شرَ الذي هو بمعنى الأشر ، مثل الأخيار جمع خَيْر بمعنى الأَخْيَر ، أو هو : جمع شِرِّير ضد الخيِّر ، أي الموصوفين بشر الحالة ، أي كُنا نحسبهم أشقياء قد خسروا لذة الحياة باتّباعهم الإِسلام ورضاهم بشظف العيش ، وهم يعنون أمثال بلال ، وعمار بن ياسر ، وصهيب ، وخباب ، وسلمان .

وليس المراد أنهم يعدونهم أشراراً في الآخرة مستحقين العذاب فإنهم لم يكونوا يؤمنون بالبعث .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم ﴿ أَتَّخَذْنَاهُم ﴾ بهمزة قطع هي همزة الاستفهام ، وحذفت همزة الوصل من فعل (اتخذنا) لأنها لا تثبت مع همزة الاستفهام لعدم صحة الوقف على همزة الاستفهام ، فجملة ﴿ أتخذناهم ﴾ بدل من جملة ﴿ ما لنا لا نرى رِجالاً ﴾ .

و﴿ أم ﴾ حرف إضراب ، والتقدير : بل زاغت عنهم أبصارنا .

والزيغ : الميل عن الجهة ، أي مالت أبصارنا عن جهتهم فلم تنظرهم .

و(أل) في ﴿ الأبصَارُ ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي أبصارنا ، فيكون المعنى : أكان تحقيرنا إياهم في الدنيا خطأ .

وكنّى عنه باتخاذهم سخرياً لأن في فعل ﴿ أتخذناهم ﴾ إيماء إلى أنهم ليسوا بأهل للسخرية ، وهذا تندم منهم على الاستسخار بهم .

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف ﴿ أَتَخَذْنَاهُم ﴾ بهمزة وصل على أن الجملة صفة ﴿ رِجَالاً ﴾ ثانية وعليه تكون ﴿ أم منقطعة للإِضراب عن قولهم اتخذناهم سِخرياً ﴾ أي بل زاغت عنهم الأبصار .

والسخريَّ : اسم مصدر سَخِر منه ، إذا استهزأ به ، فالسخريُّ الاستهزاء ، وهو دال على شدة الاستهزاء لأن ياءَه في الأصل ياء نسب وياء النسب تأتي للمبالغة في الوصف .

وقرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم السين .

وقرأه الباقون بكسر السين كما تقدم في سورة المؤمنين .

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64)

تذييل وتنهية لوصف حال الطاغين وأتباعهم ، وعذابهم ، وجدالهم .

وتأكيد الخبر بحرف التوكيد منظور فيه لما يلزم الخبر من التعريض بوعيد المشركين وإثبات حشرهم وجزائهم بأنه حق ، أي ثابت كقوله : ﴿ وإن الدين لواقع ﴾ [الذاريات : 6] .

والإِشارة إلى ما حُكي عنهم من المقاولة .

(119/662)

وسميت المقاولة تخاصماً ، أي تجادلاً وإن لم تقع بينهم مجادلة ، فإن الطاغين لم يجيبوا الفوج على قوله : ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ [ص : 60] ، ولكن لمّا اشتمَلت المقاولة على ما هو أشد من الجدال وهو قول كل فريق للآخر ﴿ لا مرحباً بكم ﴾ كان الذم أشد من المخاصمة فأطلق عليه اسم التخاصم حقيقة .

وتقدم ذكر الخصام عند قوله تعالى : ﴿ هذان خصمان ﴾ في سورة [الحج : 19] .

وأضيف هذا التخاصم إلى أهل النار كلهم اعتباراً بغالب أهلها لأن غالب أهل النار أهل الضلالات الاعتقادية وهم لا يَعدون أن يكونوا دعاة للضلال أو أتباعاً للدعاة إليه فكلهم

يجري بينهم هذا التخاصم ، أما من كان في النار من العصاة فكثير منهم ليس عصيانه إلا تبعاً لهواه مع كونه على علم بأن ما يأتيه ضلالة لم يُسَوّله له أحد .

و﴿ أَهْلِ النَّارِ ﴾ هم الخالدون فيها ، كقولهم : أهل قرية كذا ، فإنه لا يشمل المغترب بينهم ، على أن وقت نزول هذه الآية لم يكن في مكة غير المسلمين الصالحين وغير المشركين ، فوصف أهل النار يومئذٍ لا يتحقق إلا في المشركين دون عصاة المسلمين .

وقوله : ﴿ تخاصُمُ أهلِ النارِ ﴾ إمّا خبرُ مبتدأ محذوف ، تقديره : هو تخاصم أهل النار ، والجملة استئناف لزيادة بيان مدلول اسم الإِشارة ، أو هو مرفوع على أنه خبر ثان عن ﴿ إنّ ، ﴾ أو على أنه بدل من ﴿ لَحَقٌّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(120/662)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) ﴾

لَشَرَّ مَرْجع ومُنْقَلَبٍ ؛ وهي جهنم يدخلونها فيبقون مُعَذَّبِين فيه ، وبِئْس المكانُ ذلك !

هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57)

"حميم" : هو الماء الحلو ، و "غسَّاق" هو عصارة أهل النار ، ويقال هو زمهرير جهنم .

وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (58)

أي فنون أخرى من مثل ذلك العذاب .

هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (59)

هؤلاء قومٌ يقتحمون النارَ معكم وهم أتابعكم ، ويقول الأتباع للمتبوعين : لا مرحباً بكم ؛ أنتم قدمتموه لنا بأمركم فوافقناكم ، ويقولون :

﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ .

فيقال لهم كُلُّكُم فيها ، ولن يفترَ العذابُ عنكم .

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62)

يقول الكفار عندما يدخلون النار : ما لنا لا نرى رجالاً كُنَّا نعدهم في الدنيا من الأشرار والمستضعفين . . . فَلَسْنَا نراهم ها هنا ؟ أهم ليسوا هنا أم زاغت عنهم أبصارُنا ؟ يقوله أبو جهل وأصحابُه يعنون بلالاً والمستضعفين ، فيُعَرَّفون بأنهم في الفردوس ، فتزداد حسراتُهم .

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64)

أي إن مخاصمة أهل النار في النار لحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 261.260 ﴾

(121/662)

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت قد جرت عادتهم عند التخويف أن يقولوا : عجل لنا هذا إن كنت صادقاً فينا ادعيت ، ومن المقطوع به أنه لا يقدر على ذلك إلا الإله فصاروا كأنهم نسبوه إلى أنه ادعى الإلهية ، قال تعالى منبهاً على ذلك آمراً له بالجواب : ﴿ قل ﴾ أي لمن يقول لك ذلك : ﴿ إنما أنا منذر ﴾ أي مخوف لمن عصى ، ولم أدّع أني إله ، ليطلب مني ذلك فإنه لا يقدر على مثله إلا الإله ، فهو قصر قلب للموصوف على الصفة ، وأفرد قاصراً للصفة في قوله :

﴿ وما ﴾ وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من إله ﴾ أي معبود بحق لكونه محيطاً بصفات الكمال .

ولما كان السياق للتوحيد الذي هو أصل الدين ، لفت القول عن مظهر العظمة إلى أعظم منه وأبين فقال : ﴿ إلا الله ﴾ وللإحاطة عبر بالاسم العلم الجامع لجميع الأسماء الحسنى ولو شاركه شيء لم يكن محيطاً وللتفرد قال مبرهناً على ذلك : ﴿ الواحد ﴾ أي بكل اعتبار فلا يمكن أن يكون له جزء أو يكون له شبيه محتاجاً مكافئاً ﴿ القهار ﴾ أي الذي يقهر غيره على ما يريد ، وهذا برهان على أنه الإله وحده وأن آلهتهم بعيدة عن استحقاق الإلهية لتعددها وتكافئها بالمشابهة واحتياجها .

ولما وصف نفسه سبحانه بذلك ، دل عليه بقوله : ﴿ رب السماوات ﴾ أي مبدعها وحافظها على علوها وسعتها وإحكامها بما لها من الزينة والمنافع ، وجمع لأن المقام للقدرة ، وإقامة الدليل على تعددها سهل ﴿ والأرض ﴾ على سعتها وضخامتها وكثافتها وما فيها من العجائب .

(122/662)

ولما كان القائل مخيراً كما قال ابن مالك في الكافية الشافية عند اختلاط العقلاء بغيرهم في إطلاق ما شاء من " مَن " التي أغلب إطلاقها على العقلاء و " ما " التي هي بعكس ذلك ، وكان ربما وقع في وهم أن تمكنه تعالى من العقلاء دون تمكنه من غيرهم لما لهم من الحيل التي يحترزون بها عن المحذور ، وينظرون بها في عواقب الأمور ، أشار إلى أن حكمه فيهم كحكمه في غيرهم من غير فرق بالتعبير عنهم ب " ما " التي أصلها وأغلب استعمالها لمن لا يعقل ، وسياق العظمة بالوحدانية وآثارها دال على دخولها في العبادة قطعاً فقال : ﴿ وما بينهما ﴾ أي الخافقين من الفضاء والهواء وغيرهما من العناصر والنبات والحيوانات العقلاء وغيرها ، ربي كل شيء من ذلك إيجاداً وإبقاء على ما يريد وإن كره ذلك المربوب ، فدل ذلك على قهره ، وتفرده في جميع أمره .

ولما كان السياق للإنذار ، كرر ما يدل على القهر فقال : ﴿ العزيز ﴾ أي الذي يعز الوصول إليه ويغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ، ولما ثبت أنه يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ، وكانت دلالة الوصفين العظيمين على الوعيد أظهر من إشعارها بالوعد ، كان موضع قولهم ، فما له لا يعجل بالهلاك لمن يخالفه فقال : ﴿ الغفار ﴾ أي المكرر ستره لما يشاء من الذنوب حلماً إلى وقت الماحي لها بالكلية بالنسبة إلى من يشاء من العباد كما فعل مع أكثر الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م حيث غفر لهم ما اقترفوه قبل الإسلام .

ولما ثبت بهذا وحدانيته وقدرته ولم يزعهم ذلك عن ضلالهم ، ولا ردهم عن عتوهم ومحالهم ، مع كونه موجباً لأن يقبل كل أحد عليه ولا يعدل أبداً عنه ، قال آمراً له بما ينبههم على عظيم خطئهم : ﴿ قل هو ﴾ أي هذا الأمر الذي تلوته عليكم من الأخبار عن الماضي والآتي من القيامة المشتملة على التخاصم المذكور وغيرها والأحكام والمواعظ ، فثبت بمضمونه الوحدانية ، وتحقق بإعجازه مع ثبوت الوحدانية وتمام القدرة وجميع صفات الكمال أنه كلام الله : ﴿ نبؤا عظيم ﴾ أي خبر يفوت الوصف في الجلال والعظم بدلالة العبارة والصفة لا يعرض عن مثله إلا غافل لا وعي له ولا شيء من رأى .

ولما كانوا يدعون أنهم أعظم الناس إقبالاً على الغرائب ، وتنقيباً عن الدقائق والجلائل من المناقب ، بكتهم بقوله واصفاً له : ﴿ أنتم عنه ﴾ أي خاصة لا عن غيره والحال أن غيره من المهملات ولما كان أكثرهم متهيئاً للإسلام والرجوع عن الكفران لم يقل : مدبرون ، ولا " يعرضون " بل قال : ﴿ معرضون ﴾ أي ثابت لكم الإعراض في هذا الحين ، وقد كان ينبغي لكم الإقبال عليه خاصة والإعراض عن كل ما عداه لأن في ذلك السعادة الكاملة ، ولو أقبلتم عليه بالتدبر لعلمتم قطعاً صدقي وأني ما أريد بكم إلا السعادة في الدنيا والآخرة ، فبادرتم الإقبال إليّ والقبول لما أقول .

ولما قصر نفسه الشريفة على الإنذار ، وكانوا ينازعون فيه وينسبونه إلى الكذب ، دل على صدقه وعلى عظيم هذا النبأ بقوله : ﴿ ما كان لي ﴾ وأعرق في النفي بالتأكيد في قوله : ﴿ من علم ﴾ أي من جهة أحد من الناس كما تعرفون ذلك من حالي له إحاطة ما ﴿ بالملإ ﴾ أي الفريق المتصف بالشرف ﴿ الأعلى ﴾ وهم الملائكة أهل السماوات العلى وآدم وإبليس ، وكأن مخاطبة الله لهم كانت بواسطة ملك كما هو أليق بالكبرياء والجلال ، فصح أن المقاولة بين الملأ ﴿ إذ ﴾ أي حين ، ولما أفرد وصف الملأ إيذاناً بأنهم في الاتفاق في علو رتبة الطاعة كأنهم شيء واحد ، جمع لئلا يظن حقيقة الوحدة فقال : ﴿ يختصمون ﴾ أي في شأن آدم عليه السلام ، أول خليفة في الأرض بل الخليفة المطلق ، لأن خلافه أولاده من خلافته ، وفي الكفارات الواقعة من بينه ، كما أنه ما كان لي من علم بأهل النار إذ يختصمون ، ولا بالخصم الذين دخلوا على داود عليه السلام الذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض إذ يختصمون ، وقد علمت ذلك علماً مطابقاً للحق بشهادة الكتب القديمة وأنتم تعلمون أني لم أخالط عالماً قط ، فهذا علم من أعلام النبوة واضح في أني لم أعلم ذلك إلا بالوحي لكوني رسول الله وعبر هنا بالمضارع – وإن كان قد وقع ومضى من أول

الدهر – تذكيراً بذلك الحال وإعلاماً بما هم فيه الآن من مثله في الدرجات ، كما سيأتي قريباً في الحديث القدسي ، وعبر في تخاصم أهل النار – وهو لم يأت – بالماضي تنبيهاً على أن وقوعه مما لا ريب فيه ، فكأنه وقع وفرغ منه لأنه قد فرغ من قضائه من لا يرد له قضاء ، لأنه الواحد فلا شريك له ولا منازع .

(125/662)

ولما كانوا ربما قالوا في تعنتهم : فلعله مثل ما أوحي إليك بعلم ما لم تكن تعلم ، يوحي إليك بالقدرة على ما لم تكن تقدر عليه ، فتعجل لنا الموت ثم البعث لنرى ما أخبرتنا به من التخاصم مصوراً ، لعلنا نصدقك فيما أتيت به ، قال مجيباً لهم قاصراً للوحي على قصره على النذارة وهي إبلاغ ما أنزل إليه ، لا تعجيل شيء مما توعدوا به : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ يوحى ﴾ أي في وقت من الأوقات ، وبناه للمفعول لأن ذلك كاف في تنبيههم على موضع الإشارة في أن دعواه إنما هي النبوة لا الإلهية ﴿ إليّ إلا ﴾ ولما كان الوحي قولاً قرأ أبو جعفر بكسر ﴿ إنما أنا نذير ﴾ أي قصري على النذارة لا أني أنجز ما يتوعد به الله ؛ فإنما مفعول يوحى القائم مقام الفاعل في القراءتين وإن اختلف التوجيهان فالتقدير على قراءة الجماعة بالفتح : إلا الإنذار أو إلا كوني نذيراً ، وعلى قراءة الكسر : إلا هذا القول وهو أني أقول لكم

كذا ﴿ مبين ﴾ أي لا أدع لبساً فيما أبلغه بوجه من الوجوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 400.402 ﴾

(126/662)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى في أول السورة أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما دعا الناس إلى أنه لا إله إلا الله واحد ، وإلى أنه رسول مبين من عند الله ، وإلى أن القول بالقيامة حق ، فأولئك الكفار أظهروا السفاهة وقالوا إنه ساحر كذاب واستهزؤا بقوله ، ثم إنه تعالى ذكر قصص الأنبياء لوجهين الأول : ليصير ذلك حاملاً لمحمد صلى الله عليه وسلم على التأسي بالأنبياء عليهم السلام في الصبر على سفاهة القوم والثاني : ليصير ذلك رادعاً للكفار على الإصرار على الكفر والسفاهة وداعياً إلى قبول الإيمان ، ولما تمم الله تعالى هذه البيانات عاد إلى تقرير المطالب المذكورة في أول السورة وهي تقدير التوحيد والنبوة والبعث ، فقال قل يا محمد إنما أنا منذر ولا بد من الإقرار بأنه ما من إله إلا الله الواحد القهار ، فإن الترتيب

الصحيح أن تذكر شبهات الخصوم أولاً ويجاب عنها ثم نذكر عقيبها الدلائل الدالة على صحة المطلوب ، فكذا ههنا أجاب الله تعالى عن شبهتهم ونبه على فساد كلماتهم ، ثم ذكر عقيبه ما يدل على صحة هذه المطالب ، لأن إزالة ما لا ينبغي مقدمة على إثبات ما ينبغي ، وغسل اللوح من النقوش الفاسدة مقدم على كتب النقوش الصحيحة فيه ، ومن نظر في هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من أول السورة إلى آخرها قد جاء على أحسن وجوه الترتيب والنظم .

(127/662)

أما قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ يعني أبلغ أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد ، وأحوال ثواب من أقربها ، وكما بدأ في أول السورة بأدلة التوحيد حيث حكى عنهم أنهم قالوا ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا ﴾ [ص : 5] فكذلك بدأ ههنا بتقرير التوحيد فقال : ﴿ وَمَا مِنْ إله إِلاَّ الله الواحد القهار ﴾ وفي هذه الكلمة إشارة إلى الدليل الدال على كونه منزهاً عن الشريك والنظير ، وبيانه أن الذي يجعل شريكاً له في الإلهية ، إما أن يكون موجوداً قادراً على الإطلاق على التصرف في العالم أو لا يكون كذلك ، بل يكون جماداً عاجزاً والأول : باطل لأنه لو كان شريكه قادراً على الإطلاق لم يكن هو قادراً قاهراً ، لأن

بتقدير أن يريد هو شيئاً ويريد شريكه ضد ذلك الشيء لم يكن حصول أحد الأمرين أولى من الآخر ، فيفضي إلى اندفاع كل واحد منهما بالآخر ، وحينئذ لا يكون قادراً قاهراً بل كان عاجزاً ضعيفاً ، والعاجز لا يصلح للإلهية ، فقوله : ﴿ إلا aالله الواحد القهار ﴾ إشارة إلى أن كونه قهاراً يدل على كونه واحداً وأما الثاني : وهو أن يقال إن الذي جعل شريكاً له لا يقدر على شيء ألبتة مثل هذه الأوثان ، فهذا أيضاً فاسد لأن صريح العقل يحكم بأن عبادة الإله القادر القاهر أولى من عبادة الجماد الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً فقوله : ﴿ وَمَا مِنْ إله إِلاَّ الله الواحد القهار ﴾ يدل على هذه الدلائل ، واعلم أن كونه سبحانه قهاراً مشعر بالترهيب والتخويف ، فلما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب فقال : ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا العزيز الغفار ﴾ فكونه رباً مشعر بالتربية والإحسان والكرم والجود ، وكونه غفاراً مشعر بالترغيب ، وهذا الموجود هو الذي تجب عبادته ، لأنه هو الذي يخشى عقابه ويرجى فضله وثوابه .

(128/662)

ونذكر طريقة أخرى في تفسير هذه الآيات ، فنقول إنه تعالى ذكر من صفاته في هذا الموضع خمسة الواحد والقهار والرب والعزيز والغفار ، أما كونه واحداً فهو الذي وقع الخلاف فيه

بين أهل الحق وبين المشركين واستدل تعالى على كونه واحداً بكونه قهاراً وقد بينا وجه هذه الدلالة إلا أن كونه قهاراً وإن دل على إثبات الوحدانية إلا أنه يوجب الخوف الشديد فأردفه تعالى بذكر صفات ثلاثة دالة على الرحمة والفضل والكرم أولها : كونه رباً للسموات والأرض وما بينهما وهذا إنما تتم معرفته بالنظر في آثار حكمة الله تعالى في خلق السموات والأرض والعناصر الأربعة والمواليد الثلاثة ، وذلك بحر لا ساحل له فإذا تأملت في آثار حكمته ورحمته في خلق هذه الأشياء عرفت حينئذ تربيته للكل وذلك يفيد الرجاء العظيم وثانيها : كونه عزيزاً والفائدة في ذكره أن لقائل أن يقول هب أنه رب ومربي وكريم إلا أنه غير قادر على كل المقدورات ، فأجاب عنه بأنه عزيز أي قادر على كل الممكنات فهو يغلب الكل ولا يغلبه شيء وثالثها : كونه غفاراً والفائدة في ذكره أن لقائل أن يقول هب أنه رب ومحسن ولكنه يكون كذلك في حق المطيعين المخلصين في العبادة ، فأجاب عنه بأن من بقي على الكفر سبعين سنة ثم تاب فإني أزيل اسمه عن ديوان المذنبين وأستر عليه بفضلي ورحمتي جميع ذنوبه وأوصله إلى درجات الأبرار ، واعلم أنه تعالى لما بين ذلك قال : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ وهذا النبأ العظيم يحتمل وجوهاً فيمكن أن يكون المراد أن القول بأن الإله واحد نبأ عظيم ، ويمكن أن يقال المراد أن القول بالنبوة نبأ عظيم ، ويمكن أن يقال المراد أن القول بإثبات الحشر والنشر والقيامة نبأ عظيم ، وذلك لأن هذه

المطالب الثلاثة كانت مذكورة في أول السورة ولأجلها أنجز الكلام إلى كل ما سبق ذكره ، ويمكن أيضاً أن يكون المراد كون القرآن معجزاً لأن هذا أيضاً قد تقدم ذكره في قوله :

(129/662)

﴿ كتاب أنزلناه إِلَيْكَ مبارك لّيَدَّبَّرُواْ ءاياته ﴾ [ص : 29] وهؤلاء الأقوام أعرضوا عنه على ما قال ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ واعلم أن قوله : ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ ترغيب في النظر والاستدلال ومنع من التقليد ، لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق يفوز بأعظم أبواب السعادة ، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل وقع في أعظم أبواب الشقاوة فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية ، وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتي فيها بالاحتياط التام وأن لا يكتفي بالمساهلة والمسامحة .

(130/662)

أما قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فاعلم أنه تعالى رغب المكلفين في الاحتياط في هذه المسائل الأربعة ، وبالغ في ذلك الترغيب من وجوه : الأول : أن كل واحد منها نبأ عظيم ، والنبأ العظيم يجب الاحتياط فيه الثاني : أن الملأ الأعلى اختصموا وأحسن ما قيل فيه أنه تعالى لما قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدماء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 30] والمعنى أنهم قالوا أي فائدة في خلق البشر مع أنهم يشتغلون بقضاء الشهوة وهو المراد من قوله : ﴿ مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ وبإمضاء الغضب وهو المراد من قوله : ﴿ وَيَسْفِكُ الدماء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ فقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وتقرير هذا الجواب ، والله أعلم ، أن يقال إن المخلوقات بحسب القسمة العقلية على أقسام أربعة : أحدها : الذين حصل لهم العقل والحكمة ، ولم تحصل لهم النفس والشهوة وهم الملائكة فقط ثانيها : الذين حصل لهم النفس والشهوة ، ولم يحصل لهم العلم والحكمة وهي البهائم وثالثها : الأشياء الخالية عن القسمين ، وهي الجمادات وبقي في التقسيم قسم رابع : وهو الذي حصل فيه الأمران وهو الإنسان والمقصود من تخليق الإنسان ليس هو الجهل والتقليد والتكبر والتمرد فإن كل ذلك صفات البهائم والسباع بل المقصود من تخليقه ظهور العلم والحكمة والطاعة ، فقوله ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني أن هذا النوع من المخلوقات ، وإن حصلت فيه الشهوة الداعية إلى الفساد والغضب الحامل

له على سفك الدماء ، لكن حصل فيه العقل الذي يدعوه إلى المعرفة والمحبة والطاعة والخدمة ، وإذا ثبت أنه تعالى إنما أجاب الملائكة بهذا الجواب وجب على الإنسان أن يسعى في تحصيل هذه الصفات

(131/662)

، وأن يجتهد في اكتسابها ، وأن يحترز عن طريقة الجهل والتقليد والإصرار والتكبر ، وإذا كان كذلك فكل من وقف على كيفية هذه الواقعة صار وقوفه عليها داعياً له إلى الجد والاجتهاد في اكتساب المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة زاجراً له عن أضدادها ومقابلاتها ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذا الكلام في هذا المقام .

فإن قيل الملائكة لا يجوز أن يقال إنهم اختصموا بسبب قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدماء ﴾ [البقرة : 30] فإن المخاصمة مع الله كفر ، قلنا لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب ، وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز ، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه ، ولما أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم لم يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز أمره أن يقول : ﴿ إِن يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني أنا ما عرفت هذه المخاصمة إلا بالوحي ، وإنما أوحى الله إليّ هذه القصة

لأنذركم بها ولتصير هذه القصة حاملة لكم على الإخلاص في الطاعة والاحتراز عن الجهل والتقليد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 195 . 197 ﴾

(132/662)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَذَلِكَ أَنَّ ﴿ قُرَيْشًا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى ؟ قَالَ : سَأَلَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى ؟ قُلْت : فِي الْكَفَّارَاتِ وَالدَّرَجَاتِ .

قَالَ : وَمَا الْكَفَّارَاتُ ؟ قُلْت : الْمَشْيُ عَلَى الْأَقْدَامِ إلَى الْجَمَاعَاتِ ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ ، وَالتَّعْقِيبُ فِي الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ قَالَ : وَمَا الدَّرَجَاتُ ؟ قُلْت : إفْشَاءُ السَّلَامِ ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ وَقِيلَ : خُصُومَتُهُمْ قَوْلُهُمْ : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِك وَنُقَدِّسُ لَك قَالَ إنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴾ هَذَا حَدِيثُ الْحَسَنِ ؛ وَهُوَ حَسَنٌ .

وَمِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ رَأَيْت رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ ، فَوَجَدْت بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ ، فَعَلِمْت مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فَقُلْت : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ : فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى ؟ قُلْت : أَيْ رَبِّ فِي الْكَفَّارَاتِ .

(133/662)

قَالَ : وَمَا الْكَفَّارَاتُ ؟ قُلْت : الْمَشْيُ عَلَى الْأَقْدَامِ إلَى الْجَمَاعَاتِ ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكْرُوهَاتِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ إلَى الصَّلَاةِ ، فَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهِنَّ عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَاتَ بِخَيْرٍ ، وَكَانَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ﴾ .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ صَحِيحًا عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَابِسٍ الْحَضْرَمِيِّ عَنْ مَالِكِ بْنِ يَخَامِرَ السَّكْسَكِيِّ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، قَالَ : ﴿

احْتَبَسَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ غَدَاةٍ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى كِدْنَا نَتَرَاءَى عَيْنَ الشَّمْسِ ، فَخَرَجَ سَرِيعًا فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ لَنَا : عَلَى مَصَافِّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَيْنَا ثُمَّ قَالَ : أَمَا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمْ الْغَدَاةَ : إِنِّي قُمْت فِي اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْت وَصَلَّيْت مَا قُدِّرَ لِي ، فَنَعَسْت فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَثْقَلْت ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ .

قُلْت : لَبَّيْكَ .

قَالَ : فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى ؟ قُلْت : مَا أَدْرِي ثَلَاثًا .

قَالَ : فَرَأَيْته وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ ، فَوَجَدْت بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ ، وَعَرَفْت .

ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ .

قُلْت : لَبَّيْكَ ، قَالَ : فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى ؟ قُلْت : فِي الْكَفَّارَاتِ .

(134/662)

قَالَ : مَا هُنَّ ؟ قُلْت مَشْيُ الْأَقْدَامِ إلَى الْحَسَنَاتِ ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عِنْدَ الْكَرِيهَاتِ .

قَالَ : وَمَا الْحَسَنَاتُ ؟ قُلْت : إطْعَامُ الطَّعَامِ ، وَلِينُ الْكَلَامِ ، وَالصَّلَاةُ وَالنَّاسُ نِيَامٌ .

قَالَ : سَلْ .

قُلْت : اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ .

وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي ، وَإِذَا أَرَدْت فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ ، أَسْأَلُك حُبَّك وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّك ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إلَى حُبِّك .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : لَا خِلَافَ أَنَّ الْمَشْيَ فِيمَا قَرُبَ مِنْ الطَّاعَاتِ أَفْضَلُ مِنْ الرُّكُوبِ ، فَأَمَّا كُلُّ مَا يُبْعِدُ فَيَكُونُ الْمَرْءُ بِكَمَالِهِ أَقَلَّ اجْتِهَادًا فِي الطَّاعَةِ فَالرُّكُوبُ أَفْضَلُ فِيهِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الرَّاكِبَ فِي الْجِهَادِ أَفْضَلُ مِنْ الرَّاجِلِ لِأَجْلِ غَنَائِهِ ؛ وَهَذَا فَرْعُ هَذَا الْأَصْلِ ، إذْ الْعَمَلُ مَا كَانَ أَخْلَصَ وَأَبَرَّ كَانَ الْوُصُولُ إلَيْهِ بِالرَّاحَةِ أَفْضَلَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : لَمْ يَخْتَلِفْ الْمَلَأُ الْأَعْلَى فِي الْأَصْلِ ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّةِ الْفَضِيلَةِ وَكَمِّيَّتِهَا فَيَجْتَهِدُونَ وَيَقُولُونَ : إنَّهُ أَفْضَلُ ، كَمَا لَمْ يَخْتَلِفُوا وَلَا أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ فِي الْأَرْضِ قَوْمٌ يَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ؛ وَإِنَّمَا طَلَبُوا وَجْهَ الْحِكْمَةِ فَغُيِّبَتْ عَنْهُمْ حِكْمَتُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(135/662)

وقال ابن عطية في الآيات السابقة :

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) ﴾

التقدير : الأمر هذا ، ويحتمل أن يكون التقدير : هذا واقع ونحوه . والطاغي : المفرط في الشر ، مأخوذ من طغا يطغى ، والطغيان هنا في الكفر . و" المآب " : المرجع ، و﴿ جهنم ﴾ بدل من قولهم : ﴿ لشر ﴾ . و﴿ يصلونها ﴾ معناه : يباشرون حرها . و﴿ المهاد ﴾ ما يفترشه الإنسان ويتصرف فيه .

(136/662)

وقوله : ﴿ هذا فليذوقوه ﴾ يحتمل أن يكون ﴿ هذا ﴾ ابتداء ، والخبر ﴿ حميم ﴾ ويحتمل أن يكون التقدير : الأمر هذا فليذوقوه ، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بفعل يدل عليه ﴿ فليذوقوه ﴾ و﴿ حميم ﴾ على هذا خبر ابتداء مضمر . قال ابن زيد : الحميم ، دموعهم تجتمع في حياض فيسقونها وقرأ جمهور الناس : " وغساق " بتخفيف السين ، وهو اسم بمعنى السائل ، يروى عن قتادة أنه ما يسيل من صديد أهل النار . ويروى عن السدي أنه ما يسيل من عيونهم . ويروى عن كعب الأحبار أنه ما يسيل من حمة عقارب النار ، وهي يقال مجتمعة عندهم . وقال الضحاك : هو أشد الأشياء برداً . وقال عبد الله

بن بريدة : هو أنتن الأشياء ، ورواه أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم : " وغسّاق " بتشديد السين ، بمعنى سيال وهي قراءة قتادة وابن أبي إسحاق وابن وثاب وطلحة ، والمعنى فيه على ما قدمناه من الاختلاف غير أنها قراءة تضعف ، لأن غساقاً إما أن يكون صفة فيجيء في الآية حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، وذلك غير مستحسن هنا ، وأما أن يكون اسماً ، فالأسماء على هذا الوزن قليلة في كلام العرب كالفياد ونحوه وقرأ جمهور الناس : " وآخر " بالإفراد ، وهو رفع بالابتداء ، واختلف في تقديره خبره ، فقالت طائفة تقديره : ولهم عذاب آخر . وقالت طائفة : خبره : ﴿ أزواج ﴾ لأن قوله : ﴿ أزواج ﴾ ابتداء و ﴿ من شكله ﴾ خبره ، والجملة خبر " آخر " . وقالت طائفة : خبره : ﴿ أزواج ﴾ ، و ﴿ من شكله ﴾ في موضع الصفة . ومعنى ﴿ من شكله ﴾ : من مثله وضربه ، وجاز على هذا القول أن يخبر الجمع الذي هو أزواج عن الواحد من حيث ذلك الواحد درجات ورتب من العذاب وقوى وأقل منه . وأيضاً فمن جهة أخرى على أن يسمى كل جزء من ذلك الآخر باسم الكل ، قالوا : عرفات لعرفة : وشابت مفارقه فجعلوا كل جزء من المفرق مفرقاً ، وكما قالوا : جمل ذو عثانين ونحو هذا ، ألا ترى أن جماعة من المفسرين قالوا إن

هذا الآخر هو الزمهرير ، فكأنهم جعلوا كل جزء منه زمهريراً .

وقرأ أبو عمرو وحده : " وأخر " على الجمع ، وهي قراءة الحسن ومجاهد والجحدري وابن جبير وعيسى ، وهو رفع بالابتداء وخبره ﴿ أزواج ﴾ ، و﴿ من شكله ﴾ في موضع الصفة ، ورجح أبو عبيد هذه القراءة وأبو حاتم بكون الصفة جمعاً ، ولم ينصرف " أخر " لأنه معدول عن الألف واللام صفة ، وذلك أن حق أفعل وجمعه أن لا يستعمل إلا بالألف واللام ، فلما استعملت " أخر " دون الألف واللام كان ذلك عدلاً لها ، وجاز في " أخر " أن يوصف بها النكرة كقوله تعالى :

﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ [البقرة : 184 - 185] بخلاف جمع ما عدل عن الألف واللام ، كسحر ونحوه في أنه لا يجوز أن يوصف به النكرة ، لأن هذا العدل في " أخر " اعتد به في منع الصرف ولم يعتد به في الامتناع من صفة النكرة كما يعتدون بالشيء في حكم دون حكم ، نحو اللام في قولهم : لا أبا لك ، لأن اللام المتصلة بالكاف اعتد بها فاصلة للإضافة ، ولذلك جاز دخول لا ، ولم يعتد بها في أن أعرب أبا بالحروف وشأنه إذا انفصل ولم يكن مضافاً أن يعرب بالحركات فجاءت اللام ملغاة الحكم من حيث أعرب بالحرف ، كأنه مضاف وهي معتد بها فاصلة في أن جوزت دخول لا .

وقرأ مجاهد : " من شِكله " بكسر الشين . و﴿ أزواج ﴾ معناه : أنواع ، والمعنى لهم

حميم وغساق وأغذية أخر من ضرب ما ذكره ونحوه أنواع كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ هذا فوج ﴾ هو ما يقال لأهل النار إذا سيق عامة الكفار وأتباعهم لأن رؤساءهم يدخلون النار أولاً ، والأظهر أن قائل ذلك لهم ملائكة العذاب ، وهو الذي حكاه الثعلبي وغيره ، ويحتمل أن يكون ذلك من قول بعضهم لبعض ، فيقول البعض الآخر : ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ أي لا سعة مكان ولا خير يلقونه . والفوج : الفريق من الناس .

(138/662)

قوله تعالى : ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ حكاية لقول الأتباع حين سمعوا قول الرؤساء : ﴿ أنتم قدمتموه ﴾ معناه بإغوائكم ، أسلفتم لنا ما أوجب هذا ، فكأنكم فعلتم بنا هذا .

وقوله : ﴿ قالوا ربنا ﴾ حكاية لقول الأتباع أيضاً دعوا على رؤسائهم بأن يكون عذابهم مضاعفاً .

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62)

الضمير في : ﴿ قالوا ﴾ لأشراف الكفار ورؤسائهم ، أخبر الله عنهم أنهم يتذكرون إذا دخلوا النار لقوم من مستضعفي المؤمنين فيقولون هذه المقالة ، وهذا مطرد في كل أمة

جاءها رسول . وروي أن القائلين من كفار عصر النبي عليه السلام هم أبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأهل القليب ومن جرى مجراهم ، قاله مجاهد وغيره ، والمعنى : كنا نعدهم في الدنيا أشراراً لا خلاق لهم ، وأمال الراء ﴿ من الأشرار ﴾ : أبو عمرو وابن عامر والكسائي ، وفتحها ابن كثير وعاصم ، وأشم نافع وحمزة .

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي : ﴿ أتخذناهم سخرياً ﴾ بألف الاستفهام ، ومعناها : تقرير أنفسهم على هذا على جهة التوبيخ لها والأسف ، أي أتخذناهم سخرياً ولم يكونوا كذلك ، واستبعد معنى هذه القراءة أبو علي . وقرأ نافع وحمزة والكسائي : " سُخريا " بضم السين ، وهي قراءة الأعرج وشيبة وأبي جعفر وابن مسعود وأصحابه ومجاهد والضحاك ، ومعناها : من السخرة والاستخدام . وقرأ الباقون : " سِخرياً " بكسر السين وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وعيسى وابن محيصن ومعناها المشهور من السخر الذي هو الهزء ، ومنه قول الشاعر [عامر بن الحارث] : [البسيط]

إني أتاني لسان لا أسر بها . . . من علو لا كذب فيها ولا سخر

وقالت فرقة يكون كسر السين من التسخير .

(139/662)

و ﴿ أم ﴾ في قولهم : ﴿ أم زاغت ﴾ معادلة ل ﴿ ما ﴾ في قولهم : ﴿ ما لنا لا نرى ﴾ وذلك أنها قد تعادل ﴿ ما ﴾ ، وتعادل من ، وأنكر بعض النحويين هذا ، وقال : إنها لا تعادل إلا الألف فقط . والتقدير في هذه الآية : أمفقودون هم أم زاغت ؟ ومعنى هذا الكلام : أليسوا معنا أم هم معنا ؟ ولكن أبصرنا تميل عنهم فلا تراهم ، والزيغ : الميل .

ثم أخبر الله تعالى نبيه بقوله : ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ و : ﴿ تخاصم ﴾ بدل من قوله : ﴿ لحق ﴾ .

وقرأ ابن أبي عبلة : " تخاصمَ " بفتح الميم . وقرأ ابن محيصن : " تخاصمٌ " بالتنوين " أهلُ النار " برفع اللام .

ثم أمر نبيه أن يتجرد للكفار من جميع الأغراض ، إلا أنه منذر لهم ، وهذا توعد بليغ محرك للنفوس ، وباقي الآية بين .

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67)

الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ إلى التوحيد والمعاد ، فهي إلى القرآن وجميع ما تضمن ، وعظمه أن التصديق به نجاة ، والتكذيب به هلكة . وحكى الطبري : أن شريحاً اختصم إليه أعرابي فشهد عليه ، فأراد شريح أن ينفذ الحكم ، فقال له الأعرابي : أتحكم بالنبأ ؟ فقال شريح : نعم ، إن الله يقول : ﴿ قل هو نبأ ﴾ ، وقرأ الآية حكم عليه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا الجواب من شريح إنما هو بحسب لفظ الأعرابي ولم يحرر معه

الكلام ، وإنما قصد إلى ما يقطعه به ، لأن الأعرابي لم يفرق بين الشهاد والنبأ .

والنبأ في كلام العرب بمعنى : الخبر ، ووبخهم بقوله : ﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ ، ثم قال : ﴿ ما كان لي من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون ﴾ وهذا احتجاج لصحة أمر محمد صلى الله عليه وسلم كأنه يقول : هذا أمر خطر وأنتم تعرضون عنه مع صحته ، ودليل صحته أني أخبركم فيه بغيوب لم تأت إلا من عند الله ، فإني لم يكن لي علم بالملأ الأعلى ، أراد به الملائكة . والضمير في : ﴿ يختصمون ﴾ عند جمهور المفسرين هو للملائكة .

(140/662)

واختلف الناس في الشيء الذي هو اختصامهم فيه ، فقالت : فرقة اختصامهم في أمر آدم وذريته في جعلهم في الأرض ، ويدل على ذلك ما يأتي من الآيات ، فقول الملائكة : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : 30] هو الاختصام ، وقالت فرقة : بل اختصامهم في الكفارات وغفر الذنوب ونحوه ، فإن العبد إذا فعل حسنة اختلف الملائكة في قدر ثوابه في ذلك حتى يقضي الله بما شاء ، وورد في هذا حديث فسره ابن فورك ، لأنه يتضمن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ربه عز وجل في نومه : فيم يختصمون ؟ فقلت لا أدري ، فقال في الكفارات ، وهي إسباغ الوضوء في السبرات ونقل الخطى إلى الجماعات الحديث

بطوله قال : فوضع الله يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي .

قال القاضي أبو محمد : فتفسير هذا الحديث أن اليد هي نعمة العلم .

وقوله : بردها ، أي السرور بها والثلج ، كما تقول العرب في الأمر السار : يا برده على الكبد ونحو هذا ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " الصلاة بالليل هي الغنيمة الباردة " أي السهلة التي يسر بها الإنسان . وقالت فرقة : المراد بقوله : ﴿ بالملإ الأعلى ﴾ الملائكة .

وقوله : ﴿ إذ يختصمون ﴾ مقطوع منه معناه : إذ تختصم العرب الكافر في الملإ فيقول بعضها هي بنات الله ، ويقول بعضها : هي آلهة تعبد ، وغير ذلك من أقوالهم ، وقالت فرقة : أراد ب " الملأ الأعلى " قريشاً . وهذا قول ضعيف لا يتقوى من جهة .

وقرأ جمهور الناس : " ألا أنما " بفتح الألف ، كأنه يقول : ألا إنذار .

وقرأ أبو جعفر " إلا أنما أنا " على الحكاية ، كأنه قيل له : أنت نذير مبين ، فحكى هذا المعنى ، وهذا كما يقول إنسان : أنا عالم ، فيقال له : قلت إنك عالم ، فيحكي المعنى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(141/662)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ﴾

أي مخوف عقاب الله لمن عصاه وقد تقدّم .

﴿ وَمَا مِنْ إله ﴾ أي معبود ﴿ إِلاَّ الله الواحد القهار ﴾ الذي لا شريك له ﴿ رَبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا العزيز الغفار ﴾ بالرفع على النعت وإن نصبت الأول نصبته .

ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح .

"وَالْعَزِيزُ" معناه المنيع الذي لا مثل له .

"الغَفَّارُ" الستار لذنوب خلقه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ أي وقل لهم يا محمد : "هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ" أي ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر فلا ينبغي أن يُستخَفّ به .

قال معناه قتادة .

نظيره قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإ العظيم ﴾ [النبأ : 21] .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : يعني القرآن الذي أنبأكم به خبر جليل .

وقيل : عظيم المنفعة ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بالملإ الأعلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة

في قول ابن عباس والسّدي اختصموا في أمر آدم حين خلق ف ﴿ قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة : 30] وقال إبليس : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ وفي هذا بيان أن محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر عن قصة آدم وغيره ، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهي ؛ فقد قامت المعجزة على صدقه ، فما بالهم أعرضوا عن تدبر القرآن ليعرفوا صدقه ؛ ولهذا وصل قوله بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ .

(142/662)

وقول ثان رواه أبو الأشهب عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سألني ربي فقال يا محمد فِيم اختصم الملأ الأعلى قلت في الكفارات والدرجات قال وما الكفارات قلت المشي على الأقدام إلى الجماعات وإسباغ الوضوء في السَّبْرَات والتعقيب في المساجد بانتظار الصلاة بعد الصلاة قال وما الدرجات قلت إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام " خرجه الترمذي بمعناه عن ابن عباس ، وقال فيه حديث غريب .

وعن معاذ بن جبل أيضاً وقال حديث حسن صحيح .

وقد كتبناه بكماله في كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، وأوضحنا إشكاله

والحمد لله .

وقد مضى في "يس" القول في المشي إلى المساجد ، وأن الخُطَا تكفّر السيئات ، وترفع الدرجات .

وقيل : الملأ الأعلى الملائكة والضمير في "يَخْتَصِمُونَ" لفرقتين .

يعني قول من قال منهم الملائكة بنات الله ، (ومن قال آلهة تعبد) .

وقيل : الملأ الأعلى ها هنا قريش ؛ يعني اختصامهم فيما بينهم سِرًّا ، فأطلع الله نبيه على ذلك .

﴿ إِن يوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي إن يوحى إليّ إلا الإنذار .

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع "إِلاَّ إِنَّمَا" بكسر الهمزة ؛ لأن الوحي قول ، كأنه قال : يقال لي إنما أنت نذير مبين ، ومن فتحها جعلها في موضع رفع ؛ لأنها اسم ما لم يسمّ فاعله .

قال الفراء : كأنك قلت ما يوحى إليّ إلا الإنذار ، النحاس : ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى إلا لأنما . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(143/662)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) ﴾

لما أمره تعالى بالصبر على سفاهة قومه ، وذكر جملة من الأنبياء وأحوالهم ، ذكر ما يؤول إليه حال المؤمنين والكافرين من الجزاء ، ومقر كل واحد من الفريقين .

ولما كان ما يذكره نوعاً من أنواع التنزيل ، قال : ﴿ هذا ذكر ﴾ ، كأنه فصل بين ما قبله وما بعده .

ألا ترى أنه لما ذكر أهل الجنة ، وأعقبه بذكر أهل النار قال : ﴿ هذا وإن للطاغين ﴾ ؟

وقال ابن عباس : هذا ذكر من مضى من الأنبياء .

وقيل : ﴿ هذا ذكر ﴾ : أي شرف تذكرون به أبداً .

وقرأ الجمهور : ﴿ جنات ﴾ بالنصب ، وهو بدل ، فإن كان عدن علماً ، فبدل معرفة من نكرة ؛ وإن كان نكرة ، فبدل نكرة من نكر .

وقال الزمخشري : ﴿ جنات عدن ﴾ معرفة لقوله : ﴿ جنات عدن التي وعد الرحمن ﴾ وانتصابها على أنها عطف بيان بحسن مآب ، ومفتحة حال ، والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل .

وفي مفتحة ضمير الجنات ، والأبواب بدل من الضمير تقديره : مفتحة هي الأبواب لقولهم : ضرب زيد اليد والرجل ، وهو من بدل الاشتمال . انتهى .

ولا يتعين أن يكون جنات عدن معرفة بالدليل الذي استدل به وهو قوله : ﴿ جنات عدن التي ﴾ ، لأنه اعتقد أن التي صفة لجنات عدن ، ولا يتعين ما ذكره ، إذ يجوز أن تكون التي بدلاً من جنات عدن .

ألا ترى أن الذي والتي وجموعهما تستعمل استعمال الأسماء ، فتلي العوامل ، ولا يلزم أن تكون صفة ؟ وأما انتصابها على أنها عطف بيان فلا يجوز ، لأن النحويين في ذلك على مذهبين : أحدهما : أن ذلك لا يكون إلا في المعارف ، فلا يكون عطف البيان إلا تابعاً لمعرفة ، وهو مذهب البصريين .

والثاني : أنه يجوز أن يكون في النكرات ، فيكون عطف البيان تابعاً لنكرة ، كما تكون المعرفة فيه تابعة لمعرفة ، وهذا مذهب الكوفيين ، وتبعهم الفارسي .

وأما تخالفهما في التنكير والتعريف فلم يذهب إليه أحد سوى هذا المصنف .

(144/662)

وقد أجاز ذلك في قوله : ﴿ مقام إبراهيم ﴾ فأعربه عطف بيان تابعاً لنكرة ، وهو ﴿ آيات بينات ﴾ و ﴿ مقام إبراهيم ﴾ معرفة ، وقد رددنا عليه ذلك في موضعه في آل عمران .

وأما قوله : وفي مفتحة ضمير الجنات ، فجمهور النحويين أعربوا الأبواب مفعولاً لم يسم فاعله .

وجاء أبو علي فقال : إذا كان كذلك ، لم يكن في ذلك ضمير يعود على جنات عدن .

من الحالية أن أعرب مفتحة حالاً ، أو من النعت أن أعرب نعتاً لجنات عدن ، فقال : في مفتحة ضمير يعود على الجنات حتى ترتبط الحال بصاحبها ، أو النعت بمنعوته ، والأبواب بدل .

وقال : من أعرب الأبواب مفعولاً ، لم يسم فاعله العائد على الجنات محذوف تقديره : الأبواب منها .

وألزم أبو علي البدل في مثل هذا لا بد فيه من الضمير ، إما ملفوظاً به ، أو مقدراً .

وإذا كان الكلام محتاجاً إلى تقديره واحد ، كان أولى مما يحتاج إلى تقديرين .

وأما الكوفيون ، فالرابط عندهم هو أل لمقامه مقام الضمير ، فكأنه قال : مفتحة لهم أبوابها .

وأما قوله : وهو من بدل الاشتمال ، فإن عنى بقوله : وهو قوله اليد والرجل ، فهو وهم ، وإنما هو بدل بعض من كل .

وإن عنى الأبواب ، فقد يصح ، لأن أبواب الجنات ليست بعضاً من الجنات .

وأما تشبيهه ما قدره من قوله : مفتحة هي الأبواب ، بقولهم : ضرب زيد اليد والرجل ،

فوجهه أن الأبواب بدل من ذلك الضمير المستكن ، كما أن اليد والرجل بدل من الظاهر الذي هو زيد .

وقال أبو إسحاق : وتبعه ابن عطية : مفتحة نعت لجنات عدن .

وقال الحوفي : مفتحة حال ، والعامل فيها محذوف يدل عليه المعنى ، تقديره : يدخلونها .

وقرأ زيد بن علي ، وعبد الله بن رفيع ، وأبو حيوة : جنات عدن مفتحة ، برفع التاءين : مبتدأ وخبر ، أو كل منهما خبر مبتدأ محذوف ، أي هو جنات عدن هي مفتحة .

(145/662)

والاتكاء : من هيئات أهل السعادة يدعون فيها ، يدل على أن عندهم من يستخدمونه فيما يستدعون ، كقوله : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ ولما كانت الفاكهة يتنوع وصفها بالكثرة ، وكثرتها باختلاف أنواعها ، وكثرة كل نوع منها ؛ ولما كان الشراب نوعاً واحداً وهو الخمر ، أفرد : ﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ .

قال قتادة : معناه على أزواجهن ، ﴿ أتراب ﴾ : أي أمثال على سنّ واحدة ، وأصله في بني آدم لكونهم مس أجسادهم التراب في وقت واحد ، والأقران أثبت في التحاب .

والظاهر أن هذا الوصف هو بينهن ، وقيل : بين أزواجهن ، أسنانهن كأسنانهم .

وقال ابن عباس : يريد الآدميات .

وقال صاحب الغنيان : حور .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : وهذا ما يوعدون ، بياء الغيبة ، إذ قبله وعندهم ؛ وباقي السبعة : بتاء الخطاب على الالتفات ، والمعنى : هذا ما وقع به الوعد ليوم الجزاء .

﴿ إن هذا ﴾ : أي ما ذكر للمتقين مما تقدم ، ﴿ لرزقنا ﴾ دائماً : أي لا نفاد له .

﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾ ، قال الزجاج : أي الأمر هذا ، وقال أبو علي : هذا للمؤمنين ، وقال أبو البقاء : مبتدأ محذوف الخبر ، أو خبر محذوف المبتدأ ، والطاغون هنا : الكفار ؛ وقال الجبائي : أصحاب الكبائر كفاراً كانوا أو لم يكونوا .

وقال ابن عباس ، المعنى : الذين طغوا عليّ وكذبوا رسلي لهم شر مآب : أي مرجع ومصير .

﴿ فبئس المهاد ﴾ : أي هي ﴿ هذا ﴾ في موضع رفع مبتدأ خبره ﴿ جهنم ﴾ ، ﴿ وغساق ﴾ ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي العذاب هذا ، وحميم خبر مبتدأ ، أو في موضع نصب على الاشتغال ، أي ليذوقوا .

﴿ هذا فليذوقوه حميم ﴾ : خبر مبتدا ، أي هو حميم ، أو مبتدأ محذوف الخبر ، أي منه حميم ومنه غساق ، كما قال الشاعر :

حتى إذا ما أضاء الصبح في غلس . . .

وغودر البقل ملوى ومحصود

أي : منه ملوى ومنه محصود ، وهذه الأعاريب مقولة منقولة .

(146/662)

وقيل : هذا مبتدأ ، وفليذوقوه الخبر ، وهذا على مذهب الأخفش في إجازته : زيد فاضربه ، مستدلاً بقول الشاعر :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم . . .

والغساق ، عن ابن عباس : الزمهرير ؛ وعنه أيضاً ، وعن عطاء ، وقتادة ، وابن زيد : ما يجري من صديد أهل النار ؛ وعن كعب : عين في جهنم تسيل إليها حمة كل ذي حمة من حية أو عقرب أو غيرهما ، يغمس فيها فيتساقط الجلد واللحم عن العظم ؛ وعن السدي : ما يسيل من دموعهم ؛ وعن ابن عمر : القيح يسيل منهم فيسقونه .

وقرأ ابن أبي إسحاق ، وقتادة ، وابن وثاب ، وطلحة ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص ، والفضل ، وابن سعدان ، وهارون عن أبي عمرو : بتشديد السين .

فإن كان صفة ، فيكون مما حذف موصوفها ، وإن كان اسماً ، ففعال قليل في الأسماء ، جاء منه : الكلاء ، والجبان ، والفناد ، والعقار ، والخطار .

وقرأ باقي السبعة : بتخفيف السين .

وقرأ الجمهور : ﴿ وآخر ﴾ على الإفراد ، فقيل : مبتدأ خبره محذوف تقديره : ولهم عذاب آخر .

وقيل : خبره في الجملة ، لأن قوله : ﴿ أزواج ﴾ مبتدأ ، و ﴿ من شكله ﴾ خبره ، والجملة خبر .

وآخر ، وقيل : خبره أزواج ، ومن شكله في موضع الصفة ، وجاز أن يخبر بالجمع عن الواحد من حيث هو درجات ، ورتب من العذاب ، أو سمى كل جزء من ذلك الآخر باسم الكل .

وقال الزمخشري : وآخر ، أي وعذاب آخر ، أو مذوق آخر ؛ وأزواج صفة آخر ، لأنه يجوز أن يكون ضروباً أو صفة للثلاثة ، وهي : حميم وغساق وآخر من شكله . انتهى .

وهو إعراب أخذه من الفراء .

وقرأ الحسن ، ومجاهد ، والجحدري ، وابن جبير ، وعيسى ، وأبو عمرو : وأخر على الجمع ، وهو مبتدأ ، ومن شكله في موضع الصفة ؛ وأزواج خبره ، أي ومذوقاً آخر من شكل هذا المذوق من مثله في الشدة والفظاعة ؛ ﴿ أزواج ﴾ : أجناس .

وقرأ مجاهد : من شكله ، بكسر الشين ؛ والجمهور : بفتحها ، وهما لغتان بمعنى المثل

والضرب .

وأما إذا كان بمعنى الفتح ، فبكسر الشين لا غير .

(147/662)

وعن ابن مسعود : ﴿ وآخر من شلكه ﴾ : هو الزمهرير .

والظاهر أن قوله : ﴿ هذا فوج مقتحم معكم ﴾ ، من قول رؤسائهم بعضهم لبعض ، والفوج : : الجمع الكثير ، ﴿ مقتحم معكم ﴾ : أي النار ، وهم الأتباع ، ثم دعوا عليهم بقولهم : ﴿ مرحباً بهم ﴾ ، لأن الرئيس إذا رأى الخسيس قد قرن معه في العذاب ، ساءه ذلك حيث وقع التساوي في العذاب ، ولم يكن هو السالم من العذاب وأتباعه في العذاب .

ومرحباً معناه : ائت رحباً وسعة لا ضيقاً ، وهو منصوب بفعل يجب إضماره ، ولأن علوهم بيان للمدعو عليهم .

وقيل : ﴿ هذا فوج ﴾ ، من كلام الملائكة خزنة النار ؛ وأن الدعاء على الفوج والتعليل بقوله : ﴿ إنهم صالوا النار ﴾ ، من كلامهم .

وقيل : ﴿ هذا فوج مقتحم معكم ﴾ ، من كلام الملائكة ، والدعاء على الفوج والإخبار بأنهم صالوا النار من كلام الرؤساء المتبوعين .

﴿ قالوا ﴾ أي الفوج : ﴿ لا مرحباً بكم ﴾ ، رد على الرؤساء ما دعوا به عليهم .

ثم ذكروا أن ما وقعوا فيه من العذاب وصلى النار ، إنما هو بما ألقيتم إلينا وزينتموه من الكفر ، فكأنكم قدمتم لنا العذاب أو الصلى .

وإذا كان ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ من كلام الخزنة ، فلم يجيء التركيب : قالوا : بل هؤلاء لا مرحباً بهم ، بل جاء بخطاب الأتباع للرؤساء ، لتكون المواجهة لمن كانوا لا يقدرون على مواجهتهم في الدنيا بقبيح أشفى لصدورهم ، حيث تسببوا في كفرهم ، وأنكى للرؤساء .

(148/662)

﴿ فبئس القرار ﴾ : أي النار ؛ وهذه المرادة والدعاء كقوله : ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ ولم يكتف الأتباع برد الدعاء على رؤسائهم ، ولا بمواجهتهم بقوله : ﴿ أنتم قدمتموه لنا ﴾ ، حتى سألوا من الله أن يزيد رؤساءهم ضعفاً من النار ، والمعنى : من حملنا على عمل السوء حتى صار جزاءنا النار ، ﴿ فزده عذاباً ضعفاً ﴾ ، كما جاء في قول الأتباع : ﴿ ربنا آتهم ﴾ ، أي بساداتهم ، ﴿ ضعفين من العذاب ﴾ ﴿ ربنا هؤلاء أضلوا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ ولما كان الرؤساء ضلالاً في أنفسهم وأضلوا اتباعهم ، ناسب أن يدعو عليهم بأن يزيدهم ضعفاً ، كما جاء : فعليه وزرها ووزر من عمل بها

إلى يوم القيامة ، فعلى هذا الضمير في قوله : ﴿ قالوا ﴾ للاتباع ، ومن قدم : هم الرؤساء .

وقال ابن السائب : ﴿ قالوا ربنا ﴾ إلى آخره ، قول جميع أهل النار .

وقال الضحاك : ﴿ من قدم ﴾ ، هو إبليس وقابيل .

وقال ابن مسعود : الضعف حيات وعقارب .

﴿ وقالوا ﴾ : أي أشراف الكفار ، ﴿ ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ﴾ : أي الأرذال الذين لا خير فيهم ، وليسوا على ديننا ، كما قال : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ وروي أن القائلين من كفار عصر الرسول ، (صلى الله عليه وسلم) ، هم : أبو جهل ، وأمية بن خلف ، وأصحاب القليب ، والذين لم يروهم : عمار ، وصهيب ، وسلمان ، ومن جرى مجراهم ، قاله مجاهد وغيره .

قيل : يسألون أين عمار ؟ أين صهيب ؟ أين فلان ؟ يعدون ضعفاء المسلمين فيقال لهم : أولئك في الفردوس .

وقرأ النحويان ، وحمزة : اتخذناهم وصلاً ، فقال أبو حاتم ، والزمخشري ، وابن عطية : صفة لرجال .

قال الزمخشري : مثل قوله : ﴿ كنا نعدم من الأشرار ﴾ .

وقال ابن الأنباري : حال ، أي وقد اتخذناهم .

وقرأ أبو جعفر ، والأعرج ، والحسن ، وقتادة ، وباقي السبعة : بهمزة الاستفهام ، لتقرير

أنفسهم على هذا ، على جهة التوبيخ لها .

والأسف ، أي اتخذناهم سخرياً ، ولم يكونوا كذلك .

(149/662)

وقرأ عبد الله ، وأصحابه ، ومجاهد ، والضحاك ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعرج ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي : سخرياً ، بضم السين ، ومعناها : من السخرة والاستخدام .

وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، وعيسى ، وابن محيصن ، وباقي السبعة : بكسر السين ، ومعناها : المشهور من السخر ، وهو الهزء .

قال الشاعر :

إني أتاني لسان لا أسر بها . . .

من علو لا كذب فيها ولا سخر

وقيل : بكسر السين من التسخير .

وأم إن كان اتخذناهم استفهاماً إما مصرحاً بهمزته كقراءة من قرأ كذلك ، أو مؤولاً بالاستفهام ، وحذفت الهمزة للدلالة .

فالظاهر أنها متصلة لتقدم الهمزة ، والمعنى : أي الفعلين فعلنا بهم ، الاستسخار منهم أم

ازدراؤهم وتحقيرهم ؟ وإن أبصارنا كانت تعلوا عنهم وتقتحم .

ويكون استفهاماً على معنى الإنكار على أنفسهم ، للاستسخار والزيغ جميعاً .

وقال الحسن : كل ذلك قد فعلوا ، اتخذوهم سخرياً ، وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم .

وأن اتخذناهم ليس استفهاماً ، فأم منقطعة ، ويجوز أن تكون منقطعة أيضاً مع تقدم الاستفهام ، يكون كقولك : أزيد عندك أم عندك عمرو ؟ واستفهمت عن زيد ، ثم أضربت عن ذلك واستفهمت عن عمرو ، فالتقدير : بل أزاغت عنهم الأبصار .

ويجوز أن يكون قولهم : ﴿ أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ له تعلق بقوله : ﴿ ما لنا لا نرى رجالاً ﴾ ، لأن الاستفهام أولاً دل على انتفاء رؤيتهم إياهم ، وذلك دليل على أنهم ليسوا معه ، ثم جوزوا أن يكونوا معه ، ولكن أبصارهم لم ترهم .

﴿ إن ذلك ﴾ : أي التفاوض الذين حكيناه عنهم ، ﴿ لحق ﴾ : أي ثابت واقع لا بد أن يجري بينهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ تخاصم ﴾ بالرفع مضافاً إلى ﴿ أهل ﴾ .

قال ابن عطية : بدل من ﴿ لحق ﴾ .

وقال الزمخشري : بين ما هو فقال : تخاصم منوناً ، أهل رفعاً بالمصدر المنون ، ولا يجيز ذلك الفراء ، ويجيزه سيبويه والبصريون .

وقرأ ابن أبي عبلة : تخاصم ، أهل ، بنصب الميم وجر أهل .

قال الزمخشري : على أنه صفة لذلك ، لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس .

وفي كتاب اللوامح : ولو نصب تخاصم أهل النار ، لجاز على البدل من ذلك .

وقرأ ابن السميفع : تخاصم : فعلاً ماضياً ، أهل : فاعلاً ، وسمى تعالى تلك المفاوضة التي جرت بين رؤساء الكفار وأتباعهم تخاصماً ، لأنّ قولهم : ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ ، وقول الأتباع : ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ ، هو من باب الخصومة ، فسمى التفاوض كله تخاصماً لاستعماله عليه .

﴿ قل ﴾ : يا محمد ، ﴿ إنما أنا منذر ﴾ : أي ﴿ منذر المشركين بالعذاب ﴾ ، وأن الله لا إله إلا الله ، لا ند له ولا شريك ، وهو الواحد القهار لكل شيء ، وأنه مالك العالم ، علوه وسفله ، العزيز الذي لا يغالب ، الغفار لذنوب من آمن به واتبع لدينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ ﴾ أمرٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يقولَ للمشركينَ ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ مُنذِرٌ ﴾ من جهتِهِ تعالى أنذركم عذابَه ﴿ وَمَا مِنْ إله ﴾ في الوجودِ ﴿ إِلاَّ الله الواحد ﴾ الذي لا يقبل الشّرِكةَ والكثرةَ أصلاً ﴿ القهار ﴾ لكلِّ شيءٍ سواه . ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقاتِ فكيف يُتوهَّم أن يكونَ له شريكٌ منها ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يُغلب في أمرٍ من أمورِه ﴿ الغفار ﴾ المبالغ في المغفرةِ يغفرُ ما يشاء لمَن يشاء ، وفي هذه النُّعوت من تغريرِ التَّوحيدِ والوعد للموحّدين والوعيد للمشركين ما لا يخفى . وتثنيةُ ما يُشعر بالوعيد من وصفَيْ القهرِ والعزَّةِ وتقديمهما على وصفِ المغفرةِ لتوفية مقامَ الإنذارِ حقَّه .

(152/662)

﴿ قُلْ ﴾ تكريرُ الأمر للإيذانِ بأنَّ المقولَ أمرٌ جليلٌ له شأنٌ خطيرٌ لا بدَّ من الاعتناء به أمراً وائتماراً . ﴿ هُوَ ﴾ أي ما أنبأتُكم به من أنِّي منذرٌ من جهته تعالى وأنَّه تعالى واحدٌ لا شريك له وأنه متَّصفٌ بما ذُكر من الصِّفاتِ الجليلةِ والأظهرُ أنَّه القرآنُ وما ذُكر داخلٌ فيه دُخولاً أوليّاً كما يشهد به آخر السُّورةِ الكريمة وهو قولُ ابن عبَّاسٍ ومُجاهدٍ وقَتَادةَ ﴿ نَبَأٌ

عَظِيمٌ ﴾ واردٌ من جهتِه تعالى . وقوله تعالى ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ استئنافٌ ناعٍ عليهم سوءَ صنيعهم به ببيان أنَّهم لا يقدّرون قدرَه الجليلَ حيث يُعرضون عنه مع عظمته وكونه موجباً للإقبال الكلّي وتلقّيه بحسن القَبول ، وقيل : صفةٌ أُخرى لنبأٌ . وقولُه تعالى ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بالملإ الاعلى ﴾ الخ استئنافٌ مسوقٌ لتحقيق أنَّه نبأ عظيم واردٌ من جهته تعالى بذكر نبأٍ من أنبائِه على التَّفصيل من غير سابقةِ معرفةٍ به ولا مباشرةِ سببٍ من أسبابِها المعتادةِ فإنَّ ذلك حجَّةٌ بينةٌ دالَّةٌ على أنَّ ذلك بطريق الوحيِ من عند الله تعالى وأنَّ سائرَ أنبيائه أيضاً كذلك . والملأُ الأعلى هم الملائكةُ وآدمُ عليهم السَّلامُ وإبليسُ عليه اللَّعنةُ . وقوله تعالى ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ متعلّق بمحذوفٍ يقتضيه المقام إذِ المراد نفيُ علمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بحالهم لا بذواتهم . والتَّقديرُ ما كان لي فيما سبقَ عملٌ ما بوجهٍ من الوجوه بحالِ الملأ الأعلى وقتَ اختصامِهم . وتقديرُ الكلامِ كما اختاره الجمهورُ تحجيرٌ للواسعِ فإنَّ علمه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غيرُ مقصورٍ على ما جرى بينهم من الأقوالِ فقط بل عامٌّ لها وللأفعال أيضاً من سجودِ الملائكة واستكبارِ إبليسَ وكفرِه حسبما ينطقُ به الوحيُ فلا بُدَّ من اعتبارِ العمومِ في نفيِه أيضاً لا محالةَ .

(153/662)

وقولُه تعالى ﴿ إِن يوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ اعتراضٌ وسطٌ بين إجمالي اختصامِهم وتفصِيله تقريراً لثُبوتِ علمه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وتعييناً لسببه إلاَّ أنَّ بيانَ انتفائِه فيما سبق لَمَّا كانَ منبئاً عن ثبوتِه الآن ومن البيِّن عدمُ ملابستِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بشيءٍ من مباديه المعهودةِ تعين أنَّه ليس إلا بطريقِ الوحي حتماً فجعل أمراً مسلَّم الثُّبوتِ غنيّاً عن الإخبارِ به قَصْداً وجعل مصبَّ الفائدةِ والمقصودَ إخبارَ ما هو داعٍ إلى الوحيِ ومصحّحٌ له تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ مُنذِرٌ ﴾ في ضمن تحقيقِ علمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بقصَّة الملأ الأعلى ، فالقائمُ مقامَ الفاعلِ ليُوحى إمَّا ضميرٌ عائدٌ إلى الحالِ المقدَّرِ أو ما يعمُّه وغيرَه فالمعنى ما يُوحى إلى حالِ الملأ الأعلى أو ما يُوحى إلي ما يُوحى من الأمور الغيبيَّةِ التي من جُملتِها حالُهم إلاَّ لأنما أنا نذيرٌ مبين من جهته تعالى فإن كونَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كذلك من دَوَاعي الوحي إليه ومن موجباتِه حتماً وأمَّا أنَّ القائمَ مقامَ الفاعلِ هو الجارُّ والمجرورُ أو هو إنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ بلا تقديرِ الجارِّ وأنَّ المعنى ما يُوحَى إليَّ إلاَّ للإنذارِ أو ما يُوحَى إليَّ أنْ أنذر وأبلغَ ولا أفرِّط في ذلك كما قيل فمع ما فيه من الاضطرارِ إلى التَّكلُّفِ في توجيه قصرِ الوحي على كونِه للإنذارِ في الأوَّلِ وقصره على الأنذارِ في الثَّاني فلا يساعدُه سباقُ النَّظم الكريمِ وسياقُه ، كيف لا والاعتراضُ حينئذٍ يكون أجنبيّاً ممَّا توسَّط بينهما من إجمالِ الاختصامِ وتفصيلِه فتأمَّلْ والله المرشدُ . وقُرِئ إِنَّما بالكسرِ على الحكايةِ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ أنذرتكم عذاب الله تعالى للمشركين ، والكلام رد لقولهم هذا ساحر كذاب فإن الإنذار ينافي السحر والكذب .

وقد يقال : المراد إنما أنا رسول منذر لا ساحر كذاب ، وفيه من الحسن ما فيه فإن كل واحد من وصفي الرسالة والإنذار ينافي كل واحد من وصفي السحر والكذب لكن منافاة الرسالة للسحر أظهر وبينهما طباق فكذلك الإنذار للكذب ، وضم إلى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ لإفادة أن له صلى الله عليه وسلم صفة الدعوة إلى توحيده عز وجل أيضاً فالأمران مستقلان بالإفادة .

و ﴿ مِنْ ﴾ زائدة للتأكيد أي ما إله أصلاً إلا الله ﴿ الواحد ﴾ أي الذي لا يحتمل الكثرة في ذاته بحسب الجزئيات بأن يكون له سبحانه ماهية كلية ولا بحسب الأجزاء ﴿ القهار ﴾ لكل شيء .

﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الموجودات منه سبحانه خلقها وإليه تدبير

جميع أمورها ﴿ العزيز ﴾ الذي يغلب ولا يغلب في أمر من أموره جل شأنه فتندرج في ذلك المعاقبة ﴿ الغفار ﴾ المبالغ في المغفرة يغفر ما يشاء لمن يشاء تقرير للتوحيد ، أما الوصف الأول فظاهر في ذلك غير محتاج للبيان ، وأما القهار لكل شيء فلأنه لو كان إله غيره سبحانه لم يكن قهاراً له ضرورة أنه لا يكون حينئذ إلهاً بل ربما يلزم أن يكون مقهوراً وذلك مناف للألوهية تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وأما ﴿ رَبّ السموات ﴾ الخ فلأنه لو أمكن غيره معه تعالى شأنه جاء دليل التمانع المشار إليه بقوله سبحانه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] فلم تتكون السماوات والأرض وما بينهما ، وقيل : لأن معنى ﴿ رَبّ السموات ﴾ الخ رب كل موجود فيدخل فيه كل ما سواه فلا يكون إلهاً ، وأما العزيز فلأنه يقتضي أن يغلب غيره ولا يغلب ومع الشكرة لا يتم ذلك .

(155/662)

وأما الغفار فلأنه يقتضي أن يغفر ما يشاء لمن يشاء فربما شاء مغفرة لأحد وشاء لآخر منه العقاب فإن حصل مراده فالآخر ليس بإله وإن حصل مراد الآخر ولم يحصل مراده لم يكن هو إلهاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وما قيل في برهان التمانع سؤالاً وجواباً يقال هنا ، وفي هذه الأوصاف من الدلالة على الوعد والوعيد ما لا يخفى ، وللاقتصار على وصف

الإنذار صريحاً فيما تقدم قدم وصف القهار على وصف الغفار هنا ، وجوز أن يكون المقصود هو تحقيق الإنذار وجيء بالثاني تتميماً له وإيضاحاً لما فيه من الإجمال أي قل لهم ما أنا إلا منذر لكم بما أعلم وإنما أنذرتكم عقوبة من هذه صفته فإن مثله حقيق بأن يخاف عقابه كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه ، والوجه الأول أوفق لمقتضى المقام لأن التعقيب بتلك الصفات في الدلالة على أن الدعوة إلى التوحيد مقصودة بالذات بمكان لا ينكر ولأن هذا بالنسبة إلى ما مر من صدر السورة إلى هنا بمنزلة أن يقول المستدل بعد تمام تقريره فالحاصل فالأولى أن يكون على وزان المبسوط وفيه قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ الالهة إلها واحدا ﴾ [ص : 5] فافهم .

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67)

﴿ قُلْ ﴾ تكرير الأمر للإيذان بأن المقول أمر جليل له شأن خطير لا بد من الاعتناء به أمراً وائتماراً ﴿ هُوَ ﴾ أي ما أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً وأن الله تعالى واحداً لا شريك له ﴿ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ خبر ذو فائدة عظيمة جداً لا ريب فيه أصلاً .

﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ متمادون في الإعراض عنه لتمادي غفلتكم ، وهذه الجملة صفة ثانية لنبأ والكلام بجملته تحير لهم وتنبيه على مكان الخطأ وإظهار لغاية الرأفة والعطف الذي يقتضيه مقام الدعوة .

واستظهر بعض الأجلة أن ﴿ هُوَ ﴾ للقرآن كما روى عن ابن عباس .

ومجاهد .

(156/662)

وقتادة ، واستشهد بآخر السورة وقال : إنه يدخل ما ذكر دخولاً أولياً ، واختار كون هذه الجملة استئنافاً ناعياً عليهم سوء حالهم بالنسبة إليه وأنهم لا يقدرون قدره الجليل مع غاية عظمته الموجبة للإقبال عليه وتلقيه بحسن القبول ؛ وكأن الكلام عليه ناظر إلى ما في أول السورة من قوله تعالى : ﴿ والقرءان ذِى بَلِ الذين كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص : 1 ، 2] جيء به ليستدل على أنه وارد من جهته تعالى بما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بالملإ الاعلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ الخ حيث تضمن ذكر نبأ من أنبائه على التفصيل من غير سابقة معرفة به ولا مباشرة سبب من أسبابها المعتادة كالنظر في الكتب الإلهية والسماع من الكتابين وهو حجة بينة دالة على أنه بطريق الوحي من عند الله تعالى وأن سائر أنبائه أيضاً كذلك ؛ وهو على ما قلنا تذكير لإثبات النبوة بذكر مختصر منه تمهيداً لإرشاد الطريق وتذكيراً للباقي وتسلقاً منه إلى استماع ما ذكره لطف للمدعوين وتنويه للداعي ، وعدم التعرض لنحو ذلك في أمر التوحيد لظهور أدلته مع كونه ذكر شيء

منها غضاً طرياً وهو ما أشارت إليه الصفات المذكورة آنفاً ، فلا يقال : إن التعرض لإثبات النبوة دون التوحيد دليل على أن المقصود بالإفادة هو النبوة وأن الثاني جيء به تتميماً لذلك .

(157/662)

وأنت تعلم أن النبوة وكون القرآن وحياً من عند الله تعالى متلازمان متى ثبت أحدهما ثبت الآخر ، لكن يرجح جعل الآية في النبوة وإثباتها القرب وتصدير هذه الآية بنحو من صدرت به الآية المتضمنة دعوى النبوة قبلها من قوله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ [ص : 67] فإن سلم لك هذا المرجح فذاك وإلا فلا تعدل عما روى عن ابن عباس ومن معه ، وعن الحسن أن ذلك يوم القيامة كما في قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ عَنِ النبإ العظيم ﴾ [النبأ : 1 ، 2] وقيل : ما تقدم من أنباء الأنبياء عليهم السلام ، وقيل تخاصم أهل النار ، وعدى العلم بالباء نظراً إلى معنى الإحاطة ، والملأ الجماعة الإشراف لأنهم يملؤن العيون رواء والنفوس جلالة ، وبهاء وهو اسم جمع ولذا وصف بالمفرد أعني ﴿ الاعلى ﴾ والمراد به عند ملأ الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس عليه اللعنة وكانوا في السماء فالعلو حسي وكان التقاول بينهم على ما ستعلمه إن شاء الله تعالى ، وإذ متعلقة بمحذوف يقتضيه المقام إذ المراد نفي علمه

عليه الصلاة والسلام بحالهم لا بذواتهم ، والتقدير ما كان لي فيما سبق علم ما بوجه من الوجوه بحال الملأ إلا على وقت اختصامهم ، وهو أولى من تقدير الكلام كما ذهب إليه الجمهور أي ما كان لي علم بكلام الملأ إلا على وقت اختصامهم لأن علمه صلى الله عليه وسلم غير مقصور على ما جرى بينهم من الأقوال فقط بل عام لها وللأفعال أيضاً من سجود الملائكة عليهم السلام وإباء إبليس واستكباره حسبما ينطق به الوحي فالأولى اعتبار العموم في نفيه أيضاً ، وقيل : إذ بدل اشتمال من ﴿ الملأ ﴾ أو ظرف لعلم وفيه بحث والاختصام فيما يشير إليه سبحانه بقوله عز وجل : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ [البقرة : 30] الخ ، والتعبير بيختصمون المضارع لأنه أمر غريب فأتى به لاستحضاره حكاية للحال ، وضمير الجمع للملأ .

(158/662)

وحكى أبو حيان كونه لقريش وابتعده وكأن في ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ حينئذ التفاتاً من الخطاب في ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص : 68] إلى الغيبة والاختصام في شأن رسالته صلى الله عليه وسلم أو في شأن القرآن أو شأن المعاد وفيه عدول عن المأثور وارتكاب لما لا يكاد يفهم من الآية من غير داع إلى ذلك ومع هذا لا يقبله الذوق السليم ، وقوله تعالى :

﴿ إِن يوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

اعتراض وسط بين إجمال اختصامهم وتفصيله تقريراً لثبوت علمه عليه الصلاة والسلام وتعييناً لسببه إلا أن بيان انتفائه فيما سبق لما كان منبئاً عن ثبوته الآن ، ومن البين عدم ملابسته صلى الله عليه وسلم بشيء من مباديه المعهودة تعين أنه ليس إلا بطريق الوحي حتماً فجعل ذلك أمراً مسلم الثبوت غنياً عن الاخبار به قصداً وجعل مصب الفائدة إخباره بما هو داع إلى الوحي ومصحح له ، فالقائم مقام الفاعل ليوحي إما ضمير عائد إلى الحال المقدر كما أشير إليه سابقاً أو ما يعمه وغيره ، فالمعنى ما يوحى إلى حال الملأ الأعلى أو ما يوحى إلى الذي يوحى من الأمور الغيبية التي من جملتها حالهم لأمر من الأمور إلا لأني نذير مبين من جهته تعالى فإن كونه عليه الصلاة والسلام كذلك من دواعي الوحي إليه ومصححاته ، وجوز كون الضمير القائم مقام الفاعل عائداً إلى المصدر المفهوم من ﴿ يُوحَى ﴾ أي ما يفعل الإيحاء إلى بحال الملأ الأعلى أو بشيء من الأمور الغيبية التي من جملتها حالهم لأمر من الأمور إلا لأني الخ .

وجوز أيضاً كون الجار والمجرور نائب الفاعل ﴿ وَإِنَّمَا ﴾ على تقدير اللام ، قال في "الكشف" : ومعنى الحصر أنه صلى الله عليه وسلم لم يوح إليه لأمر إلا لأنه نذير مبين وأي مبين كقولك : لم تستقض يا فلان إلا لأنك عالم عامل مرشد .

وجوز الزمخشري أن يكون بعد حذف اللام مقاماً مقام الفاعل ، ومعنى الحصر أني لم أومر إلا بهذا الأمر وحده وليس إلى غير ذلك لأنه الأمر الذي يشتمل على كل الأوامر إما تضمناً وإما التزاماً أو لم أومر إلا بإنذاركم لا بهدايتكم وصدكم عن العناد فإن ذلك ليس إلى ، وما ذكر أولاً أوفق بحال الاعتراض كما لا يخفى على من ليس أجنبياً عن إدراك اللطائف .

وقرأ أبو جعفر ﴿ إِنَّمَا ﴾ بالكسر على الحكاية أي ما يوحى إلى إلا هذه الجملة وإيحاؤها إليه أمر عليه الصلاة والسلام أن يقولها وحاصل معنى الحصر قريب مما ذكر آنفاً ، وجوز أن يراد لم أومر إلا بأن أقول لكم هذا القول دون أن أقول أعلم الغيب بدون وحي مثلاً فتدبر ولا تغفل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(160/662)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) ﴾

قوله : ﴿ هذا ﴾ قال الزجاج : هذا خبر مبتدأ محذوف ، أي : الأمر هذا ، فيوقف على هذا .

قال ابن الأنباري : وهذا وقف حسن ، ثم يبتدىء ﴿ وَإِنَّ للطاغين ﴾ ، ويجوز أن يكون هذا مبتدأ ، وخبره محذوف ، أي : هذا كما ذكر ، أو هذا ذكر .

ثم ذكر سبحانه ما لأهل الشرّ بعد أن ذكر ما لأهل الخير ، فقال : ﴿ وَإِنَّ للطاغين لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ أي : الذين طغوا على الله ، وكذبوا رسله ﴿ لَشَرَّ مَئَابٍ ﴾ لشر منقلب ينقلبون إليه ، ثم بيّن ذلك ، فقال : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ ، وانتصاب ﴿ جهنم ﴾ على أنها بدل من ﴿ شرّ مآب ﴾ ، أو منصوبة بأعني ، ويجوز أن يكون عطف بيان على قول البعض كما سلف قريباً ، ويجوز أن يكون منصوباً على الاشتغال ، أي : يصلون جهنم يصلونها ، ومعنى ﴿ يصلونها ﴾ : يدخلونها ، وهو في محل نصب على الحالية ﴿ فَبِئْسَ المهاد ﴾ أي : بئس ما مهدوا لأنفسهم ، وهو الفراش ، مأخوذ من مهد الصبي ، ويجوز أن يكون المراد بالمهد الموضع ، والمخصوص بالذمّ محذوف ، أي : بئس المهاد هي كما في قوله : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ [الأعراف : 41] شبه الله سبحانه ما تحتهم من نار جهنم بالمهاد ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ هذا في موضع رفع بالابتداء ، وخبره حميم ، وغساق على التقديم والتأخير ، أي : هذا حميم ، وغساق ، فليذوقوه .

قال الفراء ، والزجاج : تقدير الآية : هذا حميم وغساق فليذوقوه ، أو يقال لهم في ذلك اليوم هذه المقالة .

والحميم : الماء الحارّ الذي قد انتهى حرّه ، والغساق : ما سال من جلود أهل النار من القيح ، والصديد ، من قولهم : غسقت عينه إذا انصبت ، والغسقان : الانصباب .

(161/662)

قال النحاس : ويجوز أن يكون المعنى : الأمر هذا ، وارتفاع حميم وغساق على أنهما خبران لمبتدأ محذوف ، أي : هو حميم ، وغساق ، ويجوز أن يكون هذا في موضع نصب بإضمار فعل يفسره ما بعده ، أي : ليذوقوا هذا ، فليذوقوه ، ويجوز أن يكون حميم مرتفع على الابتداء ، وخبره مقدّر قبله ، أي : منه حميم ، ومنه غساق ، ومثله قول الشاعر :

حتى إذا ما أضاء البرق في غلس . . . وغودر البقل ملويّ ومخضود

أي : منه ملويّ ، ومنه مخضود ، وقيل : الغساق ما قتل ببرده ، ومنه قيل : لليل غاسق ، لأنه أبرد من النهار ، وقيل : هو الزمهرير ، وقيل : الغساق : المنتن ، وقيل : الغساق : عين في جهنم يسيل منه كلّ ذوب حية ، وعقرب .

وقال قتادة : هو ما يسيل من فروج النساء الزواني ، ومن نتن لحوم الكفرة ، وجلودهم .

وقال محمد بن كعب : هو : عصارة أهل النار ، وقال السدي : الغساق : الذي يسيل من دموع أهل النار يسقونه مع الحميم ، وكذا قال ابن زيد .

وقال مجاهد ، ومقاتل : هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده ، وتفسير الغساق بالبارد أنسب بما تقتضيه لغة العرب ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما تذكرت الحياة وطيبها . . . إليّ جرى دمع من الليل غاسق

أي : بارد ، وأنسب أيضاً بمقابلة الحميم .

وقرأ أهل المدينة ، وأهل البصرة ، وبعض الكوفيين بتخفيف السين من (غساق) ، وقرأ يحيى بن وثاب ، والأعمش ، وحمزة بالتشديد ، وهما لغتان بمعنى واحد كما قال الأخفش .

(162/662)

وقيل : معناهما مختلف ؛ فمن خفف ، فهو اسم مثل عذاب ، وجواب ، وصواب ، ومن شدّد قال : هو اسم فاعل للمبالغة نحو ضرّاب ، وقتال ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ وآخر ﴾ مفرد مذكر ، وقرأ أبو عمرو : " وأخر " بضم الهمزة على أنه جمع ، وأنكر قراءة الجمهور لقوله أزواج ، وأنكر عاصم الجحدري قراءة أبي عمرو ، وقال : لو كانت كما قرأ لقال : من شكلها ، وارتفاع آخر على أنه مبتدأ ، وخبره أزواج ، ويجوز أن يكون من شكله خبراً مقدّماً ، وأزواج مبتدأ مؤخراً ، والجملة خبر آخر ، ويجوز أن يكون

خبراً آخر مقدراً ، أي : وآخر لهم ، و ﴿ مِن شَكْلِهِ أزواج ﴾ جملة مستقلة ؛ ومعنى الآية على قراءة الجمهور : وعذاب آخر ، أو مذوق آخر ، أو نوع آخر من شكل العذاب ، أو المذوق ، أو النوع الأوّل ، والشكل المثل ، وعلى القراءة الثانية يكون معنى الآية : ومذوقات أخر ، أو أنواع أخر من شكل ذلك المذوق ، أو النوع المتقدّم .

وإفراد الضمير في شكله على تأويل المذكور ، أي : من شكل المذكور ، ومعنى ﴿ أزواج ﴾ : أجناس ، وأنواع وأشباه .

وحاصل معنى الآية : أن لأهل النار حميماً ، وغساقاً ، وأنواعاً من العذاب من مثل الحميم ، والغساق .

قال الواحدي : قال المفسرون : هو : الزمهرير ، ولا يتمّ هذا الذي حكاه عن المفسرين إلا على تقدير أن الزمهرير أنواع مختلفة ، وأجناس متفاوتة ؛ ليطابق معنى أزواج ، أو على تقدير أن لكلّ فرد من أهل النار زمهريراً .

﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ الفوج : الجماعة ، والاقتحام .

الدخول ، وهذا حكاية لقول الملائكة الذين هم خزنة النار ، وذلك أن القادة والرؤساء إذا دخلوا النار ، ثم دخل بعدهم الأتباع .

قالت الخزنة للقادة : هذا فوج ، يعنون : الأتباع ﴿ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ أي : داخل معكم إلى النار ، وقوله : ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ من قول القادة والرؤساء لما قالت لهم الخزنة ذلك قالوا : لا مرحباً بهم ، أي : لا اتسعت منازلهم في النار ، والرحب : السعة ، والمعنى : لا كرامة لهم ، وهذا إخبار من الله سبحانه بانقطاع المودة بين الكفار ، وأن المودّة التي كانت بينهم تصير عداوة .

وجملة لا مرحباً بهم دعائية لا محل لها من الإعراب ، أو صفة للفوج ، أو حال منه ، أو بتقدير القول ، أي : مقولاً في حقهم لا مرحباً بهم .

وقيل : إنها من تمام قول الخزنة .

والأوّل أولى كما يدل عليه جواب الأتباع الآتي ، وجملة : ﴿ إِنَّهُمْ صَالُو النار ﴾ تعليل من جهة القائلين : لا مرحباً بهم ، أي : إنهم صالوا النار كما صليناها ، ومستحقون لها كما استحقيناها .

وجملة : ﴿ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، أي : قال الأتباع عند سماع ما قاله الرؤساء لهم : بل أنتم لا مرحباً بكم ، أي : لا كرامة لكم ، ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أي : أنتم قدّمتم العذاب أو الصليّ لنا ، وأوقعتمونا فيه ، ودعوتمونا إليه بما كنتم تقولون لنا من أن الحقّ ما أنتم عليه ، وأن الأنبياء غير صادقين فيما

جاءوا به ﴿ بِئْسَ القرار ﴾ أي : بئس المقرّ جهنم لنا ، ولكم .

ثم حكي عن الأتباع أيضاً : أنهم أردفوا هذا القول بقول آخر ، وهو : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِى النار ﴾ أي : زده عذاباً ذا ضعف ، والضعف بأن يزيد عليه مثله ، ومعنى من ﴿ قدّم لنا هذا ﴾ : من دعانا إليه ، وسوّغه لنا .

(164/662)

قال الفراء : المعنى : من سوّغ لنا هذا ، وسنه ، وقيل : معناه : قدّم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى الكفر ، فزده عذاباً ضعفاً في النار ، أي : عذاباً بكفره ، وعذاباً بدعائه إيانا ، فصار ذلك ضعفاً ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَئَاتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار ﴾ [الأعراف : 38] وقوله : ﴿ رَبَّنَا ءاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب ﴾ [الأحزاب : 68] وقيل : المراد بالضعف هنا : الحيات ، والعقارب .

﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الأشرار ﴾ قيل : هو من قول الرؤساء ، وقيل : من قول الطاغين المذكورين سابقاً .

قال الكلبي : ينظرون في النار ، فلا يرون من كان يخالفهم من المؤمنين معهم فيها ، فعند ذلك قالوا : ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدّهم من الأشرار .

وقيل : يعنون : فقراء المؤمنين كعمار ، وخباب ، وصهيب ، وبلال ، وسالم ، وسلمان .

وقيل : أرادوا أصحاب محمد على العموم ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴾ قال مجاهد : المعنى : أتخذناهم سخرياً في الدنيا ، فأخطأنا ، أم زاغت عنهم الأبصار ، فلم نعلم مكانهم ؟ والإنكار المفهوم من الاستفهام متوجه إلى كل واحد من الأمرين .

قال الحسن : كل ذلك قد فعلوا : اتخذوهم سخرياً ، وزاغت عنهم أبصارهم .

قال الفراء : والاستفهام هنا بمعنى : التوبيخ ، والتعجب .

قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وابن كثير ، والأعمش بحذف همزة اتخذناهم في الوصل .

(165/662)

وهذه القراءة تحتمل أن يكون الكلام خبراً محضاً ، وتكون الجملة في محل نصب صفة ثانية ل ﴿ رجالاً ﴾ ، وأن يكون المراد : الاستفهام ، وحذفت أداته لدلالة أم عليها ، فتكون أم على الوجه الأوّل منقطعة بمعنى : بل ، والهمزة ، أي : بل أزاغت عنهم الأبصار على معنى : توبيخ أنفسهم على الاستسخار ، ثم الإضراب ، والانتقال منه إلى التوبيخ على الازدراء ، والتحقير ، وعلى الثاني أم هي المتصلة .

وقرأ الباقون بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل ، ولا محل للجملة حينئذٍ ، وفيه التوبيخ لأنفسهم على الأمرين جميعاً ؛ لأن أم على هذه القراءة هي للتسوية .

وقرأ أبو جعفر ، ونافع ، وشيبة ، والمفضل ، وهبيرة ، ويحيى بن وثاب ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي : (سخرياً) بضم السين ، وقرأ الباقون بكسرها .

قال أبو عبيدة : من كسر جعله من الهزء ، ومن ضم جعله من التسخير ، والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم من حكاية حالهم ، وخبر إنّ قوله : ﴿ لَحَقٌّ ﴾ أي : لواقع ثابت في الدار الآخرة لا يتخلف ألبتة ، و ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، والجملة بيان لذلك ، وقيل : بيان لحقّ ، وقيل : بدل منه ، وقيل : بدل من محل ذلك ، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر ، وهذا على قراءة الجمهور برفع تخاصم .

والمعنى : إن ذلك الذي حكاه الله عنهم لحقّ لا بدّ أن يتكلموا به ، وهو تخاصم أهل النار فيها ، وما قالته الرؤساء للأتباع ، وما قالته الأتباع لهم .

وقرأ ابن أبي عبلة بنصب : "تخاصم" على أنه بدل من ذلك ، أو بإضمار أعني .

وقرأ ابن السميفع : "تخاصم" بصيغة الفعل الماضي ، فتكون جملة مستأنفة .

(166/662)

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول قولاً جامعاً بين التخويف ، والإرشاد إلى التوحيد ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ أي : مخوّف لكم من عقاب الله ، وعذابه ﴿ وَمَا مِنْ إله ﴾ يستحق العبادة ﴿ إِلاَّ الله الواحد ﴾ الذي لا شريك له ﴿ القهار ﴾ لكل شيء سواه .

﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يغالبه مغالب ﴿ الغفار ﴾ لمن أطاعه ، وقيل : معنى ﴿ العزيز ﴾ : المنيع الذي لا مثل له ، ومعنى ﴿ الغفار ﴾ : الستار لذنوب خلقه .

ثم أمره سبحانه أن يبالغ في إنذارهم ، ويبين لهم عظم الأمر ، وجلالته ، فقال : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : ما أنذرتكم به من العقاب وما بينته لكم من التوحيد هو خبر عظيم ، ونبأ جليل ، من شأنه العناية به ، والتعظيم له ، وعدم الاستخفاف به ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ النبإ العظيم ﴾ [النبأ : 1 ، 2] ، وقال مجاهد ، وقتادة ، ومقاتل : هو : القرآن ، فإنه نبأ عظيم ؛ لأنه كلام الله .

قال الزجاج : قل : النبأ الذي أنبأتكم به عن الله نبأ عظيم ، يعني : ما أنبأهم به من قصص الأولين ، وذلك دليل على صدقه ، ونبوّته ؛ لأنه لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله ، وجملة ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ توبيخ لهم ، وتقريع لكونهم أعرضوا عنه ، ولم يتفكروا فيه ، فيعلموا صدقه ، ويستدلوا به على ما أنكروه من البعث .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالمَلإِ الأَعلى ﴾ استئناف مسوق لتقرير أنه نبأ عظيم ، والملأ الأعلى هم : الملائكة ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي : وقت اختصامهم ؛ فقوله : ﴿ بالملإ الأعلى ﴾ متعلق بعلم على تضمينه معنى : الإحاطة ، وقوله : ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ متعلق بمحذوف ، أي : ما كان لي فيما سبق علم بوجه من الوجوه بحال الملأ الأعلى وقت اختصامهم ، والضمير في ﴿ يختصمون ﴾ راجع إلى الملأ الأعلى ، والخصومة الكائنة بينهم هي في أمر آدم كما يفيده ما سيأتي قريباً .

وجملة : ﴿ إِن يوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ معترضة بين اختصامهم المجمل ، وبين تفصيله بقوله : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة ﴾ .

والمعنى : ما يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين .

قال الفراء : المعنى : ما يوحى إليّ إلا أنني نذير مبين أبين لكم ما تأتون من الفرائض ، والسنن ، وما تدعون من الحرام ، والمعصية .

قال : كأنك قلت : ما يوحى إليّ إلا الإنذار .

قال النحاس : ويجوز أن تكون في محل نصب ، بمعنى : ما يوحى إليّ إلا لأنما أنا نذير مبين .

قرأ الجمهور بفتح همزة أنما على أنها وما في حيزها في محل رفع لقيامها مقام الفاعل ، أي : ما يوحى إليّ إلا الإنذار ، أو إلا كوني نذيراً مبيناً ، أو في محل نصب ، أو جرّ بعد إسقاط لام العلة ، والقائم مقام الفاعل على هذا الجارّ والمجرور .

وقرأ أبو جعفر بكسر الهمزة ؛ لأن في الوحي معنى القول ، وهي : القائمة مقام الفاعل على سبيل الحكاية ، كأنه قيل : ما يوحى إليّ إلا هذه الجملة المتضمنة لهذا الإخبار ، وهو أن أقول لكم إنما أنا نذير مبين .

وقيل : إن الضمير في ﴿ يختصمون ﴾ عائد إلى قريش ؛ يعني : قول من قال منهم : الملائكة بنات الله ، والمعنى : ما كان لي علم بالملائكة إذ تختصم فيهم قريش ، والأوّل أولى .

(168/662)

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَغَسَّاقٌ ﴾ قال : الزمهرير ﴿ وَءاخَرُ مِن شَكْلِهِ ﴾ قال : من نحوه ﴿ أزواج ﴾ قال : ألوان من العذاب .

وأخرج أحمد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أن دلوا من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا " قال الترمذي بعد إخراجه : لا

نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد .

قلت : ورشدين فيه مقال معروف .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والطبراني عن ابن مسعود في قوله : ﴿ فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِى النار ﴾ قال : أفاعي ، وحيات .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ بالملإ الأعلى ﴾ قال : الملائكة حين شوروا في خلق آدم ، فاختصموا فيه ، وقالوا : لا تجعل في الأرض خليفة .

وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بالملإ الأعلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال : هي : الخصومة في شأن آدم حيث قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة : 30] .

وأخرج عبد الرزاق ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، وابن نصر في كتاب الصلاة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاني الليلة ربي في أحسن صورة ، أحسبه قال في المنام – قال : يا محمد ، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفيّ حتى وجدت بردها بين ثديّي ، أو في نحري ، فعلمت ما في السموات ، والأرض ، ثم قال لي : يا محمد ، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم في الكفارات ، والكفارات : المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى

الجماعات ، وإبلاغ الوضوء في المكاره "

، الحديث .

(169/662)

وأخرج الترمذي وصححه ، ومحمد بن نصر ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه من حديث معاذ بن جبل نحوه بأطول منه ، وقال : " وإسباغ الوضوء في السبرات " وأخرج الطبراني ، وابن مردويه من حديث جابر بن سمرة نحوه بأخصر منه .

وأخرجا أيضاً من حديث أبي هريرة نحوه ، وفي الباب أحاديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(170/662)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ ﴾

هذا راجع إلى قوله : ﴿ وقال الكافرونَ هذا ساحِرٌ كذَّابٌ ﴾ [ص : 4] إلى قوله : ﴿

أءُنزِلَ عليهِ الذكرُ من بيننا ﴾ [ص : 8] ، فلما ابتدرهم الجواب عن ذلك التكذيب بأن نظَّر حالهم بحال الأمم المكذبة من قبلهم ولتنظير حال الرسول صلى الله عليه وسلم بحال الأنبياء الذين صبروا ، واستوعب ذلك بما فيه مقنع عاد الكلام إلى تحقيق مقام الرسول صلى الله عليه وسلم من قومه فأمره الله أن يقول : ﴿ إنَّما أنا مُنذِرٌ ﴾ مقابل قولهم : ﴿ هذا ساحِرٌ كذَّابٌ ﴾ ، وأن يقول : ﴿ ما من إله إلا الله ﴾ مقابل إنكارهم التوحيد كقولهم : ﴿ أجَعَلَ الآلهة إلها واحداً ﴾ [ص : 5] فالجملة استئناف ابتدائي .

وذكر صفة الواحد تأكيد لمدلول ﴿ ما من إله إلا الله ﴾ إماء إلى رد إنكارهم .

وذكر صفة ﴿ القهّار ﴾ تعريض بتهديد المشركين بأن الله قادر على قهرهم ، أي غلبهم . وتقدم الكلام على القهر عند قوله تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ في سورة [الأنعام : 18] .

(وإتباع ذلك بصفة رَبُّ السموات والأرضِ وما بينهما ﴾ تصريح بعموم ربوبيته وأنه لا شريك له في شيء منها .

ووصف ﴿ العزيزُ ﴾ تمهيد للوصف بـ ﴿ الغَفَّارُ ﴾ ، أي الغفّار عن عزّة ومقدرة لا عن عجز وملق أو مراعاة جانب مساو .

والمقصود من وصف ﴿ الغفَّارُ ﴾ هنا استدعاء المشركين إلى التوحيد بعد تهديدهم بمفاد وصف ﴿ القهَّارُ ﴾ لكي لا ييأسوا من قبول التوبة بسبب كثرة ما سيق إليهم من

الوعيد جرياً على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس .

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67)

إعادة الأمر بالقَول هنا مستأنَفاً .

والعدولُ عن الإتيان بحرف يعطف المقول أعني ﴿ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴾ على المقول السابق أعني ﴿ أنا مُنذِرٌ ﴾ [ص : 65] ، عدول يشعر بالاهتمام بالمقول هنا كي لا يؤتى به تابعاً لمقولٍ آخر فيضعف تصدي السامعين لوعيه .

(171/662)

وجملة ﴿ قُلْ هو نبؤا عظيمٌ أنتُم عنه مُعرضونَ ﴾ يجوز أن تكون في موقع الاستئناف الابتدائي انتقالاً من غرض وصف أحوال أهل المحشر إلى غرض قصة خلق آدم وشقاء الشيطان ، فيكون ضمير ﴿ هُوَ ﴾ ضميرَ شأن يفسره ما بعده وما يُبيّن به ما بعده من قوله : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ﴾ [ص : 71] جعل هذا كالمقدمة للقصة تشويقاً لتلقّيها فيكون المراد بالنبأ نبأَ خَلق آدم وما جرى بعده ، ويكون ضمير ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ عائداً إلى الملأ الأعلى لأن الملأ جماعة .

ويراد بالاختصام الاختلاف الذي جرى بين الشيطان وبين من بلَّغ إليه من الملائكة أمرَ الله

بالسجود لآدم ، فالملائكة هم الملأ الأعلى وكان الشيطان بينهم فعُدّ منهم قبل أن يطرد من السماء .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ قُلْ هو نبؤا عظيمٌ ﴾ الخ تذييلاً للذي سبق من قوله : ﴿ وإنَّ للمتَّقينَ لحُسنَ مئابٍ ﴾ [ص : 49] إلى هنا ، تذييلاً يشعر بالتنويه به وبطلب الإقبال على التدبر فيه والاعتبار به .

وعليه يكون ضمير ﴿ هُوَ ﴾ ضميراً عائداً إلى الكلام السابق على تأويله بالمذكور فلذلك أُتِي لتعريفه بضمير المفرد .

والمراد بالنبأ : خبر الحشر وما أُعد فيه للمتقين من حسن مآب ، وللطاغين من شر مآب ، ومن سوء صحبة بعضهم لبعض ، وتراشقهم بالتأنيب والخصام بينهم وهم في العذاب ، وترددهم في سبب أن لم يجدوا معهم المؤمنين الذين كانوا يَعدّونهم من الأشرار .

ووصف النبأ بـ ﴿ عَظِيمٌ ﴾ تهويل على نحو قوله تعالى : ﴿ عمَّ يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون ﴾ [النبأ : 13] .

وعظمة هذا النبأ بين الأنباء من نوعه من أنباء الشر مثل قوله : ﴿ فساد كبير ﴾ [الأنفال : 73] ، فتم الكلام عند قوله تعالى : ﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ .

فتكون جملة ﴿ ما كانَ لِي مِن علم بالملأ الأعلى ﴾ إلى قوله : ﴿ نَذِيرٌ مبينٌ ﴾ استئنافاً للاستدلال على صدق النبأ بأنه وحي من الله ولولا أنه وحي لما كان للرسول صلى الله عليه وسلم قِبَل بمعرفة هذه الأحوال على حد قوله تعالى : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ [آل عمران : 44] ، ونظائر هذا الاستدلال كثيرة في القرآن .

وتكون جملة ﴿ إذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنّي خالِقٌ بَشَراً ﴾ [ص : 71] إلى آخره استئنافاً ابتدائياً .

وعلى هذا فضمير ﴿ يختصمون ﴾ عائد إلى أهل النار من قوله : ﴿ تخاصُمُ أهلِ النارِ ﴾ [ص : 64] إذ لا تخاصم بين أهل الملأ الأعلى .

والمعنى : ما كان لي من علم بعالَم الغيب وما يجري فيه من الإخبار بما سيكون إذ يَختصم أهل النار في النار يوم القيامة .

وعلى كلا التفسيرين فمعنى ﴿ أنتُم عنهُ مُعْرِضُونَ ﴾ ، أنهم غافلون عن العلم به فقد أُعلموا بالنبأ بمعناه الأول وسيَعلَمون قريباً بالنبأ بمعناه الثاني .

وجيء بالجملة الاسمية في قوله : ﴿ أنتُم عنه معرِضُونَ ﴾ لإفادة إثبات إعراضهم وتمكنه منهم ، فأما إعراضهم عن النبأ بمعناه الأول فظاهر تمكنُه من نفوسهم لأنه طالما أنذرهم

بعذاب الآخِرة ووصفه فلم يكترثوا بذلك ولا ارْعَوَوْا عن كفرهم .

وأما إعراضهم عن النبأ بمعناه الثاني ، فتأويلُ تمكنه من نفوسهم عدم استعدادهم للاعتبار بمغزاهُ من تحقق أن ما هم فيه هو وسوسة من الشيطان قصداً للشَّرّ بهم .

ولعل هذه الآية من هذه السورة هي أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم من ذكر قِصة خلق آدم وسجود الملائكة وإباء إبليس من السجود ، فإن هذه السورة في ترتيب نزول سور القرآن لا يُوجد ذكر قصة آدم في سورة نزلت قبلَها .

فذلك وجهُ التوطئة للقصة بأساليب العناية والاهتمام مما خلا غيرُها عن مثله وبأنها نبأ كانوا معرضين عنه .

(173/662)

وأيًّا مَّا كان فقوله : ﴿ أَنتُم عنْهُ مُعرِضُونَ ﴾ توبيخ لهم وتحميق .

وجملة ﴿ ما كَانَ لي من علمٍ بالملأ الأعلى إذ يختصمونَ ﴾ اعتراض إبلاغ في التوبيخ على الإِعراض عن النبأ العظيم ، وحجة على تحقق النبأ بسبب أنه موحىً به من الله وليس للرسول صلى الله عليه وسلم سبيل إلى عمله لولا وحي الله إليه به .

وذكر فعل ﴿ كان ﴾ دال على أن المنفي علمه بذلك فيما مضى من الزمن قبل أن يوحى

إليه بذلك كما قال تعالى : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ [آل عمران : 44] وقوله : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ [القصص : 44] .

والباء في قوله : ﴿ بالمَلأ الأعلى ﴾ على كلا المعنيين للنبأ ، لتعدية ﴿ عِلم ﴾ لتضمينه معنى الإِحاطة ، وهو استعمال شائع في تعدية العلم .

ومنه ما في حديث سؤال الملكين في "الصحيح" فيقال له : ما علمك بهذا الرجل .

ويجوز على المعنى الثاني في النبأ أن تكون الباء ظرفية ، أي ما كان لي علم كائن في الملأ الأعلى ، أي ما كنت حاضراً في الملأ الأعلى فهي كالباء في قوله : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأم ﴾ [القصص : 44] .

والملأُ : الجماعة ذات الشأن ، ووصفه بـ ﴿ الأعلى ﴾ لأن المراد ملأُ السماوات وهم الملائكة ولهم علوّ حقيقي وعلوّ مجازيّ بمعنى الشرف .

و ﴿ إذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ظرف متعلق بفعل ﴿ ما كانَ لي من عِلم ﴾ أي حين يختصم أهل الملأ الأعلى على أحد التأويلين ، أي في حين تنازع الملائكة وإبليس في السماء .

والتعبير بالمضارع في موضع المضيّ لقصد استحضار الحالة ، أو حين يختصم الطاغون وأتباعهم في النار بين يدي الملأ الأعلى ، أي ملائكة النار أو ملائكة المحشر ، والمضارع على

أصله من الاستقبال .

والاختصام : افتعال من خَصمَه ، إذا نازعه وخالفه فهو مبالغة في خَصَم .

(174/662)

وجملة ﴿ إن يوحى إليَّ إلاَّ أنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ ﴾ مبيّنة لجملة ﴿ ما كانَ لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾ ، أي ما علمتُ بذلك النبأ إلا بوحي من الله وإنما أوحَى الله إليّ ذلك لأكون نذيراً مبيناً .

وقد رُكّبت هذه الجملة من طريقين للقصر : أحدهما طريق النفي والاستثناء ، والآخر طريق ﴿ أنَّما ﴾ المفتوحة الهمزة وهي أخت (إنما) المكسورة الهمزة في معانيها التي منها إفادة الحصر ، ولا التفات إلى قول من نفوا إفادتها الحصر فإنها مركبة من (أنّ) المفتوحة الهمزة و (ما) الكافّة وليست (أنّ) المفتوحة الهمزة إلا (إنِ) المكسورة تُغَيَّر كسرة همزتها إلى فتحة لتفيد معنىً مصدرياً مشرباً بـ (أَنْ) المصدرية إشراباً بديعاً جعل شعاره فتح همزتها لتشابه (أَنْ) المصدرية في فتح الهمزة وتشابه (أَنَّ) في تشديد النون ، وهذا من دقيق الوضع في اللغة العربية .

وتكون ﴿ أنَّما ﴾ مفتوحةَ الهمزة إذا جعلت معمولة لعامل في الكلام .

والذي يقتضيه مقام الكلام هنا أن فتح همزة ﴿ أَنما ﴾ لأجل لام تعليل مقدرة مجرور بها ﴿ أنما ﴾ .

والتقدير : إلاّ لأَنما أنا نذير ، أي إلا لعلّة الإِنذار ، أي ما أوحي إلي نبأ الملأ الأعلى إلا لأنذركم به ، أي ليس لمجرد القصص .

فالاستثناء من علل ، وقد نُزِّل فعل ﴿ يوحى ﴾ منزلة اللازم ، أي ما يوحى إلي وحيٌ فلا يقدّر له مفعول لقلة جدواه وإيثار جدوى تعليل الوحي .

وبهذا التقدير تكمل المناسبة بين موقع هذه الجملة وموقع جملة ﴿ ما كانَ لي مِن علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾ المبيّنة بها جملةُ ﴿ قُل هُوَ نبؤا عظيم أنتم عنه مُعرضون ﴾ ، إذ لا مناسبة لو جعل ﴿ أَنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ ﴾ مستثنى من نائب فاعل الوحي بأن يقدر : إن يوحى إليّ شيء إلا أنما أنا نذير مبين ، أي ما يوحى إليّ شيء إلا كوني نذيراً ، وإن كان ذلك التقدير قد يسبق إلى الوهم لكنه بالتأمل يتّضح رجحان تقدير العلة عليه .

(175/662)

فأفادت جملة ﴿ إن يوحى إليَّ أَنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ ﴾ حصر حكمة ما يأتيه من الوحي في حصول الإِنذار وحصر صفة الرسول صلى الله عليه وسلم في صفة النذارة ، ويستلزم

هذان الحصران حصراً ثالثاً ، وهو أن إخبار القرآن وحي من الله وليست أساطير الأولين كما زعموا .

فحصل في هذه الجملة ثلاثة حصور : اثنان منها بصريح اللفظ ، والثالث بكناية الكلام ، وإلى هذا المعنى أشار قوله تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ [القصص : 46] .

وهذه الحصور : اثنان منها إضافيان ، وهما قصر ما يوحى إليه على علة النذارة وقصر الرسول صلى الله عليه وسلم على صفة النذارة ، وكلاهما قلب لاعتقادهم أنهم يسمعون القرآن ليتخذوه لعباً واعتقادهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم ساحر أو مجنون .

وعلم من هذا أن ذكر نبأ خلق آدم قصد به الإِنذار من كيد الشيطان .

وقرأ أبو جعفر ﴿ إلاَّ إنَّما ﴾ بكسر همزة ﴿ إنما ﴾ على تقدير القول ، أي ما يوحى إلا هذا الكلام . انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(176/662)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) ﴾

قل يا محمد : إنما أنا مُنْذِرٌ مخوِّفٌ ، مُبَلِّغٌ رسالةَ ربي ، وما من إلهٍ إلا الله الواحد الذي لا شريك له .

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67)

أي الذي أَتَيْتُكم به من الاخبار عن القيامة والحَشْرِ ، والجنة والنار ، وما أخبرتكم به عن نُبُوَّتي وصِدْقي هو نبأ عظيمٌ ، وأنتم أعرضْتُم عنه .

وما كان لي من عِلْم بالملأ الأعلى واختصامهم فيه لولا أَنَّ الله عَرَّفني ، وإلا ما كُنْتُ عَلِمْتُه .

والملأَ الأعلّى قومٌ من الملائكة في السماء العليا ، واختصامهم كان في شأن آدم حيث قولوا : أتجعل فيها مَنْ يُفْسِد فيها ؟

وقد ورد في الخبر : " أن جبريل سأل الرسولَ صلى الله عليه وسلم عن الاختصام فقال : لا أدري . فقال جبريل : في الكفارات والدرجات ؛ فالكفارات إسباغُ الوضوء في السَّبْرَات ، ونَقْل الأقدامِ إلى الجماعات ، وأما الدرجات فإفشاءُ السلام ، وإطعامُ الطعام ، والصلاةُ بالليل والناسُ نيام " ، وإنما اختلفوا في بيان الأجر وكمية الفضيلة فيها – فيجتهدون ويقولون إن هذا أفضل من هذا ، ولكنهم في الأصل لا يجحدون .

. . . وهذا إنما يُوحى إليَّ وأنا منذر مبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 261.262 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دل على أنه نذير ، وأزال ما ربما أوردوه عليه ، أتبعه ظرف اختصام الملأ الأعلى ، أو بدل " إذ " الأولى فقال : ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ قال ﴾ ودل على أنه هذا كله إحسان إليه وإنعام عليه بذكر الوصف الدال على ذلك ، ولفت القول عن التكلم إلى الخطاب لأنه أقعد في المدح وأدل على أنه كلام الله كما في قوله : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ﴾ [البقرة : 97

] دليلاً يوهم أنه ظرف ليوحى أو لنذير فقال : ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك بجعلك خير المخلوقين وأكرمهم عليه فإنه أعطاك الكوثر ، وهو كل ما يمكن أن تحتاج إليه ﴿ للملائكة ﴾ وهم الملأ الأعلى وإبليس منهم لأنه كان إذ ذاك معهم وفي عدادهم .

(178/662)

ولما كانوا عالمين بما دلهم عليه دليل من الله كما تقدم في سورة البقرة أن البشر يقع منه الفساد ، فكانوا يبعدون أن يخلق سبحانه من فيه فساد لأنه الحكيم الذي لا حكيم سواه ، أكد لهم سبحانه قوله : ﴿ إني خالق بشراً ﴾ أي شخصاً ظاهر البشرة لا ساتر له من ريش ولا شعر ولا غيرهما ليكون التأكيد دليلاً على ما مضى من مراجعتهم لله تعالى التي أشار إليها بالاختصام ، وبين أصله بقوله معلقاً بخالق أو بوصف بشر : ﴿ من طين ﴾ اجعله خليفتي في الأرض وإن كان في ذلك فساد لأني أريد أن أظهر حلمي ورحمتي وعفوي وغير ذلك من صفاتي التي لا يحسن في الحكمة إظهارها إلا مع الذنوب " لو لم تذنبوا فتستغفروا لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم " قال القشيري : وإخباره للملائكة بذلك يدل على تفخيم شأن آدم عليه السلام لأنه خلق ما خلق من الكونين والجنة والنار والعرش والكرسي والملائكة ، ولم يقل في صفة شيء منها ما قاله في صفة آدم عليه السلام وأولاده ، ولم يأمر

بالسجود لشيء غيره .

ولما أخبرهم سبحانه بما يريد أن يفعل ، سبب عنه قوله : ﴿ فإذا سويته ﴾ أي هيأنه بإتمام خلقه لما يراد منه من قبول الروح وما يترتب عليه ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ فصار حساساً متنفساً ، سبه سبحانه إفاضته الروح بما يتأثر عن نفخ الإنسان من لهب النيران ، وغير ذلك من التحريك والإسكان ، والزيادة والنقصان ، وأضافه سبحانه إليه تشريفاً له ، ﴿ فقعوا له ﴾ أي خاصة ﴿ ساجدين ﴾ أي اسجدوا له للتكرمة امتثالاً لأمري سجوداً هو بغاية ما يكون من الطواعية والاختيار والمحبة لتكونوا كأنكم وقعتم بغير اختيار ، ففعلوا ما أمرهم به سبحانه من غير توقف ، ولذلك ذكر فعلهم مع جواز تأنيثه فقال :

﴿ فسجد ﴾ أي عند ما نفخ فيه الروح ﴿ الملائكة ﴾ على ما أمرهم الله ، ولما كان إسناد الخبر إلى الجميع قد يراد به أكثرهم ، أكد بقوله : ﴿ كلهم ﴾ إرادة لرفع المجاز .

(179/662)

ولما كان لا يقدح في ذلك واحد مثلاً أو قليل لا يعبأ بهم لضعف أو نحوه ، رفع ذلك بقوله : ﴿ أجمعون ﴾ مع إفادة أن السجود كان في آن واحد إعلاماً بشدة انقيادهم ، وحسن تأهبهم للطاعة واستعدادهم ، ثم زاد في إيضاح العموم بالاستثناء الذي هو معياره فقال :

﴿ إلا إبليس ﴾ عبر عنه بهذا الاسم لكونه من الإبلاس وهو انقطاع الرجاء إشارة إلى أنه في أول خطاب الله له بالإنكار عليه على كيفية علم منها تأبد الغضب عليه وتحتم العقوبة له .

ولما عرف بالاستثناء أنه لم يسجد ، وكان مبنى السورة على استكبار الكفرة بكونهم في عزة وشقاق ، بين أن المانع له من السجود الكبر تنفيراً عنه مقتصراً في شرح الاختصام عليه وعلى ما يتصل به فقال : ﴿ استكبر ﴾ أي طلب أن يكون أكبر من أن يؤمر بالسجود له وأوجد الكبر على أمر الله ، وكان من المستكبرين العريقين في هذا الوصف كما استكبرتم أيها الكفرة على رسولنا ، وسنرفع رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما رفعنا آدم صفينا عليه السلام على من استكبر عن السجود له ، ونجعله خليفة هذا الوجود كما جعلنا آدم عليه السلام ، وأشرنا إلى ذلك في هذه السورة بافتتاحها بخليفة واختتامها بخليفة أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذكر كل من أحوالهما .

ولما كان الفعل الماضي ربما أوهم أنه حدث فيه وصف لم يكن ، وكان التقدير : فكفر بذلك ، عطفاً عليه بياناً لأنه جبل على الكفر ولم يحدث منه إلا ظهور ذلك للخلق قوله : ﴿ وكان ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ من الكافرين ﴾ أي عريقاً في وصف الكفر الذي منشؤه الكبر على الحق المستلزم للذل للباطل ، فالآية من الاحتباك : ذكر فعل الاستكبار أولاً ،

دليلاً على فعل الكفر ثانياً ووصف الكفر ثانياً دليلاً على وصف الاستكبار أولاً ، وسر ذلك أن ما ذكره أقعد في التحذير بأن من وقع منه كبر جره إلى الكفر .

(180/662)

ولما كان من خالف أمر الملك جديراً بأن يحدث إليه أمر ينتقم به منه ، فتشوف السامع لما كان من الملك إليه ، استأنف البيان لذلك بقوله : ﴿ قال ﴾ وبين أنه بمحل البعد بقوله : ﴿ يا ﴾ وبين يأسه من الرحمة ، وأنه لا جواب له اصلاً بتعبيره بقوله : ﴿ إبليس ما ﴾ أي ، أي شيء ﴿ منعك أن تسجد ﴾ وبين ما يوجب طاعته ولو أمر بتعظيم ما لا يعقل بقوله معبراً بأداة ما لا يعقل عمن كان عند السجود له عاقلاً كامل العقل : ﴿ لما خلقت ﴾ فأنا العالم به وبما يستحقه دون غيري ، وما أمرت بالسجود له إلا لحكمة في الأمر وابتلاء للغير ، وأكد بيان ذلك بذكر اليد وتثنيتها فقال : ﴿ بيدي ﴾ أي من غير توسط سبب من بين هذا النوع وما ذاك إلا لمزيد اختصاص ، والمراد باليد هنا صفة شريفة غير النعمة والقدرة معلومة له سبحانه ولمن تبحر في علمي اللغة والسنّة ، خص بها خلق آدم عليه السلام تشريفاً له وفي تثنية اليد إشارة إلى أنه ربما أظهر فيه معاني الشمال وإن كان كل من يديه مباركاً ، ثم قسم المانع إلى طلب العلو ووجود العلو مع الإنكار عليه في الاستناد إلى شيء

منهما ، فقال في صيغة استفهام التقرير مع الإنكار والتقريع ، بياناً لأنه يلزمه لا محالة زيادة على ما كفر به أن يكون على أحد هذين الأمرين : ﴿ أستكبرت ﴾ أي طلبت أن تكون أعلى منه وأنت تعلم أنك دونه فأنت بذلك ظالم ، فكنت من المستكبرين العريقين في وصف الظلم ، فإن من اجترأ على أدناه أوشك أن يصل إلى أعلاه ﴿ أم كنت ﴾ أي مما لك من الجبلة الراسخة ﴿ من العالين ﴾ أي الكبراء المستحقين للكبر وأنا لا أعلم ذلك فنقصتك من منزلتك فكنت جائراً في أمري لك بما أمرتك به ، فلذلك علوت بنفسك فلم تسجد له ، هذا المراد لا ما يقوله بعض الملاحدة من أن العالين جماعة من الملائكة لم يسجدوا لأنهم لم يؤمروا لأن ذلك قدح في العموم المؤكد هذا التأكيد العظيم ، وفي تفسير العلماء له من غير شبهة ، والآية من الاحتباك ؛ دل فعل الاستكبار أولاً على

(181/662)

فعل العلو ثانياً ، ووصف العلو ثانياً على وصف الاستكبار أولاً ، وسر ذلك ان إنكار الفعل المطلق مستلزم لإنكار المقيد لأنه المطلق بزيادة ، وإنكار الوصف مستلزم لإنكار الفعل لأنه جزوه مع أن إنكار الفعل من هذا مستلزم لإنكار الفعل من ذاك ، فيكون كل من الفعلين مدلولاً على إنكاره مرتين : تارة بإنكار فعل عديله وأخرى بإنكار وصفه نفسه

والوصفان كذلك وفعل الكبر أجدر بالإنكار من فعل العلو و " أم " معادلة لهمزة الاستفهام وإن حذفت من قراءة بعضهم لدلالة " أم " عليها وإن اختلف الفعل ، قال أبو حيان : قال سيبويه : تقول : أضربت زيداً أم قتلته ، فالبدء هنا بالفعل أحسن لأنك إنما تسأل عن أحدهما لا تدري أيهما كان ، ولا تسأل عن موضع أحدهما كأنك قلت : أي ذلك كان – انتهى .

ولما صدعه سبحانه بهذا الإنكار ، دل على إبلاسه بقوله مستأنفاً : ﴿ قال ﴾ مدعياً لأنه من العالين : ﴿ أنا خير منه ﴾ أي فلا حكمة في أمري بالسجود له ، ثم بين ما ادعاه بقوله : ﴿ خلقتني من نار ﴾ أي وهي في غاية القوة والإشراق ﴿ وخلقته من طين ﴾ أي وهو في غاية الكدورة والضعف ، واستؤنف بيان ما حصل التشوف إليه من علم جوابه بقوله معرضاً عن القدح في جوابه لظهور سقوطه بأن المخلوق المربوب لا اعتراض له على ربه بوجه : ﴿ قال فاخرج ﴾ أي بسبب تكبرك ونسبتك الحكيم الذي لا اعتراض عليه إلى الجور ﴿ منها ﴾ أي من الجنة محل الطهر عن الأدواء الظاهرة والباطنة ، ثم علل ذلك بقوله مؤكداً لأجل ادعاء أنه أهل لأقرب القرب : ﴿ فإنك رجيم ﴾ أي مستحق للطرد والرجم وهو الرمي بالحجارة الذي هو للمبالغة في الطرد .

ولما كان الطرد قد يكون في وقت يسير ، بين أنه دائم بقوله ، مؤكداً إشارة إلى الإعلام بما في نفسه من مزيد الكبر : ﴿ وإن عليك ﴾ أي خاصة .

ولما كان السياق هنا للتكلم في غير مظهر العظمة لم يأت بلام الكلام بخلاف الحجر فقال : ﴿ لعنتي ﴾ أي إبعادي مع الطرد والخزي والهوان والذل مستعل ذلك عليك دائماً قاهراً لك لا تقدر على الانفكاك عنه بوجه ، وأما غيرك فلا يتعين للعن بل يكون بين الرجاء والخوف لا علم للخلائق بأنه مقطوع بلعنة ما دام حياً إلا من أخبر عنه نبي من الأنبياء بذلك ، ثم غيى هذا اللعن بقوله : ﴿ إلى يوم الدين ﴾ أي فإذا جاء ذلك اليوم أخذ في المجازاة لكل عامل بما عمل ولم يبق لمذنب وقت يتدارك فيه ما فاته ، وحينئذ يعلم أهل الاستحقاق للعن كلهم ، ولم يبق علم ذلك خاصاً بإبليس ، بل يقع العلم بجميع أهل اللعنة ، فالغاية لعلم الاختصاص باللعن لا للعن .

ولما كان ذلك ، تشوف السامع إلى ما كان منه فأخبر سبحانه به في سياق معلم أنه منعه التوفيق فلم يسأل التخفيف ولا عطف نحو التوبة ، بل أدركه الخذلان بالتمادي في الطغيان ، فطلب ما يزداد به لعنة من الإضلال والإعراق في الضلال ضد ما أنعم به على آدم عليه السلام ، فقال ذاكراً صفة الإحسان والتسبيب لسؤال الإنظار لما جرأه عليهما من ظاهر العبارة في أن اللعنة مغباة بيوم الدين : ﴿ قال رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ بإيجادي وجعلي في

عداد الملائكة الكرام ﴿ فأنظرني ﴾ أي بسبب ما عذبتني به من الطرد ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أي آدم وذريته الذين تبعثهم ببعث جميع الخلائق : ﴿ قال ﴾ مؤكداً لأن مثل ذلك في خرقه للعادة لا يكاد يتصور : ﴿ فإنك ﴾ أي بسبب هذا السؤال ﴿ من المنظرين ﴾ وهذا يدل أن مثل هذا الإنظار لغيره أيضاً .

(183/662)

ولما ديج في عبارته بما يقتضي السؤال في أن لا يموت ، فإن يوم البعث ظرف لفيض الحياة لا لغيضها ولبسطها لا لقبضها ، منعه ذلك بقوله : ﴿ إلى يوم الوقت ﴾ ولما كان تدبيجه في السؤال قد أفهم تجاهله بما هو أعلم الخلق به من تحتم الموت لكل من لم يكن في دار الخلد الذي أبلغ الله تعالى في الإعلام به ، قال : ﴿ المعلوم ﴾ وهو الصعقة الأولى وما يتبعها . ولما كانت هذه الإجابة سبباً لأن يخضع وينيب شكراً عليها ، وأن يطغى ويتمرد ويخيب لأنها تسليط ، وتهيئة للشر ، فاستشرف السامع إلى معرفة ما يكون من هذين المسببين ، عرف أنه منعه الخذلان من اختيار الإحسان بقوله : ﴿ قال فبعزتك ﴾ أي التي أبت أن يكون لغيرك فعل لا بغير ذلك ، ويجوز أن تكون الباء للقسم ﴿ لأغوينهم ﴾ أي ذرية آدم عليه السلام ﴿ أجمعين ﴾ قال القشيري : ولو عرف عزته لما أقسم بها على مخالفته .

ولما كان عالماً بأن القادر ما خلق آدم عليه السلام وشرفه بما شرفه به ليشقي ذريته كلهم قال : ﴿ إلا عبادك ﴾ فأضافهم إليه سبحانه تنبيهاً على أن غيرهم قد انسلخوا من التشرف بعبوديته بالنسبة إلى من أطاعوه .

ولما كان يمكن أن يكون المستثنى ، من غير البشر قيد بقوله : ﴿ منهم المخلصين ﴾ أي الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته فأخلصوا قصدهم لها ، وعرف من الاستثناء أنهم قليل وأن الغواة هم الأصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 402 . 407 ﴾

(184/662)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) ﴾

اعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر ، وذلك لأن إبليس ، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر ، والكفار إنما نازعوا محمداً عليه السلام بسبب الحسد والكبر ، فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجراً لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين في النظر والاستدلال ، ومنعهم عن

الإصرار والتقليد وذكر في تقريره أموراً أربعة أولها : أنه نبأ عظيم فيجب الاحتياط فيه والثاني : أن قصة سؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق البشر يدل على أن الحكمة الأصلية في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر الثالث : أن إبليس إنما خاصم آدم عليه السلام لأجل الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يحترز عنهما ، فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات ، واعلم أن هذه القصة قد تقدم شرحها في سور كثيرة ، فلا فائدة في الإعادة إلا ما لا بد منه وفيها مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ إِنِّى خالق بَشَراً مّن طِينٍ ﴾ سؤالات :

الأول : أن هذا النظم إنما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين ، كما إذا قيل أنا متخذ سواراً من ذهب ، فهذا إنما يستقيم لو أمكن اتخاذه من الفضة .

الثاني : ذكر ههنا أنه خلق البشر من طين ، وفي سائر الآيات ذكر أنه خلقه من سائر الأشياء كقوله تعالى في آدم إنه خلقه من تراب وكقوله : ﴿ مِن صلصال مّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : 26] وكقوله : ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : 37] .

الثالث : أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أخبر الملائكة بأنه خلق بشراً من طين .

لم يقولوا شيئاً ، وفي الآية الأخرى وهي التي قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : 30] بين أنهم أوردوا السؤال والجواب فبينهما تناقض ، والجواب عن الأول أن التقدير كأنه سبحانه وصف لهم أولاً أن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية ، فلما قال : ﴿ إِنِّى خالق بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ فكأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات ، إنما أخلقه من الطين ، والجواب عن الثاني أن المادة البعيدة هو التراب ، وأقرب منه الطين ، وأقرب منه الحمأ المسنون ، وأقرب منه الصلصال فثبت أنه لا منافاة بين الكل ، والجواب عن الثالث أنه في الآية المذكورة في سورة البقرة بين لهم أنه يخلق في الأرض خليفة ، وبالآية المذكورة ههنا بين أن ذلك الخليفة بشر مخلوق من الطين .

المسألة الثانية :

قال ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ وهذا يدل على أن تخليق البشر لا يتم إلا بأمرين التسوية أولاً ، ثم نفخ الروح ثانياً ، وهذا حق لأن الإنسان مركب من جسد ونفس . أما الجسد فإنه إنما يتولد من المني ، والمني إنما يتولد من دم الطمث وهو إنما يتولد من الأخلاط الأربعة ، وهي إنما تتولد من الأركان الأربعة ، ولا بد في حصول هذه التسوية من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد منها ، ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركيباتها ، ومن رعاية المدة التي في مثلها حصل ذلك المزاج الذي لأجله يحصل الاستعداد لقبول النفس

الناطقة .

وأما النفس فإليها الإشارة بقوله : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ ولما أضاف الروح إلى نفسه دل على أنه جوهر شريف علوي قدسي ، وذهبت الحلولية إلى أن كلمة (من) تدل على التبعيض ، وهذا يوهم أن الروح جزء من أجزاء الله تعالى ، وهذا غاية الفساد ، لأن كل ما له جزء وكل ، فهو مركب وممكن الوجود لذاته ومحدث .

(186/662)

وأما كيفية نفخ الروح ، فاعلم أن الأقرب أن جوهر النفس عبارة عن أجسام شفافة نورانية ، علوية العنصر ، قدسية الجوهر ، وهي تسري في البدن سريان الضوء في الهواء ، وسريان النار في الفحم ، فهذا القدر معلوم .

أما كيفية ذلك النفخ فمما لا يعلمه إلا الله تعالى .

المسألة الثالثة :

الفاء في قوله : ﴿ فَقَعُوا لَهُ ساجدين ﴾ تدل على أنه كما تم نفخ الروح في الجسد توجه أمر الله عليهم بالسجود ، وأما أن المأمور بذلك السجود ملائكة الأرض ، أو دخل فيه ملائكة السموات مثل جبريل وميكائيل ، والروح الأعظم المذكور في قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح

والملائكة صَفّاً ﴾ [النبأ : 38] ففيه مباحث عميقة .

وقال بعض الصوفية : الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم ، هم القوى النباتية والحيوانية الحسية والحركية ، فإنها في بدن الإنسان خوادم النفس الناطقة ، وإبليس الذي لم يسجد هو القوة الوهمية التي هي المنازعة لجوهر العقل ، والكلام فيه طويل .

وأما بقية المسائل وهي : كيفية سجود الملائكة لآدم ، وأن ذلك هل يدل على كونه أفضل من الملائكة أم لا ، وأن إبليس هل كان من الملائكة أم لا ، وأنه هل كان كافراً ، أصلياً أم لا ، فكل ذلك تقدم في سورة البقرة وغيرها .

المسألة الرابعة :

احتج من أثبت الأعضاء والجوارح لله تعالى بقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ في إثبات يدين لله تعالى ، بأن قالوا ظاهر الآية يدل عليه ، فوجب المصير إليه ، والآيات الكثيرة واردة على وفق هذه الآية ، فوجب القطع به .

(187/662)

واعلم أن الدلائل الدالة على نفي كونه تعالى جسماً مركباً من الأجزاء والأعضاء ، قد سبقت إلا أنا نذكر ههنا نكتاً جارية مجرى الإلزامات الظاهرة فالأول : أن من قال إنه مركب

من الأعضاء والأجزاء ، فإما أن يثبت الأعضاء التي ورد ذكرها في القرآن ولا يزيد عليها ، وإما أن يزيد عليها ، فإن كان الأول لزمه إثبات صورة لا يمكن أن يزاد عليها في القبح ، لأنه يلزمه إثبات وجه بحيث لا يوجد منه إلا مجرد رقعة الوجه لقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾

[القصص : 88] ويلزمه أن يثبت في تلك الرقعة عيوناً كثيرة لقوله : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : 14] وأن يثبت جنباً واحداً لقوله تعالى : ﴿ ياحسرتى على مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ الله ﴾ [الزمر : 56] وأن يثبت على ذلك الجنب أيدي كثيرة لقوله تعالى : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيدِينَا ﴾ [يس : 71] وبتقدير أن يكون له يدان فإنه يجب أن يكون كلاهما على جانب واحد لقوله صلى الله عليه وسلم : " الحجر الأسود يمين الله في الأرض " وأن يثبت له ساقاً واحداً لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ [القلم : 42] فيكون الحاصل من هذه الصورة ، مجرد رقعة الوجه ويكون عليها عيون كثيرة ، وجنب واحد ويكون عليه أيد كثيرة وساق واحد ، ومعلوم أن هذه الصورة أقبح الصور ، ولو كان هذا عبداً لم يرغب أحد في شرائه ، فكيف يقول العاقل إن رب العالمين موصوف بهذه الصورة .

وأما القسم الثاني : وهو أن لا يقتصر على الأعضاء المذكورة في القرآن ، بل يزيد وينقص على وفق التأويلات ، فحينئذ يبطل مذهبه في الحمل على مجرد الظواهر ، ولا بد له من قبول دلائل العقل .

الحجة الثانية : في إبطال قولهم إنهم إذا أثبتوا الأعضاء لله تعالى ، فإن أثبتوا له عضو الرجل فهو رجل وأن أثبتوا له عضو النساء فهو أنثى ، وإن نفوهما فهو خصي أو عنين ، وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

(188/662)

الحجة الثالثة : أنه في ذاته سبحانه وتعالى ، إما أن يكون جسماً صلباً لا ينغمز ألبتة ، فيكون حجراً صلباً ، وإما أن يكون قابلاً للانغماز ، فيكون ليناً قابلاً للتفرق والتمزق . وتعالى الله عن ذلك .

الحجة الرابعة : أنه إن كان بحيث لا يمكنه أن يتحرك عن مكانه ، كان كالزمن المعقد العاجز ، وإن كان بحيث يمكنه أن يتحرك عن مكانه ، كان محلاً للتغيرات ، فدخل تحت قوله : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ [الأنعام : 76] .

الحجة الخامسة : إن كان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتحرك كان كالميت ، وإن كان يفعل هذه الأشياء ، كان إنساناً كثير التهمة محتاجاً إلى الأكل والشرب والوقاع وذلك باطل .

الحجة السادسة : أنهم يقولون إنه ينزل كل ليلة من العرش إلى السماء الدنيا ، فنقول لهم حين نزوله : هل يبقى مدبراً للعرش ويبقى مدبراً للسماء الدنيا حين كان على العرش ، وحينئذ

لا يبقى في النزول فائدة ، وإن لم يبق مدبراً للعرش فعند نزوله يصير معزولاً عن إلهية العرش والسموات .

الحجة السابعة : أنهم يقولون إنه تعالى أعظم من العرش ، وإن العرش لا نسبة لعظمته إلى عظمة الكرسي ، وعلى هذا الترتيب حتى ينتهي إلى السماء الدنيا ، فإذا كان كذلك كانت السماء الدنيا بالنسبة إلى عظمة الله كالذرة بالنسبة إلى البحر ، فإذا نزل فإما أن يقال إن الإله يصير صغيراً بحيث تسعه السماء الدنيا ، وإما أن يقال إن السماء الدنيا تصير أعظم من العرش ، وكل ذلك باطل .

الحجة الثامنة : ثبت أن العالم كرة ، فإن كان فوق بالنسبة إلى قوم كانت تحت بالنسبة إلى قوم آخرين وذلك باطل ، وإن كان فوق بالنسبة إلى الكل ، فحينئذ يكون جسماً محيطاً بهذا العالم من كل الجوانب ، فيكون إله العالم على هذا القول فلكاً من الأفلاك .

(189/662)

الحجة التاسعة : لما كانت الأرض كرة ، وكانت السموات كرات ، فكل ساعة تفرض الساعات فإنها تكون ثلث الليل في حق أقوام معينين من سكان كرة العوارض ، فلو نزل من العرش في ثلث الليل وجب أن يبقى أبداً نازلاً عن العرش ، وأن لا يرجع إلى العرش ألبتة .

الحجة العاشرة : أنا إنما زيفنا إلهية الشمس والقمر لثلاثة أنواع من العيوب أولها : كونه مؤلفاً من الأجزاء والأبعاض وثانيها : كونه محدوداً متناهياً وثالثها : كونه موصوفاً بالحركة والسكون والطلوع والغروب ، فإذا كان إله المشبهة مؤلفاً من الأعضاء والأجزاء كان مركباً ، فإذا كان العرش كان محدوداً متناهياً ، وإن كان ينزل من العرش ويرجع إليه كان موصوفاً بالحركة والسكون ، فهذه الصفات الثلاثة إن كانت منافية للألهية وجب تنزيه الإله عنها بأسرها ، وذلك يبطل قول المشبهة ، وإن لم تكن منافية للألهية فحينئذ لا يقدر أحد على الطعن في إلهية الشمس والقمر .

الحجة الحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] ولفظ الأحد مبالغة في الوحدة ، وذلك ينافي كونه مركباً من الأجزاء والأبعاض .

(190/662)

الحجة الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿ واللهُ الغني وَأَنتُمُ الفقراء ﴾ [محمد : 38] ولو كان مركباً من الأجزاء والأبعاض لكان محتاجاً إليها وذلك يمنع من كونه غنياً على الإطلاق ، فثبت بهذه الوجوه أن القول بإثبات الأعضاء والأجزاء لله محال ، ولما ثبت بالدلائل اليقينية وجوب تنزيه الله تعالى ، عن هذه الأعضاء ، فنقول ذكر العلماء في لفظ اليد وجوهاً الأول :

أن اليد عبارة عن القدرة تقول العرب ما لي بهذا الأمر من يد ، أي من قوة وطاقة ، قال تعالى : ﴿ أَوْ يَعْفُوَاْ الذى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النكاح ﴾ [البقرة : 237] ، الثاني : اليد عبارة عن النعمة يقال أيادي فلان في حق فلان ظاهرة والمراد النعم والمراد باليدين النعم الظاهرة والباطنة أو نعم الدين والدنيا الثالث : أن لفظ اليد قد يزاد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان هذا ما كسبت يداك وكقوله تعالى : ﴿ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف : 57] .

ولقائل أن يقول حمل اليد على القدرة ههنا غير جائز ، ويدل عليه وجوه الأول : أن ظاهر الآية يقتضي إثبات اليدين ، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لزم إثبات قدرتين لله وهو باطل والثاني : أن الآية تقتضي أن كون آدم مخلوقاً باليدين يوجب فضيلته وكونه مسجوداً للملائكة ، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لكان آدم مخلوقاً بالقدرة ، لكن جميع الأشياء مخلوقة بقدرة الله تعالى فكما أن آدم عليه السلام مخلوق بيد الله تعالى ، فكذلك إبليس مخلوق بيد الله تعالى ، وعلى تقدير أن تكون اليد عبارة عن القدرة ، لم تكن هذه العلة علة لكون آدم مسجوداً لإبليس أولى من أن يكون إبليس مسجوداً لآدم ، وحينئذٍ يختل نظم الآية ويبطل الثالث : أنه جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال :

"كلتا يديه يمنى " ومعلوم أن هذا الوصف لا يليق بالقدرة .

وأما التأويل الثاني : وهو حمل اليدين على النعمتين فهو أيضاً باطل لوجوه الأول : أن نعم الله تعالى كثيرة كما قال : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] وظاهر الآية يدل على أن اليد لا تزيد على الإثنتين الثاني : لو كانت اليد عبارة عن النعمة فنقول النعمة مخلوقة لله فحينئذٍ لا يكون آدم مخلوقاً لله تعالى بل يكون مخلوقاً لبعض المخلوقات ، وذلك بأن يكون سبباً لمزيد النقصان أولى من أن يكون سبباً لمزيد الكمال الثالث : لو كانت اليد عبارة عن النعمة لكان قوله : ﴿ تَبَارَكَ الذِى بِيَدِهِ الملك ﴾ [الملك : 1] معناه تبارك الذي بنعمته الملك ولكان قوله : " بيدك الخير " معناه بنعمتك الخير ولكان قوله : ﴿ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : 64] معناه نعمتان مبسوطتان ، ومعلوم أن كل ذلك فاسد .

(192/662)

وأما التأويل الثالث : وهو قوله إن لفظ اليد قد يذكر زيادة لأجل التأكيد فنقول لفظ اليد قد يستعمل في حق من يكون هذا العضو حاصلاً له وفي حق من لا يكون هذا العضو حاصلاً في حقه أما الأول : فكقولهم في حق من جنى بلسانه هذا ما كسبت يداك والسبب في هذا أن محل القدرة هو اليد فأطلق اسم اليد على القدرة ، وعلى هذا التقدير فيصير المراد من

لفظ اليد القدرة ، وقد تقدم إبطال هذا الوجه وأما الثاني : فكقوله ﴿ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ : 46] وقوله : (بين يدي الساعة) إلا أنا نقول هذا المجاز بهذا اللفظ مذكور والمجاز لا يقاس عليه ولا يكون مطرداً ، فلا جرم لا يجوز أن يقال إن هذا المعنى إنما حصل بيد العذاب وبيد الساعة ، ونحن نسلم أن قوله : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الحجرات : 1] قد يجوز أن يراد به التأكيد والصلة ، أما المذكور في هذه الآية ليس هذا اللفظ بل قوله تعالى : ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ وإن كان القياس في المجازات باطلاً فقد سقط كلامكم بالكلية ، فهذا منتهى البحث في هذا الباب .

والذي تلخص عندي في هذا الباب أن السلطان العظيم لا يقدر على عمل شيء بيده إلا إذا كانت غاية عنايته مصروفة إلى ذلك العمل ، فإذا كانت العناية الشديدة من لوازم العمل باليد أمكن جعله مجازاً عنه عند قيام الدلائل القاهرة .

فهذا ما لخصناه في هذا الباب ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ فالمعنى : استكبرت الآن أم كنت أبداً من المتكبرين العالين ، فأجاب إبليس بقوله : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ فالمعنى أني لو كنت مساوياً له في الشرف لكان يقبح أمري بسجودي له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيراً منه بأن أصله من النار والنار أشرف من الطين ، فصح أن أصله خير من أصل آدم ومن كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه فهذه مقدمات ثلاثة :

(193/662)

المقدمة الأولى : أن إبليس مخلوق من النار ، يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والجآن خلقناه مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾ [الحجر : 27] .

(194/662)

المقدمة الثانية : أن النار أفضل من الطين ويدل عليه وجوه الأول : أن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والأرض أبعدها عنه فوجب كون النار أفضل من الأرض الثاني : أن النار خليفة الشمس والقمر في إضاءة هذا العالم عند غيبتهما والشمس والقمر أشرف من الأرض ، فخليفتهما في الإضاءة أفضل من الأرض الثالث : أن الكيفية الفاعلة الأصلية ، إما الحرارة أو البرودة والحرارة أفضل من البرودة لأن الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت الرابع : الأرض كثيفة والنار لطيفة واللطافة أشرف من الكثافة الخامس : النار مشرقة والأرض مظلمة والنور خير من الظلمة

السادس : النار خفيفة تشبه الروح والأرض ثقيلة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الأرض ولذلك فإن الأطباء أطبقوا على أن العنصرين الثقيلين أعون على تركيب الأجساد وأن العنصرين الخفيفين أعون على تولد الأرواح السابع : النار صاعدة والأرض هابطة والصاعد أفضل من الهابط الثامن : أن أول بروج الفلك هو الحمل لأنه هو الذي يبدأ من نقطة الاستواء الشمالي ، ثم إن الحمل على طبيعة النار وأشرف أعضاء الحيوان والقلب والروح وهما على طبيعة النار وأخس أعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس أرضي التاسع : أن الأجسام الأرضية كلما كانت أشد نورانية ومشابهة بالنار كانت أشرف وكلما كانت أكثر غبرة وكثافة وكدورة ومشابهة بالأرض كانت أخس ، مثاله الأجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والأحجار الصافية النورانية ومثاله أيضاً من الثياب الإبريسم وما يتخذ منه ، وأما أن كل ما كان أكثر أرضية وغبرة فهو أخس فالأمر ظاهر العاشر : أن القوة الباصرة قوة في غاية الشرف والجلالة ولا يتم عملها إلا بالشعاع وهو جسم شبيه بالنار الحادي عشر : أن أشرف أجسام العالم الجسماني هو الشمس ولا شك أنه شبيه بالنار في صورته وطبيعته وأثره الثاني عشر : أن النضج والهضم والحياة لا تتم

إلا بالحرارة ولولا قوة الحرارة لما تم المزاج وتولدت المركبات الثالث عشر : أن أقوى العناصر الأربعة في قوة الفعل هو النار وأكملها في قوة الانفعال هو الأرض والفعل فضل من الانفعال فالنار أفضل من الأرض .

أما القائلون بتفضيل الأرض على النار فذكروا أيضاً وجوهاً الأول : أن الأرض أمين مصلح فإذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة والنار خائنة تفسد كل ما أسلمته إليها الثاني : أن الحس البصري أثنى على النار (1) فليستمع ما يقوله الحس اللمسي الثالث : أن الأرض مستولية على النار فإنها تطفىء النار ، وأما النار فإنها لا تؤثر في الأرض الخالصة .

---

(1) العبارة مصحفة لأن الحس البصري فيما نعلم لم يثن على النار وإنما يتأذى به كما أن الحس اللمسي يحترق بالنار . ولعله نظر إلى المعنى من ناحية أخرى هي أن فضل النار لم يظهره إلا البصر واللمس وهما من طبيعة الأرض . فبسببهما بان فضل الأرض على النار .

وأما المقدمة الثالثة : فهي أن من كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه ، فاعلم أن هذه المقدمة كاذبة جداً وذلك لأن أصل الرماد النار وأصل البساتين النزهة والأشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الأشجار المثمرة خير من الرماد ، وأيضاً فهب أن اعتبار

هذه الجهة يوجب الفضيلة إلا أن هذا يمكن أن يصير معارضاً بجهة أخرى توجب الرجحان مثل إنسان نسيب عار عن كل الفضائل فإن نسبه يوجب رجحانه ، إلا أن الذي لا يكون نسبياً قد يكون كثير العلم والزهد فيكون هو أفضل من ذلك النسيب بدرجات لا حد لها ، فالمقدمة الكاذبة في القياس الذي ذكره إبليس هو هذه المقدمة ، فإن قال قائل هب أن إبليس أخطأ في هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة ؟ وبيان هذا السؤال من وجوه الأول : أن قوله : ﴿ اسجدوا ﴾ أمر والأمر لا يقتضي الوجوب بل الندب ومخالفة الندب لا توجب العصيان فضلاً عن الكفر ، وأيضاً فالذين يقولون إن الأمر للوجوب فهم لا ينكرون كونه محتملاً للندب احتمالاً ظاهراً ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلاً عن الكفر الثاني : هب أنه للوجوب إلا أن إبليس ما كان من الملائكة فأمر الملائكة بسجود آدم لا يدخل فيه إبليس الثالث : هب أنه يتناوله إلا أن تخصيص العام بالقياس جائز فخصص نفسه عن عموم ذلك الأمر بالقياس الرابع : هب أنه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأموراً به إلا أن هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر فكيف لزمه الكفر الجواب : هب أن صيغة الأمر لا تدل على الوجوب ولكن يجوز أن ينضم إليها من القرائن ما يدل على الوجوب ، وههنا حصلت تلك القرائن وهي قوله تعالى : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ فلما أتى إبليس بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك القياس ليتوسل به إلى القدح في أمر الله وتكليفه وذلك يوجب الكفر .

إذا عرفت هذا فنقول إن إبليس لما ذكر هذا القياس الفاسد قال تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ .

واعلم أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف وههنا الحكم بكونه رجيماً ورد عقيب ما حكى عنه أنه خصص النص بالقياس ، فهذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس يوجب هذا الحكم ، وقوله : ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من الجنة أو من السموات والرجيم المرجوم وفيه قولان :

القول الأول : أنه مجاز عن الطرد ، لأن الظاهر أن من طرد فقد يرمى بالحجارة وهو الرجم فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد فإن قالوا الطرد هو اللعن فلو حملنا قوله : ﴿ رَّجِيمٍ ﴾ على الطرد لكان قوله بعد ذلك : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى ﴾ تكراراً والجواب من وجهين الأول : أنا نحمل الرجم على الطرد من الجنة أو من السموات ونحمل اللعن على الطرد من رحمة الله والثاني : أنا نحمل الرجم على الطرد ونحمل قوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدين ﴾ على أن ذلك الطرد يمتد إلى آخر القيامة فيكون هذا فائدة زائدة ولا يكون تكريراً .

والقول الثاني : في تفسير الرجيم أن نحمله على الحقيقة وهو كون الشياطين مرجومين بالشهب ، والله أعلم .

فإن قيل كلمة إلى لانتهاء الغاية فقوله : ﴿ إِلَى يَوْمِ الدين ﴾ يقتضي انقطاع تلك اللعنة عند مجيء يوم الدين ، أجاب صاحب "الكشاف" بأن اللعنة باقية عليه في الدنيا فإذا جاء يوم القيامة جعل مع اللعنة أنواع من العذاب تصير اللعنة مع حضورها منسية .

(198/662)

واعلم أن إبليس لما صار ملعوناً قال : ﴿ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قيل إنما طلب الإنظار إلى يوم يبعثون لأجل أن يتخلص من الموت لأنه إذا نظر إلى يوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجيء يوم البعث لا يموت أيضاً فحينئذ يتخلص من الموت فقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مِنَ المنظرين * إِلَى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ ومعناه إنك من المنظرين إلى يوم يعلمه الله ولا يعلمه أحد سواه ، فقال إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ وهو قسم بعزة الله وسلطانه ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فههنا أضاف الإغواء إلى نفسه وهو على مذهب القدر وقال مرة أخرى : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ فأضاف الإغواء إلى الله على ما هو مذهب الجبر وهذا يدل على أنه متحير في هذه المسألة .

وأما قوله : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ ففيه فوائد :

الفائدة الأولى : قيل غرض إبليس من ذكره هذا الاستثناء أن لا يقع في كلامه الكذب لأنه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوي الكل لكان يظهر كذبه حين يعجز عن إغواء عباد الله الصالحين ، فكأن إبليس قال : إنما ذكرت هذا الاستثناء لئلا يقع الكذب في هذا الكلام ، وعن هذا يقال إن الكذب شيء يستنكف منه إبليس فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه ؟ فإن قيل كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيّ إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقِىَ الشيطان فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [الحج : 52] قلنا إن إبليس لم يقل إني لم أقصد إغواء عباد الله الصالحين بل قال لأغوينهم وهو وإن كان يقصد الإغواء إلا أنه لا يغويهم .

الفائدة الثانية : هذه الآية تدل على أن إبليس لا يغوي عباد الله المخلصين ، وقال تعالى في صفة يوسف :

(199/662)

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ﴾ [يوسف : 24] فنصل من مجموع هاتين الآيتين أن إبليس ما أغوى يوسف عليه السلام ، وذلك يدل على كذب الحشوية فيما ينسبون إلى يوسف

عليه السلام من القبائح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 198 .

204 ﴾

(200/662)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ ﴾

"إِذْ" من صلة "يَخْتَصِمُونَ" المعنى ؛ ما كان لي من علم بالملإ الأعلى حين يختصمون حين ﴿ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ .

وقيل : "إِذْ قَالَ" بدل من "إِذْ يَخْتَصِمُونَ" و "يَخْتَصِمُونَ" يتعلق بمحذوف ؛ لأن المعنى ما كان لي من علم بكلام الملإ الأعلى وقت اختصامهم .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ "إذا" تردّ الماضي إلى المستقبل ؛ لأنها تشبه حروف الشرط وجوابها كجوابه ؛ أي خلقته .

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ أي من الروح الذي أملكه ولا يملكه غيري .

فهذا معنى الإضافة ، وقد مضى هذا المعنى مجوّداً في "النساء" في قوله في عيسى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : 171] .

﴿ فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ نصب على الحال .

وهذا سجود تحية لا سجود عبادة .

وقد مضى في "البقرة" ﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ أي امتثلوا الأمر وسجدوا له خضوعاً له وتعظيماً لله بتعظيمه ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ أنف من السجود له جهلاً بأن السجود له طاعة لله ، والأنفة من طاعة الله استكباراً كفر ، ولذلك كان من الكافرين باستكباره عن أمر الله تعالى .

وقد مضى الكلام في هذا في "البقرة" مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يا إبليس مَا مَنَعَكَ ﴾

أي صرفك وصدّك ﴿ أَن تَسْجُدَ ﴾ أي عن أن تسجد ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له ، وإن كان خالق كل شيء وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد ؛ فخاطب الناس بما يعرفونه في تعاملهم ، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئاً بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرم ، فذِكْر اليد هنا بمعنى هذا .

قال مجاهد : اليد ها هنا بمعنى التأكيد والصلة ؛ مجازه لما خلقت أنا كقوله : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن : 27] أي يبقى ربك .

وقيل : التشبيه في اليد في خلق الله تعالى دليل على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة ؛

وإنما هما صفتان من صفات ذاته تعالى .

وقيل : أراد باليد القدرة ، يقال : ما لي بهذا الأمر يد .

وما لي بالحِمْل الثقيلِ يَدَانِ .

ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع .

وقال الشاعر :

تَحمَّلْت مِنْ (عَفْرَاءَ) ما ليس لِي بِه . . .

ولا للجِبَالِ الرّاسِياتِ يَدَانِ

وقيل : "لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ" لما خلقت بغير واسطة .

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ أي عن السجود ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ أي المتكبرين على ربك .

وقرأ محمد بن صالح عن شبل عن ابن كثير وأهل مكة "بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ" موصولة الألف على الخبر وتكون أم منقطعة بمعنى بل مثل : "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ" وشبهه .

ومن استفهم ف "أَمْ" معادلة لهمزة الاستفهام وهو تقرير وتوبيخ .

أي استكبرت بنفسك حين أبيت عن السجود لآدم ، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ قال الفرّاء : من العرب من يقول أنا أخير منه وأشرُّ منه ؛ وهذا هو الأصل إلا أنه حذف لكثرة الاستعمال .

﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ فَضَّل النار على الطين وهذا جهل منه ؛ لأن الجواهر متجانسة فقاس فأخطأ القياس .

وقد مضى في "الأعراف" بيانه .

﴿ قَالَ فَاخرجِ مِنْهَا ﴾ يعني من الجنة ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي مرجوم بالكواكب والشهب ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعنتي ﴾ أي طردي وإبعادي من رحمتي ﴿ إِلَى يَوْمِ الدين ﴾ تعريف بإصراره على الكفر لأن اللعن منقطع حينئذٍ ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أراد الملعون ألا يموت فلم يُجَب إلى ذلك ، وَأُخِّر إلى الوقت المعلوم ، وهو يوم يموت الخلق فيه ، فَأُخِّر إليه تهاوناً به .

(202/662)

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لما طرده بسبب آدم حلف بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات وإدخال الشبه عليهم ، فمعنى : "لأُغْوِيَنَّهُمْ" لأستدعينهم إلى المعاصي وقد علم أنه لا يصل إلا إلى الوسوسة ، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه ؛ ولهذا

قال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ أي الذين أخلصتَهم لعبادتك ، وعصمتهم مني .

وقد مضى في "الحجر" بيانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(203/662)

وقال أبو السعود :

وقولُه تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة ﴾

شروعٌ في تفصيلِ ما أجمل من الاختصامِ الذي هو ما جرى بينهم من التَّقاولِ وحيث كان تكليمُه تعالى إيَّاهم بواسطةِ المَلكِ صحَّ إسنادُ الاختصامِ إلى الملائكةِ وإذْ بدلٌ مِن إذِ الأولى وليس من ضرورة البدليَّةِ دخولُها على نفس الاختصامِ بل يكفي اشتمالُ ما في حيِّزها عليه فإنَّ القصَّة ناطقةٌ بذلك تفصيلاً ، والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِه عليه الصَّلاة والسَّلام لتشريفِه والإيذانِ بأنَّ وحيَ هذا النبأ إليه تربيةٌ وتأييدٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ . والكافُ واردٌ باعتبارِ حالِ الآمرِ لكونِه أدلَّ على كونِه وحياً منزَّلاً من عنده تعالى كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا عِبَادِى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ الخ دون حالِ المأمورِ وإلا لقيل : ربِّي لأنَّه داخلٌ في حيِّز الأمر . ﴿ إِنِّى خالق ﴾ أي فيما سيأتي وفيه ما ليسَ في صيغة المضارعِ من الدّلالةِ على أنَّه تعالى فاعل له ألبتةَ من غير صارفٍ يلويه ولا

عاطفٍ يثنيه ﴿ بَشَرًا ﴾ قيل : أي جسماً كثيفاً يلاقى ويُباشر . وقيل : خَلْقاً بادي البشرةِ بلا صوفٍ ولا شعرٍ ، ولعل ما جرى عند وقوعِ المحكيِّ ليس هذا الاسم الذي لم يُخلق مسمَّاهُ حينئذٍ فضلاً عن تسميتِه به بل عبارةٌ كاشفةٌ عن حالِه وإنما عبر عنه بهذا الاسمِ عند الحكايةِ ﴿ مِن طِينٍ ﴾ لم يتعرَّضْ لأوصافِه من التَّغيرِ والاسوداد والمسنونيَّةِ اكتفاءً بما ذُكر في مواقعَ أُخرَ .

(204/662)

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أي صوَّرته بالصُّورةِ الإنسانيَّةِ والخِلقةِ البشريَّةِ أو سوَّيتُ أجزاءَ بدنِه بتعديل طبائعِه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ النَّفخُ إجراءُ الرِّيحِ إلى تجويفِ جسمٍ صالحٍ لإمساكِها والامتلاءِ بها . وليس ثَمَّةَ نفخٌ ولا منفوخٌ وإنَّما هو تمثيلٌ لإفاضة ما به الحياةُ بالفعل على المادَّةِ القابلة لها أي فإذا كمَّلتُ استعدادَه وأفضت عليه ما يحيى به من الرُّوحِ التي هي أمري ﴿ فَقَعُواْ لَهُ ﴾ أمرٌ من وقعَ وفيه دليلٌ على أنَّ المأمورَ به ليس مجرَّدَ الانحناءِ كما قيل أي اسقُطوا له ﴿ ساجدين ﴾ تحيَّةً له وتكريماً .

(205/662)

﴿ فَسَجَدَ الملائكة ﴾ أي فخلقه فسوّاه فنفخ فيه الرُّوحَ فسجد له الملائكةُ ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ بحيث لم يبقَ منهم أحدٌ إلاَّ سجدَ ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ أي بطريقِ المعيةِ بحيثُ لم يتأخَّر في ذلك أحدٌ منهم عن أحدٍ ، ولا اختصاص لإفادة هذا المعنى بالحالية بل يفيدُه التَّأكيدُ أيضاً وقيل أُكّد بتأكيدينِ مبالغةً في التَّعميمِ . هذا وأمَّا أنَّ سجودَهم هذا هل ترتَّبَ على ما حُكي من الأمر التَّعليقيِّ كما تقتضيهِ هذه الآيةُ الكريمةُ والتي في سُورة الحجرِ فإنَّ ظاهرَهُما يستدعِي ترتُّبه عليه من غيرِ أنْ يتوسَّط بينهما شيءٌ غير ما يفصح عنه الفاءُ الفصيحةُ من الخلق والتَّسويةِ ونفخ الرُّوحِ أو على الأمرِ التَّنجيزيِّ كما يقتضيه ما في سُورة البقرةِ وما في سُورةِ الأعرافِ وما في سُورة بني إسرائيل وما في سُورةِ الكهفِ وما في سُورة طه من الآياتِ الكريمةِ فقد مرَّ تحقيقُه بتوفيقِ الله عزَّ وجلَّ في سُورةِ البقرةِ وسُورة الأعرافِ ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ استثناءٌ متَّصل لما أنه كانَ جنّياً مفرَداً مغموراً بألوفٍ من الملائكةِ موصُوفاً بصفاتِهم فغلبُوا عليه ثمَّ استُثنَى استثناءَ واحدٍ منُهم أو لأنَّ من الملائكةِ جنساً يتوالدُون وهو منُهم أو منقطعٌ . وقولُه تعالى : ﴿ استكبر ﴾ على الأوَّلِ استئنافٌ مبينٌ لكيفيَّةِ تركِ السّجودِ المفهومِ من الاستثناءِ فإنَّ تركَه يحتملُ أن يكونَ للتَّأمُّل والتروّي وبه يتحقَّقُ أنَّه للإباءِ والاستكبارِ . وعلى الثَّاني يجوزُ اتِّصالُه بما قبله أي لكنْ إبليسُ استكبرَ ﴿ وَكَانَ مِنَ الكافرين ﴾ أي وصارَ منهم بمخالفتِه للأمرِ واستكبارِه عن الطَّاعةِ أو كان منهم في علمِ الله

تعالى عزَّ وجلَّ ﴿ قَالَ يا إِبْلِيسَ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أي خلقتُه بالذَّاتِ من غير توسُّطِ أبٍ وأمَ والتَّثنيةُ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بخلقِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ

(206/662)

المستدعِي لإجلالِه وإعظامِه قَصْداً إلى تأكيدِ الإنكارِ وتشديدِ التَّوبيخِ . ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ بهمزةِ الإنكارِ وطرحِ همزةِ الوصلِ أي أتكبَّرتَ من غيرِ استحقاقٍ ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ المستحقِّين للتَّفوقِ وقيل : أستكبرتَ الآنَ أم لم تزلْ منذ كنتَ من المستكبرينَ . وقُرِئ بحذفِ همزةِ الاستفهامِ ثقةً بدلالةِ أمْ عليها .

(207/662)

وقولُه تعالى : ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ أدّعاءٌ منه لشيءٍ مستلزمٍ لمنعِه من السُّجودِ على زعمِه وإشعارٌ بأنَّه لا يليقُ أنْ يسجدَ الفاضلُ للمفضولِ كما يُعرب عنه قولُه : ﴿ لَمْ أَكُن لِاسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صلصال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ وقولُه تعالَى ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ تعليلٌ لما ادَّعاهُ من فضلِه عليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ولقد أخطأ

اللَّعينُ حيث خصَّ الفضلَ بما من جهةِ المادَّةِ والعنصرِ وزلَّ عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأَ عنه وقولُه تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ وما من جهة الصُّورة كما نبه عليه قوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ وما من جهة الغايةِ وهو مِلاكُ الأمرِ ، ولذلك أمرَ الملائكةَ بسجودِه عليهم السَّلامُ حين ظهرَ لهم أنَّه أعلمُ منهم بما يدورُ عليه من أمرِ الخلافةِ في الأرضِ وأنَّ له خواصَّ ليست لغيرِه . ﴿ قَالَ فاخرج مِنْهَا ﴾ الفاءُ لترتيبِ الأمر على ما ظهر من اللَّعينِ من المخالفةِ للأمرِ الجليلِ وتعليلِها بالأباطيلِ أي فاخرجْ من الجنَّةِ أو من زُمرةِ الملائكةِ وهو المرادُ بالأمرِ بالهبوطِ لا الهبوطِ من السَّماءِ كما قيل فإنَّ وسوستَه لآدمَ عليه السلام كانتْ بعد هذا الطَّردِ وقد بُيّن كيفيَّةُ وسوستِه في سُورة البقرة . وقيل : اخرجْ من الخلقةِ التي كنتَ فيها وانسلخْ منها فإنَّه كان يفتخرُ بخلقتِه فغيَّر اللهُ خلقتَه فاسودَّ بعد ما كان أبيضَ وقَبُح بعد ما كان حَسَناً وأظلمَ بعد ما كان نورانياً وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالخروجِ أي مطرودٌ من كلِّ خيرٍ وكرامةٍ ، فإنَّ مَن يُطردْ يُرجمْ بالحجارةِ أو شيطان يُرجم بالشُّهبِ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ أي إبعادي عن الرَّحمةِ ، وتقييدها بالإضافةِ مع إطلاقِها في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة ﴾ لما أنَّ لعنةَ

اللاعنين من الملائكةِ والثَّقلينِ أيضاً من جهتِه تعالى وأنَّهم يدعُون عليه بلعنةِ الله تعالى وإبعادِه من الرَّحمةِ ﴿ إلى يَوْمِ الدين ﴾ أي يوم الجزاء والعقوبة ، وفيه إيذانٌ بأنَّ اللَّعنةَ مع كمال فظاعتها ليستْ جزاءً لجنايته بل هي أُنموذجٌ لما سيلقاه مستمرّاً إلى ذلك اليومِ لكن لا على أنَّها تنقطعُ يومئذٍ كما يُوهمه ظاهرُ التَّوقيتِ بل على أنَّه سيلقى يومئذٍ من ألوان العذابِ وأفانينِ العقابِ ما ينسى عنده اللَّعنَة وتصير كالزَّائلِ ألا يرى إلى قوله تعالي : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُهُم بَعْضاً . ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى ﴾ أي أمهلِني وأخّرني ، والفاءُ متعلّقة بمحذوفٍ ينسحبُ عليه الكلام أي إذْ جعلتَني رَجيماً فأمهلني ولا تُمتني ﴿ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي آدمُ وذريتُه للجزاءِ بعد فنائِهم ، وأرادَ بذلك أنْ يجدَ فُسحةً لإغوائِهم ويأخذَ منهم ثأرَه وينجوَ من الموتِ بالكلّية إذ لا موتَ بعد يومِ البعثِ .

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ ورودُ الجوابِ بالجملةِ الاسميَّةِ مع التَّعرُّض لشمولِ ما سأله لآخرين على وجهٍ يُشعر بكونِ السَّائلِ تبعاً لهم في ذلك دليلٌ واضحٌ على أنَّه إخبارٌ بالإنظارِ المقدَّر لهم أزلاً ، لا إنشاء لإنظارٍ خاصَ به ، وقد وقعَ إجابةً لدعائِه وأنَّ استنظارَه كان طَلَباً لتأخيرِ الموتِ إذ بهِ يتحقّقُ كونُه منهم لا لتأخيرِ العُقوبةِ كما قيل فإنَّ ذلكَ معلومٌ من إضافةِ اليَومِ إلى الدّينِ أي إنَّك من جُملةِ الذينَ أخّرتْ آجالُهم أزلاً حسبما تقتضيه حكمةُ التَّكوينِ .

(209/662)

﴿ إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ الذي قدَّره الله وعيَّنه لفناءِ الخلائقِ ، وهو وقتُ النَّفخةِ الأولى لا إلى وقتِ البعثِ الذي هو المسؤولُ . فالفاءُ ليستْ لربطِ نفسِ الأنظارِ بالاستنظارِ بل لربطِ الإخبارِ المذكورِ به كما في قولِ مَن قال :

(210/662)

فإن تَرحمْ فأنتَ لذاكَ أهلُ . . . فإنَّه لا إمكان لجعل الفاء فيه لربطِ ما له تعالى من الأهليَّةِ القديمةِ للرَّحمةِ الحادثةِ بل هي لربط الإخبارِ بتلك الأهليةِ للرَّحمةِ بوقوعِها ، هذا وقد تُرك التَّوقيتُ في سورةِ الأعرافِ كما تُرك النّداءُ والفاء في الاستنظار والإنظار تعويلاً على ما ذُكر ههنا وفي سُورة الحجرِ وإنْ خطَر ببالك أنَّ كلَّ وجهٍ من وجوهِ النَّظمِ الكريمِ لا بُدَّ أنْ يكونَ له مقامٌ يقتضيهِ مغاير لمقامِ غيرِه وأنَّ ما حُكي من اللَّعينِ إنَّما صدرَ عنه مرَّةً وكذا جوابُه لم يقعْ إلاَّ دفعةً فمقام الاستنظارِ والإنظارِ إن اقتضَى أحدَ الوجوهِ المحكيَّةِ فذلك الوجهُ هو المطابقُ لمقتَضى الحالِ والبالغُ إلى رُتبةِ البلاغةِ ودرجةِ الإعجازِ ، وأمَّا ما عداهُ

من الوجوهِ فهو بمعزلٍ من بلوغِ طبقةِ البلاغةِ فضلاً عن العُروجِ إلى معارجِ الإعجازِ فقد سلفَ تحقيقُه في سورةِ الأعرافِ بفضلِ الله تعالى وتوفيقِه . ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ الباءُ للقسمِ والفاءُ لترتيبِ مضمونِ الجملةِ على الإنظارِ ولا يُنافيه قولُه تعالى فبما أغويتني وقوله ربِّ بما أغويتني فإنَّ إغواءَهُ تعالى إيَّاهُ أثرٌ من آثارِ قُدرتِه تعالى وعزَّتِه وحكمٌ من أحكامِ قهرِه وسلطنتِه فمآلُ الإقسامِ بهما واحدٌ ولعلَّ اللَّعينَ أقسمَ بهما جميعاً فحكى تارةً قسَمه بأحدِهما وأُخرى بالآخرِ أي فأُقسم بعزَّتك ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي ذريةَ آدمَ بتزيينِ المَعَاصي لهم ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ وهم الذين أخلصَهم الله تعالى لطاعتِه وعصمَهم من الغوايةِ . وقُرِىء المخلِصين على صيغةِ الفاعلِ أي الذينَ أخلصُوا قلوبَهم وأعمالَهم لله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(211/662)

وقال الآلوسى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة ﴾ الخ

شروع في تفصيل ما أجمل من الاختصام الذي هو ما جرى بينهم من التقاول فهو بدل من ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [ص : 69] بدل كل من كل ، وجوز كونه بدل بعض ، وصح إسناد

الاختصام إلى الملائكة مع أن التقاول كان بينهم وبين الله تعالى كما يدل عليه ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ الخ لأن تكليمه تعالى إياهم كان بواسطة الملك فمعنى المقاولة بين الملأ الأعلى مقاولة ملك من الملائكة مع سائر الملائكة عليهم السلام في شأن الاستخلاف ومع إبليس في شأن السجود ومع آدم في قوله : ﴿ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ [البقرة : 33] ومعنى كون المقاولة بين الملائكة وآدم وإبليس وجودها فيما بينهم في الجملة .

ولا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز في الإسناد فالكل حقيقة لأن الملأ الأعلى شامل للملك المتوسط وهو المقاول بالحقيقة وهو عز وجل مقاول بالمجاز ، ولا تقل المخاصم ليكون الأمر بالعكس ، وما يقال : إن قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ يقتضي أن تكون مقاولته تعالى إياهم بلا واسطة فهو ممنوع لأنه إبدال زمان قصة عن زمان التفاوض فيها ، والغرض أن تعلم القصة لا مطابقة كل جزء جزء لكل جزء جزء فذلك غير لازم ومراد ، ثم فيه فائدة جليلة وهي أن مقاولة الملك إياهم أو إياهما عن الله تعالى فهم مقاولوه تعالى أيضاً ، وأريد هذا المعنى من هذا الإيراد لا من اللفظ ليلزم الجمع المذكور آنفاً ، وجعل الله عز وجل من الملأ الأعلى بأن يراد به ما عدا البشر ليكون الاختصام قائماً به تعالى وبهم على معنى أنه سبحانه في مقابلتهم يخاصمونه ويخاصمهم مع ما فيه من إيهام الجهة له عز وجل ينبو المقام عنه نبواً ظاهراً ، ولم يذكر سبحانه جواب الملائكة عليهم السلام لتتم المقاولة اختصاراً بما كرر مراراً ولهذا لم يقل جل شأنه إني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت جاعل إياه خليفة .

وروعي هذا النسق ههنا لنكتة سرية وهي أن يجعل مصب الغرض من القصة حديث إبليس ليلائم ما كان فيه أهل مكة وأنه بامتناعه عن امتثال أمر واحد جرى عليه ما جرى فكيف يكون حالهم وهم مغمورون في المعاصي ؛ وفيه أنه أول من سن العصيان فهو إمامهم وقائدهم إلى النار ، وذكر حديث سجود الملائكة وطي مقاولتهم في شأن الاستخلاف ليفرق بين المقاولتين وأن السؤال قبل الأمر ليس مثله بعده فإن الثاني يلزمه التواني ، ثم فيه حديث تكريم آدم عليه السلام ضمناً دلالة على أن المعلم والناصح يعظم وأنه شرع منه تعالى قديم ، وكان على أهل مكة أن يعاملوا النبي صلى الله عليه وسلم معاملة الملائكة لآدم لا معاملة إبليس له قاله "صاحب الكشف" وهو حسن بيد أن ما علل به الاختصار من تكرار ذلك مراراً لا يتم إلا إذا كان ذلك في سورة مكية نزلت قبل هذه السورة ، وقد علل بعضهم ترك الذكر بالاكتفاء بما في البقرة ، وفيه أن نزولها متأخر عن نزول هذه السورة لأنها مدنية وهذه مكية فلا يصح الاكتفاء إحالة عليها قبل نزولها ، وكون المراد اكتفاء السامعين للقرآن بعد ذلك لا يخفى حاله ، ولعل القصة كانت معلومة سماعاً منه صلى الله عليه وسلم وكان عالماً بها بواسطة الوحي وإن لم تكن إذ ذاك نازلة قرآناً فاختصرت ههنا لما ذكر في

"الكشف" اكتفاء بذلك ، وقال فيه أيضاً : وذلك أن تقول التقاول بين الملائكة وآدم عليهم السلام حيث قال :

﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ ﴾ [البقرة : 31] تبكيتاً لهم بما نسبوا إليه من قولهم ﴿ أَتَجْعَلُ ﴾ فيها وبينه وبين إبليس إما لأنه داخل في الإنكار والتبكيت بل هو أشدهم في ذلك لكن غلب الله تعالى الملائكة لأنه أخس من أن يقرن مع هؤلاء مفرداً في الذكر أو لأنه أمر بالسجود لمعلمه فامتنع وأسمعه لما أسمع .

(213/662)

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ الخ للإتيان بطرف مشتمل على قصة المقاولة وتصوير أصلها فلم يلزم منه أن يكون الرب جل شأن من المقاولين وإن كان بينه سبحانه وبينهم تقاول قد حكاه الله تعالى ، وهذا أقل تكلفاً مما فيه دعوى أن تكليمه تعالى كان بواسطة الملك إذ للمانع أن يمنع التوسط على أصلنا وعلى أصل المعتزلة أيضاً لا سيما إذ جعل المبكتون الملائكة كلهم ، وعلى الوجهين ظهر فائدة إبدال ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ من ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ على وجه بين ، والاعتراض بأنه لو كان بدلاً لكان الظاهر إذ قال ربي لقوله ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [ص : 69] فليس المقام مما يقتضي الالتفات غير قادح فإنه على أسلوب

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ العزيز العليم الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض ﴾ [الزخرف : 9 ، 10] فالخطاب بلكم نظراً إلى أنه من قول الله تعالى تمم قولهم وذنبه كذلك ههنا هو من قول الله تعالى لتتميم قول النبي صلى الله عليه وسلم وهذا على نحو ما يقول : مخاطبك جاءني الأمير فتقول الذي أكرمك وحباك أو يقول رأيت الأمير يوم الجمعة فتقول : يوم خلع عليك الخلعة الفلانية ، ومنه علم أنه ليس من الالتفات في شيء وإن هذا الإبدال على هذا الأسلوب لمزيد الحسن انتهى ، وجوز أن يقال : إن ﴿ إِذْ ﴾ قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ ظرف ليختصمون ، والمراد بالملا الأعلى الملائكة وباختصامهم قولهم لله تعالى ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدماء ﴾ [البقرة : 30] في مقابلة قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِى الأرض ﴾ [البقرة : 30] إلى غير ذلك ، ولا يتوقف صحة إرادة ذلك على جعل الله تعالى من الملأ ولا على أنه سبحانه كلمهم بواسطة ملك ولا تقدم تفصيل الاختصام مطلقاً بل يكفي ذكره بعد النزول سواء ذكر قرآناً أم لا ، ويجرح تفسير الملأ بما ذكر على تفسيره

بما يعم آدم عليه السلام أن ذاك على ما سمعت يستدعي القول بأن آدم كان في السماء وهو ظاهر في أنه عليه السلام خلق في السماء أو رفع إليها بعد خلقه في الأرض وكلا الأمرين لا يسلمهما كثير من الناس ، وقد نقل ابن القيم في كتابه مفتاح دار السعادة عن جمع أن آدم عليه السلام إنما خلق في الأرض وأن الجنة التي أسكنها بعد أن جرى ما جرى كانت فيها أيضاً وأتى بأدلة كثيرة قوية على ذلك ولم يجب عن شيء منها فتدبر .

وذهب بعضهم إلى أن الملأ الأعلى الملائكة وأن اختصامهم كان في الدرجات والكفارات ، فقد أخرج الترمذي وصححه .

والطبراني .

(215/662)

وغيرهما عن معاذ بن جبل قال : "احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس فخرج سريعاً فثوب بالصلاة فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما سلم دعا بصوته فقال : على مصفاكم ثم التفت إلينا ثم قال : أما إني أحدثكم بما حبسني عنكم الغداة إني قمت الليلة فقمت وصليت ما قدر لي ونعست في صلاتي حتى استثقلت فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة فقال : يا

محمد قلت : لبيك ربي قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري فوضع كفه بين كتفي فوجدت برد أنامله بين ثديي فتجلى لي كل شيء وعرفته فقال : يا محمد قلت : لبيك قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الدرجات والكفارات فقال : ما الدرجات ؟ فقلت : إطعام وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام قال : صدقت فما الكفارات ؟ قلت : إسباغ الوضوء في المكاره وانتظار الصلاة بعد الصلاة ونقل الإقدام إلى الجماعات قال : صدقت سل يا محمد فقلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وإن تغفر لي وترحمني وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون اللهم إني أسألك حبك وحب من أحبك وحب عمل يقربني إلى حبك قال النبي صلى الله عليه وسلم : " تعملوهن وادرسوهن فإنهم حق " ومعنى اختصامهم في ذلك على ما في البحر اختلافهم في قدر ثوابه ، ولا يخفى أن حمل الاختصام في الآية على ما ذكر بمراحل عن السياق فإنه مما لم يعرفه أهل الكتاب فلا يسلمه المشكرون له عليه الصلاة والسلام أصلاً ، نعم هو اختصام آخر لا تعلق له بالمقام ، وجعل هؤلاء إذ في ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ منصوباً باذكر مقدراً ، وكذا كل من قال : إن الاختصام ليس في شأن آدم عليه السلام يجعله كذلك .

(216/662)

والشهاب الخفاجي قال : الأظهر أي مطلقاً تعلق إذ باذكر المقدر على ما عهد في مثله ليبقى ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ على عمومه ولئلا يفصل بين البدل والمبدل منه وليشتمل ما في الحديث الصحيح من اختصامهم في الكفارات والدرجات ولئلا يحتاج إلى توجيه العدول عن ربي إلى ﴿ رَبِّكَ ﴾ انتهى ، وفيه شيء لا يخفى .

ومن غريب ما قيل في اختصامهم ما حكاه الكرماني في عجائبه أنه عبارة عن مناظرتهم بينهم في استنباط العلوم كمناظرة أهل العلم في الأرض ، ويرد به على من يزعم أن جميع علومهم بالفعل ، والمعروف عن السلف أنه المقاولة في شأن آدم عليه السلام والرد به حاصل أيضاً ، والمراد بالملائكة في ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة ﴾ ما يعم إبليس لأنه إذ ذاك كان مغموراً فيهم ، ولعل التعبير بهم دون الضمير الراجع إلى الملأ الأعلى على القول بالاتحاد لشيوع تعلق القول بهم بين أهل الكتاب بهذا العنوان أو لشهرة المقابلة بين الملك والبشر فيلطف جداً قوله سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة ﴾ ﴿ إِنِّى خالق بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ وقيل : عبر بذلك إظهاراً للاستغراق في المقول له ، والمراد إني خالق فيما سيأتي ، وفي التعبير بما ذكر ما ليس في التعبير بصيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل البتة من غير صارف ، والبشر الجسم الكثيق يلاقي ويباشر أو بادي البشرة أو بادي البشرة ظاهر الجلد غير مستور بشعر أو وبر أو صوف ، والمراد به آدم عليه السلام ؛ وذكر هنا خلقه من طين وفي آل عمران خلقه من تراب وفي الحجر من صلصال من حمإ مسنون وفي الأنبياء من

عجل ولا منافاة غاية ما في الباب أنه ذكر في بعض المادة القريبة في بعض المادة البعيدة ، ثم إن ما جرى عند وقوع المحكي ليس اسم البشر الذي لم يخلق مسماه حينئذ فضلاً عن تسميته به بل عبارة كاشفة عن حاله وإنما عبر عنه بهذا الاسم عند الحكاية .

(217/662)

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أي صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها فليس ثمت نفخ ولا منفوخ أي فإذا أكملت استعداده وأفضت عليه ما يحيا به من الروم الطاهرة التي هي أمري ﴿ فَقَعُوا لَهُ ﴾ أمر من وقع ، وفيه دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل : أي فاسقطوا له ﴿ ساجدين ﴾ تحية له وتكريماً .

﴿ فَسَجَدَ الملائكة ﴾ أي فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ بحيث لم يبق أحد منهم إلا سجد ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ أي بطريق المعية بحيث لم يتأخر أحد منهم عن أحد فكل للإحاطة وأجمع للاجتماع ، ولا اختصاص لإفادته ذلك بالحالية خلافاً لبعضهم ، وتحقيقه على ما في "الكشف" أن الاشتقاق الواضح يرشد إلى أن فيه معنى الجمع والضم والأصل في الإطلاق الخطابي التنزيل على أكمل أحوال الشيء ولا خفاء في أن

الجمع في وقت واحد أكمل أصنافه لكن لما شاع استعماله تأكيداً أقيم مقام كل في إفادة الإحاطة من غير نظر إلى الكمال فإذا فهمت الإحاطة بلفظ آخر لم يكن بد من ملاحظة الأصل صوناً للكلام عن الإلغاء ولو سلم فكل تأكيد الشمول بإخراجه عن الظهور إلى النصوص ، و﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ تأكيد ذلك التأكيد فيفيد أتم أنواع الإحاطة وهو الإحاطة في وقت واحد ، واستخراج هذه الفائدة من جعله كإقامة المظهر مقام المضمر لا يلوح وجهه ، والنقض بقوله سبحانه : ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82] منشؤه عدم تصور وجه الدلالة ، وظاهر هذه الآية وآية الحجر أن سجودهم مترتب على ما حكي من الأمر التعليقي وكثير من الآيات الكريمة كالتي في البقرة والأعراف وغيرهما ظاهرة في أنه مترتب على الأمر التنجيزي وقد مر تحقيق ذلك فليراجع .

(218/662)

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ استثناء متصل لما أنه وإن كان جنياً معدود في زمرة الملائكة موصوف بصفاتهم لا يقوم ولا يقعد إلا معهم فشملته الملائكة تغليباً ثم استثني استثناء واحد منهم أو لأن من الملائكة جنساً يتوالدون وهو منهم أو هو استثناء منقطع ، وقوله تعالى : ﴿ استكبر ﴾ على الأول : استئناف مبين لكيفية ترك السجود المفهوم من الاستثناء فإن

تركه يحتمل أن يكون للتأمل والتروي وبه يتحقق أنه للإباء والاستكبار وعلى الثاني : يجوز اتصاله بما قبله أي لكن إبليس استكبر وتعظيم ﴿ وَكَانَ مِنَ الكافرين ﴾ أي وصار منهم باستكباره وتعاظمه على أمر الله تعالى ، وترك الفاء المؤذنة بالسببية إحالة على فطنة السامع أو لظهور المراد .

وكون التعاظم على أمره عز وجل لا سيما الشفاهي موجباً للكفر مما لا ينبغي أن يشك فيه على أن هذا الاستكبار كان متضمناً استقباح الأمر وعده جوراً ، ويجوز أن يكون المعنى وكان من الكافرين في علم الله تعالى لعلمه عز وجل أنه سيعصيه ويصدر عنه ما يصدر باختياره وخبث طويته واستعداده .

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75)

﴿ قَالَ ﴾ عز وجل على سبيل الإنكار والتوبيخ ﴿ قَالَ يا إبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ أي من السجود ﴿ لِمَا خَلَقْتُ ﴾ أي للذي خلقته على أن ما موصولة والعائد محذوف ، واستدل به على جواز إطلاق ﴿ مَا ﴾ على آحاد من يعقل ومن لم يجز قال : إن ﴿ مَا ﴾ مصدرية ويراد بالمصدر المفعول أي أن تسجد لمخلوق ﴿ بِيَدَيَّ ﴾ وهذا عند بعض أهل التأويل من الخلف تمثيل لكونه عليه السلام معتني بخلقه فإن من شأن المعتنى به أن يعمل باليدين ، ومن آثار ذلك خلقه من غير توسط أب وأم وكونه جسماً صغيراً انطوى فيه العالم الأكبر وكونه أهلاً لأن يفاض عليه ما لا يفاض على غيره إلى غير ذلك من مزايا الآدمية .

وعند بعض آخر منهم اليد بمعنى القدرة والتثنية للتأكيد الدال على مزيد قدرته تعالى لأنها ترد لمجرد التكرير نحو ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك : 4] فأريد به لازمه وهو التأكيد وذلك لأن لله تعالى في خلقه أفعالاً مختلفة من جعله طيناً مخمراً ثم جسماً ذا لحم وعظم ثم نفخ الروح فيه وإعطائه قوة العلم والعمل ونحو ذلك مما هو دال على مزيد قدرة خالق القوى والقدر ، وجوز أن يكون ذلك لاختلاف فعل آدم فقد يصدر منه أفعال ملكية كأنها من آثار اليمين وقد يصدر منه أفعال حيوانية كأنها من آثار الشمال وكلتا يديه سبحانه يمين .

وعند بعض اليد بمعنى النعمة والتثنية إما لنحو ما مر وإما على إرادة نعمة الدنيا ونعمة الآخرة .

والسلف يقولون : اليد مفردة وغير مفردة ثابتة لله عز وجل على المعنى اللائق به سبحانه ولا يقولون في مثل هذا الموضع إنها بمعنى القدرة أو النعمة ، وظاهر الأخبار أن للمخلوق بها مزية على غيره ، فقد ثبت في "الصحيح" أنه سبحانه قال في جواب الملائكة : اجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة وعزتي وجلالي لا أجعل من خلقته بيدي كمن قلت له كن فكان .

وأخرج ابن جرير .

وأبو الشيخ في العظمة .

والبيهقي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : خلق الله تعالى أربعاً بيده .

العرش .

وجنات عدن .

والقلم .

وآدم ثم قال لكل شيء كن فكان ، وجاء في غير ما خبر أنه تعالى كتب التوراة بيده ، وفي حديث محاجة آدم وموسى عليهما السلام ما يدل على أن المخلوقية بها وصف تعظيم حيث قال له موسى : أنت آدم الذي خلقك الله تعالى بيده ، وكذلك في حديث الشفاعة أن أهل الموقف يأتون آدم ويقولون له : أنت آدم أبو الناس خلقك الله تعالى بيده ، ويعلم من ذلك أن ترتيب الإنكار في ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ على خلق الله تعالى إياه بيديه لتأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ كأنه قيل : ما منعك أن تعظم بالسجود من هو أهل للتعظيم للعناية الربانية التي حفت إيجاده .

(220/662)

وزعم الزمخشري أن ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ من باب رأيته بعيني فبيدي لتأكيد أنه مخلوق لا شك فيه وحيث أن إبليس ترك السجود لآدم عليه السلام لشبهة أنه سجود لمخلوق وانضم إلى ذلك أنه مخلوق من طين وأنه هو مخلوق من نار وزل عنه أن الله سبحانه حين أمر من هو أجل منه وأقرب عباده إليه زلفى وهم الملائكة امتثلوا ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له تعظيماً لأمر ربهم وإجلالاً لخطابه ذكر له ما يتشبث به من الشبهة وأخرج له الكلام مخرج القول بالموجب مع التنبيه على مزلة القدم فكأنه قيل له ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدي لا شك في كونه مخلوقاً امتثالاً لأمري وإعظاماً لخطابي كما فعلت الملائكة ولا يخفى أن المقام ناب عما ذكره أشد النبو ، وجعل ذلك من باب رأيت بعيني لا يفيد إلا تأكيد المخلوقية ، وإخراج الكلام مخرج القول بالموجب مما لا يكاد يقبل فإن سياق القول بالموجب أن يسلم له ثم ينكر عليه لا أن يقدم الإنكار أصلاً ويؤتى به كالرمز بل كالألغاز ، وأيضاً الأخبار الصحيحة ظاهرة في أن ذاك وصف تعظيم لا كما زعمه ، وأيضاً جعل سجود الملائكة لآدم راجعاً إلى محض الامتثال من غير نظر إلى تكريم آدم عليه السلام مردود بما سلم في عدة مواضع أنه سجود تكريم كيف وهو يقابل ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾ [البقرة : 30] وكذلك تعليمه إياهم فليلحظ فيه جانب الآمر تعالى شأنه وجانب المسجود له عليه الصلاة والسلام توفية للحقين وكأنه قال ما قال وأخرج الآية على وجه لم يخطر ببال إبليس حذراً من خرم مذهبه ولا عليه أن يسلم دلالة الآية على التكريم

ويخصه بوجه وحينئذٍ لا تدل على الأفضلية مطلقاً حتى يلزم خرم مذهبه ، ولعمري أن هذا الرجل عق أباه آدم عليه السلام في هذا المبحث من كشافه حيث أورد فيه مثالاً لما قرره في الآية جعل فيه سقاط الحشم مثالاً لآدم عليه السلام وبر عدو الله تعالى إبليس حيث أقام له عذره وصوب اعتقاده أنه

(221/662)

أفضل من آدم لكونه من نار وآدم من طين وإنما غلطه من جهة أخرى وهو أنه لم يقس نفسه على الملائكة إذ سجدوا له على علمهم أنه بالنسبة إليهم محطوط الرتبة ساقط المنزلة وكم له من عثرة لا يقال لصاحبها لعامع الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم في هذا المقام ، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من مهاوي الهوى ويثبت لنا الأقدام ، وقرىء ﴿ بِيَدَىَّ ﴾ بكسر الدال كمصرخي و ﴿ بِيَدَىَّ ﴾ على التوحيد ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ بهمزة الإنكار وطرح همزة الوصل أي أتكبرت من غير استحقاق ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ العالمين ﴾ أو كنت مستحقاً للعلو فائقاً فيه ، وقيل المعنى أحدث لك الاستكبار أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين فالتقابل على الأول : باعتبار الاستحقاق وعدمه وعلى الثاني : باعتبار الحدوث والقدم ولذا قيل ﴿ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ دون أنت من العالين ، وقيل إن العالين

صنف من الملائكة يقال لهم المهيمون مستغرقون بملاحظة جمال الله تعالى وجلاله لا يعلم أحدهم أن الله تعالى خلق غيره لم يؤمروا بالسجود لآدم عليه السلام أو هم ملائكة السماء كلهم ولم يؤمروا بالسجود وإنما المؤمور ملائكة الأرض فالمعنى أتركت السجود استكباراً أم تركته لكونك ممن لم يؤمر به ولا يخفى ما فيه ، وأم في كل ذلك متصلة ونقل ابن عطية عن كثير من النحويين أنها لا تكون كذلك إذا اختلف الفعلان نحو أضربت زيداً أم قتلته .

وتعقبه أبو حيان بأنه مذهب غير صحيح وأن سيبويه صرح بخلافه .

وقرأت فرقة منهم ابن كثير فيما قيل ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ بصلة الألف وهي قراءة أهل مكة وليست في مشهور ابن كثير فاحتمل أن تكون همزة الاستفهام قد حذفت لدلالة أم عليها كقوله

: بسبع رمينا الجمر أم بثمان . . .

واحتمل أن يكون الكلام إخباراً وأم منقطعة والمعنى بل أنت من العالين والمراد استخفافه سبحانه به .

(222/662)

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ قيل هو جواب عن الاستفهام الأخير يؤدي مؤدى أنه كذلك أي هو من العالين على الوجه الأول وأنه ليس من الاستكبار سابقاً ولاحقاً في شيء على الوجه الثاني ويجري مجرى التعليل لكونه فائقاً إلا أنه لما لم يكن وافياً بالمقصود لأنه مجرد دعوى أوثر بيانه بما يفيد ذلك وزيادة وهو قوله : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ أما الأول : فظاهر وأما الثاني : فلأنه ذكر النوعين تنبيهاً على أن المماثلة كافية فضلاً عن الأفضلية ولهذا أبهم وفصل وقابل وآثر ﴿ خَلَقْتَنِي وَخَلَقْتَهُ ﴾ دون أنا من نار وهو من طين ليدل على أن المماثلة في المخلوقية مانعة فكيف إذا انضم إليها خيرية المادة ، وفيه تنبيه على أن الآمر كان أولى أن يستنكف فإنه أعني السجود حق الآمر ، واستلطفه صاحب الكشف ثم قال : ومنه يعلم أن جواب إبليس من الأسلوب الأحمق .

وجعل غير واحد قوله : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ جواباً أولاً وبالذات عن الاستفهام بقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ [ص : 75] بادعاء شيء مستلزم للمانع من السجود على زعمه ، وقوله : ﴿ خَلَقْتَنِي ﴾ الخ تعليلاً لدعوى الخيرية .

وأياً ما كان فقد أخطأ اللعين إذ لا مماثلة في المخلوقية فمخلوقية آدم عليه السلام باليدين ولا كذلك مخلوقيته وأمر خيرية المادة على العكس في النظر الدقيق ومع هذا الفضل غير منحصر بما كان من جهتها بل يكون من جهة الصورة والغاية أيضاً وفضل آدم عليه السلام في ذلك لا يخفى ، وكأن خطأه لظهوره لم يتعرض لبيانه بل جعل جوابه طرده وذلك قوله تعالى :

﴿ قَالَ فَاخرجِ مِنْهَا ﴾ والفاء لترتيب الأمر على ما ظهر من اللعين من المخالفة للأمر الجليل وتعليلها بأظهر الأباطيل أي فاخرج من الجنة ، والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها .

(223/662)

وعن ابن عباس أنه كان في عدن لا في جنة الخلد ثم إنه يكفي في صحة الأمر كونه ممن اتخذ الجنة وطناً ومسكناً ولا تتوقف على كونه فيها بالفعل وقت الخطاب كما هو شائع في المحاورات يقول من يخاصم صاحبه في السوق أو غيره في دار : أخرج من الدار مع أنه وقت المخاصمة ليس فيها بالفعل وهذا إن قيل : إن المحاورة لم تكن في الجنة ، وقيل : منها أي من زمرة الملائكة المعززين وهو المراد بالهبوط لا الهبوط من السماء كما قيل فإن وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد وكانت على ما روي عن الحسن بطريق النداء من باب الجنة على أن كثيراً من العلماء أنكروا الهبوط من السماء بالكلية ، بناءً على أن الجنة التي أسكنها آدم عليه السلام كانت في الأرض ، وقيل : أخرج من الخلقة التي أنت فيها وانسلخ منها والأمر للتكوين ، وكان عليه اللعنة يفتخر بخلقته فغير الله تعالى خلقته فاسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسناً وأظلم بعد ما كان نورانياً .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ تعليل للأمر بالخروج أي مطرود يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب كذا قالوا ، وقد يقال : المراد برجيم ذليل فإن الرجم يستدعي الذلة ، وهو أبعد من توهم التكرار مع الجملة بعد من الوجه الأول وأوفق لما في الأعراف من قوله تعالى : ﴿ فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾

(224/662)

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى ﴾ أي إبعادي عن الرحمة ، وفي الحجر ﴿ ﴾ 1649 ;للَّعْنَةَ ﴾ [الحجر : 35] فإن كانت أل فيه للعهد أو عوضاً عن الضمير المضاف إليه فعدم الفرق بين ما هناك وما هنا ظاهر وإن أريد كل لعنة فذاك لما أن لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين أيضاً من جهته تعالى فهم يدعون عليه بلعنة الله تعالى وإبعاده من رحمته ﴿ إلى يَوْمِ الدين ﴾ يوم الجزاء والعقوبة ، وفيه إيذان بأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست كافية في جزاء جنايته بل هي أنموذج مما سيلقاه مستمرة إلى ذلك اليوم ، لكن لا على أنها تنقطع يومئذٍ كما يوهمه ظاهر التوقيت ونسب القول به إلى بعض الصوفية بل على أنه سيلقى يومئذٍ من ألوان العذاب وأفانين العقاب ما تنسى عنده اللعنة وتصير كالزائل ألا يرى إلى قوله تعالى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ [الأعراف : 44] وقوله تعالى : ﴿ وَيَلْعَنُ

بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ [العنكبوت : 25] .

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى ﴾ أي أمهلني وأخرني ، والفاء متعلقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام كأنه قال : إذا جعلتني رجيماً فامهلني ولا تمتني ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي آدم وذريته للجزاء بعد الموت وهو وقت النفخة الثانية ، وأراد اللعين بذلك أن يجد فسحة من إغوائهم ويأخذ منهم ثاره وينجو من الموت لأنه لا يكون بعد البعث وكان أمر البعث معروفاً بين الملائكة فسمعه منهم فقال ما قال ، ويمكن أن يكون قد عرفه عقلاً حيث عرف ببعض الأمارات أو بطريق آخر من طرق المعرفة أن أفراد هذا الجنس لا تخلو من وقوع ظلم بينها وأن الدار ليست دار قرار بل لا بد من الموت فيها وأن الحكمة تقتضي الجزاء .

(225/662)

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ ورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله الآخرين على وجه يشعر بأن السائل تبع لهم في ذلك صريح في أنه إخبار بالانظار المقدر لهم أزلاً لا إنشاءً لإنظار خاص به قد وقع إجابة لدعائه وأن استنظاره كان طلباً لتأخير الموت إذ به يتحقق كونه منهم لا لتأخير العقوبة كما قيل فإن ذلك معلوم من إضافة اليوم إلى الدين أي إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلاً حسبما تقتضيه حكمة التكوين .

﴿ إِلَى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ الذي قدرته وعينته لفناء الخلائق وهو وقت النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذي هو المسؤول فالفاء ليست لربط نفس لإنظار بالاستنظار بل لربط الاخبار المؤكد به كما في قوله تعالى : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : 77] وقول الشافعي

: فإن ترحم فأنت لذلك أهل . . .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ قسم بسلطان الله عز وجل وقهره وهو كما يكون بالذات يكون بالصفة فالباء للقسم على ما عليه الأكثرون والفاء لترتيب مضمون الجملة على الإنظار أي فاقسم بعزتك ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أفراد هذا النوع بتزيين المعاصي لهم .

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ وهم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم عن الغواية .

وقرىء ﴿ المخلصين ﴾ على صيغة الفاعل أي الذين أخلصوا قلوبهم أو أعمالهم لله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(226/662)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) ﴾

موقع ﴿ إذْ قال ربُّكَ للملائِكة ﴾ صالح لأن يكون استئنافاً فإذا جعلنا النبأ بمعنى نبأ أهل المحشر الموعود به فيكون ﴿ إذْ قَالَ ﴾ متعلقاً بفعل محذوف تقديره : أُذكر ، على أسلوب قوله : ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لَدُن حكيم عليم إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً ﴾ [النمل : 6 ، 7] ، ونظائِره .

فإمّا على جعل النبأ بمعنى نبأ خلق آدم فإن جملة ﴿ إذْ قال ربك ﴾ بدل من ﴿ إذْ يختصمون ﴾ [ص : 69] بدلَ بعض من كل لأن مجادلة الملأ الأعلى على كلا التفسيرين المتقدمين غير مقتصرة على قضية قصة إبليس ، فقد روى الترمذي بسنده عن مالك بن يخامر عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً طويلاً في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم " أنه رأى ربه تعالى فقال له : يا محمد فِيمَ يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري .

قالها ثلاثاً .

ثم قال بعد الثالثة بعد أن فتح الله عليه ، قلت : في الكفارات .

قال : ما هن ؟ قلت مشي الأقدام إلى الحسنات والجلوس في المساجد " وذكرَ أشياء من الأعمال الصالحة (ولم يذكر اختصامهم في قضية خلق آدم) .

وقال الترمذي هو حديث حسن صحيح وقال عن البخاري : إنه أصح من غيره مما في

معناه ولم يخرجه البخاري في "صحيحه" وليس في الحديث أنه تفسير لهذه الآية ، وإنما جعله الترمذي في كتاب "التفسير" لأن ما ذُكر فيه بعضٌ مما يختصم فيه أهل الملأ الأعلى مراد به اختصام خاص هو ما جرى بينهم في قصة خلق آدم والمقاولة بين الله وبين الملائكة لأن قوله : ﴿ فَسَجَدَ الملائكةُ ﴾ يقتضي أنهم قالوا كلاماً دَل على أنهم أطاعوا الله فيما أمرهم به ، بل ورد في سورة البقرة تفصيل ما جرى من قول الملائكة فهو يبيّن ما أجمل هنا وإن كان متأخراً إذ المقصود من سوق القصة هنا الاتّعاظ بكِبرْ إبليس دون ما نشأ عن ذلك .

(227/662)

ويَجوز أن يكون ﴿ إذْ قالَ رَبُّكَ ﴾ منصوباً بفعل مقدر ، أي اذكر إذ قال ربك للملائكة ، وهو بناء على أن ضمير ﴿ هُو نبؤا عظيمٌ ﴾ [ص : 67] ليس ضمير شأن بل هو عائد إلى ما قبله وأن ﴿ إذْ يختصمون ﴾ [ص : 69] مراد به خصومة أهل النار .

وقصة خلق آدم تقدم ذكرها في سور كثيرة أشبهها بما هنا ما في سورة الحجر ، وأبينُها ما في سورة البقرة .

ووقع في سورة الحِجْر (31) ﴿ إلا إبليس أبى ﴾ وفي هذه السورة ﴿ إلا إبليس

استكْبَر ﴾ فيكون ما في هذه الآية يبين الباعث على الإِباية .

ووقعت هنا زيادة ﴿ وكانَ مِنَ الكافِرينَ ﴾ ، وهو بيان لكون المراد في سورة الحجر (31) من قوله : ﴿ أن يكون مع الساجدين ﴾ الإِباية من الكون من الساجدين لله ، أي المنزهي الله عن الظلم والجهل .

ووقع في هذه السورة ﴿ وكان من الكافرين ﴾ ، ومعناه أنه كان كافراً ساعتئذٍ ، أي ساعة إبائه من السجود ولم يكن قبل كُافراً ، ففعل ﴿ كان ﴾ الذي وقع في هذا الكلام حكاية لكفره الواقع في ذلك الوقت .

قال الزجّاج : " (كان) جَارٍ على باب سائر الأفعال الماضية إلاّ أن فيه إخباراً عن الحَالة فيما مضى ، إذا قلت : كان زيد عالماً ، فقد أنبأتَ عن أن حالته فيما مضى من الدهر هذا ، وإذا قلت : سيكون عالماً فقد أنبأت عن أن حالة ستقع فيما يستقبل ، فهما عبارتان عن الأفعال والأحوال" أ هـ .

وقد بدتْ من إبليس نزعة كانت كامنة في جبلته وهي نزعة الكبر والعصيان ، ولم تكن تظهر منه قبل ذلك لأن الملأ الذي كان معهم كانوا على أكمل حسن الخلطة فلم يكن منهم مثير لما سكن في نفسه من طبع الكبر والعصيان .

فلما طرأ على ذلك الملأ مخلوق جديد وأُمر أهل الملأ الأعلى بتعظيمه كان ذلك موريِاً زناد الكبر في نفس إبليس فنشأ عنه الكفر بالله وعصيان أمره .

وهذا ناموس خُلُقي جعله الله مبدأ لهذا العالم قبل تعميره ، وهو أن تكون الحوادث والمضائق معيار الأخلاق والفضيلة ، فلا يحكم على نفس بتزكية أو ضدها إلا بعد تجربتها وملاحظة تصرفاتها عند حلول الحوادث بها .

وقد مُدح رجل عند عمر بن الخطاب بالخير ، فقال عمر : هل أريتموه الأبيضَ والأصفر ؟ يعني الدراهم والدنانير .

وقال الشاعر :

لا تمدحَنَّ امرأً حتّى تُجرّبه . . .

ولا تذمَّنَّه من قبل تجريب

إن الرجال صناديقٌ مقفَّلة . . .

وما مفاتيحها غَير التجاريب

ووجه كونه من الكافرين أنه امتنع من طاعة الله امتناع طعن في حكمة الله وعلمه ، وذلك كفر لا محالة ، وليس كامتناع أحد من أداء الفرائض إن لم يجحد أنها حَقّ خلافاً للخوارج وكذلك المعتزلة .

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75)

أي خاطب الله إبليس ولا شك أن هذا الخطاب حينئذٍ كان بواسطة ملَك من الملائكة لأن إبليس لما استكبر قد انسلخ عن صفة الملكية فلم يعد بعد أهلاً لتلقي الخطاب من الله ولم يكن أرفع رتبة من الرسل الذين قال الله فيهم ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه اللَّه إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ [الشورى : 51] ، وبذلك تكون المحاورة المحكية هنا بواسطة ملَك فيكون الاختصام بينه وبين الملائكة على جعل ضمير ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [ص : 69] عائداً إلى الملأ الأعلى كما تقدم .

وجيء بفعل ﴿ قال ﴾ غير معطوف حسب طريقة المقاولات .

وتقدم قريب من هذه الآية في سورة الحجر إلا قوله هنا ﴿ ما مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ ﴾ ، أي ما منعك من السجود ، ووقع في [سورة الأعراف : 12] ﴿ أن لا تسجد ﴾ على أن لا زائدة .

(229/662)

وحُكي هنا أن الله قال له : لِمَا خلقْتُ بِيدي ﴾ ، أي خلقته بقدرتي ، أي خلقاً خاصّاً دفعة ومباشرة لأمر التكوين ، فكان تعلق هذا التكوين تعلقاً أقربَ من تعلقه بإيجاد

الموجودات المرتَّبة لها أسباب تباشرها من حمل وولادة كما هو المعروف في تخلق الموجودات عن أصولها .

ولا شكّ في أن خلق آدم فيه عناية زائدة وتشريف اتصال أقرب .

فاليدان تمثيل لتكوّن آدم من مُجرد أمر التكوين للطين بهيئة صنع الفخَّاري للإِناء من طين إذ يسوّيه بيديه .

وكان السلف يُقِرّون أن اليدين صفة خاصة لله تعالى لورودهما في القرآن مع جزمهم بتنزيه الله عن مشابهة المخلوقات وعن الجسمية وقصدهم الحذر من تحكيم الآراء في صفات الله ، أو أن تحمل العقول القاصرة صفاتِ الله على ما تعارفته ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ [طه : 39] وقال مرة ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : 48] .

وقد تقدم القول في الآيات المشاهبة في أول سورة آل عمران .

وفي إلقاء هذا السؤال إلى إبليس قطع بمعذرته .

والمعنى : أمن أجل أنك تتعاظم بغير حق أم لأنك من أصحاب العلو ، والمراد بالعلو الشرف ، أي من العالين على آدم فلا يستحق أن تعظمه فأجاب إبليس مما يشق الثاني .

فتبين أنه يعدّ نفسه أفضل من آدم لأنه مخلوق من النار وآدم مخلوق من الطين ، يعني والنار أفضل من الطين ، أي في رأيه .

وعبر عن آدم باسم "مَا" الموصولة وهو حينئذٍ إنسان لأن سجود الملائكة لآدم كان بعد

خلقه وتعليمه الأسماء كما في سورة البقرة .

ويؤيد قول أهل التحقيق أن "ما" لا تختص بغير العاقل وشواهده كثيرة في القرآن وغيره من كلام العرب .

وقال : ﴿ أَنَا خيرٌ منه ﴾ قولٌ من الشيطان حكي على طريقة المحاورات .

وجملة ﴿ خلقتني من نارٍ وخلقته من طِينٍ ﴾ بيان لجملة ﴿ أنا خيرٌ منه ﴾ .

(230/662)

وقد جعل إبليس عذره مبْنياً على تأصيل أن النار خير من الطين ولم يرد في القرآن أن الله رد عليه هذا التأصيل لأنه أحقر من ذلك فلعنه وأطرده لأنه ادعى باطلاً وعصى ربّه استكباراً : وطَرْدُه أجمع لإِبطال علمه ودحض دليله ، غير أن النور الذي في النار نور عارض قائم بالأجسام الملْتهبة التي تسمّى ناراً ، وليس للنار قيام بنفسها ولذلك لم تَعْدُ أن يكون كيانها مخلوطاً بما يُلهبها .

ومعنى كون الشيطان مخلوقاً من النار أَنَّ ابتداء تكوّن الذَّرة الأصلية لقوام ماهيته من عنصر النار ، ثم تمتزج تلك الذرة بعناصر أخرى مثل الهواء وما الله أعلم به .

ومعنى كون آدم مخلوقاً من الطين أن ابتداء تكوّن ذَرات جثمانه من عنصر التراب وأدخل

على تلك الذرات ما امتزجت به عناصر الهواء والماء والنار وما يتولد على ذلك التركيب من عناصر كيماوية وقوة كهربائية تتقوم بمجموعها ماهية الإِنسان .

وتكون ﴿ من ﴾ في الموضعين ابتدائية لا تبعيضية .

وقد جزم الفلاسفة الأولون والأطباء بأن عنصر النار أشرف من عنصر التراب ويعبر عنه بالأرض لأن النار لطيفة مضيئة اللون والتراب كثيف مظلم اللون .

وقال الشيرازي في "شرح كليات القانون" : إن النار وإن ترَجحت على الأرض بما ذكر فالأرض راجحة عليها بأنها خير للحيوان والنبات ، وغيرُ مفسدة ببردها ، بخلاف النار فإنها مفسدة بحرّها لكونه في الغاية إلى غير ذلك .

والحق : أن أفضليّة العناصر لا تقتضي أفضلية الكائنات المنشأَة منها لأن العناصر أجرام بسيطة لا تتكون المخلوقات من مجردها بل المخلوقات تتكون بالتركيب بين العناصر ، والأجسامُ الإِنسانية مركبة من العناصر كلّها .

(231/662)

والروح الآدمي لطيفة نورانية تفوّق بها الإِنسان على جميع المركبات بأن كان فيه جزء ملَكي شارك به الملائكة ، ولذلك طلب منه خالقه تعالى وتقدّس أن يلحق نفسه بالملائكة فتحقق

ذلك الالتحاق كاملاً في الأنبياء والمرسلين ومن أجل ذلك قلنا : إن الأنبياء والرسل أفضل من الملائكة لاستواء الفريقين في تمحض النورانية وتميُّز فريق الأنبياء بأنهم لَحقوا تلك المراتب بالاصطفاء والطاعة ، فليس لإِبليس دليل في التفضيل على آدم وإنما عرضت له شبهة ضالة ولذلك جوزي على إبائه من السجود إليه بالطرد من الملإِ الأعلى .

وإنما بسطنا القول هنا لردّ شبه طائفة من الملاحدة الذين يصوبون شبهة إبليس طعناً في الدين لا إيماناً بالشياطين ليعلموا أنه لو سلمنا أن النار أشرف من الطين لما كان ذلك مُقتضياً أن يكون ما ينشأ من النار أفضل مما ينشأ من الطين لأن المخلوق كائن مركب من عناصر وأجزاء متفاوتة والتركيب قد يُدخل على المادة الأولى شرفاً وقد يدخل عليها حَقارة ، والتفاضل إنما يتقوم من الكمال في الذات والآثار .

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78)

عاقبه الله على ما برز من نفسانيته فخالف ما كان من طريقته فأطرده من الملأ الأعلى ومن الجنة ، وضمير ﴿ قَالَ ﴾ عائد إلى الله تعالى على طريقة حكاية المقاولات .

وفُرّع أمره بالخروج من الجنة بالفاء على ما تقدمه من السؤال والجواب لأن جوابه دل على كون خبث في نفسه بدت آثاره في عمله فلم يصلح لمخالطة أهل الملأ الأعلى .

وتقدم تفسير نظير هذه الآية في سورة الحجر .

واللعنة : الإِبعاد من رحمة الله ، وأضيف إلى الله لتشنيع متعلقها وهو الملعون لأن الملعون من جانب الله هو أشنع ملعون .

(232/662)

وجعل ﴿ يَوْمِ الدِينِ ﴾ غاية اللعنة للدلالة على دوامها مدةَ هذه الحياة كلها ليستغرق الأزمنة كلها ، وليس المراد حصول ضد اللعنة له يوم الدين أعني الرحمة لأن يوم الدين يوم الجزاء على الأعمال فجزاء الملعون العذاب الأليم كما أنبأ بذلك التعبير بـ ﴿ يَوْمِ الدينِ ﴾ دون : ﴿ يوم يبعثون ﴾ [ص : 79] ، أو ﴿ يوم الوقت المعلوم ﴾ [ص : 81] .

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79)

أي قال إبليس .

وتقدم نظير هذه الآية في سورة الحجر وتفسيرها هناك مستوفى .

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82)

الفاء لتفريع كلامه على أمر الله إياه بالخروج من الجنة وعقابه إياه باللعنة الدائمة وهذا التفريع من تركيب كلام متكلم على كلام متكلم آخر .

وهو الملقب بعطف التلقين في قوله تعالى : ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ في سورة [البقرة : 124

].

أقسم الشيطان بعزة الله تحقيقاً لقيامه بالإِغواء دون تخلف ، وإنما أقسم على ذلك وهو يعلم عظمة هذا القَسَم لأنه وجد في نفسه أن الله أقدره على القيام بالإِغواء والوسوسة وقد قال في سورة [الحجر : 39] : ﴿ رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾

والعزة : القهر والسلطان ، وعزة الله هي العزة الكاملة التي لا تختل حقيقتها ولا يتخلف سلطانها ، وقَسَم إبليس بها ناشىء عن علمه بأنه لا يستطيع الإِغواء إلا لأن الله أقدره ولولا ذلك لم يستطع نقض قدرة الله تعالى .

وتقدم تفسير نظير : ﴿ ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين في سورة ﴾ [الحجر : 40] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(233/662)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ خلقت بيدى ﴾

لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع مفردا ومثنى ومجموعا فالمفرد كقوله بيده الملك

الملك1

والمثنى كقوله خلقت بيدي ص75

والمجموع كقوله عملت أيدينا يس71

فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد وعدى الفعل بالباء إليهما

فقال خلقت بيدي ص75

وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعد الفعل بالباء فهذه ثلاثة فروق فلا يحتمل

خلقت بيدي ص75

من المجاز ما يحتمله عملت أيدينا فإن كل أحد يفهم من قوله عملت أيدينا ما يفهمه من قوله

عملنا وخلقنا كما يفهم ذلك من قوله فبما كسبت أيديكم الشورى30

وأما قوله خلقت بيدي ص75

فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى فكيف

وقد دخلت عليها الباء فكيف إذا ثنيت

وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد والمراد الإضافة إليه كقوله

بما قدمت يداك الحج10 فبما كسبت أيديكم الشورى30

وأما إذا أضيف إليه الفعل ثم عدي بالباء إلى يده مفردة أو مثناة فهو ما باشرته يده ولهذا

قال عبد الله بن عمرو إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثا خلق آدم بيده وغرس جنة الفردوس بيده وذكر الثالثة فلو كانت اليد هي القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على شيء مما خلق بالقدرة وقد أخبر النبي أن أهل الموقف يأتونه يوم القيامة فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك فذكروا أربعة أشياء كلها خصائص وكذلك قال

(234/662)

آدم لموسى في محاجته له اصطفاك الله بكلامه وخط لك الألواح بيده وفي لفظ آخر كتب لك التوراة بيده وهو من أصح الأحاديث وكذلك الحديث الآخر المشهور أن الملائكة قالوا يا رب خلقت بني آدم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال الله تعالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان وهذا التخصيص إنما فهم من قوله خلقت بيدي ص75

فلو كانت مثل قوله مما عملت أيدينا لكان هو والأنعام في ذلك سواء فلما فهم المسلمون أن قوله ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي موجبا له تخصيصا

وتفضيلا بكونه مخلوقا باليدين على من أمر أن يسجد له وفهم ذلك أهل الموقف حين جعلوه

من خصائصه كانت التسوية بينه وبين قوله أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما

يس 71

خطأ محضا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الصواعق المرسلة حـ 1 صـ 38. 39 ﴾

(235/662)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والستون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/663)

الجزء الثالث والستون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 84 ﴾ من سورة ص

وحتى الآية ﴿ 88 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/663)

قوله تعالى ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما حصل التشوف إلى جوابه ، دل عليه بقوله : ﴿ قال فالحق ﴾ أي فبسبب إغوائك وغوايتهم أقول الحق ﴿ والحق ﴾ أي لا غيره أبداً ﴿ أقول ﴾ أي لا أقول إلا الحق ، فإن كل شيء قلته ثبت ، فلم يقدر أحد على نقضه ولا نقصه .

ولما كانت إجابته بالإنظار ربما كانت سبباً لطمعه في الخلاص ، قطع رجاءه بما أبرزه في أسلوب التأكيد من قوله جواباً لقسم مقدر وبياناً للحق ، وفي قراءة عاصم وحمزة برفع ﴿ فالحق ﴾ يكون هو المقسم به أي فالحق قسمي ، والجواب ﴿ لأملأن ﴾ وما بينهما اعتراض مبين أن هذا مما لا يخلف اصلاً ﴿ جهنم ﴾ أي النار العظيمة التي من شأنها تجهم من حكم بدخوله إياها ﴿ منك ﴾ أي نفسك وكل من كان على شاكلتك من جنسك من جميع الجن ﴿ وممن ﴾ .

ولما كان الأغلب على سياقات هذه السورة سلامة العاقبة ، كان توحيد الضمير في ﴿ تبع ﴾ أولى ، وليفهم الحكم على كل فرد ثم الحكم على المجموع فقال : ﴿ تبعك ﴾ ولما كان ربما قال متعنت : إن المالىء لجهنم من غير البشر قال : ﴿ منهم ﴾ أي الناس الذين طلبت الإمهال لأجلهم ، وأكد ضمير ﴿ منك ﴾ والموصول في ﴿ ممن ﴾ بقوله : ﴿ أجمعين ﴾ لا تفاوت في ذلك بين أحد منكم ، وهذا الخصام الذي بين سبحانه أنه كان بين الملأ الأعلى كان سبباً لهم إلى انكشاف علوم كثيرة منها أن السجود والتحيات والاستغفار والكفارات سبب الوصول إلى الله والقربات ، فصاروا بعد ذلك يختصمون

فيها ، فكانت هذه القضية سبباً لاطلاع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أسرار الملك والملكوت ، وإلى ذلك الإشارة بالحديث الذي رواه أحمد والترمذي – وقال : حسن غريب – والدارمي والبغوي في تفسير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

(5/663)

" إني نعست فاستثقلت نوماً فأتاني ربي " – وفي رواية ؛ " آتٍ من ربي – في أحسن صورة ، فقال لي يا محمد ، قلت : لبيك ربي وسعديك ، قال : هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ، فقلت لا يا رب " – وفي رواية : " قلت : أنت أعلم أي رب مرتين – قال : فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي – أو قال : نحري – فعلمت ما في السماوات وما في الأرض " – وفي رواية : " ما بين المشرق والمغرب " – وفي رواية الدارمي والبغوي : " ثم تلا هذه الآية ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ قال : يا محمد ! هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ، قلت : نعم ، في الدرجات والكفارات ، قال : وما هن ؟ قلت : المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء في المكاره " – وفي رواية : " في السبرات – وانتظار الصلاة

بعد الصلاة قال : من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه ، وقال : يا محمد ، قلت : لبيك وسعديك ، قال : إذا صليت فقل " اللهم إني أسالك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون " قال : " والدرجات إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام " ، قال المنذري : الملأ الأعلى : الملائكة المقربون ، والسبرات – بفتح السين المهملة وسكون الباء الموحدة : جمع سبرة ، وهي شدة البرد ، وعزاه شيخنا في تخريج أحاديث الفردوس إلى أحمد والترمذي عن معاذ ـ رضى الله عنه ـ أيضاً وقال : وفي الباب عن ثوبان ـ رضى الله عنه ـ عند أحمد بن منيع وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ، وأبي رافع وأبي أمامة وأبي عبيدة وأسامة وجابر بن سمرة وجبير بن مطعم وأسامة بن عمير وأنس ـ رضى الله عنه ـ م عند أحمد ، فهذا اختصام سبب العلم بتفاصيله الاختصام الأول وهو ما في شأن آدم عليه السلام وذريته ، والعلم الموهوب لمحمد ـ صلى الله عليه

وسلم ـ بسبب السؤال عن هذا الاختصام كالعلم الموهوب لأبيه آدم عليه عليه السلام بسبب ذلك الاختصام ، وهذا الاختصام – والله أعلم – هو اختلافهم في مقادير جزاء

العاملين من الثواب المشار إليه بالدرجات الحامل عليها العقل الداعي إلى أحسن تقويم ، والعقاب المشار إليه بالكفارات الداعي إلى أسبابها الوساوس الشيطانية الرادة إلى أسفل سافلين التي سأل إبليس الإنظار لأجلها ، وسبب اختلافهم في مقادير الجزاء اختلاف مقادير الأعمال الباطنة من صحة النيات وقوة العزائم وشدة المجاهدات ولينها على حسب دواعي الحظوظ والشهوات التي كان سبب علمهم بهذا الاختصام في أمر آدم عليه السلام وما نشأ عنه تفصيله بأمور دقيقة المأخذ المظهرة لأن الفضل ليس بالأمور الظاهرة وإنما هو بما يهبه الله من الأمور الباطنة وسمي تقاولهم في ذلك اختصاماً دلالة على عظمة ما تقاولوا فيه ، لأن الخصومة لا تكون إلا بسبب أمر نفيس ، فالمعنى أن الملائكة كل واحد منهم مشغول بما أقيم فيه من الخدمة ، فليس بينهم تقاول يكون بغاية الجد والرغبة كما هو شأن الخصام إلا في هذا لشدة عجبهم منه لما يعملون من صعوبة هذه الأمور على الآدمي لما عنده من الشواغل والصوارف عنها بما وهبهم الله من العلم جزاء لانقيادهم للطاعة بالسجود بعد ذلك الخصام فنزوع الآدمي عن صوارفه وحظوظه إلى ما للملائكة من الصفوف في الطاعة والإعراض أصلاً عن المعصية غاية في العجب ، وعلمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما في السماوات وما في الأرض علم عام لما كان في حين الرؤيا ظهر له به ملكوتهما ، ونسبة ذلك كله إلى علم الله تعالى كالنسبة التي ذكرها الخضر لموسى عليهما السلام في نقرة العصفور من البحر ، والذي ذكره العلماء في ذلك أنه تقريب للإفهام فإنه لا

نسبة في الحقيقة لعلم أحد من علمه تعالى ولا بنقص علمه أصلاً سبحانه عما يلم بنقص أو يدني إلى وهن

(7/663)

﴿ قل لو كان البحر مداداً ﴾ [الكهف : 109] ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ [لقمان : 27] ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ﴾ [المائدة : 109] ويقال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ناس اختلجوا دونه عن حوضه " إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ؟ فيقول : فسحقاً سحقاً " .

(8/663)

ولما تم ما أراد من الدليل على أن ما ذكره لهم نبأ عظيم هم عنه معرضون بما أخبر به من الغيب مع ما له من الإعجاز ، فثبت بذلك ما اقتضى أنه صادق في نسبته إلى الله تعالى ، وختم بالتحذير من اتباع إبليس ، أمره بالبراءة من طريقه وأن ينفي عن نفسه ما قد يحمل على التقول بقوله : ﴿ قل ﴾ أي لأمتك : ﴿ ما أسئلكم ﴾ سؤالاً مستعلياً ، وعلق به لا "

بأجر " قوله : ﴿ عليه ﴾ أي على التبليغ والإنذار مما أنتم متعرضون له من الهلاك بالإعراض ، فأداة الاستعلاء للاحتراز عن سؤال المودة في القربى وحسن الاتباع فإنهما مسؤولان وهما روح الدين ، ولكن سؤالهما ليس مستعلياً على الإبلاغ بحيث إنهما لو انتفيا انتفى ، وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من أجر ﴾ أي فيكون لكم في الرد شبهة ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أي المتحلين بما ليسوا من أهله من قول ولا فعل ، الذين يكلفون أنفسهم تزوير الكلام والتصنع فيه وترتيبه على طريق من الطرق بنظم أو نثر سجع أو خطب أو غير ذلك ، أو وضع أنفسهم في غير مواضعها ، كما فعل إبليس ، لست منهم بسبيل ولا أعد في عدادهم بوجه ، لا أفعل أفعالهم ولا أحبهم ولا أتعصب لهم ، فهو أبلغ من " وما أنا متكلفاً " قد عرفتموني طول عمري كذلك ، ومن المعلوم أن ذلك لو كان في غريزتي لما كففت عنه طول زماني النمو من الصبي والشباب اللذين توجد فيهما الغرائز ولا توجد بعدهما ، فإذا ثبت أن ذلك لم يكن لي إذ ذاك ثبت أنه متعذر بعده ، لما تقرر من أنه لا توجد غريزة بعد الوقوف عن النمو في سن الثلاث والأربعين ، فإذا علم أني لست كذلك علم أني مأمور بما أنا فيه من القول والفعل ، فأنا من المكلفين لا المتكلفين ، فكل من قال أو فعل ما لم يؤمر به فهو متكلف ، وروى الثعلبي بسنده من حديث سلمة بن نفيل - رضى الله عنه - مرفوعاً والبيهقي في الشعب من قول علي بن أرطاة وأبو نعيم في الحلية من قول وهب : علامة المتكلف ثلاث : ينازع من فوقه ، ويتعاطى ما لا ينال ، ويقول ما لا

(9/663)

يعلم .

ولما أثبت المقتضيات لأنه من عند الله وأزال الموانع ، بين حقيقته التي لا يتعداها إلى ما نسبوه إليه بقوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هو إلا ذكر ﴾ أي عظة وشرف ﴿ للعالمين ﴾ أي كلهم يفهم كل فرد ما تحتمله قواه ذكياً كان أو غبياً على ما هو عليه من العلو الذي لا يدانيه فيه كلام بخلاف الشعر والكهانة التي محطها السجع والكذب في الإختبار ببعض المغيبات ، فإنهما مع سفول رتبتهما لا يفهمهما من العالمين إلا ذاك وذاك .

(10/663)

ولما كان التقدير : أنا عالم بذلك ، عطف عليه قوله جواباً لقسم : ﴿ ولتعلمن ﴾ أي أنتم أيضاً ﴿ نبأه ﴾ أي صدقي في جميع ما أنبأتكم به فيه وعنه من الأخبار العظيمة وفيما أشار إليه افتتاح هؤلاء الأنبياء المذكورين في هذه السورة بخليفة وختامهم بخليفة من أن عزتكم تصير إلى ذل وشقاقكم يصير إلى مسالمة وألفة ، وكثرتكم تصير إلى قل ، وأن ما أنا

فيه الآن يفضي بي إلى خلافة الله في أرضه ، وأن أوسط أمري يصير إلى مثل خلافة الأول في جميع جزيرة العرب التي هي أرض المسجد الأعظم الذي هو قبل المسجد الأقصى الذي هو محل خلافته ، ثم يزاد أمر خلافتي في سائر البلاد ولا يزال حتى يعم الأرض بطولها والعرض على يد ابنه عيسى عليه السلام خاتمة أكابر أتباعي وأنصاري وأشياعي ، وترك الجار إعلاماً باستغراق العلم لزمان البعد فقال : ﴿ بعد حين ﴾ أي مبهم عندكم معلوم لي في الدنيا إذا ظهر عبادي عليكم وفي الآخرة مطلقاً ، وإنما أخروا إلى هذا الحين ليبلغ في الإعذار إليهم فتنقطع حججهم وتتناهى ذنوبهم التي يستحقون الأخذ بها ، ولقد والله علموا ذلك ثم ندموا من مات منهم ومن عاش قبل مضي عشرين سنة من إعلاء كلمته وإظهار رسالته وإتمام دينه ، واستمر العلم لهم ولمن بعدهم بما بث فيه من العلوم ، وجمع فيه من شريف الرسوم ، وأظهر مما تقدم الوعد به فيه إلى هذا الزمان ، وإلى أن يفنى كل فان ، ثم يبعثوا إلى الجنان أو النيران ، فقد أثبتت هذه الآية من كون القرآن ذكراً ما أثبتته أول آية فيها على أتم وجه مع زيادة الوعيد ، فانعطف الآخر على الأول ، واتصل به أحسن اتصال وأجمل ، ونظر إلى أول الزمر أعظم نظر وأكمل ، فللّه در هذا الانتظام ، فهو لعمري أضوأ من شمس الضحى وأتم من بدر التمام ، فسبحان من أنزله و – أجمله وفصله ، وفضله وشرفه وكرمه – والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 407 . 411 ﴾

(11/663)

فصل

قال الفخر :

واعلم أن إبليس لما ذكر هذا الكلام قال الله تعالى : ﴿ فالحق والحق أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ منك وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم وحمزة ﴿ فالحق ﴾ بالرفع ﴿ والحق ﴾ بالنصب ، والباقون بالنصب فيهما .

أما الرفع فتقديره فالحق قسمي .

وأما النصب فعلى القسم ، أي فبالحق ، كقولك والله لأفعلن .

وأما قوله : ﴿ والحق أَقُولُ ﴾ انتصب قوله : ﴿ والحق ﴾ بقوله : ﴿ أَقُولُ ﴾ .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ مِنكَ ﴾ أي من جنسك ، وهم الشياطين ﴿ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ من ذرية آدم ، فإن قيل قوله : ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيد لماذا ؟ قلنا : يحتمل أن يؤكد به الضمير في ﴿ مِنْهُمْ ﴾ ، أو الكاف في ﴿ مِنكَ ﴾ مع من تبعك ، ومعناه لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا

أترك منهم أحداً .

المسألة الثالثة :

(12/663)

احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة أن الكل بقضاء الله من وجوه الأول : أنه تعالى قال في حق إبليس : ﴿ فاخرج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدين ﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بأنه لا يؤمن ، فلو آمن لانقلب خبر الله الصدق كذباً وهو محال ، فكان صدور الإيمان منه محالاً مع أنه أمر به والثاني : أنه قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فالله تعالى علم منه أنه يغويهم ، وسمع منه هذه الدعوى ، وكان قادراً على منعه عن ذلك ، والقادر على المنع إذا لم يمنع كان راضياً به ، فإن قالوا : لعل ذلك المنع مفسد ، قلنا : هذا قول فاسد ، لأن ذلك المنع يخلص إبليس عن الإضلال ، ويخلص بني آدم عن الضلال ، وهذا عين المصلحة الثالث : أنه تعالى أخبر أنه يملأ جهنم من الكفرة ، فلو لم يكفروا لزم الكذب والجهل في حق الله تعالى الرابع : أنه لو أراد أن لا يكفر الكافر لوجب أن يبقى الأنبياء والصالحين ، وأن يميت إبليس والشياطين ، وحيث قلب الأمر علمنا أنه فاسد الخامس : أن تكليف أولئك الكفار بالإيمان ، يقتضي تكليفهم بالإيمان بهذه الآيات التي هي دالة على أنهم لا

يؤمنون ألبتة ، وحينئذ يلزم أن يصيروا مكلفين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون ألبتة ، وذلك تكليف بما لا يطاق ، والله أعلم .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86)

اعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة ، وذلك لأنه تعالى ذكر طرقاً كثيرة دالة على وجوب الاحتياط في طلب الدين ، ثم قال عند الختم : هذا الذي أدعو الناس إليه يجب أن ينظر في حال الداعي ، وفي حال الدعوة ليظهر أنه حق أو باطل .

أما الداعي وهو أنا .

(13/663)

فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجراً ومالاً ، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال ألبتة ، وكان من الظاهر أنه صلى الله عليه وسلم كان بعيداً عن الدنيا عديم الرغبة فيها ، وأما كيفية الدعوة فقال : وما أنا من المتكلفين ، والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً ، والذي يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذي أدعوكم إليه دين ليس يحتاج في معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة ، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته ، فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله أولاً : ثم أدعوكم ثانياً : إلى تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق به ، يقوي

ذلك قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وأمثاله ، ثم أدعوكم ثالثاً : إلى الإقرار بكونه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة ، ثم أدعوكم رابعاً : إلى الإقرار بكونه منزهاً عن الشركاء والأضداد ، ثم أدعوكم خامساً : إلى الإمتناع عن عبادة هذه الأوثان ، التي هي جمادات خسيسة ولا منفعة في عبادتها ولا مضرة في الإعراض عنها ، ثم أدعوكم سابعاً : إلى الإقرار بالبعث والقيامة : ﴿ لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الذين أَحْسَنُوا بالحسنى ﴾ [النجم : 31] ثم أدعوكم ثامناً : إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة ، فهذه الأصول الثمانية ، هي الأصول القوية المعتبرة في دين الله تعالى ، ودين محمد صلى الله عليه وسلم وبدائه العقول ، وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه الأصول الثمانية ، فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة التي أدعو الخلق إليها .

(14/663)

بل كل عقل سليم وطبع مستقيم ، فإنه يشهد بصحتها وجلالتها ، وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ ولما بين هذه المقدمات قال : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ والمعنى أنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد ، وأبيتم قبول هذه البيانات التي ذكرناها ، فستعلمون بعد حين أنكم كنتم مصيبين في هذا الإعراض أو

مخطئين ، وذكر مثل هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لا مزيد عليه في التخويف والترهيب ، والله أعلم .

قال المصنف رحمة الله عليه : تم تفسير هذه السورة يوم الخميس في آخر الثلاثاء الثاني من شهر ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة ، والحمد لله على آلائه ونعمائه .

والصلاة على المطهرين من عباده في أرضه وسمائه ، والمدح والثناء كما يليق بصفاته وأسمائه ، والتعظيم التام لأنبيائه وأوليائه ، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 205 . 206 ﴾

(15/663)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : بِنَاءُ (ك ل ف) فِي لِسَانِ الْعَرَبِ لِلْإِلْزَامِ وَالِالْتِزَامِ ، وَقَدْ غَلِطَ عُلَمَاؤُنَا فَقَالُوا : إنَّهُ فِعْلُ مَا فِيهِ مَشَقَّةٌ ، وَكُلُّ إلْزَامٍ مَشَقَّةٌ ، فَلَا مَعْنَى لِاشْتِرَاطِ الْمَشَقَّةِ ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مَشَقَّةٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْمَعْنَى مَا أُلْزِمُ نَفْسِي مَا لَا يَلْزَمُنِي ، وَلَا أُلْزِمُكُمْ مَا لَا يَلْزَمُكُمْ ، وَمَا جِئْتُكُمْ بِاخْتِيَارِي دُونَ أَنْ أُرْسِلْت إلَيْكُمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ الْمُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ ، أَخْبَرَنَا الْقَاضِي أَبُو الطَّيِّبِ الطَّبَرِيُّ ، أَخْبَرَنَا الدَّارَقُطْنِيُّ ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ صَالِحٍ الْكُوفِيُّ ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنُ هَارُونَ الْبَلَدِيُّ ، حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بْنُ الْحَسَنِ الْحَرَّانِيُّ ، أَخْبَرَنَا أَيُّوبُ بْنُ خَالِدٍ الْحَرَّانِيُّ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلْوَانَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : ﴿ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، فَسَارَ لَيْلًا ، فَمَرَّ عَلَى رَجُلٍ جَالِسٍ عِنْدَ مَقْرَاةٍ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : يَا صَاحِبَ الْمَقْرَاةِ ، وَلَغَتْ السِّبَاعُ اللَّيْلَةَ فِي مَقْرَاتِكَ .

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا صَاحِبَ الْمَقْرَاةِ ، لَا تُخْبِرْهُ ، هَذَا مُتَكَلِّفٌ لَهَا مَا حَمَلَتْ فِي بُطُونِهَا ، وَلَنَا مَا بَقِيَ شَرَابٌ وَطَهُورٌ ﴾ .

(16/663)

وَهَذَا بَيَانُ سُؤَالٍ عَنْ وُرُودِ الْحَوْضِ السِّبَاعُ ، فَإِنْ كَانَ مُمْكِنًا غَالِبًا لَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ ، وَإِنَّمَا يُعَوَّلُ عَلَى حَالِ الْمَاءِ فِي لَوْنِهِ وَطَعْمِهِ وَرِيحِهِ ، فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْأَلَ مَا يَكْسِبُهُ فِي دِينِهِ شَكًّا أَوْ إشْكَالًا فِي عَمَلِهِ ، وَلِهَذَا قُلْنَا لَكُمْ : إذَا جَاءَ السَّائِلُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَوَجَدْتُمْ لَهُ

مَخْلَصًا فِيهَا فَلَا تَسْأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ ، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا لَهُ مَخْلَصًا فَحِينَئِذٍ فَاسْأَلُوهُ عَنْ تَصَرُّفِ أَحْوَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَنِيَّتِهِ ، عَسَى أَنْ يَكُونَ لَهُ مَخْلَصٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(17/663)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾

و: ﴿ إذ ﴾ في قوله : ﴿ إذ قال ربك ﴾ بدل من قوله : ﴿ إذ ﴾ الأولى على تأويل من رأى الخصومة في شأن من يستخلف في الأرض ، وعلى الأقوال الأخر يكون العامل في ﴿ إذ ﴾ الثانية فعل مضمر تقديره : واذكر إذ قال . والبشر المخلوق من الطين . هو آدم عليه السلام و: ﴿ سويته ﴾ يريد به شخصه . ﴿ ونفخت ﴾ هي عبارة عن إجراء الروح فيه ، هي عبارة على نحو ما يفهم من إجراء الأشياء بالنفخ .

وقوله : ﴿ من روحي ﴾ هي إضافة ملك إلى مالك ، لأن الأرواح كلها هي ملك لله تعالى ، وأضاف إلى نفسه تشريفاً .

وقوله : ﴿ ساجدين ﴾ اختلف الناس فيه ، فقالت فرقة : على السجود المتعارف .

وقالت فرقة معناه : خاضعين على أصول السجود في اللغة . ثم أخبر تعالى أن الملائكة بأمره سجدوا ﴿ إلا إبليس ﴾ فإنه ﴿ استكبر ﴾ عن السجود .

وقوله تعالى : ﴿ وكان من الكافرين ﴾ يحتمل أن يريد به : وكان من أول أمره من الكافرين في علم الله تعالى ، قاله ابن عباس ، ويحتمل أن يريد : ووجد عند هذه الفعلة من الكافرين ، وعلى القولين فقد حكم الله على إبليس بالكفر ، وأخبر أنه كان عقد قلبه في وقت الامتناع .

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75)

القائل لإبليس هو الله عز وجل ، وقوله ﴿ ما منعك ﴾ تقرير وتوبيخ .

وقرأ عاصم والجحدري : " لَمَّا خلقت " بفتح اللام من : " لَمَّا " وشد الميم .

وقرأ جمهور الناس " بيديْ " بالتثنية . وقرأ فرقة : " بيديَّ " بفتح الياء ، وقد جاء في كتاب الله : ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ [يس : 71] بالجمع .

(18/663)

وهذه كلها عبارة عن القدرة والقوة ، وعبر عن هذا المعنى بذكر اليد تقريباً على السامعين ، إذا المعتاد عند البشر أن القوه والبطش والاقتدار إنما هو باليد ، وقد كانت جهالة العرب

بالله تعالى تقتضي أن تنكر نفوسها أن يكون خلق بغير مماسة ، ونحو هذا من المعاني المعقولة ، وذهب القاضي ابن الطيب إلى أن اليد والعين والوجه صفات ذات زائدة على القدرة والعلم غير ذلك من متقرر صفاته تعالى ، وذلك قول مرغوب عنه ويسميها الصفات الخبرية . وروي في بعض الآثار أن الله تعالى خلق أربعة أشياء بيده وهي : العرش والقلم وجنة عدن وآدم وسائر المخلوقات بقوله : "كن" .

قال القاضي أبو محمد : وهذا إن صح فإنما ذكر على جهة التشريف للأربعة والتنبيه منها ، وإلا فإذا حقق النظر فكل مخلوق فهوة بالقدرة التي بها يقع الإيجاد بعد العدم .

وقرأت فرقة : " استكبرت " بصلة الألف على الخبر عن إبليس ، وتكون ﴿ أم ﴾ بينة الانقطاع لا معادلة لها . وقرأت فرقة : " أستكبرت " بقطع الألف على الاستفهام ، ف ﴿ أم ﴾ على هذا معادلة للألف ، وذهب كثير من النحويين إلى أن " أم " لا تكون معادلة للألف مع اختلاف الفعلين ، وإنما تكون معادلة إذا أدخلتا على فعل واحد ، كقولك : أزيد قام أم عمرو ؟ وقولك : أقام زيد أم عمرو ؟ قالوا : وإذا اختلف الفعلان كهذه الآية فليست أم معادلة ، ومعنى الآية : أحدث لك الاستكبار الآن أن كنت قديماً ممن لا يليق أن تكلف مثل هذا لعلو مكانك ، وهذا على جهة التوبيخ .

وقول إبليس : ﴿ أنا خير منه ﴾ قياس أخطأ فيه ، وذلك أنه لما توهم أن النار أفضل من الطين ، قاس أن ما يخلق من الأفضل فهو أفضل من الذي يخلق من المفضول ، ولم يدر أن الفضائل تخصيصات من الله تعالى يسم بها من شاء ، وفي قوله رد على حكمة الله تعالى وتجوير . وذلك بين في قوله : ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت علي ﴾ [الإسراء : 62] ثم قال : ﴿ أنا خير منه ﴾ ، وعند هذه المقالة اقترن كفر إبليس به إما عناداً على قول من يجيزه ، وإما بأن سلب المعرفة ، وظاهر أمره أنه كفر عناداً ، لأن الله تعالى قد حكم عليه بأنه كافر ، ونحن نجده خلال القصة يقول : يا رب بعزتك وإلى يوم يبعثون ، فهذا كله يقتضي المعرفة ، وإن كان للتأويل فيه مزاحم فتأمله ، ثم أمر الله تعالى إبليس بالخروج على جهة الادخار له ، فقالت فرقة : أمره بالخروج من الجنة .

وقالت فرقة : من السماء . وحكى الثعلبي عن الحسن وأبي العالية أن قوله : ﴿ منها ﴾ يريد به من الخلقة التي أنت فيها ومن صفات الكرامة التي كانت له ، قال الحسين بن الفضل : ورجعت له أضدادها ، وعلى القول الأول فإنما أمره أمراً يقتضي بعده عن السماء ، ولا خلاف أنه أهبط إلى الأرض . و" الرجيم " : المرجوم بالقول السيىء . و" اللعنة " الإبعاد . و: ﴿ يوم الدين ﴾ يوم القيامة . و ﴿ الدين ﴾ : الجزاء ، وإنما حد له اللعنة ب ﴿ يوم الدين ﴾ ، ولعنته إنما هي مخلدة ليحصر له أمد التوبة ، لأن امتناع توبته بعد يوم القيامة ، إذ

ليست الآخرة دار عمل ، ثم إن إبليس سأل النظرة وتأخير الأجل إلى يوم بعث الأجساد من القبور ، فأعطاه الله تعالى الإبقاء ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ .

(20/663)

واختلف الناس في تأويل ذلك ، فقال الجمهور : أسعفه الله في طلبته وأخره إلى يوم القيامة ، فهو الآن حي مغو مضل ، وهذا هو الأصح من القولين . وقالت فرقة : لم يسعف بطلبته ، وإنما أسعف إلى الوقت الذي سبق من الله تعالى أن يموت إبليس فيه . وقال بعض هذه الفرقة : مات إبليس يوم بدر .

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82)

القائل هو إبليس ، أقسم بعزة الله تعالى ، قال قتادة : علم عدو الله أنه ليست له عزة فأقسم بعزة الله أنه يغوي ذرية آدم أجمع إلا من أخلص الله للإيمان به .

قال القاضي أبو محمد : وهذا استثناء الأقل عن الأكثر على باب الاستثناء لأن المؤمنين أقل من الكفرة بكثير ، بدليل حديث بعث الناس وغيره . وجوز قوم أن يستثنى الكثير من الجملة ويترك الأقل على الحكم الأول ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : 42] وقال من ناقضهم : العباد هنا : يعم

البشر والملائكة ، فبقي الاستثناء على بابه في أن الأقل هو المستثنى .

وفتح اللام من ﴿ المخلصين ﴾ وكسرها ، قد تقدم ذكره . والقائل : ﴿ فالحق ﴾ هو الله تعالى قال مجاهد : المعنى فالحق أنا .

(21/663)

وقرأ جمهور القراء : " فالحقَ والحقَ " بنصب الاثنين ، فأما الثاني فمنصوب ب ﴿ أقول ﴾ ، وأما الأول فيحتمل أن ينتصب على الإغراء ، ويحتمل أن ينتصب على القسم على إسقاط حرف القسم ، كأنه قال : فوالحق ، ثم حذف الحرف كما تقول : الله لأفعلن ، تريد : والله ، ويقوي ذلك قوله : ﴿ لأملأن ﴾ ، وقد قال سيبويه : قلت للخليل ما معنى لأفعلن إذا جاءت مبتدأة : قال هي بتقدير قسم منوي : وقالت فرقة : " الحق " الأول منصوب بفعل مضمر . وقال ابن عباس ومجاهد : " فالحقُّ والحقُّ " برفع الاثنين ، فأما الأول فرفع بالابتداء وخبره في قوله : ﴿ لأملأن ﴾ ، لأن المعنى : أن أملأ ، وأما الثاني فيرتفع على ابتداء أيضاً . وقرأ عاصم وحمزة : " فالحقُّ " بالرفع " والحقَّ " بالنصب ، وهي قراءة مجاهد والأعمش وأبان بن تغلب وإعراب هذه بين . وقرأ الحسن : " فالحقِ والحقِ " بخفض القاف فيهما على القسم ، وذكرها أبو عمرو الداني .

ثم أمر تعالى نبيه أن يخبرهم بأنه ليس بسائل أجر ولا مال ، وأنه ليس ممن يتكلف ما لم يجعل إليه ولا يتحلى بغير ما هو فيه . وقال الحسين بن الفضل : هذه الآية ناسخة لقوله : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ [الشورى : 23] وقال الزبير بن العوام : نادى منادي النبي صلى الله عليه وسلم ، اللهم اغفر للذين لا يدعون ولا يتكلفون ، ألا إني بريء من التكلف ، وصالحوا أمتي ، وقوله تعالى : ﴿ إن هو ﴾ يريد به القرآن . و: ﴿ ذكر ﴾ بمعنى : تذكرة ، ثم توعدهم بقوله : ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ وهذا على حذف تقديره : لتعلمن صدق نبإه بعد حين في توعدكم واختلف الناس في معنى قوله : ﴿ بعد حين ﴾ إلى أي وقت اشار ، لأن الحين في اللغة يقع على القليل والكثير من الوقت ، فقال ابن زيد : أشار إلى يوم القيامة . وقال قتادة والحسن في اللغة أشار إلى الآجال التي لهم ، لأن كل واحد منهم يعرف الحقائق بعد موته . وقال السدي : أشار إلى يوم بدر ، لأنه يوم عرف الكفار فيه صدق وعيد القرآن لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فالحق والحق أَقُولُ ﴾

هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة والكسائي .

وقرأ ابن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول .

وأجاز الفرّاء فيه الخفض .

ولا اختلاف في الثاني في أنه منصوب ب"أقول" ونصب الأوّل على الإغراء أي فاتبعوا الحق واستمعوا الحق ، والثاني بإيقاع القول عليه .

وقيل : هو بمعنى أُحِقّ الحقّ أي أفعله .

قال أبو علي : الحق الأوّل منصوب بفعل مضمر أي يحق الله الحق ، أو على القسم وحذف حرف الجر ؛ كما تقول : الله لأفعلنّ ؛ ومجازه : قال فبالحق وهو الله تعالى أقسم بنفسه .

"والْحَقَّ أَقُولُ" جملة اعترضت بين القسم والمقسم عليه ، وهو توكيد القصة ، وإذا جعل الحق منصوباً بإضمار فعل كان "لأملانّ" على إرادة القسم .

وقد أجاز الفرّاء وأبو عبيد أن يكون الحق منصوباً بمعنى حقاً "لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ" وذلك عند جماعة من النحويين خطأ ؛ لا يجوز زيداً لأضربنّ ؛ لأن ما بعد اللام مقطوع مما قبلها فلا يعمل فيه .

والتقدير على قولهما لأملانّ جهنم حقّاً .

ومن رفع "الحقّ" رفعه بالابتداء ؛ أي فأنا الحقُّ أو الحقُّ مني .

رويا جميعاً عن مجاهد .

ويجوز أن يكون التقدير هذا الحقّ .

وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء أن معنى فالحقّ لأملأن جهنم بمعنى فالحق أن أملأ جهنم .

وفي الخفض قولان وهي قراءة ابن السَّمَيْقَع وطلحة بن مُصَرِّف : أحدهما أنه على حذف حرف القسم .

هذا قول الفراء قال كما يقول : الله عز وجل لأفعلنّ .

وقد أجاز مثل هذا سيبويه وغلطه فيه أبو العباس ولم يُجِز الخفض ؛ لأن حروف الخفض لا تضمر ، والقول الآخر أن تكون الفاء بدلاً من واو القسم ؛ كما أنشدوا :

فمثلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِع . . .

﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ ﴾ أي من نفسك وذريتك ﴿ وَمِمَّن تَبِعَكَ ﴾ من بني آدم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ .

(24/663)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي من جُعل على تبليغ الوحي وكنى به عن غير مذكور .

وقيل هو راجع إلى قوله : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ [ص : 8] .

﴿ وَمَآ أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ أي لا أتكلف ولا أتخرص ما لم أومر به .

وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : من سئل عما لم يعلم فليقل لا أعلم ولا يتكلف ؛ فإن قوله لا أعلم عِلمٌ ، وقد قال الله عز وجل لنبيّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للمتكلف ثلاث علامات ينازع مَن فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم " وروى الدَّارَقُطْنِي من حديث نافع عن ابن عمر قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، فسار ليلاً فمروا على رجل جالس عند مَقْرَاة له ، فقال له عمر : يا صاحب المَقْرَاة أَوْلَغت السباع الليلة في مَقْرَاتك ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "يا صاحب المَقْرَاة لا تخبره هذا متكلِّف لها ما حملت في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور " "

وفي الموطأ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب : أن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضاً ، فقال عمرو بن العاص : يا صاحب الحوض ! هل ترد حوضك السباع ؟ فقال عمر : يا صاحب الحوض لا تخبرنا ، فإنا نرد على السباع وترد

علينا .

وقد مضى القول في المياه في سورة "الفرقان" .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ يعني القرآن ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ من الجن والإنس .

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ أي نبأ الذكر وهو القرآن أنه حق "بَعْدَ حِينٍ" قال قتادة : بعد الموت .

وقاله الزجاج .

وقال ابن عباس وعكرمة وابن زيد : يعني يوم القيامة .

وقال الفراء : بعد الموت وقبله .

أي لتظهر لكم حقيقة ما أقول : "بَعْدَ حِينٍ" أي في المستأنف أي إذا أخذتكم سيوف المسلمين .

(25/663)

قال السّدي : وذلك يوم بدر .

وكان الحسن يقول : يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين .

وسئل عكرمة عمن حلف ليصنعن كذا إلى حين .

قال : إن من الحين ما لا تدركه كقوله تعالى ؛ ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ومنه ما تدركه ؛ كقوله تعالى : ﴿ تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم : 25] من صرام النخل إلى طلوعه ستة أشهر .

وقد مضى القول في هذا في "البقرة" و"إبراهيم" والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(26/663)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) ﴾

الضمير في قوله : ﴿ قل هو نبأ ﴾ يعود على ما أخبر به (صلى الله عليه وسلم) من كونه رسولاً منذراً داعياً إلى الله ، وأنه تعالى هو المنفرد بالألوهية ، المتصف بتلك الأوصاف من الوحدانية والقهر وملك العالم وعزته وغفرانه ، وهو خبر عظيم لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة .

وقال ابن عباس : النبأ العظيم : القرآن .

وقال الحسن : يوم القيامة .

وقيل : قصص آدم والإنباء به من غير سماع من أحد .

وقال صاحب التحرير : سياق الآية وظاهرها أنه يريد بقوله : ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ ، ما قصه الله تعالى من مناظرة أهل النار ومقاولة الأتباع مع السادات ، لأنه من أحوال البعث ، وقريش كانت تنكر البعث والحساب والعقاب ، وهم عن ذلك معرضون .

وقوله : ﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾ : احتجاج على قريش بأن ما جاء به من عند الله لا من قبل نفسه .

فإن من في الأرض ما له علم بمن في السماء إلا بإعلام الله تعالى ؛ وعلم المغيبات لا يوصل إليه إلا بإعلام الله تعالى ، وعلمه بأحوال أهل النار ، وابتداء خلق آدم لم يكن عنه علم بذلك ؛ فإخباره بذلك هو بإعلام الله والاستدلال بقصة آدم ، لأنه أول البشر خلقاً ، وبينه وبين الرسول عليه السلام أزمان متقادمة وقرون سالفة .

انتهى ، وفي آخره بعض اختصار .

ثم احتج بصحة نبوته ، بأن ما ينبىء به عن الملأ الأعلى واختصامهم أمر لم يكن له به من علم قط .

ثم علمه من غير الطريق الذي يسلكه المتعلمون ، بل ذلك مستفاد من الوحي ، وبالملأ متعلق بعلم ، وإذ منصوب به .

وقال الزمخشري : بمحذوف ، لأن المعنى : ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقت

اختصامهم .

﴿ وإذ قال ﴾ بدل من ﴿ إذ يختصمون ﴾ على الملأ الأعلى ، وهم الملائكة ، وأبعد من قال إنهم قريش ، واختصام الملائكة في أمر آدم وذريته في جعلهم في الأرض .

(27/663)

وقالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ قال ابن عباس : وقال الحسن : إن الله خالق خلقاً كنا أكرم منه وأعلم .

وقيل : في الكفارات وغفر الذنوب ، فإن العبد إذا عمل حسنة اختلفت الملائكة في قدر ثوابه في ذلك حتى يقضي الله بما يشاء .

وفي الحديث : " قال له ربه في نومه ، عليه السلام : فيم يختصمون ؟ فقلت : لا أدري ، فقال : في الكفارات وفي إسباغ الوضوء في السرات ونقل الخطأ إلى الجماعات "

وقال الزمخشري : كانت مقاولة الله سبحانه بواسطة ملك ، وكان المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط ، فيصح أن التقاول بين الملائكة وآدم وإبليس ، وهم الملأ الأعلى ؛ والمراد بالاختصام : التقاول .

وقيل : الملأ الأعلى : الملائكة ، وإذ يختصمون : الضمير فيه للعرب الكافرين ، فبعضهم

يقول : هي بنات الله ، وبعضهم : آلهة تعبد ، وغير ذلك من أقوالهم .

﴿ إن يوحي إليّ ﴾ : أي ما يوحى إليّ ، ﴿ إلا إنما أنا نذير ﴾ : أي للإنذار ، حذف اللام ووصل الفعل والمفعول الذي لم يسم فاعله يجوز أن يكون ضميراً يدل عليه ، المعنى ، أي أن يوحى إليّ هو ، أي ما يوحى إلا الإنذار ، وأقيم إلى مقامه ، ويجوز أن يكون إنما هو المفعول الذي لم يسم فاعله ، أي ما يوحى إليّ إلا الإنذار .

وقرأ أبو جعفر : إلا إنما ، بكسر همزة إنما على الحكاية ، أي ما يوحى إليّ إلا هذه الجملة ، كأن قيل له : أنت نذير مبين ، فحكى هو المعنى ، وهذا كما يقول الإنسان : أنا عالم ، فيقال له : قلت إنك عالم ، فيحكى المعنى .

وقال الزمخشري : وقرىء إنما بالكسر على الحكاية ، أي إلا هذا القول ، وهو أن أقول لكم ﴿ إنما أنا نذير مبين ﴾ ، فلا أدعي شيئاً آخر . انتهى .

(28/663)

في تخريجه تعارض ، لأنه قال : أي إلا هذا القول ، فظاهره الجملة التي هي ﴿ إنما أنا نذير مبين ﴾ ، ثم قال : وهو أن أقول لكم إني نذير ، فالمقام مقام الفاعل هو أن أقول لكم ، وأن وما بعده في موضع نصب ، وعلى قوله : إلا هذا القول ، يكون في موضع رفع فيتعارضا .

وتقدم أن ، إذ قال بدل من : إذ يختصمون ، هذا إذا كانت الخصومة في شأن من يستخلف في الأرض ، وعلى غيره من الأقوال يكون منصوباً باذكر .

ولما كانت قريش ، خالفوا الرسول ، عليه السلام ، بسبب الحسد والكبر .

ذكر حال إبليس ، حيث خالف أمر الله بسبب الحسد والكبر وما آل إليه من اللعنة والطرد من رحمة الله ، ليزدجر عن ذلك من فيه شيء منهما .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف صح أن يقول لهم : ﴿ إني خالق بشراً ﴾ ، وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل ؟ قلت : وجهه أن يكون قد قال لهم : إني خالق خلقاً من صفة كيت وكيت ، ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم . انتهى .

والبشر هو آدم عليه السلام ، وذكر هنا أنه خلقه من طين ، وفي آل عمران : ﴿ خلقه من تراب ﴾ وفي الحجر : ﴿ من صلصال من حمأ مسنون ﴾ وفي الأنبياء : ﴿ من عجل ﴾ ولا منافاة في تلك المادة البعيدة ، وهي التراب ، ثم ما يليه وهو الطين ، ثم ما يليه وهو الحمأ المسنون ، ثم المادة تلي الحمأ وهو الصلصال ؛ وأما من عجل فمضى تفسير .

(29/663)

﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس ﴾ : تقدم الكلام على هذا في الحجر ، وهنا ﴿ استكبر وكان من الكافرين ﴾ ، وفي البقرة : ﴿ أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ وفي الأعراف : ﴿ لم يكن من الساجدين ﴾ وفي الحجر : ﴿ أبى أن يكون من الساجدين ﴾ وفي الإسراء : ﴿ قال أأسجد لمن خلقت طيناً ﴾ وفي الكهف : ﴿ كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾

والإستثناء في جميع هذه الآيات يدل على أنه لم يسجد ، فتارة أكد بالنفي المحض ، وتارة ذكر إبايته عن السجود ، وهي الأنفة من ذلك ، وتارة نص على أن ذلك الامتناع كان سببه الاستكبار .

والظاهر أن قوله : ﴿ وكان من الكافرين ﴾ أريد به كفره ذلك الوقت ، وإن لم يكن قبله كافراً ؛ وعطف على استكبر ، فقوى ذلك ، لأن الاستكبار عن السجود إنما حصل له وقت الأمر .

ويحتمل أن يكون إخباراً منه بسبق كفره في الأزمنة الماضية في علم الله .

﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد ﴾ ، وفي الأعراف : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ فدل أن تسجد هنا ، على أن لا في أن لا تسجد زائدة ، والمعنى أيضاً يدل على ذلك ، لأنه لا يستفهم إلا عن المانع من السجود ، وهو استفهام تقرير وتوبيخ .

وما في ﴿ لما خلقت ﴾ ، استدل بها من يجيز إطلاق ما على آحاد من يعقل ، وأول بأن ما

مصدرية ، والمصدر يراد به المخلوق ، لا حقيقة المصدر .

وقرأ الجحدري : لما بفتح اللام وتشديد الميم ، خلقت بيدي ، على الإفراد ؛ والجمهور : على التثنية ؛ وقرىء بيديّ ، كقراءة بمصرخي ؛ وقال تعالى : ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ بالجمع ، وكلها عبارة عن القدرة والقوة ، وعبر باليد ، إذ كان عند البشر معتاداً أن البطش والقوة باليد .

وذهب القاضي أبو بكر بن الطيب إلى أن اليد صفة ذات .

قال ابن عطية : وهو قول مرغوب عنه .

وقرأ الجمهور : ﴿ أستكبرت ﴾ ، بهمزة الاستفهام ، وأم متصلة عادلت الهمزة .

(30/663)

قال ابن عطية : وذهب كثير من النحويين إلى أن أم لا تكون معادلة للألف مع اختلاف الفعلين ، وإنما تكون معادلة إذا دخلتا على فعل واحد ، كقولك : أزيد قام أم عمرو ؟ وقولك : أقام زيد أم عمرو ؟ فإذا اختلف الفعلان كهذه الآية ، فليست معادلة .

ومعنى الآية : أحدث لك الاستكبار الآن ، أم كنت قديماً ممن لا يليق أن تكلف مثل هذا لعلو مكانك ؟ وهذا على جهة التوبيخ . انتهى .

وهذا الذي ذكره عن كثير من النحويين مذهب غير صحيح .

قال سيبويه : وتقول أضربت زيداً أم قتلته فالبدء هنا بالفعل أحسن ، لأنك إنما تسأل عن أحدهما ، لا تدري أيهما كان ، ولا تسأل عن موضع أحدهما ، كأنك قلت : أي ذلك كان ؟ انتهى .

فعادل بأم الألف مع اختلاف الفعلين .

﴿ من العالين ﴾ : ممن علوت وفقت .

فأجاب بأنه من العالين ، حيث قال ﴿ أنا خير منه ﴾ .

وقيل : استكبرت الآن ، أو لم تزل مذ كنت من المستكبرين ؟ ومعنى الهمزة : التقرير . انتهى .

وقرأت فرقة ، منهم ابن كثير وغيره : استكبرت ، بصلة الألف ، وهي قراءة أهل مكة ، وليست في مشهور ابن كثير ، فاحتمل أن تكون همزة الاستفهام حذفت لدلالة أم عليها ، كقوله :

بسبع رمين الجمر أم بثمان . . .

واحتمل أن يكون إخباراً خاطبه بذلك على سبيل التقريع ، وأم تكون منقطعة ، والمعنى : بل أنت من العالين عند نفسك استخفافاً به .

﴿ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ : تقدم الكلام على ذلك في

الأعراف .

﴿ قال فاخرج منها ﴾ إلى قوله : ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ : تقدم الكلام على مثل ذلك في الحجر ، إلا أن هنا ﴿ لعنتي ﴾ وهناك ﴿ اللعنة ﴾ أعم .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ وأما بالإضافة ، فالعموم في اللعنة أعم ، واللعنات إنما تحصل من جهة أن عليه لعنة الله كانت عليه لعنة كل لاعن ، هذا من جهة المعنى ، وأما باللفظ فيقتضي التخصيص .

(31/663)

﴿ قال فبعزتك لأغوينهم ﴾ : أقسم إبليس هنا بعزة الله ، وقال في الأعراف : ﴿ فبما أغويتني لأقعدن ﴾ وفي الحجر : ﴿ رب بما أغويتني لأزينن ﴾ وتقدم الكلام عليهما في موضعهما ، وأن من المفسرين من قال : إن الباء في : بما أغويتني ، وفي : فبما أغويتني ليست باء القسم .

فإن كانت باء القسم ، فيكون ذلك في موطئين : فهنا : ﴿ لأغوينهم ﴾ ، وفي الأعراف : ﴿ لأقعدن ﴾ ، وفي الحجر : ﴿ لأزينن ﴾ .

وقرأ الجمهور : فالحق والحق ، بنصبهما .

أما الأول فمقسم به ، حذف منه الحرف كقوله : ﴿ أمانة الله لأقومن ﴾ ، والمقسم عليه ﴿ لأملأن ﴾ .

﴿ والحق أقول ﴾ : اعتراض بين القسم وجوابه .

قال الزمخشري : ومعناه : ولا أقول إلا الحق .

انتهى ، لأن عنده تقدم المفعول يفيد الحصر .

والحق المقسم به إما اسمه تعالى الذي في قوله : ﴿ إن الله هو الحقّ المبين ﴾ أو الذي هو نقيض الباطل .

وقيل : فالحق منصوب على الإغراء ، أي فالزموا الحق ، ولأملأن : جواب قسم محذوف .

وقال الفراء : هو على معنى قولك : حقاً لا شك ، ووجود الألف واللام وطرحهما سواء ، أي لأملأن جهنم حقاً . انتهى .

وهذا المصدر الجائي توكيداً لمضمون الجملة ، لا يجوز تقديمه عند جمهور النحاة ، وذلك مخصوص بالجملة التي جزآها معرفتان جامدتان جموداً محضاً .

وقال صاحب البسيط : وقد يجوز أن يكون الخبر نكرة ، قال : والمبتدأ يكون ضميراً نحو : هو زيد معروفاً ، وهو الحق بيننا ، وأنا الأمير مفتخراً ؛ ويكون ظاهراً كقولك : زيد أبوك عطوفاً ، وأخوك زيد معروفاً . انتهى .

وقالت العرب : زيد قائم غير ذي شك ، فجاءت الحال بعد جملة ، والخبر نكرة ، وهي

حال مؤكدة لمضمون الجملة ، وكأن الفراء لم يشترط هذا الذي ذكره أصحابنا من كون المبتدأ والخبر معروفين جامدين ، لأنه لا فرق بين تأكيد مضمون الجملة الابتدائية وبين تأكيد الجملة الفعلية .

وقيل : التقدير فالحق الحق ، أي افعله .

(32/663)

وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، والأعمش : بالرفع فيهما ، فالأول مبتدأ خبره محذوف ، قيل : تقديره فالحق أنا ، وقيل : فالحق مني ، وقيل : تقديره فالحق قسمي ، وحذف كما حذف في : لعمرك لأقومن ، وفي : يمين الله أبرح قاعداً ، أي لعمرك قسمي ويمين الله قسمي ، وهذه الجملة هي جملة القسم وجوابه : لأملأن .

وأما ﴿ والحق أقول ﴾ فمبتدأ أيضاً ، خبره الجملة ، وحذف العائد ، كقراءة ابن عباس : ﴿ وكلاًّ وعد الله الحسنى ﴾ وقال ابن عطية : أما الأول فرفع على الابتداء ، وخبره في قوله : ﴿ لأملأن ﴾ ، لأن المعنى : أن أملأ . انتهى .

وهذا ليس بشيء ، لأن لأملأن جواب قسم ، ويجب أن يكون جملة ، فلا يتقدر بمفرد .

وأيضاً ليس مصدراً مقدراً بحرف مصدري ، والفعل حتى ينحل إليهما ، ولكنه لما صح له

إسناد ما قدر إلى المبتدأ ، حكم أنه خبر عنه .

وقرأ الحسن ، وعيسى ، وعبد الرحمن بن أبي حماد عن أبي بكر : بجرهم ، ويخرج على أن الأول مجرور بواو القسم محذوفة تقديره : فوالحق ، والحق معطوف عليه ، كما تقول : والله والله لأقومن ، وأقوال اعتراض بين القسم وجوابه .

وقال الزمخشري : ﴿ والحق أقول ﴾ : أي ولا أقول إلا الحق على حكاية لفظ المقسم به ، ومعناه التوكيد والتسديد ، وهذا الوجه جائز في المنصوب والمرفوع ، وهو وجه دقيق حسن . انتهى .

وملخصه أنه أعمل القول في لفظ المقسم به على سبيل الحكاية نصباً أو رفعاً أو جراً .

وقرأ مجاهد ، والأعمش : بخلاف عنهما ؛ وأبان بن تغلب ، وطلحة في رواية ، وحمزة ، وعاصم عن المفضل ، وخلف ، والعبسي : برفع فالحق ونصب والحق ، وتقدم إعرابهما .

والظاهر أن قوله : ﴿ أجمعين ﴾ تأكيد للمحدث عنه والمعطوف عليه ، وهو ضمير إبليس ومن عطف عليه ، أي منك ومن تابعيك أجمعين .

(33/663)

وأجاز الزمخشري أن يكون أجمعين تأكيداً للضمير الذي في منهم ، مقدر لأملأن جهنم من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس ، لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم . انتهى .

والضمير في عليه عائد على القرآن ، قاله ابن عباس .

وقيل : عائد على الوحي .

وقيل : على الدعاء إلى الله .

﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ : أي المتصنعين المتحلين بما ليسوا من أهله ، فانتحل النبوة والقول على الله .

﴿ إن هو ﴾ : أي القرآن ، ﴿ إلا ذكر ﴾ : أي من الله ، ﴿ للعالمين ﴾ : الثقلين الإنس والجن .

﴿ ولتعلمنّ نبأه ﴾ : أي عاقبة خبره لمن آمن به ومن أعرض عنه ، ﴿ بعد حين ﴾ ، قال ابن عباس وعكرمة وابن زيد : يعني يوم القيامة .

وقال قتادة ، والفراء ، والزجاج : بعد الموت .

وكان الحسن يقول : يا ابن آدم ، عند الموت يأتيك الخبر اليقين .

وقيل : المعنى ليظهرن لكم حقيقة ما أقول .

﴿ بعد حين ﴾ : أي في المستأنف ، إذا أخذتكم سيوف المسلمين ، وذلك يوم بدر ، وأشار إلى ذلك السدّي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(34/663)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ ﴿ فالحق والحق أَقُولُ ﴾ برفعِ الأوّلِ على أنَّه مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ أو خبرٌ محذوفُ المبتدأِ ، ونصبِ الثَّاني على أنَّه مفعولٌ لما بعدَهُ قُدِّم عليه للقصرِ ، أي لا أقولُ إلاَّ الحقَّ . والفاءُ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلها أي فالحقُّ قَسَمي ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ على أنَّ الحقَّ إمَّا اسمُه تعالى ، أو نقيضُ الباطلِ عظّمه الله تعالى بإقسامِه به أو فأنا الحقُّ أو فقولِي الحقُّ وقوله تعالى : ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ الخ حينئذٍ جوابٌ لقسمٍ محذوفٍ أي والله لأملأنَّ الخ وقوله تعالى : ﴿ والحق أَقُولُ ﴾ على كلِّ تقديرٍ اعتراضٌ مقرِّرٌ على الوجهينِ الأوّلَينِ لمضمونِ الجملةِ القَسَمِيَّةِ ، وعلى الوجهِ الثَّالثِ لمضمونِ الجملةِ المتقدّمةِ أعني فقولي الحقُّ . وقُرئا منصوبينِ على أنَّ الأوَّلَ مقسمٌ به كقولِك الله لأفعلنَّ وجوابُه لأملأنَّ وما بينهما اعتراضٌ . وقُرئا مجرورينِ على أنَّ الأولَ مقسمٌ به قد أُضمرَ حرفُ قسمِه كقولِك الله لأفعلنَّ

والحقَّ أقولَ على حكايةِ لفظِ المقسمِ به على تقديرِ كونِه نقيضَ الباطلِ ومعناه التَّأكيدُ والتَّشديدُ .

(35/663)

وقُرِىء بجرِّ الأَولِ على إضمارِ حرفِ القسمِ ونصبِ الثَّاني على المفعوليَّةِ ﴿ مِنكَ ﴾ أي من جنسِك من الشَّياطينِ ﴿ وَمِمَّن تَبِعَكَ ﴾ في الغَوايةِ والضَّلالِ ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من ذريةِ آدمَ ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيدٌ للكافِ وما عُطف عليه أي لأملأنَّها من المتبوعينَ والأتباعِ أجمعينَ ، كقولِه تعالى : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهذا القولُ هو المرادُ بقوله تعالى : ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنْى لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ وحيثُ كان مناطُ الحكمِ ههُنا اتِّباعُ الشَّيطانِ اتَّضحَ أنَّ مدارَ عدمِ المشيئةِ في قولِه تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لاَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ اتباعُ الكَفَرةِ للشَّيطانِ بُسوءِ اختيارِهم لا تحقُّقُ القولِ فليس في ذلك شائبةُ الجبرِ فتدبَّر .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على القُرآنِ أو على تبليغِ ما يُوحى إليَّ . ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ دنيويَ ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ أي المتصنّعين بما ليسُوا من أهلِه حتَّى أنتحلَ النبوة وأتقوَّلَ القُرآنَ ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما هُو ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ من الله عزَّ وجلَّ ﴿ للعالمين ﴾ أي للثَّقلينِ

كافَّةً ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ ﴾ أي ما أنبأ بِهِ من الوعدِ والوعيدِ وغيرِهما أو صحَّةَ خبرِهِ وأنَّه الحقُّ والصِّدقُ ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ بعد الموتِ أو يومَ القيامةِ أو عند ظهورِ الإسلامِ وفشوِّه.

وقيل: من بقي علمَ ذلك أذا ظهرَ أمرُه وعلاَ ومَن ماتَ علمَهُ بعدَ الموتِ وفيه من التَّهديدِ ما لا يخفَى.

عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: "مَن قرأَ سورةَ ص كانَ له بوزنِ كلِّ جبلٍ سخَّره الله لداودَ عشرَ حسناتٍ وعُصم أنْ يُصرَّ على ذنبٍ صغيرٍ أو كبيرٍ" وقال أبو أمامةَ: عصمَه الله تعالى من كلِّ ذنبٍ صغيرٍ أو كبيرٍ والله أعلمُ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(36/663)

وقال الآلوسي:

﴿ قَالَ ﴾ أي الله عز وجل ﴿ فالحق والحق أَقُولُ ﴾ برفع الأول على أنه مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدأ ونصب الثاني على أنه مفعول لما بعده قدم عليه للقصر أي لا أقول إلا الحق، والفاء لترتيب مضمون ما بعدها على ما قبلها أي فالحق قسمي.

﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ على أن الحق إما اسمه تعالى أو نقيض الباطل عظمه الله تعالى

بإقسامه به ، ورجح بحديث إعادة الاسم معرفة أو فأنا الحق أو فقولي الحق ، وقوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ ﴾ الخ حينئذٍ جواب لقسم محذوف أي والله لأملأن الخ ، وقوله تعالى : ﴿ والحق أَقُولُ ﴾ على تقدير اعتراض مقرر على الوجهين الأولين لمضمون الجملة القسمية وعلى الوجه الثالث لمضمون الجملة المتقدمة أعني فقولي الحق .

وقول ﴿ فالحق ﴾ مبتدأ خبره ﴿ لأَمْلأَنَّ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ لأَمْلأَنَّ ﴾ لأن المعنى أن أملأ ليس بشيء أصلاً .

وقرأ الجمهور ﴿ فالحق والحق ﴾ بنصبهما وخرج على أن الثاني مفعول مقدم كما تقدم والأول مقسم به حذف منه حرف القسم فانتصب كما في بيت الكتاب

: إن عليك الله أن تبايعا . . .

تؤخذ كرهاً أو تجيء طائعاً

وقولك : الله لأفعلن وجوابه ﴿ لأَمْلأَنَّ ﴾ وما بينهما اعتراض وقيل هو منصوب على الإغراء أي فالزموا الحق و ﴿ لأَمْلأَنَّ ﴾ جواب قسم محذوف ، وقال الفراء : هو على معنى قولك حقاً لآتينك ووجود أل وطرحها سواء أي لأملأن جهنم حقاً فهو عنده نصب على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة ، ولا يخفى أن هذا المصدر لا يجوز تقديمه عند جمهور النحاة وأنه مخصوص بالجملة التي جزآها معرفتان جامدان جموداً محضاً .

وقال صاحب البسيط : وقد يجوز أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ يكون ضميراً نحو هو زيد

معروفاً وهو الحق بينا وأنا الأمير مفتخراً ويكون ظاهراً نحو زيد أبوك عطوفاً وأخوك زيد معروفاً اه فكأن الفراء لا يشترط في ذلك ما يشترطون .

وقرأ ابن عباس .

ومجاهد .

(37/663)

والأعمش بالرفع فيهما ، وخرج رفع الأول على ما مر ورفع الثاني على أنه مبتدأ والجملة بعده خبر والرابط محذوف أي أقوله كقراءة ابن عامر ﴿ وَكُلٌّ وَعَدَ اللهُ الحسنى ﴾ [النساء : 95] وقول أبي النجم

: قد أصبحت أم الخيار تدعي . . .

علي ذنباً كله لم أصنع

برفع كل ليتأتى السلب الكلي المقصود للشاعر ، وقرأ الحسن .

وعيسى .

وعبد الرحمن بن أبي حماد عن أبي بكر بجرهما ، وخرج على أن الأول : مجرور بواو القسم محذوفة أي فوالحق ، والثاني : مجرور بالعطف عليه كما تقول : والله والله لأقومن ، و ﴿

أَقُولُ ﴾ اعتراض بين القسم وجوابه ، وجعله الزمخشري مفعولاً مقدماً لأقول والجر على حكاية لفظ المقسم به قال : ومعناه التوكيد والتشديد وإفادته ذلك زيادة على ما يفيده أصل الاعتراض لأن العدول عما يقتضيه من الإعراب إلى الحكاية لما كان لاستبقاء الصورة الأولى دل على أنها من العناية في شأنها بمكان وهذا جار في كل حكاية من دون فعل قول وما يقوم مقامه فيدل فيما نحن فيه على فضل عناية بشأن القسم ويفيد التشديد والتوكيد . وقرىء بجر الأول على إضمار حرف القسم ونصب الثاني على المفعولية ﴿ مِنكَ ﴾ أي من جنسك من الشياطين ﴿ وَمِمَّن تَبِعَكَ ﴾ في الغواية والضلالة ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من ذرية آدم عليه السلام ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ توكيد للضمير في ﴿ مِنكَ ﴾ والضمير المجرور بمن الثانية ، والمعنى لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحداً أو توكيد للتابعين فحسب والمعنى لأملأنها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم ، وتأكيد التابعين دون المتبوعين لما أن حال التابعين إذا بلغ إلى أن اتصل إلى أولاد الأنبياء فما بال المتبوعين .

(38/663)

وقال صاحب الكشف : صاحب هذا القول اعتبر القرب وأن الكلام بين الحق تعالى شأنه وبين الملعون في شأن التابعين فأكد ما هو المقصود وترك توكيد الآخر للاكتفاء .

هذا واعلم أن هذه القصة قد ذكرت في عدة سور وقد ترك في بعضها بعض ما ذكر في البعض الآخر للإيجاز ثقة ما ذكر في ذلك وقد يكون فيها في موضعين مثلاً لفظان متحدان مآلا مختلفان لفظاً رعاية للتفنن ، وقد يحمل الاختلاف على تعدد الصدور فيقال مثلاً : إن اللعين أقسم مرة بالعزة فحكى ذلك في سورة ﴿ ص ﴾ بقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ وأخرى بإغواء الله تعالى الذي هو أثر من آثار قدرته وعزته عز وجل وحكم من أحكام سلطانه فحكى ذلك في سورة [الأعراف : 16] بقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ وقد يحمل الاختلاف على اختلاف المقامات كترك الفاء من قوله : ﴿ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف : 14] ومن قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف : 15] في الأعراف مع ذكرها فيهما في ﴿ ص ﴾ والذي يجب اعتباره في نقل الكلام إنما هو أصل معناه ونفس مدلوله الذي يفيده وأما كيفية إفادته له فليس مما يجب مراعاته عند النقل البتة بل قد تراعي وقد لا تراعي حسب اقتضاء المقام ، ولا يقدح في أصل الكلام تجريده عنها بل قد تراعي عند نقله كيفيات وخصوصيات لم يراعها المتكلم أصلاً حيث أن مقام الحكاية اقتضتها وهي ملاك الأمر ولا يخل ذلك بكون المنقول أصل المعنى كما قد حققه صدر المفتين أبو السعود وأطال الكلام فيه فليراجع .

﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على القرآن كما روي عن ابن عباس أو على تبليغ ما يوحى إلي أو على الدعاء إلى الله تعالى على ما قيل ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي أجراً دنيوياً جل أو قل ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله وما عرفتموني قط متصنعاً ولا مدعياً ما ليس عندي حتى انتحل النبوة وأتقول القرآن فأمره صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم عن نفسه هذه المقالة ليس لإعلامهم بالمضمون بل للاستشهاد بما عرفوه منه عليه الصلاة والسلام وللتذكير بما علموه وفي ذلك ذم التكلف .

وأخرج ابن عدي عن أبي برزة قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بأهل الجنة ؟ قلنا : بلى يا رسول الله قال : هم الرحماء بينهم قال : ألا أنبئكم بأهل النار ؟ قلنا : بلى قال : هم الآيسون القانطون الكذابون المتكلفون" وعلامة المتكلف كما أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" عن ابن المنذر ثلاث أن ينازل من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم ، وفي "الصحيحين" أن ابن مسعود قال : أيها الناس من علم منكم علماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله تعالى أعلم قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ .

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما هو أي القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ جليل الشأن من الله تعالى ﴿ للعالمين ﴾ للثقلين كافة .

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ ﴾ أي ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما أو خبره الذي يقال فيه في نفس الأمر وهو أنه الحق والصدق ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ قال ابن عباس .

وعكرمة .

وابن زيد : يعني يوم القيامة ، وقال قتادة .

والفراء .

(40/663)

والزجاج : بعد الموت ، وكان الحسن يقول : يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين ، وفسر نبؤه بالوعد والوعيد الكائنين في الدنيا ، والمراد لتعلمن ذلك بتحققه إذا أخذتكم سيوف المسلمين وذلك يوم بدر وأشار إلى هذا السدي ، وأياً ما كان ففي الآية من التهديد ما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(41/663)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) ﴾

لما ذكر سبحانه خصومة الملائكة إجمالاً فيما تقدّم ذكرها هنا تفصيلاً ، فقال : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة ﴾ "إذ" هذه هي بدل من ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ لاشتمال ما في حيز هذه على الخصومة .

وقيل : هي منصوبة بإضمار اذكر ، والأوّل أولى إذا كانت خصومة الملائكة في شأن من يستخلف في الأرض .

وأما إذا كانت في غير ذلك مما تقدّم ذكره ، فالثاني أولى ﴿ إِنّى خالق بَشَراً مّن طِينٍ ﴾ أي : خالق فيما سيأتي من الزمن ﴿ بَشَرًا ﴾ أي : جسماً من جنس البشر مأخوذ من مباشرته للأرض ، أو من كونه بادي البشرة .

وقوله : ﴿ مِن طِينٍ ﴾ متعلق بمحذوف هو : صفة لبشر ، أو بخالق ، ومعنى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ : صوّرته على صورة البشر ، وصارت أجزاؤه مستوية ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ أي : من الروح الذي أملكه ، ولا يملكه غيري .

وقيل : هو تمثيل ، ولا نفخ ، ولا منفوخ فيه .

والمراد : جعله حياً بعد أن كان جماداً لا حياة فيه .

وقد مرّ الكلام في هذا في سورة النساء ﴿ فَقَعُواْ لَهُ ساجدين ﴾ هو أمر من وقع يقع ، وانتصاب ﴿ ساجدين ﴾ على الحال ، والسجود هنا هو : سجود التحية لا سجود العبادة ، وقد مضى تحقيقه في سورة البقرة .

﴿ فَسَجَدَ الملائكة ﴾ في الكلام حذف تدلّ عليه الفاء ، والتقدير : فخلقه ، فسوّاه ، ونفخ فيه من روحه ، فسجد له الملائكة .

وقوله : ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ يفيد أنهم سجدوا جميعاً ، ولم يبق منهم أحد .

وقوله : ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ يفيد أنهم اجتمعوا على السجود في وقت واحد ، فالأوّل : لقصد الإحاطة ، والثاني : لقصد الاجتماع .

قال في الكشاف : فأفادا معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد ، وأنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير متفرّقين في أوقات .

(42/663)

وقيل : إنه أكد بتأكيدين للمبالغة في التعميم ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ الاستثناء متصل على تقدير : أنه كان متصفاً بصفات الملائكة داخلاً في عدادهم ، فغلبوا عليه ، أو منقطع على ما هو الظاهر من عدم دخوله فيهم ، أي : لكن إبليس ﴿ استكبر ﴾ أي : أنف من السجود

جهلاً منه بأنه طاعة لله ، وكان استكباره استكبار كفر ، فلذلك ﴿ كَانَ مِنْ الكافرين ﴾ أي : صار منهم بمخالفته لأمر الله ، واستكباره عن طاعته ، أو كان من الكافرين في علم الله سبحانه ، وقد تقدّم الكلام على هذا مستوفى في سورة البقرة ، والأعراف ، وبني إسرائيل ، والكهف ، وطه .

ثم إن الله سبحانه سأله عن سبب تركه للسجود الذي أمره به فقال : ﴿ يَاإِبْلِيسَ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أي : ما صرفك ، وصدّك عن السجود لما توليت خلقه من غير واسطة ؟ وأضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له ، وتشريفاً ، مع أنه سبحانه خالق كل شيء كما أضاف إلى نفسه الروح ، والبيت ، والناقة ، والمساجد .

قال مجاهد : اليد هنا بمعنى : التأكيد ، والصلة مجازاً كقوله : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبّكَ ﴾ [الرحمن : 27] .

وقيل : أراد باليد القدرة ، يقال : ما لي بهذا الأمر يد ، وما لي به يدان أي : قدرة ، ومنه قول الشاعر :

تحملت من عفراء ما ليس لي به . . . ولا للجبال الراسيات يدان

وقيل : التثنية في اليد للدلالة على أنها ليس بمعنى : القوّة ، والقدرة ، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه ، و "ما" في قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ ﴾ هي : المصدرية ، أو الموصولة .

وقرأ الجحدري : (لما) بالتشديد مع فتح اللام على أنها ظرف بمعنى : حين كما قال أبو عليّ الفارسي .

وقرىء : " بيدي " على الإفراد ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ قرأ الجمهور بهمزة الاستفهام ، وهو استفهام توبيخ ، وتقريع و ﴿ أَمْ ﴾ متصلة .

(43/663)

وقرأ ابن كثير في رواية عنه ، وأهل مكة بألف وصل ، ويجوز أن يكون الاستفهام مراداً ، فيوافق القراءة الأولى كما في قول الشاعر :

تروح من الحيّ أم تبتكر . . . وقول الآخر :

بسبع رمين الجمر أم بثمانيا . . . ويحتمل أن يكون خبراً محضاً من غير إرادة للاستفهام ، فتكون "أم" منقطعة ، والمعنى : استكبرت عن السجود الذي أمرت به بل أكُنتَ مِنَ العالين ، أي : المستحقين للترفع عن طاعة أمر الله المتعالين عن ذلك ، وقيل : المعنى : استكبرت عن السجود الآن ، أم لم تزل من القوم الذين يتكبرون عن ذلك ؟ وجملة : ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، ادّعى اللعين لنفسه : أنه خير من آدم ، وفي ضمن كلامه هذا : أن سجود الفاضل للمفضول لا يحسن .

ثم علل ما ادّعاه من كونه خيراً منه بقوله : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ ، وفي زعمه أن عنصر النار أشرف من عنصر الطين ، وذهب عنه أن النار إنما هي بمنزلة الخادم لعنصر الطين إن احتيج إليها استدعيت كما يستدعى الخادم ، وإن استغنى عنها طردت ، وأيضاً فالطين يستولي على النار ، فيطفئها ، وأيضاً فهي لا توجد إلا بما أصله من عنصر الأرض ، وعلى كل حال ، فقد شرّف آدم بشرف ، وكرّم بكرامة لا يوازيها شيء من شرف العناصر ، وذلك أن الله خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، والجواهر في أنفسها متجانسة ، وإنما تشرف بعارض من عوارضها .

(44/663)

وجملة : ﴿ قَالَ فاخرج مِنْهَا ﴾ مستأنفة كالتي قبلها ، أي : فاخرج من الجنة ، أو من زمرة الملائكة ، ثم علل أمره بالخروج بقوله : ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي : مرجوم بالكواكب مطرود من كل خير ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إلى يَوْمِ الدين ﴾ أي : طردي لك عن الرحمة ، وإبعادي لك منها ، ويوم الدين يوم الجزاء ، فأخبر سبحانه وتعالى : أن تلك اللعنة مستمرّة له دائمة عليه ما دامت الدنيا ، ثم في الآخرة يلقى من أنواع عذاب الله ، وعقوبته ، وسخطه ما هو به حقيق ، وليس المراد : أن اللعنة تزول عنه في الآخرة ، بل هو ملعون أبداً ، ولكن لما كان له

في الآخرة ما ينسى عنده اللعنة ، ويذهل عند الوقوع فيه منها صارت كأنها لم تكن بجنب ما يكون فيه ، وجملة : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ مستأنفة كما تقدّم فيما قبلها أي : أمهلني ، ولا تعاجلني إلى غاية هي يوم يبعثون : يعني : آدم ، وذريته ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ أي : الممهلين ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ الذي قدّره الله لفناء الخلائق ، وهو عند النفخة الآخرة ، وقيل : هو النفخة الأولى .

قيل : إنما طلب إبليس الإنظار إلى يوم البعث ؛ ليتخلص من الموت ، لأنه إذا أنظر إلى يوم البعث لم يمت قبل البعث ، وعند مجيء البعث لا يموت ، فحينئذٍ يتخلص من الموت .

فأجيب بما يبطل مراده ، وينقض عليه مقصده ، وهو الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم ، وهو الذي يعلمه الله ، ولا يعلمه غيره .

فلما سمع اللعين إنظار الله له إلى ذلك الوقت قال ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فأقسم بعزّة الله أنه يضلّ بني آدم بتزيين الشهوات لهم ، وإدخال الشبه عليهم حتى يصيروا غاوين جميعاً .

(45/663)

ثم لما علم أن كيده لا ينجع إلا في أتباعه ، وأحزابه من أهل الكفر ، والمعاصي ، استثنى من لا يقدر على إضلاله ، ولا يجد السبيل إلى إغوائه ، فقال : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ أي : الذين أخلصتهم لطاعتك ، وعصمتهم من الشيطان الرجيم ، وقد تقدّم تفسير هذه الآيات في سورة الحجر ، وغيرها .

وقد أقسم ها هنا بعزّة الله ، وأقسم في موضع آخر بقوله : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ [الأعراف : 16] ولا تنافي بين القسمين ، فإن إغواءه إياه من آثار عزّته سبحانه ، وجملة ﴿ قَالَ فالحق والحق أَقُولُ ﴾ مستأنفة كالجمل التي قبلها .

قرأ الجمهور بنصب الحق في الموضعين على أنه مقسم به حذف منه حرف القسم ، فانتصب ، أو هما منصوبان على الإغراء ، أي : الزموا الحق ، أو مصدران مؤكدان لمضمون قوله : ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ ، وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، والأعمش ، وعاصم ، وحمزة برفع الأوّل ، ونصب الثاني ، فرفع الأوّل على أنه مبتدأ ، وخبره مقدّر ، أي : فالحق مني ، أو فالحق أنا ، أو خبره : لأملأن ، أو هو خبر مبتدأ محذوف ، وأما نصب الثاني ، فبالفعل المذكور بعده أي : وأنا أقول الحق ، وأجاز الفراء ، وأبو عبيد أن يكون منصوباً بمعنى : حقاً لأملأنّ جهنم .

واعترض عليهما بأن ما بعد اللام مقطوع عما قبلها .

وروي عن سيبويه ، والفراء أيضاً : أن المعنى : فالحق أن إملاء جهنم .

وروي عن ابن عباس ، ومجاهد : أنهما قرآ برفعها ، فرفع الأوّل على ما تقدّم ، ورفع الثاني بالابتداء ، وخبره الجملة المذكورة بعده ، والعائد محذوف .

وقرأ ابن السميفع ، وطلحة بن مصرف بخفضهما على تقدير حرف القسم .

(46/663)

قال الفراء : كما يقول الله عزّ وجلّ : لأفعلنّ كذا ، وغلطه أبو العباس ثعلب وقال : لا يجوز الخفض بحرف مضمر ، وجملة ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ جواب القسم على قراءة الجمهور ، وجملة : ﴿ والحق أَقُولُ ﴾ معترضة بين القسم ، وجوابه ، ومعنى ﴿ مِنكَ ﴾ أي : من جنسك من الشياطين ﴿ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ أي : من ذرّية آدم ، فأطاعوك إذ دعوتهم إلى الضلال ، والغواية و ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيد للمعطوف ، والمعطوف عليه ، أي : لأملأنها من الشياطين ، وأتباعهم أجمعين .

ثم أمر الله سبحانه رسوله : أن يخبرهم بأنه إنما يريد بالدعوة إلى الله امتثال أمره لا عرض الدنيا الزائل ، فقال : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ والضمير في : ﴿ عليه ﴾ راجع إلى تبليغ الوحي ، ولم يتقدّم له ذكر ، ولكنه مفهوم من السياق .

وقيل : هو عائد إلى ما تقدّم من قوله : ﴿ أَءنزِلَ عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا ﴾ [ص : 8] وقيل :

الضمير راجع إلى القرآن ، وقيل : إلى الدّعاء إلى الله على العموم ، فيشمل القرآن ، وغيره من الوحي ، ومن قول الرسول صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : ما أطلب منكم من جعل تعطونيه عليه ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ حتى أقول ما لا أعلم إذ أدعوكم إلى غير ما أمرني الله بالدعوّة إليه ، والتكلف : التصنع .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ أي : ما هذا القرآن ، أو الوحي ، أو ما أدعوكم إليه إلا ذكر من الله عزّ وجلّ للجنّ ، والإنس .

قال الأعمش : ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ ﴾ أيها الكفار ﴿ نَبَأَهُ ﴾ أي : ما أنبأ عنه ، وأخبر به من الدّعاء إلى الله ، وتوحيده ، والترغيب إلى الجنة ، والتحذير من النار ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ قال قتادة ، والزجاج ، والفراء : بعد الموت .

وقال عكرمة ، وابن زيد : يوم القيامة .

وقال الكلبي : من بقي علم ذلك لما ظهر أمره ، وعلا ، ومن مات علمه بعد الموت .

(47/663)

وقال السدّي : وذلك يوم بدر .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ : أن الخصومة هي : ﴿ إِذْ قَالَ

رَبُّكَ ﴾ إلخ .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ في العظمة ، والبيهقي عن ابن عمر قال : خلق الله أربعاً بيده : العرش ، وجنة عدن ، والقلم ، وآدم .

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، وأبو الشيخ في العظمة ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن الحارث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلق الله ثلاثة أشياء بيده : خلق آدم بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس الفردوس بيده " ، وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ فالحق والحق أَقُولُ ﴾ قال : أنا الحق أقول الحق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ قال : قل يا محمد : ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ما أدعوكم إليه ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ عرض دنيا .

وفي البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن مسروق قال : بينما رجل يحدّث في المسجد ، فقال فيما يقول :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان : 10] قال : دخان يكون يوم القيامة يأخذ بأسماع المنافقين ، وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين كهيئة الزكام ، قال : قمنا حتى دخلنا على عبد الله ، وهو في بيته ، وكان متكئاً ، فاستوى قاعداً ، فقال : يا أيها الناس من علم منكم علماً ، فليقل به ، ومن لم يعلم ، فليقل الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول العالم لما لا يعلم :

الله أعلم ، قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ .

وأخرج البخاري عن عمر قال : نهينا عن التكلف .

وأخرج الطبراني ، والحاكم ، والبيهقي عن سلمان قال : نهانا رسول الله أن نتكلف للضيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(48/663)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ واذكر عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ لأُوْلِي الألباب ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية مع التعرض لإزالة ما فيه من الإشكال في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وذكرى لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 8384] .

قوله تعالى : ﴿ واذكر عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ الآية .

أمر الله جل وعلا ، نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة ، أن يذكر عبده إبراهيم

ولم يقيد ذلك الذكر بكونه في الكتاب ، مع أنه قيده بذلك في سورة مريم ، في قوله تعالى : ﴿ واذكر فِي الكتاب إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ [مريم : 41] الآية .

قوله تعالى : ﴿ واذكر إِسْمَاعِيلَ واليسع ﴾ الآية .

أطلق هنا أيضاً الأمر بذكر إسماعيل وقيده في سورة مريم بكونه في الكتاب في قوله تعالى : ﴿ واذكر فِي الكتاب إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد ﴾ [مريم : 54] الآية ، وفي ذلك إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم إلى أنه صلى الله عليه وسلم مأمور أيضاً بذكر جميع المذكورين في الكتاب . ولذلك جاء ذكرهم كلهم في القرآن العظيم كما لا يخفى .

وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (52)

قد قدمنا الكلام عليه ، في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف عِينٌ ﴾ [الصافات : 48] .

إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (54)

ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن نعيم الجنة ، لا نفاد له ، أي لا انقطاع له ولا زوال ، ذكره جل وعلا في آيات أخر كقوله تعالى فيه : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] .

وقوله تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] .

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64)

قد قدمنا ما يوضحه ، من الآيات القرآنية في مواضع متعددة ، من هذا الكتاب المبارك ، ذكرنا بعضها في سورة البقرة ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا ﴾ [البقرة : 166] الآية ، وذكرنا بعضه في سورة الأعراف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : 38] الآية وغير ذلك من المواضع .

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76)

قد تقدم إيضاحه ، مع بعض المباحث في سورة البقرة ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى واستكبر وَكَانَ مِنَ الكافرين ﴾ [البقرة : 34] .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة هود ، وذكرنا الأحكام المتعلقة بالآيات ، في الكلام على قوله تعالى عن نبيه نوح ﴿ وياقوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله ﴾ [هود : 29] الآية .

وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88)

الحين المذكور هنا ، قال بعض العلماء : المراد به بعد الموت ، ويدل له ما قدمنا في سورة الحجر ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [الحجر : 99

].

وقال بعض العلماء : الحين المذكور هنا ، هو يوم القيامة ولا منافاة بين القولين ، لأن الإنسان بعد الموت تتبين له حقائق الهدى والضلال .

واللام في لتعلمن موطئه للقسم ، وقد أكد في هذه الآية الكريمة أنهم سيعلمون نبأ القرآن أي صدقه ، وصحة جميع ما فيه بعد حين بالقسمن ونون التوكيد .

(50/663)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بأنهم سيعلمون نبأه بعد حين ، قد أشار إليه تعالى ، في سورة الأنعام ، في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحق قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : 6667] .

قال غير واحد من العلماء : لكل نبإ مستقر ، أي لكل خبر حقيقة ووقوع ، فإن كان حقاً تبين صدقه ولو بعد حين ، وإن كان كذباً تبين كذبه ، وستعلمون صدق هذا القرآن ولو بعد حين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(51/663)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) ﴾

أي قال الله تعالى تفريعاً ، وهذا التفريع نظير التفريع في قوله : ﴿ فبعزّتك لأُغوينهم أجمعينَ ﴾ [ص : 82] .

وقوبل تأكيد عزمه الذي دل عليه قولُه ﴿ فبعزتك ﴾ [ص : 82] بتأكيدٍ مثله ، وهو لفظ ﴿ الحقَّ ﴾ الدال على أن ما بعده حق ثابت لا يتخلف ، ولم يزد في تأكيد الخبر على لفظ ﴿ الحق ﴾ تذكيراً بأن وعد الله تعالى حق لا يحتاج إلى قَسَم عليه ترفعاً من جلال الله عن أن يقابل كلام الشيطان بقَسَم مثله .

ولذلك زاد هذا المعنى تقريراً بالجملة المعترضة وهي ﴿ والحقّ أقول ﴾ الذي هو بمعنى : لا أقول إلا الحق ، ولا حاجة إلى القَسَم .

وقرأ الجمهور : ﴿ فالحقّ ﴾ بالنصب وانتصابه على المفعولية المطلقة بدلاً عن فعل من لفظه محذوفٍ تقديره : أُحقّ ، أي أُوْجب وأحقّق .

وأصله التنكير ، فتعريفه باللام تعريف الجنس كالتعريف في : أرسلَها العِراك ، فهو في حكم النكرة وإنما تعريفه حِلية لفظية إشارة إلى ما يعرفه السامع من أن الحق ما هو وتقدم بيانه في أول الفاتحة .

وقرأه عاصم وحمزة بالرفع على أنه لمَّا تعرف باللام غلبت عليه الاسمية فتنوسي كونه نائباً عن الفعل .

وهذا الرفع إما على الابتداء ، أي فالحق قولي ، أو فالحق لأملأنّ جهنم الخ ، على أن تكون جملة القَسَم قائمة مقام الخبر ، وإمّا على الخبرية ، أي فقولي الحقّ وتكون جملة ﴿ لأملأنَّ جهنَّمَ ﴾ مُفسر القول المحذوف ، ولا خلاف في نصب الحق من قوله : ﴿ والحق أقول . ﴾ وتقدم تفصيل ذلك في أول سورة الفاتحة .

وجملة ﴿ لأملأنَّ جهنَّمَ منكَ ﴾ الخ مبيّنة لجملة ﴿ فالحق ﴾ وهي مؤكدة بلام القسم والنون .

وتقدم المفعول في ﴿ والحق أقول ﴾ للاختصاص ، أي ولا أقول إلا الحق .

و(مِن) في قوله : ﴿ منك وممن تبعك ﴾ بيانية وهي التي تدخل على التمييز وينتصب التمييز بتقدير معناها .

(52/663)

وتدخل على تمييز (كَم) في نحو ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ [ص : 3] ، وهي هنا بيان لما دل عليه ﴿ لأملأن ﴾ من مقدار مبهم فبيّن بآية ﴿ منك وممن تبعك ﴾ ولما

كان شأن مدخول "من" البيانية أن يكون نكرة تعين اعتبار كاف الخطاب في معنى اسم الجنس ، أي من جنسك الشياطين إذ لا تكون ذات إبليس مِلأً لجهنم .

وإذ قد عطف عليه ﴿ وممن تبعك منهم أي من تبعك من الذين أغويتهم من بني آدم ، فلا جائز أن يبْقى من عدَا هذين من الشياطين والجِنة غير مِلْءٍ لجهنم .

وأجْمعينَ ﴾ توكيد لضمير ﴿ مِنْكَ ﴾ و"لَمن" في قوله : ﴿ ومِمَّن تَبِعَكَ .

واعلم أن حكاية هذه المقاولة بين كلام الله وبين الشيطان حكاية لما جرى في خَلد الشيطان من المدارك المترتبة المتولدة في قرارة نفسه ، وما جرى في إرادة الله من المسببات المترتبة على أسبابها من خواطر الشيطان لأن العالم الذي جرت فيه هذه الأسباب ومسبباتها عالم حقيقة لا يجري فيه إلا الصدق ولا مطمع فيه لترويج المواربة ولا الحيلة ولذلك لا تعد خواطر الشيطان المذكورة فيه جرأة على جلال الله تعالى ولا تعدّ مجازاة الله تعالى الشيطانَ عليه تنازلاً من الله لمحاورة عبد بغيض لله تعالى .

وقد ذكرنا في تفسير سورة الحجر ما دلت عليه الأقوال التي جرت من الشيطان بين يدي الله تعالى والأقوالُ التي ألقاها الله عليه .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86)

لمّا أمر الله رسوله بإبلاغ المواعظ والعبر التي تضمنتها هذه السورة أمره عند انتهائها أن يقرع أسماعهم بهذا الكلام الذي هو كالفذلكة للسورة تنهية لها تسجيلاً عليهم أنه ما جاءهم إلا

بما ينفعهم وليس طالباً من ذلك جزاء ، أي لو سألهم عليه أجراً لراج اتّهامهم إياه بالكذب لنفع نفسه ، فلما انتفى ذلك وجب أن ينتفي توهم اتهامه بالكذب لأن وازع العقل يصرف صاحبه على أن يكذب لغير نفع يرجوهِ لنفسه .

(53/663)

والمعنى عموم نفي سؤالِه الأجرَ منهم من يوم بعث إلى وقت نزول هذه الآية وهو قياس استقراء لأنهم إذا استقرَوْا أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم فيما مضى وجدوا انتفاء سؤاله أجراً أمراً عاماً بالاستقراء التام الحاصل من جميع أفراد المشركين في جميع مخالطاتهم إياه ، فهو أمر متواتر بينهم فهذا إبطال لقولهم ﴿ كذاب ﴾ [ص : 4] المحكي عنهم في أول السورة وإقامة الحجة على صدق رسالته كما سيجيء .

وضمير ﴿ عَلَيْهِ ﴾ عائد إلى القرآن المعلوم من المقام فإن مبدأ السورة قوله ﴿ والقرآنِ ذي الذِكرِ ﴾ [ص : 1] فهذا من رد العجز على المصدر .

وعطف ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أفاد انتفاء جميع التكلف عن النبي صلى الله عليه وسلم

والتكلف : معالجة الكلفة ، وهي ما يشقّ على المرء عمله والتزامه لكونه يحرجه أو يشق

عليه ، ومادة التفعل تدل على معالجة ما ليس بسهل ، فالمتكلف هو الذي يتطلب ما ليس له أو يدعي علم ما لا يعلمه .

فالمعنى هنا : ما أنا بمُدَّعٍ النبوءة باطلاً من غير أن يوحى إليّ وهو رد لقولهم : ﴿ كذاب ﴾ [ص : 4] وبذلك كان كالنتيجة لقوله : ﴿ ما أسألكم عليه من أجْرٍ ﴾ لأن المتكلف شيئاً إنما يطلب من تكلُّفِه نفعاً ، فالمعنى : وما أنا ممن يدعون ما ليس لهم .

ومنه حديث الدارقطني عن ابن عمر قال : خرج رسول الله في بعض أسفاره فمرّ على رجل جالس عند مقراة له (أي حوض ماء) ، فقال عُمر : يا صاحبَ المَقراة أَوَلَغَتْ السباع الليلة في مَقراتك ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا صاحب المَقراة لا تخبره ، هذا متكلف لها مَا حملتْ في بطونها ولنا ما بقي شراب وطهور .

وفي "الصحيحين" عن ابن مسعود أنه قال : "يا أيها الناس من عِلم منكم علماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، قال الله لرسوله : ﴿ قُلْ ما أسألُكُم عليهِ من أجْرٍ وما أنا مِن المتكلفين ﴾ .

وأخذ من قوله : ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أن ما جاء به من الدين لا تكلف فيه ، أي لا مشقة في تكاليفه وهو معنى سماحة الإِسلام ، وهذا استرواح مبني على أن من حكمة الله أن يجعل بين طبع الرسول صلى الله عليه وسلم وبين روح شريعته تناسباً ليكون إقباله على تنفيذ شرعه بِشَرَاشِره لأن ذلك أنفى للحرج عنه في القيام بتنفيذ ما أمر به .

وتركيب ﴿ ما أنا من المتكلفين ﴾ أشدّ في نفي التكلّف من أن يقول : ما أنا بمتكلف ، كما تقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ في سورة البقرة (67 .

(وجملة ﴿ إن هُو إلا ذِكرٌ للعالمين ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ وما أنا منَ المتكلفين ﴾ اشتمال نفي الشيء على ثبوت ضده ، فلما نفَى بقوله : ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أن يكون تَقَوَّل القرآن على الله ، ثبت من ذلك أن القرآن ذكرٌ للناس ذكّرهم الله به ، أي ليس هو بالأساطير أو الترهات .

ولك أن تجعلها تذييلاً إذ لا منافاة بينهما هنا .

وهذا الإِخبار عن موقع القرآن لدى جميع أمة الدعوة لا خصوص المشركين الذين كان في مجادلتهم لأنه لما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يرجو من معانديه أجراً .

وثبت بذلك أنه ليس بمتقول ما لم يُوحَ إليه انتقل إلى إثبات أن القرآن ذكر للناس قاطبة فيدخل في ذلك مشركو أهل مكة وغيرهم من الناس ، فكأنه قيل يستغني الله عنكم بأقوامٍ آخرين

كما قال تعالى : ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ [الزمر : 7] .

وعموم العالمين يكسب الجملة معنى التذييل للجملتين قبلها .

والقصر الذي اشتملت عليه جملة ﴿ إن هو إلا ذِكرٌ للعالمين ﴾ قصر قلب إضافي ، أي هو ذكر لا أساطير ولا سِحر ولا شعر ولا غير ذلك للردّ على المشركين ما وسَموا به القرآن من غير صفاته الحقيقية .

(55/663)

وجملة ﴿ ولتعلمن نبأَهُ بعد حينٍ ﴾ عطف على جملة ﴿ إن هُوَ إلا ذِكرٌ للعالمين ﴾ باعتبار ما يشتمل عليه القصر من جانب الإِثبات ، أي وستعلمون خبر هذا القرآن بعد زمان علماً جزماً فيزول شكُّكُم فيه ، فالكلام إخبار عن المستقبل كما هو مقتضى وجود نون التوكيد .

والنبأ : الخبر ، وأصل الخبر : الصدق ، أي الموافقة للواقع ، فإذا قيل : أتاني نبأُ كذا ، فمعناه الخبر عن حاله في الواقع ، فإضافة النبأ إلى ما يضاف إليه على معنى اللام إذ معنى اللام هو أصل معاني الإِضافة ، قال تعالى : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم ﴾ [ص : 21] ، أي ستعلمون صدق وصف هذا القرآن أنه الحق ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في

الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [فصلت : 53] .

وفُسر النبأ بمعنى المفعول ، أي ما أَنبأَ به القرآن من إنذاركم بالعذاب ، فهو تهديد .

وكلا الاحتمالين واقع فإن من المخاطبين من عجّل له عذاب السيف يوم بدر ، وبقيتهم رأوا ذلك رأي العين منهم مَن علموا دخول الناس في الإِسلام فماتوا بغيظهم ومنهم من شاهدوا فتح مكة وآمنوا ، أو رأوا قبائل العرب تدخل في الدين أفواجاً فعلموا نبأ صدق القرآن وما وعد به بعد حين فازدادوا إيماناً .

وحين كلِّ فريق ما مضى عليه من زمن بين هذا الخطاب وبين تحقق الصدق .

والحين : الزمن من ساعة إلى أربعينَ سنة .

فختم الكلام بتسجيل التبليغ وأن فائدة ما أبلغهم لهم لا للنبيء صلى الله عليه وسلم وختم بالمواعدة لوقتِ يقينهم بنبيئه ، وهذا مؤذن بانتهاء الكلام ومراعاة حسن الختام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 23 صـ ﴾

(56/663)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) ﴾

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم ﴾ ويقول : إنما ذكر إبراهيم ثم ذكر بعده ولده .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ واذكر عبادنا ﴾ على الجمع إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أولي الأيدي ﴾ قال : القوة في العبادة ﴿ والأبصار ﴾ قال : البصر في أمر الله .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ قال : أما اليد فهو القوة في العمل ، وأما الأبصار فالبصر ما هم فيه من أمر دينهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ أولي الأيدي ﴾ قال : القوة في أمر الله ﴿ والأبصار ﴾ قال : العقل .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ قال : أولي القوة في العبادة ونصراً في الدين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ قال : اخلصوا بذلك وبذكرهم دار يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ قال : بذكر الآخرة ، وليس لهم هم ولا ذكر غيرها .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ قال : لهذه أخلصهم الله تعالى كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله تعالى .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ قال : بفضل أهل الجنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير ﴿ ذكرى الدار ﴾ قال : عقبى الدار .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ " واليسع " خفيفة . وعن الأعمش أنه قرأ " اليسع " مشددة .

(57/663)

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49)

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن في قوله ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴾ قال : يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها . يقال لها انفتحي وانغلقي تكلمي ،

فتفهم وتتكلم .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن محمد بن كعب في قوله ﴿ وعندهم قاصرات الطرف أتراب ﴾ قال : قصرن طرفهن على أزواجهن ، فلا يردن غيرهن ﴿ أتراب ﴾ قال : سن واحد .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس في قوله ﴿ أتراب ﴾ قال : أمثال .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ إن هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾ أي من انقطاع ﴿ هذا فليذقوه حميم وغساق ﴾ قال : كنا نحدث أن الغساق ما يسيل من بين جلده ولحمه ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ قال : من نحوه أزواج من العذاب .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد عن أبي رزين قال : الغساق ما يسيل من صديدهم .

وأخرج هناد عن عطية في قوله ﴿ وغساق ﴾ قال : الذي يسيل من جلودهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ وغساق ﴾ قال : الزمهرير ﴿ وآخر من شكله ﴾ قال : نحوه ﴿ أزواج ﴾ قال : ألوان من العذاب .

وأخرج هناد بن السري في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : الغساق

الذي لا يستطيعون أن يذوقوه من شدة برده .

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن بريدة قال : الغساق المنتن ، وهو بالطخاوية .

وأخرج أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أن دلواً من غساق يُهْرَاقُ في الدنيا لأنتن أهل الدنيا " .

وأخرج ابن جرير عن كعب قال : ﴿ غساق ﴾ عين في جهنم يسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية أو عقرب أو غيرها فليستنقع .

(58/663)

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ قال : الزمهرير .

وأخرج عبد بن حميد عن مرة قال : ذكروا الزمهرير فقال ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ فقالوا لعبد الله : إن للزمهرير برداً فقرأ هذه الآية ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ﴾ [النبأ : 24-25] .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن الحسن في قوله ﴿ وآخر من شكله أزواج

﴿ قال : ألوان من العذاب .

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : ذكر الله العذاب ، فذكر السلاسل ، والأغلال ، وما يكون في الدنيا ثم قال ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ قال : آخر لم ير في الدنيا .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد أنه قرأ ﴿ وآخر من شكله ﴾ برفع الألف ونصب الخاء .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وآخر من شكله ﴾ ممدودة منصوبة الألف .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ هذا فوج مقتحم معكم ﴾ إلى قوله ﴿ فبئس القرار ﴾ قال : هؤلاء الأتباع يقولونه للرؤوس .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود في قوله ﴿ فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ قال : أفاعي وحيات .

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن عساكر عن مجاهد في قوله ﴿ وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ﴾ قال : ذلك قول أبي جهل بن هشام في النار : ما لي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً وفلاناً . . ! ﴿ أتخذناهم سخرياً ﴾ وليسوا كذلك ﴿ أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ أم هم في النار ولا نراهم .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ﴾ قال : عبد الله بن مسعود ومن معه .

(59/663)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن شمر بن عطية ﴿ وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً . . . ﴾ قال أبو جهل في النار : أين خباب ؟ أين صهيب ؟ أين بلال ؟ أين عمار ؟

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ﴾ قال : فقدوا أهل الجنة ﴿ أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ قال : أم هم معنا في النار ولا نراهم ﴿ زاغت ﴾ أبصارنا عنهم فلم ترهم حين أدخلوا النار .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66)

أخرج النسائي ومحمد بن نصر والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة رضي الله عنها قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل قال : لا إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار " .

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68)

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو نصر السجزي في الابانة عن مجاهد في قوله ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ قال : القرآن .

وأخرج عبد بن حميد في الابانة ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة وابن جرير عن قتادة ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ قال : إنكم تراجعون نبأ عظيماً فأعقلوه عن الله ﴿ ما كان لي من علم بالملإِ الأعلى إذ يختصمون ﴾ قال : هم الملائكة عليهم السلام كانت خصومتهم في شأن آدم عليه السلام ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ [البقرة : 30] إلى قوله ﴿ إني خالق بشراً من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ [البقرة : 30] ففي هذا اختصم الملأ الأعلى .

(60/663)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ما كان لي من علم بالملإِ الأعلى ﴾ قال : الملائكة حين شوروا في خلق آدم عليه السلام فاختصموا فيه : قالوا أتجعل في الأرض خليفة .

وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ما كان لي من علم بالملإِ الأعلى إذ يختصمون ﴾ قال : هي الخصومة في شأن آدم ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : يختصمون في الكفارات الثلاث : اسباغ الوضوء في المكروهات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة " .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه ومحمد بن نصر رضي الله عنه في كتاب الصلاة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاني ربي الليلة في أحسن صورة أحسبه قال في المنام قال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت لا . فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي أو في نحري ، فعلمت ما في السموات وما في الأرض ثم قال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم . في الكفارات ، والمكث في المسجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، واسباغ الوضوء في المكاره ، ومن فعل ذلك عاش بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه ، وقل يا محمد إذا صليت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب

المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون . قال : والدرجات . افشاء السلام ، واطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام " .

(61/663)

وأخرج الترمذي وصححه ومحمد بن نصر والطبراني والحاكم وابن مردويه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس ، فخرج سريعاً فثوّب بالصلاة ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سلم دعا بسوطه فقال :

" على مصافكم كما أنتم . ثم انفتل إلينا ثم قال : أما أني أحدثكم ما حبسني عنكم الغداة . إني قمت الليلة ، فقمت وصليت ما قدر لي ، ونعست في صلاتي حتى استثقلت ، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة فقال : يا محمد قلت لبيك ربي قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري . . ! فوضع كفه بين كتفي فوجدت برد أنامله بين ثديي ، فتجلى لي كل شيء وعرفته فقال : يا محمد قلت لبيك رب قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الدرجات ، والكفارات ، فقال : ما الدرجات ؟ فقلت : اطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام . قال : صدقت فما الكفارات ؟ قلت :

اسباغ الوضوء في المكاره ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، ونقل الاقدام إلى الجماعات . قال : صدقت قل يا محمد : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون . اللهم إني أسألك حبك ، وحب من أحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك . قال النبي صلى الله عليه وسلم : تعلموهن وادرسوهن فانهن حق " .

وأخرج الطبراني في السنة وابن مردويه عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تجلى لي في أحسن صورة فسألني فيم يختصم الملائكة ؟ قلت : يا رب ما لي به علم . فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي . فما سألني عن شيء إلا علمته قلت : في الدرجات ، والكفارات ، واطعام الطعام ، وافشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام " .

(62/663)

وأخرج الطبراني في السنة وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت ربي في أحسن صورة قال : يا محمد فقلت لبيك ربي وسعيدك ثلاث مرات . قال : هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا . فوضع يده بين كتفي ،

فوجدت بردها بين ثديي ، ففهمت الذي سألني عنه فقلت : نعم يا رب . يختصمون في الدرجات ، والكفارات . قلت : الدرجات : اسباغ الوضوء بالسبرات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، والكفارات : اطعام الطعام ، وافشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام " .

وأخرج الطبراني في السنة والشيرازي في الألقاب وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : أصبحنا يوماً فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرنا فقال : " أتاني ربي البارحة في منامي في أحسن صورة ، فوضع يده بين ثدي وبين كتفي ، فوجدت بردها بين ثديي ، فعلمني كل شيء قال : يا محمد قلت : لبيك رب وسعديك قال : هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم يا رب في الكفارات ، والدرجات ، قال : فما الكفارات ؟ قلت : افشاء السلام ، واطعام الطعام ، والصلاة والناس نيام . قال : فما الدرجات ؟ قلت : اسباغ الوضوء في المكروهات ، والمشي على الاقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة " .

(63/663)

وأخرج ابن نصر والطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أتاني ربي في أحسن صورة فقال : يا محمد فقلت : لبيك وسعديك . قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت لا أدري ! فوضع يده بين ثديي ، فعلمت في منامي ذلك ما سألني عنه من أمر الدنيا والآخرة فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت في الدرجات ، والكفارات ، فأما الدرجات : فاسباغ الوضوء في السبرات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . قال : صدقت من فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وأما الكفارات : فاطعام الطعام ، وافشاء السلام وطيب الكلام ، والصلاة والناس نيام . ثم قال : اللهم إني أسألك فعل الحسنات ، وترك السيئات ، وحب المساكين ، ومغفرة وأن تتوب عليّ ، وإذا أردت في قوم فتنة فنجني غير مفتون " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن طارق بن شهاب رضي الله عنه قال : " سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال : في الدرجات ، والكفارات . فأما الدرجات : فاطعام الطعام ، وافشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام . وأما الكفارات : فاسباغ الوضوء في السبرات ، ونقل الاقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة " .

وأخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم " لما سري بي إلى السماء السابعة قال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فذكر الحديث " .

(64/663)

وأخرج الطبراني في السنة والخطيب عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما كان ليلة أسري بي رأيت ربي عز وجل في أحسن صورة فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات ، والدرجات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : اسباغ الوضوء في السبرات ، ونقل الاقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، قال : فما الدرجات ؟ قلت : اطعام الطعام ، وافشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام . ثم قال : قل . . . قلت : فما أقول ؟ ! قال : قل اللهم إني أسألك عملاً بالحسنات ، وترك المنكرات ، وإذا أردت بقوم فتنة وأنا فيهم فاقبضني إليك غير مفتون " .

وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة والطبراني في السنة عن عبد الرحمن بن عابس الحضرمي رضي الله عنه قال : " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة ، فقال له قائل : ما رأيناك أسفر وجهاً منك الغداة ؟ قال : وما لي لا أكون كذلك وقد رأيت

ربي عز وجل في أحسن صورة فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد ؟ فقلت : في الكفارات . قال : وما هن ؟ قلت : المشي على الاقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد لانتظار الصلوات ، ووضع الوضوء أماكنه في المكان ، قال : وفيم ؟ قلت : في الدرجات . قال : وما هن ؟ قال : اطعام الطعام ، وافشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام . ثم قال : يا محمد قل اللهم إني أسألك الطيبات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين فوالذي نفسي بيده إنهن حق " .

وأخرج ابن نصر والطبراني في السنة عن ثوبان رضي الله عنه قال خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الصبح فقال : " إن ربي عز وجل أتاني الليلة في أحسن صورة فقال لي : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت : لا أعلم يا رب .

(65/663)

قال فوضع كفيه بين كتفي حتى وجدت أنامله في صدري ، فتجلى لي بين السماء والأرض قلت : نعم يا رب يختصمون في الكفارات ، والدرجات ، قال : فما الدرجات ؟ قلت : اطعام الطعام ، وافشاء السلام ، وقيام الليل والناس نيام . وأما الكفارات : فمشي على الأقدام إلى الجماعات ، واسباغ الوضوء في الكراهيات ، وجلوس في المساجد خلف

الصلوات . ثم قال : يا محمد قل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، قلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت في قوم فتنة فتوفني إليك وأنا غير مفتون . اللهم إني أسألك حبك ، وحب من أحبك ، وحب عمل يبلغني إلى حبك " .

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71)

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ما كان لي من علم بالملإِ الأعلى إذ يختصمون ، . . . . إذ قال ربك للملائكة ﴾ قال : هذه الخصومة .

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75)

أخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلق الله ثلاثة أشياء بيده : خلق آدم بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس الفردوس بيده . ثم قال : وعزتي لا يسكنها مدمن خمر ، ولا ديوث . قالوا : يا رسول الله قد عرفنا مدمن الخمر فما الديوث ؟ قال : الذي يشير لأهله السوء " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : خلق الله أربعاً بيده : العرش ، وجنات عدن ، والقلم ، وآدم . ثم قال لكل شيء كن فكان . واحتجب من خلقه بأربعة : بنار ، وظلمة ، ونور .

وأخرج هناد عن ميسرة رضي الله عنه قال : " خلق الله أربعة بيده : خلق آدم بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده ، وخلق القلم بيده .

وأخرج هناد عن إبراهيم رضي الله عنه ، مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن كعب قال : إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثة أشياء : خلق آدم بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : الرجيم اللعين . قوله ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ قال : المخلصين بالنصب . فقلت كل شيء في القرآن هكذا نقرأها ؟ قال : نعم .

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85)

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ فالحق والحق أقول ﴾ قال : أنا الحق أقول الحق .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه قال : ﴿ فالحق ﴾ رفع ﴿ والحق ﴾ نصب ﴿ أقول ﴾ رفع .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه أنه قرأها " فالحق " بالرفع " والحق أقول "

نصباً قال : يقول الله أنا الحق ، والحق أقول .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (87)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال : قل يا محمد ﴿ ما أسألكم ﴾ على ما أدعوكم إليه من أجر عرض من الدنيا .

(67/663)

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن مسروق رضي الله عنه قال : بينما رجل يحدث في المسجد فقال فيما يقول ﴿ يوم تأتي السماء بدخان ﴾ [الدخان : 10] يكون يوم القيامة يأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام قال : فقمنا حتى دخلنا على عبد الله رضي الله عنه وهو في بيته ، فاخبرناه وكان متكئاً فاستوى قاعداً فقال : أيها الناس من علم منكم علما فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم . قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ .

وأخرج الديلمي وابن عساكر عن الزبير رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إني لا ألي من التكلف وصالحو أمتي .

وأخرج أحمد وابن عدي والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإِيمان عن شقيق رضي الله عنه قال : دخلت أنا وصاحب لي على سلمان رضي الله عنه ، فقرب إلينا خبزاً وملحاً فقال : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا عن التكلفت لتكلفت لكم فقال صاحبي لو كان في ملحتنا صعتر ، فبعث مطهرته فرهنها فجاء الصعتر ، فلما أكلنا قال صاحبي : الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا . فقال سلمان رضي الله عنه : لو قنعت ما كانت مطهرتي مرهونة عند البقال .

وأخرج الطبراني والحاكم والبيهقي عن سلمان رضي الله عنه قال : " نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتكلف للضيف " .

وأخرج البيهقي عن سلمان رضي الله عنه قال : " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نتكلف للضيف ما ليس عندنا ، وأن نقدم ما حضر " .

وأخرج ابن عدي عن أبي برزة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ألا أنبئكم بأهل الجنة ؟ قلنا بلى يا رسول الله قال : الرحماء بينهم . ألا أنبئكم بأهل النار ؟ قلنا بلى . قال : هم الآيسون ، والقانطون ، والكذابون ، والمتكلفون " .

(68/663)

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن المنذر قال : آية المتكلف ثلاث : تكلف فيما لا يعلم ، وينازل من فوقه ، ويتعاطى ما لا ينال .

وأخرج ابن سعد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : من علم علماً فليعلمه ، ولا يقولن ما ليس له به علم ، فيكون من المتكلفين ويمرق من الدين .

وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ قال : بعد الموت وقال الحسن رضي الله عنه : يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين .

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ قال بعضهم : يوم القيامة .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولتعلمن نبأه ﴾ قال : صدق هذا الحديث نبأ ما كذبوا به بعد حين من الدنيا وهو يوم القيامة ، وقرأ ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ [الأنعام : 67] قال : وهو الآخرة يستقر فيها الحق ، ويبطل فيها الباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾

رَوَى مَعْمَرٌ عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " لَمْ يَزَلْ فِي نَفْسِي مِنْ صَلَاةِ الضُّحَى حَتَّى قَرَأْت : ﴿ إنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ وَرَوَى الْقَاسِمُ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ ﴿ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَهْلِ قُبَا وَهُمْ يُصَلُّونَ الضُّحَى ، فَقَالَ : إنَّ صَلَاةَ الْأَوَّابِينَ إذَا رَمَضَتْ الْفِصَالُ مِنْ الضُّحَى .

﴿ وَرَوَى شَرِيكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَبِي زِيَادٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ﴿ : أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ وَنَهَانِي عَنْ ثَلَاثٍ أَوْصَانِي بِصَلَاةِ الضُّحَى وَالْوِتْرِ قَبْلَ النَّوْمِ وَصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ، وَنَهَانِي عَنْ نَقْرٍ كَنَقْرِ الدِّيكِ وَالْتِفَاتٍ كَالْتِفَاتِ الثَّعْلَبِ وَإِقْعَاءٍ كَإِقْعَاءِ الْكَلْبِ .

﴿ وَرَوَى عَطِيَّةُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ ﴿ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي الضُّحَى حَتَّى نَقُولَ : لَا يَدَعُهَا ، وَيَدَعُهَا حَتَّى نَقُولَ : لَا يُصَلِّيهَا .

﴿ وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ وَأُمِّ هَانِئٍ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى الضُّحَى .

﴿ وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ : " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُصَلِّهَا وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : " هِيَ مِنْ أَحَبِّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ إلَيَّ " .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ صَلَاةِ الضُّحَى فَقَالَ : " إِنَّهَا لَفِي كِتَابِ اللَّهِ وَمَا يَغُوصُ عَلَيْهَا إِلَّا غَوَّاصٌ " ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ ﴾ قِيلَ : إِنَّهُ سَخَّرَهَا مَعَهُ فَكَانَتْ تَسِيرُ مَعَهُ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ تَسْبِيحًا مِنْهَا لِلَّهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّ التَّسْبِيحَ لِلَّهِ هُوَ تَنْزِيهُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ فَلَمَّا كَانَ سَيْرُهَا دَلَالَةً عَلَى تَنْزِيهِ اللَّهِ جَعَلَ ذَلِكَ تَسْبِيحًا مِنْهَا لَهُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ الْحَسَنِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ قَالَ : " جَزَّأَ دَاوُد الدَّهْرَ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ : يَوْمًا لِنِسَائِهِ ، وَيَوْمًا لِقَضَائِهِ ، وَيَوْمًا يَخْلُو فِيهِ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَيَوْمًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يَسْأَلُونَهُ " وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَاضِيَ لَا يَلْزَمُهُ الْجُلُوسُ لِلْقَضَاءِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَأَنَّهُ جَائِزٌ لَهُ الِاقْتِصَارُ عَلَى يَوْمٍ مِنْ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى الزَّوْجِ الْكَوْنُ عِنْدَ امْرَأَتِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَأَنَّهُ جَائِزٌ لَهُ أَنْ يَقْسِمَ لَهَا يَوْمًا مِنْ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : الْمِحْرَابُ صَدْرُ الْمَجْلِسِ ، وَمِنْهُ مِحْرَابُ الْمَسْجِدِ ، وَقِيلَ : إنَّ الْمِحْرَابَ الْغُرْفَةُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ .

وَالْخَصْمُ اسْمٌ يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَعَلَى الْجَمَاعَةِ وَإِنَّمَا فَزِعَ مِنْهُمْ دَاوُد ؛ لِأَنَّهُمْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِ صَلَاتِهِ عَلَى صُورَةِ الْآدَمِيِّينَ بِغَيْرِ إذْنٍ ، فَقَالُوا : ﴿ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ وَمَعْنَاهُ : أَرَأَيْت إنْ جَاءَك خَصْمَانِ فَقَالَا : بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ؟ وَإِنَّمَا كَانَ فِيهِ هَذَا الضَّمِيرُ ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّهُمَا كَانَا مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْضِهِمْ بَغْيٌ عَلَى بَعْضٍ وَالْمَلَائِكَةُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ الْكَذِبُ ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُمَا كَلَّمَاهُ بِالْمَعَارِيضِ الَّتِي تُخْرِجُهُمَا مِنْ الْكَذِبِ مَعَ تَقْرِيبِ الْمَعْنَى بِالْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَاهُ .

وَقَوْلُهُمَا : ﴿ إنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ هُوَ عَلَى مَعْنَى مَا قَدَّمْنَا مِنْ ضَمِيرِ : أَرَأَيْت

إنْ كَانَ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ؟ وَأَرَادَ بِالنِّعَاجِ النِّسَاءَ .

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ دَاوُدَ كَانَ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً ، وَأَنَّ أُورِيَا بْنَ حَنَانٍ لَمْ تَكُنْ لَهُ امْرَأَةٌ ، وَقَدْ خَطَبَ امْرَأَةً ، فَخَطَبَهَا دَاوُدُ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ أُورِيَا خَطَبَهَا ، وَتَزَوَّجَهَا .

وَكَانَ فِيهِ شَيْئَانِ مِمَّا سَبِيلُ الْأَنْبِيَاءِ التَّنَزُّهُ عَنْهُ : أَحَدُهُمَا : خِطْبَتُهُ عَلَى خِطْبَةِ غَيْرِهِ ، وَالثَّانِي : إِظْهَارُ الْحِرْصِ عَلَى التَّزْوِيجِ مَعَ كَثْرَةِ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ النِّسَاءِ ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ أَنَّ ذَلِكَ مَعْصِيَةٌ ، فَعَاتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا وَكَانَتْ صَغِيرَةً ، وَفَطِنَ حِينَ خَاطَبَهُ الْمَلَكَانِ بِأَنَّ الْأَوْلَى كَانَ بِهِ أَنْ لَا يَخْطُبَ الْمَرْأَةَ الَّتِي خَطَبَهَا غَيْرُهُ ، وَقَوْلُهُ ﴿ وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ يَعْنِي : خَطَبْت امْرَأَةً وَاحِدَةً قَدْ كَانَ التَّرَاضِي مِنَّا وَقَعَ بِتَزْوِيجِهَا .

وَمَا رُوِيَ فِي أَخْبَارِ الْقُصَّاصِ مِنْ أَنَّهُ نَظَرَ إلَى الْمَرْأَةِ فَرَآهَا مُتَجَرِّدَةً فَهَوِيَهَا وَقَدَّمَ زَوْجَهَا لِلْقَتْلِ ، فَإِنَّهُ وَجْهٌ لَا يَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَأْتُونَ الْمَعَاصِيَ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهَا مَعَاصٍ ؛ إذْ لَا يَدْرُونَ لَعَلَّهَا كَبِيرَةٌ تَقْطَعُهُمْ عَنْ وِلَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ إنَّمَا كَانَ بَيْنَهُمَا فِي الْخِطْبَةِ وَلَمْ يَكُنْ قَدْ تَقَدَّمَ تَزْوِيجُ الْآخَرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلْخَصْمِ أَنْ يُخَاطِبَ الْحَاكِمَ بِمِثْلِهِ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَك بِسُؤَالِ نَعْجَتِك إلَى نِعَاجِهِ ﴾ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْأَلَ الْخَصْمَ عَنْ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَخْرَجَ الْكَلَامَ مَخْرَجَ الْحِكَايَةِ وَالْمَثَلِ عَلَى مَا بَيَّنَّا ، وَأَنَّ دَاوُد قَدْ كَانَ عَرَفَ ذَلِكَ مِنْ فَحْوَى كَلَامِهِ ، لَوْلَا ذَلِكَ لَمَا حَكَمَ بِظُلْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَ فَيَقِرَّ عِنْدَهُ أَوْ تَقُومَ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةُ بِهِ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ وَهُوَ يَعْنِي الشُّرَكَاءَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَادَةَ فِي أَكْثَرِ الشُّرَكَاءِ الظُّلْمُ وَالْبَغْيُ .

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ : ﴿ إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُد أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقْصِدْ الْمَعْصِيَةَ بَدِيًّا وَأَنَّ كَلَامَ الْمَلَكَيْنِ أُوقِعَ لَهُ الظَّنُّ بِأَنَّهُ قَدْ أَتَى مَعْصِيَةً وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ شَدَّدَ عَلَيْهِ الْمِحْنَةَ بِهَا ؛ لِأَنَّ الْفِتْنَةَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ تَشْدِيدُ التَّعَبُّدِ وَالْمِحْنَةِ ، فَحِينَئِذٍ عَلِمَ أَنَّ مَا أَتَاهُ كَانَ مَعْصِيَةً وَاسْتَغْفَرَ مِنْهَا وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ رَوَى أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ ﴿ : رَأَيْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَجَدَ فِي ص وَلَيْسَتْ مِنْ الْعَزَائِمِ ﴾ .

وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ ﴿ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي سَجْدَةِ ص : سَجَدَهَا دَاوُد تَوْبَةً وَنَحْنُ نَسْجُدُهَا شُكْرًا ﴾ .

(74/663)

وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ أَنَّهُ رَأَى عُمَرَ سَجَدَ فِي " ص " .

وَرَوَى عُثْمَانُ وَابْنُ عُمَرَ مِثْلَهُ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : قُلْت لِابْنِ عَبَّاسٍ : مِنْ أَيْنَ أَخَذْت سَجْدَةَ " ص " ؟ قَالَ : فَتَلَا عَلَيَّ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ ﴾ فَكَانَ دَاوُد سَجَدَ فِيهَا فَلِذَلِكَ سَجَدَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَرَوَى مَسْرُوقٌ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ لَا يَسْجُدُ فِيهَا وَيَقُولُ : " هِيَ تَوْبَةُ نَبِيٍّ " .

وَقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَهَا اقْتِدَاءً بِدَاوُدَ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ رَأَى فِعْلَهَا وَاجِبًا ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ عَلَى الْوُجُوبِ ، وَهُوَ

خِلَافُ رِوَايَةِ عِكْرِمَةَ عَنْهُ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ .

وَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا كَمَا سَجَدَ فِي غَيْرِهَا مِنْ مَوَاضِعِ السُّجُودِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سَائِرِ مَوَاضِعِ السُّجُودِ .

(75/663)

وَأَمَّا قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ " إنَّهَا لَيْسَتْ بِسَجْدَةٍ ؛ لِأَنَّهَا تَوْبَةُ نَبِيٍّ " فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ مَوَاضِعِ السُّجُودِ إنَّمَا هُوَ حِكَايَاتٌ عَنْ قَوْمٍ مُدِحُوا بِالسُّجُودِ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّك لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ وَهُوَ مَوْضِعُ السُّجُودِ لِلنَّاسِ بِالِاتِّفَاقِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ وَنَحْوُهَا مِنْ الْآيِ الَّتِي فِيهَا حِكَايَةُ سُجُودِ قَوْمٍ فَكَانَتْ مَوَاضِعُ السُّجُودِ ، وَقَوْلُهُ ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ يَقْتَضِي لُزُومَ فِعْلِهِ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ فَلَوْ خَلَّيْنَا وَالظَّاهِرَ أَوْجَبْنَاهُ فِي سَائِرِ الْقُرْآنِ فَمَتَى اخْتَلَفْنَا فِي مَوْضِعٍ مِنْهُ فَإِنَّ الظَّاهِرَ يَقْتَضِي وُجُوبَ فِعْلِهِ إلَّا أَنْ تَقُومَ الدَّلَالَةُ عَلَى غَيْرِهِ وَأَجَازَ أَصْحَابُنَا الرُّكُوعَ عَنْ سُجُودِ التِّلَاوَةِ وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ ، أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أَنَّ مَعْنَاهُ خَرَّ سَاجِدًا فَعَبَّرَ بِالرُّكُوعِ عَنْ السُّجُودِ فَجَازَ أَنْ يَنُوبَ عَنْهُ ؛ إذْ صَارَ عِبَارَةً عَنْهُ .

قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ رَوَى أَشْعَثُ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ " الْعِلْمُ

بِالْقَضَاءِ " وَعَنْ شُرَيْحٍ قَالَ " الشُّهُودُ وَالْإِيمَانُ " وَعَنْ أَبِي حُصَيْنٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلَمِيِّ قَالَ : " فَصْلُ الْخِطَابِ " قَالَ الْخُصُومُ .

(76/663)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْفَصْلُ بَيْنَ الْخُصُومِ بِالْحَقِّ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فَصْلَ الْقَضَاءِ وَاجِبٌ عَلَى الْحَاكِمِ إذَا خُوصِمَ إلَيْهِ وَأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ لَهُ إهْمَالُ الْحُكْمِ وَهُوَ يُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ : إنَّ النَّاكِلَ عَنْ الْيَمِينِ يُحْبَسُ حَتَّى يُقِرَّ أَوْ يَحْلِفَ ؛ لِأَنَّ فِيهِ إهْمَالَ الْحُكْمِ وَتَرْكَ الْفَصْلِ ، وَرَوَى الشَّعْبِيُّ عَنْ زِيَادٍ أَنَّ فَصْلَ الْخِطَابِ " أَمَّا بَعْدُ " وَلَيْسَ زِيَادٌ مِمَّنْ يُعْتَدُّ بِهِ فِي الْأَقَاوِيلِ وَلَكِنَّهُ قَدْ رُوِيَ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ ذَهَبَ إلَى أَنَّهُ فَصْلٌ بَيْنَ الدُّعَاءِ فِي صَدْرِ الْكِتَابِ وَبَيْنَ الْخِطَابِ الْمَقْصُودِ بِهِ الْكِتَابُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا دَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعْ الْهَوَى ﴾ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَارِثُ بْنُ أَبِي أُسَامَةَ قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ حُمَيْدٍ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ " إنَّ اللَّهَ أَخَذَ عَلَى الْحُكَّامِ ثَلَاثًا : أَنْ لَا يَتَّبِعُوا الْهَوَى وَأَنْ يَخْشَوْهُ وَلَا يَخْشَوْا النَّاسَ ، وَأَنْ لَا يَشْتَرُوا بِآيَاتِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا " ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ يَا دَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ

فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾ الْآيَةَ ، وَقَرَأَ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ .

(77/663)

وَرَوَى سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ عَنْ حَمَّادِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ حُمَيْدٍ قَالَ : لَمَّا اسْتُقْضِيَ إيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ أَتَاهُ الْحَسَنُ

، فَبَكَى إيَاسُ فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ : مَا يُبْكِيك يَا أَبَا وَائِلَةَ ؟ قَالَ : بَلَغَنِي أَنَّ الْقُضَاةَ ثَلَاثَةٌ اثْنَانِ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ رَجُلٌ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَهُوَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ مَالَ بِهِ الْهَوَى فَهُوَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ اجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ .

قَالَ الْحَسَنُ : إنَّ فِيمَا قَصَّ اللَّهُ مِنْ نَبَأِ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ : ﴿ إذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ فَأَثْنَى عَلَى سُلَيْمَانَ وَلَمْ يَذُمَّ دَاوُد ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ : إنَّ اللَّهَ أَخَذَ عَلَى الْحُكَّامِ ثَلَاثًا ، وَذَكَرَ نَحْوَ الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ .

(78/663)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ بُيِّنَ فِي حَدِيثِ أَبِي بُرَيْدَةَ مَعْنَى مَا ذُكِرَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ أَنَّ الْقَاضِيَ إِذَا أَخْطَأَ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَهُوَ مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ الْبَصْرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد السجستاني قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَسَّانٍ السمني قَالَ حَدَّثَنَا خَلَفُ بْنُ خَلِيفَةَ عَنْ أَبِي هَاشِمٍ عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ : وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَاثْنَانِ فِي النَّارِ فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ الَّذِي فِي النَّارِ مِنْ الْمُخْطِئِينَ هُوَ الَّذِي تَقَدَّمَ عَلَى الْقَضَاءِ بِجَهْلٍ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : صُفُونُ الْفَرَسِ رَفْعُ إحْدَى يَدَيْهِ حَتَّى تَكُونَ عَلَى طَرَفِ الْحَافِرِ وَذَاكَ مِنْ عَادَةِ الْخَيْلِ وَالْجِيَادُ السِّرَاعُ مِنْ الْخَيْلِ ، يُقَالُ فَرَسٌ جَوَادٌ ، إذَا جَادَ بِالرَّكْضِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ .

أَحَدُهُمَا : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ الَّذِي يُنَالُ بِهَذَا الْخَيْلِ فَشُغِلْت بِهِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، وَهُوَ الصَّلَاةُ الَّتِي كَانَ يَفْعَلُهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَيَحْتَمِلُ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ ، وَهُوَ يُرِيدُ بِهِ الْخَيْلَ نَفْسَهَا فَسَمَاهَا خَيْرًا لِمَا يُنَالُ بِهَا مِنْ الْخَيْرِ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ . وَيَكُونُ قَوْلُهُ ﴿ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ ذِكْرِي لِرَبِّي وَقِيَامِي بِحَقِّهِ فِي اتِّخَاذِ هَذَا الْخَيْلِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ " حَتَّى تَوَارَتْ الشَّمْسُ بِالْحِجَابِ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَهُوَ كَقَوْلِ لَبِيدٍ : حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهَا وَكَقَوْلِ حَاتِمٍ أَمَاوِيُّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنْ الْفَتَى إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ فَأَضْمَرَ النَّفْسَ فِي قَوْلِهِ : " حَشْرَجَتْ " وَقَالَ غَيْرُ ابْنِ مَسْعُودٍ : " حَتَّى تَوَارَتْ الْخَيْلُ بِالْحِجَابِ " .

وَقَوْله تَعَالَى ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ جَعَلَ يَمْسَحُ أَعْرَافَ الْخَيْلِ وَعَرَاقِيبَهَا حُبًّا لَهَا وَهَذَا كَمَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ سَعِيدٍ الطالقاني قَالَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُهَاجِرِ قَالَ حَدَّثَنِي عَقِيلُ بْنُ شَبِيبٍ عَنْ أَبِي وَهْبٍ الْجُشَمِيِّ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ ارْتَبِطُوا الْخَيْلَ وَامْسَحُوا بِنَوَاصِيهَا وَأَعْجَازِهَا أَوْ قَالَ أَكْفَالِهَا وَقَلِّدُوهَا وَلَا تُقَلِّدُوهَا الْأَوْتَارَ ﴾ .

فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ سُلَيْمَانُ إنَّمَا مَسَحَ أَعْرَافَهَا وَعَرَاقِيبَهَا عَلَى نَحْوِ مَا نَدَبَ إلَيْهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَشَفَ عَرَاقِيبَهَا وَضَرَبَ أَعْنَاقَهَا وَقَالَ " لَا تَشْغَلِينِي عَنْ عِبَادَةِ رَبِّي مَرَّةً أُخْرَى " .

وَالتَّأْوِيلُ الْأَوَّلُ أَصَحُّ وَالثَّانِي جَائِزٌ وَمَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى إبَاحَةِ لُحُومِ الْخَيْلِ ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ لِيُتْلِفَهَا بِلَا نَفْعٍ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مُحَرَّمَ الْأَكْلِ وَتَعَبَّدَ اللَّهَ بِإِتْلَافِهِ ، وَيَكُونُ الْمَنْفَعَةُ فِي تَنْفِيذِ الْأَمْرِ دُونَ غَيْرِهِ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُ كَانَ جَائِزًا أَنْ يُمِيتَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَمْنَعَ النَّاسَ مِنْ الِانْتِفَاعِ بِأَكْلِهِ فَكَانَ جَائِزًا أَنْ يُتَعَبَّدَ بِإِتْلَافِهِ وَيُحْظَرَ الِانْتِفَاعُ بِأَكْلِهِ بَعْدَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ امْرَأَةَ أَيُّوبَ قَالَ لَهَا إبْلِيسُ إنْ شَفَيْتُهُ تَقُولِينَ لِي أَنْتَ شَفَيْتُهُ فَأَخْبَرَتْ بِذَلِكَ أَيُّوبَ فَقَالَ " إنْ شَفَانِي اللَّهُ ضَرَبْتُكِ مِائَةَ سَوْطٍ فَأَخَذَ شَمَارِيخَ قَدْرَ مِائَةٍ فَضَرَبَهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً .

قَالَ عَطَاءٌ وَهِيَ لِلنَّاسِ عَامَّةٌ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ فَأَخَذَ عُودًا فِيهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ عُودًا وَالْأَصْلُ تَمَامُ الْمِائَةِ فَضَرَبَ بِهِ امْرَأَتَهُ وَذَلِكَ أَنَّ امْرَأَتَهُ أَرَادَهَا الشَّيْطَانُ عَلَى بَعْضِ الْأَمْرِ فَقَالَ لَهَا : قُولِي لِزَوْجِكِ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا فَقَالَتْ لَهُ قُلْ كَذَا وَكَذَا فَحَلَفَ حِينَئِذٍ أَنْ يَضْرِبَهَا فَضَرَبَهَا تَحِلَّةً لِيَمِينِهِ وَتَخْفِيفًا عَلَى امْرَأَتِهِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ حَلَفَ أَنْ يَضْرِبَ عَبْدَهُ عَشْرَةَ أَسْوَاطٍ فَجَمَعَهَا كُلَّهَا وَضَرَبَهُ ضَرْبَةً وَاحِدَةً أَنَّهُ يَبَرُّ فِي يَمِينِهِ إذَا أَصَابَ جَمِيعُهَا ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ وَالضِّغْثُ هُوَ مِلْءُ الْكَفِّ مِنْ الْخَشَبِ أَوْ السِّيَاطِ أَوْ الشَّمَارِيخِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ إذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ بَرَّ فِي يَمِينِهِ ؛ لِقَوْلِهِ ﴿ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ وَزُفَرُ وَمُحَمَّدٌ " إذَا ضَرَبَهُ ضَرْبَةً وَاحِدَةً بَعْدَ أَنْ يُصِيبَهُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُ فَقَدْ بَرَّ فِي يَمِينِهِ " وَقَالَ مَالِكٌ وَاللَّيْثُ لَا يَبَرُّ وَهَذَا الْقَوْلُ خِلَافُ الْكِتَابِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ لَا يَحْنَثُ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ هِيَ لِأَيُّوبَ خَاصَّةً وَقَالَ عَطَاءٌ لِلنَّاسِ عَامَّةٌ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ دَلَالَةُ الْآيَةِ ظَاهِرَةٌ عَلَى صِحَّةِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ مِنْ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا : أَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ يُسَمَّى ضَارِبًا لِمَا شَرَطَ مِنْ الْعَدَدِ ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي الْبِرَّ فِي يَمِينِهِ .

وَالثَّانِي أَنَّهُ لَا يَحْنَثُ ؛ لِقَوْلِهِ ﴿ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ وَزَعَمَ بَعْضُ مَنْ يَحْتَجُّ لِمَذْهَبِ مَالِكٍ أَنَّ ذَلِكَ لِأَيُّوبَ خَاصَّةً ؛ لِأَنَّهُ قَالَ ﴿ فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ فَلَمَّا أَسْقَطَ عَنْهُ الْحِنْثَ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ جُعِلَتْ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ فَأَدَّاهَا أَوْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَمْ يَحْلِفْ عَلَى شَيْءٍ وَهَذَا حِجَاجٌ ظَاهِرُ السُّقُوطِ لَا يَحْتَجُّ بِمِثْلِهِ مَنْ يَعْقِلُ ذَلِكَ ؛ لِتَنَاقُضِهِ وَاسْتِحَالَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ لِظَاهِرِ الْكِتَابِ .

(83/663)

وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ إذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَحْنَثْ وَالْيَمِينُ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ حِنْثًا أَوْ بِرًّا فَإِذَا أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يَحْنَثُ فَقَدْ أَخْبَرَ بِوُجُودِ الْبِرِّ ؛ إذْ لَيْسَ بَيْنَهُمَا وَاسِطَةٌ فَتَنَاقُضُهُ وَاسْتِحَالَتُهُ مِنْ جِهَةِ أَنَّ قَوْلَهُ هَذَا يُوجِبُ أَنَّ كُلَّ مَنْ بَرَّ فِي يَمِينِهِ بِأَنْ يَفْعَلَ الْمَحْلُوفَ عَلَيْهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ

جُعِلَتْ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ عَلَى قَضِيَّتِهِ لِسُقُوطِ الْحِنْثِ ، وَلَوْ كَانَ لِأَيُّوبَ خَاصَّةً وَكَانَ عِبَادَةً تَعَبَّدَ بِهَا دُونَ غَيْرِهِ كَانَ لِلَّهِ أَنْ يُسْقِطَ عَنْهُ الْحِنْثَ وَلَا يُلْزِمَهُ شَيْئًا ، وَإِنْ لَمْ يَضْرِبْهَا بِالضِّغْثِ فَلَا مَعْنَى عَلَى قَوْلِهِ لَضَرْبِهَا بِالضِّغْثِ ؛ إِذْ لَمْ يَحْصُلْ بِهِ بِرٌّ فِي الْيَمِينِ .

وَزَعَمَ هَذَا الْقَائِلُ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يَتَعَبَّدَ بِمَا شَاءَ فِي الْأَوْقَاتِ وَفِيمَا تَعَبَّدَنَا بِهِ ضَرْبُ الزَّانِي قَالَ : وَلَوْ ضَرَبَهُ ضَرْبَةً وَاحِدَةً بِشَمَارِيخَ لَمْ يَكُنْ حَدًّا قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَمَّا ضَرْبُ الزَّانِي بِشَمَارِيخَ فَلَا يَجُوزُ إِذَا كَانَ صَحِيحًا سَلِيمًا ، وَقَدْ يَجُوزُ إِذَا كَانَ عَلِيلًا يُخَافُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَفْرَدَ كُلَّ ضَرْبَةٍ لَمْ يَجُزْ إِذَا كَانَ صَحِيحًا ، وَلَوْ جَمَعَ أَسْوَاطًا فَضَرَبَهُ بِهَا وَأَصَابَهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا أُعِيدَ عَلَيْهِ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ مِنْ الْأَسْوَاطِ ، وَإِنْ كَانَتْ مُجْتَمَعَةً فَلَا فَرْقَ بَيْنَ حَالِ الْجَمْعِ وَالتَّفْرِيقِ .

(84/663)

وَأَمَّا فِي الْمَرَضِ فَجَائِزٌ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنْ الضَّرْبِ عَلَى شَمَارِيخَ أَوْ دِرَّةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَجْمَعَهُ أَيْضًا فَيَضْرِبَهُ بِهِ ضَرْبَةً .

وَقَدْ رُوِيَ فِي ذَلِكَ مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ الهمداني قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي

أَبو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْأَنْصَارِ : ﴿ أَنَّهُ اشْتَكَى رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى أَضْنَى فَعَادَ جِلْدَةً عَلَى عَظْمٍ ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ جَارِيَةٌ لِبَعْضِهِمْ فَهَشَّ لَهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ رِجَالُ قَوْمِهِ يَعُودُونَهُ أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ وَقَالَ : اسْتَفْتُوا لِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنِّي قَدْ وَقَعْتُ عَلَى جَارِيَةٍ دَخَلَتْ عَلَيَّ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا : مَا رَأَيْنَا أَحَدًا بِهِ مِنْ الضُّرِّ مِثْلَ الَّذِي هُوَ بِهِ لَوْ حَمَلْنَاهُ إِلَيْكَ لَتَفَسَّخَتْ عِظَامُهُ مَا هُوَ إِلَّا جِلْدٌ عَلَى عَظْمٍ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْخُذُوا لَهُ شَمَارِيخَ مِائَةَ شِمْرَاخٍ فَيَضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً ﴾ .

(85/663)

وَرَوَاهُ بُكَيْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَشَجِّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ سَعْدٍ ، وَقَالَ فِيهِ : ﴿ فَخُذُوا عِثْكَالًا فِيهِ مِائَةُ شِمْرَاخٍ فَاضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً ﴾ ، فَفَعَلُوا وَهُوَ سَعِيدُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عِبَادَةَ ، وَقَدْ أَدْرَكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ هَذَا وُلِدَ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَصْلٌ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ لِلزَّوْجِ أَنْ يَضْرِبَ امْرَأَتَهُ تَأْدِيبًا ، لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ أَيُّوبُ لِيَحْلِفَ

عَلَيْهِ وَيَضْرِبَهَا ، وَلَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِضَرْبِهَا بَعْدَ حَلِفِهِ .

وَالَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ وَأَبَاحَهُ مِنْ ضَرْبِ النِّسَاءِ إذَا كَانَتْ نَاشِزًا بِقَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ وَقَدْ دَلَّتْ قِصَّةُ أَيُّوبَ عَلَى أَنَّ لَهُ ضَرْبَهَا تَأْدِيبًا لِغَيْرِ نُشُوزٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ فَمَا رُوِيَ مِنْ الْقِصَّةِ فِيهِ يَدُلُّ عَلَى مِثْلِ دَلَالَةِ قِصَّةِ أَيُّوبَ ؛ لِأَنَّهُ رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا لَطَمَ امْرَأَتَهُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرَادَ أَهْلُهَا الْقِصَاصَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ .

وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَحْلِفَ وَلَا يَسْتَثْنِيَ ؛ لِأَنَّ أَيُّوبَ حَلَفَ وَلَمْ يَسْتَثْنِ .

(86/663)

وَنَظِيرُهُ مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ فِي قِصَّةِ الْأَشْعَرِيِّينَ حِينَ اسْتَحْمَلُوهُ فَقَالَ : " وَاَللَّهِ لَا أَحْمِلُكُمْ " وَلَمْ يَسْتَثْنِ ، ثُمَّ حَمَلَهُمْ وَقَالَ : ﴿ مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ ﴾ .

وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ثُمَّ فَعَلَ الْمَحْلُوفَ عَلَيْهِ أَنَّ

عَلَيْهِ الْكَفَّارَةَ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ تَجِبْ كَفَّارَةٌ لَتَرَكَ أَيُّوبَ مَا حَلَفَ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَحْتَجْ إلَى أَنْ يَضْرِبَهَا بِالضِّغْثِ وَهُوَ خِلَافُ قَوْلِ مَنْ قَالَ : " لَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ إذَا فَعَلَ مَا هُوَ خَيْرٌ " .

وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ حَدِيثٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَذَلِكَ كَفَّارَتُهُ " .

وَفِيهَا

دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّعْزِيرَ يُجَاوَزُ بِهِ الْحَدُّ ؛ لِأَنَّ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ حَلَفَ أَنْ يَضْرِبَهَا مِائَةً فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَفَاءِ بِهِ .

إلَّا أَنَّهُ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " مَنْ بَلَغَ حَدًّا فِي غَيْرِ حَدٍّ فَهُوَ مِنْ الْمُعْتَدِينَ " .

(87/663)

وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْيَمِينَ إذَا كَانَتْ مُطْلَقَةً فَهِيَ عَلَى الْمُهْلَةِ وَلَيْسَتْ عَلَى الْفَوْرِ ؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ أَيُّوبَ لَمْ يَضْرِبْ امْرَأَتَهُ فِي فَوْرِ صِحَّتِهِ ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ حَلَفَ عَلَى ضَرْبِ عَبْدِهِ أَنَّهُ لَا يَبَرُّ إلَّا أَنْ يَضْرِبَهُ بِيَدِهِ ، لِقَوْلِهِ : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ إلَّا أَنَّ أَصْحَابَنَا قَالُوا فِيمَنْ لَا يَتَوَلَّى الضَّرْبَ بِيَدِهِ : " إنْ أَمَرَ غَيْرَهُ بِضَرْبِهِ لَا يَحْنَثُ لِلْعُرْفِ " .

وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ لَا يَصِحُّ إلَّا أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا بِالْيَمِينِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ صَحَّ الِاسْتِثْنَاءُ مُتَرَاخِيًا عَنْهَا لَأُمِرَ بِالِاسْتِثْنَاءِ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِالضَّرْبِ .

وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْحِيلَةِ فِي التَّوَصُّلِ إلَى مَا يَجُوزُ فِعْلُهُ وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ غَيْرِهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُ بِضَرْبِهَا بِالضِّغْثِ ؛ لِيَخْرُجَ بِهِ مِنْ الْيَمِينِ وَلَا يَصِلَ إلَيْهَا كَثِيرُ ضَرَرٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(88/663)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ﴾

قوله : ﴿ أَيُّوبَ ﴾ : كقوله : ﴿ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ [ص : 17] ففيه ثلاثةُ الأوجهِ . و " إذْ نادَى " بَدَلٌ منه بدلُ اشتمال . وقوله : " أني " جاء به على حكايةِ كلامِه الذي ناداه بسببه ولو لم يَحْكِه لقال : إنَّه مَسَّه لأنه غائبٌ . وقرأ العامَّةُ بفتح الهمزة على أنه هو المنادَى بهذا اللفظِ . وعيسى بن عمر بكسرِها على إضمار القولِ أو على إجراءِ النداءِ مُجْراه .

قوله : " بِنُصْبٍ " قرأ العامَّةُ بالضم والسكون . فقيل : هو جمعُ " نَصَبٍ " بفتحتين نحو :

وَثَن ووُثْن ، وأَسَدِ وأُسْدٍ . وقيل : هي لغةٌ في النَّصَبَ نحوُ : رُشْد ورَشَد ، وحُزْن وحَزَن ، وعُدْم وعَدَم . وأبو جعفر وشيبة وحفص ونافع في روايةٍ بضمتين وهو تثقيل نُصُب بضمة وسكون ، قاله الزمخشري . وفيه بُعْدٌ لما عَرَفْتَ أنَّ مقتضى اللغةِ تخفيفُ فُعُل كعُنُق لا تثقيل فُعْل كقُفْل ، وفيه خلافٌ . وقد تقدَّم في العُسْر واليُسْر في البقرة . وقرأ أبو حيوة ويعقوبُ وحفصٌ في روايةٍ بفتحٍ وسكونٍ ، وكلُّها بمعنًى واحدٍ : وهو التعبُ والمَشقةُ .

وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43)

قوله : ﴿ رَحْمَةً ﴾ : و " ذكرى " مفعولٌ من أجله أي : وهَبْناهم له لأَجْلِ رحمتِنا إيَّاه وليتذكَّرَ بحالهِ أولو الألباب .

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)

قوله : ﴿ ضِغْثًا ﴾ : الضِّغْثُ : الحُزْمَةُ الصغيرةُ من الحشيش والقُضْبان . وقيل : الحُزْمَةُ الكبيرةُ من القُضْبان . وفي المثل : " ضِغْثٌ على إبَّالَة " والإِبَالةُ : الحُزْمَةُ من الحطب . قال الشاعر :

3873 وأثقلَ مني نَهْدةً قد ربَطْتُها . . . وأُلْقَيْتُ ضِغْثاً مِن خَلَىً مُتَطيَّبِ

وأصلُ المادة يَدُلُّ [على] جَمْعِ المختلطاتِ . وقد تقدَّم هذا في سورة يوسف في ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ [يوسف: 44] .

قوله: "ولا تَحْنَثْ" الحِنْثُ: الإِثْمُ . ويُطْلَقُ على فِعْلِ ما حُلِفَ على تَرْكِه أو تَرْكِ ما حُلِفَ على فِعْله لأَنَّهما سِيَّان فيه غالباً .

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45)

قوله: ﴿ عِبَادَنَآ ﴾: قرأ ابنُ كثير "عَبْدَنا" بالتوحيد . والباقون "عبادَنا" بالجمعِ والرسمُ يحتملهما . فأمَّا قراءةُ ابنِ كثير فـ "إبراهيمَ" بدلٌ أو بيانٌ، أو بإضمار أَعْني، وما بعدَه عطفٌ على نفس "عبدَنا" لا على إبراهيم؛ إذْ يَلْزَمُ إبدالُ جمعٍ مِنْ مفردٍ . ولقائلٍ أنْ يقولَ: لَمَّا كان المرادُ بعبدنا الجنسَ جاز إبدالُ الجمعِ منه . وهذا كقراءةِ ابنِ عباس ﴿ وإله أبيك إِبْرَاهِيمَ ﴾ في البقرة في أحدِ القولين وقد تقدَّم . وأمَّا قراءةُ الجماعةِ فواضحةٌ لأَنَّها موافقةٌ للأولِ في الجمع .

(90/663)

قوله : " الأَيدي " العامَّة على ثبوتِ الياءِ ، وهو جَمْعُ يدٍ : إمَّا الجارحَةِ ، وكَنَى بذلك/ عن الأعمالِ ؛ لأنَّ أكثرَ الأعمالِ إنما تُزاوَلُ باليدِ . وقيل : المرادُ بالأيدي جمعُ "يَدٍ " المراد بها النعمةُ . وقرأ عبد الله والحسن وعيسى والأعمش " الأَيد " بغيرِ ياء فقيل : هي الأُوْلى وإنَّما حُذِفَتِ الياءُ اجتزاءً عنها بالكسرة ولأنَّ أل تعاقِبُ التنوينَ ، والياءُ تُحْذَفُ مع التنوين ، فأُجْرِيَتْ مع أل إجراءَها معه . وهذا ضعيفٌ جداً . وقيل : الأَيد : القوةُ . إلاَّ أنَّ الزمخشريَّ قال : " وتَفْسيرُه بالأَيد من التأييد قِلِقٌ غيرُ متمكن " انتهى . وكأَنَّه إنما قَلِقَ عنده لعطفِ الأبصارِ عليه ، فهو مناسبٌ للأيدي لا للأَيْد من التأييد . وقد يقال : إنه لا يُراد حقيقةُ الجوارح ؛ إذ كلُّ أحدٍ كذلك ، إنما المراد الكناية عن العمل الصالحِ والتفكُّرِ ببصيرتِه فلم يَقْلَقْ حينئذٍ ؛ إذ لم يُرِدْ حقيقةَ الإبصارِ . وكأنه قيل : أُولي القوةِ والتفكُّر بالبصيرةِ . وقد نحا الزمخشري إلى شيءٍ مِنْ هذا قبلَ ذلك .

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46)

قوله : ﴿ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ﴾ : قرأ نافعٌ وهشام " بخالصةِ ذكرَى " بالإضافة . وفيها أوجه ، أحدُها : أَنْ يكونَ أضافَ " خالصة " إلى " ذكرَى " للبيانِ ؛ لأنَّ الخالصةَ تكونُ ذكرى وغيرَ ذكرى كما في قولِه : ﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ [النمل : 7] لأنَّ الشهابَ يكونُ قَبَساً وغيرَه . الثاني : أنَّ " خالصةً " مصدرٌ بمعنى إخلاص ، فيكون مصدراً مضافاً لمفعولِه ، والفاعلُ محذوفٌ أي : بأَنْ أَخْلَصوا ذكرى الدار وتناسَوْا عندها ذِكْرَ الدنيا . وقد جاء

المصدرُ على فاعِلة كالعافِية ، أو يكونُ المعنى : بأَنْ أَخْلَصْنا نحن لهم ذكرى الدار . الثالث : أنها مصدرٌ أيضاً بمعنى الخلوص ، فتكونُ مضافةً لفاعِلها أي : بأنْ خَلَصَتْ لهم ذِكْرَى الدار .

(91/663)

وقرأ الباقون بالتنوينِ وعَدَمِ الإِضافة . وفيها أوجهٌ ، أحدها : أنها مصدرٌ بمعنى الإِخْلاص فيكون " ذكرى " منصوباً به ، وأنْ يكونَ بمعنى الخُلوص فيكون " ذكرى " مرفوعاً به كما تقدَّم ذلك ، والمصدرُ يعملُ منوَّناً كما يَعْمَلُ مضافاً ، أو يكونُ " خالصة " اسمَ فاعلٍ على بابِه ، و " ذكرى " بَدَلٌ أو بيانٌ لها ، أو منصوبٌ بإضمارِ أَعْني ، أو مرفوع على إضمار مبتدأ . و " الدار " يجوز أن يكونَ مفعولاً به بذكرى ، وأن يكونَ ظرفاً : إمَّا على الاتّساعِ ، وإمَّا على إسقاط الخافض ، ذكرهما أبو البقاء . وخالصة إذا كانَتْ صفةً فهي صفةٌ لمحذوفٍ أي : بسببِ خَصْلَةٍ خَالصةٍ .

وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (48)

والأَخْيار جمعُ خَيِّر ، أو خَيْر بالتثقيلِ والتخفيف كأموات جمع مَيِّت أو مَيْت .

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49)

قوله : ﴿ هذا ذِكْرٌ ﴾ : جملةٌ جيءَ بها إيذاناً بأنَّ القصةَ قد تَمَّتْ وأَخَذَ في أخرى ، وهذا كما فَعَل الجاحظ في كتبه يقول : " فهذا بابٌ " ثم يَشْرَعُ في آخرَ . ويَدُلُّ على ذلك : أنه لَمَّا أرد أَنْ يُعَقِّبَ بذِكْرِ أهلِ النارِ ذَكَرَ أهلَ الجنة . قال تعالى : ﴿ هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ ﴾ [ص : 55] .

جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (50)

(92/663)

قوله : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ : العامةُ على نصب " جنات " بدلاً من " حُسْنَ مَآب " سواءً كانَتْ جنات عدنٍ معرفةً أم نكرةً ؛ لأنَّ المعرفةَ تُبْدَلُ من النكرة وبالعَكْس . ويجوزُ أن تكونَ عطفَ بيان إنْ كانَتْ نكرةً ولا يجوزُ ذلك فيها إنْ كانَتْ معرفةً . وقد جَوَّز الزمخشريُّ ذلك بعد حُكْمِه واستدلاله على أنها معرفةٌ ، وهذا كما تقدَّم له في مواضِعَ يُجيْزُ عطفَ البيان ، وإنْ تَخالَفا تعريفاً وتنكيراً وقد تقدَّم هذا عند قولِه تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [آل عمران : 97] ويجوزُ أَنْ تَنْتَصِبَ " جناتِ عَدْنٍ " بإضمارِ فِعْلٍ . و " مُفَتَّحةً " حالٌ مِنْ " جنات عدن " أو نعتٌ لها إن كانَتْ نكرةً . وقال الزمخشري : " حالٌ . والعاملُ فيها ما في " للمتقين " مِنْ معنى الفعلِ " انتهى . وقد عَلَّلَ أبو البقاءِ بعلةٍ

في قوله/ : " مُتَّكِئين " تقتضي مَنْعَ " مُفَتَّحة " أَنْ تكونَ حالاً ، وإنْ كانَتْ العلةُ غيرَ صحيحةٍ . وقال : " ولا يجوزُ أَنْ يكونَ " متكئين " حالاً مِنْ " للمتقين " لأنه قد أخبر عنهم قبلَ الحال " وهذه العلةُ موجودةٌ في جَعْل " مُفَتَّحةً " حالاً من " للمتقين " كما ذكره الزمخشري . إلاَّ أَنَّ هذه العلةَ ليسَتْ صحيحةً وهو نظيرُ قولِك : " إن لهندٍ مالاً قائمةً " . وأيضاً في عبارتِه تجَوُّزٌ : فإنَّ " للمتقين " لم يُخْبِرْ عنهم صناعةً إنما أخبر عنهم معنًى ، وإلاَّ فقد أخبر عن " حُسْن مآب " بأَنَّه لهم . وجعل الحوفيُّ العاملَ مقدراً أي : يَدْخلونها مفتحةً .

(93/663)

قوله : " الأبواب " في ارتفاعِها وجهان ، أحدهما : - وهو المشهورُ عند الناسِ - أَنَّها مُرْتفعةٌ باسمِ المفعول كقوله : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : 73] . واعْتُرِضَ على هذا بأن " مُفَتَحةً " : إمَّا حالٌ ، وإمَّا نعتٌ ل " جنات " ، وعلى التقديرَيْن فلا رابطَ وأُجيب بوجهين ، أحدهما : قولُ البصريين : وهو أَنَّ ثَمَّ ضميراً مقدراً تقديرُه : الأبوابُ منها . والثاني : أَنَّ أل قامَتْ مقامَ الضمير ؛ إذِ الأصلُ : أبوابُها . وهو قول الكوفيين وتقدَّم تحقيقُ هذا . والوجهان جاريان في قولِه : ﴿ فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 41] . الثاني : أنها مرتفعةٌ على البدلِ من الضميرِ في " مُفَتَّحَةً " العائدِ على " جنات " وهو قولُ

الفارسيّ ، لَمَّا رأى خُلُوَّها من الرابطِ لفظاً ادَّعَى ذلك . واعْتُرِض على هذا : بأنَّ مِنْ بدلِ البعض أو الاشتمالِ ، وكلاهما لا بُدَّ فيهما مِنْ ضميرٍ فيُضْطَرُّ إلى تقديره كما تقدَّم . ورَجَّح بعضُهم الأولَ : بأنَّ فيه إضماراً واحداً ، وفي هذا إضماران وتَبعه الزمخشريُّ فقال : " والأبواب بدلٌ مِن الضمير في " مُفَتَّحَةً " أي : مفتحةً هي الأبواب كقولك : ضربَ زيدٌ اليدَ والرِّجْلَ ، وهو مِنْ بَدَلِ الاشتمال " فقوله : " بدلُ الاشتمال " إنما يعني به الأبواب ، لأنَّ الأبواب قد يُقال : إنها ليسَتْ بعضَ الجنات ، و " أمَّا ضَرَبَ زيدٌ اليدَ والرِّجْلَ " فهو بعضٌ مِنْ كل ليسَ إلاَّ .

وقرأ زيد بن علي وأبو حيوة ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةٌ ﴾ برفعهما : إمَّا على أنهما جملةٌ مِنْ مبتدأ وخبرٍ ، وإمَّا على أنَّ كلَّ واحدةٍ خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هي جناتٌ ، هي مفتحةٌ .

مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (51)

(94/663)

قوله : ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ : حالٌ مِنْ " لهم " العاملُ فيها " مفتحةً " . وقيل : العاملُ " تُوْعَدون " تأخَّر عنها ، وقد تقدَّمَ مَنْعُ أبي البقاء أنها حال مِنْ " للمتقين " وما فيه . و " يَدْعُون " يجوزُ أَنْ يكونَ مستأنفاً ، وأَنْ يكونَ حالاً : إمَّا مِنْ ضمير " مُتَّكئين " وإمَّا حالاً ثانية .

هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (53)

قوله: ﴿ تُوعَدُونَ ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو هنا "يُوْعَدون" بالغَيْبة. وفي ق ابنُ كثيرٍ وحدَه. والباقون بالخطاب فيهما ووجهُ الغَيْبةِ هنا وفي ق تَقَدُّمُ ذِكْرِ المتقين. ووجْهُ الخطابِ الالتفاتُ إليهم والإقبالُ عليهم.

إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (54)

قوله: ﴿ مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾: "مِنْ نَفادٍ": إمَّا مبتدأٌ وإمَّا فاعلٌ، و"مِنْ" مزيدةٌ. والجملةُ في محلِّ نصبٍ على الحالِ من "رزقنا" أي: غيرَ فانٍ. ويجوزُ أَنْ يكونَ خبراً ثانياً.

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55)

قوله: ﴿ هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ ﴾: يجوزُ أَنْ يكونَ "هذا" مبتدأ والخبرُ مقدَّرٌ، فقدَّره الزمخشري: "هذا كما ذُكِر". وقَدَّره أبو علي: "هذا للمؤمنين". ويجوزُ أَنْ يكونَ خبر مبتدأ مضمرٍ أي: الأمرُ هذا.

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (56)

قوله: ﴿ جَهَنَّمَ ﴾: يجوزُ أن تكون بدلاً مِنْ "شرَّ مآبٍ" أو منصوبةً بإضمار فعلٍ. وقياسُ قولِ الزمخشري في "جناتِ عدن" أن تكون عطفَ بيانٍ، وأن تكونَ منصوبةً بفعل مقدرٍ على الاشتغالِ أي: يَصْلَوْن جهنَّمَ يَصْلَوْنَها. والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ أي: هي.

هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57)

قوله : ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ : في " هذا " أوجهٌ ، أحدها : أَنْ يكونَ مبتدأً ، وخبرُه " حميمٌ وغَسَّاقٌ " . وقد تقدَّم أنَّ اسم الإِشارة يُكْتَفَى بواحدِه في المثنى كقوله : ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ [البقرة : 68] ، أو يكون المعنى : هذا جامعٌ بين الوصفَيْن ، ويكون قولُه : " فَلْيَذُوْقوه " جملةً اعتراضيةً . الثاني : أَنْ يكونَ " هذا " منصوباً بمقدَّرٍ على الاشتغال أي : لِيَذُوقوا هذا .

وشبَّهه الزمخشريُّ بقولِه تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فارهبون ﴾ [البقرة : 40] ، يعني على الاشتغال . والكلامُ على مثلِ هذه الفائدةِ قد تقدَّم . و " حميمٌ " على هذا خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أو مبتدأٌ وخبره مضمرٌ أي : منه حميمٌ ومنه غَسَّاقٌ كقوله :

3874 حتى إذا ما أضاءَ البرقُ في غَلَسٍ . . . وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِيٌّ ومَحْصُوْدُ

أي : منه مَلْوِيٌّ ومنه مَحْصود . الثالث : أَنْ يكونَ " هذا " مبتدأ ، والخبرُ محذوفٌ أي : هذا كما ذُكِر ، أو هذا للطاغين . الرابع : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : الأمرُ هذا ، ثم استأنف أمراً فقال : فَلْيذوقوه . الخامس : أن يكونَ مبتدأً ، وخبرُه " فَلْيذوقوه " وهو رأيُ الأخفشِ . ومنه :

3875 وقائلةٍ خَوْلانُ فانْكِحْ فتاتَهُمْ . . . . . .

. . . . .

(96/663)

وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في المائدة عند ﴿ والسارق والسارقة ﴾ [المائدة: 38] / وقرأ الأخَوان وحفصٌ " غَسَّاقٌ " بتشديد السينِ هنا وفي عمَّ يتساءَلون ، وخَفَّفه الباقون فيهما . فأمَّا المثقلُ فهو صفةٌ كالجَبَّار والضَّرّاب مثالَ مبالغةٍ ، وذلك أنَّ فَعَّالاً في الصفاتِ أغلبُ منه في الأسماء . ومِنْ ورودِه في الأسماء : الكَلاَّء والجَبَّان والفَيَّاد لذَكَرِ البُوْم ، والعَقَّارُ والخَطَّارُ وأمَّا المخففُ فهو اسمٌ لا صفةٌ ؛ لأنَّ فَعَالاً بالتخفيفِ في الأسماءِ كالعَذاب والنَّكال أغلبُ منه في الصفاتِ ، على أن منهم مَنْ جَعَله صفةً بمعنى ذي كذا أي : ذي غَسَقٍ . وقال أبو البقاء : " أو يكون فعَّال بمعنى فاعِل " . قلت : وهذا غيرُ مَعْروفٍ . والغَسَقُ : السَّيَلانُ . يقال : غَسَقَتْ عينُه أي : سالَتْ . وفي التفسير : أنه ماءٌ يَسيل مِنْ صَدِيدِهم . وقيل : غَسَق أي امتلأ . ومنه : غَسَقَتْ عينُه أي : امتلأت بالدمع ومنه الغاسقُ للقمرِ لامتلائِه وكمالِه . وقيل : الغَسَّاق ما قَتَل ببردِه . ومنه قيل لليلِ : غاسِق ؛ لأنه أبردُ من النهار . وقيل : الغَسَق شدَّةُ الظُّلْمة ، ومنه قيل لليل : " غاسِق " . ويقال للقمر

: غاسِقٌ إذا كُسِفَ لاسْوِداده ، ونُقِل القولان في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ [الفلق : 3] .

وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (58)

(97/663)

قوله : ﴿ وَآخَرُ ﴾ : قرأ أبو عمرو بضمِّ الهمزة على أنه جمع . وارتفاعُه من أوجهٍ ، أحدها : أنه مبتدأٌ ، و " من شَكْلِه " خبرُه ، و " أزواجٌ " فاعلٌ به . الثاني : أنْ يكونَ مبتدأ أيضاً ، و " مِنْ شكلِه " خبرٌ مقدَّمٌ ، و " أزواج " مبتدأٌ والجملةُ خبرُه ، وعلى هذين فيقال : كيف يَصِحُّ مِنْ غير ضميرٍ يعودُ على أُخَر ، فإن الضميرَ في " شكله " يعودُ على ما تقدَّم أي : مِنْ شكل المَذُوق ؟ والجوابُ : أن الضميرَ عائدٌ على المبتدأ ، وإنما أُفْرد وذُكِّر لأنَّ المعنى : مِنْ شكلِ ما ذَكَرْنا . ذكر هذا التأويلَ أبو البقاءِ . وقد منع مكي ذلك لأجل الخُلُوِّ من الضمير ، وجوابُه ما ذكرته لك . الثالث : أن يكون " مِنْ شكله " نعتاً لـ أُخَر ، وأزواج خبر المبتدأ أي : وأُخر من شكل المذوق أزواج . الرابع : أن يكون " من شكله نعتاً أيضاً ، وأزواجٌ فاعل به ، والضميرُ عائدٌ على أُخَر بالتأويل المتقدم ، وعلى هذا فيرتفعُ " أُخَرُ " على الابتداء ، والخبرُ مقدرٌ أي : ولهم أنواعٌ أُخَرُ ، استقرَّ مِنْ شكلها أزواجٌ . الخامس : أنْ

يكونَ الخبر مقدراً كما تقدَّم أي : ولهم أُخَرُ ، ومِنْ شكلِه وأزواج صفتان لـ أُخَر .

وقرأ العامَّة " مِنْ شَكْلِه " بفتح الشين ، وقرأ مجاهد بكسرِها ، وهما لغتان بمعنى المِثْل والضرب . تقولُ : هذا على شَكْلِه أي : مِثْله وضَرْبه . وأما الشِّكْلُ بمعنى الغُنْج فالبكسر لا غير ، قاله الزمخشري .

(98/663)

وقرأ الباقون " وآخَرُ " بفتح الهمزة وبعدها ألفٌ بصيغةِ أَفْعَل التفضيل ، والإعرابُ فيه كما تقدَّم . والضمير في أحدِ الأوجه يعودُ عليه مِنْ غيرِ تأويل لأنه مفردٌ . إلاَّ أنَّ في أحد الأوجه يَلْزَمُ الإخبارُ عن المفردِ بالجمع أو وَصْفُ المفردِ بالجمع ؛ لأنَّ مِنْ جملة الأوجهِ المتقدمةِ أنْ يكونَ " أزواج " خبراً عن " آخر " أو نعتاً له كما تقدَّم . وعنه جوابان ، أحدُهما : أن التقديرَ : وعذابٌ آخرُ أو مَذُوقٌ ، وهو ضُروب ودرجاتٌ فكان في قوةِ الجمع . أو يُجْعَلُ كلُّ جزءٍ من ذلك الآخرِ مثلَ الكلِّ ، وسمَّاه باسمِه وهو شائعٌ كثيرٌ نحو : غليظ الحواجب ، وشابَتْ مفارقُه . على أنَّ لقائلٍ أنْ يقولَ : إنَّ أزواجاً صفةٌ لثلاثةِ الأشياءِ المتقدِّمة ، أعني الحميم والغَسَّاق وآخرُ مِنْ شكلِه فيُلْغى السؤالُ .

هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (59)

قوله : ﴿ مُّقْتَحِمٌ ﴾ : مفعولُه محذوفٌ أي : مقتحِمٌ النارَ . والاقتحام : الدخولُ في الشيء بشدَّة ، والقُحْمَةُ : الشدةُ . وقال الراغب : الاقتحام توسُّطُ شِدَّةٍ مُخيفةٍ . ومنه قَحَمَ الفرسُ فارسَه أي : توغَّل به ما يُخافُ منه/ . والمقاحيم : الذين يَتَقَحَّمون في الأمر الذي يُتَجَنَّب " .

قوله : " معكم " يجوزُ أَنْ يكونَ نعتاً ثانياً ل فَوْج ، وأَنْ يكونَ حالاً منه لأنه قد وُصِفَ ، وأَنْ يكونَ حالاً من الضمير المستتر في " مُقْتَحِم " . قال أبو البقاء : " ولا يجوزُ أَنْ يكونَ ظرفاً لفسادِ المعنى " ، ولم أَدْرِ مِنْ أَيِّ أوجهٍ يَفْسُدُ ، والحاليةُ والصفةُ في المعنى كالظرفية ؟

(99/663)

وقوله : " هذا فَوْجٌ " إلى قوله : " النار " يجوز أَنْ يكونَ مِنْ كلامِ الرؤساء بعضِهم لبعضٍ ، وأَنْ يكونَ مِنْ كلامِ الخَزَنَةِ ، ويجوز أَنْ يكونَ " هذا فَوْجٌ " مِنْ كلامِ الملائكة ، والباقي من كلام الرؤساء ، وكان القياسُ على هذا أَنْ يُقال : بل هم لا مَرْحباً بهم لأنهم لا يقولون للملائكة ذلك ، إلاَّ أنهم عَدَلُوا عن خطاب الملائكةِ إلى خطابِ أعدائِهم تَشَفِّياً منهم .

قوله : ﴿ لاَ مَرْحَباً ﴾ في " مَرْحباً " وجهان ، أظهرُهما : أنه مفعولٌ بفعل مقدرٍ أي : لا أَتَيْتُمْ مَرْحباً أو لا سَمِعتم مرحباً . والثاني : أنه منصوبٌ على المصدرِ . قاله أبو البقاء أي

: لا رَحِبَتْكم داركم مَرْحباً بَلْ ضَيّقاً . ثم في الجملةِ المنفيةِ وجهان ، أحدهما : أنها مستأنفةٌ سِيْقَتْ للدعاءِ عليهم ، وقوله : " بهم " بيانٌ للمدعُوّ عليه . والثاني : أنها حاليةٌ . وقد يُعْتَرَضُ عليه : بأنه دعاءٌ ، والدعاءُ طلبٌ والطلبُ لا يَقَعُ حالاً . والجوابُ أنه على إضمارِ القولِ أي : مَقُولاً لهم لا مَرْحباً .

قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (61)

قوله : ﴿ مَن قَدَّمَ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ " مَنْ " شرطيةً ، و " فَزِدْه " جوابَها ، وأنْ تكونَ استفهاميَّة ، و " قَدَّم " خبرُها . أي : أيُّ شخصٍ قَدَّم لنا هذا ، ثم استأنفوا دُعاءً بقولِهم " فَزِدْه " ، وأنْ تكونَ موصولةً بمعنى الذي ، وحينئذٍ يجوزُ فيها وجهان : الرفعُ بالابتداء ، والخبر " فَزِدْه " والفاءُ زائدةٌ تَشْبيهاً له بالشرطِ . والثاني : أنها منصوبةٌ بفعلٍ مقدرٍ على الاشتغالِ ، والكلامُ في مثلِ هذه الفاءِ قد تقدَّم ، وهذا الوجهُ يجوزُ عند بعضِهم حالَ كونِها شرطيةً أو استفهاميةً أعني الاشتغالَ ، إلاَّ أنَّه لا يُقَدَّرُ الفعلُ إلاَّ بعدها ؛ لأنَّ لها صدرَ الكلامِ و " ضِعْفاً " نعتٌ لعذاب أي : مضاعَفاً .

(100/663)

قوله : " في النارِ " يجوزُ أَنْ يكونَ ظرفاً ل " زِدْه " ، أو نعتاً ل " عذاب " ، أو حالاً منه لتخصيصِه ، أو حالاً من المفعول " زِدْه " .

أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (63)

قوله : ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ ﴾ : قرأ الأخَوان وأبو عمرو بوَصْلِ الهمزةِ ، وهي تحتملُ وجهين ، أحدهما ، أَنْ يكونَ خبراً مَحْضاً ، وتكون الجملةُ في محلِّ نصبٍ صفةً ثانيةً ل " رِجالاً " كما وقع " كنا نَعُدُّهم " صفةً ، وأَنْ يكونَ المرادُ الاستفهامَ وحُذِفَتْ أداتُه لدلالةِ أم عليه كقوله :

3876 تَرُوْحُ من الحيِّ أَمْ تَبْتَكِرْ . . . وماذا عليك بأَنْ تَنْتَظِرْ

ف أم متصلةٌ على هذا ، وعلى الأول منقطعة بمعنى بل والهمزة لأنها لم تتقدَّمْها همزةُ استفهامٍ ولا تسويةٍ . والباقون بهمزةِ استفهامٍ سَقَطَتْ لأجلِها همزةُ الوصلِ . والظاهر أنه لا محلَّ للجملةِ حينئذٍ لأنها طلبيةٌ . وجَوَّزَ بعضُهم فيها أَنْ تكونَ صفةً لكنْ على إضمارِ القولِ أي : رجالاً مَقُولاً فيهم : أتخذناهم كقوله :

3877 جاؤُوْا بمَذْقٍ هل رَأَيتَ الذئبَ قَطْ . . . إلاَّ أَنَّ الصفةَ في الحقيقةِ ذلك القولُ المضمرُ . وقد تقدَّم الخلافُ في " سِخْرِيًّا " في ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون ﴾ . والمشهورُ أن المكسورَ في الهُزْءِ كقولِ الشاعر :

3778 إني أتاني لِسانٌ لا أُسَرُّ بها . . . مِنْ عَلْوَ لا كَذِبٌ فيها ولا سَخَرُ

وتقدَّم معنى لَحاقِ الياءِ المشددَةِ في ذلك . وأم مع الخبرِ منقطعةٌ فقط كما تقدَّم ، ومع

الاستفهام يجوز أَنْ تكونَ متصلةً ، وأن تكونَ منقطعةً كقولِك : " أزيدٌ عندك أم عندك عمروٌ " ، ويجوز أنْ يكونَ " أم زاغَتْ " متصلاً بقوله : " ما لنا " لأنه استفهامٌ ، إلاَّ أنه يَتَعَيَّنُ انقطاعُها لعَدَمِ الهمزةِ ، ويكون ما بينهما معترضاً على قراءةِ " أَتَّخَذْناهم " بالاستفهام إنْ لم نجعَلْه صفةً على إضمارِ القولِ كما تقدَّمَ .

(101/663)

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64)

قوله : ﴿ تَخَاصُمُ ﴾ : العامَّةُ على رَفْعِ " تَخاصُمُ " مضافاً لأهل . وفيه أوجه ، أحدها : أَنَّه بدلٌ مِنْ " لَحَقٌّ " . الثاني : أنه عطفُ بيانٍ . الثالث : أنه بدلٌ مِنْ " ذلك " على الموضعِ ، حكاه مكي ، وهذا يُوافِقُ قولَ بعض الكوفيين . الرابع : أنه خبرٌ ثانٍ ل " إنَّ " . الخامس : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هو تخاصُمُ . السادس : أنه مرفوعٌ بقولِه " لَحَقٌّ " . إلاَّ أنَّ أبا البقاء قال : " ولو قيل : هو مرفوعٌ ب " حَقٌّ " لكان بعيداً لأنه يَصيرُ جملةً / ولا ضميرَ فيها يعود على اسم " إن " . وهذا ردٌّ صحيحٌ . وقد يُجابُ عنه : بأنَّ الضميرَ مقدرٌ أي : لحقٌّ تخاصُمُ أهلِ النار فيه كقوله : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمور ﴾ [الشورى : 43] أي : منه . وقرأ ابن محيصن بتنوين " تخاصم " ورفع " أهلُ " فَرَفْعُ "

تخاصُمٌ" على ما تقدَّم . وأمَّا رَفْعُ "أهلُ" فعلى الفاعلية بالمصدرِ المنونِ كقولك : " يُعْجبني تخاصمٌ الزيدون " أي : أنْ تخاصَموا . وهذا قولُ البصريين وبعضِ الكوفيين خلا الفراءَ .

(102/663)

وقرأ ابنُ أبي عبلة " تخاصُمَ " بالنصب مضافاً لأهل . وفيه أوجه ، أحدها : أنه صفةٌ لـ " ذلك " على اللفظِ . قال الزمخشري : " لأنَّ أسماءَ الإشارة تُوْصَفُ بأسماءِ الأجناس " . وهذا فيه نظرٌ ؛ لأنهم نَصُّوا على أنَّ أسماء الإشارة لا تُوْصَفُ إلاَّ بما فيه أل نحو : " يا هذا الرجلُ " ، ولا يجوز " يا هذا غلامَ الرجل " فهذا أبعدُ ، ولأن الصحيحَ أنَّ الواقع بعد اسمِ الإشارة المقارنِ لأل إنْ كان مشتقاً كان صفةً ، وإلاَّ كان بدلاً و " تخاصُم " ليس مشتقاً . الثاني : أنه بدلٌ من ذلك . الثالث : أنه عطفُ بيانٍ . الرابع : على إضمارِ " أعني " . وقال أبو الفضل : " ولو نُصِبَ " تخاصم " على أنَّه بدلٌ من " ذلك " لجاز " انتهى . وكأنه لم يَطَّلِعْ عليها قراءةً . وقرأ ابن السَّمَيْفع " تخاصَمَ " فعلاً ماضياً " أهل " فاعلٌ به . وهي جملةٌ استئنافيةٌ .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65)

قوله : ﴿ الواحد القهار ﴾ : إلى آخرها صفاتٌ للَّهِ تعالى . ويجوزُ أَنْ يكونَ " ربُّ السماواتِ " خبرَ مبتدأ مضمرٍ ، وفيه معنى المدح .

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67)

قوله : ﴿ هُوَ نَبَأٌ ﴾ : " هو " يعودُ على القرآن وما فيه من القَصصِ والأخبارِ . وقيل : على ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ . وقيل : على ما تقدَّمَ مِنْ أخبارِه عليه السلام : بأَنَّه نذيرٌ مبينٌ ، وبأنَّ اللَّهَ إلهٌ واحدٌ متصفٌ بتلك الصفاتِ الحسنى .

أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68)

قوله : ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ : صفةٌ لـ " نَبَأ " أو مستأنفةٌ .

مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69)

قوله : ﴿ بالملإ ﴾ : متعلِّقٌ بقوله : " مِنْ عِلْم " وضُمِّن معنى الإِحاطة ، فلذلك تَعَدَّى بالباء ، وتقدَّم تحقيقُه .

(103/663)

وقوله : " إذ يَخْتَصِمُون " فيه وجهان ، أحدهما : هو منصوبٌ بالمصدرِ أيضا . والثاني : بمضافٍ مقدر أي : بكلامِ الملأ الأَعْلى إذ ، قاله الزمخشري . والضمير في " يَخْتَصِمُون "

للمَلأ الأعلى . هذا هو الظاهرُ . وقيل : لقريش أي : يختصمون في الملأ الأعلى . فبعضُهم يقول : بناتُ الله وبعضهم يقولُ غيرَ ذلك . فالتقدير : إذ يختصمون فيهم .

إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70)

قوله : ﴿ إِلَّا أَنَّمَآ أَنَا ﴾ : العامَّةُ على فتح الهمزة " أنما " . وفيها وجهان ، أحدهما : أنها مع ما في حَيِّزها في محلِّ رفع لقيامِها مقامَ الفاعلِ أي : ما يُوْحَى إليَّ إلاَّ الإنذارُ ، أو إلاَّ كَوْني نذيراً مبيناً . والثاني : أنها في محلِّ نصب أو جرٍ بعد إسقاطِ لامِ العلةِ . والقائم مقامَ الفاعلِ على هذا الجارُّ والمجرورُ أي : ما يُوْحى إليَّ إلاَّ للإنذارِ أو لكَوْني نذيراً . ويجوز أَنْ يكونَ القائمُ مقامَ الفاعلِ على هذا ضميرِ ما يَدُلُّ عليه السِّياقُ أي : ما يُوْحى إليَّ ذلك الشيءُ إلاَّ للإنذار .

وقرأ أبو جعفر بالكسر ، وهي القائمةُ مقامَ الفاعلِ على سبيلِ الحكايةِ ، كأنه قيل : ما يُوْحى إليَّ إلاَّ هذه الجملةُ المتضمنةُ لهذا الإخبارِ . وقال الزمخشري : " على الحكاية أي : إلاَّ هذا القولُ وهو أنْ أقولَ لكم : إنما أنا نذيرٌ مبين ولا أدَّعي شيئاً آخرَ " . قال الشيخ : " وفي تخريجه تعارُضٌ لأنه قال : إلاَّ هذا القولُ ، فظاهرُه الجملةُ التي هي : ﴿ أَنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ . ثم قال : وهو أَن أقولَ لكم إني نذيرٌ فالمقامُ مقامُ الفاعلِ هو أَنْ أقولَ لكم ، وإنِّي وما بعده في موضعِ نصب ، وعلى قولِه : " إلاَّ هذا القولُ " يكون في موضع رفع فتعارضا " . قلت : ولا تعارُضَ البتةَ ؛ لأَنَّه تفسيرُ معنًى في التقدير الثاني ، وفي الأول تفسيرِ إعرابٍ ، فلا تعارُضَ .

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71)

قوله : ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " إذ " الأولى وأَنْ يكونَ منصوباً ب اذْكُرْ مقدَّراً ، قال الأولَ الزمخشري وأطلق ، وذكر أبو البقاءِ الثاني وأطلقَ . وأمَّا الشيخُ ففَصَّل فقال : " بدلٌ مِنْ " إذ يَخْتصمون " هذا إذا كانَتِ الخصومَةُ في شَأْنِ مَنْ يَسْتَخْلِفُ في الأرض ، وعلى غيرِه من الأقوال يكون منصوباً ب اذكرْ " . انتهى قلت : وتلك الأقوالُ : أنَّ التخاصُمَ : إمَّا بين الملأ الأعلى أو بين قُرَيْشٍ وفي ماذا كان المخاصمة ، خلافٌ يطول/ الكتابُ بذِكْرِه .

قوله : " مِنْ طينٍ " يجوز أَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ صفةً ل " بَشَراً " ، وأَنْ يتعلَّقَ بنفسِ " خالِقٌ " .

فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73)

قوله : ﴿ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ : تأكيدان . وقال الزمخشري : " كل " للإحاطةِ و " أجمعون " للاجتماع ، فأفادا معاً أنهم سَجَدوا عن آخِرهم ، ما بقي منهم مَلَكٌ إلاَّ سَجَدَ ، وأنهم سجدوا جميعاً في وقتٍ واحدٍ غيرَ متفرقين " . قلت : قد تقدَّم الكلامُ معه في ذلك في سورة الحجر .

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75)

قوله : ﴿ أَن تَسْجُدَ ﴾ : قد يَسْتَدِلُّ به مَنْ يَرَى أنَّ " لا " في ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12] في السورةِ الأخرى زائدةٌ ؛ حيث سقطَتْ هنا والقصةُ واحدةٌ . وقوله : " لما خَلَقْتُ " قد يَسْتَدِلُّ به مَنْ يرى جوازَ وقوعِ " ما " على العاقل ؛ لأنَّ المرادَ به آدمُ . وقيل : لا دليلَ فيه ؛ لأنه كان فَخَّاراً غيرَ جسمٍ حَسَّاسٍ فأشير إليه في تلك الحال . وقيل : " ما " مصدريةٌ والمصدرُ غيرُ مُرادٍ ، فيكون واقعاً موقعَ المفعولِ به أي : لمخلوقي .

(105/663)

وقرأ الجحدري " لَمَّا " بتشديدِ الميمِ وفتحِ اللامِ ، وهي " لَمَّا " الظرفيةُ عند الفارسيِّ ، وحرفُ وجوبٍ لوجوبٍ عند سيبويه . والمسجود له على هذا غيرُ مذكورٍ أي : ما مَنَعَك من السجود لَمَّا خلقْتُ أي : حين خَلَقْتُ لِمَنْ أَمَرْتُك بالسجود له . وقُرِئ " بيَدَيِّ " بكسرِ الياءِ كقراءةِ حمزةَ " بِمُصْرِخِيِّ " وقد تقدَّم ما فيها . وقُرِئ " بيدي " بالإفرادِ .

قوله : " أَسْتَكْبَرْت " قرأ العامَّةُ بهمزةِ الاستفهام وهو استفهامُ توبيخٍ وإنكارٍ . و " أم " متصلةٌ هنا . هذا قولُ جمهورِ النحويين . ونقل ابنُ عطيةَ عن بعضِ النحويين أنها لا تكونُ معادِلَةً للألفِ مع اختلافِ الفعلَيْن ، وإنما تكونُ معادِلةً إذا دَخَلَتا على فِعْلٍ واحد كقولِك :

أقامَ زيدٌ أم عمروٌ ، وأزيدٌ قام أم عمروٌ ؟ وإذا اختلف الفعلان كهذه الآيةِ فليسَتْ معادِلةً .

وهذا الذي حكاه عن بعض النحويين مَذْهَبٌ فاسِدٌ ، بل جمهورُ النحاةِ على خلافِه قال سيبويه : " وتقول : " أضرَبْتَ زيداً أَمْ قَتَلْتَه ؟ " فالبَدْءُ هنا بالفعل أحسنُ ؛ لأنك إنما تَسْأل عن أحدِهما لا تدري أيهما كان ؟ ولا تَسْأَلُ عن موضعِ أحدِهما كأنك قلت : أيُّ ذلك كان " انتهى . فعادل بها الألفَ مع اختلافِ الفعلين .

وقرأ جماعةٌ – منهم ابنُ كثير ، وليسَتْ مشهورةً عنه – " استكبَرْتَ " بألف الوصلِ ، فاحتملَتْ وجهين ، أحدهما : أنْ يكونَ الاستفهامُ مُراداً يَدُلُّ عليه " أم " كقولِه :

3879 . . . . . بسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أم بثمانِ

وقول الآخر :

3880 تروُحُ من الحَيِّ أم تَبْتَكِرْ . . . . . .

. . . . . .

فتتفق القراءتان في المعنى ، واحتمل أَنْ يكونَ خبراً مَحْضاً ، وعلى هذا فأم منقطعةٌ لعدمِ شَرْطِها .

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77)

قوله : ﴿ مِنْهَا ﴾ : أي : من الجنةِ أو من الخِلْقة ؛ لأنه كان حسناً فَرَجَعَ قبيحاً ونُوْرانياً فعاد مظلماً . وقيل : من السماوات . وقال هنا : "لَعْنتي" وفي غيرها "اللعنةَ" ، وهما وإنْ كانا في اللفظ عاماً وخاصاً ، إلاَّ أنهما من حيث المعنى عامَّان بطريق اللازم ؛ لأنَّ مَنْ كانت عليه لعنة الله كانَتْ عليه [لعنة] كلِّ أحدٍ لا محالةَ . وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ والملائكة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة : 161] . وباقي الجمل تقدَّم نظيرُه .

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84)

قوله : ﴿ فالحق والحق ﴾ : قرأهما العامَّةُ منصوبَيْن . وفي نصب الأول أوجهٌ ، أحدُها : أنه مُقْسَمٌ به حُذِفَ منه حرفُ القسمِ فانتصَبَ كقولِه :

3881 . . . . . فذاكَ أمانةَ اللَّهِ الثَّرِيْدُ

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85)

وقوله : ﴿ لأَمْلأَنَّ ﴾ : جوابُ القسم . قال أبو البقاء : " إلاَّ أنَّ سيبويهِ يَدْفَعُه لأنه لا يُجَوِّزُ حَذْف حرفِ القسمِ إلاَّ مع اسم الله ، ويكون قولُه : " والحقَّ أقولُ " معترضاً بين القسم وجوابِه " . قال الزمخشري : "كأنه قيل : ولا أقولُ إلاَّ الحقَّ " يعني أن تقديمَه المفعولَ أفاد الحصرَ . والمرادُ بالحق : إمَّا الباري تعالى كقوله : ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحق المبين ﴾ [النور : 25] وإمَّا نقيضُ الباطل . والثاني : أنه منصوبٌ على الإغراءِ أي : الزموا الحقَّ . والثالث : أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ قولِه : " لأَمْلأَنَّ " . قال الفراء : / " هو على معنى قولك : حقاً لا شكَّ ، ووجودُ الألفِ واللام وطَرْحُهما سواءٌ أي : لأملأن جهنَّم حقاً " انتهى . وهذا لا يَتَمَشَّى على قولِ البصريين ؛ فإنَّ شَرْطَ نَصْبِ المصدرِ المؤكِّد لمضمونِ الجملة أَنْ يكونَ بعد جملةٍ ابتدائية خبراها معرفتان جامدان جموداً مَحْضاً .

وجَوَّز ابنُ العِلْج أَنْ يكونَ الخبرُ نكرةً . وأيضاً فإنَّ المصدرَ المؤكِّدَ لا يجوزُ تقديمُه على الجملةِ المؤكِّدِ هو لمضمونِها . وهذا قد تقدَّم . وأمَّا الثاني فمنصوبٌ ب " أقولُ " بعدَه . والجملةُ معترضةٌ كما تقدَّم . وجَوَّزَ الزمخشري أَنْ يكونَ منصوباً على التكرير ، بمعنى أنَّ الأول والثاني كليهما منصوبان ب أقولُ . وسيأتي إيضاحُ ذلك في عبارتِه .

(108/663)

وقرأ عاصم وحمزةُ برفعِ الأولِ ونصبِ الثاني . فَرَفْعُ الأولِ من أوجهٍ ، أحدها : أنه مبتدأ ، وخبرُه مضمرٌ تقديرُه : فالحقُّ مني ، أو فالحقُّ أنا . الثاني : أنه مبتدأ ، خبرُه " لأملأنَّ " قاله ابن عطية . قال : " لأنَّ المعنى : أنْ أَمْلأَ " . قال الشيخ : " وهذا ليس بشيءٍ ؛ لأنَّ لأملأنَّ جوابُ قسمٍ . ويجب أَنْ يكونَ جملةً فلا تتقدَّرُ بمفردٍ . وأيضاً ليس مصدراً مقدراً بحرفٍ مصدري والفعل حتى يَنْحَلَّ إليهما ، ولكنه لَمَّا صَحَّ له إسنادُ ما قَدَّرَ إلى المبتدأ حَكَمَ أنه خبرٌ عنه " قلت : وتأويلُ ابنِ عطيةَ صحيحٌ من حيث المعنى لا من حيث الصناعةُ .

الثالث : أنه مبتدأٌ ، خبرُه مضمرٌ تقديرُه : فالحقُّ قَسَمي ، و " لأملأنَّ " جوابُ القسم كقوله : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : 72] ولكنَّ حَذْفَ الخبرِ هنا ليسَ بواجبٍ ، لأنه ليس نصاً في اليمين بخلافِ لَعَمْرك . ومثلُه قولُ امرئ القيس :

3882 فقلت يمينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قاعداً . . . ولو قطعوا رأسي لديكِ وأوصالي

وأمَّا نصبُ الثاني فبالفعل بعدَه . وقرأ ابنُ عباس ومجاهد والأعمش برفعهما . فرفْعُ الأولِ على ما تقدَّم ، ورفعُ الثاني بالابتداءِ ، وخبرُه الجملةُ بعده ، والعائد محذوفٌ كقولِه تعالى في قراءةِ ابنِ عامر : ﴿ وَكُلٌّ وَعَدَ اللهُ الحسنى ﴾ وقول أبي النجم :

3883 قد أصبَحَتْ أُمُّ الخيارِ تَدَّعي . . . عليَّ ذَنباً كُلُّه لم أَصْنَعِ

ويجوز أَنْ يرتفعَ على التكريرِ عند الزمخشري وسيأتي . وقرأ الحسنُ وعيسى بجرِّهما .

وتخريجُها : على أنَّ الأولَ مجرورٌ بواوِ القسم مقدرةً أي : فوالحقِ والحقِ عطفٌ عليه كقولِك : واللَّهِ واللَّهِ لأقومَنَّ ، و " أقول " اعتراضٌ بين القسم وجوابِه . ويجوز أَنْ يكونَ مجروراً على الحكايةِ . وهو منصوبُ المحل ب " أقولُ " بعده . قال الزمخشري : " ومجرورَيْن – أي وقُرِئا مجرورَيْن – على أنَّ الأولَ مُقْسَمٌ به قد أُضْمِرَ حرفُ قَسَمِه كقولك : " اللَّهِ لأفعَلَنَّ " والحقَّ أقول أي : ولا أقول إلاَّ الحقَّ على حكايةِ لفظ المقسمِ به ، ومعناه التوكيدُ والتشديدُ . وهذا الوجهُ جائزٌ في المرفوعِ والمنصوبِ أيضاً ، وهو وجهٌ حسنٌ دقيق " انتهى . يعني أنه أعملَ القولَ في قوله : " والحق " على سبيلِ الحكايةِ فيكونُ منصوباً ب " أقول " سواءً نُصِب أو رُفِعَ أو جُرَّ ، كأنه قيل : وأقولُ هذا اللفظَ المتقدمَ مُقَيَّداً بما لُفِظ به أولاً .

قوله : " أجمعين " فيه وجهان ، أظهرهما : أنه توكيدٌ للضمير في " منك " و " لَمَنْ " عطفٌ في قوله : " ومِمَّنْ تَبِعك " وجيْء بأجمعين دونَ " كل " ، وقد تقدَّم أن الأكثرَ خلافُهُ . وجَوَّز الزمخشريُّ أَنْ يكونَ تأكيداً للضمير في " منهم " خاصةً فقدَّر " لأَمْلأَنَّ جهنم من الشياطين ومِمَّنْ تبعهم مِنْ جميع الناس لا تفاوتَ في ذلك بين ناسٍ وناسٍ " .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86)

قوله : ﴿ عَلَيْهِ ﴾ : متعلقٌ ب " أسْألكم " لا بالأَجْر ؛ لأنه مصدرٌ ، ويجوز أَنْ يكونَ حالاً

منه . والضمير : إمَّا للقرآن ، وإمَّا للوحي ، وإمَّا للدعاء إلى الله . و " لتعلمُنَّ " جواب قَسمٍ مقدرٍ معناه : ولَتَعْرِفُنَّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 380. 403 ﴾

(110/663)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) ﴾

إخباره الملائكة بذلك إنما يَدُلُّ على تفخيم شأن آدم ؛ لأنه خَلَقَ ما خَلَقَ من الكونين ، والجنة والنار ، والعرش والكرسي ، والملائكة ، ولم يقل في صفة شيءٍ منها ما قال في صفة آدم وأولاده . ولم يأمر بالسجود لأَحَدٍ ولا لشيءٍ إلا لآدم ، وسبحان الله ! خَلَقَ أَعَزَّ خَلْقِه من أَذَلِّ شيءٍ وأَخَسِّه وهو التراب والطين .

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72)

روحُ آدم – وإنْ كانت مخلوقة – فَلَها شَرَفٌ على الأرواح لإفرادها بالذكر ، فلمَّا سوَّى خَلْقَ آدم ، وركَّبَ فيه الروح جلَّله بأنوار التخصيص ، فوقعَتْ هيبته على الملائكة ، فسجدوا لأمره ، وظهرَتْ لإبليسَ شقاوتُهُ ، ووقع – بامتناعه – في اللعنة .

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75)

من هنا وقع في الغلط ؛ تَوَهَّمَ أَنَّ التفضيل من حيث البنية والجوهرية ، ولم يعلم أن التفضيلَ من حيث القسمة دون الخِلْقَة .

ويقال ما أودع اللَّهُ – سبحانه – عند آدم لم يوجد عند غيره ، ففيه ظهرت الخصوصية .

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77)

قال فاخرج من الجنة ، ومن الصورة التي كنت فيها ، ومن الحالة التي كنتَ عليها ، ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مَرْمِيٌّ باللَّعنِ مني ، وبالشُّهب من السماء ، وبالرجوم من قلوب الأولياء إنْ تَعَرَّضْتَ لهم .

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79)

من كمال شقاوته أنه جرى على لسانه ، وتعلَّقت إرادتُه بسؤال إنظاره ، فازداد إلى القيامة في سبب عقوبته ، فأَنْظَرَهُ اللَّهُ ، وأجابه ، لانه بلسانه سأل تمامَ شقاوته .

(111/663)

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83)

ولو عَرَفَ عِزَّتَه لَمَا أقسم بها على مخالفته .

ويقال تجاسُرُه في مخاطبة الحقِّ –حيث أصرَّ على الخلاف وأقسم عليه –أَقْبَحُ وأَوْلى في استحقاق اللعنة من امتناعه للسجود لآدم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وختم الله سبحانه السورة بخطابه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ .

ما جئتكم من حيث أنا ، ولا باختياري ، وإنما أُرْسِلْتُ إليكم .

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ يعني القرآن ، عظة لكم .

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ وعُلِمَ صِدْقُه بعد ما استمرت شريعتُه ، فإن مثل ذلك إذا كان باطلاً لا يدوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 262 . 265 ﴾

(112/663)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

ثم قال عز وجل : ﴿ واذكر عِبَادَنَا إبراهيم ﴾

فجعل العبد نعت إبراهيم خاصة ، كأنه قال : واذكر عبدنا قرأ ابن كثير ﴿ واذكر عَبْدَنَا ﴾ بغير ألف وقرأ الباقون : ﴿ عِبَادِنَا ﴾ بالألف .

فمن قرأ عبدنا فمعناه : ﴿ واذكر عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ فجعل العبد نعتاً لإبراهيم خاصة ، فكأنه قال : ﴿ واذكر عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ ومن قرأ ﴿ عِبَادِنَا ﴾ يعني : ما بعده مع إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ ﴿ أُوْلِى الأيدى والأبصار ﴾ يعني : أولي القوة في العبادة ، والأبصار .

يعني : ذوي البصر في أمر الله تعالى .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ﴾ يعني : اختصصناهم بذكر الله تعالى ، وبذكر الجنة ، وليس لهم همّ إلا همّ الآخرة .

ويقال : معناه واذكر صبر إبراهيم ، وصبر إسحاق ، وصبر يعقوب ، ولم يذكر صبر إسماعيل لأنه لم يبتلَ بشيء .

قرأ نافع ﴿ بِخَالِصَةٍ ﴾ بغير تنوين على معنى الإضافة .

وقرأ الباقون مع التنوين .

وروي عن مالك بن دينار أنه قال : نزع الله ما في قلوبهم من حب الدنيا ، وذكرها ، وقد أخلصهم بحب الآخرة ، وذكرها .

ومن قرأ ﴿ بِخَالِصَةٍ ﴾ بالتنوين، جعل قوله: ﴿ ذِكْرَى الدار ﴾ بدلاً من خالصة.

والمعنى: ﴿ إِنَّا أخلصناهم ﴾ بذكر الدار، والدار هاهنا دار الآخرة.

يعني: جعلناهم لنا خالصين، بأن جعلناهم يكثرون ذكر الدار، والرجوع إلى الله تعالى.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المصطفين الاخيار ﴾ يعني: المختارين للرسالة، الأخيار في الجنة.

ثم قال: ﴿ واذكر إسماعيل ﴾ قال مقاتل: واذكر صبر إسماعيل، وهو أشمويل بن هلفانا.

وقال غيره: هو إسماعيل بن إبراهيم.

(113/663)

يعني: اذكر لقومك صبر إسماعيل، وصدق وعده ﴿ واليسع وَذَا الكفل ﴾ واليسع كان خليفة إلياس، وذا الكفل كفل مائة نبي أطعمهم، وكساهم، ﴿ وَكُلٌّ مِّنَ الاخيار هذا ذِكْرُ ﴾ يعني: هذا الذي ذكرنا من الأنبياء عليهم السلام في هذه السورة ﴿ ذُكِرَ ﴾ يعني: بيان لعظمته ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ من هذه الأمة ﴿ لَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ يعني: حسن المرجع.

ثم وصف الجنة فقال عز وجل: ﴿ جنات عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الابواب ﴾ يعني: تفتح لهم

الأبواب فيدخلونها .

يعني : الجنة كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سلام عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خالدين ﴾ [الزمر : 73] فإذا دخلوها ، وجلسوا على السرر ، وكانوا ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بفاكهة كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ يعني : ألوان الفاكهة ، والشراب ﴿ وَعِندَهُمْ قاصرات الطرف ﴾ يعني : غاضات أعينهن عن غير أزواجهن ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ يعني : ذات أقران .

أي : مستويات على سن واحد ﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحساب ﴾ يقول : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ يعني : إنّ هذا الثواب الذي توعدون بأنه يكون لكم في يوم الحساب .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمر ، بالياء على معنى الإخبار عنهم .

وقرأ الباقون : بالتاء على معنى المخاطبة .

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا ﴾ يعني : إن هذا الذي ذكرنا لعطاؤنا للمتقين ﴿ مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ يعني : لا يكون له فناء ، ولا انقطاع عنهم ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : 33] ثم قال : ﴿ هذا ﴾ يعني : هذا الرزق للمتقين فيتم الكلام عند قوله : ﴿ هذا ﴾ .

ثم ذكر ما أوعد الكفار فقال عز وجل : ﴿ هذا وَإِنَّ للطاغين لَشَرَّ ﴾ يعني : للكافرين ، لبئس المرجع لهم في الآخرة .

ثم بيّن مرجعهم فقال عز وجل : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يعني : يدخلونها ﴿ فَبِئْسَ المهاد ﴾ يعني : فبئس موضع القرار ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ يعني : هذا العذاب لهم ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ وهو ماء حار قد انتهى حرّه .

قرأ حمزة والكسائي ، وحفص ﴿ غسَّاق ﴾ بتشديد السين وقرأ الباقون : بالتخفيف .

وعن عاصم روايتان .

رواية حفص بالتشديد ، ورواية أبي بكر بالتخفيف .

فمن قرأ بالتشديد فهو بمعنى سيال ، وهو ما يسيل من جلود أهل النار .

ومن قرأ بالتخفيف جعله مصدر غسق يغسق غساقاً .

أي : سال .

وروي عن ابن عباس ، وابن مسعود ، أنهما قرآ ﴿ غساق ﴾ بالتشديد ، وفسراه بالزمهرير .

وقال مقاتل : ﴿ الغساق ﴾ البارد الذي انتهى برده .

وقال الكلبي : الحميم هو ماء حار قد انتهى حره .

وأما غساق فهو الزمهرير يعني : برد يحرق كما تحرق النار وقال بعضهم : الغساق : المنتن بلفظ الطحاوية ثم قال عز وجل : ﴿ وَغَسَّاقٌ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أزواج ﴾ يعني وعذاب آخر من نحوه يعني من نحو الحميم والزمهرير .

قرأ أبو عمر ، وابن كثير ، في إحدى الروايتين ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ ﴾ بضم الألف .

وقرأ الباقون : ﴿ وَأَخَّرَ ﴾ بالنصب فمن قرأ بالضم فهو لفظ الجماعة ، ومعناه : وأنواع أخر ومن قرأ : ﴿ وَأَخَّرَ ﴾ بنصب الألف بلفظ الواحد ، يعني : وعذاب آخر من شكله أي : مثل عذابه الأول ﴿ أزواج ﴾ يعني : ألوان ﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ يعني : جماعة داخلة معكم النار .

يقال : اقتحم إذا دخل في المهالك ، وأضلوا الدخول .

(115/663)

تقول الخزنة للقادة : وهذه جماعة داخلة معكم النار ، وهم الأتباع ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ يعني : لا وسع الله لهم ﴿ إِنَّهُمْ صَالُو النار ﴾ يعني : داخل النار معكم فردت الأتباع على القادة ﴿ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ يعني : لا وسع الله عليكم ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ يعني : أسلفتموه لنا ، وبدأتم بالكفر قبلنا ، فاتبعناكم ﴿ فَبِئْسَ القرار ﴾ يعني : بئس

موضع القرار في النار .

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا ﴾ الأمر هذا الذي كنا فيه ﴿ فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِى النار وَقَالُواْ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مّنَ الاشرار ﴾ يعني : فقراء المسلمين .

قوله عز وجل : ﴿ أتخذناهم سِخْرِيّاً ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو عمرو ، ﴿ سِخْرِيّاً أتخذناهم ﴾ بالوصل .

وقرأ الباقون : بالقطع فمن قرأ بالقطع ، فهو على معنى الاستفهام بدليل قوله : ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الابصار ﴾ لأن ﴿ أَمْ ﴾ تدل على الاستفهام .

ومن قرأ : بالوصل ، فمعناه : أنا ﴿ أتخذناهم سِخْرِيّاً ﴾ وجعل ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى بل .

وقرأ حمزة والكسائي ونافع ﴿ سِخْرِيّاً ﴾ بضم السين .

وقرأ الباقون بالكسر .

قال القتبي : فمن قرأ بالضم ، جعله من السخرة .

يعني : تستذلهم .

ومن قرأ بالكسر فمعناه إنا كنا نسخر منهم .

ثم قال : ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الابصار ﴾ يعني : مالت ، وحادت أبصارنا عنهم ، فلا نراهم .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ يعني : يتكلم به أهل النار ويتخاصمون فيما بينهم .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ مُنذِرٌ ﴾ يعني : رسول أخوفكم عذاب الله تعالى ، وأبيّن لكم ، أن الله تعالى واحد ﴿ وَمَا مِنْ إله إِلاَّ الله الواحد القهار ﴾ يعني : قاهر لخلقه ﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا العزيز ﴾ بالنقمة ﴿ الغفار ﴾ للمؤمنين .

(116/663)

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني : القرآن حديث عظيم ، لأنه كلام رب العالمين ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ يعني : تاركون ، فلا تؤمنون به .

وقال الزجاج : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني : قل إن النبأ الذي أنبأتكم عن الله عز وجل ﴿ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ فيه دليل نبوتي مما ذكر فيه من قصة آدم عليه السلام ، فإن ذلك لا يعرف إلا بوحي ، أو بقراءة كتب ، ولم يكن قرأ الكتب .

ثم قال : ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بالملإ الاعلى ﴾ يعني : الملائكة عليهم السلام ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ يعني : يتكلمون حين قالوا : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة إِنّي جَاعِلٌ فِى الأرض خَلِيفَةً قالوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدمآء وَنَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ

قَالَ إِنِي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 30] وإنما عرفت ذلك بالوحي .

﴿ إِن يوحى إِلَيَّ ﴾ يعني : ما يوحي إليَّ ﴿ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ إلاَّ أنا رسول بيّن .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة إِنِّى خالق بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ يعني : آدم ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ يعني : جمعت خلقه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ يعني : وجعلت الروح فيه ﴿ فَقَعُواْ لَهُ ساجدين ﴾ يعني : اسجدوا له ﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ يعني : سجدوا كلهم دفعة واحدة ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ أبى عن السجود ﴿ استكبر وَكَانَ مِنَ الكافرين ﴾ يعني : وصار من الكافرين ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسَ ﴾ ما منعك يعني : يا خبيث ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ يعني : الذي خلقته بيدي قال بعضهم نؤمن بهذه الآية ونقرؤها ، ولا نعرف تفسيرها .

يعني : قوله : ﴿ بِيَدَىَّ ﴾ يعني : الذي خلقت بيدي .

وقال بعضهم : تفسيرها كما قال الله تعالى : ﴿ خَلَقْتَهُ بِيَدَىَّ ﴾ .

ولا نفسر اليد .

(117/663)

ونقول : يد لا كالأيدي .

وهذا قول أهل السنة والجماعة .

وقال بعضهم : نفسرها بما يليق من صفات الله تعالى .

يعني : خلقه بقدرته ، وقوته ، وإرادته .

فإن قيل : قد خلق الله عز وجل سائر الأشياء بقوته ، وقدرته ، وإرادته .

فما الفائدة في التخصيص هنا ؟ قيل له : قد ذكر اليد في خلق سائر الأشياء أيضاً ، وهو قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنعاما فَهُمْ لَهَا مالكون ﴾ [يس : 71]

ويقال : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أي : بقوتي .

قوة العلم ، وقوة القدرة .

ويقال : ﴿ خَلَقْتَهُ بِيَدَيَّ ﴾ أي : بماء السماء ، وتراب الأرض ، كقوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 59]

وكما قال عليه السلام : " خَلَقَ الله تَعَالَى الخَلْقَ مِنْ مَاءٍ " وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل حرف منها ظهر وبطن .

وكذلك الأخبار قد جاء فيها أيضاً ما له ظهر وبطن .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لاَ تَقُولُوا فَلاَنٌ قَبِيح فَإِن الله عز وجل خلق آدم عَلَى صُورَتِهِ " .

ومن قال : إن لله تعالى صورة كصورة آدم فهو كافر ، ولكن المعنى في الخبر ، ما روي عن بعض المتقدمين أنه قال : إن الله تبارك وتعالى اختار من الصور صورة ، وخلق آدم عليه السلام بتلك الصورة ، فمن ذلك قال : " إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ " أي : على تلك الصورة التي اختارها الله .

روى شبل عن ابن كثير أنه قرأ : ﴿ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ موصولة الألف ، وقراءة العامة بقطع الألف على الاستفهام ، بدليل قوله عز وجل : ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ ومن قرأ موصولة ، فهو على معنى الوجوب .

(118/663)

وتكون ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى بل ، ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ يعني : تعظمت عن السجود ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ يعني : بل كنت من العالين ، من المخالفين لأمري .

﴿ قَالَ ﴾ إبليس : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ فاخرج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إلى يَوْمِ الدين قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ وقد ذكرناه من قبل ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لاَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين قَالَ فالحق والحق أَقُولُ ﴾ يقال

: معناه قولي الحق .

وأقول : الحق .

قرأ حمزة وعاصم ﴿ فالحق ﴾ بالضم القاف .

وقرأ الباقون ، واتفقوا في الثاني أنه بالنصب .

فمن قرأ بالضم فمعناه : أنا الحق ، والحق أقول .

ويقال : فمعناه : فالحق مني ، والحق أقول .

ويقال : معناه فقولنا الحق ، وأقول الحق ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ومن قرأ بالنصب فهو على معنى الإغراء .

يعني : الزموا الحق ، واتبعوا الحق .

ثم قال : ﴿ والحق أَقُولُ ﴾ يعني : وأقول الحق كقوله عز وجل : ﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَنُدْخِلُهُمْ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَآ أَبَداً وَعْدَ الله حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلاً ﴾ [النساء : 122] .

ثم قال عز وجل : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يعني : من ذريتك ، وممن تبعك في دينك .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يعني : على الذي أتيتكم به من القرآن من أجر ، ولكن أعلمكم بغير أجر ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ يعني : ما أتيتكم به من قبل نفسي ، وما تكلفته من تلقاء نفسي ، ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ يعني : ما هذا القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ يعني : إلا عظة للجن ، والإنس ، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ يعني : خبر هذا القرآن أنه حق بعد حين .

يعني : بعد الموت .

ويقال : بعد الإسلام .

ويقال : بعد ظهور الإسلام ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 162.167 ﴾

(120/663)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ واذكُرْ عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ﴾

فيه خمسة أوجه :

أحدها : أن الأيدي القوة على العبادة ، والأبصار الفقه في الدين ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن الأيدي القوة في أمر الله ، والأبصار العلم بكتاب الله ، قاله قتادة .

الثالث : أن الأيدي النعمة رواه الضحاك ، والأبصار العقول ، قاله مجاهد .

الرابع : الأيدي القوة في أبدانهم ، والأبصار القوة في أديانهم ، قاله عطية .

الخامس : أن الأيدي العمل والأبصار العلم ، قاله ابن بحر .

قال مقاتل : ذكر الله إبراهيم واسحاق ويعقوب ولم يذكر معهم إسماعيل لأن إبراهيم صبر على إلقائه في النار ، وصبر إسحاق على الذبح ، وصبر يعقوب على ذهاب بصره ولم يبتل إسماعيل ببلوى .

قوله عز وجل : ﴿ إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : نزع الله ما في قلوبهم من الدنيا وذكرها ، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها ، قاله مالك بن دينار .

الثاني : اصطفيناهم لأفضل ما في الآخرة وأعطيناهم ، قاله ابن زياد .

الثالث : أخلصناهم بخالصة الكتب المنزلة التي فيها ذكرى الدار الآخرة ، وهذا قول مأثور .

الرابع : أخلصناهم بالنبوة وذكرى الدار الآخرة ، قاله مقاتل .

الخامس : أخلصناهم من العاهات والآفات وجعلناهم ذاكرين الدار الآخرة ، حكاه

النقاش .

قوله عز وجل : ﴿ وعندهم قاصرات الطرف أتراب ﴾ يعني قاصرات الطرف على أزواجهم .

﴿ أتراب ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أقران ، قاله عطية .

الثاني : أمثال ، قاله مجاهد .

الثالث : متآخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن ، حكاه عبد الرحمن بن أبي حاتم .

الرابع : مستويات الأسنان بنات ثلاث وثلاثين قاله يحيى بن سلام .

الخامس : أتراب أزواجهن بأن خلقهن على مقاديرهم ، وقال ابن عيسى : الترب اللدة وهو مأخوذ من اللعب بالتراب .

قوله عز وجل : ﴿ هذا فليذوقوه حميمٌ وغساق ﴾ أي منه حميم ومنه غساق والحميم الحار ، وفي الغساق ستة أوجه :

أحدها : أنه البارد الزمهرير ، قاله ابن عباس فكأنهم عذبوا بحارّ التراب وبارده .

الثاني : أنه القيح الذي يسيل من جلودهم ، قاله عطية .

الثالث : أنه دموعهم التي تسيل من أعينهم ، قاله قتادة .

الرابع : أنها عين في جهنم تسيل إليها حِمة كل ذي حِمة من حية أو عقرب ، قاله كعب الأحبار .

الخامس : أنه المنتن ، رواه أبو سعيد الخدري مرفوعاً .

السادس : أنه السواد والظلمة وهو ضد ما يراد من صفاء الشراب ورقته ، قاله ابن بحر .

وفي هذا الاسم وجهان :

أحدهما : حكاه النقاش أنه بلغة الترك .

الثاني : حكاه ابن بحر وابن عيسى أنه عربي مشتق واختلف في اشتقاقه على وجهين :

أحدهما : من الغسق وهو الظمة ، قاله ابن بحر .

الثاني : من غسقت القرحة تغسق غسقاً . إذا جرت ، وأنشد قطرب قول الشاعر :

فالعين مطروقة لبينهم . . . تغسق في غربة سرها

وإليه ذهب ابن عيسى .

وفي ﴿ غساق ﴾ قراءتان بالتخفيف والتشديد وفيها وجهان :

أحدهما : أنهما لغتان معناهما واحد ، قاله الأخفش .

الثاني : معناهما مختلف والمراد بالتخفيف الاسم وبالتشديد الفعل وقيل إن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، وتقديره : هذا حميم وهذا غساق فليذوقوه .

قوله عز وجل : ﴿ وآخر مِنْ شكله أزواج ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدهما : وآخر من شكل العذاب أنواع ، قاله السدي .

الثاني : وآخر من شكل عذاب الدنيا أنواع في الآخرة لم تر في الدنيا ، قاله الحسن .

الثالث : أنه الزمهرير ، قاله بن مسعود .

وفي الأزواج هنا ثلاثة أوجه :

أحدها : أنواع .

الثاني : ألوان .

الثالث : مجموعة .

قوله عز وجل : ﴿ هذا فوج مقتحم معكم . . . ﴾ فوج بعد فوج أي قوم بعد قوم ، مقتحمون النار أي يدخلونها . وفي الفوج قولان :

أحدهما : أنهم بنو إبليس .

والثاني : بنو آدم ، قاله الحسن .

والقول الثاني : أن كلا الفوجين بنو آدم إلى أن الأول الرؤساء والثاني الأتباع . وحكى لمنقاش أن الفوج الأول قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر ، والفوج الثاني أتباعهم ببدر .

وفي القائل ﴿ هذا فوجٌ مقتحم معكم ﴾ قولان :

أحدهما : الملائكة قالوا لبني إبليس لما تقدموا في النار هذا فوج مقتحم معكم إشارة لبني آدم حين دخلوها . قال بنو إبليس ﴿ لا مرحَباً بهم إنهم صالوا النار قالوا ﴾ أي بنو آدم : ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ﴾ .

والقول الثاني : أن الله قال للفوج الأول حين أمر بدخول الفوج الثاني : ﴿ هذا فوج مقتحم معكم ﴾ فأجابوه ﴿ لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ﴾ فأجابهم الفوج الثاني ﴿ بل أنتم مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه أنتم شرعتموه لنا وجعلتم لنا إليه قدماً ، قاله الكلبي .

الثاني : قدمتم لنا هذا العذاب بما أضللتمونا عن الهدى ﴿ فبئس القرار ﴾ أي بئس الدار النار ، قاله الضحاك .

الثالث : أنتم قدمتم لنا الكفر الذي استوجبنا به هذا العذاب في النار ، حكاه ابن زياد .

﴿ قالوا ربنا من قدم لنا هذا ﴾ الآية . يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه قاله الفوج الأول جواباً للفوج الثاني .

الثاني : قاله الفوج تبعاً لكلامهم الأول تحقيقاً لقولهم عند التكذيب .

وفي تأويل ﴿ من قدم لنا هذا ﴾ وجهان :

أحدهما : من سنه وشرعه ، قاله الكلبي .

الثاني : من زينه ، قاله مقاتل . والمرحب والرحب : السعة ومنه سميت الرحبة لسعتها ومعناه لا اتسعت لكم أماكنكم ؛ وأنشد الأخفش قول أبي الأسود .

اذا جئت بوّاباً له قال مرحباً . . . ألا مَرْحباً واديك غير مضيق

قوله عز وجل : ﴿ وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً . . . ﴾ الآية . قال مجاهد هذا يقوله أبو جهل وأشياعه في النار : ما لنا لا نرى رجلاً كنا نعدهم في الدنيا من الأشرار لا نرى عماراً وخباباً وصهيباً وبلالاً .

﴿ أتخذناهم سخرياً ﴾ قال مجاهد اتخذناهم سخرياً في الدنيا فأخطأنا .

(123/663)

﴿ أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ فلم نعلم مكانهم . قال الحسن : كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخريا وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم . وقال أبو عبيدة من كسر ﴿ سخرياً ﴾ جعله من الهزء ، ومن ضمه جعله من التسخير ﴿ أم زاغت عنهم الأبصار

﴿ يعني أهم معنا في النار أم زاغت أبصارنا فلا نراهم وإن كانوا معنا .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ هو نبأ عظيم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه القيامة لأن الله تعالى قد أنبأنا بها في كتبه .

والقول الثاني : هو القرآن ، قاله مجاهد والضحاك والسدي .

﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ قال الضحاك أنتم به مكذبون . قال السدي : يريد به المشركين .

وفي تسميته نبأ وجهان :

أحدهما : لأن الله أنبأ به فعرفناه .

الثاني : لأن فيه أنباء الأولين .

وفي وصفه بأنه عظيم وجهان :

أحدهما : لعظم قدره وكثرة منفعته .

الثاني : لعظيم ما تضمنه من الزواجر والأوامر .

قوله عز وجل : ﴿ ما كان لي من عِلم بالملإِ الأعلى ﴾ قال ابن عباس يعني الملائكة .

﴿ إذ يختصمون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في قوله تعالى للملائكة : ﴿ إني جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها ﴾

الآية . فهذه الخصومة ، قاله ابن عباس .

الثاني : ما رواه أبو الأشهب عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "

سألني ربي فقال يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى ؟ قلت في الكفارات والدرجات ، قال وما الكفارات ؟ قلت المشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء في السبرات ، والتعقيب في المساجد انتظار الصلوات بعد الصلوات . قال وما الدرجات ؟ قلت إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بليل والناس نيام

" .

قوله عز وجل : ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خَلَقْتُ بيديَّ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بقوتي ، قاله علي بن عاصم .

الثاني : بقدرتي ، ومنه قول الشاعر :

تحملت من عفراء ، ما ليس لي به . . . ولا للجبال الراسيات يدان

الثالث : لما توليت خلقه بنفسي ، قاله ابن عيسى .

﴿ أستكبرت ﴾ أي عن الطاعة أم تعاليت عن السجود ؟

(124/663)

قوله عز وجل : ﴿ قال فالحق والحق أقول ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنا الحق ، وأقول الحق ، قاله مجاهد .

الثاني : الحق مني والحق قولي ، رواه الحكم .

الثالث : معناه حقاً لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ، قاله الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجْر ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : قل يا محمد للمشركين ما أسألكم على ما أدعوكم إليه من طاعة الله أجراً قاله ابن عباس .

الثاني : ما أسألكم على ما جئتكم به من القرآن أجراً ، قاله عطاء .

﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : وما أنا من المتكلفين لهذا القرآن من تلقاء نفسي .

الثاني : وما أنا من المتكلفين لأن آمركم بما لم أؤمر به .

الثالث : وما أنا بالذي أكلفكم الأجر وهو معنى قول مقاتل .

قوله عز وجل : ﴿ ولتعلَمُنَّ نبأه بَعْد حين ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : نبأ القرآن أنه حق .

الثاني : نبأ محمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول .

الثالث : نبأ الوعيد أنه صدق .

﴿ بعد حين ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : بعد الموت ، قاله قتادة . وقال الحسن : يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين .

الثاني : يوم بدر ، قاله السدي .

الثالث : يوم القيامة ، قاله ابن زيد وعكرمة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(125/663)

وقال الثعلبى :

﴿ واذكر عِبَادَنَآ ﴾

قرأه العامة : بالألف .

وقرأ ابن كثير : (عبدنا) على الواحد ، وهي قراءة ابن عبّاس .

أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمّد بن يوسف الفقيه قال : أخبرنا أحمد بن محمّد بن يحيى ابن بلال قال : حدثنا يحيى بن الربيع المكي قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن عمر بن عطاء عن ابن عبّاس أنه كان يقرأ : ﴿ واذكر عِبَادَنَآ إِبْرَاهِيم ﴾ ويقول : إنما [ذكر] إبراهيم ثم ولده بعده ﴿ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأيدي ﴾ ذوي القوة في العبادة ﴿ والأبصار ﴾ التبصر في العلم والدين ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ﴾ .

قرأ أهل المدينة مضافاً وهي رواية هشام عن الشام .

وقرأ الآخرون : بالتنوين على البدل ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المصطفين الأخيار * واذكر إِسْمَاعِيلَ واليسع وَذَا الكفل وَكُلٌّ مِّنَ الأخيار * هذا ﴾ الذي ذكرت ﴿ ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبواب * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف أَتْرَابٌ ﴾ لذات مستويات على ملاذ امرأة واحدة بنات ثلاث وثلاثين سنة ، واحدها ترب ﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ ﴾ بالتاء .

ابن كثير وأبو عمر والباقون : بالياء .

﴿ لِيَوْمِ الحساب ﴾ أي في يوم الحساب .

قال الأعشى :

المهينين ما لهم لزمان السوء . . . حتّى إذا أفاق أفاقوا

أي في زمان السوء ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ هلاك وفناء ﴿ هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ ﴾ الكافرين ﴿ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها ﴿ فَبِئْسَ المهاد * هذا ﴾ أيّ هذا العذاب ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ .

قال الفراء : رفعت الحميم والغساق ب (هذا) مقدماً ومؤخراً ، والمعنى هذا حميم وغساق فليذوقوه ، وإن شئت جعلته مستأنفاً وجعلت الكلام فيه مكتفياً كاملا قلت : هذا فليذوقوه ثم قلت منه حميم وغساق .

كقول الشاعر :

حتّى إذا ما أضاء الصبح في غلس . . . وغودر البقل ملوي ومحصود

واختلف القراء في قوله : (وغساق) ، فشددها يحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وخلف وحفص وهي قراءة أصحاب عبد الله ، وخففها الآخرون .

قال الفراء : من شدد جعله اسماً على فَعّال نحو الخبّاز والطبّاخ . ومن خفف [جعله] اسماً على فِعال نحو العذاب .

واختلف المفسرون فيه :

فقال ابن عبّاس : هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار .

وقال مجاهد ومقاتل : هو [الثلج] البارد الذي قد انتهى برده ، أي يريد هو المبين بلغة الطحارية وقد بلغه النزل .

محمّد بن كعب : هو عصارة أهل النار .

قتادة والأخفش : هو ما يغسق من قروح الكفرة والزناة بين لحومهم وجلودهم ، أيّ تسيل .

قال الشاعر :

إذا ما تذكرت الحياة وطيبها . . . وإلي جرى دمع من العين غاسق

﴿ وَآخَرُ ﴾ قرأ أهل البصرة ومجاهد : (وأُخر) بضم الألف على جمع أُخرى ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، لأنه نعته بالجمع فقال : أرواح مثل الكبرى والكبر .

وقرأ غيرهم : على الواحد واخر .

﴿ مِن شَكْلِهِ ﴾ مثله ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ أصناف من العذاب والكناية في شكله راجعة إلى العذاب في قوله هذا .

وأما قوله ﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ قال ابن عبّاس : هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع قالت الخزنة للقادة ﴿ هذا ﴾ يعني الاتباع ﴿ فَوْجٌ ﴾ جماعة ﴿ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ النار ، أيّ داخلوها كما دخلتم .

(127/663)

فقالت السادة : ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ يعني بالأتباع ﴿ إِنَّهُمْ صَالُواْ النار ﴾ كما صليناها ، فقال الاتباع للسادة : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أيّ شرعتم وسننتم الكفر لنا ﴿ فَبِئْسَ القرار ﴾ أي قرارنا وقراركم ، والمرحب والرحب السعة ، ومنه رحبة المسجد .

قال أبو عبيدة : يقول العرب للرجل : لامرحباً بك ، أي لا رحبت عليك الأرض ، أيّ اتسعت .

وقال القتيبي : معنى قولهم : مرحباً وأهلاً وسهلاً ، أي أتيت رحباً وسعة ، وأتيت سهلاً لاحزناً ، وأتيت أهلاً لاغرباء ، فأنس ولاتستوحش ، وهي في مذهب الدعاء كما تقول : لقيت خيراً ، فلذلك نصب .

قال النابغة :

لا مرحباً بغد ولا أهلاً به . . . إن كان تفريق الأحبة في غد

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا ﴾ أي شرّعه وسنّه ﴿ فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النار ﴾ على عذابنا .

وقال ابن مسعود : يعني حيات وأفاعي .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ يعني صناديد قريش وهم في النار ﴿ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الأشرار ﴾ في دار الدُّنيا ، يعني فقراء المؤمنين ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً ﴾ .

قرأ أهل العراق إلاّ عاصماً وأيوب : بوصل الألف ، واختاره أبو عبيد قال : من جهتين :

أحديهما : أنّ الاستفهام متقدم في قوله : (مالنا لانرى رجالاً) .

والأُخرى : أنَّ المشركين لم يكونوا يشكون في اتخاذهم المؤمنين في الدُّنيا سخرياً ، فكيف يستفهمون عمّا قد عملوه . ويكون على هذه القراءة بمعنى بل .

وقرأ الباقون : بفتح الألف وقطعها على الإستفهام وجعلوا (أم) جواباً لها مجازاً : اتخذناهم سخرياً في الدُّنيا وليسوا كذلك ، فلم يدخلوا معنا النار .

﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصار ﴾ فلا نراهم وهم في النار ، ولكن احتجبوا عن أبصارنا .

وقال الفراء : هو من الاستفهام الذي معناه التعجب والتوبيخ ، فهو يجوز باستفهام ويطرحه .

(128/663)

وقال ابن كيسان : يعني أم كانوا خيراً منّا ولا نعلم نحن بذلك ، فكانت أبصارنا تزيغ منهم في الدُّنيا فلا نعدهم شيئاً .

أخبرنا أبو بكر الحمشادي قال : أخبرنا أبو بكر القطيعي قال : حدثنا إبراهيم بن عبد الله ابن مسلم قال : حدثنا عصمة بن سليمان الجرار عن يزيد عن ليث عن مجاهد ﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لاَ نَرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الأشرار ﴾ .

قال : صهيب وسلمان وعمّار لا نراهم في النار ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً ﴾ في الدُّنيا ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصار ﴾ في النار ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرت ﴿ لَحَقٌّ ﴾ ثم بيّن فقال : ﴿ تَخَاصُمُ ﴾ أي هو تخاصم ﴿ أَهْلِ النار ﴾ ومجاز الآية : أن تخاصم أهل النار في النار

لحق ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد لمشركي مكة ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ﴾ مخوّف ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ الواحد القهار * رَبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا العزيز الغفار * قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني القرآن.

عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة، وروى معمر عنه يوم القيامة، نظيرها ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإِ العظيم ﴾ [النبأ: 1-2].

﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بالملإِ الأعلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ في شأن آدم وهو قولهم حين قال الله سبحانه لهم: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً قَالُوا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة: 30] الآية هذا قول أكثر المفسرين.

وروى ابن عبّاس عن النبي (عليه السلام) قال: "قال ربّي: أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى يعني الملائكة؟

فقلت: لا.

قال: اختصموا في الكفارات والدرجات، فأما الكفارات: فإسباغ الوضوء في السبرات، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة: وأما الدرجات: فإفشاء السلام، واطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام"".

﴿ إِن يوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

قال الفراء : ان شئت جعلت (أنما) في موضع رفع ، كأنك قلت : ما يُوحى إليَّ إلاّ الانذار ، وإن شئت جعلت المعنى ما يوحى إليَّ إلاّ لأني نذير مبين .

وقرأ أبو جعفر (إنما) بكسر الألف ، لأن الوحي قول .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ استكبر وَكَانَ مِنَ الكافرين * قَالَ يا إبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ وفي تحقيق الله سبحانه وتعالى التنشئة في اليد ، دليل على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة ، إنما هما وصفان من صفات ذاته .

قال مجاهد : اليد هاهنا بمعنى التأكيد ، والصلة مجاز لما خلقت ، كقوله سبحانه : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أي ربك ، وهذا تأويل غير قوي ، لأنه لو كان بمعنى الصلة فكان لإبليس أن يقول : إن كنت خلقته فقد خلقتني . وكذلك في القدرة والنعمة ، لاتكون لآدم في الخلق مزية على إبليس وقد مضت هذه المسألة عند قوله : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ .

قال : العرب تسمي الاثنين جميعاً لقوله سبحانه ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا ﴾ [الحج : 19] ، وقوله ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ﴾ [النور : 2] قال : هما رجلان

وقال : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : 4] .

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ ألف الاستفهام تدخل على ألف الخبر ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ المتكبرين على السجود كقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأرض ﴾ [القصص : 4] . ﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فاخرج مِنْهَا ﴾ أي من الجنّة .

وقيل : من السماوات .

(130/663)

وقال الحسن وأبو العالية : أيّ من الخلقه التي أنت فيها .

قال الحسين بن الفضل : وهذا تأويل صحيح ، لأن ابليس تجبّر وافتخر بالخلقة ، فغيّر الله تعالى خلقه فاسودَّ بعد ما كان أبيضاً وقبح بعد ما كان حسناً وأظلم بعد أن كان نورانياً .

﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود معذّب ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعنتي إلى يَوْمِ الدين * قَالَ رَبِّ فأنظرني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين * إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ وهو النفخة الأولى ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين * قَالَ فالحق والحق أَقُولُ ﴾ .

قرأ مجاهد والأعمش وعاصم وحمزة وخلف : برفع الأول ونصب الثانية على معنى فأنا الحقّ أو فمنّي الحق ، وأقول الحق .

وقال الباقون : بنصبهما .

واختلف النحاة في وجهيهما ، قيل : نصب الأول على الإغراء والثاني بايقاع القول عليه .

وقيل : هو الأول قسم ، والثاني مفعول مجاز قال : فبالحق وهو الله عزّ وجلّ أقسم بنفسه والحق أقول .

وقيل : إنه أتبع قسماً بعد قسم .

وقال الفراء وأبو عبيد : معناهما حققا لم يدخل الألف واللام ، كما يقال : الحمد لله وأحمد الله ، هما بمعنى واحد .

وقرأ طلحة بن مصرف : فالحق والحق بالكسر فهما على القسم .

وسمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : سمعت أبا بكر بن عبدش يقول : هو مردود إلى ما قبله ومجازه : فبعزتك وبالحق والحق قال الله سبحانه : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ ﴾ أيّ من نفسك وذريتك ﴿ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أيّ على تبليغ الوحي ، كناية عن غير مذكور ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ قال الحسين بن الفضل : هذه الآية ناسخة لقوله

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [الشورى : 23] .

﴿ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ المتقولين القرآن من تلقاء نفسي .

(131/663)

أخبرنا ابن فنجويه قال : حدثنا أحمد بن محمّد بن إسحاق البستي قال :

حدثنا أحمد بن عمير بن يوسف قال : حدثنا محمّد بن عوف قال : حدثنا محمّد بن المصفى قال : حدثنا حنوة بن سريج بن يزيد قال : حدثنا أُرطاة بن المنذر عن ضمرة بن حبيب عن سلمة بن مقبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ، ويتعاطى مالا ينال ، ويقول فيما لا يعلم " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدثني السنّي قال : حدثني عبد الله بن محمّد بن جعفر قال : حدثنا أحمد بن يحيى الصوفي قال : حدثنا شعيب بن إبراهيم قال : حدثنا سيف بن عمر الضبي عن وائل بن داود عن يزيد البهي عن الزبير بن العوام قال : نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم أغفر للذين يدعون أموات امتي ولا يتكلفون إلاّ أني بريء من التكلف وصالحوا أمتي " .

وأخبرني الحسين قال : حدثنا ابن شيبة قال : حدثنا عبد الله بن محمّد بن وهب قال :

حدثنا إبراهيم بن عمرو بن بكر السكسكي ببيت المقدس قال : حدثنا أبي قال : حدثنا إبراهيم بن [. . . . .] علية الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من أتاه الله عزّ وجلّ علماً فليتق الله وليعلّمه الناس ولا يكتمه ، فإنه من كتم علماً يعلمه كان كمن كتم ما أنزل الله تعالى على نبيّه وأمره أن يعلمه الناس ، ومن لم يعلم فليسكت وإياه أن يقول مالا يعلم فيهلك ويصير من المتكلفين ويمرق من الدين ، وأن الله عزّ وجلّ قال : ﴿ قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ المتكلفين ﴾ من أفتى بغير السنّة فعليه الأثم .

(132/663)

وأخبرني الحسن قال : حدثنا السنيّ قال : أخبرنا أبو خليفة قال : حدثنا محمّد بن خبير العبدي قال : أخبرنا سفيان الثوري عن الأعمش عن منصور عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ومن لم يعلم شيئاً فليقل الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول لما لايعلم : الله أعلم وأن الله عزّ وجلّ قال لنبيّه : ﴿ قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ المتكلفين ﴾ ، ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ما هو يعني القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ عظة ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ .

قال قتادة : يعني بعد الموت .

وابن عبّاس : يعني يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 212 .

219 ﴾

(133/663)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ (45) ﴾

إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ عطف بيان لعبادنا . ومن قرأ : عبدنا ، جعل إبراهيم وحده عطف بيان له ، ثم عطف ذريته على عبدنا ، وهي إسحاق ويعقوب ، كقراءة ابن عباس : وإله أبيك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق . لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدى غلبت ، فقيل في كل عمل هذا مما عملت أيديهم ، وإن كان عملا لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدى . أو كان العمال جذما لا أيدي لهم ، وعلى ذلك ورد قوله عز وعلا أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ يريد : أولى الأعمال والفكر ، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ، ولا يجاهدون في اللّه ، ولا يفكرون أفكار ذوى الديانات ولا يستبصرون في حكم الزمنى الذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم والمسلوبى العقول الذين لا استبصار بهم . وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال

اللّه ، ولا من المستبصرين في دين اللّه ، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما . وقرئ : أولى الأيادى ، على جمع الجمع . وفي قراءة ابن مسعود : أولى الأيد ، على طرح الياء والاكتفاء بالكسرة . وتفسيره بالأيد - من التأييد - : قلق غير متمكن أَخْلَصْناهُمْ جعلناهم خالصين بِخالِصَةٍ بخصلة خالصة لا شوب فيها ، ثم فسرها بذكرى الدار ، شهادة لذكرى الدار بالخلوص والصفاء وانتفاء الكدورة عنها . وقرئ على الإضافة . والمعنى : بما خلص من ذكرى الدار ، على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهمّ آخر ، إنما همهم ذكرى الدار لا غير . ومعنى ذِكْرَى الدَّارِ : ذكراهم الآخرة دائبا ، ونسيانهم اليها ذكر الدنيا . أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها ، وتزهيدهم في الدنيا ، كما هو شأن الأنبياء وديدنهم . وقيل . ذكرى الدار . الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم . فإن قلت : ما معنى أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ؟ قلت : معناه : أخلصناهم بسبب هذه الخصلة ، وبأنهم من أهلها . أو أخلصناهم بتوفيقهم لها ، واللطف بهم في اختيارها .

(134/663)

وتعضد الأوّل قراءة من قرأ : بخالصتهم الْمُصْطَفَيْنَ المختارين من أبناء جنسهم . والْأَخْيارِ جمع خير ، أو خير ، على التخفيف ، كالأموات في جمع ميت أو ميت .

[سورة ص (38) : آية 48]

وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (48)

وَالْيَسَعَ كأن حرف التعريف دخل على يسع . وقرئ : والليسع ، كأن حرف التعريف

(135/663)

[سورة ص (38) : الآيات 55 إلى 61]

هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (56) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (58) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (59)

قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (60) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (61)

هذا أى الأمر هذا : أو هذا كما ذكر فَبِئْسَ الْمِهادُ كقوله لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم ، أى : هذا حميم فليذوقوه . أو العذاب هذا فليذوقوه ، ثم ابتدأ فقال : هو حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ أو : هذا فليذوقوه بمنزلة وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ أى ليذوقوا هذا فليذوقوه ، والغساق - بالتخفيف والتشديد - : ما يغسق من

صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين ، إذا سال دمعها . وقيل : الحميم يحرق بحرّه ، والغساق يحرق ببرده . وقيل : لو قطرت منه قطرة في المشرق لنتنت أهل المغرب ، ولو قطرت منه قطرة في المغرب لنتنت أهل المشرق . وعن الحسن رضى اللّه عنه . الغساق : عذاب لا يعلمه إلا اللّه تعالى .

إن الناس أخفوا للّه طاعة فأخفى لهم ثوابا في قوله فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة وَآخَرُ ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق من مثله في الشدة والفظاعة أَزْواجٌ أجناس . وقرئ : وآخر ، أى : وعذاب آخر . أو مذوق آخر . وأزواج : صفة لآخر ، لأنه يجوز أن يكون ضروبا . أو صفة للثلاثة وهي حميم وغساق وآخر من شكله . وقرئ : من شكله ، بالكسر «1» وهي لغة . وأما الغنج «2» فبالكسر لا غير هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار ، أى دخل النار في صحبتكم وقرانكم ، والاقتحام : ركوب الشدة والدخول فيها . والقحمة : الشدة . وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض ، أى : يقولون هذا . والمراد بالفوج : أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة ، فيقتحمون معهم العذاب لا مَرْحَباً بِهِمْ دعاء منهم على أتباعهم . تقول لمن تدعو له : مرحبا ، أى :

أتيت رحبا من البلاد لا ضيقا : أو رحبت بلادك رحبا ، ثم تدخل عليه «لا» في دعاء السوء .

---

(1) . قوله وقرئ «من شكله بالكسر وهي لغة» أى في الشكل بمعنى المثل . (ع)

(2) . «و أما الغنج فبالكسر لا غير» في الصحاح : الغنج والغنج : الشكل ، وقد غنجت الجارية وتغنجت ، فهي غنجة . وفيه : الشكل - بالفتح - : المثل ، وبالكسر : الدل ، يقال : امرأة ذات شكل . (ع)

(136/663)

وبِهِمْ بيان للمدعو عليهم إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ تعليل لاستيجابهم للدعاء عليهم . ونحوه قوله تعالى كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها وقيل : هذا فوج مقتحم معكم : كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم . ولا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ كلام الرؤساء . وقيل : هذا كله كلام الخزنة قالُوا أى الأتباع بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ يريدون الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحق به ، وعللوا ذلك بقولهم أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا والضمير للعذاب أو لصلبهم . فإن قلت : ما معنى تقديمهم العذاب لهم ؟ قلت : المقدم هو عمل السوء . قال اللّه تعالى ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ولكن الرؤساء لما كانوا السبب فيه بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه : قيل أنتم قدمتموه لنا ، فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدّم ، فجمع بين مجازين ، لأن العاملين هم المقدمون في الحقيقة لا رؤساؤهم ، والعمل هو المقدم

لاجزاؤه.

فإن قلت: فالذي جعل قوله لا مَرْحَباً بِهِمْ من كلام الخزنة ما يصنع بقوله بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ والمخاطبون - أعنى رؤساءهم - لم يتكلموا بما يكون هذا جوابا لهم؟ قلت: كأنه قيل: هذا الذي دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحق به منا لإغوائكم إيانا ونسببكم فيما نحن فيه من العذاب، وهذا صحيح كما لو زين قوم لقوم بعض المساوى فارتكبوه فقيل للمزينين: أخزى اللّه هؤلاء ما أسوأ فعلهم؟ فقال المزين لهم للمزينين: بل أنتم أولى بالخزي منا، فلولا أنتم لم نرتكب ذلك قالُوا هم الأتباع أيضا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً أى مضاعفا، ومعناه: ذا ضعف: ونحوه قوله تعالى رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين، كقوله عز وجل رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ «1» وجاء في التفسير عَذاباً ضِعْفاً: حيات وأفاعى «2».

[سورة ص (38): الآيات 62 إلى 63]

وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (62) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (63)

وَقالُوا الضمير للطاغين رِجالًا يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم مِنَ الْأَشْرارِ من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى، ولأنهم كانوا على خلاف دينهم، فكانوا عندهم أشرارا أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لرجالا، مثل قوله كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ

الْأَشْرارِ

---

(1) . قوله تعالى قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً وقال في موضع آخر آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً والقصة واحدة. قال أحمد : وفيه دليل على أن الضعفين اثنان من شيء واحد ، خلافا لمن قال غير ذلك ، لأنه في موضع قال فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً والمراد : مثل عذابه ، فيكونا عذابين. وقال في موضعين ضِعْفَيْنِ والمراد : ذا عذابين. [. . . . .]

(2) . قوله «وجاء في التفسير . . . الخ» عبارة الخازن : قال ابن عباس : حيات وأفاعى

(ع)

(137/663)

وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها «1» في الاستسخار منهم.

وقوله أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ له وجهان من الاتصال ، أحدهما : أن يتصل بقوله ما لَنا أى : مالنا لا نراهم في النار ؟ كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها : قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة ، وبين أن يكونوا من أهل النار. إلا أنه خفى عليهم مكانهم.

والوجه الثاني : أن يتصل باتخذناهم سخريا ، إما أن تكون أم متصلة على معنى : أى الفعلين فعلنا بهم الاستسخار منهم ، أم الازدراء بهم والتحقير ، وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم ، على معنى إنكار الأمرين جميعا على أنفسهم ، وعن الحسن : كل ذلك قد فعلوا ، اتخذوهم سخريا وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم . وإما أن تكون منقطعة بعد مضى اتخذناهم سخريا على الخبر أو الاستفهام ، كقولك : إنها إبل أم شاء ، وأزيد عندك أم عندك عمرو : ولك أن تقدّر همزة الاستفهام محذوفة فيمن قرأ بغير همزته ، لأنّ «أم» تدل عليها ، فلا تفترق القراءتان :

إثبات همزة الاستفهام وحذفها . وقيل : الضمير في وَقالُوا لصناديد قريش كأبى جهل والوليد وأضرابهما ، والرجال : عمار وصهيب وبلال وأشباههم . وقرئ : سخريا ، بالضم والكسر .

[سورة ص (38) : آية 64]

إِنَّ ذِلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64)

إِنَّ ذِلِكَ أى الذي حكينا عنهم لَحَقٌّ لا بد أن يتكلموا به ، ثم بين ما هو فقال هو تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ وقرئ بالنصب على أنه صفة لذلك ، لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس .

فإن قلت : لم سمى ذلك تخاصما ؟ قلت : شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك «2» ولأنّ قول الرؤساء : لا مرحبا بهم ،

وقول أتباعهم : بل أنتم لا مرحبا بكم ، من باب الخصومة ، فسمى التقاول كله تخاصما لأجل اشتماله على ذلك .

[سورة ص (38) : الآيات 65 إلى 66]

قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66)

---

(1) . قوله «و تأنيب لها» أى : تعنيف ولوم . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قال محمود : «إن قلت لم سمي ذلك تخاصما ؟ قلت : شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك ، ولأن قول الرؤساء : لا مرحبا بهم ، وقول أتباعهم : بل أنتم لا مرحبا بكم ، من باب الخصومة» قال أحمد : هذا يحقق أن ما تقدم من قوله لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ من قول المتكبرين الكفار ، وقوله تعالى بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ من قول الأتباع ، فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين ، فيتحقق التخاصم ، خلافا لمن قال : إن الأول من كلام خزنة جهنم ، والثاني : من كلام الأتباع ، فانه على هذا التقدير إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين فالتفسير الأول أمكن وأثبت .

قُلْ يا محمد لمشركي مكة : ما أنا إلا رسول مُنْذِرٌ أنذركم عذاب اللّه للمشركين ، وأقول لكم : إنّ دين الحق توحيد اللّه ، وأن يعتقد أن لا إله إلا اللّه الْواحِدُ بلا ندّ ولا شريك الْقَهَّارُ لكل شيء ، وأنّ الملك والربوبية له في العالم كله وهو الْعَزِيزُ الذي لا يغلب إذا عاقب العصاة ، وهو مع ذلك الْغَفَّارُ لذنوب من التجأ إليه . أو قل لهم ما أنا إلا منذر لكم ما أعلم ، وأنا أنذركم عقوبة من هذه صفته ، فإنّ مثله حقيق بأن يخاف عقابه كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه .

[سورة ص (38) : الآيات 67 إلى 70]

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) ما كانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70)

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أى هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولا منذرا وأن اللّه واحد لا شريك له : نبأ عظيم لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة . ثم احتج لصحة نبوّته بأنّ ما ينبئ به عن الملإ الأعلى واختصامهم أمر ما كان له به من علم قط ، ثم علمه ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا ، وهو الأخذ من أهل العلم وقراءة الكتب ، فعلم أنّ ذلك لم يحصل إلا بالوحي من اللّه إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ أى لأنما أنا نذير . ومعناه : ما يوحى إلىّ إلا للإنذار ، فحذف اللام وانتصب بإفضاء الفعل إليه . ويجوز أن يرتفع على معنى :

ما يوحى إلىّ إلا هذا ، وهو أن أنذر وأبلغ ولا أفرط في ذلك ، أى ما أو مر إلا بهذا الأمر وحده ، وليس إلىّ غير ذلك . وقرئ إنما بالكسر على الحكاية ، أى : إلا هذا القول ، وهو أن أقول لكم : إنما أنا نذير مبين ولا أدعى شيئا آخر . وقيل : النبأ العظيم : قصص آدم عليه السلام والإنباء به من غير سماع من أحد . وعن ابن عباس : القرآن . وعن الحسن : يوم القيامة . فإن قلت : بم يتعلق إِذْ يَخْتَصِمُونَ ؟ قلت : بمحذوف ، لأن المعنى : ما كان لي من علم بكلام الملإ الأعلى وقت اختصامهم ، وإِذْ قالَ بدل من إِذْ يَخْتَصِمُونَ . فإن قلت : ما المراد بالملإ الأعلى ؟ قلت : أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس ، لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم :

فإن قلت : ما كان التقاول بينهم إنما كان بين اللّه تعالى وبينهم ، لأن اللّه سبحانه وتعالى هو الذي قال لهم وقالوا له ، فأنت بين أمرين : إما أن تقول الملأ الأعلى هؤلاء ، وكان التقاول بينهم ولم يكن التفاؤل بينهم وإما أن تقول : التقاول كان بين اللّه وبينهم ، فقد جعلته من الملإ الأعلى . قلت : كانت مقاولة اللّه سبحانه بواسطة ملك ، فكان المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط ، فصح أن التقاول كان

بين الملائكة وآدم وإبليس ، وهم الملأ الأعلى . والمراد بالاختصام : التقاول على ما سبق .

[سورة ص (38) : الآيات 71 إلى 74]

إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (71) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (74)

فإن قلت : كيف صح أن يقول لهم إِنِّي خالِقٌ بَشَراً وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل ؟ قلت : وجهه أن يكون قد قال لهم : إنى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ، ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم فَإِذا سَوَّيْتُهُ فإذا أتممت خلقه وعدلته وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي وأحييته وجعلته حساسا متنفسا فَقَعُوا فخروا ، كل : للإحاطة . وأجمعون : للاجتماع ، فأفادا معا أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد ، وأنهم سجدوا جميعا في وقت واحد غير متفرّقين في أوقات . فإن قلت : كيف ساغ السجود لغير اللّه ؟ قلت : الذي لا يسوغ هو السجود لغير اللّه على وجه العبادة ، فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يأباه العقل ، إلا أن يعلم اللّه فيه مفسدة فينهى عنه . فإن قلت : كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجنّ ؟ قلت : قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلا وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ أريد وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافرا ، لأن كانَ مطلق في جنس الأوقات الماضية ، فهو صالح

لأيها شئت . ويجوز أن يراد : وكان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم اللّه .

[سورة ص (38) : الآيات 75 إلى 76]

قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (75)

قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76)

فإن قلت : ما وجه قوله خَلَقْتُ بِيَدَيَّ : قلت : قد سبق لنا أنّ ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه ، فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما ، حتى قيل في عمل القلب : هو مما عملت يداك ، وحتى قيل ممن لا يدي له : يداك أوكتا «1» وفوك نفخ ، وحتى لم يبق فرق بين قولك : هذا مما عملته ، وهذا مما عملته يداك . ومنه قوله تعالى مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا

(1) . قوله «يداك أوكتا» في الصحاح : أوكى على ما في سقائه : إذا شده بالوكاء . (ع)

ولِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ . فإن قلت : فما معنى قوله ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ؟ قلت : الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم ، واستنكف منه أنه سجود لمخلوق ، فذهب بنفسه ، وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق ، وانضم إلى ذلك أنّ آدم مخلوق من

طين وهو مخلوق من نار . ورأى للنار فضلا على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب ، وزلّ عنه أنّ اللّه سبحانه حين أمر به أعزّ عباده عليه «1» وأقربهم منه زلفى وهم الملائكة ، وهم أحق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل ، ويستنكفوا من السجود له من غيرهم ، ثم لم يفعلوا وتبعوا امر اللّه وجعلوه قدّام أعينهم ، ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له ، تعظيما لأمر ربهم وإجلالا لخطابه : كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حرى بأن يقتدى بهم ويقتفى أثرهم ، ويعلم أنهم في السجود لمن هو دونهم بأمر اللّه ، أو غل في عبادته منهم في السجود له ، لما فيه من طرح الكبرياء وخفض الجناح ، فقيل له :

ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدىّ ، أى : ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدي - لا شكّ في كونه مخلوقا - امتثالا لأمرى وإعظاما لخطابى كما فعلت الملائكة ، فذكر له ما تركه من السجود مع ذكر العلة التي تشبث بها في تركه ، وقيل له : لم تركته مع وجود هذه العلة ، وقد أمرك اللّه به ، يعنى : كان عليك أن تعتبر أمر اللّه ولا تعتبر هذه العلة ، ومثاله :

أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم فيمتنع اعتبارا لسقوطه ، فيقول له : ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى علىّ سقوطه «2» ، يريد : هلا اعتبرت أمرى وخطابي وتركت

(1) . قوله «حين أمر به أعز عباده» مبنى على مذهب المعتزلة : أن الملك أفضل من البشر . وعند أهل السنة :

البشر أفضل من الملك . (ع)

(2) . قال محمود : «لما كان ذو اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه : غلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغير اليدين ، حتى قيل في عمل القلب : هذا مما عملت يداك . قال ومعناه أن الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم واستنكف بسببه : أنه سجود لمخلوق ، مع أنه دون الساجد ، لأن آدم من طين ، وإبليس من نار ، فرأى للنار فضلا على الطين ، وزل عنه أن اللّه سبحانه حين أمر أعز عباده عليه وأقربهم منه وهم الملائكة أن يسجدوا لهذا البشر :

لم يمتنعوا ولم يذهبوا بأنفسهم إلى التكبر ، مع انحطاطه عن مراتبهم ، فقيل له : ما منعك أن تسجد لهذا الذي هو مخلوق بيدي كما وقع لك ، مع أنه لا شك أن في ذلك امتثالا لأمرى وإعظاما لخطابى كما فعلت الملائكة ، فذكر له العلة التي منعته من السجود ، وقيل له : ما حملك على اعتبار هذه العلة دون اعتبار أمرى ، ومثاله : أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم ، فيمتنع اعتبارا لسقوطه . فيقول له : ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى على سقوطه ، يريد : علا اعتبرت أمرى وخطابي وتركت اعتبار سقوطه ، انتهى المقصود من الآية بعد تطويل وإطناب وإكثار وإسهاب . قال أحمد : إنما أطال القول هنا ليفر من

معتقدين لأهل السنة تشتمل عليهما هذه الآية :

أحدهما : أن اليدين من صفات الذات أثبتهما السمع ، هذا مذهب أبى الحسن والقاضي ، بعد إبطالهما حمل اليدين على القدرة ، فان قدرة اللّه تعالى واحدة ، واليدان مذكورتان بصيغة التثنية ، وأبطلا حملهما على النعمة بأن نعم اللّه لا تحصى ، فكيف تحصر بالتثنية . وغيرهما من أهل السنة كامام الحرمين وغيره يجوز حملهما على القدرة والنعمة ، ويجيب عما ذكراه بأن المراد نعمة الدنيا والآخرة ، وهذا مما يحقق تفضيله على إبليس ، إذ لم يخلق إبليس لنعمة الآخرة ، وعلى أن المراد القدرة ، فالتثنية تعظيم ، ومثل ذلك يوجد في اللغة كثيرا . المعتقد الثاني : أن النبي أفضل من الملك ، والزمخشري شديد العصبية في هذه المسألة والإنكار على من قال بذلك من أهل السنة ، لا جرم أنه أجرم في بسط كلامه على آدم عليه السلام ، فمثل قصته في انحطاط مرتبته على زعمه عن مرتبة الملائكة بقول الملك لوزيره .

زر بعض سقاط الحشم ، فجعل سقاط حشم الملك مثالا لآدم الذي هو عنصر الأنبياء عليهم السلام ، وأقام لإبليس عذره وصوب اعتقاده . أنه أفضل من آدم لكونه من نار وآدم من طين ، وإنما غلطه من جهة أخرى . وهو أنه لم يقس نفسه على الملائكة إذ سجدوا له ، على علمهم أنه بالنسبة إليهم محطوط الرتبة ساقط المنزلة ، وجعل قوله تعالى لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ إنما ذكر تقريرا للعلة التي منعت إبليس من السجود ، وهو كونه دونه ، وهذا – نسأل

اللّه العصمة – المراد منه ضد ما فهم الزمخشري ، وإنما ذكر ذلك تعظيما لمعصية إبليس ، إذ امتنع من تعظيم من عظمه اللّه إذ خلقه بيده ، وذلك تعظيم لآدم لا تحقير منه . ويدل عليه الحديث الوارد في الشفاعة ، إذ يقول له الناس عند ما يقصدونه فيها : أنت آدم أبو البشر خلقك اللّه بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته ، فإنما يذكرون ذلك في سياق تعديد كراماته وخصائصه ، لا فيما يحط منه ، معاذ اللّه وإياه نسأل أن يعصمنا من مهاوي الهوى ومهالكه ، وأن يرشدنا إلى سبيل الحق ومسالكه ، إنه ولى التوفيق ، وبالاجابة حقيق .

(141/663)

اعتبار سقوطه ، وفيه : أنى خلقته بيدي ، فأنا أعلم بحاله ، ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعي حكمة دعاني إليه : من إنعام عليه بالتكرمة السنية وابتلاء للملائكة ، فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له ، ما لم يصرفني عن الأمر بالسجود له . وقيل : معنى لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ لما خلقت بغير واسطة . وقرئ : بيدىّ ، كما قرئ : بمصرخىّ . وقرئ : بيدي ، على التوحيد مِنَ الْعالِينَ ممن علوت وفقت ، فأجاب بأنه من العالين حيث قال أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ وقيل : استكبرت الآن ، أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين . ومعنى الهمزة :

التقرير.

وقرئ: استكبرت بحذف حرف الاستفهام، لأنّ أم تدل عليه. أو بمعنى الإخبار. هذا على سبيل الأولى، أى: لو كان مخلوقا من نار لما سجدت له، لأنه مخلوق مثلي، فكيف أسجد لمن هو دوني لأنه من طين والنار تغلب الطين وتأكله، وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهي خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

[سورة ص (38): الآيات 77 إلى 78]

قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (78)

مِنْها من الجنة، وقيل: من السماوات. وقيل: من الخلقة التي أنت فيها، لأنه كان يفتخر بخلقته فغير اللّه خلقته، فاسودّ بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنا، وأظلم بعد ما كان نورانيا. والرجيم: المرجوم. ومعناه: المطرود، كما قيل له: المدحور والملعون، لأنّ من طرد رمى بالحجارة على أثره. والرجم: الرمي بالحجارة. أو لأنّ الشياطين يرجمون بالشهب.

فإن قلت : قوله لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ كأن لعنة إبليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع ؟ قلت : كيف تنقطع وقد قال اللّه تعالى فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ولكن المعنى : أن عليه اللعنة في الدنيا ، فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعنة ما ينسى عنده اللعنة ، فكأنها انقطعت .

[سورة ص (38) : الآيات 79 إلى 81]

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81)

فإن قلت : ما الوقت المعلوم الذي أضيف إليه اليوم ؟ قلت : الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى . ويومه : اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه . ومعنى المعلوم : أنه معلوم عند اللّه معين ، لا يستقدم ولا يستأخر .

[سورة ص (38) : الآيات 82 إلى 83]

قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83)

فَبِعِزَّتِكَ إقسام بعزة اللّه تعالى وهي سلطانه وقهره .

[سورة ص (38) : الآيات 84 إلى 85]

قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85)

قرئ : فالحق والحق ، منصوبين على أن الأول مقسم به كاللّه في

إن عليك اللّه أن تبايعا

وجوابه لَأَمْلَأَنَّ والحق أقول : اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه ، ومعناه : ولا أقول إلا الحق . والمراد بالحق : إمّا اسمه عزّ وعلا الذي في قوله أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ أو الحق الذي هو نقيض الباطل : عظمه اللّه بإقسامه به . ومرفوعين على أن الأوّل مبتدأ محذوف الخبر ، كقوله لَعَمْرُكَ أى : فالحق قسمي لأملأنّ . والحق أقول ، أى : أقوله كقوله كله لم أصنع ، ومجرورين : على أن الأوّل مقسم به قد أضمر حرف قسمه ، كقولك : اللّه لأفعلنّ . والحق أقول ، أى : ولا أقول إلا الحق على حكاية لفظ المقسم به . ومعناه : التوكيد والتشديد .

وهذا الوجه جائز في المنصوب والمرفوع أيضا . وهو وجه دقيق حسن . وقرئ برفع الأوّل وجرّه مع نصب الثاني ، وتخريجه على ما ذكرنا مِنْكَ من جنسك وهم الشياطين وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ من ذرّية آدم . فإن قلت : أَجْمَعِينَ تأكيد لما ذا ؟ قلت : لا يخلو أن يؤكد به الضمير في منهم ، أو الكاف في منك مع من تبعك . ومعناه : لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين ، لا أترك منهم أحدا . أو لأملأنها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس ، لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم .

[سورة ص (38) : الآيات 86 إلى 88]

قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88)

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ الضمير للقرآن أو للوحى وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتموني قط متصنعا ولا مدّعيا ما ليس عندي ، حتى أنتحل النبوّة وأتقوّل القرآن إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ من اللّهِ لِلْعالَمِينَ للثقلين . أوحى إلىّ فأنا أبلغه . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم : «للمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ، ويتعاطى ما لا ينال ، ويقول ما لا يعلم «1»» وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ أى ما يأتيكم عند الموت ، أو يوم القيامة ، أو عند ظهور الإسلام وفشوه ، من صحة خبره ، وأنه الحق والصدق . وفيه تهديد .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره اللّه لداود عشر حسنات وعصمه أن يصرّ على ذنب صغير أو كبير» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 100. 109﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن عون حدثنا محمد بن المصلى حدثنا حيوة بن شريح عن أرطاة بن المنذر عن ضمرة بن حبيب عن سلمة بن نفيل مرفوعا به . ورواه

البيهقي في الشعب في الثالث والثلاثين من رواية بقية عن أرطاة قوله ورواه أبو نعيم عن وهب بن منبه قوله .

(2) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى رضى اللّه عنه .

(144/663)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ واذْكُرْ عِبادَنا ﴾

وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وحميد ، وابن محيصن ، وابن كثير : ﴿ عبدَنا ﴾ ، إشارة إلى إبراهيم ، وجعلوا إسحاق ويعقوب عطفاً عليه ، لأنه الأصل وهما ولداه ، والمعنى : اذْكُر صبرهم ، فإبراهيم أُلقي في النار ، وإسحاق أُضجع للذبح ، ويعقوب صبر على ذهاب بصره وابتُلي بفقد ولده ؛ ولم يُذْكَر إسماعيل معهم ، لأنه لم يُبْتَل كما ابتُلوا .

﴿ أُولِي الأيدي ﴾ يعني القوة في الطاعة ﴿ والأبصارِ ﴾ البصائر في الدّين والعِلْم .

قال ابن جرير : وذِكْر الأيدي مَثَلٌ ، وذلك لأن باليد البطش ، وبالبطش تُعرف قُوَّة القويّ ، فلذلك قيل للقويّ : ذو يدٍ ، وعنى بالبصر : بصر القلب ، وبه تُنال معرفة الأشياء ، وقرأ ابن مسعود ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : ﴿ أُولِي الأيدِ ﴾ بغير ياءٍ في الحالين .

قال الفراء : ولها وجهان :

أحدهما : أن يكون القارئ لهذا أراد الأيدي ، فحذف الياء ، وهو صواب ، مثل الجَوارِ والمناد .

والثاني : أن يكون من القُوَّة والتأييد ، من قوله ﴿ وَأَيَّدْنَاه بِرُوحِ القُدُسِ ﴾ [البقرة : 87] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْناهم ﴾ أي : اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين ، فأفردناهم بمُفْرَدة من خصال الخير ؛ ثم أبان عنها بقوله : ﴿ ذكرى الدار ﴾ .

وفي المراد بالدار هاهنا قولان :

أحدهما : الآخرة .

والثاني : الجنة .

وفي الذكرى قولان :

أحدهما : أنها من الذِّكْر ، فعلى هذا يكون المعنى : أَخْلَصْناهم بذِكْر الآخرة ، فليس لهم ذِكْر غيرها ، قاله مجاهد ، وعطاء ، والسدي .

وكان الفُضَيل ابن عِياض رحمة الله عليه يقول : هو الخوف الدائم في القلب .

والثاني : أنها التذكير ، فالمعنى : أنهم يَدْعُون الناس إلى الآخرة وإلى عبادة الله تعالى . قاله قتادة .

وقرأ نافع ﴿ بخالصةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ فأضاف " خالصة " إلى " ذِكْرَى الدار " .

قال أبو علي : تحتمل قراءة من نوَّن وجهين :

(145/663)

أحدهما : أن تكون " ذكرى " بدلاً من " خالصة " ، والتقدير : أخلصناهم بذكر الدار .

والثاني : أن يكون المعنى : أخلصناهم بأن يذكُروا الدَّار بالتأهُّب للآخرة ، والزُّهد في الدنيا .

ومن أضاف فالمعنى : أخْلَصْناهم بإخلاصهم ذِكْرى الدَّار بالخوف منها .

وقال ابن زيد : أخلصناهم بأفضل ما في الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وإنهم عندنا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ ﴾ أي : من الذين اتخذهم اللهُ صَفْوَةً فصفَّاهم من الأدناس ﴿ الأخيارِ ﴾ الذين اختارهم .

﴿ واذْكُر إسماعيلَ واليَسَعَ وذا الكفل ﴾ أي : اذْكُرْهم بفضلهم وصبرهم لِتَسْلُكَ طريقَهم ، واليَسَعُ نبيٌّ ، واسمه أعجميّ معرَّب ، وقد ذكرناه في [الأنعام : 85] وشرحنا في سورة [الأنبياء : 85] قصة ذي الكفل ، وتكلمنا في [البقرة : 125] في اسم إسماعيل ، وزعم مقاتل أن إسماعيل هذا ليس بابن إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ هذا ذِكْرٌ ﴾ أي : شرف وثناءٌ جميل يُذْكَرون به أبداً ﴿ وإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مآبٍ ﴾ أي : حُسْنَ مَرْجِعٍ يرجعون إليه في الآخرة .

ثم بيَّن ذلك المَرْجِع ، فقال : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأبوابُ ﴾ قال الفراء : إنما رُفعت " الأبوابُ " لأن المعنى : مفتحةً لهم أبوابُها ، والعرب تجعل الألف واللام خَلَفاً من الإضافة ، فيقولون : مررت على رَجُلٍ حَسَنِ العَيْنِ ، وقبيح الأنف ، والمعنى : حسنةٌ عينُه قبيحٌ أنفُه ، ومنه قوله تعالى :

﴿ فإنَّ الجحيمَ هي المأوى ﴾ [النازعات : 39] والمعنى : مأواه .

وقال الزجاج : المعنى مُفتَّحة لهم الأبواب منها ، فالألف واللام للتعريف ، لا للبدل .

قال ابن جرير : والفائدة في ذِكْر تفتيح الأبواب ، أن الله عز وجل أخبر عنها أن أبوابها تُفتَح لهم بغير فتح سُكَّانها لها بيد ، ولكن بالأمر ، قال الحسن : هي أبواب تَكلّم فتُكلّم : انفتحي انغلقي .

(146/663)

قوله تعالى : ﴿ وعِنْدَهم قاصراتُ الطَّرْفِ ﴾ قد مضى بيانه في [الصافات : 48] .

قال الزجاج : والأتراب : اللواتي أسنانُهُنَّ واحدةٌ وهُنَّ في غاية الشباب والحُسْن .

قوله تعالى : ﴿ هذا ما تُوعَدُونَ ﴾ قرأ أبو عمرو ، وابن كثير بالياء .

والباقون بالتاء .

قوله تعالى : ﴿ ليَوْمِ الحسابِ ﴾ اللام بمعنى " في " والنَّفاد : الانقطاع .

قال السدي : كلَّما أُخِذ من رزق الجنة شيءٌ ، عاد مِثْلُه .

قوله تعالى : ﴿ هذا ﴾ المعنى : هذا الذي ذكرناه ﴿ وإِنَّ لِلطَّاغِينَ ﴾ يعني الكافرين ﴿ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ ، ثم بيَّن ذلك بقوله : ﴿ جهنَّمَ ﴾ والمِهاد : الفِراش .

﴿ هذا فَلْيذوقوه ﴾ قال الفراء : في الآية تقديم وتأخير ، تقديره : هذا حميمٌ وغَسَّاقٌ فَلْيَذُوقوه ؛ وإن شئتَ جعلتَ الحميم مستأنَفاً ، كأنَّكَ قُلْتَ : هذا فلْيَذُوقوه ، ثم قلت : منه حَميمٌ ومنه غَسّاقٌ ، كقول الشاعر :

حتَّى إذا ما أَضاءَ الصُّبْحُ في غَلَسٍ . . .

وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِيٌّ ومَحْصُودُ

فأمَا الحَميم ، فهو الماء الحارّ .

وأما الغَسّاق ، ففيه لغتان ، قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص : بالتشديد ، وكذلك في [عَمَّ يتساءلون : 25] ، تابعهم لمفضل في ﴿ عَمَّ يتساؤلون ﴾ ، وقرأ الباقون بالتخفيف .

وفي الغَسّاق أربعة أقوال :

أحدها : الزَّمهرير ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقال مجاهد : الغَسّاق لا يستطيعون أن يذوقوه من برده .

والثاني : أنه ما يجري من صديد أهل النار ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال عطيّة ، وقتادة ، وابن زيد .

والثالث : أن الغَسّاق : عَيْنٌ في جهنَّم يسيل إليها حُمَةُ كلِّ ذاتِ حُمَة من حَيَّة أو عقرب أو غيرها ، فيستنقع ، فيؤتى بالآدميّ فيُغْمَس فيها غَمْسةً ، فيخرج وقد سقط جِلْدُه ولحمه عن العظام ، ويَجُرُّ لحمَه جَرَّ الرجُل ثوبه ، قاله كعب .

والرابع : أنه ما يَسيل من دموعهم ، قاله السدي .

(147/663)

قال أبو عبيدة : الغَسّاق : ما سال ، يقال : غَسَقَت العين والجرح .

وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن قتيبة قال : لم يكن أبو عبيدة [يذهب] إلى أن في القرآن شيئًا من غير لغة العرب .

وكان يقول : هو اتفاق يقع بين اللغتين ، وكان [غيرُه] يزعُم أن الغَسّاق : البارد المُنْتِن بلسان الترك .

وقيل : فَعّال ، من غَسَقَ يَغْسِقُ ؛ فعلى هذا يكون عربيّاً .

وقيل في معناه : إنه الشديد البَرْد يحْرِق من بَرْده .

وقيل : هو ما يَسيل من جلود أهل النار من الصديد .

قوله تعالى : ﴿ وآخَرُ ﴾ قرأ أبو عمرو ، والمفضّل : ﴿ وأَخَرُ ﴾ بضم الهمزة من غير مدٍّ ، فجمعا لأجل نعته بالأزواج ، وهي جمع .

وقرأ الباقون بفتح الألف ومدّه على التوحيد ، واحتجُّوا بأن العرب تنعت الاسم إذا كان فعلاً بالقليل والكثير ؛ قال الفراء : تقول : عذابُ فلانٍ ضُروبٌ شتَّى ، وضَرْبان مختلفان ؛ وإن شئتَ جعلتَ الأزواج نعتاً للحميم والغَسّاق والآخر ، فهُنَّ ثلاثةٌ ، والأشبه أن تجعله صفة لواحد .

وقال الزجاج : من قرأ " وآخرُ " بالمدّ ، فالمعنى : وعذاب آخر ﴿ مِنْ شَكْلِهِ ﴾ أي : مِثْلِ الأول .

ومن قرأ : " وأُخَرُ " فالمعنى : وأنواعٌ أُخَر ، لأن قوله : ﴿ أزواجٌ ﴾ بمعنى أنواع .

وقال ابن قتيبة : " مِنْ شَكْلِهِ " أي : مِنْ نَحوِه ، " أَزْوَاجٌ " أي : أصنافٌ .

وقال ابن جرير : " مِنْ شَكْلِهِ " أي : مِنْ نَحوِ الحَميم .

قال ابن مسعود في قوله ﴿ وآخرُ مِنْ شَكْلِهِ ﴾ : هو الزَّمهرير .

وقال الحسن : لمّا ذكر اللهُ تعالى العذابَ الذي يكون في الدنيا ، قال : " وآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ " أي

: وآخرَ لم يُرَ في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ هذا فَوْجٌ ﴾ هذا قول الزَّبانية للقادة المتقدّمين في الكفر إذا جاؤوهم بالأتباع .

وقيل : بل هو قول الملائكة لأهل النار كلمّا جاؤوهم بأمّة بعد أُمّة .

والفوج : الجماعة من الناس ، وجمعه : أفواج .

(148/663)

والمُقْتَحِمُ : الداخل في الشيء رمياً بنفسه .

قال ابن السائب : إنهم يُضْرَبونَ بالمَقامع ، فيُلْقُونَ أنفُسهم في النار ويَثبون فيها خوفاً من تلك المقامع .

فلمّا قالت الملائكة ذلك لأهل النار قالوا : لا مَرْحَباً بهم ، فاتصل الكلام كأنه قول واحد ، وإنما الأول من قول الملائكة ، والثاني : من قول أهل النار ؛ وقد بيّنّا مِثْلَ هذا في قوله ﴿ لِيَعْلَمْ أَنِّي لم أَخُنْهُ بالغَيْب ﴾ [يوسف : 52] والمَرْحَبُ والرُّحْبُ : السَّعَةُ .

والمعنى : لا اتَّسعت بهم مساكنُهم .

قال أبو عبيدة : تقول العرب للرجل : لا مَرْحَباً [بك] أي : لا رَحُبَتْ عليك الأرض .

وقال ابن قتيبة : معنى قولهم : " مَرْحَباً وأَهْلاً " أي : أتيتَ رُحْباً ، أي : سَعَة ، وأَهْلاً ، أي : أتيتَ أهلاً لا غُرباء ، فائنس ولا تستوحش ، وسهلاً ، أي : أَتيتَ سَهْلاً لا حَزْناً ، وهو في مذهب الدُّعاء ، كما تقول : لَقِيتَ خَيْراً .

قال الزجاج : و " مَرْحَباً " منصوب بقوله : رَحُبَت بلادُك مَرْحَباً ، وصادفتَ مَرْحَباً ، فأُدخلت " لا " على ذلك المعنى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهم صَالُوا النّارِ ﴾ أي : داخِلُوها كما دخلْناها ، ومُقاسون حَرَّها ، فأجابهم القوم ، ف ﴿ قالوا بَلْ أنتم لا مَرْحَباً بكم أنتم قَدَّمتموه لنا ﴾ .

إن قلنا : إن هذا قول الأتباع للرؤساء ، فالمعنى : أنتم زَيَّنتم لنا الكفر ؛ [وإن قلنا : إنه قول الأَمَّة المتأخرة للأَمَّة المتقدِّمة ، فالمعنى : أنتم شرَّعتم لنا الكفر] وبدأتم به قبلنا ، فدخلتم النار قبلنا ﴿ فبئسَ القرارُ ﴾ أي : بئس المُسْتَقَرّ والمنزل .

﴿ قالوا ربَّنا مَنْ قدَّم لنا هذا ﴾ أي : مَنْ سنَّه وشرعه ﴿ فزِدْهُ عذاباً ضِعْفاً في النار ﴾ وقد شرحناه في [الأعراف : 38] وفي القائلين لهذا قولان .

أحدهما : أنه قول جميع أهل النار ، قاله ابن السائب .

والثاني : قول الأتباع .

قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا ﴾ يعني أهل النار ﴿ ما لَنَا لا نَرَى رجالاً كُنَّا نَعُدُّهم من الأشرار ﴾ قال المفسرون : إذا دخلوا النار ، نظروا فلم يَرَوْا مَنْ كان يخالفُهم من المؤمنين ، فيقولون ذلك .

قال مجاهد : يقول أبو جهل في النار : أين صُهَيب ، أين عمّار ، أين خبّاب ، أين بلال ؟ ! .

قوله تعالى : ﴿ أَتَّخَذْناهم سِخْرِيّاً ﴾ قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ من الأشرار اتَّخَذْناهم ﴾ بالوصل على الخبر ؛ أي : [إنّا] اتَّخَذْناهم .

وهؤلاء يبتدئون بكسر الهمزة .

وقرأ الباقون بقطع الألف وفتحها على معنى الاستفهام .

وهؤلاء يبتدئون بفتح الهمزة .

وقال الفراء : وهذا استفهام بمعنى التعجُّب والتوبيخ ، والمعنى أنهم يوبِّخون أنفسهم على ما صنعوا بالمؤمنين ﴿ وسخْرِيّاً ﴾ يُقرأ بضم السين وكسرها .

وقد شرحناها في آخر سورة [المؤمنين : 110] ﴿ أَمْ زاغت عنهم الأبصارُ ﴾ أي : وهم مَعَنا في النار ولا نراهم ؟ ! .

وقال أبو عبيدة : " أَمْ " هاهنا بمعنى " بَلْ " .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذلكَ لَحَقٌّ ﴾ قال الزجاج : [أي] : إن الذي وصفْناه عنهم لَحَقٌّ .

ثم بيَّن ما هو ، فقال : هو ﴿ تَخَصُمُ أَهْلِ النّار ﴾ وقرأ أبوالجوزاء ، وأبو الشعثاء ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة : ﴿ تَخَاصُمَ ﴾ برفع الصاد وفتح الميم ، وكسر اللام من " أَهْلِ ".

وقرأ أبو مجلز ، وأبو العالية ، وأبو المتوكل ، وابن السميفع : ﴿ تَخَاصَمَ أَهْلَ ﴾ بفتح الصاد والميم ورفع اللام .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عظيمٌ ﴾ النَّبأُ : الخَبَر .

وفي المشار إليه قولان .

أحدهما : أنه القرآن ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور .

والثاني : أنه البعث بعد الموت ، قاله قتادة ، ﴿ أنتم عنه مُعْرِضُونَ ﴾ أي : لا تتفكَّرون فيه فتعلمونَ صِدْقي في نُبوَّتي ، وأن ما جئتُ به من الأخبار عن قصص الماضين لم أَعْلَمْه إلاّ بوحي من الله .

(150/663)

ويدل على هذا المعنى قوله ﴿ ما كان لِيَ من عِلْمٍ بالملأِ الأعلى ﴾ يعني الملائكة ﴿ إذ يَخْتَصِمُونَ ﴾ في شأن آدمَ حين قال الله تعالى : ﴿ إنِّي جاعلٌ في الأرض خَليفةً ﴾ [البقرة

: 30] ؛ والمعنى : إنّي ما عَلِمْتُ هذا إلاّ بوحي ، ﴿ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أي : ما يوحى إليَّ ﴿ إلاّ أنَّما أنا نذيرٌ ﴾ [أي] : إلاّ أنّي نبيٌّ أُنذرِكم وأبيّن لكم ما تأتونه وتجتنبونه .

﴿ إذ قال ربُّكَ ﴾ هذا متصل بقوله : " يختصمونَ " ، وإنما اعترضت تلك الآية بينهما .

قال ابن عباس : اختصَموا حين شُوورِوا في خَلْق آدم ، فقال الله لهم : ﴿ إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة ﴾ ، وهذه الخصومة منهم إنما كانت مُناظَرةً بينهم .

وفي مُناظَرتهم قولان :

أحدهما : أنه قولهم : ﴿ أتَجْعَلُ فيها من يُفْسِدُ فيها ﴾ [البقرة : 30] ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : أنهم قالوا : لن يَخْلُقَ اللهُ خَلْقاً إلاّ كُنّا أكرمَ منه وأَعْلَمَ .

قاله الحسن ؛ هذا قول الأكثر من المفسرين .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " رأيتُ رَبّي عز وجل ، فقال لي : فيمَ يختصِم الملأُ الأعلى ؟ قلت : أنتَ أَعْلَمُ يا ربّ ، قال : في الكفّارات والدرجات ، فأمّا الكفّارات ، فإسباغ الوُضوء في السَّبَرات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة .

وأمّا الدَّرَجات ، فإفشاء السَّلام ، وإطعامُ الطَّعام ، والصَّلاةُ باللَّيل والنّاس نيام "

قوله تعالى : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ أي : أَسْتَكْبَرْتَ بنفسكَ حين أَبَيْتَ السُّجودَ ﴿ أَمْ كُنْتَ

مِنَ العالِينَ ﴾ أي : من قوم يتكبَّرونَ فتكبَّرْتَ عن السُّجودِ لِكَونكَ من قوم يتكبَّرونَ .

قوله تعالى : ﴿ فإنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي : مَرْجُومٌ بالذمِّ واللَّعْن .

قوله تعالى : ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ وهو وقت النَّفخة الأُولى ، وهو حين موت الخلائق .

وقوله : ﴿ فبِعزَّتكَ ﴾ يمين بمعنى : فوَعِزَّتك .

(151/663)

وما أخللنا به في هذه القصة فهو مذكور في [الأعراف : 12] و [الحجر : 34] وغيرهما مما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ قال فالحَقُّ والحَقَّ أقولُ ﴾ قرأ عاصم إلا حَسْنون عن هبيرة ، وحمزة ، وخلف ، وزيد عن يعقوب : ﴿ فالحَقُّ ﴾ بالرفع في الأول ونصب الثاني .

وهذا مروي عن ابن عباس ، ومجاهد ؛ قال ابن عباس في معناه : فأنا الحقُّ وأقولُ الحَقَّ ؛ وقال غيره : خبر الحقِّ محذوف ، تقديره : الحَقُّ مِنّي .

وقرأ محبوب عن أبي عمرو بالرفع فيهما ؛ قال الزجّاج : من رفعهما جميعاً ، كان المعنى : فأنا الحقُّ والحَقُّ أقولُ .

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: بالنصب فيهما.

قال الفراء: وهو على معنى قولك: حَقّاً لآتِيَنَّكَ، ووجودُ الألف واللام وطرحُهما سواءٌ، وهو بمنزلة قولك: حمداً لله.

وقال مكّيّ بن أبي طالب: انتصب الحق الأول على الإغراء، أي: اتَّبِعوا الحَقَّ، واسمَعوا والزَموا الحَقَّ.

وقيل: هو نصب على القَسَم كما تقول: اللهَ لأَفْعَلَنَّ، فتَنْصِب حين حذفتَ الجارّ، لأن تقديره: فبالحَقّ؛ فأمّا الحَقُّ الثاني، فيجوز أن يكون الأولَ، وكرَّره توكيداً، ويجوز أن يكون منصوباً ب ﴿ أقولُ ﴾، كأنه قال: وأقولُ الحَقَّ.

وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو رجاء، ومعاذ القارىء، [والأعمش]: ﴿ فالحَقِّ ﴾ بكسر القاف ﴿ والحَقَّ ﴾ بنصبها.

وقرأ أبو عمران [الجوني]: بكسر القافين جميعاً.

وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء، وأبو نهيك: ﴿ فالحَقَّ ﴾ بالنصب ﴿ والحَقُّ ﴾ بالرفع.

قوله تعالى: ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ﴾ أي: مِنْ نَفْسِكَ وذريتك.

﴿ قُلْ ما أسألُكم عليه من أَجْرٍ ﴾ أي: على تبليغ الوحي ﴿ وما أنا من المتكلِّفينَ ﴾ أي: لم أتكلَّف إتيانَكم من قِبَلِ نَفْسي، إنما أُمرتُ أن آتيَكم، ولم أَقُل القرآنَ من تِلْقاء نفسي، إنما أُوحيَ إليَّ.

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي : ماهو ، يعني القرآن ﴿ إِلاّ ذِكْرٌ ﴾ أي : موعظة ﴿ للعالَمِين ﴾ .

﴿ ولَتَعْلِمُنَّ ﴾ يا معاشر الكُفّار ﴿ نَبَأَهُ ﴾ أي : خبر صِدق القرآن ﴿ بعد حينٍ ﴾

وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : بعد الموت .

والثاني : يوم القيامة ، رويا عن ابن عباس ، وبالأول يقول قتادة ، وبالثاني يقول عكرمة .

والثالث : يوم بدر ، قاله السدي ، ومقاتل .

وقال ابن السائب : من بقي إِلى أن ظَهَرَ أمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلِمَ ذلك ، ومن مات عَلِمَه بعد الموت .

وذهب بعض المفسرين إِلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولا وجه لذلك . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 145.159 ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾

أي اذكر صبرهم فإبراهيم ألقي في النار فصبر وإسحاق أضجع للذبح في قول فصبر ويعقوب ابتلي بفقد ولده وذهاب بصره فصبر : ﴿ أولي الأيدي ﴾ قال ابن عباس أولي القوة في طاعة الله تعالى : ﴿ والأبصار ﴾ أي في المعرفة بالله تعالى ، وقيل : المراد باليد أكثر الأعمال وبالبصر أقوى الإدراكات فعبر بهما عن العمل باليد وعن الإدراك بالبصر وللإنسان قوتان عالمية وعاملية وأشرف ما يصدر عن القوة العالمية معرفة الله تعالى وأشرف ما يصدر عن القوة العاملية طاعته وعبادته فعبر عن هاتين القوتين بالأيدي والأبصار ﴿ إنا أخلصناهم ﴾ أي اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين ﴿ بخالصة ذكرى الدار ﴾ قيل معناه أخلصناهم بذكرى الآخرة فليس لهم ذكرى غيرها ، وقيل نزعنا من قلوبهم حبَّ الدنيا وذكراها وأخلصناهم بحب الآخرة وذكراها وقيل كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله تعالى ، وقيل أخلصوا بخوف الآخرة وهو الخوف الدائم في القلب وقيل أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة ﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ يعني من الذين اختارهم الله تعالى واتخذهم صفوة وصفاهم من الأدناس والأكدار ﴿ واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل ﴾ أي اذكرهم بفضلهم وصبرهم لتسلك طريقهم ﴿ وكل من الأخيار ﴾ قوله : ﴿ هذا ذكر ﴾ أي الذي يتلى عليكم ذكر وقيل شرف وقيل جميل تذكرون به

﴿ وإن للمتقين لحسن مآب ﴾ أي حسن مرجع ومنقلب يرجعون وينقلبون إليه في الآخرة ثم ذكر ذلك فقال تعالى : ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴾ قيل تفتح أبوابها لهم بغير فتح لها بيد بل بالأمر يقال لها انفتحي انغلقي ﴿ متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب وعندهم قاصرات الطرف أتراب ﴾ أي مستويات الأسنان والشباب والحسن بنات ثلاث وثلاثين سنة وقيل متآخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن ولا يتحاسدن .

(154/663)

﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ أي قيل للمؤمنين هذا ما توعدون ، وقيل هذا ما يوعد به المتقون ﴿ إن هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾ أي دائم ما له من نفاد وانقطاع بل هو دائم كلما أخذ منه شيء عاد مثله في مكانه .

قوله تعالى : ﴿ هذا ﴾ أي الأمر الذي ذكرناه ﴿ وإن للطاغين ﴾ يعني الكافرين ﴿ لشر مآب ﴾ يعني لشر مرجع يرجعون إليه ثم بينه فقال تعالى : ﴿ جهنم يصلونها ﴾ أي يدخلونها ﴿ فبئس المهاد ﴾ أي الفراش ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ معناه هذا حميم وهو الماء الحار وغساق .

قال ابن عباس : هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرها وقيل هو ما يسيل من

القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة وقيل الغساق عين في جهنم وقيل هو البارد المنتن والمعنى هذا حميم وغساق فليذوقوه ﴿ وآخر من شكله ﴾ أي مثل الحميم والغساق ﴿ أزواج ﴾ أي أصناف أخر من العذاب ﴿ هذا فوج مقتحم معكم ﴾ قال ابن عباس هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع قالت الخزنة للقادة هذا فوج يعني جماعة الأتباع مقتحم معكم النار أي داخلوها كما دخلتموها أنتم قيل إنهم يضربون بالمقامع حتى يقتحموها بأنفسهم خوفاً من تلك المقامع قالت القادة ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ أي الأتباع ﴿ إنهم صالوا النار ﴾ أي داخلوها كما صليناها نحن ﴿ قالوا ﴾ أي قال الأتباع للقادة ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ أي لا رحبت بكم الأرض والعرب تقول مرحباً وأهلاً وسهلاً أي أتيت رحباً وسعة ﴿ أنتم قدمتموه لنا ﴾ يعني وتقول الأتباع للقادة أنتم بدأتم بالكفر قبلنا وشرعتموه لنا وقيل معناه أنتم قدمتم لنا هذا العذاب بدعائكم إيانا إلى الكفر ﴿ فبئس القرار ﴾ أي فبئس دار القرار جهنم .

﴿ قالوا ﴾ يعني الأتباع ﴿ ربنا من قدم لنا هذا ﴾ أي شرعه وسنه لنا ﴿ فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ أي ضعف عليه العذاب في النار .

(155/663)

قال ابن عباس حيات وأفاعي ﴿ وقالوا ﴾ يعني كفار قريش وصناديدهم وأشرافهم وهم في النار ﴿ ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم ﴾ أي في الدنيا ﴿ من الأشرار ﴾ يعنون بذلك فقراء المؤمنين مثل عمار وخباب وصهيب وبلال وسليمان وإنما سموهم أشراراً لأنهم كانوا على خلاف دينهم ﴿ أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ يعني أن الكفار إذا دخلوا النار نظروا فلم يروا فيها الذين كانوا يسخرون منهم فقالوا ما لنا لا نرى هؤلاء الذين اتخذناهم سخرياً لم يدخلوا معنا النار أم دخلوها فزاغت عنهم الأبصار أي أبصارنا فلم نرهم حين دخلوا .

وقيل معناه أم هم في النار ولكن احتجبوا عن أبصارنا وقيل معناه أم كانوا خيراً منا ونحن لا نعلم فكانت أبصارنا تزيغ عنهم في الدنيا فلا نعدهم شيئاً ﴿ إن ذلك ﴾ أي الذي ذكر ﴿ لحق ﴾ ثم بين ذلك فقال تعالى : ﴿ تخاصم أهل النار ﴾ أي في النار وإنما سماه تخاصما لأن قول القادة للأتباع لا مرحبا بكم وقول الأتباع للقادة بل أنتم لا مرحباً بكم من باب الخصومة .

قوله : ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لمشركي مكة ﴿ إنما أنا منذر ﴾ أي مخوف ﴿ وما من إله إلا الله الواحد ﴾ يعني الذي لا شريك له في ملكه ﴿ القهار ﴾ أي الغالب وفيه شعار بالترهيب والتخويف ثم أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب فقال تعالى : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ﴾ فكونه رباً يشعر بالتربية والإحسان والكرم

والجود وكونه غفاراً يشعر بأنه يغفر الذنوب وإن عظمت ويرحم ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ يعني القرآن قاله ابن عباس وقيل يعني القيامة .

(156/663)

﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ أي لا تتفكرون فيه فتعلمون صدقي في نبوتي وأن ما جئت به لم أعلمه إلا بوحي من الله تعالى : ﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى ﴾ يعني الملائكة ﴿ إذ يختصمون ﴾ يعني في شأن آدم حين قال الله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فإن قلت كيف يجوز أن يقال إن الملائكة اختصموا بسبب قولهم ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ والمخاصمة مع الله تعالى لا تليق ولا تمكن .

قلت لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب وذلك يشبه المخاصمة والمناظرة وهو علة لجواز المجاز فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة ﴿ إن يوحى إليّ ﴾ أي إنما علمت هذه المخاصمة بوحي من الله تعالى إليّ ﴿ إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ يعني إلا أنما أنا نبي أنذركم وأبين لكم ما تأتونه وتجتنبونه عن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أتاني ربي في أحسن صورة قال أحسبه قال في المنام فقال يا محمد هل تدري

فيم يختصم الملأ الأعلى قلت لا قال فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي أو قال في نحري فعلمت ما في السموات وما في الأرض قال يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت نعم في الكفارات والكفارات المكث في المساجد بعد الصلوات والمشي على الأقدام إلى الجمعات وإسباغ الوضوء على المكاره ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه وقال يا محمد إذا صليت فقل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون قال والدرجات إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام " وفي رواية " فقلت لبيك وسعديك في المرتين " وفيها " فعلمت ما بين المشرق والمغرب " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب .

(فصل : في الكلام على معنى هذا الحديث)

(157/663)

وللعلماء في هذا الحديث وفي أمثاله من أحاديث الصفات مذهبان أحدهما وهو مذهب السلف إمراره كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والإيمان به من غير تأويل له والسكوت عنه وعن أمثاله مع الاعتقاد بأن الله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع

البصير .

المذهب الثاني : هو تأويل الحديث ، وقيل الكلام على معنى الحديث نتكلم على إسناده فنقول قال البيهقي : هذا حديث مختلف في إسناده فرواه زهير بن محمد عن يزيد بن يزيد عن جابر عن خالد بن الحلاج عن عبد الرحمن بن عائش عن رجل من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ورواه جهضم بن عبد الله عن يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن عبد الرحمن بن عائش الحضرمي عن مالك بن عامر عن معاذ بن جبل عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ورواه موسى بن خلف العمي عن يحيى عن زيد عن جده ممطور وهو أبو سلام عن ابن السكسكي عن مالك بن يخامر وقيل فيه غير ذلك ، ورواه أبو أيوب عن أبي قلابة عن ابن عباس وقال فيه أحسبه قال في المنام ، ورواه قتادة عن أبي قلابة عن خالد بن الحلاج عن ابن عباس قال البخاري عبد الرحمن بن عائش الحضرمي له حديث واحد إلا أنهم يضطربون فيه وهو حديث الرؤية .

قال البيهقي وقد روى من طرق كلها ضعاف وفي ثبوته نظر وأحسن طريق فيه رواية جهضم بن عبد الله ثم رواية موسى بن خلف وفيهما ما يدل على أن ذلك كان في المنام .

فأما تأويله فإن الصورة هي التركيب والمصور هو المركب ولا يجوز أن يكون الباري تبارك وتعالى مصوراً ولا أن يكون له صورة لأن الصور مختلفة والهيئات متضادة ولا يجوز إضافة ذلك إليه سبحانه وتعالى فاستحال أن يكون مصوراً وهو الخالق الباري المصور فقوله أتاني

ربي في أحسن صورة يحتمل وجهين أحدهما وأنا في أحسن صورة كأنه زاده جمالاً وكمالاً وحسناً عند رؤيته وفائدة ذلك تعريفه لنا أن الله تعالى زين خلقته وحسن صورته عند رؤيته لربه وإنما التغيير وقع بعد لشدة الوحي وثقله .

(158/663)

الوجه الثاني : أن الصورة بمعنى الصفة ويرجع ذلك إلى الله تعالى والمعنى أنه رآه في أحسن صفاته من الإنعام عليه والإقبال والاتصال إليه وأنه تلقاه بالإكرام والإعظام والإجلال .

وقد يقال في صفات الله تعالى إنه جميل ومعناه أنه مجمل في أفعاله وذلك نوع من الإحسان والإكرام فذلك من حسن صفة الله تعالى وقد يكون حسن الصورة أيضاً يرجع إلى صفاته العلية من التناهي في العظمة والكبرياء والعلو والعز والرفعة حتى لا منتهى ولا غاية وراءه ، ويكون معنى الحديث على هذا تعريفنا ما تزايد من معارفه (صلى الله عليه وسلم) عند رؤية ربه عزَّ وجلَّ فأخبر عن عظمته وعزته وكبريائه وبهائه وبعده عن شبه الخلق وتنزيهه عن صفات النقص وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وقوله (صلى الله عليه وسلم) " فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي " فتأويله أن المراد باليد النعمة والمنة والرحمة وذلك شائع في لغة العرب فيكون معناه على هذا الإخبار بإكرام الله تعالى إياه

وإنعامه عليه بأن شرح صدره ونور قلبه وعرفه ما لا يعرفه أحد حتى وجد برد النعمة والمعرفة في قلبه وذلك لما نور قلبه وشرح صدره فعلم ما في السموات وما في الأرض بإعلام الله تعالى إياه وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون إذ لا يجوز على الله تعالى ولا على صفات ذاته مماسة أو مباشرة أو نقص وهذا هو أليق بتنزيهه وحمل الحديث عليه وإذا حملنا الحديث على المنام وأن ذلك كان في المنام فقد زال الإشكال وحصل الغرض ولا حاجة بنا إلى التأويل .

﴿ قال أنا خير منه ﴾ يعني لو كنت مساوياً له في الشرف لكان يقبح أن أسجد له فكيف وأنا خير منه .

(159/663)

ثم بين كونه خيراً منه فقال ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ والنار أشرف من الطين وأفضل منه وأخطأ إبليس في القياس لأن مآل النار إلى الرماد الذي لا ينتفع به والطين أصل كل ما هو نام ثابت كالإنسان والشجرة المثمرة ومعلوم أن الإنسان والشجرة المثمرة خير من الرماد وأفضل .

وقيل : هب أن النار خير من الطين بخاصية فالطين خير منها وأفضل بخواص وذلك مثل

رجل شريف نسيب لكنه عار عن كل فضيلة فإن نسبه يوجب رجحانه بوجه واحد ، ورجل ليس بنسيب ولكنه فاضل عالم فيكون أفضل من ذلك النسيب بدرجات كثيرة ﴿ قال فاخرج منها ﴾ أي من الجنة وقيل من السماء .

وقيل من الخلقة التي كان فيها وذلك لأن إبليس تجبر وافتخر بالخلقة فغير الله تعالى خلقته فاسود وقبح بعد حسنه ونورانيته ﴿ فإنك رجيم ﴾ أي مطرود ﴿ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾ فإن قلت إذا كان الرجم بمعنى الطرد وكذلك اللعنة لزم التكرار فما الفرق .

قلت الفرق أن يحمل الرجم على الطرد من الجنة أو السماء وتحمل اللعنة على معنى الطرد من الرحمة فتكون أبلغ وحصل الفرق وزال التكرار .

فإن قلت كلمة إلى لانتهاء الغاية وقوله إلى يوم الدين يقتضي انقطاع اللعنة عنه عند مجيء يوم الدين .

(160/663)

قلت معناه أن اللعنة باقية عليه في الدنيا فإذا كان يوم القيامة زيد له مع اللعنة من أنواع العذاب ما ينسى بذلك اللعنة فكأنها انقطعت عنه ﴿ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ يعني النفخة الأولى ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم

أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال فالحق والحق أقول ﴾ أي أنا أقول الحق وقيل الأول قسم يعني فبالحق وهو الله تعالى أقسم بنفسه ﴿ لأملأن جهنم منك ﴾ أي بنفسك وذريتك ﴿ وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ يعني من بني آدم ﴿ قل ما أسألكم عليه ﴾ أي على تبليغ الرسالة ﴿ من أجر ﴾ أي جعل ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أي المتقولين القرآن من تلقاء نفسي وكل من قال شيئاً من تلقاء نفسه فقد تكلف له (ق) عن مسروق قال : دخلنا على ابن مسعود فقال يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم قال الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ لفظ البخاري ﴿ إن هو ﴾ يعني القرآن ﴿ إلا ذكر ﴾ أي موعظة ﴿ للعالمين ﴾ أي للخلق أجمعين ﴿ ولتعلمن ﴾ يعني أنتم يا أهل مكة ﴿ نبأه ﴾ أي خبر صدقه ﴿ بعد حين ﴾ قال ابن عباس : بعد الموت ، وقيل يوم القيامة وقيل من بقي علم بذلك إذا ظهر أمره وعلا ومن مات علمه بعد الموت .

وقال الحسن بن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 61 . 66 ﴾

(161/663)

وقال ابن جزى :

﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ﴾

﴿ أُوْلِي الأيدي والأبصار ﴾ الأيد جمع يد وذلك عبارة عن قوتهم في الأعمال الصالحات ، وإنما غير عن ذلك بالأيدي ، لأن الأعمال أكثر ما تعمل بالأيدي ، وأما الأبصار فعبارة عن قوة فهمهم وكثرة علمهم من قولك : أبصر الرجل إذا تبينت له الأمور ، وقيل : الأيدي جمع يد بمعنى النعمة ، ومعناه أولوا النعم التي أسداها الله إليهم من النبوة والفضيلة ، وهذا ضعيف ، لأن اليد بمعنى النعمة أكثر ما يجمع على أيادي ، وقرأ ابن مسعود : ﴿ أُوْلِي الأيدي ﴾ بغير ياء ، فيحتمل أن تكون الأيدي محذوفة الياء أو يكون الأيد بمعنى القوة : كقوله : ﴿ دَاوُودَ ذَا الأيد ﴾ [ص : 17] .

﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ﴾ معننى أخلصناهم : جعلناهم خالصين لنا ، أو أخلصناهم دون غيرهم ، وخالصة صفة حذف موصوفها تقديره : بخصلة خالصة ، وأما الباء في قوله ﴿ بِخَالِصَةٍ ﴾ فإن كان أخلصناهم بمعنى خالصين ، فالباء سببية للتعليل ، وإن كان أخلصناهم بمعنى جعلناهم خصصناهم فالباء لتعدية الفعل ، وقرأ نافع بإضافة خالصة إلى ذكرى من الباقون تنوين ، وقرأ غيره بالتنوين على أن تكون ذكر بدلاً من خالصة على وجه البيان والتفسير لها ، والدار يحتمل أن يريد به الآخرة أو الدنيا ، فإن أراد به الآخرة ففي المعنى ثلاثة أقوال : أحدها أن ﴿ ذِكْرَى الدار ﴾ : يعني ذكرهم للآخرة

وجهنم فيها ، والآخر أن معناه تذكيرهم للناس بالآخرة ، وترغيبهم للناس فيما عند الله ، والثالث أن معناه ثواب الآخرة : أي أخصلناهم بأفضل ما في الآخرة ، والأول أظهر ، وإن أراد بالدار الدنيا فالمعنى حسن الثناء والذكر الجميل في الدنيا ، كقوله : ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ [مريم : 50 ، الشعراء : 84] ﴿ الأخيار ﴾ جمع خير بتشديد الياء أو خير المخفف من خير كميت مخفف من ميت ﴿ وَذَا الكفل ﴾ ذكر في [الأنبياء : 85] .

(162/663)

﴿ هذا ذِكْرٌ ﴾ الإشارة إلى ما تقدم في هذه السورة من ذكر الأنبياء ، وقيل : الإشارة إلى القرآن بجملته ، والأول أظهر وكأن قوله : ﴿ هذا ذِكْرٌ ﴾ ختام للكلام المتقدم ، ثم شرع بعده في كلام آخر كما يتم المؤلف باباً ثم يقول فهذا باب ثم يشرع في آخر .

﴿ قَاصِرَاتُ الطرف ﴾ ذكر في [الصافات : 48] ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ يعني أسنانهم سواء يقال : فلان تِرْبُ فلان إذا كان مثله في السن ، وقيل : إن أسنانهم وأسنان أزواجهم سواء .

﴿ مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ أي ما له من فناء ولا انقضاء .

﴿ هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ تقديره الأمر هذا : لما تم ذكر أهل الجنة ختمه بقوله ﴿ هذا ﴾ ثم ابتدأ وصف أهل النار ، ويعني بالطاغين الكفار .

﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ هذا مبتدأ وخبره حميم فليذوقوه : اعترافاً بينهما والحميم الماء الحار الغساق قرأه بالتشديد حفص وحمزة والكسائي والباقي بالتخفيف : غَسَاق بتخفيف السين وتشديدها وهو صديد أهل النار ، وقيل : ما يسيل من عيونهم ، وقيل : هو عذاب لا يعلمه الله .

﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ آخر معطوف على حميم وغساق تقديره : وعذاب آخر ، قيل : يعني الزمهرير ، ومعنى ﴿ مِن شَكْلِهِ ﴾ من مثله ونوعه أي من مثل العذاب المذكور ، و ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ معناه أصناف وهو صفة للحميم والغساق والعذاب الآخر والمعنى أنهما أصناف من العذاب ، وقال ابن عطية : آخر مبتدأ ، واختلف في خبره ، فقيل : تقديره ولهم عذاب آخر وقيل : أزواج مبتدأ ومن شكله خبر أزواج ، والجملة خبر آخر ، وقيل : أزواج خبر الآخر ، ومن شكله في موضع الصفة وقرئ آخر بالجمع وهو أليق أن يكون أزواج خبره لأنه جمع مثله .

(163/663)

﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ الفوج جماعة من الناس ، والمقتحم الداخل في زحام وشدة ، وهذا من كلام خزنة النار خاطبوا به رؤساء الكفار الذين دخلوا النار أولاً ، ثم دخل

بعدهم أتباعهم وهو الفوج المشار إليه ، وقيل : هو كلام أهل النار بعضهم لبعض ، والأول أظهر ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ أي لا يلقون رحباً ولا خيراً ، وهو دعاء من كلام رؤساء الكفار : أي لا مرحباً بالفوج الذي هم أتباع لهم ﴿ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ هذا حكاية كلام الأتباع للرؤساء لما قالوا لهم : لا مرحباً بهم ، أجابوهم بقولهم بل أنتم لا مرحباً بكم ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ هذا ايضاً من كلام الأتباع خطاباً للرؤساء ، وهو تعليل لقولهم : ﴿ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ ، والضمير في قدمتموه للعذاب ، ومعنى قدمتموه أوجبتموه لنا بما قدمتم في الدنيا من إغوائنا ، وأمركم لنا بالكفر .

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النار ﴾ هذا أيضاً من كلام الأتباع دعوا إلى الله تعالى أن يضاعف العذاب لرؤسائهم ، الذين أوجبوا لهم العذاب فهو كقولهم : ﴿ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار ﴾ [الأعراف : 38] والضعف زيادة المثل .

﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأشرار ﴾ الضمير في ﴿ وَقَالُواْ ﴾ لرؤساء الكفار ، وقيل : للطاغين والرجال هم ضعفاء المؤمنين ، وقيل : إن القائلين لذلك أبو جهل لعنة الله وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأمثالهم وأن الرجال المذكورين هم عمّار وبلال وصهيب وأمثالهم ، واللفظ أعم من ذلك والمعنى أنهم قالوا في جهنم : ما لنا لا نرى في النار رجالاً كنا في الدنيا نعدّهم من الأشرار .

﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً ﴾ قرئ ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ ﴾ بهمزة قطع ومعناه : توبيخ أنفسهم على اتخاذهم المؤمنين سخرياً ، وقرئ بألف وصل على أن يكون الجملة صفة لرجال وقرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿ سِخْرِيّاً ﴾ بالرفع والباقون بالكسر ﴿ سِخْرِيّاً ﴾ بضم السين من التسخير بمعنى الخدمة وبالكسر بمعنى الاستهزاء ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصار ﴾ هذا يحتمل ثلاثة أوجه : أحدها أن يكون معادلاً لقولهم : ما لنا لا نرى رجالاً ، والمعنى ما لنا لا نراهم في جهنم ليسوا فيها أم هم فيها ولكن زاغت عنه أبصارنا ، ومعنى زاغت عنهم مالت فلم نرهم . الثاني أن يكون معادلاً لقولهم : ﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً ﴾ والمعنى اتخذناهم سُخرياً . (وأم زاغت الأبصار) على هذا : مالت عن النظر إليهم إحتقاراً لهم . الثالث أن تكون أم منقطعة بمعنى بل والهمزة فلا تعادل شيئاً ما قبلها .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ ﴾ الإشرة إلى ما تقدم من حكاية أقوال أهل النار ثم فسره بقوله ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ وإعراب تخاصم بدل من حق أو خبر مبتدأ مضمر .

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ النبأ : الخبر ، ويعني به ما تضمنته الشريعة من التوحيد والرسالة والدار الآخرة ، وقيل : هو القرآن ، وقيل : هو يوم القيامة والأول أعم وأرجح .

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالمَلإِ الأَعلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة ومقصد الآية الاحتجاج على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك ، والضمير في يختصمون للملأ الأعلى ، واختصامهم هو في قصة آدم حين قال لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرض خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : 30] حسبما تضمنته قصته في مواضع من القرآن ، وفي الحديث " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى فقال : لا أدري قال في الكفارات وهي إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد " الحديث بطوله ، وقيل : الضمير في يختصمون للكفار : أي يختصمون في الملأ الأعلى فيقول بعضهم هم بنات الله ، ويقول آخرون : هم آلهة تعبد ، وهذا بعيد .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ إذ بدل من إذ يختصمون ، وقد ذكرنا في البقرة معنى سجود الملائكة لآدم ، ومعنى كفر إبليس وذكرنا في [الحجر : 29] معنى قوله تعالى : ﴿ مِن رُّوحِي ﴾ .

﴿ قَالَ يا إبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ الضمير في قال الله عز وجل ،

وبيديّ من المتشابه الذي ينبغي الإيمان به ، وتسليم علم حقيقته إلى الله ، وقال المتأوّلون : هو عبارة عن القدرة ، وقال القاضي أبو بكر بن الطيب إن اليد والعين والوجه صفات زائدة على الصفات المقرّرة ، قال ابن عطية : وهذا قول مرغوب عنه ، وحكى الزمخشري : أن معنى خلقت بيدي خلقت بغير واسطة ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ دخلت همزة الاستفهام على ألف الوصل فحذفت ألف الوصل ، وأم هنا معادلة ، والمعنى أستكبرت الآن أم كنت قديماً ممن يعلوا ويستكبر ، وهذا على وجه التوبيخ له .

﴿ رَجِيمٌ ﴾ أي لعين مطرود .

﴿ إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ يعني القيامة ، وقد تقدم الكلام على ذلك في الحجر .

(166/663)

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الباء للقسم ، أقسم إبليس بعزة الله أن يغوي بني آدم .

﴿ قَالَ فالحق والحق أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الضمير في قال هنا : لله تعالى ، والحق الأول مقسم به وهو منصوب بفعل مضمر كقولك : الله لأفعلن ، وجوابه : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ ، بالرفع وهو مبتدأ ، أو خبر مبتدأ مضمر تقديره : الحق

يميني ، وأما الحق الثاني فهو مفعول بأقول وقوله : ﴿ والحق أَقُولُ ﴾ جملة اعتراض بين القسم وجوابه على وجه التأكيد للقسم ﴿ وَمَآ أَنَآ مِنَ المتكلفين ﴾ أي الذين يتصنعون ويتحيلون بما ليسوا من أهله .

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ هذا وعيد لتعلمن صدق خبره بعد حين ، والحين يوم القيامة أو موتهم أو ظهور الإسلام يوم بدر وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 187 . 190 ﴾

(167/663)

وقال النسفى :

﴿ واذكر عِبَادَنَا ﴾ ﴿ عَبْدَنَا ﴾ مكي .

﴿ إبراهيم وإسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ فمن جمع ف ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ومن بعده عطف بيان على ﴿ عِبَادِنَا ﴾ ومن وحد ف ﴿ إبراهيم ﴾ وحده عطف بيان له ، ثم عطف ذريته على ﴿ عَبْدَنَا ﴾ ولما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت فقيل في كل عمل هذا مما عملت أيديهم وإن كان عملاً لا تتأتى فيه المباشرة بالأيدي ، أو كان العمال جذماً لا أيدي لهم وعلى هذا ورد قوله ﴿ أُوْلِى الأيدى والأبصار ﴾ أي أولي الأعمال الظاهرة

والفكر الباطنة كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يجاهدون في الله ولا يتفكرون أفكار ذوي الديانات في حكم الزمني الذين لا يقدرون على إعمال جوارحهم والمسلوبي العقول الذين لا استبصار لهم ، وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ولا من المستبصرين في دين الله وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما ﴿ إِنَّا أخلصناهم ﴾ جعلناهم لنا خالصين ﴿ بِخَالِصَةٍ ﴾ بخصلة خالصة لا شوب فيها .

﴿ ذِكْرَى الدار ﴾ ﴿ ذِكْرِى ﴾ في محل النصب أو الرفع بإضمار "أعني" ، أو "هي" ، أو الجر على البدل من ب ﴿ خَالِصَة ﴾ والمعنى إنا أخلصناهم بذكرى الدار ، والدار هنا : الدار الآخرة يعني جعلناهم لنا خالصين بأن جعلناهم يذكرون الناس الدار الآخرة ويزهدونهم في الدنيا كما هو ديدن الأنبياء عليهم السلام ، أو معناه أنهم يكثرون ذكر الآخرة والرجوع إلى الله وينسون ذكر الدنيا بخالصة ذكرى الدار ، على الإضافة مدني ونافع وهي من إضافة الشيء إلى ما يبينه ، لأن الخالصة تكون ذكرى وغير ذكرى .

و ﴿ ذِكْرى ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول أي بإخلاصهم ذكرى الدار .

وقيل : خالصة بمعنى خلوص فهي مضافة إلى الفاعل أي بأن خلصت لهم ذكرى الدار على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بِهمٍ آخر ، إنما همهم ذكرى الدار لا غير .

وقيل : ذكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا ، وهذا شيء قد أخلصهم به فليس يذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يذكرون به يقويه قوله ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [مريم : 50] ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المصطفين ﴾ المختارين من بين أبناء جنسهم ﴿ الأخيار ﴾ جمع خير أو خير على التخفيف كأموات في جمع ميت أو ميت .

﴿ واذكر إسماعيل واليسع ﴾ كأن حرف التعريف دخل على "يسع" ﴿ وَذَا الكفل وَكُلٌّ ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه أي وكلهم ﴿ مِّنَ الأخيار هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ أي هذا شرف وذكر جميل يذكرون به أبداً ، وإن لهم مع ذلك لحسن مرجع يعني يذكرون في الدنيا بالجميل ويرجعون في الآخرة إلى مغفرة رب جليل .

ثم بين كيفية حسن ذلك المرجع فقال ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدل من ﴿ حسن مئاب ﴾ ﴿ مُّفَتَّحَةً ﴾ حال من ﴿ جنات ﴾ لأنها معرفة لإضافتها إلى ﴿ عَدْنٍ ﴾ وهو علم ، والعامل فيها ما في ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ من معنى الفعل ﴿ لَّهُمُ الأبواب ﴾ ارتفاع الأبواب بأنها فاعل ﴿ مُّفَتَّحَةً ﴾ والعائد محذوف أي مفتحة لهم الأبواب منها فحذف كما حذف في قوله

﴿ فَإِنَّ الجحيم هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 39] أي لهم أو أبوابها إلا أن الأول أجود ، أو هي بدل من الضمير في ﴿ مُّفَتَّحَةً ﴾ وهو ضمير الجنات تقديره مفتحة هي الأبواب

وهو من بدل الاشتمال ﴿ مُتَّكِئِينَ ﴾ حال من المجرور في ﴿ لَهُمْ ﴾ والعامل ﴿ مُّفَتَّحَةً ﴾ ﴿ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بفاكهة كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ أي وشراب كثير فحذف اكتفاء بالأول ﴿ وَعِندَهُمْ قاصرات الطرف ﴾ أي قصرن طرفهن على أزواجهن ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ لدات أسنانهن كأسنانهم لأن التحاب بين الأقران أثبت كأن اللدات سمين أترابا لأن التراب مسهن في وقت واحد .

(169/663)

﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ ﴾ وبالياء : مكي وأبو عمر ﴿ لِيَوْمِ الحساب ﴾ أي ليوم تجزى كل نفس بما عملت ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ من انقطاع والجملة حال من الرزق والعامل الإشارة .

﴿ هذا ﴾ خبر والمبتدأ محذوف أي الأمر هذا أو هذا كما ذكر ﴿ وَإِنَّ للطاغين لَشَرَّ مَأَبٍ ﴾ مرجع ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ بدل منه ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها ﴿ فَبِئْسَ المهاد ﴾ شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ أي هذا حميم وغساق فليذوقوه ، ف ﴿ هذا ﴾ مبتدأ و ﴿ حَمِيم ﴾ خبر ﴿ وَغَسَّاقٌ ﴾ بالتشديد : حمزة وعلي وحفص .

والغساق بالتشديد والتخفيف ما يغسق من صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين إذا سال دمعها .

وقيل : الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده ﴿ وَءَاخَرُ ﴾ أي وعذاب آخر أو مذوق آخر ﴿ مِن شَكْلِهِ ﴾ من مثل العذاب المذكور .

﴿ وأَخر ﴾ بصري أي ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق في الشدة والفظاعة ﴿ أزواج ﴾ صفة ل ﴿ ءَاخَرَ ﴾ لأنه يجوز أن يكون ضروباً ﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار أي دخل النار في صحبتكم .

والاقتحام : الدخول في الشيء بشدة ، والقحمة : الشدة ، وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض أي يقولون هذا والمراد بالفوج اتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة فيقتحمون معهم العذاب ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ دعاء منهم على أتباعهم تقول لن تدعو له مرحباً أي أتيت رحباً من البلاد لا ضيقاً أو رحبت بلادك رحباً ثم تدخل عليه "لا" في دعاء السوء ، وبهم بيان للمدعو عليهم ﴿ إِنَّهُمْ صَالُو النار ﴾ أي داخلوها وهو تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم .

وقيل : ﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ ﴾ كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم ، و ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النار ﴾ كلام الرؤساء .

وقيل : هذا كله كلام الخزنة .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي الأتباع ﴿ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ أي الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحق به ، وعللوا ذلك بقوله ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ والضمير للعذاب أو لصليهم أي انكم دعوتمونا إليه فكفرنا باتباعكم ﴿ فَبِئْسَ القرار ﴾ أي النار ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الأتباع ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً ﴾ أي مضاعفاً ﴿ فِى النار ﴾ ومعناه ذا ضعف .

ونحوه قوله ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَئَاتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً ﴾ وهو أن يزيد على عذابه مثله ﴿ وَقَالُواْ ﴾ الضمير لرؤساء الكفرة ﴿ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً ﴾ يعنون فقراء المسلمين ﴿ كُنَّا نَعُدُّهُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ مِّنَ الأشرار ﴾ من الأرذال الذين لا خير فيهم ولا جدوى ﴿ اتخذناهم سِخْرِيّاً ﴾ بلفظ الإخبار : عراقي غير عاصم على أنه صفة ل ﴿ رِجَالاً ﴾ مثل ﴿ كُنَّا نَعُدُّهُمْ مّنَ الأشرار ﴾ وبهمزة الاستفهام : غيرهم على أنه إنكار على أنفسهم في الاستسخار منهم ، ﴿ سُخرِياً ﴾ مدني وحمزة وعلي وخلف والمفضل ﴿ أَمْ زَاغَتْ ﴾ مالت ﴿ عَنْهُمُ الأبصار ﴾ هو متصل بقوله ﴿ مَا لَنَا ﴾ أي ما لنا لا نراهم في النار كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها ، قسموا أمرهم بين أن يكونوا

من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار إلا أنه خفي عليهم مكانهم ﴿ إِنَّ ذلك ﴾ الذي حكينا عنهم ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لصدق كائن لا محالة لا بد أن يتكلموا به .

ثم بين ما هو فقال : هو ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ ولما شبه تقاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين سماه تخاصماً ، ولأن قول الرؤساء ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ وقول أتباعهم : ﴿ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ من باب الخصومة فسمى التقاول كله تخاصماً لاشتماله على ذلك .

(171/663)

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ مُنذِرٌ ﴾ ما أنا إلا رسول منذر أنذركم عذاب الله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ إله إِلاَّ الله ﴾ وأقول لكم إن دين الحق توحيد الله وأن تعتقدوا أن لا إله إلا الله ﴿ الواحد ﴾ بلا ند ولا شريك ﴿ القهار ﴾ لكل شيء ﴿ رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ له الملك والربوبية في العالم كله ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب ﴿ الغفار ﴾ لذنوب من التجأ إليه ﴿ قُلْ هُوَ ﴾ أي هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً وأن الله واحد لا شريك له ﴿ نَبَؤُا عظِيمٌ ﴾ لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة .

ثم ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ غافلون ﴿ مَا كَانَ لِيَ ﴾ حفص ﴿ مِنْ عِلْمٍ بالملإ الأعلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ احتج لصحة نبوته بأن ما ينبىء به عن الملإ الأعلى واختصامهم أمر ما كان له به من علم قط ، ثم علمه ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا وهو الأخذ من أهل العلم وقراءة الكتب ، فعلم أن ذلك لم يحصل له إلا بالوحي من الله تعالى .

﴿ إِن يوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي لأنما أنا نذير مبين ومعناه ما يوحى إلي إلا للإنذار فحذف اللام وانتصب بإفضاء الفعل إليه ، ويجوز أن يرتفع على معنى ما يوحى إلي إلا هذا وهو أن أنذر وأبلغ ولا أفرط في ذلك أي ما أومر إلا بهذا الأمر وحده وليس لي غير ذلك .

وبكسر ﴿ إِنَّمَا ﴾ يزيد على الحكاية أي إلا هذا القول وهو أن أقول لكم إنما أنا نذير مبين ولا أدعي شيئاً آخر .

وقيل : النبأ العظيم قصص آدم والإنباء به من غير سماع من أحد .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : القرآن .

وعن الحسن : يوم القيامة .

والمراد بالملإ الأعلى أصحاب القصة : الملائكة وآدم وإبليس ، لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم و ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ متعلق بمحذوف إذ المعنى ما كان لي من علم بكلام الملإ الأعلى وقت اختصامهم .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ بدل من ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي في شأن آدم حين قال تعالى على لسان ملك ﴿ للملائكة إِنِّى خالق بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ وقال ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِى الأَرض خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة : 30] ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ فإذا أتممت خلقته وعدلته ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ الذي خلقته ، وأضافه إليه تخصيصاً كبيت الله وناقة الله ، والمعنى أحييته وجعلته حساساً متنفساً ﴿ فَقَعُواْ ﴾ أمر من وقع يقع أي اسقطوا على الأرض والمعنى اسجدوا ﴿ لَهُ ساجدين ﴾ قيل : كان انحناء يدل على التواضع .

وقيل : كان سجدة لله أو كان سجدة التحية ﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ "كل" للإحاطة وأجمعون للاجتماع فأفاد أنهم سجدوا عن آخرهم جميعهم في وقت واحد غير متفرقين في أوقات ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ استكبر ﴾ تعظم عن السجود ﴿ وَكَانَ مِنَ الكافرين ﴾ وصار من الكافرين بإباء الأمر ﴿ قَالَ يا إبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ ما منعك عن السجود ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ أي بلا واسطة امتثالاً لأمري وإعظاماً لخطابي ، وقد مر أن ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيده فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر

بغيرهما حتى قيل في عمل القلب : هو ما عملت يداك ، حتى قيل لمن لا يدين له : يداك اوكتا وفوك نفخ .

وحتى لم يبق فرق بين قولك "هذا مما عملته" و "هذا مما عملته يداك" ، ومنه قوله ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ [يس : 71] و ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ استفهام إنكار ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ ممن علوت وفقت .

وقيل : أستكبرت الآن أم لم تزل مذ كنت من المستكبرين .

(173/663)

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ يعني لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له لأنه مخلوق مثلي فكيف أسجد لمن هو دوني لأنه من طين والنار تغلب الطين وتأكله ؟ وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهي ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ ﴾ مجرى المعطوف عطف البيان والإيضاح .

﴿ قَالَ فاخرج مِنْهَا ﴾ من الجنة أو من السماوات أو من الخلقة التي أنت فيها ، لأنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته واسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسناً وأظلم بعد ما كان نورانياً ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مرجوم أي مطرود .

تكبر إبليس أن يسجد لمن خلق من طين وزل عنه أن الله أمر به ملائكته واتبعوا أمره إجلالاً لخطابه وتعظيماً لأمره فصار مرجوماً ملعوناً بترك أمره ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى ﴾ بفتح الياء : مدني أي إبعادي من كل الخير ﴿ إلى يَوْمِ الدين ﴾ أي يوم الجزاء ولا يظن أن لعنته غايتها يوم الدين ثم تنقطع ، لأن معناه أن عليه اللعنة في الدنيا وحدها فإذا كان يوم الدين اقترن بها العذاب فينقطع الانفراد ، أو لما كان عليه اللعنة في أوان الرحمة فأولى أن تكون عليه في غير أوانها ، وكيف تنقطع وقد قال الله تعالى

﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى ﴾ فأمهلني ﴿ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ الوقت المعلوم الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى ، ويومه اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه ، ومعنى المعلوم أنه معلوم عند الله معين لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أقسم بعزة الله وهي سلطانه وقهره ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ وبكسر اللام : مكي وبصري وشامي .

﴿ قَالَ فالحق ﴾ بالرفع : كوفي غير عليّ على الابتداء أي الحق قسمي ، أو على الخبر أي أنا الحق .

وغيرهم بالنصب على أنه مقسم به كقولك الله لأفعلن كذا يعني حذف عنه الباء فانتصب وجوابه ﴿ لَأَمْلَأَنَّ ﴾ ﴿ والحق أَقُولُ ﴾ اعتراض بين المقسم والمقسم عليه وهو منصوب ب ﴿ أَقُولُ ﴾ ومعناه ولا أقول إلا الحق ، والمراد بالحق إما اسمه عز وجل الذي في قوله ﴿ أَنَّ اللهَ هُوَ الحق ﴾ [الحج : 6] أو الحق الذي هو نقيض الباطل عظمه الله بإقسامه به ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ ﴾ من جنسك وهم الشياطين ﴿ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ من ذرية آدم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحداً ﴿ قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ الضمير للقرآن أو للوحي ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله وما عرفتموني قط متصنعاً ولا مدعياً بما ليس عندي حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ما القرآن ﴿ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ من الله ﴿ للعالمين ﴾ للثقلين أوحى إليّ فأنا أبلغه .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم " للمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول ما لا يعلم " ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ ﴾ نبأ القرآن وما فيه من الوعد والوعيد وذكر البعث والنشور ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ بعد الموت أو يوم بدر أو يوم القيامة ، ختم السورة بالذكر كما افتتحها بالذكر والله الموفق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 44 .

وقال البيضاوى :

﴿ واذكر عِبَادَنَا إبراهيم وإسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾

وقرأ ابن كثير "عَبْدَنَا" وضع الجنس موضع الجمع ، أو على أن ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وحده لمزيد شرفه عطف بيان له ، ﴿ وإسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ عطف عليه . ﴿ أُوْلِى الأيدى والأبصار ﴾ أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين ، أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة ، فعبر بالأيدي عن الأعمال لأن أكثرها بمباشرتها وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مباديها ، وفيه تعريض بالبطلة الجهال أنهم كالزمنى والعماة .

﴿ إِنَّا أخلصناهم بِخَالِصَةٍ ﴾ جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة لا شوب فيها هي : ﴿ ذِكْرَى الدار ﴾ تذكرهم الدار الآخرة دائماً فإن خلوصهم في الطاعة بسببها ، وذلك لأن مطمح نظرهم فيما يأتون ويذرون جوار الله والفوز بلقائه وذلك في الآخرة ، وإطلاق ﴿ الدار ﴾ للاشعار بأنها الدار الحقيقية والدنيا معبر ، وأضاف نافع وهشام ﴿ بِخَالِصَةٍ ﴾ إلى ﴿ ذِكْرِى ﴾ للبيان أو لأنه مصدر بمعنى الخلوص فأضيف إلى فاعله .

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المصطفين الأخيار ﴾ لمن المختارين من أمثالهم المصطفين عليهم في

الخير جمع خير كشر وأشرار . وقيل جمع خير أو خير على تخفيفه كأموات في جمع ميت أو ميت .

﴿ واذكر إسماعيل واليسع ﴾ هو ابن أخطوب استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنبىء ، واللام فيه كما في قوله :

رَأَيتُ الوَلِيدَ بْنَ اليَزِيدِ مُبَارَكاً . . . وقرأ حمزة والكسائي "ولليسع" تشبيهاً بالمنقول من ليسع من اللسع . ﴿ وَذَا الكفل ﴾ ابن عم يسع أو بشر بن أيوب . واختلف في نبوته ولقبه فقيل فر إليه مائة نبي من بني إسرائيل من القتل فآواهم وكفلهم ، وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي وكلهم . ﴿ مّنَ الأخيار ﴾ .

(176/663)

﴿ هذا ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أمورهم . ﴿ ذِكْرٌ ﴾ شرف لهم ، أو نوع من الذكر وهو القرآن . ثم شرع في بيان ما أعد لهم ولأمثالهم فقال : ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ مرجع .

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ عطف بيان ﴿ لَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ وهو من الأعلام الغالبة لقوله ﴿ جنات عَدْنٍ التى وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب ﴾ وانتصب عنها . ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبواب

﴿ على الحال والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل ، وقرئتا مرفوعتين على الابتداء والخبر أو أنهما خبران لمحذوف .

﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بفاكهة كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ حالان متعاقبان أو متداخلان من الضمير في لهم لا من المتقين للفصل ، والأظهر أن يدعون استئناف لبيان حالهم فيها ومتكئين حال من ضميره ، والاقتصار على الفاكهة للإشعار بأن مطاعمهم لمحض التلذذ ، فإن التغذي للتحلل ولا تحلل ثمة .

﴿ وَعِندَهُمْ قاصرات الطرف ﴾ لا ينظرون إلى غير أزواجهن . ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ لذات لهم فإن التحاب بين الأقران أثبت ، أو بعضهن لبعض لا عجوز فيهن ولا صبية ، واشتقاقه من التراب فإنه يمسهن في وقت واحد .

﴿ هذا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحساب ﴾ لآجاله فإن الحساب علة الوصول إلى الجزاء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء ليوافق ما قبله .

﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ انقطاع .

﴿ هذا ﴾ أي الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو خذ هذا . ﴿ وَإِنَّ للطاغين لَشَرَّ مَئَابٍ ﴾ .

﴿ جَهَنَّمَ ﴾ إعرابه ما سبق. ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ حال من جهنم. ﴿ فَبِئْسَ المهاد ﴾ المهد والمفترش، مستعار من فراش النائم والمخصوص بالذم محذوف وهو ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ لقوله ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مهادا ﴾ ﴿ هذا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾، أي ليذوقوا هذا فليذوقوه، أو العذاب هذا فليذوقوه، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره: ﴿ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ وهو على الأولين خبر محذوف أي هو ﴿ حَمِيمٍ ﴾، والغساق ما يغسق من صديد أهل النار من غسقت العين إذا سال دمعها، وقرأ حفص وحمزة والكسائي "غَسَّاق" بتشديد السين.

﴿ وَءَاخَرُ ﴾ أي مذوق أو عذاب آخر، وقرأ البصريان "وأخرى" أي ومذوقات أو أنواع عذاب أخر. ﴿ مِن شَكْلِهِ ﴾ من مثل هذا المذوق أو العذاب في الشدة، وتوحيد الضمير على أنه لما ذكر أو للشراب الشامل للحميم والغساق أو للغساق.

وقرىء بالكسر وهو لغة. ﴿ أزواج ﴾ أجناس خبر ل ﴿ ءَاخَرُ ﴾ أو صفة له أو للثلاثة، أو مرتفع بالجار والخبر محذوف مثل لهم.

﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ حكاية ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار واقتحمها معهم فوج تبعهم في الضلال، والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها. ﴿ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ دعاء من المتبوعين على أتباعهم أو صفة ل ﴿ فَوْجٌ ﴾، أو حال أي مقولاً فيهم لا مرحباً أي ما أتوا بهم رحباً وسعة. ﴿ إِنَّهُمْ صَالُو النار ﴾ داخلون النار بأعمالهم مثلنا.

﴿ قَالُواْ ﴾ أي الأتباع للرؤساء . ﴿ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ بل أنتم أحق بما قلتم ، أو قيل لنا لضلالكم وإضلالكم كما قالوا : ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ قدمتم العذاب أو الصلي لنا بإغوائنا وإغرائنا على ما قدمتموه من العقائد الزائغة والأعمال القبيحة . ﴿ فَبِئْسَ القرار ﴾ فبئس المقر جهنم .

(178/663)

﴿ قَالُواْ ﴾ أي الأتباع أيضاً . ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِى النار ﴾ مضاعفاً أي ذا ضعف وذلك أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين كقوله ﴿ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب ﴾ ﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي الطاغوت . ﴿ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الأشرار ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين يسترذلون ويسخرون بهم .

﴿ أتخذناهم سُخْرِيّاً ﴾ صفة أخرى ل ﴿ رِجَالاً ﴾ ، وقرأ الحجازيان وابن عامر وعاصم بهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار منهم ، وقرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿ سُخْرِيّاً ﴾ بالضم وقد سبق مثله في "المؤمنين" . ﴿ أَمْ زَاغَتْ ﴾ مالت . ﴿ عَنْهُمُ الأبصار ﴾ فلا نراهم ﴿ أَمْ ﴾ معادلة ل ﴿ مَا لَنَا لاَ نرى ﴾ على أن المراد نفي رؤيتهم لغيبتهم كأنهم قالوا : أليسوا ها هنا أم زاغت عنهم أبصارنا ،

أو لاتخذناهم على القراءة الثانية بمعنى أي الأمرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم تحقيرهم ، فإن زيغ الأبصار كناية عنه على معنى إنكارهما على أنفسهم ، أو منقطعة والمراد الدلالة على أن استزذالهم والاستسخار منهم كان لزيغ أبصارهم وقصور أنظارهم على رثاثة حالهم .

﴿ إِنَّ ذلك ﴾ الذي حكيناه عنهم . ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال : ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ وهو بدل من لحق أو خبر محذوف ، وقرىء بالنصب على البدل من ذلك .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للمشركين . ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ مُنذِرٌ ﴾ أنذركم عذاب الله . ﴿ وَمَا مِنْ إله إِلاَّ الله الواحد ﴾ الذي لا يقبل الشركة والكثرة في ذاته . ﴿ القهار ﴾ لكل شيء يريد قهره .

(179/663)

﴿ رَبُّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ منه خلقها وإليه أمرها . ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب . ﴿ الغفار ﴾ الذي يغفر ما يشاء من الذنوب لمن يشاء ، وفي هذه الأوصاف تقرير للتوحيد ووعد ووعيد للموحدين والمشركين ، وتثنية ما يشعر بالوعيد

وتقديمه لأن المدعو به هو الإنذار .

﴿ قُلْ هُوَ ﴾ أي ما أنبأتكم به من أني نذير من عقوبة من هذه صفته وأنه واحد في ألوهيته ، وقيل ما بعده من نبأ آدم . ﴿ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ لتمادي غفلتكم فإن العاقل لا يعرض عن مثله كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة ، أما على التوحيد فما مرَّ وأما على النبوة فقوله :

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بالملإ الأعلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فإن إخباره عن تقاول الملائكة وما جرى بينهم على ما ورد في الكتب المتقدمة من غير سماع ومطالعة كتاب لا يتصوّر إلا بالوحي ، و﴿ إِذْ ﴾ متعلق ب ﴿ عِلْمٍ ﴾ أو بمحذوف إذ التقرير من علم بكلام الملأ الأعلى .

﴿ إِن يوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي لأنما كأنه لما جوز أن الوحي يأتيه بين بذلك ما هو المقصود به تحقيقاً لقوله ﴿ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ ويجوز أن يرتفع بإسناد يوحى إليه ، وقرىء "إِنَّمَا" بالكسر على الحكاية .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة إِنِّى خالق بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ بدل من ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ مبين له فإن القصة التي دخلت إذ عليها مشتملة على تقاول الملائكة وإبليس في خلق آدم عليه السلام ، واستحقاقه للخلافة والسجود على ما مر في "البقرة" ، غير أنها اختصرت اكتفاء بذلك واقتصاراً على ما هو المقصود منها ، وهو إنذار المشركين على استكبارهم على

النبي عليه الصلاة والسلام بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم عليه السلام ، هذا ومن الجائز أن يكون مقاولة الله تعالى إياهم بواسطة ملك ، وأن يفسر "الملأ الأعلى" بما يعم الله تعالى والملائكة .

(180/663)

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ عدلت خلقته . ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ وأحييته بنفخ الروح فيه ، وإضافته الى نفسه لشرفه وطهارته . ﴿ فَقَعُواْ لَهُ ﴾ فخروا له . ﴿ ساجدين ﴾ تكرمة وتبجيلاً له وقد مر من الكلام فيه في "البقرة" .

﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ .

﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ استكبر ﴾ تعظم . ﴿ وَكَانَ ﴾ وصار . ﴿ مِنَ الكافرين ﴾ باستنكاره أمر الله تعالى واستكباره عن المطاوعة ، أو كان منهم في علم الله تعالى .

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ خلقته بنفسي من غير توسط كأب وأم ، والثنية لما في خلقه من مزيد القدرة واختلاف الفعل ، وقرىء على التوحيد وترتيب الإنكار عليه للإشعار بأنه المستدعي للتعظيم ، أو بأنه الذي تشبث به في تركه وهو لا يصلح مانعاً إذ للسيد أن يستخدم بعض عبيده لبعض سيما وله مزيد اختصاص .

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ﴾ تكبرت من غير استحقاق أو كنت ممن علا واستحق التفوق ، وقيل استكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين ، وقرىء ﴿ اسْتَكْبَرْتَ ﴾ بحذف الهمزة لدلالة ﴿ أَمْ ﴾ عليها أو بمعنى الإخبار .

﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ إبداء للمانع وقوله : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ دليل عليه وقد سبق الكلام فيه .

﴿ قَالَ فاخرج مِنْهَا ﴾ من الجنة أو من السماء ، أو من الصورة الملكية . ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود من الرحمة ومحل الكرامة .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إلى يَوْمِ الدين قَالَ رَبّ فَأَنظِرْنى إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ مر بيانه في "الحجر" .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ فبسلطانك وقهرك . ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ الذين أخلصهم الله لطاعته وعصمهم من الضلالة ، أو أخلصوا قلوبهم لله على اختلاف القراءتين .

﴿ قَالَ فالحق والحق أَقُولُ ﴾ أي فأحق الحق وأقوله ، وقيل "الحق" الأول اسم الله نصبه بحذف حرف القسم كقوله :

إِنَّ عَلَيْكَ اللهَ أَنْ تُبَايِعَا . . . وجوابه ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وما بينهما اعتراض وهو على الأول جواب محذوف والجملة تفسير ل ﴿ الحق ﴾ المقول ، وقرأ عاصم وحمزة برفع الأول على الابتداء أي الحق يميني أو قسمي ، أو الخبر أي أنا ﴿ الحق ﴾ ، وقرئا مرفوعين على حذف الضمير من أقول كقوله : كله لم أصنع .

ومجرورين على إضمار حرف القسم في الأول وحكاية لفظ المقسم به في الثاني للتأكيد ، وهو سائغ فيه إذا شارك الأول وبرفع الأول وجره ونصب الثاني وتخريجه على ما ذكرناه ، والضمير في منهم للناس إذ الكلام فيهم والمراد بمنك من جنسك ليتناول الشياطين ، وقيل للثقلين وأجمعين تأكيد له أو للضميرين .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي على القرآن أو تبليغ الوحي . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ المتكلفين ﴾ المتصفين بما ليسوا من أهله على ما عرفتم من حالي فأنتحل النبوة ، وأتقول القرآن .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ ﴾ عظة . ﴿ للعالمين ﴾ للثقلين . ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ ﴾ وهو ما فيه من الوعد والوعيد ، أو صدقه بإتيان ذلك . ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ بعد الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإِسلام وفيه تهديد .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة (ص) كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات ، وعصمه الله أن يصر على ذنب صغير أو كبير " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 49.56 ﴾

(182/663)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ﴾

(183/663)

التفسير : وجه النظم كأنه تعالى يقول : يا محمد اصبر على سفاهة قومك فإنه ما كان في الدنيا أكثر مالاً أو جاهاً من داود وسليمان ، ولم يكن أكثر بلاء ومحنة من أيوب ، ومع ذلك لم يبق حالهما وحاله على نسق واحد ، فالصبر مفتاح الفرج . ﴿ وأيوب ﴾ عطف بيان و " إذ " معمول فعل آخر أو بدل اشتمال من أيوب أي زمان بلائه وكان معاصراً ليعقوب ، وامرأته ليا بنت يعقوب ، ونداؤه دعاؤه والجار محذوف أي دعاه بأني مسني على الحكاية

وإلا لقال بأنه مسه والنصب والنصيب كالرشد والرشد ، والنصب بالفتح والسكون على أصل المصدر ، وضمة الصاد لا تباع النون كقفل وقفل . ومعنى الكل التعب والمشقة . قيل : الضر في البدن والعذاب في ذهاب المال والأهل وللناس في بلائه قولان : الأول أن الذي نزل به كان من الشيطان وقد مرّ تقريره في " الأنبياء " ومجمله ما روي أن إبليس سأل ربه فقال : هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني ؟ فقال : نعم ، عبدي أيوب . قال : فسلطني على ماله فكان يجيئه ويقول : هلك من مالك كذا فيقول : الله أعطى والله أخذ ثم يحمد الله . فقال : يا رب إن أيوب لا يبالي بماله فسلطني على ولده . فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية فجاء وأخبره به فلم يلتفت إليه فقال : يا رب إنه لا يبالي بماله وولده فسلطني على جسده فأذن فيه ، فنفخ في جلد ايوب وحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فمكث في ذلك البلاء سبع سنين أو ثمان عشرة ، وصار بحيث استقذره أهل بلده فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد فجاء الشيطان إلى امرأته وقال : إن استعاذ بي زوجك خلصته من هذا البلاء فاشارت غلى أيوب بذلك فغضب لذلك – أو لوجوه أخر سبق ذكرها في سورة الأنبياء – وحلف إن عافه الله ليجلدنها مائة جلدة وعند ذلك دعا ربه شاكياً إليه لأمنه كقول يعقوب ﴿ إنما اشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ [يوسف : 86] فأجاب دعاءه وأوحى إليه ﴿ أركض ﴾ أي اضرب ﴿ برجلك ﴾ الأرض . عن قتادة : هي أرض الجابية من قرى

(184/663)

الشام . فأظهر الله تعالى من تحت رجله عيناً باردة طيبة فاغتسل منها فأذهب الله عنه كل داء في ظاهره وباطنه وردّ عليه أهله وماله .

القول الثاني : إن الشيطان لا قدرة له على إيقاع الناس في الأمراض والآفات وإلا لوقع في العالم مفاسد ولم يدع صالحاً إلا نكبه ، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة .

(185/663)

فالمراد بمس الشيطان هو الأحزان الحاصلة في قلبه بسبب وساوسه من تعظيم ما نزل به من البلاء وإغرائه على الجزع والقنوط من روح الله إلى غير ذلك مما مر ذكره في سورة الأنبياء . ولناصر القول الأول أن يقول : سلمنا أن الشيطان باستقلاله لا يقدر على المفاسد ولكنه لم لا يجوز أن يقدر على المفاسد ولكنه لم لا يجوز أن يقدر بعد الالتماس والتسليط ؟ . ولنعد إلى تفسير ما يختص بالمقام . قوله ﴿ مغتسل بارد ﴾ أي هذا مكان يغتسل فيه أي بمائة ويشرب منه ، والظاهر أنها كانت عيناً واحدة عذبة باردة ، وروى

بعضهم أنه نبعت عينان ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها فبرأ ظاهره ، وضرب رجله اليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها فزال ما في بطنه من القروح . وزعم أن تقدير الكلام هذا مغتسل وشراب بارد . وقوله ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ﴾ قيل : أحياهم الله بأعيانهم وزاد مثلهم من أولاده . وقيل : من أولاد أولاده . وقيل : كانوا قد غابوا عنه وتفرقوا فجمع الله شملهم . وقيل : كانوا مرضى فشفاهم الله والأول اصح . وقوله ﴿ رحمة منا وذكرى ﴾ مفعول لهما فكانت الهبة رحمة له وتذكيراً لذوي العقول حتى لو ابتلوا بما ابتلي به صبروا كما صبر فيفوزوا كما فاز . وإنما لم يقل ههنا ﴿ رحمة من عندنا ﴾ [الأنبياء : 84] مع أنه أبلغ اكتفاء بما مر في سورة الأنبياء وفي قوله ﴿ وذكرى لأولي الألباب ﴾ مع قوله في " الأنبياء " ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ [الآية : 84] إشارة إلى أن ذا اللب هو الذي يعبد الله . وتخصص كل من السورتين بما خص لرعاية الفاصلة قوله ﴿ وخذ ﴾ معطوف على ﴿ اركض ﴾ والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو سنبلة . قال مجاهد : هو لأيوب خاصة . وعن قتادة : هو عام في هذه الأمة . والصحيح أنه باق في المريض والمعذور لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بمخدج وقد زنى بأمة فقال : خذوا عثكالاً فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة حلل الله يمين أيوب بأهون شيء عليه

وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها . ومعنى ﴿ وجدناه صابراً ﴾ علمنا منه الصبر .

وههنا نكتة ذكرها بعض أرباب القلوب وهي أنه لما نزل في حق سليمان ﴿ نعم العبد ﴾ تارة وفي حق أيوب أخرى ، اغتم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : هذا تشريف عظيم فإن كان سببه اتفاق مملكة مثل مملكة سليمان فنحن لا نقدر عليه ، وإن كان سببه تحمل بلاء مثل بلاء أيوب فنحن لا نطيقه ، فكيف السبيل إلى تحصيله ؟ فأنزل الله تعالى قوله ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ [الحج : 78] والمراد أنك إن لم تكن نعم العبد فأنا نعم المولى ، فإن كان منك الفضول فمني الفضل ، وإن كان منك التقصير فمني النصرة والتوفيق .

(187/663)

قلت : وصف أنبياء سائر الأمم بقوله ﴿ نعم العبد ﴾ ووصف هذه الأمة بقوله ﴿ كنتم خير أمة ﴾ [آل عمران : 110] فلا تشريف فوق هذا ثم أجمل ذكر طائفة من مشاهير الأنبياء . ومعنى ﴿ أولي الأيدي والأبصار ﴾ أولي العمل والعلم لأن اليد آلة لأكثر الأعمال ، والبصر آلة لأقوى الإدراكات ، فحسن التعبير عن العمل باليد ، وعن الإدراك

بالبصر ، وفيه تعريض بأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يتفكرون أفكار ذوي العقول والرعفان فهم في حكم الزمنى والعميان ، ولولا قرينة الأبصار لكان يحتمل أن الأيدي جمع اليد النعمة . قوله ﴿ أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ الخالصة صفة أو مصدر كالعاقبة ، والدار ظرف فهي الدنيا ، أو مفعول به فهي الآخرة . والمعنى جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها وهي ذكراهم الجنة بحيث لا يشوبون ذكرها بشيء من هموم الدنيا ، أو هي تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها ، أو بسبب خلوص ذكرى الجنة ، أو بما خلص من ذكراها ، أو جعلناهم مختصين بخلة صافية عن المنقصات وهي الثناء الحسن في الدنيا ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم . و ﴿ المصطفين ﴾ جمع مصطفى وأصله مصطفين لأنه في حالة الجر بالياء قلبت الياء المتحركة ألفاً ثم حذفت ، أراد اخترناهم من بين أبناء جنسهم والأخيار جمع خير بالتشديد أو خير بالتخفيف كأموات في ميت أو موت ﴿ إسماعيل واليسع وذا الكفل ﴾ وقد مر ذكرهم في سورة الأنبياء . وحين تمم ذكر الصالحين وما لقي كل منهم من أنواع الابتلاء تثبيتاً لنبيه صلى الله عليه وسلم وهو باب من أبواب التنزيل ونوع من أنواع القرآن ، أراد أن يذكر على عقيبه باباً آخر وهو ذكر جزاء المتقين والطاغين قال ﴿ هذا ذكر ﴾ ثم قال ﴿ وإن للمتقين ﴾ كما يقول المصنف : إذا فرغ من فصل من كتابه هذا باب ثم يشرع في باب آخر . ويحتمل أن يكون من تتمة

صفات الأنبياء أي هذا الذي قصصنا عليك من أحوال هؤلاء الأنبياء شرف وذكر جميل يذكرون به أبداً . قوله ﴿ مفتحة ﴾ حال

(188/663)

والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل . قال الزجاج ﴿ الأبواب ﴾ فاعل ﴿ مفتحة ﴾ والعائد محذوف أي الأبواب منها . وقال غيره . في ﴿ مفتحة ﴾ ضمير الجنات ﴿ والأبواب ﴾ بدل الاشتمال من الضمير تقديره مفتحة هي الأبواب نظيره في بدل البعض " ضرب زيد اليد والرجل " فكان اللام عوضاً من الضمير الراجع . والمعنى أن الملائكة الموكلين بالجنات إذا رأوا صاحب الجنة فتحوا له ابوابها وحيوه بالسلام فلا يحتاجون إلى تحصيل مفاتيح ومعاناة الفتح . وقيل : أراد به وصف تلك المساكين بالسعة وجولان الطرف فيها من غير حائل . وقوله ﴿ متكئين ﴾ حال مقدرة متداخلة كما مر أو حال بعد حال أو عامله مؤخر وهو ﴿ يدعون ﴾ أي يتحكمون في ثمارها وشرابها فإذا قالوا لشيء منها أقبل حصل عندهم .

(189/663)

وقيل : يتمنون وقيل : يسألون . قال المفسرون : أراد وشراب كثير فحذف اكتفاء بالأول . وحين بين أمر المسكن والمأكول والمشروب ذكر أمر المنكوح . وقاصرات الطرف قد مر في " الصافات " أنهن اللواتي قصرن الطرف عن الالتفات إلى غير أزواجهن . والأتراب جمع ترب وهي اللدة . واشتقاقها قيل من اللعب بالتراب ، وقيل لأن التراب مسهن في وقت واحد . والسبب في اعتبار هذا الوصف أن التحاب بين الأقران أثبت . وقيل : هن وأزواجهن واحدة في الأسنان . وقيل : اراد أنهن شواب لا عجوز ولا صبية . ويروى أنهن بنات ثلاث وثلاثين . ومعنى ﴿ ليوم الحساب ﴾ قيل : لأجل الحساب لأن الحساب على الوصول إلى جزاء العمل . والظاهر أن اللام للوقت أي ما وعدتم تعطونه في يوم الحساب . ﴿ إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ﴾ انقطاع ونهاية ولا مزيد فوق ذلك فتمام النعم بدوامها . ثم بين أن حال الطاغين مضادّة لحال المتقين وأكثر المفسرين حملوا الطغيان ههنا على الكفر لأنه تعالى يحكي عنهم أنهم قالوا اتخذناهم سخرياً ، والفاسق لا يتخذ المؤمن هزواً لأن الطاغي اسم ذم ، والاسم المطلق محمول على الكامل والكامل في الطغيان هو الكافر ، ويؤيده قول ابن عباس : المعنى إن الذين طغوا عليّ وكذبوا رسلي لهم شر مصير . وحمله الجبائي على أصحاب الكبائر من أهل الإيمان وغيرهم لأن كل من تجاوز عن تكاليف الله فقد طغا ، ومنه قوله تعالى ﴿ إن الإنسان ليطغى إن رآه استغنى ﴾ [العلق : 67] والمهاد الفراش

وقد مر مراراً . وقوله ﴿ هذا ﴾ قد مر بعض إعرابه في الوقوف ، ويحتمل أن يراد العذاب هذا ثم ابتدأ فقال هو حميم أو منه ﴿ حميم ﴾ ومنه ﴿ غساق ﴾ أو ﴿ هذا فليذوقوه ﴾ معناه ليذوقوا هذا فليذوقوه كقوله ﴿ فإياي فارهبون ﴾ [النحل : 51] وقيل : ﴿ حميم ﴾ مبتدأ و ﴿ هذا ﴾ خبره . والغساق بالتخفيف والتشديد ما يغسق من صديد أهل النار . يقال : غسقت العين إذا سال دمعها . وذكر الأزهري أن الغاسق البارد ولهذا قيل الليل الغاسق لأنه

(190/663)

أبرد من النهار . فالحميم يحرق بحرّه ، والغساق يحرق ببرده . وقال الزجاج : إنه المنتن لو قطرت منه قطرة في المغرب لنتنت أهل المشرق يؤيده قول ابن عمر : هو القيح الذي يسيل منهم يجتمع فيسقونه . وقال كعب : هو عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذي سم من عقرب وحية . وعن الحسن : هو عذاب لا يعلمه إلا الله . إن الناس أخفوا الله طاعة فأخفى لهم ثواباً في قوله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : 17] وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة : ﴿ وآخر من شكله ﴾ أي ومذوقات أخر أو عذاب أو مذوق آخر من جنس هذا المذوق . و ﴿ أزواج ﴾ أي أجناس أو مقترنات صفة الآخر

لأنه جاز أن يكن مختلفات أو صفة للثلاثة المذكورة وهي حميم وغساق وشيء آخر من شكله ، والمجموع خبر هذا أو خبر هو .

(191/663)

وحين وصف مسكن الطاغين وما كولهم ومشروبهم حكى أحوالهم مع الذين كانوا يعدونهم أحباءهم في الدنيا ثم مع الذين كانوا يعدونهم أعداءهم . أما الأوّل فقوله ﴿ هذا ﴾ اي يقول الطاغون بعضهم مع بعض وذلك إذا دخلت أمة ثم دخل آخرون . والفوج الأوّل الرؤساء والثاني الأتباع . وقيل : الأول إبليس وبنوه والثاني أبناء آدم هذا ﴿ فوج ﴾ اي جمع كثيف دخل النار في صحبتكم . والاقتحام الدخول في الشدة أرادوا أن أتباعهم اقتحموا معهم العذاب كما اقتحموا معهم الضلال . وقوله ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ دعاء منهم على أتباعهم و ﴿ مرحباً ﴾ نصب على أنه مفعول به أو مصدر أي أتيت رحباً لا ضيقاً ، أو رحبت بلادك رحباً فإذا دخل عليه لا صار دعاء السوء وبهم بيان للمدعو عيلهم . وقوله ﴿ إنهم صالوا النار ﴾ تعليل لاستيجابهم اللعن . قيل : إنما قالوا ذلك ولم يصدر من الأتباع ذنب في حق من قبلهم لأن النار تكون مملوءة منهم ، أو لأن عذابهم يضاعف بسببهم . وقيل : هو إخبار لا دعاء أي وقد وردوا مورداً لا رحب فيه ولا سعة . وقيل

﴿ هذا فوج مقتحم معكم ﴾ كلام الخزنة لرؤساء الكفرة فما بين أتباعهم . وقيل : هذا كله كلام الخزنة ﴿ قالوا ﴾ أي الأتباع . ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ أي الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحق به وعللوا ذلك بقولهم ﴿ أنتم قدمتموه لنا ﴾ والضمير لما هم فيه من العذاب أو الصلي أي كنتم السبب في العمل الذي هو جزاؤه فجمعوا بين مجازين ، لأن الأتباع هم الذين عملوا عمل السوء لا رَؤساؤهم والعمل هو المقدّم لا جزاؤه . ومن جعل قوله ﴿ لا مرحباً ﴾ بهم من كلام الخزنة ، زعم أن تقدير الكلام هذا الذي دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحق به منا لإغوائكم إيانا وتسببكم لما نحن فيه . ﴿ فبئس القرار ﴾ أي المستقر النار ﴿ قالوا ﴾ أي الفوج وهو كالبدل من ﴿ قالوا ﴾ الأوّل والضعف المضاعف كما مر في " الأعراف " وأما الثاني فقوله ﴿ ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدّهم من الأشرار ﴾ أي في

(192/663)

اعتقادنا لأن دينهم على خلاف ديننا ، أو أرادوا أنهم أراذل لا خير فيهم يعنون فقراء المسلمين . وعن بعضهم أن القائلين صناديد قريش كأبي جهل والوليد وأضرابهما والرجال عمار وبلال وصهيب وأمثالهم . من قرأ ﴿ أتخذناهم ﴾ بفتح الهمزة فعلى أنه إنكار منهم

على أنفسهم وتأنيب لها بالاستسخار منهم ، وكذا فيمن قرأ ﴿ اتخذناهم ﴾ بكسر الهمزة ويقدر همزة الاستفهام محذوفة ، ومن جعلها صفة أو حالاً فلا إشكال وحينئذ يتصل ﴿ أم زاغت ﴾ بقوله ﴿ ما لنا لا نرى ﴾ أي الرجال الموصوفين في النار كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصارنا وخفي علينا مكانهم فلا نراهم وهم فيها . فأم منقطعة وكذا إن اتصل بقوله ﴿ اتخذناهم ﴾ على الاستفهام لأن الأول للإِنكار ، والثاني للاستخبار .

ويجوز أن يكون " أم " متصلة وكلاهما للإِنكار . ومعنى زيغ الأبصار ازدراؤهم وتحقيرهم يؤيده قول الحسن ، كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخرياً وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم واللام في الأبصار عوض من الضمير أي أبصارنا ﴿ إن ذلك ﴾ الذي حكينا عنهم ﴿ لحق ﴾ لا بد لهم من وقوعه لأنهم مالوا إلى عالم التضاد فيحشرون كذلك . ثم بين ما هو فقال هو ﴿ تخاصم أهل النار ﴾ لأن التلاعن والتشاتم نوع من أنواع الخصومة .

(193/663)

واعلم أنه سبحانه لما بدأ في أول السورة بأن محمداً يدعو إلى التوحيد وأن الكفار يستهزؤن منه وينسبونه إلى السخرية تارة وإلى الكذب أخرى . ثم ذكر طرفاً من قصص الأنبياء

عليهم السلام ليعلم أن الدنيا دار تكليف وبلاء لا دار إقامة وبقاء . ثم عقبه بشرح نعيم الأبرار وعقاب الأشرار ، عاد إلى تقرير المطالب المذكورة في أوّل السورة وهي صحة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق ما يدعو إليه من التوحيد والإخلاص فقال ﴿ قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد ﴾ من جميع الوجوه ﴿ القهار ﴾ لما دونه ثم أردف القهر باللطف والتربية قائلاً ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ ثم أكد صفتي القهر واللطف بقوله ﴿ العزيز الغفار ﴾ فمن عزته أدخل أهل الاستكبار النار ولمغفرته أعدّ الجنة لأهل الاستغفار . قوله ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ أي القول بأن الله واحد نبأ عظيم أو القول بالنبوّة أو بإثبات الحشر والقيامة ، وذلك لأن هذه المطالب كانت مذكورة في أوّل السورة ولأجلها سيق الكلام منجراً إلى ههنا . ويحتمل أن يراد ﴿ كتاب أنزلناه ﴾ فيه نبأ عظيم وهؤلاء الأقوام أعرضوا عن كل من هذه الأمور . ثم بين أنه حاصل من قبل الوحي بقوله ﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى ﴾ وهم الملائكة ﴿ إذ يختصمون ﴾ أي يتقاولون فيما بينهم بالوحي . والظرف متعلق بمحذوف أي بكلامهم وقت اختصامهم ، شبه التقاول بالتخاصم من حيث إن في كل منهما سؤالاً وجواباً والمشابهة علة لجواز المجاز . ثم صرح بما عليه مدار الوحي قائلاً ﴿ إن يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ أي ما يوحى إليّ إلا هذا وهو إني نذير كامل في باب التبليغ ، ويؤيده قراءة كسر ﴿ إنما ﴾ . وقيل : إن الجار محذوف أي لم يوح إليّ إلا لأن أنذر ولا أقصر . روى ابن عباس عن النبي صلى الله

عليه وسلم " أتاني الليل آت من ربي وفي رواية ربي في أحسن صورة فقال لي : يا محمد .

قلت : لبيك ربي وسعديك . قال : هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت :

(194/663)

لا أعلم . قال : فوضع يده بين كتفيّ حتى وجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السموات

وما في الأرض . قال : يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم ، في الدرجات

والكفارات ونقل الأقدام إلى الجماعات وإسباغ الوضوء في السبرات المكروهات أي في

البرد الشديد وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، ومن حافظ عليهن عاش بخير ومات بخير وكان

من ذنوبه كيوم ولدته أمه "

الحديث . قال : والدرجات إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام .

(195/663)

واعلم أن أشراف قريش إنما نازعوا محمداً صلى الله عليه وسلم بسبب الحسد والكبر

فختم الله تعالى السورة بذكر قصة آدم وما وقع فيه إبليس من الرجم واللعن حين حسد آدم

واستكبر ليصير سماع القصة زاجراً للمكلفين عن هاتين الخصلتين ، فعلى هذا يكون ﴿ إذ قال ﴾ معمولاً لمحذوف اي اذكر وقت قول ربك للملائكة . وقيل : النبأ العظيم قصص آدم والإنباء به من غير سماع من أحد . وعلى هذا فالضمير عائد إلى ما ذكره عما قريب . والمعنى ما أحكيه خبر له شأن لأنه مستفاد من الوحي . وقوله ﴿ إذ قال ﴾ بدل من ﴿ إذ يختصمون ﴾ والملأ الأعلى اصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم حين قالوا ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ [البقرة : 30] كأنهم قالوا : هؤلاء فيما بينهم . ثم خاطبوا بها الله سبحانه فلا يلزم أن يكون الله تعالى من الملأ الأعلى ويثبت له مكان . أو نقول : المراد علو الرتبة والشرف فيشمل تقاول الله وملائكته . وقال جار الله : كانت مقاولة الله سبحانه بواسطة ملك فكان المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط . وقصة آدم مذكورة في " البقرة " وفي غيرها مشروحة . والتي في هذه السورة يوافق أكثرها ما في الحجر فلا فائدة في إعادتها فلنذكر ما يختص بالمقام قوله ﴿ خلقت بيديّ ﴾ كلام المجسمة فيه ظاهر وغيرهم حملوه على وجوه منها : أن اليد عبارة عن القدرة يقال ما لي بهذا الأمر يد أي قوّة وطاقة . ومنها أنها النعمة . ومنها أنها للتأكيد وليدل على عدم الواسطة كما مر في قوله ﴿ مما عملت أيدينا ﴾ [يس : 71] وقد يقال في حق من جنى بلسانه وإن لم يكن له هذا مما كسبت يداك . والحق فيه أن السلطان العظيم لا يقدر على عمل شيء بيديه إلا إذا كانت عنايته مصروفة إلى ذلك العمل

، فحيث كانت العناية الشديدة من لوازم العمل باليد أمكن جعله مجازاً عنها . ومنها قول أرباب التأويل إنه إشارة إلى صفتي اللطف والقهر وهما يشملان جميع الصفات

(196/663)

فلا مخلوق إلا وهو مظهر لإِحدى الصفتين ، كالملك فإنه مظهر اللطف ، وكالشيطان فإِنه مظهر القهر إلا الإنسان فإِنه مظهر لكلتيهما وبذلك استحق الخلافة ومسجودية الملائكة ولهذا جاء في الأحاديث القدسية " لا أجعل ذرّية من خلقت بيديّ كمن قلت له كن فكان " قوله ﴿ استكبرت أم كنت من العالين ﴾ أي أطلبت الكبر من غير استحقاق أم كنت ممن علوت وقفت ؟ فأجاب بأنه من العالين حيث ﴿ قال أنا خير منه ﴾ وقيل : استكبرت الآن أو لم تزل منذ كنت من المتكبرين .

(197/663)

ومعنى الهمزة التقرير . قوله ﴿ فالحق ﴾ من قرأ بالرفع فعلى أنه خبر لما مر أو مبتدأ محذوف الخبر مثل ﴿ لعمرك ﴾ [الحجر : 72] أي فالحق قسمي لأملأن والحق أقوله

وهو اعتراض . ومن نصبهما فعلى أن اثاني تأكيد للأوّل ، أو على أن الأوّل للإغراء أي اتبعوا الحق وهو الله سبحانه ، أو الحق الذي هو نقيض الباطل . وقوله ﴿ منك ﴾ أي من جنسك وهم الشياطين ﴿ وممن تبعك منهم ﴾ أي من ذرّية آدم . و ﴿ أجمعين ﴾ تأكيد للتابعين والمتبوعين . ثم ختم السورة بما يدل على الاحتياط والاجتهاد في طلب هذا الدين لأن النظر إما إلى الداعي أو إلى المدعو إليه . أما الداعي فلا يسأل أجراً على ما يدعو إليه وهو القرآن أو الوحي أو النبأ ، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال ألبتة . وأما المدعو إليه فقوله ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ الذين ينتحلون ما ليس عندهم ولا دليل لهم على وجوده ، بل العقل الصريح يشهد بصحته فإني أدعوكم إلى الإقرار بالله أوّلاً ثم إلى تنزيهه عما لا يليق به ثانياً ، ثم إلى وصفه بنعوت الجمال والجلال ثالثاً ومن جملة ذلك التوحيد ونفي الأنداد والأضداد ، ثم أدعو إلى تعظيم الأرواح الطاهرة وهم الملائكة والأنبياء رابعاً ، ثم إلى الشفقة على خلق الله خامساً ، ثم أدعو إلى الإقرار بالبعث والقيامة سادساً ﴿ ليجزي الذين أسؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ [النجم : 31] فهذه أصول معتبرة في دين الإسلام يشهد بحسنها بداية العقول ويحكم ببعدها عن الباطل كل من يرجع إلى محصول وهو المراد بقوله ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ عن النبي صلى الله عليه وسلم " للمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول مالا يعلم " ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ أي خبر حقيقة القرآن وما أدعو إليه بعد حين هو

الموت لأن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . وقيل : هو القيامة . وقيل : هو حين ظهور الإسلام ولا يخفى ما فيه من التهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 601. 609 ﴾

(198/663)

وقال الخطيب الشربينى :

القصة الرابعة : قصة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى: ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ﴾ بن إبراهيم ﴿ ويعقوب ﴾ بن إسحاق ﴿ أولي الأيدي ﴾ أي : أصحاب القوى في العبادة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أولي القوة في طاعة الله تعالى ﴿ والأبصار ﴾ أي : المعرفة بالله أي : البصائر في الدين وأولي الأعمال الجليلة والعقائد الشرعية ، فعبر بالأيدي عن الأعمال لأن أكثرها بمباشرتها وبالإبصار عن المعارف لأنها أقوى عبادتها ، وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله تعالى ولا من المستبصرين في دين الله ، وفيه توبيخ أيضاً على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما فهم في حكم الزمنى الذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم والناقصي العقول الذين لا استبصار لهم ، وقال قتادة ومجاهد : أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين ، وقرأ ابن

كثير بفتح العين وسكون الباء الموحدة ولا ألف بعدها على التوحيد على أنه إبراهيم وحده لمزيد شرفه وإبراهيم عطف بيان وإسحاق ويعقوب عطف على عبدنا والباقون بكسر العين وفتح الموحدة وألف بعدها على الجمع .

(199/663)

﴿ إنا أخلصناهم بخالصةٍ ﴾ أي : اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين بخصلة خالصة لا شوب فيها وهي ﴿ ذكرى الدار ﴾ الآخرة أي : ذكرها والعمل لها لأن مطمح نظرهم الفوز بلقائه وذلك في الآخرة وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار الحقيقة والدنيا معبر ، وقرأ نافع وهشام خالصة بغير تنوين بالإضافة للبيان أو أن خالصة مصدر بمعنى الخلوص فأضيف إلى فاعله والباقون بالتنوين ، فمن أضاف فمعناه أخلصناهم بذكرى الدار الآخرة وأن يعملوا لها ، والذكرى بمعنى : الذكر ، قال مالك بن دينار : نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها ، وقال قتادة : كانوا يدعون إلى الآخرة وإلى الله عز وجل ، وقال السدي : أخلصوا الخوف للآخرة وقال ابن زيد : أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة ، ومن قرأ بالتنوين فمعناه : بخلة خالصة هي ذكرى الدار فيكون ذكرى الدار بدلاً من الخالصة أو جعلناهم مخلصين بما أخبرنا من ذكر الآخرة ، والمراد بذكرى الدار : الذكر

الجميل الرفيع لهم في الآخرة ، وقيل : إنه أبقى لهم الذكر الجميل في الدنيا وقيل : هو دعاؤه ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ (الشعراء :)

﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين ﴾ أي : اصطفاء لا يقدح فيه قادح فصاروا في غاية الرسوخ في هذا الوصف ﴿ الأخيار ﴾ أي : المختارين من أبناء جنسهم والأخيار جمع خير بالتشديد أو خير بالتخفيف كأموات في جمع ميت أو ميت ، واحتج العلماء بهذه الآية على إثبات عصمة الأنبياء عليهم السلام لأنه تعالى حكم عليهم بكونهم أخياراً على الإطلاق وهذا يفهم حصول الخيرية في جميع الأفعال والصفات بدليل صحة الاستثناء منه .

القصة الخامسة : قصة إسماعيل واليسع وذي الكفل عليهم السلام المذكورة في قوله تعالى:

(200/663)

﴿ واذكر ﴾ يا أشرف الخلق ﴿ إسماعيل ﴾ أي : أباك وما صبر عليه من البلاء بالغربة والإنفراد والوحدة والإشراف على الموت في الله غير مرة وما صار إليه بعد ذلك البلاء من الفرج والرياسة والذكر في هذه البلدة ﴿ واليسع ﴾ وهو ابن إخطوب استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنبئ واللام كما في قوله:

* * * رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً

وقرأ حمزة والكسائي بتشديد اللام وسكون الياء بعدها والباقون بسكون اللام وفتح الياء بعدها ﴿ وذا الكفل ﴾ وهو ابن عم اليسع أو بشر بن أيوب واختلف في نبوته وكفلته فقيل : فر إليه مائة نبي من بني إسرائيل من القتل فآواهم وكفلهم وقيل : كفل بعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة ﴿ وكل ﴾ أي : وكلهم ﴿ من الأخيار ﴾ فهم قوم خيرون من الأنبياء تحملوا الشدائد في دين الله تعالى وصبروا فاذكرهم يا أفضل الخلق بفضلهم وصبرهم لتسلك طريقهم .

ولما أجرى تعالى ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتمه قال مؤكداً لشأنهم وشرف ما ذكر من أعمالهم:

﴿ هذا ﴾ أي : ما تلوناه عليك من ذكرهم وذكر غيرهم ﴿ ذكر ﴾ أي : شرف في الدنيا وموعظة من ذكر القرآن ذي الذكر ثم عطف على قوله تعالى : ﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ﴾ (ص :)

ما لأضدادهم فقال تعالى رداً على من ينكر ذلك من كفار العرب وغيرهم ﴿ وإن للمتقين لحسن مآب ﴾ أي : مرجع .

ولما شوق سبحانه إلى هذا الجزاء أبدل منه أو بينه بقوله تعالى:

﴿ جنات عدنٍ ﴾ أي : إقامة في سرور وطيب عيش ، ثم إنه تعالى وصف أهل الجنة بأشياء أولها قوله تعالى : ﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ أي : أن الملائكة يفتحون لهم أبواب

الجنة ويحيونهم بالسلام كما قال تعالى : ﴿ حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها ﴾ (الزمر :)

الآية وقيل : المعنى أنهم كلما أرادوا انفتاح الأبواب انفتحت لهم وكلما أرادوا انغلاقها

انغلقت لهم ، وقيل:المراد من هذا الفتح وصف تلك المساكن بالسعة وقرة العيون فيها ،

ثانيها : قوله تعالى:

(201/663)

﴿ متكئين فيها ﴾ وقد ذكر في آيات أخر كيفية ذلك الاتكاء فقال تعالى في آية : ﴿ على

الأرائك متكئون ﴾ (يس :)

وقال في آية أخرى : ﴿ متكئين على رفرف خضر ﴾ (الرحمن :)

ثالثها : قوله تعالى ﴿ يدعون فيها ﴾ أي : الجنات ﴿ بفاكهة كثيرة وشراب ﴾ أي : كثير

فيدعون فيها بألوان الفاكهة وألوان الشراب .

ولما بين المسكن والمأكول والمشروب ذكر أمر المنكوح تتميماً للنعمة بقوله سبحانه تعالى:

﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي : حابسات الطرف أي : العين على أزواجهن

﴿ أتراب ﴾ أي : أسنانهن واحدة وهي بنات ثلاث وثلاثين سنة واحدها ترب ، وعن

مجاهد : متواخيات لا يتباغضن ولا يتغايرن وقيل : أتراب للأزواج ، قال القفال : والسبب

في اعتبار هذه الصفة لما تشابهن في الصفة والسن والجبلة كان الميل إليهن على السوية وذلك يقتضي عدم الغيرة وقرأ قوله تعالى:

﴿ هذا ما يوعدون ﴾ ابن كثير وأبو عمرو بالياء التحتية على الغيبة والباقون بالفوقية على الخطاب ، وجه الغيبة تقدم ذكر المتقين ، ووجه الخطاب الالتفات إليهم والإقبال عليهم أي : قل للمتقين هذا ما توعدون ﴿ ليوم الحساب ﴾ أي : في يوم الحساب أو لأجله فإن الحساب علة الوصول إلى الجزاء .

﴿ إن هذا ﴾ أي : المشار إليه إشارة الحاضر الذي لا يغيب ﴿ لرزقنا ما له من نفاد ﴾ أي : انقطاع وهذا إخبار عن دوام هذا الثواب .

تنبيه : من نفاد فاعل ومن مزيدة والجملة في محل نصب على الحال من رزقنا أي : غير نافد ويجوز أن يكون خبراً ثانياً لأن أي : دائم .

ولما وصف تعالى ثواب المؤمنين وصف بعده عقاب الظالمين ليكون الوعيد مذكوراً عقب الوعد والترغيب عقب الترهيب بقوله تعالى:

﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾ أي : مرجع هذا في مقابلة قوله تعالى : ﴿ وإن للمتقين لحسن مآب ﴾ (ص :)

والمراد بالطاغين الكفار ، وقال الجبائي : على مذهبه الفاسد هم أصحاب الكبائر سواء كانوا كفاراً أم لا واحتج الأول بأن هذا ذم مطلق فلا يحمل إلا على الكامل في الطغيان وهو الكافر ، واحتج هو بقوله تعالى : ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ (العلق : ٠)

فدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل لصاحب الكبيرة لأن من تجاوز حد تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى ورد هذا بأن المراد بالإنسان هنا هو الكافر أيضاً .

تنبيه : هذا يحتمل أن يكون مبتدأ والخبر مقدر أي : كما ذكر ، كما قدره الزمخشري ، وقدره أبو علي بقوله : هذا للمؤمنين ، وقال الجلال المحلي : هذا المذكورة للمؤمنين ويحتمل أن يكون خبر متبدأ مضمر أي : الأمر هذا وقوله تعالى:

﴿ جهنم ﴾ أي : الشديدة الإضطرام الملاقية لمن يدخلها بغاية العبوسة والتجهم فيه إعراب جنات المتقدم ، وقوله تعالى : ﴿ يصلونها ﴾ أي : يدخلونها فيباشرون شدائدها حال من جهنم ﴿ فبئس المهاد ﴾ أي : المهد والفراش مستعار من فرش النائم ، وهذا معنى قوله تعالى ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ (الأعراف :)

شبه الله تعالى ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفرش للنائم ، والمخصوص بالذم محذوف أي : هي وفي قوله تعالى:

﴿ هذا ﴾ أي : العذاب المفهوم مما بعده أوجه من الإعراب أحدها : أنه خبر مبتدأ مضمر

أي : الأمر هذا ، ثم استأنف أمر إقفال ﴿ فليذوقوه ﴾ ثانيها : أنه مبتدأ أو خبره ﴿ حميمٌ وغساقٌ ﴾ واسم الإشارة يكتفي بواحده في المثنى كقوله تعالى : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ (البقرة :)

(203/663)

أو يكون المعنى : هذا جامع بين الوصفين ويكون قوله تعالى : ﴿ فليذوقوه ﴾ جملة اعتراضية . ثالثها : أنه مبتدأ والخبر محذوف أي : هذا كما ذكر وهذا للطاغين وقيل غير ذلك ، وقيل : هذا على التقديم والتأخير والتقدير : هذا حميم وغساق فليذوقوه وقيل التقدير : جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه ثم يبتدئ فيقول : حميم وغساق أي : منه حميم وغساق ، والحميم : الحار الذي انتهى حره ، والغساق : ما يسيل من صديد أهل النار ، وقال كعب : هو عين في جهنم يسيل إليها كل ذوب حية وعقرب ، وقال أبو عمرو : هو القيح الذي يسيل من أهل النار فيجتمع فيسقونه ، وقال قتادة : هو ما يغسق أي : يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار ولحومهم وفروج الزناة ، وقيل : هو المنتن بلغة الترك ، حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة بالمغرب لأنتنت أهل المشرق ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بتشديد السين والباقون بالتخفيف وقرأ أبو عمرو :

﴿ وأخر ﴾ بضم الهمزة على جمع أخرى مثل الكبرى والكبر أي : أصناف أخر من العذاب ﴿ من شكله ﴾ أي : مثل المذكور من الحميم والغساق ، والباقون بفتح الهمزة ممدودة على التوحيد على أنه لما ذكروا ، اختار أبو عبيدة الجمع لأنه تعالى نعته بالجمع فقال سبحانه وتعالى : ﴿ أزواج ﴾ أي : أصناف أي : عذابهم من أنواع مختلفة ، ويقال لهم عند دخولهم النار بأتباعهم:

﴿ هذا فوج ﴾ أي : جمع كثيف ﴿ مقتحم ﴾ أي : داخل ومفعوله محذوف أي : مقتحم النار ﴿ معكم ﴾ بشدة ، فيقول المتبوعون : ﴿ لا مرحباً بهم ﴾ أي : لاسعة عليهم أو لا سمعوا مرحباً وقولهم : ﴿ إنهم صالو النار ﴾ أي : داخلون النار بأعمالهم مثلنا تعليل لاستجابة الدعاء عليهم ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ (الأعراف :)

وقال الكلبي : إنهم يضربون بالمقامع حتى يوقعوا أنفسهم في النار خوفاً من تلك المقامع .

(204/663)

﴿ قالوا ﴾ أي : الأتباع ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم ﴾ أي : إن الدعاء الذي دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به منا وعللوا ذلك بقولهم ﴿ أنتم قدمتموه ﴾ أي : الكفر ﴿ لنا ﴾

أي : بدأتم به قبلنا وشرعتموه وسننتموه لنا ، وقيل : أنتم قدمتم هذا العذاب لنا بدعائكم إيانا إلى الكفر ﴿ فبئس القرار ﴾ أي : النار لنا ولكم .

﴿ قالوا ﴾ أي : الأتباع أيضاً ﴿ ربنا من قدم لنا هذا ﴾ أي : شرعه وسنه لنا ﴿ فزده عذاباً ضعفاً ﴾ أي : مثل عذابه على كفره ﴿ في النار ﴾ قال ابن مسعود : يعني حيات وأفاعي .

﴿ وقالوا ﴾ أي : الطاغون وهم في النار ﴿ ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار ﴾ يعنون فقراء المؤمنين كعمار وخباب وصهيب وبلال وسلمان الذين كانوا يسترذلونهم ويسخرون بهم وقولهم:

﴿ أتخذناهم سخرياً ﴾ صفة أخرى ل ﴿ رجالاً ﴾ أي : كنا نسخر بهم في الدنيا ، وقرأ نافع وحمزة والكسائي بضم السين والباقون بكسرها ﴿ أم زاغت ﴾ أي : مالت ﴿ عنهم الأبصار ﴾ أي : فلم نرهم حين دخلوها وقال ابن كيسان : أي : أم كانوا خيراً منا ونحن لا نعلم فكانت أبصارنا تزيغ عنهم في الدنيا فلا نعدهم شيئاً .

﴿ إن ذلك ﴾ أي : الذي حكيناه عنهم ﴿ لحق ﴾ أي : واجب وقوعه فلا بد أن يتكلموا به ثم بين ذلك الذي حكاه عنهم بقوله تعالى : ﴿ تخاصم أهل النار ﴾ أي : في النار وإنما سماه تخاصماً لأن قول القادة للأتباع : لا مرحباً بهم ، وقول الأتباع للقادة : بل أنتم لا مرحباً بكم من باب الخصومة .

تنبيه : يصح في تخاصم أوجه من الإعراب أحدها : أنه بدل من لحق ، الثاني : أنه عطف بيان ، الثالث : أنه خبر ثان لأن ، الرابع : أنه خبر مبتدأ مضمر أي : هو تخاصم .

ولما شرح سبحانه نعيم أهل الثواب وعقاب أهل العذاب عاد إلى تقرير التوحيد والنبوة والبعث المذكورات أول السورة بقوله تعالى:

(205/663)

﴿ قل ﴾ يا أفضل الخلق للمشركين ﴿ إنما أنا منذرٌ ﴾ أي : مخوف بالنار لمن عصى ﴿ و ﴾ لا بد من الإقرار بأنه ﴿ ما من إله إلا الله ﴾ أي : الجامع لجميع الأسماء الحسنى ﴿ الواحد القهار ﴾ فكونه واحداً يدل على عدم الشريك وكونه قهاراً مشعر بالتخويف والترهيب .

ولما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب بقوله تعالى : شأنه:

﴿ رب السموات ﴾ أي : مبدعها وحافظها على علوها وسعتها وإحكامها بما لها من الزينة والمنافع ﴿ والأرض ﴾ أي : على سعتها وضخامتها وكثافتها وما فيها من العجائب ﴿ وما بينهما ﴾ أي : الخافقين من الفضاء والهواء وغيرهما من العناصر والنبات والحيوانات العقلاء وغيرها ربي كل شيء من ذلك إيجاداً وإبقاء على ما يريد وإن كره ذلك

المربوب فدل ذلك على قهره وتفرده ﴿ العزيز ﴾ أي : الغالب على أمره ﴿ الغفار ﴾ فكونه رباً يشعر بالتربية والكرم والإحسان والجود وكونه غفاراً يشعر بأن العبد لو أقدم على المعاصي والذنوب ثم تاب إليه فإنه يغفرها برحمته ، وهذا الموصوف بهذه الصفات هو الذي تجب عبادته لأنه هو الذي يخشى عقابه ويرجى ثوابه وقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : لهم ﴿ هو نبأ عظيم ﴾ يعود على القرآن وما فيه من القصص والأخبار ، وقيل : تخاصم أهل النار ، وقيل : على ما تقدم من إخباره صلى الله عليه وسلم بأنه نذير مبين وبأن الله تعالى إله واحد متصف بتلك الصفات الحسنى وقوله تعالى:

﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ صفة لنبأ أي : لتمادي غفلتكم فإن العاقل لا يعرض عن مثله كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة إما على التوحيد فما مر وإما على النبوة ، فقوله تعالى:

﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى ﴾ أي : الملائكة فقوله : ﴿ بالملأ ﴾ متعلق بقوله ﴿ من علم ﴾ وضمن معنى الإحاطة فلذلك تعدى بالباء ﴿ إذ يختصمون ﴾ أي : في شأن آدم عليه السلام حين قال الله عز وجل : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ (البقرة :)

الآية ، فإن قيل : الملائكة لا يجوز أن يقال إنهم اختصموا بسبب قولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ (البقرة :)

فالمخاصمة مع الله تعالى كفر ؟

أجيب : بأنه لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب وذلك يشبه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة المجاز فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة ، ولما أمر الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أن يذكر هذا الكلام على سبيل الزجر أمره أن يقول:

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ يوحي إلي إلا أنما ﴾ أي : أني ﴿ أنا نذير مبين ﴾ أي : بين الإنذار فأبين لكم ما تأتونه وما تجتنبونه ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "رأيت ربي في أحسن صورة ، قال ابن عباس رضي الله عنه : أحسبه قال في المنام فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ، قلت : أنت أعلم أي رب مرتين ، قال : فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي أو قال : في نحري فعلمت ما في السموات وما في الأرض ، وفي رواية ثم تلا هذه الآية ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ (الأنعام :)

ثم قال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى قلت : نعم في الدرجات والكفارات ، قال : وما هن قلت : المشي على الأقدام إلى الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات وإسباغ الوضوء في المكاره ، قال : من يفعل ذلك يعيش بخير ويموت بخير وخرج

من خطيئته كيوم ولدته أمه وقال : يا محمد إذا صليت فقل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون" قال : ومن الدرجات إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام ، وفي رواية : "فقلت : لبيك وسعديك في المرتين وفيهما فعلمت ما بين المشرق والمغرب" أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب ، وللعلماء في هذا الحديث وأمثاله من أحاديث الصفات مذهبان .

(207/663)

أحدهما : مذهب السلف وهو إقراره كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والإيمان به من غير تأويل له والسكوت عنه مع الاعتقاد بأن ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

والمذهب الثاني : مذهب الخلف : وهو تأويل الحديث فقوله صلى الله عليه وسلم رأيت ربي في أحسن صورة يحتمل وجهين:

أحدهما : وأنا في أحسن صورة كأنه زاده جمالاً وكمالاً وحسناً عند رؤيته لربه وإنما التغيير وقع بعده لشدة الوحي وثقله .

الثاني : أن الصورة بمعنى الصفة ويرجع ذلك إلى الله تعالى والمعنى : أنه رآه في أحسن صفاته من الإنعام عليه والإقبال إليه والله تعالى تلقاه بالإكرام والإعظام فأخبر صلى الله عليه وسلم عن عظمته وكبريائه وبهائه وبعده عن شبهه بالخلق وتنزيهه عن صفات النقص وأنه ليس كمثله وهو السميع البصير وقوله صلى الله عليه وسلم فوضع يده بين كتفي إلخ فالمراد باليد : النعمة والمنة والرحمة وذلك شائع في لغة العرب فيكون معناه على هذا الإخبار بإكرام الله تعالى إياه وإنعامه عليه بأن شرح صدره ونور قلبه وعرفه ما لم يعرفه حتى وجد برد النعمة والرحمة والمعرفة في قلبه ، وذلك لما نور قلبه وشرح صدره فعلم ما في السموات وما في الأرض بإعلام الله تعالى إياه فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون إذ لا يجوز على الله تبارك وتعالى ولا على صفات ذاته سبحانه مماسة أو مباشرة أو نقص وهذا أليق بتنزيهه وحمل الحديث عليه ، وإذا حملنا الحديث على المنام وإن ذلك كان في المنام فقد زال الإشكال لأن رؤية الباري سبحانه في المنام على الصفات الحسنة دليل على البشارة والخير والرحمة للرائي ، وسبب اختصام الملأ الأعلى وهم الملائكة في الكفارات وهي الخصال المذكورة في الحديث في أيها أفضل ، وسميت هذه الخصال كفارات ؛ لأنها تكفر الذنوب عن فاعلها فهي من باب تسمية الشيء باسم لازمه وسمي ذلك مخاصمة لما مر في السؤال والجواب المتقدمين وقوله تعالى:

﴿ إذ ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من إذا الأولى كما قاله الزمخشري ، وأن يكون منصوباً باذكر كما قاله أبو البقاء أي : واذكر إذ ﴿ قال ربك للملائكة إني خالق ﴾ أي : جاعل ﴿ بشراً من طين ﴾ هو آدم عليه السلام ، فإن قيل : كيف صح أن يقول لهم إني خالق بشراً وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل ؟

أجيب : بأنه قد يكون قال لهم : إني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم .

﴿ فإذا سويته ﴾ أي : أتممت خلقه ﴿ ونفخت ﴾ أي : أجريت ﴿ فيه من روحي ﴾ فصار حياً حساساً متنفساً وإضافة الروح إليه تعالى إضافة تشريف لآدم عليه السلام والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه يسري في بدن الإنسان سريان الضوء في الفضاء وكسريان النار في الفحم والماء في العود الأخضر ﴿ فقعوا ﴾ أي : خروا ﴿ له ساجدين ﴾ .

﴿ فسجد الملائكة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كلهم أجمعون ﴾ فيه تأكيدان ، وقال الزمخشري : كل للإحاطة وأجمعون للاجتماع فأفادا معاً أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا أنهم سجدوا جميعاً في وقت واحد غير متفرقين في أوقات ، انتهى . فإن قيل : كيف ساغ السجود لغير الله ؟

أجيب : بأن الممنوع هو السجود لغير الله تعالى على وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يأباه العقل إلا أن يكون فيه مفسدة فينهى الله تعالى عنه والأولى في الجواب أنه سجود تحية بالانحناء كما قاله الجلال المحلي .

﴿ إلا إبليس استكبر ﴾ أي : تكبر وتعظم عن السجود ، فإن قيل : كيف استثنى من الملائكة عليهم السلام إبليس وهو من الجن ؟

أجيب : بأنه قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله تعالى ﴿ فسجد الملائكة ﴾ ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلاً وقال الجلال المحلي : هو أبو الجن وكان من الملائكة وعلى هذا فلا سؤال ﴿ وكان ﴾ أي : وصار ﴿ من الكافرين ﴾ باستكباره عن أمر الله تعالى أو كان من الكافرين في الأزمنة الماضية في علم الله تعالى .

(209/663)

تنبيه : المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر ، والكفار إنما نازعوا محمداً صلى الله عليه وسلم بسبب الحسد والكبر فذكر الله تعالى هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجراً عن هاتين الخصلتين المذمومتين .

﴿ قال ﴾ الله تعالى ﴿ يا إبليس ﴾ سماه بهذا الاسم لكونه من الإبلاس وهو انقطاع الرجاء إشارة إلى تحتم العقوبة له ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ وبين ما يوجب طاعته ولو أمر بتعظيم ما لا يعقل بقوله تعالى معبراً بأداة ما لا يعقل عمن كان عند السجود له عاقلاً كامل العقل : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ أي : توليت خلقه من غير توسط سبب كأب وأم والتثنية في اليد لما في خلقه من مزيد القدرة ، وقوله تعالى : ﴿ أستكبرت ﴾ استفهام توبيخ أي : تعظمت بنفسك الآن عن السجود له ﴿ أم كنت من العالين ﴾ أي : من القوم الذين يتكبرون فتكبرت عن السجود له لكونك منهم فأجاب إبليس بقوله:

﴿ قال أنا خيرٌ منه ﴾ أي : لو كنت مساوياً له في الشرف لكان يقبح أن أسجد له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيراً منه بقوله : ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ والنار أشرف من الطين بدليل أن الأجرام الفلكية أفضل من الأجرام العنصرية ، والنار أقرب العناصر من الفلك والأرض أبعد عنه ، فوجب كون النار أفضل من الأرض ، وأيضاً فالنار خليفة الشمس والقمر في إضاءة العالم عند غيبتهما والشمس والقمر أشرف من الأرض فخليفتهما في الإضاءة أفضل من الأرض ، وأيضاً فالكيفية الفاعلة الأصلية إما الحرارة وإما البرودة والحرارة أفضل من البرودة لأن الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت ، وأيضاً فالنار لطيفة والأرض كثيفة واللطافة أفضل من الكثافة ، وأيضاً فالنار مشرقة

والأرض مظلمة والنور خير من الظلمة ، وأيضاً فالنار خفيفة تشبه الروح والأرض كثيفة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الأرض .

(210/663)

والدليل على أن الأرض أفضل من النار إنها أمينة مصلحة فإذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة ، والنار خائنة مفسدة لكل ما سلمته إليها ، وأيضاً فالنار بمنزلة الخادم لما في الأرض إن احتيج إليها استدعيت استدعاء الخادم وإن استغني عنها طردت ، وأيضاً فالأرض مستولية على النار لأنها تطفئ النار ، وأيضاً فإن استدلال إبليس يكون أصله خيراً من أصله استدلال فاسد لأن أصل الرماد النار وأصل البساتين المزهرة والأشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الأشجار المثمرة خير من الرماد ، وأيضاً هب أن اعتبار هذه الجهة توجب الفضيلة إلا أن هذا يمكن أن يعارض بجهة أخرى توجب الرجحان مثل إنسان نسيب عار عن كل الفضائل فإن نسبه يوجب رجحانه إلا أن الذي لا يكون نسيباً قد يكون كثير العلم والزهد فيكون أفضل من النسيب بدرجات لا حد لها فكذبت مقدمة إبليس ، فإن قيل : هب أن إبليس أخطأ في القياس لكن كيف لزمه الكفر في تلك المخالفة وتقرير السؤال من وجوه ؛ الأول : أن قوله تعالى : ﴿ اسجدوا ﴾ أمر وهو

يحتمل الوجوب والندب فكيف يلزم العصيان فضلاً عن الكفر ، الثاني : هب أنه للوجوب وقلتم إن إبليس ليس من الملائكة فأمر الملائكة بالسجود لآدم لا يدخل فيه إبليس ، الثالث : هب أنه تناوله إلا أن تخصيص العام بالقياس جائز فجاز أن يخصص نفسه من عموم ذلك الأمر بالقياس . الرابع : هب أنه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأموراً به إلا أن هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر ؟

أجيب : بأن صيغة الأمر وإن لم يدل على الوجوب يجوز أن ينضم إليها من القرائن ما يدل عليه وههنا حصلت تلك القرائن وهي قوله تعالى : ﴿ أستكبرت أم كنت من العالين ﴾ (ص :)

فعلم بذلك أن الأمر للوجوب وأنه مخاطب بالسجود فلما أتى بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه إنما ذكر القياس ليتوصل به إلى القدح في أمر الله تعالى وتكليفه وذلك يوجب الكفر . ولما ذكر إبليس لعنه الله تعالى هذا القياس الفاسد .

(211/663)

﴿ قال ﴾ الله تعالى له : ﴿ فاخرج ﴾ أي : بسبب تكبرك ونسبتك الحكيم الذي لا اعتراض عليه إلى الجور ﴿ منها ﴾ أي : من الجنة ، وقيل : من الخلقة التي أنت فيها لأنه كان

يفتخر بخلقته فغير الله تعالى خلقته فاسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسناً وأظلم بعد ما كان نورانياً ، وقيل : من السموات ﴿ فإنك رجيم ﴾ أي : مطرود لأن من طرد رمي بالحجارة فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد ، فإن قيل : الطرد هو : اللعن فيكون قوله تعالى:

﴿ وإن عليك لعنتي ﴾ مكرراً أجيب : بحمل الطرد على ما تقدم وتحمل اللعنة على الطرد من رحمة الله تعالى وأيضاً قوله تعالى : ﴿ وإن عليك لعنتي ﴾ ﴿ إلى يوم الدين ﴾ أي : الجزاء أفاد أمراً وهو طرده إلى يوم القيامة فلا يكون تكراراً وقيل : المراد بالرجم كون الشياطين مرجومين بالشهب ، فإن قيل : كلمة إلى لانتهاء الغاية فكأن لعنة الله إبليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع ، أجيب : بأنها كيف تنقطع وقد قال تعالى : ﴿ فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾ (الأعراف :)

فأفاد أن عليه اللعنة في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة اقترن عليه مع اللعنة من العذاب ما تنسى عنده اللعنة فكأنها انقطعت .

تنبيه : قال تعالى هنا ﴿ لعنتي ﴾ وفي آية أخرى ﴿ اللعنة ﴾ وهما وإن كانا في اللفظ عاماً وخاصاً إلا أنهما من حيث المعنى عامان بطريق اللازم لأن من كانت عليه لعنة الله تعالى كانت عليه لعنة كل أحد لا محالة ، وقال تعالى : ﴿ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ (البقرة :)

ولما صار إبليس ملعوناً مطروداً:

﴿ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾ أي: الناس طلب الإنظار إلى يوم البعث لأجل أن يتخلص من الموت لأنه إذا أنظر ليوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجيء البعث لا يموت فحينئذ يتخلص من الموت فلذلك:

﴿ قال ﴾ تعالى: ﴿ فإنك من المنظرين ﴾ .

(212/663)

﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ أي: وقت النفخة الأولى فيموت فيها فلم يجبه إلى دعائه كما قال تعالى: ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ (الرعد:)

ومعنى المعلوم: أنه معلوم عند الله تعالى معين لا يتقدم ولا يتأخر فلما أنظره الله تعالى إلى ذلك الوقت.

﴿ قال فبعزتك ﴾ أقسم بعزة الله تعالى وهي قهره وسلطانه ﴿ لأغوينهم أجمعين ﴾ ثم استثنى من ذلك ما ذكره الله بقوله:

﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ أي: الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم من إضلاله أو أخلصوا قلوبهم على اختلاف القراءتين فإن نافعاً والكوفيين قرؤوا بفتح اللام بعد

الخاء والباقون بالكسر .

تنبيه : قيل إن غرض إبليس من هذا الاستثناء أنه لا يقع في كلامه الكذب لأنه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوي الكل لظهر كذبه حين يعجز عن إغواء عباد الله تعالى المخلصين وعند هذا يقال : إن الكذب شيء يستنكف منه إبليس فليس يليق بالمسلم وهذا يدل على أن إبليس لا يغوي عباد الله تعالى المخلصين ، وقد قال تعالى في صفة يوسف عليه السلام ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ (يوسف :)

فتحصل من مجموع الآيتين أن إبليس ما أغوى يوسف عليه السلام وما نسب إليه من القبائح كذب وافتراء .

ولما قال إبليس ذلك:

﴿ قال ﴾ تعالى : ﴿ فالحقُ ﴾ أي : فبسبب إغوائك وغوايتهم أقول الحق ﴿ والحقَ أقول ﴾ أي : لا أقول إلا الحق فإن كل شيء قلته ثبت فلم يقدر أحد على نقضه ولا نقصه ، وقرأ عاصم وحمزة برفع الأول ونصب الثاني ، والباقون بنصبهما فنصب الثاني بالفعل بعده ونصب الأول بالفعل المذكور ، أو على الإغراء أي : الزموا الحق ، أو على المصدر أي : أحق الحق ، أو على نزع حرف القسم ورفعه على أنه مبتدأ محذوف الخبر أي : فالحق مني أو فالحق قسمي وجواب القسم .

﴿ لأملأن جهنم منك ﴾ أي : بنفسك وذريتك ﴿ وممن تبعك منهم ﴾ أي : من الناس ، وقوله تعالى : ﴿ أجمعين ﴾ فيه وجهان أظهرهما أنه توكيد للضمير في منك ولمن عطف عليه في قوله تعالى : ﴿ وممن تبعك ﴾ والمعنى : لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحداً ، وجوز الزمخشري أن يكون تأكيداً للضمير في منهم خاصة فقدر لأملأن جهنم من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس ، ثم قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ قل ﴾ أي : لقومك ﴿ ما أسألكم عليه ﴾ أي : على تبليغ الرسالة أو القرآن ﴿ من أجر ﴾ أي : جعل ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أي : المتصفين بما لست من أهله على ما عرفتم من حالي فانتحل النبوة وأتقوّل القرآن وكل من قال شيئاً من تلقاء نفسه فهو متكلف له ، وعن مسروق قال : دخلنا على عبد الله بن مسعود فقال : يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول من لا يعلم : الله أعلم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ وقيل المعنى : إن هذا الذي أدعوكم إليه ليس يحتاج في معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته .

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هو ﴾ أي : القرآن ﴿ إلا ذكر ﴾ أي : عظة وشرف ﴿ للعالمين ﴾

أي : للخلق أجمعين .

﴿ ولتعلمن ﴾ جواب قسم مقدر ومعناه لتعرفن يا كفار مكة ﴿ نبأه ﴾ أي : خبر صدقه وهو ما فيه من الوعد والوعيد أو صدقه بإتيان ذلك ﴿ بعد حين ﴾ قال ابن عباس وقتادة : بعد الموت ، وقال عكرمة : يوم القيامة ، وقال الحسن : ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين ، وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله تعالى لداود عشر حسنات وعصمه أن يصر على ذنب صغير أو كبير" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 220 . 232 ﴾

(214/663)

وقال القاسمي :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾

أي : ذوي القوة في العبادة ، والأفكار في معرفة الله تعالى . قال القاشاني : أي : العمل والعلم ، لنسبة الأول إلى الأيدي ، والثاني إلى البصر والنظر ، وهم أرباب الكمالات العملية والنظرية .

قال الشهاب : الأيدي ، مجاز عن القوة ، مجاز مرسل . والأبصار : جمع بصر بمعنى بصيرة ، وهو مجاز أيضاً ، لكنه مشهور فيه ، وإذا أريد بـ : الأيدي الأعمال ، فهو من ذكر السبب وإرادة المسبب . والأبصار : بمعنى البصائر مجاز عما يتفرع عليهما من المعارف كالأول أيضاً . وعلى الوجهين ، فيه تعريض بأن من ليس كذلك ، كان لا جارحة له ولا بصر . انتهى .

﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم ﴾ أي : صفيناهم عن شعوب صفات النفوس ، وكدورة حظوظها [في المطبوع : حظوظا] ، وجعلناهم لنا خالصين بالمحبة الحقيقية : ﴿ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ أي : الباقية والمقر الأصلي ، أي : استخلصناهم لوجهنا بسبب تذكرهم العلم القدس ، وإعراضهم عن معدن الرجس ، مستشرقين لأنوارنا ، لا التفات لهم إلى الدنيا ، وظلماتها أصلاً .

لطيفة :

قال السمين : قرأ نافع وهشام : ﴿ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ بالإضافة ، وفيها أوجه : أحدها – أن يكون أضاف خالصة إلى ذكرى للبيان ؛ لأن الخالصة قد تكون ذكرى وغير ذكرى . كما قوله : ﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ [النمل : 7] ، لأن الشهاب يكون قبساً وغيره . الثاني – أن الخالصة مصدر بمعنى إخلاص ، فيكون مصدراً مضافاً لمفعوله ، والفاعل محذوف ، أي : بأن أخلصوا ذكر الدار ، وتناسوا عند ذكرها ذكر الدنيا ، وقد جاء

المصدر على فاعلة كالعاقبة ، أو يكون المعنى بأن أخلصنا نحن لهم ذكرى الدار ، وقرأ الباقون بالتنوين وعدم الإضافة ، وفيها أوجه :

(215/663)

أحدها - أنها مصدر بمعنى الإخلاص ، فيكون : ﴿ ذِكْرَى ﴾ منصوباً به ، وأن يكون بمعنى الخلوص ، فيكون : ﴿ ذِكْرَى ﴾ مرفوعاً به ، والمصدر يعمل منوناً كما يعمل مضافاً ، أو يكون : خالصة ، اسم فاعل على بابه . و : ﴿ ذِكْرَى ﴾ : بدل ، أو بيان لها ، أو منصوب بإضمار : أعني ، أو هو مرفوع على إضمار مبتدأ ، و : ﴿ الدَّارِ ﴾ يجوز أن يكون مفعولاً به بـ : ﴿ ذِكْرَى ﴾ وأن يكون ظرفاً إما على الاتساع ، وإما على إسقاط الخافض . وخالصة : إن كانت صفة ، فهي صفة لمحذوف ؛ أي : بسبب خصلة خالصة . انتهى .

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ ﴾ أي : المختارين من أبناء جنسهم لقربنا : ﴿ الْأَخْيَارِ ﴾ أي : المنزهين عن شوائب الشرور ، على أنه جمع : خير ، مقابل شر ، الذي هو أفعل تفضيل . أو هو جمع : خيّر ، المشدد ، أو المخفف منه

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴾ أي : بالنبوة والرسالة ، للهداية

والإصلاح . واليسع : خليفة إلياس وكان خادمه ، ويقال له بالعبرانية : اليشاع ، كما يسمى إلياس فيها : إيليا ، وفي التوراة نبأ طويل عن اليسع ، ونبوته ، ومعجزاته ، صلوات الله عليه . وتقدم علم أنباء هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، في سورة الأنبياء .

(216/663)

﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ أي : شرف لهم . والذكر : يتجوز به عنه . قال الشهاب : لأن الشرف يلزمه الشهرة ، والذكر بين الناس ، فتجوز به عنه بعلاقة اللزوم . فيكون المعنى : أي : في ذكر قصصهم وتنويه الله بهم شرف لهم . واختار الزمخشري أن المعنى : هذا نوع من الذكر وهو القرآن ؛ أي : فالتنوين للتنويع . والمراد بالذكر القرآن . فذكره إنما هو للانتقال من نوع الكلام إلى آخر .

قال الزمخشري : لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه ، وهو باب من أبواب التنزيل, ونوع من أنواعه ، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، قال : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أي : إقامة وخلود : ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ أي : متى جاءوها يرونها في انتظارهم .

﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا ﴾ أي : على الأرائك : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ أي :

مهما طلبوا وجدوا ، وأحضر كما أرادوا .

﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أي : لا ينظرن إلى غير أزواجهن ، أو يمنعهن طرف الأزواج أن تنظر للغير ، لشدة الحسن . وهو أبلغ . أو بمعنى حور الطرف جمع أحور ، والثوب المقصور يشبه بالحواري في بياضه ونصاعته : ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي : متساوية في السن والرتب ، لا عجوز بينهن ، جمع ترب ، بكسر فسكون ، وهو من يولد معه في وقت واحد ، كأنهما وقعا على التراب في زمان واحد . فـ : ترب فعل بمعنى مفاعل ومتارب . وكمثل بمعنى ، مماثل .

(217/663)

﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي : لوقت جزائه . واللام تعليلية . فإن ما وعده لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة ، وهي تظهر بالحساب وتقع بعده . فجعل كأنه علة لتوقف إنجاز الوعد عليه ، فالنسبة لليوم والحساب مجازية . ولو جعلت اللام بمعنى بعد كما في : كتب لخمس ، سلم مما ذكر . أفاده الشهاب .

﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ أي : انقطاع .

﴿ هَذَا ﴾ أي : باب في وصف الجنة وأهلها ، فهو مبتدأ خبر مقدر ، أو الأمر هذا ، فهو

خبر لمحذوف ، أو مفعول لمحذوف : ﴿ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أي : الفراش ، مستعار من فراش النائم .

﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ وهو ما يغسق من صديد أهل النار ؛ أي : يسيل .

وجملة : ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ معترضة بين المبتدأ وخبره .

﴿ وَآخَرُ ﴾ أي : ومذوق ، أو عذاب آخر : ﴿ مِن شَكْلِهِ ﴾ أي : هذا المذوق ، أو العذاب في الشدة والهوان : ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ أي : أجناس وأصناف . ثم بين ما يقال للرؤساء الطاغين ، إذا أدخلوا النار .

(218/663)

﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ أي : هذا جمع من أتباعكم ، وأشباهكم ، أهل طبائع السوء والرذائل المختلفة ، مقتحم معكم في مضايق المذلة ، ومداخل الهوان . والاقتحام ركوب الشدة ، والدخول فيها . وقوله : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ أي : دعاء من الرؤساء على أتباعهم . أو صفة لـ : فوج . أو حال ؛ أي : مقولاً فيهم : ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ أي : ما أتوا ربهم رحباً وسعة ، لشدة عذابهم ، وكونهم في الضيق والضنك ، واستيحاش بعضهم من بعض ؛ لقبح المناظر وسوء المخابر : ﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ أي : داخلوها بأعمالهم مثلنا

.

﴿ قَالُوا ﴾ أي : التباع للرؤساء : ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ أي : بل أنتم أحق بما قلتم ، لتضاعف عذابكم بضلالكم ، وإضلالكم : ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أي : قدمتم العذاب بإضلالنا وإغوائنا .

قال القاشاني : وهذه المقاولات قد تكون بلسان المقال ، وقد تكون بلسان الحال ، أي : لأن الوضع لا يختص بالحقيقة ، إلا أن الأظهر الأول ، ويؤيده قوله تعالى بعدُ : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ : ﴿ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أي : المستقر جهنم .

﴿ قَالُوا ﴾ أي : الأتباع أيضاً : ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [الأحزاب : 68] .

(219/663)

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي : الطاغون ، أو الأتباع : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين يسترذلونهم ، ويسخرون بهم .

﴿ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً ﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لـ : رجالاً . وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم ، وتأنيب لها في الاستسخار منهم . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ

زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾ أي : مالت عنهم كبراً ، وتنحّت عنهم أنفة . والمعنى أي : الفعلين فعلنا بهم ، السخرية منهم أم الإزراء بهم ، على معنى إنكار الأمرين على أنفسهم ، تحسراً وندامة على ما فعلوا ، وعلى ما حاق بهم وحدهم من سوء العذاب ، وقيل : أم ، بمعنى بل ؛ أي : بل زاغت عنهم أبصارنا لخفاء مكانهم علينا في النار ؛ كأنهم يسلّون أنفسهم بالمحال ، يقولون : أو لعلهم معنا في جهنم ، ولكن لم يقع بصرنا عليهم ، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات ، وهو قوله عز وجل : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : 44] ، إلى قوله : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ [الأعراف : 49] ، الآية . وقيل : أم بمعنى بل أيضاً ، أي : بل زاغت عنهم أبصارنا لكونها في دار أخرى وهي دار النعيم . وقرئ سُخْرِيّاً بضم السين ، وكسرها .

(220/663)

﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أي : الذي حكي عنهم : ﴿ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ أي : لواقع وثابت . و : ﴿ تَخَاصُمُ ﴾ بدل من حق ، أو خبر لمحذوف . وقرئ بالنصب على البدل من : ﴿ ذَلِكَ ﴾ قال الزمخشري : فإن قلت : لم سمي ذلك تخاصماً ؟ قلت : شبه تقاولهم ،

وما يجري بينهم من السؤال والجواب ، بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك ، ولأن قول الرؤساء : ﴿ لا مَرْحَبَاً بِهِمْ ﴾ وقول أتباعهم : ﴿ بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ من باب الخصومة . فسمي التقاول كله تخاصماً ؛ لأجل اشتماله على ذلك . انتهى .

فكتب الناصر عليه : هذا يحقق ما تقدم من أن قوله : ﴿ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴾ من قول المتكبرين الكفار . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ من قول التباع . فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين . فيتحقق التخاصم . خلافاً لمن قال أن الأول من كلام خزنة جهنم , والثاني من كلام الأتباع ؛ فأنه على هذا التقدير ، إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين . فالتفسير الأول أمكن وأثبت . انتهى .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ أي : رسول مخوّف : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ ﴾ أي : بلا ولد ، ولا شريك : ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ أي : الغالب على خلقه .

﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي : من الخلق والعجائب : ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أي : الذي لا يغلب إذا عاقب العصاة : ﴿ الْغَفَّارُ ﴾ أي : لمن تاب وأناب .

(221/663)

﴿ قُلْ هُوَ ﴾ أي : الذي أنذرتكم به من التوحيد ، ومن البعثة به : ﴿ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ أي : لتمادي غفلتكم ، فإن العاقل لا يعرض عن مثله ، كيف ، وقد قامت عليه الحجج الواضحة ؟ أما على التوحيد ، فما مرّ من آثار قدرته وصنعه البديع . أما على بعثته صلى الله عليه وسلم به ، به فقوله :

﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي : فإن إخباره عن محاورة الملائكة ، وما جرى بينهم ، على ما ورد في الكتب المتقدمة ، من غير سماع ومطالعة كتاب ، لا يتصور إلا بالوحي .

قال القاشاني : وفرق بين اختصام الملأ الأعلى ، واختصام أهل النار بقوله في تخاصم أهل النار : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ ﴾ وفي اختصام الملأ الأعلى : ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ لأن ذلك حقيقي لا ينتهي إلى الوفاق أبداً ، وهذا عارضيّ نشأ من عدم اطلاعهم على كمال آدم عليه السلام ، الذي هو فوق كمالاتهم ، وانتهى إلى الوفاق عند قولهم : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة : 32] ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة 33] ، على ما ذكر في البقرة عند تأويل هذه القصة . انتهى .

وبالجملة ، فالاختصام المذكور في الآية ، هو المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : 30] ، قال الرازي : وهو أحسن ما قيل فيه .

(222/663)

ثم قال : ولو قيل : كيف جازت مخاصمة الملائكة معه تعالى ؟ قلنا : لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب ، وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة ، والمشابهة علة لجواز المجاز ، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه . انتهى .

وملخصه : أن : ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ استعارة تبعية لـ : يتقاولون . وقيل : معنى الآية ، نفي علم الغيب عنه صلّى الله عليه وسلم ، ورد اقتراحهم عليه أن يخبرهم بما يحدث في الملأ الأعلى من التخاصم ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ [الأنعام 50] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الملك : 26] ، ولذا قال بعد :

﴿ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ وقرئ : ﴿ إِنَّما ﴾ بالكسر على الحكاية .

تنبيهات :

الأول – قال الرازي : واعلم أن قوله : ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ ترغيب في النظر

والاستدلال ، ومنع من التقليد ؛ لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الْإِنْسَانْ فيها على الحق ، يفوز بأعظم أبواب السعادة ، وبتقدير أن يكون الْإِنْسَانْ فيها على الباطل ، وقع في أعظم أبواب الشقاوة . فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية ، وصريح العقل يوجب على الْإِنْسَانْ أن يأتي فيها بالاحتياط التام ، وأن لا يكتفي بالمساهلة والمسامحة .

الثاني – قدمنا أن أكثر المفسرين على تأويل الاختصام بالتقاول في شأن آدم عليه السلام مع الملائكة . وقيل : مخاصمتهم مناظرتهم بينهم في استنباط العلم ، كما تجري المناظرة بين أهل العلم في الأرض . حكاه الكرماني في " عجائبه " .

(223/663)

وذهب ابن كثير إلى أنه عنى به ما كان في شأن آدم عليه السلام ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه في تفضيله عليه . وإن قوله تعالى بعد : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ [البقرة : 30] ، تفسير له . ولم أره مأثوراً عن أحد . بل المأثور عن ابن عباس ، وغيره ما تقدم ، من أنه في شأن آدم والملائكة ، وهذا كله على إثبات علم التخاصم بالوحي ، بتقدير : ما كان لي من علم لولا الوحي . ولا تنس القول الآخر ، والنظم الكريم يصدق على الكل

بلا تناف . والله أعلم .

وقد جاء ذكر تخاصم الملأ الأعلى في حديث الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه قال : احتبس علينا رسول الله صلّى الله عليه وسلم ذات غداة عن صلاة الصبح ، حتى كدنا أن نتراءى قرن الشمس . فخرج صلّى الله عليه وسلم سريعاً ، فثوب بالصلاة ، فصلى ، وتجوز في صلاته . فلما سلم قال صلّى الله عليه وسلم : < كما أنتم > . ثم أقبل إلينا فقال : < إني قمت من الليل فصليت ما قدّر لي ، فنعست في صلاتي حتى استيقظت ، فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة . فقال : يا محمد ! أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري ، يا رب ! أعادها ثلاثاً . فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري . فتجلى لي كل شيء وعرفت . فقال : يا محمد ! فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام . قال : سل . قلت : اللهم ! إني أسألك فعل الخيرات ,وترك المنكرات , وحب المساكين, وأن تغفر لي وترحمني , وإذا أردت فتنة بقوم ، فتوفني غير مفتون , وأسألك حبك , وحب من يحبك , وحب عمل يقربني إلى حبك > . وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : < إنها حق فادرسوها وتعلموها > .

قال ابن كثير : هذا حديث المنام المشهور . ومن جعله يقظة فقد غلط ، وهو في السنن من طرق ، وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي به ، وقال : حسن صحيح .

ثم قال ابن كثير : وليس هذا الاختصام المذكور في القرآن ، فإن هذا قد فسر ، وأما الاختصام الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا . انتهى . يعني قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أي : فخروا له ساجدين تعظيماً وتكريماً ، إذا عدلت خلقته ، وأحييته بنفخ الروح فيه . فإذا : بدل من إذا الأولى مفصل لما أجمل قبلها من الاختصام ، وهذا ما رآه الزمخشري وتابعه ابن كثير . وقدّر أبو البقاء : اذكر ، وهو الأظهر عندي ، ويعضده القول الثاني في الآية المتقدمة .

: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ ﴾ أي : تعظم : ﴿ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : باستكباره أمر الله تعالى ، واستكباره عن طاعته

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أي : بنفسي من غير توسط ، كأب وأم : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ ﴾ أي : أعرض لك التكبر ، والاستنكاف : ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ أي : عليه زائداً في المرتبة .

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ يعني أن الروح الحيواني الناري أشرف من المادة الكثيفة البدنية ، وعاب عنه ما تضمنته من الحكمة الإلهية ، واللطيفة الربانية حتى تمسك بالقياس ، وعصى الله تعالى في السجود .

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي : من الجنة أو السماء : ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي : مطرود من الرحمة ، ومحل الكرامة .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال القاشاني : الرجيم واللعين من بعُد عن الحضرة القدسية ، المنزهة عن المواد الرجسية ، بالانغماس في الغواشي الطبيعية ، والاحتجاب بالكوائن الهيولانية . ولهذا وقت اللعن بيوم الدين ، وحدد نهايته به ؛ لأن وقت البعث والجزاء هو زمان تجرد الروح عن البدن ومواده ، وحينئذ لا يبقى تسلطه على الْإِنْسَانْ . انتهى .

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ وهو القيامة الكبرى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ وهم الذين أخلصهم الله لنفسه من أهل العناية عن ثوب الكدورات النفسية وحجب الأنانية ، وصفى فطرتهم عن خلط ظلمة النشأة البشرية .

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴾ جملة معترضة ، للتأكيد ؛ أي : ولا أقول إلا الحق .

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : تبعك في التعزز ، والاستكبار ، والإباء عن الحق ، والمحاجة في الباطل : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي : على القرآن ، أو الوحي . قال القاشاني : أي : لا غرض لي في ذلك . فإن أقوال الكامل المحقق بالحق مقصودة بالذات ، غير معلومة بالغرض : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ قال الزمخشري : أي : المتصنعين الذين يتحلون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتموني قط متصنعاً ، ولا مدعياً ما ليس عندي ، حتى أنتحل النبوة ، وأدعي القرآن .

تنبيه :

في الآية ذم التكليف . وقد روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : يا أيها الناس ! من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم . فإن من العلم أن يقول

الرجل لما لا يعلم : الله أعلم . فإن الله عز وجل قال لنبيكم صلّى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ .

(227/663)

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي : عظة وتذكير لهم . وهذا كقوله : ﴿ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : 19] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : 17] : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ أي : عند ظهور الإسلام ، وانتشاره ، ودخول الناس فيه أفواجاً أفواجاً ، من صحة خبره ، وإنه الحق والصدق . وهذا من أجلّ معجزات القرآن ؛ لأنه من الغيوب التي ظهر مصداقها ؛ إذ كان زمن الإخبار به زمن قلة من المؤمنين ، وخوف من المشركين ، فلم يمض ردح من الزمن حتى أبدل الله قلتهم كثرة ، وضعفهم قوة ، وخوفهم أمناً ، وكمونهم ظهوراً وانتشاراً . فصدق الله العظيم ، وصدق نبيه الكريم ، وحقت كلمة الله على الكافرين ، والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 151.164 ﴾

(228/663)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) ﴾

وبعد عرض هذه القصص الثلاثة بشيء من التفصيل ؛ ليذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصبر على ما يلاقيه . يجمل السياق الإشارة إلى مجموعة من الرسل . في قصصهم من البلاء والصبر ، ومن الإنعام والإفضال ، ما في قصص داود وسليمان وأيوب عليهم السلام ومنهم سابقون على هؤلاء معروف زمانهم . ومنهم من لا نعرف زمانه ، لأن القرآن والمصادر المؤكدة لدينا لم تحدده :

﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار . . ﴾ .

وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وكذلك إسماعيل كانوا قبل داود وسليمان قطعاً . ولكن لا نعرف أين هم من زمان أيوب . وكذلك اليسع وذو الكفل . ولم يرد عنهما في القرآن إلا إشارات سريعة . وهناك نبي من أنبياء بني إسرائيل اسمه بالعبرية : " إليشع " وهو اليسع بالعربية على وجه الترجيح . فأما ذو الكفل فلا نعرف عنه شيئاً إلا صفته هذه ﴿ من الأخيار ﴾ .

هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49)

كانت الجولة الماضية حياة وذكرى مع المختارين من عباد الله . مع الابتلاء والصبر . والرحمة والإفضال . كان هذا ذكراً لتلك الحيوات الرفيعة في الأرض وفي هذه الدنيا . . ثم يتابع السياق خطاه مع عباد الله المتقين ، ومع المكذبين الطاغين إلى العالم الآخر وفي الحياة الباقية . . يتابعه في مشهد من مشاهد القيامة نستعير لعرضه صفحات من كتاب مشاهد القيامة في القرآن مع تصرف قليل :

(229/663)

يبدأ المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع وفي الأجزاء ، وفي السمات والهيئات : منظر ﴿ المتقين ﴾ لهم ﴿ حسن مآب ﴾ . ومنظر ﴿ الطاغين ﴾ لهم ﴿ شر مآب ﴾ . فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب . ولهم فيها راحة الاتكاء ، ومتعة الطعام والشراب . ولهم كذلك متعة الحوريات الشواب . وهن مع شبابهن ﴿ قاصرات الطرف ﴾ لا يتطلعن ولا يمددن بأبصارهن . وكلهن شواب أتراب . وهو متاع دائم ورزق من عند الله ﴿ ما له من نفاد ﴾ .

وأما الآخرون فلهم مهاد . ولكن لا راحة فيه . إنه جهنم ﴿ فبئس المهاد ﴾ ! ولهم فيه

شراب ساخن وطعام مقيئ . إنه ما يغسق ويسيل من أهل النار ! أو لهم صنوف أخرى من جنس هذا العذاب . يعبر عنها بأنها ﴿ أزواج ﴾ !

ثم يتم المشهد بمنظر ثالث حي شاخص بما فيه من حوار : فها هي ذي جماعة من أولئك الطاغين من أهل جهنم . كانت في الدنيا متوادة متحابة . فهي اليوم متناكرة متنابذة كان بعضهم يملي لبعض في الضلال . وكان بعضهم يتعالى على المؤمنين ، ويهزأ من دعوتهم ودعواهم في النعيم . كما يصنع الملأ من قريش وهم يقولون :

﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ ﴾ . .

ها هم أولاء يقتحمون النار فوجاً بعد فوج وها هم أولاء يقول بعضهم لبعض : ﴿ هذا فوج مقتحم معكم ﴾ . . فماذا يكون الجواب ؟ يكون الجواب في إندفاع وحنق : ﴿ لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ﴾ ! فهل يسكت المشتومون ؟ كلا ! إنهم يردون : ﴿ قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم . أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ! ﴾ . . فلقد كنتم أنتم السبب في هذا العذاب . وإذا دعوة فيها الحنق والضيق والانتقام : ﴿ قالوا : ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ !

ثم ماذا ؟ ثم ها هم أولاء يفتقدون المؤمنين ، الذين كانوا يتعالون عليهم في الدنيا ، ويظنون بهم شراً ، ويسخرون من دعواهم في النعيم . ها هم أولاء يفتقدونهم فلا يرونهم معهم مقتحمين في النار ، فيستاءلون : أين هم ؟ أين ذهبوا ؟ أم تراهم هنا ولكن زاغت عنهم أبصارنا ؟ : ﴿ وقالوا : ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار أتخذناهم سخرياً ؟ أم زاغت عنهم الأبصار ؟ ﴾ . . بينما هؤلاء الرجال الذين يتساءلون عنهم هناك في الجنان !

ويختم المشهد بتقرير واقع أهل النار :

﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ ! !

فما أبعد مصيرهم عن مصير المتقين . الذين كانوا يسخرون منهم ، ويستكثرون اختيار الله لهم . وما أبأس نصيبهم الذي كانوا يستعجلون به وهم يقولون : ﴿ ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65)

هذا الدرس الأخير في السورة يعود إلى تقرير القضايا التي عرضت في مقدمتها : قضية التوحيد . والوحي . وقضية الجزاء في الآخرة . ويستعرض قصة آدم دليلاً على الوحي بما دار في الملأ الأعلى ذات يوم . وما تقرر يوم ذاك من الحساب على الهدى والضلال في يوم الحساب . كما تتضمن القصة لوناً من الحسد في نفس الشيطان هو الذي أراده وطرده من رحمة الله ؛ حينما استكثر على آدم فضل الله الذي أعطاه . كذلك تصور المعركة المستمرة

بين الشيطان وأبناء آدم ، والتي لا يهدأ أوارها ولا تضع أوزارها . والتي يهدف من ورائها إلى إيقاع أكبر عدد منهم في حبائله ، لإيرادهم النار معه ، انتقاماً من أبيهم آدم ، وقد كان طرده بسببه ، وهي معركة معروفة الأهداف . ولكن أبناء آدم يستسلمون لعدوهم القديم !

وتختم السورة بتوكيد قضية الوحي ، وعظمة ما وراءه ، مما يغفل عنه المكذبون الغافلون . .

﴿ قل : إنما أنا منذر ، وما من إله إلا الله الواحد القهار . رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز القهار ﴾ . .

(231/663)

قل لأولئك المشركين ، الذين يدهشون ويعجبون ويقولون : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب ﴾ قل لهم : إن هذه هي الحقيقة : ﴿ وما من إله إلا الله الواحد القهار ﴾ . . وقل لهم : إنه ليس لك من الأمر ، وليس عليك منه إلا أن تنذر وتحذر ؛ وتدع الناس بعد ذلك إلى الله الواحد القهار : ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما ﴾ . . فليس له من شريك . وليس من دونه ملجأ في السماوات أو في الأرض أو فيما بينهما . وهو ﴿ العزيز ﴾ القوي القادر .

وهو ﴿ الغفار ﴾ الذي يتجاوز عن الذنب ويقبل التوبة ، ويغفر لمن يثوبون إلى حماه . وقل

لهم : إن ما جئتهم به وما يعرضون عنه أكبر وأعظم مما يظنون . وإن وراءه ما وراءه مما هم عنه غافلون :

﴿ قل : هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون ﴾ . .

وإنه لأمر أعظم بكثير من ظاهره القريب . إنه أمر من أمر الله في هذا الوجود كله . وشأن من شؤون هذا الكون بكامله . إنه قدر من قدر الله في نظام هذا الوجود . ليس منفصلاً ولا بعيداً عن شأن السماوات والأرض ، وشأن الماضي السحيق والمستقبل البعيد .

ولقد جاء هذا النبأ العظيم ليتجاوز قريشاً في مكة ، والعرب في الجزيرة ، والجيل الذي عاصر الدعوة في الأرض . ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان ؛ ويؤثر في مستقبل البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها ؛ ويكيف مصائرها منذ نزوله إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولقد نزل في أوانه المقدر له في نظام هذا الكون كله ، ليؤدي دوره هذا في الوقت الذي قدره الله له .

ولقد حول خط سير البشرية إلى الطريق الذي خطته يد القدر بهذا النبأ العظيم .

سواء في ذلك من آمن به ومن صدّ عنه . ومن جاهد معه ومن قاومه . في جيله وفي الأجيال التي تلته . ولم يمر بالبشرية في تاريخها كله حادث أو نبأ ترك فيها من الآثار ما تركه هذا النبأ العظيم .

ولقد أنشأ من القيم والتصورات ، وأرسى من القواعد والنظم في هذه الأرض كلها ، وفي أجيال البشرية جميعها ، ما لم يكن العرب يتصورونه ولو في الخيال !

وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغير وجه الأرض ؛ ويوجه سير التاريخ ؛ ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة ؛ ويؤثر في ضمير البشرية وفي واقعها ؛ ويصل هذا كله بخط سير الوجود كله ، وبالحق الكامن في خلق السماوات والأرض وما بينهما . وأنه ماض كذلك إلى يوم القيامة . يؤدي دوره في توجيه أقدار الناس وأقدار الحياة .

والمسلمون اليوم يقفون من هذا النبأ كما وقف منه العرب أول الأمر . لا يدركون طبيعته وارتباطها بطبيعة الوجود ؛ ولا يتدبرون الحق الكامن فيه ليعلموا أنه طرف من الحق الكامن في بناء الوجود ؛ ولا يستعرضون آثاره في تاريخ البشرية وفي خط سيرها الطويل استعراضاً واقعياً ، يعتمدون فيه على نظرة مستقلة غير مستمدة من أعداء هذا النبأ الذين يهمهم دائماً أن يصغروا من شأنه في تكييف حياة البشر وفي تحديد خط التاريخ . . ومن ثم فإن المسلمين لا يدركون حقيقة دورهم سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل . وأنه دور ماض في هذه الأرض إلى آخر الزمان . .

ولقد كان العرب الأولون يظنون أن الأمر هو أمرهم وأمر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم واختياره من بينهم ، لينزل عليه الذكر . وكانوا يحصرون همهم في هذه الشكلية .

فالقرآن يوجه أنظارهم بهذا إلى أن الأمر أعظم من هذا جداً . وأنه أكبر منهم ومن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وأن محمداً ليس إلا حاملاً لهذا النبأ ومبلغاً ؛ وأنه لم يبتدعه ابتداعاً ؛ وما كان له أن يعلم ما وراءه لولا تعليم الله إياه ؛ وما كان حاضراً ما دار في الملأ الأعلى منذ البدء إنما أخبره الله :

﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ .

(233/663)

وعند هذا يأخذ السياق في عرض قصة البشرية ؛ وما دار في الملأ الأعلى بشأنها منذ البدء . مما يحدد خط سيرها ، ويرسم أقدارها ومصائرها . وهو ما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه وينذر به في آخر الزمان :

﴿ إذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ . .

وما ندري نحن كيف قال الله أو كيف يقول للملائكة . وما ندري كذلك كيف يتلقى الملائكة عن الله ولا ندري عن كنههم إلا ما بلغنا من صفاتهم في كتاب الله .

ولا حاجة بنا إلى الخوض في شيء من هذا الذي لا طائل وراء الخوض فيه . إنما نمضي إلى

مغزى القصة ودلالتها كما يقصها القرآن .

لقد خلق الله هذا الكائن البشري من الطين . كما أن سائر الأحياء في الأرض خلقت من طين . فمن الطين كل عناصرها . فيما عدا سر الحياة الذي لا يدري أحد من أين جاء ولا كيف جاء . ومن الطين كل عناصر ذلك الكائن البشري فيما عدا ذلك السر . وفيما عدا تلك النفخة العلوية التي جعلت منه إنساناً . من الطين كل عناصر جسده . فهو من أمه الأرض . ومن عناصرها تكون . وهو يستحيل إلى تلك العناصر حينما يفارقه ذلك السر الإلهي المجهول ؛ وتفارقه مع آثار تلك النفخة العلوية التي حددت خط سيره في الحياة . ونحن نجهل كنه هذه النفخة ؛ ولكننا نعرف آثارها . فآثارها هي التي ميزت هذا الكائن الإنساني عن سائر الخلائق في هذه الأرض . ميزته بخاصية القابلية للرقي العقلي والروحي . هي التي جعلت عقله ينظر تجارب الماضي ، ويصمم خطط المستقبل . وجعلت روحه يتجاوز المدرك بالحواس والمدرك بالعقول ، ليتصل بالمجهول للحواس والعقول .

وخاصية الارتقاء العقلي والروحي خاصية إنسانية بحتة ، لا يشاركه فيها سائر الأحياء في هذه الأرض . وقد عاصر مولد الإنسان الأول أجناس وأنواع شتى من الأحياء . ولم يقع في هذا التاريخ الطويل أن ارتقى نوع أو جنس ولا أحد أفراده عقلياً أو روحياً . حتى مع التسليم بوقوع الارتقاء العضوي .

لقد نفخ الله من روحه في هذا الكائن البشري ، لأن إرادته اقتضت أن يكون خليفة في الأرض ؛ وأن يتسلم مقاليد هذا الكوكب في الحدود التي قدرها له . حدود العمارة ومقتضياتها من قوى وطاقات .

لقد أودعه القدرة على الارتقاء في المعرفة . ومن يومها وهو يرتقي كلما اتصل بمصدر تلك النفخة ، واستمد من هذا المصدر في استقامة . فأما حين ينحرف عن ذلك المصدر العلوي فإن تيارات المعرفة في كيانه وفي حياته لا تتناسق ، ولا تتجه الاتجاه المتكامل المتناسق المتجه إلى الأمام ؛ وتصبح هذه التيارات المتعارضة خطراً على سلامة اتجاهه . إن لم تقده إلى نكسة في خصائصه الإنسانية ، تهبط به في سلم الارتقاء الحقيقي . ولو تضخمت علومه وتجاربه في جانب من جوانب الحياة .

وما كان لهذا الكائن الصغير الحجم ، المحدود القوة ، القصير الأجل ، المحدود المعرفة . . ما كان له أن ينال شيئاً من هذه الكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الكريمة . . وإلا فمن هو ؟ إنه ذلك الخلق الصغير الضئيل الهزيل الذي يحيا على هذا الكوكب الأرضي مع ملايين الأنواع والأجناس من الأحياء . وما الكوكب الأرضي إلا تابع صغير من توابع أحد النجوم . ومن

هذه النجوم ملايين الملايين في ذلك الفضاء الذي لا يدري إلا الله مداه .

. فماذا يبلغ هذا الإنسان لتسجد له ملائكة الرحمن ؛ إلا بهذا السر اللطيف العظيم ؟ إنه بهذا السر كريم كريم . فإذا تخلى عنه أو انفصم منه ارتد إلى أصله الزهيد . . من طين !

ولقد استجاب الملائكة لأمر ربهم كما هي فطرتهم :

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ . .

كيف ؟ وأين ؟ ومتى ؟ كل أولئك غيب من غيب الله . ومعرفته لا تزيد في مغزى القصة شيئاً . هذا المغزى الذي يبرز في تقدير قيمة هذا الإنسان المخلوق من الطين ؛ بعد ما ارتفع عن أصله بتلك النفخة من روح الله العظيم .

سجد الملائكة امتثالاً لأمر الله . وشعوراً بحكمته فيما يراه .

﴿ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ . .

(235/663)

فهل كان إبليس من الملائكة ؟ الظاهر أنه لا . لأنه لو كان من الملائكة ما عصى . فالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . وسيجيء أنه خلق من نار . والمأثور أن الملائكة خلق من نور . . ولكنه كان مع الملائكة وكان مأموراً بالسجود . ولم يخص بالذكر

الصريح عنه الأمر إهمالاً لشأنه بسبب ما كان من عصيانه . إنما عرفنا أن الأمر كان قد وجه إليه من توجيه التوبيخ إليه :

﴿ قال : يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ أستكبرت ؟ أم كنت من العالين ؟ ﴾ . .

ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ والله خالق كل شيء . فلا بد أن تكون هناك خصوصية في خلق هذا الإنسان تستحق هذا التنويه . هي خصوصية العناية الربانية بهذا الكائن وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية .

أستكبرت ؟ عن أمري ﴿ أم كنت من العالين ؟ ﴾ الذين لا يخضعون ؟

﴿ قال : أنا خير منه . خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ !

إنه الحسد ينضح من هذا الرد . والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد على الطين في آدم ، والذي يستحق هذا التكريم . وهو الرد القبيح الذي يصدر عن الطبيعة التي تجردت من الخير كله في هذا الموقف المشهود .

هنا صدر الأمر الإلهي العالي بطرد هذا المخلوق المتمرد القبيح :

﴿ قال : فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ﴾ . .

ولا نملك أن نحدد عائد الضمير في قوله : ﴿ منها ﴾ فهل هي الجنة ؟ أم هل هي رحمة الله . . هذا وذلك جائز . ولا محل للجدل الكثير . فإنما هو الطرد واللعنة والغضب جزاء

التمرد والتجرؤ على أمر الله الكريم .

هنا تحول الحسد إلى حقد . وإلى تصميم على الانتقام في نفس إبليس :

﴿ قال : رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾ . .

واقتضت مشيئة الله للحكمة المقدرة في علمه أن يجيبه إلى ما طلب ، وأن يمنحه الفرصة التي أراد :

﴿ قال : فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ . .

وكشف الشيطان عن هدفه الذي ينفق في حقده :

﴿ قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ . .

وبهذا تحدد منهجه وتحدد طريقه .

(236/663)

إنه يقسم بعزة الله ليغوين جميع الآدميين . لا يستثني إلا من ليس له عليهم سلطان . لا تطوعاً منه ولكن عجزاً عن بلوغ غايته فيهم ! وبهذا يكشف عن الحاجز بينه وبين الناجين من غوايته وكيده ; والعاصم الذي يحول بينهم وبينه . إنه عبادة الله التي تخلصهم لله . هذا هو طوق النجاة . وحبل الحياة ! . . وكان هذا وفق إرادة الله وتقديره في الردى والنجاة .

فأعلن – سبحانه – إرادته . وحدد المنهج والطريق:

(قال:فالحق . والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) . .

والله يقول الحق دائماً . والقرآن يقرر هذا ويؤكد الإشارة إليه في هذه السورة في شتى صوره ومناسباته . فالخصم الذين تسوروا المحراب على داود يقولون له: (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط) . . والله ينادي عبده داود: (فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) . . ثم يعقب على هذا بالإشارة إلى الحق الكامن في خلق السماوات والأرض: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً . ذلك ظن الذين كفروا) . . ثم يجيء ذكر الحق على لسان القوي العزيز: (قال فالحق والحق أقول) . . فهو الحق الذي تتعدد مواضعه وصوره , وتتحد طبيعته وكنهه . ومنه هذا الوعد الصادق:

(لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) . .

وهي المعركة إذن بين الشيطان وأبناء آدم , يخوضونها على علم . والعاقبة مكشوفة لهم في وعد الله الصادق الواضح المبين . وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم بعد هذا البيان . وقد شاءت رحمة الله ألا يدعهم جاهلين ولا غافلين . فأرسل إليهم المنذرين .

الدرس الثالث: 86 – 88 تجرد الرسول وعدم تكلفه وتبليغه لدعوته

وفي نهاية الشوط وختام السورة يكلف الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يلقي إليهم بالقول الأخير:

قل:ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين . .

(237/663)

إنها الدعوة الخالصة للنجاة , بعد كشف المصير وإعلان النذير . الدعوة الخالصة التي لا يطلب صاحبها أجراً وهو الداعية السليم الفطرة , الذي ينطق بلسانه , لا يتكلف ولا يتصنع , ولا يأمر إلا بما يوحي منطق الفطرة القريب . وإنه للتذكير للعالمين أجمعين فقد ينسون ويغفلون . وإنه للنبأ العظيم الذي لا يلقون بالهم إليه اليوم , وليعلمن نبأه بعد حين . نبأه في الأرض – وقد علموه بعد سنوات من هذا القول – ونبأه في اليوم المعلوم . عندما يحق وعد الله اليقين:(لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) . .

إنه الختام الذي يتناسق مع افتتاح السورة ومع موضوعها والقضايا التي تعالجها :وهو الإيقاع المدوي العميق , الموحي بضخامة ما سيكون:(ولتعلمن نبأه بعد حين) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3022 . 3029 ﴾

(238/663)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

هذا ومما قاله بعض السادة الصوفية في بعض الآيات : قالوا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق والطير مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : 18 ، 19] إنه ظاهر في أن الجماد والحيوان الذي هو عند أهل الحجاب غير ناطق حي دراك له علم بالله عز وجل ، ونقل الشعراني عن شيخه على الخواص قدس سره القول بتكليف البهائم من حيث لا يشعر المحجوبون ، وجوز أن يكون نذيرها من ذواتها وأن يكون خارجاً عنها من جنسها ، وقال : ما سميت بهائم إلا لكون أمر كلامها وأحوالها قد أبهم على غالب الخلق لا لأن الأمر مبهم عليها نفسها .

وحكي عنه أنه كان يعامل كل جماد في الوجود معاملة الحي ويقول : إنه يفهم الخطاب ويتألم كما يتألم الحيوان .

وقيل : في قوله تعالى : ﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [ص : 24] إشارة إلى أن النفوس مجبولة على الظلم وسائر الصفات الذميمة وإلى أن الذين تزكت أنفسهم قليل جداً بالنسبة إلى الآخرين ﴿ ياداوود إِنَّا جعلناك خَلِيفَةً فِى الأرض ﴾ [ص : 26] نقل الشعراني أن خلافته عليه السلام وكذا

خلافة آدم كانت في عالم الصور وعالم الأنفس المدبرة لها دون العالم النوراني فإن لكل شخص من أهله مقاماً معلوماً عينه له ربه سبحانه ، وللشيخ الأكبر قدس سره كلام طويل في الخلافة ، ويحكى عن بعض الزنادقة أن الخليفة لا يكتب عليه خطيئة ولا هو داخل في ربقة التكليف لأن مرتبته مرتبة مستخلفة وهو كفر صراح ، وفرق العلماء بين الخليفة والملك .

أخرج الثعلبي من طريق العوام بن حوشب قال : حدثني رجل من قومي شهد عمر رضي الله تعالى عنه أنه سأل طلحة .

والزبير .

وكعباً .

وسلمان رضي الله تعالى عنهم ما الخليفة من الملك ؟ فقال طلحة .

(239/663)

والزبير : ما ندري فقال سلمان : الخليفة الذي يعدل في الرعية ويقسم بينهم بالسوية ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله ويقضي بكتاب الله تعالى فقال كعب : ما كنت أحسب أحداً يعرف الخليفة من الملك غيري فقوله تعالى :

﴿ فاحكم بَيْنَ الناس بالحق وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى ﴾ [ص : 26] كالتفسير لهذه الخلافة وفيه إشارة إلى ذم الهوى ، وفي بعض الآثار ما عبد إله في الأرض أبغض على الله تعالى من الهوى فهو أعظم الأصنام .

(240/663)

وقوله تعالى : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والاعناق ﴾ [ص : 33] فيه إشارة بناءً على المشهور في القصة إلى أن كل محبوب سوى الله تعالى إذا حجبك عن الله تعالى لحظة يلزمك أن تعالجه بسيف نفى لا إله إلا الله وقد سمعت استدلال الشبلي بذلك على تخريق ثيابه وما قيل فيه قال : ﴿ رَبّ اغفر لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لاَّ يَنبَغِى لِاحَدٍ مّن بَعْدِى ﴾ [ص : 35] لم يقصد بذلك السؤال إلا ما يوجب مزيد القرب إليه عز وجل وليس فيه ما يخل بكماله عليه السلام وإلا لعوتب عليه ، وقد تقدم الكلام في ذلك ومنه يعلم كذب ما في الجواهر والدرر نقلاً عن الخواص قال : بلغنا أن النملة التي كلمت سليمان عليه السلام قالت : يا نبي الله أعطني الأمان وأنا أنصحك بشيء ما أظنك تعلمه فأعطاها الأمان فأسرت إليه في أذنه وقالت : إني أشم من قولك : ﴿ هَبْ لِى مُلْكاً لاَّ يَنبَغِى لِاحَدٍ مّن بَعْدِى ﴾ [ص : 35] رائحة الحسد فتغير سليمان واغبر لونه ثم قالت له : قد تركت

الأدب مع الله تعالى من وجوه ، منها عدم خروجك من شح النفس الذي نهاك الله تعالى عنه إلى حضرة الكرم الذي أمرك الله تعالى به ، ومنها مبالغتك في السؤال بأن لا يكون ذلك العطاء لأحد من عبيد سيدك من بعدك فحجرت على الحق تعالى بأن لا يعطى أحداً بعد موتك ما أعطاه كل ذلك لمبالغتك في شدة الحرص ، ومنها طلبك أن يكون ملك سيدك لك وحدك تقول هب لي وغاب عنك أنك عبد له لا يصح أن تملك معه شيئاً مع أن فرحك بالعطاء لا يكون إلا مع شهود ملكك له ، وكفى بذلك جهلاً ثم قالت له : يا سليمان وماذا ملكك الذي سألته أن يعطيكه فقال : خاتمي قالت : اف الملك يحويه خاتم انتهى ، ويدل على كذب ما بلغه وجوه أيضاً لا تخفى على الخواص والعجب من أنها خفيت على الخواص ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ يا إبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] يشير إلى فضل آدم عليه السلام وأنه أكمل المظاهر ،

(241/663)

واليدان عندهم إشارة إلى صفتي اللطف والقهر وكل الصفات ترجع إليهما ، ولا شك عندنا في أنه أفضل من الملائكة عليهم السلام .

وذكر الشعراني أنه سأل الخواص عن مسألة التفضيل الذي أشرنا إليه فقال : الذي ذهب

إليه جماعة من الصوفية أن التفاضل إنما يصح بين الأجناس المشتركة كما يقال أفضل الجواهر الياقوت وأفضل الثياب الحلة وأما إذا اختلفت الأجناس فلا تفاضل فلا يقال أيما أفضل الياقوت أم الحلة ؟ ثم قال : والذي نذهب إليه أن الأرواح جميعها لا يصح فيها تفاضل إلا بطريق الإخبار عن الله تعالى فمن أخبره الحق تعالى بذلك هو الذي حصل له العلم التام وقد تنوعت الأرواح إلى ثلاثة أنواع .

أرواح تدبر أجساداً نورية وهم الملأ الأعلى .

وأرواح تدبر أجساداً نارية وهم الجن وأرواح تدبر أجساداً ترابية وهم البشر ، فالأرواح جميعها ملائكة حقيقة واحدة وجنس واحد فمن فاضل من غير علم إلهي فليس عنده تحقيق فإنا لو نظرنا التفاضل من حيث النشأة مطلقاً قال العقل بتفضيل الملائكة ولو نظرنا إلى كمال النشأة وجمعيتها حكمنا بتفضيل البشر ، ومن أين لنا ركون إلى ترجيح جانب على آخر مع أن الملك جزء من الإنسان من حيث روحه لأن الأرواح ملائكة فالكل من الجزء والجزء من الكل ، ولا يقال أيما أفضل جزء الإنسان أو كله فافهم انتهى ، والكلام في أمر التفضيل طويل محله كتب الكلام ثم إن حظ العارف من القصص المذكورة في هذه السورة الجليلة لا يخفى إلا على ذوي الأبصار الكليلة نسأل الله تعالى أن يوفقنا لفهم كتابه بحرمة سيد أنبيائه وأحبابه صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم وكرم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1)

الإعراب :

(الواو) واو القسم للجرّ (القرآن) مجرور بـ (الواو) متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (ذي) نعت للقرآن مجرور .

جملة القسم : " أقسم بالقرآن . . . " لا محلّ لها ابتدائية . . وجواب القسم محذوف تقديره إنّك لمن المرسلين " 1 " .

[سورة ص (38) : آية 2]

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2)

الإعراب :

(بل) للإضراب (في عزّة) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ الذين . . .

جملة : " الذين كفروا في عزّة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) لأن نظيره : يس والقرآن الحكيم ، إنّك لمن المرسلين ، وثمّة أقوال كثيرة أخرى للمفسرين في تقدير الجواب . وما ذكرناه أوضحها .

(243/663)

[سورة ص (38) : الآيات 3 إلى 5]

كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ (3) وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (5)

الإعراب :

(كم) خبريّة كناية عن كثير في محلّ نصب مفعول به مقدّم (من قبلهم) متعلّق بـ (أهلكنا) ، (من قرن) تمييز ، كم (الفاء) عاطفة (نادوا) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين ، و(الواو) فاعل وهو يعود إلى القرون أو الأمم أو مجموع الأمة (الواو) واو الحال (لات) حرف نفي يعمل عمل ليس ، واسمه محذوف تقديره الحين (حين)

المذكور خبر لات " 1 " .

جملة : " أهلكنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نادوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أهلكنا .

وجملة : " لات حين مناص . " في محلّ نصب حال .

(4) (الواو) عاطفة (أن) حرف مصدريّ (منهم) متعلّق بنعت لمنذر (كذّاب) نعت لساحر مرفوع " 2 " .

وجملة : " عجبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نادوا . .

وجملة : " جاءهم منذر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

---

(1) جاء في حاشية الجمل : " أبو عبيدة ، قال الوقف على (لا) ، و(التاء) متصلة بحين فيقول قمت تحين قمت ، وتحين كان كذا فعلت كذا . . وقال رأيتها في الإمام كذا لا تحين ، متّصلة . والمصاحف إنّما هي لات حين ، وحمل العامّة ما رآه على أنّه ممّا شذ عن الخط كنظائر له مرّت . . . " اه - .

(2) أو خبر ثان مرفوع للمبتدأ هذا .

والمصدر المؤوّل (أن جاءهم . . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (عجبوا) ، أي : من أن جاءهم .

وجملة : " قال الكافرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نادوا .

وجملة : " هذا ساحر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(5) – (الهمزة) للاستفهام التّعجبيّ (إلها) مفعول به ثان منصوب (اللام) المزحلقة للتوكيد . . .

وجملة : " جعل الآلهة . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول " 1 " .

وجملة : " إنّ هذا لشيء . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول " 2 " .

الصرف :

(3) لات : هي (لا) النافية و(التاء) زائدة كزيادتها في ربّ كقولهم ربّت .

(مناص) ، مصدر ميميّ من ناصه أي فاته وهو من باب قال ، أو بمعنى تأخّر أو فرّ أو نجا . . . وزنه مفعل ، وفيه إعلال أصله منوص – بفتح الواو بعد نون ساكنة – نقلت الفتحة إلى النون وسكّنت الواو ، فلما انفتح ما قبل الواو قلبت ألفا .

(5) عجاب : صيغة مبالغة من الثلاثيّ عجب ، وزنه فعال بضمّ الفاء .

الفوائد

– لات :

تضاربت أقوال النحاة في حقيقتها . والجمهور على أنها كلمتان : لا النافية ، والتاء لتأنيث اللفظة ، كما في ثمة وربّت . وإنما وجب تحريكها لالتقاء الساكنين .

ويشهد للجمهور أنه يوقف عليها بالتاء والهاء ، وأنها رسمت منفصلة عن الحين ،

(1 ، 2) أو هي استئناف بيانيّ . . . أو تعليليّة .

(245/663)

وأن التاء قد تكسر على أصل حركة التقاء الساكنين ، ولو كانت فعلا ماضيا - كما زعم بعضهم - لم يكن للكسر وجه . أما عملها ، فبعضهم قال : لا تعمل شيئا ، وبعضهم قال : تعمل عمل إن . والذي عليه جمهور النحاة ، أنها تعمل عمل ليس . ويأتي اسمها محذوفا ولا يذكر إلا الخبر ، كما في الآية وَلَاتَ حِينَ مَناصٍ والتقدير (ولات الحين حين مناص) ، واختلف في معمولها ، فنص الفراء على أنها لا تعمل إلا في لفظة الحين ، وهو ظاهر قول سيبويه ، وذهب الفارسي وجماعة إلى أنها تعمل في الحين وفيما رادفه ، قال الزمخشري : زيدت التاء على (لا) وخصت بنفي الأحيان .

فائدة :

قرئ (ولات حين مناص) بخفض الحين ، فزعم الفراء أن لات تستعمل حرفا جارا لأسماء

الزمان خاصة ، كما أن مذ ومنذ كذلك ، وأنشد لأبي زيد الطائي :

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء

وقد ردّ الزمخشري على هذا الزعم قائلا :

إن الأصل (حين مناصهم) ثم نزل قطع المضاف إليه من مناص منزلة قطعة من حين ، لاتحاد المضاف والمضاف إليه ، وجعل التنوين عوضا عن المضاف إليه ، ثم بنى الحين لإضافته إلى غير متمكن . وأردف ابن هشام قائلا : والأولى أن يقال : إن التنزيل المذكور اقتضى بناء الحين ابتداء ، وإن المناص معرب ، وإن كان قد قطع عن الإضافة بالحقيقة ، لكنه ليس بزمان ، فهو ككل وبعض .

- تعنّت واستكبار :

أورد المفسرون قصة تاريخية بين كفار قريش ومحمد (صلّى اللّه عليه وسلم) سببا لنزول هذه الآية ، وهي قصة طريفة ، تدلك من خلالها على مبلغ العناد الذي وصلت إليه قريش ، ومدى الإصرار على الباطل ومجافاة الحق . تقول القصة :

لما أسلم عمر بن الخطاب - رضي اللّه عنه - شق ذلك على قريش ، وفرح بذلك المؤمنون فرحا عظيما ، فقال الوليد بن المغيرة للملأ من قريش ، وهم الصناديد والأشراف ، وكانوا خمسة وعشرين رجلا ، أكبرهم سنا الوليد بن المغيرة : امشوا إلى أبي

طالب ، فأتوه وقالوا له : أنت شيخنا وكبيرنا ، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، وإنما أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك ، فأرسل إليه أبو طالب ، فدعا به ، فلما أتى النبي (صلّى اللّه عليه وسلم) قال له : يا ابن أخي ، هؤلاء قومك ، يسألونك السواء ، فلا تمل كل الميل على قومك ، فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) وماذا يسألونني ؟ قالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك . فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) : أ تعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ؟ فقال أبو جهل : للّه أبوك ، لنعطيكها وعشرا أمثالها ، فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) : قالوا : لا إله إلا اللّه ، فنفروا من ذلك وقالوا : أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب .

[سورة ص (38) : الآيات 6 إلى 8]

وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (6) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ (7) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (8)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (منهم) متعلّق بحال من الملأ (أن) حرف تفسير " 1 " ، (على آلهتكم) متعلّق بـ (اصبروا) بتضمينه معنى اثبتوا أي اثبتوا على عبادتها (اللام) المزحلقة للتوكيد ، ونائب الفاعل لفعل (يراد) ضمير مستتر يعود على شيء .

جملة : " انطلق الملأ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال الكافرون " 2 " .

وجملة : " امشوا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة " 3 " .

---

(1) أو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بـ (باء) محذوفة متعلّق بـ (انطلق) .

(2) في الآية (4) من السورة .

(3) أو هي صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " اصبروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة امشوا . . .

وجملة : " إنّ هذا لشيء . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يراد . . . " في محلّ رفع نعت لشيء .

(7) - (ما) نافية (بهذا) متعلّق بـ (سمعنا) ، (في الملّة) متعلّق بـ (سمعنا) ، (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر .

وجملة : " ما سمعنا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز اعتراضهم وجملة : " إن هذا إلّا اختلاق " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليل – (8) (الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ (عليه) متعلّق بـ (أنزل) ، (الذكر) نائب الفاعل مرفوع (من بيننا) متعلّق بحال من الضمير في (عليه) ، (بل) للإضراب الانتقاليّ في الموضعين (في شك) متعلّق بخبر المبتدأ هم (من ذكري) متعلّق بشكّ (لمّا) حرف نفي وقلب وجزم (عذاب) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف لمناسبة فواصل الآي . . . و(الياء) مضاف إليه .

وجملة : " أنزل . . . الذكر " لا محلّ لها استئناف في حيّز الاعتراض .

وجملة : " هم في شكّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لمّا يذوقوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . .

الصرف :

(6) يراد : فيه إعلال بالقلب لمناسبة البناء للمجهول ، معلومه يريد ، فلمّا فتح ما قبل الآخر ونقلت الفتحة إلى ما قبل الياء بعد تسكينها قلبت الياء ألفا .

(7) اختلاق : مصدر قياسيّ للخماسيّ اختلق ، وزنه افتعال . . .

[سورة ص (38) : الآيات 9 إلى 11]

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (10) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (11)

الإعراب :

(أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة (عندهم) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ خزائن (العزيز) نعت لـ (ربّك) مجرور (الوهّاب) نعت ثان مجرور .

جملة : " عندهم خزائن . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(10) (أم) مثل الأولى (لهم) متعلّق بخبر للمبتدأ ملك (الواو) عاطفة في الموضعين (ما) اسم موصول في محلّ جرّ معطوف على السموات (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام الأمر (في الأسباب) متعلّق بـ (يرتقوا) .

وجملة : " لهم ملك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ليرتقوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن زعموا ما يقولون فليرتقوا .

(11) (جند) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم " 1 " ، (ما) زائدة للتحقير " 2 " ، (هنالك) اسم إشارة في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بنعت لجند " 3 " ، (مهزوم) نعت

لجند مرفوع (من الأحزاب) متعلّق بنعت لجند .

وجملة : " (هم) جند . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(مهزوم) ، اسم مفعول من الثلاثيّ هزم ، وزنه مفعول .

---

(1) أو مبتدأ خبره مهزوم ، و(هنالك) نعت لجند .

(2) يجوز أن يكون (ما) نعتا لجند على سبيل التحقير أو التعظيم للهزء بهم .

(3) يجوز أن يكون متعلّقا بمحذوف خبر لجند ، أو متعلّق بـ (مهزوم) .

الجدول ج 23 ، ص : 108

[سورة ص (38) : الآيات 12 إلى 15]

(249/663)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (13) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (14) وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (15)

الإعراب :

(قبلهم) ظرف منصوب متعلّق بـ(كذّبت) ، (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة .

جملة : "كذّبت قبلهم قوم . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أولئك الأحزاب . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(14) - (إن) حرف نفي (كلّ) مبتدأ مرفوع معتمد على نفي " 1 " ، (إلّا) للحصر (الفاء) عاطفة (عقاب) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة لمناسبة الفاصلة و(الياء) مضاف إليه .

وجملة : " إن كلّ إلّا كذّب . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " حقّ عقاب . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كذّب . .

(15) (الواو) عاطفة (ما) نافية (إلّا) للحصر (صيحة) مفعول به منصوب (ما) مثل الأولى (لها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ فواق (فواق) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر .

وجملة : " ما ينظر هؤلاء إلّا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن كلّ إلّا " 3 " .

---

(1) أو دال على عموم .

(2) يجوز أن تكون خبرا للمبتدأ أولئك إذا أعرب (الأحزاب) بدلا من الإشارة .

(3) يجوز أن تكون استئنافيّة . [. . . . .]

وجملة : " ما لها من فواق . . " في محلّ نصب نعت ثان لصيحة " 1 " .

الصرف :

(12) الأوتاد : جمع وتد اسم لما يدقّ في الأرض أو الجدار وزنه فعل بفتح فكسر .

(15) فواق : قيل هو اسم مصدر من أفاق كالجواب من أجاب ، وزنه فعال بفتح الفاء . . وقيل اسم بمعنى الزمن الذي يكون قدره بين حلبتين ، جاء في الحديث : العيادة قدر فواق ناقة ، وقيل هو بمعنى الرجوع جمعه أفواق . . . وجمع الجمع أفاويق . . . .

البلاغة

(251/663)

الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ " .

شبه هنا فرعون ، في ثباب ملكه ورسوخ سلطنته ، ببيت ثابت ، أقيم عماده ، وثبتت أوتاده ، تشبيها مضمرا في النفس ، على طريق الاستعارة المكنية . ووصف بذي الأوتاد ، على سبيل التخييل . وقيل : شبه الملك الثابت ، من حيث الثبات والرسوخ ، بذي الأوتاد ، وهو البيت المطنب بأوتاده ، وأستعير ذو الأوتاد له على سبيل الاستعارة التصريحية .

[سورة ص (38) : آية 16]

وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (16)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ربّنا) منادى مضاف منصوب (لنا) متعلّق بـ (عجّل) ، (قبل) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (عجّل) . .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " عجّل . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

الصرف :

(قطّنا . . .) ، اسم بمعنى نصيب وحظ من الثلاثيّ قطّ

---

(1) أو حال من صيحة لأنه وصف .

بمعنى قطع ، ويطلق أيضا على الصحيفة والصك والجائزة ، وزنه فعل بكسر فسكون ، جمعه قطوط بضمّ القاف وقططة بكسر ففتح ، وجمع القلّة أقططة وأقطاط . . .

[سورة ص (38) : الآيات 17 إلى 23]

اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ (20) وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ (22) إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ (23)

الإعراب :

(ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (داود) عطف بيان على عبدنا منصوب (ذا) نعت لداود منصوب وعلامة النصب الألف .

والمصدر المؤوّل (ما يقولون . . .) في محلّ جرّ متعلّق بـ (اصبر) .

جملة : " اصبر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " اذكر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصبر .

وجملة : " إنّه أوّاب . . " لا محلّ لها تعليل لقوله (ذا الأيد) .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي يقولونه .

الجدول ج 23 ، ص : 111

(18) (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (معه) ظرف منصوب متعلّق بـ (يسبّحن) ، (بالعشي) متعلّق بـ (يسبّحن) .

وجملة : " إنّا سخرنا . . . " لا محلّ لها استئناف في معرض قصّة داود .

وجملة : " سخرّنا . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يسبّحن . . " في محلّ نصب حال من الجبال .

(19) (الطير) مفعول به لفعل محذوف تقديره سخرّنا (محشورة) حال منصوبة من الطير (كلّ) مبتدأ مرفوع (له) متعلّق بأوّاب .

وجملة : " (سخرّنا) الطير . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة سخرنا الجبال .

وجملة : " كلّ له أوّاب . . . " لا محلّ لها استئناف مقرّر لمضمون ما قبله .

(20) (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (الحكمة) مفعول به ثان منصوب .

وجملة : " شددنا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة سخّرنا الجبال .

وجملة : " آتيناه . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة سخّرنا الجبال .

(21 - 23) (الواو) عاطفة (هل) حرف استفهام للتشويق (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بنبإ " 1 " ، (إذ) الثاني في محلّ نصب بدل من الأول " 2 " ،

---

(1) وهو اختيار أبي البقاء ، وقال الزمخشريّ : " فإن قلت بم انتصب (إذ) قلت : لا يخلو إمّا أن ينتصب بـ (أتاك) أو بالنبإ أو بمحذوف ، فلا يسوغ انتصابه بـ (أتاك) لأن إتيان النبأ لا يقع إلّا في عهده لا في عهد داود ، ولا يسوغ تعلّقه بـ (النبأ) لأن البناء واقع في عهد داود فلا يصحّ إتيانه رسول اللّه . . فبقي أن يكون منصوبا بمحذوف تقديره : نبأ تحاكم الخصم . . ولكن هذا التقييد فيه تكلّف ، فالنبأ الذي وقع في عهد داود يأتي رسول اللّه عن طريق الرواية .

(2) يجوز تعليقه بـ (تسوّروا)

(254/663)

(على داود) متعلّق بـ (دخلوا) ، (الفاء) عاطفة (منهم) متعلّق بـ (فزع) ، (لا) ناهية جازمة (خصمان) خبر لمبتدأ محذوف تقديره نحن (على بعض) متعلّق بـ (بغى) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بيننا) ظرف منصوب متعلّق بـ (احكم) ، (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل احكم (الواو) عاطفة (لا) مثل الأولى (الواو) عاطفة (إلى سواء) متعلّق بـ (اهدنا) ،

(أخي) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) مضاف إليه " 1 " ، (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ تسع (نعجة) تمييز منصوب (لي) مثل له والمبتدأ نعجة ، و(النون) في (أكفلنيها) نون الوقاية ، و(الياء) مفعول به أوّل و(ها) مفعول به ثان (في الخطاب) متعلّق بـ(عزّني) .

وجملة : " هل أتاك . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصبر .

وجملة : " تسوّروا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " دخلوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " فزع . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة دخلوا .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لا تخف . . . " في محل نصب مقول القول .

وجملة : (نحن) خصمان . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول " 2 " .

وجملة : " بغى بعضنا . . " في محلّ رفع نعت لـ(خصمان) .

وجملة : " احكم . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن سمعت قصّتنا فاحكم " .

وجملة : " لا تشطط . . " معطوفة على جملة احكم . .

---

(1) يجوز أن يكون (أخي) بدلا من اسم الإشارة ، والخبر جملة له تسع . .

(2) أو هي تعليل لنهي الخوف .

(255/663)

وجملة : " اهدنا . . . " معطوفة على جملة احكم .

وجملة : " إنّ هذا أخي . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " له تسع . . . " في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) .

وجملة : " لي نعجة . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة له تسع .

وجملة : " قال . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لي نعجة .

وجملة : " أكفلنيها . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " عزّني . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة قال .

الصرف :

(محشورة) اسم مفعول من الثلاثيّ حشر ، مذكّره محشور وزنه مفعول .

(الخطاب) اسم دال على الكلام وهو في الأصل مصدر سماعي للرباعي خاطب وزنه فعال بكسر الفاء .

(23) نعجة : اسم جامد لأنثى الغنم ، وقد كنّي به عن المرأة ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

البلاغة

1 – العدول عن الاسمية إلى الفعلية : في قوله تعالى "يُسَبِّحْنَ" .

العدول عن مسبحات ، مع أن الأصل في الحال الإفراد ، للدلالة على تجدد التسبيح حالا بعد حال ، نظير ما في قول الأعشى :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار في يفاع تحرق

ولو قال محرقة لم يكن له ذلك الوقع .

2 – الطباق : في قوله تعالى " بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ " طباق بديع بين صلاة العشاء وصلاة الضحى .

---

(1) أو هي مقول القول لقول مقدّر أي قال أحدهما : إنّ هذا أخي . . .

الفوائد

1 – (ذا الأيد) ذا – بمعنى صاحب ، وهي اسم من الأسماء الخمسة في حالة النّصب ، والأسماء الخمسة ترفع بالواو ، مثل : أخوك طالب نظيف – ذو العقل يشقى في النعيم

بعقله .

ب – وتنصب الأسماء الخمسة بالألف مثل : إن أخاك تلميذ نشيط .

ج – وتجر الأسماء الخمسة بالياء ، مثل : كم لأخيك من فضل عليك ، كن عونا لذي الحاجة .

ولا تعرب الأسماء الخمسة هذا الإعراب إلا بالشروط الآتية :

آ – أن تكون مفردة (غير مثناة ولا مجموعة) .

ب – أن تكون مكبرة (غير مصغرة) ج – أن تضاف لغير ياء المتكلّم .

2 – (كلّ) تنوين العوض : وهو إما أن يكون عوضا عن مفرد وهو ما يلحق – كلا وبعضا وأيّا – عوضا عما تضاف إليه ، نحو : كلّ له أواب ، أي كل شيء له أواب ، وإمّا أن يكون عوضا عن جملة وهو ما يلحق إذ عوضا عن جملة تكون بعدها ، مثل : " فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ " أي :

حين إذ بلغت الروح الحلقوم .

أما في الكتابة : فالتنوين عبارة عن فتحتين ، توضعان في آخر الاسم النكرة ، الذي خلا من (ال) التعريف والإضافة ، مثل : رجلا ، رجل ، رجل .

3 – (تسع وتسعون) العدد نوعان :

آ – صريح : وهو الأعداد المعرفة ب – مبهم : وهو الذي يدل عليه بكنايات العدد (كم –

كأين - كذا) ويحتاج العدد ، صريحا كان أو مبهما ، إلى تمييز يكشف إبهامه . ولتمييز العدد أحكام نوجزها بما يلي :

آ - الأعداد من (3 - 10) يكون تمييزها جمعا مجرورا بالإضافة ، مثل (قرأت ثلاثة كتب) .

الجدول ج 23 ، ص : 115

ب - الأعداد من (11 - 99) يكون تمييزها مفردا منصوبا ، مثل : (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً) .

ج - للأعداد (100) و(1000) ومضاعفاتهما : يكون تمييزها مفردا مجرورا بالإضافة نحو (مائة رجل ، وألف طفل ، ومائتا امرأة) .

[سورة ص (38) : الآيات 24 إلى 26]

قال لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ (24) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (25) يا داوُدُ إِنَّا

جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (26)

الإعراب :

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (بسؤال) متعلّق بـ (ظلمك) ، (إلى نعاجه) متعلّق بمحذوف هو مضاف إلى نعجتك أي سؤال ضمّ نعجتك (الواو) عاطفة (من الخلطاء) متعلّق بنعت لـ (كثيرا) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد (على بعض) متعلّق بـ (يبغي) ، (إلّا) للاستثناء (الذين) موصول في محلّ نصب على الاستثناء المتّصل (الواو) عاطفة والثانية اعتراضيّة (قليل) خبر مقدّم مرفوع (ما) زائدة لتأكيد القلّة (هم) ضمير منفصل مبتدأ مؤخّر (الواو) عاطفة (أنّما) كافّة ومكفوفة

(الفاء) عاطفة (راكعا) حال منصوبة من فاعل خرّ .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ظلمك " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة وجوابها في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ كثيرا . . ليبغي بعضهم " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول " 1 "

.

وجملة : " يبغي بعضهم . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا . .

وجملة : " قليل ما هم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . .

وجملة : " ظنّ داود . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال . . .

وجملة : " أنّما فتّناه . . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي ظنّ " 2 " .

وجملة : " استغفر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ظنّ .

وجملة : " أناب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استغفر .

وجملة : " خرّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استغفر .

(25) (الفاء) عاطفة (له) متعلّق بـ (غفرنا) ، والإشارة في (ذلك) إلى الذنب (الواو) عاطفة (له) الثاني متعلّق بخبر إنّ (عندنا) ظرف منصوب متعلّق بالخبر " 3 " ، (اللام) للتوكيد (زلفي) اسم إنّ منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة .

---

(1) أو معطوفة على جملة جواب القسم فلا محلّ لها .

(2) هي في الحقيقة ليست جملة بل مصدر مؤوّل ، لأن (ما) الكافّة لا تخرج (أنّ) عن كونه حرفا مصدريّا بل تكفّه عن العمل فحسب .

(3) أو متعلّق بحال من زلفى .

وجملة : " غفرنا له . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استغفر . . .

وجملة : " إنّ له . . . لزلفى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة غفرنا " 1 " .

(26) (خليفة) مفعول به ثان منصوب (في الأرض) متعلّق بنعت لخليفة (الفاء) لربط المسبّب بالسبب (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (احكم) (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل احكم (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة ، وحرّك الفعل (تتّبع) بالكسر لالتقاء الساكنين (الفاء) فاء السببيّة (يضلّك) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء (عن سبيل) متعلّق بـ (يضلّ) .

والمصدر المؤوّل (أن يضلّك . .) في محلّ رفع معطوف على مصدر مأخوذ من النهي السابق أي : لا يكن منك اتّباع للهوى فإضلال منه عن سبيل اللّه .

(عن سبيل) الثاني متعلّق بـ (يضلّون) أي يبتعدون (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ عذاب (ما) حرف مصدريّ .

والمصدر المؤوّل (ما نسوا . .) في محلّ جرّ بـ (الباء) متعلّق بـ (عذاب . . .) و(الباء) للسببيّة .

(يوم) هو مفعول به عامله نسوا " 2 " .

جملة النداء : " يا داود . . " لا محلّ لها استئناف في معرض قصّة داود " 3 " .

وجملة : " إنّا جعلناك . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة حالية . . أو هي استئنافيّة لتقرير مضمون ما سبق .

(2) يجوز أن يكون ظرفا متعلّقا بعذاب ، ومفعول نسوا مقدّر . .

(3) أو هي في محلّ نصب مقول القول لقول محذوف ، والقول المحذوف حال من فاعل غفرنا

أي : غفرنا له قائلين يا داود .

(259/663)

وجملة : " جعلناك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " احكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : تنبّه فاحكم " 1 "

.

وجملة : " لا تتّبع . . . " معطوفة على جملة احكم تأخذ إعرابها .

وجملة : " يضلّك . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " إنّ الذين . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يضلّون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لهم عذاب . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(24) سؤال : مصدر سماعيّ الفعل سأل وزنه فعال بضمّ الفاء وفتح العين .

(الخلطاء) ، جمع الخليط ، اسم جمع بمعنى القوم الذين أمرهم واحد ، وقد يكون مفردا بمعنى المخالط ، أو المشارك أو الجار أو الصاحب ، وزنه فعيل . . ووزن الخلطاء فعلاء بضمّ الفاء وفتح العين .

وثمّة جمع آخر للخليط هو خلط بضمّتين .

الفوائد

- (ما) المصدرية :

وهي نوعان :

آ - مصدرية فقط : وهي التي تؤول مع الفعل بعدها ، بمصدر ولا تفيد معنى الزمان ، كقوله تعالى عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ وَدُّوا ما عَنِتُّمْ والتقدير (عنتكم) وضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ أي (برحابتها) وقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ والتقدير (بنسيانهم) .

ب - مصدرية زمانية : وتفيد معنى المصدر والزمان ، كقوله تعالى وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ

وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا

---

(1) أو هي في محل جزم جواب شرط مقدر أي: إن تصديت للحكم فاحكم . . بالحق.

[. . . . .]

(260/663)

أصله (مدة دوامي حيا) ، فحذف الظرف ، وخلفته (ما) وصلتها كما جاء في المصدر الصريح نحو (جئتك صلاة العصر) وآتيك قدوم الحاج) ومنه قوله تعالى: (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ)

[سورة ص (38) : آية 27]

وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (الواو) الثانية والثالثة عاطفتين (ما) اسم موصول في محلّ نصب معطوف على السماء (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (باطلا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي خلقا باطلا " 1 " ، والإشارة في (ذلك) إلى

الخلق الباطل وهو مبتدأ في محلّ رفع خبره ظنّ (الفاء) عاطفة (ويل) مبتدأ مرفوع (للذين) متعلّق بمحذوف خبر (من النار) متعلّق بـ (ويل) .

جملة : " خلقنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ذلك ظنّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ويل للذين كفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذلك ظنّ .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

[سورة ص (38) : آية 28]

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28)

الإعراب :

(أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة ، للإنكار

---

(1) يجوز أن تكون حالا من الفاعل أي ذوي باطل .

(كالمفسدين) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله نجعل (في الأرض) متعلّق بالمفسدين

(أم) مثل الأولى (كالفجّار) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله نجعل الثاني .

جملة : " نجعل الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : " نجعل (الثانية) " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(الفجّار) ، جمع الفاجر اسم فاعل من الثلاثيّ فجر باب نصر أي عدل عن الحقّ أو كذب أو ركب المعاصي ، وزنه فاعل ، ويجمع على فاجرين وفجرة زنة فعلة بفتحتين .

[سورة ص (38) : آية 29]

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (29)

الإعراب :

(كتاب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا (إليك) متعلّق بـ (أنزلناه) ، (مبارك) خبر ثان مرفوع " 1 " ، (اللام) لام التعليل (يدّبروا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، وعلامة النصب حذف النون . .

و(الواو) فاعل . . .

والمصدر المؤوّل (أن يدّبروا) في محلّ جرّ بـ (اللام) متعلّق بـ (أنزلناه) .

(الواو) عاطفة (ليتذكّر) مثل (ليدّبروا) ، (أولو) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو فهو ملحق بجمع المذكّر .

جملة : " (هذا) كتاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة حال من كتاب لأنه وصف والعامل فيها الإشارة .

الجدول ج 23 ، ص : 121

وجملة : " أنزلناه . . " في محلّ رفع نعت لكتاب .

وجملة : " يدّبروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (أن) المضمر .

وجملة : " يتذكّر أولو . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (أن) المضمر الثاني .

والمصدر المؤوّل (أن يتذكّر . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أنزلناه) لأنه معطوف على المصدر الأول .

[سورة ص (38) : الآيات 30 إلى 34]

وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (31) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (32) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ (33) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (34)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لداود) متعلّق بـ (وهبنا) ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره سليمان - أو داود - جملة: "وهبنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "نعم العبد . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: "إنّه أوّاب . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

(31) (إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر " 1 " ، (عليه) متعلّق بـ (عرض) ، (بالعشيّ) متعلّق بـ (عرض) ، (الصافنات) نائب الفاعل مرفوع (الجياد) بدل من الصافنات - أو عطف بيان عليه - مرفوع.

وجملة: "عرض عليه . . . الصافنات" في محلّ جر مضاف إليه.

---

(1) يجوز أن يكون ظرفا متعلّقا بأوّاب.

(32) (الفاء) عاطفة (حبّ) مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه اسم مصدر " 1 " ، (عن ذكر) متعلّق بحال من فاعل أحببت أي لاهيا (حتّى) حرف غاية وجرّ (بالحجاب) متعلّق بـ (توارت) بتضمينه معنى استترت .

والمصدر المؤوّل (أن توارت) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (أحببت) .

وجملة : " قال . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة عرض . . .

وجملة : " إنّي أحببت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أحببت . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " توارت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

(33) (عليّ) متعلّق بـ (ردّوها) ، (طفق) ، ماض ناقص ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو يعود على سليمان (مسحا) مفعول مطلق لفعل محذوف أي يمسحها مسحا " 2 " (بالسوق) متعلّق بـ (يمسح) المقدّر " 3 " .

وجملة : " ردّوها . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول السابق .

وجملة : " طفق مسحا . . . " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر مستأنف أي فردّوها فطفق مسحا . . .

وجملة : " (يمسحها) مسحا " في محل نصب خبر طفق .

(34) (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق

---

(1) أو هو مفعول به عامله أحببت بتضمينه معنى آثرت أو أردت ، و(عن) بمعنى على . . وثمّة تأويلات أخرى بعيدة .

(2) أو هو مصدر في موضع الحال ، وهو اختيار العكبريّ .

(3) أو متعلّق بالمصدر (مسحا) ، ومفعول المسح محذوف أي يده . . وثمّة تفسير آخر للآية هو ضرب أعناق الخيل وسوقها بالسيف ، فـ (الباء) زائدة في قوله (بالسوق) ، والسوق منصوب محلّا مفعول به للمسح .

(264/663)

(على كرسيّه) متعلّق بـ (ألقينا) ، (جسدا) مفعول به منصوب " 1 " ، وفاعل (أناب) يعود على سليمان .

وجملة : " فتنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على استئناف في بدء القصّة " 2 " وجملة : " ألقينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " أناب . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

فخرج سليمان فأنكره قومه . . ثمّ أناب .

الصرف :

(31) الصافنات : جمع الصافنة أو الصافن ، اسم فاعل من الثلاثيّ صفن الفرس باب ضرب إذا أقامت على ثلاث قوائم ، وأقامت الرابعة على طرف الحافر ، وزنه فاعل .

(265/663)

(الجياد) ، جمع جواد ، اسم للفرس ذكرا أو أنثى ، وزنه فعال بفتح الفاء ، ووزن الجياد فعال بكسر الفاء ، وفيه إعلال ، أصله جواد تحرّكت الواو وانكسر ما قبلها قلبت ياء فأصبح (جياد) . . . وقيل الجياد جمع جيّد أو جمع جيد وهو العنق .

(32) حبّ : إمّا مصدر حبّ الثلاثيّ أو اسم مصدر من الرباعيّ أحبّ ، وزنه فعل بضمّ فسكون ، وعينه ولامه من حرف واحد .

(الخير) ، اسم بمعنى المال ، ويراد به الخيل ، وزنه فعل بفتح فسكون . قال الفرّاء : الخير والخيل في كلام العرب واحد .

(33) مسحا : مصدر سماعيّ لفعل مسح باب فتح ، وزنه فعل بفتح فسكون ، وهو بمعنى القطع أيضا .

---

(1) أو حال من المفعول المقدّر أي ألقيناه جسدا ، والضمير يعود على سليمان أو ابنه .

(2) أو الجملة استئنافيّة في معرض القصة .

(266/663)

(السوق) ، جمع ساق . . (انظر الآية 44 من سورة النمل) .

الفوائد

- فتنة سليمان عليه الصلاة والسلام :

ذكر أصحاب الأخبار ، عن سليمان عليه الصلاة والسلام ، أمورا لا تليق بمقام النبوة ، ولا يصدقها عقل سليم ، وتبدو هذه الأخبار من نسج اليهود ، الذين دأبوا على تشوية سمعة الأنبياء والنيل من كرامتهم ، ومن هذه الأخبار ما ذكروه ، بأن سليمان عليه الصلاة والسلام ، غزا ملكا في البحر ، وتزوج ابنته ، فجعلت تبكي والدها ، فصنع له الشياطين تمثالا لصورة والدها ، وألبسوا التمثال ثيابا تشبه ثياب والدها ، ثم صارت تسجد له مع ولائدها أربعين يوما ، دون أن يعلم سليمان . ثم إنه دخل على زوجته - أمينة ، فنسي خاتمه ، فجاء الشيطان صخر ، وتمثل بصورة سليمان عليه الصلاة والسلام ، وأخذ الخاتم ، وجلس على سرير ملكه أربعين يوما ، وبعد أن كشف أمره هب وألقي الخاتم في البحر ،

فابتلعته سمكة ، فأخذها سليمان وبقر بطنها ، وأخذ الخاتم ، وعاد إلى ملكه ، وأمر بالشيطان صخر ، فأدخله في جوف صخرة وسدّ عليه بأخرى ، ثم أوثقها بالحديد والرصاص ، ثم أمر به فقذفوه في البحر . إلى آخر الأسطورة ، التي تبدو – بما لا يدع مجالا للشك – من نسج الخيال ، ومن افتراءات اليهود الذين ما برحوا ينالون من الأنبياء والأطهار . قال القاضي عياض وغيره من المحققين : لا يصح ما نقله الأخباريون من تشبيه الشيطان بسليمان (صلّى اللّه عليه وسلم) وتسليطه على ملكه ، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه ، وإن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا ، وقد عصم اللّه تعالى الأنبياء من مثل هذا . والذي ذهب إليه المحققون ، أن سبب فتنته ما

(267/663)

أخرجاه في الصحيحين ، من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) : قال سليمان : لأطوفن الليلة على تسعين امرأة ، كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل اللّه تعالى . فقال له صاحبه : قل إن شاء اللّه ، فلم يقل : إن شاء اللّه ، فطاف عليهن جميعا ، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة ، جاءت بشق رجل ، وايم اللّه الذي نفسي بيده ، لو قال إن شاء اللّه لجاهدوا في سبيل اللّه فرسانا أجمعون ، وفي رواية

لأطوفن بمئة امرأة ،

فقال له الملك : قل إن شاء اللّه فلم يقل ونسي . قال العلماء : والشق هو الجسد الذي ألقي على كرسيه ، وهي عقوبته ومحنته ، لأنه لم يستثن لما استغرقه من الحرص ، وغلب عليه من التمني ،

وقيل : نسي أن يستثني ، كما صح في الحديث ، لينفذ أمر اللّه ومراده فيه . واللّه أعلم .

ومعنى : لم يستثن أي لم يقل إن شاء اللّه .

[سورة ص (38) : آية 35]

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35)

الإعراب :

(ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف . . . و(الياء) مضاف إليه (لي) متعلّق بـ (اغفر) ، (لي) الثاني متعلّق بـ (هب) ، (لا) نافية (لأحد) متعلّق بـ (ينبغي) ، (من بعدي) متعلّق بنعت لأحد (أنت) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ " 1 " خبره (الوهّاب) .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء وجوابها . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اغفر . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " هب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اغفر .

وجملة : " لا ينبغي . . . " في محلّ نصب نعت لـ (ملكا) .

وجملة : " إنّك أنت الوهّاب " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " أنت الوّهاب . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

[سورة ص (38) : الآيات 36 إلى 40]

---

(1) أو ضمير مؤكّد للضمير المتصل اسم إنّ أستعير لمحلّ النصب .

فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (36) وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (38) هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (39) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (40)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (له) متعلّق بـ (سخّرنا) ، (بأمره) متعلّق بحال من فاعل تجري (رخاء) حال منصوبة من الريح (حيث) ظرف مكان مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب متعلّق بـ (تجري) .

جملة : " سخّرنا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال " 1 " .

وجملة : " تجري . . . " في محلّ نصب حال من الريح .

وجملة : " أصاب . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(37 – 39) (الواو) عاطفة (الشياطين) معطوف على الريح منصوب (كلّ) بدل من الشياطين بعض من كلّ . . (الواو) عاطفة (آخرين) معطوف على كلّ بناء (في الأصفاد) متعلّق بمقرّنين (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أو) حرف عطف للتخيير (بغير) متعلّق بحال من (عطاؤنا) " 2 " .

وجملة : " هذا عطاؤنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة مقرّرة لمضمون ما سبق " 3 " .

وجملة : " امنن . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أردت أن تمنن فامنن .

وجملة : " أمسك . . . " معطوفة على جملة امنن .

(40) (الواو) حاليّة (إنّ له . . . مآب) مرّ إعرابها " 4 " .

وجملة : " إنّ له . . . لزلفى . . " في محلّ نصب حال من فاعل سخّرنا .

الصرف :

(36) رخاء : صفة مشبّهة من الثلاثيّ رخا باب نصر

---

(1) في الآية السابقة (35) .

(2) أو حال من فاعل امنن ، أو من فاعل أمسك .

(3) أو هي مقول القول لقول مقدّر أي قلنا له هذا عطاؤنا . . والقول المقدّر مستأنف .

(4) في الآية (25) من هذه السورة .

و باب فرح وباب كرم ، وزنه فعال بضمّ الفاء ، وفيه إبدال حرف العلّة – لام الكلمة – همزة لمجيئه متطرّفا بعد ألف ساكنة ، أصله رخاو أو رخاي .

(37) بنّاء : مبالغة اسم الفاعل من فعل بنى باب ضرب ، وزنه فعّال بفتح الفاء ، وفيه إبدال حرف العلّة همزة بعد الألف الساكنة .

(غوّاص) ، مبالغة اسم الفاعل من الثلاثيّ غاص باب نصر ، وزنه فعّال بفتح الفاء .

[سورة ص (38) : آية 41]

وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ (41)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (أيوب) عطف بيان على عبدنا منصوب (إذ) ظرف في محلّ نصب بدل من عبدنا (بنصب) متعلّق بـ (مسّني) . .

والمصدر المؤوّل (أنّي مسّني الشيطان . .) في محلّ جرّ بـ (باء) محذوفة متعلّق بـ (نادى) .

جملة: "اذكر . . . "لا محلّ لها استئنافيّة" 1 " .

وجملة: "نادى . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "مسّني الشيطان . . . "في محلّ رفع خبر أنّ.

الصرف:

(نصب) ، قيل هو جمع نصب بفتحتين ، وقيل هو لغة في النصب كالحزن والحزن بضمّ فسكون في الأول وفتحتين في الثاني ، مصدر سماعيّ لفعل نصب ينصب باب فرح بمعنى تعب.

[سورة ص (38) : آية 42]

ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ (42)

الإعراب:

(برجلك) متعلّق بـ (اركض) بتضمينه معنى اضرب

---

(1) أو معطوفة على جملة اذكر إذ عرض عليه . . . المقدّرة في الآية (34) : [. . . . .]

(شراب) معطوف على مغتسل مرفوع مثله .

جملة : " اركض برجلك . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي : قلنا اركض

. . .

وجملة : " هذا مغتسل . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر آخر . أي فقلنا هذا مغتسل . . وبين القولين كلام مقدّر أي : فضرب الأرض فنبعت عين ماء فقلنا . . .

الصرف :

(مغتسل) ، اسم مفعول بمعنى الماء من الخماسيّ اغتسل ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وفتح العين . . وقد يكون اسم مكان .

(بارد) ، اسم فاعل من (برد) الثلاثيّ باب نصر ، وزنه فاعل .

[سورة ص (38) : الآيات 43 إلى 44]

وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)

الإعراب :

(الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (له) متعلّق بـ (وهبنا) ، (مثلهم) معطوف على أهله منصوب (معهم) ظرف منصوب متعلّق بحال من مثلهم (رحمة) مفعول لأجله منصوب (منّا) متعلّق بنعت لرحمة (لأولي) متعلّق بذكرى .

جملة : " وهبنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر مستأنف أي :

كشفنا ما به ووهبنا . . .

(44) (الواو) عاطفة في الموضعين (بيدك) متعلّق بحال من (ضغثا) " 1 " ، (الفاء) عاطفة (به) متعلّق بـ (اضرب) (لا) ناهية جازمة (إنّا) حرف مشبّه

---

(1) أو متعلّق بـ (خذ) .

بالفعل واسمه (صابرا) مفعول به ثان منصوب (نعم العبد إنّه أوّاب) مرّ إعرابها " 1 " .

وجملة : " خذ . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي :

قلنا خذ . . وجملة القول المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على جملة وهبنا .

وجملة : " اضرب . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة خذ .

وجملة : " لا تحنث . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة اضرب .

وجملة : " إنّا وجدناه . . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - وجملة : " وجدناه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " نعم العبد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّه أوّاب . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(ضغثا) ، اسم للحزمة الصغيرة من الحشيش أو القضبان ، وزنه فعل بكسر فسكون .

الفوائد

- البرّ بالقسم :

---

(1) في الآية (30) من هذه السورة .

يروى أن زوجة أيوب - عليه الصلاة والسلام - أبطأت عليه يوما في حاجة له ، فحلف ليضربن امرأته مائة سوط إذا برىء ، فحلل اللّه يمينه بأهون شيء عليه وعليها ، لحسن خدمتها ، فأمره بأن يأخذ ضغثا (حزمة من حشيش) يشتمل على مائة عود صغار ، فيضربها به ضربة واحدة ، ففعل ولم يحنث في يمينه . وهل هذا الحكم الفقهي لأيوب خاصة أمّ لنا عامّة ؟ هناك قولان : أحدهما أن هذا الحكم عام ، وبه قال ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، وثانيهما : أنه خاص بأيوب ، قاله مجاهد . واختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده مائة سوط ، فجمعها وضربه بها ضربة واحدة .

فقال مالك والليث بن سعد وأحمد : لا يبر بقسمه ، وقال أبو حنيفة والشافعي : إذا

ضربه ضربة واحدة فأصابه كل سوط على حدة فقد برّ بقسمه ، واحتجوا بعموم هذه الآية ، والقول الثاني هو الأرجح في هذه المجال ، لعموم الآية ، إذ ليست العبرة بخصوص السبب ، وإنما بعموم المعنى . والله أعلم . وفي قصة أيوب درس بليغ لتربية النفس وتعويدها الصبر ، والتمرس بمواجهة الصعاب ، والصبر على الشدائد ، وإحياء الأمل المشعّ أبدا في أعماق قلوب الصابرين .

[سورة ص (38) : الآيات 45 إلى 47]

وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (47)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إبراهيم) بدل من عبادنا - أو عطف بيان عليه - منصوب (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (أولي) نعت للأسماء المتقدّمة منصوب وعلامة النصب الياء ملحق بجمع المذكّر (الأبصار) معطوف على الأيدي مجرور .

جملة : " اذكر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

(46) (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (بخالصة) متعلّق بـ (أخلصناهم) ، (ذكرى) بدل من خالصة مجرور مثله " 2 " ، وجملة : " إنّا أخلصناهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أخلصناهم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(47) (الواو) عاطفة (عندنا) ظرف منصوب متعلّق بالمصطفين (اللام) المزحلقة للتوكيد (من المصطفين) متعلّق بخبر إنّ .

---

(1) يجوز عطفها على جملة اذكر متقدّمة .

(2) إذا كان (خالصة) مصدرا جاز في (ذكرى) أن يكون مفعولا به عامله المصدر . . ويجوز أن يكون (ذكرى) خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هي ، والجملة نعت لخالصة .

وجملة : " إنّهم . . . لمن المصطفين " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّا أخلصناهم .

الصرف :

(المصطفين) ، جمع المصطفى ، اسم مفعول من الخماسيّ اصطفى ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وفتح العين ، وفيه إعلال بالحذف ، حذفت الألف لالتقائها ساكنة مع الياء الساكنة

وتركت الفتحة على الفاء دلالة على الألف المحذوفة فوزنه المفتعين . . وفيه إبدال تاء الافتعال طاء لمجيئها بعد الصاد أصله المصتفين .

(الأخيار) ، جمع خيّر صفة مشبّهة من خار يخير باب ضرب وزنه فيعل ، وقد أدغمت ياء فيعل مع عين الكلمة ، ووزن أخيار أفعال .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ " .

الأيد مجاز مرسل عن القوة ، والأبصار جمع بصر بمعنى بصيرة وهو مجاز أيضا .

أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة ، على أن ذكر الأيدي من ذكر السبب وإرادة المسبب ، والأبصار بمعنى البصائر مجاز عما يتفرع عليها من العلوم .

[سورة ص (38) : آية 48]

وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (48)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة والثانية عاطفة (ذا) معطوف على إسماعيل منصوب وعلامة النصب الألف (من الأخيار) متعلّق بخبر المبتدأ كلّ .

جملة: "اذكر . . . "لا محلّ لها استئنافيّة" 1 " .

وجملة: "كلّ من الأخيار . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

(1) أو معطوفة على جملة اذكر متقدّمة مذكورة أو مقدّرة.

الصرف:

(اليسع) ، نبيّ من بني إسرائيل هو ابن أخطوب . .

استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثمّ استنبئ ، لفظه أعجميّ ، وقيل مأخوذ من الوسع.

[سورة ص (38) : الآيات 49 إلى 54]

هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (50) مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ (51) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (52) هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (53) إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (54)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (للمتّقين) متعلّق بخبر إنّ (اللام) للتوكيد (حسن) اسم إنّ مؤخّر منصوب .

جملة : " هذا ذكر . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ للمتّقين لحسن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(50 - 51) (جنّات) عطف بيان على حسن (مفتّحة) حال من جنّات عدن والعامل فيها ما في المتّقين من معنى الفعل والرابط مقدّر أي منها (لهم) متعلّق بمفتّحة (الأبواب) نائب الفاعل لاسم المفعول مفتّحة (متّكئين) حال من الضمير في (لهم) ، (فيها) متعلّق بمتّكئين ، والثاني متعلّق بـ (يدعون) ، (بفاكهة) متعلّق بـ (يدعون) .

وجملة : " يدعون . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في متّكئين " 1 " .

(52) - (الواو) عاطفة (عندهم) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ قاصرات (أتراب) بدل من قاصرات - أو نعت له - مرفوع .

---

(1) أو حال ثانية من الضمير في (لهم) . . أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " عندهم قاصرات . . " معطوفة على جملة يدعون تأخذ محلّها من الإعراب .

(53) (ما) اسم موصول في محلّ رفع خبر المبتدأ هذا ، و(الواو) في (توعدون) نائب الفاعل (ليوم) متعلّق بـ (توعدون) .

وجملة : " هذا ما توعدون . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر . . .

وجملة : " توعدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(54) (اللام) المزحلقة للتوكيد (ما) نافية مهملة (له) متعلّق بخبر مقدّم (نفاد) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر .

وجملة : " إنّ هذا لرزقنا . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما له من نفاد . . " في محلّ نصب حال من رزقنا .

الصرف :

(50) مفتّحة : مؤنّث مفتّح ، اسم مفعول من (فتح) الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة .

(52) أتراب : جمع ترب ، صفة مشبهة من الرباعيّ تأرب أي ساوى في العمر ، ويستعمل في المذكّر والمؤنّث وزنه فعل بكسر فسكون ، ووزن أتراب أفعال .

(54) نفاد : مصدر سماعيّ لفعل نفد باب فرح ، وزنه فعال بفتح الفاء ، وثمّة مصدر آخر هو نفذ بفتحتين .

[سورة ص (38) : الآيات 55 إلى 59]

هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (56) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (58) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (59)

الإعراب :

(هذا) اسم إشارة مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره

الجدول ج 23 ، ص : 134

للمؤمنين " 1 " ، (للطاغين) متعلّق بخبر (إنّ) (اللام) للتوكيد (شرّ) اسم (إنّ) منصوب .

جملة : " هذا (للمؤمنين) . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ للطاغين لشرّ . . . " لا محل لها استئنافيّة .

(56) (جهنّم) بدل من شرّ - أو عطف بيان عليه - منصوب (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر ، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره هي أي جهنّم .

وجملة : " يصلونها . . . " في محلّ نصب حال من جهنّم .

وجملة : " بئس المهاد . . . " في محلّ جزم جواب الشرط المقدّر أي إن كان هذا حالها فبئس المهاد هي " 2 " .

(57) (هذا) مبتدأ خبره حميم " 3 " ، (الفاء) زائدة للتنبيه (اللام) لام الأمر .

وجملة : " هذا . . . حميم " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يذوقوه " لا محلّ لها اعتراضيّة .

(58) (الواو) عاطفة (آخر) مبتدأ مرفوع (من شكله) متعلّق بنعت لآخر (أزواج) خبر المبتدأ آخر .

وجملة : " آخر من شكله أزواج " لا محلّ لها معطوفة على جملة هذا . . . حميم .

(59) (معكم) ظرف منصوب متعلّق بحال من الضمير في مقتحم " 4 " ، (لا)

---

(1) أجاز بعضهم أن يكون اسم الإشارة خبرا لمبتدأ محذوف تقديره الأمر هذا .

(2) يجوز أن تكون الجملة استئنافيّة .

(3) أو مفعول به لمحذوف يفسّره يذوقوه . . ويجوز أن يكون خبر (هذا) مقدّر أي هذا عذاب ، و(حميم) خبر لمبتدأ مقدّر .

(4) أو حال من فوج فهو موصوف .

نافية (مرحبا) مفعول به لفعل محذوف تقديره أتيتم " 1 " ، (بهم) متعلّق بنعت لـ (مرحبا) " 2 " .

وجملة : " هذا فوج . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر .

وجملة : " لا مرحبا بهم " لا محلّ لها اعتراضيّة " 3 " .

وجملة : " إنّهم صالو . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(57) غسّاق : اسم لما يسيل من الجرح قيحا أو صديدا ، فعله غسق باب ضرب وزنه فعّال بفتح الفاء .

(شكله) : اسم لما يكون الشيء على صورة ما وزنه فعل بفتح فسكون .

(59) مقتحم : اسم فاعل من الخماسي اقتحم ، وزنه مفتعل بضم الميم وكسر العين .

(مرحبا) ، اسم مكان من الثلاثيّ رحب ، وزنه مفعل بفتح العين لأن مضارعه مضموم العين . . . أو هو مصدر ميميّ من الثلاثيّ الصحيح السالم .

(صالو) ، جمع صال . . . انظر الآية (163) من سورة الصافّات ، فيه إعلال بالحذف ، حذفت لامه لالتقائها ساكنة مع واو علامة الرفع ، أصله صاليو وذلك بعد تسكينه ونقل حركته إلى الحرف الذي قبله وزنه فاعو .

---

(1) أو مفعول مطلق لفعل محذوف .

(2) أو متعلّق بالمصدر الميميّ (مرحبا) .

(3) أو هي مقول القول لقول مقدّر هو قول الكبراء الذين عبّر عنهم القرآن بضمير الخطاب بلفظ (معكم) . . وجملة القول حال .

(278/663)

الفوائد

- الفاء الزائدة :

وهي التي دخولها في الكلام كخروجها ، وهذا لا يثبته سيبويه ، وأجاز الأخفش زيادتها في الخبر مطلقا ، وحكى : " أخوك فوجد " . وقيّد الفراء والأعلم وجماعة الجواز بكون الخبر أمرا أو نهيا ، فالأمر كقوله :

وقائلة : خولان فانكح بناتهم وأكرومة الحيين خلو كما هي

وحمل عليه الزجاج قوله تعالى في الآية التي نحن بصددها هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ .

والنهي نحو (زيد فلا تضربه) ، وقال ابن برهان : تزاد الفاء عند أصحابنا جميعا ، كقول :

النمر بن تولب :

لا تجزعي إن منفس أهلكته فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعي

ومن زيادتها قول الشاعر :

لما اتقى بيد عظيم جرمها فتركت ضاحي جلدها يتذبذب

لأن الفاء لا تدخل في جواب لما ، خلافا لابن مالك

[سورة ص (38) : آية 60]

قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (60)

الإعراب :

(بل) للإضراب (لا مرحبا بكم) مثل لا مرحبا بهم " 1 " ، والواو في (قدّمتموه) زائدة هي إشباع حركة الميم (لنا) متعلّق بـ (قدّمتموه) ، (فبئس القرار) مثل فبئس المهاد " 2 "

مفردات وجملا .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . ومقول القول محذوف أي لا تشتمونا بل أنتم . . .

وجملة : " أنتم لا مرحبا بكم " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) في الآية (59) السابقة . [. . . . .]

(2) في الآية (56) من هذه السورة .

وجملة : " لا مرحبا بكم " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي : أنتم أحقّ بالقول : لا مرحبا بكم ، فخبر (أنتم) مقدّر . .

وجملة : " أنتم قدّمتموه . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " قدّمتموه لنا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) الثاني .

[سورة ص (38) : آية 61]

قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (61)

الإعراب :

(لنا) متعلّق بـ (قدّم) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (عذابا) مفعول به ثان منصوب (ضعفا) نعت لـ (عذابا) (في النار) متعلّق بـ (زده) " 1 " .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " من قدّم . . . " لا محلّ لها جواب لنداء .

وجملة : " قدّم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " زده . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

[سورة ص (38) : الآيات 62 إلى 63]

وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (62) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ

الْأَبْصارُ (63)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة – أو عاطفة – (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (لنا) متعلّق بخبر المبتدأ (لا) نافية (من الأشرار) متعلّق بـ (نعدّهم) " 2 " .

---

(1) أو متعلّق بحال من الضمير في (زده) ، أو من (عذابا) .

(2) أو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " ما لنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا نرى . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (لنا) .

وجملة : " كنّا نعدّهم . . . " في محلّ نصب نعت لـ (رجالا) .

وجملة : " نعدّهم . . . " في محلّ نصب خبر كنّا .

(63) (الهمزة) للاستفهام (سخريّا) مفعول به ثان منصوب (أم) عاطفة وهي المتّصلة (عنهم) متعلّق بـ (زاغت) .

وجملة : " اتّخذناهم سخريّا " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " زاغت عنهم الأبصار " لا محلّ لها معطوفة على جملة اتّخذناهم .

الصرف :

(الأشرار) ، جمع شرير زنة فعيل بفتح الفاء وكسر العين المخفّفة ، صفة مشبّهة من (شرّ) الثلاثيّ من الأبواب نصر وضرب وفتح ، ويجمع على أشرار زنة أفعال ، فلمّا كانت عينه ولامه من ذات الحرف نقلت الكسرة إلى الفاء فكسرت الشين . أمّا شرّير بكسر الشين والراء المشدّدة فهو مبالغة اسم الفاعل ، جمعه شرّيرون .

[سورة ص (38) : آية 64]

إِنَّ ذٰلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النّارِ (64)

الإعراب :

الإشارة في (ذلك) إلى ما حكي من أحوال الكافرين (اللام) هي المزحلقة للتوكيد (تخاصم) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو .

جملة : " إنّ ذلك لحق . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تخاصم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) أو معطوفة على جملة قالوا في الآية السابقة (61) .

الصرف :

(تخاصم) ، مصدر قياسيّ للخماسيّ تخاصم ، فهو على وزن ماضيه بضمّ ما قبل آخر .

البلاغة

التشبيه : في قوله تعالى " إِنَّ ذِلكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ " .

شبه تقاولهم وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك .

[سورة ص (38) : الآيات 65 إلى 66]

قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة (الواو) عاطفة (ما) نافية (إله) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ (إلّا) للحصر (اللّه) خبر مرفوع (الواحد ، القهّار ، ربّ ، العزيز ، الغفار) نعوت للفظ الجلالة مرفوعة (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول في محلّ جرّ معطوف على السموات .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنا منذر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما من إله إلّا اللّه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

الصرف :

(الغفّار) ، مبالغة اسم الفاعل من فعل غفر باب ضرب ، وزنه فعّال بفتح الفاء ، وتشديد العين المفتوحة .

[سورة ص (38) : الآيات 67 إلى 70]

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) ما كانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70)

الإعراب :

(عنه) متعلّق بـ (معرضون) ، (ما) نافية (لي) متعلّق بخبر كان (علم) مجرور لفظا مرفوع محلّا اسم كان (بالملإ) متعلّق بعلم (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بمقدّر هو مضاف إلى الملأ أي علم بكلام الملأ الأعلى . . (إن) نافية (إليّ) متعلّق بـ (يوحى) ، (إلّا) للحصر (أنّما) كافّة ومكفوفة . .

والمصدر المؤوّل (أنّما أنا نذير . . .) في محلّ رفع نائب الفاعل لفعل يوحى .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو نبأ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنتم عنه معرضون " في محلّ رفع نعت ثان لنبأ .

وجملة : " ما كان لي من علم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يختصمون " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يوحى إليّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الفوائد

- اختصام الملأ الأعلى :

(282/663)

لقد تجادل الملائكة في شأن آدم عليه الصلاة والسلام - حين قال اللّه تعالى إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً - فقالوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ فإن قلت : كيف يجوز أن يقال إن الملائكة اختصموا بسبب قولهم :

أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ والمخاصمة مع اللّه تعالى لا تليق ولا تمكن ، قلت : لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب ، وذلك يشبه المخاصمة والمناظرة ، وهو علة لجواز المجاز ، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة ،

عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) أتاني ربي في

أحسن صورة ، قال :

أحسبه قال في المنام ، فقال : يا محمد ، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ، قلت : لا ، قال : فوضع يده بين كتفيّ ، حتى وجدت بردها بين ثدييّ ، أو قال : في نحري ، فعلمت ما في السموات وما في الأرض ، قال : يا محمّد ، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم في الكفارات (أي الأعمال الحسنة التي تكفر الذنوب) والكفارات : المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء على المكاره ، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير ، وخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ، وقال : يا محمد ، إذا صليت فقل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبّ المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون . قال : والدرجات ، إفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام . وفي رواية : فقلت : لبيك وسعديك في المرتين ، وفيها فعلمت ما بين المشرق والمغرب . أخرجه الترمذي

وقال : حديث حسن غريب . وللعلماء في هذا الحديث وفي أمثاله من أحاديث الصفات مذهبان :

آ - مذهب السلف : ويقتضي الاعتقاد بذلك كما جاء في غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والإيمان به من غير تأويل ، والسكوت عنه وعن أمثاله ، مع الاعتقاد بأن اللّه تعالى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ب - المذهب الثاني : هو تأويل الحديث بما يليق بجلال اللّه ، وينفي عنه كل نقص ، وأنه ليس كمثله شيء ، وقد أولوا الحديث بأن المراد باليد النعمة والمنة والرحمة ، وذلك شائع في لغة العرب ، يكون معناه على هذا الإخبار بإكرام اللّه تعالى إياه وإنعامه عليه بأن شرح صدره ، ونوّر قلبه ، وعرفه ما لا يعرفه أحد حتى وجد برد النعمة والمعرفة في قلبه ، وذلك لما نوّر قلبه ، شرح صدره ، فعلم ما في السموات وما في الأرض ، بإعلام اللّه تعالى إياه ، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون ، إذ لا يجوز على اللّه تعالى ولا على صفات ذاته مماسة أو مباشرة أو نقص ، وهذا هو أليق بتنزيهه وحمل الحديث عليه . وإذا حملنا الحديث على المنام ، فقد زال الإشكال ، وحصل الفرض ، ولا حاجة بنا إلى التأويل ، ورؤية البارئ عز وجل في المنام على الصفات الحسنة دليل على البشارة والخير والرحمة للرائي .

[سورة ص (38) : الآيات 71 إلى 74]

إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (71) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (74)

الإعراب :

(إذ) ظرف للزمن الماضي بدل من الظرف الأول " 1 " (للملائكة) متعلّق بـ (قال) ، (بشرا) مفعول به لاسم الفاعل خالق (من طين) متعلّق بنعت لـ (بشرا) .

جملة : " قال . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إنّي خالق . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(72) (الفاء) عاطفة وكذلك (الواو) ، (فيه) متعلّق بـ (نفخت) ، (من روحي) متعلّق بـ (نفخت) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (له) متعلّق بـ (قعوا) بتضمينه معنى اسجدوا " 2 " ، (ساجدين) حال منصوبة من فاعل قعوا .

وجملة : " سوّيته . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نفخت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة سوّيته .

وجملة : " قعوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(73) (الفاء) عاطفة (كلّهم) توكيد معنوي للملائكة مرفوع (أجمعون) توكيد معنويّ ثان مرفوع .

وجملة : " سجد الملائكة . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : فخلقه فسّواه فنفخ فيه الروح فسجد الملائكة .

---

(1) في الآية (69) من هذه السورة . . ويجوز أن يكون اسما ظرفيا في محلّ نصب مفعول

به لفعل محذوف تقديره اذكر .

(2) أو متعلّق بساجدين .

(284/663)

---

(74) (إلّا) للاستثناء (إبليس) منصوب على الاستثناء المنقطع أو المتّصل بحسب تفسير معنى إبليس (من الكافرين) متعلّق بخبر كان .

وجملة : " استكبر . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كان من الكافرين " لا محلّ لها معطوفة على جملة استكبر .

الصرف :

(72) قعوا : فيه إعلال بالحذف فهو معتلّ مثال تحذف فاؤه في المضارع والأمر ، وزنه علوا بفتح العين .

[سورة ص (38) : آية 75]

قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (75)

الإعراب :

(ما) اسم استفهام مبتدأ (لما) متعلّق بـ (تسجد) ، والعائد محذوف (بيديّ) متعلّق بحال

من فاعل خلقت (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (أم) متّصلة عاطفة (من العالين) خبر كنت .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء وجوابه في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة : " ما منعك أن تسجد . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تسجد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

---

(1) يجوز أن تكون جملة النداء اعتراضية وجملة ما منعك مقول القول .

والمصدر المؤوّل (أن تسجد) في محلّ جرّ بـ (من) محذوف متعلّق بـ (منعك) أي ما منعك من السجود .

وجملة : " خلقت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " استكبرت " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " كنت من العالين " لا محلّ لها معطوفة على جملة استكبرت .

البلاغة

التغليب : في قوله تعالى " ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ " .

تغليب لليدين على غيرهما من الجوارح التي تباشر بها الأعمال ، لأنّ ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه ، فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما ، حتى قيل في عمل القلب : هو مما عملت يداك ، وحتى قيل لمن لا يد له : يداك أوكتا وفوك نفخ ، وحتى لم يبق فرق بين قولك : هذا مما عملته ، وهذا مما عملته يداك ، ومنه قوله تعالى " مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا " ، و " لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ "

[سورة ص (38) : آية 76]

قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76)

الإعراب :

(منه) متعلّق بخير ، والنون في (خلقتني) للوقاية (من نار) متعلّق بـ (خلقتني) ، (من طين) بـ (خلقته) .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أنا خير منه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " خلقتني . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - وجملة : " خلقته . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقتني .

[سورة ص (38) : الآيات 77 إلى 78]

قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (78)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (منها) متعلّق بـ (اخرج) ، (الفاء) تعليليّة .

جملة : " قال . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(286/663)

وجملة : " اخرج منها . . . " جواب شرط مقدّر أي : إن أبيت السجود فاخرج . .

وجملة الشرط وفعله وجوابه في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّك رجيم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(78) (الواو) عاطفة (عليك) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (إلى يوم) متعلّق بـ (لعنتي) .

وجملة : " إنّ عليك لعنتي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنك رجيم .

[سورة ص (38) : آية 79]

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79)

الإعراب :

(ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة

للتخفيف . . و(الياء) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (إلى يوم) متعلّق بـ (أنظرني) ، و(النون) الثانية في الفعل للوقاية ، والواو في (يبعثون) نائب الفاعل .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول " 1 " وجملة : " أنظرني . . . " في محل جزم جواب شرط مقدّر أي : إن جعلتني رجيما فأنظرني . . .

وجملة : " يبعثون " في محلّ جرّ مضاف إليه .

[سورة ص (38) : الآيات 80 إلى 81]

قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81)

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (من المنظرين) متعلّق بخبر إنّ (إلى يوم) متعلق بالمنظرين .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) يجوز أن تكون جملة النداء اعتراضيّة ، والشرط وجوابه مقول القول .

وجملة : " إنّك من المنظرين " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي :

إن رغبت الإنظار فإنك من المنظرين . . والشرط وفعله وجوابه في محل نصب مقول القول .

[سورة ص (38) : الآيات 82 إلى 83]

قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83)

الإعراب :

(الفاء) لتعلّق ترتيب الجملة على الإنظار ، (الباء) باء القسم ، والجار والمجرور متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (اللام) لام القسم (أجمعين) توكيد للضمير المفعول في (أغوينّهم) " 1 " .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (أقسم) بعزّتك . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنا ، والجملة الاسميّة جواب الشرط المقدّر أي : إن أنظرتني فأنا أقسم . . . لأغوينّهم ، والشرط والجواب مقول القول .

وجملة : " أغوينّهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

(82) (إلّا) للاستثناء (عبادك) منصوب على الاستثناء المنقطع - أو المتّصل - (منهم) متعلّق بالمخلصين " 2 " .

[سورة ص (38) : الآيات 84 إلى 85]

قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (الحقّ) الأول مبتدأ مرفوع ، والخبر محذوف تقديره منّي " 3 " ، (الواو) اعتراضيّة (الحقّ) الثاني

---

(1) أو حال منصوبة وعلامة النصب الياء .

(2) كثير من المعربين يأبون هذا التعليق لتقدّم معمول الصلة على الموصول ، ولكنّ الأسلوب القرآنيّ لا يمنع ذلك .

(3) أو قسمي ، أو جملة القسم وجوابه . . . ويجوز أن يكون الحقّ خبرا لمبتدأ محذوف تقديره أنا ، أو قولي .

الجدول ج 23 ، ص : 147

مفعول به مقدّم منصوب .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " الحقّ (منّي) " في محل جزم جواب شرط مقدّر أي : إن غووا بك فالحقّ مني . . . والشرط وجوابه مقول القول .

وجملة : " أقول . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

(85) (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (منك) متعلّق بـ (أملأن) ، وكذلك (ممن) ، (منهم) متعلّق بحال من العائد (أجمعين) توكيد معنويّ للضمير في (منك) وما عطف عليه " 1 " ، مجرور وعلامة الجرّ الياء .

(288/663)

وجملة : " أملأن . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة في محل نصب بدل من الحقّ مفعول أقول " 2 " .

وجملة : " تبعك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

[سورة ص (38) : الآيات 86 إلى 88]

قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88)

الإعراب :

(ما) نافية (عليه) متعلّق بأجر (أجر) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به ثان (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس " 3 " ، (من المتكلّفين) متعلّق بخبر ما " 4 " جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما أسألكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أجاز الزمخشريّ أن يكون توكيدا للضمير في (منهم) .

(2) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(3) أو مهملة ، والضمير (أنا) مبتدأ [. . . . .]

(4) أو متعلّق بخبر المبتدأ أنا .

(289/663)

وجملة : " ما أنا من المتكلّفين " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

(87) (إن) نافية (إلّا) للحصر (للعالمين) متعلّق بذكر – أو بنعت لذكر – .

وجملة : " إن هو إلّا ذكر . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

(88) الواو عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (تعلمنّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون ، وقد حذفت لتوالي الأمثال ، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و(النون) نون التوكيد (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تعلمنّ) " 1 " .

وجملة : " تعلمنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر ، وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على جملة إن هو إلّا ذكر .

الصرف :

(المتكلّفين) ، جمع المتكلّف ، اسم فاعل من تكلّف الخماسيّ ، وزنه متفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 23 صـ 101.148 ﴾

---

(1) أو متعلّق بالمفعول الثاني لـ (تعلمن) إذا كان العلم على بابه فينصب مفعولين .

(290/663)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(38) سورة ص

مكية وآياتها ثمان وثمانون

[سورة ص (38) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ (3) وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (4)

أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (5)

الإعراب :

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) ص تقدم القول فيها مفصلا وسيرد مزيدا منه في باب الفوائد .

والواو حرف قسم والقرآن مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف وجواب القسم محذوف على الأرجح تقديره إنه لمعجز أو لقد جاءكم الحق وسيرد المزيد من إعراب هذه الآية وما قيل فيها وذي الذكر نعت للقرآن ومعنى الذكر البيان أو الشرف أو الموعظة والذكرى وكلها صحيح . (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)

بل حرف عطف وإضراب

انتقالي والذين مبتدأ وكفروا صلته وفي عزة خبره وشقاق عطف على عزة أي تكبر وتجبر وشقاق أي امتناع عن قبول الحق . (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)

كم خبرية في محل نصب مفعول مقدم لأهلكنا وأهلكنا فعل وفاعل ومن قبلهم متعلقان بأهلكنا ومن قرن تمييز كم الخبرية والمراد بالقرن الأمة ، فنادوا الفاء عاطفة ونادوا فعل ماض والواو فاعل والواو حالية ولات حرف مشبه بليس وسيأتي القول عنها وعن التاء المتصلة بها مفصلا في باب الفوائد واسمها محذوف تقديره الحين وحين مناص خبرها أي نجاة .

)

وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ) الواو عاطفة وعجبوا فعل ماض والواو فاعل وأن مصدرية وهي مع ما في حيزها مصدر منصوب بنزع الخافض أي عجبوا من مجيء منذر ومنذر فاعل مؤخر ومنهم نعت لمنذر والواو حرف عطف وقال الكافرون فعل وفاعل وفيه وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا للكفر عليهم وامعانا في الغضب عليهم وإشعارا بأن كفرهم حداهم إلى هذا القول وهذا مبتدأ وساحر خبر وكذاب خبر ثان أو نعت لساحر .

(أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ) الهمزة للاستفهام التعجبي أي تعجبوا من هذا الحصر لأنهم قاسوا الغائب على الشاهد جهلا منهم وارتطاما بسوء الغفلة وجعل فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو والآلهة مفعول به أول وإلها مفعول به ثان وواحدا صفة وإن واسمها واللام المزحلقة وشيء خبرها وعجاب صفة لشيء .

قال الجوهري : العجيب الأمر الذي يتعجب منه وكذلك العجاب بالضم والعجاب بالتشديد أكثر منه .

الفوائد :

1- جواب القسم المحذوف وتقديره :

تقدم القول مفصلا في فواتح السور ورجحنا أنها خبر لمبتدأ محذوف أي هذه صاد . وأما

جواب القسم فقد اختلفوا فيه كثيرا وأصح ما رأيناه هو أنه محذوف وقد اقتصر عليه الزمخشري والبيضاوي ، قال الحوفي تقديره : لقد جاءكم الحق وقال ابن عطية تقديره : ما الأمر كما تزعمون وقال الزمخشري تقديره : إنه لمعجز .

2- القول في لات :

لات : هي إحدى الحروف العاملات عمل ليس وهي ما ولا ولات وإن لشبهها بها في النفي ، وأما لات فأصلها لا النافية ثم زيدت عليها التاء لتأنيث اللفظ أو للمبالغة في معناه وخصت بنفي الأحيان ، وزيادة التاء هنا أحسن منها في ثمت وربت لأن لا محمولة على ليس وليس تتصل بها التاء ومن ثم لم تتصل بلا المحمولة على إن وهي كلمتان عند الجمهور : لا النافية وتاء التأنيث وحركت لالتقاء الساكنين ، وقال أبو عبيدة وابن الطراوة كلمة وبعض كلمة وذلك انها لا النافية والتاء الزائدة في أول الحين وقيل كلمة واحدة وهي فعل ماض وعلى هذا هل هي ماضي يليت بمعنى ينقص استعملت للنفي أو هي ليس بكسر الياء قلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها وأبدلت السين تاء قولا حكاهما في المغني وعملها إجماع من العرب ، وله شرطان : كون معموليها اسمي زمان وحذف أحدهما

والغالب في المحذوف هو الاسم نحو ولات حين مناص أي ليس الحين حين فرار ، ومن القليل قراءة

بعضهم برفع الحين على أنه اسمها وخبرها محذوف أي ليس حين فرار حينا لهم وقرىء أيضا ولات حين مناص بخفض حين فزعم الفراء أن لات تستعمل حرفا جارا لاسم الزمان خاصة كما أن مذ ومنذ كذلك .

وقد جرى المتنبي على هذا القول بقوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن اقحم حتى لات مقتحم

قال أبو البقاء : والجر به شاذ وقد جر به العرب وأنشدوا :

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء

[سورة ص (38) : الآيات 6 إلى 11]

وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (6) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ (7) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (8) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُمْ

مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (10)

جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (11)

الاعراب :

(وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ) الواو عاطفة على محذوف سيأتي تقديره في باب الفوائد ويجوز أن تكون استئنافية والكلام مستأنف مسوق لتقرير تآمرهم بعد انصرافهم من مجلس اجتماعهم عند أبي طالب . وانطلق الملا فعل وفاعل ومنهم حال وأن مصدرية وهي مع ما بعدها في تأويل مصدر مقول قول محذوف أي انطلقوا بقولهم أن امشوا ورجح الزمخشري أن تكون مفسرة لانطلقوا لأنه متضمن معنى القول ، قال الزمخشري : " لأن المنطلقين من مجلس التقاول لا بد لهم أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم " وعلى كل هي في موضع نصب على الحال أيضا والمعنى انطلقوا حال كونهم قائلين بعضهم لبعض ويجوز أن تكون مصدرية منصوبة هي ومدخولها بنزع الخافض أي بأن امشوا ، واصبروا عطف على امشوا وعلى آلهتكم متعلقان باصبروا على حذف مضاف أي على عبادتها أي ليس لكم يدان في مغالبة محمد فما لكم إلا الصبر . وليس المراد بالانطلاق هنا المشي بل انطلاق ألسنتهم بهذا الكلام ، كما انه ليس المراد المشي المتعارف بل الاستمرار على الشيء .

)

إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ) الجملة تعليل للأمر بالصبر وان واسمها واللام المزحلقة وشيء خبرها وجملة يراد صفة لشيء .

(294/663)

(ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ) ما نافية وسمعنا فعل وفاعل وبهذا متعلقان بسمعنا والإشارة إلى التوحيد الذي يدعو اليه محمد وفي الملة حال من هذا والآخرة نعت والمراد بها ملة عيسى عليه السلام وإن نافية وهذا مبتدأ وإلا أداة حصر واختلاق خبر هذا أي افتعال ومحض كذب . (أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا) الهمزة للاستفهام الإنكاري وأنزل فعل ماض مبني للمجهول وعليه متعلقان بأنزل والذكر نائب فاعل ومن بيننا حال فهم أنكروا أن يتميز محمد صلى اللّه عليه وسلم بهذا الشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وقد كرروا هذا المعنى كثيرا فقالوا : " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " قالوا ذلك ورددوه مرارا تنفيسا عن الغيظ الذي تجيش به نفوسهم والموجدة التي تعتلج في ضمائرهم .

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ) بل إضراب انتقالي عن مقدر فكأنه قال : انكارهم للذكر ليس عن علم بل هم في شك منه . وهم مبتدأ وفي شك خبر ومن ذكري

نعت لشك وبل إضراب انتقالي أيضا مسوق لبيان سبب الشك الذي ترسّب في ضمائرهم وهو أنهم لمّا يذوقوا العذاب ولو أنهم ذاقوه وعانوا بلاءه وكابدوا هوانه لصدقوا ولما لجئوا إلى مدافعة اليقين بالشك . ولما حرف نفي وجزم ويذوقوا فعل مضارع مجزوم بلما والواو فاعل وعذاب مفعول به وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة لمراعاة الفواصل . (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ) أم حرف عطف بمعنى بل فهي منقطعة وعندهم ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وخزائن رحمة ربك مبتدأ مؤخر والعزيز الوهاب صفتان لربك .

)

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما) أم حرف عطف بمعنى بل وعبارة الزمخشري والبيضاوي متشابهة قال البيضاوي :

(295/663)

"كأنه لما أنكر عليهم التصرف في نبوته بأنه ليس عندهم خزائن رحمته التي لا نهاية لها أردف ذلك بأنه ليس لهم مدخل في أمر هذا العالم الجسماني الذي هو جزء يسير من خزائن رحمته فمن أين لهم أن يتصرفوا بها " ولهم خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ

مؤخر وما عطف على السموات والأرض والظرف متعلق بمحذوف صلة ما . (فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ) الفاء الفصيحة أي هي جواب شرط مقدر تقديره إن زعموا ذلك فليصعدوا في المعارج الموصلة إلى العرش حتى يستووا عليه ، واللام لام الأمر ويرتقوا فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وفي الأسباب متعلقان بيرتقوا .

(جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ) اختلف المعربون في إعراب هذه الآية اختلافا كثيرا لأنها تحمل عدة وجوه نورد أهمها فيما يلي :

جند خبر لمبتدأ محذوف أي هم جند وما نكرة تامة صفة لجند على سبيل التحقير أي هم جند حقير فإن ما إذا كانت صفة تستعمل للتعظيم أو التحقير والثاني هو المراد ولك أن تعربها زائدة وهنالك اسم إشارة في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف صفة لجند ومهزوم نعت ثالث لجند أو خبر ثان للمبتدأ المحذوف ويجوز أن يكون جند مبتدأ ساغ الابتداء به لوصفه وهنالك خبره واختار هذا الوجه أبو البقاء وسنورد لك عبارته في باب الفوائد ومن الأحزاب جار ومجرور متعلقان بمهزوم .

الفوائد :

1- الفرق بين لمّا ولم :

ونثبت هنا الفرق الدقيق بين لمّا ولم وبه يتبين لما ذا أوثرت لمّا في قوله " بل لمّا يذوقوا عذاب "

فهما تشتركان في أمور وهي الحرفية والاختصاص بالمضارع والنفي والجزم والقلب للمضي وجواز دخول همزة الاستفهام عليهما ، وتنفرد لم عن لمّا بمصاحبة أداة الشرط

(296/663)

نحو " وإن لم تفعل فما بلغت رسالته " لأن الشرط يليه مثبت لم ولا يليه مثبت لمّا ، وتنفرد لم عن لما أيضا بجواز انقطاع نفي منفيها نحو " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا " لأن المعنى أنه قد كان بعد ذلك شيئا مذكورا ، وتنفرد لمّا عن لم بجواز حذف مجزومها كقاربت المدينة ولما ، أي ولمّا أدخلها ، ولا يجوز ذلك في لم وحملوا قول إبراهيم بن علي بن محمد الهرمي على الضرورة وهو :

احفظ وديعتك التي استودعتها يوم الأعازب إن وصلت وان لم

أي وإن لم تصل ، وتنفرد لما عن لم أيضا بتوقع ثبوت منفيها كقوله تعالى " بل لما يذوقوا عذاب " أي إلى الآن ما ذاقوه وسوف يذوقونه ، وفرق سيبويه بينها وبين لم في هذا الصدد بأن لم نفي لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبته قد ، ولما نفي لما يتوقع وجوده أدخل على مثبته قد ، ومن الفرق الدقيق أنه لا يجوز أن تقول الحجر لم يتكلم ويجوز أن تقول الحجر لا يتكلم لأنه ما بعد لم يفيد التوقع وذلك مستحيل .

2- قصة إسلام عمر :

يروي التاريخ أن هذه الآيات نزلت بعد إسلام عمر ، ولإسلام عمر قصة محبوكة الحلقات فيها متعة ، وفيها طرافة ، ولكن لها روايات كثيرة وطرقا مختلفة نجتزىء منها برواية عطاء ومجاهد التي نقلها ابن اسحق عبد اللّه بن أبي نجيح وهي تذكر ان عمر قال : كنت للإسلام تباعدا ، وكنت صاحب خمر في الجاهلية أصبها وأشربها وكان

(297/663)

لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ، فخرجت أريد جلسائي أولئك فلم أجد منهم أحدا فقلت لو أنني جئت فلانا الخمار ، فجئته فلم أجده ، قلت لو أنني جئت الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين ، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول اللّه ، صلى اللّه عليه وسلم ، قائم يصلي وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام واتخذ مكانه بين الركنين : الركن الأسود والركن اليماني ، فقلت حين رأيته واللّه لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول وقام بنفسي أنني لو دنوت منه أسمع لأروعنه فجئت من قبل الحجر ، فلما سمعت القرآن رقّ قلبي فبكيت ودخلني الإسلام . ولما أسلم عمر شقّ ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم فأتوا أبا طالب فقالوا أنت شيخنا

وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، يريدون الذين دخلوا في الإسلام ، وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك ، فأحضره وقال له : يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السواء والانصاف فلا تمل كلّ الميل على قومك فقال النبي : ماذا تسألونني ؟

فقالوا ارفضنا وأرفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك فقال : أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أمعطيّ أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم قالوا : نعم وعشر أمثالها فقال : قولوا لا إله إلا اللّه ، فقاموا وانطلق الملأ منهم . وقد تبيز بذلك العطف الذي ألمعنا إليه في اعراب وانطلق الملأ منهم إلخ . . .

3- نص عبارة أبي البقاء :

وعدناك بنقل نص عبارة أبي البقاء في إعراب قوله " جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب "

قال : " جند مبتدأ وما زائدة

وهنالك نعت ومهزوم الخبر ويجوز أن يكون هنالك اظرفا لمهزوم ومن الأحزاب يجوز أن يكون نعتا لجند وأن يتعلق بمهزوم وأن يكون نعتا لمهزوم " .

[سورة ص (38) : الآيات 12 إلى 15]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (13) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (14) وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (15)

اللغة :

(الْأَوْتادِ) : في المصباح : " الوتد بكسر التاء في لغة الحجاز وهي الفصحى وجمعه أوتاد وفتح التاء لغة وأهل نجد يسكنون التاء فيدغمون بعد القلب فيبقى ود ووتدت الوتد أتده وتدا من باب وعد أثبته بحائط أو بالأرض وأوتدته بالألف لغة " وفي الأساس : " ضرب الوتد والودّ والأوتاد بالميتدة ويقال : تد وتدك وأوتده وانتصب كأنه وتد وهو " أذل من وتد " ووتد واتد : ثابت ومن المجاز : وتد اللّه الأرض بالجبال وأوتدها ووتّدها والجبال أوتاد الأرض وقيل لأعرابي : ما النطشان ؟ فقال : يوتد العطشان وروي : شيء نتد به كلامنا " وفي القاموس : " الوتد بالفتح والتحريك وككتف ما رز في الأرض أو الحائط من خشب وما كان في العروض على ثلاثة أحرف

كعلى والهنيّة الناشزة في مقدّم الأذن والجمع أوتاد ووتد واتد تأكيد وأوتاد الأرض جبالها ومن البلاد رؤساؤها ومن الفم أسنانه " .

(الْأَيْكَةِ) : الغيضة والأشجار الملتفة المجتمعة وقد تقدم القول فيها مبسوطا .

(فَواقٍ) : بفتح الفاء وضمها أي رجوع وقد قرىء بهما معا فقيل هما نعتان بمعنى واحد

وهو الزمان الذي بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع والمعنى مالها من توقف قدر فواق ناقة وفي الحديث :

"

(299/663)

العيادة قدر فواق ناقة " وفي المختار : " الفواق الزمن الذي بين الحلبتين لأنها تحلب ثم تترك ساعة يرضعها الفصيل لتدر ثم تحلب ، يقال : ما أقام عنده إلا فواقا وفي الحديث : " العيادة قدر فواق ناقه " وقوله تعالى : من فواق يقرأ بالفتح أي مالها من نظرة وراحة وإفاقة " وعبارة الزمخشري في الكشاف : " مالها من فواق وقرىء بالضم مالها من توقف مقدار فواق وهو ما بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع يعني إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان كقوله تعالى : فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، وعن ابن عباس : ما لها من رجوع وترداد من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة وفواق الناقة ساعة ترجع الدرّ إلى ضرعها يريد أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد " ولهذه المادة خصائص عجيبة ، أنها تتوزع على أنحاء شتى من المعاني وها نحن أولاء نقل لك خلاصة ما ورد في اللسان والأساس منها : " ما بقي في كنانتي إلا سهم أفوق وهو الذي في إحدى زنمتيه كسر أو ميل ،

وفوق السهم : جعل الوتر في فوقة عند الرمي ، وتقول : لا زالت للخير موفقا ، وسهمك في الكرم مفوّقا ، وفوّقه :

جعل له فوقا ، وفاقه كسر فوقه ، وفاق قومه : فضلهم ، ورجل فائق

في العلم وهو يتفوق على قومه وفوقته عليهم : افضلته ، وأفاق فلان من المرض واستفاق

وفلان مد من لا يستفيق من الشراب ، وتفوّق الفصيل أمه رضعها فواقا فواقا ، وفوّقه

الراعي . ومن المجاز تفوقت الماء : شربته شيئا بعد شيء ، وتفوّقت مالي : أنفقته على

مهل ، قال :

تفوّقت مالي من طريف وتالد تفوّقي الصهباء من حلب الكرم

وتفوقت وردي : أخذته قليلا قليلا وأتيته فيقة الضحى وميعته ، وخرجنا بعد أفاويق من

الليل ، ومجت السحابة أفاويقها وأرضعني أفاويق بره ، وفوّقني الأماني وما أقام عنده إلا

فواق ناقة وفيقة ناقة . ولعل في هذا غنية .

الاعراب :

)

(300/663)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ) كلام مستأنف مسوق لتقرير أحوال الطغاة وبيان مصائر العتاة . وكذبت فعل ماض وقبلهم ظرف متعلق بكذبت وقوم نوح فاعل وعاد عطف على قوم نوح وفرعون عطف أيضا وذو الأوتاد أي ذو الملك الثابت وسيأتي ذكر استعارة الأوتاد في باب البلاغة . (وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ) عطف أيضا وأولئك الأحزاب لك أن تجعل اسم الاشارة بدلا مما قبله والأحزاب بدل منه وإما أن تجعلها جملة مستقلة مؤلفة من مبتدأ هو اسم الإشارة والأحزاب خبره . (إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ) إن نافية لا عمل لها لانتقاض النفي بإلا وكل مبتدأ وإلا أداة حصر وجملة كذب الرسل خبر كل ، فحق

الفاء حرف عطف وحق فعل ماض وعقاب فاعله مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة لمراعاة الفواصل .

(وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لتقرير عقاب كفار مكة بعد بيان عقاب من سبقوهم في الغواية . وما نافية وينظر فعل مضارع أي ينتظر وهؤلاء اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع فاعل وإلا أداة حصر وصيحة مفعول به وواحدة صفة لها وما نافية حجازية أو تميمية ولها خبر مقدم ومن حرف جر زائد وفواق اسم مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه اسم ما أو مبتدأ مؤخر .

البلاغة :

في قوله " ذو الأوتاد " استعارة تصريحية أي ذو الملك الثابت الموطّد وأصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده ، قال الرفادة الأودي :

البيت لا يبتني إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

يقول : لا ينال الأمر إلا بتوفر أسبابه ، شبه توقف الأمر على أسبابه وتوقف أسبابه بتوقف على أسبابه بتوقف ضرب الخيمة على انتصاب الأعمدة وتوقف انتصابها على اثبات الأوتاد المشدودة بالحبال وبعده :

(301/663)

فإن تجمع أسباب وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا

ثم قال : فإن اجتمعت الحبال المشدودة بالأوتاد الثابتة وانتصبت الأعمدة ووجد الساكن بلغ مراده وهو بمعنى الجمع فصح جمع ضميره ومعنى كادوا عالجوا يقال كاده كيدا أي عالجه علاجا والمعنى بلغوا الأمر الذي كادوه أي عالجوه لتحصيله . وقال الأسود ابن يعفر :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إياد

جرت الرياح على مقر ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد

فإذا النعيم وكل ما يلهى به يوما يصير إلى بلى ونفاد

يقول : لا أتمنى بعدهم شيئا من الدنيا . ومحرق هو امرؤ القيس بن عمرو بن عدي اللخمي والإياد في الأصل تراب يجمع حول الحوض والبيت يحفظه من المطر والسيول من الأيد أي القوة أو هو ما أيد به الشيء مطلقا والكنف والجبل الحصين وإياد الجيش جناحاه أي ميمنته وميسرته والأيد : القوي ، وإياد هنا علم على ابن نزار ابن معد بن عدنان فهو أخو مضر وربيعة وأراد به في البيت القبيلة وروي وآل إياد عطفا على آل محرق وغني بالمكان كرضي : أقام به والبلى : الانمحاق ، والنفاد : الفناء يقول : تركوا منازلهم وهي جملة مستأنفة لبيان نفي التأميل أو اعتراضية بين المتعاطفين وجملة : جرت الرياح مستأنفة مسوقة لبيان حال القبيلتين يقول : تفانوا فجرت الرياح على محل ديارهم وجريان الرياح على مقر الديار لانهدام الجدران التي كانت تمنع الرياح وذلك كناية عن موتهم وأشار إلى أن فناءهم كان سريعا كأنه دفعة واحدة بقوله : فكأنهم كانوا على ميعاد واحد ولقد أقاموا ردحا من الزمن بأرغد عيش وشبه الملك الذي به عزهم وصولتهم بخيمة مضروبة عليهم والظل ترشيح والأوتاد تخييل وإذا فجائية أي فظهر بغتة أن كل نعيم لا محال زائل .

(302/663)

هذا وقيل لا استعارة في الآية وأن فرعون كان يتد لكل من يغضب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه حتى يموت والأول أولى وأبلغ .

[سورة ص (38) : الآيات 16 إلى 20]

وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (16) اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ (20)

اللغة :

(قِطَّنا) : نصيبنا وحظنا من العذاب وأصله من قطّ الشيء أي قطعه ومنه قط القلم قالوا ذلك استهزاء أي عجل لنا قطعة مما وعدتنا به ويطلق على الصحيفة والصك قط لأنهما قطعتان وقيل للجائزة قط لأنها قطعة من العطية ويجمع على قطوط مثل حمل وحمول وعلى قططة مثل قرد وقردة وقرود وفي القلة على أقططة مثل قدح وأقدحة وأقداح وفي القاموس : " القط : القطع عامة أو عرضا أو قطع شيء صلب كالحقة كالاقتطاط والقصير الجعد من الشعر كالقطط محركة

وقد قطط كفرح وقد قطّ يقط كيمل قططا محركة وقطاطة ، والقطّاط :

الخراط صانع الحقق " إلى أن يقول : " والقط بالكسر النصيب والصك وكتاب المحاسبة وجمعه قطوط والسنور وجمعه قطاط وقططه والساعة من الليل " وقال أبو عبيدة

والكسائي : القط : الكتاب بالجوائز ، وقال الأعشى :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بغبطته يعطي القطوط ويأفق

الاعراب :

)

وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ) كلام مستأنف مسوق لسرد أنماط من تمحلهم واستهزائهم بعد أن نزل قوله تعالى :

(303/663)

" فأما من أوتي كتابه بيمينه " الآية وقالوا فعل وفاعل وربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء وعجّل لنا فعل أمر ولنا متعلقان به وفاعله مستتر وجوبا تقديره أنت وقطنا مفعول به وقبل يوم الحساب ظرف متعلق بعجل أيضا أو بمحذوف حال . (اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) اصبر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وعلى ما يقولون متعلقان باصبر وجملة يقولون صلة والعائد محذوف أي يقولونه واذكر عطف على اصبر أي تأس بقصة داود ومنّ نفسك عن إهمال أمر مصابرتهم وتحمل أذاهم لئلا يستهدف لما استهدف له وعبدنا مفعول به وداود بدل وذا الأيد نعت لداود أي

صاحب القوة وقد تقدم شرح الأيد وجملة إنه أواب تعليل لكونه من أصحاب الأيد أي راجع إلى مرضاة اللّه وان واسمها وخبرها .

(إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ) إن واسمها وجملة سخرنا الجبال من الفعل والفاعل والمفعول خبر إنا وجملة

(304/663)

يسبحن حالية من الجبال وسيأتي سر العدول عن مسبحات إلى يسبحن في باب البلاغة وبالعشي متعلقان بيسبحن والإشراق عطف على بالعشي أي غدوة وعشية وسيأتي حديث ابن عباس عن العشي والإشراق في باب البلاغة أيضا . (وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ) والطير عطف على الجبال أو مفعول به لفعل محذوف دل عليه ما قبله أي وسخرنا الطير ومحشورة حال أي مجموعة تسبح له وكل مبتدأ وساغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم أي كل من الجبال والطير وله جار ومجرور متعلقان بأواب وأواب خبر كل أي رجاع مبالغة آئب أي راجع له بالتسبيح . (وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ) وشددنا ملكه فعل وفاعل ومفعول به أي قويناه بالجنود والحرس وآتيناه فعل وفاعل ومفعول به أول والحكمة مفعول به ثان وفصل الخطاب عطف على الحكمة وسيأتي معنى فصل

الخطاب في باب البلاغة .

البلاغة :

انطوت في هذه الآيات فنون متعددة تبهر السامعين وإليك التفصيل .

1 – العدول عن الاسمية إلى الفعلية :

في قوله " يسبحن " عدول عن الاسم إلى الفعل ، والنكتة فيه الدلالة على التجدد والحدوث شيئًا بعد شيء وحالا بعد حال وكأن السامع حاضر تلك الحال يسمع تسبيحها ومثله قول الأعشى :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء باليفاع تحرق

ولو قال محرقة لم يكن له ذلك الوقع .

2 – الطباق :

وفي قوله " بالعشي والإشراق " طباق بديع بين صلاة العشاء وصلاة الضحى ، وروي عن ابن عباس انه قال : كنت أمرّ بهذه الآية :

بالعشي والإشراق ولا أدري ما هي حتى حدثتني أم هانىء أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال : يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق ، وعن طاوس عن ابن عباس أيضا : قال هل تجدون ذكر الضحى في القرآن ؟ قالوا : لا ، فقرأ : إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ، وعنه أيضا :

ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية .

3- معنى فصل الخطاب :

الفصل التمييز بين الشيئين وقيل للكلام المبين فصل بمعنى المفعول وأصله : انهم يقولون كلام ملتبس ، وفي كلامه لبس والملتبس المختلط الذي لا يبين لتداخله أو معاظلته فقيل في نقيضه كلام فصل أي مفصول بعضه عن بعض وملخصه أن لا يخطىء مظان الوصل والفصل فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه ولا يتلو قوله " ويل للمصلين " إلا موصولا بما بعده ولا " والله يعلم وأنتم " حتى يصله بقوله : " لا تعلمون " ونحو ذلك وكذلك مظان العطف وتركه والإضمار والإظهار والذكر والحذف والتكرار وغير ذلك من الفنون التي مرّ بك معظمها في هذا الكتاب ويجوز أن يكون الفصل بمعنى الفاعل أي الفاصل بين الحق والباطل وبين الصحيح والفاسد وبين السمين والغث .

[سورة ص (38) : الآيات 21 إلى 25]

وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ

الصِّراطِ (22) إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ (23) قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ (24) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (25)

اللغة :

(306/663)

(تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ) : قصدوا سوره ونزلوا من أعلاه والسور الحائط المرتفع والمحراب سبق تفسيره والخصم : المخاصم والمنازع وقد يقع للاثنين والجمع والمؤنث فيقال هما خصم وهم خصم وهي خصم لأنه مصدر في أصله وقد تقدم له نظير وهو ضيف في قوله :

" حديث ضيف ابراهيم المكرمين " .

(وَلا تُشْطِطْ) ولا تجر وهو بضم التاء وسكون الشين وكسر الطاء الأولى من اشطط يشطط أشطاطا إذا تجاوز الحد ، قال أبو عبيدة :

شططت في الحكم وأشططت فيه إذا جرت فهو مما اتفق فيه فعل وأفعل .

(سَواءِ الصِّراطِ) : وسط الطريق الصواب ومحجته .

(أَكْفِلْنِيها) : اجعلني كافلها والمراد ملكنيها وفي المختار : "كفل عنه بالمال لغريمه وأكفله المال ضممنه إياه وكفله إياه بالتخفيف فكفل هو من باب نصر ودخل وكفله إياه تكفيلا مثله " .

)

وَعَزَّنِي) : وغلبني في الجدال وأتى بحجاج لا أقدر على رده وفي المختار " وعز عليه غلبه وبابه رد وفي المثل " من عزيز " أي من غلب سلب والاسم العزة وهي القوة والغلبة وعزه في الخطاب وعازّه أي غلبه " وقال مجنون ليلى :

قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

وقبله :

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح

شبه قلبه حين سمع برحيلها بحمامة أمسك الشرك جناحها في كثرة الخفقان .

(الْخُلَطاءِ) : الشركاء الذين خلطوا أموالهم الواحد خليط .

هذا وقد أوردت معاجم اللغة للخليط عدة معان منها المخالط والمشارك والقوم الذين أمرهم واحد والزوج والجار والصاحب وخليط الرجل مخالطه كالجليس المجالس .

الاعراب :

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ) كلام مستأنف مسوق لإيراد قصة داود ، وهل حرف استفهام معناه التعجب والتشويق إلى استماع ما يرد بعده كما تقول لمن تخاطبه : هل تعلم ما وقع اليوم ثم تذكر له ما وقع ، وأتاك نبأ الخصم فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وإذ ظرف لمضاف محذوف أي نبأ تخاصم الخصم إذ تسوروا وعبارة الزمخشري : " فإن قلت بم انتصب إذ ؟ قلت لا يخلو إما أن ينتصب بأتاك أو بالنبإ أو بمحذوف ، فلا يسوغ انتصابه بأتاك لأن إتيان النبأ رسول اللّه لا يقع إلا في عهده لا في عهد داود ولا بالنبإ لأن إتيان النبأ واقع في عهد داود فلا يصح إتيانه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وإن أردت بالنبإ القصة في نفسها لم يكن ناصبا فبقي أن يكون منصوبا بمحذوف وتقديره وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم إذ ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل " وجملة تسوروا مضاف إليها الظرف وتسوروا فعل ماض وفاعل والمحراب مفعول به .

)

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ) إذ بدل من إذا الأولى وجملة دخلوا في محل جر بإضافة الظرف إليها وعلى داود متعلقان بدخلوا والفاء عاطفة وفزع فعل ماض وفاعله مستتر

تقديره هو ومنهم متعلقان بفزع . (قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ) الجملة مستأنفة مسوقة للرد على سؤال نشأ من حكاية فزعه كأنه قيل فماذا قالوا لما شاهدوا أمارات الفزع مرتسمة على وجهه فقال قالوا . ولا ناهية وتخف فعل مضارع مجزوم بلا وفاعله مستتر تقديره أنت وخصمان خبر لمبتدأ محذوف أي نحن خصمان وجملة بغى صفة لخصمان وبعضنا فاعل

(308/663)

و على بعض متعلقان ببغى . (فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ) الفاء الفصيحة واحكم فعل أمر وفاعله مستتر وبيننا ظرف متعلق باحكم وبالحق حال أو متعلقان باحكم أيضا ولا تشطط عطف على احكم واهد فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر تقديره أنت ونا مفعول به والى سواء الصراط متعلقان باهدنا . (إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ) إن واسمها وأخي بدل من هذا أو خبر إن وله خبر مقدم وتسع مبتدأ مؤخر والجملة خبر إن أو خبر ثان وتسعون عطف على تسع ونعجة تمييز ولي خبر مقدم ونعجة مبتدأ مؤخر وواحدة نعت وسيأتي حديث الكناية بالنعجة في باب البلاغة .

)

فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ) الفاء عاطفة وقال فعل ماض وجملة أكفلنيها من الفعل والفاعل المستتر والمفعولين مقول القول وعزني عطف على فقال وفي الخطاب متعلقان بعزني . (قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ) اللام جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق وظلمك فعل وفاعل مستتر والكاف مفعول به وبسؤال جار ومجرور متعلقان بظلمك ونعجتك مضاف اليه من إضافة المصدر إلى مفعوله والفاعل محذوف أي بأن سألك نعجتك والى نعاجه متعلقان بمحذوف تقديره ليضمها . (وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ) الواو عاطفة ويجوز أن تكون حالية وإن واسمها ومن الخلطاء نعت لكثيرا واللام المزحلقة ويبغي بعضهم فعل مضارع وفاعل وعلى بعض متعلقان بيبغي . (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ) إلا أداة استثناء والذين مستثنى متصل وجملة آمنوا صلة وعملوا عطف على آمنوا والصالحات مفعول به والواو حالية وقليل خبر مقدم وما زائدة لتأكيد القلة وهم مبتدأ مؤخر .

(309/663)

)

وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ) عطف على محذوف أي قال الملكان قضى الرجل على نفسه فتنبه . وظن داود فعل وفاعل وانما كافة ومكفوفة وهي مع مدخولها سدت مسد مفعولي وفتناه فعل ماض وفاعل ومفعول به ، فاستغفر عطف على وظن وربه مفعول به وخر عطف أيضا والفاعل مستتر تقديره هو وراكعا حال وأناب عطف أيضا . (فَغَفَرْنا لَهُ ذِلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ) عطف أيضا وغفرنا فعل وفاعل وله متعلقان بغفرنا وذلك مفعول به أي ذلك الذنب ، وان الواو عاطفة وأن حرف مشبه بالفعل وله خبر مقدم وعندنا ظرف متعلق بمحذوف في محل نصب على الحال واللام المزحلقة وزلفى اسم إن وحسن مآب عطف على زلفى .

البلاغة :

في قوله " إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة " الآية كناية عن المرأة فقد كانوا يكنون عن المرأة بالنعجة والشاة في نحو قول عنترة :

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت علي وليتها لم تحرم

وإنما ذكر امرأة أبيه وكان يهواها وقيل بل كانت جاريته فلذلك حرمها على نفسه وهذه الكناية تتمشى مع القول بأن القصة جارية مجرى التمثيل ، وسنورد خلاصتها مع القصة الخرافية الموضوعة تحريرا للأذهان من الأساطير التي تتنافى مع طهارة الأنبياء ونزاهتهم .

القصة كما يرويها المفسرون :

كان أهل زمان داود يسأل بعضهم بعضا النزول له عن امرأته

إذا أعجبته فيتزوجها ، وقد روي مثله عن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك

فوقعت عين داود على امرأة أوريا فأعجبته فسأله إيثاره بها ليتزوجها فاستحيا منه فنزل

عنها فتزوجها وأولدها سليمان فقيل له مع كثرة نسائك لم يكن لك أن تسأل رجلا ليس له

إلا امرأة واحدة النزول عنها وكان الأفضل قهر الهوى ، وقيل خطبها أوريا ثم خطبها داود

فرغب إليه أهلها فاندرج في الخاطب على خطبة أخيه .

(310/663)

و أما ما يذكر من أن داود تمنى منزلة آبائه فقيل له أنهم ابتلوا فصبروا فسأل الابتلاء ليصبر

فقيل له انك تبتلى يوم كذا فاحترس ذلك اليوم وأغلق عليه محرابه فتمثل له الشيطان في

صورة حمامة ذهب فمد يده ليأخذها لابن صغير له فطارت فتبعها فرأى امرأة جميلة قد

نقضت شعرها فكتب إلى أيوب بن حوريا صاحب بعث البلقاء أن ابعث أوريا وقدمه

على التابوت وكان المتقدم يحرم عليه الرجوع حتى يفتح اللّه على يده أو يستشهد فقدم

فسلم فأمر بتقديمه مرة أخرى وثالثة فقتل فلم يحزن عليه كما يحزن على الشهداء وتزوج

امرأته المذكورة فهذه الرواية مما يقبح الحديث به عن متسم بصلاح من آحاد المسلمين فضلا عن بعض أعلام الأنبياء .

وعن سعيد بن المسيب أن علي بن أبي طالب قال : من حدثكم بقصة داود كما يرويها القصاص جلدته مائة وستين حدّ الفرية مضاعفا .

وروي أن عمر بن عبد العزيز حدثه رجل بذلك بحضرة عالم محقق فكذب الحديث وقال : إن كانت القصة على ما في كتاب اللّه فالتماس خلافها فرية وإن كانت على ما ذكرت وكف اللّه عنها سترا لنبيه فما ينبغي لك إظهار ما ستره اللّه فقال عمر بن عبد العزيز : استماعي إلى هذا الكلام أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس .

قال الزمخشري : والذي يدل عليه المثل الذي ضربه اللّه أن قصته ليست إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فقط ثم نبه الزمخشري على مجيء الإنكار على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح وذلك أن التعريض داع إلى التأمل والتنبيه إلى وجه الخطأ مع ما فيه من اجتناب المجاهرة في الإنكار والتوبيخ وألقاه بطريق التمثيل ليستقبح ذلك من غيره فيجعله مقياسا لاستقباح ذلك من نفسه مع البقاء على الحشمة كما أوصى بذلك في سياسة الوالد لولده إذا حصلت منه هنة منكرة قال : وجاء ذلك على وجه التحاكم ليحكم بقوله لقد ظلمك فتقوم الحجة عليه محكمة .

و قال : وقوله وهل أتاك جاء على وجه الاستفهام تنبيها على أن هذه القصة قصة عجيبة من حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد وتشويقا إلى سماعها أيضا .

وقال في الخطاب يحتمل أن يكون من المخاطبة ومعناه أتاني بما لم أقدر على ردّه من الجدال ويحتمل أن يكون من الخطبة مفاعلة أي خطبت فخطب على خطبتي فغلبني والمفاعلة لأن الخطبة صدرت عنهما جميعا .

وقال في ذكر النعاج إنها تمثيل فكان تحاكمهم تمثيلا وكلامهم أيضا تمثيلا لأنه أبلغ لما تقدم وللتنبيه على أن هذا أمر يستحيا من التصريح وأنه مما يكنى عنه لسماجة الإفصاح به وللستر على داود عليه السلام ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوريا برجل له نعجة ولخليطه تسع وتسعون فأراد أن يتمها مائة بالنعجة المذكورة فإن قلت طريقة التمثيل إنما تستعمل على جعل الخطاب من الخطابة فإن كان من الخطبة فما وجهه ؟ قال الوجه حينئذ أن تجعل النعجة استعارة للمرأة

كما استعاروا لها الشاة في قوله : يا شاة ما قنص لمن حلت له . . .

البيت . . . قال : والفرق بين التمثيل والاستعارة انه على التمثيل يكون الذي سبق إلى فهم داود عليه السلام أن التحاكم على ظاهره وهو التخاصم في النعاج التي هي البهائم ثم انتقل بواسطة التنبيه إلى فهم انه تمثيل لحاله وعلى الاستعارة يكون فهم عنهما التحاكم في النساء

المعبر عنهن بالنعاج كناية ثم استشعر أنه المراد بذلك .

قلت : ونقل بعضهم أن هذه القصة لم تكن من الملائكة وليست تمثيلا وإنما كانت من البشر إما خليطين في الغنم حقيقة وإما كان أحدهما موسرا وله نسوان كثيرة من المهائر والسراري والثاني معسر وما له إلا امرأة واحدة فاستنزله عنها وفزع داود وخوفه أن يكونا مغتالين لأنهما دخلا عليه في غير وقت القضاء وما كان ذنب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر ونسبه إلى الظلم قبل مسألته .

(312/663)

قلت : إنما قصد هذا القائل بما قال تنزيه داود عن ذنب يبعثه عليه شهوة النساء فأخذ الآية على ظاهرها وصرف الذنب إلى العجلة في نسبة الظلم إلى المدعى عليه لأن الباعث على ذلك في الغالب إنما هو التهاب الغضب وكراهيته أخف مما يكون عليه الباعث عليه الشهوة والهوى ولعل هذا القائل يؤكد رأيه في الآية بقوله تعالى عقبها وصية لداود عليه السلام : " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى " فما جرت العناية بتوصيته فيما يتعلق بالأحكام إلا والذي صدر منه أولا وبان منه من قبيل ما وقع له في الحكم بين الناس .

وعبارة أبي حيان : " والظاهر ابقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن ولا يكنى بها عن المرأة ولا ضرورة تدعو إلى ذلك

لأن ذلك الإخبار كان صادرا من الملائكة على سبيل التصوير للمسألة فمثلوا بقصة رجل له نعجة ولخليطه تسع وتسعون فأراد صاحبه تتمة الماء فطمع في نعجة خليطه وأراد انتزاعها منه وحاجّه في ذلك محاجّة حريص على بلوغ مراده ويدل على ذلك قوله : وان كثيرا من الخلطاء ، وهذا التصوير والتمثيل أبلغ في المقصود وأدل على المراد " إلى أن يقول : " وما حكى القصاص مما فيه غض من منصب النبوة طرحناه ونحن كما قال الشاعر :

ونؤثر حكم العقل في كل شبهة إذا آثر الاخبار جلاس قصاص

[سورة ص (38) : الآيات 26 إلى 29]

(313/663)

يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (26) وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ

كَالْفُجَّارِ (28) كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (29)

الاعراب :

(يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) كلام مستأنف مسوق لحكاية ما خوطب به داود بعد ما تقدم ، ولك أن تقدر قولا محذوفا معطوفا على قوله غفرنا أو حال من فاعل غفرنا أي وقلنا أو قائلين ، ويا حرف نداء وداود منادى مفرد علم مبني على الضم وإن واسمها وجملة جعلناك خبرها وجعلناك فعل ماض وفاعل ومفعول به أول وخليفة مفعول جعلنا الثاني وفي الأرض نعت لخليفة . (فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) الفاء الفصيحة واحكم فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وبين الناس متعلقان بقوله فاحكم وبالحق حال . (وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) الواو عاطفة ولا ناهية وتتبع فعل مضارع مجزوم بلا وفاعله مستتر تقديره أنت والهوى مفعول به والفاء هي فاء السببية لوقوعها في جواب النهي ويضلك فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية والفاعل مستتر تقديره هو يعود على الهوى والكاف مفعول به وعن سبيل اللّه متعلقان بيضلك ولا مانع من جعل الفاء عاطفة ويضلك معطوف على تتبع .

)

إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ) الجملة تعليلية للنهي عن اتباع الهوى وان واسمها وجملة يضلون صلة الذين وعن سبيل اللّه متعلقان بيضلون ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر إن وشديد نعت لعذاب والباء حرف جر وما مصدرية مؤولة مع بعدها بمصدر مجرور بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال أي بسبب نسيانهم ويوم الحساب مفعول به لنسوا أو ظرف لقوله لهم عذاب شديد أو صفة ثانية له أي لهم عذاب شديد كائن في يوم القيامة بسبب نسيانهم .

(وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا) كلام مستأنف مسوق لتقرير مضمون ما تقدم من أمر البعث والحساب والجزاء . وما نافية وخلقنا فعل وفاعل والسماء مفعول به والأرض عطف على السماء وما بينهما عطف أيضا والظرف متعلق بمحذوف صلة ما وباطلا نعت لمصدر محذوف أي خلقا باطلا ويجوز أن يكون حالا من فاعل خلقنا أي مبطلين أو ذوي باطل .

)

ذِلكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ) ذلك اسم الاشارة مبتدأ أي خلقها باطلا وظن خبره والذين مضاف اليه وجملة كفروا صلة ، فويل : الفاء عاطفة لترتيب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل ، وويل مبتدأ وللذين كفروا خبره وجملة كفروا صلة ومن النار صفة لويل . وفي وضع الموصول موضع ضمير هم اشعار بأنهم استحقوا النار بكفرهم . (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ) أم عاطفة منقطعة وفيها معنى الاستفهام الإنكاري ونجعل فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر تقديره نحن والذين آمنوا مفعول نجعل الأول وآمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف على آمنوا والكاف اسم بمعنى مثل في محل نصب مفعول به ثان لنجعل وفي الأرض متعلقان بالمفسدين . (أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) عطف على ما تقدم وفي الإنكار إبطال لما يدعونه من أن الجزاء غير وارد لأنه لو صح كلامهم لاستوت عند اللّه حال من أصلح أو أفسد ومن اتقى أو فجر .

(كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ) كتاب خبر لمبتدأ محذوف أي هذا كتاب وجملة أنزلناه صفة وإليك جار

ومجرور متعلقان بأنزلناه ومبارك نعت ثان ومنعه بعضهم بحجة أن النعت غير الصريح لا يتقدم على النعت الصريح فهو عندهم خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف ، وقرىء مباركا بالنصب على الحال اللازمة ، وليدبروا اللام لام التعليل ويدبروا فعل مضارع منصوب بأن

مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل والجار والمجرور متعلقان بأنزلناه وآياته مفعول به أي ليتفكروا فيها وليذكر عطف على ليدبروا وأولوا الألباب فاعل.

[سورة ص (38) : الآيات 30 إلى 40]

(316/663)

وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (31) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (32) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ (33) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (34)

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (36) وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (38) هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (39)

وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (40)

اللغة:

(الصَّافِناتُ) : جمع صافنة وهي القائمة على ثلاث وإقامة الأخرى على طرف الحافر من رجل أو يد وفي المختار : " الصافن من الخيل القائم على ثلاث قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر وقد صفن الفرس من باب جلس والصافن من الناس الذي يصف قدميه وجمعه صفون " وعبارة الزمخشري " الصفون لا يكاد يكون في الهجن وإنما هو في العراب الخلّص وقيل وصفها بالصفون والجودة ليجمع ما بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية يعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها وإذا جرت كانت سراعا خفافا في جريها " .

)

(317/663)

الْجِيادُ) جمع جواد وهو السابق وقيل جمع جيد ، وفي أدب الكاتب لابن قتيبة " ويقال للفرس عتيق وجواد وكريم ويقال للبرذون والبغل والحمار فاره والسوابق من الخيل أولها السابق ثم المصلي وذلك لأن رأسه عند صلا السابق ثم الثالث والرابع كذلك إلى التاسع والعاشر السّكيت ويقال أيضا السّكّيت مشددا فما جاء بعد ذلك لم يعتد به والفسكل الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل " هذا ما أورده ابن قتيبة وقد سموا الثالث المتلى لأنه يتلى الثاني وسموا الرابع التالي وسموا الخامس المرتاح وسموا السادس العاطف وسموا السابع

المؤمل وسموا الثامن الحظي وسموا التاسع اللطيم .

(مَسْحاً) : المسح : القطع وفي المختار " ومسحه بالسيف قطعه " (بِالسُّوقِ) : جمع ساق ومن غريب أمر الساق أن له العديد من المعاني فأولها وهو المراد هنا أنه ما بين الكعب والركبة مؤنث وجمعه

سوق وسيقان وأسوق وساق الشجرة جذعها ، ومن معانيه ساق الحمام والغراب نباتان وساق حر ذكر القماري ويقال كشف الأمر عن ساقه أي اشتدّ وعظم وقامت الحرب على ساق أي اشتدت وولدت المرأة ثلاثة بنين على ساق واحدة أي بعضهم في إثر بعض لا جارية بينهم والحديث في هذه المادة يطول فنحيل القارئ إلى المعاجم .

(رُخاءً) : لينة طيبة لا تزعزع .

(أَصابَ) : أراد وقصد وفي الكشاف " حكى الأصمعي عن العرب : أصاب الصواب ، فأخطأ الجواب . وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما فقال : أين تصيبان ؟ فقالا : هذه طلبتنا ورجعا ويقال أصاب اللّه بك خيرا " وفي الأساس : " وأصاب اللّه تعالى بك خيرا : أراده رخاء حيث أصاب " .

)

الْأَصْفادِ) : الأغلال وفي القاموس " صفده يصفده من باب ضرب يصفده : شده وأوثقه كأصفده وصفّده والصفد محركة العطاء والوثاق وبلا لام بلد بالشام وككتاب ما يوثق به الأسير من قد أو قيد والأصفاد : القيود " فلا معنى لقول بعض المفسرين ردا على الجلال الذي فسر الأصفاد بالقيود إذ قال ذلك المفسر : " من المعلوم أن القيد يكون في الرجل فلا يلتئم هذا التفسير مع قوله يجمع أيديهم إلخ فلو فسر الأصفاد بالأغلال لكان أوضح " . وفي المختار : " صفده شده وأوثقه من باب ضرب وكذا صفده تصفيدا والصفد بفتحتين والصفاد بالكسر ما يوثق به الأسير من قد وقيد وغل والأصفاد القيود واحدها صفد " .

الاعراب :

(وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لبسط قصة سليمان بعد أن بسط قصة داود ووهبنا فعل ماض وفاعل ولداود متعلقان بوهبنا وسليمان مفعول ونعم فعل ماض جامد لإنشاء المدح والعبد فاعله والمخصوص بالمدح محذوف لتقدم ذكره أي هو وإنه أواب إن واسمها وخبرها والجملة تعليل للمدح علل كونه ممدوحا بكونه أوابا رجاعا إليه بالتوبة أو مسبحا مؤوبا للتسبيح مرجعا له لأن كل مؤوب أواب . (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ) إذ : يجوز أن يكون ظرفا لأواب وأن يكون العامل فيه نعم وأن يكون منصوبا بمقدر أي اذكر يا محمد وقت وقوع هذه القصة

وجملة عرض في محل جر بإضافة الظرف إليها وعليه متعلقان بعرض وبالعشي متعلقان بمحذوف حال أي كائنا في ذلك الوقت والصافنات نائب فاعل والجياد نعت والأولى أن يكون المفعول محذوفا أي الخيل والصافنات الجياد صفتين للخيل والظاهر أن العرض قد استهواه ، وخيل إليه أنه يستطيع الاعتماد على هذه الخيل المطهمة في جهاده العدو وإرضاء لربه فشغله حينا من الوقت عن ذكر اللّه تعالى وكان به لهجا .

)

(319/663)

فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ) الفاء عاطفة وقال فعل ماض وفاعله مستتر وان واسمها وجملة أحببت خبرها وأحببت ليست جارية على معناها الأصيل وإنما هي متضمنة معنى فعل يتعدى بعن بمعنى آثرت وحب الخير مفعول به لذلك الفعل أو مفعول مطلق وقيل مفعول من أجله وعبارة السمين : حب الخير فيه أوجه أحدها أنه مفعول أحببت لأنه بمعنى آثرت و" عن " على هذا بمعنى " على " والثاني أن حب مصدر على حذف الزوائد والناصب له أحببت والثالث أنه مصدر تشتهي أي حبا مثل حب الخير والرابع أنه ضمن معنى أنبت فلذلك تعدى بعن والخامس أن أحببت

بمعنى لزمت والسادس أن أحببت من أحب البعير إذا سقط وبرك من الاعياء والمعنى قعدت عن ذكر ربي فيكون حب الخير على هذا مفعولا من أجله وعن ذكر ربي متعلقان بأحببت والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول أي عن أن أذكر ربي أو إلى الفاعل أي عن أن يذكرني ربي وسيأتي المزيد من بحث هذه الآية في باب البلاغة ، وحتى حرف غاية وجر وتوارت فعل ماض وفاعله ضمير مستتر تقديره هي أي الشمس وقيل الخيل وبالحجاب متعلقان بتوارت .

(رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ) ردوها فعل أمر وفاعل ومفعول به والجملة مقول قول محذوف أي قال ردوها وعلي متعلقان بردوها فطفق عطف على محذوف أي فردوها وطفق فعل ماض من أفعال الشروع وهي تعمل عمل كان واسمها ضمير مستتر تقديره هو ومسحا مفعول مطلق لفعل محذوف أي يمسح مسحا والجملة خبر طفق وبالسوق متعلقان بمسحا والأعناق عطف على بالسوق وسيأتي قول للامام فخر الدين الرازي طريف جدا خالف فيه جمهرة المفسرين وهو جدير بالاعتبار فانظره في باب الفوائد .

)

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ) الواو استئنافية واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وفتنا فعل وفاعل وسليمان مفعول به وألقينا عطف على فتنا وعلى كرسيه جار ومجرور متعلقان بألقينا وجسدا مفعول به ثم أناب عطف أيضا ولكنه بعد تراخ وسيأتي القول في فتنة سليمان ومناقشتها . (قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي)

رب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وهب فعل أمر للدعاء ولي متعلقان به وملكا مفعول به وجملة لا ينبغي صفة لملكا ولأحد متعلقان بينبغي ومن بعدي صفة لأحد .

(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) الجملة تعليلية للدعاء بالمغفرة والهبة وان واسمها وأنت ضمير فصل أو مبتدأ والوهاب خبر إن أو خبر أنت والجملة خبر إنك . (فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ) الفاء عاطفة على محذوف يفهم من مضمون الكلام أي فاستجبنا له دعاءه وأعدنا له هذا الملك السليب وسخرنا فعل وفاعل وله متعلقان بسخرنا والريح مفعول به وجملة تجري بأمره في محل نصب على الحال من الريح ورخاء حال من الضمير في تجري وحيث ظرف متعلق بتجري أو بسخرنا وجملة أصاب في محل جر بإضافة الظرف إليها .

(وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ) الواو حرف عطف والشياطين عطف على الريح وكل بناء

بدل من الشياطين وغواص عطف على بناء .

)

(321/663)

وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ) وآخرين عطف على كل بناء أدخل معه في حكم البدل وهو بدل الكل من الكل ومقرنين نعت لآخرين أي قرن بعضهم مع بعض في الأصفاد . (هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ) الجملة مقول قول محذوف أي وقلنا له ، وهذا مبتدأ وعطاؤنا خبر فامنن الفاء الفصيحة وامنن فعل أمر أي أعط منه من شئت وأو حرف عطف للتخيير وأمسك فعل أمر معطوف على امنن وبغير حساب متعلقان بعطاؤنا أي أعطيناك بغير حساب ولا تقدير وفيه إلماع إلى كثرة العطاء أو متعلقان بامنن أو أمسك ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف نصبا على الحال مما تقدم أي حال كونك غير محاسب عليه لأنه يتعالى عن الحساب والضبط . (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ) تقدم إعراب مثله كثيرا .

الفوائد :

القول في هذه الآيات وفي فتنة سليمان بالخيل والجياد لا يتسع له صدر هذا الكتاب وهو

خارج عن نطاقه ولكننا سنحاول الالماع إلى هذه الفتنة وما قيل فيها وما نسج حولها من أكاذيب وأضاليل لفّقتها اليهودية الضالعة مع الأهواء ، وقبل أن نشرع في ذلك ننقل فصلا للإمام فخر الدين الرازي أطاح بكل الأضاليل التي لابست هذا القصص الموشى بنسج الخيال قال :

"

(322/663)

التفسير الحق المطابق لألفاظ القرآن أن نقول : إن رباط الخيل كان مندوبا إليه في دينهم كما انه كذلك في ديننا ثم ان سليمان عليه السلام احتاج إلى غزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر باجرائها وذكر أنني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس وإنما أحبها لأمر اللّه تعالى وتقوية دينه وهو المراد بقوله : عن ذكر ربي ثم انه عليه الصلاة والسلام أمر باعدائها وإجرائها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره ثم أمر برد الخيل إليه وهو قوله : ردوها علي فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك المسح أمور : الأول تشريفها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو ، الثاني أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والمملكة يبلغ إلى أنه يباشر الأمور بنفسه ، الثالث أنه كان أعلم الناس بأحوال

الخيل وأمراضها وعيوبها من غيره فكان يمسحها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذي ذكرنا ينطبق على لفظ القرآن ولا يلزمنا شيء من تلك المنكرات والمحظورات والعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة فإن قيل : فالجمهور قد فسروا الآية بتلك الوجوه فما قولك فيه ؟ فنقول لنا ها هنا مقامان : المقام الأول أن ندعي أن لفظ الآية

لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي ذكروها وقد ظهر والحمد للّه أن الأمر كما ذكرنا ظهورا لا يرتاب عاقل فيه والمقام الثاني أن يقال :

هب أن لفظ الآية لا يدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس وان الدلائل الكثيرة قد قامت على عصمة الأنبياء ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات " .

أسطورة خاتم سليمان :

(323/663)

هذا وما يروى عن فتنة سليمان من حديث الخاتم والشياطين وعبادة الوثن في بيت سليمان فقد أبي العلماء المحققون قبوله وقالوا انه من نسج خيال اليهود ، فقد روت الأساطير أن سليمان بلغه خبر صيدون وهذه مدينة في بعض الجزر وان بها ملكا عظيم

الشأن معتصما بالبحر لا يقدر عليه أحد فخرج اليه تحمله الريح حتى أناخ بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها وأصاب بنتا له من أحسن الناس وجها فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها وكانت لا يرقا دمعها حزنا على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن له كعادتهن إبان حياته فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائبا متضرعا وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل عليها للطهارة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوما وأتاها الشيطان المارد الذي دل سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه صخر ، على صورة سليمان فقال يا أمينة خاتمي فتختم به وجلس على كرسي سليمان وعكفت عليه الطير والجن والإنس ولما أتى سليمان لطلب الخاتم أنكرته وطردته فعرف أن الخطيئة أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف فإذا قال

(324/663)

أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحا عدد ما عبد الوثن في بيته فأنكر آصف

وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان فقلن : ما يدع امرأة منّا في دمها ولا يغتسل من جنابة ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجدا ورجع اليه ملكه وأمر الشياطين أن يأتوه بصخر فأتوه به فأدخله في جوف صخرة وسد عليه بأخرى ثم أوثقها بالحديد والرصاص ثم أمر به فقذف في البحر إلى آخر تلك الأسطورة التي تشبه ما يصوره خيال شهر زاد في ألف ليلة وليلة من حكايات الجن وأساطير القماقم وغيرها وما أجمل ما يقوله القاضي عياض في هذا الصدد : " لا يصح ما نقله الأخباريون من تشبه الشيطان به وتسلطه على ملكه وتصرفه في أمته بالجور في حكمه " .

والذي عليه علماء الإسلام أن سبب فتنته ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كلهن تأتي بفارس مجاهد في سبيل اللّه تعالى فقال له صاحبه : قل إن شاء اللّه فلم يقل إن شاء اللّه فطاف عليهن جميعا فلم تحمل منهن امرأة إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل وايم اللّه الذي نفسي في يده لو قال : إن شاء اللّه لجاهدوا في سبيل اللّه فرسانا " قال الزمخشري " وهذا ونحوه مما لا بأس به " بقي قوله :

" وألقينا على كرسيه جسدا " ما هو ؟ ما حقيقته ؟ إن الذين يروون الأسطورة على علاتها كالجلال وغيره من أكابر العلماء يقولون : إنه الجني صخر والذين ينكرون الأسطورة

يحارون في الجسد الذي ألقي

على كرسيه فتارة يقولون : انه الشق الذي ولدته المرأة قالوا :

"

(325/663)

و الشق هو الجسد الذي القي على كرسيه حين عرض عليه وهو عقوبته ومحنته لأنه لم يستثن لما استغرقه من الحرص وغلب عليه من التمني وقيل : نسي أن يستثني كما صح في الحديث لينفذ أمر اللّه ومراده فيه ، وقيل : إن المراد بالجسد الذي ألقي على كرسيه أنه ولد له ولد فاجتمعت الشياطين وقال بعضهم لبعض : إن عاش له ولد لم ننفك من البلاء فسبيلنا أن نقتل ولده أو نخبله فعلم بذلك سليمان فأمر السحاب فحمله فكان يربيه في السحاب خوفا من الشياطين فبينما هو مشتغل في بعض مهماته إذ ألقي الولد ميتا على كرسيه فعاتبه اللّه على خوفه من الشياطين حيث لم يتوكل عليه في ذلك فتنبه لخطئه فاستغفر ربه فذلك قوله عز وجل : " وألقينا على كرسيه جسدا " إلخ . . . " .

على أن المسألة ليست مما يمكن البت فيه أو الترجيح بالرأي وإنما هي مسائل تاريخية تضاربت فيها الأقوال واللّه أعلم .

المراد بالخير :

واختلف العلماء والمفسرون أيضا في المراد بالخير بقوله :

" إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي " الآية فقال قوم هو المال مستدلين بقوله تعالى " إن ترك خيرا " أي مالا وقوله " إنه لحب الخير لشديد " وقيل هو مجاز والمراد به الخيل التي شغلته وأنسته ذكر ربه أو سمى الخيل خيرا كأنها نفس الخير لتعلق الخير بها قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة " وقال أيضا في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم : " ما وصف لي رجل فرأيته

إلا كان دون ما بلغني إلا زيد الخيل وسماه زيد الخير " وفي القرطبي :

" يعني بالخير الخيل والعرب تسميها كذلك ويعاقب بين الراء واللام فتقول انهملت العين وانهمرت وختلت وخترت ، قال الفراء : الخير في كلام العرب والخيل واحد " .

ومن الكلام البليغ الذي رمق الشعراء سماءه قوله تعالى :

"

هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب " فقد كان سليمان يقرن مردة الشياطين بعضهم في بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد وعن السدي كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم في الجوامع ، والصفد القيد وسمي به العطاء لأنه ارتباط للمنعم عليه ومنه قول علي ابن أبي طالب : " من برّك فقد أسرك ومن جفاك فقد أطلقك " وقال أبو تمام الطائي من قصيدة يمدح بها أبا سعيد الثغري :

همي معلقة عليك رقابها مغلولة إن العطاء إسار

وتبعه أبو الطيب فقال من قصيدة يمدح بها سيف الدولة :

وقيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

[سورة ص (38) : الآيات 41 إلى 44]

وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ (42) وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)

اللغة :

(بِنُصْبٍ) : النصب بضم فسكون وبفتح فسكون وبضمتين الداء والبلاء قيل جمع نصب كاسد وأسد وقيل هو لغة في النصب وقد تقدم كلام كثير في هذه المادة .

(ضِغْثاً) : حزمة من حشيش وقضبان وفي القاموس : " والضغث بالكسر قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس واضطغثه : احتطبه وأضغاث أحلام رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها (وقد تقدم القول فيها) والتضغيث ما بلّ الأرض والنبات من المطر " وفي المثل " ضغث على إباله " والإبالة بالتشديد الحزمة من الحشيش والحطب ومعناه بلية على أخرى ويضرب أيضا مثلا للرجل يحمل صاحبه المكروه ثم يزيده منه .

الاعراب :

)

(327/663)

وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ) عطف على اذكر عبدنا داود ولم يذكر ذلك في قصة سليمان لكمال الاتصال بين سليمان وداود كأن قصتهما قصة واحدة . واذكر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وعبدنا مفعول اذكر وأيوب بدل أو عطف بيان لعبدنا وإذ الظرف بدل اشتمال من أيوب وجملة نادى في محل جر بإضافة الظرف إليها والفاعل مستتر تقديره هو يعود على داود وربه مفعول به .

(أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ) أن وما في حيزها نصب بنزع الخافض أي بأني

مسني الشيطان حكاية لكلامه الذي نادى ربه به بعبارته وإلا لقيل انه مسه ، ومسني الشيطان فعل ماض ومفعول به

مقدم وفاعل مؤخر وبنصب متعلقان بمسني وعذاب عطف على نصب وسيأتي سر إسناد المس إلى الشيطان مع عصمة الأنبياء عن مس الشيطان إياهم وتسلطه عليهم في باب الفوائد كما يأتي فيه ما ذكر من سبب بلائه .

)

(328/663)

ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ) كلام مقول قول محذوف أي وقيل له ، واركض فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ومعنى اركض اضرب وبرجلك جار ومجرور متعلقان باركض ومفعول اركض محذوف أي الأرض وفي معاجم اللغة : " ركض الأرض والثوب ضربهما برجله " أي فهو متعد بهذا المعنى ، وهذا مبتدأ ومغتسل خبر وهو اسم مكان للماء الذي يغتسل به سمي الماء باسم مكانه مجازا علاقته المحلية وبارد صفة لمغتسل وشراب عطف . (وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ) عطف على ما تقدم مما اقتضاه المقام كأنه قيل فاغتسل وشرب فكشفنا بذلك ما به من ضر

ومسحنا عنه ما ألمّ به من أوصاب . ووهبنا فعل وفاعل وله متعلقان بوهبنا وأهله مفعول به ومثلهم عطف على أهله والظرف متعلق بمحذوف حال أي كائنا معهم ورحمة مفعول من أجله ومنّا صفة لرحمة وذكرى عطف على رحمة أي ان الهبة كانت للرحمة له وللتذاكير لأولي الألباب ولأولي نعت لذكرى والألباب مضاف إليه .

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ) وخذ عطف على ما تقدم وبيدك متعلقان بخذ وضغثا مفعول به ، فاضرب عطف على خذ وبه متعلقان باضرب والمفعول محذوف أي امرأتك ولا تحنث عطف على اضرب ولا ناهية وتحنث فعل مضارع مجزوم بلا وسيأتي القول في ضرب امرأته في باب الفوائد . (إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) إن واسمها وجملة وجدناه فعل وفاعل ومفعول به أول وصابرا مفعول به ثان ونعم العبد فعل وفاعل والمخصوص بالمدح محذوف للعلم به أي هو وإنه أواب إن واسمها وخبرها والجملة تعليل لمدحه .

الفوائد :

إنما أسند ما مسّه من نصب وعذاب إلى الشيطان مع انه من البداءة الأولية أن الشيطان لا يسلط على الأنبياء تأدبا مع اللّه لأن الشيطان كان يوسوس اليه ويغريه على الكراهة والجزع ، وذكر في سبب بلاء أيوب أن رجلا استغاثه على ظالم فلم يغثه وقيل كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه وقيل أعجب بكثرة ماله ، أما قصة ضرب امرأته فقد كان حلف في مرضه ليضربن امرأته مائة إذ برأ وذلك لا بطائها عليه يوما .

وفي القرطبي : " وفي سبب حلفه أربعة أقوال :

أحدها : ما حكاه ابن عباس أن إبليس لقيها في صورة طبيب فدعته إلى مداواة أيوب فقال أداويه على أنه إذا برىء يقول أنت شفيتني لا أريد جزاء سواه ، قالت نعم فأشارت على أيوب بذلك فحلف ليضربنها وقال : ويحك ذلك الشيطان .

ثانيها : ما حكاه سعيد بن المسيب أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه به من الخبز فخاف خيانتها فحلف ليضربنها .

ثالثها : ما حكاه يحيى بن سلام وغيره أن الشيطان أغواها أن تحمل أيوب على أن يذبح سخلة تقربا إليه وأنه يبرأ فذكرت ذلك له فحلف ليضربنها إن عوفي مائة .

رابعها : أنها باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئا تحمله إلى أيوب وكان أيوب يتعلق بها إذا أراد القيام فلهذا حلف ليضربنها فلما شفاه اللّه أمره أن يأخذ ضغثا فيضربها به فأخذ شماريخ قدر مائة فضربها بها ضربة واحدة " .

وقصة صبر أيوب تدخل في حيز أغراض القصص في القرآن ، وأسمى أغراضها إنشاء العقيدة الدينية الخاصة المجردة وموطن هذه العقيدة الخالدة هو الضمير والوجدان فلم يكن الداعي إلى الاستمساك بالصبر والاعتصام به مجردا لقداسته الدينية ولكن اتساع الآفاق النفسية وانفتاح منافذ المعرفة أمام النفس .

[سورة ص (38) : الآيات 45 إلى 48]

(330/663)

وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (47) وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (48)

الإعراب :

(وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ) الواو عاطفة اذكر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت أي اذكر يا محمد صبرهم على ما أصابهم وثباتهم على عقائدهم وتأسّ بهم وعبادنا مفعول به وإبراهيم بدل أو عطف بيان واسحق ويعقوب عطف على ابراهيم وأولي الأيد أي أصحاب الأيدي مفعول به سيأتي القول مسهبا في

معنى أولي الأيد في باب البلاغة والأبصار عطف على الأيد .

(إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) الجملة تعليلية لما وصفوا به من علو الرتبة وسموها بالعلم والعمل ، وان واسمها وجملة أخلصناهم خبر أنا وبخالصة متعلقان بأخلصناهم والباء إما للسببية إن كان أخلصناهم بمعنى جعلناهم خالصين وإما للتعدية إن كان أخلصناهم بمعنى خصصناهم وخالصة صفة لموصوف محذوف أي بخصلة خالصة وذكرى الدار يجوز فيها أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف أو بدل من خالصة وإذا اعتبرت خالصة مقدرا بمعنى الإخلاص فتكون ذكرى مفعولا به لخالصة وإذا كانت مصدرا بمعنى الخلوص فتكون ذكرى فاعلا لها فقد تمت لها أربعة أوجه وأما إضافة ذكرى إلى الدار فمن إضافة المصدر إلى المفعول أي ذكرهم الدار الآخرة وهناك قراءة متعددة يرجع إليها في المطولات .

)

(331/663)

وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ) وانهم ان واسمها وعندنا ظرف متعلق بمحذوف حال ولمن اللام المزحلقة ومن المصطفين خبر إنهم والأخيار صفة . (وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ

وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ) واذكر عطف على ما تقدم واذكر إسماعيل فعل وفاعل مستتر ومفعول به واليسع وذا الكفل معطوفان على إسماعيل وكل مبتدأ ساغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم ومن الأخيار خبر.

البلاغة:

الكناية في قوله "أولي الأيد والأبصار" وهي كناية عن العمل الصالح قال الزمخشري "أولي الأعمال والفكر كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يجاهدون في اللّه ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات ولا يستبصرون في حكم الزمنى الذين لا يقدرون على إعمال جوارحهم والمسلوبي العقول الذين لا استبصار بهم" وفيه أيضا فن التعريض بأن من لم يكن من عمال اللّه ولا من المستبصرين في دين اللّه خليق بالتوبيخ وأسوأ المذام، والأيدي جمع يد وهي الجارحة فالكناية بها لأن جميع الأعمال تزاول بها وإذا كانت جمعا ليد بمعنى النعمة فهي مجاز مرسل علاقته السببية وقد تقدم بحث ذلك لأن اليد هي سبب النعمة وإنما حذفت الياء في خط المصحف اجتزاء عنها بالكسرة وفسر بعضهم الأيد بمعنى القوة وهي وإن كانت جائزة من حيث اللغة إلا أن المقام يضعف استعمالها بهذا المعنى، قال الزمخشري "وتفسيره بالأيد من التأييد قلق غير ممكن".

[سورة ص (38): الآيات 49 إلى 60]

هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (50) مُتَّكِئِينَ

فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ (51) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (52)
هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (53)

(332/663)

إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (54) هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها
فَبِئْسَ الْمِهادُ (56) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (58)
هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (59) قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ
قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (60)

اللغة :

(قاصِراتُ الطَّرْفِ) : حابسات العين على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم .

(أَتْرابٌ) : أسنانهن واحدة ، سمين بذلك كأن التراب مسهن في وقت واحد ويقول البيضاوي " أتراب لأزواجهن لدات لهم أي مساويات لأزواجهم في السن فإن التحاب بين الأقران أثبت ورجح الزمخشري أن يكون التسلوي بينهن دون أزواجهن وفي القاموس :

" والترب بالكسر اللدة والسن ومن ولد معك وهي تربي وتاربتها :

صارت تربها " قال عمر بن أبي ربيعة :

أبرزوها مثل المهاة تهادى من خمس كواعب أتراب

وقد نظم بعضهم معاني هذه المادة فقال :

وضع تراب فوق صك ترب ضرب ترائب كذا والتّرب

مثلك سنا والتراب التّرب ترائب الشخص عظام الصدر

ومصدر لترب الشيء التّرب وجمع ترب الشخص في العمر التّرب

وجمع تربة بضم التّرب أي قطعة من التراب فادر

(وَغَسَّاقٌ) : ما يسيل من صديد أهل النار وفي القاموس :

" وغسق الجرح سال منه ماء أصفر " وقيل الحميم يحرق بحرّه والغساق يحرق ببرده .

الاعراب :

)

(333/663)

هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ) كلام مستأنف مسوق للإيذان بانتهاء ما تقدم من قصص والشروع في موضوع آخر . وهذا مبتدأ وذكر خبر وإن الواو استئنافية وإن حرف مشبه بالفعل وللمتقين خبرها المقدم واللام المزحلقة وحسن مآب اسمها المؤخر . (جَنَّاتِ عَدْنٍ

مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ) جنات عدن بدل أو عطف بيان لحسن مآب ومفتحة حال من جنات عدن والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل ولهم متعلقان بمفتحة والأبواب نائب فاعل لمفتحة لأنه اسم مفعول وقال الزمخشري في صدد إعراب هذه الآية : " ومفتحة حال والعامل فيها ما في للمتقين من معنى الفعل وفي مفتحة ضمير الجنات والأبواب بدل من الضمير تقديره مفتحة هي الأبواب كقولهم ضرب زيد اليد والرجل وهو من بدل الاشتمال وقرىء جنات عدن مفتحة بالرفع على أن جنات عدن مبتدأ ومفتحة خبره أو كلاهما خبر مبتدأ محذوف أي هو جنات عدن هي مفتحة لهم " .

(مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ) متكئين حال من الهاء في لهم والعامل فيها مفتحة وفيها متعلقان بمتكئين وجملة

يدعو إما مستأنفة لبيان حالهم فيها ويجوز أن تكون حالية مما ذكر وفيها حال من فاعل يدعون أي حال كونهم فيها وبفاكهة متعلقان بيدعون والاقتصار على الفاكهة يفيد الإيذان بأن مطاعمهم هناك ليست للتغذي وإقامة الجسم ولكن لمحض اللذة والتفكه وكثيرة صفة وشراب عطف على فاكهة . (وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ) الواو عاطفة والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وقاصرات الطرف مبتدأ مؤخر وأتراب صفة لقاصرات .

(هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ) اسم الاشارة مبتدأ وما خبر وجملة توعدون صلة وليوم

الحساب متعلقان بتوعدون واللام للتعليل أي لأجل يوم الحساب وأرى انه يجوز اعراب ما بدلا من اسم الإشارة وليوم الحساب هو الخبر ولعله أولى .

(334/663)

(إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ) إن واسمها واللام المزحلقة ورزقنا خبر إن وما نافية حجازية أو تميمية وله خبر مقدم ومن حرف جر زائد ونفاد اسم مجرور لفظا بمن في محل رفع اسم ما المؤخر أو مبتدأ مؤخر .

(هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ) هذا مبتدأ محذوف الخبر أو خبر لمبتدأ محذوف والكلام مستأنف وقد تقدم نظيره قريبا ، قال ابن الأثير :

" هذا في هذا المقام من الفصل الذي هو خير من الوصل وهي علاقة وكيدة بين الخروج من الكلام إلى كلام آخر " والواو عاطفة وإن حرف مشبه بالفعل وللطاغين خبرها المقدم واللام المزحلقة وشر مآب اسم إن المؤخر . (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ) بدل من شر مآب أو عطف بيان له وجملة يصلونها حالية وهو مفعول مضارع والواو فاعل والهاء مفعول به ولك أن تعرب جهنم مفعولا بفعل محذوف دل عليه يصلونها والفاء الفصيحة أي إن أردت أن تعلم حقيقة جهنم فهي بئس المهاد وبئس فعل جامد لإنشاء الذم والمهاد فاعل

والمخصوص محذوف

تقديره هي . (هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ) هذا مبتدأ وحميم وغساق خبراه وجملة فليذوقوه معترضة والفاء اعتراضية واللام لام الأمر ويذوقوه فعل مضارع مجزوم بلام الأمر والواو فاعل والهاء مفعول به وقد اضطربت أقوال المعربين في هذه الآية كثيرا وفيما يلي ما قاله أبو البقاء :

(335/663)

" هذا هو مبتدأ وفي الخبر وجهان أحدهما فليذوقوه مثل قولك زيد اضربه وقال قوم هذا ضعيف من أجل الفاء وليست في معنى الجواب كالتي في قوله : والسارق والسارقة فاقطعوا ، فأما حميم على هخا الوجه فيجوز أن يكون بدلا من هذا وأن يكون خبرا لمبتدأ محذوف أي هو حميم وأن يكون خبرا ثانيا والوجه الثاني أن يكون حميم خبر هذا وفليذوقوه معترض بينهما وقيل هذا في موضع نصب أي فليذوقوه هذا ثم استأنف فقال حميم أي هو حميم وأما غساق فيقرأ بالتشديد مثل كفار وصبار وبالتخفيف اسم للمصدر أي ذو غسق أو يكون فعال بمعنى فاعل " .

(وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ) وآخر عطف على حميم وغساق ومن شكله نعت له وأزواج

خبر لمبتدأ محذوف أي هي أو صفة للثلاثة .

(هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ) الجملة مقول قول محذوف أي ويقال لهم عند دخولهم النار وهذا مبتدأ وفوج خبر ومقتحم صفة لفوج ومعكم ظرف متعلق بمحذوف صفة ثانية لفوج أو حال من الضمير من مقتحم أو من فوج لأنه وصف ولا نافية ومرحبا منصوب على المصدر وبهم متعلقان بمرحبا وفي الجملة المنفية وجهان أحدهما أنها مستأنفة سيقت للدعاء عليهم بضيق المكان أو

حالية أي هذا فوج مقتحم مقولا لهم لا مرحبا بهم وفي القرطبي :

"

فقالت السادة لا مرحبا بهم أي لا اتسعت منازلهم في النار والرحب السعة ومنه رحبة المجد وغيره وهو بمعنى الدعاء ولذلك نصب " وقال أبو عبيدة : العرب تقول لا مرحبا بك أي لا رحبت عليك الأرض ولا اتسعت وجملة انهم صالو النار تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم وان واسمها وصالوا النار خبرها .

(336/663)

(قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ) قالوا فعل وفاعل والضمير يعود على الاتباع وبل حرف إضراب وأنتم مبتدأ ولا مرحبا مقول قول محذوف هو الخبر أي يقال لكم ، وأنتم مبتدأ وجملة قدمتموه خبره وقدمتموه فعل ماض والتاء فاعل والميم علامة جمع الذكور والواو لإشباع ضمة الميم والهاء مفعول به ولنا جار ومجرور متعلقان بقدمتموه ، فبئس الفاء عاطفة وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم والقرار فاعل والمخصوص بالذم محذوف أي النار .

[سورة ص (38) : الآيات 61 إلى 66]

قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (61) وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (62) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (63) إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64) قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66)

الاعراب :

)

قالُوا : رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ) قالوا فعل وفاعل وربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء ومن اسم موصول مبتدأ وجملة قدّم خبر والفاء رابطة لما في الموصول من رائحة الشرط وجملة فزده خبر والأولى أن يكون من مفعولا لفعل محذوف يفسره ما بعده أي فزد من قدّم او الهاء مفعول به أول وعذابا مفعول به ثان وضعفا نعت لعذاب أي مضاعفا وفي النار ظرف لزده أو حال من الهاء أي فزده كائنا في النار أو نعت ثان لعذابا . (وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ) قالوا فعل وفاعل والضمير يعود على كفار مكة كأبي جهل وأمية بن اخلف وغيرهما ، وما اسم استفهام مبتدأ ولنا متعلقان بمحذوف خبر وجملة لا نرى حالية وفاعل نرى ضمير مستتر تقديره نحن ورجالا مفعول به وأرادوا بهم فقراء المسلمين وكان واسمها وجملة كنّا صفة لرجالا وجملة نعدهم خبر كنّا أي نحسبهم في الدنيا ومن الأشرار متعلقان بنعدهم .

(أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ) الهمزة للاستفهام الإنكاري وهمزة الوصل سقطت استغناء عنها واتخذناهم فعل ماض وفاعل ومفعول به أول وسخريا مفعول به ثان كأنهم أنكروا على أنفسهم ما كانوا يتخذونه في الدنيا وسخريا يقرأ بكسر السين وضمها والياء للنسب فالسخري أقوى من السخر كما قيل في الخصوص خصوصية للدلالة على قوة ذلك ، فافهمه فإنه جيد ، وأم حرف عطف متصل بقوله مالنا وزاغت عنهم الأبصار

فعل وفاعل وعنهم متعلقان بزاغت فلم نرهم ومنهم عمار بن ياسر وبلال وصهيب وسلمان وجملة اتخذناهم مستأنفة ، ونرى من المفيد أن ننقل عبارة الزمخشري قال :

(338/663)

"

أم زاغت عنهم الأبصار : له وجهان من الاتصال أحدهما أن يتصل بقوله ما لنا أي ما لنا لا نراهم في النار كأنهم ليسوا فيها بل زاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار إلا انه خفي عليهم مكانهم والوجه الثاني أن يتصل باتخذناهم سخريا إما أن تكون أم متصلة على معنى أي الفعلين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم الازدراء بهم والتحقير وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم على معنى إنكار الأمرين جميعا على أنفسهم ، وعن الحسن : كل ذلك قد فعلوا اتخذوهم سخريا وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم ، وإما أن تكون منقطعة كقولك : إنها الإبل أم شاء ، وأزيد عندك عمرو " .

(إِنَّ ذِلكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) إن واسمها أي الذي حكيناه عنهم واللام المزحلقة وحق خبر وتخاصم أهل النار بدل من حق أو خبر لمبتدأ محذوف وجملة المبتدأ المحذوف وخبره

مفسرة لاسم الاشارة وسيأتي معنى التخاصم في باب البلاغة . (قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ) إنما كافة ومكفوفة وأنا مبتدأ ومنذر خبر والواو حرف عطف وما نافية ومن حرف جر زائد وإله مجرور لفظا مرفوع بالابتداء محلا وإلا أداة حصر والله خبر والواحد القهار صفتان لله . (رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) رب نعت أو بدل وما بينهما عطف على السموات والأرض والعزيز الغفار نعتان أيضا .

البلاغة :

1- في قوله " إن ذلك لحق تخاصم أهل النار " تشبيه تقاولهم وما يدور بينهم من حوار ويتبادلونه من سؤال وجواب بما

يجري بين المتخاصمين من نحو ذلك لأن قول الرؤساء لتابعيهم لا مرحبا بهم وقول التابعين بل أنتم لا مرحبا بكم لا يعدو الخصومة التي يتراشقها المتخاصمون .

(339/663)

2- فائدة الحرف الزائد في كلام العرب إما معنوية وإما لفظية فالمعنوية تأكيد المعنى الثابت وتقويته وأما اللفظية فتزيين اللفظ وكونه بزيادتها أفصح أو كون الكلمة أو الكلام بها يصير مستقيم الوزن أو حسن السجع أو غير ذلك ولا يجوز خلو الزيادة من اللفظية والمعنوية معا

وإلا لعدت عبثا وقد تجتمع الفائدتان في حرف وقد تنفرد إحداهما عن الأخرى .

الفوائد :

تغييرات النسبة :

ذكرنا في الإعراب أن السخري أقوى من السخر والخصوصية أقوى من الخصوص ونذكر هنا أن النسب يحدث في الاسم تغييرات :

1- زيادة ياء النسب في آخره وهذه الياء المشددة حرف بمنزلة تاء التأنيث لا موضع لها من الإعراب .

2- كسر ما قبلها .

3- جعل الياء منتهى الاسم .

وإنما تطرق التغيير في اللفظ لتغيير المعنى ، ألا ترى أنك إذا نسبت إلى علم استحال نكرة بحيث تدخله أداة التعريف كالتثنية

والجمع وصار صفة بمنزلة المشتق بعد الجود ويرفع الاسم بعده على الفاعلية أما مظهرا أو مضمرا تقول مررت برجل تميمي أبوه وآخر هاشمي جده ، وإذا نسبت إلى المصدر زدته قوة كما في قولك سخريا .

[سورة ص (38) : الآيات 67 إلى 78]

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) ما كانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ

يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70) إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (71)

(340/663)

فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (74) قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (75) قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76)

قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (78)

الإعراب :

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ) قل فعل وفاعله مستتر تقديره أنت يا محمد وتكرير القول لتأكيد النبأ وتضخيمه ، وهو مبتدأ ونبأ خبر وعظيم صفة . (أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) الجملة نعت ثان للنبأ ويجوز أن تجعلها مستأنفة للفت الانتباه إلى فداحة ما يرتكبونه من جريرة الإعراض عن ذلك النبأ وهو القرآن وما حفل به من شرائع وتعاليم وأنتم مبتدأ وعنه متعلقان بمعرضون ومعرضون خبر أنتم . (ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ) كلام مستأنف

مسوق لتأكيد أنه نبأ عظيم وارد من اللّه تعالى وما نافية وكان فعل ماض ناقص ولي خبر كان المقدم ومن حرف جر زائد وعلم مجرور بمن لفظا في محل رفع اسم كان المؤخر وبالملا متعلقان بعلم على تقدير مضاف أي بأنباء الملا واختصامهم والأعلى صفة للملا وإذ ظرف ماض متعلق بالمصدر أيضا وقال الزمخشري : " بمحذوف لأن المعنى ما كان لي بكلام الملا الأعلى وقت اختصامهم " وجملة يختصمون في محل جر بإضافة الظرف إليها وقيل الضمير في يختصمون عائد على قريش أي يختصمون في أمر الملا الأعلى لأن ذلك أمر تنوء العقول دون معرفته والمدار في الإحاطة به على الوحي .

)

(341/663)

إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) إن نافية ويوحى فعل مضارع مبني للمجهول وإلي متعلق بيوحى وإلا أداة حصر وانما كافة ومكفوفة وقد سدت مع مدخولها مسد نائب فاعل يوحى أي ما يوحى إلى إلا الانذار والقصر اضافي وقد تكرر هنا وقد تقدم بحث القصر وأنا مبتدأ ونذير خبر ومبين نعت . (إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ) إذ بدل من إذ يختصمون ويجوز أن تنصبها بأذكر محذوفا وجملة قال ربك في محل جر بإضافة الظرف

إليها وإن وما بعدها مقول قول وإن واسمها وخالق خبرها وبشرا مفعول به لخالق ومن طين نعت لبشرا وقد أغنى بهذا الوصف عن النعوت البشرية كلها وتلك هي براعة الإيجاز .

(فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ) الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن

معنى الشرط وسويته فعل ماض وفاعل ومفعول به والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها ونفخت عطف على سويته وفيه متعلقان بنفخت وكذلك قوله من روحي والمعنى وأحييته وجعلته حساسا ، فقعوا الفاء رابطة لجواب أذا وقعوا فعل أمر وفاعل وله متعلقان بساجدين وساجدين حال والمراد بالسجود التكرمة والاحترام .

(فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) الفاء عاطفة وسجد الملائكة فعل وفاعل وكلهم تأكيد أول وأجمعون تأكيد ثان ، قال الزمخشري :

"

(342/663)

كل للإحاطة وأجمعون للاجتماع فأفادا معا أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد وأنهم سجدوا في وقت واحد غير متفرقين في أوقات " . (إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ

مِنَ الْكافِرِينَ) إلا أداة استثناء وإبليس مستثنى متصل أو منقطع وذهب الزمخشري مذهبا غريبا قال : " فإن قلت كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجن ؟ قلت قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه في قوله فسجد الملائكة ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلا وجملة استكبر مستأنفة لبيان كيفية امتناعه من السجود وكان عطف على استكبر واسم كان مستتر تقديره هو يعود على إبليس ومن الكافرين خبر كان (قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) قال فعل ماض وفاعله يعود على اللّه تعالى ويا حرف نداء وإبليس منادى مفرد علم مبني على الضم وما اسم استفهام مبتدأ وجملة منعك خبر وأن وما في حيزها منصوب على أنه مفعول ثان لمنع وأن حرف مصدري ونصب وتسجد فعل مضارع منصوب بأن وفاعله مستتر تقديره أنت واللام حرف جر وما اسم موصول مجرور باللام وجملة خلقت صلة والعائد محذوف أي خلقته وبيدي متعلقان بخلقت .

(أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي وهمزة الوصل سقطت استغناء عنها واستكبرت فعل وفاعل وأم عاطفة متصلة ولا يمنع من ذلك اختلاف الفعلين ، قال سيبويه :

"

و تقول أضربت زيدا أم قتلته فالابتداء هنا بالفعل أحسن لأنك إنما تسأل عن أحدهما لا تدري أيهما كان ولا تسأل عن موضع أحدهما كأنك قلت : أي ذلك كان ؟ " وكنت كان واسمها ومن العالين خبرها أي من المتكبرين . (قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) أنا مبتدأ وخير خبر ومنه متعلقان بخير والجملة مقول القول وخلقتني فعل وفاعل ومفعول به ومن نار متعلقان بخلقتني وخلقته من طين عطف على خلقتني من نار . (قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ) قال فعل ماض والفاعل هو يعود على اللّه تعالى ، فاخرج الفاء الفصيحة واخرج فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ومنها متعلقان باخرج ، فإنك الفاء تعليل للأمر بالطرد وان واسمها ورجيم خبرها . (وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ) عطف على فإنك رجيم وان حرف مشبه بالفعل وعليك خبرها المقدم ولعنتي اسمها المؤخر والى يوم الدين متعلقان بمحذوف حال أي مستمرة ومعنى الانتهاء استمرارها في الدنيا حتى إذا كان يوم الدين تضاعفت عليه حتى لتكاد الأولى تنسى فكأنها انتهت لتستأنف من جديد .

البلاغة :

في قوله " ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي " تغليب لليدين على غيرهما من الجوارح التي تباشر بها الأعمال لأن ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه حتى قيل في عمل القلب هو مما

عملت يداك على المجاز

وحتى قيل في المثل " يداك أوكتا وفوك نفخ " وقد أبى فريق من أهل السنة أن يكون من المجاز كالشيخ أبي الحسن الأشعري واحتجوا بأن نعم اللّه لا تحصى فكيف تحصر بالتثنية وهذا حق ، على أن إمام الحرمين وغيره من أهل السنة جوّزوا حملها على المجاز وأجابا عما ذكره الشيخ أبو الحسن بأن المراد نعمة الدنيا والآخرة وهذا مما يحقق تفضيله على إبليس إذ لم يخلق إبليس لنعمة الآخرة وعلى أن المراد القدرة فالتثنية تعظيم ومثل ذلك كثير في اللغة .

(344/663)

[سورة ص (38) : الآيات 79 إلى 88]

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88)

الإعراب :

(قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ، قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) قال : فعل ماض وفاعله مستتر يعود إلى إبليس ، فأنظرني الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن شرط مقدر وتقديره إذا جعلتني رجيما فأمهلني ، وانظرني فعل أمر والفاعل مستتر تقديره أنت والنون للوقاية والياء مفعول به والى يوم متعلقان بأنظرني وجملة يبعثون في محل جر بإضافة الظرف إليها طلب فسحة لاغواء بني آدم .

)

(345/663)

قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) الفاء عاطفة لترتيب مضمون الجملة على الإنظار والباء حرف جر وقسم وعزتك مجرور بالباء والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف واللام واقعة في جواب القسم وأغويناهم جملة لا محل لها وأغويناهم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره أنا ومفعول به وأجمعين تأكيد . (إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) إلا أداة استثناء وعبادك مستثنى ومنهم حال والمخلصين نعت لعبادك (قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ) الفاء استئنافية والحق مبتدأ خبره محذوف تقديره قسمي أو مني أو خبر المبتدأ محذوف أي هو

الحق والحق مفعول مقدم لأقول أي لا أقول إلا الحق يعني أن تقديم المفعول أفاد الحصر أو هو مصدر مؤكد لمضمون قوله لأملأن وجملة والحق أقول اعتراضية بين القسم وجوابه . وقد قرىء بنصب الحق الأول .

(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) اللام جواب للقسم وأملأن فعل مضارع مبني على الفتح والفاعل مستتر تقديره أنا والجملة خبر الحق أو لا محل لها لأنها جواب قسم ولم تتمحض لجواب القسم لأنه غير نص في اليمين بخلاف لعمرك ولهذا لم يحذف الخبر ووجوبا وجهنم مفعول به ومنك متعلقان بأملأن وممن تبعك عطف على منك وجملة تبعك صلة من ومنهم حال وأجمعين تأكيد للضمير في منهم أو للكاف في منك وما عطف عليه ، قال الزمخشري :

" فإن قلت أجمعين تأكيد لما ذا ؟ قلت : لا يخلو أن يؤكد به الضمير في منهم أو الكاف في منك مع من تبعك ومعناه لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك أحدا منهم " .

(346/663)

(قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) ما نافية وأسألكم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به وعليه متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة

لأجر وتقدم عليه ومن حرف جر زائد وأجر مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول أسألكم والواو عاطفة أو حالية وما نافية حجازية وأنا اسمها ومن المتكلفين خبرها أي المتصنعين المتصفين بما ليسوا من أهله حتى أنتحل النبوة وأتقوّل القرآن . (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ) إن نافية وهو مبتدأ وإلا أداة حصر وذكر خبر هو وللعالمين صفة لذكر . (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وتعلمن فعل مضارع مرفوع لأن نون التوكيد لم تباشره وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لالتقاء الساكنين والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين أيضا فاعل والنون نون التوكيد الثقيلة ونبأه مفعول به وبعد حين ظرف متعلق بتعلمن وعلم بمعنى عرف فهو متعد لواحد وهو نبأه ويجوز أن تكون على بابها فيكون المفعول الثاني بعد حين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 8 صـ 326 . 386﴾

(347/663)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِي - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الرابع والستون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/664)

الجزء الرابع والستون بعد الستمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الزمر)

(4/664)

(سورة الزمر)

(5/664)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السّورة :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلم يقرأُ كلَّ ليلة بنى إسرائيل والزمَر ، وحديث أُبىّ الواهى : مَنْ قرأَ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءَه يوم القيامة ، وأُعطى ثواب الخائفين الَّذين خافوه ، وحديث على : يا علىُّ مَنْ قرأَ سورة الزُّمر اشتاقت إليه الجنَّة ، وله بكلِّ آية قرأَها مثلُ ثواب المجاهدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 408 ﴾

(6/664)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الزمر

مقصودها الدلالة على أنه سبحانه وتعالى صادق الوعد ، ، أنه غالب لكل شيء ، فلا يعجل لأنه لا يفوته شيء ، ويضع الأشياء في أوفق محالها يعرف ذلك أولو الألباب المميزون بين القشر واللباب ، وعلى ذلك دلت تسميتها الزمر لأنها إشارة إلى أنه أنزل كلا من المحشورين داره المعدة له بعد الإعذار في الإنذار ، والحكم بينهم بما استحقته أعمالهم ، عدلا منه سبحانه في أهل النار ، وفضلا على المتقين الأبرار ، وكذا تسميتها) تنزيل (لمن تأمل آيتها ، وحقق عبارتها وإشارتها ، وكذا) الغرف (، لأنها إشارة إلى حكمه سبحانه في الفريقين أهل الظلل النارية والغرف النورية ، تسمية للشيء بأشرف جزئيه ، فالقول فيها كالقول في الزمر سواء ، ويزيد أهل الغرف ختام آيتهم (وعد الله لا يخلف الله الميعاد) .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 412 ﴾

(7/664)

فصل

قال الآلوسى :

سورة الزمر

وتسمى الغرف كما في الإتقان والكشاف لقوله تعالى ﴿ لهم غرف من فوقها غرف ﴾ أخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنها أنزلت بمكة ولم يستثن وأخرج النحاس عنه أنه قال : نزلت سورة الزمر بمكة سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة وحشى قاتل حمزة قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم إلى ثلاث آيات وزاد بعضهم قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم الآية ذكره السخاوي في جمال القراءة وحكاه أبو حيان عن مقاتل وزاد بعض الله نزل أحسن الحديث حكاه ابن الجوزي والمذكور في البحر عن ابن عباس استثناء الله نزل أحسن الحديث وقوله تعالى قل يا عبادي الذين أسرفوا الخ وعن بعضهم إلا سبع آيات من قوله سبحانه قل يا عبادي الذين أسرفوا إلى آخر السبع وأيها خمس وسبعون في الكوفي وثلاث في الشامي واثنتان في الباقي وتفصيل الإختلاف في مجمع البيان وغيره ووجه اتصال أولها بآخر صاد أنه قال سبحانه هناك : إن هو إلا ذكر للعالمين وقال جل شأنه هنا تنزيل الكتاب من الله وفي ذلك كمال الالتئام بحيث لو أسقطت البسملة لم يتنافر الكلام ثم إنه تعالى ذكر آخر قصة خلق آدم وذكر في صدر هذه القصة خلق زوجه

منه وخلق الناس كلهم منه وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقا من بعد خلق ثم ذكر أنهم ميتون ثم ذكر سبحانه القيامة

(8/664)

والحساب والجنة والنار وختم بقوله سبحانه : وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين فذكر جل شأنه أحوال الخلق من المبدأ إلى آخر المعاد متصلا بخلق آدم عليه السلام المذكور في السورة قبلها وبين السورتين أوجه أخر من الربط تظهر بالتأمل فتأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ 132 . 233 ﴾

(9/664)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . تنزيل الكتاب من الله)

السّورة مكِّية ، إِلاَّ ثلاث آيات : ﴿ قُلْ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ ﴾ إِلى قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ

تَشْعُرُوْنَ ﴾ .

عدد آياتها خمس وسبعون فى عدّ الكوفىّ ، وثلاث فى عَدّ الشامى ، والباقين .

وكلماتها أَلْف ومائة وسبعون .

وحروفها أَربعة آلاف وسبعمائة وثمان .

والآيات المختلف فيها سبع : ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، ﴿ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ﴾ ، الثانى ﴿ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ﴾ ، و ﴿ مِنْ هَادٍ ﴾ الثانى ، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، أَربعهن ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ ، ﴿ مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ .

مجموع فواصل آياتها (من ولى يُدر) وللسورة اسمان : سورة الزُّمر ؛ لقوله : ﴿ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً ﴾ وسورى الغُرَف ؛ لقوله : ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ قال وَهْب : من أَراد أَن يعرف قضاءَ الله فى خَلْقه فليقرأْ سورة الغُرَف .

(10/664)

معظم مقصود السّورة : بيان تنزيل القرآن ، والإِخلاص فى الدّين ، والإِيمان ، وباطل عُذْر الكفَّار فى عبادة الأَوثان ، وتنزيه الحقّ تعالى عن الوَلَد بكلمة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ ، وعجائب صنع الله فى الكواكب والأَفلاك بلا عَمَد وأَركان ، والمِنَّة على العباد بإِنزال الإِنعام من

السَماءِ فى كلِّ أَوان ، وحفظ الأَولاد فى أَرحام الأَمهات بلا أَنصار وأَعوان ، وجزاءُ الخَلْق على الشكر والكفران ، وذكر شرف المتهجّدين فى الدّياجر بعبادة الرّحمن ، وبيان أَجر الصابرين وذلِّ أَصحاب الخسران ، وبشارة المؤمنين فى استماع القرآن بإِحسان ، وإِضافة غُرف الجنان لأَهل الإِخلاص والعِرفان ، وشرح صدر المؤمنين بنور التوحيد والإِيمان ، وبيان أَحوال آيات الفرقان' وعجائب القرآن ، وتمثيل أَحوال أَهل الكفر وأَهل الإِيمان ، والخطاب مع المصطفى بالموت والفناءِ وتحلُّل الأَبدان ، وبشارة أَهل الصّدق بحسن الجزاءِ والغفران ، والوعد بالكِفاية والكِلاءَة للعُبدان ، وبيان العجز عن العون ، والنّصرة للأَصنام والأَوثان ، وعجائب الصنع فى الرّؤيا ، والنوم وماله من غريب الشان ، ونُفرة الكفَّار من سماع ذكر الواحد الفَرْد الديَّان ، والبشارة بالرّحمة لأَهل الإِيمان ، وإِظهار الحسرة والنَّدامة يوم القيامة من أَهل العصيان ، وتأَسفهم فى تقصيرهم فى الطَّاعة زمان الإِمكان ، وإِضافة المُلْك إِلى قبضة قدرة الرّحمن ، ونفْخ الصُور على سبيل الهيبة ، والسّياسة ، وإِشراق العَرَصات بنور العدل ، وعظمة السلطان ، وسَوْق الكفَّار بالذلِّ والخزى إِلى دار العقوبة والهوان ، وتفريح المؤمنين بالسّلام عليهم فى دار الكرامة ، وغُرف الجنان ، وحكم الحقّ بين الخَلْق بالعدل ، وختمه بالفضل والإِحان ، فى قوله : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

(11/664)

فيها من المنسوخ خمس آيات : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ﴾ م ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ م ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ م ﴿ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ م ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ﴾ م آية السّيف ن قل ﴿ إِنِّي أَخَافُ ﴾ م ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ ن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 403.405 ﴾

(12/664)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الزمر

367 - مسألة :

قوله تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ) ، وقال تعالى بعده : (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ) .

جوابه :

حيث قصد تعميمه وتبليغه وانتهاؤه إلى عامة الأمة قال :

(إِلَيْكَ)

368 -

وحيث قصد تشريفه وتخصيصه به قيل : (عَلَيْكَ) ، وقد تقدم ذلك في آل عمران وحيث اعتبر ذلك حيث وقع وجد لذلك ، وذلك لأن (على) مشعر بالعلم فناسب أول من جاءه من العلو وهو النبي - صلى الله عليه وسلم - . و (إلى) مشعرة بالنهاية ، فناسب ما قصد به هو وأمته لأن (إلى) لا تختص بجهة معينة ، ووصوله إلى الأمة كذلك لا يختص بجهة معينة .

مسألة :

قوله تعالى : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) الآية .

وقال تعالى (وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) وظاهر الآيتين تعليل العبادة بهما ؟ .

جوابه :

أن اتخاذه الصنم إلها كان تعبدا في نفسه واعتقاده وفى نفس الأمر هو ضلال ، وإضلاله عن سبيله لا عنده لأنه لم يصدق أن ذلك سبيل الله فضل عنه .

369 - مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3) ومثله : (لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

وقال تعالى في الأنعام : (ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ)

وقال تعالى : (قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ)

وقد هدى خلقا كثيرا من الكفار أسلموا من قريش وغيرهم ؟ .

جوابه :

أن المراد من سبق علمه بأنه لا يؤمن ، وأنه يموت على كفره ، فهو عام مخصوص . أو أنه غير مهدى في حال كذبه وكفره .

370 ـ مسألة :

قوله تعالى : (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) . ثم قال تعالى : (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) ما وجه دخول اللام ؟ .

جوابه :

(13/664)

أن متعلق (أُمِرْتُ) الثاني غير الأول لاختلاف جهتيهما : فالأول : أمره بالإخلاص في العبادة ، والثاني : أمره بذلك لأجل أن يكون أول المسلمين بمكة .

371.مسألة :

قوله تعالى : (بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) تقدم فى هود جوابه

372.مسألة :

قوله تعالى : (فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ) وفى يونس عليه السلام : (فَإِنَّمَا) و(وَمَا أَنَا) .

تقدم في يونس .

373 – مسألة :

قوله تعالى : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)

فجاء أولا : "بحين" وفى الثانية : " بفى "

جوابه :

أن الموت هو التوفى ، فلا يكون ظرفا لنفسه بخلاف النوم لصحة جعله ظرفا للتوفى .

374.مسألة :

قوله تعالى (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ) وفى آل عمران : (مَا كَسَبَتْ) ؟ .

جوابه :

أنه تقدم قبل هنا تكرار ذكر الكاسب ، فناسب العدول إلى : (عَمِلَتْ) ولم يتقدم مثله في آل عمران .

375.مسألة:

قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) وقال في الجنة: (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) بالواو ؟

.

جوابه:

الأحسن ما قيل: أن، ، الواو، ، واو الحال، وذلك أن الأكابر

الأجلاء الأعزاء تفتح لهم أبواب الأماكن التي يقصدونها قبل وصولهم إليها إكراما لهم

وتبجيلا، وصيانة من وقوفهم منتظرين فتحها ، والمهان لا يفتح له الباب إلا بعد وقوفه

وامتهانه.

فذكر أهل الجنة بما يليق بهم، وذكر أهل النار بما يليق بهم - ويؤيد ذلك: (جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (50) . انتهى انتهى. اهـ ﴿كشف المعاني صـ312.317﴾

(14/664)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

المتشابهات:

قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وفى هذه السّورة أيضاً ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ

الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ الفرق بين ﴿ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ و ﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ﴾ قد سبق فى البقرة .

ويزيده وضوحاً أَن كلَّ موضع خاطب (فيه) النَّبى صلى الله عليه وسلَّم بقوله : إنا أَنزلنا إليك الكتاب ففيه تكليف ، وإذا خاطبه بقوله : إنا أَنزلنا عليك ففيه تخفيف .

اعتبِرْ بما فى هذه السّورة .

فالذى فى أَوّل السّورة (إليك فكلَّفه الإخلاص فى العبادة .

والذى فى آخرها (عليك) فختم الآية بقوله ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أَى لست بمسئول عنهم ، فخفَّف عنه ذلك .

قوله : ﴿ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ زاد مع الثانى لامًا ؛ لأَنَّ المفعول من الثانى محذوف ، تقديره : وأُمرت أَن أَعبد الله لأَن أكون ، فاكتفى بالأَول .

قوله : ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ﴾ بالإضافة ، والأَول ﴿ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ﴾ ، لأَنَّ قوله : ﴿ اللَّهَ أَعْبُدُ ﴾ إخبار عن المتكلم ؛ فاقتضى الإضافة إلى المتكلم ، وقوله : ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴾ ليس بإخبار عن المتكلم ، وإنما الإخبار (أُمرت) ، وما بعده صلة ومفعول .

قوله : ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وفى النحل ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ

صَبَرُواْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وكان حقُّه أَن يذكر هناك .

خصَّت هذه السورة بـ (الذى) ليوافق ما قبله .

وهو ﴿ أَسْوَأَ الَّذِي ﴾ ، وقبله ﴿ وَالَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ ﴾ .

وخصّت النَّحل بـ (ما) للموافقة أَيضاً .

(15/664)

وهو ﴿ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ و ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ فتلاءَم اللفظان فى السّورتين .

قوله : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ وفى الجاثية ﴿ مَا عَمِلُواْ ﴾ علّته مثل عِلَّة الآية الأُولى ؛ لأَن ﴿ مَا كَسَبُواْ ﴾ فى هذه السّورة وقع بين أَلفاظ كَسَب ، وهو قوله : ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُوْنَ ﴾ وفى الجاثية وقع بين أَلفاظ العمل وهو : ﴿ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ ﴾ و ﴿ عَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ وبعده ﴿ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ فخُصّت كلّ سورة بما اقتضاه طرفاه .

قوله : ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ﴾ وفى الحديد ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ﴾ ؛ لأَنَّ الفعل الواقع قبل قوله ﴿ ثُمَّ يَهِيْجُ ﴾ فى هذه السّورة مسند إِلى الله تعالى ، وهو قوله :

﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ فكذلك الفعل بعده : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ ﴾ .

وأَمَّا الفعل قبله فى الحديد فمسند إلى النبات وهو ﴿ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ فكذلك ما بعده وهو ﴿ ثُمَّ يَكُونَ ﴾ ليوافق فى السّورتين ما قبل وما بعد .

قوله ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ وبعده ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ بالواو للحال ، أَى جاءُوها وقد فتحت أَبوابُها .

وقيل : الواو فى ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ زيادة ، وهو الجواب ، وقيل : الواو واو الثمانية .

وقد سبق فى الكهف .

قوله : ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ﴾ ، وفى غيرها : ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ ؛ لأَنَّ هذه السّورة متأَخرة عن تلك السّورة ؛ فاكتفى بذكره فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 405. 407 ﴾

(16/664)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة الزمر

439 - قوله عز و جل إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق وفي هذه أيضا إنا أنزلنا عليك الكتاب

لتحكم بين الناس بالحق الفرق بين أنزلنا إليك الكتاب وأنزلنا عليك قد سبق في البقرة ونزيده وضوحا أن كل موضع خاطب النبي صلى الله عليه و سلم بقوله إنا أنزلنا إليك ففيه تكليف وإذا خاطبه بقوله إنا أنزلنا عليك ففيه تخفيف

واعتبر بما في هذه السورة فالذي في أول السورة إليك فكلفه الإخلاص في العبادة والذي في آخرها عليك فختم الآية بقوله وما أنت عليهم بوكيل أي لست بمسئول عنهم فخفف عنه ذلك

440 - قوله إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين 11 12 زاد مع الثاني لاما لأن المفعول من الثاني محذوف تقديره فأمرت أن أعبد الله لأن أكون فاكتفى بالأول

441 - قوله قل الله أعبد مخلصا له الدين 14 بالإضافة والأول مخلصا له الدين 11 لأن قوله أعبد إخبار صدر عن المتكلم فاقتضى الإضافة إلى المتكلم وقوله مرت أن أعبد الله 11 ليس بإخبار عن المتكلم وإنما الإخبار وما بعده فضله ومفعول

442 - قوله ويجزيهم أجرهم بأحسن الذين كانوا يعملون 35 وفي النحل وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون 96 وكان حقه أن يذكر هناك

خصت هذه السورة بالذي ليوافق ما قبله وهو أسوأ الذي عملوا 35 وقبله والذي جاء بالصدق 23 وخصت النحل بما للموافقة أيضا وهو قوله إنما عند الله هو خير لكم 95 ما

عندكم ينفذ وما عند الله باق 96 فتلائم اللفظان في السورتين

443 - قوله وبدا لهم سيئات ما كسبوا 48 وفي الجاثية ما عملوا 23 علة الآية الأولى لأن ما كسبوا في هذه السورة وقع بين ألفاظ الكسب وهو ذوقوا ما كنتم تكسبون 24 وفي الجاثية وقع بين ألفاظ العمل وهو ما كنتم تعملون 29 وعملوا الصالحات 30 وبعده سيئات ما عملوا 33 فخصت كل سورة بما اقتضاه

(17/664)

---

444 - قوله ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما 21 وفي الحديد ثم يكون حطاما 20 لأن الفعل الواقع بعد قوله ثم يهيج في هذه السورة مسند إلى الله تعالى وهو قوله ثم يخرج به زرعا 21 فكذلك الفعل بعده ثم يجعله 21

وأما الفعل قبله في الحديد فمسند إلى النبات وهو أعجب الكفار نباته 20 فكذلك ما بعده وهو ثم يكون 20 ليوافق في السورتين ما قبله وما بعده

445 - قوله فتحت أبوابها 71 وبعده وفتحت 73 بالواو للحال أي جاءوها وقد فتحت أبوابها وقيل الواو في وقال لهم خزنتها زائدة وهو الجواب وقيل الواو واو الثمانية وقد سبق في الكهف

446 - قوله فمن اهتدى فلنفسه 41 وفي آخرها فإنما يهتدي لنفسه لأن هذه السورة متأخرة عن تلك السورة فاكتفى بذكره فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 184.186 ﴾

(18/664)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الزمر

سميت " سورة الزمر " من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد روى الترمذي عن عائشة قالت : "كان النبي صلى الله عليه وسلم : " لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل " .

وإنما سميت سورة الزمر لوقوع هذا اللفظ فيها دون غيرها من سورة القرآن .

وفي " تفسير القرطبي " عن وهب بن منبه أنه سماها " سورة الغرف " " وتناقله المفسرون " .

ووجه أنها ذكر فيها لفظ الغرف ، أي بهذه الصيغة دون الغرفات ، في قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ

غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ [الزمر : 20]الآية .

وهي مكية كلها عند الجمهور وعن ابن عباس أن قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : 53]الآيات الثلاث .

وقيل : إلى سبع آيات نزلت بالمدينة في قصة ، وحشي قاتل حمزة ، وسنده ضعيف ، وقصته عليها مخائل القصص .

وعن عمر بن الخطاب أن تلك الآيات نزلت بالمدينة في هشام بن العاصي بن وائل إذ تأخر عن الهجرة إلى المدينة بعد أن استعد لها .

وفي رواية : أن معه عياش ابن أبي ربيعة وكانا تواعدا على الهجرة إلى المدينة ففُتنا فافتتنا .

والأصح أنها نزلت في المشركين كما سيأتي عند تفسيرها ، وما نشأ القول بأنها مدنية إلا لما روي فيها من القصص الضعيفة .

وقيل : نزل أيضا في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ [الزمر : 10]الآية بالمدينة .

وعن ابن عباس : " أن قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ [الزمر : 23]الآية نزل بالمدينة .

فبلغت الآيات المختلف فيها تسع آيات .

والمتجه : أنها كلها مكية وأن ما يخيل أنه نزل في قصص معينة إن صحت أسانيده أن يكون وقع التمثل به في تلك القصص فأشتبه على بعض الرواة بأنه سبب نزول .

(19/664)

وسيأتي عند قوله تعالى : ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ [الزمر : 10] أنها نزلت قبيل هجرة المؤمنين إلى الحبشة ، أي في سنة خمس قبل الهجرة .

وهي السورة التاسعة والخمسون في ترتيب النزول على المختار ، نزلت بعد سورة سبا وقبل سورة غافر .

وعدت آيها عند المدنيين والمكيين والبصريين اثنتين وسبعين ، وعند أهل الشام ثلاثا وسبعين ، وعند أهل الكوفة خمسا وسبعين .

أغراضها

ابتدئت هذه السورة بما هو كالمقدمة للمقصود ، وذلك بالتنويه بشأن القرآن تنويها تكرر في ستة 1 مواضع من هذه السورة لأن القرآن جامع لأغراضها .

وأغراضها كثيرة تحوم حول إثبات تفرد الله بالإلهية وإبطال الشرك فيها .

وإبطال تعللات المشركين لإشراكهم وأكاذيبهم .

ونفي ضرب من ضروب الإشراك إلى زعمهم أن لله ولدا .

والاستدلال على وحدانية الله في الإلهية بدلائل تفرده بإيجاد العوالم العلوية والسفلية ،

وبتدبير نظامها وما تحتوي عليه مما لا ينكر المشركون انفراده به .

والخلق العجيب في أطوار تكوين الإنسان والحيوان .

والاستدلال عليهم بدليل من فعلهم وهو التجاؤهم إلى الله عند ما يصيبهم الضر .

والدعوة إلى التدبر فيما يلقى إليهم من القرآن الذي هو أحسن القول .

وتنبيههم على كفرانهم شكر النعمة .

والمقابلة بين حالهم وبين حال المؤمنين المخلصين لله .

وأن دين التوحيد هو الذي جاءت به الرسل من قبل .

والتحذير من أن يحل بالمشركين ما حل بأهل الشرك من الأمم الماضية .

وإعلام المشركين بأنهم وشركاءهم لا يعبأ بهم عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وسلم فالله غني عن عبادتهم ، ورسوله لا يخشاهم ولا يخاف أصنامهم لأن الله كفاه إياهم جميعا .

وإثبات البعث والجزاء لتجزى كل نفس بما كسبت .

وتمثيل البعث بإحياء الأرض بعد موتها .

وضرب لهم مثله والإفاقة بعده وأنه يوم الفصل بين المؤمنين والمشركين .

وتمثيل حال المؤمنين وحال المشركين في الحياتين الحياة الدنيا والحياة الآخرة .

ودعاء المشركين للإقلاع عن الإسراف على أنفسهم ، ودعاء

—

1 هي قوله تنزيل ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ الآيتين وقوله : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ الآية,وقوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ الآيتين,وقوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ الآية,وقوله : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ الآية,وقوله : ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾ الآية .

(20/664)

المؤمنين للثبات على التقوى ومفارقة دار الكفر .

وختمت بوصف حال يوم الحساب .

وتخلل ذلك كله وعيد ووعد ، وأمثال ، وترهيب وترغيب ، ووعظ وإيماء بقوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9]الآية إلى أن شأن المؤمنين أنهم أهل علم وأن المشركين أهل جهالة ، وذلك تنويه برفعة العلم ومذمة الجهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ 5.7 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الزمر

مقدمة سورة الزمر

هذه السورة تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد . وهي تطوف بالقلب البشري في جولات متعاقبة ; وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة ; وتهزه هزاً عميقاً متواصلاً لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكنها , وتنفي عنه كل شبهة وكل ظل يشوب هذه الحقيقة . ومن ثم فهي ذات موضوع واحد متصل من بدئها إلى ختامها ; يعرض في صور شتى .

ومنذ افتتاح السورة تبرز هذه القضية الواحدة التي تكاد السورة تقتصر على علاجها : تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص . . . الخ . . . وتتردد في مقاطعها على فترات متقاربة فيها إما نصاً . وإما مفهوماً . .

نصاً كقوله: قل:إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين .

قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل:الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه . . . الخ . . أو قوله:(قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ? ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) .

ومفهوماً كقوله:(ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون , ورجلا سلما لرجل . هل يستويان مثلاً:الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) . . أو قوله:(أليس الله بكاف عبده ? ويخوفونك بالذين من دونه , ومن يضلل الله فما له من هاد , ومن يهد الله فما له من مضل . أليس الله بعزيز ذي انتقام ?) . .

(22/664)

وإلى جانب حقيقة التوحيد التي تعالج السورة أن تطبعها في القلب وتمكنها نجد في السورة توجيهات وإيحاءات لإيقاظ هذا القلب واستجاشته وإثارة حساسيته , وإرهافه للتلقي والتأثر والاستجابة . ذلك كقوله: والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى . فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه , أولئك الذين هداهم الله , وأولئك هم أولوا الألباب . . (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه

جلود الذين يخشون ربهم , ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله: ذلك هدى الله يهدي به من يشاء . ومن يضلل الله فما له من هاد) . . (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه , ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل . وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله . قل: تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار) . .

(23/664)

وهناك ظاهرة ملحوظة في جو السورة . . إن ظل الآخرة يجللها من أولها إلى آخرها . وسياقها يطوّف بالقلب البشري هناك في كل شوط من أشواطها القصيرة ; ويعيش به في ظلال العالم الآخر معظم الوقت ! وهذا هو مجال العرض الأول فيها والمؤثر البارز المتكرر في ثناياها . ومن ثم تتلاحق فيها مشاهد القيامة أو الإشارة إليها في كل مقطع من مقاطعها الكثيرة . مثل هذه الإشارات: (أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ?) . . (قل: إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) . . (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ?) . . (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ?) . . (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) . . (أليس في جهنم مثوى للكافرين ?) . . (ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم

القيامة ; وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) . . (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون . أن تقول نفس: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين . .) . . وهذا غير المشاهد الكاملة التي تشغل حيزاً من السورة كبيراً , وتظلل جوها بظلال الآخرة .

أما المشاهد الكونية التي لاحظنا كثرتها وتنوعها في السور المكية في ثنايا عرضها لحقائق العقيدة فهي قليلة في هذه السورة . .

هنالك مشهد كوني يرد في مطلعها : (خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل , وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . ألا هو العزيز الغفار) . .

(24/664)

ومشهد آخر في وسطها : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ; ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ; ثم يهيج فتراه مصفراً ; ثم يجعله حطاماً ? إن في ذلك لذكرى

لأولي الألباب) . .

وهناك إشارات سريعة إلى خلق السماوات والأرض غير هذين المشهدين البارزين .

كذلك تتضمن السورة لمسات من واقع حياة البشر , وفي أغوار نفوسهم , تتوزع في ثناياها .

يرد في مطالعها عن نشأة البشرية: (خلقكم من نفس واحدة ; ثم جعل منها زوجها . وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج . يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك . لا إله إلا هو , فأنى تصرفون ?) .

ويرد عن طبيعة النفس البشرية في الضراء والسراء: وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ; ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل . . . الخ . . (فإذا مس الإنسان ضر دعانا ; ثم إذا خولناه نعمة منا قال: إنما اوتيته على علم بل هي فتنة . .) . .

ويرد في تصوير أنفس البشر في قبضة الله في كل حالة: (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ; فيمسك التي قضى عليها الموت , ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . .

ولكن ظل الآخرة وجوها يظل مسيطراً على السورة كلها كما أسلفنا . حتى تختم بمشهد خاشع يرسم ظل ذلك اليوم وجوه: (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم , وقضي بينهم بالحق , وقيل: الحمد لله رب العالمين) .

هذا الظل يتناسق مع جو السورة , ولون اللمسات التي تأخذ القلب البشري بها . فهي أقرب إلى جو الخشية والخوف والفزع والارتعاش . ومن ثم نجد الحالات التي ترسمها للقلب البشري هي حالات ارتعاشه وانتفاضه وخشيته . نجد هذا في صورة القانت(آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) . وفي صورة الذين يخشون ربهم تقشعر جلودهم لهذا القرآن ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . كما نجده في التوجيه إلى التقوى والخوف من العذاب , والتخويف منه: (قل:يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم) . (قل:إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) . . (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل . ذلك يخوف الله به عباده . يا عباد فاتقون) . . ثم نجده في مشاهد القيامة وما فيها من فزع ومن خشية , وما فيها كذلك من إنابة وخشوع .

الدرس الأول: 1 – 5 إثبات الرسالة والأمر بالعبادة والتوحيد وأدلة على الوحدانية

والسورة تعالج الموضوع الواحد الرئيسي فيها في جولات قصيرة متتابعة ; تكاد كل جولة منها تختم بمشهد من مشاهد القيامة , أو ظل من ظلالها . وسنحاول أن نستعرض هذه الجولات المتتابعة كما وردت في السياق . إذ أنه يصعب تقسيم السورة إلى دروس كبيرة . وكل مجموعة قليلة من آياتها تصلح حلقة تعرض في موضعها . ومجموع هذه الحلقات يتناول

حقيقة واحدة . حقيقة التوحيد الكبيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 3035.3033 ﴾

(26/664)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الزمر

مكية وآياتها خمس وسبعون آيه

بين يدي السورة

*سورة الزمر مكية ، وقد تحدثت عن (عقيدة التوحيد) بالاسهاب ، حتى لتكاد تكون هي المحور الرئيسي للسورة الكريمة ، لأنها أصل الإيمان ، وأساس العقيدة السليمة ، وأصل كل عمل صالح ، وبدون الإيمان لا يقبل عمل ولا يرفع .

*ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن (المعجزة الكبري) الدائمة الخالدة لمحمد بن عبد الله ، وأمرت الرسول باخلاص الدين لله ، وتنزيهه جل وعلا عن مشابهة المخلوقين ، وذكرت شبهة المشركين في عبادتهم للأوثان وإتخاذهم شفعاء ، وردت على ذلك بالدليل القاطع [إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين . .] الآيات .

* ثم ذكرت الأدلة والبراهين علي وحدانية رب العالمين ، في إبداعه لخلق السموات والأرض ، وفي ظاهرة الليل والنهار ، وفي تسييره للشموس والأقمار ، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام ، وكلها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانية [خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار . .] الآيات .

* وتناولت السورة موضوع العقيدة بوضوح وجلاء ، وكشفت عن مشهد الخسران المبين للكفرة المجرمين في دار الجزاء ، حيث يذوقون ألوان العذاب ، وتغشاهم ظلل من النار من فوقهم ومن تحتهم [لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون . .] الآيات .

*وذكرت السورة مثلا يوضح الفارق الكبير بين من يعبد إلها واحدا ، ومن يعبد آلهة متعددة ، لا تسمع ولا تستجيب ، وهو مثل للعبد الذي يملكه شركاء متخاصمون ، والعبد الذي يملكه سيد واحد ، ثم ذكرت حالة المشركين النفسية عندما يسمعون توحيد الله تنقبض قلوبهم ، وإذا سمعوا ذكر الطواغيت هشوا وبشوا [ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . .] الآيات .

*ثم جاءت الآيات طرية ندية تدعو العباد إلي الإنابة لربهم ، والرجوع إليه ، قبل أن يداهمهم الموت بغتة ، أو يفاجئهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وحينئذ يتوبون ويندمون ، في وقت لا ينفع فيه توبة ولا ندم [قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم . .] الآيات .

*وختمت السورة الكريمة بذكر نفخة الصعق ، ثم نفخة البعث والنشور ، وما يعقبهما من أهوال الآخرة وشدائدها ، وتحدثت عن يوم الحشر الأكبر ، حيث يساق المتقون الأبرار إلي الجنة زمرا ، ويساق المجرمون الأشرار إلى جهنم زمرا ، في مشهد هائل ، يحضره الأنبياء والصديقون والشهداء الأبرار ، والوجود كله يتجه إلي ربه بالحمد والثناء فى خشوع واستسلام [ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . .] الآيات إلى نهاية السورة الكريمة

التسمية :

سميت " سورة الزمر " لأن الله تعالي ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة ، وزمرة الأشقياء من أهل النار ، أولئك مع الإجلال والإكرام ، وهؤلاء مع الهوان والصغار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 68 . 69 ﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الزمر

التكوير : فى الأصل اللف واللى من كار العمامة على رأسه وكوّرها والمراد يذهب الليل ويغشى مكانه النهار ، والعكس بالعكس ، وسخر الشمس والقمر جعلهما منقادين له ، والأجل المسمى : يوم القيامة ، والظلمات الثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرّحم وظلمة المشيمة ، تصرفون : أي يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره .

منيبا : أي راجعا إليه مطيعا له ، خوّله : ملّكه وأنشد أبو عمرو بن العلاء لزهير ابن أبى سلمى :

هنالك إن يستخولوا المال يخولوا وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا

القانت : القائم بما يجب عليه من الطاعة ، آناء الليل : ساعاته واحدها آن ، يحذر الآخرة : أي يخشى عذابها .

فسلكه : أي فأدخله ، ينابيع : أي عيونا ومجارى ، ألوانه : أي أنواعه وأصنافه ، يهيج : أي

يجف ، حطاما : أي فتاتا متكسرا .

شرح مصدر للإسلام : الفرج به والطمأنينة إليه ، والنور : البصيرة والهدى ، والقسوة : جمود وصلابة في القلب يقال قلب قاس : أي لا يرق ولا يلين ، أحسن الحديث : هو القرآن ، متشابها : أي يشبه بعضه بعضا في الحسن والأحكام ، مثاني :

واحدها مثنى من التثنية : أي التكرير ، تقشعر : أي تضطرب وتتحرك وتشمئز ، تلين : أي تسكن وتطمئن ، الخزي : الذل والهوان ، يتذكرون : أي يتعظون ، غير ذى عوج :

أي لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ، قال :

وقد أتاك يقين غير ذى عوج من الإله وقول غير مكذوب

ضرب المثل : تشبيه حال عجيبة بأخرى وجعلها مثلا لها ، متشاكسون : أي مختلفون يتنازعون لسوء طباعهم وشكاسة أخلاقهم ، سلما لرجل : أي خالصا لسيد واحد ، والميت (بالتشديد) من لم يمت وسيموت ، والميت (بالتخفيف) من قد مات وفارقته الروح ، قال الخليل أنشد أبو عمرو :

وتسألنى تفسير ميت وميّت فدونك قد فسرت إن كنت تعقل

فمن كان ذا روح فذلك ميّت وما الميت إلا من إلى القبر يحمل

تختصمون : أي تحتكمون للقضاء .

مثوى : مقاما من ثوى بالمكان يثوى ثويّا وثواء : إذا أقام به ، والذي جاء بالصدق : هو الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، وصدق به هم أتباعه ، أسوأ الذي عملوا : أي ما عملوه من المعاصي قبل الإسلام ، ويجزيهم أجرهم : أي يثيبهم على الطاعات التي فعلوها في الدنيا .

بكاف عبده : أي يكفيه وعيد المشركين وكيدهم ، الذين من دونه : هم الأصنام :

ذى انتقام : أي مما عاداه وعادى رسوله .

الإسراف : تجاوز الحد في كل ما يفعله المرء ، وكثرة استعماله في إنفاق المال وتبذيره ، والمراد هنا الإفراط في المعاصي ، لا تقنطوا : أي لا تيأسوا ، والإنابة : الرجوع . والإسلام للّه :

لإخلاص له ، أحسن ما أنزل إليكم من ربكم : هو القرآن ، بغتة : أي فجأة ، يا حسرتا : أي يا حسرتى وندمى ، فرّطت : أي قصرت ، فى جنب اللّه : أي في عبادته وطاعته ، لمن الساخرين : أي المستهزئين ، كرة : أي رجعة .

وجوههم مسودة : أي ما يظهر عليها من آثار الذل والحشرة ، والمثوى : المقام ، والمفازة : الظفر بالبغية على أتمّ وجه .

وكيل : أي قيّم بالحفظ والحراسة فيتولى التصرف بحسب الحكمة والمصلحة ، مقاليد : أي مفاتيح لفظ فارسى معرّب ، واحده إقليد معرب ، إكليد جمع جمعا شاذا ، ليحبطن

عملك : أي ليذهبن هباء ولا يكون له أثر ، وما قدروا اللّه حق قدره : أي ما عظموه حق التعظيم على الوجه الذي يليق به ، والقبضة : المرة من القبض وتطلق على المقدار المقبوض ، بيمينه : أي بقدرته .

الصور : القرن ينفخ فيه ، صعق : أي غشى عليه ، ينظرون : أي ينتظرون ماذا يفعل بهم ؟ وأشرقت الشمس : أضاءت ، وشرقت : طلعت ، بنور ربها : أي عدله ، ووضع الكتاب : أي ووضعت صحائف الأعمال بأيدى العاملين ، بالحق : أي بالعدل ، ما عملت : أي جزاء ما عملت .

السوق : الحث على السير بعنف وإزعاج علامة على الاهانة والاحتقار ، والزمر :

(30/664)

الأفواج المتفرقة بعضها في إثر بعض ، والخزنة : واحدهم خازن نحو سدنة وسادن ، وينذرونكم : أي يخوّفونكم ، حقت : أي وجبت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 23 صـ 144 : حـ 24 صـ 35 ﴾ . باختصار .

(31/664)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الزمر

وهي مكية

قال وهب بن منبه من أحب أن يعرف قضاء الله جل وعز في خلقه فليقرأ سورة الغرف قال مجاهد عن ابن عباس هي مكية إلا ثلاث آيات منها فإنهن نزلن بالمدينة في وحشي قاتل حمزة صلوات الله على حمزة اسلم ودخل المدينة فكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يطيق أن ينظر إليه فتوهم أن الله جل وعز لم يقبل إيمانه فأنزل الله جل وعز

(قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) إلى آخر الثلاث الآيات 1 – من ذلك قوله جل وعز (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) (آية 1) يجوز ان يكون المعنى تنزيل الكتاب من عند الله

وأن يكون المعنى هذا تنزيل الكتاب 2 – ثم قال جل وعز (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين) (آية 2) أي بما حق في الكتب من إنزاله عليك ويجوز ان يكون المعنى ألزمك إياه بحقه عليك وعلى خلقه

وقيل المعنى يأمر بالعدل والحق 3 – ثم قال تعالى (فاعبد الله مخلصا له الدين) (آية 2) أي

لا تعبد معه غيره وحكى الفراء له الدين برفع الدين وهو خطأ من ثلاثة جهات: إحداها أن بعده (ألا لله الدين الخالص) فهو يغني عن هذا وأيضا فلم يقرأ به وأيضا فإنه يجعل مخلصا التمام والتمام عند رأس الآية أولى 4 - ثم قال جل وعز (ألا لله الدين الخالص) (آية 3) أي يعبد وحده لأن من الناس من له دين ولا يخلصه لله

جل وعز وروى معمر عن قتادة ألا لله الدين الخالص قال:

لا إله إلا الله 5 - ثم قال جل وعز (والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (آية 3) قال قتادة أي منزلة وقال الضحاك أي إلا ليشفعوا لنا قال أبو جعفر وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد (والذين اتخذوا من دونه أولياء قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى

(32/664)

الله زلفى) وفي حرف أبي (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) قال أبو جعفر والحكاية في هذا بينة 6 - وقوله جل وعز (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء) (ية 4) واتصال هذا بالأول يدل على أن هؤلاء ممن اتخذ من دون الله أولياء و و (اصطفى) اختار 6 - وقوله جل وعز (يكور الليل على النهار ويكور

النهار على الليل) (آية 5)

قال قتادة أي يلقي هذا على هذا وهذا على هذا قال أبو جعفر اصل التكوير في اللغة اللف والجمع

ومنه كور العمامة ومنه (إذا الشمس كورت) 7 – وقوله جل وعز (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) (آية 6) (ثم) ههنا تدل على أن الإخبار الثاني بعد الأول وقال قتادة (ثم جعل منها زوجها) حواء خلقها من ضلع من أضلاعه وقيل يكون خلقه الزوج مردودا على واحد أي على نفس

وحدها ثم جعل منها زوجها 8 – ثم قال جل وعز (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) (آية 6) أي أصناف قال مجاهد من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضان اثنين ومن المعز اثنين قال قتادة هي مثل التي في الأنعام 9 – ثم قال جل وعز (يخلقكم في بطون أمها تكم خلقا من بعد خلق) (آية 6) قال مجاهد والضحاك نطفة ثم علقة ثم مضغة حتى يتم الخلق

ثم قال تعالى (في ظلمات ثلاث) (آية 6) قال مجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك في ظلمة الرحم وفي ظلمة المشيمة وفي ظلمة البطن وقيل في الصلب ثم في الرحم ثم في البطن وهذا مذهب أبى عبيدة والأول اصح 10 – وقوله جل وعز (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم) (آية 7) أي يرضى الشكر لكم ودل تشكروا

على الشكر 11 - وقوله جل وعز (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه) (آية 8)

روى سعيد عن قتادة قال مخلصا

(33/664)

قال أبو جعفر يقال أناب إذا رجع وتاب 12 - وقوله جل وعز (ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل) (آية 8) أي أعطاه وأباحه وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد :

هنالك إن يستخولوا المال يخولوا * وإن يسالوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا ثم قال (نسي ما كان يدعو إليه من قبل) (آية 8) أي نسي الذي كان يدعو الله جل وعز به من قبل ويجوز أن يكون المعنى نسي الله الذي كان يدعوه كما

قال تعالى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) وفي قوله تعالى (قل تمتع بكفرك قليلا) معنى التهديد 13 - وقوله جل وعز (وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله)

(آية 8) قال السدي الأنداد من الرجال يطيعهم في المعاصي وقيل عبد الأوثان وهذا أولى بالصواب لأن ذلك في سياق عتاب الله عز وجل إياهم على عبادتها 14 - وقوله جل وعز (أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما) (آية 9)

أي مصل والقنوت الطاعة قال الحسن وقتادة (آناء الليل) ساعاته أوله واوسطه وآخره قال

أبو جعفر قال الأخفش قراءة من قرأ (أمن هو) ؟ بالتخفيف ضعيفة في العربية لأن الف الاستفهام لا يعتمد على ما قبلها قال أبو جعفر الذي قاله الأخفش حسن يدل عليه ان الذي في سورة النمل لم يقرأ إلا مثقلا ومعنى كلامه أن الكلام معتمد على ما قبله ليس له خبر وإنما دل عليه ما قبله لأنه قال جل وعز (وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله)

فحذف الخبر لأن المعنى أمن هو مطيع كهذا أو أمن هو مطيع أفضل أم هذا وهذا موضع أم التي بمعنى بل كما قال:

أفتلك أم وحشية مسبوعة * خذلت وهادية الصوار قوامها وقوله: أذلك أم جاب يطارد آتنا * حملن فأدنى حملهن دروص ومن قرأ بالتخفيف فالخبر أيضا عنده محذوف وهو شئ غامض في العربية لا يأنس به إلا من درب بها كما قال: فأقسم لو شئ أتانا رسوله * سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

(34/664)

أي لدفعناه فعلى هذا يقع الحذف وقيل هو نداء أي يا من هو قائم آناء الليل 15 - وقوله جل وعز (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) (آية 9) قرأ سعيد بن جبير (يحذر عذاب الآخرة) والمعنى واحد 16 - وقوله جل وعز (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا

يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) (آية 9) أي كما لا يستوي العالم والجاهل كذا لا يستوي المطيع والعاصي وقيل (الذين يعلمون) ما لهم في الطاعة وما عليهم في المعصية

ثم قال (إنما يتذكر أولو الألباب) أي العقول ولب كل شئ خالصه 17 - وقوله جل وعز (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض

الله واسعة) (آية 10) قيل الحسنة الجنة وقيل المعنى لهم حسنة في الدنيا أي ثناء حسن وطمأنينة بما لهم وقوله جل وعز (وأرض الله واسعة) (آية 10) قال مجاهد أي فهاجروا واعتزلوا الأوثان

18 - وقوله جل وعز (فاعبدوا ما شئتم من دونه) (آية 15) على الوعيد وهذا قبل الأمر بالقتال 19 - ثم قال جل وعز (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) (آية 15) أي خسروا أنفسهم بالتخليد في النار وأهليهم بأنهم لم يدخلوا الجنة فيكون لهم أهلون وروى معمر عن قتادة قال ليس أحد إلا وقد أعد الله له أهلا في الجنة إن اطاعه 20 - وقوله جل وعز (ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون) (آية 16) أي ذلك الذي وصف من العذاب 21 - وقوله جل وعز (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها) (آية 17)

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال الطاغوت

الشياطين قال أبو جعفر وقد بينا هذا في سورة البقرة 22 - وقوله جل وعز (فبشر عبادي

الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) (آية 18) في معنى هذا قولان: القول الأول قال الضحاك (يستمعون القول) القرآن و (أحسنه) ما أمر الله جل وعز به الأنبياء من طاعته فيتبعونه

(35/664)

والقول الآخر: أنهم يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن قال أبو جعفر القول الأول حسن والمعنى أنهم إذا سمعوا بالعقوبة والعفو عفوا ورأوا أن العفو افضل وغن كانت العقوبة لهم

23 - وقوله جل وعز (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار) (آية 19)

يقال كيف جئ باستفهامين وقد أجمع أهل العربية انه لا يجوز استفهامان في اسم وخبره ؟

ففي هذا جوابان: أحدهما ان العرب إذا طال الكلام كررت توكيدا وكذلك قال سيبويه في قول الله جل وعز (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) ؟ المعنى على هذا افمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت

تنقذه ؟ والكلام شرط وجوابه وجئ بالاستفهام ليدل على التوقيف والتقرير

قال الفراء المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب ؟ قال أبو جعفر وهذا والأول واحد والجواب الآخر أن في الكلام حذفا والمعنى افمن حق عليه كلمة العذاب يتخلص أو

ينجو ؟ ثم حذف الجواب وكان ما بعده مستأنفا والمعنى افمن سبق في علم الله جل وعز انه يدخل النار ينجو أو يتخلص ؟ 24 - وقوله جل وعز (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض) (آية 21) يروى ان كل ماء في الأرض فاصله من السماء وقد يجوز ان يكون إنزاله إياه خلقه له وتكوينه بأمره وقوله تعالى (فسلكه) أي فادخله فجعله ينابيع جمع ينبوع يفعول من نبع ينبع (ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه) أي أخضر وأسود وأصفر وأبيض

(ثم يهيج فتراه مصفرا) أي يجف قال الأصمعي يقال للنبت إذا تم جفافه قد هاج يهيج هيجا (ثم يجعله حطاما) أي رفاتا 25 - ثم قال تعالى (إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب) (آية 21)

(36/664)

أي يفكرون فيذكرون ان هذا دال على توحيد الله جل وعز وقدرته 26 - وقوله جل وعز (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) (آية 22) في الكلام حذف والمعنى افمن شرح الله صدره فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد ؟ وفي الحديث قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينشرح القلب ؟ قال نعم إذا أدخل الله فيه

النور انشرح وانفسح قالوا فهل لذلك من علامة قال نعم ! ! التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود

والإعداد للموت قبل لقاء الموت 27 – ثم قال جل وعز (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين) (آية 22)

قيل معنى من وعن ههنا واحد قال أبو جعفر وليس هذا بشئ فمعنى (من) إذا تليت عليهم آياته قسوا كما قال تعالى (واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) وإذا قال عن فمعناه قست قلوبهم وجفت عن قبول ذكر الله

28 – وقوله جل وعز (والله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها) (آية 23) روى الشعبي عن عون بن عبد الله قال قالوا يا رسول الله حدثنا فنزلت (الله نزل أحسن الحديث) قال قتادة (متشابها) أي لا يختلف قال أبو جعفر والمعنى انه يشبه يكون بعضه بعضا في الحكمة والحق كما قال جل وعز ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا 29 – ثم قال جل وعز (مثاني) (آية 23)

قال قتادة (مثاني) ثناه الله عز وجل قال أبو جعفر والمعنى ما تثنى فيه القصص والثواب والعقاب وقيل المثاني كل سورة فيها اقل من مائة آية أي تثنى في الصلاة

30 – ثم قال جل وعز (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى

ذكر الله) (آية 23) أي تقشعر من الآيات التي يذكر فيها العذاب ثم تلين إلى الآيات التي تذكر فيها الرحمة

(37/664)

---

31 - وقوله جل وعز (أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) (آية 24) في الكلام حذف والمعنى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة ؟ قال مجاهد يخر على وجهه في العذاب يوم القيامة قال أبو جعفر ويروى أنه يلقى في النار مغلولا فلا يقدر ان يتقي النار إلا بوجهه 32 - وقوله جل وعز (قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) (آية 28) قال مجاهد أي غير ذي لبس قال أبو جعفر المعنى أنه مستقيم لا يخالف بعضه

بعضا لأن الشئ المعوج مختلف وقد روي عن ابن عباس (غير ذي عوج) غير مخلوق 33 - وقوله جل وعز (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء

متشاكسون) (آية 29) قال قتادة هو الكافر والشركاء هم الشياطين قال (ورجلا سلما) هو المؤمن يعمل لله وحده قال مجاهد والضحاك هذا مثل للحق والباطل والشركاء هم الأوثان

قال الفراء (متشاكسون) مختلفون قال أبو جعفر من قرأ (رجلا سالما) أخرجه على الفعل

ومن قرأ سلما جعله مصدرا فمعناه ذا سلم 34 - وقوله جل وعز (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) (آية 31) أي يخاصم المظلوم الظالم والمؤمن الكافر قال ابن عمر ما كنا ندري فيم نختصم حتى وقعت الفتنة فقلنا هو ذا وفي الحديث أن الزبير قال يا رسول الله اتختصم يوم القيامة بعد ما كان بيننا قال نعم حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه قال إن الأمر إذا لشديد

35 - وقوله جل وعز (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) (آية 33) حدثنا بكر بن سهل قال حدثنا أبو صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (والذي جاء

بالصدق) يقول جاء ب لا إله إلا الله (وصدق به) يعني برسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك هم المتقون يقول اتقوا الشرك وروى ابن عيينة عن منصور قال قلت لمجاهد يا أبا الحجاج ما معنى قوله تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به) (آية 33) قال الذي جاء بالقرآن وصدق به

(38/664)

قال أبو جعفر وهذا يشبه القول الأول وهو قول أكثر أهل اللغة ويدل على صحته أن عبد الله بن مسعود قرأ (والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به أولئك هم المتقون) ف (الذي) ههنا و (الذين) واحد وقال الحسن هو المؤمن جاء بالصدق يوم القيامة وصدق به في الدنيا وبعض أهل اللغة يقول حذف من (الذين) النون لطول الاسم وبعضهم يقول (الذي) بمعنى (الذين)

وبعضهم يقول (الذي) واحد يؤدي عن معنى الجماعة قال أبو جعفر وهذا القول أصحها يكون (الذي) مثل من لأنه لا يقصد قصده وحقيقته ان المعنى والقبيل الذي جاء بالصدق وصدق به

وقد قيل في الآية غير هذا قال قتادة وأبو العالية الذي جاء بالصدق النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه وقيل النبي صلى الله عليه وسلم وعلي عليه السلام حدثنا علي بن سعيد قال حدثنا الحسين بن نصر حدثني أبي قال حدثنا عمر بن سعيد عن ليث عن مجاهد (والذي جاء بالصدق) محمد صلى الله عليه وسلم وصدق به علي بن أبي طالب عليه السلام ونظير الذي جاء بالصدق في أنه واحد يؤدي عن جماعة قوله: وإن الذي حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كل القوم يا أم خالد وحذف النون وقوله: أبني كليب إن عمي اللذا * قتلا الملوك وفككا الأغلالا 36 – وقوله عز وجل (اليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه) (آية 36) هذا يدل على النصر وأكثر الكوفيين يقرأ

(بكاف)

عباده) والتوحيد أحسن لأنه يروى أنه يراد به النبي صلى الله عليه وسلم ويدل عليه

(ويخوفونك بالذين من دونه) روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال الأوثان قال قتادة أخذها

خالد بن الوليد فأسا فجاء إلى

العزى ليكسرها فقال له قيمها إن سبلها لا يطاق فخف منها فجاء حتى كسر أنفها ويروى

أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم لئن لم تنته عن سبها لنأمرنها فلتخبلنك

(39/664)

قال مجاهد نزلت هذه الآية حين قرأ النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم عند باب

الكعبة 37 - وقوله جل وعز (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون)

(آية 39) قال مجاهد (على مكانتكم) أي على ناحيتكم قال أبو جعفر وهذا قول صحيح

والمعنى على ناحيتكم التي اخترتموها وتمكنت عندكم (إني عامل) المعنى إني عامل على

ناحيتي ثم حذف 38 - وقوله جل وعز (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في

منامها) (آية 42) روى جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير قال تجمع أرواح الأحياء

وأرواح الأموات فتعارف بينهما ما شاء الله فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل

الأخرى إلى أجسادها

قال الفراء المعنى (والتي لم تمت في منامها) عند انقضاء أجلها قال وقد يكون توفاها نومها

قال أبو جعفر وقيل المعنى الله يتوفى الأنفس حين

موتها بإزالة أنفسها وتمييزها ثم أضمر للثاني فعل لأنه مخالف للأول فالمعنى ويتوفى التي لم تمت في منامها بإزالة تمييزها فقط لأن النائم يتنفس قال أبو جعفر أحسن ما قيل في هذا أن المعنى (يتوفى) و (يستوفي) واحد إذا انقضى الشئ كما يقال تبينت

واستبنت سعيد وتيقن واستيقن فالميت والنائم في هذا واحد ويدل عليه قوله (فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) 39 - وقوله جل وعز (أم اتخذوا من دونه شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شئا ولا يعقلون) (آية 43) قال قتادة قالوا إنما عبدناها بكر حتى تشفع لنا ثم قال جل وعز (أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون) (آية 43) قال سيبويه هذا باب الواو إذا دخلت عليها ألف الاستفهام وذلك قولك افلان قد عند فلان فيقول أهو ممن يكون عند فلان ؟ قال أبو العباس هذا على الاسترشاد أو على الإنكار وما جاء منه في القرآن فمعناه الإنكار والتقرير ووقوع الشئ

(40/664)

40 – ثم قال جل وعز (قل لله الشفاعة جميعا) (آية 44) كما قال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) 41 – وقوله جل وعز (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) (آية 45) روى معمر عن قتادة قال (اشمأزت) استكبرت وكفرت وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال انقبضت قال أبو جعفر يقال اشمأز من كذا إذا نفر منه ويروى أنهم كانو إذا سمعوا من يقول لا إله إلا الله وحده نفروا وقالوا لم تذكر آلهتنا

42 – وقوله جل وعز (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) (آية 47) يروى أنهم عملوا أعمالا توهموا أنها تنفعهم فلم تنفعهم لأنهم كانوا مشركين 43 – وقوله جل وعز (فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا) (آية 49) قال مجاهد (خولناه) أعطيناه قال أبو جعفر يقال خولته كذا أي أعطيته إياه تفضلا من غير جزاء 44 – وقوله جل وعز (قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون) (آية 49) قال مجاهد (إنما أوتيته على علم) أي على شرف وقال قتادة أي على خير عندي

قال أبو جعفر المعنى إن لي علما بالكسب إما بتجارة أو غيرها فقد علمت إني أوتي هذا ومن أحسن ما قيل فيه أن المعنى قد علمت إذا أوتيت هذا في الدنيا ان لي عند الله منزلة فرد الله جل وعز ذا عليه فقال (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون) الآية فعرف الله جل وعز انه ليس يعطي المال كل من له منزلة 45 – ثم قال جل وعز (بل هي فتنة) (آية 49) أي بل العطية فتنة يمتحن بها العبد ليظهر منه أيشكر أم يكفر ؟

46 - وقوله جل وعز (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) (آية 53) روى مجاهد عن ابن عباس قال نزلت في وحشي قاتل حمزة على حمزة السلام إلى تمام ثلاث آيات وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يطيق أن ينظر إليه فظن أن الله جل وعز لم يقبل منه إسلامه فنزلت هذه الايات الثلاث وروى إبراهيم التيمي عن ابن عباس أنه كان يقرأ (قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء) وقال نزلت في قاتل حمزة وذويه كذا قال

قال أبو جعفر وكذلك يروى أنه في مصحف ابن مسعود ومعنى (لا تقنطوا) لا تيأسوا قال قتادة (وأنيبوا إلى ربكم) أي أقبلوا واعملوا له 47 - وقوله جل وعز (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة) (آية 55) وكله حسن ففي هذا أقوال: أ - منها أن الله جل وعز قد أباح الانتصار بعد الظلم والعفو والعفو أحسن ب - ومنها أن الله جل وعز قد أخبر عن قوم أنهم أطاعوا وعن قوم أنهم عصوا فأمر أن نتبع الطاعة ج - ومنها أنه الناسخ د - ومنها أن يكون المعنى الحسن مما أنزل إليكم و(بغتة) فجأة 48 - وقوله جل وعز (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب

الله) (آية 56) المعنى افعلوا هذا خوف أن تقول نفس وكراهة أن تقول نفس يا حسرتا والحسرة الندامة أي يلحق الإنسان ما يصير معه حسيرا أي معيبا وحرف النداء يدل على أنه شئ لازم أي يا حسرة هذا وقتك وهذا مذهب سيبويه قال مجاهد (في جنب الله) أي في أمر الله

قال أبو جعفر المعنى في جنب أمر الله على التمثيل

(42/664)

أي على الطريق الذي يؤدي إلى الحق وهو الإيمان 49 - وقوله جل وعز (بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) (آية 59) (بلى) في كلام العرب إنما يقع بعد النفي وليس في الكلام نفي ، ولكن فيه معناه ، لأن معنى (لو أن الله هداني) ما هداني الله وروى الربيع بن أنس عن أم سلمة ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين وقراءة الأعمش بلى قد جاءته آياتي وهذا يدل على التذكير

والربيع بن أنس لم يلحق أم سلمة إلا أن القراءة جائزة لأن النفس تقع للمذكر والمؤنث وقد أنكر هذه القراءة بعضهم وقال يجب إذا كسر التاء أن يقول وكنت من الكوافر أو من

الكافرات قال أبو جعفر وهذا لا يلزم ألا ترى ان قبله أن تقول نفس ثم قال وإن كنت لمن الساخرين ولم يقل من السواخر ولا من الساخرات والتقدير في العربية على كسر التاء واستكبرت وكنت من

الجميع الساخرين أو من الناس الساخرين أو من القوم الساخرين وقوم يقع للرجال والنساء إذا اجتمعوا وللرجال مفردين كما قال الشاعر: وما أدري وسوف إخال أدري * أقوم آل حصن أم نساء

50 - وقوله جل وعز (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم) (آية 61) أي بنجائهم وفي من النار ويقرأ (بمفازاتهم) والتوحيد أجود لأن مفازة بمعنى الفوز 51 - وقوله جل وعز (له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) (آية 63) روى سعيد عن قتادة قال مقاليد أي مفاتيح قال أبو جعفر ومعنى له مفاتح السموات والأرض هو خالق ما فيهما ومفتاح بابه بيده عز وجل ثم قال (والذين كفروا

بآيات الله أولئك هم الخاسرون) أي من زعم أن غيره خلق شيئًا من هذا فقد خسر وكفر 52 - ثم أخبر أنه ينبغي أن يعبد وحده فقال بعد البراهين (قل أفغير الله تأمروني أعبد ايها الجاهلون) ؟ (آية 64) أي افغير الله أعبد في أمركم ؟ هذا قول سيبويه

53 – وقوله جل وعز (وما قدروا الله حق قدره) (آية 67) قال أبو جعفر أبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى وما عرفوا الله حق معرفته وفي معناه قول آخر وهو أن يكون التقدير وما قدروا نعم

الله ثم حذف كما قال سبحانه (واسأل القرية) 54 – ثم قال جل وعز (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) (آية 67) قال الضحاك هذا كله في يمينه قال أبو جعفر معنى والأرض جميعا قبضته يوم القيامة أي يملكها كما تقول هذا في قبضتي قال محمد بن يزيد معنى بيمينه بقوته وأنشد : إذا ما راية رفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمين أي بالقوة

55 – وقوله جل وعز (ونفخ في الصور) (آية 68) في معناه قولان: أحدهما أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه سئل عن الصور فقال هو قرن ينفخ فيه وروى معمر عن قتادة في قوله ونفخ في الصور قال في صور الناس أجمعين قال أبو جعفر هذا ليس بمعروف والمستعمل في جمع صورة

صور ولم يقرأ أحد ونفخ في الصور 56 – ثم قال تعالى (فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) (آية 68)

روى سعيد عن قتادة (فصعق) فمات وروى عاصم عن عيسى المدني قال سمعت علي

بن حسين يسال كعب الأحبار عن قوله تعالى فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فقال كعب: جبرائيل وميكائيل واسرافيل ملك الموت وحملة العرش ثم يميتهم الله بعد وروى محمد بن إسحاق عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم في وقوله تعالى فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله قال جبرائيل وميكائيل

وحملة العرش وملك الموت وإسرافيل وفي هذا الحديث أن آخرهم موتا جبرائيل صلى الله عليه وسلم وقال سعيد بن جبير إلا من شاء الله هم الشهداء متقلدي السيوف عند العرش قال أبو جعفر وهذا ليس بناقض للأول وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (ينفخ في الصور فأكون أول من قام فإذا موسى صلى الله عليه وسلم فلا أدري اقام قبلي أم هو ممن استثنى الله)

(44/664)

---

57 - وقوله جل وعز (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) (آية 68) روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن بين النفختين أربعين

قال الحسن لا أدري اهي أربعون سنة أم أربعون شهرا أم أربعون ليلة أم أربعون ساعة ؟

58 – وقوله جل وعز (وأشرقت الأرض بنور ربها) (آية 69) يبين هذا الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم من طرق كثيرة صحاح تنظرون إلى الله جل وعز لا تضامون في رؤيته وهو يروى على أربعة أوجه لا تضامون ولا تضارون ولا تضارون ولا تضامون فمعنى تضامون لا يلحقكم ضيم كما يلحق في الدنيا في النظر إلى الملوك ولا تضارون لا يلحقكم ضير ولا تضامون لا ينضم بعضكم إلى بعض ليساله ان يريه

ولا تضارون لا يخالف بعضكم بعضا يقال ضاررته مضارة وضرارا أي خالفته 59 – وقوله جل وعز (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت ابوابها) (آية 73)

الكوفيون يذهبون إلى ان الواو زائدة وهذا خطأ عند البصريين لأن الواو تفيد معنى العطف ولا يجوز أن تزاد

قال محمد بن يزيد المعنى حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها سعدوا 60 – وقوله جل وعز (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين (آية 73) قال أبو إسحاق المعنى طبتم فادخلوها خالدين دخلوا وحذف هذا لعلم السامع وقيل معنى طبتم طبتم في الدنيا وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال يغتسلون من نهر في الجنة ويشربون منه فلا يبقى في أجوافهم خبث ولا غل إلا خرج

61 – وقوله جل وعز (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض) (آية 74)

قال قتادة يعني أرض الجنة 62 - وقوله جل وعز (وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) (آية 75) فختم بالحمد كما بدأ به انتهت سورة الزمر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 6 صـ 147.198 ﴾

(45/664)

وقال الفراء :

سورة (الزمر)

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ . . . ﴾

ترفع ﴿ تنزيل ﴾ بإضمار: هذا تنزيل ، كما قال: ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا ﴾ ومعناه: هذه سورة أنزلناها وإن شئتَ جَعَلت رَفعه بمن . والمعنى: من الله تنزيل الكتاب ولو نصبته وأنت تأمر باتباعه ولزومه كان صَوَاباً ؛ كما قال الله ﴿ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أى الزمُوا كتابَ الله .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ﴾

وقوله: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ . . . ﴾

منصوب بوقوع الإخلاص عَليه . وكذلك مَا أشبهه فى القرآن مثل ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدينَ ﴾

ينصب كما فى هَذَا . ولو رفعت (الدين) بِلَهُ ، وجعَلت الإخلاص مُكتفِياً غير واقعٍ ؛ كأنك قلت: اعبد الله مُطيعاً فَلَه الدين .

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ . . . ﴾

(الذين) فى موضع رفع بِقول مضمر . والمعْنى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يقولون لأوليائهم وهى الأصْنام: ما نعبدكم إلاّ لتقرّبونا إلى الله . وكذلك هى فى (حَرف) أُبىّ وهى حرف عبدالله (قالُوا ما نعبدهم) والحكاية إذا كانت بالقول مضمراً أو ظاهراً جاز أن يجعَل الغائب كالمخاطَب ، وأن تتركه كالغائب ، كقوله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَيُغْلَبُونَ ﴾ و ﴿ سَتُغْلَبُونَ ﴾ بالياء والتاء عَلَى ما وصفتُ لكَ .

(46/664)

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾

وقوله: ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . . ﴾

يقول القائل: كيف قال: ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ لبنى آدم. ثم قال: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ والزوج مخلوق قبل الوَلد ؟ ففى ذلكَ وجهان من العربيّة:

أحدهما: أن العرب إذا أخبرت عن رَجل بفعلين رَدّوا الآخر بثُمَّ إذا كان هو الآخر فى المعْنى. وربّما جَعَلوا (ثُمَّ) فيما معناه التقديم ويَجْعَلون (ثم) من خبر المتكلّم. من ذلكَ أن تقول: قد بلغنى ما صنعت يَومك هذا، ثمّ ما صَنعت أمس أعجبُ. فهذا نَسَق من خبر المتكلّم. وتَقول: قد أعطيتكَ اليوم شيئاً، ثم الذى أعطيتك أمس أكثر، فهذا من ذلكَ.

وَالوجه الآخر: أن تجعل خَلْقَه الزوج مردوداً على (وَاحدة) كأنه قال: خلقكم من نفسٍ وَحدها، ثمّ جَعَل منها زوجهَا. ففى (وَاحدةٍ) مَعْنى خَلْقها وَاحدة.

قال: أنشدنى بعض العرب:

أعددتَه للخَصْم ذى التعدّى * كوّحتَه منك بُدون الجَهْد

ومعناه الذى إذا تعدى كوَّحتَه، وكوَّحَته: غلبته.

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ . . . ﴾

يقول: يرضى الشكر لكم. وهذا مِثْل قوله: ﴿ فأخْشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إيماناً ﴾ أى فزادهم قولُ الناس، فإن قال قائل: كيف قال ﴿ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ وقد كفروا؟ قلتُ: إنه لا يرضى أن يكفرو. فمعنى الكفر: أن يكفروا. وليسَ معناه الكفر بعينه. ومثله ممّا يبيّنه لك أن تقول: لست أحبّ الإساءة، وإنى لأحب أن يسىء فلان فيُعذَّب فهذا ممّا يبيّن لك مَعناه.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾

وقوله: ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ . . . ﴾

يقول: ترك الذى كان يدعوه إذا مسَّه، الضر يريد الله تعالى. فإن قلت: فهلاّ قيل: نسىَ من كانَ يدعُو؟ قلت: إن (ما) قد تكون فى موضع (مَن) قال الله ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلاَ أَنْتُم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ يعنى الله. وقال ﴿ فانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاء ﴾ فهذا وجه. وبه جاء التفسير، ومثله ﴿ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىّ ﴾ وقد تكون ﴿ نسىَ ما كان يدعُو إليْه ﴾ يراد: نسىَ دعاءه إلى الله من قبل. فإن شئتَ

جعلت الهَاء التى فى (إليه) لِما وإن شئت جَعَلتَها لله وكلّ مستقيم .

وقوله ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ ا فهذا تهدُّد وليس بَأمر محض . وكذلك قوله: ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وَمَا أشبهه .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾

(48/664)

وقوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ اللَّيْلِ . . . ﴾

قرأها يحيى بن وَثّاب بالتخفيف . وذُكر ذلك عن نافع وحمزة وفسّروهَا يريد : يا من هو قانت . وهو وجه حسَن ، العرب تدعو بألف ، كما يدعون بيَا . فيقولون: يا زيدُ أقبل ، وأَزيدُ أقبل . قال الشاعر:

أبنى لُبَيْنَى لستم بيدٍ * إلاّ يدٍ ليسَت لها عَضُد

وقال الآخر:

أضمر بن ضمرةَ ماذا ذَكَرْ * تَ مِن صِرْمة أُخذت بالمُرارِ

وهو كثير فى الشعر فيكون المعنى مردوداً بالدعَاء كالمنسُوق ، لأنه ذكر الناسىَ الكافر ،

ثم قَصّ قصة الصالح بالنداء ، كما تقول فى الكلام: فلان لا يصَلّى ولا يَصُوم فيا من يصَلّى ويصوم أبشر فهذا هو مَعناه . والله أعْلَم .

وقد تكون الأِلف استفهاماً بتأويل أم لأن العرب قد تضع (أمْ) فى موضع الأِلف إذا سَبَقها كلام ، قد وصفت منْ ذلك ما يُكتفى به . فيكون المعْنى أمَن هو قانت (خفيف) كالأوّل الذى ذُكر بالنسيان والكفر .

ومن قرأها بالتشديد فإنه يريد معنى الأِلف . وهوالوجه: أن تجعَل أم إذا كانت مردودة عَلَى مَعْنىً قد سَبَق قلتها بأم . وقد قرأ بها الحسن وعاصم وأبو جعفر المدنىّ . يريدون: أَمْ مَن . والعرب تقول: كان هَذَا حين قلت: أأخوك أم الذئب . تقال هذه الكلمة بعد المغرب إذا رأيت الشخص فلم تَدْر ما هو . ومنه قولك: أَفَتِلك أم وَحْشِيّة ، وقولك أذِلك أم جَأْب يطارد أُتُنا .

فإن قال قائِل فأين جواب (أمّن هُوَ) فقد تبيَّن فى الكلام أنه مضمر ، وقد جرى معناه فى أوّل الكلمة ، إذ ذكر الضالّ ثم ذكر المهتدى بالاستفهام فهو دليل على أنه يريد : أهذا مثل هذا أو أهذا أفضل أم هذا . ومن لم يعْرف مذاهب العرب ويتبيَّن له المعْنى فى هذا وشبهِه لم يكتفِ ولم يشتف ؛ ألا ترى قول الشاعر:

فأقسم لو شَىْءٌ أتانا رَسُوله * سواكَ ولكن لم نجد لك مَدْفعَا

أنّ معناه: لو أتانا رسولُ غيرِك لدفعْنَاهُ ، فعلم المعنى ولم يُظهر . وجرى قوله: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإِسْلاَمِ ﴾ عَلَى مثل هذا .

وقوله ﴿ آنَآءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً ﴾ نُصِب على قوله: يقنت سَاجداً مرّةً وقائماً مَرّةً ، أى مطيع فى الحالين . ولو رُفع كما رُفعَ القانت كان صَواباً . والقنوت: الطاعة .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾

وقوله: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ . . . ﴾ .

يقال: كيفَ اجتمع اسْتفهامان فى مَعْنىً واحدٍ ؟ يقال: هذا ممّا يراد به استفهامٌ واحدٌ ؛ فيسبِق الاستفهام إلى غير موضعه يُردّ الاستفهام إلى موضعه الذى هو له . وإنّما المعنى – والله أعْلم –: أفأنت تُنقذ من حَقّت عَليه كلمة العذاب . ومثله من غير الاستفهام قوله: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُون ﴾ فردّ ﴿ أنكم ﴾ مَرّتين ، والمعْنى – والله أعْلم –: أيعِدكُم أنّكم مخرَجون إذا متّم وكنتم تراباً . ومثله قوله: ﴿ لاَ تَحْسَبَنّ الذِين يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنّهُمْ ﴾ فرَدّ (تحسبَنّ) مرّتين ؛ ومعناهما – والله أعْلم – لا تَحسَبَنّ الذينَ يفرحُون بمَا أَتَوْا بمفازة من العَذاب . ومثله كثير فى التنزيل وغَيره من كلام العرب .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ

أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ . . . ﴾

(50/664)

و ﴿ عن ذكر الله ﴾ كلّ صَواب . تقول: اتّخمتُ منْ طعَامٍ أكلته وعن طَعَام أكلته ، سَوَاءً فى المعْنى . وكأنّ قوله: قسَت مِنْ ذكره أنهم جعَلوه كذِباً فأقسى قلوبهم: زادهَا قَسْوَة .

وكأن مَن قال: قست عنه يريد : أعرضت عنه .

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

وقوله: ﴿ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا . . . ﴾

أى غير مختلف لا ينقض بعضه بعضاً .

وقوله ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ أى مكرّراً يكرّر فيه ذكر الثواب والعقاب .

وقوله: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ : تقشعرّ خوفاً من آية العذاب إذا نزلت ﴿ ثُمَّ تَلِينُ ﴾ عند نزل آية رَحمة .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

وقوله: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . . ﴾ .

يقال: إن الكافر تنطلق به الخَزَنَة إلى النار مغلولاً ، فيُقذَف به فى النارِ ، فلا يتّقيها إلاّ بوجهه وَجَوابه من المضمر الذى ذكرتُ لك .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ . . . ﴾

مختلفون . هَذَا مَثَل ضربه الله للكافر والمؤمن . فجعلَ الذى فيه شركاء الذى يَعبد الآلهةَ المختلفة .

(51/664)

وقوله ﴿ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ ﴾ هو المؤمن الموحّد . وقد قرأ العوامّ (سَلَماً) وسَلَمٌ وَسالم متقاربان فى المعْنى ، وكأنّ (سلما) مصدر لقولكَ: سَلِم لهُ سَلَماً والعرب تقولُ: رَبِحَ رِبْحاً ورَبَحاً ، وسَلِمَ سِلماً وسَلَماً وسلامة . فسالم من صفة الرّجل ، وسَلَمَ مصدرٌ لذلك . والله أعلم .

حدّثنا أبو العبّاس قال: حدّثنا محمد ، قال: حدثنا الفراء قال: حدّثنى أبو إسْحَاق التيمىّ -وليسَ بصاحب هُشيم - عن أبى رَوْق عن ابراهيم التيمىّ عن ابن عباس أنه قرأ (ورَجُلاً سَالماً) قال الفراء: وحدثنى ابن عُيَيْنَةَ عن عبد الكريم الجزرى عن مجاهد أنه قرأ (سالماً) .

وقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً . . . ﴾ ولم يقل مثلَين ، لأنهما جميعاً ضُرِبا مثلا واحداً ، فجرى المَثَل فيهما بالتوحيد ومثله ﴿ وجَعَلْنَا ابنَ مَرْيَمَ وَأُمّهُ آيَةً ﴾ ولم يقل: آيتين ؛ لأن شأنهما وَاحد . ولو قيل مَثَلين أو آيتين كانَ صَوابَا ؛ لأنهما اثنانِ فى اللفظ .

﴿ وَالَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

قوله: ﴿ وَالَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ . . . ﴾

(الذى) غير موقَّت ، فكأنه فى مذهب جماعٍ فى المعنى . وفى قراءة عبد الله (والذين جاءوا بالصّدق وصَدّقوا به) فهذا دَليل أنَّ (الذى) فى تأويل جَمْعٍ .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

وقوله: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ . . . ﴾

قرأها يحيى بن وثّاب وأبو جعفر المدنى (أليس الله بكافٍ عباده) على الجمع . وقرأها لناس ﴿ عَبْدَهُ ﴾ وذلك أن قريشاً قالت للنبىّ صلى الله عليْه وسلم: أما تخاف أن تَخْبلَكَ آلهتُنا لعيبكَ إيّاها ! فأنزل الله ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ محمّدا صَلى الله عليه وسلم ، فكيفَ يخوّفونكَ بمن دونه . والذين قالوا ﴿ عِبَادَهُ ﴾ قالوا : قد هَمَّت أمم الأنبياء بهم ، ووعَدُوهم مِثلَ هذا ، فقالوا لشعيب ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ فقال الله ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عِبَادَهُ ﴾ أى محمداً عَلَيْه السلام والأنبيَاء قبله . وكلّ صواب .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ . . . ﴾

﴿ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ . . . ﴾ نوّن فيهمَا عَاصم والحسن وشَيْبَة المدنىّ . وَأضَاف يحيى بن وثّاب . وكلّ صوَاب . ومثله ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ و ﴿ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ و ﴿ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ و ﴿ مُوهِنُ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴾ وللإضافة مَعْنى مضّى مِنَ الفعل . فإذا رأيتَ الفعْل قد مَضَى فى المعْنى فآثر الإضافة فيه ، تقول أخوك أَخَذ حقه ، فتقول هَا هُنَا : أخوكَ آخذُ حَقِّه . ويقبح أن تقول: آخذٌ حقَّه . فإذا كان مستقبلاً لم يقع بعدُ قلت: أخوك آخِذٌ

حقَّه عن قليل ، وآخذُ حقِّه عن قليل: ألا ترى أنك لا تقول: هذا قاتلٌ حمزة مُبغَّضاً ، لأن معناه مَاضٍ فقبح التنوين ؛ لأنه اسم .

(53/664)

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا . . . ﴾

وَالمعنى فيه يتوفّى الأنفس حينَ موتها ، ويتوفّى التى لم تمت فى منامها عند انقضاء أجلها .

ويقال: إن توفِيهَا نومُها . وهو أحبّ الوجهين إلىَّ لقوله ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ .

ولقوله: ﴿ وَهُوَ الذِى يَتَوَفَّاكُمْ بالليلِ ﴾ وتقرأ ﴿ قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ ﴿ وقُضِى عَليها الموتُ ﴾ .

﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ . . . ﴾

خرجَت (هى) بالتأنيث لتأنيث الفتنة . ولو قيل: بل هو فتنة لكان صَوَاباً ؛ كما قَالَ ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى ﴾ ومثله كثير فى القرآن . وكذلك قوله: ﴿ قَدْ قَالَهَا الذينَ منْ قَبْلِهم ﴾ أنثت إرادة الكلمة ولو قيل: قد قَاله الذين منْ قبلهم كان صَوَابا . ومثله فى الكلام أن تقول: قد فعَلتَهَا وفعَلتَ ذاك: ومثله . قوله: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتك التى فعَلْتَ ﴾ يجوز مكانها لو أتى: وفعَلت فِعلكَ .

﴿ قُلْ يا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً . . . ﴾

(54/664)

هى فى قراءة عبد الله (الذنوب جميعاً لمن يشاء) قال الفراء: وحدّثنى أبو إسحَاق التَّيمىّ عن أبى رَوْق عن إبراهيم التيمىّ عن ابن عبَّاس أنه قرأها كما هِىَ فى مصحف عبد الله (يغفر الذنوب جيمعاً لمن يشاء) وإنما نزلت فى وَحْشىّ قاتل حمزة وذويه .

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَا . . . ﴾

أى افعَلو وأنيبُوا وافعَلوا ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ ألاّ يقول أحدكم غداً ﴿ ياحَسْرَتَا ﴾ ومثله قوله: ﴿ وَأَلْقَى فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أى لا تميد .

وقوله: ﴿ ياحَسْرَتَا ﴾ : يا ويلتا مضاف إلى المتكلّم يحوّل العرب اليَاء إلا الألف فى كلّ كلام كان مَعْناه الاسْتغَاثة ، يخرج عَلى لفظ الدعاء . وربّما قيل: يا حَسْرَتِ كما قَالوا: يا لهَفِ على فلانٍ ، ويا لهفَا عَلَيْهِ قَال: أنشدنى أبو ثَرْوان العُكْلىُّ .

تزورونها أَو لا أزورِ نسَاءكم * ألهَفِ لأولاد الإماء الحواطب

فخفضَ كما يُخفض المنادَى إذا أضافه المتكلّم إلى نفسه .

وربّما أدخلت العرب الهاء بعدَ الألفِ التى فى ﴿ حسرتَا ﴾ فيخفضونها مَرة ، ويرفعُونها . قَالَ: أنشدنى أبو فَقْعَس ، بعضُ بنى أسد :

يا ربِّ يا ربّاهِ إيّاك أسَلْ * عَفراء يا ربّاهِ من قبل الأَجل

فخفض ، قال: وأنشدنى أبُو فَقْعَسٍ:

يا مرحباهِ بحمار ناهِيْه * إذَا أتى قرّبته للسَّانية

والخفض أكثر فى كلام العرب ، ألاّ فى قولهم: ياهنَاه ويا هَنْتَاه ، فالرفع فى هذا أَكثر من الخفض ؛ لأنه كَثُر فى الكلام فكأنه حَرف واحِدٌ مدعوّ .

﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

وقوله: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . . . ﴾

النصب فى قوله ﴿ فَأَكُونَ ﴾ جَوابِ للو . وإن شئت جَعلته مردوداً عَلَى تأويل أنْ ، تُضمرهَا فى الكرّة ، كما تقول: لو أَنَّ لى أن أكُرَّ فأكونَ . ومثله مَّما نُصب عَلى ضمير أنْ قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحيْاً أَوْ مِنْ وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ ﴾ المعْنَى – والله أعلم – مَا كان لبشرٍ أن يكلمه الله إلاّ أن يوحى إليه أو يرسل . ولو رفع ﴿ فيُوحى ﴾ إذا لم يظهر أنْ قبله ولا معه كان صوابا . وقد قرأ به بعض القراء . قال: وأنشدنى بعض بنى أسَدٍ:

يَحُلّ أُحَيْدَه ويقال بَعْلٌ * ومثل تَمَوُّلٍ منه افتقارُ

فما يُخطئكِ لا يخطئكِ منه * طَبَانِيَةٌ فيَحْظُلُ أو يَغارُ

فرفع . وأنشدنى آخر:

فمالك منها غير ذِكرى وحِسْبة * وتسأل عن ركبانها أينَ يَمَّموا

وقال الكسَائى: سمعت من العرب: ماهى إلا ضَرْبة من الأَسَد فيحطِمُ ظهره ، (و) يحطِمَ ظهرَه . قال: وأنشدنى الأسَدِىّ:

عَلى أحْوذِيَّيْن استقلت عَشِيَّة * فما هى إلاَّ لمحة فتغيب

﴿ بَلَى قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ بَلَى قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا . . . ﴾

القراء مجتمعون عَلى نصب الكاف وأن المخاطب ذَكَر . قال الفراء وحدثنى شيخ عن وِقَاء بن إياسٍ بسنده أنه قرأ (بَلَى قد جَاءَتْكِ آياتى فكذَّبتِ بهَا واستكبرتِ) فخفض الكاف والتاء كأنه يخاطب النفس . وهو وجه حسَن ؛ لأنه ذكر النفس فخاطبها أوّلاً ، فأجْرى الكَلام الثانى عَلى النفْس فى خطابهَا .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ . . . ﴾

(56/664)

ترفع ﴿ وجوههم ﴾ و ﴿ مسودّة ﴾ لأنَّ الفعل قد وقع على (الذين) ثم جاء بعد (الذين) اسم له فعل فرفعته بفعله ، وكان فيه معنى نصب . وكذلك فالفعل بكل اسم أوقعتَ عليه الظنّ والرأى وما أشبههما فارفع ما يأتى بعده من الأسمَاء إذا كان معهَا أفاعيلها بعدهَا ؛ كقولكَ: رأيت عبد الله أمرُه مستقيم . فإن قدمت الاستقامة نصبتهَا ، ورفعت الاسم ؛

فقلت: رأيت عبدَ الله مستقيماً أمرُه، ولو نصبت الثلاثة فى المسألة الأولى عَلى التكرير كان جَائزاً، فتقول: رَأيت عبدَ الله أمرَهُ مستقيماً. وقالَ عدِىّ ابن زيدٍ.

ذرِينى إن أمركِ لن يطاعَا * وما ألفيتنى حِلْمى مُضَاعَا

فنصب الحلم والمُضاع عَلى التكرير. ومثله:

* ما للجمال مشيها وئيدا *

فخفض الجَمَال والمشى عَلى التَّكرير. ولو قرأَ قارئ ﴿ وُجُوهَهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ عَلى هذا لكانَ صَوَاباً.

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

وقوله: ﴿ بِمَفَازَاتِهِمْ... ﴾

جَمْع وقد قرأ أهل المدينة ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ بالتوحيد. وكلّ صَوَاب. تقول فى الكلام: قد تَبيَّنَ أمرُ القوم وأُمُورُ القوم، وارتفع الصوت والأصوات (ومعناه) واحد قال الله ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصواتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾ ولم يقل: أصْواتٌ وكلّ صَوَاب.

﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ... ﴾

تنصب (الله) – يعنى فى الإعراب – بهذا الفعْل الظاهر؛ لأنه ردّ كلام. وإن شئت نصبته بفعل تُضمره قبله؛ لأنَّ الأمر والنهى لا يتقدّمهما إلاّ الفعل.

ولكن العرب تقول: زيد فليقم، وزيداً فليقم فمَن رفعه قال: أَرفعه بالفعل الذى بعده؛ إذا لم يظهر الذى قبله. وقد يُرفع أيضاً بأنْ يُضمر له مثل الذى بَعْده؛ كأنك قلت: لِيَنظر زيد فليقم. ومن نصبه فكأنه قال: انظروا زيداً فليقم.

(57/664)

﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. . . ﴾

ترفع القبضة. ولو نصبهَا ناصب، كما تقول: شهر رمضانَ انسلاخَ شعبَانَ أى هذا لى انسلاخ هذا.

وقوله: ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ ترفع السَّموات بمطوياتٌ إذا رفعت المطويات. ومن قال ﴿ مَطْوِيَّاتٍ ﴾ رفع السموات بالباء التى فى يمينه، كأنه قال: والسَّموات فى يمينه. وينصبُ المطويَّاتِ عَلى الحَال أو عَلى القطع. والحال أجود.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فِي الصُّورِ . . . ﴾

قال: كان الكلبيّ يقول: لا أدرى ما الصور . وقد ذُكر أنه القَرْن وذكر عن الحسن أو عن قتادة أنه قال: الصور جماعة الصورة .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾

وقوله: ﴿ طِبْتُمْ . . . ﴾

أى زكوتم ﴿ فَادْخُلُوهَا ﴾ .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ . . . ﴾ يعنى الجنّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 414. 425 ﴾

(58/664)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الزمر

(ألا لله الدين الخالص) [3] ما لا رياء فيه من الطاعات. (من دونه أولياء ما نعبدهم).

أي: قالوا: ما [نعبدهم]، فحذف. (إن الله لا يهدي) أي: لحجته. وقيل: لثوابه. (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) [6] تفسيرها في سورة الأنعام.

(في ظلمات ثلاث) ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. (أمن هو قانت) [9] أدغمت "أم" في "من"، وأم قيل: إنها بمعنى: "بل"، أي: بل الذي هو قانت: (يحذر الأخرة). وقيل: إنها "أم" التي تعادل ألف الاستفهام، وجوابه محذوف، وتقديره: كمن هو غير قانت. أو تقديره: أمن جعل الله أنداداً كمن هو قانت.

ومن خفف (أمن)، لا ينبغي أن [يقول]: إنها ألف الاستفهام، لأنه لا يستفهم بالألف في "من" إلا أن يكون بينهما "واو" أو "فاء" كقوله: (أو من ينشؤا في الحلية)، وقوله: (أفمن يتقي بوجهه). ويجوز أن تقول ألف النداء، أي: يا من هو قانت (قل هل يستوي) وأنشد الأخطل: 1062 - أبني أمية إن أخذت كثيركم دون الأنام لما أخذتم أكثر 1063 - أبني أمية لي مدائح فيكم تنسون إن طال الزمان وتذكر. (خسرا أنفسهم) [15]

بإهلاكها في النار. (وأهليهم) بأن لا يجدوا في النار أهلاً مثل ما يجد أهل الجنة من [الحور] العين، (لهم من فوقهم ظلل من النار) [16] وهي الأطباق والسرادقات. (ومن تحتهم ظلل) وهي الفرش والمهاد، وإنما سمي [ظللاً] وإن كانت من تحتهم، لأنها ظلل من تحتهم.

(ثم يهيج) [21] ييبس/. (ثم يجعله حطاما) فتاتاً متكسراً.

(فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) [22] أي: القاصية قلوبهم. (كتاباً متشابهاً) [23] [يشبه] بعضه بعضاً. (مثاني) [23] ثني فيها أقاصيص الأنبياء وذكر الجنة والنار. وقيل: تثنى في القراءة فلا تمل. (متشاكسون) [29] متضايقون متعاسرون، من الخلق الشكس. (رجلاً سالماً)

(59/664)

خالصاً ليس لأحد [فيه] شركة، ليوازي قوله: (رجلاً فيه شركاء)، و(سلماً) أيضاً قريب من هذا المعنى، وما هو من الصلح كما قال أبو عبيدة، ولكنه مصدر سلم يسلم سلامة وسلماً فوصف به، أي ذا سلم. (إنك ميت) [30] الميت: هو الحيوان الذي يموت، والميت من قد مات، كما نظمه الخليل: 1064- [أيا سائلي] إعراب ميت وميت فدونك قد فسرت إن كنت تعقل 1065- فمن كان ذا روح فذلك ميت ولا ميت إلا من إلى القبر ينقل.

وفي خطاب الرسول بهذا، وجوه من الحكمة: من الحث على الطاعة والاستعداد للموت، ومن تسليم العالمين برسول الله. (والتي لم تمت في منامها) [42] أي: يقبضها عن الحس والإدراك، مع بقاء الأرواح في الأجساد. (فيمسك التي قضى عليها الموت) أن تعود إلى

الأجساد . قال علي رضي الله عنه: "فالرؤيا من النفس في السماء ، والأضغاث منها بعد إرسالها قبل الاستقرار في الجسد [يلقيها] الشياطين" . وقال ابن عباس: "بكل جسد نفس وروح ، فالله يقبض الأنفس في المنام ، دون الأرواح" .

(اشمأزت) [45] انقبضت . (إنما أوتيته على علم) [49] أي: على علم أني سأصيبه . وقيل: بعلم علمنيه الله . وقيل: على علم يرضاه عني . (أن تقول نفس) [56] لئلا تقول . وقيل: كراهة أن/تقول .

(يا حسرتى) [56] الألف بدل [ياء] الإضافة ، لمد الصوت بها في الاستغاثة . (في جنب الله) ذات الله . وقيل: في قرب ثوابه في الجنة . (لمن الساخرين) أي: المستهزئين .

(بمفازتهم) [61] بما فازوا به من الإرادة . (والأرض جميعاً قبضته) [67] في حكمه وتحت أمره ، يستبد لها [بغيرها] ، كما قال: (يوم تبدل الأرض غير الأرض) .

(فصعق) [68] مات . وقيل: غشي عليهم . (إلا من شاء الله) [68] أي: من الملائكة والشهداء . (زمراً) [71] أمماً .

وقيل: أفواجاً . (وفتحت أبوابها) [73] واو الحال . أي: تجدونها عند المجيء مفتحة الأبواب ، وأما النار فإنها مغلقة لا تفتح إلا عند دخولهم فيها . (وأورثنا الأرض) [74] أي: أرض الجنة . (نتبوأ من الجنة حيث نشاء) أي: من منازلهم التي هي لهم ، لأنهم مصروفون عن إرادة غيرها . (حافين) [75] محدقين محيطين .

[تمت سورة الزمر] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1255.1265 ﴾

(61/664)

وقال الأخفش :

سورة (الزمر)

﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

قال ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ ﴾ أيْ: وبذلك أمرت .

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُواْ إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾

وقال ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ لأَنَّ ﴿ الطاغوتَ ﴾ في معنى جماعة .

وقال ﴿ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ وإنْ شئتَ جعلته واحداً مؤنّثاً .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾

وقال ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن ﴾ أَي: أفأَنْتَ تُنْقِذُهُ واسْتَغْنَى بقوله ﴿ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾ عن هذا .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَائِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾

وقال ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ فجعل قوله ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ مكان الخبر .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

وقال ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ ﴾ فهذا لم يظهر له خبر في اللفظة ولكنه في المعنى – والله أعلم – كأنه "أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ أَفْضَلُ أَمْ مَنْ لا يَتَّقِي" .

﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

وقال ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ لأن قوله ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [27] معرفة فانتصب خبره .

﴿ وَالَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَائِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

وقال ﴿ وَالَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ ﴾ ثم قال ﴿ أُوْلَائِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ فجعل "الذي" في معنى جماعة بمنزلة ﴿ مَنْ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

وقال ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ فرفع على الابتداء . ونصب بعضهم فجعلها على البدل . وكذلك ﴿ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ ﴾ جعله بدلاً من ﴿ الخبيث ﴾ [164] ومنهم من قال ﴿ بَعْضُه على بَعْض ﴾ فرفع على الابتداء . أو شغل الفعل بالأول . وقال بعضهم ﴿ مُسْوادَّةٌ ﴾ وهي لغة لأهل الحجاز يقولون: "اِسْوادَّ وجهُهُ" و"اِحْمارَّ" يجعلونه "اِفْعَالَّ" كما تقول للاشهب "قدِ اشْهَابَّ" [وللازرق] "قدِ ازْرَاقَّ" . وقال بعضهم لا يكون "اِفْعَالَّ" في ذي اللون الواحد ، [و] إنَّما يكون في نحو الاشهب ولا يكون في نحو الاحمر وهما لغتان .

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾

وقال ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ﴾ يريد "أَفَغَيْرَ اللهِ أَعْبُدُ تَأْمُرُونَنِي" كأنه اراد الالغاء – و الله أعلم – كما تقول "هَلْ ذَهَبَ فُلانٌ . تَدْرِي" جعله على معنى "ما تدري" .

﴿ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

وقال ﴿ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ .

﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

(63/664)

وقال ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ يقول: "فِي قُدْرته" نحو قوله ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أي: وما كانت لكم عليه قدرة ، وليس الملك لليمين دون الشمال وسائر البدن . وأما قوله ﴿ قَبْضَتُهُ ﴾ [فـ] نحو قولك للرجل: "هذا في يدك وفي قبضتك" .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾

وقال ﴿ حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ فيقال ان قوله ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ في معنى ﴿ قَالَ لَهُمْ ﴾ كأنه يلقي الواو . وقد جاء في الشعر شيء يشبه ان تكون الواو زائدة فيه . قال الشاعر: [من الكامل وهو الشاهد الخامس بعد المئة]:

فإذَا وذِلكَ يا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ * إلاَّ كَلَمَّةِ حَالِمٍ بِخَيالِ

[164 ب] فيُشْبِهُ أَنْ يكونَ يريدُ "فإذا ذلك لَمْ يكُنْ" . وقال بعضهم: "أضمر الخبر" وإضمار الخبر احسن في الآية ايضاً وهو في الكلام .

﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

وقال ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ فـ ﴿ مِنْ ﴾ أدخلت ها هنا توكيدا – و الله أعلم – نحو قولك "مَا جَاءَنِي مِنْ أَحَدٍ" . وثُقِّلَتْ "الحافِّينَ" لأنها من "حَفَفْتُ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 494 . 497 ﴾

(64/664)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الزمر

مكية إلا ثلاث آيات ، وهي قوله : يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا إلى تَشْعُرُونَ

4 – لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ أي لأختار ما يشاء من خلقه ، لو كان فاعلا . سُبْحانَهُ ! هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ .

5 – يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ قال أبو عبيدة : يدخل هذا على هذا .

وأصل التكوير اللف والجمع . ومنه كور العمامة . ومنه قوله : إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ أي جمعت ولفت .

6 - وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ «1» أي ثمانية أصناف ، وهي التي ذكرها اللّه - عز ذكره - في سورة الأنعام .

يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ أي علقة بعد نطفة ، ومضغة بعد علقة . فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ يقال : ظلمة المشيمة ، وظلمة الرحم ، وظلمة البطن .

9 - أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ أي مصل . وأصل القنوت : الطاعة آناءَ اللَّيْلِ أي ساعاته .

21 - فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ أي أدخله [فيها] ، فجعله ينابيع : عيونا تنبع .

---

(1) قوله تعالى : ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الآيات (143/ 144) .

ثُمَّ يَهِيجُ أي ييبس .

ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً مثل الرّفات والفتات .

23 – كِتاباً مُتَشابِهاً يشبه بعضه بعضا ، ولا يختلف . مَثانِيَ أي تثني فيه الأنباء والقصص ، وذكر الثواب والعقاب . تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ من آية العذاب ، وتلين من آية الرحمة .

29 – رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ أي مختلفون : يتنازعون ويتشاحون فيه . يقال : رجل شكس [اي متعب الخلق] .

قال قتادة : «هو الرجل الكافر ، والشركاء : الشياطين . وَرَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ هو : المؤمن يعمل للّه وحده» .

ومن قرأ : سَلَماً لِرَجُلٍ ، أراد : سلم إليه ، فهو سلم له .

33 – وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ هو : النبي صلّى اللّه عليه وسلم وَصَدَّقَ بِهِ هم : أصحابه رضي اللّه عنهم .

قال أبو عبيدة : «الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ في موضع جميع» . وهي قراءة عبد اللّه : والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به .

47 – وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ يقال : إنهم عملوا في الدنيا أعمالا كانوا يرون

أنها تنفعهم ، فلم تنفعهم مع شركهم .

61 - وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ من العذاب ، أي بمنجاتهم .

63 - لَهُ مَقَالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي مفاتيحها وخزائنها ، واحدها : «إقليد» يقال : هو فارسي ، معرب «إكليد» .

68 - فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ أي ماتوا . إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ يقال : الشهداء .

(66/664)

---

69 - وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها : أضاءت .

74 - وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ أي أرض الجنة نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ أي ننزل منها حَيْثُ نَشاءُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 329. 331 ﴾

(67/664)

وقال الغزنوى :

ومن سورة الزمر

1 لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ : ما لا رياء له «1» . وقيل «2» : الطاعة بالعبادة المستحق بها الجزاء لأنه لا يملكه إلّا هو .

إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي : لحجته ، أو لثوابه .

6 فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ : ظلمة البطن والرحم والمشيمة «3» .

9 أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ : استفهام محذوف الجواب ، أي : كمن هو غير قانت «4» .

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 460 .

(2) تفسير الطبري : 23/ 191 ، وزاد المسير : 7/ 161 .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 23/ 196 عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك .

وذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 382 ، والزجاج في معانيه : 4/ 345 ، والماوردي في تفسيره : 3/ 461 .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : (7/ 163 ، 164) ، وقال : «قاله الجمهور» .

(4) معاني القرآن للفراء : 2/ 417 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 322 ، والبحر

المحيط :

7/ 419 .

(68/664)

---

15 خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ : بإهلاكها في النّار ، وَأَهْلِيهِمْ : بأن لا يجدوا في النّار أهلا مثل ما يجد أهل الجنة «1» . أو أهليهم الذين كانوا أعدّوا لهم من الحور «2» .

16 لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ : الأطباق والسّرادقات .

وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ : الفرش والمهاد ، وهي ظلل وإن كانت من تحت لأنّها ظلّل من هو تحتهم «3» .

19 أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ : معنى الألف هنا التوقيف «4» ، وألف أَفَأَنْتَ مؤكدة معادة لما طال الكلام ، ومعنى الكلام : إنّك لا تقدر على إنقاذ من أضلّه اللّه .

21 يَهِيجُ : ييبس «5» ، حُطاماً : فتاتا متكسرا «6» .

---

(1) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 464 عن مجاهد ، وابن زيد . وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 169 .

(2) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 464 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 169 عن

الحسن ، وقتادة ، ونقله أبو حيان في البحر : 7/ 420 عن الحسن رحمه اللّه .

(3) تفسير البغوي : 4/ 74 ، والمحرر الوجيز : (12/ 518 ، 519) ، وزاد المسير : 7/ 169 ، وتفسير القرطبي : 15/ 343 ، والبحر المحيط : 7/ 420 .

(4) عن معاني الزجاج : 4/ 349 ، ونص كلام الزجاج هناك : «هذا من لطيف العربية ، ومعناه معنى الشرط والجزاء وألف الاستفهام ها هنا معناها معنى التوقيف ، والألف الثانية في أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ جاءت مؤكدة معادة لمّا طال الكلام ، لأنه لا يصلح في العربية أن تأتي بألف الاستفهام في الاسم وألف أخرى في الخبر . والمعنى : أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ؟ ومثله : أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ [المؤمنون : 35] ، أعاد أَنَّكُمْ ثانية ، والمعنى : أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما مخرجون . . .» .

وانظر تفسير الطبري : 23/ 208 ، والمحرر الوجيز : 12/ . 521

(5) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 383 ، وتفسير الطبري : 23/ 208 ، واللسان : 2/ 395 (هيج) . [. . . . .]

(6) معاني القرآن للزجاج : 4/ 351 ، والمفردات للراغب : 123 .

22 فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ : أي : للقاسية من ترك ذكر اللّه .

23 كِتاباً مُتَشابِهاً : يشبه بعضه بعضا ، مَثانِيَ : ثنّي فيها أقاصيص الأنبياء ، وذكر الجنّة والنّار «1» . أو يثنّى فيها الحكم بتصريفها في ضروب البيان ، أو يثنّى في القراءة فلا تملّ «2» .

28 غَيْرَ ذِي عِوَجٍ : غير معدول به عن جهة الصّواب .

29 مُتَشاكِسُونَ : متعاسرون «3» ، خلق شكس .

ورجلا سالما «4» : خالصا ليس لأحد فيه شركة ، ليطابق قوله :

رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ ، وسَلَماً «5» : مصدر سلم سلما : خلص خلوصا .

42 وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها : أي : يقبضها عن الحسّ والإدراك مع بقاء الروح .

قال عليّ «6» رضي اللّه عنه : «الرؤيا من النّفس في السّماء ، والأضغاث

---

(1) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 383 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 467 عن ابن زيد .

(2) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 467 عن ابن عيسى ، وذكره الزمخشري في الكشاف :

3/ 395 ، والقرطبي في تفسيره : 15/ 249 .

(3) هذا قول المبرد ، وهو من : شكس يشكس فهو شكس ، مثل : عسر يعسر عسرا فهو عسر .

(إعراب القرآن للنحاس : 4/ 10) .

وانظر تفسير المشكل لمكي : 303 ، واللسان : 6/ 112 (شكس) .

(4) بالألف وكسر اللام ، وهي قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو كما في السبعة لابن مجاهد : 562 ، والتبصرة لمكي : 314 ، والتيسير للداني : 189 .

(5) قراءة نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وابن عامر .

وانظر توجيه القراءتين في معاني القرآن للزجاج : 4/ 352 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 10 ، والكشف لمكي : 2/ 338 .

قال الزمخشري في الكشاف : 3/ 397 : «وقرئ سَلَماً بفتح الفاء والعين ، وفتح الفاء وكسرها مع سكون العين ، وهي مصادر «سلم» ، والمعنى : ذا سلامة لرجل ، أي : ذا خلوص له من الشركاء ، من قولهم : سلمت له الضيعة» .

(6) أورده الماوردي في تفسيره : 3/ 471 مع اختلاف في بعض ألفاظه .

منها قبل الاستقرار في الجسد يلقيها الشّياطين» .

وقال ابن عبّاس «1» رضي اللّه عنهما : «لكلّ جسد نفس وروح ، فالأنفس تقبض في المنام دون الأرواح» .

45 اشْمَأَزَّتْ : انقبضت «2» .

49 إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ : أي : سأصيبه «3» ، أو بعلم علّمنيه اللّه «4» .

أو على علم يرضاه عني «5» .

56 أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ : لئلا تقول «6» ، أو كراهة أن تقول/ «7» . [85/أ] يا حَسْرَتى : الألف بدل ياء الإضافة لمدّ الصّوت بها في الاستغاثة «8» .

فِي جَنْبِ اللَّهِ : في طاعته «9» ، أو أمره «10» .

يقال : صغر في جنب ذلك ، أي : أمره وجهته لأنّه إذا ذكر بهذا الذكر دلّ على اختصاصه به من وجه قريب من معنى صفته .

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 470 ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 230 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(2) تفسير الطبري : 24/ 10 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 15 ، وتفسير القرطبي

: 15/ 264 .

(3) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 471 ، وقال : «حكاه النقاش» .

(4) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 471 عن الحسن ، وكذا القرطبي في تفسيره : 15/ 266 .

(5) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 471 عن ابن عيسى .

(6) ذكره الطبري في تفسيره : 24/ 18 ، ونقله النحاس في إعراب القرآن : 4/ 17 عن الكوفيين .

(7) قال الزجاج في معانيه : 4/ 359 : «المعنى : اتبعوا أحسن ما أنزل خوفا أن تصيروا إلى حال يقال فيها هذا القول ، وهي حال الندامة . . .» . [. . . . .]

(8) ينظر تفسير الطبري : 24/ 18 ، وتفسير القرطبي : 15/ 270 ، والبحر المحيط : 7/ 435 .

(9) نقل البغوي هذا القول في تفسيره : 4/ 85 عن الحسن رحمه اللّه ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 192 ، والقرطبي في تفسيره : 15/ 271 .

(10) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 24/ 19 عن مجاهد ، والسدي .

السَّاخِرِينَ : المستهزئين .

61 بِمَفَازَتِهِمْ : ما فازوا به من الإرادة «1» .

67 وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ : في حكمه وتحت أمره «2» .

68 فَصَعِقَ : مات «3» ، أو غشي عليهم «4» .

إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ : من الملائكة «5» .

ثُمَّ نُفِخَ : يقال : بين النّفختين أربعون سنة «6» .

71 زُمَراً : أمما .

---

(1) تفسير الماوردي : 3/ 473 .

(2) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 7/ 104 : «وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف» .

(3) ذكره الطبري في تفسيره : 24/ 30 ، والزجاج في معانيه : 4/ 362 ، والماوردي في تفسيره : 3/ 474 ، وقال : «وهو قول الجمهور» .

ينظر أيضا تفسير البغوي : 4/ 87 .

(4) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 474 ، وقال : «حكاه ابن عيسى» .

(5) راجع الاختلاف في المستثنين في هذه الآية عند تفسير قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ [النمل : 87] .

ورجح الطبري في تفسيره : 24/ 30 القول الذي أورده المؤلف رحمه اللّه .

(6) ورد هذا القول في أثر طويل أخرجه ابن أبي داود في كتاب البعث : 80 عن أبي هريرة مرفوعا ، وأخرجه ابن مردويه كما في فتح الباري : 8/ 552 ، والدر المنثور : 7/ 252 عن أبي هريرة رضي اللّه عنه مرفوعا .

قال الحافظ ابن حجر : «و هو شاذ» .

وأخرج الإمام البخاري والإمام مسلم رحمهما اللّه تعالى عن أبي هريرة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال :

«بين النفختين أربعون . قالوا : يا أبا هريرة ! أربعون يوما ، قال : أبيت . قال : أربعون سنة ، قال : أبيت ، قال : أربعون شهرا ، قال : أبيت . . . » .

ينظر صحيح البخاري : 6/ 34 ، كتاب التفسير ، باب قوله : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ .

وصحيح مسلم : 4/ 2270 ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب «ما بين النفختين» .

73 وَفُتِحَتْ أَبْوابُها : واو الحال ، أي : يجدونها عند المجيء مفتّحة الأبواب ، وأمّا النّار فمغلقة لا تفتح إلّا عند دخولهم «1» .

71 حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ : ظهر حقّها بمجيء مصداقها .

74 وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ : أرض الجنّة «2» لأنّها صارت لهم في آخر الأمر كما يصير الميراث «3» .

75 حَافِّينَ : محدقين مطيفين «4» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 718. 723 ﴾

---

(1) ينظر معاني القرآن للزجاج : 4/ 364 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 23 ، وزاد المسير :

7/ 199 ، والمحرر الوجيز : 12/ 571 ، وتفسير القرطبي : 15/ . 285

(2) هذا قول أكثر المفسرين كما في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 384 ، وتفسير الطبري :

24/ 37 ، ومعاني القرآن للزجاج ، 4/ 364 ، وتفسير الماوردي : 3/ 476 ، وتفسير القرطبي : 15/ 287 .

(3) عن تفسير الماوردي : 3/ 476 .

(4) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 192 ، وتفسير الطبري : 24/ 37 ، ومعاني الزجاج : 4/ 463 .

(73/664)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الزمر

عدد 9 - 59 - 39

نزلت بمكة بعد سورة سبأ عدا الآيات 52 و53 و54 فإنهن نزلن بالمدينة ، وهي خمس وسبعون آية والف ومئة واثنتان وسبعون كلمة ، وأربعة آلاف وتسعمئة وثمانية أحرف وتسمى سورة تنزيل ، ولا يوجد سورة مبدوءة بما بدئت به ، ومثلها في عدد الآي الأنفال فقط .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : هذا "تَنْزِيلُ الْكِتابِ" بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ والخبر مقدر وبالنصب على أنه مفعول لفعل مقدر أي اقرأ هذا التنزيل الذي ينزل عليك يا محمد من قبل

ربك من القرآن المدون في اللوح المحفوظ الثابت في أزلنا والذي قدر قديما إنزاله عليك "مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ 1" الذي يجري أمره وينفذ نهيه بمقتضى الحكمة بلا مدافع ولا ممانع ، واعلم يا سيد الرسل "إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ" هذا "الْكِتابَ بِالْحَقِّ"

(74/664)

الصريح الواضح وبمقتضاه "فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ 2" من شوائب الشرك والرياء ، وهذا مما يراد به غيره صلى اللّه عليه وسلم من أمته لأنه لا شك بإخلاصه وبعده من الإشراك ولا مانع بأن يخاطب الأمير ما يراد به من الجند لأن الملك لا يولي أميرا إلا وهو يعتقد حزمه وأمانته وقد يحذره الهرب والخيانة أمام جنده ليكون أبلغ إمضاء فيهم "أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ" من كل شائبة الكامل الذي لا أكمل منه "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ" سخفا بعقولهم يقولون "ما نَعْبُدُهُمْ" لذاتهم "إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى " يتمكنون به من الشفاعة لهم مع أنهم شابوا عبادة اللّه بعبادتهم ، فاتركهم يا حبيبي الآن ولا تتعرض لهم بأكثر من النصح والترغيب "إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ" وبين معبوديهم عند ما يأمرك بقتالهم وقسرهم على الإيمان كما يفصل بينك وبينهم يوم القيامة وحذف الثاني بدلالة الأول عليه قال النابغة :

فما كان بين الخير لو جاء سالما أبو حجر إلا ليالي قلائل

أي بين الخير وبيني وقال بعض المفسرين بينهم وبين المخلصين بالعبادة للّه ويقرّب المعنى الأول قوله جل قوله "فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" لأنهم يوم القيامة يجحدون عبادتهم ويتبرأون منهم ويصير بينهم الرد والبدل في تكذيب بعضهم راجع الآية 41 من سورة سبأ والآية 44 من سورة الصافات والآية 130 من سورة الأنعام المارات والاختلاف على القول الثاني يكون في أمر التوحيد وأمر الشرك وادعاء كل صحة ما اتصف به ونتيجة حاله في إدخال المؤمنين الجنة والمشركين النار والكل جائز .

(75/664)

قال تعالى "إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ" بقوله إن الأصنام تشفع له أو تقربه من اللّه لأنه كذب محض ولذلك وصفه بقوله "كَفَّارٌ 3" كثير الكفر وإنما دحضه بلفظ المبالغة لأنه كفر من وجوه : جحود وحدانية اللّه واثبات الشريك له واتخاذه ربا دونه ، ومن كان هذا شأنه فالهداية لا تناله لأنه غير قابل لها واللّه تعالى لا يفيض القوابل إلا بحسب القابليات كما يشير إليه قوله عز قوله (قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى) الآية 50 من سورة طه في ج 1 وقوله (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ) الآية 84 من سورة الإسراء ج 1 أيضا وقولهَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)

الآية 33 من سورة النحل

الآتية لسيىء استعداده على قبول الضلال وعدم استعداده لقبول الهدى ختم عليه بذلك لأنه خلقه كذلك .

قال تعالى (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) الآية 7 من الشورى الآتية وهذا من الأزل ، لأنه حينما خلق الخلق قال هؤلاء إلى الجنة وهؤلاء إلى النار ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم : كل ميسر لما خلق له تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ

فهو الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) الآية 7 من سورة السجدة الآتية ، وهو الذي لا يسأل عما يفعل .

(76/664)

قال تعالى "لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً" كما يزعمون ، تعالى عن ذلك "لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ" لا منازع له ولا معارض ولكنه لم يرد فامتنع أن يقال اتخذ ولدا "سُبْحانَهُ" تنزه عن ذلك وتقدس عما لا يليق به "هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ" في ملكه المبرأ عن انضمام الأعداد والمتعالي عن التجزي والولاد "الْقَهَّارُ 4" لكل شيء المحتاج إليه كل شيء ، وهذه مسوقة لتحقيق الحق الذي هو تنزيهه جل شأنه عن ذلك وإبطال القول بأن الملائكة بناته ، ويدخل فيه ما

نسبه أهل الكتابين من بنوّة عيسى وعزير عليهما السلام مضاهاة للعرب الذين نسبوا بنوة الملائكة إليه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا وتقدس تقديسا عظيما ببيان استحالة اتخاذ الولد في حقه على الإطلاق ليندرج فيه استحالة ما قيل اندراجا أوليا ، ومن هذا الباب نعم العبد صهيب لو لم يخف اللّه لم يعصه مطلقا ، وحاصل معنى الآية واللّه أعلم :

لو أراد سبحانه اتخاذ الولد لامتنعت تلك الإرادة لتعلقها بالممتنع أعني الاتخاذ .

لكن لا يجوز على الباري إرادة ممتنعة لأنها ترجح بعض المكنات على بعض ، وأصل الكلام لو اتخذ الولد لامتنع لاستلزامه ما ينافي الإلهية فعدل إلى لو أراد الاتخاذ لامتنع أن يريده ليكون أبلغ وأبلغ ، ثم حذف هذا الجواب وجيء بدله (لَاصْطَفى) تنبيها على أن الممكن هذا لا الأول وأنه لو كان هذا من اتخاذ الولد في شيء لجاز اتخاذ الولد عليه سبحانه تنزه عن ذلك ، فقد تحقق التلازم وحق نفي اللازم واثبات الملزوم دون صعوبة .

واعلم أن اتخاذ الولد يقتضي التبعيض وانفصال شيء من شيء ويقتضي المماثلة أيضا بين الولد والوالد ، هذا وإن الوحدة الذاتية الحقيقية التي هي في أعلى مراتب الوحدة الواجبة له تعالى بالبراهين القطعية العقلية تأبى التبعيض والانفصال إباء ظاهرا لأنهما من خواطى الحكم ، وقد اعتبر في مفهوم الوحدة الذاتية

سلبه فتأبى الاتخاذ المذكور وكذا تأبى المماثلة سواء فسرت بما ذهب إليه الجبائي وأضرابه من قدماء المعتزلة وهي المشاركة في أخص صفات الذات كمشاركة زيد لعمرو في الناطقية أم فسرت بما ذهب إليه المحققون من الماتريدية وهي المشاركة في جميع الصفات الذاتية كمشاركته له في الحيوانية والناطقية ، أم فسرت بما نسب إلى الأشعري وهو التساوي بين الشيئين من كل وجه .

هذا ويفهم من لفظ القهار الذي ختمت به هذه الآية الزجر والتهديد لأولئك المتخذين إلها غير اللّه الناسبين إليه الولد ، وفائدة هذا الزجر والتخويف ليرتدعوا عن القول بذلك وإنما اقتصر على التهديد فقط مع أنهم يستحقون أكثر منه لأن علاج الرجل المصر على بطله أن تأتي له بما يزيل الإصرار عن قلبه حتى يسمع الدليل ويعيه فيفضي إلى المقصود ، ولهذا فإن الطبيب يتقدم إلى المريض أولا يسقى بشيء منضج ليفتت ما في أمعائه ثم بالحقنة لإخراج تلك الفتات التي كانت متحجرة فيها ثم بالمسهل لإفراغ تلك الأمعاء وتطهير المعدة مما كان فيها إذ لو أعطاه المسهل رأسا لما نفعه بل قد يضره لأن المواد الفاسدة اليابسة لا يؤثر عليها وإذا لم تخرج هذه لا يتيسر لمسهل التطهير بل قد لا يتيسر له الخروج أيضا فتمتلىء الأمعاء فتتلاشى ويحصل الموت بالأجل المقدر على هذا ، فإجراء التهديد أولا يجري مجرى

المنضج والتفتيت واسماع الدليل بعده يجري مجرى الحقنة وقبول ذلك يجري مجرى المسهل تدبر .

(78/664)

قال تعالى "خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ" خلقا مشتملا على الحكم والمصالح بالعدل والصواب "يُكَوِّرُ" يلف ويغيّب ويغشي "اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ" إذا طرأ عليه ، إذ يضمحل فيه ولا يبقى له أثر "وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ" إذا حدث عليه فيفعل فيه ما فعل فيه التكوير هو اللف واللّي يقال كار العمامة وكوّرها على رأسه إذا لفها ولواها شبه سبحانه تغيب أحدهما بالآخر بشيء ظاهر غشيه ما غيبه عن الرؤية بحيث يلبسه مكانه لاشتماله عليه ، ومن قال إن المعنى يحمل أحدهما على الآخر فتحصل الزيادة والنقصان فيهما فقول لا يتجه هنا بل يكون في تفسير قوله تعالى (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ) الآية 13 من سورة فاطر المارة في ج 1 ، ونظيرها في الآية 27 من آل عمران والآية 6 من سورة الحديد في ج 3 ، ولا يخفى أن الإيلاج غير التكوير

(79/664)

لفظا ومعنى "وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى" عنده وسيبقى هذا الجريان مستمرا حتى إذا أراد خراب هذا الكون فرطه ، وكما أن هذا الجريان لأجل معين فهو لمكان معين وبطريق معروف أيضا لا يزيغ عنه قيد شعرة وبانتظام تام على مر الأعوام فسبحانه من مدبر مبدع علام ، فانتبهوا أيها الناس لهذا الإله "أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ" الغالب كامل القدرة لا مثيل له "الْغَفَّارُ 5" كثير المغفرة واسع الرحمة عظيم الفضل كثير الإحسان لمن تفكر واعتبر بمصنوعاته ، كما أنه قاصم الرقاب ومهلك ألباب من لم يتعظ ويتدبر بآياته ومبتدعاته فهو الإله الواحد العظيم الذي "خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ" هي نفس آدم عليه السلام "ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا" حواء رضي اللّه عنها لأنه خلقها من ضلعه فهو من تراب وهي من عظم ولحم ودم وسائر الخلق من النطف والتكوين سبحانه نوع خلقه أربعة أنواع متقابلة ، خلق آدم بلا أب ولا أم وحواء من أب بلا أم وعيسى من أم بلا أب وبقية البشر من أب وأم "وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ" لما كانت الأنعام لا

تعيش إلا بالنبات ، والنبات لا يقوم إلا بالماء ، والماء ينزل من السماء ، قال تعالى (وَأَنْزَلَ) أي أحدثها وأنشأها بأسباب نازلة من السماء كالأمطار والثلوج وأشعة الكواكب الناشئ عنها العشب الذي تقتات به الحيوانات ، وهذا على حد قوله تعالى (قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً) الآية 26 من الأعراف في ج 1 ، لأن اللباس نفسه لم ينزل من السماء وإنما أنزل الماء فأنبت القطن وغيره من كل ما ينسج والنبات الذي غذى متنه الحيوان الذي يحصل منه الصوف والشعر والوبر وغيره وأنعش دود القز وشبهه الذي يحصل منه الحرير وغيره فاتخذت الألبسة منها ، وقال بعضهم معنى (أَنْزَلَ) قضى وحكم وقسم ، وأراد بأن قضاء اللّه تعالى وقسمه يوصف بالنزول من السماء لأنهما مدونان باللوح المحفوظ وكل ما يقع في الكون فهو نازل مما هو مكتوب فيه ، وهو كما ترى "ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ" تقدم بيانها في الآية 143 من سورة الأنعام المارة "يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ" أنتم وأنعامكم وغلب في الخطاب من يعقل على من لا يعقل لشرفه عليه .

واعلم أن مخلوقات اللّه تعالى ما يكونه تكوينا فيكون بنفسه من غير البطن وهذا داخل في لفظ الخلق ويكون

خلقه تدريجا حتى يكمل فيدخل في قوله تعالى خلقا من بعد خلق أما الإنسان وقسم من الحيوان فيكون "خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ" في الرحم المشتمل عليه البطن من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى لحم وعظم "فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ" ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة وهي

الجلدة الرقيقة التي تشتمل على الجنين "ذِلِكُمُ" أيها الناس الذي يفعل هذه الأشياء وغيرها مما لا يطيق على جزء بعضه أعظم البشر ولو كان بعضه لبعض ظهيرا هو "اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ" كله وحده "لا إِلهَ إِلَّا هُوَ" الذي لا يستحق العبادة غيره فهو المعبود الحق "فَأَنَّى تُصْرَفُونَ 6" أي كيف تعدلون عن الحق إلى الباطل بعد أن اتضح لكم .

(81/664)

ولهذا البحث صلة في الآية 12 من سورة المؤمنين الآتية والآية 4 من سورة الحج في ج 3 ، واعلموا أيها الناس أنكم "إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ" وأنتم محتاجون إليه "وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ" لأنه يؤدي بهم إلى النار ، ولذلك ينهاهم عنه ويرضى لهم الإيمان المؤدي إلى الجنان ولذلك يأمرهم به ، والرضى بالشيء مدحه والثناء عليه والله تعالى قد ذم الكفر وقبحه وحبذ الإيمان ومدحه ، والفرق بين الإرادة والرضى ظاهر وإن إرادته منهم لا يعني أنه أمرهم به أو رضيه عنهم ، راجع الآية 149 من سورة الأنعام المارّة وما ترشدك إليه تقنع "وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ" (يقرأ باختلاس ضم الهاء حتى يرضه لا بالإشباع) لأن في الرضا نجاتكم من العذاب وفوزكم بالجنة ، ويفهم من هذه الآية أن الله تبارك وتعالى أراد بالشكر هنا الإيمان لمجيئه بمقابلة الكفر ، غير أنه إذا فسر الكفر فيها بكفران النعمة والشكر

بشكرها أولى لأن الآية عامة وابقاء اللفظ على عمومه أولى من تخصيصه بدون صارف يصرفه عن عمومه ولكن لم أر من قال به ولذلك قدمنا ما عليه الجمهور والاتباع خير من الابتداع "وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى" تقدم تفسيرها في الآية 18 من سورة فاطر والآية 38 من سورة والنجم في ج 1 والآية 164 من سورة الأنعام المارة "ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ" في الآخرة "فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" في الدنيا ويجازيكم عليه دون حاجة إلى سؤال أو اعتراف أو شهود "إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ 7" ومن كان عالما بخفيّات الأمور

و سرائرها فهو بعلانيتها وظواهرها أعلم "وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ" من كل ما يتضرر به الإنسان أو يتألم منه مادة ومعنى "دَعا رَبَّهُ مُنِيباً" راجعا خاضعا خاشعا مستغيثا "إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ" أعطاه وأعاره وراعاه ومعنى خوّله جعله ذا خول أي عبيد وإماء وخدم وأصله تعهد الشيء والرجوع إليه مرة بعد أخرى والمحافظة عليه وأطلق على العطاء "نِعْمَةً مِنْهُ" تفضلا منه لا لغرض ولا لعوض "نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ" وهو الضر وترك الدعاء أيضا بكشفه ، ولم يكتف بهذا الصدود عن ذلك المنعم بل مال إلى الافتراء عليه "وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً" أمثالا صيرها آلهة معه ولم يقتصر على ضلاله بل عمد "لِيُضِلَّ" غيره "عَنْ سَبِيلِهِ"

الحق القويم ، فيا أكرم الرسل "قُلْ" لهذا الكافر وهو على ما قيل عتبة بن ربيعة أو حذيفة المخزومي "تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا" في هذه الدنيا الفانية لأنها بالنسبة للآخرة قليل ومهما عاش بها ابن آدم أو ملك منها فهو قليل وقد تهون بعين المؤمن إذ يرجو عند ربه خيرا منها وتعظم بعين الكافر لكونه صفر اليدين في الآخرة إذ يقال له فيها "إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ 8" أجارنا اللّه منها ، وهذه الآية عامة في كل من هذا شأنه ومن قال بأنها نزلت في أحد المذكورين فقوله لا يخصصها لأن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ كما أن قوله تعالى "أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ" عامة أيضا في كل من كان ديدنه ذلك .

(83/664)

وما جاء أنها نزلت في أبي بكر أو عمر أو عثمان رضي اللّه عنهم وكلهم أهل لأن ينزل فيهم قرآن وأن يوصف بما في هذه الآية لا يخصصها أيضا "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ" استفهام إنكاري أي لا يستوون عند اللّه وعند عقلاء الأمة لأن العالم من ينتفع بلبّه لقوله تعالى "إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ 9" بآيات اللّه والجهال لا قلوب لهم حيّة تعي ذلك فلا يتذكرون ولا يذكرون .

مطلب في الخوف والرجاء والتعريض بالهجرة لمن ضاقت به أرضه :

يستدل من هذه الآية أن جانب الرجاء أكمل وأولى أن ينسب إلى اللّه تعالى لأنه أضيف في هذه الآية الحذر في مقام الخوف للنفس الإنسانية ، وأضيفت الرحمة

في مقام الرجاء إلى الحضرة الربانية ، ويؤيد هذا ما روي عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم دخل على شاب وهو في الموت (أي محتضر) فقال له :

(84/664)

كيف تجدك ؟ قال أرجو اللّه يا رسول اللّه وأخاف ذنوبي ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه تعالى ما يرجو وآمنه مما يخاف – أخرجه الترمذي – فيجب على المؤمن أن يكون دائما بين الخوف من عقاب اللّه بالنظر لتقصيره تجاهه والرجاء لرحمته بالنظر لواسع فضله ، وفي حالة الصحة يرجح الخوف على الرجاء ، وفي حالة الشدة يغلب الرجاء على الخوف ، ولا ينبغي أن يبالغ في الرجاء فإنه إذا جاوز حده يكون أمنا واللّه تعالى يقول (فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ) الآية 99 من سورة الأعراف المارة في ج 3 ، ولا يبالغ في الخوف فإنه إذا جاوز حده يكون يأسا وقال اللّه تعالى (إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ) الآية 87 من سورة يوسف المارة ،

وافتتح اللّه تعالى هذه الآية بالعمل وختمها بالعلم لأن العمل من باب المجاهدات وهو البداية في سلوك طريق اللّه السوي والعلم من باب المكاشفات وهو النهاية لبلوغ المقصد العلي فإذا حصلا للإنسان دل ذلك على كماله وفضله ، قال تعالى "قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ" بامتثال أوامره واجتناب نواهيه فإن "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا" العمل بعد الإيمان والتقوى "فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ" عظيمة في الآخرة لا مثيل لها ولا توصف لأنها من قبل من ليس كمثله شيء "وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ" لا تضيق بكم فإذا رأيتم جورا في قسم منها فاتركوه وانزلوا غيره ، وهذه أول آية عرّض اللّه بها إلى رسوله بالهجرة من مكة لأنها ترمز إلى أنه إذا لم يتمكن الإنسان من فعل الإحسان الذي أمره ربه به في وطنه فليهجرها ويهاجر إلى غيرها من بلاد اللّه تعالى مما يمكنه إجراء ما أمر به من العبادة كما فعل الأنبياء والصالحون من قبل إذ تركوا أوطانهم التي أهينوا فيها لأجل اللّه وتوطنوا غيرها ، فلا عذر لكم بأن

لا تحسنوا في أعمالكم وأقوالكم بسبب بقائكم بأرض يمنعكم أهلها من ذلك ، واصبروا على مبارحة دياركم ومفارقة تعلقاتكم من أهل ومال وجاه ونشب وعشيرة "إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ" عند اللّه الذين صبروا من أجله "بِغَيْرِ حِسابٍ 10" بشيء كثير

لا يعرف حسابه ولا يهتدي إليه حاسب ، وذلك لأنهم صبروا على الجلاء طاعة للّه تعالى وطلبا لازدياد فعل الخير ولئلا يفرطوا بأوقاتهم دون أن يقدّموا للّه تعالى بها حسنات ، قال علي كرم اللّه وجهه : كل مطيع يكال له كيلا ويوزن له وزنا إلا الصابر فإنه يحثى له حثيا .

وروي أنه يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صبا بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا لو أن أجسادهم تقرض بالمقاريض لما يذهب به أهل البلاء من الفضل .

وهذه الآية عامة مطلقة محكمة ولا تزال كذلك إلى آخر الزمان ، وما جاء من الآثار بأنها نزلت في سيدنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة لأرض الحبشة لا يقيدها ولا يخصصها لما تقدم آنفا في الآية 8 و10 ، وعلى هذا فإنه يجب على كل من لم يتمكن من القيام بأمر دينه كما ينبغي في بلدة ما أن ينتقل إلى غيرها لإقامة شعائر دين اللّه كما هو مفروض عليه ولا عذر له بالتفريط لأن اللّه تعالى لم يضيق عليه ولم يقسر خلقه على الإقامة في بلد واحد بل وسع عليهم بالنقلة وجعلهم بالخيار ، فأي قرية أراد الإقامة فيها لأمر دينه ودنياه أيضا فله ذلك وجاء في الخبر عن سيد البشر أن من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وجبت له الجنة .

فعلى العاقل البصير المتفكر أن لا يصغي لوساوس الشيطان من تخويفه بضيق العيش قال تعالى (وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَسَعَةً) الآية 100 من سورة النساء في ج 3 ، ولهذا البحث صلة واسعة في تفسيرها وفي الآية 55 من سورة العنكبوت الآتية إن شاء اللّه القائل

"قُلْ" يا سيد الرسل "إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ 11" وحده لا لغيره ولا تكرار في هذه الآية لأن الأولى خطاب من اللّه إلى رسوله ، وهذه أمر من اللّه إليه بأن يفهم قومه غاية عبادته وأن يقول لهم أمرت بالإخلاص لعبادته فأخلصوا أنتم العبادة إليه "وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ 12" من هذه الأمة كما كان جدي إبراهيم عليه السلام راجع الآية 163 من سورة الأنعام المارة والآية الأخيرة من سورة الحج في ج 3 ، فاتبعوني وأسلموا للّه تفوزوا بخيري الدنيا والآخرة ، "قُلْ" يا سيد الرسل "إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي" في هذه الدنيا بعدم تبليغكم ما أمرني به "عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ 13" وهو يوم القيامة الذي لا أعظم منه هولا ،

وقدمنا في الآية 15 من سورة الأنعام نظير هذه الآية وانها نزلت حين قال كفار قريش لحضرة الرسول ما حملك على ما أتيتنا به ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وقومك فتأخذ بها ليجتمع عليك فخذك وعشيرتك ومن والاهم فأنزل اللّه هذه الآية وفيها مزدجر عظيم لمن ألقى السمع لمعناها وكان له قلب يعي مغزاها لأنه صلّى اللّه عليه وسلم مع جلالة قدره وشرف طهارته ونزاهته وعلو مقامه ومنصبه خائف حذر من هول ذلك اليوم ووجل مما يكون فيه فكيف بنا يا ويلنا إن لم يرحمنا اللّه ، ثم أكد عليه ربه بقوله "قُلِ" لقومك الذين يريدونك على دينهم الباطل لا أتبع أهواءكم وإنما أعبد "اللّه مُخْلِصاً لَهُ دِينِي 14" لا أرغب في عبادة شيء غيره وإن ما يعبده آبائي وقومي باطل وإنكم على ضلال باتباعهم ، أخبر اللّه سبحانه في هذه الآية أنه صلّى اللّه عليه وسلم يخص اللّه وحده بعبادته ويخلص لجلاله دينه ، وفي الآية الأولى أي الثانية بالنسبة للآية التي بصدر هذه السورة أنه مأمور بالعبادة والإخلاص للّه تعالى فلا تكرار أيضا لأن الكلام أولا واقع في نفس الفعل وإتيانه ، وثانيا فيما يفعل الفعل لأجله ، ولهذا رتب عليه قوله جل قوله "فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ" ففيه الخسار العظيم والوبال الشديد عليكم ، وهذه الجملة فيها تهديد ووعيد وليست من باب الأمر بل من باب التبليغ والزجر يدل عليه قوله عز قوله "قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ" فهولاء الكاملون في الخسران الجامعون لوجوهه وأسبابه باختيارهم الكفر ورضاهم به وقد وصف اللّه تعالى خسرانهم بغاية الفظاعة بقوله

سبحانه تنبيها لاجتنابه "أَلا ذِلكَ" الخسران المزدوج "هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ 15" لأن أهله استبدلوا الجنة بالنار والدرجات بالدركات في الآخرة كما استبدلوا الطاعة بالعصيان والتصديق بالجحود في الدنيا ثم بين

(88/664)

نوعا من هذا الخسران فقال "لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ" أطباق وأعطية "مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ" فراش ومهاد ، وهذا من باب اطلاق اسم الضدين على الآخر لأن الظلل لا تكون من تحت بحال من الأحوال لمعلوميتها كما تقول (خرق الثوب المسمار) برفع الثوب ونصب المسمار لمعلوميته أيضا إذ لا يكون الثوب خارقا للمسمار بحال ما البتة .

مطلب المراد بالتخويف للمؤمنين والأخذ بما هو أحسن وأنواع البشارات للمؤمن :

(89/664)

"ذِلكَ" العذاب الشديد "يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ" المؤمنين لأنهم هم المنتفعون بالتخويف ، فإذا سمعوا ما نعى الله من حال الكفار في الآخرة الذين رجحوا الباطل على الحق وأهلكوا

أنفسهم وأهليهم الذين اتبعوهم على ما هم عليه اشتدّ وجلهم وأكثروا من إخلاصهم لربهم وبالغوا في توحيده وداوموا على طاعته وأكثروا من تمجيده ، ولهذا فإنه تعالى قد شرفهم بإضافتهم لذاته المقدسة فناداهم حرصا عليهم "يا عِبادِ فَاتَّقُونِ 16" واجعلوا خشيتي نصب أعينكم ولا تتعرضوا إلى سخطي فقد حذرهم نفسه بعد أن خوفهم ناره التي وعدها لعصاته ، وقال بعض المفسرين إن التخويف خاص بالكافرين طلبا للإيمان به ، ولكن ما جرينا عليه أولى لئلا يختلف المراد من الجملة الثانية عن الأولى إذ لا شك أن المراد بالثانية المصدرية (يا عِبادِ) المؤمنين خاصة كالآية الأولى ونظيرها الآية 41 من سورة الأعراف في ج 1 ، وقال بعض المفسرين : المراد بالآية المؤمنون والكافرون ، وهو وجيه لولا إضافة التشريف والاختصاص لجنابه المنيع ، وهناك قول بأن الإضافة لا تختصّ بالمؤمنين فقط وإن كان فيها ما فيها من التشريف الذي يختص به المؤمنون غالبا لأن الكل عباده وقد استدل صاحب هذا القول بقوله تعالى (بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) الآية 5 من سورة الإسراء في ج 1 ، وهم ليسوا بمؤمنين وقد بينا المراد بها فراجعها ، قال تعالى "وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها" تباعدوا عن عبادتها لأن أن وما بعدها في تأويل المصدر والطاغوت مبالغة الطغيان راجع الآية 74 من الأنعام المارة ، فتجافوا عنها "وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ" رجعوا بكليتهم إليه وتركوا تقليد آبائهم بعبادتها عن رغبة وإخلاص فهؤلاء "لَهُمُ

الْبُشْرى " من قبل رسلهم بالجنة عن إيمانهم ومن قبل المؤمنين بالثناء عليهم بالأعمال الصالحة في الدنيا وتبشرهم الملائكة بثوابها

(90/664)

عند موتهم فتقرّ أعينهم وفي قبورهم أيضا تبشرهم بالأمن من عذابها وفي الموقف عند بعثهم تتلقاهم بالبشارة بالخلاص من هوله وفزعه وبعد الحساب تبشرهم بالفوز والنجاة وعند الصراط تبشرهم بالسلامة وعند دخول الجنة تبشرهم بالدرجات العالية ، اللهم اجعلنا منهم .

ثم خاطب حبيبه بقوله يا سيد

الرسل "فَبَشِّرْ عِبادِ 17 " ثم خصّهم بقوله "الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ" مطلق عام في كل قول ولا وجه لتخصيصه بالقرآن العظيم كما ذكره بعض المفسرين بلا دليل يستند إليه "فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ" مدحهم اللّه جلّ مدحه لتمييزهم بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل فإذا اعترضهم ما هو واجب فعله وما هو مندوب اختاروا الواجب ، وإذا اعترضهم مكروه ومباح اختاروا المباح ، وكذلك يختارون ما هو أكثر ثوابا ، فيتركون الانتقام لأنفسهم ممن ظلمهم مع القدرة عليه ويركنون للعفو عمن تعدى عليهم مطلقا ، ويختارون العفو على

القصاص ، ويميلون إلى التصدق بالفضل عن الصدقة المفروضة ، وهكذا يميلون إلى الأحسن عند اللّه ولو فيه هضم حقهم .

وليعلم أن ما أمر اللّه به ورسله كله حسن وقد يكون فيه أحسن بحسب التفاضل بالعمل به من حيث كثرة الثواب وإذلال النفس كما في العفو عن القصاص والتصدق بالفضل وتكرار الحج والإكثار من صلاة النّفل وذكر اللّه والأخذ بالعزيمة وترك الرخص وما أشبه ذلك راجع الآية 145 من سورة الأعراف في ج 1 تجد ما يتعلق في هذا ، وما هو موافق لشرعنا من الشرائع القديمة ، وما هو مخالف له ، وله صلة في الآية 42 من سورة الشورى الآتية وفي الآية 55 من هذه السورة أيضا .

(91/664)

هذا ، وما قاله ابن عباس رضي اللّه عنهما من أن هذه الآية نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد حينما جاءوا على أبي بكر رضي اللّه عنهم جميعا وأخبرهم بإيمانه وآمنوا كلهم لا يخصصها فيهم بل هي عامة في كل محتسب تائب نائب إلى ربه .

واعلم أن هؤلاء السبعة والسادة عمر وعلي وعامر بن الجراح هم العشرة المبشرون بالجنة

الفائزون بخير الدنيا والآخرة ، وقد سألت اللّه أن يحشرني مع سعد بن أبي وقاص عند تفسير الآية 14 من سورة لقمان المارة والآن أوكد رجائي من ربي بذلك "أُولَئِكَ" الموصوفون هم "الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ" إلى طريقه المستقيم فوحدوه وعبدوه ومجدوه كما ينبغي لذاته المقدسة "وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ 18" القلوب الواعية المنتفعون بعقولهم ، قال تعالى "أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ" بنص قوله تعالى (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ) الآية 120 من سورة هود المارة وقوله في الحديث

القدسي :

(92/664)

(هؤلاء إلى النار ولا أبالي) ممن اختاروا الكفر على الإيمان والضلال على الهدى فاستحقوه ، أيقدر أحد أن ينجيهم منه كلا "أَ فَأَنْتَ" يا حبيبي تقدر "تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ 19" كلا لا تستطيع ذلك البتة لدخولهم في حكمه الأزلي ولا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ، قال ابن عباس يريد به أبا لهب ولكن الآية عامة كما ترى يدخل فيها كل من حقت عليه كلمة العذاب من جميع الكفار لأنها مسوقة في أضداد الموصوفين بالآية المتقدمة التي حكمها عام أيضا ، قال تعالى "لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ" هذا استدراك بين ما ليشبه النقيضين والضدّين

وهم المؤمنون والكافرون وأحوالهما ، والمراد بالمتقين هنا الموصوفون بتلك الخصال العالية والأخلاق السامية "لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ" جمع غرفة وهي العلّية "مَبْنِيَّةٌ" بعضها فوق بعض "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ" لتمام الزينة وكمال النظارة لا لحاجة الشرب لأن أهل الجنة لا يكلفون السقيا منها فإذا أرادوا الشرب ناولهم الخدم ما يشتهون من أنواع الأشربة ، وهذا الذي ذكر من الإكرام للمتقين هو "وَعْدَ اللَّهِ" لهم بذلك على لسان رسلهم وعدا مؤكدا "لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ 20" الذي وعده عباده وحاشاه من ذلك وهو الآمر عباده بإنجازه .

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدريّ الغابر في الأفق من الغرب أو المشرق لتفاضل ما بينهم ، فقالوا يا رسول اللّه تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا باللّه وصدقوا المرسلين .

(93/664)

قال تعالى "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً" بحسب ما نرى راجع الآية 44 من سورة هود المارة "فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ" أنهارا وعيونا وجداول وبركانا تخرج من عروق الجبال والأرض كعروق الجسد في الحيوان التي تجري فيها الدماء "ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ" بالماء النازل

على وجه الأرض أو بالمستقر بالبرك والعيون والجاري في الجداول والأنهار إذا سقى به الأرض بالدلاء والنواعير والآلات الحديدية والسيح وغيره "زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ" أخضر وأسود وأزرق وأبيض وأحمر وأصفر وما بين ذلك من الألوان ، لأنك إذا مزجت بعضها ببعض يظهر منها ألوان أخر

(94/664)

لأن أصل الألوان أربعة : أبيض وأسود وأحمر وأخضر ، فإذا مزجت الأبيض مع الأحمر صار أخضر وهكذا "ثُمَّ يَهِيجُ" يثور والمراد بالهيجان هنا والله أعلم أن يجف وييبس وهذا من مجاز المشارفة لأن الزرع إذا تم جفافه يشرف على أن يثور ويذهب من منابته وانه بعد تلك الألوان البهية المختلف أزهارها "فَتَراهُ مُصْفَرًّا" إذ تحيل لونه الكواكب والأرياح بما يضع الله فيها من التأثير وهو الملك القدير الذي أنبته من لا شيء "ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً" هشيما مفتتا بعد ما كان يهتزّ بالأرض الرابية به المزدهرة بنوّاره "إِنَّ فِي ذلِكَ" الإنزال والإدخال والإخراج والإنبات والألوان والجفاف والتفتيت "لَذِكْرى" عظيمة وعبرة كبيرة وعظة جسيمة "لِأُولِي الْأَلْبابِ 21" المنتفعين بعقولهم المستدلين بها على كمال قدرة الإله العظيم وفي إعادة هذا الزرع بعد يبسه وفتاته دليل على البعث بعد الموت ، قال تعالى "أَ فَمَنْ شَرَحَ

اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ" فاهتدى به "فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ" وبصيرة ويقين من أمره وهذا ليس كمن طبع اللّه على قلبه فقسى وضل والعياذ باللّه فتاه في ظلمات الجهل "فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ" والقسوة جمود وصلابة في القلب ومما يزيدها كثافة الغفلة عن ذكر اللّه تعالى ومما يصقلها وينورها دوام ذكر اللّه ، وإذا كانت النفس خبيثة الجوهر لا يزيدها سماع ذكر اللّه إلا كدورة لتراكم الرّين عليها وتلبد الصدأ ، وإذا كانت طيبة الجوهر فذكر اللّه يصقلها ويرققها ويلينها لطهارتها ونظافتها وذلك كالشمس فإن حرارتها تعقد الماء ملحا وتلين الشمع الجامد وقد تذيبه بالنظر لجوهر كل وقابليته ، هكذا ذكر اللّه وتلاوة كتابه إذا سمعها الكافر إزداد قلبه قساوة وجحودا وإذا سمعها المؤمن ازداد قلبه لينا ورقة وفناء في اللّه بحسب جوهر كل وقابليته ، يؤيد هذا قوله تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ

(95/664)

إِيماناً . . .

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ) الآية 114 فما بعدها من سورة التوبة في ج 3 فراجعها "أُولئِكَ" قساة القلوب "فِي ضَلالٍ مُبِينٍ 22" لا خفاء عليه ، إذ حقت عليهم كلمة العذاب ، وهذه الآية عامة في كل من هذا شأنه من الفريقين فيها ، وما

جاء أنها نزلت في أبي بكر الصديق وأبيّ بن خلف الزنديق أوفي حضرة الرسول الكامل وأبي جهل العاطل

أو في علي وحمزة وأبي لهب وولده لا يقيدها عن إطلاقها ولا يخصصها عن عمومها ، لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، فيدخل فيها من شرح اللّه قلبه للإسلام من المشار إليهم وغيرهم وقساة القلوب المذكورون وأضرابهم دخولا أوليا وتشمل كل من على شاكلة الفريقين المرضي عنهم وعليهم والمغضوب عليهم من ساعة نزولها إلى قيام الساعة ، وقد ألمعنا لهذا البحث في الآية 125 من سورة الأنعام المارة ففيها ما يشفي الغليل ويكفي النبيل ، قال تعالى "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ" هو القرآن لأنه فاق ما تقدمه من الكتب والصحف كلها فضلا عن الأحاديث النبوية من جهة اللفظ ، لأنه أفصح وأجزل وأبلغ في كل كلام ، ومن جهة المعنى لأنه منزه عن التناقض والاختلاف ، ومن جهة المضمون لاشتماله على كل ما أنزل اللّه عن الأنبياء السالفين ، ومن جهة الإعجاز لأن اللّه تعالى تحدى بسورة منه الإنس والجن ومن جهة الأخبار بالغيب لأنه أخبر عما وقع قبل نزوله وأشار لما يقع بعد ، ولفظ الحديث في الآية كناية عن أنه كلام محدّث به لا بمعنى أنه مقابل للقديم ، ومن قال بالتلازم من الأشاعرة القائلين بحدوث الكلام اللفظي جعل الأوصاف الدالة على الحدوث لذلك الكلام اللفظي لا لكلام اللّه الأزلي الخالي عن الصوت والحرف ، لأن كلام اللّه قديم كذاته

والكلام في هذا يجر إلى الكلام بخلق القرآن وعدمه وقد عقدت له مطلبا خاصا في المقدمة فراجعه .

(96/664)

وقد يطلق لفظ الحديث هنا على القرآن من باب المشاكلة فقد جاء عن ابن عباس رضي اللّه عنهما في سبب نزول هذه الآية أن قوما من الصحابة قالوا يا رسول اللّه حدثنا بأحاديث حسان وبأخبار الدهر فنزلت .

ثم وصف قوله أحسن الحديث لكونه "كِتَاباً مُتَشَابِهاً" في وعظه وحكمته وإعجازه وآياته ليصدق بعضه بعضا وكونه "مَثَانِيَ" يثنى بالتلاوة ويكرر فيه الأمر والنهي والوعد والوعيد والقصص والأخبار والأمثال والأحكام "تَقْشَعِرُّ" ترجف وتضطرب وتتحرك "مِنْهُ" من سماعه والنظر إليه "جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ" عند سماع آيات العذاب والوعيد والتهديد ، والاقشعرار هو تقبض الجلد تقبضا شديدا عند عروض خوف شديد ودهوم أمر هائل بغتة فيقال اقشعر جلده وقف شعره وقلوبهم أيضا تقشعر بدليل قوله "ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ" عند سماع آيات الرحمة .

مطلب في الصعق الذي يحصل لبعض الناس عند تلاوة القرآن وسماع الذكر :

روي عن العباس بن عبد المطلب أنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إذا اقشعر جلد المؤمن وفي رواية العبد من خشية اللّه تعالى تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها .

وروي عن عبد اللّه ابن عروة بن الزبير قال لجدته أسماء بنت أبي بكر رضي اللّه عنهم كيف كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن ؟ قالت : كانوا كما نعتهم اللّه عز وجل تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم قال فقلت لها إن أناسا اليوم إذا قرىء عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشيا عليه ، قالت أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم أي أنها استنكرت ما سمعته .

وروي أن ابن عمر مر برجل من أهل العراق ساقط فقال ما بال هذا ؟ قالوا إنه قرىء عليه القرآن أو سمع ذكر اللّه فسقط ، قال ابن عمر إنا لنخشى اللّه وما نسقط ، يريد انتقادهم .

(97/664)

وقال ما كان هذا صنيع أصحاب محمد قال ابن سيرين : بيننا وبين هؤلاء أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجليه ثم يقرأ القرآن من أوله إلى آخره (أي بحضوره على تلك الصفة) فإن رمى بنفسه فهو صادق .

وقال عبد اللّه بن الزبير : جئت أمي فقلت وجدت قوما ما رأيت خيرا منهم قط يذكرون اللّه تعالى فيرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية اللّه تعالى فقالت لا تقعد معهم .

ثم قالت رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يتلو القرآن ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يصيبهم هذا أفتراهم أخشى من أبي بكر وعمر .

وقال قتادة في هذه الآية : إن اللّه نعت أولياءه بالقشعريرة والبكاء واطمئنان القلب إلى ذكر اللّه ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم ، إنما هذا من أهل البدع ، وإنما هو من الشيطان .

وقال ابن جبير الصعقة من الشيطان .

واعلم أن هذه الأخبار وأمثالها تنعى على السادة الصوفية صعقهم وتواجدهم وضرب رءوسهم بالأرض وأيديهم بعضها ببعض عند سماع القرآن وبأثناء الذكر والقصائد الإلهية والمحمدية وما هو منها في ذكر بعض الأكابر من العارفين ، وعذرهم في ذلك حسبما تقوله مشايخهم لضعف القلب عن تحمل الوارد من معاني الآيات والأذكار وأوصاف الكاملين وما وقع منهم أو عليهم ، فإن من يقع منه ذلك ليس في الكمال والمناقب كأصحاب رسول اللّه والتابعين في الصدر الأول لضعف قوة تحملهم ، وهو دليل نقصهم عن مراتب الكمال ، لأن

السالك لطريقهم إذا كمل رسخ وقوي قلبه ولم يصدر منه شيء من ذلك ، ويقولون ليس في

هذه الآية وشبهها أكثر من اثبات الاقشعرار واللين وليس فيها نفي اعترائهم حالة أخرى ، بل في الآيات إشعار بأن المذكور فيها حال الراسخين الكاملين لقوله تعالى (يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) فعبر بالموصول ومقتضى معلومية الصلة أن لهم رسوخا في الخشية .

(98/664)

وفي كلام ابن سيرين ما يؤيد ذلك ومن حمل الأمر على غير الكاملين أجاز وقوعه من غيرهم ومتى ما كان الأمر ضروريا فلا اعتراض على من يتصف به وإنا نرى وقوع هذا كله من بعض المريدين لا منهم كلهم ولم نر هكذا أحوالا من مشايخهم بما يدل على أن الوصول لدرجة الكمال تحول دون ذلك أما ما يقع من بعض المتصوفة رياء وسمعة باختياره وقصده فذلك هو الذي تعوذت منه أسماء رضي اللّه عنها وقال فيهم قتادة وابن جبير وغيره ما قالوه آنفا ، وقدمنا في الآية 43 من سورة المزمل ج 1 ما يتعلق بها فراجعه ، وله صلة في الآية 31 من سورة الرعد في ج 3 وفي مراجعة هذا وذاك تعلم أن الصعق له أصل صحيح في الشرع فسلم له وإياك أن تعترض على هؤلاء السادة فإن لحومهم مسمومة واللّه تعالى ينتصر لهم لأنهم أولياؤه ، وقد جاء في الحديث القدسي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال :

من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وإن اللّه جلت عظمته لم يطلب محاربة أحد من عباده عدا صنفين هؤلاء وأكلة الربى إذ يقول جل قوله (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ) الآية 280 من سورة البقرة في ج 3 .

(99/664)

هذا وقد يكون من هؤلاء السادة من لا ناصر له إلا اللّه وقد حذر حضرة الرسول من ظلم من لا ناصر له ، وروي عنه أنه قال : اشتد غضب اللّه على من ظلم من لا يجد ناصرا غير اللّه ، وروى الطبراني في الكبير والضياء في المختار وابن أبي عاصم والخرائطي في مساوئ الأخلاق أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام يقول اللّه وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين "ذَلِكَ" الحديث الحسن هو "هُدَى اللَّهِ" وقرآنه المنزل على رسوله من اللوح المحفوظ وكلامه الأزلي "يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ" هدايته إلى دينه القويم "وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ" من قساة القلوب "فَما لَهُ مِنْ هادٍ 23" يهديه البتة ، قال تعالى "أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ"

بالأعمال الصالحة التي قدمها في دنياه كمن هو آمن منه كلا ليس سواء لأن غير المتقي ظالم وفي ذلك اليوم يهلك الظالمون بدليل قوله عز قوله "وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ" من قبل خزنة جهنم

"ذُوقُوا" هذا العذاب جزاء "ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ 24" في الدنيا من الآثام ، قال تعالى يا أكمل الرسل لا تحزن على ما ترى من قومك فقد "كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" رسلهم كما كذبوك هؤلاء "فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ" من عندنا بعد إصرارهم على الكفر بغتة "مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ" 25 على حين غفلة وساعة غرة من حيث لا يخطر ببالهم وقوعه وفي حالة لا يتوخون بها حدوثه "فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ" الذل والهوان "فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ" وأشد وأعظم "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ 26" ذلك علما يقينا لآمنوا واعتبروا من قبلهم ولما عبدوا ما لا يعقل ولا يبصر ولأخلصوا عبادتهم للإله الواحد ولما مسهم السوء .

(100/664)

قال تعالى "وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ" يحتاج إليه الناظر في أمور الدنيا والدين "لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ 27" ولم يتذكروا لأنهم لم يشغلوا حواسهم فيما خلقت لها فطمس الله عليها وحرمهم فوائدها وجعل هذا القرآن "قُرْآنًا عَرَبِيًّا" بلغتك ولغة قومك "غَيْرَ ذِي عِوَجٍ" مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف وأنزله على خير رجل منهم ومن جنسهم "لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ 28" الكفر والتكذيب وقدم التذكر في الآية الأولى على التقوى في هذه الآية لأن الإنسان إذا تذكر وعرف الشيء ووقف على فحواه اتقاه واحترز منه واجتنبه ، قال

تعالى (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ) متنازعون بخدمته يتجاذبونه بينهم لسوء أخلاقهم وقلة آدابهم (والشّكس السيء الخلق) "وَرَجُلًا" عبدا مملوكا أيضا "سَلَماً لِرَجُلٍ" خاصا له وحده "هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا" أي لا يستويان في الصفة والحالة ، لأن الاستفهام هنا إنكاري لا يجاب إلا بالنفي "الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ 29" أن اللّه تعالى وحده هو المستحق للعبادة وهذا مثل ضربه اللّه تعالى للكافر الذي يعبد آلهة متعددة فلا يعلم أيهم يرضى منه وأيهم يسخط والمؤمن الذي يعبد اللّه وحده فهو على بينة من أمره .

وليعلم أن إيراد المثل في

القرآن هو للتذكر والاتعاظ به والمراد بضربه لتطبيق حالة عجيبة بأخرى شبهها وجعلها مثلها ، وعليه يكون المعنى أن اللّه تعالى يقول لرسوله اضرب لهم هذا المثل واسألهم أي هذين أحسن وأحمد "إِنَّكَ" يا سيد الرسل "مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ 30" نزلت هذه الآية في كفرة قومه صلّى اللّه عليه وسلم الذين كانوا يتربصون موته ليتخلصوا منه قاتلهم اللّه ، كيف وهو إنما أرسل رحمة لهم وكان يجهد لنفسه ليخلصهم من عذاب اللّه ؟

(101/664)

يقول اللّه تعالى له لا يتمنوا لك يا حبيبي الموت فكلهم ميت ولا شماتة في الموت لأنهم مثلك يموتون كما تموت ولا سواء لأنك تلاقي ربك في جنته وهم يلاقون العذاب بناره والميت بالتشديد والتخفيف من حل به الموت وأنشد أبو عمرو :

تسألني تفسير ميت وميّت فدونك قد فسرت إن كنت تعقل

فمن كان ذا روح فذلك ميّت وما الميت إلا من إلى القبر يحمل

راجع الآية 9 من سورة فاطر في ج 1 لتستوفي هذا البحث ، قال تعالى

"ثُمَّ إِنَّكُمْ" أيها الناس بركم وفاجركم "يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ 31"

مطلب الخصومة يوم القيامة وضمير صدق به ومراتب التقوى :

لما نزلت هذه الآية قال الزبير يا رسول اللّه أتكرر علينا الخصومة بعد الذي كان منا في الدنيا ؟ قال نعم ، فقال إن الأمر إذا لشديد .

رواه عبد اللّه بن الزبير وأخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال : كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم حنين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا .

وعن إبراهيم قال لما نزلت هذه الآية قالوا كيف نختصم ونحن اخوان فلما قتل عثمان قالوا هذه خصومتنا .

وقال ابن عمر : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين وقلنا كيف نختصم وديننا

واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت بأنها فينا نزلت .

وروى البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال :

من كانت عنده مظلمة لأخيه عن عرض أو مال فليتحلله اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحملت عليه .

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم

(102/664)

قال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا إن المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذت من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار .

واعلم أن من الناس من يموت فيخلص الناس من شره ، ومنهم من يموت فتبكيه الناس أجمع ، فاحرص أيها العبد أن تكون الثاني .

قال أبو الحسن الأسدي : مات رجل كان يعول اثني عشر ألف إنسان فلما حمل في النعش على أعناق الرجال حصل له صرير فقال رجل في الجنازة :

وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه أعناق قوم تقصّف

وليس فنيق المك ما تجدونه ولكنه ذاك الثناء المخلّف

(103/664)

قال تعالى "فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ" فأضاف له شريكا فجعل له بنين وبنات "وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ" الأمر الذي هو الصدق نفسه وهو ما جاء به محمد صلّى اللّه عليه وسلم الصادق المصدوق "إِذْ جاءَهُ" على لسان نبينا وأميننا من لدنا فانتبهوا يا قوم "أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ 32" أمثال هؤلاء بلى فيها منازل كثيرة لهم أجارنا اللّه منهم ومنها "وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ" الوحي الحق من عندنا "وَصَدَّقَ بِهِ" آمن بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ومن تبعه مؤمنا وهذا المراد من ضمير به كما هو المراد في قوله تعالى (وَإِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَالْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) الآية 54 من سورة البقرة في ج 3 أي هو وقومه ، وهذا التفسير أولى وأنسب بالمقام لأن الأوجه في العربية أن يكون جاء وصدق لفاعل واحد لأن التغاير يستدعي إضمار الذي وهو غير جائز في العربية ويستدعي أيضا إضمار الفاعل من

غير تقدم الذكر له وهذا بعيد أيضا في النصيح ، وقال بعض المفسرين إن ضمير به يعود إلى أبي بكر رضي اللّه عنه ، وعليه يكون المعنى والذي جاء بالصدق يعني محمدا وصدق به يعني أبا بكر كما قال أبو العالية والكلبي وجماعة ويروونه عن علي عليه السلام وقال السدي وجماعة أيضا : إن ضمير به يعود إلى محمد صلّى اللّه عليه وسلم وضمير جاء إلى جبريل عليه السلام .

وقال مجاهد وجماعة : إن ضمير به يعود إلى علي كرم اللّه وجهه وضمير جاء إلى محمد صلّى اللّه عليه وسلم .

وقال آخرون : إن ضمير جاء يعود إلى محمد وضمير به إلى المؤمنين .

فهذه خمسة أقوال كل منها في المعنى صحيح لكن ما جرينا عليه هو الموافق لسياق الآية واللّه أعلم .

(104/664)

"أُولَئِكَ" محمد وأتباعه الذين اقتفوا أثره وماتوا على متابعته "هُمُ الْمُتَّقُونَ 33" العريقون في التقوى ، وجاءت هذه الجملة بالجمع مع أن ما قبلها مفرد باعتبار دخول الأتباع تبعا ، ولا يخفى أن مراتب التقوى متفاوتة ولحضرة الرسول أعلاها وأوفاها ومن بعده أول من آمن به

من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي ومن الأرقاء بلال ثم الأمثل فالأمثل رضي اللّه عنهم أجمعين ، أو أنّ الموصول واقع صفة لموصوف محذوف تقديره الفريق أو الفوج الذي جاء بالصدق وصدق به فيكون مفرد اللفظ مجموع المعنى ، أو أن اللام في والذي للجنس فيشمل الرسل والمؤمنين اجمع ، يؤيد هذا قراءة ابن مسعود (والذين جاؤا بالصدق وصدقوا به) ولكنها قراءة شاذة ، إذ لم يتابعه أحد من القراء عليها لما فيها من زيادة الواو ، وما قيل إنه قد يستعاض عنها بإشباع الضمة يجوز لو كان الأصل مضموما أما والأصل جاء مفتوحا فلا ، وما قيل إن النون محذوفة من الذي والأصل الذين واستشهدوا بقوله :

إن الذي جاءت يفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم مالك

قال أبو حبان ليس بصحيح لوجوب جمع الضمير في الصلة حينئذ كما في البيت ألا ترى أنه إذا حذفت النون من المثنى كان الضمير مثنى أيضا كما قال :

ابني كليب إن عمي اللذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا

فلو فرض جواز حذف النون أيضا لا يصح كما علمت ، وعليه فالأصح هو الذي جرينا عليه على ما هو في المصاحف وقراءة أبي صالح وعكرمة ابن سليمان ، وصدق مخففّا أي جاء وصدق به الناس بأنه أداه إليهم كما جاءه ، فالضمير والموصول فيها عائدان لحضرة الرسول كما ذكرنا أيضا ، وهناك قراءة أخرى (وَصَدَّقَ) على البناء للمفعول مشدّد أي

صدقه الناس به وهي أيضا تؤيد ما قلناه ، وقد ذكرنا غير مرة أن لا عبرة للقراءة المخالفة لما في المصاحف المدونة من لدن عثمان رضي اللّه عنه حتى الآن وإلى الأبد إن شاء اللّه ، فكل قراءة لا يوافق رسمها رسم ما في المصاحف

(105/664)

لا عبرة بها البتة أما ما كان موافقا بالحروف ومختلفا بالحركات مثل قراءة (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ) الآية 46 من سورة هود المارة و(خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ) الآية 11 من سورة الحج ج 3 على الفعلية فهما أو المصدرية في الأولى والفعلية في الثانية والحالية والصفة أيضا فلا بأس فيها "لَهُمْ" لهؤلاء الذين مر ذكرهم من الخير والكرامة "ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ" الجزاء الحسن العظيم هو "جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ 34" في أفعالهم وأقوالهم "لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا" في الدنيا "وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ 35" في الآخرة ويتجاوز عن سيئاتهم .

وليعلم أن إضافة أسوأ وأحسن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفصيل كما تقول الأشبح أعدل بني أمية ويوسف أحسن أخوته .

(106/664)

هذا ولما كثر تهديد المشركين لحضرة الرسول وتجاهروا له بالعداء وخاف أصحابه أن يبطشوا به ، إذ لم يبق من أقاربه من يقف بأعينهم بعد وفاة أبي طالب وخديجة رحمها اللّه أنزل اللّه جل شأنه ما يثبت به قلوب أصحابه وينفي عنهم ذلك الرجل قوله عز قوله "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ" محمدا عن الناس أجمع أعداءه وغيرهم وقادر على حفظه من أذاهم بلى وهو القادر على كل شيء ، وقرىء عباده أي جميع الأنبياء كافة وذلك أن أقوامهم قصدوهم بالسوء أيضا فكفاهم اللّه شرهم وكافأهم بالحسنى ، والقراءة هذه جائزة لما علمت أن المد والإشباع جائز ، وهذا الاستفهام يجاب ببلى ، لأن همزة الاستفهام الإنكاري إذا دخلت على كلمة النفي أفادت الإثبات فيكون حكم الاستفهام فيها تقريريا كما هنا ولا يجاب إلا ببلى وإذا دخلت على الإثبات أفادت النفي ، فيكون الاستفهام إنكاري ولا يجاب إلا بلا كما في قوله تعالى (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ) الآية 10 من سورة إبراهيم الآتية ، ومما يدل على أن الضمير في عبده يعود لحضرة الرسول خاصة دون عباده الآخرين على القراءة الأخرى قوله جل قوله "وَيُخَوِّفُونَكَ" يا سيد الرسل "بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ" أي الأوثان وذلك لقول الكفرة يا محمد إن لم تكف عن شتم آلهتنا أصابك الخبل والجنون بسببها ولقد ضلوا بقولهم هذا مع ضلالهم "وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ 26" يهديه ولا ينفعه الهدى لأنه مكبوب عند اللّه ضال من الأزل "وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ" أبدا

لأنه ثابت في علم اللّه أنه مهتد ولا مبدل لما في علمه "أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ" غالب لا يغالب منيع لا يمانع ولا ينازع "ذِي انْتِقامٍ 37" من أعدائه ينتصف منهم لأوليائه ، وهذا الاستفهام مثل الاستفهام السابق أي بلى هو كذلك ، قال تعالى "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ" يا سيد الرسل أي هؤلاء الذين يخوفونك بأوثانهم وقلت لهم "مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ" لظهور الأدلة على ذلك ووضوح البراهين لما تقرر عقلا وجوب انتهاء جميع الممكنات إلى واجب الوجود فإذا أجابوك ولا شك أنهم مجيبون بأن الذي خلقهن هو اللّه وإلا فأجبهم أنت بأنه هو الذي خلقهن وما فيهن فإنهم لا يعارضونك في ذلك "قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" من هذه الأوثان "إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ" فيسكتون خشية الكذب لأنه معيب في كل زمان عند كل ملة حتى ان قوم يونس عليه السلام كانوا يقتلون الكذاب ، راجع الآية 97 من سورته المارة ، ثم قل لهم أيضا "أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ" فيسكتون أيضا لعلمهم أنها لا تكشف ضراء ولا تمسك رحمة ولا تفعل شيئا أبدا "قُلْ" بعد اعترافهم هذا لعجز آلهتهم عن فعل شيء من ذلك بدليل سكوتهم الذي هو بمثابة الإقرار "حَسْبِيَ اللَّهُ" هو كافيني منهم ومن أوثانكم وبالنصر والظفر عليكم

كما وعدني به ، عليه وحده توكلت و"عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ 38" لا على غيره فقد خاب وخسر من توكل على غيره ، ثم أشار إلى تهديدهم فقال "قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ" حالتكم التي تتمكنون عليها من عدواني وتكذيبي والمكانة بمعنى المكان واستعيرت عن العين للمعنى كما استعير هنا وحيث للزمان مع أنها للمكان "إِنِّي عامِلٌ" على مكانتي أيضا حذف من الثاني بدلالة الأول كما يحذف أحيانا من الأول بدلالة الثاني راجع الآية 33 من سورة لقمان المارة وان عمله صلّى اللّه عليه وسلم هو دأبه على نصحهم وإرشادهم ليس إلا "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ 39" غدا إذا لم تؤمنوا وتصدقوا "مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ" في الدنيا "وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ 40" في الآخرة لا يتحول عنه أبدا أنا أم أنتم وقد ختم هذه الآية بالوعيد الشديد كما بدأها بالتهديد بما خبىء لهم من العذاب الأليم وهي قريبة في المعنى من الآيتين 54/ 55 من سورة سبأ المارة وفيها ما فيها فراجعها .

مطلب الروح والنفس ومعنى التوفي والفرق بينه وبين النوم وان لكل واحد نفسين :

قال تعالى "إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ" الذي لا أحق منه "فَمَنِ اهْتَدى" به فانما يهتدى "لنفسه" إذ يعود فائدة هداه لها "وَمَنْ ضَلَّ" شرد عن طريق هداه "فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها" لأن وبال ضلاله عائد عليه "وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ 41" لتجبرهم على الهدى وتحفظهم من الضلال ، وإنما الفاعل لذلك هو "اللّه الذي يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ" الأرواح راجع الآية 85 من سورة الإسراء في ج 1 تجد معنى النفس والروح وماهيتها وما يتعلق فيهما وهل هما شيء واحد أم لا بصورة مفصلة تكفيك عن كل مراجعة "حِينَ مَوْتِها" عند انقضاء آجالها "وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ" يتوفاها "فِي مَنامِها" لأن النوم موت خفيف ، إذ يقطع اللّه تعالى تعلقها بالأبدان أي تعلق التصرف فيها عنها ظاهرا وقطع تعلقها بالأبدان بالموت عبارة عن قطع المتعلق بها ظاهرا وباطنا وإنما سمى كل منهما توفّيا لأنه بمعنى القبض فيهما قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ) الآية 60 من سورة الأنعام المارة ، إذ لا تميزون ولا تتصرفون فانتم والموتى سواسية من هذه الحيثية ، راجع تفسير هذه الآية أيضا لتعرف الفرق بين الموت والنوم المبين في قوله عز قوله "فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ" فلا يردها إلى أجسادها حتى يوم البعث "وَيُرْسِلُ الْأُخْرى" النائمة التي لم يحن أجلها بعد فيبقها بالحياة متمتعة "إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى" عنده حتى انقضائه "إِنَّ فِي ذلِكَ" القبض والإرسال من قبل الملك الفعال "لَآياتٍ" عظيمات دالات على كمال قدرة الإله الواحد على البعث "لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ 42" بمعناها ويعقلون مغزاها .

واعلم أن لكل إنسان نفسين نفس بها الحياة تفارقه عند الموت فتزول الحياة بزوالها ، ونفس بها التمييز تفارقه عند النوم ويبقى معها التنفس في الجسد فقط دون تصرف أو تمييز .

(110/664)

فيعلم من هذا أن هناك نفسا وروحا فتخرج النفس عند النوم وتبقى الروح ويخرجان معا عند الموت ، ومن قال إن الروح هي التي تخرج عند النوم والنفس هي الباقية في الجسد مع شعاع الروح وبها يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عادت إلى جسدها بأسرع من لحظة ، استدل بما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم :

إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم يقول باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين .

(111/664)

وقد أوضحنا هذا البحث بصورة مسهبة في تفسير الآية 85 من الإسراء في ج 1 فراجعها أي ما يتعلق بالرؤيا فعليك بمراجعة الآية 5 من سورة يوسف المارة ففيها ما ترشدك إلى ما تريد ويكفيك عن غيره ، قال تعالى "أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ" بلا إذن منه ولا سلطان لهم به عليه "شُفَعاءَ" يشفعون لهم عندنا بزعمهم ، فيا سيد الرسل "قُلْ" لهؤلاء الجهلة أتتخذونها شفعاء بادى الرأي "أَ وَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً" من أمرها ولا من غيرها "وَلا يَعْقِلُونَ 43" ماهيتها كما لا يعلمون عبادتكم لهم ولا يفقهونها أتتخذونها عبثا وجهلا "قُلْ" يا أكمل الرسل لهؤلاء الضلال إن هذه الأوثان لا يصلحون للشفاعة لعدم علمهم بها وإن الشفاعة الحقيقية المرجو نفعها هي "لِلَّهِ" وحده لا يملكها أحد دونه ولا يقوم بها أحد إلا بإذنه وإلا لمن يرضاه اللّه فتكون "الشَّفاعَةُ" كلها "جَمِيعاً" له وحده كذلك "لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" وحده لا يشاركه فيهما أحد ولا يرزق من فيهما غيره وإن ما يملكه الناس من أجزاء الأرض فهو استعارة لأجل مسمى عنده "ثُمَّ إِلَيْهِ" أيها الناس كلكم وما تملكون "تُرْجَعُونَ 44" في الآخرة ثم بين تعالى بيانه سفه لكفرة بقوله جل قوله "وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ" نفرت واستكبرت وانقبضت وأنفت "قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ" كأبي جهل والوليد بن المغيرة وصفوان وأبيّ وأضرابهم لأن الآية عامة واكفهرّت غمّا وغيظا فظهر على أديم وجوههم غبرة وقترة وعلى عيونهم ظلمة من عظيم انقباض أرواحهم .

وهذه الآية على حد قوله تعالى (وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً) الآية 46 من الإسراء في ج 1 فراجعها "وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ" كاللات والعزى وغيرهما من الأوثان "إِذا هُمْ" أي أولئك المشمئزين "يَسْتَبْشِرُونَ 45" فرحا لافتتانهم بها فتنبسط وجوههم وتتهلل ويعلوها البشر لكثير ما ملئت قلوبهم من السرور والابتهاج بذكرها فيا حبيبي "قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" وصف نفسه جلت

وعلت بكمال القدرة ثم نعتها بكمال العلم فقال "عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ" السر والعلانية "أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ" المؤمنين والكافرين "فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ 46" من أمر دينك وتوحيدك .

يفيد هذا الأمر الإلهي العظيم جنوح حضرة الرسول إلى الدعاء والالتجاء إليه تعالى مما قاساه من نصب قومه في دعوتهم له وما ناله من شدة شكيمتهم في المكابرة والعناد وبيان حالهم في الدنيا وما يؤول إليه في الآخرة ، وفيه تسلية له ومعلومية جهده وجده وبذل وسعه وسعيه عند ربه وتعليم لعباده كلهم بالالتجاء إليه فيما يهمهم وما لا يهمهم ، ودعاؤه بأسمائه الحسنى ، لأن أسماءه تعالى توقيفية ، فلا يجوز تسميته بغيرها راجع الآية 8 من سورة طه في ج 1 تجد ما سمى اللّه به نفسه ورسوله منها .

سئل الربيع بن خيثم عن قتل الحسين رضي اللّه عنه فتأوه وتلا هذه الآية ، وعليه فإذا ذكر لك أيها القارئ شيء مما جرى بين الأصحاب رضوان اللّه عليهم ، فاقرأ هذه الآية فإنها من الآداب التي ينبغي أن تحفظ .

روى مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة رضي اللّه عنها بأي شيء كان نبي اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام الليل ؟ قالت :

(113/664)

كان إذا قام الليل افتتح صلاته قال : اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

قال تعالى "وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً" من منقول وغيره "وَمِثْلَهُ مَعَهُ" وطلب منهم به فداء أنفسهم من عذاب اللّه "لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ" وهذا من ضرب المحال حيث لا يقبل الفداء ، ويستحيل أن يكون لهم شيء من الأرض باستحالة وجود مثله لأن أحدا يوم القيامة لا يملك مثقال ذرة وإنما هذا من قبيل زيادة التحسر والتأسف والندم والأسى لما يشاهدونه من الأهوال المحيطة بهم المشار إليها بقوله الفصل

"وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ" العالم بخفايا الأمور أشياء "ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ 47" بها ولا يظنونها ولا تخطر ببالهم أنه نازل بهم ولا يتوقعونه لأنه فوق التخمين والحسبان وحديث النفس .

ونظير هذه الآية التي أوعد بها الكافرون ما وعد اللّه به المؤمنين هي قوله تعالى (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ

لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ)

الآية 17 من سورة السجدة الآتية ، ومن هذا القبيل قوله صلّى اللّه عليه وسلم في صفة ثواب أهل الجنة : فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

هذا وبعد أن أظهر اللّه لهم أنواع العقاب عن سيئات لم يكونوا يتصورونها أنها مستحقة للعذاب أظهر لهم عقابا أشد عن سيئات يعلمونها فقال جل قوله "وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا" من الشرك به وتكذيب رسله وجحد ما جاؤهم به وبان لهم خيبة ظنهم بشفاعة الأوثان فذهلوا من فظاعته "وَحاقَ" أحاط "بِهِمْ" من كل جوانبهم سوء "ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ 48" في الدنيا فيفعلونه ولا يلقون له بالا إلا السخرية والاستهزاء .

(114/664)

قال تعالى "فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ" من مرض وفقر وشدة "دَعانا" وحدنا لإزالته "ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا" بعد إجابة دعائه وإزاحة بلائه "قالَ" هذا جواب إذا ولذلك فلا يحسن الوقف على كلمة (مِنَّا) بل على "إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ" من اللّه بأني أهل له كما قال قارون قبله راجع الآية 78 من سورة القصص في ج 1 وقد ذكر الضمير هنا في أوتيته مع أنه عائد للنعمة بالنظر للمعنى ، أي شيئا أو قسما من الإنعام "بَلْ هِيَ" النعمة التي أوتيها مع كفره وعصيانه "فِتْنَةٌ" نقمة لا نعمة في الحقيقة بل هي استدراج وامتحان ليختبرك أيها الإنسان أتشكرها فتكون نعم حقيقية أو تكفرها فتكون نقمة بحتة ، وما قرىء بل فتنة وفاقا لضمير أوتيته ليست بشيء ، لما فيها من نقص كلمة هي ، ولا يجوز نقص شيء من كتاب اللّه "وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ 45" أنها فتنة وبلاء ومحنة .

وجاء العطف بالفاء لأن قوله (فَإِذا مَسَّ) إلخ مسبب عن قوله (وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ) إلخ ، وقد وقع أول هذه السورة مثله إلا أن العطف كان بالواو فيكون غير مسبب عما قبله كما هنا وهذه الآية عامة .

وما جاء أن المراد بالإنسان هو حذيفة بن المغيرة فعلى فرض صحة نزولها فيه لا يقيدها لأن سبب النزول لا يكون سببا للقيد في الآيات العامة ، قال تعالى إن هؤلاء الكفرة لم ينفردوا في هذه المقالة وإنما "قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" مثل قارون وأضرابه "فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا

يَكْسِبُونَ 50" من متاع الدنيا ولم يأخذوا معهم منه شيئا للآخرة البتة

"فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا"

(115/664)

أي عقابه ووباله وخسف بهم وبأموالهم راجع الآية 78 من سورة هود المارة من قصة قوم لوط "وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ" قومك يا محمد الذين قالوا مقالتهم تلك "سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا" أيضا إذا أصروا عليها ولم يتوبوا حتى ماتوا ، فيحين الأجل المقدر لإنزال العذاب بهم مثلهم "وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ 51" لنا ولا يستطيعون الإفلات منا ، فلا يفوتهم عذابنا ، لأن قدرتنا غير عاجزة عنهم ، ولا مهرب هناك .

وهذه الآيات المدنيات الثلاث ، قال تعالى "أَ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ" يضيق على من يشاء بلى إنهم يعلمونه ولكن لا يعرفون حكمته "إِنَّ فِي ذلِكَ" البسط والتقتير لآيات دالات على حكمتنا "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ 52" بنا ويعون مرادنا وذلك أن اللّه تعالى يعطي من يشاء لا لكرامته وتقواه وعلمه ، ويحرم من يشاء لا لإهانته وعصيانه وجهله ، وقيل في المعنى .

كم من أديب فهيم عقله مستكمل العلم مقل عديم

ومن جهول مكثر ماله ذلك تقدير العزيز العليم

فمن علم أن هذا التقسيم جاء من اللّه على وفق الحكمة ومقتضى المصلحة علم فساد قول ابن الراوندي المار ذكره في الآية 36 من سورة سبأ المارة وبطلان قول من قال إن السعد والنحس بسبب النجم الطالع عند ولادة الإنسان السعيد أو المشئوم ، لأن الساعة التي ولد فيها السلطان والمثري ولد فيها أناس كثيرون فلم لم يساعدهم الحظ بمقتضى طالعهم كما صار لذينك ، وقيل في المعنى :

فلا السعد يقضي به المشتري ولا النحس يقضي علينا زحل

ولكنه حكم رب السماء وقاضي القضاة تعالى وجل

(116/664)

قال تعالى "قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ" بتغاليهم في المعاصي وإفراطهم في اللذات وتفريطهم بأمور الآخرة وإعراضهم عن ربهم "لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ" التي وعدها التائبين من عباده الراجعين إليه وغيرهم ، فهي واسعة لأكثر ما تتصورونه ولا تضيق عما أنتم عليه وغيركم "إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً" بالعفو عنها عدا الشرك لورود النص باستثنائه ، قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ

أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ)

الآيتين 48/ 116 من سورة النساء في ج 3 "إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ 53" بعباده يغفر ما كان منهم ويكشف ما يهمهم ويستر ما يشينهم صغرت هذه الذنوب أو كبرت فهي في جنب عفو اللّه لا شيء .

مطلب آيات الرجاء وعظيم فضل اللّه وما جاء عن بني إسرائيل وحرق الموتى :

قال ابن عباس رضي اللّه عنهما : إن أناسا من المشركين أكثروا من القتل والزنى والشرب وهنك الحرمات كلها فقالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن الذي تدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا لما عملناه كفّارة فنزلت الآيات 68 فما بعدها من سورة الفرقان المارة في ج 1 ، وهي (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ) إلى قوله (فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ) قال يبدل شركهم إيمانا وزناهم إحصانا ، ونزلت هذه الآية المفسرة أيضا - أخرجه النسائي - وعنه قال : بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إلى وحشي قاتل حمزة رضي اللّه عنه يدعوه إلى الإسلام رغبة بنشر دين اللّه وشفقة على عباده مع أنه قاتل عمه وأعز الناس عليه يومئذ لشدة حرصه على إقامة هذا الدين جزاه اللّه عنا خيرا ووفق أمته لاتباعه ، فأرسل إليه كيف تدعوني إلى دينك وأنت تزعم من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاما يضاعف له العذاب ، وأنا قد فعلت ذلك كله ؟

فأنزل اللّه (إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً) الآية من سورة الفرقان أيضا ، فقال وحشي هذا شرط شديد لعلي لا أقدر عليه فهل غير ذلك ؟ فأنزل اللّه آيتي النساء المذكورتين آنفا ، فقال وحشي أراني بعد ذلك في شبهة ، فلا أدري أيغفر لي أم لا ؟ فأنزل اللّه هذه الآية المفسرة ، فقال وحشي نعم فجاء وأسلم وحسن إسلامه .

وهذه الحادثة أولى بأن تكون سببا للنزول لأنها مدنية والحادثة مدنية فتكون أليق بسبب النزول من تلك ، وإن ما بعدها يجوز أن يكون سببا للنزول لأن الآية الواحدة قد تكون لحوادث كثيرة متوافقة ، وهو ما روي عن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال : نزلت في عياش ابن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول لا يقبل اللّه من هؤلاء صرفا ولا عدلا أبدا (الصرف التوبة والنافلة والعدل الفدية والفريضة) قوم أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عذبوا به في الدنيا ، فأنزل اللّه هذه الآية فكتبها عمر بن الخطاب

بيده وبعث بها إلى عياش ورفقائه فأسلموا جميعا وهاجروا ، فقال ابن عمر كنا معشر أصحاب رسول اللّه نرى أو نقول ليس بشيء من حسناتنا إلا وهي مقبولة حتى نزلت (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ) الآية 34 من سورة محمد صلّى اللّه عليه وسلم في ج 3 ، فلما نزلت هذه الآية قلنا ما هذا الذي يبطل أعمالنا ، فقلنا الكبائر

والفواحش ، قال لكنا إذا رأينا من أصاب شيئًا منها قلنا هلك ، فنزلت هذه الآية فكففنا عن القول في ذلك ، وكنا إذا رأينا من أصحابنا من أصاب شيئًا من ذلك خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئًا رجونا له .

(118/664)

وعن أنس رضي اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : قال اللّه تعالى عز وجل يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة .

- أخرجه الترمذي - والعنان بفتح العين ما بدا لك من السماء ، واعنانها نواصيها ، والقراب بضم القاف الملء أي بملء الأرض ، واللّه أكرم وأكبر من ذلك ، وقدمنا ما يخص هذا في الآية 160 من سورة الأنعام المارة وله صلة في الآية 31 من سورة الشورى الآتية فراجعها ففيها ما يثلج الصدر من عظيم فضل اللّه وكذلك الآية 20 من سورة يوسف المارة أيضا والآية 70 من سورة الفرقان والآية 5 من سورة والضحى والآية 84 من سورة الإسراء في ج 1 "وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ" إسلاما كاملا وانقادوا لأوامره انقيادا تاما

وتباعدوا عن نواهيه تباعدا بعيدا وأخلصوا له التوبة إخلاصا صحيحا حال كونكم خاضعين خاشعين "مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ 54" إذا حل بكم ومن ذا الذي ينصركم من اللّه أيها الناس كلا لا أحد ، انتهت الآيات المدنيات .

واعلم أن الآية الثانية منها عدا 53 صرحت برجاء الرحمة من عشرة وجوه : 1 إن المذنب عبد والعبد محتاج لرحمة سيده وإفاضة إنعامه عليه ، 2 إنه أضافه إليه ومن يضفه لذاته الكريمة يؤمنه من عذابه ، 3 إن الإسراف الذي نسبه إليه ضرر وهو أكرم من أن يجمع ضررين على عبد ، 4 إنه لم ينهه عن القنوط إلا ليؤمله بالرجاء ، 5 أضاف الرحمة لأعظم أسمائه الحسنى

(119/664)

فتكون أعظم أنواعها لذلك العبد ، 6 إنه أضاف الغفران لذلك الاسم العظيم لتأكيد المبالغة في إيفاء الوعد بها ، 7 إنه أكد ذلك الغفران ليكون عاما مطلقا يشمل هذا العبد وغيره ، 8 إنه وصف ذاته بالرحيم مرة أخرى إشارة إلى تحصيل موجبات تلك الرحمة ، 9 إن هذين الوصفين يفيدان الحصر ، والحصر يفيد الكمال ولا تكون الرحمة كاملة إلا إذا عمت ، 10 إنه وصف نفسه فيها بالغفور وهو لفظ يدل على المبالغة بالمغفرة ولا تكون إلا

إذا عمت أيضا .

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا ثم خرج يسأل هل له توبة فأتى راهبا فسأله فقال هل لي من توبة ؟

قال لا ، فقتله وجعل يسأل فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا ، فأدركه الموت فضرب صدره تخوفا فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى اللّه تعالى إلى هذه أن تقرّبي وإلى هذه أن تباعدي ، وقال قيسوا ما بينهما فوجد أقرب إلى هذه بشبر فغفر له . – لفظ البخاري – ولمسلم : فدلّ على راهب فأتاه فقال له إن رجلا قتل تسعة وتسعين نفسا هل له من توبة فقال لا فكمل به مئة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل صالح فقال إنه قتل مئة نفس فهل من توبة قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها ناسا يعبدون اللّه تعالى فاعبد اللّه معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا كان نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى اللّه إلى هذه أن تقربي وإلى هذه أن تباعدي (يعني القرية التي جاء منها والقرية التي ذهب إليها) وقال قيسوا ما بينهما فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة .

ورويا عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم كان رجل أسرف على نفسه ، وفي رواية لم يعمل خيرا قط ، وفي رواية لم يعمل حسنة قط ، فلما حضره الموت قال لبنيه إذا أنا مت فاحرقوني ثم اطحنوني ثم ذرّوني في الريح فو اللّه لأن قدر علي ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا قط ، فلما مات فعل به ذلك ، فأمر اللّه الأرض فقال اجمعي ما فيك منه ، ففعلت فإذا

هو قائم ، فقال ما حملك على ما صنعت ؟ قال خشيتك يا رب ، أو قال مخافتك يا رب ، فغفر له بذلك .

ولعل المجوس وبعض الهنود ومن نحا نحوهم الذين يحرقون موتاهم أخذوا ذلك من هذه القصة ، لأن هذا الرجل الذي ذكره حضرة الرسول لم يكن من أهل زمانه بل ممن تقدم من الأمم ، وقد بقوا على عادتهم تلك ولم تبلغهم الدعوة ، أو بلغتهم فلم يتبعوها وبقوا على ما هم عليه حتى الآن ، وقد استحسنها من لا خلاق لهم من الدين بحجة أنها أقطع لجراثيم الموتى من أن تنتقل ذراتهم إلى الأحياء ، ولم يعلم أن في هذه إهانة للمؤمن ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم : كرامة الميت دفنه ، وفي القبور مانع من انتشار الذرّات لأنها تحت الأرض

بقامة وبسطة يد ، وكيف يركن قلب المؤمن إلى حرق ميته وهو أعز الناس عليه ، وفي دفنه ذكرى له على مر الأيام بالخير إن كان من أهل الخير فيعملون بعمله ، وإن كان من أهل الشر فيجتنبون عمله ، فيكون خيرا نشا عن شر .

(121/664)

وعنه أيضا قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول كان في بني إسرائيل رجلان متحابان أحدهما مذنب والآخر مجتهد في العبادة فكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنبه فيقول له اقتصر ، فوجده يوما على ذنب ، فقال اقتصر فقال خلّني وربي أبعثت علي رقيبا ، فقال واللّه لا يغفر لك اللّه ، أو قال لا يدخلك الجنة ، فقبض اللّه روحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال الرب تبارك وتعالى للمجتهد أكنت على ما في يدي قادر ؟ وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة ، وقال للآخر اذهبوا به إلى النار .

قال أبو هريرة تكلم واللّه بكلمة أوبقت دنياه وآخرته - أخرجه أبو داود .

وقال زيد بن أسلم : يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال انطلقوا به إلى النّار ، فيقول يا رب فأين صلاتي وصيامي ، فيقول اللّه اليوم أقنطك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي من رحمتي .

وعنه أيضا أن رجلا كان في الأمم الماضية يجتهد في العبادة ويشدد على نفسه ويقنط الناس

من رحمة اللّه ثم مات فقال أي رب ما لي عندك ؟ قال النار ، قال يا رب فأين عبادتي واجتهادي ؟

فقيل له إنك كنت تقنط الناس من رحمتي في الدنيا ، فأنا اليوم أقنطك من رحمتي .

وقال مقاتل : قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه : الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة اللّه ولم يرخص لهم في معاصي اللّه عز وجل .

وعليه فلا ينبغي للواعظ والخطيب

أن يقتصر على الوعيد ويترك الوعد لأنه ربما قنط الناس فيدخل فيما ذكر ، قال صلّى اللّه عليه وسلم يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا .

(122/664)

أي يسروا على الناس بذكر ما يؤلفهم لقبول الموعظة ، لأن التيسير في التعليم يورث قبول الطاعة ويرغب في العبادة ، وبشروا بفضل اللّه وعظيم ثوابه ، وسعة رحمته ، وشمول عفوه ، وجزيل عطائه ومغفرته ، ولا تعسروا في كل الأوقات ولا تنفروا عباد اللّه بما تشددون عليهم من الزجر والوعيد فيقنطوا أو ييأسوا ، فتتسببوا في إضلالهم "وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ" .

أمر اللّه عباده باتباع الأحسن بعد أن أمرهم بالتقوى ووعدهم بالمغفرة إعلاما بأنه تعالى يريد منهم ما هو أكثر ثوابا وأعظم أجرا ، وقد ذكرنا ما يتعلق بالأحسن في الآية 18 المارة من هذه السورة وبينا فيها ما يراجع بذلك ففيه كفاية .

مطلب اتباع الأحسن وما هو الحسن والأحسن معنى ومقاليد السموات والأرض :

(123/664)

ولا يخفى أن الأحسن يكون في الأوامر والإرشادات إلى خير الدارين والأحكام والحدود وإصلاح ذات البين لا في القصص والأخبار والعبر والأمثال بما وقع من الأقدمين ، هذا من جهة ، ومن أخرى فإن أحسن ما أنزل اللّه من الكتب السماوية وأجمعها وأفضلها هو هذا القرآن المجيد لقوله تعالى (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) الآية 24 المارة ، وعليه فيكون المنزل ثلاثة أصناف : ذكر جل شأنه في القرآن الأحسن يؤثر على غيره ويؤخذ به ، والأدون منه لئلا يرغب فيه ، والقبيح ليجتنب ، ولهذا يجب على الخلق كافة اتباع ما في القرآن من الأحكام الحسن منها والأحسن ، لأنه ناسخ لما تقدمه مما يخالفه منها ، وعليه فإن الخطاب في هذه الآية عام لكل الأمة ، لأنه أنزل للأمة أجمع ، وقد أمر صلّى اللّه عليه وسلم بدعوة من على وجه الأرض كلهم ، فمن أجاب فهو من أمة الإجابة ، ومن أبي فهو من أمة الدعوة ،

فهلموا عباد اللّه لإجابة دعوة ربكم "مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ 55"

بأن يفاجئكم على حين غرة وأنتم غافلون فتعتذرون ولا يقبل منكم ، قال صلّى اللّه عليه وسلم :

إياكم وما يعتذر منه ، وهو "أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ" حين ترى أهوال القيامة

وفظايع العذاب "يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ" أي حق اللّه وأمره وطاعته ،

وهذا مما يطلق عليه الجنب ، قال القائل :

أما تتقين اللّه في جنب وامق له كبد حرى عليك تقطع

(124/664)

أي الجانب المؤدي لرضائه كالتقصير في الطاعات ومخالفة الأوامر والتفريط في حقوق الغير

وفي كل ما يتعلق به حق اللّه تعالى وحق عباده وحيواناته لأن لكل حقا ، قال صلى اللّه عليه وسلم اتقوا اللّه فيما ملكت أيمانكم ، أي من الإماء والحيوان بأن تحمل فوق طاقتها أو تضرب بدون تقصير ، وجاء في الخبر : يعاقب ضارب الحيوان بوجهه لا بوجهه إلا بوجهه حيث يضرب على النفار لا على العثار ، لانه يكون غالبا من إهمال الراكب .

(125/664)

قال تعالى حكاية عن هذه النفس المفرطة "وَإِنْ كُنْتُ" في الدنيا "لَمِنَ السَّاخِرِينَ 56" بمن يحذرني هول هذا اليوم وينصحني عن التفريط في ضياع عمري سدى ، وهذه الجملة ترددها كل نفس فرطت في دنياها ندما وحزنا وغما على ما فاتها من عمل صالح وقول مرشد وقبول إرشاد "أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي" للتقوى وقبول نصح الناصحين "لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ 57" الشرك ودواعيه في الدنيا ولم يحل بي العذاب الآن في الآخرة "أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ" عند طرحها فيه بشدة وعنف وتذوق ألمه "لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً" عودة إلى الدنيا "فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ 58" فيها إلى نفسي وإلى الناس أجمع باتباع أوامر ربي وطاعة رسله وهكذا يتمنى هذه الأماني وغيرها ، ولكن في غير وقتها والتمني رأسمال المفلس ، لهذا فإن اللّه تعالى يرد تمنياته ولا يقبل أعذاره ويخاطبه أن الأمر ليس كذلك "بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي" في الدنيا وأرسلت إليك رسلي فطلبوا منك الانقياد لأوامري وسلوك سبل هدايتي وبلغوك كتبي فأبت نفسك الخبيثة إلا عصياني وأعرضت "فَكَذَّبْتَ بِهَا" وبمن جاءك بها "وَاسْتَكْبَرْتَ" وأنفت عنها وتعاليت عليها واستهزأت بها عدا التكذيب والجحود "وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ 59" بها وبمن جاءك بها والآن جئت تتمنى الاماني الفارغة بقبول اعتذارك وجوابها أن يقال لك اخسأ ولا تتكلم ، راجع الآية 108 من سورة المؤمنين الآتية

ففيها بحث نفيس "وَيَوْمَ الْقِيامَةِ" يا سيد الرسل "تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ"

(126/664)

سوادا بشعا شنيعا لا يقاس بما تراه من تراه من سواد الدنيا فهو نوع مكروه قبيح منتن والعياذ بالله ، والجملة من المبتدأ والخبر حال اكتفى فيها بالضمير عن الواو وعلى أن ترى فيها بصرية لا اعتقادية أما إذا كانت عرفانية قلبية فالجملة في محل نصب مفعول ثاني لها "أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ 60" عن آياتي والإيمان برسلي وكتبي ، بلى وجاهه فيها منازل شتى الواحد منها أشر من الآخر يأوي إليها أمثال هؤلاء

(127/664)

"وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ" بظفرهم وفلاحهم وبلوغهم المقصد الهنيء الأسنى ، لأنهم قطعوا مفازات الجهل بميثاق الطاعات ، والمفازة الطريق بالجبل وهي من الأضداد لأنه الطريق الوعر فإذا قطعه فاز بمقعده وبلغ الراحة "لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ" هو كل ما تستاء منه

النفس وأعظمه عذاب النار وهو المراد هنا واللّه أعلم لمناسبة المقام إذ لكل مقام مقال "وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ 61" على ما فاتهم في الدنيا لأنهم رأوا خيرا منها ولا يصيبهم أذى يؤدي إلى حزنهم ولا ينال قلوبهم غم يسبب حزنهم بل يكونون فرحين مسرورين بما آتاهم "اللَّهُ" ربهم من فضله العميم الواسع كيف لا وهو "خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ" مما هو كائن أو سيكون في الدنيا والآخرة من خير وشر وإيمان وكفر في خلقه لا بطريق الجبر بل بمباشرة المتصف بها والمتعرض لأسبابها ، وفي هذه الآية ردّ صريح على المعتزلة ومن نحا نحوهم المنزهين اللّه عن خلق الشرور وإرادة الكفر ، راجع ما يتعلق في هذا البحث في الآية 40 من سورة الأنعام المارة "وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ 62" فهو القائم بحفظ الأشياء كلها والمتصرف بها كيف يشاء بمقتضى الحكمة وفق ما هو سابق في علمه ، فأمر كل شيء موكل إليه دون منازع أو معارض أو مشارك ، وتدل هذه الجملة على أن أفعال العباد مخلوقة للّه تعالى لأنها لو وقعت بخلقهم لكانت موكولة إليهم فلا حجة للمعتزلة أيضا فيها وهم القائلون بخلق أفعال العبد نفسه .

واعلم أن صدر هذه الأمة لم يختلف في أفعال وأعمال العباد بل كان الخلاف بينهم وبين المجوس والزنادقة في خلق الأمراض والسباع والهوام فبين اللّه تعالى في هذه الآية أنها كلها من خلقه والشيء الوارد من الآية عام يدخل فيه كل ما يتقولون عنه "لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" مفاتح خزائنها بيده جل جلاله وهما وما بينهما

و فوقهما وتحتهما ملك لعظمته يتصرف فيهما وبما فيهما كيفما يشاء ويختار .

وكلمة مقاليد قيل إنها فارسية معربة من إقليد قال الراجز :

لم يوذها الديك بصوت تغريد ولم يعالج غلقها باقليد

والصحيح أنها عربية لتكلم العرب بها قبل نزول القرآن ، وقدمنا ما يتعلق بجميع هذه الكلمات الموجودة في القرآن العظيم في الآية 182 من سورة الشعراء في ج 1 فراجعها ، والمراد في المقاليد هنا والله أعلم ما ذكرناه من أنه لا يملك أمرهما ولا يتمكن من التصرف فيهما غيره ، إذ لا يقدر على ذلك إلا الله ، كما أنه لا يقدر على حفظهما وما فيهما غيره .

هذا ، وقد أخرج ابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وغيرهم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (لَهُ مَقَالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) فقال لا إله إلا الله والله أكبر سبحان الله والحمد لله أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شي قدير .

وجاء في رواية ابن مردويه عن ابن عباس مثله بزيادة كثيرة .

وهناك خبر آخر عن ابن عمر بمعناه أيضا وأخبار أخر لم نعتمد صحتها ، وعليه يكون المعنى أن للّه تعالى هذه الكلمات يوحّد بها سبحانه ويمجّد وهي مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها من المؤمنين أصابه ذلك الخير ، ووجه إطلاق المقاليد على هذه الكلمات أنها موصلة إلى الخير كما توصل المفاتيح إلى ما في الخزائن ، وقد ذكر صلّى اللّه عليه وسلم شيئا من الخير لمن يقولها في حديث ابن عباس وهي عشر خصال لمن قالها في اليوم مئة مرة 1 أن يحرس من إبليس وجنوده ، 2 أن يعطى قنطارا من الأجر 3 أن يتزوج من الحور العين ، 4 أن تغفر ذنوبه ، 5 أن يكون مع سيدنا إبراهيم عليه السلام ، 6 أن يحضر موته اثنا عشر ملكا يبشرونه بالجنة ، 7 ويزفونه من قبره إلى الموقف كما تزف العروس ، 8 أن يحفظ من هول الموقف ، 9 أن يعطى كتابه بيمينه 10 أن يمر على الصراط ويدخل الجنة .

والحديث بتمامه بالدر المنثور واللّه تعالى على كل شيء قدير فيعطي لمن يشاء هذا الفضل على هذه الكلمات وأقل منها وبلا شيء أيضا إذا شاء وقد ألمعنا إلى مثل هذا في الآية 59 من سورة الأنعام المارة وله صلة في الآية 198 من سورة

الشورى الآتية "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ 63" وهذه متصلة بما قبلها أي أنه تعالى ينجي المتقين ويهلك الكافرين ويجعل صفقتهم خاسرة (وجملة اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) معترضة مشار فيها إلى أنه الذي لا يخفى عليه شيء لأنه الخالق لكل شيء الفاتح كل شيء "قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ 64" بعد أن ظهر لكم الدليل القاطع والبرهان الساطع مما تقدم بأنه لا يستحق أحد العبادة غيره ، وجاءت هذه الآية بمعرض الجواب للكفرة القائلين لحضرة الرسول أن يوافقهم على دين آبائهم وعبادة أوثانهم تبكيتا لهم كيف يدعونك يا سيد الرسل إلى هذا "وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ" الأنبياء إخوانك بأن يبلغوا كل فرد من أممهم فيقولون له "لَئِنْ أَشْرَكْتَ" شيئا مع ربك بالعبادة "لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ" بسبب الشرك وكما أن الإيمان يجب ما قبله فالشرك يمحق ما قبله من الأعمال الصالحة ، واللامان في لئن وليحبطن موطئتان للقسم كأنه جل قوله يقول اعلم أيها الرجل وعزتي وجلالي لئن أشركت ليحبطن عملك "وَلَتَكُونَنَّ" أيها الإنسان "مِنَ الْخَاسِرِينَ 65" لخيري الدنيا والآخرة .

مطلب في عصمة الأنبياء والردة وخلاف الأئمة وإحباط العمل وتعريفات منطقية :

وإنما صح هذا الخطاب على ظاهره لحضرة الرسول ولمن قبله من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام مع علمه بمعصوميتهم واستحالة الشرك عليهم ، لأن المراد به غيره من أممهم على طريق ضرب المثل (إياك أعني واسمعي يا جاره) وعلى فرض المقصود به الأنبياء لأن الخطاب موجه إليهم خاصة فيكون لتبهيج حضراتهم وإقناط الكفرة والإيذان بشناعة الشرك وقبح الكفر وكونهما بحيث ينهى عنهما من لا يكاد يقربهما ، وإذا كان ينهى عنهما من لا يتصور مباشرتها منهم فكيف بمن عداهم وهما على غاية من الذم ونهاية من الشؤم ، وعلى القول بأن المراد أمم الأنبياء فتفيد هذه الآية التنبيه الشديد والوعيد الأكيد لمن يشرك بالله وتهدده بأن مصيره والعياذ بالله إلى الخسران الذي ما بعده خسران ، وما استدل به صاحب المواقف على جواز صدور الكبائر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس بشيء ولا وجه له ، وقد أوضحنا ما يتعلق بعصمة الأنبياء في الآية 44 من سورة يوسف المارة وفي الآية 124

من سورة طه في ج 1 وأشرنا فيها إلى المواضع التي تكلمنا فيها على هذا من آيات القرآن العظيم ، فراجعها ففيها كفاية .

هذا وما ذكرناه من أنه على سبيل الفرض والتقدير بالنظر لظاهر الآية لأن احتمال الوقوع فرضا كاف في القضية الشرطية كما هنا .

وليعلم أن القضايا قسمان : حملية وهي ما ينحلّ طرفاها إلى مفردين كزيد كاتب أو ليس بكاتب ، وشرطية وهي ما لا ينحل طرفاها إلى مفردين مثل إن كانت الشمس طالعة فالنهار موجود .

ولكل منهما أقسام يرجع في معرفتها إلى علم المنطق .

(132/664)

وليعلم أيضا أن القضية والخبر والمطلوب والنتيجة والمسألة في الأصل شيء واحد ولكنها تختلف من حيث التسمية فقط ، فإنها من حيث اشتمالها على الحكم تسمى قضية ، ومن حيث اشتمالها على الصدق والكذب تسمى خبرا ، ومن حيث كونها جزءا من الدليل تسمى مقدمة ، ومن حيث كونها نتيجة تسمى علما ، ومن حيث كونها يسأل عنا في العلم تسمى مسألة .

قال صاحب التلويح : الذات واحدة واختلاف العبادات باختلاف الاعتبار ، وقيل في المعنى :

عباراتهم شتى وحسنك واحد وكل إلى ذلك الجمال يشير

عود على بدء : إلا أنه ينبغي أن يعلم أن استحالة الوقوع في المعصية على جميع الأنبياء شرعية كما ستقف عليه من مطالعة المواقع التي أرشدناك لمراجعتها أيها القارئ المنصف الكريم ، وقد استدل السادة الحنفية من عدم تقييد الإحباط بالاستمرار على الشرك إلى الموت بأن الردة تحبط العمل الذي قبلها مطلقا وبوجوب قضاء الحج فقط لأن ثواب حجه قبل الردة أحبط بها أيضا ، أما عدم قضاء الصلاة والصيام والزكاة مثلا فلم يوجبوه باعتباره دخل في الإسلام حديثا والدخول بالإسلام يكفر ما قبله من الآثام ، فلو فرض أنه لم يصلّ ولم يزكّ قط كسائر الكفرة فإنه لا يكلف بشيء من ذلك ، لأن الإيمان يجب ما قبله .

وقال السادة الشافعية إن الردة لا تحبط العمل السابق عليها ما لم يستمر المرتدّ على الكفر إلى الموت ، وقالوا إن ترك التقييد هنا اعتماد على التصريح به في قوله تعالى (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) الآية 218 من سورة البقرة في ج 3 ، وقالوا إن هذه الآية من حمل المطلق على المقيد .

وقال بعض الحنفية في

الرد عليهم : إن في الآية المستدل بها توزيعا وكيفيته أن قوله تعالى (فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ) ناظر إلى الارتداد في الدين ، وقوله (وَأُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ) إلخ ناظر إلى الموت على الكفر ، وعليه فلا قيد فيها للآية التي نحن بصددها ليصح الاحتجاج بها متى حمل المطلق على المقيد ، ومن هذا الخلاف نشأ الخلاف في الصحابي إذا ارتد ثم عاد إلى الإسلام بعد وفاة سيد الأنام أو قبلها إلا أنه لم يره هل يسلب عنه اسم الصحبة أم لا ؟ فمن ذهب إلى الإطلاق قال لا ، وهو ما عليه الحنفية ، ومن ذهب إلى التقييد قال نعم ، وهو ما عليه الشافعية .

وليعلم أن هكذا خلافات وأمثالها بين الأئمة لا علاقة لها بأصول الدين المجمع عليها إذ لم يقع اختلاف ما قط في ذلك .

أما ما يتعلق في الفروع فإن ما يقع من الاختلاف فيها عبارة عن اختلاف الرأي والاجتهاد ، وهذا مما لا يخلو منه البشر في كل زمان ولا يضر بل يحصل من تصادم الأفكار وتحاكك الآراء فيه فوائد جلى ومنافع عظمى ، لأنك إذا لم تقدح الزناد على الحصى لم تحصل النار "بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ 66" الدائبين على شكر النعم المتوالية عليك من ربك فيزيدك بها فضلا ، قال تعالى "وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ" ولا عظموه حق تعظيمه وما عرفوه حق معرفته حين دعوك قومك يا محمد إلى عبادة آلهتهم وأشركوا بالإله الواحد ما لا يستحق العبادة وجعلوا له بنين وبنات وهو منزه عن ذلك كله وكيف يكون هذا "وَالْأَرْضُ

جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ" بما فيها من جبال وأبحار وغيرها "وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ" بما فيها من كواكب وخلائق وغيرها "سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ 67" به من الأوثان ، راجع الآية 91 من سورة الأنعام المارة تنبئك عما يتعلق في هذه الآية العظيمة المصورة لعظمة جلال اللّه والموقفة على كنه هيبته .

(134/664)

والقبضة المرة الواحدة من القبض وهي المقدار المقبوض بالكف ، مع العلم بأن هذه الآية مكية ، وتلك التي بالأنعام مدنية .

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : يطوي اللّه السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ، ثم يطوي الأرضين بشماله ، ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون .

وفي رواية يقول

أنا اللّه ويقبض أصابعه أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى أني أقول أساقط هو برسول اللّه ، لفظ مسلم .

وللبخاري : إن اللّه يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السموات بيمينه ويقول أنا الملك .

ورويا عن عبد اللّه ابن مسعود رضي اللّه عنه : جاء جبريل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال يا محمد إن اللّه يضع السماء على إصبع والأرض على إصبع والجبال على إصبع والشجر والأنهار على إصبع وسائر الخلق على إصبع ، ثم يقول أنا الملك .

فضحك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وقال (وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) .

وروى البخاري عن أبي هريرة قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : يقبض اللّه الأرض و

يطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض .

(135/664)

قال أبو سليمان الخطابي ليس فيما يضاف إلى اللّه عز وجل من صفة اليدين شمال لأن الشمال محل النقص والضعف وقد روى كلتا يديه يمين وليس لها عندنا معنى اليد الجارحة إنما هي صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها ، ويصح أن يقال عقيدة : له جل شأنه يد لا كالأيدي ووجه لا كالأوجه وهكذا إجراؤها على حالها دون تأويل أو تفسير ، وتنتهي بها إلى حيث انتهى بها كتاب اللّه والأخبار المأثوره

الصحيحة في كل آية من آيات الصفات التي ألمعنا إليها قبلا في مواقع كثيرة كالآية 158 من الأنعام المارة وغيرها ففيها ما تبتغي ، ولهذا البحث صلة في الآية 105 من سورة الأنبياء الآتية .

مطلب ما هو النفخ في الصور ولما ذا وفي الصعق ومن هم الشهداء :

قال تعالى "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ" القرن الذي قدمنا بحثه في الآية 73 من سورة الأنعام بصورة مفصلة فراجعها ، والنافخ هو سيدنا إسرافيل عليه السلام "فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ" أي مات خوفا وجزعا من هول الصيحة الأولى "إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ" راجع الآية 87 من سورة النمل المارة في ج 1 ، تعلم المستثنيين من الموت عند النفخة الأولى .

قال السيد محمد الهاشمي في شرحه شطرنج العارفين للشيخ محي الدين العربي قدس اللّه سره : إن المستثنين سبع 1 الجنة 2 والنار 3 والعرش 4 والكرسي 5 واللوح 6 والقلم 7 والأرواح ، واللّه أعلم بذلك .

وإذ كان بين النفختين مدة لا يعلم حقيقتها إلا اللّه جاء العطف في الآخرة

(136/664)

على الأول بما يدل على التراخي ، وهو قوله تعالى "ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ 68" ماذا يأمر اللّه فيهم بعد قيامهم من قبورهم ، وقيل إن ما بين النفختين أربعون سنة بدليل ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ما بين النفختين أربعون ، قالوا أربعون يوما ؟ قال أبيت ، قالوا أربعون شهرا ؟ قال أبيت ، قالوا أربعون سنة ؟ قال أبيت (وهذا ورع منه رضي اللّه عنه لأنه لم يسمع من الرسول ما يتذكره على الضبط هل هي ساعات أم أيام أو شهور أو سنون ، ولم يتذكر إلا لفظ الأربعين ، ولهذا لم يتجاسر على تمييزها ، هذا أبو هريرة الذي يطعن في أحاديثه من لا خلاق له من التقوى ، فإذا كان لا يستطيع أن يبين ماهية الأربعين في الحديث وهو عبارة عن اخبار لا علاقه لها في الأحكام والحدود ، فكيف يتصور أن يقول شيئا لم يسمعه من حضرة الرسول فيما يتعلق فيها وكيف يظن به أن يتكلم بشيء لم يتحققه ، ألا فلينتبه المتقولون وليتقوا اللّه في أصحاب رسوله ولا يظنوا بهم إلا الخير والصدق ، وليحذروا أن ينسبوا إليهم غير ذلك ، وقد سمعوا من نبيهم قوله : (من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) ثم ينزل اللّه من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، وليس من شيء إلا يبلى إلا عظم واحد هو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة ، وقد منا ما يتعلق بعجب الذنب في الآية 99 من سورة الإسراء ج 1 فراجعه .

قال تعالى "وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا" حين تجلى لفصل القضاء بين خلقه "وَوُضِعَ الْكِتَابُ" الذي فيه صحائف أعمال الخلق ليحاسب كلا بمقتضي عمله وجيء باللوح المحفوظ لمقابلته بكتب الأعمال التي دونها الحفظة ليظهر للمنكرين أن كل شيء وقع من خلقه ثابت عنده في علمه ومدون في كتابه قبل وقوعه "وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ" ليسألهم عن تبليغ رسالتهم وعما أجابهم به قومهم ويستشهدهم عليهم وهو أعلم بذلك كله ، وإنما ليطلع عباده على ذلك وليعلموا أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم لا غير "وَالشُّهَدَاءِ" يؤتى بهم أيضا ليشهدوا عليهم وهو أعلم بما اقترفوه هذا إذا كان المراد بالشهداء الشهود ، أما إذا أريد بهم شهداء الحرب الذين قتلوا في سبيل اللّه تعالى فيكون إحضارهم لإكرامهم وسرورهم بالفوز والنعيم الدائم ،

وإذا أريد بهم الحفظة أو الموكلون بأعمال الخلق الكاتبون لحسناتهم وسيئاتهم فيكون إحضارهم ليتلى عليهم ما دوّنوه ليسألوا عنه بحضور المكتوب عنهم ليتبين لهم هل ظلموهم بشيء من ذلك أم لا ، وإذا أريد بهم الرجال العدول الأبرار من كل أمة فيكون حضورهم لسؤالهم هل أن الرسل بلغوا أممهم رسالة ربهم أم لا ، لأن من الناس من يجحد مجيء الرسل ، وإذا أريد بهم أمة محمد يكون المراد من حضورهم أن يشهدوا على الأمم السالفة بأن رسلهم بلغوهم أوامر اللّه ونواهيه عند ما يقولون ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فيقال لهم من

أين علمتم أنهم بلغوهم وأنتم بعدهم ولم تجتمعوا معهم ؟ فيقولون من كتاب أنزله اللّه علينا ذكر فيه أن الرسل بلغوا أممهم وهو حق وصدق ، ومن أقوال رسولنا محمد الذي أخبرت يا ربنا أنه لم ينطق عن هوى ، وان قوله وحي منك يوحى إليه ، وقد علمنا أنه حق وأن رسالته صدق ، ومما يدل على أن هذه الأمة تشهد يوم القيامة على الأمم التي قبلها قوله تعالى :

(138/664)

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) الآية 143 من البقرة في ج 3 ، ومثلها الآية الأخيرة من سورة الحج في ج 3 أيضا "وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ" لكل ما يستحقه بموجب عمله "وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ 69" شيئا فلا يزاد على سيئات المسيء ، ولا ينقص من حسنات المحسن وينال كل جزاء ما عمله إذا عاملهم بعدله ، أما إذا عاملهم بفضله الواسع الذي يدخل فيه من يشاء جنته عمل أو لم يعمل فهو أهل لذلك فقد يعفو عن المسيء ويضاعف للمحسن أضعافا كثيرة وهو جل عطفه لا يسأل عما يفعل "وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ" جزاء "ما عَمِلَتْ" في دنياها من خير أو شر "وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ 70" قبل محاسبتهم وقبل الإطلاع على كتبهم والاستشهاد عليهم إذ ليس هو بحاجة إلى كتاب أو شاهد ، ولكن ليعترفوا أنفسهم بما وقع منهم ، وليعلموا أن اللّه ما ترك

لهم مثقال ذرة مما عملوه ، وأنه قضى عليهم ولهم بما يستوجبونه ، لأن الحاكم إذا أفهم المحكوم عليه جرمه وأسبابه وأدلته التي أدانته به ووجه ثبوته عليه بالبراهين التي لا تقبل التأويل والحجج القاطعة لرد دفاعه يوقع الحق على نفسه ويلومها ويبرأ الحاكم من الحيف والجور والخصومة ، ولا يوقر بقلبه غلا عليه ،

وإذا لم يفعل ذلك فيقول له لما ذا حكمت عليّ وبماذا أثبت التهمة الملصقة بي ؟ ولو كان في الحقيقة فاعلا فيوقع اللوم على الحاكم ويسند إليه الجور والحيف والخصومة من حيث لا لوم عليه في الحقيقة إلا تقصيره بعدم بيان الأسباب المذكورة .

(139/664)

قال تعالى "وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ" محل تنفيذ العقوبة المترتبة عليهم بعد تفهيمهم الحكم من الحاكم العدل وبيان أسبابه وتبيانه واعترافهم بجرمهم "زُمَراً" أفواجا بعضهم إثر بعض بواسطة شرطة العذاب الذين خصصهم اللّه تعالى لهذه الغاية في يوم النّهاية أذلاء مهانين مكبلين بالسلاسل والأغلال بدلالة لفظ السوق "حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها" لأنها كانت مغلقة لئلا يتأذى منها من ليس من أهلها لا خشية الفرار إذ لا فرار هناك كدور السجن في الدنيا فإنها تكون دائما مغلقة حتى إذا جيء بسجين جديد فتحت فأدخل

وأغلقت أيضا ، إهانة لهم وإعلاما بأن إدخالهم قسرا إذلال لهم "وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا" الموكلون بها المفوضون بتعذيب أهلها بأنواع العذاب المقدر لهم بعلم اللّه وبالمكان المعين لهم من قبله حين يقضى عليهم لأن جهنم دركات الواحدة أشر من الأخرى عند إرادة إدخالهم الدركة المخصّصة لهم ليذوقوا وبال أمرهم من عذابها ، ويقال لهم توبيخا وتقريعا "أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ" من جنسكم في الدنيا "يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ" المنزلة عليهم من لدنه "وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى" إذ لم يبق مجال للإنكار والاحتجاج كما لا مجلل للفرار ولا محل لتعقيب الحكم من استئناف وتمييز وإعادة محاكمة كأحكام الدنيا إذ لا معقب لحكم اللّه ، ولهذا يقول اللّه تعالى حكاية عنهم "وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ" الصادرة من الإله العظيم شديد العقاب المبينة في الآية 119 من سورة هود المارة "عَلَى الْكافِرِينَ 71" يعنون أنفسهم لأنهم كفروا باللّه ورسله وما جاءهم من الوحي "قِيلَ" فتقول لهم الملائكة المذكورون بعنف وشدة بعد ما سمعوا قولهم "ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها" لا مخرج لكم منها البتة ، وإنما قالوا أبواب لأن كلا منهم له عذاب دون الآخر ،

فيدخل كل الباب الذي فيه محل عذابه ، ثم يقال لهم بعد أن يستقر كل في مكانه هذا مثواكم "فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ 72" عن طاعة الله

ورسله المستأنفين عن قبول النصح والإرشاد المعرضين عن الهدى والصواب والسداد .

قال تعالى "وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ" التي حكم لهم بدخولها والتنعم بنعيمها "زُمَراً" جماعات وزرافات على مراكبهم ومراتبهم ، وجاء هنا لفظ السوق للمقابلة أو أنه للمراكب لا للراكبين لإرادة السرعة إلى دار الكرامة بالهيبة والوقار والاحترام ، فشتان بين السوقين "حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها" قبل وصولهم زيادة في تبجيلهم وليحصل لهم كمال السرور بدخولها رأسا من غير انتظار لأن الخزنة فتحوا أبوابها ووقفوا عليها صفوفا منتظرين قدومهم ليتشرفوا بهم كما هي الحالة في الدنيا عند قدوم أمير أو وزير أو عند ما يدخل السلطان مقامه في الأيام الرسمية ليتقبل التبريكات من رعيته والسلام عليه إذ يقف الجنود والموظفون صفوفا عن يمين وشمال الباب الذي يجلس فيه إكراما له وإعلاما بأنها مهيأة لهم ، فيدخلون بالاحترام والتكريم وتؤدى لهم التحية عنده دخولهم وخروجهم ، وهكذا في الآخرة تقف الملائكة صفوفا لاستقبال أهل الجنة ، وشتان بين هؤلاء الصفوف وتلك الصفوف ، راجع الآية 50 من سورة ص في ج 1 .

ومن هنا فليعلم أهل الدنيا الفرق بين تلك الحالتين ، وعند ما يقبل أهل الجنة تحييهم الملائكة عن يمين الأبواب وشمالها احتراما لهم بدلالة قوله تعالى "وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ" مقاما ونفسا "فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ 73" فيها أبدا فيدخل كل منهم الباب المهيء له فيها منزله بحسب عمله ، اللهم اجعلنا منهم بكرمك "وَقَالُوا" بعد أن رأوا فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر في الدنيا "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ" الذي وعدنا به أنبياؤه في الدنيا "وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ" ملكنا أرض الجنة بدلا من أرض الدنيا والمراد بالأرض التي استقروا عليها بعد دخولهم الجنة تشبيها بأرض الدنيا من حيث الاسم وإلا لا مشابهة ولا مقايسة ، وجعلنا "نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ" من قصورها ومضاربها ومنتزهاتها التي منحنا اللّه إياها مما تشتهيه أنفسنا وتلذ أعيننا "فَنِعْمَ" الأجر "أَجْرُ الْعَامِلِينَ 74" خيرا الفاعلين حسنا في الدنيا ، الجنة ونعيمها :

نعمت جزاء المؤمنين الجنة دار الأماني والمنى والمنة

"وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ" عليهم محيطين بهم ومحدقين صفوفا "مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ" إلى حيث يشاء اللّه تعالى إذ ذكر لنا ابتداء الغاية وسكت عن المغيا فلا يعلمها غيره لأن عرش الرحمن يكون في عرصات في الأرض ، قال تعالى (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) الآية 18 من سورة الحاقة الآتية ، وذلك بعد أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، راجع الآية

48 من سورة إبراهيم الآتية ، لأن أرضنا هذه لا تحويه وهي بالنسبة له كحلقة ملقاة في فلاة ، وقال تعالى :

(142/664)

(وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا) الآية 22 من سورة والفجر المارة في ج 1 ، وقال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا) الآية 38 من سورة النبأ الآتية وهؤلاء الملائكة ديدنهم "يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ" تلذذا لا تعبدا إذ لا تكليف هناك وهذا التسبيح والتحميد من الملائكة بمقابلة أبواق الجند وترتيلاتهم في الدنيا "وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ" من قبل الحق ووضع كل من الفريقين بمنزلته المخصصة له بقضاء قاضي القضاة الأبدي "وَقِيلَ" والقائل والله أعلم المؤمنون "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ 75" شكرا على ما أولاهم من هذه الكرامة الأبدية ، فالحمد الأول كان على انجاز وعده وإيراثهم الأرض ، وهذا الحمد الثاني على القضاء بالحق فلا تكرار ، والأول فاصل بين الطرفين بالوعد والوعيد والرضى والسخط ، والثاني للتفريق بينهما بحسب الأبدان فريق في الجنة وفريق في السعير ، ثم إن الملائكة تحمد الله تعالى أيضا على ذلك القضاء لخلاصهم من تهم ما نسبوه إليهم من العبادة .

ويوجد أربع سور مختومة بمثل هذه اللفظة هذه والصافات والقلم وكورت .

هذا ، واللّه أعلم ، واستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 3 صـ 521.565 ﴾

(143/664)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الزمر

مكية إلا قوله قل يا عبادي الذين أسرفوا الآية فمدني

تنزيل الكتاب خبر مبتدأ محذوف فيجوز الوقف عليه أو مبتدأ خبره من الله العزيز الحكيم فالوقف على الحكيم وهو تام على الوجهين بالحق جائز له الدين حسن الخالصين تام وكذا زلفى وقال أبو عمرو فيه كاف وقيل تام يختلفون تام وكذا كفار ما يشاء حسن وان وقف على سبحانه جاز سواء أبتدأ به أو وصله بما قبله القهار تام بالحق كاف على النهار صالح وكذا على الليل والقمر حسن وكذا لأجل مسمى والغفار زوجها كاف ثمانية أزواج تام وكذا في ظلمات ثلاث له الملك حسن الا هو جائز تصرفون تام عنكم كاف الكفر حسن

يرضه لكم أحسن منه وقال أبو عمرو كاف وكذا وزر أخرى تعملون كاف بذات الصدور

تام من قبل كاف عن سبيله تام وكذا أصحاب النار علق أمن بما قبل قل بأن تقدر عن

سبيله أهذا خير من هو قانت رحمة ربه تام لا يعلمون كاف أولوا الألباب تام اتقوا ربكم

حسن وقال أبو عمرو كاف حسنة كاف واسعة تام وكذا بغير حساب وأول المسلمين يوم

عظيم حسن له ديني صالح من دونه حسن وكذا يوم القيامة المبين ومن تحتهم ظلل كاف

وكذا عباده فاتقون تام وكذا لهم البشرى فبشر عبادي تام إن جعل ما بعده مبتدأ وليس

بوقف إن جعل نعتا لعبادي وعليه يوقف على فيتبعون أحسنه دون الأول لئلا يفصل بين

المبتدأ وخبره هداهم الله جائز أولو الألباب تام كلمة العذاب صالح وقال أبو عمرو كاف من

في النار كاف وكذا الانهار المعياد تام حطاما كاف لاولي الألباب تام من ربه كاف إن يجعل

فويل الخ دليلا على جواب أفمن وهو كمن طبع على قلبه والا فلا يحسن الوقف عليه مبين تام

مثاني حسن إلى ذكر الله كاف من يشاء حسن من هاد تام يوم القيامة كاف تكسبون تام في

الحياة الدنيا كاف يعلمون تام يتذكرون صالح يتقون تام صالح مثلا تام لا يعلمون كاف ميتون

صالح تختصمون حسن وكذا إذا جاءه للكافرين تام المتقون حسن عند ربهم كاف وكذا

جزاء المحسنين يعلمون تام من دونه حسن من هاد صالح من مضل حسن ذي انتقام تام

ليقولن الله كاف رحمته

تام قل حسبي الله جائز المتوكلون تام وكذا مقيم بالحق صالح عليها جائز بوكيل تام في منامها كاف وكذا إلى أجل مسمى يتفكرون صالح يعقلون تام جميعا كاف ترجعون حسن يستبشرون تام وكذا يختلفون يوم القيامة كاف وكذا يحتسبون ويستهزؤن لا يعلمون حسن يكسبون كاف ما كسبوا أكفى منه بمعجزين تام ويقدر كاف يؤمنون تام من رحمة الله كاف جميعا صالح الرحيم كاف وكذا لا تنصرون المحسنين كاف وما بينهما من الآيات لا يوقف عليه لغير المضطر لتعلق ما بعدها بهم ولو قيل بالجواز لكونها آيات ولطول الكلام لم يبعد الكافرين حسن مسودة كاف للمتكبرين تام وكذا يحزنون ووكيل والأرض والخاسرون والجاهلون من الخاسرين حسن من الشاكرين تام حق قدره صالح مطويات بيمنه تام وكذا يشكرون من شاء الله صالح ينظرون حسن وكذا لا يظلمون بما يفعلون كاف زمرا صالح يومكم هذا كاف الكافرين حسن المتكبرين تام خالدين حسن وكذا العالمين بحمد ربهم تام وكذا بالحق آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ 363.372 ﴾

(145/664)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الزمر

مكية إلا قوله قل يا عبادي الذين أسرفوا الآية فمدني نزلت في وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب كلمها ألف ومائة واثنتان وسبعون كلمة وحروفها أربعة آلاف وسبعمائة وثمانية أحرف وآيها اثنتان أو ثلاث أو خمس وسبعون آية

تنزيل الكتاب (جائز) إن جعل تنزيل خبر مبتدأ محذوف ولم يجعل ما بعده صفة له وليس بوقف إن جعل تنزيل مبتدأ خبره من الله العزيز الحكيم والوقف على الحكيم تام على الوجهين

بالحق (حسن)

له الدين (حسن) وقيل تام وهو رأس آية

الخالص (تام)

من دونه أولياء (حسن) إن جعل خبر والذين محذوفاً أي يقولون ما نعبدهم وكذا إن جعل الخبر ان الله يحكم وليس بوقف إن جعل ما نعبدهم قام مقام الخبر

زلفى (كاف)

يختلفون (تام) ومثله كفار

ما يشاء (حسن)

سبحانه (جائز) سواء ابتدأ به أم وصله بما قبله

القهار (تام)

بالحق (حسن)

على النهار (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده معطوفاً على ما قبله

على الليل (حسن) ومثله والقمر وكذا مسمى وقيل كاف

الغفار (تام)

زوجها (حسن)

أزواج (كاف) وتام عند أبي حاتم على استئناف ما بعده

ثلاث (حسن) ومثله الملك

إلا هو (جائز)

تصرفون (تام) للابتداء بالشرط

عنكم (حسن) ومثله الكفر

يرضه لكم (كاف)

وزر أخرى (حسن)

مرجعكم ليس بوقف لمكان الفاء

تعملون (كاف)

بذات الصدور (تام)

منيباً إليه (جائز) ومنيباً حال من فاعل دعا

من قبل (حسن) عن سبيله (تام)

قليلاً (حسن)

من أصحاب النار (كاف) وقرئ أمّن بتشديد الميم وتخفيفها فوقف من شدّدها على رحمة ربه وبها قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي وابن عامر ومن خفف الميم وهو ابن كثير ونافع وحمزة فأم عندهم متصلة ومعادلها محذوف تقديره أ الكافر خير أم الذي هو قانت وكان الوقف على رحمة ربه أيضاً ورسموا أمن بميم واحدة كما ترى

رحمة ربه (كاف) على القراءتين

الألباب (تام)

اتقوا ربكم (حسن) ومثله حسنة

واسعة (كاف)

بغير حساب (تام)

له الدين (جائز)

المسلمين (كاف) ومثله عظيم ،

قل الله أعبد ليس بوقف لأن مخلصاً منصوب على الحال من الضمير في أعبد

له ديني (جائز)

من دونه (كاف)

يوم القيامة (حسن)

المبين (كاف)

ومن تحتهم ظلل (حسن) ومثله عباده

فاتقون (تام)

لهم البشرى (حسن)

عبادي (تام) إن جعل الذين مبتدأ والخبر أولئك الذين هداهم الله وهو رأس آية وليس بوقف إن جعل الذين في موضع نصب نعتاً لعبادي أو بدلاً منهم أو بياناً لهم وكان الوقف على فيتبعون أحسنه كافياً وقرأ السوسي عبادي بتحريك الياء وصلاً وبإسكانها وقفاً والباقون بغير ياء وصلاً ووقفاً

هداهم الله (جائز)

الألباب (تام)

كلمة العذاب (حسن) والخبر محذوف والمعنى أفمن حق عليه كلمة العذاب كمن وجبت له الجنة فالآية على هذا جملتان ثم يبتدئ أفأنت تنقذ من في النار أي أتستطيع أن تنقذ هذا الذي وجبت له النار وليس بوقف إن جعل الخبر افأنت تنقذ وعلى هذا فالوصل أولى وإنما أعاد الاستفهام للتوكيد كما أعاد أنَّ في قوله أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مخرجون انتهى أبو العلاء الهمداني

من في النار (كاف) ومثله الأنهار وهو رأس آية وتام عند أبي حاتم إن نصب وعد الله بفعل مقدر وليس بوقف إن نصب بما قبله وغلط أبو جعفر أبا حاتم في هذا وإن كان رأس آية

الميعاد (تام)

في الأرض (جائز) ومثله ألوانه وكذا مصفراً

حطاماً (كاف)

لأولي الألباب (تام)

من ربه (كاف) بإضمار أي أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن طبع على قلبه أو كمن لم يشرح الله صدره أوليس المنشرح صدره بتوحيد الله كالقاسي قلبه فمن مبتدأ وخبرها محذوف وليس بوقف إن جعل فويل دليلاً على جواب أفمن أي كمن قسا قلبه فهو في ظلمة وعمى بدليل قوله فويل للقاسية

من ذكر الله (حسن)

مبين (تام)

مثاني (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل في موضع الصفة لكتاباً

يخشون ربهم (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل معطوفاً على ما قبله

(147/664)

إلى ذكر الله (حسن) ومثله هدى الله وكذا من يشاء

من هاد (تام)

يوم القيامة (كاف) لحذف جواب الاستفهام وهو كمن لا يتقى أو كمن هو آمن من العذاب أو

كمن يأتي آمناً يوم القيامة

تكسبون (كاف)

لا يشعرون (حسن)

في الحياة الدنيا (كاف) للابتداء بلام الابتداء

يعلمون (تام)

يتذكرون (جائز) إن نصب قرآناً بإضمار فعل أي أعني أو أمدح وليس بوقف إن نصب

حالاً من القرآن

يتقون (كاف)

لرجل (جائز)

مثلاً (كاف) وتام عند أبي حاتم هذا مثل ضربه الله للكافر الذي يعبد آلهة شتى وللمؤمن الذي لا يعبد إلاَّ الله

الحمد لله (حسن) للابتداء بحرف الإضراب

لا يعلمون (تام)

ميتون (جائز)

تختصمون (تام)

إذ جاءه (حسن) للابتداء بالاستفهام

للكافرين (تام)

وصدّق به ليس بوقف وذلك أنّ خبر والذي لم يأت وهو أؤلئك

المتقون (تام)

عند ربهم (حسن) ومثله المحسنين لكونه رأس آية وإن علقت اللام بمحذوف كان تاماً أي ذلك ليكفروا أو يكرمهم الله ليكفر لأنَّ المشيئة لأهل الجنة غير مقيدة ولا متناهية وليس بوقف إن علقت اللام بما يشاؤن لأنَّ تكفير الأسوا والجزاء على قدر الإحسان منتهى ما

يشاؤن قاله السجاوندي

الذي عملوا ليس بوقف لأنَّ ما بعده معطوف على ما قبله متصل به

يعملون (تام) للابتداء بالاستفهام

بكاف عبده (حسن) على القراءتين أعني بالجمع والأفراد والمراد بالعبد النبي صلى الله

عليه وسلم ولكن لما كان المراد النبي وأتباعه جمع أؤلئك المتقون

من دونه (تام) عند نافع للابتداء بالشرط ومثله من هاد

من مضل (حسن)

ذي انتقام (تام)

ليقولن الله (كاف)

من دون الله ليس بوقف لأنَّ الذي بعده شرط قد قام ما قبله مقام جوابه وكذا لا يوقف على

ضره لعطف ما بعده على ما قبله بأو لأنَّ العطف بأو يصير الشيئين كالشيء الواحد

رحمته (تام)

حسبي الله (حسن)

المتوكلون (تام)

مكانتكم (حسن)

إني عامل (أحسن منه) للابتداء بالتهديد مع الفاء

تعلمون ليس بوقف لأنَّ جملة الاستفهام مفعول تعملون ومثله في عدم الوقف يخزيه لعطف ما بعده على ما قبله

مقيم (تام)

بالحق (جائز) ومثله فلنفسه وكذا عليها وقال يحيى بن نصير النحوي لا يوقف على أحد المقابلين حتى يؤتى بالثاني والأولى الفصل بين الفريقين بالوقف ولا يخلطهما

بوكيل (تام)

حين موتها ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله أي ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها وفي منامها (كاف) على القراءتين أعني قضى مبيناً للفاعل ونصب الموت والفاعل مستتر في قضى وقرأ حمزة والكسائي قضى مبنياً للمفعول والموت نائب الفاعل والباقون بفتح القاف والضاد وألف بعدها ونصب الموت

مسمى (كاف)

يتفكرون (أكفى)

شفعاء (جائز) وقيل حسن لتناهي الاستفهام

يعقلون (تام)

جميعاً (كاف)

والأرض (جائز) ومثله ترجعون

بالآخرة (جائز) للفصل بين تنافي الجملتين معنى مع اتفاقهما نظماً ولا يوقف على وحده ولا

على من دونه لأنَّ جواب إذا الأولى لم يأت وهو قوله إذا هم يستبشرون

ويستبشرون (تام)

والأرض ليس بوقف لأنَّ عالم صفة فاطر

والشهادة (حسن)

بين عبادك ليس بوقف لأنَّ ما بعده ظرف للحكم

يختلفون (تام)

ومثله معه ليس بوقف لأن جواب لو لم يأت بعد

يوم القيامة (حسن)

يحتسبون (كاف)

ما كسبوا (حسن)

يستهزؤن (تام) على استئناف ما بعده ومن قال هذه الآية صفة للكافر المتقدم ذكره فلا

يوقف من قوله وإذا ذكر الله وحده اشمأزت إلى هنا إلا على سبيل التسامح لطول الكلام ولا

شك أن أرباب هذا الفن صرحوا أن بين قوله وإذا ذكر الله وحده وبين قوله إذا مس الإنسان وقوفاً تامة وكافية والأول أصح ولا وقف من قوله فإذا مس الإنسان إلى علم فلا يوقف على نعمة منا لان قال جواب إذا الثانية 0

على علم (كاف) للابتداء بحرف الإضراب ولا يوقف على فتنة لأنَّ لكن حرف يستدرك به الإثبات بعد النفي والنفي بعد الإثبات فلا يبتدأ به

لا يعلمون (كاف) ومثله يكسبون و كسبوا الأولى والثانية (تام) فيهما 0

(149/664)

بمعجزين (تام)

ويقدر (كاف)

يؤمنون (تام)

من رحمة الله (كاف) ومثله جميعاً 0

الرحيم (تام)

وأسلموا له ليس بوقف لأن الظرف الذي بعده متعلق به 0

العذاب (حسن)

لا تنصرون (كاف) ولا وقف من قوله واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم إلى المحسنين لاتصال الكلام وتعلقه ببعضه إن كان في نفسه طول يبلغ به إلى ذلك وإلا وقف على رؤوس الآي ثم يعود من أول الكلام ليكون الكلام متصلاً بعضه ببعض فلا يوقف على من ربكم لتعلق الظرف بما قبله ولا على بغتة للعطف ولا على تشعرون لأن أن منصوبة بما قبلها ولا على جنب الله للعطف ولا على الساخرين لأنَّ أو تقول معطوف على ما عملت فيه إن الأولى ولا على هداني لأنَّ قوله لكنت جواب لو ولا على المتقين لأن تقول الثانية معطوفة على الأولى وجواب لو أنَّ لي كرة محذوف تقديره لنجوت 0

المحسنين (كاف) ولا يوقف على بلى لأنَّها لم تسبق بنفي ملفوظ به ولا شيء من مقتضيات الوقف ولا من موجباته بل هي هنا جواب لنفي مقدر كأنَّ الكافر قال لم يتبين لي الأمر في الدنيا ولا هداني فردّ الله عليه حسرته وقوله بقوله بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت فصارت بلى هي وما بعدها جواباً لما قبلها فلا يوقف عليها لأنَّ النفي مقدر فهي معه جواب لما جرى قبل قرأ العامة جاءتك بفتح الكاف وكذبت واستكبرت وكنت بفتح التاء في الجميع خطاباً للكافر دون النفس وقرأ الجحدري وأبو حيوة الشامي وابن يعمر والشافعي عن ابن كثير وروتها أمّ سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم وبها قرأ أبو بكر الصديق وابنته عائشة بكسر الكاف والتاء خطاباً للنفس ؟

الكافرين (تام)

مسودّة (كاف)

للمتكبرين (تام) على استئناف ما بعده

بمفازتهم (حسن) على القراءتين بالجمع والأفراد ومثله لا يمسهم السوء

يحزنون (تام)

كل شيء (كاف) للفصل بين الوصفين تعظيماً مع اتفاق الجملتين

(150/664)

وكيل (كاف) ومثله والأرض وقال بعضهم والذين كفروا متصل بقوله وينجي الله وما بين الآيتين معترض أي وينجي الله المؤمنين والكافرون مخصوصون بالخسار فعلى هذا لا وقف بين الآيتين إلا على سبيل التسامح والأول أجود

بآيات الله ليس بوقف لأنَّ خبر والذين لم يأت بعد

الخاسرون (تام) أعبد قرئ برفعه ونصبه فرفعه على حذف أن ورفع الفعل وذلك سائغ لأنَّها لما حذفت بطل عملها ونصبه لأنَّها مختصة دون سائر الموصولات بأنَّها تحذف ويبقى عملها قال في الخلاصة

وشذ حذف إن ونصب في سوى ما مر فاقبل منه ما عدل روى

وشاهده قول الشاعر *

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

وتقديره هنا أن أعبد وقوله أفغير منصوب بأعبد وأعبد معمول لتأمروني بإضمار أن

الجاهلون (كاف)

من قبلك (جائز) للابتداء بلام القسم والموحى محذوف أي أوحى ما أوحى مع احتمال أنَّ

الموحى جملة لئن وعليه فليس بوقف لأنَّ معمول أوحى لم يأت ومثله في عدم الوقف عملك

لأنَّ ما بعده مع الذي قبله جواب القسم وقرئ لنحبطنَّ بنون العظمة وعملك مفعول به

من الخاسرين (كاف)

بل الله فاعبد (حسن)

من الشاكرين (تام)

حق قدره (تام) على استئناف ما بعده وقرأ الحسن وأبو حيوة قدّروا بتشديد الدال حق

قدره بفتح الدال

يوم القيامة (حسن) لمن رفع مطويات خبر والسموات والعامة على رفع مطويات خبراً

وبيمينه متعلق بمطويات أو حال من الضمير في مطويات أو خبر ثان وليس بوقف لمن عطف

والسموات على والأرض ومطويات بالنصب على الحال من السموات

بيمينه (تام) للابتداء بالتنزيه ومثله يشركون

من شاء الله (حسن)

ينظرون (كاف)

بنور ربها (حسن) ومثله بالحق

لا يظلمون (كاف) ومثله ما عملت

بما يفعلون (تام)

زمراً (حسن) ومثله أبوابها

لقاء يومكم هذا (كاف) ومثله على الكافرين

خالدين فيها (حسن) على استئناف ما بعده

المتكبرين (تام) ووقف بعضهم على جهنم وابتدأ زمر بالرفع وبها قرئ بتقدير منهم زمر

(151/664)

و زمراً (جائز) ومثله وفتحت أبوابها وهو جواب حتى إذا وقيل الجواب محذوف تقديره سروا بذلك وسمى بعضهم هذه الواو واو الثمانية قال لأنَّ أبواب الجنة ثمانية قال بعض أهل العربية الواو مفحمة والعرب تقحم مع حتى إذا كما هنا ومع لما كما تقدم في قوله وتله للجبين وناديناه معناه ناديناه والواو لا تقحم إلا مع هذين وقيل الجواب وقال لهم خزنتها والواو

مقحمة أيضاً

خالدين (تام)

حيث نشاء (كاف) على استئناف ما بعده

العاملين (كاف) ومثله حول العرش على استئناف ما بعده وليس بوقف إن علق ما بعده بما قبله

بحمد ربهم (تام) لأنَّ الماضي لا يعطف على المستقبل ومثله في التمام بالحق على استئناف ما بعده

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 663.672 ﴾

(152/664)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الزمر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ الحسن : "اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ1" .

قال أبو الفتح : قد تقدم القول على حديث الطاغوت2 وأنه مقلوب ، ووزنه فلعوت من طغيت ، وقالوا أيضا : طغوت . وقولهم : طغيان دليل على أن اللام ياء ، فأصله إذا طغيوت ، مصدر كالرغبوت والرهبوت والملكوت ، ثم قدمت اللام على العين ، فصارت طيغوت ، ثم قلبت الياء – لتحركها وانفتاح ما قبلها ألفا ، فصارت طاغوت ، وكان قياسه إذا كسر أن يقال : طياغيت ، إلا أنه ينبغي أن يكون الطواغيت جاء على لغة من قال : طغوت .

ومثال طواغيت – على ما ترى – فلاعيت ، وتبني مثلها من ضرب فتقول : ضاربتن ومن قتل قلاتيت ، ومن وأيت ويائيت .

ومثلها سواء الحانوت ، وهي في الأصل حنووت ، فعلوت من حنوت ؛ لأن الحانوت يحنو على ما فيه ، ثم قدمت اللام على العين ، فصار حونوت ، ثم انقلبت الواو كما انقلبت في طوغوت ، فصار حانوت ، ووزنها فلعوت ، وعليه قالوا [141و] في تكسيرها : حوانيت ، وهي فلاعيت .

والحانة محذوفة اللام ، كالبالة من باليت ، وعليه قال عمارة :

وكيف لنا بالشرب فيها وما لنا دنانير عند الحانوي ولا نقد3 ؟

فهذا على النسبة ، إلى ناجية ناجوى .

ويجوز في الطواغيت وجه آخر ، وهو أن يكون من طغيت ، إلا أنه لما قدم اللام وقبلها ،

1 سورة الزمر : 17 .

2 انظر الصفحة 131 وما بعدها من الجزء الأول .

3 انظر الصفحة 134 من الجزء الأول .

فصارت إلى طاغوت – أشبهت فاعوا ، فكسرها بالواو ، كعاقول1 وعواقيل ، وساجور2 وسواجير ، لا سيما وقد كثر عنهم التخليط في هذا المثال . ألا تراهم قالوا : شيراز3 ، ثم كسروا فقالوا : شواريز ، فيما حكاه أبو الحسن . وقياسه شياريز ، أو شراريز . والوجه الأول أقرب مأخذا ، وهذا الثاني أيضا مقبول على ما ترى .

ومن ذلك قراءة أبي صالح الكوفي4 ومحمد بن جحادة وعكرمة بن سليمان5 : "وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ6" ، خفيفة .

قال أبو الفتح : قوله : "صدوق به" ، خفيفة – ضرب في الثناء على المؤمن ، فهو كقولك : الذي يأمر بالمعروف ، ويتبع سبيل الخير فيه – مثاب عند الله ، فكذلك قوله : ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ ، أي : استحق اسم الصدق في مجيئه به ، فمن أمره كذا .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر : "يَا حَسْرَتَاى7" .

وروى ابن جماز عنه : "يَا حَسْرَتَاى" ، مجزومة الياء .

قال أبو الفتح : في هذه القراءة إشكال ، وذلك أن الألف في "حسرتا" إنما هي بدل من ياء

---

1 العاقول : من معانيه أنه نبت .

2 الساجور : خشبة تعلق في عنق الكلب .

3 الشيراز : اللبن الرائب المستخرج ماؤه .

4 هو محمد بن عمير بن الربيع أبو صالح الهمذاني الكوفي القاضي ، مقرئ عارف بحرف حمزة . أخذ عرضا عن سعيد بن محمد الكندي ، وروى القراءة عنه عرضا أحمد بن نصر الشذائي وغيره . طال عمره وبقي إلى حدود عشر وثلثمائة . طبقات القراء لابن الجزري : 2 : 222 .

5 هو عكرمة بن سليمان بن كثير بن عامر أبو القاسم المكي . قال الذهبي : شيخ مستور ، ما علمت أحدا تكلم فيه . عرض على شبل وإسماعيل القسط ، وعرض عليه أحمد بن محمد البزي ، كان إمام أهل مكة في القراءة بعد شبل وأصحابه . وبقى إلى قبيل المائتين . طبقات ابن الجزري : 1 : 515 .

6 سورة الزمر : 33 .

7 سورة الزمر : 56 .

حسرتي . أبدلت الياء ألفا هربا إلى خفة الألف من ثقل الياء ، كقولك : يا غلاما ويا صاحبا ، أنت تريد : يا غلامي ويا صاحبي . وأنشده منه قوله :

يا بنت عما لا تلومي واهجمي 1

وذلك أنه أبدل من ياء "عمي" ألفا ، وليس العم منادى . وهذا البدل إنما بابه النداء ، كقولك : يا أبا ، ويا أما وكان – على هذا – ينبغي ألا يأتي بياء المتكلم بعد الألف ؛ لأن هذه الألف إنما هي بدل من ياء الضمير ، وليس له هناك ياءان ، فهذا وجه إشكال هذا ، وهو واضح .

والذي عندي فيه أه جمع بين العوض والمعوض منه ، أعني البدل والمبدل منهن كمذهب أبي إسحاق وأبي بكر في قول الفرزدق :

هما نفثا في في من فمويهما على النابح العاوي أشد رجام 2

أي : مراجعة 3 : وأنه جمع بين الميم والواو ، وإنما الميم بدل من الواو . ومثله ما أنشده أبو زيد :

إني إذا ما حدث ألما دعوت يا اللهم يا اللهما 4 ؟

---

1 لأبي النجم العجلي ، يخاطب امرأته أم الخيار ، وهي بنت عمه ، ولها يقول :

أصبحت أم الخيار تدعى على ذنبا كله لم أصنع

ويروى "يا بنة" . وانظر الكتاب : 1 : 318 .

2 رواية الديوان :

هما تفلا في من فمويهما على النابح العاوي أشد لجامي

يصف شاعرين من قومه نزع في الشعر إليهما : ويريد بالنابح العاوي من هجاه . وانظر الديوان : 771 ، والكتاب : 2 : 83 ، 202 .

3 المراجعة : الترامي بالحجارة ، ويريد هنا الرجم ، وجعل من يهجوه كلبا .

4 روى "لم" مكان "حدث" و"أقول" مكان "دعوت" . واللمم ، فتحتين : مقاربة الذنب ، وقيل هو الصغائر . ونسبه العيني في مختصر الشواهد : "312" إلى أبي خراش ، وروى قبله :

أن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما ؟

قال البغدادي "الخزانة : 1 : 358" : وهذا خطأ ، فإن هذا البيت الذي زعم أنه قبله بيت مفرد ، وليس هو لأبي خراش ، وإنما هو لأمية بن أبي الصلت ، قاله عند موته . وقد أخذه أبو خراش وضمه إلى بيت آخر ، كان يقولهما وهي يسعى بين الصفا والمروة ، وهما :

لا هم هذا خامس أن تما أتمه الله وقد أتما

أن تغفر اللهم . .

وقد تمثل به النبي صلى الله عليه وسلم ، وصار من جملة الأحاديث . ولم يعثر على البيت في ديوان الهذليين .

(155/664)

فجمع بين "يا" والميم ، وإنما الميم في آخر الاسم عوض من "يا" في أوله ، إذا قلت : اللهم اغفر لنا ، وعليه قول الآخر :

يا أمتا أبصرني راكب في بلد مسحنفر لاحب1

وإنما التاء في "يا أمت" بدل من الياء في يا أمي ، فجمعت بينهما ثم أبدلت من الياء ألفا ، فقالت : "يا أمتا" . وقال أبو علي في قوله :

ضخم يحب الخلق الأضخما2

إنه يجري مجرى الجمع بين العوض والمعوض منه ، [141ظ] قال : وذلك أن هذا التشديد الذي يعرض في الوقف إنما دخل إيذانا بأن آخر الحرف محرك في الوصل ، إذ لا يجتمع ساكنان في الإدراج هكذا ، فكان يجب إذا أطلق في الوصل أن يحذف التشديد لزوال الحاجة إليه بالإطلاق ، قال : فتركه الحرف المزيد في الوقف للتثقيل مع استغنائه عنه

بإطلاق الحرف – فكأنه جمع بين العوض والمعوض منه, وهذا تأول – وإن كان صحيحا – بعيد ، والذي رأيناه نحن أقرب القريب .

وأما إسكان الياء في "يَا حَسْرَتَاى" في الرواية الثانية هو3 على ما مضى من قراءة نافع : "مَحْيَايَ وَمَمَاتِي4" . وأرى مع هذا لهذا الإسكان هنا مزية على ذلك ، وذلك أنه قد كان ينبغي ألا يجمع بين الألف والياء ؛ إذ كانت الألف هي الياء ، إلا أنه لما صانع عن ذلك بما ذكرناه ، فألحق الياء على ما في ضعفت في نفسه ؛ لضعف القياس في إثباتها مع الألف ، فضاءل منها وألطأ5 بالسكون شخصها . وإذا لاطفت فكرك في تأمل ذلك وأنسته به أصحب6 إليه ، وتابعك مع إنارة الفكر عليه .

ومن ذلك قراءة ابن عباس : "وَأَشْرَقَتِ الْأَرْض7" .

---

1 مسحنفر : واسع . ولاحب : يريد مطروقا واضح المعالم .

2 انظر الصفحة 102 من الجزء الأول .

3 هكذا بلا فاء في "هو" في النسختين والأولى : فهو .

4 سورة الأنعام : 162 .

5 في هامش نسخة الأصل : ألطأ : الصق .

6 أصحبه : اصطحبه .

7 سورة الزمر : 69 .

قال أبو الفتح : شرقت الشمس : إذا طلعت ، وأشرقت : إذا أضاءت وصفت ، وشرقت : إذا احمرت لقربها من الأرض ؛ فتكون هذه القراءة التي هي "أشرقت" منقولة من شرقت : إذا طلعت . وأشرقت أبلغ منه ؛ لقوة نورها وإضاءتها .

وفي "أشرقت" معنى آخر ، وهو أنها إذا أشرقت وأضاءت فإنما زاد نورها ، وقد كان قرصها ظاهرا قبل ذلك . وأما شرقت ، أي : طلعت فإنها – وإن لم يكن لها صفاء المشرقة – فإنه قد أشرف على الأرض من شخصها عقيب ظلمة الليل قبلها ما هال رائيه ونسخ ما كان من سواد الليل قبله . فهذا القدر – لارتجاله وفجاءة وجه الأرض به – أظهر قدرا من إضاءتها عقيب ما سبق من ظهور قرصها ، وطبق الأرض من نورها .

وهذا كان يعطيك رجل عشرة دراهم على حاجة منك إليها ؛ فتقع موقعها . فإن زادك هو أو غيره درهما آخر فصارت أحد عشر – فهي لعمري أكثر من عشرة ، إلا أن قدر الدرهم المزيد عليها لا يفي بقدر العشرة الواردة على قوة الحاجة ، فشرقت كالعشرة ، وأشرقت كالأحد عشر ، فافهم ذلك ممثلا بإذن الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 239.235 ﴾

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الزمر

مكية قيل إلا الله الذي نزل وقيل يا عبادي الذين وآيها سبعون وثنتان حجازي وبصري وثلاث شامي وخمس كوفي خلافها سبع فيه يختلفون تركها كوفي وعدله ديني وفما له من هاد الثاني وفسوف تعلمون مخلصا له الدين الثاني كوفي ودمشقي فبشر عباد تركها مكي ومدني أول وعدا تجري من تحتها الأنهار مشبه الفاصلة خمس الدين الخالص بما كنتم تعملون كلمة العذاب متشاكسون حين وعكسه موضع له الدين الأولى القراآت أمال زلفى حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وأبو عمرو وكذا لاصطفى لغير أبي عمرو فإنه يفتحها مع الباقين

وقرأ في ( ) بطون أمهاتكم (الآية 6 بكسر الهمزة والكسائي وزاد حمزة كسر الميم وهذا في الدرج أما في الابتداء فلا خلاف في ضم الهمزة وفتح الميم كما مر بالنساء وأمال فإني حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والتقليل الأزرق والدوري عن أبي عمرو وكذا يرضى غير الدوري المذكور فإنه بفتحها وقرأ (يرضه) الآية 7 باختلاس ضمة الهاء نافع وحفص وحمزة ويعقوب واختلف فيه عن ابن ذكوان وابن وردان والثاني لهما الإشباع وقرأ السوسي بسكون الهاء واختلف فيه أعني الإسكان عن الدوري وهشام وأبي بكر وابن جماز والثاني للدوري وابن جماز الإشباع والثاني لهشام وأبي بكر الاختلاس والباقون وهم ابن كثير والكسائي وخلف عن نفسه بالإشباع فتلخص لنافع وحفص وحمزة ويعقوب الاختلاس فقط ولابن كثير والكسائي وخلف الإشباع فقط وللسوسي الإسكان فقط وللدوري وابن جماز الإسكان والإشباع ولهشام وأبي بكر الإسكان والاختلاس ولابن ذكوان وابن وردان الاختلاس والإشباع ومر الخلف للأزرق في ترقيق وزر والوجهان له في جامع القرآن وقرأ) ليضل عن ( ) الآية 8 بفتح الياء ابن كثير وأبو عمرو ورويس بخلف واختلف في ﴿ أمن هو ﴾ الآية 9 فنافع وابن كثير وحمزة بتخفيف الميم على أنها موصولة دخلت عليها همزة الاستفهام التقريري ويقدر معادل دل عليه هل يستوي أي أمن هو قانت الخ كمن جعل الله أندادا وافقهم الأعمش

والباقون بالتشديد فهي أم المتصلة دخلت على من الموصولة أيضا والمعادل محذوف قبلها أي هذا الكافر خير أم الذي هو قانت لكن تعقبه أبو حيان بأن حذف المعادل الأول يحتاج إلى سماع ولذا قيل إنها منقطعة والتقدير بل أم من هو قانت كغيره واتفقوا على حذف الياء من ( ) يا عباد الذين آمنوا (الآية 10 إلا ما انفرد به أبو العلاء عن رويس من إثباتها وقفا فخالف سائر الناس كما مر في المرسوم وفتح ياء ( ) إني أمرت ( ) الآية 11 نافع وابو جعفر و ( ) إني أخاف ( ) الآية 13 نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأما ( ) يا عباد فاتقون ( ) فأثبت الياء في الحالين من فاتقون يعقوب بكماله واختلف عن رويس في يا عباد فجمهور العراقيين على إثباتها عنه كذلك والآخرون على الحذف وهو القياس فإنه قاعدة الاسم المنادى وأثبت ياء ( ) فبشر عباد ( ) وصلا مفتوحة السوسي بخلف واختلف المثبتون عنه في الوقف فأثبتها عنه الجمهور منهم فيه وحذفها آخرون أما من حذفها وصلا فيحذفها وقفا قطعا فتحصل للسوسي ثلاثة أوجه الإثبات في الحالين والحذف فيهما والإثبات وصلا مفتوحة لا وقفا والثلاثة في الطيبة ووقف عليها يعقوب بالياء على أصله والباقون بالحذف في الحالين وقرأ أبو جعفر لكن بتشديد النون فالذين بعده موضعه نصب كما مر بآل عمران ووقف على من هاد بالياء ابن كثير وقرأ قيل بالإشمام هشام والكسائي ورويس وأدغم دال ولقد ضربنا ورش وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ ابن كثير قرانا بالنقل واختلف في ( ) ورجلا سلما ( ) الآية 29 فابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالألف وكسر اللام اسم فاعل أي خالصا من الشركة وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن والباقون بفتح السين واللام بلا ألف مصدر وصف به مبالغة في الخلوص من الشركة وعن ابن محيصن والحسن إنك مائت وإنهم مائتون بألف بعد الميم وبعدهما همزة مكسورة فيهما وأدغم ذال إذ جاءه أبو عمرو وهشام واختلف في ( ) بكاف عبده (الآية 36

(160/664)

فحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف ﴿ عباده ﴾ بألف على الجمع على إرادة الأنبياء والمطيعين من المؤمنين وافقهم الأعمش والباقون بغير ألف أي كافيك يا محمد أمر الكفار فالمفعول الثاني فيهما محذوف ووقف ابن كثير على من هاد بالياء وقرأ قل أفرأيتم بتسهيل الثانية قالون وورش وللأزرق عنه أيضا إبدالها ألفا خالصة مع أشباع المد للساكنين وحذفها الكسائي كما مر بالأنعام وغيرها وسكن ياء إن أرادني الله حمزة واختلف في ( ) كاشفات ضره (الآية 38 و ( ) ممسكات رحمته (الآية 38 فأبو عمرو ويعقوب بتنوين (كاشفات وممسكات) ونصب (ضره ورحمته) اسم فاعل بشرطه فيعمل عمل فعله ويتعدى لواحد لنفسه وإلى آخر بعن أي عني وافقهم اليزيدي والحسن وابن محيصن من

المفردة والباقون بغير تنوين فيهما وجر ضره ورحمته على الإضافة اللفظية وعن ابن محيصن من المبهج تسكين ياء

( ) حسبي الله (وقرأ مكاناتكم بالجمع أبو بكر واختلف في ( ) قضى عليها الموت (الآية 42 فحمزة والكسائي وخلف بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء مبنيا للمفعول و (الموت) بالرفع نائب الفاعل وافقهم الأعمش والباقون بفتح القاف والضاد مبنيا للفاعل والموت بالنصب مفعوله وللأزرق فيه الفتح والتقليل وقرأ) ثم إليه ترجعون (الآية 44 بالبناء للفاعل يعقوب ويوقف لحمزة على اشمأزت بالتسهيل بين بين فقط وحكى إبدالها ألفا وحذفها وهما ضعيفان وفتح ( ) يا عبادي الذين أسرفوا (نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر وسكنها الباقون وقرأ (لا تقنطوا) الآية 53 بكسر النون أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف الباقون بفتحها ومر بالحجر

(161/664)

واختلف في) يا حسرتى ( ) الآية 56 فأبو جعفر بألف بعد التاء وياء بعدها مفتوحة من رواية ابن جماز واختلف عن ابن وردان في إسكان الياء وفتحها وكلاهما صحيح عنه كما في النشر جمعا بين العوض والمعوض عنه أو أنه تثنية حسرة مضاف لياء المتكلم وعورض

بأنه كان ينبغي أن يقال حسرتي بإدغام ياء النصب في باء الإضافة ويجوز أن يكون راعى لغة من يقول رأيت الزيدان وعن الحسن يا حسرتي بكسر التاء وياء بعدها والباقون بالتاء المفتوحة وبعدها ألف بدل من ياء الإضافة ووقف عليها بهاء السكت بعد الألف رويس بخلفه وأمالها حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما ترى العذاب وصلا السوسي بخلفه

وأمال بلى شعبة بخلفه وحمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وابو عمرو وصححهما عنه في النشر وإن قصر في طيبته الخلاف على الدوري وأدغم دال قد جاءتك أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وعن الحسن ( ) قد جاءتك (بوزن جعتك فيحتمل أن يكون قصرا كقراءة قنبل أن راه

وأمال ترى الذين وصلا السوسي بخلفه وقرأ ( ) وينجي الله (بتخفيف الجيم مع سكون النون روح وحده كما مر بالأنعام الآية 205

واختلف في (بمفازتهم) الآية 61 فأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف بالألف على الجمع وافقهم الأعمش والباقون بغير ألف على التوحيد

واختلف في (تأمروني) الآية 64 فنافع وأبو جعفر بنون خفيفة على حذف إحدى النونين والمختار مذهب سيبويه أنها نون الرفع وقيل نون الوقاية وكلاهما فتح الياء وقرأ ابن عامر

بخلف عن ابن ذكوان بنونين خفيفتين مفتوحة فمكسورة على الأصل وهو الذي عليه أكثر الرواة عن ابن ذكوان من طريقيه ورواه ابن شاذان عن زيد

(162/664)

عن الرملي عن الصوري عن ابن ذكوان بنون واحدة مخففة كنافع وكذا رواه ابن هارون عن الأخفش وتقدم لابن عامر سكون الياء والباقون بنون مشددة أدغمت نون الرفع في نون الوقاية وفتح الياء منهم ابن كثير وعن المطوعي ( ) حق قدره (بفتح الدال من التقدير وعن الحسن قبضته بالنصب على الظرفية بتقدير في وتقدم عنه الصور بفتح الواو

وقرأ بإشمام جيء و سيق و قيل هشام والكسائي ورويس وافقهم ابن ذكوان في سيق ويوقف لحمزة وهشام بخلقه على جيء ونحوه كسيء بالنقل على القياس ثم تسكن الياء بالإدغام أيضا إجراء للأصلي مجرى الزائد وقرأ بالنبيين بالهمز نافع

واختلف في (فتحت) الآية 71 73 معا هنا وفي النبأ الآية 19 فعاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف التاء في الثلاثة وافقهم الأعمش والباقون بالتشديد على التكثير ومر قريبا إمالة بلى

وأمال وترى الملائكة وصلا السوسي بخلفه

المرسوم في بعض المصاحف بكاف عباده بإثبات ألف عباده وفي الشامي تأمرونني بنونين وفي مصاحف الأندلسيين وجايء بالنبيين بزيادة ألف بين الجيم والياء واعتمادهم فيها على المصحف المدني العام واتفقوا على الياء في أفمن يتقي وإن الله هداني وعلى كتابة يحسرتي بياء بدل الألف وكتب أمن هو بميم واحدة واختلفوا في قطع فيما في الموضعين فيما هم فيه وفيما كانوا فيه ياءات الإضافة ست ( ) إني أخاف ( ) الآية 13 ( ) إني أمرت ( ) الآية 11 ( ) عبادي الذين أسرفوا (الآية 53 ( ) تأمروني أعبد ( ) الآية 64 ( ) أرادني الله (الآية 38 ( ) حسبي الله (الآية 38 عن ابن محيصن كما مر الزوائد ثلاث ( ) يا عباد فاتقون (الآية 16 ( ) فبشر عباد ( ) الآية 17 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 480.483﴾

(163/664)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الزمر "

" يكور ، ويكور " فيهما ترقيق الراء لورش .

" بطون أمهاتكم " قرأ حمزة وصلا بكسر الهمزة والميم والكسائي وصلا بكسر الهمزة

وفتح الميم والباقون بضم الهمزة وفتح الميم وصلا كذلك وأجمع العشرة على ضم الهمزة وفتح الميم عند البدء بأمهاتكم .

" يرضه " قرأ نافع وعاصم ويعقوب وحمزة بضم الهاء من غير صلة ، والمكي وابن ذكوان والكسائي وابن وردان وخلف في اختياره بالضم مع الصلة والسوسي وابن جماز بإسكانها ، ولدوري أبي عمرو وجهان الإسكان والضم مع الصلة ولهشام وجهان أيضا الإسكان والضم من غير صلة هذا ما يؤخذ له من الشاطبية ولكن صاحب النشر ذكر أن الإسكان له ليس من طرق التيسير والشاطبية وإن كان صحيحا عنه وعلى هذا ينبغي الاقتصار له على وجه الضم مع عدم الصلة والله أعلم .

" الصدور " آخر الربع "

الممال

النار الثلاثة نار والنهار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش . الكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس والتقليل لورش . لا نرى وأخرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش . زلفى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . الأشرار بالتقليل لورش وحمزة وبالإمالة للبصري والكسائي وخلف في اختياره ، الأعلى ويوحى ولاصطفى ومسمى لدى الوقف عليه ويرضى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

فأنى بالإمالة للأصحاب والتقليل لدوري البصري وورش بخلف عنه . ولا إمالة في زاغت ولا في دعا .

المدغم

" الكبير " القهار رب ، قال ربك ، قال رب ، أقول لأملأن ، جهنم منك ، الكتاب بالحق ، يحكم بينهم ، سبحانه هو ، خلقكم ، وأنزل لكم ، يخلقكم .

" إليه " منه ، الصابرون ، شئتم ، خسروا ، وأهليهم ، فهو ، تقشعر ، وقيل ، القرآن ، قرآنا ، عربيا غير ، كله ظاهر .

" ليضل " فتح الياء المكي والبصري ورويس وضمها غيرهم .

" أمن " خفف الميم نافع وابن كثير وحمزة وشددها الباقون .

" يا عباد الذين آمنوا " اتفقوا على حذف الياء وصلا ووقفا .

" إني أمرت " فتح الياء المدنيان وأسكنها غيرهم .

" إني أخاف " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" يا عباد فاتقون " أثبت رويس ياء عباد وصلا ووقفا وحذفها غيره كذلك وأثبت يعقوب

بتمامه ياء فاتقون في الحالين وحذفها غيره كذلك .

" فبشر عباد الذين " قرأ السوسي بزيادة ياء بعد الدال مفتوحة وصلا ساكنة وقفا . وهذا صريح كلام الشاطبي ، وذكر السيد هاشم أن فتح الياء للسوسي وصلا وسكونها وقفا ليس من طريق الحرز بل طريقه الحذف في الحالين وهذا ما يؤخذ من النشر صراحة وعلى هذا ينبغي لمن يقرأ للسوسي من طريق الحرز أن يقتصر على الحذف في الحالين . وقرأ يعقوب بإثبات الياء وقفا والباقون بحذفها مطلقا .

" لكن الذين " قرأ أبو جعفر بتشديد النون مفتوحة وغيره بتخفيفها ساكنة وقفا مكسورة للتخلص من الساكنين وصلا .

" من هاد " أثبت ابن كثير الياء وقفا وحذفها غيره كذلك ولا خلاف بينهم في حذفها وصلا .

" سلما " قرأ المكي والبصريان بألف بعد السين مع كسر اللام والباقون بحذف الألف وفتح اللام .

" ميت ، ميتون " لا خلاف بينهم في تشديدهما .

" تختصمون " آخر الربع .

الممال

النار الثلاثة بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش . الدنيا معا بالإمالة للأصحاب

والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . البشرى فتراه لذكرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش ، يوفى وهدى لدى الوقف عليهما وهداهم وفأتاهم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، للناس لدوري البصري . ودعا واوي فلا إمالة فيه .

المدغم

" الصغير " ولقد ضربنا لورش والشامي والبصري والأخوين وخلف .

" الكبير " وجعل لله ، بكفرك قليلا ، في النار لكن ؛ وقيل للظالمين ، أكبر لو .

" أظلم ظلموا " ليكفر ، من هاد ، من خلق ، أفرأيتم ، يأتيه ، يخزيه ، عليهم ذكر ، يستبشرون ، يستهزئون ، فاطر ، ويقدر ، واضح .

(165/664)

" جزاؤا " رسمت الهمزة فيه على واو في بعض المصاحف ومجردة عن الواو في بعضها فعلى رسمها بالواو يكون في الوقف عليها لهشام وحمزة اثنا عشر وجها وعلى رسمها بغير واو يكون فيها خمسة القياس فقط .

" عبده " قرأ الأخوان وأبو جعفر وخلف بكسر العين وفتح الباء وألف بعدها على الجمع وغيرهم بفتح العين وإسكان الباء على الإفراد .

" أرادني الله " أسكن الياء حمزة وفتحها غيره .

" كاشفات ضره " ممسكات رحمته ، قرأ البصريان بتنوين كاشفات ونصب راء ضره وتنوين ممسكات ونصب تاء رحمته والباقون بترك التنوين فيهما وجر الراء والتاء .

" مكانتكم " قرأ شعبة بألف بعد النون على الجمع وغيره بترك الألف على الإفراد .

" قضى عليها الموت " قرأ الأخوان وخلف بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء ورفع تاء الموت والباقون بفتح القاف والضاد وألف بعدها ونصب تاء الموت .

" ترجعون " قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم وغيره بضم التاء وفتح الجيم .

" اشمأزت " لو وقف عليه حمزة سهل الهمزة المتوسطة قولا واحدا .

" يؤمنون " آخر الربع .

الممال

جاء كله لابن ذكوان وخلف وحمزة ، مثوى ويتوفى ومسمى لدى الوقف عليها واهتدى وأغنى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، للكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس والتقليل لورش ، الناس لدوري البصري ، قضى بالتقليل لورش بخلف عنه ولا إمالة فيه لأن أصحابها يقرءون بكسر الضاد وفتح الياء . الأخرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش وحاق بالإمالة لحمزة ، ولا إمالة في وبدا لأنه واوي .

المدغم

" الصغير " إذ جاءه للبصري وهشام .

" الكبير " أظلم ممن ، وكذب بالصدق ، جهنم مثوى ، الشفاعة جميعا ، تحكم بين عبادك .

" يا عبادي الذين أسرفوا " أسكن الياء البصريان والأخوان وخلف وفتحها غيرهم .

" لا تقنطوا " كسر النون البصريان والكسائي وخلف في اختياره وفتحها غيرهم .

" يغفر " أفغير ، بالنبيين ، يظلمون ، وهو ، وينذرونكم ، قيل ، فبئس ، كله جلي .

(166/664)

" يا حسرتى " قرأ ابن جماز بزيادة ياء مفتوحة بعد الألف ولابن وردان وجهان أحدهما كابن جماز والآخر بزيادتها ساكنة وعلى هذا الوجه لابد من المد المشبع للساكنين .

ووقف رويس بهاء السكت مع المد المشبع .

" وينجي الله " قرأ روح بإسكان النون وتخفيف الجيم وغيره بفتح النون وتشديد الجيم .

" بمفازتهم " قرأ شعبة والأخوان وخلف بألف بعد الزاي على الجمع والباقون بحذفها على الإفراد .

" تأمروني " قرأ المدنيان بنون واحدة مكسورة مخففة وفتح الياء بعدها وابن كثير بنون واحدة مكسورة مشددة مع المد المشبع للساكنين ومع فتح الياء كذلك ، والبصريان

والكوفيون كابن كثير إلا أنهم يسكنون الياء وابن عامر بنونين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة مخففتين مع إسكان الياء .

" وجيء " قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة الجيم الضم والباقون بالكسرة الخالصة ولهشام وحمزة في الوقف عليه وجهان الأول نقل حركة الهمزة إلى الياء مع إسكان الياء للوقف والثاني إبدال الهمزة ياء مع إدغام الياء قبلها فيها .

" وسيق معا " قرأ ابن عامر والكسائي ورويس بإشمام كسرة السين الضم وغيره بالكسر الخالص .

" فتحت وفتحت " خفف التاء فيهما الكوفيون وشددها غيرهم .

" العالمين " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

" يا حسرتى " بالإمالة للأصحاب والتقليل لدوري البصري وورش بخلف عنه ، ترى العذاب وترى الذين وترى الملائكة . وإن وقف على ترى وأخرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش ، وإن وصل ترى بما بعده فللسوسي الفتح والإمالة هداني وبلى معا ومثوى معا لدى الوقف وتعالى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه جاءتك وشاء وجاءوها معا لابن ذكوان وخلف وحمزة الكافرين معا بالإمالة للدوري والبصري ورويس والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " قد جاءتك ، للبصري وهشام والأخوين وخلف .

(167/664)

" الكبير " إنه هو ، العذاب بغتة ، تقول لو ، أن الله هداني ، القيامة ترى ، جهنم مثوى خالق كل شيء ، بنور ربها ، أعلم بما ، قال لهم معا ، الجنة زمرا ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 280.284 ﴾

(168/664)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الزمر قوله تعالى ﴿ يرضه لكم ﴾ يقرأ بضم الهاء وإثبات واو بعدها وباختلاس الضمة من غير واو والهاء بالإسكان فالحجة لمن أشبع الهاء ولفظ الواو أنه لما ذهبت الألف من يرضى علامة للجزم أتت الهاء وقبلها فتحة فرد حركتها إلى ما كان لها

في الأصل وأتبعها الواو تبيينا للحركة وشاهد ذلك قول ذي الرمة % كأنه كوكب في إثر عفرية % مسوم في سواد الليل منقضب %

والحجة لمن اختلس أن الأصل عنده يرضاه لكم فلما حذفت الألف للجزم بقيت الهاء على الحركة التي كانت عليها قبل حذف الألف وأنشد % له زجل كأنه صوت حاد % إذا طلب الوسيقة أو زمير %

والحجة لمن أسكن أنه لما اتصلت الهاء بالفعل اتصالا لا يمكن انفصالها منه توهم أنها آخر الفعل فأسكنها تخفيفا ليدل بذلك على الجزم فأما الهاء في قوله ﴿ يرضه لكم ﴾ فكناية عن الشكر لقوله أولا ﴿ وإن تشكروا ﴾ فالشكر من العبد رضاه بما قسم الله له والثناء عليه بما أولاه والشكر من الله تعالى الزيادة في النعم وجزيل الثواب

قوله تعالى ﴿ أم من هو قانت ﴾ يقرأ بتشديد الميم وتخفيفها فالحجة لمن شدد أنه رده على قوله ﴿ تمتع بكفرك قليلا ﴾ فكأنه قال أهذا خير أمن هو قانت أي

مصل والقانت في اللغة الداعي والساكت والمصلي وهو ها هنا المصلي لقوله ساجدا وقائما والحجة لمن خفف أنه أقام الالف مقام حرف النداء فكأنه قال يا من هو قانت وهو مشهور في كلام العرب لأنها تنبه المنادى بخمس أدوات وهن يا زيد وأيا زيد وهيا زيد وأي زيد وأزيد

قوله تعالى ﴿ فبشر عباد الذين ﴾ يقرأ بحذف الياء وإثباتها وفتحها فالحجة لمن حذف

أنها لما سقطت لالتقاء الساكنين خطأ سقطت لفظا والحجة لمن أثبتها أنه إنما تسقط ياء الإضافة في النداء لكثرة الحذف فيه والاستعمال فأما في غيره فلا وفتحها لالتقاء الساكنين

(169/664)

فإن قيل فما معنى قوله ﴿ فيتبعون أحسنه ﴾ وليس فيه إلا حسن فقل إن الله ذكر الطاعة في كتابه وأمر بها ووصف الجنة ورغب فيها وذكر المعصية ونهى عنها والنار وحذر منها فإذا تلا القارئ كتاب ربه تبع الطاعة فعمل بها وارتاح إلى الجنة فتقرب منها فهذا معنى أحسنه

قوله تعالى ﴿ ورجلا سلما لرجل ﴾ يقرأ بإثبات الألف وكسر اللام وبحذفها وفتح اللام فالحجة لمن أثبتها أنه أراد به خالصا لا شركة فيه والحجة لمن حذفها أنه أراد المصدر من قولك سلم سلما كما تقول حذر حذرا وليس بمعنى الصلح الذي هو ضد الحرب لأنه لا وجه لذلك ها هنا لأن هذا مثل ضربه الله للكافر المعاند ومعنى شركاء متشاكسين أي متنازعين مختلفين وللمؤمن الذي عبد إلها واحدا

قوله تعالى ﴿ بكاف عبده ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع فالحجة لمن وحد أنه قصد بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ودليله قوله تعالى مخاطبا له ﴿ ويخوفونك بالذين

من دونه ﴾ يعني الأصنام والحجة لمن جمع أنه أراد بذلك كفاية الله لجميع أنبيائه لأن كل أمة قد كادت نبيها كما كيد محمد عليه السلام فدخل في الجملة معهم ودليله قوله تعالى حكاية عن قوم هود ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾

قوله تعالى ﴿ هل هن كاشفات ضره ﴾ و ﴿ ممسكات رحمته ﴾ يقرآن بالتنوين والنصب وبحذف التنوين والخفض فالحجة لمن نون أنه أراد الحال والاستقبال ولمن أضاف أنه أراد ما ثبت ومضى وقد ذكر هذا فيما مضى بأبين من هذا الشرح

قوله تعالى ﴿ التي قضى عليها الموت ﴾ يقرأ بضم القاف وفتح الياء ورفع الموت وبفتح القاف وإسكان الياء ونصب الموت فالحجة لمن ضم القاف أنه دل بذلك على بناء الفعل لما لم يسم فاعله وفتح الياء لكسرة الضاد قبلها ورفع الموت لأنه قام مقام الفاعل والحجة لمن فتح أنه أخبر بالفعل عن الله تعالى لتقدم اسمه في قوله ﴿ الله يتوفى الأنفس ﴾ وأسكن الياء للفتحة قبلها ونصب الموت بتعدي الفعل إليه

(170/664)

قوله تعالى ﴿ بمفازتهم ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع وقد ذكر في نظائره من العلل ما يغني عن إعادته

قوله تعالى ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا ﴾ يقرأ بحذف الياء وإثباتها فالحجة لمن حذف أنه استعمل الحذف في النداء لكثرة دوره في الكلام والحجة لمن أثبت أنه اتى به على الأصل وقيل هذه أرجى آية في كتاب الله لمن يئس من التوبة وقيل بل قوله ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ وقيل بل قول إبراهيم ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾

فقيل بتحقيق الإجابة وقيل بل بالعيان لأن المخبر ليس كالمعاين

قوله تعالى ﴿ تأمروني أعبد ﴾ يقرأ بإدغام النون وتشديدها وبالتخفيف وإظهارها وبتحريك الياء وإسكانها وقد تقدم من الأحتجاج في ذلك ما فيه كفاية

قوله تعالى ﴿ فتحت أبوابها ﴾ ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ يقرآن بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه أراد تكرير الفعل لأن كل باب منها فتح ودليله إجماعهم على التشديد في قوله ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ ومفتحة لهم الأبواب والحجة لمن خفف أنه دل بذلك على فتحها مرة واحدة فكان التخفيف أولى لأن الفعل لم يتردد ولم يكثر فإن قيل فما وجه دخول الواو في إحداهما دون الآخر فقل فيه غير وجه قال قوم هي زائدة فدخولها وخروجها واحد كما يزاد غيرها من الحروف

وقال آخرون العرب تعد من واحد إلى سبعة وتسميه عشرا ثم يأتون بهذه الواو فيسمونها واو العشر ليدلوا على انقضاء عدد وذلك في مثل قوله تعالى ﴿ التائبون العابدون ﴾ فلما سمي سبعة أتى بعد ذلك بالواو ومثله قوله ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ ومثله قوله

تعالى في صفة الجنة ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ لأن للجنة ثمانية أبواب وللنار سبعة

وقال أبو العباس المبرد إذا وجدت حرفا في كتاب الله عز وجل له معنى حسن لم أجعله ملغى ولكن التقدير حتى إذا جاءوها وصلوا وفتحت لهم أبوابها ومثله ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ معناه والله أعلم أذعن لأمر الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 312.308 ﴾

(171/664)

وقال ابن زنجلة :

39 - سورة الزمر

وإنت تشكروا يرضه لكم 7

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي يرضهولكم موصولة بواو لأن ما قبل الهاء متحرك فصار للحركة بمنزلة ضربهو

وقرأ ابن عامر ونافع وحمزةو و عاصم يرضه من غير إشباع اكتفوا بالضمة لأنها تنبي عن الواو

وقرأ يحيى يرضه بإسكان الهاء هذه لغة وقد ذكرنا وبينا في سورة آل عمران

وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله 8

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل عن سبيله بفتح الياء أي ليضل هو وحجتهما قوله إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله

وقرأ الباقون ليضل بضم الياء أي ليضل غيره وإنما وصفه بالإضلال لأن الذي اخبر الله عنه ذلك قد ثبت له أنه ضال بقوله وجعل الله أندادا فلم يكن لإعادة الوصف له بالضلال معنى وكان صفته بإضلال الناس يزيد الكلام فائدة لم تكن وصف بها فكان ذلك ابلغ في ذمه مع ما تقدم من كفرهم

أمن هو قنت ءاناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه 9

قرأ نافع وابن كثير وحمزة أمن خفيفة ا لميم وقرأ الباقون بالتشديد والجملة التي قد عادلت أم قد حذفت

المعنى الجاحد الكافر بربه خير أم من هو قانت ويجوز أن يكون التقدير أأصحاب النار خير أم من هو قانت ويدل على الجملة المحذوفة المعادلة ل أم ما جاء بعد من قوله قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وفيه وجه آخر ذكره الزجاج قال من قرأ أمن بالتشديد فمعناه بل أمن هو قانت كغيره أي أم من هو مطيع كمن هو عاص ويكون على هذا الخبر محذوفا لدلالة الكلام عليه كقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب ومن قرأ أمن بالتخفيف فإن

معناه يا من هو قانت والعرب تنادي بالألف كما تنادي بياء فتقول يا زيد أقبل و أزيد أقبل

قال الشاعر . . . أبني لبيني لستم بيد . . . إلا يد ليست لها عضد . . .

(172/664)

اراد يا بني لبينى قال الفراء فيكون المعنى مردودا بالدعاء كالمنسوق لأنه ذكر الناسي الكافر ثم قص قصة الصالح بالنداء كما تقول في الكلام فلان لا يصوم ولا يصلي فيا من يصوم ويصلي أبشر هذا هو معناه فكذلك قوله أمن هو قانت أي يا من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما أبشر وفيه وجه آخر يجوز أن تكون الألف في أمن ألف استفهام المعنى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما كغيره فكف عن الجواب وقال الزجاج أمن بالتخفيف تأويله أمن هو قانت كهذا الذي ذكرنا ممن جعل الله أندادا

ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا 29

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورجلا سالما بالألف وكسر اللام أي خالصا للرجل كذا جاء في التفسير وهو اسم الفاعل على سلم فهو سالم وحجتهما قوله فيه شركاء متشاكسون فكما أن

الشريك عبارة عن العين وليس باسم حدث كذلك الذي بإزائه ينبغي أن يكون فاعلا ولا

يكون اسم حدث وكذلك اختارها أبو عبيد وقال إن الخالص هو ضد المشترك وأما السلم فإنما ضد المحارب ولا موضع للحرب ها هنا

وقرأ الباقون سلما بغير ألف ومع اللام وهو مصدر سلم سلما وحجتهم قوله متشاكسون لأن معناه متنازعون يدعيه كل واحد منهم ثم وصف من هو ضد هذه الحال ممن لا تنازع فيه ولا اختصام فقال رجلا سلما لرجل وكان معلوما أن السلم ضد التنازع فكان تأويله ورجلا سلم لرجل فلم ينازع فيه ومنه قيل للسلف سلم لأنه سلم إلى من استسلفه

أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه 36

(173/664)

قرأ حمزة والكسائي أليس الله بكاف عباده بالألف وقرأ الباقون عبده ذهبوا إلى الخطاب للنبي صلى الله عليه وحجتهم قوله ويخوفونك بالذين من دونه أي ويخوفونك يا محمد فكأن المعنى أليس الله بكافيك وهم يخوفونك من دونه يعني الأصنام وذلك أن قريشا قالوا للنبي صلى الله عليه أما تخاف أن يخبلك آلهتنا لعيبك إياها فأنزل الله أليس الله بكاف عبده فأخبر ثم خاطبه والمخبر والمخاطب واحد والعرب تخبر ثم ترجع إلى الخطاب

ومن قرأ عباده فالمعنى أليس الله بكاف عباده الأنبياء قبل كما كفى إبراهيم النار ونوحا

الغرق ويونس ما دفع إليه فهو سبحانه كافيك كما كفى هؤلاء الرسل قبلك قال الفراء قد همت أمم الأنبياء بهم و وعدوهم مثل هذا فقالوا لهود إن نقول إلا اعتراض بعض آلهتنا بسوء فقال الله أليس الله بكاف عباده أي محمدا والأنبياء قبله

إن أرادني الله بضر هل هن كشفت ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكت رحمته 38

قرأ أبو عمر هل هن كاشفات بالتنوين ضره بالنصب وكذلك ممسكات رحمته وقرأ الباقون بالإضافة

حجة أبي عمرو أن الفعل منتظر وأنه مما لم يقع وما لم يقع من أسماء الفاعلين إذا كان في الحال فالوجه فيه النصب المعنى هل هن يكشفن ضره أو يمسكن رحمته وحجة الإضافة أن الإضافة قد استعملتها ا لعرب في الماضي والمنتظر وأن التنوين لم يستعمل إلا في المنتظر خاصة فلما كانا مستعملين وقد نزل بهما القرآن فقال جل وعز كل نفس ذائقة الموت أخذ بأكثر الوجهين أصلا وحجة أخرى وهو أنه يراد فيهما التنوين ثم يحذف التنوين للتخفيف كما قال سبحانه إلا أتى الرحمن عبدا هذا لم يقع وتقديره آت الرحمن

الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى 42

قرأ حمزة والكسائي قضي عليها الموت على ما لم يسم فاعله وحجتهما أن الكلام أتى عقيب ذلك بترك تسمية الفاعل وهو قوله إلى أجل مسمى

وقرأ الباقون قضى عليها الموت بنصب القاف والتاء وحجتهم أن الكلام أتى عقيب إخبار الله عن نفسه في قوله الله يتوفى الأنفس فيمسك ويرسل فجرى الفعل بعد ذلك بلفظ ما تقدمه من ذكر الفاعل إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد

وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم 61

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بمفازاتهم جماعة مثل مكانتكم و مكاناتكم وقرأ الباقون بمفازتهم واحدة أي بخلاص وهو الاختيار لأنه بمنزلة السعادة والمفازة كما قال بمفازة من العذاب والمفازة مصدر مثل الفوز فإفراد المفازة كإفراد الفوز و وجه الجمع أن المصادر قد تجمع إذا اختلفت أجناسها لأن لكل واحد مفازة غير مفازة الآخر

قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجهلون 64

قرأ نافع قل أفغير الله تأمروني أعبد بالتخفيف أراد تأمرونني فحذف إحدى النونين للتخفيف وينبغي أن تكون النون الثانية محذوفة لأن التكرير بها وقع ولا تحذف الأولى التي هي علامة الرفع وقد حذفوا هذه النون قال الشاعر . . . قدني من نصر الخبيبين قدي

. . .

فحذف وأثبت وقال قوم بل حذف نون الإعراب كما تحذف الضمة في مثل يأمركم

وقرأ ابن عامر تأمرونني بنونين على الأصل فلم يدغم ولم يحذف وحجته إجماع الجميع على إظهار النون في قوله وكادوا يقتلونني فرد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه

وقرأ الباقون تأمروني بالتشديد الأصل تأمرونني النون الأولى علامة الرفع والثانية مع الياء في موضع النصب ثم أدغموا الأولى في الثانية فيصير تأمروني

حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها حتى إذا جاءوها وفتحت أوبوابها 71 و73

قرأ عاصم وحمزة والكسائي فتحت وفتحت بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد وحجتهم قوله مفتحة لهم الأبواب قال اليزيدي كل ما فتح مرة بعد مرة فهو التفتيح و وجه التخفيف

(175/664)

أن التخفيف يصلح للقليل والكثير وقالوا لأنها تفتح مرة واحدة فإن سأل سائل فقال لم دخلت الواو في وفتحت وأين جواب حتى إذا جاءوها ففي ذلك أجوبة فقال قوم الواو زائدة وقال المبرد إذا وجدت حرفا من كتاب الله تعالى قد اشتمل على معنى حسن لم أجعله ملغى ولكن الواو واو نسق ها هنا التقدير حتى إذا جاؤوها وصلوا وفتحت ابوابها وقال أيضا إن الجواب محذوف والمعنى حتى إذا جاؤوها إلى آخر الآية سعدوا أي حتى

إذا كانت هذه الأشياء صاروا إلى السعادة وقال قوم معناه حتى إذا جاؤوها جاؤوها وفتحت أبوابها ف جاؤوها عندهم محذوف وعلى قول هؤلاء يكون اجتمع المجيء مع الدخول في حال واحد

وقد قيل إن العرب تعد من واحد إلى سبعة ثم تزيد الواو كما قال جل وعز التائبون العابدون ثم قال والناهون بعد السبعة وقال ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم والله أعلم بذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 626.619 ﴾

(176/664)

وقال ابن زنجلة :

39 - سورة الزمر

وإنت تشكروا يرضه لكم 7

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي يرضهولكم موصولة بواو لأن ما قبل الهاء متحرك فصار للحركة بمنزلة ضربهو

وقرأ ابن عامر ونافع وحمزةو و عاصم يرضه من غير إشباع اكتفوا بالضمة لأنها تنبي عن الواو

وقرأ يحيى يرضه بإسكان الهاء هذه لغة وقد ذكرنا وبينا في سورة آل عمران

وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله 8

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل عن سبيله بفتح الياء أي ليضل هو وحجتهما قوله إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله

وقرأ الباقون ليضل بضم الياء أي ليضل غيره وإنما وصفه بالإضلال لأن الذي اخبر الله عنه ذلك قد ثبت له أنه ضال بقوله وجعل الله أندادا فلم يكن لإعادة الوصف له بالضلال معنى وكان صفته بإضلال الناس يزيد الكلام فائدة لم تكن وصف بها فكان ذلك ابلغ في ذمه مع ما تقدم من كفرهم

أمن هو قنت ءاناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه 9

قرأ نافع وابن كثير وحمزة أمن خفيفة ا لميم وقرأ الباقون بالتشديد والجملة التي قد عادلت أم قد حذفت

المعنى الجاحد الكافر بربه خير أم من هو قانت ويجوز أن يكون التقدير أأصحاب النار خير أم من هو قانت ويدل على الجملة المحذوفة المعادلة ل أم ما جاء بعد من قوله قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وفيه وجه آخر ذكره الزجاج قال من قرأ أمن بالتشديد فمعناه بل أمن هو قانت كغيره أي أم من هو مطيع كمن هو عاص ويكون على هذا الخبر محذوفا لدلالة الكلام عليه كقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أفمن يتقي بوجهه

سوء العذاب ومن قرأ أمن بالتخفيف فإن

معناه يا من هو قانت والعرب تنادي بالألف كما تنادي بياء فتقول يا زيد أقبل و أزيد أقبل

قال الشاعر . . . أبني لبيني لستم بيد . . . إلا يد ليست لها عضد . . .

(177/664)

اراد يا بني لبينى قال الفراء فيكون المعنى مردودا بالدعاء كالمنسوق لأنه ذكر الناسي الكافر ثم قص قصة الصالح بالنداء كما تقول في الكلام فلان لا يصوم ولا يصلي فيا من يصوم ويصلي أبشر هذا هو معناه فكذلك قوله أمن هو قانت أي يا من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما أبشر وفيه وجه آخر يجوز أن تكون الألف في أمن ألف استفهام المعنى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما كغيره فكف عن الجواب وقال الزجاج أمن بالتخفيف تأويله أمن هو قانت كهذا الذي ذكرنا ممن جعل الله أندادا

ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا 29

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورجلا سالما بالألف وكسر اللام أي خالصا للرجل كذا جاء في التفسير وهو اسم الفاعل على سلم فهو سالم وحجتهما قوله فيه شركاء متشاكسون فكما أن

الشريك عبارة عن العين وليس باسم حدث كذلك الذي بإزائه ينبغي أن يكون فاعلا ولا يكون اسم حدث وكذلك اختارها أبو عبيد وقال إن الخالص هو ضد المشترك وأما السلم فإنما ضد المحارب ولا موضع للحرب ها هنا

وقرأ الباقون سلما بغير ألف ومع اللام وهو مصدر سلم سلما وحجتهم قوله متشاكسون لأن معناه متنازعون يدعيه كل واحد منهم ثم وصف من هو ضد هذه الحال ممن لا تنازع فيه ولا اختصام فقال رجلا سلما لرجل وكان معلوما أن السلم ضد التنازع فكان تأويله ورجلا سلم لرجل فلم ينازع فيه ومنه قيل للسلف سلم لأنه سلم إلى من استسلفه

أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه 36

(178/664)

قرأ حمزة والكسائي أليس الله بكاف عباده بالألف وقرأ الباقون عبده ذهبوا إلى الخطاب للنبي صلى الله عليه وحجتهم قوله ويخوفونك بالذين من دونه أي ويخوفونك يا محمد فكأن المعنى أليس الله بكافيك وهم يخوفونك من دونه يعني الأصنام وذلك أن قريشا قالوا للنبي صلى الله عليه أما تخاف أن يخبلك آلهتنا لعيبك إياها فأنزل الله أليس الله بكاف عبده فأخبر ثم خاطبه والمخبر والمخاطب واحد والعرب تخبر ثم ترجع إلى الخطاب

ومن قرأ عباده فالمعنى أليس الله بكاف عباده الأنبياء قبل كما كفى إبراهيم النار ونوحا الغرق ويونس ما دفع إليه فهو سبحانه كافيك كما كفى هؤلاء الرسل قبلك قال الفراء قد همت أمم الأنبياء بهم و وعدوهم مثل هذا فقالوا لهود إن نقول إلا اعتراض بعض آلهتنا بسوء فقال الله أليس الله بكاف عباده أي محمدا والأنبياء قبله

إن أرادني الله بضر هل هن كشفت ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكت رحمته 38

قرأ أبو عمر هل هن كاشفات بالتنوين ضره بالنصب وكذلك ممسكات رحمته وقرأ الباقون بالإضافة

حجة أبي عمرو أن الفعل منتظر وأنه مما لم يقع وما لم يقع من أسماء الفاعلين إذا كان في الحال فالوجه فيه النصب المعنى هل هن يكشفن ضره أو يمسكن رحمته وحجة الإضافة أن الإضافة قد استعملتها ا لعرب في الماضي والمنتظر وأن التنوين لم يستعمل إلا في المنتظر خاصة فلما كانا مستعملين وقد نزل بهما القرآن فقال جل وعز كل نفس ذائقة الموت أخذ بأكثر الوجهين أصلا وحجة أخرى وهو أنه يراد فيهما التنوين ثم يحذف التنوين للتخفيف كما قال سبحانه إلا أتى الرحمن عبدا هذا لم يقع وتقديره آت الرحمن

الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى 42

قرأ حمزة والكسائي قضي عليها الموت على ما لم يسم فاعله وحجتهما أن الكلام أتى عقيب ذلك بترك تسمية الفاعل وهو قوله إلى أجل مسمى

(179/664)

وقرأ الباقون قضى عليها الموت بنصب القاف والتاء وحجتهم أن الكلام أتى عقيب إخبار الله عن نفسه في قوله الله يتوفى الأنفس فيمسك ويرسل فجرى الفعل بعد ذلك بلفظ ما تقدمه من ذكر الفاعل إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد

وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم 61

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بمفازاتهم جماعة مثل مكانتكم و مكاناتكم وقرأ الباقون بمفازتهم واحدة أي بخلاص وهو الاختيار لأنه بمنزلة السعادة والمفازة كما قال بمفازة من العذاب والمفازة مصدر مثل الفوز فإفراد المفازة كإفراد الفوز و وجه الجمع أن المصادر قد تجمع إذا اختلفت أجناسها لأن لكل واحد مفازة غير مفازة الآخر

قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجهلون 64

قرأ نافع قل أفغير الله تأمروني أعبد بالتخفيف أراد تأمرونني فحذف إحدى النونين للتخفيف وينبغي أن تكون النون الثانية محذوفة لأن التكرير بها وقع ولا تحذف الأولى التي

هي علامة الرفع وقد حذفوا هذه النون قال الشاعر . . . قدني من نصر الخبيبين قدي

. . .

فحذف وأثبت وقال قوم بل حذف نون الإعراب كما تحذف الضمة في مثل يأمركم

وقرأ ابن عامر تأمروني بنونين على الأصل فلم يدغم ولم يحذف وحجته إجماع الجميع على

إظهار النون في قوله وكادوا يقتلونني فرد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه

وقرأ الباقون تأمروني بالتشديد الأصل تأمرونني النون الأولى علامة الرفع والثانية مع الياء في

موضع النصب ثم أدغموا الأولى في الثانية فيصير تأمروني

حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها حتى إذا جاءوها وفتحت أوبوابها 71 و73

قرأ عاصم وحمزة والكسائي فتحت وفتحت بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد وحجتهم

قوله مفتحة لهم الأبواب قال اليزيدي كل ما فتح مرة بعد مرة فهو التفتيح و وجه التخفيف

(180/664)

أن التخفيف يصلح للقليل والكثير وقالوا لأنها تفتح مرة واحدة فإن سأل سائل فقال لم

دخلت الواو في وفتحت وأين جواب حتى إذا جاءوها ففي ذلك أجوبة فقال قوم الواو

زائدة وقال المبرد إذا وجدت حرفا من كتاب الله تعالى قد اشتمل على معنى حسن لم

أجعله ملغى ولكن الواو واو نسق ها هنا التقدير حتى إذا جاؤوها وصلوا وفتحت ابوابها وقال أيضا إن الجواب محذوف والمعنى حتى إذا جاؤوها إلى آخر الآية سعدوا أي حتى إذا كانت هذه الأشياء صاروا إلى السعادة وقال قوم معناه حتى إذا جاؤوها جاؤوها وفتحت أبوابها ف جاؤوها عندهم محذوف وعلى قول هؤلاء يكون اجتمع المجيء مع الدخول في حال واحد

وقد قيل إن العرب تعد من واحد إلى سبعة ثم تزيد الواو كما قال جل وعز التائبون العابدون ثم قال والناهون بعد السبعة وقال ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم والله أعلم بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 626.619 ﴾

(181/664)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة الزمر

مكية قال ابن عباس وعطاء إلا ثلاث آيات منها فإنها نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة رحمه الله تعالى وهن قوله تعالى (﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾) إلى قوله

تعالى (﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾)

وقد ذكر نظيرتها في الكوفي والشامي ولا نظير لها في غيرهما

وكلمها ألف ومئة واثنتان وسبعون كلمة

وحروفها أربعة آلاف وسبع مئة وثمانية احرف

وهي سبعون وخمس آيات في الكوفي وثلاث في الشامي واثنتان في عدد الباقين

اختلافها سبع آيات (﴿ فيه يختلفون ﴾) الأول لم يعدها الكوفي وعدها الباقون والثاني لا خلاف فيه أنه رأس آية (﴿ مخلصا له الدين ﴾) الثاني عدها الكوفي والشامي ولم يعدها الباقون والأول لا خلاف فيه أنه رأس آية (﴿ له ديني ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ فبشر عباد الذين ﴾) لم يعدها المدني الأول والمكي وعدها الباقون (﴿ من تحتها الأنهار ﴾) عدها المدني الأول والمكي ولم يعدها الباقون (﴿ من هاد ﴾) الثاني و (﴿ فسوف تعلمون ﴾) عدهما الكوفي ولم يعدهما الباقون وكلهم عد (﴿ من هاد ﴾) الأول وحيث وقع

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع ستة مواضع (﴿ الدين الخالص ﴾ ما يشاء) (﴿ بما كنتم تعملون ﴾) بعده (﴿ إنه عليم ﴾ كلمة العذاب) (﴿ متشاكسون ﴾ وجيء بالنبيين) ورؤوس الآي

الحكيم

1 الدين

2 يختلفون

* كفار

3 القهار

4 الغفار

5 تصرفون

6 الصدور

7 النار

8 الألباب

9 حساب

10 المسلمين

12 عظيم

13 المبين

15 فاتقون

16 عباد

17 الألباب

18 النار

19 الميعاد

20 الألباب

21 مبين

22 هاد

23 تكسبون

24 لا يشعرون

25 يعلمون

26 يتذكرون

27 يتقون

28 لا يعلمون

29 ميتون

30 تختصمون

31 للكافرين

32 المتقون

33 المحسنين

34 يعملون

35 ذي انتقام

37 المتوكلون

38 مقيم

40 بوكيل

41 يتفكرون

42 يعقلون

43 ترجعون

44 يستبشرون

45 يختلفون

46 يحتسبون

47 يستهزئون

48 لا يعلمون

49 يكسبون

50 بمعجزين

51 يؤمنون

52 الرحيم

53 لا تنصرون

54 لا تشعرون

55 الساخرين

56 المتقين

57 المحسنين

58 الكافرين

59 للمتكبرين

60 يحزنون

61 وكيل

62 الخاسرون

63 الجاهلون

64 الخاسرين

65 الشاكرين

66 يشركون

67 ينظرون

68 لا يظلمون

69 يفعلون

70 الكافرين

71 المتكبرين

72 خالدين

73 العاملين

74 العالمين

75 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 216.217﴾

(183/664)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (تنزيل الكتاب) هو مبتدأ ، و (من الله) الخبر ، ويجوز أن يكون خبر مبتدإ محذوف: أي هذا تنزيل ، و (من) متعلقة بالمصدر ، أو حال من الكتاب ، و (الدين) منصوب بمخلص ، ومخلصا حال ، وأجاز الفراء له الدين بالرفع على أنه مستأنف (والذين اتخذوا) مبتدأ ، والخبر محذوف: أي يقولون ما نعبدهم ، و (زلفى) مصدر أو حال مؤكدة (يكور) حال أو مستأنف ، و (يخلقكم) مستأنف ، و (خلقا) مصدر منه ، و (في) يتعلق به أو بخلق الثاني لأن الإول مؤكد فلا يعمل ، و (ربكم) نعت أو بدل ، وأما الخبر فالله ، و (له الملك) خبر ثان أو مستأنف ، ويجوز أن يكون الله بدلا من ذلك ، والخبر له الملك ، و (لا إله إلا هو) مستأنف أو خبر آخر ، و (يرضه لكم) بضم الهاء واختلاسها وإسكانها ، وقد ذكر مثله في " يؤده إليك " و (منيبا) حال ، و (منه) يتعلق بخول أو صفة لنعمة .

قوله تعالى (أمن هو قانت) يقرأ بالتشديد ، والأصل أم من ، فأم للاستفهام منقطعة: أي بل أم من هو قانت ، وقيل هي متصلة تقديره: أم من يعصى ، أم من هو مطيع مستويان ، وحذف الخبر لدلالة قوله تعالى " هل يستوى الذين " ويقرأ بالتخفيف ، وفيه الاستفهام ، والمعادل ، والخبر محذوفان ، وقيل هي همزة النداء ، و (ساجدا وقائما) حالان من الضمير في قانت ، أو من الضمير في (يحذر) و (بغير حساب) حال من الأجر: أي موفرا ، أو من الصابرين: أي

غير محاسبين (قل الله) هو منصوب ب (أعبد) .

قوله تعالى (ظلل) هو مبتدأ ، ولهم الخبر

فيه الجار ، وأن يكون حالا من ظلل ، والتقدير النار) نعت لظلل ، و (الطاغوت) مؤنث قوله تعالى (أفمن) مبتدأ ، والخبر محذوف دل على العامل فيه قوله " لهم غرف " لأنه كقوله قوله تعالى (ثم يجعله) الجمهور على الر

(184/664)

أن يضمر معه " إن " والمعطوف عليه أن الله أنزل في أول الآية ، تقديره: ألم تر إنزال الله ، أو إلى إنزال ثم جعله ، ويجوز أن يكون منصوبا بتقدير ترى: أي ثم ترى جعله حطاما .

قوله تعالى (أفمن شرح الله) ، و (أفمن يتقى بوجهه) الحكم فيهما كالحكم في قوله تعالى " أفمن حق عليه " وقد ذكر .

قوله تعالى (كتابا) هو بدل من أحسن ، و (تقشعر) نعت ثالث .

قوله تعالى (قرآنا) هو حال من القرآن موطئة ، والحال في المعنى .

قوله تعالى (عربيا) وقيل انتصب بيتذكرون .

قوله تعالى (مثلا رجلا) رجلا بدل من مثل ، وقد ذكر في قوله " مثلا قرية " في النحل ، و

(فيه شركاء) الجملة صفة لرجل ، وفي يتعلق ب (متشاكسون) وفيه دلالة على جواز تقديم خبر المبتدإ عليه ، ومثلا تمييز .

قوله تعالى (والذى بالصدق) المعنى على الجمع ، وقد ذكر مثله في قوله " مثلهم كمثل الذى " .

قوله تعالى (كاشفات ضره) يقرأ بالتنوين وبالإضافة وهو ظاهر .

قوله تعالى (قل اللهم فاطر السموات) مثل " قل اللهم مالك الملك " .

قوله تعالى (بل هي) هي ضمير البلوى أو الحال .

قوله تعالى (أن تقول) هو مفعول له: أي أنذرناكم مخافة أن تقول: يا حسرتا الألف مبدلة من ياء المتكلم ، وقرئ " حسرتاى " وهو بعيد ، وقد وجهت على أن الباء زيدت بعد الألف المنقلبة .

وقال آخرون: بل الألف زائدة ، وهذا أبعد لما فيه من الفصل بين المضاف والمضاف إليه ، وفتحت الكاف في (جاءتك) حملا على المخاطب وهو إنسان ، ومن كسر حمله على تأنيث النفس .

قوله تعالى (وجوههم مسودة) الجملة حال من الذين كفروا ، لأن ترى من رؤية العين ، وقيل هي بمعنى العلم ، فتكون الجملة مفعولا ثانيا ، ولو قرئ وجوههم مسودة بالنصب لكان على

بدل الاشتمال ، و (مفازتهم) على الإفراد لأنه مصدر ، وعلى الجمع لاختلاف المصدر كالحلوم والإشغال ، وقيل المفازة هنا الطريق ، والمعنى في مفازتهم (لا يمسهم السوء) حال .

(185/664)

قوله تعالى (أفغير الله) في إعرابها أوجه: أحدها أن غير منصوب ب (أعبد) مقدما عليه ، وقد ضعف هذا الوجه من حيث كان التقدير أن اعبد ، فعند ذلك يفضى إلى تقديم الصلة على الموصول وليس بشئ لأن أن ليست في اللفظ ، فلا يبقى عملها فلو قدرنا بقاء حكمها لأفضى إلى حذ ف الموصول وبقاء صلته ، وذلك لا يجوز إلا في ضرورة الشعر .

والوجه الثاني أن يكو منصوبا بتأمرونى وأعبد بدل منه ، والتقدير قل أفتأمروني بعبادة غير الله عزوجل ، وهذا من بدل الاشتمال ومن باب أمرتك الخير .

والثالث أن غير منصوب بفعل محذوف: أي أفتلزمونى غير الله ، وفسره ما بعده ، وقيل لا موضع لأعبد من الإعراب ، وقيل هو حال ، والعمل على الوجهين الأوثين ، وأما النون فمشددة على الأصل ، وقد خففت بحذف الثانية وقد ذكر نظائره .

قوله (والأرض) مبتدأ ، و (قبضته) الخبر ، وجميعا حال من الأرض

(186/664)

والتقدير: إذا كانت مجتمعة قبضته: أي مقبوضة ، فالعامل في إذا المصدر ، لأنه بمعنى المفعول ، وقد ذكر أبو علي في الحجة التقدير: ذات قبضته ، وقد رد عليه ذلك بأن المضاف إليه لا يعمل فيما قبله ، وهذا لا يصح لأنه الآن غير مضاف إليه ، وبعد حذف المضاف لا يبقى حكمه ، ويقرأ قبضته بالنصب على معنى في قبضته ، وهو ضعيف لأن هذا الظرف محدود ، فهو كقولك زيد الدار (والسموات مطويات) مبتدأ والخبر ، و (بيمينه) متعلق بالخبر ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في الخبر ، وأن يكون خبرا ثانيا ، وقرئ " مطويات " بالكسر على الحال ، وبيمينه الخبر ، وقيل الخبر محذوف: أي والسموات قبضته ، و (زمرا) الموضعين حال (وفتحت) الواو زائدة عند قوم ، لأن الكلام جواب حتى وليست زائدة عند المحققين ، والجواب محذوف تقديره: اطمأنوا ونحو ذلك ، و (تتبوأ) حال من الفاعل أو المفعول ، و (حيث) هنا مفعول به كما ذكرنا في قوله تعالى " وكلا منها رغدا حيث شئتما " في أحد الوجوه ، و (حافين) حال من الملائكة ، و (يسبحون) حال من الضمير في حافين ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 214.216 ﴾

(187/664)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الزمر

[سورة الزمر (39) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2)

"تَنْزِيلُ" مبتدأ "الْكِتابِ" مضاف إليه "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بمن متعلقان بخبر المبتدأ "الْعَزِيزِ" بدل "الْحَكِيمِ" بدل أيضا من لفظ الجلالة "إِنَّا" إن واسمها والجملة مستأنفة "أَنْزَلْنا" ماض وفاعله والجملة خبر إن "إِلَيْكَ" متعلقان بأنزلنا "الْكِتابَ" مفعول به "بِالْحَقِّ" متعلقان بأنزلنا "فَاعْبُدِ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "مُخْلِصاً" حال "لَهُ" متعلقان بمخلصا "الدِّينَ" مفعول به لاسم الفاعل.

[سورة الزمر (39) : آية 3]

أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (3)

"أَلا" حرف تنبيه واستفتاح "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام خبر مقدم "الدِّينُ" مبتدأ مؤخر "الْخالِصُ" صفة والجملة ابتدائية لا محل لها "وَالَّذِينَ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "اتَّخَذُوا" ماض وفاعله والجملة الفعلية صلته "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بمحذوف حال "أَوْلِياءَ" مفعول به "ما" نافية "نَعْبُدُهُمْ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والهاء مفعوله "أَلا" حرف حصر والجملة خبر الذين "لِيُقَرِّبُونا" اللام للتعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله ونا مفعوله والمصدر المؤول في محل جر باللام وهما متعلقان بنعبدهم "إِلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بإلى متعلقان بيقربونا "زُلْفى" مفعول مطلق "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "يَحْكُمُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان والجملة خبر إن "فِي ما" متعلقان بيحكم "هُمْ" مبتدأ "فِيهِ" متعلقان بيختلفون "يَخْتَلِفُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الاسمية صلة وجملة يختلفون خبر المبتدأ "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "لا" نافية "يَهْدِي" مضارع مرفوع فاعله مستتر وجملة يهدي خبر إن "مَنْ" موصولية مفعول به "هُوَ" مبتدأ "كاذِبٌ" خبر أول "كَفَّارٌ" خبر ثان والجملة الاسمية صلة من وجملة إن تعليل لما سبق.

[سورة الزمر (39) : الآيات 4 الى 5]

لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (4)

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5)

(189/664)

"لَوْ أَرادَ" لو حرف شرط غير جازم وماض "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً" مضارع منصوب بأن وولدا مفعول به والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن وما بعدها مفعول أراد وجملة أراد ابتدائية لا محل لها "لَاصْطَفى" اللام واقعة في جواب الشرط وماض فاعله مستتر "مِمَّا" متعلقان باصطفى

"يَخْلُقُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "ما" مفعول به "يَشاءُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة صلة "سُبْحانَهُ" مفعول مطلق لفعل محذوف "هُوَ" مبتدأ "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبر "الْواحِدُ" خبر ثان "الْقَهَّارُ" خبر ثالث والجملة استئنافية لا محل لها "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "السَّماواتِ" مفعول به "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال والجملة استئنافية لا محل لها "يُكَوِّرُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "اللَّيْلَ" مفعوله والجملة استئنافية لا محل لها "عَلَى النَّهارِ" متعلقان بالفعل "وَيُكَوِّرُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "النَّهارِ" مفعوله "عَلَى اللَّيْلِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها لا

محل لها "وَسَخَّرَ" ماض فاعله مستتر "الشَّمْسَ" مفعوله "وَالْقَمَرَ" معطوف "كُلٌّ" مبتدأ "يَجْرِي" مضارع مرفوع والجملة خبر المبتدأ "لِأَجَلٍ" متعلقان بالفعل "مُسَمًّى" صفة "أَلَا" أداة تنبيه "هُوَ" مبتدأ "الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ" خبران والجملة الاسمية مستأنفة.

[سورة الزمر (39) : آية 6]

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)

(190/664)

"خَلَقَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مستأنفة "مِنْ نَفْسٍ" متعلقان بالفعل "واحِدَةٍ" صفة "ثُمَّ" حرف عطف "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر "مِنْها" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "زَوْجَها" مفعول به "وَأَنْزَلَ" ماض فاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "مِنَ الْأَنْعامِ" متعلقان بأنزل "ثَمانِيَةَ" مفعول به "أَزْواجٍ" مضاف إليه والجملة معطوفة "يَخْلُقُكُمْ" مضارع مرفوع والكاف مفعوله والفاعل مستتر والجملة حال "فِي بُطُونِ" متعلقان بالفعل "أُمَّهاتِكُمْ" مضاف إليه "خَلْقاً" مفعول مطلق "مِنْ بَعْدِ" متعلقان

بالفعل "خَلْقٍ" مضاف إليه "فِي ظُلُماتٍ" متعلقان بخلق "ثَلاثٍ" صفة لظلمات "ذِلِكُمُ" مبتدأ "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبر أول "رَبُّكُمْ" خبر ثان "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "الْمُلْكُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر ثالث "لا" نافية للجنس "إِلهَ" اسمها المبني على الفتح "إِلَّا" حرف حصر "هُوَ" بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها "فَأَنَّى" الفاء حرف استئناف واسم استفهام في محل نصب حال "تُصْرَفُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مستأنفة.

[سورة الزمر (39) : آية 7]

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (7)

"إِنْ" حرف شرط جازم "تَكْفُرُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ" الفاء رابطة وإن ولفظ الجلالة اسمها وغني خبرها والجملة في محل جزم جواب الشرط "عَنْكُمْ" متعلقان بغني "وَلا" الواو حرف عطف ولا نافية "يَرْضى" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة

معطوفة على ما قبلها "لِعِبادِهِ" متعلقان بالفعل "الْكُفْرَ" مفعول به "وَإِنْ" حرف شرط جازم "تَشْكُرُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعله "يَرْضَهُ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والهاء مفعول به والفاعل مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها "لَكُمْ" متعلقان بيرضه "وَلا" الواو حرف استئناف ولا نافية "تَزِرُ" مضارع مرفوع "وازِرَةٌ" فاعل "وِزْرَ" مفعول به "أُخْرى" مضاف إليه والجملة الفعلية مستأنفة "ثُمَّ" حرف عطف "إِلى رَبِّكُمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "مَرْجِعُكُمْ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محل لها "فَيُنَبِّئُكُمْ" الفاء حرف عطف ومضارع مرفوع ومفعوله والفاعل مستتر "بِما" متعلقان بالفعل "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْمَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم صلة "إِنَّهُ" إن واسمها "عَلِيمٌ" خبرها "بِذاتِ" متعلقان بعليم "الصُّدُورِ" مضاف إليه والجملة تعليلية.

[سورة الزمر (39) : آية 8]

وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (8)

"وَإِذا" الواو حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ" ماض ومفعوله وفاعل مؤخر والجملة في محل جر بالإضافة "دَعا" ماض فاعله مستتر "رَبَّهُ" مفعول به "مُنِيباً" حال والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "إِلَيْهِ" متعلقان بالحال "ثُمَّ" حرف عطف "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "خَوَّلَهُ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "نِعْمَةً" مفعوله الثاني والجملة في محل جر بالإضافة "مِنْهُ" متعلقان بالفعل "نَسِيَ" ماض فاعله مستتر "ما" مفعول به والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "كانَ" ماض ناقص "يَدْعُوا" مضارع مرفوع فاعله مستتر "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بيدعو وجملة يدعو خبر كان "وَجَعَلَ" ماض فاعله مستتر "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام في محل المفعول الثاني "أَنْداداً" مفعوله الأول "لِيُضِلَّ" اللام للتعليل ومضارع منصوب والفاعل مستتر "عَنْ سَبِيلِهِ" متعلقان بيضل والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام وهما متعلقان بالفعل يجعل "قُلْ" أمر فاعله مستتر "تَمَتَّعْ" أمر فاعله مستتر والجملة مقول القول وجملة قل مستأنفة "بِكُفْرِكَ" متعلقان بتمتع "قَلِيلًا" صفة لمصدر محذوف "إِنَّكَ" إن واسمها "مِنْ أَصْحابِ" جار ومجرور خبر "النَّارِ" مضاف إليه والجملة تعليلية لا محل لها .

[سورة الزمر (39) : آية 9]

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (9)

(193/664)

"أَمَّنْ" أم بمعنى بل حرف إضراب ومن موصولية مبتدأ خبره محذوف "هُوَ قانِتٌ" مبتدأ وخبره والجملة صلة "آناءَ" ظرف زمان منصوب "اللَّيْلِ" مضاف إليه "ساجِداً" حال "وَقائِماً" معطوف على ساجدا "يَحْذَرُ الْآخِرَةَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة حال "وَيَرْجُوا رَحْمَةَ" حرف عطف ومضارع مرفوع

فاعله مستتر ورحمة مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "رَبِّهِ" مضاف إليه "قُلْ" أمر فاعله مستتر "هَلْ" حرف استفهام "يَسْتَوِي الَّذِينَ" مضارع مرفوع وفاعله والجملة مقول القول "يَعْلَمُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة صلة "وَالَّذِينَ" معطوف "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع والواو فاعله "إِنَّما" كافة ومكفوفة "يَتَذَكَّرُ" مضارع مرفوع "أُولُوا" فاعل مرفوع بالواو "الْأَلْبابِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة.

[سورة الزمر (39) : الآيات 10 الى 12]

قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ

إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (10) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12)

(194/664)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر "يا عِبادِ" يا حرف نداء ومنادى مضاف "الَّذِينَ" صفة لعبادي "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "اتَّقُوا" أمر وفاعله "رَبَّكُمْ" مفعول به "لِلَّذِينَ" جار ومجرور خبر مقدم والجملة مقول القول "أَحْسَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "فِي هذِهِ" متعلقان بأحسنوا "الدُّنْيا" بدل من اسم الإشارة "حَسَنَةٌ" مبتدأ مؤخر "وَأَرْضُ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "واسِعَةٌ" خبر والجملة الاسمية مقول القول "إِنَّما" كافة ومكفوفة "يُوَفَّى" مضارع مبني للمجهول "الصَّابِرُونَ" نائب فاعل مرفوع بالواو والجملة تعليل لما سبق "أَجْرَهُمْ" مفعول به ثان "بِغَيْرِ" متعلقان بحال محذوفة "حِسابٍ" مضاف إليه. "قُلْ" أمر فاعله مستتر "إِنِّي" إن واسمها والجملة مقول القول "أُمِرْتُ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل "أَنْ أَعْبُدَ" مضارع منصوب بأن والفاعل مستتر "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "مُخْلِصاً" حال وأن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض وجملة أمرت خبر إني "لَهُ" متعلقان بالحال مخلصا "الدِّينَ" مفعول به

لاسم الفاعل "وَأُمِرْتُ" حرف عطف وماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "لِأَنْ" اللام للتعليل وحرف ناصب "أَكُونَ" مضارع ناقص منصوب واسمه مستتر "أَوَّلَ" خبره "الْمُسْلِمِينَ" مضاف إليه

[سورة الزمر (39) : الآيات 13 الى 16]

(195/664)

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (16)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر "إِنِّي" إن واسمها والجملة مقول القول "أَخافُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "إِنْ" شرطية "عَصَيْتُ" ماض وفاعله "رَبِّي" مفعول به "عَذابَ" مفعول أخاف "يَوْمٍ" مضاف إليه "عَظِيمٍ" صفة "قُلِ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به مقدم "أَعْبُدُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة مقول القول

"مُخْلِصاً" حال "لَهُ" متعلقان بمخلصا "دِينِي" مفعول به لاسم الفاعل "فَاعْبُدُوا" الفاء استئنافية وأمر وفاعله "ما" مفعول به "شِئْتُمْ" ماض وفاعله

(196/664)

و الجملة صلة وجملة اعبدوا مستأنفة "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بما قبلهما "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّ الْخاسِرِينَ" إن واسمها "الَّذِينَ" اسم موصول خبرها "خَسِرُوا" ماض وفاعله "أَنْفُسَهُمْ" مفعول به والجملة صلة "وَأَهْلِيهِمْ" معطوف على أنفسهم "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "أَلا" حرف تنبيه "ذِلكَ" اسم إشارة مبتدأ "هُوَ" مبتدأ ثان "الْخُسْرانُ" خبر والجملة مستأنفة وجملة هو الخسران خبر ذلك "الْمُبِينُ" صفة لخسران "لَهُمْ" جار ومجرور خبر مقدم "مِنْ فَوْقِهِمْ" متعلقان بمحذوف خبر ثان "ظُلَلٌ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "مِنَ النَّارِ" صفة لظلل "وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ" معطوف على ما قبله "ذلِكَ" مبتدأ "يُخَوِّفُ" مضارع مرفوع "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل والجملة خبر ذلك "بِهِ" متعلقان بالفعل "عِبادَهُ" مفعول به "يا عِبادِ" يا حرف نداء ومنادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة للتخفيف "فَاتَّقُونِ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعوله والجملة الفعلية جواب شرط مقدر لا محل لها .

[سورة الزمر (39) : الآيات 17 الى 19]

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (18) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19)

(197/664)

"وَالَّذِينَ" الواو حرف عطف ومبتدأ "اجْتَنَبُوا" ماض وفاعل والجملة صلة "الطَّاغُوتَ" مفعول به "أَنْ يَعْبُدُوها" مضارع منصوب بأن وفاعله ومفعوله والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل نصب بدل اشتمال من الطاغوت "وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ" عطف على ما قبلها "لَهُمُ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "الْبُشْرى" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر الذين "فَبَشِّرْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "عِبادِ" مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للفاصلة "الَّذِينَ" صفة عباد "يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والقول مفعوله والجملة صلة "فَيَتَّبِعُونَ" الفاء حرف عطف ومضارع مرفوع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "أَحْسَنَهُ" مفعول به "أُولئِكَ الَّذِينَ" مبتدأ وخبره "هَداهُمُ اللَّهُ" ماض ومفعوله ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة الذين "وَأُولئِكَ" الواو

حرف عطف ومبتدأ "هُمْ" ضمير فصل "أُولُوا" خبر المبتدأ مرفوع بالواو "الْأَلْبابِ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "أَفَمَنْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والفاء حرف استئناف ومن اسم الموصول مبتدأ خبره محذوف "حَقَّ" ماض "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "كَلِمَةُ" فاعل مؤخر "الْعَذابِ" مضاف إليه والجملة صلة "أَفَأَنْتَ" الهمزة حرف استفهام توكيد للأول والفاء استئنافية وأنت مبتدأ "تُنْقِذُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "مَنْ" مفعول به والجملة الفعلية خبر أنت والجملة الاسمية مستأنفة "فِي النَّارِ" متعلقان بصلة محذوفة.

[سورة الزمر (39) : الآيات 20 الى 22]

(198/664)

لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ (20) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (21) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (22)

"لكِنِ" حرف عطف "الَّذِينَ" مبتدأ "اتَّقَوْا" ماض وفاعله والجملة صلة "رَبَّهُمْ" مفعول به "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "غُرَفٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر الذين "مِنْ فَوْقِها" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "غُرَفٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صفة لغرف الأولى "مَبْنِيَّةٌ" صفة لغرف "تَجْرِي" مضارع مرفوع "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بالفعل "الْأَنْهارُ" فاعل مؤخر وجملة تجري صفة ثالثة لغرف "وَعْدَ" مفعول مطلق "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "لا" نافية "يُخْلِفُ" مضارع مرفوع "اللَّهِ" لفظ الجلالة فاعله "الْمِيعادَ" مفعول به والجملة مستأنفة "أَلَمْ" الهمزة حرف استفهام تقريري ولم حرف جازم "تَرَ" مضارع مجزوم فاعله مستتر "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها "أَنْزَلَ" ماض فاعله مستتر وجملة أنزل خبر أن وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي تر "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بأنزل "ماءً" مفعول به "فَسَلَكَهُ" حرف عطف وماض ومفعوله والفاعل مستتر "يَنابِيعَ" حال "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف صفة ينابيع "ثُمَّ" حرف عطف "يُخْرِجُ" مضارع فاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بيخرج "زَرْعاً" مفعول به "مُخْتَلِفاً" صفة زرعا "أَلْوانُهُ" فاعل لاسم الفاعل مختلفا والجملة معطوفة على ما قبلها فهي في محل رفع "ثُمَّ" حرف عطف "يَهِيجُ" مضارع فاعله مستتر

"فَتَراهُ" حرف عطف ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر "مُصْفَرًّا" حال والجملة معطوفة على ما قبلها "ثُمَّ" حرف عطف "يَجْعَلُهُ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "حُطاماً" مفعوله الثاني و"أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" جار ومجرور خبره المقدم "لَذِكْرى" اللام المزحلقة واسمه المؤخر "لِأُولِي" متعلقان بذكرى "الْأَلْبابِ" مضاف إليه "أَفَمَنْ" حرف استفهام والفاء استئنافية واسم الموصول مبتدأ خبره محذوف "شَرَحَ" ماض "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "صَدْرَهُ"

(200/664)

مفعول به "لِلْإِسْلامِ" متعلقان بشرح "فَهُوَ" حرف عطف ومبتدأ "عَلى نُورٍ" متعلقان بخبر المبتدأ المحذوف "مِنْ رَبِّهِ" متعلقان بنور والجملة معطوفة على ما قبلها وجملة أفمن شرح مستأنفة "فَوَيْلٌ" حرف استئناف ومبتدأ "لِلْقاسِيَةِ" متعلقان بخبر محذوف "قُلُوبُهُمْ" فاعل قاسية "مِنْ ذِكْرِ" متعلقان بالقاسية "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أُولئِكَ" مبتدأ "فِي ضَلالٍ" جار ومجرور خبر "مُبِينٍ" صفة ضلال والجملة مستأنفة.

[سورة الزمر (39) : الآيات 23 الى 25]

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ

جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ
هادٍ (23) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ
تَكْسِبُونَ (24) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (25)

(201/664)

"اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "نَزَّلَ" ماض فاعله مستتر "أَحْسَنَ" مفعول به والجملة الاسمية ابتدائية لا محل لها "الْحَدِيثِ" مضاف إليه "كِتاباً" بدل من أحسن "مُتَشابِهاً" صفة أولى "مَثانِيَ" صفة ثانية "تَقْشَعِرُّ" مضارع مرفوع "مِنْهُ" متعلقان بالفعل "جُلُودُ" فاعل مؤخر "الَّذِينَ" مضاف إليه "يَخْشَوْنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون وفاعله "رَبَّهُمْ" مفعول به والجملة صلة "ثُمَّ" حرف عطف "تَلِينُ" مضارع مرفوع "جُلُودُهُمْ" فاعل "وَقُلُوبُهُمْ" معطوف على جلودهم "إِلى ذِكْرِ" متعلقان بتلين "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "ذلِكَ" مبتدأ "هُدَى" خبره "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "يَهْدِي" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة وجملة تقشعر حال "بِهِ" متعلقان بيهدي "مَنْ" مفعول به "يَشاءُ" الجملة صلة "وَمَنْ" الواو حرف استئناف ومن اسم شرط جازم مفعول مقدم "يُضْلِلِ اللَّهُ" مضارع ولفظ الجلالة فاعل "فَما" الفاء واقعة في جواب الشرط وما نافية "لَهُ" جار ومجرور خبر مقدم

"مَنْ" حرف جر زائد "هادٍ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط والجملة الشرطية مستأنفة "أَفَمَنْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والفاء حرف استئناف واسم موصول مبتدأ "يَتَّقِي" مضارع مرفوع فاعله مستتر "بِوَجْهِهِ" متعلقان بيتقي "سُوءَ" مفعون بصلة الموصول المحذوفة والجملة مستأنفة "فَأَتاهُمُ" حرف عطف وماض ومفعوله "الْعَذابُ" فاعل مؤخر "مِنْ حَيْثُ" متعلقان بالفعل "لا" نافية "يَشْعُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة في محل جر بالإضافة.

[سورة الزمر (39) : الآيات 26 الى 31]

(202/664)

فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (26) وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (29) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31)

(203/664)

"فَأَذَاقَهُمُ" الفاء حرف عطف وماض ومفعوله "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل مؤخر "الْخِزْيَ" مفعول به ثان "فِي الْحَيَاةِ" متعلقان بالفعل "الدُّنْيَا" صفة "وَلَعَذَابُ" حرف استئناف واللام لام الابتداء وعذاب مبتدأ "الْآخِرَةِ" مضاف إليه "أَكْبَرُ" خبر المبتدأ "لَوْ" شرطية غير جازمة "كَانُوا" كان واسمها وجملة كانوا ابتدائية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة عذاب الآخرة مستأنفة "وَلَقَدْ" الواو حرف عطف واللام واقعة في جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق "ضَرَبْنَا" ماض وفاعله والجملة جواب القسم لا محل لها "لِلنَّاسِ" متعلقان بالفعل "فِي هَذَا" متعلقان بمحذوف حال "الْقُرْآنِ" بدل من اسم الإشارة "مِنْ كُلِّ" متعلقان بالفعل "مَثَلٍ" مضاف إليه "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَتَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة الفعلية خبر لعل "قُرْآنًا" حال منصوبة "عَرَبِيًّا" صفة "غَيْرَ" صفة ثانية "ذِي" مضاف إليه "عِوَجٍ" مضاف إليه ثان "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَتَّقُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر لعل "ضَرَبَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله "مَثَلًا" مفعول به "رَجُلًا" بدل من مثلا والجملة مستأنفة "فِيهِ" متعلقان بخبر مقدم "شُرَكَاءُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صفة رجلا "مُتَشَاكِسُونَ" صفة لشركاء مرفوعة بالواو "وَرَجُلًا" عطف على رجلا الأولى "سَلَمًا" صفته. "لِرَجُلٍ" متعلقان بسلما "هَلْ" حرف استفهام "يَسْتَوِيَانِ" مضارع مرفوع والفاعل ألف الاثنين "مَثَلًا" تمييز والجملة

مستأنفة "الْحَمْدُ" مبتدأ "لِلَّهِ" خبر والجملة مستأنفة "بَلْ" حرف إضراب "أَكْثَرُهُمْ" مبتدأ "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع وواو الجماعة فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية استئنافية "إِنَّكَ مَيِّتٌ" إن واسمها وخبرها والجملة مستأنفة "وَإِنَّهُمْ" إن واسمها

"مَيِّتُونَ" خبر إنّ والجملة معطوفة على ما قبلها "ثُمَّ" حرف عطف "إِنَّكُمْ" إنّ واسمها "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "عِنْدَ" ظرف مكان "رَبِّكُمْ" مضاف إليه "تَخْتَصِمُونَ" مضارع وواو الجماعة فاعله والجملة خبر إنّ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة الزمر (39) : الآيات 32 الى 36]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (32) وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (35) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (36)

"فَمَنْ" حرف استئناف واسم استفهام مبتدأ "أَظْلَمُ" خبر والجملة مستأنفة "مِمَّنْ" متعلقان بالفعل "كَذَبَ" ماض فاعله مستتر "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ" معطوف على ما قبله "إِذْ" ظرف زمان مبني على السكون في محل نصب "جاءَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "أَلَيْسَ" حرف استفهام تقريري وماض ناقص "فِي جَهَنَّمَ" جار ومجرور خبره المقدم "مَثْوىً" اسمه المؤخر وجملة كذب صلة لا محل لها "لِلْكافِرِينَ" متعلقان بمثوى وجملة أليس مستأنفة "وَالَّذِي" الواو حرف استئناف واسم موصول مبتدأ "جاءَ" ماض فاعله مستتر "بِالصِّدْقِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَصَدَّقَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "بِهِ" متعلقان بالفعل "أُولئِكَ" مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الْمُتَّقُونَ" خبر المبتدأ مرفوع بالواو والجملة الاسمية خبر المبتدأ الذي وجملة الذي استئنافية "لَهُمْ" جار ومجرور خبر مقدم "ما" موصولية مبتدأ مؤخر "يَشاؤُنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "عِنْدَ" ظرف مكان "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والجملة صلة "ذلِكَ" مبتدأ "جَزاءُ" خبره "الْمُحْسِنِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء والجملة استئنافية وجملة لهم مستأنفة. "لِيُكَفِّرَ اللَّهُ" اللام للتعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد اللام ولفظ الجلالة فاعله والمصدر المؤول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالمحسنين "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "أَسْوَأَ" مفعول به "الَّذِي"

مضاف إليه "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَيَجْزِيَهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة "أَجْرَهُمْ" مفعول به ثان "بِأَحْسَنِ" متعلقان بالفعل "الَّذِي" اسم موصول في محل جر بالإضافة "كانُوا" كان واسمها "يَعْمَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا صلة "أَلَيْسَ" الهمزة حرف استفهام تقريري وماض ناقص "اللَّهُ" لفظ

(206/664)

الجلالة اسم ليس "بِكافٍ" حرف جر زائد واسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس "عَبْدَهُ" مفعول به لاسم الفاعل كاف والجملة استئنافية "وَيُخَوِّفُونَكَ" الواو حالية ومضارع مرفوع والواو فاعله والكاف مفعوله "بِالَّذِينَ" متعلقان بالفعل والجملة حال "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بمحذوف صلة "وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ" : إعرابه في الآية 23

[سورة الزمر (39) : الآيات 37 الى 38]

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (37) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38)

"وَمَنْ" الواو حرف استئناف ومن اسم شرط جازم مبتدأ "يَهْدِ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة وهو فعل الشرط "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله "فَما" الفاء رابطة وما نافية "لَهُ" جار ومجرور خبر مقدم "مَنْ" حرف جر زائد "مُضِلٍّ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر وجملة فماله . . في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر من "أَلَيْسَ" الهمزة حرف استفهام وتقرير وماض ناقص "اللَّهُ" لفظ الجلالة اسمه "بِعَزِيزٍ" الباء حرف جر زائد وعزيز مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس "ذِي" صفة عزيز "انْتِقامٍ" مضاف إليه والجملة الفعلية مستأنفة . "وَلَئِنْ" الواو حرف استئناف واللام موطئة للقسم وإن شرطية "سَأَلْتَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ "خَلَقَ السَّماواتِ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر من "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات والجملة الاسمية في محل نصب مفعول به ثان لسألتهم "لَيَقُولُنَّ" اللام واقعة في جواب القسم وجواب الشرط محذوف ومضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة فاعله "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ خبره محذوف والجملة جواب القسم لا محل لها والجملة الاسمية مقول القول "قُلْ" أمر فاعله مستتر "أَفَرَأَيْتُمْ" الهمزة حرف استفهام والفاء الفصيحة وماض

وفاعله "ما" موصولية مفعول به "تَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة "مِنْ دُونِ" متعلقان بحال محذوفة "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِنْ" شرطية جازمة "أَرادَنِيَ" ماض ومفعوله "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل مؤخر "بِضُرٍّ" متعلقان بالفعل والجملة ابتدائية لا محل لها "هَلْ" حرف استفهام "هُنَّ كاشِفاتُ" مبتدأ وخبره "ضُرِّهِ" مضاف إليه والجملة الاسمية مفعول ثان لرأيتم "أَوْ" حرف عطف "أَرادَنِيَ" ماض ومفعوله والجملة معطوفة على ما سبق "بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ" الإعراب واضح والكلام

(208/664)

عطف على ما سبق "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "حَسْبِيَ" مبتدأ "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبر والجملة مقول القول "عَلَيْهِ" متعلقان بيتوكل "يَتَوَكَّلُ" مضارع مرفوع "الْمُتَوَكِّلُونَ" فاعل مرفوع بالواو والجملة مقول القول أيضا .

[سورة الزمر (39) : الآيات 39 الى 41]

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (40) إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر "يا قَوْمِ" يا حرف نداء وقوم منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة والجملة مقول القول وجملة قل مستأنفة لا محل لها "اعْمَلُوا" أمر وفاعله "عَلى مَكانَتِكُمْ" جار ومجرور حال "إِنِّي" إن واسمها "عامِلٌ" خبرها وجملة اعملوا مقول القول والجملة الاسمية تعليل "فَسَوْفَ" الفاء حرف استئناف وسوف حرف استقبال "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها .

(209/664)

"مَنْ" اسم موصول مفعول به لتعلمون "يَأْتِيهِ" مضارع ومفعوله "عَذابٌ" فاعل مؤخر والجملة صلة "يُخْزِيهِ" مضارع ومفعوله وفاعل مستتر والجملة صفة عذاب "وَيَحِلُّ" مضارع "عَلَيْهِ" جار ومجرور متعلقان بالفعل "عَذابٌ" فاعل مؤخر والجملة معطوفة على يخزيه "مُقِيمٌ" صفة مرفوعة "إِنَّا" إن واسمها "أَنْزَلْنا" ماض وفاعله والجملة خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة "عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل "الْكِتابَ" مفعول به "لِلنَّاسِ" متعلقان بالفعل "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "فَمَنِ" حرف عطف ومن اسم شرط جازم مبتدأ "اهْتَدى" ماض فاعله مستتر "فَلِنَفْسِهِ" الفاء رابطة وجار ومجرور متعلقان بخبر لمبتدأ محذوف أي فهدايته لنفسه والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب

خبر من "وَمَنْ" الواو حرف عطف ومن اسم شرط جازم مبتدأ "ضَلَّ" ماض فاعله مستتر "فَإِنَّما" الفاء رابطة وإنما كافة ومكفوفة "يَضِلُّ" مضارع فاعله مستتر "عَلَيْها" متعلقان بالفعل والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "أَنْتَ" اسمها "عَلَيْهِمْ" متعلقان بوكيل "بِوَكِيلٍ" مجرور لفظا بالباء الزائدة منصوب محلا خبر ما والجملة مستأنفة.

[سورة الزمر (39) : الآيات 42 الى 44]

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44)

(210/664)

"اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والأنفس مفعوله والجملة خبر المبتدأ "حِينَ" ظرف زمان "مَوْتِها" مضاف إليه "وَالَّتِي" الواو حرف عطف والتي معطوف على الأنفس "لَمْ تَمُتْ" مضارع مجزوم بلم فاعله مستتر "فِي مَنامِها" متعلقان

بتمت والجملة صلة "فَيُمْسِكُ" الفاء حرف استئناف ومضارع فاعله مستتر "الَّتِي" مفعول به "قَضى" ماض "عَلَيْهَا" متعلقان بالفعل "الْمَوْتَ" مفعول به وجملة يمسك مستأنفة.

"وَيُرْسِلُ" الواو حرف عطف ومضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة معطوفة على يمسك "الْأُخْرى" مفعول به "إِلى أَجَلٍ" متعلقان بيرسل "مُسَمًّى" صفة أجل "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" جار ومجرور خبر مقدم "لَآياتٍ" اللام لام الابتداء وآيات اسم إن المؤخر "لِقَوْمٍ" متعلقان بصفة محذوفة لآيات "يَتَفَكَّرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صفة لقوم والجملة الاسمية مستأنفة "أَمِ" حرف عطف "اتَّخَذُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مِنْ دُونِ" متعلقان باتخذوا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "شُفَعاءَ" مفعول به "قُلْ" أمر فاعله مستتر "أَوَلَوْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والواو حالية ولو شرطية "كانُوا" كان واسمها "لا" نافية "يَمْلِكُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر كان وجملة كانوا حالية "شَيْئاً" مفعول به "وَلا يَعْقِلُونَ" معطوف. "قُلْ" أمر فاعله مستتر "لِلَّهِ" متعلقان بخبر مقدم

"الشَّفاعَةُ" مبتدأ مؤخر "جَمِيعاً" حال والجملة مقول القول "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "مُلْكُ" مبتدأ مؤخر "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف "ثُمَّ" عاطفة "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل بعدهما "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة.

[سورة الزمر (39) : الآيات 45 الى 47]

(211/664)

وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45) قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47)

(212/664)

"وَإِذا" الواو حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "ذُكِرَ" ماض مبني للمجهول "اللَّهُ" لفظ الجلالة نائب فاعل "وَحْدَهُ" حال والجملة في محل جر بالإضافة "اشْمَأَزَّتْ" ماض "قُلُوبُ" فاعل "الَّذِينَ" اسم موصول مضاف إليه والجملة جواب شرط لا محل لها "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ويؤمنون مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "بِالْآخِرَةِ" جار ومجرور متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَإِذا" الواو حرف عطف وإذا شرطية غير جازمة "ذُكِرَ" ماض مبني للمجهول والجملة في محل جر بالإضافة "الَّذِينَ" نائب فاعل "مِنْ دُونِهِ" متعلقان

بصلة الموصول المحذوفة "إِذا" فجائية "هُمْ" مبتدأ "يَسْتَبْشِرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية جواب شرط لا محل لها . "قُلِ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "اللَّهُمَّ" منادى والميم المشددة عوض عن حرف النداء "فاطِرَ" بدل من اللهم "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على ما قبله "عالِمَ" بدل "الْغَيْبِ" مضاف إليه "وَالشَّهادَةِ" معطوف على الغيب "أَنْتَ" مبتدأ "تَحْكُمُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة خبر "بَيْنَ" ظرف مكان "عِبادِكَ" مضاف إليه "فِي ما" متعلقان بالفعل "كانُوا" كان واسمها "فِيهِ" متعلقان بيختلفون والجملة صلة "يَخْتَلِفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر . "وَلَوْ" الواو استئنافية "لَوْ" شرط جازمة "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "لِلَّذِينَ" متعلقان بالخبر "ظَلَمُوا" الجملة صلة "ما" اسم أن المؤخر "فِي الْأَرْضِ" صلة ما "جَمِيعاً" حال "وَمِثْلَهُ" عطف على ما "مَعَهُ" ظرف "لَافْتَدَوْا" اللام واقعة في جواب لو وماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بالفعل "مِنْ سُوءِ الْعَذابِ" متعلقان بالفعل والعذاب مضاف إليه "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "وَبَدا" الواو عاطفة وماض "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "مِنَ

اللَّهِ" متعلقان بالفعل أيضا "ما" اسم موصول فاعل بدا "لَمْ" جازمة "يَكُونُوا" مضارع ناقص والواو اسمها والجملة صلة "يَحْتَسِبُونَ" الجملة خبر.

[سورة الزمر (39) : الآيات 48 الى 50]

وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (48) فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (50)

(214/664)

"وَبَدا" الواو حرف عطف وماض "لَهُمْ" متعلقان ببدا "سَيِّئاتُ" فاعل "ما" مضاف إليه "كَسَبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة بدا معطوفة على ما قبلها لا محل لها "وَحاقَ" ماض "بِهِمْ" متعلقان بحاق "ما" اسم موصول فاعل حاق "كانُوا" ماض ناقص واسمه والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بيستهزئون "يَسْتَهْزِؤُنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر كانوا "فَإِذا" الفاء حرف عطف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ" ماض ومفعوله وفاعل مؤخر والجملة في محل جر بالإضافة "دَعانا" ماض ومفعوله وفاعل مستتر والجملة جواب شرط لا محل لها "ثُمَّ" حرف عطف "إِذا" ظرفية

شرطية غير جازمة "خَوَّلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "نِعْمَةً" مفعوله الثاني "مِنَّا" متعلقان بنعمة "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب الشرط "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أُوتِيتُهُ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والهاء مفعول به "عَلى عِلْمٍ" متعلقان بالفعل والجملة مقول القول "بَلْ" حرف إضراب انتقالي "هِيَ" مبتدأ "فِتْنَةٌ" خبر "وَلكِنَّ" الواو حرف عطف وحرف مشبه بالفعل "أَكْثَرَهُمْ" اسمها والجملة الاسمية مستأنفة وجملة ولكن معطوفة على ما قبلها "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر لكن "قَدْ" حرف تحقيق "قالَهَا" ماض ومفعوله "الَّذِينَ" فاعله "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بصلة محذوفة "فَما" الفاء عاطفة وما نافية "أَغْنى" ماض "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "ما" فاعل مؤخر "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة ما "يَكْسِبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا .

[سورة الزمر (39) : الآيات 51 الى 52]

(215/664)

فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ (52)

"فَأَصابَهُمْ" الفاء حرف عطف وماض ومفعوله "سَيِّئاتُ" فاعل مؤخر "ما" موصولية مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "كَسَبُوا" ماض وفاعل والجملة صلة "وَالَّذِينَ" الواو حرف استئناف "الَّذِينَ" اسم الموصول مبتدأ "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ هؤُلاءِ" متعلقان بحال محذوفة "سَيُصِيبُهُمْ" السين حرف استقبال ومضارع مرفوع ومفعوله "سَيِّئاتُ" فاعل مؤخر "ما" موصولية مضاف إليه "كَسَبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة سيصيبهم خبر الذين والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "وَما" الواو حالية وما نافية عاملة عمل ليس "هُمْ" اسمها "بِمُعْجِزِينَ" الباء حرف جر زائد معجزين مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما والجملة حالية "أَوَلَمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والواو حرف استئناف ولم حرف جازم "يَعْلَمُوا" مضارع مجزوم بلم وعلامة

جزمه حذف النون والواو فاعله "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها "يَبْسُطُ" مضارع مرفوع "الرِّزْقَ" مفعول به والجملة خبر أن وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي يعلم وجملة يعلم مستأنفة "لِمَنْ" متعلقان بيبسط "يَشاءُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة صلة "وَيَقْدِرُ" معطوف على يشاء "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" جار ومجرور خبرها المقدم "لَآياتٍ" اللام المزحلقة لآيات اسم إن المنصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "لِقَوْمٍ"

متعلقان بالفعل بعدهما "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والجملة صفة لقوم.

[سورة الزمر (39) : الآيات 53 الى 55]

(216/664)

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (55)

(217/664)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر "يا عِبادِيَ" يا حرف نداء ومنادى مضاف وياء المتكلم مضاف إليه "الَّذِينَ" صفة عبادي "أَسْرَفُوا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة قل مستأنفة وجملة يا عبادي مقول القول "عَلى أَنْفُسِهِمْ" متعلقان بأسرفوا "لا" ناهية "تَقْنَطُوا" مضارع مجزوم والواو فاعله "مِنْ رَحْمَةِ" متعلقان بتقنطوا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ

الجلالة اسمها "يَغْفِرُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة خبر إنّ "الذُّنُوبَ" مفعول به "جَمِيعاً" حال "إِنَّهُ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "الْغَفُورُ" خبر إن "الرَّحِيمُ" خبر ثان والجملة الاسمية تعليل "وَأَنِيبُوا" الواو حرف عطف وأمر وفاعله "إِلى رَبِّكُمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها فهي في محل نصب مقول القول "وَأَسْلِمُوا" معطوف على أنيبوا "لَهُ" متعلقان بالفعل "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بالفعل أيضا "أَنْ يَأْتِيَكُمُ" مضارع منصوب بأن ومفعوله "الْعَذابُ" فاعل مؤخر "ثُمَّ" حرف عطف "لا" نافية "تُنْصَرُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع والواو نائب فاعل "وَاتَّبِعُوا" الواو حرف عطف وأمر وفاعله "أَحْسَنَ" مفعول به "ما" موصولية مضاف إليه "أُنْزِلَ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل مستتر "إِلَيْكُمْ" متعلقان بأنزل "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بحال محذوفة "أَنْ يَأْتِيَكُمُ" مضارع منصوب بأن والكاف مفعوله "الْعَذابُ" فاعل مؤخر "بَغْتَةً" حال والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بالإضافة.

[سورة الزمر (39) : الآيات 56 الى 59]

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (59)

"أَنْ تَقُولَ" مضارع منصوب بأن "نَفْسٌ" فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل مفعول لأجله

"يا" حرف

(219/664)

نداء "حَسْرَتى" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المنقلبة ألفا "عَلى" حرف جر "ما" مصدرية والمصدر المؤول في محل جر بعلى وهما متعلقان بحسرتا "فَرَّطْتُ" ماض وفاعله "فِي جَنْبِ" متعلقان بفرطت "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَإِنْ" الواو حالية وإن مخففة مهملة "كُنْتُ" كان واسمها "لَمِنَ السَّاخِرِينَ" اللام الفارقة وجار ومجرور متعلقان بخبر محذوف والجملة حال "أَوْ" حرف عطف "تَقُولَ" مضارع معطوف على ما قبله "لَوْ" شرطية "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها "هَدانِي" ماض ومفعوله "لَكُنْتُ" اللام واقعة في جواب لو وكان واسمها وجملة هداني خبر أن وأن وما بعدها في تأويل مصدر فاعل لفعل

محذوف تقديره ثبت والجملة المقدرة لا محل لها "مِنَ الْمُتَّقِينَ" متعلقان بخبر كنت المحذوف وجملة كنت جواب شرط غير جازم لا محل لها . "أَوْ" حرف عطف "تَقُولَ" مضارع فاعله مستتر "حِينَ" ظرف زمان والجملة معطوفة على ما قبلها "تَرَى" مضارع فاعله مستتر "الْعَذابَ" مفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "لَوْ" شرطية غير جازمة "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "لِي" جار ومجرور خبر مقدم "كَرَّةً" اسمها المؤخر وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لفعل محذوف "فَأَكُونَ" مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة واسمها ضمير مستتر "مِنَ الْمُحْسِنِينَ" متعلقان بمحذوف خبر أكون والمصدر المؤول معطوف على كرة. "بَلى" حرف جواب "قَدْ" حرف تحقيق "جاءَتْكَ" ماض ومفعوله "آياتِي" فاعله والجملة ابتدائية "فَكَذَّبْتَ" حرف عطف وماض وفاعله "بِها" متعلقان بكذبت "وَاسْتَكْبَرْتَ" معطوفة على كذبت "وَكُنْتَ" كان واسمها "مِنَ الْكافِرِينَ" متعلقان بخبر كنت المحذوف والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها .

[سورة الزمر (39) : الآيات 60 الى 64]

وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقَالِيدُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64)

"وَيَوْمَ" الواو حرف استئناف ويوم ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "تَرَى" مضارع فاعله مستتر "الَّذِينَ" مفعول به والجملة مستأنفة "كَذَبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بكذبوا "وُجُوهُهُمْ" مبتدأ "مُسْوَدَّةٌ" خبر والجملة الاسمية حال "أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ" تقدم إعرابها في الآية 32 .

"وَيُنَجِّي" الواو حرف عطف ومضارع "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله "الَّذِينَ" مفعوله "اتَّقَوْا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِمَفَازَتِهِمْ" متعلقان بينجي "لا" نافية "يَمَسُّهُمُ" مضارع ومفعوله "السُّوءُ" فاعل "وَلا" الواو حرف عطف ولا نافية "هُمْ" مبتدأ "يَحْزَنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر هم والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها وجملة لا يمسهم مستأنفة "اللَّهُ خَالِقُ" لفظ الجلالة مبتدأ وخالق خبر والجملة مستأنفة

"كُلِّ" مضاف إليه "شَيْءٍ" مضاف إليه ثان "وَهُوَ" الواو حرف عطف وهو مبتدأ "عَلى كُلِّ" متعلقان بوكيل "شَيْءٍ" مضاف إليه "وَكِيلٌ" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها "لَهُ" جار ومجرور خبر مقدم "مَقالِيدُ" مبتدأ مؤخر "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات والجملة مستأنفة "وَالَّذِينَ" اسم موصول مبتدأ "كَفَرُوا" ماض وفاعل والجملة صلة "بِآياتِ" متعلقان بكفروا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أُولئِكَ" مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الْخاسِرُونَ" خبر مرفوع.

[سورة الزمر (39) : الآيات 65 الى 67]

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66) وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)

(222/664)

"وَلَقَدْ" حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "أُوحِيَ" ماض مبني للمجهول "إِلَيْكَ" جار ومجرور سد مسد نائب الفاعل "وَإِلَى الَّذِينَ" عطف على إليك "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بصلة الموصول المحذوفة "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن شرطية

"أَشْرَكْتَ" ماض وفاعله "لَيَحْبَطَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة "عَمَلُكَ" فاعل "وَلَتَكُونَنَّ" حرف عطف واللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة واسمه مستتر "مِنَ الْخاسِرِينَ" جار ومجرور خبر تكونن جواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه "بَلِ" حرف إضراب "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به لفعل محذوف "فَاعْبُدْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "وَكُنْ" أمر ناقص واسمه مستتر "مِنَ الشَّاكِرِينَ" جار ومجرور خبره وجملة اعبد جواب شرط مقدر لا محل لها "وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "قَدَرُوا اللَّهَ" ماض وفاعله ولفظ الجلالة مفعوله والجملة مستأنفة "حَقَّ" نائب مفعول مطلق "قَدْرِهِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضُ" الواو حالية ومبتدأ "جَمِيعاً" حال "قَبْضَتُهُ" خبر والجملة الاسمية حال "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "وَالسَّماواتُ" مبتدأ "مَطْوِيَّاتٌ" خبر "بِيَمِينِهِ" متعلقان بمطويات والجملة معطوفة على ما قبلها "سُبْحانَهُ" مفعول مطلق لفعل محذوف "وَتَعالى" ماض فاعله مستتر والواو حرف عطف "عَمَّا" متعلقان بتعالى "يُشْرِكُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة وجملة تعالى عطف على ما قبلها لا محل لها .

[سورة الزمر (39) : الآيات 68 الى 70]

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (70)

"وَنُفِخَ" الواو حرف استئناف وماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "فِي الصُّورِ" متعلقان بالفعل "فَصَعِقَ" الفاء حرف عطف وماض "مَنْ" اسم موصول فاعل "فِي السَّماواتِ" متعلقان بصلة

(224/664)

الموصول المحذوفة "وَمَنْ فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما قبله "إِلَّا" حرف استثناء "مَنْ" مستثنى "شاءَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة "ثُمَّ" حرف عطف "نُفِخَ" ماض مبني للمجهول "فِيهِ" متعلقان بالفعل "أُخْرى" نائب فاعل "فَإِذا" حرف عطف وإذا فجائية "هُمْ" مبتدأ "قِيامٌ" خبر "يَنْظُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر ثان "وَأَشْرَقَتِ" الواو حرف عطف وماض "الْأَرْضُ" فاعله "بِنُورِ" متعلقان بالفعل "رَبِّها"

مضاف إليه "وَوُضِعَ الْكِتابُ" الواو حرف عطف وماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَجِيءَ" ماض مبني للمجهول "بِالنَّبِيِّينَ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَالشُّهَداءِ" عطف على النبيين "وَقُضِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بقضي "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل "وَهُمْ" الواو حالية ومبتدأ "لا" نافية "يُظْلَمُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال "وَوُفِّيَتْ" الواو حرف عطف وماض مبني للمجهول "كُلُّ" نائب فاعل "نَفْسٍ" مضاف إليه "ما" موصولية مفعول به "عَمِلَتْ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة ما "وَهُوَ" الواو حالية والضمير مبتدأ "أَعْلَمُ" خبره والجملة الاسمية حال "بِما" متعلقان بأعلم "يَفْعَلُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة صلة.

[سورة الزمر (39) : الآيات 71 الى 72]

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72)

"وَسِيقَ" الواو حرف عطف وماض مبني للمجهول "الَّذِينَ" نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِلى جَهَنَّمَ" متعلقان بسيق "زُمَراً" حال "حَتَّى" ابتدائية "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "جاؤُها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "فُتِحَتْ" ماض مبني للمجهول والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "أَبْوابُها" نائب فاعل "وَقالَ" حرف عطف وماض "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "خَزَنَتُها" فاعل "أَلَمْ" حرف استفهام تقريري ولم حرف جازم "يَأْتِكُمْ" مضارع مجزوم والكاف مفعوله "رُسُلٌ" فاعل والجملة مقول القول "مِنْكُمْ" متعلقان بصفة رسل المحذوفة "يَتْلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة ثانية "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل "آياتِ" مفعول به "رَبِّكُمْ" مضاف إليه وجملة قال معطوفة لا محل لها "وَيُنْذِرُونَكُمْ" الواو حرف عطف ومضارع مرفوع والواو فاعله والكاف مفعوله الأول "لِقاءَ" مفعول به ثان "يَوْمِكُمْ" مضاف إليه "هذا" صفة يومكم والجملة معطوفة على ما قبلها "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "بَلى" حرف جواب "وَلكِنْ" حرف عطف ولكن حرف استدراك مهمل "حَقَّتْ كَلِمَةُ" ماض وفاعله "الْعَذابِ" مضاف إليه "عَلَى الْكافِرِينَ" متعلقان بحقت والجملة مقول القول "قِيلَ" ماض مبني للمجهول "ادْخُلُوا" أمر

وفاعله والجملة في محل رفع نائب فاعل "أَبْوابَ" مفعول به "جَهَنَّمَ" مضاف إليه "خالِدِينَ"

حال منصوبة بالياء "فِيها" متعلقان بخالدين "فَبِئْسَ" الفاء حرف استئناف وماض جامد لإنشاء الذم "مَثْوَى" فاعله "الْمُتَكَبِّرِينَ" مضاف إليه وجملة قيل مستأنفة.

[سورة الزمر (39) : الآيات 73 الى 75]

(226/664)

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (73) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (74) وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (75)

(227/664)

"وَسِيقَ" حرف عطف وماض مبني للمجهول "الَّذِينَ" نائب فاعل "اتَّقَوْا" ماض وفاعله "رَبَّهُمْ" مفعول به "إِلَى الْجَنَّةِ" متعلقان بسيق "زُمَراً" حال وجملة سيق معطوفة على ما

قبلها وجملة اتقوا صلة "حَتَّى" ابتدائية "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "جاؤُها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "وَفُتِحَتْ" الواو واو الحال وماض مبني للمجهول "أَبْوابُها" نائب فاعل والجملة في محل نصب حال "وَقالَ" ماض "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "خَزَنَتُها" فاعل والجملة معطوفة "سَلامٌ" مبتدأ "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالخبر محذوف "طِبْتُمْ" ماض وفاعل والجملتان الاسمية والفعلية مقول القول "فَادْخُلُوها" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله ومفعوله "خالِدِينَ" حال منصوبة بالياء والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "وَقالُوا" حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على جواب الشرط "الْحَمْدُ" مبتدأ "لِلَّهِ" خبره والجملة مقول القول "الَّذِي" صفة للفظ الجلالة "صَدَقَنا" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر والجملة صلة "وَعْدَهُ" مفعوله الثاني "وَأَوْرَثَنَا" حرف عطف وماض ومفعوله الأول "الْأَرْضَ" مفعوله الثاني "نَتَبَوَّأُ" مضارع فاعله مستتر والجملة حال "مِنَ الْجَنَّةِ" متعلقان بالفعل "حَيْثُ" ظرف مكان مبني على الضم في محل نصب "نَشاءُ" مضارع فاعله مستتر. "فَنِعْمَ" ماض لإنشاء المدح "أَجْرُ" فاعل مرفوع "الْعامِلِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة "وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ" حرف استئناف ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر وحافين حال "مِنْ حَوْلِ" متعلقان بحافين "يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ" مضارع وفاعله وبحمد متعلقان بمحذوف حال وربهم

مضاف إليه والجملة حال . "وَقُضِيَ" حرف عطف وماض مبني للمجهول "بَيْنَهُمْ" ظرف متعلق بالفعل "بِالْحَقِّ" متعلقان بحال محذوفة "وَقِيلَ" حرف عطف وماض مبني للمجهول

(228/664)

"الْحَمْدُ لِلَّهِ" مبتدأ ولفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بخبر محذوف والجملة نائب فاعل "رَبِّ الْعالَمِينَ" بدل والعالمين مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والجملة مقول . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 131. 148﴾

(229/664)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الزمر

ذكر فِيهَا ثَلَاثَة عشر حَدِيثا

1111 - الحَدِيث الأول

كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَتَخَوَّل أَصْحَابه بِالْمَوْعِظَةِ

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتاب الْعلم وَفِي آخر الدَّعْوَات وَمُسلم فِي صفة الْقِيَامَة من حَدِيث شَقِيق قَالَ كَانَ عبد الله بن مَسْعُود يذكرنا كل يَوْم خَمِيس فَقَالَ لَهُ رجل يَا أَبَا عبد الرَّحْمَن إِنَّا نحب حَدِيثك وَنَشْتَهِيهِ وَلَوَدِدْنَا أَنَّك حَدَّثْتنَا كل يَوْم فَقَالَ مَا يَمْنعنِي أَن أحدثكم إِلَّا كَرَاهِيَة أَن أملكم إِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يَتَخَوَّلنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّام كَرَاهِيَة السَّآمَة علينا انْتَهَى

1112 - الْحَدِيث الثَّانِي

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أفضل الصَّلَاة صَلَاة الْقُنُوت)

قلت هَكَذَا وجدته فِي عدَّة نسخ وَالَّذِي فِي الصَّحِيح وَغَيره أفضل الصَّلَاة طول الْقُنُوت رَوَاهُ مُسلم فِي الصَّلَاة من حَدِيث أبي الزُّبَيْر عَن جَابر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أفضل الصَّلَاة طول الْقُنُوت) انْتَهَى

وَالْمُصَنّف احْتج بِهِ عَلَى أَن الْمُرَاد بِالْقُنُوتِ الْقيام وَقد جَاءَ مُصَرحًا بِهِ فِي حَدِيث رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية من طَرِيق أَحْمد بن حَنْبَل بِسَنَدِهِ إِلَى عبد الله ابْن حبشِي الْخَثْعَمِي أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سُئِلَ أَي الصَّلَاة أفضل قَالَ (طول الْقيام) انْتَهَى

وَرَوَى أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام حَدثنَا يَحْيَى بن سعيد عَن عبد الله عَن نَافِع عَن ابْن عمر أَنه سُئِلَ عَن الْقُنُوت فَقَالَ مَا أعرف الْقُنُوت إِلَّا طول

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَخْبرنِي ابْن فَنْجَوَيْهِ ثَنَا عبد الله بن مُحَمَّد ثني ابْن أبي شيبَة ثَنَا أَبُو جَعْفَر مُحَمَّد بن الْحُسَيْن بن مدينا الْموصِلِي بِبَغْدَاد ثَنَا أَبُو فَرْوَة يزِيد بن الْقيام ثمَّ قَرَأَ أَمن هُوَ قَانِت آنَاء اللَّيْل سَاجِدا وَقَائِمًا انْتَهَى

وَرَوَى الطَّحَاوِيّ فِي شرح الْآثَار فِي بَاب الْقِرَاءَة فِي رَكْعَتي الْفجْر حَدثنَا مُحَمَّد بن النُّعْمَان ثَنَا الْحميدِي ثَنَا سُفْيَان قَالَ سَمِعت أَبَا الزُّبَيْر يحدث عَن جَابر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (أفضل الصَّلَاة طول الْقيام) انْتَهَى

1113 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (ينصب الله الموازين يَوْم الْقِيَامَة فَيُؤتَى بِأَهْل الصَّلَاة فَيُوَفَّوْنَ أُجُورهم بِالْمَوَازِينِ وَيُؤْتَى بِأَهْل الصَّدَقَة فَيُوَفَّوْنَ أُجُورهم بِالْمَوَازِينِ وَيُؤْتَى بِأَهْل الْحَج فَيُوَفَّوْنَ أُجُورهم بِالْمَوَازِينِ وَيُؤْتَى بِأَهْل الْبلَاء فَلَا ينصب لَهُم ميزَان وَلَا ينشر لَهُم ديوَان وَيصب عَلَيْهِم الْأجر صبا قَالَ الله تَعَالَى إِنَّمَا يُوفى الصَّابِرُونَ أجرهم بِغَيْر حِسَاب حَتَّى يتَمَنَّى أهل الْعَافِيَة أَن أَجْسَادهم تقْرض بالمقابض مِمَّا يذهب بِهِ أهل الْبلَاء من الْفضل ويحوزونه)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه مُخْتَصرا فَقَال ثَنَا السّري بن سهل الجنديسابوري ثَنَا عبد الله بن رشيد ثَنَا مجاعَة بن الزُّبَيْر عَن قَتَادَة عَن جَابر بن زيد عَن ابْن عَبَّاس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَال (يُؤْتَى بالشُّهَدَاءِ يَوْم الْقِيَامَة فَيَنْصبُونَ للْحساب وَيُؤْتَى بالمتصدقين فَيَنْصبُونَ للْحساب ثمَّ يُؤْتَى بأَهْل الْبلَاء فَلَا ينصب لَهُم ميزَان وَلَا ينشر لَهُم ديوَان فَيصب عَلَيْهِم الْأَجر حَتَّى إِن أهل الْعَافِيَة لَيَتَمَنَّوْنَ فِي الْموقف أَن أَجْسَادهم قرضت بِالْمَقَارِيضِ من حسن ثَوَاب الله لَهُم) انْتَهَى

وَعَن الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ أَبو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة جَابر بن زيد بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره بِسَنَد آخر وَمَتْن الْكتاب فَقَال أَخْبرنِي ابْن فَنْجَوَيْهِ ثَنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن إِسْحَاق السّني حَدثنِي مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم الضَّحَّاك ثَنَا نصر بن مَرْزُوق ثَنَا أَسد بن مُوسَى ثَنَا بكر بن حُبَيْش عَن ضرار بن عَمْرو

عَن زيد الرقاشِي عَن أنس بن مَالك عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَال (ينصب الْمِيزَان) إِلَى آخِره بلَفْظ الْمُصَنّف

وَرَوَاهُ أَبو الْقَاسِم الْأَصْبَهَانِيّ فِي كتاب التَّرْغِيب والترهيب بِهَذَا السَّنَد وَبكر ابْن حُبَيْش

وَضِرَار وَالرَّقَاشِيّ كلهم ضِعَاف

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره ثَنَا أَبُو عَمْرو أَحْمد بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم ثَنَا مُحَمَّد بن عبد الْوَهَّاب ثَنَا آدم ثَنَا بكر بن حُبَيْش ثَنَا ضرار بن عَمْرو بِهِ بِلَفْظ الْمُصَنّف إِلَّا أَنه زَاد الصَّوْم بعد الصَّلَاة

1114 - الْحَدِيث الرَّابِع

(232/664)

قَرَأَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَفَمَن شرح الله صَدره لِلْإِسْلَام فَهُوَ عَلَى نور من ربه فَقيل يَا رَسُول الله كَيفَ انْشِرَاح الصَّدْر قَالَ (إِذا دخل النُّور الْقلب انْشَرَحَ وَانْفَتح) فَقيل يَا رَسُول الله فَمَا عَلامَة ذَلِك قَالَ (الْإِنَابَة إِلَى دَار الْخلد والتجافي عَن دَار الْغرُور وَالتَّأَهُّب لِلْمَوْت قبل نُزُوله)

قلت رَوَاهُ أَبُو عبد الله التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي نَوَادِر الْأُصُول فِي الْأَصْل السَّادِس والثمانين حَدثنَا صَالح بن مُحَمَّد ثَنَا إِبْرَاهِيم بن يَحْيَى الْأَسْلَمِيّ حَدثنِي أَبُو سُهَيْل بن أبي أنس عَن عَطاء بن أبي رَبَاح عَن ابْن عمر أَن رجلا قَالَ يَا نَبِي الله أَي الْمُؤمن أَكيس قَالَ (أَكْثَرهم ذكرا لِلْمَوْت وَأَحْسَنهمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا وَإِذا دخل النُّور فِي الْقلب انْفَتح وَاسْتَوْسَعَ) قَالُوا فَمَا آية

ذَلِك يَا رَسُول الله قَالَ (الْإِنَابَة إِلَى دَار الخلود والتجافي عَن دَار الْغرُور والاستعداد للْمَوْت قبل نُزُوله) ثمَّ قَرَأَ أَفَمَن شرح الله صَدره لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نور من ربه انْتَهَى

مُحَمَّد ثني أبي عَن أَبِيه ثَنَا زيد بن أبي أنيسَة عَن عَمْرو بن مرّة عَن عبد الله ابْن الْحَارِث عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ قَرَأَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَفَمَن شرح الله صَدره) إِلَى آخِره

(233/664)

والْحَدِيث رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الرقَاق من حَدِيث عبد الرَّحْمَن ابْن عبد الله المَسْعُودِيّ عَن الْقَاسِم بن عبد الرَّحْمَن عَن أَبِيه عَن ابْن مَسْعُود قَالَ تَلا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَمن يرد الله أَن يهديه يشْرَح صَدره لِلْإِسْلَامِ) فَقَالَ (إِن النُّور إِذا دخل الصَّدْر انْفَسَحَ) إِلَى آخِره فَقيل يَا رَسُول الله إِلَى آخِره

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي وَالسبْعين وَسكت عَنهُ الْحَاكِم

وَهَذِه الْآيَة فِي الْأَعْرَاف وَكَأَنَّهُ اخْتِلَاف لفظ من الرَّاوِي

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا الْحسن بن سعيد بن جَعْفَر الْبَصْرِيّ ثَنَا عبد الله بن

سعيد بن يَحْيَى ثَنَا أَبُو فَرْوَة يزِيد بن مُحَمَّد بن سِنَان الرهاوي حَدثنِي أبي عَن أَبِيه بِهِ بِسَنَد الثَّعْلَبِيّ وَمتْن الْمُصَنّف

ثمَّ رَوَاهُ حَدثنَا أَبُو عَمْرو أَحْمد بن إِبْرَاهِيم ثَنَا مُحَمَّد بن عبد الْوَهَّاب ثَنَا آدم ثَنَا عِيسَى بن مَيْمُون ثَنَا مُحَمَّد بن كَعْب الْقرظِيّ قَالَ لما نزلت هَذِه الْآيَة (أَفَمَن شرح الله صَدره للإِسْلَام) قَالُوا يَا رَسُول الله فَهَل تَنْشَرِح الصُّدُور قَالَ (نعم) قَالُوا هَل لذَلِك عَلامَة قَالَ (نعم التَّجَافِي عَن دَار الْغرُور) إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الزّهْد أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ أَنا أَبُو حَامِد أَحْمد بن عَلّي بن الْحسن الْمُقْرِئ ثَنَا أَبُو فَرْوَة يزِيد بن مُحَمَّد بن سِنَان ثني أبي

عَن أَبِيه بِسَنَد الثَّعْلَبِيّ وَمتْن الْمُصَنّف إِلَّا أَنه قَالَ (وَانْفَسَحَ)

1115 - قَوْله

كَمَا جَاءَ فِي وَصفه يَعْنِي الْقُرْآن لَا ينْفد وَلَا ينشاق وَلَا يخلق عَلَى كَثْرَة الرَّد

(234/664)

قلت تقدم فِي آل عمرَان وَلَيْسَ فِيهِ لَا ينْفد وَلَا ينشاق لَكِن ذكر القَاضِي عِيَاض الْحَدِيث الْمَذْكُور فِي الشِّفَاء فِي آل عمرَان بِلَفْظ ثمَّ قَالَ وَعَن ابْن مَسْعُود نَحوه وَزَاد فِيهِ لَا يخْتَلف

وَلَا يتشان فِيهِ نبأ الْأَوَّلين والآخرين انْتَهَى

1116 - الْحَدِيث الْخَامِس

فِي الْحَدِيث أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يُكَرر عَلَى أَصْحَابه مَا كَانَ يَعِظهُمْ بِهِ وَينْصَح ثَلَاث مَرَّات وَسبعا

قلت غَرِيب وَرَوَى الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتاب الْعلم وَفِي الاسْتِئْذَان من حَدِيث ثُمَامَة عَن أنس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه كَانَ إِذا تكلم بِكَلِمَة أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تفهم عَنهُ وَإِذا أَتَى إِلَى قوم فَسلم عَلَيْهِم سلم عَلَيْهِم ثَلَاثًا انْتَهَى وَزَاد أَحْمد فِي مُسْنده وَكَانَ يسْتَأْذن ثَلَاثًا

قَالَ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْمدْخل قَالَ الْإِسْمَاعِيلِيّ يشبه أَن يكون تَسْلِيمه عَلَيْهِ السَّلَام ثَلَاثًا كَانَ تَسْلِيم الاسْتِئْذَان كَمَا جَاءَ فِي حَدِيث أبي مُوسَى وَأبي سعيد وَإِلَّا فَالسنة فِي التَّسْلِيم مرّة وَاحِدَة

قلت يُعَكر عَلَى هَذَا زِيَادَة أَحْمد فِي مُسْنده كَمَا ذَكَرْنَاهُ

1117 - قَوْله

قَالَ عبد الله بن عمر فِي قَوْله تَعَالَى ثمَّ إِنَّكُم يَوْم الْقِيَامَة عِنْد ربكُم تختصمون لقد عِشْنَا بُرْهَة من دَهْرنَا وَنحن نرَى أَن هَذِه الْآيَة أنزلت فِينَا وَفِي أهل الْكتاب قُلْنَا كَيف نَخْتَصِم

وَنَبِينَا وَاحِد وَدِيننَا وَاحِد وَكِتَابنَا وَاحِد حَتَّى رَأَيْت بَعْضنَا يضْرب وُجُوه بعض بِالسَّيْفِ فَعرفت أَنَّهَا نزلت فِينَا

(235/664)

وَقَالَ أَبُو سعيد الْخُدْرِيّ كُنَّا نقُول رَبنَا وَاحِد وَدِيننَا وَاحِد فَمَا هَذِه الْخُصُومَة فَلَمَّا كَانَ يَوْم صفّين وَشد بَعْضنَا عَلَى بعض بِالسُّيُوفِ قُلْنَا نعم هَذَا هُوَ

وَعَن إِبْرَاهِيم النَّخعِيّ قَالَت الصَّحَابَة مَا خُصُومَتنَا وَنحن إِخْوَان فَلَمَّا قتل عُثْمَان بن عَفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالُوا هَذِه خُصُومَتنَا

قلت

الأول رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْأَهْوَال من حَدِيث زيد بن أبي أنيسَة عَن الْقَاسِم بن عَوْف الْبكْرِيّ قَالَ سَمِعت ابْن عمر يَقُول لقد عِشْنَا إِلَى آخِره قَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْن وَلم يخرجَاهُ

وَالثَّانِي ذكره الثَّعْلَبِيّ تَعْلِيقا فَقَالَ وَرَوَى خلف بن خَلِيفَة عَن أبي هَاشم عَن الْخُدْرِيّ قَالَ كُنَّا نقُول إِلَى آخر كَلَامه

وَالثَّالِث رَوَاهُ عبد الرازق والطبري والثعلبي فِي تفاسيرهم من حَدِيث إِسْمَاعِيل ابْن علية

عَن ابْن عون عَن إِبْرَاهِيم النَّخعِيّ قَالَ لما نزلت ثمَّ إِنَّكُم يَوْم الْقِيَامَة عِنْد ربكُم تختصمون قَالَت الصَّحَابَة فيمَ خُصُومَتنَا إِلَى آخِره

1118 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس فِي ابْن آدم نَفْس وروح بَينهمَا مثل شُعَاع الشَّمْس فَالنَّفْس الَّتِي بهَا الْعقل وَالتَّمَيُّز وَالروح الَّتِي بهَا النَّفس وَالْحَرَكَة فَإِذا نَام العَبْد قبض الله نَفسه وَلم يقبض روحه

قلت غَرِيب جدا

1119 - الحَدِيث السَّادِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ فِي قَوْله تَعَالَى قل يَا عبَادي الَّذين أَسْرفُوا عَلَى أنفسهم الْآيَة (مَا أحب أَن لي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَة) فَقَالَ رجل يَا رَسُول الله وَمن أشرك فَسكت سَاعَة ثمَّ قَالَ (إِلَّا وَمن أشرك) ثَلَاث مَرَّات

(236/664)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثني زَكَرِيَّا بن يَحْيَى بن أبي زَائِدَة ثَنَا حجاج ثَنَا ابْن لَهِيعَة عَن أبي قبيل قَالَ سَمِعت أَبَا عبد الرَّحْمَن السّلمِيّ يَقُول ثني أَبُو عبد الرَّحْمَن الحبلي انه سمع ثَوْبَان مولَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

يَقُول (مَا أحب أَن لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَة قل يَا عبَادي الَّذين أَسْرفُوا عَلَى أنفسهم الْآيَة فَقَالَ رجل يَا رَسُول الله وَمن أشرك فَسكت عَلَيْهِ السَّلَام ثمَّ قَالَ (إِلَّا وَمن أشرك إِلَّا وَمن أشرك إِلَّا وَمن أشرك) انْتَهَى

وَمن طَرِيق الطَّبَرِيّ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من طَرِيق ابْن وهب ثَنَا عبد الله بن لَهِيعَة بِهِ

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع وَالْأَرْبَعِينَ كِلَاهُمَا من طَرِيق ابْن لَهِيعَة بِهِ سندا ومتنا وَلم يَقُولَا إِلَّا وَمن أشرك إِلَّا مرّة

1120 - الْحَدِيث السَّابِع

فِي حَدِيث من الشّرك الْخَفِي أَن يُصَلِّي الرجل لمَكَان الرجل) أَي لأجل الرجل

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الرقَاق من حَدِيث كثير بن زيد الْمدنِي عَن ربيح بن عبد الرَّحْمَن بن أبي سعيد الْخُدْرِيّ عَن أَبِيه عَن جده أبي سعيد الْخُدْرِيّ قَالَ خرج علينا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْمًا وَنحن نتذاكر الدَّجَّال فَقَالَ (غير الدَّجَّال أخوف عَلَيْكُم الشّرك الْخَفِي أَن يعْمل الرجل لمَكَان الرجل) مُخْتَصر وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَاهُ أَحْمد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم وَلَفظ أَحْمد أَن يُصَلِّي الرجل لمَكَان الرجل وَقَالَ الْبَزَّار لَا نعلمهُ يرْوَى عَن أبي سعيد إِلَّا من هَذَا الْوَجْه وَربيح بن عبد الرَّحْمَن حدث عَنهُ جمَاعَة من أهل الْعلم فَذكرهمْ بِأَسْمَائِهِمْ

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْخَامِس وَالْأَرْبَعِينَ عَن كثير بن زيد بِهِ بِلَفْظ أَحْمد

وَالْمُصَنّف احْتج بِهِ عَلَى أَن الْمُرَاد بقوله لمَكَانِك أَي لأجلك

1121 - الْحَدِيث الثَّامِن

قيل سَأَلَ عُثْمَان رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن تَفْسِير قَوْله تَعَالَى (لَهُ مقاليد السَّمَوَات وَالْأَرْض) فَقَالَ (يَا عُثْمَان مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أحد قبلك

تَفْسِيرهَا لَا إِلَه إِلَّا الله وَالله أكبر وَسُبْحَان الله وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفر الله وَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللَّه الْعلي الْعَظِيم هُوَ الأول وَالْآخر وَالظَّاهِر وَالْبَاطِن بِيَدِهِ الْخَيْر يَحْيَى وَيُمِيت وَهُوَ عَلَى كل شَيْء قدير)

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْأَسْمَاء وَالصِّفَات فِي كَلَامه عَلَى الظَّاهِر من أَسمَاء الله تَعَالَى وَالطَّبَرَانِيّ فِي كتاب الدُّعَاء وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده من حَدِيث أغلب بن تَمِيم ثَنَا مخلد أَبُو الْهُذَيْل الْعَبْدي عَن عبد الرَّحِيم عَن عبد الله ابْن عمر أَن عُثْمَان بن عَفَّان رَضِيَ

اللَّهُ عَنْه سَأَلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن تَفْسِير قَوْله تَعَالَى لَهُ مقاليد السَّمَوَات وَالْأَرْض إِلَى آخِره سَوَاء

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي ضُعَفَائِهِ عَن أغلب بن تَمِيم هَذَا وَيعرف بالكندي وَيُقَال الْمَسْعُودِيّ وَضَعفه وَقَال لَا يُتَابع عَلَيْهِ

(238/664)

وَذكره ابْن الْجَوْزِيّ فِي كِتَابه الموضوعات قَال أما أغلب بن تَمِيم فَقَال يَحْيَى لَيْس بِشَيْء وَأما مخلد فَقَال ابْن حبَان مُنكر الحَدِيث وَأما عبد الرَّحِيم فَكَذَا هُوَ فِي رِوَايَة يُوسُف بن يَعْقُوب القَاضِي وَهُوَ فِي رِوَايَة الْعقيلِيّ عبد الرَّحْمَن ابْن عدي الْمدنِي وَهُوَ ضَعِيف قَال وَهَذَا الحَدِيث من الموضوعات الْبَارِدَة الَّتِي لَا تَلِيق بِمنْصب النُّبُوَّة انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن أبي حَاتِم والثعلبي فِي تفسيريهما

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره ثَنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد ثَنَا عَلّي بن الْمُبَارك الصَّنْعَانِيّ ثَنَا زيد بن الْمُبَارك ثَنَا سَلام بن وهب الجندي ثَنَا أبي عَن طَاوس عَن ابْن عَبَّاس أَن عُثْمَان بن عَفَّان فَذكره

حَدثنَا الْحسن بن مُحَمَّد بن إِسْحَاق السُّوسِي ثَنَا عبد الله بن سعد بن يَحْيَى القَاضِي ثَنَا

سعيد بن بزيع الرقي ثَنَا سعيد بن مسلمة بن هِشَام ثني كُلَيْب بن

وَائِل عَن عبد الله بن عمر عَن عُثْمَان بن عَفَّان قَالَ سَأَلت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فَذكره وَزَاد فيهمَا يَا عُثْمَان من قَالَهَا كل يَوْم مائَة مرّة أعطي بهَا عشر خِصَال فَذكر أَشْيَاء

الْوَضع ظَاهر عَلَيْهَا وَهُوَ الَّذِي ذكره ابْن الْجَوْزِيّ وَرَوَاهُ أَيْضا بِسَنَد الْبَيْهَقِيّ وَالطَّبَرَانِيّ

1122 - الْحَدِيث التَّاسِع

(239/664)

رُوِيَ أَن جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام جَاءَ إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ يَا أَبَا الْقَاسِم إِن

الله تَعَالَى يمسك السَّمَوَات يَوْم الْقِيَامَة عَلَى أصْبع وَالْأَرضين عَلَى أصْبع وَالْجِبَال عَلَى

أصْبع وَالشَّجر عَلَى أصْبع وَالثَّرَى عَلَى أصْبع وَسَائِر الْخلق عَلَى أصْبع ثمَّ يَهُزهُنَّ وَيَقُول أَنا

الْملك فَضَحِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تَعَجبا مِمَّا قَالَ ثمَّ قَرَأَ وَمَا قدرُوا الله حق

قدره

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتاب التَّوْحِيد وَفِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي صفة الْقِيَامَة

من حَدِيث عُبَيْدَة السَّلمَانِي عَن ابْن مَسْعُود قَالَ جَاءَ حبر فَقَالَ يَا مُحَمَّد إِن الله يمسك

السَّمَوَات عَلَى أصْبع وَالْأَرضين عَلَى أصْبع وَالْجِبَال عَلَى أصْبع وَالثَّرَى عَلَى أصْبع

وَالشّجر عَلَى أصْبع وَالْخلَائق عَلَى أصْبع ثمّ يَقُول أَنا الْملك فَضَحِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى بَدَت نَوَاجذه تَعَجبا لَهُ ثمّ قَرَأَ وَمَا قدرُوا الله حق قدره الْآيَة انْتَهَى

وَوَقع للْمُصَنف هُنَا تَصْحِيف فِي قَوْله إِن جبْرِيل وَإِنَّمَا هُوَ حبر كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَفِي لفظ للْبُخَارِيّ أَن يَهُودِيّا وَفِي لفظ أَن رجلا من أهل الْكتاب وَفِي لفظ لمُسلم جَاءَ حبر من الْيَهُود

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي كِتَابَيْهِمَا وَابْن حبَان وَالْحَاكِم فِي صَحِيحهمَا وَأحمد وَابْن رَاهَوَيْه وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه كلهم لم يخرجُوا عَن هَذِه الْأَلْفَاظ

1123 - الْحَدِيث الْعَاشِر

رُوِيَ أَنه نهَى عَن خطْفَة السَّبع

(240/664)

قلت رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعلي الْموصِلِي وَاحْمَدْ فِي مسانيدهم أخبرنَا جرير عَن سُهَيْل بن أبي صَالح عَن عبيد الله بن يزِيد رجل من بني سعد ابْن بكر قَالَ سَأَلت سعيد بن الْمسيب إِن نَاسا من قومِي يَأْكُلُون الضبع فَقَالَ إِنَّهَا لَا تحل وَعِنْده شيخ من أهل الشَّام فَقَالَ الشَّيْخ أخْبرك بِمَا سَمِعت أَبَا الدَّرْدَاء يَقُول فِيهِ قلت نعم قَالَ سَمِعت أَبَا الدَّرْدَاء يَقُول نهَى

رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أكل كل خطْفَة ونُهْبَة ومُجَثمَة وكل ذِي نَاب من السَّبع فَقَالَ سعيد صدق انْتَهَى

وَرَوَى الدّرَامِي فِي مُسْنده فِي الضَّحَايَا أخبرنَا عبد الله بن مسلمة ثَنَا أَبُو أويس بن عَم مَالك بن أنس عَن الزُّهْرِيّ عَن أبي إِدْرِيس الْخَولَانِيّ عَن أبي ثَعْلَبَة الْخُشَنِي قَالَ نَهَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن الْخَطفَة وَالْمُجَثمَة وَالنهبَة وكل ذِي نَاب من السبَاع انْتَهَى

وَالنَّسَائِيّ فِي كتَاب الكنى أخبرنَا عَمْرو بن مَنْصُور ثَنَا عبد الله القعْنبِي ثَنَا أَبُو أويس عبد الله بن عبد الله عَن الزُّهْرِيّ بِهِ

وَكَذَلِكَ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط عَن القعْنبِي بِهِ

وَقد تقدم فِي الْأَعْرَاف

قَالَ إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي غَرِيبه الْخَطفَة هِيَ أَن يُرْمَى الصَّيْد فَيَنْقَطِع مِنْهُ عُضْو وَكَأَنَّهُ اخْتَطَف مِنْهُ ذَلِك الْعُضْو لأَخذه إِيَّاه بسُرْعَة فَإِنَّهُ يَأْكُلهُ وَلَا يَأْكُل الْعُضْو انْتَهَى

وَالْمُصَنّف احْتج بِهِ عَلَى التَّسْمِيَة بِالْمَصْدَرِ كَالْقَبْضَةِ

وَرَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي أَيْضا عَن أبي بكر بن أبي شيبَة ثَنَا عبد الرَّحِيم بن سُلَيْمَان ثَنَا عبد الرَّحْمَن بن زِيَاد الإِفْرِيقِي عَن صَفْوَان بن سليم عَن سعيد بن الْمسيب عَن أبي الدَّرْدَاء

1124 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الظُّلم ظلمات يَوْم الْقِيَامَة)

قلت رَوَاهُ الْجَمَاعَة إِلَّا ابْن ماجة فَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي الْمَظَالِم وَفِي الْإِكْرَاه وَمُسلم فِي الْبر والصلة وَكَذَلِكَ التِّرْمِذِيّ ثَلَاثَتهمْ من حَدِيث عبد الله بن دِينَار عَن ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن الظُّلم ظلمات يَوْم الْقِيَامَة) انْتَهَى

وَأَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ من حَدِيث زُهَيْر بن الْأَقْمَر عَن عبد الله بن عَمْرو قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اتَّقوا الظُّلم فَإِن الظُّلم ظلمات يَوْم الْقِيَامَة وَاتَّقوا الْفُحْش فَإِن الله لَا يحب الْفُحْش وَلَا التَّفَحُّش وَإِيَّاكُم وَالشح فَإِنَّهُ أهلك من كَانَ قبلكُمْ أَمرهم بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا وبالقطيعة فَقطعُوا)

وَأخرجه مُسلم عَن عبد الله بن مقسم عَن جَابر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (اتَّقوا الظُّلم فَإِن الظُّلم ظلمات يَوْم الْقِيَامَة وَاتَّقوا الشُّح فَأَن الشُّح أهلك من كَانَ قبلكُمْ حملهمْ عَلَى أَن سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمهمْ) انْتَهَى

1125 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الزمر لم يقطع الله رَجَاءَهُ يَوْم الْقِيَامَة وَأَعْطَاهُ الله ثَوَاب الْخَائِفِينَ الَّذين خَافُوا)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة الزمر) إِلَى آخِره لم يقل فِيهِ (الَّذين خَافُوا)

(242/664)

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الأول فِي آل عمرَان وَقَالَ الْحَافِّينَ الَّذين يحفونَ بِعَرْشِهِ وَرَوَاهُ بالسند الثَّانِي وَقَالَ الَّذين خَافُوا الله تَعَالَى

وَبِهَذَا اللَّفْظ رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي سُورَة يُونُس

1126 - الْحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يقْرَأ كل لَيْلَة بني إِسْرَائِيل وَالزمر

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي الدَّعْوَات وَالنَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير فِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة من حَدِيث حَمَّاد بن زيد عَن أبي لبَابَة مَرْوَان عَن عَائِشَة قَالَت كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا ينَام حَتَّى يقْرَأ الزمر وَبني إِسْرَائِيل وَلَفظ النَّسَائِيّ وَكَذَا قَالَت كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُوم حَتَّى نقُول إِنَّه لَا يُرِيد أَن يفْطر وَيفْطر حَتَّى نقُول إِنَّه لَا يُرِيد أَن يَصُوم وَكَانَ يقْرَأ كل لَيْلَة

بني إِسْرَائِيل وَالرَّمْز انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك بِهَذَا الْمَتْن وَسكت عَنهُ

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع عشر

وَرَوَاهُ أَحْمد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسنديهما وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 199 . 211 ﴾

(243/664)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الزّمر» (39)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ» (5) يدخل ، مجازها : يولج . .

«فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ «1»» (6) فى أصلاب الرجال ثم فى الرحم ثم فى البطن وقال

بعضهم فى الحولاء وفى الرّحم وفى البطن . .

«ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ» (8) كل مالك وكل شىء أعطيته فقد خوّلته قال أبو النّجم :

أعطى فلم يبخل ولم يبخّل كوم الذّرى من خول المخوّل

«2» [807] يريد اللّه تبارك وتعالى: وسمعت أبا عمرو يقول فى بيت زهير:

هنالك إن يستخولوا المال يخولوا وإن يسئلوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا

«3» [808]

---

(1). - 4 «ظلمات ثلاث»: قال القرطبي (15/ 226) فى تفسير هذه الآية: ظلمة صلب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرحم وهذا مذهب أبى عبيدة.

(2). - 807: من أرجوزة طويلة مع شرحها فى الطرائف الأدبية 57 - 71 والشطران مع آخرين فى الطبري 23/ 126 والقرطبي 15/ 237 وشواهد المغني ص 154 والمعاهد 1/ 7 والخزانة 1/ 401.

(3). - 808: ديوانه ص 112 والمختارات ص 62 والطبري 23/ 116 والسمط ص 493 واللسان (خول) والقرطبي 15/ 237. وقال الطبري أثناء إنشاده هذا البيت: وحدثت عن أبى عبيدة معمر بن المثنى أنه قال سمعت أبا عمرو... البيت، قال معمر قال يونس... معناها انتهى».

قال يونس : إنما سمعنا :

هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا

وهى معناها . .

«وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ» (20) نصب مجازه مجاز المصدر الذي ينصبه فعل من غير لفظه والوعد والميعاد والوعيد واحد . قال أبو عبيدة إذا قلت :

وعدت الرجل ، فالوجه الخير ويكون الشر قال اللّه «النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» (72/22) وإذا قلت : أوعدت فالوجه الشر ولا يكون الخير . .

«فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ» (21) واحدها ينبوع وهو ما جاش من الأرض . .

«ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا» (21) إذا ذوى الرّطب كله فقد هاج ويقال :

هاجت الأرض وهو إذا ذوى ما فيها من الخضر . .

«ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً» (21) بعد صفرته أي رفاتا والحطام والرّفات والدرين واحد فى كلام العرب وهو ما يبس فتحاتّ «1» من النبات . .

«مُتَشابِهاً» (23) يصدّق بعضه بعضا ويشبه بعضه بعضا . .

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ» (29) مجازها من الرجل الشّكس .

«سالما» (29) خالصا وسَلَماً لِرَجُلٍ أي صلحا .

---

(1) . - 13 «تحات» : من حت يحت وهو زكك الشيء اليابس عن الثوب ونحوه

«وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ» (33) فى موضع الجميع وصدق به قال الأشهب ابن رميلة :

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أمّ خالد

«1» [809].

«قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ» (38) ما هاهنا فى موضع الجميع مجازها مجاز الذي مثل بيت الأشهب هذا وقوله «هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ» يعنى ما تعبدون من حجر ووثن ، وأنّث لأنهن موات كما قال «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً» (4/ 116) إلا مواتا . .

«اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى» (42) فجعل النائم متوفى أيضا إلا أنه يرده إلى الدنيا . .

«اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ» (45) تقول العرب : اشمأزّ قلبى عن فلان أي نفر «2» . .

«وَحاقَ بِهِمْ» (48) مثل أحاط بهم ولزمهم . .

«فِي جَنْبِ اللَّهِ» (56) وفى ذات اللّه واحد . «3»

---

(1) . - 809 : فى الكتاب 1/ 78 والشنتمرى 1/ 96 والسمط ص 35 ،

والصحاح واللسان والتاج (فلج) ومعجم البلدان و3/ 910 العنبي 1/ 482 وشواهد المغني ص 175 والخزانة 2/ 507 ، 3/ 473 وشواهد الكشاف 69 وذكر البغدادي وجوده فى أبيات لحريث بن محفض فى مختار أشعار القبائل لأبى تمام.

(2) . - 11 - «اشمأزت . . . نفر» : روى ابن حجر (8/ 422) هذا الكلام عن أبى عبيدة.

(3) . - 810 : ديوانه ص 66.

(246/664)

«وينجّى اللّه الذين اتّقوا بمفازاتهم» (61) بنجاتهم من الفوز «1» . .

«لَهُ مَقَالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ» (63) أي المفاتيح واحدها مقليد وواحد الأقاليد إقليد. وقال الأعشى:

فتى لو يجارى الشّمس ألقت قناعها أو القمر الساري لألقى المقالدا

«2» [811].

«وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ» (65) مجازها ولقد أوحى إليك لئن أشركت ليحبطنّ عملك وإلى الذين من

قبلك مجازها مجاز الأمرين اللذين يخبر عن أحدهما ويكفّ عن الآخر وهو داخل فى معناه

. .

«زُمَراً» (71) جماعات فى تفرقة وبعضهم على أثر بعض واحدتها زمرة قال الأخطل :

شوقا إليهم ووجدا يوم أتبعهم طرفى ومنهم بجنبي كوكب زمر

«3» [812]

---

(1) . - 1 «وينجى . . . الفوز» : روى ابن حجر هذا الكلام عنه (فتح الباري 8/ 423) .

(2) . - 811 : ديوانه ص 49 ، والكامل ص 436 واللسان والتاج (ندى) ، قال ثعلب فى شرحه : أبو عبيدة «ينادى أي يأمر يقول لو كلم الشمس لكلمته لشرفه ولو كلم القمر الطالع لطاع له وانقاد يقال ألقى فلان إلى فلان مقاليده إذا طاعه وانقاد له .

(3) . - 812 : ديوانه ص 99 . [. . . . .]

«وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ» (73) مكفوف عن خبره والعرب تفعل مثل هذا

، قال عبد مناف بن ربع فى آخر قصيدة :

حتى إذا أسلكوهم فى قتائدة شلّا كما تطرد الجمّالة الشّردا

(46) وقال الأخطل أيضا فى آخر قصيدة :

خلا إن حيا من قريش تفضلوا على الناس أو أن الأكارم نهشلا «1»

«2» [813] .

«حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ» (75) أطافوا به بحفافيه «3» . .

«يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» (75) والعرب قد تخلّى الباء منها فى القرآن .

«سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» (87/ 1) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 188 192. ﴾

---

(1) . - 1 - 6 «وسيق . . . نهشلا» : قال الطبري : (24/ 22) واختلف أهل العربية فى موضع جواب إذا التي فى قوله حتى إذا جاؤها فقال بعض نحوى البصرة يقال إن قوله . . . وقال آخر منهم هو (لعله يريد أبا عبيدة) هو مكفوف عن خبره قال والعرب . . . ونقل كلامه إلى آخر نهشلا .

(2) . - 813 : ديوانه ص 392 وابن يعيش 1/ 128 والخزانة 4/ 385 .

(3) . - 7 «حافين . . . بحفافيه» : أخذ البخاري وأشار إليه ابن حجر بقوله : وهو كلام أبى عبيدة فى قوله وترى الملائكة . . . (فتح الباري 1/ 422) .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الزّمر»

[سورة الزمر (39) : آية 5]

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5)

قوله تعالى : يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ ، وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ [5] وهذه استعارة . والمعنى : يعلى هذا على هذا . وذلك مأخوذ من قولهم : كار العمامة على رأسه يكورها . إذا أرادها عليه . وقد قالوا : طعنه فكوّره . أي صرعه . ومنه قول أبى كبير الهذلي «1» :

متكورين على المعاري بينهم ضرب كتعطاط المزاد الأنجل

ومنه الحديث المأثور : (نعوذ باللّه من الحور بعد الكور) «2» أي من الإدبار بعد الإقبال . وقيل من القلة بعد الكثرة . لأنهم يسمّون القطيع الكثير من البقر وغيرها كورا .

ومنه قول أبى ذؤيب «3» فى صفة الثور :

---

(1) أبو كبير الهذلي هو عامر بن الحليس . وهو شاعر جاهلى . وله ترجمة فى «الشعر والشعراء» و«الإصابة» و«الخزانة» و«اللآلى» . وزعموا أنه تزوج أم الشاعر «تأبط شرا» وكان هذا غلاما صغيرا فلما رآه يكثر الدخول على أمه تنكر له . . . والقصة كاملة فى كتاب «ديوان الهذليين» ج 2 ص 88 ومتكورين أي بعضهم على بعض ، والمعاري : السوءات . والتعطاط من العط ، وهو الشق ، والأنجل :

الواسع . [. . . . .]

(2) فى «أساس البلاغة» : «وأعوذ بالله من الحور بعد الكور» . والباطل فى حور – بالضم – وهما النقصان ، كالهون والهون . والحديث كاملا فى «المجازات النبوية» طبع القاهرة . صفحة 113 ، ونصه :

(اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر . وكآبة المنقلب ، والحور بعد الكور . وسوء المنظر فى الأهل والمال) .

(3) هو أبو ذؤيب الهذلي خويلد بن خالد ، جاهلى إسلامى ، وكان راوية للشاعر الهذلي ساعدة بن جؤية . وقالوا : إنه خرج مع عبد الله بن الزبير فى مغزى نحو المغرب فمات . وهو صاحب العينية المشهورة التي يرثى بها سبعة من أبنائه ماتوا فى يوم واحد ، ومطلعها : أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع وشعره فى «ديوان الهذليين» طبع دار الكتب المصرية .

ولا شبوب من الثيران أفرده عن كوره كثرة الإغراء والطّرد

أي عن سربه الكثير.

فيجوز أن يكون معنى يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ ويُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ على قول من يقول: طعنه فكوّره، يريد: فصرعه. أي يلقى الليل على النهار، ويلقى النهار على الليل.

ويكون المعنى على قول من يذهب إلى أن الكور اسم للكثرة، أي يكثر أجزاء الليل على أجزاء النهار، حتى يخفى ضوء النهار وتغلب ظلمة الليل. ويكوّر النهار على الليل. أي يكثر أجزاء النهار، حتى تظهر وتنتشر وتتلاشى فيها أجزاء الليل وتضمحل.

[سورة الزمر (39): آية 42]

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)

وقوله سبحانه: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى [42] وفى هذا الكلام استعارة خفية. وذلك أنّ قوله تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها أي يقبضها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي

مَنامِها منسوق تعبير . فظاهر الخطاب يقتضى أنه سبحانه يتوفّى الأنفس التي لم تمت فى منامها أيضا . ونحن نجد أمارة بقاء نفس النائم فى جسده بأشياء كثيرة . منها ظهور التنفس والحركة وحذف لسانه بالكلمة بعد الكلمة ، وغير ذلك مما يجرى مجراه . فيكون معنى توفّى النفس النائمة هاهنا اقتطاعها عن الأفعال التمييزية ، والحركات الإرادية ، كالعزوم «1» والقصود وترتيب القيام والقعود ، إلى غير ذلك مما فى معناه .

وقال بعضهم : الفرق بين قبض النوم وقبض الموت أن قبض النوم يضاد اليقظة

---

(1) جمع عزم وهو ما يعزم الإنسان عليه من قصد ونية .

وقبض الموت [يضاد الحياة] «1» . وقبض النوم تكون الروح معه فى البدن ، وقبض الموت تخرج الروح معه من البدن .

[سورة الزمر (39) : آية 56]

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56)

وقوله سبحانه : أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ [56] وهذه استعارة . وقد اختلف فى المراد بالجنب هاهنا . فقال قوم :

معناه فى ذات اللّه .

وقال قوم : معناه فى طاعة اللّه ، وفى أمر اللّه . لأنه ذكر الجنب على مجرى العادة فى قولهم : هذا الأمر مغال فى جنب ذلك الأمر أي فى جهته . لأنه إذا عبّر عنه بهذه العبارة دل «2» على اختصاصه به من وجه قريب من معنى صفته .

وقال بعضهم : معنى فى جنب اللّه . أي فى سبيل اللّه ، أو فى الجانب الأقرب إلى مرضاته ، بالأوصل إلى طاعاته .

ولما كان الأمر كلّه يتشعب إلى طريقين : إحداهما هدى ورشاد ، والأخرى غىّ وضلال ، وكلّ واحد منهما مجانب لصاحبه ، أو هو فى جانب ، والآخر فى جانب ، وكان الجنب والجانب بمعنى واحد ، حسنت العبارة هاهنا عن سبيل اللّه بجنب اللّه ، على النحو الذي ذكرناه .

[سورة الزمر (39) : آية 63]

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (63)

وقوله تعالى : لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ [63] وهذه استعارة . والمقاليد : المفاتيح . قال أبو عبيدة : واحدها مقليد ، وواحد الأقاليد إقليد . وهما بمعنى واحد . وقال غيره : واحدها قلد على غير قياس .

---

(1) ما بين حاصرتين ليس فى الأصل ، وقد زدناها ، لأن الكلام يستقيم بها . ولعل

الناسخ نسيها وهو يكتب فأسقطها من مكانها

(2) فى الأصل : (و دل) بالواو ولا معنى لها .

(251/664)

وقال أبو عمرو بن العلاء «1» : وجهه فى العربية أن يكون الواحد على لفظ مقلد ثم تجمع مقالد . فمن شاء أن يشبع كسرة اللام قال مقاليد . كما قالوا : درهم ودراهيم .

قال : وسمعت أبا المنذر يقول : واحد المفاتيح مفتاح . وواحد المفاتح مفتح . والمعنيان جميعا واحد .

والمراد بمقاليد السموات والأرض ها هنا - والله أعلم - أي مفاتيح خيراتهما ، ومعادن بركاتهما ، من إدرار الأمطار ، وإيراق الأشجار ، وسائر وجوه المنافع ، وعوائد المصالح .

وقد وصف سبحانه السماء فى عدة مواضع بأنّ لها خزائن وأبوابا ، فحسن على مقتضى الكلام أن توصف بأن لها مقاليد وأغلاقا .

قال سبحانه : لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ «2» وقال تعالى : فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ «3» وقال عزّ من قائل : وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «4» .

وقالوا : خزائن السموات الأمطار ، وخزائن الأرض النبات . وقد يجوز أن يكون معنى : لَهُ

مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي طاعة السموات والأرض ومن فيهن .

كما يقال : ألقى فلان إلى فلان مقاليده . أي أطاعه ، وفوّض إليه أمره .

وعلى ذلك قول الأعشى «5» :

---

(1) هو زبان بن عمار التميمي البصري . كان إماما فى اللغة والأدب والشعر ورواية الأخبار . وقد تلقى أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية . توفى بالكوفة سنة 154 ه

(2) سورة الأعراف : الآية رقم 39 .

(3) سورة القمر : الآية رقم 11 .

(4) سورة المنافقون . الآية رقم 7 .

(5) سبقت ترجمته فى الحديث عن مجازات سورة ص . والبيت من قصيدة للأعشى يمدح بها «هوذة ابن على الحنفي» ويذم «الحارث بن وعلة بن مجالد الرقاشي» . ومطلعها :

أجدك ودعت الصبا والولائدا وأصبحت بعد الجور فيهن قاصدا

فتى لو ينادى الشّمس ألقت قناعها أو القمر السّارى لألقى المقالدا

أي لسلم العلوّ إليه ، واعترف له به .

وقال بعض العلماء : ليس قول الشاعر ها هنا : ينادى الشمس ، من النداء الذي هو رفع الصوت ، وإنما هو من المجالسة . تقول : ناديت فلانا . إذا جالسته فى النادي . فكأنه قال : لو يجالس الشمس لألقت قناعها شغفا به ، وتبرجا له . وهذا من غريب القول .

[سورة الزمر (39) : آية 67]

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)

وقوله سبحانه : وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [67] وها تان استعارتان . ومعنى قبضته ها هنا أي ملك له وخالص ، قد ارتفعت عنه أيدى المالكين من بريته ، والمتصرفين فيه من خليقته . وقد ورث تعالى عباده ما كان ملكهم فى دار الدنيا من ذلك ، فلم يبق ملك إلا انتقل ، ولا مالك إلا بطل .

وقيل أيضا : معنى ذلك أن الأرض فى مقدوره ، كالذى يقبض عليه القابض ، فتستولى عليه كفه ، ويجوزه ملكه ، ولا يشاركه فيه غيره .

ومعنى قوله تعالى : وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ أي مجموعات فى ملكه ، ومضمومات بقدرته . واليمين ها هنا بمعنى الملك . يقول القائل : هذا ملك يمينى . وليس يريد اليمين

التي هى الجارحة. وقد يعبرون عن القوة أيضا باليمين. فيجوز على هذا التأويل أن يكون معنى قوله سبحانه: مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ أي يجمع أقطارها ويطوى انتشارها بقوته، كما قال سبحانه: يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ «1». وقيل فى اليمين ها هنا وجه آخر. وهو أن تكون بمعنى القسم. لأنه سبحانه لما قال فى «الأنبياء»: يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ

(1) للكتاب، أو للكتب، على قراءتى الإفراد والجمع، كما سبق القول فى سورة الأنبياء.

آية 104.

كان التزامه تعالى فعل ما أوجبه على نفسه بهذا الوعد كأنه قسم أقسم به ليفعلنّ ذلك. فأخبر سبحانه فى هذا الموضع من السورة الأخرى أن السموات مطويات بيمينه، أي بذلك الوعد الذي ألزمه نفسه سبحانه. وجرى مجرى القسم الذي لا بد أن يقع الوفاء به، والخروج منه.

والاعتماد على القولين المتقدمين أولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 283 . 288 ﴾

(254/664)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الزمر

الزمر الجماعات المختلفة من الناس ، ولم ترد هذه الكلمة إلا فى السورة التى سميت بها . والواقع أن السورة تضمنت أحوالا شتى لأفواج متباينة من الخلق ، قوبلت كل زمرة بأخرى حتى تكونت من هذا السرد بضع عشرة مقابلة شملت السورة كلها ، وتدور حول التوحيد وخصائصه وآثاره . فالشرك رذيلة شاعت بين الأولين والآخرين ، وشانت سلوكهم . ألا تعجب لرجل عاقل يسجد لحجر ويتهيبه ؟ ألا تعجب لطيار يظن نجاته مربوطة بجدوة حصان فيها سعده أو نحسه ؟ إن المآخذ على مسالك البشر كثيرة ، وأولها الجهل السيئ بالله ! وكان المفروض أن نحسن الظن بخالقنا . وأن ننسب إليه الكمال ! المطلق ، لكننا جعلنا لله شركاء مغموصين ، وصنعنا لها تماثيل ترمز إليها ، وقال التائهون الذين فعلوا ذلك

" ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى " . إن هذه الأصنام أصفار جسدها الوهم ، ومكانتها أن ترمى فى زاوية القمامات . إن شأن الألوهية أعلى من هذا الإسفاف ولو صنع الله شيئا يكون وسيطا بينه وبين خلقه ، لاختار بديلا أرقى " لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار " . ليس بين البشر وربهم وسيط ، إن اتصالهم به مباشر ، إن كل امرئ يستطيع مناجاة ربه فى أى وقت وفى أى مكان . ولو حدث – فرضا لمستحيل – أن يتخذ الله ولدا ، لاختار من خلقه بشرا كريما أو ملكا كريما ، وسيكون هذا المختار مخلوقا لا خالقا ومربوبا لا ربا ، ومحكوما عليه لا حاكما على أحد . إن للألوهية أوجها العالى ، وللمخلوقين كلهم مكان العبودية الضارعة الخاشعة . ولكن المشركين – وثنيين

أو كتابيين – يتجاوزون هذه الحقيقة ، ولا يعرفون الفارق بين المخلوق والخالق ، ولا يصح التوحيد إلا بتصور إله واحد ، ما عداه عبد له . . !

(255/664)

والقرآن الكريم سيد الكتب التى حررت هذه الحقيقة ، وأطالت النفس فى توكيدها . . وفى سورة الزمر تنويه متكرر بهذا المعنى 1 – " تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إنا

أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين " . 2 – " الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . . " . 3 – " ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون " . 4 – " إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه . . . " . 5 – " واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب . . " . 6 – " بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين " . وفى صدر سورة الزمر حديث طويل عن الله الخالق ، وعن مظاهر خلقه فى السموات والأرض ، والإنسان والحيوان . وهذا الحديث تمهيد لما بعده من مقابلات بين أصناف الناس توضح سائرهم ووجهاتهم . وأولى هذه المقابلات قوله تعالى: " إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى . . . " . والواقع أن البشر مغمورون بنعمة الله ، فهم يعيشون على أرضه ، ويتنفسون فى هوائه ويأكلون من خيره ، ثم ينسون كل هذه الأفضال ويتصرفون معه كأنه لم يسد إليهم جميلا ! ! وقد تمر بهم محنة فيجأرون طالبين النجدة ، فإذا أنقذهم من ورطتهم سرعان ما ينسون الإنقاذ الذى ظفروا به " وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور " . إن شكران النعمة دليل بصر سليم وطبيعة مستقيمة ، وقد ذكر الله نوحا فقال إنه كان عبدا شكورا " . وذكر إبراهيم بأنه كان " شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم " . وقال نبينا

يتحدث عن سر اجتهاده فى العبادة " أفلا أكون عبدا شكورا " ؟

(256/664)

والمطلوب من الناس أن يعرفوا هذه الحقائق ، فلا يستخدموا أنعم الله فى معصيته . . .

والمقابلة الثانية فى قوله تعالى: " أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . " . وظاهر أن الطرف الآخر فى المقابلة محذوف تقديره هل يستوى قائم الليل ونائمه ؟ أو هل يستوى من يشغل ليله بالعبادة ، ومن يشغله باللهو والبحث عن اللذة الحرام ؟ وسنرى فى المقابلات القادمة أنه كثيرا ما يحذف أحد الطرفين مراعاة لبلاغة الأداء وترغيبا فى قيام الليل . قال الرسول الكريم " عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ومقربة إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم ، ومطردة للداء عن الجسد " . وفى صدق النية على القيام ، روى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم "من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم يصلى من الليل فغلبته عيناه حتى أصبح كتب له ما نوى ، وكان نومه صدقة عليه من ربه ! " . وقيام الليل من النوافل المؤكدة . وأحسب أن ما ورد فى السورة هنا قد يكون المعنى به السهر فى أداء

الفرائض المكتوبة ورفض النوم عنها . . وربما كان – إلى جانب رعاية الفرائض – أن يختار المرء بعض ليالي يسهرهن فى الدراسة والدعاء والترتيل ، ويعطى البدن حقه فى ليال أخرى . وقدرات الناس تختلف جدا فى هذا المجال . وأعرف من يسهر الليل ، ثم يكتفى برقاد ساعة ويصحو ناشطا . وأعرف من لا يملك وعيه إلا بعد نوم مستغرق ! ولله فى خلقه شئون . والمقابلة الثالثة بين صنفين متباعدين . الأول الأتقياء المحسنون الذين أخلصوا دينهم ومشوا فى آثار نبيهم وتأسوا به وهو يقول: " قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم " ، فسجنوا هواهم وأسلموا لله وجوههم . . وبين صنف عبد الحياة الدنيا وعاش يلهث وراء شهواتها ناسيا لقاء ربه ومكرسا عمره للحاضر المنقضى . . وفى هؤلاء يقول الله: " قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك

هو الخسران المبين " ! إن ألوفا من الناس يكدحون بجبروت ليرتفعوا مع أسرهم فى هذه الحياة ، ويوفروا ما استطاعوا من مال وجاه ، فإذا جاء يوم البعث حشروا عرايا صعاليك ، لم يغن عنهم ما كسبوا شيئا .

وقد لُخصت هذه المقابلة فى قوله تعالى: " والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا

إلى الله لهم البشرى فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . . . " .

والمقابلة الرابعة ذكرت أحد الطرفين وطوت الآخر لأنه مفهوم من السياق . قال تعالى: " أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار " ؟ والمعنى: أفمن أساء فاستحق الهوان كمن اتقى فاستحق التكريم ، إن من حقت عليهم كلمة ربك لا ينقذه أحد ! !

وعرف الطرف الثانى فى المقابلة من قوله تعالى مباشرة " لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد " . والمقابلة الخامسة تشبه سابقتها فى حذف أحد طرفيها . قال تعالى: " أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله . . " . وتقدير الكلام أفمن انشرح بالحق صدرا كمن ضاق صدره بالحق وكره الدخول فيه والعمل به ؟ والصدر إذا انشرح أقبل المرء بشغف على العمل ، كما قال البوصيرى: وإذا حلت الهداية روحا نشطت للعبادة الأعضاء ! أما المنحرفون عن الله فهم يستثقلون الصلاة ويستكثرون الزكاة ويفرون من الجهاد . وقد شرحت الآية التالية هذه المقابلة الخامسة " الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله " . فالقرآن الكريم مصدر الذكر الحكيم والهدى المستقيم والعصمة من الباطل والارتباط بالحق . والمقابلة السادسة تراها فى الآية الكريمة " أفمن يتقي بوجهه سوء

العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون " . والمعنى أفمن صان وجهه عن عذاب القيامة بالإيمان والإحسان كمن نصب وجهه لتلقى هذا العذاب

(258/664)

بكفره وظلمه ؟ وطبيعة البشر أن يباعدوا السوء عن وجوههم ، ولكن العذاب المحيط الذى يتعرض الظلمة له يفجؤهم بما لا يستطيعون رده . وقد زادت الآية التالية بأن العذاب قد يعجل لهم فى هذه الدار " فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون " .

والمقابلة السابعة بين التوحيد والإخلاص ، بين من يعملون ابتغاء وجه ربهم ومن يطلبون وجوه الآخرين من أصنام أو رؤساء أو جماهير . وعبادة غير الله تشمل أولئك جميعا . بل أستطيع الجزم بأن هناك أقواما خلت قلوبهم من الله كل الخلو وامتلأت باسترضاء هذا أو اصطناع ذاك ! ومبدأ " عبادة البطل " يدخل فى هذه الدائرة . وكذلك مبدأ " كسب الأصوات " . إن المؤمن حين يصلى يخضع لله وحين يزكى يعطى لله ، وحين يجاهد يفنى فى الله . لقد توحدت وجهته واستراح ضميره " ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون" . وقد شرح الشاعر

ذلك بقوله: اعمل لوجه واحد يكفيك كل الأوجه . . ! ! والمقابلة الثامنة فى قوله تعالى: " فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين * والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون " . ظهر الأرض حافل بالأوهام والأباطيل ، وما أشد غربة الحق فى هذه الدنيا . وأجدر الناس بالتقدير والتكريم من عرف الحق وعرفه لغيره ، وقال الصدق وأيد الصادقين . أما شرار الناس فهم الذين يفترون على الله الكذب ، وإذا قادهم أحد إلى الصدق تمردوا عليه ورفضوا اتباعه . وقد وعد الله حزب الحق بأنهم " لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون" . ولم أر بشرى أعذب وقعا وألطف أثرا من هذه البشرى الندية السخية . ويجىء فى سورة الزمر هذا التساؤل المثير " أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه " . إن الله هو الخافض الرافع الضار النافع

المعز المذل الذى لا معقب على حكمه ، ولا راد لأمره ولا مجير عليه ، فكيف لا يكفى عبدا توكل عليه ؟ وبمن يحتمى الناس دونه ؟ وهذا المعنى أساس المقابلة التاسعة فى السورة ، فإن غير الله لا يستطيع إصدار أمر ولا إمضاء

حكم ، بل لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، فكيف يحمى الآخرين " قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون " . ومن ثم يردد الموحدون – فى وجه المشركين – هذا النداء " قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون * من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم " . أما المقابلة العاشرة فتصف بعد الشقة بين الموحدين والمشركين ، ونحن نحسب أن المخطئ يعرف أنه مخطئ ، وأن عابد الوثن يعرف أنه عاكف على قطعة حجر . إن جماهير المخطئين تحسب نفسها على صواب " أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا " . وهى تذود عن باطلها بضراوة ، وتعتقد أن غيرها هو المبطل ! وتدبر هذه الآيات فى وصفهم " وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون " ! ماذا يصنع الرسول مع هؤلاء ؟ " قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون " . وأغلب سكان هذه الكرة غرقى فى أوهامهم ، ولذلك فإن العبء على دعاة الحق ثقيل . فلتكن خدمتهم له شكر ما هداهم الله إليه ومهد لهم الطريق ! والمقابلة الحادية عشرة تفهم من قوله تعالى: " فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون * قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون " . هذه مقابلة بين الإنسان ونفسه على

حاليه من بأساء ونعماء ، إنه إذا أحرج جأر بالدعاء وسأل الله النجدة وأحس بعجزه ، وكان عبدا منيبا ! فإذا تغيرت الأيام وتكاثرت لديه النعم ، شعر بحوله وطوله

(260/664)

وقال: هذا النجاح وليد ما لدى من ذكاء ! فأين كان هذا الذكاء بالأمس ؟ ! ولم لم تعتمد عليه فى إذهاب ما تشكو ؟

إن هذا الذهول والعقوق باب الضياع ، فليلزم المرء حدود عبوديته . . والإسراع فى التوبة من عزائم الإيمان ، أما تسويفها والإبطاء فيها فهو دليل عجز عن جبر ما انكسر ، أو هو صحو مشوب بنوم واسترخاء ! وفى تنشيط القدرة على الخير يقول الرسول صلى الله عليه وسلم " أتبع السيئة الحسنة تمحها " . وقد ييأس الإنسان من نفسه ، ويستسلم للشيطان ، ويستكثر أخطاءه ويستبعد النجاة منها ، وإطفاء لهذه الفتنة جاء فى هذه السورة " قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا . . " . وعقدت المقابلة الثانية عشرة بين من يحدوهم الأمل فى عفو الله فيمضون فى طريقه ويسارعون فى مرضاته ، وبين من يتقاعسون ويتكاسلون فيفوتهم الخير ويندمون حين لا يجدى ندم " أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن

الساخرين " . وعندئذ يقال له " بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين " . ويقول الله تعالى مقابلا بين الصدق والكذب فى العقائد والمسالك والأخلاق: "ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين * وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون " . وهذه هى المقابلة الثالثة عشرة ، وقد عبر عن التقوى بالصدق فى قوله تعالى: "هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم . . . " . وعبر بالتقوى والصدق معا عن معالم البر كلها " أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون " . والحقيقة واحدة فى هذه الآيات جميعا . وتختم السورة بهذه المقابلة الحاسمة ، فبعد الحساب العدل والمساءلة الدقيقة يرسل كل فريق من الناس إلى مستقره العتيد " وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا . . . . " . " وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا . . . " . أما أهل جهنم فسيعلمون بعد فوات الأوان أنهم نسوا الله

فنسيهم . وأما أهل الجنة فسيستأنفون فى ديار النعيم ما شغلوا به فى الدنيا من ذكر وشكر " دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين " . وفى ظلال النعمة الوارفة والسعد المقيم يتجاوب هتاف الملائكة مع تسبيح

المؤمنين " وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 356 . 362 ﴾

(262/664)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والستون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/665)

الجزء الخامس والستون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الزمر

وحتى الآية ﴿ 7 ﴾ من نفس السورة

(4/665)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/665)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الزمر

لا يخفى وجه اتصال أولها بآخر (ص) ، حيث قال في (ص) (إِن هو إِلا ذكر للعالمين) ثم قال هنا (تنزيل الكتاب من اللهِ) فكأنه قيل: هذا الذكر تنزيل وهذا تلاؤم شديد ، بحيث أنه لو أسقطت البسملة لالتأمت الآيتان كالآية الواحدة وقد ذكر الله تعالى في آخر (ص) قصة خلق آدم ، وذكر في صدر هذه قصة خلق زوجه ، وخلق الناس كلهم منه ، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق ، ثم ذكر أنهم ميتون ، ثم ذكر وفاة النوم والموت ، ثم ذكر القيامة ، والحساب ، والجزاء ، والنار ، والجنة وقال: (وقَضى بينَهُم بالحق وقيل الحمدُ للهِ ربِ العالمين) فذكر أحوال الخلق ، من المبدأ إلى المعاد ، متصلاً بخلق آدم المذكور في السورة التي قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 128 . 129 ﴾

(6/665)

قوله تعالى ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (2) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا

نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي تمت كلمته فع أمره (الرحمن) الذي وضع ، رحمته العامة أحكم وضع فدق لذي الأفهام سره (الرحيم) الذي خص أولياءه بالتوفيق لطاعته فعمهم بره .

(7/665)

لما تبين من التهديد في ص أنه سبحانه قادر على ما يريد ، ثم ختمها بأن القرآن ذكر للعالمين ، وأن كل ما فيه لا بد أن يرى لأنه واقع لا محالة لكن من غير عجلة ، فكانوا ربما قال متعنتهم : ما له إذا كان قادراً لا يعجل ما يريده بعد حين ، علل ذلك بأنه ﴿ تنزيل ﴾ أي بحسب التدريج لموافقة المصالح في أوقاتها وتقريبه للأفهام على ما له من العلو حتى صار ذكراً للعالمين ، ووضع موضع الضمير قوله : ﴿ الكتاب ﴾ للدلالة على جمعه لكل صلاح ، أي لا بد أن يرى جميع ما فيه لأن الشأن العظيم إنزاله على سبيل التنجيم للتقريب في فهمه وإيقاع كل شيء منه في أحسن أوقاته من غير عجلة ولا توان ، ثم أخبر عن هذا التنزيل بقوله :

﴿ من الله ﴾ أي المتصف بجميع صفات الكمال ﴿ العزيز ﴾ فلا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء ﴿ الحكيم ﴾ الذي يضع الأشياء في محالها التي هي أوفق لها ، فلكونه منه لا من غيره كان ذكراً للعالمين ، صادقاً في كل ما يخبر به ، حكيماً في جميع أموره .

(8/665)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما بنيت سورة ص على ذكر المشركين وعنادهم وسوء ارتكابهم واتخاذهم الأنداد والشركاء ، ناسب ذلك ما افتتحت به سورة الزمر من الأمر بالإخلاص الذي هو نقيض حال من تقدم ، وذكر ما عنه يكون وهو الكتاب ، فقال تعالى ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ وجاء قوله تعالى ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ - الآية في معرض أن لو قيل : عليك بالإخلاص ودع من أشرك ولم يخلص ، فسترى حاله ، وهل ينفعهم اعتذارهم بقولهم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وهؤلاء هم الذين بنيت سورة ص على ذكرهم ، ثم وبخهم الله تعالى وقرعهم فقال ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى ﴾ - الآية ، فنزه نفسه عن عظيم مرتكبهم بقوله سبحانه ﴿ هو الله الواحد القهار ﴾ ثم ذكر بما فيه أعظم شاهد من خلق السماوات والأرض

وتكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل وذكر آيتي النهار والليل ثم خلق الكل من البشر من نفس واحدة ، وهي نفس آدم عليه السلام ، ولما حرك تعالى إلى الاعتبار بعظيم هذه الآيات وكانت أوضح شيء وأدل شاهد ، عقب ذلك بما يشير إلى معنى التعجب من توقفهم بعد وضوح الدلائل ، ثم بين تعالى أنه غني من الكل بقوله ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ ثم قال ﴿ ولا يرضة لعباده الكفر ﴾ فبين أن من اصطفاه وقربه واجتباه من العباد لا يرضى له بالكفر ، وحصل من ذلك مفهوم الكلام أن الواقع من الكفر إنما وقع بإرادته ورضاه لمن ابتلاه به ثم أنس من آمن ولم يتبع سبيل الشيطان وقبيلته من المشار إليهم في السورة قبل فقال تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾

﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ [الأسراء : 7] ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾ ثم تناسجت الآي والتحمت الجمل إلى خاتمة السورة – انتهى .

(9/665)

ولما أخبر أنه من عنده ، علل ذلك بما ثبت به جميع ما مضى من الخير ، فقال صارفاً القول عن الغيبة منبهاً على زيادة عظمته بذكر إنزاله ثانياً ، مبرزاً له في أسلوب العظمة مخبراً أنه خص به أعظم خلقه ، معبراً بالإنزال الظاهر في الكل تجوزاً عن الحكم الجازم الذي لا مرد له

: ﴿ إنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ أنزلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ، وقرن هذه العظمة بحرف الغاية المقتضي للواسطة إشارة إلى أن هذا كان في البداية بدلالة اتباعه بالأمر بالعبادة ، بخلاف ما يأتي في هذه السورة فإنه للنهاية بصيرورته خلقاً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فكان بحرف الاستعلاء أنسب دلالة على أن ثقله الموجب لتفطر القدم وسبب اللمم خاص به ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومن قرب منه ويسره وسهولته لأمته فقال : ﴿ إليك ﴾ أي خاصة بواسطة الملك ، لا يقدر أحد من الخلق أن يدعي مشاركتك في شيء من ذلك ، فتكون دعواه موجبة لنوع من اللبس ، وأظهر موضع الإضمار تفخيماً بالتنبيه على ما فيه من جمع الأصول والفروع واللطائف والمعارف ﴿ الكتاب ﴾ أي الجامع لكل خير مع البيان القاطع والحكم الجازم بالماضي والآتي ، والكائن ، متلبساً ﴿ بالحق ﴾ وهو مطابقة الواقع لجميع أخباره ، فالواقع تابع لأخباره ، لا يرى له خبر إلا طابقه مطابقة لاخفاء بشيء منها ، لا حلية له ولا لباس إلا الحق ، فلا دليل على كونه من عنده من ذلك ، فليتبعوا خبره ، ولينظروا عينه وأثره .

(10/665)

ولما ثبت بهذا أنه خصه سبحانه بشيء عجز عنه كل أحد ، ثبت أنه سبحانه الإله وحده ، فتسبب عن ذلك قوله لفتاً للقول عن مظهر العظمة إلى أعظم منه بلحظ جميع صفات الكمال لأجل العبادة تعظيماً لقدرها لأنها المقصود بالذات : ﴿ فاعبد الله ﴾ أي الحائز لجميع صفات الكمال حال كونك ﴿ مخلصاً ﴾ والإخلاص هو القصد إلى الله بالنية بلا علة ﴿ له ﴾ أي وحده ﴿ الدين ﴾ بمعانقة الأمر على غاية الخضوع لأنه خصك بهذا الأمر العظيم فهو أهل منك لذلك وخسأ عنك الأعداء ، فلا أحد منهم يقدر على الوصول إليك بما يوهن شيئاً من أمرك فأخلص لتكون رأس المخلصين الذين تقدم آخر سورة ص أنه لا سبيل للشيطان عليهم وتقدم ذكر كثير من رؤوسهم ، ووقع الحث على الاقتداء بهم بما ذكر من أمداحهم لأجل صبرهم في إخلاصهم ، قال الرازي : قال الجنيد : الإخلاص أصل كل عمل وهو مربوط بأول الأعمال ، وهو تصفية النية ومنوط بأواخر الأعمال بأن لا يلتفت إليها ولا يتحدث بها ويضمر في جميع الأحوال ، وهو إفراد الله بالعمل ، وفي الخبر " أنا أغنى الشركاء عن الشرك " .

(11/665)

ولما أمره سبحانه بهذا الأمر ، نادى باستحقاقه لذلك وأنه لم يطلب غير حقه ، وأن ذلك لا يتصور أن يكون لغيره ، فقال في جواب من كأنه قال : لم منعه من الالتفات إلى غيره ؟ منادياً إشارة إلى أنه لا مكافئ له فلا يسع أحداً يبلغه هذا النداء إلا الخضوع طائعاً أو كارهاً : ﴿ ألا لله ﴾ أي الملك الأعلى وحده ﴿ الدين الخالص ﴾ لأنه له الأمر والخلق لا يشركه فيه أحد ، فكما تفرد بأن خلقك وخلق كل ما لك من شيء فكذلك ينبغي أن تفرده بالطاعة ، ولأنه إذا عبده أحد مخلصاً كفاه كل شيء ، وأما غيره فلو أخلص له أحد لم يمكن أن يكفيه شيئاً من الأشياء فضلاً عن كل شيء والدين الذي هو أهل للإخلاص هو الإسلام الذي كان في كل ملة المنبني على القواعد الخمس المثبتة بالإخلاص المحض الناشئ من المراقبة في الأوامر والنواهي وجميع ما يرضي الشارع للدين أو يسخطه ، فتكون جملته لله من غير شهوة ظاهرة أو باطنة في شهرة ولا غيرها ، وإنما استحقه سبحانه دون غيره لأنه هو الذي شرعه ولا أمر لأحد معه فكيف يشركه من لا أمر له بوجه من الوجوه ، وأما ما كان فيه أدنى شرك فهو رد على عامله والله غني حميد ، وهذه كما ترى مناداة لعمري تخضع لها الأعناق فتنكس الرؤوس ولا يوجد لها جواب إلا بنعم وعزته وأي وكبريائه وعظمته ، قال القشيري : وما للعبد فيه نصيب فهو عن الإخلاص بعيد اللهم إلا أن يكون بأمره فإنه إذا أمر العبد أن يحتسب الأجر على طاعته فأطاعه لا يخرج عن الاحتساب باحتسابه أمره فيه ، ولولا هذا لما صح أن يكون في العالم مخلص ، قال ابن برجان : وذلك – أي ترك الإخلاص –

كله مولد عن حب البقاء في الدنيا ونسيان لقاء الله تعالى ، ثم قال ما معناه : إن ذلك من الشرك ، وهو ثلاثة أنواع : شرك في الإلهية وهو أن يرى مع الله إلهاً آخر ، وهو شرك المجوس والمجسمة : والوثنية ، ويضاهيه غلط القدرية ، الثاني شرك في العبادة بالرياء وإضافة العمل إلى النفس ، والثالث الشرك الخفي وهو

(12/665)

الشهوة الخفية ، وهو أن يخفي العمل ويخاف من إظهار ويحب لو اطلع عليه ومدح بأسراره ، ومن أحسن العون على الإخلاص الحياء من الله أن تتزين لغيره بعمل ألهمك إياه وقواك عليه وخلت فيه وزعمت تطلب التقرب إليه فأتاك عدوه إبليس الذي عاداه فيك فتطيعه فيما يضرك ولا ينفعك ، فاستعن على عبادتك بالستر فاستر حسناتك كما تستر سيئاتك ، فإن عمل السر يزيد على عمل العلانية سبعين ضعفاً ، وذلك كالشجرة إذا ظهرت عروقها ضعف شربها ، وأضر بها حرارة الهواء وبرده ، وتعرضت للآفات من قطع ويبس وغير ذلك ولم تحسن فروعها وخف ورقها فقل نفعها ، وإذا غاصت عروقها غابت عن الآفات وأمنت القطع من أيدي الناس ، فكثر شربها فجرى ماؤها فيها ، فتزايدت لذلك فروعها واخضر ورقها وكثر خيرها وطاب ثمرها لجانيها ، فكذلك العمل إذا كانت له أصول في

القلب مستورة زكا في نفسه وطهر من الأدناس وكثر خيره وطاب ثوابه لعامله ، وإذا بدا لم يؤمن عليه من أبصار الناظرين ، وإذا خفي لم يبق ما يخاف منه إلا العجب ومحبة أن يطلع عليه ، وهي الشهوة الخفية ، ومن قولهم " من عرف الله بعد الضلالة وعرف الإخلاص بعد الرياء وأنزل الموت حق منزلته لم يغفل عن الموت والاستعداد له بما أمكنه " انتهى .

(13/665)

ولما أخبر سبحانه عما له وحده ، وكان محط أمر الإنسان بل جميع الحيوان على الهداية إلى مصالحه ليفعلها ومفاسدة ليتركها ، وأرشد السياق إلى أن التقدير : فمن أخلص له الدين هداه في جميع أموره ، وإن اشتد الإشكال ، وتراكمت وجوه الضلال ، عطف عليه الإخبار عمن لزم الضلال ، والغي والمحال ، فقال محذراً من مثل حاله ، بما حكم عليه في مآله : ﴿ والذين ﴾ ولما كان الإنسان مفطوراً على الخضوع للملك الديان ، ولا يلتفت إلى غيره إلا بمعالجة النفس بما لها من الهوى والطغيان ، عبر بصيغة الافتعال فقال :

﴿ اتخذوا ﴾ أي عالجوا عقولهم حتى صرفوها عن الله فأخذوا ، ونبههم على خطئهم في رضاهم بالأدنى على الأعلى بقوله : ﴿ من دونه ﴾ ومعلوم أن كل شيء دونه ﴿ أولياء ﴾

أي يكلون إليهم أمورهم ، ويدخل فيهم الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله مع اعترافهم بأن الله تفرد بخلقهم ورزقهم .

(14/665)

ولما كان من العجب العجيب فعلهم ، هذا بين ما وجهوا به فعلهم ليكون آية بينة في أنه لا هدى لهم فقال : ﴿ ما ﴾ أي قائلين لمن أخلصوا له الدين إذا أنكروا عليهم أن يتخذوا من دونه ولياً : ما ﴿ نعبدهم ﴾ لشيء من الأشياء ﴿ إلا ليقربونا ﴾ ونبه سبحانه على بعدهم عن الصواب بالتعبير بالاسم الأعظم مع حرف الغاية فقال : ﴿ إلى الله ﴾ الذي له معاقد العز ومجامع العظمة ، تقريباً عظيماً على وجه التدريج ويزلفونا إليه ﴿ زلفى ﴾ أي تقريباً حسناً سهلاً بهجاً زائداً نامياً متعالياً ، قال القشيري : ولم يقولوا هذا من قبل الله ولا بإذنه ، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم ، فرد الله عليهم ، وفي هذا إشارة إلى ما يفعله العبد من القرب بنشاط نفسه من غير أن يقتضيه حكم الوقت ، فكل ذلك اتباع هوى - انتهى - والآية من الاحتباك : ذكر فعل التقريب أولاً دليلاً على فعل الزلف ثانياً ، واسم الزلف ثانياً دليلاً على الاسم من التقريب أولاً ، وسره أنهم أرادوا بهذا الاعتذار المسكت عن قبيح صنيعهم ، فأتى سبحانه في حكايته عنهم بالتأكيد على أبلغ وجه لأن الدلالة على

المعنى بلفظين أجدر في ثباته وتكثيره من لفظ واحد وبدأ بأرشق الفعلين وأشهرهما وأخفهما وأوضحهما ، وقد خسر لعمري غاية الخسارة قوم تمذهبوا بأقبح المذاهب وجعلوا عذرهم هذه الآية التي ذم الله المعتذر بها ، وعلى ذلك فقد راج اعتذارهم بها على كثير من العقول ، وهم أهل الاتحاد الذين لا أسخف من عقولهم ولا أجمد من أذهانهم .

(15/665)

ولما كان إنما محط دينهم الهوى ، وكان كل من تبع الهوى لا ينفك عن الاضطراب في نفسه ، فكيف إذا كان معه غيره فكيف إذا كانوا كثيراً فيكثر الخلاف والنزاع وإن لم يحصل ذلك بالفعل كان بالقوة ، ولذلك كان لكل قبيلة ممن يعبد الأصنام صنم غير صنم الأخرى وكان بعض القبائل يعبد الشعرى ، وبعضهم يعبد الملائكة وبعضهم غير ذلك ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [المؤمنون : 53] نبه على ذلك مهدداً لهم بقوله مخبراً مؤكداً لأجل إنكارهم : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال .

ولما لم يقيد الحكم بالقيامة وكانوا معترفين بأن المصائب في الدنيا منه قال : ﴿ يحكم

بينهم ﴾ من غير تأكيد آخر أي بين جميع المخالفين في الأديان وغيرها من المتخذين للأولياء من دونه ومن المخلصين وغيرهم فلا بد أن ينصر أهل الحق على جميع أهل الباطل .

ولما كانوا أوزاعاً أكثر قبائلهم على خلاف ما يعتقده غيرها ، قال : ﴿ في ما ﴾ أي في الدين الذي والأمر الذي .

(16/665)

ولما كان تحكيمهم للهوى موفراً لدواعيهم على الاختلاف ، وكان الاتخاذ الذي يبنى الكلام عليه له نظر عظيم إلى علاج الباطن بخلاف سورة يونس اثبت الضمير هنا فقال :

﴿ هم ﴾ أي بضمائرهم ﴿ فيه يختلفون ﴾ أي ليس لهم أصل يضبطهم ، فهو لا يرجعون إلا إلى الخلف كيف ما تقلبوا لأنهم مظروفون لذلك العمل الذي مبناه الهوى هو منشأ الاختلاف ، فكيف إذا انضم إلى ذلك خلاف المخلصين وإنكارهم عليهم الذي أرشد إليه اعتذارهم ، فظهر من هذا أن اختلاف الأئمة في فهم كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقواعد استنبطوها من ذلك لا يخرجون عنها ليس خلافاً بل وفاق لوحدة ما يرجعون إليه من الأصل الصحيح الثابت عن الله ، ومن هذا إنكار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عمر وأبي وغيرهما ـ رضى الله عنه ـ م لما أنكر كل منهم على من خالفه في

القراءة وقال : " إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فلا تختلفوا " ، فلا فرق بين أن يستند كل من الأمرين إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - نقلاً أو اجتهاداً لأنه في قوة الاتفاق لوحدة مرجعه – والله الموفق ، ويجوز أن يكون الضمير في " بينهم " لهم ولمعبوداتهم فإنهم ليس منهم معبود صامت ولا ناطق إلا وهو صارخ بلسان حاله إن لم ينطق لسان قاله بأنه مقهور مربوب عابد لا معبود ، فهم مع من يعبدهم في غاية الخلاف .

(17/665)

ولما كان من الأمر الواضح أن الدين لا يكون صالحاً إلا أن انتظم بنظام غير مختل ، وكان الدين إذا كان معوجاً داعياً إلى التفرق منادياً على نفسه بالانخلاع عنه والبعد منه فكان الحال مقتضياً للتعجب ممن تدين به ، فضلاً عمن يدوم عليه ، فضلاً عمن لا ينتبه عند التنبيه ، فضلاً عمن يقاتل دون ذلك ، أجاب من كأنه قال : سبب عكوفهم على هذا الضلال الذي أوجب لهم قطعاً الاختلاف بالفعل أو بالقوة ، فقال مؤكداً تكذيباً لمن ينكر ما تضمنه هذا الإخبار وإن ظهر لبعض العمى غير ذلك مما يبدو من الكذبة والكفرة من أعمال مزينة وأفكار دقيقة فتظن هدى وإنما هي استدراج .

ولما أرشد السياق إلى أن المعنى : لأنهم غير مهتدين لأن الله لم يخلق الهداية في قلوبهم ،

نسق به قوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الملك القادر القاهر الحكيم .

ولما كان الأصل : لا يهديهم وأراد سبحانه التعميم وتعليق الحكم بالوصف تنفيراً عنه قال : ﴿ لا يهدي ﴾ أي لا يخلق الهداية في قلب ﴿ من هو ﴾ أي لضميره ﴿ كاذب ﴾ أي مرتكب الكذب عريق فيه حتى أداه كذبه إلى أن يقول على ملك الملوك أن شيئاً يقرب إليه بغير إذنه ، ويخضع بالعبادة التي هي نهاية التعظيم ، فهي لا تليق بغير من ينعم غاية الإنعام لمن لا يملك ضراً ولا نفعاً ، ولم يعبر في الكذب بصيغة مبالغة لأن الذين السياق لهم لم يقع منهم كذب إلا في ادعائهم أنهم يقربونهم .

(18/665)

ولما كان من كفر في حين من الدهر قد ضاعف كفره لكثرة ما على الوحدانية من الدلائل وما لله عليه من الإحسان ، وكان هؤلاء الذين لهم السياق قد كفروا بتأهيلهم لشركائهم للعبادة ولعبادتهم بالفعل ولادعائهم فيهم التقريب قال ﴿ كفار ﴾ بصيغة المبالغة ، والأحسن أن يقال : إن المبالغة لإفهام أن الذي لا يهديه إنما هو من ختم عليه سبحانه الموت على ذلك ، قال القشيري : والإشارة إلى تهديد من يتعرض لغير مقامه ويدعي شيئاً ليس بصادق فيه فالله لا يهديه قط إلى ما فيه سداده ورشده ، وعقوبته أن يحرمه ذلك الشيء

الذي تصدى له بدعواه قبل تحققه بوجوده وذوقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 412.418 ﴾

(19/665)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ يرضه ﴾ بالإِشباع : ابن كثير وعلي والمفضل وعباس وإسماعيل وابن ذكوان وخلف ﴿ يرضه ﴾ باختلاس ضمة الهاء : يزيد وسهل ويعقوب ونافع وعاصم غير يحيى وحماد والمفضل وحمزة وهشام وابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان . الباقون ﴿ يرضه ﴾ بسكون الهاء ﴿ ليضل ﴾ بفتح الياء : ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب . الباقون : بالضم ﴿ أمن هو ﴾ بتخفيف الميم : نافع وابن كثير وحمزة وأبو زيد ﴿ يا عبادي الذين ﴾ بفتح الياء : الشموني والبرجمي والوقف بالياء ﴿ إني أمرت ﴾ ﴿ فبشر عبادي ﴾ بفتح المتكلم فيهما : شجاع وأبو شعيب وعباس والشموني والبرجمي والوقف بالياء ﴿ إني أخاف ﴾ بالفتح : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو . ﴿ سالماً ﴾ بالألف : ابن كثير وأبو عمرو . والآخرون : بفتح السين واللام من غير ألف .

الوقوف : ﴿ الحكيم ﴾ 5 ﴿ له الدين ﴾ 5 ط ﴿ الخالص ﴾ ط ﴿ أولياء ﴾ 5 التقدير يقولون ولو وصل لأوهم أن ما نعبدهم أخبار من الله قاله السجاوندي . وعندي أن هذا وهم بعيد والأولى أن لا يوقف لئلا يفصل بين المبتدأ وخبره ﴿ زلفى ﴾ ج لاحتمال أن خبر المبتدأ هو ما بعده ﴿ يختلفون ﴾ 5 ط ﴿ كفار ﴾ 5 ﴿ ما يشاء ﴾ ز لتعجيل التنزيه ﴿ سبحانه ﴾ ط ﴿ القهار ﴾ 5 ز ﴿ بالحق ﴾ ج لاحتمال كون ما بعده حالاً والاستئناف أفضل ﴿ والقمر ﴾ ط ﴿ مسمى ﴾ ط ﴿ الغفار ﴾ 5 ﴿ أزواج ﴾ ط ﴿ ثلاث ﴾ ط ﴿ الملك ﴾ ط ﴿ تصرفون ﴾ 5 ﴿ الكفر ﴾ ج لعطف جملتي الشرط مع وقوع العارض ﴿ لكم ﴾ ط ﴿ أخرى ﴾ ط لأن "ثم" لترتيب الأخبار ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ الصدور ﴾ 5 ﴿ سبيله ﴾ ط ﴿ قليلاً ﴾ ز ص والأولى والوصل أو التقدير فإنك ﴿ النار ﴾ 5 ﴿ رحمة ربه ﴾ 5 ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 ﴿ الألباب ﴾ 5 ﴿ ربكم ﴾ ط ﴿ حسنة ﴾ ط ﴿ واسعة ﴾ ط ﴿ حساب ﴾ 5 ﴿ له الدين ﴾ 5 ط ﴿ المسلمين ﴾ 5 ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ ديني ﴾ 5 لا ﴿ دونه ﴾ ط ﴿ يوم القيامة ﴾ ط ﴿ المبين ﴾ 5 ﴿ ومن تحتهم ظلل ﴾ ط ﴿ عباده ﴾ ط ﴿ فاتقون

﴿ 5 ﴿ البشرى ﴾ ج لانقطاع النظم مع فاء التعقيب ﴿ عباد ﴾ 5 لا ﴿ أحسنه ﴾ ط ﴿ الألباب ﴾ 5 ﴿ العذاب ﴾ 5 ﴿ في النار ﴾ 5 ج للآية مع الاستدراك مبنية لا لأن ما بعده وصف ﴿ الأنهار ﴾ ط ﴿ وعد الله ﴾ ط ﴿ الميعاد ﴾ 5 ﴿ حطاماً ﴾ ط ﴿ الألباب ﴾ 5 ﴿ من ربه ﴾ ط لحذف جواب الاستفهام من ﴿ ذكر الله ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ ربهم ﴾ ج لأن الجملة ليست من صفة الكتاب مع العطف ﴿ ذكر الله ﴾ ط ﴿ من يشاء ﴾ ط ﴿ هاد ﴾ 5 ﴿ يوم القيامة ﴾ ط لحق الحذف كما مر ﴿ تكسبون ﴾ 5 ﴿ لا يشعرون ﴾ 5 ﴿ الدنيا ﴾ ج للام الابتداء مع العطف ﴿ أكبر ﴾ 5 ﴿ يعلمون ﴾ 5 ﴿ يتذكرون ﴾ 5 ج لاحتمال كون ﴿ قرآنا ﴾ نصباً على المدح أو على الحال المؤكدة كما يجيء ﴿ يتقون ﴾ 5 ﴿ متشاكسون ﴾ 5 ﴿ لرجل ﴾ ط ﴿ مثلاً ﴾ ط ﴿ الله ﴾ ج للإضراب مع اتفاق الجملتين ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 ﴿ ميتون ﴾ 5 ﴿ تختصمون ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 611. 612 ﴾

(21/665)

فصل

قال الفخر :

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

اعلم أن في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ذكر الفراء والزجاج : في رفع ﴿ تَنزِيلَ ﴾ وجهين أحدهما : أن يكون قوله : ﴿ تَنزِيلَ ﴾ مبتدأ وقوله : ﴿ مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾ خبر والثاني : أن يكون التقدير هذا تنزيل الكتاب ، فيضمر المبتدأ كقوله : ﴿ سورة أنزلناها ﴾ [النور : 1] أي هذه سورة ، قال بعضهم : الوجه الأول لوجوه الأول : أن الإضمار خلاف الأصل ، فلا يصار إليه إلا لضرورة ، ولا ضرورة ههنا الثاني : أنا إذا قلنا : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله ﴾ جملة تامة من المبتدأ والخبر أفاد فائدة شريفة ، وهي أن تنزيل الكتاب يكون من الله ، لا من غيره وهذا الحصر معنى معتبر ، أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذه الفائدة الثالث : أنا إذا أضمرنا المبتدأ صار التقدير هذا تنزيل الكتاب من الله ، وحينئذ يلزمنا مجاز آخر ، لأن هذا إشارة إلى السورة ، والسورة ليست نفس التنزيل ، بل السورة منزلة ، فحينئذ يحتاج إلى أن نقول المراد من المصدر المفعول وهو مجاز تحملناه لا لضرورة .

المسألة الثانية :

القائلون بخلق القرآن احتجوا بأن قالوا إنه تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلاً ومنزلاً ، وهذا الوصف لا يليق إلا بالمحدث المخلوق والجواب : أنا نحمل هذه اللفظة على الصيغ والحروف .

المسألة الثالثة :

الآيات الكثيرة تدل على وصف القرآن بكونه تنزيلاً وآيات أخر تدل على كونه منزلاً .

أما الأول : فقوله تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ [الشعراء : 192] ، وقال : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : 42] وقال : ﴿ حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم ﴾ [فصلت : 1 ، 2] .

(22/665)

وأما الثاني : فقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [الحجر : 9] وقال : ﴿ وبالحق أَنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ ﴾ [الإسراء : 105] وأنت تعلم أن كونه منزلاً أقرب إلى الحقيقة من كونه تنزيلاً ، فكونه منزلاً مجاز أيضاً لأنه إن كان المراد من القرآن الصفة القائمة بذات الله فهو لا يقبل الإنفصال والنزول ، وإن كان المراد منه الحروف والأصوات فهي أعراض لا تقبل الانتقال والنزول ، بل المراد من النزول نزول الملك الذي بلغها إلى الرسول صلى الله عليه

وسلم .

المسألة الرابعة :

قالت المعتزلة العزيز هو القادر الذي لا يغلب فهذا اللفظ يدل على كونه تعالى قادراً على ما لا نهاية له والحكيم هو الذي يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة ، وهذا إنما يتم إذا ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، وأنه غني عن جميع الحاجات إذا ثبت هذا فنقول كونه تعالى : عزيزاً حكيماً يدل على هذه الصفات الثلاثة ، العلم بجميع المعلومات ، والقدرة على كل الممكنات ، والاستغناء عن كل الحاجات ، فمن كان كذلك امتنع أن يفعل القبيح وأن يحكم بالقبيح ، وإذا كان كذلك فكل ما يفعله يكون حكمة وصواباً .

(23/665)

إذا ثبت هذا فنقول الانتفاع بالقرآن يتوقف على أصلين أحدهما : أن يعلم أن القرآن كلام الله ، والدليل عليه أنه ثبت بالمعجز كون الرسول صادقاً ، وثبت بالتواتر أنه كان يقول القرآن كلام الله فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين أن القرآن كلام الله والأصل الثاني : أن الله أراد بهذه الألفاظ المعاني التي هي موضوعة لها ، أم بحسب اللغة أو بحسب القرينة العرفية أو الشرعية لأنه لو لم يرد بها ذلك لكان تلبيساً ، وذلك لا يليق بالحكيم فثبت بما ذكرنا أن

الانتفاع بالقرآن لا يحصل إلا بعد تسليم هذين الأصلين ، وثبت أنه لا سبيل إلى إثبات هذين الأصلين إلا بإثبات كونه تعالى حكيماً ، وثبت أن لا سبيل إلى إثبات كونه حكيماً إلا بالبناء على كونه تعالى عزيزاً ، فلهذا السبب قال : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق ﴾ ففيه سؤالان :

السؤال الأول : لفظ التنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله عليه نجماً على سبيل التدريج ولفظ الإنزال يشعر بأنه تعالى أنزله عليه دفعة واحدة فكيف الجمع بينهما والجواب : إن صح الفرق بين التنزيل وبين الإنزال من الوجه الذي ذكرتم فطريق الجمع أن يقال المعنى إنا حكمنا حكماً كلياً جزماً بأن يوصل إليك هذا الكتاب ، وهذا هو الإنزال ، ثم أوصلناه نجماً إليك على وفق المصالح وهذا هو التنزيل .

السؤال الثاني : ما المراد من قوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق ﴾ ؟ والجواب : فيه وجهان الأول : المراد أنزلنا الكتاب إليك ملتبساً بالحق والصدق والصواب على معنى كل ما أودعناه فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، وأنواع التكاليف فهو حق وصدق يجب العمل به والمصير إليه الثاني : أن يكون المراد إنا أنزلنا إليك الكتاب بناء على دليل حق دل على أن الكتاب نازل من عند الله ، وذلك الدليل هو أن الفصحاء عجزوا عن معارضته ، ولو لم يكن معجزاً لما عجزوا عن معارضته .

ثم قال : ﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً لَهُ الدين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى لما بين في قوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق ﴾ أن هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب أردف هنا بعض ما فيه من الحق والصدق وهو أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله تعالى بالكلية ، فأما اشتغاله بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص فهو المراد من قوله تعالى : ﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً ﴾ ، وأما براءته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله : ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ لأن قوله : ﴿ أَلاَ لِلَّهِ ﴾ يفيد الحصر ، ومعنى الحصر أن يثبت الحكم في المذكور وينتفي عن غير المذكور ، واعلم أن العبادة مع الإخلاص لا تعرف حقيقة إلا إذا عرفنا أن العبادة ما هي وأن الإخلاص ما هو وأن الوجوه المنافية للإخلاص ما هي فهذه أمور ثلاثة لا بد من البحث عنها :

أما العبادة : فهي فعل أو قول أو ترك فعل أو ترك قول ويؤتى به لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله .

وأما الإخلاص : فهو أن يكون الداعي له إلى الإتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد

والامتثال ، فإن حصل منه داع آخر فإما أن يكون جانب الداعي إلى الطاعة راجحاً على الجانب الآخر أو معادلاً له أو مرجوحاً .

(25/665)

وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط ، وأما إذا كان الداعي إلى طاعة الله راجحاً على الجانب الآخر فقد اختلفوا في أنه هل يفيد أم لا ، وقد ذكرنا هذه المسألة مراراً ولفظ القرآن يدل على وجوب الإتيان به على سبيل الخلوص ، لأن قوله : ﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً ﴾ صريح في أنه يجب الإتيان بالعبادة على سبيل الخلوص وتأكد هذا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة : 5] وأما بيان الوجوه المنافية للإخلاص فهي الوجوه الداعية للشريك وهي أقسام أحدها : أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل وثانيها : أن يكون مقصودة من الإتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار وثالثها : أن يأتي بها ويعتقد أن لها تأثيراً في إيجاب الثواب أو دفع العقاب ورابعها : وهو أن يخلص تلك الطاعات عن الكبائر حتى تصير مقبولة ، وهذا القول إنما يعتبر على قول المعتزلة .

المسألة الثانية :

من الناس من قال : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ المراد منه شهادة أن لا إله إلا الله ، واحتجوا بما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا إله إلا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي " وهذا قول من يقول : لا تضر المعصية مع الإيمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر ، وأما الأكثرون فقالوا الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الأوامر والنواهي ، وهذا هو الأولى لأن قوله : ﴿ فاعبد الله ﴾ عام ، وروي أن امرأة الفرزدق لما قرب وفاتها أوصت أن يصلي الحسن البصري عليها ، فلما صلى عليها ودفنت ، قال للفرزدق : يا أبا فراس ما الذي أعددت لهذا الأمر ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، فقال الحسن رضي الله عنه : هذا العمود فأين الطنب ؟ فبين بهذا أن عمود الخيمة لا ينتفع به إلا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة ، قال القاضي : فأما ما يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وأبي الدرداء : " وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء " فإن صح فإنه يجب أن يحمل عليه بشرط التوبة وإلا لم يجز قبول هذا الخبر لأنه مخالف للقرآن ، ولأنه يوجب أن لا يكون الإنسان مزجوراً عن الزنا والسرقة ، وأن لا يكون متعدياً بفعلهما لأنه مع شدة شهوته للقبيح يعلم أنه لا يضره مع تمسكه بالشهادتين فكأن ذلك إغراء بالقبيح ، والكل ينافي حكمة الله

تعالى ولا يلزم أن يقال ذلك فالقول بأنه يزول ضرره بالتوبة يوجب أيضاً الإغراء بالقبيح ، لأنا نقول إن من اعتقد أن ضرره يزول بالتوبة فقد اعتقد أن فعل القبيح مضرة إلا أنه يزيل ذلك الضرر بفعل التوبة بخلاف قول من يقول إن فعل القبيح لا يضر مع التمسك بالشهادتين .

(27/665)

هذا تمام كلام القاضي ، فيقال له : أما قولك إن القول بالمغفرة مخالف للقرآن فليس كذلك بل القرآن يدل عليه قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] وقال : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد : 6] أي حال ظلمهم كما يقال رأيت الأمير على أكله وشربه أي حال كونه آكلاً وشارباً ، وقال : ﴿ ياعبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ [الزمر : 53] ، وأما قوله : إن ذلك يوجب الإغراء بالقبيح ، فيقال له إن كان الأمر كذلك وجب أن يقبح غفرانه عقلاً ، وهذا مذهب البغداديين من المعتزلة ، وأنت لا تقول به ، لأن مذهب البصريين أن عذاب المذنب جائز عقلاً ، وأيضاً فيلزم عليه أن لا يحصل الغفران بالتوبة ، لأنه إذا علم أنه إذا أذنب ثم تاب غفر الله له لم ينزجر وأما الفرق الذي ذكره القاضي فبعيد ، لأنه إذا عزم على أن يتوب عنه في الحال علم أنه لا يضره ذلك

الذنب ألبتة .

ثم نقول مذهبنا أنا نقطع بحصول العفو عن الكبائر في الجملة ، فأما في حق كل واحد من الناس فذلك مشكوك فيه لأنه تعالى قال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ فقطع بحصول المغفرة في الجملة ، إلا أنه سبحانه وتعالى لم يقطع بحصول هذا الغفران في حق كل أحد بل في حق من شاء وإذا كان كذلك كان الخوف حاصلاً فلا يكون الإغراء حاصلاً ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

(28/665)

قال صاحب "الكشاف" قرىء الدين بالرفع ، ثم قال : وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً بفتح اللام لقوله تعالى : ﴿ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ للَّهِ ﴾ [النساء : 146] حتى يطابق قوله : ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ والخالص والمخلص واحد إلا أنه وصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر ، واعلم أنه تعالى لما بين أن رأس العبادات ورئيسها الإخلاص في التوحيد أردفه بذم طريقة المشركين فقال : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى ﴾ وتقدير الكلام والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون

ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وعلى هذا التقدير فخبر الذين محذوف وهو قوله يقولون ، واعلم أن الضمير في قوله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ عائد على الأشياء التي عبدت من دون الله ، وهي قسمان العقلاء وغير العقلاء ، أما العقلاء فهو أن قوماً عبدوا المسيح وعزيزاً والملائكة ، وكثير من الناس يعبدون الشمس والقمر والنجوم ويعتقدون فيها أنها أحياء عاقلة ناطقة ، وأما الأشياء التي عبدت مع أنها ليست موصوفة بالحياة والعقل فهي الأصنام ، إذا عرفت هذا فنقول الكلام الذي ذكره الكفار لائق بالعقلاء ، أما بغير العقلاء فلا يليق ، وبيانه من وجهين الأول : أن الضمير في قوله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ ضمير للعقلاء فلا يليق بالأصنام الثاني : أنه لا يبعد أن يعتقد أولئك الكفار في المسيح والعزيز والملائكة أن يشفعوا لهم عند الله ، أما يبعد من العاقل أن يعتقد في الأصنام والجمادات أنها تقربه إلى الله ، وعلى هذا التقدير فمرادهم أن عبادتهم لها تقربهم إلى الله ، ويمكن أن يقال إن العاقل لا يعبد الصنم من حيث إنه خشب أو حجر ، وإنما يعبدونه لاعتقادهم أنها تماثيل الكواكب أو تماثيل الأرواح السماوية ، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين مضوا ، ويكون مقصودهم من عبادتها

(29/665)

توجيه تلك العبادات إلى تلك الأشياء التي جعلوا هذه التماثيل صوراً لها .

وحاصل الكلام لعباد الأصنام أن قالوا : إن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر لكن اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من عباد الله مثل الكواكب ومثل الأرواح السماوية ، ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر ، فهذا هو المراد من قولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ .

واعلم أن الله تعالى لما حكى مذاهبهم أجاب عنها من وجوه : الأول : أنه اقتصر في الجواب على مجرد التهديد فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ واعلم أن الرجل المبطل إذا ذكر مذهباً باطلاً وكان مصراً عليه ، فالطريق في علاجه أن يحتال بحيلة توجب زوال ذلك الإصرار عن قلبه ، فإذا زال الإصرار عن قلبه فبعد ذلك يسمعه الدليل الدال على بطلانه ، فيكون هذا الطريق أفضى إلى المقصود .

والأطباء يقولون : لا بد من تقديم المنضج على سقي المسهل فإن بتناول المنضج تصير المواد الفاسدة رخوة قابلة للزوال ، فإذا سقيته المسهل بعد ذلك حصل النقاء التام ، فكذلك ههنا سماع التهديد والتخويف أولاً يجري مجرى سقي المنضج أولاً ، وإسماع الدليل ثانياً يجري مجرى سقي المسهل ثانياً .

فهذا هو الفائدة في تقديم هذا التهديد .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ والمراد أن من أصر على الكذب

والكفر بقي محروماً عن الهداية ، والمراد بهذا الكذب وصفهم لهذه الأصنام بأنها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها ، والعلم الضروري حاصل بأن وصف هذه الأشياء بالإلهية كذب محض ، وأما الكفر فيحتمل أن يكون المراد منه الكفر الراجع إلى الاعتقاد ، والأمر ههنا كذلك فإن وصفهم لها بالإلهية كذب ، واعتقادهم فيها بالإلهية جهل وكفر .

(30/665)

ويحتمل أن يكون المراد كفران النعمة ، والسبب فيه أن العبادة نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام ، وذلك المنعم هو الله سبحانه وتعالى وهذه الأوثان لا مدخل لها في ذلك الإنعام فالإشتغال بعبادة هذه الأوثان يوجب كفران نعمة المنعم الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 207 . 211 ﴾

(31/665)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْك الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ ، وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ النِّيَّةِ فِي كُلِّ عَمَلٍ ؛ وَأَعْظَمُهُ الْوُضُوءُ الَّذِي هُوَ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ ، وَالْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ مَالِكٍ اللَّذَيْنِ يَقُولَانِ : إنَّ الْوُضُوءَ يَكْفِي مِنْ غَيْرِ نِيَّةٍ ، وَمَا كَانَ لِيَكُونَ مِنْ الْإِيمَانِ شَطْرُهُ ، وَلَا لِيُخْرِجَ الْخَطَايَا مِنْ بَيْنِ الْأَظَافِرِ وَالشَّعْرِ بِغَيْرِ نِيَّةٍ ، وَقَدْ حَقَّقْنَاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(32/665)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾

رفع بالابتداء وخبره ﴿ مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾ .

ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى هذا تنزيل ؛ قاله الفراء .

وأجاز الكسائي والفراء أيضاً "تَنْزِيلَ" بالنصب على أنه مفعول به .

قال الكسائي : أي اتبعوا واقرؤوا "تَنْزِيلَ الْكِتَابِ" .

وقال الفراء : هو على الإغراء مثل قوله : ﴿ كِتَابَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : 24] أي

الزموا .

والكتاب القرآن سمي بذلك لأنه مكتوب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب بالحق ﴾ أي هذا تنزيل الكتاب من الله وقد أنزلناه بالحق ؛ أي بالصدق وليس بباطل وهزل .

﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : "مُخْلِصاً" نصب على الحال أي مُوحِّداً لا تشرك به شيئاً ﴿ لَّهُ الدين ﴾ أي الطاعة .

وقيل : العبادة وهو مفعول به .

﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ أي الذي لا يشوبه شيء .

وفي حديث الحسن عن أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أتصدق بالشيء وأصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء الناس .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفس محمد بيده لا يقبل الله شيئاً شورك فيه " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" و"النساء" و"الكهف" مستوفًى .

الثانية : قال ابن العربي : هذه الآية دليل على وجوب النية في كل عمل ، وأعظمه الوضوء الذي هو شطر الإيمان ، خلافاً لأبي حنيفة والوليد بن مسلم عن مالك اللذين يقولان إن

الوضوء يكفي من غير نية ، وما كان ليكون من الإيمان شطراً ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية .

قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني الأصنام والخبر محذوف .

(33/665)

أي قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى ﴾ قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم مَن ربكم وخالقكم ؟ ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا : الله ، فيقال لهم ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ قالوا ليقربونا إلى الله زلفى ، ويشفعوا لنا عنده .

قال الكلبي : جواب هذا الكلام في الأحقاف ﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله قُرْبَانًا آلِهَةَ ﴾ [الأحقاف : 28] والزلفى القربة ؛ أي ليقربونا إليه تقريباً ، فوضع "زُلْفَى" في موضع المصدر .

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" وفي حرف أُبَيّ "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُكُمْ إِلاَّ لِتُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" ذكره النحاس .

قال : والحكاية في هذا بينة .

﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين أهل الأديان يوم القيامة فيجازي كلاً بما يستحق .

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي من سبق له القضاء بالكفر لم يهتد ؛ أي للدين الذي ارتضاه وهو دين الإسلام ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] وفي هذا ردّ على القدرية وغيرهم على ما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(34/665)

وقال الآلوسى :

﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾

قال الفراء والزجاج : هو مبتدأ وقوله تعالى :

﴿ مِنَ اللهِ العزيزِ الحكيم ﴾ خبره أو خبر مبتدأ محذوف أي هذا المذكور تنزيل ، و ﴿ مِنَ الله ﴾ متعلق بتنزيل والوجه الأول لوجه كما في "الكشف" ، والكتاب القرآن كله وكأن الجملة عليه تعليل لكونه ذكراً للعالمين أو لقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : 88] والظاهر أن المراد بالكتاب على الوجه الثاني السورة لكونها على شرف الذكر فهي أقرب لاعتبار الحضور الذي يقتضيه اسم الإشارة فيها ، و ﴿ تَنزِيلَ ﴾ بمعنى منزل أو

قصد به المبالغة ، وقدر أبو حيان المبتدأ هو عائداً على الذكر في ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ [ص : 87] وجعل الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل هذا الذكر ما هو فقيل هو تنزيل الكتاب والكتاب عليه القرآن وفي ﴿ تَنزِيلَ ﴾ الاحتمالان ، وجوز على احتمال كونه خبر مبتدأ محذوف كون ﴿ مِنَ الله ﴾ خبراً ثانياً وكونه خبر مبتدأ محذوف أيضاً أي هذا أو هو تنزيل الكتاب هذا أو هو من الله وكونه حالاً من ﴿ الكتاب ﴾ وجاز الحال من المضاف إليه لأن المضاف مما يعمل عمل الفعل وكونه حالاً من الضمير المستتر في ﴿ تَنزِيلَ ﴾ على تقدير كونه بمعنى منزل وكونه حالاً من ﴿ تَنزِيلَ ﴾ نفسه والعامل فيه معنى الإشارة .

وتعقب بأن معاني الأفعال لا تعمل إذا كان ما هي فيه محذوفاً ولذلك ردوا على المبرد قوله في بيت الفرزدق : وإذ ما مثلهم بشر أن مثلهم منصوب على الحالية وعامله الظرف المقدر أي ما في الوجود بشر مماثلاً لهم بأن الظرف عامل معنوي لا يعمل محذوفاً ، وقرأ ابن أبي عبلة .

وزيد بن علي .

وعيسى ﴿ تَنزِيلَ ﴾ بالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ والزم .

والتعرض لوصفي العزة والحكمة للإيذان بظهور أثريهما في الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع وبابتناء جمع ما فيه على أساس الحكم الباهرة

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق ﴾ بيان لكونه نازلاً بالحق وتوطئة لما يذكر بعد .

وفي "إرشاد العقل السليم" أنه شروع في بيان المنزل إليه وما يجب عليه إثر بيان شأن المنزل وكونه من عند الله تعالى ، وإياً ما كان لا يتكرر مع ما تقدم ، نعم كان الظاهر على تقدير كون المراد بالكتاب هناك القرءان الإتيان بضميره ههنا إلا أنه أظهر قصداً إلى تعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه .

وقال ابن عطية : الذي يظهر لي أن الكتاب الأول عام لجميع ما تنزل من عند الله تعالى والكتاب الثاني خاص بالقرآن فكأنه أخبر إخباراً مجرداً أن الكتب الهادية الشارعة تنزيلها من الله عز وجل وجعله توطئة لقوله سبحانه .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب ﴾ اه وهو كما ترى ، والباء متعلقة بالإنزال وهي للسببية أي أنزلناه بسبب الحق أي إثباته وإظهاره أو بمحذوف وقع حالاً من المفعول وهي للملابسة أي أنزلناه ملتبساً بالحق والصواب ، والمراد أن كل ما فيه موجب للعمل والقبول حتماً ، وجوز كون المحذوف حالاً من الفاعل أي أنزلناه ملتبسين بالحق أي في ذلك ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ لترتيب الأمر بالعبادة على إنزال الكتاب إليه عليه

الصلاة والسلام بالحق أي فاعبده تعالى ممحضاً له الدين من شوائب الشرك والرياء حسبما بين في تضاعيف ما أنزل إليك ، والعدول إلى الاسم الجليل مما يلائم هذا الأمر أتم ملاءمة .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ الدين ﴾ بالرفع كما رواه الثقاة فلا عبرة بإنكار الزجاج ، وخرج ذلك الفراء على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم للاختصاص أو لتأكيده .

واعترض بأنه يتكرر مع قوله تعالى :

(36/665)

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ وأجيب بأن الجملة الأول استئناف وقع تعليلاً للأمر بإخلاص العبادة وهذه الجملة تأكيد لاختصاص الدين به تعالى أي ألا هو سبحانه الذي يجب أن يخص بإخلاص الدين له تعالى لأنه المتفرد بصفات الألوهية التي من جملتها الإطلاع على السرائر والضمائر ، وهي على قراءة الجمهور استئناف مقرر لما قبله من الأمر بإخلاص الدين له عز وجل ووجوب الامتثال به ، وفي الإتيان بالا واسمية الجملة وإظهار الجلالة والدين ووصفه بالخالص والتقديم المفيد للاختصاص مع اللام الموضوعة له عند بعض ما لا يخفى من الدلالة على الاعتناء بالدين الذي هو أساس كل خير ، قيل ومن هنا يعلم أنه لا بأس بجعل الجملة تأكيداً للجملة قبلها على القراءة الأخيرة وإليه ذهب "صاحب التقريب"

وقال : بتغاير دلالتي الجملتين إجمالاً وتفصيلاً .

ورد بذلك زعم إباء هذه الجملة صحة تخريج الفراء .

والحق إنه تخريج لا يعول عليه ، ففي "الكشف" لما كان قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ بمنزلة التعليل لقوله سبحانه : ﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً ﴾ [الزمر : 2] كان الأصل أن يقال فلله الدين الخالص ثم ترك إلى ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ مبالغة لما عرفت من أنه أقوى الوصلين ثم صدر بحرف التنبيه زيادة على زيادة وتحقيقاً بأن غير الخالص كالعدم فلو قدر الاستئناف التعليلي أولاً من دون الوصف المطلوب الذي هو الأصل في العلة ومن دون حرف التنبيه للفائدة المذكورة كان كلاماً متنافراً ويلزم زيادة التنافر من وصف الدين بالخلوص ثانياً لدلالته على العي في الأول إذ ليس فيه ما يرشد إلى هذا الوصف حتى يجعل من باب الاجمال والتفصيل ؛ وأما جعله تأكيداً فلا وجه له للوصف المذكور ولأن حرف التنبيه لا يحسن موقعها حينئذ فإنها يؤتى بها في ابتداء الاستئناف المضاف لقصد التأكيد اه .

(37/665)

ونص العلامة الثاني أيضاً على أن كون الجملة الثانية تأكيداً للأولى فاسد عند من له معرفة بأساليب الكلام وصياغات المعاني ففيها ما ينبو عنه مقام التأكيد ولا يكاد يقترن به المؤكد لكن في قول "صاحب الكشف" : ليس في الأول ما يرشد إلى وصف الخلوص حتى يجعل من باب الاجمال والتفصيل بحثاً إذ لقائل أن يقول : إن ﴿ لَّهُ الدين ﴾ على معنى له الدين الكامل ومن المعلوم أن كمال الدين بكونه خالصاً فيكون في الأول ما يرشد إلى هذا الوصف نعم وهن ذلك التخريج على حاله قبل هذا البحث أم لم يقبل .

وقال أبو حيان : الدين مرفوع على أنه فاعل بمخلصاً الواقع حالاً والراجع لذي الحال محذوف على رأي البصريين أي الدين منك أو تكون أل عوضاً من الضمير أي دينك وعليه يكون وصف الدين بالإخلاص وهو وصف صاحبه من باب الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر ، وفي الآية دلالة على شرف الإخلاص بالعبادة وكم من آية تدل على ذلك .

وأخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشي أن رجلاً قال : يا رسول الله إنا نعطي أموالنا التماس الذكر فهل لنا من أجر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا قال : يا رسول الله إنا نعطي التماس الأجر والذكر فهل لنا أجر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى لا يقبل إلا من أخلص له " ثم تلا رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الآية ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ ويؤيد هذا أن المراد بالدين في الآية الطاعة لا كما روى عن قتادة من أنه شهادة أن لا إله إلا الله وعن الحسن من أنه الإسلام ، وقوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مِن

دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ الخ تحقيق لحقية التوحيد ببطلان الشرك ليعلم منه حقية الإخلاص وبطلان تركه وفيه من ترغيب المخلصين وترهيب غيرهم ما لا يخفى ، والموصول عبارة عن المشركين من قريش وغيرهم كما روى عن مجاهد ، وأخرج جويبر عن ابن عباس أن الآية نزلت في ثلاثة أحياء .

عامر .

وكنانة .

(38/665)

وبني سلمة كانوا يعبدون الأوثان ويقولون : الملائكة بنات الله فالموصول إما عبارة عنهم أو عبارة عما يعمهم وأضرابهم من عبدة غير الله سبحانه وهو الظاهر فيكون الأولياء عبارة عن كل معبود باطل كالملائكة وعيسى عليهم السلام والأصنام ، ومحل الموصول رفع على الابتداء خبره الجملة الآتية المصدرية بأن ، وقوله تعالى : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ حال بتقدير القول من واو ﴿ اتخذوا ﴾ مبينة لكيفية إشراكهم وعدم خلوص دينهم أي اتخذوا قائلين ذلك ، وجوز أن يكون القول المقدر قالوا ويكون بدلاً من ﴿ اتخذوا ﴾ وأن يكون المقدر ذلك ويكون هو الخبر للموصول والجملة الآتية استئناف بياني كأنه قيل

بعد حكاية ما ذكر : فماذا يفعل الله تعالى بهم ؟ فقيل إن الله يحكم بينهم الخ ، والوجه الأول هو المنساق إلى الذهن ، نعم قرأ عبد الله .

وابن عباس .

ومجاهد .

وابن جبير قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ الآية لكن لا يتعين فيه البدلية أو الخبرية ، وقد اعترض البدلية "صاحب الكشف" بأن المقام ليس مقام الإبدال إذ ليس فيه إعادة الحكم لكون الأول غير واف بالغرض اعتناء بشأنه لا سيما وحذف البدل ضعيف بل ينافي الغرض من الإتيان به ، والاستثناء مفرغ من أعم العلل و ﴿ زلفى ﴾ مصدر مؤكد على غير لفظ المصدر أي والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره سبحانه قائلين ما نعبدهم لشيء من الأشياء إلا ليقربونا إلى الله تعالى تقريباً .

وقرىء ﴿ نَعْبُدُهُمْ ﴾ بضم النون اتباعاً لحركة الباء ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي وبين خصمائهم الذين هم المخلصون للدين وقد حذف لدلالة الحال عليه كما في قوله تعالى : ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة : 285] على أحد الوجهين أي بين أحد منهم وبين غيره ، وعلى قول النابغة

فما كان بين الخير لو جاء سالما . . .

أبو حجر إلا ليال قلائل

أي بين الخير وبيني ، وقيل الضمير للفريقين المتخذين والمتخذين وكذا الكلام في ضميري الجمع في قوله تعالى : ﴿ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ والمعنى على الأول أنه تعالى يفصل الخصومة بين المشركين والمخلصين فيما اختلفوا فيه من التوحيد والإشراك وادعى كل صحة ما اتصف به بإدخال المخلصين الموحدين الجنة وإدخال المشركين النار أو يميزهم سبحانه تمييزاً يعلم منه حال ما تنازعوا فيه بذلك ، والمعنى على الثاني أنه تعالى يحكم بين العابدين والمعبودين فيما يختلفون حيث يرجو العابدون شفاعتهم وهم يتبرؤن منهم ويلعنونهم قالاً أو حالاً بإدخال من له أهلية دخول الجنة من المعبودين الجنة وإدخال العابدين ومن ليس له أهلية دخول الجنة ممن عبد كالأصنام النار ، وإدخال الأصنام النار ليس لتعذيبها بل لتعذيب عبدتها بها ، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما يضعفه .

وأجاز الزمخشري كون الموصول السابق عبارة عن المعبودين على حذف العائد إليه وإضمار المشركين من غير ذكر تعويلاً على دلالة السياق عليهم ويكون التقدير والذين اتخذهم المشركون أولياء قائلين ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله زلفى إن الله يحكم بينهم وبين عبدتهم فيما الفريقان فيه يختلفون حيث يرجو العبدة شفاعتهم وهم يلعنوهم بإدخال ما

هو منهم أهل للجنة الجنة وإدخال العبدة مع أصنامهم النار .

وتعقب بأنه بعد الإغضاء عما فيه من التعسفان بمعزل من السداد كيف لا وليس فيما ذكر من طلب الشفاعة واللعن مادة يختلف فيها الفريقان اختلافاً محوجاً إلى الحكم والفصل فإنما ذاك ما بين فريقي الموحدين والمشركين في الدنيا من الاختلاف في الدين الباقي إلى يوم القيامة فتدبر ولا تغفل .

(40/665)

وقرىء ﴿ مَا ﴾ حكاية لما خاطبوا به آلهتهم ﴿ مّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى ﴾ أي لا يوفق للاهتداء الذي هو طريق النجاة عن المكروه والفوز بالمطلوب ﴿ مَنْ هُوَ كاذب كَفَّارٌ ﴾ في حد ذاته وموجب سيء استعداده لأنه غير قابل للاهتداء والله عز وجل لا يفيض على القوابل إلا حسب القابليات كما يشير إليه قوله سبحانه : ﴿ رَبُّنَا الذى أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ ﴾ [الإسراء : 84] وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا ظلمناهم ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : 118] وهذا هو الذي حتم عليه جل شأنه لسيء استعداده بالموافاة على الضلال قاله بعض الأجلة ، وقال الطبرسي : لا يهدي إلى الجنة أي يوم القيامة من هو كاذب

كفار في الدنيا .

وقال ابن عطية : المراد لا يهدي الكاذب الكافر في حال كذبه وكفره وهذا ليس بشيء أصلاً ، والمراد بمن هو كاذب كفار قيل من يعم أولئك المحدث عنهم وغيرهم ، وقيل : أولئك المحدث عنهم وكذبهم في دعواهم استحقاق غير الله تعالى للعبادة أو قولهم في بعض من اتخذوهم أولياء من دون الله إنهم بنات الله سبحانه أو أن المتخذ ابن الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، فمن هو كاذب من الظاهر الذي أقيم مقام المضمر على معنى أن الله تعالى لا يهديهم أي المتخذين تسجيلاً عليهم بالكذب والكفر وجعل تمهيداً لما بعده ، وقال بعضهم : الجملة تعليل للحكم .

وقرأ أنس بن مالك .

والجحدري .

والحسن .

والأعرج .

وابن يعمر ﴿ كَذَّابٌ كَفَّارٌ ﴾ وقرأ زيد بن علي ﴿ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ وحملوا الكاذب هنا على الراسخ في الكذب لهاتين القراءتين وكذا حملوا الكفر على كفر النعم دون الكفر في الاعتقاد لقراءة زيد ، وذكر الإمام فيه احتمالين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

فاتحة أنيقة في التنويه بالقرآن جعلت مقدمة لهذه السورة لأن القرآن جامع لما حوته وغيره من أصول الدين .

ف ﴿ تَنزِيلُ ﴾ مصدر مراد به معناه المصدريّ لا معنى المفعول ، كيف وقد أضيف إلى الكتاب وأصل الإِضافة أن لا تكون بيانية .

وتنزيل : مصدر نزّل المضاعف وهو مشعر بأنه أنزله منجّماً .

واختيار هذه الصيغة هنا للرد على الطاعنين لأنهم من جملة ما تعلّلوا به قولهم : ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : 32] .

وقد تقدم الفرق بين المضاعف والمهموز في مثله في المقدمة الأولى .

والتعريف في ﴿ الكتاب ﴾ للعهد ، وهو القرآن المعهود بينهم عند كل تذكير وكل مجادلة .

وأجرى على اسم الجلالة الوصف بـ ﴿ العزيز الحكيمِ ﴾ للإِيماء إلى أن ما ينزل منه يأتي على ما يناسب الصفتين ، فيكون عزيزاً قال تعالى : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ [فصلت :

41] ، أي القرآن ، عزيز غالب بالحجة لمن كذّب به ، وغالب بالفضل لما سواه من الكتب من حيث إن الغلبة تستلزم التفضل والتفوق ، وغالب لبلغاء العرب إذ أعجزهم عن معارضة سورة منه ، ويكون حكيماً مثل صفة منزِّله .

والحكيم : إمّا بمعنى الحاكم ، فالقرآن أيضاً حاكم عن معارضيه بالحجة ، وحاكم على غيره من الكتب السماوية بما فيه من التفصيل والبيان قال تعالى : ﴿ مصدقاً لمن بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ [المائدة : 48] .

وإمّا بمعنى : المحكِم المتقِن ، فالقرآن مشتمل على البيان الذي لا يحتمل الخطأ ، وإما بمعنى الموصوف بالحكمة ، فالقرآن مشتمل على الحكمة كاتصاف منزّله بها .

وهذه معان مرادة من الآية فيما نرى ، على أن في هذين الوصفين إيماء إلى أن القرآن معجز ببلاغة لفظه وبإعجازه العلمي ، إذا اشتمل على علوم لم يكن للناس علم بها كما بيّناه في المقدمة العاشرة .

(42/665)

وفي وصف ﴿ الحَكِيمِ ﴾ إيماء إلى أنه أنزله بالحكمة وهي الشريعة ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ [البقرة : 269] .

وفي هذا إرشاد إلى وجود التدبر في معاني هذا الكتاب ليتوصل بذلك التدبر إلى العلم بأنه حق من عند الله ، قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [فصلت : 53] .

ومعنى ﴿ العَزيزِ الحكيمِ ﴾ في صفات الله تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ في سورة [البقرة : 209] .

وافتتاح جملة ﴿ إنَّا أنزلنا إليكَ الكتَابَ بالحقّ ﴾ بحرف (إنَّ) مراعى فيه ما استعمل فيه الخبر من الامتنان .

فيحمل حرف (إنّ) على الاهتمام بالخبر .

وما أريد به من التعريض بالذين أنكروا أن يكون منزّلاً من الله فيحمل حرف (إنّ) على التأكيد استعمالاً للمشترك في معنييه .

ولما في هذه الآية من زيادة الإِعلان بصدق النبي المنزل عليه الكتاب جدير بالتأكيد لأن دليل صدقه ليس في ذاته بل هو قائم بالإِعجاز الذي في القرآن وبغيره من المعجزات ، فكان مقتضى التأكيد موجوداً بخلاف مقتضى الحال في قوله : ﴿ تَنزيلُ الكتابِ من الله ﴾ .

فجملة ﴿ إنَّا أنزلنا إليك الكتابَ ﴾ تتنزل منزلة البيان لجملة ﴿ تَنزيلُ الكتابِ من الله . ﴾ وإعادة لفظ ﴿ الكِتَابِ ﴾ للتنويه بشأنه جرياً على خلاف مقتضى الظاهر بالإِظهار في مقام الإِضمار .

وتعدية ﴿ أنزَلْنَا ﴾ بحرف الانتهاء تقدم في قوله : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك ﴾ في أول [البقرة : 4] .

والباء في ﴿ بالحق ﴾ للملابسة ، وهي ظرف مستقرّ حالاً من ﴿ الكتابِ ﴾ ، أي أنزلنا إليك القرآن ملابساً للحق في جميع معانيه ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ [فصلت : 42] .

وفرع على المعنى الصريح من قوله : ﴿ إنَّا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحق ﴾ أن أمر بأن يعبد الله مخلصاً له العبادة .

(43/665)

وفي هذا التفريع تعريض بما يناسب المعنى التعريضي في المفرّع عليه وهو أن المعرّض بهم أن يعبدوا الله مخلصين له الدين عليهم أن يدبّروا في المعنى المعرض به .

وهذا إيماء إلى أن إنزال الكتاب عليه نعمة كبرى تقتضي أن يقابلها الرسول صلى الله عليه وسلم بالشكر بإفراده بالعبادة ، وإيماء إلى أن إشراك المشركين بالله غيره في العبادة كفر لنعَمِه التي أنعم بها ، فإن الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، وفي العبادة تحقيق هذا المعنى قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [

الذاريات : 56] .

فالمقصود من الأمر بالعبادة التوطئة إلى تقييد العبادة بحالة الإِخلاص من قوله ﴿ مُخلِصاً له الدينَ ﴾ ، فالمأمور به عبادة خاصة ، ولذلك لم يكن الأمر بالعبادة مستعملاً في معنى الأمر بالدوام عليها .

ولذلك أيضاً لم يُؤت في هذا التركيب بصيغة قصر خلاف قوله : ﴿ بل الله فاعبد ﴾ [الزمر : 66] لأن المقصود هنا زيادة التصريح بالإِخلاص والرسول صلى الله عليه وسلم منزه عن أن يعبد غير الله .

وقد توهم ابن الحاجب من عدم تقديم المعمول هنا أن تقديم المفعول في قوله تعالى : ﴿ بل الله فاعبد في آخر هذه السورة لا يفيد القصر وهي زلّة عالم .

والإِخلاص : الإِمْحاض وعدم الشوب بمغاير ، وهو يشمل الإِفراد .

وسميت السورة التي فيها توحيد الله سورة الإِخلاص ، أي إفراد الله بالإلهية .

وأوثر الإِخلاص هنا لإِفادة التوحيد وأخصَّ منه وهو أن تكون عبادة النبي ربه غير مشوبة بحظ دنيوي كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيهِ مِن أجْرٍ ﴾ [ص : 86] .

والدين : المعاملة .

والمراد به هنا معاملة المخلوق ربّه وهي عبادته .

فالمعنى : مخلصاً له العبادة غير خالط بعبادته عبادة غيره .

وانتصب ﴿ مُخلصاً ﴾ على الحال من الضمير المستتر في ﴿ أعبد .

(44/665)

ولما أفاد قوله : مُخلصاً له الدين ﴾ معنى إفراده بالعبادة لم يكن هنا مقتضٍ لتقديم مفعول ﴿ أعبد الله ﴾ على عامله لأن الاختصاص قد استفيد من الحال في قوله : ﴿ مخلصاً له الدين ﴾ ، وبذلك يبطل استناد الشيخ ابن الحاجب لهذه الآية في توجيه رأيه بإنكار إفادة تقديم المفعول على فعله التخصيصَ ، وتضعيفِه لاستدلال أئمة المعاني بقوله تعالى : ﴿ بل الله فاعبد ﴾ آخر السورة [66] بأنه تقديم لمجرد الاهتمام لورود فاعبد الله ، ﴾ قال في "إيضاح المفصل" في شرح قول صاحب "المفصل" في الديباجة "الله أحمدُ على أن جعلني من علماء العربية" ، الله أحمد على طريقة

﴿ إياك نعبد ﴾ [الفاتحة : 5] تقديماً للأهم ، وما قيل : إنه للحصر لا دليل عليه والتمسك فيه بنحْو ﴿ بل الله فاعبد ﴾ [الزمر : 66] ضعيف لورود فاعبد الله ا ه .

ونقل عنه أنه كتب في حاشيته على الإِيضاح ﴾ هنالك قوله : (لا دليل فيه على الحصر فإن المعبودية من صفاته تعالى الخاصة به ، فالاختصاص مستفاد من الحال لا من التقديم) ا ه .

وهو ضغث على إبَّالَة فإنه لم يقتصر على منع دليل شَهد به الذوق السليم عند أئمة الاستعمال وعلى سند منعه بتوهمه أن التقديم الذي لوحظ في مقام يجب أن يلاحظ في كل مقام ، كأنَّ الكلام قد جُعل قوالب يؤتى بها في كل مقام ، وذلك ينبو عنه اختلاف المقامات البلاغية ، حتى جعل الاختصاص بالعبادة مستفاداً من القرينة لا من التقديم ، كأن القرينة لو سلم وجودها تمنع من التعويل على دِلالة النطق .

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾

(45/665)

استئناف للتخلص إلى استحقاقه تعالى الإفراد بالعبادة وهو غرض السورة وأفاد التعليل للأمر بالعبادة الخالصة لله لأنه إذا كان الدين الخالص مستحقاً لله وخاصّاً به كان الأمر بالإخلاص له مصيباً محزّه فصار أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإخلاص العبادة له مسبباً عن نعمة إنزال الكتاب إليه ومقتضَى لكونه مُستحق الإخلاص في العبادة اقتضاء الكلية لجزئياتها .

وبهذا العموم أفادت الجملة معنى التذييل فتحملت ثلاثة مواقع كلها تقتضي الفصل .

وافتتحت الجملة بأداة التنبيه تنويهاً بمضمونها لتتلقاه النفس بشَرَاشِرِها وذلك هو ما رجّح

اعتبار الاستئناف فيها ، وجعل معنى التعليل حاصلاً تبعاً من ذكر إخلاص عام بعد إخلاص خاص ومورد هما واحد .

واللام في ﴿ لله الدينُ الخالصالدين * أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا ﴾ لام الملك الذي هو بمعنى الاستحقاق ، أي لا يحقّ الدين الخالص ، أي الطاعة غير المشوبة إلا له على نحو ﴿ الحمد لله ﴾ [الفاتحة : 2] .

وتقديم المسند لإِفادة الاختصاص فأفاد قوله : ﴿ لله الدينُ الخالِصُ ﴾ أنه مستحقه وأنه مختص به .

والدين : الطاعة كما تقدم .

والخالص : السالم من أن يشوبه تشريك غيره في عبادته ، فهذا هو المقصود من الآية .

ومما يتفرع على معنى الآية إخلاص المؤمن الموحد في عبادة ربه ، أي أن يعبد الله لأجله ، أي طلباً لرضاه وامتثالاً لأمره وهو آيل إلى أحوال النية في العبادة المشار إليها بقول النبي صلى الله عليه وسلم "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكِحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" .

وعرّف الغزالي الإِخلاص بأنه تجريد قصد التقرب إلى الله عن جميع الشوائب .

والإِخلاص في العبادة أن يكون الداعي إلى الإِتيان بالمأمور وإلى ترك المنهي إرضاءَ الله تعالى ، وهو معنى قولهم : لوجه الله ، أي لقصد الامتثال بحيث لا يكون الحظ الدنيوي هو الباعث على العبادة مثل أن يعبد الله ليمدحه الناسُ بحيث لو تعطل المدح لترك العبادة .

ولذا قيل : الرياء الشرك الأصغر ، أي إذا كان هو الباعث على العمل ، ومثل ذلك أن يقاتل لأجل الغنيمة فلو أيس منها ترك القتال ؛ فأما إن كان للنفس حظ عاجل وكان حاصلاً تبعاً للعبادة وليس هو المقصودَ فهو مغتفر وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس ، أو كان مما يُعين على الاستزادة من العبادة .

وفي "جامع العتبية" في ما جاء من أن النية الصحيحة لا تبطلها الخَطرة التي لا تُملك .

حدث العتبي عن عيسى بن دينار عن ابن وهب عن عطاء الخراساني أن معاذ بن جبل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه ليس من بني سَلِمَة إلا مقاتل ، فمنهم من القتالُ طبيعته ، ومنهم من يقاتل رياء ومنهم من يقاتل احتساباً ، فأي هؤلاء الشهيد من أهل الجنة ؟ فقال : يا معاذ بنَ جبل : "من قاتل على شيء من هذه الخصال أصلُ أمره أن تكون كلمة الله هي العليا فقُتل فهو شهيد من أهل الجنة" .

قال ابن رشد في "شرحه" : هذا الحديث فيه نص جليّ على أن من كان أصلُ عمله لله وعلى ذلك عقد نيته لم تضرّه الخطَرات التي تقع في القلب ولا تُملك ، على ما قاله مالك

خلافَ ما ذهب إليه ربيعةُ ، وذلك أنهما سُئلا عن الرجل يُحِب أن يُلْقَى في طريق المسجد ويكره أن يلقَى في طريق السّوق فأنكر ذلك ربيعةُ ولم يعجبه أن يحب أحد أن يُرى في شيء من أعمال الخير .

وقال مالك : إذا كان أولُ ذلك وأصلُه لله فلا بأس به إن شاء الله قال الله تعالى : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ [طه : 39] ، وقال : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ [الشعراء : 84] .

(47/665)

قال مالك : وإنما هذا شيء يكون في القلب لا يُملك وذلك من وسوسة الشيطان ليمنعه من العمل فمن وجد ذلك فلا يُكْسِلْه عن التمادي على فعل الخير ولا يؤيسه من الأجر وليدفع الشيطان عن نفسه ما استطاع (أي إذا أراد تثبيطه عن العمل) ، ويجدد النية فإن هذا غير مؤاخذ به إن شاء الله ا ه .

وذكر قبل ذلك عن مالك أنه رأى رجلاً من أهل مصر يَسأل عن ذلك ربيعة .

وذكر أن ربيعة أنكر ذلك .

قال مالك : فقلت له ما ترى في التهجير إلى المسجد قبل الظهر ؟ قال : ما زال الصالحون

يهجّرون .

وفي "جامع المعيار" : سئل مالك عن الرجل يذهب إلى الغزو ومعه فضل مال ليصيب به من فضل الغنيمة (أي ليشتري من الناس ما صحّ لهم من الغنيمة) فأجاب لا بأس به ونزع بآية التجارة في الحج قوله : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ [البقرة : 198] وأن ذلك غير مانع ولا قادح في صحة العبادة إذا كان قصدُه بالعبادة وجهَ الله ولا يعد هذا تشريكاً في العبادة لأن الله هو الذي أباح ذلك ورفع الحرج عن فاعله مع أنه قال : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ [الكهف : 110] فدلّ أن هذا التشريك ليس بداخل بلفظه ولا بمعناه تحتَ آية الكهف ا ه .

وأقول : إن القصد إلى العبادة ليتقرب إلى الله فيسأله ما فيه صلاحه في الدنيا أيضاً لا ضير فيه ، لأن تلك العبادة جعلت وسيلة للدعاء ونحوه وكل ذلك تقرب إلى الله تعالى وقد شرعت صلوات لكشف الضرّ وقضاء الحوائج مثل صلاة الاستخارة وصلاة الضرّ والحاجة ، ومن المغتفر أيضاً أن يقصد العامل من عمله أن يدعو له المسلمون ويذكروه بخير .

وفي هذا المعنى قال عبد الله بن رَواحة رضي الله عنه حين خروجه إلى غزوة مؤتة ودعَا له المسلمون حين ودّعوه ولمن معه بأن يردّهم الله سالمين

:

لكنني أسألُ الرحمان مغفرة

وضَرَبَةً ذاتَ فرعٍ يَقذف الزبدا . . .

أو طعنة من يدي حرّان مجهزةً

بجَربة تنفُذ الأحشاءَ والكبدا . . .

(48/665)

حتى يقولوا إذا مروا على حَدثي

أرشَدَكَ الله من غَاز وقد رَشِدا . . .

وقد علمت من تقييدنا الحظ بأنه حظ دنيوي أن رجاء الثواب واتقاء العقاب هو داخل في معنى الإِخلاص لأنه راجع إلى التقرب لرضى الله تعالى .

وينبغي أن تعلم أن فضيلة الإِخلاص في العبادة هي قضية أخصّ من قضية صحة العبادة وإجزائها في ذاتها إذ قد تعرُو العبادة عن فضيلة الإِخلاص وهي مع ذلك صحيحة مجزئة ، فللإخلاص أثر في تحصيل ثواب العمل وزيادته ولا علاقة له بصحة العمل .

وفي "مفاتيح الغيب" : وأما الإِخلاص فهو أن يكون الداعي إلى الإِتيان بالفعل أو الترك مجرد الانقياد فإن حصل معه داع آخر ؛ فإمّا أن يكون جانب الداعي إلى الانقياد راجحاً على جانب الداعي المغاير ، أو معادِلاً له ، أو مرجوحاً .

وأجمعوا على أن المُعادل والمرجوح ساقط ، وأمّا إذا كان الداعي إلى الطاعة راجحاً على جانب الداعي الآخر فقد اختلفوا في أنه هل يفيد أو لا ا ه .

وذكر أبو إسحاق الشاطبي : أن الغزالي أي في كتاب النية من الربع الرابع من "الإِحياء" يذهب إلى أن ما كان فيه داعي غير الطاعة مرجوحاً أنه ينافي الإِخلاص .

وعلامته أن تصير الطاعة أخف على العبد بسبب ما فيها من غرض ، وأن أبا بكر بن العربي أي في كتاب "سِراج المريدين" كما نقله في "المعيار" يذهب إلى أن ذلك لا يقدح في الإِخلاص .

قال الشاطبي : وكان مجال النظر في المسألة يلتفت إلى انفكاك القصدين أو عدم انفكاكهما ، فالغزالي يلتفت إلى مجرد وجود اجتماع القصدين سواء كان القصدان مما يصح انفكاكهما أو لا ، وابن العربي يلتفت إلى وجه الانفكاك) .

فهذه مسألة دقيقة ألحقناها بتفسير الآية لتعلقها بالإِخلاص المراد في الآية ، وللتنبيه على التشابه العارض بين المقاصد التي تقارن قصد العبادة وبين إشراك المعبود في العبادة بغيره .

(49/665)

﴿ الخالص والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ ﴾ .

عطف على جملة ﴿ ألا لله الدينُ الخالِصُ ﴾ لزيادة تحقيق معنى الإِخلاص لله في العبادة وأنه خلوص كامل لا يشوبه شيء من الإِشراك ولا إشراك الذين زعموا أنهم اتخذوا أولياءَ وعبدوهم حرصاً على القرب من الله يزعمونه عذراً لهم فقولهم من فساد الوضع وقلبِ حقيقة العبادة بأن جعلوا عبادة غير الله وسيلة إلى القرب من الله فنقضوا بهذه الوسيلة مقصدها وتطلبوا القربة بما أَبْعَدَها ، والوسيلة إذا أفضت إلى إبطال المقصد كان التوسل بها ضرباً من العبث .

واسم الموصول مراد به المشركون وهو في محلّ رفع على الابتداء وخبره جملة ﴿ إنَّ الله يحكم بينهم ﴾ .

وجملة ﴿ ما نعبدهم ﴾ مقول لقول محذوف لأن نظمها يقتضي ذلك إذ ليس في الكلام ما يصلح لأن يعود عليه نون المتكلم ومعه غيره ، فتعين أنه ضمير عائد إلى المبتدأ ، أي هم المتكلمون به وبما يليه ، وفعل القول محذوف وهو كثير ، وهذا القول المحذوف يجوز أن يقدر بصيغة اسم الفاعل فيكون حالاً من ﴿ الذين اتخذوا ﴾ أي قائلين : ما نعبدهم ، ويجوز أن يقدر بصيغة الفعل .

والتقدير : قالوا ما نعبدهم ، وتكون الجملة حينئذٍ بدل اشتمال من جملة ﴿ اتَّخذوا ﴾

فإن اتخاذهم الأولياء اشتمل على هذه المقالة .

وقوله : ﴿ إنَّ الله يحكم بينهم ﴾ وعيد لهم على قولهم ذلك فعلم منه إبطال تعللهم في قولهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله ﴾ لأن الواقع أنهم عبدوا الأصنام أكثر من عبادتهم لله .

فضمير ﴿ بينَهُمْ ﴾ عائد إلى الذين اتخذوا أولياء .

والمراد بـ ﴿ ما هم فيه يختلفون ﴾ اختلاف طرائقهم في عبادة الأصنام وفي أنواعها من الأنصاب والملائكة والجنّ على اختلاف المشركين في بلاد العرب .

(50/665)

ومعنى الحكم بينهم أنه يبين لهم ضلالَهم جميعاً يوم القيامة إذ ليس معنى الحكم بينهم مقتضياً الحكم لفريق منهم على فريق آخر بل قد يكون الحكم بين المتخاصمين بإبطال دعوى جميعهم .

ويجوز أن يكون على تقدير معطوف على ﴿ بينهم ﴾ مماثل له دلت عليه الجملة المعطوف عليها وهي ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ ، لاقتضائها أن الذين أخلصوا الدين لله قد وافقوا الحق فالتقدير يحكم بينهم وبين المخلصين على حدّ قول النابغة :

فما كان بين الخير لو جاء سالماً

أبو حُجر إلا ليالٍ قلائلُ . . .

تقديره : بين الخير وبيني بدلالة سياق الرثاء والتلهف .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلاَّ ليقربونا ﴾ استثناء من علل محذوفة ، أي ما نعبدهم لشيء إلا لعلة أن يقرّبونا إلى الله فيفيد قصراً على هذه العلة قصر قلب إضافي ، أي دون ما شنعتم علينا من أننا كفرنا نعمة خالقنا إذ عبدنا غيره .

وقد قدمنا آنفاً من أنهم أرادوا به المعذرة ويكون في أداة الاستثناء استخدام لأن اللام المقدرة قبل الاستثناء لام العاقبة لا لام العلة إذ لا يكون الكفران بالخالق علة لعاقل ولكنه صائر إليه ، فالقصر لا ينافي أنهم أعدوهم لأشياء أخر إذا عدوهم شفعاء واستنجدوهم في النوائب ، واستقسموا بأزلامهم للنجاح ، كما هو ثابت في الواقع .

والزلفى : منزلة القرب ، أي ليقربونا إلى الله في منزلة القرب ، والمراد بها منزلة الكرامة والعناية في الدنيا لأنهم لا يؤمنون بمنازل الآخرة ، ويكون منصوباً بدلاً من ضمير ﴿ ليُقربونا ﴾ بدل اشتمال ، أي ليقربوا منزلتنا إلى الله .

ويجوز أن يكون ﴿ زلفى ﴾ اسم مصدر فيكون مفعولاً مطلقاً ، أي قرباً شديداً .

وأفاد نظم ﴿ هُم فيه يختلفون ﴾ أمرين أن الاختلاف ثابت لهم ، وأنه متكرر متجدد ،

فالأول من تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ، والثاني من كون المسند فعلاً مضارعاً .

﴿ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ .

(51/665)

يجوز أن يكون خبراً ثانياً عن قوله : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ وهو كناية عن كونهم كاذبين في قولهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله ﴾ وعن كونهم كفّارين بسبب ذلك ، وكناية عن كونهم ضالّين .

ويجوز أن يكون استئنافاً بيانياً لأن قوله : ﴿ إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ﴾ يثير في نفوس السامعين سؤالاً عن مصير حالهم في الدنيا من جرّاء اتخاذهم أولياءَ من دونه ، فيجاب بأن الله لا يهدي مَن هو كاذب كفار ، أي يذرهم في ضلالهم ويمهلهم إلى يوم الجزاء بعد أن بَيّن لهم الدين فخالفوه .

والمراد بـ ﴿ مَن هو كاذبٌ كفَّارٌ ﴾ الذين اتخذوا من دونه أولياء ، أي المشركين ، فكان مقتضى الظاهر الإتيان بضميرهم ، وعدل عنه إلى الإضمار لما في الصلة من وصفهم بالكذب وقوة الكفر .

وهداية الله المنفية عنهم هي : أن يتداركهم الله بلطفه بخلق الهداية في نفوسهم ، فالهداية

المنفية هي الهداية التكوينية لا الهداية بمعنى الإِرشاد والتبليغ وهو ظاهر ، فالمراد نفي عناية الله بهم ، أي العناية التي بها تيسير الهداية عليهم حتى يهتدوا ، أي لا يوفّقهم الله بل يتركهم على رأيهم غضباً عليهم .

والتعبير عنهم بطريق الموصولية لما في الموصول من الصلاحية لإِفادة الإِيماء إلى علة الفعل ليفيد أن سبب حرمانهم التوفيق هو كذبهم وشدة كفرهم .

(52/665)

فإن الله إذا أرسل رسوله إلى الناس فبلغهم كانوا عند ما يبلغهم الرسول رسالةَ ربه بمستوى متحِد عند الله بما هم عبيد مربوبون ثم يكونون أصنافاً في تلقّيهم الدعوة ؛ فمنهم طالب هداية بقبول ما فهمه ويسأل عما جهله ، ويتدبر وينظر ويسأل ، فهذا بمحل الرضى من ربه فهو يعينه ويشرح صدره للخير حتى يشرق باطنه بنور الإِيمان كما قال تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ [الأنعام : 125] وقال : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾ [الحجرات : 7 ، 8] .

ولا جرم أنه كلما توغّل العبد في الكذب على الله وفي الكفر به ازداد غضب الله عليه فازداد بُعد الهداية الإلهية عنه ، كما قال تعالى : ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حقٌّ وجَاءَهُمُ البينات والله لا يَهْدِي القومَ الظَّالِمِين ﴾ [آل عمران : 86] .

والتوفيق : خلق القدرة على الطاعة فنفي هداية الله عنهم كناية عن نفي توفيقه ولطفه لأن الهداية مسببة عن التوفيق فعبر بنفي المسبب عن نفي السبب .

وكذبهم هو ما اختلقوه من الكفر بتأليه الأصنام ، وما ينشأ عن ذلك من اختلاق صفات وهمية للأصنام وشرائع يدينون بها لهم .

والكَفَّار : الشديد الكفر البليغُة ، وذلك كفرهم بالله وبالرسول صلى الله عليه وسلم وبالقرآن بإعراضهم عن تلقّيه ، والتجرد عن الموانع للتدبر فيه .

وعلم من مقارنة وصفهم بالكذب بوصفهم بالأبلغية في الكفر أنهم متبالغون في الكذب أيضاً لأن كذبهم المذموم إنما هو كذبهم في كفرياتهم فلزم من مبالغة الكفر مبالغة الكذب فيه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(53/665)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة الزمر

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

بسم الله كلمة سماعها يوجب للقلوب شفاءها ، وللأرواح ضياءها ، وللأسرار سناءها وعلاءها .

كلمة من سمعها بسمع العم ازداد بصيرة على بصيرة ، ثم بلطائف من التعريف غير محصورة ، ومن سمعه بسمع الوجد ظلت البابه مبهورة ، وأسراره بقهر الكشوفات منشورة .

قوله جل ذكره (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)

أي هذا كتابٌ عزيزٌ نَزَلَ من ربِّ عزيز على عبدٍ عزيز بلسان مَلَكٍ عزيز في شأنِ أَمةٍ عزيزة بأمرٍ عزيز . وفي ورود الرسولِ به من الحبيب الأول نزهةٌ لقلوب الأحباب بعد ذبول غصن سرورها ، وارتياحٌ عند قراءة فصولها .

وكتابُ موسى في الألواح التي كان منها يقرأ موسى ، وكتابُ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبِ المصطفى صلوات الله عليه . . . وفَصْلٌ بين من يكون كتابُ ربِّه مكتوباً في ألواحه ، وبين من يكون خطابُ ربِّه محفوظاً في قلبه ، وكذلك أمته ، قال تعالى :

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت : 49] .

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (2)

أي أنزلنا عليك القرآن بالدين الحق والشرع الحق ، وأنا مُحِقٌّ في إنزاله .

والعبادة الخالصة معانقة الأمر على غاية الخشوع ، وتكون بالنَّفْس والقلب والروح ؛ فالتى بالنفس فالإخلاص فيها التباعد عن الانتقاص ، والتي بالقلب فالإخلاص فيها العمى عن رؤية الأشخاص ، والتي بالروح فالإخلاص فيها التنقّي عن طلب الاختصاص .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ .

(54/665)

الدين الخالص ما تكون جملته لله ؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد ، اللهم أن يكون بأمره ؛ إذا أَمَرَ العبدَ أن يحتسب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به ، ولولا هذا لَمَا صحَّ أَنْ يكونَ في العَالَم مُخْلِصٌ .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ . . . ﴾ أي الذين عبدوا الاصنام قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ، ولم يقولوا هذا من قِبَلِ الله ولا بأمره ولا بإذنه ، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم ، فَرَدَّ اللَّهُ عليهم . وفي هذا إشارة إلى أن ما يفعله العبد من

القُرَبِ بنشاطِ نَفْسِه من غير أن يقتضيه حُكْمُ الوقت ، وما يعقد بينه وبين الله مِنْ عقودٍ ثم لا يَفِي بها . . فكل ذلك اتباعُ هوًى ، قال تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد : 27] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ .

لا تَهديهم اليومَ لدينه ، ولا في الآخرة إلى ثوابه . والإشارة فيه إلى تهديد مَنْ يتعرَّض لغير مقامه ، ويدَّعي شيئاً ليس بصادقٍ فيه ، فاللَّهُ لا يهديه قط إلا ما فيه سَدادُه ورُشْدُه . وعقوبتُه أَنْ يَحْرِمَه ذلك الشيءَ الذي تصدَّى له بدعواه قبل تَحققِه بوجوده وذَوْقِه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 266 . 267 ﴾

(55/665)

قوله تعالى ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر سبحانه بالحكم بينهم ، فكان ذلك مع تضمنه التهديد وافياً بنفي الشريك ، كافياً في ذلك لأن المحكوم فيه لا يجوز أن يكون قسيماً للحاكم ، فلم يبق في شيء من ذلك شبهة إلا عند ادعاء الولدية ، قال نافياً لها على سبيل الاستئناف جواباً لمن يقول : فما حال من يتولى الولد ؟ – قال القشيري : والمحال يذكر على جهة الإبعاد أن لو كان كيف حكمه – : ﴿ لو أراد الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بصفات الكمال ﴿ أن يتخذ ﴾ أي يتكلف كما هو دأبكم ، ولا يسوغ في عقل أن الإله يكون متكلفاً ﴿ ولداً ﴾ أي كما زعم من زعم ذلك ، ولما كان الولد لا يراد إلا أن يكون خياراً ، وكان الله قادراً على كل شيء ، عدل عن أن يقول ﴿ لاتخذ ﴾ إلى قوله : ﴿ لاصطفى ﴾ أي اختار على سبيل التبني ﴿ مما يخلق ﴾ أي يبدعه في أسرع من الطرف ، وعبر بالأداة التي أكثر استعمالها فيما لا يعقل إشارة إلى أنه قادر على جعل أقل الأشياء أجلّها على سبيل التكرار والاستمرار – كما أشار إليه التعبير بالمضارع فقال : ﴿ ما يشاء ﴾ أي مما يقوم مقام الولد فإنه لا يحتاج إلى التطوير في إتيان الولد إلا من لا يقدر على الإبداع بغير ذلك .

(56/665)

ولما كان لا يرضى إلا بأكمل الأولاد وهم الأبناء ، لكنه لم يرد ذلك فلم يكن ، فهذا أقصى ما يمكن أن يجوز خلقاً شريفاً ويسميه ولداً إشارة إلى شدة إكرامه له وتشريفه إياه ، أو يقربه غاية التقريب كما فعل بالملائكة وعيسى عليهم السلام ، فكان ذلك سبباً لغلطكم فيهم حتى دعيتم أنهم أولاد ثم زعمتم أنهم بنات ، فكنتم كاذبين من جهتين ، هذا غاية الإمكان ، وأما أنه يجوز عليه التوليد فلا ، بل هو مما يحيله العقل ، لأن ذلك لا يكون إلا لمحتاج ، والإله لا يتصور في عقل أن يكون محتاجاً أصلاً ، قال ابن برجان ما معناه : كان معهود الولادة على وجهين ، فولد منسوب إلى والده بنوة وولادة ورحماً ، فهذا ليس له في الوجود العلي وجود ، ولا في الإمكان تمكن ، ولا في الفعل مساغ بوجه من الوجوه ، وولد بمعنى التبني والاتخاذ ، وقد كانت العرب وغيرها من الأمم يفعلونه حتى نسخة القرآن ، فلا يبعد أن تكون هذه العبارة كانت جائزة في الكتب قبلنا ، فلما أعضل بهم الداء وألحدوا في ذلك عن سواء القصد الذي هو الاصطفاء إلى بنوة الولادة أضلهم الله وأعمى أبصارهم وسد السبيل عن العبادة عن ذلك ، وكشف معنى الاصطفاء ، وأظهر معنى الولاية ، ونسخ ذلك بهذا ، لأن هذا لا يداخله لبس ، وذلك كله لبيان كمال هذه الأمة وعلوها في كل أمر .

(57/665)

ولما كانت نسبة الولد إليه كنسبة الشريك أو أشنع ، وانتفى الأمران بما تقدم من الدليل بالحكم باعترافهم بأن حكمه سبحانه نافذ في كل شيء لشهادة الوجود ، ولقيام الأدلة على عدم الحاجة إلى شيء أصلاً فضلاً عن الولد ، نزه نفسه بما يليق بجلاله من التنزيه في هذا المقام ، فقال : ﴿ سبحانه ﴾ أي له التنزيه التام عن كل نقيصة ، ثم أقام الدليل على هذا التنزيه المقتضي لتفرده فقال : ﴿ هو ﴾ أي الفاعل لهذا الفعال ، والقائل لهذه الأقوال ، ظاهراً وباطناً ﴿ الله ﴾ أي الجامع لجميع صفات الكمال ، ثم ذكر من الأوصاف ما هو كالعلة لذلك فقال : ﴿ الواحد ﴾ أي الذي لا ينقسم أصلاً ، ولا يكون له مثل فلا يكون له صاحبة ولا ولد ، لأنه لو كان شيء من ذلك لما كان لا مجانساً ولا جنس له ولا شبه بوجه من الوجوه ﴿ القهار ﴾ أي الذي له هذه الصفة ، فكل شيء تحت قهره آلهتهم وغيرها على سبيل التكرار والاستمرار ، فصح من غير شك أنه لا يحتاج إلى شيء أصلاً ، وجُعل ما لا حاجة إليه ولا داعي يبعث عليه عبث ينزه عنه العاقل فكيف من له الكمال كله .

(58/665)

ولما أثبت هذه الصفات التي نفت أن يكون له شريك أو ولد ، وأثبتت له الكمال المطلق ، دل عليها بقوله : ﴿ خلق السماوات والأرض ﴾ أي أبدعهما من العدم ﴿ بالحق ﴾ أي

خلقاً متلبساً بالأمر الثابت الذي ليس بخيال ولا سحر ، على وجه لا نقص فيه بوجه ، ولا تفاوت ولا خلل يقول أحد فيه أنه مناف للحكمة ولما كان من أدل الأشياء على صفتي الوحدانية والقهر ، وتمام القدرة وكمال الأمر ، بعد إيجاد الخافقين اختلاف الملوين ، وكان التكوير – وهو إدارة الشيء على الشيء بسرعة وإحاطته به بحيث يعلو عليه ويغلبه ويغطيه – أدل على صفة القهر من الإيلاج ، قال مبيناً لوقت إيجاد الملوين : ﴿ يكور ﴾ أي خلقهما أي صورهما في حال كونه يلف ويلوي ويدير فيغطي مع السرعة والعلو والغلة تكويراً كثيراً متجدداً مستمراً إلى أجله ﴿ الّيل على النهار ﴾ بأن يستره به فلا يدع له أثراً ، ولعظمة هذا الصنع أعاد العامل فقال : ﴿ ويكور النهار ﴾ عالياً تكويره وتغطيته ﴿ على الّيل ﴾ فيذهبه كذلك ويدخل في هذا الزيادة في كل منهما بما ينقص من الآخر لأنه إذا ذهب أحدهما وأتى الآخر مكانه ، فكأن الآتي لف على الذاهب وألبسه كما يلف اللباس على اللابس ، أو أنه شبه الذاهب في خفائه بالآتي بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامع الأبصار ، أو أن كلاًّ منهما لما كان يكر على الآخر كروراً متتابعاً شبه ذلك بتتابع أكوار بعضها على بعض ، فتغيب ما تحتها .

ولما كانت الظلمة سابقة على الضياء ، وكان الليل إنما هو ظلمة يسبقها ضياء بطلوع الشمس ، رتب سبحانه هذا الترتيب على حسب الإيجاد ، ولذلك قدم آية النهار فقال معبراً بالماضي بخلقه الآيتين مسخرتين على منهاج معلوم لكل منها لا يتعداه ، وحد محدود

لا يتخطاه ﴿ وسخر ﴾ أي ذلل وأكره وقهر وكلف لما يريد من غير نفع للمسخر ﴿ الشمس ﴾ أي التي محت ما كان من الظلام فأوجبت اسم النهار ﴿ والقمر ﴾ أي آية الليل .

(59/665)

ولما أخبر بقهرهما ، بين ما صرفهما فيه ، فقال بياناً لهذا التسخير : ﴿ كل ﴾ أي منهما ﴿ يجري ﴾ أي بقضائنا الذي لا مرد له ، وهذا آية لاختلاف أحوال العبد لأن خلقه جامع ، فيختلف في القبض والبسط والجمع والفرق والأخذ والرد والصحو والسكر ، وفي نجوم العقل ، وأقمار العلم ، وشموس المعرفة ، ونهار التوحيد ، وليل الشك والجحد ، ونهار الوصل وليالي الهجر والفراق ، وكيفية اختلافها وزيادتها ونقصانها – قاله القشيري .

ولما كان مقصود السورة العزة التي محطها الغلبة ، وكان السياق للقهر ، وكان القضاء لعلة لا يتخلف عنها المعلول أدل على القهر من ذكر الغاية مجردة عن العلة قال : ﴿ لأجل مسمى ﴾ أي لمنتهى الدور ومنقطع الحركة .

ولما ثبت بهذا قهره ، قال منادياً رشقاً في قلوب المنكرين : ﴿ ألا هو ﴾ أي وحده ﴿ العزيز ﴾ ولما كان ربما قال متعنت : فما له لا يأخذ من يخالفه ؟ وكانت صفة القهر

والعزة ربما أقنطت العصاة فأخرتهم عن الإقبال ، قال مبيناً لسبب التأخير ومستعطفاً : ﴿ الغفار ﴾ أي الذي له صفة الستر على الذنوب متكررة فيمحو ذنوب من يشاء عيناً ، وأثراً بمغفرته ويأخذ من يشاء بعزته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 418 . 421 ﴾

(60/665)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سبحانه هُوَ اللهُ الواحد القهار ﴾ والمراد من هذا الكلام : إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزهاً عن الولد وبيانه من وجوه الأول : أنه لو اتخذ ولداً لما رضي إلا بأكمل الأولاد وهو الإبن فكيف نسبتم إليه البنت الثاني : أنه سبحانه واحد حقيقي والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد ، أما أنه واحد حقيقي فلأنه لو كان مركباً لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره ، فكان يحتاج إلى غيره والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته ، وأما أن الواحد لا يكون له ولد فلوجوه الأول : أن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء

ينفصل عنه ، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد .

وهذا إنما يعقل في الشيء الذي ينفصل منه جزء والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه الثاني : شرط الولد أن يكون مماثلاً في تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين ، وذلك محال لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم أن لا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد ، وإن لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلوماً بسبب منفصل ، فلا يكون إلهاً واجب الوجود لذاته .

(61/665)

فثبت أن كونه إلهاً واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحداً في حقيقته ، وكونه واحداً في حقيقته يمنع من ثبوت الولد له ، فثبت أن كونه واحداً يمنع من ثبوت الولد الثالث : أن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة والزوجان لا بد وأن يكونا من جنس واحد ، فلو كان له ولد لما كان واحداً بل كانت زوجته من جنسه ، وأما أن كونه قهاراً يمنع من ثبوت الولد له ، فلأن المحتاج إلى الولد هو الذي يموت فيحتاج إلى ولد يقوم مقامه ، فالمحتاج إلى الولد هو الذي يكون مقهوراً بالموت ، أما الذي يكون قاهراً ولا يقهره غيره كان الولد في حقه محالاً ، فثبت أن قوله : ﴿ هُوَ اللهُ الواحد القهار ﴾ ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله

تعالى .

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ

اعلم أن الآية المتقدمة دلت على أنه تعالى بين كونه منزهاً عن الولد بكونه إلهاً واحداً وقهاراً غالباً أي : كامل القدرة ، فلما بنى تلك المسألة على هذه الأصول ذكر عقيبها ما يدل على كمال القدرة وعلى كمال الاستغناء ، وأيضاً فإنه تعالى طعن في إلهية الأصنام فذكر عقيبها الصفات التي باعتبارها تحصل الإلهية ، واعلم أنا بينا في مواضع من هذا الكتاب أن الدلائل التي ذكرها الله تعالى في إثبات إلهيته ، إما أن تكون فلكية أو عنصرية ، أما الفلكية فأقسام أحدها : خلق السموات والأرض ، وهذا المعنى يدل على وجود الإله القادر من وجوه كثيرة شرحناها في تفسير قوله تعالى : ﴿ الحمد الله الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 1] والثاني : اختلاف أحوال الليل والنهار وهو المراد ههنا من قوله : ﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار وَيُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ وذلك لأن النور والظلمة عسكران مهيبان عظيمان ، وفي كل يوم يغلب هذا ذاك تارة ، وذلك هذا أخرى .

وذلك يدل على أن كل واحد منهما مغلوب مقهور ، ولا بد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله سبحانه وتعالى ، والمراد من هذا التكوير أنه يزيد في كل واحد منهما بقدر ما ينقص عن الآخر ، والمراد من تكوير الليل والنهار ما ورد في الحديث : " نعوذ الله من الحور بعد الكور " أي : من الإدبار بعد الإقبال ، واعلم أنه سبحانه وتعالى عبر عن هذا المعنى بقوله : ﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار ﴾ وبقوله : ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ [الأعراف : 54] وبقوله : ﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار ﴾ [فاطر : 13] وبقوله : ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ [الفرقان : 62] والثالث : اعتبار أحوال الكواكب لا سيما الشمس والقمر ، فإن الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ، وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقوله : ﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ الأجل المسمى يوم القيامة ، لا يزالان يجريان إلى هذا اليوم فإذا كان يوم القيامة ذهبا ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَجُمِعَ الشمس والقمر ﴾ [القيامة : 9] والمراد من هذا التسخير أن هذه الأفلاك تدور كدوران المنجنون على حد واحد إلى يوم القيامة وعنده تطوي السماء كطي السجل للكتب .

ولما ذكر الله هذه الأنواع الثلاثة من الدلائل الفلكية قال : ﴿ أَلا هُوَ العزيز الغفار ﴾ والمعنى : أن خلق هذه الأجرام العظيمة وإن دل على كونه عزيزاً أي كامل القدرة إلا أنه غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان ، فإنه لما كان الإخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف

والرهبة فكونه غفاراً يوجب كثرة الرحمة ، وكثرة الرحمة توجب الرجاء والرغبة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 211.213 ﴾

(63/665)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

﴿ تنزيل ﴾ رفع بالابتداء ، والخبر قوله : ﴿ من الله ﴾ وقالت فرقة : ﴿ تنزيل ﴾ خبر ابتداء تقديره : هذا تنزيل ، والإشارة إلى القرآن .

وقرأ ابن أبي عبلة : " تنزيلَ " بنصب اللام .

و: ﴿ الكتاب ﴾ في قوله : ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ قال المفسرون : هو القرآن ويظهر إلي أنه اسم عام لجميع ما تنزل من عند الله من الكتب ، فإنه أخبر إخباراً مجرداً الكتب الهادية الشارعة إنما تنزيلها من الله ، وجعل هذا الإخبار تقدمه وتوطئة لقوله : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب ﴾ .

و: ﴿ العزيز ﴾ في قدرته . ﴿ الحكيم ﴾ في ابتداعه . و: ﴿ الكتاب ﴾ الثاني : هو القرآن لا يحتمل غير ذلك .

وقوله : ﴿ بالحق ﴾ يحتمل معنيين ، أحدهما : أن يكون معناه متضمناً الحق ، أي بالحق فيه وفي أحكامه وأخباره . والثاني : أن يكون ﴿ بالحق ﴾ بمعنى بالاستحقاق والوجوب وشمول المنفعة للعالم في هدايتهم ودعوتهم إلى الله .

وقوله تعالى : ﴿ فاعبد الله ﴾ يحتمل أن تكون الفاء عاطفة جملة من القول على جملة واصلة ، ويحتمل أن يكون كالجواب ، لأن قوله : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ جملة كأنه ابتداء وخبر ، كما لو قال : الكتاب منزل ، وفي الجمل التي هي ابتداء وخبر إيهام ما تشبه به الجزاء ، فجاءت الفاء كالجواب ، كما تقول : زيد قائم فأكرمه ، ونحو هذا : وقائلة خولان فانكح فتاتهم . . . التقدير : هذه خولان : و: ﴿ مخلصاً ﴾ حال . و: ﴿ الدين ﴾ نصب به . ومعنى الآية الأمر بتحقيق النية لله في كل عمل ، و﴿ الدين ﴾ هنا يعم المعتقدات وأعمال الجوارح .

وقوله تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ بمعنى من حقه ومن واجباته لا يقبل غير هذا ، وهذا كقوله : ﴿ لله الحمد ﴾ [الجاثية : 36] ، أي واجباً ومستحقاً . قال قتادة : ﴿ الدين الخالص ﴾ ، لا إله إلا الله .

وقوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا ﴾ رفع بالابتداء ، وخبره في المحذوف المقدر ، تقديره : يقولون ما نعبدهم ، وفي مصحف ابن مسعود : " قالوا ما نعبدهم " ، وهي قراءة ابن عباس ومجاهد وابن جبير . و: ﴿ أولياء ﴾ يريد بذلك معبودين ، وهذ مقالة شائعة في العرب ، يقول كثير منهم في الجاهلية : الملائكة بنات الله ونحن نعبدهم ليقربونا ، وطائفة منهم قالت ذلك في أصنامهم وأوثانهم . وقال مجاهد : قد قال ذلك قوم من اليهود في عزير ، وقوم من النصارى في عيسى ابن مريم . وفي مصحف أبي بن كعب : " ما نعبدكم " بالكاف " إلا لتقربونا " بالتاء . و﴿ زلفى ﴾ بمعنى قربى وتوصلة ، كأنه قال : لتقربونا إلى الله تقريباً ، وكأن هذه الطوائف كلها كانت ترى نفوسها أقل من أن تتصل هي بالله ، فكانت ترى أن تتصل بمخلوقاته .

و﴿ زلفى ﴾ عند سيبويه مصدر في موضع الحال ، كأنه ينزل منزلة متزلفين ، والعامل فيه ﴿ ليقربونا ﴾ هذا مذهب سيبويه وفيه خلاف ، وباقي الآية وعيد في الدنيا والآخرة .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾

هذه الآية إما أن يكون معناها أن الله لا يهدي الكاذب الكفار في حال كذبه وكفره ، وإما أن يكون لفظها العموم ومعناها الخصوص فيمن ختم الله عليه بالكفر وقضى في الأزل أنه لا يؤمن أبداً ، وإلا فقد وجد الكاذب الكفار قد هدى كثيراً .

(65/665)

وقرأ أنس بن مالك والجحدري : "كذب كفار " بالمبالغة فيهما ، ورويت عن الحسن والأعرج ويحيى بن يعمر ، وهذه المبالغة إشارة إلى المتوغل في الكفر ، القاسي فيه الذي يظن به أنه مختوم عليه .

قوله تعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ﴾ . معناه : اتخاذ التشريف والتبني ، وعلى هذا يستقيم . قوله تعالى : ﴿ لاصطفى مما يخلق ﴾ .

وأما الاتخاذ المعهود في الشاهد فمستحيل أن يتوهم في جهة الله تعالى ، ولا يستقيم عليه معنى قوله : ﴿ لاصطفى ﴾ وقوله : ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ [مريم : 92] لفظ يعم اتخاذ النسل واتخاذ الأصفياء ، فأما الأول فمعقول ، وأما الثاني فمعروف لخبر الشرع ، ومما يدل على أن معنى قوله : أن يتخذ الاصطفاء والتبني قوله : ﴿ مما يخلق ﴾ أي من موجوداته ومحدثاته . ثم نزه تعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما لا يكون مدحة

، واتصافه تعالى ب ﴿ القهار ﴾ اتصاف على الإطلاق ، لأن أحداً من البشر إن اتصف بالقهر فمقيد في أشياء قليلة ، وهي في حين قهره لغيره مقهور لله تعالى عن أشياء كثيرة .

وقوله : ﴿ بالحق ﴾ معناه بالواجب الواقع موقعه الجامع للمصالح .

(66/665)

وقوله : ﴿ يكور ﴾ معناه يعيد من هذا على هذا ، ومنه كور العمامة التي يلتوي بعضها على بعض ، فكأن الذي يطول من النهار أو الليل يصير منه على الآخرة جزء فيستره ، وكأن الآخر الذي يقصر يلج في الذي يطول فيستتر فيه ، فيجيء ﴿ يكور ﴾ على هذا معادلاً لقوله : ﴿ يولج ﴾ [الحج : 61 ، لقمان : 29 ، فاطر : 13 ، الحديد : 6] ضداً له .

وقال أبو عبيدة : هما بمعنى ، وهذا من قوله تقرير لا تحرير ، و" تسخير الشمس " دوامها على الجري واتساق أمرها على ما شاء الله تعالى ، و" الأجل المسمى " يحتمل أن يكون يوم القيامة حين تنفسد البنية ويزول جري هذه الكواكب ، ويحتمل أن يري وقت مغيبها كل يوم وليلة ، ويحتمل أن يريد أوقات رجوعها إلى قوانينها كل شهر في القمر وسنة في الشمس .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(67/665)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾

أي لو أراد أن يسمي أحداً من خلقه بهذا ما جعله عز وجل إليهم .

﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي تنزيهاً له عن الولد ﴿ هُوَ اللهُ الواحد القهار ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ﴾ أي هو القادر على الكمال المستغني عن الصاحبة والولد ، ومن كان هكذا فحقه أن يفرد بالعبادة لا أنه يشرك به .

ونبه بهذا على أن له أن يتعبد العباد بما شاء وقد فعل .

قوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار وَيُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ قال الضحاك : أي يلقي هذا على هذا وهذا على هذا .

وهذا على معنى التكوير في اللغة وهو طرح الشيء بعضه على بعض ؛ يقال كوّر المتاع أي ألقى بعضه على بعض ؛ ومنه كور العمامة .

وقد روي عن ابن عباس هذا في معنى الآية .

قال : ما نقص من الليل دخل في النهار وما نقص من النهار دخل في الليل .

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل ﴾ [فاطر : 13] .

وقيل : تكوير الليل على النهار تغشيته إياه حتى يذهب ضوءه ، ويغشى النهار على الليل

فيذهب ظلمته ، وهذا قول قتادة .

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ يُغْشِي الليل النهار يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ [الأعراف : 54] .

﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ أي بالطلوع والغروب لمنافع العباد .

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي في فَلَكه إلى أن تنصرم الدنيا وهو يوم القيامة (حين) تنفطر السماء وتنتثر الكواكب .

وقيل : الأجل المسمى هو الوقت الذي ينتهي فيه سير الشمس والقمر إلى المنازل المرتبة لغروبها وطلوعها .

قال الكلبي : يسيران إلى أقصى منازلهما ، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما لا يجاوزانه .

وقد تقدم بيان هذا في سورة "يس" .

(68/665)

﴿ أَلا هُوَ العزيز الغفار ﴾ "ألا" تنبيه أي تنبهوا فإني أنا "الْعَزِيزُ" الغالب "الْغَفَّارُ" الساتر لذنوب خلقه برحمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبي حـ 15 صـ ﴾

(69/665)

وقال الآلوسى :

﴿ لَّوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾

استئناف مسوق لتحقيق الحق وإبطال القول بأن الملائكة بنات الله وعيسى ابنه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ببيان استحالة اتخاذ الولد في حقه سبحانه على الإطلاق ليندرج فيه استحالة ما قيل اندراجاً أولياً ، وحاصل المعنى لو أراد الله سبحانه اتخاذ الولد لامتنعت تلك الإرادة لتعلقها بالممتنع أعني الاتخاذ لكن لا يجوز للباري إرادة ممتنعة لأنها ترجح بعض الممكنات على بعض .

وأصل الكلام لو اتخذ الولد لامتنع لاستلزامه ما ينافي الألوهية فعدل إلى لو أراد الاتخاذ لامتنع أن يريده ليكون أبلغ وأبلغ ثم حذف هذا الجواب وجيء بدله لاصطفى تنبيهاً على أن الممكن هذا لا الأول وإنه لو كان هذا من اتخاذ الولد في شيء لجاز اتخاذ الولد عليه سبحانه وتعالى شأنه عن ذلك فقد تحقق التلازم وحق نفي اللازم وإثبات الملزوم دون صوبة ؛ ويجوز أن يكون المراد لو أراد الله أن يتخذ لامتنع ولم يصح لكن على إرادة نفي الصحة على كل تقدير من تقديري الإرادة وعدمها من باب لو لم يخف الله لم يعصه فلا ينفي الثاني إذ ذاك ولا يحتاج إلى بيان الملازمة وإذا امتنع ذلك فالممكن الاصطفاء وقد اصطفى سبحانه من مخلوقاته من شاء كالملائكة وعيسى وذهب عليكم أن الاصطفاء ليس باتخاذ ، والجواب

على هذا الوجه أيضاً محذوف أقيم مقامه ما يفيد زيادة مبالغة ، وإنما لم يجعل لاصطفى هو الجواب عليه لصيرورة المعنى حينئذ لو أراد اتخاذ الولد لاصطفى ولو لم يرد لاصطفى من طريق الأولى وحينئذ يكون إثبات الاصطفاء هو المطلوب من الإيراد كما أن التمدح بنفي العصيان في مثال الباب هو المطلوب وليس الكلام فيه ، وعلى الوجهين هو من أسلوب

: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

(70/665)

وجوز أن يكون المعنى في الآية لو أراد الله تعالى أن يتخذ ولداً لجعل المخلوق ولداً إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له تعالى والتالي محال للمباينة التامة بين المخلوق والخالق والولدية تأبى تلك المباينة فالمقدم مثله ويكون قوله تعالى ﴿ لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ على معنى لاتخذه ابناً على سبيل الكناية وما تقدم أولى لما فيه من المبالغة التي نبهت عليها ، وقوله تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد في حقه تعالى وتأكيد له ببيان تنزهه سبحانه عنه أي تنزهه الخاص به تعالى على أن سبحان مصدر من

سبح إذا بعض أو أسبحه تسبيحاً لائقاً به لأنه علم للتسبيح مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحاً لائقاً بشأنه جل شأنه ، وقوله تعالى :

(71/665)

﴿ هُوَ الله الواحد القهار ﴾ استئناف مقرر لتنزهه عن ذلك أيضاً فإن اتخاذ الولد يقتضي تبعضاً وانفصال شيء من شيء وكذا يقتضي المماثلة بين الولد والوالد والوحدة الذاتية الحقيقية التي هي في أعلى مراتب الوحدة الواجبة له تعالى بالبراهين القطعية العقلية تأبى التبعض والانفصال إباء ظاهراً لأنهما من خواص الكم وقد اعتبر في مفهوم الوحدة الذاتية سلبه فتأبى الاتخاذ المذكور وكذا تأبى المماثلة سواء فسرت بما ذهب إليه قدماء المعتزلة كالجبائي وابنه أبي هاشم وهي المشاركة في أخص صفات الذات كمشاركة زيد لعمرو في الناطقية أم فسرت بما ذهب إليه المحققون من الماتريدية وهي المشاركة في جميع الصفات الذاتية كمشاركته له في الحيوانية والناطقية أم فسرت بما نسب إلى الأشعري وهو التساوي بين الشيئين من كل وجه ، ولعل مراده نحو ما مر عن الماتريدي وإلا فمع التساوي من كل وجه ينتفي التعدد فينتفي التماثل بناء على ما قرروا من أن الوحدة الذاتية كما تقتضي نفي الأبعاض المقدارية تقتضي نفي الكثرة العقلية وأن التماثل يقتضي التعدد وهو يقتضي ثبوت

الأجزاء المذكورة كذا قيل ، وفيه بحث طويل وكلام غير قليل وسنذكر بعضاً منه إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الإخلاص فالأولى أن يقتصر على منافاة الوحدة الذاتية للتبعض والانفصال لاستلزامهما التركب الخارجي والحكماء والمتكلمون مجمعون على استحالته في حقه تعالى ودليلها أظهر من يذكر ، وكذا وصف القهارية يأبى اتخاذ الولد وقرر ذلك على أوجه ، فقيل وجه إبائها ذلك أن القهارية تقتضي الغنى الذاتي الذي هو أعلى مراتب الغنى وهو يقتضي التجرد عن المادة وتولد الولد عن الشيء يقتضيها ، وقيل إن القهارية تقتضي كمال الغنى وهو يقتضي كمال التجرد الذي هو البساطة من كل الوجوه فلا يكون هناك جنس وفصل ومادة وصورة وإعراض وأبعاض إلى غير ذلك مما يخل بالبساطة الكاملة الحقيقية واتخاذ الولد لما فيه من الانفصال والمثلية مخل

(72/665)

بتلك البساطة فيخل بالغنى فيخل بالقهارية ، وقد أشار سبحانه إلى أن الغنى ينافي أن يكون له سبحانه ولد بقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سبحانه هُوَ الغنى ﴾ [يونس : 68] وقيل : إن اتخاذ الولد يقتضي انفصال شيء عنه تعالى وذلك يقتضي أن يكون متأثراً مقهوراً لا مؤثراً قهاراً تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، فحيث كان جل وعلا قهاراً كما هو

مقتضى الألوهية استحال أن يكون له عز وجل ولد ، وقيل : إن القهارية منافية للزوال لأن القهار لو قبله كان مقهوراً إذ المزيل قاهر له ولذا قيل سبحانه من قهر العباد بالموت .

والولد من أعظم فوائده عندهم قيامه مقام الأب بعد زواله فإذا لم يكن الزوال لم يكن حاجة إلى الولد وهذا مع كونه إلزامياً لا يخلو عن بحث كما لا يخفى .

والزمخشري جعل قوله تعالى : ﴿ سبحانه هُوَ الله ﴾ الخ متصلاً بقوله عز وجل : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ [الزمر : 3] الخ على أنه مقرر نفى أن يكون له تعالى ولي ونفى أن يكون له ولد ، ولعل بيان ذلك لا يخفى فتدبر .

﴿ خَلَقَ السموات والأرض بالحق ﴾ إثبات لما ذكر أولاً من الوحدة والقهر ، وفيه أيضاً ما ستعمله إن شاء الله تعالى أي خلق هذا العالم المشاهدة ملتبساً بالحق والصواب مشتملاً على الحكم والمصالح .

(73/665)

وقوله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار وَيُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ بيان لكيفية تصرفه فيما ذكر بعد بيان الخلق فإن حدوث الليل والنهار منوط بتحريك أجرام سماوية ، والتكوير في الأصل هو اللف واللي من كان العمامة على رأسه وكورها ، والمراد على ما روى عن

قتادة يغشى أحدهما الآخر ، وهو على ما قيل على معنى يذهب أحدهما ويغشى مكانه الآخر أي يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً وبالعكس فالمغشى حقيقة المكان ، ويجوز أن يكون المغشي الليل والنهار على الاستعارة ويكون المكان ظرفاً ، والمقصود أنه لما كان أحدهما غاشياً للآخر أشبه اللباس الملفوف على لابسه في ستره إياه واشتماله عليه وتغطيه به .

وتحقيقه أن أحدهما لما كان محيطاً على جميع ما أحاط به الآخر من غير أن يكون ثم شيء زائد غير الظهور والخفاء جعل إحاطته على محاط الآخر إحاطة عليه مجاز ملابسته وعبر عنها بالغشيان والتكوير للشبه المذكور .

وجوز أن يكون المراد أن كل واحد من الليل والنهار يغيب الآخر إذا طرأ عليه فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار ورجح الأول بأن فيه مع اعتبار الستر اعتبار اللي وإحاطة الأطراف ثم إن هذا لظهوره تشبيه مبذول وأن يكون المراد أن هذا يكر على هذا كروراً متتابعاً فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض قيل وهو الأرجح لأنه اعتبر فيه ما اعتبر مع الأول مع النظر إلى المطرد فيه لفظ الكور فإنه لف بعد لف وهو أيضاً كذلك إلا أن أكوار العمامة متظاهرة وفيما نحن فيه متعاورة وهذا مما لا بأس به فإن كل لية تسمى كوراً حقيقة .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن المعنى يحمل أحدهما على الآخر ، وفسر هذا الحمل بالضم والزيادة أي يزيد الليل على النهار ويضمه إليه بأن يجعل بعض أجزاء الليل نهاراً فيطول النهار ويقصر الليل ويزيد النهار على الليل ويضمه إليه بأن يجعل سبحانه بعض أجزاء النهار ليلاً فيطول الليل ويقصر النهار .

وإلى هذا ذهب الراغب وهو معنى واضح والآية عليه كقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ الليل فِى النهار وَيُولِجُ النهار فِى الليل ﴾ [الحج : 61] في قول ، وذكر بعض الفضلاء أنها على المعنى الأول فيها شيء من قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ [الفرقان : 62] وعلى المعنى الثاني فيها شيء من قوله تعالى :

﴿ والليل إِذَا يغشى والنهار إِذَا تجلى ﴾ [الليل : 1 ، 2] وعلى الثالث شيء من قوله سبحانه : ﴿ يغشى إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى ﴾ [الأعراف : 54] وإنها يحتمل أن يكون فيها الاستعارة التبعية والمكنية والتخييلية والتمثيلية والتمثيل أولى بالاعتبار ؛ وأياً ما كان فصيغة المضارع للدلالة على التجدد .

﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ جعلهما منقادين لأمره عز وجل ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِاَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ بيان لكيفية تسخيرهما أي كل منهما يجري لمنتهى دورته أو منقطع حركته ، وقد مر تمام الكلام عليه ، وفيه دليل على أن الشمس متحركة ، وزعم بعض الكفرة أنها ساكنة وأنها مركز العالم وسمعت في هذه الآيام أنه ظهر في الإفرنج منذ سنتين تقريباً من يزعم أنها تتحرك على مركز آخر كما تتحرك الأرض عليها نفسها بزعمهم وزعم بعض المتقدمين ، ولهم في الهيئة كلام غير هذا وفيه الغث والسمين إلا أن نفيهم السماوات الناطقة بها الشرائع بالكلية من العجب العجاب وأنظارهم السخيفة تفضي بهم إلى ما هو أعجب من ذلك عند ذوي العقول السليمة نسأل الله تعالى السلامة والتوفيق ، ولي عزم على تأليف كتاب أبين فيه إن شاء الله تعالى ما هو الأقرب إلى الحق من الهيئتين القديمة والجديدة متحركاً على محور الانصاف ساكتاً عن سلوك مسالك الاعتساف والله تعالى الموفق لذلك .

﴿ اِلاَّ هُوَ العزيز ﴾ القادر على عقاب المصرين ﴿ الغفار ﴾ لذنوب التائبين أو الغالب الذي يقدر أن يعاجلهم بالعقوبة وهو سبحانه يحلم عليهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى فيكون قد سمي الحلم عنهم وقد ترك تعجيل العقوبة بالمغفرة التي هي ترك العقاب على طريق الاستعارة للمناسبة بينهما في الترك .

وجوز كون ذلك من باب المجاز المرسل ، والأول أبلغ وأحسن ، وهذان الوجهان في ﴿ العزيز الغفار ﴾ قد ذكرهما الزمخشري ، وظن بعضهم أن الداعي للأول رعاية مذهب الاعتزال حيث خص فيه المغفرة بذنوب التائبين فتركه وقال : العزيز القادر على كل ممكن الغالب على كل شيء الغفار حيث لم يعاجل بالعقوبة وسلب ما في هذه الصنائع من الرحمة وعموم المنفعة وما علينا أن نفسر كما فسر ونقول بأن مغفرته تعالى لا تخص التائبين بل قد يغفر جل شأنه لغيرهم إلا أن التقييد ليلائم ما تقدم أتم ملاءمة ، ففي "الكشف" أن الوجه الأول من ذينك الوجهين المذكورين يناسب قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ السموات والأرض بالحق ﴾ من وجهين .

أحدهما : ما فيه من الدلالة على كمال القدرة وكمال الرحمة المقتضي لعقاب المصر وغفران ذنوب التائب ، وثانيهما : أن قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ السموات ﴾ الخ مسوق لأمرين إثبات الوحدة والقهر المذكورين فيما قبل نفياً للولد بل حسبما للشرك من أصله والتسلق إلى ما مهد أولاً من العبادة والإخلاص لئلا يزول عن الخاطر فقيل ﴿ بالحق ﴾ كما قيل هنالك

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق ﴾ [الزمر : 2] وادمج فيه أن إنزال الكتاب كما يدل على استحقاقه تعالى للعبادة فكذلك خلق السموات والأرض بالحق والحكمة التي منها الجزاء على ما سلف فالتذييل بإلا هو العزيز الغفار للترغيب في طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص والتحذير عن خلاف ذلك سواء خالف أصل الدين كالكفر أو خالف الإخلاص فيه كسائر المعاصي في غاية الملاءمة ، وإنما أفرد مخالفة الدين بالذكر صريحاً في قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا ﴾ [الزمر : 3] الخ تحذيراً من حالهم لأنها هاتكة لعصمة النجاة فكانت أحق بالتحذير ، ورمز إلى هذا الثاني بالتذييل المذكور تكميلاً للمعنى المراد ومدار هذه السورة الكريمة على الأمر بالعبادة والإخلاص والتحذير من الكفر والمعاصي ، والوجه الثاني من ذينك الوجهين يناسب حديث الشرك والتذييل به لتوكيد تفظيع ما نسبوا إليه ، ولما ذكر تنزيل الكتاب وعقب بالأوصاف المقتضية للعبادة والإخلاص ذيله بقوله سبحانه : ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ [الزمر : 3] على ما تحقق وجهه وقد نقلناه نحن عنه فيما مر ، ثم لما ذكر بعده عظيم ما نسبوا إليه سبحانه : من الشرك والأولاد وما دل على تنزهه تعالى بالألوهية ناسب أن يذيله بقوله تعالى : ﴿ أَلا هُوَ العزيز الغفار ﴾ للتوكيد المذكور ، وقد آثر هذا العلامة الطيبي ويعلم مما ذكرنا وجه رجحان الأول اه ، والوجه الثاني من وجهي المناسبة على الوجه الأول أولى الوجهين ، والآية على ما ذكره البعض يجوز ارتباطها

بما عندها من الخلق والتكوير والتسخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(78/665)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف هو اسم إشارة ، أي : هذا تنزيل .

وقال أبو حيان : إن المبتدأ المقدّر لفظ هو ليعود على قوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ [ص : 87] ، كأنه قيل : وهذا الذكر ما هو ؟ فقيل : هو تنزيل الكتاب .

وقيل : ارتفاعه على أنه مبتدأ ، وخبره الجارّ والمجرور بعده ، أي : تنزيل كائن من الله ، وإلى هذا ذهب الزجاج ، والفراء .

قال الفراء : ويجوز أن يكون مرفوعاً بمعنى : هذا تنزيل ، وأجاز الفراء ، والكسائي النصب على أنه مفعول به لفعل مقدّر ، أي : اتبعوا ، أو اقرءوا تنزيل الكتاب .

وقال الفراء : يجوز نصبه على الإغراء ، أي : الزموا ، والكتاب هو : القرآن ، وقوله : ﴿ مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾ على الوجه الأوّل صلة للتنزيل ، أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ

محذوف ، أو متعلق بمحذوف على أنه حال عمل فيه اسم الإشارة المقدّر ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق ﴾ الباء سببية متعلقة بالإنزال ، أي : أنزلناه بسبب الحقّ ، ويجوز أن تتعلق بمحذوف هو : حال من الفاعل ، أي : ملتبسين بالحق ، أو من المفعول ، أي : ملتبساً بالحق ، والمراد كلّ ما فيه من إثبات التوحيد ، والنبوّة ، والمعاد ، وأنواع التكاليف .

قال مقاتل : يقول : لم ننزله باطلاً لغير شيء ﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، وانتصاب مخلصاً على الحال من فاعل اعبد ، والإخلاص : أن يقصد العبد بعمله وجه الله سبحانه ، والدين العبادة ، والطاعة ، ورأسها توحيد الله ، وأنه لا شريك له .

قرأ الجمهور : ﴿ الدين ﴾ بالنصب على أنه مفعول مخلصاً .

وقرأ ابن أبي عبلة برفعه على أن مخلصاً مسند إلى الدين على طريقة المجاز .

قيل : وكان عليه أن يقرأ مخلصاً بفتح اللام .

(79/665)

وفي الآية دليل على وجوب النية ، وإخلاصها عن الشوائب ؛ لأن الإخلاص من الأمور القلبية التي لا تكون إلا بأعمال القلب ، وقد جاءت السنة الصحيحة أن ملاك الأمر في

الأقوال ، والأفعال النية ، كما في حديث : " إنما الأعمال بالنيات " وحديث : " لا قول ولا عمل إلا بنية " وجملة ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ مستأنفة مقرّرة لما قبلها من الأمر بالإخلاص ، أي : إن الدين الخالص من شوائب الشرك ، وغيره هو لله ، وما سواه من الأديان ، فليس بدين الله الخالص الذي أمر به .

قال قتادة : الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ لما أمر سبحانه بعبادته على وجه الإخلاص ، وأن الدين الخالص له لا لغيره بيّن بطلان الشرك الذي هو مخالف للإخلاص ، والموصول عبارة عن المشركين ، ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ وجملة ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ في محل نصب على الحال بتقدير القول ، والاستثناء مفرّغ من أعمّ العلل ، والمعنى : والذين لم يخلصوا العبادة لله ، بل شابوها بعبادة غيره قائلين : ما نعبدهم لشيء من الأشياء إلا ليقرّبونا إلى الله تقريباً ، والضمير في نعبدهم راجع إلى الأشياء التي كانوا يعبدونها من الملائكة ، وعيسى ، والأصنام ، وهم : المرادون بالأولياء ، والمراد بقولهم : ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ الشفاعة ، كما حكاه الواحدي عن المفسرين .

قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم : من ربكم ، وخالقكم ، ومن خلق السموات ، والأرض ، وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا : الله ، فيقال لهم : ما معنى عبادتكم للأصنام ؟ قالوا : ليقرّبونا إلى الله زلفى ، ويشفعوا لنا عنده .

قال الكلبي : جواب هذا الكلام قوله في سورة الأحقاف : ﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله قُرْبَاناً ءالِهَةَ ﴾ [الأحقاف : 28] .

(80/665)

والزلفى اسم أقيم مقام المصدر ، كأنه قال : إلا ليقرّبونا إلى الله تقريباً .

وفي قراءة ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد : (قالوا ما نعبدهم) ، ومعنى ﴿ إِنَّ الله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : بين أهل الأديان يوم القيامة ، فيجازي كلا بما يستحقه .

وقيل : بين المخلصين للدين ، وبين الذين لم يخلصوا ، وحذف الأوّل لدلالة الحال عليه ، ومعنى ﴿ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ : في الذي اختلفوا فيه من الدين بالتوحيد ، والشرك ، فإن كلّ طائفة تدّعي أن الحقّ معها ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ كاذب كَفَّارٌ ﴾ أي : لا يرشد لدينه ، ولا يوفق للاهتداء إلى الحقّ من هو كاذب في زعمه : أن الآلهة تقربه إلى الله ، وكفر باتخاذها آلهة ، وجعلها شركاء لله ، والكفار صيغة مبالغة تدلّ على أن كفر هؤلاء قد بلغ إلى الغاية .

وقرأ الحسن ، والأعرج كذاب على صيغة المبالغة ككفار ، ورويت هذه القراءة عن أنس .

(81/665)

﴿ لَّوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى ﴾ هذا مقرّر لما سبق من إبطال قول المشركين : بأن الملائكة بنات الله لتضمنه استحالة الولد في حقه سبحانه على الإطلاق ، فلو أراد أن يتخذ ولداً لامتنع اتخاذ الولد حقيقة ، ولم يتأتّ ذلك إلا بأن يصطفي ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ أي : يختار من جملة خلقه ما يشاء أن يصطفيه ، إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوق له ، ولا يصح أن يكون المخلوق ولداً للخالق لعدم المجانسة بينهما ، فلم يبق إلا أن يصطفيه عبداً كما يفيده التعبير بالاصطفاء مكان الاتخاذ ؛ فمعنى الآية : لو أراد أن يتخذ ولداً لوقع منه شيء ليس هو من اتخاذ الولد ، بل إنما هو من الاصطفاء لبعض مخلوقاته ، ولهذا نزّه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد على الإطلاق ، فقال : ﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزيهاً له عن ذلك ، وجملة ﴿ هُوَ اللهُ الواحد القهار ﴾ مبينة لتنزّهه بحسب الصفات بعد تنزّهه بحسب الذات ، أي : هو المستجمع لصفات الكمال المتوحد في ذاته ، فلا مماثل له القهّار لكل مخلوقاته ، ومن كان متصفاً بهذه الصفات استحال وجود الولد في حقه ، لأن الولد مماثل لوالده ، ولا مماثل له سبحانه ، ومثل هذه الآية قوله سبحانه :

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاتخذناه مِن لَّدُنَّا ﴾ [الأنبياء : 17] ثم لما ذكر سبحانه كونه منزّهاً عن الولد بكونه إلها واحداً قهاراً ذكر ما يدل على ذلك من صفاته ، فقال : ﴿ خَلَقَ السموات والأرض بالحق ﴾ أي : لم يخلقهما باطلاً لغير شيء ، ومن كان هذا الخلق العظيم

خلقه استحال أن يكون له شريك ، أو صاحبة ، أو ولد .

ثم بيّن كيفية تصرفه في السموات ، والأرض ، فقال : ﴿ يُكَوِّرُ اليل عَلَى النهار ويُكَوِّرُ النهار عَلَى اليل ﴾ التكوير في اللغة : طرح الشيء بعضه على بعض .

(82/665)

يقال : كوّر المتاع : إذا ألقي بعضه على بعض ، ومنه كوّر العمامة ؛ فمعنى تكوير الليل على النهار : تغشيته إياه حتى يذهب ضوؤه ، ومعنى تكوير النهار على الليل : تغشيته إياه حتى تذهب ظلمته ، وهو : معنى قوله تعالى : ﴿ يُغْشِي الليل النهار يَطْلُبُهُ حَثِيثا ﴾ [الأعراف : 54] هكذا قال قتادة ، وغيره .

وقال الضحاك : أي : يلقي هذا على هذا ، وهذا على هذا ، وهو مقارب للقول الأوّل .

وقيل : معنى الآية : أن ما نقص من الليل دخل في النهار ، وما نقص من النهار دخل في الليل ، وهو : معنى قوله : ﴿ يُولِجُ اليل فِى النهار ويُولِجُ النهار فِى اليل ﴾ [الحج : 61] ، وقيل : المعنى : إن هذا يكرّ على هذا ، وهذا يكرّ على هذا كروراً متتابعاً .

قال الراغب : تكوير الشيء إدارته ، وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة ا ه .

والإشارة بهذا التكوير المذكور في الآية إلى جريان الشمس في مطالعها ، وانتقاص الليل ،

والنهار ، وازديادهما .

قال الرازي : إن النور ، والظلمة عسكران عظيمان ، وفي كل يوم يغلب هذا ذاك ، وذاك هذا ؛ ثم ذكر تسخيره لسلطان النهار ، وسلطان الليل ، وهما : الشمس ، والقمر ، فقال : ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ أي : جعلهما منقادين لأمره بالطلوع ، والغروب لمنافع العباد ، ثم بيّن كيفية هذا التسخير ، فقال : ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : يجري في فلكه إلى أن تنصرم الدنيا ، وذلك يوم القيامة ، وقد تقدّم الكلام على الأجل المسمى لجريهما مستوفي في سورة "ياس" ﴿ أَلا هُوَ العزيز الغفار ﴾ ألا : حرف تنبيه ، والمعنى : تنبهوا أيها العباد ، فالله هو : الغالب الساتر لذنوب خلقه بالمغفرة .

(83/665)

ثم بيّن سبحانه نوعاً آخر من قدرته ، وبديع صنعه ، فقال : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ واحدة ﴾ ، وهي : نفس آدم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ جاء بثمّ للدّلالة على ترتب خلق حواء على خلق آدم ، وتراخيه عنه ؛ لأنها خلقت منه ، والعطف : إما على مقدّر هو صفة لنفس .

قال الفراء ، والزجاج : التقدير خلقكم من نفس خلقها واحدة ، ثم جعل منها زوجها .

ويجوز أن يكون العطف على معنى واحدة ، أي : من نفس انفردت ، ثم جعل إلخ ، والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثمّ للدّلالة على أن خلق حوّاء من ضلع آدم أدخل في كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة ، لأن خلق آدم هو على عادة الله المستمرة في خلقه ، وخلقها على الصفة المذكورة لم تجر به عادة لكونه لم يخلق سبحانه أنثى من ضلع رجل غيرها ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الأعراف .

ثم بيّن سبحانه نوعاً آخر من قدرته الباهرة ، فقال : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثمانية أزواج ﴾ ، وهو معطوف على خلقكم ، وعبر بالإنزال لما يروى : أنه خلقها في الجنة ، ثم أنزلها ، فيكون الإنزال حقيقة ، ويحتمل أن يكون مجازاً ، لأنها لم تعش إلا بالنبات ، والنبات إنما يعيش بالماء ، والماء منزل من السماء ، كانت الأنعام كأنها منزلة ، لأن سبب سببها منزل كما أطلق على السبب في قوله :

إذا نزل السماء بأرض قوم . . . رعيناه وإن كانوا غضابا

وقيل : إن أنزل بمعنى : أنشأ ، وجعل ، أو بمعنى : أعطى .

وقيل : جعل الخلق إنزالاً ، لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء ، والثمانية الأزواج هي ما في قوله : ﴿ مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين ﴾ [الأنعام : 143] ﴿ وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين ﴾ [الأنعام : 144] ويعني بالاثنين في الأربعة المواضع : الذكر ، والأنثى ، وقد تقدّم تفسير الآية في سورة الأنعام .

ثم بيّن سبحانه نوعاً آخر من قدرته البديعة ، فقال : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أمهاتكم خَلْقاً مّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ ، والجملة استئنافية لبيان ما تضمنته من الأطوار المختلفة في خلقهم ، وخلقاً مصدر مؤكد للفعل المذكور ، و ﴿ مّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ صفة له ، أي : خلقاً كائناً من بعد خلق .

قال قتادة ، والسدّي : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظماً ، ثم لحماً .

وقال ابن زيد : خلقكم خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم ، وقوله : ﴿ فِى ظلمات ثلاث ﴾ متعلق بقوله : ﴿ يَخْلُقُكُمْ ﴾ ، وهذه الظلمات الثلاث هي : ظلمة البطن ، وظلمة الرّحم ، وظلمة المشيمة قاله مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك .

وقال سعيد بن جبير : ظلمة المشيمة ، وظلمة الرّحم ، وظلمة الليل .

وقال أبو عبيدة : ظلمة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ، وظلمة الرّحم ، والإشارة بقوله : ﴿ ذَلِكُمُ الله ﴾ إليه سبحانه باعتبار أفعاله السابقة ، والاسم الشريف خبره ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ خبر آخر ﴿ لَهُ الملك ﴾ الحقيقي في الدنيا ، والآخرة لا شركة لغيره فيه ، وهو : خبر ثالث ، وقوله : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ خبر رابع ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ أي : فكيف تنصرفون

عن عبادته ، وتنقلبون عنها إلى عبادة غيره .

قرأ حمزة : (إمهاتكم) بكسر الهمزة ، والميم .

وقرأ الكسائي بكسر الهمزة ، وفتح الميم .

وقرأ الباقون بضم الهمزة ، وفتح الميم .

وقد أخرج ابن مردويه ، عن يزيد الرقاشي أن رجلاً قال : يا رسول الله إنا نعطي أموالنا التماس الذكر ، فهل لنا في ذلك من أجر ؟ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا " قال : يا رسول الله إنما نعطي التماس الأجر والذكر فهل لنا أجر ؟ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يقبل إلا ما أخلص له " ثم تلا هذه الآية : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ .

(85/665)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يُكَوِّرُ الليل ﴾ قال : يحمل الليل .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ خَلْقاً

مّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ قال : علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ﴿ فِى ظلمات ثلاث ﴾ البطن ، والرحم ، والمشيمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(86/665)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ . . سُبْحانَهُ ، هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ » .

أي لو أراد اللّه سبحانه أن يتخذ له ولدا ـ كما يزعم هؤلاء الضالون ـ لاختاره هو سبحانه ، ولخلقه على ما يشاء ، لا أن يختاره له هؤلاء الضالون ، كما يقول سبحانه عنهم : « وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ » (100 : الأنعام) .

وقوله تعالى : « سُبْحانَهُ . . هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ » تنزيه للّه عن أن يكون له ولد . . فهو سبحانه « الواحد » الذي لا شريك له . . والولد شريك للوالد ، وهو سبحانه « القهار » أي القوى الذي لا يغلب . . فليس به إلى الولد حاجة ، مما يبغيه الوالدون من الأولاد . .

قوله تعالى : « خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ . . يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ

عَلَى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ . . كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى . . أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ »

.

(87/665)

ذلك هو بعض سلطان اللّه ، وتلك هى بعض قدرته . . فالسموات والأرض صنعة يده . . وبعض خلقه . . وقد خلقهما سبحانه بالحق ، الذي هو صفته .

وقوله تعالى « يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ » . . يشير إلى أمور :

أولها : أن النهار والليل يكوّر كل منهما على الآخر ، فى حركة دائبة . .

حيث لا يكون نهار إلا كور عليه الليل ، ولا يكون ليل إلا كور عليه النهار . .

وثانيهما : أن التكوير يعنى الحجب والتغطية من الأعلى للأسفل ، إذ أن أصله من تكوير العمامة على الرأس . . يقال كر العمامة ، وكورها ، أي لفها على رأسه ، حتى صارت مثل الكرة .

وثالثها : أن هذه الصورة من التكوير ، تشير إلى كروية الأرض ، وإلى أن الليل والنهار يتحركان فوق كرة ، أشبه بالعمامة التي تعلو الرأس .

ورابعها : أن لفظ « يكور » يشير إلى أن الأرض متحركة ، وأن هذا التكوير الذي يجرى

على الكرة ، إنما يقع حالا بعد حال ، ووقتا بعد وقت . .

وخامسها : تقديم تكوير الليل على النهار ، إشارة إلى اتجاه حركة الأرض ، بعد لإشارة إلى شكلها الكروي وإلى حركتها . فإن هذه الحركة من الغرب إلى الشرق ، حيث يكون النهار أولا ، ثم يتلوه الليل فيتكور عليه ، ثم يعقبه النهار ، فيعلوه متكورا عليه كذلك . . وهكذا . .

قوله تعالى : « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى » .

أي وأجرى الشمس والقمر ، وسخرهما بقدرته ، وأقامهما على نظام محكم

(88/665)

لا يخرجان عنه . . فلكلّ فلكه الذي يجرى فيه . . لا يتعداه . .

وقوله تعالى : « أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ » . . إشارة إلى عزّة اللّه وقوته ، وأنه القهّار الذي يخضع كل موجود لسلطانه . . ومن كان هذا شأنه فإن نسبة الولد إليه ضلال مبين ، وسفه جهول . . لأن الولد إنما يسدّ نقصا ، ويشبع رغبة ، ويرضى عاطفة . . وتعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا .

واللّه سبحانه وتعالى مع عزّته وقوته ، فهو غفار للسيئات ، غفور للمذنبين ، إذا هم تابوا إلى

اللّه ، واستغفروا لذنوبهم ! « وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ » (135 آل عمران) . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 12 صـ 1117.1119 ﴾

(89/665)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾

موقع هذه الآية موقع الاحتجاج على أن المشركين كاذبون وكفّارون في اتخاذهم أولياء من دون الله ، وفي قولهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله ﴾ [الزمر : 3] وأن الله حرمهم الهدى وذلك ما تضمنه قوله قبله : ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذبٌ كفَّارٌ ﴾ [الزمر : 3] ، فقصد إبطال شركهم بإبطال أقواه وهو عدّهم في جملة شركائهم شركاءَ زعموا لهم بنوّة لله تعالى ، حيث قالوا : ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ [البقرة : 116] فإن المشركين يزعمون اللاتَ والعزى ومناةَ بناتِ الله قال تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ [النجم : 19 21] .

قال في "الكشاف" هنالك : "كانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام (يعني هذه الثلاثة) بناتُ الله" وذكر البغوي عن الكلبي كان المشركون بمكة يقولون : الأصنام والملائكة بنات الله

فخص الاعتقاد بأهل مكة ، والظاهر أن ذلك لم يقولوه في غير اللات والعزّى ومناةَ ، لأن أسماءها مؤنثة ، وإلاّ فإن في أسماء كثير من أسماء أصنامهم ما هو مذكّر نحو ذي الخَلَصة ، وذكر في "الكشاف" عند ذكر البسملة أنهم كانوا يقولون عند الشروع في أعمالهم : باسم اللات ، باسم العزّى .

فالمقصود من هذه الآية إبطال إلهية أصنام المشركين على طريقة المذهب الكلامي .

واعلم أن هذه الآية والآيات بعدها اشتملت على حجج انفراد الله .

(90/665)

ومعنى الآية : لو كان الله متخذاً ولداً لاختار من مخلوقاته ما يشاء اختياره ، أي لاختار ما هو أجدر بالاختيار ولا يختار لبنوته حجارة كما زعمتم لأن شأن الاختيار أن يتعلق بالأحسن من الأشياء المختار منها فبطل أن تكون اللاتُ والعُزّى ومناةُ بناتٍ لله تعالى ، وإذا بطل ذلك عنها بطل عن سائر الأصنام بحكم المساواة أو الأحرى ، فتكون ﴿ لو هنا هي الملقبة لو الصهيبية ، أي التي شرطها مفروض فرضاً على أقصى احتمال وهي التي يُمثلون لها بالمثل المشهور : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، فكان هذا إبطالاً لما تضمنه قوله : ﴿ والذين اتَّخذوا من دونه إولياء ما نعبدهم ﴾ إلى قوله : ﴿ كَفَّار ﴾ [

الزمر : 3] .

وليس هو إبطالاً لمقالة بعض العرب : إن الملائكة بنات الله ، لأن ذلك لم يكن من عقيدة المشركين بمكة الذين وجه الخطاب إليهم ، ولا إبطالاً لبنوة المسيح عند النصارى لأن ذلك غير معتقَد عند المشركين المخاطبين ولا شعور لهم به ، وليس المقصود محاجّة النصارى ولم يتعرض القرآن المكي إلى محاجّة النصارى .

واعلم أنه بني الدليل على قاعدة استحالة الولد على الله تعالى إذ بُني القياس الشرطي على فرض اتخاذ الولد لا على فرض التولّد ، فاقتضى أن المراد باتخاذ الولد التبنّي لأن إبطال التبنّي بهذا الاستدلال يستلزم إبطال تولد الابن بالأولى .

وعزز المقصود من ذكر فعل الاتخاذ بتعقيبه بفعل الاصطفاء على طريقة مجاراة الخصم المخطىء ليغير في مهواة خطئه ، أي لو كان لأحد من الله نسبة بنوة لكانت تلك النسبة التبنِّيَ لا غير إذ لا تتعقل بنوة لله غير التبنّي ولو كان الله متبنِّياً لاختار ما هو الأليق بالتبنّي من مخلوقاته دون الحجارة التي زعمتموها بنات لله .

(91/665)

وإذا بطلت بنوة تلك الأصنام الثلاثة المزعومة بطلت إلهية سائر الأصنام الأخرى التي اعترفوا بأنها في مرتبة دون مرتبة اللات والعزّى ومناة بطريق الأوْلى واتفاقِ الخصمين فقد اقتضى الكلام دليلين : طوي أحدهما وهو دليل استحالة الولد بالمعنى الحقيقي عن الله تعالى ، وذكر دليل إبطال التبنّي لما لا يليق أن يتبناه الحكيم .

هذا وجه تفسير هذه الآية وبيان وقعها مما قبلها وبه تخرج عن نطاق الحيرة التي وقع فيها المفسرون فسلكوا مسالك تعسف في معناها ونظمها وموقعها ، ولم يتم لأحد منهم وجه الملازمة بين شرط ﴿ لو وجوابها ، وسكت بعضهم عن تفسيرها .

فوقع في الكشاف ﴿ ما يفيد أن المقصود نفي زعم المشركين بنوة الملائكة وجعل جواب ﴿ لو محذوفاً وجعل المذكور في موضع الجواب إرشاداً إلى الاعتقاد الصحيح في الملائكة فقال : يعني لو أراد الله اتخاذ الولد لامتنع ، ولم يصح لكونه (أي ذلك الاتخاذ) محالاً ولم يتأتَّ إلاّ أن يصطفي من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده وقد فعل ذلك بالملائكة فغرّكم اختصاصه إياهم فزعمتم أنهم أولاده جهلاً منكم بحقيقته المخالفةِ لحقائق الأجسام والأعراض .

فجعل ما هو في الظاهر جواب لو مفيداً معنى الاستدراك الذي يَعقُب المقدَّمَ والتاليَ غالباً ، فلذلك فسره بمرادفه وهو الاستثناء الذي هو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده .

وللتفتزاني بحث يقتضي عدم استقامة تقرير الكشاف ﴿ لدليل شرط ﴿ لو وجوابه ،

واستظهر أن لو صهيبية تبعاً لتقرير ذكره صاحب الكشف ﴾ .

وبعد فإن كلام صاحب "الكشاف" يجعل هذه الآية منقطعة عن الآيات التي قبلها ، فيجعلُها بمنزلة غرض مستأنف مع أن نظم الآية نظم الاحتجاج لا نظم الإِفادة ، فكان محمل "الكشاف" فيها بعيداً .

ومع قطع النظر عن هذا فإن في تقرير الملازمة في الاستدلال خفاء وتعسفاً كما أشار إليه الشَقَّار في كتابه "التقريب مختصرِ الكشاف" .

(92/665)

وقال ابن عطية : معنى اتخاذ الولد اتخاذ التشريف والتبنّي وعلى هذا يستقيم قوله : ﴿ لاصطفى ﴾ وأما الاتخاذ المعهود في الشاهد (يعني اتخاذ النسل) فمستحيل أن يتوهم في جهة الله ولا يستقيم عليه قوله : ﴿ لاصطفى ﴾ .

ومما يدل على أن معنى أن يتخذ الاصطفاء والتبني قوله : ﴿ مِّمَّا يَخْلُقُ ﴾ أي من محداثته ا ه وتبعه عليه الفخر .

وبنى عليه صاحب "التقريب" فقال عقب تعقب كلام "الكشاف" "والأولى ما قيل : لو أراد أن يتخذ ولداً كما زعمتم لاختار الأفضل (أي الذكور) لا الأنقص وهنّ الإِناث" .

وقال التفتازاني في "شرح الكشاف" : هذا معنى الآية بحسب الظاهر ، وذكر أن صاحب "الكشاف" لم يسلكه للوجه الذي ذكره التفتازاني هناك .

والذي سلكه ابن عطية وإن كان أقرب وأوضح من مسلك "الكشاف" في تقرير الدليل لكنه يشاركه في أنه لا يصل الآية بالآيات التي قبلها وينبغي أن لا تقطع بينها الأواصر ، وكم ترك الأول للآخر .

وجملة ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه له عما نسبوه إليه من الشركاء بعد أن أبطله بالدليل الامتناعي عوداً إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين الذي فارقه من قوله : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ [الزمر : 2] .

وجملة ﴿ هو الله الواحد القهّارُ ﴾ دليل للتزيه المستفاد من ﴿ سبحانه ﴾ .

فجملة ﴿ هُوَ الله ﴾ تمهيد للوصفين ، وذِكر اسمه العلم لإِحضاره في الأذهان بالاسم المختص به فلذلك لم يقل : هو الواحد القهّار كما قال بعدُ : ﴿ ألا هوَ العزيزُ الغفَّارُ ﴾ [الزمر : 5] .

وإثبات الوحدانية له يبطل الشريك في الإلهية على تفاوت مراتبه ، وإثبات ﴿ القهَّارُ ﴾ يبطل ما زعموه من أن أولياءهم تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم .

والقهر : الغلبة ، أي هو الشديد الغلبة لكل شيء لا يغلبه شيء ولا يصرفه عن إرادته .

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5)

هذه الجملة بيان لجملة ﴿ هو الله الواحد القهار ﴾ [الزمر : 4] فإن خلق هذه العوالم والتصرف فيها على شدتها وعظمتها يبين معنى الوحدانية ومعنى القهّارية ، فتكون جملة ﴿ هو الله الواحد القهار ﴾ ذات اتصالين : اتصالٍ بجملة ﴿ لو أراد الله أن يتَّخِذَ ولداً ﴾ [الزمر : 4] كاتصال التذييل ، واتصالٍ بجملة ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق ﴾ اتصالَ التمهيد .

وقد انتقل من الاستدلال باقتضاء حقيقة الإلهية نفي الشريك إلى الاستدلال بخلق السماوات والأرض على أنه المنفرد بالخلق إذ لا يستطيع شركاؤهم خلق العوالم .

والباء في ﴿ بالحقِّ ﴾ للملابسة ، أي خلقها خلقاً ملابساً للحق وهو هنا ضد العبث ، أي خلقهما خلقاً ملابساً للحكمة والصواب والنفع لا يشوب خلقهما عبث ولا اختلال قال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ [الدخان : 38 39] .

وجملة ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ ﴾ بيان ثان وهو كتعداد الجمل في مقام الاستدلال أو الامتنان .

وأوثر المضارع في هذه الجملة للدلالة على تجدد ذلك وتكرره ، أو لاستحضار حالة

التكوير تبعاً لاستحضار آثارها فإن حالة تكوير الله الليل على النهار غير مشاهدة وإنما المشاهد أثرها وتجدد الأثر يدل على تجدد التأثير .

والتكوير حقيقته : اللف واللي ، يقال : كَوَّر العمامةَ على رأسه إذا لواها ولفَّها ، ومثّلت به هنا هيئة غشيان الليل على النهار في جزء من سطح الأرض وعكسُ ذلك على التعاقب بهيئة كَوْر العمامة ، إذ تغشى الليَّةُ الليَّةَ التي قبلها .

(94/665)

وهو تمثيل بديع قابل للتجزئة بأن تشبه الأرض بالرأس ، ويشبه تعاور الليل والنهار عليها بلف طيات العمامة ، ومما يزيده إبداعاً إيثار مادة التكوير الذي هو معجزة علمية من معجزات القرآن المشار إليها في المقدمة الرابعة والموضحة في المقدمة العاشرة ، فإن مادة التكوير جَائية من اسم الكُرة ، وهي الجسم المستدير من جميع جهاته على التساوي ، والأرض كروية الشكل في الواقع وذلك كان يجهله العرب وجمهور البشر يومئذٍ فأومأ القرآن إليه بوصف العَرضين اللذين يعتريان الأرض على التعاقب وهما النور والظلمة ، أو الليل والنهار ، إذ جعل تعاورهما تكويراً لأن عَرَض الكرة يكون كروياً تبعاً لذاتها ، فلما كان سياق هذه الآية للاستدلال على الإلهية الحقِّ بإنشاء السماوات والأرض اختير للاستدلال

على ما يَتبع ذلك الإِنشاء من خلق العَرضين العظيمين للأرض مادةُ التكوير دون غيرها من نحو الغشيان الذي عبر به في قوله تعالى : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ في سورة [الأعراف : 54] ، لأن تلك الآية مسوقة للدلالة على سعة التصرف في المخلوقات لأن أولها ﴿ إن ربكم اللَّه الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ [الأعراف : 54] فكان تصوير ذلك بإغشاء الليل والنهار خاصة لأنه دل على قوة التمكن من تغييره أعراض مخلوقاته ، ولذلك اقتصر على تغيير أعظم عَرَض وهو النور بتسليط الظلمة عليه ، لتكون هاته الآية لمن يأتي من المسلمين الذين يطلعون على علم الهيئة فتكون معجزة عندهم .

وعطفُ جملة ﴿ ويُكورُ النهار على الليل ﴾ هو من عطف الجزء المقصود من الخبر كقوله : ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ [التحريم : 5] .

وتسخير الشمس والقمر هو تذليلهما للعمل على ما جعل الله لهما من نظام السير سير المتبوع والتابع ، وقد تقدم في سورة الأعراف وغيرها .

(95/665)

وعطفت جملة ﴿ وسخَّر الشمس والقمرَ ﴾ على جملة ﴿ يُكورُ الليل على النهارِ ﴾ لأن ذلك التسخير مناسب لتكوير الليل على النهار وعكسه فإن ذلك التكوير من آثار ذلك التسخير فتلك المناسبة اقتضت عطف الجملة التي تضمنته على الجملة التي قبلها .

وجملة ﴿ كلٌّ يجري لأجَلٍ مسمى ﴾ في موقع بدل اشتمال من جملة ﴿ سَخر الشمس والقمرَ ﴾ وذلك أوضح أحوال التسخير .

وتنوين ﴿ كلّ للعِوض ، أي كل واحد .

والجري : السير السريع .

واللام للعلة .

والأجل هو أجل فنائهما فإن جريهما لما كان فيه تقريب فنائهما جعل جريهما كأنه لأجل الأجل أي لأجل ما يطلبه ويقتضيه أجل البقاء ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقرٍ لها ﴾ [يس : 38] ، فالتنكير في (أجل) للإفراد .

ويجوز أن يكون المراد بالأجل أجل حياة الناس الذي ينتهي بانتهاء الأعمار المختلفة .

وليس العمر إلا أوقاتاً محدودة وأنفاساً معدودة .

وجري الشمس والقمر تُحسب به تلك الأوقات والأنفاس ، فصار جريهما كأنه لأجل .

قال أسقف نجران :

مَنَع البقاءَ تقلُّبُ الشمس

وطلوعها من حيث لا تُمسي . . .

وأقوالهم في هذا المعنى كثيرة

فالتنكير في ﴿ أجلٍ ﴾ للنوعية الذي هو في معنى لآجالٍ مُسماة .

ولعل تعقيبه بوصف ﴿ الغَفَّارُ ﴾ يرجح هذا المحمل كما سيأتي .

والمسمّى : المجعول له وَسم ، أي ما به يُعين وهو ما عيّنه الله لأن يبلغ إليه .

وقد جاء في آيات أخرى ﴿ كل يجري إلى أجل ﴾ [لقمان : 29] بحرف انتهاء الغاية ، ولامُ العلة وحرفُ الغاية متقاربان في المعنى الأصلي وأحسب أن اختلاف التعبير بهما مجرد تفنن في الكلام .

﴿ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ العزيز ﴾ .

استئناف ابتدائي هو في معنى الوعيد والوعد ، فإن وصف ﴿ العزيزُ ﴾ كناية عن أنه يفعل ما يشاء لا غالب له فلا تُجدي المشركين عبادةُ أوليائهم ، ووصفَ ﴿ الغَفَّارُ مؤذن باستدعائهم إلى التوبة باتباع الإِسلام .

(96/665)

وفي وصف الغَفَّارُ ﴾ مناسبة لذكر الأجل لأن المغفرة يظهر أثرها بعد البعث الذي يكون بعد الموت وانتهاء الأجل تحريضاً على البدار بالتوبة قبل الموت حين يفوت التدارك .

وفي افتتاح الجملة بحرف التنبيه إيذان بأهمية مدلولها الصريح والكنائي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(97/665)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4) ﴾

خاطَبَهم على قَدْرِ عقولهم وعقائدهم حيث قالوا : المسيحُ ابن اللَّهِ ، وعُزَيْرُ وَلَدُ اللَّهِ ؛ فقال : لو أراد أن يتَّخِذَ وَلَداً للتبنّى والكرامة لاخْتَارَ من الملائكة الذين هم مُنْزَّهون عن الأكل والشرب وأوصاف الخَلْقِ .

ثم أخبر عن تَقَدُّسِه عن ذلك فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ تنزيهاً له على اتخاذ الأولاد . . . لا في الحقيقة لاستحالة معناه في نَعْتِه ، ولا بالتبنّي لِتَقَدُّسِه عن الجنسية

والمحالات ، وإنما يذكر ذلك على جهة استبعاد ، ؛ إذا لو كان ذلك فيكف كان يكون حُكْمُه ؟ كقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِ ﴾ .

أي خَلَقَهما وهو مُحِقٌّ في خلقهما .

﴿ يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

يُدْخِلُ الليلَ على النهارِ ، ويدخل النهارَ على الليل في الزيادة والنقصان ، وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ . وقد مضى فيما تقدم اختلافُ أحوالِ العبد في القبض والبسط ، والجَمْع والفَرْق ، والأخذ والرد ، والصحو والسُّكْرِ ، ونجوم العقل وأقمار العلم ، وشموس المعرفة ونهار التوحيد ، وليالي الشَّكِّ والجَحْدِ ونهار الوصل ، وليالي الهجر والفراق وكيفية اختلافها ، وزيادتها ونقصانها .

﴿ أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ .

" العزيز " المتعزِّز على المحبين ، " الغفار " للمذنبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 268 ﴾

قوله تعالى ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان خلق الحيوان أدل على الوحدانية والقهر بما خالف به الجمادات من الحياة التي لا يقدر على الانفكاك عنها قبل أجله ، وبما له من أمور اضطرارية لا محيص له عنها ، وأمور اختيارية موكولة في الظاهر إلى مشيئته ، وكان أعجبه خلقاً الإنسان بما له من قوة النطق ، قال دالاً على ما دل عليه بخلق الخافقين لافتاً القول إلى خطاب النوع كله إيذاناً بتأهلهم للخطاب ، وترقيهم في عُلا الأسباب ، من غير عطف إيذاناً بأن كلاًّ من خلقهم وخلق ما قبلهم مستقل بالدلالة على ما سيق له : ﴿ خلقكم ﴾ أي أيها الناس المدعون لإلهية غيره ﴿ من نفس واحدة ﴾ هي آدم عليه السلام .

ولما كان إيجادنا منها بعد شق الأنثى منها ، قال عاطفاً على ما تقديره : أوجدها من تراب

، مبيناً بلفظ الجعل أن الذكر هو سببها ومادتها منبهاً بأداة التراخي على القهر الذي السياق له بالتراخي في الزمان بتأخير المسبب عن سببه المقتضي له إلى حين مشيئته لأن إيجادها منه كان بعد مدة من إيجاده ، والأصل في الأسباب ترتب المسببات عليها من غير مهلة وعلى التراخي في الرتبة أيضاً بأن ذلك – لكونه شديد المباينة لأصله – من أعجب العجب : ﴿ ثم ﴾ أي بعد حين ، وعبر بالجعل لأنه كافٍ في نفي الشركة التي هذا أسلوبها وليبين أنه ما خلق آدم عليه السلام إلا ليكون سبباً لما يحدث عنه من الذرية ليترتب على ذلك إظهار ما له سبحانه من صفات الكمال فقال : ﴿ جعل منها ﴾ أي تلك النفس ﴿ زوجها ﴾ أي ونقلكم بعد خلقكم منه إليها ثم أبرزكم إلى الوجود الخارجي منها ، ويجوز – وهو أحسن – أن يكون المعنى لأن السياق لإحاطة العلم المدلول عليه بإنزال الكتاب وما تبعه : قدر خلقكم على ما أنتم عليه من العدد والألوان وجميع الهيئات حين خلق آدم بأن هيأه لأن تفيضوا منه ، فلا تزيدون على ما قدره شيئاً ولا تنقصون وأن تفيض منه زوجه ، وذلك قبل خلق حواء منه ، ثم أوجدها فكان الفيض منها فيضاً منه فالكل منه ، ولهذا ورد الحديث في مسند أحمد بن منيع عن أبي الدرداء ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

" خلق الله آدم يوم خلقه وضرب على كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر ،

وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم ، فقال للذي في يمينه : إلى الجنة ولا أبالي ، وقال للذي في يساره : إلى النار ولا أبالي " .

(99/665)

ولما كان تنويع الحيوان إلى أنواع متباينة أدل على القدرة التي هي منشأ القهر ، وكان سبحانه موصوفاً بالعلو ، وكان أكثر الأنعام أشد من الإنسان ، فكان تسخيره له وتذليله إنزالاً عن قوته وإيهاناً لشدته ، قال دالاً على ذلك الإنشاء والجعل بلفظ الإنزال : ﴿ وأنزل لكم ﴾ أي خاصة ﴿ من الأنعام ﴾ أي الإبل بنوعيها ، والبقر كذلك ، والضأن والمعز .

ولما لم يكن عند العرب البخاتي والجواميس لم يذكرها سبحانه ، واقتصر على ما عندهم ، وقال : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ أي من كل نوع زوجين ذكراً وأنثى ، والزوج اسم لواحد معه آخر لا يكمل نفعه إلا به ، وإذا نظرت هذه العبارة مع العبارة عن خلق الإنسان فهمت أن الأنعام خلق كل ذكرها وأنثاها على انفراده ، لا أن أحداً منها من صاحبه ، وذلك أدل على إطلاق التصرف وتنويعه مما لو جعل خلقها مثل خلق الآدمي .

ولما كان تكوينهم في تطويرهم عجباً قال مستأنفاً بياناً لما أجمل قبل : ﴿ يخلقكم ﴾ أي يقدر إيجادكم أنتم والأنعام على ما أنتم عليه من أخلاط العناصر ﴿ في بطون أمهاتكم ﴾

ولما كان تطوير الخلق داخل البطن حيث لا تصل إليه يد مخلوق ولا بصره ، قال دالاً على عظمته ودلالته على تمام القدرة والقهر : ﴿ خلقاً ﴾ ودل على تكوينه شيئاً بعد شيء بإثبات الحرف فقال : ﴿ من بعد خلق ﴾ أي في تنقلات الأطوار وتقلبات الأدوار .

ولما كان الحيوان لا يعرف ما هو إلا في التطوير الرابع ، وكان الجهل ظلمة قال : ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ ظلمة النطفة ثم العلقة ثم المضغة ، فإذا صار عظاماً مكسوة لحماً عرف هل هو ذكر أو أنثى فزالت عنه ظلمات الجهل ، وصار خلقاً آخر ، وقيل ؛ ظلمة البطن والرحم والمشيمة – نقل عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وعزاه ابن أبي الدنيا في كتاب القناعة إلى عيسى ابن مريم عليه السلام .

(100/665)

ولما ثبت له سبحانه كمال العظمة والقهر ، قال مستأنفاً ما أنتجه الكلام السابق معظماً باداة البعد رميم الجمع : ﴿ ذلكم ﴾ أي العالي المراتب شهادتكم أيها الخلق كلكم ، بعضكم بلسان قاله ، وبعضكم بناطق حاله ، الذي جميع ما ذكر من أول السورة إلى هنا أفعاله ، ولما أشار إلى عظمته بأداة البعد ، أخبر عن اسم الإشارة فقال : ﴿ الله ﴾ أي الجامع لجميع صفات الكمال ، ونبه على جهلهم مما يعلمون من ربوبيته لعملهم بالشرك عمل

جاهل بذلك فقال واصفاً : ﴿ ربكم ﴾ أي المالك والمربي لكم بالخلق والرزق .

ولما كان المربي قد لا يكون ملكاً قال نتيجة لما سبق : ﴿ له ﴾ أي وحده ﴿ الملك ﴾ ولما كان المختص بالملك قد لا يكون إلهاً ، قال مثبتاً له الإلهية على ما يقتضيه من الوحدانية وهو بمنزلة نتيجة النتيجة : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ .

ولما تكفل هذا السياق بوجوب الإخلاص في الإقبال عليه والإعراض عما سواه ، لأن الكل تحت قهره ، وشمول نهيه وأمره ، سبب عنه قوله : ﴿ فأنى ﴾ أي فكيف ومن أي وجه ﴿ تصرفون ﴾ أي قهراً عن الإخلاص له إلى الإشراك به بصارف ما وإن كان عظيماً ، ونبه بالبناء للمفعول مع هذا على أنهم مقهورون في فعل ما هم عليه لأنهم تابعون للهلاك المحض ، تاركون للأدلة التي لا خفاء في شيء منها ، ومعلوم أنه لا يترك أحد الدليل في الفيافي العطشة الذي إن تركه هلك إلا قهراً ؛ وأن الناس هيئوا لطريق الهدى بما خلقوا عليه من أحسن تقويم بسلامة الفطر واستقامة العقول ، وأشار إلى هذا لأنهم يأنفون من النسبة إلى القهر وأن يفعلوا شيئاً بغير اختيار لما عندهم من الأنفة وعلو الهمم والعظمة .

(101/665)

ولما ظهرت الأدلة وبهرت الحجج ، بين ما على من غطاها بالإصرار ، وما لمن تاب ورجع التذكار ، فقال مستأنفاً لما هو نتيجة ما مضى ، معرفاً لهم نعمته عليهم بأنه ما تعبد لشيء يخصه من نفع أو ضر ، وإنما هو لمصالحهم خاصة بادئاً بما هو من درء المفاسد : ﴿ إن تكفروا ﴾ أي تستروا الأدلة فتصروا على الانصراف عنه بالإشراك ﴿ فإن الله ﴾ لأنه جامع لصفات الكمال ﴿ غني عنكم ﴾ أي فلا يضره كفركم ولا تنفعه طاعتكم ، وأما أنتم فلا غنى لكم عنه بوجه ، ولا بد أن يحكم بينكم فلم تضروا إلا أنفسكم ﴿ ولا يرضى ﴾ لكم - هكذا كان الأصل بدليل ما سبقه ولحقه ، وإنما أظهر ليعم وليذكرهم بما يجدونه في أنفسهم من أن أحداً منهم لا يرضى لعبده أن يؤدي خرجه إلى غيره بغير إذنه فقال :

﴿ لعباده ﴾ أي الذين تفرد بإيجادهم وتربيتهم ﴿ الكفر ﴾ بالإقبال على سواه وأنتم لا ترضون ذلك لعبيدكم مع أن ملككم لهم في غاية الضعف ، ومعنى عدم الرضى أنه لا يفعل فعل الراضي بأن يأذن فيه ويقر عليه أو يثيب فاعله ويمدحه ، بل يفعل فعل الساخط بأن ينهى عنه ويذم عليه ويعاقب مرتكبه ﴿ وإن تشكروا ﴾ أي بالعبادة والإخلاص فيها ﴿ يرضه ﴾ أي الشكر الدال عليه فعله ﴿ لكم ﴾ أي الرضى اللائق بجنابه سبحانه بأن يقركم عليه أو يأمركم به ويثيبكم على فعله ، والقسمان بإرادته ، واختلاف القراء في هائه دال على مراتب الشكر - والله أعلم ، فالوصل للواصلين إلى النهاية على اختلاف مراتبهم في الوصول والاختلاس للمتوسطين والإسكان لمن في الدرجة الأولى منه .

ولما كان في سياق الحكم والقهر ، وكانت عادة القهارين أن يكلفوا بعض الناس ببعض ويأخذوهم بجوائرهم لينتظم لهم العلو على الكل لعدم إحاطة علمهم بكل مخالف لأمرهم ، بين أنه سبحانه على غير ذلك فقال : ﴿ ولا تزر وازرة ﴾ أي وازرة كانت ﴿ وزر أخرى ﴾ بل وزر كل نفس عليها لا يتعداها يحفظ عليها مدة كونها في دار العمل ، والإثم الذي يكتب على الإنسان بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس وزر غيره ، وإنما هو وزر نفسه ، فوزر الفاعل على الفعل ، ووزر الساكت على الترك لما لزمه من الأمر والنهي ﴿ ثم إلى ربكم ﴾ أي وحده لا إلى أحد ممن أشركتموه به ﴿ مرجعكم ﴾ أي بالبعث بعد الموت إلى دار الجزاء .

ولما كان الجزاء تابعاً للعلم ، قال معبراً عنه به : ﴿ فينبئكم ﴾ أي فيتسبب عن البعث أنه يخبركم إخباراً عظيماً ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي بما كان في طبعكم العمل به سواء عملتموه بالفعل أم لا ثم يجازيكم عليه إن شاء .

ولما كان المراد – كما أشار إليه بكان – الإخبار بجميع الأعمال الكائنة بالفعل أو القوة ، حسن التعليل بقوله : ﴿ إنه عليم ﴾ أي بالغ العلم ﴿ بذات الصدور ﴾ أي بصاحبتها من

الخواطر والعزوم ، وذلك بما دلت عليه الصحبة – كل ما لم يبرز إلى الخارج ، فهو بما برز أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 421.424 ﴾

(103/665)

فصل

قال الفخر :

﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ واحدة ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

ثم إنه تعالى أتبع ذكر الدلائل الفلكية بذكر الدلائل المأخوذة من هذا العالم الأسفل ، فبدأ بذكر الإنسان فقال : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ واحدة ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ودلالة تكون الإنسان على الإله المختار قد سبق بيانها مراراً كثيرة ، فإن قيل كيف جاز أن يقول : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ واحدة ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ والزوج مخلوق قبل خلقهم ؟ أجابوا عنه من وجوه الأول : أن كلمة ثم كما تجيء لبيان كون إحدى الواقعتين متأخرة عن الثانية ، فكذلك تجيء لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر ، كقول القائل بلغني ما صنعت اليوم ، ثم ما صنعت أمس كان أعجب ، ويقول أيضاً قد أعطيتك اليوم شيئاً ، ثم الذي أعطيتك

أمس أكثر الثاني : أن يكون التقدير خلقكم من نفس خلقت وحدها ثم جعل منها زوجها الثالث : أخرج الله تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء .

(104/665)

واعلم أنه تعالى لما ذكر الاستدلال بخلقة الإنسان على وجود الصانع ذكر عقيبه الاستدلال بوجود الحيوان عليه فقال : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأَنعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ وهي الإبل والبقر والضأن والمعز وقد بينا كيفية دلالة هذه الحيوانات على وجود الصانع في قوله : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ [النحل : 5] وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ ﴾ وجوه : الأول : أن قضاء الله وتقديره وحكمه موصوف بالنزول من السماء لأجل أنه كتب في اللوح المحفوظ كل كائن يكون الثاني : أن شيئاً من الحيوان لا يعيش إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء والتراب ، والماء ينزل من السماء فصار التقدير كأنه أنزلها الثالث : أنه تعالى خلقها في الجنة ثم أنزلها إلى الأرض وقوله : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أي ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز ، والزوج اسم لكل واحد معه آخر ، فإذا انفرد فهو فرد منه قال تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : 39] .

ثم قال تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ وفيه أبحاث :

الأول : قرأ حمزة بكسر الألف والميم ، والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم ، والباقون أمهاتكم بضم الألف وفتح الميم .

(105/665)

الثاني : أنه تعالى لما ذكر تخليق الناس من شخص واحد وهو آدم عليه السلام أردفه بتخليق الأنعام ، وإنما خصها بالذكر لأنها أشرف الحيوانات بعد الإنسان ، ثم ذكر عقيب ذكرهما حالة مشتركة بين الإنسان وبين الأنعام وهي كونها مخلوقة في بطون أمهاتهم وقوله : ﴿ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ المراد منه ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مِّن طِينٍ * ثُمَّ جعلناه نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عظاما فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أنشأناه خَلْقاً ءاخَرَ فَتَبَارَكَ الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون : 12 - 14] وقوله : ﴿ فِى ظلمات ثَلاث ﴾ قيل : الظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل : الصلب والرحم والبطن ووجه الاستدلال بهذه الحالات قد ذكرناه في قوله : ﴿ هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَاء ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما شرح هذه الدلائل ووصفها قال : ﴿ ذلكم الله رَبُّكُمُ ﴾ أي : ذلكم الشيء الذي عرفتم عجائب أفعاله هو الله ربكم ، وفي هذه الآية : دلالة على كونه سبحانه

وتعالى منزهاً عن الأجزاء والأعضاء وعلى كونه منزهاً عن الجسمية والمكانية ، وذلك أنه تعالى عندما أراد أن يعرف عباده ذاته المخصوصة لم يذكر إلا كونه فاعلاً لهذه الأشياء ، ولو كان جسماً مركباً من الأعضاء لكان تعريفه بتلك الأجزاء والأعضاء تعريفاً للشيء بأجزاء حقيقته ، ولو كان ذلك القسم ممكناً لكان الاكتفاء بهذا القسم الثاني تقصيراً ونقصاً وذلك غير جائز ، فعلمنا أن الاكتفاء بهذا القسم إنما حسن لأن القسم الأول محال ممتنع الوجود ، وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعالياً عن الجسمية والأعضاء والأجزاء .

(106/665)

ثم قال تعالى : ﴿ لَهُ الملك ﴾ وهذا يفيد الحصر أي له الملك لا لغيره ، ولما ثبت أنه لا ملك إلا له وجب القول بأنه لا إله إلا هو لأنه لو ثبت إله آخر ، فذلك الإله إما أن يكون له الملك أو لا يكون له الملك ، فإن كان له الملك فحينئذ يكون كل واحد منهما مالكاً قادراً ويجري بينهما التمانع كما ثبت في قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] وذلك محال ، وإن لم يكن للثاني شيء من القدرة والملك فيكون ناقصاً ولا يصلح للإلهية ، فثبت أنه لما دل الدليل على أنه لا ملك إلا الله ، وجب أن يقال لا إله للعالمين ولا معبود

للخلق أجمعين إلا الله الأحد الحق الصمد ، ثم اعلم أنه سبحانه لما بين بهذه الدلائل كمال قدرة الله سبحانه وحكمته ورحمته ، رتب عليه تزييف طريقة المشركين والضالين من وجوه الأول : قوله : ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ يحتج به أصحابنا ويحتج به المعتزلة .

أما أصحابنا فوجه الاستدلال لهم بهذه الآية : أنها صريحة في أنهم لم ينصرفوا بأنفسهم عن هذه البيانات بل صرفها عنهم غيرهم ، وما ذاك الغير إلا الله ، وأيضاً فدليل العقل يقوي ذلك لأن كل واحد يريد لنفسه تحصيل الحق والصواب ، فلما لم يحصل ذلك وإنما حصل الجهل والضلال علمنا أنه من غيره لا منه ، وأما المعتزلة فوجه الاستدلال لهم : أن قوله : ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ تعجب من هذا الانصراف ، ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو الله تعالى لم يبق لهذا التعجب معنى .

(107/665)

ثم قال تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ والمعنى أن الله تعالى ما كلف المكلفين ليجر إلى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة ، وذلك لأنه تعالى غني على الإطلاق ، ويمتنع في حقه جر المنفعة ودفع المضرة ، وإنما قلنا إنه غني لوجوه : الأول : واجب الوجود لذاته وواجب الوجود في جميع صفاته ، ومن كان كذلك كان غنياً على الإطلاق الثاني :

أنه لو كان محتاجاً لكانت تلك الحاجة إما قديمة وإما حادثة .

والأول باطل وإلا لزم أن يخلق في الأزل ما كان محتاجاً إليه وذلك محال ، لأن الخلق والأزل متناقض .

والثاني باطل لأن الحاجة نقصان والحكيم لا يدعوه الداعي إلى تحصيل النقصان لنفسه

الثالث : هب أنه يبقى الشك في أنه هل تصح الشهوة والنفرة والحاجة عليه أم لا ؟ أما من المعلوم بالضرورة أن الإله القادر على خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسي والعناصر الأربعة ، والمواليد الثلاثة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو ، وأن يضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك ، فثبت بما ذكرنا أن جميع العالمين لو كفروا وأصروا على الجهل فإن الله غني عنهم .

(108/665)

ثم قال تعالى بعده : ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ يعني أنه وإن كان لا ينفعه إيمان ولا يضره كفران إلا أنه لا يرضى بالكفر ، واحتج الجبائي بهذه الآية من وجهين : الأول : أن المجبرة يقولون إن الله تعالى خلق كفر العباد وإنه من جهة ما خلقه حق وصواب ، قال ولو كان الأمر كذلك لكان قد رضي الكفر من الوجه الذي خلقه ، وذلك ضد الآية الثاني : لو كان الكفر

بقضاء الله تعالى لوجب علينا أن نرضى به لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب ، وحيث اجتمعت الأمة على أن الرضا بالكفر كفر ثبت أنه ليس بقضاء الله وليس أيضاً برضاء الله تعالى ، وأجاب الأصحاب عن هذا الاستدلال من وجوه الأول : أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ [الفرقان : 63] وقال : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ [الإنسان : 6] وقال : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [الحجر : 42] فعلى هذا التقدير قوله : ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ ولا يرضى للمؤمنين الكفر ، وذلك لا يضرنا الثاني : أنا نقول الكفر بإرادة الله تعالى ولا نقول إنه برضا الله لأن الرضا عبارة عن المدح عليه والثناء بفعله ، قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المؤمنين ﴾ [الفتح : 18] أي يمدحهم ويثني عليهم الثالث : كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر رحمه الله يقول : الرضا عبارة عن ترك اللوم والاعتراض ، وليس عبارة عن الإرادة ، والدليل عليه قول ابن دريد :

رضيت قسراً وعلى القسر رضا . . من كان ذا سخط على صرف القضا

أثبت الرضا مع القسر وذلك يدل على ما قلناه والرابع : هب أن الرضا هو الإرادة إلا أن قوله : ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ عام ، فتخصيصه بالآيات الدالة على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر كقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ [الإنسان : 30] ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ والمراد أنه لما بين أنه لا يرضى الكفر بين أنه يرضى الشكر ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلف القراء في هاء ﴿ يَرْضَهُ ﴾ على ثلاثة أوجه أحدها : قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الهاء مختلسة غير متبعة وثانيها : قرأ أبو عمرو وحمزة في بعض الروايات يرضه ساكنة الهاء للتخفيف وثالثها : قرأ نافع في بعض الروايات وابن كثير وابن عامر والكسائي مضمومة الهاء مشبعة ، قال الواحدي رحمه الله من القراء من أشبع الهاء حتى ألحق بها واواً ، لأن ما قبل الهاء متحرك فصار بمنزلة ضربه وله ، فكما أن هذا مشبع عند الجميع كذلك يرضه ، ومنهم من حرك الهاء ولم يلحق الواو ، لأن الأصل يرضاه والألف المحذوفة للجزم ليس يلزم حذفها فكانت كالباقية ، ومع بقاء الألف لا يجوز إثبات الواو فكذا ههنا .

المسألة الثانية :

الشكر حالة مركبة من قول واعتقاد وعمل أما القول فهو الإقرار بحصول النعمة وأما

الاعتقاد فهو اعتقاد صدور النعمة من ذلك المنعم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ قال الجبائي هذا يدل على أنه تعالى لا يعذب أحداً على فعل غيره ، فلو فعل الله كفرهم لما جاز أن يعذبهم عليه ، وأيضاً لا يجوز أن يعذب الأولاد بذنوب الآباء ، بخلاف ما يقول القوم .

واحتج أيضاً من أنكر وجوب ضرب الدية على العاقلة بهذه الآية .

ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ ﴾ واعلم أنا ذكرنا كثيراً أن أهم المطالب للإنسان أن يعرف خالقه بقدر الإمكان ، وأن يعرف ما يضره وما ينفعه في هذه الحياة الدنيوية ، وأن يعرف أحواله بعد الموت ، ففي هذه الآية ذكر الدلائل الكثيرة من العالم الأعلى والعالم الأسفل على كمال قدرة الصانع وعلمه وحكمته ، ثم أتبعه بأن أمره بالشكر ونهاه عن الكفر ثم بين أحواله بعد الموت بقوله : ﴿ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(110/665)

المشبهة تمسكوا بلفظ إلى على أن إله العالم في جهة وقد أجبنا عنه مراراً .

المسألة الثانية :

زعم القوم أن هذه الأرواح كانت قبل الأجساد وتمسكوا بلفظ الرجوع الموجود في هذه الآية وفي سائر الآيات .

المسألة الثالثة :

دلت هذه الآية على إثبات البعث والقيامة .

ثم قال : ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهذا تهديد للعاصي وبشارة للمطيع ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ كالعلة لما سبق ، يعني أنه يمكنه أن ينبئكم بأعمالكم ، لأنه عالم بجميع المعلومات ، فيعلم ما في قلوبكم من الدواعي والصوارف ، وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أقوالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 213.216 ﴾

(111/665)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

" ثُمَّ " رَاجِعَةٌ إلَى صِلَةِ الْكَلَامِ ، كَأَنَّهُ قَالَ : خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ أَخْبَرَكُمْ أَنَّهُ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ رُجُوعُهَا إلَى الْمَخْلُوقِينَ مِنْ الْأَوْلَادِ عَلَى مَعْنَى التَّرْتِيبِ ؛ لِأَنَّ الْوَالِدَيْنِ

قَبْلَ الْوَلَدِ .

وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا ﴾ وَنَحْوُ ذَلِكَ آخِرُ سُورَةِ الزُّمَرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(112/665)

وقال ابن عطية :

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

" النفس الواحدة " المرادة في الآية هي نفس آدم عليه السلام ، قاله قتادة وغيره . ويحتمل أن يكون اسم الجنس .

وقوله تعالى : ﴿ ثم جعل ﴾ ظاهر اللفظ يقتضي أن جعل الزوجة من النفس هو بعد أن خلق الخلق منها ، وليس الأمر كذلك .

واختلف الناس في تأويل هذا الظاهر ، فقالت فرقة قوله : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ هو أخذ الذرية من ظهر آدم وذلك شيء كان قبل خلق حواء ، وقالت فرقة : إنما هي لترتيب الأخبار لا لترتيب المعاني . كأنه قال : ثم كان من أمره قبل ذلك أن جعل منها

زوجها ، وفي نحو هذا المعنى ينشد هذا البيت [أبو النواس] : [الخفيف]

قل من ساد ثم ساد أبوه . . . ثم قد ساد قبل ذلك جدُّه

وقالت فرقة قوله : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ عبارة عن سبق ذلك في علم الله تعالى ، فلما كان ذلك أمراً حتماً واقعاً ولا بد ، حسن أن يخبر عن تلك الحال التي كانت وثيقة ، ثم عطف عليها حالة جعل الزوجة منها ، فجاءت معان مترتبة وإن كان خروج خلق العالم من آدم إلى الوجود إنما يجيء بعد ذلك ، وزوج آدم حواء عليهما السلام ، وخلقت من ضلعه القصيري فيما روي ، ويؤيد هذا الحديث الذي فيه أن المرأة خلقت من ضلع ، فإن ذهبت تقيمه كسرته . وقالت فرقة : خلقت حواء من بقية طين آدم والأول أصح ، وقد تقدم شرح ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وأنزل لكم ﴾ قيل معناه : أن المخلوق الأول من هذه الأنعام خلق في السماء وأهبط إلى الأرض ، وقالت فرقة : بل لما نزل الأمر بخلقه وإيجاده من عند الله ، وكانت العادة في نعم الله ورحمته وأمطاره وغير ذلك أن يقال فيها إنها من السماء عبر عن هذه ب ﴿ أنزل ﴾ ، وقالت فرقة : لما كانت الأمطار تنزل وكانت الأعشاب والنبات عن المطر ، وكانت هذه الأنعام عن النبات في سمنها ومعاشها ، قال في هذه ﴿ أنزل ﴾ فهو على التدريج كما قال الراجز :

أسنمة الآبال في ربابه . . . . وكما قال الشاعر [عمرو بن حبان] : [الطويل]

تعالى الندى في متنه وتحدرا . . . وجعلها ﴿ ثمانية ﴾ ، لأن كل واحد فيه زوج للذكر من فرعه ، وهي الضأن والمعز والبقر والإبل .

وقوله تعالى : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ قال ابن زيد ، معناه : يخلقكم في البطون خلقاً من بعد خلق آخر في ظهر آدم وظهور الآباء . وقال مجاهد وعكرمة والسدي : يخلقكم في البطون رتباً خلقاً من بعد خلق على المضغة والعلقة وغير ذلك .

وقرأ عيسى بن عمر وطلحة بن مصرف : ﴿ يخلقكم ﴾ بإدغام القاف في الكاف في جميع القرآن . وقرأ الجمهور : ﴿ أُمهاتكم ﴾ بضم الهمزة . وقرأ يحيى بن وثاب : بكسرها وهي لغتان .

وقوله : ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ قالت فرقة : الأولى هي ظهر الأب ، ثم رحم الأم ، ثم المشيمة في البطن . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هي المشيمة والرحم والبطن ، وهذه الآيات كلها هي معتبر وتنبيه لهم على الخالق الصانع الذي لا يستحق العبادة غيره ، وهذا كله في رد أمر الأصنام والإفساد لها . ثم قال تعالى لهم : ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ وقد قامت على ذلك البراهين واتسقت الأدلة ﴿ فأنى تصرفون ﴾ ، أي من أي جهة تضلون وبأي

سبب ؟

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ

قال ابن عباس : هذه الآية مخاطبة للكفار الذي لم يرد الله أن يطهر قلوبهم . و" عباده " : هم المؤمنون .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن تكون مخاطبة لجميع الناس ، لأن الله تعالى غني عن جميع الناس وهم فقراء إليه ، وبين بعد البشر عن رضى الله إن كفروا بقوله : ﴿ إن تكفروا ﴾ .

(114/665)

واختلف المتأولون من أهل السنة في تأويل قوله : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ فقالت فرقة : الرضى بمعنى الإرادة واللام ظاهره العموم ومعناه الخصوص فيمن قضى الله له بالإيمان وحتمه له : و" عباده " على هذا ملائكته ومؤمنو البشر والجن ، وهذا يتركب على قول ابن عباس . وقالت فرقة : الكلام عموم صحيح ، والكفر يقع ممن يقع بإرادة الله ، إلا أنه بعد وقوعه لا يرضاه ديناً لهم ، فهذا يتركب على الاحتمال الذي تقدمك آنفاً . ومعنى : لا يرضاه لا يشكره لهم ولا يثيبهم به خيراً ، فالرضى على هذا هو صفة فعل لمعنى القبول ونحوه . وتأمل الإرادة فإنها حقيقة ، إنما هي فيما لم يقع بعد ، والرضى ، فإنما حقيقة فيما

قد وقع ، واعتبر هذا في آيات القرآن تجده ، وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارها على جهة التجوز هذا بدل هذا .

وقوله تعالى : ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ عموم ، والشكر الحقيقي في ضمنه الإيمان . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الكسائي : " يرضهُ " بضمة على الهاء مشبعة . وقرأ ابن عامر وعاصم " يرضه " بضمة على الهاء غير مشبعة ، واختلف عن نافع وأبي عمرو . وقرأ عاصم في رواية أبي بكر : " يرضهْ " بسكون الهاء ، قال أبو حاتم : وهو غلط لا يجوز ، قال تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد ، وأنث " الوازرة " و" الأخرى " لأنه أراد الأنفس . والوزر الثقل ، وهذا خبر مضمنه الحض على أن ينظر كل أحد في خاصة أمره وما ينوبه في ذاته .

ثم أخبرهم تعالى بأن مرجعهم في الآخرة إلى ربهم ، أي إلى ثوابه أو عقابه ، فيوقف كل أحد على أعماله ، لأنه المطلع على نيات الصدور وسائر الأفئدة . و" ذات الصدور " : ما فيه من خبيئة ، ومنه قولهم : الذيب مغبوط بذي بطنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(115/665)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

يعني آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعني ليحصل التناسل وقد مضى هذا في "الأعراف" وغيرها .

﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أخبر عن الأزواج بالنزول ، لأنها تكونت بالنبات والنبات بالماء المنزل .

وهذا يسمى التدريج ؛ ومثله قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً ﴾ [الأعراف : 26] الآية .

وقيل : أنزل أنشأ وجعل .

وقال سعيد بن جبير : خلق .

وقيل : إن الله تعالى خلق هذه الأنعام في الجنة ثم أنزلها إلى الأرض ؛ كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد : 25] فإن آدم لما هبط إلى الأرض أنزل معه الحديد .

وقيل : "وأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ" أي أعطاكم .

وقيل : جعل الخلق إنزالاً ؛ لأن الخلق إنما يكون بأمر ينزل من السماء .

فالمعنى : خلق لكم كذا بأمره النازل .

قال قتادة : من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين كل واحد زوج .

وقد تقدّم هذا .

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ قال قتادة والسّدّي : نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً ثم لحماً .

ابن زيد : "خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ" خلقا في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم .

وقيل : في ظهر الأب ثم خلقا في بطن الأم ثم خلقا بعد الوضع .

ذكره الماوردي .

﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ﴾ ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المَشِيمَة .

قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك .

وقال ابن جبير : ظلمة المَشِيمَة وظلمة الرَّحِم وظلمة الليل .

والقول الأول أصح .

وقيل : ظلمة صُلْب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرَّحِم .

وهذا مذهب أبي عبيدة .

أي لا تمنعه الظلمة كما تمنع المخلوقين .

﴿ ذَلِكُمُ اللهُ ﴾ أي الذي خلق هذه الأشياء ﴿ رَبُّكُمْ لَهُ الملك لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ .

﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ أي كيف تنقلبون وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

وقرأ حمزة : "إِمّهَاتِكُمْ" بكسر الهمزة والميم .

والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم .

الباقون بضم الهمزة وفتح الميم .

قوله تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ شرط وجوابه .

﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ أي أن يكفروا أي لا يحب ذلك منهم .

وقال ابن عباس والسّدي : معناه لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وهم الذين قال الله فيهم :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء : 65] .

وكقوله : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ [الإنسان : 6] أي المؤمنون .

وهذا على قول من لا يفرق بين الرضا والإرادة .

وقيل : لا يرضى الكفر وإن أراده ؛ فالله تعالى يريد الكفر من الكافر وبإرادته كفر لا يرضاه ولا يحبه ، فهو يريد كون ما لا يرضاه ، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس وهو لا يرضاه ، فالإرادة غير الرضا .

وهذا مذهب أهل السنة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أي يرضى الشكر لكم ؛ لأنّ "تشْكُرُوا" يدل

عليه .

وقد مضى القول في الشكر في "البقرة" وغيرها .

ويرضى بمعنى يثيب ويثني ، فالرضا على هذا إما ثوابه فيكون صفة فعل ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : 7] وإما ثناؤه فهو صفة ذات .

و "يَرْضَهْ" بالإسكان في الهاء قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وشيبة وهبيرة عن عاصم .

وأشبع الضمة ابن ذكوان وابن كثير وابن محيصن والكسائي وورش عن نافع .

واختلس الباقون .

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ تقدّم في غير موضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(117/665)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

هذه السورة مكية ، وعن ابن عباس : إلا ﴿ الله الذين نزل الحديث ﴾ ، و ﴿ قل يا

عبادي الذين أسرفوا ﴾ .

وعن مقاتل : إلا ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا ﴾ ، وقوله : ﴿ يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ .

وعن بعض السلف : إلا ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا ﴾ ، إلى قوله : ﴿ تشعرون ﴾ ، ثلاث آيات .

وعن بعضهم : إلا سبع آيات ، من قوله : ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا ﴾ .

ومناسبتها لآخر ما قلبها أنه ختم السورة المتقدمة بقوله : ﴿ إن هو إذ ذكر للعالمين ﴾ وبدأ هنا : ﴿ تنزيل الكتاب من العزيز الحكيم ﴾ .

وقال الفراء والزجاج : ﴿ تنزيل ﴾ مبتدأ ، و﴿ من الله ﴾ الخبر ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا تنزيل ، ومن الله متعلق بتنزيل ؛ وأقول إنه خبر ، والمبتدأ هو ليعود على قوله : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ، كأنه قيل : وهذا الذكر ما هو فقيل : هو تنزيل الكتاب .

وقال الزمخشري : أو غير صلة ، يعني من الله ، كقولك : هذا الكتاب من فلان إلى فلان ، وهو على هذا خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذا تنزيل الكتاب .

هذا من الله ، أو حال من تنزيل عمل فيها معنى الإشارة . انتهى .

ولا يجوز أن يكون حالاً عمل فيها معنى الإشارة ، لأن معاني الأفعال لا تعمل إذا كان ما هو فيه محذوفاً ، ولذلك ردوا على أبي العباس قوله في بيت الفرزدق_@_ :

وإذ ما مثلهم بشر . . .

أن مثلهم منصوب بالخبر المحذوف وهو مقدر ، أي وأن ما في الوجود في حال مما ثلتهم بشر .

والكتاب يظهر أنه القرآن ، وكرر في قوله : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب ﴾ على جهة التفخيم والتعظيم ، وكونه في جملة غير السابقة ملحوظاً فيه إسناده إلى ضمير العظمة وتشريف من أنزل إليه بالخطاب وتخصيصه بالحق .

وقرأ ابن أبي عبلة وزيد بن علي وعيسى : تنزيل بالنصب ، أي اقرأ والزم .

(118/665)

وقال ابن عطية : قال المفسرون في تنزيل الكتاب هو القرآن ، ويظهر لي أنه اسم عام لجميع ما تنزل من عند الله من الكتب ، وكأنه أخبر إخباراً مجرداً أن الكتب الهادية الشارعة إنما تنزيلها من الله ، وجعل هذا الإخبار تقدمة وتوطئة لقوله : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب ﴾ ، والعزيز في قدرته ، الحكيم في ابتداعه .

والكتاب الثاني هو القرآن ، لا يحتمل غير ذلك .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما المراد بالكتاب ؟ قلت : الظاهر على الوجه الأول أنه القرآن ، وعلى الثاني أنه السورة . انتهى .

وبالحق في موضع الحال ، أي ملتبساً بالحق ، وهو الصدق الثابت فيما أودعناه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد والتكاليف ، فهذا كله حق وصدق يجب اعتقاده والعمل به ، أو يكون بالحق : بالدليل على أنه من عند الله ، وهو عجز الفصحاء عن معارضته .

وقال ابن عطية : أي متضمناً الحق فيه وفي أحكامه وفي أخباره ، أو بمعنى الاستحقاق وشمول المنفعة للعالم في هدايتهم ودعوتهم إلى الله .

انتهى ملخصاً .

ولما امتن تعالى على رسوله بإنزال الكتاب عليه بالحق ، وكان الحق إخلاص العبادة لله ، أمره تعالى بعبادته فقال : ﴿ فاعبد الله ﴾ ، وكأن هذا الأمر ناشىء عن إنزال الكتاب ، فالفاء فيه للربط ، كما تقول : أحسن إليك زيد فاشكره .

﴿ مخلصاً ﴾ : أي ممحضاً ، ﴿ له الدين ﴾ : من الشرك والرياء وسائر ما يفسده .

وقرأ الجمهور : الدين بالنصب .

وقرأ ابن أبي عبلة : بالرفع فاعلاً بمخلصاً ، والراجع لذي الحال محذوف على رأي البصريين ، أي الدين منك ، أو يكون أل عوضاً من الضمير ، أي دينك .

وقال الزمخشري : وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً بفتح اللام ، كقوله تعالى : ﴿ وأخلصوا دينهم لله ﴾ حتى يطابق قوله : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ ، والخالص والمخلص واحد ، إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي ، كقولهم : شعر شاعر .

وأما من جعل مخلصاً حالاً من العابد ، وله الدين مبتدأ وخبر ، فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك : لله الدين ، أي لله الدين الخالص . انتهى .

وقد قدمنا تخريجه على أنه فاعل بمخلصاً ، وقدرنا ما يربط الحال بصاحبها ، وممن ذهب إلى أن له الدين مستأنف مبتدأ وخبر الفراء .

﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ : أي من كل شائبة وكدر ، فهو الذي يجب أن تخلص له الطاعة ، لاطلاعه على الغيوب والأسرار ، ولخلوص نعمته على عباده من غير استجرار منفعة منهم .

قال الحسن : الدين الخالص : الإسلام ؛ وقال قتادة : شهادة أن لا إله إلا الله .

﴿ والذين اتخذوا ﴾ : مبتدأ ، والظاهر أنهم المشركون ، واحتمل أن يكون الخبر قال المحذوف المحكي به قوله : ﴿ ما نعبدهم ﴾ ، أي والمشركون المتخذون من دون الله أولياء قالوا : ما نعبد تلك الأولياء ﴿ إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، واحتمل أن يكون الخبر : ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ ، وذلك القول المحذوف في موضع الحال ، أي اتخذوهم قائلين ما نعبدهم .

وأجاز الزمخشري أن يكون الخبر ﴿ إن الله يحكم ﴾ ، وقالوا : المحذوفة بدل من اتخذوا صلة الذين ، فلا يكون له موضع من الإعراب ، وكأنه من بدل الاشتمال .

وفي مصحف عبد الله : قالوا ما نعبدهم ، وبه قرأ هو وابن عباس ومجاهد وابن جبير ، وأجاز الزمخشري أن يكون ﴿ والذين اتخذوا ﴾ بمعنى المتخذين ، وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى ونحوهم ، والضمير في اتخذوا عائد على الموصول محذوف تقديره : والذين اتخذهم المشركون أولياء ، وأولياء مفعول ثان ، وهذا الذي أجازه خلاف الظاهر ، وهذه المقالة شائعة في العرب ، فقال ذلك ناس منهم في الملائكة وناس في الأصنام والأوثان .

قال مجاهد : وقد قال ذلك قوم من اليهود في عزيز ، وقوم من النصارى في المسيح .

وقرىء : ما نعبدهم بضم النون ، اتباعاً لحركة الباء .

(120/665)

﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ : اقتصر في الرد على مجرد التهديد ، والظاهر أن الضمير في بينهم عائد على المتخذين ، والمتخذين والحكم بينهم هو بإدخال الملائكة وعيسى عليه السلام الجنة ، ويدخلهم النار مع الحجارة والخشب التي نحتوها وعبدوها من دون الله ، يعذبهم بها ، حيث يجعلهم وإياها حصب جهنم .

واختلافهم أن من عبدوه كالملائكة وعيسى كانوا متبرئين منهم لاعنين لهم موحدين لله .

وقيل : الضمير في بينهم عائد على المشركين والمؤمنين ، إذا كانوا يلومونهم على عبادة الأصنام فيقولون : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، والحكم إذ ذاك هو في يوم القيامة بين الفريقين .

﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ : كاذب في دعواه أن لله شريكاً ، كفار لأنعم الله حيث ، جعل مكان الشكر الكفر ، والمعنى : لا يهدي من ختم عليه بالموافاة على الكفر فهو عام ، والمعنى على الخصوص : فكم قد هدى من سبق منه الكذب والكفر .

قال ابن عطية : لا يهدي الكاذب الكافر في حال كذبه وكفره .

وقال الزمخشري : المراد بمنع الهداية : منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم ، وأنهم في علم الله من الهالكين .

انتهى ، وهو على طريق الاعتزال .

وقرأ أنس بن مالك ، والجحدري ، والحسن ، والأعرج ، وابن يعمر : كذاب كفار .

وقرأ زيد بن علي : كذوب وكفور .

ولما كان من كذبهم دعوى بعضهم أن الملائكة بنات الله ، وعبدوها عقبه بقوله : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً ﴾ ، تشريفاً له وتبنياً ، إذ يستحيل أن يكون ذلك في حقه تعالى بالتوالد المعروف ، ﴿ لاصطفى ﴾ : أي اختار من مخلوقاته ما يشاء ولداً على سبيل التبني ،

ولكنه تعالى لم يشأ ذلك لقوله : ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ وهو عام في اتخاذ النسل واتخاذ الاصطفاء .

(121/665)

ويدل على أن الاتخاذ هو التبني ، والاصطفاء قوله : ﴿ مما يخلق ﴾ : أي من التي أنشأها واخترعها ؛ ثم نزه تعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً فقال : ﴿ سبحانه ﴾ ، ثم وصف نفسه بالوحدانية والقهر لجميع العالم .

وقال الزمخشري : يعني لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ، ولم يصح لكونه محالاً ، ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضهم ، ويختصهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده ويقربه ، وقد فعل ذلك بالملائكة ، فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم ، فزعمتم أنهم أولاده جهلاً منكم به وبحقيقة المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض ، كأنه قال : لو أراد اتخاذ الولد ، لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما شاء من خلقه ، وهم الملائكة ، إلا أنك لجهلكم به ، حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولاداً ، ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم ، فجعلتموهم بنات ، وكنتم كذابين كفارين مبالغين في الافتراء على الله وملائكته .

انتهى والذي يدل على تركيب لو وجوابها أنه كان يترتب اصطفاء الولد مما يخلق على تقدير

اتخاذه ، لكنه لم يتخذه ، فلا يصطفيه .

وأما ما ذكره الزمخشري من قوله يعني : لو أراد إلى أخره ، وقوله : بعد ، كأنه قال : لو أراد اتخاذ الولد ، لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما شاء الله من خلقه ، وهم الملائكة ، فليس مفهوماً من قوله : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ .

ولما نزه تعالى نفسه ووصف ذاته بالوحدة والقهر ، ذكر ما دل على ذلك من اختراع العالم العلوي والسفلي بالحق ، وتكوير الليل والنهار ، وتسخير النيرين وجريهما على نظام واحد ، واتساق أمرهما على ما أراد إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة ، حيث تخرب بنية هذا العالم فيزول جريهما ، أو إلى وقت مغيبهما كل يوم وليلة ، أو وقت قوايسها كل شهر .

والتكوير : تطويل منهما على الآخر ، فكأنه الآخر صار عليه جزء منه .

قال ابن عباس : يحمل الليل على النهار .

وقال الضحاك : يدخل الزيادة في أحدهما بالنقصان من الآخر .

(122/665)

وقال أبو عبيدة : يدخل هذا على هذا .

وقال الزمخشري : وفيه أوجه : منها أن الليل والنهار خلفة ، يذهب هذا ويغشى مكانه

هذا ؛ وإذا غشي مكانه فكأنما ألبسه ولف عليه كما يلف على اللابس اللباس ؛ ومنها أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه ، فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه من مطامح الأبصار ؛ ومنها أن هذا يكر على هذا كروراً متتابعاً ، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض . انتهى .

﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾ : العزيز الذي لا يغالب ، الغفار لمن تاب ، أو الحليم الذي لا يعجل ، سمى الحلم غفراناً مجازاً .

ولما ذكر ما دل على واحدانيته وقهره ، ذكر الإنسان ، وهو الذي كلف بأعباء التكاليف ، فذكر أنه أوجدنا من نفس واحدة ، وهي آدم عليه السلام ، وذلك أن حواء على ما روي خلقت من آدم ، فقد صار خلقاً من نفس واحدة لوساطة حواء .

وقيل : أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ، ثم خلق بعد ذلك حواء ، فعلى هذا كان خلقاً من آدم بغير واسطة .

وجاءت على هذا القول على وضعها ، ثم للمهلة في الزمان ، وعلى القول الأول يظهر أن خلق حواء كان بعد خلقنا ، وليس كذلك .

فثم جاء لترتيب الأخبار كأنه قيل : ثم كان من أمره قبل ذلك أن جعل منها زوجها ، فليس الترتيب في زمان الجعل .

وقيل : ثم معطوف على الصفة التي هي واحدة ، أي من نفس وحدت ، أي انفردت .

﴿ ثم جعل ﴾ ، قال الزمخشري : فإن قلت : ما وجه قوله تعالى : ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ ، وما تعطيه من معنى التراخي ؟ قلت : هما آيتان من جملة الآيات التي عددها ، دالاً على وحدانيته وقدرته .

(123/665)

تشعب هذا الفائت للحصر من نفس آدم وخلق حواء من قصيراه ، إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرة ، والأخرى لم تجربها العادة ، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيري رجل ، فكانت أدخل في كونها آية ، وأجلب لعجب السامع ، فعطفها بثم على الآية الأولى ، للدلالة على مباينتها فضلاً ومزية ، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية ، فهو من التراخي في الحال والمنزلة ، لا من التراخي في الوجود .

انتهى .

وأما ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ ، فقد تقدّم الكلام على هذا الجعل في أول سورة النساء ، ووصف الأنعام بالإنزال مجازاً ما ، لأن قضاياه توصف بالنزول من السماء ، حيث كتب في اللوح : كل كائن يكون وأما لعيشها بالنبات والنبات ناشىء عن المطر والمطر نازل من السماء فكأنه تعالى أنزلها ، فيكون مثل قول الشاعر :

أسنمة الا بال في ربابه . . .

_@_ أي : في سحابه ، وقال آخر :

صار الثريد في رؤوس العيدان . . .

وقيل : خلقها في الجنة ثم أنزلها ، فعلى هذا يكون إنزال أصولها حقيقة .

والأنعام : الإبل والبقر والضأن والمعز ، ﴿ ثمانية أزواج ﴾ ، لأن كلاً منها ذكر وأنثى ، والزوج ما كان معه آخر من جنسه ، فاذا انفرد فهو فرد ووتر .

وقال تعالى : ﴿ فجعل منها الزوجين الذكر والأنثى ﴾ قال ابن زيد : ﴿ خلقاً من بعد خلق ﴾ : آخر من ظهر آدم وظهور الآباء .

وقال عكرمة ومجاهد والسدي : رتبا ﴿ خلقاً من بعد خلق ﴾ على المضغة والعلقة وغير ذلك .

وأخذه الزمخشري فقال : حيواناً سوياً ، من بعد عظام مكسوة لحماً ، من بعد عظام عارية ، من بعد مضغ ، من بعد علق ، من بعد نطف . انتهى .

وقرأ عيسى وطلحة : يخلقكم ، بإدغام القاف في الكاف ، والظلمات الثلاث : البطن والرحم والمشيمة ، وقيل : الصلب والرحم والبطن .

﴿ ذلكم ﴾ : إشارة إلى المتصف بتلك الأوصاف السابقة من خلق السموات وما بعد

ذلك من الأفعال .

﴿ فأنى تصرفون ﴾ : أي كيف تعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره ؟

(124/665)

﴿ إن تكفروا ﴾ ، قال ابن عباس : خطاب للكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم .

وعباده : هم المؤمنون ، ويؤيده قوله قبله : ﴿ فأنى تصرفون ﴾ ، وهذا للكفار ، فجاء ﴿ إن تكفرو ﴾ خطاباً لهم ، ﴿ فإن الله غني عنكم ﴾ ، وعن عبادتكم ، إذ لا يرجع إليه تعالى منفعة بكم ولا بعبادتكم إذ هو الغني المطلق .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون مخاطباً لجميع الناس ، لأنه تعالى غني عن جميعهم ، وهم فقراء إليه . انتهى .

ولفظ عباده عام ، فقيل : المراد الخصوص ، وهم الملائكة ومؤمنو الإنس والجن .

والرضا بمعنى الإرادة ، فعلى هذا صفة ذات .

وقيل : المراد العموم ، كما دل عليه اللفظ ، والرضا مغاير للإرادة ، عبر به عن الشكر والإثابة ، أي لا يشكره لهم ديناً ولا يثيبهم به خيراً ، فالرضا على هذا صفة فعل بمعنى القبول والأثابة .

قال ابن عطية : وتأمل الإرادة ، فإن حقيقتها إنما هي فيما لم يقع بعد ، والرضا حقيقته إنما هو فيما قد وقع ، واعتبر هذا في آيات القرآن تجده ، وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارهم على جهة التجوز هذا بدل هذا .

وقال الزمخشري : ولقد تمحل بعض الغواة ليثبت لله ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر ، فقال : هذا من العام الذى أريد به الخاص ، وما أراد إلا عباده الذين عناهم في قوله : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ يريد المعصومين لقوله : ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ تعالى الله عما يقول الظالمون . انتهى .

فسمى عبد الله بن عباس ترجمان القرآن وأعلام أهل السنة بعض الغواة ، وأطلق عليهم اسم الظالمين ، وذلك من سفهه وجرأته ، كما قلت في قصيدتي التي ذكرت فيها ما ينقد عليه :

ويشتم أعلام الأئمة ضلة . . .

ولا سيما إن أولجوه المضايقا

﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ ، قال ابن عباس : يضاعف لكم ، وكأنه يريد ثواب الشكر ؛ وقيل : يقبله منكم .

قال صاحب التحرير : قوة الكلام تدل على أن معنى تشكروا : تؤمنوا حتى يصير بإزاء الكفر ، والله تعالى قد سمى الأعمال الصالحة والطاعات شكراً في قوله : ﴿ اعلموا آل داود شكراً ﴾ انتهى .

وتقدم الكلام على هذه الآية في سبأ .

وقرأ النحويان ، وابن كثير : يرضه بوصل ضمة الهاء بواو ؛ وابن عامر وحفص : بضمة فقط ؛ وأبو بكر : بسكون الهاء ، قال أبو حاتم : وهو غلط لا يجوز . انتهى .

وليس بغلط ، بل ذلك لغة لبني كلاب وبني عقيل .

وقوله : ﴿ ولا تزر ﴾ إلى : ﴿ بذات الصدور ﴾ ، تقدم الكلام عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(126/665)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

(سورة الزمر مكية إلا قوله ﴿ قل يا عبادي ﴾ الآية وآياتها خمس وسبعون آية)

﴿ بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ هو اسم إشارة أُشير به إلى السُّورةِ تنزيلاً لها منزلةَ الحاضر المُشارِ إليه لكونها على شرف الذِّكر والحضورِ كما مرَّ مراراً . وقد قيل هو ضميرٌ عائد إلى الذِّكرِ في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ للعالمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مِنَ اللهِ العزيز الحكيم ﴾ صلة للتَّنزيلِ أو خبرٌ ثانٍ أو حالٌ من التَّنزيلِ عاملُها معنى الإشارة أو من الكتابِ الذي هو مفعولٌ معنى ، عاملُها المضاف ، وقيل هو خبرٌ لتنزيلُ الكتابِ ، والوجهُ الأَوَّلُ أو في بمقتضى المقامِ الذي هو بيانُ أنَّ السُّورةَ أو القُرآنَ تنزيلُ الكتابِ من الله تعالى لا بيانُ أنَّ تنزيلَ الكتابِ منه تعالى لا من غيرِه كما يفيده الوجهُ الأخيرُ . وقُرِىء تنزيلَ الكتابِ بالنَّصبِ على إضمار فعلٍ نحو اقرأْ أو الزمْ . والتَّعرُّضُ لوصفَيْ العزَّةِ والحكمة للإيذانِ بظهور أثريهما في الكتابِ بجريانِ أحكامِه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مُدافعٍ ولا ممانع ، وبابتناءِ جميع ما فيه على أساس الحِكَمِ الباهرةِ . وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق ﴾ شروعٌ في بيان شأن المنزَّلِ إليه وما يجبُ عليه إثرَ بيانِ شأن المنَزِّلِ وكونِه من عند الله تعالى ، والمرادُ بالكتاب هو القُرآنُ وإظهاره على تقدير كونِه هو المرادَ بالأَوَّلِ أيضاً لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنِه . والباء إمَّا متعلِّقةٌ بالإنزال

أي بسبب الحقّ وإثباته وإظهاره أو بداعية الحقّ واقتضائه للإنزال وإمّا بمحذوفٍ هو حالٌ من نون العظمةِ أو من الكتاب أو أنزلناهُ إليك محقّين في ذلك أو أنزلناه مُلتبساً بالحقّ والصواب أي كلُّ ما فيه حقٌّ لا ريبَ فيه موجبٌ للعمل به حَتْماً . والفاءُ في قوله تعالى : ﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ لترتيب الأمر بالعبادة على إنزالِ الكتاب إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ

(128/665)

بالحقّ أي فاعبْدُه تعالى مُمحّضاً له الدّينَ من شوائب الشّركِ والرّياءِ حسبما بُيّن في تضاعيف ما أُنزل إليك . وقُرِىء برفع الدّينِ على أنَّه مبتدأٌ خبرُه الظَّرفُ المقدَّمُ عليه لتأكيد الاختصاصِ المُستفاد من اللاّمِ . والجملةُ استئنافٌ وقع تعليلاً للأمر بإخلاصِ العبادةِ . وقوله تعالى : ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ استئنافٌ مقرّرٌ لما قبله من الأمرِ بإخلاص الدّينِ له تعالى ، ووجوبِ الامتثالِ به . وعلى القراءةِ الأخيرةِ مؤكّدٌ لاختصاصِ الدّينِ به تعالى أي أَلاَ هو الذي يجبُ أنْ يُخصَّ بإخلاصِ الطَّاعةِ له لأنَّه المُتفرّدُ بصفاتِ الأُلوهيَّةِ التي من جُملتها الاطّلاعُ على السَّرائرِ والضَّمائرِ . وقولُه تعالى :

﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ تحقيقٌ لحقّيةِ ما ذُكر من إخلاص الدّينِ الذي هو عبارةٌ عن التَّوحيدِ ببيان بُطلان الشّركِ الذي هو عبارةٌ عن ترك إخلاصِه ، والموصولُ

عبارةٌ عن المُشركين ومحلُّه الرَّفعُ على الابتداءِ خبرُه ما سيأتي من الجُملةِ المُصدَّرةِ بأنْ . والأولياءُ عن الملائكةِ وعيسى عليهم السَّلامُ والأصنامِ . وقولُه تعالى : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ حالٌ بتقديرِ القَول من واوِ اتَّخذوا مبنيةٌ لكيفيَّةِ إشراكِهم وعدمِ خُلوصِ دينهم . والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ العلل . وزُلفى مصدرٌ مؤكَّدٌ على غيرِ لفظِ المصدرِ ملاقٍ له في المعنى أي والذينَ لم يُخلصوا العبادةَ للهِ تعالى بل شابُوها بعبادةِ غيره قائلين ما نعبدُهم لشيءٍ من الأشياءِ إلا ليقرِّبونا إلى الله تعالى تقريباً . ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي وبين خصمائِهم الذين هم المُخلِصون للدِّين . وقد حُذفَ لدلالةِ الحالِ عليه كما في قولِه تعالى : ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ على أحدِ الوجهينِ أي بين أحدٍ منهم وبين غيرِه وعليه قولُ النَّابغةِ :

(129/665)

فمَا كانَ بينَ الخيرِ لو جاءَ سالما . . . أبو حَجَرٍ إلاَّ ليالٍ قلائلُ

(130/665)

أي بين الخيرِ وبيني وقيل : ضيمر بينَهم للفريقينِ جميعاً ﴿ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدّين الذي اختلفُوا فيه بالتَّوحيد والإشراكِ وادَّعى كلُّ فريقٍ منهم صحَّةَ ما انتحله وحكمُه تعالى في ذلك إدخالُ الموحّدينَ الجنَّةَ والمشركينَ النَّارَ فالضَّميرُ للفريقينِ هذا هو الذي يستدعيه مساقُ النَّظمِ الكريم ، وأمَّا تجويزُ أنْ يكونَ الموصول عبارةً عن المعبودينَ على حذف العائد إليه وإضمارِ المشركينَ من غير ذكر تعويلاً على دلالة المساقِ عليهم ، ويكون التَّقديرُ والذين اتَّخذهم المشركون أولياءَ قائلين ما نعبُدهم إلاَّ ليقربونا إلى الله إنَّ الله يحكم بينهم أي بين العَبَدةِ والمعبودينَ فيما هم فيه يختلفُون حيثُ يرجُو العَبَدةُ شفاعتهم وهم يلعنونهم فبعد الإغضاءِ عمَّا فيه من التَّعسُّفاتِ بمعزل من السَّدادِ ، كيف لا وليس فيما ذُكر من طلب الشَّفاعةِ واللَّعنِ مادَّةٌ يختلفُ فيها الفريقانِ اختلافاً مُحوجاً إلى الحكمِ والفصلِ وإنَّما ذاك ما بين فريقَيْ الموحّدينَ والمشركينَ في الدُّنيا من الاختلاف في الدّينِ الباقي إلى يوم القيامة . وقُرِىء قالُوا ما نعبدُهم فهو بدلٌ من الصّلةِ ولا خبرٌ للموصول كما قيل إذ ليس في الإخبارِ بذلك مزيدُ مزيّةٍ . وقُرِىء ما نعبدكم إلاَّ لتُقرّبونا حكايةً لما خاطبُوا به آلهتَهم . وقُرِىء نعبدُهم إتباعاً للباء ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى ﴾ أي لا يُوفّقُ للاهتداءِ إلى الحقّ الذي هو طريقُ النَّجاةِ عن المكروهِ والفوزُ بالمطلوب ﴿ مَنْ هُوَ كاذب كَفَّارٌ ﴾ أي راسخٌ في الكذبِ مبالغٌ في الكُفرِ كما يُعربُ عنه قراءةُ كذَّاب وكَذُوب فإنَّهما فاقدانِ للبصيرةِ غيرُ

قابلينِ للاهتداءِ لتغييرهما الفطرةَ الأصليّةَ بالتَّمرُّنِ في الضَّلالةِ والتَّمادِي في الغِيِّ . والجملةُ تعليلٌ لما ذُكر من حكمه تعالى .

(131/665)

﴿ لَّوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ الخ استئنافٌ مسوقٌ لتحقيقِ الحقِّ وإبطالِ القولِ بأنَّ الملائكةَ بناتُ الله وعيسى ابنُه تعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيراً ببيانِ استحالةِ اتَّخاذ الولدِ في حقِّه تعالى على الإطلاقِ ليندرجَ فيه استحالةُ ما قيل اندراجاً أوليًّا أي أرادَ الله أنْ يتَّخذَ وَلَداً ﴿ لاصطفى ﴾ أي لاتَّخذَ ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ ﴾ أي من جملة ما يخلقُه أو من جنس ما يخلقه ﴿ مَا يَشَاء ﴾ أنْ يتَّخذَه إذْ لا موجودَ سواهُ إلاَّ وهو مخلوقٌ له تعالى لامتناعِ تعدُّدِ الواجبِ ووجوبِ استنادِ جميعِ ما عداهُ إليه ، ومن البيِّنِ أنَّ اتّخاذَ الولد منوطٌ بالمماثلة بين المتَّخِذِ والمتَّخَذِ وأنَّ المخلوقَ لا يُماثل خالقَه حتَّى يمكن اتّخاذُه ولداً فما فرضناه اتّخاذَ ولدٍ لم يكُن اتّخاذَ ولدٍ بل اصطفاءُ عبدٍ وإليه أُشير حيث وُضع الاصطفاءُ موضع الاتّخاذِ الذي تقتضيهِ الشَّرطيَّةُ تنبيهاً على استحالةِ مُقدمها لاستلزامِ فرض وقوعِه بل فرضِ إرادةِ وقوعِه انتفاءه أي لو أراد الله تعالى أنْ يتَّخذَ ولداً لفعل شيئاً ليس هو من اتّخاذِ الولد في شيءٍ أصلاً بل إنَّما هو اصطفاءُ عبدٍ ولا ريب في أنَّ ما يستلزم فرضُ وقوعه انتفاءَه فهو

ممتنعٌ قطعاً فكأنَّه قيل لو أراد الله أنْ يتَّخذَ ولداً لامتنع ولم يصحَّ لكن لا على أنَّ الامتناعَ منوطٌ بتحقُّقِ الإرادة بل على أنَّه مُتحقّقٌ عند عدمِها بطريقِ الأَولوِيَّةِ على منوال لو لم يخفِ الله لم يعصِه. وقوله تعالى: ﴿ سبحانه ﴾ تقريرٌ لما ذُكر من استحالة اتّخاذ الولد في حقّه تعالى وتأكيدٌ له ببيانِ تنزُّهه تعالى عنه أي تنزّه بالذَّاتِ عن ذلك تنزهه الخاصّ به على أنَّ السُّبحانَ مصدر من سبَح إذا بعُد أو أسبّحه تسبيحاً لائقاً به على أنَّه عَلَم للتَّسبيح مقولٌ على ألسنة العباد أو سبّحوه تسبيحاً حقيقاً بشأنِه. وقولُه تعالى: ﴿ هُوَ الله الواحد

(132/665)

القهار ﴾ استئنافٌ مبيّنٌ لتنزُّهِه تعالى بحسبِ الصِّفاتِ إثرَ بيانِ تنزُّهِه تعالى عنه بحسب الذَّاتِ فإنَّ صفةَ الأُلوهيَّةِ المستتبعة لسائر صفاتِ الكمال النَّافيةِ لسماتِ النُّقصانِ والوحدة الذَّاتية الموجبة لامتناعِ المُماثلة والمُشاركة بينه تعالى وبين غيرِه على الإطلاقِ ممَّا يقضِي بتنزُّهه تعالى عمَّا قالوا قضاءً مُتقناً، وكذا وصف القهَّاريَّةِ لما أنَّ اتّخاذَ الولد شأنُ مَن يكون تحتَ ملكوتِ الغيرِ عُرضةً للفناءِ ليقومَ ولدُه مقامَه عند فنائِه ومَن هو مستحيلُ الفناءِ قهَّارٌ لكلِّ الكائناتِ كيفَ يُتصوَّرُ أنْ يتَّخذَ من الأشياءِ الفانيةِ ما يقومُ مقامَه.

(133/665)

وقولُه تعالى : ﴿ خلَقَ السموات والأرض بالحق ﴾ تفصيلٌ لبعض أفعالِه تعالى الدّالَّةِ على تفرُّدِه بما ذُكر من الصِّفاتِ الجليلة أي خلقهما وما بينهما من الموجوداتِ ملتبسة بالحقّ والصَّوابِ مشتملة على الحِكَم والمصالح . وقولُه تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار ويُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ بيانٌ لكيفيَّةِ تصرُّفِة تعالى فيهما بعد بيان خلقِهما فإنَّ حدوثَ اللَّيلِ والنَّهارِ في الأرض منوطٌ بتحريك السَّمواتِ أي يغشى كلُّ واحدٍ منُهما الآخرَ كأنَّه يلفه عليه لفَّ اللباسِ على اللاَّبسِ أو يُغيبه به كما يُغيَّبُ الملفوفُ باللُّفافةِ أو يجعله كارّاً عليه كُروراً متتابعاً تتابع أكوارِ العمامةِ . وصيغةُ المضارع للدّلالةِ على التَّجدُّدِ ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ جعلهما منقادينِ لأمرِه تعالى . وقولُه تعالى : ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ بيانٌ لكيفيَّةِ تسخيرِهما أي كلٌّ منهما يجري لمُنتهى دورتِه أو منقطعِ حركتِه وقد مرَّ تفصيلُه غيرَ مرَّةٍ ﴿ إِلاَّ هُوَ العزيز ﴾ الغالبُ القادرُ على كلِّ شيءٍ من الأشياءِ التي من جُملتها عقابُ العُصاةِ ﴿ الغفار ﴾ المبالغُ في المغفرةِ ولذلك لا يُعاجل بالعقوبةِ وسلب ما في هذه الصَّنائعِ البديعة من آثارِ الرَّحمةِ . وتصديرُ الجملة بحرفِ التَّنبيهِ لإظهار كمالِ الاعتناءِ بمضمونِها .

(134/665)

﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ واحدة ﴾ بيانٌ لبعضٍ آخرَ من أفعالِه الدَّالَّةِ على ما ذُكر ، وتركُ عطفِه على خلقِ السَّمواتِ للإيذانِ باستقلالِه في الدّلالةِ ولتعلُّقِه بالعالمِ السُّفلي ، والبَداءةُ بخلقِ الإنسانِ لعراقتِه في الدّلالةِ لما فيه من تعاجيبِ آثارِ القُدرةِ وأسرارِ الحكمةِ وأصالتِه في المعرفةِ فإنَّ الإنسانَ بحالِ نفسِه أعرفُ والمرادُ بالنَّفسِ نفسُ آدمَ عليه السَّلامُ . وقولُه ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ عطفٌ على محذوفٍ هو صفةٌ لنفس أي منْ نفسٍ خلقَها ثمَّ جعل منها زَوْجَها أو على معنى واحدةٍ أي من نفسٍ واحدةٍ ثمَّ جعلَ منها زَوْجها فشَفَعها أو على خلقكم لتفاوتِ ما بينهما في الدّلالةِ فإنَّهما وإن كانتا آيتينِ دالَّتينِ على ما ذُكر لكن الأُولى لاستمرارِها صارتْ معتادةً وأما الثَّانيةُ فحيثُ لم تكن معتادةً خارجةً عن قياسِ الأولى كما يُشعر به التَّعبيرُ عنها بالجعلِ دون الخلقِ كانت أدخلَ في كونِها آيةً وأجلبَ للتَّعجُّبِ من السَّامعِ فعطفت على الأولى بثمَّ دلالةً على مباينتِها لها فضلاً ومزيةً وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادةِ كونِها آيةً فهو من التَّراخي في الحالِ والمنزلةِ . وقيل أخرج ذريَّةَ آدمَ من ظهرِه كالذَّرِّ ثم خلقَ منه حواء ففيهِ ثلاثُ آياتٍ مترتّبة : خلقُ آدمَ عليه السَّلامُ بلا أبٍ وأمَ وخلقُ حوَّاءَ من قُصيراه ، ثم تشعيبُ الخلقِ الفائتِ للحصرِ منهما . وقوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ ﴾ بيانٌ لبعضٍ آخرَ من أفعاله الدّالّةِ على ما ذُكر أي قضى أو قسَم لكم فإنّ قضاياهُ وقسمه توصف بالنُّزولِ من السَّماءِ حيثُ تُكتب في اللَّوحِ المحفوظِ أو أحدثَ لكم بأسبابٍ نازلةٍ من السَّماءِ كالأمطارِ وأشعّةِ الكواكبِ ﴿ مّنَ الأنعام ثمانية أزواج ﴾ ذكراً وأُنثى هي الإبلُ والبقرُ والضّأنُ والمعزُ وقيل خلقَها في الجنّةِ ثمّ أنزلها . وتقديمُ الظّرفينِ على المفعولِ والصّريحِ لما مرّ مراراً من الاعتناءِ بما قُدّم والتّشويقِ إلى ما أُخّر فإنّ كونَ الإنزالِ لمنافعِهم وكونَه من الجهةِ العاليةِ من الأمورِ المهمّةِ المشوّقةِ إلى ما أُنزل لا محالةَ . وقولُه تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أمهاتكم ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان كيفيّةِ خلقِهم وأطوارِه المختلفةِ الدّالّةِ على القُدرةِ الباهرةِ . وصيغةُ المضارعِ للدّلالةِ على التّدرجِ والتّجدُّدِ . وقولُه تعالى : ﴿ خَلْقاً مّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ مصدرٌ مؤكد أي يخلقكُم فيها خلقاً كائناً من بعدِ خلقٍ أي خلقاً مدرجاً حيواناً سَوياً من بعد عظام مكسوّةٍ لحماً من بعد عظامٍ عاريةٍ من بعد مُضغٍ مخلّقةٍ من بعد مضغٍ غير مخلّقةٍ من بعد علقةٍ من بعد نُطفةٍ ﴿ فِى ظلمات ثلاث ﴾ متعلّق بيخلقُكم وهي ظُلمةُ البطنِ وظُلمةُ الرّحمِ وظُلمةُ المشيمةِ أو ظُلمةُ الصُّلبِ والبطنِ والرّحِمِ .

(136/665)

﴿ ذلكم ﴾ إشارة إليه تعالى باعتبارِ أفعالِه المذكورةِ ، وما فيه من معنى البُعدِ للإيذانِ بُبعد منزلتِه تعالى في العظمةِ والكبرياءِ . ومحلُّه الرَّفعُ على الابتداءِ أي ذلكم العظيمُ الشَّأنِ الذي عددت أفعاله ﴿ الله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ خبرٌ آخرُ أي مُربيكم فيما ذُكر من الأطوارِ وفيما بعدَها ومالككم المستحقُّ لتخصيصِ العبادةِ به ﴿ لَهُ الملك ﴾ على الإطلاقِ في الدُّنيا والآخرةِ ليس لغيره شركةٌ في ذلك بوجهٍ من الوجوهِ . والجملةُ خبرٌ آخرُ . وكذا قولُه تعالى : ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ والفاء في قوله تعالى : ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ لترتيبِ ما بعدَها على ما ذُكر من شؤونِه تعالى أي فكيفَ تُصرفون عن عبادتِه تعالى مع وفورِ موجباتِها ودواعيها وانتفاءِ الصَّارفِ عنها بالكُلِّيةِ إلى عبادةِ غيرِه من غير داعٍ إليها مع كثرة الصَّوارفِ عنها .

(137/665)

﴿ إِن تَكْفُرُواْ ﴾ به تعالى بعد مشاهدةِ ما ذُكر من فنونِ نعمائِه ومعرفةِ شؤونِه العظيمةِ الموجبةِ للإيمانِ والشُّكرِ ﴿ فَإِنَّ الله غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾ أي فاعلمُوا أنَّه تعالى غنيٌّ عن إيمانِكم وشكركم غيرُ متأثِّرٍ من انتفائهما ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ أي عدمُ رضاه بكفر عباده لأجل منفعتِهم ودفعِ مضرَّتِهم رحمةً عليهم لا لتضرُّرِه تعالى به ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ

لَكُمْ ﴾ أي يرض الشُّكرَ لأجلكم ومنفعتكم لأنَّه سببٌ لفوزكم بسعادة الدَّارين لا لانتفاعه تعالى به وإنَّما قيل لعباده لا لكُم لتعميم الحكمِ وتعليله بكونهم عبادَه تعالى . وقُرِىء بإسكانِ الهاءِ ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ بيانٌ لعدم سرايةِ كفر الكافر إلى غيرِه أصلاً أي لا تحملُ نفسٌ حاملة للوزر حملَ نفسٍ أخرى ﴿ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ عند ذلك ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي كنتُم تعملونَه في الدُّنيا من أعمال الكفر والإيمانِ أي يُجازيكم بذلك ثواباً وعقاباً . ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي بمضمرات القلوبِ فكيف بالأعمال الظَّاهرةِ وهو تعليل للتَّنبيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(138/665)

وقال الآلوسى :

﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ واحدة ﴾ الخ

دليل آخر على الوحدة والقهر .

وترك عطفه على ﴿ خُلِقَ السموات ﴾ [الزمر : 5] للإيذان باستقلاله في الدلالة ولتعلقه بالعالم السفلي ، والبداءة بخلق الإنسان لأنه أقرب وأعجب بالنسبة إلى غيره باعتبار ما فيه

من العقل وقبول الأمانة الإلهية وغير ذلك حتى قيل

: وتزعم أنك جرم صغير . . .

وفيك انطوى العالم الأكبر

(139/665)

والمراد بالنفس آدم عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أي حواء فإنها خلقت من قصيري ضلعه عليه السلام اليسرى وهي أسفل الأضلاع على معنى أنها خلقت من بعضها أو خلقت منها كلها وخلق الله تعالى لآدم مكانها عطف على محذوف هو صفة ثانية لنفس أي من نفس واحدة خلقها ثم جعل منها زوجها ، أو على ﴿ واحدة ﴾ لأنه في الأصل اسم مشتق فيجوز عطف الفعل عليه كقوله تعالى : ﴿ فَالِقُ الإصباح وَجَعَلَ الليل سَكَناً ﴾ [الأنعام : 96] ويعتبر ماضياً لأن اسم الفاعل قد يكون للمضي إذا لم يعمل أي من نفس وحدت ثم جعل منها زوجها ورجح بسلامته من التقدير الذي هو خلاف الأصل أو على ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ لتفاوت ما بينهما في الدلالة فإنهما وإن كانتا آيتين دالتين على ما مر من الصفات الجليلة لكن خلق حواء من الضلع أعظم وأجلب للتعجب ولذا عبر بالجعل دون الخلق فثم للتراخي الرتبي ، ويجوز فيه كون الثاني أعلى مرتبة من الأول

وعكسه ، وقيل إنه تعالى أخرج ذرية آدم عليه السلام من ظهره كالذر ثم خلق منه حواء فالمراد بخلقهم منه إخراجهم من ظهره كالذر فالعطف على ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ وثم على ظاهرها ، وهذا لا يقبل إلا إذا صح مرفوعاً أو في حكمه ، وقد تضمنت الآية ثلاث آيات خلق آدم عليه السلام بلا أب وأم وخلق حواء من قصيراه وخلق ذريته التي لا يحصى عددها إلا الله عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأَنعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ استدلال بنوع آخر من العالم السفلي ، والإنزال مجاز عن القضاء والقسمة فإنه تعالى إذا قضى وقسم أثبت ذلك في اللوح المحفوظ ونزلت به الملائكة الموكلة بإظهاره ، ووصفه بالنزول مع أنه معنى شائع متعارف كالحقيقة والعلاقة بين الإنزال والقضاء الظهور بعد الخفاء ففي الكلام استعارة تبعية ، وجوز أن يكون فيه مجاز مرسل ، ويجوز أن يكون التجوز في نسبة الإنزال إلى الأنعام والمنزل حقيقة أسباب حياتها كالأمطار ووجه ذلك

(140/665)

الملابسة بينهما ، وقيل يراد بالأزواج أسباب تعيشها أو يجعل الإنزال مجازاً عن إحداث ذلك بأسباب سماوية وهو كما ترى ، وقيل الكلام على ظاهره والله تعالى خلق الأنعام في الجنة ثم أنزلها منها ولا أرى لهذا الخبر صحة ، والأنعام الإبل والبقر والضان والمعز وكانت

ثمانية أزواج لأن كلاً منها ذكر وأنثى ، وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاعتناء بما قدم والتشويق إلى ما أخر ، وقوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أمهاتكم ﴾ بيان لكيفية خلق من ذكر من الأناسي والأنعام إظهاراً لما فيه من عجائب القدرة ، وفيه تغليبان تغليب أولى العقل على غيرهم وتغليب الخطاب على الغيبة كذا قيل ، والأظهر أن الخطاب خاص وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد ، وقوله تعالى : ﴿ خَلْقاً مّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ مصدر مؤكد أن تعلق من بعد بالفعل وإلا فغير مؤكد أي يخلقكم فيها خلقاً مدرجاً حيواناً سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية من بعد مضغ غير مخلقة من بعد علقة من بعد نطفة فقوله سبحانه : "خلقا من بعد خلق" لمجرد التكرير كما يقال مرة بعد مرة لا أنه مخصوص بخلقين .

وقرأ عيسى .

(141/665)

وطلحة ﴿ يَخْلُقُكُمْ ﴾ بادغام القاف في الكاف ﴿ فِى ظلمات ثلاث ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة ، وقيل ظلمة الصلب والبطن والرحم ، والجار والمجرور متعلق بيخلقكم ، وجوز الشهاب تعلقه بخلقاً بناء على أنه غير مؤكد وكونه بدلاً من قوله تعالى : ﴿ فِى

بُطُونِ أمهاتكم ﴾ ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ﴾ إشارة إليه تعالى باعتبار أفعاله المذكورة على وجه بدل على بعد منزلته تعالى في العظمة والكبرياء ، واسم الإشارة مبتدأ والاسم الجليل خبره و﴿ رَبُّكُمْ ﴾ خبر بعد خبر والاسم الجليل نعت أو بدل وهو الخبر أي ذلكم العظيم الشأن الذي عددت أفعاله الله مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيها بعدها ومالككم المستحق لتخصيص العبادة به سبحانه ﴿ لَهُ الملك ﴾ على الإطلاق في الدنيا والآخرة ليس لغيره تعالى شركة ما في ذلك بوجه من الوجوه والجملة خبر آخر ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ جملة متفرعة على ما قبلها ولم يصرح معها بالفاء التفريعية اعتماداً على فهم السامع .

وفي إرشاد العقل السليم أنه خبر آخر ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَإِنّي تُصْرَفُونَ ﴾ لترتيب ما بعدها على ما ذكر من شؤونه عز وجل أي فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلية إلى عبادة غيره سبحانه من غير داع إليها مع كثرة الصوارف عنها .

(142/665)

﴿ إِن تَكْفُرُواْ ﴾ به تعالى مع مشاهدة ما ذكر من موجبات الإيمان والشكر ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ أي فاخبركم أنه عز وجل غنى عن إيمانكم وشكركم غير متأثر من انتفائهما ﴿ وَلاَ يَرضَى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ لما فيه من الضرر عليهم ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ ﴾ أي الشكر ﴿ لَكُمْ ﴾ لما فيه من نفعكم ، ومن قال بالحسن والقبح العقليين قال : عدم الرضا بالكفر لقبحه العقلي والرضا بالشكر لحسنه العقلي ، والرضا إما بمعنى المحبة أو بمعنى الإرادة مع ترك الاعتراض ويقابلة السخط كما في "شرح المسايرة" فعباده على ظاهره من العموم ، ومنهم من فسره بالإرادة من غير قيد ويقابله الكره وهؤلاء يقولون قد يرضى بالكفر أي يريده لبعض الناس كالكفرة ونقله السخاوي عن النووي في كتابه "الأصول والضوابط" .

وابن الهمام عن الأشعري .

وإمام الحرمين كذا قاله الخفاجي في حواشيه على تفسير البيضاوي .

(143/665)

والذي رأيته في الضوابط وهي نسخة صغيرة جداً ما نصه مسألة مذهب أهل الحق الإيمان بالقدر وإثباته وأن جميع الكائنات خيرها وشرها بقضاء الله تعالى وقدره وهو مريد لها

كلها ويكره المعاصي مع أنه سبحانه مريد لها لحكمة يعلمها جلا وعلا ، وهل يقال إنه تعالى يرضي المعاصي ويحبها فيه مذهبان لأصحابنا المتكلمين حكاهما إمام الحرمين وغيره ، قال إمام الحرمين في الإرشاد : مما اختلف فيه أهل الحق إطلاق المحبة والرضاء ، فقال بعض أصحابنا لا يطلق القول بأن الله تعالى يحب المعاصي ويرضاها لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ ومن حقق من أئتنا لم يلتفت إلى تهويل المعتزلة بل قال الله تعالى يريد الكفر ويحبه ويرضاه والإرادة والمحبة والرضا بمعنى واحد قال : والمراد بعباده في الآية الموفقون للإيمان وأضيفوا إلى الله تعالى تشريفاً لهم كما في قوله تعالى : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ [الإنسان : 6] أي خواصهم لأكلهم اه فلا تغفل عن الفرق بينه وبين ما ذكره الخفاجي ، وحكى تخصيص العباد في البحر عن ابن عباس .

(144/665)

وقيل يجوز مع ذلك حمل العباد على العموم ويكون المعنى ولا يرضى لجميع عباده الكفر بل يرضاه ويريده لبعضهم نظير قوله تعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ [الأنعام : 103] على قول ، ولعلامة الأعصار صاحب الكشف تحقيق نفيس في هذا المقام لم أره لغيره من العلماء الأعلام وهو أن الرضا يقابل السخط وقد يستعمل بعن والباء ويعدي بنفسه فإذا قلت :

رضيت عن فلان فإنما يدخل على العين لا المعنى ولكن باعتبار صدور معنى منه يوجب الرضا في مقابلة سخطت عليه وبينهما فرقان أنك إذا قلت : رضيت عن فلان بإحسانه لم يتعين الباء للسببية بل جاز أن يكون صلة مثله في رضيت بقضاء الله تعالى وإذا قلت : سخطت عليه باساءته تعين السببية فكان الأصل ههنا ذكر الصلة لكنه كثر الحذف في الاستعمال بخلافه ثمت إذ لا حذف ، وإذا قيل : رضيت به فهذا يجب دخوله على المعنى إلا إذا دخل على الذات تمهيداً للمعنى ليكون أبلغ تقول : رضيت بقضاء الله تعالى ورضيت بالله عز وجل ربا وقاضياً ، وقريب منه سمعت حديث فلان وسمعته يتحدث وإذا عدى بنفسه جاز دخوله على الذات كقولك : رضيت زيداً وإن كان باعتبار المعنى تنبيهاً على أن كله مرضى بتلك الخصلة وفيه مبالغة وجاز دخوله على المعنى كقولك : رضيت إمارة فلان ، والأول أكثر استعمالاً وهو على نحو قولهم : حمدت زيداً وحمدت علمه ، وأما إذا استعمل باللام تعدى بنفسه كقولك رضيت لك هذا فمعناه ما سيجيء إن شاء الله تعالى قريباً ، وإذا تمهد هذا لاح لك أن الرضا في الأصل متعلقة المعنى وقد يكون الذات باعتبار تعلقه بالمعنى أو باعتبار التمهيد فهذه ثلاثة أقسام حققت بأمثلتها وأنه في الحقيقة حالة نفسانية تعقب حصول ملائم مع ابتهاج به واكتفاء فهو غير الإرادة بالضرورة لأنها تسبق الفعل وهذا يعقبه ، وهذا المعنى في غير المستعمل باللام من الوضوح بمكان لا يخفى على ذي عينين ، وأما فيه فإنما اشتبه الأمر لأنك إذا قلت : رضيت لك التجارة

فالمراضي بالتجارة هو مخاطبك وإنما أنت بينت له أن التجارة مما يحق أن يرضى به وليس المعنى رضيت بتجارتك بل المعنى استحمادك التجارة له فالملاءمة ههنا بين الواقع عليه الفعل والداخل عليه اللام ثم إنه قد يرضى بما ترضاه له إذا عرف وجه الملاءمة وقد لا يرضى ، وفيه نجوز إما لجعل الرضا مجازاً عن الاستحماد لأن كل مرضى محمود أو لأنك جعلت كونه مرضياً له بمنزلة كونه مرضياً لك فاعلم أن الرضا في حق الله تعالى شأنه محال لأنه سبحانه لا يحدث له صفة عقيب أمر البتة فهو مجاز كما أن الغضب كذلك إما من أسماء الصفات إذا فسر بإرادة أن يثيبهم إثابة من رضي عمن تحت يده وإما من أسماء الأفعال إذا أريد الاستحماد وأن مثل قوله تعالى :

﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [المائدة : 119] إما من باب المشاكلة وإما من باب المجاز المذكور ، وأن مثل قوله سبحانه : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] متعين أن يكون من ذلك الباب بالنسبة إلى من يصح اتصافه بالرضا حقيقة أيضاً فإذن قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ كلام وارد على نهجه من غير تأويل دال على أنه جل شأنه لا يستحمد الكفر لعباده كما يستحمد الاسلام لهم ويرتضيه ، وأما أنه لا يرد

الكفر أن يوجد فليس من هذا الباب في شيء ولا هو من مقتضيات هذا التركيب وأن الخروج إلى تخصيص العباد من ضيق العطن وأن قول المحققين رضي الله تعالى عنهم : إن الطاعات برضى الله تعالى والمعاصي ليست كذلك ليس لهذه الآية بل لأن الرضا بالمعنى الأصلي يستحيل عليه تعالى وقد أخبر أنه رضي عن المؤمنين بسبب طاعتهم في مواضع عديدة من كتابه الكريم .

(146/665)

والزخشري عامله الله تعالى بعدله فسر الرضا في نحوه بالاختيار وهو لا ينفك عن الإرادة ، وأنت تعلم سقوطه مما حقق هذا ثم إنا نقول : لما أرشد سبحانه إلى الحق وهدد على الباطل إكمالاً للرحمة على عباده كلهم الفريقين بقوله تعالى : ﴿ إن ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿ تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ تنبيهاً على الغني الذاتي وأنه سبحانه تعالى أن يكون أمره بالخير لانتفاعه به ونهيه عن الشر لتضرره منه ، ثم في العدول عن مقتضى الظاهر من الخطاب إلى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ ما ينبه على أن عبوديتهم وربوبيته جل شأنه يقتضي أن لا يرضى لهم ذلك ، وفيه أنهم إذا اتصفوا بالكفر فكأنهم قد خرجوا عن رتبة عبوديته تعالى وبقوا في الذل الدائم ثم قيل ﴿ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ للتنبيه على مزيد الاختصاص

فهذا هو النظم السري الذي يحاردون إدراك طائفة من لطائفة الفكر البشري والله تعالى أعلم اه .

وهو كلام رصين وبالقبول قمين إلا أنه ربما يقال إنه : لا يتمشى على مذهب السلف حيث أنهم لا يؤولون الرضا في حقه تعالى وكونه عبارة عن حالة نفسانية إلى آخر ما ذكر في تفسيره إنما هو فينا وحيث أنه ذاته تعالى مباينة لسائر الذوات فصفاته سبحانه كذلك فحقيقة الرضا في حقه تعالى مباينة لحقيقته فينا وأين التراب من رب الأرباب ، وقد تقدم الكلام في هذا المقام على وجه يروي الأوام ويبرىء السقام فنقول عمد التأويل لا يضر فيما نحن بصدده فالرضا ان أول أو لم يؤول غير الإرادة لحديث السبق والتأخر الساق ، وممن صرح بذلك ابن عطية قال : تأمل الإرادة فإن حقيقتها إنما هي فيما لم يقع بعد والرضا حقيقته إنما هي فيما وقع واعتبر هذا في آيات القرآن تجده وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارها على جهة التجوز هذا بدل هذا .

(147/665)

وقد ذهب إلى المغايرة بينهما بما ذكر هنا ابن المنير أيضاً إلا أنه أول الرضا وذكر أنه لا يتأتى حمله في الآية على الإرادة وشنع على الزمخشري في ذلك جزاء ما تكلم على بعض أهل

السنة المخالفين للمعتزلة في زعمهم اتحاد الرضا والإرادة وأنه تعالى قد يريد ما لا يفعله العبد وقد يفعل العبد ما لا يريده عز وجل فقال : هب أن المصر على هذا المعتقد على قلبه رين أو في ميزان عقله غين اليس يدعى أو يدعي له أنه الخريت في معابر العبارات فكيف هام عن جادة الإجادة في بهماء وأعار منادي الحذاقة أذنا صماء اللهم إلا أن يكون الهوى إذا تمكن أرى الباطل حقاً وغطى على مكشوف العبارة فسحقا سحقاً أليس مقتضى العربية فضلاً عن القوانين العقلية أن المشروط مرتب على الشرط فلا يتصور وجود المشروط قبل الشرط عقلاً ولا مضيه واستقبال الشرط لغة ونقلاً واستقر باتفاق الفريقين أهل السنة وأهل البدعة أن إرادة الله تعالى لشكر العباد مثلاً مقدمة على وجود الشكر منهم فحينئذ كيف ينساغ حمل الرضا على الإرادة وقد جعل في الآية مشروطاً وجزاء وجعل وقوع الشكر شرطاً ومجزيا واللازم من ذلك عقلاً تقدم المراد وهو الشكر على الإرادة وهي الرضا ولغة تقدم المشروط على الشرط فإذا ثبت بطلان حمل الرضا على الإرادة عقلاً ونقلاً تعين المحمل الصحيح له وهو المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازي به المرضى عنه من الثواب والكرامة فيكون معنى الآية والله تعالى أعلم وان تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضى عنه ، ولا شك أن المجازاة مستقبلة بالنسبة إلى الشكر فجري الشرط والجزاء على مقتضاهما لغة وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على

الإرادة عقلاً ، ومثل هذا يقال في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرضَى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ أي لا يجازي الكافر مجازاة المرضى عنه بل مجازاة المغضوب عليه من النكال والعقوبة انتهى .

(148/665)

لا يقال : حيث كان قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ جزاء باعتبار الأخبار كما أشير إليه فيما سلف فليكن قوله تعالى ﴿ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ جزاء بذلك الاعتبار فحينئذ لا يلزم أن يكون نفس الرضا مؤخراً لأنا نقول : مثل هذا الاعتبار شائع في الجملة الاسمية المتحقق مضمونها قبل الشرط نحو ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : 17] وفي الفعل الماضي إذا وقع جزاء نحو ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : 77] وأما في الفعل المضارع فليس كذلك والذوق السليم يأبى هذا الاعتبار فيه ومع هذا أي حاجة تدعو إلى ذلك هنا ولا أراها إلا نصرة الباطل والعياذ بالله تعالى ، ثم أنه يعلم من مجموع ما قدمنا حقية ما قالوا من أنه لا تلازم بين الإرادة والرضا كما أن الرضا ليس عبارة عن حقيقة الإرادة لكن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم قسما الإرادة إلى قسمين تكوينية وشرعية ، وذكرا أن المعاصي كالكفر وغيره واقعة بإرادة الله تعالى التكوينية دون إرادته سبحانه الشرعية وعلى هذا فالرضا لا ينفك عن الإرادة الشرعية

فكل مراد لله تعالى بالإرادة الشرعية مرضى له سبحانه وهذا التقسيم لا أتعقله إلا أن تكون الإرادة الشرعية هي الإرادة التي يرتضي المراد بها فتدبر هذا ، وقرأ ابن كثير . ونافع في رواية ، وأبو عمرو .

والكسائي ﴿ يَرْضَهُ ﴾ باشباع ضمة الهاء ، والقاعدة في أشباع الهاء وعدمه أنها إن سكن ما قبلها لم تشبع نحو عليه وإليه وإن تحرك أشبعت نحو به وغلامه وههنا قبلها ساكن تقديراً وهو الألف المحذوفة للجازم فإن جعلت موجودة حكماً لم تشبع كما في قراءة ابن عامر .

(149/665)

وحفص وإن قطع النظر عنها أشبعت كما في قراءة من سمعت وهذا هو الفصيح وقد تشبه وتختلس في غير ذلك وقد يحسن أشباعها مع فقد الشرط لنكتة ، وقرأ أبو بكر ﴿ يَرْضَهُ ﴾ بسكون الهاء ولم يرضه أبو حاتم وقال : هو غلط لا يجوز ، وفيه أنه لغة لبني كلاب ، وبني عقيل إجراء للوصول مجرى الوقف .

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره ، وقد تقدم الكلام

في هذه الجملة وكذا في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ فتذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(150/665)

وقال ابن عاشور :

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

انتقال إلى الاستدلال بخلق الناس وهو الخلق العجيب .

وأُدمج فيه الاستدلال بخلق أصلهم وهو نفس واحدة تشعب منها عدد عظيم وبخلق زوج آدم ليتقوّم ناموس التناسل .

والجملة يجوز أن تكون في موضع الحال من ضمير الجلالة ، ويجوز أن تكون استئنافاً ابتدائياً تكريراً للاستدال .

والخطاب للمشركين بدليل قوله بعده : ﴿ فَأَنَّى تُصرفونَ ﴾ ، وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب ، ونكتته أنه لما أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم عنهم بطريق الغيبة أقبَلَ على خطابهم ليُجمع في توجيه الاستدلال إليهم بين طريقي التعريض والتصريح .

وتقدم نظير هذه الجملة في سورة الأعراف ، إلاّ أن في هذه الجملة عطف قوله : ﴿ جعل

منها زوجها ﴾ بحرف ﴿ ثم ﴾ الدال على التراخي الرتبي لأن مساقها الاستدلال على الوحدانية وإبطال الشريك بمراتبه ، فكان خلق آدم دليلاً على عظيم قدرته تعالى وخلق زوجه من نفسه دليلاً آخر مستقل الدلالة على عظيم قدرته .

فعطف بحرف ﴿ ثم الدال في عطف الجمل على التراخي الرتبي إشارة إلى استقلال الجملة المعطوفة بها بالدلالة مثل الجملة المعطوفة هي عليها ، فكان خلق زوج آدم منه أدلّ على عظيم القدرة من خلق الناس من تلك النفس الواحدة ومن زوجها لأنه خلق لم تجرِ به عادة فكان ذلك الخلق أجلب لعجب السامع من خلق الناس فجيء له بحرف التراخي المستعمل في تراخي المنزلة لا في تراخي الزمن لأن زمن خلق زوج آدم سابق على خلق الناس .

فأما آية الأعراف فمساقها مساق الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد ، فذُكر الأصلان للناس معطوفاً أحدهما على الآخر بحرف التشريك في الحكم الذي هو الكون أصلاً لخلق الناس .

وقد تضمنت الآية ثلاث دلائل على عظم القدرة خلق الناس من ذكر وأنثى بالأصالة وخلق الذكر الأول بالإدماج وخلق الأنثى بالأصالة أيضاً .

/

زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الانعام ثمانية ﴾ .

استدلال بما خلقه الله تعالى من الأنعام عطف على الاستدلال بخلق الإِنسان لأن المخاطبين بالقرآن يومئذٍ قوام حياتهم بالأنعام ولا تخلو الأمم يومئذ من الحاجة إلى الأنعام ولم تزل الحاجة إلى الأنعام حافّة بالبشر في قِوام حياتهم .

وهذا اعتراض بين جملة ﴿ خلقَكم من نَفسسٍ واحدةٍ ﴾ وبين ﴿ يخلُقكم في بُطونِ أُمهاتِكُم ﴾ لمناسبة أزواج الأنعام لزوج النفس الواحدة .

وأدمج في هذا الاستدلال امتنان بما فيها من المنافع للناس لما دل عليه قوله : ﴿ لَكُم ﴾ لأن في الأنعام مواد عظيمة لبقاء الإِنسان وهي التي في قوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء إلى قوله : إلا بشق الأنفس ﴾ [النحل : 75] وقوله : ﴿ ومن أصوافها وأوبارها ﴾ الخ في سورة [النحل : 80] .

والإِنزال : نقل الجسم من علوّ إلى سُفل ، ويطلق على تذليل الأمر الصعب كما يقال : نزلوا على حكم فلان ، لأن الأمر الصعب يتخيل صعب المنال كالمعتصم بقمم الجبال ، قال خصَّاب بن المعلَّى من شعراء الحماسة :

أنزلني الدهر على حكمه

من شَاهق عالٍ إلى خفض . . .

فإطلاق الإِنزال هنا بمعنى التذليل والتمكين على نحو قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ [الحديد : 25] أي سخرناه للناس فألهمناهم إلى معرفة قَيْنِه يتخذونه سيوفاً ودروعاً ورماحاً وعتاداً مع شدته وصلابته .

(152/665)

ويجوز أن يكون إنزال الأنعام إنزالها الحقيقي ، أي إنزال أصولها من سفينة نوح كقوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ [الأعراف : 11] ، أي خلقنا أصلكم وهو آدم ، قال تعالى : ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ﴾ [هود : 40] فيكون الإِنزال هو الإِهباط قال تعالى : ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ﴾ [هود : 48] ، فهذان وجهان حسنان لإِطلاق الإِنزال ، وهما أحسن من تأويل المفسرين إنزال الأنعام بمعنى الخلق ، أي لأن خلقها بأمر التكوين الذي ينزل من حضرة القدس إلى الملائكة .

والأزواج : الأنواع ، كما في قوله تعالى : ﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ [الرعد : 3] والمراد أنواع الإِبل والغنم والبقر والمعز .

وأطلق على النوع اسم الزوج الذي هو المثنّى لغيره لأن كل نوع يتقوّم كيانه من الذكر والأنثى

وهما زوجان أو أطلق عليها أزواج لأنه أشار إلى ما أنزل من سفينة نوح منها وهو ذكر وأنثى من كل نوع كما تقدم آنفاً .

﴿ أزواج يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أمهاتكم خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظلمات ﴾ .

بدل من جملة ﴿ خلقكم من نفسسٍ واحدة ﴾ وضمير المخاطبين هنا راجع إلى الناس لا غير وهو استدلال بتطور خلق الإِنسان على عظيم قدرة الله وحكمته ودقائق صنعه .

والتعبير بصيغة المضارع لإِفادة تجدد الخلق وتكرره مع استحضار صورة هذا التطور العجيب استحضاراً بالوجه والإِجمال الحاصل للأذهان على حسب اختلاف مراتب إدراكها ، ويعلم تفصيله علماء الطب والعلوم الطبيعية وقد بينه الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم " إن أحدكم يُجمَع خلقُه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يُرسل إليه الملَك فينفخُ فيه الروح " .

وقوله : ﴿ خلقاً من بعدِ خلقٍ ﴾ أي طوراً من الخلق بعد طور آخر يخالفه وهذه الأطوار عشرة:

(153/665)

الأول : طور النطفة ، وهي جسم مُخاطِيّ مستدير أبيض خال من الأعضاء يشبه دودة ، طولُه نحو خمسة مليميتر .

الثاني : طور العلَقة ، وهي تتكون بعد ثلاثة وثلاثين يوماً من وقت استقرار النطفة في الرحم ، وهي في حجم النملة الكبيرة طولها نحو ثلاثة عشر مليمتراً يلوح فيها الرأس وتخطيطات من صُور الأعضاء .

الثالث : طور المضغة وهي قطعَة حمراء في حجم النحْلة .

الرابع : عند استكمال شهرين يصير طوله ثلاثة صانتميتر وحجم رأسه بمقدار نصف بقيته ولا يتميز عنقه ولا وجهه ويستمر احمراره .

الخامس : في الشهر الثالث يكون طوله خمسة عشر صانتيميتراً ووزنه مائة غرام ويبدو رسم جبهته وأنفه وحواجبه وأظافره ويستمر احمرار جلده .

السادس : في الشهر الرابع يصير طوله عشرين صانتيميتراً ووزنه (240) غرامات ، ويظهر في الرأس زغب وتزيد أعضاؤه البطْنية على أعضائه الصدْرية وتتضح أظافره في أواخر ذلك الشهر .

السابع : في الشهر السادس يصير طوله نحو ثلاثين صنتيمتراً ووزنه خمسمائة غرام ويظهر فيه مطبقاً وتتصلب أظافره .

الثامن : في الشهر السابع يصير طوله ثمانية وثلاثين صنتيمتراً ويقلّ احمراراً جلده ويتكاثف

جلده وتظهر على الجلد مادة دُهنية دسمة ملتصقة ، ويطول شعر رأسه ويميل إلى الشقرة وتتقبب جمجمته من الوسط .

التاسع : في الشهر الثامن يزيد غلظه أكثر من ازدياد طوله ويكون طوله نحو أربعين صنتيمتراً ، ووزنه نحو أربعة أرطال أو تزيد ، وتقوى حركته .

العاشر : في الشهر التاسع يصير طوله من خمسين إلى ستين صنتيمتراً ووزنه من ستة إلى ثمانية أرطال .

ويتم عظْمه ، ويتضخّم رأسه ، ويكثف شعره ، وتبتدىء فيه وظائف الحياة في الجهاز الهضمي والرئة والقلب ، ويصير نماؤه بالغذاء ، وتظهر دورة الدم فيه المعروفة بالدورة الجَنِينية .

(154/665)

و (الظلمات الثلاث) : ظلمة بطن الأم ، وظلمة الرحم ، وظلمة المَشِيمة ، وهي غشاء من جلد يخلق مع الجنين محيطاً به ليقيه وليكون به استقلاله مما ينجر إليه من الأغذية في دورته الدموية الخاصة به دون أمه .

وفي ذكر هذه الظلمات تنبيه على إحاطة علم الله تعالى بالأشياء ونفوذ قدرته إليها في أشدّ

ما تكون فيه من الخفاء .

وانتصب ﴿ خَلْقاً ﴾ على المفعولية المطلقة المبينة للنوعية باعتبار وصفه بأنه ﴿ من بعدِ خلقٍ ﴾ ، ويتعلق قوله : ﴿ في ظُلماتتٍ ثلاثٍ ﴾ بـ ﴿ يَخلُقُكُمْ ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ أُمهاتُكُمْ ﴾ بضم الهمزة وفتح الميم في حالي الوصل والوقف وقرأه حمزة في حال الوصل بكسر الهمزة إتباعاً لكسرة نون ﴿ بُطُونِ ﴾ وبكسر الميم إتباعاً لكسر الهمزة .

وقرأه الكسائي بكسر الميم في حال الوصل مع فتح الهمزة .

.

﴿ ثلاث ذَلِكُمُ الله ربُّكُمْ لَهُ الملك لا إله إلاَّ هُوَ فأنى ﴾ .

بعد أن أُجري على اسم الله تعالى من الأخبار والصفات القاضية بأنه المتصرف في الأكوان كلها : جواهرها وأعراضها ، ظاهرها وخفيها ، ابتداءً من قوله : ﴿ خَلَقَ السموات والأرضَ بِالحَقِّ ﴾ [الأنعام : 73] ، ما يرشد العاقل إلى أنه المنفرد بالتصرف المستحق العبادة المنفرد بالإلهية أعقب ذلك باسم الإِشارة للتنبيه على أنه حقيق بما يرد بعده من أجل تلك التصرفات والصفات .

والجملة فذلكة ونتيجة أنتجتها الأدلة السابقة ولذلك فصلت .

واسم الإِشارة لتمييز صاحب تلك الصفات عن غيره تمييزاً يفضي إلى ما يرد بعد اسم

الإِشارة على نحو ما قرر في قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة [البقرة : 5] .

والمعنى : ذلكم الذي خلق وسخر وأنشأ الناس والأنعام وخلق الإِنسان أطواراً هو الله ، فلا تشركوا معه غيره إذ لم تَبْق شبهة تَعذر أهلَ الشرك بشركهم ، أي ليس شأْنُه بمشابه حال غيره من آلهتكم قال تعالى : ﴿ أم جعلوا للَّه شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾

(155/665)

[الرعد : 16] .

والإِتيان باسمه العلَم لإِحضار المسمّى في الأذهان باسم مُختصّ زيادة في البيان لأن حال المخاطبين نزل منزلة حال من لم يعلم أن فاعل تلك الأفعال العظيمة هو الله تعالى .

واسم الجلالة خبر عن اسم الإِشارة .

وقوله : ﴿ ربُّكُم ﴾ صفة لاسم الجلالة .

ووصفه بالربوبية تذكير لهم بنعمة الإِيجاد والإِمداد وهو معنى الربوبية ، وتوطئة للتسجيل عليهم بكفران نعمته الآتي في قوله : ﴿ إن تكفروا فإن اللَّه غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ [الزمر : 7] .

وجملة ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ خبر ثان عن اسم الإِشارة .

والملك : أصله مصدر مَلَك ، وهو مثلث الميم إلا أن مضمون الميم خصه الاستعمال بمُلك البلاد ورعاية الناس ، وفيه جاء قوله تعالى : ﴿ تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾ [آل عمران : 26] ، وصاحبه : مَلِك ، بفتح الميم وكسر اللام ، وجمعه : ملوك .

وتقديم المجرور لإِفادة الحصر الادعائي ، أي الملك لله لا لغيره ، وأما مُلك الملوك فهو لنقصه وتعرُّضه للزوال بمنزلة العدم ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ الحمد للَّه ﴾ [الفاتحة : 2] ، وفي حديث القيامة : " ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض " ، فالإلهية هي المُلك الحقّ ، ولذلك كان ادعاؤهم شركاء للإله الحق خطأً ، فكان الحصر الادعائي لإِبطال ادعاء المشركين .

وجملة ﴿ لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ بيان لجملة الحصر في قوله : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ .

وفرع عليه استفهام إنكاري عن انصرافهم عن توحيد الله تعالى ، ولما كان الانصراف حالةً استُفهم عنها بكلمة ﴿ أنّى التي هي هنا بمعنى (كيف) كقوله تعالى : ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ [الأنعام : 101] .

والصرف : الإِبعاد عن شيء ، والمصروف عنه هنا محذوف ، تقديره : عن توحيده ، بقرينة قوله : ﴿ لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ .

وجعَلهم مصروفين عن التوحيد ولم يذكر لهم صارفاً ، فجاء في ذلك بالفعل المبني للمجهول ولم يقل لهم : فأنى تنصرفون ، نعياً عليهم بأنهم كالمَقُودين إلى الكفر غير المستقلين بأمورهم يصرفهم الصارفون ، يعني أئمة الكفر أو الشياطين الموسوسين لهم .

وذلك إلْهاب لأنفسهم ليكفّوا عن امتثال أيمتهم الذين يقولون لهم : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ [فصلت : 26] ، عسى أن ينظروا بأنفسهم في دلائل الوحدانية المذكورة لهم .

والمعنى : فكيف يصرفكم صارف عن توحيده بعد ما علمتم من الدلائل الآنفة .

والمضارع هنا مراد منه زمن الاستقبال بقرينة تفريعه على ما قبله من الدلائل .

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ .

أتبع إنكار انصرافهم عن توحيد الله بعد ما ظهر على ثبوته من الأدلة ، بأن أُعلموا بأن كفرهم إن أصرّوا عليه لا يضر الله وإنما يضر أنفسهم .

وهذا شروع في الإنذار والتهديد للكافرين ومقابلِته بالترغيب والبشارة للمؤمنين فالجملة مستأنفة واقعة موقع النتيجة لما سبق من إثبات توحيد الله بالإلهية .

فجملة ﴿ إن تَكْفُرُوا ﴾ مبينة لإنكار انصرافهم عن التوحيد ، أي إن كفرتم بعد هذا الزمن فاعلموا أن الله غنيّ عنكم .

ومعناه : غنيّ عن إقراركم له بالوحدانية ، أي غير مفتقر له .

وهذا كناية عن كون طلب التوحيد منهم لنفعهم ودفع الضر عنهم لا لنفع الله ، وتذكيرهم بهذا ليُقبلوا على النظر من أدلة التوحيد .

والخبر مستعمل كناية في تنبيه المخاطب على الخطأ من فعله .

وقوله : ﴿ ولاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ ﴾ اعتراض بين الشرطين لقصد الاحتراس من أن يتوهم السامعون أن الله لا يكترث بكفرهم ولا يعبأ به فيتوهموا أنه والشكرَ سواء عنده ، ليتأكد بذلك معنى استعمال الخبر في تنبيه المخاطب على الخطأ .

(157/665)

وبهذا تعيّن أن يكون المراد من قوله : ﴿ لِعِبَادِهِ ﴾ العباد الذين وجّه الخطاب إليهم في قوله : ﴿ إن تكفروا فإنَّ الله غنيٌّ عنكم ﴾ ، وذلك جريٌ على أصل استعمال اللغة لفظ العباد ، كقوله : ﴿ ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ﴾ [الفرقان : 17] .

الآية ؛ وإن كان الغالب في القرآن في لفظ العباد المضاف إلى اسم الله تعالى أو ضميره أن يطلق على خصوص المؤمنين والمقرَّبين ، وقرينة السياق ظاهرة هنا ظهوراً دون ظهورها في قوله : ﴿ أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء ﴾ [الفرقان : 17] .

والرضى حقيقته : حالة نفسانية تعقُب حصولَ ملائم مع ابتهاج به ، وهو على التحقيق فيه معنى ليس في معنى الإِرادة لما فيه من الاستحسان والابتهاج ويعبر عنه بترك الاعتراض ، ولهذا يقابل الرضى بالسخط ، وتقابل الإِرادة بالإِكراه ، والرضى آئل إلى معنى المحبة .

والرضى يترتب عليه نفاسة المرضيّ عند الراضي وتفضيله واختياره ، فإذا أُسند الرضى إلى الله تعالى تعيّن أن يكون المقصود لازم معناه الحقيقي لأن الله منزّه عن الانفعالات ، كشأن إسناد الأفعال والصفات الدالة في اللغة على الانفعالات مثل : الرحمان والرؤوف ، وإسناد الغضب والفرح والمحبة ، فيؤوَّل الرضى بلازمه من الكرامة والعناية والإِثابة إن عدي إلى الناس ، ومن النفاسة والفضل إن عدّي إلى أسماء المعاني .

وقد فسره صاحب "الكشاف" بالاختيار في قوله تعالى : ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ في سورة [العقود : 3] .

وفعل الرضى يُعدّى في الغالب بحرف (عن) ، فتدخل على اسم عَين لكن باعتبار معنى فيها هو موجب الرضى .

وقد يعدّى بالباء فيدخل غالباً على اسم معنى نحو : رضيت بحكم فلان ، ويدخل على اسم ذات باعتبار معنى يدل عليه تمييز بعده نحو : رضيت بالله ربًّا ، أو نحوه مثل:

﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ [التوبة : 38] ، أو قرينة مقام كقول قريش في وضع الحجر الأسود : هذا محمد قد رضينا به ، أي رضينا به حَكَماً إذ هم قد اتفقوا على تحكيم أول داخل .

ويعدّى بنفسه ، ولعله يراعى فيه التضمين ، أو الحذفُ والإِيصال ، فيدخل غالباً على اسم معنى نحو : رضيت بحكم فلان بمعنى : أحببت حكمه .

وفي هذه الحالة قد يُعدّى إلى مفعول ثان بواسطة لام الجر نحو : ﴿ ورضيت لكم الإِسلام ديناً ﴾ [المائدة : 3] ، أي رضيته لأجلكم وأحببته لكم ، أي لأجلكم ، أي لمنفعتكم وفائدتكم .

وفي هذا التركيب مبالغة في التنويه بالشيء المرضي لدى السامع حتى كأن المتكلم يرضاه لأجل السامع .

فإذا كان قوله : ﴿ لِعبَادِه ﴾ عامّاً غير مخصوص وهو من صيغ العموم ثار في الآية إشكال بين المتكلمين في تعلُّق إرادة الله تعالى بأفعال العباد إذ من الضروريّ أن من عباد الله كثيراً كافرين ، وقد أخبر الله تعالى أنه لا يرضى لعباده الكفر ، وثبت بالدليل أن كل واقع هو مراد الله تعالى إذ لا يقع في مُلكه إلا ما يريد فأنتج ذلك بطريقة الشكل الثالث أن يقال : كفر الكافر مرادٌ لله تعالى لقوله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ [الأنعام : 112] ولا شيء من

الكفر بمرضي لله تعالى لقوله : ﴿ ولا يرضى لعباده الكُفر ﴾ ، ينتج القياس بعض ما أراده اللَّه ليس بمرضي له فتعين أن تكون الإِرادة والرضى حقيقتين مختلفتين وأن يكون لفظاهما غير مترادفين ، ولهذا قال الشيخ أبو الحسن الأشعري إن الإِرادة غير الرضى ، والرضى غير الإِرادة والمشيئة ، فالإِرادة والمشيئة بمعنى واحد والرضى والمحبة والاختيار بمعنى واحد ، وهذا حمل لهذه الألفاظ القرآنية على معان يمكن معها الجمع بين الآيات قال التفتازاني : وهذا مذهب أهل التحقيق .

(159/665)

وينبني عليها القول في تعلق الصفات الإلهية بأفعال العباد فيكون قولُه تعالى : ﴿ ولاَ يَرْضَى لعباده الكفر ﴾ راجعاً إلى خطاب التكاليف الشرعية ، وقولُه : ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ [الأنعام : 112] راجعاً إلى تعلق الإِرادة بالإِيجاد والخلق .

ويتركب من مجموعهما ومجموع نظائر كل منهما الاعتقاد بأن للعباد كسباً في أفعالهم الاختيارية وأن الله تتعلق إرادته بخلق تلك الأفعال الاختيارية عند توجه كسب العبد نحوها ، فالله خالق لأفعال العبد غير مكتسب لها .

والعبدُ مكتسب غير خالق ، فإن الكسب عند الأشعري هو الاستطاعة المفسرة عنده

بسلامة أسباب الفعل وآلاته ، وهي واسطة بين القدرة والجَبر ، أي هي دون تعلق القدرة وفوق تسخير الجبر جمعاً بين الأدلة الدينية الناطقة بمعنى : أن الله على كل شيء قدير ، وأنه خالق كل شيء ، وبين دلالة الضرورة على الفرق بين حركة المرتعش وحركة الماشي ، وجمعاً بين أدلة عموم القدرة وبين توجيه الشريعة خطابها للعباد بالأمر بالإِيمان والأعمال الصالحة ، والنهي عن الكفر والسيئات وترتيب الثواب والعقاب .

وأما الذين رأوا الاتحاد بين معاني الإِرادة والمشيئة والرضى وهو قول كثير من أصحاب الأشعري وجميع الماتريدية فسلكوا في تأويل الآية محمل لفظ لِعِبَادِهِ ﴾ على العام المخصوص ، أي لعباده المؤمنين واستأنسوا لهذا المحمل بأنه الجاري على غالب استعمال القرآن في لفظة (العباد) لاسم الله ، أو ضميره كقوله : ﴿ عيناً يشرب بها عباد اللَّه ﴾ [الإنسان : 6] ، قالوا : فمن كفر فقد أراد الله كفره ومن آمن فقد أراد الله إيمانه ، والتزم كلا الفريقين الأشاعرة والماتريدية أصلَه في تعلق إرادة الله وقدرته بأفعال العباد الاختيارية المسمّى بالكسب ، ولم يختلفا إلا في نسبة الأفعال للعباد : أهي حقيقية أم مجازية ، وقد عدّ الخلاف في تشبيه الأفعال بين الفريقين لفظياً .

(160/665)

ومن العجيب تهويل الزمخشري بهذا القول إذ يقول : "ولقد تمحل بعض الغواة ليثبت لله ما نفاه عن ذاته من الرضى بالكفر فقال : هذا من العام الذي أريد به الخاص الخ" ، فكان آخر كلامه ردّاً لأوله وهل يعدّ التأويل تضليلاً أم هل يعد العام المخصوص بالدليل من النادر القليل .

وأما المعتزلة فهم بمعزل عن ذلك كله لأنهم يثبتون القدرة للعباد على أفعالهم وأن أفعال العباد غير مقدورة لله تعالى ويحملون ما ورد في الكتاب من نسبة أفعال من أفعال العباد إلى الله أو إلى قدرته أنه على معنى أنه خالق أُصولها وأسبابها ، ويحملون ما ورد من نفي ذلك كما في قوله : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ على حقيقته ولذلك أوردوا هذه الآية للاحتجاج بها .

وقد أوردها إمام الحرمين في "الإِرشاد" في فصل حَشر فيه ما استَدلّ به المعتزلة من ظواهر الكتاب .

وقوله : ﴿ وإن تَشْكُروا يَرْضَهُ لكم ﴾ عطف على جملة ﴿ إن تَكْفُرُوا ﴾ والمعنى : وإن تشكروا بعد هذه الموعظة فتُقْلِعوا عن الكفر وتشكروا الله بالاعتراف له بالوحدانية والتنزيه يرض لكم الشكر ، أي يجازيكم بلوازم الرضى .

والشكرُ يتقوّم من اعتقاد وقول وعمل جزاءً على نعمة حاصلة للشاكر من المشكور .

والضمير المنصوب في قوله : ﴿ يَرْضَهُ ﴾ عائد إلى الشكر المتصيّد من فعل ﴿ إن

تشكروا ﴾ .

﴿ لَكُمْ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ ﴾ .

كأنّ موقع هذه الآية أنه لما ذكر قبلها أن في المخاطبين كافراً وشاكراً وهم في بلد واحد بينهم وشائج القرابة والولاء ، فربما تحرج المؤمنون من أن يمسَّهم إثم من جراء كفر أقربائهم وأوليائهم ، أو أنهم خَشُوا أن يصيب الله الكافرين بعذاب في الدنيا فيلحق منه القاطنين معهم بمكة فأنبأهم الله بأن كفر أولئك لا ينقص إيمان هؤلاء وأراد اطمئنانهم على أنفسهم .

وأصل الوزر ، بكسر الواو : الثقل ، وأطلق على الإِثم لأنه يلحق صاحبه تعبٌ كتعب حامل الثقل .

ويقال : وَزَر بمعنى حمل الوِزر ، بمعنى كسب الإِثم .

(161/665)

وتأنيث ﴿ وَازِرَةٌ ﴾ و ﴿ أخرى ﴾ باعتبار إرادة معنى النفس في قوله : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ [البقرة : 48] .

والمعنى : لا تحمل نفس وزر نفس أخرى ، أي لا تغني نفس عن نفس شيئاً من إثمها ، فلا تطمع نفس بإعانة ذويها وأقربائها ، وكذلك لا تخشى نفس صالحة أن تؤاخذ بتبعة نفس

أخرى من ذويها أو قرابتها .

وفي هذا تعريض بالمتاركة وقطع اللجاج مع المشركين وأن قصارى المؤمنين أن يرشدوا الضُّلاّل لا أن يلجئوهم إلى الإيمان ، كما تقدم في آخر سورة الأنعام .

﴿ أخرى ثُمَّ إلى ربِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ﴾ .

﴿ ثمّ ﴾ للترتيبين الرتبي والتراخي ، أي وأعظم من كون الله غنياً عنكم أنه أعدّ لكم الجزاء على كفركم وسترجعون إليه ، وتقدم نظيرها في آخر سورة الأنعام .

وإنما جاء في آية [الأنعام : 164] ﴿ بما كنتم فيه تختلفون لأنها وقعت إثر آيات كثيرة تضمّنت الاختلاف بين أحوال المؤمنين وأحوال المشركين ولم يجيء مثل ذلك هنا ، فلذلك قيل هنا : بما كنتم تعملونَ ﴾ ، أي من كُفْر من كَفر وشُكر مَن شَكر .

والإنباء : مستعمل مجازاً في الإظهار الحاصل به العلم ، ويجوز أن يكون مستعملاً في حقيقة الإخبار بأن يعلن لهم بواسطة الملائكة أعمالهم ، والمعنى : أنه يظهر لكم الحق لا مرية فيه أو يخبركم به مباشرة ، وتقدم بيانه في آخر الأنعام ، وفيه تعريض بالوعد والوعيد .

وجملة ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ تعليل لجملة ﴿ ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ لأن العليم بذات الصدور لا يغادر شيئاً إلا علمه فإذا أنبأ بأعمالهم كان إنباؤه كاملاً .

وذات : صاحبة ، مؤنث (ذُو) بمعنى صاحب صفة لمحذوف تقديره الأعمال ، أي بالأعمال صاحبة الصدور ، أي المستقرة في النوايا فعبر بـ ﴿ الصُّدُورِ ﴾ عما يحلّ بها ، والصدور مراد بها القلوب المعبر بها عما به الإدراك والعَزم ، وتقدم في قوله : ﴿ ولكن اللَّه سلم إنه عليم بذات الصدور في سورة ﴾ [الأنفال : 43] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(163/665)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ يعني القرآن ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا من الله زلفى ﴾ قال : ما نعبد هذه الآلهة إلا ليشفعوا لنا عند الله تعالى .

وأخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشي رضي الله عنه ، " أن رجلاً قال : يا رسول الله انا نعطي أموالنا التماس الذكر ، فهل لنا في ذلك من أجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يقبل إلا من أخلص له " . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ " .

وأخرج ابن جرير من طريق جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء . . . ﴾ قال : أنزلت في ثلاثة أحياء : عامر ، وكنانة ، وبني سلمة . كانوا يعبدون الأوثان ، ويقولون الملائكة بناته . فقالوا ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ قال : قريش يقولون للأوثان ، ومن قبلهم يقولونه للملائكة ولعيسى ابن مريم ولعزيز .

وأخرج سعيد بن منصور عن مجاهد رضي الله عنه قال كان عبد الله رضي الله عنه يقرأ ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه كان يقرأها ﴿ قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يكوّر الليل على النهار ﴾ قال : يحمل الليل .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل ﴾ قال : هو غشيان أحدهما على الآخر .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل ﴾ قال : يغشي هذا هذا ، وهذا هذا .

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ يعني آدم ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ خلقها من ضلع من أضلاعه و ﴿ أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ﴾ قال : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم لحماً ، ثم أنبت الشعر أطواراً ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ قال : البطن ، والرحم ، والمشيمة ﴿ فأنى تصرفون ﴾ قال : كقوله ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ [الزخرف : 87] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ من الإِبل ، والبقر ، والضان ، والمعز . وفي قوله ﴿ من بعد خلق ﴾ قال : نطفة ثم ما يتبعها حتى يتم خلقه ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ قال : البطن ، والرحم ، والمشيمة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ خلقاً من بعد خلق ﴾ قال : علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ قال : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك رضي الله عنه في ظلمات ثلاث قال البطن والرحم والمشيمة .

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ

(165/665)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ يعني الكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، فيقولون لا إله إلا الله . ثم قال ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ وهم عباده

المخلصون الذين قال ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الحجر : 42] فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله وحببها إليهم .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ قال : لا يرضى لعباده المسلمين الكفر .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : والله ما رضي الله لعبده ضلالة ، ولا أمره بها ، ولا دعا إليها ، ولكن رضي لكم طاعته ، وأمركم بها ، ونهاكم عن معصيته .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(166/665)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

يعني آدم وحواء .

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ﴾ أي خلق لكم ، ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ فمن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، ومن الضأن اثنين ، ومن المواشي اثنين .

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ : أي يصورِّكم ، ويُركِّب أحوالكم .

﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ﴾ : ظلمة البطن ، وظلمة الرَّحِم ، وظلمة المشيمة . ذَكَّرَهم نسبتهم لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم .

ويقال بَيَّنَ آثار أفعاله الحكيمة في كيفية خِلْقَتِك – من قطرتين – أمشاجاً متشاكلةَ الأجزاء ، مختلفة الصُّوَرِ في الأعضاء ، سَخَّرَ بعضَها مَحَالَّ للصفات الحميدة كالعلم والقدرة والحياة . . . وغير ذلك من أحوال القلوب ، وسَخَّرَ بعضها مَحَالَّ للحواش كالسمع والبصر والشَّمِّ وغيرها .

ويقال هذه كلها نِعَمٌ أنعم اللهُ بها علينا فَذَكَّرَنا بها – والنفوسُ مجبولةٌ ، وكذلك القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها – استجلاباً لمحبتنا له .

﴿ ذَالِكُمْ اللَّهُ رَبِّكُمْ . . . ﴾ أي إن الذي أحسن إليكم بجميع هذه الوجوه هو ربُّكم . أي : أنا خلقتكم وأنا رزقتكم وأنا صَوَّرتُكم فأحسنت صُوَرَكم ، وأنا الذين أسبَغْتُ عليكم إنعامي ، وخصصتكم بجميل إكرامي ، وأغرقتكم في بحار أفضالي ، وعرفتكم استحقاق جمالي وجلالي ، وهديتكم إلى توحيدي ، وألزمتكم رعايةَ حدودي . . . فما لكم لا تَنْقَطِعون بالكلية إليَّ ؟ ولا ترجون ما وَعَدْتُكم لديَّ ؟ وما لكم في الوقت بقلوبكم لا تنظرون إليَّ ؟

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ

إنْ أعرضتم وأَبَيْتُم ، وفي جحودكم تماديتم . . . فَمَا نَفْتَقِرُ إليكم ؛ إذا نحن أغنياء عنكم ، ولكنّي لا أرضى لكم أن تبقوا عني !

(167/665)

يا مسكين . . . أنت إنْ لم تكن لي فأنا عنكَ غنيٌّ ، وأنا إن لم أكنْ لك فمن تكون أنت ؟ ومَنْ يكون لك ؟ مَنْ الذي يُحْسِنُ إليك ؟ مَنْ الذي ينظر إليك ؟ من الذي يرحمك ؟ من الذي ينثر الترابَ على جراحِك ؟

من الذي يهتم بشأنك ؟ بمن تسلو إذا بَقِيتَ عنّي ؟ مَنْ الذي يبيعك رغيفاً بمثاقيل ذهب ؟ ! .

عَبْدي . . . أنا لا أرضى ألا تكونَ لي وأنت ترضى بألا تكون لي ! يا قليلَ الوفاء ، يا كثيرَ التجنّي !

إن أطَعْتَنِي شَكَرْتُك ، وإن ذَكَرْتَنِي ذكرتُك ، وإن خَطَوتَ لأَجْلي خطوةً ملأتُ السمواتِ والأرضين من شكرك :

لو عَلِمْنا أنَّ الزيارةَ حقٌّ . . . لَفَرَشْنَا الخدودَ أرضاً لترضى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 269 . 270 ﴾

(168/665)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والستون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/666)

الجزء السادس والستون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 8 ﴾ من سورة الزمر

وحتى الآية ﴿ 20 ﴾ من نفس السورة

(4/666)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه أنه المختص بالملك وحده ، وأتبعه بما يرضيه وما يسخطه ، أقام الدليل على ذلك الاختصاص مع أنه أوضح من الشمس بدليل وجداني لكل أحد على وجه ذمهم

فيه بالتناقض الذي هم أعظم البأس ذماً له ونفرة منه وذماً به فقال : ﴿ وإذا ﴾ وهي - والله أعلم - حالية من واو ﴿ تصرفون ﴾ وكان الأصل : مسكم ، ولكنه عمم ودل بلفت القول عن الخطاب على الوصف الموجب للنسيان فقال : ﴿ مس الإنسان ﴾ أي هذا النوع الآنس بنفسه مؤمنه وكافره ﴿ ضر ﴾ أي ضر كان من جهة يتوقعها - بما أشار إليه الظرف بمطابقة المقصود السورة مع تهديد آخر التي قبلها ﴿ دعا ربه ﴾ أي الحسن إليه الذي تقدم تنبيهكم من غفلتكم عليه بقوله " ذلكم الله ربكم " ذاكراً صفة إحسانه ﴿ منيباً ﴾ أي راجعاً رجوعاً عظيماً ﴿ إليه ﴾ بباطنه مخلصاً في ذلك عالماً أنه لا يكفيه أمره غيره ضرورة يجدها في نفسه لأن الضر أزال عنه الأموية والحظوظ ، معرضاً عما كان يزعم من الشركاء معرفاً لسان حاله أنه لا شريك له سبحانه كما هو الحق فتطابق في حال الضراء الحق والاعتقاد .

(5/666)

ولما كان الإنسان لما جبل عليه من الجزع واليأس إذا كان في ضر استبعد كل البعد أن يكشف عنه ، لتقيده بالجزئيات وقصوره على التعلق بالأسباب ، أشار إلى ذلك مع الإشارة إلى الوعد بتحقيق الفرج فقال : ﴿ ثم ﴾ أي بعد استبعاده جداً .

ولما كان الرخاء محققاً ، وهو أكثر من الشدة ، عبر بأداة التحقق ، فقال منبهاً بالتعبير ب " خول " على أن غطاءه ابتداء فضل منه لا يستحق أحد عليه شيئاً لأن التخويل لا يكون جزاء بل ابتداء : ﴿ إذا خوله ﴾ أي أعطاه عطاء متمكناً ابتداء ، وجعله حسن القيام عليه قادراً على إجادة تعهده ﴿ نعمة منه ﴾ ومكنه فيها ﴿ نسي ﴾ أي مع دعائه أن يشكر على الإحسان ، فكانت مدة تخويله ظرف نسيانه ، فعلم أن صلاحه بالضراء ﴿ ما ﴾ أي الأمر الذي ﴿ كان يدعوا ﴾ ربه على وجه الإخلاص ﴿ إليه ﴾ إلى كشفه من ذلك الضر الذي كان ، وأعلم بتقارب وقتي النسيان والإنابة بإثبات الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل حال التخويل ﴿ وجعل ﴾ زيادة على الكفران بنسيان الإحسان ﴿ لله ﴾ أي الذي لا مكافئ له بشهادة الفطرة والعقل والسمع ﴿ أنداداً ﴾ أي لكونه يتأهلهم ، فينزلهم بذلك منزلة من يكون قادراً على المعارضة والمعاندة ، فقد علم من التعبير بالنسيان أنه عالم بربه ، ولذلك دعاه في كشف ضره وأنه جعل علمه عند الإحسان إليه جهلاً ، فكان كمن لا يعلم من سائر الحيوانات العجم .

ولما كان ذلك في غاية الضلال ، لكونه – مع أنه خطأ – موجباً لقطع الإحسان وعدم الإجابة في كشف الضر مرة أخرى وكانوا يدعون أنهم أعقل الناس ، وكان هذا الضلال في غاية الظهور ، وكان العاقل لا يفعل شيئاً إلا لعلة ، عظمهم تهكماً بهم عن أن يكونوا ضلوا هذا الضلال الظاهر من غير قصد إليه ، فقال مشيراً إلى ذلك كله : ﴿ ليضل ﴾ أي بنفسه

عند فتح الياء ، ويضل غيره عند من ضمها ﴿ عن سبليه ﴾ أي الطريق الموصل إلى رضوانه ، الموجب للفوز بإحسانه .

(6/666)

ولما كان من المعلوم المحقق المقطوع به المركوز في الفطر الأولى المستمر فيما بعدها أن الملك لا يدع من يعصيه بغير عقاب ، وكان قد ثبت بقضية الإجماع وقت الاضطرار أنه لا يلتفت إلى أحد سوى الله وكان من التفت – بعد أن أنجاه الله من ضرره وأسبغ عليه من نعمه – كافراً من غير شك عند ذي عقل ، وكان من كان بهذه المثابة في هذه الدار هم أهل النعم الكبار ، والتمتع الصافي عن الأكدار ، كان من المعلوم أنه لا بد من عقوبته في دار القرار ، فقال تعالى مبيناً لأن هذا التمتع إنما هو سبب هذا الكفران استدراجاً مع الإعراض المؤذن بالغضب ﴿ قل ﴾ أي يا أحب خلقنا إلينا المستحق للإقبال عليه بالخطاب ، لهذا الذي قد حكم بكفره مهدداً له بما يقوته بلذيذ عيشه في الدنيا من الفيض من الجناب الأقدس ويؤول إليه أمره من العذاب الأكبر : ﴿ تمتع ﴾ أي في هذه الدنيا التي هي وكل ما فيها – مع كونه زائلاً – يفيض إلى الله ، فهو من جملة المقت إلا لمن صرفه في طاعة الله .

ولما ذكر تمتيعه بالخسيس ، ذكر سببه الخسيس تعظيماً لأجور المؤمنين لانصرافهم عن

الكفر مع علمهم بأنه من أسباب التمنيع وبياناً لذوي الهمم العوال من غيرهم فقال : ﴿ بكفرك ﴾ ثم أشار إلى قلة زمن الدنيا وما فيها في جنب الآخرة فقال : ﴿ قليلاً ﴾ ثم علل ذلك بما إذا غمس في عذابه أنعم أهل الدنيا غمسة واحدة قال : ما رأيت نعيماً قط ، فقال مؤكداً لأجل تكذيبهم بالنار ، ودفعاً لما استقر في نفوسهم أن تنعيمهم في الدنيا إنما هو لقربهم من الله ومحبته لهم ، وأن ذلك يتصل بنعيم الآخرة على تقدير كونها : ﴿ إنك ﴾ وهذا الأمر هنا يراد به الزجر ، تقديره : إن تمتعت هكذا كنت ﴿ من أصحاب النار ﴾ أي الذين لم يخلفوا إلا لها ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ [الأعراف : 179] .

(7/666)

ولما أرشدت " أم " قطعاً في قراءة من شدد إدغاماً لإحدى الميمين في الأخرى أن التقدير شرحاً لأحوال المؤمنين بعد أحوال المشركين : أهذا - الذي يدعو الله مرة ، وغيره ممن يجعله له نداً أخرى - أسد طريقة وأقوم قيلاً : ﴿ أمّن هو ﴾ والتقدير في قراءة نافع وابن كثير وحمزة بالتخفيف : أمن هو بهذه الصفة خير أم ذلك الكافر الناسي لمن أحسن إليه ، ويرجح التقدير بالاستفهام دون النداء إنكار التسوية بين العالم الذي حداه علمه على

القنوت والذي لا يعلم حقيقة أو مجازاً لعدم الانتفاع بعلمه ﴿ قانت ﴾ أي مخلص في عبادته الله تعالى دائماً ﴿ آناء الّيل ﴾ أي جميع ساعاته .

ولما كان المقام للإخلاص ، وكان الإخلاص أقرب مقرب إلى الله لأنه التجرد عن جميع الأغيار ، وكان السجود أليق الأشياء بهذا الحال ، ولذلك كان أقرب مقرب للعبد من ربه ، لأنه خاص بالله تعالى ، قال : ﴿ ساجداً ﴾ أي وراكعاً ودل على تمكنه من الوصفين بالعطف فقال : ﴿ وقائماً ﴾ أي وقاعداً ، وعبر بالاسم تنبيهاً على دوام إخلاصه في حال سجوده وقيامه ، والآية من الاحتباك : ذكر السجود دليلاً على الركوع والقيام دليلاً على القعود ، والسر في ذكر ما ذكر وترك ما ترك أن السجود يدل على العبادة ، وقرن القيام به دال على أنه قيام منه فهو عبادة ، وذلك مع الإيذان بأنهما أعظم الأركان ، فهو ندب إلى تطويلهما على الركنين الآخرين لأن القعود إنما هو للرفق بالاستراحة والركوع إنما أريد به إخلاص الأركان للعبادة ، لأنه لا يمكن عادة أن يكون لغيرها ، وأما السجود فيطرقه احتمال السقوط والقيام والقعود مما جرت به العوائد ، فلما ضم إليهما الركوع تمحضاً للخضوع بين يدي الملك العليم العزيز الرحيم .

(8/666)

ولما كان الإنسان محل الفتور والغفلة والنسيان ، وكان ذلك في محل الغفران ، وكان لا يمكن صلاحه إلا بالخوف من الملك الديان ، قال معللاً أو مستأنفاً جواباً لمن كأنه يقول : ما له يتعب نفسه هذا التعب ويكدها هذا الكد : ﴿ يحذر الآخرة ﴾ أي عذاب الله فيها ، فهو دائم التجدد لذلك كلما غفل عنه .

ولما ذكر الخوف ، أتبعه قرينه الذي لا يصح بدونه فقال : ﴿ ويرجوا رحمة ربه ﴾ أي الذي لم يزل ينقلب في إنعامه .

ولما كان الحامل على الخوف والرجاء والعمل إنما هو العلم النافع ، وكان العلم الذي لا ينفع كالجهل أو الجهل خير ، كان جواب ما تقدم من الاستفهام : لا يستويان ، لأن المخلص عالم والمشرك جاهل .

فأمره بالجواب بقوله : ﴿ قل ﴾ أي لا يستويان ، لأن الحامل على الإخلاص العلم وعلى الإشراك الجهل وقلة العقل ، ثم أنكر على من يشك في ذلك فقل له : ﴿ هل يستوي ﴾ أي في الرتبة ﴿ الذين يعلمون ﴾ أي فيعملون على مقتضى العلم ، فأداهم علمهم إلى التوحيد والإخلاص في الدين ﴿ والذين لا يعلمون ﴾ فليست أعمالهم على مقتضى العلم إما لجهل وإما لإعراض عن مقتضى العلم فصاروا لا علم لهم لأنه لا انتفاع لهم به لأنهم لو تأملوا أدنى تأمل مع تجريد الأنفس من الهوى لرجعوا إليه من أنه لا يرضى أحد أصلاً لعبده أن يخالف أمره ، وإلى أنه لا يطلق العلم إلا على العامل أرشد قول ابن هشام في السيرة

﴿ ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾ [آل عمران : 188] أن يقول الناس : علماء ، وليسوا بأهل علم ، لم يحملوهم على هدى ولا حق .

ولما كان مدار السداد التذكر .

(9/666)

وكان مدار التذكر الذي به الصلاح والفساد هو القلب لأنه مركز العقل الذي هو آلة العلم ، وكان القلب الذي لا يحمل على الصلاح عدماً ، بل العدم خير منه ، قال : ﴿ إنما يتذكر ﴾ أي تذكراً عظيماً بما أفهمه إظهار التاء فيعلم أن المحسن لا يرضى بالإحسان إلى من يأكل خيره ويعبد غيره ﴿ أولوا الألباب ﴾ أي العقول الصافية والقلوب النيرة وهم الموصوفون آخر آل عمران بقوله تعالى : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ [آل عمران : 191] إلى آخرها ، وما أحسن التعبير هنا باللب الذي هو خلاصة الشيء لأن السياق للإخلاص ، قال الرازي في اللوامع : قال الإمام محمد بن علي الترمذي : خلق الله تعالى الأشياء مسخرة للآدمي ، وخلق الآدمي للخدمة ، ووضع فيه أنواره ليخرج الخدمة لله تعالى من باطنه بالحاجة ، فالآدمي مندوب إلى العلم بالله تعالى وبأوامره حسب ما خلق له ، والخدمة والقنوت بقلبك بين يديه ماثلاً منتصباً محققاً مبادراً مسارعاً سائقاً مركبك في

جميع أمورك بالحب له ، وعلم الخدمة علم البساطين : بساط القدرة وبساط العبودة فإذا طالعت بساط القدرة بعقل وافر وهو أن تعرف نفسك وتركيبك من روحاني وجسماني ، وطالعت بساط العبودة بكياسة تامة أدركت تدبيره في العبودة وباطن أمره ونهيه وعلل التحريم والتحليل ، وبسط الله بساط الربوبية من باب القدرة ، وبسط بساط العبودة من باب العظمة ، ثم كان آخر خلقه سبحانه هذا الإنسان الذي بسط له هذين البساطين ، وجمع فيه العالمين ، وزاد على ما فيهما من قبول الأمر اختياراً وطوعاً ، وكل شيء أعطاك إنما أعطاك لتبرزه إلى جوارحك ، وتستعمله فيما خلق له ، فلو لم يعطك منك لم يطلب منك ، فلا تطلب الزكاة ممن لا مال له ، ولا الصلاة قياماً ممن لا رجل له .

(10/666)

ولما ثبت أن القانت خير ، وكان المخالف له كثيراً ، وكان أعظم حامل له على القنوت التقوى ، وكانت كثرة المخالف أعظم مزلزل ، وكان الإنسان – لما له من النقصان – أحوج شيء إلى التثبيت ، وكان التثبيت من المجانس ، والتأنيس من المشاكل أسكن للقلب وأشرح للصدر ، أمر أكمل الخلق وأحسنهم ملاطفة بتثبيتهم فقال : ﴿ قل ﴾ ولما كان الثبات لا يرسخ مع كثرة المخالف ، وتوالي الزلزال والمتالف ، إلا إذ كان عن الملك ، جعل

ذلك عنه سبحانه ليجتمع عليه الخالق والأقرب إليه من الخلائق ، فقال : ﴿ يا عباد ﴾ دون أن يقول : يا عباد الله ، مثلاً تذكيراً لهم تسكيناً لقلوبهم بما علم من أن التقدير . قال الله ، وتشريفاً لهم بالإضافة إليه بالضمير الدال على اللطف وشدة الخصوصية ، وإعلاماً لهم بأنه حاضر لا يغيب عنهم بوجه : ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذه الحقيقة ولو على أدنى حالاتها .

ولما كان الإحسان ربما جراً على المحسن ، أشار سبحانه إلى سداد قول العارفين " اجلس على البساط وإياك والانبساط " ونبه بلفت القول عن مظهر التكلم إلى الوصف بما يدل على أن العاقل من أوجب له الإحسان إجلالاً وإكباراً ، وأثمر له العطف والتقريب ذلاًّ في نفسه وصغاراً ، وخوفاً وانكساراً ، مما أقله قطع الإحسان فقال : ﴿ اتقوا ربكم ﴾ أي اجعلوا بينكم وبين غضب المحسن إليكم وقاية بأن تترقوا في درجات طاعته مخلصين له كما خلقكم لكم لا لغرض له ليرسخ إيمانكم ويقوي إحسانكم ، وهذا أدل دليل على أن الإيمان يكون مع عدم التقوى .

(11/666)

ولما أرشدهم بالاسم الناظر إلى الإحسان إلى أن يقولوا : فما لنا إن فعلنا ؟ قال مجيباً معللاً : ﴿ للذين أحسنوا ﴾ أي لكم ، ولكنه أظهر الوصف الدال على سبب جزائهم تشويقاً إلى الازدياد منه ، ولما كان العمل لا ينفع إلا في دار التكليف قال : ﴿ في هذه ﴾ باسم الإشارة زيادة في التعيين ﴿ الدنيا ﴾ أي الدنية الوضرة التي لا تطهر الحياة فيها إلا بالتقديس بعبادة الخالق والتخلق بأوصافه ﴿ حسنة ﴾ أي عظيمة في الدنيا بالنصر والمعونة مع كثرة المخالف وفي الآخرة بالثواب ، ويجوز أن يكون معنى ﴿ أحسنوا ﴾ أوقعوا الإحسان ، ومعلوم أنه في هذه الدنيا ، فيكون ما بعده مبتدأ وخبراً ، لكنه يصير خاصاً بثواب الدنيا ، فالأول حسن .

ولما كان ربما عرض للإنسان في أرض من يمنعه الإحسان ، ويحمله على العصيان ، حث سبحانه على الهجرة إلى حيث يزول عنه ذلك المانع ، تنبيهاً على أن مثل هذا ليس عذراً في التقصير كما قيل :

وإذا نبا بك منزل فتحول . . .

فقال : ﴿ وأرض الله ﴾ أي الذي له الملك كله والعظمة الشاملة ﴿ واسعة ﴾ ووجوده بعلمه وقدرته في كل أرض على حد سواء ، فالمتقيد بمكان منها ضعيف العزم واهن اليقين ، فلا عذر للمفرط في الإحسان بعدم الهجرة .

ولما كان الصبر على هجرة الوطن ولا سيما إن كان ثّم أهل وعشيرة شديداً جداً ، ذكر ما للصابر على ذلك لمن تشوف إلى السؤال عنه فقال : ﴿ إنما يوفى ﴾ أي التوفية العظمية ﴿ الصابرون ﴾ أي على ما تكرهه النفوس في مخالفة الهوى واتباع أوامر الملك الأعلى من الهجرة وغيرها ﴿ أجرهم بغير حساب ﴾ أي على وجه من الكثرة لا يمكن في العادة حسبانه ، وذلك لأن الجزاء من جنس العمل ، وكل عمل يمكن عده وحصره إلا الصبر فإنه دائم مع الأنفاس ، وهو معنى من المعاني الباطنة لا يطلع خلق على مقداره في قوته وضعفه وشدته ولينه لأنه مع خفائه يتفاوت مقداره ، وتتعاظم آثاره ، بحسب الهمم في علوها وسفولها ، وسموها ونزولها ، ويجوز أن يكون المعنى أن من كمل صبره بما أشارت إليه لام الكمال – لم يكن عليه حساب ، لما رواه البزار وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : جاءت امرأة بها لمم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يا رسول الله ، ادع الله لي ، قال : " إن شئت دعوت الله فشفاك ، وإن شئت صبرت ولا حساب عليك " ، قالت : بل أصبر ولا حساب علي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 425.430 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ﴾

اعلم أن الله تعالى لما بين فساد القول بالشرك وبين أن الله تعالى هو الذي يجب أن يعبد ، بين في هذه الآية أن طريقة هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام متناقضة وذلك لأنهم إذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا في طلب دفعه إلا إلى الله ، وإذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام ومعلوم أنهم إنما رجعوا إلى الله تعالى عند حصول الضر ، لأنه هو القادر على إيصال الخير ودفع الضر ، وإذا عرفوا أن الأمر كذلك في بعض الأحوال كان الواجب عليهم أن يعترفوا به في كل الأحوال فثبت أن طريقتهم في هذا الباب متناقضة .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ﴾ فقيل المراد بالإنسان أقوام معينون مثل عتبة بن ربيعة وغيره ، وقيل المراد به الكافر الذي تقدم ذكره ، لأن الكلام يخرج على معهود ، تقدم .

وأما قوله ﴿ ضُرٌّ ﴾ فيدخل فيه جميع المكاره سواه كان في جسمه أو في ماله أو أهله وولده ، لأن اللفظ مطلق فلا معنى للتقييد ﴿ ودعا رَبَّهُ ﴾ أي استجار بربه وناداه ولم يؤمل في كشف الضر سواء ، فلذلك قال : ﴿ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ أي راجعاً إليه وحده في إزالة ذلك الضر

لأن الإنابة هي الرجوع ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ أي أعطاه ، قال صاحب "الكشاف" : وفي حقيقته وجهان أحدهما : جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال وخال مال ، إذا كان متعهداً له حسن القيام به ومنه ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة " والثاني : جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر ، وفي المعنى قالت العرب :

(14/666)

إن الغنى طويل الذيل مياس . . ثم قال تعالى : ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه ، وما بمعنى من كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ [الليل : 3] وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 3] وقوله تعالى : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النساء ﴾ [النساء : 3] وقيل نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه والمراد من قوله نسي أن ترك دعاءه كأنه لم يفزع إلى ربه ، ولو أراد به النسيان الحقيقي لما ذمه عليه ، ويحتمل أن يكون المراد أنه نسي أن لا يفزع ، وأن لا إله سواه فعاد إلى اتخاذ الشركاء مع الله .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل بفتح الياء والباقون ليضل بضم الياء على معنى ليضل غيره .

المسألة الثانية :

المراد أنه تعالى يعجب العقلاء من مناقضتهم عند هاتين الحالتين ، فعند الضر يعتقدون أنه لا مفزع إلى ما سواه وعند النعمة يعودون إلى اتخاذ آلهة معه .

ومعلوم أنه تعالى إذا كان إنما يفزع إليه في حال الضر لأجل أنه هو القادر على الخير والشر ، وهذا المعنى باق في حال الراحة والفراغ كان في تقرير حالهم في هذين الوقتين بما يوجب المناقضة وقلة العقل .

المسألة الثالثة :

معنى قوله : ﴿ لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أنه لا يقتصر في ذلك على أن يضل نفسه بل يدعو غيره إما بفعله أو قوله إلى أن يشاركه في ذلك ، فيزداد إثماً على إثمه ، واللام في قوله ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ لام العاقبة كقوله : ﴿ فالتقطه ءال فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] ولما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هددهم فقال : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ وليس المراد منه الأمر بل الزجر ، وأن يعرفه قلة تمتعه في الدنيا ، ثم يكون مصيره إلى النار .

ولما شرح الله تعالى صفات المشركين والضالين ، ثم تمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح أحوال المحقين الذين لا رجوع لهم إلا الله ولا اعتماد لهم إلا على فضل الله ، فقال : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء الليل ساجدا وَقَائِماً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وابن كثير وحمزة ﴿ آمن ﴾ مخففة الميم والباقون بالتشديد ، أما التخفيف ففيه وجهان الأول : أن الألف ألف الاستفهام داخلة على من ، والجواب محذوف على تقدير كمن ليس كذلك ، وقيل كالذي جعل لله أنداداً فاكتفى بما سبق ذكره والثاني : أن يكون ألف نداء كأنه قيل يا من هو قانت من أهل الجنة ، وأما التشديد فقال الفراء الأصل أم من فأدغمت الميم في الميم وعلى هذا القول هي أم التي في قولك أزيد أفضل أم عمرو .

المسألة الثانية :

القانت القائم بما يجب عليه من الطاعة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الصلاة صلاة القنوت " وهو القيام فيها .

ومنه القنوت في الصبح لأنه يدعو قائماً .

عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام وتلا ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾ وعن ابن عباس القنوت طاعة الله ، لقوله : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قانتون ﴾ [البقرة :

116] أي مطيعون ، وعن قتادة ﴿ آناء الليل ﴾ ساعات الليل أوله ووسطه وآخره ، وفي هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل وأنه أرجح من قيام النهار ، ويؤكده وجوه الأول : أن عبادة الليل أستر عن العيون فتكون أبعد عن الرياء الثاني : أن الظلمة تمنع من الإبصار ونوم الخلق يمنع من السماع ، فإذا صار القلب فارغاً عن الاشتغال بالأحوال الخارجية عاد إلى المطلوب الأصلي ، وهو معرفة الله وخدمته الثالث : أن الليل وقت النوم فتركه يكون أشق فيكون الثواب أكثر الرابع : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾

(16/666)

[المزمل : 6] وقوله : ﴿ ساجدا ﴾ حال ، وقرىء ساجد وقائم على أنه خبر بعد خبر الواو للجميع بين الصفتين .

واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العلم وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فكونه قانتاً ساجداً قائماً ، وأما العلم فقوله : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين ، فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هو النهاية .

الفائدة الثانية : أنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظباً عليه

، فإن القنوت عبارة عن كون الرجل قائماً بما يجب عليه من الطاعات ، وذلك يدل على أن العلم إنما يفيد إذا واظب عليه الإنسان ، وقوله : ﴿ ساجدا وَقَائِماً ﴾ إشارة إلى أصناف الأعمال وقوله : ﴿ يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُو رَّحْمَةِ رَبِّهِ ﴾ إشارة إلى أن الإنسان عند المواظبة ينكشف له في الأول مقام القهر وهو قوله : ﴿ يَحْذَرُ الأخرة ﴾ ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله : ﴿ وَيَرْجُو رَّحْمَةِ رَبِّهِ ﴾ ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

الفائدة الثالثة : أنه قال في مقام الخوف ﴿ يَحْذَرُ الأخرة ﴾ فما أضاف الحذر إلى نفسه ، وفي مقام الرجاء أضافه إلى نفسه ، وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأليق بحضرة الله تعالى .

المسألة الثالثة :

قيل المراد من قوله : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء الليل ﴾ عثمان لأنه كان يحيي الليل في ركعة واحدة ويقرأ القرآن في ركعة واحدة ، والصحيح أن المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة فيدخل فيه عثمان وغيره لأن الآية غير مقتصرة عليه .

المسألة الرابعة :

لا شبهة في أن في الكلام حذفاً ، والتقدير أمن هو قانت كغيره ، وإما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر وذكر بعدها : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وتقدير الآية قل هل يستوي الذين يعلمون وهم الذين صفتهم أنهم يقنتون آناء الليل سجداً وقياماً ، والذين لا يعلمون وهم الذين وصفهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغة يشركون ، فإذا قدرنا هذا التقدير ظهر المراد وإنما وصف الله الكفار بأنهم لا يعلمون ، لأنهم وإن آتاهم الله العلم إلا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم ، فلهذا السبب جعلهم كأنهم ليسوا أولي الألباب من حيث إنهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم .

وأما قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم ، وقد بالغنا في تقرير هذا المعنى في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءادَمَ الأسماء كُلَّهَا ﴾ [البقرة : 31] قال صاحب "الكشاف" أراد بالذين يعلمون الذين سبق ذكرهم وهم القانتون ، وبالذين لا يعلمون الذين لا يأتون بهذا العمل كأنه جعل القانتين هم العلماء ، وهو تنبيه على أن من يعمل فهو غير عالم ، ثم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون ، ويفتنون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلباب ﴾ يعني هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء

والجهال لا يعرفه أيضاً إلا أولوا الألباب ، قيل لبعض العلماء : إنكم تقولون العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك ، ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء ، فأجاب العالم بأن هذا أيضاً يدل على فضيلة العلم لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه ، والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فلا جرم تركوه .

(18/666)

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ

اعلم أنه تعالى لما بين نفي المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم ، أتبعه بأن أمر رسوله بأن يخاطب المؤمنين بأنواع من الكلام :

النوع الأول : قوله : ﴿ قُلْ يا عِبَادِى الذين ءامَنُواْ اتقوا رَبَّكُمْ ﴾ والمراد أن الله تعالى أمر المؤمنين بأن يضموا إلى الإيمان التقوى ، وهذا من أول الدلائل على أن الإيمان يبقى مع المعصية ، قال القاضي : أمرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا إيمانهم ، لأن عند الاتقاء من الكبائر يسلم لهم الثواب وبالإقدام عليها يحبط ، فيقال له هذا بأن يدل على ضد قولك أولى ، لأنه لما أمر المؤمنين بالتقوى دل ذلك على أنه يبقى مؤمناً مع عدم التقوى ، وذلك يدل على أن الفسق لا يزيل الإيمان .

واعلم أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالاتقاء بين لهم ما في هذا الاتقاء من الفوائد ، فقال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ فقوله : ﴿ فِى هذه الدنيا ﴾ يحتمل أن يكون صلة لقوله : ﴿ أَحْسَنُواْ ﴾ أو لحسنة ، فعلى التقدير الأول معناه للذين أحسنوا في هذه الدنيا كلهم حسنة في الآخرة ، وهي دخول الجنة ، والتنكير في قوله : ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ للتعظيم يعني حسنة لا يصل العقل إلى كنه كمالها .

(19/666)

وأما على التقدير الثاني : فمعناه الذين أحسنوا فلهم في هذه الدنيا حسنة ، والقائلون بهذا القول قالوا هذه الحسنة هي الصحة والعافية ، وأقول الأولى أن تحمل على الثلاثة المذكورة في قوله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة ليس لها نهاية : الأمن والصحة والكفاية " ومن الناس من قال القول الأول أولى ويدل عليه وجوه الأول : أن التنكير في قوله : ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ يدل على النهاية والجلالة والرفعة ، وذلك لا يليق بأحوال الدنيا ، فإنها خسيسة ومنقطعة ، وإنما يليق بأحوال الآخرة ، فإنها شريفة وآمنة من الانقضاء والانقراض والثاني : أن ثواب المحسن بالتوحيد والأعمال الصالحة إنما يحصل في الآخرة قال تعالى : ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ وأيضاً فنعمة الدنيا من الصحة والأمن والكفاية حاصلة للكفار ،

وأيضاً فحصولها للكافر أكثر وأتم من حصولها للمؤمن ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " وقال تعالى : ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف : 33] ، الثالث : أن قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ يفيد الحصر ، بمعنى أنه يفيد أن حسنة هذه الدنيا لا تحصل إلا للذين أحسنوا ، وهذا باطل .

(20/666)

أما لو حملنا هذه الحسنة على حسنة الآخرة صح هذا الحصر ، فكأن حمله على حسنة الآخرة أولى ، ثم قال الله تعالى : ﴿ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ ﴾ وفيه قولان الأول : المراد أنه لا عذر ألبتة للمقصرين في الإحسان ، حتى إنهم إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم ، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفرة على الإحسان وصرف الهمم إليه ، قل لهم فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة ، فتحولوا من هذه البلاد إلى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات والعبادات ، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ، ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم ، وطاعة إلى طاعتهم ، والمقصود منه الترغيب في الهجرة من مكة إلى المدينة والصبر على مفارقة الوطن ، ونظيره قوله تعالى :

﴿ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرض قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله واسعة فتهاجروا فِيهَا ﴾ [النساء : 97] والقول الثاني : قال أبو مسلم : لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة ، وذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهي خشية الله ، ثم بين أن من اتقى فله في الآخرة الحسنة ، وهي الخلود في الجنة ، ثم بين أن أرض الله ، أي جنته واسعة ، لقوله تعالى : ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاء ﴾ [الزمر : 74] وقوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السموات والأرض أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 133] والقول الأول عندي أولى ، لأن قوله : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ لا يليق إلا بالأول ، وفي هذه الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أما تحقيق الكلام في ماهية الصبر ، فقد ذكرناه في سورة البقرة ، والمراد ههنا بالصابرين الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم ، وعلى تجرع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله تعالى .

المسألة الثانية :

تسمية المنافع التي وعد الله بها على الصبر بالأجر توهم أن العمل على الثواب ، لأن الأجر هو المستحق ، إلا أنه قامت الدلائل القاهرة على أن العمل ليس عليه الثواب ، فوجب حمل لفظ الأجر على كونه أجراً بحسب الوعد ، لا بحسب الاستحقاق .

المسألة الثالثة :

أنه تعالى وصف ذلك الأجر بأنه بغير حساب ، وفيه وجوه الأول : قال الجبائي : المعنى أنهم يعطون ما يستحقون ويزدادون تفضلاً فهو بغير حساب ، ولو لم يعطوا إلا المستحق لكان ذلك حساباً ، قال القاضي هذا ليس بصحيح ، لأن الله تعالى وصف الأجر بأنه بغير حساب ، ولو لم يعطوا إلا الأجر المستحق ، والأجر غير التفضل الثاني : أن الثواب له صفات ثلاثة أحدها : أنها تكون دائمة الأجر لهم ، وقوله : ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ معناه بغير نهاية ، لأن كل شيء دخل تحت الحساب فهو متناه ، فما لا نهاية له كان خارجاً عن الحساب وثانيها : أنها تكون منافع كاملة في أنفسها ، وعقل المطيع ما كان يصل إلى كنه ذلك الثواب ، قال صلى الله عليه وسلم : " إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " وكل ما يشاهدونه من أنواع الثواب وجدوه أزيد مما تصوروه وتوقعوه ، وما لا يتوقعه الإنسان ، فقد يقال إنه ليس في حسابه ، فقوله : ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ محمول على هذا المعنى والوجه الثالث : في التأويل أن ثواب أهل البلاء لا يقدر بالميزان والمكيال ، روى صاحب "الكشاف" عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" ينصب الله الموازين يوم القيامة ، فيؤتى أهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صباً " قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض لما به أهل البلاء من الفضل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 217 . 221 ﴾

(22/666)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

رَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ، فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قَالَ : هُوَ الصَّبْرُ عَلَى فَجَائِعِ الدُّنْيَا وَأَحْزَانِهَا ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الصَّبْرَ مِنْ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنْ الْجَسَدِ .

(23/666)

قَالَ الْقَاضِي : الصَّبْرُ مَقَامٌ عَظِيمٌ مِنْ مَقَامَاتِ الدِّينِ ، وَهُوَ حَبْسُ النَّفْسِ عَمَّا تَكْرَهُهُ مِنْ تَسْرِيحِ الْخَوَاطِرِ ، وَإِرْسَالِ اللِّسَانِ ، وَانْبِسَاطِ الْجَوَارِحِ عَلَى مَا يُخَالِفُ حَالَ الصَّبْرِ ، وَمَنْ الَّذِي يَسْتَطِيعُهُ ، فَمَا رُوِيَ أَنَّ أَحَدًا انْتَهَى إلَى مَنْزِلَةِ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى صَبَرَ عَلَى عَظِيمِ الْبَلَاءِ عَنْ سُؤَالِ كَشْفِهِ بِالدُّعَاءِ ، وَإِنَّمَا عَرَضَ حِينَ خَشِيَ عَلَى دِينِهِ لِضَعْفِ قَلْبِهِ عَنْ الْإِيمَانِ ، فَقَالَ : مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَلِهَذَا الْمَعْنَى جَعَلُوهُ فِي الْآثَارِ نِصْفَ الْإِيمَانِ ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ عَلَى قِسْمَيْنِ : مَأْمُورٌ وَمَزْجُورٌ ، فَالْمَأْمُورُ يُتَوَصَّلُ إلَيْهِ بِالْفِعْلِ ، وَالْمَزْجُورُ امْتِثَالُهُ بِالْكَفِّ وَالدَّعَةِ عَنْ الِاسْتِرْسَالِ إلَيْهِ ، وَهُوَ الصَّبْرُ ، فَأَعْلَمَنَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ ثَوَابَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مُقَدَّرٌ مِنْ حَسَنَةٍ إلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَخَبَّأَ قَدْرَ الصَّبْرِ مِنْهَا تَحْتَ عِلْمِهِ ، فَقَالَ : ﴿ إنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وَلَمَّا كَانَ الصَّوْمُ نَوْعًا مِنْ الصَّبْرِ حِينَ كَانَ كَفًّا عَنْ الشَّهَوَاتِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ﴾ .

قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ : كُلُّ أَجْرٍ يُوزَنُ وَزْنًا ، وَيُكَالُ كَيْلًا إلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ يُحْثَى

حَثْيًا ، ويُغْرَفُ غَرْفًا ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ : هُوَ الصَّبْرُ عَلَى فَجَائِعِ الدُّنْيَا وَأَحْزَانِهَا ؛ فَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ سَلَّمَ فِيمَا أَصَابَهُ ، وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنْهُ فَلَا مِقْدَارَ لِأَجْرِهِ ، وَأَشَارَ بِالصَّوْمِ إلَى أَنَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ جَمِيعَهُ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(25/666)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ﴾

يعني الكافر ﴿ ضُرٌّ ﴾ أي شدّة من الفقر والبلاء ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ أي راجعاً إليه مُخْبتاً مطيعاً له مستغيثاً به في إزالة تلك الشدّة عنه .

﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ أي أعطاه وملّكه .

يقال : خوّلك الله الشيء أي ملّكك إياه ؛ وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد :

هُنَالِكَ إِن يُسْتَخْوَلُوا الْمالَ يُخْوِلوا . . .

وإِن يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإِن يَيْسِروا يُغْلُوا

وخَوَلُ الرجل : حَشَمُه الواحد خائل .

قال أبو النّجم :

أَعْطَى فلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّلِ . . .

كُوم الذُّرى مِن خَوَلِ الْمُخَوَّلِ

﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يدعوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي نسى ربه الذي كان يدعوه من قبل في كشف الضر عنه .

ف"ما" على هذا الوجه لله عز وجل وهي بمعنى الذي .

وقيل : بمعنى من كقوله : ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 3] والمعنى واحد .

وقيل : نسي الدعاء الذي كان يتضرع به إلى الله عز وجل .

أي ترك كون الدعاء منه إلى الله ، فما والفعل على هذا القول مصدر .

﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ أي أوثاناً وأصناماً .

وقال السّدي : يعني أنداداً من الرجال يعتمدون عليهم في جميع أمورهم .

﴿ لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي ليقتدي به الجهال .

﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ أي قل لهذا الإنسان "تَمَتَّع" وهو أمر تهديد فمتاع الدنيا قليل .

﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النار ﴾ أي مصيرك إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ الليل ﴾ بيّن تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذي مضى

ذكره .

وقرأ الحسن وأبو عمرو وعاصم والكسائي "أَمَّنْ" بالتشديد .

وقرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة : "أَمَنْ هُوَ" بالتخفيف على معنى النداء ؛ كأنه قال يا من هو قانت .

قال الفراء : الألف بمنزلة يا ، تقول يا زيد أقبل وأزيد أقبل .

(26/666)

وحكي ذلك عن سيبويه وجميع النحويين ؛ كما قال أوس بن حَجَر :

أَبِني لُبَيْنَى لَسْتُمُ بِيدٍ . . .

إِلاَّ يَداً لَيْسَت لها عَضُدُ

وقال آخر هو ذو الرُّمّة :

أَدَاراً بِحُزْوَى هِجْتِ لِلْعَيْنِ عَبْرَةً . . .

فَمَاءُ الْهَوى يَرْفَضُّ أَو يَتَرَقْرَقُ

فالتقدير على هذا ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النار ﴾ يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة ؛ كما يقال في الكلام : فلان لا يصلي ولا يصوم ، فيا من يُصلي ويَصوم

أبشر ؛ فحذف لدلالة الكلام عليه .

وقيل : إن الألف في "أمن" ألف استفهام أي "أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ" أفضل ؟ أم من جعل لله أندادا ؟ والتقدير الذي هو قانت خير .

ومن شدد "أَمَّنْ" فالمعنى العاصون المتقدم ذكرهم خير "أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ" فالجملة التي عادلت أم محذوفة ، والأصل أم من فأدغمت في الميم .

النحاس : وأم بمعنى بل ، ومَن بمعنى الذي ؛ والتقدير : أم الذي هو قانت أفضل ممن ذكر .

وفي قانت أربعة أوجه : أحدها أنه المطيع ؛ قاله ابن مسعود .

الثاني أنه الخاشع في صلاته ؛ قاله ابن شهاب .

الثالث أنه القائم في صلاته ؛ قاله يحيى بن سلاّم .

الرابع أنه الداعي لربه .

وقول ابن مسعود يجمع ذلك .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كل قنوت في القرآن فهو طاعة لله عز وجل " وروي عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه سئل أي الصلاة أفضل ؟ فقال : "طول القنوت" " وتأوله جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام .

وروى عبد الله عن نافع عن ابن عمر سئل عن القنوت فقال : ما أعرف القنوت إلا طول القيام ، وقراءة القرآن .

وقال مجاهد : من القنوت طول الركوع وغضّ البصر .

وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضُّوا أبصارهم ، وخضعوا ولم يلتفتوا في صلاتهم ، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئاً من أمر الدنيا إلا ناسين .

(27/666)

قال النحاس : أصل هذا أن القنوت الطاعة ، فكل ما قيل فيه فهو طاعة لله عز وجل ، فهذه الأشياء كلها داخلة في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع : قال لي ابن عمر قم فصلّ فقمت أصلّي وكان عليّ ثوب خَلِق ، فدعاني فقال لي : أرأيت لو وجهتك في حاجة أكنت تمضي هكذا ؟ فقلت : كنت أتزيَّن قال : فالله أحق أن تتزيَّن له .

واختلف في تعيين القانت هاهنا ، فذكر يحيى بن سلام أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن عباس في رواية الضحاك عنه : هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

وقال ابن عمر : هو عثمان رضي الله عنه .

وقال مقاتل : إنه عمّار بن ياسِر .

الكلبي : صُهَيب وأبو ذرّ وابن مسعود .

وعن الكلبي أيضاً مرسل فيمن كان على هذه الحال .

﴿ آنَآءَ الليل ﴾ قال الحسن : ساعاته ؛ أوله وأوسطه وآخره .

وعن ابن عباس : "آنَآءَ اللَّيْلِ" جوف الليل .

قال ابن عباس : من أحبّ أن يهوّن الله عليه الوقوف يوم القيامة ، فليره الله في ظلمة الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه .

وقيل : ما بين المغرب والعشاء .

وقول الحسن عام .

﴿ يَحْذَرُ الآخرة ﴾ قال سعيد بن جبير : أي عذاب الآخرة .

﴿ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أي نعيم الجنة .

وروي عن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو فقال : هذا مُتَمَنٍّ .

ولا يقف على قوله : ﴿ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ من خفف "أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ" على معنى النداء ؛ لأن قوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ متصل إلا أن يقدر في الكلام حذف وهو أيسر ، على ما تقدم بيانه .

قال الزجاج : أي كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوي المطيع والعاصي .

وقال غيره : الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به ، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم

يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم .

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ ﴾ أي أصحاب العقول من المؤمنين .

(28/666)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا عباد الذين آمَنُواْ ﴾

أي قل يا محمد لعبادي المؤمنين ﴿ اتقوا رَبَّكُمْ ﴾ أي اتقوا معاصيه والتاء مبدلة من واو وقد تقدم .

وقال ابن عباس : يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة .

ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ يعني بالحسنة الأولى الطاعة وبالثانية الثواب في الجنة .

وقيل : المعنى للذين أحسنوا في الدنيا حسنة في الدنيا ، يكون ذلك زيادة على ثواب الآخرة ، والحسنة الزائدة في الدنيا الصحة والعافية والظفر والغنيمة .

قال القُشَيري : والأول أصح ؛ لأن الكافر قد نال نعم الدنيا .

قلت : وينالها معه المؤمن ويزاد الجنة إذا شكر تلك النعم .

وقد تكون الحسنة في الدنيا الثناء الحسن ، وفي الآخرة الجزاء .

﴿ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ ﴾ فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل بالمعاصي .

وقد مضى القول في هذا مستوفى في "النساء" .

وقيل : المراد أرض الجنة ؛ رغّبهم في سعتها وسعة نعيمها ؛ كما قال : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات والأرض ﴾ [آل عمران : 133] والجنة قد تسمى أرضاً ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر : 74] والأول أظهر فهو أمر بالهجرة .

أي ارحلوا من مكة إلى حيث تأمنوا .

الماوردي : يحتمل أن يريد بسعة الأرض سعة الرزق ؛ لأنه يرزقهم من الأرض فيكون معناه ورزق الله واسع وهو أشبه ؛ لأنه أخرج سعتها مخرج الامتنان .

قلت : فتكون الآية دليلاً على الانتقال من الأرض الغالية ، إلى الأرض الراخية ؛ كما قال سفيان الثوري : كن في موضع تملأ فيه جرابك خبزاً بدرهم .

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي بغير تقدير .

وقيل : يزاد على الثواب ؛ لأنه لو أعطي بقدر ما عمل لكان بحساب .

(29/666)

وقيل : "بِغَيْرِ حِسَابٍ" أي بغير متابعة ولا مطالبة كما تقع المطالبة بنعيم الدنيا .

و"الصَّابِرُونَ" هنا الصائمون ؛ دليله قوله عليه الصلاة والسلام مخبراً عن الله عز وجل : " الصوم لي وأنا أجزي به " قال أهل العلم : كل أجر يكال كيلاً ويوزن وزناً إلا الصوم فإنه يُحْثَى حَثْواً ويُغْرَف غَرْفاً ؛ وحكي عن علي رضي الله عنه .

وقال مالك بن أنس في قوله : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال : هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها .

ولا شك أن كل من سلّم فيما أصابه ، وترك ما نهي عنه ، فلا مقدار لأجره .

وقال قتادة : لا والله ما هناك مكيال ولا ميزان ، حدثني أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تنصب الموازين فيؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين وكذلك الصلاة والحج ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصبّ عليهم الأجر بغير حساب قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل "

وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال : سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أدّ الفرائض تكن من أعبد الناس وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس ، يا بُني إن في الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى يؤتَى بأهل البلاء فلا يُنصب لهم ميزان ولا ينشر

لهم ديوان يُصبّ عليهم الأجر صبًّا " ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

ولفظ صابر يمدح به وإنما هو لمن صبر عن المعاصي ، وإذا أردت أنه صبر على المصيبة قلت صابر على كذا ؛ قاله النحاس .

وقد مضى في "البقرة" مستوفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(30/666)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ ﴾

من مرض وغيره من المكاره ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ راجعاً ممن كان يدعوه في حالة الرخاء من دون الله عز وجل لعلمه بأنه بمعزل من القدرة على كشف ضره وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : 34] ، واستظهر أبو حيان أن المراد بالإنسان جنس الكافر ، وقيل : هو معين كعتبة بن ربيعة ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ أي أعطاه نعمة عظيمة من جنابه من الخول بفتحتين وهو تعهد الشيء أي الرجوع إليه مرة بعد أخرى واطلق على العطاء لما إن المعطي الكريم يتعهد من

هو ربيب احسانه ونشو امتنانه بتكرير العطاء عليه مرة بعد أخرى ، وقال بعضهم : معنى دخولة ﴿ في الأصل أعطاه خولا بفتحتين أي عبيداً وخدماً أو أعطاه ما يحتاج إلى تعهده والقيام عليه ثم عمم لمطلق العطاء ، وجوز الزمخشري كونه من خال يخول خولاً بسكون الواو إذا افتخر ، واعترض بأنه صرح في الصحاح أن خال بمعنى افتخر يائي والخيلاء بمعنى التكبر يدل عليه دلالة بينة ، وأيضاً خول متعد إلى مفعولين وأخذه منه لا يقضي أن يتعدى للمفعول الثاني .

(31/666)

وأجيب عن الأول بأن الزمخشري من أئمة النقل وقد ثبت عنده وأصله من الخال الذي هو العلامة ، وقد نقل فيه الواو والياء ثم قيل لسيما الجمال والخير خال من ذلك وأخذ منه الخيال وأما الاختيال بمعنى التكبر فهو مأخوذ من الخيال لأنه خال نفسه فوق قدره أو جعل لنفسه خال الخير كما يقال : أعجب الرجل فقد وضح أن الاشتقاق يناسبهما ولا ينكر ثبوت الياء بدليل الخيلاء لكن لا مانع من ثبوت الياء أيضاً وليس الاختيال مأخوذاً من الخيلاء بل الخيلاء هو الاسم منه فلا يصلح مانعاً لكن يصلح مثبتاً للياء ، وعن الثاني بأنه ليس المراد أن خول مضعف خال بمعنى افتخر حتى يشكل تعديته للمفعول الثاني بل أنه

موضوع في اللغة لمعنى أعطى وما ذكر بيان لما أخذ اشتقاقه وأصل معناه الملاحظ في وضعه له ومثله كثير فاصل خوله جعله مفتخراً بما أنعم عليه ثم قطع النظر عنه وصار بمعنى أعطاه مطلقاً ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله تعالى إلى إزالته وكشفه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ التخويل فما واقعة على الضر ودعا من الدعوة وهو يتعدى بإلى يقال دعا المؤذن الناس إلى الصلاة ودعا فلان الناس إلى مأدبته والدعوة مجاز عن الدعاء ، والمعنى على اعتبار المضاف كما أشير إليه ، ويجوز أن يراد بما معنى من للدلالة على الوصفية والتفخيم واقعاً عليه تعالى كما في قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والانثى ﴾ [الليل : 3] وقوله سبحانه : ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 3] والدعاء على ظاهره وتعديته بإلى لتضمينه معنى الإنابة أو التضرع والابتهال ، والمعنى نسي ربه الذي كان يدعو منيباً أو متضرعاً إليه وهو وجه لا بأس به ، وما قيل من أنه تكلف إذ لا يقال دعا إليه بمعنى دعاه ولا حاجة إلى جعل ما بمعنى من مردود لحسن موقف التضمين واستعمال ما في مقام التفخيم .

(32/666)

وفي الإرشاد أن في ذلك الجعل إيذاناً بأن نسيانه بلغ إلى حيث لا يعرف مدعوه ما هو فضلاً من أن يعرفه من هو ، وقيل : ما مصدرية أي نسي كونه يدعو ، وقيل : هي نافية وتم الكلام عند قوله تعالى ﴿ نَسِيَ ﴾ أي نسي ما كان فيه من الضر ثم نفي أن يكون دعاء هذا الكافر خالصاً لله تعالى من قبل أي من قبل الضر ولا يخفى ما فيه ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ شركاء في العبادة ، والظاهر من استعمالاتهم اطلاق الأنداد على الشركاء مطلقاً ، وفي البحر أنداداً أى أمثالاً يضاد بعضها ويعارض ، قال قتادة : أي الرجال يطيعهم في المعصية ، وقال غيره أوثاناً ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ الناس بذلك ﴿ عَن سَبِيلِهِ ﴾ عز وجل الذي هو التوحيد .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو ، وعيسى ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ بفتح الياء أي ليزداد ضلالاً أو ليثبت عليه وإلا فاصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور ، واللام لام العاقبة كما في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه ءالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ ﴾ [القصص : 8] بيد أن هذا أقرب إلى الحقيقة لأن الجاعل ههنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الإضلال والضلال وأن لم يعرف بجهله إنهما اضلال وضلال وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة أصلاً .

﴿ قُلْ ﴾ تهديداً لذلك الجاعل وبياناً لحاله ومآله ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ أي تمتعاً قليلاً أو زماناً قليلاً ﴿ إِنَّكَ مِنْ أصحاب ﴾ أي ملازميها والمعذبين فيها على الدوام ، وهو

تعليل لقلة التمتع وفيه من الاقناط من النجاة وذم الكفر ما لا يخفى كأنه قيل : إذ قد أبيت ما أمرت به من الإيمان والطاعة فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته .

(33/666)

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء الليل ﴾ الخ من تمام الكلام المأمور به في قول ، وأم إما متصلة قد حذف معادلها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه كأنه قيل له تأكيداً للتهديد وتهكماً به أأنت أحسن حالاً ومآلاً أم من هو قائم بمواجب الطاعات ودائم على وظائف العبادات في ساعات الليل التي فيها العبادة أقرب إلى القبول وأبعد عن الرياء حالتي السراء والضراء لا عند مساس الضر فقط كدأبك حال كونه ﴿ ساجدا وَقَائِماً ﴾ وإلى كون المحذوف المعادل الأول ذهب الأخفش ووافقه غير واحد ولا بأس به عند ظهور المعنى لكن قال أبو حيان : إن مثل ذلك يحتاج إلى سماع من العرب ، ونصب ﴿ ساجدا وَقَائِماً ﴾ على الحالية كما أشير إليه أي جامعاً بين الوصفين المحمودين وصاحب الحال الضمير المستتر في ﴿ قَانِتٌ ﴾ .

وجوز كون الحال من ضمير ﴿ يَحْذَرُ ﴾ الآتي قدم عليه ولا داعي لذلك .

وقرأ الضحاك ﴿ ساجد وقائم ﴾ برفع كل على أنه خبر بعد خبر ، وجوز أبو حيان كونه

نعتاً لقانت وليس بذاك ، والواو كما أشير إليه للجمع بين الصفتين ، وترك العطف على ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾ قيل لأن القنوت مطلق العبادة فلم يكن مغايراً للسجود والقيام فلم يعطفا عليه بخلاف السجود والقيام فإنهما وصفان متغايران فلذا عطف أحدهما على الآخر ، وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل في معنى العبادة ، وذهب المعظم إلى أنه أفضل من القيام لحديث "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد" وقوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الآخرة ﴾ حال أخرى على التداخل أو الترادف أو استئناف وقع جواباً عما نشأ من حكاية حاله كأنه قيل ما باله يفعل ذلك ؟ فقيل : يحذر الآخرة أي عذاب الآخرة كما قرأ به ابن جبير .

(34/666)

﴿ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ فينجو بذلك مما يحذره ويفوز بما يرجوه كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضمير الراجي لا أنه يحذر ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط ، واما منقطعة وما فيها من الاضراب للانتقال من التبكيت بتكليف الجواب الملجيء إلى الاعتراف بما بينهما من التباين البين كأنه قيل : بل أمن هو قانت الخ ، وقدر الزمخشري كغيره مثلك أيها الكافر .

وقال النحاس : أم بمعنى بل ومن بمعنى الذي والتقدير بل الذي هو قانت الخ أفضل مما قبله .

وتعقبه في البحر بأنه لا فضل لمن قبله حتى يجعل هذا أفضل بل يقدر الخبر من أصحاب الجنة لدلالة مقابلة أعني ﴿ إنك مِنْ أصحاب النار ﴾ [الزمر : 8] عليه ولا يبعد أن يقدر أفضل منك ويكون ذلك من باب التهكم .

وقرأ ابن كثير .

ونافع .

وحمزة .

والأعمش .

وعيسى .

وشيبة .

والحسن في رواية ﴿ مِن ﴾ بتخفيف الميم وضعفها الأخفش وأبو حاتم ولا التفات إلى ذلك ، وخرجت على إدخال همزة الاستفهام التقريري على من والمقابل محذوف أي الذي هو قانت الخ خير أم أنت أيها الكافر ، ومثله في حذف المعادل قوله :

دعاني إليها القلب إني لأمره . . .

سميع فما أدري أرشد طلابها

فإنه أراد أم غي ، وقال الفراء : الهمزة للنداء كأنه قيل يا من هو قانت وجعل قوله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ خطاباً له ، وضعف هذا القول أبو علي الفارسي وهو كذلك ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ على معنى قل له أيضاً بياناً للحق وتصريحاً به وتنبيهاً على شرف العلم والعمل دهَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيعملون بمقتضى علمهم ويقنتون الليل سجداً وركعاً يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم ﴿ ﴾ فيعملون بمقتضى علمهم ويقنتون الليل سجداً وركعاً يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم ﴿ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيعلمون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدأبك أيها الكافر الجاعل لله تعالى أنداداً والاستفهام للتنبيه على أن كون الأولين في أعلى معارج الخير وكون الآخرين في أقصى مدارج الشر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد من منصف ومكابر ، ويعلم مما ذكرنا أن المراد بالذين يعلمون العاملون من علماء الديانة وصرح بإرادة ذلك بعض الأجلة على تقديري الاتصال والانقطاع وأن الكلام تصريح بنفي المساواة بين القانت وغيره المضمنة من حرفي الاستفهام أعني الهمزة وأم على الاتصال أو من التشبيه على الانقطاع وعلى قراءة التخفيف أيضاً قال : وإنما عدل إلى هذه العبارة دلالة على أن ذلك مقتضى العلم وأن العلم الذي لا يترتب عليه العمل ليس بعلم عند الله تعالى سواء جعل من باب إقامة الظاهر مقام المضمر للاشعار المذكور أو استئناف

سؤال تبكيتي توضيحاً للأول من حيث التصريح ومن حيث أنهم وصفوا بوصف آخر يقتضي اتصافهم بتلك الأوصاف ومباينتهم لطبقة من لا يتصف .

(36/666)

وهذا أبلغ وأظهر لفظاً لقوله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ وجوز أن يكون الكلام وارداً على سبيل التشبيه فيكون مقرراً لنفي المساواة لا تصريحاً بمقتضى الأول أي كما لا استواء بين العالم وغيره عندكم من غير ريبة فكذلك ينبغي أن لا يكون لكم ارتياب في نفي المساواة بين القانت المذكور وغيره ، وكونه للتصريح بنفي المساواة وحمل الذين يعلمون على العاملين من علماء الديانة على ما سمعت مما لا لا ينبغي أن يختار غيره لتكثير الفائدة ، وأما من ارتاب في ذلك الواضح فلا يبعد منه الارتياب في هذا الواضح أيضاً فجوابه أن الاستنكاف عن الجهل مركوز في الطباع بخلاف الأول ، ويشعر كلام كثير ان قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ ﴾ الخ غير داخل في حيز القول والمعنى عليه كما في الأول بتغيير يسير لا يخفى ، وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه تلا ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾ الآية فقال : نزلت في عثمان بن عفان ، وأخرج ابن سعد في طبقاته ، وابن مردويه .

وابن عساكر عن ابن عباس أنها نزلت في عمار بن ياسر ، وأخرج جويبر عنه أنها نزلت في

عمار .

وابن مسعود .

وسالم مولى أبي حذيفة ، وعن عكرمة الاقتصار على عمار ، وعن مقاتل المراد بمن هو

قانت عمار .

وصهيب .

وابن مسعود .

وأبو ذر ، وفي رواية الضحاك عن ابن عباس .

أبو بكر .

وعمر ، وقال يحيى بن سلام : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والظاهر أن المراد

المتصف بذلك من غير تعيين ولا يمنع من ذلك نزولها فيمن علمت وفيها دلالة على فضل

الخوف والرجاء ، وقد أخرج الترمذي .

والنسائي .

(37/666)

وابن ماجه عن أنس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الموت فقال : كيف تجدك ؟ قال : أرجو وأخاف فقال عليه الصلاة والسلام : لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الذي يرجو وآمنه الذي يخاف ، وفيها رد على من ذم العبادة خوفاً من النار ورجاء الجنة وهو الإمام الرازي كما قال الجلال السيوطي ، نعم العبادة لذلك ليس إلا مذمومة بل قال بعضهم بكفر من قال : لولا الجنة والنار ما عبدت الله تعالى على معنى نفي الاستحقاق الذاتي ، وفيها دلالة أيضاً على فضل صلاة الليل وأنها أفضل من صلاة النهار ، ودل قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ﴾ الخ على فضل العلم ورفعة قدره وكون الجهل بالعكس .

واستدل به بعضهم على أن الجاهل لا يكافىء العالمة كما أنه لا يكافىء بنت العالم ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلباب ﴾ كلام مستقل غير داخل عند الكافة في الكلام المأمور وارد من جهته تعالى بعد الأمر بما تضمن القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصي لبيان عدم تأثيرها في قلوب الكفرة لاختلال عقولهم كما في قوله

: عوجوا فحيوا لنعمي دمنة الدار . . .

ماذا تحيون من نؤى وأحجار

وهو أيضاً كالتوطئة لأفراد المؤمنين بعد بالخطاب والاعراض عن غيرهم أي إنما يتعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وأما هؤلاء فبمعزل عن

ذذلك .

وقرىء ﴿ يُذْكَرِ ﴾ بالادغام .

﴿ قُلْ يا عِبَادِ الذين ءامَنُواْ اتقوا ربَّكُمْ ﴾

(38/666)

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذكر المؤمنين ويحملهم على التقوى والطاعة إثر تخصيص التذكر بأولي الألباب وفيه إيذان بأنهم هم أي قل لهم قولي هذا بعينه وفيه تشريف لهم باضافتهم إلى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به فإن نقل عين أمر الله تعالى أدخل في إيجاب الامتثال به ، وقوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ إلى آخره تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف هو خبر مقدم وقوله سبحانه : ﴿ فِى هذه الدنيا ﴾ متعلق بأحسنوا واسم الإشارة للاحضار ، وقوله تبارك وتعالى ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ مبتدأ وتنوينه للتفخيم أي للمحسنين في الدنيا حسنة في الآخرة أي حسنة والمراد بها الجنة ، وقوله عزوجل : ﴿ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ ﴾ جملة معترضة ازاحة لما عسى أن يتوهم من التعلل في التفريط بعدم التمكن في الوطن من رعاية الأوامر والنواهي على ما هي عليه ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ من تتمة

الاعتراض فكأنه قيل : اتقوا ربكم فإن للمحسنين في هذه الدنيا الجنة في الأخرى ولا عذر للمفرطين في الإحسان بعدم التمكن في الأوطان فإن أرض الله تعالى واسعة وبلاده كثيرة فليتحولوا إن لم يتمكنوا عنها وليهاجروا إلى ربهم لنيل الرضوان فإن لهم في جنب ذلك ما يتقاصر عنه الجنة ويستلذ له كل محنة وكأنه لما أزاح سبحانه علتهم بأن في أرض الله تعالى سعة وقع في خلدهم هل نكون نحن ومن يتمكن من الإحسان في بلدته فارغ البال رافغ الحال سواء بسواء فأجيبوا إنما يوفى الصابرون الذين صبروا على الهجرة ومفارقة المحاب والاقتداء بالأنبياء والصالحين أجرهم بغير حساب ، وأصله إنما توفون أجوركم بغير حساب على الخطاب وعدل عنه إلى المنزل تنبيهاً على أن المقتضى لذلك صبرهم فيفيد أنكم توفون أجوركم بصبركم كما وفى أجر من قبلكم بصبرهم وهو محمول على العموم شامل للصبر على كل بلاء غير مخصوص بالصبر على

(39/666)

المهاجرة لكنه إنما جيء به في الآية لذلك وليشمل الصابرين على ألم المهاجرة شمولاً أوليا ، والجار والمجرور في موضع الحال إما من الأجر أي إنما يوفون أجرهم كائناً بغير حساب وذلك بأن يغرف لهم غرفاً ويصب عليهم صبا ، واما من الصابرين أي إنما يوفون ذلك كائنين بغير

حساب عليه ، والمراد على الوجهين المبالغة في الكثرة وهو المراد بقول ابن عباس لا يهتدي إليه حساب الحساب ولا يعرف ، وجوز جعل احال من الصابرين على معنى لا يحاسبون أصلاً ، والمتبادر ما يفيد المبالغة في كثرة الأجر ، ومعنى القصر ما يوفى الصابرون أجرهم إلا بغير حساب جعل الجار والمجرور حالاً من المنصوب أو المرفوع لأن القصر في الجزء الأخير ، وفيه من الاعتناء بأمر الأجر ما فيه ، وأما اختصاصه بالصابرين دون غيرهم فمن ترتب الحكم على المشتق ، هذا ونقل عن السدى أن قوله تعالى : ﴿ فِى هذه الدنيا ﴾ متعلق بحسنة من حيث المعنى فقيل .

هو حينئذ حال من ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ ورد بأنها مبتدأ ولا يجوز الحال منه على الصحيح ، فإن قيل : يلتزم جعلها فاعل الظرف قيل : لا يتسنى إلا على مذهب الأخفش وهو ضعيف .

(40/666)

وقيل حال من الضمير المستتر في الخبر الراجع إلى ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ وقال الزمخشري : هو بيان لحسنة والتقدير هي في الدنيا ، والمراد بها الصحة والعافية أي للمحسنين صحة وعافية في الدنيا ، قال في الكشف : وإنما آثر كونه بياناً مع جواز كونه حالاً عن الضمير الراجع إلى ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ في الخبر لأن المعنى على البيان لا على التقييد بالحال وذلك لأن المعنى على هذا

الوجه أن للمحسنين جزاء يسيراً في الدنيا هو الصحة والعافية وإنما توفية أجورهم في الآخرة ولو قيد بالحال لم يلائم على ما لا يخفى ، وحق قوله تعالى : ﴿ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ ﴾ على هذا أن يكون اعتراضاً إزاحة لما قد يختلج في بعض النفوس من خلاف ذلك الجزاء بواسطة اختلاف الهواء والتربة وغير ذلك مما يؤدي إلى آفات في البدن فقيل وأرض الله تعالى واسعة فلا يعدم أحد محلاً يناسب حاله فليتحول عنه إليه إن لم يلائمه ثم يكون فيه تنبيه على أن من جعل الأرض ذات الطول والعرض قطعاً متجاورات تكميلاً لاتعاشهم وارتياشهم يجب أن تقابل نعمه بالشكر ليعدوا من المحسنين ثم قيل : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون ﴾ أي توفية الأجر لهؤلاء المحسنين إنما يكون في الآخرة والذي نالوه في الدنيا عاجل حظهم وأما الأجر الموفى بغير حساب فذلك للصابرين ، ومن سلبناه تلك العاجلة تمحيصاً له وتقريباً وفي ذلك تسلية لأهل البلاء وتنشيط للعباد على مكابدة العبادات وتحريض على ملازمة الطاعات ثم قال : وهذا أيضاً وجه حسن دقيق والرجحان للأول من وجوه .

أحدها : أن الاعتراض لإزاحة العلة في التفريط أظهر لأنه المقصود من السياق على ما يظهر من قوله تعالى : ﴿ اتقوا رَبَّكُمُ ﴾ .

الثاني : أنه المطابق لما ورد في التنزيل من نحو ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسعة فتهاجروا فِيهَا ﴾ [النساء : 97] ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فاعبدون ﴾ [العنكبوت : 56]

الثالث : أن تعلق الظرف بالمذكور المتقدم هو الوجه ما لم يصرف صارف .

الرابع : أنه على ذلك التقدير ليس بمطرد ولا أكثري فإن الحسنة بذلك المعنى في شأن المخالفين أتم والقول بأنها استدراج في شأنهم لا حسنة ليس بالظاهر فقد قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحسنة قَالُواْ لَنَا هذه ﴾ [الأعراف : 131] انتهى ، ولعمري أن ما رجحه بالترجيح حقيق وما استحسنه واستدقه ليس بالحسن ولا الدقيق ، والذي نقله الطبرسي عن السدي تفسير الحسنة في الدنيا بالثناء الحسن والذكر الجميل والصحة والسلامة ، وفسرها بعضهم بولاية الله تعالى وعليه فليس للمخالفين منها نصيب ، وفي الآية أقوال أخر فعن عطاء أرض الله تعالى المدينة قال أبو حيان : فعلى هذا يكون ﴿ أَحْسَنُواْ ﴾ هاجروا و ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ راحة من الأعداء ، وقال قوم : أرض الله تعالى الجنة ، وتعقبه ابن عطية بأنه تحكم لا دليل عليه .

وقال أبو مسلم : لا يمتنع ذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى ثم بين سبحانه أنه من اتقى له في الآخرة الحسنة وهي الخلود في الجنة ثم بين جل شأنه أن أرض الله واسعة لقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاء ﴾ [الزمر : 74] وقوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السموات والأرض أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 133] والرجحان لما سمعت أولاً ، واختير فيه شمول الحسنة لحسنات الدنيا والآخرة ، والمراد بالإحسان الإتيان بالأعمال الحسنة القلبية والقالبية ، قال النبي صلى الله عليه وسلم في تفسيره في حديث جبريل عليه السلام : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " والآية على ما في بعض الآثار نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة وفيها من الدلالة على فضل الصابرين ما فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(43/666)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾

هذا مثال لتقلب المشركين بين إشراكهم مع الله غيره في العبادة ، وبين إظهار احتياجهم إليه ،

فذلك عنوان على مبلغ كفرهم وأقصاه .

والجملة معطوفة على جملة ﴿ ذلكم الله ربُّكُمْ لَهُ المُلْكُ ﴾ [الزمر : 6] الآية لاشتراك الجملتين في الدلالة على أن الله منفرد بالتصرف مستوجب للشكر ، وعلى أن الكفر به قبيح ، وتَتَضمن الاستدلال على وحدانية إلهية بدليل من أحوال المشركين به فإنهم إذا مسهم الضر لجأوا إليه وحده ، وإذا أصابتهم نعمة أعرضوا عن شكره وجعلوا له شركاء .

فالتعريف في ﴿ الإنْسَانَ ﴾ تعريف الجنس ولكن عمومه هنا عموم عرفي لفريق من الإنسان وهم أهل الشرك خاصة لأن قوله : ﴿ وجَعَلَ لله أندَاداً ﴾ لا يتفق مع حال المؤمنين .

والقول بأن المراد : انسان معيّن وأنه عتبة بن ربيعة ، أو أبو جهل ، خروج عن مهيع الكلام ، وإنما هذان وأمثالهما من جملة هذا الجنس .

وذكر الإنسان إظهار في مقام الإضمار لأن المقصود به المخاطبون بقوله : ﴿ خلقكم من نفس واحدة إلى قوله : فَيُنَبِّئكم بما كُنتمُ تَعْمَلُون ﴾ [الزمر : 6 ، 7] ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : وإذا مسكم الضر دعوتم ربكم الخ ، فعدل إلى الإظهار لما في معنى الإنسان من مراعاة ما في الإنسانية من التقلب والاضطراب إلا من عصمه الله بالتوفيق كقوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حياً ﴾ [مريم : 66] ، وقوله : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ [القيامة : 3] وغير ذلك ولأن في اسم الإنسان مناسبة مع

النسيان الآتي في قوله : ﴿ نسي ما كان يدعو إليه من قبل ﴾ .

وتقدم نظير لهذه الآية في قوله : ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ﴾ في سورة [الروم : 33] .

(والتخويل : الإِعطاء والتمليك دون قصد عوض .

وعينُه واو لا محالة .

(44/666)

وهو مشتق من الخَوَل بفتحتين وهو اسم للعبيد والخدم ، ولا التفات إلى فعل خال بمعنى : افتخر ، فتلك مادة أخرى غير ما اشتق منه فعل خَوَّل .

والنسيان : ذهول الحافظة عن الأمر المعلوم سابقاً .

ومَا صْدَق ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ هو الضر ، أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إليه ، أي إلى كشفه عنه ، ومفعول ﴿ يَدْعُوا ﴾ محذوف دل عليه قوله : ﴿ دَعَا رَبَّهُ ﴾ ، وضمير ﴿ إِلَيْهِ ﴾ عائد إلى ﴿ ما ﴾ ، أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إليه ، أي إلى كشفه .

ويجوز أن يكون ﴿ ما ﴾ صادقاً على الدعاء كما تدل عليه الصلة ويكون الضمير المجرور

بـ (إلى) عائداً إلى ﴿ رَبَّهُ ﴾ ، أي نسي الدعاء ، وضُمّن الدعاء معنى الابتهال والتضرع فعُدي بحرف (إلى) .

وعائد الصلة محذوف دل عليه فعل الصلة تفادياً من تكرر الضمائر .

والمعنى : نسي عبادة الله والابتهال إليه .

والأنداد : جمع ندّ بكسر النون ، وهو الكفء ، أي وزاد على نسيان ربه فجعل له شركاء .

واللام في قوله : ﴿ لِّيُضِلَّ عن سبيلِهِ ﴾ لام العاقبة ، أي لام التعليل المجازي لأن الإِضلال لما كان نتيجة الجعل جاز تعليل الجعل به كأنه هو العلة للجاعل .

والمعنى : وجعل لله أنداداً فَضل عن سبيل الله .

وقرأ الجمهور ﴿ لِّيُضِلَّ ﴾ بضم الياء ، أي ليضل الناس بعد أن أضل نفسه إذ لا يضل الناس إلا ضَالّ .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء ، أي ليَضل هو ، أي الجاعل وهو إذا ضلّ أضل الناس .

﴿ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصحاب ﴾ .

استئناف بياني لأن ذكر حالة الإِنسان الكافر المعرض عن شكر ربه يثير وصفها سؤال السامع عن عاقبة هذا الكافر ، أي قل يا محمد للإِنسان الذي جعل لله أنداداً ، أي قل لكل

واحد من ذلك الجنس ، أو روعي في الإِفراد لفظُ الإِنسان .

والتقدير : قل تمتعوا بكفركم قليلاً إنكم من أصحاب النار .

(45/666)

وعلى مثل هذين الاعتبارين جاء إفراد كاف الخطاب بعد الخبر عن الإِنسان في قوله تعالى : ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ في سورة [القيامة : 10 - 12] .

والتمتع : الانتفاع الموقّت ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ في سورة [الأعراف : 24] .

(والباء في ﴿ بِكُفْرِكَ ﴾ ظرفية أو للملابسة وليست لتعدية فعل التمتع .

ومتعلِّق التمتع محذوف دل عليه سياق التهديد .

والتقدير : تمتع بالسلامة من العذاب في زمن كفرك أو متكسباً بكفرك تمتعاً قليلاً فأنت آئل إلى العذاب لأنك من أصحاب النار .

ووصف التمتع بالقليل لأن مدة الحياة الدنيا قليل بالنسبة إلى العذاب في الآخرة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ [التوبة : 38] .

وصيغة الأمر في قوله : ﴿ تَمَتَّعْ ﴾ مستعملة في الإمهال المراد منه الإنذار والوعيد .

وجملة ﴿ إنَّكَ من أصحابِ النَّارِ ﴾ بيان للمقصود من جملة ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ وهو الإنذار بالمصير إلى النار بعد مدة الحياة .

و﴿ من ﴾ للتبعيض لأن المشركين بعض الأمم والطوائف المحكوم عليها بالخلود في النار .

وأصحاب النار : هم الذين لا يفارقونها فإن الصحبة تشعر بالملازمة ، فأصحاب النار : المخلّدون فيها .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ الليل ساجدا وَقَآئِماً يَحْذَرُ الاخرة وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ قرأ نافع وابن كثير وحمزة وَحْدَهم ﴿ أَمَنْ ﴾ بتخفيف الميم على أن الهمزة دخلت على (مَن) الموصولة فيجوز أن تكون الهمزة همزة استفهام و (مَن) مبتدأ والخبر محذوف دل عليه الكلام قبله من ذكر الكافر في قوله : ﴿ وجعَلَ للهِ أندَاداً ﴾ إلى قوله : ﴿ من أصحَابِ النَّارِ ﴾ [الزمر : 8] .

(46/666)

والاستفهام إنكاري والقرينة على إرادة الإنكار تعقيبه بقوله : ﴿ قُلْ هل يسْتَوي الذين يعلمُونَ والذين لا يعلَمُونَ ﴾ لظهور أن ﴿ هل فيه للاستفهام الإنكاري وبقرينة صلة

الموصول .

تقديره : أَمَن هو قانت أفضل أم من هو كافر ؟ والاستفهام حينئذٍ تقريري ويقدر له معادل محذوف دل عليه قوله عقبه : قُلْ هل يسْتَوي الذين يعلمُونَ والذين لا يعلَمُونَ ﴾ .

وجعل الفراء الهمزة للنداء و ﴿ من هو قانت : النبي ، ناداه الله بالأوصاف العظيمة الأربعة لأنها أوصاف له ونداء لمن هم من أصحاب هذه الأوصاف ، يعني المؤمنين أن يقولوا : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، وعليه فإفراد (قل) مراعاة للفظ (مَن) المنادَى .

وقرأ الجمهور أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ بتشديد ميم (مَن) على أنه لفظ مركب من كلمتين (أم) و (مَن) فأدغمت ميم (أم) في ميم (مَن) .

وفي معناه وجهان:

أحدهما ﴾ : أن تكون (أم) معادلة لهمزة استفهام محذوفة مع جملتها دلت عليها (أم) لاقتضائها معادلاً .

ودل عليها تعقيبه بـ ﴿ هل يسْتَوي الذين يعلمُونَ والذين لا يعلَمُونَ ﴾ لأن التسوية لا تكون إلا بين شيئين .

فالتقدير : أهذا الجاعل لله أنداداً الكافر خير أَمَّنْ هو قانت ، والاستفهام حقيقي والمقصود لازمه ، وهو التنبيه على الخطأ عند التأمل .

والوجه الثاني : أن تكون (أم) منقطعة لمجرد الإِضراب الانتقالي .

و(أم) تقتضي استفهاماً مقدراً بعدها .

ومعنى الكلام : دع تهديدهم بعذاب النار وانتقِل بهم إلى هذا السؤال : الذي هو قانت ، وقائم ، ويحذر الله ويرجو رحمته .

والمعنى : أذلك الإِنسان الذي جعل لله أنداداً هو قانت الخ ، والاستفهام مستعمل في التهكم لظهور أنه لا تتلاقَى تلك الصفاتُ الأربعُ مع صفة جعله لله أنداداً .

والقانت : العابد .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وقوموا للَّه قانتين ﴾ في سورة [البقرة : 238] .

(47/666)

(والآناء : جمع أَنىً مثل أمعاء ومَعىً ، وأقفاء وقفىً ، والأنى : الساعة ، ويقال أيضاً : إنَي بكسر الهمزة ، كما تقدم في قوله : ﴿ غير ناظرين إناه ﴾ في سورة [الأحزاب : 53] .

وانتصب ﴿ ءَانَاءَ ﴾ على الظرف ل ﴿ قَانِتٌ ﴾ ، وتخصيص الليل بقنوتهم لأن العبادة بالليل أعون على تمحض القلب لذكر الله ، وأبعد عن مداخلة الرياء وأدل على إيثار عبادة الله على حظ النفس من الراحة والنوم ، فإن الليل أدعى إلى طلب الراحة فإذا آثر المرء

العبادة فيه استنار قلبه بحب التقرب إلى الله قال تعالى : ﴿ إنّ ناشئة الليل هي أشدُ وطئاً وأقوم قِيلا ﴾ [المزمل : 6] ، فلا جرم كان تخصيص الليل بالذكر دالاً على أن هذا القانت لا يخلو من السجود والقيام آناءَ النهار بدلالة فحوى الخطاب قال تعالى:

﴿ إن لك في النهار سبحاً ﴾ [المزمل : 7] ، وبذلك يتم انطباق هذه الصلة على حال النبي صلى الله عليه وسلم

وقوله : ﴿ ساجداً وقائماً ﴾ حالان مُبينان ل ﴿ قَانِتٌ ﴾ ومؤكدان لمعناه .

وجملة ﴿ يحذَرُ الآخِرَةَ ويرجوا رحمة ربه ﴾ حالان ، فالحال الأول والثاني لوصف عمَله الظاهر والجملتان اللتان هما ثالث ورابع لوصف عمل قلبه وهو أنه بين الخوف من سيئاته وفلتاته وبين الرجاء لرحمة ربه أن يثيبه على حسناته .

وفي هذا تمام المقابلة بين حال المؤمنين الجارية على وفق حال نبيئهم صلى الله عليه وسلم وحال أهل الشرك الذين لا يدعون الله إلا في نادر الأوقات ، وهي أوقات الاضطرار ، ثم يشركون به بعد ذلك ، فلا اهتمام لهم إلا بعاجل الدنيا لا يحذرون الآخرة ولا يرجون ثوابها .

والرجاء والخوف من مقامات السالكين ، أي أوصافهم الثابتة التي لا تتحول .

والرجاء : انتظار ما فيه نعيم وملاءمة للنفس .

والخوف : انتظار ما هو مكروه للنفس .

والمراد هنا : الملاءمة الأخروية لقوله : ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ ﴾ ، أي يحذر عقاب الآخرة فتعين أن الرجاء أيضاً المأمولُ في الآخرة .

(48/666)

وللخوف مزيته من زجر النفس عما لا يرضي الله ، وللرجاء مزيته من حثها على ما يرضي الله وكلاهما أنيس السالكين .

وإنما ينشأ الرجاء على وجود أسبابه لأن المرء لا يرجو إلا ما يظنه حاصلاً ولا يظن المرء أمراً إلا إذا لاحت له دلائله ولوازمه ، لأن الظن ليس بمغالطة والمرء لا يغالط نفسه ، فالرجاء يتبع السعي لتحصيل المرجو قال الله تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ [الإسراء : 19] فإن ترقُّب المرء المنفعة من غير أسبابها فذلك الترقب يسمى غروراً .

وإنما يكون الرجاء أو الخوف ظنّاً مع تردد في المظنون ، أما المقطوع به فهو اليقين واليأس وكلاهما مذموم قال تعالى : ﴿ فلا يأمن مكر اللَّه إلا القوم الخاسرون ﴾ [الأعراف : 99] ، وقال : ﴿ إنه لا ييأس من روح اللَّه إلا القوم الكافرون ﴾ [يوسف : 87] .

وقد بسط ذلك حجة الإِسلام أبو حامد في كتاب الرجاء والخوف من كتاب "الإِحياء" .

ولله درّ أبي الحسن التهامي إذ يقول :

وإذا رجوتَ المستحيل فإنما

تبني الرجاء على شَفير هارِ . . .

وسئل الحسن البصري عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو فقال : هذا تمنَ وإنما الرجاء ، قوله : ﴿ يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه ﴾ .

وقال بعض المفسرين أريد بـ ﴿ مَن هو قانِتٌ ﴾ أبو بكر ، وقيل عمّار بن ياسر ، وقيل صُهيب ، وقيل : أبو ذرّ ، وقيل ابن مسعود ، وهي روايات ضعيفة ولا جرم أن هؤلاء المعدودين هم من أحقّ مَن تصدق عليه هذه الصلة فهي شاملة لهم ولكن محمل الموصول في الآية على تعميم كل من يصدق عليه معنى الصلة .

﴿ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو ﴾

استئناف بياني موقعه كموقع قوله:

﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بكفرك قليلاً ﴾ [الزمر : 8] أثاره وصف المؤمن الطائع ، والمعنى : أَعْلِمهم يا محمد بأن هذا المؤمن العالِم بحق ربه ليس سواء للكافر الجاهل بربه .

وإعادة فعل ﴿ قل هنا للاهتمام بهذا المقول ولاسْترعاء الأسماع إليه .

والاستفهام هنا مستعمل في الإنكار .

والمقصود : إثبات عدم المساواة بين الفريقين ، وعدم المساواة يكنّى به عن التفضيل .

والمراد : تفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون ، كقوله تعالى : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضرر والمجاهدون في سبيل اللَّه بأموالهم وأنفسهم فضل اللَّه المجاهدين ﴾ [النساء : 95] الآية ، فيعرف المفضّل بالتصريح كما في آية ﴿ لا يستوي القاعدون ﴾ [النساء : 95] أو بالقرينة كما في قوله هنا : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون ﴾ الخ لظهور أن العلم كمال ولتعقيبه بقوله : ﴿ إنما يتذكَّر أُولوا الألبابِ ﴾ .

ولهذا كان نفي الاستواء في هذه الآية أبلغ من نفي المماثلة في قول النابغة :

يخبرك ذو عرضهم عني وعالمهم

وليس جاهل شيء مثلَ من عَلِما . . .

وفعل ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ في الموضعين منزّل منزلة اللازم فلم يذكر له مفعول .

والمعنى : الذين اتصفوا بصفة العلم ، وليس المقصود الذين علموا شيئاً معيّناً حتى يكون من حذف المفعولين اختصاراً إذ ليس المعنى عليه ، وقد دل على أن المراد الذين اتصفوا بصفة العلم قوله عقبه : ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ أي أهل العقول ، والعقل والعلم مترادفان ، أي لا يستوي الذين لهم علم فهم يدركون حقائق الأشياء على ما هي عليه

وتجري أعمالهم على حسب علمهم ، مع الذين لا يعلمون فلا يدركون الأشياء على ما هي عليه بل تختلط عليهم الحقائق وتجري أعمالهم على غير انتظام ، كحال الذين توهموا الحجارة آلهة ووضعوا الكفر موضع الشكر .

فتعين أن المعنى : لا يستوي مَن هو قانت آناء الليل يحذر ربّه ويرجوه ، ومَن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله .

(50/666)

وإذ قد تقرر أن الذين جعلوا لله أنداداً هم الكفار بحكم قوله : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ ثبت أن الذين لا يستوون معهم هم المؤمنون ، أي هم أفضل منهم ، وإذ قد تقرر أن الكافرين من أصحاب النار فقد اقتضى أن المفضلين عليهم هم من أصحاب الجنة .

وعدل عن أن يقول : هل يستوي هذا وذاك ، إلى التعبير بالموصول إدماجاً للثناء على فريق ولذم فريق بأن أهل الإيمان أهل علم وأهل الشرك أهل جهالة فأغنت الجملة بما فيها من إدماج عن ذكر جملتين ، فالذين يعلمون هم أهل الإيمان ، قال تعالى : ﴿ إنما يخشى اللَّه من عباده العلماء ﴾ [فاطر : 28] والذين لا يعلمون هم أهل الشرك الجاهلون ، قال تعالى : ﴿ قل أفغير اللَّه تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ [الزمر : 64] .

وفي ذلك إشارة إلى أن الإِيمان أخو العلم لأن كليهما نور ومعرفةٌ حقّ ، وأن الكفر أخو الضلال لأنه والضلال ظلمة وأوهام باطلة .

هذا ووقع فعل ﴿ يَسْتَوِي ﴾ في حيّز النفي يكسبه عموم النفي لجميع جهات الاستواء .

وإذ قد كان نفي الاستواء كناية عن الفضل آل إلى إثبات الفضل للذين يعلمون على وجه العموم ، فإنك ما تأملت مقاماً اقتحم فيه عالم وجاهل إلا وجدتَ للعالم فيه من السعادة ما لا تجده للجاهل ولنضرب لذلك مثلاً بمقامات ستةٍ هي جلّ وظائف الحياة الاجتماعية:

المقام الأول : الاهتداء إلى الشيء المقصود نواله بالعمل به وهو مقام العمل ، فالعالم بالشيء يهتدي إلى طرقه فيبلغ المقصود بيُسْر وفي قرب ويعلم ما هو من العمل أولى بالإِقبال عنه ، وغير العالم به يضل مسالكه ويضيع زمانه في طلبه ؛ فإما أن يخيب في سعيه وإمّا أن يناله بعد أن تتقاذفه الأرزاء وتنتابه النوائب وتختلط عليه الحقائق فربما يتوهم أنه بلغ المقصود حتى إذا انتبه وجد نفسه في غير مراده ، ومثله قوله تعالى:

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ [النور : 39] .

(51/666)

ومن أجل هذا شاع تشبيه العلم بالنور والجهل بالظلمة .

المقام الثاني : ناشىء عن الأول وهو مقام السلام من نوائب الخطأ ومزلات المذلات ، فالعالم يعصمه علمه من ذلك ، والجاهل يريد السلامة فيقع في الهلكة ، فإن الخطأ قد يوقع في الهلاك من حيث طلب الفوز ومثَله قوله تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ [البقرة : 16] إذ مثَّلهم بالتاجر خرج يطلب فوائد الربح من تجارته فآب بالخسران ولذلك يشبه سَعي الجاهل بخبط العشواء ، ولذلك لم يزل أهل النصح يسهلون لطلبة العلم الوسائل التي تَقيهم الوقوع فيما لا طائل تحته من أعمالهم .

المقام الثالث : مقام أُنس الانكشاف فالعالم تتميز عنده المنافع والمضار وتنكشف له الحقائق فيكون مأنوساً بها واثقاً بصحة إدراكه وكلما انكشفت له حقيقة كان كمن لقي أنيساً بخلاف غير العالم بالأشياء فإنه في حيرة من أمره حين تختلط عليه المتشابهات فلا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع ، فإن اجتهد لنفسه خشِي الزلل وإن قلد خشِي زلل مقلَّده ، وهذا المعنى يدخل تحت قوله تعالى : ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ [البقرة : 20] .

المقام الرابع : مقام الغِنَى عن الناس بمقدار العلم والمعلومات فكلما ازداد عِلم العالم قوِيَ غناه عن الناس في دينه ودنياه .

المقام الخامس : الإلتذاذ بالمعرفة ، وقد حصر فخر الدين الرازي اللذة في المعارف وهي لذة

لا تقطعها الكثرة .

وقد ضرب الله مثلاً بالظلّ إذ قال : ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظِل ولا الحرُور ﴾ [فاطر : 19 21] فإن الجلوس في الظل يلتذ به أهل البلاد الحارة .

المقام السادس : صدور الآثار النافعة في مدى العمر مما يكسب ثناء الناس في العاجل وثواب الله في الآجل ، فإن العالم مصدر الارشاد والعلم دليل على الخير وقائد إليه قال الله تعالى : ﴿ إنما يخشى اللَّه من عباده العلماء ﴾ [فاطر : 28] .

(52/666)

والعلم على مزاولته ثوابٌ جزيل ، قال النبي صلى الله عليه وسلم " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده " .

وعلى بثه مثل ذلك ، قال النبي صلى الله عليه وسلم " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم بثه في صدور الرجال ، وولد صالح يدعو له بخير " .

فهذا التفاوت بين العالم والجاهل في صوره التي ذكرناها مشمول لنفي الاستواء الذي في قوله

تعالى : ﴿ قُل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمونَ ﴾ وتتشعب من هذه المقامات فروع جمّة وهي على كثرتها تنضوي تحت معنى هذه الآية .

وقوله : ﴿ إنَّما يتذكَّر أُولوا الألبابِ ﴾ واقع موقع التعليل لنفي الاستواء بين العالم وغيره المقصودِ منه تفضيل العالم والعلم ، فإن كلمة (إنما) مركبة من حرفين (إنَّ) و (مَا) الكافّة أو النافية فكانت (إن) فيه مفيدة لتعليل ما قبلها مغنية غَناء فاء التعليل إذ لا فرق بين (إنَّ) المفردة و (إنَّ) المركبة مع (ما) ، بل أفادها التركيب زيادة تأكيد وهو نفي الحكم الذي أثبتته (إنَّ) عن غير من أثبتته له .

وقد أخذ في تعليل ذلك جانبُ إثبات التذكر للعالِمين ، ونفيه من غير العالمين ، بطريق الحصر لأن جانب التذكر هو جانب العمل الديني وهو المقصد الأهم في الإِسلام لأن به تزكية النفس والسعادة الأبدية قال النبي صلى الله عليه وسلم " مَن يُرِد الله به خيراً يفقهْهُ في الدين "

والألباب : العقول ، وأولو الألباب : هم أهل العقول الصحيحة ، وهم أهل العلم .

فلما كان أهل العلم هم أهل التذكر دون غيرهم أفاد عدم استواء الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

فليس قوله : ﴿ إنَّما يتذكر أولوا الألباب ﴾ كلاماً مستقلاً .

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)

لما أجري الثناء على المؤمنين بإقبالهم على عبادة الله في أشدّ الآناء وبشدة مراقبتهم إياه بالخوف والرجاء وبتمييزهم بصفة العلم والعقل والتذكر ، بخلاف حال المشركين في ذلك كله ، أُتبع ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإِقبال على خطابهم للاستزادة من ثباتهم ورباطة جأشهم ، والتقديرُ : قل للمؤمنين ، بقرينة قوله : ﴿ ياعِبَادِ الذين ءَامنُوا ﴾ الخ .

وابتداء الكلام بالأمر بالقول للوجه الذي تقدم في نظيره آنفاً ، وابتداء المقول بالنداء وبوصف العبودية المضاف إلى ضمير الله تعالى ، كل ذلك يؤذن بالاهتمام بما سيقال وبأنه سيقال لهم عن ربهم ، وهذا وضعٌ لهم في مقام المخاطبة من الله وهي درجة عظيمة .

وحذفت ياء المتكلم المضاف إليها ﴿ عباد ﴾ وهو استعمال كثير في المنادَى المضاف إلى ياء المتكلم .

وقرأه العشرة ﴿ يَاعِبادِ بدون ياء في الوصل والوقف كما في إبراز المعاني ﴾ لأبي شامة وكما في "الدرة المضيئة" في القراءات الثلاث المتممة للعشر لعلي الضباع المصري ، بخلاف قوله تعالى : ﴿ قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ [الزمر : 53] الآتي في هذه

السورة ، فالمخالفة بينهما مجرد تفنن .

وقد يوجه هذا التخالف بأن المخاطبين في هذه الآية هم عباد الله المتقون ، فانتسابهم إلى الله مقرر فاستُغني عن إظهار ضمير الجلالة في إضافتهم إليه ، بخلاف الآية الآتية ، فليس في كلمة ﴿ يَاعِبَادِ ﴾ من هذه الآية إلاَّ وَجه واحد باتفاق العشرة ولذلك كتبها كتّاب المصحف بدون ياء بعد الدال .

وما وقع في "تفسير ابن عطية" من قوله : وقرأ جمهور القراء ﴿ قل يا عباديَ ﴾ بفتح الياء .

(54/666)

وقرأ أبو عمرو أيضاً وعاصم والأعشى وابن كثير ﴿ يا عِبَادِ ﴾ بغير ياء في الوصل ا ه .

سهو ، وإنما اختلف القراء في الآية الآتية ﴿ قُل يا عِبَادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ في هذه السورة [53] فإنها ثبتت فيه ياء المتكلم فاختلفوا كما سنذكره .

والأمر بالتقوى مراد به الدوام على المأمور به لأنهم متّقون من قبلُ ، وهو يشعر بأنهم قد نزل بهم من الأذى في الدين ما يخشى عليهم معه أن يُقصّروا في تقواهم .

وهذا الأمر تمهيد لما سيوجه إليهم من أمرهم بالهجرة للسلامة من الأذى في دينهم ، وهو ما

عُرض به في قوله تعالى : ﴿ وأرْضُ الله واسِعَة ﴾ .

وفي استحضارهم بالموصول وصلته إيماء إلى أن تقَرر إيمانهم مما يقتضي التقوى والامتثال للمهاجرة .

وجملة ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدُّنيا حسنةٌ ﴾ وما عطف عليها استئناف بياني لأن إيراد الأمر بالتقوى للمتصفين بها يثير سؤال سائل عن المقصود من ذلك الأمر فأريد بيانه بقوله : ﴿ أرض الله واسعة ، ﴾ ولكن جُعل قوله ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنةٌ ﴾ تمهيداً له لقصد تعجيل التكفل لهم بموافقة الحسنى في هجرتهم .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنةٌ ﴾ مسوقة مساق التعليل للأمر بالتقوى الواقع بعدها .

والمراد بالذين أحسنوا : الذين اتقوا الله وهم المؤمنون الموصوفون بما تقدم من قوله : ﴿ أمن هو قانت ﴾ [الزمر : 9] الآية ، لأن تلك الخصال تدل على الإِحسان المفسر بقول النبي صلى الله عليه وسلم " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك " ، فعدل عن التعبير بضمير الخطاب بأن يقال : لكم في الدنيا حسنة ، إلى الإِتيان باسم الموصول الظاهر وهو ﴿ الذين أحسنوا ﴾ ليشمل المخاطبين وغيرهم ممن ثبتت له هذه الصلة .

وذلك في معنى : اتقوا ربكم لتكونوا محسنين فإن للذين أحسنوا حسنة عظيمة فكونوا منهم .

وتقديم المسند في ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنةٌ ﴾ للاهتمام بالمحسَن إليهم وأنهم أحرياء بالإِحسان .

والمراد بالحسنة الحالة الحسنة ، واستغني بالوصف عن الموصوف على حد قوله : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ [البقرة : 201] .

وقولِه في عكسه ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : 40] .

وتوسيط قوله : ﴿ في هذه الدنيا ﴾ بين ﴿ للذين أحسنوا ﴾ وبين ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ نظم مما اختص به القرآن في مواقع الكلم لإِكثار المعاني التي يسمح بها النظم ، وهذا من طرق إعجاز القرآن .

فيجوز أن يكون قوله : ﴿ في هذه الدُّنيا ﴾ حالاً من ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ قدم على صاحب الحال للتنبيه من أول الكلام على أنها جزاؤهم في الدنيا ، لقلة خطور ذلك في بالهم ضمن الله لهم تعجيل الجزاء الحسن في الدنيا قبل ثواب الآخرة على نحو ما أثنى على مَن يقول : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ .

وقد جاء في نظير هذه الجملة في سورة [النحل : 30] قوله : ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ ،

أي خير من أمور الدنيا ، ويكون الاقتصار على حسنة الدنيا في هذه الآية لأنها مسوقة لتثبيت المسلمين على ما يلاقونه من الأذى ، ولأمرهم بالهجرة عن دار الشرك والفتنة في الدين ، فأما ثواب الآخرة فأمر مقرر عندهم من قبل ومومىً إليه بقوله بعده : إنما يوفَّى الصابِرُون أجرهم بغير حسابٍ ﴾ أي يوفون أجرهم في الآخرة .

قال السدّي : الحسنة في الدنيا الصحة والعافية .

ويجوز أن يكون قوله : "في الدنيا" متعلقاً بفعل ﴿ أحسنوا ﴾ على أنه ظرف لغوي ، أي فعلوا الحسنات في الدنيا فيكون المقصود التنبيه على المبادرة بالحسنات في الحياة الدنيا قبل الفوات والتنبيه على عدم التقصير في ذلك .

(56/666)

وتنوين ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ للتعظيم وهو بالنسبة لحسنة الآخرة للتعظيم الذاتي ، وبالنسبة لحسنة الدنيا تعظيم وصفي ، أي حسنة أعظم من المتعارف ، وأيّاً ما كان فاسم الإِشارة في قوله : ﴿ في هذه الدنيا ﴾ لتمييز المشار إليه وإحضاره في الأذهان .

وعليه فالمراد بـ ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ يحتمل حسنة الآخرة ويحتمل حسنة الدنيا ، كما في قوله تعالى : ﴿ الذين يقولون ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ في سورة [البقرة :

201] .

وقد تقدم نظير هذه الآية في سورة [النحل : 30] قولُه تعالى : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ﴾ ، فأُلحِقْ بها ما قُرر هنا .

وعطف عليه وأرضُ الله واسعةٌ ﴾ عطفَ المقصود على التوطئة .

وهو خبر مستعمل في التعريض بالحث على الهجرة في الأرض فراراً بدينهم من الفتن بقرينة أن كون الأرض واسعةً أمر معلوم لا يتعلق الغرض بإفادته وإنما كني به عن لازم معناه ، كما قال إياس بن قبيصة الطائي :

ألم تر أن الأرض رحْب فسيحة

فَهَلْ تعجزنِّي بقعة من بقاعها . . .

والوجه أن تكون جملة ﴿ وأرضُ الله واسِعةٌ ﴾ معترضة والواو اعتراضية لأن تلك الجملة جرت مجرى المثل .

والمعنى : إن الله وعدهم أن يلاقوا حسنة إذا هم هاجروا من ديار الشرك .

وليس حسن العيش ولا ضده مقصوراً على مكان معين وقد وقع التصريح بما كني عنه هنا في قوله تعالى : ﴿ قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ [النساء : 97] .

والمراد : الإيماء إلى الهجرة إلى الحَبَشَة .

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا عِبادِ الذين ءَامنُوا اتَّقوا ربّكُم ﴾ يريد جعفرَ بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة .

ونكتة الكناية هنا إلقاء الإِشارة إليهم بلطف وتأنيس دون صريح الأمر لما في مفارقة الأوطان من الغمّ على النفس ، وأما الآية التي في سورة النساء فإنها حكاية توبيخ الملائكة لمن لم يهاجروا .

(57/666)

وموقع جملة ﴿ إنما يُوفَّى الصَّابِرون أجرهم بغيرِ حسابٍ ﴾ موقع التذييل لجملة ﴿ للذين أحْسَنُوا ﴾ وما عطف عليها لأن مفارقة الوطن والتغرب والسفر مشاق لا يستطيعها إلا صابر ، فذيّل الأمر به بتعظيم أجر الصابرين ليكون إعلاماً للمخاطبين بأن أجرهم على ذلك عظيم لأنهم حينئذٍ من الصابرين الذين أجرهم بغير حساب .

والصبر : سكون النفس عند حلول الآلام والمصائب بأن لا تضجر ولا تضطرب لذلك ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وبشر الصابرين ﴾ في سورة [البقرة : 155] .

وصيغة العموم في قوله : ﴿ الصابرين تشمل كل من صبر على مشقة في القيام بواجبات الدين وامتثال المأمورات واجتناب المنهيات ، ومراتب هذا الصبر متفاوتة وبقدرها

يتفاوت الأجر .

والتوفية : إعطاء الشيء وافياً ، أي تاماً .

والأجر : الثواب في الآخرة كما هو مصطلح القرآن .

وقوله : بِغَيرِ حسابٍ ﴾ كناية عن الوفرة والتعظيم لأن الشيء الكثير لا يُتصدى لعدِّه ، والشيء العظيم لا يحاط بمقداره فإن الإِحاطة بالمقدار ضرب من الحساب وذلك شأن ثواب الآخرة الذي لا يخطر على قلب بشر .

وفي ذكر التوفية وإضافة الأجر إلى ضميرهم تأنيس لهم بأنهم استحقوا ذلك لا منة عليهم فيه وإن كانت المنة لله على كل حال على نحو قوله تعالى : ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ [الانشقاق : 25] .

والحصر المستفاد من ﴿ إنما منصبّ على القيد وهو بِغيرِ حسابٍ ﴾ والمعنى : ما يوفي الصابرون أجرهم إلا بِغير حساب ، وهو قصر قلب مبنيّ على قلب ظن الصَابرين أن أجر صبرهم بمقدار صبرهم ، أي أن أجرهم لا يزيد على مقدار مشقة صبرهم .

والهجرة إلى الحبشة كانت سنة خمس قبل الهجرة إلى المدينة .

وكان سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء وأن عمه أبا طالب كان يمنع ابن أخيه من أضرار المشركين ولا يقدر أن يمنع أصحابه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها مِلكاً لا يُظلَم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه " ، فخرج معظم المسلمين مخافة الفتنة فخرج ثلاثة وثمانون رجلاً وتسع عشرة امرأة سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً .

وقد كان أبو بكر الصديق استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فأذن له فخرج قاصداً بلاد الحبشة فلقيه ابن الدّغِنَة فَصدّه وجعَلَه في جواره .

ولما تعلقت إرادة الله تعالى بنشر الإِسلام في مكة بين العرب لحكمة اقتضت ذلك وعَذر بعض المؤمنين فيما لقُوه من الأذى في دينهم أذن لهم بالهجرة وكانت حكمته مقتضية بقاء رسوله صلى الله عليه وسلم بين ظهراني المشركين لبثّ دعوة الإِسلام لم يأذن له بالهجرة إلى موطن آخر حتى إذا تم مراد الله من توشج نواة الدين في تلك الأرض التي نشأ فيها رسوله صلى الله عليه وسلم وأصبح انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بلد آخر أسعد بانتشار الإِسلام في الأرض أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة بعد أن هيّأ له بلطفه دخول أهلها في الإِسلام وكل ذلك جرى بقدَر وحكمة ولطف برسوله صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى قوم)

قام يقوم قَوْماً وقِيَاماً وقَوْمة وقامة ، فهو قائم / من قُوّم وقُيّم ، وقُوّام وقُيّام ، وقِيام .

وقاومته قِواماً : قمت معه .

والقيام على وجوه : قيام بالشخص ، ويكون إمّا بالتسخير نحو : ﴿ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ ، وإمّا باختيار نحو وقوله : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً ﴾ .

ويكون بمعنى مراعاة الشىء نحو قوله تعالى : ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ للَّهِ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أى حافظ .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ﴾ أى ثابتا فى طلبه .

ويكون بمعنى العزم نحو قوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ ﴾ أى يديمون فعلها ويحافظون عليها .

والقِيام والقِوَام اسم لما يقوم ويثبت به الشىء ؛ كالعِماد والسِّناد لما يُعمد ويسند به .

وقام بمعنى أَقام ، قال :

*جَرَى معك الجارُون حتى إذا انْتَهَوْا * إلى الغايةِ القُصْوَى جَرَيْتَ وقامُوا*

أَى فهم [تخلَّفوا] ولم يدركوا شأوك .

وورد القيام وما يتصرّف منه على وجوه :

بمعنى أَداءِ الصَّلاة : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾ ، ﴿ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ ﴾ ، ﴿ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ ﴾ ونظائرها .

ولم يأمر بالصَّلاة حيثما أَمر ، ولا مَدَح بها حيث مَدَح إلاَّ بلفظ الإِقامة ، تنبيهاً أَنَّ المقصود منها توفية شرائطها لا الإِتيان بهيئاتها : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ ﴾ أَى وفِّقنى لتوفية شرائطها .

وبمعنى إقامةِ الحدود : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ إِلاَّ أَن يَخَافَآ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ .

وبمعنى الاستقامة على سَنَن العدل : ﴿ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾ .

وبمعنى الأَمن : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ ﴾ ، أَى أَمْناً لهم .

وقيل : قِوَاماً ، وقيل : قائماً لا يُنسخ .

وبمعنى قيام المعيشة : ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَآءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ ، أَى جعله ممَّا يقيمكم ويمسككم .

وبمعنى لزوم المنزل فى الحَضَر : ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ .

وبمعنى القيام بالأَوامر والنواهى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾ .

وبمعنى نصب ميزان العدل فى القيامة : ﴿ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴾ .

وبمعنى تحقُّق الحساب : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ .

وبمعنى قيام القيامة : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ .

وبمعنى استواء العالَم واستقامته بأَمره تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ .

وبمعنى منازل الملائكة : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ .

وبمعنى قياد الدِّين على سَنَن السَّداد : ﴿ ذلك الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ ، ﴿ قَيِّماً ﴾ ، ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ .

وبمعنى التهجّد : ﴿ آنَآءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً ﴾ ، ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ ﴾ .

وبمعنى القيامة فى عَرْصة العرض : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ .

وبمعنى كمال الألوهيّة والقدرة : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ، ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ ، وقيل القيّوم : القائم الحافظ لكل شيءٍ ، والمعطى له ما به قِوامه .

وبمعنى قيام الرّجال بمصالح النساءِ : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَآءِ ﴾

وبمعنى قيام الحاجّ بإتمام المناسك : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ ﴾

(61/666)

وبمعنى الاهتمام بإبلاغ الرّسالة : ﴿ يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ .

وبمعنى الملازمة والمداومة : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ﴾ .

وبمعنى الثبوت : ﴿ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ .

وبمعنى الوقوف : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

/ وبمعنى ضدّ القعود : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ﴾ ، ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أَى دين الأُمَّة القائمة بالقسط المشار إليهم بقوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ إشارة إلى ما فيها من معانى الكتب المنزلة ، فإن القرآن يجمع ثمرة كتب الله المتقدّمة .

والمَقام يكون مصدراً ، واسم مكان القيام وزمانه نحو : ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي ﴾ ، ﴿ وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ، وقوله : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾ .

أَى توفُّوا حقَّهما بالعلم والعمل .

وقوله : ﴿ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ ﴾ ، قيل المراد به إقامتها بالإقرار بوجوبها لأَدائها .

والمُقامة : الإقامة ، قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ ﴾ .

والمُقَام يقال للمصدر والزّمان والمكان والمفعول .

لكن الوارد فى القُرْآن المصدر نحو قوله : ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ ، وقوله : ﴿ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ ﴾ أَى لا مستقر لكم .

وقرئ ، (لا مَقَامَ لَكُمْ) من أَقام .

وقرئ : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ بالضمّ أَى فى مكان تدوم إِقامتهم فيه .

وعذابٌ مقيم أَى دائم .

(62/666)

و ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ إِشارة إِلى

ما خصَّ به الإِنسان من العقل والفهم وانتصاب القامة الدالَّة على استيلائه على كل ما فى

هذا العالم .

وتقويم الشىءِ : تثقيفه ، والسّلعة : تثمينها .

والمَقَامة : الجماعة .

قال :

* وفيهم مَقَامات حسانٌ وجوههم *

كأَنَّهم جعلوا اسم المكان اسماً لأَهله المقيمين به .

والاستقامة : لزوم المنهج القويم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال تعالى لرسوله صلَّى الله عليه وسلَّم : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بَصِيرٌ ﴾ ، فبيّن أَنَّ الاستقامة بعدم الطغيان ، وهو مجاوزة الحدود .

وقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُواْ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ .

وسئل صدّيق الأُمّة وأَعظمُها استقامةً أَبو بكر الصّدِيق رضى الله عنه عن الاستقامة فقال : أَلاَّ تشرك بالله شيئاً .

يريد الاستقامة على محض التوحيد .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أَن يستقيم على الأَمر والنهى ، ولا يروغ رَوَغان الثعلب .

وقال عثمان رضى الله عنه : استقاموا : أَخلصوا العمل لله .

وقال علىّ رضى الله عنه وابن عبّاس : استقاموا : أَدّوا الفرائض .

وقال الحسن البصرىّ : استقاموا على أمر الله ، فعملوا بطاعته ، واجتنبوا معصيته .

وقال مجاهد : استقاموا على شهادة أَن لا إِله إِلاَّ الله ، حتىَّ لَحِقُوا بالله .

وقال بعضهم : استقاموا على محبّته وعبوديته ، فلم يلتفتوا عنه يَمْنة ولا يسرة .

وعند مسلم عن سفيان بن عبد الله قال : قلت : يا رسول الله : قل لى فى الإِسلام قولا لا أَسأَل عنه أَحدا غيرك ، قال : "قل آمنت بالله ثم استقم" .

وعند ثَوْبان يرفعه : "استقيموا ولن تُحصُوا ، واعلموا أَنَّ خير أَعمالكم الصّلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إِلاَّ مؤمن" .

والمقصود من العبد الاستقامة وهى السّدَاد .

فإِن لم يقدر عليها فالمقاربة .

وعند مسلم مرفوعاً : "سَدِّدُوا / وقاربوا ، واعلموا أَنه لن ينجو أَحد منكم بعمله .

قالوا : ولا أَنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أَنا إِلا أَن يتغمَّدنى الله برحمة منه وفضل" .

فجمع فى هذا الحديث مقامات الدّين كلها .

فأَمر بالاستقامة وهى السّداد ، والإِصابة فى النيّات والأَقوال .

وأَخبر فى حديث ثوبان أَنهم لا يطيقونها فنقلهم إِلى المقاربة ، وهى أَن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم ، كالَّذى يرمى إِلى الغرض وإِن لم يُصبه يقاربه .

ومع هذا فأَخبرهم أَن الاستقامة والمقاربة لا تنجى يوم القيامة ، فلا يركن أَحد إِلى عمله ، ولا يرى أَن نجاته به ، بل إِنَّما نجاته برحمة الله وغفرانه وفضله .

فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين ، وهو القيام بين يَدى الله تعالى على حقيقة

الصّدق ، والوفاءِ بالعهد .

والاستقامة تعلَّق بالأَقوال والأَفعال والأَحوال والنّيات .

فالاستقامة فيها ، وقوعها لله وبالله وعلى أَمر الله .

قال بعض العارفين : كن صاحب الاستقامة ، لا طالب الكرامة ، فإِن نفسك متحرّكة فى طلب الكرامة ، وربّك يطالبك بالاستقامة .

فالاستقامة للحال بمنزلة الرّوح من البدن ، فكما أَنَّ البدنِ إِذا خلا عن الرّوح فهو ميّت ، فكذلك الحالِ إِذا خلا عن الاستقامة فهو فاسد .

وكما أَن حياة الأَحوال بها ، فزيادة أَعمال الزّاهدين أَيضاً ونورها وزكاؤُها بها ، فلا زكاء للعمل ولا صحّة بدونها . والله أَعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 313.307 ﴾

(64/666)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا

كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ .

إذا مَسَّه ضُرٌّ خَشَعَ وخَضَعَ ، وإلى قُرْبه فزع ، وتملَّق بين يديه وتضرع . فإذا أزال عنه ضُرَه ، وكفاه أمرَه ، وأصلح شغْلَه نَسِيَ ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ، فيعود إلى رأس كفرانه ، وينهمك في كبائر عصيانه ، ويُشْرِكَ بمعبوده . هذه صِفَتُه . . . فَسُحْقاً له وبُعْداً ، ولِسَوف يَلْقى عذاباً وخِزْياً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ الَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الأَخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِهِ . . . ﴾ .

" قانتاً " : القنوتُ هو القيامُ ، وقيل طول القيام . والمراد هو الذي يقوم بحقوق الطاعةِ أوقاتَ الليل والنهار ؛ أي في جيمع الأوقات .

والهمزة للاستفهام أي أمن هو قانت كمن ليس بقانت ؟ أمن هو قانت كالكافر الذي جرى ذِكْرُه ؟ أي ليس كذلك .

ويقال القنوتَ القيامُ بآداب الخدمة ظاهراً وباطناً من غير فتور ولا تقصير .

"يَحْذَرُ" العذابَ الموعودَ في الآخرة ، " ويرجو " الثوابَ الموعودَ . وأراد بالحَذَرِ الخوف .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ .

أي هل يستويان ؟ هذا في أعلى الفضائل وهذا في سوء الرذائل ! ﴿ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ﴾ :

العِلْمُ في وصف المخلوق على ضربين : مجلوبٌ مُكْتَسَبٌ للعبد ، وموهوبٌ مِنْ قِبَل الربِّ .

ويقال مصنوع وموضوع. ويقال علمُ برهانٍ وعلمُ بيان؛ فالعلومُ الدينية كلُّهَا برهانية إلاَّ ما يحصل بشرط الإلهام.

(65/666)

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)

أطيعوه واحذروا مخالفة أمره. ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا ﴾ بأداء الطاعات، (والإحسان هو الإتيان بجميع وجوه الإمكان).

﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾: أي لا تَتَعَلَّلوا بأذى الأعداء؛ إنْ نَبَأ بكُم منزلٌ فتَعَلَّلُكم بمعاداة قوم ومَنْعِهم إياكم -لا يُسْمَع، فأرضُ اللَّهِ واسعةٌ، فاخْرُجُوا منها إلى موضع آخر تتم لكم فيه عبادتُكم.

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾. والصبر حَبْسُ النَّفْس على ما تكرهه.

ويقال هو تجرُّعُ كاسات التقدير من غير استكراهٍ ولا تعبيس.

ويقال هو التهدُّفُ لسهام البلاء. انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 271.

272 ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت الأعين ناظرة إلى الأمر هل يفعل ما يأمر به ومقيده بالرئيس لتأتسي به ، وكان أعظم الصابرين من جاهد نفسه حتى خلص أعمالها من الشوائب وحماها من الحظوظ والعوائق ، وصانها من الفتور والشواغل ، أمره بما يرغبهم في المجاهدة ، ويكشف لهم عن حلاوة الصبر ، بقوله : ﴿ قل ﴾ ولما كان الرئيس لقربه من الملك بحيث يظن أنه يسامحه في كثير مما يكلف به غيره أكد قوله : ﴿ إني أمرت ﴾ وبني الفعل لما لم يسم فاعله تعظيماً للأمر بأنه قطع ومضى بحيث لم يبق فيه مشوبة ، وأقام مقام الفاعل دليلاً على أنه العمدة للحث

على لزومه قوله : ﴿ أن أعبد الله ﴾ أي الذي الخلق كلهم سواء بالنسبة إلى قبضته وعلوه وعظمته لأنه غني عن كل شيء ﴿ مخلصاً له الدين ﴾ أي العبادة التي يرجى منه الجزاء عليها .

ولما كان الرئيس إذا سابق إلى شيء شوق النفوس إليه ، وأوجب عليها العكوف عليه قال : ﴿ وأمرت ﴾ أي ، وقع الأمر لي وانبرم بأوامر عظيمة وراء ما أمرتم به لا تطيقونها ﴿ لأن ﴾ أي لأجل أن ﴿ أكون ﴾ في وقتي وفي شرعي ﴿ أول ﴾ أي أعظم ﴿ المسلمين ﴾ أي المنقادين في الرتبة الحائزين قصب السبق بكل اعتبار لأوامر الإله الذي لا فوز إلا بامتثال أوامره أو أسبق الكائنين منهم في زماني ، فجهة هذا الفعل غير جهة الأول ، فلذلك عطف عليه لأنه لإحراز قصب السبق ، والأول لمطلق الإخلاص في العبادة .

(67/666)

ولما كان ما أمر به مفهماً لأن يكون مع ترغيب ومع ترهيب ، وكان ربما ظن أن الرئيس لا يرهب الملك لأمور ترجى منه أو تخشى ، وكان تكرير الأمر بإبلاغ المأمورين أوقع في قلوبهم وأشد إقبالاً بنفوسهم قال تعالى : ﴿ قل ﴾ أي لأمتك ، وأكد – لما في الأوهام أن الرئيس لا يخاف – قوله ﴿ إني أخاف ﴾ أي مع تأمينه لي بغفران ما تقدم وما تأخر إخلاصاً في

إجلاله وإعظامه وفعلاً لما على العبد لمولاه الذي له جميع الكبرياء والعظمة ، ولما كان وصف الإحسان ربما جراً على العصيان ، بين أنه لا يكون ذلك إلا لعدم العرفان فقال : ﴿ إن عصيت ربي ﴾ أي المحسن إليّ المربي لي بكل جميل فتركت الإخلاص له ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ وإذا كان اليوم عظيماً ، فكيف يكون عذابه .

ولما بين ما أمر به ، وأعلم أنه يخاف من مخالفة الأمر له بذلك فأفهم أنه ممتثل لما أمر به ، أمره سبحانه بأن يصرح بذلك لأن التصريح من المزية ما لا يخفى فقال : ﴿ قل الله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال وحده ﴿ أعبد ﴾ تخصيصاً له بذلك ، لا أنحو أصلاً بالعبادة نحو غيره أبداً ﴿ مخلصاً له ﴾ وحده ﴿ ديني ﴾ أي امتثالاً لما أمرت به فلا أشينه بشائبة أصلاً لا طلباً لجنّة ولا خوفاً من نار فإنه قد غفر لي ما تقدم وما تأخر ، فصارت عبادتي لآجل وجهه وكونه مستحقاً للعبادة خاصة شوقاً إليه وحباً له وحياء منه وأما الرغبة فيما عنده سبحانه والخوف من سطواته التي جماعها قطع الإحسان الذي هو عند الأغبياء أدنى ما يخاف فإنما خوفي لأجل إعطاء المقام حقه من ذل العبودية وعز الربوبية .

ولما علم من هذا غاية الامتثال بغاية الرغبة والرهبة وهم يعلمون أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقواهم قلباً وأصفاهم لباً ، وأجرأهم نفساً وأصدقهم وأشجعهم عشيرة وحزباً ، كان خوف غيره من باب الأولى ، فسبب عنهد تهديدهم أعظم تهديد بقوله : ﴿ فاعبدوا ﴾

أي أنتم أيها الداعون له في وقت الضراء المعرضون عنه في وقت الرخاء ﴿ ما شئتم ﴾ أي من جماد أو غيره .

(68/666)

ونبّه على سفول رتبة كل شيء بالنسبة إليه سبحانه تسفيهاً لمن يلتفت إلى سواه بقوله : ﴿ من دونه ﴾ فإن عبادة ما دونه تؤدي إلى قطع إحسانه ، ولا إحسان إلا إحسانه ، فإذا انقطع حصل كل سوء ، وفي ذلك جميع الخسارة .

ولما كانوا يدعون الذكاء ، ويفعلون ما لا يفعله عاقل ، أمره أن يقول لهم ما ينبههم على غباوتهم بما يصيرون إليه من شقاوتهم فقال : ﴿ قل إن الخاسرين ﴾ أي الذين خسارتهم هي الخسارة لكونها النهاية في العطب ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي بدخولهم النار التي هي معدن الهلاك لعبادتهم غير الله من كل ما يوجب الطغيان .

ولما كان أعز ما على الإنسان بعد نفسه أهله الذين عزه بهم قال : ﴿ وأهليهم ﴾ أي لأنهم إن كانوا مثلهم فحالهم في الخسارة كحالهم ، ولا يمكن أحداً منهم أن يواسي صاحبه بوجه فإنه لكل منهم شأن يغنيه ، وإن كانوا ناجين فلا اجتماع بينهم .

ولما كانت العاقبة هي المقصودة بالذات ، قال : ﴿ يوم القيامة ﴾ لأن ذلك اليوم هو الفيصل

لا يمكن لما فات فيه تدارك أصلاً ولما كان في ذلك غاية الهول .

كرر التعريف بغباوتهم تنبيهاً على رسخوهم في ذلك الوصف على طريق النتيجة لما أفهمه ما قبله فقال منادياً لأنه أهول مبالغاً بالاستئناف وحرف التنبيه وضمير الفصل وتعريف الخبر ووصفه : ﴿ ألا ذلك ﴾ أي الأمر العظيم البعيد الرتبة في الخسارة جداً ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الخسران ﴾ أتى بصيغة الفعلان المفهم مطلقاً للمبالغة فكيف إذا بنيت على الضم الذي هو أثقل الحركات ، وزاد في تقريعهم بالغباوة بقوله : ﴿ المبين ﴾ .

(69/666)

ولما علم بهذا أنه البين في نفسه المنادي بما فيه من القباحة بأنه لا خسران غيره ، فصله بقوله على طريق التهكم بهم : ﴿ لهم ﴾ فإن عادة اللام عند مصاحبة المجرور ولا سيما الضمير إفهام المحبوب للضمير لا سيما مع ذكر الظلل وأشار إلى قربها منهم بإثبات الجار فقال : ﴿ من فوقهم ظلل ﴾ ولما أوهمهم ذلك الراحة ، أزال ذلك بقوله : ﴿ من النار ﴾ وذلك أنكأ مما لو أفهمهم الشر من أول الأمر .

ولما كان في القرار – كائناً ما كان على أي حال كان نوع من الراحة بالسكون ، بين أنهم معلقون في غمرات الاضطراب ، يصعدهم اللهيب تارة ، ويهبطهم انعكاسه عليهم برجوعه

إليهم أخرى ، فلا قرار لهم أصلاً كما يكون الحب في الماء على النار ، يغلي به صاعداً وسافلاً ، لا يقر في أسفل القدر أصلاً لقوله : ﴿ ومن تحتهم ﴾ .

ولما كان كون الظلة المأخوذة من الظل من تحت في غاية الغرابة ، أعادها ولم يكتف بالأولى ، ولم يعد ذكر النار لفهمها في التحت من باب الأولى فقال : ﴿ ظلل ﴾ ومما يدل على ما فهمته من عدم القرار ما رواه البخاري في صحيحه عن سمرة بن جندب ـ رضى الله عنه ـ قال : كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : " من رأى منكم الليلة رؤيا ، فسألنا يوماً قلنا : لا ، قال : لكني رأيت رجلين أتياني فأخذا بيدي وأخرجاني إلى الأرض المقدسة " – فذكره بطوله حتى قال : " فانطلقنا إلى نقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع ، توقد تحته نار ، فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهيب من تحتهم فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا يخرجون فإذا خمدت رجعوا " فذكره وهو طويل عظيم ، ثم فسرهم بالزناة .

(70/666)

لما كان هذا أمراً مهولاً ، وهو لا يرهبونه ولا يرجعون عن غيّهم به ، ذكر فائدته مع الزيادة في تعظيمه فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الشأن ﴿ يخوف الله ﴾ أي الملك الأعظم

الذي صفاته الجبروت والكبر ﴿ به عباده ﴾ أي الذين لهم أقلية الإقبال عليه ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم فيعيذهم منه .

ولما أهلهم للإضافة إليه وخوفهم سطواته ، أقبل عليهم عند تهيئتهم للاستماع منبهاً على أنه تخويف استعطاف فقال : ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ أي سببوا عن ذلك أن تجعلوا بينكم وبين ما يسخطني وقاية مما يرضيني لأرضى عنكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 430.433 ﴾

(71/666)

فصل

قال الفخر :

النوع الثاني : من البيانات أمر الله رسوله أن يذكرها قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ قال مقاتل : إن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به ؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى ! فأنزل الله ، قل يا محمد إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأقول إن التكليف نوعان أحدهما : الأمر بالاحتراز عما لا ينبغي والثاني : الأمر بتحصيل

ما ينبغي ، والمرتبة الأولى مقدمة على المرتبة الثانية بحسب الرتبة الواجبة اللازمة ، إذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى قدم الأمر بإزالة ما ينبغي فقال : ﴿ اتقوا ربّكُمُ ﴾ لأن التقوى هي الاحتراز عما لا ينبغي ثم ذكر عقيبه الأمر بتحصيل ما ينبغي فقال : ﴿ إِنّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ وهذا يشتمل على قيدين أحدهما : الأمر بعبادة الله الثاني : كون تلك العبادة خالصة عن شوائب الشرك الجلي وشوائب الشرك الخفي ، وإنما خص الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبه على أن غيره بذلك أحق فهو كالترغيب للغير ، وقوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين ﴾ لا شبهة في أن المراد إني أول من تمسك بالعبادات التي أرسلت بها ، وفي هذه الآية فائدتان :

الفائدة الأولى : كأنه يقول إني لست من الملوك الجبابرة الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك ، بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعاً فيه وأكثرهم مداومة عليه .

(72/666)

الفائدة الثانية : أنه قال : ﴿ إِنّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله ﴾ والعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح ، وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح ، فقدم ذكر الجزء الأشرف وهو قوله : ﴿ مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ ثم ذكر عقيبه الأدون وهو عمل الجوارح وهو الإسلام ، فإن

النبي صلى الله عليه وسلم فسر الإسلام في خبر جبريل عليه السلام بالأعمال الظاهرة ، وهو المراد بقوله في هذه الآية : ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين ﴾ وليس لقائل أن يقول ما الفائدة في تكرير لفظ ﴿ أُمِرْتُ ﴾ لأنا نقول ذكر لفظ ﴿ أُمِرْتُ ﴾ أولاً في عمل القلب وثانياً في عمل الجوارح ولا يكون هذا تكريراً .

الفائدة الثالثة : في قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين ﴾ التنبيه على كونه رسولاً من عند الله واجب الطاعة ، لأن أول المسلمين في شرائع الله لا يمكن أن يكون إلا رسول الله ، لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ ، ولما بين الله تعالى أمره بالإخلاص بالقلب وبالأعمال المخصوصة ، وكان الأمر يحتمل الوجوب ويحتمل الندب بين أن ذلك الأمر للوجوب فقال : ﴿ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وفيه فوائد :

الفائدة الأولى : أن الله أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجري هذا الكلام على نفسه ، والمقصود منه المبالغة في زجر الغير عن المعاصي ، لأنه مع جلالة قدره وشرف نبوته إذا وجب أن يكون خائفاً حذراً عن المعاصي فغيره بذلك أولى .

الفائدة الثانية : دلت الآية على أن المرتب على المعصية ليس حصول العقاب بل الخوف من العقاب ، وهذا يطابق قولنا : إن الله تعالى قد يعفو عن المذنب والكبيرة ، فيكون اللازم عند حصول المعصية هو الخوف من العقاب لا نفس حصول العقاب .

(73/666)

الفائدة الثالثة : دلت هذه الآية على أن ظاهر الأمر للوجوب ، وذلك لأنه قال في أول الآية : ﴿ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ ﴾ ثم قال بعده : ﴿ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فيكون معنى هذا العصيان ترك الأمر الذي تقدم ذكره ، وذلك يقتضي أن يكون تارك الأمر عاصياً ، والعاصي يترتب عليه الخوف من العقاب ، ولا معنى للوجوب إلا ذلك .

(74/666)

النوع الثالث : من الأشياء التي أمر الله رسوله أن يذكرها قوله : ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى ﴾ فإن قيل ما معنى التكرير في قوله : ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ وقوله : ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى ﴾ ؟ ، قلنا هذا ليس بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإتيان بالعبادة ، والثاني إخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحداً غيره ، وذلك لأن قوله : ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ ﴾ لا يفيد الحصر وقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهَ

أَعْبُدُ ﴾ يفيد الحصر يعني الله أعبد ولا أعبد أحداً سواه ، والدليل عليه أنه لما قال بعد : ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ ﴾ قال بعده : ﴿ فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مّن دُونِهِ ﴾ ولا شبهة في أن قوله : ﴿ فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مّن دُونِهِ ﴾ ليس أمراً بل المراد منه الزجر ، كأنه يقول لما بلغ البيان في وجوب رعاية التوحيد إلى الغاية القصوى فبعد ذلك أنتم أعرف بأنفسكم ، ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرين الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ لوقوعها في هلاك لا يعقل هلاك أعظم منه ، وخسروا أهليهم أيضاً لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة ، فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده ألبتة ، وقال ابن عباس : إن لكل رجل منزلاً وأهلاً وخدماً في الجنة ، فإن أطاع أعطى ذلك ، وإن كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه وأهله ومنزله وورثه غيره من المسلمين ، والخاسر المغبون ، ولما شرح الله خسرانهم وصف ذلك الخسران بغاية الفظاعة فقال : ﴿ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخسران المبين ﴾ كان التكرير لأجل التأكيد الثاني : أنه تعالى ذكر في أول هذه الكلمة حرف ألا وهو للتنبيه ، وذكر التنبيه في هذا الموضع يدل على التعظيم كأنه قيل إنه بلغ في العظمة إلى حيث لا تصل عقولكم ليها فتنبهوا لها الثالث : أن كلمة (هو) : في قوله : ﴿ هُوَ الخسران

المبين ﴾ تفيد الحصر كأنه قيل كل خسران فإنه يصير في مقابلته كل خسران الرابع : وصفه بكونه (مبيناً) : يدل على التهويل ، وأقول قد بينا أن لفظ الآية يدل على كونه خسراناً مبيناً فلنبين بحسب المباحث العقلية كونه خسراناً مبيناً ، وأقول نفتقر إلى بيان أمرين إلى أن يكون خسراناً ثم كونه مبيناً أما الأول : فتقريره أنه تعالى أعطى هذه الحياة وأعطى العقل ، وأعطى المكنة وكل ذلك رأس المال ، أما هذه الحياة فالمقصود منها أن يكتسب فيها الحياة الطيبة في الآخرة .

(76/666)

وأما العقل فإنه عبارة عن العلوم البديهية وهذه العلوم هي رأس المال والنظر ، والفكر لا معنى له إلا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب إلى تحصيل علوم كسبية ، فتلك العلوم البديهية المسماة بالعقل رأس المال وتركيبها على الوجوه المخصوصة يشبه تصرف التاجر في رأس المال وتركيبها على الوجوه بالبيع والشراء ، وحصول العلم بالنتيجة يشبه حصول الربح ، وأيضاً حصول القدرة على الأعمال يشبه رأس المال ، واستعمال تلك القوة في تحصيل أعمال البر والخير يشبه تصرف التاجر في رأس المال ، وحصول أعمال الخير والبر

يشبه الربح ، إذا ثبت هذا فنقول : إن من أعطاه الله الحياة والعقل والتمكن ، ثم إنه لم يستفد منها لا معرفة الحق ولا عمل الخير ألبتة كان محروماً عن الربح بالكلية ، وإذا مات فقد ضاع رأس المال بالكلية فكان ذلك خسراناً ، فهذا بيان كونه خسراناً وأما الثاني : وهو بيان كون ذلك الخسران مبيناً فهو أن من لم يربح الزيادة ولكنه مع ذلك سلم من الآفات والمضار ، فهذا كما لم يحصل له مزيد نفع لم يحصل له أيضاً مزيد ضرر ، أما هؤلاء الكفار فقد استعملوا عقولهم التي هي رأس مالهم في استخراج وجوه الشبهات وتقوية الجهالات والضلالات ، واستعملوا قواهم وقدرهم في أفعال الشر والباطل والفساد ، فهم قد جمعوا بين أمور في غاية الرداءة أولها : أنهم أتعبوا أبدانهم وعقولهم طلباً في تلك العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة وثانيها : أنهم عند الموت يضيع عنهم رأس المال من غير فائدة وثالثها : أن تلك المتاعب الشديدة التي كانت موجودة في الدنيا في نصرة تلك الضلالات تصير أسباباً للعقوبة الشديدة والبلاء العظيم بعد الموت ، وعند الوقوف على هذه المعاني يظهر أنه لا يعقل خسران أقوى من خسرانهم ، ولا حرمان أعظم من حرمانهم ، ونعوذ بالله منه .

(77/666)

ولما شرح الله تعالى أحوال حرمانهم عن الربح وبين كيفية خسرانهم ، بين أنهم لم يقتصروا على الحرمان والخسران ، بل ضموا إليه استحقاق العذاب العظيم والعقاب الشديد ، فقال : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب ، ونظيره في الأحوال النفسانية إحاطة الجهل والحرمان والحرص وسائر الأخلاق الذميمة بالإنسان ، فإن قيل الظلل ما على الإنسان فكيف سمى ما تحته بالظلل ؟ والجواب من وجوه الأول : أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كقوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : 40] ، الثاني : أن الذي يكون تحته يكون ظلة لإنسان آخر تحته لأن النار دركات كما أن الجنة درجات والثالث : أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الحرارة والإحراق والإيذاء ، أطلق اسم أحدهما على الآخر لأجل المماثلة والمشابهة .

قال الحسن هم بين طبقتين من النار لا يدرون ما فوقهم أكثر مما تحتهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يغشاهم العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 55] وقوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : 41] .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك يُخَوّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ أي ذلك الذي تقدم ذكره من وصف العذاب فقوله : ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ وقوله : ﴿ يُخَوّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ خبر ، وفي قوله : ﴿ يُخَوّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ قولان الأول : التقدير ذلك العذاب المعد للكفار هو الذي يخوف الله به عباده أي المؤمنين ، لأنا بينا أن لفظ العباد في القرآن مختص بأهل الإيمان وإنما كان تخويفاً للمؤمنين لأجل أنهم إذا سمعوا أن حال الكفار ما تقدم خافوا فأخلصوا في التوحيد والطاعة الوجه الثاني : أن هذا الكلام في تقدير جواب عن سؤال ، لأنه يقال إنه تعالى غني عن العالمين منزه عن الشهوة والانتقام وداعية الإيذاء ، فكيف يليق به أن يعذب هؤلاء المساكين إلى هذا الحد العظيم ، وأجيب عنه بأن المقصود منه تخويف الكفار والضلال عن الكفر والضلال ، فإذا كان التكليف لا يتم إلا بالتخويف والتخويف لا يكمل الانتفاع به إلا بإدخال ذلك الشيء في الوجود وجب إدخال ذلك النوع من العذاب في الوجود تحصيلاً لذلك المطلوب الذي هو التكليف ، والوجه الأول عندي أقرب ، والدليل عليه أنه قال بعده : ﴿ يا عِبَادِ فاتقون ﴾ وقوله : ﴿ يا عبادِ ﴾ الأظهر منه أن المراد منه المؤمنون فكأنه قيل المقصود من شرح عذاب الكفار للمؤمنين تخويف المؤمنين في أيها المؤمنون بالغوا في الخوف والحذر والتقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 221 . 224 ﴾

(79/666)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾

تقدّم أول السورة ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين ﴾ من هذه الأمة ، وكذلك كان ؛ فإنه كان أول من خالف دين آبائه ، وخلع الأصنام وحطمها ، وأسلم لله وآمن به ، ودعا إليه صلى الله عليه وسلم .

واللام في قوله : ﴿ لأَنْ أَكُونَ ﴾ صلة زائدة ؛ قاله الجرجاني وغيره .

وقيل : لام أجل .

وفي الكلام حذف أي أمرت بالعبادة ﴿ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يريد عذاب يوم القيامة .

وقاله حين دعاه قومه إلى دين آبائه ؛ قاله أكثر أهل التفسير .

وقال أبو حمزة الثمالي وابن المسيّب : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] فكانت هذه الآية من قبل أن يغفر ذنب النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ ﴾ "اللَّهَ" نصب ب"أَعْبُدُ" ﴿ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ﴾ طاعتي

وعبادتي .

﴿ فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ ﴾ أمر تهديد ووعيد وتوبيخ ؛ كقوله تعالى : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : 40] .

وقيل : منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرين الذين خسروا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة ﴾ قال ميمون بن مهران عن ابن عباس : ليس من أحد إلا و (قد) خلق الله له زوجة في الجنة ، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله .

في رواية عن ابن عباس : فمن عمل بطاعة الله كان له ذلك المنزل والأهل إلا ما كان له قبل ذلك ، وهو قوله تعالى : ﴿ أولئك هُمُ الوارثون ﴾ [المؤمنون : 10] .

(80/666)

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ سمى ما تحتهم ظللاً ؛ لأنها تظل من تحتهم ، وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : 41] وقوله : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 55] .

﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ قال ابن عباس : أولياءه .

﴿ ياعباد فاتقون ﴾ أي يا أوليائي فخافون .

وقيل : هو عام في المؤمن والكافر .

وقيل : خاص بالكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(81/666)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ قُلْ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ أَمَرَهُ بِالْإِخْبَارِ بِأَنَّهُ يَخْتَصُّ اللَّهَ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ بِعِبَادَتِهِ مُخْلِصًا لَهُ دِينَهُ ، وَأَجَادَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ ذَلِكَ لَكِنْ مِنْ تَتِمَّتِهِ أَنَّ هَذَا الِاخْتِصَاصَ لَا يَجْعَلُهُ مِثْلَ " مَا وَإِلَّا " مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ ، فَإِنَّك لَوْ قُلْت : لَا أَعْبُدُ إلَّا اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي إنْ قَدَّرْت " مُخْلِصًا " مَعْمُولَ " أَعْبُدُ " مُتَقَدِّمًا عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ كُنْت قَدْ خَصَصْت اللَّهَ بِالْإِخْلَاصِ لَا بِأَصْلِ الْعِبَادَةِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ ؛ بَلْ اللَّهُ مَخْصُوصٌ بِالْعِبَادَةِ وَبِالْإِخْلَاصِ وَإِنْ قَدَّرْت الِاسْتِثْنَاءَ مُتَقَدِّمًا وَ " مُخْلِصًا " مَعْمُولٌ لِ أَعْبُدُ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَجُزْ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَإِنْ قَدَّرْت لَهُ فِعْلًا آخَرَ فَهُوَ عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ .

وَكُلُّ ذَلِكَ إنَّمَا لَزِمَ بِالتَّصْرِيحِ بِأَدَاةِ الْحَصْرِ .

أَمَّا التَّقْدِيمُ فَلَيْسَ لَهُ ذَلِكَ الْحُكْمُ لِأَنَّ الْحَصْرَ لَيْسَ مِنْ اللَّفْظِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ فَحَوَى الْكَلَامِ .

فَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَثْبُتَ لَهُ ذَلِكَ الْحُكْمُ النَّحْوِيُّ فِي تَأَخُّرِ الْحَالِ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ انْتَهَى .

﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ .

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ الْمُرَادُ بِهَذَا الْأَمْرِ الْوَارِدِ عَلَى وَجْهِ التَّخْيِيرِ الْمُبَالَغَةُ فِي الْخِذْلَانِ وَالتَّخْلِيَةِ .

عَلَى مَا حَقَقْت الْقَوْلَ فِيهِ مَرَّتَيْنِ ، قُلْت وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مَعْنًى حَسَنٌ ، وَهُوَ مُغَايِرٌ لِمَعْنَى التَّهْدِيدِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْأُصُولِيُّونَ فِي ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أَوْ هُوَ هُوَ فَيَنْبَغِي أَنْ يُحَرَّرَ ذَلِكَ

.

فَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ فَتَزْدَادُ مَعَانِي صِيغَةِ " افْعَلْ " مَعْنًى آخَرَ وَكَانَ الزَّمَخْشَرِيُّ قَدْ قَالَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِك ﴾ إنَّهُ مِنْ بَابِ الْخِذْلَانِ وَالتَّخْلِيَةِ ، كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ : إذْ قَدْ أَبَيْت قَبُولَ مَا أُمِرْت بِهِ مِنْ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ فَمِنْ حَقِّك أَنْ لَا

(82/666)

تُؤْمَرَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَتُؤْمَرَ بِتَرْكِهِ مُبَالَغَةً فِي خِذْلَانِهِ وَتَخْلِيَتِهِ وَشَأْنِهِ لِأَنَّهُ لَا مُبَالَغَةَ فِي الْخِذْلَانِ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُبْعَثَ عَلَى عَكْسِ مَا أُمِرَ بِهِ وَنَظِيرُهُ فِي الْمَعْنَى قَوْلُهُ ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ

جَهَنَّمُ ﴾ قُلْت : وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ غَيْرُ مَعْنَى التَّهْدِيدِ ، وَالَّذِي يَتَحَصَّلُ مِنْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ إشَارَةٌ إلَى أَنَّهُ لَا شَيْءَ ، كَأَنَّهُ قَالَ : أَنَا أَعْبُدُ اللَّهَ وَمَا أَحَدٌ غَيْرُهُ يُعْبَدُ ، فَأَنْتُمْ إذَا لَمْ تُوَافِقُونِي اعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ فَلَمْ تَجِدُوا شَيْئًا .

وَنَظِيرُهُ أَنْ تَقُولَ لِمَنْ يُجَادِلُك وَقَدْ ذَكَرْت لَهُ الْقَوْلَ الْحَقَّ الَّذِي لَا مَحِيصَ عَنْهُ : أَنَا قُلْت هَذَا فَقُلْ أَنْتَ مَا تَشْتَهِي يَعْنِي أَنَّهُ مَنْ قَالَ خِلَافَهُ فَلَا شَيْءَ فَهُوَ مِثَالٌ لِفَسَادِ مَا يَقُولُهُ وَإِنْ لَمْ يُرَتَّبْ عَلَيْهِ وَعِيدَانِ قَصَدْت تَرْتِيبَ وَعِيدٍ عَلَيْهِ فَهُوَ التَّهْدِيدُ انْتَهَى . انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 112.113 ﴾

(83/666)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ ﴾

الظاهر أن الإنسان هنا جنس الكافر ، وقيل : معين ، كعتبة بن ربيعة .

ويدخل في الضر جميع المكاره في جسم أو أهل أو مال .

﴿ دعا ربه ﴾ : استجار ربه وناداه ، ولم يؤمل في كشف الضر سواه ، ﴿ منيباً إليه ﴾ :

أي راجعاً إليه وحده في إزالة ذلك .

﴿ ثم إذا خوله ﴾ : أناله وأعطاه بعد كشف ذلك الضر عنه .

وحقيقة خوله أن يكون من قولهم : هو خائله ، قال : إذا كان متعهداً حسن القيام عليه ، أو من خال يخول ، إذا إختال وافتخر ، وتقول العرب :

إن الغني طويل الذيل مياس . . .

﴿ نسي ما كان يدعو ﴾ : أي ترك ، والظاهر أن ما بمعنى الذي ، أي نسى الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه .

وقيل : ما بمعنى من ، أي نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل في كشف ضره .

وقيل : ما مصدرية ، أي نسي كونه يدعو .

وقيل : تم الكلام عند قوله : ﴿ نسي ﴾ ، أي نسي ما كان فيه من الضر .

وما نافية ، نفى أن يكون دعاء هذا الكافر خالصاً لله مقصوراً من قبل الضرر ، وعلى الأقوال السابقة .

﴿ من قبل ﴾ : أي من قبل تخويل النعمة ، وهو زمان الضرر .

﴿ وجعل لله أنداداً ﴾ : أي أمثالاً يضاد بعضها بعضاً ويعارض .

قال قتادة : أي من الرجال يطيعونهم في المعصية .

وقال غيره : أوثاناً ، وهذا من سخف عقولهم .

حين مسى الضر دعوا الله ولم يلتجئوا في كشفه إلا إليه ؛ وحين كشف ذلك وخول النعمة أشركوا به ، فاللام لام العلة ، وقيل : لام العاقبة .

وقرأ الجمهور : ﴿ ليضل ﴾ ، بضم الياء : أي ما اكتفى بضلال نفسه حتى جعل غيره يضل .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمر ، وعيسى : بفتحها ، ثم أتى بصيغة الأمر فقال : ﴿ تمتع بكفرك قليلاً ﴾ : أي تلذذوا صنع ما شئت قليلاً ، أي عمراً قليلاً ، والخطاب للكافر جاعل الأنداد لله .

(84/666)

﴿ إنك من أصحاب النار ﴾ : أي من سكانها المخلدين فيها .

وقال الزمخشري : وقوله ﴿ تمتع بكفرك ﴾ ، أي من باب الخذلان والتخلية ، كأنه قيل له : إذ قد أبيت قبل ما أمرت به من الإيمان والطاعة ، فمن حقك أن لا تؤمر به بعد ذلك .

ويؤمر بتركه مبالغة خذلانه وتخليته وشأنه ، لأنه لا مبالغة في الخذلان أشد من أن يبعث على عكس ما أمروا به ، ونظيره في المعنى : ﴿ متاع قليل ثم مأواهم جهنم ﴾ انتهى .

ولما شرح تعالى شيئاً من أحوال الظالمين الضالين المشركين ، أردفه بشرح أحوال المهتدين

الموحدين فقال : ﴿ أمّن هو قانت ﴾ .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، والأعمش ، وعيسى ، وشيبة ، والحسن في رواية : أمن ، بتخفيف الميم .

والظاهر أن الهمزة لاستفهام التقرير ، ومقابله محذوف لفهم المعنى ، والتقدير : أهذا القانت خير أم الكافر المخاطب بقوله ﴿ قل تمتع بكفرك ﴾ ؟ ويدل عليه قوله : ﴿ قل هي يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ .

ومن حذف المقابل قول الشاعر :

دعاني إليها القلب إني لأمرها . . .

سميع فما أدري أرشد طلابها

تقديره : أم غيّ .

وقال الفراء : الهمزة للنداء ، كأنه قيل : يا من هو قانت ، ويكون قوله قل خطابا له ، وهذا القول أجنبي مما قبله وما بعده .

وضعف هذا القول أبو علي الفارسي ، ولا التفات لتضعيف الأخفش وأبي حاتم هذه القراءة .

وقرأ باقي السبعة ، والحسن ، وقتادة ، والأعرج ، وأبو جعفر : أمّن ، بتشديد الميم ، وهي أم أدغمت ميمها في ميم من ، فاحتملت أم أن تكون متصلة ومعادلها محذوف قبلها تقديره

: أهذا الكافر خير أم من هو قانت ؟ قال معناه الأخفش ، ويحتاج مثل هذا التقدير إلى سماع من العرب ، وهو أن يحذف المعادل الأول .

واحتملت أم أن تكون منقطعة تتقدر ببل ، والهمزة والتقدير : بل أم من هو قانت صفته كذا ، كمن ليس كذلك .

وقال النحاس : أم بمعنى بل ، ومن بمعنى الذي ، والتقدير : بل الذي هو قانت أفضل ممن ذكر قبله . انتهى .

(85/666)

ولا فضل لمن قبله حتى يجعل هذا أفضل ، بل يقدر الخبر من أصحاب الجنة ، يدل عليه مقابله : ﴿ إنك من أصحاب النار ﴾ .

والقانت : المطيع ، قاله ابن عباس ، وتقدم الكلام في القنوت في البقرة .

وقرأ الجمهور : ﴿ ساجداً وقائماً ﴾ ، بالنصب على الحال ؛ والضحاك : برفعهما إما على النعت لقانت ، وإما على أنه خبر بعد خبر ، والواو للجمع بين الصفتين .

﴿ يحذر الآخرة ﴾ : أي عذاب الآخرة ، ﴿ ويرجو رحمة ربه ﴾ : أي حصولها ، وقيل : نعيم الجنة ، وهذا المتصف بالقنوت إلى سائر الأوصاف ، قال مقاتل : عمار ، وصهيب

، وابن مسعود ، وأبو ذر .

وقال ابن عمر : عثمان .

وقال ابن عباس في رواية الضحاك : أبو بكر وعمر .

وقال يحيى بن سلام : رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

والظاهر أنه من اتصف بهذه الأوصاف من غير تعيين .

وفي الآية دليل على فضل قيام الليل ، وأنه أرجح من قيام النهار .

ولما ذكر العمل ذكر العلم فقال : ﴿ قل هي يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ ، فدل أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين ، فكما لا يستوي هذان ، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي .

والمراد بالعلم هنا : ما أدى إلى معرفة الله ونجاة العبد من سخطه .

وقرأ : يذكر ، بإدغام تاء يتذكر في الذال .

﴿ قل يا عبادي الذين والذين آمنوا اتقوا ربكم ﴾ ، وروي أنها نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا عن الهجرة إلى أرض الحبشة ، وعدهم تعالى فقال : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ .

والظاهر تعلق في هذه بأحسنوا ، وأن المحسنين في الدنيا لهم في الآخرة حسنة ، أي حسنة عظيمة ، وهي الجنة ، قاله مقاتل ، والصفة محذوفة يدل عليها المعنى ، لأن من أحسن في

الدنيا لا يوعد أن يكون له في الآخرة مطلق حسنة .

وقال السدي : في هذه من تمام حسنة ، أي ولو تأخر لكان صفة ، أي الذين يحسنون لهم حسنة كائنة في الدنيا .

(86/666)

فلما تقدم انتصب على الحال ، والحسنة التي لهم في الدنيا هي العافية والظهور وولاية الله تعالى .

ثم حض على الهجرة فقال : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ ، كقوله : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ أي لا عذر للمفرطين البتة ، حتى لو اعتلوا بأوطانهم ، وأنهم لا يتمكنون فيها من أعمال الطاعات ، قيل لهم : إن بلاد الله كثيرة واسعة ، فتحولوا إلى الأماكن التي تمكنكم فيها الطاعات .

وقال عطاء : وأرض الله : المدينة للهجرة ، قيل : فعلى هذا يكون أحسنوا : هاجروا ، وحسنة : راحة من الأعداء .

وقال قوم : أرض الله هنا : الجنة .

قال ابن عطية : وهذا القول تحكم ، لا دليل عليه . انتهى .

وقال أبو مسلم : لا يمتنع ذلك ، لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى ؛ ثم بين أنه من اتقى له في الآخرة الحسنة ، وهي الخلود في الجنة ؛ ثم بين أن أرض الله واسعة لقوله : ﴿ وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ وقوله : ﴿ وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ ولما كانت رتبة الإحسان منتهى الرتب ، كما جاء : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه .

وكان الصبر على ذلك من أشق الأشياء ، وخصوصاً من فارق وطنه وعشيرته وصبر على بلاء الغربة .

ذكر أن الصابرين يوفون أجورهم بغير حساب ، أي لا يحاسبون في الآخرة ، كما يحاسب غيرهم ؛ أو يوفون ما لا يحصره حساب من الكثرة .

﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ : أمره تعالى أن يصدع الكفار بما أمر به من عبادة الله ، يخلصها من الشوائب ، ﴿ وأمرت ﴾ : أي أمرت بما أمرت ، لأكون أول من أسلم ، أي انقاد لله تعالى ، ويعني من أهل عصره أو من قومه ، لأنه أول من حالف عباد الأصنام ، أو أول من دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً ، أو أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره ، لأكون مقتدى بي قولاً وفعلاً ، لا كالملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون ، أو أن أفعل ما أستحق به الأولية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف عطف أمرت على أمرت وهما واحد ؟ قلت : ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما ، وذلك أن الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء ، والأمر به لتحرز به قصب السبق في الدين شيء .

وإذا اختلف وجها الشيء وصفتاه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين ، ولك أن تجعل اللام مزيدة مثلها في أردت ، لأن أفعل لا تزاد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح ، كأنها زيدت عوضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه ، كما عوض السين في اسطاع عوضاً من ترك الأصل الذي هو أطوع .

والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله : ﴿ وأمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ انتهى .

ويحتمل في أن أكون في ثلاثة المواضع أصله لأن أكون ، فيكون قد حذفت اللام ، والمأمور به محذوف ، وهو المصرح به هنا ﴿ إني أمرت أن أعبد الله ﴾ .

﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ : تقدّم الكلام على هذه الجملة مقول القول في سورة يونس .

لما أمره أولاً أن يخبر بأنه أمر بعبادة الله ، أمر ثانياً أن يخبر بأنه يعبد الله وحده .

وتقديم الجلالة دال على الاهتمام بمن يعبد ، وعند الزمخشري يدل على الاختصاص ، قال

: ولدلالته على ذلك ، قدم المعبود على فعل العبادة ، وأخره في الأول .

فالكلام أولاً واقع في الفعل في نفسه وإيجاده ، وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله ، ولذلك رتب عليه قوله : ﴿ فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ .

والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير المبالغة في الخذلان والتخلية . انتهى .

وقال غيره : ﴿ فاعبدوا ما شئتم ﴾ : صيغة أمر على جهة التهديد لقوله : ﴿ قل تمتع بكفرك ﴾ ﴿ قل إن الخاسرين ﴾ : أي حقيقة الخسران ، ﴿ الذين خسروا ﴾ : أي هم الذين خسروا أنفسهم ، حيث صاروا من أهل النار ، ﴿ وأهليهم ﴾ الذين كانوا معهم في الدنيا ، حيث كانوا معهم في النار ، فلم ينتفعوا منهم بشيء ، وإن كان أهلوهم قد آمنوا ، فخسرانهم إياهم كونهم لا يجتمعون بهم ولا يرجعون إليهم .

(88/666)

وقال قتادة : كأن الله قد أعد لهم أهلاً في الجنة فخسروهم ، وقال معناه ميمون بن مهران .

وقال الحسن : هي الحور العين ، ثم ذكر ذلك الخسران وبالغ فيه في التنبيه عليه أولاً ، والإشارة إليه ، وتأكيده بالفعل ، وتعريفه بأل ، ووصفه بأنه المبين : أي الواضح لمن تأمله أدنى تأمل .

ولما ذكر خسرانهم أنفسهم وأهليهم ، ذكر حالهم في جهنم ، وأنه من فوقهم ظلل ومن تحتهم ظلل ، فيظهر أن النار تغشاهم من فوقهم ومن تحتهم ، وسمى ما تحتهم ظللاً لمقابلة ما فوقهم ، كما قال : ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت ارجلهم ﴾ ، وقال لهم : ﴿ من جهنم مهاد ومن وفوقهم ومن غواش ﴾ وقيل : هي ظلل للذين هم تحتهم ، إذ النار طباق . وقيل : إنما تحتهم يلتهب ويتصاعد منه شيء حتى يكون ظلة ، فسمي ظلة باعتبار ما آل إليه أخيراً .

﴿ ذلك ﴾ : أي ذلك العذاب ، ﴿ يخوف الله به عباده ﴾ : ليعلموا ما يخلصكم منه ، ثم ناداهم وأمرهم فقال : ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ : أي اتقوا عذابي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(89/666)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ ﴾

(90/666)

من مرضٍ وغيره ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ راجعاً إليه ممَّا كان يدعُوه في حالة الرَّخاءِ لعمله بأنَّه بمعزلٍ من القُدرة على كشف ضُرِّه ، وهذا وصف للجنس بحالِ بعضِ أفرادِه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ أي أعطاهُ نعمةً عظيمةً من لدنه تعالى من التَّخولِ وهو التَّعهدُ أي جعله خائلَ مالٍ من قولهم فلانٌ خائلُ مال إذا كان مُتعهِّداً له حسنَ القيامِ به أو من الخَولِ وهو الافتخارُ أي جعله يخُولُ أي يختالُ ويفتخرُ ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ ﴾ أي نسيَ الضُّرَّ الذي كان يدعُو الله تعالى فيما سبق إلى كشفِه ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل التَّخويلِ أو نسي ربَّه الذي كان يدعُوه ويتضرَّعُ إليه ، إمَّا بناء على أنَّ ما بمعنى مَن كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والانثى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ وإمَّا إيذاناً بأنَّ نسيانَهُ بلغ إلى حيثُ لا يعرف مدَّعوه ما هو فضلاً عن أنْ يعرفه من هو كما مرَّ في قوله تعالى : ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ شركاءَ في العبادة ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ النَّاس بذلك ﴿ عَن سَبِيلِهِ ﴾ الذي هو التَّوحيدُ وقُرِىء ليَضلَّ بفتح الياء أي يزدادَ ضلالاً أو يثبتَ عليه وإلا فأصلُ الضَّلالِ غيرُ متأخِّرٍ عن الجعل المذكور . واللامُ لامُ العاقبة كما في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه ءالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ خلا أنَّ هذا أقربُ إلى الحقيقةِ لأنَّ الجاعلَ ههنا قاصدٌ بجعله المذكورِ حقيقةَ الإضلالِ والضَّلالِ وإنْ لم يعرف لجهله أنَّهما إضلالٌ وضلالٌ وأمَّا آلُ فرعونَ

فهم غيرُ قاصدين بالتقاطِهم العداوةَ أصلاً . ﴿ قُلْ ﴾ تهديداً لذلك الضَّالِّ المُضلِّ وبياناً لحالِه ومآلِه ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ أي تمتُّعاً قليلاً أو زمَاناً قليلاً ﴾

(91/666)

إِنَّكَ مِنْ أصحاب النار ﴾ أي ملازميها والمعذَّبين فيها على الدَّوامِ وهو تعليلٌ لقلَّة التَّمتعِ ، وفيه من الإقناط من النَّجاةِ ما لا يخفى كأنَّه قيل : إذ قد أبيتَ قبولَ ما أُمرتَ به من الإيمان والطَّاعةِ فمن حقِّك أنْ تُؤمرَ بتركه لتذوقَ عقوبتَه .

(92/666)

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء الليل ﴾ الخ من تمام الكلامِ المأمورِ به وأم إما متصلة قد حُذف معادلُها ثقةً بدلالة مساقِ الكلام عليه كأنَّه قيل له تأكيداً للتَّهديد وتهكُّماً به : أأنت أحسنُ حالاً ومآلاً أمَّن هو قائمٌ بمواجب الطَّاعاتِ ودائم على أداءَ وظائف العبادات في ساعاتِ اللَّيل حالتَيْ السَّراءِ والضَّراءِ لا عند مساس الضُّرِّ فقط كدأبك حال كَونِه ﴿ ساجدا وَقَائِماً ﴾ أي جامعاً بين الوصفينِ المحمودينِ ، وتقديمُ السُّجودِ على القيام لكونه أدخلَ في

معنى العبادةِ. وقُرِىء كلاهُما بالرَّفعِ على أنه خبرٌ بعد خبرٍ ﴿ يَحْذَرُ الآخرة ﴾ حالٌ أُخرى على التَّرادفِ أو التَّداخلِ. أو استئنافٌ وقع جواباً عمَّا نشأ من حكاية حالِه من القنوتِ والسُّجود والقيامِ كأنَّه قيل ما بالُه يفعل ذلك فقيل يحذرُ عذابَ الآخرةِ ﴿ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ ﴾ فينجُو بذلك مما يحذرُه ويفوزُ بما يرجُوه كما ينبىءُ عنه التَّعرضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المنبئةِ عن التَّبليغِ إلى الكمالِ مع الإضافة إلى ضميرِ الرَّاجي لا أنَّه يحذرُ ضرَّ الدُّنيا ويرجُو خيرَها فقط، وإما منقطعةٌ وما فيها من الإضرابِ للانتقالِ من التَّهديدِ إلى التَّبكيتِ بتكليف الجواب الملجىءِ إلى الاعترافِ بما بينهما من التَّباينِ البيِّن كأنَّه قيل: بل أمن هو قانتٌ الخ أفضل أمَّن هو كافرٌ مثلك كما هو المعنى على قراءة التَّخفيفِ ﴿ قُلْ ﴾ بياناً للحقِّ وتنبيهاً على شرفِ العلمِ والعمل ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ ﴾ حقائقَ الأحوالِ فيعملون بموجبِ علمهم كالقانتِ المذكورِ ﴿ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي ما ذُكر أو شيئاً فيعملون بمقتضى جهلِهم وضلالِهم كدأبك والاستفهامُ للتَّنبيه على أنَّ كون الأوَّلينَ في أعلى معارجِ الخيرِ وكون الآخرينَ في أقصى مدارجِ الشَّرِّ من الظُّهورِ بحيث لا يكادُ يخفى على أحدٍ من منصفٍ ومكابرٍ وقيل: هو واردٌ على سبيل

(93/666)

التَّشبيهِ أي كما لا يستوي العالمونَ والجاهلون لا يستوي القانتون والعاصُون . وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الالباب ﴾ كلامٌ مستقلٌّ غير داخلٍ في الكلام المأمور به واردٌ من جهته تعالى بعد الأمر بما ذُكر من القوارعِ الزَّاجرةِ عن الكُفر والمعاصِي لبيانِ عدمِ تأثيرِها في قلوبِ الكفرةِ لاختلال عقولهم كما في قَول مَنْ قال :

عُوجُوا فحيُّوا لُنْعْمَى دِمْنَةَ الدَّار . . . مَاذا تُحيُّونَ من نُؤْيٍ وَأَحْجَارِ

أي إنما يتَّعظُ بهذه البيانات الواضحة أصحابُ العقولِ الخالصةِ عن شوائبِ الخللِ وهؤلاءِ بمعزلٍ من ذلك . وقُرِىء إنَّما يذكَّر بالإدغام .

(94/666)

﴿ قُلْ يا عِبَادِى الذين ءامَنُواْ اتقوا رَبَّكُمْ ﴾ أُمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بتذكير المُؤمنين وحملِهم على التَّقوى والطَّاعة إثرَ تخصيص التَّذكُّر بأولي الألباب إيذاناً بأنَّهم هم كما سيصرِّح به أي قُل لهم قولي هذا بعينه وفيه تشريفٌ لهم بإضافتهم إلي ضمير الجلالةِ ومزيدُ اعتناءٍ بشأن المأمور به فإنَّ نقلَ عينِ أمرِ الله أدخلُ في إيجابِ الإمتثالِ به . وقولُه تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ تعليلٌ للأمر أو لوجوبِ الامتثال به وإيراد الإحسان في حيِّز الصِّلةِ التَّقوى للإيذانِ بأنَّه من باب الإحسان وأنَّهما مُتلازمانِ وكذا الصَّبرُ كما مرَّ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ

اللهَ مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ وقوله تعالى ﴿ فِى هذه الدنيا ﴾ متعلّقٌ بأحسنُوا أي عملوا الأعمالَ الحسنةَ في هذه الدُّنيا على وجه الإخلاصِ وهو الذي عبّر عنه رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حينَ سُئل عن الإحسانِ بقوله عليه السَّلامُ : " أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ فإنْ لم تكن تراهُ فإنَّه يراكَ " ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ أي حسنة عظيمةٌ لا يُكْتَنَه كُنْهُها وهي الجنَّةُ . وقيل : هو متعلّقٌ بحسنة على أنَّه بيان لمكانها أو حالٌ من ضميرها في الظَّرفِ فالمرادُ بها حينئذٍ الصِّحَّةُ والعافيةُ ﴿ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ ﴾ فمن تعسَّر عليه التَّوفرُ على التَّقوى والإحسانِ في وطنِه فليهاجر إلى حيثُ يتمكَّن فيه من ذلك كما هو سُنَّة الأنبياءِ والصَّالحينَ فإنه لا عُذرَ له في التَّفريطِ أصلاً وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون ﴾ الخ ترغيب في التَّقوى المأمور بها ، وإيثارُ الصَّابرين على المتَّقين للإيذانِ بأنَّهم حائزونَ لفضيلة الصَّبر كحيازتهم لفضيلةِ الإحسانِ لما أشير إليه من استلزام التَّقوى لهما مع ما فيه من زيادةِ

(95/666)

حثَ على المصابرةِ والمجاهدةِ في تحمُّل مشاقِّ المهاجرة ومتاعبها أي إنَّما يوفَّى الذين صبرُوا على دينِهم وحافظُوا على حدودِه ولم يُفرِّطُوا في مُراعاةِ حقوقه لما اعتراهم في ذلك من فُنونِ

الآلامِ والبَلاَيا التي من جُملتها مهاجرةُ الأهلِ ومفارقةُ الأوطانِ ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ بمقابلة ما كابدُوا من الصَّبرِ ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي بحيث لا يُحصى ولا يُحصر . عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما : لا يَهتدِي إليه حسابُ الحُسَّاب ، ولا يُعرف . وفي الحديثِ " أنَّه تنصبُ الموازينُ يوم القيامة لأهلِ الصَّلاة والصَّدقة والحَجِّ فيُؤتَون بها أجورَهم ولا تُنصب لأهل البلاءِ بل يُنصبُّ عليهم الأجرُ صَبَّاً حتَّى يتمنَّى أهلُ العافيةِ في الدُّنيا أنَّ أجسادَهم تُقرضُ بالمقاريضِ مَّما يذهبُ به أهلُ البلاءِ من الفضلِ "

﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ أي من كلِّ ما ينافيهِ من الشِّركِ والرِّياءِ وغير ذلك أُمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ببيانِ ما أُمر به نفسه من الإخلاصِ في عبادة الله الذي هو عبارةٌ عمَّا أُمر به المؤمنون من التَّقوى مبالغةً في حثِّهم على الإتيان بما كُلِّفوه وتمهيداً لما يعقُبه مَّما خُوطب به المشركونَ .

(96/666)

﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين ﴾ أي وأُمرت بذلك لأجلِ أنْ أكونَ مقدَّمهم في الدُّنيا والآخرةِ لأنَّ إحرازَ قَصَبِ السَّبقِ في الدِّين بالإخلاصِ فيه . والعطفُ لمغايرةِ الثَّاني الأوَّلَ بتقييده بالعلَّةِ والإشعارِ بأنَّ العبادةَ المذكورةَ كما تقتضِي الأمرَ بها لذاتِها تقتضيهِ لما يلزمُها

من السَّبقِ في الدّينِ ويجوزُ أنْ تُجعلَ اللاّمُ مزيدةً كما في أردتُ لأنْ أقومَ بدليلِ قوله تعالى : ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ فالمعنى وأُمرت أنْ أكونَ أوّلَ مَن أسلمَ من أهلِ زمانيِ أو مِن قومي أو أكون أولَ من دَعا غيرَهُ إلى ما دعا إليه نفسَه .

﴿ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾ بترك الإخلاصِ والميل إلى ما أنتمُ عليه من الشّرِكِ ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هو يومُ القيامةِ وصفَ بالعظمةِ لعظمةِ ما فيه من الدّواهي والأهوالِ ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ ﴾ لا غيرَه لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى ﴾ من كلِّ شَوْبٍ . أُمر عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أوّلاً ببيان كونِه مأموراً بعبادةِ الله تعالى وخلاصِ الدّينِ له ثمَّ بالإخبارِ بخوفِه من العذابِ على تقديرِ العصيانِ ثمَّ بالإخبارِ بامتثاله بالأمرِ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه إظهاراً لتصلُّبه في الدّينِ وحسماً لأطماعِهم الفارغةِ وتمهيداً لتهديدِهم بقوله تعالى ﴿ فاعبدوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أنْ تعبدُوه ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ تعالى وفيه من الدّلالةِ على شدَّةِ الغضبِ عليهم ما لا يخفي كأنَّهم لمَّا لم ينتهُوا عما نُهوا عنه أُمروا به كي يحل بهم العقابُ .

(97/666)

﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرين ﴾ أي الكاملينَ في الخُسران الذي هو عبارةٌ عن إضاعةِ ما يُهمه وإتلافِ ما لا بدَّ منه ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ باختيارِهم الكفرَ لهما أي أضاعُوهما وأتلفوهُما ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ حين يدخُلون النَّارِ حيث عرَّضوهما للعذابِ السَّرمديِّ وأوقعُوهما في هَلَكةٍ لا هلكةَ وراءها . وقيل : خسِروا أهليهم لأنَّهم إنْ كانُوا من أهلِ النَّار فقد خسروهم كما خسِروا أنفسَهم إنَ كانُوا من أهلِ الجنَّةَ فقد ذهبُوا عنهم ذهاباً لا إيابَ بعدَهُ . وفيه أنَّ المحذورَ ذهابُ ما لو آبَ لانتفع به الخاسرُ وذلك غيرُ متصوَّرٍ في الشِّقِّ الأخيرِ . وقيل : خسِروهم لأنَّهم لم يدخلُوا الذين لهم أهلٌ في الجنَّةِ وخَسِروا أهليهم الذين كانِوا يتمتَّعون بهم لو آمنُوا ، وأيًّا ما كان فليسَ المرادُ مجرد تعريفِ الكاملينَ في الخُسران بما ذُكر بل بيانَ أنَّهم هم ، إمَّا بجعلِ الموصولِ عبارةً عنهم أو عمَّا هم مُندرجون فيه اندراجاً أوليًّا . وما في قوله تعالى ﴿ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخسران المبين ﴾ من استئنافِ الجملةِ وتصديرِها بحرفِ التَّنبيه والإشارةِ بذلك إلى بُعد منزلةِ المُشارِ إليه في الشَّرِّ . وتوسيطُ ضمير الفصل وتعريفُ الخسرانِ ووصفُه بالمبينِ من الدّلالةِ على كمالِ هوله وفظاعتِه وأنَّه لا خُسران وراءه ما لا يَخفى . وقوله تعالى ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار ﴾ الخ نوع بيانٍ لخسرانِهم بعد تهويله بطريقِ الإيهامِ على أنَّ لهم خبرٌ لظُللٌ . ومن فوقِهم متعلّقٌ بمحذوفٍ قيل : هو حالٌ من ظُللٌ . والأظهرُ أنَّه حالٌ من الضَّميرِ في الظَّرفِ المُقدَّمِ ومن النَّارِ صفةٌ لظللٌ أي لهم كائنةٌ

من فوقهم ظللٌ كثيرةٌ متراكبةٌ بعضُها فوق بعضٍ كائنةٌ من النَّارِ ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ﴾ أيضاً ﴿ ظُلَلٌ ﴾ أي أطباقٌ كثيرةٌ بعضُها تحتَ بعضٍ ظللٌ لآخرينَ بل لهم أيضاً عد تردّيهم في دَرَكاتِها

(98/666)

﴿ ذلك ﴾ العذابُ الفظيعُ هو الذي ﴿ يُخَوّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ ويُحذِّرهم إيَّاه بآياتِ الوعيدِ ليجتنبُوا ما يُوقعهم فيه ﴿ يَا عِبَادِى فاتقون ﴾ ولا تتعرَّضُوا لما يُوجبُ سَخَطي . وهذه عظة من الله تعالى بالغةٌ منطويةٌ على غايةِ اللُّطفِ والمرحمةِ وقُرىء يا عبادِي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(99/666)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾

أي من كل ما يخل به من الشرك والرياء وغير ذلك ؛ أمر عليه الصلاة والسلام ببيان ما أمر به نفسه من الإخلاص في عبادة الله عز وجل الذي هو عبارة عما أمر به المؤمنون من التقوى

مبالغة في حثهم على الإتيان بما كلفوه وتمهيداً لما يعقبه مما خوطب به المشركون .

وعدم التصريح بالآمر لتعين أنه الله عز وجل ، وقيل : للإشارة إلى أن هذا الأمر مما ينبغي امتثاله سواء صدر منه تعالى أم صدر من غيره سبحانه .

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين ﴾ أي وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدم المسلمين في الدنيا والآخرة لأن إحراز قصب السبق في الدين بالإخلاص فيه وإخلاصه عليه الصلاة والسلام أتم من إخلاص كل مخلص فالمراد بالأولية الأولية في الشرف والرتبة ، والعطف لمغايرة الثاني الأول بتقييده بالعلة والإشعار بأن العبادة المذكورة كما تقتضي الأمر بها لذاتها تقتضيه لما يلزمها من السبق في الدين ، وإلى حذف متعلق الأمر وكون اللام تعليلية ذهب البصريون في هذه الآية ونحوها ؛ وذهب غيرهم إلى أنها زائدة ، واستدل له بتركها في قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ [النمل : 91] ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [يونس : 104] ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ [الأنعام : 14] وكل ذلك محتمل لتقدير اللام فلا تغفل ؛ ولا تزاد إلا مع أن لفظاً أو تقديراً دون الاسم الصريح وذلك لأن الأصل في المفعول به أن يكون اسماً صريحاً فكأنها زيدت عوضاً من ترك الأصل إلى ما يقول مقامه كما يعوض السين في اسطاع عوضاً من ترك الأصل الذي هو أطوع ، وهذه الزيادة وإن كانت شاذة قياساً إلا أنها لما كثرت استعمالاً جاز استعمالها في القرآن والكلام الفصيح ، ومثل هذا يقال في زيادتها مع فعل الإرادة نحو أردت لأن أفعل .

وجعل الزمخشري وجه زيادتها معه أنها لما كان فيها معنى الإرادة زيدت تأكيداً لها وجعل وجهاً في زيادتها مع فعل الأمر أيضاً لا سيما والطلب والإرادة عندهم من باب واحد ، وفي المعنى أوجه أن أكون أول من أسلم في زماني ومن قومي أي إسلاماً على وفق الأمر ، وأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً ، وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره لأكون مقتدى بي قولي وفعلي جميعاً ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون ، وأن أفعل ما أستحق به الأولية والشرف من أعمال السابقين دلالة على السبب وهي الأعمال التي يستحق بها الشرف بالمسبب وهو الأولية والشرف المذكور في "النظم الجليل" ذكر ذلك الزمخشري .

وفي "الكشف" المختار من الأوجه الأربعة الوجه الثاني فإنه المكرر الشائع في القرآن الكريم وفيه سائر المعاني الأخر من موافقة القول الفعل ولزوم أولية الشرف من أولية التأسيس مع أنه ليس فيه أنه أمر بأن يكون أشرف وأسبق فافهم .

﴿ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ إِنَّهُ رَبِّى ﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ، وجوز العموم أي أخاف إن عصيته بشيء من المعاصي ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هو يوم القيامة ،

ووصفه بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهي والأهوال ، وهو مجاز في الظرف أو الإسناد وهو أبلغ ولذا عدل عن توصيف العذاب بذاك والمقصود من قول ذلك لهم تهديدهم والتعريض لهم بأنه عليه الصلاة والسلام مع عظمته لو عصى الله تعالى ما أمن العذاب فكيف بهم .

(101/666)

﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ ﴾ لا غيره سبحانه لا استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى ﴾ حال من فاعل ﴿ أَعْبُدُ ﴾ فقيل مؤكدة لما أن تقديم المفعول قد أفاد الحصر وهو يدل على إخلاصه عن الشرك الظاهر والخفي ، وقيل : مؤسسة وفسر إخلاص الدين له تعالى بعبادته سبحانه لذاته من غير طلب شيء كقول رابعة : سبحانك ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا رجاء ثوابك أو يفسر بتجريده عن الشرك بقسميه وأن يكون معه ما يشينه من غير ذلك كما أشير إليه آنفاً ؛ والفرق بين هذا وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ ﴾ [الزمر : 11] الخ أن ذاك أمر ببيان كونه عليه الصلاة والسلام مأموراً بعبادته تعالى مخلصاً له الدين وهذا أمر بالإخبار بامتثاله بالأمر على أبلغ وجه وآكده إظهاراً لتصلته صلى الله عليه

وسلم في الدين وحسماً لأطماعهم الفارغة حيث أن كفار قريش دعوه صلى الله عليه وسلم إلى دينهم فنزلت لذلك وتمهيداً لتهديدهم بقوله عز وجل :

(102/666)

﴿ فاعبدوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أن تعبدوه ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ عز وجل ، وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم ما لا يخفى كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كي يحل بهم العقاب ﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرين ﴾ أي الكاملين في الخسران وهو إضاعة ما بهم وإتلاف ما لا بد منه لجمعهم أعاظم أنواع الخسران ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ باختيارهم الكفر لهما فالمراد بالأهل أتباعهم الذين أضلوهم أي أضاعوا أنفسهم وأضاعوا أهليهم وأتلفوهما ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ حين يدخلون النار حيث عرضوهما للعذاب السرمدي وأوقعوهما في هلكة ما وراءها هلكة ؛ ولو أبقى يوم القيامة على ظاهره لأنه يتبين فيه أمرهم ويتحقق مبدأ خسرانهم صح على ما قيل ، وقيل : المراد بالأهل الاتباع مطلقاً وخسرانهم إياهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروا هم كما خسروا أنفسهم وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا إياب بعده ، وتعقب بأن المحذور ذهاب من لو آب لانتفع به الخاسر وذلك غير متصور في الشق الأخير ، وقيل : المراد بالأهل ما أعده الله تعالى لمن يدخل الجنة

من الخاصة أي وخسروا أهليهم الذين كانوا يكونون لهم في الجنة لو آمنوا ، أخرج عبد الرزاق .

وعبد بن حميد عن قتادة قال : ليس أحد إلا قد أعد الله تعالى له أهلاً في الجنة إن أطاعه ، وأخرج نحوه عن مجاهد ، وروي أيضاً عن ميمون بن مهران وكلهم ذكروا ذلك في الآية ، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال فيها أيضاً : خسروا أهليهم من أهل الجنة كانوا أعدوا لهم لو عملوا بطاعة الله تعالى فغبنوهم ، وهو الذي يقتضيه كلام الحسن فقد روي عنه أنه فسر الأهل بالحور العين ، ولا يخفى أن حمل الآية على ذلك لا يخلو عن بعد .

(103/666)

وأياً ما كان فليس المراد مجرد تعريف الكاملين في الخسران بما ذكر بل بيان أنهم المخاطبون بما تقدم إما بجعل الموصول عبارة عنهم أو بجعله عبارة عما هم مندرجون فيه اندراجاً أولياً ، وما في قوله تعالى : ﴿ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الخسران المبين ﴾ من استئناف الجملة ، وتصديرها بحرف التنبيه والإشارة بذلك إلى بعد منزلة المشار إليه في الشر وأنه لعظمه بمنزلة المحسوس وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران والإتيان به على فعلان الأبلغ من فعل ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هوله وفظاعته وأنه لا نوع من الخسر وراءه ما لا

يخفى .

وقوله تعالى :

﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار ﴾ إلى آخره نوع بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام على أن ﴿ لَهُمْ ﴾ خبر لظلل و﴿ مِنْ ﴾ فوقهم متعلق بمحذوف حال من ضميرها في الظرف المقدم لا منها نفسها لضعف الحال من المبتدأ ، وجعلها فاعل الظرف حينئذٍ اتباع لنظر الأخفش وهو ضعيف ، و﴿ مِنَ النار ﴾ صفة لظلل .

والكلام جار مجرى التهكم بهم ولذا قيل لهم وعبر عما علاهم من النار بالظلل أي لهم كائنة من فوقهم ظلل كثيرة متراكمة بعضها فوق بعض كائنة من النار ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ كائنة من النار أيضاً ، والمراد أطباق كثيرة منها وتسميتها ظللاً من باب المشاكلة .

وقيل هي ظلل لمن تحتهم في طبقة أخرى من طبقات النار ولا يطرد في أهل الطبقة الأخيرة من هؤلاء الخاسرين إلا أن يقال : إنها للشياطين ونحوهم مما لا ذكر لهم هنا ، وقيل : إن ما تحتهم يلتهب ويتصاعد منه شيء حتى يكون ظلة فسمي ظلة باعتبار ما آل إليه أخيراً وليس بذاك ، والمراد أن النار محيطة بهم ﴿ ذلك ﴾ العذاب الفظيع ﴿ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ يذكره سبحانه لهم بآيات الوعيد ليخافوا فيجتنبوا ما يوقعهم فيه ، وخص بعضهم العباد بالمؤمنين لأنهم المنفعون بالتخويف وعمم آخرون .

وكذا في قوله سبحانه : ﴿ قَلِيلاً وإياى فاتقون ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي ، ويختلف المراد بالأمر على الوجهين كما لا يخفى ، وهذه عظة من الله جل جلاله وعم نواله منطوية على غاية اللطف والرحمة .

وقرىء ﴿ فِى عِبَادِى ﴾ بالياء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(105/666)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ ﴾

لما ذكر سبحانه النعم التي أنعم بها على عباده ، وبيّن لهم من بديع صنعه ، وعجيب فعله ما يوجب على كل عاقل أن يؤمن به عقبه بقوله : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ الله غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾ أي : غير محتاج إليكم ، ولا إلى إيمانكم ، ولا إلى عبادتكم له فإنه الغنيّ المطلق ، ومع كون كفر الكافر لا يضرّه كما أنه لا ينفعه إيمان المؤمن ، فهو أيضاً ﴿ لاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ أي : لا يرضى لأحد من عباده الكفر ، ولا يحبه ، ولا يأمر به ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِى الأرض جَمِيعًا فَإِنَّ الله لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : 8] ، ومثلها ما ثبت في

صحيح مسلم من قوله صلى الله عليه وسلم : " يا عبادي لو أن أوّلكم ، وآخركم ، وإنسكم ، وجنكم كانوا على قلب أفجر رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً " وقد اختلف المفسرون في هذه الآية هل هي على عمومها ، وإن الكفر غير مرضيّ لله سبحانه على كل حال كما هو الظاهر ، أو هي خاصة ؟ ، والمعنى : لا يرضى لعباده المؤمنين الكفر ، وقد ذهب إلى التخصيص حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه كما سيأتي بيانه آخر البحث ، وتابعه على ذلك عكرمة ، والسدّي ، وغيرهما .

ثم اختلفوا في الآية اختلافاً آخر .

فقال قوم : إنه يريد كفر الكافر ، ولا يرضاه ، وقال آخرون : إنه لا يريده ، ولا يرضاه ، والكلام في تحقيق مثل هذا يطول جداً .

وقد استدلّ القائلون بتخصيص هذه الآية ، والمثبتون للإرادة مع عدم الرضا بما ثبت في آيات كثيرة من الكتاب العزيز أنه سبحانه : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء ﴾ [النحل : 93] ﴿ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ [الإنسان : 30] ، ونحو هذا مما يؤدي معناه كثير في الكتاب العزيز .

ثم لما ذكر سبحانه : أنه لا يرضى لعباده الكفر بيّن أنه يرضى لهم الشكر ، فقال : ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أي : يرض لكم الشكر المدلول عليه بقوله ، وإن تشكروا ، ويثبكم عليه ، وإنما رضي لهم سبحانه الشكر ؛ لأنه سبب سعادتهم في الدنيا ، والآخرة كما قال سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : 7] قرأ أبو جعفر ، وأبو عمرو ، وشيبة ، وهبير عن عاصم بإسكان الهاء من يرضه ، وأشبع الضمة على الهاء ابن ذكوان ، وابن كثير ، والكسائي ، وابن محيصن ، وورش عن نافع ، واختلس الباقون .

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ أي : لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية مستوفى ﴿ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير ، وشر ، وفيه تهديد شديد ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ أي : بما تضمره القلوب ، وتستره ، فكيف بما تظهره ، وتبديه .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ ﴾ أيّ : ضر كان من مرض ، أو فقر ، أو خوف ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ أي : راجعاً إليه مستغيثاً به في دفع ما نزل به تاركاً لما كان يدعوه ، ويستغيث به من ميت ، أو حيّ ، أو صنم ، أو غير ذلك ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ أي : أعطاه ، وملكه ، يقال : خوّله الشيء ، أي : ملكه إياه ، وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد :

هنالك إن يستخولوا المال يخولوا . . . وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا

ومنه قول أبي النجم :

أعطى ولم يبخل ولم يُبَخّل . . . كوم الذرى من خول المخوّل

﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي : نسي الضرّ الذي كان يدعو الله إلى كشفه عنه من قبل أن يخوله ما خوله .

(107/666)

وقيل : نسي الدعاء الذي كان يتضرع به ، وتركه ، أو نسي ربه الذي كان يدعوه ، ويتضرّع إليه ، ثم جاوز ذلك إلى الشرك بالله ، وهو معنى قوله : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ أي : شركاء من الأصنام ، أو غيرها يستغيث بها ، ويعبدها ﴿ لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي : ليضل الناس عن طريق الله التي هي الإسلام ، والتوحيد .

وقال السدّي : يعني : أنداداً من الرجال يعتمد عليهم في جميع أموره .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم : أن يهدّد من كان متصفاً بتلك الصفة ، فقال : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ أي : تمتعاً قليلاً ، أو زماناً قليلاً ، فمتاع الدنيا قليل ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصحاب النار ﴾ أي : مصيرك إليها عن قريب ، وفيه من التهديد أمر عظيم .

قال الزجاج : لفظه لفظ الأمر ، ومعناه : التهديد ، والوعيد .

قرأ الجمهور : ﴿ ليضل ﴾ بضم الياء ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بفتحها .

ثم لما ذكر سبحانه صفات المشركين ، وتمسكهم بغير الله عند اندفاع المكروهات عنهم ذكر صفات المؤمنين ، فقال : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء اليل ﴾ ، وهذا إلى آخره من تمام الكلام المأمور به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : ذلك الكافر أحسن حالاً ، ومآلاً ، أمن هو قائم بطاعات الله في السرّاء ، والضرّاء في ساعات الليل ، مستمرّ على ذلك ، غير مقتصر على دعاء الله سبحانه عند نزول الضرر به .

قرأ الحسن ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم ، والكسائي : ﴿ أمن ﴾ بالتشديد ، وقرأ نافع ، وابن كثير ، وحمزة ، ويحيى بن وثاب ، والأعمش بالتخفيف ، فعلى القراءة الأولى أم داخلة على من الموصولة ، وأدغمت الميم في الميم ، وأم هي المتصلة ، ومعادلها محذوف تقديره : الكافر خير أم الذي هو قانت .

(108/666)

وقيل : هي المنقطعة المقدّرة ببل ، والهمزة ، أي : بل أمن هو قانت كالكافر ، وأما على القراءة الثانية ، فقيل : الهمزة للاستفهام دخلت على من ، والاستفهام للتقرير ، ومقابله

محذوف ، أي : أمن هو قانت كمن كفر .

وقال الفراء : إن الهمزة في هذه القراءة للنداء ، ومن منادى ، وهي عبارة عن النبي صلى الله عليه وسلم المأمور بقوله : ﴿ قل تمتع ﴾ ، والتقدير : يا من هو قانت ، قل : كيت ، وكيت .

وقيل : التقدير : يا من هو قانت إنك من أصحاب الجنة .

ومن القائلين بأن الهمزة للنداء الفرّاء ، وضعف ذلك أبو حيان ، وقال : هو أجنبيّ عما قبله ، وعما بعده ، وقد سبقه إلى هذا التضعيف أبو عليّ الفارسي ، واعترض على هذه القراءة من أصلها أبو حاتم ، والأخفش ، ولا وجه لذلك ، فإنا إذا ثبتت الرواية بطلت الدّراية .

وقد اختلف في تفسير القانت هنا ، فقيل : المطيع .

وقيل : الخاشع في صلاته .

وقيل : القائم في صلاته .

وقيل : الدّاعي لربه .

قال النحاس : أصل القنوت الطاعة ، فكل ما قيل فيه ، فهو داخل في الطاعة ، والمراد بآناء الليل : ساعاته .

وقيل : جوفه .

وقيل : ما بين المغرب ، والعشاء ، وانتصاب ﴿ ساجدا وَقَائِماً ﴾ على الحال ، أي : جامعاً بين السجود ، والقيام ، وقدّم السجود على القيام لكونه أدخل في العبادة ، ومحل ﴿ يَحْذَرُ الأخرة ﴾ النصب على الحال أيضاً ، أي : يحذر عذاب الآخرة قاله سعيد بن جبير ، ومقاتل ﴿ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ ، فيجمع بين الرجاء ، والخوف ، وما اجتمعا في قلب رجل إلا فاز .

قيل : وفي الكلام حذف ، والتقدير : كمن لا يفعل شيئاً من ذلك كما يدل عليه السياق .

(109/666)

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم قولاً آخر يتبين به الحقّ من الباطل ، فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : الذين يعلمون أن ما وعد الله به من البعث ، والثواب ، والعقاب حق ، والذين لا يعلمون ذلك ، أو الذين يعلمون ما أنزل الله على رسله ، والذين لا يعلمون ذلك ، أو المراد : العلماء والجهال ، ومعلوم عند كل من له عقل أنه لا استواء بين العلم والجهل ، ولا بين العالم والجاهل .

قال الزجاج : أي كما لا يستوي الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون ، كذلك لا يستوي المطيع ، والعاصي .

وقيل : المراد بالذين يعلمون : هم : العاملون بعلمهم ، فإنهم المنتفعون به ، لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلباب ﴾ أي : إنما يتعظ ، ويتدبر ، ويتفكر أصحاب العقول ، وهم المؤمنون لا الكفار ، فإنهم ، وإن زعموا أن لهم عقولاً ، فهي كالعدم ، وهذه الجملة ليست من جملة الكلام المأمور به بل من جهة الله سبحانه .

﴿ قُلْ يا عِبَادِ الذين ءامَنُواْ اتقوا رَبَّكُمْ ﴾ لما نفى سبحانه المساواة بين من يعلم ، ومن لا يعلم ، وبين أنه ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلباب ﴾ أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يأمر المؤمنين من عباده بالثبات على تقواه ، والإيمان به .

والمعنى : يا أيها الذين صدّقوا بتوحيد الله اتقوا ربكم بطاعته ، واجتناب معاصيه ، وإخلاص الإيمان له ، ونفي الشركاء عنه ، والمراد : قل لهم قولي هذا بعينه .

ثم لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتقوى بين لهم ما في هذه التقوى من الفوائد ، فقال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ أي : للذين عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص حسنة عظيمة ، وهي : الجنة ، وقوله : ﴿ فِى هذه الدنيا ﴾ متعلق بأحسنوا .

(110/666)

وقيل : هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها ، فيكون المعنى : للذين أحسنوا في العمل حسنة في الدنيا بالصحة ، والعافية ، والظفر ، والغنيمة ، والأوّل أولى .

ثم لما كان بعض العباد قد يتعسر عليه فعل الطاعات ، والإحسان في وطنه أرشد الله سبحانه من كان كذلك إلى الهجرة ، فقال : ﴿ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ ﴾ أي : فليهاجر إلى حيث يمكنه طاعة الله .

والعمل بما أمر به ، والترك لما نهى عنه ، ومثل ذلك قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسعة فتهاجروا فِيهَا ﴾ [النساء : 97] ، وقد مضى الكلام في الهجرة مستوفى في سورة النساء .

وقيل : المراد بالأرض هنا : أرض الجنة ، رغبهم في سعتها ، وسعة نعيمها كما في قوله : ﴿ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السموات والأرض ﴾ [آل عمران : 133] ، والأوّل أولى .

ثم لما بيّن سبحانه ما للمحسنين إذا أحسنوا ، وكان لا بدّ في ذلك من الصبر على فعل الطاعة ، وعلى كفّ النفس عن الشهوات ، أشار إلى فضيلة الصبر ، وعظيم مقداره ، فقال : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي : يوفيهم الله أجرهم في مقابلة صبرهم بغير حساب ، أي : بما لا يقدر على حصره حاصر ، ولا يستطيع حسبانه حاسب .

قال عطاء : بما لا يهتدي إليه عقل ، ولا وصف .

وقال مقاتل : أجرهم الجنة ، وأرزاقهم فيها بغير حساب .

(111/666)

والحاصل : أن الآية تدلّ على أن ثواب الصابرين ، وأجرهم لا نهاية له ، لأن كل شيء يدخل تحت الحساب ، فهو : متناهٍ ، وما كان لا يدخل تحت الحساب ، فهو : غير متناه ، وهذه فضيلة عظيمة ، ومثوبة جليلة تقتضي أن على كل راغب في ثواب الله ، وطامع فيما عنده من الخير ، أن يتوفر على الصبر ، ويزّم نفسه بزمامه ، ويقيدها بقيده ، فإن الجزع لا يردّ قضاء قد نزل ، ولا يجلب خيراً قد سلب ، ولا يدفع مكروهاً قد وقع ، وإذا تصوّر العاقل هذا حقّ تصوره ، وتعقله حقّ تعقله علم أن الصابر على ما نزل به قد فاز بهذا الأجر العظيم ، وظفر بهذا الجزاء الخطير ، وغير الصابر قد نزل به القضاء شاء أم أبى ، ومع ذلك فاته من الأجر ما لا يقادر قدره ، ولا يبلغ مداه ، فضمّ إلى مصيبته مصيبة أخرى ، ولم يظفر بغير الجزع ، وما أحسن قول من قال :

أرى الصبر محموداً وعنه مذاهب . . . فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب

هناك يحق الصبر والصبر واجب . . . وما كان منه للضرورة أوجب

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بما أمر به من التوحيد ، والإخلاص ، فقال : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدين ﴾ أي : أعبده عبادة خالصة من الشرك ، والرّياء ، وغير ذلك ؛ قال مقاتل : إن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ما يحملك على الذي أتيتنا به ، ألا تنظر إلى ملة أبيك ، وجدّك ، وسادات قومك يعبدون اللات ، والعزّى ، فتأخذ بها ؟ فأنزل الله الآية ، وقد تقدّم بيان معنى الآية في أوّل هذه السورة ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين ﴾ أي : من هذه الأمة ، وكذلك كان صلى الله عليه وسلم ، فإنه أوّل من خالف دين آبائه ، ودعا إلى التوحيد ، واللام للتعليل ، أي : وأمرت بما أمرت به لأجل أن أكون .

وقيل : إنها مزيدة للتأكيد ، والأوّل أولى .

(112/666)

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ يعني : الكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، فيقولون لا إله إلا الله ، ثم قال : ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ ، وهم : عباده المخلصون الذين قال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [الإسراء : 65]

، فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله ، وحببها إليهم .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ قال : لا يرضى لعباده المسلمين الكفر .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة قال : والله ما رضي الله لعبد ضلالة ، ولا أمره بها ، ولا دعا إليها ، ولكن رضي لكم طاعته ، وأمركم بها ، ونهاكم عن معصيته .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن عساكر عن ابن عمر : أنه تلا هذه الآية : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء اليل ساجدا وَقَائِماً يَحْذَرُ الأخرة ﴾ قال : ذاك عثمان بن عفان ، وفي لفظ : نزلت في عثمان بن عفان .

وأخرج ابن سعد في طبقاته ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾ الآية قال : نزلت في عمار بن ياسر .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ يَحْذَرُ الأخرة ﴾ يقول : يحذر عذاب الآخرة .

وأخرج الترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن أنس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل ، وهو في الموت ، فقال : كيف تجدك ؟ قال : أرجو الله ، وأخاف ذنوبي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو ، وأمنه الذي يخاف " أخرجوه من طريق سيار بن حاتم ، عن جعفر

بن سليمان ، عن ثابت ، عن أنس .

قال الترمذي : غريب ، وقد رواه بعضهم عن ثابت ، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(113/666)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) ﴾

بعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بخطاب المسلمين بقوله : ﴿ قُل يا عِبادِ الذين ءَامنوا اتَّقُوا ﴾ [الزمر : 10] أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أن يقول قولاً يتعين أنه مَقول لغير المسلمين .

نقل الفخر عن مقاتل : أن كفار قريش قالوا للنبيء صلى الله عليه وسلم ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به ، ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللاّت والعُزّى ، فأنزل الله : ﴿ قل إني أُمرتُ أن أعْبُدَ الله مُخلصاً له الدِّينَ ﴾ .

وحقاً فإن إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بذلك إذا حمل على صريحه إنما يناسب توجيهه إلى المشركين الذي يبْتغون صرفه عن ذلك .

ويجوز أن يكون موجهاً إلى المسلمين الذين أذن الله لهم بالهجرة إلى الحبشة على أنه توجيه لبقائه بمكة لا يهاجر معهم لأن الإِذن لهم بالهجرة للأمن على دينهم من الفتن ، فلعلهم ترقبوا أن يهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم معهم إلى الحبشة فآذنهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله أمره أن يعبد الله مخلصاً له الدين ، أي أن يوحده في مكة فتكون الآية ناظرة إلى قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين ﴾ [الحجر : 94 95] ، أي أن الله أمره بأن يقيم على التبليغ بمكة فإنه لو هاجر إلى الحبشة لانقطعت الدعوة وإنما كانت هجرتهم إلى الحبشة رخصة لهم إذ ضعفوا عن دفاع المشركين عن دينهم ولم يرخَّص ذلك للنبيء صلى الله عليه وسلم

وقد جاء قريب من هذه الآية بعد ذكر أن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومماته لله ، أي فلا يَفرق من الموت في سبيل الدين وذلك قوله تعالى في سورة [الأنعام : 162 - 163] :

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾

(114/666)

فكان قوله : لأنْ أكُونَ أوّلَ المُسلمين ﴾ علة ل ﴿ أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ ، فالتقدير : وأمِرت بذلك لأن أكون أول المسلمين ، فمتعلِّق ﴿ أُمِرْتُ ﴾ محذوف لدلالة قوله : ﴿ أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ عليه .

ف ﴿ أول هنا مستعمل في مجازه فقط إذ ليس المقصود من الأولية مجرد السبق في الزمان فإن ذلك حصل فلا جدوى في الإِخبار به ، وإنما المقصود أنه مأمور بأن يكون أقوى المسلمين إسلاماً بحيث أن ما يقوم به الرسول من أمور الإِسلام أعظم مما يقوم به كل مسلم كما قال : إني لأتقاكم لله وأعلمكم به .

وعطف وأمرت ﴾ الثاني على ﴿ أُمِرْتُ ﴾ الأول للتنويه بهذا الأمر الثاني ولأنه غَاير الأمر الأول بضميمة قيد التعليل فصار ذكر الأمر الأول لبيان المأمور ، وذكرُ الأمر الثاني لبيان المأمور لأجله ، ليشير إلى أنه أمر بأمرين عظيمين : أحدهما يشاركه فيه غيره وهو أن يعبد الله مخلصاً له الدين ، والثاني يختص به وهو أن يعبده كذلك ليكون بعبادته أولَ المسلمين ، أي أمره الله بأن يبلُغ الغاية القصوى في عبادة الله مخلصاً له الدين ، فجعل وجوده متمحضاً للإِخلاص على أي حال كان كما قال في الآية الأخرى:

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام : 162 ، 163] .

واعلم أنه لما كان الإِسلام هو دين الأنبياء في خاصتهم كما تقدم عند قوله تعالى ﴿ فلا تموتن

إلا وأنتم مسلمون ﴾ في سورة [البقرة : 132] ونظائرها كثيرة ، كانت في هذه الآية دلالةٌ على أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل الرسل لشمول لفظ المسلمين للرسل السابقين .

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13)

هذا القول متعين لأن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم مأموراً بأن يواجه به المشركين الذين كانوا يحاولون النبي صلى الله عليه وسلم أن يترك الدعوة وأن يتابع دينهم .

(115/666)

وهما أحد الشقين اللذين وجّه الخطاب السابق إليهما ، وتعيينُ كلّ لما وجّه إليه منطوٍ بقرينة السياق وقرينةِ ما بعده من قوله : ﴿ فاعبدوا ما شِئْتُم من دُونه ﴾ [الزمر : 15] .

وإعادة الأمر بالقول على هذا للتأكيد اهتماماً بهذا المقول ، وأمّا على الوجه الثاني من الوجهين المتقدمين في المراد من توجيه المطلب في قوله : ﴿ إِني أُمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ [الزمر : 11] الآية فتكون إعادة فعل ﴿ قل ﴾ لأجل اختلاف المقصودين بتوجيه القول إليهم ، وقد تقدم قول مقاتل : قال كفار قريش للنبيء : ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به ألاَ تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللاّتَ والعزّى .

قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (14)

أمر بأن يعيد التصريح بأنه يعبد الله وحده تأكيداً لقوله : ﴿ قل إني أُمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ [الزمر : 11] ، لأهميته ، وإن كان مفاد الجملتين واحداً لأنهما معاً تفيدان أنه لا يعبد إلا الله تعالى باعتبار تقييد ﴿ أَعْبُدَ الله ﴾ الأول بقيد ﴿ مُخلصاً له الدين ﴾ وباعتبار تقديم المفعول على ﴿ أَعْبُد ﴾ الثاني فتأكد معنى التوحيد مرتين ليتقرر ثلاث مرات ، وتمهيداً لقوله : ﴿ فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ وهو المقصود .

والفاء في قوله : ﴿ فَاعْبُدُوا ﴾ الخ لتفريع الكلام الذي بعدها على الكلام قبلها فهو تفريع ذكري .

والأمر في قوله : ﴿ فاعبدوا ما شِئْتُم مِن دونِهِ ﴾ مستعمل في معنى التخلية ، ويعبر عنه بالتسوية .

والمقصود التسوية في ذلك عند المتكلم فتكون التسوية كناية عن قلة الاكتراث بفعل المخاطب ، أي أن ذلك لا يضرني كقوله في سورة [الكهف : 29] : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ، أي اعبدوا أيّ شيء شئتم عبادتَه من دون الله .

وجعلت الصلة هنا فعل المشيئة إيماء إلى أن رائدهم في تعيين معبوداتهم هو مجرد المشيئة والهوى بلا دليل .

دُونِهِ قُلْ إِنَّ الخاسرين الذين خسروا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة أَلَا ذَلِكَ هُوَ الخسران ﴾ أعقب أمر التسوية في شأنهم بشيء من الموعظة حرصاً على إصلاحهم على عادة القرآن ، ولوحظ في إبلاغهم هذه الموعظة مقام ما سبق من التخلية بينهم وبين شأنهم جمعاً بين الإِرشاد وبين التوبيخ ، فجيء بالموعظة على طريق التعريض والحديث عن الغائب والمراد المخاطبون .

وافتتح المقول بحرف التوكيد تنبيهاً على أنه واقع وتعريف ﴿ الخَاسِرِينَ ﴾ تعريف الجنس ، أي أن الجنس الذين عرفوا بالخسران هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم .

وتعريف المسند والمسند إليه من طريق القصر ، فيفيد هذا التركيب قصر جنس الخاسرين على الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ، وهو قصر مبالغة لكمال جنس الخسران في الذين خسروا أنفسهم وأهليهم فخسران غيرهم كَلاَ خسران ، ولهذا يقال في لام التعريف في مثل هذا التركيب إنها دالة على معنى الكمال فليسوا يريدون أن معنى الكمال من معاني لام التعريف .

ولما كان الكلام مسوقاً بطريق التعريض بالذين دَار الجدال معهم من قوله : ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم إلى قوله : فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ [الزمر : 157] ، عُلم أن المراد بالذين خسروا أنفسهم وأهليهم هم الذين جرى الجدال معهم ، فأفاد معنى : أن

الخاسرين أنتم ، إلا أن وجه العدول عن الضمير إلى الموصولية في قوله : ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ لإِدماج وعيدهم بأنهم يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

ومعنى خسرانهم أنفسهم : أنهم تسببوا لأنفسهم في العذاب في حين حسبوا أنهم سعوا لها في النعيم والنجاح ، وهو تمثيل لحالهم في إيقاع أنفسهم في العذاب وهم يحسبون أنهم يُلقونها في النعيم ، بحال التاجر الذي عرض ماله للنماء والربح فأصيب بالتلف ، فأطلق على هذه الهيئة تركيب ﴿ خَسِرُوا أنفسَهُم ﴾ ، وقد تقدم في قوله تعالى:

(117/666)

﴿ ومن خفَّت موازينُه فأُولئكَ الذين خَسِروا أنفُسَهُم بما كانوا بأياتِنا يظلِمُون ﴾ في أوّل سورة [الأعراف : 9] .

وأما خسرانهم أهليهم فهو مِثل خسرانهم أنفسهم وذلك أنهم أغروا أهليهم من أزواجهم وأولادهم بالكفر كما أوقعوا أنفسهم فيه فلم ينتفعوا بأهليهم في الآخرة ولم ينفعوهم : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه ﴾ [عبس : 37] ، وهذا قريب من قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ [التحريم : 6] ، فكان خسرانهم خسراناً عظيماً .

فقوله : ﴿ أَلاَ ذَلِكَ هو الخُسرانُ المبينُ ﴾ استئناف هو بمنزلة الفذلكة والنتيجة من الكلام السابق لأن وصف ﴿ الذين خسروا ﴾ بأنهم خسروا أحب ما عندهم وبأنهم الذين انحصر فيهم جنس الخاسرين ، يستخلص منه أن خسارتهم أعظم خسارة وأوضحها للعيان ، ولذلك أوثرت خسارتهم باسم الخسران الذي هو اسم مصدر الخسارة دالٌّ على قوة المصدر والمبالغة فيه .

وأشير إلى العناية والاهتمام بوصف خسارتهم ، بأن افتتح الكلام بحرف التنبيه داخلاً على اسم الإِشارة المفيد تمييز المشار إليه أكمل تمييز ، وبتوسط ضمير الفصل المفيد للقصر وهو قصر ادعائي ، والقول فيه كالقول في الحصر في قوله : ﴿ إنَّ الخاسِرينَ الذين خَسِروا أنفسهم وأهليهم ﴾ .

﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ .

بدل اشتمال من جملة ﴿ أَلا ذَلِكَ هو الخسرانُ المبينُ ﴾ [الزمر : 15] ، وخص بالإِبدال لأنه أشد خسرانهم عليهم لتسلطه على إهلاك أجسامهم .

والخسران يشتمل على غير ذلك من الخزي وغضب الله واليأس من النجاة .

فضمير ﴿ لهم ﴾ عائد إلى مجموع ﴿ أنفُسَهُم وأهْلِيهِم ﴾ [الزمر : 15] .

والظلل : اسم جمع ظلة ، وهي شيء مرتفع من بناء أو أعواد مثل الصُّفَّة يستظل به الجالس تحته ، مشتقة من الظلّ لأنها يكون لها ظِلّ في الشمس ، وتقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ﴾ في سورة [البقرة : 210] ، وقوله : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل ﴾ في سورة [لقمان : 32] .

وهي هنا استعارة للطبقة التي تعلو أهل النار في نار جهنم بقرينة قوله : ﴿ مِنَ النَّارِ ﴾ ، شبهت بالظلة في العلوّ والغشيان مع التهكم لأنهم يتمنون ما يحجب عنهم حرّ النار فعبر عن طبقات النار بالظُّلَل إشارة إلى أنهم لا واقي لهم من حر النار على نحو تأكيد الشيء بما يشبه ضده ، وقوله ﴿ لهم ﴾ ترشيح للاستعارة .

وأما إطلاق الظلل على الطبقات التي تحتهم فهو من باب المشاكلة ولأن الطبقات التي تحتهم من النار تكون ظللاً لكفار آخرين لأن جهنم دركات كثيرة .

﴿ ظُلَلٌ ذلك يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ ﴾ .

تذييل للتهديد بالوعيد من قوله تعالى : ﴿ قُل إنَّ الخاسرين الذين خسِرُوا أنفسهم ﴾ [الزمر : 15] الآية ، أو استئناف بياني بتقدير سؤال يخطر في نفس السامع لوصف عذابهم بأنه ظلل من النار من فوقهم وظلل من تحتهم أن يقول سائل : ما يقع إعداد العذاب لهم في الآخرة بعد فوات تدارك كفرهم ؟ فأجيب بأن الله جعل ذلك العذاب في الآخرة لتخويف

الله عباده حين يأمرهم بالاستقامة ويشرع لهم الشرائع ليعلموا أنهم إذا لم يستجيبوا لله ورسله تكون ذلك عاقبتهم .

ولما كان وعيد الله خبراً منه ولا يكون إلا صدقاً حقق لهم في الآخرة ما توعدهم به في الحياة وتخويف الله به معناه أنه يخوفهم بالإِخبار به وبوصفه ، أما إذاقتهم إياه فهي تحقيق للوعيد .

ويعلم من هذا بطريق المقابلة جعل الجنة لترغيب عباده في التقوى ، إلا أنه طوى ذكره لأن السياق موعظة لأهل الشرك فالله جعل الجنة وجهنم إتماماً لحكمته ومراده من نظام الحياة الدنيا ليكون الناس فيها على أكمل ما ترتقي إليه النفس الزكية .

(119/666)

والظاهر أن الجنة جعلها الله مسكناً لأهل النفوس المقدسة من الملائكة والناس مثل الرسل فلذلك هي مخلوقة من قبل ظهور التكليف ، وأما جهنم فيحتمل أنها مقدمة وهو ظاهر حديث : "اشتكت النار إلى ربها فقالت : أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنَفَسَيْن نفس في الشتاء ونفس في الصيف" .

ويحتمل أنها تخلق يوم الجزاء ويتأول الحديث .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما وصف من الخسران والعذاب بتأويل المذكور .

والتخويف : مصدر خوفه ، إذا جعله خائفاً إذا أراه ووصف له شيئاً يثير في نفسه الخوف ، وهو الشعور بما يؤلم النفس بواسطة إحدى الحواس الخمس .

والعباد المضاف إلى ضمير الجلالة في الموضعين هنا يعمّ كل عبد من الناس من مؤمن وكافر إذ الجميع يخافون العذاب على العصيان ، والعذاب متفاوت وأقصاه الخلود لأهل الشرك ، وليس العباد هنا مراداً به أهل القرب لأنه لا يناسب مقام التخويف ولأن قرينة قوله : ﴿ عِبَادَهُ ﴾ تدل على أن المنادَين جميع العباد ، ففرق بينه وبين نحو ﴿ يا عبادِ لا خوف عليكم اليوم ﴾ [الزخرف : 68] .

﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾

تفريع وتعقيبِ لجملة ﴿ ذلك يُخوّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَه ﴾ لأن التخويف مؤذن بأن العذاب أعد لأهل العصيان فناسب أن يعقب بأمر الناس بالتقوى للتفادي من العذاب .

وقدم النداء على التفريع مع أن مقتضى الظاهر تأخيره عنه كقوله تعالى : ﴿ واتقون يا أولي الألباب ﴾ في سورة [البقرة : 197] لأن المقام هنا مقام تحذير وترهيب ، فهو جدير باسترعاء ألباب المخاطبين إلى ما سيرد من بعد من التفريع على التخويف بخلاف آية البقرة فإنها في سياق الترغيب في إكمال أعمال الحج والتزود للآخرة فلذلك جاء الأمر بالتقوى فيها معطوفاً بالواو .

وحذفت ياء المتكلم من قوله : ﴿ يا عِبادِ ﴾ على أحد وجوه خمسة في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(120/666)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ .

مضى القولُ في معنى الإخلاص . وفي الخبر : إن الله يقول : " الإخلاص سِرٌّ بين الله وعَبْدِه " .

ويقال الإخلاصُ لا يُفْسِدُه الشيطان ولا يطَّلِعُ عليه المَلَكَان .

﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴾ ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ في وقتي وفي شرعي .

والإسلامُ الانقيادُ لله بكل وجه .

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13)

أخاف أصنافَ العذابِ التي تحصل في ذلك اليوم .

قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (14)

هذا غاية الزجر والتهديد ، ثم بيَّنَ أن ذلك غاية الخسران ، وهو الخزي والهوان . والخاسِرُ – على الحقيقة – مَنْ خَسِرَ دنياه بمتابعة الهوى ، وخَسِرَ عُقْباه بارتكابه ما الربُّ عنه نَهَى ، وخَسِرَ مولاه فلم يستح منه فيما رأى .

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (16)

أحاط بهم سُرَادِقُها ؛ فهم لا يخرجون منها ، ولا يَفْتُرُون عنها . كما أنهم اليومَ في جهنم عقائدِهم ؛ يستديم حجابُهم ، ولا ينقطع عنهم عقابهم .

﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ . . . ﴾ إِنْ خِفْتَ اليومَ كُفِيتَ خوفَ ذلك اليوم وإلاَّ فبين يديك عقبة كَؤُود . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 272.274 ﴾

(121/666)

﴿ بحث بعنوان : نور الإخلاص وظلمات إرادة الدنيا بعمل الآخرة في ضوء الكتاب والسنة

د . سعيد بن علي بن وهف القحطاني ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليما كثيرا ، أما بعد .

فهذه رسالة مختصرة في "نور الإخلاص وظلمات إرادة الدنيا بعمل الآخرة" بينت فيها : مفهوم الإخلاص وأهميته ، ومكانة النية الصالحة ، وذكرت خطر إرادة الدنيا بالعمل الصالح ، وأنواع العمل للدنيا ، وخطر الرياء ، وأنواعه ، وأقسامه ، وأثره على العمل ، وأسبابه ودوافعه ، وطرق تحصيل الإخلاص .

ولا شك أن الإخلاص سبب للنصر ، والنجاة من عذاب الله ، ورفع المنزلة في الدنيا والآخرة ، والفوز بحب الله ، ثم حب أهل السماوات والأرض للمخلص ، وهذا في الحقيقة نور يقذفه الله في قلب من شاء من عباده: ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ [النور: 40] ، وإرادة الدنيا بعمل الآخرة ، ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ؛ لأن ذلك ينافي كمال التوحيد ويحبط العمل الذي قارنه ، قال الله عز وجل: ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ [هود: 15 ، 16] .

وقد قسمت هذا البحث إلى مبحثين ، وتحت كل مبحث مطالب على النحو الآتي:

المبحث الأول: نور الإخلاص:

المطلق الأول: مفهوم الإخلاص .

المطلب الثاني: أهمية الإخلاص .

المطلب الثالث: مكانة النية الصالحة وثمراتها .

المطلب الرابع: ثمار الإخلاص وفوائده .

المبحث الثاني: ظلمات إرادة الدنيا بعمل الآخرة:

المطلب الأول: خطر إرادة الدنيا بعمل الآخرة .

المطلب الثاني: أنواع العمل للدنيا .

المطلب الثالث: خطر الرياء وأضراره .

المطلب الرابع: أنواع الرياء ودقائقه .

المطلب الخامس: أقسام الرياء وأثره على العمل .

المطلب السادس: أسباب الرياء ودوافعه .

المطلب السابع: طرق تحصيل الإخلاص وعلاج الرياء .

والله أسأل باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب أن يجعل هذا العمل القليل مباركا خالصا لوجهه الكريم ، مقربا لمؤلفه ، وقارئه ، وطابعه ، وناشره ، من الفردوس الأعلى من الجنة ، وأن ينفعني به في حياتي ، وبعد مماتي ، وأن ينفع به كل من انتهى إليه ، فإنه تعالى خير مسؤول وأكرم مأمول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

المؤلف

حرر في عصر يوم الثلاثاء الموافق 1419/10/16هـ

المبحث الأول: نور الإخلاص

المطلب الأول: مفهوم الإخلاص:

الإخلاص في اللغة: خلص يخلص خلوصا : صفا وزال عنه شوبه ، ويقال خلص من ورطته: سلم منها ونجا ، ويقال: خلصه تخليصا : أي نجاه . والإخلاص في الطاعة ترك الرياء(1) .

وحقيقة الإخلاص: هو أن يريد العبد بعمله التقرب إلى الله تعالى وحده .

وقد ذكر أهل العلم تعريفات بعضها قريب من بعض:

فقيل: الإخلاص: إفراد الحق – سبحانه – بالقصد في الطاعة .

وقيل: الإخلاص: استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن ، والرياء أن يكون ظاهره خيرا من باطنه ، والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه أعمر من ظاهره .

وقيل: تصفية العمل من كل ما يشوبه(2) .

وعلى ما تقدم: يتضح أن الإخلاص: صرف العمل والتقرب به إلى الله وحده ، لا رياء ولا سمعة ، ولا طلبا للعرض الزائل ، ولا تصنعا ، وإنما يرجو ثواب الله ويخشى عقابه ويطمع في رضاه .

ولهذا قال القاضي عياض: "ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما "(3) .

(123/666)

والإخلاص: في حياة المسلم أن يقصد بعمله ، وقوله ، وسائر تصرفاته ، وتوجيهاته وتعليمه وجه الله تعالى وحده لا شريك له ولا رب سواه .

المطلب الثاني: أهمية الإخلاص:

لقد خلق الله الخلق: الجن والإنس لعبادته وحده لا شريك له ، وأمر جميع المكلفين

بالإخلاص: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ [البينة: 5] ، وقال تعالى: ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ، ألا لله الدين الخالص ﴾ [الزمر: 2 ، 3] ، ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام: 162 ، 163] .

﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ [الملك: 2] .

قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه . قالوا: يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال: "إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا . والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة(4) . ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ [الكهف: 110] ، وقال تعالى: ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ [النساء: 125] . فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله ، والإحسان فيه: متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته(5) .

وقد ثبت في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم"(6) .

والإخلاص هو روح عمل المسلم ، وأهم صفاته ، فبدونه يكون جهده وعمله هباء منثورا .

(124/666)

والإخلاص من أهم أعمال القلوب باتفاق أئمة الإسلام ، ولاشك أن أعمال القلوب هي الأصل: لمحبة الله ورسوله ، والتوكل عليه ، والإخلاص له ، والخوف منه ، والرجاء له ، وأعمال الجوارح تبع ؛ فإن النية بمنزلة الروح والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح مات ، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح .

فيجب على المسلم أن يكون مخلصا لله – عز وجل – لا يريد رياء ولا سمعة ، ولا ثناء الناس ولا مدحهم وحمدهم ، إنما يعمل الصالحات ويدعو إلى الله يريد وجهه – تعالى – كما قال سبحانه: ﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله ﴾ [يوسف: 108] ، وقال سبحانه: ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله ﴾ [فصلت: 33] .

والإخلاص أعظم الصفات التي تجب على جميع المسلمين فيريدوا بدعوتهم وعملهم وجه الله والدار الآخرة ، ويريدوا إصلاح الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور(7) .

المطلب الثالث: مكانة النية الصالحة وثمراتها :

النية: أساس العمل وقاعدته، ورأس الأمر وعموده، وأصله الذي عليه بني؛ لأنها روح العمل، وقائده، وسائقه، والعمل تابع لها يصح بصحتها ويفسد بفسادها، وبها يحصل التوفيق، وبعدمها يحصل الخذلان، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة(8)، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى..."(9).

وقال الله تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾ [النساء: 114].

(125/666)

وهذا يدل على أهمية ومكانة النية، وأن الدعاة إلى الله وغيرهم من المسلمين بحاجة إلى إصلاح النية، فإذا صلحت أعطي العبد الأجر الكبير والثواب العظيم، ولو لم يعمل إنما نوى نية صادقة، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا"(10)، وقال صلى الله عليه وسلم: "ما من امرئ تكون له صلاة بليل فيغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة"(11).

وقال صلى الله عليه وسلم: "من توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد فوجد الناس قد صلوا أعطاه الله مثل أجر من صلى وحضر لا ينقص ذلك من أجره شيئا"(12) .

وقال صلى الله عليه وسلم: "من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه"(13) .

وهذا يدل على فضل الله سبحانه وتعالى وإحسانه إلى عباده ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك: "لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه" ، قالوا: يا رسول الله كيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ فقال: "حبسهم العذر"(14) .

وبالنية الصالحة يضاعف الله الأعمال اليسيرة ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لرجل جاء إليه مقنع بالحديد ، فقال يا رسول الله: أقاتل أو أسلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "أسلم ثم قاتل" ، فأسلم ثم قاتل فقتل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عمل قليلا وأجر كثيرا"(15) .

وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل في الإسلام ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه الإسلام وهو في مسيره فدخل خف بعيره في جحر يربوع فوقصه بعيره فمات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عمل قليلا وأجر كثيرا" قالها حماد ثلاثا(16) .

وبالنية الصالحة يبارك الله في الأعمال المباحة فيثاب عليها العبد ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة"(17) ، وقال صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: "إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك"(18) .

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو يخبط في ماله بغير علم ، لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا فهو بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما ، فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته ، فوزرهما سواء"(19) .

وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: "إن الله عز وجل كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة . . ."(20) .

المطلب الرابع: ثمار الإخلاص وفوائده

الإخلاص له ثمرات حميدة وفوائد جليلة عظيمة ، منها ما يلي:

1.خير الدنيا والآخرة من فضائل الإخلاص وثمراته .

2.الإخلاص هو السبب الأعظم في قبول الأعمال مع متابعة النبي صلى الله عليه وسلم .

3.الإخلاص يثمر محبة الله للعبد ، ثم محبة الملائكة ، ووضع القبول في الأرض .

4.الإخلاص أساس العمل ، وروحه .

5.يثمر الأجر الكبير والثواب العظيم بالعمل اليسير ، والدعاء القليل .

6.يكتب لصاحب الإخلاص كل عمل يقصد به وجه الله ولو كان مباحا .

7.يكتب لصاحب الإخلاص ما نوى من العمل ولو لم يعمله .

8.إذا نام أو نسي كتب له عمله الذي كان يعمله .

9.إذا مرض العبد أو سافر كتب له بإخلاصه ما كان يعمل صحيحا مقيما .

10.ينصر الله الأمة بالإخلاص .

(127/666)

11.الإخلاص يثمر النجاة من عذاب الآخرة .

12.تفريج كروب الدنيا والآخرة من ثمرات الإخلاص .

13.رفع المنزلة في الآخرة يحصل بالإخلاص .

14.الإنقاذ من الضلال .

15.الإخلاص سبب لزيادة الهدى .

16.الصيت الطيب عند الناس من ثمار الإخلاص .

17.طمأنينة القلب والشعور بالسعادة .

18.تزيين الإيمان في النفس .

19.التوفيق لمصاحبة أهل الإخلاص .

20.حسن الخاتمة .

21.استجابة الدعاء .

22.النعيم في القبر والتبشير بالسرور .

23.دخول الجنة والنجاة من النار .

وهذه الثمرات والفوائد أدلتها كثيرة من الكتاب والسنة(21) .

فأسأل الله لي ولإخواني المسلمين الإخلاص في القول والعمل .

المبحث الثاني: ظلمات إرادة الدنيا بعمل الآخرة

المطلب الأول: خطر إرادة الدنيا بعمل الآخرة:

من الخطر العظيم أن يعمل الإنسان عملا صالحا يريد به عرضا من الدنيا ، وهذا شرك ينافي

كمال التوحيد الواجب ويحبط العمل ، وهو أعظم من الرياء ؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته على كثير من عمله ، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل ولا يسترسل معه ، والمؤمن يكون حذرا من هذا وهذا .

والفرق بين الرياء ، وإرادة الإنسان بعمله الدنيا : هو أن بينهما عموم وخصوص مطلق يجتمعان في أن الإنسان إذا أراد بعمله التزين عند الناس ، ليروه ويعظموه ويمدحوه ، فهذا رياء ، وهو أيضا إرادة للدنيا ؛ لأنه تصنع عند الناس وطلب الإكرام منهم والمدح والثناء . أما العمل للدنيا فهو أن يعمل الإنسان عملا صالحا لا يقصد به الرياء للناس ، وإنما يقصد به عرضا من الدنيا : كمن يحج عن غيره ليأخذ مالا ، أو يجاهد للمغنم ، أو غير ذلك ، فالمرائي عمل لأجل المدح والثناء من الناس ، والعامل للدنيا يعمل العمل الصالح يريد به عرض الدنيا وكلاهما خاسر نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه(22) .

(128/666)

وقد جاءت النصوص تدل على خسران صاحب هذا العمل في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى: ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾

[هود: 16] ، وقال عز وجل: ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴾ [الإسراء: 17] ، وقال تعالى: ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ [الشورى: 20] ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ﴾ [البقرة: 200] .

وقال صلى الله عليه وسلم: "من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة" يعني ريحها (23) .

وعن جابر رضي الله عنه يرفعه: "لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا لتماروا به السفهاء ، ولا لتخيروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار"(24) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "لا تعلموا العلم لثلاث: لتماروا به السفهاء ، وتجادلوا به العلماء ، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم ، وابتغوا بقولكم ما عند الله ؛ فإنه يدوم ويبقى وينفذ ما سواه"(25) .

ولهذا تكفل الله بالسعادة لمن عمل لله ، فعن أنس يرفعه: "من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له"(26) .

المطلب الثاني: أنواع العمل للدنيا :

العمل للدنيا أنواع متعددة ، وقد ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى أنه جاء عن السلف في ذلك أربعة أنواع:

(129/666)

النوع الأول: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله تعالى: من صدقة ، وصلاة ، وإحسان إلى الناس ، ورد ظلم ، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصا لله تعالى ؛ لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة ، وإنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله ، وتنميته ، أو حفظه أهله وعياله ، أو إدامة النعم عليه وعليهم ، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار ، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب . وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف ، وهو أن يعمل أعمالا صالحة ونيته رياء الناس لا طلب ثواب الآخرة . وهو ما ذكر عن مجاهد رحمه الله تعالى .

النوع الثالث: أن يعمل أعمالا صالحة يقصد بها مالا ، مثل أن يحج عن غيره لمال يأخذه ، ولا يقصد بذلك وجه الله ولا الدار الآخرة ، أو يهاجر لدنيا يصيبها ، أو يجاهد لأجل المغنم ، أو يتعلم العلم ليحصل على الشهادة وعلى الجاه ، ولا يقصد بذلك وجه الله مطلقا ، أو

يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة ؛ لأجل وظيفة المسجد أو غيره من الوظائف الدينية ، ولا يريد بذلك ثوابا مطلقا .

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصا في ذلك لله وحده لا شريك له ، لكنه على عمل يكفره كفرا يخرجه عن الإسلام ، كمن يأتي بناقض من نواقض الإسلام . ذكر ذلك عن أنس رضي الله عنه وغيره(27) .

فليحذر المسلم مما يحبط عمله ويعرضه لسخط الله وغضبه ، وليحذر جميع المسلمين من هذه الأنواع الفاسدة نعوذ بالله منها .

المطلب الثالث: خطر الرياء وآثاره:

الرياء خطره عظيم جدا على الفرد والمجتمع والأمة ؛ لأنه يحبط العمل والعياذ بالله ويظهر خطره في الأمور الآتية:

1.الرياء أخطر على المسلمين من المسيح الدجال: قال صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟: الشرك الخفي أن يقوم الرجل فيصلي ، فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل"(28) .

2.الرياء أشد فتكا من الذئب في الغنم ، قال صلى الله عليه وسلم: "ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد من حرص المرء على المال والشرف لدينه"(29) .

وهذا مثل ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين فيه أن الدين يفسد بالحرص على المال وذلك بأن يشغله عن طاعة الله ، وبالحرص على الشرف في الدنيا بالدين ، وذلك إذا قصد الرياء والسمعة .

3.خطورة الرياء على الأعمال الصالحة خطر عظيم ؛ لأنه يذهب بركتها ، ويبطلها والعياذ بالله: ﴿ كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ [البقرة: 264] .

هذه هي آثار الرياء تمحق العمل الصالح محقا في وقت لا يملك صاحبه قوة ولا عونا ولا يستطيع لذلك ردا .

قال تعالى: ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ [البقرة: 266] .

فهذا العمل الصالح أصله كالبستان العظيم كثير الثمار ، فهل هناك أحد يحب أن تكون له هذه الثمار والبستان العظيم ثم يرسل عليها الرياء فيمحقها محقا ، وهو في أشد الحاجة

إليها ! !

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه"(30) ، وفي الحديث: "إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ، ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك"(31) .

4ـ يسبب عذاب الآخرة ولهذا أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: قارئ القرآن ، والمجاهد ، والمتصدق بماله ، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلان قارئ ، فلان شجاع ، فلان كريم متصدق . ولم تكن أعمالهم خالصة لله تعالى(32) .

(131/666)

5ـ الرياء يورث الذل والصغار والهوان والفضيحة ، قال صلى الله عليه وسلم: "من سمع سمع الله به ، ومن يرائي يرائي الله به"(33) .

6ـ الرياء يحرم ثواب الآخرة ، قال صلى الله عليه وسلم: "بشر هذه الأمة بالسناء(34) والدين ، والرفعة ، والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب"(35) .

7.الرياء سبب في هزيمة الأمة ، قال صلى الله عليه وسلم: "إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها ، بدعوتهم ، وصلاتهم ، وإخلاصهم"(36) ، وهذا يبين أن الإخلاص لله سبب في نصر الأمة على أعدائها وأن الرياء سبب في هزيمة الأمة !

8.الرياء يزيد الضلال ، قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ [البقرة: 9-10] .

المطلب الرابع: أنواع الرياء ودقائقه:

أبواب الرياء كثيرة نعوذ بالله من ذلك وهذه الأنواع على النحو الآتي:

1.أن يكون مراد العبد غير الله ، ويريد ويحب أن يعرف الناس أنه يفعل ذلك ، ولا يقصد الإخلاص مطلقا نعوذ بالله من ذلك ، فهذا نوع من النفاق .

2.أن يكون قصد العبد ومراده لله تعالى فإذا اطلع عليه الناس نشط في العبادة وزينها وهذا شرك السرائر ، قال صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس إياكم وشرك السرائر" ، قالوا: يا رسول الله: وما شرك السرائر ؟ قال: "يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهدا لما يرى من نظر الناس إليه فذلك شرك السرائر"(37) .

3.أن يدخل العبد في العبادة لله ويخرج منها لله فعرف بذلك ومدح فسكن قلبه إلى ذلك

المدح ومنى النفس بأن يحمدوه ويمجدوه ، وينال ما يريده من الدنيا ، وهذا السرور والرغبة في الازدياد منه والحصول على مطلوبه يدل على رياء خفي .

(132/666)

4.وهناك رياء بدني: كمن يظهر الصفار والنحول ، ليري الناس بذلك أنه صاحب عبادة قد غلب عليه خوف الآخرة . وقد يكون الرياء بخفض الصوت وذبول الشفتين ليدل الناس على أنه صائم .

5.رياء من جهة اللباس أو الزي: كمن يلبس ثيابا مرقعة ؛ ليقول الناس إنه زاهد في الدنيا ، أو من يلبس لباسا معينا يرتديه ويلبسه طائفة من الناس يعدهم الناس علماء فيلبس هذا اللباس ليقال عالم .

6.الرياء بالقول: وهو على الغالب رياء أهل الدين بالوعظ والتذكير ، وحفظ الأخبار والآثار لأجل المحاورة والمجادلة والمناظرة ، وإظهار غزارة العلم .

7.الرياء بالعمل كمراءاة المصلي بطول الصلاة والركوع والسجود ، وإظهار الخشوع ، والمراءاة في الصوم والحج والصدقة .

8.الرياء بالأصحاب والزائرين: كالذي يكلف أن يستزير عالما ؛ ليقال إن فلانا قد زار فلانا

، ودعوة الناس لزيارته كي يقال: إن أهل الدين يترددون عليه .

9. الرياء بذم النفس بين الناس ، ويريد بذلك أن يري الناس أنه متواضع عند نفسه فيرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به وهذا من دقائق أبواب الرياء .

10. ومن دقائق الرياء وخفاياه: أن يخفي العامل طاعته بحيث لا يريد أن يطلع عليها أحد ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدءوه بالسلام ، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير ، وأن يثنوا عليه ، وأن ينشطوا في قضاء حوائجه ، وأن يسامحوه في البيع والشراء ، فإن لم يجد ذلك وجد ألما في نفسه ، كأنه يتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها .

(133/666)

---

11. ومن دقائق الرياء أن يجعل الإخلاص وسيلة لما يريد من المطالب ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "حكي أن أبا حامد الغزالي بلغه أن من أخلص لله أربعين يوما تفجرت الحكمة من قلبه على لسانه . قال: فأخلصت أربعين يوما ، فلم يتفجر شيء فذكرت ذلك لبعض العارفين فقال لي: إنك أخلصت للحكمة لم تخلص لله"(38) ، وذلك أن الإنسان قد يكون مقصوده نيل الحلم والحكمة ، أو نيل تعظيم الناس له ومدحهم له ، أو غير ذلك من

المطالب . وهذا لم يحصل بالإخلاص لله وإرادة وجهه ؛ وإنما حصل هذا العمل لنيل ذلك المطلوب .

المطلب الخامس: أقسام الرياء وأثره على العمل:

الرياء أعاذنا الله منه أقسام ودركات ينبغي لكل مسلم أن يعرف هذه الأقسام ؛ ليهرب منها وهي على النحو الآتي:

1. أن يكون العمل رياء محضا ، ولا يراد به إلا مراءاة المخلوقين كحال المنافقين: ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يرآءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ [النساء: 142] ، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام ، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة ، وهذا العمل لا شك في بطلانه وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة ، والعياذ بالله .

2. أن يكون العمل لله ويشاركه الرياء من أصله – أي من أوله إلى آخره – فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وحبوطه أيضا .

3. أن يكون أصل العمل لله ثم طرأت عليه نية الرياء أثناء العبادة فهذه العبادة لا تخلو من حالين:

(أ) أن لا يرتبط أول العبادة بآخرها ، فأولها صحيح بكل حال وآخرها باطل . مثل ذلك: إنسان عنده عشرون ريالا يريد أن يتصدق بها ، فتصدق بعشرة خالصة لله ، ثم طرأ عليه

الرياء في العشرة الباقية ، فالصدقة الأولى صحيحة مقبولة ، والثانية صدقة باطلة لاختلاط الرياء فيها بالإخلاص .

(ب) أن يرتبط أول العبادة بآخرها فلا يخلو الإنسان حينئذ من أمرين:

الأمر الأول: أن يكون هذا الرياء خاطرا ثم دفعه الإنسان ولم يسكن إليه ، وأعرض عنه وكرهه ، فإنه لا يضره بغير خلاف ، لقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا"(39) .

الأمر الثاني: أن يسترسل معه الرياء ويطمئن إليه ولا يدافعه ويحبه فتبطل جميع العبادة على الصحيح ؛ لأن أولها مرتبط بآخرها ، مثال ذلك من ابتدأ الصلاة مخلصا بها لله تعالى ثم طرأ عليه الرياء في الركعة الثانية واسترسل معه إلى نهاية صلاته ، ولم يدافعه فتبطل الصلاة كلها لارتباط أولها بآخرها(40) .

4ـ أن يكون الرياء بعد الانتهاء من العبادة(41) .

وأما إذا عمل المسلم العمل لله خالصا ثم ألقى الله الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك ، ففرح بفضل الله ورحمته ، واستبشر بذلك لم يضره ذلك ، فقد سئل رسول الله صلى الله

عليه وسلم عن الرجل يعمل العمل لله من الخير ثم يحمده الناس عليه ، فقال: "تلك عاجل بشرى المؤمن"(42) .

المطلب السادس: أسباب الرياء ودوافعه:

أصل الرياء حب الجاه والمنزلة ، ومن غلب على قلبه حب هذا صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ، مشغوفا بالتردد إليهم ، والمراءاة لهم ولا يزال في أقواله وأفعاله وتصرفاته ملتفتا إلى كل ما يعظم منزلته عند الناس ، وهذا أصل الداء والبلاء ، فإن من رغب في ذلك احتاج إلى الرياء في العبادات ، واقتحام المحظورات . وهذا باب غامض لا يعرفه إلا العلماء بالله ، العارفون به ، المحبون له .

وإذا فصل هذا السبب والمرض الفتاك رجع إلى ثلاثة أصول:

1 ـ حب لذة الحمد والثناء والمدح.

2 ـ الفرار من الذم.

3 ـ الطمع فيما في أيدي الناس(43) .

ويشهد لهذا ما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"(44) .

فقوله "يقاتل شجاعة" أي ليذكر ويشكر ويمدح ويثنى عليه .

وقوله "يقاتل حمية" أي يأنف أن يغلب ويقهر أو يذم .

وقوله "يقاتل رياء" أي ليرى مكانه وهذا هو لذة الجاه والمنزلة في القلوب .

وقد يرغب الإنسان في المدح ولكنه يحذر من الذم كالجبان بين الشجعان ، فإنه يثبت ولا يفر ، لئلا يذم ، وقد يفتي الإنسان بغير علم حذرا من الذم بالجهل ، فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك إلى الرياء وتدعو إليه فاحذرها !

المطلب السابع: طرق تحصيل الإخلاص وعلاج الرياء:

قد عرف أن الرياء محبط للعمل ، وسبب لغضب الله ومقته ، وأنه من المهلكات ، وأشد خطرا على المسلم من المسيح الدجال .

ومن هذه حاله فهو جدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته وعلاجه ، وقطع عروقه وأصوله . ومن هذا العلاج الذي يزيل الرياء ويحصل الإخلاص بإذن الله تعالى ما يأتي:

1. معرفة أنواع العمل للدنيا ، وأنواع الرياء ، وأقسامه ، ودوافعه ، وأسبابه ثم قطعها وقلع عروقها وتقدمت هذه الدوافع والأسباب .

2.معرفة عظمة الله تعالى ، بمعرفة: أسمائه ، وصفاته ، وأفعاله معرفة صحيحة مبنية على فهم الكتاب والسنة ، على مذهب أهل السنة والجماعة ؛ فإن العبد إذا عرف أن الله وحده هو الذي ينفع ويضر ، ويعز ويذل ، ويخفض ويرفع ، ويعطي ويمنع ، ويحيي ويميت ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، إذا عرف ذلك وعلم بأن الله هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له فسيثمر ذلك إخلاصا وصدقا مع الله . فلابد من معرفة أنواع التوحيد كلها معرفة صحيحة سليمة .

3.معرفة ما أعده الله في الدار الآخرة من نعيم وعذاب ، وأهوال الموت ، وعذاب القبر ؛ فإن العبد إذا عرف ذلك وكان عاقلا هرب من الرياء إلى الإخلاص .

(136/666)

4.الخوف من خطر العمل للدنيا والرياء المحبط لعمل ؛ فإن من خاف أمرا بقي حذرا منه فينجو ؛ ومن خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزلة . فينبغي للمرء بل يجب عليه إذا هاجت رغبته إلى آفة حب الحمد والمدح أن يذكر نفسه بآفات الرياء ، والتعرض لمقت الله . ومن عرف فقر الناس وضعفهم استراح كما قال بعض السلف: "جاهد نفسك في دفع أسباب الرياء عنك ، واحرص أن يكون الناس عندك كالبهائم والصبيان فلا تفرق في عبادتك بين

وجودهم وعدمهم ، وعلمهم بها أو غفلتهم عنها واقنع بعلم الله وحده"(45) .

وبالله وحده ثم بالخوف من حبوط العمل نجا أهل العلم والإيمان من الرياء وحبوط العمل ، فعن محمد بن لبيد رضي الله عنه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر" ، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال: "الرياء يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء"(46) .

ولهذا الخطر العظيم خاف الصحابة والتابعون وأهل العلم والإيمان من هذا البلاء الخطير ، ومن ذلك الأمثلة الآتية:

(أ) قال الله تعالى: ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ [المؤمنون: 60] ، قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله: أهو الذي يزني ، ويسرق ، ويشرب الخمر ؟ قال: "لا يا بنت أبي بكر (أو يا بنت الصديق) ولكنه الرجل يصوم ، ويتصدق ، ويصلي وهو يخاف ألا يتقبل منه"(47) .

(ب) قال ابن أبي مليكة: "أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه وما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل"(48) .

(ج) وقال إبراهيم التيمي: "ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون

مكذبا"(49) .

(د) ويذكر عن الحسن أنه قال: "ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق"(50) .

(137/666)

(هـ) وقال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما : "نشدتك بالله هل سماني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم – يعني من المنافقين – قال: لا . ولا أزكي بعدك أحدا"(51) .

(و) ويذكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: "اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق" قيل: وما خشوع النفاق ؟ قال: "أن ترى البدن خاشعا والقلب ليس بخاشع"(52) .

(ز) ويذكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: "لأن أستيقن أن الله تقبل لي صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها ، إن الله يقول: ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾(53) .

(ك) وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: "أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسأل أحدهم عن المسألة ، ما منهم رجل إلا ود أن أخاه كفاه"(54) .

5ـ الفرار من ذم الله ؛ فإن من أسباب الرياء الفرار من ذم الناس ، ولكن العاقل يعلم أن الفرار

من ذم الله أولى ؛ لأن ذمه شين ، كما قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله إن مدحي زين وذمي شين . فقال صلى الله عليه وسلم " "ذاك الله"(55) ، ولا شك أن العبد إذا خاف الناس وأرضاهم بسخط الله سخط الله عليه وغضب وأسخط الناس عليه . فهل أنت تخشى غضب الناس ؟ فالله أحق أن تخشاه إن كنت صادقا .

6ـ معرفة ما يفر منه الشيطان ؛ لأن الشيطان منبع الرياء وأصل البلاء ، والشيطان يفر من أمور كثيرة ، منها : الأذان ، وقراءة القرآن ، وسجود التلاوة ، والاستعاذة بالله منه ، والتسمية عند الخروج من البيت والدخول في المسجد مع الذكر المشروع في ذلك ، والمحافظة على أذكار الصباح والمساء ، وأدبار الصلوات ، وجميع الأذكار المشروعة(56) .

(138/666)

7ـ الإكثار من أعمال الخير والعبادات غير المشاهدة ، وإخفاؤها : كقيام الليل ، وصدقة السر ، والبكاء خاليا من خشية الله ، وصلاة النوافل ، والدعاء للإخوة في الله بظهر الغيب ، والله عز وجل يحب العبد التقي الخفي ، قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي"(57) .

8ـ عدم الاكتراث بذم الناس ومدحهم ؛ لأن ذلك لا يضر ولا ينفع ، بل يجب أن يكون الخوف من ذم الله ، والفرح بفضل الله ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ [يونس: 58] ، فيا عبد الله أقبل على حب المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة فإذا استقام لك ذلك سهل عليك الإخلاص(58) .

ويسهل الزهد في حب المدح والثناء : العلم يقينا أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده ، فازهد في مدح من لا يزينك مدحه ، وفي ذم من لا يشينك ذمه ، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه ، ولن يقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين ، فمن فقد الصبر واليقين كان كمن أراد السفر في البحر بغير مركب(59) .

وانظر إلى من ذمك فإن يك صادقا قاصدا النصح لك فاقبل هديته ونصحه فإنه قد أهدى إليك عيوبك ، وإن كان كاذبا فقد جنى على نفسه وانتفعت بقوله ؛ لأنه عرفك ما لم تكن تعرف وذكرك من خطاياك ما نسيت ، وإن كان ذلك افتراء عليك ، فإنك إن خلوت من هذا العيب لم تخل من غيره ، فاذكر نعمة الله عليك إذا لم يطلع هذا المفتري على عيوبك ، وهذا الافتراء كفارات لذنوبك إن صبرت واحتسبت ، وعليك أن تعلم أن هذا الجاهل جنى على نفسه وتعرض لمقت الله تعالى ، فكن خيرا منه: فاعف واصفح ، واستغفر له ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ [النور: 22] .

9. تذكر الموت وقصر الأمل ﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ [آل عمران: 185] ، ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ [لقمان: 34] .

10. الخوف من سوء الخاتمة ، فعلى العبد أن يخاف أن تكون أعمال الرياء هي خاتمة عمله ونهاية أجله فيخسر خسارة فادحة عظيمة ؛ لأن الإنسان يبعث يوم القيامة على ما مات عليه ، والناس يبعثون على نياتهم ، وخير الأعمال خواتمها .

11. مصاحبة أهل الإخلاص والتقوى ؛ فإن الجليس المخلص لا يعدمك الخير وتجد منه قدوة لك صالحة ، وأما المرائي والمشرك فيحرقك في نار جهنم إن أخذت بعمله .

12. الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى ، وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فقال: "يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل" ، فقال بعض الصحابة: كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال: "قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه"(60) .

13. حب العبد ذكر الله له وتقديم حب ذكره له على حب مدح الخلق ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [البقرة: 152] ، وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: "أنا عند ظن

عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة"(61) ، والله المستعان(62) .

(140/666)

14.عدم الطمع فيما في أيدي الناس ؛ فإن الإخلاص لا يجتمع في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما في أيدي الناس إلا كما يجتمع الماء والنار ، والضب والحوت ، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولا فاذبحه بسكين اليأس مما في أيدي الناس ، ويسهل ذبح الطمع العلم يقينا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره ، ولا يؤتي العبد منها شيئًا سواه(63) .

15.معرفة ثمرات الإخلاص وفوائده وعواقبه الحميدة في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك أن الإخلاص سبب لنصر الأمة ، والنجاة من عذاب الله ، ورفع المنزلة والدرجة في الدنيا والآخرة ، والسلامة من الضلال في الدنيا ، والفوز بحب الله للعبد وحب أهل السماء والأرض ، والصيت الطيب ، وتفريج كروب الدنيا والآخرة ، والطمأنينة والشعور بالسعادة والتوفيق ، وتحمل المتاعب والمصاعب ، وتزيين الإيمان في القلوب ، واستجابة

الدعاء ، والنعيم في القبر والتبشير بالسرور ، والله الموفق سبحانه(64) .

فالمسلم الذي يريد رضى الله ، والفوز بنجاته ومحبة الله له ، عليه أن يعمل جاهدا في تحصيل الإخلاص والفرار من الرياء ، أسأل الله أن يعصمني وإياك وجميع دعاة المسلمين وأئمتهم وعامتهم من هذا البلاء الخطير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

---

(1) المعجم الوسيط 249/1 ، ومختار الصحاح ص77 .

(2) مدارج السالكين لابن القيم 91/2 .

(3) انظر: مدارج السالكين ، لابن القيم 91/2 .

(4) مدارج السالكين 89/2 .

(5) مدارج السالكين 90/2 .

(6) أخرجه الترمذي ، في كتاب العلم ، باب: ما جاء في الحث على تبليغ السماع 34/5 ، برقم 2658 من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وأخرجه أحمد 183/5 من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح 78/1 .

(7) انظر: مجموع فتاوى سماحة الشيخ ابن باز 349/1 و229/4 .

(8) انظر: النية وأثرها في الأحكام الشرعية للدكتور صالح بن غانم السدلان 151/1 .

---

(9) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسوله صلى الله عليه وسلم 9/1، برقم 1. ومسلم، كتاب الإمارة، باب: قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنية"، 1515/3، برقم 1907.

(10) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: يكتب للمسافر ما كان يعمل في الإقامة 200/4، برقم 2996.

(11) أبو داود، كتاب الصلاة، باب من نوى القيام فنام، 24/2، برقم 1314. والنسائي، كتاب قيام الليل، وتطوع النهار، باب من كان له صلاة بليل فغلبه عليها نوم، 275/3، برقم 1784. وصححه الألباني في إرواء الغليل 204/2، وصحيح الجامع 160/5 برقم 5567.

(12) أبو داود، كتاب الصلاة، باب فيمن خرج يريد الصلاة فسبق بها، 154/1، برقم 564. والنسائي، كتاب الإمامة، باب حد إدراك الجماعة، 111/2، برقم 855. وقال ابن حجر في فتح الباري: "إسناده قوي"، 137/6.

(13) مسلم، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، 1517/3، برقم 1909.

(14) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من حبسه العذر عن الغزو 280/3، برقم 2839، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب الرخصة في القعود من العذر 12/3، برقم 2058، واللفظ له.

(15) متفق عليه من حديث البراء رضي الله عنه: البخاري وكتاب الجهاد والسير، باب: عمل صالح قبل الجهاد 271/3، برقم 2808، واللفظ له. ومسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، 1509/3، برقم 1900.

(16) مسند الإمام أحمد 357/4.

(17) متفق عليه من حديث أبي مسعود رضي الله عنه: البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى، 24/1، برقم 55. ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين، والزوج والأولاد، 625/2، برقم 1002.

(18) متفق عليه: البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية، 24/1، برقم 56. ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، 1250/3، برقم 1628.

(19) الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، 562/4، برقم 2325، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب النية، برقم 4228، وأحمد 130/4، وصححه الألباني، في صحيح الترمذي 270/2.

(20) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري، كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو سيئة، 239/7، برقم 6491، ومسلم، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت له وإذا هم بسيئة لم تكتب، 117/1، برقم 131.

(21) يدل على ذلك ما تقدم في المطلبين السابقين، وانظر: كتاب الإخلاص لحسين العوايشة، ص64].

(22) انظر: فتح المجيد ص442، وتيسير العزيز الحميد ص534.

(23) أبو داود، كتاب العلم، باب: في طلب العلم لغير الله، 323/3، برقم 3664، وابن ماجه، في المقدمة، باب الانتفاع بالعلم، 93/1، برقم 252، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، 48/1.

(24) ابن ماجه 93/1، في المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، 93/1، برقم 254، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، 48/1، وصحيح الترغيب للألباني 46/1، وفي الموضعين أحاديث أخرى.

(25) الدرامي 70/1 موقوفا ، وابن ماجه عن أبي هريرة ، في المقدمة ، باب الانتفاع بالعلم والعمل به ، 96/1 ، برقم 260 ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه 48/1 ، وصحيح الترغيب والترهيب 48/1 .

(26) الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، باب: حدثنا قتيبة ، 642/4 ، برقم 2465 ، وابن ماجه بنحوه من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه ، كتاب الزهد ، 1375/2 ، برقم 4105 ، وصححه الألباني في صحيح الجامع 351/5 ، والأحاديث الصحيحة 950 .

(27) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص444 ، وتسير العزيز الحميد ص536 ، والقول السديد في مقاصد التوحيد ، للسعدي ص126 .

(28) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب: الرياء والسمعة ، 1406/2 ، برقم 4204 ، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه 410/2 .

---

(29) الترمذي ، كتاب الزهد ، باب: حدثنا سويد ، برقم 2376 ، 588/4 ، وأحمد 456/3 ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي 280/2 .

(30) مسلم، كتاب الزهد، باب: من أشرك في عمله غير الله 2289/4، برقم 2985.

(31) الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكهف، 314/5، برقم 3154، من حديث أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري رضي الله عنه، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، 1406/2، برقم 4203، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب 18/1، وفي صحيح الترمذي 74/3.

(32) انظر: الحديث في صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، 1514/3، برقم 1905.

(33) متفق عليه: البخاري، كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة، 242/7، برقم 6499. ومسلم، كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، 2289/4، برقم 2986.

(34) معناه ارتفاع المنزلة لأن السناء هو الرفعة. انظر: المصباح المنير 293/1.

(35) مسند أحمد 134/5، والحاكم 418/4، وصححه الألباني في صحيح الترغيب 15/1.

(36) رواه النسائي بلفظه، كتاب الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف، 45/6، برقم 3178، وأصله في صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء

والصالحين في الحرب ، 296/3 ، برقم 2896 ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب 6/1 .

(37) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه 67/2 ، برقم 937 ، وأخرجه البيهقي في السنن ، 291/2 ، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب 7/1 .

(38) انظر : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية 66/6 ، ومنهاج القاصدين ص214-221 ، والإخلاص للعوايشة ص24 ، والإخلاص والشرك الأصغر للدكتور عبد العزيز بن عبد اللطيف ص9 ، والرياء لسليم الهلالي ص17 .

(39) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب: تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ، 116/1 ، برقم 127 .

(40) انظر : هذه الأقسام بالتفصيل في جامع العلوم والحكم لابن رجب 79/1-84 ، وفتح المجيد ص438 ، وفتاوى ابن عثيمين 29/2 .

---

(41) انظر : فتاوى ابن عثيمين 30/2 .

(42) مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، 2034/4 ، برقم 2642 .

(43) انظر: مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة ص221-222 .

(44) متفق عليه: البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، 272/3 ، برقم 2810 ، ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، 1512/3 ، برقم 1904 .

(45) انظر: الإخلاص والشرك الأصغر ص15 .

(46) أحمد في المسند 428/5 ، وصححه الألباني في صحيح الجامع 45/2 .

(47) ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب: التوفي في العمل ، 1404/2 ، برقم 4198 ، والترمذي ، كتب تفسير القرآن ، باب: ومن سورة "المؤمنون" ، 327/5 ، برقم 3175 ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم 162 ، وفي صحيح ابن ماجه ، 2/. 409

(48) البخاري معلقا مجزوماً به ، قال ابن حجر: وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه . انظر: فتح الباري 1/. 110

(49) البخاري مع الفتح معلقا ومجزوما به . قال ابن حجر: وصله المصنف في التاريخ . انظر: فتح الباري 1/. 110

(50) البخاري مع الفتح ، وقال ابن حجر: وصله جعفر الفريابي في كتاب صفة المنافقين ، وصححه . انظر: الفتح 111/1 .

(51) ابن كثير بنحوه ، في البداية والنهاية 19/5 ، وانظر: صفات المنافقين لابن القيم ص36 .

(52) ذكره ابن القيم في صفات المنافقين ص36 .

(53) ذكره ابن كثير في تفسيره 41/2 ، وعزاه إلى ابن أبي حاتم ، والآية من سورة المائدة ، الآية: 27 .

(54) الدارمي في سننه 53/1 ، وابن المبارك في الزهد ، 140/1 ، برقم 49 .

(55) أحمد في المسند 488/3 ، 394/6 ، من حديث الأقرع بن حابس رضي الله عنه ، وإسناده حسن ، ورواه الترمذي وحسنه برقم 3263 .

(56) انظر التفصيل في ذلك: كتاب مقامع الشيطان في ضوء الكتاب والسنة لسليم الهلالي ، وهو مهم جدا ، والإخلاص لحسين العوايشة ص57-63 .

(57) مسلم ، كتاب الزهد ، 2277/4 ، برقم 2965 .

(58) الفوائد لابن القيم ص67 .

(59) انظر: الفوائد لابن القيم ص268 .

(60) أخرجه أحمد 403/4 ، وإسناده جيد ، وغيره ، وانظر: صحيح الجامع 233/3 ، وصحيح الترغيب والترهيب للألباني 19/1 .

(61) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري واللفظ له ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى: ﴿ ﴾ 216/8 ، برقم 7405 ، ومسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب الحث على ذكر الله ، 2061/4 ، برقم . 2675

(62) انظر: ما تقدم في منهاج القاصدين ص221-223 ، وكتاب الإخلاص لحسين العوايشة ص41-64 ، والرياء ذمه وأثره السيئ في الأمة لسليم الهلالي ص61-72 ، والإخلاص والشرك الأصغر للدكتور عبد العزيز بن عبد اللطيف ، ص13 .

(63) انظر الفوائد لابن القيم ص267-268 .

(64) انظر: كتاب الإخلاص للعوايشة ص64-66 .

الفهرس

المقدمة . . .

المبحث الأول: نور الإخلاص . . .

* المطلب الأول: مفهوم الإخلاص . . .

الإخلاص في اللغة . . .

حقيقة الإخلاص . . .

* المطلب الثاني: أهمية الإخلاص . . .

قال تعالى: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ . . .

قال تعالى: ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله ﴾ . . .

قال تعالى: ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ . . .

قال تعالى: ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ . . .

قال تعالى: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ . . .

قال تعالى: ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ . . .

ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم . . .

* المطلب الثالث: مكانة النية الصالحة وثمراتها . . .

النية: أساس العمل وقاعدته . . .

قال صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى" . . .

قال تعالى: ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة ﴾ . . .

قال صلى الله عليه وسلم: "إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان . . ." . . .

قال صلى الله عليه وسلم: "ما من امرئ تكون له صلاة بليل فيغلبه عليها نوم . . ." . . .

قال صلى الله عليه وسلم: "من توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد . . ." . . .

قال صلى الله عليه وسلم: "من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء . . . "

. . .

قال صلى الله عليه وسلم: "لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا . . . " . . .

قال صلى الله عليه وسلم: "عمل قليلا وأجر كثيرا" . . .

قال صلى الله عليه وسلم: "إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة" . . .

قال صلى الله عليه وسلم: "إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها" . . .

قال صلى الله عليه وسلم: "إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلما . . . " . . .

قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل كتب الحسنات والسيئات ثم بين . . . " . . .

* المطلب الرابع: ثمار الإخلاص وفوائده . . .

1- خير الدنيا والآخرة من ثمرات الإخلاص . . .

2- الإخلاص هو السبب الأعظم في قبول الأعمال . . .

3- الإخلاص يثمر محبة الله للعبد . . .

4- الإخلاص أساس العمل وروحه . . .

5- يثمر الأجر الكبير والثواب العظيم بالعمل اليسير . . .

6- يكتب لصاحب الإخلاص كل عمل يقصد به وجه الله . . .

7- يكتب لصاحب الإخلاص ما نوى من العمل ولو لم يعمله . . .

8- إذا نام أو نسي كتب له عمله الذي كان يعمله . . .

9- إذا مرض العبد أو سافر كتب له بإخلاصه ما كان يعمل . . .

10- ينصر الله الأمة بالإخلاص . . .

11- الإخلاص يثمر النجاة من عذاب الآخرة . . .

12- تفريج كروب الدنيا والآخرة من ثمرات الإخلاص . . .

13- رفع المنزلة في الآخرة يحصل بالإخلاص . . .

14- الإنقاذ من الضلال . . .

15- الإخلاص سبب لزيادة الهدى . . .

16- الصيت الطيب عند الناس من ثمار الإخلاص . . .

17- طمأنينة القلب والشعور بالسعادة . . .

18- تزيين الإيمان في النفس . . .

19- التوفيق لمصاحبة أهل الإخلاص . . .

20- حسن الخاتمة . . .

21- استجابة الدعاء . . .

22- النعيم في القبر والتبشير بالسرور . . .

23- دخول الجنة والنجاة من النار . . .

المبحث الثاني: ظلمات إرادة الدنيا بعمل الآخرة . . .

* المطلب الأول: خطر إرادة الدنيا بعمل الآخرة . . .

(147/666)

الفرق بين الرياء ، وإرادة الإنسان بعمله الدنيا . . .

قال تعالى: ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم . . . ﴾ . . .

قال تعالى: ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾ . . .

قال تعالى: ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا ﴾ . . .

قال صلى الله عليه وسلم: "من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل . . ." . . .

قال صلى الله عليه وسلم: "لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء" . . .

قال صلى الله عليه وسلم: "لا تعلموا العلم لثلاث: لتماروا به السفهاء . . ." . . .

* المطلب الثاني: أنواع العمل للدنيا . . .

جاء عن السلف في ذلك أربعة أنواع . . .

النوع الأول: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس . . .

النوع الثاني: يعمل أعمالا صالحة ونيته رياء الناس . . .

النوع الثالث: أن يعمل أعمالا صالحة يقصد بها مالا . . .

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصا . . ولكنه على عمل يكفره . . .

* المطلب الثالث: خطر الرياء . . .

1- الرياء أخطر على المسلمين من المسيح الدجال . . .

2- الرياء أشد فتكا من الذئب في الغنم . . .

3- خطورة الرياء على الأعمال الصالحة . . .

4- أول من تسعر بهم النار يوم القيامة . . .

5- الرياء يورث الذل والصغار . . .

6- الرياء يحرم ثواب الآخرة . . .

7- الرياء سبب في هزيمة الأمة . . .

8- الرياء يزيد الضلال . . .

* المطلب الرابع: أنواع الرياء ودقائقه . . .

1- أن يكون مراد العبد غير الله . . .

2- أن يكون قصد العبد ومراده الله تعالى . . .

3- أن يدخل العبد في العبادة لله ويخرج منها لله فعرف بذلك . . .

4- يظهر الصفار والنحول ، ليري الناس بذلك أنه صاحب عبادة . . .

5- رياء من جهة اللباس أو الزي . . .

6- الرياء بالقول . . .

7- الرياء بالعمل . . .

8- الرياء بالأصحاب والزائرين . . .

9- الرياء بذم النفس بين الناس . . .

10- أن يخفي العامل طاعته بحيث لا يريد أن يطلع عليها أحد ثم . . .

11- أن يجعل الإخلاص وسيلة لما يريد من المطالب . . .

(148/666)

---

* المطلب الخامس: أقسام الرياء وأثره على العمل . . .

1- أن يكون العمل رياء محضا . . .

2- أن يكون العمل لله ويشاركه الرياء من أصله . . .

3- أن يكون أصل العمل لله ثم طرأت عليه نية الرياء . . .

ويكون على إحدى حالين . . . . . .

(أ) أن لا يرتبط أول العبادة بآخرها . . .

(ب) أن يرتبط أول العبادة بآخرها فلا يخلو الإنسان حينئذ من أمرين: . . .

الأمر الأول: أن يكون هذا الرياء خاطرا ثم دفعه الإنسان . . .

الأمر الثاني: أن يسترسل معه الرياء . . .

4- أن يكون الرياء بعد الانتهاء من العبادة . . .

* المطلب السادس: أسباب الرياء ودوافعه . . .

1- حب لذة الحمد والثناء والمدح . . .

2- الفرار من الذم . . .

3- الطمع فيما في أيدي الناس . . .

* المطلب السابع: طرق تحصيل الإخلاص وعلاج الرياء . . .

1- معرفة أنواع العمل للدنيا وأنواع الرياء . . .

2- معرفة عظمة الله تعالى . . .

3- معرفة ما أعده الله في الدار الآخرة . . .

4- الخوف من خطر العمل للدنيا والرياء المحبط للعمل . . .

خاف الصحابة والتابعون وأهل العلم والإيمان من هذا البلاء الخطير . . .

(أ) قال تعالى: ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم . . . ﴾ . . .

(ب) أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه . . .

(ج) ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبا . . .

(د) ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق . . .

(هـ) نشدتك بالله هل سماني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم . . .

(و) اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق . . .

(ز) لئن أستيقن أن الله تقبل لي صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها . . .

(ك) أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم . . .

5- الفرار من ذم الله . . .

6- معرفة ما يفر منه الشيطان والعمل به . . .

7- الإكثار من أعمال الخير والعبادات غير المشاهدة . . .

8- عدم الاكتراث بذم الناس ومدحهم . . .

9- تذكر الموت وقصر الأمل . . .

10- الخوف من سوء الخاتمة . . .

11- مصاحبة أهل الإخلاص والتقوى . . .

12- الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى . . .

13- حب العبد ذكر الله له وتقديم حب ذكره له على حب مدح الخلق . . .

14- عدم المطمع فيما في أيدي الناس . . .

15- معرفة ثمرات الإخلاص وفوائده . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحث بعنوان : نور الإخلاص وظلمات إرادة الدنيا بعمل الآخرة في ضوء الكتاب والسنة

د . سعيد بن علي بن وهف القحطاني ﴾

(150/666)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما لمن عبد الطاغوت ، عطف عليه أضدادهم ليقترن الوعد بالوعيد ، فيحصل كمال الترغيب والترهيب فقال : ﴿ والذين اجتنبوا ﴾ أي كلفوا أنفسهم ذلك لما لها في الانسياق إليه من الهوى مع تزيين الشيطان " حفت النار بالشهوات " ولما كان للإجمال ثم البيان موقع عظيم ، قال : ﴿ الطاغوت ﴾ وهو كل ما عبد من دون الله ، فلغوت من الطغيان وهو صيغة مبالغة ، وفيه مبالغة أخرى بجعل الذات عين المعنى ، ودل على عكس من تبعها بتعكيس حروفها ، ولما ذكر اجتنابها مطلقاً ترغيباً فيه ، بين خلاصة ما يجتنب لأجله مع التنفير منها بتأنيثها الذي أبصره المنيبون بتقوية الله لهم عليها حتى كانوا ذكراناً وهم إناثاً عكس ما تقدم للكفار في البقرة ، فقال مبدلاً منها بدل اشتمال : ﴿ أن يعبدوها ﴾ .

ولما ذكر اجتناب الشرك ، أتبعه التزام التوحيد فقال : ﴿ وأنابوا ﴾ أي رجعوا رجوعاً عظيماً أزالوا فيه النوبة وجعلوها إقبالة واحدة لا صرف فيها ﴿ إلى الله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال فلا معدل عنه ﴿ لهم البشرى ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل وعند الموت تتلقاهم الملائكة فقد ربحوا ربحاً لا خسارة معه لأنهم انتفعوا بكلام الله فأخلصوا دينهم له فبشرهم – هكذا كان الأصل ، ولكنه أظهر تعميماً وتعليقاً بالوصف فقال مسبباً عن

عملهم ، صارفاً القول إلى التكلم بالإفراد تشريفاً للمبشرين الموصوفين : ﴿ فبشر عباد ﴾ أي الذين أهلوا أنفسهم بقصر هممهم عليّ للإضافة إليّ ﴿ الذين يستمعون ﴾ أي بجميع قلوبهم ﴿ القول ﴾ أي هذا الجنس من كل قائل ليسوا جفاة عساة إذا أقبلوا على شيء أعرضوا عن غيره بغير دليل ﴿ فيتبعون ﴾ أي بكل عزائمهم بعد انتقاده : ﴿ أحسنه ﴾ بما دلتهم عليه عقولهم من غير عدول إلى أدنى هوى ، ويدخل في هذه الآية دخولاً بيناً حث أهل الكتاب على اتباع هذا القرآن العظيم ، فإن كتب الله كلها حسنة ، وهذا القرآن أحسنها كلاماً ، ومعاني ونظاماً ، لا يشك في هذا أحد له أدنى ذوق .

(151/666)

ولما بين عملهم ، أنتج ذلك مدحهم فقال مظهراً زيادة المحبة لهم والاهتمام بشأنهم بالتأكيد : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الهمة والرتبة خاصة ﴿ الذين ﴾ ولما كان في هؤلاء المجتبين العالو الرتبة جداً وغيره ، أبرز المفعول فقال محولاً الأسلوب إلى الاسم الأعظم إشارة إلى عظيم هدايتهم ، ﴿ هداهم الله ﴾ بما له من صفات الكمال فبين سبحانه أن لا وصول إليه إلا به ، وهذا بخلاف آية الأنعام حيث ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال ﴿ أولئك الذين هدى الله ﴾ فحذف المفعول لتصير هدايتهم مكررة بوجوب تسليط العامل على الموصول

الذي أعاد عليه الضمير في هذه الآية ، وكرر الإشارة زيادة في تعظيمهم فقال : ﴿ وأولئك هم ﴾ أي خاصة ﴿ أولوا الألباب ﴾ أي العقول الصافية عن شوب كدر .

(152/666)

ولما خص سبحانه البشارة بالمحسنين ، علم أن غيرهم قد حكم بشقاوته ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما جبل عليه من عظيم الرحمة ومزيد الشفقة جديراً بالأسف على من أعرض ، سبب عن أسفه عليهم قوله : ﴿ أفمن حق ﴾ وأسقط تاء التأنيث الدالة على اللين تأكيداً للنهي عن الأسف عليهم ﴿ عليه كلمة العذاب ﴾ بإبائه وتوليه ، فكان لذلك منغمساً في النار التي أبرمنا القضاء بأنها جزاء الفجار لا يمكن إنقاذه منها ، أفأنت تنقذه من إعراضه الذي غمسه في النار ؟ ثم دل على هذا الذي قدرته بقوله مؤكداً بإعادة حرف الاستفهام لأجل طول الكلام ولتهويل الأمر وتفخيمه للنهي عن تعليق الهم بهم لما عنده ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جبلة العطف والرقة على عباد الله : ﴿ أفأنت تنقذ ﴾ أي تخلص وتمنع وتنجي ، ووضع موضع ضميره قوله شهادة عليه بما هو مستحقه ولا يمكن غير الله فكه منه ﴿ من في النار ﴾ متمكناً فيها شديد الانغماس في طبقاتها ، والرسوخ بحيث إنها قد أحاطت به من كل جانب ، وكان الأصل : أنت تنقذ من حق عليه العذاب ، فقدم

المفعول وجعله عمدة الكلام ليقرع السمع ويترقب الخبر عنه ، ثم حذف خبره ليكون أهول فتذهب النفس فيه كل مذهب ، ثم أنكر أن يكون أعلى الخلق ينقذه ، فغيره من باب الأولى ، فصار الكلام بذلك من الرونق والبهجة والهول والإرهاب ما لا يقدر البشر على مثله .

ولما بين أن من عبد الأنداد هالك لخروجه عن دائرة العقل بجرأة وعدم تدبير ، بين ما لأضدادهم ، فقال صارفاً القول عن الاسم الأعظم إلى وصف الإحسان إشارة إلى كرم المتقين بما لهم من إصالة الرأي التي أوجبت خوفهم مع تذكر الإحسان ليدل على أن خوفهم عند تذكر الانتقام أولى : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم ﴾ أي جعلوا بينهم وبين سخط المحسن إليهم وقاية في كل حركة وسكنة ، فلم يفعلوا شيئاً من ذلك إلا بنظر يد لهم على رضاه ﴿ لهم غرف ﴾ أي علالي من الجنة يسكنونها في نظير ظلل الكفار .

(153/666)

ولما كانت الغرف في قرار تقر به العيون لم يقل " من فوقهم " كما قال في أهل النار وقال : ﴿ من فوقها غرف ﴾ أي شديدة العلو .

ولما كان ربما ظن أن الطبقة الثانية السماء ، لأن الغرفة أصلها العالي ، ولذلك سميت السماء السابعة غرفة ، وأن تكون الغرفة مثل ظلل النار ليس لها قرار ، قال تحقيقاً للحقيقة

مفرداً كما هو المطرد في وصف جمع الكثرة لما يعقل : ﴿ مبنية ﴾ .

ولما كانت المنازل لا تطيب إلا بالماء ، وكان الجاري أشرف وأحسن قال : ﴿ تجري من تحتها ﴾ أي الغرف من الطبقة السفلى والطبقة العليا من غير تفاوت بين العلو والسفل ، لأن القدرة صالحة لأكثر من ذلك ﴿ الأنهار ﴾ .

ولما ذكر يوم القيامة وما يكون فيه ، بين أنه أمر لا بد منه بقوله ، راداً السياق إلى الاسم الأعظم الذي لا يتصور مع استحضار ما له من الجلال إخلاف : ﴿ وعد الله ﴾ مؤكداً لمضمون الجملة بصيغة المصدر الدال على الفعل الناصب له ، وهو واجب الإضمار والإضافة إلى الاسم الأعظم الجامع لجميع الصفات ، ثم أتبع ذلك بيان ما يلزم من كونه وعده بقوله على سبيل النتيجة : ﴿ لا يخلف الله ﴾ أي الملك الذي لا شريك له يمنعه من شيء يريده .

ولما كان الرعي لزمان الوعد ومكانه إنما يكون للمحافظة عليه فهو أبلغ من رعيه نفسه ، عبر بالمفعال فقال : ﴿ الميعاد ﴾ لأنه لا سبب أصلاً يحمله على الإخلاف . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 433.435 ﴾

(154/666)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (17) ﴾

اعلم أن الله تعالى لما ذكر وعيد عبدة الأصنام والأوثان ذكر وعد من اجتنب عبادتها واحترز عن الشرك ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد أبداً فيحصل كمال الترغيب والترهيب ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال صاحب "الكشاف" : الطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين ، وفي هذا اللفظ أنواع من المبالغة أحدها : التسمية بالمصدر كأن عين ذلك الشيء الطغيان وثانيها : أن البناء بناء المبالغة فإن الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط وثالثها : ما ذكرنا من تقديم اللام على العين ومثل هذا إنما يصار إليه عند المبالغة .

المسألة الثانية :

اختلفوا في أن المراد من الطاغوت ههنا الشيطان أم الأوثان ، فقيل إنه الشيطان فإن قيل إنهم ما عبدوا الشيطان وإنما عبدوا الصنم ، قلنا الداعي إلى عبادة الصنم لما كان هو

الشيطان كان الإقدام على عبادة الصنم عبادة للشيطان ، وقيل المراد بالطاغوت الصنم وسميت طواغيت على سبيل المجاز لأنه لا فعل لها ، والطغاة هم الذين يعبدونها إلا أنه لما حصل الطغيان عند مشاهدتها والقرب منها ، وصفت بهذه الصفة إطلاقاً لاسم المسبب على السبب بحسب الظاهر ، وقيل كل ما يعبد ويطاع من دون الله فهو طاغوت ، ويقال في التواريخ إن الأصل في عبادة الأصنام ، أن القوم كانوا مشبهة اعتقدوا في الإله أنه نور عظيم ، وفي الملائكة أنها أنوار مختلفة في الصغر والكبر ، فوضعوا تماثيل وصوراً على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل على أعتقاد أنهم يعبدون الله والملائكة ، وأقول حاصل الكلام في قوله : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ أي أعرضوا عن عبودية كل ما سوى الله .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَابُواْ إِلَى الله ﴾ أي رجعوا بالكلية إلى الله .

(155/666)

ورأيت في السفر الخامس من التوراة ، أن الله تعالى قال لموسى : يا موسى أحب إلهك بكل قلبك .

وأقول ما دام يبقى في القلب التفات إلى غير الله فهو ما أحب إلهه بكل قلبه ، وإنما تحصل

الإجابة بكل القلب إذا أعرض القلب عن كل ما سوى الله من باب الطاعات فكيف يعرض عنها مع أنه بالحس يشاهد الأسباب المفضية إلى المسببات في هذا العالم ، قلنا ليس المراد من إعراض القلب عنها أن يقضي عليها بالعدم فإن ذلك دخول في السفسطة وهو باطل ، بل المراد أن يعرف أن واجب الوجود لذاته واحد ، وأن كل ما سواه فإنه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكناً لذاته فإنه لا يوجد إلا بتكوين الواجب وإيجاده ، ثم إنه سبحانه وتعالى جعل تكوينه للأشياء على قسمين منها ما يكون بغير واسطة وهي عالم السموات والروحانيات ، ومنها ما يكون بواسطة وهو عالم العناصر والعالم الأسفل ، فإذا عرفت الأشياء على هذا الوجه عرفت أن الكل لله ومن الله وبالله ، وأنه لا مدبر إلا هو ولا مؤثر غيره ، وحينئذٍ ينقطع نظره عن هذه الممكنات ويبقى مشغول القلب بالمؤثر الأول والموجد الأول ، فإنه إن كان قد وضع الأسباب الروحانية والجسمانية بحيث يتأذى إلى هذا المطلوب ، فهذا الشيء يحصل وإن كان قد وضع بحيث لا يفضي إلى حصول هذا الشيء لم يحصل ، وبهذا الطريق ينقطع نظره عن الكل ولا يبقى في قلبه التفات إلى شيء إلا إلى الموجود الأول ، وقد اتفق أني كنت أنصح بعض الصبيان في حفظ العرض والمال فعارضني وقال لا يجوز الاعتماد على الجد والجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله وقدره ، فقلت هذه كلمة حق سمعتها ولكنك ما عرفت معناها ، وذلك لأنه لا شبهة أن الكل من الله تعالى إلا أنه سبحانه دبر الأشياء على قسمين منها ما جعل حدوثه وحصوله معلقاً بأسباب

معلومة ومنها ما يحدثه من غير واسطة هذه الأسباب .

أما القسم الأول : فهو حوادث هذا العالم الأسفل .

(156/666)

وأما القسم الثاني : فهو حوادث هذا العالم الأعلى ، وإذا ثبت هذا فنقول من طلب حوادث هذا العالم الأسفل لا من الأسباب التي عينها الله تعالى كان هذا الشخص منازعاً لله في حكمته مخالفاً في تدبيره ، فإن الله تعالى حكم بحدوث هذه الأشياء بناءً على تلك الأسباب المعينة المعلومة وأنت تريد تحصيلها لا من تلك الأسباب ، فهذا هو الكلام في تحقيق الإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على الله تعالى فقوله تعالى : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ إشارة إلى الإعراض عن غير الله وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى الله ﴾ إشارة إلى الإقبال بالكلية على عبادة الله ، ثم إنه تعالى وعد هؤلاء بأشياء أحدها : قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ واعلم أن هذه الكلمة تتعلق بجهات أحدها : أن هذه البشارة متى تحصل ؟ فنقول إنها تحصل عند القرب من الموت وعند الوضع في القبر وعند الوقوف في عرصة القيامة وعندما يصير فريق في الجنة وفريق في السعير وعندما يدخل المؤمنون الجنة ، ففي كل موقف من هذه المواقف تحصل البشارة بنوع من الخير والروح والراحة

والريحان وثانيها : أن هذه البشارة فبماذا تحصل ؟ فنقول إن هذه البشارة تحصل بزوال المكروهات وبحصول المرادات ، أما زوال المكروهات فقوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [فصلت : 30] والخوف إنما يكون من المستقبل والحزن إنما يكون بسبب الأحوال الماضية فقوله : ﴿ أَن لا تَخَافُواْ ﴾ يعني لا تخافوا فيما تستقبلونه من أحوال القيامة ولا تحزنوا بسبب ما فاتكم من خيرات الدنيا ، ولما أزال الله عنهم هذه المكروهات بشرهم بحصول الخيرات والسعادات فقال : ﴿ وَأَبْشِرُواْ بالجنة ﴾ [فصلت : 30] وقال أيضاً في آية أخرى : ﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم بُشْرَاكُمُ اليوم جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾

(157/666)

[الحديد : 12] وقال أيضاً : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين وَأَنتُمْ فِيهَا خالدون ﴾ [الزخرف : 71] والثالث : أن المبشر من هو ؟ فنقول يحتمل أن يكون هم الملائكة ، إما عند الموت فقوله : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ [النحل : 32] وإما بعد دخول الجنة فقوله : ﴿ الملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ [الرعد : 23 ، 24] ويحتمل أن يكون هو

الله سبحانه كما قال : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سلام ﴾ [الأحزاب : 44] .

واعلم أن قوله : ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ فيه أنواع من التأكيدات أحدها : أنه يفيد الحصر فقوله : ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ أي لهم لا لغيرهم ، وهذا يفيد أنه لا بشارة لأحد إلا إذا اجتنب عبادة غير الله تعالى وأقبل بالكلية على الله تعالى وثانيها : أن الألف واللام في لفظ البشرى مفيد للماهية فيفيد أن هذه الماهية بتمامها لهؤلاء ، ولم يبق منها نصيب لغيرهم وثالثها : أن لا فرق بين الإخبار وبين البشارة فالبشارة هو الخبر الأول بحصول الخيرات ، إذا عرفت هذا فنقول كل ما سمعوه في الدنيا من أنواع الثواب والخير إذا سمعوه عند الموت أو في القبر فذاك لا يكون إلا إخباراً ، فثبت أن هذه البشارة لا تتحقق إلا إذا حصل الإخبار بحصول أنواع أخر من السعادات فوق ما عرفوها وسمعوها في الدنيا نسأل الله تعالى الفوز بها ، قال تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] ورابعها : أن المخبر بقوله : ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ هو الله تعالى وهو أعظم العظماء وأكمل الموجودات والشرط المعتبر في حصول هذه البشارة شرط عظيم وهو الاجتناب عما سوى الله تعالى والإقبال بالكلية على الله والسلطان العظيم إذا ذكر شرطاً عظيماً .

(158/666)

ثم قال لمن أتى بذلك الشرط العظيم أبشر فهذه البشارة الصادرة من السلطان العظيم المرتبة على حصول ذلك الشرط العظيم تدل على أن الذي وقعت البشارة به قد بلغ في الكمال والرفعة إلى حيث لا يصل إلى شرحها العقول والأفكار ، فثبت أن قوله : ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ يدل على نهاية الكمال والسعادة من هذه الوجوه ، والله أعلم .

واعلم أنه تعالى : لما قال : ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ وكان هذا كالمجمل أردفه بكلام يجري مجرى التفسير والشرح له فقال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ وأراد بعباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم وهذا يدل على أن رأس السعادات ومركز الخيرات ومعدن الكرامات هو الإعراض عن غير الله تعالى ، والإقبال بالكلية على طاعة الله ، والمقصود من هذا اللفظ التنبيه على أن الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا ، هم الموصوفون بأنهم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، فوضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على هذا الحرف ، ومنهم من قال إنه تعالى لما بين أن الذين اجتنبوا وأنابوا لهم البشرى وكان ذلك درجة عالية لا يصل إليها إلا الأولون ، وقصر السعادة عليهم يقتضي الحرمان للأكثرين ، وذلك لا يليق بالرحمة التامة ، لا جرم جعل الحكم أعم فقال كل من اختار الأحسن في كل باب كان في زمرة السعداء ، واعلم أن هذه الآية تدل على فوائد :

الفائدة الأولى : وجوب النظر والاستدلال ، وذلك لأنه تعالى بين أن الهداية والفلاح مرتبطان بما إذا سمع الإنسان أشياء كثيرة ، فإنه يختار منها ما هو الأحسن الأصوب ، ومن المعلوم أن تمييز الأحسن الأصوب عما سواه لا يحصل بالسماع ، لأن السماع صار قدراً مشتركاً بين الكل ، لأن قوله : ﴿ الذين يستمعون القول ﴾ يدل على أن السماع قدر مشترك فيه ، فثبت أن تمييز الأحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع وإنما يتأتى بحجة العقل ، وهذا يدل على أن الموجب لاستحقاق المدح والثناء متابعة حجة العقل وبناء الأمر على النظر والاستدلال .

الفائدة الثانية : أن الطريق إلى تصحيح المذاهب والأديان قسمان : أحدهما : إقامة الحجة والبينة على صحته على سبيل التحصيل ، وذلك أمر لا يمكن تحصيله إلا بالخوض في كل واحد من المسائل على التفصيل والثاني : أنا قبل البحث عن الدلائل وتقريرها والشبهات وتزييفها نعرض تلك المذاهب وأضدادها على عقولنا ، فكل ما حكم أول العقل بأنه أفضل وأكمل كائن أولى بالقبول .

مثاله أن صريح العقل شاهد بأن الإقرار بأن إله العالم حي عالم قادر حليم حكيم رحيم ، أولى من إنكار ذلك ، فكان ذلك المذهب أولى ، والإقرار بأن الله تعالى لا يجري في ملكه وسلطانه إلا ما كان على وفق مشيئته أولى من القول بأن أكثر ما يجرى في سلطان الله على خلاف إرادته ، وأيضاً الإقرار بأن الله فرد أحد صمد منزه عن التركيب والأعضاء أولى

من القول بكونه متبعضاً مؤلفاً ، وأيضاً القول باستغنائه عن الزمان والمكان أولى من القول باحتياجه إليهما ، وأيضاً القول بأن الله رحيم كريم قد يعفو عن العقاب أولى من القول بأنه لا يعفو عنه ألبتة ، وكل هذه الأبواب تدخل تحت قوله : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ فهذا ما يتعلق باختيار الأحسن في أبواب الاعتقادات .

(160/666)

وأما ما يتعلق بأبواب التكاليف فهو على قسمين : منها ما يكون من أبواب العبادات ، ومنها ما يكون من أبواب المعاملات ، فأما العبادات فمثل قولنا الصلاة التي يذكر في تحريمها الله أكبر وتكون النية فيها مقارنة للتكبير ، ويقرأ فيها سورة الفاتحة ، ويؤتى فيها بالطمأنينة في المواقف الخمسة ، ويقرأ فيها التشهد ، ويخرج منها بقوله السلام عليكم ، فلا شك أنها أحسن من الصلاة التي لا يراعى فيها شيء من هذه الأحوال ، وتوجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة ، وأن يترك ما سواها ، وكذلك القول في جميع أبواب العبادات .

وأما المعاملات فكذلك مثل أنه تعالى شرع القصاص والدية والعفو ، ولكنه ندب إلى العفو فقال : ﴿ وأن تعفو أقرب للتقوى ﴾ وعن ابن عباس أن المراد منه الرجل يجلس مع القوم ويسمع الحديث فيه محاسن ومساوىء ، فيحدث بأحسن ما سمع ويترك ما سواه .

واعلم أنه تعالى حكم على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بأن قال : ﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ وفي ذلك دقيقة عجيبة ، وهي أن حصول الهداية في العقل والروح أمر حادث ، ولا بد له من فاعل وقابل : أما الفاعل فهو الله سبحانه وهو المراد من قوله : ﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾ وأما القابل فإليه الإشارة بقوله : ﴿ وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ فإن الإنسان ما لم يكن عاقلاً كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقية في قلبه .

(161/666)

وإنما قلنا إن الفاعل لهذه الهداية هو الله ، وذلك لأن جوهر النفس مع ما فيها من نور العقل قابل للاعتقاد الحق والاعتقاد الباطل ، وإذا كان الشيء قابلا للضدين كانت نسبة ذلك القابل إليهما على السوية ، ومتى كان الأمر كذلك امتنع كون ذلك القابل سبباً لرجحان أحد الطرفين ، ألا ترى أن الجسم لما كان قابلا للحركة والسكون على السوية ، امتنع أن تصير ذات الجسم سبباً لرجحان أحد الطرفين على الآخر ، فإن قالوا لا نقول إن ذات النفس والعقل يوجب هذا الرجحان ، بل نقول إنه يريد تحصيل أحد الطرفين ، فتصير تلك الإرادة سبباً لذلك الرجحان ، فنقول هذا باطل ، لأن ذات النفس كما أنها قابلة لهذه

الإرادة ، فكذلك ذات العقل قابلة لإرادة مضادة لتلك الإرادة ، فيمتنع كون جوهر النفس سبباً لتلك الإرادة ، فثبت أن حصول الهداية لا بد لها من فاعل ومن قابل أما الفاعل : فيمتنع أن يكون هو النفس ، بل الفاعل هو الله تعالى وأما القابل : فهو جوهر النفس ، فلهذا السبب قال : ﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ ثم قال ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في لفظ الآية سؤال وهو أنه يقال إنه قال : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب ﴾ ولا يصح في الكلام العربي أن يدخل حرف الاستفهام على الاسم وعلى الخبر معاً ، فلا يقال أزيد أتقتله ، بل ههنا شيء آخر ، وهو أنه كما دخل حرف الاستفهام على الشرط وعلى الجزاء ، فكذلك دخل حرف الفاء عليهما معاً وهو قوله : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ ﴾ ، ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ ﴾ ولأجل هذا السؤال اختلف النحويون وذكروا فيه وجوهاً الأول : قال الكسائي : الآية جملتنا والتقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب ، أفأنت تحميه ، أفأنت تنقذ من في النار الثاني : قال صاحب "الكشاف" : أصل الكلام أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ،

وهي جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء ، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب والتقدير أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ، والهمزة الثانية هي الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ، ووضع من في النار موضع الضمير ، والآية على هذا جملة واحدة الثالث : لا يبعد أن يقال إن حرف الاستفهام إنما ورد ههنا لإفادة معنى الإنكار ، ولما كان استنكاره هذا المعنى كاملاً تاماً .

لا جرم ذكر هذا الحرف في الشرط وأعاده في الجزاء تنبيهاً على المبالغة التامة في ذلك الإنكار .

المسألة الثانية :

احتج الأصحاب بهذه الآية في مسألة الهدى والضلال ، وذلك لأنه تعالى قال : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب ﴾ فإذا حقت كلمة العذاب عليه امتنع منه فعل الإيمان والطاعة ، وإلا لزم انقلاب خبر الله الصدق كذباً ، وانقلاب علمه جهلاً وهو محال والوجه الثاني : في الاستدلال بالآية أنه تعالى حكم بأن حقية كلمة العذاب توجب الاستنكار التام من صدور الإيمان والطاعة عنه ، ولو كان ذلك ممكناً ولم تكن حقيقة كلمة العذاب مانعة منه لم يبق لهذا الاستنكار والاستبعاد معنى .

المسألة الثالثة :

احتج القاضي بهذه الآية على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يشفع لأهل الكبائر ، قال لأنه حق عليهم العذاب فتلك الشفاعة تكون جارية مجرى إنقاذهم من النار ، وأن الله تعالى حكم عليهم بالإنكار والاستبعاد ، فيقال له لا نسلم أن أهل الكبائر قد حق عليهم العذاب وكيف يحق العذاب عليهم مع أن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] ومع قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ [الزمر : 53] ، والله أعلم .

النوع الثاني : من الأشياء التي وعدها الله هؤلاء الذين اجتنبوا وأنابوا قوله تعالى : ﴿ لكن الذين اتقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ وهذا كالمقابل لما ذكر في وصف الكفار ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : 16] فإن قيل ما معنى قوله ﴿ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ ؟ قلنا لأن المنزل إذا بنى على منزل آخر تحته كان الفوقاني أضعف بناء من التحتاني فقوله : ﴿ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ معناه أنه وإن كان فوق غيره لكنه في القوة والشدة مساو للمنزل الأسفل ، والحاصل أن المنزل الفوقاني والتحتاني حصل في كل واحد منهما فضيلة ومنقصة ، أما الفوقاني ففضيلته العلو والارتفاع ونقصانه الرخاوة والسخافة ، وأما

التحتاني فبالضد منه ، أما منازل الجنة فإنها تكون مستجمعة لكل الفضائل وهي عالية مرتفعة وتكون في غاية القوة والشدة ، وقال حكماء الإسلام هذه الغرف المبنية بعضها فوق البعض ، مثاله من الأحوال النفسانية العلوم الكسبية فإن بعضها يكون مبنياً على البعض والنتائج الآخرة التي هي عبارة عن معرفة ذات الله وصفاته تكون في غاية القوة بل تكون في القوة والشدة كالعلوم الأصلية البديهية .

(164/666)

ثم قال : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ وذلك معلوم ، ثم ختم الكلام فقال : ﴿ وَعْدَ الله لاَ يُخْلِفُ الله الميعاد ﴾ فقوله : ﴿ وَعَدَ الله ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ ﴾ في معنى وعدهم الله ذلك وفي الآية دقيقة شريفة ، وهي أنه تعالى في كثير من آيات الوعد صرح بأن هذا وعد الله وأنه لا يخلف وعده ولم يذكر في آيات الوعيد ألبتة مثل هذا التأكيد والتقوية ، وذلك يدل على أن جانب الوعد أرجح من جانب الوعيد بخلاف ما يقوله المعتزلة ، فإن قالوا أليس أنه قال في جانب الوعيد

﴿ مَا يُبَدَّلُ القول لَدَىَّ وَمَا أَنَاْ بظلام للّعَبِيدِ ﴾ [ق : 29] قلنا قوله ما يبدل القول لدي ليس تصريحاً بجانب الوعيد بل هو كلام عام يتناول القسمين أعني الوعد والوعيد ، فثبت

أن الترجيح الذي ذكرناه حق ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 229.225 ﴾

(165/666)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : نَزَلَتْ مَعَ الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا فِي ثَلَاثَةِ نَفَرٍ : زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ ، وَأَبِي ذَرٍّ ، وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ كَانُوا مِمَّنْ لَمْ يَأْتِهِمْ كِتَابٌ وَلَا بُعِثَ إِلَيْهِمْ نَبِيٌّ ، وَلَكِنْ وَقَرَ فِي نُفُوسِهِمْ كَرَاهِيَةُ مَا النَّاسُ عَلَيْهِ بِمَا سَمِعُوا مِنْ أَحْسَنِ مَا كَانَ فِي أَقْوَالِ النَّاسِ ، فَلَا جَرَمَ قَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى الْجَنَّةِ .

أَمَّا زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ فَمَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ فِي أَيَّامِ الْفَتْرَةِ فَلَهُ مَا نَوَى مِنْ الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا أَبُو ذَرٍّ وَسَلْمَانُ فَتَدَارَكَتْهُمْ الْعِنَايَةُ ، وَنَالُوا الْهِدَايَةَ ، وَأَسْلَمُوا ، وَصَارُوا فِي جُمْلَةِ الصَّحَابَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ جَمَاعَةٌ : الطَّاغُوتُ الشَّيْطَانُ ، وَقِيلَ : الْأَصْنَامُ .

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ : هُوَ كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَهُوَ فَلَعُوتٌ مَنْ طَغَى ؛ إذَا تَجَاوَزَ الْحَدَّ ، وَدَخَلَ فِي قِسْمِ الْمَذْمُومِ فَقَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : كَانَتْ الْعَرَبُ قَدْ اتَّخَذَتْ فِي الْكَعْبَةِ طَوَاغِيتَ ، وَهِيَ سِتُّونَ ، كَانَتْ تُعَظِّمُهَا بِتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ ، وَتُهْدَى إلَيْهَا كَمَا تُهْدَى إلَى الْكَعْبَةِ ، وَكَانَ لَهَا سَدَنَةٌ وَحُجَّابٌ ، وَكَانَتْ تَطُوفُ بِهَا ، وَتَعْرِفُ فَضْلَ الْكَعْبَةِ عَلَيْهَا .

(166/666)

وَقِيلَ : كَانَ الشَّيْطَانُ يَتَصَوَّرُ فِي صُورَةِ إنْسَانٍ فَيَتَحَاكَمُونَ إلَيْهِ وَهِيَ صُورَةُ إبْرَاهِيمَ وَفِي الْحَدِيثِ : ﴿ إنَّهُ يَأْتِي شَيْطَانٌ فِي صُورَةِ رَجُلٍ فَيَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْذِبُ عَلَى النَّبِيِّ مُتَعَمِّدًا لِيُضِلَّ النَّاسَ ﴾ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَحْذَرَ مِنْ الْأَحَادِيثِ الْبَاطِلَةِ الْمُضِلَّةِ ، وَيَنْبَغِي أَلَّا يَقْصِدَ مَسْجِدًا ، وَلَا يُعَظِّمَ بُقْعَةً إلَّا الْبِقَاعَ الثَّلَاثَ الَّتِي قَالَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا تُعْمَلُ الْمَطِيُّ إلَّا إلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِي هَذَا ، وَمَكَّةَ ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ .

وَقَدْ سَوَّلَ الشَّيْطَانُ لِأَهْلِ زَمَانِنَا أَنْ يَقْصِدُوا الرُّبُطَ ، وَيَمْشُوا إلَى الْمَسَاجِدِ تَعْظِيمًا لَهَا ، وَهِيَ بِدْعَةٌ مَا جَاءَ النَّبِيُّ بِهَا إلَّا مَسْجِدَ قُبَاءَ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَأْتِيهِ كُلَّ سَبْتٍ رَاكِبًا وَمَاشِيًا ، لَا لِأَجْلِ الْمَسْجِدِيَّةِ ، فَإِنَّ حُرْمَتَهَا فِي مَسْجِدِهِ كَانَتْ أَكْثَرَ ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ

الِافْتِقَادِ لِأَهْلِهِ ، وَالتَّطْيِيبِ لِقُلُوبِهِمْ ، وَالْإِحْسَانِ بِالْأُلْفَةِ إِلَيْهِمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(167/666)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾

﴿ الإنسان ﴾ في هذه الآية يراد به الكافر بدلالة ما وصفه به آخراً من اتخاذ الأنداد لله تعالى ، وقوله : ﴿ تمتع بكفرك قليلاً ﴾ وهذه آية بين تعالى بها على الكفار أنهم على كل حال يلجؤون في حال الضرورات إليه وإن كان ذلك عن غير يقين منهم ولا إيمان فلذلك ليس بمعتد به . و﴿ منيباً ﴾ معناه مقارباً مراجعاً بصيرته .

وقوله تعالى : ﴿ ثم إذا خوله نعمة ﴾ يحتمل أن يريد النعمة في كشف المذكور ، ويحتمل أن يريد نعمة أي نعمة كانت ، واللفظ يعم الوجهين : و﴿ خوله ﴾ معناه ملكه وحكمه فيها ابتداء لا مجازاة ، ولا يقال في الجزاء خول ، ومنه الخول ، ومنه قول زهير :

هنالك أن يستخولوا المال يخولوا . . . هذه الرواية الواحدة ، ويروى يستخبلوا .

وقوله تعالى : ﴿ نسي ما كان يدعو إليه من قبل ﴾ قالت فرقة : ﴿ مصدرية ﴾ ،

والمعنى نسي دعاءه إليه في حال الضرر ورجع إلى كفره . وقالت فرقة : بمعنى الذي ، والمراد بها الله تعالى ، وهذا كنحو قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ [الكافرون : 3 - 5] وقد تقع " ما " مكان " من " فيما لا يحصى كثرة من كلامهم ، ويحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ، ويكون قوله : ﴿ نسي ﴾ كلاماً تاماً ، ثم نفى أن يكون دعاء هذا الكافر خالصاً لله ومقصوداً به من قبل النعمة ، أي في حال الضرر ، ويحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ويكون قوله : ﴿ من قبل ﴾ يريد به : من قبل الضرر ، فكأنه يقول : ولم يكن هذا الكافر يدعو في سائر زمنه قبل الضرر ، بل ألجأه ضرره إلى الدعاء . والأنداد : الأضداد التي تضاد وتزاحم وتعارض بعضها بعضاً . قال مجاهد : المراد من الرجال يطيعونهم في معصية الله تعالى . وقال غيره : المراد الأوثان .

(168/666)

وقرأ الجمهور : " ليُضل " بضم الياء ، وقرأها الباقون : أبو عمرو وعيسى وابن كثير وشبل (بفتحها) ثم أمر تعالى نبيه أن يقول لهم على جهة التهديد قولاً يخاطب به واحداً منهم : ﴿ تمتع بكفرك ﴾ أي تلذذ به واصنع ما شئت ، والقليل : هو عمر هذا المخطاب ، ثم أخبره أنه ﴿ من أصحاب النار ﴾ ، أي من سكانها والمخلدين فيها .

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ

وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة : " أمَن " بتخفيف الميم ، وهي قراءة أهل مكة والأعمش وعيسى وشيبة بن نصاح ، ورويت عن الحسن ، وضعفها الأخفش وأبو حاتم . وقرأ عاصم وأبو عمرو وابن عامر والكسائي والحسن والأعرج وقتادة وأبو جعفر : " أمّن " بتشديد الميم ، فأما القراءة الأولى فلها وجهان ، أحدهما : وهو الأظهر أن الألف تقرير واستفهام ، وكأنه يقول : أهذا القانت خير أم هذا المذكور الذي يتمتع بكفره قليلاً وهو من أصحاب النار ؟ وفي الكلام حذف يدل عليه سياق الآيات مع قوله آخراً : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ ، ونظيره قول الشاعر [امرىء القيس] : [الطويل]

فأقسم لو شيء أتانا رسوله . . . سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

(169/666)

ويوقف على هذا التأويل على قوله : ﴿ رحمة ربه ﴾ . والوجه الثاني : أن يكون الألف نداء ، والخطاب لأهل هذه الأوصاف ، كأنه يقول : أصحاب هذه الصفات ﴿ قل هي يستوي ﴾ فهذا السؤال ب ﴿ هل ﴾ هو للقانت ، ولا يوقف على التأويل على قوله : ﴿

رحمة ربه ﴾ ، وهذا معنى صحيح ، إلا أنه أجنبي من معنى الآيات قبله وبعده ، وضعفه أبو علي الفارسي . وقال مكي : إنه لا يجوز عند سيبويه ، لأن حرف النداء لا يسقط مع المبهم وليس كما قال مكي ، أما مذهب سيبويه في أن حرف النداء لا يسقط مع الميم ، فنعم ، لأنه يقع الإلباس الكثير بذلك ، وأما أن هذا الموضع سقط فيه حرف النداء فلا ، والألف ثابتة فيه ظاهرة ، وأما القراءة بتشديد الميم فإنها : " أم " دخلت على : " من " والكلام على هذه القراءة لا يحتمل إلا المعادلة بين صنفين ، فيحتمل أن يكون ما يعادل " أم " متقدماً في التقدير ، كأنه يقول : أهذا الكافر خير أم من ، ويحتمل أن تكون " أم " قد ابتدأ بها بعد إضراب مقدر ويكون المعادل في آخر الكلام ، والأول أبين .

(170/666)

والقانت : المطيع ، وبهذا فسر ابن عباس رضي الله عنه ، والقنوت في كلام العرب : يقع على القراءة وعلى طول القيام في الصلاة ، وبهذا فسرها ابن عمر رضي الله عنه ، وروي عن ابن عباس أنه قال : من أحب أن يهون الله عليه الوقوف يوم القيامة ، فليره الله في سواد الليل ساجداً أو قائماً ، ويقع القنوت على الدعاء وعلى الصمت عبادة . وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أن القنوت : الطاعة . وقال جابر بن عبد الله :

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الصلاة أفضل ؟ فقال : " طول القنوت " والآناء : الساعات ، واحدها : أني كمعى ومنه قولهم : لن يعدو شيء أناه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ غير ناظرين إناء ﴾ [الأحزاب : 53] على بعض التأويلات في ذلك ويقال في واحدها أيضاً : أنى على وزن قفى ، ويقال فيه أيضاً : إني بكسر الهمزة وسكون النون ، ومنه قول الهذلي : [البسيط]

حلو ومر كعطف القدح مرته . . . في كل إني حداه الليل ينتعل

وقرأ الضحاك : " ساجدٌ وقائمٌ " بالرفع فيهما .

وقوله تعالى : ﴿ يحذر الآخرة ﴾ معناه يحذر حالها وهولها . وقرأ سعيد بن جبير : " يحذر عذاب الآخرة " و ﴿ أولو ﴾ معناه أصحاب الألباب ، واحدهم : ذو .

وقرأ جمهور القراء : " قل يا عبادي " بفتح الياء . وقرأ أبو عمرو وعاصم والأعمش : " يا عبادي " بياء ساكنة . وقرأ أبو عمرو أيضاً وعاصم والأعمش وابن كثير : " يا عباد " بغير ياء في الوصل .

ويروى أن هذه الآية نزلت في جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة. ووعد تعالى بقوله: ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ في هذه الدنيا ﴾، متعلقاً ب ﴿ أحسنوا ﴾، فكأنه يريد أن الذين يحسنون في الدنيا لهم حسنة في الآخرة وهي الجنة والنعيم، قاله مقاتل، ويحتمل أن يريد: أن الذين يحسنون لهم حسنة في الدنيا وهي العاقبة والظهور وولاية الله تعالى، قاله السدي. وكان قياس قوله أن يكون في هذه الدنيا متأخراً ويجوز تقديمه، والأول أرجح أن الحسنة هي في الآخرة. ﴿ وأرض الله ﴾ يريد بها البلاد المجاورة التي تقتضيها القصة التي في الكلام فيها، وهذا حض على الهجرة، ولذلك وصف الله الأرض بالسعة. وقال قوم: أراد ب "الأرض" هنا الجنة، وفي هذا القول تحكم لا دليل عليه.

ثم وعد تعالى على الصبر على المكاره والخروج عن الوطن ونصرة الدين وجميع الطاعات: بأن الأجر يوفى ﴿ بغير حساب ﴾، وهذا يحتمل معنيين، أحدهما: أن الصابر يوفى أجره ثم لا يحاسب عن نعيم ولا يتابع بذنوب، فيقع ﴿ الصابرون ﴾ في هذه الآية على الجماعة التي ذكرها النبي عليه السلام أنها تدخل الجنة دون حساب في قوله: "يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب هم الذين لا يتطيرون ولا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون وجوههم على صورة القمر ليلة البدر" الحديث على اختلاف ترتيباته. والمعنى الثاني: أن أجور الصابرين توفى بغير حصر ولا وعد، بل جزافاً، وهذه استعارة للكثرة

التي لا تحصى ، ومنه قول الشاعر [طويس المغني] : [الكامل]

ما تمنعي يقضى فقد تعطينه . . . في النوم غير مسرد محسوب

(172/666)

وإلى هذا التأويل ذهب جمهور المفسرين حتى قال قتادة : ليس ثم والله مكيال ولا ميزان ، وفي بعض الحديث أنه لما نزلت : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ [البقرة : 261] قال النبي عليه السلام : اللهم زد أمتي فنزلت بعد ذلك : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ [البقرة : 245] ، فقال : اللهم زد أمتي حتى أنزلت : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ فقال : رضيت يا رب .

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11)

أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية بأن يصدع للكفار فيما أمر به من عبادة ربه .

وقوله : ﴿ وأمرت ﴾ لأن معناه : وأمرت بهذا الذي ذكرت لكي أكون أول من أسلم من أهل عصري وزمني ، فهذه نعمة من الله عليه وتنبيه منه .

وقوله : ﴿ أخاف إن عصيت ﴾ فعل معلق بشرط وهو العصيان ، وقد علم أنه عليه السلام معصوم منه ، ولكنه خطاب للأمة يعمهم حكمه ويحفهم وعيده .

وقوله تعالى ﴿ قل الله أعبد ﴾ تأكيد للمعنى الأول وإعلام بامتثاله كله للأمر ، وهذا كله نزل قبل القتال لأنها موادعات .

وقوله : ﴿ فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ صيغة أمر على جهة التهديد كنحو قوله : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصلت : 40] وقوله : ﴿ تمتع بكفرك ﴾ [الزمر : 8] ، وهذا كثير ، و ﴿ الذين ﴾ في قوله : ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ في موضع رفع خبر ، لأن قوله : ﴿ وأهليهم ﴾ قيل معناه أنهم خسروا الأهل الذي كان يكون لهم لو كانوا من أهل الجنة ، فهذا كما لو قال : خسروا أنفسهم ونعيمهم ، أي الذي كان يكون بهم ، وقيل أراد الأنفس والأهلين الذين كانوا في الدنيا ، لأنهم صاروا في عذاب النار ، ليس لهم نفوس مستقرة ولا بدل من أهل الدنيا ، ومن له في الجنة قد صار له إما أهله وإما غيرهم على الاختلاف فيما يؤثر في ذلك فهو على كل حال لا خسران معه بتة .

(173/666)

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ

(16)

هذه صفة حال أهل جهنم . والظلة : ما غشي وغم كالسحابة وسقف البيت ونحوه ،

فأما ما فوقهم فكونه ظلة بين ، وأما ما تحتهم فقالت فرقة : سمي ظلة لأنه يتلهب ويصعد مما تحتهم شيء كثير ولهب حتى يكون ظلة ، فإن لم يكن فوقهم شيء لكفى فرع الذي تحتهم في أن يكون ظلة ، وقالت فرقة : جعل ما تحتهم ظلة ، لأنه فوق آخرين ، وهكذا هي حالهم إلا الطبقة الأخيرة التي في القعر .

وقوله : ﴿ عباده ﴾ يريد جميع العالم خوفهم الله النار وحذرهم منها ، فمن هدي وآمن نجا ، ومن كفر حصل فيما خوف منه . واختلفت القراءة في قوله : " عباد " وقد تقدم نظيره .

وقوله تعالى : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ الآية ، قال ابن زيد : إن سبب نزولها زيد بن عمرو بن نفيل وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري ، والإشارة إليهم ، وقال ابن إسحاق : الإشارة بها إلى عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد والزبير ، وذلك أنه لما أسلم أبو بكر سمعوا ذلك فجاؤوه ، فقالوا أسلمت ؟ قال نعم ، وذكرهم بالله فآمنوا بأجمعهم فنزلت فيهم هذه الآية ، وهي على كل حال عامة في الناس إلى يوم القيامة يتناولهم حكمها . و﴿ الطاغوت ﴾ : كل ما يعبد من دون الله . و﴿ الطاغوت ﴾ أيضاً : الشيطان ، وبه فسر هنا مجاهد والسدي وابن زيد ، وأوقعه هنا على جماعة الشياطين ، ولذلك أنث الضمير بعد .

وقوله تعالى : ﴿ الذي يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ كلام عام في جميع الأقوال ، وإنما

القصد الثناء على هؤلاء ببصائر هي لهم وقوام في نظرهم حتى أنهم إذا سمعوا قولاً ميزوه واتبعوا أحسنه .

(174/666)

واختلف المفسرون في العبارة عن هذا ، فقالت فرقة : أحسن القول كتاب الله ، أي إذا سمعوا الأقاويل وسمعوا القرآن اتبعوا القرآن . وقالت فرقة : القول هو القرآن و ﴿ أحسنه ﴾ ما فيه من عفو وصفح واحتمال على صبر ونحو ذلك . وقال قتادة : أحسن القول طاعة الله ، وهذه أمثلة وما قلناه أولاً يعمها .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19)

أسقط العلامة التي في الفعل المسند إلى الكلمة لوجهين : أحدهما الحائل الذي بين الفعل والفاعل ، ولو كان متصلاً به لم يحسن ذلك ، والثاني أن الكلمة غير مؤنث حقيقي ، وهذا أخف وأجوز من قولهم : حضر القاضي يوماً امرأة ، لأن التأنيث هنا حقيقي . وقالت فرقة : في هذا الكلام محذوف أختصره لدلالة الظاهرة عليه تقديراً : ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب ﴾ تتأسف أنت عليه أو نحو هذا من التقدير ، ثم استأنف توقيف النبي صلى الله عليه وسلم على أنه يريد أن ينقذ من في النار ، أي ليس هذا إليك . وقالت فرقة :

الألف في قوله : ﴿ أفأنت ﴾ إنما هي مؤكدة زادها لطول ، وإنما معنى الآية : " أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه ؟ " لكنه زاد الألف الثانية توكيداً للأمر ، وأظهر الضمير العائد تشهيراً لهؤلاء القوم وإظهاراً لخسة منازلهم ، وهذا كقول الشاعر [عدي بن زيد العبادي] : [الخفيف]

لا أرى الموت يسبق الموت شيء . . . فإنما أظهر الضمير تنبيهاً على عظم الموت ، وهذا كثير ، ثم استفتح إخباراً آخر ب ﴿ لكن ﴾ وهذه معادلة وتخصيص على التقوى لمن فكر وازدجر .

(175/666)

وقوله تعالى : ﴿ من تحتها ﴾ أي من تحت الغرف ، وعادلت ﴿ غرف من فوقها غرف ﴾ ما تقدم من الظلل فوقهم وتحتهم . والغرف : ما كان من المساكين مرتفعاً عن الأرض ، في الحديث : " إن أهل الجنة ليتراءون الغرف من فوقهم كما يتراءون الكواكب الذي في الأفق " و: ﴿ وعدَ الله ﴾ نصب على المصدر ، ونصبه إما بفعل مضمر من لفظه ، وإما بما تضمن الكلام قبل من معنى الوعد على الاختلاف الذي للنحاة في ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أَن يَعْبُدُوهَا ﴾

قال الأخفش : الطاغوت جمع ويجوز أن تكون واحدة مؤنثة .

وقد تقدم .

أي تباعدوا من الطاغوت وكانوا منها على جانب فلم يعبدوها .

قال مجاهد وابن زيد : هو الشيطان .

وقال الضحاك والسدي : هو الأوثان .

وقيل : إنه الكاهن .

وقيل إنه اسم أعجمي مثل طالوت وجالوت وهاروت وماروت .

وقيل : إنه اسم عربي مشتق من الطغيان ، و"أن" في موضع نصب بدلاً من الطاغوت ،

تقديره : والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت .

﴿ وأنابوا إِلَى الله ﴾ أي رجعوا إلى عبادته وطاعته .

﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ في الحياة الدنيا بالجنة في العقبى .

روي أنها نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير رضي الله عنهم ؛ سألوا أبا بكر رضي الله عنه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا .

وقيل : نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذرّ وغيرهما ممن وحّد الله تعالى قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ قال ابن عباس : هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به .

وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن .

وقيل : يستمعون القرآن وأقوال الرسول فيتبعون أحسنه أي محكمه فيعملون به .

وقيل : يستمعون عزماً وترخيصاً فيأخذون بالعزم دون الترخيص .

وقيل : يستمعون العقوبة الواجبة لهم والعفو فيأخذون بالعفو .

وقيل : إن أحسن القول على من جعل الآية فيمن وحّد الله قبل الإسلام "لا إله إلا الله" .

وقال عبد الرحمن بن زيد : نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذرّ الغفاري وسلمان الفارسي ، اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها في جاهليتهم ، واتبعوا أحسن ما صار من القول إليهم .

﴿ أولئك الذين هَدَاهُمُ الله ﴾ لما يرضاه .

﴿ وأولئك هُمْ أُوْلُو الألباب ﴾ أي الذين انتفعوا بعقولهم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النار ﴾ كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على إيمان قوم وقد سبقت لهم من الله الشقاوة فنزلت هذه الآية .

قال ابن عباس : يريد أبا لهب وولده ومن تخلف من عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان .

وكرر الاستفهام في قوله : ﴿ أَفَأَنتَ ﴾ تأكيداً لطول الكلام ، وكذا قال سيبويه في قوله تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ ﴾ [المؤمنون : 35] على ما تقدّم .

والمعنى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب ﴾ أفأنت تنقذه .

والكلام شرط وجوابه .

وجيء بالاستفهام ؛ ليدل على التوقيف والتقرير .

وقال الفراء : المعنى أفأنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب .

والمعنى واحد .

وقيل : إن في الكلام حذفاً والتقدير : أفمن حق عليه كلمة العذاب ينجو منه ، وما بعده

مستأنف .

وقال : "أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ" وقال في موضع آخر : ﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب ﴾ [الزمر : 71] لأن الفعل إذا تقدم ووقع بينه وبين الموصوف به حائل جاز التذكير والتأنيث ، على أن التأنيث هنا ليس بحقيقي بل الكلمة في معنى الكلام والقول ؛ أي أفمن حق عليه قول العذاب .

قوله تعالى : ﴿ لكن الذين اتقوا رَبَّهُمْ ﴾ لما بيّن أن للكفار ظُلَلا من النار من فوقهم ومن تحتهم بيّن أن للمتقين غرفاً فوقها غرف ؛ لأن الجنة درجات يعلو بعضها بعضاً و"لَكِن" ليس للاستدراك ؛ لأنه لم يأت نفي كقوله : ما رأيت زيداً لكن عمراً ، بل هو لترك قصة إلى قصة مخالفة للأولى كقولك : جاءني زيد لكن عمرو لم يأت .

﴿ غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ قال ابن عباس : من زبرجد وياقوت ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ أي هي جامعة لأسباب النزهة .

﴿ وَعْدَ الله ﴾ نصب على المصدر ؛ لأن معنى "لَهُمْ غُرَفٌ" وعدهم الله ذلك وعداً . ويجوز الرفع بمعنى ذلك وعد الله .

﴿ لاَ يُخْلِفُ الله الميعاد ﴾ أي ما وعد الفريقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ الخ

قال ابن زيد : نزلت في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون لا إله إلا الله .

زيد بن عمرو بن نفيل ، وسلمان ، وأبي ذر .

وقال ابن إسحاق : أشير بها إلى عبد الرحمن بن عوف .

وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد .

والزبير وذلك أنه لما أسلم أبو بكر سمعوا ذلك فجاءوه وقالوا : أسلمت قال نعم وذكرهم بالله تعالى فآمنوا بأجمعهم فنزلت فيهم وهي محكمة في الناس إلى يوم القيامة ، والطاغوت فعلوت من الطغيان كما قالوا لا فاعول كما قيل بتقديم اللام على العين نحو صاعقة وصاقعة ، ويدل على ذلك الاشتقاق وأن طوغ وطيغ مهملان .

وأصله طغيوت أو طغووت من الياء أو الواو لأن طغى يطغى ويطغو كلاهما ثابتان في العربية نقله الجوهري ، ونقل أن الطغيان والطغوان بمعنى وكذا الراغب ، وجمعه على الطواغيت يدل على أن الجمع بني على الواو ، وقولهم : من الطغيان لا يريدون به خصوص الياء بل أرادوا المعنى وهو على ما في "الصحاح" الكاهن والشيطان وكل رأس في الضلال ، وقال

الراغب : هو عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله تعالى وسمي به الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن الخير ويستعمل في الواحد والجمع .

(179/666)

وقال الزمخشري في هذه السورة : لا يطلق على غير الشيطان ، وذكر أن فيه مبالغات من حيث البناء فإن صيغة فعلوت للمبالغة ولذا قالوا الرحموت الرحمة الواسعة ، ومن حيث التسمية بالمصدر ، ومن حيث القلب فإنه للاختصاص كما في الجاه ، وقد أطلقه في النساء على كعب بن الأشرف وقال : سمي طاغوتاً لإفراطه في الطغيان وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو على التشبيه بالشيطان فلعله أراد لا يطلق على غير الشيطان على الحقيقة ، وكأنه جعل كعباً على الأول من الوجهين من شياطين الإنس ، وفي "الكشف" كأنه لما رآه مصدراً في الأصل منقولاً إلى العين كثير الاستعمال في الشيطان حكم بأنه حقيقة فيه بعد النقل مجاز في الباقي لظهور العلاقة إما استعارة وإما نظر إلى تناسب المعنى ، والذي يغلب على الظن أن الطاغوت في الأصل مصدر نقل إلى البالغ الغاية في الطغيان وتجاوز الحد ، واستعماله في فرد من هذا المفهوم العام شيطاناً كان أو غيره يكون حقيقة ويكون مجازاً على ما قرروا في استعمال العام في فرد من أفراده كاستعمال الإنسان في زيد ، وشيوعه في

الشيطان ليس إلا لكونه رأس الطاغين ، وفسره هنا بالشيطان مجاهد ، ويجوز تفسيرها بالشياطين جمعاً على ما سمعت عن الراغب ويؤيده قراءة الحسن ﴿ اجتنبوا ﴾ ﴿ الطاغوت أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ بدل اشتمال من الطاغوت وعبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان إذ هو الآمر بها والمزين لها ، وإذا فسر الطاغوت بالأصنام فالأمر ظاهر ﴿ وَأَنَابُواْ إِلَى الله ﴾ وأقبلوا إليه سبحانه معرضين عما سواه إقبالاً كلياً ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ بالثواب من الله تعالى على ألسنة الرسل عليهم السلام أو الملائكة عند حضور الموت وحين يحشرون وبعد ذلك .

﴿ فَبَشّرْ عِبَادِ ﴾ .

(180/666)

﴿ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ مدح لهم بأنهم نقاد في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل فإذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب وكذلك المباح والندب .

وقيل يستمعون أوامر الله تعالى فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو والانتصار والإغضاء والإبداء والإخفاء لقوله تعالى : ﴿ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ للتقوى ﴾ [البقرة : 237] .

﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقراء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 271] والفرق بين الوجهين أن هذا أخص لأنه مخصوص بأوامر فيها تخيير بين راجح وأرجح كالعفو والقصاص مثلاً كأنه قيل يتبعون أحسن القولين الواردين في معين وفي الأول يتبعون الأحسن من القولين مطلقاً كالإيجاب بالنسبة إلى الندب مثلاً .

وعن الزجاج يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن .

وقيل يستمعون القول ممن كان فيتبعون أولاه بالقبول وأرشده إلى الحق ويلزم من وصفهم بذلك أنهم يميزون القبيح من الحسن ويجتنبون القبيح ، وأريد بهؤلاء العباد الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم لئلا ينفك النظم فإن قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ ﴾ مرتب على قوله سبحانه : ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ ووضع الظاهر موضع الضمير ليشرفهم تعالى بالإضافة إليه ولتكرير بيان الاستحقاق وليدل على أنهم نفادون حرصاً على إثار الطاعة ومزيد القرب عند الله تعالى وفيه تحقيق للإنابة وتتميم حسن ، وقيل الوقف على ﴿ عِبَادِى ﴾ فيكون الذين مبتدأ خبره جملة قوله تعالى :

﴿ أولئك الذين عَبْدُ الله ﴾ أي لدينه ، والكلام استئناف بإعادة صفة من استؤنف عنه الحديث ؛ وما تقدم أرجح لما سلف من الفوائد من إقامة الظاهر مقام المضمر والتتميم فإن ذلك دون الوصف لا يتم ، ولأن محرك السؤال المجاب بالجملة بعد قوله تعالى : ﴿ يَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ أقوى وذلك الأصل في حسن الاستئناف ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ أُوْلُواْ الألباب ﴾ أي هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى المستحقون للهداية لا غيرهم ، وفي الآية دلالة على حط قدر التقليد المحض ولذا قيل

: شمر وكن في أمور الدين مجتهدا . . .

ولا تكن مثل عير قيد فانقاد

واستدل بها على أن الهداية تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها كما ذهب إليه الأشاعرة

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى النار ﴾ بيان لأضداد المذكورين على طريقة الإجمال وتسجيل عليهم بحرمان الهداية وهم عبدة الطاغوت ومتبعوا خطواتها كما يلوح به التعبير عنهم بمن حق عليه كلمة العذاب فإن المراد بتلك الكلمة قوله تعالى : ﴿ لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 85] والآية على ما قيل نزلت في أبي جهل وأضرابه ، والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر ومن شرطية على ما ذهب إليه الحوفي وغيره وجواب الشرط ﴿ فَأَنتَ تُنقِذُ ﴾ الخ والهمزة قبله لاستطالة

الكلام على نحو قوله

: لقد علم الحزب اليمانون أنني . . .

إذا قلت أما بعد أني خطيبها

(182/666)

لأن دخول الهمزة في الجواب أو الشرط كاف تقول : أإن أكرمك تكرمه كما تقول إن أكرمك أتكرمه ولا تكررها فيهما إلا للتأكيد لأن الجملتين أعني الشرط والجزاء بعد دخول الأداة مفردان والاستفهام إنما يتوجه على مضامين الجمل إذا كان المطلوب تصديقاً والإنكار المفاد بالهمزة متعلق بمضمون المعطوف والمعطوف عليه إلا أن المقصود في المعطوف إنكار الجزاء والتقدير أأنت مالك أمر الناس قادر على التصرف فيه فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه على معنى لست أنت مالك أمر الناس ولا أنت تقدر على الإنقاذ بل المالك والقادر على الإنقاذ هو الله عز وجل ، وعدل عن فأنت تنقذه إلى ما في "النظم الكريم" لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد مع ما فيه من الإشارة إلى أنه نزل استحقاقهم للعذاب وهم في الدنيا المشعر به الشرط منزلة دخولهم النار وأنه مثل حاله عليه الصلاة والسلام في المبالغة في تحصيل هدايتهم والاجتهاد في دعائهم إلى الإيمان بحال من يريد أن ينقذ من في النار منها .

وفي "الحواشي الخفاجية" نقلاً عن السعد أن في هذه الآية استعارة لا يعرفها إلا فرسان البيان وهي الاستعارة التمثيلية المكنية لأنه نزل ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنِ ﴾ الخ من استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار في الآخرة حتى يترتب عليه تنزيل بذله عليه الصلاة والسلام جهده في دعائهم إلى الإيمان منزلة إنقاذهم من النار الذي هو من ملائمات دخول النار ثم قال : وقد عرفت من مذهبه أن قرينة المكنية قد تكون تحقيقية كما في نقض العهد انتهى فتأمل .

وقيل : إن النار مجاز عن الضلال من باب إطلاق اسم المسبب على السبب والإنقاذ بدل الهداية من ترشيح المجاز أو مجاز عن الدعاء للإيمان والطاعة وليس بذاك ، وجوز أن يكون الجزاء محذوفاً وجملة ﴿ فَأَنتَ تُنقِذُ ﴾ الخ مستأنفة مقررة للجملة الأولى والتقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تخلصه أفأنت تنقذ من في النار .

(183/666)

ولا فرق بين الوجهين في أن الفاء في الأولى للعطف على محذوف ولا في كون المعنى على تنزيل استحقاق العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار وتمثيل حاله عليه الصلاة والسلام في المبالغة في تحصيل هدايتهم بحال من يريد أن ينقذ من في النار منها ، نعم الكلام

على الأول جملة وعلى الثاني جملتان ، واستظهر أبو حيان أن ﴿ مِنْ ﴾ موصولة مبتدأ والخبر محذوف ، وحكي أن منهم من يقدره يتأسف عليه ومنهم من يقدره يتخلص منه ومنهم من يقدره فأنت تخلصه ، ولا يخفى أن التقدير الأخير أولى ، وذكر أن النحاة على أن الفاء في مثل هذا التركيب للعطف وموضعها قبل الهمزة لكن قدمت الهمزة لأن لها صدر الكلام وقال : إن القول بأن كلاً منهما في مكانه قول انفرد به الزمخشري فيما علمنا وفي "المغني" ترجيح القول بأن الهمزة مقدمة من تأخير وعليه يقدر المعطوف عليه ما أنت مالك أمرهم أو ما أخبر الله تعالى به واقع لا محالة أو كل كافر مستحق للعذاب أو نحو ذلك مما يناسب المعنى المراد .

﴿ لكن الذين اتقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾

استدراك بين ما يشبه النقيضين والضدين وهما المؤمنون والكافرون وأحوالهما ، والمراد بالذين اتقوا الموصوفون بما عدد من الصفات الفاضلة ، والغرف جمع غرفة وهي العلية أي لهم علالي كثيرة جليلة بعضها فوق بعض ﴿ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ قيل : هو كالتمهيد لقوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ﴾ أي من تحت تلك الغرف الفوقانيات والتحتانيات ﴿ الأنهار ﴾ أي مبنية بناءاً يتأتى معه جري الأنهار من تحتها وذلك على خلاف علالي الدنيا فيفيد الوصف بذلك أنها سويت تسوية البناء على الأرض وجعلت سطحاً واحداً يتأتى معه جري الأنهار عليه على أن مياه الجنة لما كانت منحدرة من بطنان العرش على ما في

الحديث فهي أعلى من الغرف فلا عجب من جري الماء عليها فوقاً وتحتاً لكن لا بد من وضع يتأتى معه الجري فالوصف المذكور لإفادة ذلك .

(184/666)

وقال بعض الأجلة : الظاهر أن هذا الوصف تحقيق للحقيقة وبيان أن الغرف ليست كالظلل حيث أريد بها المعنى المجازي على الاستعارة التهكمية ، وقال بعض فضلاء إخواننا المعاصرين : فائدة التوصيف بما ذكر الإشارة إلى رفعة شأن الغرف حيث آذن أن الله تعالى بانيها وماذا عسى يقال في بناء بناه الله جل وعلا .

وأقول والله تعالى أعلم : وصفت الغرف بذلك للإشارة إلى أنها مهيأة معدة لهم قد فرغ من أمرها كما هو ظاهر الوصف لا أنها تبنى يوم القيامة لهم ، وفي ذلك من تعظيم شأن المتقين ما فيه ، وفي الآية على هذا رد على المعتزلة وكأن الزمخشري لذلك لم يحم حول هذا الوجه واقتصر على ما حكيناه أولاً مع أن ما قلناه أقرب منه فليحفظ .

﴿ وَعَدَ الله ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله فإنه وعد أي وعد ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله الميعاد ﴾ لما في خلفه من النقص المستحيل عليه عز وجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾

أي : بترك إخلاص العبادة له ، وتوحيده ، والدعاء إلى ترك الشرك ، وتضليل أهله ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وهو : يوم القيامة .

قال أكثر المفسرين : المعنى : إني أخاف إن عصيت ربي بإجابة المشركين إلى ما دعوني إليه من عبادة غير الله .

قال أبو حمزة اليماني ، وابن المسيب : هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] وفي هذه الآية دليل على أن الأمر للوجوب ، لأن قبله : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴾ [الزمر : 11] ، فالمراد : عصيان هذا الأمر ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ ﴾ التقديم مشعر بالاختصاص ، أي : لا أعبد غيره لا استقلالاً ، ولا على جهة الشركة ، ومعنى ﴿ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ﴾ : أنه خالص لله غير مشوب بشرك ، ولا رياء ، ولا غيرهما ، وقد تقدّم تحقيقه في أول السورة .

قال الرازي : فإن قيل : ما معنى التكرير في قوله : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ

الدين ﴾ [الزمر : 11] ، وقوله : ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ﴾ قلنا : ليس هذا بتكرير ، لأن الأوّل : إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإيمان ، والعبادة ، والثاني إخبار بأنه أمر أن لا يعبد أحداً غير الله ﴿ فاعبدوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أن تعبدوه ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ هذا الأمر للتهديد ، والتقريع ، والتوبيخ كقوله : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : 40] ، وقيل : إن الأمر على حقيقته ، وهو منسوخ بآية السيف ، والأوّل أولى ﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرين الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة ﴾ أي : إن الكاملين في الخسران هم هؤلاء ، لأن من دخل النار ، فقد خسر نفسه ، وأهله .

(186/666)

قال الزجاج : وهذا يعني به الكفار ، فإنهم خسروا أنفسهم بالتخليد في النار ، وخسروا أهليهم ، لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة ، وجملة : ﴿ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخسران المبين ﴾ مستأنفة لتأكيد ما قبلها ، وتصديرها بحرف التنبيه للإشعار بأن هذا الخسران الذي حلّ بهم قد بلغ من العظم إلى غاية ليس فوقها غاية ، وكذلك تعريف الخسران ، ووصفه بكونه مبيناً ، فإنه يدلّ على أنه الفرد الكامل من أفراد الخسران ؛ وأنه لا خسران يساويه ، ولا عقوبة تدانيه .

ثم بيّن سبحانه هذا الخسران الذي حلّ بهم ، والبلاء النازل عليهم بقوله : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار ﴾ الظلل عبارة عن أطباق النار ، أي : لهم من فوقهم أطباق من النار تلتهب عليهم ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ أي : أطباق من النار ، وسمي ما تحتهم ظللاً ؛ لأنها تظلّ من تحتها من أهل النار ، لأن طبقات النار صار في كلّ طبقة منها طائفة من طوائف الكفار ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : 41] ، وقوله : ﴿ يَوْمَ يغشاهم العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾

[العنكبوت : 55] ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من وصف عذابهم في النار ، وهو : مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿ يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ ﴾ أي : يحذرهم بما توعد به الكفار من العذاب ؛ ليخافوه ، فيتقوه ، وهو : معنى ﴿ ياعباد فاتقون ﴾ أي : اتقوا هذه المعاصي الموجبة لمثل هذا العذاب على الكفار ، ووجه تخصيص العباد بالمؤمنين أن الغالب في القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم .

وقيل : هو للكفار ، وأهل المعاصي .

وقيل : هو عامّ للمسلمين ، والكفار .

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ الموصول مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ والطاغوت بناء مبالغة في المصدر كالرحموت ، والعظموت ، وهو : الأوثان ، والشيطان .

وقال مجاهد ، وابن زيد : هو : الشيطان .

وقال الضحاك ، والسدّي : هو : الأوثان .

وقيل : إنه الكاهن .

وقيل : هو اسم أعجمي مثل طالوت ، وجالوت .

وقيل : إنه اسم عربيّ مشتق من الطغيان .

قال الأخفش : الطاغوت جمع ، ويجوز أن يكون واحده مؤنثاً ، ومعنى اجتنبوا الطاغوت : أعرضوا عن عبادته ، وخصوا عبادتهم بالله عزّ وجلّ ، وقوله : ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ في محل نصب على البدل من الطاغوت ، بدل اشتمال ، كأنه قال : اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وقد تقدّم الكلام على تفسير الطاغوت مستوفى في سورة البقرة ، وقوله : ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى الله ﴾ معطوف على اجتنبوا ، والمعنى : رجعوا إليه ، وأقبلوا على عبادته معرضين عما سواه ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ بالثواب الجزيل ، وهو : الجنة .

وهذه البشرى إما على ألسنة الرسل ، أو عند حضور الموت ، أو عند البعث ﴿ فَبَشّرْ عِبَادِ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ المراد بالعباد هنا : العموم ، فيدخل

الموصوفون بالاجتناب ، والإنابة إليه دخولاً أوّلياً ، والمعنى : يستمعون القول الحقّ من كتاب الله ، وسنّة رسوله ، فيتبعون أحسنه ، أي : محكمه ، ويعملون به .

قال السدّي : يتبعون أحسن ما يؤمرون به ، فيعملون بما فيه .

وقيل : هو الرجل يسمع الحسن ، والقبيح ، فيتحدّث بالحسن ، وينكف عن القبيح ، فلا يتحدّث به .

وقيل : يستمعون القرآن وغيره ، فيتبعون القرآن ، وقيل : يستمعون الرخص والعزائم ، فيتبعون العزائم ، ويتركون الرخص ، وقيل : يأخذون بالعفو ، ويتركون العقوبة .

ثم أثنى سبحانه على هؤلاء المذكورين ، فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَاهُمُ الله وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الألباب ﴾ أي : هم الذين أوصلهم الله إلى الحق ، وهم أصحاب العقول الصحيحة ، لأنهم الذين انتفعوا بعقولهم ، ولم ينتفع من عداهم بعقولهم .

(188/666)

ثم ذكر سبحانه من سبقت له الشقاوة ، وحرم السعادة فقال : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب ﴾ من هذه يحتمل أن تكون موصولة في محل رفع بالابتداء ، وخبرها محذوف ، أي : كمن يخاف ، أو فأنت تخلصه ، أو تتأسف عليه ، ويحتمل أن تكون شرطية ، وجوابه ﴾

أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النار ﴾ فالفاء فاء الجواب دخلت على جملة الجزاء ، وأعيدت الهمزة الإنكارية لتأكيد معنى الإنكار .

وقال سيبويه : إنه كرّر الاستفهام لطول الكلام .

وقال الفراء : المعنى : أفأنت تنقذ من حقّت عليه كلمة العذاب ، والمراد بكلمة العذاب هنا هي : قوله تعالى لإبليس :

﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 85] ، وقوله : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف : 18] ومعنى الآية : التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان حريصاً على إيمان قومه ، فأعلمه الله أن من سبق عليه القضاء ، حقت عليه كلمة الله لا يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينقذه من النار بأن يجعله مؤمناً .

قال عطاء : يريد أبا لهب ، وولده ، ومن تخلف من عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ، وفي الآية تنزيل لمن يستحقّ العذاب بمن قد صار فيه ، وتنزيل دعائه إلى الإيمان منزلة الإخراج له من عذاب النار .

ولما ذكر سبحانه فيما سبق أن لأهل الشقاوة ظللاً من فوقهم النار ، ومن تحتهم ظلل استدرك عنهم من كان من أهل السعادة ، فقال : ﴿ لكن الذين اتقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ ، وذلك لأن الجنة درجات بعضها فوق بعض ، ومعنى ﴿ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ : أنها مبنية بناء المنازل في إحكام أساسها ، وقوّة بنائها ، وإن كانت منازل الدنيا ليست بشيء بالنسبة إليها ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ أي : من تحت تلك الغرف ، وفي ذلك كمال لبهجتها ، وزيادة لرونقها ، وانتصاب ﴿ وَعَدَ الله ﴾ على المصدرية المؤكدة لمضمون الجملة ، لأن قوله : ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ ﴾ في معنى : وعدهم الله بذلك ، وجملة : ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله الميعاد ﴾ مقرّرة للوعد ، أي : لا يخلف الله ما وعد به الفريقين من الخير ، والشرّ .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرين الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية .

قال : هم : الكفار الذين خلقهم الله للنار زالت عنهم الدنيا ، وحرمت عليهم الجنة .

وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ قال : أهليهم من أهل الجنة كانوا أعدّوا لهم لو عملوا بطاعة الله ، فغيبوهم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : كان سعيد بن زيد ، وأبو ذرّ ، وسلمان يتبعون في

الجاهلية أحسن القول ، والكلام لا إله إلا الله قالوا بها ، فأنزل الله على نبيه : ﴿ يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ الآية .

(190/666)

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال : لما نزل : ﴿ فَبَشّرْ عِبَادِ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً فنادى : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، فاستقبل عمر الرسول ، فردّه ، فقال : يا رسول الله خشيت أن يتكل الناس ، فلا يعملون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو يعلم الناس قدر رحمة ربي لاتكلوا ، ولو يعلمون قدر سخط ربي ، وعقابه لاستصغروا أعمالهم " وهذا الحديث أصله في الصحيح من حديث أبي هريرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(191/666)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

قد دل استقراء القرآن العظيم ، على أن الله جل وعلا ، إذا ذكر تنزيله لكتابه ، أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى ، المتضمنة صفاته العليا .

ففي أول هذه السورة الكريمة ، لما ذكر تنزيله كتابه ، بين أنَّ مبدأ تنزيله كائن منه جل وعلا ، وذكر اسمه الله ، واسمه العزيز ، والحكيم ، وذكر مثل ذلك في أول سورة الجاثية ، في قوله تعالى : ﴿ حمتَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم إِنَّ فِي السماوات والأرض لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الجاثية : 13] وفي اول سورة الأحقاف في قوله تعالى : ﴿ حمتَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم مَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾ [الأحقاف : 13] الآية .

وقد تكرر كثيراً في القرآن ، ذكره بعض أسمائه وصفاته ، بعد ذكر تنزيل القرآن العظيم ، كقوله في أول سورة ﴿ حمتَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم ﴾ [فصلت : 12] . وقوله تعالى في أول هود ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : 1] وقوله في فصلت ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [4142] وقوله تعالى في صدر يس ﴿ تَنزِيلَ العزيز الرحيم لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ ﴾ [يس : 56] وقوله تعالى : ﴿

تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل ﴾ [الحاقة : 4344] الآية .

ولا يخفى أن ذكره جل وعلا هذه المسألة الحسنى العظيمة ، بعد ذكره تنزيل هذا القرآن العظيم ، يدل بإيضاح ، على عظمة القرآن العظيم ، وجلالة شأنه وأهمية نزوله ، والعلم عند الله تعالى .

(192/666)

قوله تعالى : ﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ .

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم . في هذه الآية الكريمة ، أن يعبده في حال كونه ، مخلصاً له الدين ، أي مخلصاً له في عبادته ، من جميع أنواع الشرك صغيرها وكبيرها ، كما هو واضح من لفظ الآية .

والإخلاص ، إفراد المعبود بالقصد ، في كل ما أمر بالتقرب به إليه ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من كون الإخلاص في العبادة لله وحده ، لا بد منه ، جاء في آيات متعددة ، وقد بين جل وعلا ، أنه ما أمر بعبادة ، إلا عبادة يخلص له العابد فيها .

أما غير المخلص فكل ما أتى به من ذلك ، جاء به من تلقاء نفسه ، لا بأمر ربه ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة : 5] الآية ، وقال جل وعلا

﴿ قُلْ إِنِي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ [الزمر : 1112] إلى قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِه ﴾ [الزمر : 1315] .

وقد قدمنا الكلام على العمل الصالح ، وأنه لا بد فيه من الإخلاص ، في أول سورة الكهف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات ﴾ [الكهف : 2] الآية . وفي غير ذلك من المواضع .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ [الزمر : 3] أي التوحيد الصافي من شوائب الشرك ، أي هو المستحق لذلك وحده ، وهو الذي أمر به .

وقول من قال من العلماء : إن المراد بالدين الخالص كلمة لا إله إلا الله موافق لما ذكرناه .

والعلم عند الله تعالى .

ثم لما ذكر جل وعلا إخلاص العبادة له وحده ، بين شبهة الكفار التي احتجوا بها ، للإشراك به تعالى ، في قوله تعالى هنا :

(193/666)

﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى ﴾ فبين أنهم يزعمون أنهم ما عبدوا الأصنام ، إلا لأجل أن تقربهم من الله زلفى ، والزلفى القرابة .

فقوله : زلفى ، ما ناب عن المطلق من قوله ليقربونا ، أي ليقربونا إليه قرابة تنفعنا بشفاعتهم في زعمهم .

ولذا كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك .

وقد قدمنا في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وابتغوا إِلَيهِ الوسيلة ﴾ [المائدة : 35] أن هذا النوع من ادعاء الشفعاء ، واتخاذ المعبودات من دون الله وسائط من أصول كفر الكفار .

وقد صرح تعالى بذلك في سورة يونس في قوله جل وعلا ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السماوات وَلاَ فِي الأَرض سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : 18] .

فصرح تعالى بأن هذا النوع ، من ادعاء الشفعاء شرك بالله ، ونزه نفسه الكريمة عنه ، بقوله جل وعلا ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : 18] وأشار إلى ذلك في آية الزمر هذه ، لأنه جل وعلا لما قال عنهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زلفى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أتبع ذلك بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ .

وقوله : كفار ، صيغة مبالغة ، فدل ذلك على أن الذين قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى جامعون بذلك ، بين الكذب والمبالغة في الكفر بقولهم ذلك . وسيأتي إن شاء الله

لهذا زيادة إيضاح في سورة الناس .

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4)

(194/666)

قد قدمنا الآيات الموضحة ، بكثرة في سورة النحل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل : 57] .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه خلق بني آدم من نفس واحدة هي أبوهم آدم ، ثم جعل من تلك النفس ، زوجها يعني حواء . أي وبث جميع بني آدم منهما ، وأوضح هذا في مواضع أخر من كتابه ، كقوله تعالى في أول سورة النساء ﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً ﴾ [النساء : 1] وقوله في الأعراف : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ ﴾ [الأعراف : 189] الآية ، وتأنيث الوصف ، بقوله واحدة ، مع أن الموصوف به مذكر ، وهو آدم نظراً إلى تأنيث لفظ النفس ، وإن كان المراد بها مذكراً ، ونظير ذلك من كلام العرب قوله :

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾

قد قدمنا إيضاح هذه الأزواج الثمانية بنص القرآن العظيم ، في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى ﴿ والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ [آل عمران : 14] .

قوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ﴾ [الحج : 5] الآية وبينا هناك المراد بالظلمات الثلاث المذكورة هنا .

قوله تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ .

(195/666)

قد بين جل وعلا ، في هذه الآية الكريمة ، أنه غني عن خلقه الغنى المطلق ، وأنه لا يضره كفرهم به ، والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ موسى إِن تكفروا أَنتُمْ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً فَإِنَّ الله لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : 8] وقوله تعالى : ﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ واستغنى الله والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن : 6] ، وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ

اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغني ﴾ [يونس : 68] الآية . وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقرآء إِلَى الله والله هُوَ الغني الحميد ﴾ [فاطر : 15] وقوله تعالى : ﴿ والله الغني وَأَنتُمُ الفقرآء ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 38] ، وقد أوضحنا هذا بالآيات في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ الآية .

قد قدمنا إيضاحه مع إزالة الإشكال ، والجواب عن الأسئلة الواردة ، علة تلك الآيات في سورة بني إسرائيل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وأوضحنا ذلك ، مع إزالة الإشكال في بعض الآيات ، في سورة النحل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : 25] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يدعوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً ﴾ [يونس : 12] الآية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النار ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له مع الإشارة إلى بحث أصوله في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : 3] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ ﴾ .

الظاهر أن معنى الآية ، أن الإنسان إذا كان في محل لا يتمكن فيه من إقامة دينه على الوجه المطلوب ، فعليه أن يهاجر منه ، في مناكب أرض الله الواسعة ، حتى يجد محلاً تمكنه فيه إقامة دينه .

وقد أوضح تعالى في هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرض قالوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النساء : 97] . وقوله تعالى : ﴿ ياعبادي الذين آمنوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فاعبدون ﴾ [العنكبوت : 56] ، ولا يخفى أن الترتيب بالفاء في قوله : ﴿ فَإِيَّايَ فاعبدون ﴾ على قوله : ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَة ﴾ دليل واضح على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرين الذين خسروا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخسران المبين ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، من أوجه في سورة يونس ، في الكلام على قوله تعالى ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس : 45] .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ ﴾ الآية .

(197/666)

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، في سورة الأنبياء ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنبياء : 69] الآية ، وذكرنا طرفاً من ذلك ، في سورة بني إسرائيل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ [الإسراء : 8] .

قوله تعالى : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أَن يَعْبُدُوهَا وأنابوا إِلَى الله ﴾ الآية .

ما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من تحقيق معنى لا إله إلا الله ، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ، في سورة الفاتحة ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 5] .

قوله تعالى : ﴿ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه ﴾ .

أظهر الأقوال في الآية الكريمة ، أن المراد بالقول ، ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، من وحي الكتاب والسنة ، ومن إطلاق القول على القرآن قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ الْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون : 68] الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ [الطارق : 1314] . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ أي يقدمون الأحسن ، الذي هو أشد حسناً ، على الأحسن الذي هو دونه في الحسن ، ويقدمون الأحسن مطلقاً على الحسن . ويدل لهذا آيات من كتاب الله .

أما الدليل على أن القرآن الأحسن المتبع . ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من الوحي ، فهو في آيات من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الزمر : 55] وقوله تعالى لموسى يأمره بالأخذ بأحسن ما في التوراة ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف : 145] .

وأما كون القرآن فيه الأحسن والحسن ، فقد دلت عليه آيات من كتابه .

(198/666)

واعلم أولاً أنه لا شك في أن الواجب أحسن من المندوب ، وأن المندوب أحسن من مطلق الحسن فإذا سمعوا مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج : 77]

قدموا فعل الخير الواجب ، على فعل الخير المندوب ، وقدموا هذا الأخير ، على مطلق الحسن الذي هو الجائز ، ولذا كان الجزاء بخصوص الأحسن الذي هو الواجب والمندوب ، لا على مطلق الحسن ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97] وقوله تعالى ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر : 35] كما قدمنا إيضاحه في سورة النحل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97] ، وبينا هناك دلالة على أن المباح حسن ، كما قال صاحب المراقي :

ما ربنا لم ينه عنه حسن . . . وغيره القبيح والمستهجن

(199/666)

ومن أمثلة الترغيب في الأخذ بالأحسن وأفضليته مع جواز الأخذ بالحسن قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : 126] فالأمر في قوله : ﴿ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ للجواز ، والله لا يأمر إلا بحسن . فدل ذلك على أن الانتقام حسن ، ولكن الله بين أن العفو والصبر ، خير منه وأحسن في قوله :

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ وأمثال ذلك كثيرة في القرآن ، كقوله تعالى في إباحة الانتقام ، ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئك مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى : 41] ، مع أنه بين أن الصبر والغفران خير منه ، في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43] ، وكقوله في جواز الانتقام ﴿ لاَّ يُحِبُّ الله الجهر بالسواء مِنَ القول إِلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾ [النسا : 148] مع أنه أشار إلى أن العفو خير منه ، وأنه من صفاته جل وعلا مع كمال قدرته وذلك في قوله بعده : ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سواء فَإِنَّ الله كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً ﴾

[النساء : 149] . وكقوله جل وعلا مثنياً على من تصدق ، فأبدى صدقته ﴿ إِن تُبْدُواْ الصدقات فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ [البقرة : 271] ثم بين أن إخفاءها وإيتاءها الفقراء ، خير من إبدائها الذي مدحه بالفعل الجامد ، الذي هو لإنشاء المدح الذي هو نعم ، في قوله ﴿ إِن تُبْدُواْ الصدقات فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقرآء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 271] .

وكقوله في نصف الصداق اللازم ، للزوجة بالطلاق ، قبل الدخول ، فنصف ما فرضتم ، ولا شك أن أخذ كل واحد من الزوجين النصف حسن ، لأن الله شرعه في كتابه في قوله ﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقر : 237] مع أنه رغب كل واحد منهما ، أن العفو للآخر عن نصفه ، وبين أن ذلك أقرب للتقوى وذلك في قوله بعده ﴿ وَأَن تعفوا أَقْرَبُ للتقوى وَلاَ تَنسَوُاْ الفضل بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة : 237] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] ثم أرشد إلى الحسن بقوله ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ [الشورى : 40] وقال تعالى : ﴿ والجروح قِصَاصٌ ﴾ [المائدة : 45] ثم أرشد إلى الأحسن ، في قوله : ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ [المائدة : 45] .

واعلم أن في هذه الآية الكريمة أقوالاً غير الذي اخترنا .

منها ما روي عن ابن عباس ، في معنى ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه ﴾ [الزمر : 18] قال " هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن ، وينكف عن القبيح ، فلا يتحدث به " .

وقيل يستمعون القرآن وغيره ، فيتبعون القرآن .

وقيل : إن المراد بأحسن القول لا إله إلا الله ، وبعض من يقول بهذا القول : إن الآية نزلت فيمن كان يؤمن بالله قبل بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، كزيد بن عمرو بن نفيل العدوي ، وأبي الغفاري ، وسلمان الفارسي ، إلى غير ذلك من الأقوال .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19)

أظهر القولين في الآية الكريمة ، أنهما جملتان مستقلتان ، فقوله أفمن حق عليه كلمة العذاب جملة مستقلة ، لكن فيها حذفاً ، حذف ما دل المقام عليه واضحن لا إشكال فيه .

(201/666)

والتقدير : أفمن حق عليه كلمة العذاب ، تخلصه أنت منه ، والاستفهام مضمن معنى النفي ، أي لا تخلص أنت يا نبي أحداً سبق في علم الله أنه يعذبه من ذلك العذاب ، وهذا المحذوف دل عليه قوله بعده : ﴿ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النار ﴾

وقد قدمنا مراراً قولي المفسرين في أداة الاستفهام المقترنة بأداة عطف كالفاء والواو وثم كقوله :

هنا : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ ﴾ وقوله : ﴿ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ ﴾ .

أما القول بأن الكلام جملة واحدة شرطية ، كما قال الزمخشري : أصل الكلام : أمن حق عليه كلمة العذاب ، فأنت تنقذه جملة شرطية ، دخل عليها همزة الإنكار ، والفاء فاء الجزاء ، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب ، تقديره : أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه ، والهمزة الثانية هي الأولى كررت

لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ووضع من في النار موضع الضمير ، فالآية على هذا الجملة واحدة ، فإنه لا يظهر كل الظهور .

واعلم أن ما دلت عليه هذه الآية الكريمة قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة يس في الكلام على قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ ﴾ [يس : 7] الآية ، وبينا دلالة الآيات على المراد بكلمة العذاب .

قوله تعالى : ﴿ لكن الذين اتقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ الآية .

(202/666)

ما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من وعد أهل الجنة بالغرف المبنية ، ذكره جل وعلا في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى في سورة سبأ ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فأولئك لَهُمْ جَزَآءُ الضعف بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي الغرفات آمِنُونَ ﴾ [سبأ : 37] . وقوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ [التوبة : 72] الآية . وقوله تعالى في سورة الصف : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفوز العظيم ﴾ [الصف : 12] ، لأن المساكن الطيبة المذكورة في التوبة والصف

صادقة بالغرف المذكورة في الزمر وسبأ ، وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة الفرقان ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الفرقان : 75] الآية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(203/666)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾

لما انتهى تهديد المشركين وموعظة الخلائق أجمعين ثُني عنان الخطاب إلى جانب المؤمنين فيما يختص بهم من البشارة مقابلة لنذارة المشركين .

والجملة معطوفة على جملة ﴿ قُلْ إنَّ الخاسرين الذين خسِرُوا أنفسهم ﴾ [غافر : 15] الآية .

والتعبير عن المؤمنين بـ ﴿ الذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو ﴿ لهُمُ البشرى ﴾ ، وهذا مقابل قوله : ﴿ ذلك يُخوفُ الله به عِباده ﴾ [الزمر : 16] .

والطاغوت : مصدر أو اسم مصدر طَغا على وزن فَعَلُوت بتحريك العين بوزن رَحموتٍ

وملوكت .

وفي أصله لغتان الواو والياء لقولهم : طغا طُغُوًّا مثل علوّ ، وقولهم : طغوان وطغيان .

وظاهر "القاموس" أنه واوي ، وإذ كانت لامه حرف علة ووقعت بعدها واوُ زِنةِ فَعلوت استثقلت الضمة عليها فقدموها على العين ليتأتّى قلبها ألفاً حيث تحركت وانفتح ما قبلها فصار طاغوت بوزن فَلَعُوت بتحريك اللام وتاؤُه زائدة للمبالغة في المصدر .

ومن العلماء من جعل الطاغوت اسماً أعجمياً على وزن فَاعول مثل جالوت وطالوت وهارون ، وذكره في "الإِتقان" فيما وقع في القرآن من المعرّب وقال : إنه الكاهن بالحبشية .

واستدركه ابن حجر فيما زاده على أبيات ابن السبكي في الألفاظ المعرَّبة الواقعة في القرآن ، وقد تقدم ذكره بأخصر مما هنا عند قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ في سورة [النساء : 51] .

وأُطلق الطاغوت في القرآن والسنة على القوي في الكفر أوْ الظلم ، فأطلق على الصّنم ، وعلى جماعة الأصنام ، وعلى رئيس أهل الكفر مثل كعب بن الأشرف .

وأما جمعه على طواغيت فذلك على تغليب الاسمية علماً بالغلبة إذ جعل الطاغوت لواحد الأصنام وهو قليل ، وهو هنا مراد به جماعة الأصنام وقد أجرى عليه ضمير المؤنث في قوله : ﴿ أن يعْبُدُوهَا ﴾ باعتبار أنه جمع لغير العاقل ، وأجري عليه ضمير جماعة الذكور في قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ في سورة [البقرة : 257] باعتبار أنه وقع خبراً عن الأولياء وهو جمع مذكر ، وباعتبار تنزيلها منزلة العقلاء في زعم عبادها .

و﴿ أن يعبُدُوها ﴾ بدل من ﴿ الطَّاغُوتَ ﴾ بدل اشتمال .

والإِنابة : التوبة وتقدمت في قوله : ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ في سورة [هود : 75] .

والمراد بها هنا التوبة من كل ذنب ومعصية وأعلاها التوبة من الشرك الذي كانوا عليه في الجاهلية .

والبشرى : البشارة ، وهي الإِخبار بحصول نفع ، وتقدمت في قوله تعالى : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ في سورة [يونس : 64] .

والمراد بها هنا : البشرى بالجنة .

وفي تقديم المسند من قوله : ﴿ لهُمُ البشرى ﴾ إفادة القصر وهو مثل القصر في ﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ .

وفرع على قوله : ﴿ لهُمُ البُشْرى ﴾ قوله : ﴿ فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتَّبِعون أحسنه ﴾ وهم الذين اجتنبوا الطاغوت ، فعدل عن الإتيان بضميرهم بأن يقال : فبشرهم ، إلى الإظهار باسم العِباد مضاف إلى ضمير الله تعالى ، وبالصلة لزيادة مدحهم بصفتين أخريين وهما : صفة العبودية لله ، أي عبودية التقرب ، وصفة استماع القول واتباع أحسنه .

وقرأ العشرة ما عدا السوسي رَاويَ أبي عمرو كلمة ﴿ عبادِ بكسر الدال دون ياء وهو تخفيف واجْتزاء بوجود الكسرة على الدال .

(205/666)

وقرأها السوسي بياء بعد الدال مفتوحة في الوصل وساكنة في الوقف ، ونقل عنه حذف الياء في حالة الوقف وهما وجهان صحيحان في العربية كما في التسهيل ﴾ ، لكن اتفقت المصاحف على كتابة ﴿ عبادِ هنا بدون ياء بعد الدال وذلك يوهن قراءة السوسي إلاّ أن يتأول لها بأنها من قبيل الأداء .

والتعريف في القَوْلَ ﴾ تعريف الجنس ، أي يستمعون الأقوال مما يدعو إلى الهدى مثلَ القرآن وإرشادَ الرسول صلى الله عليه وسلم ويستمعون الأقوال التي يريد أهلها صرفهم عن

الإِيمان من ترهات أئمة الكفر فإذا استمعوا ذلك اتبعوا أحسنه وهو ما يدعو إلى الحق .

والمراد : يتبعون القول الحسن من تلك الأقوال ، فاسم التفضيل هنا ليس مستعملاً في تفاوت الموصوف به في الفضل على غيره فهو للدلالة على قوة الوصف ، مثل قوله تعالى : ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ [يوسف : 33] .

أثنى الله عليهم بأنهم أهل نقد يميزون بين الهدى والضلال والحكمة والأوهام نُظّار في الأدلة الحقيقية نُقّاد للأدلة السفسطائية .

وفي الموصول إيماء إلى أن اتباع أحسن القول سبب في حصول هداية الله إياهم .

وجملة ﴿ أُولئِكَ الذينَ هداهُم الله ﴾ مستأنفة لاسترعاء الذهن لتلقي هذا الخبر .

وأكد هذا الاسترعاء بجعل المسند إليه اسم إشارة ليتميز المشار إليهم .

أكمل تميزه مع التنبيه على أنهم كانوا أحرياء بهذه العناية الربانية لأجل ما اتصفوا به من الصفات المذكورة قبل اسم الإِشارة وهي صفات اجتنابهم عبادة الأصنام مع الإِنابة إلى الله واستماعهم كلام الله واتباعهم إياه نابذين ما يلقي به المشركون من أقوال التضليل .

والإِتيان باسم الإشارة عقب ذكر أوصاف أو أخبارٍ طريقة عربية في الاهتمام بالحكم والمحكوم عليه فتارة يشار إلى المحكوم عليه كما هنا وتارة يشار إلى الخبر كما في قوله : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾ في سورة [ص : 55] .

وقد أفاد تعريف الجزأين في قوله : ﴿ أُولَئِكَ الذينَ هداهُم الله ﴾ قصر الهداية عليهم وهو قصر صفة على موصوف وهو قصر إضافي قصر تعيين ، أي دون الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم .

ومعنى ﴿ هدَاهُمُ الله ﴾ أنهم نالوا هذه الفضيلة بأن خلق الله نفوسهم قابلة للهدى الذي يخاطبهم به الرسول صلى الله عليه وسلم فتهيأت نفوسهم لذلك وأقبلوا على سماع الهدى بشَرَاشِرهم وسعوا إلى ما يبلغهم إلى رضاه وطلبوا النجاة من غضبه .

وليس المراد بهدي الله إياهم أنه وجه إليهم أوامر إرشاده لأن ذلك حاصل للذين خوطبوا بالقرآن فأعرضوا عنه ولم يتطلبوا البحث عما يرضي الله تعالى فأصروا على الكفر .

وأشارت جملة ﴿ وأُولئِكَ هُم أُولوا الألبَابِ ﴾ إلى معنى تهيئهم للاهتداء بما فطرهم الله عليه من عقول كاملة ، وأصل الخِلقة ميَّالة لفهم الحقائق غير مكترثة بالمألوف ولا مُرَاعاة الباطل ، على تفاوت تلك العقول في مدى سرعة البلوغ للاهتداء ، فمنهم من آمن عند أول دعاء النبي صلى الله عليه وسلم مثل خديجة وأبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب ، ومنهم من آمن بُعيد ذلك أو بَعده ، فأشير إلى رسوخ هذه الأحوال في عقولهم بذكر ضمير الفصل مع كلمة ﴿ أُولُوا ﴾ الدالة على أن الموصوف بها ممسك بما أضيفت إليه كملة ﴿ أُوْلُوا ﴾ ، وبما دل عليه تعريف ﴿ الألبابِ ﴾ من معنى الكمال ، فليس التعريف فيه

تعريف الجنس لأن جنس الألباب ثابت لجميع العقلاء .

وأشار إعادة اسم الإِشارة إلى تميزهم بهذه الخصلة من بين نظرائهم وأهل عصرهم .

وفيه تنبيه على أن حصول الهداية لا بدّ له من فاعل وقابل ، فأشير إلى الفاعل بقوله تعالى : ﴿ هداهم الله ﴾ ، وإلى القابل بقوله : ﴿ هُم أُولوا الألبابِ ﴾ .

وفي هذه الجملة من القصر ما في قوله : ﴿ أُولئِكَ الذينَ هداهُمُ الله ﴾ .

(207/666)

وقد دل ثناء الله على عباده المؤمنين الكمّل بأنهم أحرزوا صفة اتباع أحسن القول الذي يسمعونه ، على شرف النظر والاستدلال للتفرقة بين الحق والباطل وللتفرقة بين الصواب والخطأ ولغلق المجال في وجه الشبهة ونفي تلبس السفسطة .

وهذا منه ما هو واجب على الأعيان وهو ما يكتسب به الاعتقاد الصحيح على قدر قريحة الناظر ، ومنه واجب على الكفاية وهو فضيلة وكمال في الأعيان وهو النظر والاستدلال في شرائع الإسلام وإدراكُ دلائل ذلك والفقهُ في ذلك والفهم فيه والتهممُ برعاية مقاصده في شرائع العبادات والمعاملات ، وآداب المعاشرة لإِقامة نظام الجامعة الإِسلامية على أصدق وجه وأكمله ، وإلجامُ الخائضين في ذلك بعماية وغرور ، وإلقامُ المتنطعين

والملحدين .

ومما يتبع ذلك انتقاء أحسن الأدلة وأبلغِ الأقوال الموصلة إلى هذا المقصود بدون اختلال ولا اعتلال بتهذيب العلوم ومؤلفاتها ، فقد قيل : خذوا من كل علم أحسنه أخذاً من قوله تعالى هنا : ﴿ الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنَهُ ﴾ .

وعن ابن زيد نزلت في زيد بن عَمرو بن نفيل وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها في جاهليتهم واتّبعوا أحسن ما بلغهم من القول .

وعن ابن عباس نزل قوله : ﴿ فبشّر عِبَادِ الذينَ يستَمِعونَ القولَ ﴾ الآية في عثمان وعبد الرحمان بن عوف وطلحة والزبير وسعيد بن زيد ، وسعد بن أبي وقاص جاؤوا إلى أبي بكر الصديق حين أسلم فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19)

(208/666)

لما أفاد الحصر في قوله : ﴿ لهُم البشرى ﴾ [الزمر : 17] والحصران اللذان في قوله : ﴿ أُولئِكَ الذينَ هداهُم الله وأُولئِكَ هم أُولوا الألبابِ ﴾ [الزمر : 18] أنّ من سواهم وهم المشركون لا بشرى لهم ولم يهدهم الله ولا ألباب لهم لعدم انتفاعهم بعقولهم ، وكان حاصل

ذلك أن المشركين محرومون من حسن العاقبة بالنعيم الخالد لحرمانهم من الطاعة التي هي سببه فُرع على ذلك استفهام إنكاري مفيد التنبيه على انتفاء الطماعية في هداية الفريق الذي حقت عليه كلمة العذاب ، وهم الذين قُصد إقصاؤهم عن البشرى ، والهدايةِ والانتفاعِ بعقولهم ، بالقصر المصوغة عليه صِيَغ القصر الثلاث المتقدمة كما أشرنا إليه .

وقَد جاء نظم الكلام على طريقة مبتكرة في الخبر المهتم به بأن يؤكد مضمونه الثابت للخبر عنه ، بإثبات نقيضِ أو ضدِّ ذلك المضمون لضد المخبر عنه ليتقرر مضمون الخبر مرتين مرةً بأصله ومرة بنقيضه أو ضده ، لضد المخبر عنه كقوله تعالى : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾ [ص : 55] عَقب قوله : ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ﴾ [ص : 49] .

ويكثر أن يقع ذلك بعد الإتيان باسم إشارة للخبر المتقدم كما في الآية المذكورة أو للمخبر عنه كما في هذه السورة في قوله آنفاً : ﴿ أُولئِكَ الذين هداهُم الله ﴾ [الزمر : 18] فإنه بعد أن أشير إلى الموصوفين مرتين فرع عليه بعده إثبات ضد حكمهم لمن هم متصفون بضد حالهم .

وبهذا يَظهر حسن موقع الفاء لتفريع هذه الجملة على جملة ﴿ أُولئك الذين هداهم الله وأُولئك هم أُولوا الألبابِ ﴾ [الزمر : 18] لأن التفريع يقتضي اتصالاً وارتباطاً بين المفرَّع والمفرّع عليه وذلك ، كالتفريع في قول لبيد :

أفتلك أم وحشيةٌ مَسْبُوعَة

خَذَلت وهادِيةُ الصِوارِ قِوامها . . .

إذ فَرَّع تشبيهاً على تشبيه لاختلاف المشبه بهما .

وكلمة ﴿ العذَابِ ﴾ كلام وعيد الله إياهم بالعذاب في الآخرة .

(209/666)

ومعنى ﴿ حَقَّ ﴾ تحققت في الواقع ، أي كانت كلمة العذاب المتوعَّد بها حقّاً غير كذب ، فمعنى ﴿ حَقَّ ﴾ هنا تحقق ، وحَقّ كلمة العذاب عليهم ضد هدي الله الآخرين ، وكونُهم في النار ضد كون الآخرين لهم البشرى ، وترتيبُ المتضادْين جرى على طريقة شِبه اللف والنشر المعكوس ، نظير قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴿ ختم اللَّه على قلوبهم ﴾ إلى قوله : ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ [البقرة : 6 ، 7] بعد قوله : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك إلى قوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ [البقرة : 4 ، 5] ، فإن قوله : ﴿ ختم اللَّه على قلوبهم ﴾ ضد لقوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ وقوله : ﴿ ولهم عذاب عظيم ضد قوله : أولئك هم المفلحون ﴾ .

و(مَن) من قوله تعالى : ﴿ أفَمن حقَّ عليهِ كلمةُ العذَابِ ﴾ روي عن ابن عباس أن المراد بها أبو لهب وولدُه ومن تخلف عن الإِيمان من عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيكون (مَنْ) مبتدأ حذف خبره .

والتقدير : تنقذه من النار ، كما دل عليه ما بعده وتكون جملة ﴿ أفأنت تُنقِذُ من في النَّار ﴾ تذييلاً ، أي أنت لا تنقذ الذين في النار .

والهمزة للاستفهام الإِنكاري ، والهمزة الثانية كذلك .

وإحدَاهما تأكيد للأخرى التي قبلها للاهتمام بشأن هذا الاستفهام الإِنكاري على نحو تكرير (أَنَّ) في قول قس بن ساعدة:

لقد علم الحَي اليمانُون أنني

إذ قلت : أمّا بعد ، أَني خطيبها

والذي درج عليه صاحب "الكشاف" وتبعه شارحوه أن (مَن) في قوله : ﴿ أفَمَنْ حَقَّ عليْهِ كَلِمَةُ العَذَابِ ﴾ شرطية ، بناء على أن الفاء في قوله : ﴿ أفأَنْتَ تُنْقِذُ مَن في النَّارِ ﴾ يحسن أن تكون لمعنى غيرِ معنى التفريع المستفاد من التي قبلها وإلا كانت مؤكدة للأولى وذلك ينقص معنىً من الآية .

ويجوز أن تكون (مَن) الأولى موصولة مبتدأً وخبرُه ﴿ أفأَنْتَ تُنْقِذُ مَن في النّارِ ﴾ ، وتكون الفاء في قوله : ﴿ أفأَنْتَ تُنْقِذُ مَن في النّارِ ﴾ مؤكدة للفاء الأولى في قوله : ﴿ أفَمَنْ حَقَّ ﴾ الخ فتكون الهمزة والفاء معاً مؤكدتين للهمزة الأولى والفاءِ التي معها لاتصالهما ، ولأن جملة ﴿ أفأَنْتَ تُنْقِذُ ﴾ صادقة على ما صدقت عليه جملة ﴿ أفَمَن حقَّ عليهِ كَلِمَةُ العذَابِ ﴾ ، ويكون الاستفهام الإِنكاري جارياً على غالب استعماله من توجهه إلى كلام لا شرط فيه .

وأصل الكلام على اعتبار (مَن) شرطية : أَمَن تَحْقُق عليه كلمة العذاب في المستقبل ، فأنت لا تنقذه منه فتكون همزة ﴿ أفأَنْتَ تُنْقِذُ مَن في النّارِ ﴾ للاستفهام الإنكاري وتكون همزة ﴿ أفَمَن حقَّ عليه كَلِمَةُ العَذَابِ ﴾ افتُتح بها الكلام المتضمن الإِنكار للتنبيه من أول الأمر على أن الكلام يتضمن إنكاراً ، كما أن الكلام الذي يشتمل على نفي قد يفتتحونه بحرف نفي قبل أن ينطقوا بالنفي كما في قول مسلم بن معبد الوالبي من بني أسد :

فلاَ والله لا يُلفَى لما بي

ولا لِما بهم أبداً دَواء . . .

ويفيد ذكرها توكيدَ مُفاد همزة الإِنكار إفادةً تبعية .

وأصل الكلام على اعتبار (مَن) الأولى موصولة : الذين تَحِقّ عليهم كلمة العذاب أنت لا

تنقذهم من النار ، فتكون الهمزة في قوله : ﴿ أَفَمَن حقَّ عليه كَلِمَةُ العَذَابِ ﴾ للاستفهام الإِنكاري وتكون همزة ﴿ أفأَنْتَ تُنْقِذُ مَن في النَّارِ ﴾ تأكيداً للهمزة الأولى .

و﴿ مَن ﴾ من قوله : ﴿ مَن في النَّارِ ﴾ موصولة .

و﴿ مَن في النَّارِ ﴾ هم من حقّ عليهم كلمة العذاب لأن كلمة العذاب هي أن يكونوا من أهل النار فوَقَع إظهار في مقام الإِضمار ، والأصل : "أفأَنْتَ تُنقِذُه مَن النَّارِ" .

(211/666)

وفائدة هذا الإِظهار تهويل حالتهم لما في الصلة من حَرف الظرفية المصوِّر لحالة إحاطة النار بهم ، أي أفأنت تريد إنقاذهم من الوقوع في النار وهم الآن في النار لأنه محقق مصيرهم إلى النار ، فشبه تحقق الوقوع في المستقبل بتحققه في الحال .

وقد صرح بمثل هذا الخبر المحذوف في قوله تعالى : ﴿ أفمن يلقى في النار خير أمن يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ في سورة [فصلت : 40] وقوله : ﴿ أفمن يمشي مُكِباً على وجهِهِ أهدى أمَّن يَمشي سَوياً على صِراطٍ مُستَقيم ﴾

في سورة [الملك : 22] .

والاستفهام تقريري كناية عن عدم التساوي بين هذا وبين المؤمن .

وكلمة ﴿ العَذَابِ ﴾ هي كلام الله المقتضي أن الكافر في العذاب ، أي تقديرُ الله ذلك للكافر في وعيده المتكرر في القرآن .

وتجريد فعل ﴿ حَقَّ ﴾ من تاء التأنيث مع أن فاعله مؤنث اللفظ وهو ﴿ كلمة ﴾ ، لأن الفاعل اكتسب التذكير مما أضيف هو إليه نظراً لإمكان الاستغناء عن المضاف بالمضاف إليه ، فكأنه قيل : أفمن حق عليه العذاب .

وفائدة إقحام ﴿ كَلِمَةُ ﴾ الإشارة إلى أن ذلك أمر الله ووعيده .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في ﴿ أفأَنْتَ تُنْقِذُ ﴾ مفيد لتقوّي الحكم وهو إنكار أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بتكرير دعوته يخلصهم من تحقق الوعيد أو يُحصل لهم الهداية إذا لم يقدرها الله لهم .

(212/666)

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم تهويناً عليه بعض حرصه على تكرير دعوتهم إلى الإسلام ، وحزنَه على إعراضهم وضلالهم ، وإلا فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم بالذي يظن أنه ينقذهم من وعيد الله ، ولذلك اجتلب فعل الإنقاذ هنا تشبيهاً لحال النبي صلى الله عليه وسلم في حرصه على هدْيهم وبلوغ جهده في إقناعهم بتصديق دعوته ،

وحالِهم في انغماسهم في موجبات وعيدهم بحال من يحاول إنقاذ ساقط في النار قد أحاطت النار بجوانبه استحقاقاً قضى به من لا يُردّ مرادُه ، فحالهم تشبه حال وقوعهم في النار من الآن لتحقق وقوعه ، وحذف المركب الدال على الحالة المشبه بها ، ورمز إلى معناه بذكر شيء من ملائمات ذلك المركب المحذوف وهو فعل ﴿ تُنْقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾ الذي هو من ملائمات وقوعهم في النار على طريقة التمثيل بالمكنية ، أيْ إجراء الاستعارة المكنية في المركب ، ويكون قوله : ﴿ تُنْقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾ قرينة هذه المكنية وهو في ذاته استعارة تحقيقية كما في قوله تعالى : ﴿ ينقضون عهد اللَّه ﴾ [البقرة : 27] .

وهذا مما أشار إليه "الكشاف" وبينه التفتازاني فيُعدّ من مبتكرات دقائق أنظارهما ، وبه يتم تقسيم الاستعارة التمثيلية إلى قسمين مصرحة ومكنية .

وذلك كان مغفولاً عنه في علم البيان وبهذا تعلم أن الإنقاذ أطلق على الإلحاح في الإنذار من إطلاق اسم المُسبب على السبب ، وأن مَن في النار مَن هو صائر إلى النار ، فلا متمسك للمعتزلة في الاستدلال بالآية على نفي الشفاعة المحمدية لأهل الكبائر ؛ على أننا لو سلمنا أن الآية مسوقة في غرض الشفاعة فإنما نفت الشفاعة لأهل الشرك لأن مَن في النار يحتمل العهد وهم المتحدث عنهم في هذه الآية .

ولا خلاف في أن المشركين لا شفاعة فيهم قال تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ [المدثر : 48] ، على أن المنفي هو أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم منقذاً لمن أراد الله عدمَ إنقاذه ، فأما الشفاعة فهو سؤال الله أن ينقذه .

وقد اشتملت هذه الآية على نكت بديعة من الإِعجاز إذ أفادت أن هذا الفريق من أهل الشرك الذين يكمن الكفر في قلوبهم حقت عليهم كلمة الله بتعذيبهم فهم لا يؤمنون ، وأن حالهم الآن كحال من وقع في النار فهو هالك لا محالة ، وحال النبي صلى الله عليه وسلم في حرصه على هديهم كحال من رأى ساقطاً في النار فاندفع بدافع الشفقة إلى محاولة إنقاذه ولكنه لا يستطيع ذلك فلذلك أنكرت شدة حرصه على تخليصهم فكان إيداع هذا المعنى في جملتين نهاية في الإِيجاز مع قرنه بما دَل عليه تأكيد الهمزة والفاء في الجملة الثانية من الإِطناب في مقام الصراحة .

ثم بما أودع في هاتين الجملتين من الاستعارة التمثيلية العجيبة بطريق المكنية ومن الاستعارة المصرحة في قرينة المكنية .

وحاصل نظم هذا التركيب : أفمن حقّ عليه كلمة العذاب فهو في النار أفأنت تنقذه وتنقذ من في النار .

وقد أشار إلى هذه الحالة الممثلة في هذه الآية حديث أبي هريرة أنه سمع النبي صلى الله

عليه وسلم يقول : "إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفَراش وهذه الدوابُ التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلِبْنَه فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحُجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها .

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20)

أعيدت بشارة الذين اجتنبوا الطاغوت تفصيلاً للإجمال الواقع من قبل .

(214/666)

وافتتح الإخبار عنهم بحرف الاستدراك لزيادة تقرير الفارق بين حال المؤمنين وحال المشركين والمضادة بينهما ، فحرف الاستدراك هنا لمجرد الإشعار بتضادّ الحالين ليعلم السامع أنه سيتلقى حكماً مخالفاً لما سبق كمَا تقدم في قوله تعالى : ﴿ ولكن انظر إلى الجبل ﴾ في سورة [الأعراف : 143] ، وقوله : ﴿ ولكن كره اللَّه انبعاثهم ﴾ في سورة [براءة : 46] ، فحصل في قضية الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت تقرير على تقرير ابتدىء بالإشارتين في قوله : ﴿ أُولَئِكَ الذينَ هداهُمُ الله وأُولَئِكَ هم أُولوا الألبابِ ﴾ [الزمر : 18] ثم بما أعقب من تفريع حال أضدادهم على ذكر أحوالهم ثم بالاستدراك الفارق بين

حالهم وحال أضدادهم .

والمراد بالذين اتقوا ربهم : هم الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت وأنابوا إلى الله واتبعوا أحسن القول واهتدوا بهدي الله وكانوا أولي ألباب ، فعدل عن الإِتيان بضميرهم هنا إلى الموصول لقصد مدحهم بمدلول الصلة وللإِيماء إلى أن الصلة سبب للحكم المحكوم به على الموصول وهو نوالهم الغرف .

وعدل عن اسم الجلالة إلى وصف الرب المضاف إلى ضمير المتقين لما في تلك الإِضافة من تشريفهم برضى ربهم عنهم .

واللام في ﴿ لَهُمْ ﴾ للاختصاص .

والمعنى : أَنها لهم في الجنة ، أي أعدت لهم في الجنة .

والغُرف : جمع غُرفة بضم الغين وسكون الراء ، وهي البيت المرتكز على بيت آخر ، ويقال لها العُلِّية (بضم العين وكسرها وبكسر اللام مشدّدة والتحتية كذلك) وتقدمت الغرفة في آخر سورة الفرقان (75 .

(ومعنى ﴿ من فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ أنها موصوفة باعتلاء غرف عليها وكل ذلك داخل في حيّز لام الاختصاص ، فالغرف التي فوق الغرف هي لهم أيضاً لأن ما فوق البناء تابع له وهو المسمّى بالهواء في اصطلاح الفقهاء .

فالمعنى : لهم أطباق من الغُرف ، وذلك مقابل ما جعل لأهل النار في قوله : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ [الزمر : 16] .

(215/666)

وخولف بين الحالتين : فجعل للمتقين غرف موصوفة بأنها فوقها غرف ، وجعلت للمشركين ظُلل من النار ، وعطف عليها أنّ مِن تحتهم ظللاً للإشارة إلى أن المتقين متنعمون بالتنقل في تلك الغرف ، وإلى أن المشركين محبوسون في مكانهم ، وأن الظلل من النار من فوقهم ومن تحتهم لتتظاهر الظلل بتوجيه لفح النار إليه من جميع جهاتهم .

والمبنيّة : المسموكة الجدران بحَجر وجِصّ ، أو حَجر وتراب ، أو بطوب مُشمس ثم توضع عليها السُقُف ، وهذا نعت لغرف التي فوقها غرف .

ويعلم منه أن الغرف المعتلَى عليها مبنية بدلالة الفحوى .

وقد تردد المفسرون في وجه وصف الغرف مع أن الغرفة لا تكون إلا من بناء ، ولم يذهبوا إلى أنه وصف كاشف ولهم العذر في ذلك لقلة جدواه فقيل ذكر المبنية للدلالة على أنها غرف حقيقة لا أشياء مشابهة الغرف فرقاً بينهما وبين الظلل التي جعلت للذين خسروا يوم القيامة فإن ظللهم كانت من نار فلا يظن السامع أن غرف المتقين مجاز عن سحابات من

الظلّ أو نحو ذلك لعدم الداعي إلى المجاز هنا بخلافه هنالك لأنه اقتضاه مقام التهكم .

وقال في "الكشاف" : ﴿ مَّبْنِيَةٌ ﴾ مثل المنازل اللاصقة للأرض ، أي فذكر الوصف تمهيد لقوله : ﴿ تَجْرِي مِن تحتها الأنهَارُ ﴾ لأن المعروف أن الأنهار لا تجري إلا تحت المنازل السفلية أي لم يفت الغرف شيء من محاسن المنازل السفلية .

وقيل : أريد أنها مهيّأة لهم من الآن .

فهي موجودة لأن اسم المفعول كاسم الفاعل في اقتضائه الاتصاف بالوصف في زمن الحال فيكون إيماء إلى أن الجنة مخلوقة من الآن .

ويجوز عندي أن يكون الوصف احترازاً عن نوع من الغرف تكون نحتاً في الحَجر في الجبال مثل غرف ثمود ، ومثل ما يسمّيه أهل الجنوب التونسي غرفاً ، وهي بيوت منقورة في جبال (مدنين) و (مطماطة) و (تطاوين) وانظر هل تسمى تلك البيوت غرفاً في العربية فإن كتب اللغة لم تصف مسمّى الغرفة وصفاً شافياً .

(216/666)

ويجوز أن يكون ﴿ مَّبْنِيَةٌ ﴾ وصفاً للغرف باعتبار ما دل عليه لفظها من معنى المبنيّ المعتلي فيكون الوصف دالاً على تمكن المعنى الموصوف ، أي مبنية بناء بالغاً الغاية في نوعه

كقولهم : لَيل أليل ، وظلّ ظليل .

وجريُ الأنهار من تحتها من كمال حسن منظرها للمُطلّ منها .

ومعنى ﴿ منْ تَحْتِها ﴾ أن الأنهار تمرّ على ما يجاور تحتها ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ في [آل عمران : 15] ، فأطلق اسم تحت على مُجاورة .

ويجوز أن يكون المعنى : تجري من تحت أسسها الأنهار ، أي تخترق أسسها وتمر فيها وفي ساحاتها ، وذلك من أحسن ما يرى في الديار كديار دمشق وقصر الحمراء بالأندلس وديار أهل الترف في مدينة فاس فيكون إطلاق تحت حقيقة .

والمعنى : أن كل غرفة منها يجري تحتها نهر فهو من مقابلة الجمع ليُقسّم على الآحاد ، وذلك بأن يصعد الماء إلى كل غرفة فيجري تحتها .

ووعْدَ الله ﴾ مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق مؤكد لنفسه لأن قوله : ﴿ لهُمْ غُرَفٌ ﴾ في معنى : وَعدهم الله غرفاً وعداً منه .

ويجوز انتصابه على الحال من ﴿ غُرَفٌ ﴾ على حدّ قوله : ﴿ وعداً علينا ، ﴾

وإضافة ﴿ وَعْدَ ﴾ إلى اسم الجلالة مؤذنة بأنه وعد موفىً به فوقعت جملة ﴿ لا يُخْلِفُ الله المِيعَادَ ﴾ بياناً لمعنى ﴿ وَعْدَ الله ﴾ .

والميعاد : مصدر ميمي بمعنى الوعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ

﴾

(217/666)

فصل فى منزلة السماع

قال ابن القيم :

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة (السماع) .

وهو اسم مصدر كالنبات وقد أمر الله به في كتابه وأثنى على أهله وأخبر أن البشرى لهم

فقال تعالى 5 :108 ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ﴾ وقال 64 :16 ﴿ وَاسْمَعُوا

وَأَطِيعُوا ﴾ وقال 4 :46 ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

وَأَقْوَمَ ﴾ وقال 39 :17 ، 18 ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ

هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ وقال: 7 :204 ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ

وَأَنْصِتُوا ﴾ وقال: 5 :83 ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ

الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلا على علم الخير فيهم وعدم ذلك دليلا على عدم

الخير فيهم فقال: 8 :23 ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

وأخبر عن أعدائه: أنهم هجروا السماع ونهوا عنه فقال: 41 :22 ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ .

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه وكم في القرآن من قوله: ﴿ أَفَلا يَسْمَعُونَ ﴾ وقال: 22 : 46 ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الآية .

فالسماع أصل العقل وأساس الإيمان الذي انبنى عليه وهو رائده وجليسه ووزيره ولكن الشأن كل الشأن في المسموع وفيه وقع خبط الناس واختلافهم وغلط منهم من غلط .

(218/666)

وحقيقة (السماع) تنبيه القلب على معاني المسموع وتحريكه عنها : طلبا وهربا وحبا وبغضا فهو حاد يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه .

وأصحاب السماع منهم: من يسمع بطبعه ونفسه وهواه فهذا حظه من مسموعه: ما وافق طبعه .

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته .

ومنهم: من يسمع بالله لا يسمع بغيره كما في الحديث الإلهي الصحيح: "فبي يسمع وبي يبصر" وهذا أعلى سماعا وأصح من كل أحد .

والكلام في (السماع) مدحا وذما يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع وحقيقته وسببه والباعث عليه وثمرته وغايته فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر (السماع) ويتميز النافع منه والضار والحق والباطل والممدوح والمذموم .

فأما (المسموع) فعلى ثلاثة أضرب .

أحدها : مسموع يحبه الله ويرضاه وأمر به عباده وأثنى على أهله ورضي عنهم به .

الثاني: مسموع يبغضه ويكرهه ونهى عنه ومدح المعرضين عنه .

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه لا يحبه ولا يبغضه ولا مدح صاحبه ولا ذمه فحكمه حكم سائر المباحات: من المناظر والمشام والمطعومات والملبوسات المباحة فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله ما لا يعلم وحرم ما أحل الله ومن جعله دينا وقربة يتقرب به إلى الله فقد كذب على الله وشرع دينا لم يأذن به الله وضاهأ بذلك المشركين .

فصل

فأما النوع الأول: فهو السماع الذي مدحه الله في كتابه وأمر به وأثنى على أصحابه وذم

المعرضين عنه ولعنهم وجعلهم أضل من الأنعام سبيلا وهم القائلون في النار: 67 :10 ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها على رسوله فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه وهو على ثلاثة أنواع سماع إدراك: بحاسة الأذن وسماع فهم وعقل وسماع منهم إجابة وقبول والثلاثة في القرآن.

(219/666)

فأما سماع الإدراك: ففي قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن قولهم: 72 :1 ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ وقولهم: 46 :30 ﴿ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ الآية فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة وأما سماع الفهم: فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالى: 30 :52 ﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ وقوله: 35 :22 ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾.

فالتخصيص ههنا لإسماع الفهم والعقل وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة: لا تخصيص فيه ومنه قوله تعالى: 8 :23 ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولا وانقيادا

لأفهمهم وإلا فهم قد سمعوا سمع الإدراك ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أي ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا لأن في قلبهم من داعي التولي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه .

وأما سماع القبول والإجابة: ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين: أنهم قالوا: 24 :51 ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ فإن هذا سماع قبول وإجابة مثمر للطاعة .

والتحقيق: أنه متضمن للأنواع الثلاثة وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسوع وفهموه واستجابوا له .

ومن سمع القبول: 9 :47 ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ أى قابلون منهم مستجيبون لهم هذا أصح القولين في الآية .

وأما قول من قال: عيون لهم وجواسيس فضعيف فإنه سبحانه أخبر عن حكمته في تثبيطهم عن الخروج: بأن خروجهم يوجب الخبال والفساد والسعي بين العسكر بالفتنة وفي العسكر من يقبل منهم ويستجيب لهم فكان في إقعادهم عنهم لطفا بهم ورحمة حتى لا يقعوا في عنت القبول منهم .

أما اشتمال العسكر على جواسيس وعيون لهم: فلا تعلق له بحكمة التثبيط والإقعاد ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم وهو سبحانه قد أخبر أنه أقعدهم لئلا يسعوا بالفساد في العسكر ولئلا يبغوهم الفتنة وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم وإقعاد جواسيسهم وعيونهم.

وأيضا فإن الجواسيس إنما تسمى (عيونا) هذا المعروف في الاستعمال لا تسمى سماعين.

وأيضا فإن هذا نظير قوله تعالى في إخوانهم اليهود: 5 :42 ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ أي قابلون له.

والمقصود: أن سماع خاصة الخاصة المقربين: هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكا وفهما وتدبرا وإجابة وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم وأمر به أولياءه: فهو هذا السماع.

وهو سماع الآيات لا سماع الأبيات وسماع القرآن لا سماع مزامير الشيطان وسماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء وسماع المراشد لا سماع القصائد وسماع الأنبياء والمرسلين لا سماع المغنين والمطربين.

فهذا السماع حاد يحدو القلوب إلى جوار علام الغيوب وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح ومحرك يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات ومناد ينادي للإيمان ودليل يسير بالركب في طريق الجنان وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح من قبل فالق

الإصباح "حي على الفلاح حي على الفلاح" .

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادا لحجة وتبصرة لعبرة وتذكرة لمعرفة وفكرة في آية ودلالة على رشد وردا على ضلالة وإرشادا من غي وبصيرة من عمى وأمرا بمصلحة ونهيا عن مضرة ومفسدة وهداية إلى نور وإخراجا من ظلمة وزجرا عن هوى وحثا على تقى وجلاء لبصيرة وحياة لقلب وغذاء ودواء وشفاء وعصمة ونجاة وكشف شبهة وإيضاح برهان وتحقيق حق وإبطال باطل .

(221/666)

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد ونناشدهم بالذي أنزل القرآن هدى وشفاء ونورا وحياة: هل وجدوا ذلك أو شيئا منه في الدف والمزمار ونغمة الشادن ومطربات الألحان والغناء المشتمل على تهييج الحب المطلق الذي يشترك فيه محب الرحمن ومحب الأوطان ومحب الإخوان ومحب العلم والعرفان ومحب الأموال والأثمان ومحب النسوان والمردان ومحب الصلبان فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشيء ساكنه ويزعج قاطنه فيثور وجده ويبدو شوقه فيتحرك على حسب ما في قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائنا ما كان ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقا في السماع وحالا ووجدا

وبكاء .

ويا لله العجب ! أي إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات لعل أكثرها قيلت فيما هو محرم من يبغضه الله ورسوله ويعاقب عليه: من غزل وتشبيب بمن لا يحل له من ذكر أو أنثى فإن غالب التغزل والتشبيب: إنما هو في الصور المحرمة ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه في امرأته وأمته وأم ولده مع أن هذا واقع لكنه كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود فكيف يقع لمن له أدنى بصيرة وحياة قلب: أن يتقرب إلى الله ويزداد إيمانا وقربا منه وكرامة عليه بالتذاذه بما هو بغيض إليه مقيت عنده يمقت قائله والراضي به وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؟ ! .

يا لله ! إن هذا القلب مخسوف به ممكور به منكوس لم يصلح لحقائق القرآن وأذواق معانيه ومطالعة أسراره فبلاه بقرآن الشيطان كما في معجم الطبراني وغيره مرفوعا وموقوفا : "إن الشيطان قال: يارب اجعل لي قرآنا قال: قرآنك الشعر قال: اجعل لي كتابا قال: كتابك الوشم قال: اجعل لي مؤذنا قال: مؤذنك المزمار قال: اجعل لى بيتا قال: بيتك الحمام قال: اجعل لي مصائد قال: مصائدك النساء قال: اجعل لي طعاما قال: طعامك ما لم يذكر عليه اسمي" والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصل : القسم الثاني من السماع .

ما يبغضه الله ويكرهه ويمدح المعرض عنه وهو سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه كسماع الباطل كله إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به وقصد أن يعلم به حسن ضده فإن الضد يظهر حسنه الضد كما قيل:

وإذا سمعت إلى حديثك زادني . . . حبا له: سمعي حديث سواكا

وكسماع اللغو الذي مدح التاركين لسماعه والمعرضين عنه بقوله: 28 :55 ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ وقوله: 25 :72 ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ قال محمد بن الحنفية: "هو الغناء وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه" .

قال ابن مسعود : "الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل" وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره في قلبه فإنه ما اجتمع في قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه وتبرمهم به وصياحهم بالقارىء إذا طول عليهم وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه فلا تتحرك ولا تطرب ولا تهيج منها بواعث الطلب فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله كيف تخشع منهم الأصوات وتهدأ الحركات وتسكن القلوب وتطمئن ويقع البكاء والوجد والحركة الظاهرة

والباطنة والسماحة بالأثمان والثياب وطيب السهر وتمني طول الليل فإن لم يكن هذا نفاقا فهو آخية النفاق وأساسه .

تلي الكتاب فأطرقوا لا خيفة . . . لكنه إطراق ساه لاهي

وأتى الغناء فكالذباب تراقصوا . . . والله ما رقصوا من أجل الله

دف ومزمار ونغمة شاهد . . . فمتى شهدت عبادة بملاهي

ثقل الكتاب عليهم لما رأوا . . . تقييده بأوامر ونواهي

وعليهم خف الغنا لما رأوا . . . إطلاقه في اللهو دون مناهي

يا فرقة ما ضر دين محمد . . . وجنى عليه وملة إلاهي

سمعوا له رعدا وبرقا إذ حوى . . . زجرا وتخويفا بفعل مناهي

(223/666)

ورأوه أعظم قاطع للنفس عن . . . شهواتها يا ويحها المتناهي

وأتى السماع موافقا أغراضها . . . فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه

أين المساعد للهوى من قاطع . . . أسبابه عند الجهول الساهي

إن لم يكن خمر الجسوم فإنه . . . خمر العقول مماثل ومضاهي

فانظر إلى النشوان عند شرابه . . . وانظر إلى النشوان عند تلاهي

وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه . . . من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي

فاحكم بأي الخمرتين أحق بال . . . تحريم والتأثيم عند الله

وكيف يكون السماع الذي يسمعه العبد بطبعه وهواه أنفع له من الذي يسمعه بالله ولله وعن الله فإن زعموا أنهم يسمعون هذا السماع الغنائي الشعري كذلك فهذا غاية اللبس على القوم فإنه إنما يسمع بالله ولله وعن الله ما يحبه الله ويرضاه ولهذا قلنا: إنه لا يتحرر الكلام في هذه المسألة إلا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته فقد جعل الله لكل شيء قدرا ولن يجعل الله من شربه ونصيبه وذوقه ووجده من سماع الآيات البينات كمن نصيبه وشربه وذوقه ووجده من سماع الغناء والأبيات.

(224/666)

ومن أعجب العجائب: استدلال من استدل على أن هذا السماع من طريق لقوم وأنه مباح: بكونه مستلذا طبعا تلذه النفوس وتستروح إليه وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب والجمل يقاسي تعب السير ومشقة الحمولة فيهون عليه بالحداء وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه وزيادة في خلقه وبأن الله ذم الصوت الفظيع فقال: 31 : 19 ﴿إِنَّ

أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة فقال فيه: 30 :15 ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ وأن ذلك هو السماع الطيب فكيف يكون حراما وهو في الجنة وبأن الله تعالى ما أذن لشيء كأذنه أي كاستماعه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن وبأن أبا موسى الأشعري استمع النبي صلى الله عليه وسلم إلى صوته وأثنى عليه بحسن الصوت وقال: "لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير آل داود" فقال له أبو موسى: "لو علمت أنك استمعت لحبرته لك تحبيرا" أي زينته لك وحسنته وبقوله صلى الله عليه وسلم: "زينوا القرآن بأصواتكم"

وبقوله صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لم يتغن بالقرآن" والصحيح: أنه من التغني بمعنى تحسين الصوت وبذلك فسره الإمام أحمد رحمه الله فقال: "يحسنه بصوته ما استطاع" .

وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أقر عائشة على غناء القينتين يوم العيد وقال لأبي بكر: "دعهما فإن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا أهل الإسلام" .

وبأنه صلى الله عليه وسلم أذن في العرس في الغناء وسماه لهوا وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحداء وأذن فيه وكان يسمع أنسا والصحابة وهم يرتجزون بين يديه في حفر الخندق:

نحن الذين بايعوا محمدا . . . على الجهاد ما بقينا أبدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة وحدا به الحادي في منصرفه

من خيبر فجعل يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا . . . ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا . . . وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الذين قد بغوا علينا . . . إذا أرادوا فتنة أبينا

(225/666)

ونحن إن صيح بنا أتينا . . . وبالصياح عولوا علينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا . . . . . .

فدعا لقائله .

وسمع قصيدة كعب بن زهير وأجازه ببردة .

واستنشد الأسود بن سريع قصائد حمد بها ربه .

واستنشد من شعر أمية بن أبي الصلت مائة قافية .

وأنشده الأعشى شيئا من شعره فسمعه .

وصدق لبيدا في قوله "ألا كل شيء ما خلا الله باطل" .

ودعا لحسان "أن يؤيده الله بروح القدس ما دام ينافح عنه" وكان يعجبه شعره وقال له:

"اهجهم وروح القدس معك" .

وأنشدته عائشة قول أبي كبير الهذلي:

ومبرأ من كل غبر حيضة . . . وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه . . . برقت كبرق العارض المتهلل

وقالت: "أنت أحق بهذا البيت" فسر بقولها .

وبأن ابن عمر رضي الله عنهما رخص فيه وعبد الله بن جعفر وأهل المدينة وبأن كذا وكذا وليا لله حضروه وسمعوه فمن حرمه فقد قدح في هؤلاء السادة القدوة الأعلام .

وبأن الإجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية فلذة سماع صوت الآدمي أولى بالإباحة أو مساوية .

وبأن السماع يحدو روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه فإن كان محبوبه حراما كان السماع معينا له على الحرام وإن كان مباحا كان السماع في حقه مباحا وإن كانت محبته رحمانية كان السماع في حقه قربة وطاعة لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيجها .

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن والشم بالروائح الطيبة والفم بالطعوم الطيبة فإن كان هذا حراما كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمة .

فالجواب: أن هذه حيدة عن المقصود وروغان عن محل النزاع وتعلق بما لا متعلق به فإن جهة كون الشيء مستلذا للحاسة ملائما لها لا يدل على إباحته ولا تحريمه

ولا كراهته ولا استحبابه فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة: تكون في الحرام والواجب والمكروه والمستحب والمباح فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل ومواقع الاستدلال ؟ .

(226/666)

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة وأن لذته لا ينكرها من له طبع سليم: وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة على حل اللذيذ الملائم أحد ؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات ؟ وهل أصوات المعازف التي صح عن النبي صلى الله عليه وسلم تحريمها وأن في أمته من سيستحلها بأصح إسناد وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها وقال جمهورهم: بتحريم جملتها إلا لذيذة تلذ السمع ؟ وهل في التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه: من إباحة أو تحريم ؟ .

وأعجب من هذا: الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب وهو زيادة نعمة منه لصاحبه .

فيقال: والصورة الحسنة الجميلة أليست زيادة في النعمة والله خالقها ومعطي حسنها أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها والالتذاذ على الإطلاق بها ؟ .

وهل هذا إلا مذهب أهل الإباحة الجارين مع رسوم الطبيعة ؟

وهل في ذم الله لصوت الحمار ما يدل على إباحة الأصوات المطربات بالنغمات الموزونات والألحان اللذيذات من الصور المستحسنات بأنواع القصائد المنغمات بالدفوف والشبابات ؟ ! .

وأعجب من هذا : الاستدلال بسماع أهل الجنة وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر بأن في الجنة خمرا و على حل لباس الحرير بأن لباس أهلها حرير وعلى حل أواني الذهب والفضة والتحلي بهما للرجال: بكون ذلك ثابتا وجود النعيم به في الجنة .

فإن قال: قد قام الدليل على تحريم هذا ولم يقم على تحريم السماع .

قيل: هذا استدلال آخر غير الاستدلال بإباحته لأهل الجنة فعلم أن استدلالكم بإباحته لأهل الجنة استدلال باطل لا يرضى به محصل .

وأما قولكم "لم يقم دليل على تحريم السماع" .

فيقال لك: أي السماعات تعني ؟ وأي المسموعات تريد ؟ فالسماعات والمسموعات: منها المحرم والمكروه والمباح والواجب والمستحب فعين نوعا يقع الكلام فيه نفيا وإثباتا .

فإن قلت: سماع القصائد قيل لك: أي القصائد تعني ؟ ما مدح به الله ورسوله ودينه وكتابه وهجي به أعداؤه ؟ .

فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدارسونها وهي التي سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأثاب عليها وحرض حسانا عليها وهي التي غرت أصحاب السماع الشيطاني فقالوا: تلك قصائد وسماعنا قصائد فنعم إذن والسنة كلام والبدعة كلام والتسبيح كلام والغيبة كلام والدعاء كلام والقذف كلام ولكن هل سمع رسول الله وأصحابه سماعكم هذا الشيطاني المشتمل على أكثر من مفسدة مذكورة في غير هذا الموضع وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعضها ؟ .

ونظير هذا: ما غرهم من استحسانه الصوت الحسن بالقرآن وأذنه له وإذنه فيه ومحبة الله له .

فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمردان وغيرهم بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد وذكر القد والنهد والخصر ووصف العيون وفعلها والشعر الأسود ومحاسن الشباب وتوريد الخدود وذكر الوصل والصد والتجني

والهجران والعتاب والاستعطاف والاشتياق والقلق والفراق وما جرى هذا المجرى مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر بما لا نسبة بينهما وأي نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه إلى سكرة العشق التي لا يستفيق الدهر صاحبها إلا في عسكر الهالكين سليبا حريبا وأسيرا قتيلا ؟ .

وهل تقاس سكرة الشراب بسكرة الأرواح بالسماع وهل يظن بحكيم أن يحرم سكرا لمفسدة فيه معلومة ويبيح سكرا مفسدته أضعاف أضعاف مفسدة الشراب حاشا أحكم الحاكمين .

فإن نازعوا في سكر السماع وتأثيره في العقول والأرواح: خرجوا عن الذوق والحس وظهرت مكابرة القوم فكيف يحمي الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته ويبيح له مافيه أعظم السقم والمنصف يعلم أنه لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب وسقمها بسكر السماع وكلامنا مع واجد لا فاقد فهو المقصود بالخطاب .

وأعجب من هذا : استدلالكم على إباحة السماع المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية بغناء بنيتين صغيرتين دون البلوغ عند امرأة صبية في يوم عيد وفرح بأبيات من أبيات العرب في وصف الشجاعة والحروب ومكارم الأخلاق والشيم فأين هذا من هذا ؟ .

(228/666)

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم فإن الصديق الأكبر رضي الله عنه سمى ذلك: مزمورا من مزامير الشيطان وأقره رسول الله على هذه التسمية ورخص فيه لجويريتين غير مكلفتين ولا مفسدة في إنشادهما ولا إستماعهما أفيدل هذا على إباحة ما

تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على ما لا يخفى ؟ فيا سبحان الله ! كيف ضلت العقول والأفهام ؟ .

وأعجب من هذا كله: الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد ! وهل حرم أحد مطلق الشعر وقوله واستماعه فكم في هذا التعلق ببيوت العنكبوت ؟ .

وأعجب من هذا : الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا : 2 :275 ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان والأوتار والعيدان وأصوات أشباه النساء من المردان والغناء بما يحدو الأرواح والقلوب إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القمرى والبلبل والهزار ونحوها ؟ .

بل نقول: لو كانا سواء لكان اتخاذ هذا السماع قربة وطاعة تستنزل به المعارف والأذواق والمواجيد وتحرك به الأحوال بمنزلة التقرب إلى الله بأصوات الطيور ومعاذ الله أن يكونا سواء .

والذي يفصل النزاع في حكم هذه المسألة: ثلاث قواعد من أهم قواعد الإيمان والسلوك فمن لم يبن عليها فبناؤه على شفا جرف هار .

القاعدة الأولى:

أن الذوق والحال والوجد : هل هو حاكم أو محكوم عليه فيحكم عليه بحاكم آخر أو ويتحاكم إليه ؟ .

فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة حيث جعلوه حاكما فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع وفيما هو صحيح وفاسد وجعلوه محكا للحق والباطل فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص وحكموا فيها الأذواق

(229/666)

والأحوال والمواجيد فعظم الأمر وتفاقم الفساد والشر وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم وانعكس السير وكان إلى الله فصيروه إلى النفوس فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله وهؤلاء يعبدون نفوسهم .

ومن العجب: أنهم دخلوا في أنواع الرياضات والمجاهدات والزهد ليتجردوا عن شهوات النفوس وحظوظها فانتقلوا من شهوات إلى شهوات أكبر منها ومن حظوظ إلى حظوظ أحط منها وكان حالهم شهوات نفوسهم في الشهوات التي انتقلوا عنها أكمل وحال أربابها خير من حال هؤلاء لأنهم لم يعارضوا بها العلم ولا قدموها على النصوص ولا جعلوها دينا وقربة ولا ازدروا من أجلها العلم وأهله والشهوات التي انتقلوا إليها جعلوها أعلى ما

يشمرون إليها فهي قبلة قلوبهم فهم حولها عاكفون واقفون مع حظوظهم من الله فانون بها عن مراد الله منهم الناس يعبدون الله وهم يعبدون أنفسهم عائبون على أهل الحظوظ والشهوات ومزدرون لهم وهم أعظم الناس حظوظا وإنما زهدوا في حظ إلى حظ أعلى منه وإنما تركوا شهوة لشهوة أحط .

فليتدبر اللبيب هذا الموضع في نفسه وفي غيره فكل ما خالف مراد الله الديني من العبد فهو حظه وشهوته مالا كان أو رياسة أو صورة أو حالا أو ذوقا أو وجدا .

ثم من قدمه على مراد الله فهو أسوأ حالا ممن عرف أنه نقص ومحنة وأن مراد الله أولى بالتقديم منه فهو يتوب منه كل وقت إلى الله .

ثم إنه وقع من تحكيم الذوق من الفساد ما لا يعلمه إلا الله فإن الأذواق مختلفة في أنفسها كثيرة الألوان متباينة أعظم التباين فكل طائفة لهم أذواق وأحوال ومواجيد بحسب معتقداتهم وسلوكهم .

فالقائلون بوحدة الوجود لهم ذوق وحال ووجد في معتقدهم بحسبه والنصارى لهم ذوق في النصرانية بحسب رياضتهم وعقائدهم وكل من اعتقد شيئا أو سلك سلوكا حقا كان أو باطلا فإنه إذا ارتاض وتجرد : لزمه وتمكن من قلبه وبقي له فيه حال وذوق ووجد فنذوق من توزن الحقائق إذن ويعرف الحق من الباطل .

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد والكشوف والأحوال من هذه الأمة المحدث المكاشف عمر رضى الله عنه لا يلتفت إلى ذوقه ووجده ومخاطباته في شيء من أمور الدين حتى ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب فإذا أخبروه عن رسول الله بشيء لم يلتفت إلى ذوقه ولا إلى وجده وخطابه بل يقول: لو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره ويقول: أيها الناس رجل أخطأ وامرأة أصابت فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة رضي الله عنه ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة .

القاعدة الثانية:

أنه إذا وقع النزاع في حكم فعل من الأفعال أو حال من الأحوال أو ذوق من الأذواق هل هو صحيح أو فاسد ؟ وحق أو باطل ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين وهي وحيه الذي تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه وتعرض عليه وتوزن به فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول وما أبطله ورده فهو الباطل المردود ومن لم يبن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله: فليس على شيء من الدين وإن وإن وإنما معه خدع وغرور 24 :39 ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ .

القاعدة الثالثة:

إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء: هل هو الإباحة أو التحريم؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته فإن كان مشتملا على مفسدة راجحة ظاهرة فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته بل العلم بتحريمه من شرعه قطعي

(231/666)

ولا سيما إذا كان طريقا مفضيا إلى ما يغضب الله ورسوله موصلا إليه عن قرب وهو رقية له ورائد وبريد فهذا لا يشك في تحريمه أولو البصائر فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر لأنه يسوق النفس إلى السكر الذي يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منه سوقا للنفوس إلى الحرام بكثير؟ فإن الغناء كما قال ابن مسعود رضي الله عنه هو: (رقية الزنا) وقد شاهد الناس: أنه ما عاناه صبي إلا وفسد ولا امرأة إلا وبغت ولا شاب إلا وإلا ولا شيخ إلا وإلا والعيان من ذلك يغني عن البرهان ولا سيما إذا جمع هيئة تحدو النفوس أعظم حدو إلى المعصية والفجور بأن يكون على الوجه الذي ينبغي لأهله من المكان والإمكان والعشراء والإخوان وآلات المعازف: من اليراع والدف والأوتار والعيدان وكان القوال شادنا شجي الصوت لطيف الشمائل من المردان أو النسوان وكان القول في العشق والوصال والصد والهجران.

ودارت كؤوس الهوى بينهم . . . فلست ترى فيهم صاحيا

فكل على قدر مشروبه . . . وكل أجاب الهوى الداعيا

فمالوا سكارى ولا سكر من . . . تناول أم الهوى خاليا

وجار على القوم ساقيهم . . . ولم يؤثروا غيره ساقيا

فمزق منهم قلوبا غدت . . . لباسا عليه يرى ضافيا

فلم يستفيقوا إلى أن أتى . . . إليهم منادي اللقا داعيا

أجيبوا فكل امرىء منكم . . . على حاله ربه لاقيا

هنالك تعلم من حمأة . . . شربت مع القوم أم صافيا

وبالله لا بد قبل اللقا . . . سنعلم ذا إن تك واعيا

لا بد تصحو فإما هنا . . . وإما هناك فكن راضيا

فصل

وإذا لم يكن بد من المحاكمة إلى الذوق فهلم نحاكمك إلى ذوق لا ننكره نحن ولا أنت غير هذه الأذواق التي ذكرناها .

فالقلب يعرض له حالتان: حالة حزن وأسف على مفقود وحالة فرح ورضى بموجود وله بمقتضى هاتين الحالتين عبوديتان .

وله بمقتضى الحالة الأولى: عبودية الرضاء وهي للسابقين والصبر وهي لأصحاب اليمين .

وله بمقتضى الحالة الثانية: عبودية الشكر والشاكرون فيها أيضا نوعان: سابقون وأصحاب يمين فاقتطعته النفس والشيطان عن هاتين العبوديتين بصوتين أحمقين فاجرين هما للشيطان لا للرحمن: صوت الندب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب وصوت اللهو والمزمار والغناء عند الفرح وحصول المطلوب فعوضه الشيطان بهذين الصوتين عن تينك العبوديتين.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بعينه في حديث أنس رضي الله عنه: "إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت ويل عند مصيبة وصوت مزمار عند نعمة".

ووافق ذلك راحة من النفس وشهوة ولذة وسرت فيها تلك الرقائق حتى تعبد بها من قل نصيبه من النور النبوي وقل مشربه من العين المحمدية وانضاف ذلك إلى صدق وطلب وإرادة مضادة لشهوات أهل الغي وأهل البطالة ورأوا قساوة قلوب المنكرين لطريقتهم وكثافة حجبهم وغلظة طباعهم وثقل أرواحهم وصادف ذلك تحريكا لسواكنهم وانقيادا للواعج الحب وإزعاجا للنفوس إلى أوطانها الأولى ومعاهدها التي سبيت منها والنفوس

الطالبة المرتاضة السائرة لا بد لها من محرك يحركها وحاد يحدوها وليس لها من حادي القرآن عوض عن حادي السماع.

فتركب من هذه الأمور: إيثار منهم للسماع ومحبة صادقة له تزول الجبال عن أماكنها ولا تفارق قلوبهم إذ هو مثير عزماتهم ومحرك سواكنهم ومزعج بواطنهم.

فدواء صاحب مثل هذا الحال: أن ينقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة مع الإمعان في تفهم معانيه وتدبر خطابه قليلا قليلا إلى أن فيخلع قلبه محبة سماع الأبيات ويلبس محبة سماع الآيات ويصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه فحينئذ يعلم هو من نفسه: أنه لم يكن على شيء ويتمثل حينئذ بقول القائل:

وكنت أرى أن قد تناهى بي الهوى . . . إلى غاية ما فوقها لي مطلب

فلما تلاقينا وعاينت حسنها . . . تيقنت أني إنما كنت ألعب

(233/666)

ومنافاة النوح للصبر والغناء للشكر: أمر معلوم بالضرورة من الدين لا يمتري فيه إلا أبعد الناس من العلم والإيمان فإن الشكر إنما هو الاشتغال بطاعة الله

لا بالصوت الأحمق الفاجر الذي هو للشيطان وكذلك النوح ضد الصبر كما قال عمر بن

الخطاب رضي الله عنه في النائحة وقد ضربها حتى بدا شعرها وقال: "لا حرمة لها إنها تأمر بالجزع وقد نهى الله عنه وتنهى عن الصبر وقد أمر الله به وتفتن الحي وتؤذي الميت وتبيع عبرتها وتبكي شجو غيرها" .

ومعلوم عند الخاصة والعامة: أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير والذي شاهدناه نحن وغيرنا وعرفناه بالتجارب: أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها إلا سلط الله عليهم العدو وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر والله المستعان .

ولا تستطل كلامنا في هذه المنزلة فإن لها عند القوم شأنا عظيما .

وأما قولهم: "من أنكر على أهله فقد أنكر على كذا وكذا ولي لله" فحجة عامية نعم إذا أنكر أولياء الله على أولياء الله كان ماذا فقد أنكر عليهم من أولياء الله من هو أكثر منهم عددا وأعظم عند الله وعند المؤمنين منهم قدرا وأقرب بالقرون المفضلة عهدا وليس من شرط ولي الله العصمة وقد تقاتل أولياء الله في صفين بالسيوف ولما سار بعضهم إلى بعض كان يقال: سار أهل الجنة إلى أهل الجنة وكون ولي الله يرتكب المحظور والمكروه متأولا أو عاصيا

لا يمنع ذلك من الإنكار عليه ولا يخرجه عن أصل ولاية الله وهيهات هيهات أن يكون أحد من أولياء الله المتقدمين حضر هذا السماع المحدث المبتدع المشتمل على هذه الهيئة التي تفتن القلوب أعظم من فتنة المشروب وحاشا أولياء الله من ذلك وإنما السماع الذي اختلف فيه مشايخ القوم: اجتماعهم في مكان خال من الاغيار يذكرون الله ويتلون شيئًا من القرآن ثم يقوم بينهم قوال ينشدهم شيئًا من الأشعار المزهدة في الدنيا المرغبة في لقاء الله ومحبته وخوفه ورجائه والدار الآخرة وينبههم على بعض أحوالهم من يقظة أو غفلة أو بعد أو انقطاع أو تأسف على فائت أو تدارك لفارط أو وفاء بعهد أو تصديق بوعد أو ذكر قلق وشوق أو خوف فرقة أو صد وما جرى هذا المجرى.

فهذا السماع الذي اختلف فيه القوم لا سماع المكاء والتصدية والمعازف والخمريات وعشق الصور من المردان والنسوان وذكر محاسنها ووصالها وهجرانها فهذا لو سئل عنه من سئل من أولي العقول لقضى بتحريمه وعلم أن الشرع لا يأتي بإباحته وأنه ليس على الناس أضر منه ولا أفسد لعقولهم وقلوبهم وأديانهم وأموالهم وأولادهم وحريمهم منه والله أعلم.

فصل

قال صاحب المنازل:

"السماع على ثلاث درجات: سماع العامة وهو ثلاثة أشياء: إجابة زجر الوعيد رغبة وإجابة دعوة الوعد جهدا وبلوغ مشاهدة المنة استبصارا" .

الوعيد: يكون على ترك المأمور وفعل المحظور وإجابة داعيه: هو العمل بالطاعة .

وقوله: (رغبة) يعني امتثالا لكون الله تعالى أمر ونهى وأوعد .

وحقيقة الرجاء: الخوف والرجاء فيفعل ما أمر به على نور الإيمان راجيا للثواب ويترك ما نهى عنه على نور الإيمان خائفا من العقاب .

وفي الرغبة فائدة أخرى وهي أن فعله يكون فعل راغب مختار لا فعل كاره كأنما يساق إلى الموت وهو ينظر .

وأما إجابة الوعد جهدا: فهو امتثال الأمر طلبا للوصول إلى الموعود به باذلا جهده في ذلك مستفرغا فيه قواه .

(235/666)

وأما بلوغ مشاهدة المنة استبصارا: فهو تنبه السامع في سماعه إلى أن جميع ما وصله من خير فمن منة الله عليه وبفضله عليه من غير استحقاق منه ولا بذل عوض استوجب به ذلك كما قال تعالى: 49 : 17 ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ

اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وكذلك يشهد أن ما زوي عنه من الدنيا أو ما لحقه منها من ضرر وأذى فهو منة أيضا من الله عليه من وجوه كثيرة ويستخرجها الفكر الصحيح كما قال بعض السلف: "يا ابن آدم لا تدري أي النعمتين عليك أفضل: نعمته فيما أعطاك أو نعمته فيما زوى عنك ؟" وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه "لا أبالي على أي حال أصبحت أو أمسيت إن كان الغنى إن فيه للشكر وإن كان الفقر إن فيه للصبر" وقال بعض السلف: "نعمته فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لي منها إني رأيته أعطاها قوما فاغتروا" .

إذا عم بالسراء أعقب شكرها . . . وإن مس بالضراء أعقبها الأجر

وما منهما إلا له فيه نعمة . . . تضيق بها الأوهام والبر والبحر

فإن قلت: فهل يشهد منته فيما لحقه من المعصية والذنب ؟ .

قلت: نعم إذا اقترن بها التوبة النصوح والحسنات الماحية كانت من أعظم المنن عليه كما تقدم تقريره .

فصل

قال: "وسماع الخاصة: ثلاثة أشياء شهود المقصود في كل رمز والوقوف على الغاية في كل حين والخلاص من التلذذ بالتفرق" .

والمقصود في كل رمز: هو فإن المسموع كله يعرف به وبصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه

ووعده ووعيده وأمره ونهيه وعدله وفضله وهذا الشهود ينال بالسماع بالله ولله وفي الله ومن الله .

أما السماع به: فأن لا يسمع وفيه بقية من نفسه فإن كانت فيه بقية قطعها كمال تعلقه بالمسموع فيكون سماعه بقيوميته مجردا من التفاته إلى نفسه .

(236/666)

وأما السماع له: فأن يجرد النفس في السماع من كل إرادة تزاحم مراد الله منه وتجمع قوى سمعه على تحصيل مراد الله من المسموع .

وأما السماع فيه: فشأن آخر وهو تجريد ما لا يليق نسبته إلى الحق من وصف أو سمة أو نعت أو فعل مما هو لائق بكماله فيثبت له ما يليق بكماله من المسموع وينزهه عما لا يليق به .

وهذا الموضع لم يتخلص فيه إلا الراسخون في العلم والمعرفة بالله وأضل الله عنه أهل التحريف والتعطيل والتشبيه والتمثيل 2 :213 ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وأما السماع منه: فإنما يتصور بواسطة فهو سماع مقيد وأما المطلق: فلا مطمع فيه في عالم

الفناء إلا لمن اختصه الله برسالاته وبكلامه ولكن السماع لكلامه كالسماع منه فإنه كلامه الذي تكلم به حقا فمن سمعه فليقدر نفسه كأنه يسمعه من الله .

هذا هو السماع من الله لا سماع أرباب الخيال ودعوى المحال القائل

أحدهم: ناداني في سري وخاطبني وقال لي يا ليت شعري من المنادي لك ومن المخاطب يا مخدوع يا مغرور ؟ فما يدريك: أنداء شيطاني أم رحماني ؟ وما البرهان على أن المخاطب لك هو الرحمن ؟ .

نعم نحن لا ننكر النداء والخطاب والحديث وإنما الشأن في المنادي المخاطب المحدث فههنا تسكب العبرات .

وبالجملة فمن قرىء عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به فإذا حصل له مع ذلك السماع به وله وفيه ازدحمت معانى المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه وازدلفت إليه بأيهما يبدأ فما شئت من علم وحكم وتعرف وبصيرة وهداية وغيرة .

(237/666)

وأما الوقوف على الغاية في كل حين: فهو التطلب والسفر إلى الغاية المقصودة بالمسموع الذي جعل وسيلة إليها وهو الحق سبحانه فإنه غاية كل طلب 53 :42 ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ

الْمُنْتَهَى ﴾ وليس وراء الله مرمى ولا دونه مستقر ولا تقر العين بغيره ألبتة وكل مطلوب سواه فظل زائل وخيال مفارق مائل وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور .

وأما الخلاص من التلذذ بالتفرق: فالتفرق في معاني المسموع وتنقل القلب في منازلها يوجب له لذة كما هو المألوف في الانتقال فليتخلص من لذة تفرقه التي هي حظه إلى الجمعية على المسموع به وله ومنه .

ولم يقل الشيخ (من التفرق) فإن المسموع إنما يدرك معناه ويفهم بالتفرق لتنوعه ولكن ليتخلص من لذته لا منه لئلا يكون مع حظه وهذا من لطف أحوال السامعين المخلصين .

فصل

قال: "وسماع خاصة الخاصة: سماع ينفي العلل عن الكشف ويصل الأبد إلى الأزل ويرد النهايات إلى الأول" .

فالكشف: هو مكافحة القلب لحقيقة المسموع وعلله أمران .

أحدهما : الشبه التي تنتفي بهذه المكافحة فلا تبقى معها شبهة فهذا هو عين اليقين .

والثاني: نفي الوسائط بين السامع والمسموع فيغيب بمسموعه عنها ويفنى عن شهودها ويفنى عن شهود فنائه عنها بحيث يشهده هو المسمع لا الواسطة وهو الهادي فمنه الإسماع ومنه الهداية ومنه الابتداء وإليه الانتهاء .

وأما وصله الأبد إلى الأزل: فهذا إن أخذ على ظاهره: فهو محال لأن الأبد والأزل متقابلان

تقابل التناقض فإيصال أحدهما إلى الآخر عين المحال وإنما مراده: أن ما يكون في الأبد موجودا مشهودا فقد كان في الأزل معلوما مقدرا فعاد حكم الأبد إلى الأزل علما وحقيقة وصار الأزلي أبديا كما كان الأبدى أزليا في العلم والحكم.

(238/666)

وإيضاح ذلك: أن الأبد ظهر فيه ما كان كامنا في الأزل خافيا فانتهى الأمر كله إلى علمه وحكمه وحكمته وذلك أزلي وهذا رد النهايات إلى الأول فتصير الخاتمة هي عين السابقة والله تعالى هو الأول والآخر وكل ما كان ويكون آخرا فمردود إلى سابق علمه وحكمه فرجع الأبد إلى الأزل والنهايات إلى الأول والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿مدارج السالكين حـ 1 صـ 481. 505﴾

(239/666)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

(بصيرة فى البشارة)

وهى الخَبَر السّارّ .

ويقال لها : البُشْرى أَيضاً .

وبَشَرته ، وأَبشرته وبشَّرته : أَخبرته بِسارّ بَسَط بَشَرَةَ وجهه .

وذلك أَنَّ النَّفس إِذا سُرَّت انتشر الدّم فيها انتشارَ الماءِ فى الشجر .

وبين هذه الأَلفاظ فروق ؛ فإِنَّ بَشَرته عامّ ، وأَبشرته نحو أَحمدته ، وبشَّرته على التكثير .

وقرئَ (يَبْشُرُك) ، و(يُبْشِرُك) ، و(يُبشّرُكِ) .

واستبشر إِذا وجد ما يسرُّه من الفرح .

والبشير المبشّر .

والبِشَارة وردت فى القرآن على اثنى عشر وجهاً ، لاثنى عشر قوماً باثنتى عشرة كرامة .

الأَوّل : بشارة أَرباب الإِنابة بالهداية : ﴿ وَأَنَابُواْ إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ إِلى قوله : ﴿ هداهُمُ اللهُ ﴾ .

الثَّانى : بشارة المخْبتين والمخلصين بالحفظ والرّعاية : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ .

الثالث بشارة المستقيمين بثبات الولاية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ ﴾ إِلى قوله : ﴿ وأَبْشِرُوا بالجنَّةِ ﴾ .

الرّابع : بشارة المتَّقين بالفوز والحماية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ .

الخامس : بشارة الخائفين بالمغفرة ، والوقاية : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فبشِّرْهُ ﴾ .

السّادس : بشارة المجاهدين بالرّضا والعناية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ يُبشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ .

السّابع : بشارة العاصين بالرّحمة والكفاية : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ ﴾ .

الثامن : بشارة المطيعين بالجنّة والسّعادة : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ .

(240/666)

التاسع : بشارة المؤمنين بالعطاءِ والشّفاعة : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ .

العاشر : بشارة المنكِرين بالعذاب والعقوبة ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً ﴾ ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وهذه استعارة ولكن تنبيهٌ أنّ أسرّ ما يسمعونه الخبر بما ينالهم من العذاب .

وذلك نحو قول الشّاعر :

تحيّةُ بَيْنِهم ضربٌ وجيع

ويصلح أن يكون ذلك مثل قوله : ﴿ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ .

الحادى عشر : بشارة الصّابرين بالصّلوات والرّحمة : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ .

الثانى عشر : بشارة العارفين باللقاءِ والرّؤية : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 200 . 202 ﴾

(241/666)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ .

طاغوت كلّ إنسانٍ نَفْسُه ؛ وإنما يجتنبُ الطاغوتَ مَنْ خالف هواه ، وعانَقَ رضا مولاه .

وعبادةُ النَّفْس بموافقة الهوى –وقليلٌ مَنْ لا يعبد هواه ، ويجتنب حديث النَّفْسِ .

﴿ وَأَنَابُواْ إِلَى اللَّهِ ﴾ : أي رجعوا إليه في كل شيء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ .

﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ﴾ يقتضي أن يكون الاستماع لكل شيء ، ولكن الاتباع يكون للأحسن . " أحسنه " : وفيه قولان ؛ أحدهما أن يكون بمعنى الحَسَن ولا تكون الهمزة للمبالغة ، كما يقال مَلِكٌ أَعِزُّ أي عزيز . والثاني : الأحسن على المبالغة ، والحَسَنُ ما كان مأذوناً فيه في صفة الخَلْقُ ويعْلَمُ ذلك بشهادة العلم ، والأحسن هو الأَوْلَى والأصوب . ويقال الأحسن ما كان لله دون غيره ، ويقال الأحسن هو ذكر الله خالصاً له . ويقال مَنْ عَرَفَ الله لا يسمع إلا بالله .

ويقيال إن للعبد دواعيَ من باطنه هي هواجسُ النفس ووساوسُ الشيطانِ وخوَاطرُ المَلَكِ وخطابُ الحقِّ يُلْقَى في الرَّوْعِ ؛ فوساوسُ الشيطان تدعوا إلى المعاصي ، وهواجسُ النفس تدعو إلى ثبوت الأشياء من النَّفْس وأَنَّ لها في شيءٍ نصيباً ، وخواطرُ المَلَكِ تدعو إلى الطاعاتِ والقُرَبِ ، وخطابُ الحقِّ في حقائق التوحيد .

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ : –

أولئك الذين هداهم الله لتوحيده ، وأولئك الذين عقولهم غير معقولة . (1)

---

(1) (عقولهم غير معقولة) أي غير حبيسة أو ممنوعة عن الإدراك وتصحيح الإيمان ، فهذه

هي المهمة الأساسية العقل في نظر المصنف – كما نوهنا بذلك . وربما كانت في الأصل (مقفولة) فيها أيضا يستقيم المعنى . [. . . . .]

(242/666)

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19)

الذين حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذابِ فريقان : فريقٌ حقت عليهم كلمةُ بعذابهم في النار ، وفريقٌ حقت عليهم كلمةُ العذابِ بالحجاب اليومَ ، فهم اليومَ لا يخرجون عن حجاب قلوبهم ، ولا يكون لهم بهذه الطريقة إيمان – وإن كانوا من أهل الإيمان .

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20)

وَعَدَ المطيعين بالجنَّةِ – ولا محالةَ لا يُخْلِف ، وَوَعَدَ التائبين بالمغفرة – ولا محالةَ يغفر لهم ، وَوَعَدَ المريدين بالوجود والوصول – وإذا لم تقع لهم فترة فلا محالةَ مُصْدِقٌ وَعْدَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 274. 275 ﴾

(243/666)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والستون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والستون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 21 ﴾ من سورة الزمر

وحتى الآية ﴿ 31 ﴾ من نفس السورة

(4/667)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (21) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر سبحانه بقدرته على البعث ، دل عليها بما يتكرر مشاهدته من مثلها ، وخص المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بالخطاب حثاً على تأمل هذا الدليل تنبيهاً على عظمته

فقال مقدراً : ﴿ ألم تر ﴾ أي مما يدلك على قدرته سبحانه على إعادة ما اضمحل وتمزق ، وأرفت وتفرق : ﴿ أن الله ﴾ أي الذي له كل صفة كمال ﴿ أنزل من السماء ﴾ أي التي لا يستمسك الماء فيها إلا بقدرة باهرة تقهره على ذلك ﴿ ماء ﴾ كما تشاهدونه في كل عام ﴿ فسلكه ﴾ أي في خلال التراب حال كونه ﴿ ينابيع ﴾ أي عيوناً فائرة ﴿ في الأرض ﴾ فقهره على الصعود بعد أن غيبه في أعماقها بالفيض والصوب بعد أن كان قسره على الانضباط في العلو ثم أكرهه على النزول على مقدار معلوم وكيفية مدبرة وأمر مقسوم ، قال الشعبي والضحاك : كل ماء في الأرض من السماء ينزل إلى الصخرة ثم يقسم منها العيون والركايا .

(5/667)

ولما كان إخراج النبات متراخياً عن نزول المطر ، عبر بثم ، وفيها أيضاً تنبيه على تعظيم الأمر فيما تلاها بأنه محل الشاهد فقال : ﴿ ثم يخرج ﴾ أي والله ﴿ به ﴾ أي الماء ﴿ زرعاً ﴾ ولما كان اختلاف المسبب مع اتحاد السبب أعجب في الصنعة وأدل على بديع القدرة ، قال : ﴿ مختلفاً ألوانه ﴾ أي في الأصناف والكيفيات والطبائع والطعوم وغير ذلك مع اتحاد الماء الذي جمعه من أعماق الأرض بعد أن تفتت فيها وصار تراباً .

ولما كان الإيقاف بعد قوة الإشراف دالاً على القهر ونفوذ الأمر ، قال إشارة إلى أن الخروج عن الحد غير محمود في شيء من الأشياء فإنه يعود عليه النقص ﴿ ثم يهيج ﴾ وزاد في تعظيم هذا المعنى للحث على تدبره بإسناده إلى خير الخلق ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ﴿ فتراه ﴾ أي فيتسبب عن هيجه وهو شدة ثورانه في نموه بعد التمام بتوقيع الانصرام أنك تراه ﴿ مصفراً ﴾ آخذاً في الجفاف بعد تلك الزهرة والبهجة والنضرة .

ولما كان السياق لإظهار القدرة التامة ، عبر بالجعل مسنداً إليه سبحانه بخلاف آية الحديد التي عبر فيها بالكون لأن السياق ثَم لأن الدنيا عدم فقال : ﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾ أي مكسراً مفتتاً بالياً .

(6/667)

ولما تم هذا المنوال البديع الدال بلا شك لكل من رآه على أن فاعله قادر على الإعادة لما يريد بعد الإبادة ، كما قدر على الإيجاد من العدم والإفادة لكل ما لم يكن ، قال على سبيل التأكيد للتنبيه على أن إنكارهم غاية في الحمق والجمود : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي التدبير على هذا الوجه ﴿ لذكرى ﴾ أي تذكيراً عظيماً واضحاً على البعث وما يكون بعده ، فإن النبات كالإنسان سواء ، يكون ماء ، ثم ينعقد بشراً ، ثم يخرج طفلاً ، ثم يكون شاباً ، ثم

يكون كهلاً ، ثم شيخاً ثم هرماً ، ثم تراباً مفتتاً في الأرض ، ثم يجمعه فيخرجه كما أخرج الماء النبات : ﴿ لأولي الألباب ﴾ أي العقول الصافية جداً كما نبه عليه بخصوص الخطاب في أول هذا الباب للمنزل عليه هذا الكتاب ، وأما غيره وغير من تبعه بإحسان فهم كبهائم الحيوان .

(7/667)

ولما كان الذي قرر به أمراً فيما يظنه السامع ظاهراً كما كان جديراً بأن ينكر بعض الواقفين مع الظواهر تخصيص الألباء به ، سبب عن ذلك الإنكار في قوله : ﴿ أفمن شرح الله ﴾ أي الذي له القدرة الكاملة والعلم الشامل ﴿ صدره للإسلام ﴾ أي للانقياد للدليل ، فكان قلبه ليناً فانقاد للإيمان فاهتدى لباطن هذا الدليل ﴿ فهو ﴾ أي فيتسبب عن إسلام ظاهره وباطنه للداعي أن كان ﴿ على نور ﴾ أي بيان عظيم بكتاب ، به يأخذ ، وبه يعطي ، وإليه في كل أمر ينتهي قد استعلى عليه فهو كأنه راكبه ، يصرفه حيث يشاء ، وزاد في بيان عظيم هدايته بلفت القول إلى مظهر الإحسان فقال : ﴿ من ربه ﴾ أي المحسن إليه إحسانه في انقياده ، فبشرى له فهو على صراط مستقيم ، كمن جعل صدره ضيقاً حرجاً فكان قلبه قاسياً ، فكان في الظلام خابطاً ، فويل له – هكذا كان الأصل ولكن قيل :

﴿ فويل للقاسية قلوبهم ﴾ أي لضيق صدورهم ، وزاد في بيان ما بلاهم به من عظيم القسوة بلفت القول إلى الاسم الدال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى فقال : ﴿ من ذكر الله ﴾ فإن من تبتدئ قسوته مما تطمئن به القلوب وتلين له الجلود ، من مدح الجامع لصفات الكمال فهو أقسى من الجلمود .

(8/667)

ولما كان من رسم بهذا الخزي أخسر الناس صفقة أنتج وصفه قوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ أي الأباعد الأباغض ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي واضح في نفسه موضح أمره لكل أحد ، فالآية من الاحتباك : ذكر أولاً الشرح والنور دليلاً على حذف ضده ثانياً ، وثانياً الويل للقاسي والضلال دليلاً على حذف ضده أولاً – روى البيهقي في الشعب والبغوي من طريق الثعلبي والحكيم الترمذي من وجه آخر عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ " أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ هذه الآية ، قال : فقلنا : يا رسول الله ! كيف انشراح صدورهم ؟ قال : إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح قلنا : يا رسول الله ؟ فما علاقة ذلك ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت " وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : والنور الذي من قبله سبحانه نور اللوائح بنجوم العلم ، ثم نور اللوامع ببيان

الفهم ، ثم نور المحاضرة بزوائد اليقين ، ثم نور المكاشفة بتجلي الصفات ، ثم نور المشاهدة بظهور الذات ، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد ، فعند ذلك لا وجد ولا قصد ، ولا قرب ولا بعد ، كلا بل هو الله الواحد القهار ، وذلك كما قيل : المؤمن بقوة عقله يوجب استقلاله بعلمه إلى أن يبدو ومنه كمال تمكنه من وقادة بصيرته ، ثم إذا بدا له لائحة من سلطان المعارف تصير تلك الأنوار مقمرة ، فإذا بدت أنوار التوحيد استهلكت تلك الجملة ، فلما استبان الصبح أدرج ضوءه بأنواره أنوار تلك الكواكب .

(9/667)

ولما كان من المستبعد جداً أن يقسو قلب من ذكر الله ، بينه الله وصوره في أعظم الذكر فإنه كان للذين آمنوا هدى وشفاء ، وللذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وفي أبصارهم عمى ، فقال مفخماً للمنزل بجعل الاسم الأعظم مبتدأ وبناء الكلام عليه : ﴿ الله ﴾ أي الفعال لما يريد الذي له مجامع العظمة والإحاطة بصفات الكمال ﴿ نزّل ﴾ أي بالتدريج للتدريب وللجواب عن كل شبهة ﴿ أحسن الحديث ﴾ وأعظم الذكر ، ولولا أنه هو الذي نزله لما كان الأحسن ، ولقدر – ولو يوماً واحداً – على الإتيان بشيء من مثله ، وأبدل من " أحسن " قوله : ﴿ كتاباً ﴾ أي جامعاً لكل خير ﴿ متشابهاً ﴾ أي في البلاغة المعجزة

والموعظة الحسنة ، لا تفاوت فيه أصلاً في لفظ ولا معنى ، مع كونه نزل مفرقاً في نيف وعشرين سنة ، وأما كلام الناس فلا بد فيه من التفاوت وإن طال الزمان في التهذيب سواء اتحد زمانه أو لا ، والاختلاف في المختلف في الزمان أكثر ، ولم يقل : مشتبهاً ، لئلا يظن أنه كله غير واضح الدلالة لا يمدح به .

(10/667)

ولما كان مفصلاً إلى سور وآيات وجمل ، وصفه بالجمع في قوله : ﴿ مثاني ﴾ جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير أي تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام والحكم ، مختلفة البيان في وجوه من الحكم ، متفاوتة الطرق في وضوح الدلالات ، من غير اختلاف أصلاً في أصل المعنى ، ولا يمل من تكراره ، وترداد قراءته وتأمله واعتباره ، مع أن جميع ما فيه أزواج من الشيء وضده : المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصي ، والرحمة العامة والرحمة الخاصة ، والجنة والنار ، والنعيم والشقاء والضلال والهدى ، والسراء والضراء ، والبشارة والنذارة ، فلا ترتب على شيء من ذلك جزاء صريحاً إلا ثني بإفهام ما لضده تلويحاً ، فكان مذكوراً مرتين ، ومرغباً فيه أو مرهباً منه كرتين ، ويجوز أن يكون التقدير : متشابهة مثانيه ، فيكون نصبه على التمييز ، وفائدة التكرير أن النفوس أنفر شيء عن

حديث الوعظ والنصيحة ، فما لم يكرر عليها عوداً على بدء لم يرسخ عندها ولم يعمل عمله ، ومن ثم كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكرر قوله ثلاث مرات فأكثر .

(11/667)

ولما كان التكرار يمل ، ذكر أن من خصائص هذا الكتاب أنه يطرب مع التكرار ، ويزداد حلاوة ولو ثنى آناء الليل وأطراف النهار ، فقال : ﴿ تقشعر ﴾ أي تهتز وتتجمع وتتقبض تقبضاً شديداً ، من القشع وهو الأديم اليابس ، وزيد حرفاً لزيادة المعنى ، واختير حرف التكرير إشارة إلى المبالغة فيه ، وكونه حرف التطوير أشد للمناسبة ﴿ منه جلود ﴾ أي ظواهر أجسام ﴿ الذين يخشون ﴾ أي يخافون خوفاً شديداً ويلتذون لذة توجب إجلالاً وهيبة ، فيكون ذلك سبب ذلك ، وزاد في مدحهم بأنهم يخافون المحسن ، فهم عند ذكر أوصاف الجلال أشد خوفاً ، فلذلك لفت القول إلى وصف الإحسان فقال : ﴿ ربهم ﴾ أي المربي لهم والمحسن إليهم لاهتزاز قلوبهم ، روى الطبراني عن العباس ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت خطاياه " ، وروي عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه مر برجل من أهل العراق ساقط ، قال : فما بال هذا ؟ قال : إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط ، قال ابن عمر ـ

رضى الله عنهما ـ : إنا لنخشى الله وما نسقط وإن الشيطان ليدخل في جوف أحدهم ، ما كان هذا صنيع أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ﴿ ثم تلين ﴾ أي تمتد وتنعم ، وقدم ما صرح فيه بالاقشعرار الذي يلزمه اليبس ، وأخر القلوب إبعاداً لها عما قد يفهم يبساً فيوهم قسوة فقال : ﴿ جلودهم ﴾ لتراجعهم بعد برهة إلى الرجاء وإن اشتدت صلابتها ﴿ وقلوبهم ﴾ وذكره لتجدد لين القلوب مع الجلود دال على تقدير اقشعرارها معها من شدة الخشية فإن الخشية لا تكون إلا في القلب ، وكان سر حذف التصريح بذلك تنزيهاً عن ذكر ما قد يفهم القسوة .

(12/667)

ولما كان القلب شديد الاضطراب والتقلب ، دل على حفظه له بنافذ أمره وباهر عظمته بالتعدية ب " إلى " ليكون المعنى : ساكنة مطمئنة ﴿ إلى ذكر الله ﴾ أي ذي الجلال والإكرام ، فإن الأصل في ذكره الرجاء لأن رحمته سبقت غضبه ، وأظهر موضع الإضمار لأحسن الحديث لئلا يوهم أن الضمير للرب ، فيكون شبهة لأهل الاتحاد أو غيرهم من أرباب البدع ، ولم يقل : إلى الحديث أو الكتاب – مثلاً ، بل عدل إلى ما عرف أنه ذكره سبحانه ليكون أفخم لشأنه ، وزاده فخامة بصرف القول عن الوصف المقتضي للإحسان إلى الاسم الجامع

للجلال والإكرام .

ولما كان ما ذكر من الآثار عجباً ، دل على عظمته بقوله على طريق الاستنتاج :

﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الغريب من الحديث المنزل والقبض والبسط ﴿ هدى الله ﴾ أي الذي لا يتمنع عليه شيء ﴿ يهدي به من يشاء ﴾ ومن هداه الله فما له من مضل ، ويضل به من يشاء فلا تتأثر جلودهم لقساوة قلوبهم ، فيكون هدى لناس ضلالاً لآخرين ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي الملك الأعظم المحيط بكل شيء إضلالاً راسخاً في قلبه بما أشعر به الفك ليخرج الضلال العارض ﴿ فما له من هاد ﴾ لأنه لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، لأنه الواحد في ملكه ، فلا شريك له ، فالآية من الاحتباك : ذكر أولاً إطلاق أمره في الهداية دليلاً على حذف مثله في الضلال ، وثانياً انسداد باب الهداية على من أضله دليلاً على وحذف مثله فيمن هداه وهي دامغة للقدرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 440.435 ﴾

(13/667)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لأولي الألباب فيها وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها ، وذلك أنه تعالى بين أنه أنزل من السماء ماء وهو المطر وقيل كل ما كان في الأرض فهو من السماء ، ثم إنه تعالى ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع في الأرض ، أي فيدخله وينظمه ينابيع في الأرض عيوناً ، ومسالك ومجاري كالعروق في الأجسام ، يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ، أو مختلفاً أصنافه من بر وشعير وسمسم ثم يهيج ، وذلك لأنه إذا تم جفافه جاز له أن ينفصل عن منابته ، وإن لم تتفرق أجزاؤه ، فتلك الأجزاء كأنها هاجت لأن تتفرق ثم يصير حطاماً يابساً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى ﴾ يعني أن من شاهد هذه الأحوال في النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك وأنه وإن طال عمره فلا بد له من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون منحطم الأعضاء والأجزاء ، ثم تكون عاقبته الموت . فإذا كانت مشاهدة هذه الأحوال في النبات تذكره حصول مثل هذه الأحوال في نفسه وفي حياته ، فحينئذ تعظم نفرته في الدنيا وطيباتها .

(14/667)

والحاصل أنه تعالى في الآيات المتقدمة ذكر ما يقوي الرغبة في الآخرة ، وذكر في هذه الآية ما يقوي النفرة عن الدنيا ، فشرح صفات القيامة يقوي الرغبة في طاعة الله ، وشرح صفات الدنيا يقوي النفرة عن الدنيا ، وإنما قدم الترغيب في الآخرة على التنفير عن الدنيا ، لأن الترغيب في الآخرة مقصود بالذات ، والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض ، والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض ، فهذا تمام الكلام في تفسير الآية ، بقي ههنا ما يتعلق بالبحث عن الألفاظ ، قال الواحدي : والينابيع جمع ينبوع وهو يفعول من نبع ينبع يقال نبع الماء ينبع وينبع وينبع ثلاث لغات ذكرها الكسائي والفراء ، وقوله ﴿ يَنَابِيعَ ﴾ نصب بحذف الخافض لأن التقدير فسلكه في ينابيع ثم يهيج أي يخضر ، والحطام ما يجف ويتفتت ويكسر من النبت .

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الإعراض عن الدنيا يين بعد ذلك أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الله الصدور ونور القلوب فقال : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإسلام فَهُوَ على نُورٍ مّن رَّبِّهِ ﴾ .

واعلم أنا بالغنا في سورة الأنعام في تفسير قوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ [الأنعام : 125] في تفسير شرح الصدر وفي تفسير الهداية ، ولا بأس بإعادة كلام قليل ههنا ، فنقول إنه تعالى خلق جواهر النفوس مختلفة بالماهية فبعضها خيرة نورانية شريفة مائلة إلى الإلهيات عظيمة الرغبة في الاتصال بالروحانيات ، وبعضها نذلة كدرة خسيسة مائلة إلى الجسمانيات وفي هذا التفاوت أمر حاصل في جواهر النفوس البشرية ، والاستقراء يدل على أن الأمر كذلك ، إذا عرفت هذا فنقول المراد بشرح الصدر هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود في فطرة النفس ، وإذا كان ذلك الاستعداد الشديد حاصلاً كفى خروج تلك الحالة من القوة إلى الفعل بأدنى سبب ، مثل الكبريت الذي يشتعل بأدنى نار ، أما إذا كانت النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايا القدسية والأحوال الروحانية ، بل كانت مستغرقة في طلب الجسمانيات قليلة التأثر عن الأحوال المناسبة للإلهيات فكانت قاسية كدرة ظلمانية ، وكلما كان إيراد الدلائل اليقينية والبراهين الباهرة عليها أكثر كانت قسوتها وظلمتها أقل .

إذا عرفت هذه القاعدة فنقول .

أما شرح الصدر فهو ما ذكرناه ، وأما النور فهو عبارة عن الهداية والمعرفة ، وما لم يحصل شرح الصدر أولا لم يحصل النور ثانياً ، وإذا كان الحاصل هو القوة النفسانية لم يحصل الانتفاع ألبتة بسماع الدلائل ، وربما صار سماع الدلائل سبباً لزيادة القسوة ولشدة النفرة فهذه أصول يقينية يجب أن تكون معلومة عند الإنسان حتى يمكنه الوقوف على معاني هذه الآيات ، أما استدلال أصحابنا في مسألة الجبر والقدر وكلام الخصوم عليه فقد تقدم هناك ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(16/667)

من محذوف الخبر كما في قوله : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾ [الزمر : 9] والتقدير : أفمن شرح الله صدره للإسلام فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته ، والجواب متروك لأن الكلام المذكور دل عليه وهو قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ فيه سؤال ، وهو أن ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان كما قال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد :

28] فكيف جعله في هذه الآية سبباً لحصول قسوة القلب ، والجواب أن نقول إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل إلى الطبائع البهيمية والأخلاق الذميمة ، فإن سماعها لذكر الله يزيدها قسوة وكدورة ، وتقرير هذا الكلام بالأمثلة فإن الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه ، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح ، وقد نرى إنساناً واحداً يذكر كلاماً واحداً في مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره ، وما ذاك إلا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النفوس ، ومن اختلاف أحوال تلك النفوس ، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ وكان قد حضر هناك عمر بن الخطاب وإنسان آخر فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قوله تعالى ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ قال كل واحد منهم

(17/667)

﴿ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنون : 12 14] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اكتب فهكذا أنزلت " فازداد عمر إيماناً على إيمان وازداد ذلك الإنسان كفراً على كفر ، إذا عرفت هذا لم يبعد أيضاً أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان في

النفوس الطاهرة الروحانية ، ويوجب القسوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية ، إذا عرفت هذا فنقول إن رأس الأدوية التي تفيد الصحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله تعالى ، فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله تعالى سبباً لازدياد مرضها كان مرض تلك النفس مرضاً لا يرجى زواله ولا يتوقع علاجه وكانت في نهاية الشر والرداءة ، فلهذا المعنى قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ للقاسية قُلُوبُهُمْ مّن ذِكْرِ الله أُوْلَئِكَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ وهذا كلام كامل محقق ، ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهداية وزيادة الاطمئنان ، والمقصود منه بيان أن القرآن لما كان موصوفاً بهذه الصفات ، ثم إنه في حق ذلك الإنسان صار سبباً لمزيد القسوة دل ذلك على أن جوهر تلك النفس قد بلغ في الرداءة والخساسة إلى أقصى الغايات ، فنقول إنه تعالى وصف القرآن بأنواع من صفات الكمال .

الصفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه : الأول : أنه تعالى وصفه بكونه حديثاً في هذه الآيات وفي آيات أخرى منها قوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ [الطور : 34] ومنها قوله تعالى : ﴿ أفبهذا الحديث أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴾ [الواقعة : 81] والحديث لا بد وأن يكون حادثاً ، قالوا بل الحديث أقوى في الدلالة على الحدوث من الحادث لأنه يصح أن يقال هذا حديث وليس بعتيق ، وهذا عتيق وليس بحادث ، فثبت أن الحديث هو الذي يكون قريب العهد بالحديث ، وسمي الحديث حديثاً لأنه مؤلف من الحروف والكلمات ، وتلك الحروف والكلمات تحدث حالا فحالا وساعة فساعة ، فهذا تمام تقرير هذا الوجه .

أما الوجه الثاني : في بيان استدلال القوم أن قالوا : إنه تعالى وصفه بأنه نزله والمنزل يكون في محل تصرف الغير .

وما يكون كذلك فهو محدث وحادث .

وأما الوجه الثالث : في بيان استدلال القوم أن قالوا : إن قوله أحسن الحديث يقتضي أن يكون هو من جنس سائر الأحاديث كما أن قوله زيد أفضل الإخوة يقتضي أن يكون زيد مشاركاً لأولئك الأقوام في صفة الأخوة ويكون من جنسهم ، فثبت أن القرآن من جنس سائر الأحاديث ، ولما كان سائر الأحاديث حادثة وجب أيضاً أن يكون القرآن حادثاً .

أما الوجه الرابع : في الاستدلال أن قالوا : إنه تعالى وصفه بكونه كتاباً والكتاب مشتق من الكتبة وهي الاجتماع ، وهذا يدل على أنه مجموع جامع ومحل تصرف متصرف .

وذلك يدل على كونه محدثاً والجواب : أن نقول نحمل هذا الدليل على الكلام المؤلف من الحروف والأصوات والألفاظ والعبارات ، وذلك الكلام عندنا محدث مخلوق ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

كون القرآن أحسن الحديث ، إما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه .

(19/667)

القسم الأول : أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين : الأول : أن يكون ذلك الحسن لأجل الفصاحة والجزالة الثاني : أن يكون بحسب النظم في الأسلوب ، وذلك لأن القرآن ليس من جنس الشعر ، ولا من جنس الخطب .

ولا من جنس الرسائل ، بل هو نوع يخالف الكل ، مع أن كل ذي طبع سليم يستطيبه ويستلذه .

القسم الثاني : أن يكون كونه أحسن الحديث لأجل المعنى ، وفيه وجوه : الأول : أنه كتاب منزه عن التناقض ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] ومثل هذا الكتاب إذا خلا عن التناقض كان ذلك من المعجزات الوجه الثاني : اشتماله على الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل الوجه الثالث : أن العلوم

الموجودة فيه كثيرة جداً .

وضبط هذه العلوم أن نقول : العلوم النافعة هي ما ذكره الله في كتابه في قوله : ﴿ والمؤمنون كُلٌّ ءامَنَ بالله وَمَلَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المصير ﴾ [البقرة : 285] فهذا أحسن ضبط يمكن ذكره للعلوم النافعة .

أما القسم الأول : وهو الإيمان بالله ، فاعلم أنه يشتمل على خمسة أقسام : معرفة الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء .

أما معرفة الذات فهي أن يعلم وجود الله وقدمه وبقاءه .

وأما معرفة الصفات فهي نوعان :

أحدهما : ما يجب تنزيهه عنه ، وهو كونه جوهراً ومركباً من الأعضاء والأجزاء وكونه مختصاً بحيز وجهة ، ويجب أن يعلم أن الألفاظ الدالة على التنزيه أربعة : ليس ولم وما ولا ، وهذه الأربعة المذكورة ، مذكورة في كتاب الله تعالى لبيان التنزيه .

(20/667)

أما كلمة ليس ، فقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] وأما كلمة لم ، فقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 3 ، 4] وأما كلمة ما ، فقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم : 64] ، ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ﴾ [مريم : 35] وأما كلمة لا ، فقوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : 255] ، ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام : 14] ، ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون : 88] ، وقوله في سبعة وثلاثين موضعاً من القرآن ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد : 19] .

(21/667)

وأما النوع الثاني : وهي الصفات التي يجب كونه موصوفاً بها من القرآن فأولها العلم بالله ، والعلم بكونه محدثاً خالقاً ، قال تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ * السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 1] وثانيها : العلم بكونه قادراً ، قال تعالى في أول سورة القيامة ﴿ بلى قادرين على أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة : 4] وقال في آخر هذه السورة ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بقادر على أَن يُحْيِىَ الموتى ﴾ [القيامة : 40] وثالثها : العلم بكونه تعالى عالماً ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الله الذى لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾ [الحشر : 22] ورابعها : العلم بكونه عالماً بكل المعلومات ، قال تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59]

وقوله تعالى : ﴿ اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ﴾ [الرعد : 8] وخامسها : العلم بكونه حياً ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الحى لاَ إله إلاَّ هُوَ فادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [غافر : 65] وسادسها : العلم بكونه مريداً ، قال الله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ [الأنعام : 125] وسابعها : كونه سميعاً بصيراً ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] وقال تعالى : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه : 46] وثامنها : كونه متكلما ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كلمات الله ﴾ [لقمان : 27] وتاسعها : كونه أمراً ، قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ [الروم : 4] وعاشرها : كونه رحماناً رحيماً مالكاً ، قال تعالى : ﴿ الرحمن الرحيم * مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 3 ، 4] فهذا ما يتعلق بمعرفة الصفات التي يجب اتصافه بها .

وأما القسم الثالث : وهو الأفعال ، فاعلم أن الأفعال إما أرواح وإما أجسام .

(22/667)

أما الأرواح فلا سبيل للوقوف عليها إلا للقليل ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر : 31] وأما الأجسام ، فهي إما العالم الأعلى وإما العالم الأسفل .

أما العالم الأعلى فالبحث فيه من وجوه أحدها : البحث عن أحوال السموات ، و ثانيها : البحث عن أحوال الشمس والقمر كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذى خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُغْشِى الليل النهار يطلبهُ حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ [الأعراف : 54] و ثالثها : البحث عن أحوال الأضواء ، قال الله تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ [النور : 35] وقال تعالى : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ الشمس ضِيَاء والقمر نُوراً ﴾ [يونس : 5] و رابعها : البحث عن أحوال الظلال ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى ربّك كَيْفَ مَدَّ الظل وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ﴾ [الفرقان : 45] و خامسها : اختلاف الليل والنهار ، قال الله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار وَيُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ [الزمر : 5] و سادسها : منافع الكواكب ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ النجوم لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظلمات البر والبحر ﴾ [الأنعام : 97] و سابعها : صفات الجنة ، قال تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السماء والأرض ﴾ [الحديد : 21] و ثامنها : صفات النار ، قال تعالى : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْء مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : 44] و تاسعها : صفة العرش ، قال تعالى : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ [غافر : 7] و عاشرها : صفة الكرسي ، قال تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السموات والأرض ﴾ [البقرة : 255] و حادي عشرها : صفة اللوح والقلم .

أما اللوح، فقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: 21، 22] وأما القلم، فقوله تعالى: ﴿ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 1].

وأما شرح أحوال العالم الأسفل فأولها: الأرض، وقد وصفها بصفات كثيرة إحداها: كونه مهداً، قال تعالى: ﴿الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً﴾ [طه: 53] وثانيها: كونه مهاداً، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مهادا﴾ [النبأ: 6] وثالثها: كونه كفاتاً، قال تعالى: ﴿كِفَاتاً * أَحْيَاء وأمواتا﴾ [المرسلات: 24، 25] ورابعها: الذلول، قال تعالى: ﴿هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً﴾ [الملك: 15] وخامسها: كونه بساطاً، قال تعالى: ﴿والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً * لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾ [نوح: 19، 20] والكلام فيه طويل وثانيها: البحر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الذى سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًا﴾ [النحل: 14] وثالثها: الهواء والرياح.

(24/667)

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الذى يُرْسِلُ الرياح بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: 57] وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: 22] ورابعها: الآثار العلوية كالرعد

والبرق ، قال تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرعد : 13] وقال تعالى : ﴿ فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ [النور : 43] ومن هذا الباب ذكر الصواعق والأمطار وتراكم السحاب وخامسها : أحوال الأشجار والثمار وأنواعها وأصنافها ، وسادسها : أحوال الحيوانات ، قال تعالى : ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ [البقرة : 164] وقال : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ [النحل : 5] وسابعها : عجائب تكوين الإنسان في أول الخلقة ، قال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] وثامنها : العجائب في سمعه وبصره ولسانه وعقله وفهمه وتاسعها : تواريخ الأنبياء والملوك وأحوال الناس من أول خلق العالم إلى آخر قيام القيامة ، وعاشرها ذكر أحوال الناس عند الموت وبعد الموت ، وكيفية البعث والقيامة ، وشرح أحوال السعداء والأشقياء ، فقد أشرنا إلى عشرة أنواع من العلوم في عالم السموات ، وإلى عشرة أخرى في عالم العناصر ، والقرآن مشتمل على شرح هذه الأنواع من العلوم العالية الرفيعة .

وأما القسم الرابع : وهو شرح أحكام الله تعالى وتكاليفه ، فنقول هذه التكاليف إما أن تحصل في أعمال القلوب أو في أعمال الجوارح .

أما القسم الأول : فهو المسمى بعلم الأخلاق وبيان تمييز الأخلاق الفاضلة والأخلاق الفاسدة والقرآن يشتمل على كل ما لا بد منه في هذا الباب ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآءِ ذِى القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ [النحل :

90] ، وقال : ﴿ خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف وَأَعْرِض عَنِ الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] .

(25/667)

وأما الثاني : فهو التكاليف الحاصلة في أعمال الجوارح وهو المسمى بعلم الفقه والقرآن مشتمل على جملة أصول هذا العلم على أكمل الوجوه .

وأما القسم الخامس : وهو معرفة أسماء الله تعالى فهو مذكور في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأسماء الحسنى فادعوه بِهَا ﴾ [الأعراف : 180] فهذا كله يتعلق بمعرفة الله .

وأما القسم الثاني : من الأصول المعتبرة في الإيمان الإقرار بالملائكة كما قال تعالى : ﴿ والمؤمنون كُلٌّ ءامَنَ بالله وَمَلَئِكَتِهِ ﴾ [البقرة : 285] والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الإجمال وأخرى على طريق التفصيل ، أما بالإجمال فقوله : ﴿ وَمَلَئِكَتُهُ ﴾ وأما بالتفصيل فمنها ما يدل على كونهم رسل الله قال تعالى : ﴿ جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ﴾ [فاطر : 1] ومنها أنها مدبرات لهذا العالم ، قال تعالى : ﴿ فالمقسمات أَمْراً ﴾ [الذاريات : 4] ﴿ فالمدبرات أَمْراً ﴾ [النازعات : 5] وقال تعالى : ﴿ والصافات صَفًّا ﴾ [الصافات : 1] ومنها حملة العرش قال : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ

فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ [الحاقة : 17] ومنها الحافون حول العرش قال : ﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ [الزمر : 75] ومنها خزنة النار قال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ ﴾ [التحريم : 6] ومنها الكرام الكاتبون قال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين * كِرَاماً كاتبين ﴾ [الانفطار : 10 ، 11] ومنها المعقبات قال تعالى : ﴿ لَهُ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ [الرعد : 11] وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشياطين .

(26/667)

وأما القسم الثالث : من الأصول المعتبرة في الإيمان معرفة الكتب والقرآن يشتمل على شرح أحوال كتاب آدم عليه السلام قال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى ءادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ [البقرة : 37] ومنها أحوال صحف إبراهيم عليه السلام قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابتلى إبراهيم رَبُّهُ بكلمات فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : 124] ومنها أحوال التوراة والإنجيل والزبور .

وأما القسم الرابع : من الأصول المعتبرة في الإيمان معرفة الرسل والله تعالى قد شرح أحوال البعض وأبهم أحوال الباقين قال : ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : 78] .

القسم الخامس : ما يتعلق بأحوال المكلفين وهي على نوعين الأول : أن يقروا بوجوب هذه التكاليف عليهم وهو المراد من قوله : ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ، الثاني : أن يعترفوا بصدور التقصير عنهم في تلك الأعمال ثم طلبوا المغفرة وهو المراد من قوله : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ ثم لما كانت مقادير رؤية التقصير في مواقف العبودية بحسب المكاشفات في مطالعة عزة الربوبية أكثر ، كانت المكاشفات في تقصير العبودية أكثر وكان قوله : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ أكثر .

القسم السادس : معرفة المعاد والبعث والقيامة وهو المراد من قوله : ﴿ وَإِلَيْكَ المصير ﴾ [البقرة : 285] وهذا هو الإشارة إلى معرفة المطالب المهمة في طلب الدين ، والقرآن بحر لا نهاية له في تقرير هذه المطالب وتعريفها وشرحها ولا ترى في مشارق الأرض ومغاربها كتاباً يشتمل على جملة هذه العلوم كما يشتمل القرآن عليها .

ومن تأمل في هذا التفسير علم أنا لم نذكر من بحار فضائل القرآن إلا قطرة ، ولما كان الأمر على هذه الجملة ، لا جرم مدح الله عز وجل القرآن فقال تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ ، والله أعلم .

(27/667)

الصفة الثانية : من صفات القرآن قوله تعالى : ﴿ كتابا متشابها ﴾ أما الكتاب فقد فسرناه في قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : 2] وأما كونه متشابهاً فاعلم أن هذه الآية تدل على أن القرآن كله متشابه .

وقوله : ﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيات محكمات هُنَّ أُمُّ الكتاب وَأُخَرُ متشابهات ﴾ [آل عمران : 7] يدل على كون البعض متشابهاً دون البعض .

وأما كونه كله متشابهاً كما في هذه الآية ، فقال ابن عباس : معناه أنه يشبه بعضه بعضاً ، وأقول هذا التشابه يحصل في أمور أحدها : أن الكاتب البليغ إذا كتب كتاباً طويلاً ، فإنه يكون بعض كلماته فصيحاً ، ويكون البعض غير فصيح ، والقرآن يخالف ذلك فإنه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه وثانيها : أن الفصيح إذا كتب كتاباً في واقعة بألفاظ فصيحة فلو كتب كتاباً آخر في غير تلك الواقعة كان الغالب أن كلامه في الكتاب الثاني غير كلامه في الكتاب الأول ، والله تعالى حكى قصة موسى عليه السلام في مواضع كثيرة من القرآن وكلها متساوية متشابهة في الفصاحة وثالثها : أن كل ما فيه من الآيات والبيانات فإنه يقوي بعضها بعضاً ويؤكد بعضها بعضاً ورابعها : أن هذه الأنواع الكثيرة من العلوم التي عددناها متشابهة متشاركة في أن المقصود منها بأسرها الدعوة إلى الدين وتقرير عظمة الله ، ولذلك فإنك لا ترى قصة من القصص إلا ويكون محصلها المقصود الذي ذكرناه ، فهذا هو المراد من كونه متشابهاً ، والله الهادي .

الصفة الثالثة : من صفات القرآن كونه مثَاني وقد بالغنا في تفسير هذه اللفظة عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك سَبْعًا مّنَ المثاني ﴾ [الحجر : 87] وبالجملة فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين زوجين مثل : الأمر والنهي ، والعام والخاص ، والمجمل والمفصل ، وأحوال السموات والأرض ، والجنة والنار ، والظلمة والضوء ، واللوح والقلم ، والملائكة والشياطين ، والعرش والكرسي ، والوعد والوعيد ، والرجاء والخوف ، والمقصود منه بيان أن كل ما سوى الحق زوج ويدل على أن كل شيء مبتلى بضده ونقيضه وأن الفرد الأحد الحق هو الله سبحانه .

الصفة الرابعة : من صفات القرآن قوله : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

معنى ﴿ تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ ﴾ تأخذهم قشعريرة وهي تغير يحدث في جلد الإنسان عند الوجل والخوف ، قال المفسرون : والمعنى أنهم عند سماع آيات الرحمة والإحسان يحصل لهم الفرح فتلين قلوبهم إلى ذكر الله ، وأقول إن المحققين من العارفين قالوا : السائرون في مبدأ

إجلال الله إن نظروا إلى عالم الجلال طاشوا ، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا ، ويجب علينا أن نذكر في هذا الباب مزيد شرح وتقرير ، فنقول الإنسان إذا تأمل في الدلائل الدالة على أنه يجب تنزيه الله عن التحيز والجهة .

فهنا يقشعر جلده ، لأن إثبات موجود لا داخل العالم ولا خارج ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم ، مما يصعب تصوره فههنا تقشعر الجلود ، أما إذا تأمل في الدلائل الدالة على أنه يجب أن يكون فرداً أحداً ، وثبت أن كل متحيز فهو منقسم فههنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله .

(29/667)

وأيضاً إذا أراد أن يحيط عقله بمعنى الأزل فيتقدم في ذهنه بمقدار ألف ألف سنة ثم يتقدم أيضاً بحسب كل لحظة من لحظات تلك المدة ألف ألف سنة ، ولا يزال يحتال ويتقدم ويتخيل في الذهن ، فإذا بالغ وتوغل وظن أنه استحضر معنى الأزل قال العقل هذا ليس بشيء ، لأن كل ما استحضرته في فهو متناه والأزل هو الوجود المتقدم على هذه المدة المتناهية ، فههنا يتحير العقل ويقشعر الجلد ، وأما إذا ترك هذا الاعتبار وقال ههنا موجود والموجود إما واجب وإما ممكن ، فإن كان واجباً فهو دائماً منزه عن الأول والآخر وإن كان ممكناً فهو

محتاج إلى الواجب فيكون أزلياً أبدياً ، فإذا اعتبر العقل فهم معنى الأزلية فههنا يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله ، فثبت أن المقامين المذكورين في الآية لا يجب قصرهما على سماع آية العذاب وآية الرحمة ، بل ذاك أول تلك المراتب وبعده مراتب لا حد لها ولا حصر في حصول تلك الحالتين المذكورتين .

المسألة الثانية :

روى الواحدي في "البسيط" عن قتادة أنه قال : القرآن دل على أن أولياء الله موصوفون بأنهم عند المكاشفات والمشاهدات ، تارة تقشعر جلودهم وأخرى تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله .

(30/667)

وليس فيه أن عقولهم تزول وأن أعضاءهم تضطرب ، فدل هذا على أن تلك الأحوال لو حصلت لكانت من الشيطان ، وأقول ههنا بحث آخر وهو أن الشيخ أبا حامد الغزالي أورد مسألة في كتاب إحياء علوم الدين ، وهي أنا نرى كثيراً من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الأبيات المشتملة على شرح الوصل والهجر ، وعند سماع الآيات لا يظهر عليه شيء من هذه الأحوال ، ثم إنه سلم هذا المعنى وذكر العذر فيه من وجوه

كثيرة ، وأنا أقول : إني خلقت محروماً عن هذا المعنى ، فإني كلما تأملت في أسرار القرآن اقشعر جلدي وقف على شعري وحصلت في قلبي دهشة وروعة ، وكلما سمعت تلك الأشعار غلب الهزل علي وما وجدت ألبتة في نفسي منها أثراً ، وأظن أن المنهج القويم والصراط المستقيم هو هذا ، وبيانه من وجوه الأول : أن تلك الأشعار كلمات مشتملة على وصل وهجر وبغض وحب تليق بالخلق ، وإثباته في حق الله تعالى كفر ، وأما الانتقال من تلك الأحوال إلى معان لائقة بجلال الله فلا يصل إليها إلا العلماء الراسخون في العلم ، وأما المعاني التي يشتمل عليها القرآن فهي أحوال لائقة بجلال الله ، فمن وقف عليها عظم الوله في قلبه ، فإن من كان عنده نور الإيمان وجب أن يعظم اضطرابه عند سماع قوله : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] إلى آخر الآية والثاني : وهو أني سمعت بعض المشايخ قال كما أن الكلام له أثر فكذلك صدور ذلك الكلام من القائل المعين له أثر ، لأن قوة نفس القائل تعين على نفاذ الكلام في الروح ، والقائل في القرآن هنا هو الله بواسطة جبريل بتبليغ الرسول المعصوم ، والقائل هناك شاعر كذاب مملوء من الشهوة وداعية الفجور والثالث : أن مدار القرآن على الدعوة إلى الحق قال تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى : 52 ، 53] وأما الشعر فمداره على الباطل قال تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : 224 ، 226] فهذه الوجوه الثلاثة فروق ظاهرة ، وأما ما يتعلق بالوجدان من النفس فإن كل أحد إنما يخبر عما يجده من نفسه والذي وجدته من النفس والعقل ما ذكرته ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

في بيان ما بقي من المشكلات في هذه الآية ونذكرها في معرض السؤال والجواب .

السؤال الأول : كيف تركيب لفظ القشعريرة الجواب : قال صاحب "الكشاف" تركيبه من حروف التقشع وهو الأديم اليابس مضموماً إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعياً ودالاً على معنى زائد يقال : اقشعر جلده من الخوف وقف شعره ، وذلك مثل في شدة الخوف .

السؤال الثاني : كيف قال : ﴿ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وما الوجه في تعديه بحرف إلى ؟ والجواب : التقدير تلين جلودهم وقلوبهم حال وصولها إلى حضرة الله وهو لا يحس بالإدراك .

السؤال الثالث : لم قال ﴿ إلى ذكر الله ﴾ ولم يقل إلى ذكر رحمة الله ؟ والجواب : أن من أحب الله لأجل رحمته فهو ما أحب الله ، وإنما أحب شيئاً غيره ، وأما من أحب الله لا لشيء سواه فهذا هو المحب المحق وهو الدرجة العالية ، فلهذا السبب لم يقل ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر رحمة الله بل قال إلى ذكر الله ، وقد بين الله تعالى هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ [الأنعام : 125] وفي قوله : ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [الرعد : 28] وأيضاً قال لأمة موسى : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نِعْمَتِيَ التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 40] وقال أيضاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ فاذكرونى أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : 152] .

السؤال الرابع : لم قال في جانب الخوف قشعريرة الجلود فقط ، وفي جانب الرجاء لين الجلود والقلوب معاً ؟ والجواب : لأن المكاشفة في مقام الرجاء أكمل منها في مقام الخوف ، لأن الخير مطلوب بالذات والشر مطلوب بالعرض ومحل المكاشفات هو القلوب والأرواح ، والله أعلم .

ثم إنه تعالى لما وصف القرآن بهذه الصفات قال : ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاء وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ فقوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الكتاب وهو هدى الله يهدي به من يشاء من عباده وهو الذي شرح صدره أولاً لقبول هذه الهداية ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ ﴾ أي

من جعل قلبه قاسياً مظلماً بليد الفهم منافياً لقبول هذه الهداية ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ واستدلال أصحابنا بهذه الآية وسؤالات المعتزلة وجوابات أصحابنا عين ما تقدم في قوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 230. 231 ﴾

(33/667)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً ﴾

ثم وقف نبيه صلى الله عليه وسلم على معتبر من مخلوقاته ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكل بشر داخل معه في معناه . وقال الطبري وغيره : أشار إلى ماء المطر ، وقالوا : العيون منه ، ودليل ذلك أنها تنماع عن وجوده وتيبس عند فقده . وقال الحسن بن مسلم بن يناق ، والإشارة إلى العيون وليست العيون من المطر ، ولكن ماؤها نازل من السماء . قال الشعبي : وكل ماء عذب في الأرض فمن السماء نزل .

قال القاضي أبو محمد : والقولان متقاربان : و: ﴿ سلكه ﴾ معناه : أجراه وأدخله ، ومنه قول الشاعر [البسيط]

حتى سلكن الشوى منهن في مسك . . . من نسل جوابه الآفاق مهداج

ومنه قول امرىء القيس : [السريع]

وواحد الينابيع وهو العين بني لها بناء مبالغة من النبع . والزرع هنا واقع على كل ما يزرع .

وقالت فرقة : ﴿ ألوانه ﴾ أعراضه من الحمرة والصفرة وغير ذلك . وقالت فرقة : ﴿ ألوانه ﴾ أنواعه من القمح والأرز . والذرة وغير ذلك . و : ﴿ يهيج ﴾ ييبس ، هاج النبات والزرع إذا يبس ، ومنه قول علي رضي الله عنه في الحيث الذي في غريب ابن قتيبة : ذمتي رهينة وأنا به زعيم . أي لا يهيج عن التقوى زرع قوم ، ولا ييبس على التقوى سنخ أصل ، والحديث . والحطام : اليابس المتفتت . ومعنى قوله : ﴿ لذكرى ﴾ أي للبعث من القبور وإحياء الموتى على ما يوجبه هذا المثال المذكور .

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ

(34/667)

روي أن هذه الآية : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ آية نزلت في علي وحمزة ، وأبي لهب وابنه هما اللذان كانا من القاسية قلوبهم ، وفي الكلام محذوف يدل الظاهر عليه ، تقديره ، أفمن شرح الله صدره كالقاسي القلب المعرض عن أمر الله . وشرح الصدر :

استعارة لتحصيله للنظر الجيد والإيمان بالله . و" النور " هداية الله تعالى ، وهي أشبه شيء بالضوء . قال ابن مسعود : قلنا يا رسول الله كيف انشراح الصدر ؟ قال : " إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح " ، قالوا وما علامة ذلك ؟ قال : " الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل الموت " . و" القسوة " : شدة القلب ، وهي مأخوذة من قسوة الحجر ، شبه قلب الكافر به في ضلالته وقلة انفعاله للوعظ . وقال مالك بن دينار : ما ضرب العبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب ، ويدل قوله : ﴿ فويل للقاسية ﴾ على المحذوف المقدر .

وقوله تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ يريد به القرآن ، وروي عن ابن عباس أن سبب هذه الآية أن قوماً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله حدثنا بأحاديث حسان وأخبرنا بأخبار الدهر ، فنزلت الآية في ذلك .

وقوله : ﴿ متشابهاً ﴾ معناه : مستوياً لا تناقض فيه ولا تدافع ، بل يشبه بعضه بعضاً في وصف اللفظ ووثاقة البراهين وشرف المعاني ، إذ هي اليقين في العقائد في الله تعالى وصفاته وأفعاله وشرعه .

وقوله : ﴿ مثاني ﴾ معناه : موضع تثنية للقصص والأقضية ، والمواعظ شتى فيه ولا تمل مع ذلك ولا يعرضها ما يعرض الحديث المعاد . قال ابن عباس : ثنى فيه الأمر مراراً . ولا ينصرف ﴿ مثاني ﴾ لأنه جمع لا نظير له في الواحد .

وقوله تعالى : ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ عبارة عن قفّ شعر الإنسان عند ما يداخله خوف ولين قلب عن سماع موعظة أو زجر قرآن ونحوه ، وهذه علامة وفزع المعنى المخشع في قلب السامع ، وفي الحديث أن أبي بن كعب قرأ عند النبي صلى الله عليه وسلم فرقت القلوب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة " وقال العباس بن عبد المطلب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اقشعر جلده من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحاتُّ عن الشجرة اليابسة ورقها " وقالت أسماء بنت أبي بكر : كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم عند سماع القرآن ، قيل لها : إن أقواماً اليوم إذا سمع أحدهم القرآن خر مغشياً عليه ، فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وقال ابن عمر : وقد رئي ساقطاً عند سماع القرآن فقال : إنا لنخشى الله وما نسقط ، هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم . وقال ابن سيرين : بيننا وبين هؤلاء الذي يصرعون عند قراءة القرآن أن يجعل أحدهم على حائط باسطاً رجليه ثم يقرأ القرآن كله ، فإن رمى بنفسه فهو صادق .

وقوله : ﴿ ذلك هدى الله ﴾ يحتمل أن يشير إلى القرآن ، أي ذلك الذي هذه صفته هدى

الله ، ويحتمل أن يشير إلى الخشية واقشعرار الجلود ، أي ذلك أمارة هدى الله ، ومن جعل ﴿ تقشعر ﴾ في موضع الصفة لم يقف على ﴿ مثاني ﴾ ، ومن جعله مستأنفاً وإخباراً منقطعاً وقف على ﴿ مثاني ﴾ وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(36/667)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً ﴾

أي إنه لا يخلف الميعاد في إحياء الخلق ، والتمييز بين المؤمن والكافر ، وهو قادر على ذلك كما أنه قادر على إنزال الماء من السماء .

"أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ" أي من السحاب "مَاءً" أي المطر ﴿ فَسَلَكَهُ ﴾ أي فأدخله في الأرض وأسكنه فيها ؛ كما قال : ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض ﴾ [المؤمنون : 18] .

﴿ يَنَابِيعَ ﴾ جمع يَنْبُوع وهو يَفْعُول من نَبَع ينبُع وينبَع وينبِع بالرفع والنصب والخفض .

النحاس : وحكى لنا ابن كيسان في قول الشاعر :

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ . . .

أن معناه يَنْبَع فأشبع الفتحة فصارت ألفاً ، نبوعاً خرج .

واليَنْبوع عين الماء والجمع الينابيع .

وقد مضى في "سبحان" .

ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ أي بذلك الماء الخارج من ينابيع الأرض ﴿ زَرْعاً ﴾ هو للجنس أي زروعاً شتى لها ألوان مختلفة ، حمرة وصفرة وزرقة وخضرة ونوراً .

قال الشعبي والضحاك : كل ماء في الأرض فمن السماء نزل ، إنما ينزل من السماء إلى الصخرة ، ثم تقسم منها العيون والركايا .

﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي ييبس .

﴿ فَتَرَاهُ ﴾ أي بعد خضرته ﴿ مُصْفَرّاً ﴾ قال المبرد قال الأصمعي : يقال هاجت الأرض تهيج إذا أدبر نبتها وولّى .

قال : وكذلك هاج النبت .

قال : وكذلك قال غير الأصمعي .

وقال الجوهري : هاج النبت هياجاً أي يَبِس .

وأرض هائجة يَبس بقْلُها أو اصفر ، وأهاجت الريح النبت أيبسته ، وأهيجنا الأرض أي وجدناها هائجة النبات ، وهاج هائجه أي ثار غضبه ، وهدأ هائجه أي سكنت فورته .

﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ﴾ أي فتاتاً مكسراً من تحطم العود إذا تفتت من اليبس .

والمعنى أن من قدر على هذا قدر على الإعادة .

(37/667)

وقيل : هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من في الأرض ، أي أنزل من السماء قرآناً فسلكه في قلوب المؤمنين ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ أي ديناً مختلفاً بعضه أفضل من بعض ، فأما المؤمن فيزداد إيماناً ويقيناً ، وأما الذي في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع .

وقيل : هو مثل ضربه الله للدنيا ؛ أي كما يتغير النبت الأخضر فيصفر كذلك الدنيا بعد بهجتها .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ شرح فتح ووسع .

قال ابن عباس : وسع صدره للإسلام حتى ثبت فيه .

وقال السدي : وسع صدره بالإسلام للفرح به والطمأنينة إليه ؛ فعلى هذا لا يجوز أن يكون هذا الشرح إلا بعد الإسلام ؛ وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشرح قبل الإسلام .

﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أي على هدى من ربه كمن طبع على قلبه وأقساه .

ودلّ على هذا المحذوف قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال المبرد : يقال قسا القلب إذا صَلُب ، وكذلك عتا وعسا مقاربة لها .

وقلبٌ قاسٍ أي صُلْب لا يرق ولا يلين .

والمراد بمن شرح الله صدره هاهنا فيما ذكر المفسرون عليّ وحمزة رضي الله عنهما .

وحكى النقاش أنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقال مقاتل : عمار بن ياسر .

وعنه أيضاً والكلبي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والآية عامة فيمن شرح الله صدره بخلق الإيمان فيه .

وروى مُرَّة " عن ابن مسعود قال : قلنا يا رسول الله قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ على نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ كيف انشرح صدره ؟ قال : "إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح" قلنا : يا رسول الله وما علامة ذلك ؟ .

(38/667)

قال : "الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله" "

وخرجه الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" من حديث ابن عمر : " أن رجلاً قال يا رسول

الله أي المؤمنين أكيس ؟ قال : "أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً وإذا دخل النور في القلب انفسح واستوسع" قالوا : فما آية ذلك يا نبيّ الله ؟ قال : "الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت" " فذكر صلى الله عليه وسلم خصالاً ثلاث ، ولا شك أن من كانت فيه هذه الخصال فهو الكامل الإيمان ، فإن الإنابة إنما هي أعمال البر ؛ لأن دار الخلود إنما وضعت جزاء لأعمال البر ، ألا ترى كيف ذكره الله في مواضع في تنزيله ثم قال بعقب ذلك : ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : 17] فالجنة جزاء الأعمال ؛ فإذا انكمش العبد في أعمال البر فهو إنابته إلى دار الخلود ، وإذا خمد حرصه عن الدنيا ، ولَها عن طلبها ، وأقبل على ما يغنيه منها فاكتفى به وقنع ، فقد تجافى عن دار الغرور .

وإذا أحكم أموره بالتقوى فكان ناظراً في كل أمر ، واقفاً متأدّباً متثبتاً حذِراً يتورّع عما يُريبه إلى ما لا يُريبه ، فقد استعدّ للموت .

فهذه علامتهم في الظاهر .

وإنما صار هكذا لرؤية الموت ، ورؤية صرف الآخرة عن الدنيا ، ورؤية الدنيا أنها دار الغرور ، وإنما صارت له هذه الرؤية بالنور الذي ولج القلب .

وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ ﴾ قيل : المراد أبو لهب وولده ، ومعنى : "مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ" أن قلوبهم تزداد قسوة من سماع ذكره .

وقيل : إن "مِن" بمعنى عن ، والمعنى قست عن قبول ذكر الله .

وهذا اختيار الطبري .

(39/667)

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله تعالى اطلبوا الحوائج من السمَحاء فإني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإني جعلت فيهم سخطي " وقال مالك بن دينار : ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة قلب ، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم .

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ يعني القرآن لما قال : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ بيّن أن أحسن ما يُسمع ما أنزله الله وهو القرآن .

قال سعد بن أبي وقاص قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حدثتنا فأنزل

الله عز وجل : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ فقالوا : لو قصصت علينا فنزل : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ [يوسف : 3] فقالوا : لو ذكرتنا فنزل : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ﴾ [الحديد : 16] الآية .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملّوا مَلّة فقالوا له : حدثنا فنزلت .

والحديث ما يحدث به المحدّث .

(40/667)

وسمى القرآن حديثاً ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدّث به أصحابه وقومه ، وهو كقوله : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 185] وقوله : ﴿ أَفَمِنْ هذا الحديث تَعْجَبُونَ ﴾ [النجم : 59] وقوله : ﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] وقوله : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثاً ﴾ [النساء : 87] وقوله : ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بهذا الحديث ﴾ [القلم : 44] قال القشيري : وتوهم قوم أن الحديث من الحدوث فليدل على أن كلامه محدث وهو وهم ؛ لأنه لا يريد لفظ الحديث على ما في قوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء : 2] وقد قالوا : إن الحدوث

يرجع إلى التلاوة لا إلى المتلو ، وهو كالذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسماء الربّ تعالى .

﴿ كِتَاباً ﴾ نصب على البدل من "أَحْسَنَ الْحَدِيثِ" ويحتمل أن يكون حالاً منه .

﴿ مُّتَشَابِهاً ﴾ يشبه بعضه بعضاً في الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضاً ، ليس فيه تناقض ولا اختلاف .

وقال قتادة : يشبه بعضه بعضاً في الآي والحروف .

وقيل : يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ؛ لما يتضمّنه من أمر ونهي وترغيب وترهيب وإن كان أعم وأعجز .

ثم وصفه فقال : ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام وثني للتلاوة فلا يمل .

﴿ تَقْشَعِرُّ ﴾ تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد .

﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾ أي عند آية الرحمة .

وقيل : إلى العمل بكتاب الله والتصديق به .

وقيل : "إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ" يعني الإسلام .

الثانية : عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا قرىء عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم .

قيل لها : فإنا أناساً اليوم إذا قرىء عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشيًّا عليه .

فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحي : مرّ ابن عمر برجل من أهل القرآن ساقط فقال : ما بال هذا ؟ قالوا : إنه إذا قرىء عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط .

فقال ابن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط .

ثم قال : إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم ؛ ما كان هذا صنيع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال عمر بن عبد العزيز : ذكر عند ابن سيرين الذين يُصرعون إذا قرىء عليهم القرآن ، فقال : بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطاً رجليه ، ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق .

وقال أبو عمران الجوني : وعظ موسى عليه السلام بني إسرائيل ذات يوم فشقّ رجل قميصه ، فأوحى الله إلى موسى : قل لصاحب القميص لا يشق قميصه فإني لا أحبّ المبذرين ؛ يشرح لي عن قلبه .

الثالثة : قال زيد بن أسلم : قرأ أبيّ بن كعب عند النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه

فرقّوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة " وعن العباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تحاتَّت عنه خطاياه كما يَتحاتُّ عن الشجرة البالية ورقُها " وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما اقشعر جلد عبد من خشية الله إلا حرّمه الله على النار " وعن شهر بن حَوْشَب عن أم الدرداء قالت : إنما الوجل في قلب الرجل كاحتراق السعفة ، أما تجد إلا قشعريرة ؟ قلت : بلى ؛ قالت : فادع الله فإن الدعاء عند ذلك مستجاب .

وعن ثابت البُنَاني قال قال فلان : إني لأعلم متى يستجاب لي .

قالوا : ومن أين تعلم ذلك ؟ قال : إذا اقشعر جلدي ، ووجل قلبي ، وفاضت عيناي ، فذلك حين يستجاب لي .

يقال : اقشعر جلد الرجل اقشعراراً فهو مقشعر والجمع قشاعر فتحذف الميم ، لأنها زائدة ؛ يقال أخذته قشعريرة .

(42/667)

قال امرؤ القيس :

فبِتُّ أُكابِدُ ليلَ التّمَا . . .

مِ والقلبُ مِن خشيةٍ مُقْشَعِرٌّ

وقيل : إن القرآن لما كان في غاية الجزالة والبلاغة ، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته ، اقشعرت الجلود منه إعظاماً له ، وتعجباً من حسن ترصيعه وتهيباً لما فيه ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [الحشر : 21] فالتصدّع قريب من الاقشعرار ، والخشوع قريب من قوله : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ ومعنى لين القلب رقته وطمأنينته وسكونه .

﴿ ذَلِكَ هُدَى الله ﴾ أي القرآن هدى الله .

وقيل : أي الذي وهبه الله لهؤلاء من خشية عقابه ورجاء ثوابه هدى الله .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي من خذله فلا مرشد له .

وهو يرد على القَدَرية وغيرهم .

وقد مضى معنى هذا كله مستوفى في غير موضع والحمد لله .

ووقف ابن كثير وابن محيصن على قوله : "هَادٍ" في الموضعين بالياء ، الباقون بغير ياء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبي حـ 15 صـ ﴾

(43/667)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾

قال ابن زيد : نزلت ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ في زيد بن عمرو بن نفيل وسلمان وأبي ذر .

وقال ابن إسحاق : الإشارة بها إلى عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، والزبير ، وذلك أنه لما أسلم أبو بكر ، سمعوا ذلك فجاؤوه وقالوا : أسلمت ؟ قال : نعم ، وذكرهم بالله ، فآمنوا بأجمعهم ، فنزلت فيهم ، وهي محكمة في الناس إلى يوم القيامة .

والطاغوت : تقدم الكلام عليها في البقرة .

وقرأ الحسن : الطواغيت جمعاً .

﴿ أن يعبدوها ﴾ : أي عبادتها ، وهو بدل اشتمال .

﴿ له البشرى ﴾ : أي من الله تعالى بالثواب .

﴿ فبشر عبادِ ﴾ : هم المجتنبون الطاغوت إلى الله .

وضع الظاهر موضع المضمر ليدل على أنهم هم ، وليترتب على الظاهر الوصف ، وهو : ﴿ الذين يستمعون القول ﴾ ، وهو عام في جميع الأقوال ، ﴿ فيتبعون أحسنه ﴾ : ثناء عليهم بنفوذ بصائرهم وتمييزهم الأحسن ، فإذا سمعوا قولاً تبصروه .

قيل : وأحسن القول : القرآن وما يرجع إليه .

وقيل : القول : القرآن ، وأحسنه : ما فيه من صفح وعفو واحتمال ونحو ذلك .

وقال قتادة : أحسن القول طاعة الله .

وعن ابن عباس : هو الرجل يجلس مع القوم ، فيسمع الحديث فيه محاسن مساو ، فيحدث بأحسن ما سمع ، ويكف عن ما سواه .

و﴿ الذين ﴾ : وصف لعباد .

وقيل : الوقف على عباد ، والذين مبتدأ خبره أولئك وما بعده .

﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب ﴾ : قيل نزلت في أبي جهل ، أي نفذ عليه الوعيد بالعذاب .

والظاهر أنها جملة مستقلة ، ومن موصولة مبتدأ ، والخبر محذوف ، فقيل تقديره : يتأسف عليه ، وقيل : يتخلص منه .

(44/667)

وقدره الزمخشري : فأنت تخلصه ، قال : حذف لدلالة أفأنت تنفذ عليه ؟ وقدر الزمخشري بين الهمزة والفاء جملة حتى تقر الهمزة في مكانها والفاء في مكانها ، فقال : التقدير : أأنت مالك أمرهم ؟ فمن حق عليه كلمة العذاب ، وهو قول انفرد به فيما

علمناه .

والذي تقوله النحاة أن الفاء للعطف وموضعها التقديم على الهمزة ، لكن الهمزة ، لما كان لها صدر الكلام ، قدمت ، فالأصل عندهم : فأمن حق عليه ، وعلى القول أنها جملة مستقلة يكون قوله : ﴿ أفأنت تنقذ من في النار ﴾ ، استفهام توقيف ، وقدم فيه الضمير إشعاراً بأنك لست تقدر أن تنقذه من النار ، بل لا يقدر على ذلك أحد إلا الله .

وذهبت فرقة ، منهم الحوفي والزمخشري ، إلى أن من شرطية ، وجواب الشرط أفأنت ، فالفاء فاء الجواب دخلت على جملة الجزاء ، وأعيدت الهمزة لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ، ووضع من في النار ، وهو ظاهر ، موضع المضمر ، إذ كان الأصل تنقذه ، وإنما أظهر تشهيراً لحالهم وإظهاراً لخسة منازلهم .

قال الحوفي : وجيء بألف الاستفهام لما طال الكلام توكيداً ، ولولا طوله ، لم يجز الإتيان بها ، لأنه لا يصلح في العربية أن يأتي بألف الاستفهام في الاسم ، وألف أخرى في الجزاء .

ومعنى الكلام : أفأنت تنقذه ؟ انتهى .

وعلى هذا القول ، يكون قد اجتمع استفهام وشرط على قول الجماعة أن الهمزة قدمت من تأخر ، فيجيء الخلاف بين سيبويه ويونس : هل الجملة الأخيرة هي للمستفهم عنها أو هي جواب الشرط ؟ وعلى تقدير الزمخشري : لم تدخل الهمزة على اسم الشرط ، فلم يجتمع استفهام وشرط ، لأن الاستفهام عنده دخل على الجملة المحذوفة عنده ، وهو : أأنت

مالك أمرهم ؟ وفمن معطوف على تلك الجملة المحذوفة ، عطفت جملة الشرط على جملة الاستفهام ، ونزل استحقاقهم العذاب ، وهم في الدنيا بمنزلة دخولهم النار ، ونزل اجتهاد الرسول عليه السلام في دعائهم إلى الإيمان منزلة إنقاذهم من النار .

(45/667)

ولما ذكر حال الكفار في النار ، وأن الخاسرين لهم ظلل ، ذكر حال المؤمنين ، وناسب الاستدراك هنا ، إذ هو واقع بين الكافرين والمؤمنين ، فقال : ﴿ لكن الذين اتقوا ﴾ .

ففي ذلك حض على التقوى ، لهم علالي مرتفعة فوقها علالي مبنية ، أي بناء المنازل التي سويت على الأرض .

والضمير في ﴿ من تحتها ﴾ عائد على الجمعين ، أي من تحت الغرف السفلى والغرف العليا ، لا تفاوت بين أعلاها وأسفلها وانتصب ﴿ وعد الله ﴾ على المصدر المؤكد لمضمون الجملة قبله ، إذ تضمنت معنى الوعد .

﴿ ألم تر ﴾ : خطاب وتوقيف للسامع على ما يعتبر به من أفعال الله الدالة على فناء الدنيا واضمحلالها .

﴿ فسلكه ينابيع ﴾ : أي أدخله مسالك وعيوناً .

والظاهر أن ماء العيون هو من ماء المطر ، تحبسه الأرض ويخرج شيئاً فشيئاً .

﴿ ثم يخرج به زرعاً ﴾ ، ذكر منته تعالى علينا بما تقوم به معيشتنا .

﴿ مختلفاً ألوانه ﴾ : من أحمر وأبيض وأصفر ، وشمل لفظ الزرع جميع ما يرزع من مقتات وغيره ، أو مختلفاً أصنافه من بر وشعير وسمسم وغير ذلك .

﴿ ثم يهيج ﴾ : يقارب الثمار ، ﴿ فتراه مصفراً ﴾ : أي زالت خضرته ونضارته .

وقرأ أبو بشر : ثم يجعله ، بالنصب في اللام .

قال صاحب الكامل وهو ضعيف . انتهى .

﴿ إن في ذلك ﴾ : أي فيما ذكر من إنزال المطر وإخراج الزرع به وتنقلاته إلى حالة الحطامية ، ﴿ لذكرى ﴾ : أي لتذكرة وتنبيهاً على حكمة فاعل ذلك وقدرته .

﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ : نزلت في حمزة ، وعلى ومن مبتدأ ، وخبره محذوف يدل عليه ﴿ فويل للقاسية قلوبهم ﴾ تقديره : كالقاسي المعرض عن الإسلام ، وأبو لهب وابنه كانا من القاسية قلوبهم ، وشرح الصدر استعارة عن قبوله للإيمان والخير والنور والهداية .

وفي الحديث : "كيف انشراح الصدور ؟ قال : إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح ، قلنا : وما علامة ذلك ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل الموت " ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ : أي من أجل ذكره ، أي إذا ذكر الله عندهم قست قلوبهم .

وقال مالك بن دينار : ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب .

﴿ أولئك ﴾ : أي القاسية قلوبهم ، ﴿ في ضلال مبين ﴾ : أي في حيرة واضحة ، لا تخفى على من تأملها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(47/667)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾

أي البالغَ أقصى غيةَ الطُّغيانِ ، فَعَلوتٌ منه بتقديم اللاَّمِ على العينِ بُني للمبالغةِ في المصدرِ كالرَّحموتِ والعظَمُوتِ . ثم وُصف به للمبالغةِ في النَّعتِ . والمرادُ به هو الشَّيطانُ ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ بدلُ الاشتمالِ منه فإنَّ عبادةَ غيرَ الله تعالى عبادةٌ للشَّيطانِ إذِ هُو الآمرُ بها والمُزيِّنُ لها . ﴿ وَأَنَابُواْ إِلَى الله ﴾ وأقبلُوا إليه مُعرضين عمَّا إقبالاً كُلِّياً .

﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ بالثَّوابِ على ألسنةِ الرُّسلِ أو الملائكةِ عند حضورِ الموتِ وحين يُحشرون وبعد ذلك ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ هم الموصُوفون بالاجتنابِ والإنابةِ بأعيانهم لكنْ وُضع موضعَ ضميرِهم الظَّاهرُ تشريفاً لهم بالإضافةِ ودلالةً على أنَّ مدارَ اتصافِهم بالوصفينِ الجليلينِ كونُهم نُقَّاداً في الدِّينِ يميِّزون الحقَّ من الباطلِ ويؤثرون الأفضلَ فالأفضلَ ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إليهم باعتبارِ اتِّصافهم بما ذُكر من النَّعوتِ الجليلةِ ، وما فيه من مَعْنى البُعد للإيذانِ بعلوِّ رُتبتهم وبُعدِ منزلتِهم في الفضلِ . ومحلُّه الرَّفعُ على الابتداءِ خبرُه ما بعده من الموصولِ أي أولئك المنعوتُون بالمحاسنِ الجمليةِ ﴿ الذين هَدَاهُمُ الله ﴾ للدِّينِ الحقِّ ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُو الالباب ﴾ أي هم أصحابُ العقولِ السَّليمةِ عن معارضةِ الوهمِ ومنازعةِ الهَوَى المستحقُّون للهدايةِ لا غيرهم ، وفيه دلالةٌ على أنَّ الهدايةَ تحصلُ بفعلِ الله تعالى وقبولِ النَّفسِ لها ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى النار ﴾ بيانٌ لأحوالِ أضدادِ المذكورينَ على طريقةِ الإجمالِ وتسجيلٌ عليهم بحرمانِ الهدايةِ وهم عَبَدةُ الطَّاغوتِ ومتَّبعُو خطواتِها كما يُلوحُ به التَّعبيرُ عنهم بمن حقَّ عليه كلمةُ العذابِ فإنَّ المرادَ بها قولُه تعالى لإبليسَ : ﴿ لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ

وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وأصلُ الكلامِ أمن حقَّ عليه كلمةُ العذاب فأنتَ تنقذه على أنَّها شرطيةٌ دخل عليها الهمزةُ لإنكارِ مضمونها ثم الفاءُ لعطفها على جملةٍ مستتبعة لها مقدَّرة بعد الهمزةِ ليتعلَّق الإنكارُ والنَّفيُ بمضمونيهما معاً أي أأنتَ مالكُ أمرِ النَّاسِ فمن حقَّ

(49/667)

عليه كلمةُ العذابِ فأنت تنقذه ثم كُررتْ الهمزةُ في الجزاءِ لتأكيدِ الإنكارِ وتذكيرِه لمَّا طال الكلامُ ثم وضِع موضعَ الضَّميرِ مَن في النَّارِ لمزيد تشديدِ الإنكارِ والاستبعاد والتَّنبيه على أنَّ المحكومَ عليه بالعذابِ بمنزلة الواقعِ في النَّارِ وأنَّ اجتهادَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في دُعائهم إلى الإيمانِ سعيٌ في إنقاذِهم من النَّارِ ويجوز أن يكونَ الجزاءُ محذوفاً . وقوله تعالى أفأنتَ الخ جملة مستقلَّةٌ مسوقة لتقريرِ مضمون الجملة السَّابقةِ وتعيين ما حُذف منها وتشديدِ الإنكارِ بتنزيل من استحقَّ العذابَ منزلةَ من دخل النَّارَ وتصوير الاجتهاد في دُعائه إلى الإيمان بصورةِ الإنقاذِ من النَّارِ كأنَّه قيل أوَّلاً : أفمن حقَّ عليه العذابُ فأنتَ تخلِّصه منه ثم شُدِّد النَّكيرُ فقيل أفأنتَ تنقذُ من في النَّارِ وفيه تلويحٌ بأنَّه تعالى هو الذي يقدرُ على الإنقاذِ لا غيرُه

وحيثُ كان المرادُ بمن في النَّارِ الذين قيل في حقِّهم : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ استدركَ منهم بقوله تعالى :

(50/667)

﴿ لكن الذين اتقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ وهم الذين خُوطبوا بقوله تعالى : ﴿ يَا عِبَادِى فاتقون ﴾ ووُصفوا بما عُدِّد من الصِّفاتِ الفاضلةِ وهم المخاطَبون أيضاً فيما سبق بقوله تعالى : ﴿ قُلْ ياعباد الذين ءامَنُواْ اتقوا رَبَّكُمْ ﴾ الآيةَ وبينَّ أنَّ لهم درجاتٍ عاليةً في جنَّاتِ النَّعيمِ بمقابلة ما للكفرةِ من دَرَكاتٍ سافلةٍ في الجحيم أي لهم علالي بعضُها فوقَ بعضٍ ﴿ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ بناءَ المنازلِ المبنية المؤسَّسةِ على الأرضِ في الرَّصانةِ والإحكام ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ﴾ من تحت تلك الغرفِ ﴿ الأنهار ﴾ من غيرِ تفاوتٍ بين العُلوِّ والسُّفلِ ﴿ وَعَدَ الله ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لقوله تعالى لهم غُرف الخ فإنه وعدٌ وأيُّ وعدٍ ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله الميعاد ﴾ لاستحالتِه عليه سبحانه .

(51/667)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ استئنافٌ وارد إمَّا لتمثيلِ الحياةِ الدُّنيا في سرعة الزَّوالِ وقُرب الاضمحلالِ بما ذكر من أحوالِ الزَّرعِ ترغيباً عن زخارفها وزينتها وتحذيراً من الاغترار بزَهرتها كما في نظائر قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحياة الدنيا ﴾ الآيةَ أو للاستشهاد على تحقُّقِ الموعودِ من الأنهارِ الجاريةِ من تحت الغُرفِ بما يُشاهد من إنزالِ الماءِ من السَّماءِ وما يترتَّبُ عليه من آثارِ قدرتهِ تعالى وأحكامِ حكمتِه ورحمتِه والمرادُ بالماءِ المطر . وقيل : كلُّ ماءٍ في الأرضِ فهو من السَّماءِ ينزلُ إلى الصَّخرةِ ثم يقسمُه الله تعالى بين البقاعِ ﴿ فَسَلَكَهُ ﴾ فأدخلَه ونظمه ﴿ يَنَابِيعَ فِى الأرض ﴾ أي عُيوناً ومجاريَ كالعروقِ في الأجسادِ وقيل : مياهاً نابعةً فيها فإنَّ الينبوعَ يطلقُ على المنبعِ والنَّابعِ فنصبها على الحالِ وعلى الأوَّلِ بنزعِ الجارِّ أي في ينابيعَ ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ أصنافُه من بُرَ وشعيرٍ وغيرِهما أو كيفياته من الألوانِ والطُّعومِ وغيرِهما وكلمة ثمَّ للتَّراخي في الرُّتبةِ أو الزَّمانِ . وصيغةُ المضارعِ لاستحضارِ الصُّورةِ ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي يتمُّ جفافُه ويشرف على أنْ يثورَ من منابتِه ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ من بعد خُضرته ونُضرته وقُرىء مُصفارَّا ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حطاما ﴾ فُتاتاً مُتكسِّرةً كأن لم يغنَ بالأمسِ ولكون هذه الحالةِ من الآثارِ القويَّةِ عُلِّقت بجعلِ الله تعالى كالإخراجِ ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر تفصيلاً ، وما فيه من مَعنى البُعدِ للإيذانِ ببُعد منزلتِه في الغَرابةِ والدّلالةِ على ما قُصد بيانُه ﴿ لِذِكْرَى ﴾ لتذكيراً عظيماً ﴿ لِأُوْلِى

الالباب ﴾ لأصحابِ العُقول الخالصةِ عن شوائبِ الخللِ وتنبيهاً لهم على حقيقةِ الحالِ يتذكَّرون بذلك أنَّ حالَ الحياةِ الدُّنيا

(52/667)

في سُرعةِ التَّقصّي والانصرامِ كما يشاهدونَهُ من حال الحُطامِ كلَّ عامٍ فلا يغترُّون ببهجتِها ولا يُفتتنون بفتنتها أو يجزمون بأنَّ مَن قدرَ على إنزالِ الماءِ من السَّماءِ وإجرائِه في ينابيع الأرضِ قادرٌ على إجراءِ الأنهارِ من تحتِ الغُرفِ ، هذا وأمَّا ما قيلَ إنَّ في ذلك لتذكيراً وتنبيهاً على أنَّه لا بُدَّ من صانعٍ حكيمٍ وأنه كائنٌ عن تقديرٍ وتدبيرٍ لا عن تعطيلٍ وإهمالٍ فبمعزلٍ من تفسيرِ الآيةِ الكريمةِ وإنَّما يليقُ ذلك بما لو ذُكرَ ما ذُكر من الآثارِ الجليلة والأفعالِ الجميلةِ من غيرِ إسنادٍ لها إلى مؤثّرٍ ما فحيثُ ذُكرتْ مسندةً إلى الله عزَّ وجلَّ تعيَّن أنْ يكونَ متعلَّقُ التَّذكيرِ والتَّنبيهِ شؤونه تعالى أو شؤونَ آثارِه حسبما بُيّن لا وجودُه تعالى .

(53/667)

وقولُه تعالى ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ الخ استئنافٌ جارٍ مجرى التَّعليلِ لما قبله من تخصيصِ الذِّكرى بأولي الألبابِ . وشرحُ الصَّدرِ للإسلامِ عبارةٌ عن تكميلِ الاستعدادِ له فإنه محلٌّ للقلبِ الذي هو منبعٌ للرُّوحِ التي تتعلَّقُ بها النَّفسُ القابلةُ للإسلامِ فانشراحُه مستدعٍ لاتِّساعِ القلبِ واستضاءتِه بنوره فإنَّه روي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال : " إذا دخلَ النُّور القلبَ انشرحَ وانفسحَ " فقيل فما علامةُ ذلك ؟ قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " الإنابةُ إلى دارِ الخُلودِ والتَّجافي عن دارِ الغُرور والتَّأهُّبُ للموتِ قبل نزوله " والكلامُ في الهمزةِ والفاءِ كالذي مرَّ في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب ﴾ وخبرُ مَن محذوفٌ لدلالةِ ما بعده عليه والتَّقديرُ أكلُّ النَّاسِ سواءٌ فَمَنْ شَرَحَ اللهُ صدرَهُ أي خلقَهُ متَّسعَ الصَّدرِ مُستعدًّا للإسلامِ فبقي على الفطرةِ الأصليةِ ولم يتغيرْ بالعوارضِ المكتسبةِ القادحةِ فيها ﴿ فَهُوَ ﴾ بموجبِ ذلك مستقرٌّ ﴿ على نُورٍ ﴾ عظيم ﴿ مّن رَّبِّهِ ﴾ وهو اللُّطفُ الإلهيُّ الفائضُ عليه عند مشاهدةِ الآياتِ التَّكوينيةِ والتَّنزيليةِ والتَّوفيقُ للاهتداءِ بها إلى الحقِّ كمَنْ قسا قلبُه وحَرِجَ صدره بسببِ تبديلِ فطرةِ اللهِ بسُوءِ اختيارِه واستولى عليه ظلماتُ العِيِّ والضَّلالةِ فأعرضَ عن تلك الآياتِ بالكُلِّيةِ حتَّى لا يتذكَّر بها ولا يغتنمُها ﴿ فَوَيْلٌ للقاسية قُلُوبُهُمْ مّن ذِكْرِ الله ﴾ أي من أجلِ ذكرِه الذي حقُّه أنْ تنشرحَ له الصُّدورُ وتطمئنَّ به القلوبُ أي إذا ذُكر اللهُ تعالى عندهم أو آياتُه اشمأزُّوا من أجلِه وازدادتْ قلوبُهم قساوةً كقولِه تعالى

فزادتْهم رجساً . وقُرىء عن ذكرِ الله أي عن قبولِه ﴿ أولئك ﴾ البُعداءُ الموصوفون بما ذُكر من قساوةِ القلوب ﴿ فِى ضلال ﴾ بُعدٍ عن الحقّ ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر

(54/667)

كونه ضلالاً لكلِّ أحدٍ قيل : نزلتِ الآيةُ في حمزةَ وعليَ رضي الله عنهما وأبي لهبٍ وولدِه وقيل : في عمَّارِ بنِ ياسرٍ رضي الله عنه وأبي جهلٍ وذويه .

(55/667)

﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ هو القرآنُ الكريمُ . رُوي أنَّ أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ملُّوا ملَّةً فقالُوا له عليه الصَّلاةُ والسَّلام حدِّثْنا حَديثاً . وعن ابن مسعُودٍ وابن عبَّاسَ رضي الله عنُهم قالُوا : لو حدَّثتنا فنزلتْ . والمَعنى أنَّ فيه مندوحةً عن سائرِ الأحاديثِ . وفي إيقاعِ الاسمِ الجليلِ مبتدأً ، وبناءِ نزَّل عليهِ من تفخيمِ أحسنِ الحديثِ ورفعِ محلِّه والاستشهادِ على حُسنِه وتأكيدِ استنادِه إليه تعالى وأنَّه من عندَه لا يمكنُ صدورُه عن غيرِه والتَّنبيهُ على أنَّه وحيٌ معجزٌ ما لا يخفى ﴿ كتابا ﴾ بدلٌ من أحسنَ

الحديثِ أو حالٌ منه سواء اكتسبَ من المضافِ إليه تعريفاً أَوْ لاَ فإنَّ مساغَ مجيء الحالِ من النّكرةِ والمُضافةِ اتفاقيٌّ ووقوعُه حالاً مع كونِه اسماً لا صفةً إمَّا لاتَّصافِه بقولِه تعالى ﴿ متشابها ﴾ أو لكونِه في قوّةِ مكتوباً ومعنى كونِه مُتشابهاً تشابُه معانيهِ في الصّحَّةِ والأحكامِ والابتناءِ على الحقّ والصّدقِ واستنباع منافعِ الخلقِ في المعادِ والمعاشِ وتناسب ألفاظِه في الفصاحةِ وتجاوبِ نظمِه في الإعجازِ ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ صفةٌ أُخرى لكتاباً أو حالٌ أُخرى منه وهو جمعُ مَثْنى بمعنى مردودٍ ومكرَّرٍ لمَا ثُنّي من قصصهِ وأنبائِه وأحكامِه وأوامرِه ونواهيهِ ووعدِه ووعيدِه ومواعظِه . وقيل لأنَّه يُثنَّى في التَّلاوةِ ، وقيل : هو جمعُ مَثنى مَفْعل من التَّثنيةِ بمعنى التَّكريرِ والإعادةِ كما في قولِه تعالى : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أي كرةً بعدَ كرَّةٍ . ووقوعُه صفةً لكتاباً باعتبار تفاصيلِه كما يُقال القرآن سورٌ وآياتٌ ويجوز أنْ ينتصبَ على التَّمييزِ من مُتشابهاً كما يُقال رأيتُ رجلاً حسناً شمائلَ أي شمائلُه والمعنى متشابهةٌ مثانية ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ قيل صفةٌ لكتاباً أو حالٌ منه لتخصُّصه بالصِّفةِ

(56/667)

، والأظهر أنَّه استئنافٌ مسوق لبيانِ آثارِه الظَّاهرةِ في سامعيهِ بعد بيانِ أوصافهِ في نفسِه ولتقريرِ كونِه أحسنَ الحديثِ . والاقشعرارُ التَّقبضُ يقال اقشعرَّ الجلدُ إذا تقبَّضَ تقبُّضاً شَديداً وتركيبُه من القَشع وهو الأديمُ اليابسُ قد ضُمَّ إليه الرَّاءُ ليكونَ رُباعيًا ودَالاًّ على معنى زائد يُقال اقشعرَّ جلدُه وقفَ شعرُه إذا عرضَ له خوفٌ شديدٌ من منكرٍ هائلٍ دهمه بغتة . والمرادُ إمَّا بيانُ إفراطِ خشيتِهم بطريقِ التَّمثيلِ والتَّصويرِ أو بيانُ حصولِ تلك الحالةِ وعرُوضِها لهم بطريقِ التَّحقيقِ . والمعني أنَّهم إذا سمعُوا القُرآنَ وقوارعَ آياتِ وعيده أصابتُهم هيبةٌ وخشيةٌ تقشعرُّ منها جلودُهم وإذا ذُكِّروا رحمةَ الله تعالى تبدَّلتْ خشيتُهم رجاءً ورهبتُهم رغبةً وذلك قولُه تعالى .

﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ أي ساكنةً مطمئنَّةً إلى ذكر رحمتِه تعالى وإنَّما لم يُصرِّحْ بها إيذاناً بأنَّها أولُ ما يخطرُ بالبال عند ذكرِه تعالى . ﴿ ذلك ﴾ أي الكتابُ الذي شُرِحَ أحوالُه ﴿ هُدَى الله يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاء ﴾ أنْ يهديه بصرفِ مقدورِه إلى الاهتداءِ بتأمُّلِه فيما في تضاعيفِه من شواهدِ الحقّيةِ ودلائلِ كونِه من عندِ الله تعالى ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ أي يخلقُ فيه الضَّلالةَ بصرفِ قُدرته إلى مباديها وإعراضِه عمَّا يُرشده إلى الحقِّ بالكُلِّية وعدم تأثُّرِه بوعيدِه ووعدِه أصلاً أو ومن يخذلْ ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يُخلِّصه من ورطةِ الضَّلالِ وقيل : ذلك الذي ذُكرَ من الخشيةِ والرَّجاءِ إثر هُداه تعالى يهدي بذلكَ الأثرِ

مَن يشاءُ من عبادةِ ومَن يُضلل أي ومَن لم يُؤثّر فيه لطفُه لقسوةِ قلبهِ وإصرارِه على فجورِه فما له من هادٍ من مؤثّرٍ فيه بشيءٍ قَطْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(57/667)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾

استئناف وارد إما لتمثيل الحياة الدنيا في سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذكر من أحوال الزرع تحذيراً من الاغترار بزهرتها أو للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية من تحت الغرف بما يشاهد من إنزال الماء من السماء وما يترتب عليه من آثار قدرته سبحانه وإحكام حكمته ورحمته ، والمراد بالماء المطر وبالسماء جهة العلو ، وقيل : الأجرام العلوية وكون إنزال المطر منها باعتبار أنه بأسباب ناشئة منها فإن تصاعد الأبخرة وتكون الغيوم بسبب جذب الشمس واختلاف أوضاعها ونحو ذلك من الأسباب التي يعلمها الله تعالى ، وأما كون إنزال المطر نفسه من جرم السماء المعروفة نفسها فكثير ما يرتفع سحاب ويمطر مطراً غزيراً وهناك من هو على ذروة جبل لا سحاب عنده ولا مطر والتزام أن المطر في ذلك نازل من جرم السماء أيضاً على السحاب لكن لا يشاهده من هو

مشرف على السحاب وواقف فوق الجبل لا يخفى حاله ؛ وقيل : المراد بالماء كل ماء في الأرض ، والمراد بالإنزال المذكور الإنزال في مبدأ الخليقة وذلك أنه عز وجل لما خلق الأرض خلقها خالية من الماء فأنزل من بحر تحت العرش ماء ﴿ فَسَلَكَهُ ﴾ فأدخله ﴿ يَنَابِيعَ فِى الأرض ﴾ أي في ينابيع أي عيون ومجاري كائنة في الأرض كالعروق في الأجساد فعلى الأول : يقتضي ظاهر الآية أن ماء العيون والقنوات من ماء المطر وعلى الثاني : ليس منه ، وشاع عن الفلاسفة أن ماء العيون وما جرى مجراها من الأبخرة قالوا : إن البخار إذا احتبس في الأرض يميل إلى جهة وتبرد بها فتنقلب مياه مختلطة بأجزاء بخارية فإذا كثر بحيث لا تسعه الأرض أوجب انشقاقها فانفجر منها العيون ، ورده أبو البركات البغدادي فقال في "المعتبر" : السبب في العيون وما يجري مجراها هو ما يسيل من الثلوج ومياه الأمطار لأنا نجدها تزيد بزيادتها وتنقص بنقصانها وأن استحالة الأهوية والأبخرة المنحصرة في الأرض لا مدخل لها في ذلك فإن باطن الأرض في الصيف أشد برداً منه

(58/667)

في الشتاء فلو كان سبب هذه استحالتها لوجب أن تكون العيون والقنوات ومياه الآبار في الصيف أزيد وفي الشتاء أنقص مع أن الأمر بخلاف ذلك على ما دلت عليه التجربة ، وقال

الميبدي : الحق أن السبب الذي ذكره صاحب المعتبر معتبر لا محالة إلا أنه غير مانع من اعتبار السبب الذي ذكر يعني ما شاع ، واحتجاجه في المنع إنما يدل على أنه لا يجوز أن يكون ذلك هو السبب التام لا على أنه لا يجوز أن يكون ذلك سبباً في الجملة اه .

وفي شرح المواقف اختلفوا في أن المياه متولدة من أجزاء مائية متفرقة في عمق الأرض إذا اجتمعت أو من الهواء البخاري الذي ينقلب ماء .

وهذا الثاني وإن كان ممكناً إلا أن الأول أولى لأن مياه العيون والقنوات والآبار تزيد بزيادة الثلوج والأمطار ، والأولى عندي أن يحمل الماء في الآية على المطر ونحوه من الثلج ، والآية تدل على أن ذلك الماء يسلكه الله تعالى في ينابيع في الأرض ولا تدل على أن ما في الينابيع ليس إلا ذلك الماء فيجوز أن يكون بعض ما فيها هو الماء المنزل من السماء والبعض الآخر حادثاً من الهواء البخاري بانقلابه ماءً بأسباب يعلمها الله عز وجل ، وحمل الإنزال على الإنزال في مبدأ الخليقة على ما سمعت مع كونه مما لم أقف على خبر صحيح يقتضيه خلاف الظاهر في الآية جداً لأن الخطاب في ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ عام ولا يتأتى العموم في رؤية ذلك ، وكأنه يتعين عليه جعل الخطاب خاصاً بسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم والمراد ألم تعلم ذلك بالوحي ومع ذلك لا يخفى حال حمل الآية على ما ذكر ، وقريب مما قيل ما حكاه الزمخشري في الآية عن بعض من أن كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله تعالى بين البقاع ، هذا لكن يعكر على ما اخترناه ظاهر ما أخرجه ابن أبي

حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية : ليس في الأرض ماءً إلا ما أنزل الله تعالى من السماء ولكن عروق في الأرض تغيره فمن سره أن يعود الملح عذباً فليصعد .

(59/667)

وأخرج نحوه عن سعيد بن جبير .

والشعبي ، فإن صح هذا الخبر وقلنا إنه في حكم المرفوع فما علينا إذا قلنا بظاهره فالعقل لا يأباه والله تعالى على كل شيء قدير ، هذا وجوز أن تكون الينابيع جمع ينبوع بمعنى النابع فإنه كما يطلق على المنبع يطلق على ما ذكر وحينئذٍ تكون منصوبة على الحال ، والمعنى فسلكه مياهاً نابعة في الأرض ، ولا يخلو من الكدر لأنه لو قصد هذا كان الظاهر أن يقال من الأرض وعلى ما هو المشهور يكون ﴿ يَنَابِيعَ ﴾ منصوباً بنزع الخافض كما أشرنا إليه .

واحتمال كونه منصوباً على المصدرية في إطلاقيه بأن يكون الأصل فسلكه سلوكاً في ينابيع أي مجاري فحذف المصدر وأقيم ما هو في موضع الصفة مقامه أو يكون الأصل فسلكه سلوك ينابيع أي مياه نابعة فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه بعيد كما لا يخفى .

﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ ﴾ أي بواسطته مراعاة للحكمة لا لتوقف الإخراج عليه في نفس الأمر ، وقالت الأشاعرة : أي يخرج عنده بلا مدخلية له بوجه من الوجوه سوى المقارنة ﴿ زَرْعاً

مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ أي أنواعه وأصنافه من بر وشعير وغيرهما أو كيفياته المدركة بالبصر من خضرة وحمرة وغيرهما أو كيفياته مطلقاً من الألوان والطعوم وغيرهما على ما قيل ، وشمل الزرع المقتات وغيره ، وثم للتراخي في الرتبة أو الزمان ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ ييبس ، وظاهر كلام أهل اللغة أن هذا معنى حقيقي للهيجان ، ويفهم من كلام بعض المفسرين أن يهيج بمعنى يثور واستعماله بمعنى ييبس من مجاز المشارفة لأن الزرع إذا يبس وتم جفافه يشرف على أن يثور ويذهب من منابته ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ من بعد خضرته ونضارته .

وقرىء ﴿ مصفاراً ﴾ ﴿ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حطاما ﴾ فتاتاً متكسراً كأن لم يغن بالأمس ، ولكون هذه الحالة من الآثار القوية علقت بجعل الله تعالى كالإخراج .

(60/667)

وقرأ أبو بشر ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ ﴾ بالنصب قال صاحب الكامل : وهو ضعيف ولم يبين وجه النصب ، وكأنه إضمار أن كما في قوله

: إني وقتلي سليكاً ثم أعقله . . .

ولا يخفى وجه ضعفه هنا ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر تفصيلاً ، وما فيه من

معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الغرابة والدلالة على ما قصد بيانه ﴿ لِذِكْرِى ﴾ لتذكيراً عظيماً ﴿ لأوْلِى الألباب ﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وتنبيهاً لهم على حقيقة الحال يتذكرون بذلك حال الحياة الدنيا وسرعة تقضيها فلا يغترون ببهجتها ولا يفتنون بفتنتها أو يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء والتصرف به على أتم وجه قادر على إجراء الأنهار من تحت تلك الغرف ، وكأن الأول أولى ليكون ما تقدم ترغيباً في الآخرة وهذا تنفيراً عن الدنيا ، وقيل المعنى إن في ذلك لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لا بد لذلك من صانع حكيم وأنه كائن على تقدير وتدبير لا عن تعطيل وإهمال وهو بمعزل عما يقتضيه السياق على أن الأنسب بإرادة ذلك ذكر الآثار غير مسندة إليه عز وجل فحيث ذكرت مسندة إليه سبحانه فالظاهر أن يكون متعلق التذكير والتنبيه شؤونه تعالى أو شؤون آثاره حسبما أشير إليه لا وجوده جل وعلا .

(61/667)

﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإسلام ﴾ الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولى الألباب ، والشرح في الأصل البسط والمد للحم ونحوه ويكنى به عن التوسيع ، وتجوز به هنا عن خلق النفس الناطقة مستعدة استعداداً تاماً للقبول بجامع

عدم التأبي عن القبول وسهولة الحصول وذلك بعد التجوز في الصدر ، وإرادة النفس الناطقة منه من حيث أنه محل للقلب وفي تجويفه بخار لطيف يتكون من صفوة الأغذية وبه تتعلق النفس أولاً وبواسطته تتعلق بسائر البدن تعلق التدبير والتصريف ، وتلك النفس هي التي تتصف بالإسلام والإيمان ، وجعل بعض الأجلة شرح الله صدره استعارة تمثيلية ، والهمزة للإنكار دالة على محذوف على أحد القولين المارين آنفاً ، والفاء للعطف على ذلك المحذوف ، وخبر من محذوف لدلالة ما بعده عليه والتقدير أكل الناس سواء فمن شرح الله تعالى صدره وخلقه مستعداً للإسلام فبقي على الفطرة الأصلية ولم تتغير بالعوارض المكتسبة القادحة فيها ﴿ فَهُوَ ﴾ بموجب ذلك مستقر ﴿ على نُورٍ ﴾ عظيم ﴿ مّن رَّبِهِ ﴾ وهو اللطف الإلهي المشرق عليه من بروج الرحمة عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية والتوفيق للإهتداء بها إلى الحق كمن قسا قلبه وحرج صدره بتبديل فطرة الله تعالى بسوء اختياره واستولى عليه ظلمات الغي والضلال فأعرض عن تلك الآيات بالكلية حتى لا يتذكر بها ولا يغتنمها ، وعدل عن فعنده أو فله نور إلى ما في النظم الجليل للدلالة على استمرار ذلك واستقراره في النور وهو مستعار للطف والتوفيق للاهتداء ، وقد يقال : أمر إليه غير اللطف والتوفيق يدرك به الحق ؛ وجاء برواية الثعلبي في "تفسيره" .

والحاكم في "مستدركه" .

والبيهقي في "شعب الايمان" .

وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ ﴾ الخ فقلنا : يا رسول الله كيف انشراح الصدر ؟ قال : إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح قلنا .

فما علامة ذلك يا رسول الله ؟ فقال : الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله .

واستشكل ذلك بأن ظاهر الآية ترتب دخول النور على ألا نشرح ، لأنه الاستعداد لقبوله وما في الحديث الشريف عكسه والظاهر أن السؤال عما في الآية وأن الجواب بيان لكيفيته .

وأجيب بأن الإهتداء له مراتب بعضها مقدم وبعضها مؤخر وانشراح الصدر بحسب الفطرة والخلق وبحسب ما يطرأ عليه بعد فيض الألطاف عليه وبينهما تلازم ، والمراد بانشراح الصدر في الحديث ما يكون بعد المكن فيه ، وفي الآية ما تقدم وقس عليه النور ، والجواب من قبيل الأسلوب الحكيم فتأمل .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ ﴾ أي من أجل ذكره سبحانه الذي حقه أن تلين منه

القلوب أي إذا ذكر الله تعالى عندهم أو آياته عز وجل اشمأزوا من ذلك وزادت قلوبهم قساوة .

(63/667)

وقرىء ﴿ عَن ذِكْرِ الله ﴾ والمتواترة أبلغ لأن القاسي من أجل الشيء أشد تأبياً من قبوله من القاسي عنه بسبب آخر ، وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بالامتناع ذكر شرح الصدر لأن توسعته وجعله محلاً للإسلام دون القلب الذي فيه يدل على شدته وإفراط كثرته التي فاضت حتى ملأت الصدر فضلاً عن القلب ، وإسناده إلى الله تعالى الظاهر في أنه على أتم الوجوه لأنه فعل قادر حكيم وقابله بالقساوة مع أن مقتضى المقابلة أن يعبر بالضيق لأن القساوة كما في الصخرة الصماء تقتضي عدم قبول شيء بخلال الضيق فإنه مشعر بقبول شيء قليل ، وعدل عن التعبير بما يفيد مجعولية القساوة له تعالى وخلقه إياها للإشارة إلى غاية لزومها لهم حتى كأنها لو لم تجعل لتحققت فيهم بمقتضى دواتهم ، وإما إسنادها إلى القلوب دون الصدور فللتنصيص على فساد هذا العضو الذي إذا فسد فسد الجسد كله ، واعتبر الجمع في هؤلاء الكفرة والإفراد في أولئك المؤمنين حيث قال سبحانه : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ ﴾ دون أفمن شرح الله صدورهم للإشارة إلى أن

المؤمنين وأن تعددوا كرجل واحد ولا كذلك الكفار .

﴿ أولئك ﴾ البعداء المتصفون بما ذكر من قساوة القلوب ﴿ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ ظاهر كونه ضلالاً لكل أحد .

والآية نزلت في علي .

وحمزة رضي الله تعالى عنه ممن شرح الله تعالى صدره للإسلام وأبو لهب .

وابنه من القاسية قلوبهم .

﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ هو القرآن الكريم ، وكونه حديثاً بمعنى كونه كلاماً محدثاً به لا بمعنى كونه مقابلاً للقديم ، ومن قال بالتلازم من الأشاعرة القائلين بحدوث الكلام اللفظي جعل الأوصاف الدالة على الحدوث لذلك الكلام ، وجوز أن يكون إطلاق الحديث هنا على القرآن من باب المشاكلة .

(64/667)

عن ابن عباس أن قوماً من الصحابة قالوا : يا رسول الله حدثنا بأحاديث حسان وبأخبار الدهر فنزلت ، وعن ابن مسعود أن الصحابة ملوا ملة فقالوا له عليه الصلاة والسلام حدثنا فنزلت أي إرشاداً لهم إلى ما يزيل مللهم وهو تلاوة القرآن واستماعه منه صلى الله عليه

وسلم غضاً طرياً .

وفي إيقاع اسم الله تعالى مبتدأ أو بناء ﴿ نَزَّلَ ﴾ عليه تفخيم لأحسن الحديث واستشهاد على أحسنيته وتأكيد لاستناده إلى الله عز وجل وأن مثله لا يمكن أن يتكلم به غيره سبحانه ، أما التفخيم فلأنه من باب الخليفة عند فلان ، وأما الاستشهاد على أحسنيته فلكونه ممن لا يتصور أكمل منه بل لا كمال لشيء ما في جنبه بوجه ، وأما توكيد الاستناد إليه تعالى فمن التقوى ، وأما إن مثله لا يمكن أن يتكلم به غيره سبحانه فلمكان التناسب لأن أكمل الحديث إنما يكون من أكمل متكلم ضرورة ، ومذهب الزمخشري أن مثل هذا التركيب يفيد الحصر وأنه لا تنافي بينه وبين التقوى جمعاً فافهم .

﴿ كتابا ﴾ بدل من ﴿ أَحْسَنَ الحديث ﴾ أو حال منه كما قال الزمخشري ، وليس مبنياً على القول بأن إضافة أفعل التفضيل تفيده تعريفاً كما ظن أبو حيان فإن مطلق الإضافة كافية في صحة الحالية كما لا يخفى على من له أدنى إلمام بالعربية ، ووقوعه حالاً مع كونه اسماً لا صفة إما لوصفه بقوله تعالى : ﴿ متشابها ﴾ أو لكونه في قوة مكتوباً .

(65/667)

والمراد بكونه متشابهاً هنا تشابه معانيه في الصحة والأحكام والابتناء على الحق والصدق واستتباع منافع الخلق في المعاد والمعاش وتناسب ألفاظه في الفصاحة وتجاوب نظمه في الإعجاز ، وما أشبه هذا بقول العرب في الوجه الكامل حسناً وجه متناصف كأن بعضه أنصف بعضاً في القسط من جمال ، وقوله تعالى : ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ صفة أخرى لكتاباً أو حال أخرى منه ، وهو جمع مثنى بضم الميم وفتح النون المشددة على خلاف القياس إذ قياسه مثنيات بمعنى مردد ومكرر لما كرر وثنى من أحكامه ومواعظه وقصصه ، وقيل : لأنه يثني في التلاوة .

(66/667)

وجوز أن يكون جمع مثنى بالفتح مخففاً من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما كان قوله تعالى : ﴿ فارجع البصر كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك : 4] بمعنى كرة بعد كرة وكذلك لبيك وسعديك ، والمراد أنه جمع لمعنى التكرير والإعادة كما ثنى ما ذكر لذلك لكن استعمال المثنى في هذا المعنى أكثر لأنه أول مراتب التكرار ، ويحتمل أن يراد أن مثنى بمعنى التكرير والإعادة كما أن صريح المثنى كذلك في نحو كرتين ثم جمع للمبالغة ، وقيل : جمع مثنية لاشتماله آياته على الثناء على الله تعالى أو لأنها تثني ببلاغتها وإعجازها على المتكلم بها ، ولا يخفى أن

رعاية المناسبة مع ﴿ متشابها ﴾ تجعل ذلك مرجوحاً وأنه حسن إذا حمل على الثناء باعتبار الإعجاز ، وفي "الكشف" الاقيس بحسب اللفظ أن ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ اشتقت من الثناء أو الثني جمع مثنى مفعل منهما إما بمعنى المصدر جمع لما صير صفة أو بمعنى المكان في الأصل نقل إلى الوصف مبالغة نحو أرض مأسدة لأن محل الثناء يقع على سبيل المجاز على الثاني والمثنى عليه وكذلك محل الثني انتهى ، ووقوعه صفة لكتاب باعتبار تفاصيله وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير ألا تراك تقول : القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات فكذلك تقول : هو أحكام ومواعظ وأقاصيص مثاني ونظيره قولك الإنسان عروق وعظام وأعصاب إلا أنك تركت الموصوف إلى الصفة والأصل كتاباً متشابهاً فصلاً مثاني ، ويجوز أن يكون تمييزاً محولاً عن الفاعل والأصل متشابهاً مثانيه فحول ونكر لأن الأكثر فيه التنكير وهذا كقولك : رأيت رجلاً حسناً شمائل ، وقرأ هشام .

(67/667)

وأبو بشر ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ بسكون الياء فاحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف وإن يكون منصوباً وسكن الياء على لغة من يسكنها في كل الأحوال لانكسار ما قبلها استثقالاً للحركة عليها ، وقوله تعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ قيل صفة لكتاباً

أو حال منه لتخصصه بالصفة ، وقال بعض : الأظهر أنه استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة في سامعيه بعد بيان أوصافه في نفسه ولتقرير كونه أحسن الحديث .

والإقشعرار التقبض يقال اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضاً شديداً وتركيبه من القشع وهو الأديم اليابس قد ضم إليه الراء ليكون رباعياً ودالاً على معنى زائد يقال : اقشعر جلده وقف شعره إذا عرض له خوف شديد من أمر هائل دهمه بغتة ، والمراد تصوير خوفهم بذكر لوازمه المحسومة ويطلق عليه التمثيل وإن كان من باب الكناية .

(68/667)

وقيل : هو تصوير للخوف بذكر آثارها وتشبيه حالة بحالة فيكون تمثيلاً حقيقة ، والأول أحسن لأن تشبيه القصة بالقصة على سبيل الاستعارة ههنا لا يخلو عن تكلف ، واستظهر كون المراد بيان حصول تلك الحالة وعروضها لهم بطريق التحقيق ، والمعنى أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم رهبة وخشية تقشعر منها جلودهم وإذا ذكروا رحمة الله تعالى عند سماع آيات وعده تعالى والطافه تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة وذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي ساكنة مطمئنة إلى ذكر رحمته تعالى ، وإنما لم يصرح بالرحمة إيذاناً بأنها أول ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى لأصالتها كما

يرشد إليه خبر سبقت رحمتي غضبي ، وذكر القلوب لتقدم الخشية التي هي من عوارضها ولعله إنما لم تذكر هناك على طرز ذكرها هنا لأنها لا توصف بالإقشعرار وتوصف باللين ، وليس في الآية أكثر من نعت أوليائه باقشعرار الجلود من القرآن ثم سكونهم إلى رحمته عز وجل ، وليس فيها نعتهم بالصعق والتواجد والصفق كما يفعله بعض الناس ، أخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر .

وابن مردويه .

وابن أبي حاتم .

وابن عساكر عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال : قلت لجدتي أسماء كيف كان يصنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اقرؤا القرآن ؟ قالت : كانوا كما نعتهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم قلت : فإن ناساً ههنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم غشية قالت : أعوذ بالله تعالى من الشيطان ، وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن عامر عن عبد الله بن الزبير قال : جئت أمي فقلت وجدت قوماً ما رأيت خيراً منهم قط يذكرون الله تعالى فيرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية الله تعالى فقالت : لا تقعد معهم ثم قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن ورأيت أبا بكر .

وعمر يتلوان القرآن ورأيت أبا بكر .

وعمر يتلوان القرآن فلا يصيبهم هذا أفتراهم أخشى من أبي بكر وعمر ، وقال ابن عمر وقد رأى ساقطاً من سماع القرآن فقال إنا لنخشى الله تعالى وما نسقط : هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم ، وأخرج عبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

(70/667)

وابن المنذر عن قتادة أنه قال في الآية هذا نعت أولياء الله تعالى قال : تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى ولم ينعتهم الله سبحانه بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع وإنما هو من الشيطان ، وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن جبير : قال الصعقة من الشيطان ، وقال ابن سيرين : بيننا وبين هؤلاء الذين يصرعون عند قراءة القرآن أن يجعل أحدهم على حائط باسطاً رجليه ثم يقرأ عليهم القرآن كله فإن رمي بنفسه فهو صادق ، فهذه أخبار ناعية على بعض المتصوفة صعقهم وتواجدهم وضرب رؤسهم الأرض عند سماع القرآن ويقول مشايخهم : إن ذلك لضعف القلوب عن تحمل الوارد وليس فاعلو ذلك في الكمال كالصحابة أهل الصدر الأول في قوة التحمل فما

هو إلا دليل النقص بدليل إن السالك إذا كمل رسخ وقوي قلبه ولم يصدر منه شيء من ذلك ويقولون : ليس في الآية أكثر من إثبات الإقشعرار واللين وليس فيها نفي أن يعتريهم حال آخر بل في الآية إشعار بأن المذكور حال الراسخين الكاملين حيث قال سبحانه : ﴿ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ فعبر بالموصول ومقتضى معلومية الصلة أن لهم رسوخاً في الخشية حتى يعلموا بها فلا يلزم من كون حالهم ما ذكر ليس إلا على فرض دلالتها على الحصر كون حال غيرهم كذلك ثم إنه متى كان الأمر ضرورياً كالعطاس لا اعتراض على من يتصف به ، وفي كلام ابن سيرين ما يؤيد ذلك ، وهذا غاية ما يقال في هذا المجال ونحن نسأل الله تعالى أن يتفضل علينا بما تفضل به على أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ ذلك هُدَى الله ﴾ الإشارة إلى الكتاب الذي شرح أحواله ﴿ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء ﴾ أي من يشاء الله تعالى هدايته بأن يوفقه سبحانه للتأمل فيما في تضاعيفه من شواهد الحقية ودلائل كونه من عنده عز وجل ، وجوز أن يكون ضمير ﴿ يَشَاء ﴾ لمن والمعنى يهدي به الله تعالى من يشاء هداية الله تعالى وليس بذاك .

(71/667)

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ ﴾ أي يخلق سبحانه فهي الضلال لإعراضه عما يرشده إلى الحق بسوء استعداده ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يخلصه من ورطة الضلال ، وقيل : الإشارة بذلك إلى المذكور من الإقشعرار واللين والمعنى ذلك من ذكر من الخشية والرجاء أثر هداه تعالى يهدي بذلك الأثر من يشاء من عباده ومن يضلله أي ومن لم يؤثر فيه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره فما له من هاد أي من مؤثر فيه بشيء قط وهو كما ترى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 23 صـ ﴾

(72/667)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾

استئناف ابتدائي انتُقل به إلى غرض التنويه بالقرآن وما احتوى عليه من هدى الإِسلام ، وهو الغرض الذي ابتدئت به السورة وانثنى الكلام منه إلى الاستطراد بقوله تعالى : ﴿ فاعبد اللَّه مخلصاً له الدين ﴾ [الزمر : 2] إلى هنا ، فهذا تمهيد لقوله : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدرهُ للإسلامِ ﴾ إلى قوله : ﴿ ذِلكَ هُدَى اللهِ يهْدِي به من يشاءُ ﴾ [الزمر : 22 ، 23] فمُثلت حالة إنزال القرآن واهتداء المؤمنين به والوعدُ بنماء ذلك الاهتداء ، بحالة

إنزال المطر ونبات الزرع به واكتماله .

وهذا التمثيل قابل لتجزئة أجزائه على أجزاء الحالة المشبه بها : فإنزال الماء من السماء تشبيه لإنزال القرآن لإحياء القلوب ، وإسلاكُ الماء ينابيع في الأرض تشبيهِ لتبليغ القرآن للناس ، وإخراج الزرع المختلف الألوان تشبيه لحال اختلاف الناس من طَيِّب وغيره ، ونافع وضار ، وهياج الزرع تشبيهِ لتكاثر المؤمنين بين المشركين .

وأما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً ﴾ فهو إدماج للتذكير بحالة الممات واستواءِ الناس فيها من نافع وضار .

وفي تعقيب هذا بقوله : ﴿ أفَمَن شَرَحَ الله صدرَهُ للإسلامِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَن يُضْلِل الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : 22 ، 23] إشارة إلى العبرة من هذا التمثيل .

(73/667)

وقريب من تمثيل هذه الآية ما في "الصحيحين" عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نَقيَّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشُب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماء ولا

تنبت كلأً فذلك مَثَل من فقُه في دين الله ونفعَه ما بعثني الله به فعَلِم وعَلَّم ، ومثَل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هُدى الله الذي أرسلتُ به " ويجوز أن يكون المعنى أصالةً وإدماجاً على عكس ما بيّنا ، فيكونَ عَوْداً إلى الاستدلال على تفرد الله تعالى بالإلهية بدليل من مخلوقاته التي يشاهدها الناس مشاهدة متكررة ، فيكونَ قوله تعالى : ﴿ ألم ترَ أن الله أنزل من السماءِ ماءً ﴾ إلى قوله : ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألبابِ ﴾ متصلاً بقوله تعالى : ﴿ خلقكم من نفسسٍ واحدةٍ ثمَّ جعَلَ منها زَوجَهَا ﴾ [الزمر : 6] المتصل بقوله تعالى : ﴿ خَلَق السماواتِ والأرض بالحقِ يُكورُ الليل على النَّهار ﴾ [الزمر : 5] ، ويكونَ ما بيناه من تمثيل حال نزول القرآن وانتفاع المؤمنين إدماجاً في هذا الاستدلال .

وعلى كلا الوجهين أُدمج في أثناء الكلام إيماء إلى إمكان إحياء الناس حياة ثانية .

والكلام استفهام تقريري ، والخطاب لكل من يصلح للخطاب فليس المراد به مخاطباً معيَّناً .

والرؤية بصرية .

وقوله : ﴿ أنزلَ مِن السماءِ ماءً ﴾ تقدم نظيره في قوله : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء ﴾ في سورة [الأنعام : 99] .

و﴿ سلكه ﴾ أدخله ، أي جعله سالكاً ، أي داخلاً ، ففعل سلك هنا متعد وقد تقدم عند قوله تعالى:

﴿ وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ في سورة [طه : 53] ، وذكرنا هنالك أن فعل سلك يكون قاصراً ومتعدّياً ، وهذا الإِدخال دليل ثان .

(74/667)

و ﴿ يَنابيعَ ﴾ جمع ينبوع وهو العين من الماء ، تقدم في قوله تعالى : ﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ في سورة [الإِسراء : 90] .

وانتصب ﴿ ينابيعَ ﴾ على الحال من ضمير ﴿ مَاءً ﴾ .

وتصيير الماء الداخل في الأرض ينابيع دليل ثالث على عظيم قدرة الله .

وعطف بـ ﴿ ثم ﴾ قوله : ﴿ ثُمَّ يُخرِجُ بِهِ زَرعاً ﴾ لإِفادة التراخي الرتبي بحرف ﴿ ثم ﴾ كشأنها في عطف الجمل لأن إخراج الزرع من الأرض بعد إقحالها أوقع في نفوس الناس لأنه أقرب لأبصارهم وأنفع لعيشهم وإذ هو المقصود من المطر .

وهذا الإِخراج دليل رابع .

والألوان : جمع لون ، واللون : كيفية لائحة على ظاهر الجسم في الضوء ، وتقدم في سورة فاطر [27 ، 28] .

واختلاف ألوان الزرع بالمعنى الأول أن لكل نوع من الزرع لوناً ولنَوْرها ألواناً ولكل صنف من

الزرع ألوان مختلفة في أطوار نباته وبلوغه أشُدّه ، وهذا الاختلاف مع اتّحاد الأرض التي تنبت فيها واتحاد الماء الذي نبت به آية خامسة على عظيم القدرة والانفراد بالتصرف .

ومعنى ﴿ يهيج ﴾ يغلظ ويرتفع .

وحقيقة الهياج : ثورة الإنسان أو الحيوان ، ويستعار الهياج لشدة الشيء من غير الحيوان يقال : هاجت رِيح ، ومنه هياج الزرع في الآية لأن الزرع تطول سوقه وسنابله فيتم جفافه فإذا تحرك بمرور الريح عليه صار له حفيف وخشخشة سواء في ذلك الحَب والكَلأ وهذا الطور آية سادسة على الوحدانية .

والحطام : المحطوم ، أي المكسور المفتوت ، ووزن فُعال (بضم الفاء) يدل على المفعول كالفُتات والدُقاق ، ومثله الفُعالة كالصُبابة والقُلامة والقُمامة .

والمعنى : أنه يبلغ من اليبس إلى حد أن يتحطم ويتكسر بحك بعضه بعضاً وتساقُطه وكسر الريح إياه .

وهذا الطور آية سابعة على قدرة الله .

وجميعها آيات على دقة صنعه وكيف أودع الأطوار الكثيرة في الشيء الواحد يخلف بعضها بعضاً من طور وجوده إلى طور اضمحلاله .

وجملة ﴿ إنَّ في ذلك لذكرى لأُولِي الألباب ﴾ مبيّنة للاستفهام التقريري وفذلكة للأطوار المستفهم عنها ، فالإِشارة بذلك إلى المذكور من الإِنزال إلى آخر الأطوار .

والمراد : ذكرى بالدلالة على ما يغفل عنه العاقل .

ويجوز أن تكون الذكرى لما يذهل عنه العاقل مما تشتمل عليه هذه الأحوال من مبدئها إلى منتهاها .

فمن ذلك أنها تصلح مثالاً لتقريب البعث فإن إنزال الماء على الأرض وإنباتها بسببه أمر يتجدد بعد أن صار ما عليها من النبات حطاماً ، وتخللت زراريعه الأرض فنبتت مرة أخرى بنزول الماء ، فكذلك يعود الإِنسان بعد فنائه كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ واللَّه أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ [نوح : 17 ، 18]

فتتضمن الآية إدماج تقريب البعث وإمكانه مع الاستدلال على انفراد الله تعالى بالتصرف ، ومن ذلك أنها تصلح مثلاً للحياة الدنيا كما في آية سورة يونس وفي سورة الكهف ، والمقصود : تشبيه الحالة بالحالة فلا يُعتبر التجوز في مفردات هذا المركب بأن يطلب لكل طور من أطوار الدنيا طور يشتبه به من أطوار النبات .

ومنها أنها مثل لأطوار الإِنسان من طور النطف إلى الشباب إلى الشيخوخة ثم الهلاك ، والمقصود تشبيه الحالة بالحالة مع إمكان توزيع تشبيه كل طور من أطوار الحالة المشبهة بطور

من أطوار الحالة المشبه بها وهو أكمل أنواع التمثيلية .

و﴿ أولي الألبَابِ ﴾ هم الذين ينتفعون بألبابهم فيهتدون بما نصب لهم من الأدلة ، كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ إنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألباب ﴾ [الزمر : 9] ، وهم الذين استدلوا فآمنوا .

وفي هذا تعريض بأن الذين لم يستفيدوا من الأدلة بمنزلة مَن عدموا العقول .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلام فَهُوَ على نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾

(76/667)

تفريع على ما تقدم من قوله : ﴿ لكِن الذين اتقوا ربهم لهم غرفٌ ﴾ [الزمر : 20] وما ألحق به من تمثيل حالهم في الانتفاع بالقرآن فُرع عليه هذا الاستفهام التقريري .

و(مَن) موصلة مبتدأ ، والخبر محذوف دل عليه قوله : ﴿ لكِن الذينَ اتَّقوا ربَّهُم ﴾ مما اقتضاه حرف الاستدراك من مخالفة حالة لحال من حق عليه كلمة العذاب .

والتقدير : أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه مِثل الذي حقّ عليه كلمة العذاب فهو في ظلمة الكفر ، أو تقديره : مثل من قسا قلبه بدلالة قوله : ﴿ فَوَيلٌ للقاسِيَةِ قلوبُهم ﴾ ، وهذا من دلالة اللاحق .

وشرحُ الصدر للإِسلام استعارة لقبول العقل هديَ الإِسلام ومحبّته .

وحقيقة الشرح أنه : شق اللحم ، ومنه سمي علم مشاهدة باطن الأسباب وتركيبه علم التشريح لتوقفه على شق الجلد واللحم والإطلاع على ما تحت ذلك .

ولما كان الإِنسان إذا تحير وتردد في أمر يجدّ في نفسه غماً يتأثر منه جهازه العصبي فيظهر تَأثره في انضغاط نَفَسه حتى يصير تنفسه عسيراً ويكثر تنهده وكان عضو التنفس في الصدر ، شبه ذلك الانضغاط بالضيق والانطباق فقالوا : ضاق صدره ، قال تعالى عن موسى : ﴿ ويضيق صدري ﴾ [الشعراء : 13] ، وقالوا : انطبق صدره وانطبقت أضلاعه وقالوا في ضد ذلك : شرح الله صدره ، وجمع بينهما قوله تعالى : ﴿ فمن يرد اللَّه أن يهديه يشرحْ صدره للإِسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّدُ في السماء ﴾ في سورة [الأنعام : 125] ، ومنه قولهم : فلان في انشراح ، أي يحس كأن صدره شُرح ووُسع .

ومن رشاقة ألفاظ القرآن إيثار كلمة ﴿ شَرح ﴾ للدلالة على قبول الإِسلام لأن تعاليم الإِسلام وأخلاقه وآدابه تكسب المسلم فرحاً بحاله ومسرة برضى ربه واستخفافاً للمصائب والكوارث لجزمه بأنه على حق في أمره وأنه مثاب على ضره وأنه راجٍ رحمة ربه في الدنيا والآخرة ولعدم مخالطة الشك والحيرة ضميره .

فإن المؤمن أول ما يؤمن بأن الله واحد وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسوله ينشرح صدره بأنه ارتفع درجات عن الحالة التي كان عليها حالةَ الشرك إن اجتنبَ عبادة أحجار هو أشرف منها ومعظم ممتلكاته أشرف منها كفرسه وجمله وعبده وأَمته وماشيته ونخِله ، فشعر بعزة نفسه مرتفعاً عما انكشف له من مهانتها السابقة التي غسلها عنه الإِسلام ، ثم أصبح يقرأ القرآن وينطق عن الحكمة ويتسم بمكارم الأخلاق وأصالة الرأي ومحبة فعل الخير لوجه الله لا للرياء والسمعة ، ولا ينطوي باطنه على غلّ ولا حسد ولا كراهية في ذات الله وأصبح يُعد المسلمين لنفسه إخواناً ، وقد ترك الاكتساب بالغارة والميسر ، واستغنى بالقناعة عَن الضراعة إلا إلى الله تعالى ، وإذا مسه ضر رجا زواله ولم ييأس من تغير حاله . وأيقن أنه مثاب على تحمله وصبره ، وإذا مسته نعمة حمد ربه وترقب المزيد ، فكان صدره منشرحاً بالإِسلام متلقياً الحوادث باستبصار غير هياب شجاع القلب عزيز النفس .

واللام في ﴿ للإسْلامِ ﴾ لام العلة ، أي شرحه لأجل الإِسلام ، أي لأجل قبوله .

وفرع على أن شرح الله صدره للإسلام قوله تعالى : ﴿ فهُوَ على نُورٍ من ربِّهِ ﴾ فالضمير عائد إلى ﴿ مّن ﴾ .

والنور : مستعار للهدى ووضوح الحق لأن النور به تنجلي الأشياء ويخرج المبصر من

غياهب الضلالة وتردد اللبس بين الحقائق والأشباح .

واستعيرت ﴿ على ﴾ استعارةً تبعية أو تمثيلية للتمكن من النور كما استعيرت في قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] على الوجهين المقررين هنالك .

و ﴿ مّن ربِّهِ ﴾ نعت ل ﴿ نور و من ابتدائية ، أي نور موصوف بأنه جاء به من عند الله فهو نور كامل لا تخالطه ظلمة ، وهو النور الذي أضيف إلى اسم الله في قوله تعالى : ﴿ يهدي اللَّه لنوره من يشاء ﴾ في سورة [النور : 35] .

﴿ فَوَيْلٌ للقاسية قُلُوبُهُمْ مّن ذِكْرِ الله أولئك فِى ضلال

(78/667)

فُرع على وصف حال من شرحَ الله صدره للإِسلام فهو على نور من ربه ، ما يدل على حال ضده وهم الذين لم يشرح الله صدورهم للإِسلام فكانت لقلوبهم قساوة فُطِروا عليها فلا تسلك دعوة الخير إلى قلوبهم .

وأُجمل سوء حالهم بما تدل عليه كلمة ﴿ ويل ﴾ من بلوغهم أقصى غايات الشقاوة والتعاسةِ ، وقد تقدم تفصيل معانيه عند قوله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ في سورة [البقرة : 79] .

والقاسي : المتصف بالقساوة في الحال ، وحقيقة القساوة : الغلظ والصلابة في الأجسام ، وقد تقدمت عند قوله تعالى : ﴿ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ [البقرة : 74] .

وقسوة القلب : مستعارة لقلة تأثّر العقل بما يُسدى إلى صاحبه من المواعظ ونحوها ، ويقابل هذه الاستعارة استعارة اللين لسرعة التأثر بالنصائح ونحوها ، كما سيأتي في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جلودُهم وقُلوبُهم ﴾ [الزمر : 23] .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ مّن ذِكرِ الله ﴾ يجوز أن تكون بمعنى (عن) بتضمين ﴿ القاسية ﴾ معنى المعرضة والنافرة ، وقد عدّ مرادف معنى (عن) من معاني ﴿ مِن ، واستُشهد له في مغني اللبيب ﴾ بهذه الآية وبقوله تعالى : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ [ق : 22] ، وفيه نظر ، لإِمكان حملهما على معنيين شائعين من معاني ﴿ مِن وهما معنى التعليل في الآية الأولى كقولهم : سقاهم من الغيْمة ، أي لأجل العطش ، قاله الزمخشري .

وجعل المعنى : أن قسوة قلوبهم حصلت فيهم من أجل ذكر الله ، ومعنى الابتداء في الآية الثانية ، أي قست قلوبهم ابتداء من سماع ذكر الله .

والمراد بذكر الله القرآن وإضافته إلى الله زيادة تشريف له .

والمعنى : أنهم إذا تليت آية اشمأزّوا فتمكن الاشمئزاز منهم فقست قلوبهم .

وحاصل المعنى : أن كفرهم يحملهم على كراهية ما يسمعونه من الدعوة إلى الإِسلام بالقرآن فكلما سمعوه أعرضوا وعاندوا وتجددت كراهية الإِسلام في قلوبهم حتى ترسخ تلك الكراهية في قلوبهم فتصير قلوبهم قاسية .

فكان القرآن أن سبب اطمئنان قلوب المؤمنين قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر اللَّه ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب ﴾ [الرعد : 28] .

وكان سبباً في قساوة قلوب الكافرين .

وسبب ذلك اختلاف القابلية فإن السبب الواحد تختلف آثاره وأفعاله باختلاف القابلية ، وإنما تعرف خصائص الأشياء باعتبار غالب آثارها في غالب المتأثرات ، فذِكر الله سبب في لين القلوب وإشراقها إذا كانت القلوب سليمة من مرض العناد والمكابرة والكبر ، فإذا حلّ فيها هذا المرض صارت إذا ذكر الله عندها أشد مرضاً مما كانت عليه .

وجملة ﴿ أُولئِكَ في ضلالٍ مُبينٍ ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن ما قبله من الحكم بأن قساوة قلوبهم من أجل أن يذكر الله عندهم يثير في نفس السامع أن يتساءل : كيف كان ذكر الله سبب قساوة قلوبهم ؟ فأفيد بأن سبب ذلك هو أنهم متمكنون من الضلالة منغمسون في حَمْأتها فكان ضلالهم أشدّ من أن يتقشع حين يسمعون ذكر الله .

وافتتاح هذه الجملة باسم الإِشارة عقب ما وصفوا به من قساوة القلوب لإِفادة أن ما

سيذكر من حالهم بعد الإِشارة إليهم صاروا به أحرياء لأجل ما ذكر قبل اسم الإِشارة كما تقدم في قوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة ﴿ البقرة : 5] ، فكان مضمون قوله : ﴿ أولئك في ضلالٍ مبينٍ ﴾ وهو الضلال الشديد علة لقسوة قلوبهم حسبما اقتضاه وقوع جملته استئنافاً بيانياً .

وكان مضمونها مفعولاً لقسوة قلوبهم حسبما اقتضاه تصدير جملتها باسم الإِشارة عقب وصف المشار إليهم بأوصاف .

.

(80/667)

وكذلك شأن الأعراض النفسية أن تكون فاعلة ومنفعلة باختلاف المثار وما تتركه من الآثار لأنها علل ومعلولات بالاعتبار لا يتوقف وجود أحد الشيئين منهما على وجود الآخر التوقف المسمى بالدور المعِيّ .

والمبين : الشديد الذي لا يخفى لشدته ، فالمبين كناية عن القوة والرسوخ فهو يُبين للمتأمل أنه ضلال .

﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كتابا متشابها مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ

تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ .

استئناف بياني نشأ بمناسبة المضادة بين مضمون جملة ﴿ فَوَيْلٌ للقاسِيةِ قُلوبهم من ذِكر الله ﴾ [الزمر : 22] .

ومضمون هذه الجملة وهو أن القرآن يُلين قلوب الذين يخشون ربهم لأن مضمون الجملة السابقة يثير سؤال سائل عن وجه قسوة قلوب الضالين من ذكر الله فكانت جملة ﴿ الله نَزَّلَ أحْسَنَ الحدِيثِ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِنْ هَادٍ ﴾ مُبينة أن قساوة قلوب الضالّين من سماع القرآن إنما هي لرَيْن في قلوبهم وعقولهم لا لنقص في هدايته .

وهذا كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ هدى للمتقين ﴾ ثم قال : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ [البقرة : 6 7] .

وهذه الجملة تكميل للتنويه بالقرآن المفتتح به غرض السورة وسيقفى بثناء آخر عند قوله : ﴿ ولقد ضربْنَا للنَّاسسِ في هذا القُرءَانِ من كل مَثَل لعلَّهُم يتذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : 27] الآية ، ثم بقوله : ﴿ إنَّا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق ﴾ [الزمر : 41] ثم بقوله : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ [الزمر : 55] .

وافتتاح الجملة باسم الجلالة يؤذن بتفخيم أحسن الحديث المنزل بأن منزّله هو أعظم عظيم ، ثم الإِخبار عن اسم الجلالة بالخبر الفعلي يدل على تقوية الحُكم وتحقيقه على نحو قولهم : هو يعطي الجزيل ، ويفيد مع التقوية دلالة على الاختصاص ، أي اختصاص تنزيل الكتاب بالله تعالى ، والمعنى : الله نزّل الكتاب لا غيرُه وضَعه ، ففيه إثبات أنه منزّل من عالم القدس ، وذلك أيضاً كناية عن كونه وحياً من عند الله لا من وضع البشر .

فدلت الجملة على تقوَ واختصاص بالصراحة ، وعلى اختصاص بالكناية ، وإذ أخذ مفهوم القصْر ومفهوم الكناية وهو المغاير لمنطوقهما كذلك يؤخذ مغاير التنزيل فعلاً يليق بوضع البشر ، فالتقدير : لا غير الله وضَعه ، ردّاً لقول المشركين : هو أساطير الأولين .

والتحقيق الذي درج عليه صاحب "الكشاف" في قوله تعالى : ﴿ اللَّه يستهزىء بهم ﴾ [البقرة : 15] هو أن التقوى والاختصاص يجتمعان في إسناد الخبر الفعلي إلى المسند إليه ، ووافقه على ذلك شرّاح "الكشاف" .

ومفاد هذا التقديم على الخبر الفعلي فيه تحقيقٌ لما تضمنته الإِضافة من التعظيم لشأن المضاف في قوله تعالى : ﴿ مِن ذِكرِ الله ﴾ [الزمر : 22] كما علمتَه آنفاً ، فالمراد بـ ﴿ أحْسَنَ الحدِيثِ ﴾ عين المراد بـ ﴿ ذِكرِ الله ﴾ وهو القرآن ، عدل عن ذكر ضميره لقصد إجراء الأوصاف الثلاثة عليه .

وهي قوله : ﴿ كِتَاباً مُتَشابِهاً مثَاني تَقْشَعر منه جلودُ الذين يخشونَ ربَّهُم ﴾ الخ ،

فانتصب ﴿ كِتَاباً ﴾ على الحال من ﴿ أحْسَنَ الحدِيثِ ﴾ أو على البدلية من ﴿ أحْسَنَ الحدِيثِ ﴾ ، وانتصب ﴿ مُتَشَابِهاً ﴾ على أنه نعتُ ﴿ كِتَاباً ﴾ .

الوصف الأول : أنه أحسن الحديث .

أي أحسن الخبر ، والتعريف للجنس ، والحديث : الخبر ، سمي حديثاً لأن شأن الإِخبار أن يكون عن أمر حدث وجدّ .

سمي القرآن حديثاً باسم بعض ما اشتمل عليه من أخبار الأمم والوعد والوعيد .

(82/667)

وأما ما فيه من الإِنشاء من أمر ونهي ونحوهما فإنه لما كان النبي صلى الله عليه وسلم مبلغَه للناس آل إلى أنه إخبار عن أمر الله ونهيه .

وقد سُمي القرآن حديثاً في مواضع كثيرة كقوله تعالى : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ في سورة [الأعراف : 185] ، وقوله : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ في سورة [الكهف : 6] .

ومعنى كون القرآن أحسن الحديث أنه أفضل الأخبار لأنه اشتمل على أفضل ما تشتمل

عليه الأخبار من المعاني النافعة والجامعة لأصول الإيمان ، والتشريع ، والاستدلال ، والتنبيه على عظم العوالم والكائنات ، وعجائب تكوين الإنسان ، والعقل ، وبثّ الآداب ، واستدعاء العقول للنظر والاستدلال الحق ، ومن فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه البالغَيْن حدّ الإعجاز ، ومن كونه مصدقاً لما تقدمه من كتب الله ومهيمناً عليها .

وفي إسناد إنزاله إلى الله استشهاد على حسنه حيث نزّله العليم بنهاية محاسن الأخبار والذكر .

الوصف الثاني : أنه كتاب ، أي مجموع كلام مراد قراءته وتلاوته والاستفادة منه ، مأمور بكتابته ليبقى حجة على مرّ الزمان فإنّ جعل الكلام كتاباً يقتضي أهمية ذلك الكلام والعناية بتنسيقه والاهتمام بحفظه على حالته .

ولما سمّى الله القرآن كتاباً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر كتّاب الوحي من أصحابه أن يكتبوا كل آية تنزل من الوحي في الموضع المعيّن لها بَين أخواتها استناداً إلى أمر من الله ، لأن الله أشار إلى الأمر بكتابته في مواضع كثيرة من أولها قوله : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ [البروج : 21 22] وقوله : ﴿ إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ﴾ [الواقعة : 77 78] .

الصفة الثالثة : أنه متشابه ، أي متشابهة أجزاؤه متماثلة في فصاحة ألفاظها وشرف معانيها ، فهي متكافئة في الشرف والحسن (وهذا كما قالوا : امرأة متناصفة الحسن ، أي أنصفَتْ صفاتُها بعضُها بعضاً فلم يزد بعضها على بعض ، قال ابن هرمة

إني غَرِضْتُ إلى تناصف وجهها . . .

غَرَض المحب إلى الحبيب الغائب

ومنه : قولهم وجه مقسّم ، أي متماثل الحسن ، كأن أجزاءه تقاسمت الحسن وتعادلته ، قال أرقم بن عِلباء اليَشكُري :

ويوماً توافينا بوجه مقسَّم

كأنْ ظبيةٌ تعطو إلى وَارِق السَّلَمْ . . .

أي بوجه قسّم الحسن على أجزائه أقساماً .

فمعانيه متشابهة في صحتها وأحكامها وابتنائها على الحق والصدق ومصادفة المحزّ من الحجة وتبكيت الخصوم وكونها صلاحاً للناس وهدى .

وألفاظه متماثلة في الشرف والفصاحة والإِصابة للأغراض من المعاني بحيث تبلغ ألفاظه ومعانيه أقصى ما تحتمله أشرف لغة للبشر وهي اللغة العربية مفردات ونظماً ، وبذلك كان معجزاً لكل بليغ عن أن يأتي بمثله ، وفي هذا إشارة إلى أن جميع آيات القرآن بالغ الطرف

الأعلى من البلاغة وأنها متساوية في ذلك بحسب ما يقتضيه حال كل آية منها ، وأما تفاوتها في كثرة الخصوصيات وقلتها فذلك تابع لاختلاف المقامات ومقتضيات الأحوال ، فإن بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال ، والطرف الأعلى من البلاغة هو مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال ، فآيات القرآن متماثلة متشابهة في الحسن لدى أهل الذوق من البلغاء بالسليقة أو بالعِلم وهو في هذا مخالف لغيره من الكلام البليغ فإن ذلك لا يخلو عن تفاوت ربما بلغ بعضُه مبلغَ أن لا يشبه بقيته ، وهذا المعنى مما يدخل في قوله تعالى:

(84/667)

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير اللَّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [النساء : 82] ، فالكاتب البليغ والشاعر المجيد لا يخلو كلام أحد منهما من ضعف في بعضه ، وأيضاً لا تتشابه أقوال أحد منهما بل تجد لكل منهما قِطعاً متفاوتة في الحسن والبلاغة وصحة المعاني .

وبما قررنا تعلم أن المتشابه هنا مراد به معنى غير المراد في قوله تعالى : ﴿ وأُخر متشابهات ﴾ [آل عمران : 7] لاختلاف ما فيه التشابه .

الصفة الرابعة : كونه مثاني ، ومثاني : جمع مُثَنَّى بضم الميم وبتشديد النون جمعاً على غير

قياس ، أو اسم جمع .

ويجوز كونه جمع مَثْنى بفتح الميم وتخفيف النون وهو اسم لجعل المعدود أزواجاً اثنين ، اثنين ، وكلا الاحتمالين يطلق على معنى التكرير .

كُنِّي عن معنى التكرير بمادة التثنية لأن التثنية أول مراتب التكرير ، كما كُني بصيغة التثنية عن التكرير في قوله تعالى : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ [الملك : 4] ، وقول العرب : لَبَّيْك وسَعْديك ، أي إجابات كثيرة ومساعدات كثيرة .

وقد تقدم بيان معنى ﴿ مثاني ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ في سورة [الحجر : 87] ، فالقرآن مثاني لأنه مكرر الأغراض .

وهذا يتضمن امتناناً على الأمة بأن أغراض كتابها مكررة فيه لتكون مقاصده أرسخ في نفوسها ، وليسمعها من فاته سماع أمثالها من قبلُ .

ويتضمن أيضاً تنبيهاً على ناحية من نواحي إعجازه ، وهي عدم المَلل من سماعه وأنه كلما تكرر غرض من أغراضه زاده تكرره قبولاً وحَلاوة في نفوس السامعين .

فكأنه الوجه الحسن الذي قال في مثله أبو نواس :

يزيدك وجهه حُسناً

إذا ما زدته نظَرا . . .

وقد عدّ عياض في كتاب "الشفاء" من وجوه إعجاز القرآن : أن قارئه لا يَمَلّه وسامعه لا يمجه ، بل الإِكباب على تلاوته يزيده حلاوة ، وترديده يوجب له محبة ، لا يزال غضاً طرياً ، وغيره من الكلام ولو بلغ من الحسن والبلاغة مبلغاً عظيماً يُمَل مع الترديد ويُعادى إذا أعيد ، ولذا وَصف رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن : " بأنه لا يخلق على كثرة الرد " رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب مرفوعاً .

وذكر عياض أن الوليد بن المغيرة سمِع من النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ [النحل : 90] الآية فقال : "والله إن له لحلاوة وإن عليه لطَلاوة" .

وبهذا تعلم أن وصف القرآن هنا بكونه مثاني هو غير الوصف الذي في قوله:

﴿ ولقد أتيناك سبعاً من المثاني ﴾ [الحجر : 78] لاختلاف ما أريد فيه بالتثنية وإن كان اشتقاق الوصف متّحداً .

ووصَف ﴿ كِتاباً ﴾ وهو مفرد بوصف ﴿ مثاني ﴾ وهو مقتض التعدد يعيّن أن هذا الوصف جرى عليه باعتبار أجزائه ، أي سوره أو آياته باعتبار أن كل غرض منه يكرر ، أي باعتبار تباعيضه .

الصفة الخامسة : أنه تقشعر منه جلود الذين يخشَون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم ، وهذا

الوصف مرتب على الوصف قبله وهو كون القرآن مثاني ، أي مثنَّى الأغراض ، وهو مشتمل على ثلاث جهات:

(86/667)

أولاها : وصف القرآن بالجلالة والروعة في قلوب سامعيه ، وذلك لما في آياته الكثيرة من الموعظة التي تَوْجَل منها القلوب ، وهو وصف كمال لأنه من آثار قوة تأثير كلامه في النفوس ، ولم يزل شأن أهل الخطابة والحكمة الحرصَ على تحصيل المقصود من كلامهم لأن الكلام إنما يواجه به السامعون لحصول فوائد مرْجوة من العمل به ، وما تبارى الخطباء والبلغاء في ميادين القول إلا للتسابق إلى غايات الإِقناع ، كما قال قيس بن خارجة ، وقد قيل له : ما عندك ؟ "عندي قِرى كلِ نازل ، ورضى كل سَاخط ، وخُطبةٌ من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب ، آمر فيها بالتواصل وأنهى عن التقاطع" .

وقد ذكر أرسطو في الغرض من الخطابة أنه إثارة الأهواء وقال : "إنها انفعالات في النفس تثير فيها حزناً أو مسرة" .

وقد اقتضى قوله : ﴿ تَقْشَعر منه جُلُودُ الذين يخشَونَ ربَّهُم ﴾ أن القرآن يشتمل على معان تقشعر منها الجلود وهي المعاني الموسومة بالجَزالة التي تثير في النفوس روعة وجلالة

ورهبة تبعث على امتثال السامعين له وعملهم بما يتلقونه من قوارع القرآن وزواجره ، وكنّي عن ذلك بحالةٍ تقارِنُ انفعال الخشية والرهبة في النفس لأن الإنسان إذا ارتاع وخشي اقشعرّ جِلده من أثر الانفعال الرهبني ، فمعنى ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ ﴾ تقشعر من سماعه وفهمه ، فإن السماع والفهم يومئذٍ متقارنان لأن السامعين أهل اللسان .

يقال : اقشعر الجلد ، إذا تقبض تقبضاً شديداً كالذي يحصل عند شدة برد الجسد ورعدته .

يقال : اقشعر جلده ، إذا سمع أو رأى مَا يثير انزعاجه ورَوعه ، فاقشعرار الجلود كناية عن وجل القلوب الذي تلزمه قشعريرة في الجلد غالباً .

(87/667)

وقد عدّ عياض في "الشفاء" من وجوه إعجاز القرآن : الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه والهيبةَ التي تعتريهم عند تلاوته لعلوّ مرتبته على كل كلام من شأنه أن يها به سامعه ، قال تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية اللَّه وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ [الحشر : 21] .

وعن أسماء بنت أبي بكر كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرىء عليهم القرآن

كما نعتهم الله تدمَع أعينهم وتقشعرّ جلودهم .

وخص القشعريرة بالذين يخشون ربهم باعتبار ما سيردف به من قوله : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهم ﴾ كما يأتي ، قال عياض : "وهي ، أي الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه ، على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه كما قال تعالى:

﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولَّوا على أدبارهم نفوراً ﴾ [الإسراء : 46] .

وهذه الروعة قد اعْترت جماعة قبل الإِسلام ، فمنهم من أسلم لها لأولِ وهلة .

حُكي في الحديث الصحيح عن جبير بن مطعم قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ قوله تعالى : ﴿ أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ إلى قوله : ﴿ المصيطرون ﴾ [الطور : 35 37] كاد قلبي أن يطير وذلك أول ما وُقر الإِسلام في قلبي" .

ومنهم من لم يسلم ، روي عن محمد بن كعب القرظي قال : "أخبرت أن عتبة بن ربيعة كلّم النبي صلى الله عليه وسلم في كفّه عن سبِّ أصنامهم وتضليلهم ، وعرض عليه أموراً والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع فلما فرغ قال له النبي صلى الله عليه وسلم اسمع ما أقول ، وقَرأ عليه ﴿ حم ﴾ [فصلت : 1] حتى بلغ قوله : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ [فصلت : 13] فأمسك عتبة على فم النبي صلى الله عليه وسلم وناشده الرحِم أن يكفّ" أي عن القراءة .

وأما المؤمن فلا تزال روعته وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذاباً وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه ، قال تعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ منه جُلُود الذين يخشَونَ رَبَّهُم ثمَّ تَلِينُ جلودُهم وقُلُوبهم إلى ذِكرِ الله ﴾ .

الجهة الثانية من جهات هذا الوصف : لين قلوب المؤمنين عند سماعه أيضاً عقب وجَلها العارض من سماعه قبلُ .

واللين : مستعار للقبول والسرور ، وهو ضد للقساوة التي في قوله : ﴿ فويلٌ للقاسِيَةِ قلوبُهُم من ذِكرِ الله ﴾ ، فإن المؤمن إذا سمع آيات الوعيد والتهديد يخشى ربه ويتجنب ما حذر منه فيقشعرّ جلده فإذا عقب ذلك بآيات البشارة والوعد استبشر وفرِح وعرض أعماله على تلك الآيات فرأى نفسه متحلية بالعمل الذي وعد الله عليه بالثواب فاطمأنت نفسه وانقلب الوجل والخوف رجاءً وترقباً ، فذلك معنى لين القلوب .

وإنما يبعث هذا اللينَ في القلوب ما في القرآن من معاني الرحمة وذلك في الآيات الموصوفةِ معانيها بالسهولة نحو قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنَّه هو الغفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : 53] ، والموصوفةِ

معانيها بالرقة نحو : ﴿ يا عبادِ لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ [الزخرف : 68 69] ، وقد علم في فن الخطابة أن للجزالة مقاماتها وللسهولة والرقة مقاماتهما .

الجهة الثالثة من جهات هذا الوصف : أعجوبة جمعه بين التأثيرْين المتضادَّين : مرةً بتأثير الرهبة ، ومرة بتأثير الرغبة ، ليكون المسلمون في معاملة ربهم جارِين على ما يَقتضيه جلالُه وما يقتضيه حلمه ورحمته .

وهذه الجهة اقتضاها الجمع بين الجهتين المصرح بهما وهما جهة القشعريرة وجهة اللين ، مع كون الموصوف بالأمرين فريقاً واحداً وهم الذين يخشون ربهم ، والمقصود وصفهم بالتأثرْين عند تعاقب آيات الرحمة بعد آيات الرهبة .

(89/667)

قال الفخر : إن المحققين من أهل الكمال قالوا : "السائرون في مبدأ جلال الله إن نظروا إلى عالم الجلال طاشُوا ، وإن لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا" ا ه .

فالآية هنا ذكرتْ لهم الحالتين لوقوعها بعد قوله : ﴿ مَثَانِيَ ﴾ كما أشرنا إليه آنفاً ، وإلا فقد اقتصر على وصف الله المؤمنين بالوجل في قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ

اللَّه وَجلت قلوبهم في سورة ﴿ [الأنفال : 2] ، فالمقام هنا لبيان تأثر المؤمنين بالقرآن ، والمقام هنالك للثناء على المؤمنين بالخشية من الله في غير حالة قراءة القرآن .

وإنما جُمع بين الجلود والقلوب في قوله تعالى : ﴿ ثم تَلِينُ جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ ولم يُكتف بأحد الأمرين عن الآخر كما اكتُفي في قوله : ﴿ تَقْشعر منه جلودُ الذين يخشونَ ربهم ﴾ لأن اقشعرار الجلود حالة طارئة عليها لا يكون إلا من وجل القلوب وروعتها فكنّي به عن تلك الروعة .

وأما لين الجُلود عقب تلك القشعريرة فهو رجوع الجلود إلى حالتها السابقة قبل اقشعرارها ، وذلك قد يحصل عن تناسسٍ أو تشاغل بعد تلك الروعة ، فعطف عليه لين القلوب ليعلم أنه لين خاص ناشىء عن اطمئنان القلوب بالذكر كما قال تعالى : ﴿ ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب ﴾ [الرعد : 28] وليس مجرد رجوع الجلود إلى حالتها التي كانت قبل القشعريرة .

ولم يُكتف بذكر لين القلوب عن لين الجلود لأنه قصد أن لين القلوب أفعمها حتى ظهر أثره على ظاهر الجلود .

و﴿ ذِكْرِ الله ﴾ وهو أحسن الحديث ، وعُدل عن ضميره لبعد المعاد ، وعدل عن إعادة اسمه السابق لمدحه بأنه ذكر من الله بعد أن مُدِح بأنه أحسن الحديث والمراد بـ ﴿ ذِكْرِ الله ﴾ ما في آياته من ذكر الرحمة والبشارة ، وذلك أن القرآن ما ذَكَر موعظة وترهيباً إلا أعقبه

بترغيب وبشارة .

وعُدّي فعل ﴿ تَلِينُ ﴾ بحرف ﴿ إلى ﴾ لتضمين ﴿ تَلِينُ ﴾ معنى : تطمئن وتسكن .

(90/667)

﴿ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ ﴾

استئناف بياني فإن إجراء تلك الصفات الغُرّ على القرآن الدالةِ على أنه قد استكمل أقصى ما يوصف به كلام بالغ في نفوس المخاطبين كيف سلكت آثاره إلى نفوس الذين يخشون ربهم مما يثير سؤالاً يهجس في نفس السامع أن يقول : كيف لم تتأثر به نفوس فريق المصرّين على الكفر وهو يقرع أسماعهم يوماً فيوماً ، فتقع جملة ﴿ ذلك هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ من يَشَاءُ ﴾ جواباً عن هذا السؤال الهاجس .

فالإشارة إلى مضمون صفات القرآن المذكورة وتأثر المؤمنين بهديه ، أي ذلك المذكورُ هدى الله ، أي جعله الله سبَباً كاملاً جامعاً لوسائل الهدى ، فمن فطر الله عقله ونفسَه على الصلاحية لقبول الهدى سريعاً أو بطيئاً اهتدى به ، كذلك ومَن فطر الله قلبه على المكابرة ، أو على فساد الفهم ضلّ فلم يهتد حتى يموت على ضلاله ، فأطلق على هذا الفَطْر اسم الهُدى واسم الضلال ، وأسند كلاهما إلى الله لأنه هو جبّار القلوب على فطرتها وخالق

وسائل ذلك ومدبر نواميسه وأنظمته .

فمعنى إضافة الهدى إلى الله في قوله : ﴿ ذلك هُدَى الله ﴾ راجع إلى ما هيّأه الله للهدى من صفات القرآن فإضافته إليه بأنه أنزله لذلك .

ومعنى إسناد الهدى والإضلال إلى الله راجع إلى مراتب تأثر المخاطبين بالقرآن وعدم تأثرهم بحيث كان القرآن مستوفياً لأسباب اهتداء الناس به فكانوا منهم من اهتدى به ومنهم من ضل عنه .

ويجوز أن تكون الإشارة إلى ﴿ أَحْسَنَ الحَدِيثِ ﴾ وهو الكتاب ، أي ذلك القرآن هدى الله ، أي دليل هدى الله .

ومقصده : اهتدى به من شاء الله اهتداءه ، وكفر به من شاء الله ضلاله .

فجملة ﴿ ومَن يُضْلِل الله فما لهُ من هَادٍ ﴾ تذييل للاستئناف البياني .

(91/667)

ومعنى ﴿ مَن يشَاءُ ﴾ على تقدير : من يشاء هديه ، أي من تعلّقت مشيئته ، وهي إرادته بأنه يهتدي فخلقه متأثراً بتلك المشيئة فقدّر له الاهتداء ، وفهم من قوله ﴿ مَنْ يَشَاء ﴾ أنه لا يهدي به من لم يشأ هديَه وهو ما دلت عليه المقابلة بقوله : ﴿ ومَن يُضْلِل الله فما لهُ

من هَادٍ ﴾ ، أي من لم يشأ هديه فلم يقلع عن ضلاله فلا سبيل لهديه .

والمعنى : إن ذلك لنقص في الضالّ لا في الكتاب الذي من شأنه الهدى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(92/667)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى لب)

لبَّ بالمكان وألَبَّ به إذا أَقام به .

حكاه أَبو عبيد عن الخليل ، ومنه قولهم : لَبَّيكَ .

أَى أَنا مقيم على طاعتك .

وقال ابن الأَنبارىّ : فى لبَّيك أَربعة أَقوال :

أَحدها : إِجابتى لك من لبّ بالمكان وألَبَّ به أَقام به .

وقالوا : لبَّيْك فثنّوا لأَنهم أَرادوا : إِجابة بعد إِجابة ؛ كما قالوا : حنانَيْك أَى رحمة بعد رحمة .

وقال بعض النحويين : أَصل لبَّيْك لبَّبك ، فاستثقلوا ثلاثة باءَات فأَبدلوا من الثالثة ياءً ؛ كما قالوا : تظنَّيت وأَصله تظّننت .

والثانى : اتجاهى وقصدى يا رب لك ؛ أُخذ من قولهم : دارى تَلُبّ دارك أَى تواجهها .

والثالث : محبَّتى لك يا رب ، من قول العرب : امرأَة لَبَّة إذا كانت محبَّة لزوجها عاطفة عليه .

والرابع : إِخلاصى لك يا ربّ ، من قولهم : حَسَبٌ لُبَاب : إِذا كان خالصاً محضاً ، ومن ذلك لُبّ الطعام ولُبَابه .

واللُبّ : العقل ، والجمع : أَلباب وأُلُبّ ؛ كنُعْم وأَنْعُم قال :

* قلبى إِليه مشرف الأُلُبِّ *

وربما أَظهرو التضعيف فى ضرورة الشعر كقول الكميت :

*إِليكم ذوى آل النبى تطلَّعت * نوازع من قلبى ظِماء وأَلُبُبُ*

وقيل ، اللبّ : ما ذكا من العقل .

وكل لُبّ عقل ، وليس كل عقل لُبًّا ، ولهذا خص الله الأَحكام التى لا تدركها إلاَّ العقول الذكيَّة بأُولى الأَلباب ؛ نحو قوله : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ ونحو ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 414.412 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾

أخبر أنه يُنْزِلُ من السماءِ المطرَ فيُخْرِجُ به الزرعَ فيخضرّ ، ثم يأخذ في الجفاف ، ثم يصير هشيماً . . . والإشاراةُ من هذا إلى الإنسان ، يكون طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ثم يصير إلى أرذل العمر ثم في آخره يخترم .

ويقال إن الزَّرْعَ ما لم يأخذْ في الجفاف لا يُؤْخَذُ منه الحَبُّ ، فالحبُّ هو المقصود منه . كذلك الإنسان ما لم يحصلْ من نَفْسه وصولٌ لا يكون له قَدْرٌ ولا قيمةٌ .

ويقال إن كَوْنَ المؤمنِ بقوة عقله يوجِبُ استفادةً له بعلمه إلى أَنْ يبدوَ منه كمالٌ يُمكّنُ من أنوار بصيرته ، ثم إذا بدت لائحةٌ من سلطان المعارف تصير تلك الأنوار مغمورة . فإذا بَدَتْ أنوارُ التوحيد استهلكت تلك الجملة ، قالوا :

فلمَّا استبان الصبحُ أدرج ضوءُه . . . بأَنواره أنوارَ تلك الكواكب

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾

جوابُ هذا الخطابِ محذوفٌ . . . أي أَفمن شرح اللَّهُ صَدْرَه للإسلام كمن ليس كذلك ؟

لَمَّا نزلت هذه الآيةُ سُئِلَ الرسولُ – صلى الله عيله وسلم – عن الشرح المذكور فيها ، فقال : « ذلك نورٌ يُقْذَفُ في القلب » فقيل : وهل لذلك أَمارة ؟

قال : « نعم ؛ التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله »

والنورُ الذي مِنْ قِبَلِهِ – سبحانه – نورُ اللّوائح بنجوم العلم ، ثم نورُ اللوامع ببيان الفَهْم ، ثم نورُ المحاضرة بزوائد اليقين ، ثم نورُ المكاشفة بتَجلي الصفات ، ثم نور المشاهدة بظهور الذات ، ثم أنوار الصمدية بحقائق التوحيد . . . وعند ذلك فلا وَجْدَ ولا فقد ، ولا قُرْب ولا بُعْدَ . . . كلاّ بل هو الله الواحد القهار .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ : اي الصلبة قلوبهم ، لم تقرعها خواطرُ التعريف فبقيت عَلَى نَكْرَةِ الجَحْد . . . أُولئك في الضلالة الباقية ، والجهالة الدائمة .

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾

﴿ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ لأنه غير مخلوق .

﴿ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا ﴾ في الإعجاز والبلاغة .

﴿ مَّثَانِيَ ﴾ : يثني فيها الحكم ولا يُمَلُّ بتكرار القراءة ، وَيشتمل عَلَى نوعين : الثناء عليه بذكر سلطانه وإحسانه ، وصفات الجنة والنار والوعد والوعيد .

﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ إذا سمعوا آيات الوعيد .

﴿ ثُمَّ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ إذا سمعوا آيات الوعد .

ويقال : تقشعر وتلين بالخوف والرجاء ، ويقال بالقبض والبسط ، ويقال بالهيبة والأُنس ، ويقال بالتجلّي والاستتار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 275 . 278 ﴾

(96/667)

قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (24) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (25)

فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (26) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم الإنكار على من سوى ، بين من شرح صدره ومن ضيق ، وما تبعه وختم بأن الأول مهتد ، والثاني ضال ، شرع في بيان ما لكل منهما نشراً مشوشاً في أسلوب الإنكار أيضاً ، فقال مشيراً إلى أن الضلال سبب العذاب ، والهدى سبب النعيم ، وحذف هنا المنعم الذي سبب له النعيم لين قلبه كما حذف القاسي القلب في آية الشرح الذي سببت له قسوته العذاب ، لتتقابل الآيتان ، وتتعادل العبارتان : ﴿ أفمن ﴾ وأفرد على لفظ ﴿ من ﴾ لئلا يظن أن الوجوه الأكابر فقال : ﴿ يتقي ﴾ ودل على أن يده التي جرت العادة بأنه يتقي بها المخاوف مغلولة بقوله : ﴿ بوجهه ﴾ الذي كان يقيه المخاوف ويحميه منها بجعله وهو أشرف أعضائه وقاية يقي به غيره من بدنه ﴿ سوء العذاب ﴾ أي شدته ومكروهه لأنه تابع نفسه على هواها حتى قسا قلبه وفسد لبه ﴿ يوم القيامة ﴾ لأنه يرمي

به في النار منكوساً وهو مكبل ، لا شيء له من أعضائه مطلق يرد به عن وجهه في عنقه صخرة من الكبريت مثل الجبل العظيم ، ويسحب في النار على وجهه ، كمن أمن العذاب فهو يتلقى النعيم بقلبه وقالبه .

ولما كان مطلق التوبيخ والتقريع متكئاً ، بني للمفعول قوله : ﴿ وقيل ﴾ له - هكذا كان الأصل ، ولكنه أظهر تعميماً وتعليقاً للحكم به وجمع تنبيهاً على أن كثرتهم لم تغن عنهم شيئاً فقال : ﴿ للظالمين ﴾ أي الذين تركوا طريق الهدى واتبعوا الهوى فضلوا وأضلوا : ﴿ ذوقوا ما ﴾ أي جزاء ما ﴿ كنتم تكسبون ﴾ أي تعدونه فائدة وثمرة لأعمالكم وتصرفاتكم ، وقيل لأهل النعيم : طيبوا نفساً وقروا عيناً جزاء بما كنتم تعلمون ، فالآية من الاحتباك : ذكر الاستفهام أولاً دليلاً على حذف متعلقه ثانياً ، وما يقال للظالم ثانياً دليلاً على ما يقال للعدل أولاً .

(97/667)

ولما ذكر ما أعد لهم من الآخرة ، وكانوا في مدة كفرهم كالحيوانات العجم لا ينظرون إلا الجزئيات الحاضرة ، خوفهم بما يعملونه في الدنيا ، فقال على طريق الاستئناف في جواب من يقول : فهل يعذبون في الدنيا : ﴿ كذب الذين ﴾ وأشار إلى قرب زمان المعذبين من زمانهم

بإدخال الجار فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ أي مثل سبأ وقوم تبع وأنظارهم : ﴿ فأتاهم العذاب ﴾ وكان أمرهم علينا يسيراً ، وأشار إلى أنه لم يغنهم حذرهم بقوله : ﴿ من حيث ﴾ أي من جهة ﴿ لا يشعرون ﴾ أنه يأتي منها عذاب ، جعل إتيانه من مأمنهم ليكون ذلك أوجع للمعذب ، وأدل على القدرة بأنه سواء عنده تعالى الإتيان بالعذاب من جهة يتوقع منها ومن جهة لا يتوقع أن يأتي منها شر ما ، فضلاً عما أخذوا به ، بل لا يتوقع إلا الخير .

لما بين سفههم وشدة حمقهم باستعجالهم بالعذاب استهزاء ، سبب عنه تبكيت من لم يتعظ بحالهم فقال : ﴿ فأذاقهم الله ﴾ أي الذي لا راد لأمره ﴿ الخزي ﴾ أي الذل الناشئ عن الفضيحة والعذاب الكبير بما رادوه من إخزاء الرسل بتكذيبهم ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ أي العاجلة الدنية .

ولما كان انتظار الفرج مما يسلي ، قال معلماً أن عذابهم دائم على سبيل الترقي إلى ما هو أشد ، وأكده إنكارهم إياه : ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ أي الذي انتقلوا إليه بالموت ويصيرون إليه البعث : ﴿ أكبر ﴾ من العذاب الذي أهلكهم في الدنيا ، وأشدهم إخزاء ، فالآية من الاحتباك : ذكر الخزي أولاً دليلاً على إرادته ثانياً ، والأكبر ثانياً دليلاً على الكبير أولاً ، وسره تغليظ الأمر عليهم بالجمع بين الخزي والعذاب بما فعلوا برسله عليهم الصلاة والسلام بخلاف ما يأتي في فصلت .

فإن سياقه للطعن في الوحدانية ، وهي لكثرة أدلتها وبعدها عن الشكوك وعظيم المتصف بها وعدم تأثيره بشيء يكفي في نكال الكافر به مطلق العذاب .

(98/667)

ولما كان من علم أن فعله يورث نكالاً كف عنه ولا يكفون ولا يتعظون قال : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لو كان لهم علم ما لعلموا أنه أكبر فاتعظوا وآمنوا ، ولكنه لا علم لهم أصلاً ، بل هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، لأن الجزئيات لا تنفعهم كما تنفع سائر الحيوانات ، فإن الشاة ترى الذئب فتنفر منه إدراكاً لأن بينها وبينه عداوة بما خلق الله في طبعه من أكل أمثالها ، وهؤلاء يرون ما حل بأمثالهم من العذاب لتكذيبهم الرسل فلا يفرون منه إلى التصديق .

ولما ذكر سبحانه حال الأولين موعظة للعرب ، فكان كأنه قيل صرفاً للقول إلى مظهر العظمة تذكيراً بما في الأناة من المنة لأن حالها يقتضي المعاجلة بالأخذ والمبادرة بإحلال السطوة ، ضربنا لكم حالهم مثلا لحالكم لتعتبروا به ، فإن الأمثال يفهم بها المعاني الغائبة ، وتصير كأنها محسوسة مشاهدة ، عطف عليه قوله مؤكداً لإنكارهم أن يكون في القرآن بيان شاف وادعائهم أنه إنما هو شعر وكهانة وسحر : ﴿ ولقد ضربنا ﴾ على ما لنا من

العظمة .

ولما كان في سياق المفاضلة بين المتقي وغيره من أوائل السورة حين قال ﴿ أمن هو قانت ﴾ إلى أن ختم بقوله ﴿ أفمن يتقي بوجهه ﴾ وأسس ذلك كله على ابتداء الخلق من نفس واحدة ، كانت العناية في هذا السياق بالمخاطبين أكثر ، فقدم قوله : ﴿ للناس ﴾ أي عامة لأن رسالة رسولكم عامة .

ولما كان المتعنت كثيراً ، عين المحدث عنه بالإشارة التي هي أعرف المعارف ، وجعلها ما يعبر به عن القرب ، إشارة إلى أنه لما أتى به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلع القلوب وملأها ، فلا حاضر فيها سواه وإن كان المعاند يقول غير ذلك فقوله زور وبهتان وإثم وعدوان ، فقال : ﴿ في هذا القرآن ﴾ أي الجامع لكل علم .

(99/667)

ولما كانت كلماته سبحانه لا تنفد وعجائبه لا تعد ولا تحد ، وكان في سياق التعجيب من توقفهم قال ﴿ من كل مثل ﴾ أي يكفي ضربه في البيان لإقامة الحجة البالغة ، ثم بين علة الضرب بقوله : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي ليكون حالهم بعد ضربه حال من يرجى تذكره بما ضرب له ما يعرفه في الكون في نفسه أو في الآفاق تذكراً واضحاً مكشوفاً – بما أرشد إليه

الإظهار ، فيتعظ لما في تلك الامثال المسوقة في أحسن المقال المنسوقة بما يلائمها من الأوضاع والأشكال من البيان وأوضح البرهان .

ولما كان ذلك غاية في الشرف ، دل على زيادة شرفه بحال مؤكدة دالة على شدة عنادهم ، تسمى موطئه لأن الحال في الحقيقة ما بعدها بقوله : ﴿ قرآناً ﴾ أي حال كون ذلك المضروب جامعاً لكن ما يحتاج إليه ، ويجوز أن يكون النصب على المدح ﴿ عربياً ﴾ جارياً على قوانين لسانهم في جمعه باتساعه ووضوحه واحتمال اللفظ الواحد منه لمعان كثيرة ، فكيف إذا انضم إلى غيره فصار كلاماً .

ولما كان الشيء قد يكون مستقيماً بالفعل وهو معوج بالقوة ، قال تعالى : ﴿ غير ذي عوج ﴾ أي ليس بمنسوب إلى شيء من العوج ولا من شأنه العوج ، فلا يصح أن يكون معوجاً أصلاً في شيء من نظمه ولا معناه باختلاف ولا غيره كما في آية الكهف سواء ، وفي الإتيان بعوج الذي هو مختص بالمعاني بيان أن الوصف له حقيقة ، فهو أبلغ من غير معوج ، لأنه يحتمل إرادة أهله على المجاز .

ولما كان التذكر بالتذكير لكونه أبلغ للوعظ حاملاً ، ولا بد للعاقل على الخوف المسبب للنجاة قال : ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي ليكون حالهم بعد التذكير الناشىء عن التذكير حال من يرجى له أن يجعل بينه وبين غضب الله وقاية .

ولما أقام سبحانه الدليل المنير على التفاوت العظيم ، بين من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يدعو الله مخلصاً له الدين وبين من يدعو لله أنداداً ، وختم بضرب الأمثال ، وكان الأمثال أبين فيما يراد من الأحوال ، قال منبهاً على عظمتها بلفت القول عن مظهر العظمة إلى الاسم الأعظم الجامع لجميع صفات الكمال : ﴿ ضرب الله ﴾ أي الملك الأعظم المتفرد بصفات الكمال ﴿ مثلاً ﴾ لهذين الرجلين مع أنه لا يشك ذو عقل أن المشرك لا يداني المخلص فضلاً عن أن يقول : إن المشرك أعظم كما يقوله المشركون .

ولما كان الذكر أقوى من الأنثى ، وأعرف بمواقع النفع والضر ، وكان كونه بالغاً أعظم لقوته وأشد لشكيمته ، فيكون أنفى للعار عن نفسه وأدفع للظلم عن جانبه وأذب عن حماه ، قال مبيناً للمثل مشيراً إلى تبكيت الكفار ورضاهم لأنفسهم بما لا يرضاه لنفسه أدنى الأرقاء ﴿ رجلاً فيه ﴾ أي خاصة .

ولما كانت معبوداتهم – لكونها من جملة المخلوقات – كثيرة الأشباه والنظائر ، عبر عنها بجمع الكثرة فقال : ﴿ شركاء ﴾ في الظاهر من الأصنام وفي الباطن من الحظوظ والشهوات ، ووصف الشركاء بقوله : ﴿ متشاكسون ﴾ أي مختلفون عسرون يتجاذبون مع سوء الأخلاق وضيقها وقباحة الشركة ، فليس أحد منهم يرضى بالإنصاف ، فهو لا يقدر أن يرضيهم أصلاً ﴿ ورجلاً سلماً ﴾ أي من نزاع ﴿ لرجل ﴾ فليس فيه لغيره شركة

ولا علاقة أصلاً ، فهو أجدر بأن يقدر على رضاه مع راحته من تجاذب الشركاء – هذا على قراءة المكي والبصري ، وعلى قراءة الباقين بحذف الألف وفتح اللام وهو وصف بالمصدر على المبالغة .

ولما انكشف الحال فيها جداً قال : ﴿ هل يستويان ﴾ أي الرجلان يكون أحدهما مساوياً للآخر بوجه من الوجوه ولو بغاية الجهد والعناية .

(101/667)

ولما كان الاستواء مبهماً قال : ﴿ مثلاً ﴾ أي من جهة المثل ، أي هل يستوي مثلهما أي يجمعهما مثل واحد حتى أن يكونا هما متساويين فهو تمييز محول في الأصل عن الفاعل ، والجواب في هذا الاستفهام الإنكاري قطعاً : لا سواء ، بل مثل الرجل السالم في غاية الحسن فكذا ممثوله وهو القانت المخلص ، ومثل الرجل الذي وقع فيه التشاكس في غاية القبح فكذا ممثوله وهو الداعي للأنداد .

ولما علم بهذا المثل المضروب للرجلين سفول المشترك وهو الداعي للأنداد ، وعلو السالم وهو القانت ، ظهر بذلك بلا ريب حقارة المتشاركين وجلالة المتفرد وهو الله ، فأنتج قطعاً قوله : ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ الذي لا مكافئ له ، يعلم ذلك

كل أحد لما له من الظهور لما عليه من الدلائل ، فلا يصح أن يكون له شريك ﴿ بل أكثرهم ﴾ أي الناس ﴿ لا يعلمون ﴾ لأنهم يعملون لما لا يليق بهذا العلم فيشركون به إما جلياً وإما خفياً ، ويجوز أن يقال : له الكمال كله ، فليس الملتفتون إلى غيره أدنى التفات علماء ، بل لا علم لهم أصلاً ، وهم المشركون شركاً جلياً ، وأما أصحاب الشرك الخفي فهم ، وإن كان لهم علم – فليس بكامل .

ولما كان السالم مثلاً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأتباعه ، والآخر للمخالفين ، وكان سبحانه قد أثبت جهلهم ، وكان الجاهل ذا حمية وإباء لما يدعى إليه من الحق وعصبيته : والجاهلون لأهل العلم اعداء . . .

(102/667)

فكان لذلك التفكير في أمرهم وما يؤدي إليه من التقاعد من الأتباع والتصويب بالأذى ولا سيما وهم أكثر من أهل العلم مؤدياً إلى الأسف وشديد القلق فكان موضع أن يقال : فما يعمل ؟ وكان لا ينبغي في الحقيقة أن يقلق إلا من ظن دوام النكد ، قال تعالى مسلياً ومعزياً وموسياً في سياق التأكيد ، تنبيهاً على أن من قلق كان حاله مقتضياً لإنكار انقطاع التأكيد : ﴿ إنك ﴾ فخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الخطاب إذا كان للرأس كان أصدع

لأتباعه ، فكل موضع كان للأتباع وخص فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخطاب دونهم فهم المخاطبون في الحقيقة على وجه أبلغ .

ولما لم يكن لممكن من نفسه إلا العدم قال : ﴿ ميت ﴾ أي الآن لأن هذه صفة لازمة بخلاف " مايت " يعني : فكن كالميت بين يدي الغاسل فإنك مستريح قريباً عما تقاسي من أنكادهم ، وراجع إلى ربك ليجازيك على طاعتك له ﴿ وإنهم ﴾ أي العباد كلهم أتباعك وغيرهم ﴿ ميتون ﴾ فمنقطع ما هم فيه من اللدد والعيش والرغد .

(103/667)

ولما كان الشفاء الكامل إنما يكون بأخذ الثار ، وإذلال الظالم ، قال مشيراً بأداة التراخي إلى مدة البرزخ مؤكداً لأجل إنكارهم البعث فضلاً عن القصاص صادعاً لهم بالخطاب بعد الغيبة : ﴿ ثم إنكم ﴾ أي أيها العباد كلكم ، فإن كل أحد مسؤول عن نفسه وعن غيره هل راعى حق الله فيه ، أو أنت وهم من باب تغليب المخاطب وإن كان واحداً لعظمته على الغائبين ، وزاد في إثبات المعنى بقوله : ﴿ يوم القيامة ﴾ فساقه مساق ما خلاف فيه ، وبين أن ذلك الحال مخالف لهذا الحال لانقطاع الأسباب بقوله ، صارفاً القول إلى وصف التربية الذي يحق له الفضل على الطائع والعدل في العاصي ﴿ عند ربكم ﴾ أي المربي لكم بالخلق

والرزق فلا يجوز في الحكمة أن يدعكم يبغي بعضكم على بعض كما هو مشاهد من غير حساب كما أن أقلكم عقلاً لا يرضى بذلك في عبيده الذين ملكه الله إياهم ملكاً ضعيفاً ، أو ولاه عليهم ولاية مزلزلة ، فكيف بمن فوقه فكيف بالحكماء ﴿ تختصمون ﴾ أي تبالغون في الخصومة ليأخذ بيد المظلوم وينتقم له من الظالم ، ويجازي كلاًّ بما عمل ، أما في الشر فسوءاً بسوء ، لا يظلم مثقال ذرة ولا ما دونه ، وأما في الخير فالحسنة بعشرة أمثالها – إلى ما فوق ذلك مما لا يعلمه غيره ، فلا ينبغي أبداً لمظلوم أن يتوهم دوام نكده وعدم الأخذ بيده فيقتصر في العمل ويجنح إلى شيء من الخوف والوجل ، بل عليه أن يفرح بما يجزل ثوابه ، ويسر بما ييسر حسابه ، ويشتغل بما يخلص به نفسه في يوم التلاق الذي الناس فيه فريقان ، ولا يشتغل بما لا يكون من تصفية دار الكدر عن الأكدار ، وقرارة الدنس عن الأقذاء والأقذار ، فإن الدوام فيها محال على حال من الأحوال ، قال القشيري : نعاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونعى المسلمين إليهم ففرغوا بأنفسهم عن مأتمهم ، ولا تعزية في العادة بعد ثلاث ، ومن لم يتفرغ عن مأتم نفسه وأنواع غمومه وهمومه ، فليس له من هذا الحديث شمة ، وإذا فرغ قلب عن حديث نفسه وعن الكون بجملته

(104/667)

، فحينئذ يجد الخير من ربه وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم ، وأنشد بعضهم يعني في لسان الحال بما قدمنا :

كتبت إليكم بعد موتي بليلة . . .

ولم أدر أني بعد موتي أكتب

انتهى .

ومن المعلوم أنهم إذا أماتوا نفوسهم حييت أرواحهم فانفسحت صدورهم وانتعشت قوى قلوبهم فاتسعت علومهم واستنارت فهومهم وتجلت لهم حقائق الأمور فحدثوا عن مشاهدة ﴿ الناس نيام ﴾ فإذا ماتوا انتبهوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 445.440 ﴾

(105/667)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوء العذاب يَوْمَ القيامة ﴾

فاعلم أنه تعالى حكم على القاسية قلوبهم بحكم في الدنيا وبحكم في الآخرة ، أما حكمهم

في الدنيا فهو الضلال التام كما قال : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد : 33] وأما حكمهم في الآخرة فهو العذاب الشديد وهو المراد من قوله : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ وتقريره أن أشرف الأعضاء هو الوجه لأنه محل الحسن والصباحة ، وهو أيضاً صومعة الحواس ، وإنما يتميز بعض الناس عن بعض بسبب الوجه ، وأثر السعادة والشقاوة لا يظهر إلا في الوجه قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الكفرة الفجرة ﴾ [عبس : 38 42] ويقال لمقدم القوم يا وجه العرب ، ويقال للطريق الدال على كنه حال الشيء وجه كذا هو كذا ، فثبت بما ذكرنا أن أشرف الأعضاء هو الوجه ، فإذا وقع الإنسان في نوع من أنواع العذاب فإنه يجعل يده وقاية لوجهه وفداءً له ، وإذا عرفت هذا فنقول : إذا كان القادر على الاتقاء يجعل كل ما سوى الوجه فداء للوجه لا جرم حسن جعل الاتقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتقاء ، ونظيره قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . بهن فلول من قراع الكتائب

أي لا عيب فيهم إلا هذا وهو ليس بعيب فلا عيب فيهم إذن بوجه من الوجوه ، فكذا ههنا لا يقدرون على الاتقاء بوجه من الوجوه إلا بالوجه وهذا ليس باتقاء ، فلا قدرة لهم على الاتقاء ألبتة ، ويقال أيضاً إن الذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه ولا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه ، إذا عرفت هذا فنقول : جوابه محذوف وتقديره أفمن يتقي بوجهه

سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف في نظائره ، وسوء العذاب شدته .

(106/667)

ثم قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ لِلظَّلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ ولما بين الله تعالى كيفية عذاب القاسية قلوبهم في الآخرة بين أيضاً كيفية وقوعهم في العذاب في الدنيا فقال : ﴿ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فأتاهم العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ وهذا تنبيه على حال هؤلاء لأن الفاء في قوله : ﴿ فأتاهم العذاب ﴾ تدل على أنهم إنما أتاهم العذاب بسبب التكذيب ، فإذا كان التكذيب حاصلاً ههنا لزم حصول العذاب استدلالاً بالعلة على المعلول ، وقوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي من الجهة التي لا يحسبون ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها ، بينما هم آمنون إذ أتاهم العذاب من الجهة التي توقعوا الأمن منها ، ولما بين أنه أتاهم العذاب في الدنيا بين أيضاً أنه أتاهم الخزي وهو الذل والصغار والهوان ، والفائدة في ذكر هذا القيد أن العذاب التام هو أن يحصل فيه الألم مقروناً بالهوان والذل .

ثم قال : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني أن أولئك وإن نزل عليهم العذاب

والخزي كما تقدم ذكره ، فالعذاب المدخر لهم في يوم القيامة أكبر وأعظم من ذلك الذي وقع .

(107/667)

والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب ، فلما ذكر الله تعالى هذه الفوائد المتكاثرة والنفائس المتوافرة في هذه المطالب ، بين تعالى أنه بلغت هذه البيانات إلى حد الكمال والتمام فقال : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ والمقصود ظاهر ، وقالت المعتزلة دلت الآية على أن أفعال الله وأحكامه معللة ، ودلت أيضاً على أنه يريد الإيمان والمعرفة من الكل لأن قوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ ﴾ مشعر بالتعليل ، وقوله في آخر الآية : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ مشعر بالتعليل أيضاً ، ومشعر بأن المقصود من ضرب هذه الأمثال إرادة حصول التذكر والعلم ، ولما كانت هذه البيانات النافعة والبينات الباهرة موجودة في القرآن ، لا جرم وصف القرآن بالمدح والثناء ، فقال : ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه الأول : أن قوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ

فِي هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يدل على أنه تعالى إنما ذكر هذه الأمثال ليحصل لهم التذكر ، والشيء الذي يؤتى به لغرض آخر يكون محدثاً ، فإن القديم هو الذي يكون موجوداً في الأزل ، وهذا يمتنع أن يقال إنه إنما أتى به لغرض كذا وكذا ، والثاني : أنه وصفه بكونه عربياً وإنما كان عربياً لأن هذه الألفاظ إنما صارت دالة على هذه المعاني بوضع العرب وباصطلاحهم ، وما كان حصوله بسبب أوضاع العرب واصطلاحاتهم كان مخلوقاً محدثاً الثالث : أنه وصفه بكونه قرآناً والقرآن عبارة عن القراءة والقراءة مصدر والمصدر هو المفعول المطلق فكان فعلاً ومفعولاً والجواب : أنا نحمل كل هذه الوجوه على الحروف والأصوات وهي حادثة ومحدثة .

المسألة الثانية :

(108/667)

قال الزجاج قوله : ﴿ عَرَبِيّاً ﴾ منصوب على الحال والمعنى ضربنا للناس في هذا القرآن في حال عربيته وبيانه ويجوز أن ينتصب على المدح .

المسألة الثالثة :

أنه تعالى وصفه بصفات ثلاثة أولها : كونه قرآناً ، والمراد كونه متلواً في المحاريب إلى قيام

القيامة ، كما قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [الحجر : 9] ، وثانيها : كونه عربياً والمراد أنه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال : ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرءان لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : 88] وثالثها : كونه غير ذي عوج والمراد براءته عن التناقض ، كما قال : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [النساء : 82] وأما قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فالمعتزلة يتمسكون به في تعليل أحكام الله تعالى .

وفيه بحث آخر : وهو أنه تعالى قال في الآية الأولى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ وقال في هذه الآية : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ والسبب فيه أن التذكر متقدم على الاتقاء ، لأنه إذا تذكره وعرفه ووقف على فحواه وأحاط بمعناه ، حصل الاتقاء والاحتراز ، والله أعلم .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح وعيد الكفار أردفه بذكر مثل ما يدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم فقال : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

المتشاكسون المختلفون العسرون يقال شكس يشكس شكوساً وشكساً إذا عسر ، وهو رجل شكس ، أي عسر وتشاكس إذا تعاسر ، قال الليث : التشاكس التنازع والاختلاف ، ويقال الليل والنهار متشاكسان ، أي أنهما متضادان إذا جاء أحدهما ذهب الآخر ،

وقوله فيه صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه .

المسألة الثانية :

(109/667)

قرأ ابن كثير وأبو عمرو سالماً بالألف وكسر اللام يقال سلم فهو سالم والباقون سلماً بفتح السين واللام بغير الألف ، ويقال أيضاً بفتح السين وكسرها مع سكون العين أما من قرأ سالماً فهو اسم الفاعل تقدير مسلم فهو سالم ، وأما سائر القراءات فهي مصادر سلم والمعنى ذا سلامة ، وقوله : ﴿لِرَجُلٍ﴾ أي ذا خلوص له من الشركة من قولهم : سلمت له الضيعة ، وقرىء بالرفع على الابتداء أي وهناك رجل سالم لرجل .

المسألة الثالثة :

تقدير الكلام : اضرب لقومك مثلاً وقل لهم ما يقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع ، كل واحد منهم يدعي أنه عبده فهم يتجاذبونه في حوائجهم وهو متحير في أمره ، فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون ، وإذا احتاج في مهم إليهم فكل واحد منهم يرده إلى الآخر ، فهو يبقى متحيراً لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه ، وأيهم يعينه في حاجاته ، فهو بهذا السبب في عذاب دائم وتعب مقيم ، ورجل آخر له مخدوم

واحد يخدمه على سبيل الإخلاص ، وذلك المخدوم يعينه على مهماته ، فأي هذين العبدين أحسن حالاً وأحمد شأناً ، والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى ، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبة ، كما قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] وقال : ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون : 91] فيبقى ذلك المشرك متحيراً ضالاً ، لا يدري أي هؤلاء الآلهة يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد ، وممن يطلب رزقه ، وممن يلتمس رفقه ، فهمه شفاع ، وقلبه أوزاع .

(110/667)

أما من لم يثبت إلا إلهاً واحداً فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه ، فكان حال هذا أقرب إلى الصلاح من حال الأول ، وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك وتحسين التوحيد ، فإن قيل : هذا المثال لا ينطبق على عبادة الأصنام لأنها جمادات ، فليس بينها منازعة ولا مشاكسة ، قلنا إن عبدة الأصنام مختلفون منهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة ، فهم في الحقيقة إنما يعبدون الكواكب السبعة ، ثم إن القوم يثبتون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة ، ألا ترى أنهم يقولون زحل هو النحس الأعظم ، والمشتري هو السعد الأعظم ، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأرواح الفلكية ،

والقائلون بهذا القول زعموا أن كل نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الأرواح السماوية ، وحينئذٍ يحصل بين تلك الأرواح منازعة ومشاكسة ، وحينئذٍ يكون المثل مطابقاً ، ومنهم من يقول هذه الأصنام تماثيل الأشخاص من العلماء والزهاد الذين مضوا ، فهم يعبدون هذه التماثيل لتصير أولئك الأشخاص من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله ، والقائلون بهذا القول تزعم كل طائفة منهم أن المحق هو ذلك الرجل الذي هو على دينه ، وأن من سواه مبطل ، وعلى هذا التقدير أيضاً ينطبق المثال ، فثبت أن هذا المثال مطابق للمقصود .

(111/667)

أما قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ فالتقدير هل يستويان صفة ، فقوله : ﴿ مَثَلاً ﴾ نصب على التمييز ، والمعنى هل تستوي صفتاهما وحالتاهما ، وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرىء مثلين ، ثم قال : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ والمعنى أنه لما بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد ، وثبت أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الحق ، ثبت أن الحمد له لا لغيره ، ثم قال بعده : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره ، وأن المستحق للعبادة هو الله لا غيره ، وقيل المراد أنه لما سبقت هذه الدلائل الظاهرة والبينات

الباهرة ، قال : الحمد لله على حصول هذه البيانات وظهور هذه البينات ، وإن كان أكثر الخلق لم يعرفوها ولم يقفوا عليها ، ولما تمم الله هذه البيانات قال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ والمراد أن هؤلاء الأقوام وإن لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم في الدنيا ، فلا تبال يا محمد بهذا فإنك ستموت وهم أيضاً سيموتون ، ثم تحشرون يوم القيامة وتختصمون عند الله تعالى ، والعادل الحق يحكم بينكم فيوصل إلى كل واحد ما هو حقه ، وحينئذٍ يتميز المحق من المبطل ، والصديق من الزنديق ، فهذا هو المقصود من الآية ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ أي إنك وإياهم ، وإن كنتم أحياء فإنك وإياهم في أعداد الموتى ، لأن كل ما هو آت آت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 231.242 ﴾

(112/667)

وقال ابن عطية :

﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

هذا تقرير بمعنى التعجيب ، والمعنى : ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب ﴾ المنعمين في الجنة .

واختلف المتأولون في قوله : ﴿ يتقي بوجهه ﴾ فقال مجاهد : يخر على وجهه في النار .

وقالت فرقة : ذلك لما روي أن الكافر يلقى في النار مكتوفاً مربوطة يداه إلى رجليه مع عنقه ويكب على وجهه ، فليس له شيء يتقي به إلا الوجه . وقالت فرقة : المعنى صفة كثرة ما ينالهم من العذاب ، وذلك أنه يتقيه بجميع جوارحه ولا يزال العذاب يتزيد حتى يتقيه بوجهه الذي هو أشرف جوارحه وفي حواسه ، فإذ بلغ به العذاب إلى هذه الغاية ظهر أنه لا متجاوز بعدها .

قال القاضي أبو محمد : وهذا المعنى عندي أبين بلاغة ، وفي هذا المضمار يجري قول الشاعر : [الكامل]

يلقى السيوف بوجهه وبنحره . . . ويقيم هامته مقام المغفر

لأنه إنما أراد عظيم جرأته عليها فهو يلقاها بكل محن وبكل شيء منه حتى بوجهه وبنحره .

وقوله تعالى : ﴿ ذوقوا ﴾ عبارة عن باشروا ، وهنا محذوف تقديره : جزاء ﴿ ما كنتم تكسبون ﴾ ، ثم مثل لقريش بالأمم السالفة ، ثم أخبر بما نال تلك الأمم من كونها في الدنيا أحاديث ملعنة ، ولا خزي أعظم من هذا مع ما نال نفوسهم من الألم والذل والكرب ، ثم أخبر أن ما أعد لهم من عذاب الآخرة أكبر من هذا كله الذي كان في الدنيا .

وقوله : ﴿ قرآناً ﴾ قالت فرقة : هو نصب على الحال ، وقالت فرقة : هو نصب على

المصدر . و: ﴿ عربياً ﴾ حال ، وقالت فرقة : نصب على التوطئة للحال ، والحال قوله : ﴿ عربياً ﴾ ونفى عنه العوج لأنه لا اختلاف فيه ولا تناقض ولا مغمز بوجه .

واختلفت عبارة المفسرين ، فقال عثمان بن عفان : المعنى غير متضاد ، قال ابن عباس : غير مختلف وقرأ مجاهد : غير ذي لبس . وقال السدي : غير مخلوق . وقال بكر المزني : غير ذي لحن . والعِوج بكسر العين في الأمر والمعنى وبفتحها في الأشخاص .

(113/667)

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ

لما ذكر عز وجل أنه ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل مجملاً جاء بعد ذلك بمثل في أهم الأمور وأعظمها خطراً وهو التوحيد ، فمثل تعالى الكافر والعابد للأوثان والشياطين لرجال عدة في أخلاقهم شكاسة ونقص وعدم مسامحة ، فهم لذلك يعذبون ذلك العبد بأنهم يتضايقون في أوقاتهم ويضايقون العبد في كثرة العمل ، فهو أبداً ناصب ، فكذلك عابد الأوثان الذي يعتقد أن ضره ونفعه عندها هو معذب الفكر بها وبحراسة حاله منها ، ومتى أرضى صنماً منها بالذبح له في زعمه تفكر فيما يصنع مع الآخر ، فهو أبداً تعب في ضلال ، وكذلك هو المصانع للناس الممتحن بخدمة الملوك ، ومثل تعالى المؤمن بالله وحده بعبد لرجل

واحد يكلفه شغله فهو يعمله على تؤدته وقد ساس مولاه ، فالمولى يغفر زلته ويشكره على إعادة عمله .

وقوله : ﴿ ضرب ﴾ مأخوذ من الضريب الذي هو الشبيه ، ومنه قولهم : هذا ضرب هذا ، أي شبهه . و: ﴿ مثلاً ﴾ مفعول ب ﴿ ضرب ﴾ ، و: ﴿ رجلاً ﴾ نصب على البدل . قال الكسائي : وإن شئت على إسقاط الخافض . أي مثلاً لرجل أو في رجل ، وفي هذا نظر ، و: ﴿ متشاكسون ﴾ معناه : لا سمح في أخلاقهم بل فيها لجاج ومتابعة ومحاذقة ، ومنه قول الشاعر : [الرجز]

خلقت شكساً للأعادي مشكسا . . . أكوي السريين وأحسن النسا

من شاء من حر الجحيم استقبسا . . . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : " سالماً " ، على اسم الفاعل بمعنى سلم من الشركة فيه . قال أبو عمرو معناه : خالصاً ، وهذه بالألف قراءة ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والجحدري والزهري والحسن بخلاف عنه . وقرأ الباقون : " سَلَماً " ، بفتح السن اللام ، وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر وشيبة وأبي رجاء وطلحة والحسن بخلاف . وقرأ سعيد بن جبير : " سِلْماً " ، بكسر السين وسكون اللام ، وهما مصدران وصف بهما الرجل بمعنى خالصة وأمر قد سلم له .

ثم وقف الكفار بقوله : ﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ ونصب ﴿ مثلاً ﴾ على التمييز ، وهذا توقيف لا يجيب عنه أحد إلا بأنهما لا يستويان ، فلذلك عاملتهم العبارة الوجيزة على أنهم قد جاوبوا ، فقال : ﴿ الحمد لله ﴾ أي على ظهور الحجة عليكم من أقوالكم . ثم قال تعالى : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ فأضرب عن مقدر محذوف يقتضيه المعنى ، تقديره : الحمد لله على ظهور الحجة ، وأن الأمر ليس كما يقولون ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ . و" أكثر " في هذه الآية على بابها ، لأنا وجدنا الأقل علم أمر التوحيد وتكلم به ورفض الأصنام كورقة وزيد وقس . ثم ابتدأ القول معهم غرضاً آخر من الوعيد يوم القيامة والخصوم ومن التحذير من حال الكذبة على الله المكذبين بالصدق ، فقدم تعالى لذلك توطئة مضمنها وعظ النفوس وتهيئتها لقبول الكلام وحذف التوعد ، وهذا كما تريد أن تنهى إنساناً عن معاصيه أو تأمره بخير فتفتتح كلامك بأن تقول : كلنا يفنى ولا بد للجميع من الموت ، أو كل من عليها فان ، ونحو هذا مما توقن به نفس الذي تحاور ، ثم بعد هذا تورد قولك ، فأخبر تعالى أن الجميع " ميت " .

(115/667)

وهذه قراءة الجمهور ، وقرأها " مائت " و" مايتون " بألف ابن الزبير وابن محيصن وابن أبي إسحاق واليماني وعيسى بن عمر وابن أبي عبلة . والضمير في ﴿ إنهم ﴾ لجميع العالم ، دخل رجل على صلة بن أشيم فنعى إليه أخاه ، وبين يدي صلة طعام فقال صلة للرجل : ادن فكل ، فإن أخي قد نعي إليَّ منذ زمان ، قال الله تعالى : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ والضمير في ﴿ إنكم ﴾ قيل هو عام فيختصم يوم القيامة المؤمنون والكافرون فيما كان من ظلم الكافرين لهم في كل موطن ظلموا فيه ، ومن هذا قول علي بن أبي طالب : أنا أول من يجثو يوم القيامة للخصومة بين يدي الرحمن ، فيختصم علي وحمزة وعبيدة بن الحارث مع عتبه وشيبة والوليد ، ويختصم أيضاً المؤمنون بعضهم مع بعض في ظلاماتهم ، قاله أبو العالية وغيره . وقال الزبير بن العوام للنبي عليه السلام : أيكتب علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال نعم ، حتى يؤدى إلى ذي كل حق حقه . وقد قال عبد الله بن عمر لما نزلت هذه الآية : كيف نختصم ونحن أخوان ؟ فلما قتل عثمان وضرب بعضنا وجوه بعض بالسيوف ، قلنا هذا الخصام الذي وعدنا ربنا . ويختصم أيضاً على ما روي : الروح مع الجسد ، في أن يذنب كل واحد منهما صاحبه ويجعل المعصية في حيزه ، فيحكم الله تعالى بشركتهما في ذلك .

قال القاضي أبو محمد : ومعنى الآية عندي أن الله تعالى توعدهم بأنهم سيخاصمون يوم

القيامة في معنى ردهم في معنى الشريعة وتكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(116/667)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سواء العذاب ﴾

قال عطاء وابن زيد : يُرْمَى به مكتوفاً في النار فأوّل شيء تمس منه النار وجهه .

وقال مجاهد : يجرّ على وجهه في النار .

وقال مقاتل : هو أن الكافر يُرمى به في النار مغلولة يداه إلى عنقه ، وفي عنقه صخرة عظيمة كالجبل العظيم من الكبريت ، فتشتعل النار في الحجر وهو معلّق في عنقه ، فحرها ووهجها على وجهه ؛ لا يطيق دفعها عن وجهه من أجل الأغلال .

والخبر محذوف .

قال الأخفش : أي ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سواء العذاب ﴾ أفضل أم من سَعِد ، مثل ﴿ أَفَمَن يلقى فِي النار خَيْرٌ أَم مَّن يأتي آمِناً يَوْمَ القيامة ﴾ [فصلت : 40] .

﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي وتقول الخزنة للكافرين ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي جزاء

كسبكم من المعاصي .

ومثله : ﴿ هذا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : 35] .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ فَأَذَاقَهُمُ الله الخزي فِي الحياة الدنيا ﴾ تقدّم معناه .

وقال المبرد : يقال لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته ، أي وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما .

قال : والخِزي من المكروه والخَزاية من الاستحياء ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَكْبَرُ ﴾ أي مما أصابهم في الدنيا ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي من كل مثلٍ يحتاجون إليه ؛ مثل قوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] وقيل : أي ما ذكرناه من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون .

﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ نصب على الحال .

قال الأخفش : لأن قوله جل وعز : ﴿ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ معرفة .

وقال علي بن سليمان : ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ نصب على الحال و ﴿ قُرْآنًا ﴾ توطئة للحال كما تقول مررت بزيد رجلاً صالحاً فقولك صالحاً هو المنصوب على الحال .

وقال الزجاج : ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ منصوب على الحال و ﴿ قُرْآنًا ﴾ توكيد .

﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ النحاس : أحسن ما قيل فيه قول الضحاك ، قال : غير مختلف .

وهو قول ابن عباس ، ذكره الثعلبي .

وعن ابن عباس أيضاً غير مخلوق ، ذكره المهدوي وقاله السدي فيما ذكر الثعلبي .

وقال عثمان بن عفان : غير متضاد .

وقال مجاهد : غير ذي لَبْس .

وقال بكر بن عبد الله المزني : غير ذي لَحْن .

وقيل : غير ذي شكّ .

قاله السدي فيما ذكره الماوردي .

قال :

وقد أتاكَ يقينٌ غيرُ ذي عِوجٍ . . .

مِن الإلهِ وقولٌ غيرُ مكذوبِ

﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والكذب .

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ قال الكسائي : نصب

"رَجُلاً" لأنه ترجمة للمثل وتفسير له ، وإن شئت نصبته بنزع الخافض ، مجازه : ضرب الله مثلاً برجل "فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ" قال الفرّاء : أي مختلفون .

وقال المبرّد : أي متعاسرون من شَكُس يَشكُس شُكْساً (بوزن قفل) فهو شَكِسٌ مثل عَسُر يَعْسُر عُسْراً فهو عسِر ؛ يقال : رجل شَكِسٌ وشَرِسٌ وضَرِسٌ وضَبِسٌ .

ويقال : رجل ضَبِسٌ وضَبِيسٌ أي شِرِسٌ عسِر شَكِسٌ ؛ قاله الجوهري .

الزمخشري : والتشاكس والتشاخس الاختلاف .

يقال : تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه .

ويقال : شاكسني فلان أي ماكسني وشاحَّني في حقي .

قال الجوهري : رجل شَكْس بالتسكين أي صَعْب الخُلُق .

قال الراجز :

شَكْسٌ عَبُوسٌ عَنْبَسٌ عَذَوَّرُ . . .

وقوم شُكْسٌ مثال رَجلٌ صَدْق وقوم صُدْق .

وقد شَكِس بالكسر شَكَاسةً .

وحكى الفراء : رجل شَكِسٌ .

وهو القياس ، وهذا مَثَل مَن عبد آلهة كثيرة .

﴿ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ ﴾ أي خالصاً لسيد واحد ، وهو مَثَل مَن يعبد الله وحده .

﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ هذا الذي يخدم جماعة شركاء ، أخلاقهم مختلفة ، ونياتهم متباينة ، لا يلقاه رجل إلا جرّه واستخدمه ؛ فهو يلقى منهم العناء والنصب والتعب العظيم ، وهو مع ذلك كله لا يرضي واحداً منهم بخدمته لكثرة الحقوق في رقبته ، والذي يخدم واحداً لا ينازعه فيه أحد ، إذا أطاعه وحده عرف ذلك له ، وإن أخطأ صفح عن خطئه ، فأيهما أقل تعباً أو على هدى مستقيم .

وقرأ أهل الكوفة وأهل المدينة "وَرَجُلاً سَلَماً" وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وعاصم الجَحْدَري وأبو عمرو وابن كثير ويعقوب "وَرَجُلاً سَالِماً" واختاره أبو عبيد لصحة التفسير فيه .

قال لأن السالم الخالص ضدّ المشترك ، والسَّلَم ضدّ الحرب ولا موضع للحرب هنا .

النحاس : وهذا الاحتجاج لا يلزم ؛ لأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما ، فهذا وإن كان السلم ضدّ الحرب فله موضع آخر ؛ كما يقال لك في هذا المنزل شركاء فصار سلماً لك .

ويلزمه أيضاً في سالم ما ألزم غيره ؛ لأنه يقال شيء سالم أي لا عاهة به .

والقراءتان حسنتان قرأ بهما الأئمة .

واختار أبو حاتم قراءة أهل المدينة "سَلَماً" قال وهذا الذي لا تنازع فيه .

وقرأ سعيد بن جبير وعكرمة وأبو العالية ونصر "سِلْماً" بكسر السين وسكون اللام .

وسِلْماً وسَلَماً مصدران ، والتقدير : ورجلاً ذا سلم فحذف المضاف و"مَثَلاً" صفة على التمييز ، والمعنى هل تستوي صفتاهما وحالاهما .

وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس .

﴿ الحمد للَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ الحق فيتبعونه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ وقرأ ابن محيصن وابن أبي عَبْلة وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق ﴿ إِنَّكَ مَائِتٌ وَإِنَّهُمْ مَائِتُونَ ﴾ وهي قراءة حسنة وبها قرأ عبد الله بن الزبير .

(119/667)

النحاس : ومثل هذه الألف تحذف في الشواذ و ﴿ مائت ﴾ في المستقبل كثير في كلام العرب ؛ ومثله ما كان مريضاً وإنه لمارض من هذا الطعام .

وقال الحسن والفراء والكسائي : الميّت بالتشديد من لم يمت وسيموت ، والمَيْت

بالتخفيف من فارقته الروح؛ فلذلك لم تخفف هنا .

قال قتادة : نُعِيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم نفسُه ، ونُعِيت إليكم أنفُسكم .

وقال ثابت البُنَاني : نَعَى رجلٌ إلى صلة بن أَشْيَم أخاً له فوافقه يأكل ، فقال : ادْنُ فكُلْ فقد نُعِي إلي أخي منذ حين ؛ قال : وكيف وأنا أوّل من أتاك بالخبر .

قال إن الله تعالى نعاه إليّ فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ .

وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أخبره بموته وموتهم ؛ فاحتمل خمسة أوجه :

أحدها أن يكون ذلك تحذيراً من الآخرة .

الثاني أن يذكره حثًّا على العمل .

الثالث أن يذكره توطئة للموت .

الرابع لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره ، حتى أن عمر رضي الله عنه لما أنكر موته احتج أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية فأمسك .

الخامس ليعلمه أن الله تعالى قد سوّى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره ؛ لتكثر فيه السلوة وتقل فيه الحسرة .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ يعني تخاصم الكافر والمؤمن والظالم والمظلوم ؛ قاله ابن عباس وغيره .

وفي خبر فيه طول : إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاج الروح الجسد .

" وقال الزبير : لما نزلت هذه الآية قلنا : يا رسول الله ! أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : "نعم ليكررنّ عليكم حتى يؤدَّى إلى كل ذي حق حقه" " فقال الزبير : والله إن الأمر لشديد .

(120/667)

وقال ابن عمر : لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فقلنا : وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد ، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ؛ فعرفت أنها فينا نزلت .

وقال أبو سعيد الخدري : كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة .

فلما كان يوم صِفِّين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا .

وقال إبراهيم النَّخَعي : لما نزلت هذه الآية جعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : ما خصومتنا بيننا ؟ فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا : هذه خصومتنا بيننا .

وقيل : تخاصمهم هو تحاكمهم إلى الله تعالى ، فيستوفي من حسنات الظالم بقدر مظلمته ، ويردّها في حسنات من وجبت له .

وهذا عام في جميع المظالم كما في حديث أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتدرون من المفلس" قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع .

قال : "إن المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرِحت عليه ثم طرح في النار" " خرجه مسلم .

وقد مضى (هذا) المعنى مجوَّداً في "آل عمران" وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كانت له مظلمة لأحد من عِرْضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه فحمل عليه " وفي الحديث المسند : " أوّل ما تقع الخصومات في الدنيا " وقد ذكرنا هذا الباب كله في "التذكرة" مستوفى . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(121/667)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾

عن ابن عباس ، أن قوماً من الصحابة قالوا : يا رسول الله ، حدثنا بأحاديث حسان ، وبأخبار الدهر ، فنزل : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ .

وعن ابن مسعود ، أن الصحابة ملأوا مكة ، فقالوا له : حدثنا ، فنزلت .

والابتداء باسم الله ، وإسناد نزل لضميره مبنياً عليه فيه تفخيم للمنزل ورفع منه ، كما تقول : الملك أكرم فلاناً ، هو أفخم من : أكرم الملك فلاناً .

وحكمة ذلك البداءة بالأشراف من تذكر ما تسند إليه ، وهو كثير في القرآن ، كقوله : ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ﴾ و ﴿ وكتاباً ﴾ بدل من ﴿ أحسن الحديث ﴾ .

وقال الزمخشري : ويحتمل أن يكون حالاً . انتهى .

وكان بناء على أن ﴿ أحسن الحديث ﴾ معرفة لإضافته إلى معرفة .

وأفعل التفضيل ، إذا أضيف إلى معرفة ، فيه خلاف .

فقيل : إضافته محضة ، وقيل : غير محضة .

و ﴿ مشابهاً ﴾ : مطلق في مشابهة بعضه بعضاً .

فمعانيه متشابهة ، لا تناقض فيها ولا تعارض ، وألفاظه في غاية الفصاحة والبلاغة والتناسب ، بحيث أعجزت الفصحاء والبلغاء .

وقرأ الجمهور : ﴿ مثاني ﴾ ، بفتح الياء ؛ وهشام ، وابن عامر ، وأبو بشر : بسكون الياء ، فاحتمل أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، واحتمل أن يكون منصوباً ، وسكن الياء على قول من يسكن الياء في كل الأحوال ، لانكسار ما قبلها استثقالا للحركة عليها .

ومثاني يظهر أنه جمع مثنى ، ومعناه : موضع تثنية القصص والأحكام والعقائد والوعد والوعيد .

وقيل : يثنى في الصلاة بمعنى : التكرير والأعادة . انتهى .

ووصف المفرد بالجمع ، لأن فيه تفاصيل ، وتفاصيل الشيء جملته .

ألا ترى أنك تقول : القرآن سور وآيات ؟ فكذلك تقول : أحكام ومواعظ مكررات ، وأصله كتاباً متشابهاً فصولاً مثاني ، حذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه .

(122/667)

وأجاز الزمخشري أن يكون من باب برمة أعشار وثوب أخلاق ، وأن يكون تمييزاً عن متشابهاً ، فيكون منقولاً من الفاعل ، أي متشابهاً مثانية .

كما تقول : رأيت رجلاً حسناً شمائل ، وفائدة تثنيته وتكرره رسوخه في النفوس ، إذ هي أنفر شيء عن سماع الوعظ والنصيحة .

والظاهر حمل القشعريرة على الحقيقة ، إذ هو موجود عند الخشية ، محسوس يدركه الإنسان من نفسه ، وهو حاصل من التأثر القلبي .

وقيل : هو تمثيل تصوير لإفراط خشيتهم ، والمعنى : أنه حين يسمعونه يتلي ما فيه من آيات الوعيد ، عرتهم خشية تنقبض منها جلودهم .

ثم إذا ذكروا الله ورحمته لانت جلودهم ، أي زال عنها ذلك التقبض الناشىء عن خشية القلوب بزوال الخشية عنها ، وضمن تلين معنى تطمئن جلودهم لينة غير منقبضة ، وقلوبهم راجية غير خاشية ، ولذلك عداه بإلى .

وكان في ذكر القلوب في هذه الجملة دليل على تأثرها عند السماع ، فاكتفى بقشعريرة الجلود عن ذكر خشية القلوب لقيام المسبب مقام السبب .

فلما ذكر اللين ذكرهما ، وفي ذكر اللين دليل على المحذوف الذي هو رحمة الله ، كما كان في قوله : ﴿ إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾

دليل بقوله : ﴿ وجلت ﴾ عن ذكر المحذوف ، أي إذا ذكر وعيد الله وبطشه .

وقال العباس بن عبد المطلب : قال النبي عليه السلام : " من اقشعر جلده من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها " وقال ابن عمر : وقد رأى ساقطاً من سماع القرآن فقال : إنا لنخشى الله ، وما نسقط هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم .

وقالت أسماء بنت أبي بكر : كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم عند سماع القرآن ، قيل لها : إن قوماً اليوم إذا اسمعوا القرآن خر أحدهم مغشياً عليه ، فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

(123/667)

وقال ابن سيرين : بيننا وبين هؤلاء الذين يصرعون عند قراءة القرآن أن يجعل أحدهم على حائط باسطاً رجليه ، ثم يقرأ عليه القرآن كله ، فإن رمى بنفسه فهو صادق .

والإشارة بذلك إلى الكتاب ، أو إلى ذينك الوصفين من الاقشعرار واللين ، أي أثر هدى الله .

﴿ أفمن يتقي ﴾ : أي يستقبل ، كما قال الشاعر :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه . . .

فتناولته واتقتنا باليد

أي : استقبلتنا بيدها لتقي بيدها وجهها أن يرى .

والظاهر حمل بوجهه على حقيقته .

لما كان يلقي في النار مغلولة يداه إلى رجليه مع عنقه ، لم يكن له ما يتقي به النار إلا وجهه .

قال مجاهد : يجر على وجهه في النار ، ويجوز أن يعبر بالوجه عن الجملة .

وقيل : المعنى وصف كثرة ما ينالهم من العذاب ، يتقيه أولاً بجوارحه ، فيتزيد حتى يتقيه بوجهه الذي هو أشرف جوارحه ، وفيه جواب ، وهو غاية العذاب .

قال ابن عطية : وهذا المعنى عندي أبين بلاغة .

في هذا المضمار يجري قول الشاعر :

يلقي السيوف بوجهه وبنحره . . .

ويقيم هامته مقام المغفر

لأنه إنما أراد عظم جرأته عليها ، فهو يلقاها بكل مجن ، وبكل شيء عنه ، حتى بوجهه وبنحره . انتهى .

و ﴿ سوء العذاب ﴾ : أشده ، وخبر من محذوف قدره الزمخشري : كمن أمن العذاب ، وابن عطية : كالمنعمين في الجنة .

﴿ وقيل للظالمين ﴾ : أي قال ذلك خزنة النار ، ﴿ ذوقوا ما كنتم ﴾ : أي وبال ما كنتم ﴿ تكسبون ﴾ من الأعمال السيئة .

﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ : تمثيل لقريش بالأمم الماضية ، وما آل إليه أمرهم من الهلاك .

﴿ فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ : من الجهة التي لا يشعرون أن العذاب يأتيهم من قبلها ، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها .

كانوا في أمن وغبطة وسرور ، فإذا هم معذبون مخزيون ذليلون في الدنيا من ممسوخ ومقتول ومأسور ومنفي .

ثم أخبر أن ما أعد لهم في الآخرة أعظم .

وانتصب ﴿ قرآناً عربياً ﴾ على الحال ، وهي حال مؤكدة ، والحال في الحقيقة هو عربياً ، وقرآنا توطئة له .

(124/667)

وقيل : انتصب على المدح ، ونفى عنه العوج ، لأنه مستقيم يرى من الاختلاف والتناقض .

وقال عثمان بن عفان : غير مضطرب .

وقال ابن عباس : غير مختلف .

وقال مجاهد : غير ذي لبس .

وقال السدي : غير مخلوق .

وقيل : غير ذي لحن .

قال الزمخشري : فإن قلت : فهلا قيل مستقيماً أو غير معوج ؟ قلت : فيه فائدتان :

إحدهما : نفى أن يكون فيه عوج قط ، كما قال : ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ والثاني : أن

لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان .

وقيل : المراد بالعوج : الشك واللبس ، وأنشد :

وقد أتاك يقيناً غير ذي عوج . . .

من الإله وقول غير مكذوب

انتهى .

ولما ذكر تعالى أنه ضرب في القرآن ﴿ من كل مثل ﴾ : أي محتاج إليه ، ضرب هنا مثلاً لعابد آلهة كثيرة ، ومن يعبد الله وحده ، ومثل برجل مملوك اشترك فيه ملاك سيئو الأخلاق ، فهو لا يقدر أن يوفي كل واحد منهم مقصوده ، إذ لا يتغاضى بعضهم لبعض لمشاحتهم ، وطلب كل منهم أن يقضي حاجته على التمام ، فلا يزال في عناء وتعب ولوم من كل منهم . ورجل آخر مملوك جميعه لرجل واحد ، فهو معني بشغله لا يشغله عنه شيء ، ومالكه راض عنه إن قد خلص لخدمته وبذل جهده في قضاء حوائجه ، فلا يلقى من سيده إلا إحساناً ، وتقدم الكلام في نصب المثل وما بعده .

وقال الكسائي : انتصب رجلاً على إسقاط الخافض ، أي مثلاً لرجل ، أو في رجل فيه ، أي في رقه مشتركاً ، وفيه صلة لشركاء .

وقرأ عبد الله ، وابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والزهري ، والحسن : بخلاف عنه ؛ والجحدري ، وابن كثير وأبو عمرو : سالما اسم فاعل من سلم ، أي خالصاً من

الشركة .

وقرأ الأعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وأبو رجاء ، وطلحة ، والحسن : بخلاف عنه ؛ وباقي السبعة : سلما بفتح السين واللام .

وقرأ ابن جبير : سلما بكسر السين وسكون اللام ، وهما مصدران وصف بهما مبالغة في الخلوص من الشركة .

وقرىء : ورجل سالم ، برفعهما .

وقال الزمخشري : أي وهناك رجل سالم لرجل .

(125/667)

انتهى ، فجعل الخبر هناك .

ويجوز أن يكون ورجل مبتدأ ، لأنه موضع تفصيل ، إذ قد تقدم ما يدل عليه ، فيكون كقول امرىء القيس :

إذا ما بكى من خلفها انحرفت له . . .

بشقّ وشق عندنا لم يحوّل

وقال الزمخشري : وإنما جعله رجلاً ليكون أفطن لما شقى به أو سعد ، فإن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك .

وانتصب مثلاً على التمييز المنقول من الفاعل ، إذ التقدير : هل يستوي مثلهما ؟ واقتصر في التمييز على الواحد ، لأنه المقتصر عليه أولا في قوله : ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ ، ولبيان الجنس .

وقرىء : مثلين ، فطابق حال الرجلين .

وقال الزمخشري : ويجوز فيمن قرأ مثلين أن يكون الضمير في يستويان للمثلين ، لأن التقدير مثل رجل ، والمعنى : هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية ؟ كما يقول : كفى بهما رجلين . انتهى .

والظاهر أنه يعود الضمير في يستويان إلى الرجلين ، فأما إذا جعلته عائداً إلى المثلين اللذين ذكر أن التقدير مثل رجل ورجل ، فإن التمييز إذ ذاك يكون قد فهم من المميز الذي هو الضمير ، إذ يصير التقدير : هل يستوي المثلان مثلين ؟ قل : ﴿ الحمد لله ﴾ : أي الثناء والمدح لله لا لغيره ، وهو الذي ثبتت وحدانيته ، فهو الذي يجب أن يحمد ، ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ، فيشركون به غيره .

ولفظة الحمد لله تشعر بوقوع الهلاك بهم بقوله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ ولما لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل الباهرة ، أخبر الجميع بأنهم ميتون وصائرون

إليه ، وأن اختصامكم يكون بين يديه يوم القيامة ، وهو الحكم العدل ، فيتميز المحق من المبطل ، وهو عليه السلام وأتباعه المحقون الفائزون بالظفر والغلبة ، والكافرون هم المبطلون .

فالضمير في وإنك خطاب للرسول ، وتدخل معه أمته في ذلك .

(126/667)

والظاهر عود الضمير في ﴿ وإنهم ﴾ على الكفار ، وغلب ضمير الخطاب في ﴿ إنك ﴾ على ضمير الغيبة في إنهم ، ولذلك جاء ﴿ تختصمون ﴾ بالخطاب ، فتحتج أنت عليهم بأنك قد بلغت ، وكذبوا واجتهدت في الدعوة ، ولجوا في العناد .

وقال أبو العالية : هم أهل القبلة ، يختصمون بينهم يوم القيامة في مظالمهم .

وأبعد من ذهب إلى أن هذا الخصام سببه ما كان في قتل عثمان ، وما جرى بين علي ومعاوية بسبب ذلك ، رضى الله عنهم .

وقيل : يختصم الجميع ، فالكفار يخاصم بعضهم بعضاً حتى يقال لهم : لا تختصموا لدي .

والمؤمنون يتلقون الكافرين بالحجج ، وأهل القبلة يكون بينهم الخصام .

وقرأ ابن الزبير ، وابن أبي إسحاق ، وابن محيصن ، وعيسى ، واليماني ، وابن أبي غوث ،

وابن أبي عبلة : إنك مائت وإنهم مائتون ، وهي تشعر بحدوث الصفة ؛ والجمهور : ميت وميتون ، وهي تشعر بالثبوت واللزوم كالحي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(127/667)

وقال أبو السعود :

﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ ﴾ الخ

(128/667)

استئنافٌ جارٍ مجرى التَّعليقِ لما قبلَه من تباينِ حالَيْ المُهتدي والضَّالِّ . والكلامُ في الهمزةِ والفاءِ وحذفِ الخبرِ كالذي مرَّ في نظيريهِ . والتَّقديرُ أكلُّ النَّاسِ سواءٌ فمَن شأنُه أنَّه يقي نفسَه بوجهِهِ الذي هو أشرفُ أعضائِه ﴿ سُوء العذاب ﴾ أي العذابَ السَّيءِ الشَّديدَ ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ لكونِ يدِهِ التي بها كان يتَّقي المكارَهَ والمخاوفَ مغلولةً إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه مكروه ولا يحتاج إلى الاتّقاء بوجهٍ من الوجوهِ . وقيل نزلتْ في أبي جهلٍ ﴿

وَقِيلَ لِلظَّلِمِينَ ﴾ عطفٌ على يتَّقي أي ويقالُ لهم من جهةِ خزَنَةِ النَّارِ . وصيغةُ الماضِي للدّلالةِ على التَّحقُّقِ والتَّقررِ وقيل : هو حالٌ من ضميرِ يتَّقي بإضمارِ قَدْ ، ووضع المُظهر في مقام المُضمرِ للتَّسجيلِ عليهم بالظُّلم والإشعار بعلَّةِ الأمرِ في قوله تعالى ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي وبالَ ما كنتُم تكسبونَه في الدُّنيا على الدَّوامِ من الكفرِ والمعاصي . ﴿ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ أصابَ بعضَ الكفرةِ من العذابِ الدنيويِّ إثرَ بيانِ ما يُصيب الكلَّ من العذابِ الأخرويِّ . أي كذَّب الذين من قبلِهم من الأممِ السَّالفةِ . ﴿ فأتاهم العذاب ﴾ المقدَّرُ لكلِّ أمَّةٍ منهم ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ من الجهةِ التي لا يحتسبونَ ولا يخطرُ ببالِهم إتيانُ الشَّرِّ منها . ﴿ فَأَذَاقَهُمُ الله الخزى ﴾ أي الذُّلَّ والصَّغارَ ﴿ فِى الحياة الدنيا ﴾ كالمسخِ والخسفِ والقتلِ والسَّبي والإجلاءِ ونحوِ ذلك من فنونِ النَّكالِ . ﴿ وَلَعَذَابُ الأخرة ﴾ المعدّ لهم ﴿ أَكْبَرَ ﴾ لشدَّتِه وسرمدِيَّتِه ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كانَ من شأنِهم أنْ يعلمُوا شيئاً لعلمُوا ذلكَ واعتبرُوا به . ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتاجُ إليه النَّاظرُ في أمورِ دينِه ﴾

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ كي يتذكَّروا به ويتعَظوا . ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ حالٌ مؤكَّدةٌ من هذا على أنَّ مدارَ التَّأكيدِ هو الوصفُ كقولِك جاءني زيدٌ رَجُلاً صالِحاً أو مدحٌ له ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ لا اختلافَ فيه بوجهٍ من الوجوهِ فهو أبلغُ من المستقيمِ وأخصُّ بالمعانِي . وقيل : المرادُ بالعوجِ الشَّكُّ . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ علَّةٌ أُخرى مترتِّبةٌ على الأولى . ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء متشاكسون ﴾ إيرادٌ لمثلٍ من الأمثالِ القُرآنيةِ بعد بيانِ أنَّ الحكمةَ في ضربِها هو التَّذكُّرُ والاتِّعاظُ بها وتحصيلُ التَّقوى . والمرادُ بضربِ المثلِ هَهُنا تطبيقُ حالةٍ عجيبةٍ بأُخرى مثلِها وجعلِها مثلَها كما مرَّ في سُورة يس ومثلاً مفعولٌ ثانٍ لضربَ ورجلاً مفعولُه الأوَّلُ أُخِّر عن الثَّاني للتَّشويقِ إليه وليتَّصلَ به ما هُو من تتمتِه التي هي العُمدةُ في التَّمثيلِ وفيه ليسَ بصلةٍ لشركاءِ كما قيل بل هُو خبرٌ له وبيانٌ أنَّه في الأصلِ كذلكَ مَّما لا حاجةَ إليهِ .

(130/667)

والجملةُ في حيِّزِ النَّصبِ على أنَّه وصفٌ لرجلاً أو الوصفُ هو الجارُّ والمجرورُ وشركاء مرتفعٌ به على الفاعليةِ لاعتمادِه على الموصوفِ فالمعنى جعلَ اللهُ تعالى مثلاً للمشركِ حسبَما يقودُ إليهِ مذهبُه من ادِّعاءِ كلِّ من معبوديه عبوديتَه عبداً يتشاركُ فيه جماعة

يتجاذبونه ويتعاورُونه في مهمَّاتهم المتباينةِ في تحيُّرِه وتوزُّعِ قلبه ﴿ وَرَجُلاً ﴾ أي وجعل للموحّد مثلاً رجلاً ﴿ سلاما ﴾ أي خالصاً ﴿ لِرَجُلٍ ﴾ فردٍ ليس لغيره عليه سبيل أصلاً . وقُرِىء سَلْماً وسِلْماً بفتح السين وكسرِها مع سكون اللَّامِ . والكُلُّ مصادرٌ من سَلم له كذا أي خلُص نُعتَ به مبالغةً أو حُذف منها ذُو . وقرِىء سالماً وسالم ، أي وهناك رجلٌ سالم . وتخصيصُ الرَّجُلِ لأنَّه أفطن لما يجري عليه من الضُّرِّ والنَّفعِ . ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ إنكارٌ واستبعاد لاستوائِهما ونفيٌ له على أبلغِ وجهٍ وآكدِه وإيذانٌ بأنَّ ذلك من الجلاء والظُّهور بحيث لا يقدرُ أحدٌ أنْ يتفوَّه باستوائِهما أو يتلعثم في الحُكم بتباينهما ضرورةَ أنَّ أحدهما في أعلى عِلّيِّينَ والآخرُ في أسفلِ سافلينَ . وهو السِّرُّ في إيهام الفاضلِ والمفضولِ وانتصاب مثلاً على التَّمييزِ أي هل يستوي حالاهُما وصفتاهُما . والاقتصارُ في التَّمييزِ على الواحد لبيان الجنسِ . وقُرِىء مَثَلين . كقوله تعالى : ﴿ وَأَكْثَرَ أموالا وأولادا ﴾ للإشعارِ باختلاف النَّوعِ أو لأنَّ المرادَ هل يستويانِ في الوصفين على أنَّ الضَّميرَ للمثلينِ ، لأنَّ التَّقديرَ مَثَلُ رجلٍ فيه الخ ومَثَلُ رجلٍ الخ . وقولُه تعالى ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ تقريرٌ لما قبله من نفيِ الاستواءِ بطريقِ الاعتراضِ وتنبيهٌ للموحّدين على أنَّ ما لهُم من المزِّيَةِ بتوفيقِ الله تعالى وأنَّها نعمةٌ جليلةٌ موجبةٌ عليهم أنْ يداوِمُوا على حمدِه وعبادتِه أو على أنَّ بيانه تعالى بضرب المثل أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل

السَّوء صنعٌ جميلٌ ولطفٌ تامٌّ منه عزَّ وجلَّ مستوجبٌ لحمدِه وعبادتِه . وقولُه تعالى ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من بيان عدمِ الاستواءِ على الوجهِ المذكورِ إلى بيانِ أنَّ أكثرَ النَّاسِ وهو المُشركون لايعلمونَ ذلك مع كمالِ ظُهورِه فيبقون في ورطةِ الشّركِ والضَّلالِ .

وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ تمهيدٌ لما يعقبُه من الاختصامِ يوم القيامةِ . وقُرِىء مائتٌ ومائتونَ . وقيل : كانُوا يتربَّصون برسولِ الله صلى الله عليه وسلم موتَه أي إنَّكم جميعاً بصددِ الموتِ . ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ أي مالكِ أمورِكم ﴿ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فتحتجُّ أنتَ عليهم بأنَّك بلَّغتهم ما أُرسلتَ به من الأحكام والمواعظ التي من جُملتها ما في تضاعيف هذه الآياتِ واجتهدتَ في الدَّعوةِ إلى الحقِّ حقَّ الاجتهادِ وهم قد لجُّوا في المُكابرة والعناد . وقيل : المرادُ به الاختصامُ العامُّ الجاري في الدُّنيا بين الأنامِ . والأوَّلُ هو الأظهرُ الأنسبُ بقوله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(132/667)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوءَ العذاب يَوْمَ القيامة ﴾

استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تباين حال المهتدي والضال ، والكلام في الهمزة والفاء والخبر كالذي مر في نظائره ، ويقال هنا على أحد القولين : التقدير أكل الناس سواء فمن شأنه أن يتقي بوجهه الذي هو أشرف أعضائه يوم القيامة العذاب السيء الشديد لكون يده التي بها كان يتقي المكاره مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه مكروه ولا حتاج إلى الاتقاء بوجه من الوجوه فالوجه على حقيقته وقد يحمل على ذلك من غير حاجة إلى حديث كون اليد مغلولة تصويراً لكمال اتقائه وجده فيه وهو أبلغ ، وفي هذا المضمار يجري قول الشاعر

: يلقى السيوف بوجهه وبنحره . . .

ويقيم هامته مقام المغفر

وجوز أن يكون الوجه بمعنى الجملة والمبالغة عليه دون المبالغة فيما قبله .

وقيل : الاتقاء بالوجه كناية عن عدم ما يتقي به إذ الاتقاء بالوجه لا وجه له لأنه مما لا يتقي به ، ولا يخلو عن خدش ، وإضافة سوء إلى العذاب من إضافة الصفة إلى الموصوف و ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ معمول يتقي كما أشرنا إلى ذلك .

وجوز أن يكون من تتمة سوء العذاب ، والمعنى أفمن يتقي عذاب يوم القيامة كالمصر على

كفره ، وهو وجه حسن والوجه حينئذ كما في الوجه السابق إما الجملة مبالغة في تقواه وإما على الحقيقة تصويراً لكمال تقواه وجده فيها وهو أبلغ .

والمتبادر إلى الذهن المعنى السابق ، والآية قيل نزلت في أبي جهل ﴿ وَقِيلَ لِلظَّلِمِينَ ﴾ عطف على يتقي أي ويقال لهم من جهة خزنة النار ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقيق والتقرر ؛ وقيل الواو للحال والجملة حال من ضمير ﴿ يَتَّقِى ﴾ بإضمار قد أو بدونه ، ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعلة الأمر في قوله تعالى : ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي وبال ما كنتم تكسبون في الدنيا على الدوام من الكفر والمعاصي .

(133/667)

﴿ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ استئناف مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوي إثر بيان ما يصيب الكل من العذاب الأخروي أي كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة ﴿ فأتاهم العذاب ﴾ المقدر لكل أمة منهم ﴿ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ من الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم إتيانه منها لأن ذلك أشد على النفس .

﴿ فَأَذَاقَهُمُ الله الخزى ﴾ أي الذل والصغار ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ كالمسخ والخسف

والقتل والسبي والإجلاء وغير ذلك من فنون النكال ، والفاء تفسيرية مثلها في قوله تعالى : ﴿ فاستجبنا لَهُ فنجيناه ﴾ [الأنبياء : 76] ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة ﴾ المعد لهم ﴿ أَكْبَرَ ﴾ لشدته وسرمديته ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كانوا من شأنهم أن يعلموا شيئاً لعلموا ذلك واعتبروا به .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان ﴾ العظيم الشأن ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمور دينه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي كي يتذكروا ويتعظوا أو مرجوا تذكرهم واتعاظهم ، والرجاء بالنسبة إلى غيره تعالى والتعليل أظهر .

﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ حال من هذا والاعتماد فيها على السفة أعني عربياً وإلا فقرآناً جامداً لا يصلح للحالية وهو أيضاً عين ذي الحال فلا يظهر حاله فالحال في الحقيقة ﴿ عَرَبِيّاً ﴾ وقرراً للتمهيد ونظيره جاء زيد رجلاً صالحاً ، قيل وذلك بمنزلة عربياً محققاً .

(134/667)

وجوز أن يكون منصوباً بمقدر تقديره أعني أو أخص أو أمدح ونحوه ، وأن يكون مفعول ﴿ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ وهو كما ترى ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ لا اختلال فيه بوجه من الوجوه وهو أبلغ من مستقيم لأن عوجاً نكرة وقعت في سياق النفي لما في غير من معناه ، والاستقامة يجوز

أن تكون من وجه دون وجه ونفي مصاحبة العوج عنه يقتضي نفي اتصافه به بالطريق الأولى فهو أبلغ من غير معوج ، والعوج بالكسر يقال فيما يدرك بفكر وبصيرة والعوج بالفتح يقال فيما يدرك بالحس ، وعبر بالأول ليدل على أنه بلغ إلى حد لا يدرك العقل فيه عوجاً فضلاً عن الحسن ، وتمام الكلام مر في الكهف .

وقيل المراد بالعوج الشك واللبس ، وروى ذلك عن مجاهد وأنشدوا قول الشاعر :

وقد أتاك يقين غير ذي عوج . . .

من الإله وقول غير مكذوب

ولا استدلال به على أن العوج بمعنى الشك لأن عوج اليقين هو الشك لا محالة ، والقول في وجه الاستدلال أن الشاعر فهم هذا المعنى من الآية لأنه اقتباس وإذا فهمه الفصيح مع صحة التجوز كان محملاً تعسف ظاهر لأنه لم يتبين أنه اقتبسه منها ولو سلم يكون محتملاً لما يحتمله العوج في النظم الذي لا عوج فيه ، وقد يقال : مراد من قال أي لا لبس فيه ولا شك نفي بعض أنواع الاختلال ، وعلى ذلك ما روى عن عثمان بن عفان من أنه قال : أي غير مضطرب ولا متناقض وما قيل أي غير ذي لحن .

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : غير ذي عوج غير مخلوق ولعله إن صح الخبر تفسير باللازم فتأمل .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ علة أخرى مترتبة على الأولى .

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء متشاكسون ﴾

(135/667)

إيراد لمثل من الأمثال القرآنية بعد بيان أن الحكمة في ضربها هو التذكر والاتعاظ بها وتحصيل التقوى ، والمراد بضرب المثل ههنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها ، و﴿ مَثَلاً ﴾ مفعول ثان لضرب و﴿ رَجُلاً ﴾ مفعوله الأول أخر عن الثاني للتشويق إليه وليتصل به ما هو من تتمته التي هي العمدة في التمثيل أو ﴿ مَثَلاً ﴾ مفعول ضرب و﴿ رَجُلاً ﴾ الخ بدل منه بدل منه بدل كل من كل .

وقال الكسائي : انتصب ﴿ رَجُلاً ﴾ على إسقاط الخافض أي مثل في رجل وقيل غير ذلك وقد تقدم الكلام في نظيره .

و﴿ فِيهِ ﴾ خبر مقدم و﴿ شُرَكَاء ﴾ مبتدأ و﴿ متشاكسون ﴾ صفته والنكرة وإن وصفت يحسن تقديم خبرها .

والجملة صفة ﴿ رَجُلاً ﴾ والرابط الهاء أو الجار والمجرور في موضع الصفة له و﴿ شُرَكَاء ﴾ مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على الموصوف ، وقيل ﴿ فِيهِ ﴾ صلة

شركاء وهو مبتدأ خبره متشاكسون ، وفيه أنه ليس لتقديمه نكتة ظاهرة .

والمعنى ضرب الله تعالى مثلاً للمشرك حسبما يقول إليه مذهبه من ادعاء كل من معبوديه عبوديته عبداً يتشارك فيه جماعة متشاجرون لشكاسة أخلاقهم وسوء طبائعهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المتباينة في تحيره وتوزع قلبه ﴿ وَرَجُلاً ﴾ أي وضرب للموحد مثلاً رجلاً ﴿ سلاما ﴾ أي خالصاً ﴿ لِرَجُلٍ ﴾ فرد ليس لغيره سبيل إليه أصلاً فهو في راحة عن التحير وتوزع القلب وضرب الرجل مثلاً لأنه أفطن لما شقى به أو سعد فإن الصبي والمرأة قد يغفلان عن ذلك .

وقرأ عبد الله .

وابن عباس .

وعكرمة .

ومجاهد .

وقتادة .

الزهري .

والحسن بخلاف عنه .

والجحدري .

وابن كثير .

وأبو عمرو ﴿ سالماً ﴾ اسم فاعل من سلم أي خالصاً له من الشركة .

وقرأ ابن جبير ﴿ قِيلاً سلاما ﴾ بكسر السين وسكون اللام ، وقرىء ﴿ سلاما ﴾ بفتح فسكون وهما مصدران وصف بهما مبالغة في الخلوص من الشركة .

(136/667)

وقرىء ﴿ ورجل سالم ﴾ برفعهما أي وهناك رجل سالم ، وجوز أن لا يقدر شيء ويكون رجل مبتدأ وسالم خبره لأنه موضع تفصيل إذ قد تقدم ما يدل عليه فيكون كقول امرىء القيس :

إذا ما بكى من خلفها انحرفت له . . .

بشق وشق عندنا لم يحول

وقوله تعالى : ﴿ والبصير والسميع هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ إنكار واستبعاد لاستوائهما ونفي له على أبلغ وجه وآكده وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتلعثم في الحكم بتباينهما ضرورة أن أحدهما في لوم وعناء والآخر في راحة بال ورضاء ، وقيل ضرورة أن أحدهما في أعلى عليين والآخر في أسفل سافلين ، وأياً ما كان فالسر في إيهام الفاضل والمفضول الإشارة إلى كمال الظهور عند من له أدنى شعور .

وانتصاب ﴿ مَثَلاً ﴾ على التمييز المحول عن الفاعل إذ التقدير هل يستوي مثلهما وحالهما ، والاقتصار في التمييز على الواحد لبيان الجنس والاقتصار عليه أولاً في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ وقرىء ﴿ مثلين ﴾ أي هل يستوي مثلاهما وحالاهما ، وثني مع أن المقصود من التمييز حاصل بالإفراد من غير لبس لقصد الإشعار بمعنى زائد وهو اختلاف النوع ، وجوز أن يكون ضمير يستويان للمثلين لأن التقدير فيما سبق مثل رجل ومثل رجل أي هل يستوي المثلان مثلين وهو على نحو كفى بهما رجلين وهو من باب لله تعالى دره فارساً ويرجع ذلك إلى هل يستويان رجلين فيما ضرب من المثال ولما كان المثل بمعنى الصفة العجيبة التي هي كالمثل كان المعنى هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ ﴾ تقرير لما قبله من نفي الاستواء بطريق الاعتراض وتنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة تقتضي الدوام على حمده تعالى وعبادته أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عز وجل مستوجب لحمده تعالى وعبادته ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ إضراب وانتقال من بيان عدم

الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره أو ليسوا من ذوي العلم فلا يعلمون ذلك فيبقون في ورطة الشرك والضلال ، وقيل المراد أنهم لا يعلمون أن الكل منه تعالى وأن المحامد إنما هي له عز وجل فيشركون به غيره سبحانه فالكلام من تتمة ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ ولا اعتراض ، ولا يخفى أن بناء الكلام على الاعتراض كما سمعت أولى

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة .

(138/667)

وفي "البحر" أنه لما لم يلتفتوا إلى الحق ولم ينتفعوا بضرب المثل أخبر سبحانه بأن مصير الجميع بالموت إلى الله تعالى وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه وهو عز وجل الحكم العدل فيتميز هناك المحق والمبطل .

وقال بعض الأجلة : إنه لما ذكرت من أول السورة إلى هنا البراهين القاطعة لعرق الشركة المسجلة لفرط جهل المشركين وعدم رجوعهم مع جهده صلى الله عليه وسلم في ردهم إلى الحق وحرصه على هدايتهم اتجه السؤال منه عليه الصلاة والسلام بعد ما قاساه منهم بأن يقول ما حالي وحالهم ؟ فأجيب بأنك ميت وإنهم ميتون الآية .

وقرأ ابن الزبير .

وابن أبي إسحاق .

وابن محيصن .

وعيسى .

واليماني .

وابن أبي غوث .

وابن أبي عبلة ﴿ إِنَّكَ ﴾ والفرق بين ميت ومائت أن الأول : صفة مشبهة وهي تدل على الثبوت ففيها إشعار بأن حياتهم عين الموت وأن الموت طوق في العنق لازم والثاني : اسم فاعل وهو يدل على الحدوث فلا يفيد هنا مع القرينة أكثر من أنهم سيحدث لهم الموت ، وضمير الخطاب على ما سمعت للرسول صلى الله عليه وسلم قال أبو حيان : ويدخل معه عليه الصلاة والسلام مؤمنو أمته ، وضمير الجمع الغائب للكفار وتأكيد الجملة في ﴿ أَنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ للإشعار بأنهم في غفلة عظيمة كأنهم ينكرون الموت وتأكيد الأولى دفعاً لاستبعاد موته عليه الصلاة والسلام ، وقيل للمشاكلة ، وقيل إن الموت مما تكرهه النفوس وتكره سماع خبره طبعاً فكان مظنة أن لا يلتفت إلى الإخبار به أو أن ينكر وقوعه ولو مكابرة فأكد الحكم بوقوعه لذلك ولا يضر في ذلك عدم الكراهة في بعض لخصوصية فيه

كسيد العالمين صلى الله عليه وسلم .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ على تغليب المخاطب على الغيب .

(139/667)

﴿ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ أي مالك أموركم ﴿ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التي من جملتها ما في تضاعيف هذه الآيات واجتهدت في دعوتهم إلى الحق حق الاجتهاد وهم قد لجوا في المكابرة والعناد ويعتذرون بالأباطيل مثل ﴿ أَطَعْنَا سَادَتَنَا ﴾ [الأحزاب : 67] و﴿ وَجَدْنَا ءابَاءنَا ﴾ [الأنبياء : 53] ﴿ غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ [المؤمنون : 106] والجمع بين ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ و﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ لزيادة التهويل ببيان أن اختصامهم ذلك في يوم عظيم عند مالك لأمورهم نافذ حكمه فيهم ولو اكتفى بالأول لاحتمل وقوع الاختصام فيما بينهم بدون مرافعة أو بمرافعة لكن ليست لدى مالك لأمورهم ، والاكتفاء بالثاني على تسليم فهم كون ذلك يوم القيامة معه بدون الاحتمال لا يقوم مقام ذكرهما لما في التصريح بما هو كالعلم من التهويل ما فيه ، وقال جمع : المراد بذلك الاختصام العام فيما جرى في الدنيا بين الأنام لا خصوص الاختصام بينه عليه الصلاة والسلام وبين الكفرة الطغام ، وفي الآثار ما يأبى

الخصوص المذكور .

أخرج عبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن عساكر عن إبراهيم النخعي قال : نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ [الزمر : 30] الخ فقالوا : وما خصومتنا ونحن إخوان فلما قتل عثمان بن عفان قالوا هذه خصومة ما بيننا .

وأخرج سعيد بن منصور عن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ كنا نقول : ربنا واحد وديننا واحد فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا : نعم هو هذا .

وأخرج عبد بن حميد .

والنسائي .

وابن أبي حاتم .

والطبراني .

وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : لقد لبثنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين من قبل ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قلنا : كيف نختصم ونبينا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها نزلت فينا ، وفي رواية أخرى عنه بلفظ نزلت علينا الآية ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ وما ندري فيم نزلت قلنا : ليس بيننا خصومة فما التخاصم حتى وقعت الفتنة فقلت : هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم فيه .

وأخرج أحمد .

وعبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

والترمذي وصححه .

وابن أبي حاتم .

والحاكم وصححه .

وابن مردويه .

وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في البعث والنشور عن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه

قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر : 30] قلت : يا رسول الله أينكر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال : نعم ينكر ذلك عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه قال الزبير : فوالله إن الأمر لشديد .

وزعم الزمخشري أن الوجه الذي يدل عليه كلام الله تعالى هو ما ذكر أولاً واستشهد بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ [الزمر : 32] الخ وبقوله سبحانه : ﴿ والذى جَاء بالصدق ﴾ [الزمر : 33] الخ لدلالتهما على أنهما اللذان تكون الخصومة بينهما ، وكذلك ما سبق من قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً ﴾ (الزمر ؛ 29) الخ .

وتعقب ذلك في "الكشف" فقال : أقول قد نقل عن جلة الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم ما يدل على أنهم فهموا الوجه الثاني أي العموم بل ظاهر قول النخعي قالت الصحابة : ما خصومتنا ونحن إخوان يدل على أنه قول الكل فالوجه إيثار ذلك .

(141/667)

وتحقيقه أن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان ﴾ [الزمر : 27] كلام مع الأمة كلهم موحدهم ومشركهم وكذلك قوله تعالى ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاف ورجلاً

بل أكثرهم ﴾ [الزمر : 29] دون بل هم كالنص على ذلك فإذا قيل : ﴿ إنك ميت ﴾ وجب أن يكون على نحو ﴿ يأَيُّهَا النبى إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ [الطلاق : 1] أي إنكم أيها النبي والمؤمنون وأبهم ليعم القبيلين ولا يتنافر النظم فقد روعي من مفتتح السورة إلى هذا المقام التقابل بين الفريقين لا بينه عليه الصلاة والسلام وحده وبين الكفار ثم إذا قيل : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ على التغليب يكون تغليباً للمخاطبين على جميع الناس فهذا من حيث اللفظ والمساق الظاهر ثم إذا كان الموت أمراً عمه والناس جميعاً كان المعنى عليه أيضاً ، وأما حديث الاختصام والطباق الذي ذكره فليس بشيء لأنه لعمومه يشمله شمولاً أولياً كما حقق هذا المعنى مراراً .

(142/667)

والتعقيب بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ [الزمر : 32] للتنبيه على أنه مصب الغرض وأن المقصود التسلق إلى تلك الخصومة ، ولا أنكر أن قوله تعالى : ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ يدل على أن الاختصام يوم القيامة ولكن أنكر أن يختص باختصام النبي صلى الله عليه وسلم وحده والمشركين بل يتناوله أولاً وكذلك اختصام المؤمنين والمشركين واختصام المؤمنين بعضهم مع بعض كاختصام عثمان رضي الله تعالى عنه يوم القيامة وقاتليه ، وهذا ما ذهب

إليه هؤلاء وهم هم رضي الله تعالى عنهم انتهى ، وكأنه عنى بقوله ولا أنكر الخ رد ما يقال إن ﴿ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ يدل على أن الاختصام يوم القيامة ، وقد صرح في "النظم الجليل" بذلك فيكون تأكيداً مشعراً بالاهتمام بأمر ذلك الاختصام فليس هو إلا اختصام حبيبه صلى الله عليه وسلم مع أعدائه الطغام ، ووجه الرد أنه إن سلم أن فائدة الجمع ما ذكر فلا نسلم استدعاء ذلك لاعتبار الخصوص بل يكفي للاهتمام دخول اختصام الحبيب مع أعدائه عليه الصلاة والسلام فتأمله ، ثم أنت تعلم أنه لو لم يكن في هذا المقام سوى الحديث الصحيح المرفوع لكفى في كون المراد عموم الاختصام فالحق القول بعمومه وهو أنواع شتى ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال في الآية : يخاصم الصادق الكاذب والمظلوم الظالم والمهتدي الضال والضعيف المستكبر ، وأخرج الطبراني .

(143/667)

وابن مردويه بسند لا بأس به عن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته والله ما يتكلم لسانها ولكن يداها ورجلاها يشهدان عليها بما كان لزوجها وتشهد يداه ورجلاه بما كان لها ثم يدعى الرجل وخادمه بمثل ذلك ثم يدعى أهل الأسواق وما يوجد ثم دانق ولا قراريط ولكن

حسنات هذا تدفع إلى هذا الذي ظلمه وسيئات هذا الذي ظلمه توضع عليه ثم يؤتى بالجبارين في مقامع من حديد فيقال أوردوهم إلى النار فوالله ما أدري يدخلونها أو كما قال الله ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ " وأخرج البزار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يجاء بالأمير الجائر فتخاصمه الرعية " وأخرج أحمد .

والطبراني بسند حسن عن عقبة بن عامر قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول خصمين يوم القيامة جاران " ولعل الأولية إضافية لحديث أبي أيوب السابق .

وجاء عن ابن عباس اختصام الروح مع الجسد أيضاً بل أخرج أحمد بسند حسن عن أبي هريرة قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليختصمن يوم القيامة كل شيء حتى الشاتان فيما انتطحا " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 23 صـ ﴾

(144/667)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾

لما ذكر سبحانه الآخرة ، ووصفها بوصف يوجب الرغبة فيها ، والشوق إليها أتبعه بذكر الدنيا ، ووصفها بوصف يوجب الرغبة عنها ، والنفرة منها ، فذكر تمثيلاً لها في سرعة

زوالها ، وقرب اضمحلالها مع ما في ذلك من ذكر نوع من أنواع قدرته الباهرة ، وصنعه البديع ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ أي : من السحاب مطراً ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأرض ﴾ أي : فأدخله ، وأسكنه فيها ، والينابيع جمع ينبوع من نبع الماء ينبع ، والينبوع عين الماء ، والأمكنة التي ينبع منها الماء ، والمعنى : أدخل الماء النازل من السماء في الأرض ، وجعله فيها عيوناً جارية ، أو جعله في ينابيع ، أي : في أمكنة ينبع منها الماء ، فهو على الوجه الثاني منصوب بنزع الخافض .

قال مقاتل : فجعله عيوناً ، وركايا في الأرض ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ أي : يخرج بذلك الماء من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه من أصفر ، وأخضر ، وأبيض ، وأحمر ، أو من برّ ، وشعير ، وغيرهما إذا كان المراد بالألوان الأصناف ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ يقال : هاج النبت يهيج هيجاً إذا تمّ جفافه .

قال الجوهري : يقال : هاج النبت هياجاً : إذا يبس ، وأرض هائجة يبس بقلها ، أو اصفّر ، وأهاجت الريح النبت أيبسته .

قال المبرد : قال الأصمعي : يقال : هاجت الأرض تهيج : إذا أدبر نبتها ، وولى .

قال : وكذلك هاج النبت .

﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ أي : تراه بعد خضرته ، ونضارته ، وحسن رونقه مصفرًّا قد ذهبت خضرته ، ونضارته ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حطاما ﴾ أي : متفتتاً منكسراً ، من تحطم العود إذا تفتت من اليبس ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لذكرى لأُوْلِى الألباب ﴾ أي : فيما تقدّم ذكره تذكير الأهل العقول الصحيحة ، فإنهم الذين يتعقلون الأشياء على حقيقتها ، فيتفكرون ، ويعتبرون ، ويعلمون بأن الحياة الدّنيا حالها كحال هذا الزرع في سرعة التصرم ، وقرب التقضي ، وذهاب بهجتها ، وزوال رونقها ، ونضارتها ، فإذا أنتج لهم التفكر ، والاعتبار العلم بذلك لم يحصل منهم الاغترار بها ، والميل إليها ، وإيثارها على دار النعيم الدائم ، والحياة المستمرة ، واللذة الخالصة ، ولم يبق معهم شك في أن الله قادر على البعث ، والحشر ، لأن من قدر على هذا قدر على ذلك .

وقيل : هو مثل ضربه الله للقرآن ، ولصدور من في الأرض .

والمعنى : أنزل من السماء قرآناً ، فسلكه في قلوب المؤمنين ، ثم يخرج به ديناً بعضه أفضل من بعض ، فأما المؤمن ، فيزداد إيماناً ويقيناً ، وأما الذي في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع ، وهذا بالتغيير أشبه منه بالتفسير .

قرأ الجمهور : ﴿ ثم يجعله ﴾ بالرفع عطفاً على ما قبله ، وقرأ أبو بشر بالنصب بإضمار أن ، ولا وجه لذلك .

ثم لما ذكر سبحانه أن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ، ذكر شرح الصدر للإسلام ، لأن الانتفاع الكامل لا يحصل إلا به ، فقال : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ أي : وسعه لقبول الحقّ ، وفتحه للاهتداء إلى سبيل الخير .

(146/667)

قال السدّي : وسع صدره للإسلام للفرح به ، والطمأنينة إليه ، والكلام في الهمزة ، والفاء كما تقدم في : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب ﴾ [الزمر : 19] ، ومن مبتدأ ، وخبرها محذوف تقديره كمن قسا قلبه ، وحرج صدره ، ودلّ على هذا الخبر المحذوف قوله : ﴿ فَوَيْلٌ للقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ والمعنى : أفمن وسع الله صدره للإسلام ، فقبله ، واهتدى بهديه ﴿ فَهُوَ ﴾ بسبب ذلك الشرح ﴿ على نُورٍ مّن رَّبِّهِ ﴾ يفيض عليه كمن قسا قلبه لسوء اختياره ، فصار في ظلمات الضلالة ، وبليات الجهالة .

قال قتادة : النور كتاب الله به يؤخذ ، وإليه ينتهي .

قال الزجاج : تقدير الآية : أفمن شرح الله صدره كمن طبع على قلبه ، فلم يهتد لقسوته ﴿ فَوَيْلٌ للقاسية قُلُوبُهُمْ مّن ذِكْرِ الله ﴾ قال الفراء ، والزجاج : أي عن ذكر الله كما تقول : أتخمت عن طعام أكلته ، ومن طعام أكلته ، والمعنى : أنه غلظ قلبه ، وجفا عن قبول ذكر

الله ، يقال : قسا القلب إذا صلب ، وقلب قاس ، أي : صلب لا يرقّ ، ولا يلين .

وقيل : معنى من ذكر الله من أجل ذكره الذي حقه أن تنشرح له الصدور ، وتطمئن به القلوب .

والمعنى : أنه إذا ذكر الله اشمأزوا ، والأول أولى ، ويؤيده قراءة من قرأ عن ذكر الله ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى القاسية قلوبهم ، وهو : مبتدأ ، وخبره ﴿ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ أي : ظاهر واضح .

ثم ذكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز ، فقال : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ يعني : القرآن ، وسماه حديثاً ؛ لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدّث به قومه ، ويخبرهم بما ينزل عليه منه .

(147/667)

وفيه بيان أن أحسن القول المذكور سابقاً هو : القرآن ، وانتصاب ﴿ كتابا ﴾ على البدل من أحسن الحديث ، ويحتمل أن يكون حالاً منه ﴿ متشابها ﴾ صفة ل ﴿ كتاباً ﴾ ، أي : يشبه بعضه بعضاً في الحسن ، والأحكام ، وصحة المعاني ، وقوة المباني ، وبلوغه إلى أعلى درجات البلاغة ، وقال قتادة : يشبه بعضه بعضاً في الآي ، والحروف .

وقيل : يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ، و ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ صفة أخرى لكتاباً ، أي : تثنى فيه القصص ، وتتكرر فيه المواعظ ، والأحكام .

وقيل : يثنى في التلاوة ، فلا يملّ سامعه ، ولا يسأم قارئه .

قرأ الجمهور : ﴿ مثاني ﴾ بفتح الياء ، وقرأ هشام عن ابن عامر ، وبشر بسكونها تخفيفاً ، واستثقالاً لتحريكها ، أو على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو مثاني ، وقال الرازي : في تبيين مثاني أن أكثر الأشياء المذكورة في القرآن متكرّرة زوجين زوجين مثل الأمر والنهي والعامّ والخاصّ ، والمجمل والمفصل ، وأحوال السماوات والأرض ، والجنة والنار ، والنور والظلمة ، واللوح والقلم ، والملائكة والشياطين ، والعرش والكرسي ، والوعد والوعيد ، والرجاء والخوف ، والمقصود من ذلك البيان : بأن كلّ ما سوى الحقّ زوج ، وأن الفرد الأحد الحقّ هو : الله ، ولا يخفى ما في كلامه هذا من التكلف ، والبعد عن مقصود التنزيل ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ هذه الجملة يجوز أن تكون صفة ل ﴿ كتاباً ﴾ ، وأن تكون حالاً منه ، لأنه وإن كان نكرة ، فقد تخصص بالصفة ، أو مستأنفة لبيان ما يحصل عند سماعه من التأثر لسامعيه ، والاقشعرار التقبض ، يقال : اقشعرّ جلده : إذا تقبض ، وتجمع من الخوف .

والمعنى : أنها تأخذهم منه قشعريرة .

قال الزجاج : إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرّت جلود الخائفين لله ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ

وَقُلُوبُهُمْ ﴾ إذا ذكرت آيات الرحمة .

قال الواحدي : وهذا قول جميع المفسرين ، ومن ذلك قول امرىء القيس :

(148/667)

فبتّ أكابد ليل التمام . . . والقلب من خشية مقشعر

وقيل : المعنى : أن القرآن لما كان في غاية الجزالة ، والبلاغة ، فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته اقشعرّت الجلود منه إعظاماً له ، وتعجباً من حسنه ، وبلاغته ثم تلين جلودهم ، وقلوبهم ﴿ إلى ذِكْرِ الله ﴾ عدّى تلين بإلى لتضمينه فعلاً يتعدّى بها ، كأنه قيل : سكنت ، واطمأنت إلى ذكر الله لينة غير منقبضة ، ومفعول ذكر الله محذوف ، والتقدير : إلى ذكر الله رحمته ، وثوابه ، وجنته ، وحذف للعلم به .

قال قتادة : هذا نعت أولياء الله نعتهم بأنها تقشعرّ جلودهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو : من الشيطان ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الكتاب الموصوف بتلك الصفات ، وهو : مبتدأ ، و ﴿ هُدَى الله ﴾ خبره ، أي : ذلك الكتاب هدى الله ﴿ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاء ﴾ أن يهديه من عباده .

وقيل : إن الإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما وهبه الله لهؤلاء من خشية عذابه ، ورجاء ثوابه ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ أي : يجعل قلبه قاسياً مظلماً غير قابل للحقّ ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يهديه إلى الحق ، ويخلصه من الضلال .

قرأ الجمهور : ﴿ من هاد ﴾ بغير ياء .

وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن بالياء .

ثم لما حكم على القاسية قلوبهم بحكم في الدنيا ، وهو : الضلال ، حكم عليهم في الآخرة بحكم آخر ، وهو : العذاب ، فقال : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوء العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ والاستفهام للإنكار ، وقد تقدّم الكلام فيه ، وفي هذه الفاء الداخلة على من في قوله : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب ﴾ [الزمر : 19] ، ومن مبتدأ ، وخبرها محذوف لدلالة المقام عليه ، والمعنى : أفمن شأنه أن يقي نفسه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده قد صارت مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه شيء من ذلك ، ولا يحتاج إلى الاتقاء .

قال الزجاج: المعنى: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن يدخل الجنة.

قال عطاء، وابن زيد: يرمى به مكتوباً في النار، فأوّل شيء تمس منه وجهه.

وقال مجاهد: يجرّ على وجهه في النار.

قال الأخفش: المعنى: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب أفضل أم من سعد؟ مثل قوله: ﴿ أَفَمَن يلقى فِي النار خَيْرٌ أَم مَّن يأتي آمِناً يَوْمَ القيامة ﴾ [فصلت: 40]، ثم أخبر سبحانه عما تقوله الخزنة للكفار، فقال: ﴿ وَقِيلَ لِلظَّلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾، وهو معطوف على يتقي أي: ويقال لهم، وجاء بصيغة الماضي للدّلالة على التحقيق.

قال عطاء: أي: جزاء ما كنتم تعملون، ومثل هذه الآية قوله: ﴿ هذا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: 35]، وقد تقدّم الكلام على معنى الذوق في غير موضع.

ثم أخبر سبحانه عن حال من قبلهم من الكفار، فقال: ﴿ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي: من قبل الكفار المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم.

والمعنى: أنهم كذبوا رسلهم ﴿ فأتاهم العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي: من جهة لا يحتسبون إتيان العذاب منها، وذلك عند أمنهم، وغفلتهم عن عقوبة الله لهم بتكذيبهم ﴿ فَأَذَاقَهُمُ الله الخزى ﴾ أي: الذلّ، والهوان ﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ بالمسخ، والخسف، والقتل، والأسر، وغير ذلك ﴿ وَلَعَذَابُ الأخرة أَكْبَرُ ﴾ لكونه في غاية الشدّة مع دوامه

﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لو كانوا ممن يعلم الأشياء ، ويتفكر فيها ، ويعمل بمقتضى علمه .

قال المبرّد : يقال : لكل ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته ، أي : وصل إليها كما تصل الحلاوة ، والمرارة إلى الذائق لهما .

قال : والخزي المكروه .

(150/667)

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ الآية قال : ما في الأرض ماء إلا نزل من السماء ، ولكن عروق في الأرض تغيره ، فذلك قوله : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأرض ﴾ فمن سرّه أن يعود الملح عذباً ، فليصعده .

وأخرج ابن مردويه عنه في قوله : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإسلام ﴾ قال : أبو بكر الصديق .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : تلا النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ ﴾ قلنا : يا نبيّ الله كيف انشراح صدره ؟ قال : " إذا دخل النور القلب انشرح ، وانفسح " قلنا : فما علامة ذلك يا رسول الله ؟ فقال : " الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت " وأخرجه ابن مردويه عن

محمد بن كعب القرظي مرفوعاً مرسلاً .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عمر : أن رجلاً قال : يا نبيّ الله أي المؤمنين أكيس ؟ قال : " أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم له استعداداً ، وإذا دخل النور في القلب انفسح ، واستوسع " فقالوا : ما آية ذلك يا نبيّ الله ؟ قال : " الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت " وأخرجه عن أبي جعفر عبد الله بن المسور ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه ، وزاد فيه : ثم قرأ : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلام فَهُوَ على نُورٍ مّن رَّبِّهِ ﴾ " .

وأخرج الترمذي ، وابن مرديه ، وابن شاهين في الترغيب في الذكر ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر قال : قال رسول الله : " لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي " وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا : يا رسول الله لو حدّثتنا ، فنزل : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ الآية" .

(151/667)

وأخرج ابن مردويه عنه في قوله : ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ قال : القرآن كله مثاني .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في الآية قال : القرآن يشبه بعضه بعضاً ، ويردّ بعضه إلى بعض .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عنه أيضاً في الآية قال : كتاب الله مثاني ثني فيه الأمر مراراً .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال : قلت لجدّتي أسماء كيف كان يصنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرءوا القرآن ؟ قالت : كانوا كما نعتهم الله تدمع أعينهم ، وتقشعرّ جلودهم ، قلت : فإن ناساً ها هنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية ، قالت : أعوذ بالله من الشيطان .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوء العذاب ﴾ قال : ينطلق به إلى النار مكتوفاً ، ثم يرمى به فيها ، فأوّل ما تمسّ وجهه النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سواء العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ .

الجملة اعتراض بين الثناء على القرآن فيما مضى وقوله الآتي : ﴿ ولقدَ ضَرَبْنَا للنَّاسسِ في هذا القُرءَانِ من كُل مَثَلٍ ﴾ [الزمر : 27] .

وجعلها المفسرون تفريعاً على جملة ﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هادٍ ﴾ [الزمر : 23] بدلالة مجموع الجملتين على فريقين : فريق مهتد ، وفريق ضالٍ ، ففرع على ذلك هذا الاستفهام المستعمل في معنى مجازي .

وجعل المفسرون في الكلام حذفاً ، وتقدير المحذوف : كمن أمن العذاب أو كمن هو في النعيم .

وجعلوا الاستفهام تقريرياً أو إنكارياً ، والمقصود : عدم التسوية بين من هو في العذاب وهو الضالّ ومن هو في النعيم وهو الذي هداه الله ، وحُذف حال الفريق الآخر لظهوره من المقابلة التي اقتضاها الاستفهام بناء على أن هذا التركيب نظير قوله : ﴿ أفمَنْ حقَّ عليهِ كلمةُ العذابِ ﴾ [الزمر : 19] وقوله : ﴿ أفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإسلاَمِ ﴾ [الزمر : 22] ، والقول فيه مثل القول في سابقه من الاستفهام وحذف الخبر ، وتقديره : أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب ، لأن الله أضله كمن أمن من العذاب لأن الله هداه ، وهو كقوله تعالى : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله ﴾ [محمد : 14] .

والمعنى : أن الذين اهتدوا لا ينالهم العذاب .

ويجوز عندي أن يكون الكلام تفريعاً على جملة ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : 23] تفريعاً لتعيين مَا صْدِق (مَنْ) في قوله : ﴿ ومن يُضْلِل الله فما له من هَادٍ ﴾ ويكون ﴿ من يتقي ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف ، تقديره : أفهو من يتقي بوجهه سوء العذاب ، والاستفهام للتقرير .

والاتقاء : تكلف الوقاية وهي الصون والدفع ، وفعلها يتعدى إلى مفعولين ، يقال : وقى نفسه ضربَ السيف ، ويتعدّى بالباء إلى سبب الوقاية ، يقال : وقى بترسه ، وقال النابغة :

(153/667)

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه

فتناولْته واتَّقتنا باليد . . .

وإذا كان وجه الإنسان ليس من شأنه أن يُوقى به شيء من الجسد ، إذ الوجه أعزّ ما في الجسد وهو يُوقَى ولا يُتقى به فإن من جبلّة الإنسان إذا توقع ما يصيب جسده ستر وجهه خوفاً عليه ، فتعين أن يكون الاتقاء بالوجه مستعملاً كناية عن عدم الوقاية على طريقة التهكم أو التلميح ، فكأنه قيل : من يطلب وقاية وجهه فلا يجد ما يقيه به إلا وجهه ، وهذا

من إثبات الشيء بما يشبه نفيه ، وقريب منه قوله تعالى : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل ﴾ [الكهف : 29] .

و﴿ سُوءَ العَذَابِ ﴾ منصوب على المفعولية لفعل ﴿ يَتَّقِي ﴾ .

وأصله مفعول ثان إذ أصله : وَقَى نفسه سوءَ العذاب ، فلما صيغ منه الافتعال صار الفعل متعدياً إلى مفعول واحد هو الذي كان مفعولاً ثانياً .

﴿ القيامة وَقِيلَ لِلظَّلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ ﴾

يجوز أن يكون ﴿ وَقِيلَ ﴾ عطفاً على الصلة .

والتقدير : أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب ، وقيل لهم فإن (مَن) مراد بها جمْع ، والتعبير بـ ﴿ الظالمين ﴾ إظهار في مقام الإِضمار للإِيماء إلى أن ما يلاقونه من العذاب مسبب على ظلمهم ، أي شركهم .

والمعنى : أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب فلا يجد وقاية تنجيه من ذوق العذاب فيقال لهم : ذُوقوا العذاب .

ويجوز أن يكون المراد بـ ﴿ الظالمين ﴾ جميع الذين أشركوا بالله من الأمم غير خاص بالمشركين المتحدث عنهم ، فيكون ﴿ الظالمين ﴾ إظهاراً على أصله لقصد التعميم ، فتكون الجملة في معنى التذييل ، أي ويقال لهؤلاء وأشباههم ، ويظهر بذلك وجه تعقيبه بقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ [الزمر : 25] .

وجاء فعل ﴿ وَقِيلَ ﴾ بصيغة المضيّ وهو واقع في المستقبل لأنه لتحقق وقوعه نزل منزلة فعل مضَى .

ويجوز أن يكون جملة ﴿ وقِيلَ للظالمين ﴾ في موضع الحال بتقدير (قد) ولذلك لا يحتاج إلى تأويل صيغة المضيّ على معنى الأمر المحقق وقوعه .

(154/667)

والذوق : مستعار لإِحساس ظاهر الجسد لأن إحساس الذوق باللسان أشد من إحساس ظاهر الجلد فوجه الشبه قوة الجنس .

والمذوق : هو العذاب فهو جزاء مَا اكتسبوه في الدنيا من الشرك وشرائعه ، فجعل المذوق نفس ما كانوا يكسبون مبالغة مشيرة إلى أن الجزاء وفق أعمالهم وأن الله عادل في تعذيبهم .

وأوثر ﴿ تَكْسِبُونَ ﴾ على (تعملون) لأن خطابهم كان في حال اتقائهم سوءَ العذاب ولا يخلو حال المعذّب من التبرم الذي هو كالإِنكار على معذِّبه .

فجيء بالصلة الدالة على أن ما ذاقوه جزاء ما اكتسبوه قطعاً لتبرمهم .

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (25)

استئناف بياني لأن ما ذكر قبله من مصير المشركين إلى سوء العذاب يوم القيامة ويوم يقال

للظالمين هم وأمثالهم : ﴿ ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ [الزمر : 24] ، يثير في نفوس المؤمنين سؤالاً عن تمتع المشركين بالنعمة في الدنيا ويتمنون أن يعجل لهم العذاب فكان جواباً عن ذلك قولُه : ﴿ كذَّبَ الذين من قبلهم فأتاهم العذابُ من حيثُ لا يشعرونَ ﴾ ، أي هم مظنة أن يأتيهم العذاب كما أتى العذابُ الذين مَن قبلهم إذ أتاهم العذاب في الدنيا بدون إنذار غيرَ مترقبين مجيئه ، على نحو قوله تعالى : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ [يونس : 102] ، فكان عذاب الدنيا خزياً يخزي به الله من يشاء من الظالمين ، وأما عذاب الآخرة فجزاء يَجزي به الله الظالمين على ظلمهم .

والفاء في قوله : ﴿ فأتاهم العذابُ ﴾ دالّة على تسبب التكذيب في إتيان العذاب إليهم فلما ساواهم مشركو العرب في تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم كان سبب حلول العذاب بأولئك موجوداً فيهم فهو منذر بأنهم يحلّ بهم مثل ما حلّ بأولئك .

وضمير ﴿ مِن قَبْلِهم ﴾ عائد على ﴿ مَن يتَّقِي بوجهه سُوءَ العَذَابِ ﴾ [الزمر : 24] باعتبار أن معنى (مَن) جمع .

(155/667)

وفي هذا تعريض بإنذار المشركين بعذاب يحلّ بهم في الدنيا وهو عذاب السيف الذي أخزاهم الله به يوم بدر .

فالمراد بالعذاب الذي أتى الذين من قبلهم : هو عذاب الدنيا ، لأنه الذي يوصف بالإِتيان من حيث لا يشعرون .

و﴿ حيثُ ﴾ ظرف مكان ، أي جاء العذابُ الذين من قبلهم من مكان لا يشعرون به ؛ فقوم أتاهم من جهة السماء بالصواعق ، وقوم أتاهم من الجو مثل ريح عاد ، قال تعالى : ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾ [الأحقاف : 24] ، وقوم أتاهم من تحتهم بالزلازل والخسف مثل قوم لوط ، وقوم أتاهم من نبع الماء من الأرض مثل قوم نوح ، وقوم عم عليهم البحر مثل قوم فرعون .

وكان العذاب الذي أصاب كفار قريش لم يخطر لهم ببال ، وهو قطع السيوف رقابهم وهم في عزة من قومهم وحرمة عند قبائل العرب ما كانوا يحسبون أيدياً تقطع رقابهم كحال أبي جهل وهو في الغَرغرة يوم بدر حين قال له ابن مسعود : أنت أبَا جهل ؟ فقال : "وهل أعمد من رجل قتله قومه" .

واستعارة الإِذاقة لإِهانة الخزي تخييلية وهي من تشبيه المعقول بالمحسوس .

وعطف عليه ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾ للاحتراس ، أي أن عذاب الآخرة هو الجزاء ، وأما عذاب الدنيا فقد يصيب الله به بعض الظلمة زيادة خزي لهم .

وقوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ جملة معترضة في آخر الكلام .

ومفعول ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ دل عليه الكلام المتقدم ، أي لو كان هؤلاء يعلمون أن الله أذاق الآخرين الخزي في الدنيا بسبب تكذيبهم الرسل ، وأن الله أعدّ لهم عذاباً في الآخرة هو أشد .

وضمير ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ قَبْلِهِمْ ﴾ .

وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف دل عليه التعريض بالوعيد في قوله : ﴿ كَذَّبَ الذين من قَبْلِهم ﴾ الآية ، تقديره : لو كانوا يعلمون أن ما حلّ بهم سببه تكذيبهم رسلهم كما كذّب هؤلاء محمداً صلى الله عليه وسلم

(156/667)

ووصف عذاب الآخرة بـ ﴿ أكبر ﴾ بمعنى : أشد فهو أشد كيفية من عذاب الدنيا وأشد كمية لأنه أبدي .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27)

عطف على جملة ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ إلى قوله : فَما لهُ مِن هَادٍ ﴾ [الزمر : 23] ، تتمة للتنويه بالقرآن وإرشاده ، وللتعريض بتسفيه أحلام الذين كذّبوا به وأعرضوا عن

الاهتداء بهديه .

وتأكيد الخبر بلام القسم وحرفِ التحقيق منظور فيه إلى حال الفريق الذين لم يتدبروا القرآن وطعنوا فيه وأنكروا أنه من عند الله .

والتعريف في ﴿ الناس ﴾ للاستغراق ، أي لجميع الناس ، فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم للناس كافة .

وضَرْب المثل : ذِكره ووصفُه ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ إن اللَّه لا يستحيِ أن يضرب مثلاً ﴾ في سورة [البقرة : 26] .

وتنوين ﴿ مَثَلٍ ﴾ للتعظيم والشرف ، أي من كل أشرف الأمثال ، فالمعنى : ذكرنا للناس في القرآن أمثالاً هي بعض من كل أنفع الأمثال وأشرفها .

والمراد : شرف نفعها .

وخُصّت أمثال القرآن بالذكر من بين مزايا القرآن لأجل لَفت بصائرهم للتدبر في ناحية عظيمة من نواحي إعجازه وهي بلاغة أمثاله ، فإن بلغاءهم كانوا يتنافسون في جَودة الأمثال وإصابتها المحزّ من تشبيه الحالة بالحالة .

وتقدم هذا عند قوله تعالى : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ في سورة [الإسراء : 89] ، وتقدم في قوله : ﴿ ولقَد ضَرَبنا للنَّاسسِ في هذَا القُرْآنِ مِن كل مَثَلٍ ﴾ في سورة [الروم : 58] .

ومعنى الرجاء في ﴿ لَعَلَّهُم يتذَكَّرُونَ ﴾ منصرف إلى أن حالهم عند ضرب الأمثال القرآنية كحال من يرجو الناس منه أن يتذكر ، وهذا مِثل نظائر هذا الترجي الواقع في القرآن ، وتقدم في سورة البقرة .

(157/667)

ومعنى التذكر : التأمل والتدبر لينكشف لهم ما هم غافلون عنه سواء ما سبق لهم به علم فنسُوه وشُغلوا عنه بسفسَافِ الأمور ، وما لم يسبق لهم علم به مما شأنه أن يستبصره الرأي الأصيل حتى إذا انكشف له كان كالشيء الذي سبق له علمه وذهِل عنه ، فمعنى التذكر معنى بديع شامل لهذه الخصائص .

وهذا وصفُ القرآن في حدّ ذاته إن صادف عقلاً صافياً ونفساً مجردة عن المكابرة فتذكر به المؤمنون به من قبل ، وتذكّر به من كان التذكّر به سبباً في إيمانه بعد كفره بسرعة أو ببطء ، وأما الذين لم يتذكروا به فإن عدم تذكرهم لنقص في فطرتهم وتغشية العناد لألبابهم .

وكذلك معنى قوله : ﴿ لعلَّهُم يتَّقُونَ ﴾ .

وانتصب ﴿ قُرْءَاناً ﴾ على الحال من اسم الإشارة المبيَّن بالقرآن ، فالحال هنا موطئة لأنها توطئة للنعت في قوله تعالى : ﴿ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ وإن كان بظاهر لفظ ﴿ قُرْءَاناً ﴾

حالاً مؤكدة ولكن العبرة بما بعده ، ولذلك قال الزجاج : إن ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ منصوب على الحال ، أي لأنه نعت للحال .

والمقصود من هذه الحال التورك على المشركين حيث تلقوا القرآن تلقيَ من سمع كلاماً لم يفهمه كأنه بلغة غير لغته لا يُعيره بالاً كقوله تعالى : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ [الدخان : 58] ، مع التحدّي لهم بأنهم عجزوا عن معارضته وهو من لغتهم ، وهو أيضاً ثناء على القرآن من حيث إنه كلام باستقامة ألفاظه لأن اللغة العربية أفصح لغات البشر .

والعِوج بكسر العين أريد به : اختلال المعاني دون الأعيان ، وأما العَوج بفتح العين فيشملها ، وهذا مختار أئمة اللغة مثل ابن دريد والزمخشري والزجاج والفيروزبادي ، وصحح المرزوقي في "شرح الفصيح" أنهما سواء ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ في سورة [الكهف : 1] ، وقوله : ﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ في سورة [طه : 107] .

وهذا ثناء على القرآن بكمال معانيه بعد أن أثني عليه باستقامة ألفاظه .

ووجه العدول عن وصفه بالاستقامة إلى وصفه بانتفاء العوج عنه التوسل إلى إيقاع ﴿ عِوَجٍ ﴾ وهو نكرة في سياق ما هو بمعنى النفي وهو كلمة ﴿ غَير ﴾ فيفيد انتفاء جنس العِوج على وجه عموم النفي ، أي ليس فيه عوج قط ، ولأن لفظ ﴿ عِوَجٍ ﴾ مختص باختلال المعاني ، فيكون الكلام نصاً في استقامة معاني القرآن لأن الدلالة على استقامة ألفاظه ونظمه قد استفيدت من وصفه بكونه عربياً كما علمته آنفاً .

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ مثل قوله : ﴿ لعَلَّهُم يتذَكَّرُونَ ﴾ ، وذُكر هنا ﴿ يَتَّقُونَ ﴾ لأنهم إذا تذكروا يسرت عليهم التقوى ، ولأن التذكر أنسب بضرب الأمثال لأن في الأمثال عبرة بأحوال الممثل به فهي مفضية إلى التذكر ، والاتقاء أنسبُ بانتفاء العوج لأنه إذا استقامت معانيه واتضحت كان العمل بما يدعو إليه أيسر وذلك هو التقوى .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا

استئناف وهو من قبيل التعرض إلى المقصود بعد المقدمة فإن قوله : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ [الروم : 58] توطئة لهذا المثل المضروب لحال أهل الشرك وحال أهل التوحيد ، وفي هذا الانتقال تخلص أُتبع تذكيرهم بما ضرب لهم في القرآن من كل مثل على وجه إجمالِ العموم استقصاءً في التذكير ومعاودة للإرشاد ، وتخلصاً من وصف القرآن بأن فيه من كل مثل ، إلى تمثيل حال الذين كفروا بحالٍ خاص .

فهذا المثل متصل بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شرَحَ الله صدرَهُ للإسلامِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ

في ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ [الزمر : 22] ، فهو مثل لحال من شرح الله صدرهم للإِسلام وحال من قَست قلوبهم .

(159/667)

ومجيء فعل ﴿ ضَرَبَ الله ﴾ بصيغة الماضي مع أن ضَرْب هذا المثل ما حصل إلا في زمن نزول هذه الآية لتقريب زمن الحال من زمن الماضي لقصد التشويق إلى علم هذا المثل فيجعل كالإِخبار عن أمر حصل لأن النفوس أرغب في علمه كقول المثوِّب : قد قامت الصلاة .

وفيه التنبيه على أنه أمر محقق الوقوع كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وضرب اللَّه مثلاً قرية ﴾ في سورة [النحل : 112] .

أما صاحب "الكشاف" فجعل فِعل ﴿ ضرب ﴾ مستعملاً في معنى الأمر إذ فسره بقوله : اضرِبْ لهم مثلاً وقُل لهم ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء ، إلى آخر كلامه ، فكان ظاهر كلامه أن الخبر هنا مستعمل في الطلب ، فقرره شارحوه الطيبي والقزويني والتفتزاني بما حاصل مجموعه : أنه أراد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع قوله : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرءان من كُلّ مثلٍ ﴾ [الزمر : 27] عَلِم أنه

سينزل عليه مَثَل من أمثال القرآن فأنبأه الله بصدق ما عَلمه وجعَله لتحققه كأنه ماض .

وليلائم توجيه الاستفهام إليهم بقوله : هَلْ يَسْتَوِيَانِ مثلاً ﴾ (فإنه سؤال تبكيت) فتلتئم أطراف نظم الكلام ، فعُدل عن مقتضى الظاهر من إلقاء ضرب المثل بصيغة الأمر إلى إلقائه بصيغة المضيّ لإفادة صدق علم النبي صلى الله عليه وسلم وكل هذا أدق معنى وأنسب ببلاغة القرآن مِن قول من جعل المضي في فعل ﴿ ضَرَبَ ﴾ على حقيقته وقال : إن معناه : ضرب المثل في علمه فأخبِرْ به قومك .

فالذي دعا الزمخشري إلى سلوك هذا المعنى في خصوص هذه الآية هو رعي مناسبات اختص بها سياق الكلام الذي وقعت فيه ، ولا داعي إليه في غيرها من نظائر صيغتها مما لم يوجد لله فيه مقتضٍ لنحو هذا المحمل ، ألا ترى أنه لا يتأتى في نحو قوله : ﴿ ألم تر كيف ضرب اللَّه مثلاً كلمة ﴾ كما في سورة [إبراهيم : 24] ، وقد أشرنا إليه عند قوله : ﴿ وضرب اللَّه مثلاً قرية ﴾ في سورة [النحل : 112] .

(160/667)

وقد يقال فيه وفي نظائره : إن العدول عن أن يصاغ بصيغة الطلب كما في قوله:

﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ﴾ [يس : 13] ، ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين

﴿ [الكهف : 32] ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 45] إلى أن صيغ بصيغة الخبر هو التوسل إلى إسناده إلى الله تنويهاً بشأن المثل كما أشرنا إليه في سورة النحل .

وإسناد ضَرْب المثل إلى الله لأنه كوَّن نظمه بدون واسطة ثم أوحى به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فالقرآن كلّه من جَعْل الله سواء في ذلك أمثاله وغيرها ، وهو كله مأمور رسوله صلى الله عليه وسلم بتبليغه ، فكأنه قال له : ضَرب الله مثلاً فاضْرِبه للناس وبيِّنْه لهم ، إذ المقصود من ضرب هذا المثل محاجّة المشركين وتبكيتهم به في كشف سوء حالتهم في الإِشراك ، إذ مقتضى الظاهر أن يجري الكلام على طريقة نظائره كقوله : ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ﴾ [يس : 13] ، وكذلك ما تقدم من الأمر في نحو قوله : ﴿ قُلْ هل يَسْتَوي الذين يعلمُونَ والذين لا يعلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] ، ﴿ قُلْ يا عِبَادِ الذينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا ربَّكُم ﴾ [الزمر : 10] ، ﴿ قُلْ إني أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ الله ﴾ [الزمر : 11] ، ﴿ قُلِ الله أعْبُد ﴾ [الزمر : 14] ، ﴿ قُلْ إنَّ الخاسِرِينَ ﴾ [الزمر : 15] ، ﴿ فَبَشّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمر : 17] .

(وقد يُتطلب وجهه التفرقة بين ما صيغ بصيغة الخبر وما صيغ بصيغة الطلب فنفرق بين الصنفين بأن ما صيغ بصيغة الخبر كان في مقامٍ أهمَّ لأنه إمّا تمثيل لإِبطال الإِشراك ، وإمّا لوعيد المشركين ، وإمّا لنحو ذلك ، خلافاً لما صيغ بصيغة الخبر فإنه كائن في مقام العبرة

والموعظة للمسلمين أو أهل الكتاب ، وهذا ما أشرنا إليه إجمالاً في سورة النحل .

وقوله : ﴿ رَّجُلاً فيهِ شُرَكَاءُ ﴾ وما بعده في موضع البيان ل ﴿ مَثَلاً ﴾ .

(161/667)

وجَعْل الممثَّل به حالة رجل ليس للاحتراز عن امرأة أو طفل ولكن لأن الرجل هو الذي يسبق إلى أذهان الناس في المخاطبات والحكايات ، ولأن ما يراد من الرجل من الأعمال أكثر مما يراد من المرأة والصبيّ ، ولأن الرجل أشدّ شعوراً بما هو فيه من الدعة أو الكدّ ، وأما المرأة والصبي فقد يغفلان ويلهيان .

وجملة ﴿ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ نعت ل ﴿ رَّجُلاً ﴾ ، وتقديم المجرور على ﴿ شُرَكَاءُ ﴾ لأن خبر النكرة يحسن تقديمه عليها إذا وصفت ، فإذا لم توصف وجب تقديم الخبر لكراهة الابتداء بالنكرة .

ومعنى ﴿ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ : في ملكه شركاء .

والتشاكس : شدة الاختلاف ، وشدّة الاختلاف في الرجل الاختلاف في استخدامه وتوجيهه .

وقرأ الجمهور ﴿ سَلَماً ﴾ بفتح السين وفتح اللام بعدها ميم وهو اسم مصدر : سَلِم له ،

إذا خَلَص .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿ سالماً بصيغة اسم الفاعل وهو من : سَلِم ، إذا خلص ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ولا وجه له ، والحق أنهما سواء كما أيده النحّاس وأبو حاتم ، والمعنى : أنه لا شركة فيه للرجل .

وهذا تمثيل لحال المشرك في تقسّم عقله بين آلهة كثيرين فهو في حيرة وشك من رضى بعضهم عنه وغضب بعض ، وفي تردد عبادته إن أرضى بها أحدَ آلهته ، لعله يُغضب بها ضده ، فرغباتهم مختلفة وبعض القبائل أولى ببعض الأصنام من بعض ، قال تعالى:

﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾ [المؤمنون : 91] ، ويبقى هو ضائعاً لا يدري على أيهم يعتمد ، فوهمه شَعاع ، وقلبه أوزاع ، بحال مملوك اشترك فيه مالكون لا يخلون من أن يكون بينهم اختلاف وتنازع ، فهم يتعاورونه في مهن شتّى ويتدافعونه في حوائجهم ، فهو حيران في إرضائهم تَعبان في أداء حقوقهم لا يستقل لحظة ولا يتمكن من استراحة .

(162/667)

ويقابله تمثيل حال المسلم الموحّد يقوم بما كلّفه ربه عارفاً بمرضاته مؤملاً رضاه وجزاءه ، مستقرَّ البال ، بحال العبد المملوك الخالص لمالك واحد قد عرف مراد مولاه وعلم ما أوجبه

عليه ففهمُه واحد وقلبه مجتمع .

وكذلك الحال في كل متّبع حق ومتبع باطل فإن الحق هو الموافق لما في الوجود والواقع ، والباطلَ مخالف لما في الواقع ، فمتبع الحق لا يعترضه ما يشوش عليه بالَه ولا ما يثقل عليه أعماله ، ومتبع الباطل يتعَثر به في مزالق الخُطَى ويتخبط في أعماله بين تناقض وخَطأ .

ثم قال : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ ، أي هل يكون هذان الرجلان المشبهان مستويين حالاً بعد ما علمتم من اختلاف حالي المشبهين بهما .

والاستفهام في قوله : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ يجوز أن يكون تقريرياً ، ويجوز أن يكون إنكارياً ، وجيء فيه بـ ﴿ هَلْ ﴾ لتحقيق التقرير أو الإنكار .

وانتصب ﴿ مَثَلاً ﴾ على التمييز لنسبة ﴿ يَسْتَوِيَانِ ﴾ .

والمثل : الحال .

والتقدير : هل يستوي حالاهما ، والاستواء يقتضي شيئين فأكثر ، وإنما أفرد التمييز المراد به الجنس ، وقد عرف التعدد من فاعل ﴿ يَسْتَوِيَانِ ﴾ ولو أسند الفعل إلى ما وقع به التمييز لقيل : هل يستوي مثلاهما .

وجملة ﴿ الحَمْدُ لله ﴾ يجوز أن تكون جواباً للاستفهام التقريري بناء على أن أحد الظرفين المقرر عليهما محقق الوقوع لا يسع المقررَ عليه إلا الإقرار به ، فيقدَّرون : أنهم أقروا بعدم استوائهما في الحالة ، أي بأن أحدهما أفضل من الآخر ، فإن مثل هذا الاستفهام لا ينتظِر السائل جواباً عنه ، فلذلك يصح أن يتولى الجواب عنه قبل أن يجيب المسؤول كقوله تعالى : ﴿ عمَّ يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ [النبأ : 21] ، وقد يبنى على أن المسؤول اعترف فيؤتى بما يناسب اعترافه كما هنا ، فكأنهم قالوا : لا يستويان ، وذلك هو ما يبتغيه المتكلم من استفهامه ، فلما وافق جوابهم بغية المستفهم حمد الله على نهوض حجته ، فتكون الجملة استئنافاً ، فموقعها كموقع النتيجة بعد الدليل ، وتكون جملة ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ قرينة على أنهم نزّلوا منزلة مَن علم فأقر وأنهم ليسوا كذلك في نفس الأمر ، ويجوز أن تكون معترضة إذا جعل الاستفهام إنكارياً فتكون معترضة بين الإنكار وبين الإضراب الانتقالي في قوله ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي لا يعلمون عدم استواء الحالتين ولو علموا لاختاروا لأنفسهم الحسنى منهما ، ولَمَا أصرُّوا على الإشراك .

وأفاد هذا أن ما انتحلوه من الشرك وتكاذيبه لا يمتّ إلى العلم بصلة فهو جهالة واختلاق .

و﴿ بل ﴾ للإضراب الانتقالي .

وأسند عدم العلم لأكثرهم لأن أكثرهم عامة أتباعٌ لزعمائهم الذين سنُّوا لهم الإشراك

وشرائعَه انتفاعاً بالجاه والثناء الكاذب بحيث غَشَّى ذلك على عملهم .

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30)

(164/667)

لمّا جرى الكلام من أول السورة في مهيع إبطال الشرك وإثبات الوحدانية للإله ، وتوضيح الاختلاف بين حال المشركين وحال الموحّدين المؤمنين بما ينبىء بتفضيل حال المؤمنين ، وفي مهيع إقامة الحجة على بطلان الشرك وعلى أحقيّة الإيمان ، وإرشاد المشركين إلى التبصر في هذا القرآن ، وتخلل في ذلك ما يقتضي أنهم غير مقلعين عن باطلهم ، وختم بتسجيل جهلهم وعدم علمهم ، خُتم هذا الغرض بإحالتهم على حكم الله بينهم وبين المؤمنين يوم القيامة حين لا يستطيعون إنكاراً ، وحين يلتفتون فلا يَرون إلا ناراً .

وقدم لذلك تذكيرهم بأن الناس كلهم صائرون إلى الموت فإن الموت آخر ما يذكر به السادر في غلوائه إذا كان قد اغتر بعظمة الحياة ولم يتفكر في اختيار طريق السلامة والنجاة ، وهذا من انتهاز القرآن فرص الإرشاد والموعظة .

فالمقصود هو قوله : ﴿ إنَّكم يوم القيامةِ عندَ ربِّكُم تختصِمون ﴾ فاغتُنم هذا الغرض ليجتلب معه موعظة بما يتقدمه من الحوادث عسى أن يكون لهم بها مُعتبر ، فحصلت بهذا

فوائد : منها تمهيد ذكر يوم القيامة ، ومنها التذكير بزوال هذه الحياة ، فهذان عامَّانِ للمشركين والمؤمنين ، ومنها حثّ المؤمنين على المبادرة للعمل الصالح ، ومنها إشعارهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم يموت كما مات النبيئون من قبله ليغتنموا الانتفاع به في حياته ويحرصوا على ملازمة مجلسه ، ومنها أن لا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره ، ومنها تعليم المسلمين أن الله سوّى في الموت بين الخلق دون رعي لتفاضلهم في الحياة لتكثر السَّلْوة وتقل الحسرة .

فجملتا ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ استئناف ، وعُطف عليهما ﴿ ثم إِنَّكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ بحرف ﴿ ثمّ ﴾ الدال على الترتيب الرتبي لأن الإِنباء بالفصْل بينهم يوم القيامة أهم في هذا المقام من الإِنباء بأنهم صائرون إلى الموت .

(165/667)

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم وهو خبر مستعمل في التعريض بالمشركين إذ كانوا يقولون : ﴿ نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30] ، والمعنى : أن الموت يأتيك ويأتيهم فما يدري القائلون : ﴿ نتربص به ريب المنون أن يكونوا يموتون قبلك ، وكذلك كان ، فقد رأى رسول الله مصارع أشدّ أعدائه في قَلِيب بدر ، قال عبد الله بن مسعود : دَعا رسول

الله على أبي جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي مُعيط وعمارة بن الوليد فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدّهم رسول الله صرعى في القليب قليب بدر .

وضمير الغيبة في وإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ للمشركين المتحدث عنهم ، وأما المؤمنون فلا غرض هنا للإِخبار بأنهم ميّتون كما هو بيّن من تفسير الآية .

وتأكيد الخبرين بـ (إنّ) لتحقيق المعنى التعريضي المقصود منها .

والمراد بالميت : الصائر إلى الموت فهو من استعمال الوصف فيمن سيتصف به في المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه مثل استعمال اسم الفاعل في المستقبل كقوله تعالى:

﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : 30] .

والميت : هو من اتصف بالموت ، أي زالت عنه الحياة ، ومثله : الميْت بتخفيف السكون على الياء ، والتحقيق أنه لا فرق بينهما خلافاً للكسائي والفراء .

وتأكيد جملة ﴿ إِنَّكم يوم القيامَةِ عند ربكم تَخْتَصِمُونَ ﴾ لرد إنكار المشركين البعث .

وتقديم ﴿ عِندَ رَبِّكُم ﴾ على ﴿ تَخْتَصِمُونَ ﴾ للاهتمام ورعاية الفاصلة .

والاختصام : كناية عن الحكم بينهم ، أي يحكم بينكم فيما اختصمتم فيه في الدنيا من اثبات المشركين آلهة وإبطالكم ذلك ، فهو كقوله تعالى : ﴿ إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ [النحل : 124] .

ويجوز أن يكون الاختصام أطلق على حكاية ما وقع بينهم في الدنيا حين تُعرض أعمالهم ، كما يقال : هذا تخاصُم فلان وفلان ، في طالع محضر خصومة ومقاولة بينهما يُقرأ بين يدي القاضي .

(166/667)

ويجوز أن تصوَّر خصومة بين الفريقين يومئذٍ ليفتضح المبطلون ويبهج أهل الحق على نحو ما قال تعالى : ﴿ إن ذلك لحقٌ تخاصم أهل النار ﴾ [ص : 64] .

وعلى الوجه الأول فضمير ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ عائد إلى مجموع ما عاد إليه ضمير ﴿ إِنَّكَ ﴾ و ﴿ إِنَّهُم ﴾ .

وعلى الوجهين الأخيرين يجوز أن يكون الضمير كما في الوجه الأول .

ويجوز أن يكون عائداً إلى جميع الأمة وهو اختصام الظلامات ، وقد ورد تأويل الضمير على هذا المعنى فيما رواه النسائي وغيره عن عبد الله بن عمر قال : "لما نزلت هذه الآية قلنا : كيف نختصم ونحن إخوان ، فلما قتل عثمان وضرب بعضُنا وَجه بعض بالسيف قلنا : هذا الخصام الذي وعدنا ربنا" .

وروى سعيد بن منصور عن أبي سعيد الخدْري مثل مقالة ابن عمر ولكن أبا سعيد قال :

"فلما كان يوم صفّين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا : نعم هو ذا" .

وسواء شملت الآية هذه المحامل وهو الأليق ، أو لم تشملها فالمقصود الأصلي منها هو تخاصم أهل الإِيمان وأهل الشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(167/667)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا ﴾

هذا مثل ضربه الله سبحانه للمشرك والموحد فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاحون والرجل المتشاكس الضيق الخلق فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتى شبه بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين

والموحد لما كان يعبد الله وحده فمثله كمثل عبد لرجل واحد قد سلم له وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه مع رأفة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتوليه لمصالحه فهل

يستوي هذان العبدان

وهذا من أبلغ الأمثال فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه ما يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أعلام الموقعين حـ 1 صـ 187 ﴾

(168/667)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ دعا ربه منيباً إليه ﴾ قال : أي مخلصاً إليه .

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنه تلا هذه الآية ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . . ﴾ قال : ذاك عثمان بن عفان . وفي لفظ نزلت في عثمان بن

عفان .

وأخرج ابن سعد في طبقاته وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾ قال : نزلت في عمار بن ياسر .

وأخرج جويبر عن عكرمة ، مثله .

وأخرج جويبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية في ابن مسعود ، وعمار ، وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يحذر الآخرة ﴾ يقول : يحذر عذاب الآخرة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ، أنه كان يقرأ ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر عذاب الآخرة ﴾ والله تعالى أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ .

أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أنس رضي الله عنه قال : " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الموت فقال كيف تجدك ؟ قال : أرجو وأخاف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الذي يرجو ، وأمنه الذي خاف " " .

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ قال : أرضي واسعة فهاجروا واعتزلوا الأوثان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ قال : لا والله ما هناك مكيال ولا ميزان .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ قال : بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم ولكن يزادون على ذلك .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا أحب عبداً أو أراد أن يصافيه صب عليه البلاء صباً ، ويحثه عليه حثاً ، فإذا دعا قالت الملائكة عليهم السلام : صوت معروف قال جبريل عليه السلام : يا رب عبدك فلان اقض حاجته . فيقول الله تعالى : دعه إني أحب أن أسمع صوته . فإذا قال يا رب . . قال الله تعالى ، لبيك عبدي وسعديك . وعزتي لا تدعوني بشيء إلا استجبت لك ، ولا تسألني شيئاً إلا اعطيتك . أما أن أعجل لك ما سألت ، وأما أن أدخر لك عندي أفضل منه ، وأما أن أدفع عنك من البلاء أعظم منه . ثم قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : وتنصب الموازين يوم القيامة ، فيأتون بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية أنهم كانوا في الدنيا تقرض أجسادهم بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل . وذلك قوله ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ " .

(170/667)

وأخرج الطبراني وابن عساكر وابن مردويه عن الحسن بن علي رضي الله عنه قال : سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن في الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى يؤتى بأهل البلاء يوم القيامة ، فلا يرفع لهم ديوان ، ولا ينصب لهم ميزان يصب عليهم الأجر صباً . وقرأ ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : يود أهل البلاء يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض .

فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا

ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15)

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم . . . ﴾ الآية . قال : هم الكفار الذين خلقهم الله للنار ، زالت عنهم الدنيا وحرمت عليهم الجنة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ قال : ﴿ أهليهم ﴾ من أهل الجنة ، كانوا أعدوا لهم لو عملوا بطاعة الله فغبنوهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم ﴾ يخسرونها فيتحسرون في النار أحياء ، ويخسرون أهليهم فلا يكون لهم أهل يرجعون إليهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ قال : ليس أحد إلا قد أعد الله تعالى له أهلاً في الجنة إن أطاعه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن مجاهد ، مثله .

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (16)

أخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ لهم من فوقهم ظلل ﴾ قال : غواش ﴿ ومن تحتهم ظلل ﴾ قال : مهاد .

(171/667)

وأخرج ابن أبي شيبة عن سويد بن غفلة قال : إذا أراد الله أن يعذب أهل النار جعل لكل إنسان منهم تابوتاً من نار على قدره ثم أقفل عليه بأقفال من نار ، فلا يعرف منه عرق إلا وفيه مسمار ، ثم جعل ذلك التابوت في تابوت آخر من نار ، ثم يقفل باقفال من نار ، ثم يضرم بينهما نار فلا يرى أحد منهم أن في النار غيره . فذلك قوله ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ وقوله ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ [الأعراف : 41] .

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (17)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ﴾ قال : نزلت هاتان الآيتان في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون : لا إله إلا الله . في زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبي ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان سعيد بن زيد ، وأبو ذر ،

وسلمان ، يتبعون في الجاهلية أحسن القول ، وأحسن القول والكلام لا إله إلا الله . قالوا بها فانزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ يستمعون القول فيتبعون أحسنه . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : ﴿ الطاغوت ﴾ الشيطان هو ههنا واحد وهي جماعة . مثل قوله ﴿ يا أيها الإِنسان ما غرك ﴾ [الانفطار : 6] قال : هي للناس كلهم الذين قال لهم الناس إنما هو واحد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ قال : الشيطان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وأنابوا إلى الله لهم البشرى ﴾ قال : أقبلوا إلى الله ﴿ فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ قال : أحسنه طاعة الله .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن الضحاك في قوله ﴿ فيتبعون أحسنه ﴾ ما أمر الله تعالى النبيين عليهم السلام من الطاعة .

وأخرج سعيد بن منصور عن الكلبي في قوله ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ قال : لولا ثلاث يسرني أن أكون قدمت . لولا أن أضع جبيني لله ، وأجالس قوماً يلتقطون طيب الكلام كما يلتقطون طيب الثمر ، والسير في سبيل الله .

وأخرج جويبر عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت ﴿ لها سبعة أبواب . . . ﴾ [الحجر : 44] . أتى رجل من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن لي سبعة مماليك ، وأني أعتقت لكل باب منها مملوكاً . فنزلت هذه الآية ﴿ فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال لما نزلت ﴿ فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً فنادى " من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . فاستقبل عمر الرسول فرده فقال : يا رسول الله خشيت أن يتكل الناس فلا يعملون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو يعلم الناس قدر رحمة الله لاتكلوا ، ولو يعلمون قدر سخط الله وعقابه لاستصغروا أعمالهم " .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ لهم غرف من فوقها غرف ﴾ قال : علالي .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ قال : ما أنزل الله من السماء ولكن عروق في الأرض تغمره فذلك قوله ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذباً فليصعد .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة والخرائطي في مكارم الأخلاق عن الشعبي رضي الله عنه في قوله ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ أصله من السماء .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ قال : عيوناً .

(173/667)

وأخرج عبد بن حميد عن الكلبي رضي الله عنه قال : العيون والركايا مما أنزل الله من السماء ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ والله أعلم .

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ الآية . قال : ليس المشروح صدره كالقاسية قلوبهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه " في قوله ﴿ أفمن

شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ قالوا : يا رسول الله فهل ينفرج الصدر ؟ قال : نعم . قالوا : هل لذلك علامة ؟ قال : نعم . التجافي عن دار الغرور ، والانابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت " .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ فقلنا يا رسول الله كيف انشراح صدره ؟ قال : " إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح . قلنا يا رسول الله فما علامة ذلك ؟ قال : الانابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت " " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عمر رضي الله عنهما ، " أن رجلاً قال : يا نبي الله أي المؤمنين أكيس ؟ قال " أكثرهم ذكراً للموت ، وأحسنهم له استعداداً ، وإذا دخل النور القلب انفسح واستوسع . فقالوا : ما آية ذلك يا نبي الله ؟ قال : الانابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت " " ثم أخرج عن أبي جعفر عبد الله بن المسور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه ، وزاد فيه ﴿ أفمن شرح الله صدره للإِسلام فهو على نور من ربه ﴾ .

أما قوله تعالى : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم ﴾ .

وأخرج الترمذي وابن مردويه وابن شاهين في الترغيب في الذكر والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القاسي " .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي الجلد رضي الله عنه ، أن عيسى عليه السلام أوصى إلى الحواريين : أن لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، وأن القاسي قلبه بعيد من الله ولكن لا يعلم .

وأخرج مردويه عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكل العباد ونومهم عليه قسوة في قلوبهم " .

وأخرج العقيلي والطبراني في الأوسط وابن عدي وابن السني وأبو نعيم كلاهما في الطب والبيهقي في شعب الإِيمان وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أذيبوا طعامكم بذكر الله والصلاة ، ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم " .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يورث القسوة في القلب ثلاث خصال : حب الطعام ، وحب النوم ، وحب الراحة " والله أعلم .

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالوا : يا رسول الله لو حدثتنا فنزل ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ قال : القرآن كله مثاني .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ مثاني ﴾ قال : القرآن يشبه بعضه بعضاً ، ويرد بعضه إلى بعض .

(175/667)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ كتاباً متشابهاً ﴾ حلاله وحرامه لا يختلف شيء منه . الآية تشبه الآية ، والحرف يشبه الحرف ﴿ مثاني ﴾ قال : يثني الله فيه الفرائض ، والحدود ، والقضاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ كتاباً متشابهاً ﴾ قال : القرآن كله مثاني . قال : من ثناء الله إلى عبده .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ متشابهاً ﴾

قال : يفسر بعضه بعضاً ، ويدل بعضه على بعض .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي رجاء رضي الله عنه قال : سألت الحسن رضي الله عنه عن قول الله تعالى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ﴾ قال : ثنى الله فيه القضاء . تكون في هذه السورة الآية ، وفي السورة الآية الأخرى تشبه بها .

وأخرج عبد بن حميد عن أُبي رضي الله عنه قال : سأل عكرمة رضي الله عنه عنها ، وأنا أسمع فقال : ثنى الله فيه القضاء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ هذا نعت أولياء الله نعتهم الله تعالى قال : تقشعر جلودهم ، وتبكي أعينهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى . ولم ينعتهم الله تعالى بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم ، إنما هذا في أهل البدع ، وإنما هو من الشيطان .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . . . ﴾ قال : إذا ذكروا سمعوا ذكر الله والوعيد اقشعروا ﴿ ثم تلين جلودهم ﴾ إذا سمعوا ذكر الجنة واللين ﴿ يرجون رحمة الله ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال : قلت لجدتي أسماء رضي الله عنها كيف كان يصنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأوا القرآن ؟ قالت : كانوا كما نعتهم الله تعالى تدمع أعينهم ، وتقشعر جلودهم . قلت : فإن ناساً ههنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية ، فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن عامر بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : جئت أمي فقلت وجدت قوماً ما رأيت خيراً منهم قط ، يذكرون الله تعالى فيرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية الله فقالت : لا تقعد معهم .

ثم قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن ، ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يصيبهم هذا . افتراهم أخشى من أبي بكر وعمر ؟

وأخرج ابن أبي شيبة عن قيس بن جبير رضي الله عنه قال : الصعقة من الشيطان .

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر عن إبراهيم رضي الله عنه في الرجل يرى الضوء قال : من الشيطان ، لو كان يرى خيراً لأوثر به أهل بدر .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه : إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة البالية ورقها .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال : ليس من عبد على سبيل ذكر سنة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من مخافة الله تعالى إلا كان مثله مثل شجرة يبس ورقها وهي كذلك فاصابتها ريح تحات ورقها كما تحات عن الشجرة البالية ورقها ، وليس من عبد على سبيل وذكر سنة وذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبداً .

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (24)

(177/667)

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ﴾ قال : يجر على وجهه في النار وهو مثل قوله ﴿ أفمن يلقى في النار خير أمن يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ [فصلت : 40] .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ينطلق به إلى النار مكتوفاً ثم يرمى فيها ، فأول ما تمس وجهه النار .

قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28)

أخرج الآجري في الشريعة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس

رضي الله عنهما في قوله ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ قال : غير مخلوق .

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ قال : غير مخلوق .

وأخرج ابن شاهين في السنة عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " القرآن كلام الله غير مخلوق " .

وأخرج ابن أبي حاتم في السنة والبيهقي في الأسماء والصفات عن الفرج بن زيد الكلاعي رضي الله عنه قال : قالوا لعلي رضي الله عنه : حكمت كافراً ومنافقاً فقال : ما حكمت مخلوقاً ، ما حكمت إلا القرآن .

وأخرج البيهقي وابن عدي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : القرآن كلام الله ، وليس كلام الله بمخلوق .

وأخرج البيهقي عن عكرمة رضي الله عنه قال : صلى ابن عباس رضي الله عنهما على جنازة ، فلما وضع الميت في قبره قال له رجل : اللهم رب القرآن اغفر له . فقال له ابن عباس رضي الله عنه : مَهْ لا تقل مثل هذا منه بدا وإليه يعود . وفي لفظ فقال ابن عباس : ثكلتك أمك . . ! إن القرآن منه .

وأخرج البيهقي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : القرآن كلام الله .

وأخرج البيهقي عن سفيان بن عيينة رضي الله عنه قال : أدركت مشيختنا منذ سبعين سنة منهم عمرو بن دينار يقولون : القرآن كلام الله ليس بمخلوق .

(178/667)

وأخرج البيهقي عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : سأل علي بن الحسين عن القرآن فقال : ليس بخالق ولا بمخلوق ، وهو كلام الخالق .

وأخرج البيهقي عن قيس بن الربيع قال سألت جعفر بن محمد رضي الله عنه عن القرآن فقال : كلام الله قلت : مخلوق ؟ قال : لا . قلت : فما تقول فيمن زعم أنه مخلوق ؟ قال : يقتل ولا يستتاب .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ قال : غير ذي سلس .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴾ قال : الرجل يعبد آلهة شتى . فهذا مثل ضربه الله تعالى لأهل

الأوثان ﴿ ورجلاً سلماً ﴾ يعبد إلهاً واحداً ضرب لنفسه مثلاً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴾ قال : هو المشرك تنازعه الشياطين لا يعرفه بعضهم لبعض ﴿ ورجلاً سلماً لرجل ﴾ قال : هذا المؤمن أخلص لله الدعوة والعبادة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل ﴾ قال : آلهة الباطل وإله الحق .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ شركاء متشاكسون ﴾ يعني الصنم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ورجلاً سلماً ﴾ قال : ليس لأحد فيه شيء .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأها " ورجلاً سلماً لرجل " بغير ألف منصوبة اللام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مبشر بن عبيد القرشي رضي الله عنه قال : قراءة عبد الله بن عمر رضي الله عنه ﴿ ورجلاً سلماً لرجل ﴾ قال : خالصاً لرجل . فإنما يعني مستسلماً لرجل .

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31)

أخرج عبد بن حميد والنسائي وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنه قال : لقد لبثنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا ، وفي أهل الكتابين من قبل ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قلنا : كيف نختصم ونبينا واحد ، وكتابنا واحد ؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، فعرفت أنها نزلت فينا .

وأخرج نعيم بن حماد في الفتن والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ فقلت : لم نختصم . أما نحن فلا نعبد إلا الله ، وأما ديننا فالإِسلام ، وأما كتابنا فالقرآن لا نغيره أبداً ولا نحرف الكتاب ، وأما قبلتنا فالكعبة ، وأما حرمنا فواحد ، وأما نبينا فمحمد صلى الله عليه وسلم . فكيف نختصم ؟ حتى كفح بعضنا وجه بعض بالسيف ، فعرفت أنها نزلت فينا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نزلت

علينا الآية ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ وما ندري ما تفسيرها ولفظ عبد بن حميد . وما ندري فيم نزلت ! قلنا ليس بيننا خصومة ، فما التخاصم ؟ حتى وقعت الفتنة فقلنا : هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم فيه .

(180/667)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن عساكر عن إبراهيم النخعي رضي الله عنه قال : أنزلت هذه الآية ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ وما ندري فيم نزلت ! قلنا : ليس بيننا خصومة قالوا وما خصومتنا ونحن اخوان ؟ ! فلما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه قالوا : هذه خصومة ما بيننا .

وأخرج عبد بن حميد عن الفضل بن عيسى رضي الله عنه قال : " لما قرأت هذه الآية ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قيل : يا رسول الله فما الخصومة ؟ قال : " في الدماء " " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ قال : " نعى لنبيه صلى الله عليه وسلم نفسه ، ونعى لكم أنفسكم " .

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وابن منيع وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن أبي حاتم

والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في البعث والنشور عن الزبير بن العوّام رضي الله عنه قال : " لما نزلت ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قلت : يا رسول الله أينكر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : نعم . لينكرن ذلك عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه قال الزبير رضي الله عنه : فوالله إن الأمر لشديد " .

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : " لما أنزلت هذه الآية ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قال الزبير رضي الله عنه : يا رسول الله يكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعم . ليكرر ذلك عليكم حتى يؤدى إلى كل ذي حق حقه " قال الزبير رضي الله عنه : إن الأمر لشديد " .

(181/667)

وأخرج سعيد بن منصور عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ كنا نقول ربنا واحد ، وديننا واحد ، فما هذه الخصومة ؟ ! فلما كان يوم صفين ، وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا : نعم . هو هذا .

وأخرج أحمد بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليختصمن يوم القيامة كل شيء حتى الشاتين فيما انتطحتا " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند لا بأس به عن أبي أيوب رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته . والله ما يتكلم لسانها ولكن يداها ورجلاها ، يشهدان عليها بما كانت لزوجها ، وتشهد يداه ورجلاه بما كان يوليها . ثم يدعى الرجل وخادمه بمثل ذلك ، ثم يدعى أهل الأسواق وما يوجد ، ثم دوانق ولا قراريط ولكن حسنات هذا تدفع إلى هذا الذي ظلم ، وسيئآت هذا الذي ظلمه توضع عليه ، ثم يؤتى بالجبارين في مقامع من حديد فيقال : أوردوهم إلى النار . فوالله ما أدري يدخلونها أو كما قال الله ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : 71] " .

وأخرج أحمد والطبراني بسند حسن عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول خصمين يوم القيامة جاران " .

وأخرج البزار عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يجاء بالأمير الجائر فتخاصمه الرعية " .

وأخرج ابن منده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يختصم الناس يوم القيامة حتى يختصم الروح مع الجسد . فيقول الروح للجسد أنت فعلت ، ويقول الجسد للروح أنت أمرت وأنت سوّلت . فيبعث الله تعالى ملكاً فيقضي بينهما ، فيقول لهما : إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير وآخر ضرير دخلا بستاناً فقال المقعد للضرير : إني أرى ههنا ثماراً ولكن لا أصل إليها . فقال له الضرير : اركبني فتناولها ، فركبه فتناولها ، فأيهما المعتدي ؟ فيقولان : كلاهما فيقول لهما الملك : فإنكما قد حكمتما على أنفسكما . يعني أن الجسد للروح كالمطية وهو راكبه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ يقول : يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدي الضال ، والضعيف المستكبر .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي الدرداء رضي الله عنه . أن رجلاً أبصر جنازة فقال : من هذا ؟ قال : أبو الدرداء رضي الله عنه هذا أنت هذا أنت . . يقول الله ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(183/667)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

أي فَمنْ يتقي بوجهه سوءَ العذاب كَمَنْ ليس كذلك ؟ وقيل إنَّ الكافر يَلْقَى النارَ أَوَّلَ ما يلقاها بوجهه ؛ لأنه يُرمَى فيها منكوساً . فأمَّا المؤمِن فيُوقَى ذلك ؛ وإنما يُلَقَّى النضرة والسرور والكرامة ؛ فوجهُهُ ضاحكٌ مُسْتَبْشِرٌ .

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (25)

أَشدُّ العذابِ ما يكون بغتةً ، كما أَنَّ أتمَّ السرور ما يكون فلتةً .

ومن الهجران والفراق ما يكون بغتةً غير متوقع ، وهو أنكى للفؤاد وأشدُّ وأوجعُ تأثيراً في القلب ، وفى معناه قلنا :

فَبِتَّ بخيرٍ والدُّنى مطمئنةٌ . . . وأَصبحتَ يوماً والزمانُ تَقَلَّبَا

وأتمُّ السرورِ وأعظمه تأثيراً ما يكون فجأة ، قال قائلهم :

بينما خاطر المُنى بالتلاقي . . . سابح في فؤاده وفؤادي

جَمَعَ اللَّهُ بيننا فالتقينا . . . هكذا صُدْفةً بلا ميعادِ

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27)

أي أوضحنا لهم الآيات ، ووقفناهم على حقائق الأشياء .

﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ : فلا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفِه .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29)

مَثَّلَ الكافرَ ومعبوديه بعبدٍ اشترك فيه متنازعون .

﴿ فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ : فالصنم يدعي فيه قومٌ وقومٌ آخرون ؛ فهذا يقول : أنا صَنَعْتُه ، وذلك يقولك أنا استعملْتُه ، وثلاث يقول : أنا عَبَدْتُه .

أمّا المؤمن فهو خالِصٌ لله عزَّ وجل ، يشبه " عبداً سَلَماً لرجل " أي ذا سلامة من التنازع والاختلاف .

(184/667)

ويقال : ﴿ رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ تتجاذبه أشغال الدُّنيا ، شُغْلُ الوَلَدِ وشغل العيال ، وغيرُ ذلك من الأشغالِ المختلفةِ والخواطرِ المُشَتَّتَةِ .

أمَّا المؤمِن فها خالصٌ لله ليس لأحدٍ فيه نصيب ؛ ولا للدنيا معه سبب إذ ليس منها شيء ، ولا للرضوان معه شُغْل ، إذْ ليس له طاعات يُدِلُّ بها ، وعَلَى الجملة فهو خالص لله ، قال تعالى لموسى : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه : 41] أي أبقيتُكَ لي حتى لا تصلح

لغيره .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ : الثناءُ له ، وهو مُسْتَحِقٌّ لصفات الجلال .

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31)

نَعَاه – موسى عليه السلام – ونَعَى المسلمين إليهم فَفزِعُوا بأجمعهم من مآثمهم ، ولا تعزية في العادة بعد ثلاث . ومَنْ لم يَتفرَّغْ من مآثمِ نفسه وأنواع همومه ، فلس له من هذا الحديث شمّة ، فإذا فرغ قلْبُه من حديث نَفْسِه ، وعن الكون بجملته فحينئذٍ يجد الخيرَ من ربّه ، وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم ، وأنشد بعضهم :

كتابي إليكم بعد موتي بليلةٍ . . . ولم أدرِ أني بعد موتي أكتب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 278. 281 ﴾

(185/667)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قول الله تبارك وتعالى : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله ﴾

يعني : القرآن صار رفعاً بالابتداء ، وخبره من الله تعالى .

أي : نزل الكتاب من عند الله ﴿ العزيز ﴾ بالنقمة ﴿ الحكيم ﴾ في أمره .

ومعناه : نزل جبريل بهذا القرآن من عند الله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ وقال بعضهم : صار رفعاً لمضمر فيه .

ومعناه : هذا الكتاب تنزيل .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب ﴾ يعني : أنزلنا إليك جبريل بالكتاب ﴿ بالحق ﴾ ﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ يعني : استقم على التوحيد ، وعلى عبادة الله تعالى مخلصاً ، وإنما خاطبه ، والمراد به قومه .

يعني : وحدوا الله تعالى ، ولا تقولوا مع الله شريكاً .

ثم قال : ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ يعني : له الولاية ، والوحدانية .

ويقال : له الدين الخالص ، والخالص هو دين الإسلام .

فلا يقبل غيره من الأديان ، لأن غيره من الأديان ليس هو بخالص سوى دين الإسلام .

قوله عز وجل : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ يعني : عبدوا من دونه أرباباً ، وأوثاناً ، ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ على وجه الإضمار .

قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ يعني : يقولون ما نعبدهم .

وروي عن عبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، أنهما كانا يقرآن ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ قالوا : ﴿ مَا ﴾ بالياء ، وقراءة العامة مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ على وجه الإضمار

، لأن في الكلام دليلاً عليه ﴿ نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ يعني : ليشفعوا لنا ، ويقربونا عند الله .

ويقال : ﴿ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ يعني : منزلة .

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ يعني : يقضي بينهم يوم القيامة ﴿ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين .

(186/667)

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى ﴾ أي : لا يرشد إلى دينه ﴿ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ في قوله : الملائكة بنات الله وعيسى ابن الله ﴿ كَفَّارٌ ﴾ يعني : كفروا بالله بعبادتهم إياهم .

ويقال : معناه لا يوفق لتوحيده من هو كاذب على الله ، حتى يترك كذبه ، ويرغب في دين الله .

﴿ لَّوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ كما قلتم ﴿ لاصطفى ﴾ يعني : لاختار من الولد ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ من خلقه إن فعل ذلك .

ثم قال : ﴿ سبحانه ﴾ نزه نفسه عن الولد ، وعن الشرك ، ﴿ هُوَ اللهُ الواحد القهار ﴾

يعني : الذي لا شريك له ﴿ القهار ﴾ يعني : القاهر لخلقه .

ثم بيّن ما يدل على توحيده ، ويعجز عنه المخلوقون .

قوله عز وجل : ﴿ خُلِقَ السموات والأرض بالحق ﴾ يعني : للحق ، ولم يخلقهما باطلاً لغير شيء ﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار ﴾ قال مجاهد : يعني : يدهور الليل على النهار ﴿ ويُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ يعني : يدور النهار على الليل .

وقال مقاتل ﴿ يُكَوِّرُ ﴾ يعني : يسلط عليه ، وهو انتقاص كل واحد منهما من صاحبه .

وقال الكلبي : ﴿ يُكَوِّرُ ﴾ يعني : يزيد من النهار في الليل ، فيكون اللَّيل أطول من النهار ، ويزيد من الليل في النهار ، فيكون النهار أطول من الليل .

هذا يأخذ من هذا ، وهذا يأخذ من هذا .

وقال القتبي ﴿ يُكَوِّرُ ﴾ يعني : يدخل هذا على هذا .

وأصل التكوير اللف ، والجمع ، ومنه كور العمامة ومنه قوله : ﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : 1] ﴿ ويُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر ﴾ يعني : ذلل ضوء الشمس ، والقمر ، للخلق ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِاَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني : إلى أقصى منازله .

ويقال : إلى يوم القيامة .

﴿ إِلاَّ هُوَ العزيز ﴾ يعني : ﴿ العزيز ﴾ بالنقمة لمن لم يتب ﴿ الغفار ﴾ لمن تاب .

ويقال : ﴿ العزيز ﴾ في ملكه .

﴿ الغفار ﴾ لخلقه بتأخير العذاب .

(187/667)

قوله عز وجل : ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ واحدة ﴾ يعني : من نفس آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ حواء ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثمانية أزواج ﴾ يعني : ثمانية أصناف .

وقد فسرناه في سورة الأنعام ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أمهاتكم خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ يعني : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، حالاً بعد حال ، ﴿ فِى ظلمات ثلاث ﴾ أي : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، وهو الذي يكون فيه الولد في الرحم ، فتخرج بعد ما يخرج الولد ، ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ ﴾ يعني : الذي خلق هذه الأشياء هو ربكم ، ﴿ لَهُ الملك لا إله إِلاَّ هُوَ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ يعني : من أين تكذبون على الله ، ومن أين تعدلون عنه إلى غيره ؟ فاعلموا ، أنه خالق هذه الأشياء .

ثم قال : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ ﴾ يعني : إن تجحدوا وحدانيته ، ﴿ فَإِنَّ الله غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾ يعني : عن إقراركم ، وعبادتكم ، ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ قال الكلبي : يعني : ليس

يرضى من دينه الكفر .

ويقال : ﴿ لاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ وهو ما قاله لإبليس : إن عبادي ليس لك عليهم سلطان .

ويقال : ﴿ لاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ يعني : بشيء من عبادة الكفار ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ يعني : إن تؤمنوا بالله ، وتوحدوه ، يرضه لكم .

يعني : يقبله منكم ، لأنه دينه ، ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ يعني : لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، ﴿ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ ﴾ يعني : مصيركم في الآخرة ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ يعني : فيخبركم ، ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير ، أو شر ، فيجازيكم ، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ يعني : عالم بما في ضمائر قلوبهم .

(188/667)

ثم قال : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ ﴾ يعني : إذا أصاب الكافر شدة في جسده ، ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ يعني : مقبلاً إليه بدعائه ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ قال مقاتل يعني : أعطاه ، وقال الكلبي : يعني : بدله عافية مكان البلاء ﴿ نَسِيَ ﴾ ترك الدعاء ﴿ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ ويتضرع به ، ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ يعني : يصف لله شريكاً ، ﴿

لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ بنصب الياء ، وهو من ضل يضل .

يعني : ترك الهدى .

وقرأ الباقون : ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ بالضم .

يعني : ليضلّ الناس .

ويقال : ليضل نفسه بعبادة غير الله ، ويصرفهم عن سبيل الله .

يعني : عن دين الله ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ يعني : عش في الدنيا مع كفرك قليلاً ﴿ إِنَّكَ مِنْ أصحاب النار ﴾ يعني : من أهل النار .

قوله عز وجل : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء الليل ساجدا وَقَائِماً ﴾ وأصل القنوت هو القيام .

ثم سمي المصلي قانتاً ، لأنه بالقيام يكون .

ومعناه : أمن هو مصل كمن لا يكون مصلياً على وجه الإضمار .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ القَانِتِ القَائِمِ " يعني : المصلي القائم .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، ﴿ مِن ﴾ بالتخفيف .

وقرأ الباقون : بالتشديد .

فمن قرأ : بالتخفيف ، فقد روي عن الفراء أنه قال : معناه يا من هو قانت .

كما تقول في الكلام : فلان لا يصوم ، ولا يصلي ، فيا من يصلي ، ويصوم ، أبشر .

فكأنه قال : يا من هو قانت أبشر .

ومن قرأ : بالتشديد .

فإنَّه يريد به معنى الذي .

ومعناه : الذي هو من أصحاب النار .

فهذا أفضل أم الذي هو قانت آناء الليل .

(189/667)

يعني : ساعات الليل في الصلاة ، ساجداً ، وقائماً في الصلاة ، ﴿ يَحْذَرُ الآخرة ﴾ يعني : يخاف عذاب الآخرة ، ﴿ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ ﴾ يعني : مغفرة الله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ ﴾ وهم المؤمنون ، ﴿ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وهم الكفار في الثواب ، والطاعة .

ويقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : يصدقون بما وعد الله في الآخرة من الثواب ، ﴿ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لا يصدقون .

ويقال : معناه قل هل يستوي العالم والجاهل .

فكما لا يستوي العالم والجاهل ، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي .

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الالباب ﴾ يعني : يعتبر في صنعي ، وقدرتي من له عقل ، وذهن .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ يا عباد الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ﴿ اتقوا رَبَّكُمُ ﴾ يعني : اخشوا ربكم في صغير الأمور ، وكبيرها ، واثبتوا على التوحيد .

ثم قال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ يعني : لمن عمل بالطاعة في الدنيا حسنة ، له الجنة في الآخرة .

ويقال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ يعني : شهدوا أن لا إله إلا الله في الدنيا حسنة .

يعني : لهم الجنة في الآخرة .

ويقال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ أي : ثبتوا على إيمانهم فلهم الجنة .

قوله : ﴿ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ ﴾ قال مقاتل : يعني : الجنة واسعة .

وقال الكلبي : ﴿ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ ﴾ يعني : المدينة ، فتهاجروا فيها .

يعني : انتقلوا إليها ، واعملوا لآخرتكم ، ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ ﴾ يعني : هم الذين يصبرون على الطاعة لله في الدنيا ، جزاؤهم ، وثوابهم على الله ، ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ يعني : بلا عدد ، ولا انقطاع .

وروى سفيان عن عبد الملك بن عمير ، عن جندب بن عبد الله ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ " .

(190/667)

قال سفيان لما نزل ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بالسيئة فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : 160] قال النبي صلى الله عليه وسلم : " رَبِّ زِدْ أُمَّتِي " .

فنزل : ﴿ مَّثَلُ الذين يُنفِقُونَ أموالهم فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ والله يضاعف لِمَن يَشَآءُ والله واسع عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 261] قال : " رَبِّ زِدْ أُمَّتِي " فنزل ﴿ مَّن ذَا الذى يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً والله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : 245] فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " رَبِّ زِدْ أُمَّتِي " فنزل : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله عز وجل :

﴿ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ وذلك أن كفار قريش قالوا للنبي صلى

الله عليه وسلم : ألا تنظر إلى ملة أبيك عبد الله ، وملة جدك عبد المطلب ، وسادات قومك يعبدون الأصنام ؟ فنزل : ﴿ قُلْ ﴾ يا نبي الله ﴿ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ يعني : التوحيد ، ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين ﴾ من أهل بلدي ﴿ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾ وعبدت غيره ، ينزل علي ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : في يوم القيامة ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ ﴾ يعني : أعبد الله ﴿ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى ﴾ أي : توحيدي .

﴿ فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ ﴾ من الآلهة .

(191/667)

وهذا كقوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون : 6] ويقال : ﴿ فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ ﴾ لفظه لفظ التخيير والأمر ، والمراد به التهديد والتخويف ، كقوله : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُم مِن دُونِهِ ﴾ وكقوله : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ ويقال : قد بيّن الله ثواب المؤمنين ، وعقوبة الكافرين .

ثم قال : ﴿ فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ ﴾ وذلك قبل أن يؤمر بالقتال ، فلما أيسوا منه أن يرجع إلى دينهم ، قالوا : خسرت إن خالفت دين آبائك .

فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرين الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة ﴾ يعني :

أنتم الخاسرون ، لا أنا .

ويقال : الذين خسروا أنفسهم بفوات الدرجات ، ولزوم الشركات ، ﴿ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخسران المبين ﴾ يعني : الظاهر حيث خسروا أنفسهم ، وأهلهم ، وأزواجهم ، ﴿ لَهُمْ مّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مّنَ النار ﴾ يعني : أطباقاً من نار ، ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ يعني : مهاداً من نار ، أو معناه : أن فوقهم نار ، وتحتهم نار ، ﴿ ذلك يُخَوّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ ﴾ أي : ذلك الذي ذكر ، يخوف الله به عباده في القرآن ، لكي يؤمنوا .

﴿ قَلِيلاً وإياى فاتقون ﴾ : أي : فوحدون ، وأطيعون ، ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ قال مقاتل : يعني : اجتنبوا عبادة الأوثان .

وقال الكلبي : ﴿ الطاغوت ﴾ يعني : الكهنة ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ يعني : أن يطيعوها ، ورجعوا إلى عبادة ربهم ﴿ وَأَنَابُواْ إِلَى الله ﴾ أي : أقبلوا إلى طاعة الله .

ويقال : رجعوا من عبادة الأوثان إلى عبادة الله ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ يعني : الجنة .

(192/667)

ويقال : الملائكة يبشرونهم في الآخرة ، ﴿ فَبَشّرْ عِبَادِ الذين يَسْتَمِعُونَ القول ﴾ يعني : القرآن ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ يعني : يعملون بحلاله ، وينتهون عن حرامه ، وقال الكلبي :

يعني : يجلس الرجل مع القوم ، فيستمع الأحاديث ، محاسن ومساوىء ، فيتبع أحسنه ، فيأخذ المحاسن ، فيحدث بها ، ويدع مساوئه .

ويقال : يستمعون القرآن ويتبعون أحسن ما فيه ، وهو القصاص ، والعفو يأخذ العفو لقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصابرين ﴾ [النحل : 126] ، [وقال بعضهم : يستمع النداء ، فيستجيب ، ويسرع إلى الجماعة .

وقال بعضهم : يستمع الناسخ ، والمنسوخ ، والمحكم من القرآن ، فيعمل بالمحكم ، ويؤمن بالناسخ والمنسوخ] .

ثم قال : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَاهُمُ الله ﴾ أي : وفقهم الله لمحاسن الأمور .

ويقال : ﴿ هَدَاهُمُ الله ﴾ أي : أكرمهم الله تعالى بدين التوحيد ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُو الالباب ﴾ يعني : ذوي العقول .

قوله عز وجل : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب ﴾ يعني : وجب له العذاب .

ويقال : أفمن سبق في علم الله تعالى أنه في النار ، كمن لا يجب عليه العذاب .

﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى النار ﴾ يعني : تستنقذ من هو في علم الله تعالى ، أنه يكون في النار بعمله الخبيث .

ويقال : من وجبت له النار : وقدرت عليه .

ثم ذكر حال المؤمنين المتقين فقال عز من قائل : ﴿ لَكِنِ الذين اتقوا رَبَّهُمْ ﴾ يعني : وحدوا

ربهم ، وأطاعوا ربهم ، ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ في الجنة ، وهي العلالي . غرف مبنية ، مرتفعة بعضها فوق بعض ، ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَعْدَ الله ﴾ في القرآن ، ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله الميعاد ﴾ .

(193/667)

قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأرض ﴾ أي : فأدخله في الأرض فجعله ينابيع .

يعني : عيوناً في الأرض تنبع .

ويقال : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأرض ﴾ يعني : جارياً في الأرض ، وهي تجري فيها .

ويقال : جعل فيها أنهاراً وعيوناً ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ أحمر ، وأصفر ، وأخضر ، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي : يتغير ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ أي : يابساً بعد الخضرة .

ويقال : ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ يعني : ييبس .

ويقال : ﴿ يَهِيجُ ﴾ أي : يتم ، ويشتد من هاج يهيج .

أي : تم يتم ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ متغيراً عن حاله ، ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حطاما ﴾ قال القتبي : ﴿ حطاما ﴾ مثل الرفات ، والفتات .

وقال الزجاج: الحطام ما تفتت، وتكسر من النبت.

وقال مقاتل: ﴿ حطاما ﴾ يعني: هالكاً ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أي: فيما ذكر لعظة ﴿ لِأُوْلِى الالباب ﴾ يعني: لذوي العقول من الناس ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ يعني: وسع الله قلبه للإسلام.

ويقال: لين الله قلبه لقبول التوحيد، ﴿ فَهُوَ على نُورٍ مّن رَّبِّهِ ﴾ يعني: على هدى من الله تعالى.

وجوابه مضمر.

يعني أفمن شرح الله صدره للإسلام، واهتدى، كمن طبع على قلبه، وختم على قلبه فلم يهتد.

ويقال: ﴿ فَهُوَ على نُورٍ مّن رَّبِّهِ ﴾ يعني: القرآن.

لأن فيه بيان الحلال والحرام.

فهو على نور من ربه لمن تمسك به.

ويقال: على نور يعني: التوحيد، والمعرفة.

وروي في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ قالوا: فكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: "إذا دَخَلَ النُّورُ فِي القَلْبِ انْفَسَحَ، وَانْشَرَحَ".

قالوا: فهل لذلك علامة؟ قال: "نَعَمْ.

التَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ ، وَالإِنَابَةُ إلى دَارِ الخُلُودِ ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ المَوْتِ " .

ثم قال : ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ يعني : الشدة من العذاب ﴿ للقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ يعني : لمن قست ، ويبست قلوبهم ، ﴿ مّن ذِكْرِ الله ﴾ تعالى .

ويقال : القاسية .

الخالية من الخير ، ﴿ أولئك ﴾ يعني : أهل هذه الصفة ﴿ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ أي : في خطأ بيّن .

قوله عز وجل : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ يعني : أحكم الحديث ، وهو القرآن .

وذلك أن المسلمين قالوا لبعض مؤمني أهل الكتاب ، نحو عبد الله بن سلام : أخبرنا عن التوراة ، فإن فيها علم الأولين والآخرين .

فأنزل الله تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ يعني : أنزل عليكم أحسن الحديث ، وهو القرآن .

ويقال : ﴿ أَحْسَنَ الحديث ﴾ يعني : أحسن من سائر الكتب ، لأن سائر الكتب صارت منسوخة بالقرآن ، ﴿ كتابا متشابها ﴾ يعني : يشبه بعضه بعضاً ، ولا يختلف .

ويقال : ﴿ متشابها ﴾ يعني : موافقاً لسائر الكتب في التوحيد ، وفي بعض الشرائع .

وروي عن الحسن البصري أنه قال : ﴿ متشابها ﴾ يعني : خياراً لا رذالة فيه .

ويقال : ﴿ متشابها ﴾ اشتبه على الناس تأويله .

ثم قال : ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ يعني : أن الأنباء ، والقصص ، تثنى فيه .

ويقال : سمي مثاني ، لأن فيه سورة المثاني .

يعني : سورة الفاتحة ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ .

ثم قال : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ ﴾ يعني : ترتعد مما فيه من الوعيد ، ﴿ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ .

ويقال : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ ﴾ يعني : تتحرك مما في القرآن من الوعيد .

ويقال : ترتعد منه الفرائض .

﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ ﴾ يعني : بعد الاقشعرار ﴿ إلى ذِكْرِ الله ﴾ من آية الرحمة ، والمغفرة .

يعني : إذا قرأت آيات الرجاء ، والرحمة ، تطمئن قلوبهم ، وتسكن ، ﴿ ذلك ﴾ يعني : القرآن ﴿ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاء ﴾ يعني : بالقرآن من يشاء الله أن يهديه إلى دينه ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ عن دينه ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يعني : لا يقدر أحد أن يهديه ، بعد خذلان الله تعالى .

قوله عز وجل : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوء العذاب ﴾ يعني : أفمن يدفع بوجهه شدة سوء العذاب ، وجوابه مضمر .

يعني : هل يكون حاله كحال من هو في الجنة .

يعني : ليس الضال الذي تصل النار إلى وجهه ، كالمهتدي الذي لا تصل النار إلى وجهه ، ليسا سواء .

وقال أهل اللغة : أصل الاتقاء في اللغة ، الإوتقاء ، وهو التستر .

يعني : وجهه إلى النار كالذي لا يفعل ذلك به .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوء العذاب ﴾ يعني : يجر على وجهه في النار ، وهذا كقوله : ﴿ إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ فى ءاياتنا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يلقى فِى النار خَيْرٌ أَم مَّن يأتى ءَامِناً يَوْمَ القيامة اعملوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت : 40] ويقال : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوء العذاب ﴾ معناه : أنه يلقى في النار مغلولاً ، لا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه ، ﴿ يَوْمَ القيامة وَقِيلَ لِلظَّلِمِينَ ﴾ يعني : للكافرين

، ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ من التكذيب .

قوله عز وجل : ﴿ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني من قبل قومك ، رسلهم ، ﴿ فأتاهم العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ يعني : لا يعلمون ، ولا يحتسبون ، وهم غافلون .

﴿ فَأَذَاقَهُمُ الله الخزى ﴾ العذاب ﴿ فَأَذَاقَهُمُ الله الخزى فِى الحياة الدنيا ﴾ يعني : أعظم مما عذبوا به في الدنيا ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ ولكنهم لا يعلمون .

(196/667)

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يعني : بيّنا في هذا القرآن من كل شيء .

وقد بيّن بعضه مفسراً ، وبعضه مبهماً مجملاً ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : لكي يتعظوا ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ يعني : أنزلناه قرآناً عربياً بلغة العرب ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ يعني : ليس بمختلف ، ولكنه مستقيم .

ويقال : غير ذي تناقض .

ويقال : غير ذي عيب .

ويقال : ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ أي : غير مخلوق .

قال أبو الليث رحمه الله : حدثنا محمد بن داود .

قال : حدثنا محمد بن أحمد بإسناده .

قال : حدثنا أبو حاتم الداري ، عن سليمان بن داود العتكي ، عن يعقوب بن محمد بن عبد الله الأشعري ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس .

قال : في قوله تعالى : ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ قال : غير مخلوق ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : لكي يتقوا الشرك ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ أي : بيّن شبهاً ﴿ رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء متشاكسون ﴾ أي : عبداً بين موالي مختلفين يأمره ، هذا بأمر ، وينهاه هذا عنه .

ويقال : ﴿ متشاكسون ﴾ أي : مختلفون ، يتنازعون ، ﴿ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ ﴾ أي : خالصاً لرجل لا شركة فيه لأحد .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمر ، ﴿ سَالِماً ﴾ بالألف ، وكسر اللام .

والباقون ﴿ قِيلاً سلاما ﴾ بغير ألف ، ونصب السين .

فمن قرأ : سَالِماً فهو اسم الفاعل على معنى سلم ، فهو سالم .

ومعناه : الخالص .

ومن قرأ ﴿ سلاما ﴾ فهو مصدر .

فكأنه أراد به رجلاً ذا سلم لرجل .

ومعنى الآية : هل يستوي من عبد آلهة مختلفة ، كمن عبد رباً واحداً .

وقال قتادة : الرجل الكافر ، والشركاء الشياطين ، والآلهة ، وَرَجُلاً سَلَماً .

المؤمن يعمل لله تعالى وحده .

وقال بعضهم : هذه المثل للراغب ، والزاهد .

فالراغب شغلته أمور مختلفة ، فلا يتفرغ لعبادة ربه .

(197/667)

فإذا كان في العبادة ، فقلبه مشغول بها ، والزاهد قد يتفرغ عن جميع أشغال الدنيا ، فهو يعبد ربه خوفاً وطمعاً ، ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ يعني : عنده في المنزلة يوم القيامة .

﴿ الحمد للَّهِ ﴾ قال مقاتل : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ حين خصهم .

ويقال : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ على تفضيل من اختاره ، على من اشتغل بما دونه .

ويقال : يعني : قولوا الحمد لله ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أَنَّ عبادة رب واحد ، خير من عبادة أرباب شتى .

ويقال : ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهما لا يستويان .

ويقال : ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ توحيد ربهم .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ ذلك أن كفار قريش قالوا : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ

رَيْبَ المنون ﴾ [الطور : 30] ، يعني : ننتظر موت محمد عليه السلام فنزل : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ يعني : أنت ستُموت ، وهم سيموتون .

ويقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ يعني : إنك لميت لا محالة ، وإنهم لميتون لا محالة ، والشيء إذا قرب من الشيء سمي باسمه .

فالخلق كلهم إذا كانوا بقرب من الموت ، فكل واحد منهم يموت لا محالة ، فسماهم ميتين .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ أي : تتكلمون بحججكم .

الكافر مع المؤمن ، والظالم مع المظلوم .

فإن قيل : قد قال في آية أخرى : ﴿ قَالَ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد ﴾ [ق : 28] قيل له : إن في يوم القيامة ساعات كثيرة ، وأحوالها مختلفة ، مرة يختصمون ، ومرة لا يختصمون .

(198/667)

كما أنه قال : فهم لا يتساءلون ، وقال في آية أخرى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات : 27] يعني : في حال يتساءلون ، وفي حال لا يتساءلون ، وهذا كما قال في موضع آخر : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 39] وقال في آية

أخرى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] وكما قال في آية أخرى : لا يتكلمون ، وفي آية أخرى أنهم يتكلمون ، ونحو هذا كثير في القرآن .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لاَ تَزَال الخُصومَة بَيْنَ النَّاس يَوْمَ القِيَامَةِ ، حَتى تَتَخَاصَم الرُّوح والجَسَد ، فَيَقُول الجَسَد : إِنَّمَا كُنْتُ بِمَنْزِلَةِ جِذع مُلْقَى ، لاَ أَسْتَطِيع شَيْئاً .

وَتَقُولُ الرُّوح : إِنَّمَا كُنْتُ رِيحاً ، لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْمَلَ شَيْئاً .

فَضُرِبَ لَهُما مَثَلُ الأَعْمَى والمُقْعَد ، فَحَمَلَ الأَعْمَى المُقْعَد ، فَيَدُلُّهُ المُقْعَد بِبَصَرِه ، وَيَحْمِله الأَعْمَى بِرِجْلَيه" .

وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع ، عن أنس قال : سألت أبا العالية عن قوله : ﴿ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ ثم قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فكيف هذا ؟ قال : أما قوله : ﴿ لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ فهو لأهل الشرك ، وأما قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فهو لأهل القبلة ، يختصمون في مظالم ما بينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 168 . 177 ﴾

(199/667)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ تنزيل الكتاب ﴾

والكتاب هو القرآن سمي بذلك لأنه مكتوب .

﴿ من الله العزيز الحكيم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : العزيز في ملكه الحكيم في أمره .

الثاني : العزيز في نقمته الحكيم في عدله . قوله عز وجل : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أنه الإخلاص بالتوحيد ، قاله السدي .

الثاني : إخلاص النية لوجهه ، وفي قوله ﴿ له الدين ﴾ وجهان :

أحدهما : له الطاعة ، قاله ابن بحر .

الثاني : العبادة .

﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : شهادة أن لا إله إلا الله ، قاله قتادة .

الثاني : الإسلام ، قاله الحسن .

الثالث : ما لا رياء فيه من الطاعات .

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ يعني آلهة يعبدونها .

﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ قال كفار قريش هذه لأوثانهم وقال من قبلهم ذلك لمن عبدوه من الملائكة وعزير وعيسى ، أي عبادتنا لهم ليقربونا إلى الله زلفى ، وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الزلفى الشفاعة في هذا الموضع ، قاله قتادة .

الثاني : أنها المنزلة ، قاله السدي .

الثالث : أنها القرب ، قاله ابن زيد .

قوله عز وجل : ﴿ يكوِّر الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يحمل الليل على النهار ، ويحمل النهار على الليل ، قاله ابن عباس .

الثاني : يغشى الليل على النهار فيذهب ضوءَه ، ويغشى النهار على الليل فيذهب ظلمته ، قاله قتادة .

الثالث : هو نقصان أحدهما عن الآخر ، فيعود نقصان الليل في زيادة النهار ونقصان النهار في زيادة الليل ، قاله الضحاك .

ويحتمل رابعاً : يجمع الليل حتى ينتشر النهار ، ويجمع النهار حتى ينتشر الليل .

قوله عز وجل : ﴿ خلقكم من نفسٍ واحدة ﴾ يعني من آدم .

﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ يعني حواء . فيه وجهان :

أحدهما : أنه خلقها من ضلع الخَلْف من آدم وهو أسفل الأضلاع ، قاله الضحاك .

الثاني : أنه خلقها من مثل ما خلق منه آدم ، فيكون معنى قوله ﴿ جعل منها ﴾ أي من مثلها ، قاله ابن بحر .

﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ قال قتادة : من الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين ، ومن الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، كل واحد زوج .

وفي قوله ﴿ أنزل ﴾ وجهان :

أحدهما : يعني جعل ، قاله الحسن .

الثاني : أنزلها بعد أن خلقها في الجنة ، حكاه ابن عيسى .

﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم لحماً ، قاله قتادة والسدي .

الثاني : خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم ، قاله السدي .

ويحتمل ثالثاً : خلقاً في ظهر الأب ثم خلقاً في بطن الأم ثم خلقاً بعد الوضع .

﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة ، قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد

وقتادة .

الثاني : ظلمة صلب الرجل وظلمة بطن المرأة وظلمة الرحم ، حكاه ابن عيسى .

ويحتمل ثالثاً : أنها ظلمة عتمة الليل التي تحيط بظلمة المشيمة مظلمة الأحشاء وظلمة البطن .

قوله عز وجل : ﴿ وإذا مس الإنسان ضُرٌّ دعا ربَّهُ منيباً إليه ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : مخلصاً إليه ، قاله الضحاك .

الثاني : مستغيثاً به ، قاله السدي .

الثالث : مقبلاً عليه ، قاله الكلبي وقطرب .

﴿ ثم إذا خوّله منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إذا أصابته نعمة ترك الدعاء ، قاله الكلبي .

الثاني : إذا أصابته نعمة ترك الدعاء ، قاله الكلبي .

الثاني : إذا أصابته عافية نَسي الضر . والتخويل العطية العظيمة من هبة أو منحة ، قال أبو النجم :

أعطى فلم يبخل ولم يبخلِ . . . كوم الذّرى من خول المخوّلِ

قوله عز وجل : ﴿ أمَّن هو قانتٌ ﴾ في الألف التي في ﴿ أمّن ﴾ وجهان :

أحدهما : أنها ألف استفهام .

الثاني : ألف نداء .

وفي قانت أربعة أوجه :

أحدها : أنه المطيع ، قاله ابن مسعود .

(201/667)

الثاني : أنه الخاشع في صلاته ، قاله ابن شهاب .

الثالث : القائم في صلاته ، قاله يحيى بن سلام .

الرابع : أنه الداعي لربه .

﴿ آناء الليل ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : طرف الليل ، قاله ابن عباس .

الثاني : ساعات الليل ، قاله الحسن .

الثالث : ما بين المغرب والعشاء ، قاله منصور .

﴿ ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه ﴾ قال السدي : يحذر عذاب الآخرة ويرجوا نعيم الجنة .

وفيمن أريد به هذا الكلام خمسة أقاويل :

أحدها : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حكاه يحيى بن سلام .

الثاني : أبو بكر ، قاله ابن عباس في رواية الضحاك عنه .

الثالث : عثمان بن عفان ، قاله ابن عمر .

الرابع : عمار بن ياسر وصهيب وأبو ذر وابن مسعود ، قاله الكلبي .

الخامس : أنه مرسل فيمن كان على هذه الحال قانتاً آناء الليل .

فمن زعم أن الألف الأولى استفهام أضمر في الكلام جواباً محذوفاً تقديره : أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً كمن جعل لله أنداداً ؟ قاله يحيى . وقال ابن عيسى : المحذوف من الجواب : كمن ليس كذلك .

ومن زعم أن الألف للنداء لم يضمر جواباً محذوفاً ، وجعل تقدير الكلام : أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه .

﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : هل يستوي الذين يعلمون هذا فيعملون به والذين لا يعلمون هذا فلا يعملون به ، قاله قتادة .

الثاني : أن الذين يعلمون هم المؤمنون يعلمون أنهم لاقو ربهم ، والذين لا يعلمون هم المشركون الذين جعلوا لله أنداداً قاله يحيى .

الثالث : ما قاله أبو جعفر محمد بن علي قال : الذين يعلمون نحن ، والذين لا يعلمون عدونا .

ويحتمل رابعاً : أن الذين يعلمون هم الموقنون ، والذين لا يعلمون هم المرتابون .

قوله عز وجل : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنةٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة في الآخرة ، وهي الجنة .

(202/667)

الثاني : للذين أحسنوا في الدنيا حسنة في الدنيا فيكون ذلك زائداً على ثواب الآخرة .

وفيما أريد بالحسنة التي لهم في الدنيا أربعة أوجه :

أحدها : العافية والصحة ، قاله السدي .

الثاني : ما رزقهم الله من خير الدنيا ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : ما أعطاهم من طاعته في الدنيا وجنته في الآخرة ، قاله الحسن .

الرابع : الظفر والغنائم ، حكاه النقاش .

ويحتمل خامساً : إن الحسنة في الدنيا الثناء وفي الآخرة الجزاء .

﴿ وأرض الله واسعة ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أرض الجنة رغبهم في سعتها ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : هي أرض الهجرة ، قاله عطاء .

ويحتمل ثالثاً : أن يريد بسعة الأرض سعة الرزق لأنه يرزقهم من الأرض فيكون معناه .

ورزق الله واسع ، وهو أشبه لأنه أخرج سعتها مخرج الامتنان بها .

﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : يعني بغير مَنٍّ عليهم ولا متابعة ، قاله السدي .

الثاني : لا يحسب لهم ثواب عملهم فقط ولكن يزدادون على ذلك ، قاله ابن جريج .

الثالث : لا يعطونه مقدراً لكن جزافاً .

الرابع : واسعاً بغير تضييق قال الراجز :

يا هند سقاك بلا حسابه . . . سقيا مليك حسن الربابة

وحكي عن علي كرم الله وجهه قال : كل أجر يكال كيلاً ويوزن وزناً إلا أجر الصابرين فإنه يحثى حثواً .

قوله عز وجل : ﴿ قل إن الخاسرين الَّذِينَ خَسِروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : خسروا أنفسهم بإهلاكها في النار ، وخسروا أهليهم بأن لا يجدوا في النار أهلاً ، وقد كان لهم في الدنيا أهل ، قاله مجاهد وابن زيد .

الثاني : خسروا أنفسهم بما حرموها من الجنة وأهليهم من الحور العين الذين أعدوا [لهم] في الجنة ، قاله الحسن وقتادة .

الثالث : خسروا أنفسهم وأهليهم بأن صاروا هم بالكفر إلى النار ، وصار أهلوهم بالإيمان إلى الجنة وهو محتمل .

قوله عز وجل : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ﴾ فيه قولان :

(203/667)

أحدهما : أن الطاغوت الشيطان ، قاله مجاهد وابن زيد .

الثاني : الأوثان ، قاله الضحاك والسدي .

وفيه وجهان :

أحدهما : أنه اسم أعجمي مثل هاروت وماروت .

الثاني : عربي مشتق من الطغيان .

﴿ وأنابوا إلى الله ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أقبلوا الى الله ، قاله قتادة .

الثاني : استقاموا إلى الله ، قاله الضحاك .

ويحتمل ثالثاً : وأنابوا الى الله من ذنوبهم .

﴿ لهم البشرى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنها الجنة ، قاله مقاتل ويحيى بن سلام .

الثاني : بشرى الملائكة للمؤمنين ، قاله الكلبي .

ويحتمل ثالثاً : أنها البشرى عند المعاينة بما يشاهده من ثواب عمله .

قوله عز وجل : ﴿ فبشر عبادِ الذين يستمعون القول ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن القول كتاب الله ، قاله مقاتل ويحيى بن سلام .

الثاني : أنهم لم يأتهم كتاب من الله ولكن يستمعون أقاويل الأمم ، قاله ابن زيد .

﴿ فيتبعون أحسنَه ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : طاعة الله ، قاله قتادة .

الثاني : لا إله إلا الله ، قاله ابن زيد .

الثالث : أحسن ما أمروا به ، قاله السدي .

الرابع : أنهم إذا سمعوا قول المسلمين وقول المشركين اتبعوا أحسنه وهو الإسلام ، حكاه النقاش .

الخامس : هو الرجل يسمع الحديث من الرجل فيحدث بأحسن ما يسمع منه ، ويمسك عن أسوإه فلا يتحدث به ، قاله ابن عباس .

ويحتمل سادساً : أنهم يستمعون عزماً وترخيصاً فيأخذون بالعزم دون الرخص .

﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾ الآية . قال عبد الرحمن بن زيد : نزلت في زيد بن عمرو بن

نفيل وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها في جاهليتهم ، واتبعوا أحسن ما صار من العقول إليهم .

قوله عز وجل : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وسع صدره للإسلام حتى يثبت فيه ، قاله ابن عباس والسدي .

الثاني : وسع صدره بالإسلام بالفرح به والطمأنينة إليه ، فعلى هذا لا يجوز أن يكون الشرح قبل الإسلام ، وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون الشرح قبل الإسلام .

(204/667)

﴿ فهو على نور من ربه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : على هدى من ربه ، قاله السدي .

الثاني : أنه كتاب الله الذي به يأخذ وإليه ينتهي ، قاله قتادة .

وروى عمرو بن مرّة عن عبد الله بن سدر قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، فقالوا : يا رسول الله ما هذا الشرح ؟ فقال : " نور يقذف به في القلب " قالوا : يا رسول الله هل لذلك من أمارة ؟ قال : " نعم " قالوا : ما هي ؟ قال : " الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الموت .

" وفي من نزلت فيه هذه الآية ثلاثة أقاويل :

أحدها : في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله الكلبي .

الثاني : في عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حكاه النقاش .

الثالث : في عمار بن ياسر ، قاله مقاتل .

﴿ فويل للقاسية قلوبُهم من ذِكر الله ﴾ قيل أنه عنى أبا جهل وأتباعهُ من كفار قريش ، وفي الكلام مضمر محذوف تقديره ، فهو على نور من ربه كمن طبع الله على قلبه فويل للقاسية قلوبهم .

قوله عز وجل : ﴿ الله نزّل أحسن الحديث ﴾ يعني القرآن ، ويحتمل تسميته حديثاً وجهين :

أحدهما : لأنه كلام الله ، والكلام يسمى حديثاً كما سمي كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً .

الثاني : لأنه حديث التنزيل بعدما تقدمه من الكتب المنزلة على من تقدم من الأنبياء .

ويحتمل وصفه بأحسن الحديث وجهين :

أحدهما : لفصاحته وإعجازه .

الثاني : لأنه أكمل الكتب وأكثرها إحكاماً .

﴿ كِتاباً متشابها ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يشبه بعضه بعضاً من الآي والحروف ، قاله قتادة .

الثاني : يشبه بعضه بعضاً في نوره وصدقه وعدله ، قاله يحيى بن سلام .

ويحتمل ثالثاً : يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه لما يتضمنه من أمر ونهي وترغيب وترهيب ، وإن كان أعم وأعجز . ثم وصفه فقال :

﴿ مثاني ﴾ وفيه سبعة تأويلات :

أحدها : ثنى الله فيه القضاء ، قاله الحسن وعكرمة .

الثاني : ثنى الله فيه قصص الأنبياء ، قاله ابن زيد .

(205/667)

الثالث : ثنى الله فيه ذكر الجنة والنار ، قاله سفيان .

الرابع : لأن الآية تثنى بعد الآية ، والسورة بعد السورة ، قاله الكلبي .

الخامس : يثنى في التلاوة فلا يمل لحسن مسموعه ، قاله ابن عيسى .

السادس : معناه يفسر بعضه بعضاً ، قاله ابن عباس .

السابع : أن المثاني اسم لأواخر الآي ، فالقرآن اسم لجميعه ، والسورة اسم لكل قطعة منه ، والآية اسم لكل فصل من السورة ، والمثاني اسم لآخر كل آية منه ، قاله ابن بحر .

﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها تقشعر من وعيده وتلين من وعده ، قال السدي .

الثاني : أنها تقشعر من الخوف وتلين من الرجاء ، قاله ابن عيسى .

الثالث : تقشعر الجلود لإعظامه ، وتلين عند تلاوته .

﴿ أفمن يتقي بوجهه سوءَ العذَاب يومَ القيامة ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الكافر يسحب على وجهه إلى النار يوم القيامة .

الثاني : لأن النار تبدأ بوجهه إذا دخلها .

قوله عز وجل : ﴿ فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من مأمنهم ، قاله السدي .

الثاني : فجأة ، قاله يحيى .

قوله عز وجل : ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : غير ذي لبس ، قاله مجاهد .

الثاني : غير مختلف ، قاله الضحاك .

الثالث : غير ذي شك ، قاله السدي .

قوله عز وجل : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً ﴾ يعني الكافر .

﴿ فيه شركاء ﴾ أي يعبد أوثاناً شتى .

﴿ متشاكسون ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : متنازعون ، قاله قتادة .

الثاني : مختلفون ، قاله ابن زياد .

الثالث : متعاسرون .

الرابع : متظالمون مأخوذ من قولهم : شكسني مالي أي ظلمني .

﴿ ورَجُلاً سَلَماً لرجُلٍ ﴾ يعني المؤمن سلماً لرجل أي مخلصاً لرجل ، يعني أنه بإيمانه يعبد إلهاً واحداً .

(206/667)

﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ أي هل يستوي حال العابد لله وحده وحال من يعبد آلهة غيره ؟ فضرب لهما مثلاً بالعبدين اللذين يكون أحدهما لشركاء متشاكسين ، لا يقدر أن يوفي كل واحد منهم حق خدمته ، ويكون الآخر لسيد واحد يقدر أن يوفيه حق خدمته .

﴿ الحمد لله ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : على احتجاجه بالمثل الذي خَصم به المشركين .

الثاني : على هدايته التي أعان بها المؤمنين .

﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لا يعلمون المثل المضروب .

الثاني : لا يعلمون بأن الله هو الإله المعبود .

قوله عز وجل : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أخبر بموته وموتهم ، فاحتمل خمسة أوجه : أحدها : أن يذكر ذلك تحذيراً من الآخرة .

الثاني : أن يذكره حثاً على العمل .

الثالث : أن يذكره توطئة للموت .

الرابع : لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره حتى إن عمر لما أنكر موته احتج أبو بكر بهذه الآية فأمسك .

الخامس : ليعلمه أن الله تعالى قد سوى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره لتكثر فيه السلوى وتقل الحسرة . ومعنى إنك ميت أي ستموت ، يقال ميت بالتشديد للذي سيموت ، وميت بالتخفيف لمن قد مات .

قوله عز وجل : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : في الدماء ، قاله عكرمة .

الثاني : في المداينة ، قاله الربيع بن أنس .

الثالث : في الإيمان والكفر ، قاله ابن زيد ، فمخاصمة المؤمنين تقريع ، ومخاصمة الكافرين ندم .

الرابع : ما قاله ابن عباس يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدي الضال ، والضعيف المستكبر . قال إبراهيم النخعي : لما نزلت هذه الآية جعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون ما خصومتنا بيننا .

(207/667)

ويحتمل خامساً : أن تخاصمهم هو تحاكمهم إلى الله تعالى فيما تغالبوا عليه في الدنيا من حقوقهم خاصة دون حقوق الله ليستوفيها من حسنات من وجبت عليه في حسنات من وجبت له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(208/667)

وقال الثعلبى :

﴿ تَنزِيلُ الكِتَابِ ﴾ .

قال الفراء : معناه هذا تنزيل الكتاب ، وإن شئت رفعته لمن ، مجازه : من الله تنزيل الكتاب ، وإن شئت جعلته إبتداء وخبره ممّا بعده .

﴿ مِنَ الله العزيز الحكيم * إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب بالحق فاعبد الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ أيّ الطاعة ﴿ الدين الخالص ﴾ قال قتادة : شهادة ان لا إله إلاّ الله .

قال أهل المعاني : لايستحق الدين الخالص إلاّ الله .

﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ يعني الأصنام ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ مجازه قالوا ما نعدهم .

﴿ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى ﴾ .

قال قتادة : وذلك أنهم كانوا إذا قيل لهم من ربكم ومن خلقكم وخلق السماوات والأرض ونزل من السماء ماء ؟

قالوا : الله .

فيقال لهم : فما يعني عبادتكم الأوثان ؟

قالوا : ليقربونا إلى الله زلفى وتشفع لنا عند الله .

قال الكلبي : وجوابه في الأحقاف ﴿ فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله قُرْبَانًا آلِهَةَ ﴾ [الأحقاف : 28] الآية .

﴿ إِنَّ الله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ يوم القيامةِ ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين ﴿ إِنَّ

الله لاَيَهْدِي ﴾ لدينه وحجته ﴿ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ * لَّوْ أَرَادَ الله أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ كما زعموا ﴿ لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَانَهُ هُوَ الله الواحد القهار * خَلَقَ السماوات والأرض بالحق يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار ويُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ .

قال قتادة : يعني يغشي هذا هذا ويغشي هذا هذا ، نظيره قوله : ﴿ يُغْشِي الليل النهار ﴾ [الأعراف : 54] .

وقال المؤرخ : يدخل هذا على هذا وهذا على هذا ، نظيره قوله : ﴿ يُولِجُ الليل فِي النهار ويُولِجُ النهار فِي الليل ﴾ [فاطر : 13] .

قال مجاهد : يُدور .

(209/667)

وقال الحسن وابن حيان والكلبي : ينقص من الليل فيزيد في النهار وينقص من النهار فيزيد في الليل ، فما نقص من الليل دخل في النهار وما نقص من النهار دخل في الليل ، ومنتهى النقصان تسع ساعات ومنتهى الزيادة خمسة عشر ساعة ، وأصل التكوير اللف والجمع ، ومنه كور العمامة .

﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ العزيز الغفار * خَلَقَكُمْ مِّن

نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ ﴾ وأنشأ ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ ﴾ وقال بعض أهل المعاني : جعلنا لكم نزلاً ورزقاً .

﴿ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أصناف وأفراد ، تفسيرها في سورة الأنعام ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ نطفة ثم علقة ثم مضغة ، كما قال : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ [نوح : 14] .

وقال ابن زيد : معناه يخلقكم في بطون أُمها تكم من بعد الخلق الأول الذي خلقكم في ظهر آدم .

﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ﴾ يعني البطن والرحم والمشيمة ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك لا إله إِلاَّ هُوَ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ عن عبادته إلى عبادة غيره ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ .

فإن قيل : كيف ؟

قال : ولا يرضى لعباده الكفر وقد كفروا .

قلنا : معناه لايرضى لعباده أن يكفروا به ، وهذا كما يقول : لست أحب الاساءة وإن أحببت أن يسيء فلان فلانا فيعاقب .

وقال ابن عبّاس والسدي : معناه ولايرضى لعباده المخلصين المؤمنين الكفر ، وهم الذين قال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر : 42] [الإسراء : 65]

فيكون عاماً في اللفظ خاصاً في المعنى كقوله : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ ﴾ [الإنسان : 6] وإنما يريد به بعض العباد دون البعض .

(210/667)

﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ ﴾ تؤمنوا ربّكم وتطيعوه ﴿ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ ويثيبكم عليه ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور * وَإِذَا مَسَّ الإِنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ مخلصاً راجعاً إليه مستغيثاً به ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ ﴾ أعطاه ، ومنه قيل للمال والعطاء : خول ، والعبيد خول .

قال أبو النجم :

اعطي فلم يبخل ولم يبخل . . . كوم الذرى من خول المخول

﴿ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ ﴾ ترك ﴿ مَا كَانَ يدعوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ في حال النصر ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ يعني الأوثان .

وقال السدي : يعني أنداداً من الرجال ، يطيعونهم في معاصي الله .

﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾ قرأ نافع وابن كثير ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة : (أمن)

بتخفيف الميم .

وقرأ الآخرون بتشديده ، فمن شدّده فله وجهان ، أحدهما : تكون الميم في أم صلة ويكون معنى الكلام الإستفهام ، وجوابه محذوف مجازه : أمن هو قانت كمن هو غير قانت ، كقوله : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ كمن لم يشرح الله صدره ، أو تقول : أمن هو قانت كمن جعل لله أنداداً .

والوجه الثاني : أن يكون بمعنى العطف على الاستفهام مجازه : فهذا خير أم من هو قانت ، فحذف لدلالة الكلام عليه ونحوها كثير .

ومن خفف فله وجهان .

أحدهما : أن يكون الألف في (أمن) بمعنى حرف النداء ، تقديره : يا من هو قانت ، والعرب تنادي بالألف كما تنادي بياء فتقول : يا زيد أقبل ، وأزيد أقبل .

قال أوس بن حجر :

أبني لبيني لستم بيد . . . ألا يد ليست لها عضد

يعني يا بني ليتني .

وقال آخر :

أضمر بن ضمرة ماذا ذكرت . . . من صرمة أخذت بالمغار

فيكون معنى الآية : قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ، ويا من هو قانت آناء الليل إنك من أهل الجنّة ، كما تقول : فلان لايصلي ولايصوم ، فيا من تصلي وتصوم أبشر ، فحذف لدلالة الكلام عليه .

والوجه الثاني : أن يكون الألف في (أمن) ألف إستفهام ، ومعنى الكلام : أهذا كالذي جعل لله أنداداً ، فاكتفى بما سبق إذ كان معنى الكلام مفهوماً .

كقول الشاعر :

فاقسم لو شيء أتانا رسوله سواك . . . ولكن لم نجد لك مدفعاً

أراد لدفعناه .

وقال ابن عمر : القنوت قراءة القرآن وطول القيام .

وقال ابن عبّاس : الطاعة .

﴿ آنَآءَ الليل ﴾ ساعاته ﴿ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الآخرة ﴾ .

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزّان ، أخبرنا محمّد بن خالد ، أخبرنا داود بن سليمان ، أخبرنا عبد بن حميد ، حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا يعقوب بن عبد الله عن جعفر عن سعيد بن جبير : أنه كان يقرأ : (أمن هو قانت اناء الليل ساجداً وقائماً يحذر عذاب الآخرة) .

﴿ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ .

قال مقاتل : نزلت في عمار بن ياسر وأبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله المخزومي .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ ﴾ يعني عمار ﴿ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني أبا حذيفة ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الألباب ﴾ .

أخبرنا الحسين بن محمّد بن العدل حدثنا هارون بن محمّد بن هارون العطار حدثنا حازم ابن يحيى الحلواني حدثنا محمّد بن يحيى بن الطفيل حدثنا هشام بن يوسف حدثني محمّد بن إبراهيم اليماني قال : سمعت وهب بن منبه يقول : سمعت ابن عبّاس يقول : من أحب أن يهوّن الله تعالى الموقف عليه يوم القيامة ، فليره الله في سواد الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه .

﴿ قُلْ يا عباد الذين آمَنُواْ اتقوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ يعني الجنّة ، عن مقاتل .

وقال السدي : يعني العافية والصحة .

﴿ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ ﴾ فهاجروا فيها واعتزلوا الأوثان ، قاله مجاهد .

وقال مقاتل : يعني أرض الجنّة .

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

قال قتادة : لا والله ما هنالك مكيال ولا ميزان .

أخبرنا الحسين بن محمّد بن فنجويه الدينوري بقراءتي عليه ، حدثنا أحمد بن محمّد بن إسحاق السني حدثنا إبراهيم بن محمّد بن الضحاك حدثنا نصر بن مرزوق حدثنا اسيد بن موسى حدثنا بكر بن حبيش عن ضرار بن عمرو عن زيد الرقاشي عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم : " تنصب الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بأهل الصلاة فيؤتون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصيام فيؤتون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيؤتون أجورهم بالموازين ، ويُؤتى بأهل الحج فيؤتون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صباً بغير حساب ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ حتّى يتمنى أهل العافية في الدُّنيا أن أجسادهم تُقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل " .

قال حدثنا أبو علي بن جش المقرىء قال : حدثنا أبو سهل (عن إسماعيل بن سيف) عن جعفر بن سليمان الضبعي عن سعد بن الطريف عن الأصبغ بن نباتة قال : دخلت مع علي بن أبي طالب إلى الحسن بن علي رضي الله عنه نعوده فقال له علي : كيف أصبحت يا بن

رسول الله ؟

قال : أصبحت بنعمة الله بارئاً .

قال : كذلك إن شاء الله .

(213/667)

ثم قال الحسن : أسندوني . فأسنده عليّ إلى صدره ثم قال : سمعت جَدي رسول الله يقول : " يا بني أدِّ الفرائض تكن من أعبد الناس ، وعليك بالقنوع تكن أغنى الناس ، يا بني إن في الجنّة شجرة يُقال لها : شجرة البلوى ، يؤتى بأهل البلاء فلا يُنصب لهم ميزان ولا يُنشر لهم ديوان ، يُصبّ عليهم الأجر صبًّا ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ " .

حدثنا الحرث بن أبي اسامة حدثنا داود بن المخبر حدثنا عباد بن كثير عن أبي الزناد عن [. . . . .] [عن أبي ذر عن النبي أنه] قال : " من سرّه أن يلحق بذوي الألباب والعقول فليصبر على الأذى والمكاره فذلك انه [. . . . .] الجزع ومن جزع صيّره جزعه إلى النار ، وما نال الفوز في القيامة إلاّ الصابرون إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ

عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ " .

﴿ قُلْ إِنِي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين * وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين ﴾ من هذه الأمة ﴿ قُلْ إِنِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ فعبدت غيره ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا حين دعى إلى دين آبائه ، قاله أكثر المفسرين .

وقال أبو حمزة الثمالي والسبب هذه الآية منسوخة ، إنما هذا قبل أن غُفِرَ ذنب رسول الله (عليه السلام) .

﴿ قُلِ الله أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي * فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ ﴾ .

أمر توبيخ وتهديد كقوله ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت : 40] . وقيل : نسختها آية القتال ﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرين الذين خسروا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ وأزواجهم وخدمهم في الجنّة ﴿ يَوْمَ القيامة أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخسران المبين ﴾ .

(214/667)

قال ابن عبّاس : إن الله تعالى جعل لكل إنسان منزلاً في الجنّة وأهلاً ، فمن عمل بطاعة الله تعالى كان له ذلك المنزل والأهل ، ومن عمل بمعصية الله [أخذه] الله تعالى إلى النار ، وكان المنزل ميراثاً لمن عمل بطاعة الله إلى ما كان له قبل ذلك وهو قوله تعالى : ﴿ أولئك هُمُ

الوارثون ﴾ [المؤمنون : 10] .

﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ أطباق وسرادق ﴿ مِّنَ النار ﴾ ودخانها ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ مهاد وفراش من نار ، وإنما سمّي الأسفل ظلاً ، لأنها ظلل لمن تحتهم ، نظيره قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : 41] وقوله : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 55] وقوله : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف : 29] وقوله : ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ [الواقعة : 43] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ انطلقوا إلى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ ﴾ [المرسلات : 30] .

﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ يا عباد فاتقون * والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ الأوثان ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا وأنابوا ﴾ رجعوا له ﴿ إِلَى الله ﴾ إلى عبادة الله ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ في الدُّنيا بالجنّة وفي العقبى ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ أرشده وأهداه إلى الحق .

أخبرنا الحسين بن محمّد الدينوري حدثنا أحمد بن محمّد بن إسحاق أخبرنا إبراهيم بن محمّد حدثنا يونس حدثنا ابن وهب أخبرنا يحيى بن أيوب عن خالد بن يزيد عن عبد الله بن زحر عن سعيد بن مسعود قال : قال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت أن أعيش يوماً واحداً : الظما بالهواجر ، والسجود في جوف الليل ، ومجالسه أقوام ينتقون من خير الكلام كما ينتقي طيب التمر .

قال قتادة : أحسنهُ طاعة الله .

وقال السدي : أحسنه ما يرجون به فيعملون به .

(215/667)

﴿ أولئك الذين هَدَاهُمُ الله وأولئك هُمْ أُوْلُواْ الألباب ﴾ .

عن ابن زيد في قوله : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ الآيتين : حدثني أبي : أن هاتين الآيتين نزلتا في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون : لا إله إلاّ الله ، وهم زيد بن عمرو وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب ﴾ [يريد أبا لهب وولده] ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النار ﴾ أي : هو يكون من أهل النار ، كرر الإستفهام كما كرر : أنكم ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظاما أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ ﴾ [المؤمنون : 35] .

ومثله كثير .

﴿ لكن الذين اتقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ ﴾ (غرف مبنية ، قال ابن عباس : من زبرجد وياقوت) .

(216/667)

حدثنا عبد الله بن محمّد بن شنبه حدثنا [. . . . .] حدثني طلحة حدثنا [حماد عن أبي هارون عن مالك بن أنس عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد] الخدري عن رسول الله (عليه السلام) قال : " إن أهل الجنّة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم ، فقالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم قال : بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين " ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَعْدَ الله ﴾ نصب على المصدر : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء ﴾ أي من السحاب ﴿ مَآءً فَسَلَكَهُ ﴾ فادخله ﴿ يَنَابِيعَ ﴾ عيوناً ﴿ فِي الأرض ﴾ قال : [الشعبي والضحاك : كل ماء في الأرض فمن السماء نزل إنما ينزل] من السماء إلى الصخرة ثم يقسم منها العيون والركايا ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ ييبس ﴿ فَتَرَاهُ ﴾ بعد خضرته ﴿ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ﴾ أي فتاتا منكسراً متفتتاً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لذكرى لأُوْلِي الألباب * أَفَمَن شَرَحَ الله ﴾ فتح الله ﴿ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ للإيمان ﴿ فَهُوَ على نُورٍ ﴾ على دلالة ﴿ مّن رَّبِّهِ ﴾ قال قتادة : النور كتاب الله منه تأخذ وإليه ننتهي ومجاز الآية ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ على نُورٍ مّن رَّبِّهِ ﴾ أي أفمن شرح الله صدره للاسلام كمن أقسى قلبه .

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه حدثنا عبيد الله بن محمّد بن شيبة حدثنا أبو جعفر محمّد بن الحسن بن يزيد حدثنا الموصلي ببغداد حدثنا أبو فروة واسمه يزيد بن محمّد حدثني أبي عن ابيه حدثنا زيد بن أبي أنيسة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحرث عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله (عليه السلام) : " أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه " .

(217/667)

قلنا : يا رسول الله كيف انشراح صدره ؟

قال : " إذا دخل النور لقلبه انشرح وانفتح " .

قلنا : يا رسول الله فما علامة ذلك ؟

قال : " الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت " " .

وقال الثمالي : بلغنا أنها نزلت في عمّار بن ياسر وقال مقاتل : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ يعني النبيّ صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ الله ﴾ أبو جهل وذويه من الكفّار ﴿ أولئك فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ . أخبرنا الحسن بن محمّد بن الحسين الحافظ أخبرنا أبو أحمد القاسم بن محمّد بن

أحمد ابن عبد ربه السراج الصوفي أخبرنا [.

. . . . .] يونس بن يعقوب البزاز حدثنا الحسين بن الفضل بن السمح البصري ببغداد حدثنا جندل حدثنا أبو مالك الواسطي الحسيني حدثنا أبو عبد الرحمن السلمي عن داود بن أبي هند عن أبي نصرة عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله عزّ وجلّ : اطلبوا الحوائج من السمحاء فاني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإني جعلت فيهم سخطي " .

أخبرنا الحسين بن محمّد حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن علي بن عبد الله قال : حدثنا عبد الله بن محمّد عن وهب حدثنا يوسف بن الصباح العطار حدثنا إبراهيم بن سليمان بن الحجاج حدثنا عمي محمّد بن الحجاج حدثنا يوسف بن ميسرة بن جبير عن أبي إدريس الحولاني عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله رفيق يحبّ الرفق في الأمر كله ويحبّ كل قلب خاشع حليم رحيم يعلّم الناس الخير ويدعوا إلى طاعة الله ويبغض كل قلب قاس ينام الليل كله فلا يذكر الله تعالى ولا يدري يرد عليه روحه أم لا " .

(218/667)

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه حدثنا ابن نصروية حدثنا ابن وهب حدثنا إبراهيم بن بسطام حدثنا سعيد بن عامر حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال : ماضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلبه وما غضب الله تعالى على قوم إلاّ نزع منهم الرحمة .

﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً ﴾ . قال ابن مسعود : وابن عباس : قال الصحابة : يا رسول الله لو حدثتنا ، فنزلت ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً ﴾ يشبه بعضه بعضاً في الحسن ويصدق بعضه بعضاً ليس فيه تناقض ولا اختلاف فيه .

وقال قتادة : تشبه الآية الآية والكلمة الكلمة والحرف الحرف .

﴿ مَّثَانِيَ ﴾ القرآن . قال المفسرون : يسمى القرآن مثاني لأنه تثنى فيه الأخبار والأحكام والحدود وثنى للتلاوة فلا يمل ﴿ تَقْشَعِرُّ ﴾ وتستنفر ﴿ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ .

يعني إلى العمل بكتاب الله والتصديق به وقيل إلى بمعنى اللام .

أخبرنا الحسين بن محمّد بن فنجويه حدثنا عبيد الله بن محمّد بن شنبه حدثنا أحمد بن داود حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا خلف بن سلمة عنه حدثنا هشيم عن حصين عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال : قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن ؟

قالت : كانوا كما نعتهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم .

فقلت لها : إن ناساً اليوم إذا قريء عليهم القرآن ؟

قالت : كما نعتهم : خر أحدهم مغشياً عليه .

فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وبه عن سلمة حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا سعيد بن عبد الرحمن الجمحي : أن ابن عمر مرَّ برجل من أهل العراق ساقط فقال : ما بال هذا ؟

قالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله تعالى سقط .

فقال ابن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط .

(219/667)

وقال ابن عمر : إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم ، ما كان هذا صنيع أصحاب محمّد صلى الله عليه وسلم

أخبرنا الحسين بن محمّد بن فنجويه حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن الحسين بن [ديزيل] حدثنا أبو نعيم حدثنا عمران أو حمران بن عبد العزيز قال : ذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرىء عليهم القرآن فقال : بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطاً رجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره ، فإن رمى

بنفسه فهو صادق .

حدثنا الحسن بن محمّد حدثنا أبو بكر بن مالك حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا صلت ابن مسعود الجحدري حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا أبو عمران الجوني قال : وعظ موسى (عليه السلام) قومه فشق رجل منهم قميصه فقيل لموسى قل لصاحب القميص لايشق قميصه أيشرح لي عن قلبه .

أخبرنا الحسين بن محمّد حدثنا عبيد الله بن عبد الله بن أبي سمرة البغوي حدثنا أحمد بن محمّد بن أبي شيبة حدثنا الحسن بن سعيد بن عمر حدثنا سعدان بن نصر أبو علي حدثنا [نشابة] [عن أبي غسان المدني محمّد بن مطرف عن زيد بن أسلم قال : قرأ أُبي بن كعب عند النبي صلى الله عليه وسلم فرقّوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة " .

أخبرنا الحسين بن محمّد حدثنا محمّد بن عبد الله بن برزة وموسى بن محمّد بن علي بن عبد الله قالا : حدثنا محمّد بن يحيى بن سليمان المروزي حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني

أخبرنا الحسين بن محمّد وحدثنا موسى بن محمّد بن عليّ حدثنا محمّد بن عبدوس بن كامل حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني حدثنا عبد العزيز بن محمّد عن يزيد بن الهاد عن محمّد بن إبراهيم التيمي عن أم كلثوم بنت العبّاس عن العبّاس بن عبد المطلب قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تعالى تحاتت عنه ذنوبه كما تحاتت عن الشجر اليابسة ورقها " .

(220/667)

أخبرنا الحسين بن محمّد حدثنا أحمد بن جعفر حدثنا حمدان حدثنا موسى بن إسحاق الأنصاري حدثنا محمّد بن معونة حدثنا الليث بن سعد حدثنا يزيد بن عبد الله بن الهاد عن محمّد بن إبراهيم التيمي عن أم كلثوم بنت العبّاس عن أبيها قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

" إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تعالى حرّمه الله تعالى على النار " .

﴿ ذَلِكَ ﴾ يعني أحسن الحديث ﴿ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ وفيه ردّ على القدرية ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سواء العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ أي شدته يوم القيامة .

قال مجاهد : يجر على وجهه في النار .

وقال عطاء : يُرمى به في النار منكوساً ، فأول شيء تمسه النار وجهه .

وقال مقاتل : هو أن الكافر يُرمى به في النار مغلولة يداه إلى عنقه ، وفي عنقه صخرة ضخمة

مثل الجبل العظيم من الكبريت ، فتشتعل النار في الحجر وهو معلق في عنقه ، فحرّها ووهجها على وجهه لايطيق دفعها من وجهه من أجل الأغلال التي في يده وعنقه ، ومجاز الآية ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سواء العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ كمن هو آمن من العذاب وهو كقوله ﴿ أَفَمَن يلقى فِي النار خَيْرٌ ﴾ [فصلت : 40] الآية .

قال المسيب : نزلت هذه الآية في أبي جهل .

﴿ وَقِيلَ ﴾ أي : ويقول الخزنة ﴿ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي : وباله ﴿ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * فَأَذَاقَهُمُ الله الخزي ﴾ العذاب والذل الّذي يستحيا منه ﴿ فِي الحياة الدنيا وَلَعَذَابُ الآخرة أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ نصب على الحال ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ .

قال مجاهد : يعني غير ذي لبس .

قال عثمان بن عفان : غير متضاد .

ابن عبّاس : غير مختلف .

السدي : غير مخلوق .

بكر بن عبد الله المزني غير ذي لحن .

﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والتكذيب به .

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً ﴾ .

قال الكسائي : نصب رجلاً ، لأنه ترجمة للمثل وتفسير له ، وإن شئت نصبته بنزع الخافض ، مجازه ضرب الله مثلاً لرجل أو في رجل .

﴿ فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ مختلفون متنازعون متشاحون فيه وكل واحد منهم يستخدمه بقدر نصيبه فيه يقال رجل شكس وشرس وضرس وضبس ، إذا كان سيء الخلق مخالفاً للناس .

وقال المؤرخ : متشاكسون متماكسون يقال شاكسني فلان أي ماكسني .

﴿ وَرَجُلاً سَلَماً ﴾ .

قرأ ابن عبّاس ومجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب سالماً بالألف ، واختاره أبو عبيد ، قال : إنما اخترنا سالماً لصحة التفسير فيه ، وذلك أن السالم الخالص وهو ضد المشترك ، وأما السلم فهو ضد المحارب ، ولا موضع للحرب هاهنا .

وقرأ سعيد بن جبير : سِلْماً بكسر السين وسكون اللام .

وقرأ الآخرون : سلماً بفتح السين واللام من غير ألف ، واختاره أبو حاتم وقال : هو الذي لاتنازع فيه .

﴿ لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ وهذا مثلاً ضربه الله تعالى للكافر الذي يعبد آلهة شتى ، والمؤمن لايعبد إلاّ الله الواحد ، ثم قال عزّ من قائل ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ الشكر الكامل لله سبحانه دون كل معبود سواه ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّكَ ﴾ يا محمّد ﴿ مَيِّتٌ ﴾ عن قليل ﴿ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ .

وقرأ ابن محيصن وابن أبي علية : إنك مايت وإنهم مايتون ، بالألف فيهما .

قال الحسن والكسائي والفراء : (الميّت) ، بالتشديد ، من لم يمت سيموت ، و (الميَت) ، بالتخفيف الذي فارقه الروح ، لذلك لم يخفف ها هنا .

قال قتادة : نُعيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، ونُعيت إليكم أنفسكم .

(222/667)

أخبرنا ابن فنجويه حدثنا ابن ماجة حدثنا الحسين بن أيوب حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار بن حاتم حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا ثابت قال : نعي رجل إلى صلت بن أشيم أخاً له فوافقه يأكل فقال : ادن فكل فقد نعى إليّ أخي منذ حين .

قال : (وكيف وأنا أول من أتاك بالخبر قال : إن الله تعالى نعاه إليّ فقال) الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ المحق والمبطل والظالم والمظلوم .

أخبرنا ابن فنجويه الدينوري حدثنا ابن مالك حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي حدثنا ابن نمير حدثنا محمّد بن عمرو عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن عبد الله بن أنس عن الزبير بن العوام قال : لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ .

قال الزبير : يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدُّنيا مع خواصّ الذنوب ؟

قال : " نعم ليكررن عليكم حتّى يؤدى إلى كل ذي حق حقه " .

قال الزبير : والله إن الأمر لشديد .

أخبرنا الحسين بن محمّد حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن الحسين بن [ديزيلٍ] حدثنا آدم بن أبي أياس حدثنا ابن أبي ذئب حدثنا سعيد المقرئ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كانت عنده مظلمة لاخيه من ماله أو عرضه فليتحلّلها اليوم منه قبل أن يؤخذ حين لايكون درهم ولا دينار إن كان له عمل صالح أخذ بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحملت عليه " .

أخبرنا الحسين بن محمّد الثقفي حدثنا الفضل بن الفضل الكندي حدثنا أبو عبد الله محمّد ابن عبد الله بن محمّد بن النعمان حدثنا محمّد بن بكر بن أبي بكر البرجمي حدثنا محمّد بن المنهال حدثنا يزيد بن زريع حدثنا روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " تدرون من مفلس أُمتي ؟ " .

قلنا : نعم من لا مال له .

قال : " لا ، مفلس أُمتي من يُجاء به يوم القيامة قد ضرب هذا وشتم هذا وأخذ مال هذا ، فيؤخذ من حسناته فيوضع على حسنات الآخر ، وإن فضل عليه فضل أُخذ من سيئات الآخر فطرحت عليه ثم يؤخذ فيُلقى في النار " " .

وقال أبو العالية : هم أهل القبلة .

أخبرنا الحسين بن فنجويه حدثنا موسى بن محمّد بن علي بن عبد الله بن الحسن بن علوية حدثنا عبيد بن جناد العلوي الحلبي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن القاسم ابن عوف البكري قال : سمعت ابن عمر يقول : لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية أُنزلت فينا وفي أهل الكتابين ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ

﴿ قلنا : كيف نختصم ونبينا واحد فما هذه الخصومة وكتابنا واحد ؟ حتّى رأيت بعضنا يضرب وجه بعض بالسيف ، فعرفت أنه فينا نزلت .

وروى خلف بن خليفة عن أبي هاشم عن أبي سعيد الخدري في هذه الآية قال : كنا نقول : ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد ، فما هذه الخصومة ؟

فلما كان يوم صفين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا : نعم هو هذا .

أخبرنا الحسين بن فنجويه حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا عبد الله بن محمّد بن عبد العزيز البغوي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد بن زيد : زعم ابن عون عن إبراهيم قال : لما نزلت ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قالوا : كيف نختصم ونحن إخوان ؟ فلما قتل عثمان قالوا : هذه خصومتنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 220.235 ﴾

(224/667)

وقال الزمخشرى :

سورة الزمر

مكية ، إلا قوله قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا . . . الآية وتسمى سورة الغرف وهي خمس

وسبعون آية . وقيل ثنتان وسبعون آية [نزلت بعد سورة سبإ] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الزمر (39) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (3) لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (4)

تَنْزِيلُ الْكِتابِ قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف . أو خبر مبتدإ محذوف والجار صلة التنزيل ، كما تقول : نزل من عند اللّه . أو غير صلة ، كقولك : هذا الكتاب من فلان إلى فلان ، فهو على هذا خبر بعد خبر . أو خبر مبتدإ محذوف ، تقديره :

هذا تنزيل الكتاب ، هذا من اللّه ، أو حال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة ، وبالنصب على إضمار فعل ، نحو : اقرأ ، والزم . فإن قلت : ما المراد بالكتاب ؟ قلت : الظاهر على الوجه الأول أنه القرآن ، وعلى الثاني : أنه السورة مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ممحضا له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر . وقرئ : الدين ، بالرفع . وحق من رفعه أن يقرأ مخلصا - بفتح اللام - كقوله تعالى وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ حتى يطابق قوله أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ

والخالص والمخلص : واحد ، إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازى ، كقولهم :

(225/667)

شعر شاعر . وأما من جعل مُخْلِصاً حالا من العابد ، ولَهُ الدِّينَ مبتدأ وخبرا ، فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك : للّه الدين أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ أى : هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة كدر ، لاطلاعه على الغيوب والأسرار ، ولأنه الحقيق بذلك ، لخلوص نعمته عن استجرار المنفعة بها . وعن قتادة : الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا اللّه . وعن الحسن : الإسلام وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا يحتمل المتخذين وهم الكفرة ، والمتخذين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى : عن ابن عباس رضى اللّه عنهما ، فالضمير في اتَّخَذُوا على الأوّل راجع إلى الذين ، وعلى الثاني إلى المشركين ، ولم يجر ذكرهم لكونه مفهوما ، والراجع إلى الذين محذوف والمعنى : والذين اتخذهم المشركون أولياء ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا في موضع الرفع على الابتداء . فإن قلت : فالخبر ما هو ؟ قلت : هو على الأوّل إما إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أو ما أضمر من القول قبل قوله ما نَعْبُدُهُمْ . وعلى الثاني : أن اللّه يحكم بينهم . فإن قلت : فإذا كان إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ الخبر ، فما موضع

القول المضمر ؟ قلت : يجوز أن يكون في موضع الحال ، أى :

قائلين ذلك . ويجوز أن يكون بدلا من الصلة فلا يكون له محل ، كما أنّ المبدل منه كذلك .

وقرأ ابن مسعود بإظهار القول قالوا ما نَعْبُدُهُمْ وفي قراءة أبىّ : ما نعبدكم إلا لتقربونا على الخطاب ، حكاية لما خاطبوا به آلهتهم . وقرئ : نعبدهم ، بضم النون اتباعا للعين كما تتبعها الهمزة في الأمر ، والتنوين في عَذابٍ اركُضْ والضمير في بَيْنَهُمْ لهم ولأوليائهم . والمعنى : أن اللّه يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة ، ويدخلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من دون اللّه يعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حصب جهنم ، واختلافهم : أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون ، وأولئك يعادونهم ويلعنونهم ، وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى اللّه زلفى .

وقيل : كان المسلمون إذا قالوا لهم : من خلق السماوات والأرض ، أقروا وقالوا : اللّه ، فإذا قالوا لهم : فما لكم تعبدون الأصنام ؟ قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى ، فالضمير في بَيْنَهُمْ عائد إليهم وإلى المسلمين . والمعنى : أن اللّه يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين .

والمراد بمنع الهداية : منع اللطف تسجيلا عليهم بأن لا لطف لهم ، وأنهم في علم اللّه من الهالكين «1» . وقرئ : كذاب وكذوب . وكذبهم : قولهم في بعض من اتخذوا من دون اللّه أولياء : بنات اللّه ، ولذلك عقبه محتجا عليهم بقوله لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا

يَخْلُقُ ما يَشاءُ

---

(1) . قال محمود : «المراد بمنع الهدآية منع اللطف تسجيلا عليهم بأن لا يلطف بهم ، وأنه في علمه من الهالكين» قال أحمد : مذهب أهل السنة حمل هذه الآية وأمثالها على الظاهر ، فان معتقدهم أن معنى هداية اللّه تعالى للمؤمن خلق الهدى فيه ، ومعنى إضلاله للكافر إزاحته عن الهدى وخلق الكفر له ، ومع ذلك فيجوز عند أهل السنة أن يخلق اللّه تعالى للكافر لطفا يؤمن عنده طائعا ، خلافا للقدرية ، وغرضنا التنبيه على مذهب أهل الحق لا غيره .

(226/667)

يعنى : لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح ، لكونه محالا ، ولم يتأت إلا أن يصطفى من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم ، كما يختص الرجل ولده ويقربه . وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم ، فزعمتم أنهم أولاده ، جهلا منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض ، كأنه قال : لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة ، إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولادا ، ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات ، فكنتم كذابين كفارين متبالغين في

الافتراء «1» على اللّه وملائكته ، غالبين «2» في الكفر ، ثم قال سُبْحانَهُ فنزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء . ودلّ على ذلك بما ينافيه ، وهو أنه واحد ، فلا يجوز أن يكون له صاحبة ، لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له : وإذا لم يتأت أن يكون له صاحبة لم يتأت أن يكون له ولد ، وهو معنى قوله أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ . وقهار غلاب لكل شيء ، ومن الأشياء آلهتهم ، فهو يغلبهم ، فكيف يكونون له أولياء وشركاء ؟

[سورة الزمر (39) : آية 5]

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5)

ثم دلّ بخلق السماوات والأرض ، وتكوير كل واحد من الملوين على الآخر ، وتسخير النيرين ، وجريهما لأجل مسمى ، وبث الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة ، وخلق الأنعام على أنه واحد لا يشارك ، قهار لا يغالب . والتكوير : اللف واللىّ ، يقال : كار العمامة على رأسه وكوّرها . وفيه أوجه ، منها : أن الليل والنهار خلفة يذهب هذا ويغشى مكانه هذا ، وإذا غشى مكانه فكأنما ألبسه والف عليه كما يلف اللباس على اللابس . ومنه قول ذى الرمة في وصف السراب :

تلوى الثّنايا بأحقيها حواشيه لىّ الملاء بأبواب التّفاريج «3»

---

(1) . قوله «متبالغين في الافتراء» لعله : مبالغين . (ع)

(2) . قوله «غالبين في الكفر» لعله : غالين . (ع)

(3) وراكد الشمس أجاج نصب له قواضب القوم بالمهرية العوج

إذا تنازع حالا مجهل قذف أطراف مطره بالخز منسوج

تلوى الثنايا بحقويها حواشيه لي الملاء بأبواب التفاريج

كأنه والرهاة الموت يركضه أعراف أزهر تحت الريح منتوج

لذي الرمة يصف السراب . وراكد الشمس : ما يتساقط منها على الأرض . والأجاج : صفة مبالغة ، أى : كثير الأجيج ، يقال : أجت النار أجيجا : اشتعلت ، والحر : اشتد . وأج الظليم أجا : أسرع وله حفيف . وأج الأمر :

اختلط . والأج : طير أبيض سريع الطيران يشبه النعام . ويرى السراب عند شدة الحر أبيض كأنه يسير ، فيجوز أنه من الأولين . ويجوز أنه منسوب للأخير ، لأنه يشبهه ، وللام للتوقيت ، وللقواضب : السيوف النواطع .

والمهرية : الخيل المنسوبة لمهر بن حيدان أبى قبيلة من اليمن ، خيلها أنجب الخيل . والعوج : جمع عوجاء نوع جيد منها أيضا . والحالان : ارتفاع الأرض وانخفاضها . والمجهل : الموضع الذي يجهله المسافر . والقذف - كسبب - :

الذي يقذف ما فيه فلا أحد فيه . والمطرد : السراب المستوى ، شبه بالخز المنسوج في

الاستواء والبياض . والثنايا :

العقبات . والحقو : الخصر والإزار ، وشده عليه استعارة لجانب العقبة ، وحواشي

السراب : جوانبه . والملاء بالضم والمد : اسم جمع ملاءة وهي الجلباب . والتفراج : الباب

الصغير والثوب من الديباج . والرهاة – جمع رهو – :

المكان المرتفع ، ويطلق على المنخفض أيضا . وقيل : اسم موضع . والموت : القفر .

والركض : ضرب الدابة بالرجل والضرب مطلقا ، وهو هنا مجاز على طريق التصريحية .

والأعراف : جمع عرف . وعرف الديك والفرس :

أعلى شعر العنق وأعرف البحر والسيل : إذا تراكم موجه وارتفع كالأعراف ، والأزهر :

السحاب الأبيض والماء الأبيض ، وهو الأنسب بكونه تحت الريح ، لأن ظاهر الأول يخالف

قوله تعالى أَقَلَّتْ سَحاباً والمنتوج : الذي تنتجه الريح وتسوقه حتى يقطر ، يقول : ورب

راكد من الشمس ، يعنى السراب شديد الحر أو السير ، نصبت مستقبلا لوقته سيوف

قومي مع الخيل الجياد إذا تجاذب المنخفض والمرتفع من الأرض القفرة أطراف الآل وهو

السراب ، وشبه إحاطة جوانبه وتراكمه في جوانب العقبة بلىّ الجلباب في أبواب التفاريج ،

وتلوى : يحتمل أنه جواب ذا وأنه صفة لمطرد وجوابها ، دل عليه ما قبلها وأسند اللى

للثنايا لأنها سبب الالتواء ، ولى الملا : مفعول مطلق ، وأعراف : خبر كأنه ، والرهاة : جملة

حالية ، وفاعل يركض إما ضمير الآل ، أو ضمير الرهاة ، لأنهما كأنهما يتضاربان . وروى

: تطرده ، وفاعله ضمير الرهاة جزما ، لأن الآل هو المطرود ، وبيت الكشاف : يلوى الثنايا بأحقيها . والحقو : جمعه أحق ، وأصل وزنه : أفعل .

(227/667)

ومنها أنّ كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه ، فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار . ومنها : أن هذا يكر على هذا كرورا متتابعا ، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الغالب القادر على عقاب المصرين الْغَفَّارُ لذنوب التائبين «1» . أو الغالب الذي يقدر على أن يعاجلهم بالعقوبة وهو يحلم عنهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى ، فسمى الحلم عنهم : مغفرة .

[سورة الزمر (39) : آية 6]

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)

فإن قلت : ما وجه قوله ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وما يعطيه من معنى التراخي ؟ قلت : هما آيتان «2» من جملة الآيات التي عدّدها دالا على وحدانيته وقدرته : تشعيب هذا الخلق

(1) . قال محمود : «أي لذنوب التائبين» قال أحمد : الحق أنه تعالى غفار للتائبين ولمن يشاء من المصرين على ما دون الشرك وقنوطهم من رحمة اللّه تعالى . ولقد قيد الزمخشري الآية بما ترى .

(2) . قال محمود : «فان قلت : ما وجه العطف بثم في قوله ثُمَّ جَعَلَ وأجاب بأنهما آيتان . . . الخ» قال أحمد إنما منعه من حمل ثم على التراخي في الوجود أنها وقعت بين خلق الذرية من آدم ، وخلق حواء منه ، وهو متقدم على الذرية فضلا عن كونه متراخيا عن خلق الذرية ، فلم يستقم حملها على تراخى الوجود لما جعلها في الوجه الآخر متعلقة بمعنى واحدة ، على تقدير : خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، يعنى : شفعها بزوجها ، فكانت هاهنا على بابها لتراخى الوجود ، واللّه سبحانه وتعالى أعلم .

[. . . . .]

للحصر من نفس آدم ، وخلق حواء من قصيراه ، إلا أن إحداهما جعلها اللّه عادة مستمرّة ، والأخرى لم تجربها العادة ، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل ، فكانت أدخل في

كونها آية ، وأجلب لعجب السامع ، فعطفها بثم على الآية الأولى ، للدلالة على مباينتها لها فضلا ومزية ، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية ، فهو من التراخي في الحال والمنزلة ، لا من التراخي في الوجود . وقيل : ثم متعلق بمعنى واحدة ، كأنه قيل : خلقكم من نفس وحدت ، ثم شفعها اللّه بزوج . وقيل : أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ، ثم خلق بعد ذلك حواء وَأَنْزَلَ لَكُمْ وقضى لكم وقسم ، لأنّ قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول «1» من السماء ، حيث كتب في اللوح : كل كائن يكون . وقيل : لا تعيش الأنعام إلا بالنبات ، والنبات لا يقوم إلا بالماء . وقد أنزل الماء ، فكأنه أنزلها . وقيل : خلقها في الجنة ثم أنزلها . ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ذكرا وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز . والزوج : اسم لواحد معه آخر ، فإذا انفرد فهو فرد ووتر . قال اللّه تعالى : فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى . خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ حيوانا سويا ، من بعد عظام مكسوة لحما ، من بعد عظام عارية ، من بعد مضغ ، من بعد علق ، من بعد نطف . والظلمات الثلاث : البطن والرحم والمشيمة . وقيل : الصلب والرحم والبطن ذِلِكُمُ الذي هذه أفعاله هو اللَّهُ رَبُّكُمْ . . . . . فَأَنَّى تُصْرَفُونَ فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره ؟

[سورة الزمر (39) : آية 7]

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ

(7)

فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ عن إيمانكم وإنكم المحتاجون إليه ، لاسضراركم بالكفر واستنفاعكم بالإيمان وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ رحمة لهم ، لأنه يوقعهم في الهلكة وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ أي يرض الشكر لكم ، لأنه سبب فوزكم وفلاحكم ، فإذن ما كره كفركم ولا رضى شكركم

---

(1) . قال محمود : «إنما جعلها منزلة لأن قضاياه تعالى وقسمه موصوفة بالنزول . . . الخ» قال أحمد : ومن هذا النمط بعينه قول الراجز :

أسنمة الآبال في سحابة

.

إلا لكم ولصلاحكم «1» ، لا لأنّ منفعة ترجع إليه ، لأنه الغنى الذي لا يجوز عليه الحاجة . ولقد نحل بعض الغواة ليثبت للّه تعالى «2» ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر فقال : هذا من العام الذي أريد به الخاص ، وما أراد إلا عباده الذين عناهم في قوله إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ يريد المعصومين ، كقوله تعالى عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ ،

تعالى اللّه عما يقول الظالمون وقرئ «برضه» بضم الهاء بوصل وبغير وصل ، وبسكونها

خَوَّلَهُ أعطاه . قال أبو النجم :

أعطى فلم يبخل ولم يبخّل كوم الذّرى من خول المخول «3»

وفي حقيقته وجهان ، أحدهما : جعله خائل مال ، من قولهم : هو خائل مال ، وخال مال :

إذا كان متعهدا له حسن القيام به . ومنه : ما روى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

أنه كان

---

(1) . حمل الزمخشري الرضا على الارادة ، والعباد على العموم . . . الخ» قال أحمد : إن

المصر على هذا المعتقد على قلبه رين ، أو في ميزان عقله غين ، أليس يدعى أو يدعى له

أنه الخريت في مغاثر العبارات ، وبديع الزمان في صناعة البديع ، فكيف نبا عن جادة الا

جادة فهما ، وأعار منادى الحذاقة أذنا صما ، اللهم إلا أن يكون الهوى إذا تمكن أرى

الباطل حقا ، وغطى سنى مكشوف العبارة فسحقا سحقا ، أليس مقتضى العربية فضلا

عن القوانين العقلية أن المشروط مرتب على الشرط ، لا يتصور وجود المشروط قبل

الشرط عقلا ، ولا مضيه واستقبال الشرط لغة وعقلا ، واستقر باتفاق الفريقين أهل السنة

وشيعة البدعة : أن إرادة اللّه تعالى لشكر عباده مثلا مقدمة على وجود الشكر منهم ،

فحينئذ كيف ساغ حمل الرضا على الارادة ، وقد جعل في الآية مشروطا وجزاء ، وجعل

وقوع الشكر شرطا ومجزيا ، واللازم من ذلك عقلا : تقدم المراد وهو الشكر ، على الارادة

وهي الرضا ، ولغة : تقدم المشروط على الشرط . والزمخشري أخص من قال : إن المشروط متى كان ماضيا محضا لزمته ألفا . وقد ، كقولك : إن تكرمني فقد أكرمتك قبل ، وقد عريت الآية عن الحرفين المذكورين ، على أنه لا بد من تأويل يصحح الشرطية مع ذلك فإذا ثبت بطلان حمل الرضا على الارادة عقلا ونقلا ، تعين التماس المحمل الصحيح له ، وهو المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازى به المرضى عنه من الثواب والكرامة ، فيكون معنى الآية – والله أعلم – : وإن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضى عنه ، ولا شك أن المجازاة مستقبلة بالنسبة إلى الشكر ، فجرى الشرط والجزاء على مقتضاهما لغة ، وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على الارادة عقلا ، ومثل هذا يقدر في قوله وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ أي لا يجازي غير الكافر مجازاة المغضوب عليه من النكال والعقوبة .

(2) . قوله «لينبت لله تعالى . . . الخ» إنما يتم لو كان الرضاء بمعنى الارادة ، وهو مذهب المعتزلة . وعند أهل السنة : هو غيرها ، فكفر الكافر مراد غير مرضى ، وعند المعتزلة : غير مراد ولا مرضى . (ع)

(3) الحمد لله الوهوب المجزل أعطى فلم يبخل ولم يبخل

كوم الذرى من خول المخول

الوهوب : الوهاب . والمجزل : المكثر العطاء ، وبينه بقوله : أعطى السائلين فلم يبخل عليهم

، ولم يبخل : مشدد مبنى للمجهول ، أى : لم يتهم بالبخل . وقيل : هو توكيد . ويروى بناؤه للفاعل ، أى لم يجعل من أعطاهم بخلاء ، بل جعلهم كرماء . وكوم الذرى : نصب بأعطى ، أى : نوقا عظيمات السنام . والكوم : جمع كوماء . والذرى :

جمع ذروة . والمخول بالتشديد المعطي ، وهو اللّه عز وجل .

(230/667)

يتخول أصحابه بالموعظة « 1 » والثاني : جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر ، وفي معناه قول العرب :

إنّ الغنىّ طويل الذّيل ميّاس

[سورة الزمر (39) : آية 8]

وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (8)

ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ أى نسى الضر الذي كان يدعو اللّه إلى كشفه . وقيل : نسى ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه ، وما بمعنى من ، كقوله تعالى وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى وقرئ : ليضل ، بفتح الياء وضمها ، بمعنى أنّ نتيجة جعله للّه أندادا ضلاله عن سبيل اللّه أو

إضلاله .

والنتيجة : قد تكون غرضا في الفعل ، وقد تكون غير غرض . وقوله تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ من باب الخذلان والتخلية ، كأنه قليل له : إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة ، فمن حقك ألا تؤمر به بعد ذلك ، وتؤمر بتركه : مبالغة في خذلانه وتخليته وشأنه . لأنه لا مبالغة في الخذلان ، لأن أشدّ من أن يبعث على عكس ما أمر به . ونظيره في المعنى قوله مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ .

[سورة الزمر (39) : آية 9]

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (9)

قرئ . أمن هو قانت بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من ، وبالتشديد على إدخال «أم» عليه . ومن مبتدأ خبره محذوف ، تقديره : أمن هو قانت كغيره ، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه ، وهو جرى ذكر الكافر قبله . وقوله بعده قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ وقيل : معناه أمن هو قانت أفضل أمن هو كافر . أو أهذا أفضل أمن هو قانت على الاستفهام المتصل . والقانت : القائم بما يجب عليه من الطاعة . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «أفضل الصلاة طول القنوت» «2» وهو القيام فيها . ومنه القنوت في الوتر ، لأنه دعاء المصلى

(1) . متفق عليه من حديث ابن مسعود وأتم منه .

(2) . أخرجه مسلم من طريق أبى الزبير عن جابر . ورواه الطحاوي من هذا الوجه بلفظ «طول القيام» وكذا هو في حديث عبد اللّه بن جعفر بلفظ «سئل أى الصلاة أفضل ؟ قال : طول القيام» .

(231/667)

قائما ساجِداً حال . وقرئ : ساجد وقائم ، على أنه خبر بعد خبر ، والواو للجمع بين الصفتين .

وقرئ : ويحذر عذاب الآخرة . وأراد بالذين يعلمون : العاملين من علماء الديانة ، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم . وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ، ثم لا يقتنون ويفتنون ، ثم يفتنون بالدنيا ، فهم عند اللّه جهلة ، حيث جعل القانتين هم العلماء ، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه ، أى : كما لا يستوي العالمون والجاهلون ، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون . وقيل نزلت في عمار بن ياسر رضى اللّه عنه وأبى حذيفة بن المغيرة المخزومي . وعن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو «1» ، فقال : هذا تمنّ ، وإنما الرجاء قوله : وتلا هذه الاية .

وقرى: إنما يذكر، بالإدغام.

[سورة الزمر (39): آية 10]

قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (10)

فِي هذِهِ الدُّنْيا متعلق بأحسنوا لا بحسنة، معناه: الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حسنة في الآخرة. وهي دخول الجنة، أى: حسنة غير مكتنهة بالوصف. وقد علقه السدى بحسنة، ففسر الحسنة بالصحة والعافية. فإن قلت: إذا علق الظرف بأحسنوا فإعرابه ظاهر، فما معنى تعليقه بحسنة؟ ولا يصح أن يقع صفة لها لتقدمه. قلت: هو صفة لها إذا تأخر، فإذا تقدم كان بيانا لمكانها فلم يخل التقدم بالتعلق، وإن لم يكن التعلق وصفا ومعنى وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ أن لا عذر للمفرطين في الإحسان البتة، حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان، وصرف الهمم إليه قيل لهم: فإن أرض اللّه واسعة وبلاده كثيرة، فلا تجتمعوا مع العجز، وتحوّلوا إلى بلاد أخر، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحسانا إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم.

وقيل: هو الذين كانوا في بلد المشركين فأمروا بالمهاجرة عنه، كقوله تعالى أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها وقيل: هي أرض الجنة. والصَّابِرُونَ الذين صبروا على مفارقة

(1) . قال محمود : «سئل الحسن عمن يتمادى على المعاصي ويرجو . . . الخ» قال أحمد : كلام الحسن رضى اللّه عنه صحيح غير منزل على كلام الزمخشري بقرينة حاله ، فان الحسن أراد أن المتمادى على المعصية مصرا عليها غير تائب إذا غلب رجاؤه خوفه كان متمنيا ، لأن اللائق بهذا أن يغلب خوفه رجاؤه ، ولم يرد الحسن إقناط هذا من رحمة اللّه تعالى وحاشاه ، وأما قرينة حال الزمخشري فإنها تم على ما أضمره من إيراد هذه المقالة ، فان معتقده أن مثل هذا العاصي وإن كان موحدا يجب خلوده في نار جهنم ، ولا معنى لرجائه ، ولتنميته صحة هذا المعتقد أورد مقالة الحسن كالتزام إلى تتميم هذه النزعة ، وعما قليل يقرع سمعه ما في أنباء هذه السورة .

(232/667)

أوطانهم وعشائرهم ، وعلى غيرها . من تجرّع الغصص واحتمال البلايا في طاعة اللّه وازدياد الخير بِغَيْرِ حِسابٍ لا يحاسبون عليه . وقيل : بغير مكيال وغير ميزان يغرف لهم غرفا ، وهو تمثيل للتكثير . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : لا يهتدى إليه حساب الحساب ولا يعرف .

وعن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم : «ينصب اللّه الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة

فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين . ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء ، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صبا ، قال اللّه تعالى إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أنّ أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل» «1» .

[سورة الزمر (39) : الآيات 11 إلى 15]

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (15)

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ بإخلاص الدين وَأُمِرْتُ بذلك لأجل لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ أى مقدمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة . ولمعنى : أنّ الإخلاص له السبقة في الدين ، فمن أخلص كان سابقا . فإن قلت : كيف عطف أُمِرْتُ على أُمِرْتُ وهما واحد «2» ؟ قلت : ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما ، وذلك أنّ الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء ، والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق في الدين شيء ، وإذا اختلف وجها الشيء وصفتاه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين

(1) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه ، من حديث أنس رضى اللّه عنه . وإسناده ضعيف جدا . وأورده أبو نعيم في الحلية في ترجمة جابر بن زيد عن الطبراني . وهو في معجمه بإسناده إلى قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضى اللّه عنهما مختصرا .

(2) . قال محمود : «فان قلت : كيف عطف أمرت على أمرت وهما واحد ، وأجاب بأنه ليس بتكرير . . . الخ» قال أحمد : ولقد أحسن في تقوية هذا المعنى في هذه الآية بقوله فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دونه فان مقابلته بعدم الحصر توجب كونه للحصر ، واللّه أعلم . وما أحسن ما بين وجوه المبالغة في وصف اللّه تعالى لفظاعة خسرانهم فقال :

استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه ، ووسط الفصل بين المبتدإ والخبر ، وعرف الخسران ونعته بالمبين ، وبين في تسمية الشيطان طاغوتا وجوها ثلاثة من المبالغة ، أحدها : تسميته بالمصدر كأنه نفس الطغيان ، الثاني : بناؤه على فعلوت وهي صيغة مبالغة كالرحموت ، وهي الرحمة الواسعة والملكوت وشبهه . الثالث : تقديم لامه على عينه ليفيد اختصاص الشيطان بهذه التسمية .

ولك أن تجعل اللام مزيدة مثلها في أردت لأن أفعل ، ولا تزاد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح ، كأنها زيدت عوضا من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه ، كما عوّض السين في اسطاع عوضا من ترك الأصل الذي هو أطوع ، والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وفي معناه أوجه : أن أكون أوّل من أسلم في زماني ومن قومي ، لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها . وأن أكون أوّل الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاما . وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره ، لأكون مقتدى بى في قولي وفعلى جميعا ، ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون ، وأن أفعل ما أستحق به الأوّلية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب يعنى : أن اللّه أمرنى أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكلّ شوب ، بدليل العقل والوحى .

فإن عصيت ربى بمخالفة الدليلين ، استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم ، وذلك حين دعوه إلى دين آبائه . فإن قلت : ما معنى التكرير في قوله قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وقوله قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي قلت : ليس بتكرير ، لأنّ الأوّل إخبار بأنه مأمور من جهة اللّه بإحداث العبادة والإخلاص . والثاني : إخبار بأنه يختص اللّه وحده دون غيره بعبادته مخلصا له دينه ، ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة وأخره في الأوّل فالكلام أوّلا واقع في الفعل نفسه وإيجاده ، وثانيا فيمن يفعل الفعل لأجله ،

ولذلك رتب عليه قوله فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير: المبالغة في الخذلان والتخلية، على ما حققت فيه القول مرتين. قل إنّ الكاملين في الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه: هم الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها وَخسروا أَهْلِيهِمْ لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده إليهم. وقيل: وخسروهم «1» لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة، يعنى: وخسروا أهليهم الذين كانوا يكونون لهم لو آمنوا، ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ حيث استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرف الخسران ونعته بالمبين.

[سورة الزمر (39): آية 16]

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (16)

---

(1). قوله «و خسروهم» لعله «خسروهم» بدون واو. (ع)

وَمِنْ تَحْتِهِمْ أطباق من النار هي ظُلَلٌ لآخرين ذلِكَ العذاب هو الذي يتوعد اللّه بِهِ عِبادَهُ ويخوّفهم ، ليجتنبوا ما يوقعهم فيه يا عِبادِ فَاتَّقُونِ ولا تتعرّضوا لما يوجب سخطى ، وهذه عظة من اللّه تعالى ونصيحة بالغة . وقرئ : يا عبادي .

[سورة الزمر (39) : الآيات 17 إلى 18]

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (18)

الطَّاغُوتَ فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت ، إلا أن فيها قلبا بتقديم اللام على العين ، أطلقت على الشيطان أو الشياطين ، لكونها مصدرا وفيها مبالغات ، وهي التسمية بالمصدر ، كأن عين الشيطان طغيان ، وأنّ البناء بناء مبالغة ، فإنّ الرحموت : الرحمة الواسعة ، والملكوت : الملك المبسوط ، والقلب وهو للاختصاص ، إذ لا تطلق على غير الشيطان ، والمراد بها هاهنا الجمع . وقرئ : الطواغيت أَنْ يَعْبُدُوها بدل من الطاغوت بدل الاشتمال لَهُمُ الْبُشْرى هي البشارة بالثواب ، كقوله تعالى هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ

اللّه عزّ وجل يبشرهم بذلك في وحيه على ألسنة رسله ، وتتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين ، وحين يحشرون . قال اللّه تعالى يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ وأراد بعباده الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ

الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم ، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة ، فوضع الظاهر موضع الضمير ، وأراد أن يكونوا نقادا في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران : واجب وندب ، اختاروا الواجب ، وكذلك المباح والندب ، حرّاصا على ما هو أقرب عند اللّه وأكثر ثوابا ، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر «1» ، وأبينها دليلا أو أمارة ، وأن لا تكون في مذهبك ، كما قال القائل :

ولا تكن مثل عير قيد فانقادا «2»

---

(1) . قال محمود : «يدخل تحت هذا المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر . . . الخ» قال أحمد : لقد كنت أطمع لعله رجع عما ضمن هذا الكتاب من المذاهب الرديئة والمعتقدات الفاسدة ، حتى حققت من كلامه هذا أن ذلك التصميم كان متمكنا من فؤاده الصميم ، فلا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم .

(2) شمر وكن في أمور الدين مجتهدا ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

للزمخشري . تشمير الثياب عن الساعد : كناية عن ترك الكسل ، ثم قال : واجتهد في أحكام الدين ولا تقلد غيرك ، فتكون مثل حمار قاده الشخص فانقاد وطاوعه أينما يوجهه . ويحتمل أن المعنى : اجتهد في العمل ولا تطع الشيطان .

يريد المقلد ، وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن . وقيل : يستمعون أوامر اللّه فيتبعون أحسنها ، نحو القصاص والعفو ، والانتصار والإغضاء ، والإبداء والإخفاء لقوله تعالى وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ، وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو ، فيحدّث بأحسن ما سمع ويكف عما سواه . ومن الوقفة من يقف على : فبشر عبادي ، ويبتدئ : الذين يستمعون ، يرفعه على الابتداء ، وخبره أُولئِكَ .

[سورة الزمر (39) : آية 19]

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19)

أصل الكلام : أمّن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ، جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء ، ثم دخلت الفاء التي في أوّلها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب ، تقديره :

أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه ، والهمزة الثانية هي الأولى ، كرّرت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ، ووضع مَنْ فِي النَّارِ موضع الضمير ، فالآية على

هذا جملة واحدة. ووجه آخر: وهو أن تكون الآية جملتين: أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه؟ أفأنت تنقذ من في النار؟ وإنما جاز حذف: فأنت تخلصه، لأن أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ يدل عليه: نزل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار، حتى نزل اجتهاد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وكدّه نفسه في دعائهم إلى الإيمان: منزلة إنقاذهم من النار. وقوله أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ يفيد أنّ اللّه تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ من النار وحده، لا يقدر على ذلك أحد غيره، فكما لا تقدر أنت أن تنقذ الداخل في النار من النار، لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه.

[سورة الزمر (39): آية 20]

لٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ (20)

غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ علالي بعضها فوق بعض. فإن قلت: ما معنى قوله مَبْنِيَّةٌ؟

قلت: معناه - واللّه أعلم -: أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسوّيت تسويتها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كما تجرى من تحت المنازل، من غير تفاوت بين العلوّ والسفل وَعْدَ اللَّهِ مصدر مؤكد، لأنّ قوله لهم غرف في معنى، وعدهم اللّه ذلك.

[سورة الزمر (39): آية 21]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (21)

(236/667)

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً هو المطر. وقيل: كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة، ثم يقسمه اللّه فَسَلَكَهُ فأدخله ونظمه يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ عيونا ومسالك ومجارى كالعروق في الأجساد مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك، وأصنافه من برّ وشعير وسمسم وغيرها يَهِيجُ يتم جفافه، عن الأصمعى، لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب حُطاماً فتاتا ودرينا «1» إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لتذكيرا وتنبيها، على أنه لا بدّ من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير، لا عن تعطيل وإهمال.

ويجوز أن يكون مثلا للدنيا، كقوله تعالى إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا، وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا. وقرئ: مصفارّا.

[سورة الزمر (39): آية 22]

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22)

أَفَمَنْ عرف اللّه أنه من أهل اللطف فلطف به حتى انشرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسى القلب ، ونور اللّه : هو لطفه ، وقرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هذه الآية فقيل يا رسول اللّه : كيف انشراح الصدر ؟ قال «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح «2» فقيل : يا رسول اللّه ، فما علامة ذلك ؟ قال «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت» وهو نظير قوله : أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ في حذف الخبر مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ من أجل ذكره ، أى : إذا ذكر اللّه عندهم أو آياته اشمأزوا وازدادت قلوبهم قساوة ، كقوله تعالى فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وقرئ : عن ذكر اللّه .

فإن قلت : ما الفرق بين من وعن في هذا ؟ «قلت» : إذا قلت : قسا قلبه من ذكر اللّه ، فالمعنى ما ذكرت ، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه ، وإذا قلت : عن ذكر اللّه ، فالمعنى : غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه . ونظيره : سقاه من العيمة ، أى من أجل عطشه ، وسقاه عن العيمة :

إذا أرواه حتى أبعده عن العطش .

[سورة الزمر (39) : آية 23]

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ

جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (23)

---

(1) . قوله «فتاتا ودرينا» في الصحاح «الدرين» : خطام المرعى إذا قدم ، وهو ما يلي من الحشيش . (ع)

(2) . أخرجه الثعلبي والحاكم والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود . وفيه أبو فروة الرهاوي فيه كلام .

ورواه الترمذي الحكيم في النوادر في الأصل السادس والثمانين . وفي إسناده إبراهيم بن [بياض بالأصل .] وهو ضعيف . [. . . . .]

عن ابن مسعود رضى اللّه عنه : أنّ أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ملوا ملة ، فقالوا له : حدثنا فنزلت ، وإيقاع اسم اللّه مبتدأ وبناء نَزَّلَ عليه : فيه تفخيم لأحسن الحديث ، ورفع منه ، واستشهاد على حسنه ، وتأكيد لاستناده إلى اللّه وأنه من عنده ، وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه ، وتنبيه على أنه وحى معجز مباين لسائر الأحاديث . وكِتاباً بدل من أحسن الحديث . ويحتمل أن يكون حالا منه ومُتَشابِهاً مطلق في مشابهة

بعضه بعضا ، فكان متناولا لتشابه معانيه في الصحة والإحكام ، والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق ، وتناسب ألفاظه وتناصفها في التخير والإصابة ، وتجاوب نظمه وتأليفه في الإعجاز والتبكيت ، ويجوز أن يكون مَثَانِيَ بيانا لكونه متشابها ، لأن القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة . والمثاني جمع مثنى بمعنى مردّد ومكرّر ، ولما ثنى من قصصه وأنبائه ، وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه . وقيل : لأنه يثنى في التلاوة ، فلا يمل كما جاء في وصفه لا يتفه ولا يتشان «1» ولا يخلق على كثرة الرّد . ويجوز أن يكون جمع مثنى مفعل ، من التثنية بمعنى التكرير . والإعادة كما كان قوله تعالى ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ بمعنى كرّة بعد كرّة ، وكذلك : لبيك وسعديك ، وحنانيك . فإن قلت : كيف وصف الواحد بالجمع ؟ قلت : إنما صحّ ذلك لأنّ الكتاب جملة ذات تفاصيل ، وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير .

ألا تراك تقول : القرآن أسباع وأخماس ، وسور وآيات ، وكذلك تقول : أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات ، ونظيره قولك : الإنسان عظام وعروق وأعصاب ، إلا أنك تركت الموصوف إلى الصفة ، وأصله : كتابا متشابها فصولا مثاني . ويجوز أن يكون كقولك : برمة أعشار ، وثوب أخلاق . ويجوز أن لا يكون مثاني صفة ، ويكون منتصبا على التمييز من متشابها ، كما تقول : رأيت رجلا حسنا شمائل ، والمعنى : متشابهة مثانيه . فإن قلت : ما فائدة التثنية والتكرير ؟ قلت ، النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة ، فما

لم يكرر عليها عودا عن بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعا ، «2» ليركزه في قلوبهم

---

(1) . قوله «لا يتفه ولا يتشان» في الصحاح «التافه» : الحقير اليسير : وفيه تشانت القربة : أخلقت ، وتشان الجلد : يبس وتشنج . (ع)

(2) . لم أجده . وفي البخاري عن أنس رضى اللّه عنه «كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا - الحديث» وزاد أحمد «وكان يستأذن ثلاثا» .

ويغرسه في صدورهم . اقشعر الجلد : إذا تقبض تقبضا شديدا ، وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس ، مضموما إليها حرف رابع وهو الراء ، ليكون رباعيا ودالا على معنى زائد . يقال : اقشعر جلده من الخوف وقف شعره ، «1» وهو مثل في شدّة الخوف ، فيجوز أن يريد به اللّه سبحانه التمثيل ، تصويرا لإفراط خشيتهم ، وأن يريد التحقيق . والمعنى : أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده : أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم ، ثم إذا ذكروا اللّه ورحمته وجوده بالمغفرة : لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من

الخشية والقشعريرة .

فإن قلت : ما وجه تعدية «لان» بإلى ؟ قلت : ضمن معنى فعل متعدّ بإلى ، كأنه قيل : سكنت . أو اطمأنت إلى ذكر اللّه لينة غير متقبضة ، راجية غير خاشية . فإن قلت : لم اقتصر على ذكر اللّه من غير ذكر الرحمة ؟ قلت : لأنّ أصل أمره الرحمة والرأفة ، ورحمته هي سابقة غضبه ، فلأصالة رحمته إذا ذكر لم يخطر بالبال قبل كل شيء من صفاته إلا كونه رءوفا رحيما . فإن قلت : لم ذكرت الجلود وحدها أوّلا ، ثم قرنت بها القلوب ثانيا ؟ قلت : إذا ذكرت الخشية التي محلها القلوب ، فقد ذكرت القلوب ، فكأنه قيل : تقشعر جلودهم من آيات الوعيد ، وتخشى قلوبهم في أوّل وهلة ، فإذا ذكروا اللّه ومبنى أمره على الرأفة والمرحمة : استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم ، وبالقشعريرة لينا في جلودهم ذِلكَ إشارة إلى الكتاب ، وهو هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ يوفق به من يشاء ، يعنى : عباده المتقين ، حتى يخشوا تلك الخشية ويرجوا ذلك الرجاء ، كما قال : هدى للمتقين وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ومن يخذله من الفساق «2» والفجرة فَما لَهُ مِنْ هادٍ أو ذلك الكائن من الخشية والرجاء هدى اللّه ، أى : أثر هداه وهو لطفه ، فسماه هدى لأنه حاصل بالهدى يَهْدِي بِهِ بهذا الأثر من يشاء من عباده ، يعنى : من صحب أولئك ورءاهم خاشين راجين ، فكان ذلك مرغبا لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ : ومن لم يؤثر فيه ألطافه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره ، فَما لَهُ مِنْ هادٍ من مؤثر فيه بشيء قط .

[سورة الزمر (39) : الآيات 24 إلى 26]

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (24) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (25) فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (26)

---

(1) . قوله «وقف شعره» أى : قام من الفزع ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . قوله «و من يخذله من الفساق» تأويل الضلال بذلك مبنى على مذهب المعتزلة أن اللّه لا يخلق الشر . وعند أهل السنة : أنه يخلقه كالخير ، فالاضلال : خلق الضلال في القلب . (ع)

يقال : اتقاه بدرقته : استقبله بها فوقى بها نفسه إياه واتقاه بيده . وتقديره : أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ كمن أمن العذاب «1» ، فحذف الخبر كما حذف في نظائره : وسوء العذاب :

شدّته . ومعناه : أن الإنسان إذا لقى مخوفا من المخاوف استقبله بيده ، وطلب أن يقي بها وجهه ، لأنه أعز أعضائه عليه والذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه ، فلا يتهيأ له

أن يتقى النار إلا بوجهه الذي كان يتقى المخاوف بغيره ، وقاية له ومحاماة عليه . وقيل : المراد بالوجه الجملة ، وقيل : نزلت في أبى جهل . وقال لهم خزنة النار ذُوقُوا وبال ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ . . . . . .

مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ من الجهة التي لا يحتسبون ، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها ، بينا هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأمنهم . والخزي : الذل والصغار ، كالمسخ والخسف والقتل والجلاء ، وما أشبه ذلك من نكال اللّه .

[سورة الزمر (39) : الآيات 27 إلى 28]

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28)

قُرْآناً عَرَبِيًّا حال مؤكدة كقولك : جاءني زيد رجلا صالحا وإنسانا عاقلا . ويجوز أن ينتصب على المدح غَيْرَ ذِي عِوَجٍ مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف . فإن قلت : فهلا قيل : مستقيما : أو غير معوج ؟ قلت : فيه فائدتان ، إحداهما : نفى أن يكون فيه عوج قط ، كما قال : وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً والثانية : أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان . وقيل :

المراد بالعوج : الشك واللبس . وأنشد :

وقد أتاك يقين غير ذى عوج من الإله وقول غير مكذوب «2»

[سورة الزمر (39) : آية 29]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (29)

واضرب لقومك مثلا ، وقل لهم : ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم

---

(1) . قال محمود : «معناه كمن هو آمن ، فحذف الخبر أسوة أمثله . . . الخ» قال أحمد : الملقى في النار والعياذ بالله ، لم يقصد الاتقاء بوجهه ، ولكنه لم يجد ما يتقى به النار غير وجهه ، ولو وجد لفعل ، فلما لقيها بوجهه كانت حاله حال المتقى بوجهه ، فعبر عن ذلك بالاتقاء من باب المجاز التمثيلى ، والله أعلم .

(2) . الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد باليقين والقول : القرآن . أو اليقين : الأسرار ، والقول : القرآن . أو اليقين : القرآن ، والقول : ما عداه من الأوامر والنواهي ، و«من الاله» متعلق بأتاك . والمعنى :

أن ذاك من الشك واللبس ، ومن الكذب ، فالعوج : استعارة تصريحية .

اختلاف وتنازع : كل واحد منهم يدعى أنه عبده ، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهن شتى ومشاده ، وإذا عنت له حاجة تدافعوه ، فهو متحير في أمره سادر ، «1» قد تشعبت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره ، لا يدرى أيهم يرضى بخدمته ؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته . وفي آخر : قد سلم لمالك واحد وخلص له ، فهو معتنق لما لزمه من خدمته ، معتمد عليه فيما يصلحه ، فهمه واحد وقلبه مجتمع ، أى هذين العبدين أحسن حالا وأجمل شأنا ؟ والمراد : تمثيل حال من يثبت آلهة شتى ، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعى كل واحد منهم عبوديته ، ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا ، كما قال تعالى وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ ويبقى هو متحيرا ضائعا لا يدرى أيهم يعبد ؟

وعلى ربوبية أيهم يعتمد ؟ وممن يطلب رزقه ؟ وممن يلتمس رفقه ؟ فهمه شعاع ، «2» وقلبه أوزاع ، وحال من لم يثبت إلا إلها واحدا ، فهو قائم بما كلفه ، عارف بما أرضاه وما أسخطه ، متفضل عليه في عاجله ، مؤمل للثواب في آجله . وفِيهِ صلة شركاء ، كما تقول : اشتركوا فيه . والتشاكس والتشاخس : الاختلاف ، تقول : تشاكست أحواله ، وتشاخست أسنانه سَلَماً لِرَجُلٍ خالصا . وقرئ : سلما ، بفتح الفاء والعين ، وفتح الفاء وكسرها مع سكون العين ، وهي مصادر سلم . والمعنى : ذا سلامة لرجل ، أى : ذا خلوص له من الشركة ، من قولهم : سلمت له الضيعة .

وقرئ بالرفع على الابتداء ، أى : وهناك رجل سالم لرجل ، وإنما جعله رجلا ليكون أفطن

لما شقى به أو سعد ، فإن المرأة والصبى قد يغفلان عن ذلك هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا هل يستويان :

صفة على التمييز . والمعنى : هل يستوي صفتاهما وحالاهما ، وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس . وقرئ : مثلين ، كقوله تعالى وَأَكْثَرَ أَمْوالًا وَأَوْلاداً مع قوله أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ويجوز فيمن قرأ : مثلين ، أن يكون الضمير في يَسْتَوِيانِ للمثلين ، لأن التقدير : مثل رجل ومثل رجل . والمعنى : هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية ، كما تقول : كفى بهما رجلين الْحَمْدُ لِلَّهِ الواحد الذي لا شريك له دون كل معبود سواه ، أى : يجب أن يكون الحمد متوجها إليه وحده والعبادة ، فقد ثبت أنه لا إله إلا هو بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ فيشركون به غيره .

[سورة الزمر (39) : الآيات 30 إلى 33]

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (32) وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33)

---

(1) . قوله «في أمره سادر» في الصحاح «السادر» : المتحير . (ع)

(2) . قوله «فهمه شعاع . . . الخ» بالفتح أى متفرق . وقولهم : بها أوزاع من الناس ، أى : جماعات كذا في الصحاح . (ع)

كانوا يتربصون برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم موته ، فأخبر أن الموت يعمهم ، فلا معنى للتربص ، وشماتة الباقي بالفاني . وعن قتادة : نعى إلى نبيه نفسه ، ونعى إليكم أنفسكم : «1» وقرئ : مائت ومائتون «2» . والفرق بين الميت والمائت : أن الميت صفة لازمة كالسيد .

وأما المائت ، فصفة حادثة . تقول : زيد مائت غدا ، كما تقول : سائد غدا ، أى سيموت وسيسود .

وإذا قلت : زيد ميت ، فكما تقول : حى في نقيضه ، فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت .

والمعنى في قوله إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ إنك وإياهم ، وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى ، لأن ما هو كائن فكأن قد كان ثُمَّ إِنَّكُمْ ثم إنك وإياهم ، فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب تَخْتَصِمُونَ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا ، فاجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد ، ويعتذرون بما لا طائل تحته ، تقول الأتباع : أطعنا سادتنا وكبراءنا ، وتقول السادات :

أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون ، وقد حمل على اختصام الجميع وأن الكفار يخاصم

بعضهم بعضا ، حتى يقال لهم : لا تختصموا لدىّ ، والمؤمنون الكافرين يبكتونهم بالحجج ، وأهل القبلة يكون بينهم الخصام . قال عبد اللّه بن عمر : لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتاب ؟ قلنا : كيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد ؟

حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، فعرفت أنها نزلت فينا «3» وقال أبو سعيد الخدري : كنا نقول : ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد ، فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف ، قلنا : نعم هو هذا «4» . وعن إبراهيم النخعي قالت الصحابة : ما خصومتنا ونحن إخوان ؟ فلما قتل عثمان رضى اللّه عنه قالوا : هذه خصومتنا «5» .

وعن أبى العالية : نزلت في أهل القبلة . والوجه الذي يدل عليه كلام اللّه هو ما قدمت أولا . ألا ترى إلى قوله تعالى فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وقوله تعالى وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ وما هو إلا بيان وتفسير للذين يكون بينهم الخصومة كَذَبَ عَلَى اللَّهِ افترى عليه بإضافة

---

(1) . قوله «ونعى إليكم أنفسكم» لعله : إليهم أنفسهم . (ع)

(2) . قال محمود : «قرئ : إنك ميت ومائت . . . الخ» قال أحمد : فاستعمال ميت مجاز ، إذ الخطاب مع الأحياء واستعمال مائت حقيقة إذ لا يعطى اسم الفاعل وجود الفعل حال

الخطاب . ونظيره قوله تعالى اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها يعنى : توفى الموت وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها أى يتوفاها حين المنام ، تشبيها للنوم بالموت ، كقوله وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ فيمسك الأنفس التي قضى عليها الموت الحقيقي ، أى : لا يردها في وقتها حية وَيُرْسِلُ الْأُخْرى أى النائمة إلى الأجل الذي سماه ، أى قدره لموتها الحقيقي . هذا أوضح ما قيل في تفسير الآية ، والله أعلم .

(3) . أخرجه الحاكم من رواية القاسم بن عوف عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(4) . ذكره الثعلبي . قال : وروى خلف بن خليفة عن أبى هاشم عن الخدري .

(5) . أخرجه عبد الرزاق والطبري والثعلبي من رواية عبد الله بن عوف عن إبراهيم بهذا .

الولد والشريك إليه وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ بالأمر الذي هو الصدق بعينه ، وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إِذْ جاءَهُ فاجأه بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة ، لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل ، كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون مَثْوىً لِلْكافِرِينَ أى

لهؤلاء الذين كذبوا على اللّه وكذبوا بالصدق ، واللام في لِلْكافِرِينَ إشارة إليهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 110. 128 ﴾

(243/667)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ تنزيلُ الكتابِ ﴾

قال الزجاج : الكتاب هاهنا القرآن ، ورفع " تنزيلُ " من وجهين .

أحدهما : الابتداء ، ويكون الخبر ﴿ مِنَ الله ﴾ ، فالمعنى : نزل من عند الله .

والثاني : على إضمار هذا تنزيلُ الكتاب ؛ و ﴿ مُخْلِصاً ﴾ منصوب على الحال ؛

فالمعنى : فاعبُدِ الله موحّداً لا تُشْرِكْ به شيئاً .

قوله تعالى : ﴿ ألا للهِ الدّينُ الخالصُ ﴾ يعني : الخالص من الشّرك ، وما سِواه ليس بدِين الله الذي أَمر به ؛ [وقيل] : المعنى : لا يَستحِقُّ الدّينَ الخالصَ إلاّ اللهُ .

﴿ والذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دونِه أولياءَ ﴾ يعنى آلهة ويدخُل في هؤلاء اليهودُ حين قالوا ﴿ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ ﴾ [التوبة : 30] والنصارى لقولهم ﴿ المسيحُ ابنُ الله ﴾ [التوبة : 30] وجميعُ عُبَّاد الأصنام ، ويدُلُّ عليه قولُه بعد ذلك ﴿ لو أرادَ اللهُ أن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [الزمر :

4].

قوله تعالى : ﴿ ما نَعْبُدُهم ﴾ أي : يقولون ما نعبُدُهم ﴿ إلا لِيُقَرِّبونا إلى الله زُلْفى ﴾ أي : إلاّ لِيَشْفَعوا لنا إلى الله ، والزُّلْفى : القُرْبى ، وهو اسم أُقيم مقامَ المصدر فكأنه قال : إلاّ لِيُقَرِّبونا إلى الله تقريباً .

﴿ إنَّ الله يحكمُ بينهم ﴾ أي : بين أهل الأديان فيما كانوا يختلفون فيه من أمر الدّين .

وذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولا وجه لذلك .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ الله لا يَهْدي ﴾ أي : لا يُرْشِد ﴿ مَنْ هو كاذبٌ ﴾ في قوله إن الآلهه تشفع ﴿ كَفَّارٌ ﴾ أي : كافر باتّخاذها آلهة .

وهذا إخبار عمن سبق عليه القضاء بحرمان الهداية .

﴿ لو أراد اللهُ أن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [أي] : على ما يزعم من ينسُب ذلك إلى الله ﴿ لاصْطَفَى ﴾ أي : لاختار ممّا يخلُق .

قال مقاتل : أي من الملائكة .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ بالحَقِّ ﴾ [أي] : لم يخلقهما لغير شيء .

﴿ يُكَوِّرُ اللَّيلَ على النَّهار ﴾ قال أبو عبيدة : يُدْخِلُ هذا على هذا .

قال ابن قتيبة : وأصلُ التَّكْوِير : اللَّفُّ ومنه كَوْرُ العِمامة ، وقال غيره : التَّكْويرُ طَرْحُ الشيء بعضه على بعض .

﴿ وسخَّر الشَّمسَ والقمر ﴾ أي ذللّهما للسَّير على ما أراد ﴿ كُلٌّ يَجْري لأَجَلٍ مسمًّى ﴾ أي : إلى الأجَلَ الذي وقَّت اللهُ للدُّنيا .

وقد شرحنا معنى العزيز في [البقرة : 129] ومعنى الغفَّار في [طه : 82] .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ ﴾ يعني آدم ﴿ ثُمَّ جعَلَ منها زَوْجَها ﴾ أي : قَبْلَ خَلْقِكم جعل منها زوجها ، لأنّ حوّاءَ خُلِقَتْ قَبْلَ الذُّرِّيَّة ، ومِثْلُه في الكلام أن تقول : قد أعطيتُكَ اليوم شيئاً ، ثُمَّ الذي أعطيتُكَ أمس أكثر ؛ هذا اختيار الفراء .

وقال غيره : ثم أَخبركم أنه خَلَق منها زَوْجَها .

﴿ وأَنْزَلَ لكم من الأَنعام ﴾ أي : خَلَق ﴿ ثمانيةَ أزواجٍ ﴾ ، وقد بيّنّاها في سورة [الأنعام : 143] .

﴿ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أي : نُطَفاً ثُمَّ عَلَقاً ثم مُضَغاً ثم عَظْماً ثم لَحْماً ، ثم أنبت الشَّعر ، إلى غير ذلك من تقلُّب الأحوال إلى إخراج الأطفال ، هذا قول الجمهور .

وقال ابن زيد : خَلْقاً في البُطون مِنْ بَعْدِ خَلْقِكم في ظَهْر آدم .

قوله تعالى : ﴿ في ظُلُماتٍ ثلاثٍ ﴾ ظُلْمة البَطْن ، وظُلْمة الرَّحِم ، وظُلْمة المَشيمة ، قاله

الجمهور ، وابن زيد معهم .

وقال أبو عبيدة : إنها ظُلْمة صُلْب الأب ، وظُلْمة بَطْن المرأة ، وظُلْمة الرَّحِم .

قوله تعالى : ﴿ فأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أي : من أين تُصْرَفون عن طريق الحَقّ بعد هذا البيان .

﴿ إن تكفُروا فإنَّ الله غنيٌّ عنكم ﴾ أي : عن إيمانكم وعبادتكم ﴿ ولا يَرْضَى لعباده الكُفْرَ ﴾ فيه قولان : أحدهما : لا يرضاه للمؤمنين قاله ابن عباس .

والثاني : لا يرضاه لأحَد وإن وقع بإرادته ، وفرقٌ بين الإرادة والرِّضى .

(245/667)

وقد أشرنا إلى هذا في [البقرة : 205] عند قوله : ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ .

﴿ وإنْ تشكُروا يَرْضَهُ لَكُم ﴾ أي : يرضى ذلك الشُّكر لكم ﴿ إنَّه عَلِيمٌ بذاتِ الصُّدور ﴾ أي : بما في القلوب .

قوله تعالى : ﴿ وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين .

أحدهما : في عتبة بن ربيعة ، قاله عطاء .

والثاني : في أبي حذيفة بن المغيرة ، قاله مقاتل .

والضُّرُّ : البلاء والشِّدَّة .

﴿ مُنِيباً إليه ﴾ أي : راجعاً إليه من شِركه .

﴿ ثُمَّ إذا خَوَّلَهُ ﴾ أي : أعطاه وملَّكه ﴿ نِعْمةً منه ﴾ بعد البلاء الذي أصابه ، كالصِّحَّة بعد المرض والغنى بعد الفقر ﴿ نَسِيَ ﴾ أي : ترك ما كان يدعو إليه ، وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : نسي الدُّعاء الذي كان يتضرَّع به إلى الله تعالى .

والثاني : نَسِيَ الضُّرَّ الذي [كان] يدعو [الله] إلى كَشْفه .

والثالث : نَسِيَ الله الذي [كان] يتضرَّع إليه .

قال الزجّاج : وقد تَدُلُّ ﴿ ما ﴾ على الله عز وجل ، كقوله ﴿ ولا أنتمُ عابِدونَ ما أعبُدُ ﴾ [الكافرون : 3] وقال الفراء : تَرَكَ ما كان يدعو إليه ، وقد سبق معنى الأنداد [البقرة : 22] ومعنى ﴿ لِيُضِلَّ عن سبيل الله ﴾ [الحج : 9] .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفرك ﴾ لفظُه لفظُ الأمر ومعناه التهديد ، ومثله ﴿ فتَمَتَّعُوا فسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 55] .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هو قانِتٌ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، وأبو جعفر ، والمفضل عن عاصم ، وزيد عن يعقوب : ﴿ أَمَنْ ﴾ بالتخفيف ؛ وقرأ الباقون : بالتشديد .

فأما المشدَّدة فمعناها : أهذا الذي ذَكَرْنا خيرٌ ، أمَّن هو قانتٌ ؟ والأصل في ﴿ أمَّن ﴾ : أَمْ مَنْ فأدغمت الميم في الميم .

وأما المخفَّفة ، ففي تقديرها ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها بمعنى النداء .

(246/667)

قال الفراء : فسَّرها الذين قرؤوا بها فقالوا : يامَنْ هو قانتٌ ، وهو وجه حسن ، والعرب تدعو بالألف كما تدعوا بياء فيقولون : يا زيدُ أَقْبِل ، وأَزَيْدُ أَقْبِل .

فيكون المعنى : أنه ذَكَرَ النّاسيَ الكافرَ .

ثمَ قصَّ قِصّةَ الصّالح بالنّداء ، كما تقول : فلانٌ لا يصوم ولا يصلّي ، فيامَنْ يصوم أَبْشِرْ .

والثاني : أن تقديرها : أمَّن هو قانت كمن ليس بقانت ؟ ! .

والثالث : أمَّن هو قانت كمن جعل لله أندادا ؟ ! .

وقد ذكرنا معنى القُنوت في [البقرة : 116] ومعنى ﴿ آناءَ اللَّيل ﴾ في [آل عمران : 113] .

قوله تعالى : ﴿ ساجداً وقائماً ﴾ يعني في الصلاة .

وفيمن نزلت فيه هذه الآية خمسة أقوال .

أحدها : أنه أبو بكر الصِّدّيق ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : عثمان بن عفان ، قاله ابن عمر .

والثالث : عمّار بن ياسر ، قاله مقاتل .

والرابع : ابن مسعود ، وعمّار وصُهَيب ، وأبو ذَرّ قاله ابن السائب .

والخامس : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حكاه يحيى بن سلام .

قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الآخرة ﴾ أي : عذاب الآخرة .

وقد قرأ ابن مسعود ، وأُبيٌّ بن كعب ، وابن عباس ، وعروة ، وسعيد بن جبير ، وأبو رجاء ، وأبو عمران : ﴿ يَحْذَرُ عذابَ الآخرة ﴾ بزيادة ﴿ عذابَ ﴾ .

﴿ ويَرْجو رَحْمَةَ ربِّه ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها المغفرة ، قاله ابن السائب .

والثاني : الجنة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هل يستوي الذي يَعْلَمونَ ﴾ أنَّما وعدَ اللهُ من الثواب والعقاب حَقٌّ ﴿ والذين لا يَعْلَمونَ ﴾ وباقي الآية قد تقدم في [الرعد : 19] وكذلك قوله ﴿ لِلَّذينَ أَحْسَنوا في هذه الدُّنيا حسنة ﴾ قد تقدم في [النحل : 30] .

وفي قوله : ﴿ وأرضُ الله واسعةٌ ﴾ قولان .

أحدهما : أنه حَثٌّ لهم على الهِجرة من مكَّة إلى حيث يأمنون .

والثاني : أنها أرض الجَنَّة رغَّبهم فيها .

﴿ إِنّما يوفَّى الصَّابرون ﴾ الذين صبروا لأجل الله تعالى على ما نالهم ﴿ بغير حساب ﴾ أي : يُعْطَون عطاءً كثيراً أوسعَ من أن يُحْسَب وأعظمَ من أن يُحاطَ به ، لا على قَدْر أعمالهم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنّي أُمِرْتُ ﴾ قال مقاتل : وذلك أن كُفّار قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حَمَلك على الذي أتيتَنا به ؟ ! ألا تنظُر إلى مِلَّة آبائك فتأخذ بها ؟ ! فنزلت هذه الآية .

والمعنى ﴿ قل إِنّي أُمِرْتُ أنْ أعبُد الله مُخْلِصاً له الدّينَ ﴾ أي : أُمِرْتُ أن أعبُدَه على التوحيد والإِخلاص السالم من الشّرك ، ﴿ وأُمِرْتُ لأَنْ أكونَ أوّلَ المُسْلِمِينَ ﴾ من هذه الأُمَّة .

﴿ قُلْ إِنّي أخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بالرجوع إلى دين آبائي ، ﴿ عذابَ يَوْمٍ عظيمٍ ﴾ وقد اختلفوا في نسخ هذه الآية كما بيّنّا في نظيرتها في [الأنعام : 15] .

﴿ قُلِ اللهَ أعبُدُ مُخْلِصاً له دِيني ﴾ بالتوحيد ، ﴿ فاعبُدوا ما شِئْتُم ﴾ ، وهذا تهديد ، وبعضهم يقول : هو منسوخ بآية السيف ، وهذا باطل ، لأنه لو كان أمراً ، كان منسوخاً ،

فأمّا أن يكون بمعنى الوعيد ، فلا وجهِ لِنَسْخه .

﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرينَ الذين خَسِروا أنفسُهم ﴾ بأن صاروا إلى النار .

(و) خسروا (أهليهم) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم خَسِروا الحُور العين اللَّواتي أُعْدِدْنَ لهم في الجنة لو أطاعوا ، قاله الحسن وقتادة .

والثاني : خَسِروا الأهل في النّار ، إذ لا أهَل لهم فيها ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والثالث : خَسِروا أهليهم الذين كانوا في الدنيا ، إذ صاروا إلى النار بكُفرهم ، وصار أهلوهم إلى الجَنَّة بإيمانهم ، قاله الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ لهم مِنْ فَوقهم ظُلَلٌ مِنَ النّار ﴾ وهي الأطباق من النار .

وإنما قال : ﴿ ومِنْ تحتهم ظُلَلٌ ﴾ لأنَّها ظُلَلٌ لِمَنْ تحتَهم (ذلك) الذي وصف اللهُ من العذاب ﴿ يُخَوِّفُ اللهُ به عباده ﴾ المؤمنين .

(248/667)

قوله تعالى : ﴿ والذين اجتَنَبوا الطّاغوتَ ﴾ روى ابن زيد عن أبيه أن هذه الآية والتي بعدها نزلت في ثلاثة نَفَرٍ كانوا في الجاهلية يوحّدون الله تعالى : زيدِ ابن عمرو بن نُفَيل ، وأبي

ذَرّ ، وسلمان الفارسي ، رضى الله عنهم ؛ قال ﴿ أولئك الذين هداهم اللهُ ﴾ بغير كتاب ولا نبيّ .

وفي المراد بالطّاغوت ها هنا ثلاثة أقوال .

أحدها : الشياطين ، قاله مجاهد .

والثاني : الكهنة ، قاله ابن السائب .

والثالث : الأوثان ، قاله مقاتل ، فعلى قول مقاتل هذا إنما قال : " يعبُدوها " لأنها مؤنَّثة .

وقال الأخفش : إنما قال : " يعبُدوها " لأن الطّاغوت في معنى جماعة ، وإن شئتَ جعلتَه واحداً مؤنَّثاً .

قوله تعالى : ﴿ وأنابوا إلى الله ﴾ أي : رجَعوا إليه بالطّاعة ﴿ لهم البُشْرى ﴾ بالجنة ﴿ فبَشِّر عبادي ﴾ بياءٍ ، وحرّك الياء أبو عمرو .

ثم نعتهم فقال ﴿ الذين يستمِعونَ القول ﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : [أنه] القرآن ، قاله الجمهور .

فعلى ، هذا في معنى ﴿ فيَتَّبعونَ أحسنه ﴾ أقوال .

قد شرحناها في [الأعراف : 145] عند قوله ﴿ وأمُرْ قَوْمَكَ يأخُذوا بأحسنها ﴾ .

والثاني : أنه جميع الكلام .

ثم في المعنى قولان :

أحدهما : [أنه الرَّجُل] يَجْلِس مع القوم فيَسْمَع كلامهم ، فيَعمل بالمحاسن ويحدّث بها ، ويَكُفُّ عن المساوىء ولا يُظْهِرها ، قاله ابن السائب .

والثاني : [أنه] لمّا ادّعى مسيلمة أنه قد أتى بقرآن ، وأتت الكهنة بالكلام المزخرَف في الأباطيل ، فرّق المؤمنون بين ذلك وبين كلام الله ، فاتَّبَعوا كلامَ الله ، ورفضوا أباطيل أولئك . قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عليه كَلِمَةُ العذابِ ﴾ قال ابن عباس : سبق في عِلْم الله أنَّه في النّار .

فإن قيل : كيف اجتمع في هذه الآية استفهامان بلا جواب ؟

قيل : أمّا الفراء ، فإنه يقول : هذا ممّا يُراد به استفهام واحد ، فسبق الاستفهامُ إلى غير موضعه فرُدّ إلى موضعه الذي هو له ، فيكون المعنى : أفأنتَ تُنْقِذ مَنْ في النار مَنْ حَقَّت عليه كلمة العذاب ؟ ومثله ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إذا مِتُّم وكُنْتُم تُرَاباً وعِظاماً أَنَّكُم مُخْرَجُون ﴾ [المؤمنون : 35] فرَدّ ﴿ أَنَّكُمْ ﴾ مرتين ، والمعنى : أَيَعِدُكُم أنكم مُخْرَجون إذا مِتُّم ؟ ومثله ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحُونَ بما أَتَوْا ﴾ [آل عمران : 188] ثم قال ﴿ فلا

تَحْسَبَنَّهُمْ ﴾ [آل عمران : 188] فرَدَّ " تَحْسَبَنَّ " مرتين ، والمعنى : لا تَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحُونَ بمفازة من العذاب .

وقال الزجاج : يجوز أن يكون في الكلام محذوف ، تقديره : أفمن حَقَّ عليه كلمةُ العذاب فيتخلَّص منه أو ينجو ، أفأنت تنقذه ؟ قال المفسِّرون : أفأنت تخلّصه ممّا قُدِر له فتجعله مؤمناً ؟ والمعنى : ما تقدر على ذلك .

قال عطاء : يريد بهذه الآية : أبا لهب وولده ومن تخلَّف من عشيرة النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ لكِنِ الذين اتَّقَوا ﴾ وقرأ أبو المتوكل ، وأبو جعفر : ﴿ لكِنَّ ﴾ بتشديد النون [وفتحها] قال الزجاج : والغُرَف هي : المنازل الرفيعة في الجنة ، ﴿ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ ﴾ أي : منازل أرفع منها .

﴿ وَعْدَ اللهِ ﴾ منصوب على المصدر ؛ فالمعنى : وعَدَهم اللهُ غُرَفاً وَعْداً .

ومن قرأ : " وَعْدُ الله " بالرفع ؛ فالمعنى : ذلك وَعْدُ الله .

قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ﴾ قال الشعبي : كُلُّ ما في الأرض فمن السَّماء ينزل ﴿ فسَلَكَه يَنابيعَ ﴾ قال ابن قتيبة : أي : أدخَلَه فجعله ينابيعَ ، أي : عُيوناً تَنْبُعُ ، ﴿ ثُمَّ يَهيجُ ﴾ أي : يَيْبَسُ .

قال الأصمعي : يقال للنَّبت إذا تَمَّ جَفافُه : قد هاجَ يَهِيجُ هَيْجاً .

فأمّا الحُطام ، فقال أبو عبيدة : هو ما يَبِسَ فتَحاتَّ من النَّبات ، ومثله الرُّفات .

قال مقاتل : هذا مَثَلَ ضُرب الدُّنيا ، بينا ترى النبت أخضر ، إذ تغيَّر فَيبِسَ ثُمَّ هَلَكَ ، وكذلك الدُّنيا وزينتُها .

وقال غيره : هذا البيان للدّلالة على قدرة الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ أفمَنْ شَرَحَ اللهُ صدره ﴾ قال الزجاج : جوابه متروك ، لأنَّ الكلام دالٌّ عليه ، تقديره : أفمن شَرَحَ اللهُ صدره فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يَهْتَد ؟ ويُدلُّ على هذا قوله ﴿ فوَيْلٌ للقاسية قلوبُهم ﴾ ؛ وقد روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ، فقلنا : يا رسول الله وما هذا الشَّرْحُ ؟ فذكر حديثا قد ذكرناه في قوله ﴿ فمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يُهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للاسلامِ ﴾ [الأنعام : 125] .

قوله تعالى : ﴿ فهُوَ على نُورٍ ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : اليقين ، قاله ابن عباس .

والثاني : كتاب الله يأخذ به وينتهي إليه ، قاله قتادة .

والثالث : البيان ، قاله ابن السائب .

والرابع : الهُدى ، قاله مقاتل .

وفيمن نزلت هذه الآية ؟ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في أبي بكر الصِّدّيق وأُبيّ بن خَلَف .

رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : في عليّ وحمزة وأبي لهب و وولده قاله عطاء .

والثالث : في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أبي جهل ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ فوَيْلٌ للقاسية قُلوبُهم من ذِكْر الله ﴾ قد بيَّنّا معنى القساوة في [البقرة : 74] .

فإن قيل : كيف يقسو القلب من ذِكْر الله عز وجل ؟

فالجواب : أنه كُلَّما تُلِيَ عليهم ذِكْرُ الله الذي يكذِّبونَ به ، قَسَت قلوبُهم عن الإيمان به .

(251/667)

وذهب مقاتل في آخَرِين إلى أنَّ ﴿ مِنْ ﴾ ها هنا بمعنى " عَنْ " ، قال الفراء : كما تقول : أُتْخِمْتُ عن طعام أكلتُه ، ومِنْ طعام أكلتُه ؛ وإنما قَسَت قلوبُهم مِنْ ذِكْر الله ، لأنهم جعلوه كذباً فأقسى قلوبَهم ؛ ومن قال : قَسَت قلوبُهم عنه ، أراد : أَعرضتْ عنه .

و[قد] قرأ أُبيُّ ابن كعب ، وابن أبي عبلة ، وأبو عمران : ﴿ قُلوبُهم عن ذِكْر الله ﴾ مكان قوله ﴿ مِنْ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ يعني القرآن ، وقد ذكرنا سبب نزولها في أول (يوسف) .

قوله تعالى : ﴿ كتاباً متشابهاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن بَعْضهُ يشْبِه بَعْضاً في الآي والحروف ، فالآية تُشْبِه الآية ، والكَلِمَة تُشْبِه الكَلِمة ، والحَرْفُ يُشْبِه الحَرْفَ .

والثاني : أن بَعْضَه يصدّق بَعْضاً ، فليس فيه اختلاف ولا تناقض .

وإنما قيل له : ﴿ مَثانيَ ﴾ لأنه كُرِّرت فيه القصص والفرائض والحدود والثَّواب والعقاب .

فإن قيل : ما الحكمة في تكرار القصص ، والواحدة قد كانت تكفي ؟

فالجواب : أن وفود العرب كانت تَرِدُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيُقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن ، فيكون ذلك كافياً لهم ، وكان يَبْعَثُ إلى القبائل المتفرّقة بالسُّوَر المختلفة ، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثنّاة مكرَّرة ، لوقعتْ قصةُ موسى إلى قوم ، وقصةُ عيسى إلى قوم ، وقصةُ نوح إلى قوم ، فأراد الله تعالى أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويُلْقِيَها إلى كل سَمْع ، فأمّا فائدة تكرار الكلام من جنس واحد ، كقوله ﴿ فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان ﴾ [الرحمن] ، وقوله : ﴿ لا أعبدُ ما تعبُدونَ ﴾ [الكافرون]

وقوله ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ [القيامة : 34 35] ﴿ وما أدراك ما يومُ الدّينِ ﴾ [الانفطار : 17 18] فسنذكرها في سورة ﴿ الرحمن ﴾ عز وجل .

(252/667)

قوله تعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ منهُ جلودُ الذين يَخْشَوْنَ ربّهم ﴾ أي : تأخذُهم قشعريرة ، وهو تغيُّر يحدُث في جِلْد الإِنسان من الوَجَل .

وروى العباس ابن عبد المطلب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِذا اقشعرَّ جِلْد العَبْد من خَشْية الله ، تَحاتَّتْ ذُنُوبُه كما يتحاتُّ عن الشجرة اليابسة ورقُها "

وفي معنى الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : تَقْشَعِرُّ من وَعيده ، وتَلين عندَ وعْده ، قاله السدي .

والثاني : تَقْشَعِرُّ من الخَوْف ، وتَلِينُ من الرَّجاء .

والثالث : تَقْشَعِرُّ الجُلود لإِعظامه ، وتَلِينُ عند تلاوته ، ذكرهما الماوردي .

وقال بعض أهل المعاني : مفعول الذِّكْر في قوله ﴿ إِلى ذِكْر الله ﴾ محذوف ، لأنه معلوم ؛ والمعنى : تَطْمَئِنُّ قلوبُهم إِلى ذِكْر الله الجنةَ والثوابَ .

قال قتادة : هذا نَعْتُ أولياء الله ، تقشَعِرُّ جلودُهم [وتَلِينُ قلوبُهم] ، ولم يَنْعَتْهم بذَهاب

عُقولهم والغِشْيان عليهم ، إنَّما هذا في أهل البِدَع .

وهذا من الشَّيطان .

وقد روى أبو حازم ، قال : مَرَّ ابنُ عمر برجُل ساقط من أهل العراق ، فقال : ما شأنُه ؟

فقالوا : إنه إذا قرىء عليه القرآن يُصيبه هذا .

قال : إنّا لنَخشى اللهَ عزّ وجلّ ، وما نَسْقُط .

وقال عامر بن عبد الله بن الزبير : جئتُ أبي ، فقال لي : أين كنتَ ؟ فقلت : وجدتُ قوماً ، ما رأيت خيراً منهم قَطُّ ، يذكُرون الله عز وجل فيُرعَد واحدهم حتى يُغْشَى عليه من خَشْية الله عز وجلّ ، فقعدتُ معهم ، فقال : لا تقعُد معهم بعدها [أبداً] .

قال : فرآني كأني لم يأخذ ذلك فيَّ فقال : رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن ، ورأيتُ أبا بكر وعمر يتلوان القرآن فلا يُصيبُهم هذا من خَشْية الله تعالى ، أفتَرَى أنهم أخشى لله من أبي بكر وعمر ، قال : فرأيت ذلك كذلك .

(253/667)

وقال عكرمة : سُئلتْ أسماءُ بنت أبي بكر : هل كان أحد من السَّلَف يُغشى عليه من الخوف ؟ قالت : لا ، ولكنهم كانوا يبكون .

وقال عبد الله بن عروة بن الزبير : قلت لجَدَّتي أسماءَ بنتِ أبي بكر : كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن ؟ قالت : كانوا كما نعتهم اللهُ تعالى ، تَدْمَعْ أعيُنُهم وتَقْشَعِرُّ جلودهم .

فقلت لها : إنَّ ناساً اليوم إذا قرىء عليهم القرآن ، خَرَّ أحدُهم مَغْشِيّاً عليه ؟ فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وكان جَوّاب يُرْعَدُ عند الذِّكْر ، فقال له إبراهيم النخعي : إن كنت تملكه ، فما أُبالي أن لا أعتدَّ بك ، وإن كنتَ لا تملكه ، فقد خالفتَ من كان قبلك .

قوله تعالى : ﴿ ذلك هُدى الله ﴾ في المشار إليه قولان .

أحدهما : أنه القرآن ، قاله مقاتل .

والثاني : أنه ما يَنْزِلُ بالمؤمنين عند تلاوة القرآن من اقشعرار الجلود عند الوعيد ، ولينها عند الوعد ، قاله ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بوجهه سُوءَ العذاب ﴾ أي : شِدَّتَه .

قال الزجاج : جوابه محذوف ، تقديره : كَمَنْ يدخُل الجنة ؟ وجاء في التفسير أن الكافر يُلقى في النار مغلولاً ، ولا يتهيَّأ له أن يتَّقيَها إلاّ بوجه .

ثم أخبر عمّا يقول الخَزَنة للكفار بقوله ﴿ وقيل للظالِمين ﴾ يعني الكافرين ﴿ ذُوقوا ما كنتم تَكْسِبونَ ﴾ أي : جزاء كَسْبِكم .

قوله تعالى : ﴿ كذَّب الذين مِنْ قَبْلهم ﴾ أي : من قبْل كفار مكة ﴿ فأتاهم العذاب من حيث لا يَشْعُرون ﴾ أي : وهم آمنون غافلون عن العذاب ، ﴿ فأذاقهم اللهُ الخِزْيَ ﴾ يعني الهوان والعذاب ، ﴿ ولَعذابُ الآخرة أكبرُ ﴾ مّما أصابهم في الدنيا ﴿ لو كانوا يَعْلَمونَ ﴾ ، ولكنهم لا يعلمون ذلك .

﴿ ولقد ضَرَبْنا للناس في هذا القرآن ﴾ أي : وَصَفْنا لهم ﴿ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي : من كل شبه يشبه أحوالهم .

(254/667)

قوله تعالى : ﴿ قُرآناً عربياً ﴾ قال الزجاج : " عربياً " منصوب على الحال ، المعنى : ضربنا للناس في هذا القرآن في حال عربيَّته وبيانه ، فذكر ﴿ قرآنا ﴾ توكيداً ، كما تقول جاءني زيد رجلاً صالحاً .

وجاءني عمرو إنساناً عاقلاً ، فذكر رجلاً وإنساناً توكيداً .

قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ ذي عِوَجٍ ﴾ روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : غير مخلوق .

وقال غيره : مستقيم غير مختلف .

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ ثم بيَّنه فقال : ﴿ رجُلاً فيه شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ ﴾

قال ابن قتيبة : أي : مختلِفون ، يَتَنازعُون ويَتَشاحُّون فيه ، يقال : رجُلٌ شَكِسٌ .

وقال اليزيدي : الشّكس من الرجال : الضَّيّق الخُلُق .

قال المفسّرون : وهذا مَثَل ضربه اللهُ للمؤمِن والكافر ، فإن الكافر يعبُد آلهةً شتَّى فمثَّله بعبدٍ يملكه جماعة يتافسون في خدمته ، ولا يقدرون أن يبلُغ رضاهم أجمعين ؛ والمؤمن يعبُد اللهَ وحده ، فمثَّله بعبدٍ لرجل واحد ، قد عَلِم مقاصدَه وعَرَفَ الطريق إلى رضاه ، فهو في راحة من تشاكس الخُلَطاء فيه ، فذلك قوله : ﴿ سالِماً لرجُل ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو إلاّ عبد الوارث في غير رواية القزّاز ، وأبان عن عاصم ﴿ ورجُلا سالِماً ﴾ بألف وكسر اللام وبالنصب والتنوين فيهما ؛ والمعنى : ورجُلاً خالصاً لرجُل قد سَلِم له من غير مُنازِع .

ورواه عبد الوارث إلاّ القزاز كذلك ، إلاّ أنه رفع الاسمين ، فقال : " ورجُلٌ سالِمٌ لرجُلٍ .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ سِلْمٌ لرَجُلٍ ﴾ بكسر السين ورفع الميم .

وقرأ الباقون : ﴿ ورجُلاً سَلَماً ﴾ بفتح السين واللام [وبالنصب] فيهما والتنوين .

والسَّلَم ، بفتح السين واللام ، معناه الصُّلح ، والسِّلم ، بكسرِ السين مثله .

(255/667)

قال الزجاج: من قرأ: "سِلْماً" و "سَلْماً" فهما مصدران وُصِفَ بهما، فالمعنى: ورجُلاً ذا سِلْمٍ لرجُل وذا سَلْمٍ لرجُل؛ فالمعنى: ذا سِلْم؛ والسَّلْم: الصُّلح، والسِّلْم، بكسر السين مِثْلُه.

وقال ابن قتيبة: [من قرأ] ﴿ سَلَماً لِرَجُلٍ ﴾ أراد: سلَّم إليه فهو سِلْمٌ له.

وقال أبو عبيدة: السِّلْم والسَّلم الصُّلح.

قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً ﴾ هذا استفهام معناه الإنكار، أي: لا يستويان، لأن الخالص لمالك واحدٍ يَستحقُّ من معونته وإحسانه ما لا يستحقُّه صاحب الشُّركاء المتشاكسين.

وقيل: لا يستويان في باب الرّاحة، لأنه هذا قد عرف الطريق إلى رضى مالكه، وذاك متحيّر بين الشُّركاء.

قال ثعلب: وإنما قال ﴿ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً ﴾ ولم يُقل: مَثَلَيْنِ، لأنهما جميعاً ضُربا مَثَلاً واحداً، ومِثْلُه: ﴿ وجَعَلْنا ابْن مَريمَ وأُمَّه آيةً ﴾ [المؤمنون: 50]، ولم يَقُلْ: آيتين، لأن شأنهما واحد، وتم الكلام هاهنا.

ثم قال: ﴿ الحمدُ لله ﴾ أي: له الحمد دون غيره من المعبودين ﴿ بَلْ أكثرُهم لا يَعْلَمونَ ﴾ والمراد بالأكثر الكُلّ.

ثم أخبر نبيَّه بما بعد هذا الكلام أنه يموت، وأن الذين يكذِّبونه يموتون، وأنهم يجتمعون

للخُصومة عند الله عز وجل ، المُحِقُّ والمُبطلُ ، والمظلومُ والظالمُ .

وقال ابن عمر : نزلتْ هذه الآية وما ندري ما تفسيرها ، وما نرى أنها نزلتْ إلاّ فينا وفي أهل الكتابين ، حتى قُتِل عثمان ، فعرفتُ أنها فينا نزلتْ وفي لفظ آخر : حتى وقعت الفتنة بين عليّ ومعاوية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 160 . 181 ﴾

(256/667)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ تنزيل الكتاب ﴾

أي هذا الكتاب وهو القرآن تنزيل ﴿ من الله العزيز الحكيم ﴾ أي لا من غيره ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ أي لم ننزله باطلاً لغير شيء ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي الطاعة ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ أي شهادة أن لا إله إلا الله ، وقيل لا يستحق الدين الخالص إلا الله وقيل يعني الخالص من الشرك وما سوى الخالص ليس بدين الله الذي أمر به لأن رأس العبادات الإخلاص في التوحيد واتباع الأوامر واجتناب النواهي ﴿ والذين اتخذوا من دونه ﴾ أي من دون الله ﴿ أولياء ﴾ يعني الأصنام ﴿ ما نعبدهم ﴾ أي قالوا ما نعبدهم ﴿ إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ يعني قربة وذلك أنهم كانوا إذا قيل لهم من

خلقكم وخلق السموات والأرض ومن ربكم قالوا الله فقيل لهم فما معنى عبادتكم الأصنام فقالوا ليقربونا إلى الله زلفى وتشفع لنا عنده ﴿ إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ﴾ أي من أمر الدين ﴿ إن الله لا يهدي ﴾ أي لا يرشد لدينه ﴿ من هو كاذب ﴾ أي من قال إن الآلهة تشفع له ﴿ كفار ﴾ أي باتخاذه الآلهة دون الله تعالى ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى ﴾ أي لاختار ﴿ مما يخلق ما يشاء ﴾ يعني الملائكة ثم نزه نفسه فقال تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزيهاً له عن ذلك وعما لا يليق بطهارة قلبه ﴿ وهو الواحد ﴾ أي في ملكه الذي لا شريك له ولا ولد ﴿ القهار ﴾ أي الغالب الكامل القدرة .

(257/667)

قوله تعالى : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ يعني يغشى هذا هذا ، وقيل يدخل أحدهما على الآخر وقيل ينقص من أحدهما ويزيد في الآخر فما نقص من الليل زاد في النهار وما نقص من النهار زاد في الليل ومنتهى النقصان تسع ساعات ومنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة وقيل الليل والنهار عسكران عظيمان يكرّ أحدهما على الآخر وذلك بقدرة قادر عليهما قاهر لهما ﴿ وسخر

الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ يعني إلى يوم القيامة ﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾ معناه أن خلق هذه الأشياء العظيمة يدل على كونه سبحانه وتعالى عزيزاً كامل القدرة مع أنه غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ يعني آدم ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ يعني حواء ، ولما ذكر الله تعالى قدرته في خلق السموات والأرض وتكوير الليل على النهار ثم أتبعه بذكر خلق الإنسان عقبه بذكر خلق الحيوان فقال تعالى : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم والمعز والمراد بالأزواج الذكر والأنثى من هذه الأصناف ، وفي تفسير الإنزال وجوه .

(258/667)

قيل إنه هنا بمعنى الإحداث والإنشاء وقيل إن الحيوان لا يعيش إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء وهو ينزل من السماء فكان التقدير أنزل الماء الذي تعيش به الأنعام وقيل إن أصول هذه الأصناف خلقت في الجنة ثم أنزلت إلى الأرض ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم ﴾ لما ذكر الله تعالى أصل خلق الإنسان ثم أتبعه بذكر الأنعام عقبه بذكر حالة مشتركة بين الإنسان والحيوان وهي كونها مخلوقة في بطون الأمهات وإنما قال في بطون أمهاتكم لتغليب من يعقل ولشرف الإنسان على سائر الخلق ﴿ خلقاً من بعد خلق ﴾ يعني نطفة ثم علقة

ثم مضغة ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ قال ابن عباس ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة وقيل ظلمة الصلب وظلمة الرحم وظلمة البطن ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ أي الذي خلق هذه الأشياء ربكم ﴿ له الملك ﴾ أي لا لغيره ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي لا خالق لهذا الخلق ولا معبود لهم إلا الله تعالى : ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أي عن طريق الحق بعد هذا البيان .

قوله : ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ يعني أنه تعالى ما كلف المكلفين ليجر إلى نفسه نفعاً أو ليدفع عن نفسه ضرراً وذلك لأنه تعالى غني عن الخلق على الإطلاق فيمتنع في حقه جر المنفعة ودفع المضرة ولأنه لو كان محتاجاً لكان ذلك نقصاناً والله تعالى منزه عن النقصان فثبت بما ذكرنا أنه غني عن جميع العالمين فلو كفروا وأصروا عليه فإن الله تعالى غني عنهم ثم قال الله تعالى : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ يعني أنه تعالى وإن كان لا ينفعه إيمان ولا يضره كفر إلا أنه لا يرضى لعباده الكفر قال ابن عباس لا يرضى لعباده المؤمنين بالكفر وهم الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ وإذا مس الإنسان ضر ﴾ أي بلاء وشدة ﴿ دعا ربه منيباً ﴾ أي راجعاً ﴿ إليه ﴾ مستغيثاً به ﴿ ثم إذا خوله ﴾ أي أعطاه ﴿ نعمة منه نسي ﴾ أي ترك ﴿ ما كان يدعو إليه من قبل ﴾ والمعنى نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ﴿ وجعل لله أنداداً ﴾ يعني الأصنام ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ أي ليرد عن دين الله تعالى ﴿ قل ﴾ أي لهذا الكافر ﴿ تمتع بكفرك قليلاً ﴾ أي في الدنيا إلى انقضاء أجلك ﴿ إنك من أصحاب النار ﴾ قيل نزلت في عتبة بن ربيعة وقيل في أبي حذيفة المخزومي وقيل هو عام في كل كافر ﴿ أمن هو قانت ﴾ قيل فيه حذف مجازه كمن هو غير قانت ، وقيل مجازه الذي جعل لله أنداداً أخير أم من هو قانت .

وقيل معنى الآية تمتع بكفرك إنك من أصحاب النار ويا من هو قانت أنت من أصحاب الجنة .

قال ابن عباس : نزلت في أبي بكر وعمر .

وعن ابن عمر : أنها نزلت في عثمان .

وقيل : إنها نزلت في ابن مسعود وعمار وسلمان وقيل : الآية عامة في كل قانت وهو المقيم على الطاعة ، وقال ابن عمر : القنوت قراءة القرآن وطول القيام ، وقيل : القانت القائم بما يجب عليه ﴿ آناء الليل ﴾ أي ساعات الليل أوله ووسطه وآخره ﴿ ساجداً وقائماً ﴾ أي في الصلاة وفيه دليل على ترجيح قيام الليل على النهار وأنه أفضل منه وذلك لأن الليل

أستر فيكون أبعد عن الرياء ولأن ظلمة الليل تجمع الهم وتمنع البصر عن النظر إلى الأشياء ، وإذا صار القلب فارغاً عن الاشتغال بالأحوال الخارجية رجع إلى المطلوب الأصلي وهو الخشوع في الصلاة ومعرفة من يصلى له ، وقيل لأن الليل وقت النوم ومظنَّة الراحة فيكون قيامه أشقّ على النفس فيكون الثواب فيه أكثر ﴿ يحذر ﴾ أي يخاف ﴿ الآخرة ويرجوا رحمة ربه ﴾ قيل المغفرة وقيل الجنة وفيه فائدة وهي أنه قال في مقام الخوف يحذر الآخرة فلم يضف الحذر إليه تعالى ، وقال في مقام الرجاء ويرجو رحمة ربه وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأولى أن ينسب إلى الله تعالى ويعضد .

(260/667)

هذا ما روي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل على شاب وهو في الموت فقال له كيف تجدك قال أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله تعالى ما يرجو منه وآمنه مما يخاف " أخرجه الترمذي ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون ﴾ أي ما عند الله من الثواب والعقاب ﴿ والذين لا يعلمون ﴾ ذلك ، وقيل : الذين يعلمون عمار وأصحابه .

قوله : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي مخلصاً له التوحيد أي لا أشرك به شيئاً ﴿ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ أي من هذه الأمة قيل أمره أولاً بالإخلاص وهو من عمل القلب ثم أمره ثانياً بعمل الجوارح لأن شرائع الله تعالى لا تستفاد إلا من الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو المبلغ فكان هو أول الناس شروعاً فيها فخص الله سبحانه وتعالى رسوله (صلى الله عليه وسلم) بهذا الأمر لينبه على أن غيره أحق بذلك فهو كالترغيب لغيره ﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ وذلك أن كفار قريش قالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) ما حملك على هذا الذي أتيتنا به ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وقومك فتأخذ بها فأنزل الله تعالى هذه الآيات ومعنى الآية زجر الغير عن المعاصي لأنه مع جلالة قدره وشرف طهارته ونزاهته ومنصب نبوته إذا كان خائفاً حذراً من المعاصي فغيره أولى بذلك ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ﴾ فإن قلت ما معنى التكرار في قوله ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ وفي قوله ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ﴾ .

(261/667)

قلت هذا ليس بتكرار لأن الأول الإخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى بالإتيان بالعبادة والإخلاص ، والثاني أنه إخبار بأنه أمر أن يخص الله تعالى وحده بالعبادة ولا يعبد أحداً غيره مخلصاً له دينه ، لأن قوله ﴿ أمرت أن أعبد الله ﴾ لا يفيد الحصر وقوله : ﴿ الله أعبد ﴾ يفيد الحضر والمعنى الله أعبد ولا أعبد أحداً غيره ثم أتبعه بقوله ﴿ فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ ليس أمراً بل المراد منه الزجر والتهديد والتوبيخ ثم بين كمال الزجر بقوله ﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ﴾ يعني أزواجهم وخدمهم ﴿ يوم القيامة ﴾ قال ابن عباس : وذلك أن الله تعالى جعل لكل إنسان منزلاً وأهلاً في الجنة فمن عمل بطاعة الله تعالى كان ذلك المنزل والأهل ومن عمل بمعصية الله تعالى دخل النار وكان ذلك المنزل والأهل لغيره ممن عمل بطاعة الله تعالى فخسر نفسه وأهله ومنزله وقيل خسران النفس بدخول النار وخسران الأهل بأن يفرق بينه وبين أهله ﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين لهم من فوقهم ظلل من النار ﴾ أي أطباق وسرادقات ﴿ ومن تحتهم ظلل ﴾ أي فراش ومهاد وقيل أحاطت النار بهم من جميع الجهات والجوانب .

فإن قلت الظلة ما فوق الإنسان فكيف سمي ما تحته بالظلة ، قلت فيه وجوه الأول أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر .

الثاني أن الذي تحته من النار يكون ظلة لآخر تحته في النار لأنها دركات .

الثالث أن الظلة التحتانية لما كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الإيذاء والحرارة سميت

باسمها لأجل المماثلة والمشابهة ﴿ ذلك يخوف الله به عباده ﴾ أي المؤمنين لأنهم إذا سمعوا حال الكفار في الآخرة خافوا فأخلصوا التوحيد والطاعة لله وهو قوله تعالى : ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ أي فخافون .

(262/667)

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ يعني الأوثان ﴿ أن يعبدوها وأنابوا إلى الله ﴾ أي رجعوا إلى عبادة الله تعالى بالكلية وتركوا ما كانوا عليه من عبادة غيره ﴿ لهم البشرى ﴾ أي في الدنيا وفي الآخرة أما في الدنيا فالثناء عليهم بصالح أعمالهم وعند نزول الموت وعند الوضع في القبر ، وأما في الآخرة فعند الخروج من القبر وعند الوقوف للحساب وعند جواز الصراط وعند دخول الجنة وفي الجنة ففي كل موقف من هذه المواقف تحصل لهم البشارة بنوع من الخير والراحة والروح والريحان ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول ﴾ يعني القرآن ﴿ فيتبعون أحسنه ﴾ أي أحسن ما يؤمرون به فيعملون به وهو أن الله تعالى ذكر في القرآن الانتصار من الظالم وذكر العفو عنه والعفو أحسن الأمرين وقيل ذكر العزائم والرخص فيتبعون الأحسن وهو العزائم وقيل يستمعون القرآن وغيره من الكلام فيتبعون القرآن لأنه كله حسن وقال ابن عباس لما أسلم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه جاءه عثمان

وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا فنزلت فيهم ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ وقيل نزلت هذه الآية في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون لا إله إلا الله وهم زيد بن عمرو وأبو ذر وسلمان الفارسي ﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾ أي إلى عبادته وتوحيده ﴿ وأولئك هم أولوا الألباب أفمن حق عليه كلمة العذاب ﴾ قال ابن عباس : سبق في علم الله تعالى أنه في النار وقيل كلمة العذاب قوله ﴿ لأملأن جهنم ﴾ وقيل قوله هؤلاء في النار ولا أبالي ﴿ أفأنت تنقذ من في النار ﴾ أي لا تقدر عليه ، قال ابن عباس : يريد أبا لهب وولده ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ﴾ أي منازل في الجنة رفيعة وفوقها منازل هي أرفع منها ﴿ تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾ أي وعدهم الله تلك الغرف والمنازل وعداً لا يخلفه (ق) عن أبي

سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم فقالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى

والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين " قوله الغابر أي الباقي في الأفق أي في ناحية المشرق أو المغرب .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ﴾ أي أدخل ذلك الماء ﴿ ينابيع في الأرض ﴾ أي عيوناً وركايا ومسالك ومجاري في الأرض كالعروق في الجسد قال الشعبي كل ماء في الأرض فمن السماء نزل ﴿ ثم يخرج به ﴾ أي بالماء ﴿ زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾ أي مثل أصفر وأخضر وأحمر وأبيض وقيل أصنافه مثل البر والشعير وسائر أنواع الحبوب ﴿ ثم يهيج ﴾ أي ييبس ﴿ فتراه ﴾ أي بعد خضرته ونضرته ﴿ مصفراً ثم يجعله حطاماً ﴾ أي فتاتاً متكسراً ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾

﴿ أَفمن شرح الله صدره ﴾ أي وسعه ﴿ للإسلام ﴾ وقبول الحق كمن طبع الله تعالى على قلبه فلم يهتد ﴿ فهو على نور من ربه ﴾ أي على يقين وبيان وهداية .

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن مسعود قال " تلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه قلنا يا رسول الله كيف انشراح صدره قال إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح قلنا يا رسول الله فما علامات ذلك قال الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت " ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ القسوة جمودة وصلابة تحصل في القلب .

فإن قلت كيف يقسو القلب عن ذكر الله وهو سبب لحصول النور والهداية ؟

قلت إنهم كلما تلي ذكر الله على الذين يكذبون به قست قلوبهم عن الإيمان به وقيل إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن قبول الحق فإن سماعها لذكر الله لا يزيدها إلا قسوة ، وكدورة كحر الشمس يلين الشمع ويعقد الملح فكذلك القرآن يلين قلوب المؤمنين عن سماعه ولا يزيد الكافرين إلا قسوة قال مالك بن دينار ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب ، وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ قيل : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وفي أبي بن خلف ، وقيل : في علي وحمزة وفي أبي لهب وولده وقيل في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفي أبي جهل .

قوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ يعني القرآن وكونه أحسن الحديث لوجهين أحدهما من جهة اللفظ والآخر من جهة المعنى ، أما الأول فلأن القرآن من أفصح الكلام وأجزله وأبلغه وليس هو من جنس الشعر ولا من جنس الخطب والرسائل بل هو نوع يخالف الكل في أسلوبه ، وأما الوجه الثاني وهو كون القرآن من أحسن الحديث لأجل المعنى فلأنه كتاب منزه عن التناقض والاختلاف مشتمل على أخبار الماضين وقصص الأولين وعلى أخبار

الغيوب الكثيرة وعلى الوعد والوعيد والجنة والنار ﴿ كتاباً متشابهاً ﴾ أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن ويصدق بعضه بعضاً ﴿ مثاني ﴾ أي يثني فيه ذكر الوعد والوعيد والأمر والنهي والأخبار والأحكام ﴿ تقشعر ﴾ أي تضطرب وتشمئز ﴿ منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ والمعنى تأخذهم قشعريرة وهي تغيير يحدث في جلد الإنسان عند ذكر الوعيد والوجل والخوف .

وقيل المراد من الجلود القلوب أي قلوب الذين يخشون ربهم ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ أي لذكر الله تعالى قيل إذا ذكرت آيات الوعيد والعذاب اقشعرت جلود الخائفين لله وإذا ذكرت آيات الرعد والرحمة لانت جلودهم وسكنت قلوبهم وقيل حقيقة المعنى أن جلودهم تقشعر عند الخوف وتلين عند الرجاء .

(265/667)

﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب ﴾ أي شدته ﴿ يوم القيامة ﴾ قيل يجر على وجهه في النار وقيل يرمى به في النار منكوساً فأول شيء تمسه النار وجهه ، وقيل هو الكافر يرمى به منكوساً في النار مغلولة يداه إلى عنقه وفي عنقه صخرة من كبريت مثل الجبل العظيم فتشعل النار في تلك الصخرة وهي في عنقه فحرها ووهجها على وجهه لا يطيق دفعها عنه

للأغلال التي في يديه وعنقه ومعنى الآية أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن العذاب ﴿ وقيل للظالمين ﴾ أي تقول لهم الخزنة ﴿ ذوقوا ما ﴾ أي وبال ما ﴿ كنتم تكسبون ﴾ أي في الدنيا من المعاصي ﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ أي من قبل كفار مكة كذبوا الرسل ﴿ فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ يعني وهم غافلون آمنون من العذاب ﴿ فأذاقهم الله الخزي ﴾ أي العذاب والهوان ﴿ في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ﴾ أي يتعظون ﴿ قرآناً عربياً ﴾ أي فصيحاً أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته ﴿ غير ذي عوج ﴾ أي منزهاً عن التناقض ، وقال ابن عباس : غير مختلف .

وقيل : غير ذي لبس وقيل : غير مخلوق ويروى ذلك عن مالك بن أنس وحكي عن سفيان بن عيينة عن سبعين من التابعين إن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي الكفر والتكذيب

فإن قلت ما الحكمة في تقديم التذكر في الآية الأولى على التقوى في هذه الآية .

قلت سبب تقديم التذكر أن الإنسان إذا تذكر وعرف ووقف على فحوى الشيء واختلط بمعناه واتقاه واحترز منه .

قوله تعالى :

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴾ أي متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم والشكس السيء الخلق المخالف للناس لا يرضى بالإنصاف ﴿ ورجلاً سلماً لرجل ﴾ أي خالصاً له فيه ولا منازع؛ والمعنى واضرب يا محمد لقومك مثلاً وقل لهم ما تقولون في رجل مملوك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع كل واحد يدعي أنه عبده وهم يتجاذبونه في مهن شتى فإذا عنت لهم حاجة يتدافعونه فهو متحير في أمره لا يدري أيهم يرضي بخدمته وعلى أيهم يعتمد في حاجاته وفي رجل آخر مملوك قد سلم لمالك واحد يخدمه على سبيل الإخلاص وذلك السيد يعين خادمه في حاجاته فأي هذين العبدين أحسن حالاً وأحمد شأناً ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للكافر الذي يعبد آلهة شتى والمؤمن الذي يعبد الله وحده فكان حال المؤمن الذي يعبد إلهاً واحداً أحسن وأصلح من حال الكافر الذي يعبد آلهة شتى وهو قوله تعالى : ﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ وهذا استفهام إنكار أي لا يستويان في الحال والصفة قال تعالى : ﴿ الحمد لله ﴾ أي لله الحمد كله وحده دون غيره من المعبودين ، وقيل لما ثبت أن لا إله إلا الله الواحد الأحد الحق بالدلائل الظاهرة والأمثال الباهرة قال : الحمد لله على حصول هذه البينات وظهور هذه الدلالات ﴿ بل

أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي المستحق للعبادة هو الله تعالى وحده لا شريك له .

قوله تعالى : ﴿ إنك ميت ﴾ أي ستموت ﴿ وإنهم ميتون ﴾ أي سيموتون وذلك أنهم كانوا يتربصون برسول الله (صلى الله عليه وسلم) موته فأخبر الله تعالى أن الموت يعمهم جميعاً فلا معنى للتربص وشماتة الفاني بالفاني وقيل نعى إلى نبيه نفسه وإليكم أنفسكم والمعنى أنك ميت وإنهم ميتون وإن كنتم أحياء فإنكم في عداد الموتى ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قال ابن عباس يعني المحق والمبطل والظالم والمظلوم عن عبد الله بن الزبير قال :

" لما نزلت ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ ، قال الزبير : يا رسول الله أتكون علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا قال : نعم ، فقال : إن الأمر إذاً لشديد " .

أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وقال ابن عمر رضي الله عنهما عشنا برهة من الدهر وكنا نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قلنا كيف نختصم وديننا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه

بعض بالسيف فعرفت أنها فينا نزلت وعن أبي سعيد الخدري وفي هذه الآية كنا نقول ربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيف قلنا نعم هو هذا وعن إبراهيم لما نزلت هذه الآية ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قالوا كيف نختصم ونحن إخوان فلما قتل عثمان قالوا هذه خصومتنا (خ) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " من كان عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال فليتحلله اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحملت عليه " (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " أتدرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قاتل إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن ، يقضي ما عليه أخذت من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 76.66 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله ﴾

﴿ تَنزِيلُ ﴾ مبتدأ وخبره : ﴿ مِنَ الله ﴾ أو خبره ابتداء مضمر تقديره : ها تنزيل ، و ﴿ مِنَ الله ﴾ على هذا الوجه يتعلق بتنزيل ، أو يكون خبراً بعد خبر أو خبر مبتدأ آخر محذوف ، والكتاب هنا القرآن أو السورة واختار ابن عطية أن يراد به جنس الكتب المنزلة وأما الكتاب الثاني فهو القرآن باتفاق ﴿ بالحق ﴾ يحتمل معنيين أحدهما أن يكون معناه متضمناً الحق ، والثاني أن يكون معناه بالاستحقاق والوجوب ﴿ مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ قيل : معناه من حق ومن واجبه أن يكون له الدين الخالص ، ويحتمل أن يكون معناه : إن الدين الخالص هو دين الله وهو الإسلام ، الذي شرعه لعباده ولا يقبل غيره ، معنى الخالص : الصافي من شوائب الشرك ، وقال قتادة : الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله ، وقال الحسن : هو الإسلام وهذا أرجح لعمومه .

(269/667)

﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ يريد بالأولياء الشركاء المعبودين ، ويحتمل أن يريد بالذين اتخذوا الكفار العابدين لهم ، أو الشركاء المعبودين ، والأول أظهر ؛ لأنه يحتاج على الثاني إلى حذف الضمير العائد على الذين تقديره : الذين اتخذوهم ، ويكون ضمير الفاعل في اتخذوا عائداً على غير مذكور ، وارتفاع الذين على الوجهين بالابتداء وخبره إما قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أو المحذوف المقدر قبل قوله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ لأن تقديره : يقولون ما نعبدهم . والأول أرجح ؛ لأ ، المعنى به أكمل ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى ﴾ هذه الجملة في موضع معمول قول محذوف ، والقول في موضع الحال أو في موضع بدل من صلة الذين ، وقرأ ابن مسعود : قالوا ما نعبدهم بإظهار القول أي يقول الكفار : ما نعبد هؤلاء الآلهة إلا ليقربونا إلى الله ويشفعوا لنا عنده ، ويعني بذلك الكفار الذين عبدوا الملائكة ، أو الذين عبدوا الأصنام ، أو الذين عبدوا عيسى أو عزير ، فإن جميعهم قالوا هذه المقالة . معنى زلفى : قربى فهو مصدر من يقربونا ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ إشارة إلى كذبهم في قولهم : ليقربونا إلى الله وقوله : لا يهدي في تأويله وجهان : أحدهما لا يهديه في حال كفره والثاني أن ذلك مختصّ بمن قضى عليه بالموت على الكفر ، أعاذنا الله من ذلك . وهذا تأويل : لا يهدي القوم الظالمين والكافرين حيثما وقع .

﴿ لَّوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ الولد يكون على وجهين : أحدهما بالولادة الحقيقية وهذا محال على الله تعالى ؛ لا يجوز في العقل والثاني التبني بمعنى الاختصاص والتقريب ، كما يتخذ الإنسان ولد غيره ولداً لإفراط محبته له ، وذلك ممتنع على الله بإخبار الشرع فإن قوله : ﴿ وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [مريم : 92] يعم نفي الوجهين ، فمعنى الآية على ما أشار إليه ابن عطية : لو أراد الله أن يتخذ ولداً على وجه التبني لاصطفى لذلك مما يخلق من موجوداته ومخلوقاته ، ولكنه لم يرد ذلك ولا فعله ، وقال الزمخشري : معناه لو أراد الله اتخاذ الولد لامتنع ذلك ، ولكنه يصطفي من عباده من يشاء على وجه الاختصاص والتقريب ، لا على وجه اتخاذه ولداً ، فاصطفى الملائكة وشرفهم بالتقريب ، فحسب الكفار أنه أولاده ، ثم زادوا على ذلك أن جعلوهم إناثاً ، فأفرطوا في الكفر والكذب على الله وملائكته .

﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الواحد القهار ﴾ نزه تعالى نفسه من اتخاذ الولد ، ثم وصف نفسه بالواحد ؛ لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد لأنه لو كان له ولد لكان من جنسه ، ولا جنس له لأنه واحد ، ووصف نفسه بالقهار ؛ ليدل على نفي الشركاء والأنداد ، لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى ، فكيف يكون شريكاً له ؟ ثم أتبع ذلك بما ذكره من خلقه السموات والأرض وما بينهما ، ليدل على وحدانيته وقدرته وعظمته .

﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار ﴾ التكوير اللف والليّ ، ومنه : كوّر العمامة التي يلتوي بعضها على بعض وهو هنا استعارة ، ومعناه على ما قال ابن عطية : يعيد من هذا على هذا ، فكأن الذي يطيل من النهار أو الليل يصير منه على الآخر جزءاً فيستره ، وكأن الذي ينقص يدخل في الذي يطول فيستتر فيه . ويحتمل أن يكون المعنى أن كل واحد منهما يغلب الآخر إذا طرأ عليه ، فشبه في ستره له بثوب يلف على الآخر ﴿ لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني يوم القيامة .

﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ يعني حواء خلقها من ضلع آدم ، فإن قيل : كيف عطف قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ ﴾ على خلقكم بثم التي تقتضي الترتيب المهلة ، ولا شك أن خلقة حواء كانت قبل خلقة بني آدم ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول وهو المختار أن العطف إنما هو على معنى قوله : ﴿ وَاحِدَةٍ ﴾ لا على خلقكم كأنه قال : خلقكم من نفس واحدة ثم خلق منها زوجها بعد وحدتها الثاني : أن ثم لترتيب الأخبار لا لترتيب الوجود . الثالث : أنه يعني بقوله : ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ إخراج بني آدم من صلب أبيهم كالذر وذلك كان قبل خلقه حواء .

﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ يعني المذكورة في الأنعام من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن البقر اثنين وسماها أزواجاً لأن الذكر زوج الأنثى والأنثى زوج الذكر . وأما ﴿ أَنزَلَ ﴾ ففيه ثلاثة أوجه : الأول أن الله خلق أول هذه الأزواج في السماء ثم أنزلها . الثاني أن معنى أنزل قضى وقسم ، فالإنزال عبارة عن نزول أمره وقضائه . الثالث أنه أنزل المطر الذي ينبت به النبات الذي تعيش منه هذه الأنعام فعبّر بإنزالها عن إنزال أرزاقها وهذا بعيد ﴿ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ يعني أن الإنسان يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى أن يتم خلقه ، ثم ينفخ فيه الروح ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ﴾ هي البطن والرحم والمشيمة ، وقيل : صلب الأب والرحم والمشيمة ، والأول أرجح لقوله : ﴿ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ولم يذكر الصلب .

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ أي لا يضره كفركم .

﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ تأويل الأشعرية هذه الآية على وجهين : أحدها أن الرضا بمعنى الإرادة ، ويعني بعباده من قضى الله له الإيمان والوفاة عليه . فهو كقوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر : 42 ، الإسراء : 65] ، والآخر أن الرضا غير الإرادة ، والعبادة على هذا العموم أي لا يرضى الكفر لأحد من البشر ، وإن كان قد

أراد أن يقع من بعضهم فهو لم يرضه ديناً ولا شرعاً . وأراده وقوعاً ووجوداً أم المعتزلة فإن الرضا عندهم بمعنى الإرادة والعباد على هذا على العموم جرياً على قاعدتهم في القدر وأفعال العباد ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ هذا عموم ، والشكر الحقيقي يتضمن الإيمان ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ ذكر في الإسراء .

(273/667)

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسانَ ضُرٌّ ﴾ الآية : يراد بالإنسان هنا الكافر بدليل قوله : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ ، والقصد بهذه الآية عتاب وإقامة حجة ، فالعتاب على الكفر وترك دعاء الله ، وإقامة الحجة على الإنسان بدعائه إلى الله ، في الشدائد ، فإن قيل : لم قال هنا ﴿ وَإِذَا مَسَّ ﴾ بالواو وقال بعدها ﴿ فَإِذَا مَسَّ ﴾ [الزمر : 49] بالفاء ؟ فالجواب : أن الذي بالفاء مسبب عن قوله : ﴿ اشمأزت قُلُوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الزمر : 45] فجاء بفاء السببية قاله الزمخشري وهو بعيد ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ خوله أعطاه والنعمة هنا يحتمل أن يريد بها كشف الضر المذكور ، أو أي نعمة كانت ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يدعوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ يحتمل أن تكون ما مصدرية أي نسي دعاءه ، أو تكون بمعنى الذي والمراد بها الله تعالى .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾ بتخفيف الميم على إدخال همزة الاستفهام على من وقيل : هي همزة النداء والاول أظهر ، وقرئ بتشديدها على إدخال أم على من ومن مبتدأ وخبره محذوف وهو المعادل وتقديره أم من هو قانت كغيره ، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه وهو ما ذكر قبله وما ذكر بعده ، وهو وقوله : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ ﴾ والقنوت هنا بمعنى الطاعة والصلاة بالليل ، وآناء الليل ساعاته .

﴿ قُلْ يا عباد الذين آمَنُواْ ﴾ الآية نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة ، ومعناها التأنيس لهم والتنشيط على الهجرة ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ يحتمل أن يتعلق في هذه الدنيا بأحسنوا ، والمعنى الذين أحسنوا في الدنيا لهم الآخرة ، أو يتعلق بحسنه ، والحسنة على هذا حسن الحال والعافية في الدنيا والأول أرجح ﴿ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ ﴾ يراد البلاد المجاورة للأرض التي هاجروا منها ، والمقصود من ذلك الحض على الهجرة .

(274/667)

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ هذا يحتمل وجهين أحدهما أن الصابر يوفي أجره ولا يحاسب على أعماله ، فهو من الذين يدخلون الجنة بغير حساب الثاني أن

أجر الصابرين بغير حصر بل أكثر من أن يحصر بعدد أو وزن وهذا قول الجمهور .

﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين ﴾ اللام هنا يجوز أن تكون زائدة أو للتعليل ويكون المفعول على هذا محذوف ، فإن قيل : كيف عطف أمرت على أمرت والمعنى واحد ؟ فالجواب أن الأول أمر بالعبادة والإخلاص والثاني أمر بالسبق إلى الإسلام فهما معنيان اثنيان وكذلك قوله : ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ ﴾ ليس تكراراً لقوله ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله ﴾ ، لأن الأول إخبار بأنه مأمور بالعبادة الثاني إخبار بإنه يفعل العبادة . وقدم اسم الله تعالى للحصر واختصاص العباده به وحده ﴿ فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ ﴾ هذا تهديد ومبالغة في الخذلان والتخلية لهم على ما هم عليه ﴿ ظُلَلٌ ﴾ جمع ظلة بالضم ، وهو ما غشي من فوق كالسقف ، فقوله ﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ بيّن وأما ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ﴾ فسماه ظلة لأنه سقف لمن تحتهم ؛ فإن جهنم طبقات وقيل : سماه ظله لأنه يلتهب ويصعد من أسفلهم إلى فوقهم .

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ قيل : إنها نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير ، إذ دعاهم أبو بكر الصديق إلى الإيمان فآمنوا ، وقيل : نزلت في أبي ذر وسلمان ، وهذا ضعيف ، لأن سلمان إنما أسلم بالمدينة والآية مكية والأظهر أنها عامة ، والطاغوت كل ما عبد من دون الله ، وقيل : الشياطين .

﴿ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ قيل : يستمعون القول على العموم فيتبعون القرآن ، لأنه أحسن الكلام وقيل : يستمعون القرآن فيتبعون بأعمالهم أحسنه من العفو الذي هو أحسن من الانتصار ، وشبه ذلك وقيل : هو الذي يستمع حديثاً فيه حسن وقبيح فيتحدّث بالحسن ويكف عما سواه ، وهذا قول ابن عباس ، وهو الأظهر وقال ابن عطية : هو علم في جميع الأقوال ؛ والقصد الثناء على هؤلاء ببصائر ونظر سديد يفرقون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ ، فيتبعون الأحسن من ذلك ، وقال الزمخشري مثل هذا يكون الكلام جملة واحدة تقديره : أفمن حق عليه كلمة العذاب أأنت تنقذه ، فموضع من في النار موضع المضمر ، والهمزة في قوله ﴿ أَفَأَنتَ ﴾ هي الهمزة التي في قوله : ﴿ أَفَمَنْ ﴾ وهي همزة الإنكار كررّت للتأكيد ، والثاني أن يكون التقدير أفمن حق عليه العذاب تتأسف عليه ، فحذف الخبر ثم استأنف قوله : ﴿ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النار ﴾ ؟ وعلى هذا يوقف على العذاب ، والأول أرجح لعدم الإضمار .

﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض ﴾ معنى سلكه أدخله وأجراه ، والينابيع : جمع ينبوع وهو العين ، وفي هذا دليل على أن ماء العيون من المطر ﴿ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ أي أصنافه كالقمح والأرز والفول وغير ذلك ، وقيل : ألوانه الخضرة والحمرة وشبه ذلك ، وفي الوجهين دليل على الفاعل المختار وَرَدٌّ على الطبائع [الملحدين] .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ تقديره : أفمن شرح الله صدره كالقاسي قلبه ، وروي أن الذي شرح الله صدره للإسلام عليّ بن أبي طالب وحمزة ، والمراد بالقاسية قلوبهم أبو لهب وأولاده ، واللفظ أعم من ذلك ﴿ مِّن ذِكْرِ اللهِ ﴾ قال الزمخشري : مِنْ هنا سببية أي قلوبهم قاسية من أجل ذكر الله ، وهذا المعنى بعيد ، ويحتمل عندي أن يكون قاسية تضمن معنى خالية ، فلذلك تعدى بمن ، أن قلوبهم خالية من ذكر الله .

(276/667)

﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ يعني القرآن ﴿ كِتَاباً ﴾ بدل من أحسن أو حال منه ﴿ مُّتَشَابِهاً ﴾ معناه هنا أنه يشبه بعضه بعضاً في الفصاحة والنطق بالحق وأنه ليس فيه تناقض ولا اختلاف ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ جمع مثان أي تثنى فيه القصص وتكرر ، ويحتمل أن يكون مشتقاً من الثناء ، لأنه يثنى فيه على الله ، فإن قيل : مثاني جمع فكيف وصف به المفرد ؟ فالجواب : أن القرآن ينقسم فيه إلى سور وآيات كثيرة فهو جمع بهذا الاعتبار ، ويجوز أن يكون كقولهم : برمة أعشار ، وثوب أخلاق ، أو يكون تمييزاً من متشابهاً كقولك : حُسْن شمائل ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ﴾ إن قيل : كيف تعدّى تلين بإلى ؟ فالجواب أنه تضمن معنى فعل تعدى بإلى كأنه قال تميل أو تسكن أو تطمئن قلوبهم إلى ذكر

الله . فإن قيل : لم ذكر الجلود أولاً وحدها ثم ذكر القلوب بعد ذلك معها ؟ فالجواب : أنه لما قال أولاً تقشعر ذكر الجلود وحدها ، لأن القشعريرة من وصف الجلود لا من وصف غيرها ، ولما قال ثانياً تلين ذكر الجلود والقلوب ، لأن اللين توصف به الجلود والقلوب : أما لين القلوب فهو ضدّ قسوتها ، وأما لين الجلود فهو ضد قشعريرتها فاقشعرت أولاً من الخوف ، ثم لانت بالرجاء ﴿ ذَلِكَ هُدَى الله ﴾ يحتمل أن تكون الإشارة إلى القرآن أو إلى الخشية واقشعرار الجلود .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سواء العذاب ﴾ الخبر محذوف كما تقدم في نظائره تقديره : أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن من العذاب ومعنى يتقي يلقى النار بوجهه ليكفها عن نفسه ، وذلك أن الإنسان إذا لقي شيئاً من المخاوف استقبله بيديه ، وأيدي هؤلاء مغلولة ، فاتقوا النار بوجوههم ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي ذوقوا جزاء ما كنتم تكسبون من الكفر والعصيان .

(277/667)

﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ نصب على الحال أو بفعل مضمر على المدح ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ أي ليس فيه تضادّ ولا اختلاف ، ولا عيب من العيوب التي في كلام البشر ، وقيل : معناه : غير

مخلوق وقيل : غير ذي لحن ، فإن قيل : لم قال ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ ولم يقل غير معوج ؟ فالجواب : أن قوله ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ أبلغ في نفي العوج عنه كأنه قال : ليس فيه شيء من العوج أصلاً .

﴿ رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ أي متنازعون متظالمون ، وقيل : متشاجرون وأصله من قولك : رجل شكس إذا كان ضيق الصدر ، والمعنى ضرب هذا المثل لبيان حال من يشرك بالله ومن يوحده ، فشبه المشرك بمملوك بين جماعة من الشركاء يتنازعون فيه ، والمملوك بينهم في أسوء حال ، وشبه من يوحد الله بمملوك الرجل واحد ، فمعنى قوله ﴿ سَلَماً لِّرَجُلٍ ﴾ أي خالصاً له وقرئ سلماً بغير ألف والمعنى واحد .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ في هذا وعد للنبي صلى الله عليه وسلم ، ووعيد للكفار ، فإنهم إذا ماتوا جميعاً وصاروا إلى الله فاز من كان على الحق وهلك من كان على الباطل ، وفيه أيضاً إخبار بأنه صلى الله عليه وسلم سيموت ، لئلا يختلف الناس في موته كما اختلفت الأمم في غيره . وقد جاء أنه لما مات صلى الله عليه وسلم أنكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه موته حتى احتج عليه أبو بكر الصديق بهذه الآية فرجع إليها .

﴿ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قيل : يعني الاختصام في الدماء ، وقيل : في الحقوق والأظهر أنه اختصام النبي صلى الله عليه وسلم مع الكفار في تكذيبهم له ، فيكون من تمام ما قبله . ويحتمل أن

يكون على العموم في اختصام الخلائق فيما بينهم من المظالم وغيرها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 4 صـ 190.195 ﴾

(278/667)

وقال النسفى :

﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾

أي القرآن مبتدأ خبره ﴿ مِنَ الله ﴾ أي نزل من الله ، أو خبر مبتدأ محذوف والجار صلة التنزيل ، أو غير صلة بل هو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدإ محذوف تقديره هذا تنزيل الكتاب هذا من الله ﴿ العزيز ﴾ في سلطانه ﴿ الحكيم ﴾ في تدبيره ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق ﴾ هذا ليس بتكرار لأن الأول كالعنوان للكتاب والثاني لبيان ما في الكتاب ﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً ﴾ حال ﴿ لَّهُ الدين ﴾ أي ممحضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر ، ف ﴿ الدين ﴾ منصوب ب ﴿ مُخْلِصاً ﴾ وقرىء ﴿ الدين ﴾ بالرفع وحق من رفعه أن يقرأ ﴿ مُخْلِصاً ﴾ ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ أي هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة كدر لاطلاعه على الغيوب والأسرار .

وعن قتادة : الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله .

وعن الحسن : الإسلام .

﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ أي آلهة وهو مبتدأ محذوف الخبر تقديره : والذين عبدوا الأصنام يقولون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ مصدر أي تقريباً ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ بين المسلمين والمشركين ﴿ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ قيل : كان المسلمون إذا قالوا لهم من خلق السماوات والأرض ؟ قالوا : الله ، فإذا قالوا لهم : فما لكم تعبدون الأصنام ؟ قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

(279/667)

والمعنى أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي لا يهدي من هو في علمه أنه يختار الكفر يعني لا يوفقه للهدى ولا يعينه وقت اختياره الكفر ولكنه يخذله ، وكذبهم قولهم في بعض من اتخذوا من دون الله أولياء بنات الله ، ولذا عقبه محتجاً عليهم بقوله ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي لو جاز اتخاذ الولد على ما تظنون لاختار مما يخلق ما يشاء لا ما تختارون أنتم وتشاءون ﴿ سبحانه ﴾ نزه ذاته عن أن يكون له أخذ ما نسبوا إليه من الأولياء والأولاد

، ودل على ذلك بقوله ﴿ هُوَ الله الواحد القهار ﴾ يعني أنه واحد متبريء عن انضمام الأعداد متعال عن التجزؤ والولاد ، قهار غلاب لكل شيء ومن الأشياء آلهتهم فأنى يكون له أولياء وشركاء ؟ .

ثم دل بخلق السماوات والأرض وتكوير كل واحد من الملوين على الآخر وتسخير النيرين وجريهما لأجل مسمى ، وبث الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة ، وخلق الأنعام على أنه واحد لا يشارك قهار لا يغالب بقوله ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار ويُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ والتكوير اللف واللي يقال : كار العمامة على رأسه وكورها ، والمعنى أن كل واحد منهما يغيّب الآخر إذا طرأ عليه ، فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيّبه عن مطامح الأبصار ، أو أن هذا يكر على هذا كروراً متتابعاً ، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض ﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إِلاَّ هُوَ العزيز ﴾ الغالب القادر على عقاب من لم يعتبر بتسخير الشمس والقمر فلم يؤمن بمسخرهما ﴿ الغفار ﴾ لمن فكر واعتبر فآمن بمدبرهما .

﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ واحدة ﴾ أي آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أي حواء من قُصَيراه .

قيل : أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ﴾ أي جعل .

عن الحسن : أو خلقها في الجنة مع آدم عليه السلام ثم أنزلها ، أو لأنها لا تعيش إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء وقد أنزل الماء فكأنه أنزلها ﴿ ثمانية أزواج ﴾ ذكراً وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز كما بين في سورة الأنعام ، والزوج اسم لواحد معه آخر فإذا انفرد فهو فرد ووتر ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أمهاتكم خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم إلى تمام الخلق ﴿ فِى ظلمات ثلاث ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة أو ظلمة الصلب والبطن والرحم ﴿ ذلكم ﴾ الذي هذه مفعولاته هو ﴿ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك لا إله إِلاَّ هُوَ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ فكيف يعدل بكم من عبادته إلى عبادة غيره .

ثم بين أنه غني عنهم بقوله ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ الله غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾ عن إيمانكم وأنتم محتاجون إليه لتضرركم بالكفر وانتفاعكم بالإيمان ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ لأن الكفر ليس برضا الله تعالى وإن كان بإرادته ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ ﴾ فتؤمنوا ﴿ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أي يرض الشكر لكم لأنه سبب فوزكم فيثيبكم عليه الجنة ﴿ يرضه ﴾ بضم الهاء والإشباع : مكي وعلي : ﴿ يرضه ﴾ بضم الهاء بدون الإشباع : نافع وهشام وعاصم غير يحيى وحماد .

وغيرهم ﴿ يرضه ﴾ ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ أي لا يؤاخذ أحد بذنب آخر ﴿ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ ﴾ إلى جزاء ربكم رجوعكم ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيخبركم بأعمالكم ويجازيكم عليها ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ بخفيات القلوب ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسان ﴾ هو أبو جهل أو كل كافر ﴿ ضُرٌّ ﴾ بلاء وشدة والمس في الأعراض مجاز ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ راجعاً إلى الله بالدعاء لا يدعو غيره ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ ﴾ أعطاه ﴿ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ من الله عز وجل ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي نسى ربه الذي كان يتضرع إليه .

و"ما" بمعنى "من" كقوله

﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والانثى ﴾ [الليل : 3] أو نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ أمثالاً ﴿ لِيُضِلَّ ﴾ ﴿ لِيَضل ﴾ مكي وأبو عمرو ويعقوب ﴿ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي الإسلام ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ تَمَتَّعَ ﴾ أمر تهديد ﴿ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ أي في الدنيا ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصحاب النار ﴾ من أهلها .

﴿ أَمَّنْ ﴾ قرأ بالتخفيف مكي ونافع وحمزة على إدخال همزة الاستفهام على "من" ،

وبالتشديد غيرهم على إدخال "أم" عليه و "من" مبتدأ خبره محذوف تقديره "أمن" ﴿ هُوَ قَانِتٌ ﴾ كغيره أي أمن هو مطيع كمن هو عاص والقانت المطيع لله ؟ وإنما حذف لدلالة الكلام عليه وهو جرى ذكر الكافر قبله ، وقوله بعده ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ءَانَاءَ الليل ﴾ ساعاته ﴿ ساجدا وَقَائِماً ﴾ حالان من الضمير في ﴿ قَانِتٌ ﴾ ﴿ يَحْذَرُ الآخرة ﴾ أي عذاب الآخرة ﴿ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أي الجنة ، ودلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء ، يرجو رحمته لا عمله ويحذر عقابه لتقصيره في عمله .

(282/667)

ثم الرجاء إذا جاوز حده يكون أمناً ، والخوف إذا جاوز حده يكون إياساً ، وقد قال الله تعالى ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ [الأعراف : 99] وقال ﴿ إنه لا ييأس من من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [يوسف : 87] ، فيجب أن لا يجاوز أحدهما حده ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي يعلمون ويعملون به كأنه جعل من لا يعمل غير عالم ، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقتنون ويفتّنون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة حيث جعل القانتين هم العلماء ، أو أريد به التشبيه أي

كما لا يستوي العالم والجاهل كذلك لا يستوي المطيع والعاصي ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلباب ﴾ جمع لب أي إنما يتعظ بوعظ الله أولو العقول .

﴿ قُلْ يا عباد الذين ءَامَنُواْ ﴾ بلا ياء عند الأكثر ﴿ اتقوا رَبَّكُمُ ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ أي أطاعوا الله في الدنيا .

و"في" يتعلق ب ﴿ أَحْسَنُواْ ﴾ لا ب ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ ، معناه الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حسنة في الآخرة وهي دخول الجنة أي حسنة لا توصف .

وقد علقه السدي ب ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ ففسر الحسنة بالصحة والعافية .

ومعنى ﴿ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ ﴾ أي لا عذر للمفرطين في الإحسان البتة حتى إن اعتلوا بأنهم لا يتمكنون في أوطانهم من التوفر على الإحسان .

قيل لهم : فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة ، فتحولوا إلى بلاد أخرى .

واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون ﴾ على مفارقة أوطانهم وعشائرهم وعلى غيرها من تجرع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله وازدياد الخير ﴿ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما : لا يهتدي إليه حساب الحسّاب ولا يعرف .

وهو حال من الأجر أي موفراً ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ ﴾ بأن أعبد الله ﴿ مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ أي أمرت بإخلاص الدين ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين ﴾ وأمرت بذلك لأجل أن أكون أول المسلمين أي مقدمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة ، والمعنى أن الإخلاص له السُّبقة في الدين فمن أخلص كان سابقاً ، فالأول أمر بالعبادة مع الإخلاص ، والثاني بالسبق فلاختلاف جهتيهما نزلاً منزلة المختلفين ، فصح عطف أحدهما على الآخر .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لمن دعاك بالرجوع إلى دين آبائك ، وذلك أن كفار قريش قالوا له عليه السلام : ألا تنظر إلى أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى فنزلت رداً عليهم ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ﴾ وهذه الآية إخبار بأنه يخص الله وحده بعبادته مخلصاً له دينه دون غيره ، والأولى إخبار بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فالكلام أولاً واقع في نفس الفعل وإثباته ، وثانياً فيما يفعل الفعل لأجله ولذلك رتب عليه قوله :

﴿ فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ ﴾ وهذا أمر تهديد .

وقيل له عليه السلام : إن خالفت دين آبائك فقد خسرت فنزلت ﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرين ﴾ أي الكاملين في الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ بإهلاكها في النار ﴿ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ أي وخسروا أهليهم ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ لأنهم أضلوهم فصاروا إلى النار ، ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله : ﴿ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخسران المبين ﴾ حيث صدر الجملة بحرف التنبيه ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر وعرف الخسران ونعته بالمبين ، وذلك لأنهم استبدلوا بالجنة ناراً وبالدرجات دركات ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ أطباق ﴿ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ أطباق من النار وهي ظلل لآخرين أي النار محيطة بهم ﴿ ذلك ﴾ الذي وصف من العذاب أو ذلك الظلل ﴿ يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ ﴾ ليؤمنوا به ويجتنبوا مناهيه ﴿ ياعباد فاتقون ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي خوّفهم بالنار .

(285/667)

ثم حذرهم نفسه ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ الشياطين "فعلوت" من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين ، أطلقت على الشيطان أو الشياطين لكون الطاغوت مصدراً ، وفيها مبالغات وهي التسمية بالمصدر كأن عين

الشيطان طغيان وأن البناء بناء مبالغة ، فإن الرحموت الرحمة الواسعة ، والملكوت الملك المبسوط والقلب وهو للاختصاص ، إذ لا تطلق على غير الشيطان والمراد بها ههنا الجمع وقريء ﴿ الطواغيت ﴾ ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ بدل الاشتمال من الطاغوت أي عبادتها ﴿ وَأَنَابُواْ ﴾ رجعوا ﴿ إِلَى الله لَهُمُ البشرى ﴾ هي البشارة بالثواب تتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين وحين يحشرون ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ هم الذين اجتنبوا أنابوا ، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة فوضع الظاهر موضع الضمير أراد أن يكونوا نقاداً في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب ، وكذا المباح والندب حراصاً على ما هو أقرب عند الله وأكثر ثواباً ، أو يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن ، أو يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو ونحو ذلك ، أو يستمعون الحديث مع القوم فيه محاسن ومساوىء فيحدث بأحسن ما سمع ويكف عما سواه ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَاهُمُ الله وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الألباب ﴾ أي المنتفعون بعقولهم .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى النار ﴾ أصل الكلام أمن حق عليه كلمة العذاب أي وجب ﴿ أَفَأَنتَ ﴾ جملة شرطية دخلت عليها همزة الانكار والفاء فاء الجزاء ، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف تقديره : أأنت مالك أمرهم ؟

فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ، والهمزة الثانية هي الأولى كررت لتوكيد معنى الانكار .

(286/667)

ووضع ﴿ مَن فِى النار ﴾ موضع الضمير أي تنقذه ، فالآية على هذا جملة واحدة ، أو معناه : أفمن حق عليه كلمة العذاب ينجو منه ، أفأنت تنقذه أي لا يقدر أحد أن ينقذ من أضله الله وسبق في علمه أنه من أهل النار ﴿ لكن الذين اتقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ أي لهم منازل في الجنة رفيعة وفوقها منازل أرفع منها يعني للكفار ظلل من النار وللمتقين غرف ﴿ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ أي من تحت منازلها ﴿ وَعْدَ الله لاَ يُخْلِفُ الله الميعاد ﴾ وعد الله مصدر مؤكد ، لأن قوله ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ ﴾ في معنى وعدهم الله ذلك .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً ﴾ يعني المطر .

وقيل : كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله ﴿ فَسَلَكَهُ ﴾ فادخله ﴿ يَنَابِيعَ فِى الأرض ﴾ عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد .

و﴿ يَنَابِيعَ ﴾ نصب على الحال أو على الظرف و ﴿ فِى الأرض ﴾ صفة ل ﴿ يَنَابِيعَ ﴾ .

(287/667)

﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ ﴾ بالماء ﴿ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض أو أصنافه من بن وشعير وسمسم وغير ذلك ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ يجف ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ بعد نضارته وحسنه ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حطاما ﴾ فتاتاً متكسراً ، فالحطام ما تفتت وتكسر من النبت وغيره ﴿ إِنَّ فِى ذلك ﴾ في إنزال الماء وإخراج الزرع ﴿ لذكرى لأُوْلِى الألباب ﴾ لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لا بد من صانع حكيم ، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير لا عن إهمال وتعطيل ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ ﴾ أي وسع صدره ﴿ للإسلام ﴾ فاهتدى ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشرح فقال : " "إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح" فقيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت " ﴿ فَهُوَ على نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ بيان وبصيرة ، والمعنى : أفمن شرح الله صدره فاهتدى كمن طبع على قلبه فقسا قلبه ؟ فحذف لأن قوله ﴿ فَوَيْلٌ للقاسية قُلُوبُهُمْ ﴾ يدل عليه ﴿ مِّن ذِكْرِ الله ﴾ أي من ترك ذكر

الله أو من أجل ذكر الله أي إذا ذكر الله عندهم أو آياته ازدادت قلوبهم قساوة كقوله ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : 125] ﴿ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ غواية ظاهرة .

﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ في إيقاع اسم ﴿ الله ﴾ مبتدأ وبناء ﴿ نَزَّلَ ﴾ عليه تفخيم لأحسن الحديث ﴿ كتابا ﴾ بدل من ﴿ أَحْسَنَ الحديث ﴾ أو حال منه ﴿ متشابها ﴾ يشبه بعضه بعضاً في الصدق والبيان والوعظ والحكمة والإعجاز وغير ذلك ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ نعت ﴿ كتابا ﴾ جمع مثنى بمعنى مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه ، فهو بيان لكونه متشابهاً لأن القصص المكررة وغيرها لا تكون إلا متشابهة .

وقيل : لأنه يثنى في التلاوة فلا يمل .

(288/667)

وإنما جاز وصف الواحد بالجمع لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل ، وتفاصيل الشيء هي جملته ، ألا تراك تقول : القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات ؟ فكذلك تقول : أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات .

أو منصوب على التمييز من ﴿ متشابها ﴾ كما تقول : رأيت رجلاً حسناً شمائل ، والمعنى متشابهة مثانية ﴿ تَقْشَعِرُّ ﴾ تضطرب وتتحرك ﴿ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ يقال : اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضاً شديداً .

والمعنى أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم ، وفي الحديث " إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتّت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها " ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ أي إذا ذكرت آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة .

وعُدي ب "إلى" لتضمنه معنى فعل متعد ب "إلى" كأنه قيل : اطمأنت إلى ذكر الله لينة غير مقبضة .

واقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة ، لأن رحمته سبقت غضبه فلأصالة رحمته إذا ذكر الله لم يخطر بالبال إلا كونه رءوفاً رحيماً .

وذكرت الجلود وحدها أولاً ثم قرنت بها القلوب ثانياً لأن محل الخشية القلب فكان ذكرها يتضمن ذكر القلوب ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الكتاب وهو ﴿ هُدَى الله يَهْدِى بِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ من عباده وهو من علم منهم اختيار الاهتداء ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ يخلق الضلالة فيه ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ إلى الحق .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوءَ العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ كمن أمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف في نظائره وسوء العذاب شدته ، ومعناه أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده وطلب أن يقي بها وجهه لأنه أعز أعضائه عليه ، والذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه ﴿ وَقِيلَ لِلظَّلِمِينَ ﴾ أي تقول لهم خزنة النار ﴿ ذُوقُواْ ﴾ وبال ﴿ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي كسبكم ﴿ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل قريش ﴿ فأتاهم العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ من الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها بينا هم آمنون إذ فوجئوا من مأمنهم ﴿ فَأَذَاقَهُمُ الله الخزى ﴾ الذل والصغار كالمسخ والخسف والقتل والجلاء ونحو ذلك من عذاب الله ﴿ فِى الحياة الدنيا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ من عذاب الدنيا ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ لآمنوا .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ليتعظوا ﴿ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ حال مؤكدة كما تقول : جاءني زيد رجلاً صالحاً وإنساناً عاقلاً ، فتذكر رجلاً أو إنساناً توكيداً ، أو نصب على المدح ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف .

ولم يقل "مستقيماً" للإشعار بأن لا يكون فيه عوج قط .

وقيل : المراد بالعوج الشك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر .

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً ﴾ بدل ﴿ فِيهِ شُرَكَآءُ متشاكسون ﴾ متنازعون ومختلفون

﴿ وَرَجُلاً سَلَماً ﴾ مصدر سلم والمعنى ذا سلامة ﴿ لِرَجُلٍ ﴾ أي ذا خلوص له من الشركة .

﴿ سالماً ﴾ مكي وأبو عمرو أي خالصاً له ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ صفة وهو تمييز ، والمعنى هل تستوي صفتاهما وحالاهما .

(290/667)

وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرىء ﴿ مثلين ﴾ .

﴿ الحمد للَّهِ ﴾ الذي لا إله إلا هو ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيشركون به غيره .

مثل الكافر ومعبوديه بعبد اشترك فيه شركاء بينهم تنازع واختلاف ، وكل واحد منهم يدعي أنه عبده فهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهن شتى وهو متحير لا يدري أيهم يرضي بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد في حاجاته ، وممن يطلب رزقه ، وممن يلتمس رفقه ، فهمه شعاع وقلبه أوزاع ، والمؤمن بعبد له سيد واحد فهّمه واحد وقلبه مجتمع ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ أي ستموت ﴿ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ وبالتخفيف من حل به الموت ، قال الخليل أنشد أبو عمرو :

وتسألني تفسير ميت وميّت . . .

فدونك قد فسرت إن كنت تعقلُ

فمن كان ذا روح فذلك ميت . . .

وما الميت إلا من إلى القبر يحملُ

كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته فأخبر أن الموت يعمهم فلا معنى للتربص وشماتة الفاني بالفاني ، وعن قتادة : نعى إلى نبيه نفسه ونعى إليكم أنفسكم أي إنك وإياهم في عداد الموتى لأن ما هو كائن فكأن قد كان .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ أي إنك وإياهم فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب ﴿ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا واجتهدت في الدعوة ، فلجّوا في العناد ويعتذرون بما لا طائل تحته ، تقول الأتباع : أطعنا ساداتنا وكبراءنا ، وتقول السادات : أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون .

قال الصحابة رضى الله عنهم أجمعين : ما خصومتنا ونحن إخوان ! فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا : هذه خصومتنا .

عن أبي العالية : نزلت في أهل القبلة وذلك في الدماء والمظالم التي بينهم .

والوجه هو الأوّل ألا ترى إلى قوله ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى الله ﴾ وقوله ﴿ والذى

جَاء بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ وما هو إلا بيان وتفسير للذين تكون بينهم الخصومة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 49 . 57 ﴾

(291/667)

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾

خبر محذوف مثل هذا أو مبتدأ خبره . ﴿ مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾ وهو على الأول صلة ل ﴿ تَنزِيلَ ﴾ ، أو خبر ثان أو حال عمل فيها الإشارة أو ال ﴿ تَنزِيلَ ﴾ ، والظاهر أن ﴿ الكتاب ﴾ على الأول السورة وعلى الثاني القرآن ، وقرىء "تَنزِيلَ" بالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ أو الزم .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق ﴾ ملتبساً بالحق أو بسبب إثبات الحق وإظهاره وتفصيله . ﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ ممحصاً له الدين من الشرك والرياء ، وقرىء برفع ا"ؤلدين" عن الاستئناف لتعليل الأمر وتقديم الخبر لتأكيد الاختصاص المستفاد من اللام كما صرح به مؤكداً وإجراؤه مجرى المعلوم المقرر لكثرة حججه وظهور براهينه فقال :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ أي ألا هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة ، فإنه المتفرد بصفات الألوهية والاطلاع على الأسرار والضمائر . ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ يحتمل المتخذين من الكفرة والمتخذين من الملائكة وعيسى والأصنام على حذف الراجع وإضمار المشركين من غير ذكر لدلالة المساق عليهم ، وهو مبتدأ خبره على الأول . ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ بإضمار القول . ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ وهو متعين على الثاني ، وعلى هذا يكون القول المضمر بما في حيزه حالاً أو بدلاً من الصلة و﴿ زلفى ﴾ مصدر أو حال ، وقرىء "قالوا ما نعبدهم" و"ما نعبدكم إلا لتقربونا إلى الله" حكاية لما خاطبوا به آلهتهم و﴿ نَعْبُدُهُمْ ﴾ بضم النون اتباعاً . ﴿ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين بإدخال المحق الجنة والمبطل النار والضمير للكفرة ومقابليهم ، وقيل لهم ولمعبوديهم فإنهم يرجون شفاعتهم وهم يلعنونها . ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى ﴾ لا يوفق للاهتداء إلى الحق . ﴿ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ فإنهما فاقدا البصيرة .

﴿ لَّوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ كما زعموا . ﴿ لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ إذ لا موجود سواه إلا هو مخلوقه لقيام الدلالة على امتناع وجود واجبين ووجوب استناد ما عدا

الواجب إليه ، ومن البين أن المخلوق لا يماثل الخالق فيقوم مقام الوالد له ثم قرر ذلك بقوله :

﴿ سبحانه هُوَ الله الواحد القهار ﴾ فإن الألوهية الحقيقية تتبع الوجوب المستلزم للواحدة الذاتية ، وهي تنافي المماثلة فضلاً عن التوالد لأن كل واحد من المثلين مركب من الحقيقة المشتركة ، والتعين المخصوص والقهارية المطلقة تنافي قبول الزوال المحوج إلى الولد ، ثم استدل على ذلك بقوله :

(293/667)

﴿ خَلَقَ السموات والأرض بالحق يُكَوِّرُ اليل عَلَى النهار ويُكَوِّرُ النهار عَلَى اليل ﴾ يغشى كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس باللابس ، أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة ، أو يجعله كاراً عليه كروراً متتابعاً تتابع أكوار العمامة .

﴿ وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو منتهى دوره أو منقطع حركته .

﴿ إِلاَّ هُوَ العزيز ﴾ القادر على كل ممكن الغالب على كل شيء . ﴿ الغفار ﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة وسلب ما في هذه الصنائع من الرحمة وعموم المنفعة .

(294/667)

﴿ خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ واحدة ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ استدلال آخر بما أوجده في العالم السفلي مبدوء به من خلق الإنسان لأنه أقرب وأكثر دلالة وأعجب ، وفيه على ما ذكره ثلاث دلالات : خلق آدم أولاً من غير أب وأم ، ثم خلق حواء من قصيراه ، ثم تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما . و﴿ ثُمَّ ﴾ للعطف على محذوف هو صفة ﴿ نَفْسٌ ﴾ مثل خلقها أو على معنى واحدة أي من نفس وحدت ثم جعل منها زوجها فشفعها بها ، أو على ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ لتفاوت ما بين الآيتين ، فإن الأولى عادة مستمرة دون الثانية . وقيل أخرج من ظهره ذريته كالذر ثم خلق منها حواء . ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ ﴾ وقضى أو قسم لكم ، فإن قضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث كتبت في اللوح المحفوظ ، أو أحدث لكم بأسباب نازلة كأشعة الكواكب والأمطار . ﴿ مِّنَ الأنعام ثمانية أزواج ﴾ ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز . ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أمهاتكم ﴾ بيان لكيفية خلق ما ذكر من الأناسي والأنعام إظهاراً لما فيها من عجائب القدرة ، غير أنه غلب أولي العقل أو خصهم بالخطاب لأنهم المقصودون . ﴿ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ حيواناً سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف . ﴿ فِى ظلمات ثلاث ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة ، أو الصلب والرحم والبطن . ﴿ ذلكم ﴾ الذي هذه أفعاله . ﴿ الله رَبُّكُمُ ﴾ هو المستحق لعبادتكم والمالك . ﴿ لَهُ الملك لا

إله إِلاَّ هُوَ ﴾ إذ لا يشاركه في الخلق غيره. ﴿ فأنى تُصْرَفُونَ ﴾ يعدل بكم عن عبادته إلى الإشراك.

(295/667)

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنكُمْ ﴾ عن إيمانكم. ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ لاستضرارهم به رحمة عليهم. ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ لأنه سبب فلاحكم، وقرأ ابن كثير ونافع في رواية وأبو عمرو والكسائي بإشباع ضمة الهاء لأنها صارت بحذف الألف موصولة بمتحرك، وعن أبي عمرو ويعقوب إسكانها وهو لغة فيها. ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالمحاسبة والمجازاة. ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ فلا تخفى عليه خافية من أعمالكم.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ لزوال ما ينازع العقل في الدلالة على أن مبدأ الكل منه.

﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ ﴾ أعطاه من الخول وهو التعهد، أو الخول وهو الافتخار. ﴿ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ من الله. ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ ﴾ أي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه، أو ربه الذي كان يتضرع إليه و﴿ مَا ﴾؛ مثل الذي في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل النعمة . ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء ، والضلال والإضلال لما كانا نتيجة جعله صح تعليله بهما وإن لم يكونا غرضين . ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ أمر تهديد فيه إشعار بأن الكفر نوع تشه لا سند له ، وإقناط للكافرين من التمتع في الآخرة ولذلك علله بقوله : ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ على سبيل الاستئناف للمبالغة .

(296/667)

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾ قائم بوظائف الطاعات . ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ ساعاته وأم متصلة بمحذوف تقديره الكافر خير "أم من هو قانت" ، أو منقطعة والمعنى بل ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾ كمن هو بضده ، وقرأ الحجازيان وحمزة بتخفيف الميم بمعنى أمن هو قانت لله كمن جعل له أنداداً . ﴿ سَاجِداً وَقَائِماً ﴾ حالان من ضمير ﴿ قَانِتٌ ﴾ ، وقرئا بالرفع على الخبر بعد الخبر والواو للجمع بين الصفتين ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ في موضع الحال أو الاستئناف للتعليل . ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ نفى لاستواء الفريقين باعتبار القوة العلمية بعد نفيه باعتبار القوة العملية على وجه أبلغ لمزيد فضل العلم . وقيل تقرير للأول على سبيل التشبيه أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون لا

يستوي القانتون والعاصون . ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلباب ﴾ بأمثال هذه البيانات ، وقرىء "يذكر" بالإِدغام .

(297/667)

﴿ قُلْ يا عِبَادِي الذين ءَامَنُواْ اتقوا رَبَّكُمْ ﴾ بلزوم طاعته . ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هذه الدنيا حَسَنَةٌ ﴾ أي للذين أحسنوا بالطاعات في الدنيا مثوبة حسنة في الآخرة . وقيل معناه للذين أحسنوا حسنة في الدنيا هي الصحة والعافية ، وفي هذه بيان لمكان ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ . ﴿ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ ﴾ فمن تعسر عليه التوفر على الإِحسان في وطنه فليهاجر إلى حيث يتمكن منه . ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون ﴾ على مشاق الطاعات من احتمال البلاء ومهاجرة الأوطان لها . ﴿ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أجراً لا يهتدي إليه حساب الحساب ، وفي الحديث إنه " ينصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون بها أجورهم ، ولا ينصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صباً حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل " ﴿ قُلْ إِنّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ موحداً له .

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين ﴾ وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا

والآخرة ، لأن قصب السبق في الدين بالإِخلاص أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من قريش ومن دان بدينهم ، والعطف لمغايرة الثاني الأول بتقييده بالعلة ، والإشعار بأن العبادة المقرونة بالإِخلاص وإن اقتضت لذاتها أن يؤمر بها فهي أيضاً تقتضيه لما يلزمها من السبق في الدين ، ويجوز أن تجعل اللام مزيدة كما في أردت لأن أفعل فيكون أمر بالتقدم في الإِخلاص والبدء بنفسه في الدعاء إليه بعد الأمر به .

﴿ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك والرياء . ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لعظمة ما فيه .

(298/667)

﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى ﴾ أمر بالإِخبار عن إخلاصه وأن يكون مخلصاً له دينه بعد الأمر بالإِخبار عن كونه مأموراً بالعبادة والإِخلاص خائفاً عن المخالفة من العقاب قطعاً لأطماعهم ، ولذلك رتب عليه قوله :

﴿ فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ ﴾ تهديداً وخذلاناً لهم .

﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرين ﴾ الكاملين في الخسران . ﴿ الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُم ﴾ بالضلال . ﴿ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ بالإِضلال . ﴿ يَوْمَ القيامة ﴾ حين يدخلون النار بدل الجنة لأنهم جمعوا

وجوه الخسران . وقيل وخسروا أهليهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده . ﴿ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخسران المبين ﴾ مبالغة في خسرانهم لما فيه من الاستئناف والتصدير ب ﴿ أَلاَ ﴾ ، وتوسيط الفصل وتعريف الخسران ووصفه ب ﴿ المبين ﴾ .

﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار ﴾ شرح لخسرانهم . ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ أطباق من النار هي ظلل للآخرين . ﴿ ذلك يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ ﴾ ذلك العذاب هو الذي يخوفهم به ليتجنبوا ما يوقعهم فيه . ﴿ يَا عِبَادِ فاتقون ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي .

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ البالغ غاية الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين بني للمبالغة في المصدر كالرحموت ، ثم وصف به للمبالغة في النعت ولذلك اختص بالشيطان .

﴿ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ بدل اشتمال منه . ﴿ وَأَنَابُواْ إِلَى الله ﴾ وأقبلوا إليه بشراشرهم عما سواه . ﴿ لَهُمُ البشرى ﴾ بالثواب على ألسنة الرسل ، أو الملائكة عند حضور الموت .

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ .

﴿ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ وضع فيه الظاهر موضع ضمير ﴿ الذين اجتنبوا ﴾ للدلالة على مبدأ اجتنابهم وأنهم نقاد في الدين يميزون بين الحق والباطل ويؤثرون الأفضل فالأفضل . ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَاهُمُ الله ﴾ لدينه . ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الألباب ﴾ العقول السليمة عن منازعة الوهم والعادة ، وفي ذلك دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله وقبول النفس لها .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى النار ﴾ جملة شرطية معطوفة على محذوف دل عليه الكلام تقديره أأنت مالك أمرهم فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه ، فكررت الهمزة في الجزاء لتأكيد الإنكار والاستبعاد ، ووضع ﴿ مَن فِى النار ﴾ موضع الضمير لذلك وللدلالة على أن من حكم عليه بالعذاب كالواقع فيه لامتناع الخلف فيه ، وأن اجتهاد الرسل في دعائهم إلى الإيمان سعي في إنقاذهم من النار ، ويجوز أن يكون ﴿ أَفَأَنتَ ﴾ تنقذ جملة مستأنفة للدلالة على ذلك والإشعار بالجزاء المحذوف .

﴿ لَ 48 ;كِنِ الذين اتقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ علالي بعضها فوق بعض . ﴿ مَّبْنِيَّةٌ ﴾ بنيت بناء النازل على الأرض . ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ أي من تحت تلك الغرف . ﴿ وَعَدَ الله ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ ﴾ في معنى الوعد . ﴿ لاَ يُخْلِفُ الله الميعاد ﴾ ولأن الخلف نقص وهو على الله محال .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً ﴾ هو المطر . ﴿ فَسَلَكَهُ ﴾ فأدخله . ﴿ يَنَابِيعَ فِى الأرض ﴾ هي عيون ومجاري كائنة فيها ، أو مياه نابعات فيها إذ الينبوع جاء للمنبع وللنابع فنصبها على الظرف أو الحال . ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ أصنافه من بر وشعير وغيرهما ، أو كيفياته من خضرة وحمرة وغيرهما . ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ يتم جفافه لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منبته . ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ﴾ من يبسه . ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حطاما ﴾ فتاتاً . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لذكرى ﴾ لتذاكيراً بأنه لا بد من صانع حكيم دبره وسواه ، أو بأنه مثل الحياة الدنيا فلا تغتر بها . ﴿ لأُوْلِى الألباب ﴾ إِذْ لا يَتَذكر به غيرهم .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ حتى تمكن فيه بيسر عبر به عمن خلق نفسه شديدة الاستعداد لقبوله غير متأبية عنه من حيث أن الصدر محل القلب المنبع للروح المتعلق للنفس القابلة للإِسلام . ﴿ فَهُوَ على نُورٍ مّن رَّبِّهِ ﴾ يعني المعرفة والاهتداء إلى الحق . وعنه عليه الصلاة والسلام " إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح ، فقيل فما علامة ذلك قال : الإِنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله " وخبر ﴿ مِنْ ﴾ محذوف دل عليه ﴿ فَوَيْلٌ للقاسية قُلُوبُهُمْ مّن ذِكْرِ الله ﴾ من أجل ذكره وهو أبلغ من أن يكون عن مكان من ، لأن القاسي من أجل الشيء أشد تأبياً عن قبوله من القاسي عنه لسبب آخر ، وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بامتناع ذكر شرح

الصدر وأسنده إلى الله وقابله بقساوة القلب وأسنده إليه . ﴿ أُوْلَئِكَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ يظهر للناظر بأدنى نظر ، والآية نزلت في حمزة وعلي وأبي لهب وولده .

(301/667)

﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث ﴾ يعني القرآن ، روي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا له حدثنا فنزلت . وفي الابتداء باسم الله وبناء نزل عليه تأكيد للإسناد إليه وتفخيم للمنزل واستشهاد على حسنه . ﴿ كتابا متشابها ﴾ بدل من ﴿ أَحْسَنُ ﴾ أو حال منه ، وتشابهه تشابه أبعاضه في الإعجاز وتجاوب النظم وصحة المعنى والدلالة على المنافع العامة . ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ جمع مثنى أو مثنى أو مثن على ما مر في "الحجر" ، وصف به كتاباً باعتبار تفاصيله كقولك : القرآن سور وآيات ، والإنسان : عظام وعروق وأعصاب ، أو جعل تمييزاً من ﴿ متشابها ﴾ كقولك : رأيت رجلاً حسناً شمائله . ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ تشمئز خوفاً مما فيه من الوعيد ، وهو مثل في شدة الخوف واقشعرار الجلد تقبضه وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس بزيادة الراء ليصير رباعياً كتركيب أقمطر من القمط وهو الشد . ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ بالرحمة وعموم المغفرة ، والإطلاق للإشعار بأن أصل أمره

الرحمة وأن رحمته سبقت غضبه ، والتعدية ب ﴿ إلى ﴾ لتضمين معنى السكون والاطمئنان ، وذكر القلوب لتقدم الخشية التي هي من عوارضها . ﴿ ذلك ﴾ أي الكتاب أو الكائن من الخشية والرجاء . ﴿ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاء ﴾ هدايته . ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ ومن يخذله . ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يخرجهم من الضلال .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ ﴾ يجعله درقة يقي به نفسه لأنه يكون يداه مغلولة إلى عنقه فلا يقدر أن يتقي إلا بوجهه . ﴿ سُوءَ العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ كمن هو آمن منه ، فحذف الخبر كما حذف في نظائره .

﴿ وَقِيلَ لِلظَّلِمِينَ ﴾ أي لهم فوضع الظاهر موضعه تسجيلاً عليهم بالظلم وإشعاراً بالموجب لما يقال لهم وهو : ﴿ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي وباله ، والواو للحال وقد مقدرة .

(302/667)

﴿ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فأتاهم العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ من الجهة التي لا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها .

﴿ فَأَذَاقَهُمُ الله الخزى ﴾ الذل . ﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ كالمسخ والخسف والقتل

والسبي والإجلاء . ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة ﴾ المعد لهم . ﴿ أَكْبَرُ ﴾ لشدته ودوامه . ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ لو كانوا من أهل العلم والنظر لعلموا ذلك واعتبروا به .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمر دينه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون به .

﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ حال من هذا والاعتماد فيها على الصفة كقولك : جاءني زيد رجلاً صالحاً ، أو مدح له . ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ لا اختلال فيه بوجه ما هو أبلغ من المستقيم وأخص بالمعاني . وقيل بالشك استشهاداً بقوله :

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ . . . مِنَ الإِلَهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبِ

وهو تخصيص له ببعض مدلوله . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ علة أخرى مرتبة على الأولى .

(303/667)

﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ للمشرك والموحد . ﴿ رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ متشاكسون وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ ﴾ مثل المشرك على ما يقتضيه مذهبه من أن يدعي كل واحد من معبوديه عبوديته ، ويتنازعوا فيه بعبد يتشارك فيه ، جمع يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المختلفة في تحيره وتوزع قلبه ، والموحد بمن خلص لواحد ليس لغيره عليه سبيل و ﴿ رَجُلاً ﴾ بدل

من مثل وفيه صلة ﴿ شُرَكَاء ﴾ ، والتشاكس والتشاخص الاختلاف . وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون "سلاما" بفتحتين ، وقرىء بفتح السين وكسرها مع سكون اللام وثلاثتها مصادر سلم نعت بها ، أو حذف منها ذا ورجل سالم أي وهناك رجل سالم ، وتخصيص الرجل لأنه أفطن للضر والنفع . ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ صفة وحالاً ونصبه على التمييز ولذلك وحده ، وقرىء "مثلين" للإشعار باختلاف النوع ، أو لأن المراد على ﴿ يَسْتَوِيَانِ ﴾ في الوصفين على أن الضمير للمثلين فإن التقدير مثل رجل ومثل رجل . ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ كل الحمد له لا يشاركه فيه على الحقيقة سواه ، لأنه المنعم بالذات والمالك على الإطلاق . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيشركون به غيره من فرط جهلهم .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ فإن الكل بصدد الموت وفي عداد الموتى ، وقرىء "مائت" و"مائتون" لأنه مما سيحدث .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ على تغليب المخاطب على الغيب . ﴿ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فتحتج عليهم بأنك كنت على الحق في التوحيد وكانوا على الباطل في التشريك ، واجتهدت في الإرشاد والتبليغ ولجوا في التكذيب والعناد ، ويعتذرون بالأباطيل مثل ﴿ أَطَعْنَا سَادَتَنَا ﴾ و﴿ وَجَدْنَا ءابَاءنَا ﴾ وقيل المراد به الاختصام العام يخاصم الناس بعضهم بعضاً فيما دار بينهم في الدنيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 66.57 ﴾

(304/667)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

(305/667)

التفسير : ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ من الله ﴾ وقيل : اصله هذا تنزيل الكتاب والجار صلة ، والأولى أقوى لأن الإضمار خلاف الأصل ، ولأنه يلزم مجاز وهو كون التنزيل بمعنى المنزل فإن هذا إشارة إلى القرآن أو إلى جزء منه وهو هذه السورة . وفيه إبطال ما يقوله المشركون من أن محمداً يقوله من تلقاء نفسه . وفي قوله ﴿ من الله ﴾ إشارة إلى الذات المستحق للعبادة والطاعة كقولك : هذا كتاب من فلان . تعظم به شأن الكتاب : وفي قوله ﴿ العزيز ﴾ إشارة إلى أن هذا الكتاب يحق قبوله فكتاب العزيز عزيز ، وفيه أنه غني عن إرسال الكتاب والاستكمال به وإنما ينتفع به المرسل إليهم . وفي قوله ﴿ الحكيم ﴾ إشارة إلى أنه مشتمل على الفوائد الدينية والدنيوية لا على العبث والباطل . وقوله ﴿

إنا أنزلنا إليك ﴾ ليس تكراراً من وجهين : أحدهما أن التنزيل للتدريج والإنزال دفعي كما مر مراراً . والثاني أن الأول كعنوان الكتاب ، والثاني يقرر ما في الكتاب . وقوله ﴿ بالحق ﴾ يعني أن كل ما أودعنا فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف فهو حق وصدق مؤيد بالبرهان العقلي وهو مطابقته للعقول الصحيحة ، وبالدليل الحسي وهو أن الفصحاء عجزوا عن معارضته . ثم اشتغل ببيان بعض ما فيه من الحق وهو الإقبال على عبادته بالإخلاص والالتفات عما سواه بالكلية . أما الأول فهو قوله ﴿ فاعبد الله ﴾ أي أنت أو أمتك ﴿ مخلصاً له الدين ﴾ وآية الإخلاص أن يكون الداعي إلى العبادة هو مجرد الأمر لا طلب مرغوب أو هرب مكروه . وأما الثاني فذلك قوله ﴿ الا لله الدين الخالص ﴾ أي واجب اختصاصه بالطاعة من غير أن يشوب ذلك دعاء أو شرك ظاهر وخفي . وخصصه قتادة فقال : الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله . وحين حث على التوحيد والإخلاص ذم طريقة الشرك والتقليد فقال ﴿ والذين اتخذوا ﴾ الضمير للمشركين ولكن الموصول يحتمل أن يكون عبارة عن المشركين والخبر ما أضمر من القول ، أو قوله ﴿ إن

الله يحكم بينهم ﴾ والقول المضمر حال أو بدل فلا يكون له محل كالمبدل ، وأن يكون عبارة عن الشركاء والخبر ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ والقول المضمر للحال أو بدل . وتقدير الكلام على الأول : والمشركون الذين اتخذوا من دونه أولياء ويقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا أو المشركون الذين اتخذوا من دونه أولياء قائلين أو يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم . وعلى الثاني : والشركاء الذين اتخذهم المشركون أولياء قائلين أو يقولون كذا إن الله يحكم بينهم . وإذا عرفت التقادير فنقول : المراد بالأولياء ههنا الملائكة وعيسى واللات والعزى . قال ابن عباس : كانوا يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله أما الملائكة وعيسى فظاهر ، وأما الأصنام فلأنهم اعتقدوا أنها تماثيل الكواكب والأرواح السماوية أو الصالحين .

(307/667)

ومعنى حكم الله بينهم أنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة ، ويدخلهم مع الأصنام النار . واختلافهم أن الملائكة وعيسى موحدون وهم مشركون والأصنام يكفرون يوم القيامة بشركهم وهم يرجون نفعهم وشفاعتهم . ويجوز أن يرجع الضمير في ﴿ بينهم ﴾ غلى الفريقين المؤمن والمشرك . ولا يخفى ما في الآية من التهديد . ثم سجل عليهم بالخذلان

والحرمان فقال ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ فكذبهم هو زعمهم شفاعة الأصنام وكفرانهم أنهم تركوا عبادة المنعم الحق وأقبلوا على عبادة من لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً . ومن جملة كذبهم قولهم الملائكة بنات الله فلذلك نعبد صورها فاحتج على إبطال معتقدهم بقوله ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ وهو الأفضل يعني البنين لا الأنقص وهن البنات . وقال جار الله : معناه لو اراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما شاء من خلقه وهم الملائكة ، لأن اتخاذ الولد ممتنع ، وفيه توبيخ لهم على أنهم حسبوا الاصطفاء اتخاذ الأولاد بل البنات . وأقول : إنه تعالى أراد إبطال قولهم بطريق برهان وهو صورة قياس استثنائي كقوله ﴿ لو اراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى ﴾ لأجل الاتخاذ مما يخلق ما يشاء لكنه ما اصطفى ينتج أنه لم يرد أما الشرطية فظاهرة بعد تسليم كما قدرته ، وأما الثانية فأشار إليها بقوله ﴿ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ فقوله ﴿ سبحانه ﴾ إشارة إلى استحالة اصطفائه شيئاً لأجل اتخاذ الولد . وقوله ﴿ هو الله الواحد القهار ﴾ إشارة إلى البرهان على استحالة ذلك وتقريره من ثلاثة أوجه : الأول أنه هو الله وهو اسم للمعبود الواجب الذات الجامع لجميه نعوت الجمال والجلال واتخاذ الولد يدل على الحاجة والفقر حتى يقوم الولد بعده مقامه ، أو على الاستئناس والالتذاذ بوجوده أو لغير ذلك من الإغرض ، وكل ذلك ينافي الوجوب الذاتي والاستغناء المطلق . الثاني أنه هو الواحد الحقيقي كما مر ذكره مراراً . والولد إنما يحصل من

(308/667)

جزء من أجزاء الوالد ، ومن شرطه أن يكون مماثلاً لوالده في تمام الماهية حتى تكون حقيقة الوالد حقيقة نوعية محمولة على شخصين ، ويكون تعين كل منهما معلوماً لسبب منفصل وكل ذلك ينافي التعين الذاتي والوحدة المطلقة . وأيضاً إن حصول الولد من الزوج يتوقف على الزوجة عادة وهي لا بد أن تكون من جنس الزوج فلا يكون الزوج مما ينحصر نوعه في شخصه . الثالث أنه هو القهار والمحتاج إلى الولد هو الذي يموت فيقوم الولد مقامه والميت مقهور لا قاهر ، فثبت بهذه الدلائل أنه تعالى ما اصطفى شيئاً لأن يتخذه ولداً فصح أنه لم يرد ذلك ، ونفي إرادة الاتخاذ أبلغ من نفي الاتخاذ فقد يراد ولا يتخذ لمانع كعجزه ونحوه . هذا ما وصل إليه فهمي في تفسير هذه الآية والله تعالى أعلم بأسرار كلامه .

(309/667)

وحين طعن في إلهية الأصنام عدد الصفات التي بها يستدل على الإلهية الحقة وهي أصناف : أولها قوله ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أي متلبساً بالغاية الصحيحة

وقد مر مراراً . الثاني . ﴿ يكوّر الليل على النهار ﴾ والتكوير اللف واللي يقال كار العمامة على راسه وكورها . وفي التشبيه أوجه منها : أن الليل والنهار متعاقبان إذا غشي أحدهما مكان الآخر فكأنما ألبسه ولف عليه . ومنها أنه شبه كل منهما إذا غيب صاحبه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن الأبصار . ومنها أن كلاً منهما يكر على الآخر كروراً متتابعاً أكوار العمامة . وقيل : أراد أنه يزيد في كل واحد منهما بقدر ما ينقص من الآخر من قوله صلى الله عليه وسلم " نعوذ بالله من الحور بعد الكور " أي من الإدبار بعد الإقبال . الثالث ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ وقد مر مثله في " فاطر " وغيره . وحيث كان الأجل المسمى شاملاً للقيامة عقبه بقوله ﴿ الا هو العزيز الغفار ﴾ وفيه ترهيب مع ترغيب . الرابع والخامس قوله ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ﴾ وهما آيتان أوّلهما تشعيب الخلق الفائت للحصر من نفس آدم ، والثانية خلق حوّاء من ضلعه . ومعنى " ثم " ترتيب الأخبار لأن الأولى عادة مستمرة دون الثانية إذ لم يخلق أنثى غير حوّاء من قصيري رجل فكانت أدخل في كونها آية وأجلب لعجب السامع . وقيل : هو متعلق بواحدة في المعنى كأنه قيل : خلقكم من نفس واحدة ثم شفعها الله بزوج منها . وقيل : إنه خلق آدم وأخرج ذريته من ظهره ثم ردهم إلى مكانهم ، ثم خلق بعد ذلك حوّاء . وقيل : " ثم " قد يأتي مع الجملة دالاً على التقدّم كقوله ﴿ ثم اهتدى ﴾ [طه : 82] ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد : 17] وكقوله صلى الله

عليه وسلم " فليكفر عن يمينه ثم ليفعل الذي هو خير " السادس قوله ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ أما الأزواج فهي المذكورة في سورة الأنعم من الضأن اثنين الذكر والأنثى ، ومن المعز اثنين ،

(310/667)

ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين . وأما وصفها بالإنزال فقيل : أنزلها من الجنة . وقيل : أراد إنزال ما هو سبب في وجودها وهو المطر الذي به قوام النبات الذي به يعيش الحيوان . وقيل : أنزل بمعنى قضى وقسم لأن قضاياه وقسمه مكتوبة في اللوح ومن هناك ينزل . وفي هذه العبارة نوع فخامة وتعظيم لإفادتها معنى الرفعة والاعتلاء ولهذا يقال : رفعت القضية إلى الأمير وإن كان الأمير في سرب . وخصت هذه الأزواج بالذكر لكثرة منافعها من اللبن واللحم والجلد والشعر والوبر والركوب والحمل والحرث وغير ذلك . السابع قوله ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ﴾ والمقصود ذكر تخليق الحيوان على الإطلاق بعد ذكر تخليق الإنسان والأنعام ، إلا أنه غلب أولي العقل لشرفهم .

(311/667)

ويحتمل أن يكون ذكر الإنعام اعتراضاً حسن موقعه ذكر الأزواج بعد قوله ﴿ جعل منها زوجها ﴾ ليعلم أن كل حيوان ذو زوج وترتيب التخليق مذكور مراراً كقوله ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ [المؤمنون : 12] إلى قوله ﴿ أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] والظلمات الثلاث : البطن والرحم والمشيمة ، أو الصلب والرحم والبطن . ﴿ ذلكم ﴾ الذي هذه أفعاله ﴿ ربكم له الملك ﴾ وقد مر إعرابه في " فاطر " . ﴿ لا إله إلا هو ﴾ إذ لا موصوف بهذه الصفات إلا هو ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أي كيف يعدل بكم عن طريق الحق بعد هذا البيان ؟ ثم بين أنه غني عن طاعات المطيعين وأنها لا تفيد إلا أنفسهم فقال ﴿ وإن تكفروا فإن الله غنيّ عنكم ﴾ قال المعتزلة : في قوله ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ دليل على أن الكفر ليس بقضائه وإلا لكان راضياً به . وأجاب الأشاعرة بأنه قد علم من اصطلاح القرآن أن العباد المضاف إلى الله أو إلى ضميره هم المؤمنون . قال ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون ﴾ [الفرقان : 63] ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ [الدهر : 6] فمعنى الآية : ولا يرضى لعباده المخلصين الكفر . وهذا مما لا نزاع فيه . أو نقول : سلمنا أن كفر الكافر ليس برضا الله بمعنى أنه لا يمدحه عليه ولا يترك اللوم والاعتراض إلا أنا ندعي أنه بإرادته ، وليس في الآية دليل على إبطاله . ثم بين غاية كرمه بقوله : ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ والسبب في كلا الحكمين ما جاء في الحديث

القدسي " سبقت رحمتي غضبي " وباقي الآية مذكور مراراً مع وضوحه . ثم حكى نهاية ضعف الإنسان وتناقض آرائه بقوله ﴿ وإذا مس ﴾ إلى آخره . وقد مر نظيره أيضاً . وقيل : إن الإنسان هو الكافر الذي تقدّم ذكره . وقيل : أريد أقوام معينون كعتبة بن ربيعة وغيره . ومعنى خوّله أعطاه لا لاستجرار العوض . قال جار الله : في حقيقته وجهان : أحدهما جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال وخال مال إذا كان متعهداً له حسن القيام به . ومنه ما روي أن

(312/667)

النبي صلى الله عليه وسلم كان يتخوّل أصحابه بالموعظة أي يتعهد ويتكفل أحوالهم إن رأى منهم نشاطاً في الوعظ وعظهم . والثاني أنه جعله يخول أي يفتخر كما قيل : إن الغني طويل الذيل مياس . . . ومعنى ﴿ نسي ما كان يدعو إليه ﴾ نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ، أو نسي ربه الذي كان يتضرع إليه و " ما " بمعنى " من " . والمراد أنه نسي أن لا مفزع ولا إله سواه وعاد إلى اتخاذ الأنداد مع الله . واللام في ﴿ ليضل ﴾ لام العاقبة . ثم هدّده بقوله ﴿ تمتع بكفرك ﴾ كقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [فصلت : 40] وفيه أن الكافر لا يتمتع بالدنيا إلا قليلاً ثم يؤل إلى النار .

ثم أردفه بشرح حال المحقين الذين لا رجوع لهم إلا إلى الله ولا اعتماد لهم إلا على فضله فقال ﴿ أمن هو قانت ﴾ قال ابن عباس : القنوت الطاعة . وقال ابن عمر : لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام . والمشهور أنه الدعاء في الصلاة والقيام بما يجب عليه من الطاعة . وعن قتادة ﴿ آناء الليل ﴾ أوّله ووسطه وآخره . وفيه تنبيه على فضل قيام الليل ولا يخفى أنه كذلك لبعده عن الرياء ولمزيد الحضور وفراغ الحواس من الشواغل الخارجية ، ولأن الليل وقت الراحة فالعبادة فيه أشق على النفس فيكون ثوابه أكثر . والواو في قوله ﴿ ساجداً وقائماً ﴾ للجمع بين الصفتين . وفي قوله ﴿ يحذر الآخرة ﴾ أي عذابها ﴿ ويرجو رحمة ربه ﴾ إشارة إلى أن العابد يتقلب بين طوري القهر واللطف ، ويتردّد بين حالي القبض والبسط ولا يخفى أن في الكلام حذفاً فمن قرأ ﴿ أمن ﴾ بالتخفيف فالخبر محذوف والمعنى أمن هو مطيع كغيره ، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه وهو جري ذكر الكافر قبله وبيان عدم الاستواء بين العالم والجاهل بعده . ومن قرأ بالتشديد فالمحذوف جملة استفهامية والمذكور معطوف على المبتدأ والمعنى : هذا أفضل أمن هو قانت . وقيل : الهمزة على قراءة التخفيف للنداء كما تقول : فلان لا يصلي ولا

يصوم فيا من تصلي وتصوم أبشر . وقيل : المنادي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم بدليل قوله ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون ﴾ الآية . قال جار الله : أراد بالذين يعلمون الذين سبق ذكرهم وهم القانتون فكأنه جعل من لا يعمل غير عالم . وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون فيها ثم يفتنون بالدنيا . ويجوز أن يراد على وجه التشبيه أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون كذلك لا يستوي القانتون والعاصون . قيل نزلت في عمار بن ياسر وأمثاله ، والظاهر العموم . وفي قوله ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ إشارة إلى أن هذا التفات العظيم بين العالم والجاهل لا يعرفه إلا أرباب العقول كما قيل :

(314/667)

إنما نعرف ذا الفضل من الناس ذووه . . . وقيل لبعض العلماء : إنكم تزعمون أن العلم أفضل من المال ونحن نرى العلماء مجتمعين على أبواب الملوك دون العكس ؟ فأجاب بأن هذا أيضاً من فضيلة العلم لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه ، والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فتركوه . وحين بين عدم الاستواء بين من يعلم وبين من لا يعلم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخاطب المؤمنين بأنواع من الكلام . النوع الأوّل . ﴿ قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم ﴾ قال أهل السنة : أمر المؤمنين أن يضموا إلى الإيمان التقوى ، وفيه

دلالة على أن الإيمان يبقى مع المعصية . وقالت المعتزلة : أمرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا إيمانهم بارتكاب الكبائر بل يزيدوا في الإيمان حتى يتصفوا بصفة الاتقاء .

(315/667)

ثم بين للمؤمنين فائدة الاتقاء قائلاً ﴿ للذين أحسنوا ﴾ الآية . وقوله ﴿ في هذه الدنيا ﴾ إما أن يكون صلة لما قبله أو صلة لما بعده وهو قول السدي . ومعناه على الأوّل : الذين أحسنوا في هذه الدنيا لهم حسنة في الآخرة وهي الجنة . والتنكير للتعظيم أي حسنة لا يصل العقل إلى كنهها . وعلى الثاني : الذين أحسنوا فلهم في هذه الدنيا حسنة . قال جار الله : فالظرف بيان لمكان الحسنة . ويحتمل أن يقال : إنه نصب على الحال لأنه نعت للنكرة قدّم عليها . والقائلون بهذا القول فسروا الحسنة بالصحة والعافية وضم بعضهم إليها الأمن والكفاية . ورجح الأوّل بأن هذه الأمور قد تحصل للكفار على الوجه الأتم فكيف تجعل جزاء للمؤمن المتقي . وقيل : هي الثناء الجميل . وقيل : الظفر والغنيمة . وقيل : نور القلب وبهاء الوجه . وفي قوله ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ إشارة إلى أن أسباب التقوى إن لم تتيسر في أرض وجبت الهجرة إلى أرض يتيسر ذلك فيها فيكون كقوله ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ [النساء : 97] وعن أبي مسلم : هي أرض الجنة لأنه حين بين

أن المتقي له الجنة وصف أرض الجنة بالسعة ترغيباً فيها كما قال ﴿ نتبوّأ من الجنة حيث نشاء ﴾ [الزمر : 74] ﴿ إنما يوفّى الصابرون ﴾ على مفارقة الأوطان وتجرّع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله وتكاليفه ﴿ أجرهم بغير حساب ﴾ أي لا يحاسبون أو بغير حصر . قال جار الله : عن النبي صلى الله عليه وسلم " ينصب الله الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صباً " ثم تلا الآية وقال : حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل . النوع الثاني ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ قال مقاتل : إن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم

(316/667)

: ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به ؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدّك وسادة قومك يعبدون اللات والعزى ؟ فأنزل الله هذه الآية . وكأنه إشارة إلى الأمر المذكور في أوّل السورة ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ وقوله ﴿ وأمرت لأن أكون ﴾ ليس بتكرار لأن اللام للعلة والمأمور به محذوف يدل عليه ما قبله والمعنى : أمرت بإخلاص الدين وأمرت بذلك

لأجل أن أكون أوّل المسلمين أي مقدّمهم وسابقهم في الدارين فنقول : فائدة التكرار أن ذكر التعليل مع نوع تأكيد . وقيل : اللام بدل من الباء أي أمرت بأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره ليصح الاقتداء بي في قولي وفعلي . ولعل الإخلاص إشارة إلى عمل القلب والإسلام إلى عمل الجوارح ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الإسلام في خبر جبريل بالأعمال الظاهرة ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم ليس مثل الملوك الجبابرة الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلونها بل له سابقة في كل ما يأمر به وينهى عنه .

(317/667)

وحين بين أن الله أمره بإخلاص القلب وبأعمال الجوارح وكان الأمر يحتمل الوجوب والندب بين أن ذلك الأمر للوجوب فقال ﴿ قل إني أخاف ﴾ الآية . وذلك أن خوف العقاب لا يترتب إلا على ترك الواجب ، وإذا كان النبيّ صلى الله عليه وسلم مع جلالة قدره خائفاً من العصيان فغيره أولى . قيل : المراد به أمته . وقيل : نزلت قبل أن يغفر الله له . وقالت الأشاعرة : فيه دليل على أن صاحب الكبيرة قد يعفى عنه لأنه بين أن اللازم عند حصول المعصية خوف العقاب لا نفس العقاب . النوع الثالث ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ﴾ وليس بتكرار لما قبله وذلك أن الأوّل للإخبار بأنه مأمور من جهة الله بالعبادة الخالصة عن

الشرك الجلي والخفي ، وهذا إخبار بأن الذي أمر به فإنه قد أتى به على أكمل الوجوه ، ولهذا أخر الفعل وضم إلى مضمونه التهديد بقوله ﴿ فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ النوع الرابع ﴿ قل أن الخاسرين ﴾ الكاملين في الخسران الجامعين لوجوهه هم ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ لوقوعها في هلكة الإخلاد بعذابها ﴿ و ﴾ خسروا ﴿ أهليهم ﴾ لأن أهلهم وأولادهم إن كانوا في النار فلا فائدة لهم منهم لأنهم محجوبون عنهم ، أو لأن كلاً منهم مشغول بهمه وإن كانوا من أهل الجنة فما أبعد ما بينهم . وقيل : أهلوهم الحور العين في الجنة لو آمنوا .

(318/667)

قال أهل البيان : في قوله ﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ تفظيع لشأنهم حيث استأنف الجملة وصدّرها بحرف التنبيه ووسط الفصل وعرف الخسران ووصفه بالمبين . قلت : التحقيق فيه أن للإنسان قوّتين يستكمل بإحداهما علماً وبالأخرى عملاً . والآلة الواسطة في القسم الأول هي العلوم المسماة بالبديهيات وترتيبها على الوجه المؤدّي إلى النتائج وهو بمنزلة الربح يشبه تصرف التاجر في رأس المال بالبيع والشراء ، والآلة في القسم العملي هي القوى البدنية وغيرها من الأسباب الخارجية المعينة عليها ، واستعمال تلك القوى في وجوه

أعمال البر التي هي بمنزلة الربح يشبه التجارة فكل من أعطاه الله العقل والصحة والتمكين . ثم إنه لم يستفد منها معرف الحق ولا عمل الخير فإذا مات فقد فات ربحه وضاع رأس ماله ووقع في عذاب الجهل وألم البعد عن عالمه والقرب مما يضاده أبد الآباد ، فلا خسران فوق هذا ولا حرمان أبين منه وقد أشار إلى هذا بقوله ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ أي أطباق من النار من ظلل الآخرين فإن لجهنم دركات كما أن للجنة درجات . وقال المفسرون : سمى النار ظلة بغلظها وكثافتها فصارت محيطة بهم من جميع الجوانب حائلة من النظر إلى شيء آخر .

(319/667)

قلت : إن كانوا في كرة النار فوجهه ظاهر ونظيره في الأحوال النفسانية إحاطة نار الجهل والحرص وسائر الأخلاق الذميمة بالإنسان وقد مرّ في قوله ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ [الأعراف : 41] ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ [العنكبوت : 55] وقيل : الظلة ما علا الإنسان فسمى ما تحتهم بالظلة إطلاقاً لأحد الضدين على الآخر ، أو لأن التحتانية مشابهة للفوقانية في الحرارة والإحراق و ﴿ ذلك ﴾ العذاب المعد للكفار ﴿ يخوّف الله به عباده ﴾ المؤمنين وقد مر أن العباد في القرآن إذا

كان مضافاً إلى ضمير الله اختص بأهل الإيمان عند أهل السنة . وعندي أنه لا مانع من التعميم ههنا . ثم عقب الوعيد بالوعد قائلاً ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ وهو كل ما عبد من دون الله كما مر في آية الكرسي . وقوله ﴿ أن يعبدوها ﴾ بدل اشتمال منه ﴿ وأنابوا إلى الله ﴾ رجعوا بالكلية إلى تحصيل رضاه ، فالأول تخلية ، والثاني تحلية ، وحقيقة الإعراض عما سوى الله والإقبال على الله هي أن يعرف أنّ كل ما سواه فإنه ممكن الوجود لذاته فقير في نفسه وهو سبحانه واجب الوجود لذاته غني على الإطلاق لا حكم إلا له ولا تدبير إلا به وبأمره . ﴿ لهم البشرى ﴾ أي هم مخصوصون بالبشارة المطلقة وهي الخبر الأول الصدق الموجب للسرور بزوال المكاره وحصول الأماني ووقتها الموت ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ﴾ [النحل : 32] وعند دخول الجنة ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ﴾ [الرعد : 2324] وعند لقاء الله ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ [الأحزاب : 44] وسماع هذه البشارات في الدنيا على ألسنة الرسل لا يخرجها عن كونها بشارة في هذه الأوقات لأنها في الأول عامة للمكلفين مبهمة فيهم ولا تتعين إلا في هذه الأحوال . وقيل : هذه أنواع أخر من السعادات فوق ما عرفوها أو سمعوها نسأل الله الفوز بها . قال ابن زيد : نزلت في ثلاثة نفر كانوا

يقولون في الجاهلية لا إله إلا الله : زيد بن عمرو وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي . وعن ابن عباس أن أبا بكر آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فجاءه عثمان وعبد الرحمن وطلحة والزبير وسعد وسعيد فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا فأنزل الله ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول ﴾ أي من أبي بكر ﴿ فيتبعون أحسنه ﴾ وهو لا إله إلا الله . وقال أهل النظم : لما بين أن الذين اجتنبوا وأنابوا لهم البشرى وكان ذلك درجة عالية لا يصل إليها إلا الأقلون جعل الحكم أعم إظهاراً للرحمة فقال : كل من اختار الأحسن في كل باب كان من زمرة السعداء أهلاً للبشارة . وقال جار الله : أراد بعباده الذين يستمعون القول الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم أي هم الذين ضموا هذه الخصلة إلى تلك ، ولهذا وضع الظاهر في موضع المضمر .

(321/667)

وفي الآية دلالة على وجوب النظر والاستدلال وأنه إذا اعترض أمران واجب وندب ، فالأولى اختيار الواجب . وكذا الكلام في المباح والندب ، فالأولى اختيار الواجب . وكذا الكلام في المباح والندب كالقصاص والعفو وكل ما هو أحوط في الدين . مثاله في الأصول

القول بأن للعالم صانعاً حياً قديماً عليماً قادراً متصفاً بنعوت الجلال والإكرام وصفات الكمال والتمام ، أولى وأحوط من إنكاره . وكذا الإقرار بالبعث والجزاء أحوط من الإنكار ، وفي الفروع الصلاة المشتملة على القراءة والتشهد والتسليم وغيرها من الأركان والأبعاض المختلف فيها أجود من الصلاة الفارغة عنها أو عن بعضها . وقال العارفون : يسمعون من النفس الدعوة إلى الشهوات ، ومن الشيطان قول الباطل والغرور ، ومن الملك الإلهامات ، ومن الله ورسوله الدعاء إلى دار السلام ، فيقبلون كلام الله ورسوله والخواطر الحسنة دون غيرها . وعن ابن عباس : هو الرجل يجلس مع القوم فيستمع الحديث فيه محاسن ومساوٍ فيحدث بأحسن ما سمع ويكف عما سواه . ومن الواقفين من يقف على قوله ﴿ فبشر عبادي ﴾ ويبتدئ ﴿ الذين يستمعون ﴾ وخبره ﴿ أولئك الذين هداهم ﴾ وهو إشارة إلى الفاعل ﴿ وأولئك هم أولو الألباب ﴾ إشارة إلى أن جواهر نفوسهم قابلة لفيض الهداية بخلاف من لم يكن له قابلية ذلك وهو قوله ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب ﴾ قال جار الله : أصل الكلام أمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه فهي جملة شرطية دخل عليها الهمزة للإنكار ، وكررت الفاء الثانية للجزاء تأكيداً لمعنى الإنكار . ووضع من في النار موضع الضمير تصريحاً بجزائهم ، وأما الفاء الأولى فللعطف على محذوف يدل عليه سياق الكلام تقديره : أأنت مالك أمرهم ؟ فمن حق إلى آخره . وجوز أن يكون الكلام بعد المحذوف جملتين شرطية جزاؤها محذوف أيضاً ثم حملية والتقدير :

أفمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تخلصه أفأنت تنقذ من في النار ؟ قلت : فالكلام على هذا التقدير يشتمل على أربع جمل :

(322/667)

ثنتان بعد همزتي الإنكار محذوفتان والباقيتان ظاهرتان . ومن زعم أن الفاء بعد الهمزة لمزيد الإنكار لا للعطف فمجموع الآية شرطية كما ذكرنا ، أو هي مع حملية ثم صرح بجزاء المتقين فقال ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف ﴾ وهو كالمقابل لما مر في وعيد الكفار ﴿ لهم من فوقهم ظلل ﴾ ومعنى قوله ﴿ مبنية ﴾ والله أعلم . أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسوّيت تسويتها وجعلت متساوية في أسباب النزاهة من الأشجار والأنهار لا مثل أبنية الدنيا فان الفوقاني منها يكون أضعف من التحتاني وأخف ، والتحتاني قد يجري من تحتها الأنهار ، وأما الفوقاني فلا يمكن فهيا ذلك . قال حكماء الإسلام : الغرف المبنية بعضها فوق بعض هي العلوم المكتسبة المبنية على الفطريات ، وأنها تكون في المتانة واليقين كالعلوم الغريزية البديهية .

وحين وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة فيها أراد أن يصف الدنيا بما يقتضي النفرة عنها فقدم لذلك مقدمة يستدل بها على حقية الصانع أيضاً فقال ﴿ ألم تر أن الله أنزل من

السماء ماء فسلكه ﴾ أي أدخله في الأرض حال كون ذلك الماء ﴿ ينابيع ﴾ مثل الدم في العروق .

(323/667)

والينابيع جمع ينبوع وهو كل ماء يخرج من الأرض . وقيل : هو الموضع الذي يخرج منه الماء كالعيون والآبار فينصب على الظرف . وقوله ﴿ ثم يخرج ﴾ على لفظ المستقبل تصوير لتلك الحالة العجيبة الشأن وهي إخراج النبت المختلف الألوان والأصناف والخواص بسبب الماء المخالط للأرض ﴿ ثم يهيج ﴾ أي يتم جفافه . قال الأصمعي : لأنه إذا تم جفافه جاز له أن يثور عن منابته ويذهب ﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾ أي فتاتاً متكسراً ﴿ إن في ذلك ﴾ الذي ذكر من إنزال الماء وإخراج الزرع بسببه ﴿ لذكرى ﴾ لتذكيراً أو تنبيهاً على وجود الصانع ﴿ لأولي الألباب ﴾ وفيه أن الإنسان وإن طال عمره فلا بدّ له من الانتهاء إلى حالة اصفرار اللون وتحطم الأجزاء والأعضاء بل إلى الموت والفناء . وإنما قال ههنا ﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾ وفي الحديد ﴿ ثم يكون حطاماً ﴾ [الحديد : 20] لأن الفعل هناك مسند إلى النبات وهو قوله ﴿ أعجب الكفار نباته ﴾ وههنا مسند إلى الله من قوله ﴿ أنزل ﴾ إلى آخره . وحين بالغ في تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال

على طاعة الله والإعراض عن الدنيا الفانية بيّن أن ذلك البيان لا يكمل الانتفاع به إلا إذا شرح الله صدره ونور قلبه فقال ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ ولا يخفى ما في لفظه " على " من فائدة الاستعلاء والتمكن كما مر في قوله ﴿ أولئك على هدى ﴾ [البقرة : 5] والخبر محذوف كما ذكرنا في قوله ﴿ أمن هو قانت ﴾ يعني هذا الشخص المنشرح الصدر كمن طبع الله على قلبه يدل عليه ما بعده ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ أي من أجل سماع القرآن . وإنما عدى ب " من " لأن قسوة القلب تدل على خلوه من فوائد القرآن ويجوز أن يكون " من " للتعليل وذلك أن جواهر النفوس مختلفة فبعضها تكون مشرقة بنور الله يزيدها نور القرآن بهاء وضياء ، بعضها تكون مظلمة كدرة لا ينعكس نور الذكر إليها ولا تظهر صور الحق فيها كالمرآة الصدئة . ثم أكد وصف القرآن وكيفية

(324/667)

تأثيره في النفوس بقوله ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ عن ابن عباس وابن مسعود أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا له : حدثنا ، فنزلت الآية . والحديث كلام يتضمن الخبر عن حال متقدمة ووصفه بالحدوث من حيث النزول لا ينافي

قدمه من حيث إنه كلام نفسي . ووجه كونه أحسن لفظاً ومعنى مما لا يخفى على ذي طبع فضلاً عن ذي لب . وقوله ﴿ كتاباً ﴾ بدل من أحسن أو حال موطئة .

(325/667)

ومعنى ﴿ متشابهاً ﴾ أنه يشبه بعضه بعضاً في الإعجاز اللفظي والمعنوي والنظم الأنيق والأسلوب العجيب والاشتمال على الغيوب وعلى أصول العلوم كما مر في أوّل " البقرة " في تفسير قوله ﴿ وإن كنتم في ريب ﴾ [البقرة : 23] وقيل : هو من قوله ﴿ وأخر متشابهات ﴾ [آل عمران : 7] فيكون صفة لبعض القرآن . وقيل : يشبه اللفظ اللفظ والمعنى مختلف . وقوله ﴿ مثاني ﴾ جمع مثنى ومثنى بمعنى مكرر لما ثنى من قصصه وأحكامه ومواعظه ، أو لأنه يثني في التلاوة فلا يورث ملالاً كقوله " ولا يخلق على كثرة الرد " وقيل : المثاني لآي القرآن كالقوافي للشعر . وقد مر بعض هذه الأقوال في مقدمات الكتاب وفي سورة الحجر في قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ [الحجر : 87] ومعنى اقشعرار الجلد تقبضه . قال جار الله : تركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس مضموماً إليها الراء ليصير رباعياً دالاً على معنى زائد ، وهو تمثيل لشدة الخوف أو حقيقة سببه الخوف . قال المفسرون : أراد أنهم عند سماع آيات العذاب يخافون فتقشعر

جلودهم وعند سماع آيات الرحمة والإحسان أو تذكرهم لرأفته وأن رحمته سبقت غضبه تلين جلودهم وقلوبهم . ومعنى " إلى " في قوله ﴿ إلى ذكر الله ﴾ هو أنه ضمن لأن معنى سكن واطمأن . وقال العارفون : إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا وإن راح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا . وقال أهل البرهان : إذا اعتبر العقل موجوداً لا أول له ولا آخر لا حين ولا جهة وقع في بادية التحير والهيبة ، وإذا اعتبر الدلائل القاطعة على وجود موجود واجب لذاته واحد في صفاته وأفعاله اطمأن قلبه إليه . قال جار الله : إنما ذكرت الجلود أوّلاً وحدها لأن الخشية تدل على القلوب لأنها محل الخشية فكأنه قيل : تقشعر جلودهم بعد خشية قلوبهم ، ثم إذا ذكروا الله ومبنى أمره على الرأفة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم وبالقشعريرة ليناً في جلودهم . ويحتمل أن يقال : المكاشفة في مقام الرجاء

(326/667)

أكمل منها في مقام الخوف ، ومحل المكاشفات هو القلب ، فلذلك اختص ذكر القلب بجانب الرجاء . ثم أشار إلى الكتاب المذكور بقوله ﴿ ذلك هدى الله ﴾ كقوله ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 2] .

ثم بين أن القاسية قلوبهم حالين : أما في الدنيا فالضلال العام وهو قوله ﴿ ومن يضلل الله فما

له من هاد ﴾ وأما في الآخرة فقوله ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب ﴾ أي شدّته والخبر محذوف وهو كمن أمن العذاب واتقاء العذاب بوجهه إما حقيقة بأن تكون يداه مغلولة إلى عنقه فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه ، وإما أن يكون كناية عن عجزه عن الاتقاء وذلك أن الإنسان إذا وقع في نوع من العذاب فإنه يجعل يديه وقاية لوجهه الذي هو أشرف الأعضاء ، فكأنه قيل : لا يقدرون على الاتقاء إلا بالوجه ، والاتقاء بالوجه غير ممكن فلا اتقاء أصلاً ﴿ وقيل للظالمين ﴾ القائلون هم خزنة النار .

(327/667)

قوله ﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ تصوير لحال أمثالهم من الأمم الخالية بينا هم آمنون إذ أخذهم العذاب والخزي في الدنيا كالمسخ والقتل ونحوهما . ثم بين بقوله ﴿ ولقد ضربنا ﴾ إلى آخر الآيتين أن هذه البيانات بلغت في الكمال إلى حيث لا مزيد عليه . ثم ضرب من أمثال القرآن مثلاً لقبح طريقة أهل الشرك وهو رجل من المماليك قد اشترك ﴿ فيه شركاء متشاكسون ﴾ أي كلهم يسيء خلقه في استخدامه أو هم مختلفون في ذلك يأمره هذا بشيء وينهاه الآخر عن ذلك الشيء بعينه . والشكاسة سوء الخلق والاختلاف . ﴿ ورجلاً سالماً لرجل ﴾ أي خالصاً من الشرك . ومن قرأ بغير ألف فعلى حذف المضاف

أي ذا سلامة وذا خلوص من الشركة . وقال جار الله : وإنما جعله رجلاً ليكون أفطن لما شقي به أو سعد فان المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك . قلت : لا ريب أن الرجل أصل في كل باب فجعله مضرب المثل أولى نظيره ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم ﴾ [النحل : 76] ثم استفهم على سبيل الإنكار بقوله ﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ وهو تمييز أي هل يستوي حالاهما وصفتاهما . واقتصر في التمييز على الواحد لقصد الجنس والمراد تجهيل من يجعل المعبود متعدداً ، فليس رضا واحد كطلب رضا جماعة مختلفين .

وحاصله يرجع إلى دليل التمانع كما مرّ في قوله ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : 22] وقال أهل العرفان : الشركاء المتشاكسون تجاذب شغل الدنيا وشغل العيال وغير ذلك من الأشغال ، فأين ذلك الرجل ممن ليس له في الدنيا نصيب ولا له في الخلق نسيب وهو عن الآخرة غريب وإلى الله قريب . قوله ﴿ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ كما مرّ في " لقمان " قوله ﴿ إنك ميت ﴾ وجه النظم أنه سبحانه كأنه قال إن هؤلاء الأقوام إن لم يلتفتوا إلى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم في الدنيا ، فلا تبال يا محمد بهذا فإنك ستموت وهم أيضاً يؤلون إلى الموت فلو أنهم يتربصون بك الموت فإن الموت يعم الكل فلا

معنى لشماتة المرء بعد وفاة صاحبه ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ تحتج عليهم بأنك قد بلغت وهم يعتذرون بما لا طائل تحته ، وقد يخاصم الكفار بعضهم بعضاً حتى يقال لهم ﴿ لا تختصموا لديّ ﴾ [ق : 28] وقد يقع الاختصام بين أهل الملة في الدماء والمظالم التي بينهم والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 612. 624 ﴾

(329/667)

وقال الخطيب الشربيني :

سورة الزمر

مكية إلا قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية فمدنية وهي خمس وسبعون آية وألف ومائة واثنتا نو تسعون كلمة وأربعة آلاف وسبعمائة وثمانية أحرف ﴿ بسم الله ﴾ الذي له صفات الكمال ﴿ الرحمن ﴾ الذي أنعم على عباده بأنواع النعم ﴿ الرحيم ﴾ بأنواع المغفرة على المؤمنين من عباده .

﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أي : القرآن مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ من الله ﴾ أي : المتصف بجميع

صفات الكمال خبره أي : تنزيل الكتاب كائن من الله تعالى ، وقيل : تنزيل الكتاب خبر مبتدأ مضمر تقديره هذا تنزيل الكتاب من الله ﴿ العزيز ﴾ أي : الغالب في ملكه ﴿ الحكيم ﴾ أي : في صنعه ففي ذلك دلالة على أنه تعالى عالم بجميع المعلومات غني عن جميع الحاجات ، فإن قيل : إن الله تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلاً ومنزلاً وهذا الوصف لا يليق إلا بالمحدث المخلوق . أجيب : بأن ذلك محمول على الصيغ والحروف .

﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ أنزلنا عليك ﴾ يا أشرف الخلق خاصة بواسطة جبريل الملك ﴿ الكتاب ﴾ أي : القرآن الجامع لكل خير وقوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ يجوز أن يتعلق بالإنزال أي : بسبب الحق وأن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الفاعل أو المفعول وهو الكتاب أي : ملتبسين بالحق أو ملتبساً بالحق والصدق والصواب ، والمعنى : أن كل ما فيه من إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف فهو حق يجب العمل به ، وفي قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب ﴾ تكرير تعظيم بسبب إبرازه في جملة أخرى مضافاً إنزاله إلى المعظم نفسه ، فإن قيل : لفظ تنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله نجماً نجماً على وفق المصالح على سبيل التدريج ولفظ الإنزال يشعر بأنه تعالى أنزله دفعة واحدة . أجيب : بأن طريق الجمع أن يقال : إنا حكمنا حكماً كلياً بأنا نوصل إليك هذا الكتاب وهذا هو الإنزال ثم أوصلناه إليك نجماً نجماً على وفق المصالح .

ولما بين تعالى أن هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق أردفه ببيان بعض ما فيه من الحق والصدق ، وهو أن يشتغل الإنسان بعبادة الله تعالى على سبيل الإخلاص فقال سبحانه وتعالى : ﴿ فاعبد الله ﴾ أي : الحائز لجميع صفات الكمال حال كونك ﴿ مخلصاً له الدين ﴾ أي : ممحضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر .

﴿ ألا لله ﴾ أي : الملك الأعلى وحده ﴿ الدين الخالص ﴾ أي : لا يستحقه غيره فإنه المنفرد بصفات الألوهية والاطلاع على الأسرار والضمائر ، قال قتادة : الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله ، وقال مجاهد : الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الأوامر والنواهي لأن قوله تعالى : ﴿ فاعبد الله ﴾ عام وروي أن امرأة الفرزدق لما قربت وفاتها أوصت أن يصلي الحسن البصري عليها ، فلما دفنت قال الحسن البصري : يا أبا فراس ما الذي أعددت لهذا الأمر ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، فقال الحسن هذا العمود فأين الطنب ؟ قال ابن عادل فبين بهذا اللفظ الوجيز أن عمود الخيمة لا ينتفع به إلا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة أي : الانتفاع الكامل وإلا فهي ينتفع بها ولكن رأس العبادات الإخلاص في التوحيد واتباع الأوامر واجتناب النواهي .

﴿ والذين اتخذوا من دونه ﴾ أي : من دون الله ﴿ أولياء ﴾ وهم كفار مكة اتخذوا الأصنام وقالوا ﴿ ما نعبدهم ﴾ أي : لشيء من الأشياء ﴿ إلا ليقربونا إلى الله ﴾ أي :

الذي له معاقد العز ومجامع العظمة ﴿ زلفى ﴾ وذلك أنهم كانوا إذا قيل لهم من ربكم ومن خلقكم ومن خلق السموات والأرض قالوا : الله فيقال : فما عبادتكم لهم قالوا : ليقربونا إلى الله زلفى أي : قربى ، وهو اسم أقيم مقام المصدر كأنهم قالوا : إلا ليقربونا إلى الله تعالى تقريباً حسناً سهلاً وتشفع لنا عند الله تعالى:

(331/667)

﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ﴿ يحكم بينهم ﴾ أي : وبين المسلمين ﴿ فيما هم فيه يختلفون ﴾ أي : من أمر الدين فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ﴿ إن الله ﴾ أي : الملك القادر ﴿ لا يهدي ﴾ أي : لا يرشد ﴿ من هو كاذب ﴾ أي : في قوله إن الآلهة تشفع لهم مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وفي نسبة الولد إلى الله تعالى ﴿ كفار ﴾ أي : بعبادته غير الله تعالى .

﴿ لو أراد الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بصفات الكمال ﴿ أن يتخذ ولداً ﴾ أي : كما قالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴿ لاصطفى ﴾ أي : اختار ﴿ مما يخلق ما يشاء ﴾ أي : اتخذ ولداً غير من قالوا الملائكة بنات الله وعزير ابن الله والمسيح ابن الله ، كما قال تعالى ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ أي : كما زعموا ﴿ لاتخذناه من لدنا ﴾ (الأنبياء :)

إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوقه ومن البين أن المخلوق لا يماثل الخالق فيقوم مقام الولد له .

ثم نزه نفسه سبحانه فقال تعالى شأنه ﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزيهاً له عن ذلك وعما لا يليق بطهارته ثم أقام الدليل على هذا التنزيه المقتضي فقال تعالى : ﴿ هو ﴾ أي : الفاعل لهذا الفعال القائل لهذه الأقوال ﴿ الله ﴾ أي : الجامع لجميع صفات الكمال ثم ذكر من الأوصاف ما هو كالعلة لذلك فقال : ﴿ الواحد ﴾ أي : في ملكه الذي لا شريك له ولا ولد ولا والد له ﴿ القهار ﴾ أي : الغالب الكامل القدرة فكل شيء تحت قدرته .

ولما ثبتت هذه الصفات التي نفت أن يكون له شريك أو ولد وأثبتت له الكمال المطلق استدل على ذلك بقوله تعالى:

(332/667)

﴿ خلق السموات والأرض ﴾ أي : أبدعهما من العدم وقوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ متعلق بخلق لأن الدلائل التي ذكرها الله تعالى في إثبات الإلهية إما أن تكون فلكية أو أرضية ، أما الفلكية فأقسام ؛ أحدها : خلق السموات والأرض ، وثانيها : اختلاف الليل والنهار كما قال تعالى ﴿ يكور ﴾ أي : يدخل ﴿ الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ قال الحسن : ينقص من الليل فيزيد في النهار وينقص من النهار فيزيد في الليل فما نقص من الليل

دخل في النهار ، وما نقص من النهار دخل في الليل . قال البغوي : ومنتهى النقص تسع ساعات ، ومنتهى الزيادة : خمس عشرة ساعة . وقال قتادة : يغشى هذا هذا كما قال تعالى ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ (الأعراف :)

وقال الرازي : إن النور والظلمة عسكران عظيمان وفي كل يوم يغلب هذا ذاك وذاك هذا وذلك يدل على أن كل واحد مغلوب مقهور ولابد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله تعالى انتهى . وورد في الحديث : "نعوذ بالله من الحور بعد الكور" أي : من النقصان بعد الزيادة وقيل : من الإدبار بعد الإقبال .

﴿ وسخر ﴾ أي : ذلل وأكره وقهر وكلف لما يريد من غير نفع للمسخر ﴿ الشمس والقمر ﴾ فإن الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما ﴿ كلٌ ﴾ أي : منهما ﴿ يجري لأجل مسمى ﴾ أي : إلى يوم القيامة لا يزالان يجريان إلى هذا اليوم فإذا كان يوم القيامة ذهبا ، والمراد من هذا التسخير : أن هذه الأفلاك تدور كدوران المنجنون أي : الدولاب الذي يسقى عليه على حد واحد ﴿ ألا هو العزيز ﴾ أي : الغالب على أمره المنتقم من أعدائه ﴿ الغفار ﴾ أي : الذي له صفة الستر على الذنوب متكررة يمحو ذنوب من يشاء عيناً وأثراً بمغفرته .

ثم إنه تعالى لما ذكر الدلائل الفلكية أتبعها بذكر الدلائل السفلية فقال تعالى:

﴿ خلقكم ﴾ أيها الناس المدعون إلهية غيره ﴿ من نفس واحدة ﴾ وهي آدم عليه السلام ﴿ ثم جعل منها ﴾ أي : من تلك النفس ﴿ زوجها ﴾ حواء وإنما بدأ منها بذكر الإنسان لأنه أقرب وأكبر دلالة وأعجب ، وفيه ثلاث دلالات : خلق آدم أولاً من غير أب وأم ، ثم خلق حواء من قصيراه ، ثم تشعب الخلق الفائت للحصر منهما فهما آيتان إلا أن إحداهما جعلها الله تعالى عادة مستمرة والأخرى لم تجر بها العادة ولم يخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل .

تنبيه : في ثم هذه أوجه ؛ أحدها : أنها على بابها من الترتيب بمهلة وذلك يروى أن الله تعالى أخرج ذرية آدم ثم ظهره كالذر ثم خلق حواء بعد ذلك بزمان . ثانيها : أنها على بابها أيضاً لكن لمدرك آخر وهو أن يعطف بها ما بعدها على ما فهم من الصفة في قوله تعالى ﴿ واحدة ﴾ إذ التقدير من نفس وحدت أي : انفردت ثم جعل منها زوجها . ثالثها : أنها للترتيب في الإخبار لا في الزمان الوجودي كأنه قيل : كان من أمرها قبل ذلك أن جعل منها زوجها .

رابعها : أنها للترتيب في الأحوال والرتب . وقال الرازي : إن ثم كما تجيء لبيان كون إحدى الواقعتين متأخرة عن الثانية فكذلك تجيء لبيان تأخر إحدى الكلامين عن الآخر كقول القائل : بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب وأعطيتك اليوم شيئاً ثم الذي

أعطيتك أمس أكثر .

وقوله تعالى : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ﴾ عطف على خلقكم والإنزال يحتمل الحقيقة ، يروى أن الله تعالى خلقها في الجنة ثم أنزلها ، ويحتمل المجاز وله وجهان ؛ أحدهما : أنها لما لم تعش إلا بالنبات والنبات إنما يعيش بالماء والماء ينزل من السحاب أطلق الإنزال عليها وهو في الحقيقة يطلق على سبب السبب كقول القائل:

*إذا نزل السماء بأرض قوم ** رعيناه وإن كانوا غضابا *

(334/667)

والثاني : أن قضاياه وأحكامه منزلة من السماء من حيث كتبها في اللوح المحفوظ وهو أيضاً سبب في إيجادها . وقال البغوي : معنى الإنزال ههنا الإحداث والإنشاء كقوله تعالى : ﴿ أنزلنا عليكم لباساً ﴾ (الأعراف :)

وقيل : إنه إنزال الماء الذي هو سبب ثبات القطن والكتان وغيرهما الذي يجعلون منه اللباس . وقيل : معنى قوله ﴿ أنزل لكم من الأنعام ﴾ جعلها نزلاً لكم ورزقاً ومعنى قوله ﴿ ثمانية أزواج ﴾ أي : ثمانية أصناف وهي الإبل والبقر والضأن والمعز من كل زوجان ذكر وأنثى كما بين في سورة الأنعام وقوله تعالى : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم ﴾ بيان لكيفية

خلق ما ذكر من الأناسي والأنعام إظهاراً لما فيها من عجائب القدرة غير أنه تعالى غلب أولي العقل أو خصهم بالخطاب لأنهم المقصودون ، وقرأ حمزة والكسائي في الوصل بكسر الهمزة ، والباقون : بالضم وفي الابتداء الجميع بالضم وكسر حمزة الميم وفتحها الباقون ومعنى قوله تعالى : ﴿ خلقاً من بعد خلق ﴾ ما ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ (المؤمنون : ـ) الآيات ، وأما قوله تعالى : ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ فقال ابن عباس : ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة ، وقيل : الصلب والرحم والبطن ﴿ ذلكم ﴾ أي : العالي المراتب بشهادتكم أيها الخلق كلكم بعضكم بلسان قاله وبعضكم بناطق حاله الذي جميع ما ذكر من أول السورة إلى هنا من أفعاله .

ولما أشار إلى عظمته بأداة البعد أخبر عن اسم الإشارة بقوله تعالى : ﴿ الله ﴾ أي : الذي خلق هذه الأشياء ﴿ ربكم ﴾ أي : الملك والمربي لكم بالخلق والرزق فهو المستحق لعبادتكم وقوله تعالى : ﴿ له الملك ﴾ يفيد الحصر أي : له الملك لا لغيره .

ولما ثبت أنه لا ملك إلا له وجب القول بأنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي : لا يشاركه في الخلق غيره . ولما بين بهذه الدلائل كمال قدرته ورحمته زيف طريقة المشركين بقوله تعالى : ﴿ فأنى ﴾ أي : فكيف ومن أي : وجه ﴿ تصرفون ﴾ عن طريق الحق بعد هذا البيان . ﴿ إن تكفروا فإن الله ﴾ أي : الذي له الكمال كله ﴿ غني عنكم ﴾ لأنه تعالى ما كلف المكلفين ليجر إلى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة لأنه تعالى غني على الإطلاق ، فيمتنع في حقه جر المنفعة ودفع المضرة ؛ لأنه تعالى واجب الوجود لذاته ، وواجب الوجود لذاته في جميع أفعاله يكون غنياً على الإطلاق ، وأيضاً فالقادر على خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسي والعناصر الأربعة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو وأن يستضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك ﴿ ولا يرضى لعباده ﴾ أي : لأحد منهم ﴿ الكفر ﴾ أي : بالإقبال على ما سواه وأنتم لا ترضون ذلك لعبيدكم مع أن ملككم لهم في غاية الضعف ، ومعنى عدم الرضا به : لا يفعل فعل الراضي بأن يأذن فيه ويقر عليه ويثيب فاعله ويمدحه بل يفعل فعل الساخط بأن ينهى عنه ويذم عليه ويعاقب مرتكبه وإن كان بإرادته إذ لا يخرج شيء عنها ، وهذا قول قتادة والسلف أجروه على عمومه ، وقال ابن عباس : ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفر وهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ (الإسراء :)

فيكون عاماً في اللفظ خاصاً في المعنى كقوله تعالى : ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾

(الإنسان :)

يريد بعض العباد .

﴿ وإن تشكروا ﴾ الله تعالى أي : فتؤمنوا بربكم وتطيعوه ﴿ يرضه لكم ﴾ أي : فيثيبكم عليه لأنه سبب فلاحكم . وقرأ السوسي في الوصل بسكون الهاء ، وللدوري وهشام وجهان السكون والضم وصلة الهاء بواو للدوري ، وابن كثير وابن ذكوان والكسائي والباقون بالسكون وهو لغة فيه .

(336/667)

﴿ ولا تزر ﴾ أي : نفس ﴿ وازرة وزر ﴾ نفس ﴿ أخرى ﴾ أي : لا تحمله بل وزر كل نفس عليها لا يتعداها يحفظ عليها مدة كونها في دار العمل . واحتج بهذا من أنكر وجوب الدية على العاقلة ورد بأن السنة خصصت ذلك ، وأما الإثم الذي يكتب على الإنسان بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليس وزر غيره ، وإنما هو وزر نفسه فوزر الفاعل على الفعل ووزر الساكت على الترك لما لزمه من الأمر والنهي . وقوله تعالى : ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم ﴾ يدل على إثبات البعث والقيامة ﴿ فينبئكم بما كنتم تعلمون ﴾ فيه تهديد للعاصي وبشارة للمطيع وقوله تعالى : ﴿ إنه عليم ﴾ أي : بالغ العلم ﴿ بذات

الصدور ﴾ أي : بما في القلوب كالعلة لما سبق أي : إنه تعالى ينبئكم بأعمالكم لأنه عالم بجميع المعلومات فيعلم ما في قلوبكم من الدواعي والصوارف ، قال صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" .

ولما بين تعالى فساد القول بالشرك وبين تعالى أنه الذي يجب أن يعبد بين أن طريقة الكفار متناقضة بقوله تعالى:

﴿ وإذا مس الإنسان ﴾ أي : هذا النوع الآنس بنفسه ﴿ ضر دعا ربه ﴾ لأنهم إذا مسهم الضر طلبوا رفعه من الله تعالى وإذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام فكان الواجب عليهم أن يتعرفوا بالله تعالى في جميع الأحوال لأنه القادر على إيصال الخير ودفع الشر فظهر تناقض طريقهم والمراد بالإنسان : الكافر ، وقيل : المؤمن والكافر ، وقيل المراد : أقوام معينون كعتبة بن ربيعة وغيره ، والمراد بالضر : جميع المكاره في جسمه أو ماله أو أهله أو ولده لعموم اللفظ وقوله تعالى ﴿ منيباً ﴾ حال من فاعل دعا وقوله تعالى ﴿ إليه ﴾ متعلق بمنيباً أي : راجعاً إليه في إزالة ذلك الضر لأن الإنابة الرجوع ﴿ ثم إذا خوله ﴾ أي : أعطاه ﴿ نعمة ﴾ مبتدأة ﴿ منه ﴾ أي : من غير مقابل ولا يستعمل في الجزاء بل في ابتداء العطية قال زهير:

* * * هنالك إن يستخولوا المال يخولوا *

ويروى أن يستخيلوا المال يخيلو وقال أبو النجم:

*أعطى فلم يبخل ولم يبخل ** كوم الذرى من خول المخوّل*

وحقيقة خول من إحدى معنيين : إما من قولهم : هو خائل مال إذا كان متعهداً له حسن القيام عليه ، وإما من خال يخول إذا اختال وافتخر ومنه قول العرب : إن الغني طويل الذيل مياس . ﴿ نسي ﴾ أي : ترك ﴿ ما ﴾ أي : الأمر الذي ﴿ كان يدعو ﴾ أي : يتضرع ﴿ إليه من قبل ﴾ أي : قبل النعمة .

تنبيه : يجوز في ما هذه أوجه ؛ أحدها : أن تكون موصولة بمعنى الذي مراعى بها الضر الذي كان يدعو إلى كشفه أي : ترك دعاءه كأنه لم يتضرع إلى ربه ، ثانيها : أنها بمعنى الذي مراداً بها البارئ تعالى أي : نسي الله الذي كان يتضرع إليه وهذا عند من يجيز وقوع ما على أولي العلم . وقال الرازي : ما بمعنى من كقوله تعالى : ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ (الليل :)

وقوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ (الكافرون :)

وقوله ﴿ فانكحوا ما طاب لكم ﴾ (النساء :)

ثالثها : أن تكون مصدرية أي : نسي كونه داعياً ﴿ وجعل ﴾ أي : ذلك الإنسان زيادة على الكفران بالنسيان للإحسان ﴿ لله ﴾ أي : الذي لا مكافئ له بشهادة الفطرة والسمع

والعقل ﴿ أنداداً ﴾ أي : شركاء ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ أي : دين الإسلام وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء بعد اللام أي : ليفعل الضلال بنفسه والباقون بضمها أي : لم يقنع بضلاله في نفسه حتى يحمل غيره عليه فمفعوله محذوف ، واللام يجوز أن تكون للعلة وأن تكون لام العاقبة كقوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ (القصص :)

(338/667)

واختلف في سبب نزول قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قل ﴾ أي : لهذا الذي قد حكم بكفره ﴿ تمتع ﴾ أي : في هذه الدنيا ﴿ بكفرك قليلاً ﴾ أي : بقية أجلك فقال مقاتل : نزل في أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي ، وقيل : في عتبة بن ربيعة وقيل : عام في كل كافر ، وهذا أمر تهديد وفيه إقناط للكافر من التمتع في الآخرة ولذلك علله بقوله تعالى : ﴿ إنك من أصحاب النار ﴾ أي : الذين لم يخلقوا إلا لها على سبيل الاستئناف للمبالغة قال تعالى ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾ (الأعراف :) الآية .

ولما شرح الله تعالى صفات المشركين وتمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح المخلصين فقال

تعالى:

﴿ أمن هو قانتٌ ﴾ أي : قائم بوظائف الطاعات ﴿ آناء الليل ﴾ أي : جميع ساعاته ومن إطلاق القنوت على القيام قوله صلى الله عليه وسلم "أفضل الصلاة صلاة القنوت" وهو القيام فيها ومنه القنوت لأنه يدعو قائماً ، وعن ابن عمر أنه قال : لا أعلم القنوت إلا قراءة القرآن وطول القيام وتلا ﴿ أمن هو قانت ﴾ وعن ابن عباس : القنوت الطاعة لقوله تعالى : ﴿ كل له قانتون ﴾ (البقرة :)

أي : مطيعون ، وقرأ نافع وابن كثير وحمزة بتخفيف الميم والباقون بتشديدها وفي القراءة الأولى وجهان ؛ أحدهما : أن الهمزة همزة الاستفهام دخلت على من بمعنى الذي والاستفهام للتقرير ومقابله محذوف تقديره أمن هو قانت كمن جعل لله أنداداً أو أمن هو قانت كغيره ، وأما القراءة الثانية : فأم داخلة على من الموصولة أيضاً فأدغمت الميم في الميم وفي أم حينئذ قولان ؛ أحدهما : أنها متصلة ومعادلها محذوف تقديره الكافر خير أم الذي هو قانت ، والثاني : أنها منقطعة فتقدر ببل والهمزة أي : بل أمن هو قانت كغيره أو كالكافر المقول له تمتع بكفرك وقوله تعالى ﴿ ساجداً ﴾ أي : وراكعاً ﴿ وقائماً ﴾ أي : وقاعداً في صلاته حالان من ضمير قانت .

تنبيه : في هذه الآية دلالة على أن قيام الليل أفضل من قيام النهار ، واختلف في سبب نزولها فقال ابن عباس : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقال الضحاك : في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وقال أبو عمرو : في عثمان رضي الله تعالى عنه ، وقال الكلبي : في ابن مسعود وعمار وسلمان رضي الله تعالى عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ يحذر الآخرة ﴾ أي : عذاب الآخرة يجوز أن يكون حالاً من الضمير في ساجداً وقائماً أو من الضمير في قانت وأن يكون مستأنفاً جواباً لسؤال مقدر كأنه قيل : ما شأنه يقنت آناء الليل ويتعب نفسه ويكدها قيل : يحذر الآخرة ﴿ ويرجو رحمة ﴾ أي : جنة ﴿ ربه ﴾ الذي لم يزل يتقلب في إنعامه وفي الكلام حذف والتقدير كمن لا يفعل شيئاً من ذلك ، وإنما حسن هذا الحذف لدلالة ذكر الكافر قبل هذه الآية وذكر بعدها .

﴿ قل هل يستوي ﴾ أي : في الرتبة ﴿ الذين يعلمون ﴾ أي : وهم الذين صفتهم أنهم يقنتون آناء الليل ساجدين وقائمين ﴿ والذين لا يعلمون ﴾ أي : وهم صفتهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغ يشركون ، وإنما وصف الله تعالى الكفار بأنهم لا يعلمون لأن الله تعالى وإن أعطاهم آلة العلم إلا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم ، فلهذا جعلهم الله تعالى كأنهم ليسوا من أولي الألباب من حيث إنهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم ، وفي هذا تنبيه على فضيلة العلم ، قيل : لبعض العلماء : إنكم تقولون : العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء ،

عند أبواب الملوك ولا نرى الملوك عند أبواب العلماء فأجاب بأن هذا أيضاً يدل على فضيلة العلم لأن العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه ، والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فلا جرم تركوه .

(340/667)

وقال في الكشاف : وأراد بالذين يعلمون العاملين من علماء الديانة كأنه جعل من لا يعمل غير عالم ، قال : وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون ويفتنون ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله تعالى جهلة حيث جعل الله تعالى القانتين هم العلماء ، قال : ويجوز أن يراد على سبيل التشبيه أي : كما لا يستوي العالمون والجاهلون كذلك لا يستوي القانتون والعاصون ا . ه ، وعن الحسن : أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو فقال : هذا تمنَ ، وإنما الرجاء قوله تعالى وتلا هذه الآية . ﴿ إنما يتذكر ﴾ أي : يتعظ ﴿ أولو الألباب ﴾ أي : أصحاب العقول الصافية والقلوب النيرة وهم الموصوفون في آخر سورة آل عمران بقوله تعالى : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ (آل عمران :) إلى آخرها .

ولما نفى الله تعالى المساواة بين من يعلم وبين من لا يعلم أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم

بأن يخاطب المؤمنين فقال سبحانه:

﴿ قل ﴾ أي : لهم ﴿ يا عبادي الذين آمنوا ﴾ أي : أوجدوا هذه الحقيقة ﴿ اتقوا ربكم ﴾ أي : بطاعته واجتناب معاصيه ثم بين تعالى لهم ما في هذا الاتقاء من الفوائد بقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا ﴾ أي : بالطاعة ﴿ حسنة ﴾ أي : في الآخرة وهي الجنة والتنكير في حسنة للتعظيم أي : حسنة لا يصل العقل إلى كنه كمالها ، فقوله تعالى : ﴿ في هذه الدنيا ﴾ متعلق : بأحسنوا وقيل : متعلق ﴿ بحسنة ﴾ وعلى هذا قال السدي : معناه في هذه الدنيا حسنة يعني الصحة والعافية . قال الرازي : الأولى أن يحمل على الثلاثة المذكورة في قوله صلى الله عليه وسلم "ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية" ا . هـ ورد بأنه يتعين حمله على حسنة الآخرة لأن ذلك حاصل للكفار أكثر من حصوله للمؤمنين كما قال صلى الله عليه وسلم "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" .

(341/667)

واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ وأرض الله ﴾ أي : الذي له الملك كله والعظمة الشاملة ﴿ واسعة ﴾ فقال ابن عباس : يعني ارتحلوا من مكة وفيه حث على الهجرة من البلد الذي تظهر فيه المعاصي ونظيره قوله تعالى : ﴿ قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في

الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ (النساء :)

وقيل : نزلت في مهاجري الحبشة . وقال سعيد بن جبير : من أمر بالمعاصي فليهرب ، وقال أبو مسلم : لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة كما قال تعالى : ﴿ جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ (آل عمران :)

﴿ إنما يوفى ﴾ أي : التوفية العظيمة ﴿ الصابرون أجرهم ﴾ أي : على الطاعات وما يبتلون به ، وقيل : نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حيث لم يتركوا دينهم لما اشتد بهم البلاء وصبروا وهاجروا ومعنى ﴿ بغير حساب ﴾ أي : بغير نهاية بكيل أو وزن لأن كل شيء داخل تحت الحساب فهو متناهٍ ، فما لا نهاية له كان خارجاً عن الحساب . وعن ابن عباس : لا يهتدي إليه حساب الحُسَّاب ولا يعرف . وقال علي كرم الله وجهه ورضي الله تعالى عنه : كل مطيع يكال له كيلاً أو يوزن له وزناً إلا الصابرين فإنه يحثى لهم حثياً . وروى الشعبي لكن بسند ضعيف عن النبي صلى الله عليه وسلم "أن الموازين تنصب يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون أجورهم ولا ينصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صباً حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل" .

ولما كان للعبادة ركنان : عمل القلب وعمل الجوارح ، وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح فقدمه سبحانه بقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : يا أشرف المرسلين ﴿ إني أمرت ﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بسكونها ﴿ أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي : مخلصاً له التوحيد لا أشرك به شيئاً ثم ذكر عقبه الأدون وهو عمل الجوارح وهو الإسلام المذكور في قوله:

(342/667)

﴿ وأمرت لأن ﴾ أي : لأجل أن أو بأن ﴿ أكون أول المسلمين ﴾ أي : من هذه الأمة وبهذا زال التكرار .

وقال الزمخشري : فإن قلت كيف عطف أمرت على أمرت وهما واحد ؟ قلت : ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما ، وذلك أن الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق في الدين شيء آخر ، وإذا اختلف وجها الشيء وصفتاه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين .

ولما دعا المشركون النبي صلى الله عليه وسلم إلى دين آبائه أمره الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿ قل إني أخاف إن عصيت ربي ﴾ أي : المحسن إلي المربي لي بكل جميل وعبدت غيره ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ والمقصود من هذا الأمر المبالغة في زجر الغير عن المعاصي ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو أني بفتح الياء والباقون بسكونها .

﴿ قل الله ﴾ أي : المحيط بصفات الكمال وحده ﴿ أعبد مخلصاً له ﴾ وحده ﴿ ديني ﴾ من الشرك .

قال الرازي : فإن قيل : ما معنى التكرير في قوله تعالى ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ وقوله تعالى:

﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ﴾ قلنا : ليس هذا بتكرير لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى بالإيمان بالعبادة ، والثاني : إخبار بأنه أمر أن لا يعبد أحداً غير الله تعالى ، وذلك أن قوله ﴿ أمرت أن أعبد الله ﴾ لا يفيد الحصر وقوله تعالى : ﴿ قل الله أعبد ﴾ يفيد الحصر أي : الله أعبد ولا أعبد أحداً سواه .

ويدل عليه أنه لما قال ﴿ قل الله أعبد ﴾ قال بعده:

(343/667)

﴿ فاعبدوا ﴾ أي : أنتم أيها الداعون في وقت الضراء المعرضون في وقت الرخاء ﴿ ما شئتم من دونه ﴾ أي : غيره في هذا تهديد وزجر لهم وإيذان بأنهم لا يعبدون الله تعالى ، ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله سبحانه ﴿ قل إن الخاسرين ﴾ أي : الكاملين في الخسران ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي : أوقعوها في هلاك لا يعقل هلاك أعظم منه ﴿ و ﴾

خسروا ﴿ أهليهم يوم القيامة ﴾ أيضاً لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا ذهاباً لا رجوع بعده البتة . وقوله تعالى ﴿ ألا ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم البعيد الرتبة في الخسارة ﴿ هو الخسران المبين ﴾ أي : البين يدل على غاية المبالغة من وجوه ؛ أحدها : أنه وصفهم بالخسران ثم أعاد ذلك بقوله تعالى : ﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ وهذا التكرير لأجل التأكيد ، وثانيها : ذكر حرف ألا وهو للتنبيه ، وذكر التنبيه يدل على التعظيم ، كأنه قال : بلغ في العظم إلى حيث لا تصل عقولكم إليه فتنبهوا له ، وثالثها : قوله تعالى ﴿ هو الخسران ﴾ ولفظة هو تفيد الحصر كأنه قيل : كل خسران يصير في مقابلته كل خسران ، ورابعها : وصفه تعالى بكونه خسراناً مبيناً يدل على التهويل .

ولما شرح الله تعالى خسرانهم وصف ذلك الخسران بقوله تعالى:

﴿ لهم من فوقهم ظلل ﴾ أي : طباق ﴿ من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ أي : فرش ومهاد نظيره قوله تعالى : ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ (الأعراف :) ، فإن قيل : الظلة ما علا الإنسان فكيف سمى ما تحته ظلة ؟

أجيب بأوجه : أحدها : أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ (الشورى :) ، ثانيها : أن الذي تحته يكون ظلة لغيره لأن النار دركات كما أن الجنة درجات ، ثالثها : أن الظلة التحتانية لما كانت مشابهة للظلة

الفوقانية في الحرارة والإحراق والإيذاء أطلق اسم إحداهما على الأخرى لأجل المماثلة والمشابهة وقيل المراد : إحاطة النار بهم من جميع الجهات .

(344/667)

﴿ ذلك ﴾ أي : العذاب المعد للكفار ﴿ يخوف الله به عباده ﴾ أي : المؤمنين ليتجنبوا ما يوقعهم فيه ، وقيل : يخوف به الكفار والضلال ويدل للأول قوله تعالى : ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ أي : ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة ، ووجه الدلالة أن إضافة العبيد إلى الله تعالى في القرآن مختص بأهل الإيمان .

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ أي : البالغ غاية الطغيان والطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيه قلباً بتقديم اللام على العين إذ أصله طغيوت قدمت الياء على الغين ثم قلبت الفاء لتحركها وانفتاح ما قبلها ، أطلقت على الشيطان أو الشياطين لكونها مصدراً وفيها مبالغات وهي التسمية بالمصدر كأنّ عين الشيطان طغيان وإن البناء بناء مبالغة ، فإن الرحموت الرحمة الواسعة ، والملكوت الملك المبسوط ، والقلب وهو للاختصاص قال في الكشاف : إذ لا تطلق على غير الشيطان والمراد بها هنا : الجمع انتهى . r

لكن ابن الخازن فسر الطاغوت بالأوثان وتبعه الجلال المحلي .

فإن قيل : يتعين هذا التفسير لأنهم إنما عبدوا الصنم لا الشيطان . أجيب : بأن الداعي إلى عبادة الصنم هو الشيطان فلما كان هو الداعي كانت عبادة الصنم عبادة له .

فإن قيل : ما وجه تسمية الصنم بالطاغوت على التفسير الثاني مع أنه لا يطلق إلا على الشيطان كما مر ؟

أجيب : بأنه أطلق عليه على سبيل المجاز لأن الطغيان لما حصل بسبب عبادته والتقرب إليه وصفه بذلك إطلاقاً لاسم السبب على المسبب بحسب الظاهر . وقوله تعالى : ﴿ أن يعبدوها ﴾ بدل اشتمال من الطاغوت لأن الطاغوت مؤنث كأنه قيل : اجتنبوا عبادة الطاغوت . فإن قيل : على التفسير الأول إنما عبدوا الصنم لا الشيطان ؟

أجيب : بأنه الداعي إلى عبادة الصنم .

(345/667)

فائدة : نقل في التواريخ أن الأصل في عبادة الأصنام أن القوم مشبهة واعتقدوا في الإله أنه نور عظيم وأن الملائكة أنوار مختلفة في الصغر والكبر فوضعوا تماثيل صور على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقادهم أنهم يعبدون الله والملائكة .

﴿ وأنابوا ﴾ أي : رجعوا ﴿ إلى الله ﴾ أي : إلى عبادة الله بكليتهم وتركوا ما كانوا عليه من عبادة غيره ثم إنه تعالى وعد هؤلاء بأشياء أحدها قوله تعالى : ﴿ لهم البشرى ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا : فالثناء عليهم بصالح أعمالهم وعند نزول الموت وعند الوضع في القبر ، وأما في الآخرة : فعند الخروج من القبور وعند الوقوف للحساب وعند جواز الصراط وعند دخول الجنة ففي كل موقف من هذه المواقف تحصل لهم البشارة بنوع من الخير والراحة والروح والريحان .

تنبيه : يحتمل أن يكون المبشر لهم هم الملائكة عليهم السلام لأنهم يبشرونهم عند الموت لقوله تعالى : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ﴾ (النحل :)

وعند دخول الجنة لقوله تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ (الرعد : ـ)

ويحتمل أن يكون هو الله تعالى لقوله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ (الأحزاب :)

ولا مانع أن يكون من الله تعالى ومن الملائكة عليهم السلام فإن فضل الله سبحانه واسع

وقوله تعالى : ﴿ فبشر عباد ﴾ قرأه السوسي بياء بعد الدال مفتوحة في الوصل ساكنة في الوقف والباقون بغير ياء .

﴿ الذين يستمعون ﴾ أي : بجميع قلوبهم ﴿ القول فيتبعون ﴾ أي : بكل عزائمهم بعد انتقاده ﴿ أحسنه ﴾ أي : بما دلتهم عليه عقولهم من غير عدول إلى أدنى .

تنبيه : في هذا وضع الظاهر موضع مضمر ﴿ الذين اجتنبوا ﴾ للدلالة على مبدإ إحسانهم وأنهم نقاد في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب أو مباح وندب اختاروا الندب حرصاً على ما هو أقرب عند الله وأكثر ثواباً ، ويدخل تحت ذلك أبواب التكاليف وهي قسمان : عبادات ومعاملات ، فأما العبادات فكقولنا : الصلاة التي يذكر في تحريمها الله أكبر مع اقتران النية ويقرأ فيها بالفاتحة ويؤتى فيها بالطمأنينة في مواضعها الخمسة ويتشهد فيها ويخرج منها بالسلام ، لا شك أنها أحسن من الصلاة التي لا يراعى فيها شيء من هذه الأحوال . قال الرازي : فوجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة دون غيرها ا .ه وكذا القول في جميع أبواب العبادات . قال في الكشاف : ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها على السبر وأبينها دليلاً أو أمارة ولا تكن في مذهبك كما قال القائل:

ولا تكن مثل غير قيد فانقادا

يريد : المقلد ا .ه ، وأما المعاملات فكإنظار المعسر وإبرائه فالإبراء أولى وإن كان الأول واجباً ، والثاني : مندوباً وكذا القول في جميع المعاملات . وقيل : يسمعون القرآن وغيره

فيتبعون القرآن وقيل : يسمعون أوامر الله تعالى فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو قال تعالى : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ (البقرة :)

وعن ابن عباس : هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوىء فيحدث بأحسن ما يسمعه ويكف عما سواه . وروي عن ابن عباس آمن أبو بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم فجاءه عثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد فسألوه فأخبرهم بإيمانه فآمنوا فنزل فيهم ﴿ فبشر عبادي ﴾ الآية .

(347/667)

﴿ أولئك ﴾ أي : العالو الهمة والرتبة ﴿ الذين هداهم الله ﴾ بما له من صفات الكمال لدينه ﴿ وأولئك أولو الألباب ﴾ أي : أصحاب العقول السليمة عن منازعة الوهم والعادة ، وقال أبو زيد : نزل ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ (الزمر :)

الآيتين في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون لا إله إلا الله زيد بن عمرو وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي والأحسن لا إله إلا الله .

وفي هذه الآية لطيفة وهي : أن حصول الهداية في العقل والروح حادث فلا بد من فاعل

وقابل ، فأما الفاعل : فهو الله تعالى وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾ وأما القابل فإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وأولئك هم أولو الألباب ﴾ فإن الإنسان ما لم يكن عاقلاً كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقيقية في قلبه .

واختلف في معنى قوله تعالى:

﴿ أفمن حق ﴾ وأسقط تاء التأنيث الدالة على اللين تأكيداً للنهي عن الأسف عليهم ﴿ عليه كلمة العذاب ﴾ فقال ابن عباس معنى الآية من سبق في علم الله أنه في النار ، وقيل : كلمة العذاب قوله تعالى : ﴿ لأملأن جهنم ﴾ (الأعراف :)

الآية وقيل : قوله تعالى : "هؤلاء للنار ولا أبالي" وقوله تعالى ﴿ أفأنت تنقذ ﴾ أي : تخرج ﴿ من في النار ﴾ جواب الشرط وأقيم فيه الظاهر مقام الضمير إذ كان الأصل أفأنت تنقذه ، وإنما وقع موقعه شهادة عليه بذلك ، والهمزة للإنكار والمعنى : لا تقدر على هدايته فتنقذه من النار وقال ابن عباس : يريد أبا لهب وولده ويجوز أن تكون من موصولة في محل رفع بالابتداء وخبره محذوف . واختلف في تقديره فقدره أبو البقاء كمن نجا وقدره الزمخشري فأنت تخلصه أي : حذف لدلالة أفأنت تنقذ عليه وقدره غيرهما تتأسف عليه وقدره آخر يتخلص منه أي : من العذاب .

وقوله تعالى:

﴿ لكن الذين اتقوا ربهم ﴾ استدراك بين شبهي نقيضين أو ضدين وهما المؤمنون والكافرون أي : جعلوا بينهم وبين المحسن إليهم وقاية في كل حركة وسكون فلم يجعلوا شيئاً من ذلك إلا بنظر يد لهم على رضاه وقوله تعالى : ﴿ لهم غرف ﴾ أي : علالي من الجنة يسكنونها ﴿ من فوقها غرف ﴾ شديدة العلو مقابل لما ذكر في وصف الكفار لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل والمعنى لهم منازل في الجنة رفيعة ومن فوقها منازل أرفع منها .

فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ مبنية ﴾ ؟

أجيب : بأن المنزل إذا بني على منزل آخر كان الفوقاني أضعف بناء من التحتاني فقوله تعالى : ﴿ مبنية ﴾ فائدته أنه وإن كان فوق غيره لكنه في القوة والشدة مساوٍ للمنزل الأسفل .

ولما كانت المنازل لا تطيب إلا بالماء وكان الجاري أحسن أشرف قال تعالى ﴿ تجري من تحتها ﴾ أي : من تلك الغرف الفوقانية والتحتانية ﴿ الأنهار ﴾ أي : المختلفة كما قال تعالى : ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ﴾ (محمد :)

وقوله تعالى : ﴿ وعد الله ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة فهو منصوب بفعله المقدر لأن

قوله تعالى : ﴿ غرف ﴾ في معنى وعدهم الله ذلك ﴿ لا يخلف الله الميعاد ﴾ لأن الخلف نقص وهو على الله سبحانه محال ، وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال : بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين" وقوله : الغابر أي : الباقي في الأفق في ناحية المشرق والمغرب .

ولما وصف الله تعالى الآخرة بوصف يوجب الرغبة العظيمة فيها وصف الدنيا بصفات توجب اشتداد النفرة عنها بقوله تعالى:

(349/667)

﴿ ألم تر ﴾ أي : تعلم ﴿ أن الله ﴾ أي : الذي له كمال القدرة ﴿ أنزل من السماء ﴾ أي : التي لا يستمسك الماء فيها إلا بقدرة باهرة تقهر الماء على ذلك ، والمراد بالسماء : الجرم أو السحاب ﴿ ماء ﴾ وهو المطر ، قال الشعبي : كل ماء في الأرض فمن السماء نزل ثم إنه تعالى ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسمه ﴿ فسلكه ﴾ أي : أدخل ذلك الماء خلال التراب حال كونه ﴿ ينابيع في الأرض ﴾ أي : عيوناً ومجاري ومسالك كالعروق في الأجسام ﴿ ثم

يخرج ﴾ الله تعالى ﴿ به ﴾ أي : بالماء ﴿ زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾ من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ومختلفاً أصنافه من بر وشعير وسمسم وغيرها ﴿ ثم يهيج ﴾ أي : ييبس ﴿ فتراه ﴾ بعد الخضرة مثلاً ﴿ مصفراً ﴾ من يبسه لأنه إذا تم جفافه حان له أن يفصل عن منابته ﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾ أي : فتاتاً ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : التدبير على هذا الوجه ﴿ لذكرى ﴾ أي : تذكيراً وتنبيهاً ﴿ لأولي الألباب ﴾ أي : أصحاب العقول الصافية جداً فيتذكرون هذه الأحوال في النبات فيعلمون بدلالته على وحدانية الله تعالى شأنه وقدرته وأحوال الحيوان والإنسان ، وإنه وإن طال عمره فلابد من الانتهاء إلى أن يصير مصفر اللون منحطم الأعضاء والأجزاء ثم تكون عاقبته الموت ، فإذا كانت مشاهدة هذه الأحوال في النبات مذكرة حصول مثل هذه الأحوال في نفسه في حياته فحينئذ تعظم نفرته عن الدنيا ولذاتها .

ولما بين تعالى الدلائل على وجوب الإقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الإعراض عن الدنيا ولذاتها ذكر أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الصدور ونور القلوب فقال سبحانه:

(350/667)

﴿ أفمن شرح الله ﴾ أي : الذي له القدرة الكاملة ﴿ صدره للإسلام ﴾ أي : وسعه لقبول الحق فاهتدى ﴿ فهو ﴾ أي : بسبب ذلك ﴿ على نور من ربه ﴾ أي : المحسن إليه كمن أقسى الله تعالى قلبه دل على هذا ﴿ فويل ﴾ كلمة عذاب ﴿ للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ قال مالك بن دينار : ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب ، وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة ، وأما نور الله تعالى فهو لطفه . روي : "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فقيل : يا رسول الله فما علامة انشراح الصدر للإسلام قال : الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت" .

فإن قيل : إن ذكر الله تعالى سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان قال تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (الرعد :)

فكيف جعله في هذه الآية سبباً لحصول القسوة في القلب ؟

أجيب : بأن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر ، بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل إلى الطباع البهيمية والأخلاق الذميمة فإن سماعها لذكر الله تعالى يزيدها قسوة وكدرة ، مثاله أن الفاعل الواحد تختلف أمثاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه ، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح ، وقد نرى إنساناً واحداً يذكر كلاماً واحداً في مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره وما ذاك إلا بحسب اختلاف جواهر النفوس ، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان

من سلالة من طين ﴾ (المؤمنون :)

الآية وعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حاضر وإنسان آخر فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ (المؤمنون :) قال كل واحد منهما ﴿ تبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (المؤمنون :)

(351/667)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اكتب فكذا نزلت" فازداد عمر رضي الله عنه إيماناً على إيمانه وارتد ذلك الإنسان . وإذا عرف ذلك لم يبعد أن يكون ذكر الله تعالى يوجب النور والهداية والاطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية ويوجب القنوط والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة ، وقيل : من بمعنى عن أي : قست قلوبهم عن قبول ذكر الله وجرى على ذلك الجلال المحلي ﴿ أولئك ﴾ أي : هؤلاء البعداء ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي : بين قيل : نزلت هذه الآية في أبي بكر رضي الله عنه وفي أبي بن خلف ، وقيل : في علي وحمزة وأبي لهب وولده وقيل : في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أبي جهل .

﴿ الله ﴾ الفعال لما يريد الذي له مجامع العظمة والإحاطة بصفات الكمال ﴿ نزل ﴾ أي : بالتدريج للتدريب وللجواب عن كل شبهة ﴿ أحسن الحديث ﴾ أي : القرآن روي أن

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا : حدثنا فنزلت وكونه أحسن الحديث لوجهين ؛ أحدهما : من جهة اللفظ ، والآخر : من جهة المعنى ، أما الأول : فلأن القرآن أفصح الكلام وأبلغه وأجزله وليس هو من جنس الشعر ولا من جنس الخطب ولا من جنس الرسائل بل هو نوع يخالف الكل في أسلوبه مع أن كل طبع سليم يستلذه ويستطيبه ، وأما من جهة المعنى : فهو منزه عن التناقض والاختلاف قال جل ثناؤه : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (النساء :)

ومشتمل على أخبار الماضين وقصص الأولين وعلى أخبار الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل وعلى الوعد والوعيد والجنة والنار ، وفي إيقاع لفظ الجلالة مبتدأ وبناء نزل عليه تفخيم لأحسن الحديث واستشهاد على حسنه وتأكيده لاستناده إلى الله تعالى وأنه من عنده وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه وتنبيه على أنه وحي معجز مباين لسائر الأحاديث .

(352/667)

وقوله تعالى : ﴿ كتاباً ﴾ أي : جامعاً لكل خير بدل من أحسن الحديث ، وقيل : حال منه بناءً على أن أحسن الحديث معرفة لإضافته إلى معرفة ، وأفعل التفضيل إذا أضيف إلى

معرفة فيه خلاف فقيل : إضافته محضة وقيل : غير محضة والصحيح الأول وقوله تعالى : ﴿ متشابهاً ﴾ نعت لكتاباً وهو المسوغ لمجيء الجامد حالاً أو أنه في قوة مكتوب وتشابهه بتشابه أبعاضه في الإعجاز والبلاغة والموعظة الحسنة لا تفاوت فيه أصلاً في لفظ ولا معنى مع كونه نزل مفرقاً في نيف وعشرين سنة ، وأما كلام الناس فلا بد فيه من التفاوت وإن طال الزمان في التهذيب سواء اتحد زمانه أم لا .

وقوله تعالى : ﴿ مثاني ﴾ جمع مثنى بمعنى مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده مواعظه أو جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والإعادة ، وقيل : لأنه يثنى في التلاوة فلا يمل كما جاء في وصفه لا يخلق على كثرة الترداد .

فإن قيل : كيف وصف كتاباً وهو مفرد بالجمع ؟

أجيب : بأن الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير ألا ترى أنك تقول : القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات فكذلك تقول : أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات ونظيره قولك الإنسان عظام وعروق وأعصاب إلا أنك تركت الموصوف إلى الصفة وأصله كتاباً متشابهاً فصولاً مثاني ، ويجوز أن يكون مثاني منتصباً على التمييز من متشابهاً كما تقول : رأيت رجلاً حسناً شمائل .

فإن قيل : ما فائدة التثنية والتكرير ؟

أجيب : بأن النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة ، فما لم يكرر عليها عوداً على بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظهم به وينصح ثلاث مرات وسبعاً ليركزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم ﴿ تقشعر ﴾ أي : تضطرب وتشمئز ﴿ منه ﴾ عند ذكر وعيده ﴿ جلود ﴾ أي : ظواهر أجسام ﴿ الذين يخشون ﴾ أي : يخافون ﴿ ربهم ﴾ والمعنى تأخذهم قشعريرة وهو تغير يحدث في جلد الإنسان عند ذكر آيات العذاب ﴿ ثم تلين ﴾ أي : تطمئن ﴿ جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ أي : عند ذكر وعده ، والمعنى إذا ذكرت آيات الرحمة لانت وسكنت قلوبهم كما قال تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (الرعد :)

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تعالى تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها" وفي رواية : "حرمه الله على النار" قال قتادة : هذا نعت أولياء الله تعالى نعتهم الله تعالى بأن تقشعر جلودهم

وتطمئن قلوبهم بذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم وإنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان .

(354/667)

وعن عبد الله بن عروة بن الزبير قال : قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما : كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن ؟ قالت : كانوا كما نعتهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم ، قال : قلت لها : إن ناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشياً عليه ، قالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وروي أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مر برجل من أهل العراق ساقط فقال : ما بال هذا ؟ فقالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن أو سمع ذكر الله تعالى سقط فقال : إنا لنخشى الله تعالى وما نسقط . وقال ابن عمر : إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم ، ما كان هذا صنيع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ عليهم القرآن ، فقال : بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطاً رجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق .

فإن قيل : لم ذكرت الجلود وحدها أولاً في جانب الخوف ثم قرنت بها القلوب ثانياً في الرجاء

؟

أجيب : بأن الخشية التي محلها القلوب إذا ذكرت فقد ذكرت القلوب فكأنه قيل : تقشعر جلودهم من آيات الوعيد وتخشى قلوبهم في أول وهلة وإذا ذكر الله تعالى ومبنى أمره على الرأفة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم وبالقشعريرة ليناً في جلودهم .

فإن قيل : ما وجه تعدية تلين بإلى ؟

أجيب : بأنه ضمن معنى فعل متعد بإلى كأنه قيل : سكنت أو اطمأنت إلى ذكر الله تعالى .

فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ إلى ذكر الله ﴾ ولم يقل إلى رحمة الله ؟

(355/667)

أجيب : بأن من أحب الله تعالى لأجل رحمته فهو ما أحب الله تعالى وإنما أحب شيئاً غيره وأما من أحب الله تعالى لا لشيء سواه فهو المحب الحق وهي الدرجة العالية كما قال تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ ﴿ ذلك ﴾ أي : القرآن الذي هو أحسن الحديث ﴿ هدى الله ﴾ الذي له صفات الكمال ﴿ يهدي به من يشاء ﴾ أي : وهو الذي شرح الله تعالى صدره أولاً لقبول الهداية ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي : يجعل قلبه قاسياً مظلماً ﴿ فما له من هاد ﴾ أي : يهديه . وقرأ ابن كثير في الوقف بإثبات الياء بعد الدال ، والباقون بغير

الياء واتفقوا في الوصل على عدم الياء .

ولما حكم تعالى على القاسية قلوبهم بحكم في الدنيا وهو الضلال التام حكم عليهم في الآخرة بحكم آخر وهو العذاب الشديد فقال:

﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء ﴾ أي : شدة ﴿ العذاب ﴾ أي : يجعله وقاية يقي بها نفسه لأنه تكون يداه مغلولتين إلى عنقه ﴿ يوم القيامة ﴾ فلا يقدر أن يتقي إلا بوجهه ، وقال مجاهد : يجر على وجهه في النار . وقال عطاء : يرمى به في النار منكوساً فأول شيء يلقى في النار وجهه . وقيل : يلقى في النار مغلولة يداه إلى عنقه وفي عنقه صخرة عظيمة من كبريت مثل الجبل العظيم فتشتعل النار في تلك الصخرة وهي في عنقه ، فحرها ووهجها لا يطيق دفعها عنه للأغلال التي في يديه وعنقه . وقيل المراد بالوجه الجملة ، وقيل : نزلت في أبي جهل ومعنى الآية : أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن أمن من العذاب بدخول الجنة فحذف الخبر كما حذف في نظائره ، ﴿ وقيل ﴾ أي : تقول الخزنة ﴿ للظالمين ﴾ أي : الكافرين ، وكان الأصل لهم فوضع الظاهر موضعه تسجيلاً عليهم بالظلم ﴿ ذوقوا ما ﴾ أي : وبال الذي ﴿ كنتم تكسبون ﴾ أي : تعملون في الدنيا من المعاصي .

ولما بين تعالى كيفية عقاب القاسية قلوبهم في الآخرة وبين كيفية وقوعهم في العذاب قال تعالى:

﴿ كذب الذين ﴾ وأشار إلى قرب زمان المعذبين من زمانهم بإدخال الجار فقال تعالى : ﴿ من قبلهم ﴾ أي : من قبل كفار مكة أي : مثل سبأ وقوم تبع كذبوا رسلهم في إتيان العذاب ﴿ فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ أي : من جهة لا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها .

﴿ فأذاقهم الله ﴾ أي : الذي له القدرة الكاملة ﴿ الخزي ﴾ أي : الذل والهوان من المسخ والقتل وغيرهما ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ أي : العاجلة الدنيئة ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ أي : المعد لهم ﴿ أكبر ﴾ أي : من ذلك الذي وقع بهم في الدنيا ﴿ لو كانوا ﴾ أي : المكذبون ﴿ يعلمون ﴾ أي : عذابها ما كذبوا ولكن لا علم لهم أصلاً إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً .

ولما ذكر تعالى هذه الفوائد الكثيرة في هذه المطالب بين أن هذه البينات بلغت حد الكمال والتمام فقال تعالى:

﴿ ولقد ضربنا ﴾ أي : جعلنا ﴿ للناس ﴾ أي : عامة لأن رسالته صلى الله عليه وسلم عامة ﴿ في هذا القرآن ﴾ أي : الجامع لكل علم وكل خير ﴿ من كل مثل ﴾ أي : يحتاج إليه الناظر في أمر دينه ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي : يتعظون به وقرأ نافع وقالون وابن كثير وعاصم بإظهار الدال عند الضاد والباقون بالإدغام . وقوله تعالى:

﴿ قرآناً عربياً ﴾ فيه ثلاثة أوجه ؛ أحدها : أن يكون منصوباً على المدح لأنه لما كان نكرة امتنع إتباعه للقرآن ، ثانيها : أن ينتصب بيتذكرون أي : يتذكرون قرآناً ، ثالثها : أن ينتصب على الحال من القرآن على أنها حال مؤكدة وتسمى حالاً موطئة لأن الحال في الحقيقة عربياً وقرآناً توطئة له نحو جاء زيد رجلاً صالحاً ﴿ غير ذي عوج ﴾ أي : مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف نعت لقرآناً أو حال أخرى .

فإن قيل : هلا قيل : مستقيماً أو غير معوج ؟

أجيب : بأن في ذلك فائدتين إحداهما : نفي أن يكون فيه عوج قط كما قال تعالى : ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ (الكهف :)

ثانيتهما : أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان ، وقيل : المراد بالعوج الشك واللبس قال القائل:

(357/667)

---

*وقد أتاك يقين غير ذي عوج ** من الإله وقول غير مكذوب*

﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي : الكفر .

تنبيه : وصف تعالى القرآن بثلاث صفات ؛ أولها : كونه قرآناً والمراد كونه متلواً في المحاريب

إلى قرب قيام الساعة ، ثانيها : كونه عربياً أي : أنه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ (الإسراء :)

ثالثها : كونه غير ذي عوج ، قال مجاهد : غير ذي لبس وقال ابن عباس رضي الله عنهما : غير مختلف ، وقال السدي : غير مخلوق ، ويروى ذلك عن مالك بن أنس ، وحكى شقيق وابن عيينة عن سبعين من التابعين : أن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق .

ولما شرح الله تعالى وعيد الكفار مثل لما يدل على فساد مذهبهم وقبيح طريقتهم بقوله تعالى:

﴿ ضرب الله ﴾ أي : الذي له الملك كله ﴿ مثلاً ﴾ أي : للمشركين والموحدين وقوله تعالى : ﴿ رجلاً ﴾ بدل من مثلاً وقوله تعالى : ﴿ فيه شركاء ﴾ يجوز أن تكون الجملة من مبتدأ وخبر في محل نصب صفة ل ﴿ رجلاً ﴾ ويجوز أن يكون الوصف الجار وحده وشركاء فاعل به قال ابن عادل : وهو أولى لقربه من المفرد وقوله تعالى : ﴿ متشاكسون ﴾ صفة لشركاء والتشاكس التخالف وأصله سوء الخلق وعسره وهو سبب التخالف أي : متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم يقال : رجل شكس وشرس إذا كان سيء الخلق مخالفاً للناس لا يرضى بالإنصاف ﴿ ورجلاً سلماً ﴾ أي : خالصاً من نزاع ﴿ لرجل ﴾ أي : خالصاً له لا شريك له فيه . ولا منازع ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بألف بعد السين وكسر

اللام بعدها ، والباقون بغير ألف وفتح اللام وهو الذي لا ينازع فيه من قولهم : هو لك سلم أي : مسلم لا منازع لك فيه .

(358/667)

وقوله تعالى : ﴿ هل يستويان ﴾ استفهام إنكار أي : لا يستويان وقوله تعالى : ﴿ مثلاً ﴾ تمييز والمعنى اضرب لقومك مثلاً وقل لهم : ما تقولون في رجل مملوك لشركاء بينهم اختلاف وتنازع وكل واحد يدعي أنه عبده فهم يتجاذبونه حوائجهم وهو متحير في أمره ، وكلما أرضى أحدهم غضب الباقون وإذا احتاج إليهم فكل واحد يرده إلى الآخر فبقي متحيراً لا يعرف أيهم أولى أن يطلب رضاه وأيهم يعينه في حاجاته فهو بهذا السبب في عذاب أليم . وآخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص وذلك المخدوم يعينه على مهماته فأي هذين العبدين أحسن حالاً ، لا شك أن هذا أقرب إلى الصلاح من حال الأول ، فإن الأول : مثل المشرك والثاني : مثل الموحد ، وهذا المثال في غاية الحسن في تقبيح المشرك وتحسين الموحد .

فإن قيل : هذا المثال لا ينطبق على عبادة الأصنام لأنها جمادات فليس بينها منازعة ولا تشاكس ؟

أجيب : بأن عبدة الأصنام يختلفون ، منهم من يقول : هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة فهم في الحقيقة إنما يعبدون الكواكب السبعة وهم يثبتون بينها منازعة ومشاكسة ألا ترى أنهم يقولون : زحل هو النحس الأعظم والمشتري هو : السعد الأعظم ، ومنهم من يقول : هذه الأصنام تماثيل الأرواح الفلكية والقائلون بهذا القول زعموا أن كل نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الأرواح السماوية ، وحينئذ يحصل بين تلك الأرواح منازعة ومشاكسة فيكون المثال مطابقاً ، ومنهم من يقول : هذه الأصنام تماثيل لأشخاص من العلماء والزهاد مضوا فهم يعبدون هذه التماثيل ليصير أولئك الأشخاص من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله تعالى ، والقائلون بهذا القول تزعم كل طائفة منهم أن المحق هو ذلك الرجل الذي هم على دينه وأن من سواه مبطل ، وعلى هذا التقدير أيضاً ينطبق المثال .

(359/667)

ولما بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد وثبت أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الحق قال الله تعالى : ﴿ الحمد ﴾ أي : الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أي : كل الحمد لله الذي لا مكافئ له فلا يشاركه فيه على الحقيقة سواه لأنه المنعم بالذات والمالك على الإطلاق

﴿ بل أكثرهم ﴾ أي : أهل مكة ﴿ لا يعلمون ﴾ أي : ما يصيرون إليه من العذاب فيشركون به غيره من فرط جهلهم وقول البغوي والمراد بالأكثر الكل ليس بظاهر .

ولما كان كفار مكة يتربصون موت رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره الله تعالى بأن الموت يجمعهم جميعاً بقوله تعالى:

﴿ إنك ميت ﴾ أي : ستموت وخصه الله تعالى بالخطاب لأن الخطاب إذا كان للرأس كان أصدع لأتباعه فكل موضع كان للأتباع ، وخص فيه صلى الله عليه وسلم بالخطاب دونهم فهم المخاطبون في الحقيقة على وجه أبلغ ﴿ وإنهم ميتون ﴾ أي : سيموتون فلا معنى للتربص وشماتة الفاني بالفاني .

فائدة : قال الفراء : الميت بالتشديد من لم يمت وسيموت ، والميت : بالتخفيف من فارقته الروح ولذلك لم يخفف هنا . وقوله تعالى:

(360/667)

﴿ ثم إنكم ﴾ فيه تغليب المخاطب على الغائب ﴿ يوم القيامة عند ربكم ﴾ أي : المربي لكم بالخلق والرزق ﴿ تختصمون ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت وكذبوا واجتهدت في الإرشاد والتبليغ فلجوا في التكذيب والعناد ويعتذرون بالأباطيل يقول الأتباع أطعنا

سادتنا وكبراءنا وتقول السادات أغوتنا آباؤنا الأقدمون والشياطين ، ويجوز أن يكون المراد به الاختصام العام وجرى عليه الجلال المحلي وهو أولى وإن رجح الأولَ الكشافُ ، لما روي عن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال : "لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله أتكون علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا قال : نعم فقال : إن الأمر إذاً لشديد" وقال ابن عمر : عشنا برهة من الدهر وكنا نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين ، قلنا : كيف نختصم وديننا واحد وكتابنا واحد حتى رأينا بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفنا أنها فينا نزلت . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في هذه الآية قال : كنا نقول : ربنا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا : هو هذا . وعن إبراهيم النخعي قال : لما نزلت قالت الصحابة كيف نختصم ونحن إخوان فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا : هذه خصومتنا . وعن أبي العالية : نزلت في أهل القبلة .

(361/667)

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من كانت لأخيه عنده مظلمة من عرض أو مال فليستحله اليوم قبل أن يؤخذ منه يوم لا دينار ولا درهم فإن كان له عمل

صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له أخذ من سيئاته فجعلت عليه" . وعن أبي هريرة أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة وقد كان شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيقضي هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 233. 257 ﴾

(362/667)

وقال القاسمى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

أي : هذا تنزيل ، أو تنزيله كائن من الله .

وقرئ : ﴿ تَنزِيلَ ﴾ بالنصب على إضمار فعل .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ﴾

أي : عن شعوب الشرك والرياء ، بإمحاض التوحيد ، وتصفية السر .

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾

أي : الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة ؛ لانفراده بالألوهية : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ أي : بالمحبة ؛ للتقرب والتوسل بهم إلى الله تعالى : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أي : يقولون ذلك احتجاجاً على ضلالهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : عند حشر معبوداتهم معهم ، فيقرن كلاً منهم مع من يتولاه ، من عابد ومعبود ، ويدخل المبطل النار مع المبطلين ، كما يدخل المحق الجنة مع المحقين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ لا يوصله إلى النجاة ، ومقر الأبرار .

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أي : نزهه عن المماثلة ، والمجانسة ، واصطفاء الولد ؛ لكون الوحدة لازمة لذاته ، وقهره بوحدانيته لغيره ، فلا تماثل في الوجود ، فكيف في الوجوب ؟

(363/667)

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ أي : بإذهاب أحدهما ، وتغشية الآخر مكانه ، كإنما ألبسه ولفّ عليه : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ وهو منتهى دوره ، أو منقطع حركته : ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا ﴾ أي : من نفسها ونوعها : ﴿ زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أي : ذكراً وأنثى ، من الإبل والبقر والضأن والمعز : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أي : متقلبين في أطوار الخلقة : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ يعني البطن ، والرحم ، والمشيمة : ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ أي : الخالق لصوركم . المكوّر أي : المصرف بقدرته ، المسخر بسلطانه ، المنشي للكثرة من نفس واحدة بحكمته ، المنزل للنعم بنعمته : ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أي : عن عبادته إلى عبادة غيره .

(364/667)

﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ﴾ أي : عن إيمانكم : ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ أي : لأنه سبب هلاكهم : ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أي : وإن تستعملوا ما أنعم به عليكم فيما خلق له ، يقبله منكم ؛ لأنه دينه ، ويثيبكم ثواباً حسناً لطاعتكم .

تنبيه :

في " الإكليل " : استدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ على أنه تعالى لا يرضى

الكفر والمعاصي ، وعلى أن الرضا غير الإرادة . وهو أحد قولي أهل السنة . والقول الثاني وحكاه الآمدي عن الجمهور ، أن الرضا والإرادة سيان ، وحملوا العبادَ في الآية على المخلصين ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي : لا تحمل حاملة حمل أخرى ، أي : ما عليها من الذنوب ، أو لا تؤخذ نفس بذنب نفس أخرى ، بل كل مأخوذ بذنبه : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ ﴾ أي : بعد الموت : ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي : بما في القلوب من الخير والشر .

(365/667)

﴿ وَإِذَا مَسَّ ﴾ أي : أصاب : ﴿ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ ﴾ أي : شدة وبلاء : ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ﴾ أي : ابتهل إليه برفع الشدة والبلاء عنه ، مقبلاً إليه بالدعاء والتضرع : ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ ﴾ أي : أعطاه : ﴿ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي : نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه من قبل النعمة . وقيل : نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ، ويبتهل إليه . فـ : ما بمعنى من ، أقيمت مقامها لقصد الدعاء الوصفي ، ولِمَا في ما ، من الإبهام والتفخيم ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي : يصد الناس عن دينه وطاعته : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ ﴾ أي : عش به : ﴿ قَلِيلاً ﴾ أي : يسيراً في الدنيا .

﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ * أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً ﴾ أي : متعبداً في ساعاته يقطعها في السجود والقيام : ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴾ أي : عقابها : ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أي : جنته ورضوانه ، أي : أهذا أفضل أم ذاك الكافر الجاحد الناسي لربه ؟ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : توحيده ، وأمره ، ونهيه في الثواب والطاعة : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لا يستويان .

تنبيهات :

(366/667)

الأول – في الآية استحباب قيام الليل . قال ابن عباس : آناء الليل : جوف الليل . وقال الحسن : ساعاته أوله ، ووسطه ، وآخره .

الثاني – في قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ ردّ على من ذم العبادة خوفاً من النار ، أو رجاءً الجنة . وقال صلّى الله عليه وسلم < حولها ندندن > .

الثالث – في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ﴾ الآية مدح العلم ، ورفعة قدره ، وذم الجهل ، ونقصه . وقد يستدل به على أن الجاهل لا يكافئ العالمة ، كما أنه لا يكافئ بنت العالم ، أفاده في " الإكليل " .

وفي الآية أيضاً إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم ؛ إذ عبر عنهم أولا بـ : القانت ، ثم نفى المساواة بينه وبين غيره ، ليكون تأكيداً له ، وتصريحاً بأن غير العالم كأن ليس بعالم .

قال القاشاني : وإنما كان المطيع هو العالم ، لأن العلم هو الذي رسخ في القلب ، وتأصل بعروقه في النفس ، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته ، بل سيط باللحم والدم ، فظهر أثره في الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه ، وأما المرتسم في حيز التخيل ، بحيث يمكن ذهول النفس عنه ، وعن مقتضاه ، فليس بعلم . إنما هو أمر تصوري وتخيل عارض لا يلبث ، بل يزول سريعاً ، لا يغذو القلب ، ولا يسمن ، ولا يغني من جوع : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ أي : يتعظ بهذا الذكر : ﴿ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي : العقول الصافية عن قشر التخيل والوهم ، لتحققها بالعلم الراسخ الذي يتأثر به الظاهر ، وأما المشوبة بالوهم فلا تتذكر ولا تتحقق بهذا العلم ولا تعيه .

(367/667)

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أي : للذين أحسنوا بالطاعات في الدنيا ، مثوبة حسنة في الآخرة ، لا يكتنه كنهها : ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ أي : بلاده كثيرة . فمن تعسر عليه التوفر على الإحسان في وطنه ، فليهاجر إلى

حيث يتمكن منه . قال الشهاب : وجه إفادة هذا التركيب هذه المعاني الكثيرة ، أوضحه شراح الكشاف بأن قوله : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ مستأنف لتعليل الأمر بالتقوى, ولذا قيد بالظرف ؛ لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فينبغي أن يلقى في حرثها بذر المثوبات . وعقّب بهذه الجملة لئلا يعتذر عن التفريط بعدم مساعدة المكان ، ويتعلل بعدم مفارقة الأوطان ، فكان حثّاً على اغتنام فرصة الأعمار ، وترك ما يعوق من حب الديار ، والهجرة فيما اتسع من الأقطار ، كما قيل :

~إِذَا كَانَ أَصْلِي مِنْ تُرَابٍ فَكُلُّهَا بِلَادِي وَكُلُّ الْعَالَمِيْنَ أَقَارِبِي

انتهى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ ﴾ أي : على مشاق الطاعة من احتمال البلاء ، ومهاجرة الأوطان لها : ﴿ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي : بغير مكيال ؛ تمثيل للكثرة .

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ أي : عن الالتفات إلى غيره .

(368/667)

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي : وأمرت بذلك ، لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة ؛ لأن إخلاصه صلّى الله عليه وسلم أتم من إخلاص كل مخلص . وعلى هذا ، فالأولية في الشرف والرتبة ، أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من أمته . فالأولية زمانية

على ظاهرها . ويجوز أن تجعل اللام مزيدة . كما في : أردت لأن أفعل . فيكون أمراً بالتقدم في الإخلاص .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ أي : بترك الإخلاص له : ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ ﴾ أي : أخصه بالعبادة : ﴿ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي ﴾ عن شوب الغير .

﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : أهلكوا أنفسكم بالضلال ، وأهليهم بالإضلال ، وخسروا أنفسهم بالهلاك وأهليهم به أيضاً ، إن كانوا مثلهم ، أو بفقدهم فقداً لا اجتماع بعده ، إن كانوا من أهل الجنة : ﴿ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ .

(369/667)

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ أي : أطباق من النار : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : العذاب المتوعد به : ﴿ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ أي : بعدم التعرض لما يوجب السخط . قال الزمخشري : وهذه عظة من الله تعالى ، ونصيحة بالغة .

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ يعني الأوثان . وفعلوت للمبالغة : ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ أي : بالثواب : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ

أَحْسَنَهُ ﴾ أي : أيثاراً للأفضل واهتماماً بالأكمل . قال الزمخشري : أراد أن يكونوا نقاداً في الدين ، يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل ، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك ، وأقواها عند السبر ، وأبينها دليلاً وأمارة ، وأن لا تكون في مذهبك كما قال القائل :

~وَلَا تَكُنْ مِثْلَ عِيْرٍ قِيْدَ فَانْقَادَا

يريد المقلد . انتهى ويدخل تحته أيضاً إيثار الأفضل من كل نوعين ، اعتراضاً ، كالواجب مع الندب ، والعفو مع القصاص ، والإخفاء مع الإبداء في الصدقة ، وهكذا : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾ أي : أفأنت تنقذه منها ؟ أي : لا يمكن إنقاذه أصلاً

(370/667)

﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي : يتم جفافه : ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ﴾ أي : فتاتاً : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي : لتذكيراً وتنبيهاً على أنه لا بد من

صانع حكيم ، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير ، لا عن تعطيل وإهمال . ويجوز أن يكون مثلاً للدنيا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [يونس : 24] ، ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف : 45] ، أفاده الزمخشري .

(371/667)

﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ أي : وسعه لتسليم الوجه إليه وحه ، ولقبول دينه ، وشرعه بلطفه ، وعنايته ، وإمداده سبحانه : ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي : على بينة ومعرفة ، واهتداء إلى الحق ، واستعارة النور للهدى والعرفان ، شهيرة ، كاستعارة الظلمة لضد ذلك . وخبر من محذوف دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي : من قبول ذكره لشدة ميلها إلى اللذات البدنية ، وإعراضها عن الكمالات القدسية ، أو من أجل ذكره ؛ فـ : من للتعليل والسببية . . وفيها معنى الابتداء لنشئها عنه . قال الشهاب : إذا قيل : قسا منه ، فالمراد أنه سبب لقسوة نشأت منه . وإذا قيل : قسا عنه ، فالمعنى أن قسوته جعلته متباعداً عن قبوله ، وبهما ورد استعماله . وقد قرئ بـ : عن ، في الشواذ . لكن الأول أبلغ ؛ لأن قسوة القلب تقتضي عدم ذكر الله ، وهو معناه إذا تعدى بـ :

عن . وذكره تعالى مما يلين القلوب . فكونه سبباً للقسوة ، يدل على شدة الكفر الذي جعل سبب الرقة ، سبباً لقسوته : ﴿ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي : عن طريق الحق .

(372/667)

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً ﴾ أي : يشبه بعضه بعضاً . في الصحة ، والإحكام ، والبناء على الحق ، والصدق ، ومنفعة الخلق ، ووجوه الإعجاز : ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ جمع مثنى بمعنى مردد ومكرر ، لما ثنى من قصصه ، وأنبائه ، وأحكامه ، وأوامره ، ونواهيه ، ووعده ، ووعيده ، ومواعظه : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ تمثيل لإفراط خشيتهم ، أو حقيقة لتأثرهم عند سماع آياته ، وحكمه ، ووعيده ، بما يرد على قلوبهم منها : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي : بالانقياد ، والطاعة ، والسكينة لأمره : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : الكتاب ، أو الكائن من الخشية والرجاء : ﴿ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ ﴾ أي : من زاغ قلبه : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : فمن يجعل وجهه وقاية لشدة العذاب ذلك اليوم ، أي : قائماً مقامها في أنه أول ما يمسه المؤلم له ؛ لأن ما يتقى به هو اليدان ، وهما مغلولتان . ولو لم تغلا كان يدفع بهما عن الوجه ؛ لأنه أعز أعضائه . وقل : الاتقاء

بالوجه كناية عن عدم ما يتقى به ؛ لأن الوجه لا يتقى به . وخبر من محذوف كنظائره . أي : كمن أمن العذاب : ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أي : وباله .

﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : لا يحتسبون أن الشر يأتيهم منها .

(373/667)

﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي : الذل والصغار : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي : بيّنا لهم في هذا القرآن ، الذي هو دليل في نفسه من إعجازه ، من كل مثل يحتاج إليه . من يستدل بنظره على حقيته وأحقيته : ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : به ما يهمهم من أمور دينهم ، وما يصلحهم من شؤون سعادتهم . فيفسروا المعقول بالمحسوس .

﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ أي : مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف : ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : العذاب ، والخزي يوم الجزاء ، بالاتقاء من الأفعال القبيحة ، والأخلاق الرديئة ، والاعتقادات الفاسدة . ومن أجل تلك الأمثال . ما مثل به ليتقي من أعظم المخوفات ، وهو الشرك ، بقوله سبحانه :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً ﴾ أي : للمشرك والموحد رجلين مملوكين : ﴿ رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ ﴾ أي : سيئو الأخلاق ، يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المختلفة ، لا يزال متحيراً متوزع القلب ، لا يدري أيهم يُرضي بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد في حاجته : ﴿ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ ﴾ أي : خلص ملكه له ، لا يتجه إلى إلا جهته ، ولا يسير إلا لخدمته ، فهمّه واحد ، وقلبه مجتمع : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ أي : صفةً وحالاً . أي : في حسن الحال وراحة البال ؟ كلا . وهكذا حال من يثبت آلهة شتى ، لا يزال متحيراً خائفاً لا يدري أيهم يعبد ، وعلى ربوبية أيهم يعتمد . وحال من لم يعبد إلا إلهاً واحداً ، فهمّه واحد ، ومقصده واحد ، ناعم البال ، خافض العيش والحال . والقصد أن توحيد المعبود فيه توحيد الوجهة ، ودرء الفرقة . كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : 39] ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ قال أبو السعود : تقرير لما قبله من نفي الاستواء بطريق الاعتراض ، وتنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية بتوفيق الله تعالى . وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته . أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل ، أن لهم المثل الأعلى , وللمشركين مثل

السوء . صنع جميل ولطف تام منه عز وجل ، مستوجب لحمده وعبادته .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة . وقرئ : مائت ومائتون . وقيل : كانوا يتربصون برسول الله صلّى الله عليه وسلم موته . أي : إنكم جميعاً بصدد الموت .

(375/667)

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان أن أكثر الناس ، وهم المشركون ، لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره ، فيبقون في ورطة الشرك والضلال ، وقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ أي : مالك أموركم : ﴿ تَخْتَصِمُونَ ﴾ أي : فتحتج أنت عليهم بأنك بلّغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التي من جملتها ما في تضاعيف هذه الآيات ، واجتهدت في الدعوة إلى الحق حق الاجتهاد ، وهم قد لجّوا في المكابرة والعناد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 166.176 ﴾

(376/667)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

تبدأ السورة بهذا التقرير الحاسم .

﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ . .

العزيز القادر على تنزيله .

الحكيم الذي يعلم فيم أنزله ولماذا أنزله ؛ ويفعل ذلك بحكمة وتقدير وتدبير .

ولا يتلبث السياق عند هذه الحقيقة طويلاً ؛ فهي مقدمة للقضية الأصيلة التي تكاد السورة تكون وقفاً عليها ؛ والتي نزل الكتاب لتقريرها وتوكيدها . قضية توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، وإخلاص الدين له ، وتنزيهه عن الشرك في كل صورة من صوره ؛ والاتجاه إليه مباشرة بلا وسيط ولا شفيع :

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ .

وأساس الحق الذي أنزل به الكتاب ، هو الوحدانية المطلقة التي يقوم عليها الوجود وفي الآية الخامسة من السورة يجيء : ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق ﴾ . فهو الحق الواحد الذي قامت به السماوات والأرض ، وأنزل به هذا الكتاب . الحق الواحد الذي تشهد به وحدة النظام الذي يصرف السماوات والأرض ؛ والذي ينطق به هذا الكتاب . الحق الذي

يتسم به كل ما خرج من يد الصانع المبدع في هذا الوجود .

.

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ .

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أنزل إليه الكتاب بالحق . وهو منهجه الذي يدعو إليه الناس كافة . . عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، وقيام الحياة كلها على أساس هذا التوحيد .

وتوحيد الله وإخلاص الدين له ، ليس كلمة تقال باللسان ؛ إنما هو منهاج حياة كامل . يبدأ من تصور واعتقاد في الضمير ؛ وينتهي إلى نظام يشمل حياة الفرد والجماعة .

(377/667)

والقلب الذي يوحد الله ، يدين لله وحده ، ولا يحني هامته لأحد سواه ، ولا يطلب شيئاً من غيره ولا يعتمد على أحد من خلقه . فالله وحده هو القوي عنده ، وهو القاهر فوق عباده . والعباد كلهم ضعاف مهازيل ، لا يملكون له نفعاً ولا ضراً ؛ فلا حاجة به إلى أن يحني هامته لواحد منهم . وهم مثله لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . والله وحده هو المانح المانع ، فلا حاجة به إلى أن يتوجه لأحد غيره وهو الغني والخلق كلهم فقراء .

والقلب الذي يوحد الله ، يؤمن بوحدة الناموس الإلهي الذي يصرف الوجود كله ؛ ويؤمن إذن بأن النظام الذي اختاره الله للبشر هو طرف من ذلك الناموس الواحد ، لا تصلح حياة البشر ولا تستقيم مع الكون الذي يعيشون فيه إلا باتباعه . ومن ثم لا يختار غير ما اختاره الله من النظم ، ولا يتبع إلا شريعة الله المتسقة مع نظام الوجود كله ونظام الحياة .

والقلب الذي يوحد الله يدرك القرابة بينه وبين كل ما أبدعت يد الله في هذا الكون من أشياء وأحياء ؛ ويحيا في كون صديق يعاطفه ويتجاوب معه ؛ ويحس يد الله في كل ما حوله ، فيعيش في أنس بالله وبدائعه التي تلمسها يداه وتقع عليها عيناه ويشعر كذلك بالتحرج من إيذاء أحد ، أو إتلاف شيء أو التصرف في أحد أو في شيء إلا بما أمره الله . خالق كل شيء ، ومحيي كل حي . ربه ورب كل شيء وكل حي . .

وكذلك تبدو آثار التوحيد في التصورات والمشاعر ، كما تبدو في السلوك والتصرفات . وترسم للحياة كلها منهاجاً كاملاً واضحاً متميزاً . ولا يعود التوحيد كلمة تقال باللسان . ومن ثم تلك العناية بتقرير عقيدة التوحيد وتوضيحها وتكرار الحديث عنها في الكتاب الذي أنزله الله : وهو حديث يحتاج إلى تدبره كل أحد ، في كل عصر ، وفي كل بيئة .

فالتوحيد بمعناه ذلك معنى ضخم شامل يحتاج إلى فهم وإدراك .

﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ . .

يعلنها هكذا مدوية عالية في ذلك التعبير المجلجل . بأداة الافتتاح ﴿ ألا ﴾ وفي أسلوب القصر ﴿ لله الدين الخالص ﴾ . فيؤكد معناها بالبناء اللفظي للعبارة . . فهي القاعدة التي تقوم عليها الحياة كلها . بل التي يقوم عليها الوجود كله . ومن ثم ينبغي أن ترسخ وتتضح وتعلن في هذا الأسلوب الجازم الحاسم : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ .

.

ثم يعالج الأسطورة المعقدة التي كان المشركون يواجهون بها دعوة التوحيد .

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون . إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ . .

فلقد كانوا يعلنون أن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض . . ولكنهم لم يكونوا يسيرون مع منطق الفطرة في إفراد الخالق إذن بالعبادة ، وفي إخلاص الدين لله بلا شريك . إنما كانوا يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه . ثم يصوغون للملائكة تماثيل يعبدونها فيها . ثم يزعمون أن عبادتهم لتماثيل الملائكة وهي التي دعوها آلهة أمثال اللات والعزى ومناة ليست عبادة لها في ذاتها ؛ إنما هي زلفى وقربى لله . كي تشفع لهم عنده ، وتقربهم منه ! وهو انحراف عن بساطة الفطرة واستقامتها ، إلى هذا التعقيد والتخريف . فلا الملائكة بنات الله . ولا الأصنام تماثيل للملائكة . ولا الله سبحانه يرضى بهذا الانحراف . ولا هو

يقبل فيهم شفاعة . ولا هو يقربهم إليه عن هذا الطريق !

وإن البشرية لتنحرف عن منطق الفطرة كلما انحرفت عن التوحيد الخالص البسيط الذي جاء به الإسلام وجاءت به العقيدة الإلهية الواحدة مع كل رسول . وإنا لنرى اليوم في كل مكان عبادة للقديسين والأولياء تشبه عبادة العرب الأولين للملائكة أو تماثيل الملائكة تقرباً إلى الله بزعمهم وطلباً لشفاعتهم عنده . وهو سبحانه يحدد الطريق إليه . طريق التوحيد الخالص الذي لا يتلبس بوساطة أو شفاعة على هذا النحو الأسطوري العجيب !

﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ . .

(379/667)

فهم يكذبون على الله . يكذبون عليه بنسبة بنوة الملائكة إليه ؛ ويكذبون عليه بأن هذه العبادة تشفع لهم عنده ! وهم يكفرون بهذه العبادة ؛ ويخالفون فيها عن أمر الله الواضح الصريح .

والله لا يهدي من يكذب عليه ، ويكفر به . فالهداية جزاء على التوجه والإخلاص والتحرج ، والرغبة في الهدى ، وتحري الطريق . فأما الذين يكذبون ويكفرون فهم لا يستحقون هداية الله ورعايته . وهم يختارون لأنفسهم البعد عن طريقه .

ثم يكشف عن سخف ذلك التصور وتهافته :

﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء . سبحانه ! هو الله الواحد القهار ﴾ .

وهو فرض جدلي لتصحيح التصور . فالله لو أراد أن يتخذ ولداً لاختار ما يشاء من بين خلقه ؛ فإرادته مطلقة غير مقيدة . ولكنه سبحانه نزه نفسه عن اتخاذ الولد . فليس لأحد أن ينسب إليه ولداً ، وهذه إرادته ، وهذه مشيئته ، وهذا تقديره ؛ وهذا تنزيهه لذاته عن الولد والشريك :

﴿ سبحانه ! هو الله الواحد القهار ﴾ . .

وما اتخاذه الولد ؟ وهو مبدع كل شيء ؛ وخالق كل شيء ، ومدبر كل شيء ؟ وكل شيء وكل أحد ملكه يفعل به ما يشاء :

﴿ خلق السماوات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ؛ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى .

ألا هو العزيز الغفار ﴾ . .

وهذه اللفتة إلى ملكوت السماوات والأرض ، وإلى ظاهرة الليل والنهار ، وإلى تسخير الشمس والقمر توحي إلى الفطرة بحقيقة الألوهية التي لا يليق معها أن يكون هناك ولد ولا شريك . فالذي يخلق هذا الخلق وينشئه إنشاء ، لا يحتاج إلى الولد ولا يكون معه شريك .

وآية الوحدانية ظاهرة في طريقة خلق السماوات والأرض ، وفي الناموس الذي يحكم الكون . والنظر المجرد إلى السماوات والأرض يوحي بوحدة الإرادة الخالقة المدبرة . وما كشفه الإنسان حتى اليوم من دلائل الوحدة فيه الكفاية . فقد اتضح أن الكون المعروف للبشر مؤلف كله من ذرات متحدة في ماهيتها ، وأنها بدورها تتألف من إشعاعات ذات طبيعة واحدة . وقد اتضح كذلك أن جميع الذرات وجميع الأجرام التي تتألف منها سواء في ذلك الأرض التي نسكنها أم الكواكب والنجوم الأخرى في حركة دائمة ، وأن هذه الحركة قانون ثابت لا يتخلف لا في الذرة الصغيرة ولا في النجم الهائل . واتضح أن لهذه الحركة نظاماً ثابتاً هو الآخر يوحي بوحدة الخلق ووحدة التدبير . . وفي كل يوم يكشف الإنسان عن جديد من دلائل الوحدة في تصميم هذا الوجود . ويكشف عن حق ثابت في هذا التصميم لا يتقلب مع هوى ، ولا ينحرف مع ميل ، ولا يتخلف لحظة ولا يحيد .

﴿ خلق السماوات والأرض بالحق ﴾ . .

وأنزل الكتاب بالحق . . فهو الحق الواحد في ذلك الكون وفي هذا الكتاب . . وكلاهما صادر من مصدر واحد . وكلاهما آية على وحدة المبدع العزيز الحكيم .

﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ . .

وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسراً على الالتفات إلى ما كشف حديثاً عن كروية الأرض ومع أنني في هذه الظلال حريص على ألا أحمل القرآن على النظريات التي يكشفها الإنسان ، لأنها نظريات تخطئ وتصيب ، وتثبت اليوم وتبطل غداً . والقرآن حق ثابت يحمل آية صدقه في ذاته ، ولا يستمدها من موافقة أو مخالفة لما يكشفه البشر الضعاف المهازيل !

(381/667)

مع هذا الحرص فإن هذا التعبير يقسرني قسراً على النظر في موضوع كروية الأرض . فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض . فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ؛ فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهاراً . ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور . وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار . وهذا السطح مكور فالنهار كان عليه مكوراً والليل يتبعه مكوراً كذلك . وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل . وهكذا في حركة دائبة : ﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ . . واللفظ يرسم الشكل ،

ويحدد الوضع ، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها .

وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أي تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية .

﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ . .

والشمس تجري في مدارها . والقمر يجري في مداره . وهما مسخران بأمر الله . فما يزعم أحد أنه يجريهما . وما يقبل منطق الفطرة أن يجريا بلا محرك ، يدبرهما بمثل هذا النظام الدقيق الذي لا يختل شعرة في ملايين السنين .

وستجري الشمس وسيجري القمر ﴿ لأجل مسمى ﴾ . . لا يعلمه إلا الله سبحانه .

﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾ . .

فمع القوة والقدرة والعزة ، هو غفار لمن يتوب إليه وينيب ، ممن يكذبون عليه ويكفرون به ، ويتخذون معه آلهة ، ويزعمون له ولداً وقد سبق حديثهم والطريق أمامهم مفتوح ليرجعوا إلى العزيز الغفار . .

ومن تلك اللفتة إلى آفاق الكون الكبير ، ينتقل إلى لمسة في أنفس العباد ؛ ويشير إلى آية الحياة القريبة منهم في أنفسهم وفي الأنعام المسخرة لهم :

﴿ خلقكم من نفس واحدة . ثم جعل منها زوجها . وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج .

يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك . لا إله إلا هو فأنى تصرفون ؟ ﴾ .

(382/667)

وحين يتأمل الإنسان في نفسه . نفسه هذه التي لم يخلقها . والتي لا يعلم عن خلقها إلا ما يقصه الله عليه . وهي نفس واحدة . ذات طبيعة واحدة . وذات خصائص واحدة . خصائص تميزها عن بقية الخلائق ، كما أنها تجمع كل أفرادها في إطار تلك الخصائص . فالنفس الإنسانية واحدة في جميع الملايين المنبثين في الأرض في جميع الأجيال وفي جميع البقاع . وزوجها كذلك منها . فالمرأة تلتقي مع الرجل في عموم الخصائص البشرية رغم كل اختلاف في تفصيلات هذه الخصائص مما يشي بوحدة التصميم الأساسي لهذا الكائن البشري . الذكر والأنثى . ووحدة الإرادة المبدعة لهذه النفس الواحدة بشقيها .

وعند الإشارة إلى خاصية الزوجية في النفس البشرية ترد الإشارة إلى هذه الخاصية في الأنعام كذلك . مما يشي بوحدة القاعدة في الأحياء جميعاً :

﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ :

والأنعام الثمانية كما جاءت في آية أخرى : هي الضأن والمعز والبقر والإبل . من كل ذكر

وأنثى . وكل من الذكر والأنثى يسمى زوجاً عند اجتماعهما . فهي ثمانية في مجموعها . .

والتعبير يعبر عن تسخيرها للإنسان بأنه إنزال لها من عند الله . فهذا التسخير منزل من عنده . منزل من عليائه إلى عالم البشر . ومأذون لهم فيه من عنده تعالى .

ثم يعود بعد هذه الإشارة إلى وحدة خاصية الزوجية في الناس والأنعام إلى تتبع مراحل الخلق للأجنة في بطون أمهاتها :

﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ﴾ . .

من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام . إلى الخلق الواضح فيه عنصر البشرية .

﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ . .

ظلمة الكيس الذي يغلف الجنين .

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8)

في الجولة الأولى لمس قلوبهم بعرض قصة وجودهم ؛ وخلقهم من نفس واحدة ؛ وتزويجها من جنسها ؛ وخلق الأنعام أزواجاً كذلك ؛ وخلقهم في بطون أمهاتهم في ظلمات ثلاث .

وأشعرهم يد الله تمنحهم خصائص جنسهم البشري أول مرة ؛ ثم تمنحهم خصائص البقاء والارتقاء .

وهنا يلمس قلوبهم لمسة أخرى وهو يعرض عليهم صورتهم في الضراء وصورتهم في السراء ؛ ويريهم تقلبهم وضعفهم وادعاءهم وقلة ثباتهم على نهج ؛ لا حين يتصلون بربهم ، ويتطلعون إليه ، ويقنتون له ، فيعرفون الطريق ، ويعلمون الحقيقة ؛ وينتفعون بما وهبهم الله من خصائص الإنسان .

﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه . ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أنداداً ، ليضل عن سبيله . قل : تمتع بكفرك قليلاً ، إنك من أصحاب النار ﴾ . .

إن فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسه الضر ؛ ويسقط عنها الركام ؛ وتزول عنها الحجب ، وتتكشف عنها الأوهام ؛ فتتجه إلى ربها ، وتنيب إليه وحده ؛ وهي تدرك أنه لا يكشف الضر غيره . وتعلم كذب ما تدعي من شركاء أو شفعاء .

فأما حين يذهب الضر ويأتي الرخاء ، ويخوله الله نعمة منه ، ويرفع عنه البلاء . فإن هذا الإنسان الذي تعرت فطرته عند مس الضر يعود فيضع عليها الركام ، وينسى تضرعه وإنابته وتوحيده لربه . وتطلعه إليه في المحنة وحده ، حين لم يكن غيره يملك أن يدفع عنه محنته . . ينسى هذا كله ويذهب يجعل لله أنداداً . إما آلهة يعبدها كما كان في جاهليته

الأولى ؛ وإما قيماً وأشخاصاً وأوضاعاً يجعل لها في نفسه شركة مع الله ، كما يفعل في جاهلياته الكثيرة ! فإذا هو يعبد شهواته وميوله ومطامعه ومخاوفه وماله وأولاده وحكامه وكبراءه كما يعبد الله أو أخلص عبادة ؛ ويحبها كما يحب الله أو أشد حباً ! والشرك ألوان . فيها الخفي الذي لا يحسبه الناس شركاً ، لأنه لا يأخذ شكل الشرك المعروف وإنما هو من الشرك في الصميم .

(384/667)

وتكون العاقبة هي الضلال عن سبيل الله . فسبيل الله واحد لا يتعدد . وإفراده بالعبادة والتوجه والحب هو وحده الطريق إليه . والعقيدة في الله لا تحتمل شركة في القلب . لا تحتمل شركة من مال ولا ولد ولا وطن ولا أرض ولا صديق ولا قريب ، فأيما شركة قامت في القلب من هذا وأمثاله فهي اتخاذ أنداد لله ، وضلال عن سبيل الله ، منته إلى النار بعد قليل من المتاع في هذه الأرض :

﴿ قل : تمتع بكفرك قليلاً : إنك من أصحاب النار ﴾ . .

وكل متاع في هذه الأرض قليل مهما طال . وأيام الفرد على هذه الأرض معدودة مهما عمر . بل إن حياة الجنس البشري كله على الأرض لمتاع قليل ، حين يقاس إلى أيام الله !

وإلى جانب هذه الصورة النكدة من الإنسان ، يعرض صورة أخرى .

. صورة القلب الخائف الوجل ، الذي يذكر الله ولا ينساه في سراء ولا ضراء ؛ والذي يعيش حياته على الأرض في حذر من الآخرة ؛ وفي تطلع إلى رحمة ربه وفضله ؛ وفي اتصال بالله ينشأ عنه العلم الصحيح المدرك لحقائق الوجود :

﴿ أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟ قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ .

وهي صورة مشرقة مرهفة . فالقنوت والطاعة والتوجه وهو ساجد وقائم وهذه الحساسية المرهفة وهو يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه وهذا الصفاء وهذه الشفافية التي تفتح البصيرة . وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقي . . هذه كلها ترسم صورة مشرقة وضيئة من البشر تقابل تلك الصورة النكدة المطموسة التي رسمتها الآية السابقة .

فلا جرم يعقد هذه الموازنة :

﴿ قل : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ ﴾ . .

فالعلم الحق هو المعرفة . هو إدراك الحق . هو تفتح البصيرة . هو الاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود . وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التي تزحم الذهن ، ولا تؤدي إلى حقائق الكون الكبرى ، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس .

وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقي والمعرفة المستنيرة . . هذا هو . . القنوت لله .

وحساسية القلب ، واستشعار الحذر من الآخرة ، والتطلع إلى رحمة الله وفضله ؛ ومراقبة الله هذه المراقبة الواجفة الخاشعة . . هذا هو الطريق ، ومن ثم يدرك اللب ويعرف ، وينتفع بما يرى وما يسمع وما يجرب ؛ وينتهي إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة . فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة ، والمشاهدات الظاهرة ، فهم جامعو معلومات وليسوا بالعلماء . .

﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ . .

وإنما يعرف أصحاب القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء الظواهر من حقائق . المنتفعة بما ترى وتعلم ، التي تذكر الله في كل شيء تراه وتلمسه ولا تنساه ، ولا تنسى يوم لقاه . .

وبعد عرض هاتين الصورتين يتجه إلى الذين آمنوا يناديهم ليتقوا ويحسنوا ؛ ويتخذوا من حياتهم القصيرة على هذه الأرض وسيلة للكسب الطويل في الحياة الآخرة :

﴿ قل : يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم . اللذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة . وأرض الله واسعة . إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ . .

وفي التعبير : ﴿ قل : يا عباد الذين آمنوا ﴾ التفاتة خاصة . فهو في الأصل : قل لعبادي

الذين آمنوا . . قل لهم : اتقوا ربكم . ولكنه جعله يناديهم ، لأن في النداء إعلاناً وتنبيهاً .

والرسول صلى الله عليه وسلم لا يقول لهم : ﴿ يا عبادي ﴾ فهم عباد الله . فهناك هذه الالتفاتة في أثناء تكليفه بتبليغهم أن يناديهم باسم الله . فالنداء في حقيقته من الله . وما محمد صلى الله عليه وسلم إلا مبلغ عنه للنداء .

﴿ قل : يا عباد الذين آمنوا . اتقوا ربكم ﴾ .

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11)

(386/667)

هذا المقطع كله يظلله جو الآخرة ، وظل الخوف من عذابها ، والرجاء في ثوابها . ويبدأ بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة ؛ وإعلان خوفه وهو النبي المرسل من عاقبة الانحراف عنها ، وإعلان تصميمه على منهجه وطريقه ، وتركهم هم إلى منهجهم وطريقهم . وبيان عاقبة هذا الطريق وذاك ، يوم يكون الحساب .

﴿ قل : إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ؛ وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ . .

وهذا الإعلان من النبي صلى الله عليه وسلم بأنه مأمور أن يعبد الله وحده ، ويخلص له

الدين وحده ؛ وأن يكون بهذا أول المسلمين ؛ وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إنه هو عصى ربه . . هذا الإعلان ذو قيمة كبرى في تجريد عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام . فالنبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام هو عبد الله . هذا مقامه لا يتعداه . وفي مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفاً ، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد . . وهذا هو المراد .

وعند ذلك يقر معنى الألوهية ، ومعنى العبودية ، ويتميزان ، فلا يختلطان ولا يشتبهان ، وتتجرد صفة الوحدانية لله سبحانه بلا شريك ولا شبيه . وحين يقف محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقام العبودية لله وحده يعلن هذا الإعلان ، ويخاف هذا الخوف من العصيان ، فليس هنالك مجال لدعوى شفاعة الأصنام أو الملائكة بعبادتهم من دون الله أو مع الله بحال من الأحوال .

ومرة أخرى يكرر الإعلان مع الإصرار على الطريق ، وترك المشركين لطريقهم ونهايته الأليمة :

﴿ قل : الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه . قل : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ . .

مرة أخرى يعلن : إنني ماض في طريقي . أخص الله بالعبادة ، وأخلص له الدينونة . فأما أنتم فامضوا في الطريق التي تريدون ؛ واعبدوا ما شئتم من دونه . ولكن هنالك الخسران الذي ما بعده خسران . خسران النفس التي تنتهي إلى جهنم . وخسران الأهل سواء كانوا مؤمنين أم كافرين . فإن كانوا مؤمنين فقد خسرهم المشركون لأن هؤلاء إلى طريق وهؤلاء إلى طريق . وإن كانوا مشركين مثلهم فكلهم خسر نفسه بالجحيم . . ﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ . .

ثم يعرض مشهد الخسران المبين :

﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل . ذلك يخوف الله به عباده . يا عباد فاتقون ﴾ . .

وهو مشهد رعيب حقاً . مشهد النار في هيئة ظلل من فوقهم وظلل من تحتهم ، وهم في طيات هذه الظلل المعتمة تلفهم وتحتوي عليهم . وهي من النار !

إنه مشهد رعيب .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (21)

في هذا المقطع من السورة لفتة إلى حياة النبات في الأرض عقب إنزال الماء من السماء ؛ وانتهائها إلى غايتها القريبة ، وكثيراً ما يضرب هذا مثلاً للحياة الدنيا في حقيقتها الزائلة وتوجيه لأولي الألباب الذين يذكرون ويتدبرون ليتدبروا هذا المثل ويذكروه . وعلى ذكر إنزال الماء من السماء يشير إلى الكتاب المنزل من السماء كذلك لتحيا به القلوب وتنشرح له الصدور ؛ مع تصوير موح لاستجابة القلوب المفتوحة لهذا الكتاب ، بخشية وقشعريرة ثم لين وطمأنينة . وتصوير كذلك لعاقبة المستجيبين لذكر الله ، والقاسية قلوبهم من ذكر الله ، وفي النهاية يتجه إلى حقيقة التوحيد ، فيضرب مثالاً لمن يعبد إلهاً واحداً ومن يعبد آلهة متعددة . وهما لا يستويان مثلاً ولا يتفقان حالاً . كما لا يستوي حال العبد الذي يملكه سادة متنازعون والعبد الذي يعمل لسيد واحد لا ينازعه أحد فيه !

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يجعله حطاماً ؟ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ .

إن هذه الظاهرة التي يوجه القرآن إليها الأنظار للتأمل والتدبر ، ظاهرة تتكرر في أنحاء

الأرض ، حتى لتذهب الألفة بجدتها وما فيها من عجائب في كل خطوة من خطواتها .

والقرآن يوجه النظر إلى رؤية يد الله وتتبع آثارها في كل خطوة من خطوات الحياة .

(389/667)

فهذا الماء النازل من السماء . . ما هو وكيف نزل ؟ إننا نمر بهذه الخارقة سراعاً لطول الألفة وطول التكرار . إن خلق الماء في ذاته خارقة . ومهما عرفنا أنه ينشأ من اتحاد ذرتي أيدروجين بذرة أكسوجين تحت ظروف معينة ، فإن هذه المعرفة خليقة بأن توقظ قلوبنا إلى رؤية يد الله التي صاغت هذا الكون بحيث يوجد الأيدروجين ويوجد الأكسوجين وتوجد الظروف التي تسمح باتحادهما ، وبوجود الماء من هذا الاتحاد . ومن ثم وجود الحياة في هذه الأرض . ولولا الماء ما وجدت حياة . إنها سلسلة من التدبير حتى نصل إلى وجود الماء ووجود الحياة . والله من وراء هذا التدبير ، وكله مما صنعت يداه . . ثم نزول هذا الماء بعد وجوده وهو الآخر خارقة جديدة ، ناشئة من قيام الأرض والكون على هذا النظام الذي يسمح بتكون الماء ونزوله وفق تدبير الله .

ثم تجيء الخطوة التالية لإنزال الماء :

﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ . .

سواء في ذلك الأنهار الجارية على سطح الأرض ؛ أو الأنهار الجارية تحت طباقها مما يتسرب من المياه السطحية ، ثم يتفجر بعد ذلك ينابيع وعيوناً ، أو يتكشف آباراً . ويد الله تمسكه فلا يذهب في الأغوار البعيدة التي لا يظهر منها أبداً !

﴿ ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾ . .

والحياة النباتية التي تعقب نزول الماء وتنشأ عنه ؛ خارقة يقف أمامها جهد الإنسان حسيراً .

ورؤية النبتة الصغيرة وهي تشق حجاب الأرض عنها ؛ وتزيح أثقال الركام من فوقها ؛ وتتطلع إلى الفضاء والنور والحرية ؛ وهي تصعد إلى الفضاء رويداً رويداً . . هذه الرؤية كفيلة بأن تملأ القلب المفتوح ذكرى ؛ وأن تثير فيه الإحساس بالله الخالق المبدع الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . والزرع المختلف الألوان في البقعة الواحدة . بل في النبتة الواحدة . بل في الزهرة الواحدة إن هو إلا معرض لإبداع القدرة ؛ يُشعر الإنسان بالعجز المطلق عن الإتيان بشيء منه أصلاً !

(390/667)

هذا الزرع النامي اللدن الرخص الطري بالحياة ، يبلغ تمامه ، ويستوفي أيامه :

﴿ ثم يهيج فتراه مصفراً ﴾ . .

وقد بلغ غايته المقدرة له في ناموس الوجود ، وفي نظام الكون ، وفي مراحل الحياة ، فينضج للحصاد :

﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾ . .

وقد استوفى أجله ، وأدى دوره ، وأنهى دورته كما قدر له واهب الحياة . .

﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ . .

الذين يتدبرون فيذكرون ، وينتفعون بما وهبهم الله من عقل وإدراك .

﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ؟ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله . أولئك في ضلال مبين . الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ؛ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ؛ ومن يضلل فما له من هاد ﴾ . .

وكما ينزل الماء من السماء ؛ فينبت لهم به زرعاً مختلفاً ألوانه ؛ كذلك ينزل من السماء ذكراً تتلقاه القلوب الحية ؛ فتتفتح وتنشرح وتتحرك حركة الحياة ، وتتلقاه القلوب القاسية كما تتلقاه الصخرة القاسية التي لا حياة فيها ولا نداوة !

والله يشرح للإسلام قلوباً يعلم منها الخير ، ويصلها بنوره فتشرق به وتستضيء . والفرق بين

هذه القلوب وقلوب أخرى قاسية فرق بعيد : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ . .

﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ . .

وهذه الآية تصور حقيقة القلوب التي تتلقى الإسلام فتنشرح له وتندى به . وتصور حالها مع الله . حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة ، والإشراق والاستنارة . كما تصور حقيقة القلوب الأخرى في قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها ، وعتمتها وظلامها . ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره . ليس قطعاً كالقاسية قلوبهم من ذكر الله . وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء .

(391/667)

كذلك تصور الآية الثانية هيئة تلقي المؤمنين لهذا القرآن . هذا الكتاب المتناسق الذي لا اختلاف في طبيعته ولا في اتجاهاته ، ولا في روحه ، ولا في خصائصه . فهو " متشابه " وهو " مثاني " تكرر مقاطعه وقصصه وتوجيهاته ومشاهده . ولكنها لا تختلف ولا تتعارض ، إنما تعاد في مواضع متعددة وفق حكمة تتحقق في الإعادة والتكرار . في تناسق وفي استقرار على أصول ثابتة متشابهة . لا تعارض فيها ولا اصطدام .

والذين يخشون ربهم ويتقونه ، ويعيشون في حذر وخشية ، وفي تطلع ورجاء ، يتلقون هذا

الذكر في وجل وارتعاش ، وفي تأثر شديد تقشعر منه الجلود ؛ ثم تهدأ نفوسهم ، وتأنس قلوبهم بهذا الذكر ؛ فتلين جلودهم وقلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله .

.

وهي صورة حية حساسة ترسمها الكلمات ، فتكاد تشخص فيها الحركات .

﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ﴾ . .

فما ترتعش القلوب هكذا إلا حين تحركها أصبع الرحمن إلى الهدى والاستجابة والإشراق . والله يعلم من حقيقة القلوب ما يجازيها عليه بالهدى أو بالضلال :

﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ . .

فهو يضله بما يعلمه من حقيقته المستقرة على الضلال ، التي لا تقبل الهدى ولا تجنح إليه بحال .

ثم يعرض ما ينتظر أهل الضلال يوم القيامة في مشهد بائس في موعد حصاد الأعمال !

﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ؟ وقيل للظالمين : ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ . .

والإنسان يقي وجهه عادة بيديه وجسمه . فأما هنا فهو لا يملك أن يدفع عن نفسه النار بيديه ولا برجليه ، فيدفعها بوجهه ، ويتقي به سوء العذاب . مما يدل على الهول والشدة والاضطراب . وفي زحمة هذا العذاب يتلقى التأنيب ، وتدفع إليه حصيلة حياته ويا لها من

حصيلة : ﴿ وقيل للظالمين : ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ !

ويلتفت من هذا المشهد إلى الحديث عن المكذبين الذين يواجهون محمداً صلى الله عليه وسلم ليعرض عليهم ما جرى للمكذبين قبلهم لعلهم يتداركون أنفسهم :

(392/667)

﴿ كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ . .

فهذه حال المكذبين في الدنيا والآخرة . في الدنيا أذاقهم الله الخزي . وفي الآخرة ينتظرهم العذاب الأكبر . وسنة الله ماضية لا تتخلف . ومصارع القرون من قبلهم شاهدة . ووعيد الله لهم في الآخرة قائم . والفرصة أمامهم سانحة . وهذا الذكر لمن يتعظ ويذكر ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ !

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون . ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل ، هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ . .

يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه

، وهو بينهم موزع ؛ ولكل منهم فيه توجيه ، ولكل منهم عليه تكليف ؛ وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ؛ ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه ! وعبد يملكه سيد واحد ، وهو يعلم ما يطلبه منه ، ويكلفه به ، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح . .

﴿ هل يستويان مثلاً ؟ ﴾ . .

إنهما لا يستويان . فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين . وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق . والذي يخضع لسادة متشاكسين معذب مقلقل لا يستقر على حال ولا يرضي واحداً منهم فضلاً على أن يرضي الجميع !

وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال .

(393/667)

فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى ، لأن بصره أبداً معلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوي به الطريق . ولأنه يعرف مصدراً واحداً للحياة والقوة والرزق ، ومصدراً واحداً للنفع والضر ، ومصدراً واحداً للمنح والمنع ، فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد ، يستمد منه وحده ، ويعلق يديه بحبل

واحد يشد عروته . ويطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ عنه بصره . ويخدم سيداً واحداً يعرف ماذا يرضيه فيفعله وماذا يغضبه فيتقيه . . وبذلك تتجمع طاقته وتتوحد ، فينتج بكل طاقته وجهده وهو ثابت القدمين على الأرض متطلع إلى إله واحد في السماء . .

ويعقب على هذا المثل الناطق الموحي ، بالحمد لله الذي اختار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار . وهم مع هذا ينحرفون ، وأكثرهم لا يعلمون .

وهذا مثل من الأمثلة التي يضربها القرآن للناس لعلهم يتذكرون . وهو قرآن عربي ، مستقيم ، واضح ، لا لبس فيه ولا عوج ولا انحراف . يخاطب الفطرة بمنطقها القريب المفهوم .

هذا المقطع كله يظلله جو الآخرة ، وظل الخوف من عذابها ، والرجاء في ثوابها . ويبدأ بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة ؛ وإعلان خوفه وهو النبي المرسل من عاقبة الانحراف عنها ، وإعلان تصميمه على منهجه وطريقه ، وتركهم هم إلى منهجهم وطريقهم . وبيان عاقبة هذا الطريق وذاك ، يوم يكون الحساب .

﴿ قل : إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ؛ وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ . .

وهذا الإعلان من النبي صلى الله عليه وسلم بأنه مأمور أن يعبد الله وحده ، ويخلص له الدين وحده ؛ وأن يكون بهذا أول المسلمين ؛ وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إنه هو عصى ربه . . هذا الإعلان ذو قيمة كبرى في تجريد عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام . فالنبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام هو عبد الله . هذا مقامه لا يتعداه . وفي مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفاً ، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد . . وهذا هو المراد .

وعند ذلك يقر معنى الألوهية ، ومعنى العبودية ، ويتميزان ، فلا يختلطان ولا يشتبهان ، وتتجرد صفة الوحدانية لله سبحانه بلا شريك ولا شبيه . وحين يقف محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقام العبودية لله وحده يعلن هذا الإعلان ، ويخاف هذا الخوف من العصيان ، فليس هنالك مجال لدعوى شفاعة الأصنام أو الملائكة بعبادتهم من دون الله أو مع الله بحال من الأحوال .

ومرة أخرى يكرر الإعلان مع الإصرار على الطريق ، وترك المشركين لطريقهم ونهايته الأليمة :

﴿ قل : الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه .

قل : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا ذلك هو الخسران المبين

﴾ . .

مرة أخرى يعلن : إنني ماض في طريقي . أخص الله بالعبادة ، وأخلص له الدينونة . فأما أنتم فامضوا في الطريق التي تريدون ؛ واعبدوا ما شئتم من دونه . ولكن هنالك الخسران الذي ما بعده خسران . خسران النفس التي تنتهي إلى جهنم . وخسران الأهل سواء كانوا مؤمنين أم كافرين . فإن كانوا مؤمنين فقد خسرهم المشركون لأن هؤلاء إلى طريق وهؤلاء إلى طريق . وإن كانوا مشركين مثلهم فكلهم خسر نفسه بالجحيم . . ﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ . .

ثم يعرض مشهد الخسران المبين :

﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل . ذلك يخوف الله به عباده . يا عباد فاتقون ﴾ . .

(395/667)

وهو مشهد رعيب حقاً . مشهد النار في هيئة ظلل من فوقهم وظلل من تحتهم ، وهم في طيات هذه الظلل المعتمة تلفهم وتحتوي عليهم . وهي من النار !

إنه مشهد رعيب . يعرضه الله لعباده وهم بعد في الأرض يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن

طريقه . ويخوفهم مغبته لعلهم يجتنبونه :

﴿ ذلك يخوف الله به عباده ﴾ . .

ويناديهم ليحذروا ويتقوا ويسلموا :

﴿ يا عباد فاتقون ﴾ .

وعلى الضفة الأخرى يقف الناجون ، الذين خافوا هذا المصير المشؤوم :

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى . فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله . وأولئك هم أولو الألباب ﴾ . .

والطاغوت صياغة من الطغيان ؛ نحو ملكوت وعظموت ورحموت . تفيد المبالغة والضخامة . والطاغوت كل ما طغا وتجاوز الحد . والذين اجتنبوا عبادتها هم الذين اجتنبوا عبادة غير المعبود في أية صورة من صور العبادة . وهم الذين أنابوا إلى ربهم . وعادوا إليه ، ووقفوا في مقام العبودية له وحده .

هؤلاء ﴿ لهم البشرى ﴾ صادرة إليهم من الملأ الأعلى . والرسول صلى الله عليه وسلم يبلغها لهم بأمر الله : ﴿ فبشر عباد ﴾ . . إنها البشرى العلوية يحملها إليهم رسول كريم . وهذا وحده نعيم !

هؤلاء من صفاتهم أنهم يستمعون ما يستمعون من القول ، فتلتقط قلوبهم أحسنه وتطرد ما

عداه ، فلا يلحق بها ولا يلصق إلا الكلم الطيب ، الذي تزكو به النفوس والقلوب . .

والنفس الطيبة تتفتح للقول الطيب فتتلقاه وتستجيب له . والنفس الخبيثة لا تتفتح إلا للخبيث من القول ولا تستجيب إلا له .

﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾ . .

فقد علم الله في نفوسهم خيراً فهداهم إلى استماع أحسن القول والاستجابة له . والهدى هدى الله .

﴿ وأولئك هم أولو الألباب ﴾ . .

فالعقل السليم هو الذي يقود صاحبه إلى الزكاة ، وإلى النجاة . ومن لا يتبع طريق الزكاة والنجاة فكأنه مسلوب العقل محروم من هذه النعمة التي أعطاها له الله .

(396/667)

وقبل أن يعرض مشهد هؤلاء في نعيمهم في الآخرة يقرر أن عبدة الطاغوت قد وصلوا فعلاً إلى النار .

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (30)

هذا المقطع تعقيب على ما قبله فبعد أن عرض آية الماء النازل من السماء ، وآية الزرع

الذي يخرج بهذا الماء ، وآية الكتاب النازل من عند الله ؛ وأشار إلى ما يضربه في القرآن من الأمثال ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ عقب على هذا بأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأمرهم موكول إلى الله ؛ وأنه هو الذي يحكم بينهم بعد الموت ، فيجازي الكاذبين المكذبين بما يستحقون ؛ ويجازي الصادقين المصدقين جزاء المحسنين .

﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ . .

إنه الموت نهاية كل حي ؛ ولا يتفرد بالبقاء إلا الله وفي الموت يستوي كل البشر بما فيهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر هذه الحقيقة هنا حلقة من حلقات التوحيد الذي تقرره السورة كلها وتؤكده . ثم يلي ذلك تقرير ما بعد الموت . فالموت ليس نهاية المطاف . إنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة المقدرة المدبرة ، التي ليس شيء منها عبثاً ولا سدى . فيوم القيامة يختصم العباد فيما كان بينهم من خلاف . ويجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام ربه ويوقف القوم للخصومة فيما كانوا يقولونه ويأتونه ، ويواجهون به ما أنزل الله إليهم من الهدى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3035 . 3050 ﴾

(397/667)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والستون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/668)

الجزء الثامن والستون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 32 ﴾ من سورة الزمر

وحتى الآية ﴿ 52 ﴾ من نفس السورة

(4/668)

قوله تعالى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (32) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر سبحانه بأنهم جعلوا لله أنداداً ، وأعلم بأنهم كذبة في ذلك كافرون ساترون للحق ، وأنه لا يهدي من هو كاذب كفار ، وأخبر أنه لا بد من خصام الداعي لهم بين يديه سبحانه ، لأنه لا يجوز في الحكمة تركهم هملاً كما هو مقرر في العقول وموجود في الفطر الأولى ، ومعلوم بالمشاهدة من أحوالهم فينعم على المظلوم ، وينتقم من الظالم ، وكان الكاذب في أقل

الأشياء ظالماً ، وأظلم منه الكاذب على الأكابر ، وأظلم الظالمين الكاذب على الله ، قال تعالى مسبباً عما مضى : ﴿ فمن أظلم ﴾ أي منهم - هكذ كان الأصل ولكنه قال : ﴿ممن كذب ﴾ تعميماً وتعليقاً بالوصف ، فكفر بستر الصدق الثابت وإظهار ما لا حقيقة له .

(5/668)

ولما كان الكذب عظيم القباحة في نفسه فكيف إذا كان كما مضى على الأكابر فكيف إذا كانوا ملوكاً ، فكيف إذا كان على ملك الملوك ، لفت القول إلى مظهر الاسم الأعظم تنبيهاً على ذلك فقال : ﴿ على الله ﴾ أي الذي الكبرياء رداؤه والعظمة إزاره ، فمن نازعه واحدة منهما قصمه ، فزعم فب كذبه أن له سبحانه أنداداً ، وشركاء وأولاداً .

ولما كان وقوع الحساب يوم القيامة حقاً لكونه واقعاً لا محالة وقوعاً يطابق الخبر عنه ، لما علم من أنه لا يليق في الحكمة غيره لما علم من أن أقل الخلق لا يرضى أن يترك عبيده سدى ، فكيف بالخالق ؟ فكان الخبر به صدقاً لوقوع العلم القطعي بأنه يطابق ذلك الواقع قال : ﴿ وكذب ﴾ أي أوقع التكذيب لكل من أخبره ﴿ بالصدق ﴾ أي الإخبار بأن الله واحد وأنه يبعث الخلائق للجزاء المطابق كل منهما للواقع لما دل على ذلك من الدلائل المشاهدة

﴿ إذ جاءه ﴾ أي من غير توقف ولا نظر في دليل ، كما هو دأب المعاندين ، أولئك هم الكافرون لهم ما يضرهم من عذاب جهنم ، ذلك جزاء المسيئين .

(6/668)

ولما كان قد تقرر كالشمس أنه لا يسوغ في عقل العاقل ترك الخلق سدى ، فكان يوم الدين معلوماً قطعاً ، وكان معنى هذا الاستفهام الإنكاري نفي مدخوله فترجمته : ليس أحد أكذب منهم ، وكان عرف اللغة في تسليط هذا النفي على صيغة أفعل إثبات مدلول أفعل ليكون المعنى أنهم أكذب الخلق ، فكان التقدير : أليس هذا الكاذب المكذب عاقلاً يخشى أن يحاسبه الله الذي خلقه ؟ أليس الله المتصف بجميع صفات الكمال يحاسب عباده كما يحاسب كل من الخلائق من تحت يده ؟ أليس يحبس الظالم منهم في دار انتقامه كما يفعل أدنى الحكام ؟ أليس دار انتقامه جهنم التي تلقى داخلها بعبوسة وتجهم ؟ نسق به قوله : ﴿ أليس في جهنم ﴾ أي النار التي تلقى داخلها بالتجهم والعبوسة كما كان يلقى الحق وأهله ﴿ مثوى ﴾ أي منزل مهيأ للإقامة فيه على وجه اللزوم لهم هكذا كان الأصل ، ولكنه قال تعميماً وتعليلاً بالوصف مبيناً أن الكذب كفر أي ستر للصدق وغظهار لما لا حقيقة له ، والتكذيب بالصدق كذلك ﴿ للكافرين ﴾ أي الذين ستروا كذبهم فألبسوه

ملابس الصدق وستروا الصدق الذي كذبوا به ، ذلك جزاء المسيئين لأنهم ليسوا بمتقين ، فأقام سبحانه هذه المقدمة دليلاً على تلك المقدمات كلها .

(7/668)

ولما ذكر سبحانه الظالمين بالكذب ذكر أضدادهم الذين يخاصمونهم عند ربهم وهم المحسنون بالصدق فقال : ﴿ والذي ﴾ أي الفريق الذي ﴿ جاء بالصدق ﴾ أي الخبر المطابق للواقع ، فصدق على الله ، وتعريفه يدل على كماله ، فيشير إلى أن الإتيان به ديدنه لا يتعمد كذباً ﴿ وصدق به ﴾ أي بكل صدق سمعه وقام عليه الدليل ، وليس هو بجموده عدو ما لم يعلم ، فهو يكذب بكل ما لم يسمع ، فمن أعدل منه لكونه صدق على الله وصدق بالصدق إذ جاءه واستمر عليه ، ولعله أفرد الضمير إشارة إلى قلة الموصوف بهذا الوصف من الصدق ، وهذا الفريق هو الرسل وأتباعهم ، ولذلك حصر التقوى فيهم ، فقال مشيراً بالجمع إلى عظمتهم وإن كانوا قليلاً : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الترتبة ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ المتقون ﴾ الذين جانبوا الظلم ، فليس لجهنم عليهم سبيل ، ولا لهم فيها منزل ولا مقيل ، بل الجنة منزلهم ، أليس في الجنة منزل للمتقين ؟ فالآية من الاحتباك : ذكر أولاً المثوى في جهنم دليلاً على حذف ضده ثانياً ، والاتقاء ثانياً دليلاً على حذف ضده أولاً ، وسره أنه

ذكر أنكأ ما للمجرم من الكفر وسوء الجزاء .

وأسرّ ما للمسلم من قصر التقوى عليه ، وذكر أحب جزائه إليه ، والإشارة إلى عراقته في الإحسان وفي الآيات احتباك آخر وهو أنه ذكر الكذب والتكذيب أولاً دليلاً على الصدق والتصديق ثانياً ، والاتقاء وجزاءه وما يتبعه ثانياً دليلاً على ضده أولاً ، وسره أنه ذكر في شق المسيء أنكأ ما يكون من الكذب والتكذيب في أقبح مواضعه ، ولا سيما عند العرب ، وأسر ما يكون في شق المحسن من استقامة الطبع وحسن الجزاء .

ولما مدحهم على تقواهم ، قال في جواب من سأل عن ثوابهم ، فقال لافتاً القول إلى صفة الإحسان تعريفاً بمزيد إكرامهم : ﴿ لهم ما يشآءون ﴾ أي يتجدد لهم إرادته متى أرادوه ﴿ عند ربهم ﴾ أي المحسن إليهم اللطيف بهم في الدنيا والآخرة لأنهم سلموا له في الأولى ما يشاء ، فسلم لهم في الأخرى ما يشاؤون .

(8/668)

ولما كان أعظم الجزاء ، مدحه على وجه بين علته وأوجب عمومه فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الثواب الكبير ﴿ جزاء المحسنين ﴾ أي كل من اتصف بالإحسان كما اتصفوا به بالتقوى ، فأحبه الله سبحانه كما أحبهم ، فكان سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده

التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها .

ولما كان العاقل من قدم في كل أمر الأهم فالأهم فميز بين خير الخيرين فأتبعه ، وشر الشرين فاجتنبه ، كان المحسن من جعل أكبر ذنوبه نصب عينيه وعمل على هدمه ، فلذلك علل الإحسان بقوله : ﴿ ليكفر ﴾ أي يستر ستراً عظيماً كأنه قال : المحسنين الذين أحسنوا لهذا الغرض ، ويجوز أن يكون التعليل للجزاء ، وعبر بالاسم الأعظم لفتاً عن صفة الإحسان إشارة إلى عظيم الاجتهاد في العمل والإيذان بأنه لا يقدر على الغفران لمن يريد إلا مطلق التصرف فقال : ﴿ الله ﴾ أي الذي نصب المحسن جلاله وجماله بين عينيه ، فاستغرق في صفاته ابتغاء مرضاته ، فعبده كأنه يراه ، وحقق باعترافهم بالخطأ وقصدهم التكفير لما أهمهم فعلهم له بقوله : ﴿ عنهم أسوأ ﴾ العمل ﴿ الذي عملوا ﴾ وتابوا عنه بالندم والإقلاع والعزم على عدم العود وقد علم أنه إذا محي الأكبر انمحى الأصغر لأن الحسنات يذهبن السيئات ، فلله در أهل البصائر والإخلاص في الإعلان والسرائر ولما أخبر بالتطهير من اوضار السيىء ، أتبعه الإخبار بالتنوير بأنوار الحسن فقال : ﴿ ويجزيهم أجرهم ﴾ أي الذي تفضل عليهم بالوعد به .

(9/668)

ولما كان تعالى يزيد العمل الصالح ويربيه ، زاد الجار في الجزاء إعلاماً بأنه يجعل الأعمال الصالحة كلها مثل أعلاها فقال : ﴿ بأحسن ﴾ ولما كان مقصود هذه السورة أخص من مقصود سورة النحل ، وكانت " الذي " و " من " أقل إبهاماً من " ما " قال : ﴿ الذي ﴾ أي العمل الذي ، وهو كالأول من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه كخاتم فضة ، وأشار إلى مداومتهم على الخير بالتعبير بالكون والمضارع فقال : ﴿ كانوا يعملون ﴾ مجددين له وقتاً بعد وقت لأنه في طبائعهم فهم عريقون في تعاطيه ، فمن كان في هذه الدار محسناً في وقت ما يعبد الله كأنه يراه فهو في الآخرة كل حين يراه ، قال القشيري ، ثم يجب أن يكون على أحسن الأعمال أحسن الثواب ، وأحسن الثواب الرؤية ، فيجب أن يكون على الدوام .

وهذا استدلال قوي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 445 . 448 ﴾

(10/668)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ عباده ﴾ على الجمع : يزيد وحمزة وعلي وخلف . ﴿ أرادني الله ﴾ بسكون الياء : حمزة . ﴿ كاشفات ﴾ بالتنوين ﴿ ضره ﴾ بالنصب وهكذا ﴾

ممسكات رحمته ﴾ أبو عمرو وسهل ويعقوب . الباقون : بالإضافة فيهما ﴿ قضى عليها ﴾ مجهولاً ﴿ الموت ﴾ بالرفع : حمزة وعلي وخلف ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا ﴾ بسكون الياء : حمزة وعلي وخلف وأبو عمرو وسهل ويعقوب ، والوقف للجميع بالياء لا غير . ﴿ يا حسرتاي ﴾ بياء بعد الف : يزيد . الآخرون : بالألف وحدها ﴿ وينجي الله ﴾ بالتخفيف : روح ﴿ بمفازاتهم ﴾ على الجمع : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير حفص والمفضل ﴿ تأمروني ﴾ بتشديد النون وفتح الياء : ابن كثير ﴿ تأمرونني ﴾ بنونين وسكون الياء : ابن عامر ﴿ تأمروني ﴾ بنون واحدة وفتح الياء : أبو جعفر ونافع . الباقون : بتشديد النون وسكون الياء . ﴿ لنحبطن ﴾ بالنون من الإحباط ﴿ عملك ﴾ بالنصب : يزيد . الآخرون : على الغيبة وفتح العين ﴿ عملك ﴾ بالرفع ﴿ وسيق ﴾ بضم السين وكسر الياء : ابن عامر وعلي ورويس ﴿ فتحت ﴾ بالتخفيف : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير المفضل في الحرفين .

(11/668)

الوقوف : ﴿ إذ جاءه ﴾ ط ﴿ للكافرين ﴾ 5 ﴿ المتقون ﴾ 5 ﴿ عند ربهم ﴾ ط ﴿ المحسنين ﴾ 5 ج لاحتمال تعلق اللام بمحذوف كما يجيء . ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿

عبده ﴾ ط ﴿ من دونه ﴾ ط ﴿ من هاد ﴾ 5ج ﴿ مضل ﴾ ط ﴿ انتقام ﴾ 5
﴿ ليقولن الله ﴾ ط ﴿ رحمته ﴾ ط ﴿ حسبي الله ﴾ ط ﴿ المتوكلون ﴾ 5 ﴿
عامل ﴾ ج لابتداء التهديد مع فاء التعقيب ﴿ تعلمون ﴾ 5لا ﴿ مقيم ﴾ 5 ﴿
بالحق ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ فلنفسه ﴾ ج ﴿ عليها ﴾ ج للابتداء بالنفي مع
العطف ﴿ بوكيل ﴾ 5ج ﴿ في منامها ﴾ ج ﴿ مسمى ﴾ ط ﴿ يتفكرون ﴾ 5 ﴿
شفعاء ﴾ ط ﴿ يعقلون ﴾ 5 ﴿ جميعاً ﴾ ط ﴿ والأرض ﴾ ط بناء على أن "ثم"
لترتيب الأخبار ﴿ ترجعون ﴾ 5 ﴿ بالآخرة ﴾ ط ج فصلاً بين الجملتين مع اتفاقهما
نظماً ﴿ يستبشرون ﴾ 5 ﴿ يختلفون ﴾ 5 ﴿ القيامة ﴾ ط ﴿ يحتسبون ﴾ 5 ﴿
يستهزؤن ﴾ 5 ﴿ دعانا ﴾ ز فصلاً بين تناقض الحالين مع اتفاق الجملتين ﴿ منا ﴾ لا
لأن ما بعده جواب ﴿ على علم ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 ﴿ يكسبون ﴾ 5 ﴿ ما
كسبوا ﴾ الأولى ط ﴿ ما كسبوا ﴾ الثانية لا لأن الواو للحال ﴿ بمعجزين ﴾ 5 ﴿
ويقدر ﴾ ط ﴿ يؤمنون ﴾ 5 ﴿ رحمة الله ﴾ ط ﴿ جميعاً ﴾ ط ﴿ الرحيم ﴾ 5
﴿ لا تنصرون ﴾ 5 ﴿ لا تشعرون ﴾ 5لا ﴿ الساخرين ﴾ 5لا ﴿ المتقين ﴾ 5لا
﴿ المحسنين ﴾ 5 ﴿ الكافرين ﴾ 5 ﴿ مسودّة ﴾ ط ﴿ للمتكبرين ﴾ 5 ﴿
بمفازتهم ﴾ ز لاحتمال الاستئناف والحال أوجه ﴿ يحزنون ﴾ 5 ﴿ كل شيء ﴾ ز
للفصل بين الوصفين تعظيماً مع اتفاق الجملتين ﴿ وكيل ﴾ 5 ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿

الخاسرون ﴾ 5 ﴿ الجاهلون ﴾ 5 ﴿ من قبلك ﴾ ج لحق القسم المحذوف ﴿ الخاسرين ﴾ 5 ﴿ الشاكرين ﴾ 5 ﴿ بيمينه ﴾ ط ﴿ يشركون ﴾ 5 ﴿ من شاء الله ﴾ ج بياناً لتراخي النفخة الثانية عن الأولى مع اتفاق الجملتين ﴿ ينظرون ﴾ 5 ﴿ لا يظلمون ﴾ 5 ﴿ يفعلون ﴾ 5 ﴿ زمراً ﴾ ط ﴿ هذا ﴾ ط ﴿ الكافرين ﴾ 5 ﴿ فيها ﴾ ج ﴿ المتكبرين ﴾ 5 ﴿ زمراً ﴾ ط ﴿ خالدين ﴾ 5 ﴿ نشاء ﴾ ج ﴿ العاملين ﴾ 5 ﴿ ربهم ﴾ ج لأن الماضي لا ينعطف

على المستقبل ولاحتمال جعله حالاً وقد قضى بين الزمرين ﴿ العالمين ﴾ 5 . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 5 . 6 ﴾

(12/668)

فصل

قال الفخر :

ثم بين تعالى نوعاً آخر من قبائح أفعالهم ، وهو أنهم يكذبون ويضمون إليه أنهم يكذبون القائل المحق .

أما أنهم يكذبون ، فهو أنهم أثبتوا لله ولداً وشركاء .

وأما أنهم مصرون على تكذيب الصادقين ، فلأنهم يكذبون محمداً صلى الله عليه وسلم بعد قيام الدلالة القاطعة على كونه صادقاً في ادعاء النبوة ، ثم أردفه بالوعيد فقال : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين ﴾ ومن الناس من تمسك بهذه الآية في تكفير المخالف من أهل القبلة ، وذلك لأن المخالف في المسائل القطعية كلها يكون كاذباً في قوله ، ويكون مكذباً للمذهب الذي هو الحق ، فوجب دخوله تحت هذا الوعيد .

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33)

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكاذبين والمكذبين للصادقين ذكر عقيبه وعد الصادقين ووعد المصدقين ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ والذى جَاء بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ تقديره : والذي جاء بالصدق والذي صدق به ، وفيه قولان الأول : أن المراد شخص واحد فالذي جاء بالصدق محمد ، والذي صدق به هو أبو بكر ، وهذا القول مروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام وجماعة من المفسرين رضي الله عنهم والثاني : أن المراد منه كل من جاء بالصدق ، فالذي جاء بالصدق الأنبياء ، والذي صدق به الأتباع ، واحتج القائلون بهذا القول بأن الذي جاء بالصدق جماعة وإلا لم يجز أن يقال : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ المتقون ﴾ .

المسألة الثانية :

أن الرسالة لا تتم إلا بأركان أربعة : المرسل والمرسل والرسالة والمرسل إليه ، والمقصود من الإرسال إقدام المرسل إليه على القبول والتصديق ، فأول شخص أتى بالتصديق هو الذي يتم به الإرسال ، وسمعت بعض القاصين من الذي يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " دعوا أبا بكر فإنه من تتمة النبوة " .

(13/668)

واعلم أنا سواء قلنا المراد بالذي صدق به شخص معين ، أو قلنا المراد منه كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، فإن أبا بكر داخل فيه .

أما على التقدير الأول : فدخول أبي بكر فيه ظاهر ، وذلك لأن هذا يتناول أسبق الناس إلى التصديق ، وأجمعوا على أن الأسبق الأفضل إما أبو بكر وإما علي ، وحمل هذا اللفظ على أبي بكر أولى ، لأن علياً عليه السلام كان وقت البعثة صغيراً ، فكان كالولد الصغير الذي يكون في البيت ، ومعلوم أن إقدامه على التصديق لا يفيد مزيد قوة وشوكة .

أما أبو بكر فإنه كان رجلاً كبيراً في السن كبيراً في المنصب ، فإقدامه على التصديق يفيد مزيد قوة وشوكة في الإسلام ، فكان حمل هذا اللفظ إلى أبي بكر أولى .

وأما على التقدير الثاني : فهو أن يكون المراد كل من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وعلى هذا

التقدير يكون أبو بكر داخلاً فيه .

المسألة الثالثة :

قال صاحب "الكشاف" قرىء وصدق بالتخفيف أي صدق به الناس ، ولم يكذبهم يعني أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف ، وقيل صار صادقاً به أي بسببه ، لأن القرآن معجزة ، والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح فيصير المدعي للرسالة صادقاً بسبب تلك المعجزة وقرىء وصدق .

واعلم أنه تعالى أثبت للذي جاء بالصدق وصدق به أحكاماً كثيرة .

فالحكم الأول : قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ المتقون ﴾ وتقريره أن التوحيد والشرك ضدان ، وكلما كان أحد الضدين أشرف وأكمل كان الضد الثاني أخس وأرذل ، ولما كان التوحيد أشرف الأسماء كان الشرك أخس الأشياء ، والآتي بأحد الضدين يكون تاركاً للضد الثاني ، فالآتي بالتوحيد الذي هو أفضل الأشياء يكون تاركاً للشرك الذي هو أخس الأشياء وأرذلها ، فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين .

(14/668)

الحكم الثاني : للمصدقين قوله تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء المحسنين ﴾ ، وهذا الوعد يدخل فيه كل ما يرغب المكلف فيه ، فإن قيل لا شك أن الكمال محبوب لذاته مرغوب فيه لذاته ، وأهل الجنة لا شك أنهم عقلاء فإذا شاهدوا الدرجات العالية التي هي للأنبياء وأكابر الأولياء عرفوا أنها خيرات عالية ودرجات كاملة ، والعلم بالشيء من حيث إنه كمال ، وخير يوجب الميل إليه والرغبة فيه ، وإذا كان كذلك فهم يشاءون حصول تلك الدرجات لأنفسهم فوجب حصولها لهم بحكم هذه الآية ، وأيضاً فإن لم يحصل لهم ذلك المراد كانوا في الغصة ووحشة القلب ، وأجيب عنه بأن الله تعالى يزيل الحقد والحسد عن قلوب أهل الآخرة ، وذلك يقتضي أن أحوالهم في الآخرة بخلاف أحوالهم في الدنيا ، ومن الناس من تمسك بهذه الآية في أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة ، قالوا إن الذين يعتقدون أنهم يرون الله تعالى لا شك أنهم داخلون تحت قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ لأنهم صدقوا الأنبياء عليهم السلام ، ثم إن ذلك الشخص يريد رؤية الله تعالى فوجب أن يحصل له ذلك لقوله تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فإن قالوا لا نسلم أن أهل الجنة يشاءون ذلك ، قلنا هذا باطل لأن الرؤية أعظم وجوه التجلي وزوال الحجاب ، ولا شك أنها حالة مطلوبة لكل أحد نظراً إلى هذا الاعتبار ، بل لو ثبت بالدليل كون هذا المطلوب ممتنع الوجود لعينه فإنه يترك طلبه ، لا لأجل عدم المقتضى للطلب ، بل لقيام المانع

وهو كونه ممتنعاً في نفسه ، فثبت أن هذه الشبهة قائمة والنص يقتضي حصول كل ما أرادوه وشاءوه فوجب حصولها .

(15/668)

واعلم أن قوله : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ لا يفيد العندية بمعنى الجهة والمكان بل بمعنى الصمدية والإخلاص كما في قوله تعالى : ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 55] واعلم أن المعتزلة تمسكوا بقوله : ﴿ وذلك جَزَاء المحسنين ﴾ على أن هذا الأجر مستحق لهم على إحسانهم في العبادة .

الحكم الثالث : قوله تعالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فقوله : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه وقوله : ﴿ لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ ﴾ يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه ، فقيل المراد أنهم إذا صدقوا الأنبياء عليهم فيما أوتوا فإن الله يكفر عنهم أسوأ أعمالهم وهو الكفر السابق على ذلك الإيمان ، ويوصل إليهم أحسن أنواع الثواب ، وقال مقاتل يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوىء ، واعلم أن مقاتلاً كان شيخ المرجئة وهم الذين يقولون لا يضر شيء من المعاصي مع الإيمان ، كما لا ينفع شيء من

الطاعات مع الكفر ، واحتج بهذه الآية فقال : إنها تدل على أن من صدق الأنبياء والرسل فإنه تعالى يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ، ولا جوز حمل هذا الأسوأ على الكفر السابق ، لأن الظاهر من الآية يدل على أن التكفير إنما حصل في حال ما وصفهم الله بالتقوى وهو التقوى من الشرك ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد منه الكبائر التي يأتي بها بعد الإيمان ، فتكون هذه الآية تنصيصاً على أنه تعالى يكفر عنهم بعد إيمانهم أسوأ ما يأتون به وذلك هو الكبائر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 242 . 244 ﴾

(16/668)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾

أي لا أحد أظلم ﴿ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ ﴾ فزعم أن له ولداً وشريكاً ﴿ وَكَذَّبَ بالصدق ﴾ يعني القرآن ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ ﴾ استفهام تقرير ﴿ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أي مقام للجاحدين ، وهو مشتق من ثَوَى بالمكان إذا أقام به يَثْوِي ثَوَاء وثُوِيًّا مثل مَضَى مَضَاء ومُضِيًّا ، ولو كان من أَثْوَى لكان مُثْوًى .

وهذا يدّل على أن ثَوَى هي اللغة الفصيحة .

وحكى أبو عبيد أَثْوَى ، وأنشد قول الأعشى :

أَثْوَى وقَصَّرَ لَيْلَةً لِيُزَوَّدَا . . .

ومَضَى وأَخْلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِدَا

والأصمعي لا يعرف إلا ثَوَى ، ويروى البيت أَثَوَى على الاستفهام .

وأَثْوَيتُ غيري يتعدى ولا يتعدّى .

قوله تعالى : ﴿ والذي جَآءَ بالصدق ﴾ في موضع رفع بالابتداء وخبره ﴿ أولئك هُمُ المتقون ﴾ واختلف في الذي جاء بِالصدق وصَدَّقَ بِهِ ؛ فقال علي رضي الله عنه : "الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ" النبي صلى الله عليه وسلم "وَصَدَّقَ بِهِ" أبو بكر رضي الله عنه .

وقال مجاهد : النبي عليه السلام وعليّ رضي الله عنه .

السّدي : الذي جاء بالصدق جبريل صلى الله عليه وسلم والذي صدّق به محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن زيد ومقاتل وقتادة : "الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ" النبي صلى الله عليه وسلم "وَصَدَّقَ بِهِ" المؤمنون .

واستدلوا على ذلك بقوله : ﴿ أولئك هُمُ المتقون ﴾ كما قال : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] .

وقال النَّخَعي ومجاهد : "الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ" المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم

القيامة فيقولون : هذا الذي أعطيتُمونا قد اتبعنا ما فيه ؛ فيكون ﴿ الَّذِي ﴾ على هذا بمعنى جمع كما تكون مَنْ بمعنى جمع .

وقيل : بل حذفت منه النون لطول الاسم ، وتأوله الشعبي على أنه واحد .

(17/668)

وقال : ﴿ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم فيكون على هذا خبره جماعة ؛ كما يقال لمن يُعظَّم هو فعلوا ، وزيد فعلوا كذا وكذا .

وقيل : إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله عز وجل ؛ قاله ابن عباس وغيره ، واختاره الطبري .

وفي قراءة ابن مسعود ﴿ وَالَّذِي جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَقُوا بِهِ ﴾ وهي قراءة على التفسير .

وفي قراءة أبي صالح الكوفي ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَقَ بِهِ ﴾ مخففاً على معنى وصدق بمجيئه به ، أي صدق في طاعة الله عز وجل ، وقد مضى في "البقرة" الكلام في "الَّذِي" وأنه يكون واحداً ويكون جمعاً .

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي من النعيم في الجنة ، كما يقال : لك إكرام عندي ؛ أي

ينالك مني ذلك .

﴿ ذَلِكَ جَزَآءُ المحسنين ﴾ الثناء في الدنيا والثواب في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ ﴾ أي صدّقوا ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ .

﴿ أَسْوَأَ الذي عَمِلُواْ ﴾ أي يكرمهم ولا يؤاخذهم بما عملوا قبل الإسلام .

﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أي يثيبهم على الطاعات في الدنيا ﴿ بِأَحْسَنِ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وهي الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(18/668)

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ على الله ﴾

بأن أضاف إليه سبحانه وتعالى الشرك أو الولد ﴿ وَكَذَّبَ بالصدق ﴾ أي بالأمر الذي هو عين الحق ونفس الصدق وهو ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إِذْ جَاءهُ ﴾ أي في أول مجيئه من غير تدبر فيه ولا تأمل فإذ فجائية كما صرح به الزمخشري لكن اشترط فيها في المغنى أن تقع بعد بينا أو بينما ونقله عن سيبويه فلعله أغلبي ، وقد يقال : هذا المعنى يقتضيه السياق من غير توقف على كون إذ فجائية ، ثم المراد أن هذا الكاذب والمكذب

أظلم من كل ظالم ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وتعالى وسارعوا إلى التكذيب بالصدق ، ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بالكفر ، والجمع باعتبار معنى ﴿ مِنْ ﴾ كما أن الافراد في الضمائر السابقة باعتبار لفظها أو لجنس الكفرة فيشمل أهل الكتاب ويدخل هئلاء في الحكم دخولاً أولياً ، وأياً ما كان فالمعنى على كفاية جهنم مجازاة لهم كأنه قيل : أليست جهنم كافية للكافرين مثوى كقوله تعالى : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ﴾ [المجادلة : 8] أي هي تكفي عقوبة لكفرهم وتكذيبهم ، والكفاية مفهومة من السياق كما تقول لمن سألك شيئاً : ألم أنعم عليك تريد كفاك سابق أنعامي عليك ، واستدل بالآية على تفكير أهل البدع لأنهم مكذبون بما علم صدقه .

وتعقب بأن ﴿ مَن كَذَّبَ ﴾ مخصوص بمن كذب الأنبياء شفاها في وقت تبليغهم لا مطلقاً لقوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَهُ ﴾ ولو سلم اطلاقه فهم لكونهم يتأولون ليسوا مكذبين وما نفوه وكذبوه ليس معلوماً صدقه بالضرورة إذ لو علم من الدين ضرورة كان جاحدة كافراً كمنكر فرضية الصلاة ونحوها .

(19/668)

وقال الخفاجي : الأظهر أن المراد تكذيب الأنبياء عليهم السلام بعد ظهور المعجزات في أن ما جاؤوا به من عند الله تعالى لا مطلق التكذيب ، وكأني بك تختار أن المتأول غير مكذب لكن لا عذر في تأويل ينفي ما علم من الدين ضرورة .

﴿ والذى جَاء بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ الموصول عبارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخرجه ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس ، وفسر الصدق بلا إله إلا الله ، والمؤمنون داخلون بدلالة السياق وحكم التبعية دخول الجند في قولك : نزل الأمير موضع كذا ، وليس هذا من الجمع بين الحقيقة والمجاز في شيء لأن الثاني لم يقصد من حاق اللفظ ، ولا يضر في ذلك أن المجيء بالصدق ليس وصفاً للمؤمنين الأتباع كما لا يخفى ، والموصول على هذا مفرد لفظاً ومعنى ، والجمع في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ المتقون ﴾ باعتبار دخول الأتباع تبعاً ، ومراتب باعتبار دخول الأتباع تبعاف ، ومراتب التقوى متفاوتة ولرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلاها ، وجوز أن يكون الموصول صفة لمحذوف أي الفوج الذي أو الفريق الذي الخ فيكون مفرد اللفظ مجموع المعنى فقيل : الكلام حينئذ على التوزيع لأن المجيء

بالصدق على الحقيقة له عليه الصلاة والسلام والتصديق بما جاء به وان عمه وأتباعه صلى الله عليه وسلم لكنه فيهم أظهر فليحمل عليه للتقابل ، وفي الكشف الأوجه أن لا يحمل على التوزيع غاية ما في الباب ان أحد الوصفين في أحد الموصوفين أظهر ، وعليه يحمل كلام الزمخشري الموهم للتوزيع ، وحمل بعضهم الموصول على الجنس فإن تعريفه كتعريف ذي اللام يكون للجنس والعهد ، والمراد حينئذ به الرسل والمؤمنون .

وأيد إرادة ما ذكر بقراءة ابن مسعود ﴿ والذين مَعَاذِيرَهُ لاَ تُحَرّكْ بِهِ ﴾ وزعم بعضهم أنه أريد والذين فحذفت النون كما في قوله

: إن الذي حانت بفلج دماؤهم . . .

هم القوم كل القوم يا أم مالك

(20/668)

وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بصحيح لوجوب جمع الضمير في الصلة حينئذ كما في البيت ألا ترى أنه إذا حذفت النون من اللذان كان الضمير مثنى كقوله

: إن الذي حانت بفلج دماؤهم . . .

هم القوم كل القوم يا أم مالك

وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بصحيح لوجوب جمع الضمير في الصلة حينئذ كما في البيت ألا ترى أنه إذا حذفت النون من اللذان كان الضمير مثنى كقوله :

أبني كليب ان عمى اللذا

قتلا وفككا الاغلالا

وقال علية .

وأبو العالية .

والكلبي .

وجماعة ﴿ الذى جَاء بالصدق ﴾ هو الرسول صلى الله عليه وسلم والذي صدق به هو أبو بكر رضي الله تعالى عنه .

وأخرج ذلك ابن جرير .

والماوردي في معرفة الصحابة .

وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان وله صحبة عن علي كرم الله تعالى وجهه ، وقال أبو الأسود .

ومجاهد في رواية .

وجماعة من أهل البيت .

وغيرهم : الذي صدق به هو علي كرم الله تعالى وجهه .

وأخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن السدى أنه قال : ﴿ الذى جَاء بالصدق ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ هو النبي صلى الله عليه وسلم ، قيل : وعلى الأقوال الثلاثة يقتضي اضمار الذي وهو غير جائز على الأصح عند النحاة من أنه لا يجوز حذف الموصول وإبقاء صلته مطلقاً أي سواء عطف على موصول آخر أم لا .

ويضعفه أيضاً الأخبار عنه بالجمع .

(21/668)

وأجيب بأنه لا ضرورة إلى الإضمار ويراد بالذي الرسول صلى الله عليه وسلم والصديق أو علي كرم الله تعالى وجههما معاً على أن الصلة للتوزيع ، أو يراد بالذي جبريل عليه السلام والرسول صلى الله عليه وسلم معاً كذلك ، وضمير الجمع قد يرجع إلى الاثنين وقد أريدا بالذي ، ولا يخفى ما ذلك من التكلف والله تعالى أعلم بحال الأخبار ، ولعل ذكر أبي بكر مثلا على تقدير الصحة من الاقتصار على بعض أفراد العام لنكتة وهي في أبي بكر رضي الله تعالى عنه كونه أول من آمن وصدق من الرجال ، وفي علي كرم الله تعالى وجهه كونه أول

من آمن وصدق من الصبيان ، ويقال نحو ذلك على تقدير صحة خبر السدى ولا يكاد يصح لقوله تعالى : فيما بعد ﴿ لِيُكَفِّرَ ﴾ الخ ، وبما ذكر يجمع بين الأخبار إن صحت ولا يعتبر في شيء منها الحصر فتدبر .

وقرأ أبو صالح .

وعكرمة بن سليمان ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ مخففاً أي وصدق به الناس ولم يكذبهم به يعني أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف فالمفعول محذوف لأن الكلام في القائم به الصدق وفي الحديث الصدق ، والكلام على العموم دون خصوصه عليه الصلاة والسلام فإن جملة القرآن حفظه الصحابة عنه عليه الصلاة والسلام وأدوه كما أنزل ، وقيل : المعنى وصار صادقاً به أي بسببه لأن القرآن معجز والمعجز يدل على صدق النبي عليه الصلاة والسلام ، وعلى هذا فالوصف خاص ، وقد تجوز في ذلك باستعمال ﴿ صَدَقَ ﴾ بمعنى صار صادقاً به ولا كناية فيه كما قيل ؛ وقال أبو صالح : أي وعمل به وهو كما ترى .

وقرىء ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ مبنياً للمفعول مشدداً .

(22/668)

﴿ لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ بيان لما لأولئك الموصوفين بالمجيء بالصدق والتصديق به في الآخرة من حسن المآب بعد بيان ما لهم في الدنيا من حسن الأعمال أي لهم كل ما يشاؤونه من جلب المنافع ودفع المضار في الآخرة لا في الجنة فقط لما أن بعض ما يشاؤونه من تكفير السيئات والامن من الفزع الأكبر وسائر أهوال القيامة إنما يقع قبل دخول الجنة ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكر من حصول كل ما يشاؤونه ﴿ جَزَاء المحسنين ﴾ أي الذي أحسنوا أعمالهم ، والمراد بهم أولئك المحدث عنهم لكن أقيم الظاهر مقام الضمير تنبيهاً على العلة لحصول الجزاء ، وقيل : المراد ما يعمهم وغيرهم ويدخلون دخولاً أولياً

﴿ لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذى عَمِلُواْ ﴾ الخ متعلق بمحذوف أي ليكفر الله عنهم ويجزيهم خصهم سبحانه بما خص أو بما قبله باعتبار فحواه على ما قيل أي وعدهم الله جميع ما يشاؤونه من زوال المضار وحصول المسار ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذي عملوا الخ ، وليس ببعيد معنى عن الأول ، وجوز أن يكون متعلقاً بقوله سبحانه : ﴿ وذلك جَزَاء المحسنين ﴾ [الزمر : 34] أي بما يدل عليه من الثبوت أو بالمحسنين كما قال أبو حيان فكأنه قيل : وذلك جزاء الذين أحسنوا أعمالهم ليكفر الله تعالى عنهم أسوأ الذي عملوه ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ ويعطيهم ثوابهم ﴿ بِأَحْسَنِ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وتقديم التكفير على إعطاء الثواب لأن درء المضار أهم من جلب المسار .

وأقيم الاسم الجليل مقام الضمير الراجع إلى ﴿ رَبُّهُمْ ﴾ لإبراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام ، وإضافة ﴿ أَسْوَأَ وَأَحْسَنُ ﴾ إلى ما بعدهما من إضافة افعل التفضيل إلى غير المفضل عليه للبيان والتوضيح كما في الأشج أعدل بني مروان ويوسف أحسن أخوته ، والتفضيل على ما قال الزمخشري للدلالة على أن الزلة المكفرة عندهم هي الأسوأ لاستعظامهم المعصية مطلقاً لشدة خوفهم ، والحسن الذي يعملونه عند الله تعالى هو الأحسن لحسن إخلاصهم فيه .

وذلك على ما قرر في الكشف لأن التفضيل هنا من باب الزيادة المطلقة من غير نظر إلى مفضل عليه نظراً إلى وصوله إلى أقصر الغاية الكمالية ، ثم لما كانوا متقين كاملي التقي لم يكن في عملهم أسوأ إلا فرضاً وتقديراً .

وقوله سبحانه : ﴿ بِأَحْسَنِ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ دون أحسن الذي كانوا يعملون يدل على أن حسنهم عند الله تعالى من الأحسن لدلالته على أن جميع أجرهم يجري على ذلك الوجه فلو لم يعملوا إلا الأحسن كان التفصيل بحسب الأمر نفسه ولو كان في العمل الأحسن والحسن وكان الجزاء بالأحسن بأن ينظر إلى أحسن الأعمال فيجري الباقي في الجزاء على قياسه دل أن الحسن عند المجازي كالأحسن ، فصح على التقديرين أن حسنهم عند الله تعالى هو الأحسن ، ويعلم من هذا أن لا اعتزال فيما ذكره الزمخشري كما توهمه أبو حيان ،

وأما قوله في الاعتراض عليه : إنه قد استعمل ﴿ أَسْوَأَ ﴾ في التفضيل على معتقدهم و﴿ حُسْنُ ﴾ في التفضيل على ما هو عند الله عز وجل وذلك توزيع في أفعل التفضيل وهو خلاف الظاهر .

(24/668)

فقد يسلم إذا لم يكن في الكلام ما يؤذن بالمغايرة فحيث كان فيه ههنا ذلك على ما قرر لا يسلم أن التوزيع خلاف الظاهر ، وقيل : إن ﴿ أَسْوَأَ ﴾ على ما هو الشائع في أفعل التفضيل ، وليس المراد أن لهم عملاً سيئاً وعملاً أسوأ والمكفر هو الأسوأ فإنهم المتقون الذين وإن كانت لهم سيئات لا تكون سيئاتهم من الكبائر العظيمة ، ولا يناسب التعرض لها في مقام مدحهم بل الكلام كناية عن تكفير جميع سيئاتهم بطريق برهاني ، فإن الأسوأ إذا كفر كان غيره أولى بالتكفير لا أن ذلك صدر منهم ، ولا نسلم وجوب تحقق المعنى الحقيقي في الكناية وهو كما ترى ، وقال غير واحد : أفعل على ما هو الشائع والأسوأ الكفر السابق على التقوى والإحسان ، والمراد تكفير جميع ما سلف منهم قبل الإيمان من المعاصي بطريق برهاني .

وعلى هذا لا يتسنى تفسير ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ [الزمر : 33] بعلي كرم الله تعالى وجهه إذ

لم يسبق له كفر أصلي ولا يكاد يعبر عن الكفر التبعي بأسوأ العمل ، وقيل : أفعل ليس للتفضيل أصلاً فأسوأ بمعنى السيء صغيراً كان أو كبيراً كما هو وجه أيضاً في الأشج أعدل بني مروان ، وأيد بقراءة ابن مقسم .

وحامد بن يحيى عن ابن كثير رواية عن البزي عنه ﴿ أسواء ﴾ بوزن أفعال جمع سوء ، وأحسن عند أكثر أهل هذه الأقوال على بابه على معنى أنه تعالى ينظر إلى أحسن طاعاتهم فيجري سبحانه الباقي في الجزاء على قياسه لطفاً وكرماً ، وزعم الطبرسي أن الأحسن الواجب والمندوب والحسن المباح والجزاء إنما هو على الأولين دون المباح ، وقيل : المراد يجزيهم بأحسن من عملهم وهو الجنة ، وفيه ما فيه ، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في صلة الموصول الثاني دون الأول للإيذان باستمرارهم على الأعمال الصالحة بخلاف السيئة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(25/668)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذا القرءان مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾

قد قدّمنا تحقيق المثل ، وكيفية ضربه في غير موضع ، ومعنى : ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ : ما

يحتاجون إليه ، وليس المراد ما هو أعمّ من ذلك ، فهو هنا كما في قوله : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] أي : من شيء يحتاجون إليه في أمر دينهم .

وقيل : المعنى : ما ذكرنا من إهلاك الأمم السالفة مثل لهؤلاء ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظمون ، فيعتبرون ، وانتصاب ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ على الحال من هذا ، وهي حال مؤكدة ، وتسمى هذه حالاً موطئة ، لأن الحال في الحقيقة هو : عربياً ، وقرآناً توطئة له ، نحو جاءني زيد رجلاً صالحاً : كذا قال الأخفش ، ويجوز أن ينتصب على المدح .

قال الزجاج : عربياً منتصب على الحال ، وقرآنا توكيد ، ومعنى ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ : لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه .

قال الضحاك : أي غير مختلف .

قال النحاس : أحسن ما قيل في معناه قول الضحاك .

وقيل : غير متضادّ .

وقيل : غير ذي لبس .

وقيل : غير ذي لحن .

وقيل : غير ذي شك كما قال الشاعر :

وقد أتاك يقين غير ذي عوج . . . من الإله وقول غير مكذوب

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ علة أخرى بعد العلة الأولى .

وهي : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : لكي يتقوا الكفر ، والكذب .

ثم ذكر سبحانه مثلاً من الأمثال القرآنية للتذكير ، والإيقاظ ، فقال : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ أي : تمثيل حالة عجيبة بأخرى مثلها .

ثم بيّن المثل ، فقال : ﴿ رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء متشاكسون ﴾ قال الكسائي : نصب ﴿ رجلاً ﴾ ؛ لأنه تفسير للمثل .

وقيل : هو منصوب بنزع الخافض ، أي : ضرب الله مثلاً برجل .

(26/668)

وقيل : إن ﴿ رجلاً ﴾ هو المفعول الأوّل ، و ﴿ مثلاً ﴾ هو المفعول الثاني ، وأخر المفعول الأوّل ؛ ليتصل بما هو من تمامه ، وقد تقدّم تحقيق هذا في سورة "ياس" ، وجملة : ﴿ فِيهِ شُرَكَاء ﴾ في محل نصب صفة لرجل ، والتشاكس التخالف .

قال الفراء : أي مختلفون .

وقال المبرد : أي متعاسرون من شكس يشكس شكساً ، فهو : شكس مثل عسر يعسر عسراً ، فهو : عسر .

قال الجوهري : التشاكس الاختلاف .

قال : ويقال : رجل شكس بالتسكين ، أي : صعب الخلق ، وهذا مثل من أشرك بالله ، وعبد آلهة كثيرة .

ثم قال : ﴿ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ ﴾ أي : خالصاً له ، وهذا مثل من يعبد الله وحده .

قرأ الجمهور : ﴿ سلما ﴾ بفتح السين ، واللام ، وقرأ سعيد بن جبير ، وعكرمة ، وأبو العالية بكسر السين ، وسكون اللام .

وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، والجحدري ، وأبو عمرو ، وابن كثير ، ويعقوب : (سالماً) بالألف ، وكسر اللام اسم فاعل من سلم له ، فهو : سالم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال : لأن السالم الخالص ضدّ المشترك ، والسلم ضدّ الحرب ، ولا موضع للحرب ها هنا ، وأجيب عنه بأن الحرف إذا كان له معنيان لم يحمل إلا على أولاهما ، فالسلم ، وإن كان ضدّ الحرب ، فله معنى آخر بمعنى : سالم ، من سلم له كذا : إذا خلص له .

وأيضاً يلزمه في سالم ما ألزم به ، لأنه يقال : شيء سالم ، أي : لا عاهة به ، واختار أبو حاتم القراءة الأولى .

والحاصل أن قراءة الجمهور هي على الوصف بالمصدر للمبالغة ، أو على حذف مضاف ، أي : ذا سلم ، ومثلها قراءة سعيد بن جبير ، ومن معه .

ثم جاء سبحانه بما يدلّ على التفاوت بين الرجلين ، فقال : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ ، وهذا الاستفهام للإنكار ، والاستبعاد ، والمعنى : هل يستوي هذا الذي يخدم جماعة شركاء أخلاقهم مختلفة ، ونياتهم متباينة يستخدمه كل واحد منهم ، فيتعب ، وينصب مع كون كل واحد منهم غير راضٍ بخدمته ، وهذا الذي يخدم واحداً لا ينازعه غيره إذا أطاعه رضي عنه ، وإذا عصاه عفا عنه .

فإن بين هذين من الاختلاف الظاهر الواضح ما لا يقدر عاقل أن يتفوّه باستوائهما ، لأن أحدهما : في أعلى المنازل ، والآخر : في أدناها ، وانتصاب مثلاً على التمييز المحول عن الفاعل ؛ لأن الأصل هل يستوي مثلهما ، وأفرد التمييز ، ولم يثنه ؛ لأن الأصل في التمييز الإفراد لكونه مبيناً للجنس ، وجملة : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ تقرير لما قبلها من نفي الاستواء ، وللإيذان للموحدين بما في توحيدهم لله من النعمة العظيمة المستحقة لتخصيص الحمد به .

ثم أضرب سبحانه عن نفي الاستواء المفهوم من الاستفهام الإنكاري إلى بيان أن أكثر الناس لا يعلمون ، فقال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وهم : المشركون ، فإنهم لا يعلمون ذلك مع ظهوره ، ووضوحه .

قال الواحدي ، والبغوي : والمراد بالأكثر الكلّ ، والظاهر خلاف ما قالاه ، فإن المؤمنين بالله يعلمون ما في التوحيد من رفعة شأنه ، وعلوّ مكانه ، وإن الشرك لا يمائله بوجه من

الوجوه ، ولا يساويه في وصف من الأوصاف ، ويعلمون أن الله سبحانه يستحق الحمد على هذه النعمة ، وأن الحمد مختصّ به .

ثم أخبر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن الموت يدركه ، ويدركهم لا محالة ، فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ ميت ﴾ و ﴿ ميتون ﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن محيصن ، وابن أبي عبلة ، وعيسى بن عمر ، وابن أبي إسحاق ، واليماني : (مائت ومائتون) ، وبها قرأ عبد الله بن الزبير .

(28/668)

وقد استحسن هذه القراءة بعض المفسرين لكون موته ، وموتهم مستقبلاً ، ولا وجه للاستحسان ، فإن قراءة الجمهور تفيد هذا المعنى .

قال الفراء : والكسائي : الميت بالتشديد من لم يمت ، وسيموت ، والميت بالتخفيف من قد مات ، وفارقته الرّوح .

قال قتادة : نعيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، ونعيت إليهم أنفسهم .

ووجه هذا الإخبار الإعلام للصحابة بأنه يموت ، فقد كان بعضهم يعتقد ، أنه لا يموت مع كونه توطئة ، وتمهيداً لما بعده حيث قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾

أي : تخاصمهم يا محمد ، وتحتجّ عليهم بأنك قد بلغتهم ، وأنذرتهم ، وهم يخاصمونك ، أو يخاصم المؤمن الكافر ، والظالم المظلوم .

ثم بيّن سبحانه حال كل فريق من المختصمين ، فقال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ ﴾ أي : لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فزعم أن له ولداً ، أو شريكاً ، أو صاحبة ﴿ وَكَذَّبَ بالصدق إِذْ جَاءَهُ ﴾ ، وهو ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعاء الناس إلى التوحيد ، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع ، ونهيهم عن محرّماته ، وإخبارهم بالبعث ، والنشور ، وما أعدّ الله للمطيع ، والعاصي .

ثم استفهم سبحانه استفهاماً تقريرياً ، فقال : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين ﴾ أي : أليس لهؤلاء المفترين المكذّبين بالصدق ، والمثوى : المقام ، وهو مشتق من ثوى بالمكان إذا أقام به يثوى ثواء ، وثوياً ، مثل مضى مضاء ، ومضياً .

وحكى أبو عبيد أنه يقال : أثوى ، وأنشد قول الأعشى :

أثوى وأقصر ليله ليزودا . . . ومضى وأخلف من قُتَيْلَةَ موعدا

وأنكر ذلك الأصمعي ، وقال : لا نعرف أثوى .

(29/668)

ثم ذكر سبحانه فريق المؤمنين المصدّقين ، فقال : ﴿ والذى جَاء بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ الموصول في موضع رفع بالابتداء ، وهو : عبارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن تابعه ، وخبره : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ المتقون ﴾ ، وقيل : الذي جاء بالصدق رسول الله ، والذي صدّق به أبو بكر .

وقال مجاهد : الذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي صدّق به عليّ بن أبي طالب .

وقال السدّي : الذي جاء بالصدق جبريل ، والذي صدّق به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال قتادة ، ومقاتل ، وابن زيد : الذي جاء بالصدق النبي صلى الله عليه وسلم ، والذي صدّق به المؤمنون .

وقال النخعي : الذي جاء بالصدق ، وصدّق به هم المؤمنون الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة .

وقيل : إن ذلك عام في كل من دعا إلى توحيد الله ، وأرشد إلى ما شرعه لعباده ، واختار هذا ابن جرير ، وهو : الذي اختاره من هذه الأقوال ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : (والذين جاءوا بالصدق وصدّقوا به) .

ولفظ ﴿ الذي ﴾ كما وقع في قراءة الجمهور وإن كان مفرداً ، فمعناه : الجمع ، لأنه يراد به

الجنس كما يفيده قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ المتقون ﴾ أي : المتصفون بالتقوى التي هي عنوان النجاة .

وقرأ أبو صالح : (وصدق به) مخففاً ، أي : صدق به الناس .

ثم ذكر سبحانه ما لهؤلاء الصادقين المصدّقين في الآخرة ، فقال : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي : لهم كل ما يشاءونه من رفع الدرجات ، ودفع المضرّات ، وتكفير السيئات ، وفي هذا ترغيب عظيم ، وتشويق بالغ ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدم ذكره من جزائهم ، وهو : مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿ جَزَاء المحسنين ﴾ أي : الذين أحسنوا في أعمالهم .

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(30/668)

" أن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك " ثم بيّن سبحانه ما هو الغاية مما لهم عند ربهم ، فقال : ﴿ لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذى عَمِلُواْ ﴾ ، فإن ذلك هو أعظم ما يرجونه من دفع الضرر عنهم ؛ لأن الله سبحانه إذا غفر لهم ما هو الأسوأ من أعمالهم غفر لهم ما دونه بطريقة الأولى ، واللام متعلقة بيشاءون ، أو بالمحسنين ، أو

بمحذوف .

قرأ الجمهور : ﴿ أسوأ ﴾ على أنه أفعل تفضيل .

وقيل : ليست للتفضيل بل بمعنى : سيء الذي عملوا .

وقرأ ابن كثير في رواية عنه أسواء بألف بين الهمزة ، والواو بزنة أجمال جمع سوء .

﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ لما ذكر سبحانه ما يدلّ على دفع المضارّ عنهم ذكر ما يدلّ على جلب أعظم المنافع إليهم ، وإضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه ، بل من إضافة الشيء إلى بعضه قصداً إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل .

قال مقاتل : يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ، ولا يجزيهم بالمساوىء .

وقد أخرج الآجرّي ، والبيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ قال : غير مخلوق .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً ﴾ الآية قال : الرجل يعبد آلهة شتى ، فهذا مثل ضربه الله لأهل الأوثان ﴿ وَرَجُلاً سَلَماً ﴾ يعبد إلها واحداً ضرب لنفسه مثلاً .

وأخرجا عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَرَجُلاً سَلَماً ﴾ قال : ليس لأحد فيه شيء .

وأخرج عبد بن حميد ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، عن ابن

عمر قال : لقد لبثنا برهة من دهرنا ، ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا ، وفي أهل الكتابين من قبلنا ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ الآية ، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، فعرفت أنها نزلت فينا .

وأخرج نعيم بن حماد في الفتن ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه نحوه بأطول منه .

(31/668)

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن مردويه عنه أيضاً قال : نزلت علينا الآية ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ ، وما ندري ما تفسيرها حتى وقعت الفتنة ، فقلنا : هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم فيه .

وأخرج عبد الرّزاق ، وأحمد ، وابن منيع ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في البعث والنشور عن الزبير بن العوّام قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قلت : يا رسول الله أيكرّر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع خواصّ الذنوب ؟ قال : " نعم ليكرّرن عليكم ذلك حتى يؤدى إلى كل ذي حقّ حقه . قال الزبير : فوالله إن الأمر لشديد "

وأخرج سعيد بن منصور ، عن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ كنا نقول : ربنا واحد ، وديننا واحد ، ونبينا واحد ، فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين ، وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف ، قلنا : نعم هو هذا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ والذى جَاء بالصدق ﴾ يعني : بلا إله إلا الله ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ يعني : برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ المتقون ﴾ يعني : اتقوا الشرك .

وأخرج ابن جرير ، والباوردي في معرفة الصحابة ، وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان ، وله صحبة عن عليّ بن أبي طالب قال : الذي جاء بالصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدّق به أبو بكر .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة مثله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(32/668)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾

أفادت الفاء تفريع ما بعدها على ما قبلها تفريعَ القضاء عن الخصومة التي في قوله : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ [الزمر : 31] إذ قد علمتَ أن الاختصام كُنِّيَ به عن الحكم بينهم فيما خالفوا فيه وأنكروه ، والمعنى : يقضي بينكم يوم القيامة فيكون القضاء على من كذَب على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه إذ هو الذي لا أظلم منه ، أي فيكون القضاء على المشركين إذْ كذَبوا على الله بنسبة الشركاء إليه والبنات ، وكذَّبوا بالصْدق وهو القرآن ، ومَا صْدَقُ مَمَّن كذَّب على الله ﴾ الفريقُ الذين في قوله : ﴿ وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : 30] وهم المعنيون في قوله تعالى : ﴿ وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ [الزمر : 24] .

(وقد كني عن كونهم مدينين بتحقيق أنهم أظلم لأن من العدل أنْ لا يُقَرَّ الظالم على ظلمه فإذا وصف الخصم بأنه ظالم عُلم أنه محكوم عليه كما قال تعالى حكاية عن داود : ﴿ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ [ص : 24] .

وقد عُدل عن صَوْغ الحكم عليهم بصيغة الإِخبار إلى صوغه في صورة الاستفهام للإيماء إلى أن السامع لا يسعه إلاّ الجواب بأنهم أظلم .

فالاستفهام مستعمل مجازاً مرسلاً أو كناية مرادٌ به أنهم أظلم الظالمين وأنه لا ظالم أظلم منهم ، فآل معناه إلى نفي أن يكون فريق أظلم منهم فإنهم أتوا أصنافاً من الظلم العظيم : ظلم الاعتداء على حرمة الرب بالكذب في صفاته إذ زعموا أن له شركاء في الربوبية ، والكذب

عليه بادعاء أنه أمرهم بما هم عليه من الباطل ، وظُلم الرسول بتكذيبه ، وظلم القرآن بنسبته إلى الباطل ، وظلم المؤمنين بالأذى ، وظلم حقائق العالم بقلبها وإفسادها ، وظلم أنفسهم بإقحامها في العذاب الخالد .

(33/668)

وعدل عن الإتيان بضميرهم إلى الإِتيان بالموصول لما في الصلة من الإِيماء إلى وجه كونهم أظلم الناس .

وإنما اقتصر في التعليل على أنهم كذَبوا على الله وكذَّبوا بالصدق لأن هذين الكذَبَيْن هما جُماع ما أتوا به من الظلم المذكور آنفاً .

والصدق : ضد الكذب .

والمراد بالصدق القرآن الذي جَاء به النبي ، ومجيء الصدق إليهم : بلوغه إياهم ، أي سماعهم إياه وفهمهم فإنه بلسانهم وجاء بأفصح بيان بحيث لا يُعرِض عنه إلا مكابر مُؤثِر حظوظ الشهوة والباطل على حظوظ الإِنصاف والنجاة .

وفي الجمع بين كلمة (الصدق) وفعل كَذَبَ ﴾ محسن الطباق .

و﴿ إذْ جاءَهُ ﴾ متعلق بـ ﴿ كَذَبَ ، ﴾ و ﴿ إِذْ ﴾ ظرف زمن ماض وهو مشعر

بالمقارنة بين الزمن الذي تدل عليه الجملةُ المضاف إليها ، وحصول متعلقه ، فقوله : ﴿ إذْ جاءَهُ ﴾ يدل على أنه كذَّب بالحق بمجرد بلوغه إياه بدون مهلة ، أي بادر بالتكذيب بالحق عند بلوغه إياه من غير وقفة لإعمال رؤية ولا اهتمام بمَيْز بين حق وباطل .

وجملة ﴿ أليس في جهنَّم مَثْوى للكافرين ﴾ مبينة لمضمون جملة ﴿ فمن أظلم ممن كَذَبَ على الله ﴾ أي أن ظلمهم أوجب أن يكون مثواهم في جهنم .

والاستفهام تقريري ، وإنما وُجِّه الاستفهام إلى نفي ما المقصودُ التقريرُ به جرياً على الغالب في الاستفهام التقريري وهي طريقة إرخاء العنان للمقرَّر بحيث يُفتح له باب الإنكار علماً من المتكلم بأن المخاطب لا يَسعه الإنكار فلا يلبث أن يقر بالإثبات .

ويجوز أن يكون الاستفهام إنكارياً رداً لاعتقادهم أنهم ناجون من النار الدال عليه تصميمهم على الإعراض عن التدبر في دعوة القرآن .

والكافرون : هم الذين كفروا بالله فأثبتوا له الشركاء أو كذبوا الرسل بعد ظهور دلالة صدقهم ، والتعريف في (الكافرين) للجنس المفيد للاستغراق فشمل الكافرين المتحدث عنهم شمولاً أوليا .

(34/668)

وتكون الجملة مفيدة للتذييل أيضاً ، ويكون اقتضاء مصير الكافرين المتحدث عنهم إلى النار ثابتاً بشبه الدليل الذي يعم مصير جميع الجنس الذي هم من أصنافه .

وليس في الكلام إظهار في مقام الإِضمار .

والمثوى : اسم مكان الثواء ، وهو القرار ، فالمثوى المقر .

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33)

الذي جاء بالصدق هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والصدق : القرآن كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ وكذَّب بالصدق إذ جاءه ﴾ [الزمر : 32] .

وجملة وصدَّقَ بِهِ ﴾ صلة موصولٍ محذوفٍ تقديره : والذي صدق به ، لأن المصدق غير الذي جاء بالصدق ، والقرينة ظاهرة لأن الذي صَدَّق غير الذي جاء بالصدق فالعطف عطف جملة كاملة وليس عطف جملة صِلة .

وضمير ﴿ بِهِ ﴾ يجوز أن يعود على (الصدق) ويجوز أن يعود على الذي ﴿ جَاءَ بالصِدْق ، ﴾ والتصديق بكليهما متلازم ، وإذ قد كان المصدقون بالقرآن أو بالنبي صلى الله عليه وسلم من ثبت له هذا الوصف كان مراداً به أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وهم جماعة فلا تقع صفتهم صلة ل ﴿ الذي ﴾ لأن أصله للمفرد ، فتعين تأويله بفريق ، وقرينته ﴿ أولئك هم المتقون ، ﴾ وإنما أفرد عائد الموصول في قوله : ﴿ وصَدَّقَ ﴾ رعياً للفظ ﴿ الذي ﴾ وذلك كله من الإِيجاز .

وروى الطبري بسنده إلى علي بن أبي طالب أنه قال : الذي جاء بالصدق محمد صلى الله عليه وسلم والذي صدق به أبو بكر ، وقاله الكلبي وأبو العالية ، ومحمله على أن أبا بكر أول من صدّق النبي صلى الله عليه وسلم

وجملة ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ خبر عن اسم الموصول .

وجيء باسم الإشارة للعناية بتمييزهم أكمل تمييز .

(35/668)

وضمير الفصل في قوله ﴿ هم المتقون ﴾ يفيد قصر جنس المتقين على ﴿ الذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ لأنه لا متقي يومئذٍ غير الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكلهم متقون لأن المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم لما أشرقت على نفوسهم أنوار الرسول صلى الله عليه وسلم تَطهرت ضمائرهم من كل سيئة فكانوا محفوظين من الله بالتقوى قال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ [آل عمران : 110] .

والمعنى : أولئك هم الذين تحقق فيهم ما أريد من إنزال القرآن الذي أشير إليه في قوله : ﴿ لعلهم يتقون ﴾ [الزمر : 28] .

وجملة لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ مستأنفة استئنافاً بَيانياً لأنهم لما قصر عليهم جنس

المتقين كان ذلك مشعراً بمزية عظيمة فكان يقتضي أن يَسأل السامع عن جزاء هذه المزية فبُين له أن لهم ما يشاؤون عند الله .

و﴿ ما يشاءون ﴾ هو ما يريدون ويتمنون ، أي يعطيهم الله ما يطلبون في الجنة .

ومعنى ﴿ عند ربِّهم ﴾ أن الله ادّخر لهم ما يبتغونه ، وهذا من صيغ الالتزام ووعدِ الإيجابِ ، يقال : لك عندي كذا أي ألتزِمُ لك بكذا ، ثم يجوز أن الله يلهمهم أن يشاءوا ما لا يتجاوز قدرَ ما عَين الله من الدرجات في الجنة فإن أهل الجنة متفاوتون في الدرجات .

وفي الحديث : " إن الله يقول لأحدهم : تمنَّهْ ، فلا يزال يتمنى حتى تنقطع به الأَماني فيقول الله لك ذلك وعشرةُ أمثاله معه "

ويجوز أن ﴿ مَا يَشاءُون ﴾ مما يقع تحت أنظارهم في قُصورهم ويحجب الله عنهم ما فوق ذلك بحيث لا يسألون إلا ما هو من عطاءِ أمثالهم وهو عظيم ويقلع الله من نفوسهم ما ليس من حظوظهم .

ويجوز أن ﴿ مَا يَشاءُون ﴾ كناية عن سعة ما يُعطَوْنَه كما ورد في الحديث " ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعَت ولا خطَر على قلب بشر " وهذا كما يقول من أسديتَ إليه بعمل عظيم : لكَ عليَّ حُكْمُك ، أو لَك عندي ما تَسْأَل ، وأنت تريد ما هو غاية الإِحسان لأمثاله .

(36/668)

وعُدل عن اسم الجلالة إلى وصف ﴿ ربِّهم ﴾ في قوله : ﴿ عِندَ رَبِّهم ﴾ إيماء إلى أنه يعطيهم عطاءَ الربوبية والإِيثار بالخير .

ثم نوه بهذا الوعد بقوله : ﴿ ذلك جزاء المُحسنين ﴾ والمشار إليه هو ما يشاءون لِما تضمنه من أنه جزاء لهم على التصديق .

وأشير إليه باسم الإِشارة لتضمنه تعظيماً لشأن المشار إليه .

والمراد بالمحسنين أولئك الموصوفون بأنهم المتقون ، وكانَ مقتضى الظاهر أن يؤتى بضميرهم فيقال : ذلك جزاؤهم ، فوقع الإِظهار في مقام الإِضمار لإِفادة الثناء عليهم بأنهم محسنون .

والإِحسان : هو كمال التقوى لأنه فسره النبي صلى الله عليه وسلم بأنه : "أن تعبد الله كأنك تراه" وأيُّ إحسان وأيُّ تقوى أعظمُ من نبذهم ما نشأوا عليه من عبادة الأصنام ، ومن تحملهم مخالفة أهليهم وذويهم وعداوتهم وأذاهم ، ومِن صبرهم على مصادرة أموالهم ومفارقة نسائهم تصديقاً للذي جاء بالصدق وإيثاراً لِرضى الله على شهوة النفس ورضى العشِيرةَ .

وقوله : ﴿ لِيُكَفِّر الله عنهُم أسْوَأَ الَّذِي عَمِلوا ﴾ اللام للتعليل وهي تتعلق بفعل محذوف دل عليه قوله : ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ، ﴾ والتقدير : وَعَدَهم الله بذلك والتزمَ لهم ذلك ليكفر عنهم أسوأ الذي عملوا .

والمعنى : أن الله وعدهم وعداً مطلقاً ليكفر عنهم أسوأ ما عملوه ، أي ما وعدهم بذلك الجزاء إلا لأنهُ أراد أن يكفر عنهم سيئات ما عملوا .

والمقصود من هذا الخبر إعلامهم به ليطمئنوا من عدم مؤاخذتهم على ما فرط منهم من الشرك وأحواله .

(37/668)

و ﴿ أسوَأَ ﴾ يجوز أن يكون باقياً على ظاهر اسم التفضيل من اقتضاء مفضل عليه ، فالمراد بأَسوأ عملهم هو أعظمهُ سُوءاً وهو الشرك ، سُئل النبي صلى الله عليه وسلم أيُّ الذنب أعظمُ ؟ فقال : " أن تدعو للهِ نِدًّا وهو خَلَقَك " وإضافته إلى ﴿ الذي عملوا ﴾ إضافة حقيقية ، ومعنى كون الشرك مما عملوا باعتبار أن الشرك عمل قلبي أو باعتبار ما يستتبعه من السجود للصنم ، وإذا كَفَّر عنهم أسوأَ الذي عملوا كفَّر عنهم ما دونه من سيّىء أعمالهم بدلالة الفَحوى ، فأفاد أنه يكفر عنهم جميع ما عمِلوا من سيئات ، فإن أريد بذلك ما سبَق قبلَ الإِسلام فالآية تعم كل من صدّق بالرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن بعد أن كان كافراً فإن الإِسلام يُجبّ ما قبله ، وإن أريد بذلك ما عسى أن يعمله أحَدٌ منهم من الكبَائر في الإسلام كان هذا التكفير خصوصية لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

فإن فضل الصحبة عظيم .

روي عن رسول الله أنه قال : " لاَ تسبُّوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفَق مثلَ أُحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه " .

ويجوز أن يكون ﴿ أسوأ ﴾ مسلوب المفاضلة وإنما هو مجاز في السوء العظيم على نحو قوله تعالى : ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ [يوسف : 33] أي العمل الشديدُ السُوءِ ، وهو الكبائر ، وتكون إضافته بيانية .

وفي هذه الآية دلالة على أن رتبة صحبة النبي عظيمة .

وقال رسول الله : الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمَن أَحَبَّهم فبِحُبِّي أَحَبَّهم ومن أبغضهم فببغضي أَبغضَهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه .

(38/668)

وقد أوصى أئمة سلفنا الصالح أن لا يُذكَر أحد من أصحاب الرسول إلاّ بأحسنِ ذكر ، وبالإمساك عما شجَر بينهم ، وأنهم أحق الناس بأن يُلتمس لهم أحسنُ المخارج فيما جرى بين بعضهم ، ويظنَّ بهم أحسن المذاهب ، ولذلك اتفق السلف على تفسيق ابن الأشتر

النخعي ومن لُف لفه من الثوّار الذين جاءوا من مصر إلى المدينةِ لخلع عثمان بن عفان ، واتفقوا على أن أصحاب الجمَلَ وأصحاب صِفِّينَ كانوا متنازِعين عن اجتهاد وما دفعهم عليه إلا السعيِ لصلاح الإِسلام والذبّ عن جامعته من أن تتسَرب إليها الفُرقة والاختلال ، فإنهم جميعاً قدْوتنا وواسطة تبليغ الشريعة إلينا ، والطعن في بعضهم يفضي إلى مخاوف في الدين ، ولذلك أثبت علماؤنا عدالة جميع أصحاب النبي .

وإظهار اسم الجلالة في موضعِ الاضمار بضمير ربِّهم ﴾ في قوله : ﴿ لِيُكفِّرَ الله عَنهم ﴾ لزيادة تمكن الإِخبار بتكفير سيئاتهم تمكيناً لاطمئنان نفوسهم بوعد ربهم .

وعطف على الفعل المجعولِ علةً أُولى فعلٌ هو علة ثانية وهو : ﴿ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون .

﴾ وهو المقصود من التعليل للوعد الذي تضمنه قوله : ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم .

والبناء في قوله : بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ للسببية وهي ظرف مستقرّ صفة ل ﴿ أجْرَهم ﴾ وليست متعلقة بفعل ﴿ يجزيهم ﴾ ، أي يجزيهم أجراً على أحسن أعمالهم .

وإذا كان الجزاء على العمل الأحسن بها الوعد وهو ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ، ﴾ فدل على أنهم يُجازَون على ما هو دون الأحسن من محاسن أعمالهم ، بدلالة إيذان وصف "الأحسن" بأن علة الجزاء هي الأحسنية وهي تتضمن أنّ لمعنى الحُسن تأثيراً في الجزاء فإذا كان جزاء أحسن أعمالهم أَنَّ لهم ما يشاءون عند ربهم كان جزاء ما هو دون

الأحسن من أعمالهم جزاء دون ذلك بأن يُجَازَوا بزيادة وتنفيل على ما استحقوه على أحسن أعمالهم بزيادة تنعم أو كرامة أو نحو ذلك .

(39/668)

وفي "مفاتيح الغيب" : أن مقاتِلاً كان شيخ المرجئة وهم الذين يقولون لا يضر شيء من المعاصي مع الإيمان واحتجَّ بهذه الآية فقال : إنها تدل على أن من صدّق الأنبياء والرسل فإنه تعالى يكفّر عنهم أسوأ الذي عملوا .

ولا يجوز حمل الأسوأ على الكفر السابق لأن الظاهر من الآية يدل على أن التكفير إنما حصل في حال ما وصفهم الله بالتقوى وهو التقوى من الشرك وإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد من الأسوأ الكبائر التي يأتي بها بعد الإيمان ا ه .

ولم يجب عنه في "مفاتيح الغيب" وجوابه : لأن الأسوأ محتمل أن أدلة كثيرة أخرى تعارض الاستدلال بعمومها .

وفي الجمع بين كلمة ﴿ أسْوَأ ﴾ وكلمة ﴿ أحسن ﴾ محسِّن الطِّبق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(40/668)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾

الإشارة فيه إلى من أشار إلى أشياء لم يَبْلُغْها ، وادَّعى وجودَ أشياء لم يَذُقْ شيئاً منها ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر : 60] .

ويقال : لا بل هؤلاء هم الكفار ، وأمَّا المُدَّعِي الذي لم يَبْلُغْ ما يَدَّعِيه فليس يكذب على ربِّه إنما يكذب على نَفْسه ؛ حيث ادَّعى لها أحولاً لم يَذُقُّها ولم يَجِدْها ، فأمَّا غيرُ المتحقق الذي يكذب على الله فهو الجاحد والمبتدع الذي يقول في صفة الحقِّ – سبحانه – ما يتقدَّسُ ويتعالى عنه .

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33)

الذي جاء بالصدق في أفعاله من حيث الإخلاص ، وفي احواله من حيث الصدق ، وفي أسراره من حيث الحقيقة .

﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : " الإحسانُ – كما جاء في الخبر – أن تعبد الله كأنك تراه " فَمَنْ كانت –اليومَ– مشاهدتُه على الدوام كانت رؤيته غداً على الدوام ، ومَنْ لا فلا .

لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35)

منْ لا يكون مؤمناً فليس من أهل هذه الجملة . ومَنْ كان معه إيمان : فإذا كُفِّرَ عنه اسوأَ ما عَمِلَه فأسوأُ أعمالِه كبائرُه ؛ فإنْ غُفِرَتْ يَجْزِهِم بأحسن اعمالهم . واحْسَنُ أعمالِ المؤمنِ الإيمانُ والمعرفة ، فإن كان الإيمانُ مؤقتاً كان ثوابُها مؤقتاً ، وإن كان الإيمان على الدوام فثوابُه على الدوام . ثم احسنُ الأعمال عيها أحسنُ الثوابِ ، واحسنُ الثوابِ الرؤيةُ فيجب أن تكون على الدوام –وهذا استدلالٌ قوي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 281.282 ﴾

(41/668)

قوله تعالى ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (37) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (40) إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما فهم من قوله : " وكذب بالصدق إذ جاءه " أن المشركين يكذبونه ، وكان من طبع الآدمي الاهتمام بمثل ذلك ولا سيما إذا كان المكذب كثيراً وقوياً ، وتقرر أنه سبحانه الحكم العدل بين المتخاصمين وغيرهم في الدنيا والآخرة ، ولزم كل سامع الإقرار بالآخرة ، وبشر المحسنين وحذر المسيئين ، وكان من المعلوم أنهم يحذرونه آلهتهم كما يحذرهم إلهه ، حسن كل الحسن قوله مقراً للكفاية غاية الإقرار ، ومنكراً لنفيها كل الإنكار : ﴿ أليس الله ﴾ أي الجامع لصفات العظمة كلها المنعوت بنعوت الكمال من الجلال والجمال ، وأكد المراد بزيادة الجار لما عندهم من الجزم بأنهم غالبون فقال : ﴿ بكاف ﴾ وحقق المناط بالإضافة في قوله : ﴿ عبده ﴾ أي الخالص له الذي لم يشرك به أصلاً كما تقدم في المثل ممن كذبه وقصد مساءته فينصره عليهم حتى يظهر دينه ويعلي أمره ويغنيه عن أن يحتاج إلى غيره أو يجنح إلى سواه ، باعتقاد أن في يده شيئاً يستقل به ، وهاذ لا ينافي السعي في الأسباب مع اعتقاد أنها بيد الله ، فإن شاء ربط بها المسببات ، وإن شاء أعقمها ، بل السعي أكمل ، لأن ترتيب الأسباب بوضع الحكيم ، فالسعي في طرحها ينافي وضع الحكمة ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر : عباده – بالجمع بمعنى الرسول وأتباعه .

ولما كان الجواب قطعاً : بلى ، إنه ليكفي من يشاء ، والأصنام الممثلون بالشركاء

المتشاكسين لا يكفون من تولاهم ، بني على ذلك حالاً عجيباً من أحوالهم ، فقال معجباً منهم ومتهكماً بهم : ﴿ ويخوفونك ﴾ أي عباد الأصنام يعلمون أن الله يكفي من أراد وأن الأصنام لا كفاية عندها بوجه والحال أنهم يخوفونك .

(42/668)

ولما كان الخوف ممن له اختيار ، فإن كان عاقلاً كان أقوى لمخالفته ، وكان من المعلوم بديهة أنه لا اختيار لهم فضلاً عن العقل ، قال تهكماً بهم بالتعبير بما يعبر به عن الذكور العقلاء لكونهم ينزلونهم بالعبادة وغيرها منزلة العقلاء مع اعترافهم بأنهم لا عقل لهم ، فصاروا بذلك ضحكة وشهرة بين الناس : ﴿ بالذين ﴾ وبين حقارتهم بقوله : ﴿ من دونه ﴾ وهم معبوداتهم ضلالاً عن المحجة فيقولون : إنا نخشى عليك أن يخبلك آلهتنا كما قالت عاد لهود عليه السلام ﴿ أن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ [هود : 54] وسيأتي التعبير عنهم بالتانيث زيادة في توبيخهم .

ولما كان من الحق الواضح كالشمس أن ما قالوه لا يقوله عاقل ، وكان التقدير : فقد أظلهم الله إهانة لهم وهداك إكراماً لك ، بين أنه سبحانه قسرهم على ذلك ليكون إضلاله لهم آية كما أن هداه لمن هداه آية ، فقال مخففاً عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في إذهاب نفسه عليهم

حسرات دامغاً للقدرية : ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي الذي له الأمر كله فلا يرد أمره ﴿ فما له ﴾ لأجل أنه هو الذي أضله ﴿ من هاد ﴾ أي فخفض من حزنك عليهم ﴿ ومن يهد الله ﴾ أي الذي لا يعجزه شيء أبداً ﴿ فما له من مضل ﴾ فهو سبحانه يهدي من شاء منهم إن أراد .

ولما لم تبق شبهة ولا شيء من شك أن الهادي المضل إنما هو الله وحده وأنه جعل شيئاً واحداً سبباً لضلال قوم ليكون ضلالهم في الظاهر علة للنقمة ، وهدى لآخرين فيكون هداهم سبباً للنعمة ، بلغ النهاية في الحسن قوله : ﴿ أليس الله ﴾ أي الذي بيده كل شيء ﴿ بعزيز ﴾ أي غالب لما يريد في إضلاله قوماً يدعون أنهم النهاية في كمال العقول لما هدى به غيرهم ﴿ ذي انتقام ﴾ أي له هذا الوصف ، فمن أراد النقمة منه سلط عليه ما يريد مما يحزنه ويذله كما أنه إذا أراد يعميه عن أنور النور ويضله .

(43/668)

ولما علم بهذه البراهين أنه سبحانه المتصرف في المعاني بتصرفه في القلوب بالهداية والإضلال ، وكان التقدير : فلئن قررتم بهذا الاستفهام الإنكاري ليقولن : بلى ! عطف عليه بيان أن الخالق للذات كما أنه المالك للمعاني والصفات ، فقال مفسداً لدينهم باعترافهم

بأصلين : القدرة التامة له والعجز الكامل لمعبوداتهم : ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أي فقلت لمن شئت منهم فرادى أو مجتمعين : ﴿ من خلق السماوات ﴾ أي على ما لها من الاتساع والعظمة والارتفاع ﴿ والأرض ﴾ على ما لها من العجائب وفيها من الانتفاع ﴿ ليقولن ﴾ بعد تخويفهم لك بشركائهم الذين هم من جملة خلق من أرسلك بما أنت فيه : الذي خلقها ﴿ الله ﴾ أي وحده الذي لا سمي له وإلباس بوجه في أمره ، ولا يصدهم عن ذلك الحياء من التناقض ولا الخوف من التهافت بالتعارض .

ولما كان هذا مخبراً لأن بين ولا بد أنهم لا يقبلون ولا يعرضون كان كأنه قيل : فماذا أصنع ؟ فقال : ﴿ قل ﴾ مسبباً عن اعترافهم له سبحانه بجميع الأمر قوله مقرراً بالفرع بعد إقرارهم بالأصل ومقرعاً بتخويفهم ممن ليس له أمر بعقد ولا حل : ﴿ أفرءيتم ﴾ .

(44/668)

ولما كان السائل النصوح ينبغي له أنه ينبه الخصم على محل النكتة لينتبه من غفلته فيرجع عن غلطته عبر بأداة ما لا يعقل عن معبوداتهم بعد التعبير عنها سابقاً بأداة الذكور العقلاء بياناً لغلطهم ، فقال معبراً عن مفعول ﴿ رأيت ﴾ الأول والثاني جملة الاستفهام ، ﴿ ما تدعون ﴾ أي دعاء عبادة ، وقرر بعدهم عن التخويف بهم بادعاء إلهيتهم بقوله : ﴿ من

دون الله ﴾ أي الذي هو ذو الجلال والإكرام فلا شيء إلا وهو من دونه وتحت قهره ، ولما كانت العافية أكثر من البلوى ، أشار إليها بأداة الشك ونبه على مزيد عظمته سبحانه بإعادة الاسم الأعظم فقال : ﴿ إن أرادني الله ﴾ أي الذي لا راد لأمره ولما كان درأ المفاسد مقدماً قال : ﴿ بضر ﴾ أي إن أطعتكم في الجنوح إليها خوفاً منها ، وبالغ في تنبيههم نصحاً لهم ليرجعوا عن ظاهر غيهم بما ذكر من دناءتها وسفولها بالتأنيث بعد سفولها بعدم العقل مع دناءتها وبعد التهكم بهم بالتعبير عنها بأداة الذكور العقلاء فقال : ﴿ هل هن ﴾ أي هذه الأوثان التي تعبدونها ﴿ كاشفات ﴾ أي عني مع اعترافكم بأنه لا خلق لها وأنها مخلوقة لله تعالى ﴿ ضره ﴾ أي الذي أصابني به نوعاً من الكشف ، لأرجوها في وقت شدتي ﴿ أو أرادني برحمة ﴾ لطاعتي إياه في توحيده ، وخلع ما سواه من عبيده ﴿ هل هن ممسكات ﴾ أي عني ﴿ رحمته ﴾ أي لأجل عصياني لهن نوع إمساك ، لأطيعكم في الخوف منهن – هذه قراءة أبي عمرو بالتنوين وإعمال اسم الفاعل بنصب ما بعده ، وهو الأصل في اسم الفاعل ، والباقون بالإضافة ، ولا فائدة غير التخفيف ، وقد يتخيل منها أن الأوثان مختصة بهذا المعنى معروفة .

(45/668)

ولما كان من المعلوم أنهم يسكتون عند هذا السؤال لما يعلمون من لزوم التناقض أن أجابوا بالباطل ، ومن بطلان دينهم أن أجابوا بالحق ، وكان الجواب قطعاً عن هذا : لا سوء نطقوا أو اسكتوا ، تحرر أنه لا متصرف بوجه إلا الله ، فكانت النتيجة قوله : ﴿ قل ﴾ إذا ألقمتهم الحجر : ﴿ حسبي ﴾ أي كافي ﴿ الله ﴾ الذي أفردته بالعبادة لأنه له الأمر كله مما يخوفونني به ومن غيره ﴿ عليه ﴾ وحده لأن له الكمال كله ﴿ يتوكل المتوكلون ﴾ أي الذين يريدون أن يعلو أمرهم كل أمر ، وأمره بالقول إعلاماً بأن حالهم عند هذا السؤال التناقض الظاهر جداً .

ولما كانوا مع هذه الحجج القاطعة ، والأدلة القامعة والبراهين الساطعة ، التي لا دافع لها بوجه ، كالبهائم لا يبصرون إلا الجزئيات حال وقوعها ، قال مهدداً مع الاستعطاف : ﴿ قل يا قوم ﴾ أي يا أقاربي الذين أرتجيهم عند الملمات وفيهم كفاية في القيام بما يحاولونه ﴿ اعملوا ﴾ أي افعلوا افعالاً مبنية على العلم ﴿ على مكانتكم ﴾ أي حالتكم التي ترتبتم فيها وجمدتم عليها لأنه جبلة لكم من الكون والمكنة لتبصروا حقائق الأمور ، فتنتقلوا عن أحوالكم السافلة إلى المنازل العالية ، فكأنه يشير إلى أنهم كالحيوانات العجم ، لا اختيار لهم ويعرّض بالعمل الذي مبناه العلم والمكانة التي محطها الجمود بأن أفعالهم ليس فيها ما ينبني على العلم ، وإنما هي جزاف لا اعتبار لها ولا وزن لها .

ثم أجاب من عساه أن يقول له منهم : فماذا تعمل أنت ؟ بقوله : ﴿ إني عامل ﴾ على كفاية الله لي ، ليس لي نظر إلى سواه ، ولا أخشى غيره ، وليس لي مكانة ألتزم الجمود عليها ، بل أنا واقف على ما يرد من عند الله ، إن نقلني انتقلت وإن أمرني بغير ذلك امتثلت وأنا مرتقب كل وقت للزيادة ، ثم سبب عن قول من لعله يقول منهم : وماذا عساه يكون قوله ؟ إيذاناً بأنه على ثقة من أمره ، لأن المخبر له به الله : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ من يأتيه ﴾ أي منا ومنكم ﴿ عذاب يخزيه ﴾ بأن يزيل عنه كل شيء يمكنه أن يستعذ به ﴿ ويحل عليه ﴾ أي يجب في وقته ، من حل عليه الحق يحل بالكسر أي وجب ، والدين : صار حالاً بحضور أجله ﴿ عذاب مقيم ﴾ لإقامته على حالته وجموده على ضلالته ، ومن يؤتيه الله انتصاراً يعليه وينقله إلى نعيم عظيم ، لانتقاله بارتقائه في مدارج الكمال ، بأوامر ذي الجلال والجمال ، ولقد علموا ذلك في قصة المستهزئين ثم في وقعة بدر فإن من أهلكه الله منهم جعل إهلاكه أول عذابه ونقله به إلى عذاب البرزخ ثم عذاب النار ، فلا انفكاك له من العذاب ، ولا رجاء لحسن المآب .

ولما تجلت عرائس هذه المعاني آخذة بالألباب ، ولمعت سيوف تلك المباني من المثاني قاطعة الرقاب ، وختمها بما ختم من صادع الإرهاب ، أنتجت ولا بد قوله معللاً لإتيان ما توعدهم به مؤكداً لما لهم من الإنكار لمضمون هذا الإخبار : ﴿ إنا أنزلنا ﴾ أي بما لنا من

باهر العظمة ونافذ الكلمة .

ولما كان توسط الملك خفياً .

(47/668)

لم يعده فأسقط حرف الغاية إفهاماً لأنه في الحقيقة بلا واسطة بعد أن أثبت وساطته أول السورة فقال مقروناً بالأمر بالعبادة إشارة إلى بداية الحال ، فلما حصل التمكن فصار الكتاب خلقاً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصار ظهوره فيه هادياً لغيره ، نبه على ذلك بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ عليك ﴾ أي خاصة لا على غيرك من أهل هذا الزمان ، لأنك عندنا الخالص لنا دون أهل القريتين ودون أهل الأرض كلهم ، لم يكن لشيء دوننا فيك حظ ﴿ الكتاب ﴾ الجامع لكل خير لكونه في غاية الكمال بما دل عليه " ال " ﴿ للناس ﴾ عامة لأن رسالتك عامة ﴿ بالحق ﴾ مصاحباً له ، لا يقدر الخلق على أن يزيحوا معنى من معانيه عن قصده ، ولا لفظاً من ألفاظه عن سبيله وحده ، بل هو معجز في معانيه – حاضرة كانت أو غائبه – ونظومه ، وألفاظه وأسماء سوره وآياته وجميع رسومه ، فلا بد من إتيان ما فيه من وعد ووعيد .

ولما تسبب عن علم ذلك وجوب المبادرة إلى الإذعان له لفوز الدارين ، حسن جداً قوله

تعالى تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعظيم ما له من الشفقة عليهم وتهديداً لهم : ﴿ فمن اهتدى ﴾ أي طاوع الهادي ﴿ فلنفسه ﴾ أي فاهتداؤه خاص نفعه بها ليس له فيه إلا أجر التسبب ﴿ ومن ضل ﴾ أي وقع منه ضلال بمخالفته لداعي الفطرة ثم داعي الرسالة عن علم وتعمد ، أو إهمال للنظر وتهاون .

ولما كان ربما وقع في وهم أنه يحلق الداعي بعد البيان ومن إثم الضال ، وكان السياق لتهديد الضالين .

زاد في التأكيد فقال : ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ أي ليس عليك شيء من ضلاله ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

ولما هدى السياق إلى أن التقدير : فما أنت عليهم بجبار لتقهرهم على الهدى ، عطف عليه قوله : ﴿ وما أنت ﴾ أي في هذا الحال ، ولمزيد العناية بنفي القهر أداة الاستعلاء فقال : ﴿ عليهم بوكيل ﴾ لتحفظهم عن الضلال ، فإن الرسالة إليهم لإقامة الحجة لا لقدرة الرسول على هدايتهم ولا لعجز المرسل عن ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 453.448 ﴾

(48/668)

فصل

قال الفخر :

الحكم الرابع : أنه جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة ، فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ وذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك في النفوس والأمر كذلك ، لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات غني عن كل الحاجات فهو تعالى عالم حاجات العباد وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات ، وهو ليس بخيلاً ولا محتاجاً حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد ، وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل إليه كل المرادات ، فلهذا قال : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ولما ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثاً وباطلاً ، قرأ أكثر القراء عبده بلفظ الواحد وهو اختيار أبي عبيدة لأنه قال له : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ ﴾ روي أن قريشاً قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقرأ جماعة : ﴿ عِبَادِهِ ﴾ بلفظ الجميع قيل المراد بالعباد الأنبياء فإن نوحاً كفاه الغرق ، وإبراهيم النار ، ويونس بالإنجاء مما وقع له ، فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك ، وقيل أمم الأنبياء قصدوهم بالسوء لقوله تعالى : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ ﴾ [غافر : 5] وكفاهم الله

شر من عاداهم .

واعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هي الفصل الحق فقال : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلّ ﴾ يعني هذا الفضل لا ينفع والبينات إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتقام ﴾ تهديد للكفار .

(49/668)

واعلم أن أصحابنا يتمسكون في مسألة خلق الأعمال وإرادة الكائنات بقوله : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلّ ﴾ والمباحث فيه من الجانبين معلومة والمعتزلة يتمسكون على صحة مذهبهم في هاتين المسألتين بقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتقام ﴾ ولو كان الخالق للكفر فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد غير لائق به .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

اعلم أنه تعالى لما أطنب في وعيد المشركين وفي وعد الموحدين ، عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام ، وبنى هذا التزييف على أصلين :

الأصل الأول : هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو

المراد بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ واعلم أن من الناس من قال إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه ، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فإن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض وفي عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة ، علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم .

(50/668)

والأصل الثاني : أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِىَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشفات ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هنَّ مُمسكات رَحْمَتِه ﴾ فثبت أنه لا بد من الإقرار بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم ، وثبت أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر ، وإذا كان الأمر كذلك كانت عبادة الله كافية ، وكان الاعتماد عليه كافياً وهو المراد من قوله : ﴿ قُلْ حَسْبِىَ الله عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتوكلون ﴾ فإذا ثبت هذا الأصل لم يلتفت العاقل إلى تخويف المشركين فكان المقصود من هذه الآية هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى :

﴿ ويُخَوِّفُونَكَ بالذين مِن دُونِهِ ﴾ وقرىء : ﴿ كاشفات ضُرِّه ﴾ و ﴿ ممسكات رَحْمَتِهِ ﴾ بالتنوين على الأصل وبالإضافة للتخفيف ، فإن قيل كيف قوله : ﴿ كاشفات ﴾ و ﴿ ممسكات ﴾ على التأنيث بعد قوله : ﴿ ويُخَوِّفُونَكَ بالذين مِن دُونِهِ ﴾ ؟ قلنا المقصود التنبيه على كمال ضعفها فإن الأنوثة مظنة الضعف ولأنهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويقولون اللات والعزى ومناة ، ولما أورد الله عليهم هذه الحجة التي لا دفع لها قال بعده على وجه التهديد : ﴿ قُلْ يا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي أنتم تعتقدون في أنفسكم أنكم في نهاية القوة والشدة فاجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم ، فإني عامل أيضاً في تقرير ديني ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أن العذاب والخزي يصيبني أو يصيبكم والمقصود منه التخويف .

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعظم عليه إصرارهم على الكفر كما قال : ﴿ فَلَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ على ءاثارهم إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ [الكهف : 6] وقال : ﴿ لَعَلَّكَ باخع نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] وقال تعالى : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات ﴾ [فاطر : 8] فلما أطنب الله تعالى في هذه الآية في فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات وتارة بضرب الأمثال وتارة بذكر الوعد والوعيد أردفه بكلام يزيل ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب ﴾ الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به وجعلنا إنزاله مقروناً بالحق وهو المعجز الذي يدل على أنه من عند الله فمن اهتدى فنفعه يعود إليه ، ومن ضل فضير ضلاله يعود إليه ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ والمعنى أنك لست مأموراً بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض إليهم ، وذلك لتسلية الرسول في إصرارهم على الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 244 . 247 ﴾

(52/668)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

ثو وقفهم توقيفاً معناه نفي الموقف عليه بقوله : ﴿ فمن أظلم ممن ﴾ أي لا أحد أظلم ممن

كذب على الله ، والإشارة بهذا الكذب بقولهم : إن لله صاحبة وولداً وقولهم : إن كذا حرام ، وإن كان حلال افتراء على الله ، وكذبوا أيضاً بالصدق ، وذلك تكذيبهم أقوال محمد عليه السلام عن الله تعالى ما كان من ذلك معجزاً أو غير معجز . ثم توعدهم تعالى تواعداً فيه احتقارهم بقوله على وجه التوقيف : ﴿ أليس في جنهم مثوى للكفارين ﴾ ، والمثوى موضع الإقامة .

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33)

قوله تعالى : ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ معادل لقوله : ﴿ فمن أظلم ممن كذب ﴾ [الزمر : 32] ﴿ فمن ﴾ [الزمر : 32] هنالك للجميع والعموم ، فكذلك ها هنا هي للجنس أيضاً ، كأنه قال : والفريق الذي جاء بعضه بالصدق وصدق بعضه ، ويستقيم المعنى واللفظ على هذا الترتيب . وفي قراءة ابن مسعود : والذي جاؤوا بالصدق وصدقوا به . و" الصدق " هنا : القرآن وأنباؤه والشرع بجملته . وقالت فرقة : ﴿ الذي ﴾ يراد به الذين ، وحذفت النون لطول الكلام ، وهذا غير جيد ، وتركيب جاء عليه يرد ذلك ، وليس هذا كقول الفرزدق :

إن عميَّ اللذا قتلا الملوك . . . ونظير الآية قول الشاعر [أشهب بن رملية] : [الطويل]

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم . . . هُم القوم كل القوم يا أم خالد

وقال ابن عباس : ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي صدق به ، وقالت فرقة من المفسرين : " الذي جاء " هو جبريل ، والذي صدق به هو محمد صلى الله عليه وسلم . وقال علي بن أبي طالب وأبو العالية والكلبي وجماعة " الذي جاء " هو محمد عليه السلام ، والذي صدق هو أبو بكر . وقال أبو الأسود وجماعة منهم مجاهد : الذي صدق هو علي بن أبي طالب وقال قتادة وابن زيد : " الذي جاء " هو محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي صدق به هم المؤمنون . قال مجاهد هم أهل القرآن . وقالت فرقة : بالعموم الذي ذكرناه أولاً ، وهو أصوب الأقوال .

وقرأ أبو صالح ومحمد بن جحادة وعكرمة بن سليمان : " وصدَق به " بتخفيف الدال ، بمعنى استحق به اسم الصدق ، فعلى هذه القراءة يكون إسناد الأفعال كلها إلى محمد عليه السلام ، وكأن أمته في ضمن القول ، وهو الذي يحسن ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ قال ابن عباس : اتقوا الشرك .

واللام في قوله : ﴿ ليكفر ﴾ يحتمل أن تتعلق بقوله : ﴿ المحسنين ﴾ ، أي الذين أحسنوا لكي يكفر ، وقاله ابن زيد . ويحتمل أن تتعلق بفعل مضمر مقطوع مما قبله ، كأنك قلت : يسرهم الله لذلك ليكفر ، لأن التكفير لا يكون إلا بعد التيسير للخير ، واستدلوا على أن ﴿ عملوا ﴾ هو كفر أهل الجاهلية ومعاصي أهل الإسلام .

وقوله تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ تقوية لنفس النبي عليه السلام ، لأن كفار قريش كانت خوفته من الأصنام ، وقالوا يا محمد أنت تسبها ونخاف أن تصيبك بجنون أو علة ، فنزلت الآية في ذلك .

وقرأ حمزة والكسائي : " عباده " يريد الأنبياء المختصين به ، وأنت أحدهم ، فيدخل في ذلك المطيعون من المؤمنين والمتوكلون على الله ، وهذه قراءة أبي جعفر ومجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش . وقرأ الباقون : " عبده " وهو اسم جنس ، وهي قراءة الحسن وشيبة وأهل المدينة ويقوي أن الإشارة إلى محمد عليه السلام قوله : ﴿ ويخوفونك ﴾ .

(54/668)

وقوله : ﴿ من دونه ﴾ يريد بالذين يعبدون من دونه ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى كسر العزى ، فقال سادنها : يا خالد ، إني أخاف عليك منها ، فلها قوة لا يقوم لها شيء ، فأخذ خالد الفأس فهشم به وجهها وانصرف . ثم قرر تعالى الهداية والإضلال من عنده بالخلق والاختراع ، وأن ما أراد من ذلك لا راد له . ثم توعدهم بعزته وانتقامه ، فكان ذلك ، وانتقم منهم يوم بدر وما بعده .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

هذا ابتداء احتجاج عليهم بحجة أخرى ، وجملتها أن وقفوا على الخالق المخترع ، فإذا قالو إنه الله لم يبق لهم في الأصنام غرض إلا أن يقولوا إنها تنفع وتضر ، فلما تقعد من قولهم إن الله هو الخالق ، قيل لهم ﴿ أفرأيتم ﴾ هؤلاء إذا أراد الله أمراً بهم قدرتم على نقضه ؟

وحذف الجواب عن هذا ، لأنه من البين أنه لا يجيب أحد إلا بأنه لا قدرة بالأصنام على شيء من ذلك .

وقرأ : " إن أرادنيَ " بياء مفتوحة جمهور القراء والناس . وقرأ الأعمش : ﴿ أرادني الله ﴾ بحذف الياء في الوصل ، وروى خارجة " إن أراد " بغير ياء .

وقرأ جمهور القراء والأعرج وأبو جعفر والأعمش وعيسى وابن وثاب : " كاشفاتُ ضرِّه " بالإضافة . وقرأ أبو عمر وأبو بكر عن عاصم : " كاشفاتٌ ضرَّه " بالتنوين والنصب في الراء ، وهي قراءة شيبة والحسن وعيسى بخلاف عنه وعمرو بن عبيد ، وهذا هو الوجه فيما لم يقع بعد ، وكذلك الخلاف في : ﴿ ممسكات رحمته ﴾ .

ثم أمره تعالى بأن يصدع بالاتكال على الله ، وأنه حسبه من كل شيء ومن كل ناصر ، ثم أمره بتوعدهم في قوله : ﴿ اعملو على مكانتكم إني عامل ﴾ ما رأيتموه متمكناً لكم على حالتكم التي استقر رأيكم عليها .

وقرأ الجمهور : " مكانتكم " بالإفراد . وقرأ " مكاناتكم " بالجمع : الحسن وعاصم .

وقوله : ﴿ اعملوا ﴾ لفظ بمعنى الوعيد . و" العذاب المخزي " : هو عذاب الدنيا يوم بدر وغيره .

و" العذاب المقيم " : هو عذاب الآخرة ، أعاذنا الله تعالى منه برحمته .

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)

هذا إعلام بعلو مكانة محمد عليه السلام واصطفاء ربه له . و﴿ الكتاب ﴾ القرآن .

وقوله : ﴿ بالحق ﴾ يحتمل معنيين ، أحدهما : أن يريد مضمناً الحق في أخباره وأحكامه ، والآخر : أن يريد أنه أنزله بالواجب من إنزاله وبالاستحقاق لذلك لما فيه من مصلحة العالم وهداية الناس ، وكأن هذا الذي فعل الله تعالى من إنزال كتاب إلى عبيده هو إقامة حجة عليهم ، وبقي تكسبهم بعد إليهم ، ﴿ فمن اهتدى فلنفسه ﴾ عمل وسعى ، ﴿ ومن ضل فعليها ﴾ جنى ، والهدى والضلال إنما لله تعالى فيهما خلق واختراع ، وللعبد تكسب ، عليه يقع الثواب أو العقاب . وأخبر نبيه أنه ليس بوكيل عليهم ولا مسيطر ، والوكيل : القائم على الأمر حتى يكمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾

حذفت الياء من "كاف" لسكونها وسكون التنوين بعدها ؛ وكان الأصل ألا تحذف في الوقف لزوال التنوين ، إلا أنها حذفت ليعلم أنها كذلك في الوصل .

ومن العرب من يثبتها في الوقف على الأصل فيقول : كافي .

وقراءة العامة ﴿ عَبْدَهُ ﴾ بالتوحيد يعني محمداً صلى الله عليه وسلم يكفيه الله وعيد المشركين وكيدهم .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ عِبَادَهُ ﴾ وهم الأنبياء أو الأنبياء والمؤمنون بهم .

واختار أبو عبيد قراءة الجماعة لقوله عقيبه : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ .

ويحتمل أن يكون العبد لفظ الجنس ؛ كقوله عز من قائل : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر : 2] وعلى هذا تكون القراءة الأولى راجعة إلى الثانية .

والكفاية شر الأصنام ، فإنهم كانوا يخوّفون المؤمنين بالأصنام ، حتى قال إبراهيم عليه السلام .

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ ﴾ [الأنعام : 81] .

وقال الجرجاني : إن الله كافٍ عبده المؤمن وعبده الكافر ، هذا بالثواب وهذا بالعقاب .

قوله تعالى : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بالذين مِن دُونِهِ ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبيّ صلى الله عليه وسلم مَضَرَّةَ الأوثان ، فقالوا : أتسب آلهتنا ؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنك أو تصيبنك بسوء .

وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العُزَّى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادِنها : أُحَذِّرُكَها يا خالد فإن لها شدّة لا يقوم لها شيء ، فعمد خالد إلى العُزَّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس .

وتخويفهم لخالد تخويف للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه الذي وجه خالداً .

ويدخل في الآية تخويفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بكثرة جمعهم وقوتهم ؛ كما قال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [القمر : 44] .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ تقدم .

(57/668)

﴿ وَمَن يَهْدِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ الله بِعَزِيزٍ ذِي انتقام ﴾ أي ممن عاداه أو عادى رسله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ أي ولئن سألتهم يا محمد ﴿ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض

لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ بين أنهم مع عبادتهم الأوثان مُقِرُّون بأن الخالق هو الله ، وإذا كان الله هو الخالق فكيف يخوفونك بآلتهم التي هي مخلوقة لله تعالى ، وأنت رسول الله الذي خلقها وخلق السموات والأرض .

﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم ﴾ أي قل لهم يا محمد بعد اعترافهم بهذا ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾ بشدة وبلاء ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ يعني هذه الأصنام ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ نعمة ورخاء ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ قال مقاتل : فسألهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فسكتوا .

وقال غيره : قالوا لا تدفع شيئاً قدّره الله ولكنها تشفع .

فنزلت : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ ﴾ وترك الجواب لدلالة الكلام عليه ؛ يعني فسيقولون لا (أي لا تكشف ولا تمسك) ف "قُلْ" أنت "حَسْبِيَ اللَّهُ" أي عليه توكلت أي اعتمدت و ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتوكلون ﴾ يعتمد المعتمدون .

وقد تقدّم الكلام في التوكل .

وقرأ نافع وابن كثير والكوفيون ما عدا عاصماً "كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ" بغير تنوين .

وقرأ أبو عمرو وشيبة وهي المعروفة من قراءة الحسن وعاصم "هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ" .

"مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ" بالتنوين على الأصل وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ لأنه اسم فاعل في معنى الاستقبال ، وإذا كان كذلك كان التنوين أجود .

قال الشاعر :

الضاربون عُمَيْراً عن بيوتهم . . .

بالليل يوم عُمَير ظالمٌ عادي

ولو كان ماضياً لم يجز فيه التنوين ، وحذف التنوين على التحقيق ، فإذا حذفت التنوين لم يبق بين الاسمين حاجز فخفضت الثاني بالإضافة .

(58/668)

وحذف التنوين كثير في كلام العرب موجود حسن ؛ قال الله تعالى : ﴿ هَدْياً بَالِغَ الكعبة ﴾ [المائدة : 95] وقال : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو الناقة ﴾ [القمر : 27] قال سيبويه : ومثل ذلك ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصيد ﴾ [المائدة : 1] وأنشد سيبويه :

هل أَنْتَ باعِثُ دِينارٍ لحاجتِنا . . .

أو عَبْد رَبٍّ أَخَا عَوْنِ بنِ مِخْرَاقِ

وقال النابغة :

احْكُمْ كَحُكْمِ فتاةِ الْحَيِّ إِذْ نَظَرَتْ . . .

إِلَى حَمَامٍ شِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمدِ

معناه واردٍ الثَّمَد فحذف التنوين ؛ مثل ﴿ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ أي على مكانتي أي على جهتي التي تمكنت عندي ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقرأ أبو بكر "مَكَانَاتِكُمْ" وقد مضى في "الأنعام" .

﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي يهينه ويذله أي في الدنيا وذلك بالجوع والسيف .

﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ أي في الآخرة ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب لِلنَّاسِ بالحق فَمَنِ اهتدى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ تقدم الكلام في هذه الآية مستوفى في غير موضع .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(59/668)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله ﴾ :

هذا تفسير وبيان للذين يكون بينهم الخصومة ، وهذا يدل على أن الاختصام السابق يكون بين المؤمنين والكافرين ، والمعنى : لا أجد في المكذبين أظلم ممن افترى على الله ، فنسب

إليه الولد والصاحبة والشريك ، وحرّم وحلل من غير أمر الله ؛ ﴿ وكذب بالصدق ﴾ :

وهو ما جاء به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ ﴿ إذا جاءه ﴾ : أي وقت مجيئه ،

فاجأه بالتكذيب من غير فكر ولا ارتياء ولا نظر ، بل وقت مجيئه كذب به .

ثم توعدهم توعداً فيه احتقارهم على جهة التوقيف ، وللكافرين مما قام فيه الظاهر مقام

المضمر ، أي مثوى لهم ، وفيه تنبيه على علة كذبهم وتكذيبهم ، وهو الكفر .

﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ معادله لقوله : ﴿ فمن أظلم ﴾ .

﴿ وصدّق به ﴾ مقابل لقوله : ﴿ وكذب بالصدق ﴾ .

والذي جنس ، كأنه قال : والفريق الذي جاء بالصدق ، ويدل عليه : ﴿ أولئك هم المتقون

﴾ ، فجمع .

كما أن المراد بقوله : ﴿ فمن أظلم ﴾ ، يراد به جمع ، ولذلك قال ﴿ مثوى للكافرين ﴾ .

وفي قراءة عبد الله : والذي جاؤا بالصدق وصدقوا به .

وقيل : أراد والذين ، فحذفت منه النون ، وهذا ليس بصحيح ، إذ لو أريد الذين بلفظ

الذي وحذفت منه النون ، لكان الضمير مجموعاً كقوله_@_ :

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم . . .

_@_ألا ترى أنه إذا حذفت النون في المثنى كان الضمير مثنى ؟ كقوله :

أبني كليب أن عميّ اللذا . . .

قتلا الملوك وفككا الأغلالا

وقيل : الذي جاء بالصدق وصدق به هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : الذي جاء بالصدق جبريل ، والذي صدق به هو محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقال عليّ ، وأبو العالية ، والكلبي ، وجماعة : الذي جاء بالصدق هو الرسول ، والذي صدق به هو أبو بكر .

وقال أبو الأسود ، ومجاهد ، وجماعة : الذي صدق به وهو عليّ بن أبي طالب .

وقال الزمخشري : والذي جاء بالصدق وصدق به هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

(60/668)

جاء بالصدق وآمن به ، وأراد به إياه ومن تبعه ، كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾ ولذلك قال : ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ ، إلا أن هذا في الصفة ، وذلك في الاسم .

ويجوز أن يريد : والفوج والفريق الذي جاء بالصدق وصدق به ، وهو الرسول الذي جاء بالصدق ، وصحابته الذين صدقوا به . انتهى .

وقوله : وأراد به إياه ومن تبعه ، كما أراد بموسى إياه وقومه .

استعمل الضمير المنفصل في غير موضعه ، وإنما هو متصل ، فإصلاحه وأراده به ومن تبعه ، كما أراده بموسى وقومه : أي لعل قومه يهتدون ، إذ موسى عليه السلام مهتدٍ .

فالمترجى هداية قومه ، لا هدايته ، إذ لا يترجى إلا ما كان مفقوداً لا موجوداً .

وقوله : ويجوز إلخ ، فيه توزيع الصلة ، والفوج هو الموصول ، فهو كقوله : جاء الفريق الذي شرف وشرّف .

والأظهر عدم التوزيع ، بل المعطوف على الصلة ، صلة لمن له الصلة الأولى .

وقرأ الجمهور : ﴿ وصدق ﴾ مشدداً ؛ وأبو صالح ، وعكرمة بن سليمان ، ومحمد بن جحازة : مخففاً .

قال أبو صالح : وعمل به .

وقيل : استحق به اسم الصدق .

قال ابن عطية : فعلى هذا إسناد الأفعال كلها إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وكأن أمته في ضمن القول ، وهو الذي يحسن ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ . انتهى .

وقال الزمخشري : أي صدق به الناس ، ولم يكذبهم به ، يعني : أداه إليهم ، كما نزل عليه من غير تحريف .

وقيل : معناه : وصار صادقاً به ، أي بسببه ، لأن القرآن معجزة ، والمعجزة تصديق من

الحكيم الذي لا يفعل القبيح لمن يجريها على يديه ، ولا يجوز أن يصدق إلا الصادق ، فيصير لذلك صادقاً بالمعجزة .

وقرىء : وصدق به .

انتهى ، يعني : مبنياً للمفعول مشدداً .

وقال صاحب اللوامح : جاء بالصدق من عند الله وصدق بقوله ، أي في قوله ، أو في مجيئه ، فاجتمع له الصفتان من الصدق : من صدقه من عند الله ، وصدقه بنفسه ، وذلك مبالغة في المدح . انتهى .

(61/668)

﴿ لهم ما يشاءون ﴾ : عام في كل ما تشتهيه أنفسهم وتتعلق به إرادتهم .

و﴿ ليكفر ﴾ : متعلق بالمحسنين ، أي الذين أحسنوا ليكفر ، أو بمحذوف ، أي يسر ذلك لهم ليكفر ، لأن التكفير لا يكون إلا بعد التيسير للخير .

و﴿ أسوأ الذي عملوا ﴾ : هو كفر أهل الجاهلية ومعاصي أهل الإسلام .

والتكفير يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه ، والجزاء بالأحسن يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه ، فقيل : ذلك يكون إذا صدقوا الأنبياء فيما أتوا به .

وقال مقاتل : يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ، ولا يجزيهم بالمساوي ، وهذا قول المرجئة ، يقولون : لا يضر شيء من المعاصي مع الإيمان .

واحتج بهذه الآية ، وقام الظاهر مقام المضمر في المحسنين ، أي ذلك جزاؤهم ، فنبه بالظاهر على العلة المقتضية لحصول الثواب .

والظاهر أن أسوأ أفعل تفضيل ، وبه قرأ الجمهور : وإذا كفر أسوأ أعمالهم ، فتكفير ما هو دونه أحرى .

وقيل : أفعل ليس للتفضيل ، وهو كقولك : الأشج أعدل بني مروان ، أي عادل ، فكذلك هذا ، أي سيء الذين عملوا .

ويدل على هذا التأويل قراءة ابن مقسم ، وحامد بن يحيى ، عن ابن كثير : أسوأ هنا ؛ وفي حم السجدة بألف بين الواو والهمزة جمع سوء ، ولا تفضيل فيه .

والظاهر أن بأحسن أفعل تفضيل فقيل : لينظر إلى أحسن طاعاته فيجزي الباقي في الجزاء على قياسه ، وإن تخلف عنه بالتقصير .

وقيل : بأحسن ثواب أعمالهم .

وقيل : بأحسن من عملهم ، وهو الجنة ، وهذا ينبو عنه ﴿ بأحسن الذي ﴾ .

وقال الزمخشري : أما التفضيل فيؤذن بأن الشيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرات هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية ، والحسن الذي يعملون هو عند الله

الأحسن لحسن إخلاصهم فيه ، فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ ، وحسنهم بالأحسن .

انتهى ، وهو على رأى المعتزلة ، ويكون قد استعمل أسوأ في التفضيل على معتقدهم ، وأحسن في التفضيل على ما هو عند الله ، وذلك توزيع في أفعل التفضيل ، وهو خلاف الظاهر .

(62/668)

قالت قريش : لئن لم ينته محمد عن تعييب آلهتنا وتعيينا ، لنسلطها عليه فتصيبه بخبل وتعتريه بسوء ، فأنزل الله : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ : أي شر من يريده بشر ، والهمزة الداخلة على النفي للتقرير ، أي هو كاف عبده ، وفي إضافته إليه تشريف عظيم لنبيه .

وقرأ الجمهور : عبده ، وهو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقرأ أبو جعفر ، ومجاهد ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، وحمزة ، والكسائي : عباده بالجمع ، أي الأنبياء والمطيعين من المؤمنين ؛ ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ : وهو الأصنام .

ولما بعث خالداً إلى كسر العزى ، قال له سادنها : إني أخاف عليك منها ، فلها قوة لا يقوم لها شيء .

فأخذ خالد الفأس ، فهشم به وجهها ثم انصرف .

وفي قوله : ﴿ ويخوفونك ﴾ ، تهكم بهم لأنهم خوفوه بما لا يقدر على نفع ولا ضرر .

ونظير هذا التخويف قول قوم هود له : ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ وقرىء : ﴿ بكافي عبده ﴾ على الإضافة ، ويكافي عباده مضارع كفى ، ونصب عباده فاحتمل أن يكون مفاعلة من الكفاية ، كقولك : يجازي في يجزي ، وهو أبلغ من كفى ، لبنائه على لفظظ المبالغة ، وهو الظاهر لكثرة تردّد هذا المعنى في القرآن ، كقوله : ﴿ فسيكفيكم الله ﴾ ويحتمل أن يكون مهموزاً من المكافأة ، وهي المجازاة ، أي يجزيهم أجرهم .

ولما كان تعالى كافي عبده ، كان التخويف بغيره عبثاً باطلاً .

ولما اشتملت الآية على مهتدين وضالين ، أخبر أن ذلك كله هو فاعله ، ثم قال : ﴿ أليس الله بعزيز ﴾ : أي غالب منيع ، ﴿ ذي انتقام ﴾ : وفيه وعيد لقريش ، ووعد للمؤمنين .

ولما أقروا بالصانع ، وهو الله ، أخبرهم أنه تعالى هو المتصرف في نبيه بما أراد .

فإن تلك الأصنام التي يدعونها آلهة من دونه لا تكشف ضراً ولا تمسك رحمة ، أي صحة وسعة في الرزق ونحو ذلك .

وأرأيتم هنا جارية على وضعها ، تعدت إلى مفعولها الأول ، وهو ما يدعون .

وجاء المفعول الثاني جملة استفهامية ، وفيها العائد على ما ، وهو لفظ هن وأنث تحقيراً لها وتعجيزاً وتضعيفاً .

وكان فيها من سمى تسمية الإناث ، كالعزى ومناة واللات ، وأضاف إرادة الله الضر إلى نفسه والرحمة إليها ، لأنهم خوفوه مضرتها ، فاستسلف منهم الإقرار بأن خالق العالم هو الله .

ثم استخبرهم عن أصنامهم ، هل تدفع شرّاً وتجلب خيراً ؟ وقرأ الجمهور : كاشفات وممسكات على الإضافة ؛ وشيبة ، والأعرج ، وعمرو بن عبيد ، وعيسى : بخلاف عنه ؛ وأبو عمرو ، وأبو بكر ؛ بتنوينهما ونصب ما بعدهما .

ولما تقرر أنه تعالى كافية ، وأن أصنامهم لا تضر ولا تنفع ، أمره تعالى أنه يعلم أنه تعالى هو حسبه ، أي كافية .

والجواب في هذا الاستخبار محذوف ، والتقدير : فإنهم سيقولون : لا تقدر على شيء من ذلك .

وقال مقاتل : استخبرهم فسكتوا .

﴿ قل يا قوم اعملوا ﴾ : تقدم الكلام على نظيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾

إنكار ونفي لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه كأن الكفاية من التحقق والظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يتفوه بعدمها أو يتلعثم في الجواب بوجودها ، والمراد بعبده إما رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما روي عن السدى وأيد بقوله تعالى : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ أي الأوثان التي اتخذوها آلهة ؛ فإن الخطاب سواء كانت الجملة استئنافاً أو حالاً له صلى الله عليه وسلم : وقد روي أن قريشاً قالت له عليه الصلاة والسلام : انا نخاف أن تخبلك آلهتنا وتصيبك معرتها لعيبك إياها فنزلت ، وفي رواية قالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منها خبل فنزلت ، أو الجنس المنتظم له عليه الصلاة والسلام انتظاماً أولياً ، وأيد بقراءة أبي جعفر .

ومجاهد .

وابن وثاب .

وطلحة والأعمش .

وحمزة .

والكسائي ﴿ عِبَادِهِ ﴾ بالجمع وفسر بالأنبياء عليهم السلام والمؤمنين ، وعلى الأول يراد أيضاً الأتباع كما سمعت في قوله تعالى : ﴿ والذى جَاء بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ [الزمر : 33] ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ ﴾ شامل لهم أيضاً على ما سلف والتئام الكلام بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ [الزمر : 32] إلى هذا المقام لدلالته على أنه تعالى يكفي نبيه صلى الله عليه وسلم منهم دينه ودنياه ويكفي أتباعه المؤمنين أيضاً المهمين وفيه أنه سبحانه يكفيهم شر الكافرين من وجهين من طريق المقابلة ومن انه داخل في كفاية مهمى الرسول عليه الصلاة والسلام وأتباعه ، وهذا ما تقتضيه البلاغة القرآنية ويلائم ما بني عليه السورة الكريمة من ذكر الفريقين وأحوالهما توكيداً لما أمر به أولاً من العبادة والإخلاص .

(65/668)

وقرىء ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ بالإضافة و ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ مضارع كافي ونصب ﴿ عِبَادِهِ ﴾ فاحتمل أن يكون مفاعلة من الكفاية كقولك : يجاري في يجري وهو أبلغ من كفى لبنائه على لفظ المبالغة وهو الظاهر لكثرة تردد هذا المعنى في القرآن نحو ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله ﴾ [البقرة : 137] ويحتمل أن يكون مهموزاً من المكافأة وهي المجازاة ، ووجه الارتباط أنه

تعالى لما ذكر حال من كذب على الله وكذب بالصدق وجزاء ، وحال مقابله أعني الذي جاء بالصدق وصدق به وجزاءه وعرض بقوله سبحانه : ﴿ ذَلِكَ جَزَاء المحسنين ﴾ [الزمر : 34] بأن ما سلف جزاء الكافرين المسيئين لما هو معروف من فائدة البناء على اسم الإشارة ثم عقبه تعالى بقوله عز وجل : ﴿ لِيُكَفِّرَ ﴾ [الزمر : 35] الخ على معنى ليكفر عنهم ويجزيهم خصهم بما خص فنبه على المقابل أيضاً من ضرورة الاختصاص والتعليل ، وفيه أيضاً ما يدل على حكم المقابل على اعتبار المتعلق غير ما ذكر كما يظهر بأدنى التفات أردف بقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ وحيث أن مطمح النظر من العباد السيد الحبيب صلى الله عليه وسلم كان المعنى الله تعالى يجازي عبده ونبيه عليه الصلاة والسلام هذا الجزاء المذكور وفيه أنه الذي يجزيه البتة ويلائمه قوله تعالى : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ ﴾ فإنه لما كان في مقابلة ذم آلهتهم كما سمعت في سبب النزول كان تحذيراً من جزاء الآلهة فلا مغمز بعدم الملاءمة .

نعم لا ننكر أن معنى الكفاية أبلغ كما هو مقتضى القراءة المشهورة فاعلم ذاك والله تعالى يتولى هداك .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ حتى غفل عن كفايته تعالى عبده وخوف بما لا ينفع ولا يضر أصلاً ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يهديه إلى خير ما .

﴿ وَمَن يَهْدِ اللهُ ﴾ فيجعل كونه تعالى كافياً نصيب عينه عاملاً بمقتضاه ﴿ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴾ يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه إذ لا راد لفعله ولا معارض لإرادته عز وجل كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ﴾ غالب لا يغالب منيع لا يمانع ولا ينازع ﴿ ذِي انتقام ﴾ ينتقم من أعدائه لأوليائه ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾

لظهور الدليل ووضوح السبيل فقد تقرر في العقول وجوب انتهاء الممكنات إلى واجب الوجود ، والاسم الجليل فاعل لفعل محذوف أي خلقهن الله ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشفات ضُرِّهِ ﴾ أي إذا كان خالق العالم العلوي والسفلي هو الله عز وجل كما أقررتم فأخبروني أن آلهتكم ان أرادني الله سبحانه بضر هل هن يكشفن عني ذلك الضر ، فالفاء واقعة في جواب شرط مقدر ؛ وقال بعضهم : التقدير إذا لم يكن خالق سواه تعالى فهل يمكن غيره كشف ما أراد من الضر ، وجوز أن تكون عاطفة على مقدر أي أتفكرتم بعد ما أقررتم فرأيتم ما تدعون الخ .

﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ أي أو أن أرادني بنفع ﴿ هَلْ هُنَّ ممسكات رَحْمَتِهِ ﴾ فيمنعها سبحانه عني .

وقرأ الأعرج.

وشيبة.

وعمرو بن عبيد.

وعيسى بخلاف عنه.

وأبو عمرو.

وأبو بكر ﴿ كاشفات ﴾ بالتنوين فيهما ونصب ما بعدهما وتعليق إرادة الضر والرحمة بنفسه التفيسة عليه الصلاة والسلام للرد في نحورهم حيث كانوا خوفوه معرة الأوثان ولما فيه من الإيذان بامحاض النصحية، وقدم الضر لأن دفعه أهم، وقيل: ﴿ كاشفات ﴾ على ما يصفونها به من الأنوثة تنبيهاً على كمال ضعفها ﴿ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِىَ الله ﴾ كافي جل شأنه في جميع أموري من إصابة الخير ودفع الشر.

(67/668)

روي عن مقاتل أنه صلى الله عليه وسلم لما سألهم سكتوا فنزل ذلك.

﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ﴾ لا على غيره في كل شيء ﴿ المتوكلون ﴾ لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته تعالى.

﴿ قُلْ يا قَوْمِ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾

على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة التي تمكنتهم فيها فإن المكانة نقلت من المكان المحسوس إلى الحالة التي عليها الشخص واستعيرت لها استعارة محسوس لمعقول ، وهذا كما تستعار حيث وهنا للزمان بجامع الشمول والإحاطة ، وجوز أن يكون المعنى اعملوا على حسب تمكنكم واستطاعتكم .

وروي عن عاصم ﴿ مكاناتكم ﴾ بالجمع والأمر للتهديد ، وقوله تعالى : ﴿ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عامل ﴾ وعيد لهم واطلاقه لزيادة الوعيد لأنه لو قيل : على مكانتي لتراءى أنه عليه الصلاة والسلام على حالة واحدة لا تتغير ولا تزداد فلما أطلق أشعر بأنه له صلى الله عليه وسلم كل زمان مكانة أخرى وأنه لا يزال يزداد قوة بنصر الله تعالى وتأييده ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فإنه دال على أنه صلى الله عليه وسلم منصور عليهم في الدنيا والآخرة بدليل قوله تعالى :

﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ فإن الأول اشارة إلى العذاب الدنيوي وقد نالهم يوم بدر والثاني إشارة إلى العذاب الأخروي فإن العذاب المقيم عذاب النار فلو قيل إني عامل على مكانتي وكان إذ ذاك غير غالب بل الأمر بالعكس لم يلائم المقصود ، و﴿ مِنْ ﴾ تحتمل الاستفهامية والموصولية وجملة ﴿ يُخْزِيهِ ﴾ صفة ﴿ عَذَابٌ ﴾ والمراد بمقيم دائم وفي الكلام مجاز في الظرف أو الإسناد وأصله مقيم فيه

صاحبه .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ ﴾

(68/668)

لأجلهم فإنه مناط مصالحهم في المعاش والمعاد ﴿ بالحق ﴾ حال من مفعول ﴿ أَنزَلْنَا ﴾ أو من فاعله أي أنزلنا الكتاب ملتبساً أو ملتبسين بالحق ﴿ فَمَنِ اهتدى ﴾ بأن عمل بما فيه ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ إذ نفع به نفسه ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ بأن لم يعمل بموجبه ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ لما أن وبال ضلاله مقصور عليها ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ لتجبرهم على الهدى وما وظيفتك إلا البلاغ وقد بلغت أي بلاغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(69/668)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ .

لمّا ضرب الله مثلاً للمشركين والمؤمنين بمَثَل رجل فيه شركاء متشاكسون ورجلٍ خالصٍ لرجل ، كان ذلك المثَل مثيراً لأن يقول قائِلُ المشركين لَتَتَأَلَّبَنَّ شركاؤنا على الذي جاء يحقرها ويسبها ، ومثيراً لحمية المشركين أن ينتصروا لآلهتهم كما قال مشركو قوم إبراهيم ﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم ﴾ [الأنبياء : 68] .

وربما أنطقتهم حميتُهم بتخويف الرسول ، ففي الكشاف ﴾ و"تفسير القرطبي" : أن قريشاً قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم "إنّا نخاف أن تُخْبِلَك آلهتُنا وإنا نخشى عليك معرتها (بعين بعد الميم بمعنى الإِصابة بمكروه يَعنون المضرة) لعيبك إياها" .

وفي "تفسير ابن عطية" ما هو بمَعنى هذا ، فلمَّا حكى تكذيبَهم النبي عطف الكلام إلى ما هددوه به وخوفوه من شر أصنامهم بقوله : ﴿ أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ .

فهذا الكلام معطوف على قوله : ﴿ ضَرَبَ الله مثَلاً رجُلاً فيه شُركاء ﴾ [الزمر : 29] الآية والمعنى : أن الله الذي أفردتَه بالعبادة هو كافيك شر المشركين وباطل آلهتهم التي عبدوها من دونه ، فقوله : أليس الله بكافٍ عبده ﴾ تمهيد لقوله : و ﴿ يخوفونك بالذين من دونه ﴾ قدم عليه لتعجيل مساءة المشركين بذلك ، ويستتبع ذلك تعجيل مسرة الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله ضامن له الوقاية كقوله : ﴿ فسيكفيكهم اللَّه ﴾ [البقرة : 137] .

وأصل النظم : ويُخوّفونك بالذين من دون الله والله كافيك ، فغُير مجرى النظم لهذا الغرض ، ولك أن تجعل نظم الكلام على ترتيبه في اللفظ فتجعل جملة أليس الله بكاف عبده ﴾ استئنافاً ، وتصير جملة ﴿ ويخوفونك ﴾ حالاً .

(70/668)

ووقع التعبير عن النبي صلى الله عليه وسلم بالاسم الظاهر وهو ﴿ عَبْدَه ﴾ دون ضمير الخطاب لأن المقصود توجيه الكلام إلى المشركين ، وحُذف المفعول الثاني ل ﴿ كافٍ ﴾ لظهور أن المقصود كافيك أَذاهُم ، فأما الأصنام فلا تستطيع أذىً حتى يُكْفاه الرسول صلى الله عليه وسلم والاستفهام إنكار عليهم ظنّهم أن لا حامِيَ للرسول صلى الله عليه وسلم من ضرّ الأصنام .

[والمراد بـ ﴿ عَبْدَه ﴾ هو الرسول صلى الله عليه وسلم لا محالة وبقرينة و ﴿ يُخوفونك ﴾ .

وفي استحضار الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف العبودية وإضافته إلى ضمير الجلالة ، معنى عظيم من تشريفه بهذه الإِضافة وتحقيقِ أنه غير مُسلِمِه إلى أعدائه .

والخطاب في ﴿ ويخوفونك ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم وهو التفات من ضمير الغيبة

العائد على ﴿ عبده ﴾ ، ونكتةُ هذا الإلتفات هو تمحيض قصد النبي بمضمون هذه الجملة بخلاف جملة ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ كما علمت آنفاً .

و ﴿ الذين من دونه ﴾ هم الأصنام .

عُبر عنهم وهم حجارة بمَوصول العقلاءِ لكثرة استعمال التعبير عنهم في الكلام بصيغ العقلاء .

و ﴿ من دونه ﴾ صلة الموصول على تقدير محذوف يتعلق به المجرور دل عليه السياق ، تقديره : اتخذُوهم من دونه أو عبَدُوهم من دونه .

ووقع في "تفسير البيضاوي" أن سبب نزول هذه الآية هو خبر توجيه النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى هدم العُزّى وأن سادن العزّى قال لخالد : أحذِّركَها يا خالد فإن لها شدةً لا يقوم لها شيء ، فعمد خالد إلى العزّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس فأنزل الله هذه الآية .

وتأول الخطاب في قوله : ﴿ ويخوفونك ﴾ بأن تخويفهم خالداً أرادوا به تخويف النبي صلى الله عليه وسلم فتكون هذه الآية مدنية وسياق الآية نابٍ عنه .

ولعل بعض من قال هذا إنما أراد الاستشهاد لتخويف المشركين النبي صلى الله عليه وسلم من أصنامهم بمثال مشهور .

وقرأ الجمهور ﴿ بكافٍ عبده ﴾ .

وقرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف ﴿ عبادَه ﴾ بصيغة الجمع أي النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فإنهم لما خوّفوا النبي صلى الله عليه وسلم فقد أرادوا تخويفه وتخويف أتباعه وأن الله كفاهم شرهم .

﴿ دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ﴾

اعتراض بين جملة ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ الآية وجملةِ ﴿ أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴾ قصد من هذا الاعتراض أن ضلالهم داء عَياء لأنه ضلال مكوَّن في نفوسهم وجبلّتهم قد ثبّتته الأيام ، ورسخه تعاقب الأجيال ، فَران بغشاوته على ألبابهم ، فلما صار ضلالهم كالمجبول المطبوع أسند إيجاده إلى الله كناية عن تعسر أو تعذر اقتلاعه من نفوسهم .

وأريد من نفي الهادي من قوله : ﴿ فما له من هاد ﴾ نفي حصول الاهتداء ، فكني عن عدم حصول الهدى بانتفاء الهادي لأن عدم الاهتداء يجعل هاديهم كالمنفي .

وقد تقدم قوله في سورة [الأعراف : 186] ﴿ من يضلل اللَّه فلا هادي له .

﴿ والآيتان متساويتان في إفادة نفي جنس الهادي ، إلا أن إفادة ذلك هنا بزيادة مِن ﴾ تنصيصاً على نفي الجنس .

وفي آية الأعراف ببناء هادي على الفتح بعد (لا) النافية للجنس فإن بناء اسمها على الفتح مشعر بأن المراد نفي الجنس نصًّا .

والاختلاف بين الأسلوبين تفنن في الكلام وهو من مقاصد البلغاء .

وتقديم ﴿ له ﴾ على ﴿ هَادٍ ﴾ للاهتمام بضميرهم في مقام نفي الهادي لهم لأن ضلالهم المحكي هنا بالغ في الشناعة إذا بلغ بهم حدَّ الطمع في تخويف النبي بأصنامهم في حال ظهور عدم اعتداده بأصنامهم لكل متأمل مِن حالِ دعوته ، وإذْ بلغ بهم اعتقاد مقدرة أصنامهم مع الغفلة عن قدرة الرب الحَقّ ، بخلاف آية الأعراف فإن فيها ذكر إعراضهم عن النظر في ملكوت السماوات والأرض وهو ضلال دون ضلال التخويف من بأس أصنامهم .

(72/668)

وأما جملة ﴿ ومَن يَهْدِ الله فما لهُ مِن مُضلٍ ﴾ فقد اقتضاها أن الكلام الذي اعترضت بعده الجملتان اقتضى فريقين : فريقاً متمسكاً بالله القادر على النفع والضر وهو النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ، وآخرَ مستمسكاً بالأصنام العاجزة عن الأمرين ، فلما بُيّن أن ضلال الفريق الثاني ضلال مكين ببيان أن هدى الفريق الآخر راسخ متين فلا مطمع للفريق الضال بأن يجرّوا المهتدين إلى ضلالهم .

﴿ مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى ﴾ .

تعليل لإِنكار انتفاء كفاية الله عن ذلك كإنكار أن الله عزيز ذو انتقام ، فلذلك فصلت الجملة عن التي قبلها .

والاستفهام تقريري لأن العلم بعزة الله متقرر في النفوس لاعتراف الكل بإلهيته والإلهية تقتضي العزة ، ولأن العلم بأنه منتقم متقرر من مشاهدة آثار أخذه لبعض الأمم مثل عاد وثمود .

فإذا كانوا يقرّون لله بالوصفين المذكورين فما عليهم إلا أن يعلموا أنّه كافٍ عبده بعزته فلا يقدر أحد على إصابة عبده بسوء ، وبانتقامه من الذين يبْتغون لعبده الأذى .

والعزيز : صفة مشبهة مشتقة من العزّ ، وهو منَعَة الجانب وأن لا يناله المتسلط وهو ضد الذل ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فاعلموا أن اللَّه عزيز حكيم ﴾ في سورة [البقرة : 209] .

والانتقام : المكافأة على الشر بشر ، وهو مشتق من النقْم وهو الغضب كأنه مطاوعه لأنه مسبب عن النَّقْم ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم ﴾ في اليم في سورة [الأعراف : 136] .

وانظر قوله تعالى : ﴿ واللَّه عزيز ذو انتقام ﴾ في سورة [العقود : 95] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾

اعتراض بين جملة ﴿ أليس الله بعزيز ﴾ [الزمر : 37] ، وجملة قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ ، فالواو اعتراضية ، ويجوز أن يكون معطوفاً على جملة ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ [الزمر : 36] وهو تمهيد لما يأتي بعده من قوله : قُل أفرءيتُم ما تدعُون من دون الله ﴾ ، لأنه قصد به التوطئة إليه بما لا نزاع فيه لأنهم يعترفون بأن الله هو المتصرف في عظائم الأمور ، أي خلقَهُما وما تحويانه ، وتقدم نظيره في سورة العنكبوت .

﴿ اللهِ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ﴾

جاءت جملة ﴿ قل أفرءيتم ﴾ على أسلوب حكاية المقاولة والمجاوبة لكلامهم المحكي بجملة ﴿ ليقولن الله ﴾ ولذلك لم تعطف الثانية بالواو ولا بالفاء ، والمعنى : ليقولن الله فقل أفرأيتم ما تدعون من دون الله الخ .

والفاء من ﴿ أفرءيتم ﴾ لتفريع الاستفهام الإنكاري على جوابهم تفريعاً يفيد محاجّتهم على لازم اعترافهم بأن الله هو خالق السماوات والأرض كما في قوله تعالى : ﴿ قل أفغير اللَّه تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ [الزمر : 64] .

وهذا تفريع الإلزام على الإقرار ، والنتيجة على الدليل فإنهم لما أقروا بأنه خالق السمَاوات والأرض يلزمهم أن يقرّوا بأنه المتصرف فيما تحويه السماوات والأرض .

والرؤية قلبية ، أي أفظننتم .

وما تدعون من دون الله ﴾ مفعول (رأيتم) الأول والمفعول الثاني محذوف سدّ مسده جوابُ الشرط المعترَض بعد المفعول الأول على قاعدة اللغة العربية عند اجتماع مبتدأ وشرطٍ أن يجري ما بعدهما على ما يناسب جملة الشرط لأن المفعول الأول لأفعال القلوب في معنى المبتدأ .

وجملة ﴿ هل هن كاشفات ضرِّه ﴾ جواب ﴿ إنْ .

(74/668)

واستعمال العرب إذا صُدّر الجواب بأداة استفهام غير الهمزة يجوز تجرده عن الفاء الرابطة للجواب كقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب اللَّه بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾ [الأنعام : 47] ، ويجوز اقترانه بالفاء كقوله : ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من اللَّه ﴾ [هود : 63] .

فأما المصدّر بالهمزة فلا يجوز اقترانه بالفاء كقوله : ﴿ أرأيت إن كذب وتولى ألم يعلم بأن اللَّه

يرى ﴾ [العلق : 13 ، 14] .

وجواب الشرط دليل على المفعول الثاني لفعل الرؤية .

والتقدير : أرأيتم مَا تدعون من دون الله كاشفاتٍ ضرّه .

والهمزة للاستفهام وهو إنكاري إنكاراً لهذا الظن .

وجيء بحرف هل ﴾ في جواب الشرط وهي للاستفهام الإِنكاري أيضاً تأكيداً لما أفادته همزة الاستفهام مع ما في (هل) من إفادة التّحْقيق .

وضمير ﴿ هُنَّ ﴾ عائد إلى مَا الموصولة وكذلك الضمائر المؤنثة الواردة بعده ظاهرةً ومستترة ، إما لأن (مَا) صْدَقَ ما الموصولة هُنا أحجار غيرُ عاقلة وجمع غير العقلاء يَجري على اعتبار التأنيث ، ولأن ذلك يُصير الكلام من قبيل الكلام الموجه بأن آلهتهم كالإِناث لا تقدر على النصر .

والكاشفات : المزيلات ، فالكشف مستعار للإِزالة بتشبيه المعقول وهو الضُرّ بشيء مستتر ، وتشبيهِ إزالته بكشف الشيء المستور ، أي إخراجه ، وهي مكنية والكشف استعارة تخييلية .

والإِمساك أيضاً مكنية بتشبيه الرحمة بما يُسعَف به ، وتشبيه التعرض لحصولها بإمساك صاحب المتاع متاعه عن طالبيه .

وعدل عن تعدية فعل الإِرادة للضر والرحمة ، إلى تعديته لضمير المتكلم ذات المضرور والمَرحوم مع أن متعلق الإِرادات المعاني دون الذوات ، فكان مقتضى الظاهر أن يقال : إن أراد ضرّي أو أراد رحمتي فحق فعل الإِرادة إذا قصد تعديته إلى شيئين أن يكون المرادُ هو المفعول ، وأن يكون ما معه معدىً إليه بحرف الجرّ ، نحو أردتُ خيراً لزيد ، أو أردت به خيراً ، فإذا عدل عن ذلك قصد به الاهتمام بالمراد به لإِيصال المراد إليه حتى كأن ذاته هي المراد لمن يريد إيصال شيء إليه ، وهذا من تعليق الأحكام بالذوات .

والمرادُ أحوال الذوات مثل ﴿ حُرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] ، أي أكلها .

ونظم التركيب : إن أرادني وأنا متلبس بضرّ منه أو برحمة منه ، قال عمرو بن شاس :

أَرَادَتْ عِرارا بالهَوانِ ومَنْ يُرِدْ
عِرارا لَعَمْرِي بالهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمْ . . .

وإنَما فَرض إرادة الضر وإرادة الرحمة في نفسه دون أن يقول : إن أرادكم ، لأن الكلام موجَّه إلى ما خوفوه من ضُر أصنامهم إياه .

وقرأ الجمهور كاشفات ضُرِّه ﴾ و ﴿ ممسكات رحمته ﴾ بإضافة الوصفين إلى الاسمين .

وقرأ أبو عمرو ويعقوب بتنوين الوصفين ونَصب ﴿ ضُرَّه ﴾ و ﴿ رحمتَه ﴾ وهو اختلاف في لفظِ تعلُّق الوصف بمعموله والمعنى واحد .

ولمّا ألقمهم الله بهذه الحجة الحجَرَ وقطَعهم فلا يُحيروا ببنْت شَفَة أَمَر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : ﴿ حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ ، وإنما أعيد الأمر بالقول ولم يَنتظِمْ ﴿ حسبي الله ﴾ في جملة الأمر الأول ، لأن هذا المأمور بأن يقوله ليس المقصود توجيهه إلى المشركين فإن فيما سبقه مَقنَعاً من قلة الاكتراث بأصنامهم ، وإنما المقصود أن يكون هذا القول شِعَارَ النبي صلى الله عليه وسلم في جميع شؤونه ، وفيه حَظ للمؤمنين معه حاصل من قوله : ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي حسبك اللَّه ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ [الأنفال : 64] ، فإعادة فعل قل ﴾ للتنبيه على استقلال هذا الغرض عن الغرض الذي قبله .

والحسْب : الكافي .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وقالوا حسبنا اللَّه ونعم الوكيل ﴾ في [آل عمران : 73] .

وحُذف المتعلِّق في هذه الجملة لعموم المتعلِّقَات ، أي حسبيَ الله من كل شيء وفي كل حال .

والمراد بقوله اعتقادُه ، ثم تذكُّرُه ، ثم الإِعلانُ به ، لتعليم المسلمين وإغاظة المشركين .

والتوكل : تفويضُ أمور المفوِّض إلى من يَكفيه إياه ، وتقدم في قوله : ﴿ فإذا عزمت فتوكل

على اللَّه إن اللَّه يحب المتوكلين ﴾ في سورة [آل عمران : 159] .

وجملة عليه يتوكل المتوكلون ﴾ يجوز أن تكون مما أُمر بأن يقوله تذكراً من النبي صلى الله عليه وسلم وتعليماً للمسلمين فتكون الجملة تذييلاً للتي قبلها لأنها أعمّ منها باعتبار القائلين لأن ﴿ حسبي الله ﴾ يؤول إلى معنى : توكلت على الله ، أي حَسبي أنا وحسب كل متوكل ، أي كل مؤمن يعرف الله حق معرفته ويعتمد على كفايته دون غيره ، فتعريف ﴿ المتوكلون ﴾ للعموم العرفي ، أي المتوكلون الحقيقيون إذ لا عبرة بغيرهم .

(77/668)

ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى خاطبَ به رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يأمره بأن يقوله فتكون الجملة تعليلاً للأمر بقَول : ﴿ حسبي الله ﴾ ، أي اجعَلْ الله حسبك ، لأن أهل التوكل يتوكلون عَلَى الله دون غيره وهم الرسل والصالحون وإذ قد كنتَ من رفيقهم فكن مثلَهم في ذلك على نحو قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين هدى اللَّه فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام : 90] .

وتقديم المجرور على يتوكَّلُ ﴾ لإفادة الاختصاص لأن أهل التوكل الحقيقيين لا يتوكلون إلا على الله تعالى ، وذلك تعريض بالمشركين إذ اعتمدوا في أمورهم على أصنامهم .

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39)

لما أبلغهم الله من الموعظة أقصى مَبلغ ، ونصب لهم من الحجج أسطع حجة ، وثبّت رسوله صلى الله عليه وسلم أرسخ تثبيت ، لا جرم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يوادعهم موادعة مستقرِب النصر ، ويواعدهم ما أُعد لهم من خسر .

وعدم عطف جملة ﴿ قُل ﴾ هذه على جملة ﴿ قل حسبي الله ﴾ [الزمر : 38] لدفع توهم أن يكون أمره ﴿ قُلْ حسبي الله ﴾ لقصد إبلاغه إلى المشركين نظير ترك العطف في البيت المشهور في علم المعاني :

وتظن سلمَى أنني أبغي بها

بَدَلاً أَراها في الضلال تَهيم . . .

لم يعطف جملة : أراها في الضلال ، لئلا يتوهم أنها معطوفة على جملة : أبغي بها بدلاً ، ولأنها انتقال من غرض الدعوة والمحاجّة إلى غرض التهديد .

وابتدأ المقول بالنداء بوصف القوم لما يشعر به من الترقيق لحالهم والأسف على ضلالهم لأن كونهم قومه يقتضي أن لا يدخرهم نصحاً .

والمكانة : المكان ، وتأنيثه روعي فيه معنى البقعة ، استعير للحالة المحيطة بصاحبها إحاطة المكان بالكائن فيه .

والمعنى : اعملوا على طريقتكم وحالكم من عداوتي ، وتقدم نظيره في سورة الأنعام (

.135

(وقرأ الجمهور ﴿ مكانتكم ﴾ بصيغة المفرد .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ مكاناتكم ﴾ بصيغة الجمع بألف وتاء .

(78/668)

وقال تعالى هنا : ﴿ مَن يأتيه عذابٌ يخزيه ﴾ ليكون التهديد بعذاب خزي في الدنيا وعذاب مقيم في الآخرة .

فأما قوله في سورة [الأنعام : 135] : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ﴾ فلم يذكر فيها العذاب لأنها جاءت بعد تهديدهم بقوله : ﴿ إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ﴾ [الأنعام : 134] .

وحذف متعلِّق إني عامل ﴾ ليَعمّ كل متعلِّق يصلح أن يتعلق بـ ﴿ عامل ﴾ مع الاختصار فإن مقابلته بقوله : ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ يدل على أنه أراد من ﴿ إني عامل ﴾ أنه ثابت على عمله في نصحهم ودعوتهم إلى ما ينجيهم .

وأن حذف ذلك مشعر بأنه لا يقتصر على مقدار مكانته وحالته بل حالة تزداد كل حين قوةً وشدة لا يعتريها تقصير ولا يثبطها إعراضهم ، وهذا من مستتبعات الحذف ولم ننبه عليه

في سورة الأنعام وفي سورة هود .

و﴿ مَن ﴾ استفهامية عَلَّقت فعل ﴿ تَعْلَمُون ﴾ عن العمل في مفعوليه .

والعذاب المُخزي هو عذاب الدنيا .

والمراد به هنا عذاب السيف يوم بدر .

والعذاب المقيم هو عذاب الآخرة ، وإقامته خلوده .

وتنوين ﴿ عَذَابٌ ﴾ في الموضعين للتعظيم المراد به التهويل .

وأسند فعل ﴿ يأتِيهِ ﴾ إلى العذاب المخْزي لأن الإتيان مشعر بأنه يفاجئهم كما يأتي الطارق .

وكذلك إسناد فعل ﴿ يَحل ﴾ إلى العذاب المقيمِ لأن الحلول مشعر بالملازمة والإقامة معهم ، وهو عذاب الخلود ، ولذلك يسمى منزل القول حِلة ، ويقال للقوم القاطنين غير المسافرين هم حِلال ، فكان الفعل مناسباً لوصفه بالمقيم .

وتعدية فعل ﴿ يحل ﴾ بحرف (على) للدلالة على تمكنه .

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)

الجملة تعليل للأمر بأن يقول لهم اعملوا على مكانتكم المفيد موادعتَهم وتهوينَ تصميم كفرهم عليه ، وتثبيتَه على دعوته .

والمعنَى : لأنا نزلنا عليك الكتاب بالحق لفائدة الناس وكفاك ذِلك شرفاً وهدايةً وكفاك تبليغه إليهم فمن اهتدى من الناس فهدايته لنفسه بواسطتك ومن ضل فلم يهتد به فضلاَله على نفسه وما عليك من ضلالهم تَبعة لأنك بلغتَ ما أمرتَ به .

ولذلك خولف بين ما هنا وبين قوله في صدر السورة ﴿ إنَّا أنزلنا إليك الكتاب للناس بالحق ﴾ [القصص : 2] ، لأن تلك في غرض التنويه بشأن النبي صلى الله عليه وسلم فناسب أن يكون إنزال الكتاب إليه ، و ﴿ للنَّاس ﴾ متعلق بـ ﴿ أنزلنا ، ﴾ و ﴿ بالحَقِّ ﴾ حال من ﴿ الكِتَاب ﴾ ، والباء للملابسة ، واللام في ﴿ للنَّاس ﴾ للعلة ، أي لأجل الناس .

وفي الكلام مضاف مفهوم مما تؤذن به اللام من معنى الفائدة والنفع أي لنفع الناس ، أو مما يؤذن به التفريع في قوله : ﴿ فَمَن اهتدى ﴾ الخ .

وفاء ﴿ فَمَنِ اهتدى فَلِنَفْسِه ﴾ للتفريع وهو تفريع ناشىء من معنى اللام .

و(مَنْ) شرطية ، أي من حصل منه الاهتداء في المستقبل فإن اهتداءه لفائدة نفسه لا غير ، أي ليست لك من اهتدائه فائدة لذاتك لأن فائدة الرسول صلى الله عليه وسلم (وهي شرفه وأجره) ثابتة عن التبليغ سواء اهتدى من اهتدى وضل من ضل .

وتقدم نظير هذه الآية في قوله : ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾ آخر سورة يونس (108) ، وفي قوله : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾ في آخر سورة النمل (91 ، 92) ، ولكن جيء في تينك الآيتين بصيغة قصر الاهتداء على نفس المهتدي وتُرك ذلك في هذه السورة ، ووجْهُ ذلك أن تينك الآيتين واردتان بالأمر بمخاطبة المشركين فكان المقام فيهما مناسباً لإفادة أن فائدة اهتدائهم لا تعود إلا لأنفسهم ، أي ليست لي منفعة من اهتدائهم ، خلافاً لهذه الآية فإنها خطاب موجه من الله إلى رسوله ليس فيها حالُ من ينزل منزلة المُدل باهتدائه .

(80/668)

أما قوله : ومَن ضَلَّ فإنما يضل عليها ﴾ فصيغة القصر فيه لتنزيل الرسول صلى الله عليه وسلم في أسفه على ضلالهم المفضي بهم إلى العذاب منزلةَ من يعود عليه من ضلالهم ضُر ، فخوطب بصيغة القصر ، وهو قصر قلب على خلاف مقتضى الظاهر .

ولذلك اتّحدت الآيات الثلاث في الاشتمال على القصر بالنسبة لجانب ضلالهم فإن قوله في سورة النمل (92) ﴿ فقل إنما أنا من المنذرين في معنى : فإنما يضل عليها ﴾ ، أي

ليس ضلالكم عليَّ فإنما أنا من المنذرين .

وهذه نكت من دقائق إعجاز القرآن .

وقوله : ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ القول فيه كالقول في ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ في سورة يونس (108) .

وجملة و وما أنت عليهم بوكيل ﴾ عطف على جملة ﴿ فَمَنِ اهتَدَى فِلِنَفْسه ﴾ أي لَسْتَ مأموراً بإرغامهم على الاهتداء ، فصيغ هذا الخبر في جملة اسمية للدلالة على ثبات حكم هذا النفي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(81/668)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ .

استفهام والمراد منه التقرير ؛ فاللَّهُ كافٍ عَبْدَه اليومَ في عرفانه بتصحيح إيمانه ومَنْع الشِّرْكِ عنه ، وغداً في غفرانه بتأخير العذاب عنه ، وما بينهما فكفايتهُ تامة وسلاَمته عامة .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

قَرَّرَ عليهم عُلُوَّ صفاته ، وما هو عليه من استحقاق جلاله فأقرُّوا بذلك ، ثم طالَبَهم بِذكْرِ صفاتِ الأصنام التي عبدوها من دونه ، فلم يمكنهم في وصفها إلا بالجمادية ، والبُعَدِ عن الحياة والعِلْم والقدرةِ والتمكُّنِ من الخَلْقِ ، فيقول : كيف أشركتم به هذه الأشياء ؟ وهلاَّ استحيَيْتُم من إطلاق أمثال ذلك في صفته ؟

قُلْ –يا محمد – حَسْبِيَ الله ، عليه يتوكل المتوكلون ؛ كافِيَّ اللَّهُ المتفرِّدُ بالجلالِ ، القادرُ على ما يشاء ، المتَفَضِّلُ عليَّ بما يشاء .

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (40)

سوف ينكشف رِبْحُنا وخسرانكم ، وسوف تظهر زيادتنا ونقصانكم ، وسوف نطالبكم فلا جوابَ لكم ، ونُعَذِّبُكم فلا شفيعَ لكم ، ونُدَمِّرُ عليكم فلا صريخَ لكم .

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)

مَنْ أحسن فإحسانهُ إلى نَفْسه اكتَسبَه ومَنْ أساء فبلاؤه على نفسه جَلَبَه – والحقُّ غنيٌّ عن التجمُّلِ بطاعةِ مَنْ أقبل والتنقُّصِ بزَلَّةِ مَنْ أعرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 282. 283 ﴾

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الوكيل في الشيء لا تصلح وكالته فيه إلا إن كان قادراً عليه بطريق من الطرق ، وكان حفظهم على الهدى وعن الضلال لا يكون عليه إلا لحاضر لا يغيب ولا يعتريه نوم ولا يطرقه موت ، لم تصح وكالة أحد من الخلق فيه ، وكان كأنه قيل : لأنه لو وكل إليك أمرهم لضاعوا عند نومك وموتك ، فدل عليه بما أدى معناه وزاد عليه من الفوائد ما يعرف بالتأمل من تشبيه الهداية بالحياة واليقظة والضلال بالموت والنوم ، فكما أنه لا يقدر على الإماتة والإنامة إلا الله فكذلك لا يقدر على الهداية والإضلال إلا الله ، فمن عرف هذه الدقيقة عرف سر الله في القدرة ، ومن عرف السر فيه هانت عليه المصائب ، فهي تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لفت القول إلى التعبير بالاسم الأعظم لاقتضاء الحال له ، وأسند التوفي

إليه سبحانه لأنه في بيان أنه لا يصلح للوكالة غيره أصلاً ، فقال : ﴿ الله ﴾ أي الذي له مجامع الكمال ، وليس لشائبة نقص إليه سبيل ﴿ يتوفى الأنفس ﴾ التي ماتت عند انقضاء آجالها ، أي يفعل في وفاتها فعل من يجتهد في ذلك بأن يقبضها وافية لا يدع شيئاً منها في شيء من الجسد ، وعبر عن جمع الكثرة بجمع القلة إشارة إلى أنها وإن تجاوزت الحصر فهي كنفس واحدة ، ولعله لم يوحده لئلا يظن أن الوحدة على حقيقتها ﴿ حين موتها ﴾ أي منعها من التصرف في أجسادها في هذه الحياة الدنيا كائنة في مماتها محبوسة فيه مظروفة له ، وعطف على الأنفس قوله : ﴿ والتي ﴾ أي ويتوفى الأنفس التي ﴿ لم تمت ﴾ لأنها لم تنقض آجالها حين نومها كائنة ﴿ في منامها ﴾ بمنعها من التصرف بالحس والإدراك ما دام النوم موجوداً مظروفة له لا شيء منها في الجسد على حال اليقظة ، فالجامع بينهما عدم الإدراك والشعور والتصرف ، ولو قيل : بموتها وبمنامها ، لم يفد أن كلاًّ من الموت والوفاة آية مغايرة للأخرى .

(83/668)

ولما كان النوم منقضياً ، دلنا بقرانه بالموت على أن الموت أيضاً منقض ، ولا بد لأن الفاعل لكل منهما واحد ، فسبب عن ذلك قوله : ﴿ فيمسك ﴾ أي فيتسبب عن الوفاتين أنه

يمسك عنده ﴿ التي قضى ﴾ أي ختم وحكم وبت بتاً مقدراً مفروغاً منه ، وقراءة البناء للمفعول موضحة لهذا المعنى بزيادة اليسر والسهولة ﴿ عليها الموت ﴾ مظروفة لمماتها ، لا تقدر على تصريف جسدها ما دام الموت محيطاً بها كما أن النائمة كذلك ما دام النوم محيطاً بها ﴿ ويرسل الأخرى ﴾ أي التي أخر موتها ، وجعلها مظروفة للمنام لأنها لم ينقض أجلها الذي ضربه لها بأن يفنى بالمنام فيوقظها لتصريف أبدانها ، ويجعل ذلك الإمساك للميتة ، والإرسال للنائمة ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ لبعث الميتة ولموت النائمة ، لا يعلمه غيره ، فإذا جاء ذلك الأجل أمات النائمة وبعث الميتة ، وقد ظهر من التقدير الذي هدى إليه قطعاً السياق أن النفس التي تنام هي التي تموت وهي الروح ، قال ابن الصلاح في فتاويه : وهو الأشبه بظاهر الكتاب والسنّة – انتهى .

روى الطبراني في الأوسط – قال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح – عن ابن عباس رضي الله الله عنهما قال : تلتقي أرواح الأحياء والأموات ، فيتساءلون بينهم ، فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها .

وروى البخاري عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقل " باسمك ربي وضعت جنبي اللهم إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " " وظهر أيضاً أن الآية من

الاحتباك : ذكر الحين أولاً دليلاً على تقدير مثله في النوم ثانياً ، والمنام ثانياً دليلاً على حذف الممات أولاً .

(84/668)

ولما تم هذا على الأسلوب الرفيع ، والنظم المنيع ، نبه على عظمته وما فيه من الأسرار بقوله مؤكداً قرعاً بمن يرميه بالأساطير وغيرها من الأباطيل : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من الوفاة والنوم على هذه الكيفية والعبارة عنه على هذا الوجه ﴿ لآيات ﴾ أي على أنه لا يقدر على الإحياء والحفظ غيره ، وأنه قادر على البعث وغيره من كل ما يريده ﴿ لقوم ﴾ أي ذوي قوة في مزاولة الأمور .

ولما كان هذا الأمر لا يحتاج إلى غير تجريد النفس من الشواغل والتدبر قال :

﴿ يتفكرون ﴾ أي في عظمة هذا التدبير ليعلم به عظمة الله ، وذلك أن النفس جوهر روحاني له في التعلق بالبدن ثلاث حالات : إحداهما أن يقع ضوء النفس على البدن ظاهراً وباطناً ، وذلك هو الحياة مع اليقظة ، وثانيتها انقطاع ضوء النفس عن البدن ظاهراً لا باطناً ، وذلك بالنوم ، وثالثها انقطاع ذلك ظاهراً وباطناً وهو بالموت ، فالموت والنوم من جنس واحد إلا أن الموت انقطاع تام ، والنوم انقطاع ناقص ، فلا يقدر على إيجاد شيء

واحد على نوعين ، ثم يجعلهما في شيء واحد على التعاقب ويفصل كلاًّ منهما من الآخر إلا هو سبحانه ، وكلما قدر على إنهاء الموتة الصغرى بحد جعله لها فهو قادر على إنهاء الكبرى بمثل ذلك .

(85/668)

ولما أنتج هذا ولا بد نحو أن يقال توعداً لهم : هل علموا أنه لا يقوم شيء مقامه ، ولا يكون شيء إلا بإذنه ، ولا يقرب أحد من القدرة على شيء من فعله ، فكيف بالقرب من رتبته فضلاً عن مماثلته ، فرجعوا عن ضلالهم ، عادله بقوله : ﴿ أم اتخذوا ﴾ أي كلفوا أنفسهم بعد وضوح الدلائل عندها أن أخذوا ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي لا مكافئ له مداني ﴿ شفعاء ﴾ أي تقربهم إليه زلفى في الدنيا وفي الآخرة على تقدير كونها مع قيام الأدلة الشهودية عندهم على أنه لا يشفع أحد إلا عند من يصح أن يكافئه بوجه من الوجوه ، ولذلك نبه على المعنى بقوله معرضاً عنهم إشارة إلى سفولهم عن الفهم : ﴿ قل أولو ﴾ أي أيتخذونهم لذلك ولو ﴿ كانوا لا يملكون شيئاً ﴾ أي لا تتجدد لهم هذه الصفة ﴿ ولا يعقلون ﴾ كما يشاهد من حال أصنامكم .

ولما نفى صلاحية أصنامهم لهذا الأمر ، أشار إلى نفيه عما سواه بقصر الأمر عليه فقال :

﴿ قل لله ﴾ أي المحتوي على صفات الكمال وحده ﴿ الشفاعة ﴾ أي هذا الجنس ﴿ جميعاً ﴾ فلا يملك أحد سواه منها شيئاً لكنه يأذن إن شاء فيما يريد منها لمن لمن يشاء من عباده .

ولما كان كل ما سواه ملكاً له ، وكان من المقرر أن المملوك لا يصح أن يملك شيئاً يملكه سيده ، لأن الملكين لا يتواردان على شيء واحد من جهة واحدة ، علل ذلك بقوله : ﴿ له ﴾ أي وحده ﴿ ملك السماوات والأرض ﴾ أي التي لا تشاهدون من ملكه سواهما والشفاعة من ملكهما .

ولما كان المملوك ملكاً ضعيفاً قد يتغلب على مالكه فيناظره فيتأهل للشفاعة عنده ، نفى ذلك في حقه سبحانه بقوله دالاًّ على عظمة القهر بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم إليه ﴾ أي لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ معنى في الدنيا بأن ينفذ فيكم جميع أمره وحساً ظاهراً ومعنى في الآخرة .

(86/668)

ولما دل على أن شفعاءهم ليست بأهل للشفاعة ، وعلى أن الأمر كله مقصور عليه ، وختم بأنه لا بد من الرجوع إليه المقتضي لأن تصرف الهمم كلها نحوه ، وتوجه العزائم

جميعها تلقاءه ، ولأنه لا يخشى سواه ولا يرجى غيره ، ذكر حالاً من أحوالهم فقال :

﴿ وإذا ﴾ أي الحال ما ذكرناه وإذا ﴿ ذكر ﴾ وأعاد الاسم الأعظم ولم يضمره تعظيماً لأمره زيادة في تقبيح حالهم فقال : ﴿ الله ﴾ أي الذي لا عظيم غيره ولا أمر لسواه

﴿ وحده ﴾ أي دون شفعائهم التي قد وضح أنه لا شفاعة لهم : ﴿ اشمأزّت ﴾ أي نفرت كراهية وذعراً واستكباراً مع تمعر الوجه وتقبضه قلوبهم – هكذا كان الأصل ، ولكنه قال : ﴿ قلوب الذين لا يؤمنون ﴾ أي لا يجددون إيماناً ﴿ بالآخرة ﴾ بياناً لأن الحامل لهم على ذلك إضاعة اعتقاد ما ختم به الآية من الرجوع إليه الذي أتمه وأظهره رجوع الآخرة ﴿ وإذا ذكر الذين ﴾ وبكت بهم في رضاهم بالأدنى فقال : ﴿ من دونه ﴾ أي الأوثان ، وأكد فرط جهلهم في اتباعهم الباطل وجمودهم عليه دون تلبث لنظر في دليل ، أو سماع لقال أو قيل ، بقوله : ﴿ إذا هم ﴾ أي بضمائرهم المفيضة على ظواهرهم ﴿ يستبشرون ﴾ أي فاجؤوا طلب البشر وإيقاعه وتجديده على سبيل الثبات في ذلك كله سواء ذكر معهم الله أو لا ، فالاستبشار حينئذ إنما هو بالانداد ، والاشمئزاز والاستبشار متقابلان لأن الاشمئزاز : امتلاء القلب غماً وغيظاً فيظهر أثره ، وهو الانقباض في أديم الوجه ، والاستبشار : امتلاء القلب سروراً حتى يظهر أثره ، وهو الانبساط والتهلل في الوجه – قال الزمخشري ، والعمل في " إذا " الأولى هو العامل في الفجائية ، أي فاجؤوا الاستبشار وقت هذا الذكر ، وعبر بالفعل أولاً وبالاسمية ثانياً ، ليفيد ذمهم على مطلق الاشمئزاز ولو

كان على أدنى الأحوال ، وعلى ثبات الاستبشار تقبيحاً لمطلق الكفر ، ثم الثبات عليه فتحاً لباب التوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 453.456 ﴾

(87/668)

فصل

قال الفخر :

ثم بين تعالى أن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى ، وذلك لأن الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم ، وكما أن الحياة واليقظة وكذلك الموت والنوم لا يحصلان إلا بتخليق الله عز وجل وإيجاده فكذلك الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى ، ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى في القدر ، ومن عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب ، فيصير التنبيه على هذه الدقيقة سبباً لزوال ذلك الحزن عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا وجه النظم في الآية ، وقيل نظم الآية أنه تعالى ذكر حجة أخرى في إثبات أنه الإله العالم ليدل على أنه بالعبادة أحق من هذه الأصنام .

المسألة الثانية :

(88/668)

المقصود من الآية أنه تعالى يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم إلا أنه يمسك الأنفس التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى وهي النائمة إلى أجل مسمى أي إلى وقت ضربه لموتها فقوله تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ يعني أنه تعالى يتوفى الأنفس التي يتوفاها عند الموت يمسكها ولا يردها إلى البدن وقوله : ﴿ وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني أن النفس التي يتوفاها عند النوم يردها إلى البدن عند اليقظة وتبقى هذه الحالة إلى أجل مسمى ، وذلك الأجل هو وقت الموت فهذا تفسير لفظ الآية وهي مطابقة للحقيقة ، ولكن لا بد فيه من مزيد بيان ، فنقول النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحاني إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه في جميع الأعضاء وهو الحياة ، فنقول إنه في وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه وذلك هو الموت ، وأما في وقت النوم فإنه ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوؤه عن باطن البدن ، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد إلا أن الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه ، وإذا ثبت هذا ظهر أن القادر العالم الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه أحدها : أن يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه وذلك اليقظة وثانيها : أن يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه وذلك هو النوم وثالثها : أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية وهو الموت فثبت أن الموت والنوم يشتركان في كون

كل واحد منهما توفياً للنفس ، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة في صفات معينة ، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم ، وهو المراد من قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ويحتمل أن يكون المراد بهذا أن الدليل يدل على أن الواجب على العاقل أن يعبد إلهاً موصوفاً بهذه القدرة وبهذه الحكمة وأن لا يعبد الأوثان التي هي جمادات

(89/668)

لا شعور لها ولا إدراك ، واعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالاً ، فقالوا نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين ، فنحن نعبدها لأجل أن يصير أولئك الأكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى بأن قال : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها والأول : باطل لأن هذه الجمادات وهي الأصنام لا تملك شيئاً ولا تعقل شيئاً فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها والثاني : باطل لأن في يوم القيامة لا يملك أحد شيئاً ولا يقدر أحد على

الشفاعة إلا بإذن الله ، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله الذي يأذن في تلك الشفاعة ، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ قُل لِلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً ﴾ ثم بين أنه لا ملك لأحد غير الله بقوله : ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ومنهم من تمسك في نفي الشفاعة مطلقاً بقوله تعالى : ﴿ قُل لِلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً ﴾ وهذا ضعيف لأنا نسلم أنه سبحانه ما لم يأذن في الشفاعة لم يقدر أحد على الشفاعة ، فإن قيل قوله : ﴿ الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ فيه سؤال لأن هذا يدل على أن المتوفى هو الله فقط ، وتأكد هذا بقوله :

(90/668)

﴿ الذى خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [الملك : 2] وبقوله : ﴿ رَبِّيَ الذى يُحْيِ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة : 258] وبقوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ﴾ [البقرة : 28] ثم إن الله تعالى قال في آية أخرى : ﴿ قُلْ يتوفاكم مَّلَكُ الموت ﴾ [السجدة : 11] وقال في آية ثالثة : ﴿ حتى إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام : 61] وجوابه أن المتوفي في الحقيقة هو الله ، إلا أنه تعالى فوض في عالم الأسباب كل نوع من أنواع الأعمال إلى ملك من الملائكة ، ففوض قبض الأرواح إلى ملك الموت وهو رئيس وتحته أتباع وخدم

فأضيف التوفي في هذه الآية إلى الله تعالى بالإضافة الحقيقية ، وفي الآية الثانية إلى ملك الموت لأنه هو الرئيس في هذا العمل وإلى سائر الملائكة لأنهم هم الأتباع لملك الموت ، والله أعلم .

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)

(91/668)

اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين ، وهو أنك إذا ذكرت الله وحده تقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم ، وذلك يدل على الجهل والحماقة ، لأن ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات ، وأما ذكر الأصنام التي هي الجمادات الخسيسة ، فهو رأس الجهالات والحماقات ، فنفرتهم عن ذكر الله وحده واستبشارهم بذكر هذه الأصنام من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ والحمق الشديد ، قال صاحب "الكشاف" وقد يقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه لأن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى يظهر أثر ذلك السرور في بشرة وجهه ويتهلل ،

والاشمئزاز أن يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح إلى داخل القلب فيبقى في أديم الوجه أثر الغبرة والظلمة الأرضية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 247 .

249 ﴾

(92/668)

وقال القرطبى :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي يقبضها عند فناء آجالها ﴿ والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ اختلف فيه .

فقيل : يقبضها عن التصرف مع بقاء أرواحها في أجسادها ﴿ فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ الأخرى ﴾ وهي النائمة فيطلقها بالتصرف إلى أجل موتها ؛ قاله ابن عيسى .

وقال الفراء : المعنى ويقبض التي لم تمت في منامها عند انقضاء أجلها .

قال : وقد يكون توفيها نومها ؛ فيكون التقدير على هذا والتي لم تمت وفاتها نومها .

وقال ابن عباس وغيره من المفسرين : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله منها ، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات عنده ، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها .

وقال سعيد بن جبير : إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى ﴾ أي يعيدها .

قال علي رضي الله عنه : فما رأته نفس النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة ، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها تلقيها الشياطين ، وتخيل إليها الأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة .

وقال ابن زيد : النوم وفاة والموت وفاة .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كما تنامون فكذلك تموتون وكما توقظون فكذلك تبعثون " وقال عمر : النوم أخو الموت .

وروي مرفوعاً من حديث جابر بن عبد الله " قيل : يا رسول الله أينام أهل الجنة ؟ قال : "لا ، النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها " " خرجه الدارقطني .

(93/668)

وقال ابن عباس : في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التي بها العقل والتمييز ، والروح التي بها النفس والتحريك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه .

وهذا قول ابن الأنباري والزجاج .

قال القشيري أبو نصر : وفي هذا بُعْد إذ المفهوم من الآية أنّ النفس المقبوضة في الحالين شيء واحد ؛ ولهذا قال : ﴿ فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فإذاً يقبض الله الروح في حالين في حالة النوم وحالة الموت ، فما قبضه في حال النوم فمعناه أنه يغمره بما يحبسه عن التصرف فكأنه شيء مقبوض ، وما قبضه في حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وَيُرْسِلُ الأخرى ﴾ أي يزيل الحابس عنه فيعود كما كان .

فتوفي الأنفس في حال النوم بإزالة الحس وخلق الغفلة والآفة في محل الإدراك .

وتوفيها في حالة الموت بخلق الموت وإزالة الحس بالكلية .

﴿ فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت ﴾ بألا يخلق فيها الإدراك كيف وقد خلق فيها الموت ؟ ﴿ وَيُرْسِلُ الأخرى ﴾ بأن يعيد إليها الإحساس .

الثانية : وقد اختلف الناس من هذه الآية في النفس والروح ؛ هل هما شيء واحد أو

شيئان على ما ذكرنا .

والأظهر أنهما شيء واحد ، وهو الذي تدل عليه الآثار الصحاح على ما نذكره في هذا الباب .

من ذلك حديث أمّ سلمة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سلمة وقد شَقّ بصرُه فأغمضه ، ثم قال : " إن الروح إذا قُبِض تَبِعه البصرُ " وحديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألم تروا الإنسان إذا مات شَخَص بَصرُه" قال : فذلك حين يَتْبَعَ بَصرُه نَفْسَه" " خرجهما مسلم .

(94/668)

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيّب اخرجي حميدة وأبشري بروَح وريحان وربٍّ راضٍ غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء " وذكر الحديث وإسناده صحيح خرجه ابن ماجه ؛ وقد ذكرناه في "التذكرة" .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : " إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها " وذكر الحديث .

وقال بلال في حديث الوادي : أخذ بنَفْسي يا رسول الله الذي أخذ بنفسك .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مقابلاً له في حديث زيد بن أسلم في حديث الوادي : " يا أيها الناس إن الله قبض أرواحنا ولو شاء ردّها إلينا في حين غير هذا " .

الثالثة : والصحيح فيه أنه جسم لطيف مشابك للأجسام المحسوسة ، يُجذَب ويُخْرج وفي أكفانه يُلَف ويُدرَج ، وبه إلى السماء يُعرَج ، لا يموت ولا يفنى ، وهو مما له أوّل وليس له آخر ، وهو بعينين ويدين ، وأنه ذو ريح طيبة وخبيثة ؛ كما في حديث أبي هريرة .

وهذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض ؛ وقد ذكرنا الأخبار بهذا كله في كتاب "التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة" .

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ [الواقعة : 83] يعني النفس إلى خروجها من الجسد ؛ وهذه صفة الجسم .

والله أعلم .

(95/668)

الرابعة : خرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلة إزاره فلينفض بها فراشه وليسمّ الله فإنه

لا يعلم ما خَلفه بعد على فراشه فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقّه الأيمن وليقل سبحانك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نَفْسي فاغفر لها " وقال البخاري وابن ماجه والترمذي : " فارحمها " بدل "فاغفر لها" " وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " زاد الترمذي " وإذا استيقظ فليقل الحمد لله الذي عافاني في جسدي وردّ عليّ روحي وأذن لي بذكره "

وخرج البخاري عن حُذَيْفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه ؛ ثم يقول : " اللهم باسمك أموت وأحيا " وإذا استيقظ قال : " الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور " .

قوله تعالى : ﴿ فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت ﴾ هذه قراءة العامة على أنه مسمى الفاعل ﴿ الْمَوْتَ ﴾ نصباً ؛ أي قضى الله عليها وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد ؛ لقوله في أول الآية : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس ﴾ فهو يقضي عليها .

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة والكسائي ﴿ قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ ﴾ على ما لم يسم فاعله .

النحاس ، والمعنى واحد غير أن القراءة الأولى أبين وأشبه بنسق الكلام ؛ لأنهم قد أجمعوا على ﴿ وَيُرْسِلُ ﴾ ولم يقرؤوا ﴿ ويُرسَل ﴾ .

وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته وانفراده بالألوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ، ويحيي ويميت ،

لا يقدر على ذلك سواه .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ يعني في قبض الله نَفْس الميّت والنائم ، وإرساله نَفْس النائم وحبسه نفس الميّت ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

(96/668)

وقال الأصمعي سمعت معتمراً يقول : روح الإنسان مثل كُبَّة الغَزْل ، فترسل الروح ، فتمضي ثم تمضي ثم تطوى فتجيء فتدخل ؛ فمعنى الآية أنه يرسل من الروح شيء في حال النوم ومعظمها في البدن متصل بما يخرج منها اتصالاً خفياً ، فإذا استيقظ المرء جذب معظم روحه ما انبسط منها فعاد .

وقيل غير هذا ؛ وفي التنزيل : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : 85] أي لا يعلم حقيقته إلا الله .

وقد تقدّم في "سبحان" .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِ الله شُفَعَآءَ ﴾ أي بل اتخذوا يعني الأصنام وفي الكلام ما يتضمن لم ؛ أي ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لم يتفكروا ولكنهم اتخذوا آلهتهم شفعاء .

﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً ﴾ أي قل لهم يا محمد أتتخذونهم شفعاء وإن كانوا لا يملكون شيئاً من الشفاعة ﴿ وَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ لأنها جمادات .

وهذا استفهام إنكار ﴿ قُل لِّلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً ﴾ نص في أن الشفاعة لله وحده كما قال : ﴿ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] فلا شافع إلا من شفاعته ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] .

﴿ جَمِيعاً ﴾ نصب على الحال .

فإن قيل : ﴿ جَميعاً ﴾ إنما يكون للاثنين فصاعداً والشفاعة واحدة .

فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدّي عن الاثنين والجميع ﴿ لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه ، وعلى الحال عند يونس .

﴿ اشمأزت ﴾ قال المبرد : انقبضت .

وهو قول ابن عباس ومجاهد .

وقال قتادة : نفرت واستكبرت وكفرت وتعصت .

وقال المؤرّج أنكرت .

وأصل الاشمئزاز النفور والازورار .

قال عمرو بن كُلْثوم :

إذا عَضَّ الثِّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَّتْ . . .

وَوَلَّتْهُمْ عَشَوْزَنَةً زَبُونَا

(97/668)

وقال أبو زيد : اشمأَز الرجل ذعر من الفزع وهو المذعور .

وكان المشركون إذا قيل لهم "لا إله إلا الله" نفروا وكفروا ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأوثان حين ألقى الشيطان في أمنية النبي صلى الله عليه وسلم عند قراءته سورة "والنجم" تلك الغَرَانِيقُ الْعُلَى وإن شفاعتهم تُرْتَجَى .

قاله جماعة المفسرين .

﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي يظهر في وجوههم البشر والسرور .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِ الله شُفَعَآءَ ﴾ أي بل اتخذوا يعني الأصنام وفي الكلام ما يتضمن لم ؛ أي ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لم يتفكروا ولكنهم اتخذوا آلهتهم شفعاء .

﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً ﴾ أي قل لهم يا محمد أتتخذونهم شفعاء وإن كانوا لا

يملكون شيئاً من الشفاعة ﴿ وَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ لأنها جمادات .

وهذا استفهام إنكار ﴿ قُل لِّلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً ﴾ نص في أن الشفاعة لله وحده كما قال : ﴿ مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] فلا شافع إلا من شفاعته ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] .

﴿ جَمِيعاً ﴾ نصب على الحال .

فإن قيل : ﴿ جَميعاً ﴾ إنما يكون للاثنين فصاعداً والشفاعة واحدة .

فالجواب أن الشفاعة مصدر والمصدر يؤدّي عن الاثنين والجميع ﴿ لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ ﴾ نصب على المصدر عند الخليل وسيبويه ، وعلى الحال عند يونس .

﴿ اشمأزت ﴾ قال المبرد : انقبضت .

وهو قول ابن عباس ومجاهد .

وقال قتادة : نفرت واستكبرت وكفرت وتعصت .

وقال المؤرّج أنكرت .

وأصل الاشمئزاز النفور والازورار .

قال عمرو بن كُلْثوم :

إذا عَضَّ الثِّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَّتْ . . .

وَوَلَّتْهُمْ عَشَوْزَنَةً زَبُونَا

وقال أبو زيد : اشمأَز الرجل ذعر من الفزع وهو المذعور .

(98/668)

وكان المشركون إذا قيل لهم "لا إله إلا الله" نفروا وكفروا ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأوثان حين ألقى الشيطان في أمنية النبي صلى الله عليه وسلم عند قراءته سورة "والنجم" تلك الغَرَانِيقُ الْعُلَى وإن شفاعتهم تُرْتَجَى .

قاله جماعة المفسرين .

﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي يظهر في وجوههم البشر والسرور . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(99/668)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ ﴾

فإنَّه إلى آخرِه مسوقٌ لبيانِ حال كلَ من طرفَيْ الاختصامِ الجاري في شأنِ الكفرِ والإيمانِ لا غيرُ . أي أظلمُ من كلِّ ظالمٍ مَنِ افترى على الله سبحانه وتعالى بأنْ أضافَ إليه الشَّريكَ والولد ﴿ وَكَذَّبَ بالصدق ﴾ أي بالأمرِ الذي هو عينُ الحقِّ ونفسُ الصِّدقِ وهو ما جاء به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم . ﴿ إِذْ جَاءَهُ ﴾ أي في أوَّلِ مجيئِهِ من غير تدبُّرٍ فيه ولا تأمُّلٍ ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين ﴾ أي لهؤلاءِ الذين افترَوا على الله سبحانه وسارعُوا إلى التَّكذيبِ بالصِّدقِ من أوَّلِ الأمرِ . والجمعُ باعتبار معنى مَن كما أنَّ الإفراد في الضَّمائرِ السَّابقةِ باعتبار لفظها . أو لجنسِ الكَفَرةِ وهم داخلون في الحُكمِ أوَّليًّا .

33

﴿ والذى جَاء بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ الموصولُ عبارةٌ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ومَن تبعه كما أنَّ المرادَ في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ هو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقومه ، وقيل عن الجنس المُتناول للرُّسلِ والمؤمنين بهم .

ويؤيِّدُه قراءةُ ابن مسعودٍ رضي الله عنه : "والذين جَاءُوا بالصِّدقِ وصدَّقُوا به" وقيل : هو صفة لموصوفٍ محذوف هو الفَوجُ والفَريقُ ﴿ أولئك ﴾ الموصُوفون لما ذُكر من المجيء بالصِّدقِ والتصديق به ﴿ هُمُ المتقون ﴾ المنعوتُون بالتَّقوى التي هي أجلُّ الرَّغائبِ .

وقُرِىء وصدَق به بالتَّخفيفِ ، أي صدَقَ بِهِ النّاسَ فأدّاه إليهم كما نزلَ من غيرِ تغيير ، وقيل : وصارَ صادقاً به أي بسببِهِ ، لأنَّ ما جاء به من القرآنُ معجزةٌ دالَّةٌ على صدقه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ . وقُرِىء صُدِّق به على البناء للمفعول .

34

(100/668)

﴿ لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ بيانٌ لما لهمُ في الآخرةِ من حسنِ المآبِ بعد بيانِ ما لُهم في الدنيا من محاسنِ الأعمالِ ، أي لهم كلُّ ما يشاؤونه من جلبِ المنافعِ ودفعِ المضارِّ في الآخرةِ لا في الجنَّةِ فقط ، لِما أنَّ بعضَ ما يشاؤونه من تكفيرِ السَّيئاتِ والأمن من الفزَعِ الأكبرِ وسائرِ أهوالِ القيامةِ إنَّما يقع قبل دخولِ الجنَّةِ ﴿ ذلك ﴾ الذي ذُكر من حصول كلِّ ما يشاؤونه ﴿ جَزَاء المحسنين ﴾ أي الذينَ أحسنُوا أعمالَهم وقد مرَّ تفسيرُ الإحسان غيرَ مرَّةٍ .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذى عَمِلُواْ ﴾ الخ متعلِّقٌ بقوله تعالى لهم ما يشاؤون لكن لا باعتبارِ منطوقِه ضرورةَ أنَّ التَّفكيرَ المذكور لا يُتصوَّرُ كونُه غايةً لثُبوتِ ما يشاؤون لهم في الآخرةِ ، كيف لا وهو بعضُ ما سيثبُتُ لهم فيها بل باعتبارِ فحواه فإنَّه حيثُ لم يكن إخباراً بما ثبت لهم فيما مَضَى بل بما سيثبت لهم فيا سيأتِي كان في معنى

الوعدِ به كما مرَّ في قوله تعالى وَعْد الله فإنه مصدر مؤكَّدٌ لما قبله من قولِه تعالى : ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ فإنَّه في معنى وَعَدَهم الله غُرفاً فانتصبَ به وعد الله كأنَّه قيل : وَعَدَهم الله جميعَ ما يشاءونه من زوالِ المضارِّ وحصول المسارِّ ليكفِّرَ عنهم بموجب ذلك الوعدِ أسوأَ الذي عملوا دفعاً لمضارِّهم .

(101/668)

﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ إعطاء لمنافِعهم . وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقعِ الإضمارِ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بمضمون الكلامِ . وإضافةُ الأسوأِ والأحسنِ إلى ما بعدهما ليستْ من قبيل إضافةِ المفضَّلِ إلى المفضَّل عليه بل من إضافةِ الشَّيءِ إلى بعضِه للقصد إلى التَّحقيقِ والتَّوضيحِ من غير اعتبارِ تفضيلِه عليه ، وإنَّما المُعتبر فيهما مطلقُ الفضلِ والزِّيادةِ لا على المضاف إليه المعيّنِ بخصوصه كما في قوله : " النَّاقصُ والأَشَجُّ أَعْدَلاَ بني مَرْوانَ " خلا أنَّ الزِّيادة المعتبرةَ فيهما ليست بطريقِ الحقيقةِ بل هي في الأوَّلِ بالنَّظرِ إلى ما يليقُ بحالِهم من استعظامِ سيِّئاتِهم وإن قلَّتْ واستصغارِ حسناتِهم وإنْ جلَّتْ . والثَّاني بالنَّظرِ إلى لُطفِ أكرمِ الأكرمينَ من استكثارِ الحسنةِ اليسيرةِ ومقابلتها بالمثُوباتِ الكثيرةِ وحمل الزيادة على الحقيقةِ وإن أمكنَ في الأوَّلِ بناءً على أنَّ تخصيصَ

الأسوأِ بالذِّكرِ لبيانِ تكفيرِ ما دُونَه بطريقِ الأولويَّةِ ضرورةَ استلزامِ تكفيرِ الأسوأ لتكفيرِ السَّيِّءِ لكن لمَّا لم يكُن ذلك في الأحسنِ كان الأحسنُ نظمَهما في سلكٍ واحدٍ من الاعتبار . والجمعُ بين صيغتَيْ الماضِي والمستقبلِ في صلةِ الموصولِ الثَّاني دون الأوَّلِ للإيذانِ باستمرارهم على الأعمالِ الصَّالحةِ بخلاف السَّيِّئةِ .

(102/668)

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ إنكارٌ ونفيٌ لعدم كفايته تعالى على أبلغِ وجهٍ وآكدِه كأن الكفاية من التَّحقُّقِ والظُّهورِ بحيثُ لا يقدر أحدٌ على أنْ يتفوَّه بعدمِها أو يتلعثم في الجوابِ بوجودِها . والمرادُ بالعبدِ إمَّا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أو الجنسُ المنتظمُ له عليه السَّلامُ انتظاماً أوَّلياً . ويُؤيده قراءةُ مَن قرأَ عبادَهُ ، وفُسِّر بالأنبياء عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ . وكذا قراءةُ من قرأ بكافٍ عبادِه على صيغة المُغالبةِ إمَّا من الكِفايةِ لإفادة المبالغة فيها ، وإمَّا من المُكافأةِ بمعنى المُجازاة وهذه تسليةٌ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم عمَّا قالت له قُريشٌ إنَّا نخاف أنْ تخبلَك آلهتُنا ويصيبَك مضرَّتُها لعيبِك إيَّاها وفي روايةٍ قالُوا لتكُفَّنَّ عن شتمِ آلهتِنا أو ليصيبنَّكَ منهم خَبَلٌ أو جنونٌ كما قال قومُ هودٍ ﴿ إِنْ نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ وذلك قوله تعالى ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ أي الأوثانِ التي

اتَّخذوها آلهةً من دونه تعالى . والجملةُ استئنافٌ وقيل : حالٌ ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ حتَّى غفل عن كفايتِه تعالى وعصمتِه له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وخوَّفه بما لا ينفعُ ولا يضرُّ أصلاً ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يهديه إلى خيرٍ ما . ﴿ وَمَن يَهْدِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴾ يصرفُه عن مقصدِه أو يُصيبه بسوءٍ يخلُّ بسلوكِه إذ لا رادَّ لفعلِه ولا معارضَ لإرادتِه كما ينطقُ به قولُه تعالى ﴿ أَلَيْسَ الله بِعَزِيزٍ ﴾ غالبٍ لا يُغالبُ منيعٍ لا يُمانعُ ولا يُنازعُ . ﴿ ذِى انتقام ﴾ ينتقمُ من أعدائِه لأوليائِه . وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقعِ الإضمارِ لتحقيقِ مضمونِ الكلامِ وتربيةِ المهابةِ .

(103/668)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ لوضوحِ الدَّليلِ وسنوحِ السَّبيلِ ﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِىَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشفات ضُرِّهِ ﴾ أي بعد ما تحقَّقتُم أنَّ خالقَ العالمِ العلويَّ والسُّفليِّ هو الله عزَّ وجلَّ فأخبروني أن آلهتَكم إنْ أرادني الله بضرٍ هل يكشفنَ عنّي ذلك الضُّرَّ ﴿ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ ﴾ أي أو أرادني بنفعٍ ﴿ هَلْ هُنَّ ممسكات رَحْمَتِهِ ﴾ فيمنعنها عنّي . وقُرِىء كاشفاتٌ ضرَّه وممسكاتٌ رحمتَه بالتَّنوينِ فيهما ونصبِ ضُرِّه ورحمته . وتعليق إرادة الضُّرِّ والرَّحمةِ

بنفسه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ للردِّ في نحورِهم حيث كانُوا خوّفوه معرَّةَ الأوثانِ ولما فيه من الإيذانِ بإمحاضِ النَّصيحةِ . ﴿ قُلْ حَسْبِىَ اللهُ ﴾ أي في جميعِ أموري من إصابةِ الخير ودفعِ الشَّرِّ . رُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لمَّا سألهم سكتُوا فنزلَ ذلك ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتوكلون ﴾ لا على غيرِه أصلاً لعلمهم بأنَّ كلَّ ما سواه تحت ملكوتِه تعالى : ﴿ قُلْ يا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ على حالتِكم التي أنتمُ عليها من العداوة التي تمكَّنتُم فيها فإنَّ المكانة تُستعار من العَين للمعنى كما تُستعار هُنا وحَيثُ للزَّمانِ مع كونِهما للمكانِ . وقُرِىء على مكانَاتِكم ﴿ إِنِّى عامل ﴾ أي على مكانتِي فحذف اللاختصارِ والمبالغةِ في الوعيدِ والاشعارِ بأنَّ حالَه لا تزال تزداد قوَّةً بنصر الله عزَّ وجلَّ وتأييدِه ولذلك توعَّدهم بكونه منصُوراً عليهم في الدَّارين بقوله تعالى ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ فإنَّ خِزي أعدائِه دليلُ غلبتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقد عذَّبهم الله تعالى وأخزاهم يومَ بدرٍ . ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي دائمٌ هو عذابُ النَّارِ .

(104/668)

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتابَ لِلنَّاسِ ﴾ لأجلِهم فإنَّه مناطُ مصالحِهم في المعاشِ والمعادِ ﴿ بالحق ﴾ حال من فاعل أنزلنا أو من مفعولِه ﴿ فَمَنُ اهتدى ﴾ بأنْ عملَ بما فيه ﴿

فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي إنّما نفعَ به نَفسه ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ بأنْ لم يعمل بموجبه ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ لما أنَّ وبالَ ضلاله مقصورٌ عليها .

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ لتُجبرَهم على الهُدى ، وما وضيفتُك إلاَّ البلاغُ وقد بلَّغت أيَّ بلاغٍ ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الانفس حِينَ مِوْتِهَا والتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ أي يقبضِها من الأبدانِ بأنْ يقطع تعلُّقها عنها وتصرُّفها فيها إمَّا ظاهراً وباطناً كما عند الموتِ أو ظاهراً فقط كما عند النَّومِ ﴿ فَيُمْسِكُ التى قضى عَلَيْهَا الموت ﴾ ولا يردُّها إلى البدنِ . وقُرِىء قُضِيَ على البناءِ للمفعولِ ورفعِ الموتَ . ﴿ وَيُرْسِلُ الاخرى ﴾ أي النَّائمةَ إلى بدنها عند التَّيقظِ ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو الوقتُ المضربُ لموتِه وهو غاية لجنس الإرسال الواقعِ بعد الإمساكِ لا لفردٍ منه فإنَّ ذلك مَّما لا امتدادَ فيه ولا كميَّة .

(105/668)

وما رُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ في ابنِ آدمَ نَفساً ورُوحاً بينهما مثلُ مثل الشَّمسِ فالنفسُ هي التي بها العقلُ والتَّمييزُ والرُّوحُ هي التي بها التَّنفسُ والتَّحركُ فتتوفيان عند الموتِ وتُتوفى النَّفسُ وحدَها عند النَّوم قريبٌ مَّما ذُكر . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذُكر من التَّوفِّي على الوجهينِ والإمساكِ في أحدِهما والإرسالِ في الآخرِ ﴿ لآيَاتٍ ﴾

عجيبةً دالَّةً على كمال قُدرته تعالى وحكمته وشمول رحمتِه ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في كيفيَّةِ تعلُّقِها بالإبدان وتوفِّيها عنها تارة بالكُلِّيةِ كما عند الموت وإمساكها باقيةً لا تفنى بفنائِها وما يعتريها من السَّعادةِ والشَّقاوةِ وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النَّومِ وإرسالها حيناً بعد حينٍ إلى انقضاءِ آجالِها .

(106/668)

﴿ أَمِ اتخذوا ﴾ أي بل أَتَّخذ قُريشٌ ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ من دُون إذنِه تعالى ﴿ شُفَعَاء ﴾ تشفعُ لهم عنده تعالى ؟ ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ الهمزةُ لإنكار الواقع واستقباحِه والتَّوبيخِ عليه أي قل أَتَّتخذونهم شفعاءَ ولو كانُوا لا يملكون شيئاً من الأشياء ولا يعقلونَه فضلاً عن أنْ يملكوا الشَّفاعةَ عند الله تعالى أو هي لإنكارِ الوقوع ونفيه على أنَّ المرادَ بيانُ أنَّ ما فعلوا ليس من اتَّخاذِ الشُّفعاءِ في شيء لأنَّه فرعُ كونِ الأوثان شفعاءَ وذلك أظهرُ المحالاتِ فالمقدَّر حينئذٍ غيرُ ما قُدِّر أوَّلاً وعلى أي تقديرٍ كان فالواو للعطفِ على شرطيةٍ قد حُذفتْ للدلالة المذكورةِ عليها أي أيشفعون لو كانُوا يملكون شيئاً ولو كانُوا لا يملكون الخ وجوابُ لو محذوفٌ لدلالةِ المذكور عليه وقد مرَّ تحقيقُه مراراً . ﴿ قُلْ ﴾ بعد تبكيتِهم وتجهيلِهم بما ذُكر تحقيقاً للحقِّ ﴿ لِلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً ﴾ أي هو

مالُكها لا يستطيعُ أحدٌ شفاعةً ما إلاَّ أن يكونَ المشفوعُ له مرتضَى ، والشَّفيعُ مأذوناً له وكلاهما مفقودٌ ههنا . وقولُه تعالى ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ تقريرٌ له وتأكيدٌ أي له ملكُهما وما فيهما من المخلوقاتِ لا يملك أحدٌ أنْ يتكلَّم في أمرٍ من أمورِه بدونِ إذنِه ورضاه ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يومَ القيامةِ لا إلى أحدٍ سواهُ لا استقلالاً ولا اشتراكاً فيفعل يؤمئذٍ ما يريدُ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ ﴾ دون آلهتِهم ﴿ اشمأزت قُلُوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالأخرة ﴾ أي انقبضتْ ونَفَرتْ كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى ءاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ﴾ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ فُرادى أو مع ذكرِ الله تعالى ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ لفرطِ افتتانهم بها ونسيانِهم حقَّ الله تعالى ، ولقد بُولغ

(107/668)

في بيان حالَيهم القبيحتينِ حيثُ بيّن الغايةُ فيهما فإنَّ الاستبشارَ هو أنْ يمتلىءَ القلبَ سُروراً حتَّى ينبسطَ له بَشَرةُ الوجهِ ، والاشمئزازُ أنْ يمتلىءَ غيظاً وغمَّا ينقبضُ منه أديمُ الوجهِ . والعاملُ في إذا الأولى اشمأزَّت ، وفي الثَّانيةِ ما هو العاملُ في إذا المفاجأةِ تقديرُه وقتَ ذكرِ الذين من دُونه فاجأوا وقتَ الاستبشارِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس ﴾

أي يقبضها عن الإبدان بأن يقطع تعلقها تعلق التصرف فيها عنها ﴿ حِينَ مِوْتِهَا ﴾ أي في وقت موتها ﴿ والتى لَمْ تَمُتْ ﴾ أي ويتوفى الأنفس التي لم تمت ﴿ فِى مَنَامِهَا ﴾ متعلق بيتوفى أي يتوفاها في وقت نومها على أن مناما اسم زمان ، وجوز فيه كونه مصدراً ميمياً بأن يقطع سبحانه تعلقها بالأبدان تعلق التصرف فيها عنها أيضاً فتوفى الأنفس حين الموت وتوفيها في وقت النوم بمعنى قبضها عن الأبدان وقطع تعلقها بها تعلق التصرف إلا أن توفيها حين الموت قطع لتعلقها بها تعلق التصرف ظاهراً وباطناً وتوفيها في وقت النوم قطع لذلك ظاهراً فقط ، وكأن التوفي الذي يكون عند الموت لكونه شيئاً واحداً في أول زمان الموت وبعد مضي أيام منه قيل : ﴿ حِينَ مِوْتِهَا ﴾ والتوفي الذي يكون في وقت النوم لكونه يتفاوت في أول وقت النوم وبعد مضي زمان منه قوة وضعفاً قيل : ﴿ فِى مَنَامِهَا ﴾ أي في وقت نومها كذا قيل فتدبره ولمسلك الذهن السليم اتساع ، وإسناد الموت والنوم إلى الأنفس قيل : مجاز عقلي لأنهما حالا ابدانها لا حالاها ، وزعم الطبرسي أن الكلام على حذف مضاف

أعني الأبدان ، وجعل الزمخشري الأنفس عبارة عن الجملة دون ما يقابل الأبدان ، وحمل توفيها على إماتتها وسلب صحة أجزائها بالكلية فلا تبقى حية حساسة داركة حتى كأن ذاتها قد سلبت ، وحيث لم يتحقق هذا المعنى في التوفي حين النوم لأن ليس إلا سلب كمال الصحة وما يترتب عليه من الحركات الاختيارية وغيرها قال في قوله تعالى : ﴿ والتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ أي يتوفاها حين تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ [الأنعام : 60] حيث لا تميزون ولا تتصرفون كما أن الموتى كذلك ، وما يتخايل فيه من الجمع بين الحقيقة والمجاز يدفع بالتأمل ؛ وتقديم الاسم الجليل وبناء ﴿ يَتَوَفَّى ﴾ عليه للحصر أو للتقوى أو لهما ، واعتبار الحصر أوفق بالمقام من اعتبار التقوى

(109/668)

وحده أي الله يتوفى الأنفس حقيقة لا غيره عز وجل ﴿ فَيُمْسِكُ التى ﴾ أي الأنفس التي ﴿ قَضَى ﴾ في الأزل ﴿ عَلَيْهَا الموت ﴾ ولا يردها إلى أبدانها بل يبقيها على ما كانت عليه وينضم إلى ذلك قطع تعلق التصرف باطناً ، وعبر عن ذلك بالإمساك ليناسب التوفي . وقرأ حمزة .

والكسائي .

وعيسى .

وطلحة .

والأعمش .

وابن وثاب ﴿ قَضَى ﴾ على البناء للمفعول ورفع ﴿ الموت ﴾ .

(110/668)

﴿ وَيُرْسِلُ الاخرى ﴾ أي الأنفس الأخرى وهي النائمة إلى أبدانها فتكون كما كانت حال اليقظة متعلقة بها تعلق التصرف ظاهراً وباطناً ، وعبر بالإرسال رعاية للتقابل ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو الوقت المضروب للموت حقيقة وهو غاية لجنس الارسال الواقع بعد الإمساك لا لفرد منه فإني آتي لا امتداد له فلا يغيا ، واعتبر بعضهم كون الغاية للجنس لئلا يرد لزوم أن لا يقع نوم بعد اليقظة الأولى أصلاً وهو حسن ، وقيل : ﴿ يُرْسِلُ ﴾ مضمن معنى الحفظ والمراد يرسل الأخرى حافظاً إياها عن الموت الحقيقي إلى أجل مسمى ، وروي عن ابن عباس أن في ابن آدم نفساً وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس هي التي بها العقل والتمييز والروح هي التي بها النفس والتحرك فيتوفيان عند الموت وتتوفى النفس

وحدها عند النوم ، وهو قول بالفرق بين النفس والروح ، ونسبه بعضهم إلى الأكثرين ويعبر عن النفس بالنفس الناطقة وبالورح الامرية وبالروح الالهية ، وعن الروح بالروح الحيوانية وكذا بالنفس الحيوانية ، والثانية كالعرش للأولى ، قال بعض الحكماء المتألهين : إن القلب الصنوبري فيه بخار لطيف هو عرش للروح الحيوانية وحافظ لها وآلة يتوقف عليها آثارها ، والروح الحيوانية عرش ومرآة للروح الإلهية التي هي النفس الناطقة وواسطة بينها وبين البدن بها يصل حكم تدبير النفس إليه ، وإلى عدم التغاير ذهب جماعة ، وهو قول ابن جبير واحد قولين لابن عباس ، وما روي عنه أولاً في الآية يوافق ما ذكرناه من حيث أن النفس عليه ليست بمعنى الجملة كما قال الزمخشري وادعى أن الصحيح ما ذكره دون هذا المروى بدليل موتها ومنامها ، والضمير للأنفس وما أريد منها غير متصف بالموت والنوم وإنما الجملة هي التي تتصف بهما .

وقال في الكشف .

(111/668)

ولأن الفرق بين النفسين رأى يدفعه البرهان ، وإيقاع الاستيفاء أيضاً لا بد له من تأويل أيضاً فلا ينبغي أن يعدل عن المشهور الملائم يعني حمل التوفي على الإماتة فإن أصله أخذ الشيء

من المستوفي منه وافياً كملا وسلبه منه بالكلية ثم نقل عن ذلك إلا الإماتة لما أنه موجود فيها حتى صارت المتبادرة إلى الفهم منه .

، وفيه دغدغة ، والذي يشهد له كثير من الآثار الصحيحة أن المتوفى الأنفس التي تقابل الإبدان دون الجملة .

أخرج الشيخان في صحيحهما عن أبي هريرة قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم ليقل اللهم باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين من عبادك ، وأخرج أحمد .

والبخاري .

وأبو داود .

والنسائي .

وابن أبي شيبة عن أبي قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم ليلة الوادي : " إن الله تعالى قبض أرواحكم حين شاء وردها عليكم حين شاء " وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : "كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فقال : من يكلؤنا الليلة ؟ فقلت : أنا فنام ونام الناس ونمت فلم نستيقظ إلا بحر الشمس فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : أيها الناس إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد فيقبضها الله إذا شاء ويرسلها إذا

شاء".

وأخرج ابن أبي حاتم.

(112/668)

وابن مردويه عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال: العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على بال فتكون رؤياه كأخذ باليد ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئاً فقال علي كرم الله تعالى وجهه: أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين؟ يقول الله تعالى: ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا والتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التى قضى عَلَيْهَا الموت ويُرْسِلُ الاخرى إلى أَجَلٍ ﴾ [الزمر: 24] فالله تعالى يتوفى الأنفس كلها فما رأت وهي عنده سبحانه في السماء فهي الرؤيا الصادقة وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها فهي الكاذبة لأنها إذا أرسلت إلى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها وأخبرتها بالأباطيل فكذبت فيها فعجب عمر من قوله رضي الله تعالى عنهما؛ وظاهر هذا الأثر أن النفس النائمة المقبوضة تكون في السماء حتى ترسل، ومثل ذلك مما يجب تأويله على القول بتجرد النفس ولا يجب على القول الآخر.

(113/668)

نعم لعلك تختاره وكأنك تقول : إن النفس شريفة علوية هبطت من المحل الأرفع وأرسلت من حمى ممنع وشغلت بتدبير منزلها في نهارها وليلها ولم تزل تنتظر فرصة العود إلى ذياك الحمى والمحل الرفيع الأسمى وعند النوم تنتهز تلك الفرصة وتهون عليها في الجملة هاتيك الغصة فيحصل لها نوع توجه إلى عالم النور ومعلم السرور الخالي من الشرور بحيث تستعد استعداداً ما لقبول بعض آثاره والاستضاءة بشيء من أنواره وجعلها كذلك هو قبضها وبه لعمري بسطها وقبضها ، فمتى رأت وهي في تلك الحال مستفيضة من ذلك العالم الموصوف بالكمال رؤيا كانت صادقة ، ومتى رأت وهي راجعة القهقرى إلى ما ابتليت به من تدبير منزل تحوم فيه شياطين الأوهام وتزدحم فيه أي ازدحام كانت رؤياها كاذبة ثم إنها في كلا الحالين متفاوتة الأفراد فيما يكون من الاستعداد ، والوقوف على حقيقة الحال لا يتم إلا بالكشف دون القيل والقال ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الإشارة إلى ما ذكر من التوفي والإمساك والإرسال ، والإفراد لتأويله بالمذكور أو نحوه ، وصيغة البعيد باعتبار مبدئه أو تقضي ذكره أو بعد منزلته ، والتنوين في ﴿ ءايات ﴾ للتكثير والتعظيم أي أن فيما ذكر الآيات كثيرة عظيمة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته سبحانه لقوم يتفكرون في كيفية تعلق الأنفس بالأبدان وتوفيها عنها تارة بالكلية عند الموت

وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها إلى أن يعيد الله تعالى الخلق وما يعتريها من السعادة والشقاوة وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم وإرسالها حيناً بعد حين إلى انقضاء آجالها .

(114/668)

﴿ أَمِ اتخذوا ﴾ أي بل اتخذ قريش فأم منقطعة والاستفهام المقدر لإنكار اتخاذهم ﴿ مِن دُونِ الله شُفَعَاء ﴾ تشفع لهم عند الله تعالى في رفع العذاب ، وقيل : في أمورهم الدنيوية والأخروية ، وجوز كونها متصلة بتقدير معادل كما ذكره ابن الشيخ في حواشي البيضاوي وهو تكلف لا حاجة إليه ، ومعنى ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ من دون رضاه أو إذنه لأنه سبحانه لا يشفع عنده إلا من أذن له ممن أرضاه ومثل هذه الجمادات الخسيسة ليست مرضية ولا مأذونة ولو لم يلاحظ هذا اقتضى أن الله تعالى شفيع ولا يطلق ذلك عليه سبحانه أو التقدير أو اتخذوا آلهة سواه تعالى لتشفع لهم وهو يؤل لما ذكر ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ أي أيشفعون حال تقدير عدم ملكهم شيئاً من الأشياء وعدم وعقلهم إياه ، وحاصله أيشفعون وهم جمادات لا تقدر ولا تعلم فالهمزة داخلة على محذوف والواو للحال والجملة حال من فاعل الفعل المحذوف .

وذهب بعضهم إلى أنها للعطف على شرطية قد حذفت لدلالة ﴿ لَّوْ كَانُواْ لاَّ يَمْلِكُونَ ﴾

الخ عليها أي أيشفعون لو كانوا يملكون شيئاً ويعقلون ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ، والمعنى على الحالية أيضً كأنه قيل : أيشفعون على كل حال ، وقال بعض المحققين من النحاة : إنها اعتراضية ويعني بالجملة الاعتراضية ما يتوسط بين أجزاء الكلام متعلقاً به معنى مستأنفاً لفظاً على طريق الالتفات كقوله

: فأنت طلاق والطلاق ألية . . .

وقوله :

ترى كل من فيها وحاشاك فانيا . . .

وقد تجيء بعد تمام الكلام كقوله صلى الله عليه وسلم : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " وفي احتياج أداة الشرط في مثل هذا التركيب إلى الجواب خلاف وعلى القول بالاحتياج هو محذوف لدلالة ما قبل عليه وتحقيق الأقوال في كتب العربية .

(115/668)

وجوز أن يكون مدخول الهمزة المحذوف هنا الاتخاذ أي قل لهم أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لا يملكون شيئاً من الأشياء فضلاً عن أن يملكوا الشفاعة عند الله تعالى ولا يعقلون .

﴿ قُل لِلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً ﴾ لعله كما قال الإمام رد لما يجيبون به وهو ان الشفعاء ليست

الأصنام أنفسها بل أشخاص مقربون هي تماثيلهم ، والمعنى أنه تعالى مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة ما إلا أن يكون المشفوع مرتضى والشفيع مأذوناً له وكلاهما مفقودان ههنا ، وقد يستدل بهذه الآية على وجود الشفاعة في الجملة يوم القيامة لأن الملك أو الاختصاص الذي هو مفاد اللام هنا يقتضي الوجود فالاستدلال بها على نفي الشفاعة مطلقاً في غاية الضعف .

وقوله تعالى : ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ استئناف تعليلي لكون الشفاعة جميعاً له عز وجل كأنه قيل : له ذلك لأنه جل وعلا مالك الملك كله فلا يتصرف أحد بشيء منه بدون إذنه ورضاه فالسماوات والأرض كناية عن كل ما سواه سبحانه ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مُلْكُ ﴾ الخ وكأنه تنصيص على مالكية الآخرة التي فيها معظم نفع الشفاعة وإيماء إلى انقطاع الملك الصوري عما سواه عز وجل .

وجوز أن يكون عطفاً على قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الشفاعة ﴾ وجعله في "البحر" تهديداً لهم كأنه قيل : ثم إليه ترجعون فتعلمون أنهم لا يشفعون لكم ويخيب سعيكم في عبادتهم ، وتقديم ﴿ إِلَيْهِ ﴾ للفاصلة وللدلالة على الحصر إذ المعنى إليه تعالى لا إلى أحد غيره سبحانه لا استقلالاً ولا اشتراكاً ترجعون .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ ﴾ أي مفرداً بالذكر ولم تذكر معه آلهتهم ، وقيل : أي إذا قيل لا إله إلا الله ﴿ اشمأزت قُلُوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ أي انقبضت ونفرت كما في قوله تعالى : ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾ [الإسراء : 46] ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ فرادى أو مع ذكر الله عز وجل ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ لفرط افتتانهم بهم ونسيانهم حق الله تعالى ، وقد بولغ في بيان حالهم القبيحة حيث بين الغاية فيهما فإن الاستبشار أن يمتلىء القلب سروراً حتى ينبسط له بشرة الوجه ، والاشمئزاز أن يمتلىء غيظاً وغماً ينقبض عنه أديم الوجه كما يشاهد في وجه العابس المحزون ، و﴿ إِذَا ﴾ الأولى : شرطية محلها النصب على الظرفية وعاملها الجواب عند الأكثرين وهو ﴿ اشمأزت ﴾ أو الفعل الذي يليها وهو ﴿ ذُكِرَ ﴾ عند أبي حيان وجماعة ، وليست مضافة إلى الجملة التي تليها عندهم ، وكذا ﴿ إِذَا ﴾ الثانية : فالعامل فيها إما ﴿ ذُكِرَ ﴾ بعدها وإما ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ و﴿ إِذَا ﴾ الثالثة : فجائية رابطة لجملة الجزاء بجملة الشرط كالفاء ، فعلى القول بحرفيتها لا يعمل فيها شيء وعلى القول باسميتها وأنها ظرف زمان أو مكان عاملها هنا خبر المبتدأ بعدها ، وقال الزمخشري : عاملها فعل مقدر مشتق من لفظ المفاجأة تقديره فاجاؤا وقت الاستبشار فهي مفعول به ، وجوز أن تكون فاعلاً على معنى فاجأهم وقت الاستبشار ، وهذا الفعل المقدر هو

جواب إذا الثانية فتتعلق به بناءً على قول الأكثرين من أن العامل في إذا جوابها ، ولا يلزم تعلق ظرفين بعامل واحد لأن الثاني منهما ليس منصوباً على الظرفية .

(117/668)

نعم قيل على الزمخشري : إنه لا سلف له فيما ذهب إليه ، وأنت تعلم أن الرجل في العربية لا يقلد غيره ، ومن العجيب قول الحوفي إن ﴿ إِذَا ﴾ الثالثة ظرفية جيء بها تكراراً لإذا قبلها وتوكيداً وقد حذف شرطها والتقدير إذا كان ذلك هم يستبشرون ، ولا ينبغي أن يلتفت إليه أصلاً ، والآية في شأن المشركين مطلقاً .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه فسر ﴿ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ بأبي جهل بن هشام .

والوليد بن عقبة .

وصفوان .

وأبي بن خلف ، وفسر ﴿ الذين مِن دُونِهِ ﴾ باللات والعزى وكأن ذلك تنصيص على بعض أفراد العام .

وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن مجاهد أن الآية حكت ما كان من المشركين يوم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ والنجم ﴾ [النجم : 1] عند باب الكعبة : وهذا أيضاً لا ينافي العموم كما لا يخفى ، وقد رأينا كثيراً من الناس على نحو هذه الصفة التي وصف الله تعالى بها المشركين يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم توافق هواهم واعتقادهم فيهم ويعظمون من يحكي لهم ذلك وينقبضون من ذكر الله تعالى وحده ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه عز وجل وسرد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة وينسبونه إلى ما يكره ، وقد قلت يوماً لرجل يستغيث في شدة ببعض الأموات وينادي يا فلان أغثني فقلت له : قل يا ألله فقد قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : 186] فغضب وبلغني أنه قال : فلان منكر على الأولياء ، وسمعت عن بعضهم أنه قال : الولي أسرع إجابة من الله عز وجل وهذا من الكفر بمكان نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(118/668)

وقال الشوكاني :

قوله : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ عبده ﴾ بالإفراد .

وقرأ حمزة ، والكسائي : (عباده) بالجمع ، فعلى القراءة الأولى المراد : النبي صلى الله عليه وسلم ، أو الجنس ، ويدخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم دخولاً أوّلياً ، وعلى القراءة الأخرى المراد : الأنبياء أو المؤمنون أو الجميع ، واختار أبو عبيد قراءة الجمهور ، لقوله عقبه : ﴿ ويخوّفونك ﴾ ، والاستفهام للإنكار لعدم كفايته سبحانه على أبلغ وجه كأنها بمكان من الظهور لا يتيسر لأحد أن ينكره .

وقيل : المراد بالعبد ، والعباد : ما يعمّ المسلم ، والكافر .

قال الجرجاني : إن الله كاف عبده المؤمن ، وعبده الكافر هذا بالثواب ، وهذا بالعقاب .

وقرىء : (بكافي عباده) بالإضافة ، وقرىء : (يكافي) بصيغة المضارع ، وقوله : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ يجوز أن يكون في محل نصب على الحال ، إذ المعنى : أليس كافيك حال تخويفهم إياك ؟ ويجوز أن تكون مستأنفة ، والذين من دونه عبارة عن المعبودات التي يعبدونها ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي : من حقّ عليه القضاء بضلاله ، فما له من هاد يهديه إلى الرّشد ، ويخرجه من الضلالة .

﴿ وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴾ يخرجه من الهداية ، ويوقعه في الضلالة ﴿ أَلَيْسَ اللهُ

بِعَزِيزٍ ﴾ أي : غالب لكل شيء قاهر له ﴿ ذِى انتقام ﴾ ينتقم من عصاته بما يصبه عليهم من عذابه ، وما ينزله بهم من سوط عقابه .

(119/668)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ ذكر سبحانه اعترافهم إذا سئلوا عن الخالق بأن الله سبحانه مع عبادتهم للأوثان ، واتخاذهم الآلهة من دون الله ، وفي هذا أعظم دليل على أنهم كانوا في غفلة شديدة ، وجهالة عظيمة ؛ لأنهم إذا علموا أن الخالق لهم ، ولما يعبدون من دون الله هو : الله سبحانه ، فكيف استحسنت عقولهم عبادة غير خالق الكل ، وتشريك مخلوق مع خالقه في العبادة ؟ وقد كانوا يذكرون بحسن العقول ، وكمال الإدراك ، والفطنة التامة ، ولكنهم لما قلدوا أسلافهم ، وأحسنوا الظنّ بهم هجروا ما يقتضيه العقل ، وعملوا بما هو محض الجهل .

ثم أمر الله سبحانه رسوله أن يبكتهم بعد هذا الاعتراف ، ويوبخهم ، فقال : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِىَ الله بِضُرّ هَلْ هُنَّ كاشفات ضُرّه ﴾ أي : أخبروني عن آلهتكم هذه هل تقدر على كشف ما أراده الله بي من الضرّ ، والضرّ هو : الشدّة ، أو أعلى ﴿ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ ممسكات رَحْمَتِهِ ﴾ عنّي بحيث لا تصل إليّ ، والرحمة

النعمة ، والرّخاء .

قرأ الجمهور ممسكات ، وكاشفات في الموضعين بالإضافة ، وقرأهما أبو عمرو ، بالتنوين .

قال مقاتل : لما نزلت هذه الآية سألهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فسكتوا ، وقال غيره : قالوا : لا تدفع شيئاً من قدر الله ، ولكنها تشفع ، فنزل : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ ﴾ في جميع أموري في جلب النفع ، ودفع الضرّ ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتوكلون ﴾ أي : عليه ، لا على غيره يعتمد المعتمدون ، واختار أبو عبيد ، وأبو حاتم قراءة أبي عمرو ، لأن كاشفات اسم فاعل في معنى : الاستقبال ، وما كان كذلك ، فتنوينه أجود ، وبها قرأ الحسن ، وعاصم .

(120/668)

ثم أمره سبحانه أن يهدّدهم ، ويتوعدهم ، فقال : ﴿ قُلْ يا قَوْمِ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي : على حالتكم التي أنتم عليها ، وتمكنتم منها ﴿ إِنِّي عامل ﴾ أي : على حالتي التي أنا عليها ، وتمكنت منها ، وحذف ذلك للعلم به مما قبله ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي : يهينه ، ويذله في الدنيا ، فيظهر عند ذلك أنه المبطل ، وخصمه المحقّ ، والمراد بهذا العذاب عذاب : الدنيا ، وما حلّ بهم من القتل ، والأسر ، والقهر ، والذلة . ثم ذكر عذاب الآخرة ، فقال : ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي : دائم مستمرّ في الدار

الآخرة، وهو: عذاب النار.

ثم لما كان يعظم على رسول الله صلى الله عليه وسلم إصرارهم على الكفر أخبره بأنه لم يكلف إلا بالبيان، لا بأن يهدي من ضلّ، فقال: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: لأجلهم، ولبيان ما كلفوا به، و ﴿ بالحق ﴾ حال من الفاعل، أو المفعول، أي: محقين، أو ملتبساً بالحقّ ﴿ فَمَنُ اهتدى ﴾ طريق الحق، وسلكها ﴿ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ ﴾ عنها ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أي: على نفسه، فضرر ذلك عليه لا يتعدّى إلى غيره ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي: بمكلف بهدايتهم مخاطب بها، بل ليس عليك إلا البلاغ، وقد فعلت.

وهذه الآيات هي منسوخة بآية السيف، فقد أمر الله رسوله بعد هذا أن يقاتلهم حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويعملوا بأحكام الإسلام.

ثم ذكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته البالغة، وصنعته العجيبة، فقال: ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي: يقبضها عند حضور أجلها، ويخرجها من الأبدان ﴿ والتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت، أي: لم يحضر أجلها في منامها.

وقد اختلف في هذا.

فقيل: يقبضها عن التصرّف مع بقاء الروح في الجسد.

وقال الفراء : المعنى : ويقبض التي لم تمت عند انقضاء أجلها قال : وقد يكون توفيها نومها ، فيكون التقدير على هذا : والتي لم تمت ، وفاتها نومها .

قال الزجاج : لكل إنسان نفسان : أحدهما : نفس التمييز ، وهي التي تفارقه إذا نام ، فلا يعقل ، والأخرى : نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس ، والنائم يتنفس .

قال القشيري : في هذا بعد إذ المفهوم من الآية أن النفس المقبوضة في الحالين شيء واحد ، ولهذا قال : ﴿ فَيُمْسِكُ التى قضى عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ الأخرى ﴾ أي : النائمة ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، وهو الوقت المضروب لموته ، وقد قال بمثل قول الزجاج : ابن الأنباري .

وقال سعيد بن جبير : إن الله يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا ، فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿ فَيُمْسِكُ التى قضى عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ الأخرى ﴾ ، فيعيدها ، والأولى أن يقال : إن توفي الأنفس حال النوم بإزالة الإحساس ، وحصول الآفة به في محل الحسّ ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ولا يردّها إلى الجسد الذي كانت فيه ، ويرسل الأخرى بأن يعيد عليها إحساسها .

قيل : ومعنى ﴿ يَتَوَفَّى الأنفس عِندَ مَوْتِهَا ﴾ : هو على حذف مضاف ، أي : عند موت أجسادها .

وقد اختلف العقلاء في النفس ، والروح هل هما شيء واحد ، أو شيئان ؟ والكلام في ذلك يطول جدًّا ، وهو معروف في الكتب الموضوعة لهذا الشأن .

(122/668)

قرأ الجمهور : ﴿ قضى ﴾ مبنياً للفاعل ، أي : قضى الله عليها الموت ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، والأعمش ، ويحيى بن وثاب على البناء للمفعول ، واختار أبو عبيد ، وأبو حاتم القراءة الأولى لموافقتها لقوله : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس ﴾ ، والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ إلى ما تقدّم من التوفي ، والإمساك ، والإرسال للنفوس ﴿ لآيَاتٍ ﴾ أي : لآيات عجيبة بديعة دالة على القدرة الباهرة ، ولكن ليس كون ذلك آيات يفهمه كل أحد بل ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في ذلك ، ويتدبرونه ، ويستدلون به على توحيد الله ، وكمال قدرته .

فإن في هذا التوفي ، والإمساك ، والإرسال موعظة للمتعظين ، وتذكرة للمتذكرين .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ الآية قال : نفس ، وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فيتوفى الله النفس في منامه ، ويدع الروح في جوفه تتقلب ، وتعيش ، فإن بدا له أن يقبضه قبض الروح ، فمات .

وإن أخر أجله ردّ النفس إلى مكانها من جوفه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني في الأوسط ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة عنه في الآية قال : تلتقي أرواح الأحياء ، وأرواح الأموات في المنام ، فيتساءلون بينهم ما شاء الله ، ثم يمسك الله أرواح الأموات ، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لا يغلط بشيء منها ، فذلك قوله : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً في الآية قال : كل نفس لها سبب تجري فيه ، فإذا قضى عليها الموت نامت حتى ينقطع السبب ، والتي لم تمت في منامها تترك .

(123/668)

وأخرج البخاري ، ومسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أوى أحدكم إلى فراشه ، فلينفضه بداخلة إزاره ، فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقل باسمك ربي وضعت جنبي ، وباسمك أرفعه ، إن أمسكت نفسي ، فارحمها ، وإن أرسلتها ، فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(124/668)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة ، قد جاء فيها ذكر القرآن الكريم ، الذي أنزله اللّه تعالى على نبيه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ هدى ورحمة للناس ، وروحا وحياة للنفوس . .

وفى هذه الآية بيان لمصير النفس الإنسانية ، وأنها صائرة إلى اللّه ، بما تحمل من هدى أو ضلال ، وبما معها من نور القرآن ، أو ظلام الشرك . .

فقوله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها » أي يردها إليه ، ويوفّيها حسابها ، حين يجىء أجلها ، وتستوفى حياتها المقدورة لها فى الدنيا . .

(125/668)

وقوله تعالى : « وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها » أي ويتوفى الأنفس فى منامها . .

فالجار والمجرور فى منامها متعلق بقوله تعالى : « يَتَوَفَّى » . . وعلى هذا يكون معنى الآية : « اللّه يتوفى الأنفس ويردها إليه حين يقبضها بالموت ، أو بالنوم . .

وقوله تعالى : « فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » هو بيان للأنفس التي يردها الله سبحانه وتعالى إليه ، حين يغشى النوم أصحابها . . فهذه النفوس ، إن كانت قد استوفت أجلها فى الدنيا أمسكها الله عنده فلا تعود إلى الجسد مرة أخرى ، وإن كان قد بقي لها فى الحياة أجل ، أرسلها لتعود إلى الجسد مرة أخرى ، حتى ينتهى أجلها المقدور لها فى الدنيا . .

فالله سبحانه وتعالى يردّ الأنفس إليه حين الموت ، وحين النوم ، إلا أنه فى حال الموت يمسكها عنده إلى يوم القيامة ، أما فى حال النوم ، فإن كانت النفس قد استوفت أجلها فى الدنيا أمسكها الله عنده ، وإن لم تكن قد استوفت أجلها ، أرسلها لتعود إلى جسدها ، حتى ينتهى أجلها فى الدنيا .

ومن هذا يرى المرء أنه يموت كل يوم ، وأن نفسه التي تلبسه تردّ إلى الله عند النوم ، ثم يبعث من جديد فى اليقظة حين تعود إليه نفسه التي فارقت بدنه . .

وهكذا تتكرر عملية الموت والبعث كل يوم فى ذات الإنسان . . ومع هذا ينكر الضالون البعث بعد الموت ، وهم يرون هذه الحقيقة فى أنفسهم . . فهل بعد هذا الضلال ضلال ؟ وهل بعد هذا السفه سفه ؟ « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » ولكن أين من يتفكر ؟ إنهم قلة قليلة فى هذا المحيط الصاخب المضطرب بالضالين السفهاء ! [بين النفس . والروح . . والجسد] وهنا نود أن نقف قليلا بين يدى قوله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ

مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى » .

فقد أشارت الآية الكريمة إلى أن فى الإنسان نفسا ، وأن هذه النفس تردّ إلى اللّه ، على حين يترك الجسد لمصيره فى التراب . .

فالإنسان إذن نفس وجسد . . وهما طبيعتان مختلفان . . فالنفس من العالم العلوي ، والجسد من عالم التراب ، وأنهما إذ يجمع اللّه بينهما بقدرته ، فيجعل منهما ـ سبحانه ـ كائنا سويّا هو الإنسان ، فإنه ـ سبحانه . بقدرته كذلك يحفظ لكل منهما طبيعته ، حتى إذا انتهى الأجل الذي قدره اللّه لاجتماعهما ، افترقا ، فلحق كل منهما بعالمه ، الذي هو منه . . النفس إلى عالمها العلوىّ ، والجسد إلى عالمه الترابىّ .

وقبل أن نتحدث عن ماهية النفس ، وعن الآثار التي تتركها فى الجسد ، أو يتركها الجسد فيها . حين اجتماعهما ـ نود أن نشير إلى كائن آخر ، يعيش مع الجسد والنفس ، هو الروح فقد أشار القرآن الكريم إلى الروح ، فقال تعالى : « وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » (85 الإسراء) وإذن فهناك :

الجسد ، والروح ، والنفس ، وثلاثتها هى الإنسان .

فما الجسد ؟ وما الروح ؟ وما النفس ؟

وليس ثمة خلاف فى أن الجسد ، هو هذا الكيان من اللحم ، والعظم ، والدم ، والذي هو المظهر المادي للإنسان . .

أما الروح ، وأما النفس فهما قوتان غيبيتان تسكنان إلى هذا الجسد ، فيكون بهما معا هذا الإنسان الحي ، السميع ، البصير ، العاقل المميز بين الخير والشر ، والنافع والضار . .

(127/668)

والسؤال هنا : هل الروح والنفس حقيقة واحدة ، أم هما حقيقتان ؟ وإذا كانتا حقيقتين ، فهل هما من طبيعة واحدة أم من طبيعتين مختلفتين كالاختلاف الذي بينهما وبين الجسد ؟

إن القرآن الكريم يحدثنا عن الروح ، وعن النفس . .

وفى حديث القرآن عن الروح . نجد أنها نفحة الحياة فى الإنسان ، وأنها من روح اللّه ، فيقول سبحانه فى خلق آدم : « فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ » (29 الحجر) ويقول سبحانه : « ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ » (9 : السجدة) ويقول سبحانه فى خلق عيسى عليه السلام : « وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها

فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا »

(12 : التحريم) .

فالرّوح هى مبعث الحياة فى الإنسان ، وهى التي تخرج هذا الجسد الهامد إلى عالم الحياة والحركة . .

والإنسان فى هذه الحدود ، لا يخرج عن كونه حيوانا ، ذا جسد حىّ ، يتنفس ، ويتحرك ويطلب الغذاء الذي يحفظ حياته . .

فهل للحيوان روح كهذه الروح التي تلبس الإنسان ، وتكسوه حياة وحركة ؟

إننا إذا رجعنا إلى قوله تعالى عن الروح : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » . تجد أن الروح التي تلبس الكائن الحي . من إنسان أو حيوان . هى روح ، وهى من أمر اللّه ! ولكننا إذ ننظر فى قوله تعالى فى خلق آدم : « فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي » وقوله سبحانه : « ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ » . نجد مزيدا من ؟ ؟ ؟ الإحسان والتكريم للإنسان ، بإضافة روحه إلى اللّه سبحانه وتعالى . .

(128/668)

وهذه الإضافة تضفى على روح الإنسان صفاء إلى صفاء ، وقوة إلى قوة . .

وإنه إذا كان لا حديث للعلم فى هذا الأمر الغيبىّ ، فإن المشاهدة تدعونا إلى القول بأن الأرواح التي تلبس الكائنات الحية ـ بما فيها الإنسان ـ ليست على درجة واحدة من القوة التي تنبعث منها فى الكائن الحي ، وفى الآثار التي تحدثها فيه . .

ففى عالم الحيوان مثلا . . نجد من الحيوانات مالا تكاد تحسّ فيه الحياة ، كالديدان مثلا ، كما نجد حيوانات تكاد تعقل ، كالقردة . . وبين هذه وتلك أنماط كثيرة من الحيوات التي تلبس عالم الحيوان . .

وهذا يعنى أن اختلافا ما بين روح وروح إن لم يكن فى النوع ففى القدر ، وفى الدرجة .

ومن جهة أخرى ، فإننا نجد فى عالم البشر أناسا لا يبتعدون كثيرا عن عالم الحيوان ، بينما نجد الذكاء والألمعية والعبقرية فى أناس آخرين .

وهؤلاء وأولئك جميعا يلبسون أرواحا من مورد واحد ، هى نفخة اللّه سبحانه وتعالى فى الإنسان . . وهذا يعنى أن الاختلاف فى الأرواح البشرية ليس فى النوع ، وإنما فى القدر والدرجة . . أيضا . . بمعنى أن الاختلاف بين إنسان وإنسان فى العقل ، والذكاء ، والبصيرة ، هو اختلاف فى القدر الذي كان للجسد من عالم الروح ، وفى الكمية ـ إن صح هذا التعبير ـ التي فاضت عليه من هذا العالم ! ! وهذا أيضا ما يشير إليه الفلاسفة فى

حديثهم عن الروح ، وأن كل جسد إنما تلبسه روح خاصة به ، مقدرة بحسب استعداده الفطري ، وقدرته على احتمال ما يفاض عليه منها . .

(129/668)

وإذن فهذا الاختلاف بين الكائنات الحية ومنها الإنسان - هو أثر من آثار الروح التي لبسته ، وأنه بقدر حظه من الروح - قدرا لا نوعا - يكون حظه من الترقي فى سلم الحياة .

وإذا كان لنا أن نشبه عالم الروح بمولد كهربائى عظيم ، وكان لنا أن نشبه الأجسام بلمبات الكهرباء ، على اختلاف قوتها ، مما هو دون الشمعة ، إلى آلاف الشمعات - كان لنا أن نتمثل الأجسام ، أو اللمبات الكهربائية ، وقد اتصلت بالمولد الكهربائى العظيم ، فأخذ كل جسم أو كل لمبة بقدر قوته من النور الكهربى ، أو من عالم الروح ! . .

وعلى هذا نرى أن الكائن الحي ، جسد وروح ، وأن الإنسان كذلك جسد وروح ، وإن كان حظه من عالم الروح - قدرا لا نوعا - أكبر من أي كائن حى آخر فى غير عالم الإنسان .

إذن فما النفس ؟

أهي الروح الإنسانية ، سميت بهذا الاسم ، للتفرقة بين روح الإنسان ، وروح الحيوان . . إذ كان للإنسان النصيب الأوفى من هذا النور العلوي المفاض على الأحياء ؟ أم هى شىء

مضاف إلى خلق الإنسان ، به صار الإنسان إنسانا ، بعد أن أصبح بالروح حيوانا ؟

يحدث القرآن الكريم عن النفس ، على أنها كائن له وجود ذاتى مستقل ، وبمعنى آخر ، إن القرآن يخاطب الإنسان فى ذات نفسه ، باعتبار أن النفس هى القوة العاقلة المدركة فيه ، فيقول سبحانه : « وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها » . . ويقول جل شأنه : « يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي » (27 ـ 30 الفجر) ويقول

(130/668)

سبحانه : « وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » (53 يوسف) ويقول : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً » (18 : يوسف) ويقول سبحانه : « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » (1 : الطلاق) ويقول سبحانه : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً » (6 : التحريم) .

فالنفس هنا ، وفى مواضع أخرى كثيرة من القرآن ، هى الإنسان العاقل ، المكلف ، وهى الإنسان الذي يتوقع منه الخير أو الشر ، والهدى أو الضلال . .

ثم هى الإنسان بجميع مشخصاته ، جسدا وروحا ! . .

ومرة أخرى . . ما هى النفس ؟

والجواب الذي نعطيه عن هذا السؤال هو مستمد من القرآن الكريم ، بعيدا عن مقولات الفلاسفة ، وغير الفلاسفة ممن لهم حديث عن النفس « 1 » .

وعلى هذا نقول :

يشخّص القرآن الكريم النفس ، ويجعلها الكائن الذي يمثل الإنسان أمام اللّه ، بل وأمام المجتمع أيضا . .

فالقتل الذي يصيب الإنسان هو قتل للنفس ، كما يقول سبحانه : « وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » (29 : النساء) ويقول جل شأنه : « مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً » (32 : المائدة) .

وفى مقام القصاص تحسب « النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ » (45 : المائدة) .

---

(1) من أراد النظر فى هذا الموضوع على الآراء المختلفة فى النفس أو الروح ، أو العقل ، فليرجع إلى كتابنا قضية الألوهية (الجزء الثاني) . . (اللّه والإنسان) .

وفى مقام التنويه بالإنسان ، ودعوته ليلقى الجزاء الحسن ، تخاطب النفس ، وتدعى ، فيقول سبحانه : « يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي » (27 ـ 30 : الفجر) .

والنفس فى القرآن هى الإنسان المسئول المحاسب : « وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها » (7 ـ 10 : الشمس) « بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ » (14 ـ 15 : القيامة) وإن بالفهم الذي يستريح إليه العقل فى شأن النفس ، هو أنها شىء غير الروح ، وغير العقل . . وأنها هى الذات الإنسانية أو الإنسان المعنوي ، إن صح هذا التعبير . . إنها تتخلق من التقاء الروح بالجسد ، إنها التركيبة التي تخلق فى الإنسان ذاتية يعرف بها أنه ذلك الإنسان بأحاسيسه ووجدانه ومدركاته . .

النفس هى ذات الإنسان ، أو هى مشخصات الإنسان التي تنبىء عن ذاته . .

ولا نريد أن نذهب إلى أكثر من هذا . . وحسبنا أن نؤمن بأن الروح من أمر اللّه ، فلا سبيل إلى الكشف عنها كما يقول سبحانه : « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » وأن النفس ، جهاز خفى عامل فى الإنسان . . هى الإنسان المعنوي ـ كما قلنا ـ ولهذا كانت موضع الخطاب من اللّه تعالى ، كما أنها كانت موضع الحساب والثواب والعقاب . .

قوله تعالى : « أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ » ؟

.

هو بيان لضلالة من ضلالات المشركين ، بعد إقرارهم بأن اللّه - هو الذي خلق السموات والأرض - فهم مع إقرارهم هذا - يتخذون من

(132/668)

الأصنام وسائل يتوسلون بها إلى مرضاة اللّه ، ويرجون بها الشفاعة عنده ، ويقولون لمن يحاجّهم فيها : « ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى » (3 : الزمر) فهم - مع اعترافهم بأن هذه الأصنام ليست الإله الخالق الرازق ، المالك لما فى السموات والأرض - مع اعترافهم هذا - لا يوجهون وجوههم إلى اللّه مباشرة ، بل يجعلون بينهم وبين اللّه من يتولى الاتصال باللّه عنهم ، والشفاعة لهم فيما يريدون من اللّه ، من جلب خير ، أو دفع ضرّ . . وهذا ضلال من وجوه :

فأولا : أن الإنسان - من حيث هو إنسان - مخلوق كريم عزيز بين مخلوقات اللّه . . قد أحسن اللّه خلقه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وأقامه خليفة له فى الأرض . .

وهذه منزلة عالية ، ودرجة رفيعة ، جدير بالإنسان أن يقيم وجوده فيها ، ويطلب من اللّه الاستزادة منها . . وذلك بدوام الاتصال باللّه ، وطلب القرب منه ، بالولاء المطلق للّه ،

والإخلاص فى عبادته ، والاجتهاد فى طاعته . .

وفى تخلّى الإنسان عن هذا المقام ، وإسلام زمامه لغيره ، من دمى وأشباه دمىّ ، لتقوده إلى الله - فى هذا نزول بالإنسان عن منزلته ، واعتراف منه بأنه ليس أهلا لها . .

وثانيا : أن الله - سبحانه - الذي كرم الإنسان ، جعل طريقه إليه مفتوحا ليس عليه خزنة أو حجاب وذلك حتى يتحرر الإنسان من التبعية لأى مخلوق ، تلك التبعية التي يسلم فيها وجوده العقلي والروحي لغيره ، فيفقد بذلك ذاتيته ، ويصبح كائنا مسلوب الإرادة ، يتحرك بإرادة غيره ، فيقاد ، كما يقاد الحيوان .

(133/668)

وقد حرّرت الشريعة الإسلامية الإنسان تحريرا كاملا ، وأطلقت كل قواه وملكاته من كل قيد ومن كل تبعية ، حتى أن الولاء الذي يعطيه المؤمن للنبىّ ليس ولاء أعمى ، بل المطلوب منه شرعا أن يكون ولاء مستندا إلى العقل ، وإلى الاقتناع . . حتى ينبع هذا الولاء عن نفس راضية وقلب مطمئن . . ولهذا كانت دعوة الإسلام دعوة قائمة على مجرد البلاغ ، والعرض لما بين يديها من هدى . . ثم إن للناس أن يعرضوا هذا المعروض عليهم ، على عقولهم . . ثم إن لهم مع هذا إرادتهم المطلقة ، فى قبول ما عرض عليهم ، أو رفضه . .

وفى هذا يقول اللّه تعالى : « وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ . . فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ » (29 : الكهف) ويقول سبحانه لنبيه الكريم : « أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » (99 : يونس) ويقول جلّ شأنه : « لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ . . قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » (256 البقرة) وثالثا : هؤلاء المشركون ، الذي يتعاملون مع تلك الأصنام ، قد ضلوا ضلالا بعد ضلال . . فهم ضلوا أولا ، لأنهم لم يوجهوا وجوههم إلى اللّه مباشرة ، بل جعلوا بينهم وبين اللّه من يقودهم إليه ، وضلوا ثانيا لأنهم أسلموا زمامهم لتلك الدّمى التي لا تعقل ، ولا تسمع ولا تبصر ! ! فكيف يكون لهذا الدّمى أن تتجه بهم إلى متجه ، وهى تابعة فى أماكنها لا تملك تحولا من حال إلى حال ، أو من مكان إلى مكان ؟ وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ» ؟ أي أيتعاملون مع هذه المعبودات ويسلمون أمرهم إليها ، ولو كانت لا تملك شيئا ولا تعقل أمرا ؟ فإذا كان الإنسان على ضلال إذا أسلم نفسه لإنسان عاقل مثله ، أو لمن هو أعقل منه ، فإنه يكون على ضلال مبين ، وسفه غليظ ، إذا هو أسلم نفسه لحيوان أو حجر ! !

(134/668)

قوله تعالى : « قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ . . ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » هو تقرير لتلك الحقيقة المطلقة التي غفل عنها المشركون ، وعمى عنها الضالون ، وهى أن الشفاعة جميعها للّه وحده ، لا يملك أحد مع اللّه شيئا منها . .

فهو سبحانه مالك السموات والأرض ، وإليه يردّ كل ما يجرى فيهما ، وما يقع للمخلوقات من نفع أو ضر . .

وقوله تعالى : « ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » هو دعوة إلى الناس أن يرجعوا إلى اللّه ، وأن يسلموا أمرهم إليه وحده يوم الحساب والجزاء . . فهو - سبحانه - الذي يتولى حساب الناس وجزاءهم . . فمن السفه والجهل معا أن يكون هناك عمل يتجه به إلى غيره . . إنه عمل ضائع ، لا يقام له وزن ! بل هو وزر يحمله الإنسان معه ، لأنه حجه عن اللّه ، وقصّر به دون العمل لمرضاته . .

والشفاعة هنا : هى ما يجلب به الخير ، ويدفع به الضر . . أي أن كل ما هو مطلوب للإنسان من جلب خير أو دفع ضر ، هو بين يدى اللّه ، وهو سبحانه المتصرف فيه وحده . . فمن طلب فليطلب من اللّه وحده . . ومن طلب من غيره شيئا ، فقد ضل سعيه وخاب رجاؤه . .

قوله تعالى : « وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ . وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » هو فضح لحال من أحوال المشركين ، وكشف لضلالة من

ضلالاتهم . .

فهم إذا ذكر اللّه وحده ، من غير أن تذكر معه آلهتهم - اشمأزت قلوبهم ،

(135/668)

أي نفرت ، وجزعت ، وهلعت . . وإذا ذكرت آلهتهم ، وما لها من شفاعة عند اللّه ، فرحوا واستبشروا . .

وفى قوله تعالى : « الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » - إشارة إلى أن الإيمان بالآخرة ، لا يكون إلا بعد الإيمان باللّه . . فالإيمان بالآخرة ، إيمان بها وباللّه . . وقد يكون إيمان باللّه وكفر بالآخرة ، كما كان عليه إيمان المشركين . .

فهم يعرفون اللّه ، ويؤمنون بأن على هذا الوجود إلها واحدا . . ولكنهم يتخذون معه آلهة أخرى ، هى - عندهم - دون اللّه جلالا وقدرا . . إنها قربان يتقربون بها إلى اللّه . . ثم هم لا يؤمنون بالآخرة ، إذ يستبعدون أن يحيى اللّه الناس بعد أن يصيروا ترابا . . وهذا قصور فى فهمهم ، لجلال اللّه وقدرته . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 12 صـ 1160 . 1171 ﴾

(136/668)

وقال ابن عاشور :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾

يصلح هذا أن يكون مثَلاً لحال ضلال الضالين وهُدى المهتدين نشأ عن قوله : ﴿ فمن اهتدى فلنفسه إلى قوله : وما أنت عليهم بوكيل ﴾ [الزمر : 41] .

(والمعنى : أن استمرار الضالّ على ضلاله قد يحصل بعدَه اهتداء وقد يوافيه أجله وهو في ضلاله فضرب المثل لذلك بنوم النائم قد تعقبه إفاقة وقد يموت النائم في نومه ، وهذا تهوين على نفس النبي برجاء إيمان كثير ممن هم يومئذٍ في ضلال وشرك كما تَحقّقَ ذلك .

فتكون الجملة تعليلاً للجملة قبلَها ولها اتصال بقوله : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ إلى قوله : ﴿ في ضلال مبين ﴾ [الزمر : 22] .

ويجوز أن يكون انتقالاً إلى استدلال على تفرد الله تعالى بالتصرف في الأحوال فإنه ذكر دليل التصرف بخلق الذوات ابتداءً من قوله : خلق السموات والأرض بالحق إلى قوله : ﴿ في ظُلُمات ثَلاث ﴾ [الزمر : 5 ، 6] ، ثم دليل التصرف بخلق أحوال ذواتٍ وإنشاءِ ذواتٍ من تلك الأحوال وذلك من قوله : ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض إلى قوله : ﴿ لأُولى الألباب ﴾ [الزمر : 21] وأعقَبَ كل دليل بما يظهر فيه أثره

من الموعظة والعبرة والزجر عن مخالفة مقتضاه ، فانتقل هنا إلى الاستدلال بحالة عجيبة من أحوال أنفُس المخلوقات وهي حالة الموت وحالة النوم .

(137/668)

وقد أنبأ عن الاستدلال قوله : إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ، فهذا دليل للناس من أنفسهم ، قال تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : 21] وقال : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ [الروم : 28] ، فتكون الجملة استئنافاً ابتدائياً للتدرج في الاستدلال ولها اتصال بجملة خلق السموات والأرض بالحق ﴾ وجملة ﴿ ألم تر أن الله أنزل ﴾ المتقدمتين ، وعلى كلا الوجهين أفادت الآية إبراز حقيقتين عظيمتين من نواميس الحياتين النفسية والجسدية وتقديم اسم الجلالة على الخبر الفعلي لإِفادة تخصيصه بمضمون الخبر ، أي الله يتوفّى لا غيره فهو قصر حقيقي لإِظهار فساد أَنْ أشركوا به آلهة لا تملك تصرفاً في أحوال الناس .

والتوفِّي : الإماتة ، وسميت توفّياً لأن الله إذا أَمات أحداً فقد توفّاه أجلَه فالله المتوفِّي ومَلك الموت متوفٍّ أيضاً لأنه مباشر التوفّي .

والميت : متوفى بصيغة المفعول ، وشاع ذلك فصار التوفّي مرادفاً للإِماتة والوفاة مُرادفة

للموت بقطع النظر عن كيفية تصريف ذلك واشتقاقه من مادة الوفاء .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ﴾ في سورة [البقرة : 234] : وقوله : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ في سورة [السجدة : 11] .

والأنفس : جمع نَفْس ، وهي الشخص والذات قال تعالى : وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وتطلق على الروح الذي به الحياة والإِدراك .

ومعنى التوفي يتعلق بالأنفس على كلا الإِطلاقين .

والمعنى : يتوفّى الناس الذين يموتون فإن الذي يوصف بالموت هو الذات لا الروح وأنَّ توفيها سَلب الأرواح عنها .

وقوله : ﴿ والتي لم تمت ﴾ عطف على الأنفس باعتبار قيد ﴿ حين موتها ﴾ لأنه في معنى الوصف فكأنه قيل يتوفى الأنفس التي تموت في حالة نومها ، والأنفسَ التي لم تمت في نومها فأفاقت .

(138/668)

ويتعلق ﴿ في منامها ﴾ بقوله : ﴿ يَتَوفَّى ﴾ ، أي ويتوفى أنفساً لم تمت يَتوفاها في منامها كل يوم ، فعلم أن المراد بتوفِّيها هو منامها ، وهذا جار على وجه التشبيه بحسب عرف

اللغة إذ لا يطلق على النائم ميّت ولا متوفى .

وهو تشبيه نُحِيَ به منحَى التنبيه إلى حقيقة علمية فإن حالة النوم حالة انقطاع أَهم فوائد الحياة عن الجسد وهي الإِدراك سوى أن أعضاءه الرئيسيّة لم تفقد صلاحيتها للعودة إلى أعمالها حينَ الهبوب من النوم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ﴾ كما تقدم في سورة [الأنعام : 60] .

(والفاء في فيمسك ﴾ فاء الفصيحة لأن ما تقدم يقتضي مقدراً يفصح عنه الفاء لبيان توفي النفوس في المقام .

والإِمساك : الشدّ باليد وعدم تسليم المشدود .

والمعنى : فيبقِي ولا يردّ النفْس التي قضى عليها بالموت ، أي يمنعها أن ترجع إلى الحياة فإطلاق الإِمساك على بقاء حالة الموت تمثيل لدوام تلك الحالة .

ومن لطائفه أن أهل الميت يتمنون عود ميتهم لو وجدوا إلى عوده سبيلاً ولكن الله لم يسمح لنفس ماتت أن تعود إلى الحياة .

والإِرسال : الإِطلاق والتمكين من مبارحة المكان للرجوع إلى ما كَان والمراد بـ ﴿ الأخرى ﴾ ﴿ التي لم تمت ﴾ ولكن الله جعلها بمنزلة الميتة .

والمعنى : يرد إليها الحياة كاملة .

والمقصود من هذا إبراز الفرق بين الوفاتين .

ويتعلق ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ بفعل ﴿ يرسل ﴾ لما فيه من معنى يرد الحياة إليها ، أي فلا يسلبها الحياة كلَّها إلا في أجلها المسمى ، أي المعيّن لها في تقدير الله تعالى .

والتسمية : التعيين ، وتقدمت في قوله تعالى : ﴿ إذا تداينتم بدَيْن إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ في سورة [البقرة : 282] .

(هذا هو الوجه في تفسير الآية الخليّ عن التكلفات وعن ارتكاب شبه الاستخدام في قوله : التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى ﴾ وعن التقدير .

(139/668)

وجملة ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ مستأنفة كما تذكر النتيجة عقب الدليل ، أي أن في حالة الإِماتةِ والإِنامةِ دلائِلَ على انفراد الله تعالى بالتصرف وأنه المستحق للعبادة دون غيره وأن ليس المقصود من هذا الخبر الإِخبار باختلاف حالتي الموت والنوم بل المقصود التفكر والنظر في مضرب المثل ، وفي دقائق صنع الله والتذكير بما تنطوي عليه من دقائق الحكمة التي تمر على كل انسان كلَّ يوم في نفسه ، وتمرّ على كثير من الناس في آلهم وفي عشائرهم وهم معرضون عما في ذلك من الحكَم وبديع الصنع .

وجُعل ما تدل عليه آياتٍ كثيرةً لأنهما حالتان عجيبتان ثم في كل حالة تصرف يغاير

التصرف الذي في الأخرى ، ففي حالة الموت سلب الحياة عن الجسم وبقاء الجسم كالجماد ومَنْعٌ من أن تعود إليه الحياة وفي حالة النوم سلب بعض الحياة عن الجسم حتى يكون كالميت وما هو بميت ثم منح الحياة أن تعود إليه دَوَالَيْك إلى أن يأتي إبّان سلبها عنه سلباً مستمراً .

و(الآياتُ لقوم يتفكرون) حاصلة على كل من إرادة التمثيل وإرادة استدلال على الانفراد بالتصرف .

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إنَّ ﴾ لتنزيل معظم الناس منزلة المنكر لتلك الآيات لعدم جريهم في أحوالهم على مقتضى ما تدل عليه .

والتفكر : تكلف الفكرة ، وهو معالجة الفكر ومعاودة التدبر في دلالة الأدلة على الحقائق .

وقرأ الجمهور ﴿ قضى عليها الموت ﴾ ببناء الفعل للفاعل ونصب الموت .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف ﴿ قُضِي عليها الموت ﴾ ببناء الفعل للنائب وبرفع الموت وهو على مراعاة نزع الخافض .

والتقدير : قضي عليها بالموت ، فلما حذف الخافض صار الاسم الذي كان مجروراً بمنزلة المفعول به فجعل نائباً عن الفاعل ، أو على تضمين ﴿ قُضِي ﴾ معنى كُتب وقُدر .

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43)

﴿ أم ﴾ منقطعة وهي للاضراب الانتقالي انتقالاً من تشنيع إشراكهم إلى إبطال معاذيرهم في شركهم ، ذلك أنهم لما دمغتهم حجج القرآن باستحالة أن يكون لله شركاء تمحّلوا تأويلاً لشركهم فقالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلفى ﴾ [الزمر : 3] كما حكي عنهم في أول هذه السورة ، فلما استُوفيَت الحججُ على إبطال الشرك أقبل هنا على إبطال تأويلهم منه ومعذرتهم .

والاستفهام الذي تشعر به أم ﴾ في جميع مواقعها هو هنا للإنكار بمعنى أن تأويلهم وعذرهم منكَر كما كان المعتذَر عنه منكراً فلم يقضوا بهذه المعذرة وطَراً .

وقد تقدم في أول السورة بيان مرادهم بكونهم شفعاء .

وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم مقالةً تقطع بهتانهم وهي ﴿ أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون .

فالواو في أولو كانوا ﴾ عاطفة كلام المجيب على كلامهم وهو من قبيل ما سُمّي بعطف التلقين في قوله تعالى : ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ في سورة البقرة (124) ، ولك أن تجعل الواو للحال كما هو المختار في نظيره .

وتقدم في قوله : ﴿ ولو افتدى به ﴾ في سورة آل عمران (91) .

وصاحب الحال مقدر دل عليه ما قبله من قوله : اتخذوا من دون الله شفعاء .

﴿ والتقدير : أيشفعون لو كانوا لا يملكون شيئاً .

والظاهر أن حكم تصدير الاستفهام قبل واو الحال كحكم تصديره قبل واو العطف .

وأفاد تنكير ﴿ شيئاً ﴾ في سياق النفي عموم كل ما يُملك فيدخل في عمومه جميع أنواع الشفاعة .

ولما كانت الشفاعة أمراً معنوياً كان معنى ملكها تحصيل إجابتها ، والكلام تهكم إذ كيف يشفع من لا يعقل فإنه لعدم عقله لا يتصور خطور معنى الشفاعة عنده فضلاً عن أن تتوجه إرادته إلى الاستشفاع فاتخاذهم شفعاء من الحماقة .

ولما نفى أن يكون لأصنامهم شيء من الشفاعة في عموم نفي مِلْك شيء من الموجودات عَن الأصنام ، قوبل بقوله : ﴿ لله الشفاعة ﴾ أي الشفاعة كلها لله .

(141/668)

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول ذلك لهم ليعلموا أن لا يملك الشفاعة إلا الله ، أي هو مالك إجابة شفاعة الشفعاء الحقّ .

وتقديم الخبر المجرور وهو ﴿ لله ﴾ على المبتدأ لإفادة الحصر .

واللام للملك ، أي قَصر ملك الشفاعة على الله تعالى لا يملك أحد الشفاعة عنده .

و﴿ جميعاً ﴾ حال من الشفاعة مفيدة للاستغراق ، أي لا يشذ جزئي من جزئيات حقيقة الشفاعة عن كونه مِلكاً لله وقد تأكد بلازم هذه لحال ما دل عليه الحصر من انتفاء أن يكون شيء من الشفاعة لغير الله .

وجملة ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ لتعميم انفراد الله بالتصرف في السماوات والأرض الشامل للتصرف في مؤاخذة المخلوقات وتسيير أمورهم فموقعها موقع التذييل المفيد لتقرير الجملة التي قبله وزيادة .

والمراد المُلك بالتصرف بالخلق وتصريف أحوال العالمَيْن ومن فيهما ، فإذا كان ذلك المُلك له فلا يستطيع أحد صرفه عن أمر أراد وقوعه إلى ضد ذلك الأمر في مدة وجود السماوات والأرض ، وهذا إبطال لأن تكون لآلهتهم شفاعة لهم في أحوالهم في الدنيا .

وعطف عليه ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ للإِشارة إلى إثبات البعث وإلى أنه لا يشفع أحد عند الله بعد الحشر إلا من أَذِنه الله بذلك .

و﴿ ثم ﴾ للترتيب الرتبي كشأنها في عطف الجمل ، ذلك لأن مضمون ﴿ إليه ترجعون ﴾ أن لله ملكَ الآخرة كما كان له ملك الدنيا وملك الآخرة أعظم لسعة مملوكاته وبقائها .

وتقديم ﴿ إليه ﴾ على ﴿ تُرجَعُون ﴾ للاهتمام والتقوّي وللرعاية على الفاصلة .

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)

عطف على جملة ﴿ اتخذوا من دون الله شفعاء ﴾ [الزمر : 43] لإظهار تناقضهم في أقوالهم المشعر بأن ما يقولونه أقضية سُفسطائية يقولونها للتنصل من دمغات الحجج التي جبهَهُم بها القرآن ، فإنهم يعتذرون تارة على إشراكهم بأن شركاءهم شفعاء لهم عند الله . وهذا يقتضي أنهم معترفون بأن الله هو إلهم وإله شركائهم ، ثم إذا ذكَر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله واحد أو ذكر المسلمون كلمة لا إله إلا الله اشمأزّت قلوب المشركين من ذلك . وكذلك إذا ذكر الله بأنه إله الناس ولم يذكر مع ذكره أن أصنامهم شركاء لله اشمأزت قلوبهم من الاقتصار على ذكر الله فلا يرضون بالسكوت عن وصف أصنامهم بالإلهية وذلك مؤذن بأنهم يسوُّونها بالله تعالى .

فقوله : ﴿ وحْدَهُ ﴾ لك أن تجعله حالاً من اسم الجلالة ومعناه منفرداً .

ويقدر في قوله : ﴿ ذُكِر الله ﴾ معنى : ذكر بوصف الإلهية ويكون معنى ﴿ ذُكِر الله وَحْده ﴾ ذُكر تفرده بالإلهية .

وهذا جار على قول يونس بن حبيب في ﴿ وحده ﴾ .

ولك أن تجعله مصدراً وهو قول الخليل بن أحمد ، أي هو مفعول مطلق لفعلِ ﴿ ذُكِرَ ﴾

لبيان نوعه ، أي ذِكْراً وحْداً ، أي لم يذكر مع اسم الله أسماء أصنامهم .

وإضافة المصدر إلى ضمير الجلالة لاشتهار المضاف إليه بهذا الوحْد .

وهذا الذكر هو الذي يجري في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وفي الصلوات وتلاوة القرآن وفي مجامع المسلمين .

ومعنى ﴿ إذا ذُكر الذين من دونه ﴾ إذا ذُكرت أَصنامهم بوصف الإِلهية وذلك حين يسمعون أقوال جماعة المشركين في أحاديثهم وأيمانهم باللات والعزى ، أي ولم يذكر اسم الله معها فاستبشارهم بالاقتصار على ذكر أصنامهم مؤذن بأنهم يرجحون جانب الأصنام على جانب الله تعالى .

والذكر : هو النطق بالاسم .

والمراد إذا ذكَر المسلمون اسم الله أشمأز المشركون لأنهم لم يسمعوا ذكر آلهتهم وإذا ذكر المشركون أسماء أصنامهم استبشر الذين يسمعونهم من قومهم .

(143/668)

والتعبير عن آلهتهم بـ ﴿ الذين من دونه ﴾ دونَ لفظ : شركائهم أو شفعائهم ، للإِيماء إلى أن علة استبشارهم بذلك الذكر هو أنه ذكر من هم دون الله ، أي ذِكر مناسب لهذه الصلة ،

أي هو ذكر خالٍ عن اسم الله ، فالمعنى : وإذا ذكر شركاؤُهم دُون ذِكر الله إذا هم يستبشرون .

والاقتصار على التعرض لهذين الذكرين لأنهما أظهر في سوء نوايا المشركين نحو الله تعالى ، وفي بطلان اعتذارهم بأنهم ما يعبدون الأصنام إلا ليقرِّبُوهم إلى الله ويشفعوا لهم عنده ، فأما الذكر الذي يذكر فيه اسم الله وأسماءُ آلهتهم كقولهم في التلبية : لبَيْك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تمِلكه وما ملك ، فذلك ذكر لا مناسبة له بالمقام .

وذكَر جمع من المفسرين لقوله : ﴿ إذا ذكر الذين من دونه ﴾ أنه إشارة إلى ما يُروى من قصة الغرانيق ، ونسب تفسير ذلك بذلك إلى مجاهد ، وهو بعيد عن سياق الآية .

ومن البناء على الأخبار الموضوعة فللَّه در من أعرضوا عن ذكر ذلك .

والاشمئزار : شدة الكراهية والنفورِ ، أي كرهتْ ذلك قلوبهم ومداركهم .

والاستبشار : شدة الفرح حتى يظهر أثر ذلك على بَشَرة الوجه ، وتقدم في قوله : ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ في سورة [الحِجر : 67] .

ومقابلة الاشمئزاز بالاستبشار مطابقة كاملة لأن الاشمئزاز غاية الكراهية والاستبشار غاية الفرح .

والتعبير عن المشركين بالذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ لأنهم عُرفوا بهذه الصلة بين الناس مع قصد إعادة تذكيرهم بوقوع القيامة .

و﴿ إذا ﴾ الأولى و﴿ إذا ﴾ الثانية ظرفان مضمنان معنى الشرط كما هو الغالب .

و﴿ إذا ﴾ الثالثة للمفاجأة للدلالة على أنهم يعاجلهم الاستبشار حينئذٍ من فرط حبهم آلهتهم .

ولذلك جيء بالمضارع في ﴿ يستبشرون ﴾ دون أن يقال : مستبشرون ، لإفادة تجدّد استبشارهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(144/668)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾

يقبض الأرواح حين موتها ، والتي لم تَمُتْ من النفوس في حال نومها ، فإذا نامت فيقبض أوراحها . وقبضُ الأرواح في حال الموت بإخراج اللطيفة التي في البدن وهي الروح ، ويخلق بَدَلَ الاستشعارِ والعِلْمِ الغفلَة والغيبةَ في مَحَالِّ الإحساس والإدراك . ثم إذا قَبضَ الأرواحَ عند الموت خَلَقَ في الأجزاء الموتَ بَدَلَ الحياة ، والموتُ ينافي الإحساسَ والعلمَ . وإذا ردَّ الأرواح بعد النوم إلى الأجسادِ خَلَقَ الإدراكَ في محل الاستشعار فيصير الإنسان متيقظاً ،

وقَبْضُ اللَّهِ الأرواحَ في حال النوم وردت به الاخبار ، وذلك على مراتب ؛ فإنَّ روحاً تُقْبَضُ على الطهارة تُرْفَعُ إلى العرش وتسجد لله تعالى ، وتكون لها تعريفات ، ومعها مخاطبات " والله أعلم "

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43)

أي أنهم – وإن اتخذوا على زعمهم من دون الله شفعاءَ بِحُكْمِهِمْ لا بتعريفٍ من قِبَلِ الله أو إخبار – فإنَّ اللَّهَ تعالى لا يقبل الشفاعةَ من أحدٍ إلاَّ إذا أَذِنَ بها ، وإنَّ الذي يقولونهْ إنما هو افتراءٌ على الله .

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)

اشمأزَّت قلوبُ الذين جحدوا ولم تسكن نفوسُهم إلى التوحيد ، وإذا ذُكِرَ الذين مِنْ دونه استأنسوا إلى سماعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 283 .

285 ﴾

(145/668)

فصل

قال الإمام ابن قتيبة :

باب اللّفظ الواحد للمعاني المختلفة

1 - القضاء

أصل قضى : حتم ، كقول اللّه عز وجل : فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ [الزمر : 42] أي حتمه عليها .

ثم يصير الحتم بمعان ، كقوله : وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء : 23] أي أمر ، لأنه لما أمر حتم بالأمر .

وكقوله : وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ [الإسراء : 4] ، أي أعلمناهم ، لأنّه لمّا خبّرهم أنهم سيفسدون في الأرض ، حتم بوقوع الخبر .

وقوله : فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ [فصلت : 12] ، أي صنعهن .

وقوله : فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ [طه : 72] ، أي فاصنع ما أنت صانع .

ومثله قوله : فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ [يونس : 71] ، أي اعملوا ما أنتم عاملون ولا تنظرون .

قال أبو ذؤيب "1" :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السّوابغ تبّع

أي صنعهما (داود) و(تبّع) .

وقال الآخر في عمر بن الخطاب ، رضي اللّه عنه "2" :

---

(1) البيت من الكامل ، وهو لأبي ذؤيب الهذلي في سر صناعة الإعراب 2/ 760 ، وشرح أشعار الهذليين 1/ 39 ، وشرح المفصل 3/ 59 ، ولسان العرب (تبع) ، (صنع) ، (قضى) ، والمعاني الكبير ص 1039 ، وتاج العروس (صنع) ، (قضى) ، وبلا نسبة في شرح المفصل 3/ 58 .

(2) البيت من الطويل ، وهو للشماخ في ديوانه ص 449 ، ولسان العرب (بوج) ، (كمم) ، وتهذيب اللغة 11/ 221 ، وجمهرة اللغة ص 1817 ، وتاج العروس (بوج) ، (كمم) ، وحماسة البحتري 3/ 107 ، وزهر الآداب 4/ 115 ، وللمزرد بن ضرار في البيان والتبيين 3/ 364 ، والأغاني 8/ 102 ، وبلا نسبة في ديوان الأدب 2/ 370 ، وجمهرة اللغة ص 272 ، وتفسير الطبري 1/ 404 .

قضيت أمورا ثمّ غادرت بعدها بوائج في أكمامها لم تفتّق

أي عملت أعمالا ، لأنّ كلّ من عمل عملا وفرغ منه فقد ختمه وقطعه . ومنه قيل للحاكم :

قاض ، لأنّه يقطع على الناس الأمور ويحتم . وقيل : قضي قضاؤك . أي فرغ من أمرك .

وقالوا للميت : قد قضى . أي فرغ .

وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد .

2 - الهدى

أصل هدى أرشد ، كقوله : عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ [القصص : 22] .

وقوله : وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ [ص : 22] ، أي أرشدنا .

ثم يصير الإرشاد بمعان ، كقوله : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ [فصلت : 17] ، أي بيّنا لهم .

وقوله : أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا [السجدة : 26] ، أي أو لم يبيّن لهم .

وقوله : أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ [الأعراف : 100] ، أي ألم يبيّن لهم .

فالإرشاد في جميع هذه بالبيان .

ومنها إرشاد بالدعاء ، كقوله : وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ [الرعد : 7] ، أي نبيّ يدعوهم .

وقوله : وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا [الأنبياء : 73] ، أي يدعون ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [الشورى : 52] ، أي تدعو .

ومنها إرشاد بالإلهام ، كقوله : الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى [طه : 50] ، أي صورته من الإناث ، ثم هدى أي ألهمه إتيان الأنثى ، ويقال : طلب المرعى وتوقّى المهالك .

وقوله عز وجل : وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى (3) [الأعلى : 3] ، أي هدى الذكر بالإلهام لإتيان

الأنثى .

ومنها إرشاد بالإمضاء ، كقوله : وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ [يوسف : 52] ، أي لا يمضيه ولا ينفذه ، ويقال : لا يصلحه .

وبعض هذا قريب من بعض .

3 - الأمة

أصل الأمة : الصّنف من الناس والجماعة ، كقوله عز وجل : كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً ، أي صنفا واحدا في الضلال فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ [البقرة : 213] .

(147/668)

وكقوله عز وجل : إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ [الأنعام : 38] ، أي : أصناف ، وكل صنف من الدواب والطير مثل بني آدم في المعرفة بالله ، وطلب الغذاء . وتوقّي المهالك ، والتماس الذّرء ، مع أشباه لهذا كثيرة .

ثم تصير الأمّة : الحين ، كقوله عز وجل : وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ [يوسف : 45] .

وكقوله : وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ [هود : 8] . أي : سنين معدودة .

كأنّ الأمّة من الناس القرن ينقرضون في حين ، فتقام (الأمّة) مقام (الحين) .

ثم تصير الأمّة : الإمام والرّباني ، كقوله تعالى : إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً [النحل : 120] . أي : إماما يقتدي به الناس ، لأنه ومن اتبعه أمّة ، فسمّي أمّة لأنه سبب الاجتماع .

وقد يجوز أن يكون سمّي أمّة : لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمة . ومن هذا يقال : فلان أمّة وحده ، أي : هو يقوم مقام أمة .

وقد تكون الأمة : جماعة العلماء ، كقوله : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ [آل عمران : 104] . أي : يعلمون .

والأمّة : الدّين ، قال تعالى : إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ [الزخرف : 22 ، 23] أي : على دين . قال النابغة "1" :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمّة وهو طائع ؟

أي : ذو دين .

والأصل أنه يقال للقوم يجتمعون على دين واحد : أمة ، فتقام الأمة مقام الدين ، ولهذا قيل للمسلمين : أمّة محمد ، صلّى اللّه عليه وسلم ، لأنهم على أمر واحد ، قال تعالى : وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً [المؤمنون : 52] . مجتمعة على دين وشريعة .

وقال اللّه عز وجل : وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً [النحل : 93] ، أي : مجتمعة على الإسلام .

4 – العهد

الأمان : عهد ، قال اللّه تعالى : فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ [التوبة : 4] .

---

(1) البيت من الطويل ، وهو للنابغة الذبياني في ديوانه ص 35 ، ولسان العرب (أمم) ، ومقاييس اللغة 1/ 28 ، وكتاب العين 8/ 428 ، وتهذيب اللغة 15/ 635 ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 247 ، ومجمل اللغة 1/ 152 .

(148/668)

واليمين : عهد ، قال اللّه تعالى : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ [النحل : 91] .

والوصية : عهد ، قال اللّه تعالى : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ [يس : 60] .

والحفاظ : عهد ،

قال صلّى اللّه عليه وسلم : "إنّ حسن العهد من الإيمان" "1" .

والزّمان : عهد ، يقال : كان ذلك بعد فلان .

والعهد : الميثاق . ومنه قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام : قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [البقرة : 124] أي : لا ينال ما وعدتك من الإمامة ، الظالمين من ذريتك . والوعد من اللّه : ميثاق .

5 - الإلّ

الإلّ هو : اللّه تعالى . قال مجاهد في قوله سبحانه : لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً [التوبة : 10] ويعني اللّه عز وجل . ومنه (جبرإلّ) في قراءة من قرأه بالتّشديد .

ويقال للرحم : إلّ كما اشتق لها الرّجم من الرّحمن . وقال حسّان "2" :

لعمرك إن إلّك في قريش كإلّ السّقب من رأل النّعام

أي : رحمك فيهم ، وقرباك منهم .

ومن ذهب بالإلّ في قوله تعالى : لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا إلى الرّحم ، فهو وجه حسن . كما قال الشاعر "3" :

دعوا رحما فينا ولا يرقبونها وصدّت بأيديها النّساء عن الدّم

يريد : أن المشركين لم يكونوا يرقبون في قراباتهم من المسلمين رحما ، وقد قال اللّه تعالى لنبيه عليه السلام : قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى [الشورى : 23] .

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك 1/ 15 ، وابن حجر في فتح الباري 10/ 436 ، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين 6/ 235 ، 236 ، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار 2/ 184 ، ومناهل الصفا 21 ، والعجلوني في كشف الخفا 1/ 263 ، والشهاب في مسنده 971 ، 972 .

(2) البيت من الوافر ، وهو لحسان بن ثابت في ديوانه ص 105 ، ولسان العرب (ألل) ،

وديوان الأدب 4/ 155 ، وكتاب الجيم 3/ 226 ، وتاج العروس (أل) ، وأمالي القالي 1/ 41 ، وكتاب الحيوان 4/ 360 ، وتفسير الطبري 10/ 60 ، والمعاني الكبير 1/ 336 ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 1/ 21 ، وكتاب العين 8/ 361 ، والمخصص 3/ 151 ، والأضداد لابن الأنباري ص 346 . [. . . . .]

(3) البيت من الطويل ، وهو بلا نسبة في المعاني الكبير 2/ 949 .

(149/668)

قال ابن عباس : يريد لا أسألكم على ما أتيتكم به من الهدى أجرا إلا أن تودّوني في القرابة منكم . وكانت لرسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم ، ولادات كثيرة في بطون قريش . وقال اللّه عز وجل : لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ [التوبة : 128] .

قال ابن عباس : قالت قريش : يسألنا أن نودّه في القرابة وهو يشتم آلهتنا ويعيبها ؟ ! فأنزل اللّه تعالى : قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ [سبأ : 47] .

ويقال للعهد : (إل) ، لأنّه باللّه يكون .

6 - القنوت

القنوت : القيام .

وسئل صلّى اللّه عليه وسلم : أيّ الصلاة أفضل ؟ فقال : "طول القنوت" "1"

أي طول القيام .

وقال تعالى : أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً [الزمر : 9] ، أي أمن هو مصلّ ،

فسميت الصلاة قنوتا : لأنها بالقيام تكون .

وروي عنه ، عليه السلام ، أنه قال : "مثل المجاهد في سبيل اللّه كمثل القانت الصائم" "2"

، يعني المصلّي الصّائم .

ثم قيل للدعاء : قنوت ، لأنّه إنما يدعو به قائما في الصلاة قبل الركوع أو بعده .

وقيل ، الإمساك عن الكلام في الصلاة قنوت ، لأن الإمساك عن الكلام يكون في

---

(1) أخرجه مسلم في المسافرين حديث 165 ، والترمذي حديث 387 ، وابن ماجه حديث 1421 ، والنسائي 5/ 58 ، وأحمد في المسند 3/ 302 ، 314 ، 391 ، 412 ، 4/ 385 ، 387 ، والبيهقي في السنن الكبرى 3/ 8 ، والطبراني في المعجم الكبير 17/ 48 ، والبغوي في شرح السنة 1/ 248 ، والهيثمي في مجمع الزوائد 1/ 54 ، 60 ، 61 ، 3/ 116 ، والسيوطي في الدر المنثور 1/ 66 ، والهيثمي في موارد الظمآن 94 ، والمنذري في الترغيب والترهيب 3/ 409 ، وعبد الرزاق في مصنفه 4845 ، وابن عبد البر في التمهيد 1/ 132 ، والطحاوي في شرح معاني الآثار 1/ 299 ، 476 ، والمتقي الهندي في كنز العمال 1400 ، 19658 ، 44158 ،

والقرطبي في تفسيره 15/ 239 ، وابن كثير في تفسيره 2/ 424 ، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق 6/ 356 ، وأبو نعيم في حلية الأولياء 3/ 357 ، وتاريخ أصبهان 1/ 91.

(2) أخرجه مسلم في الإمارة حديث 110 ، وأحمد في المسند 4/ 272 ، والهيثمي في مجمع الزوائد 5/ 275 ، والسيوطي في الدر المنثور 1/ 245 ، 246 ، والمتقي الهندي في كنز العمال 10651 ، 10652 ، والربيع بن حبيب في مسنده 2/ 17 ، وابن أبي شيبة في مصنفه 5/ 287 ، 319 . والبيهقي في السنن الكبرى 9/ 158 .

(150/668)

القيام ، لا يجوز لأحد أن يأتي فيه بشيء غير القرآن .

قال زيد بن أرقم : كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت : وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ [البقرة : 238] ، فنهينا عن الكلام وأمرنا بالسكوت "1" .

ويقال : إن قانتين في هذا الوضع : مطيعين .

والقنوت : الإقرار بالعبوديّة ، كقوله : وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26) [الروم : 26] ، أي مقرّون بعبوديته .

والقنوت : الطاعة ، كقوله : وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ [الأحزاب : 35] ، أي : المطيعين والمطيعات .

وقوله : إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ [النحل : 120] ، أي مطيعا للّه .

ولا أرى أصل هذا الحرف إلا الطاعة ، لأنّ جميع هذه الخلال : من الصلاة ، والقيام فيها ، والدعاء وغير ذلك – يكون عنها .

7 – الدّين

الدّين : الجزاء . ومنه قوله تعالى : مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) [الفاتحة : 4] أي يوم الجزاء والقصاص . ومنه يقال : دنته بما صنع . أي جزيته بما صنع . وكما تدين تدان .

والدّين : الملك والسّلطان . ومنه قول الشاعر "2" :

لئن حللت بجوّ في بني أسد في دين عمرو وحالت دوننا فدك

أي في سلطانه . ويقال من هذا : دنت القوم أدينهم ، أي قهرتهم وأذللتهم ، فدانوا أي ذلّوا وخضعوا .

والدّين للّه إنما هو من هذا . ومنه قول القطاميّ "3" :

---

(1) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة باب 2 ، وتفسير سورة 2 ، باب 43 ، ومسلم في المساجد حديث 35 ، والترمذي في الصلاة باب 180 ، وتفسير سورة 2 ، باب 33 .

(2) البيت من البسيط ، وهو لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص 183 ، ولسان العرب (فدك) ، (خوا) ، وجمهرة الأمثال 1/ 116 ، وتاج العروس (فدك) ، (خوو) ، والكامل 1/ 192 ، وأمالي القالي 2/ 295 ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 688 .

(3) صدر البيت :

رمت القاتل من فؤادك بعد ما والبيت من الكامل ، وهو في ديوان القطامي ص 15 .

كانت نوار تدينك الأديانا أي تذلّك . ومنه قول اللّه تعالى : وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ [التوبة : 29] ، أي لا يطيعونه .

والدّين : الحساب ، من قوله تعالى ، مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ [التوبة : 36] . ومنه قوله عز وجل : يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ [النور : 25] ، أي حسابهم .

8 - المولى

المولى : المعتق . والمولى : المعتق . والمولى : عصبة الرّجل . ومنه قول اللّه عز وجل : وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي [مريم : 5] . أراد : القرابات .

وقال رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وسلم : "أيما امرأة نكحت بغير أمر مولاها فنكاحها باطل" "1" ،

أي : بغير أمر وليها .

وقد يقال لمن تولّاه الرجل وإن لم يكن قرابة : مولى . قال تعالى : ذِلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ [محمد : 14] أي : وليّ المؤمنين ، وأن الكافرين لا ولي لهم .

وقال تعالى : يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً [الدخان : 41] . أي : وليّ عن وليّه شيئا ، إمّا بالقرابة أو بالتّولّي .

والحليف أيضا : المولى . قال النابغة الجعدي "2" :

---

(1) أخرجه الترمذي في النكاح باب 15 ، وأبو داود في النكاح باب 16 ، 19 ، وابن ماجه في النكاح باب 15 ، والدارمي في النكاح باب 11 ، وأحمد في المسند 6/ 47 ، 66 ، 166 ، والألباني في إرواء الغليل 6/ 243 ، وابن حجر في فتح الباري 9/ 191 ، وسعيد بن منصور في سننه 528 ، 529 ، والحميدي في مسنده 228 ، والطحاوي في شرح معاني الآثار 3/ 7 ، والشافعي في مسنده 220 ، 275 ، والسهمي في تاريخ جرجان 316 ، وابن أبي شيبة في مصنفه 3/ 160 ، والحاكم في

المستدرك 2/ 168 .

(2) يروى عجز البيت بلفظ :

ولكن قطينا يحلبون الأتاويا والبيت من الطويل ، وهو للنابغة الجعدي في ديوانه ص 178 ، ولسان العرب (أيّ) ، (ولي) ، وتاج العروس (أتي) ، (ولي) ، وبلا نسبة في لسان العرب (حلب) ، وديوان الأدب 3/ 224 ، وتاج العروس (حلب) .

(153/668)

موالي حلف لا موالي قرابة ولكن قطينا يسألون الأتاويا

وقال اللّه عز وجل : النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ [الأحزاب : 6] يريد : إذا دعاهم إلى أمر ، ودعتهم أنفسهم إلى خلاف ذلك الأمر - كانت طاعته أولى بهم من طاعتهم لأنفسهم .

9 - الضلال

الضّلال : الحيرة والعدول عن الحق والطريق ، يقال : ضلّ عن الحق ، كما يقال : ضل عن الطريق . ومنه قوله تعالى : وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى (7) [الضحى : 7] .

والضلال : النسيان . والنّاسي للشيء عادل عنه وعن ذكره ، قال اللّه تعالى : قالَ فَعَلْتُها

إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) [الشعراء : 20] . أي : النّاسين . وقال : أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى [البقرة : 282] أي : إن نسيت واحدة ذكّرت الأخرى .

والضلال : الهلكة والبطلان ، ومنه قوله تعالى : وَقالُوا أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ [السجدة : 10] . أي : بطلنا ولحقنا بالتراب : ويقال : أضلّ القوم ميّتهم ، أي : قبروه .

قال النابغة "1" :

وآب مضلّوه بعين جليّة أي : قابروه .

10 - الإمام

الإمام : أصله ما ائتممت به . قال اللّه تعالى لإبراهيم : إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً [البقرة : 124] . أي : يؤتمّ بك ، ويقتدى بسنّتك .

ثم يجعل الكتاب إماما يؤتم بما أحصاه . قال اللّه عز وجل : يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ [الإسراء : 71] أي : بكتابهم الذي جمعت فيه أعمالهم في الدنيا .

وقال : وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ [يس : 12] يعني : كتابا ، أو يعني : اللّوح المحفوظ .

---

(1) عجز البيت : وغودر بالجولان حزم ونائل والبيت من الطويل ، وهو للنابغة الذبياني في ديوانه ص 121 ، ولسان العرب (ضلل) ، (جلا) ، وتاج العروس (ضلل) ، (جلا) ،

وتهذيب اللغة 11/ 187 ، 465 ، وجمهرة اللغة ص 1044 ، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص 1077 ، ومقاييس اللغة 1/ 496 ، 3/ 356 ، ومجمل اللغة 3/ 277 .

(154/668)

وقد يجعل الطريق إماما ، لأنّ المسافر يأتم به ويستدل . قال اللّه تعالى : وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ [الحجر : 79] أي : بطريق واضح .

11 - الصلاة

الصلاة : الدعاء . قال اللّه تعالى : وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ [التوبة : 103] .

أي : ادع لهم ، إنّ ذلك مما يسكّنهم وتطمئن إليه قلوبهم .

وقال : وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ [التوبة : 99] يعني : دعاءه .

وقال الأعشى يذكر الخمر والخمّار "1" :

وقابلها الرّيح في دنّها وصلّى على دنّها وارتسم

أي : دعا لها بالسلامة من الفساد والتغيّر .

والصّلاة من اللّه : الرحمة والمغفرة . قال اللّه تعالى : إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ

[الأحزاب : 56] . وقال : هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ [الأحزاب : 43] وقال : أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ [البقرة : 157] أي : مغفرة .

وقال النبي ، صلّى اللّه عليه وسلم : "اللهم صلّ على آل أبي أوفى" "2"

يريد : ارحمهم واغفر لهم .

---

(1) البيت من المتقارب ، وهو للأعشى في ديوانه ص 85 ، ولسان العرب (رسم) ، (صلا) ، والمخصص 13/ 85 ، ومقاييس اللغة 3/ 300 ، وتهذيب اللغة 9/ 166 ، 12/ 237 ، وجمهرة اللغة ص 115 ، 720 ، وتاج العروس (رسم) ، وبلا نسبة في لسان العرب (دنن) ، وتاج العروس (دنن) .

(2) أخرجه البخاري في الزكاة 2/ 159 ، ومسلم في الزكاة حديث 176 ، والنسائي في الزكاة باب 7 ، وابن ماجه حديث 1796 ، وأحمد في المسند 4/ 353 ، 355 - 381 ، والبيهقي في السنن الكبرى 2/ 152 ، 4/ 157 ، 7/ 5 ، والبغوي في شرح السنة 3/ 145 ، وابن كثير في تفسيره 4/ 146 ، والقرطبي في تفسيره 1/ 382 ، 15/ 118 ، والبخاري في التاريخ الكبير 5/ 24 ، والطحاوي في شرح مشكل الآثار 4/ 162 ، والسيوطي في الدر المنثور 3/ 275 ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد 12/ 319 ، 14/ 235 ، والساعاتي في منحة المعبود 833 ، والبغوي في شرح السنة 5/ 485 ، وأبو نعيم في حلية الأولياء 5/ 96 ، وابن الجوزي في زاد المسير 7/

82 ، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين 4/ 156 ، والقاضي عياض في الشفاء 2/ 189 ، وابن حجر في فتح الباري 7/ 448 ، 534 ، 11/ 136 ، 169 ، والطبراني في المعجم الكبير 18/ 10 ، وابن حجر في الكافي والشافي في تخريج أحاديث الكشاف 79 ، 137 ، وابن أبي شيبة في مصنفه 2/ 519 ، وابن عدي في الكامل في الضعفاء 6/ 2122 .

(155/668)

و الصلاة : الدين . قال تعالى حكاية عن قوم شعيب : أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا [هود : 87] ، ويقال : قراءتك .

12 - الكتاب

أصل الكتاب : ما كتبه اللّه في اللّوح مما هو كائن .

ثم تتفرع منه معان ترجع إلى هذا الأصل . كقوله : كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي [المجادلة : 21] أي : قضى اللّه ذلك وفرغ منه .

وقوله : لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا [التوبة : 51] أي : ما قضى اللّه لنا .

وقوله : لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ [آل عمران : 154] أي : قضي ، لأنّ

هذا قد فرغ منه حين كتب.

ويكون كتب بمعنى فرض، كقوله: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ [البقرة: 178] أي:

(156/668)

فرض. وكُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ [البقرة: 180] ووَقالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ [النساء: 77] أي: فرضت. ويكون كتب بمعنى جعل، كقوله: كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ [المجادلة: 22].

وقوله: فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ [آل عمران: 53]. وقال: فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ [الأعراف: 156].

وتكون كتب بمعنى أمر، كقوله: ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ [المائدة: 21]، أي: أمركم أن تدخلوها.

ويقال: كتب ها هنا أيضا: جعل. يريد ادخلوا الأرض التي كتبها اللّه لولد إبراهيم، عليه السلام، أي: جعلها لهم.

13 - السبب والحبل

السّبب أصله: الحبل.

ثم قيل لكل شيء وصلت به إلى موضع ، أو حاجة تريدها : سبب .

تقول : فلان سببي إليك ، أي وصلني إليك . وما بيني وبينك سبب ، أي آصرة رحم ، أو عاطفة مودّة . ومنه قيل للطريق : سبب ، لأنّك بسلوكه تصل إلى الموضع الذي تريده ، قال عز وجل : فَأَتْبَعَ سَبَباً (85) [الكهف : 85] أي : طريقا .

وأسباب السماء : أبوابها ، لأن الوصول إلى السماء يكون بدخولها . قال اللّه عز وجل - حكاية عن فرعون : لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ [غافر : 36 ، 37] .

وقال زهير "1" :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو نال أسباب السّماء بسلّم

وكذلك الحبل ، قال اللّه عز وجل : وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ [آل عمران : 103] أي : بعهد اللّه أو بكتابه ، يريد : تمسكوا به ، لأنه وصلة لكم إليه وإلى جنّته .

ويقال للأمان أيضا : حبل ، لأنّ الخائف مستتر مقموع ، والآمن منبسط بالأمان متصرّف ، فهو له حبل إلى كل موضع يريده .

قال اللّه تعالى : ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ [آل عمران : 112] أي : بأمان .

وقال الأعشى "2" :

وإذا تجوّزها حبال قبيلة أخذت من الأخرى إليك حبالها

وأما قول امرئ القيس "3" :

إنّي بحبلك واصل حبلي وبريش نبلك رائش نبلي

فإنه يريد : إنّي واصل بيني وبينك .

وأصل هذا يكون في البعيرين : يكونان مفترقين وعلى كل واحد منهما حبل ، فيقرنان بأن يوصل حبل هذا بحبل هذا .

وقال أبو زبيد يذكر رجلا سرى ليلة كلها "4" :

---

(1) البيت من الطويل ، وهو في ديوان زهير بن أبي سلمى ص 30 ، والخصائص 3/ 324 ، 325 ، وسر صناعة الإعراب 1/ 267 ، وشرح شواهد المغني 1/ 386 ، ولسان العرب (سبب) .

(2) البيت من الكامل ، وهو في ديوان الأعشى ص 79 ، ولسان العرب (حبل) ، وتهذيب اللغة 5/ 78 ، ومقاييس اللغة 2/ 131 ، وتاج العروس (حبل) ، ومجمل اللغة 2/ 133 ، والبيت بلا نسبة في جمهرة اللغة ص 283 .

(3) البيت من الكامل ، وهو في ديوان امرئ القيس ص 239 ، وشرح أبيات سيبويه 1/ 406 ، ولسان العرب (حبل) ، والبيت للنمر بن تولب في ملحق ديوانه ص 405 ، وبلا نسبة في رصف المباني ص 447 ، والكتاب 1/ 164 . [. . . . .]

(4) البيت من الخفيف ، وهو لأبي زبيد الطائي في ديوانه ص 55 ، ولسان العرب (جعل) ، وتاج العروس (جعل) ، والمعاني الكبير ص 932 ، وبلا نسبة في ديوان الأدب 2/ 415 .

(158/668)

ناط أمر الضّعاف فاجتعل اللّي ل كحبل العاديّة الممدود .

يريد : أن مسيره اتصل الليل كلّه ، فكان كحبل ممدود .

14 - الظلم

أصل الظلم في كلام العرب : وضع الشيء في غير موضعه .

ويقال : (من أشبه أباه فما ظلم) "1" ، أي : فما وضع الشّبه غير موضعه .

وظلم السّقاء : هو أن يشرب قبل إدراكه .

وظلم الجزور : أن يعتبط ، أي ينحر ، من غير علّة .

وأرض مظلومة : أي حفرت وليست موضع حفر .

ويقال : الزم الطريق ولا تظلمه ، أي : لا تعدل عنه .

ثم قد يصير الظلم بمعنى الشّرك ، لأنّ من جعل للّه شريكا : فقد وضع الرّبوبيّة غير موضعها . يقول اللّه سبحانه : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان : 13] ، وقال : وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ [الأنعام : 82] ، أي : يشرك .

ويكون الظلم : النّقصان ، قال اللّه تعالى : وَما ظَلَمُونا وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [البقرة : 57] أي ما نقصونا .

وقال : آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً [الكهف : 33] أي لم تنقص منه شيئا . ومنه يقال : ظلمتك حقّك ، أي : نقصتك . ومنه قوله تعالى : وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً [مريم : 60] ولا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً [يس : 54] .

ويكون الظلم : الجحد ، قال اللّه تعالى : وَآتَيْنا ثَمُودَ النّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها [الإسراء : 59] أي : جحدوا بأنّها من اللّه تعالى .

وقال : بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ [الأعراف : 9] ، أي يجحدون .

15 - البلاء

أصل البلاء : الاختبار ، قال اللّه جل وعلا : وَابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً [النساء : 6] ،

(1) هو جزء من بيت وتمامه :

أنا ابن الذي لم يخزني في حياته قديما ومن أشبه أباه فما ظلم

والبيت من الطويل ، وهو لكعب بن زهير في ديوانه ص 65 ، ومقاييس اللغة 3/ 468 ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 3/ 244 .

(159/668)

أي : اختبروهم . وقال : إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (106) [الصافات : 106] ، يعني : ما أمر به إبراهيم من ذبح ابنه ، صلوات اللّه عليهما .

وقال : وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ [الأعراف : 168] ، أي اختبرناهم .

ثم يقال للخير : بلاء ، وللشر : بلاء ، لأنّ الاختبار الذي هو بلاء وابتلاء يكون بهما . قال اللّه تعالى وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً [الأنبياء : 35] ، أي نختبركم بالشر ، لنعلم كيف صبركم ؟ وبالخير ، لنعلم كيف شكركم ؟ .

(فتنة) أي اختبارا . ومنه يقال : اللهم لا تبلنا إلا بالتي هي أحسن . أي لا تختبرنا إلا بالخير ، ولا تختبرنا بالشر .

يقال من الاختبار : بلوته أبلوه بلوا ، والاسم بلاء . ومن الخير : أبليته أبليه إبلاء .

ومنه يقال : يبلى ويولي . قال زهير "1" :

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو أي : خير البلاء الذي يختبر به عباده .

ومن الشر : بلاه اللّه يبلوه بلاء . قال اللّه عز وجل : وَفِي ذِلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ [البقرة : 49] ، أي : نعمة عظيمة . وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (33) [الدخان : 33] ، أي : نعم بيّنة عظام .

16 - الرجز والرجس

الرّجز : العذاب . قال اللّه تعالى - حكاية عن قوم فرعون : لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ [الأعراف : 134] أي العذاب .

ثم قد يسمّى كيد الشيطان : رجزا ، لأنّه سبب العذاب . قال اللّه تعالى : وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ [الأنفال : 11] .

والرجس : النّتن .

ثم قد يسمّى الكفر والنفاق : رجسا ، لأنّه نتن . قال اللّه تعالى : فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ [التوبة : 125] ،

---

(1) صدر البيت :

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم والبيت من الطويل ، وهو في ديوان زهير بن أبي سلمى ص

109 ، ولسان العرب (بلا) ، وتهذيب اللغة 15/ 390 ، ومقاييس اللغة 1/ 294 ، وديوان الأدب 4/ 109 ، وتاج العروس (بلى) .

(160/668)

أي : كفرا إلى كفرهم ، أو نفاقا إلى نفاقهم .

وقال اللّه تعالى : وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ [يونس : 100] .

وقال اللّه عز وجل : وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) [المدثر : 5] ، يعني الأوثان ، سمّاها رجزا - والرّجز : العذاب - لأنها تؤدّي إليه .

17 - الفتنة

الفتنة : الاختبار ، يقال : فتنت الذهب في النّار : إذا أدخلته إليها لتعلم جودته من رداءته . وقال تعالى : وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ [العنكبوت : 3] . أي : اختبرناهم . وقال لموسى عليه السلام : وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً [طه : 40] . ومنه قوله : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) [الأنعام : 23] أي : جوابهم ، لأنهم حين سئلوا اختبر ما عندهم بالسؤال ، فلم يكن الجواب عن ذلك الاختبار إلا هذا القول .

والفتنة : التعذيب . قال : إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ [البروج : 10] أي عذّبوهم

بالنار .

وقال عز وجل : يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) [الذاريات : 13] أي يعذبون . ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ [الذاريات : 14] أي يقال لهم : ذوقوا فتنتكم ، يراد هذا العذاب بذاك .

وقال عز وجل : فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ [العنكبوت : 10] أي : جعل عذاب الناس وأذاهم كعذاب اللّه .

والفتنة : الصدّ والاستزلال . قال اللّه عز وجل : وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ [المائدة : 49] ، أي : يصدّوك ويستزلوك . وقال اللّه تعالى : وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ [الإسراء : 73] ، وقال : ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (162) إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (163) [الصافات : 162 ، 163] أي : صادين .

والفتنة : الإشراك والكفر والإثم ، كقوله : وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ [البقرة : 193] ، أي : شرك .

(161/668)

وقال : وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ [البقرة : 191] يعني الشرك . وقال : أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا [التوبة : 49] أي : في الإثم .

وقال : فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ [النور : 63] ، أي : كفر وإثم .

وقال : وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ [الحديد : 14] أي : كفرتم وآثمتموها .

والفتنة : العبرة ، كقوله : رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [يونس : 85] وفي موضع آخر : لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا [الممتحنة : 5] أي : يعتبرون أمرهم بأمرنا ، فإذا رأونا في ضرّ وبلاء ورأوا أنفسهم في غبطة ورخاء – ظنّوا أنهم على حق ، ونحن على باطل .

وكذلك قوله : فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ [الأنعام : 53] .

18 – الفرض

الفرض : وجوب الشيء .

ويقال : فرضت عليك كذا ، أي : أوجبته . قال الله تعالى : فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ [البقرة : 197] أي : أوجبه على نفسه . وقال : فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ [البقرة : 237] أي : ألزمتم أنفسكم . وقال : قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ [الأحزاب : 50] أي : ألزمناهم ، ومنه قوله في آية الصدقات بعد أن عدّد أهلها :

فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ [النساء : 11] وقيل للصلاة المكتوبة : فريضة . وقيل لسهام الميراث : فريضة .

وقال : قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ [التحريم : 2] أي : أوجب لكم أن تكفّروا إذا حلفتم .

وبعض المفسرين يجعلها بمعنى : بيّن لكم كيف تكفّرون عنها . قال : ومثلها :

سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها [النور : 1] أي : بيّنّاها .

وقد يجوز في اللغة أن يكون فرضناها : أوجبنا العمل بما فيها .

وقال : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ [القصص : 85] .

قال المفسرون : فيه أنزل عليك القرآن .

(162/668)

وقد يجوز في اللغة أن يكون أوجب عليك العمل بما فيه .

وقال : ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ [الأحزاب : 38] .

قال المفسرون : فيما أحل اللّه له .

وقد يجوز في اللغة أن يكون : ما أوجب له من النكاح ، يعني : نكاح أكثر من أربع .

19 - الخيانة

الخيانة : أن يؤتمن الرجل على شيء ، فلا يؤدي الأمانة فيه .

يقال لكل خائن : سارق وليس كل سارق خائنا .

والقطع يجب على السارق ، ولا يجب على الخائن ، لأنه مؤتمن .

قال النّمر بن تولب "1" :

وإنّ بني ربيعة بعد وهب كراعي البيت يحفظه فخانا

ويقال : لناقض العهد : خائن ، لأنه أمن بالعهد وسكن إليه ، فغدر ونكث . قال اللّه تعالى :

وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً [الأنفال : 58] .

أي : نقضا للعهد .

وكذلك قوله : وَلا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ [المائدة : 13] أي غدر ونكث .

ويقال لعاصي المسلمين : خائن ، لأنّه مؤتمن على دينه . قال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ [الأنفال : 27] . يريد المعاصي .

وقال اللّه تعالى : عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ [البقرة : 187] أي :

تخونونها بالمعصية .

20 - الإسلام

الإسلام : هو الدخول في السّلم ، أي : في الانقياد والمتابعة . قال تعالى : وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً [النساء : 94] أي : انقاد لكم وتابعكم .

والاستسلام مثله . يقال : سلّم فلان لأمرك واستسلم وأسلم . أي دخل في السّلم .

كما تقول : أشتى الرجل : إذا دخل في الشتاء ، وأربع : دخل في الربيع ، وأقحط : دخل في القحط .

فمن الإسلام متابعة وانقياد باللّسان دون القلب . ومنه قوله تعالى : قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا [الحجرات : 14] أي : أنقذنا من خوف السيف .

وكذلك قوله : وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً [آل عمران :

---

(1) البيت من الوافر ، وهو في ديوان النمر بن تولب ص 395 ، والمعاني الكبير 1/ 592 ، وأدب الكاتب ص 37 ، والاقتضاب ص 303 ، وشرح أدب الكاتب للجواليقي ص 145 .

83] ، أي : انقاد له وأقرّ به المؤمن والكافر .

ومن الإسلام : متابعة وانقياد باللسان والقلب ، ومنه قوله حكاية عن إبراهيم : قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ [البقرة : 131] . وقوله : فَإِنْ حاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ [آل عمران : 20] أي : انقدت للّه بلساني وعقدي .

والوجه زيادة . كما قال : كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [القصص : 88] ، يريد : إلا هو .

وقوله : إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ [الإنسان : 9] ، أي للّه . قال زيد بن عمرو بن نفيل في الجاهلية "1" :

أسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا

أي : انقادت له المزن .

21 - الإيمان

الإيمان : هو التصديق . قال اللّه تعالى : وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا أي : بمصدّق لنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ [يوسف : 17] وقال : ذِلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا [غافر : 12] ، أي : تصدّقوا . والعبد مؤمن باللّه ، أي مصدّق . واللّه مؤمن : مصدّق ما وعده ، أو قابل إيمانه . ويقال في الكلام : ما أومن بشيء مما تقول أي ما أصدّق به .

فمن الإيمان : تصديق باللسان دون القلب ، كإيمان المنافقين . يقول اللّه تعالى : ذِلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا [المنافقون : 3] ، أي آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم . كما كان من الإسلام انقياد باللسان دون القلب .

ومن الإيمان : تصديق باللسان والقلب . يقول اللّه تعالى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولِئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) [البينة : 7] ، كما كان من الإسلام انقياد باللسان والقلب .

ومن الإيمان : تصديق ببعض وتكذيب ببعض . قال اللّه تعالى : وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) [يوسف : 106] ، يعني مشركي العرب ، إن سألتهم من خلقهم ؟ قالوا : اللّه ، وهم مع ذلك يجعلون له شركاء . وأهل الكتاب يؤمنون ببعض

(1) البيت من المتقارب ، وهو لزيد بن عمرو بن نفيل في تفسير الطبري 1/ 393 ، والمعارف ص 27 ، ومجمع البيان 1/ 187 ، والأغاني 3/ 17 .

(164/668)

الرّسل والكتب ، ويكفرون ببعض . قال اللّه تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا [غافر : 85] ، يعني : ببعض الرسل والكتب ، إذ لم يؤمنوا بهم كلّهم .

وأما قوله عز وجل : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالنَّصارى وَالصَّابِئِينَ [البقرة : 62] ثم قال : مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ [البقرة : 62] - فإن هؤلاء قوم آمنوا بألسنتهم . فقال تعالى : مَنْ آمَنَ

[البقرة : 62] منهم بقلبه بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، كأنه قال : إن المنافقين والذين هادوا .

22 - الضرّ

الضرّ : بفتح الضاد - ضد النفع ، قال اللّه عز وجل : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) [الشعراء : 72 ، 73] وقال : قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا [الأعراف : 188] أي : لا أملك جرّ نفع ولا دفع ضرّ ؟ .

والضّرّ : الشدة والبلاء ، كقوله : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ [الأنعام : 17] ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ [البقرة : 177] .

(165/668)

فمن الشدّة : قحط المطر ، قال اللّه تعالى : وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ [يونس : 21] أي : مطرا من بعد قحط وجدب .

ومنه : الهول ، كقوله : وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ [الإسراء : 67] .

ومنه المرض ، كقول أيوب عليه السّلام : أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ [الأنبياء : 83] ، فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا [الزمر : 49] .

ومنه النقص ، كقوله تعالى : لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ [محمد : 32] .

23 - الحرج

الحرج : أصله الضيق . ومن الضيق : الشك ، كقول اللّه تعالى : فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ [الأعراف : 2] ، أي شك ، لأنّ الشّاكّ في الشيء يضيق صدرا به .

ومن الحرج : الإثم ، قال تعالى : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ [النور : 61] أي إثم وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ [التوبة : 91] ، أي إثم .

وأما الضيق بعينه فقوله : وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ [الحج : 78] أي ضيق .

وَيَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً [الأنعام : 125] وحرجا . ومنه الحرجة وهي :

الشجر الملتفّ .

24 - الروح

الرّوح والرّيح والرّوح : من أصل واحد اكتنفته معان تقاربت ، فبني لكلّ معنى اسم من ذلك الأصل ، وخولف بينها في حركة البنية .

والنّار والنّور من أصل واحد ، كما قالوا : الميل والميل ، وهما جميعا من مال .

فجعلوا الميل - بفتح الباء - فيما كان خلقة فقالوا : في عنقه ميل ، وفي الشجرة ميل .

وجعلوا الميل - بسكون الياء - فيما كان فعلا فقالوا : مال عن الحق ميلا ، وفيه ميل عليّ ، أي تحامل .

وقالوا : اللّسن واللّسن واللّسن ، وهذا كله من اللسان ، فاللّسن : جودة اللّسان .

واللّسن : العذل واللوم . ويقال : لسنت فلانا لسنا : أي عذلته ، وأخذته بلساني .

واللّسن : اللّغة . يقال : لكلّ قوم لسن .

وقالوا : حمل الشجرة - بفتح الحاء - وحمل المرأة - بفتح الحاء - وقالوا لما كان على الظهر : حمل ، والأصل واحد .

في أشباه لهذا كثيرة . وقد ذكرنا منها طرفا في صدر الكتاب .

وأما الرّوح : فروح الأجسام الذي يقبضه اللّه عند الممات .

والرّوح : جبريل عليه السلام . قال اللّه تعالى : نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلى قَلْبِكَ [الشعراء : 193 ، 194] ، يعني جبريل . وقال : وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ [البقرة : 253] ، أي بجبريل .

والرّوح - فيما ذكر المفسرون - : ملك عظيم من ملائكة اللّه يقوم وحده فيكون صفا وتقوم الملائكة صفّا قال : يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا [النبأ : 38] ، وقال عز وجل : وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [الإسراء : 85] .

ويقال للملائكة : الرّوحانيّون ، لأنهم أرواح ، نسبوا إلى الرّوح - بالألف والنون - لأنها نسبة الخلقة ، كما يقال : رقبانيّ وشعرانيّ .

والرّوح : النّفخ ، سمّي روحا لأنه ريح تخرج عن الرّوح . قال ذو الرّمة وذكر نارا قدحها "1" :

فلمّا بدت كفّنتها وهي طفلة بطلساء لم تكمل ذراعا ولا شبرا

---

(1) الأبيات من الطويل ، وهي في ديوان ذي الرمة ص 1428 - 1429 ، والبيت الأول في لسان العرب

وقلت له : ارفعها إليك وأحيها بروحك واقتته لها قيتة قدرا

وظاهر لها من يابس الشّحت واستعن عليها الصّبا واجعل يديك لها سترا

قوله : وأحيها بروحك ، أي أحيها بنفخك .

والمسيح : روح اللّه ، لأنه نفخة جبريل في درع مريم . ونسب الرّوح إلى اللّه لأنه بأمره كان .

يقول اللّه : فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا [الأنبياء : 91] ، يعني نفخة جبريل .

وقد يجوز أن يكون سمّي روح اللّه لأنه بكلمته كان ، قال اللّه تعالى : كن ، فكان .

(167/668)

و كلام اللّه : روح ، لأنه حياة من الجهل وموت الكفر ، قال : يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ [غافر : 15] ، وقال : وكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا [الشورى : 52] .

ورحمة اللّه : روح . قال اللّه تعالى : وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ [المجادلة : 22] ، أي برحمة ، كذلك قال المفسرون .

ومن قرأ : فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ [الواقعة - : 89] بضم الراء ، أراد فرحمة ورزق . والريحان : الرزق . قال النّمر بن تولب "1" :

سلام الإله وريحانه ورحمته وسماء درر

فجمع بين الرّزق والرحمة ، كما قال اللّه تعالى : فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ ، وهذا شاهد لتفسير المفسرين .

قال أبو عبيدة فَرَوْحٌ ، أراد : حياة وبقاء لا موت فيه .

ومن قرأ : فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ بالفتح ، أراد : الرّاحة وطيب النّسيم .

وقد تكون الرّوح : الرحمة ، قال اللّه تعالى : وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ [يوسف : 87] ، أي من رحمته . سمّاها روحا لأنّ الرّوح والرّاحة يكونان بها .

(طلس) ، وتهذيب اللغة 12/ 333 ، والبيت الثاني في لسان العرب (قوت) ، (روح) ، (حيا) ، وتهذيب اللغة 5/ 225 ، 285 ، 9/ 254 ، ومقاييس اللغة 5/ 38 ، ومجمل اللغة 4/ 131 ، وديوان الأدب 3/ 313 ، وكتاب العين 5/ 200 ، وأساس البلاغة (روح) ، (قوت) ، وتاج العروس (قوت) ، (روح) ، (حيا) .

(1) البيت من المتقارب ، وهو في ديوان النمر بن تولب ص 345 ، ولسان العرب (روح) ، (درر) ، والتنبيه والإيضاح 1/ 243 ، وتهذيب اللغة 5/ 221 ، والمخصص 12/ 275 ، 17/ 164 ، وتاج العروس (روح) ، (درر) ، والبيت بلا نسبة في ديوان الأدب 3/ 47 ، 383 .

25 - الوحي

الوحي : كلّ شيء دللت به من كلام أو كتاب أو إشارة أو رسالة . قال اللّه تعالى :

إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ [النساء : 163] ، وقال : وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام : 19] ، فهذا إرسال جبريل بالقرآن .

وقال : فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا [مريم : 11] ، أي أشار إليهم وأوماً .

وقال بعض المفسرين : كتب إليهم .

قال أبو محمد :

والتفسير الأول أعجب إليّ ، لأنه قال في موضع آخر : آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً [آل عمران : 41] .

والرمز : تحريك الشفتين أو الحاجبين أو العينين ، ولا يكون كتابا .

والوحي : إلهام ، كقوله : وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ [المائدة : 111] ، وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [النحل : 68] ، أي ألهمها .

والوحي : إعلام في المنام ، كقوله : وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ

أَوْيُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ [الشورى : 51] .

والوحي : إعلام بالوسوسة من الشيطان ، قال : وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ [الأنعام : 121] ، وقال : شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً [الأنعام : 112] .

والوحي : أمر ، قال اللّه تعالى : بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (5) [الزلزلة : 5] ، أي أمرها . وقال الراجز "1" :

وحي لها القرار فاستقرّت أي أمرها بالقرار : فقرّت ، يعني الأرض . ويقال : سخّرها .

---

(1) يليه : وشدّها بالراسيات الثّبت والرجز للعجاج في ديوانه 2/ 408 ، 409 ، ولسان العرب (وحي) ، وتهذيب اللغة 5/ 296 ، 297 ، وجمهرة اللغة ص 576 ، وكتاب العين 3/ 320 ، وتاج العروس (وحي) ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 6/ 93 ، ومجمل اللغة 4/ 512 .

---

26 - الفرح

الفرح : المسرّة ، قال اللّه تعالى : حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها

[يونس : 22] أي سرّوا .

والفرح : الرضا ، لأنه عن المسرة يكون ، قال اللّه تعالى : كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [المؤمنون : 53 ، والروم : 32] أي راضون ، وقال : فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [غافر : 83] أي رضوا .

والفرح : البطر والأشر ، لأن ذلك عن إفراط السرور ، قال اللّه تعالى : إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ [القصص : 76] وقال : إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ [هود : 10] وقال : ذِلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ [غافر : 75] .

وقد تبدل (الحاء) في هذا المعنى (هاء) فيقال : فره أي بطر ، قال اللّه تعالى : وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (149) [الشعراء : 149] أي : أشرين بطرين .

و(الهاء) تبدل من (الحاء) لقرب مخرجيهما ، تقول : (مدحته) و(مدهته) ، بمعنى واحد .

27 - الفتح

الفتح : أن يفتح المغلق ، كقوله تعالى : حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها [الزمر : 73] .

والفتح : النّصر ، كقوله : فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ [النساء : 141] وقوله : فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ [المائدة : 52] ، لأن النصر يفتح اللّه به أمرا مغلقا .

والفتح : القضاء ، لأن القضاء فصل للأمور ، وفتح لما أشكل منها ، قال اللّه جل ذكره :

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ [السجدة: 28، 29] يعني يوم القيامة، لأنه يقضي اللّه فيه بين عباده.

ويقال: أراد فتح مكة لا ينفع الذين كفروا إيمانهم من خوف السيف، فلم ينفعهم ذلك وقتلهم خالد بن الوليد.

(170/668)

وقال عز وجل: ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ [سبأ: 26] أي: يقضي، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ [الأعراف: 89]: أي خير القضاة.

وقال أعرابي لآخر ينازعه: بيني وبينكم الفتاح، يعني الحاكم.

وقال ابن عباس في قول اللّه تعالى: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1) [الفتح: 1] كنت أقرؤها ولا أدري ما هي، حتى تزوجت بنت مشرح فقالت: فتح اللّه بيني وبينك، أي حكم اللّه بيني وبينك.

28 - الكريم

الكريم: الشريف الفاضل، قال اللّه تعالى: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ [الحجرات: 13] أي: أفضلكم. وقال: وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ [الإسراء: 70] أي: شرفناهم وفضّلناهم.

وقال حكاية عن إبليس : أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ [الإسراء : 62] أي : فضلت . وقال : مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ [الفجر : 15] أي : فضّله . وقال : رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [المؤمنون : 116] أي : الشريف الفاضل . وقال : وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً [النساء : 31] أي : شريفا . وقال : إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ [النمل : 29] أي شريف لشرف كاتبه ، ويقال : شريف بالختم .

والكريم : الصّفوح ، وذلك من الشرف والفضل ، قال اللّه عز وجل : فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ [النمل : 40] أي : صفوح . وقال : ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) [الانفطار : 6] أي الصّفوح .

والكريم : الكثير الكرم ، قال اللّه تعالى : وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [الأنفال : 4 ، والحج : 50 ، والنور : 26 ، وسبأ : 4] أي : كثير .

(171/668)

والكريم : الحسن ، وذلك من الفضل . قال اللّه تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) [الشعراء : 7] أي : حسن . وكذلك قوله : مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [الحج : 5 وق : 7] أي : حسن يبتهج به . وقال تعالى : وَقُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً [الإسراء : 23] ، أي

حسنا .

وهذا وإن اختلف ، فأصله الشرف .

29 - المثل

المثل : بمعنى الشّبه ، يقال : هذا مثل الشيء ومثله ، كما يقال : شبه الشيء وشبهه ، قال اللّه تعالى : مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً [العنكبوت : 41] أي شبه الذين كفروا شبه العنكبوت .

وقال : مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً [الجمعة : 5] أي : شبههم الحمار .

والمثل : العبرة ، كقوله تعالى : فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (56) [الزخرف : 56] أي : عبرة لمن بعدهم . وقوله : وَجَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ [الزخرف : 59] أي عبرة .

والمثل : الصّورة والصّفة ، كقوله : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ [محمد : 15] أي صفة الجنة .

30 - الضرب

الضرب : باليد ، كقوله تعالى : فَضَرْبَ الرِّقابِ [محمد : 4] وقوله : وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ [النساء : 34] .

والضرب : المسير ، قال اللّه تعالى : إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [النساء : 94] وقال تعالى : وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ [المزمل : 20] .

والضرب : التّبيين والوصف ، قال اللّه تعالى : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا [النحل : 75] ، وقال : فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ [النحل : 74] ، أي لا تصفوه بصفات غيره ولا تشبهوه .

31 - الزوج

(172/668)

الزوج : اثنان ، وواحد ، قال اللّه تعالى : وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (45) [النجم : 45] فجعل كل واحد منهما زوجا .

وهو بمعنى : الصّنف ، قال : خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ [يس : 36] يعني : الأصناف . وقال : ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ [الأنعام : 143] أي ثمانية أصناف .

وقال : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) [الشعراء : 7] أي من كل صنف حسن .

والزّوج : القرين ، قال اللّه تعالى : وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها [النساء : 1] ، وقال : احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ [الصافات : 22] أي قرناءهم .

وقال : وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) [التكوير : 7] أي قرنت نفوس الكفار بعضها ببعض .

ومنه قوله : وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ [الدخان : 54] أي قرناهم .

والعرب تقول : زوّجت إبلي ، إذا قرنت بعضها ببعض .

32 - الرؤية

الرؤية : المعاينة ، كقول اللّه عز وجل : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ [الزمر : 60] .

وقال : وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً [الإنسان : 20] أي : عاينت .

والرؤية : علم ، كقوله : أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً [الأنبياء : 30] أي : ألم يعلموا .

وقال : وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا [البقرة : 128] ، أي : أعلمنا .

وقال تعالى : وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ [سبأ : 6] أي : يعلم .

وقال : لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ [النساء : 105] أي : علمك اللّه .

وقال المفسرون في قوله : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ [آل عمران : 23] : ألم تخبروا . وكذلك أكثر ما في القرآن .

33 - النسيان

النسيان : ضد الحفظ ، كقوله : فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ [الكهف : 63] ، وقال : لا تُؤَاخِذْنِي بِما نَسِيتُ [الكهف : 73] .

والنسيان : الترك ، كقول اللّه تعالى : وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ [طه : 115] ، أي ترك .

وقوله : فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا ، أي بما تركتم الإيمان بلقاء هذا اليوم إِنَّا نَسِيناكُمْ [السجدة : 14] ، أي تركناكم .

وقوله : وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ [البقرة : 237] ، أي لا تتركوا ذلك .

34 - الصاعقة والصعق

الصّعق : الموت ، قال تعالى : فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ [الزمر : 68] ، وقال تعالى : وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً [الأعراف : 143] . أي ميّتا ، ثم ردّ اللّه إليه حياته .

وقال اللّه تعالى : فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ [النساء : 153] ، أي الموت ، يدلك على ذلك قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ [البقرة : 56] .

والصاعقة : العذاب ، كقوله : أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ [فصلت : 13] .

والصاعقة : نار من السحاب ، قال اللّه تعالى : وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ [الرعد : 13] .

وأراها سمّيت صاعقة ، لأنها إذا أصابت قتلت ، يقال : صعقتهم ، أي : قتلتهم .

35 - الأخذ

الأخذ : أصله باليد ، ثم يستعار في مواضع :

فيكون بمعنى : القبول ، قال اللّه تعالى : وَأَخَذْتُمْ عَلى ذِلِكُمْ إِصْرِي [آل عمران : 81] أي : قبلتم عهدي ، وقال تعالى : إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ [المائدة : 41] أي فاقبلوه .

وقال : وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ [التوبة : 104] أي يقبلها . وقال : وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ [البقرة : 48] أي : لا يقبل . وقال تعالى : خُذِ الْعَفْوَ [الأعراف : 199] أي : اقبله .

(174/668)

ويكون بمعنى : الحبس والأسر ، قال اللّه تعالى : فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ [يوسف : 78] أي : احبسه . وقال تعالى : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ أي : ائسروهم وَاحْصُرُوهُمْ [التوبة : 5] أي : احبسوهم .

ويقال للأسير : أخيذ .

والأخذ : التعذيب ، قال الله تعالى : وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى [هود : 102] أي : تعذيبه . وقال : فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ [العنكبوت : 40] أي عذبنا .

وقال : وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ [غافر : 5] أي ليعذبوه أو ليقتلوه .

36 - السلطان

السلطان : الملك والقهر ، قال الله تعالى : وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي [إبراهيم : 22] . وقال : وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ [سبأ : 21] .

والسلطان : الحجّة ، قال الله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) [غافر : 23] أي حجة .

وقال : مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا [آل عمران : 151] أي : حجّة في كتاب الله وقال : أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (156) [الصافات : 156] أي حجّة .

وقال : أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ [النمل : 21] ، أي : حجة وعذر .

37 - البأس والبأساء

البأس والبأساء : الشدة ، قال الله تعالى : فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ [الأنعام : 42] .

والبأس : الشدة بالعذاب ، قال الله تعالى : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا [غافر : 84] أي عذابنا .

وقال تعالى : فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا [الأنبياء : 12] وقال : فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ [غافر : 29] أي : يمنعنا من عذاب الله .

والبأس : الشدّة بالقتال ، قال اللّه تعالى : عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا [النساء : 84] وقال تعالى : نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ [النمل : 33] وقال : بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ [الحشر : 14] وقال : وَحِينَ الْبَأْسِ [البقرة : 177] .

38 - الخلق

الخلق : التّخرّص ، قال اللّه تعالى : إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) [الشعراء : 137] أي : خرصهم للكذب .

وقال تعالى : وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً [العنكبوت : 17] ، أي تخرصون كذبا .

وقال تعالى : إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ [ص : 7] أي : افتعال للكذب .

والعرب تقول للخرافات : أحاديث الخلق .

والخلق : التّصوير ، قال اللّه تعالى : وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ [المائدة : 110] أي : تصوّره .

والخلق : الإنشاء والابتداء ، قال اللّه تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها [الأعراف : 189] .

وأصل الخلق : التقدير ، ومنه قيل : خالقة الأديم ، قال زهير "1" :

ولأنت تفري ما خلقت وب عض القوم يخلق ثمّ لا يفري .

---

(1) البيت من الكامل ، وهو في ديوان زهير بن أبي سلمة ص 94 ، ولسان العرب (خلق) ، (فرا) ، وتهذيب اللغة 7/ 26 ، 15/ 242 ، ومقاييس اللغة 2/ 214 ، 4/ 497 ، وديوان الأدب 2/ 123 ، وكتاب الجيم 3/ 49 ، والمخصص 4/ 111 ، والبيت بلا نسبة في جمهرة اللغة ص 619 ، وتاج العروس (فرا) .

(176/668)

والخلق : الدّين ، كقوله تعالى : لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ [الروم : 30] ، أي لدين اللّه .

وقال تعالى : وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ [النساء : 119] ، أي دينه : ويقال : تغيير خلقه بالخصاء وبتك الآذان ، وأشباه ذلك .

39 - الرّجم

الرجم : أصله الرّمي ، كقوله تعالى : وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ [الملك : 5] أي مرامي . ثم يستعار فيوضع موضع القتل ، لأنهم كانوا يقتلون بالرّجم . وروي أنّ ابن آدم قتل أخاه رجما بالحجارة ، وقتل رجما بالحجارة ، فلما كان أول القتل كذلك ، سمّي رجما وإن لم يكن

بالحجارة ، ومنه قوله تعالى : لَنَرْجُمَنَّكُمْ [يس : 18] ، أي لنقتلنكم .

وقال : وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) [الدخان : 20] ، أي تقتلون . وقال : وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ [هود : 91] أي قتلناك .

ويوضع : الشتم ، لأن الشتم رمي ، ولذلك يقال : قذف فلان فلانا : إذا شتمه .

وأصل القذف : الرمي ، ومنه قول أبي أبراهيم له : لَأَرْجُمَنَّكَ [مريم : 46] ، أي لأشتمنك .

ويوضع موضع الظن ، ومنه قوله : رَجْماً بِالْغَيْبِ [الكهف : 22] ، أي ظنّا . ويقال : رجم بالظّنّ ، كأنه رمى به .

والرّجم : اللعن . والطّرد : لعن ، ومنه قيل : ذئب لعين : أي طريد .

وإنما قيل للشيطان : رجيم ، أي طريد ، لأنه يطرد برجم الكواكب .

40 – السعي

السّعي : الإسراع في المشي ، قال اللّه تعالى : وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى [القصص : 20] ، أي يسرع في مشيه ، وهو العدو أيضا .

والسعي : المشي ، قال اللّه تعالى : فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ [الصافات : 102] ، يعني المشي ، ويقال : المعاونة له على أمره .

وقال : فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ [الجمعة : 9] أي امشوا . وقرأ بعض السلف : فامضوا إلى ذكر الله .

(177/668)

وقال : ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً [البقرة : 260] ، أي مشيا ، كذلك قال بعض المفسرين .

والسّعي : العمل ، قال اللّه تعالى : فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً [الإسراء : 19] .

وقال : وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها [الإسراء : 19] أي : عمل لها عملها .

وقال : وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ [الحج : 51 وسبأ : 5] ، أي جدّوا في ذلك .

وقال : إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) [الليل : 4] ، أي عملكم لشتّى ، أي مختلف . وأصل هذا كله : المشي والإسراع فيه .

41 - المحصنات

الإحصان هو : أن يحمى الشيء ويمنع منه .

والمحصنات من النساء : ذوات الأزواج ، لأن الأزواج أحصنوهنّ ، ومنعوا منهن ، قال اللّه تعالى : وَالْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ [النساء : 24] .

المحصنات : الحرائر وإن لم يكنّ متزوجات ، لأن الحرّة تحصن وتحصن ، وليست كالأمة .

قال اللّه تعالى : وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ [النساء : 25]

وقال : فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ [النساء : 25] يعني الحرائر .

والمحصنات : العفائف ، قال اللّه تعالى : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ [النور : 4] يعني العفائف .

وقال اللّه تعالى : وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها [التحريم : 12] أي عفّت .

42 - المتاع

المتاع : المدّة ، قال اللّه تعالى : وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ [البقرة : 36] وقال تعالى : وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (111) [الأنبياء : 111] .

ومنه يقال : متع النهار . ويقال : أمتع اللّه بك .

والمتاع : الآلات التي ينتفع بها ، قال اللّه تعالى : وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ [الرعد : 17] .

والمتاع : المنفعة ، قال اللّه تعالى : نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ (73) [الواقعة : 73] ، وقال تعالى : مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ (33) [النازعات : 33] وقال تعالى أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ [المائدة : 96] .

وقال : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ [النور : 29] أي ينفعكم ويقيكم من الحرّ والبرد ، يعني الخانات .

ومنه : متعة المطلّقة .

43 - الحساب

الحساب : الكثير ، قال اللّه تعالى : جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (36) [النبأ : 36] ، أي كثيرا .

ويقال : أحسبت فلانا . أي أعطيته ما يحسبه ، أي يكفيه . ومنه قول الهذليّ "1" :

حساب ورجل كالجراد يسوم

والحساب : الجزاء ، قال اللّه تعالى : ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (26) [الغاشية : 26] ، أي جزاءهم .

وقال تعالى : إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) [الشعراء : 113] ، لأن الجزاء يكون بالحساب .

والحساب : المحاسبة ، قال اللّه تعالى : فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً (8) [الانشقاق : 8] .

44 - الأمر

الأمر : القضاء ، قال اللّه تعالى : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ [السجدة : 5] ، أي يقضي القضاء . وقال تعالى : أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ [الأعراف : 54] أي القضاء .

والأمر : الدّين ، قال اللّه تعالى : فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ [المؤمنون : 53] ، أي دينهم .

وقال تعالى : حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ [التوبة : 48] .

---

(1) يروى البيت بتمامه :

فلم ينتبه حتى أحاط بظهره حساب وسرب كالجراد يسوم

والبيت من الطويل ، وهو لساعدة بن جؤية الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص 1160 ، ولسان العرب (حسب) ، وتاج العروس (حسب) ، وأساس البلاغة (حسب) ، وديوان الهذليين 1/ 229 .

والأمر : القول ، قال اللّه تعالى : إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ [الكهف : 21] ، يعني قولهم .

والأمر : العذاب ، قال اللّه تعالى : وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ [إبراهيم : 22] ، أي وجب العذاب . وقال تعالى : وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ [هود : 44] .

والأمر : القيامة ، قال اللّه تعالى : أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ [النحل : 1] وقال تعالى :

وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ [الحديد : 14] أي القيامة أو الموت .

والأمر : الوحي ، قال اللّه تعالى : يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ [الطلاق : 12] .

والأمر : الذنب ، قال اللّه تعالى : فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها [الطلاق : 9] ، أي جزاء ذنبها .

وهذا كله وإن اختلف فأصله واحد .

ويكنى عن كل شيء : بالأمر ، لأن كلّ شيء يكون فإنما يكون بأمر اللّه ، فسميت الأشياء : أمورا ، لأن الأمر سببها ، يقول اللّه تعالى : أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ [الشورى : 53] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 247. 277 ﴾

(180/668)

قوله تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نفى صلاحية الوكالة على الناس في الهدى والضلال لغيره ودل على ذلك بملكه وملكه وأخبر بتعمدهم الباطل ، أنتج ذلك وجب اللجاء إليه والإعراض عما سواه وقصر العزم عليه فقال معلماً بذلك ومعلماً لما يقال عند مخالفة الداعي باتباع الهوى : ﴿ قل ﴾ أي يا من نزل عليه الكتاب فلا يفهم عنا حق الفهم غيره راغباً إلى ربك في أن ينصرك عليهم في الدنيا والآخرة : ﴿ اللهم ﴾ أي يا الله ، وهذا نداء محض ويستعمل أيضاً على نحوين آخرين - ذكرهما ابن الخشاب الموصلي في كتابه النهاية شرح الكفاية - أحدهما أن تذكر لتمكين الجواب في نفس السائل كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لضمام بن ثعلبة - رضى الله عنه - حيث قال : " الله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس ، فقال : اللهم نعم "

- إلى آخر ما قاله له ، وسره أن المسؤول إذا ذكر الله في جوابه .

كان ذكره إياه أبعث للسائل على تصديقه لأنه أوقر في صدره إن لم يتصد لذكر الله ولم يكن بصدده ، وهو ممن يدين باستعمال الكذب ، والثاني أن يدل به على الندرة وقلة وقوع المذكور كقول المصنفين : لا يكون كذا اللهم إلا إذ كان كذا - كأنه استغفر الله من جزمه أو لا يسد الباب في أنه لا يكون غير ما ذكره فقال : اللهم اغفر لي فإنه يمكن أن يكون كذا - انتهى .

ثم أبدل عند سيبويه ووصف عند غيره فقال : ﴿ فاطر ﴾ أي مبدع من العدم

﴿ السماوات ﴾ أي كلهم ﴿ والأرض ﴾ أي جنسها .

ولما كانت القدرة لا تتم إلا بتمام العلم قال : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي ما لا يصح علمه للخلق وما يصح .

(181/668)

ولما كان غيره سبحانه لا يمكن له ذلك ، حسن التخصيص في قوله : ﴿ أنت ﴾ أي وحدك ﴿ تحكم بين عبادك ﴾ أي أنا وهم وغيرنا في الدنيا والآخرة لا محيص عن ذلك ولا يصح في الحكمة سواه كما أن كل أحد يحكم بين عبيده ومن تحت أمره لا يسوغ في رأيه غير ذلك ﴿ في ما كانوا ﴾ أي دائماً بما اقتضته جبلاتهم التي جبلتهم عليها ﴿ فيه يختلفون ﴾ وأما غيرك فإنه لا يعلم جميع ما يفعلون ، فلا يقدر على الحكم بينهم ، وأما غير ما هم عريقون في الاختلاف فيه فلا يحكم بينهم فيه لأنه أما ما هيؤوا بفطرهم السليمة وعقولهم القويمة للاتفاق عليه فهو الحق وأما ما يعرض لهم الاختلاف فيه لا على سبيل القصد أو بقصد غير ثابت فهو مما تذهبه الحسنات فعرف أن تقديم الظرف إنما وهو للاختصاص لا الفاصلة .

ولما كان التقدير : فيعذب الظالمين فلو علموا ذلك لما ظنوا بادعائهم له سبحانه ولداً وشركاء يقربونهم إليه زلفى منهم بجلاله ونزاهته عما ادعوه له وكماله ، عطف عليه تهويلاً

للأمر قوله : ﴿ ولو أن ﴾ وكان الأصل : لهم - ولكنه قال تعميماً وتعليقاً بالوصف : ﴿ للذين ظلموا ﴾ أي وقعوا في الظلم في شيء من الأشياء ولو قال ﴿ ما في الأرض ﴾ ولما كان الأمر عظيماً أكد ذلك بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ وزاد في تعظيمه بقوله : ﴿ ومثله ﴾ وقال : ﴿ معه ﴾ ليفهم بدل الكل جملة لا على سبيل التقطيع ﴿ لافتدوا ﴾ أي لاجتهدوا في طلب أن يفدوا ﴿ به ﴾ أنفسهم ﴿ من سوء العذاب ﴾ وبين الوقت تعظيماً له وزيادة في هوله فقال : ﴿ يوم القيامة ﴾ روى الشيخان عن أنس - رضى الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " يقول الله عز وجل لأهون أهل النار عذاباً : لو أن لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك أهون من هذا وأنت صلب آدم عليه السلام أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي "

قوله : أردت أي فعلت معك بالأمر فعل المريد وهو معنى قوله في رواية : قد سألتك .

(182/668)

ولما كان التقدير : ولو كان لهم ذلك وافتدوا به ما قبل منهم ولا نفعهم ، ولأن ذلك الوقت وقت الجزاء لا وقت العمل ، واليوم وقت العمل لا وقت الجزاء ، فلو أنفقوا فيه أيسر شيء على وجهه قبل منهم ، عطف عليه من أصله لا على جزائه قوله معظماً الأمر بصرف القول

إلى الاسم الأعظم : ﴿ وبدا ﴾ أي ظهر ظهوراً تاماً ﴿ لهم ﴾ في ذلك اليوم ﴿ من الله ﴾ أي الملك الأعظم ، وهول أمره بإبهامه ليكون ضد ﴿ فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : 17] فقال : ﴿ ما لم يكونوا ﴾ بحسب جبلاتهم وما فطروا عليه من الإهمال والتهاون ﴿ يحتسبون ﴾ أي لم يكن في طبائعهم أن يتعمدوا أن يحسبوه وتجوزه عقولهم من العذاب ، وما كان كذلك كان أشق على النفس وأروع للقلب ﴿ وبدا لهم ﴾ أي ظهر ظهوراً تاماً كأنه في البادية لا مانع منه ﴿ سيئات ما ﴾ ولما كان في سياق الافتداء ، وكان الإنسان يبذل عند الافتداء في فكاك نفسه الرغائب والنفائس ، عبر هنا بالكسب الذي من مدلوله الخلاصة والعصارة التي هي سر الشيء فهو أخص من العمل ، ولذا جعله الأشعري مناط الجزاء ، فقال مبيناً أن خالص عملهم ساقط فكيف بغيره ، وهذا بخلاف ما في الجاثية ﴿ كسبوا ﴾ أي الشيء الذي عملوه برغبة مجتهدين فيه لظنهم نفعه وأنه خاص أعمالهم وأجلها وأنفعها ﴿ وحاق ﴾ أي أحاط على جهة اللزوم والأذى ﴿ بهم ما ﴾ أي جزاء الشيء الذي ﴿ كانوا به ﴾ أي دائماً كأنهم جبلوا عليه ﴿ يستهزئون ﴾ أي يطلبون ويوجدون الهزء والسخرية به من النار وجميع ما كانوا يتوعدون به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 456 . 458 ﴾

فصل

قال الفخر :

ولما حكى عنهم هذا الأمر العجيب الذي تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بأمرين أحدهما : أنه ذكر الدعاء العظيم ، فوصفه أولا بالقدرة التامة وهي قوله : ﴿ قُلِ اللهم فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ وثانياً بالعلم الكامل وهو قوله تعالى ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ ، وإنما قدم فذكر القدرة على ذكر العلم لأن العلم بكونه تعالى قادراً متقدم على العلم بكونه عالماً ، ولما ذكر هذا الدعاء قال : ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ يعني أن نفرتهم عن التوحيد وفرحهم عند سماع الشرك أمر معلوم الفساد ببديهة العقل ، ومع ذلك ، القوم قد أصروا عليه ، فلا يقدر أحد على إزالتهم عن هذا الاعتقاد الفاسد والمذهب الباطل إلا أنت .

عن أبي سلمة قال : سألت عائشة بم كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته بالليل ؟ قالت "كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما أختلف فيه من الحق بإذنك وانك لتهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل ذكر في وعيدهم أشياء أولها : أن هؤلاء الكفار لو ملكوا كل ما في الأرض من الأموال وملكوا مثله معه لجعلوا الكل فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي ظهرت لهم أنواع من العقاب لم تكن في حسابهم ، وكما أنه صلى الله عليه وسلم قال في صفة الثواب في الجنة " فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " فكذلك في العقاب حصل مثله وهو قوله : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ و ثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ ومعناه ظهرت لهم آثار تلك السيئات التي اكتسبوها أي ظهرت لهم أنواع من العقاب آثار تلك السيئات التي اكتسبوها .

ثم قال : ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزئون به ، فنبه تعالى بهذه الوجوه على عظم عقابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 249 ﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾

ثم نبه تعالى على آية من آياته الكبر تدل الناظر على الوحدانية وأن ذلك لا شرك فيه لصنم وهي حالة التوفي ، وذلك أن الله تعالى ما توفاه على الكمال فهو الذي يموت ، وما توفاه متوفياً غير مكمل فهو الذي يكون في النوم ، قال ابن زيد : النوم وفاة ، والموت وفاة . وكثرت فرقة في هذه الآية وهذا المعنى . ففرقت بين النفس والروح ، وفرق قوم أيضاً بين نفس التمييز ونفس التخيل ، إلى غير ذلك من الأقوال التي هي غلبة ظن . وحقيقة الأمر في هذا هي مما استأثر الله به وغيبه عن عباده في قوله : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ [الإسراء : 85] ويكفيك أن في هذه الآية ﴿ يتوفى الأنفس ﴾ ، وفي الحديث الصحيح : " إن الله قبض أرواحنا حين شاء وردها علينا حين شاء " في حديث بلال في الوادي ، فقد نطقت الشريعة بقبض الروح والنفس في النوم وقد قال الله تعالى : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ [الإسراء : 85] فظاهر أن التفصيل والخوض في هذا كله عناء وإن كان قد تعرض القول في هذا ونحوه أئمة ، ذكره الثعلبي وغيره عن ابن عباس أنه قال : في ابن آدم نفس بها العقل والتمييز ، وفيه روح به النفس والتحرك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه . والأجل المسمى في هذه الآية : هو عمر كل إنسان .

وقرأ جمهور القراء " قَضى عليها " بفتح القاف على بناء الفعل للفاعل . وقرأ حمزة

والكسائي " قُضي " بضم القاف على بنائه للمفعول ، وهي قراءة ابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى . ثم أحال أهل الفكرة على النظر في هذا ونحوه فأنه من البين أن هذه القدرة لا يملكها ويصرفها إلا الواحد الصمد ، لا رب غيره .

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43)

(186/668)

﴿ أم ﴾ هنا مقطوعة مما قبلها ، وهي مقدرة بالألف وبل ، وهذا تقرير وتوبيخ ، فأمر الله تعالى نبيه أن يوقفهم على الأمر وعلى أنهم يرضون بهذا مع كون الأصنام بصورة كذا وكذا من عدم الملك والعقل . والواو في قوله : ﴿ أو لو ﴾ واو عطف دخلت عليها ألف الاستفهام ، ومتى دخلت ألف الاستفهام على واو العطف أو فائه أحدثت التقرير .

ثم أمره بأن يخبر بأن جميع الشفاعة إنما هو لله تعالى . و: ﴿ جميعاً ﴾ نصب على الحال ، والمعنى ان الله تعالى يشفع ثم لا يشفع أحد قبل شفاعته إلا بإذنه ، فمن حيث شفاعة غيره موقوفة على إذنه بالشفاعة كلها له ومن عنده .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ الآية ، قال مجاهد وغيره : نزلت في قراءة النبي عليه السلام سورة النجم عند الكعبة بمحضر من الكفار ، وعند ذلك ألقى الشيطان في

أمنيته ، فقال : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، إنهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهم لترتجى ﴾ [النجم : 19] فاستبشر الكفار بذلك وسروا ، فلما أذهب الله ما ألقى الشيطان ، أنفوا واستكبروا و ﴿ اشمأزت ﴾ نفوسهم ، ومعناه تقبضت كبراً أو أنفة وكراهية ونفوراً ، ومنه قول عمرو بن كلثوم : [الوافر]

إذا عض الثقاف بها اشمأزت . . . وولته عشوزنة زبونا

و: ﴿ الذين من دونه ﴾ يريد الذين يعبدون من دونه ، وجاءت العبارة في هذه الآية عن الأصنام كما يجيء عمن يعقل من حيث صارت في حيز من يعقل ، ونسب إليها الضر والنفع والألوهية ، ونفي ذلك عنها فعوملت معاملة من يعقل . و: ﴿ وحده ﴾ منصوب عند سيبويه على المصدر ، وعند الفراء على الحال .

(187/668)

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾

أمر الله تعالى نبيه بالدعاء ورد الحكم إلى عدله ، ومعنى هذا الأمر تضمن الإجابة ، و ﴿ اللهم ﴾ عند سيبويه منادى ، وكذلك عند الكوفيين ، إلا أنه خالفهم في هذه الميم المشددة . فقال سيبويه : هي عوض من حرف النداء المحذوف إيجازاً ، وهي دلالة على

أن ثم ما حذف . وقال الكوفيون : بل هو فعل اتصل بالمكتوبة وهو : أم ، ثم حذفت الهمزة تخفيفاً ، فكأن معنى ﴿ اللهم ﴾ : بالله أم بفضلك ورحمتك .

و: ﴿ فاطر ﴾ منادى مضاف ، أي ﴿ فاطر السماوات ﴾ . و﴿ الغيب ﴾ : ما غاب عن البشر . و﴿ الشهادة ﴾ : ما شاهدوه : ثم أخبر تعالى عن سوء حال الكفرة يوم القيامة ، وأن ما ينزل بهم لو قدروا على الافتداء منه بضعف الدنيا بأسرها لفعلوا .

وقوله : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ أي كانت ظنونهم في الدنيا متفرقة متنوعة حسب ضلالتهم وتخيلاتهم فيما يعتقدونه ، فإذا عاينوا العذاب يوم القيامة وقصرت به حالاتهم ظهر لكل واحد ما كان يظن . وقال سفيان الثوري : ويل لأهل الرياء من هذه الآية . وقال عكرمة بن عمار جزع ابن المنكدر عند الموت فقيل له ما هذا ؟ فقال أخاف هذه الآية ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ . ﴿ وحاق ﴾ معناه : نزل وثبت ولزم .

وقوله : ﴿ ما كانوا ﴾ هو على حذف مضاف تقديره : ﴿ وحاق بهم ﴾ جزاء ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(188/668)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهم فَاطِرَ السماوات والأرض ﴾

نصب لأنه نداء مضاف وكذا ﴿ عَالِمَ الغيب ﴾ ولا يجوز عند سيبويه أن يكون نعتاً .

﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وفي صحيح مسلم " عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته "اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ﴿ فَاطِرَ السماوات والأرض عَالِمَ الغيب والشهادة أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم" " ولما بلغ الربيع بن خَيْثم قتل الحسين بن علي رضي الله عنهم قرأ : ﴿ قُلِ اللهم فَاطِرَ السماوات والأرض عَالِمَ الغيب والشهادة أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وقال سعيد بن جبير : إني لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه ، قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهم فَاطِرَ السماوات والأرض عَالِمَ الغيب والشهادة أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي كذبوا وأشركوا ﴿ مَا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ مِن سواء العذاب ﴾ أي من سوء عذاب ذلك اليوم .

وقد مضى هذا في سورة "آل عمران" و"الرعد" .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ من أجلِ ما روي فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال : عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات .

وقاله السدي .

وقيل : عملوا أعمالاً توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا ، وقد كانوا ظنوا أنهم ينجون بالتوبة .

(189/668)

ويجوز أن يكونوا توهموا أنه يغفر لهم من غير توبة ف ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ من دخول النار .

وقال سفيان الثوري في هذه الآية : ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم وقصتهم .

وقال عكرمة بن عمار : جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعاً شديداً ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال : أخاف آية من كتاب الله ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ أي ظهر لهم ﴿ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أي عقاب ما كسبوا من الكفر

والمعاصي .

﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي أحاط بهم ونزل ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(190/668)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ﴾

اشمأز ، قال أبو زيد : زعر .

قال غيره : تقبض كراهة ونفوراً .

قال الشاعر :

إذا عض الثقات بها اشمأزت . . .

وولته عشوزية زبونا

لما كان عليه السلام يعظم عليه عدم إيمانهم ورجوعهم إلى ما أنزل الله تعالى عليه ، سلاه تعالى عن ذلك ، وأخبره أنه أنزل عليه الكتاب ، وهو القرآن ، مصحوباً بالحق ، وهو دين الإسلام ، للناس : أي لأجلهم ، إذ فيه تكاليفهم .

﴿ فمن اهتدى ﴾ : فثواب هدايته إنما هو له ، ﴿ ومن ضل ﴾ : فعقاب ضلاله إنما هو عليه ، ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ : أي فتجبرهم على الإيمان .

قال قتادة : بوكيل : بحفيظ .

وقال الزمخشري : للناس : لأجل حاجتهم إليه ، ليبشروا وينذروا .

فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ، فلا حاجة لي إلى ذلك ، فأنا الغني .

فمن اختار الهدى ، فقد نفع نفسه ؛ ومن اختار الضلالة ، فقد ضرها ، وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى .

فإن التكليف مبني على الاختيار دون الإجبار .

انتهى ، وهو على مذهب المعتزلة .

ولما ذكر تعالى أنه أنزل الكتاب على رسوله بالحق للناس ، نبه على أنه من آياته الكبرى يدل على الوحدانية ، لا يشركه في ذلك صنم وعلى غيره ، فقال : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ ، والأنفس هي الأرواح .

وقيل : النفس غير الروح ، قاله ابن عباس .

فالروح لها تدبير عالم الحياة ، والنفس لها تدبيه عالم الإحساس .

وفرقت فرقة بين نفس التمييز ونفس التخييل .

والذي يدل عليه الحديث واللغة أن النفس والروح مترادفان ، وأن فراق ذلك من الجسد هو

الموت .

ومعنى يتوفى النفس : يميتها ، والتي : أي والأنفس التي لم تمت في منامها ، أي يتوفاها حين تنام ، تشبيهاً للنوام بالأموات .

ومنه : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ فبين الميت والنائم قدر مشترك ، وهو كونهما لا يميزان ولا يتصرفان .

(191/668)

فيمسك من قضى عليها الموت الحقيقي ، ولا يردها في وقتها حية ؛ ويرسل النائمة لجسدها إلى أجل ضربه لموتها .

وقيل : ﴿ يتوفى الأنفس ﴾ : يستوفيها ويقبضها ، وهي الأنفس التي يكون معها الحياة والحركة .

ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ، وهي أنفس التمييز ، قالوا : فالتي تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة ، لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس .

والنائم يتنفس ، وكون النفس تقبض ، والروح في الجسد حالة النوم ، بدليل أنه يتقلب ويتنفس ، هو قول الأكثرين .

ودل على التغاير وكونها شيئاً واحداً هو قول ابن جبير وأحد قولي ابن عباس ؛ والخوض في هذا ، وطلب إدراك ذلك على جليته عناء ولا يوصل إلى ذلك .

﴿ إن في ذلك ﴾ : أي في توفي الأنفس مائتة ونائمة ، وإمساكها وإسالها إلى أجل ، ﴿ لآيات ﴾ : لعلامات دالة على قدرة الله وعلمه ، ﴿ لقوم ﴾ يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون .

وقرأ الجمهور : ﴿ قضى ﴾ مبنياً للفاعل ، ﴿ الموت ﴾ : نصباً ؛ وابن وثاب ، والأعمش ، وطلحة ، وعيسى ، وحمزة ، والكسائي : مبنياً للمفعول ؛ الموت : رفعاً .

فأم منقطعة تقدر ببل والهمزة ، وهو تقرير وتوبيخ .

وكانوا يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عندنا ، والشفاعة إنما هي لمن ارتضاه الله وبإذنه تعالى ، وهذا مفقود في آلهتهم .

وأولو معناه : أيتخذونهم شفعاء هم بهذه المثابة من كونهم لا يعقلون ولا يملكون شيئاً ، وذلك عام النقص ، فكيف يشفع هؤلاء ؟ وتقدم لنا الكلام في أولو في سورة البقرة .

وقال ابن عطية : متى دخلت ألف الاستفهام على واو العطف أو فائه أحدثت معنى التقرير . انتهى .

وإذا كانوا لا يملكون شيئاً ، فكيف يملكون الشفاعة ؟ وقال الزمخشري : أي ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئاً قط حتى يملكوا الشفاعة ، ولا عقل لهم . انتهى .

فأتى بقوله : قط ، بعد قوله : لا يملكون ، وليس بفعل ماض ، وقط ظرف يستعمل مع الماضي لا مع غيره ، وقد تكرر للزمخشري هذا الاستعمال ، وليس باستعمال عربي .

(192/668)

﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ : فهو مالكها ، يأذن فيها لمن يشاء ثم أتى بعام وهو : ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ ، فاندرج فيه ملك الشفاعة .

ولما كانت الشفاعة من غيره موقوفة على إذنه ، كانت الشفاعة كلها له .

ولما أخبر أنه له ملك السموات والأرض ، هددهم بقوله : ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ ، فيعلمون أنهم لا يشفعون ، ويخيب سعيكم في عبادتهم .

وقال الزمخشري : معناه له ملك السموات والأرض اليوم ، ثم إليه ترجعون يوم القيامة ، فلا يكون الملك في ذلك إلا له ، فله ملك الدنيا والآخرة .

﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ : أي مفرداً بالذكر ، ولم يذكر مع آلهتهم .

وقيل : إذا قيل لا إله إلا الله ، ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ ، وهي الأصنام .

والاشمئزاز والاستبشار متقابلان غاية ، لأن الاشمئزاز : امتلاء القلب غماً وغيظاً ، فيظهر أثره ، وهو الانقباض في الوجه ، والاستبشار : امتلاؤه سروراً ، فيظهر أثره ، وهو

الانبساط ، والتهلل في الوجه .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما العامل في وإذا ذكر ؟ قلت : العامل في إذا الفجائية تقديره : وقت ذكر الذين من دونه فاجأوا الاستبشار .

وقال الحوفي : ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ ، إذا مضافة إلى الابتلاء والخبر ، وإذا مكررة للتوكيد وحذف ما تضاف إليه ، والتقدير : إذا كان ذلك هم يستبشرون ، فيكون هم يستبشرون العامل في إذا ، المعنى : إذا كان ذلك استبشروا . انتهى .

أما قول الزمخشري : فلا أعلمه من قول من ينتمي للنحو ، وهو أن الظرفين معمولان لعامل واحد ، ثم إذا الأولى ينتصب على الظرف ، والثانية على المفعول به .

(193/668)

وأما قول الحوفي فبعيد جدًّا عن الصواب ، إذ جعل إذا ما ضفة إلى الابتداء والخبر ، ثم قال : وإذا مكررة للتوكيد وحذف ما تضاف إليه ، فكيف تكون مضافة إلى الابتداء والخبر الذي هم يستبشرون ؟ وهذا كله يوجبه عدم الإتقان لعلم النحو والتحدث فيه ، وقد تقدم لنا في مواضع إذا التي للمفاجأة جواباً لإذا الشرطية ، وقد قررنا في علم النحو الذي كتبناه أن إذا الشرطية ليست مضافة إلى الجملة التي تليها ، وإن كان مذهب الأكثرين ، وأنها

ليست بمعمولة للجواب ، وأقمنا الدليل على ذلك ، بل هي معمولة للفعل الذي يليها ، كسائر أسماء الشرطية الظرفية ، وإذا الفجائية رابطة لجملة الجزاء بجملة الشرط ، كالفاء ؛ وهي معمولة لما بعدها .

إن قلنا إنها ظرف ، سواء كان زماناً أو مكاناً .

ومن قال إنها حرف ، فلا يعمل فيها شيء ، فإذا الأولى معمولة لذكرهم ، والثانية معمولة ليستبشرون .

ولما أخبر عن سخافة عقولهم باشمئزازهم من ذكر الله ، واستبشارهم بذكر الأصنام ، أمره أن يدعو بأسماء الله العظمى من القدرة والعلم ونسبة الحكم إليه ، إذ غيره لا قدرة له ولا علم تام ولا حكم ، وفي ذلك وصف لحالهم السيىء ووعيد لهم وتسلية للرسول عليه السلام .

وتقدم الكلام في ﴿ اللهم ﴾ في سورة آل عمران .

﴿ ولو أن للذين ظلموا ﴾ : تقدم الكلام على تشبيهه في العقود .

﴿ وبدا لهم من الله ﴾ : أي كانت ظنونهم في الدنيا متفرقة ، حسب ضلالاتهم وتخيلاتهم فيما يعتقدونه .

فإذا عاينوا العذاب يوم القيامة ، ظهر لهم خلاف ما كانوا يظنون ، وما كان في حسابهم .

وقال سفيان الثوري : ويل لأهل الرياء من هذه الآية .

﴿ وحاق بهم ما كانوا ﴾ : أي جزاء ما كانوا وما فيما كسبوا ، يحتمل أن تكون بمعنى الذي ، أي سيئات أعمالهم ، وأن تكون مصدرية ، أي سيئات كسبهم .

والسيئات : أنواع ، العذاب سميت سيئات ، كما قال : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(194/668)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46) ﴾

أمر بالدعاء والالتجاء إلى الله تعالى لما قاساه في أمر دعوتهم وناله من شدة شكيمتهم في المكابرة والعناد فإنه تعالى القادر على الأشياء بجملتها والعالم بالأحوال برمتها ، والمقصود من الأمر بذلك بيان حالهم ووعيدهم وتسلية حبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم وأن جده وسعيه معلوم مشكور عنده عز وجل وتعليم العباد الالتجاء إلى الله تعالى والدعاء بأسمائه العظمى ، ولله تعالى در الربيع بن خيثم فإنه لما سئل عن قتل الحسين رضي الله تعالى عنه تأوه وتلا هذه الآية ، فإذا ذكر لك شيء مما جرى بين الصحابة قل : ﴿ اللهم

فَاطِرَ السموات ﴾ الخ فإنه من الآداب التي ينبغي أن تحفظ ، وتقديم المسند إليه في ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ ﴾ للحصر أي أنت تحكم وحدك بين العباد فيما استمر اختلافهم فيه حكماً يسلمه كل مكابر معاند ويخضع له كل عات مارد وهو العذاب الدنيوي أو الأخروي ، والمقصود من الحكم بين العباد الحكم بينه عليه الصلاة والسلام وبين هؤلاء الكفرة .

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ الخ

(195/668)

قيل مستأنف مسوق لبيان آثار الحكم الذي استدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وغاية شدته وفظاعته أي لو أن لهم جميع ما في الدنيا من الأموال والذخائر ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ مِن سُوء العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب السيء الشديد وقيل الجملة معطوفة على مقدر والتقدير فأنا أحكم بينهم وأعذبهم ولو علموا ذلك ما فعلوا ما فعلوا ، والأول أظهر ، وليس المراد إثبات الشرطية بل التمثيل لحالهم بحال من يحاول التخلص والفداء مما هو فيه بما ذكر فلا يتقبل منه ، وحاصله أن العذاب لازم لهم لا يخلصون منه ولو فرض هذا المحال ففيه من الوعيد والإقناط ما لا يخفى .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مّنَ الله مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي ظهر لهم من فنون العقوبات

ما لم يكن في حسابهم زيادة مبالغة في الوعيد ، ونظير ذلك في الوعد قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 71] والجملة قيل : الظاهر أنها حال من فاعل ﴿ افتدوا ﴾ .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ ﴾ حين تعرض عليهم صحائفهم ﴿ عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ ﴾ أي الذي كسبوه وعملوه على أن ﴿ مَا ﴾ موصولة أو كسبهم وعملهم على أنها مصدرية ، وإضافة ﴿ سَيِّئَاتُ ﴾ على معنى من أو اللام ﴿ وَحَاقَ ﴾ أي أحاط ﴿ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ ﴾ أي جزاء ذلك على أن الكلام على تقدير المضاف أو على أن هناك مجازاً بذكر السبب وإرادة مسببه ، و ﴿ فِي مَا ﴾ محتملة للموصولية والمصدرية أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(196/668)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِ الله شُفَعَاء ﴾

أم هي المنقطعة المقدّرة ببل ، والهمزة ، أي : بل اتخذوا من دون الله آلهة شفعاء تشفع لهم عند الله ﴿ قُلْ أَوَلَوْ لَوْ كَانُواْ لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ الهمزة للإنكار ، والتوبيخ ،

والواو للعطف على محذوف مقدّر ، أي : أيشفعون ، ولو كانوا الخ ، وجواب لو محذوف تقديره تتخذونهم ، أي : وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم ، ومعنى لا يملكون شيئاً : أنهم غير مالكين لشيء من الأشياء ، وتدخل الشفاعة في ذلك دخولاً أوّلياً ، ولا يعقلون شيئاً من الأشياء ؛ لأنها جمادات لا عقل لها ، وجمعهم بالواو ، والنون لاعتقاد الكفار فيهم أنهم يعقلون .

ثم أمره سبحانه بأن يخبرهم : أن الشفاعة لله وحده ، فقال : ﴿ قُل لِّلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً ﴾ ، فليس لأحد منها شيء إلا أن يكون بإذنه لمن ارتضى ، كما في قوله : ﴿ مَن ذَا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] ، وقوله : ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ﴾ [الأنبياء : 28] ، وانتصاب ﴿ جميعاً ﴾ على الحال ، وإنما أكد الشفاعة بما يؤكد به الاثنان ، فصاعداً ؛ لأنها مصدر يطلق على الواحد ، والاثنين ، والجماعة ، ثم وصفه بسعة الملك ، فقال : ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ أي : يملكهما ، ويملك ما فيهما ، ويتصرف في ذلك كيف يشاء ، ويفعل ما يريد ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ لا إلى غيره ، وذلك بعد البعث .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ اشمأزت قُلُوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالأخرة ﴾ انتصاب ﴿ وحده ﴾ على الحال عند يونس ، وعلى المصدر عند الخليل ، وسيبويه ، والاشمئزاز في اللغة : النفور .

قال أبو عبيدة : اشمأزت نفرت ، وقال المبرد : انقبضت .

وبالأوّل قال قتادة ، وبالثاني قال مجاهد ، والمعنى متقارب .

(197/668)

وقال المؤرّج : أنكرت ، وقال أبو زيد : اشمأزّ الرجل ذعر من الفزع ، والمناسب للمقام تفسير اشمأزت بانقبضت ، وهو في الأصل : الازورار ، وكان المشركون إذا قيل لهم : لا إله إلا الله انقبضوا ، كما حكاه الله عنهم في قوله : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ وَلَّوْاْ على أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾ [الإسراء : 46] ، ثم ذكر سبحانه استبشارهم بذكر أصنامهم ، فقال : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي : يفرحون بذلك ، ويبتهجون به ، والعامل في " إذا " في قوله : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الله ﴾ الفعل الذي بعدها ، وهو : اشمأزت ، والعامل في إذا في قوله : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ الفعل العامل في إذا الفجائية ، والتقدير : فاجئوا الاستبشار وقت ذكر الذين من دونه .

ولما لم يقبل المتمردون من الكفار ما جاءهم به من الدعاء إلى الخير ، وصمموا على كفرهم ، أمره الله سبحانه : أن يردّ الأمر إليه ، فقال : ﴿ قُلِ اللهم فَاطِرَ السموات والأرض عَالِمَ الغيب والشهادة أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، وقد تقدّم تفسير

فاطر السماوات ، وتفسير عالم الغيب ، والشهادة ، وهما منصوبان على النداء ، ومعنى ﴿ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾ : تجازي المحسن بإحسانه ، وتعاقب المسيء بإساءته ، فإنه بذلك يظهر من هو المحقّ ، ومن هو المبطل ، ويرتفع عنده خلاف المختلفين ، وتخاصم المتخاصمين .

(198/668)

ثم لما حكى عن الكفار ما حكاه من الاشمئزاز عند ذكر الله ، والاستبشار عند ذكر الأصنام ذكر ما يدلّ على شدّة عذابهم ، وعظيم عقوبتهم ، فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ أي : جميع ما في الدنيا من الأموال ، والذخائر ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ أي : منضماً إليه ﴿ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ مِن سُوء العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ أي : من سوء عذاب ذلك اليوم ، وقد مضى تفسير هذا في آل عمران ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مّنَ الله مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي : ظهر لهم من عقوبات الله ، وسخطه ، وشدّة عذابه ما لم يكن في حسابهم ، وفي هذا وعيد عظيم ، وتهديد بالغ ، وقال مجاهد : عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات ، فإذا هي سيئات ، وكذا قال السدّي .

وقال سفيان الثوري : ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء هذه آيتهم ،

وقصتهم.

وقال عكرمة بن عمار: جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعاً شديداً، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب الله ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾، فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب.

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أي: مساوىء أعمالهم من الشرك، وظلم أولياء الله، و "ما" يحتمل أن تكون مصدرية، أي: سيئات كسبهم، وأن تكون موصولة، أي: سيئات الذي كسبوه ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ أي: أحاط بهم، ونزل بهم ما كانوا يستهزئون به من الإنذار الذي كان ينذرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشمأزت ﴾ الآية قال: قست، ونفرت ﴿ قُلُوبٍ ﴾ هؤلاء الأربعة ﴿ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالأخرة ﴾ أبو جهل بن هشام، والوليد بن عقبة، وصفوان، وأبيّ بن خلف ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ اللات، والعزى ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

وأخرج مسلم ، وأبو داود ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته : " اللَّهم ربّ جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما أختلف فيه من الحقّ بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(200/668)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾

لما كان أكثر ما تقدم من السورة مشعراً بالاختلاف بين المشركين والمؤمنين ، وبأن المشركين مصممون على باطلهم على ما غمرهم من حجج الحق دون إغناء الآيات والتدبر عنهم أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم عقب ذلك بأن يقول هذا القول تنفيساً عنه من كدر الأسى على قومه ، وإعذاراً لهم بالنذارة ، وإشعاراً لهم بأن الحق في جانبهم مضاع ، وأن الأجدر بالرسول صلى الله عليه وسلم متاركتهم وأن يفوّض الحكم في خلافهم إلى الله .

وفي هذا التفويض إشارة إلى أن الذي فوّض أمره إلى الله هو الواثق بحقّيه دينه المطمئن بأن

التحكيم يُظهر حقه وباطل خصمه .

وابتدىء خطابُ الرسول صلى الله عليه وسلم ربَّه بالنداء لأن المقام مقام توجيه وتحاكم .

وإجراء الوصفين على اسم الجلالة لما فيهما من المناسبة بخضوع الخلق كلهم لحكمه وشمول علمه لدخائلهم من مُحقّ ومُبطل .

وَالفاطر : الخالق ، وفاطر السماوات والأرض فاطر لما تحتوي عليه .

ووصف ﴿ فاطِرَ السموات والأرض ﴾ مشعر بصفة القدرة ، وتقديمُه قبل وصف العِلم لأن شعور الناس بقدرته سابق على شعورهم بعلمه ، ولأن القدرة أشدّ مناسبة لطلب الحكم لأن الحكم إلزام وقهر فهو من آثار القدرة مباشرةً .

والغيب : ما خفي وغاب عن علم الناس ، والشهادة : ما يَعلمه الناس مما يدخل تحت الإِحساس الذي هو أصل العلوم .

والعدول عن الإِضمار إلى الاسم الظاهر في قوله : ﴿ بَيْنَ عبادِكَ ﴾ دون أن يقول : بيننا ، لما في ﴿ عِبَادِك ﴾ من العموم لأنه جمع مضاف فيشمل الحكم بينهم في قضيتهم هذه والحكمَ بين كل مختلِفين لأن التعميم أنسب بالدعاء والمباهلة .

وجملة ﴿ أنت تحكم بين عبادك ﴾ خبر مستعمل في الدعاء .

والمعنى : احكم بيننا .

وفي تلقين هذا الدعاء للنبيء صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أنه الفاعل الحق .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفِعْلي في قوله : ﴿ أنت تحكم ﴾ لإِفادة الاختصاص ، أي أنت لا غيرك .

وإذ لم يكن في الفريقين من يعتقد أن غير الله يحكم بين الناس في مثل هذا الاختلاف فيكونَ الرد عليه بمفاد القصر ، تعين أن القصر مستعمل كناية تلويحية عن شدة شكيمتهم في العناد وعدم الإِنصاف والانصياع إلى قواطع الحجج ، بحيث إن من يتطلب حاكماً فيهم لا يجد حاكماً فيهم إلا الله تعالى .

وهذا أيضاً يؤمىء إلى العذر للرسول صلى الله عليه وسلم في قيامه بأقصى ما كُلِّف به لأن هذا القول إنما يصدر عمن بذل وُسعه فيما وجب عليه ، فلما لَقَّنه ربه أن يقوله كان ذلك في معنى : أنك أبلغتَ وأديتَ الرسالة فلم يبق إلا ما يدخل تحت قدرة الله تعالى التي لا يعجزها الألدَّاء أمثال قومك ، وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وفيه وعيد للمعاندين .

والحكم يصدق بحكم الآخرة وهو المحقق الذي لا يخلف ، ويشمل حكم الدنيا بنصر المحق على المبطل إذا شاء الله أن يعجل بعض حكمه بأن يُعجل لهم العذاب في الدنيا .

والإِتيان بفعل الكون صلة ل ﴿ مَا ﴾ الموصولة ليدُل على تحقق الاختلاف ، وكونُ خبر (كان) مضارعاً تعريض بأنه اختلاف متجدد إذ لا طماعية في ارعواء المشركين عن باطلهم .

وتقديم ﴿ فِيهِ ﴾ على ﴿ يَخْتلفون ﴾ للرعاية على الفاصلة مع الاهتمام بالأمر المختلَف فيه .

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

عطف على جملة ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض ﴾ [الزمر : 46] الخ لأنها تشير إلى أن الحق في جانب النبي وهو الذي دعا ربه للمحاكمة ، وأن الحكم سيكون على المشركين ، فأعقب ذلك بتهويل ما سيكون به الحكم بأنه لو وجَد المشركون فديةً منه بالغةً ما بلغت لافتدوا بها .

(202/668)

وما في الأرض ﴾ يشمل كل عزيز عليهم من أهليهم وأموالهم بل وأنفسهم فهو أهون من سوء العذاب يوم القيامة .

والمعنى : لو أن ذلك ملك لهم يوم القيامة لافتدوا به يومئذٍ .

ووجه التهويل في ذلك هو ما يستلزمه مِلك هذه الأشياء من الشح بها في متعارف النفوس ، فالكلام تمثيل لحالهم في شدة الدرك والشقاء بحال من لو كان له ما ذكر لبذله فدية من ذلك العذاب ، وتقدم نظير هذا في سورة العقود .

وتضمن حرف الشرط أن كون ما في الأرض لهم منتف ، فأفاد أن لا فِداء لهم من سوء العذاب وهو تأييس لهم .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ مِن سُوء العذاب ﴾ بمعنى لام التعليل ، أي لافتدوا به لأجل العذاب السيّىء الذي شاهدوه .

ويجوز أن تكون للبدل ، أي بدلاً عن ﴿ سُوءِ العذاب ﴾ .

وعطف على هذا التأييس تهويل آخر في عظم ما ينالهم من العذاب وهو ما في الموصول من قوله : ﴿ ما لم يكونوا يحتسِبُون ﴾ من الإِيهام الذي تذهب فيه نفس السامع إلى كل تصوير من الشدة .

ويجوز جعل الواو للحال ، أي لافتدوا به في حال ظهور ما لم يكونوا يحتسبون .

و﴿ مِنَ الله ﴾ متعلق بـ ﴿ بدا ﴾ .

و﴿ من ﴾ ابتدائية ، أي ظهر لهم مما أعد الله لهم الذي لم يكونوا يظنونه .

والاحتساب : مبالغة في الحِساب بمعنى الظن مثل : اقترب بمعنى قرب .

والمعنى : ما لم يكونوا يظنونه وذلك كناية عن كونه مُتجاوزاً أقصَى ما يتخيله المتخيل حين

يسمع أوصافه ، فلا التفات في هذه الكناية إلى كونهم كانوا مكذبين بالبعث فلم يكُنْ يخطر ببالهم ، ونظير هذا في الوعد بالخبر قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : 17] .

و ﴿ سَيِئَات ﴾ جمع سيئة ، وهو وصف أضيف إلى موصوفه وهو الموصول ﴿ ما كَسَبُوا ﴾ أي مكسوباتِهم السيئاتِ .

(203/668)

وتأنيثها باعتبار شهرة إطلاق السيئة على الفعلة وإن كان فيما كسبوه ما هو من فاسد الاعتقاد كاعتقاد الشركاء لله وإضمار البغض للرسول والصالحين والأحقادِ والتحاسد فجرى تأنيث الوصف على تغليب السيئات العملية مثل الغصْب والقتل والفواحش تغليباً لفظياً لكثرة الاستعمال .

وأوثر فعل ﴿ كَسَبُوا ﴾ على فعل : عملوا ، لِقطع تبرمهم من العذاب بتسجيل أنهم اكتسبوا أسبابه بأنفسهم ، كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ [الزمر : 24] دون : تعملون .

والحَوْق : الإِحاطة ، أي أحاط بهم فلم ينفلتوا منه ، وتقدم الخلاف في اشتقاقه في قوله تعالى

: ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ﴾ في سورة [الأنعام : 10] .

وما كانوا به يستهزءون ﴾ هو عذاب الآخرة ، أي يستهزئون بذكره تنزيلاً للعقاب منزلة مُستهَزَء به فيكون الضمير المجرور استعارة مكنية .

ولك أن تجعل الباء للسببية وتجعل متعلق ﴿ يستهزوءن ﴾ محذوفاً ، أي يستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم بسبب ذِكره العذاب .

وتقديم ﴿ بِهِ ﴾ على ﴿ يستهزوءن ﴾ للاهتمام به وللرعاية على الفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(204/668)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلِ اللهم فَاطِرَ السماوات والأرض عَالِمَ الغيب والشهادة أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

عَلَّمَه – صلى الله عليه وسلم – سبحانه .

وتشتمل الآيةُ على الإشارة إلى بيان ما ينبغي من التنصُّل والتذلُّلِ ، وابتغاءِ العَفْو والتفضُّلِ ، وتحقيق الألتجاء بحُسْنِ التوكل . ثم أخبر عن أحولهم في الآخرة فقال :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

لافتدوا به . . ولكن لا يُقْبَلُ منهم ، واليومَ لو تصدَّقوا بمثقال ذرة لَقُبْلَ منهم .

كما أنهم لو بَكَوْا في الآخرة بالدماء لا يُرْحَمُ بكاؤهم ، ولكنهم بدمعة واحدةٍ –اليومَ– يُمْحَى الكثيرُ من دواوينهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لِمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ .

في سماع هذه الآية حَسَراتٌ لأصحاب الانتباه .

وفي بعض الاخبار أن قوماً من المسلمين من اصحاب الذنوب يُؤْمَرُ بهم إلى النار فإذا وافوها يقول لهم مالِكٌ : مَنْ أنتم ؟ إن الذين جاؤوا قَبْلَكُمْ من أهل النار وجوهُهم كانت مُسْوَدَّةً ، وعيونُهم كانت مُزْرَقَّة . . . وأنتم لستم بتلك الصفة ، فيقولون : ونحن لم نتوقع أن نلقاك ، وإنما انتظرنا شيئاً آخر ! قال تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (48)

حاق بهم وبالُ استهزائهم وجزاءُ مَكْرِهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 285.286 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر عن ظهور هذا لهم ، علله بأنهم كانوا يفعلون ما لم يكن في العادة يتوقع منهم ، وهو مجازاة الإحسان بالإساءة وقد كانوا جديرين بضده فقال : ﴿ فإذا ﴾ أي وقع لهم ذلك بسبب أنهم إذا مسهم ، ولكنه أخبر عن النوع الذي هم منه بما هو مطبوع عليه فقال : ﴿ مس الإنسان ضر ﴾ أيّ ضر كان من جهة يتوقعها كما تقدم في التي في أول السورة ، ويجوز أن يكون مسبباً عن الإخبار بافتدائهم بما يقدرون عليه وأن يكون مسبباً عن اشمئزازهم من توحيد الله تعجيباً من حالهم في تعكيسهم وضلالهم ، وتقدم في الآية التي في

أول السورة سر كونها بالواو ، ولفت القول إلى مظهر العظمة دالاً على أن أغلب الناس لا يرجى اعترافه بالحق وإذعانه لأهل الإحسان إلا إذا مس بأضرار فقال : ﴿ دعانا ﴾ عالماً بعظمتنا دون آلهته مع اشمئزازه من ذكرنا واستبشاره بذكرها .

(206/668)

ولما كان ذلك الضر عظيماً يبعد الخلاص عنه من جهة أنه لا حيلة لمخلوق في دفعه ، أشار إلى عظمته وطول زمنه بأداة التراخي فقال مقبحاً عليه نسيانه للضر مع عظمه في نفسه ومع طول زمنه : ﴿ ثم إذا خولناه ﴾ أي أعطيناه على عظمتنا متفضلين عليه محسنين القيام بأمره وجعلناه خليقاً بحاله جديراً بتدبيره على غير عمل عمله محققين لظنه الخير فينا وأحسنا تربيتنا له والقيام عليه مع ما فرط في حقنا ﴿ نعمة منا ﴾ ليس لأحد غيرنا فيها شائبة منّ ولولا عظمتنا ما كانت ﴿ قال ﴾ ناسياً لما كان فيه من الضر وإن كان قد طال أمده ، قاصراً لها على نفسه غير متخلق بما نبهناه على التخلق به من إحساننا إليه وإقبالنا عليه عند إذعانه ، مذكراً لضميرها تفخيماً لها ، وبنى الفعل للمجهول إشارة إلى أنه لا نظر له في تعرف المعطي من هو يشكره ، وإنما نظره في عظمة النعمة وعظمة نفسه ، وإنها على مقدار ما : ﴿ إنما أوتيته ﴾ أي هذا المنعم به عليّ الذي هو كبير وعظيم لأني عظيم فأنا

أعطي على مقداري ، و " ما " هي الزائدة الكافة لأن للدلالة على الحصر ، ويجوز أن تكون موصولة هي اسم إن وخبرها قوله : ﴿ على ﴾ إي إيتاء مستعلياً متمكناً على ﴿ علم ﴾ أي عظيم ، وجد مني بطريق الكسب والاجتهاد ووجوده الطلب والاحتيال ، فكان ذلك سبباً لمجيئه إليّ أو علم من الله باستحقاقه له .

ولما كان التقدير : ليس كذلك ولا هي نعمة ، قال دالاً على شؤم ذلك المعطي وحقارته لأنه من أسباب إضلاله بالتأنيث ﴿ بل هي ﴾ أي العطية والنعمة ﴿ فتنة ﴾ لاختباره هل يشكر أم يكفر لتقام عليه الحجة .

فإن أدت إلى النار كانت استدراجاً ، وأنث الضمير تحقيراً لها بالنسبة إلى قدرته سبحانه وتعالى ولأنها أدت إلى الغرور بعد أن ذكر ضميرها أولاً تعظيماً لها لإيجاب شكرها .

(207/668)

ولما كان من المفتونين من ينتبه وهم الأقل ، قال جامعاً تنبيهاً على إرادة الجنس وأن تعبيره أولاً بإفراد الضمير إشارة إلى أن أكثر الناس كأنهم في ذلك الخلق النحس نفس واحدة : ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أي أكثر هؤلاء القائلين لهذا الكلام ﴿ لا يعلمون ﴾ أي لا يتجدد لهم علم أصلاً لأنهم طبعوا على الجلافة والجهل والغباوة ، فلو أنهم إذا دعونا وهم في جهنم

أجبناهم وأنعمنا عليهم نعمتنا ونسبوها إلى غيرنا كما كانوا يفعلون في الدنيا سواء .

ولما كان كفار قريش مقصودين بهذا قصداً عظيماً وإن كان شاملاً بإطلاقه غيرهم من الأولين والآخرين قال موضحاً لذلك : ﴿ قد قالها ﴾ أي مقالتهم ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ ﴿ الذين من قبلهم ﴾ أي ممن هو أشد منهم قوة وأكثر جمعاً كما قال قارون ومن رضي حاله فتمنى ماله ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ أي أولئك الماضين ﴿ ما كانوا ﴾ بما اقتضته جبلاتهم ﴿ يكسبون ﴾ أي يجددون على الاستمرار كسبه من المال والجاه وإن كان مليء السهل والجبل : ﴿ فأصابهم ﴾ أي إصابة شديدة بما دل عليه تذكير الفعل – أي تسبب عن عدم الإغناء أنه أصابهم ﴿ سيئات ما كسبوا ﴾ أي وبال ذلك وما يسوء من آثاره ﴿ والذين ظلموا ﴾ أي أوقعوا الأشياء في غير محالها ﴿ من هؤلاء ﴾ أي قومك الذين لا يتدبرون القرآن فإنهم لو تدبروا آياته عرفوا ولكن سبق عليهم العمى

﴿ سيصيبهم ﴾ أي إصابة شديدة جداً بوعد لا خلف فيه كما أصاب من قبلهم

﴿ سيئات ما كسبوا ﴾ أي عملوا من الأشر والبطر فيه أعمال من يظن أنه لا تناله مصيبة في الدنيا وأنه لا يبعث إلى ما أعددنا له من الأهوال في الآخرة ، ولقد أصابهم ذلك ، فأول ما أصابهم ما كشف عنه الزمان من وقعة بدر ثم ما تبعه إلى ما لا آخر له .

ولما ثبت أن الضار النافع إنما هو الله ، من شاء أعطاه ، ومن شاء منعه ، ومن شاء استلبه ووضعه بعد ما رفعه ، وكان التقدير : ألم يعلموا أن ما جمعه من قبلهم لم يدفع عنهم أمر الله ، عطف قوله : ﴿ أولم ﴾ ولما كان السياق لنفي العلم عن الأكثر ، وكان مقصود السورة بيان أنه صادق الوعد ومطلق العلم كافٍ فيه ، عبر بالعلم بخلاف ما مضى في الروم فقال :

﴿ يعلموا ﴾ أي بما رأوا في أعمارهم من التجارب .

ولفت الكلام إلى الاسم الأعظم تعظيماً للمقام ودفعاً للبس والتعنت بغاية الإفهام : ﴿ أن الله ﴾ أي الذي له الجلال والجمال ﴿ يبسط ﴾ أي هو وحده ﴿ الرزق ﴾ غاية البسط ﴿ لمن يشاء ﴾ وإن كان لا حيلة له ولا قوة ﴿ يقدر ﴾ أي يضيق مع النكد بأمر قاهر على من هو أوسع الناس باعاً في الحيل وأمكنهم في الدول ، ومن المعلوم أنه لولا أن ذلك كله منه وحده لما كان أحد ممن له قوة في الجسم وتمكن في العلم فقيراً أصلاً .

ولما كان هذا أمراً لا ينكره أحد ، عده مسلماً وقال : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم ، وأكده لأن أفعالهم أفعال من ينكر أن يكون فيه عبرة ﴿ لآيات لقوم ﴾ ذوي قوة وهمم عليه ﴿ يؤمنون ﴾ أي هيئوا لأن يوجد منهم الإيمان فيجددوا التصديق في كل وقت تجديداً مستمراً بأن الأمور كلها من الله فيخافوه ويرجوه ويشكروه ولا يكفروه ، وأما غيرهم فقد

حقت عليه الكلمة بما هيىء له من عمل النار ، فلا يمكنه الإيمان فليس له في ذلك آيات لأنها لا تنفعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 458 . 461 ﴾

(209/668)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾

اعلم أن هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة ، وذلك لأنهم عند الوقوع في الضر الذي هو الفقر والمرض يفزعون إلى الله تعالى ، ويرون أن دفع ذلك لا يكون إلا منه ، ثم إنه تعالى إذا خولهم النعمة ، وهي إما السعة في المال أو العافية في النفس ، زعم أنه إنما حصل ذلك بكسبه وبسبب جهده وجده ، فإن كان مالاً قال إنما حصل بكسبي ، وإن كان صحة قال إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني ، وهذا تناقض عظيم ، لأنه كان في حال العجز والحاجة أضاف الكل إلى الله وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله ، وأسنده إلى كسب نفسه ، وهذا تناقض قبيح ، فبين تعالى قبح طريقتهم فيما هم عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة ، فقال ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ يعني النعمة التي خولها هذا

الكافر فتنة ، لأن عند حصولها يجب الشكر ، وعند فواتها يجب الصبر ، ومن هذا حاله يوصف بأنه فتنة من حيث يختبر عنده حال من أوتي النعمة ، كما يقال فتنت الذهب بالنار ، إذا عرضته على النار لتعرف خلاصته .

ثم قال تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ والمعنى ما قدمنا أن هذا التخويل إنما كان لأجل الاختبار .

وبقي في الآية أبحاث نذكرها في معرض السؤال والجواب .

(210/668)

السؤال الأول : ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء ههنا ، وعطف مثلها في أول السورة بالواو ؟ والجواب : أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنهم يشمئزون من سماع التوحيد ويستبشرون بسماع ذكر الشركاء ، ثم ذكر بفاء التعقيب أنهم إذا وقعوا في الضر والبلاء والتجأوا إلى الله تعالى وحده ، كان الفعل الأول مناقضاً للفعل الثاني ، فذكر فاء التعقيب ليدل على أنهم واقعون في المناقضة الصريحة في الحال ، وأنه ليس بين الأول والثاني فاصل مع أن كل واحد منهما مناقض للثاني ، فهذا هو الفائدة في ذكر فاء التعقيب ههنا .

فأما الآية الأولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم في التناقض في الحال ، فلا جرم ذكر الله

بحرف الواو لا بحرف الفاء .

السؤال الثاني : ما معنى التخويل ؟ الجواب : التخويل هو التفضل ، يعني نحن نتفضل عليه وهو يظن أنه إنما وجده بالاستحقاق .

السؤال الثالث : ما المراد من قوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ ؟ الجواب : يحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علم الله بكوني مستحقاً لذلك ، ويحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علمي بكوني مستحقاً له ، ويحتمل أن يكون المراد ، إنما أوتيته على علم لأجل ذلك العلم قدرت على اكتسابه مثل أن يكون مريضاً فيعالج نفسه ، فيقول إنما وجدت الصحة لعلمي بكيفية العلاج ، وإنما وجدت المال لعلمي بكيفية الكسب .

السؤال الرابع : النعمة مؤنثة ، والضمير في قوله : ﴿ أُوتِيتُهُ ﴾ عائد على النعمة ، فضمير التذكير كيف عاد إلى المؤنث ، بل قال بعده : ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ فجعل الضمير مؤنثاً فما السبب فيه ؟ والجواب : أن التقدير حتى إذا خولناه شيئاً من النعمة ، فلفظ النعمة مؤنث ومعناه مذكر ، فلا جرم جاز الأمران .

(211/668)

ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ قَالَهَا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ ﴾ الضمير في ﴿ قالها ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ عندي لأنها كلمة أو جملة من المقول ﴿ والذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ هم قارون وقومه حيث قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ﴾ [القصص : 78] وقومه راضون به فكأنهم قالوها ، ويجوز أيضاً أن يكون في الأمم الخالية قائلون مثلها .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي ما أغنى عنهم ذلك الاعتقاد الباطل والقول الفاسد الذي اكتسبوه من عذاب الله شيئاً بل أصابهم سيئات ما كسبوا ، ولما بين في أولئك المتقدمين فإنهم أصابهم سيئات ما كسبوا أي عذاب عقائدهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة قال : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي لا يعجزونني في الدنيا والآخرة .

(212/668)

ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ يعني : أو لم يعلموا أن الله تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء تارة ، ويقبض تارة أخرى ، وقوله : ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي ويقتر ويضيق ، والدليل عليه أنا نرى الناس مختلفين في سعة الرزق وضيقه ولا بد من سبب ، وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله ، لأنا نرى العاقل القادر في أشد الضيق

، ونرى الجاهل المريض الضعيف في أعظم السعة ، وليس ذلك أيضاً لأجل الطبائع والأنجم والأفلاك لأن في الساعة التي ولد فيها ذلك الملك الكبير والسلطان القاهر ، قد ولد فيه أيضاً عالم من الناس وعالم من الحيوانات غير الإنسان ، ويولد أيضاً في تلك الساعة عالم من النبات ، فلما شاهدنا حدوث هذه الأشياء الكثيرة في تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في السعادة والشقاوة ، علمنا أنه ليس المؤثر في السعادة والشقاوة هو الطالع ، ولما بطلت هذه الأقسام ، علمنا أن المؤثر فيه هو الله سبحانه ، وصح بهذا البرهان العقلي القاطع على صحة قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ .

قال الشاعر :

فلا السعد يقضي به المشترى . . ولا النحس يقضي علينا زحل

ولكنه حكم رب السما . . ء وقاضي القضاة تعالى وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 26 صـ 250 . 251 ﴾

(213/668)

وقال ابن عطية :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾

هذه حجة تلزم عباد الأوثان التناقض في أعمالهم ، وذلك أنهم يعبدون الأوثان ويعتقدون تعظيمها ، فإذا أزفت آزفة ونالت شدة نبذوها ونسوها ودعوا الخالق المخترع رب السماوات والأرض . و: ﴿ الإنسان ﴾ في هذه الآية للجنس . و: ﴿ خولناه ﴾ معناه : ملكناه . قال الزجاج وغيره : التخويل : العطاء عن غير مجازاة . والنعمة هنا : عامة في جميع ما يسديه الله إلى العبد ، فمن ذلك إزالة الضر المذكور ، ومن ذلك الصحة والأمن والمال ، وتقوى الإشارة إليه في الآية بقوله : ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ وبقوله آخراً ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ ، وبذكر الكسب ، وكذلك الضمير في : ﴿ أوتيته ﴾ وذلك يحتمل وجوهاً ، منها : أن يريد بالنعمة المال كما قدمناه ، ومنها أن يعيد الضمير على المذكور ، إذ اسم النعمة يعم ما هو مذكر وما هو مؤنث ، ومنها : أن يكون " ما " في قوله : ﴿ إنما ﴾ بمعنى الذي ، وعلى الوجهين الأولين كافة .

وقوله : ﴿ على علم ﴾ في موضع نصب على الحال مع أن تكون " ما " كافة ، وأما إذا كانت بمعنى الذي ، ف ﴿ على علم ﴾ في موضع خبر " إن " ودال على الخبر المحذوف ، كأنه قال : هو على علم ، يحتمل أن يريد على علم مني بوجه المكاسب والتجارات وغير ذلك ، قاله قتادة . ففي هذا التأويل أعجاب بالنفس وتعاط مفرط ونحو هذا ، ويحتمل أن يريد على علم من الله في ، وشيء سبق لي ، واستحقاق حزته عند الله لا يضرني معه شيء ، ففي هذا التأويل اغترار بالله تعالى وعجز وتمن على الله . ثم قال تعالى : ﴿ بل هو

فتنة ﴾ أي ليس الأمر كما قال ، بل هذه الفعلة به فتنة له وابتلاء . ثم أخبر تعالى عمن سلف من الكفرة أنهم قالوا هذه المقالة كقارون وغيره ، وأنهم ما أغنى عنهم كسبهم واحتجانهم للأموال ، فكذلك لا يغني عن هؤلاء .

(214/668)

ثم ذكر تعالى على جهة التوعد لهؤلاء في نفس المثال أن أولئك أصابهم ﴿ سيئات ما كسبوا ﴾ وأن الذي ظلموا بالكفر من هؤلاء المعاصرين لك ﴿ سيصيبهم سيئات ما كسبوا ﴾ (وأن الذين ظلموا بالكفر ما أصاب المتقدمين) وهذا خبر من الله تعالى أبرزه الوجود في يوم بدر وغيره . و: ﴿ معجزين ﴾ معناه مفلتين وناجين بأنفسهم . ثم قرر على الحقيقة في أمر الكسب وسعة النعم فقال : ﴿ أولم يعلموا أن الله ﴾ هو الذي ﴿ يبسط الرزق ﴾ لقوم ويضيقه على قوم بمشيئته وسابق علمه ، وليس ذلك لكيس أحد ولا لعجزه . ﴿ ويقدر ﴾ معناه : يضيق كما قال : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق : 7] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(215/668)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسان ضُرٌّ دَعَانَا ﴾

قيل : إنها نزلت في حُذَيفة بن المغيرة .

﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ قال قتادة : ﴿ عَلى عِلْمٍ ﴾ عندي بوجوه المكاسب ، وعنه أيضاً ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ على خير عندي .

وقيل : ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أي على علم من الله بفضلي .

وقال الحسن : ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أي بعلم علمني الله إياه .

وقيل : المعنى أنه قال قد علمت أني إذا أوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلة ؛ فقال الله : ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أي بل النعم التي أوتيتها فتنة تختبر بها .

قال الفراء : أنث "هي" لتأنيث الفتنة ، ولو كان بل هو فتنة لجاز .

النحاس : التقدير بل أعطيته فتنة .

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون أن إعطاءهم المال اختبار .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ قَالَهَا ﴾ أنث على تأنيث الكلمة .

﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني الكفار قبلهم كقارون وغيره حيث قال : "إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي" .

﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ "ما" للجحد أي لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً .

وقيل : أي فما الذي أغنى أموالهم ؟ ف"ما" استفهام .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم .

وقد يسمى جزاء السيئة سيئة .

﴿ والذين ظَلَمُواْ ﴾ أي أشركوا ﴿ مِنْ هؤلاء ﴾ الأمة ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أي بالجوع والسيف .

﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي فائتين الله ولا سابقيه .

وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يعلموا أَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خص المؤمن بالذكر ؛ لأنه هو الذي يتدبر الآيات وينتفع بها .

ويعلم أن سعة الرزق قد يكون مكراً واستدراجاً ، وتقتيره رفعة وإعظاماً . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبي حـ 15 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ قُلِ اللهم فَاطِرَ السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ﴾

(217/668)

أي التجيءْ إليه تعالى بالدُّعاءِ لما تحيَّرتَ في أمر الدَّعوةِ وضجرت من شدَّةِ شكيمتهم في المُكابرة والعناد فإنَّه القادرُ على الأشياء بجُملتها والعالمُ بالأحوال بُرمَّتِها . ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ * فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي حُكماً يُسلّمه كلُّ مكابرٍ معاند ، ويخضعُ له كلُّ عاتٍ مارد وهو العذابُ الدنيويُّ أو الأخرويُّ . وقولُه تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ الخ كلامٌ مستأنف مسوقٌ لبيان آثارِ الحُكمِ الذي استدعاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم وغايةِ شدَّتِه وفظاعتِه أي لو أنَّ لهم جميعَ ما في الدُّنيا من الأموال والذَّخائرِ . ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ مِن سُوء العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ أي لجعلُوا كلَّ ذلك فديةً لأنفسهم من العذاب الشَّديدِ وهيهاتَ ولاتَ حينَ مناص . وهذا كما ترى وعيدٌ شديدٌ وإقناطٌ كليٌّ لهم من الخلاصِ . ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ الله مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي ظهرَ لهم من فُنون العقوباتِ ما لم يكن في حسابهم . وهذه غاية من الوعيد لا غاية وراءها ونظيره في الوعد قولُه تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ﴿ وَبَدَا لَهُمْ

سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ سيئات أعمالِهم أو كسبِهم حين تُعرض عليهم صحائفهم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ أي أحاطَ بهم جزاؤُه ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ إخبارٌ عن الجنسِ بما يفعله غالبُ أفرادِه. والفاءُ لترتيب ما بعدها من المناقضةِ.

والتَّعكيسُ على ما مرَّ من حالتيهم القبيحتينِ وما بينهما اعتراضٌ مؤكِّدٌ للإنكار عليهم أي أنَّهم يشمئزُّون عن ذكرِ الله تعالى وحدَهْ ويستبشرون بذكرِ الآلهةِ فإذا مسَّهم ضُرٌّ دَعَوا مَن اشمأزُّوا عن ذكره دون مَن استبشرُوا بذكرِه ﴿ ثُمَّ إِذَا خولناه نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ أعطيناهُ

(218/668)

إيَّاها تفضُّلاً، فإنَّ التَّخويل مختصٌ به لا يُطلق على ما أُعطي جزاءً ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ أي على علم منّي بوجوهِ كسبِه أو بأنِّي سأعطاه لَما لِي من الاستحقاقِ أو على علمٍ من الله تعالى بي وباستحقاقي. والهاءُ لما، أنْ جُعلتْ موصولةً، وإلاَّ فلنعمةً والتَّذكيرُ لما أنَّ المرادَ شيء من النعمةِ ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أي محنةٌ وابتلاءٌ له أيشكرُ أم يكفرُ وهو ردٌّ لما قاله. وتغييرُ السَّبكِ للمبالغة فيهِ والإيذانِ بأنَّ ذلك ليس من بابِ الإيتاءِ المُنبىء عن الكرامةِ وإنَّما هو أمرٌ مباين بالكُلِّيةِ. وتأنيثُ الضَّميرِ باعتبار لفظ النِّعمةِ أو باعتبار الخبرِ وقُرِىء بالتَّذكيرِ.

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنَّ الأمرَ كذلك وفيه دلالةٌ على أنَّ المراد بالإنسانِ هو الجنسُ .

﴿ قَدْ قَالَهَا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الهاء لقوله إنَّما أُوتيته على علمٍ لأنَّها كلمةٌ أو جملةٌ وقُرِىء بالتَّذكيرِ . والموصول عبارةٌ عن قارونَ وقومِه حيثُ قال إنَّما أُوتيته على علمٍ عندي وهم راضُون به . ﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من متاعِ الدُّنيا ويجمعون منه . ﴿ فأصابهم سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ جزاءُ سيِّئاتِ أعمالِهم أو أجزيةُ ما كسبُوا . وتسميتها سيِّئاتٍ لأنَّها في مقابلة سيِّئاتِهم وجزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلُها ﴿ والذين ظَلَمُواْ مِنْ هَؤُلاَء ﴾ المشركين ومِن للبيان أو للتَّبعيضِ أي أفرطوا في الظُّلم والعُتوّ . ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ من الكُفر والمَعاصي كما أصاب أولئك . والسِّينُ للتَّأكيدِ . وقد أصابهم أيَّ إصابةٍ حيثُ قحطوا سبعَ سنين وقُتل صناديدُهم يومَ بدرٍ ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي فائتين .

(219/668)

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُواْ ﴾ أي أقالُوا ذلك ولم يعلمُوا أو أَغفلُوا ولم يعلمُوا ﴿ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاء ﴾ أنْ يبسطَه له ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ لمن يشاء أن يقدرَه له من غيرِ أن يكون لأحدٍ مدخلٌ

ما في ذلك حيثُ حبسَ عنهم الرّزقَ سبعاً ثم بسطَه لهم سبعاً ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذُكر ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ دالَّةً على أنَّ الحوادثَ كافَّةً من الله عزَّ وجلَّ . ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذ هم المستدلُّون بها على مدلولاتِها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(220/668)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسانَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴾

إخبار عن الجنس بما يغلب فيه ، وقيل : المراد بالإنسان حذيفة بن المغيرة ، وقيل : الكفرة ﴿ ثُمَّ إِذَا خولناه نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ أي أعطيناه إياها تفضلاً فإن التخويل على ما قيل مختص به لا يطلق على ما أعطى جزاء ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ أي على علم مني بوجوه كسبه أو بأني سأعطاه لما لي من الاستحقاق أو على علم من الله تعالى بي وباستيجابي ، وإنما للحصر أي ما أوتيته لشيء من الأشياء إلا لأجل علم ، والهاء للنعمة ، والتذكير لتأويلها بشيء من النعم ، والقرينة على ذلك التنكير ، وقيل : لأنها بمعنى الإنعام ، وقيل : لأن المراد بها المال ، وقيل : لأنها تشتمل على مذكر ومؤنث فغلب المذكر ، وجوز أن يكون لما في ﴿ إِنَّمَا ﴾ على أنها موصولة أي إن الذي أوتيته كائن على علم ويبعد موصوليتها كتابتها

متصلة في المصاحف ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ رد لقوله ذلك ، والضمير للنعمة باعتبار لفظها كما أن الأول لها باعتبار معناها ، واعتبار اللفظ بعد اعتبار المعنى جائز وإن كان الأكثر العكس ، وجوز أن يكون التأنيث باعتبار الخبر ، وقيل : هو ضمير الإتيانة وقرىء بالتذكير فهو للنعمة أيضاً كالذي مر أو للإتيان أي ليس الأمر كما يقول بل ما أوتيه امتحان له أيشكر أم يكفر ، وأخبر عنه بالفتنة مع أنه آلة لها لقصد المبالغة ، ونحو هذا يقال على تقدير عود الضمير للإتيانة أو الإتيان ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ إن الأمر كذلك وهذا ظاهر في أن المراد بالإنسان الجنس إذ لو أريد العهد لقيل لكنه لا يعلم أو لكنهم لا يعلمون وإرادة العهد هناك وإرجاع الضمير للمطلق هنا على أنه استخدام نظير عندي درهم ونصفه تكلف .

(221/668)

والفاء للعطف وما بعدها عطف على قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ ﴾ [الزمر : 45] الخ وهي لترتيبه عليه والغرض منه التهكم والتحميق ، وفيه ذمهم بالمناقضة والتعكيس حيث أنهم يشمئزون عن ذكر الله تعالى وحده ويستبشرون بذكر الآلهة فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا من ذكره دون من استبشروا بذكره ، وهذا كما تقول : فلان يسىء إلى فلان فإذا احتاج سأله فأحسن إليه ، ففي الفاء استعارة تبعية تهكمية ، وقيل :

يجوز أن تكون للسببية داخلة على السبب لأن ذكر المسبب يقتضي ذكر سببه لأن ظهور ﴿ ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ [الزمر : 47] الخ مسبب عما بعد الفاء إلا أنه يتكرر مع قوله تعالى الآتي : ﴿ والذين ظَلَمُواْ مِنْ هؤلاء ﴾ [الزمر : 51] إلى آخره إن لم يتغايرا بكون أحدهما في الدنيا والآخر في الأخرى ، وإلى ما قدمنا ذهب الزمخشري ، والجمل الواقعة في البين عليه أعني قوله سبحانه : ﴿ قُلِ اللهم إلى يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الزمر : 46 ، 48] اعتراض مؤكد للإنكار عليهم ، وزعم أبو حيان أن في ذلك تكلفاً واعتراضاً بأكثر من جملتين وأبو علي الفارسي لا يجيز الاعتراض بجملتين فكيف يجيزه بالأكثر ، وأنا أقول : لا بأس بذلك لا سيما وقد تضمن معنى دقيقاً لطيفاً ، والفارسي محجوج بما ورد في كلام العرب من ذلك .

﴿ قَدْ قَالَهَا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ضمير ﴿ قَالَهَا ﴾ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ [الزمر : 49] لأنها كلمة أو جملة ، وقرىء بالتذكير أي القول أو الكلام المذكور ، والذين من قبلهم قارون وقومه فإنه قال ورضوا به فالإسناد من باب إسناد ما للبعض إلى الكل وهو مجاز عقلي .

وجوز أن يكون التجوز في الظرف فقالها الذين من قبلهم بمعنى شاعت فيهم ، والشائع الأول ، والمراد قالوا مثل هذه المقالة أو قالوها بعينها ولاتحاد صورة اللفظ تعد شيئاً واحداً في العرف ﴿ فَمَآ أَغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من متاع الدنيا ويجمعونه منه .

﴿ فَأَصَابَهُمْ عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ ﴾ أي أصابهم جزاء سيئات كسبهم أو الذي كسبوه على أن الكلام بتقدير مضاف أو أنه تجوز بالسيئات عما تسبب عنها وقد يقال لجزاء السيئة سيئة مشاكلة نحو قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] فيكون ما هنا من المشاكلة التقديرية ، وإذا كان المعنى على جعل جزاء جميع ما كسبوا سيئاً دل الكلام على أن جميع ما كسبوا سيء إذ لو كان فيه حسن جوزي عليه جزاءً حسناً ، وفيه من ذمهم ما فيه .

﴿ والذين ظَلَمُواْ مِنْ هَؤُلاَء ﴾ المشركين ، و ﴿ مِنْ ﴾ للبيان فإنهم كلهم كانوا ظالمين إذا الشرك ظلم عظيم أو للتبعيض فالمراد بالذين ظلموا من أصر على الظلم حتى تصيبهم قارعة وهم بعض منهم ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ كما أصاب الذين من قبلهم ، والمراد به العذاب الدنيوي وقد قحطوا لسبع سنين ، وقتل : ببدر صناديدهم وقيل العذاب الأخروي ، وقيل : الأعم ، ورجح الأول بأنه الأوفق للسياق ، وأشير بقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي بفائتين على ما قيل إلى العذاب الأخروي .

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاء ﴾

أن يبسطه له ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ لمن يشاء أن يقدر له من غير أن يكون لأحد ما مدخل في ذلك حيث حبس عنهم الرزق سبعاً ثم بسطه لهم سبعاً ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكر ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ دالة على أن الحوادث كافة من الله تعالى شأنه والأسباب في الحقيقة ملغاة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذ هم المستدلون بها على مدلولاتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(223/668)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض ﴾ .

الينابيع : جمع ينبوع ، وهو الماء الكثير .

وقوله : فسلكه أي أدخله ، كما قدمنا إيضاحه بشواهده العربية ، والآيات القرآنية في سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ [هود : 40] الآية .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من سورة الزمر ، قد أوضحناه في أول سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ [سبأ : 2] الآية .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُه ﴾ .

قد قدمنا الكلام على ما يماثله من الآيات في سورة الروم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ [الروم : 22] وأحلنا عليه في سورة فاطر ، في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ [فاطر : 27] الآية .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لذكرى لأُوْلِي الألباب ﴾ .

(224/668)

قوله ثم يهيج : أي ثم بعد نضارة ذلك الزرع وخضرته ييبس ، ويتم جفافه ويثور من منابته فتراه أيها الناظر مصفراً يابساً ، قد زالت خضرته ونضارته . ثم يجعله حطاماً أي فتاتاً ، متكسراً ، هشيماً ، تذروه الرياح ، إن في ذلك المذكور من حالات ذلك الزرع ، المختلف الألوان ، لذكرى أي عبرة وموعظة وتذكيراً لأولي الألباب ، أي لأصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال ، فقد ذكر جل وعلا مصير هذا الزرع على سبيل الموعظة والتذكير ، وبين في موضع آخر ، أن ما وعظ به خلقه هنا من حالات هذا الزرع شبيه أيضاً بالدنيا .

فوعظ به في موضع وشبه به حالة الدنيا في موضع آخر ، وذلك في قوله تعالى في سورة الحديد ﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأموال والأولاد كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ﴾ [الحديد : 20] . ويبين في سورة الروم أن أسباب اصفراره المذكور إرسال الريح عليهن وذلك في قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [الروم : 51] .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإِسْلاَمِ فَهُوَ على نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ .

قد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام : في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإِسْلاَمِ ﴾ [الأنعام : 125] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل : 37] الآية ، وفي غير ذلك من الموضع .

قوله تعالى : ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّماً ﴾ [الكهف : 12] الآية .

وقوله في هذه الآية الكريمة : قرآناً انتصب على الحال وهي حال مؤكدة ، والحال والحال في الحقيقة هو عربياً ، وقرآناً توطئة له وقيل انتصب على المدح .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : عربياً ، أي لأنه بلسان عربي كما قال تعالى : ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103] . وقال تعالى في أول سورة يوسف ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : 2] . وقال في أول الزخرف ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : 3] . وقال في طه ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ﴾ [طه : 113] وقال تعالى في فصلت : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ [فصلت : 44] وقال تعالى في الشعراء ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 193195] وقال تعالى في سورة شورى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : 7] الآية . وقال تعالى في الرعد ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم مَا لَكَ مِنَ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴾ [الرعد : 37] إلى

غير ذلك من الآيات .

وهذه الآيات القرآنية تدل على شرف اللغة العربية وعظمها ، دلالة لا ينكرها إلا مكابر .

(226/668)

قوله تعالى : ﴿ والذي جَآءَ بالصدق ﴾ الآية .

أوضح جل وعلا ، أن الذي في هذه الآية بمعنى الذين ، بدليل قوله بعده ﴿ أولئك هُمُ المتقون لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَآءُ المحسنين ﴾ [الزمر : 3334] .

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن الذي تأتي بمعنى الذين ، في القرآن وفي كلام العرب ، فمن أمثلة ذلك في القرآن ، قوله تعالى في آية الزمر هذه : ﴿ والذي جَآءَ بالصدق ﴾ الآية .

وقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استوقد نَاراً ﴾ [البقرة : 17] أي الذين استوقدوا بدليل قوله بعده : ﴿ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة : 17] وقوله فيها أيضاً ﴿ كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ الناس ﴾ [البقرة : 264] أي كالذين ينفقون بدليل قوله بعده ﴿ لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ﴾ [البقرة : 264] الآية . وقوله تعالى في التوبة ﴿ وَخُضْتُمْ كالذي خاضوا ﴾ [التوبة : 69] على القول بأن الذي موصولة لا مصدرية ، ونظيره من كلام العرب قول أشهب بن رميلة :

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم . . . هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقول عديل بن الفرخ العجلي :

فبت أساقي القوم إخوتي الذي . . . غوايتهم غيٌّ ورشدهم رشد

وقول الراجز :

يا رب عبس لا تبارك في أحد . . . في قائم منهم ولا فيمن قعد

إلا الذي قاموا بأطراف المسد . . .

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل ، في الكلام على قوله تعالى ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤونَ ﴾ [النحل : 31] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

(227/668)

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، في هذه السورة الكريمة ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر : 1718] وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [

النحل : 97] .

قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، في هذه السورة الأنفال ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ [الأنفال : 64] وعلى قراءة الجمهور بكاف عبده ، بفتح العين وسكون الباء ، بإفراد العبد ، والمراد به ، النبي صلى الله عليه وسلم . كقوله : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ﴾ [البقرة : 137] وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي حَسْبُكَ اللهُ ﴾ [الأنفال : 64] الآية .

وأما على قراءة حمزة والكسائي عِبادَهُ بكسر العين وفتح الباء بعدها ألف على أنه جمع عبد ، فالظاهر أنه يشمل عباده الصالحين من الأنبياء وأتباعهم .

قوله تعالى : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بالذين مِن دُونِهِ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أن الكفار عبدة الأوثان ، يخوفون النبي صلى الله عليه وسلم ، بالأوثان التي يعبدونها من دون الله ، لأنهم يقولون له : إنها ستضره وتخبله ، وهذه عادة عبدة الأوثان لعنهم الله ، يخوفون الرسل بالأوثان ويزعمون أنها ستضرهم وتصل إليهم بالسوء .

ومعلوم أن أنبياء الله عليهم صلوات الله وسلامه ، لا يخافون غير الله ولا سيما الأوثان ، التي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولذا قال تعالى عن نبيه إبراهيم لما خوَّفوه بها ﴿

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمن ﴾ [الأنعام: 81] الآية.

(228/668)

وقال عن نبيه هود وما ذكره له قومه من ذلك ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعتراك بَعْضُ آلِهَتِنَا بسواء قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ واشهدوا أَنِّي بريء مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: 5456].

وقال تعالى في هذه السورة الكريمة، مخاطباً نبينا صلى الله عليه وسلم، بعد أن تخويفهم له بأصنامهم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتوكلون ﴾ [الزمر: 38].

ومعلوم أن الخوف من تلك الأصنام من أشنع أنواع الكفر والإشراك بالله.

وقد بين جل وعلا في موضع آخر، أن الشيطان يخوف المؤمنين أيضاً، الذين هم أتباع الرسل من أتباعه وأوليائه من الكفار، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذلكم الشيطان يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا

تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 175] .

والأظهر أن قوله ﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ حذف فيه المفعول الأول ، أي يخوفكم أولياءه ، بدليل قوله بعده : ﴿ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ الآية .

(229/668)

ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن المعبودات من دونه ، لا تقدر أن تكشف ضراً أراد الله به أحداً ، أو تمسك رحمة أراد بها أحداً ، جاء موضحاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 42] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : 7274] . وقوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [فاطر : 2] وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [يونس : 107] الآية ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الصافات ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالمجرمين إِنَّهُمْ كانوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : 3435] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْاْ بِهِ مِن سواء العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ .

(230/668)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الذين ظلموا وهم الكفار ، لو كان لهم في الآخرة ما في الأرض جميعاً ومثله معه ، لفدوا أنفسهم به من سوء العذاب الذي كانوه يوم القيامة ، وبين هذا المعنى في مواضع أخر وصرح فيها بأنه لا فداء ألبتة يوم القيامة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ أولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران : 91] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القيامة مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النار وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ

﴿ [المائدة : 3637] وقوله تعالى : ﴿ فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الذين كَفَرُواْ مَأْوَاكُمُ النار هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ المصير ﴾ [الحديد : 15] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَآ أولئك الذين أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُون ﴾ [الأنعام : 70] . فقوله ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ أي وأن تفتد كل فداء ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة : 48] وقوله ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة : 123] الآية ، والعدل الفداء وقوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمُ الحسنى والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أولئك لَهُمْ سواء الحساب وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المهاد ﴾ [الرعد : 18] .

(231/668)

وقد قدمنا طرفاً من هذا سورة آل عمران ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ ﴾ [آل عمران : 91] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ .

قوله وبدا لهم أي ظهر لهم سيئات ما كسبوا ، أي جزاء سيئاتهم التي اكتسبوها في الدنيا ، فالظاهر أنه أطلق السيئات هنا مراداً بها جزاؤها .

ونظيره من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] .

ونظير ذلك أيضاً إطلاق العقاب ، على جزاء العقابن في قوله تعالى : ﴿ ذلك وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ الله ﴾ [الحج : 60] الآية .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أنهم يبدوا لهم يوم القيامة ، حقيقة ما كانوا يعملونه في الدنيا جاء موضحاً في آيات أخر ، كقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ [يونس : 30] وقوله تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : 13] وقوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار : 5] . وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ يا ويلتنا مال هذا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً ﴾ [الكهف : 49] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقرأ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 1314] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس ، في الكلام على قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾ [يونس : 12] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(233/668)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾

الفاء لتفريع هذا الكلام على قوله : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ [الزمر : 45] الآية وما بينهما اعتراض مسلسل بعضه مع بعض للمناسبات . وتفريع ما بعد الفاء على ما ذكرناه تفريع وصف بعض من غرائب أحوالهم على بعض ، وهل أغرب من فزعهم إلى الله وحْده بالدعاء إذا مسهم الضر وقد كانوا يشمئزّون من ذكر اسمه وحده فهذا تناقض من أفعالهم وتعكيس ، فإنه تسببُ حديثٍ على حديثٍ وليس تسبباً على الوجود .

وهذه النكتة هي الفارقة بين العطف بالفاء هنا وعطف نظيرها بالواو في قوله أول السورة ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ﴾ [الزمر : 8] .

والمقصود بالتفريع هو قوله : ﴿ فإذا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دعانا ﴾ ، وأما ما بعده فتتميم واستطراد .

وقد تقدم القول في نظير صدر هذه الآية في قوله : ﴿ وإذا مسّ الإِنسان ضرّ دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوّله نعمة منه نسي ﴾ [الزمر : 8] الآية .

وأن المراد بالإِنسان كل مشرك فالتعريف تعريف الجنس ، والمرادُ جماعةٌ من الناس وهم أهل الشرك فهو للاستغراق العرفي .

والمخالفة بين الآيتين تفنن ولئلا تخلو إعادة الآية من فائدة زائدة كما هو عادة القرآن في القصص المكررة .

وقوله : إنما أوتيته على علم إنَّمَا ﴾ فيه هي الكلمة المركبة من (إنّ) الكافة التي تصير كلمة تدل على الحصر بمنزلة (مَا) النافية التي بعدها (إلاّ) الاستثنائية .

والمعنى : ما أوتيت الذي أوتيتُه من نعمة إلا لعلم منيّ بطرق اكتسابه .

(234/668)

وتركيز ضمير الغائب في قوله : ﴿ أوتيته ﴾ عائد إلى ﴿ نِعْمَة ﴾ على تأويل حكاية مقالتهم بأنها صادرة منهم في حال حضور ما بين أيديهم من أنواع النعم فهو من عود الضمير

إلى ذات مشاهدة ، فالضمير بمنزلة اسم الإِشارة كقوله تعالى : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾ [الأحقاف : 24] .

ومعنى قال إنما أوتيته على علم ﴾ اعتقَد ذلك فجرى في أقواله إذ القولُ على وفق الاعتقاد .

و﴿ عَلى ﴾ للتعليل ، أي لأجل عِلمٍ ، أي بسبب علم .

وخولف بين هذه الآية وبين آية سورة [القصص : 78] في قوله : ﴿ على علم عندي ﴾ فلم يذكر هنا عندي لأن المراد بالعلم هنا مجرد الفطْنة والتدبير ، وأريد هنالك علم صَوغ الذهب والفضة والكيمياء التي اكتسب بها قارون من معرفة تدابيرها مالاً عظيماً ، وهو علم خاص به ، وأما مَا هنا فهو العلم الذي يوجد في جميع أهل الرأي والتدبير

والمراد : العِلم بطرق الكسب ودفع الضرّ كمثل حِيَل النوتيّ في هول البحر .

والمعنى : أنه يقول ذلك إذا ذكَّره بنعمة الله عليه الرسولُ أو أحدُ المؤمنين ، وبذلك يظهر موقع صيغة الحصر لأنه قصد قلب كلام من يقول له إن ذلك من رحمة الله به .

وبل ﴾ للإِضراب الإِبطالي وهو إبطال لزعمهم أنهم أوتوا ذلك بسبب علمهم وتدبيرهم ، أي بل إن الرحمة التي أوتوها إنما آتاهم الله إياها ليظهر للأمم مقدار شكرهم ، أي هي دالّة على حالة فيهم تشبه حالة الاختبار لمقدار علمهم بالله وشكرهم إياه لأن الرحمة والنعمة بها أثر في المنع عليه إمّا شاكراً وإمّا كفوراً والله عالم بهم وغنيّ عن اختبارهم .

وضمير ﴿ هِيَ ﴾ عائد إلى القول المستفاد من ﴿ قال ﴾ على طريقة إعادة الضمير على المصدر المأخوذ من فعل نحو ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : 8] ، وإنما أُنِّث ضميره باعتبار الإِخبار عنه بلفظ فتنة ﴾ ، أو على تأويل القول بالكلمة كقوله تعالى : ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ [المؤمنون : 100] بعد قوله : ﴿ قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ﴾ [المؤمنون : 99 ، 100] والمراد : أن ذلك القول سبب فتنة أو مسبب عن فتنة في نفوسهم .

ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى نِعْمَة ﴾ .

والاستدراك بقوله تعالى : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ناشىء عن مضمون جملة ﴿ إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ﴾ ، أي لكن لا يعلم أكثر الناس ومنهم القائلون ، أنهم في فتنة بما أُوتوا من نعمة إذا كانوا مثل هؤلاء القائلين الزاعمين أن ما هم فيه من خير نتيجةُ مساعيهم وحيلهم .

وضمير ﴿ أكثرهم ﴾ عائد إلى معلوم من المقام غير مذكور في الكلام إذ لم يتقدم ما يناسب أن يكون له معاداً ، والمراد به الناس ، أي لكن أكثر الناس لا يعلمون أن بعض ما أوتوه من

النعمة في الدنيا يكون لهم فتنة بحسب ما يتلقونها به من قلة الشكر وما يفضي إلى الكفر ، فدخل في هذا الأكثر جميع المشركين الذين يقول كل واحد منهم : إنما أوتيته على علم .

قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50)

جملة ﴿ قد قالها ﴾ مبيّنة لمضمون ﴿ هي فتنة ﴾ [الزمر : 49] لأن بيان مغبة الذين قالوا هذا القول في شأن النعمة التي تنالهم يبين أن نعمة هؤلاء كانت فتنة لهم .

وضمير قالَهَا ﴾ عائد إلى قول القائل ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ [الزمر : 49] ، على تأويل القول بالكلمة التي هي الجملة كقوله تعالى : ﴿ قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ [المؤمنون : 99 ، 100] .

(236/668)

و ﴿ الذين من قبلهم ﴾ هم غير المتدينين ممن سلفوا ممن علمهم الله ، ومنهم قارون وقد حكى عنه في سورة القصص أنه قال ذلك .

والمراد بـ ﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ ما كسبوه من أموال .

وعدمُ إغنائه عنهم أنهم لم يستطيعوا دفع العذاب بأموالهم .

والفاء في ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ لتفريع عدم إغناء ما كسبوه على مقالتهم

تلكَ فإن عدم الإغناء مشعر بأنهم حل بهم من السوء ما شأن مثله أن يتطلب صاحبه الافتداء منه ، فإذا كان ذلك السوء عظيماً لم يكن له فداء ، ففي الكلام إيجاز حذف يبينه قوله بعده : ﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا ﴾ .

ففاء ﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا ﴾ مفرّعة على جملة ﴿ ما أغنى عنهم ﴾ ، أي تسبب على انتفاء إغناء الكسب عنهم حلولُ العقاب بهم .

وكان مقتضى الظاهر في ترتيب الجمل أن تكون جملة ﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا ﴾ مقدّمة على جملة ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ ، لأن الإغناء إنما يترقب عند حلول الضير بهم فإذا تقرر عدم الإغناء يذكر بعده حلول المصيبة ، فعُكس الترتيب على خلاف مقتضى الظاهر لقصد التعجيل بإبطال مقالة قائلهم ﴿ إنما أوتيتُه على علم ﴾ [الزمر : 49] ، أي لو كان لعلمهم أثر في جلب النعمة لهم لكان له أثر في دفع الضر عنهم .

والإشارة بهؤلاء ﴾ إلى المشركين من أهل مكة وقد بيّنا غير مرة أننا اهتدينا إلى كشف عادة من عادات القرآن إذا ذكرت فيه هذه الإشارة أن يَكون المراد بها المشركون من قريش .

وإصابة السيئات مراد بها في الموضعين إصابة جزاء السيئات وهو عقاب الدنيا وعقاب الآخرة لأن جزاء السيئة سيئة مثلها .

والمعجِز : الغالب ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ﴾ في

سورة [الأنعام : 134] ، أي ما هم بمعجزينا ، فحذف مفعول اسم الفاعل لدلالة القرينة عليه .

(237/668)

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

عطف على جملة ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [الزمر : 49] فبعد أن وصف أكثرهم بانتفاء العلم بأن الرحمة لهم فتنةٌ وابتلاء ، عُطف عليه إنكار علمهم انتفاء علمهم بذلك وإهمالهم النظر في الأدلّة المفيدة للعلم وصمهم آذانهم عن الآيات التي تذكّرهم بذلك حتى بَقُوا في جهالة مركَّبة وكان الشأن أن يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، أي يعطي الخَيْر من يشاء ، ويمنع من يشاء .

فالاستفهام إنكار عليهم في انتفاء علمهم بذلك لأنهم تسببوا في انتفاء العلم ، فالإِنكار عليهم يتضمن توبيخاً .

واقتصر في الإِنكار على إنكار انتفاء العلم بأن بسط الرزقِ وقدْرَه من فعل الله تعالى لأنه أدنى لمشاهدتهم أحوال قومهم فكم من كادَ غير مرزوق وكم من آخر يجيئه الرزق من حيث لا يحتسب .

وجُعل في ذلك آيات كثيرة لأن اختلاف أحوال الرزق الدالة على أن التصرف بيد الله تعالى ينبىء عن بقية الأحوال فتحصُل في ذلك آيات كثيرة دالة على انفراد الله تعالى بالتصرف في نفس الأمر .

وجعلت الآيات لقوم يؤمنون لأن المؤمنين قد علموا ذلك وتخلقوا به ولم تكن فيه آيات للمشركين الغافلين عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(238/668)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (32) ﴾

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق ﴾ أي بالقرآن ﴿ وصدق به ﴾ قال : المؤمنون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ يعني بلا إله إلا الله ﴿ وصدق به ﴾

يعني برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ يعني اتقوا الشرك .

وأخرج ابن جرير والباوردي في معرفة الصحابة وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان وله صحبة عن علي بن أبي طالب قال ﴿ الذي جاء بالحق ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وصدق به ﴾ أبو بكر رضي الله عنه هكذا الرواية ﴿ بالحق ﴾ ولعلها قراءة لعلي رضي الله عنه .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة " ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وصدق به ﴾ قال : علي بن أبي طالب رضي الله عنه " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ قال : هو جبريل عليه السلام ﴿ وصدق به ﴾ قال : هو النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد أنه كان يقرأ ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ قال : هم أهل القرآن يجيئون بالقرآن يوم القيامة يقولون : هذا ما أعطيتمونا قد اتبعنا ما فيه .

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة قال : قال لي رجل : قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم لتكفن عن شتم آلهتنا أو لتأمرنها فلتخبلنك . فنزلت ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن جرير عن قتادة ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ قال : بالآلهة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ليكسر العزى فقال سادنها : - وهو قيمها - يا خالد إني أحذركها لا يقوم لها شيء ، فمشى إليها خالد بالفأس وهشم أنفها .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ قال : الأوثان . والله أعلم .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ يعني الأصنام .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ هل هن كاشفات ضره ﴾ مضاف لآمنون كاشفات . . . ، وممسكات رحمته مثلها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ قال : بحفيظ .

والله أعلم .

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ الله يتوفى الأنفس . . ﴾ الآية .

قال : نفس وروح بينهما شعاع الشمس ، فيتوفى الله النفس في منامه ويدع الروح في جسده وجوفه يتقلب ويعيش ، فإن بدا لله أن يقبضه قبض الروح فمات أو أُخِّر أجله رد النفس إلى مكانها من جوفه .

(240/668)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في العظمة والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها . . ﴾ الآية .

قال : يلتقي أرواح الأحياء وأرواح الأموات في المنام فيتساءلون بينهم ما شاء الله تعالى ، ثم يمسك الله أرواح الأموات ، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ لا يغلط بشيء من ذلك . فذلك قوله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها . . . ﴾ قال : كل نفس لها سبب تجري فيه ، فإذا قضى عليها الموت نامت حتى ينقطع السبب ﴿

والتي لم تمت ﴾ تترك .

وأخرج جويبر عن ابن عباس في الآية قال : سبب ممدود بين السماء والأرض ، فأرواح الموتى وأرواح الأحياء إلى ذلك السبب ، فتعلق النفس الميتة بالنفس الحية ، فإذا أذن لهذه الحية بالانصراف إلى جسدها لتستكمل رزقها ، أمسكت النفس الميتة وأرسلت الأخرى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن فرقد قال : ما من ليلة من ليالي الدنيا إلا والرب تبارك وتعالى يقبض الأرواح كلها مؤمنها وكافرها . فيسأل كل نفس ما عمل صاحبها من النهار وهو أعلم ، ثم يدعو ملك الموت فيقول : اقبض هذا ، واقبض هذا من قضى عليه الموت ﴿ ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ .

(241/668)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال : العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على باله فتكون رؤياه كأخذ باليد ، ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئاً ! فقال علي بن أبي طالب : أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين ؟ يقول الله تعالى ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك

التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ فالله يتوفى الأنفس كلها فما رأت وهي عنده في السماء فهي الرؤيا الصادقة ، وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها وأخبرتها بالأباطيل فكذبت فيها . فعجب عمر من قوله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أيوب ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان نازلاً عليه في بيته حين أراد أن يرقد قال كلاماً لم نفهمه قال : فسألته عن ذلك فقال

" اللهم أنت تتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فتمسك التي قضى عليها الموت ، وترسل الأخرى إلى أجل مسمى ، أنت خلقتني ، وأنت تتوفاني ، فإن أنت توفيتني فاغفر لي ، وإن أنت أخرتني فاحفظني " .

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقل : اللهم باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك ارفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين من عبادك " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره الذي ناموا فيه حتى طلعت الشمس ، ثم قال : " إنكم كنتم أمواتاً فرد الله إليكم أرواحكم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري وأبو داود والنسائي عن أبي قتادة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم ليلة الوادي : " إن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردها عليكم حين شاء " .

(242/668)

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فقال : " من يكلؤنا الليلة ؟ فقلت : أنا . فنام ، ونام الناس ، ونمت ، فلم نستيقظ إلا بحرِّ الشمس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد ، فيقبضها إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء " .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فلم يستيقظ حتى طلعت الشمس ، فأقام الصلاة ثم صلى بهم . ثم قال : إذا رقد أحدكم فغلبته عيناه فليفعل هكذا . . فإن الله سبحانه وتعالى ﴿ يتوفي الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ " .

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أم اتخذوا من دون الله

شفعاء ﴾ قال : الآلهة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث والنشور عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ قال : لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت ﴾ قال : انقبضت قال : هو يوم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ﴿ والنجم ﴾ عند باب الكعبة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ قال : قست ونفرت قلوب هؤلاء الأربعة الذين لا يؤمنون بالآخرة : أبو جهل بن هشام ، والوليد بن عتبة ، وصفوان ، وأُبيّ بن خلف ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ اللات والعزى ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ .

(243/668)

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ قال : نفرت قلوب الكافرين من ذكر الله سبحانه وتعالى قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت عمرو

بن كلثوم التغلبي وهو يقول :

إذا غض النفاق لها اشمأزت . . . وولته عشورته زبونا

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ قال : استكبرت ونفرت ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ قال : الآلهة .

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46)

أخرج مسلم وأبو داود والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته " اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ ﴿ عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ اهدني لما اختلفت من الحق بإذنك انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " .

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ثم إذا خوّلناه نعمة منا ﴾ قال : أعطيناه ﴿ قال إنما أوتيته على علم ﴾ أي على شرف أعطانيه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ثم إذا خوّلناه نعمة منا ﴾ قال : أعطيناه . وعن قتادة في قوله ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ قال : على خبر عندي ﴿ بل هي فتنة ﴾ قال : بلاء .

(244/668)

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ الأمم الماضية ﴿ والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ قال : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(245/668)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿ تَنزِيلُ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ تقديرُه : هذا تنزيلُ .

وقال الشيخ : " وأقولُ إنه خبرٌ ، والمبتدأ " هو " ليعودَ على قولِه : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [ص : 87] كأنه قيل : وهذا الذِّكْرُ ما هو ؟ فقيل : هو تنزيلُ الكتابِ " . الثاني : أنه مبتدأٌ ، والجارُّ بعده خبرُه أي : تنزيلُ الكتابِ كائنٌ من اللَّهِ . وإليه ذهب الزجاج والفراء . قوله : " مِنَ اللَّهِ " يجوزُ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه مرفوعُ المحلِّ خبراً لتنزيل ، كما تقدَّم تقريرُه . الثاني : أنه خبرٌ بعد خبرٍ إذا جَعَلْنا " تنزيلُ " خبرَ مبتدأ مضمرٍ كقولك : " هذا زيدٌ من أهل العراق " . الثالث : أَنَّه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هذا تنزيلٌ ، هذا من الله . الرابع : أَنَّه متعلِّقٌ بنفسِ " تَنْزيل " إذا جَعَلْناه خبرَ مبتدأ مضمرٍ . الخامس : أنه متعلقٌ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " تنزيل " عَمِل فيه اسمُ الإشارةِ المقدرُ ، قاله الزمخشري . قال الشيخ : " ولا يجوزُ أَنْ يكونَ حالاً عَمِلَ فيها معنى الإشارةِ ؛ لأنَّ معانيَ الأفعالِ لا تعمل إذا كان ما هي فيه محذوفاً ؛ ولذلك رَدُّوا على أبي العباس قولَه في بيت الفرزدق :

3884 . . . . . وإذ ما مثلَهمْ بَشَرُ

إن " مثلهم " منصوبٌ بالخبرِ المحذوف وهو مقدرٌ : وإذ ما في الوجود في حالِ مماثلِتهم بَشَرٌ . السادس : أنه حالٌ من " الكتاب " قاله أبو البقاء . وجاز مجيءُ الحالِ من المضاف إليه لكونِه مفعولاً للمضافِ ؛ فإنَّ المضافَ مصدرٌ مضافٌ لمفعولِه . والعامَّةُ على رَفْع " تَنْزيلُ "

على ما تقدَّم . وقرأ زيد ابن علي وعيسى وابن أبي عبلة بنصبه بإضمارِ فِعْلٍ تقديرُه : الزَمْ أو اقْرَأ ونحوهما .

(246/668)

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (2)

قوله : ﴿ بالحق ﴾ : يجوز أَنْ يتعلَّقَ بالإنزال أي : بسبب الحق ، وأنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من الفاعل أو المفعول وهو الكتاب ، أي : مُلْتبسين بالحق أو ملتبساً بالحقِّ . وفي قوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب ﴾ تكريرُ تعظيمٍ بسبب إبرازِه في جملةٍ أخرى مضافاً إنزالُه إلى المعظِّم نفسَه .

(247/668)

قوله : " مُخْلِصاً " حالٌ مِنْ فاعل " اعبد " ، و " الدين " منصوبٌ باسمِ الفاعلِ . والفاءُ في " فاعبُدِ " للربطِ ، كقولك : " أَحْسَنَ إليك فلانٌ فاشْكُرْه " . والعامَّةُ على نصبِ " الدينَ " كما تقدَّم . ورَفَعَه ابنُ أبي عبلة . وفيه وجهان ، أحدُهما : أنَّه مرفوعٌ بالفاعليةِ رافعُه "

مُخْلِصاً " ، وعلى هذا فلا بُدَّ مِنْ تجوُّزٍ وإضمارٍ . أمَّا التجوزُ فإسنادُ الإخلاصِ للدين وهو لصاحبِه في الحقيقة . ونظيرُه قولُهم : شعرٌ شاعرٌ . وأمَّا الإضمارُ فهو إضمارٌ عائدٌ على ذي الحالِ أي : مُخْلِصاً له الدينَ منك ، هذا رَأْيُ البصريين في مثل هذا . وأمَّا الكوفيون فيجوزُ أَنْ يكونَ عندهم أل عوضاً مِن الضميرِ أي : مُخْلِصاً دِيْنَك . قال الزمخشري : " وحَقٌّ لَمَنْ رَفَعه أَنْ يَقرأ " مُخْلَصاً " بفتحِ اللامِ لقولِه تعالى : ﴿ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ للَّهِ ﴾ [النساء : 146] حتى يطابقَ قولَه : ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ ، والخالِصُ والمُخْلَص واحدٌ إلاَّ أَنْ يصفَ الدينَ بصفةِ صاحبِه على الإسنادِ المجازيِّ كقولِهم : شعرٌ شاعرٌ " . والثاني : أَنْ يَتمَّ الكلامُ على " مُخْلِصاً " وهو حالٌ مِنْ فاعلِ " فاعبدْ " و " له الدينُ " مبتدأٌ وخبرٌ ، وهذا قولُ الفراء . وقد رَدَّه الزمخشري ، وقال : " فقد جاء بإعرابٍ رَجَع به الكلامُ إلى قولِك : " للهِ الدينُ " ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ قلت : وهذا الذي ذكره الزمخشريُّ لا يظهرُ فيه رَدٌّ على هذا الإعراب .

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3)

قوله : ﴿ والذين اتخذوا ﴾ : يجوز فيه أوجهٌ ، أحدها : أن يكونَ " الدينُ " مبتدأً ، وخبرُه قولٌ مضمرٌ حُذِف وبقي معمولُه وهو قولُه " ما نَعْبُدهم " . والتقديرُ : يقولون ما نعبدهم . الثاني : أن يكونَ الخبرُ قولَه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ ﴾ / ويكونُ ذلك القولُ المضمرُ في محلِّ نصبٍ على الحال أي : والذين اتَّخذوا قائلين كذا ، إنَّ اللَّهَ يحكمُ بينهم . الثالث : أَنْ يكونَ القولُ المضمرُ بدلاً من الصلةِ التي هي " اتَّخذوا " . والتقديرُ : والذين اتخذوا قالوا ما نعبدُهم ، والخبرُ أيضاً : ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ و " الذين " في هذه الأقوالِ عبارةٌ عن المشركين المتَّخِذين غيرَهم أولياءَ . الرابع : أن يكونَ " الذين " عبارةً عن الملائكةِ وما عُبِد من دونِ اللَّهِ كعُزَيْرٍ واللاتِ والعُزَّى ، ويكونُ فاعلُ " اتَّخَذَ " عائداً على المشركين . ومفعولُ الاتخاذِ الأولُ محذوفٌ ، وهو عائدُ الموصولِ ، والمفعولُ الثاني هو " أولياءَ " . والتقديرُ : والذين اتَّخذهم المشركون أولياءَ . ثم لك في خبرِ هذا المبتدأ وجهان ، أحدهما : القولُ المضمرُ ، التقدير : والذين اتَّخذهم المشركون أَوْلياءَ يقول فيهم المشركون : ما نعبدهم إلاَّ . والثاني : أنَّ الخبرَ هي الجملةُ مِنْ قولِه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

وقُرِئ " ما نُعْبُدُهم " بضمِّ النونِ إتباعاً للباءِ ، ولا يُعْتَدُّ بالساكن .

قوله : " زُلْفَى " مصدرٌ مؤكِّدٌ على غيرِ الصدرِ ، ولكنه مُلاقٍ لعاملِه في المعنى ، والتقدير : لَيُزْلِفُونا زُلْفى ، أو لِيُقَرِّبونا قُربى . وجَوَّز أبو البقاء أَنْ تكونَ حالاً مؤكدة .

قوله : "كاذِبٌ كَفَّارٌ" قرأ الحسنُ والأعرجُ - ويُرْوى عن أنسٍ - "كذَّابٌ كَفَّارٌ" ، وزيد بن علي "كَذُوبٌ كفورٌ" .

(249/668)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5)

قوله : ﴿ يُكَوِّرُ اليل ﴾ : في هذه الجملةِ وجهان ، أظهرُهما : أنَّها مستأنفةٌ أخبر تعالى بذلك . الثاني : أنها حالٌ ، قاله أبو البقاء . وفيه ضعفٌ ؛ من حيث إن تكويرَ أحدِهما على الآخر ، إنما كان بَعْدَ خَلْقِ السماواتِ والأرضِ ، إلاَّ أَنْ يُقال : هي حالٌ مقدرةٌ ، وهو خلافُ الأصلِ .

والتكويرُ : اللفُّ واللَّيُّ . يقال : كارَ العِمامةَ على رأسه وكَوَّرها . ومعنى تكويرِ الليلِ على النهارِ وتكويرِ النهارِ على الليل على هذا المعنى : أنَّ الليلَ والنهارَ خِلْفَةٌ يذهب هذا ويَغْشى مكانه هذا ، وإذا غَشِيَ مكانه فكأنما لَفَّ عليه وأَلْبَسَه كما يُلَفُّ اللباسُ على اللابسِ ، أو أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُغَيِّب الآخر إذا طرأ عليه ، فشُبِّه في تَغْييبه إياه بشيءٍ ظاهرٍ لَفَّ عليه ما غَيَّبه عن مطامحِ الأبصار ، أو أنَّ هذا يَكُرُّ على هذا كُروراً متتابعاً ،

فَشُبِّه ذلك بتتابع أكوارِ العِمامة بعضِها على بعضٍ . قاله الزمخشريُّ ، وهو أوفقُ للاشتقاقِ من أشياءَ قد ذُكِرَتْ . وقال الراغب : "كَوْرُ الشيءِ إدارتُه وضَمُّ بعضِه إلى بعضٍ ككَوْر العِمامةِ . وقوله : ﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار ﴾ إشارةٌ إلى جَرَيانِ الشمسِ في مطالعها وانتقاصِ الليل والنهار وازديادِهما ، وكَوَّره إذا أَلْقاه مجتمعاً . واكتار الفرسُ : إذا رَدَّ ذَنَبَه في عَدْوِه . وكُوَّارَةُ النَّحْلِ معروفةٌ . والكُوْر : الرَّحْلُ . وقيل : لكل مِصْرٍ "كُوْرَة" ، وهي البُقْعَةُ التي يَجْتمع فيها قُرىً ومحالٌّ" .

(250/668)

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)

قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا ﴾ : في "ثم" هذه أوجهٌ ، أحدها : أنها على بابها من الترتيب بمُهْلة ، وذلك أنه يُرْوى أنه تعالى أخرجَنا من ظهرِ آدمَ كالذَّرِّ ثم خَلَق حواءَ بعد ذلك بزمانٍ . الثاني : أنها على بابها أيضاً ولكنْ لمَدْرَكٍ آخرَ : وهو أن يُعْطَفَ بها ما بعدها على ما فُهِم من الصفة في قولِه : "واحدة" إذ التقدير : من نفسٍ وَحَدَتْ أي انفَرَدَتْ ثم جَعَلَ منها

زَوْجَها . الثالث : أنَّها للترتيب في الأخبار لا في الزمان الوجوديِّ كأنه قيل : كان مِنْ أمرها قبل ذلك أن جعل منها زوجَها . الرابع : أنها للترتيبِ في الأحوالِ والرُّتَبِ . قال الزمخشري : " فإنْ قلت : وما وجهُ قولِه : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وما يُعطيه من التراخي ؟ قلت : هما آيتان من جملةِ الآياتِ التي عَدَّدها دالاًّ على وحدانيَّتِه وقُدْرَتِه بتشعيب هذا الخلقِ الفائتِ للحَصْرِ من نفسِ آدمَ عليه السلام وخَلْقِ حواء من قُصَيْراه ، إلاَّ أَن إحداهما جعلها اللَّهُ عادةً مستمرةً ، والأخرى لم تَجْرِ بها العادةُ ولم تُخْلَقْ أنثى غيرُ حواءَ من قُصيرى رجلٍ ، فكانَتْ أَدخلَ في كَوْنها آيةً وأَجْلَبَ لعَجَبِ السامعِ ، فعطفَها ب " ثم " على الآية الأولى للدلالةِ على مباينَتِها فضلاً ومزيةً ، وتراخيها عنها فيما يرجعُ إلى زيادةِ كونِها آيةً فهي من التراخي في الحالِ والمنزلةِ لا من التراخي في الوجودِ .

(251/668)

قوله : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ﴾ عطف على " خَلَقَكم " ، والإنزالُ يَحتمل الحقيقةَ . يُرْوى أنه خَلَقها في الجنةِ ثم أَنْزَلَها ، ويُحتملُ المجازُ ، وله وجهان ، أحدهما : أنها لم تَعِشْ إلاَّ بالنبات والماء ، والنباتُ إنما يعيش بالماء ، والماءُ يَنْزِلُ من السحاب أطلق الإنزالَ/ عليها وهو في الحقيقةِ يُطْلَقُ على سببِ السببِ كقولِه :

3885 أَسْنِمَةُ الآبالِ في رَبابَهْ . . . وقوله :

3886 صار الثريدُ في رُؤوسِ العِيْدانْ . . . وقوله :

3887 إذا نَزَلَ السماءُ بأرضِ قَوْمٍ . . . رَعَيْناه وإنْ كانوا غِضابا

والثاني : أنَّ قضاياه وأحكامَه مُنَزَّلَةٌ من السماءِ من حيث كَتْبُها في اللوحِ المحفوظِ ، وهو أيضاً سببٌ في إيجادِها .

قوله : "يَخْلُقكم" هذه الجملةُ استئنافيةٌ ، ولا حاجةَ إلى جَعْلِها خبرَ مبتدأ مضمرٍ ، بل استُؤْنفت للإخبار بجملةٍ فعلية . وقد تقدَّم خلافُ القراءِ في كسرِ الهمزةِ وفتحِها وكذا الميمُ .

قوله : "خَلْقاً" مصدرٌ ل "يَخْلُق" و ﴿ مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ صفةٌ له ، فهو لبيانِ النوعِ من حيث إنه لَمَّا وُصِفَ زاد معناه على معنى عاملِه . ويجوز أن يتعلَّقَ ﴿ مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ بالفعل قبلَه ، فيكون "خَلْقاً" لمجرد التوكيد .

قوله : "ظُلُمات" متعلقٌ بخَلْق الذي قبله ، ولا يجوز تعلُّقُه ب "خَلْقاً" المنصوبِ ؛ لأنه مصدرٌ مؤكِّدٌ ، وإن كان أبو البقاء جَوَّزه ، ثم مَنَعَه بما ذكرْتُ فإنه قال : "و "في" متعلِّقٌ به أي ب "خَلْقاً" أو بخلق الثاني ؛ لأنَّ الأولَ مؤكِّدٌ فلا يعملُ" ولا يجوزُ تعلُّقُه بالفعلِ قبله ؛ لأنه قد تعلَّقَ به حرفٌ مثلُه ، ولا يتعلَّق حرفان متحدان لفظاً ومعنًى إلاَّ بالبدليةِ أو العطفِ .

فإنْ جَعَلْتَ " في ظلمات " بدلاً مِنْ ﴿ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ بدلَ اشتمال ؛ لأن البطونَ مشتملةٌ عليها ، وتكونُ بدلاً بإعادة العاملِ ، جاز ذلك ، أعني تعلُّقَ الجارَّين ب "يَخْلُقكم" . ولا يَضُرُّ الفصلُ بين البدلِ والمبدلِ منه بالمصدرِ لأنه مِنْ تتمةِ العاملِ فليس بأجنبي .

قوله : ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ " الله " خبراً ل " ذلكم " و " ربُّكم " نعتٌ للهِ أو بدلٌ منه . ويجوز أَنْ يكونَ " الله " بدلاً مِنْ " ذلكم " و " ربُّكم " خبرُه .

قوله : " له المُلْكُ " يجوز أَنْ يكونَ مستأنفاً ، ويجوزُ أَنْ يكونَ خبراً بعد خبر ، وأَنْ يكونَ " الله " بدلاً مِنْ " ذلكم " و " ربُّكم " نعتٌ للهِ أو بدلٌ منه ، والخبرُ الجملةُ مِنْ " له الملكُ " . ويجوزُ أَنْ يكون الخبرُ نفسَ الجارِّ والمجرور وحدَه و " المُلْكُ " فاعلٌ به ، فهو من بابِ الإخبارِ بالمفرد .

قوله : ﴿ لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ مستأنفاً ، وأَنْ يكونَ خبراً بعد خبرٍ .

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

(7)

قوله: ﴿ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾: قرأ "يَرْضَهُوْ" بالصلة - وهي الأصل مِنْ غيرِ خلافٍ - ابنُ كثيرٍ والكسائيُّ وابنُ ذكوان. وهي قراءةٌ واضحةٌ. وقرأ "يَرْضَهُ" بضم الهاءِ مِنْ غيرِ صلةٍ بلا خلافٍ نافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ. وقرأ "يَرْضَهْ" بإسكانها وَصْلاً مِنْ غيرِ خلافٍ السوسيُّ عن أبي عمروٍ. وقرأ بالوجهين - أعني الإسكانَ والصلةَ - الدُّوْريُّ عن أبي عمروٍ، وقرأ بالوجهين - أعني الإسكانَ والتحريكَ مِنْ غيرِ صلة - هشامٌ عن ابنِ عامرٍ، فهذه خمسُ مراتبَ للقُرَّاءِ، وقد عَرَفْتَ توجيهَ الإسكانِ والقصرِ والإشباعِ ممَّا تقدَّم في أوائلِ هذا الموضوع، وما أَنْشَدْتُه عليه وأَسْنَدْتُه لغةً إلى قائله. ولا يُلْتَفَتُ إلى أبي حاتمٍ في تَغْليطِه راويَ السكونِ، فإنها لغةٌ ثابتةٌ عن بني عُقَيْل وبني كلاب.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (8)

قوله: ﴿ مُنِيباً ﴾: حالٌ مِن فاعل "دَعَا" و"إليه" متعلق ب"مُنيباً" أي راجعاً إليه.

قوله: "خَوَّله" يُقال: خَوَّلَه نِعْمَةً أي: أعطاها إياه ابتداءً مِنْ غيرِ مُقْتَضٍ. ولا يُسْتَعْمَلُ في الجزاءِ بل في ابتداءِ العَطِيَّةِ. قال زهير:

3888 هنالِك إنْ يُسْتَخْوَلُوا المالَ يُخْوِلُوْا . . . . . .

وُيرْوَى "يُسْتَخْبَلُوا المالَ يُخْبِلوا" . وقال أبو النجم :

3889 أَعْطَى فلم يُبْخَلْ ولم يُبَخَّلِ . . . كُوْمُ الذُّرَى مِنْ خَوَلِ المُخَوَّلِ

(254/668)

وحقيقةُ "خَوَّل" مِنْ أحدِ معنيين : إمَّا مِنْ قولِهم : "هو خائلُ مالٍ" إذا كان متعهّداً له حَسَنَ القيام عليه ، وإمَّا مِنْ خال يَخُول إذا اختال وافتخر ، ومنه قولُه : "إنَّ الغنيَّ طويلُ الذيلِ مَيَّاسُ" ، وقد تقدَّم اشتقاقُ هذه المادةِ مُسْتوفىً في الأنعام .

قوله : "منه" يجوز أَنْ يكونَ متعلقاً ب "خَوَّل" ، وأنْ يكونَ متعلقاً بمحذوفٍ على أنه صفةٌ ل "نِعْمة" .

قوله : ﴿ مَا كَانَ يدعوا ﴾ يجوزُ في "ما" هذه أربعةُ أوجهٍ ، أحدُها : أَنْ تكونَ موصولةً بمعنى الذي ، مُراداً بها الضُّرُّ أي : نسي الضرَّ الذي يَدْعو إلى كَشْفِه . الثاني : أنها بمعنى الذي/ مُراداً بها الباري تعالى أي : نَسِي اللَّهَ الذي كان يَتَضرَّعُ إليه . وهذا عند مَنْ يُجيزُ "ما" على أُوْلي العلمِ . الثالث : أَنْ تكونَ "ما" مصدريةً أي : نَسِي كونَه داعياً . الرابع : أن تكونَ "ما" نافيةً ، وعلى هذا فالكلامُ تامٌّ على قولِه : "نَسِيَ" ثم استأنَفَ إخباراً بجملةٍ منفيةٍ ، والتقدير : نَسِيَ ما كان فيه . لم يكنْ دعاءُ هذا الكافرِ خالصاً للهِ تعالى . و "من

قبلُ " أي : من قبلِ الضررِ ، على القول الأخير ، وأمّا على الأقوالِ قبلَه فالتقديرُ : مِنْ قبل تخويلِ النّعمة .

قوله : " لِيُضِلَّ " قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو " لِيَضِلَّ " بفتح الياء أي : ليفعلَ الضلالَ بنفسه . والباقون بضمّها أي : لم يقنع بضلالِه في نفسِه حتى يَحْمِلَ غيرَه عليه ، فمفعولُه محذوفٌ وله نظائرُ تقدَّمَتْ . واللامُ يجوزُ أن تكونَ للعلةِ ، وأن تكونَ للعاقبة .

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9)

(255/668)

قوله : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ﴾ : قرأ الحَرميّان : نافعٌ وابنُ كثير بتخفيف الميم ، والباقون بتشديدها . فأمّا الأُولى ففيها وجهان ، أحدهما : أنها همزةُ الاستفهامِ دَخَلَتْ على " مَنْ " بمعنى الذي ، والاستفهامُ للتقريرِ ، ومقابلُه محذوفٌ ، تقديرُه : أمَنْ هو قانتٌ كمَنْ جعل للَّهِ تعالى أنداداً ، أو أَمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه ، أو التقدير : أهذا القانِتُ خيرٌ أم الكافرُ المخاطبُ بقوله : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ﴾ ويَدُلُّ عليه قولُه : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فحذفَ خبرَ المبتدأ أو ما يعادِلُ المُسْتَفْهَم عنه . والتقديران الأوّلان

أَوْلى لقلةِ الحَذْفِ . ومن حَذْفِ المعادِلِ للدلالةِ قولُ الشاعر :

3890 دَعاني إليها القلبُ إنّي لأَمْرِها . . . سميعٌ فما أَدْري أَرُشْدٌ طِلابُها

يريد : أم غَيٌّ . والثاني : أَنْ تكونَ الهمزةُ للنداءِ ، و " مَنْ " منادى ، ويكون المنادى هو النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وهو المأمورُ بقولِه : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ ﴾ كأنه قال : يا مَنْ هو قانِتٌ قل كَيْتَ وكَيْتَ ، كقولِ الآخرِ :

3891 أزيدُ أخا وَرْقاءَ إنْ كنتَ ثائراً . . . . . .

. . . . . .

وفيه بُعْدٌ ، ولم يَقَعْ في القرآن نداءٌ بغير يا حتى يُحْمَلَ هذا عليه . وقد ضَعَّفَ الشيخُ هذا الوجهَ بأنه أيضاً أجنبيٌّ مِمَّا قبله ومِمَّا بعده . قلت : قد تقدَّمَ أنه ليس أجنبياً مِمَّا بعدَه ؛ إذ المنادَى هو المأمورُ بالقولِ . وقد ضَعَّفَه الفارسي أيضاً بقريبٍ مِنْ هذا . وقد تَجَرَّأَ على قارئِ هذه القراءةِ أبو حاتم والأخفش .

(256/668)

وأمَّا القراءةُ الثانيةُ فهي " أم " داخلةً على " مَنْ " الموصولةِ أيضاً فأُدْغِمَتْ الميمُ . وفي " أم " حينئذٍ قولان ، أحدهما : أنها متصلةٌ ، ومعادِلُها محذوفٌ تقديرُه : الكافرُ خيرٌ أم الذي هو

قانِتٌ . وهذا معنى قولِ الأخفشِ . قال الشيخ : ويحتاج حَذْفُ المعادِلِ إذا كان أولَ إلى سَماعٍ " . وقيل : تقديرُه : أمَّنْ يَعْصي أمَّن هو مطيعٌ فيستويان . وحُذِفَ الخبرُ لدلالةِ قولِه : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ ﴾ . والثاني : أنَّها منقطعةٌ فتتقدَّرُ ب بل والهمزةِ أي : بل أمَّن هو قانِتٌ كغيرِه أو كالكافر المقولِ له : تمتَّعْ بكفرِك . وقال أبو جعفر : " هي بمعنى بل ، و " مَنْ " بمعنى الذي تقديرُه : بل الذي هو قانتٌ أفضلُ مِمَّنْ ذُكِرَ قبله " . وانتُقِدَ عليه هذا التقديرُ : من حيث إنَّ مَنْ تَقَدَّم ليس له فضيلةٌ البتةَ حتى يكونَ هذا أفضلَ منه . والذي ينبغي أَنْ يُقَدَّرَ : " بل الذي هو قانِتٌ مِنْ أصحاب الجنة " ؛ لدلالة ما لقسيمِه عليه مِنْ قولِه : ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النار ﴾ . و " آناءَ " منصوبٌ على الظرفِ . وقد تقدَّم اشتقاقُه والكلامُ في مفردِه .

قوله : " ساجِداً وقائماً " حالان . وفي صاحبهما وجهان ، الظاهر منهما : أنه الضميرُ المستترِ في " قانِتٌ " . والثاني : أنه الضميرُ المرفوعُ ب " يَحْذَرُ " قُدِّما على عامِلهما . والعامَّةُ على نصبِهما . وقرأ الضحاك برفعهما على أحد وجهين : إمَّا النعتِ ل " قَانِتٌ " ، وإمَّا أنهما خبرٌ بعد خبر .

قوله : "يَحْذَر " يجوز أن يكونَ حالاً من الضمير في " قانتٌ " وأن يكونَ/ حالاً من الضمير في " ساجداً وقائماً " ، وأَنْ يكونَ مستأنفاً جواباً لسؤالٍ مقدرٍ كأنه قيل : ما شأْنُه يَقْنُتُ آناءَ الليل ويُتْعِبُ نفسَه ويُكَدُّها ؟ فقيل : يَحْذَرُ الآخرةَ ويَرْجُو رحمةَ ربِّه ، أي : عذابَ الآخرةِ . وقُرِئ ﴿ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُوْلُو ﴾ بإدغامِ التاءِ في الذَّال .

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)

قوله : ﴿ فِي هذه الدنيا ﴾ : يجوز أَنْ يتعلَّقَ بالفعل قبله ؛ وحُذِفَت صفةُ " حسنةٌ " ، إذ المعنى : حسنة عظيمة ؛ لأنه لا يُوْعَدُ مَنْ عمل حسنةً في الدنيا ، حسنةً مطلقاً بل مقيَّدةً بالعِظَم ، وأنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنها حالٌ مِنْ حسنة كانَتْ صفةً لها ، فلمَّا تَقَدَّمَتْ بقيَتْ حالاً . و " بغيرِ حسابٍ " حالٌ : إمَّا مِنْ " أَجْرَهم " ، وإمَّا من " الصابرون " أي : غيرَ محاسَبٍ عليه ، أو غيرَ محاسَبين .

وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12)

قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ ﴾ : في هذه اللامِ وجهان ، أحدهما : أنها للتعليلِ تقديره : وأُمِرْتُ بما أُمِرْتُ به لأَنْ أكونَ . قال الزمخشري : " فإن قلتَ : كيف عَطَفَ " أُمِرْت " على " أُمِرت " وهما واحدٌ ؟ قلت : ليسا بواحدٍ لاختلافِ جهتيهما : وذلك أنَّ الأمرَ بالإخلاصِ وتكليفَه شيءٌ ، والأمرَ به ليُحْرِز به قَصَبَ السَّبْقِ في الدين شيءٌ آخرُ . وإذا اختلفَ وجها الشيء وصفتاه يُنَزَّل بذلك مَنْزِلَةَ شيئَين مختلفين " . والثاني أن تكونَ اللامُ مزيدةً في " أَنْ " . قال الزمخشري : " ولك أن تَجْعَلَ اللامَ مزيدةً ، مَثَلُها في قولك : " أَرَدْتُ لأَنْ أفعلَ " ولا تُزاد إلاَّ مع " أَنْ " خاصةً دونَ الاسمِ الصريح ، كأنها زِيْدَتْ عوضاً من تَرْكِ الأصل إلى ما يقومُ مَقامَه ، كما عُوِّض السينُ في " اسطاع " عوضاً من تَرْكِ الأصل الذي هو أَطْوَعَ . والدليلُ على هذا الوجهِ مجيئُه بغيرِ لامٍ في قولِه : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ [يونس : 72] ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [يونس : 104] ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ [الأنعام : 14] انتهى .

قوله : " ولا تُزاد إلا مع أنْ " فيه نظرٌ ، من حيث إنها تُزاد باطِّرادٍ إذا كان المعمولُ متقدماً ، أو كان العامل فرعاً . وبغير اطِّرادٍ في غيرِ الموضعين ، ولم يَذْكُرْ أحدٌ من النحويين هذا التفصيلَ . وقوله : "كما عُوِّض السينُ في اسْطاع " هذا على أحد القولين . والقول الآخر أَنَّه استطاع فحُذِفَتْ تاءُ الاستفعالِ . وقوله : " والدليلُ عليه مجيئُه بغير لامٍ " قد يُقال : إنَّ أصلَه باللامِ ، وإنما حُذِفَتْ لأنَّ حَرْفَ الجرِّ يَطَّرِدُ حَذْفُه مع " أنْ " و " أنَّ " ، ويكون المأمورُ

به محذوفاً تقديرُه : وأُمِرْت أن أعبدَ لأَنْ أكونَ .

قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (14)

(259/668)

قوله : ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ ﴾ : قُدِّمَتِ الجلالةُ عند قومٍ لإفادةِ الاختصاصِ . قال الزمخشريُّ : " ولدلالتِه على ذلك قَدَّمَ المعبودَ على فِعْلِ العبادةِ هنا ، وأَخَّره في الأول ، فالكلامُ أولاً واقعٌ في الفعل نفسِه وإيجادِه ، وثانياً فيمن يفعلُ الفعلَ مِنْ أجلِه ، فلذلك رَتَّبَ عليه قولَه : ﴿ فاعبدوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ ﴾ " .

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (16)

قوله : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ الخبرُ أحدَ الجارَّيْنِ المتقدِّمَيْنِ ، وإن كان الظاهرُ جَعْلَ الأولِ هو الخبرَ ، ويكون " مِنْ فوقِهم " إمَّا حالاً مِنْ " ظُلَل " فيتعلَّقُ بمحذوفٍ ، وإمَّا متعلقاً بما تعلَّق به الخبرُ ، و " مِن النار " صفةٌ لـ " ظُلَل " . وقوله : ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ كما تقدَّم ، وسَمَّاها ظلالاً بالنسبة لمَنْ تَحْتَهم .

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (17)

قوله : ﴿ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ : الضميرُ عائدٌ على الطاغوتِ لأنها تُؤَنَّثُ ، وقد تقدَّم القولُ عليها مستوفىً في البقرة . و " أَنْ يعبدوها " في محلِّ نصبٍ على البدل من الطاغوت بدلِ اشتمالٍ ، كأنه قيل : اجْتَنِبُوا عبادةَ الطاغوتِ . والموصولُ مبتدأٌ . والجملةُ مِنْ " لهم البشرى " الخبرُ . وقيل : " لهم " هو الخبرُ بنفسِه . " والبُشْرى " فاعلٌ به وهذا أَوْلَى لأنه مِنْ بابِ الإِخبار بالمفرداتِ . وقوله : " فَبَشِّرْ عبادي " من إيقاعِ الظاهرِ مَوْقِعَ المضمرِ أي : فَبَشِّرْهُمْ أي : أولئك المجتَنبين ، وإنما فُعِلَ ذلك تصريحاً بالوصفِ المذكور .

(260/668)

الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (18)

قوله : ﴿ الذين يَسْتَمِعُونَ ﴾ : الظاهرُ أنه نعتٌ لعبادي ، أو بدلٌ منه ، أو بيانٌ له . وقيل : يجوزُ أَنْ يكونَ مبتدأً . وقوله : ﴿ أولئك الذين ﴾ إلخ خبرُه . وعلى هذا فالوقفُ على قولِه : " عبادي " والابتداءُ بما بعدَه .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19)

(261/668)

قوله: ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ ﴾: في "مَنْ" هذه وجهان، أظهرهما: أنها موصولةٌ في محلِّ رفعٍ بالابتداء. وخبرُه محذوفٌ، فقدَّره أبو البقاء "كمَنْ نجا". وقدَّره الزمخشري: "فأنت تُخَلِّصُه" قال: "حُذِفَ لدلالةِ "أفأنت تُنْقِذُ" عليه. وقدَّره غيرُه "تتأسَّفُ عليه". وقدَّره آخرون "يَتَخَلَّص منه" أي: من العذاب/ وقدَّر الزمخشريُّ على عادته جملةً بين الهمزة والفاء. تقديرُه: أأنت مالِكُ أَمْرِهم، فمَنْ حَقَّ عليه كلمةُ العذاب. وأمَّا غيرُه فيدَّعي أن الأصلَ تقديمُ الفاءِ وإنما أُخِّرَتْ لِما تستحقُّه الهمزةُ من التصديرِ. وقد تقدَّمَ تحقيق هذين القولين غيرَ مرةٍ. والثاني: أَنْ تكون "مَنْ" شرطيةً، وجوابُها: أفأنت. فالفاء فاءُ الجوابِ دَخَلَتْ على جملةِ الجزاءِ، وأُعيدتِ الهمزةُ لتوكيد معنى الإنكار، وأوقع الظاهرَ وهو ﴿ مَن فِي النار ﴾ موقعَ المضمرِ، إذ كان الأصلُ: أفأنت تُنْقِذُه. وإنما وَقَعَ موقعَه شهادة عليه بذلك. وإلى هذا نحا الحوفيُّ والزمخشري. قال الحوفي: "وجيْءَ بألف الاستفهام لَمَّا طَال الكلامُ توكيداً، ولولا طولُه لم يَجُزْ الإتيانُ بها؛ لأنه لا يَصْلُحُ في العربيةِ أَنْ يأتيَ بألف الاستفهام في الاسمِ وألفٍ أخرى في الجزاء. ومعنى الكلام: أفأنت تُنْقِذُه. وعلى القول بكونِها شرطيةً يترتَّبُ على قولِ الزمخشري وقولِ الجمهور مسألةٌ: وهو أنَّه على قولِ الجمهورِ يكونُ قد اجتمع شرطٌ واستفهامٌ. وفيه حينئذٍ خلافٌ بين سيبويه ويونسَ: هل الجملة الأخيرةُ جواب الاستفهام وهو قولُ يونسَ، أو جوابٌ للشرط، وهو قولُ

سيبويه ؟ وأمَّا على قَوْلِ الزمخشريِّ فلم يَجْتمع شرطٌ واستفهامٌ ؛ إذ أداةُ الاستفهامِ عندَه داخلةٌ على جملةٍ محذوفةٍ عُطِفَتْ عليها جملةُ الشرط ، ولم يَدْخُلْ على جملةِ الشرطِ .

وقوله : " أفأنت تُنْقِذُ " استفهامُ توقيفٍ وقُدِّم فيها

(262/668)

الضميرُ إشعاراً بأنك لست قادراً على إنقاذِه إنَّما القادرُ عليه اللَّهُ وحدَه .

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20)

قوله : ﴿ لكن الذين اتقوا ﴾ : استدراكٌ بين شيئين نقيضَيْن أو ضِدَّيْن ، وهما المؤمنون والكافرون .

وقوله : " وَعْدَ اللَّهِ " مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ الجملةِ ، فهو منصوبٌ بواجبِ الإضمار .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (21)

قوله : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ ﴾ : العامَّةُ على رَفْعِ الفعلِ نَسَقاً على ما قبلَه . وقرأ أبو بشر " ثم يَجْعَلَه " منصوباً . قال الشيخ : " قال صاحب الكامل : " وهو ضعيفٌ " انتهى . يعني

بصاحب الكامل " الهذليّ " ولم يُبَيِّنْ هو ولا صاحبُ الكامل وَجْهَ ضَعْفِه ولا تخريجَه .

فأمَّا ضعفُه فواضحٌ حيث لم يتقدَّم ما يَقْتَضي نصبَه في الظاهر . وأمَّا تخريجُه فقد ذكر أبو البقاء فيه وجهين ، أحدُهما : أَنْ ينتصِبَ بإضمار " أن " ويكونَ معطوفاً على قولِه : ﴿ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماءِ مَآءً ﴾ في أولِ الآيةِ ، والتقدير : ألم تَرَ إنزالَ اللَّهِ ثم جَعْلَه . والثاني : أَنْ يكونَ منصوباً بتقدير تَرَى أي : ثم تَرَى جَعْلَه حُطاماً ، يعني أنه يُنْصَبُ ب " أنْ " مضمرةً ، وتكونُ " أنْ " وما في حَيِّزِها مفعولاً به بفعلٍ مقدرٍ وهو " تَرَى " لدلالة " ألم تَرَ " عليه .

(263/668)

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22)

قوله : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله ﴾ : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي ﴾ [الزمر : 24] كما تقدَّم في ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ ﴾ [الزمر : 19] . والتقديرُ : أفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صدرَه للإسلامِ كمَنْ قسا قلبُه ، أو كالقاسي المُعْرِضِ ، لدلالةِ ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ عليه . وكذا التقديرُ في : أفَمَنْ يَتَّقِي أي : كمن أَمِنَ العذابَ ، وهو تقديرُ الزمخشريِّ ، أو كالمُنْعَمِيْنَ في الجنةِ ، وهو تقديرُ ابنِ عطية .

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)

قوله: ﴿كِتَاباً﴾: فيه وجهان، أظهرهما: أنه بدلٌ مِنْ "أحسنَ الحديث". والثاني: أنه حالٌ منه. قال الشيخ - لَمَّا نقله عن الزمخشري -: "وكأَنَّه بناءً على أنَّ "أَحْسَن الحديث" معرفةٌ لإضافتِه إلى معرفةٍ، وأفعلُ التفضيلِ إذا أُضيف إلى معرفةٍ فيه خلافٌ. فقيل: إضافتُه مَحْضَةٌ. وقيل: غيرُ محضة". قلت: وعلى تقديرِ كونِه نكرةً يَحْسُنُ أيضاً أَنْ يكونَ حالاً؛ لأنَّ النكرةَ متى أُضيفَتْ ساغ مجيءُ الحالِ منها بلا خلافٍ. والصحيحُ أنَّ إضافةَ أَفْعَلَ محضةٌ. و"مُتَشابِهاً" نعتٌ لـ"كتاب" وهو المُسَوِّغُ لمجيءِ الجامدِ حالاً، أو لأَنَّه في قوةِ مكتوب.

(264/668)

وقرأ العامَّةُ "مثانيَ" بفتح الياء صفةً ثانية أو حالاً أخرى أو تمييزاً منقولاً من الفاعلية أي متشابهاً مثانيه وإلى هذا ذهب الزمخشري. وقرأ هشام عن ابن عامر وأبو بِشْرٍ بسكونها، وفيها وجهان، أحدُهما: أنه مِنْ تسكينِ حرفِ العلةِ استثقالاً للحركةِ عليه كقراءة"

تُطْعِمُوْن أهاليْكم " . [وقوله] :

3892 كأنَّ أَيْدِيْهِنَّ . . . . . .

. . . . . .

ونحوِهما . والثاني : أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي : هو مثاني ، كذا ذكره الشيخ . وفيه نظرٌ مِنْ حيث إنه كان ينبغي أَنْ يُنَوَّنَ وتُحْذَفَ ياؤُه لالتقاءِ الساكنين فيقال : مثانٍ ، كما تقول : هؤلاء جوارٍ . وقد يُقال : إنه وُقِفَ عليه . ثم أُجْرِيَ الوصلُ مُجْرى/ الوقفِ لكنْ يُعْتَرَضُ عليه : بأنَّ الوَقْفَ على المنقوصِ المنونِ بحَذْفِ الياءِ نحو : هذا قاضٍ ، وإثباتُها لغةٌ قليلةٌ . ويمكن الجوابُ عنه : بأنَّه قد قُرِئ بذلك في المتواترِ نحو : ﴿ مِنْ والي ﴾ و ﴿ باقي ﴾ و ﴿ هادي ﴾ في قراءة ابن كثير .

قوله : " تَقْشَعِرُّ " هذه الجملةُ يجوزُ أَنْ تكونَ صفةً ل "كتاب " ، وأَنْ تكونَ حالاً منه لاختصاصِه بالصفةِ ، وأَنْ تكونَ مستأنفةً . واقشعرَّ جِلْدُه إذا تقبَّضَ وتَجَمَّعَ من الخوف ، وقَفَّ شعرُه . والمصدرُ الاقشعرارُ والقُشَعْرِيرة أيضاً . ووزن اقْشَعَرَّ افْعَلَلَّ . ووزنُ القُشَعْرِيرة : فَعَلِّيْلَة .

و " مَثاني " جمعُ مَثْنى ؛ لأنَّ فيه تثنيةَ القصصِ والمواعظِ ، أو جمعُ مَثْنى مَفْعَل مِنْ التثنية بمعنى التكرير . وإنما وُصِفَ "كتاب " وهو مفردٌ بمثاني ، وهو جمعٌ ؛ لأنَّ الكتابَ مشتملٌ

على سورٍ وآياتٍ ، أو هو من باب : بُرْمَةٌ أعشارٌ وثَوْبٌ أخلاقٌ . كذا قال الزمخشري : وقيل : ثَمَّ موصوفٌ محذوفٌ أي : فصولاً مثانيَ حُذِفَ للدلالةِ عليه .

(265/668)

قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28)

قوله : ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أَنْ يكونَ منصوباً على المدح ؛ لأنه لَمَّا كان نكرةً امتنع إتباعُه للقرآن . الثاني : أَنْ ينتصِبَ ب " يتذكَّرون " أي : يتذكَّرون قرآناً . الثالث : أن ينتصبَ على الحال مِن القرآن على أنَّها حالٌ مؤكِّدةٌ ، وتُسَمَّى حالاً موطئة لأنَّ الحالَ في الحقيقةِ " عربياً " و " قرآناً " توطئةٌ له نحو : " جاء زيدٌ رجلاً صالحاً " . رضي الله عنR> قوله : ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ نعتٌ ل " قرآناً " أو حالٌ أُخرى . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : فهلاَّ قيل : مستقيماً أو غيرَ مُعْوَجّ . قلت : فيه فائدتان ، إحداهما : نفيُ أَنْ يكونَ فيه عِوَجٌ قط كما قال : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾ [الكهف : 1] . والثاني : أنَّ العِوَجَ يختصُّ بالمعاني دونَ الأعيان . وقيل : المرادُ بالعِوَجِ الشكُّ واللَّبْسُ " . وأنشد :

3893 وقد أتاكَ يقينٌ غيرُ ذي عِوَجٍ . . . من الإلهِ وقولٌ غيرُ مَكْذوب

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ

لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29)

قوله : ﴿ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ هذا جملةً مِنْ مبتدأ وخبرٍ في محلِّ نصب صفةً لرجل ، ويجوز أَنْ يكونَ الوصفُ الجارَّ وحدَه ، و " شركاءُ " فاعلٌ به ، وهو أَوْلَى لقُرْبه من المفردِ و " مُتَشاكِسُوْن " صفةٌ لشركاء . والتشاكُسُ : التخالُفُ . وأصلُه سوءُ الخُلُقِ وعُسْرُه ، وهو سببُ التخالُفِ والتشاجُر . ويقال : التَّشاكس والتشاخُسُ بالخاء موضع الكاف . وقد تقدَّم الكلامُ على نصب المثل وما بعده الواقعين بعد " ضَرَب " . وقال الكسائي : انتصَبَ " رجلاً " على إسقاط الجارِّ أي : لرجل أو في رجل .

(266/668)

وقوله : " فيه " أي : في رِقِّه . وقال أبو البقاء كلاماً لا يُشْبه أَنْ يَصْدُرَ مِنْ مثله ، بل ولا أَقَلَّ منه . قال : " وفيه شركاءُ الجملةُ صفةُ ل " رجل " و " في " متعلقٌ بمتشاكسون . وفيه دلالةٌ على جوازِ تقديمِ خبرِ المبتدأ عليه " انتهى . أمَّا هذا فلا أشُكُّ أنه سهوٌ ؛ لأنه من حيث جَعَلَه جملةً كيف يقول بعد ذلك : إن " فيه " متعلقٌ ب " متشاكسون " ؟ وقد يقال : أراد مِنْ حيث المعنى ، وهو بعيدٌ جداً . ثم قوله : " وفيه دلالةٌ " إلى آخره يناقضه أيضاً . وليست المسألةُ غريبةً حتى يقولَ : " وفيه دلالة " . وكأنه أراد : فيه دلالةٌ على تقديم

معمولِ الخبر على المبتدأ ، بناءً منه على أنَّ " فيه " يتعلق ب " مُتشاكسون " ولكنه فاسدٌ ، والفاسدُ لا يُرام صَلاحُه .

قوله : " سَلَماً لرَجُلٍ " قرأ ابن كثير وأبو عمرو " سالماً " بالألفِ وكسرِ اللام . والباقون " سَلَماً " بفتح السين واللام . وابن جبير بكسرِ السينِ وسكونِ اللام . فالقراءةُ الأولى اسمُ فاعلٍ مِنْ سَلِمَ له كذا فهو سالمٌ . والقراءاتان الأُخْرَيان سَلَماً وسِلْماً فهما مَصدران وُصِف بهما على سبيل المبالغةِ ، أو على حَذْفِ مضافٍ ما ، أو على وقوعِهما موقعَ اسمِ الفاعل فتعودُ كالقراءةِ الأولى . وقُرِئ " ورجلٌ سالِمٌ " برفعِهما . وفيه وجهان ، أحدُهما : أَنْ يكونَ مبتدأً ، والخبرُ محذوفٌ تقديرُه : وهناك رجلٌ سالمٌ لرجلٍ ، كذا قَدَّره الزمخشري . الثاني : أنه مبتدأٌ و " سالمٌ " خبرُه . وجاز الابتداءُ بالنكرةِ ؛ لأنه موضعُ تفصيلٍ ، كقولِ امرئِ القيس :

3894 إذا ما بكى مِنْ خَلْفِها انصرَفَتْ له . . . بشِقٍّ وشِقٌّ عندنا لم يُحَوَّلِ

وقولهم : الناسُ رجلان رجلٌ أَكرمْتُ ، ورجلٌ أَهَنْتُ .

قوله : " مَثَلاً " منصوبٌ على التمييزِ المنقولِ من الفاعليةِ إذ الأصلُ : هل يَسْتَوي مَثَلُهما .

وأُفْرد التمييزُ لأنه مقتصرٌ عليه أولاً في قولِه : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ . وقرِئَ " مِثْلَيْن " فطابَقَ حالَيْ الرجلين . وقال الزمخشري – فيمَنْ قرأ مِثْلين – : " إنَّ الضميرَ في " يَسْتَويان " للمِثْلين ؛ لأنَّ التقديرَ : مِثْلَ رجلٍ ، ومثلَ رجلٍ .

والمعنى : هل يَسْتويان فيما يَرْجِعُ إلى الوصفيَّة كما تقول : كفى بهما رجلين " .

قال الشيخ : " والظاهرُ أنه يعود الضميرُ في " يَسْتَويان " على " رَجُلَيْن " . وأمَّا إذا جَعَلْتَه/ عائداً إلى المِثْلَيْنِ اللذيْن ذَكَرَ أنَّ التقديرَ : مِثْلَ رجلٍ ومِثْلَ رجلٍ ؛ فإنَّ التمييزَ يكون إذ ذاك قد فُهِمَ من المميَّز الذي هو الضميرُ ؛ إذ يصيرُ التقدير : هل يَسْتوي المِثْلان مِثْلين " . قلت : هذا لا يَضُرُّ ؛ إذ التقديرُ : هل يَسْتوي المِثْلان مِثْلَيْن في الوصفيةِ فالمِثْلان الأوَّلان مَعْهودان ، والثانيان جنسان مُبْهمان كما تقول : كَفَى بهما رجلَيْن ؛ فإنَّ الضميرَ في " بهما " عائدٌ على ما يُراد بالرجلين فلا فَرْقَ بين المسألتين . فما كان جواباً عن " كَفَى بهما رجلين " يكونُ جواباً له .

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30)

قوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ : العامَّةُ على " مَيِّت ومَيِّتون " . وقرأ ابنُ محيصن وابنُ أبي عبلة واليماني " مائِتٌ ومائتون " ، وهي صفةٌ مُشْعِرَةٌ بحدوثِها دون " مَيِّت " . وقد تقدَّمَ أنَّه لا خلافَ بين القرَّاءِ في تثقيلِ مثلِ هذا . " ثم إنكم " تغليباً للمخاطبِ ، وإنْ

كان واحداً في قوله : " إنَّك " على الغائبين في " وإنَّهم " .

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33)

(268/668)

قوله : ﴿ والذي جَآءَ ﴾ : بالصدق لَفْظُه مفردٌ ، ومعناه جمعٌ لأنه أُريد به الجنسُ . وقيل : لأنه قُصِدَ به الجزاءُ ، وما كان كذلك كَثُرَ فيه وقوعُ " الذي " موقع " الذين " ، ولذلك رُوْعي معناه فجُمِع في قوله : ﴿ أولئك هُمُ المتقون ﴾ كما رُوْعِيَ معنى " مَنْ " في قوله : " للكافرين " ؛ فإنَّ الكافرين ظاهرٌ واقعٌ موقعَ المُضْمرِ ؛ إذ الأصلُ : مثوىً لهم . وقيل : بل الأصلُ : والذين جاء بالصدق ، فحُذِفَتِ النونُ تخفيفاً ، كقوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كالذي خاضوا ﴾ [التوبة : 69] . وهذا وهمٌ ؛ إذ لو قُصِد ذلك لجاء بعده ضميرُ الجمع ، فكان يُقال : والذي جاؤوا ، كقوله : " كالذي خاضُوا " . ويَدُلُّ عليه أنَّ نونَ التثنيةِ إذا حُذِفَتْ عاد الضميرُ مَثْنى ، كقوله :

3895 أَبَني كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّذا . . . قَتَلا الملوكَ وفَكَّكا الأَغْلالا

ولجاءَ كقوله :

3896 وإنَّ الذيْ حانَتْ بفَلْجٍ دماؤُهُمْ . . . همُ القومُ كلُّ القومِ يا أُمَّ خالدِ

وقرأ عبدُ الله ﴿ والذي جَآؤوا بالصدق وَصَدَّقَوا بِهِ ﴾ وقد تقدَّم تحقيقُ مثلِ هذه الآيةِ في أوائلِ البقرة وغيرها . وقيل : " الذي " صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ بمعنى الجمعِ ، تقديرُه : والفريق أو الفوج ولذلك قال : ﴿ أولئك هُمُ المتقون ﴾ . وقيل : المرادُ بالذي واحدٌ بعينِه وهو محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم ، ولكن لَمَّا كان المرادُ هو وأتباعُه اعْتُبر ذلك فجُمِعَ ، فقال : " أولئك هم " كقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكتاب لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [المؤمنون : 49] . قاله الزمخشري وعبارتُه : " هو رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أراد به إياه ومَنْ تبعه ، كما أراد بموسى إياه وقومَه " . وناقشه الشيخ في إيقاعِ الضميرِ المنفصلِ موقعَ المتصلِ قال : " وإصلاحُه أَنْ يقولَ : أراده به كما أراده بموسى وقومِه " . قلت : ولا مناقَشَةَ ؛ لأَنَّه مع تقديم " به " و " بموسى " لغرضٍ من الأغراض استحالَ اتصالُ الضميرِ ، وهذا كما تقدَّم لك بحثٌ في قولِه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [النساء : 131] ، وقوله : ﴿ يُخْرِجُونَ الرسول وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الممتحنة : 1] : وهو أنَّ بعضَ الناسِ زَعَمَ أنه يجوزُ الانفصالُ مع القدرةِ على الاتصال ، وتقدَّم الجوابُ بقريبٍ مِمَّا ذَكَرْتُه هنا ، وبَيَّنْتُ حكمةَ التقديمِ ثمةَ . وقولُ الزمخشريِّ : " إن الضميرَ في " لعلهم يَهْتدون " لموسى

وقومِه " فيه نظرٌ ، بل الظاهرُ خصوصُ الضميرِ بقومِه دونَه ؛ لأنَّهم هم المطلوبُ منهم الهدايةُ . وأمَّا موسى عليه السلام فمهتدٍ ثابتٌ على الهداية . وقال الزمخشري أيضاً : " ويجوز أن يريدَ : والفوجُ أو الفريق الذي جاء بالصدقِ وصَدَّق به ، وهم : الرسولُ الذي جاء بالصدقِ وصحابتُه الذين صَدَّقوا به " . قال الشيخ : " وفيه توزيعُ الصلةِ ، والفوجُ هو الموصولُ ، فهو كقولِك : جاء الفريقُ الذي

(270/668)

شَرُفَ وشَرُفَ ، والأظهرُ عَدَمُ التوزيعِ بل المعطوفُ على الصلةِ صلةٌ لمَنْ له الصلة الأولى " . وقرأ أبو صالح وعكرمة بن سليمان/ ومحمد بن جُحادة مخففاً بمعنى صَدَقَ فيه ، ولم يُغَيِّرْه . وقُرِئ " وصُدِّق به " مشدَّداً مبنياً للمفعول .

لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35)

قوله : ﴿ لِيُكَفِّرَ ﴾ : في تعلُّقها وَجْهان ، أحدهما : أنها متعلقةٌ بمحذوفٍ أي : يَسَّرَ لهم ذلك ليُكَفِّرَ . والثاني : أَنْ يتعلَّقَ بنفسِ المحسنين ، كأنه قيل : الذين احسنوا ليُكَفِّرَ أي : لأجلِ التكفير .

قوله : " أَسْوَأَ الذي " الظاهرُ أنَّه أَفْعَلُ تفضيل ، وبه قرأ العامَّةُ . وقيل : ليسَتْ للتفضيل بل

بمعنى سَيِّئَ الذي عمِلوا كقولِهم : " الأَشَجُّ والناقص أعدلُ بني مروان " أي : عادلاهم .

ويَدُلُّ على هذا قراءةُ ابنِ كثيرٍ في رواية " أَسْواءَ " بألفٍ بين الواوِ والهمزةِ بزنَةِ أَحْمال جمعَ سُوء ، وكذا قرأ في حم السجدة .

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36)

قوله : ﴿ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ : العامَّةُ على توحيدِ " عبدَه " . والأخَوان " عبادَه " جمعاً وهم الأنبياءُ وأتباعُهم . وقُرِئ " بكافي عبادِه " بالإضافة . و " يُكافى " مضارعُ كافى ، " عبادَه " نُصِب على المفعولِ به . ثم المفاعلةُ هنا تحتمل أَنْ تكونَ بمعنى فَعَل نحو : نُجازي بمعنى نَجْزي ، وبُنِيَ على لفظةِ المُفاعلةِ لما تقدَّم مِنْ أنَّ بناءَ المفاعلةِ يُشْعِ بالمبالغةِ ؛ لأنه للمغالبة . ويُحتمل أَنْ يكونَ أصلُه يُكافِئ بالهمزِ ، من المكافأة بمعنى يَجْزِيْهم ، فخفَّف الهمزة .

(271/668)

قوله : " ويُخَوِّفُونَك " يجوز أَنْ يكون حالاً ؛ إذ المعنى : أليس كافيَك حالَ تَخْويفِهم إياك بكذا ، ويَعْلَمُه . كأنَّ المعنى : أنَّه كافيه في كلِّ حالٍ حتى في هذه الحال . ويجوز أَنْ تكونَ مستأنفةً .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38)

قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ ﴾ : هي المتعدية لاثنين ، أوّلُهما " ما تَدْعُوْن " وثانيهما الجملةُ الاستفهامية . والعائدُ على المفعول منها قولُه : " هُنَّ " وإنما أَنَّثَه تحقيراً لما يَدْعُون مِنْ دونِه ، ولأنهم كانوا يُسَمُّونها بأسماءِ الإناث : اللات ومَناة والعُزَّى . وقد تقدَّم تحقيقُ هذه مستوفىً في مواضعَ .

قوله : ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ قرأ أبو عمرو "كاشفاتٌ مُمْسِكاتٌ" بالتنوين ونصبِ "ضُرَّه" و "رحمتَه" ، وهو الأصلُ في اسم الفاعل . والباقون بالإضافةِ وهو تخفيفٌ .

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)

قوله : ﴿ والتي لَمْ تَمُتْ ﴾ : عطفٌ على الأنفس أي : يَتَوفَّى الأنفسَ حين تموتُ ، ويَتَوَفَّى أيضاً الأنفسَ التي لم تَمُتْ في مَنامِها . ففي منامِها ظرفٌ ل "يَتَوَفَّى" . وقرأ الأخَوان " قُضِيَ " مبنياً للمفعول ، " الموتُ " رفعاً لقيامَه مَقامَ الفاعلِ .

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43)

وقوله : ﴿ أَمِ اتخذوا ﴾ : "أم" منقطعةٌ فتتقدَّرُ ب بل والهمزة . وتقدَّم الكلامُ على نحوِ "أَوَلَوْ" وكيف هذا التركيبُ .

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)

قوله : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الذين ﴾ : قال الزمخشري : "فإنْ قلتَ : ما العاملُ في "إذا ذُكِرَ" ؟ قلت : العاملُ في "إذا" الفجائية ، تقديرُه : وقتَ ذِكْرِ الذين مِنْ دونه فاجَؤوا وقتَ الاستبشار" . قال الشيخُ : "أمَّا قولُ الزمخشريِّ فلا أَعْلَمُه مِنْ قولِ مَنْ ينتمي للنحوِ ، وهو أنَّ الظَّرْفَيْنِ معمولان لفاجؤوا ثم "إذا" الأولى تَنْتَصِبُ على الظرفيةِ ، والثانيةُ على المفعول به" . وقال الحوفي : "إذا هم يَسْتَبشرون "إذا" مضافةٌ إلى الابتداءِ والخبر ، و "إذا" مكررةٌ للتوكيد ، وحُذف ما تُضاف إليه . والتقدير : إذا كانَ ذلك هم يَسْتبشِرون فيكون هم يستبشرون هو العاملَ في "إذا" ، المعنى : إذا كان كذلك استبشروا" . قال الشيخ : "وهذا يَبْعُدُ جداً عن الصواب ، إذا جعل "إذا" مضافةً إلى الابتداء والخبر" ، ثم قال : "وإذا مكررةٌ للتوكيد وحُذِف ما تضاف إليه" إلى آخرِ كلامه فإذا كانَتْ "إذا" حُذِف ما تُضاف إليه ، فكيف تكون مضافةً إلى الابتداء والخبرِ الذي هو هم يَسْتَبْشِرون ؟ وهذا

كلُّه أَوْجبه عَدَمُ الإِتقانِ لعلمِ النحوِ والتحذُّقِ فيه " انتهى . وفي هذه العبارةِ تحامُلٌ على أهلِ العلمِ المرجوعِ إليهم فيه .

(273/668)

واختار الشيخُ أَنْ يكونَ العاملُ في " إذا " الشرطيةِ الفعلَ بعدها لا جوابَها ، وأنها ليسَتْ مضافةً لِما بعدها ، وإنْ كان قولَ الأكثرين ، وجَعَل " إذا " الفجائيةَ معمولةً لِما بعدها سواءً كانت زماناً أم مكاناً . أمَّا إذا قيل : إنها حرفٌ فلا تحتاجُ إلى عاملٍ وهي رابِطةٌ لجملةِ الجزاءِ بالشرطِ كالفاء .

والاشمِئْزازُ : النُّفورُ والتقبُّضُ . وقال أبو زيد : هو الذُّعْرُ . اشْمَأَزَّ فلانٌ : إذا ذُعِرَ ، ووزن افْعَلَلَّ كاقْشَعَرَّ . قال الشاعر :

3897 إذا عَضَّ الثِّقافُ بها اشْمَأَزَّتْ . . . وولَّتْه عَشَوْزَنَةً زَبُونا

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (48)

قوله : ﴿ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ " ما " مصدريةً أي : سَيِّئاتُ كَسْبِهم أو بمعنى الذي : سَيِّئات أعمالهم التي كَسَبوها .

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (49)

قوله : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ " ما " مهيِّئةً زائدةً على " إنَّ " نحو : إنما قام زيد ، وأَنْ تكونَ موصولةً ، والضميرُ عائدٌ عليها مِنْ " أُوْتِيْتُه " أي : إنَّ الذي أُوْتِيْتُه على عِلْمٍ مني أو على عِلْمٍ من الله فيَّ ، أي : أستحقُّ/ ذلك .

قوله : " بل هي " الضميرُ للنعمةِ . ذكَّرها أولاً في قوله : " إنما أوتيتُه لأنها بمعنى الإِنعامِ ، وأَنَّث هنا اعتباراً بلفظِها . وقيل : بل الحالةُ أو الإِتيانةُ .

قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (50)

(274/668)

قوله : ﴿ قَدْ قَالَهَا ﴾ : أي : قال القولةَ المَذْكورةَ . وقُرِئَ " قد قاله " أي : هذا القولَ أو الكلامَ . وإنما عُطِفَتْ هذه الجملةُ ، وهي قوله : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإنسان ﴾ بالفاء والتي في أول السورة بالواو ؛ لأن هذه مُسَبَّبَةٌ عن قوله : " وإذا ذُكِر " أي : يَشْمَئِزُّون مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ويَسْتَبْشِرون بذِكْرِ آلهتِهم ، فإذا مَسَّ أحدَهم بخلاف الأولى حيث لا تَسَبُّبَ فيها ، فجيء بالواوِ التي لمطلقِ العطفِ ، وعلى هذا فما [بين] السببِ والمُسَبَّبِ جملٌ اعتراضيةٌ ، قال معناه الزمخشريُّ . واستبعده الشيخُ من حيث إنَّ أبا عليٍّ يمنع الاعتراضَ بجملتين فكيف

بهذه الجملِ الكثيرةِ؟ ثم قال: " والذي يَظْهر في الرَّبْطِ أنه لَمَّا قال: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ [الزمر: 47] الآية كان ذلك إشعاراً بما يَنالُ الظالمين. مِنْ شِدَّةِ العذاب، وأنه يَظْهر لهم يومَ القيامة من العذاب، أَتْبع ذلك بما يَدُلُّ على ظُلمِه وبَغْيه، إذ كان إذا مَسَّه ضُرٌّ دعا اللَّهَ، فإذا أَحْسَنَ إليه لم يَنْسُبْ ذلك إليه".

قوله: "فما أَغْنى" يجوز أَنْ تكونَ "ما" نافيةً أو استفهاميةً مؤولةً بالنفيِ، وإذا احْتَجْنا إلى تأويلها بالنفيِ فَلْنَجْعَلْها نافيةً استراحةً من المجاز. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 9 صـ 405.433﴾

(275/668)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾

في حال الضُّرِّ يتبرَّؤون من الاستحقاق والحوْلِ والقوة، فإذا كَشَفَ عنهم البلاءَ وقعوا في مغاليطهم، وقالوا: إنما أوتينا هذا باستحقاقٍ مِنَّا، قال تعالى: ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ ولكنهم لم يعلموا، ثم اخبر أن الذين مِنْ قَبْلِهم مثلَ هذا قالوا وحسبوا، ولم يحصلوا إلا على

مغاليطهم ، فأصابهم شؤمُ ما قالوا ، وهؤلاء سيصيبهم أيضاً مِثْلُ ما أصاب أولئك .

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

أو لم يَرَوْ كيف خالف بين أحوال الناس في الرزق : فَمِنْ مُوَسَّعٍ عليه رِزقُه . ومِنْ مُضَيَّقٍ عليه ، وليس لواحدٍ منهم شيءٌ مِمَّا خُصَّ به من التقليل أو التكثير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 286. 287 ﴾

(276/668)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ ﴾

أي : فلا أحد أظلم ممن كذب على الله بأن معه شريكاً ، ﴿ وَكَذَّبَ بالصدق إِذْ جَاءهُ ﴾

يعني : بالقرآن ، وبالتوحيد .

ويقال : ﴿ وَكَذَّبَ بالصدق ﴾ يعني : بالصادق وهو النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين ﴾ يعني : مأوى للذين يكفرون بالقرآن .

فاللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به التحقيق كقوله : ﴿ أَلَيْسَ الله بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ [

التين : 8] .

﴿ والذى جَاء بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ أي : بالقرآن ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ أي : أصحابه .

ويقال : ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ المؤمنون .

وقال القتبي : ﴿ والذى جَاء بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ هو في موضع جماعة .

ومعناه : والذين جاؤوا بالصدق ، وصدقوا به ، وهذا موافق لخبر ابن مسعود .

وقال قتادة ، والشعبي ، ومقاتل ، والكلبي : ﴿ والذى جَاء بالصدق ﴾ يعني : النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ يعني : المؤمنون .

وذكر عن علي بن أبي طالب أنه قال : ﴿ والذى جَاء بالصدق ﴾ يعني : النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ يعني : أبو بكر ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ المتقون ﴾ الذين اتقوا الشرك ، والفواحش .

وقرأ بعضهم : وَصَدَقَ بالتخفيف .

يعني : النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الناس كما أنزل عليه ، ولم يزد في الوحي شيئاً ، ولم ينقص من الوحي شيئاً .

﴿ لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يعني : لهم ما يريدون ، ويحبون في الجنة ، ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ المحسنين ﴾ أي : ثواب الموحدين ، المطيعين ، المخلصين ﴿ لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾ يعني : ليمحو عنهم ، ويغفر لهم ، ﴿ أَسْوَأَ الذى عَمِلُواْ ﴾ يعني : أقبح ما عملوا ، مخالفاً للتوحيد ، ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أي : ثوابهم ﴿ بِأَحْسَنِ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني يجزيهم بالمحاسن ، ولا يجزيهم بالمساوىء ، لأنه ليس لهم ذنب ، ولا خطايا ، فلا يجزيهم بمساوئهم .

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي : عِبَادَهُ بالألف بلفظ الجماعة .

يعني : الذين صدقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وبالقرآن ، والباقون عَبْدَه بغير أَلف .

يعني : النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بالذين مِن دُونِهِ ﴾ يعني : بالذين يعبدون من دونه ، وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لا تزال تقع في آلهتنا ، فاتقِ كيلا يصيبك منها معرة ، أو سوء .

فنزل : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ الآية .

وروى معمر عن قتادة قال : بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها ، فمشى إليها بالفأس .

فقالت له : قيمتها يا خالد احذر ، فإن لها شدة ، لا يقوم لها أحد ، فمشى إليها خالد ، فهشم أنفها بالفأس .

ويقال : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ يعني : الأنبياء .

ثم قال : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يعني : من يخذله الله عن الهدى ، فما له من مرشد ، ولا ناصر ﴿ وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴾ أي : ليس له أحد يخذله ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتقام ﴾ يعني : عزيزاً في ملكه ، ذي انتقام من عدوه .

(278/668)

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ فعل ذلك ، ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ يعني : ما تعبدون من دون الله من الآلهة ، ﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ ﴾ يعني : إنْ أصابني الله ببلاء ، ومرض في جسدي ، وضيق في معيشتي ، أو عذاب في الآخرة ، ﴿ هَلْ هُنَّ كاشفات ضُرِّهِ ﴾ يعني : هل تقدر الأصنام على دفع ذلك عني ، ﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ أي : بنعمة ، وعافية ، وخير ، ﴿ هَلْ هُنَّ مُمسكات رَحْمَتِهِ ﴾ يعني : هل تقدر الأصنام على دفع تلك الرحمة عني .

قرأ أبو عمر : كَاشِفَاتٌ .

بالتنوين ، ضُرَّهُ : بالنصب ، مُمْسِكَاتٌ : بالتنوين ، رَحْمَتَهُ : بالنصب ، والباقون : بغير تنوين ، وكسر ما بعده على وجه الإضافة .

فمن قرأ بالتنوين : نصب ضره ورحمته ، لأنه مفعول به ﴿ قُلْ حَسْبِىَ اللهُ ﴾ يعني : يكفيني الله من شر آلهتكم .

ويقال : ﴿ حَسْبِىَ اللهُ ﴾ يعني : أثق به ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي : فوضت أمري إلى الله ، ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتوكلون ﴾ أي : يثق به الواثقون .

فأنا متوكل ، وعليه توكلت .

﴿ قُلْ يا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي : في منازلكم .

ويقال : ﴿ على مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي : على قدر طاقتكم ، وجهدكم ، ﴿ إِنِّى عامل ﴾ في إهلاككم .

لأنهم قالوا له : إن لم تسكت عن آلهتنا ، نعمل في إهلاكك .

فنزل : ﴿ قُلْ يا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ إهلاكي في مكانتكم ﴿ إِنِّى عامل ﴾ في إهلاككم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ من نجا ، ومن هلك .

قرأ عاصم في رواية أبي بكر : مكاناتكم بلفظ الجماعة .

والباقون : ﴿ مَكَانَتِكُمْ ﴾ والمكانة ، والمكان واحد .

﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي : من يأتيه عذاب الله ، يهلكه ، ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي : دائم لا ينقطع أبداً .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتابَ لِلنَّاسِ بالحق ﴾ يعني : أنزلنا عليك جبريل بالقرآن للناس بالحق .

يعني : لتدعو الناس إلى الحق ، وهو التوحيد ﴿ فَمَنُ اهتدى ﴾ أي : وحّد ، وصدق بالقرآن ، وعمل بما فيه فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ أي : ثواب الهدى لنفسه ، ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ يعني : أعرض ولم يؤمن بالقرآن ، فقد أوجب العقوبة على نفسه .

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ يعني : ما أنت يا محمد عليهم بحفيظ .

ويقال : بمسلط .

وهذا قبل أن يؤمر بالقتال .

﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الانفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ قال الكلبي : الله يقبض الأنفس عند موتها ﴿ والتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ فيقبض نفسها إذا نامت أيضاً ، ﴿ فَيُمْسِكُ التى قضى عَلَيْهَا الموت ﴾ فلا يردها ، ﴿ وَيُرْسِلُ الاخرى ﴾ التي لم تبلغ أجلها ، ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : يردها إلى أجلها .

وقال مقاتل : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الانفس ﴾ عند أجلها ، والتي قضى عليها الموت ، فيمسكها عن الجسد .

على وجه التقديم ﴿ والتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ فتلك الأخرى التي أرسلها إلى الجسد ،

إلى أجل مسمى .

وقال سعيد بن جبير : الله يقبض أنفس الأحياء ، والأموات .

فيمسك أنفس الأموات ، ويرسل أنفس الأحياء إلى أجل مسمى .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : يعتبرون .

قرأ حمزة والكسائي : قُضِيَ عليها بضم القاف ، وكسر الضاد ، وفتح الياء ، وبضم التاء في الموت ، على فعل ما لم يسم فاعله .

والباقون : ﴿ قضى عَلَيْهَا ﴾ بالنصب .

يعني : قضى الله عليها الموت ، ونصب الموت لأنه مفعول به .

﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِ الله ﴾ الميم صلة .

معناه : اتخذوا .

فاللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به التوبيخ والزجر .

فقال : ﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِ الله ﴾ ﴿ شُفَعَاء ﴾ يعني : يعبدون الأصنام ، لكي تشفع لهم .

(280/668)

﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ يعني : يعبدونهم ، وإن كانوا لا يعقلون شيئاً .

﴿ قُل لِّلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً ﴾ أي : قل يا محمد : لله الأمر والإذن في الشفاعة ، وهذا كقوله : ﴿ الله لا إله إلا هُوَ الحى القيوم لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض مَن ذَا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السموات والأرض وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العلى العظيم ﴾ [البقرة : 255] وكما قال : ﴿ يتخافتون بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا عَشْراً ﴾ [طه : 103] .

ثم قال : ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ يعني : خزائن السموات والأرض .

ويقال : نفاذ الأمر في السموات والأرض .

وله نفاذ الأمر في السموات والأرض .

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ اشمأزت ﴾ يعني : إذا قيل لهم : قولوا لا إله إلا الله ، اشمأزت .

قال مقاتل : يعني انقبضت عن التوحيد .

وقال الكلبي : أعرضت ، ونفرت .

وقال القتبي : العرب تقول : اشمأز قلبي من فلان .

أي : نفر منه .

﴿ قُلُوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ يعني : لا يصدقون بيوم القيامة .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ يعني : الآلهة ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ بذكرها .

وذلك أنه حين قرأ النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم ، وذكر آلهتهم استبشروا .

قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلِ اللهم فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ صار نصباً بالنداء .

يعني : يا خالق السموات والأرض ، ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ يعني : عالماً بما غاب عن العباد ، وما لم يغب عنهم .

ويقال : عالماً بما مضى ، وما لم يمض ، وما هو كائن .

ويقال : عالم السر والعلانية .

(281/668)

﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾ يعني : أنت تقضي في الآخرة بين عبادك ، ﴿ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين .

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي : كفروا ﴿ مَّا فِى الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ أي : مثل ما

في الأرض ، ﴿ لَافْتَدَوْاْ بِهِ ﴾ أي : لفادوا به أنفسهم ﴿ مِن سُوء العذاب ﴾ أي : من شدة العذاب ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ .

وفي الآية مضمر .

أي : لا يقبل منهم ذلك .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ مّنَ الله ﴾ أي : ظهر لهم حين بعثوا من قبورهم ، ﴿ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ في الدنيا أنه نازل بهم .

يعني : يعملون أعمالاً يظنون أن لهم فيها ثواباً ، فلم تنفعهم مع شركهم ، فظهرت لهم العقوبة مكان الثواب ، ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أي : عقوبات ما عملوا ، ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي : نزل بهم عقوبة ، ﴿ مّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ يعني : باستهزائهم بالمسلمين .

ويقال : باستهزائهم بالرسول ، والكتاب ، والعذاب .

﴿ فَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ يعني : أصاب الكافر شدة ، وبلاء ، وهو أبو جهل .

ويقال : جميع الكفار دعانا أي : أخلص في الدعاء ﴿ ثُمَّ إِذَا خولناه ﴾ أي : بدلنا ، وأعطيناه مكانها عافية ، ﴿ نِعْمَةً مّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ أي : على علم عندي .

يعني : أعطاني ذلك ، لأنه علم أني أهل لذلك .

ويقال : معناه على علم عندي بالدواء .

﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أي : بلية ، وعطية ، يبتلى بها العبد ليشكر ، أو ليكفر ، ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن إعطائي ذلك بلية ، وفتنة ، ﴿ قَدْ قَالَهَا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : قال تلك الكلمة : الذين من قبل كفار مكة ، مثل قارون ، وأشباهه .

(282/668)

﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ يعني : لم ينفعهم ما كانوا يجمعون من الأموال ، ﴿ فأصابهم سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أي عقوبات ما عملوا .

قوله : ﴿ والذين ظَلَمُواْ مِنْ هَؤُلاَء ﴾ يعني : من أهل مكة ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ يعني : عقوبات ما عملوا ، مثل ما أصاب الذين من قبلهم ، ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : غير فائتين من عذاب الله ، ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء ﴾ أي : يوسع الرزق لمن يشاء ، ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يقتر على من يشاء ، ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ يعني : في القبض والبسط ﴿ لآيَاتٍ ﴾ أي : لعلامات لوحدانيتي ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : يصدقون بتوحيد الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 177.182 ﴾

(283/668)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ الآية .

وفي الذي جاء بالصدق أربعة أقاويل :

أحدها : أنه جبريل ، قاله السدي .

الثاني : محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله قتادة ومجاهد .

الثالث : أنهم المؤمنون جاءوا بالصدق يوم القيامة ، حكاه النقاش .

الرابع : أنهم الأنبياء ، قاله الربيع وكان يقرأ : والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به .

وفي (الصدق) قولان :

أحدهما : أنه لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس .

الثاني : القرآن ، قاله مجاهد وقتادة .

ويحتمل ثالثاً : أنه البعث والجزاء .

وفي الذي صدق به خمسة أقاويل :

أحدها : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس .

الثاني : المؤمنون من هذه الأمة ، قاله الضحاك .

الثالث : أتباع الأنبياء كلهم ، قاله الربيع .

الرابع : أنه أبو بكر ، رضي الله عنه حكاه الطبري عن علي رضي الله عنه ، وذكره النقاش عن عون بن عبد الله .

الخامس : أنه علي كرم الله وجهه ، حكاه ليث عن مجاهد .

ويحتمل سادساً : أنهم المؤمنون قبل فرض الجهاد من غير رغبة في غنم ولا رهبة من سيف .

﴿ أولئك هم المتقون ﴾ إنما جاز الجمع في ﴿ هم المتقون ﴾ و ﴿ الذي ﴾ واحد في مخرج لفظه وجمع في معناه على طريق الجنس كقوله تعالى ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ قوله عز وجل : ﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عَمِلوا ﴾ قبل الإيمان والتوبة ، ووجه آخر : أسوأ الذي عملوا من الصغائر لأنهم يتقون الكبائر .

﴿ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ أي يجزيهم بأجر أحسن الأعمال وهي الجنة .

قوله عز وجل : ﴿ أليس الله بكافٍ عبده ﴾ في قراءة بعضهم ، يعني محمداً صلى الله عليه وسلم يكفيه الله المشركين ، وقرأ الباقون ﴿ عباده ﴾ وهم الأنبياء .

﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم كانوا يخوفونه بأوثانهم يقولون تفعل بك وتفعل ، قاله الكلبي ، والسدي .

الثاني : يخوفونه من أنفسهم بالوعيد والتهديد .

قوله عز وجل : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : على ناحيتكم ، قاله الضحاك ومجاهد .

الثاني : على تمكنكم ، قاله ابن عيسى .

الثالث : على شرككم ، قاله يحيى .

﴿ إني عامل ﴾ على ما أنا عليه من الهدى .

﴿ فسوف تعلمون ﴾ وهذا وعيد .

قوله عز وجل : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الله عند توفي الأنفس يقبض أرواحها من أجسادها والتي لم تمت وهي في منامها يقبضها عن التصرف مع بقاء أرواحها في أجسادها .

﴿ فيمسك التي قضى عليها الموت ﴾ أنى تعود الأرواح إلى أجسادها .

﴿ ويرسل الأخرى ﴾ وهي النائمة فيطلقها باليقظة للتصرف إلى أجل موتها ، قاله ابن عيسى .

الثاني : ما حكاه ابن جريج عن ابن عباس أن لكل جسد نفساً وروحاً فيتوفى الله الأنفس في منامها بقبض أنفسها دون أرواحها حتى تتقلب بها وتتنفس ، فيمسك التي قضى عليها الموت أن تعود النفس إلى جسدها ويقبض الموت روحها ، ويرسل الأخرى وهي نفس النائم إلى جسدها حتى تجتمع مع روحها إلى أجل موتها .

الثالث : قاله سعيد بن جبير إن الله تعالى يقبض أرواح الموتى إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف فيمسك التي قضى عليها الموت فلا يعيدها ويرسل الأخرى فيعيدها . قال علي رضي الله عنه : فما رأته نفس النائم وهي في السماء قبل إرسالها إلى جسدها فهي الرؤيا الصادقة ، وما رأته بعد إرسالها وقبل استقرارها في جسدها تلقيها الشياطين وتخيل إليها الأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة .

قوله عز وجل : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبُ . . . ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : انقبضت ، قاله المبرد .

الثاني : نفرت .

الثالث : استكبرت .

قوله عز وجل : ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض ﴾ أي خالقهما .

﴿ عالمَ الغيب والشهادة ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : السر والعلانية .

الثاني : الدنيا والآخرة .

(285/668)

﴿ أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴾ من الهدى والضلالة .

ويحتمل ثانياً : من التحاكم إليه في الحقوق والمظالم .

قال ابن جبير ، اني لأعرف موضع آية ما قرأها أحدٌ فسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، قوله ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ فإذا مسّ الإنسان ضرٌّ دعانا ﴾ قيل إنها نزلت في أبي حذيفة . ابن المعيرة .

﴿ ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيتُه على عِلمٍ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : على علم برضاه عني ، قاله ابن عيسى .

الثاني : بعلمي ، قاله مجاهد .

الثالث : بعلم علمني الله إياه ، قاله الحسن .

الرابع : علمت أني سوف أصيبه : حكاه النقاش .

الخامس : على خبر عندي ، قاله قتادة .

﴿ بل هي فتنة ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : النعمة لأنه يمتحن بها .

الثاني : المقالة التي اعتقدها لأنه يعاقب عليها .

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ البلوى من النعمى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(286/668)

وقال الثعلبى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ ﴾ فزعم أن له ولداً وشريكاً ﴿ وَكَذَّبَ بالصدق ﴾ بالقرآن ﴿ إِذْ جَآءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾ منزل ومقام ﴿ لِّلْكَافِرِينَ * والذي جَآءَ بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ .

قال السدي : (والذي جاء بالصدق) يعني جبرائيل جاء بالقرآن (وصدّق به) محمّد تلقاه بالقبول .

وقال ابن عبّاس : (والذي جاء بالصدق) يعني رسول الله جاء بلا إله إلاّ الله (وصدّق به) هو أيضاً رسول الله بلّغه إلى الخلق .

وقال علي بن أبي طالب وأبو العالية والكلبي : (والذي جاء بالصدق) يعني رسول الله (وصدق به) أبو بكر .

وقال قتادة ومقاتل : (والذي جاء بالصدق) رسول الله (وصدّق به) هم المؤمنون وإستدلا بقوله : ﴿ أولئك هُمُ المتقون ﴾ .

وقال عطاء : (والذي جاء الصدق) الانبياء (عليهم السلام) (وصدق به) الاتباع وحينئذ يكون (الذي) بمعنى (الذين) على طريق الجنس كقوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استوقد نَاراً ﴾ [البقرة : 17] ثم قال : ﴿ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ ﴾ [البقرة : 17] وقوله : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ [العصر : 2-3] .

ودليل هذا التأويل ما أخبرنا ابن فنجويه حدثنا طلحة بن محمّد بن جعفر وعبيد الله بن أحمد بن يعقوب قالا : حدثنا أبو بكر عن مجاهد حدثنا عبدان بن محمّد المروزي حدثنا عمار بن الحسن حدثنا عبد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع : أنّه كان يقرأ (وَالَّذِينَ جَآءُو) يعني الانبياء (عليهم السلام) (وصدقوا به) الاتباع .

وقال الحسن : هو المؤمن صدّق به في الدُّنيا وجاء به يوم القيامة .

يدل عليه ما اخبرنا ابن فنجويه حدثنا أبو علي بن حبش المقريء اخبرنا يعني الظهراني اخبرنا يحيى بن الفضل الخرقي حدثنا وهيب بن عمرو أخبرنا هارون النحوي عن محمّد بن حجارة عن أبي صالح الكوفي وهو أبو صالح السمان أنه قرأ ﴿ والذي جَآءَ بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ مخففة ، قال : هو المؤمن جاء به صادقاً فصدّق به .

وقال مجاهد : هم أهل القرآن يجيؤون به يوم القيامة يقولون هذا الذي اعطيتمونا فعملنا بما فيه .

﴿ أولئك هُمُ المتقون * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَآءُ المحسنين * لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذي عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ * أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ .

قرأ أبو جعفر ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي وخلف : عباده بالجمع .

وقرأ الباقون : عبده يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم

﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بالذين مِن دُونِهِ ﴾ وذلك أنهم خوّفوا النبيّ صلى الله عليه وسلم معرة الأوثان وقالوا : إنك تعيب آلهتنا وتذكرها بسوء ، فوالله لتكفّ عن ذكرها أو لنخلينك أو يصيبك بسوء ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ الله بِعَزِيزٍ ذِي انتقام * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا

تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾ شدة وبلاء ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ نعمة ورخاء ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ .

قرأ شيبة وأبو عمرو ويعقوب : بالتنوين فيهما ، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم .

وقرأ الباقون : بالإضافة .

(288/668)

قال مقاتل : فسالهم النبي (عليه السلام) فسكتوا فأنزل الله سبحانه ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتوكلون * قُلْ يا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ إذا جاءكم بأس الله تعالى من المحق منّا ومن المبطل .

﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتَابَ لِلنَّاسِ بالحق فَمَنِ اهتدى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ بحفيظ ورقيب ، وقيل : موكّل عليهم في حملهم على الإيمان .

﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا ﴾ فيقبضها عند فناء أجلها وانقضاء مدتها ﴿ والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ كما يتوفى التي ماتت ، فجعل النوم موتاً ﴿ فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت ﴾ عنده .

قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي وخلف : قُضِيَ بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء ﴿ الموت ﴾ رفع على مذهب ما لم يُسم فاعله .

وقرأ الباقون بفتحها ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قالا : لقوله (الله يتوفى الأنفس حين موتها) فهو يقضي عليها .

قال المفسرون : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فيتعارف ما شاء الله تعالى منها ، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى أجسادها ، أمسك الله تعالى أرواح الأموات عنده وحبسها ، وأرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها .

﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وقت إنقضاء مدة حياتها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

أخبرنا عبد الله بن حامد الاصبهاني أخبرنا محمّد بن جعفر المطري حدثنا علي بن حرب الموصلي حدثنا ابن فضل حدثنا عطاء عن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ قال : يقبض أنفس الأموات والأحياء ، فيمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء إلى أجل مسمّى لا يغلط .

وقال ابن عبّاس : في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التي بها العقل والتمييز ، والروح التي بها النفس والتحرك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه .

أخبرنا الحسين بن محمّد الثقفي حدثنا الفضل بن الفضل الكندي حدثنا إبراهيم بن سعد بن معدان حدثنا ابن كاسب حدثنا عبد الله بن رجاء عن عبيد الله عن سعيد عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أوى أحدكم إلى فراشه ، فليضطجع على شقه الأيمن وليقل : بأسمك ربّي وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " .

﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِ الله شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً ﴾ من الشفاعة ﴿ وَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ يعني وإن كانوا لايملكون شيئاً من الشفاعة ولايعقلون إنكم تعبدونهم أفتعبدونهم ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ فمن يشفع فبأذنه يشفع ﴿ لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ اشمأزت قُلُوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ .

قال ابن عبّاس ومجاهد ومقاتل : انقبض .

قتادة : كفرت واستكبرت .

الضحاك : نفرت .

الكسائي : انتفضت .

المؤرخ: انكرت، وأصل الاشمئزاز النفور والأزورار.

قال عمرو بن كلثوم:

إذا عضَّ الثقاف بها اشمأزت . . . وولتهم عشوزنة زبونا

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأوثان، وذلك حين ألقى الشيطان في أُمنية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قراءته سورة النجم: تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة تُرتجى ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون ﴿ قُلِ اللهم فَاطِرَ السماوات والأرض ﴾ أي يا فاطر السماوات والأرض ﴿ عَالِمَ الغيب والشهادة أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

(290/668)

أخبرنا الحسين بن محمّد بن فنجويه حدثنا أحمد بن إبراهيم بن شاذان حدثنا عبيد الله بن ثابت حدثنا أبو سعيد الكندي حدثنا ابن فضيل حدثنا سالم بن أبي حفصة عن منذر الثوري قال: كنت عند الربيع بن خيثم فدخل عليه رجل ممّن شهد قتل الحسين ممّن كان يقاتله فقال ابن خيثم يا معلقها . يعني الرؤس، ثم أدخل يده في حنكه تحت لسانه فقال: والله لقد قتلتم صفوة لو أدركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لقبّل أفواههم وأجلسهم في

حجره ، ثم قرأ ﴿ قُلِ اللهم فَاطِرَ السماوات والأرض عَالِمَ الغيب والشهادة أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أشركوا ﴿ مَا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ مِن سواء العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ .

اخبرنا ابن فنجويه حدثنا عبيد الله بن محمّد بن شنبه حدثنا ابن وهب حدثني محمد بن الوليد القرشي حدثنا محمّد بن جعفر حدثنا شعبة عن ابن عمران الحوني قال : سمعت أنس بن مالك يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً لو أن لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ فيقول : نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلاّ أن تشرك بي " .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ الله مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ في الدُّنيا أنه نازل بهم في الآخرة .

قال السدي : ظنّوا أنها حسنات فبدت لهم سيئات .

قال سفيان : وقرأ هذه الآية : ويل لأهل الريا ويل لأهل الريا .

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه حدثنا عبيد الله بن محمّد بن شنبه حدثنا الفرياني حدثني محمّد ابن عبد الله بن عماد حدثني عقبة بن سالم عن عكرمة بن عمار قال : جزع محمّد بن المنكدر عند الموت فقيل له : تجزع .

فقال : أخشى آية من كتاب الله تعالى ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ فأنا اخشى ان يبدو لي من الله مالم أحتسب .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَإِذَا مَسَّ الإِنسانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ ﴾ أعطيناه ﴿ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ من الله بأني له أهل . قال قتادة : على خير عندي .

﴿ بَلْ هِيَ ﴾ يعني النعمة ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ .

وقال الحسين بن الفضل : بل كلمته التي قالها فتنة .

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : قارون إذ قال إنما أوتيته على علم عندي .

﴿ فَمَآ أَغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ والذين ظَلَمُواْ مِنْ هؤلاء ﴾ يعني كفار هذه الأُمة ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يعلموا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 236.240 ﴾

وقال الزمخشري :

﴿ وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) ﴾

وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ هو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : جاء بالصدق وآمن به ، وأراد به إياه ومن تبعه ، كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ فلذلك قال أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ إلا أن هذا في الصفة وذاك في الاسم . ويجوز أن يريد : والفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به ، وهم الرسول الذي جاء بالصدق ، وصحابته الذين صدقوا به . وفي قراءة ابن مسعود : والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به . وقرئ :

وصدق به . بالتخفيف ، أى : صدق به الناس ولم يكذبهم به ، يعنى : أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف . وقيل : صار صادقا به ، أى : بسببه ، لأنّ القرآن معجزة ، والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح لمن يجريها على يده ، ولا يجوز أن يصدق إلا الصادق ، فيصير لذلك صادقا بالمعجزة ، وقرئ : وصدّق به . فإن قلت : ما معنى إضافة الأسوإ والأحسن إلى الذي عملوا ، وما معنى التفضيل فيهما ؟ قلت : أما الإضافة

فما هي من إضافة أفعل إلى الجملة التي يفضل عليها ، ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل ، كقولك : الأشج أعدل بنى مروان . وأما التفضيل فإيذان بأن السيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة ، هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية ، والحسن الذي يعملونه هو عند اللّه الأحسن ، لحسن إخلاصهم فيه ، فلذلك ذكر سيئهم بالأسوإ وحسنهم بالأحسن . وقرئ : أسواء الذي عملوا جمع سوء .

[سورة الزمر (39) : الآيات 36 إلى 37]

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (36)
وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (37)

(293/668)

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي ، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها . وقرئ : بكاف عبده ، وهو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وبكاف عباده وهم الأنبياء ، وذلك أن قريشا قالت لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، وإنا نخشى عليك معرّتها «1» لعيبك إياها . ويروى : أنه بعث خالدا إلى العزى ليكسرها ، فقال له سادنها : أحذركها يا خالد ، إن لها لشدّة لا يقوم لها شيء ،

فعمد خالد إليها فهشم أنفها . فقال اللّه عز وجل : أليس اللّه بكاف نبيه أن يعصمه من كل سوء ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف . وفي هذا تهكم بهم ، لأنهم خوّفوه ما لا يقدر على نفع ولا ضر . أو أليس اللّه بكاف أنبياءه ولقد قالت أممهم نحو ذلك ، فكفاهم اللّه وذلك قول قوم هود إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ ويجوز أن يريد : العبد والعباد على الإطلاق ، لأنه كافيهم في الشدائد وكافل مصالحهم . وقرئ : بكافى عباده ، على الإضافة . ويكافي عباده ، ويكافي : يحتمل أن يكون غير مهموز مفاعلة من الكفاية ، كقولك : يجازى في يجزى ، وهو أبلغ من كفى ، لبنائه على لفظ المبالغة . والمباراة : أن يكون مهموزا ، من المكافأة وهي المجازاة ، لما تقدم من قوله وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ، بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ أراد : الأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه بِعَزِيزٍ بغالب منيع ذِي انْتِقامٍ ينتقم من أعدائه ، وفيه وعيد لقريش ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم ، وينصرهم عليهم .

[سورة الزمر (39) : آية 38]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38)

قرئ : كاشفات ضرّه ، وممسكات رحمته بالتنوين على الأصل ، وبالإضافة للتخفيف .

فإن قلت : لم فرض المسألة في نفسه دونهم ؟ قلت : لأنهم خوّفوه معرّة الأوثان وتخبيلها ،

فأمر بأن يقرّرهم أوّلا بأنّ خالق العالم هو اللّه وحده . ثم يقول لهم بعد التقرير : فإذا أرادنى خالق العالم الذي أقررتم به بضرّ من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل . أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما ، هل هؤلاء اللاتي خوّفتمونى إياهن كاشفات عنى ضره أو ممسكات رحمته ، حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم حتى لا يحيروا ببنت شفة قال حَسْبِيَ اللَّهُ كافيا لمعرّة أوثانكم عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ وفيه تهكم . ويروى أنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم سألهم فسكتوا ، فنزل قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ

---

(1) . قوله «معرتها» أى : إثمها . أفاده الصحاح . (ع) [. . . . .]

فإن قلت . لم قيل : كاشفات ، وممسكات ، على التأنيث بعد قوله تعالى وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ؟ قلت : أنثهن وكن إناثا وهن اللات والعزى ومناة . قال اللّه تعالى أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة ، لأنّ الأنوثة من باب للين والرخاوة ، كما أنّ الذكورة من باب الشدّة والصلابة ، كأنه قال : الإناث اللاتي هنّ اللات والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهنّ وأعجز . وفيه تهكم أيضا .

[سورة الزمر (39) : الآيات 39 إلى 40]

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (40)

عَلى مَكانَتِكُمْ على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنتم منها . والمكانة بمعنى المكان ، فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا . وحيث للزمان ، وهما للمكان . فإن قلت : حق الكلام : فإنى عامل على مكانتى . فلم حذف ؟ قلت : للاختصار ، ولما فيه من زيادة الوعيد ، والإيذان بأنّ حاله لا تقف ، وتزداد كل يوم قوّة وشدّة ، لأنّ اللّه ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله . ألا ترى إلى قوله فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ كيف توعدهم بكونه منصورا عليهم غالبا عليهم في الدنيا والآخرة ، لأنهم إذا أتاهم الخزي والعذاب فذاك عزه وغلبته ، من حيث أن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه ، وبذل ذليل من أعدائه يُخْزِيهِ مثل مقيم في وقوعه صفة للعذاب ، أى : عذاب مخز له ، وهو يوم بدر ، وعذاب دائم وهو عذاب النار . وقرئ : مكاناتكم .

[سورة الزمر (39) : آية 41]

إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)

لِلنَّاسِ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ، ليبشروا وينذروا ، فتقوى دواعيهم إلى اختيار

الطاعة على المعصية . ولا حاجة لي إلى ذلك فأنا الغنى ، فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ، ومن اختار الضلالة فقد ضرها . وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى ، فإنّ التكليف مبنى على الاختيار دون الإجبار .

[سورة الزمر (39) : آية 42]

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)

(295/668)

الْأَنْفُسَ الجمل كما هي . وتوفيها : إماتتها ، وهو أن يسلب ما هي به حية حساسة درّاكة : من صحة أجزائها وسلامتها ، لأنها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها يريد ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ، أى : يتوفاها حين تنام ، تشبيها للنائمين بالموتى .

ومنه قوله تعالى وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ حيث لا يميزون ولا يتصرفون ، كما أنّ الموتى كذلك فَيُمْسِكُ الأنفس الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ الحقيقي ، أى : لا يردّها في وقتها حية وَيُرْسِلُ الْأُخْرى النائمة إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى وقت ضربه لموتها . وقيل : يتوفى الأنفس

يستوفيها ويقضيها ، وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ، ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ، وهي أنفس التمييز . قالوا : فالتي تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة ، لأنّ نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس ، والنائم يتنفس . ورووا عن ابن عباس رضى اللّه عنهما في ابن آدم «نفس وروح» بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التي بها العقل والتمييز والروح التي بها النفس والتحرك ، فإذا نام العبد قبض اللّه نفسه ولم يقبض روحه» «1» والصحيح ما ذكرت أوّلا ، لأنّ اللّه عز وعلا علق التوفي والموت والمنام جميعا بالأنفس ، وما عنوا بنفس الحياة والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم ، وإنما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام إِنَّ فِي ذِلكَ إن في توفى الأنفس مائتة ونائمة وإمساكها وإرسالها إلى أجل لآيات على قدرة اللّه وعلمه ، لقوم يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون . وقرئ : قضى عليها الموت ، على البناء للمفعول .

[سورة الزمر (39) : الآيات 43 إلى 44]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44)

أَمِ اتَّخَذُوا بل اتخذ قريش ، والهمزة للإنكار مِنْ دُونِ اللَّهِ من دون إذنه شُفَعاءَ حين قالوا : هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه . ألا ترى إلى قوله تعالى قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً أى هو مالكها ، فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين : أن يكون المشفوع

له مرتضى ، وأن يكون الشفيع مأذونا له . وها هنا الشرطان مفقودان جميعا أَوَلَوْ كانُوا معناه : أيشفعون ولو كانوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ أى : ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيأ قط ، حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ

---

(1) . لم أجده .

(296/668)

تقرير لقوله تعالى لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك ، كان مالكا لها . فإن قلت : بم يتصل قوله ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ قلت : بما يليه ، معناه : له ملك السماوات والأرض اليوم ثم إليه ترجعون يوم القيامة ، فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له . فله ملك الدنيا والآخرة .

[سورة الزمر (39) : آية 45]

وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)

مدار المعنى على قوله وحده ، أى : إذا أفرد اللّه بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم اشمأزوا ، أى : نفروا وانقبضوا وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وهم آلهتهم ذكر اللّه معهم أو لم يذكر استبشروا ،

لافتتانهم بها ونسيانهم حق اللّه إلى هو أهم فيها . وقيل : إذا قيل لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له نفروا ، لأن فيه نفيا لآلهتهم . وقيل : أراد استبشارهم بما سبق إليه لسان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من ذكر آلهتهم حين قرأ «و النجم» عند باب الكعبة ، فسجدوا معه لفرحهم ، ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز ، إذ كل واحد منهما غاية في بابه ، لأنّ الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل . والاشمئزاز : أن يمتلئ غما وغيظا حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه . فإن قلت : ما العامل في إِذا ذُكِرَ ؟ قلت : العامل في إذا المفاجأة ، تقديره وقت ذكر الذين من دونه ، فاجئوا وقت الاستبشار .

[سورة الزمر (39) : آية 46]

قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46)

بعل «1» رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بهم ، وبشدّة شكيمتهم في الكفر والعناد ، فقيل له :

ادع اللّه بأسمائه العظمى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم ، ولا حيلة لغيرك فيهم . وفيه وصف لحالهم وإعذار لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتسلية له ووعيد لهم . وعن الربيع بن خثيم «2» وكان قليل الكلام . أنه أخبر بقتل الحسين - رضى

اللّه عنه ، وسخط على قاتله - وقالوا : الآن يتكلم ، فما زاد على أن قال : آه أوقد فعلوا ؟ وقرأ هذه الآية . وروى أنه قال على أثره : قتل من كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يجلسه في حجره ويضع فاه على فيه .

---

(1) . قوله «بعل رسول اللّه» في الصحاح : «بعل الرجل» بالكسر ، أى : دهش . (ع)

(2) . قوله «وعن الربيع بن خثيم» في النسفي : خيثم . (ع)

[سورة الزمر (39) : الآيات 47 إلى 48]

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (48)

وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ وعيد لهم لا كنه لفظاعته وشدّته ، وهو نظير قوله تعالى في الوعد فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ والمعنى : وظهر لهم من سخط اللّه وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ولم يحدءوا به نفوسهم . وقيل : عملوا أعمالا حسبوها حسنات ، فإذا هي سيئات . وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال : ويل لأهل الرياء ، ويل لأهل الرياء . وجزع محمد بن المنكدر

عند موته فقيل له ، فقال : أخشى آية من كتاب اللّه ، وتلاها ، فأنا أخشى أن يبدو لي من اللّه ما لم أحتسبه وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا أى سيئات أعمالهم التي كسبوها . أو سيئات كسبهم ، حين تعرض صحائفهم ، وكانت خافية عليهم ، كقوله تعالى أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ أو أراد بالسيآت :

أنواع العذاب التي يجازون بها على ما كسبوا ، فسماها سيئات ، كما قال وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها .

وَحاقَ بِهِمْ ونزل بهم وأحاط جزاء هزئهم .

[سورة الزمر (39) : آية 49]

فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (49)

التخويل : مختص بالتفضل . يقال : خولني ، إذا أعطاك على غير جزاء عَلى عِلْمٍ أى على علم منى أنى سأعطاه ، لما فىّ من فضل واستحقاق . أو على علم من اللّه بى وباستحقاقى «1» أو على علم منى بوجوه الكسب ، كما قال قارون عَلى عِلْمٍ عِنْدِي . فإن قلت : لم ذكر الضمير في أُوتِيتُهُ وهو للنعمة ؟ قلت : ذهابا به إلى المعنى ، لأنّ قوله نِعْمَةً مِنَّا شيئا من النعم وقسما منها . ويحتمل أن تكون «ما» في إنما موصولة لا كافة ، فيرجع إليها الضمير . على معنى : أن الذي أوتيته على علم بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ إنكار لقوله كأنه قال : ما

خوّلناك ما خولناك من النعمة لما تقول ،

---

(1) . قال محمود : «معناه على علم من اللّه بى وباستحقاقى . . . الخ» قال أحمد : كذلك يقول على قدرى تمنى على اللّه أن يثيبه في الآخرة : أن الفرق بين حمد الدنيا وحمد الآخرة أن حمد الدنيا واجب على العبد ، لأنه على نعمة متفضل بها ، وحمد الآخرة ليس بواجب عليه ، لأنه على نعمة واجبة على اللّه عز وجل ، ولقد صدق اللّه إذ يقول : وهي فتنة إنما سلم منها أهل السنة ، إذ يعتقدون أن الثواب بفضل اللّه وبرحمته لا باستحقاق ، ويتبعون في ذلك قول سيد البشر صلى اللّه عليه وسلم : لا يدخل أحد الجنة بعمله . قيل : ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني اللّه برحمته ، فما أحمق من منى نفسه وركب رأسه ، وطمع أنه يستحق على اللّه الجنة .

(298/668)

بل هي فتنة ، أى : ابتلاء وامتحان لك ، أتشكر أم تكفر ؟ فإن قلت : كيف ذكر الضمير ثم أنثه ؟ قلت : حملا على المعنى أوّلا ، وعلى اللفظ آخرا ، ولأن الخبر لما كان مؤنثا أعنى فِتْنَةٌ ساغ تأنيث المبتدإ لأجله لأنه في معناه ، كقولهم : ما جاءت حاجتك . وقرئ : بل هو فتنة على وفق إِنَّما أُوتِيتُهُ . فإن قلت : ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها

في أوّل السورة بالواو ؟ قلت :

السبب في ذلك أنّ هذه وقعت مسببة عن قوله وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ «1» وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر اللّه ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأزّ من ذكره ، دون من استبشر بذكره ، وما بينهما من الاى اعتراض . فإن قلت : حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه «2» . قلت : ما في الاعتراض من دعاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ربه بأمر منه وقوله أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ ثم ما عقبه من الوعيد العظيم : تأكيد لإنكار اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى اللّه في الشدائد دون آلهتهم ، كأنه قيل : قل يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترءون عليك مثل هذه الجرأة ، ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت . وقوله وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقا . أو إياهم خاصة إن عنيتهم به ، كأنه قيل : ولو أنّ لهؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به . حين أحكم عليهم بسوء العذاب ، وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم ، وإلا بقيت محتجبة في أكمامها . وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة وما هي إلا جملة ناسبت جملة قبلها فعطفت عليها بالواو ، كقولك : قام زيد وقعد عمرو . فإن قلت : من أى وجه وقعت مسببة ؟ والاشمئزاز عن ذكر اللّه ليس بمقتض لالتجائهم إليه ، بل هو مقتض لصدوفهم «3» عنه . قلت : في هذا التسبيب لطف ، وبيانه أنك تقول : زيد مؤمن باللّه ، فإذا مسه ضر التجأ إليه ، فهذا تسبيب ظاهر لا لبس

فيه ، ثم تقول : زيد كافر باللّه ، فإذا مسه ضر التجأ إليه ، فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة ، كأنّ الكافر حين التجأ إلى اللّه التجاء المؤمن إليه ، مقيم كفره مقام الإيمان ، ومجريه مجراه في جعله سببا في الالتجاء ، فأنت تحكى ما عكس فيه الكافر . ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام الإنكار والتعجب من فعله ؟

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : لم عطفت هذه الآية على التي قبلها بالفاء ، والآية التي قبلها في أول السورة بالواو ؟ وأجاب بأن هذه الآية مسببة عن قوله وإذا ذكر اللّه . . . الخ» قال أحمد : كلام جليل فافهمه ، فضلا عن مشبه قليل .

(2) . قوله «المعترض بينه وبينه» لعل قوله «و بينه» مزيد من بعض الناسخين . (ع)

(3) . قوله «لصدوفهم عنه» أى : إعراضهم . أفاده الصحاح . (ع)

[سورة الزمر (39) : الآيات 50 إلى 52]

قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

الضمير في قالَهَا راجع إلى قوله إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ لأنها كلمة أو جملة من القول .

وقرئ : قد قاله على معنى القول والكلام ، وذلك والذين من قبلهم : هم قارون وقومه ، حيث قال : إنما أوتيته على علم عندي وقومه راضون بها ، فكأنهم قالوها . ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ من متاع الدنيا ويجمعون منه مِنْ هؤُلاءِ من مشركي قومك سَيُصِيبُهُمْ مثل ما أصاب أولئك ، فقتل صناديدهم ببدر ، وحبس عنهم الرزق ، فقحطوا سبع سنين ، ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين ، فقيل لهم أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أنه لا قابض ولا باسط إلا اللّه عزّ وجلّ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 4 صـ 128.135 ﴾

(300/668)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ على اللهِ ﴾

بأن دعا له ولداً وشريكاً ﴿ وكذَّبَ بالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ ﴾ وهو التوحيد والقرآن ﴿ أَلَيْسَ في جهنَّمَ مَثْوىً للكافِرِينَ ﴾ أي : مَقامٌ للجاحِدِين ؟ ! وهذا استفهام بمعنى التقرير ، يعني : إنه كذلك .

قوله تعالى : ﴿ والَّذي جاءَ بالصِّدْقِ ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله عليّ بن أبي طالب ، وابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد .

ثم في الصِّدق الذي جاء به قولان :

أحدهما : أنه " لا إله إلا الله " ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال [سعيد] بن جبير .

والثاني : [أنه] القرآن ، قاله قتادة .

[وفي الذي صدَّق به ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً ، هو جاء بالصِّدق ، وهو صدَّق به ، قاله ابن عباس ، والشعبي .

والثاني : أنه أبو بكر ، قاله علي بن أبي طالب .

والثالث : أنهم المؤمنون ، قاله قتادة] ، والضحاك ، وابن زيد .

والقول الثاني : [أن] الذي جاء بالصِّدق : أهل القرآن ، وهو الصِّدق الذي يُجيبونَ به يوم القيامة ، وقد أدّوا حَقّه ، فَهُم الذين صدَّقوا به ، قاله مجاهد .

والثالث : أن الذي جاء بالصِّدق الأنبياء ، قاله الربيع ، فعلى هذا ، يكون الذي صدَّق به : المؤمِنون .

والرابع : أن الذي جاء بالصِّدق : جبريل ، وصدَّق به : محمد ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ أولئك هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ أي : الذين اتَّقَوْا الشرك ؛ وإنما قيل : " هُم " ، لأن معنى " الذي " معنى الجمع ، كذلك قال اللغويون ، وأنشد أبو عبيدة ، والزجاج :

فإنَّ الذي حانَتْ بِفَلْجٍ دِماؤُهُمْ . . .

هُمُ القَوْمُ ، كُلُّ القَوْمِ ، يا أُمَّ خالِدِ

(301/668)

قوله تعالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللهُ عنهم ﴾ المعنى : أعطاهم ما شاؤوا ليكفِّر عنهم ﴿ أَسوأَ الذي عَملوا ﴾ ، أي : لِيَسْتُر ذلك بالمغفرة ﴿ وَيَجْزِيَهم أَجرهم ﴾ بمحاسن أعمالهم لا بمساوئها .

قوله تعالى : ﴿ أَلَيْس اللهُ بكافٍ عَبْدَهُ ﴾ ذكر المفسِّرون أن مشركي مكة قالوا : يا محمد ، ما تزال تذكرُ آلهتنا وتَعِيبُها ، فاتَّق أن تصيبك بسوءٍ ، فنزلت هذه الآية .

والمراد بعبده هاهنا : محمد صلى الله عليه وسلم .

وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ عِبَادَهُ ﴾ على الجمع ، وهم الأنبياء ، لأن الأمم قصدتْهم بالسُّوء ؛ فالمعنى : أنه كما كفى الأنبياءَ قَبْلَكَ ، يكفيك .

وقرأ سعد بن أبي وقاص ، وأبو عمران الجوني : ﴿ بِكافِي ﴾ مثبتة الياء " عَبْدِهِ " بكسر الدال والهاء من غير ألف .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو العالية ، وأبو الجوزاء ، والشعبي مِثْله ، إلاّ أنهم أثبتوا الألف في ﴿ عِبادِهِ ﴾ .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعمش : ﴿ بِكافٍ ﴾ بالتنوين ، ﴿ عِبادَهُ ﴾ على الجمع .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء العطاردي : ﴿ يُكافِيْ ﴾ بياء مرفوعة قبل الكاف وياء ساكنة بعد الفاء ﴿ عِبادَهُ ﴾ على الجمع .

﴿ وُخَوِّفونَكَ بالذين مِنْ دونِهِ ﴾ أي : بالذين يَعْبُدون مِن دونِهِ ، وهم الأصنام .

ثُمَّ أَعْلَمَ بما بعد هذا أن الإِضلال والهداية إليه تعالى ، وأنه منتقم ممن عصاه ، ثم أخبر أنهم مع عبادتهم ، يُقِرُّونَ أنه الخالق .

ثم أمر أن يُحْتَج عليهم بأن ما يعبُدون لا يَمْلِكُ كَشْفَ ضُرٍّ ولا جَلْبَ خَيْرٍ .

وقرأ أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ كاشفاتٌ ضُرَّه ﴾ و ﴿ ممسكاتٌ رحمته ﴾ منوَّناً .

والباقون : ﴿ كاشفاتُ ضُرِّه ﴾ و ﴿ ممسكاتُ رحمتِه ﴾ على الإِضافة .

قوله تعالى : ﴿ قل يا قوم اعملوا ﴾ ذكر بعض المفسرين أنها والآية التي تليها نُسخت بآية السيف .

(302/668)

قوله تعالى : ﴿ إِنّا أَنْزَلْنا عليكَ الكتابَ ﴾ يعني القرآن ﴿ للناس ﴾ أي : لجميع الخَلْقِ ﴿ بالحَقِّ ﴾ ليس فيه باطل .

وتمام الآية مفسَّر في آخر [يونس : 108] ، وذكروا أنه منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها ﴾ أي : يَقْبِضُ الأرواحَ حين موت أجسادها ﴿ والَّتي لَمْ تَمُتْ ﴾ أي : ويتوفَّى التي لَمْ تَمُتْ ﴿ في منامها ﴾ .

﴿ فيُمْسِكُ ﴾ أي : عن الجسد [والنفس] ﴿ التي قضى عليها الموت ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ قُضِيَ ﴾ بضم القاف وفتح الياء ، ﴿ الموتُ ﴾ بالرفع .

﴿ ويُرْسِلُ الأُخرى ﴾ إلى الجسد ﴿ إلى أَجَلٍ مُسَمّىً ﴾ وهو انقضاءُ العُمُر ﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرونَ ﴾ في أمر البعث ، وروى [سعيد] بن جبير عن ابن عباس قال : تلتقي أرواح الأحياء وأرواحُ الأموات في المنام ، فيتعارفون ويتساءلون ، ثم تُرَدُّ أرواحُ الأَحياءِ إلى أجسادها ، فلا يُخطأُ بشيء منها ، فذلك قوله : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم

يتفكرون ﴾ وقال ابن عباس في رواية أخرى : في ابنِ آدم نَفْسٌ وروحٌ ، فبالنَّفس العقلُ والتمييزُ ، وبالرُّوح النَّفَس والتحريك ، فإذا نام العبدُ ، قَبَضَ اللهُ نَفْسَه ولم يَقْبِض روحه وقال ابن جريج : في الإِنسان روح ونَفْسٌ ، بينهما حاجز ، فهو تعالى يَقْبِضُ النَّفْسَ عند النَّوم يَرُدُّها إِلى الجسد عند الانتباه ، فإذا أراد إِماتةَ العبد في نومه ، لم يَرُدَّ النَّفْسَ وقَبَض الرُّوح .

(303/668)

وقد اختلف العلماء ، هل بين النَّفْس والرُّوح فَرْقٌ ؟ على قولين قد ذكرتُهما في " الوجوه والنظائر " ، وزدتُ هذه الآية شرحاً في باب التوفّي في كتاب " النظائر " ، وذهب بعض العلماء إِلى أَن التوفّي المذكور في حق النّائم هو نَوْمُه ، وهذا اختيار الفراء وابن الأنباري ؛ فعلى هذا ، يكون معنى توفّي النائم : قبضُ نَفْسِه عن التصرُّف ، وإِرسالُها : إِطلاقُها باليَقَظَة للتصرُّف .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذوا ﴾ يعني كُفَّارَ مكَّةَ .

وفي المراد بالشُّفعاءِ قولان :

أحدهما : أَنَّها الأصنام ، زعموا أنها تشفع لهم في حاجاتهم ، قاله الأكثرون .

والثاني : الملائكة ، قاله مقاتل .

﴿ قُلْ أَولَو كانوا لا يَمْلِكونَ شيئاً ﴾ من الشفاعة ﴿ ولا يَعْقِلونَ ﴾ أَنَّكم تعبُدونهم ؟ !

وجواب هذا الاستفهام محذوف ، تقديره : أَوَلَو كانوا بهذه الصفة تتخذونهم .

﴿ قُلْ للهِ الشَّفاعةُ جميعاً ﴾ أي : لا يَمْلِكُها أَحَدٌ إلاّ بتمليكه ، ولا يشفع عنده أَحَدٌ إلاّ بإذنه .

قوله تعالى : ﴿ وإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشمأَزَّتْ قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : انقبضتْ عن التوحيد ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : استكبرتْ ، قاله قتادة .

والثالث : نَفَرتْ ، قاله أبو عبيدة ، والزجاج .

قوله تعالى : ﴿ وإِذا ذُكِرَ الذين مِنْ دُونِه ﴾ يعني الأصنام ﴿ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرونَ ﴾ يفرحون .

وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [الأنعام : 14 73] [البقرة : 113] [الرعد : 18] إِلى قوله ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يَحْتَسِبون ﴾ .

قال السدي : ظَنّوا أنّ أعمالَهم حسناتٍ ، فبدت لهم سيئات .

وقال غيره : عَمِلوا أعمالاً ظنُّوا أَنَّها تنفعُهم ، فلم تنفع مع شِركهم .

قال مقاتل : ظهر لهم حين بُعثوا ما لم يحتَسِبوا أَنَّه نازلٌ بهم ؛ فهذا القول يحتمل وجهين :

أحدهما : أنَّهم كانوا يرجون القُرْبَ من الله بعبادة الأصنام ، فلمّا عُوقِبوا عليها ، بدا لهم ما لم يكونوا يحتَسِبون .

والثاني : أنَّ البعثَ والجزاءَ لم يكن في حسابهم ، وروي عن محمد بن المنكدر أنه جَزِع عند الموت وقال : أخشى هذه الآية أن يبدو لي ما لا أحتَسِب .

قوله تعالى : ﴿ وحاقَ بهم ﴾ أي : نزل بهم ﴿ ما كانوا به يستهزؤنَ ﴾ أي : ما كانوا يُنْكِرونه ويكذِّبون به .

قوله تعالى : ﴿ فإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعانا ﴾ قال مقاتل : هو أبو حذيفة ابن المغيرة ، وقد سبق في هذه السورة نظيرها [الزمر : 8] وإنما كنّى عن النِّعمة بقوله ﴿ أُوتيتُه ﴾ ، لأن المراد بالنِّعمة : الإنعام .

﴿ على عِلْمٍ ﴾ عندي ، أي : على خيرٍ عَلِمَهُ اللهُ عندي .

وقيل : على عِلْمٍ مِنَ الله بأنِّي له أهلٌ ، قال الله تعالى : ﴿ بل هي ﴾ يعني النِّعمة التي أنعم [اللهُ] عليه بها ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ أي : بلوى يُبْتَلى بها العبدُ لِيَشْكُرَ أو يكفُر ، ﴿ ولكنَّ أكثرهم لا يَعْلَمونَ ﴾ أن ذلك استدراج لهم وامتحان .

وقيل : " بل هي " أي : المقالة التي قالها فتنةٌ .

﴿ قد قالها ﴾ يعني تلك الكلمة ، وهي قوله : ﴿ إِنما أُوتيتُه على عِلْمٍ ﴾ ﴿ الذين مِنَ قَبْلِهم ﴾ وفيهم قولان :

أحدهما : أنَّهم الأُمم الماضية ، قاله السدي .

والثاني : قارون ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ أي : ما دفع عنهم العذاب ﴿ ما كانوا يَكْسِبونَ ﴾

وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : من الكفر .

والثاني : من عبادة الأصنام .

والثالث : من الأموال .

﴿ فأصابهم سيِّئاتُ ما كسَبوا ﴾ أي : جزاءُ سيِّئاتهم ، وهو العذاب .

ثم أوعد كُفَّار مكَّة ، فقال : ﴿ والذين ظَلَموا مِنْ هؤلاء سيُصيبُهم سيِّئاتُ ما كسَبوا وما هم بمُعْجِزينَ ﴾ أي : إنهم لا يُعْجِزونَ الله ولا يَفوتونه .

(305/668)

قال مقاتل : ثم وعظهم ليَعْلَموا وحدانيتَّه حين مُطِروا بعد سبع سنين ، فقال : ﴿ أوَلَم يَعْلَموا أنَّ الله يَبْسُطُ الرِّزقِ لِمَنْ يشاءُ ويَقْدِرُ إن في ذلك ﴾ أي : في بَسْطِ الرِّزق وتقتيره ﴿ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 181.189 ﴾

(306/668)

وقال الخازن :

﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله ﴾ فزعم أن له ولداً أو شريكاً ﴿ وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ أي بالقرآن وقيل بالرسالة إليه ﴿ أليس في جهنم مثوى ﴾ أي منزلة ومقام ﴿ للكافرين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ أي والذي صدق به ، قال ابن عباس : الذي جاء بالصدق هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جاء بلا إله إلا الله وصدق به هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أيضاً بلغه إلى الخلق ، وقيل : الذي جاء بالصدق هو جبريل جاء بالقرآن وصدق به محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقيل : الذي جاء بالصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصدق به أبو بكر رضي الله تعالى عنه وقيل وصدق به المؤمنون وقيل الذي جاء بالصدق الأنبياء وصدق به

الأتباع.

وقيل: الذي جاء بالصدق أهل القرآن وهو الصدق يجيئون به يوم القيامة وقد أدوا حقه فهم الذين صدقوا به ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ أي الذين اتقوا الشرك ﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾ أي من الجزاء والكرامة ﴿ ذلك جزاء المحسنين ﴾ أي في أقوالهم وأفعالهم ﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ﴾ أي يستره عليهم بالمغفرة ﴿ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ أي يجزيهم بمحاسن أفعالهم ولا يجزيهم بمساويها.

قوله: ﴿ أليس لله بكاف عبده ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) وقرىء عباده يعني الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قصدهم قومهم بالسوء فكفاهم الله تعالى شر من عاداهم ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبي (صلى الله عليه وسلم) مضرة الأوثان وقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾.

(307/668)

﴿ ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ﴾ أي منيع في ملكه ﴿ ذي انتقام ﴾ أي منتقم من أعدائه ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ يعني أن هؤلاء

المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم ، وذلك متفق عليه عند جمهور الخلائق فإن فطرة الخلق شاهدة بصحة هذا العلم فإن من تأمل عجائب السموات والأرض وما فيها من أنواع الموجودات علم بذلك أنها من ابتداع قادر حكيم ثم أمره الله تعالى أن يحتج عليهم بأن ما يعبدون من دون الله لا قدرة لها على جلب خير أو دفع ضر وهو قوله تعالى : ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾ يعني الأصنام ﴿ إن أرادني الله بضر ﴾ أي بشدة وبلاء ﴿ هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة ﴾ أي بنعمة وخير وبركة ﴿ هل هن ممسكات رحمته ﴾ فسألهم النبي (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك فسكتوا فقال الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ قل حسبي الله ﴾ أي هو ثقتي وعليه اعتمادي ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ أي عليه يثق الواثقون ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أي اجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم وهو أمر تهديد وتقريع ﴿ إني عامل ﴾ أي بما أمرت به من إقامة الدين ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي أنا وأنتم ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أي دائم وهو تهديد وتخويف ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ للناس بالحق ﴾ أي ليهتدي به كافة الخلق ﴿ فمن اهتدى فلنفسه ﴾ أي ترجع فائدة هدايته إليه ﴿ ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ أي يرجع وبال ضلالته عليه ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي لم توكل بهم ولا تؤاخذ عنهم قيل هذا منسوخ بآية القتال .

قوله تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس ﴾ أي الأرواح ﴿ حين موتها ﴾ أي فيقبضها عند فناء أكلها وانقضاء أجلها وهو موت الأجساد ﴿ والتي لم تمت في منامها ﴾ والنفس التي يتوفاها عند النوم وهي التي يكون بها العقل والتمييز ، ولكل إنسان نفسان نفس هي التي تكون بها الحياة وتفارقه عند الموت وتزول بزوالها الحياة والنفس الأخرى هي التي يكون بها التمييز وهي التي تفارقه عند النوم ولا يزول بزوالها التنفس ﴿ فيمسك التي قضى عليها الموت ﴾ أي فلا يردها إلى جسدها ﴿ ويرسل الأخرى ﴾ أي يرد النفس التي لم يقض عليها الموت إلى جسدها ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أي إلى أن يأتي وقت موتها ، وقيل إن للإنسان نفساً وروحاً فعند النوم تخرج النفس وتبقى الروح وقال علي بن أبي طالب : تخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعها في الجسد فبذلك يرى الرؤيا فإذا انتبه من النوم عادت الروح إلى الجسد بأسرع من لحظة .

وقيل : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله تعالى فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها أمسك الله تعالى أرواح الأموات عنده وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها إلى حين انقضاء مدة آجالها (ق) .

﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء ﴾ يعني الأصنام ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ أولو كانوا ﴾ يعني الآلهة ﴿ لا يملكون شيئاً ﴾ أي من الشفاعة ﴿ ولا يعقلون ﴾ أي إنكم تعبدونهم

وإن كانوا بهذه الصفة ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ أي لا يشفع أحد إلا بإذنه فكان الاشتغال بعبادته أولى لأنه هو الشفيع في الحقيقة وهو يأذن في الشفاعة لمن يشاء من عباده ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ أي لا ملك لأحد فيهما سواه ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ أي في الآخرة .

(309/668)

قوله تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت ﴾ أي نفرت وقال ابن عباس انقبضت عن التوحيد وقيل استكبرت ﴿ قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ قيل إذا اشمأز القلب من عظم غمه وغيظه انقبض الروح إلى داخله فيظهر على الوجه أثر ذلك مثل الغبرة والظلمة ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ يعني الأصنام ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي يفرحون والاستبشار أن يمتلئ القلب سروراً حتى يظهر على الوجه فيتهلل .

﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ﴾ وصف نفسه بكمال القدرة وكمال العلم ﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي من أمر الدنيا (م) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال " سألت عائشة رضي الله تعالى عنها بأي شيء كان نبي الله (صلى الله عليه وسلم) يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت كان إذا قام من الليل افتتح

صلاته قال اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " .

(310/668)

قوله : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ يعني ظهر لهم حين بعثوا ما لم يحتسبوا أنه نازل بهم في الآخرة ، وقيل ظنوا أن لهم حسنات فبدت لهم سيئات والمعنى أنهم كانوا يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأصنام فلما عوقبوا عليها بدا لهم من الله ما لم يحتسبوا ، وروي أن محمد بن المنكدر جزع عند الموت فقيل له في ذلك فقال أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب ﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ يعني مساوي أعمالهم من الشرك والظلم أولياء الله تعالى : ﴿ وحاق ﴾ يعني نزل ﴿ بهم ما كانوا به يستهزئون فإذا مس الإنسان ضر ﴾ يعني شدة ﴿ دعانا ثم إذا خولناه ﴾ يعني أعطيناه ﴿ نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ﴾ يعني من الله تعالى علم أني له أهل وقيل على خير علمه الله عنده ﴿ بل هي فتنة ﴾ يعني تلك النعمة استدراج من الله تعالى وامتحان وبلية ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون

﴿ يعني أنها استدراج من الله تعالى : ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ يعني قارون فإنه قال إنما أوتيته على علم عندي ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ يعني فما أغنى الكفر من العذاب شيئاً .

﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا ﴾ أي جزاؤها وهو العذاب ثم أوعد كفار مكة فقال تعالى ﴿ والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين ﴾ أي بفائتين لأن مرجعهم إلى الله تعالى : ﴿ أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ أي يوسع الرزق لمن يشاء ﴾ ويقدر ﴾ أي يقتر ويقبض على من يشاء ﴾ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ أي يصدقون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 76 . 79 ﴾

(311/668)

وقال ابن جزى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى الله ﴾

المعنى لا أحد أظلم ممن كذب على الله ويريد بالكذب عل الله هنا ما نسبوا إليه من الشركاء والأولاد ﴿ وَكَذَّبَ بالصدق ﴾ أي كذب بالإسلام والشريعة .

﴿ والذي جَآءَ بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ قيل : الذي جاء بالصدق النبي صلى الله عليه

وسلم ، والذي صدّق به أبو بكر . وقيل : الذي جاء بالصدق جبريل ، والذي صدق به محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : الذي جاء بالصدق الأنبياء والذي صدق به المؤمنون ، واختار ابن عطية أن يكون على العموم ، وجعل الذي للجنس كأنه قال : الفريق الذي لأنه في مقابلة من كذب على الله وكذب بالصدق والمراد به العموم .

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ تقوية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وإزالة للخوف الذي كان الكفار يخوفونه .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ الآية احتجاج على التوحيد وردّ على المشركين ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ رد على المشركين وبرهان على الوحدانية ، روي أن سببها أ ، المشركين خوّفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من آلهتهم ، فنزلت الآية مبينة أنهم لا يقدرون على شيء ، فإن قيل كاشفات وممسكات بالتأنيث ؟ فالجواب أنها لا تعقل فعاملها معاملة المؤنثة ، وأيضاً ففي تأنيثها تحقير لها وتهكم بمن عبدها .

﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ تهديد ومسالمة منسوخة بالسيف ﴿ إِنِّي ﴾ ذكر في أول السورة .

(312/668)

﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ هذه الآية اعتبار ، ومعناها أن الله يتوفى النفوس على وجهين : أحدهما : وفاة كاملة حقيقية وهي الموت ، والآخر : وفاة النوم ، لأن النائم كالميت في كونه لا يبصر ولا يسمع ومنه قوله : ﴿ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم باليل ﴾ [الأنعام : 60] وتقديرها ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ﴿ فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت ﴾ أي يمسك الأنفس التي قضى عليها بالموت الحقيقي ، ومعنى إمساكها أنه لا يردها إلى الدنيا ﴿ وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي يرسل الأنفس النائمة ، وإرسالها هو ردّها إلى الدنيا ، والأجل المسمى هو أجل الموت الحقيقي ، وقد تكلم الناس في النفس والروح وأكثروا القول في ذلك بالظن دون تحقيق ، والصحيح أن هذا مما استأثر بعلمه الله لقوله : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : 85] .

﴿ أَمِ اتخذوا مِن دُونِ الله شُفَعَآءَ ﴾ أم هنا بمعنى بل وهمزة الإنكار والشفعاء هم الأصنام وغيرها ، لقولهم : ﴿ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ ﴾ دخلت همزة الاستفهام على واو الحال تقديره : يشفعون وهم لا يملكون شيئاً ولا يعقلون .

﴿ قُل لِلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً ﴾ أي هو مالكها ، فلا يشفع أحد إليه إلا بإذنه ، وفي هذا ردّ على الكفار في قولهم : إن الأصنام تشفع لهم .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ ﴾ الآية : معناها أن الكفار يكرهون توحيد الله ويحبون الإشراك به ، ومعنى ﴿ اشمأزت ﴾ انقبضت من شدة الكراهية وروي أن هذه الآية نزلت حين

قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النجم ، فألقى الشيطان في أمنيته حسبما ذكرنا في الحج ، فاستبشر الكفار بما ألقى الشيطان من تعظيم اللات والعزى ، فلما أذهب الله ما ألقى الشيطان استكبروا واشمأزوا .

(313/668)

﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ أي ظهر لهم يوم القيامة خلاف ما كانوا يظنون لأنهم كانوا يظنون ظنوناً كاذبة . ال الزمخشري : المراد بذلك تعظيم العذاب الذي يصيبهم ، أي ظهر لهم من عذاب الله ما لم يكن في حسابهم فهو كقوله في الوعد : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : 17] وقيل : معناها عملوا أعمالاً حسبوها حسنات ، فإذا هي سيئات وقال الحسن : ويل لأهل الربا من هذه الآية وهذا على أنها من المسلمين والظاهر أنها في الكفار .

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ معنى حاق حل ونزل وقال ابن عطية وغيره : إن هذا على حذف مضاف تقديره : حاق بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون ، ويحتمل أن يكون الكلام دون حذف وهو أحسن ، ومعناه حاق بهم جزاء ما كانوا به يستهزؤون لأنهم كانوا في الدنيا يستهزؤون ، إذا خوفوا بعذاب الله ، ويقولون متى هذا الوعد .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما وهو الأظهر : أن يريد على علم مني بالمكاسب والمنافع ، والآخر : على علم الله باستحقاقي لذلك ، وإنما هنا تحتمل وجهين : أحدهما وهو الأظهر : أن تكون ما كافة و ﴿ على عِلْمٍ ﴾ في موضع الحال ، والآخر أن تكون ﴿ ما ﴾ اسم إن و ﴿ على عِلْمٍ ﴾ خبرها وإنما قال : أوتيته بالضمير المذكر وهو عائد على النعمة للحمل على المعنى ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ ردّ على الذي قال إنما أوتيته على علم ﴿ قَدْ قَالَهَا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني قارون وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 195. 197 ﴾

(314/668)

وقال النسفى :

﴿ فمن أظلم كَذَبَ على الله ﴾

افترى عليه بإضافة الولد والشريك إليه ﴿ وَكَذَّبَ بالصدق ﴾ بالأمر الذي هو الصدق بعينه وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِذْ جَآءَهُ ﴾ فاجأه بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة لإعمال روية أو اهتمام بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين ﴾ أي لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا

بالصدق .

واللام في ﴿ للكافرين ﴾ إشارة إليهم ﴿ والذى جَآءَ بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالحق وآمن به وأراد به إياه ومن تبعه كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى الكتاب لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [المؤمنون : 49] فلذا قال تعالى ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ المتقون ﴾ وقال الزجاج : رُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال : والذي جاء بالصدق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي صدق به أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

ورُوي أن الذي جاء بالصدق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي صدق به المؤمنون ، والكل صحيح كذا قاله .

قالوا : والوجه في العربية أن يكون "جاء" و "صدق" لفاعل واحد لأن التغاير يستدعي إضمار الذي ، وذا غير جائز ، أو إضمار الفاعل من غير تقدم الذكر وذا بعيد .

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَآءُ المحسنين لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ إضافة أسوأ وأحسن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل كقولك : الأشج أعدل بني مروان .

﴿ أَلَيْسَ الله بِكَافٍ ﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها ﴿ عَبْدَهُ ﴾ أي محمداً صلى الله عليه وسلم .

﴿ عباده ﴾ حمزة وعلي أي الأنبياء والمؤمنين وهو مثل ﴿ إِنَّا كفيناك المستهزءين ﴾ [الحجر : 95] ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بالذين مِن دُونِهِ ﴾ أي بالأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه ، وذلك أن قريشاً قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا وإنا نخشى عليك مضرتها لعيبك إياها ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَن يَهْدِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ الله بِعَزِيزٍ ﴾ بغالب منيع ﴿ ذِى انتقام ﴾ ينتقم من أعدائه ، وفيه وعيد لقريش ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم وينصرهم عليهم .

ثم أعلم بأنهم مع عبادتهم الأوثان مقرون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض بقوله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِىَ الله ﴾ بفتح الياء سوى حمزة ﴿ بِضُرٍّ ﴾ مرض أو فقر أو غير ذلك ﴿ هَلْ هُنَّ كاشفات ضُرِّهِ ﴾ دافعات شدته عني ﴿ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ ﴾ صحة أو غنى أو نحوهما ﴿ هَلْ هُنَّ ممسكات رَحْمَتِهِ ﴾ ﴿ كاشفات ضُرِّهِ ﴾ ، و ﴿ ممسكات رَحْمَتِهِ ﴾ بالتنوين على الأصل : بصري ، وفرض المسئلة في نفسه دونهم لأنهم خوفوه معرة الأوثان وتخبيلها ، فأمر بأن يقررهم أولاً بأن خالق العالم هو الله وحده ثم يقول لهم بعد التقرير : فإن

أرادني خالق العالم الذي أقررتم به بضر أو برحمة هل يقدرون على خلاف ذلك ؟ فلما أفحمهم قال الله تعالى : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ الله ﴾ كافياً لمعرة أوثانكم ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتوكلون ﴾ يُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سألهم فسكتوا فنزل ﴿ قُلْ حَسْبِيَ الله ﴾ ، وإنما قال ﴿ كاشفات ﴾ و ﴿ ممسكات ﴾ على التأنيث بعد قوله ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بالذين مِن دُونِهِ ﴾ لأنهن إناث وهن اللات والعزى ومناة ، وفيه تهكم بهم وبمعبوديهم .

(316/668)

﴿ قُلْ يا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنتم منها ، والمكانة بمعنى المكان فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا وحيث للزمان وهما للمكان ﴿ إِنِّي عامل ﴾ أي على مكانتي وحذف للاختصار ولما فيه من زيادة الوعيد والإيذان بأن حالته تزداد كل يوم قوّة لأن الله تعالى ناصره ومعينه ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ كيف توعدهم بكونه منصوراً عليهم غالباً عليهم في الدنيا والآخرة ، لأنهم إذا أتاهم الخزي والعذاب فذاك عزه وغلبته من حيث إن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه وبذل ذليل من أعدائه ، و ﴿ يُخْزِيهِ ﴾ صفة للعذاب ك ﴿ مُّقِيمٌ ﴾ أي عذاب مخزلة وهو يوم بدر ،

وعذاب دائم وهو عذاب النار .

﴿ مكاناتكم ﴾ أبو بكر وحماد .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب ﴾ القرآن ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ليبشروا وينذروا فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ﴿ بالحق فَمَنِ اهتدى فَلِنَفْسِهِ ﴾ فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ومن اختار الضلالة فقد ضرها ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ بحفيظ .

﴿ ثم أخبر بأنه الحفيظ القدير عليهم بقوله ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ الأنفس الجمل كما هي ، وتوفيها إماتتها وهو أن يسلب ما هي به حية حساسة دراكة ﴿ والتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها أي يتوفاها حين تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى حيث لا يميزون ولا يتصرفون كما أن الموتى كذلك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ [الأنعام : 60] ﴿ فَيُمْسِكُ ﴾ الأنفس ﴿ التى قضى ﴾ ﴿ قُضِىَ ﴾ حمزة وعلي .

(317/668)

﴿ عَلَيْهَا الموت ﴾ الحقيقي أي لا يردها في وقتها حية ﴿ وَيُرْسِلُ الأخرى ﴾ النائمة ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى وقت ضربه لموتها .

وقيل : يتوفى الأنفس أي يستوفيها ويقبضها وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ، ويتوفى الأنفس التي لم تمت في مقامها وهي أنفس التمييز .

قالوا : فالتي تتوفى في المنام هي نفس التمييز لا نفس الحياة لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفسَ والنائم يتنفس ، ولكل إنسان نفسان : إحداهما نفس الحياة وهي التي تفارق عند الموت ، والأخرى نفس التمييز وهي التي تفارقه إذا نام .

ورُوي عن ابن عباس رضى الله عنهما : في ابن آدم نفس وروح بينهما شعاع مثل شعاع الشمس ، فالنفس هي التي بها العقل والتمييز ، والروح هي التي بها النفس والتحرك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه .

وعن علي رضي الله عنه قال : تخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعها في الجسد فذلك يرى الرؤيا ، فإذا انتبه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة ، وعنه ما رأت عين النائم في السماء فهي الرؤيا الصادقة ، وما رأت بعد الإرسال فيلقنها الشيطان فهي كاذبة .

وعن سعيد بن جبير : أن أرواح الأحياء وأرواح الأموات تلتقي في المنام فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجسادها إلى انقضاء حياتها .

ورُوي أن أرواح المؤمنين تعرج عند النوم في السماء فمن كان منهم طاهراً أذن في السجود ، ومن لم يكن منهم طاهراً لم يؤذن له فيه ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ إن في توفي الأنفس ميتة ونائمة وإمساكها وإرسالها إلى أجل ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ على قدرة الله وعلمه ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون ﴿ أَمِ اتخذوا ﴾ بل اتخذ قريش والهمزة للإنكار ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ من دون إذنه ﴿ شُفَعَآءَ ﴾ حين قالوا ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ معناه أيشفعون ولو كانوا لا يملكون شيئاً قط ولا عقل لهم ؟ ﴿ قُل لِّلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً ﴾ أي هو مالكها فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه وانتصب ﴿ جَمِيعاً ﴾ على الحال ﴿ لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ تقرير لقوله ﴿ لِلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً ﴾ لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك كان مالكاً لها .

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ متصل بما يليه معناه له ملك السماوات والأرض واليوم ثم إليه ترجعون يوم القيامة فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له فله ملك الدنيا والآخرة .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ ﴾ مدار المعنى على قوله ﴿ وَحْدَهُ ﴾ أي إذا أفرد الله بالذكر ولم تذكر معه آلهتهم ﴿ اشمأزت ﴾ أي نفرت وانقبضت ﴿ قُلُوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ يعني آلهتهم ذكر الله معهم أو لم يذكر ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ لافتتانهم بها ، وإذا قيل لا إله إلا الله وحده لا شريك له نفروا لأن فيه نفياً لآلهتهم ، ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه ، فالاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل ، والاشمئزاز أن يمتلىء غماً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه ، والعامل في ﴿ إِذَا ذُكِرَ ﴾ هو العامل في "إذا" المفاجأة .

تقديره : وقت ذكر الذين من دونه فاجئوا وقت الاستبشار ﴿ قُلِ اللهم فَاطِرَ السماوات والأرض ﴾ أي يا فاطر ، وليس بوصف كما يقوله المبرد والفراء ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ السر والعلانية ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ ﴾ تقضي ﴿ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الهدى والضلالة ، وقيل : هذه محاكمة من النبي للمشركين إلى الله .

وعن ابن المسيب : لا أعرف آية قرئت فدعي عندها إلا أجيب سواها .

وعن الربيع بن خيثم وكان قليل الكلام أنه أخبر بقتل الحسين رضي الله عنه وقالوا : الآن يتكلم فما زاد أن قال : آه أوقد فعلوا وقرأ هذه الآية .

ورُوي أنه قال على أثره : قتل من كان صلى الله عليه وسلم يجلسه في حجره ويضع فاه على

فيه .

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ الهاء تعود إلى "ما" ﴿ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ مِن سُوءِ العذاب ﴾ شدته ﴿ يَوْمَ القيامة وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ الله مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسبانهم ولا يحدثون به نفوسهم .

(320/668)

وقيل : عملوا أعمالاً حسبوها حسنات فإذا هي سيئات ، وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال : ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء .

وجزع محمد بن المنكدر عند موته فقيل له فقال : أخشى آية من كتاب الله وتلاها ، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسبه ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أي سيئات أعمالهم التي كسبوها أو سيئات كسبهم حين تعرض صحائف أعمالهم وكانت خافية عليهم أو عقاب ذلك ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ ونزل بهم وأحاط ﴿ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ جزاء هزئهم .

﴿ فَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خولناه ﴾ أي أعطيناه تفضلاً .

يقال : خولني إذا أعطاك على غير جزاء ﴿ نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ ولا تقف عليه لأن جواب "إذا"

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ مني أني سأعطاه لما فيّ من فضل واستحقاق ، أو على علم مني بوجوه الكسب كما قال قارون

﴿ على عِلْمٍ عِندِى ﴾ [القصص : 78] وإنما ذكر الضمير في ﴿ أُوتِيتُهُ ﴾ وهو للنعمة نظراً إلى المعنى لأن قوله ﴿ نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ شيئاً من النعمة وقسماً منها .

وقيل : "ما" في "إنما" موصولة لا كافة فيرجع الضمير إليها أي إن الذي أوتيته على علم ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ إنكار له كأنه قال : ما خولناك من النعمة لما تقول بل هي فتنة أي ابتلاء وامتحان لك أتشكر أم تكفر .

ولما كان الخبر مؤنثاً أعني فتنة ساغ تأنيث المبتدأ لأجله ، وقريء بل هو فتنة على وفق ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ ﴾ ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنها فتنة ، والسبب في عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها في أول السورة بالواو ، أن هذه وقعت مسببة عن قوله ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ اشمأزت ﴾ على معنى أنهم يشمئزون من ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز بذكره دون من استبشر بذكره وما بينهما من الآي اعتراض .

فإن قلت : حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه .

قلت : ما في الاعتراض من دعاء الرسول الله صلى الله عليه وسلم ربه بأمر من الله وقوله ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ ﴾ ثم ما عقبه من الوعيد العظيم ، تأكيد لإنكار اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم كأنه قيل : يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترئون عليك مثل هذه الجرأة إلا أنت ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ متناول هم ولكل ظالم إن جعل عاماً ، أو إياهم خاصة إن عنيتهم به كأنه قيل : ولو أن لهؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به حين حكم عليهم بسوء العذاب ، وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة وما هي إلا جملة ناسبت جملة قبلها فعطفت عليها بالواو نحو "قام زيد وقعد عمرو" ، وبيان وقوعها مسببة أنك تقول : زيد يؤمن بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه ، فهذا تسبيب ظاهر ، ثم تقول : زيد كافر بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه ، فتجيء بالفاء مجيئك بها ثمة كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه مقيم كفره مقام الإيمان في جعله سبباً في الالتجاء ﴿ قَدْ قَالَهَا ﴾ هذه المقالة وهي قوله ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي قارون وقومه حيث قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِى ﴾ [القصص : 78] وقومه راضون بها ، فكأنهم قالوها ، ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها ﴿ فَمَآ أَغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من متاع الدنيا وما يجمعون منها .

﴿ فأصابهم سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أي جزاء سيئات كسبهم ، أو سمى جزاء السيئة سيئة للازدواج كقوله : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] .

(322/668)

﴿ والذين ظَلَمُواْ ﴾ كفروا ﴿ مِنْ هَؤُلآءِ ﴾ أي من مشركي قومك ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أي سيصيبهم مثل ما أصاب أولئك ، فقتل صناديدهم ببدر وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين من عذاب الله ، ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين فقيل لهم ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ويضيق .

وقيل : يجعله على قدر القوت ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بأنه لا قابض ولا باسط إلا الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 57 . 62 ﴾

(323/668)

وقال البيضاوى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللهِ ﴾

بإضافة الولد والشريك إليه . ﴿ وَكَذَّبَ بالصدق ﴾ وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ إِذْ جَاءَهُ ﴾ من غير توقف وتفكر في أمره . ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين ﴾ وذلك يكفيهم مجازاة لأعمالهم ، واللام تحتمل العهد والجنس ، واستدل به على تكفير المبتدعة فإنهم يكذبون بما علم صدقه وهو ضعيف لأنه مخصوص بمن فاجأ ما علم مجيء الرسول به بالتكذيب .

﴿ والذى جَاء بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ اللام للجنس ليتناول الرسل والمؤمنين لقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ المتقون ﴾ وقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم والمراد هو ومن تبعه كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى الكتاب لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ وقيل الجائي هو الرسول والمصدق أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، وذلك يقتضي إضمار "الذى" وهو غير جائز . وقرىء "وَصَدَّقَ بِهِ" بالتخفيف أي صدق به الناس فأداه إليهم كما نزل من غير تحريف ، أو صار صادقاً بسببه لأنه معجز يدل على صدقه "وَصَدَّقَ بِهِ" على البناء للمفعول .

﴿ لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ في الجنة . ﴿ ذَلِكَ جَزَاء المحسنين ﴾ على إحسانهم . ﴿ لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذى عَمِلُواْ ﴾ خص الأسوأ للمبالغة فإنه إذا كفر كان غيره أولى بذلك ، أو للإشعار بأنهم لاستعظامهم الذنوب يحسبون أنهم مقصرون مذنبون وأن ما

يفرط منهم من الصغائر أسوأ ذنوبهم ، ويجوز أن يكون بمعنى السيء كقولهم : الناقص والأشج أعدلا بني مروان ، وقرىء "أسوأ" جمع سوء . ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ ويعطيهم ثوابهم . ﴿ بِأَحْسَنِ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فتعد لهم محاسن أعمالهم بأحسنها في زيادة الأجر وعظمه لفرط إخلاصهم فيها .

(324/668)

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ استفهام إنكار للنفي مبالغة في الإثبات ، والعبد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحتمل الجنس ويؤيده قراءة حمزة والكسائي "عباده" ، وفسر بالأنبياء صلوات الله عليهم . ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بالذين مِن دُونِهِ ﴾ يعني قريشاً فإنهم قالوا له إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا بعيبك إياها . وقيل إنه بعث خالداً ليكسر العزى فقال له سادنها أُحَذِّرُكَهَا فإن لها شدة ، فعمد إليها خالد فهشم أنفها فنزل تخويف خالد منزلة تخويفه لأنه الآمر له بما خوف عليه . ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ حتى غفل عن كفاية الله له وخوفه بما لا ينفع ولا يضر . ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يهديه إلى الرشاد .

﴿ وَمَن يَهْدِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴾ إذ لا راد لفعله كما قال : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ﴾ غالب منيع . ﴿ ذِى انتقام ﴾ ينتقم من أعدائه .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ لوضوح البرهان على تفرده بالخلقية . ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إِنْ أَرَادَنِىَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشفات ضُرِّهِ ﴾ أي أرأيتم بعد ما تحققتم أن خالق العالم هو الله تعالى وأن آلهتكم إن أراد الله أن يصيبني بضر هل يكشفنه .

﴿ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ ﴾ بنفع . ﴿ هَلْ هُنَّ ممسكات رَحْمَتِهِ ﴾ فيمسكنها عني ، وقرأ أبو عمرو "كاشفات ضُرِّه" "ممسكات رَحْمَتِهِ" بالتنوين فيهما ونصب ضره ورحمته . ﴿ قُلْ حَسْبِىَ الله ﴾ كافياً في إصابة الخير ودفع الضر إذ تقرر بهذا التقرير أنه القادر الذي لا مانع لما يريده من خير أو شر . روي أن النبي عليه الصلاة والسلام سألهم فسكتوا فنزل ذلك ، وإنما قال ﴿ كاشفات ﴾ و ﴿ ممسكات ﴾ على ما يصفونها به من الأنوثة تنبيهاً على كمال ضعفها . ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المتوكلون ﴾ لعلمهم بأن الكل منه تعالى .

(325/668)

﴿ قُلْ يا قَوْمِ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ على حالكم ، اسم للمكان استعير للحال كما استعير هنا وحيث من المكان للزمان ، وقرىء "مكاناتكم" . ﴿ إِنِّى عامل ﴾ أي على مكانتي فحذف للاختصار والمبالغة في الوعيد ، والإشعار بأن حاله لا يقف فإنه تعالى

يزيده على مر الأيام قوة ونصرة ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم في الدارين فقال : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ فإن خزي أعدائه دليل غلبته ، وقد أخزاهم الله يوم بدر .

﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ دائم وهو عذاب النار .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ ﴾ لأجلهم فإنه مناط مصالحهم في معاشهم ومعادهم .

﴿ بالحق ﴾ متلبساً به . ﴿ فَمَنِ اهتدى فَلِنَفْسِهِ ﴾ إذ نفع به نفسه . ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ فإن وباله لا يتخطاها . ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى وإنما أمرت بالبلاغ وقد بلغت .

(326/668)

﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا والتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ أي يقبضها عن الأبدان بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها إما ظاهراً وباطناً وذلك عند الموت ، أو ظاهراً لا باطناً وهو في النوم . ﴿ فَيُمْسِكُ التى قضى عَلَيْهَا الموت ﴾ ولا يردها إلى البدن ، وقرأ حمزة والكسائي قُضِيَ بضم القاف وكسر الضاد والموت بالرفع . ﴿ وَيُرْسِلُ الأخرى ﴾ أي النائمة إلى بدنها عند اليقظة . ﴿ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو الوقت المضروب لموته وهو غاية

جنس الإرسال . وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أن في ابن آدم نفساً وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التي بها العقل والتمييز ، والروح التي بها النفس والحياة ، فيتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم قريب مما ذكرناه . ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ من التوفي والإمساك والإرسال . ﴿ لآيَاتٍ ﴾ دالة على كمال قدرته وحكمته وشمول رحمته . ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيها عنها بالكلية حين الموت ، وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها ، وما يعتريها من السعادة والشقاوة والحكمة في توفيها عن ظواهرها وإرسالها حيناً بعد حين إلى توفي آجالها .

﴿ أَمِ اتخذوا ﴾ بل اتخذت قريش . ﴿ مِن دُونِ الله شُفَعَاءَ ﴾ تشفع لهم عند الله . ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ ﴾ ولو كانوا على هذه الصفة كما تشاهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم .

﴿ قُل لِلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً ﴾ لعله رد لما عسى يجيبون به وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون هي تماثيلهم ، والمعنى أنه مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه ورضاه ، ولا يستقل بها ثم قرر ذلك فقال : ﴿ لَّهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ فإنه مالك الملك كله لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه . ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فيكون الملك له أيضاً حينئذ .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ ﴾ دون آلهتهم . ﴿ اشمأزت قُلُوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ انقبضت ونفرت . ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الذين مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأوثان . ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ لفرط افتتانهم بها ونسيانهم حق الله ، ولقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فيهما ، فإن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ، والاشمئزاز أن يمتلىء غماً حتى ينقبض أديم وجهه ، والعامل في ﴿ إِذَا ذُكِرَ ﴾ العامل في إذا المفاجأة .

﴿ قُلِ اللهم فَاطِرَ السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ﴾ التجىء إلى الله بالدعاء لما تحيرت في أمرهم وضجرت من عنادهم وشدة شكيمتهم ، فإنه القادر على الأشياء والعالم بالأحوال كلها .

﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فأنت وحدك تقدر أن تحكم بيني وبينهم .

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ مِن سُوء العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ وعيد شديد وإقناط كلي لهم من الخلاص . ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ الله مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ زيادة مبالغة فيه وهو نظير قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم ﴾ في الوعد .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ سيئات أعمالهم أو كسبهم حين تعرض صحائفهم . ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ وأحاط بهم جزاؤه .

(328/668)

﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسان ضُرٌّ دَعَانَا ﴾ إخبار عن الجنس بما يغلب فيه ، والعطف على قوله ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ ﴾ بالفاء لبيان مناقضتهم وتعكيسهم في التسبب بمعنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله وحده ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا من ذكره دون من استبشروا بذكره ، وما بينهما اعتراض مؤكد لإنكار ذلك عليهم . ﴿ ثُمَّ إِذَا خولناه نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ أعطيناه إياه تفضلاً فإن التخويل مختص به . ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ مني بوجوه كسبه ، أو بأني سأعطاه لما لي من استحقاقه ، أو من الله بي واستحقاقي ، والهاء فيه لما إن جعلت موصولة وإلا فللنعمة والتذكير لأن المراد شيء منها . ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ امتحان له أيشكر أم يكفر ، وهو رد لما قاله وتأنيث الضمير باعتبار الخبر أو لفظ ال ﴿ نعمة ﴾ ، وقرىء بالتذكير . ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ، وهو دليل على أن الإنسان للجنس .

﴿ قَدْ قَالَهَا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الهاء لقوله ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ لأنها كلمة أو جملة

، وقرىء بالتذكير ﴿ والذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ قارون وقومه فإنه قال ورضي به قومه ﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من متاع الدنيا .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ جزاء سيئات أعمالهم أو جزاء أعمالهم ، وسماه سيئة لأنه في مقابلة أعمالهم السيئة رمزاً إلى أن جميع أعمالهم كذلك . ﴿ والذين ظَلَمُواْ ﴾ بالعتو . ﴿ مِنْ هَؤُلاَءِ ﴾ المشركين و﴿ مِنْ ﴾ للبيان أو للتبعيض . ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ كما أصاب أولئك ، وقد أصابهم فإنهم قحطوا سبع سنين وقتل ببدر صناديدهم . ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين .

(329/668)

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ حيث حبس عنهم الرزق سبعاً ثم بسط لهم سبعاً . ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بأن الحوادث كلها من الله بوسط أو غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 66 . 71 ﴾

(330/668)

وقال الخطيب الشربيني :

ثم إنه تعالى بين نوعاً آخر من قبائح أفعالهم بقوله تعالى:

﴿ فمن ﴾ أي : لا أحد ﴿ أظلم ﴾ أي : منهم هكذا كان الأصل ، ولكن قال تعالى : ﴿ ممن كذب ﴾ تعميماً ﴿ على الله ﴾ أي : الذي الكبرياء رداؤه والعظمة إزاره بنسبة الولد والشريك إليه ﴿ وكذب ﴾ أي : أوقع التكذيب لكل من أخبره ﴿ بالصدق ﴾ أي : بالأمر الذي هو الصدق بعينه وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إذ جاءه ﴾ أي : فاجأه بالتكذيب لما سمع من غير وقفة ولا إعمال روية بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يستمعون ، وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بإظهار الذال عند الجيم والباقون بالإدغام ، ثم أردف ذلك بالوعيد فقال : ﴿ أليس في جهنم ﴾ أي : النار التي تلقى داخلها بالتجهم والعبوسة كما كان يلقى الحق وأهله ﴿ مثوى ﴾ أي : مأوى ﴿ للكافرين ﴾ أي : لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق ، واللام في للكافرين إشارة إليهم والاستفهام بمعنى التقرير .

ولما ذكر من افترى وكذب ذكر مقابله وهو الذي جاء بالصدق وصدق به بقوله تعالى:

﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ قال قتادة ومقاتل : هو النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وصدق به ﴾ هم المؤمنون فالذي بمعنى الذين ولذلك روعي معناه فجمع في قوله تعالى :

﴿ أولئك ﴾ أي : العالو الرتبة ﴿ هم المتقون ﴾ أي : الشرك كما روعي معنى من في قوله

تعالى : ﴿ للكافرين ﴾ فإن الكافرين ظاهر واقع موقع الضمير ، إذ الأصل مثوى لهم وكما في قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ (البقرة :)

ثم قال ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ (البقرة :)

(331/668)

قال الزمخشري : ويجوز أن يريد الفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به وهم الرسول الذي جاء بالصدق وصحابته رضي الله تعالى عنهم الذين صدقوا به ا . ه قال أبو حيان : وفيه توزيع للصلة والفوج هو الموصول فهو كقولك : جاء الفريق الذي شرف وشرف ، والأظهر عدم التوزيع بل المعطوف على الصلة صلة لمن له الصلة الأولى ، وقيل : بل الأصل والذين جاء بالصدق فحذفت النون تخفيفاً كقوله تعالى : ﴿ كالذي خاضوا ﴾ (التوبة :)

قال ابن عادل : وهذا وهم إذ لو قصد ذلك لجاء بعده ضمير الجمع فكان يقال : والذي جاؤوا كقوله تعالى : ﴿ كالذي خاضوا ﴾ ويدل عليه أن نون التثنية إذا حذفت عاد الضمير مثنى كقوله:

*أبني كليب إن عميّ اللذا ** قتلا الملوك وفككا الأغلالا*

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : والذي جاء بالصدق يعني : رسول الله صلى الله عليه

وسلم جاء بلا إله إلا الله وصدق به الرسول أيضاً بلغه إلى الخلق . وقال السدي : والذي جاء بالصدق جبريل عليه السلام جاء بالقرآن وصدق به محمد صلى الله عليه وسلم تلقاه بالقبول ، وقال أبو العالية والكلبي : والذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق به أبو بكر رضي الله عنه ، وقال عطاء : والذي جاء بالصدق الأنبياء وصدق به الأتباع ، وقال الحسن : هم المؤمنون صدقوا به في الدنيا وجاؤوا به في الآخرة وقوله تعالى:

﴿ لهم ما يشاؤون ﴾ أي : من أنواع الكرامات ﴿ عند ربهم ﴾ أي : في الجنة يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه ﴿ ذلك ﴾ أي : هذا الجزاء ﴿ جزاء المحسنين ﴾ لأنفسهم بإيمانهم . وقوله تعالى:

﴿ ليكفر الله عنهم ﴾ يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه ومعنى تكفيرها أن يسترها عليهم بالمغفرة .

(332/668)

تنبيه : في تعلق هذه اللام وجهان أحدهما : أنها متعلقة بمحذوف أي : يسر لهم ذلك ليكفر ، ثانيهما : أنها متعلقة بنفس المحسنين كأنه قيل : الذين أحسنوا ليكفر أي : لأجل التكفير وقوله تعالى : ﴿ أسوأ الذي ﴾ أي : العمل الذي ﴿ عملوا ﴾ فيه مبالغة فإنه إذا

كفر غيره أولى بذلك أو للإيذان بأن الشيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية أو أنه بمعنى السيء كما جرى عليه الجلال المحلي كقولهم : الناقص والأشج أعدلا بني مروان أي : عادلاهم إذ ليس المراد به التفضيل ، والناقص هو محمد الخليفة سمي به ؛ لأنه نقص أعطية القوم والأشج هو عمر بن عبد العزيز سمي به لشجة أصابت رأسه .

﴿ ويجزيهم أجرهم ﴾ أي : ويعطيهم ثوابهم ﴿ بأحسن الذي ﴾ أي : العمل الذي ﴿ كانوا يعملون ﴾ أي : فيعد لهم محاسن أعمالهم بأحسنها في زيادة الأجر لحسن إخلاصهم فيها وهذا أولى من قول الجلال المحلي إنه بمعنى الحسن . وقوله تعالى:

﴿ أليس الله ﴾ أي : الجامع لصفات الكمال كلها المنعوت بنعوت العظمة والجلال ﴿ بكاف عبده ﴾ أي : الخالص له استفهام إنكار للنفي مبالغة في الإثبات ، وقرأ حمزة والكسائي بكسر العين وفتح الباء الموحدة وألف بعدها على الجمع ، وقرأ الباقون بفتح العين وسكون الباء على الإفراد ، فقراءة الإفراد محمولة على النبي صلى الله عليه وسلم وقراءة الجمع على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن قومهم قصدوهم بالسوء كما قال الله تعالى ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ (غافر :)

وكفاهم الله تعالى شر من عاداهم ويحتمل أن يراد بقراءة الإفراد : الجنس فتساوي قراءة الجمع وقيل : المراد أن الله تعالى كفى نوحاً عليه السلام الغرق وإبراهيم عليه السلام الحرق

ويونس عليه السلام بطن الحوت فهو سبحانه وتعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك .

(333/668)

﴿ ويخوفونك ﴾ أي : عباد الأصنام ﴿ بالذين من دونه ﴾ وذلك أن قريشاً خوفوا النبي صلى الله عليه وسلم معاداة الأوثان ، وقالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وروي : "أنه صلى الله عليه وسلم بعث خالداً إلى العزى ليكسرها فقال له سادنها أي : خادمها : لا تدركها أحذركها يا خالد إن لها شدة لا يقوم لها شيء ، فعمد خالد إليها فهشم أنفها فنزلت هذه الآية" .

ولما شرح الله الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ختم الكلام بخاتمة هي : الفصل فقال تعالى شأنه ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ فما له من هاد ﴾ أي : يهديه إلى الرشاد .

﴿ ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ أي : فهذه الدلائل والبينات لا تنفع إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق إذ لا راد لفعله كما قال تعالى : ﴿ أليس الله ﴾ أي : الذي بيده كل شيء ﴿ بعزيز ﴾ أي : غالب على أمره ﴿ ذي انتقام ﴾ أي : من أعدائه بلى هو كذلك ،

وفي هذا تهديد للكفار .

ولما بين تعالى وعيد المشركين ووعد الموحدين عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريق عبدة الأوثان وهذا الترتيب مبني على أصلين الأول : أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد من قوله تعالى:

(334/668)

﴿ ولئن سألتهم ﴾ أي : من شئت منهم فرادى أو مجموعين واللام لام القسم ﴿ من خلق السموات ﴾ أي : على ما لها من الاتساع والعظمة والارتفاع ﴿ والأرض ﴾ أي : على ما لها من العجائب وفيها من الانتفاع ﴿ ليقولن الله ﴾ أي : وحده لوضوح البرهان على تفرده بالخالقية قال بعض العلماء : العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم علم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه ، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فإن من تأمل في عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم ، والأصل الثاني : أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله تعالى ﴿ قل أفرأيتم ﴾ أي : بعد ما تحققتم أن خالق العالم هو الله تعالى : ﴿ ما تدعون ﴾ أي : تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ أي : الذي هو ذو الجلال

والإكرام ﴿إن أرادني الله﴾ أي: الذي لا راد لأمره ﴿بضر﴾ أي: بشدة بلاء ﴿هل هن كاشفات ضره﴾ أي: لا نقدر على ذلك ﴿أو أرادني برحمة﴾ أي: بعافية وبركة ﴿هل هن ممسكات رحمته﴾ أي: لا تقدر على ذلك فثبت أنه لا بد من الإقرار بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم، قال مقاتل: فسألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فسكتوا، وقرأ أبو عمرو بتنوين التاء من كاشفات وممسكات ونصب الراء من ضره ورفع الهاء ونصب التاء من رحمته والباقون بغير تنوين فيهما وكسر الراء والهاء من ضره والتاء والهاء من رحمته، وإذا كانت هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر كانت عبادة الله تعالى كافية والاعتماد عليه كافياً وهو المراد من قوله تعالى: ﴿قل حسبي الله﴾ أي: ثقتي به واعتمادي ﴿عليه يتوكل المتوكلون﴾ أي: يثق الواثقون، فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿كاشفات﴾ ﴿وممسكات﴾ على التأنيث بعد قوله تعالى: ﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾ (الزمر:) ؟

(335/668)

أجيب: بأنه أنثها تحقيراً لما يدعون من دونه ولأنهم كانوا يسمونها بأسماء الإناث وهي اللات والعزى ومناة قال الله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾

(النجم : ـ)

وقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

﴿ قل يا قوم ﴾ أي : الذين أرجوهم عند الملمات وفيهم كفاية في القيام بما يحاولون

﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ أي : على حالتكم فيه تهديد أي : أنكم تعتقدون في أنفسكم أنكم في نهاية القوة والشدة فاجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم ، وقرأ شعبة بألف بعد النون جمعاً والباقون بغير ألف إفراداً ﴿ إني عامل ﴾ أي : في تقرير ديني ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي : بوعد لا خلف فيه .

﴿ من يأتيه ﴾ منا ومنكم بسبب أعماله ﴿ عذاب يخزيه ﴾ فإن خزي أعدائه دليل عليه وقد أخذهم الله تعالى يوم بدر ﴿ ويحل ﴾ أي : ينزل ﴿ عليه عذاب مقيم ﴾ أي : دائم وهو عذاب النار .

تنبيه : المكانة بمعنى المكان فاستعيرت من العين للمعنى كما استعير لفظ هنا وحيث للزمان وهما للمكان ، فإن قيل : حق الكلام إني عامل على مكانتي فلم حذف ؟

أجيب : بأنه حذف للاختصار ولما فيه من زيادة الوعيد والإيذان بأن حاله لا تقف وتزداد كل يوم قوة وشدة لأن الله تعالى ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ توعدهم بكونه منصوراً عليهم غالباً عليهم في الدنيا والآخرة .

ولما بين تعالى في هذه الآيات فساد مذاهبهم أي : المشركين تارة بالدلائل وتارة بضرب

الأمثال وتارة بذكر الوعد والوعيد ، وكان صلى الله عليه وسلم يعظم عليه إصرارهم على الكفر كما قال ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ﴾ (الكهف : ٦)

وقال تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ (فاطر : ٨)

أردفه بكلام يزيل ذلك الحزن العظيم عن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى:

(336/668)

﴿ إنا أنزلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة والقدرة التامة ﴿ عليك ﴾ يا أشرف الخلق ﴿ الكتاب ﴾ أي : الكامل الشرف ﴿ للناس ﴾ أي : لأجلهم فإنه مناط مصالحهم في معاشهم ومعادهم فهو للناس عامة لأن رسالتك عامة وجعلنا إنزاله مقروناً ﴿ بالحق ﴾ أي : بالصدق وهو المعجز الذي يدل على أنه من عند الله ﴿ فمن اهتدى ﴾ أي : طاوع الهادي ﴿ فلنفسه ﴾ أي : فنفعه يعود إلى نفسه ﴿ ومن ضل ﴾ أي : وقع في الضلال بمخالفته ﴿ فإنما يضل عليها ﴾ أي : فضرر ضلاله يعود إليه .

ولما دل السياق على أن التقدير فما أنت عليهم بجبار لتقهرهم على الهدى عطف عليه قوله تعالى : ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي : لست مأموراً بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض إليهم ، وذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأن

الهداية والضلال من العبد لا يحصلان إلا من الله تعالى لأن الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم ، فكما أن الحياة واليقظة لا يحصلان إلا بخلق الله تعالى كذلك الضلال لا يحصل إلا من الله تعالى ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى في القدر ومن عرف سر الله تعالى في القدر هانت عليه المصائب .

ولما بين سبحانه أن الهداية والضلال بتقديره قال تعالى:

﴿ الله ﴾ أي : الذي له مجامع الكمال وليس لشائبة النقص إليه سبيل ﴿ يتوفى الأنفس ﴾ أي : الأرواح ﴿ حين موتها ﴾ أي : موت أجسادها وتوفيها إماتتها وهي أن تسلب ما هي به حية حساسة دراكة من صحة أجزائها وسلامتها لأنها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت وقوله تعالى : ﴿ والتي لم تمت في منامها ﴾ عطف على الأنفس أي : يتوفى الأنفس حين موتها ويتوفى أيضاً الأنفس التي لم تمت في منامها ففي منامها ظرف ليتوفى أي : يتوفاها حين تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى ومنه قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ (الأنعام :)

(337/668)

حتى لا تميزوا ولا تتصرفوا كما أن الموتى كذلك فالتي تتوفى عند النوم هي الأنفس التي يكون بها العقل والتمييز ولكل إنسان نفسان:

إحداهما : نفس الحياة وهي التي تفارقه عند الموت ويزول بزوالها النفس والأخرى هي النفس التي تفارقه إذا نام وهو بعد النوم يتنفس ﴿ فيمسك التي قضى عليها الموت ﴾ فلا يردها إلى جسدها ، وقرأ حمزة والكسائي بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء بعد الضاد ورفع التاء من الموت ، والباقون بفتح القاف والضاد وسكون الياء بعد الضاد ونصب الموت ﴿ ويرسل الأخرى ﴾ أي : يردها إلى جسدها وهي التي لم يقض عليها الموت ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ أي : إلى الوقت الذي ضربه لموتها ، وقيل : يتوفى الأنفس أي : يستوفيها ويقبضها وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها وهي أنفس التمييز ، قالوا : والتي تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة ولأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس ، ورووا عن ابن عباس رضي الله عنه في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس : التي بها العقل والتمييز ، والروح : التي بها النفس والتحريك فإذا نام العبد قبض الله تعالى نفسه ولم يقبض روحه . قال الزمخشري : والصحيح ما ذكر أولاً لأن الله تعالى علق التوفي والموت والمنام جميعاً بالأنفس وما عنوا بنفس الحياة والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم وإنما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام انتهى .

ويروى عن علي رضي الله تعالى عنه قال : يخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعه في الجسد فبذلك يرى الرؤيا فإذا نبه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة ، ويقال : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله فإذا أرادت العود إلى أجسادها أمسك الله تعالى أرواح الأموات عنده وأرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها إلى أجل مدة حياتها .

(338/668)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخل إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم يقول : اللهم باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه فإن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين" .

﴿ إن في ذلك ﴾ أي : التوفي والإمساك والإرسال ﴿ لآيات ﴾ أي : دلالات على كمال قدرته وحكمته ورحمته . وقال مقاتل : لعلامات ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ أي : فيعلمون أن القادر على ذلك قادر على البعث ، فإن قيل : قوله تعالى ﴿ الله يتوفى الأنفس ﴾ (الزمر :)

يدل على أن المتوفي هو الله تعالى ويؤيده قوله تعالى : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ (الملك :)

وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ (البقرة :)

وقال تعالى في آية أخرى ﴿ إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا ﴾ (الأنعام :)

فكيف الجمع ؟

أجيب : بأن المتوفي في الحقيقة هو الله تعالى إلا أنه تعالى فوض كل نوع إلى ملك من الملائكة ففوض قبض الأرواح إلى ملك الموت وهو الرئيس وتحته أتباع وخدم فأضيف التوفي في آية إلى الله تعالى وهي الإضافة الحقيقية ، وفي آية إلى ملك الموت لأنه الرئيس في هذا العمل وفي آية إلى : أتباعه ثم إن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالاً فقالوا : نحن لا نعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها تضر وتنفع وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله تعالى من المقربين فنحن نعبدها لتشفع لنا أولئك المقربون عند الله تعالى فأجاب الله سبحانه عنه بقوله تعالى:

﴿ أم اتخذوا ﴾ أي : كلفوا أنفسهم بعد وضوح الدلائل عندهم ﴿ من دون الله ﴾ أي : الذي لا مكافئ له ولا مداني ﴿ شفعاء ﴾ أي : تشفع لهم عند الله تعالى .

تنبيه : أم منقطعة فتقدر ببل والهمزة ﴿ قل ﴾ يا أشرف الخلق لهؤلاء البعداء ﴿ أولو ﴾ أي : أيشفعون ولو ﴿ كانوا لا يملكون شيئاً ﴾ أي : من الشفاعة وغيرها ﴿ ولا يعقلون ﴾ أي : أنكم تعبدونهم ولا غير ذلك وجواب لو محذوف تقديره ولو كانوا بهذه الصفة تتخذونهم .

﴿ قل ﴾ أي : لهم ﴿ لله ﴾ أي : الذي له كمال القدرة والعظمة ﴿ الشفاعة جميعاً ﴾ أي : هو مختص بها فلا يشفع أحد إلا بإذنه ثم قرر ذلك فقال ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ أي : فإنه مالك الملك كله لا يملك أحد أن يتكلم دون إذنه ورضاه ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ أي : يوم القيامة فيكون الملك له أيضاً حينئذ ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من أعمال المشركين القبيحة بقوله تعالى:

﴿ وإذا ذكر الله ﴾ أي : الذي لا إله غيره ﴿ وحده ﴾ أي : دون آلهتهم ﴿ اشمأزت ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد : يعني انقبضت ، وقال قتادة : استكبرت وأصل الاشمئزاز والنفور والاستكبار أي : نفرت واستكبرت ﴿ قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي : لا يؤمنون بالبعث ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ أي : الأصنام ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي : يفرحون لفرط افتتانهم ونسيانهم حق الله تعالى ولقد بالغ في الأمرين حق الغاية فيهما ، فإن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه

والاشمئزاز أن يمتلئ غيظاً وهماً حتى ينقبض أديم وجهه . قال مجاهد ومقاتل : وذلك حين : "قرأ النبي صلى الله عليه وسلم سورة والنجم وألقى الشيطان في أمنيته تلك الغرانيق العلا ففرح به المشركون وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الحج" .

تنبيه : قال الزمخشري : فإن قلت ما العامل في إذا ذكر ، قلت : العامل في إذا المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجؤوا وقت الاستبشار . قال أبو حيان : أما قول الزمخشري فلا أعلمه من قول من ينتمي إلى النحو هو أن الظرفين معمولان لفاجؤوا ثم قال : إذا الأولى تنتصب على الظرفية والثانية على المفعول به .

(340/668)

ولما حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار هذا الأمر العجيب الذي تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بذكر الدعاء العظيم فقال تعالى:

﴿ قل اللهم ﴾ أي : يا الله ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أي : مبدعهما من العدم أي : ألتجئ إلى الله تعالى بالدعاء لما تحيرت في أمرهم وعجزت في عنادهم وشدة شكيمتهم فإنه القادر على الأشياء والعالم بالأحوال كلها ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ وصف تعالى نفسه بكمال القدرة وكمال العلم ﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي :

من أمر الدين وعن الربيع بن خيثم وكان قليل الكلام لما أخبر بقتل الحسين وسخط على قاتله وقالوا : الآن يتكلم فما زاد على أن قال : آه أوقد فعلوا وقرأ الآية ، وروي أنه قال على أثرها : أو قتل من كان يجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجره ويضع فاه على فيه . وعن أبي سلمة قال : "سألت عائشة رضي الله عنها بم كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته بالليل قالت : كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم" .

ولما حكى الله تعالى عنهم هذا المذهب الباطل ذكر في وعيدهم أشياء .

أولها : قوله تعالى:

(341/668)

﴿ ولو أن للذين ظلموا ﴾ أنفسهم بالكفر ﴿ ما في الأرض جميعاً ﴾ أي : من الأموال ﴿ ومثله معه لافتدوا ﴾ أي : اجتهدوا في طلب أن يفدوا أنفسهم ﴿ به من سوء العذاب يوم القيامة ﴾ وهذا وعيد شديد وإقناط كلي لهم من الخلاص روى الشيخان عن أنس :

"أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً لو أن لك ما في الأرض من شيء لكنت تفتدي به فيقول : نعم فيقول الله : قد أردت منك وفي رواية سألتك أهون من هذا وأنت في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي شيئاً" قوله أردت أي : فعلت معك فعل الآمر المريد وهو معنى قوله في رواية قد سألتك .

ثانيها : قوله تعالى : ﴿ وبدا لهم من الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ أي : ظهر لهم أنواع من العذاب لم تكن في حسابهم وفي هذا زيادة مبالغة هو نظير قوله تعالى في الوعد ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ (السجدة :)

وقوله صلى الله عليه وسلم "في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" . وقال مقاتل : ظهر لهم حين بعثوا ما لم يحتسبوا في الدنيا أنه نازل بهم في الآخرة .

وقال السدي : ظنوا أن أعمالهم حسنات فبدلت لهم سيئات لأنهم كانوا يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأصنام ويظنونها حسنات فبدت لهم سيئات .

ثالثها قوله تعالى:

﴿ وبدا لهم ﴾ أي : ظهر ظهوراً تاماً ﴿ سيئات ما كسبوا ﴾ أي : مساوئ أعمالهم من الشرك وظلم أولياء الله تعالى ﴿ وحاق ﴾ أي : نزل ﴿ بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴾ أي : يطلبون ويوجدون الهزء في العذاب ثم حكى الله تعالى عنهم طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة بقوله تعالى:

﴿ فإذا مس الإنسان ﴾ أي : الجنس ﴿ ضر ﴾ أي : فقر أو مرض أو غير ذلك ﴿ دعانا ﴾ أي : في دفع ذلك ، فإن قيل : ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها في أول السورة بالواو ؟

(342/668)

أجيب : بأن السبب في ذلك أن هذه وقعت مسببة عن قوله تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت ﴾ على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر آلهتهم فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره دون من استبشر بذكره فقوله تعالى : ﴿ فإذا مس الإنسان ﴾ معطوف على قوله تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ وما بينهما اعتراض مؤكد لإنكار ذلك عليهم هذا محصل كلام الزمخشري ، واعترضه أبو حيان بأن أبا علي يمنع الاعتراض بجملتين فكيف بهذه الجمل الكثيرة ثم قال : والذي يظهر في الربط أنه لما قال ﴿ ولو أن للذين ظلموا ﴾ (الزمر :)

الآية وكان ذلك إشعاراً بما ينال الظالمين من شدة العذاب وأنه يظهر لهم يوم القيامة العذاب أتبع ذلك بما يدل على ظلمه وبغيه إذ كان إذا مسه ضر دعا الله تعالى فإذا أحسن إليه لم ينسب ذلك إليه كما قال تعالى : ﴿ ثم إذا خولناه ﴾ أي : أعطيناه ﴿ نعمة منا ﴾ أي :

تفضلاً فإن التحويل يختص به ﴿ قال إنما أوتيته ﴾ أي : المنعم به ﴿ على علم ﴾ أي : على علم من الله تعالى إني له أهل . وقيل : إن كان ذلك سعادة في المال أو عافية في النفس يقول : إنما حصل ذلك بجده واجتهاده وإن كان صحة قال : إنما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني وإن حصل مال يقول : حصل بكسبي وهذا تناقض أيضاً لأنه لما كان عاجزاً محتاجاً أضاف الكل إلى الله تعالى ، وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله تعالى وأسنده إلى كسب نفسه وهذا تناقض قبيح ﴿ بل هي فتنة ﴾ أي : بلية يبتلي بها العبد .

فإن قيل : كيف ذكر النعمة أولاً في قوله : ﴿ إنما أوتيته ﴾ ثم أنثها ثانياً ؟

(343/668)

أجيب : بأنه ذكر أولاً لأن النعمة بمعنى المنعم به كما مر وقيل : تقديره شيئاً من النعمة وأتت ثانياً اعتباراً بلفظها أو لأن الخبر لما كان مؤنثاً أعني فتنة ساغ تأنيث المبتدأ لأجله لأنه في معناه كقولهم ما جاءت حاجتك وقيل : هي أي : الحالة أو القولة كما جرى عليه الجلال المحلي أو العطية أو النعمة كما قاله البقاعي ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أي : أكثر هؤلاء القائلين هذا الكلام ﴿ لا يعلمون ﴾ أن التخويل استدراج وامتحان .

﴿ قد قالها ﴾ أي : القولة المذكورة وهي قوله : ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ لأنها كلمة أو

جملة من القول ﴿ الذين من قبلهم ﴾ أي : من الأمم الماضية . قال الزمخشري : هم قارون وقومه حيث قال إنما أوتيته على علم عندي ، وقومه راضون به فكأنهم قالوها . قال : ويجوز أن يكون في الأمم الماضية آخرون قائلون مثلها ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ أي : أولئك الماضين ﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ أي : من متاع الدنيا ويجمعون منه .

﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا ﴾ أي : جزاؤها من العذاب ثم أوعد كفار مكة فقال تعالى ﴿ والذين ظلموا ﴾ أي : بالعتو ﴿ من هؤلاء ﴾ أي : من مشركي قومك ومن للبيان أو للتبعيض ﴿ سيصيبهم سيئات ما كسبوا ﴾ أي : كما أصاب أولئك ﴿ وما هم بمعجزين ﴾ أي : فائتين عذابنا فقتل صناديدهم يوم بدر وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين فقيل لهم:

(344/668)

﴿ أولم يعلموا أن الله ﴾ أي : الذي له الجلال والكمال ﴿ يبسط الرزق ﴾ أي : يوسعه ﴿ لمن يشاء ﴾ وإن كان لا حيلة له ولا قوة امتحاناً ﴿ ويقدر ﴾ أي : يضيق الرزق لمن يشاء وإن كان قوياً شديد الحيلة ابتلاء فلا قابض ولا باسط إلا الله تعالى ، ويدل على ذلك أنّا نرى الناس مختلفين في سعة الرزق وضيقه فلابد لذلك من حكمة وسبب ، وذلك

السبب ليس هو عقل الإنسان وجهله فإنا نرى العاقل القادر في أشد الضيق ، ونرى الجاهل الضعيف في أعظم السعة ، وليس ذلك أيضاً لأجل الطبائع والأفلاك لأن الساعة التي ولد فيها ذلك الملك السلطان القاهر قد ولد فيها عالم أيضاً من الناس وعالم من الحيوان غير الإنسان وتولد أيضاً في تلك الساعة عالم من النبات .

فلما شاهدنا حدوث هذه الأشياء الكثيرة في تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في السعادة والشقاوة ، علمنا أن الفاعل لذلك هو الله تعالى فصح بهذا البرهان العقلي القاطع صحة قوله تعالى : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ قال الشاعر :

*فلا السعد يقضي به المشتري ** ولا النحس يقضي علينا زحل*

*ولكنه حكم رب السماء ** وقاضي القضاة تعالى وجل*

﴿ إن في ذلك ﴾ أي : البيان الظاهر ﴿ لآيات ﴾ أي : دلالات ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي : بأن الحوادث كلها من الله تعالى بوسط أو غيره .

ولما ذكر تعالى الوعيد أردفه بشرح كمال رحمته فقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 258 . 269 ﴾

(345/668)

وقال القاسمي :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾

أي : افترى عليه بنسبة الشريك والولد : ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ ﴾ أي : بالأمر الذي هو عين الحق : ﴿ إِذْ جَاءَهُ ﴾ أي : حضر عنده دليله وبرهانه ، فرفضه ورده على قائله ، أي : لا أحد من المتخاصمين أظلم ممن حاله ذلك ؛ لأنه أظلم من كل ظالم : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أي : لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه ، وسارعوا إلى التكذيب بالحق .

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ أي : جاء بدليل التوحيد ، وآمن به فلم يعتد بشبهة تقابله ، يعني النبي صلّى الله عليه وسلم ، ومن تبعه : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ أي : الموصوفون بالتقوى التي هي أجل الرغائب . ولذا كان جزاؤهم أن يقيهم الله ما يكرهون ، كما قال سبحانه :

(346/668)

﴿ لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : الذين أحسنوا أعمالهم وأصلحوها : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا

يَعْمَلُونَ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ أي : نبيه صلّى الله عليه وسلم أن يعصمه من كل سوء ، ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف : ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأوثان التي عبدوها من دونه تعالى ، وهذه تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلم عما قالت له قريش : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، ويصيبك مضرتها لعيبك إياها . كما قال قوم هود : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ [هود : 54] .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ أي : من غفل عن كفايته تعالى ، وعصمته له عليه الصلاة والسلام ، وخوفه بما لا ينفع ، ولا يضر أصلاً : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴾ أي : يصرفه عن مقصده ، أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه ؛ إذ لا راد لفضله ، ولا معقب لحكمه : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴾ أي : ينتقم من أعدائه لأوليائه .

(347/668)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لما تقرر في الفِطَر والعقول من استيقان ذلك ، ولوضوح الدليل عليه : ﴿ قُلْ ﴾ أي : تبكيتاً لهم : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ أي : نفعه وخيره ، كلا ، فإنها لا تضر ولا تنفع : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ

عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أي : في جميع أمورهم ، لا على غيره ، لعلمهم بأن كل ما سواه تحت قهره .

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي : حالتكم التي أنتم عليها ، من العداوة ، ومناصبة الحق : ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ أي : على مكانتي ، فحذف للاختصار ، والمبالغة في الوعيد ، والإشعار بأن حاله لا تزال تزداد قوة ، بنصر الله عز وجل وتأييده . ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم في الدارين ، بقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي : دائم ، وقد أخزاهم الله يوم بدر : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ [طه : 127] .

(348/668)

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أي : لأجلهم ، ولأجل حاجتهم إليه ، وافتقارهم إلى بيان مراشدهم : ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ أي : بدلائله : ﴿ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي : لتجبرهم على الهدى ؛ إذ ما عليك إلا البلاغ : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : 94] .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي : مفارقتها ، بإبطال تصرفها فيها بالكلية : ﴿

وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ أي : ويتوفى التي لم يحن موتها في منامها ، بإبطال تصرفها بالحواس الظاهرة : ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ أي : فلا يردها إلى بدنها إلى يوم القيامة : ﴿ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي : وهو نوم آخر ، أو موت : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي : فيما ذكر من التوفي على الوجهين : ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : في كيفية تعلقها بالأبدان ، وتوفيها عنها .

(349/668)

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ أي : هو مالكها لا يستطيع أحد شفاعة ما ، إلا أن يكون المشفوع له مرتضى ، والشفيع مأذوناً له ، وكلاهما مفقود ها هنا : ﴿ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ أي : دون آلهتهم : ﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ أي : فرادى ، أو مع ذكر الله تعالى : ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي : يفرحون بذلك ؛ لفرط افتتانهم بها ، ونسيانهم حق الله تعالى . ولقد بولغ في الأمرين حيث بيّن الغاية فيهما ، فإن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ، والاشمئزاز أن يمتلئ غماً حتى ينقبض أديم وجهه .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : التجئ إلى الله بالدعاء بأسمائه الحسنى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم . والمقصود بيان حالهم ، ووعيدهم ، وتسلية حبيبه الأكرم ، وأن جدّه وسعيه معلوم مشكور عنده تعالى ، وتعليم العباد الالتجاء إلى الله تعالى ، والدعاء بأسمائه الحسنى ، والاستعانة بالتضرع ، والابتهال على دفع كيد العدو .

(350/668)

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي : نزل بهم جزاؤه .

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أي : مني بوجوه الكسب والتحصيل : ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أي : ابتلاء له ، أيشكر تلك النعمة ، فيصرفها فيما خلقت له ، فيسعد . أو يكفرها فيشقى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : كما قال قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾ [

القصص : 78] : ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : فما دفع عنهم ما كسبوه بذلك العلم من متاع الدنيا .

(351/668)

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : بأن الكل منه سبحانه ، ومن آياته في ذلك – كما قال المهايمي – أنه تعالى قوي بذاته ، له تقويه من يشاء ، وتضعيف من يشاء . ومنها أنه فيّاض بذاته لا يتوقف فيضه على الشفعاء . ومنها أنه فاعل بذاته لا يتوقف فعله على سبب وواسطة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 176 . 181 ﴾

(352/668)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ؟ أليس في جهنم مثوى

للكافرين ؟ ﴾

سؤال للتقرير . فليس هنالك من هو أظلم ممن كذب على الله فزعم أن له بنات وأنه له شركاء ؛ وكذب بالصدق الذي جاء به رسوله ؛ فلم يصدق بكلمة التوحيد . إنه الكفر . وفي جهنم مثوى للكافرين . على سبيل التقرير الذي يرد في صورة سؤال لزيادة الإيضاح والتوكيد .

هذا طرف من الخصومة فأما الطرف الآخر فهو الذي جاء بالصدق من عند الله . وصدق به فبلغه عن عقيدة واقتناع . ويشترك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الصفة كل الرسل قبله . كما يشاركه فيها كل من دعا إلى هذا الصدق وهو مقتنع به مؤمن بأنه الحق ، يشارك قلبه لسانه فيما يدعو إليه . . ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ . .

ويتوسع في عرض صفة المتقين هؤلاء وما أعده لهم من جزاء :

﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين ﴾ . .

وهو تعبير جامع ، يشمل كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب ، ويقرر أن هذا ﴿ لهم ﴾ عند ربهم ، فهو حقهم الذي لا يخيب ولا يضيع . . ﴿ ذلك جزاء المحسنين ﴾ . .

ذلك ليحقق الله ما أراده لهم من خير ومن كرامة ، ومن فضل يزيد على العدل يعاملهم به ، متفضلاً محسناً :

﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ؛ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ . .

فالعدل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات ؛ ثم يكون الجزاء .

والفضل هو هذا الذي يتجلى به الله على عباده المتقين هؤلاء أن يكفر عنهم أسوأ أعمالهم فلا يبقى لها حساب في ميزانهم . وأن يجزيهم أجرهم بحساب الأحسن فيما كانوا يعملون ، فتزيد حسناتهم وتعلو وترجح في الميزان .

إنه فضل الله يؤتيه من يشاء . كتبه الله على نفسه بوعده . فهو واقع يطمئن إليه المتقون المحسنون . .

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36)

(353/668)

هذه الجولة أوسع مقاطع السورة . وهي تتناول حقيقة التوحيد من جوانب متعددة في لمسات متنوعة . تبدأ بتصوير حقيقة القلب المؤمن وموقفه بإزاء قوى الأرض واعتداده بالقوة الوحيدة ؛ واعتماده عليها دون مبالاة بسواها من القوى الضئيلة الهزيلة . ومن ثم ينفض يده من هذه القوى الوهمية ويكل أمره وأمر المجادلين له إلى الله يوم القيامة ؛ ويمضي في طريقه ثابتاً واثقاً مستيقناً بالمصير .

يتلو هذا بيان وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه ليس وكيلاً على العباد في هداهم

وضلالهم . إنما الله هو المسيطر عليهم ؛ الآخذ بناصيتهم في كل حالة من حالاتهم . وليس لهم من دونه شفيع فإن لله الشفاعة جميعاً . وإليه ملك السماوات والأرض . وإليه المرجع والمصير .

ثم يصف المشركين وانقباض قلوبهم عند ذكر كلمة التوحيد وانبساطها عند ذكر كلمة الشرك . ويعقب على هذا بدعوى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إعلان كلمة التوحيد خالصة ، وترك أمر المشركين لله . ويصورهم يوم القيامة وهم يودون لو يفتدون بملء الأرض ومثله معه . وقد تكشف لهم من الله ما يذهل ويخيف !

ذلك . وهم يدعون الله وحده إذا أصابهم الضر . فإذا وهبهم منه نعمة ادعوا دعاوي عريضة وقال قائلهم : إنما أوتيته على علم عندي ! الكلمة التي قالها الذين من قبلهم فأخذهم الله القادر على أن يأخذ هؤلاء . وما هم بمعجزين . وما كان بسط الرزق وقبضه إلا سنة من سنن الله ، تجري وفق حكمته وتقديره وهو وحده الباسط القابض : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ . .

﴿ أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه . ومن يضلل الله فما له من هاد . ومن يهد الله فما له من مضل . أليس الله بعزيز ذي انتقام ؟ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله . قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل : حسبي الله ، عليه يتوكل المتوكلون . قل : يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ . .

هذه الآيات الأربع تصور منطق الإيمان الصحيح ، في بساطته وقوته ، ووضوحه ، وعمقه . كما هو في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما ينبغي أن يكون في قلب كل مؤمن برسالة ، وكل قائم بدعوة . وهي وحدها دستوره الذي يغنيه ويكفيه ، ويكشف له الطريق الواصل الثابت المستقيم .

وقد ورد في سبب نزولها أن مشركي قريش كانوا يخوفون رسول الله صلى الله عليه وسلم من آلهتهم ، ويحذرونه من غضبها ، وهو يصفها بتلك الأوصاف المزرية بها ، ويوعدونه بأنه إن لم يسكت عنها فستصيبه بالأذى .

. .

ولكن مدلول هذه الآيات أوسع وأشمل . فهي تصور حقيقة المعركة بين الداعية إلى الحق وكل ما في الأرض من قوى مضادة . كما تصور الثقة واليقين والطمأنينة في القلب المؤمن ،

بعد وزن هذه القوى بميزانها الصحيح .

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ؟

بلى ! فمن ذا يخيفه ، وماذ يخيفه ؟ إذا كان الله معه ؟ وإذا كان هو قد اتخذ مقام العبودية وقام بحق هذا المقام ؟ ومن ذا يشك في كفاية الله لعبده وهو القوي القاهر فوق عباده ؟

﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ . .

فكيف يخاف ؟ والذين من دون الله لا يخيفون من يحرسه الله . وهل في الأرض كلها إلا من هم دون الله ؟

إنها قضية بسيطة واضحة ، لا تحتاج إلى جدل ولا كد ذهن . . إنه الله . ومَن هم دون الله . وحين يكون هذا هو الموقف لا يبقى هنالك شك ولا يكون هناك اشتباه .

(355/668)

وإرادة الله هي النافذة ومشيئته هي الغالبة . وهو الذي يقضي في العباد قضاءه . في ذوات أنفسهم ، وفي حركات قلوبهم ومشاعرهم :

﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد . ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ . .

وهو يعلم من يستحق الضلالة فيضله ، ومن يستحق الهدى فيهديه . فإذا قضى بقضائه

هكذا أو هكذا فلا مبدل لما يشاء .

﴿ أليس الله بعزيز ذي انتقام ؟ ﴾

بلى . وإنه لعزيز قوي . وإنه ليجازي كلاً بما يستحق . وإنه لينتقم ممن يستحق الانتقام .

فكيف يخشى أحداً أو شيئاً من يقوم بحق العبودية له ، وهو كافله وكافيه ؟

ثم يقرر هذه الحقيقة في صورة أخرى منتزعة من منطقهم هم أنفسهم ، ومن واقع ما يقررونه من حقيقة الله في فطرتهم :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن الله . قل . أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل : حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ . .

لقد كانوا يقررون حين يسألون أن الله هو خالق السماوات والأرض . وما تملك فطرة أن تقول غير هذا ، وما يستطيع عقل أن يعلل نشأة السماوات والأرض إلا بوجود إرادة عليا .

فهو يأخذهم ويأخذ العقلاء جميعاً بهذه الحقيقة الفطرية الواضحة . . إذا كان الله هو خالق السماوات والأرض . فهل يملك أحد أو شيء في هذه السماوات والأرض أن يكشف ضراً أراد الله أن يصيب به عبداً من عباده ؟ أم يملك أحد أو شيء في هذه السماوات والأرض أن يحبس رحمة أراد الله أن تنال عبداً من عباده ؟

والجواب القاطع : أن لا . . فإذا تقرر هذا فما الذي يخشاه داعية إلى الله ؟ ما الذي يخشاه

وما الذي يرجوه ؟ وليس أحد بكاشف الضر عنه ؟ وليس أحد بمانع الرحمة عنه ؟ وما الذي يقلقه أو يخيفه أو يصده عن طريقه ؟

إنه متى استقرت هذه الحقيقة في قلب مؤمن فقد انتهى الأمر بالنسبة إليه .

وقد انقطع الجدل . وانقطع الخوف وانقطع الأمل . إلا في جناب الله سبحانه . فهو كاف عبده وعليه يتوكل وحده :

(356/668)

﴿ قل : حسبي الله . عليه يتوكل المتوكلون ﴾ . .

ثم إنها الطمأنينة بعد هذا والثقة واليقين . الطمأنينة التي لا تخاف . والثقة التي لا تقلق . واليقين الذي لا يتزعزع والمضي في الطريق على ثقة بنهاية الطريق :

﴿ قل : يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ . .

يا قوم اعملوا على طريقكم وعلى حالكم . إني ماض في طريقي لا أميل ولا أخاف ولا أقلق . وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه في الدنيا ، ويحل عليه عذاب مقيم في الآخرة .

لقد قضي الأمر بعد عرض الحقيقة البسيطة التي تنطق بها الفطرة ويشهد بها الوجود . . إن

الله هو خالق السماوات والأرض . القاهر فوق السماوات والأرض . وهو صاحب هذه الدعوة التي يحملها الرسل ويتولاها الدعاة . فمن ذا في السماوات والأرض يملك لرسله شيئاً أو لدعاته ؟ ومن ذا يملك أن يدفع عنهم ضراً أو يمسك عنهم رحمة ؟ وإذا لم يكن . فماذا يخشون وماذا يرجون عند غير الله ؟

ألا لقد وضح الأمر ولقد تعين الطريق ؛ ولم يعد هناك مجال لجدال أو محال !

تلك حقيقة الوضع بين رسل الله وسائر قوى الأرض التي تقف لهم في الطريق . فما حقيقة وظيفتهم وما شأنهم مع المكذبين ؟

﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق . فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها . وما أنت عليهم بوكيل . الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل : أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل : لله الشفاعة جميعاً . له ملك السماوات والأرض ، ثم إليه ترجعون ﴾ . .

(357/668)

﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق ﴾ . . الحق في طبيعته . والحق في منهجه . والحق في شريعته . الحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض ؛ ويلتقي عليه نظام البشرية في هذا الكتاب ونظام الكون كله في تناسق . هذا الحق نزل ﴿ للناس ﴾ ليهتدوا به ويعيشوا معه ويقوموا عليه . وأنت مبلغ . وهم بعد ذلك وما يشاءون لأنفسهم من هدى أو ضلال ، ومن نعيم أو عذاب . فكل مورد نفسه ما يشاء ؛ وما أنت بمسيطر عليهم ولا بمسؤول عنهم :

﴿ فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ . .

إنما الوكيل عليهم هو الله . وهم في قبضته في صحوهم ونومهم وفي كل حالة من حالاتهم ، وهو يتصرف بهم كما يشاء :

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها . فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ .

.

فالله يستوفي الآجال للأنفس التي تموت . وهو يتوفاها كذلك في منامها وإن لم تمت بعد ولكنها في النوم متوفاة إلى حين . فالتي حان أجلها يمسكها فلا تستيقظ . والتي لم يحن أجلها بعد يرسلها فتصحو . إلى أن يحل أجلها المسمى . فالأنفس في قبضته دائماً في صحوها ونومها .

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . .

إنهم هكذا في قبضة الله دائماً . وهو الوكيل عليهم . ولست عليهم بوكيل . وإنهم إن يهتدوا فلأنفسهم وإن يضلوا فعليها . وإنهم محاسبون إذن وليسوا بمتروكين . . فماذا يرجون إذن للفكاك والخلاص ؟

﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل : أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل : لله الشفاعة جميعاً . له ملك السماوات والأرض ، ثم إليه ترجعون ﴾ . .

وهو سؤال للتهكم والسخرية من زعمهم أنهم يعبدون تماثيل الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ! ﴿ أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ ﴾ . . يعقبه تقرير جازم بأن لله الشفاعة جميعاً . فهو الذي يأذن بها لمن يشاء على يد من شاء . فهل مما يؤهلهم للشفاعة أن يتخذوا من دون الله شركاء ؟ !

(358/668)

﴿ له ملك السماوات والأرض ﴾ . . فليس هنالك خارج على إرادته في هذا الملك . .

﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ . . فلا مهرب ولا مفر من الرجوع إليه وحده في نهاية المطاف . .

وفي هذا الموقف الذي يتفرد فيه الله سبحانه بالملك والقهر يعرض كيف هم ينفرون من كلمة التوحيد ويهشون لكلمة الشرك ، الذي ينكره كل ما حولهم في الوجود :

﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ .

والآية تصف واقعة حال على عهد النبي صلى الله عليه وسلم حين كان المشركون يهشون ويبشون إذا ذكرت آلهتهم ؛ وينقبضون وينفرون إذا ذكرت كلمة التوحيد . ولكنها تصف حالة نفسية تتكرر في شتى البيئات والأزمان . فمن الناس من تشمئز قلوبهم وتنقبض نفوسهم كلما دعوا إلى الله وحده إلهاً ، وإلى شريعة الله وحدها قانوناً ، وإلى منهج الله وحده نظاماً . حتى إذا ذكرت المناهج الأرضية والنظم الأرضية والشرائع الأرضية هشوا وبشوا ورحبوا بالحديث ، وفتحوا صدورهم للأخذ والرد . هؤلاء هم بعينهم الذين يصور الله نموذجاً منهم في هذه الآية ، وهم بذاتهم في كل زمان ومكان . هم الممسوخو الفطرة ، المنحرفو الطبيعة ، الضالون المضلون ، مهما تنوعت البيئات والأزمنة ، ومهما تنوعت الأجناس والأقوام .

والجواب على هذا المسخ والانحراف والضلال هو ما لقنه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في مواجهة مثل هذه الحال :

﴿ قل : اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ . .

إنه دعاء الفطرة التي ترى السماء والأرض؛ ويتعذر عليها أن تجد لها خالقاً إلا الله فاطر السماوات والأرض، فتتجه إليه بالاعتراف والإقرار.

(359/668)

وتعرفه بصفته اللائقة بفاطر السماوات والأرض: ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ المطلع على الغائب والحاضر، والباطن والظاهر. ﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾.. فهو وحده الحكم يوم يرجعون إليه. وهم لا بد راجعون.

وبعد هذا التلقين يعرض حالهم المفزعة يوم يرجعون للحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون: ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾..

إنه الهول الملفوف في ثنايا التعبير الرهيب. فلو أن لهؤلاء الظالمين الظالمين بشركهم وهو الظلم العظيم لو أن لهؤلاء ﴿ ما في الأرض جميعاً ﴾.. مما يحرصون عليه وينأون عن الإسلام اعتزازاً به. ﴿ ومثله معه ﴾.. لقدموه فدية مما يرون من سوء العذاب يوم القيامة..

وهول آخر يتضمنه التعبير الملفوف: ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾..

ولا يفصح عما بدا لهم من الله ولم يكونوا يتوقعونه . لا يفصح عنه ولكنه هكذا هائل مذهل مخيف . . فهو الله . الله الذي يبدو منه لهؤلاء الضعاف ما لا يتوقعون ! هكذا بلا تعريف ولا تحديد !

﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا . وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ . .

وهذه كذلك تزيد الموقف سوءاً . حين يتكشف لهم قبح ما فعلوا ؛ وحين يحيط بهم ما كانوا به يستهزئون من الوعيد والنذير . وهم في ذلك الموقف الأليم الرعيب . .

وبعد هذا المشهد المعترض لبيان حالهم يوم يرجعون إلى الله الذي به يشركون ، والذي تشمئز قلوبهم حين يذكر وحده ، وتستبشر حينما تذكر آلهتهم المدعاة . بعد هذا يعود إلى تصوير حالهم العجيب . فهم ينكرون وحدانية الله . فأما حين يصيبهم الضر فهم لا يتوجهون إلا له وحده ضارعين منيبين . حتى إذا تفضل عليهم وأنعم راحوا يتبجحون وينكرون :

(360/668)

﴿ فإذا مس الإنسان ضر دعانا . ثم إذا خولناه نعمة منا ، قال : إنما أوتيه على علم . بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ . .

والآية تصور نموذجاً مكرراً للإنسان ، ما لم تهتد فطرته إلى الحق ، وترجع إلى ربها الواحد ، وتعرف الطريق إليه ، فلا تضل عنه في السراء والضراء .

إن الضر يسقط عن الفطرة ركام الأهواء والشهوات ، ويعريها من العوامل المصطنعة التي تحجب عنها الحق الكامن فيها وفي ضمير هذا الوجود . فعندئذ ترى الله وتعرفه وتتجه إليه وحده . حتى إذا مرت الشدة وجاء الرخاء ، نسي هذا الإنسان ما قاله في الضراء ، وانحرفت فطرته بتأثير الأهواء . وقال عن النعمة والرزق والفضل : ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ . . قالها قارون ، وقالها كل مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة يعلل بها ما اتفق له من مال أو سلطان . غافلاً عن مصدر النعمة ، وواهب العلم والقدرة ، ومسبب الأسباب ، ومقدر الأرزاق .

«بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ . وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» . .

هي فتنة للاختبار والامتحان . ليتبين إن كان سيشكر أو سيكفر وإن كان سيصلح بها أم سيفسد وإن كان سيعرف الطريق أم يجنح إلى الضلال .

والقرآن – رحمة بالعباد – يكشف لهم عن السر ، وينبهم إلى الخطر ، ويحذرهم الفتنة . فلا حجة لهم ولا عذر بعد هذا البيان .

وهو يلمس قلوبهم بعرض مصارع الغابرين قبلهم . مصارعهم بمثل هذه الكلمة الضالة التي يقولها قائلهم :

«إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ» . .

«قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ . فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا . وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ» . .

هي ذاتها هذه الكلمة الضالة قالها الذين من قبلهم ، فانتهت بهم إلى السوء والوبال . ولم يغن عنهم علمهم ولا ما لهم ولا قوتهم شيئا . وهؤلاء سيصيبهم ما أصاب الغابرين . فسنة الله لا تتبدل «وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ» . . فالله لا يعجزه خلقه الضعاف المهازيل ! فأما ما أعطاهم الله من نعمة ، وما وهبهم من رزق ، فإنه يتبع إرادة الله وفق حكمته وتقديره في بسط الرزق وقبضه ، ليبتلي عباده ، ولينفذ مشيئته كما يريد :

«أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ ؟ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» . .

فلا يجعلوا آيات الله سببا في الكفر والضلال . وهي جاءت للهدى والإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3050 . 3057 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والستون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والستون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 53 ﴾ من سورة الزمر

وحتى الآية ﴿ 64 ﴾ من نفس السورة

(4/669)

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما حذر سبحانه في هذه السورة ولا سيما في هذه الآيات فطال التحذير ، وأودعها من التهديد وصادع الإنذار والوعيد العظيم الكثير ، وختم بالحث على الإيمان ، والنظر السديد في العرفان ، وكانت كثرة الوعيد ربما أيأست ونفرت وأوحشت ، وصدت عن العطف وأبعدت ، قال تعالى مستعطفاً مترفقاً بالشاردين عن بابه متلطفاً جامعاً بين

العاطفين ، كلام ذوي النعمة على لسان نبي الرحمة صارفاً القول إلى خطابه بعد أسلوب الغيبة : ﴿ قل ﴾ أي يا أكرم الخلق وأرحمهم بالعباد ، ولفت عما تقتضيه " قل " من الغيبة إلى معنى الخطاب زيادة في الاستعطاف ، وزاد في الترفق بذكر العبودية والإضافة إلى ضميره عرياً عن التعظيم فقال : ﴿ يا ﴾ أي ربكم المحسن إليكم يقول : يا ﴿ عبادي ﴾ فلذذهم بعد تلك المرارات بحلاوة الإضافة إلى جنابه تقريباً من بابه .

(5/669)

ولما أضاف ، طمع المطيعون أن يكونوا هم المقصودين ، فرفعوا رؤوسهم ، ونكس العاصون وقالوا : من نحن حتى يصوب نحونا هذا المقال ؟ فقال تعالى جابراً لهم : ﴿ الذين أسرفوا ﴾ أي تجاوزوا الحد في وضع الأشياء في غير مواضعها حتى صارت لهم أحمال ثقال ﴿ على أنفسهم ﴾ فأبعدوها عن الحضرات الربانية ، وأركسوها في الدنايا الشيطانية ، فانقلب الحال ، فهؤلاء الذين نكسوا رؤوسهم انتعشوا وزالت ذلتهم والذين رفعوا رؤوسهم أطرقوا وزالت صولتهم – قاله القشيري ، وأفهم تقييد الإسراف أن الإسراف على الغير لا يغفر إلا بالخروج عن عهدة ذلك الغير ﴿ لا تقنطوا ﴾ أي ينقطع رجاؤكم وتيأسوا وتمتنعوا – وعظم الترجية بصرف القول عن التكلم وإضافة الرحمة إلى الاسم

الأعظم الجامع لجميع صفات الجلال والإكرام فقال : ﴿ من رحمة الله ﴾ أي إكرام المحيط بكل صفات الكمال ، فيمنعكم ذلك القنوط من التوبة التي هي باب الرحمة ، ولعظم المقام أضاف إلى الاسم الأعظم ، ثم علل ذلك بقوله على سبيل التأكيد لظنهم أن كثرة الوعيد منعت الغفران ، وحتمت الجزاء بالانتقام ، وكرر الاسم الأعظم تعظيماً للحال ، وتأكيداً بما فيه من معنى الإحاطة والجمع لإرادة العموم : ﴿ إن الله ﴾ أي الجامع لجميع نعوت الجمال والجلال والإكرام ، فكما أنه متصف بالانتقام وهو متصف بالعفو والغفران ﴿ يغفر ﴾ إن شاء ﴿ الذنوب ﴾ ولما أفهمت اللام الاستغراق أكده فقال : ﴿ جميعاً ﴾ ولا يبالي ، لكنه سبق منه القول أنه إنما يغفر الشرك بالتوبة عنه ، وأما غيره فيغفره إن شاء بتوبة وإن شاء بلا توبة ، ولا يقدر أحد أن يمنعه من شيء من ذلك .

(6/669)

ولما كان لا يعهد في الناس مثل هذا بل لو أراد ملك من ملوك الدنيا العفو عن أهل الجرائم ، قام عليه جنده فانحل عقده وانثلم حده ، علل هذه العلة بما يخصه ، فقال مؤكداً لاستبعاد ذلك بالقياس على ما يعهدون : ﴿ إنه هو ﴾ أي وحده ﴿ الغفور ﴾ أي البليغ المغفرة بحيث يمحو الذنوب مهما شاء عيناً وأثراً ، فلا يعاقب ولا يعاتب ﴿ الرحيم ﴾ أي المكرم

بعد المغفرة ولا يقدر أحد أصلاً على نوع اعتراض عليه ، ولا توجيه طعن إليه .

ولما كان التقدير : فأقلعوا عن ذنوبكم ، فإنها قاطعة عن الخير ، مبعدة عن الكمال ، عطف عليه استعطافاً قوله دالاً على أن الغفران المتقدم إنما هو إذا شاء التفضل سبحانه بتوبة وبغير توبة : ﴿ وأنيبوا ﴾ أي ارجعوا بكلياتكم وكلوا حوائجكم وأسندوا أموركم واجعلوا طريقكم ﴿ إلى ﴾ ولفت الكلام إلى صفة الإحسان زيادة في الاستعطاف فقال : ﴿ ربكم ﴾ أي الذي لم تروا إحساناً إلا وهو منه ﴿ وأسلموا له ﴾ أي أوجدوا إسلام جميع ما ملكه لكم من الأعيان والمعاني متبرئين عنه لأجله فإنه لو شاء سلبكموه ، فإذا لم تكونوا مالكيه ملكاً تاماً فعدوا أنفسكم عارية عنه غير مالكة له ولا قادرة ، وكان الذي لكم بالإصالة ما كان .

ولما كان ذلك شديداً لأن الكف عما أشرفت النفس على بلوغ الوطر منه في غاية المرارة ، قال مهدداً لهم دالاً بحرف الابتداء على رضاه منهم بإيقاع ما أقربه في اليسير من الزمان لأنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره الله حق قدره باستغراق الزمان في الطاعة وإن كان إيهام الأجل يحدو العاقل على استغراقه فيها : ﴿ من قبل أن يأتيكم ﴾ أي وأنتم صاغرون ﴿ العذاب ﴾ أي القاطع لكل العذوبة المجرّع لكل مرارة وصعوبة .

ولما كان الإنسان ربما توقع ضرراً في إقدامه على ما له فيه لذة ، وحاول دفعه ، قال معظماً

لهذا العذاب مشيراً بأداة التراخي إلى أنه لا يمكن دفعه ولو طال المدى : ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ أي لا يتجدد لكم نوع نصر أبداً .

(7/669)

ولما أمر برؤية الأمور كلها من الله وإسلام القياد كله إليه ، أمر بما هو أعلى من ذلك ، وهو المجاهدة بقتل النفس فقال : ﴿ واتبعوا ﴾ أي عالجوا أنفسكم وكلفوها أن تتبع ﴿ أحسن ما أنزل ﴾ واصلاً ﴿ إليكم ﴾ على سبيل العدل كالإحسان الذي هو أعلى من العفو الذي هو فرق الانتقام باتباع هذا القرآن الذي هو أحسن ما نزل من كتب الله وباتباع أحاسن ما فيه ، فتصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحسن إلى من ظلمك ، هذا في حق الخلائق ومثله في عبادة الخالق بأن تكون "كأنك تراه" الذي هو أعلى من استحضار "إنه يراك" الذي هو أعلى من أدائها مع الغفلة عن ذلك .

ولما كان هذا شديداً على النفس ، رغب فيه بقوله مظهراً صفة الإحسان موضع الإضمار : ﴿ من ربكم ﴾ أي الذي لم يزل يحسن إليكم وأنتم تبارزونه بالعظائم .

ولما كان من النفوس ما هو كالبهائم لا ينقاد إلا بالضرب ، قال منبهاً أيضاً علة رفقه بإثبات الجار : ﴿ من قبل أن يأتيكم ﴾ أي على ما بكم من العجز عن الدفاع ﴿ العذاب ﴾ أي

الأمر الذي يزيل ما يعذب ويحلو لكم في الدنيا أو في الآخرة.

ولما كان الأخذ على غرة أصعب على النفوس قال: ﴿ بغتة ﴾ ولما كان الإنسان قد يشعر بالشيء مرة ثم ينساه فيباغته، نفى ذلك بقوله: ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ أي ليس عندكم شعور بإتيانه لا في حال إتيانه ولا قبله بوجه من الوجوه لفرط غفلتكم، ليكون افظع ما يكون على النفس لشدة مخالفته لما هو مستقر فيها وهي متوطنة عليه من ضده. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 461. 463 ﴾

(8/669)

فصل

قال الفخر:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعيد أردفه بشرح كمال رحمته وفضله وإحسانه في حق العبيد وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يعفو عن الكبائر، فقالوا: إنا بينا في هذا الكتاب

أن عرف القرآن جار بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين (1)

قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ [الفرقان : 63] وقال : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله ﴾ [الإنسان : 6] ولأن لفظ العباد مذكور في معرض التعظيم ، فوجب أن لا يقع إلا على المؤمنين ، إذا ثبت هذا ظهر أن قوله ﴿ يا عِبَادِى ﴾ مختص بالمؤمنين ، ولأن المؤمن هو الذي يعترف بكونه عبد الله ، أما المشركون فإنهم يسمون أنفسهم بعبد اللات والعزى وعبد المسيح ، فثبت أن قوله ﴿ يا عِبَادِى ﴾ لا يليق إلا بالمؤمنين ، إذا ثبت هذا فنقول إنه تعالى قال : ﴿ الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ وهذا عام في حق جميع المسرفين .

---

(1) الصواب أن يقال : «بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين إذا أضيف إلى اللّه تعالى ، كما في الآية والآيتين اللتين استشهد بها ، وإلا فإن هذا يعارضه قول اللّه تعالى : يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ [يس : 30] فالذين يستهزئون برسل اللّه ليسوا بمؤمنين والذين يتحسر عليهم لم يذكروا في معرض التعظيم وإنما ذكروا في الذم والإهانة كما هو صريح الآية ولو صح ذلك لم يحتج إلى نعت العباد ووصفهم بصفات تقتضي المدح أو القدح ، فلفظ العباد يشمل المؤمن والكافر ، ولذا خصصه بالصفة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ وهذا يقتضي كونه غافراً لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين ، وذلك هو المقصود فإن قيل هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها ، وإلا لزم القطع بكون الذنوب مغفورة قطعاً ، وأنتم لا تقولون به ، فما هو مدلول هذه الآية لا تقولون به ، والذي تقولون به لا تدل عليه هذه الآية ، فسقط الاستدلال ، وأيضاً إنه تعالى قال عقيب هذه الآية ﴿ وَأَنِيبُواْ إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ ولو كان المراد من أول الآية أنه تعالى غفر جميع الذنوب قطعاً لما أمر عقيبه بالتوبة ، ولما خوفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون ، وأيضاً قال : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ياحسرتى على مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ الله ﴾ ولو كانت الذنوب كلها مغفورة ، فأي حاجة به إلى أن يقول : ﴿ ياحسرتى على مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ الله ﴾ ؟ وأيضاً فلو كان المراد ما يدل عليه ظاهر لفظ الآية لكان ذلك إغراء بالمعاصي وإطلاقاً في الإقدام عليها ، وذلك لا يليق بحكمة الله ، وإذا ثبت هذا وجب أن يحمل على أن يقال المراد منه التنبيه على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا مخلص له من العذاب ألبتة ، فإن من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله ، إذ لا أحد من العصاة المذنبين إلا ومتى تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة ، فمعنى قوله ﴿ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ أي بالتوبة والإنابة والجواب قوله الآية تقتضي كون كل الذنوب مغفورة

قطعاً وأنتم لا تقولون به ، قلنا بل نحن نقول به ونذهب إليه ، وذلك لأن صيغة يغفر صيغة المضارع ، وهي للاستقبال ، وعندنا أن الله تعالى يخرج من النار من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وعلى هذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعاً ، إما قبل الدخول في نار جهنم ، وإما بعد الدخول فيها ، فثبت

(10/669)

أن ما يدل عليه ظاهر الآية فهو عين مذهبنا .

أما قوله لو صارت الذنوب بأسرها مغفورة لما أمر بالتوبة ، فالجواب أن عندنا التوبة واجبة وخوف العقاب قائم ، فإنا لا نقطع بإزالة العقاب بالكلية ، بل نقول لعله يعفو مطلقاً ، ولعله يعذب بالنار مدة ثم يعفو بعد ذلك ، وبهذا الحرف يخرج الجواب عن بقية الأسئلة والله أعلم .

المسألة الثانية :

اعلم أن هذه الآية تدل على الرحمة من وجوه : الأول : أنه سمى المذنب بالعبد والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة ، واللائق بالرحيم الكريم إفاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج .

الثاني : أنه تعالى أضافهم إلى نفسه بياء الإضافة فقال : ﴿ ياعبادى الذين أَسْرَفُواْ ﴾ وشرف الإضافة إليه يفيد الأمن من العذاب الثالث : أنه تعالى قال : ﴿ أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ ومعناه أن ضرر تلك الذنوب ما عاد إليه بل هو عائد إليهم ، فيكفيهم من تلك الذنوب عود مضارها إليهم ، ولا حاجة إلى إلحاق ضرر آخر بهم الرابع : أنه قال : ﴿ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ نهاهم عن القنوط فيكون هذا أمراً بالرجاء والكريم إذا أمر بالرجاء فلا يليق به إلا الكرم الخامس : أنه تعالى قال أولاً : ﴿ يا عِبَادِى ﴾ وكان الأليق أن يقول لا تقنطوا من رحمتي لكنه ترك هذا اللفظ وقال : ﴿ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ لأن قولنا الله أعظم أسماء الله وأجلها ، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل السادس : أنه لما قال : ﴿ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ كان الواجب أن يقول إنه يغفر الذنوب جميعاً ولكنه لم يقل ذلك ، بل أعاد اسم الله وقرن به لفظة إن المفيدة لأعظم وجوه التأكيد ، وكل ذلك يدل على المبالغة في الوعد بالرحمن السابع : أنه لو قال : ﴿ يَغْفِرُ الذنوب ﴾ لكان المقصود حاصلاً لكنه أردفه باللفظ الدال على التأكيد فقال جميعاً وهذا أيضاً من المؤكدات الثامن : أنه وصف نفسه بكونه غفوراً ، ولفظ الغفور يفيد المبالغة

التاسع : أنه وصف نفسه بكونه رحيماً والرحمة تفيد فائدة على المغفرة فكان قوله ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور ﴾ إشارة إلى إزالة موجبات العقاب ، وقوله ﴿ الرحيم ﴾ إشارة إلى تحصيل موجبات الرحمة والثواب العاشر : أن قوله ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ يفيد الحصر ، ومعناه أنه لا غفور ولا رحيم إلا هو ، وذلك يفيد الكمال في وصفه سبحانه بالغفران والرحمة ، فهذه الوجوه العشرة مجموعة في هذه الآية ، وهي بأسرها دالة على كمال الرحمة والغفران ، ونسأل الله تعالى الفوز بها والنجاة من العقاب بفضله ورحمته .

(12/669)

المسألة الثالثة :

ذكروا في سبب النزول وجوهاً ، قيل إنها نزلت في أهل مكة فإنهم قالوا يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس لم يغفر له ، وقد عبدنا وقتلنا فكيف نسلم ؟ وقيل نزلت في وحشي قاتل حمزة لما أراد أن يسلم وخاف أن لا تقبل توبته ، فلما نزلت الآية أسلم ، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ فقال بل للمسلمين عامة وقيل نزلت في أناس أصابوا ذنوباً عظاماً في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أشفقوا لا يقبل الله توبتهم ، وقيل نزلت في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين

أسلموا ثم فتنوا فافتتنوا وكان المسلمون يقولون فيهم لا يقبل الله منهم توبتهم فنزلت هذه الآيات فكتبها عمر ، وبعث بها إليهم فأسلموا وهاجروا ، واعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فنزول هذه الآيات في هذه الوقائع لا يمنع من عمومها .

المسألة الرابعة :

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم ﴿ يا عِبَادِى ﴾ بفتح الياء والباقون وعاصم في بعض الروايات بغير فتح وكلهم يقفون عليه بإثبات الياء لأنها ثابتة في المصحف ، إلا في بعض رواية أبي بكر عن عاصم أنه يقف بغير ياء ، وقرأ أبو عمرو والكسائي تقنطوا بكسر النون والباقون بفتحها وهما لغتان ، قال صاحب "الكشاف" ، وفي قراءة ابن عباس ، وابن مسعود ﴿ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً لِمَن يَشَاء ﴾ .

(13/669)

ثم قال تعالى : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم ﴾ قال صاحب "الكشاف" أي وتوبوا إليه وأسلموا له أي وأخصلوا له العمل ، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه ، وأقول هذا الكلام ضعيف جداً لأن عندنا التوبة عن المعاصي واجبة فلم يلزم من ورود الأمر بها طعن في الوعد بالمغفرة ،

فإن قالوا لو كان الوعد بالمغفرة حاصلاً قطعاً لما احتيج إلى التوبة ، لأن التوبة إنما تراد لإسقاط العقاب ، فإذا سقط العقاب بعفو الله عنه فلا حاجة إلى التوبة ، فنقول هذا ضعيف لأن مذهبنا أنه تعالى وإن كان يغفر الذنوب قطعاً ويعفو عنها قطعاً إلا أن هذا العفو والغفران يقع على وجهين تارة يقع ابتداء وتارة يعذب مدة في النار ثم يخرجه من النار ويعفو عنه ، ففائدة التوبة إزالة هذا العقاب ، فثبت أن الذي قاله صاحب "الكشاف" ضعيف ولا فائدة فيه .

ثم قال : ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مّن رَّبِّكُمْ ﴾ واعلم أنه تعالى لما وعد بالمغفرة أمر بعد هذا الوعد بأشياء فالأول : أمر بالإنابة وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَنِيبُواْ إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ والثاني : أمر بمتابعة الأحسن ، وفي المراد بهذا الأحسن وجوه الأول : أنه القرآن ومعناه واتبعوا القرآن والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كتابا ﴾ [الزمر : 23] الثاني : قال الحسن معناه ، والتزموا طاعة الله واجتنبوا معصية الله ، فإن الذي أنزل على ثلاثة أوجه ، ذكر القبيح ليجتنب عنه ، والأدون لئلا يرغب فيه ، والأحسن ليتقوى به ويتبع الثالث : المراد بالأحسن الناسخ دون المنسوخ لأن الناسخ أحسن من المنسوخ ، لقوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة : 106] ولأن الله تعالى لما نسخ حكماً وأثبت حكماً آخر كان اعتمادنا على المنسوخ .

ثم قال : ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ والمراد منه التهديد والتخويف والمعنى أنه يفجأ العذاب وأنتم غافلون عنه ، واعلم أنه تعالى لما خوفهم بالعذاب بيّن تعالى أن بتقدير نزول العذاب عليهم ماذا يقولون فحكى الله تعالى عنهم ثلاثة أنواع من الكلمات فالأول : قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ياحسرتى على مَا فَرَّطَتُ فِى جَنبِ الله وَإِن كُنتُ لَمِنَ الساخرين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله ﴿ أَن تَقُولَ ﴾ مفعول له أي كراهة أن تقول : ﴿ ياحسرتى على مَا فَرَّطَتُ فِى جَنبِ الله ﴾ وأما تنكير لفظ النفس ففيه وجهان الأول : يجوز أن تراد نفس ممتازة عن سائر النفوس لأجل اختصاصها بمزيد إضرار بما لا ينفي رغبتها في المعاصي والثاني : يجوز أن يراد به الكثرة ، وذلك لأنه ثبت في علم أصول الفقه أن الحكم المذكور عقيب وصف يناسبه يفيد الظن بأن ذلك الحكم معلل بذلك الوصف ، فقوله ﴿ يا حسرتا ﴾ يدل على غاية الأسف ونهاية الحزن وأنه مذكور عقيب قوله تعالى : ﴿ على مَا فَرَّطَتُ فِى جَنبِ الله ﴾ والتفريط في طاعة الله تعالى يناسب شدة الحسرة وهذا يقتضي حصول تلك

الحسرة عند حصول هذا التفريط ، وذلك يفيد العموم بهذا الطريق .

المسألة الثانية :

(15/669)

القائلون بإثبات الأعضاء لله تعالى استدلوا على إثبات الجنب بهذه الآية ، واعلم أن دلائلنا على نفي الأعضاء قد كثرت ، فلا فائدة في الإعادة ، ونقول بتقدير أن يكون المراد من هذا الجنب عضواً مخصوصاً لله تعالى ، فإنه يمتنع وقوع التفريط فيه ، فثبت أنه لا بد من المصير إلى التأويل وللمفسرين فيه عبارات ، قال ابن عباس يريد ضيعت من ثواب الله ، وقال مقاتل ضيعت من ذكر الله ، وقال مجاهد في أمر الله ، وقال الحسن في طاعة الله ، وقال سعيد بن جبير في حق الله ، واعلم أن الإكثار من هذه العبارات لا يفيد شرح الصدور وشفاء الغليل ، فنقول : الجنب سمي جنباً لأنه جانب من جوانب ذلك الشيء والشيء الذي يكون من لوازم الشيء وتوابعه يكون كأنه جند من جنوده وجانب من جوانبه فلما حصلت هذه المشابهة بين الجنب الذي هو العضو وبين ما يكون لازماً للشيء وتابعاً له ، لا جرم حسن إطلاق لفظ الجنب على الحق والأمر والطاعة قال الشاعر :

أما تتقين الله جنب وامق . . له كبد حرا عليك تقطع

المسألة الثالثة :

قال صاحب "الكشاف" قرىء ﴿ يا حسرتي ﴾ على الأصل و ﴿ يا حسرتاي ﴾ على الجمع بين العوض والمعوض عنه .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ الساخرين ﴾ أي أنه ما كان مكتفياً بذلك التقصير بل كان من المستهزئين بالدين ، قال قتادة لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ، ومحل ﴿ وَإِن كُنتُ ﴾ نصب على الحالة كأنه قال : فرطت في جنب الله وأنا ساخر أي فرطت في حال سخريتي .

النوع الثاني : من الكلمات التي حكاها الله تعالى عن أهل العذاب أنهم يذكرونه بعد نزول العذاب عليهم قوله ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِى لَكُنتُ مِنَ المتقين ﴾ .

(16/669)

النوع الثالث : قوله ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العذاب لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ المحسنين ﴾

وحاصل الكلام أن هذا المقصر أتى بثلاثة أشياء أولها : الحسرة على التفريط في الطاعة وثانيها : التعلل بفقد الهداية وثالثها : بتمني الرجعة ، ثم أجاب الله تعالى عن كلامهم بأن قال بفقد الهداية باطل ، لأن الهداية كانت حاصرة والأعذار زائلة ، وهو المراد بقوله ﴿ بلى

قَدْ جَاءتْكَ ءاياتى فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت وكُنتَ مِنَ الكافرين ﴾ وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

قال الزجاج بلى جواب النفي وليس في الكلام لفظ النفي إلا أنه حصل فيه معنى النفي ، لأن معنى قوله ﴿ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِى ﴾ أنه ما هداني ، فلا جرم حسن ذكر لفظة ﴿ بلى ﴾ بعده .

المسألة الثانية :

قال الواحدي رحمه الله : القراءة المشهورة واقعة على التذكير في قوله ﴿ بلى قَدْ جَاءتْكَ ءاياتى فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت وكُنتَ مِنَ الكافرين ﴾ لأن النفس تقع على الذكر والأنثى فخوطب بالذكر ، وروى الربيع بن أنس عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ على التأنيث ، قال أبو عبيد لو صح هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم لكان حجة لا يجوز لأحد تركها ولكنه ليس بمسند ، لأن الربيع لم يدرك أم سلمة ، وأما وجه التأنيث فهو أنه ذكر النفس ولفظ النفس ورد في القرآن في أكثر الأمر على التأنيث بقوله ﴿ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ [طه : 96] و ﴿ إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسوء ﴾ [يوسف : 53] و ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ [الفجر : 27] .

المسألة الثالثة :

قال القاضي هذه الآيات دالة على صحة القول بالقدر من وجوه الأول : أنه لا يقال : فلان أسرف على نفسه على وجه الذم إلا لما يكون من قبله ، وذلك يدل على أن أفعال العباد تحصل من قبلهم لا من قبل الله تعالى ، وثانيها : أن طلب الغفران والرجاء في ذلك أو اليأس لا يحسن إلا إذا كان الفعل فعل العبد ، وثالثها : إضافة الإنابة والإسلام إليه من قبل أن يأتيه العذاب وذلك لا يكون إلا مع تمكنه من محاولتهما مع نزول العذاب ، ومذهبهم أن الكافر لم يتمكن قط من ذلك ورابعها : قوله تعالى : ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وذلك لا يتم إلا بما هو المختار للاتباع وخامسها : ذمه لهم على أنهم لا يشعرون بما يوجب العذاب وذلك لا يصح إلا مع التمكن من الفعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 3 . 7 ﴾

(18/669)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾

وإن شئت حذفت الياء ؛ لأن النداء موضع حذف .

النحاس : ومن أجلّ ما روي فيه ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال : لما اجتمعنا على الهجرة ، اتّعدتُ أنا وهشام بن العاصي بن وائل السَّهْمي ، وعَيَّاش بن أبي ربيعة بن عُتْبة ، فقلنا : الموعد أضاة بني غفار ، وقلنا : من تأخر منا فقد حُبِس فليمض صاحبه ، فأصبحت أنا وعياش بن عتبة وحُبس عنا هشام ، وإذا به قد فُتِن فافتتن ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم افتتنوا لبلاءٍ لحقهم لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم أيضاً يقولون هذا في أنفسهم ، فأنزل الله عز وجل في كتابه : ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : 60] قال عمر : فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام .

قال هشام : فلما قدمت عليّ خرجت بها إلى ذي طُوًى فقلت : اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيري فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان قوم من المشركين قَتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فقالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم أو بعثوا إليه : إن ما تدعو إليه لحسن أوَ تخبرنا أن لنا توبة ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ ذكره البخاري بمعناه .

وقد مضى في آخر "الفرقان" .

وعن ابن عباس أيضاً نزلت في أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له ، وكيف نهاجر ونُسْلم وقد عبدنا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التي حرم الله ! فأنزل الله هذه الآية .

(19/669)

وقيل : إنها نزلت في قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم في العبادة ، وخافوا ألاّ يتقبل منهم لذنوب سبقت لهم في الجاهلية .

وقال ابن عباس أيضاً وعطاء : نزلت في وحشِيّ قاتل حمزة ؛ لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه : وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : " أتَى وَحْشيّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرني حتى أسمع كلام الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قد كنت أحبّ أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتني مستجيراً فأنت في جواري حتى تسمع كلام الله" قال : فإني أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله وزنيت ، هل يقبل الله مني توبة ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت : ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق وَلاَ يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان : 68] إلى آخر الآية فتلاها عليه ؛ فقال أرى شرطاً فلعلي لا

أعمل صالحاً ، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله .

فنزلت : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 48]

فدعا به فتلا عليه ؛ قال : فلعلي ممن لا يشاء أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله .

فنزلت : ﴿ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ فقال : نعم الآن لا أرى شرطاً .

فأسلم "

وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن شَهْر بن حَوْشَب عن أسماء : أنها سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ : ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ .

وفي مصحف ابن مسعود ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

قال أبو جعفر النحاس : وهاتان القراءتان على التفسير ، أي يغفر الله لمن يشاء .

(20/669)

وقد عرف الله عز وجل من شاء أن يغفر له ، وهو التائب أو من عمل صغيرة ولم تكن له كبيرة ، ودلّ على أنه يريد التائب ما بعده ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ فالتائب مغفور له ذنوبه

جميعاً ، يدل على ذلك ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ [طه : 82] فهذا لا إشكال فيه .

وقال عليّ بن أبي طالب : ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ وقد مضى هذا في "سبحان" .

وقال عبد الله بن عمر : وهذه أرجى آية في القرآن فردّ عليهم ابن عباس وقال أرجى آية في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد : 6] وقد مضى في "الرعد" .

وقرىء "وَلاَ تَقْنِطُوا" بكسر النون وفتحها .

وقد مضى في "الحجر" بيانه .

قوله تعالى : ﴿ وأنيبوا إلى رَبِّكُمْ ﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة .

لما بين أن من تاب من الشرك يغفر له أمر بالتوبة والرجوع إليه ، والإنابة الرجوع إلى الله بالإخلاص .

﴿ وَأَسْلِمُواْ لَهُ ﴾ أي اخضعوا له وأطيعوا ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب ﴾ في الدنيا ﴿ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ أي لا تمنعون من عذابه .

وروي من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من السعادة أن يطيل الله عمر المرء في الطاعة ويرزقه الإنابة ، وإن من الشقاوة أن يعمل المرء ويعجب بعمله "

قوله تعالى : ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب بَغْتَةً وَأَنتُمْ

لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ ﴾ هو القرآن وكله حسن ، والمعنى ما قال الحسن :

التزموا طاعته ، واجتنبوا معصيته .

وقال السدّي : الأحسن ما أمر الله به في كتابه .

وقال ابن زيد : يعني المحكمات ، وكِلوا علم المتشابه إلى عالمه .

(21/669)

وقال : أنزل الله كتباً التوراة والإنجيل والزبور ، ثم أنزل القرآن وأمر باتباعه فهو الأحسن وهو المعجز .

وقيل : هذا أحسن لأنه ناسخ قاض على جميع الكتب وجميع الكتب منسوخة .

وقيل : يعني العفو ؛ لأن الله تعالى خيّر نبيه عليه السلام بين العفو والقصاص .

وقيل : ما علّم الله النبيّ عليه السلام وليس بقرآن فهو حسن ؛ وما أوحى إليه من القرآن فهو الأحسن .

وقيل : أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(22/669)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾

تقدم في غير آية كون الإنسان إذا مسه الضر التجأ إلى الله ، مع اعتقادهم الأوثان وعبادتها .

فإذا أصابتهم شدة ، نبذوها ودعوا رب السموات والأرض ، وهذا يدل على تناقض آرائهم وشدة اضطرابها .

والإنسان جنس وضر مطلق ، والنعمة عامة في جميع ما يسر ، ومن ذلك إزالة الضر .

وقيل : الإنسان معين ، وهو حذيفة بن المغيرة .

والظاهر أن ما في إنما كافة مهيئة لدخول إن على الجملة الفعلية ، وذكر الضمير في ﴿ أوتيته ﴾ ، وإن كان عائداً على النعمة ، لأن معناها مذكر ، وهو الأنعام أو المال ، على قول من شرح النعمة بالمال ، أو المعنى : شيئاً من النعمة ، أو لأنها تشتمل على مذكر ومؤنث ، فغلب المذكر .

وقيل : ما موصولة ، والضمير عائد على ما ، أي قال : إن الذي أوتيته على علم مني ، أي بوجه المكاسب والمتاجر ، قاله قتادة ، وفيه إعجاب بالنفس وتعاظم مفرط .

أو على علم من الله فيّ واستحقاق جزائه عند الله ، وفي هذا احتراز الله وعجز ومنّ على

الله .

أو على علم مني بأني سأعطاه لما فيّ من فضل واستحقاق ، بل هي فتنة إضراب عن دعواه أنه إنما أوتي على علم ، بل تلك النعمة فتنة وابتلاء .

ذكر أولاً في ﴿ أوتيته ﴾ على المعنى ، إذ كانت ما مهيئة ، ثم عاد إلى اللفظ فأنث في قوله ﴿ بل هي ﴾ ، أو تكون هي عادت على الإتيان ، أي بل إتيانه النعمة فتنة .

وكان العطف هنا بالفاء في فإذا ، بالواو في أول السورة لأنها وقعت مسببة عن قوله : ﴿ وإذا ذكر الله ﴾ ، أي يشمئزون عند ذكر الله ، ويستبشرون بذكر آلهتهم .

فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره دون من استبشر بذكره .

ومناسبة السببية أنك تقول : زيد مؤمن ، فإذا مسه الضر التجأ إلى الله .

(23/669)

فالسبب هنا ظاهر ، وزيد كافر ، فإذا مسه الضر التجأ إليه ، يقيم كفره مقام الإيمان في جعله سبباً للالتجاء ، يحكي عكس ما فيه الكافر .

يقصد بذلك الإنكار والتعجب من فعله المتناقض ، حيث كفر بالله ثم التجأ إليه في الشدائد .

وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة ، بل ناسبت ما قبلها ، فعطفت عليه بالواو ، وإذا كانت فإذا متصلة بقوله : ﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ ، كما قلنا ، فما بينهما من الآي اعتراض يؤكد به ما بين المتصلين .

فدعاء الرسول ربه بأمر منه وقوله : ﴿ أنت تحكم ﴾ ، وتعقيبه الوعيد ، تأكيد لاشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم .

وقوله : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ﴾ يتناول لهم ، أو لكل ظالم ، إن جعل مطلقاً أو إياهم خاصة إن عنوا به .

انتهى ، وهو ملتقط أكثره من كلام الزمخشري ، وهو متكلف في ربط هذه الآية بقوله : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت ﴾ مع بعد ما بينهما من الفواصل .

وإذا كان أبو علي الفارسي لا يجيز الاعتراض بجملتين ، فكيف يجيزه بهذه الجمل الكثيرة ؟

والذي يظهر في الربط أنه لما قال : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ﴾ الآية ، كان ذلك إشعاراً بما ينال الظالمين من شدة العذاب ، وأنه يظهر لهم يوم القيامة من العذاب ما لم يكن في حسابهم ، أتبع ذلك بما يدل على ظلمه وبغيه ، إذ كان إذا مسه دعا ربه ، فإذا أحسن إليه ، لم ينسب ذلك إليه .

ثم إنه بعد وصف تلك النعمة أنها ابتلاء وفتنة ، كما بدا له في الآخرة من عمله الذي كان يظنه صالحاً ما لم يكن في حسابه من سوء العذاب المترتب على ذلك العمل ، ترتب الفتنة

على تلك النعمة .

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ : أي إن ذلك استدراج وامتحان ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ : أي قال مثل مقالتهم ﴿ أوتيته على علم ﴾ .

(24/669)

والظاهر أن قائلي ذلك جماعة من الأمم الكافرة الماضية ، كقارون في قوله : ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾ وقيل : الذين من قبلهم هم قارون وقومه ، إذ رضوا بمقالته ، فنسب القول إليهم جميعاً .

وقرىء : قد قاله ، أي قال القول أو الكلام .

﴿ فما أغنى عنهم ﴾ : يجوز أن تكون ما نافية ، وهو الظاهر .

وأن تكون استفهامية ، فيها معنى النفي .

﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ : أي من الأموال .

﴿ والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ : إشارة إلى مشركي قريش ، ﴿ سيصيبهم سيئات ما كسبوا ﴾ : جاء بسين الاستقبال التي هي أقل تنفيساً في الزمان من سوف ، وهو خبر غيب ، أبرزه الوجود في يوم بدر وغيره .

قتل رؤساءهم ، وحبس عنه الرزق ، فلم يمطروا سبع سنين ؛ ثم بسط لهم ، فمطروا سبع سنين ، فقيل لهم : ألم تعلموا أنه لا قابض ولا باسط إلا الله تعالى ؟ .

﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا ﴾ : نزلت في وحشي قاتل حمزة ، قاله عطاء ؛ أو في قوم آمنوا عياش بن ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما ، ففتنتهم قريش ، فافتتنوا وظنوا أن لا توبة لهم ، فكتب عمر لهم بهذه الآية ، قاله عمر والسدي وقتادة وابن إسحاق .

وقيل : في قوم كفار من أهل الجاهلية قالوا : وما ينفعنا الإسلام وقد زنينا وقتلنا النف وأتينا كل كبيرة ؟ ومناسبتها لما قبلها : أنه تعالى لما شدد على الكفار وذكر ما أعد لهم من العذاب ، وأنهم لو كان لأحدهم ما في الأرض ومثله معه لافتدى به من عذاب الله ، ذكر ما في إحسانه من غفران الذنوب إذا آمن العبد ورجع إلى الله .

وكثيراً تأتي آيات الرحمة مع آيات النقمة ليرجو العبد ويخاف .

وهذه الآية عام في كل كافر يتوب ، ومؤمن عاص يتوب ، تمحو الذنب توبته .

وقال عبد الله ، وعلي ، وابن عامر : هذه أرجى آية في كتاب الله .

وتقدم الخلاف في قراءة ﴿ لا تقنطوا ﴾ في الحجر .

﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ : عام يراد به ما سوى الشرك ، فهو مقيد أيضاً بالمؤمن العاصي غير التائب بالمشيئة .

وفي قوله : ﴿ يا عبادي ﴾ ، بإضافتهم إليه وندائهم ، إقبال وتشريف .

و ﴿ أسرفوا على أنفسهم ﴾ : أي بالمعاصي ، والمعنى : إن ضرر تلك الذنوب إنما هو عائد عليهم ، والنهي عن القنوط يقتضي الأمر بالرجاء ، وإضافة الرحمة إلى الله التفات من ضمير المتكلم إلى الاسم الغائب ، لأن في إضافتها إليه سعة للرحمة إذا أضيفت إلى الله الذي هو أعظم الأسماء ، لأنه العلم المحتوي على معاني جميع الأسماء .

ثم أعاد الاسم الأعظم ، وأكد الجملة بأن مبالغة في الوعد بالغفران ، ثم وصف نفسه بما سبق في الجملتين من الرحمة والغفران بصفتي المبالغة ، وأكد بلفظ هو المقتضي عند بعضهم الحصر .

وقال الزمخشري : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ ، شرط التوبة .

وقد تكرر ذكر هذا الشرط في القرآن ، فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكراً له فيما لم يذكر فيه ، لأن القرآن في حكم كلام واحد ، ولا يجوز فيه التناقض .

انتهى ، وهو على طريقة المعتزلة في أن المؤمن العاصي لا يغفر له إلا بشرط التوبة .

ولما كانت هذه الآية فيها فسحة عظيمة للمسرف ، أتبعها بأن الإنابة ، وهي الرجوع ، مطلوبة مأمور بها .

ثم توعد من لم يتب بالعذاب ، حتى لا يبقى المرء كالممل من الطاعة والمتكل على العفران

دون إنابة .

وقال الزمخشري : وإنما ذكر الإنابة على إثر المغفرة ، لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة ، وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه .

انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ ، مثل قوله : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ ، وهو القرآن ، وليس المعنى أن بعضاً أحسن من بعض ، بل كله حسن .

﴿ من قبل أن يأتكم العذاب بغتة ﴾ ، أي فجأة ، ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ : أي وأنتم غافلون عن حلوله بكم ، فيكون ذلك أشد في عذابكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(26/669)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ يا عِبَادِى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾

أي أفرطوا في المعاصي جانين عليها ، وأصل الإسراف الإفراط في صرف المال ثم استعمل

فيما ذكر مجازاً بمرتبتين على ما قيل ، وقال الراغب : هو تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر وهذا ظاهر في أنه حقيقة فيما ذكرنا وهو حسن . وضمن معنى الجناية ليصح تعديه بعلى والمضمن لا يلزم فيه أن يكون معناه حقيقياً ، وقيل : هو مضمن معنى الحمل ، وحمل غير واحد الإضافة في ﴿ عِبَادِى ﴾ على العهد أو على التشريف ، وذهبوا إلى أن المراد بالعباد المؤمنون وقد غلب استعماله فيهم مضافاً إليه عز وجل في القرآن العظيم فكأنه قيل : أيها المؤمنون المذنبون ﴿ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرته سبحانه وتفضله عز وجل على أن المغفرة مدرجة في الرحمة أو أن الرحمة مستلزمة لها لأنه لا يتصور الرحمة لمن لم يغفر له ، وتعليل النهي بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ يقتضي دخولها في المعلل ، والتذييل بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ كالصريح في ذلك ، وجوز أن يكون في الكلام صنعة الاحتباك كأنه قيل : لا تقنطوا من رحمة الله ومغفرته إن الله يغفر الذنوب جميعاً ويرحم ، وفيه بعد ، وقالوا : المراد بمغفرة الذنوب التجافي عنها وعدم المؤاخذة بها في الظاهر والباطن وهو المراد بسترها ، وقيل : المراد بها محوها من الصحائف بالكلية مع التجافي عنها وأن الظاهر إطلاق الحكم وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر كيف لا وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48] ظاهر في الإطلاق فيما عدا

الشرك ، ويشهد للإطلاق أيضاً أمور ، الأول : نداؤهم بعنوان العبودية فإنها تقتضي المذلة وهي أنسب بحال العاصي إذا لم يتب واقتضاؤها للترحم ظاهر .

(27/669)

الثاني : الاختصاص الذي تشعر به الإضافة إلى ضميره تعالى فإن السيد من شأنه أن يرحم عبده ويشفق عليه .

الثالث : تخصيص ضرر الإسراف المشعرة به ﴿ على ﴾ بأنفسهم فكأنه قيل : ضرر الذنوب عائد عليهم لا علي فيكفي ذلك من غير ضرر آخر كما في المثل أحسن إلى من أساء كفى المسيء إساءته ، فالعبد إذا أساء ووقف بين يدي سيده ذليلاً خائفاً عالماً بسخط سيده عليه ناظراً لإكرام غيره ممن أطاع لحقه ضرر إذ استحقاق العقاب عقاب عند ذوي الألباب .

الرابع : النهي عن القنوط مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة وإطلاقها .

الخامس : إضافة الرحمة إلى الاسم الجليل المحتوي على جميع معاني الأسماء على طريق الالتفات فإن ذلك ظاهر في سعتها وهو ظاهر في شمولها التائب وغيره .

السادس : التعليل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله ﴾ الخ فإن التعليل يحسن مع الاستبعاد وترك

القنوط من الرحمة مع عدم التوبة أكثر استبعاداً من تركه مع التوبة .

السابع : وضع الاسم الجليل فيه موضع الضمير لإشعاره بأن المغفرة من مقتضيات ذاته لا لشيء آخر من توبة أو غيرها .

الثامن : تعريف الذنوب فإنه في مقام التمدح ظاهر في الاستغراق فتشمل الذنب الذي يعقبه التوبة والذي لا تعقبه .

التاسع : التأكيد بالجميع .

العاشر : التعليل بأنه هو الخ .

الحادي عشر : التعبير بالغفور فإنه صيغة مبالغة وهي إن كانت باعتبار الكم شملت المغفرة جميع الذنوب أو باعتبار الكيف شملت الكبائر بدون توبة .

الثاني عشر : حذف معمول ﴿ الغفور ﴾ فإن حذف المعمول يفيد العموم .

الثالث عشر : إفادة الجملة الحصر فإن من المعلوم أن الغفران قد يوصف به غيره تعالى فالمحصور فيه سبحانه إنما هو الكامل العظيم وهو ما يكون بلا توبة .

الرابع عشر : المبالغة في ذلك الحصر .

الخامس عشر : الوعد بالرحمة بعد المغفرة فإنه مشعر بأن العبد غير مستحق للمغفرة لولا رحمته وهو ظاهر فيما إذا لم يتب .

السادس عشر : التعبير بصيغة المبالغة فيها .

السابع عشر : إطلاقها ، ومنع المعتزلة مغفرة الكبائر والعفو عنها من غير توبة وقالوا : إنها وردت في غير موضع من القرآن الكريم مقيدة بالتوبة فإطلاقها هنا يحمل على التقييد لاتحاد الواقعة وعدم احتمال النسخ ، وكون القرآن في حكم كلام واحد

وأيدوا ذلك بقوله تعالى :

﴿ وَأَنِيبُواْ إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ مِن قَبْلِ يَأْتِيَكُمُ العذاب ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ فإنه عطف على ﴿ لا تقنطوا ﴾ [الزمر : 53] والتعليل معترض ، وبعد تسليم حديث حمل الإطلاق على التقييد يكون عطفاً لتتميم الإيضاح كأنه قيل : لا تقنطوا من رحمة الله تعالى فتظنوا أنه لا يقبل توبتكم وأنيبوا إليه تعالى وأخلصوا له عز وجل .

وأجاب بعض الجماعة بمنع وجوب حمل الإطلاق على التقييد في كلام واحد نحو أكرم الفضلاء أكرم الكاملين فضلاً عن كلام لا يسلم كونه في حكم كلام واحد وحينئذٍ لا يكون المعطوف شرطاً للمعطوف عليه إذ ليس من تتمته ، وقيل إن الأمر بالتوبة والإخلاص لا يخل بالإطلاق إذ ليس المدعي أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب لتغني عن الأمر بهما وتنافي الوعيد بالعذاب .

وقال بعض أجلة المدققين : إن قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا عبادى الذين أَسْرَفُواْ ﴾ [الزمر : 53] خطاب للكافرين والعاصين وإن كان المقصود الأولى الكفار لمكان القرب وسبب النزول ، فقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : إن أهل مكة قالوا : يزعم محمد صلى الله عليه وسلم أنه من عبد الأوثان ودعا مع الله تعالى إلهاً آخر وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس ونحن أهل شرك فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهل عِبَادِى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر : 53] الخ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد .

(29/669)

ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول : لا يقبل الله تعالى من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً أقوام أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوه فنزلت هؤلاء الآيات وكان عمر رضي الله تعالى عنه كاتباً فكتبها بيده ثم كتب بها إلى عياش وإلى الوليد وإلى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا .

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت هذه الآيات الثلاث ﴿ قُلْ يا عِبَادِى إلى

وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر : 53-55] بالمدينة في وحشي وأصحابه وتخلل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ [الزمر : 53] بين المعطوفين تعليلاً للجزء الأول قبل الوصول إلى الثاني للدلالة على سعة رحمته تعالى وأن مثله حقيق بأن يرجى وإن عظم الذنب لا سيما وقد عقب بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ ﴾ الآية الدال على انحصار الغفران والرحمة على الوجه الأبلغ فالوجه أن يجري على عمومه ليناسب عموم الصدر ولا يقيد بالتوبة لئلا ينافي غرض التخلل مع أنه جمع محلي باللام ، وقد أكد بما صار نصاً في الاستغراق ، ولا يغني المعتزلي أن القرآن العظيم كالكلام الواحد وأنه سليم من التناقض بل يضره ، وكذلك ما ذكر من أسباب النزول انتهى ، وقد تضمن الإشارة إلى بعض مؤكدات الإطلاق التي حكيناها آنفاً ، والذي يترجح في نظري ما اختاره من عموم الخطاب في ﴿ فِى عِبَادِى ﴾ للعاصين والكافرين ، وأمر الإضافة سهل ، وإن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ مقيد بلمن يشاء بقرينة التصريح به في قراءة عبد الله هنا ، وكون الأمور كلها معلقة بالمشيئة ولا نسلم أن متعلق المشيئة التائب وحده ، وكونها تابعة للحكمة على تقدير صحته لا ينفع إذ دون إثبات كون المغفرة لغير التائب منافية للحكمة خرط القتاد .

(30/669)

نعم لا تتعلق بالمشرك ما لم يؤمن لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ فمغفرة الشرك مشروطة بالإيمان فالمشرك داخل فيمن يشاء لكن بالشرط المعروف ، واعتبار الشرط فيه لا يضر في عدم اعتبار شرط التوبة في العاصي بما دونه .

ويشهد لذلك ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

والبيهقي في "شعب الإيمان" عن ثوبان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم إلى آخر الآية فقال رجل : يا رسول الله ومن أشرك ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال : الا ومن أشرك ثلاث مرات " لا يقال المغفرة لمن أشرك بشرط الإسلام أمر واضح فلا يجوز أن تخفى على السائل وعليه عليه الصلاة والسلام حتى يسكت لانتظار الوحي أو الاجتهاد لأنا نقول : السؤال للاستبعاد من حيث العادة والسكوت لتعليم سلوك طريق التأني والتدبر وإن كان الأمر واضحاً .

وقيل : الظاهر أنه لانتظار الإذن أو الاجتهاد في التصريح بعموم المغفرة فإنهم ربما اتكلوا على ذلك فيخشى التفريط في العمل وهو لا ينافي التعليم فإنه عليه الصلاة والسلام إنما

يعلمهم التدبر بعد أن يتدبر هو في نفسه صلى الله عليه وسلم .

وزعم أن الحديث دال على اشتراط التوبة ليس بشيء ، ويؤيد إطلاق المغفرة عن قيد التوبة ما أخرجه الإمام أحمد .

وعبد بن حميد .

وأبو داود .

والترمذي .

وحسنه .

وابن المنذر .

وابن الأنباري في المصاحف .

والحاكم .

(31/669)

وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد قالت : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم" فإنه ليس للا يبالي كثير حسن إن كانت المغفرة مشروطة بالتوبة

كما لا يخفى ، وكذا ما أخرجه ابن جرير عن ابن سيرين قال : قال علي كرم الله تعالى وجهه أي آية أوسع ؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ [النساء : 110] الآية ونحوها فقال علي كرم الله تعالى وجهه : ما في القرآن أوسع آية من ﴿ قُلْ يا عبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر : 35] الآية .

والمؤكدات السابقة أعني السبعة عشر لا يخلو بعضها عن بحث ، والظاهر أن مغفرة ذنب لا تجامع العذاب عليه أصلاً ، وذهب بعضهم إلى أنها تجامعه إذا كان انقض من الذنب لا إذا كان بمقداره فمن عذب بمقدار ذنبه في النار ، وأخرج منها لا يقال إنه غفر له إذ السيئات إنما تجزى بأمثالها ، وقيل : تجامعه مطلقاً وكون السيئات لا تجزى إلا بأمثالها بلطفه تعالى أيضاً فهو نوع من عفوه عز وجل وفيه ما فيه فتأمل ، وأصل الإنابة الرجوع .

ومعنى ﴿ وَأَنِيبُواْ إلى رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر : 45] الخ أي ارجعوا إليه سبحانه بالإعراض عن معاصيه والندم عليها ، وقيل : بالانقطاع إليه تعالى بالعبادة وذكر الرب كالتنبيه على العلة ، وقال القشيري : الإنابة الرجوع بالكلية ، والفرق بين الإنابة والتوبة أن التائب يرجع من خوف العقوبة والمنيب يرجع استحياء لكرمه تعالى ، والإسلام له سبحانه الإخلاص في طاعاته عز وجل ، وذكر أن الإخلاص بعد الإنابة أن يعلم العبد أن نجاته بفضل الله تعالى لا بإنابته

فبفضله سبحانه وصل إلى إنابته لا بإنابته وصل إلى فضله جل فضله .

وعن ابن عباس من حديث أخرجه ابن جرير .

(32/669)

وابن المنذر عنه "من آيس العباد من التوبة فقد جحد كتاب الله تعالى ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله تعالى عليه" .

﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مّن رَّبِّكُمْ ﴾ الظاهر أنه خطاب للعباد المخاطبين فيما تقدم سواء أريد بهم المؤمنون أو ما يعمهم والكافرين ، والمراد بما أنزل القرآن وهو كما أنزل إلى المؤمنين أنزل إلى الكافرين ضرورة أنه أنزل عليه صلى الله عليه وسلم لدعوة الناس كافة ، والمراد بأحسنه ما تضمن الإرشاد إلى خير الدارين دون القصص ونحوها أو المأمور به أو العزائم أو الناسخ ، وأفعل على الأول والثالث على ظاهره وعلى الثاني والرابع فيه احتمالان ؛ وقيل : لعل الأحسن ما هو أنجى وأسلم كالإنابة والمواظبة على الطاعة وأفعل فيه على ظاهره أيضاً ، وجوز أن يكون الخطاب للجنس ، والمراد بما أنزل الكتب السماوية وبأحسنه القرآن ، وفيه ارتكاب خلاف الظاهر ، وفي ذكر الرب ترغيب في الاتباع ﴿ مّن

قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ لا تعلمون أصلاً بمجيئه فتتداركون ما يدفعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(33/669)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾

التفسير القرآني للقرآن ، ج12 ، ص : 1179

فى وسط هذا الظلام المتراكم من الكفر ، ومن خلال هذا الدخان المتصاعد من معاقل الضلال ، ومواقع الشرك ـ تشرق الأرض بنور ربها ، وفى سنا هذا النور القدسي يؤذّن مؤذّن الحق ، بين ظلام هذا الكفر المتراكم ، ودخان هذا الضلال المتصاعد ، داعيا هؤلاء الغرقى فى بحار الكفر والضلال :

« يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً . . إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

إن الغرقى إذ يسمعون هذا النداء الكريم ليرون بأعينهم رأى العين ، مراكب النجاة تخفّ إليهم من كل جهة ، وليس عليهم إلا أن يتعلقوا بها ، ويشدوا أيديهم عليها ، لتحملهم إلى

شاطىء النجاة والسلامة . .

ولكن ما أكثر الذين يرون الخير ولا يتجهون إليه ، ويشهدون النور ولا يفتحون أعينهم عليه . . وفى ابن نوح مثل يشهد لهذا ، فقد كان يرى بعينيه الطوفان يهجم عليه ، ويكاد يبتلعه فيمن ابتلع من الضالين والغاوين ، وأبوه يناديه : يا بنىّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . . فيأبى إلا أن يركب رأسه ، ويلقى بيده إلى التهلكة ! وهؤلاء هم أبناء نوح ، يناديهم ربّ العزّة هذا النداء الرحيم : « يا عبادى » .

ويضيفهم سبحانه وتعالى إليه إضافة رحمة ورعاية ، وإحسان ، تعلو على إضافة الأبناء إلى الآباء ، حنانا ورحمة وإحسانا . .

وهؤلاء الذين ينادون من ربهم هذا النداء الرحيم الكريم ، ويضافون إلى عزته وجلاله إضافة الرحمة والإكرام - هم العصاة ، الخارجون على حدود اللّه ، المعتدون على حرماته ، الجاحدون لنعمه . .

(34/669)

التفسير القرآني للقرآن ، ج12 ، ص : 1180

إنهم الذين أسرفوا على أنفسهم ، وجاروا عليها بهذه الأوزار التي حمّلوها إياها . .

فيا لطف اللّه ، ويا لسعة كرمه . . وعظيم مننه ، وجليل إحسانه ! ! وقوله تعالى : « لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » هو اليد البرة الرحيمة الحانية التي يربت اللّه بها على هؤلاء المذنبين العصاة ، بمجرد أن يلتفتوا إلى هذا النداء الرحيم اللطيف : « لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » . . إنها قريبة منكم ، دانية لأيديكم . . فهيا أقبلوا عليها ، واستظلوا بظلها ، واقطفوا ما تشاءون من ثمرها . .

وفى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً » . . شحنة من النور تضىء ظلام هذه النفوس التي تنظر إلى اللّه سبحانه وتعالى من خلال هذا الضباب المنعقد من اليأس حولها ، وهى تذكر بشاعة جرائمها ، وشناعة آثامها ، وتحسب - جهلا وضلالا - أن ذنوبها أكثر من أن تغفر ، وأن جرائمها أكبر من أن يتجاوز لها عنها . . وكلّا . . فإن ذلك ظن سيىء باللّه :

« إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً » مهما تكن بشاعتها وشناعتها . . « إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » فما أعظم مغفرته ، وما أوسع رحمته . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » (156 : الأعراف) ! ! فأى عذر لمذنب بعد هذا البلاغ المبين ، إذا هو لم يسع إلى اللّه ، ويغتسل فى بحر رحمته ، من أدرانه ، ويتطهر من ذنوبه ؟

وأي عذر لمجرم بعد هذا النداء الكريم الرحيم ، إذا هو لم يمدّ يده إلى ربّه ، ليقيل عثرته ،

ويحمل عنه وزره ؟

« يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ . .

(35/669)

التفسير القرآني للقرآن ، ج12 ، ص : 1181

« لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . . « إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً » . . « إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . . »

إنها ضيافة كريمة فى ساحة رب كريم . .

وإنها نزل مهيأة ، بكل أسباب الهناءة والرضوان ، يستقبل فيها على طريق الحياة ، أولئك الذين أضناهم السفر الطويل ، وأكلت وجوههم لوافح الهجير . .

فيجدون حيث ينزلون ظلا ظليلا ، وطعاما هنيئا ، وشرابا باردا .

فقل لمن يرى هذا المنزل الكريم ويعدل عنه : ألا ما أعظم غباءك ، وما أشأم حظك ، وما أولاك بالذئاب تفترسك ، وبالحيات تنهشك ، فلا يرحمك راحم ، ولا يبكيك باك . . من قريب أو صديق ! قوله تعالى : « وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ . . مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ » . .

إنه دعوة إلى رحاب اللّه ، بعد أن فتحت الأبواب ، ومدت موائد رحمته . .

فلم يتبق إلا أن يمد المدعوون أيديهم إلى هذه الموائد ، وأن ينالوا منها ما يشتهون . .

ومن عظيم لطف للّه بعباده ، وسابغ برّه بهم ، وسعة رحمته لهم ، أن لقيهم ، وهم على طريق الضلال ، وبين مراعى الإثم والمعصية ، وأراهم منه - سبحانه - ما بين يديه من رحمة ومغفرة ، وأنهم مع ما هم فيه من محاربة له ، وعصيان لأمره ، واعتداء على حرماته - لا يزالون من عباده ، الذين لا تغلق دونهم أبوابه ، ولا تحجب عنهم رحمته - ذلك كله قبل أن يطلب - سبحانه وتعالى - إليهم أن يرجعوا إليه ، وأن يلقوا الأسلحة التي يحاربونها بها . .

إنهم

(36/669)

التفسير القرآني للقرآن ، ج12 ، ص : 1182

على ما هم عليه عباده ، وأبوابه لن تغلق دونهم ، ورحمته لن تحجب عنهم ، ما داموا فى هذه الدنيا . .

ألا خسىء من لا يستحى من ربه ، فيظل قائما على حربه ، على حين يبسط إليه ربه يده ، ويظلله بربوبيته ، ويمده بنعمه وفضله ! فقوله تعالى : « وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ

أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ » . هو رحمة من رحمة اللّه ، وإفساح لطريق النجاة ، بالعودة إلى اللّه والمصالحة معه ، فى أية لحظة من لحظات الحياة ، قبل أن تدنو ساعة الموت ، وينقطع العمل ، وينتقل الإنسان إلى الدار الآخرة بما مات عليه فى الدنيا . .

وعندئذ ينزل الإنسان منزله فى الآخرة ، بآخر منزل كان عليه فى الدنيا . .

« فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ . وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ، وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ » (88 . الواقعة) .

قوله تعالى : « وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ » .

أحسن ما أنزل إلى العباد من اللّه ، هو كلمات اللّه ، وهى القرآن الكريم . . فقد أنزل إلى العباد من اللّه نعم كثيرة ، وخيرات موفورة ، وأرزاق لا تحصى ، ولكن أحسن ما أنزل إليهم من هذه النعم وتلك الخيرات ، وهذه الأرزاق ، هو هذا الكتاب ، الذي به يعرف الإنسان قدر هذه النعم ، وطعم هذه الخيرات . . فهو الميزان العدل الذي يقيم هذه النعم وتلك الخيرات على طريق الحق والإحسان ، وبغير هذا الميزان تتحول هذه

النعم إلى نقم فى يد أصحابها ، تفسد عليهم وجودهم ، وتحرمهم الثمرة الطيبة المرجوّة منها .

وفى قوله تعالى : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ » . .

إشارة إلى المبادرة بالرّجوع إلى اللّه ، والتخلّي الفوري عن مشاعر الإمهال والتسويف ، من يوم إلى يوم ، إذ لا يدرى المرء متى يحين حينه ، ويأتيه أجله . . فقد يؤخّر المرء التوبة إلى غد ، ثم لا يأتى الغد إلّا وهو فى عالم الموتى . وقد يؤخر التوبة من صبح يومه إلى مسائه ، فلا يكون فى المساء بين الأحياء . فالمراد بإتيان العذاب هنا ، هو وقوع الموت بالعصاة والمذنبين قبل التوبة . . فإتيان الموت لهم وهم على تلك الحال ، إتيان بالعذاب الذي يبدأ دخولهم فيه منذ لحظة الموت . . وهنا تكون الحسرة والندامة ، حيث لا تنفع حسرة ، ولا نجدى ندامة ! . . وهذا ما يشير إليه.

قوله تعالى : « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » .

فهذه مقولات ثلاث ، للذين أدركهم الموت وهم على كفرهم وضلالهم . .

وهى بدل من قوله تعالى : « أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ » . . أي واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من

ربكم من قبل أن تقولوا فى حسرة وندم هذه المقولات . .

وكل مقولة من هذه المقولات الثلاث ، يقولها الكافر الضال ، فى مرحلة من مراحل الآخرة . . من الموت . . إلى البعث . . إلى الحساب والجزاء . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 12 صـ 1179 . 1183 ﴾

(38/669)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾

أُطنبتْ آيات الوعيد بأفنانها السابقة إطناباً يبلغ من نفوس سامعيها أيَّ مبلغ من الرعب والخوف ، على رغْمِ تظاهرهم بقلة الاهتمام بها .

وقد يبلغ بهم وقعها مبلغَ اليأس من سَعيٍ ينجيهم من وعيدها ، فأعقبها الله ببعث الرجاء في نفوسهم للخروج إلى ساحل النجاة إذا أرادوها على عادة هذا الكتاب المجيد من مداواة النفوس بمزيج الترغيب والترهيب .

والكلام استئناف بياني لأن الزواجر السابقة تثير في نفوس المواجَهين بها خاطر التساؤل عن مسالك النجاة فتتلاحم فيها الخواطر الملَكية والخواطر الشيطانية إلى أن يُرسي

التلاحم على انتصار إحدى الطائفتين ، فكان في إنارة السبيل لها ما يسهل خطو الحائرين في ظلمات الشك ويرتفق بها ويواسيها بعد أن أثخنتها جروح التوبيخ والزجر والوعيد ويضمد تلك الجراحة والحليمُ يزجُر ويلين وتثير في نفس النبي صلى الله عليه وسلم خشيةَ أن يحيط غضب الله بالذين دعاهم إليه فأعرضوا أو حببهم في الحق فأبغضوا فلعله لا يَفتح لهم باب التوبة ولا تقبل منهم بعد إعراضهم أوْبَة ولاسيما بعد أن أمره بتفويض الأمر إلى حكمه المشتَمِّ منه ترقبُ قطع الجدال وفصمِه فكان أمره لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يناديهم بهذه الدعوة تنفيساً عليه وتفتيحاً لباب الأوْبة إليه فهذا كلام ينحل إلى استئنافين فجملة ﴿ قُل ﴾ استئناف لبيان ما ترقَّبَه أفضلُ النبيئين صلى الله عليه وسلم أي بلغ عني هذا القول .

وجملةُ ﴿ ياعبادي ﴾ استئناف ابتدائي من خطاب الله لهم .

وابتداء الخطاب بالنداء وعنوانِ العباد مؤذن بأن ما بعده إعداد للقبول وإطماع في النجاة .

(39/669)

والخطاب بعنوان ﴿ ياعبادي ﴾ مراد به المشركون ابتداءً بدليل قوله : ﴿ وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ﴾ [الزمر : 54] وقوله : ﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ [الزمر : 56] وقوله : ﴿ بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ [الزمر : 59] .

فهذا الخطاب جرى على غير الغالب في مثله في عادة القرآن عند ذكر ﴿ عبادي ﴾ بالإِضافة إلى ضمير المتكلم تعالى .

وفي "صحيح البخاري" عن ابن عباس "أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قَتلوا وأَكثروا ، وزنَوا وأكثروا ، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرُنا أَن لما عملنا كفارة يعني وقد سمعوا آيات الوعيد لمن يعمل تلك الأعمال وإلا فمن أين علموا أن تلك الأعمال جرائم وهم في جاهلية فنزل : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلاهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق ولا يزنون ﴾ [الفرقان : 68] يعني إلى قوله : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ [الفرقان : 70] ونزل : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللَّه ﴾ .

وقد رويت أحاديث عدة في سبب نزول هذه الآية غير حديث البخاري وهي بين ضعيف ومجهول ويستخلص من مجموعها أنها جزئيات لعموم الآية وأن الآية عامة لخطاب جميع المشركين وقد أشرنا إليها في ديباجة تفسير السورة .

ومن أجمل الأخبار المروية فيها ما رواه ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال : "لما اجتمعنا على الهجرة اتَّعدتُ أنا وهشامُ بن العاص السهمي ، وعيّاش بن أبي ربيعة بن عتبة .

فقلنا : الموعد أَضَاةُ بني غِفَار ، وقلنا : من تأخّرَ منّا فقد حُبس فليمضِ صاحباه .

فأصبحتُ أنا وعياش بن عتبة وحُبس عنا هشام وإذا هو قد فُتِن فافتَتَنَ فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عَرفوا الله ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة .

(40/669)

وكانوا هم يقولون هذا في أنفسهم ، فأنزل الله : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا ﴾ إلى قوله : ﴿ مَثْوى للمتكبرين ﴾ [الزمر : 60] قال عمر فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام .

قال هشام : فلما قدمتْ عليَّ خرجتُ بها إلى ذي طوَى فقلت : اللهم فهِّمنيها فعرفت أنها نزلت فينا فرجعتُ فجلست على بعيري فلحقت برسول الله ا ه .

فقول عمر : فأنزل الله يريد أنه سمعه بعد أن هاجر وأنه مما نزل بمكة فلم يسمعه عمر إذ كان في شاغل تهيئة الهجرة فما سمعها إلا وهو بالمدينة فإن عمر هاجر إلى المدينة قبل النبي .

فالخطاب بقوله : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ تمهيد بإجمال يأتي بيانه في الآيات

بعده من قوله : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم ﴾ [الزمر : 54] .

وبعد هذا فعموم عبادي وعموم صلة الذين أسرفوا ﴾ يشمل أهل المعاصي من المسلمين وإن كان المقصود الأصلي من الخطاب المشركين على عادة الكلام البليغ من كثرة المقاصد والمعاني التي تفرغ في قوالب تسعُها .

وقرأ الجمهور ﴿ ياعبادي الذين أسرفوا ﴾ بفتح ياء المتكلم ، وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب بإسكان الياء .

ولعل وجه ثبوت الياء في هذه الآية دون نظيرها وهو قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم ﴾ [الزمر : 10] ، أن الخطاب هنا للذين أسرفوا وفي مقدمتهم المشركون وكلهم مظنة تطرق اليأس من رحمة الله إلى نفوسهم ، فكان إثبات (يا) المتكلم في خطابهم زيادة تصريح بعلامة التكلُّم تقوية لنسبة عبوديتهم إلى الله تعالى إيماء إلى أن شأن الرب الرحمة بعباده .

والإِسراف : الإِكثار .

والمراد به هنا الإِسراف في الذنوب والمعاصي ، وتقدم ذكر الإِسراف في قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً ﴾ في سورة [النساء : 6] وقوله : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ في سورة [الإسراء : 33] .

والأكثر أن يعدّى إلى متعلّقه بحرف ﴿ مِن ﴾ ، وتعديتُه هنا بـ (على) لأن الإِكثار هنا من أعمالٍ تتحملها النفس وتثقل بها وذلك متعارف في التبِعات والعدوان تقول : أكثرت على فلان ، فمعنى ﴿ أسرفوا على أنفسهم ﴾ : أنهم جلبوا لأنفسهم ما تثقلهم تبعته ليشمل ما اقترفوه من شرك وسيئات .

والقنوط : اليأس ، وتقدم في قوله : ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾ في سورة [الحِجر : 55] .

وجملة ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ تعليل للنهي عن اليأس من رحمة الله .

ومادة الغفر ترجع إلى الستر ، وهو يقتضي وجود المستور واحتياجَه للستر فدل ﴿ يغْفِرُ الذُّنوب ﴾ على أن الذنوب ثابتة ، أي المؤاخذة بها ثابتة والله يغفرها ، أي يزيل المؤاخذة بها ، وهذه المغفرة تقتضي أسباباً أُجملت هنا وفصلت في دلائل أخرى من الكتاب والسنة منها قوله تعالى : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ [طه : 82] ، وتلك الدلائل يجمعها أن للغفران أسباباً تطرأ على المذنب ولولا ذلك لكانت المؤاخذة بالذنوب عبثاً ينزه عنه الحكيم تعالى ، كيف وقد سماها ذنوباً وتوعد عليها فكان قوله : ﴿ إن الله يغفر الذنوب ﴾ دعوةً إلى تطلب أسباب هذه المغفرة فإذا طلبها المذنب عرف تفصيلها .

و﴿ جميعاً ﴾ حال من ﴿ الذنوب ﴾ ، أي حال جميعها ، أي عمومها ، فيغفر كل ذنب منها إن حصلت من المذنب أسباب ذلك .

وسيأتي الكلام على كلمة (جميع) عند قوله تعالى : ﴿ والأرض جميعاً قبضته ﴾ في هذه السورة [67] .

وجملة ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ تعليل لجملة ﴿ يغفر الذنوب جميعاً ﴾ أي لا يُعجزه أن يغفر جميع الذنوب ما بلغ جميعها من الكثرة لأنه شديد الغفران شديد الرحمة .

فبطل بهذه الآية قول المرجئة إنه لا يضر مع الإيمان شيء .

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54)

(42/669)

لما فَتَح لهم باب الرجاء أَعقبه بالإرشاد إلى وسيلة المغفرة معطوفاً بالواو وللدلالة على الجمع بين النهي عن القنوط من الرحمة وبين الإِنابة جمعاً يقتضي المبادرة ، وهي أيضاً مقتضى صيغة الأمر .

والإِنابة : التوبة ولما فيها وَفي التوبة من معنى الرجوع عُدّي الفِعلان بحرف ﴿ إلى .

والمعنى : توبوا إلى الله مما كنتم فيه من الشرك بأن توحدوه .

وعطف عليه الأمر بالإسلام ، أي التصديق بالنبي والقرآن واتباع شرائع الإِسلام .

وفي قوله : مِن قَبلِ أن يأتيكم العذاب ﴾ إيذان بوعيد قريب إن لم يُنيبوا ويسلموا كما يلمح إليه فعل ﴿ يأتيكم ﴾ .

والتعريف في العَذَابُ تعريف الجنس ، وهو يقتضي أنهم إن لم يُنيبوا ويسلموا يأتهم العذاب .

والعذاب منه ما يحصل في الدنيا إن شاءه الله وهذا خاص بالمشركين ، وأما المسلمون فقد استعاذ لهم منه الرسول صلى الله عليه وسلم حين نزل : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾ كما تقدم في سورة الأنعام (65) ، ومن العذاب عذاب الآخرة وهو جزاء الكفر والكبائر .

وهذا الخطاب يأخذ كلُ فريق منه بنصيب ، فنصيب المشركين الإِنابة إلى التوحيد واتّباعُ دين الإِسلام ، ونصيب المؤمنين منه التوبة إذا أسرفوا على أنفسهم والإِكثار من الحسنات وأما الإسلام فحاصل لهم .

والنصر : الإِعانة على الغلبة بحيث ينفلتُ المغلوب من غلبة قاهره كرهاً على القاهر ولا نصير لأحد على الله .

وأما الشفاعة لأهل الكبائر فليست من حقيقة النصر المنفي وهذه الفقرة أكثر حظ فيها هو حظ المشركين .

وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ

(55)

﴿ أحسن ما أُنزِلَ ﴾ هو القرآن وهو معنى قوله : ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ [الزمر : 18] .

(43/669)

والحظ للمشركين في هذه الآية لأن المسلمين قد اتّبعوا القرآن كما قال تعالى : ﴿ فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم اللَّه ﴾ [الزمر : 17 ، 18] .

(و ﴿ أَحْسَنَ ﴾ اسم تفضيل مستعمل في معنى كامل الحسن ، وليس في معنى تفضيل بعضه على بعض لأن جميع ما في القرآن حسن فهو من باب قوله تعالى : ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ [يوسف : 33] .

وإضافة ﴿ أَحْسَنَ ﴾ إلى ﴿ مَا أُنْزِل ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف .

والعذاب المذكور في هذه هو العذاب المذكور قبلُ بنوعيه وكله بغتة إذ لا يتقدمه إشعار ، فعذاب الدنيا يحلّ بغتة وعذاب الآخرة كذلك لأنه تظهر بوارقه عند البعث وقد أتاهم عذاب السيف يوم بدر ويأتيهم عذاب الآخرة يوم البعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

فائدة

قال التستري :

قوله : ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ [53]

قال : أمهل الله تعالى عباده تفضلاً منه إلى آخر نفس ، فقال لهم : « لا تقنطوا من رحمتي فلو رجعتم إلي في آخر نفسٍ قبلتكم » قال : وهذه أبلغ آية في الإشفاق من الله تعالى إلى عباده ، لعلمه بأنه ما حرمهم ما تفضل به على غيرهم ، فرحمهم حتى أدخلهم في عين الكرم بالذكر القديم لهم .

وقد حكي عن جبريل عليه الصلاة والسلام أنه سمع إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول : يا كريم العفو .

فقال له جبريل عليه السلام : يا إبراهيم ، أتدري ما كرم عفوه ؟ قال : لا يا جبريل .

قال : إذا عفا عن سيئة جعلها حسنة . (1)

ثم قال سهل : اشهدوا علي أني من ديني أن لا أتبرأ من فساق أمة محمد صلى الله عليه وسلم وفجارهم وقاتلهم وزانيهم وسارقهم ، فإن الله تعالى لا يُدْرَكُ غاية كرمه وفضله

وإحسانه بأمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة .

---

(1) شعب الإيمان 5/ 389 (رقم 7043) وقوت القلوب 1/ 334 ، 376 .

(45/669)

قوله : ﴿ وأنيبوا إلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [54] يعني : ارجعوا له بالدعاء والتضرع والمسألة ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [54] يعني : فوضوا الأمور كلها إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 134.135 ﴾

(46/669)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ الآية:

هذه الآية الكريمة تدل على أمرين .

الأول: أن المسرفين ليس لهم أن يقنطوا من رحمة الله مع أنه جاءت آية أخرى تدل على

خلاف ذلك وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ .

والجواب أن الإسراف يكون بالكفر ويكون بارتكاب المعاصي دون الكفر فآية ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ في الإسراف الذي هو كفر وآية ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ في الإسراف بالمعاصي دون الكفر ، ويجاب أيضا بأن آية ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ فيما إذا لم يتوبوا وأن قوله ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ﴾ فيما إذا تابوا .

والأمر الثاني: أنها دلت على غفران جميع الذنوب ، مع أنه دلت آيات أخر على أن من الذنوب ما لا يغفر وهو الشرك بالله تعالى .

والجواب – أن الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ مخصصة لهذه ، وقال بعض العلماء هذه مقيدة بالتوبة بدليل قوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ فإنه عطف على قوله ﴿ لا تقنطوا ﴾ ، وعليه فلا إشكال وهو اختيار ابن كثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 252 . 253 ﴾

(47/669)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾

التسمية " بيا عبادي " مَدْحٌ ، والوصفُ بأنهم " أسرفوا " ذمٌ . فلمَّا قال : ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ طمع المطيعون في أن يكونوا هم المقصودين بالآية ، فرفعوا رؤوسَهم ، ونكَّسَ العُصَاةُ رؤوسَهم وقالوا : مَنْ نحن . . . حتى يقول لنا هذا ؟ !

فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ﴾ فانقلب الحالُ ؛ فهؤلاء الذين نكَّسوا رؤوسهم انتعشوا وزالت ذِلَّتُهُم ، والذين رفعوا رؤوسَهم أطرقوا وزالت صَوْلَتُهم .

ثم أزال الأُعجوبةَ عن القسمة بما قَوي رجاءَهم بقوله : ﴿ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ يعني إنْ أَسْرَفْتَ فعلى نَفْسِكَ أسرفت .

﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ : بعد ما قطعْتَ اختلافَك إلى بابنا فلا ترفَعْ قلبك عَنَّا .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ الألف واللام في " الذنوب " للاستغراق والعموم ، والذنوب جمع ذنب ، وجاءت " جميعاً " للتأكيد ؛ فكأنه قال : أَغْفِرُ ولا أترك ، أعفوا ولا أُبْقِي .

ويقال إنْ كانت لكم جِناية كثيرة عميمة فلي بشأنكم عناية قديمة . (1)

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) ﴾

الإنابة الرجوع بالكلية . وقيل الرق بين الإنابة وبين التوبة أن التائبَ يرجع من خوف العقوبة ، وصاحْبُ الإنابة يرجع استحياءً لِكَرَمه . (2)

﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ : وأخلِصوا في طاعتكم ، والإسلامُ – الذي هو بعد الإنابة – أَنْ يعلمَ أَنّ نجاتَه بفَضْلِه لا بإنابته ؛ فبفضله يصل إلى إنابته . . . لا بإنابته يصل إلى فضله .

﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴾ قبل الفراق . ويقال هو أن يفوتَه وقتُ الرجوعِ بشهود الناس ثم لا يَنْصَرِفُ عن ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 287 . 288 ﴾

---

(1) واضح أن القشيري يحاول بطرق شتى أن يفتح كل أبواب الأمل أمام اليائسين ، فمهما كانت الذنوب كثيرة فعفو اللّه أكبر وأشمل ، وبدا أن النص القرآني يحتمل كل المحاولات التي يبذلها القشيري بسماحته الصوفية الأصيلة .

(2) ينقل القشيري عن شيخه الدقاق قوله في هذا الخصوص : «أولها توبة وأوسطها إنابة وآخرها أوبة» .

ثم يعلق على ذلك قائلا : فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة ، ومن تاب طمعا في الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر – لا لرغبة في ثواب أو رهبة من عقاب – فهو صاحب أوبة . ويقال التوبة صفة المؤمنين (و توبوا إلى اللّه جميعا أيها المؤمنون) ، والإنابة

صفة الأولياء والمقربين (وجاء بقلب منيب) ، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين (نعم العبد إنه أواب) الرسالة ص 50 .

(48/669)

قوله تعالى ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان للإنسان عند وقوع الخسران أقوال وأحوال لو تخيلها قبل هجومه لحسب حسابه فباعد أسبابه .

علل الإقبال على الاتباع بغاية الجهد والنزاع فقال : ﴿ أن ﴾ أي كراهة أن ﴿ تقول ﴾ ولما كان الموقع للإنسان في النقصان إنما هو حظوظه وشهواته المخالفة لعقله ، عبر بقوله :

﴿ نفس ﴾ أي عند وقوع العذاب لها ، وإفرادها وتنكيرها كاف في الوعيد لأن كل أحد يجوز أن يكون هو المراد ﴿ يا حسرتى ﴾ والتحسر : الاغتمام على ما فات والتندم عليه ، وألحق الألف بدلاً من الياء تعظيماً له ، أي يا طول غماه لانكشاف ما فيه صلاحي عني وبعده مني فلا وصول لي إليه لاستدراك ما فات منه ، وذلك عند انكشاف أحوالها ، وحلول أوجالها وأهوالها ودل على تجاوز هذا التحسر الحد قراءة أبي جعفر " حسرتاي " بالجميع بين العوض وهو الألف والمعوض عنه وهو الياء ، وحل المصدر لأن ما حل إليه أصرح في الإسناد وأفخم ، وأدل على المراد وأعظم ، فقال : ﴿ على ما فرطت ﴾ أي بما ضيعت فانفرط مني نظامه ، وتعذر انضمامه والتئامه .

(49/669)

ولما كان حق كل أحد قريباً منه حساً أو معنى حتى كأنه إلى جنبه ، وكان بالجنب قوام الشيء ولكنه قد يفرط فيه لكونه منحرفاً عن الوجاه والعيان ، فيدل التفريط فيه على نسبة المفرط لصاحبه إلى الغفلة عنه ، وذلك أمر لا يغفر ، قال : ﴿ في جنب ﴾ وصرف القول إلى الاسم الأعظم لزيادة التهويل بقوله : ﴿ الله ﴾ أي حق الملك الأعظم الذي هو غير مغفول عنه ولا متهاون به .

ولما كان المضرور المعذب المقهور يبالغ في الاعتراف ، رجاء القبول والانصراف ، قال مؤكداً مبالغة في الإعلام بالإقلاع عما كان يقتضيه حاله ، ويصرح به مقاله ، من أنه على الحق واجد الجد : ﴿ وإن ﴾ أي والحال أني ﴿ كنت ﴾ أي كان ذلك في طبعي ﴿ لمن الساخرين ﴾ أي المستهزئين المتكبرين المنزلين أنفسهم في غير منزلتها ، وذلك أنه ما كفاني المعصية حتى كنت أسخر من أهل الطاعة ، أي تقول : هذا لعله يقيل منها ويعفي عنها على عادة المترقين في وقت الشدائد ، لعلهم يعادون إلى أجمل العوائد .

ولما كانت النفس إذا وقعت في ورطة لا تدع وجهاً محتملاً حتى تتعلق بأذياله ، وتمت بحباله وتفتر بمحاله ، قال حاكياً كذبها حيث لا يغني إلا الصدق : ﴿ أو تقول ﴾ أي عند نزول ما لا قبل لها به ﴿ لو أن ﴾ وأظهر ولم يضمر إظهاراً للتعظيم وتلذذاً بذكر الاسم الشريف فقال : ﴿ الله ﴾ أي الذي له القدرة الكاملة والعلم الشامل ﴿ هداني ﴾ أي ببيان الطريق ﴿ لكنت ﴾ أي ملازماً ملازمة المطبوع على كوني ﴿ من المتقين ﴾ أي الذي لا يقدمون على فعل ما لم يدلهم عليه دليل .

(50/669)

ولما ذكر حالها في الاعتراف بالبطلان ، ثم الفزع إلى الزور والبهتان ، أتبعه التمني الذي لا يفيد غير الخسران ، فقال : ﴿ أو تقول ﴾ أي تلك النفس المفرطة ﴿ حين ترى العذاب ﴾ أي الذي هاجمها للرحمة أو النقمة : ﴿ لو أن ﴾ أي يا ليت ﴿ لي كرة ﴾ أي رجعة إلى دار العمل لأتمكن منه ﴿ فأكون ﴾ أي فيتسبب عن رجوعي إليها أن أكون ﴿ من المحسنين ﴾ أي العاملين بالإحسان الذي دعا إليه القرآن ، هذا الإعراب – وهو عطفه على الجواب – أوفق لبقية الآيات التي من سلكه .

ولما حذر سبحانه بما يكون للمأخوذ من سيىء الأحوال وفظيع الأهوال ، وكان معنى ما تقدم من كذبه وتمنيه أنه ما جاءني بيان ولا كان لي وقت أتمكن فيه من العمل ، قال تعالى مكذباً له : ﴿ بلى ﴾ أي قد كان لك الأمران كلاهما ﴿ قد جاءتك ﴾ ولفت القول إلى التكلم مع تجريد الضمير عن مظهر العظمة لما تقدم من موجبات استحضارها إعلاماً بتناهي الغضب بعد لفته إلى تذكير النفس المخاطبة المشير إلى أنها فعلت في العصيان فعل الأقوياء الشداد من التكذيب والكبر مع القدرة في الظاهر على تأمل الآيات ، واستيضاح الدلالات ، والمشي على طرق الهدايات بعد ما أشار تأنيثها إلى ضعفها عن حمل العذاب وغلبة النقائص لها فقال : ﴿ آياتي ﴾ على عظمتها في البيان الذي ليس مثله بيان في وقت كنت فيه متمكناً من العمل بالجنان واللسان والأركان ﴿ فكذبت بها ﴾ جرأة على الله وقلة مبالاة بالعواقب ﴿ واستكبرت ﴾ أي عددت نفسك كبيراً عن قبولها ﴿ وكنت ﴾

أي كوناً كأنه جبلة لك لشدة توغلك فيه وحرصك عليه ﴿ من الكافرين ﴾ أي العريقين في ستر ما ظهر من أنوار الهداية للتكذيب تكبراً لم يكن لك مانع من الإحسان إلا ذلك لا عدم البيان ولا عدم الزمان القابل للعمل .

(51/669)

ولما كان قد تعمد الكذب عند مس العذاب في عدم البيان والوقت القابل ، قال تعالى محذراً من حاله وحال أمثاله ، ولفت القول إلى من لا يفهمه حق فهمه غيره تسلية له وزيادة في التخويف لغيره : ﴿ ويوم القيامة ﴾ أي الذي لا يصح في الحكمة تركه ﴿ ترى ﴾ أي يا محسن ﴿ الذين كذبوا ﴾ وزاد في تقبيح حالهم في اجترائهم بلفت القول إلى الاسم الأعظم فقال : ﴿ على الله ﴾ أي الحائز لجميع صفات الكمال بأن وصفوه بما لا يليق به وهو منزه عنه من أنه فعل ما لا يليق بالحكمة من التكليف مع عدم البيان ، ومن خلق الخلق يعدو بعضكم على بعض من غير حساب يقع فيه الإنصاف بين الظالم والمظلوم ، أو ادعوا له شريكاً أو نحو ذلك ، قال ابن الجوزي : وقال الحسن : هم الذين يقولون : إن شئنا فعلنا ، وإن شئنا لم نفعل – انتهى ، وكأنه عنى المعتزلة الذين اعتزلوا مجلسه وابتدعوا قولهم : إنهم يخلقون أفعالهم ، ويدخل فيه كل من تكلم في الدين بجهل ، وكل من كذب وهو يعلم أنه كاذب

في أيّ شيء كان ، فإنه من حيث إن فعله فعل من يظن أن الله لا يعلم كذبه أو لا يقدر على جزائه كأنه كذب على الله – تراهم بالعين حال كونهم ﴿ وجوههم مسودة ﴾ مبتدأ وخبر ، وهو حال الموصول أي ثابت سوادها زائد البشاعة والمعظم في الشناعة بجعل ذلك إمارة عليهم ليعرفهم من يراهم بما كذبوا في الدنيا فإنهم لم يستحيوا من الكذب المخزي ، أليس ذلك زاجراً عن مطلق الكذب فكيف بالكذب على الله الذي جهنم سجنه فكيف بالمتكبرين عليه ﴿ أليس في جهنم ﴾ أي التي تلقى فيها بالتجهم والعبوسة ﴿ مثوى ﴾ أي منزل ﴿ للمتكبرين ﴾ الذي تكبروا على اتباع أمر الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 463.465 ﴾

(52/669)

فصل

قال الفخر :

وسادسها : قولهم ﴿ يا حسرتى على مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ الله ﴾ ولا يتحسر المرء على أمر سبق منه إلا وكان يصح منه أن يفعله ، وسابعها : قوله تعالى : ﴿ على مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ الله ﴾ ومن لا يقدر على الإيمان كما يقول القوم ولا يكون الإيمان من فعله لا يكون

مفرطاً ، وثامنها : ذمه لهم بأنهم من الساخرين ، وذلك لا يتم إلا أن تكون السخرية فعلهم وكان يصح منهم أن لا يفعلوه ، وتاسعها : قوله ﴿ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِى ﴾ أي مكنني ﴿ لَكُنتُ مِنَ المتقين ﴾ وعلى هذا قولهم إذا لم يقدر على التقوى فكيف يصح ذلك منه ، وعاشرها : قوله ﴿ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ المحسنين ﴾ وعلى قولهم لو رده الله أبداً كرة بعد كرة ، وليس فيه إلا قدرة الكفر لم يصح أن يكون محسناً ، والحادي عشر : قوله تعالى موبخاً لهم ﴿ بلى قَدْ جَاءتْكَ ءاياتى فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت وكُنتَ مِنَ الكافرين ﴾ فبيّن تعالى أن الحجة عليهم لله لأن الحجة لهم على الله ، ولو أن الأمر كما قالوا لكان لهم أن يقولوا : قد جاءتنا الآيات ولكنك خلقت فينا التكذيب بها ولم تقدرنا على التصديق بها .

والثاني عشر : أنه تعالى وصفهم بالتكذيب والاستكبار والكفر على وجه الذم ولو لم تكن هذه الأشياء أفعالاً لهم لما صح الكلام ، والجواب عنه أن هذه الوجوه معارضة ، بما أن القرآن مملوء من أن الله تعالى يضل ويمنع ويصدر منه اللين والقسوة والاستدراج ، ولما كان هذا التفسير مملوءاً منه لم يكن إلى الإعادة حاجة .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ

اعلم أن هذا نوع آخر من تقرير الوعيد والوعد ، أما الوعيد فقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ وفيه بحثان : أحدهما : أن هذا التكذيب كيف هو ؟ والثاني : أن هذا السواد كيف هو ؟ .

(53/669)

البحث الأول : عن حقيقة هذا التكذيب ، فنقول : المشهور أن الكذب هو الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه ، ومنهم من قال هذا القدر لا يكون كذباً بل الشرط في كونه كذباً أن يقصد الإتيان بخبر يخالف المخبر عنه ، إذا عرفت هذا الأصل فنذكر أقوال الناس في هذه الآية :

(54/669)

قال الكعبي : ويرد الجبر بأن هذه الآية وردت عقيب قوله ﴿ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِى ﴾ [الزمر : 58] يعني أنه ما هداني بل أضلني ، فلما حكى الله عن الكفار ثم ذكر عقيبه ﴿ تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ وجب أن يكون هذا عائداً إلى ذلك الكلام المتقدم ، ثم روي عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما بال أقوام يصلون ويقرأون القرآن ، يزعمون أن الله كتب الذنوب على العباد ، وهم كذبة على الله ، والله مسود وجوههم " واعلم أن أصحابنا قالوا آخر الآية يدل على فساد هذا التأويل لأنه تعالى

قال في آخر الآية : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ وهذا يدل على أن أولئك الذين صارت وجوههم مسودة أقوام متكبرون ، والتكبر لا يليق بمن يقول أنا لا أقدر على الخلق والإعادة والإيجاد ، وإنما القادر عليه هو الله سبحانه وتعالى ، أما الذين يقولون إن الله يريد شيئاً وأنا أريد بضده ، فيحصل مرادي ولا يحصل مراد الله ، فالتكبر بهذا القائل أليق ، فثبت أن هذا التأويل الذي ذكروه فاسد ، ومن الناس من قال إن هذا الوعيد مختص باليهود والنصارى ، ومنهم من قال إنه مختص بمشركي العرب ، قال القاضي يجب حمل الآية على الكل من المشبهة والمجبرة وكذلك كل من وصف الله بما لا يليق به نفياً وإثباتاً ، فأضاف إليه ما يجب تنزيهه عنه أو نزهه عما يجب أن يضاف إليه ، فالكل منهم داخلون تحت هذه الآية ، لأنهم كذبوا على الله ، فتخصيص الآية بالمجبرة والمشبهة أو اليهود والنصارى لا يجوز ، واعلم أنا لو أجرينا هذه الآية على عمومها كما ذكره القاضي / لزمه تكفير الأمة ، لأنك لا ترى فرقة من فرق الأمة إلا وقد حصل بينهم اختلاف شديد في صفات الله تعالى ، ألا ترى أنه حصل الاختلاف بين أبي هاشم وأهل السنة في مسائل كثيرة من صفات الله تعالى ، ويلزم على قانون قول القاضي تكفير أحدهما ، فثبت أنه يجب أن يحمل الكذب المذكور في

الآية على ما إذا قصد الإخبار عن الشيء ، مع أنه يعلم أنه كاذب فيما يقول ، ومثال هذا كفار قريش فإنهم كانوا يصفون تلك الأصنام بالإلهية مع أنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنها جمادات ، وكانوا يقولون إن الله تعالى حرم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، مع أنهم كانوا ينكرون القول بأن الله حرم كذا وأباح كذا ، وكان قائله عالماً بأنه كذب وإذا كان كذلك فإلحاق مثل هذا الوعيد بهذا الجاهل الكذاب الضال المضل (يكون) مناسباً ، أما من لم يقصد إلا الحق والصدق لكنه أخطأ يبعد إلحاق هذا الوعيد به .

البحث الثاني : الكلام في كيفية السواد الحاصل في وجوههم ، والأقرب أنه سواد مخالف لسائر أنواع السواد ، وهو سواد يدل على الجهل بالله والكذب على الله ، وأقول إن الجهل ظلمة ، والظلمة تتخيل كأنها يواد فسواد قلوبهم أوجب سواد وجوههم ، وتحت هذا الكلام أسرار عميقة من مباحث أحوال القيامة ، فلما ذكر الله هذا الوعيد أردفه بالوعد فقال : ﴿ وَيُنَجِّى اللهُ الذين اتقوا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ الآية ، قال القاضي المراد به من اتقى كل الكبائر إذ لا يوصف بالاتقاء المطلق إلا من كان هذا حاله ، فيقال له : أمرك عجيب جداً فإنك قلت لما تقدم قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِى لَكُنتُ مِنَ المتقين ﴾ [الزمر : 57] وجب أن يحمل قوله (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ على الذين قالوا ﴿ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِى ﴾ فعلى هذا القانون لما تقدم قوله ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين

كَذَبُواْ عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 7 . 9 ﴾

(56/669)

وقال ابن عطية في الآيات السابقة :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾

هذه الآية عامة في جميع الناس إلى يوم القيامة في كافر ومؤمن ، أي إن توبة الكافر تمحو ذنوبه ، وتوبة العاصي تمحو ذنبه . واختلف هل يكون في المشيئة أو هو مغفور له ولا بد ؟ فقالت فرقة من أهل السنة : هو مغفور له ولا بد ، وهذا مقتضى ظواهر القرآن ، وقالت فرقة : التائب في المشيئة ، لكن يغلب الرجاء في ناحيته ، والعاصي في المشيئة ، لكن يغلب الخوف في ناحيته .

واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية ، فقال عطاء بن يسار : نزلت في وحشي قاتل حمزة . وقال قتادة والسدي وابن أبي إسحاق : نزلت في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا وفتنهم قريش فافتتنوا ، ثم ندموا وظنوا أنهم لا توبة لهم فنزلت الآية فيهم ، منهم الوليد بن الوليد ، وهشام بن العاصي ، وهذا قول عمر بن الخطاب وأنه كتبها بيده إلى هشام بن العاصي

الحديث . وقالت فرقة : نزلت في قوم كفار من أهل الجاهلية ، قالوا : وما ينفعنا الإسلام ونحن قد زنينا وقتلنا الناس وأتينا كل كبيرة فنزلت الآية فيهم . وقال علي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عمر : هذه أرجى آية في القرآن . وروى ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال : " ما أحب أن لي الدنيا بما فيها بهذه الآية " ، ﴿ يا عبادي ﴾ و: ﴿ أسرفوا ﴾ معناه : أفرطوا وتعدوا الطور . والقنط . أعظم اليأس .

وقرأ نافع وجمهور الناس : " تقَنطوا " بفتح النون . قال أبو حاتم : يلزمهم أن يقرؤوا : ﴿ من بعد ما قنطوا ﴾ [الشورى : 28] بالكسر ، ولم يقرأ به أحد . وقرأ الأشهب العقيلي بضم النون . وقرأ أبو عمرو وابن وثاب بكسرها ، وهي لغات .

(57/669)

وقوله : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ عموم بمعنى الخصوص ، لأن الشرك ليس بداخل في الآية إجماعاً ، وهي أيضاً في المعاصي مقيدة بالمشيئة . و ﴿ جميعاً ﴾ نصب هلى الحال . وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : " إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي " . وقرأ ابن مسعود : " إن الله يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء " . ﴿ وأنيبوا ﴾ معناه : ارجعوا وميلوا بنفوسكم ، والإنابة : الرجوع بالنفس إلى الشيء .

وقوله : ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب ﴾ توعد بعذاب الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ واتبعوا أحسن ﴾ معناه : أن القرآن العزيز تضمن عقائد نيرة وأوامر ونواهي منجية وعدات على الطاعات والبر وحدوداً على المعاصي ووعيداً على بعضها ، فالأحسن أن يسلك الإنسان طريق التفهم والتحصيل ، وطريق الطاعة والانتهاء والعفو في الأمور ونحو ذلك ، فهو أحسن من أن يسلك طريق الغفلة والمعصية فيجد أو يقع تحت الوعيد ، فهذا المعنى هو المقصود ب ﴿ أحسن ﴾ ، وليس المعنى أن بعض القرآن أحسن من بعض من حيث هو قرآن ، وإنما هو أحسن كله بالإضافة إلى أفعال الإنسان وما يلقى من عواقبها . قال السدي : الأحسن هو ما أمر الله تعالى به في كتابه . و: ﴿ بغتة ﴾ معناه : فجأة وعلى غير موعد . و: ﴿ تشعرون ﴾ مشتق من الشعار .

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56)

﴿ أن ﴾ في هذه الآية مفعول من أجله أي أنيبوا وأسلموا من أجل أن تقول .

(58/669)

وقرأ جمهور الناس : " يا حسرتى " والأصل " يا حسرتي " ، ومن العرب من يرد ياء الإضافة ألفاً فيقول : يا غلاماً ويا جاراً . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : " يا حسرتايَ " بفتح

الياء ، ورويت عنه بسكون الياء ، قال أبو الفتح : جمع بين العوض والمعوض منه . وروى ابن جماز عن أبي جعفر : " يا حسرتي " بكسر التاء وسكون الياء . قال سيبويه : ومعنى نداء الحسرة والويل ، أي هذا وقتك وزمانك فاحضري . و: ﴿ فرطت ﴾ معناه : قصرت في اللازم .

وقوله تعالى : ﴿ في جنب الله ﴾ معناه : في مقاصدي إلى الله وفي جهة طاعته ، أي في تضييع شريعته والإيمان به . والجنب : يعبر به عن هذا ونحوه . ومنه قول الشاعر : [الطويل]

أفي جنب بكر قطعتني ملامة . . . لعمري لقد طالت ملامتها بيا

ومنه قول الآخر :

الناس جنب والأمير جنب . . . وقال مجاهد : ﴿ في جنب الله ﴾ أي في أمر الله . وقول الكافر : ﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ ندامة على استهزائه بأمر الله تعالى . والسخر : الاستهزاء .

وقوله : ﴿ أو تقول ﴾ في الموضعين عطف على قوله : ﴿ أن تقول ﴾ الأول . و: ﴿ كرة ﴾ مصدر من كر يكر . وقوله : ﴿ فأكون ﴾ نصب بأن مضمرة مقدرة ، وهو عطف على قول : ﴿ كرة ﴾ والمراد : لو أن لي كرة فكونا ، فلذلك احتيج إلى : ليكون مع الفعل بتأويل المصدر ، ونحوه قول الشاعر أنشده الفراء : [الطويل]

فما لك منها غير ذكرى وحسبة . . . وتسأل عن ركبانها أين يمموا

وقد قرر بعض الناس الكلام : أنه لي أن أكر فأكون ، ذكره الطبري ، وهذا الكون في هذه الآية داخل في التمني .

(59/669)

وقوله : ﴿ بلى ﴾ جواب لنفي مقدر في قوله : هذه النفس كأنها قالت : فعمري في الدنيا لم يتسع للنظر ، أو قالت : فإني لم يتبين لي الأمر في الدنيا ونحو هذا ، وحق ﴿ بلى ﴾ أن تجيء بعد نفي عليه تقرير ، وقرأ جمهور الناس " جاءتكَ " بفتح الكاف ، وبفتح التاء من قوله : " فكذبتَ " و " استكبرتَ وكنتَ " على مخاطبة الكافر ذي النفس . وقرأ ابن يعمر والجحدري بكسر الكاف والتاء في الثلاثة على خطاب النفس المذكورة . قال أبو حاتم : روتها أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقرأ الأعمش : " بلى قد جاءته " بالهاء . ثم خاطب تعالى نبيه بخبر يراه يوم القيامة من حالة الكفار ، في ضمن هذا الخبر وعيد بين لمعاصريه .

وقوله : ﴿ ترى ﴾ هو من رؤية العين ، وكذبهم على الله : هو في أن جعلوا لله البنات والصاحبة ، وشرعوا ما لم يأذن به إلى غير ذلك .

وقوله : ﴿ وجوههم مسودة ﴾ جملة في موضع الحال ، وظاهر الآية : أن لون وجوههم يتغير ويسود حقيقة ، ويحتمل أن يكون في العبارة تجوز ، وعبر بالسواد عن أن يراد به وجوههم وغالب همهم وظاهر كآبتهم . والمثوى : موضع الثواء والإقامة . والمتكبر : رافع نفسه إلى فوق حقه ، وقال النبي عليه السلام : " الكبر سفه وغمط الناس أي احتقارهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(60/669)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يا حسرتى ﴾

﴿ أَنْ ﴾ في موضع نصب أي كراهة ﴿ أَنْ تَقُولَ ﴾ وعند الكوفيين لئلا تقول وعند البصريين حذر ﴿ أَنْ تَقُولَ ﴾ .

وقيل : أي من قبل ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ لأنه قال قبل هذا : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب ﴾ .

الزمخشري : فإن قلت لم نكّرت ؟ قلت : لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر . ويجوز أن يريد نفساً متميزة من الأنفس ، إمّا بلجاج في الكفر شديد ، أو بعقاب عظيم .

ويجوز أن يراد التكثير كما قال الأعشى :

ورُبَّ بَقيع لو هَتَفْتُ بجَوِّهِ . . .

أتاني كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرأْسَ مُغْضَبَا

وهو يريد أفواجاً من الكرام ينصرونه لا كريماً واحداً ، ونظيره : رُبَّ بلدٍ قطعت ، ورُبَّ بطلٍ قارعت ، ولا يقصد إلا التكثير .

"يَا حَسْرَتَا" والأصل "يَا حَسْرَتِي" فأبدل من الياء ألف ؛ لأنها أخف وأمكن في الاستغاثة بمد الصوت ، وربما ألحقوا بها الهاء ؛ أنشد الفراء :

يا مَرْحَبَاهُ بحمارٍ ناجِيَهْ . . .

إذا أَتَى قَرَّبْتُه للسَّانِيَهْ

وربما ألحقوا بها الياء بعد الألف ؛ لتدل على الإضافة .

وكذلك قرأها أبو جعفر : "يَا حَسْرَتَايَ" والحسرة الندامة .

﴿ على مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ الله ﴾ قال الحسن : في طاعة الله .

وقال الضحاك : أي في ذكر الله عز وجل .

قال : يعني القرآن والعمل به .

وقال أبو عبيدة : "في جنب الله" أي في ثواب الله .

وقال الفراء : الجنب القرب والجوار ؛ يقال فلان يعيش في جنب فلان أي في جواره ؛ ومنه

﴿ والصاحب بالجنب ﴾ [النساء : 36] أي على ما فرطت في طلب جواره وقربه وهو الجنة .

وقال الزجاج : أي على ما فرطت في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه .

والعرب تسمي السبب والطريق إلى الشيء جنباً ؛ تقول : تجرعت في جنبك غصصاً ؛ أي لأجلك وسببك ولأجل مرضاتك .

(61/669)

وقيل : "فِي جَنْبِ اللَّهِ" أي في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله عز وجل وثوابه ، والعرب تسمي الجانب جنباً ، قال الشاعر :

قُسِمَ مَجْهُوداً لِذاكَ الْقَلْبُ . . .

النَّاسُ جَنْبٌ والأَمِيرُ جَنْبُ

يعني الناس من جانب والأمير من جانب .

وقال ابن عرفة : أي تركت من أمر الله ؛ يقال ما فعلت ذلك في جنب حاجتي ؛ قال كُثَيِّر :

أَلاَ تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي جَنْبِ عاشِقٍ . . .

له كَبِدٌ حرَّى عليك تَقَطَّعُ

وكذا قال مجاهد ؛ أي ضيعت من أمر الله .

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" ما جلس رجل مجلساً ولا مشى ممشى ولا اضطجع مضطجعاً لم يذكر الله عز وجل فيه إلا كان عليه تِرَةً يوم القيامة " أي حسرة ؛ خرجه أبو داود بمعناه .

وقال إبراهيم التيمي : من الحسرات يوم القيامة أن يرى الرجل ماله الذي أتاه الله في الدنيا يوم القيامة في ميزان غيره ، قد ورثه وعمل فيه بالحق ، كان له أجره وعلى الآخر وزره ، ومن الحسرات أن يرى الرجل عبده الذي خوّله الله إياه في الدنيا أقرب منزلة من الله عز وجل ، أو يرى رجلاً يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يوم القيامة وعمي هو .

﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ الساخرين ﴾ أي وما كنت إلا من المستهزئين بالقرآن وبالرسول في الدنيا وبأولياء الله (تعالى) : قال قتادة : لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها .

ومحل "إِن كنت" النصب على الحال ؛ كأنه قال : فرطت وأنا ساخر ؛ أي فرطت في حال سخريتي .

وقيل وما كنت إلا في سخرية ولعب وباطل ؛ أي ما كان سعيي إلا في عبادة غير الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولَ ﴾ هذه النفس ﴿ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِي ﴾ أي أرشدني إلى دينه ﴿ لَكُنتُ مِنَ المتقين ﴾ أي الشرك والمعاصي .

وهذا القول لو أن الله هداني لاهتديت قول صدق .

وهو قريب من احتجاج المشركين فيما أخبر الرب جل وعز عنهم في قوله : ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ [الأنعام : 148] فهي كلمة حق أريد بها باطل ؛ كما قال عليّ رضي الله عنه لما قال قائل من الخوارج لا حكم إلا لله .

﴿ أَوْ تَقُولَ ﴾ يعني هذه النفس ﴿ حِينَ تَرَى العذاب لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ أي رجعة .

﴿ فَأَكُونَ ﴾ نصب على جواب التمني ، وإن شئت كان معطوفاً على ﴿ كَرَّةً ﴾ لأن معناها أن أكر ؛ كما قال الشاعر :

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْنِي . . .

أَحبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُفُوفِ

وأنشد الفراء :

فمَالكَ مِنها غَيْرُ ذِكْرى وخَشْيَةٍ . . .

وتَسْأَلَ عن رُكْبَانِها أَيْنَ يَمَّمُوا

فنصب و (تسأل) على موضع الذكرى ؛ لأن معنى الكلام فمالك منها إلا أن تذكر .

ومنه للبس عباءة وتقرّ ؛ أي لأن ألبس عباءة وتقرّ .

وقال أبو صالح : كان رجل عالم في بني إسرائيل وجد رقعة : إن العبد ليعمل الزمان الطويل بطاعة الله فيختم له عمله بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بمعصية الله ثم يختم له عمله بعمل رجل من أهل الجنة فيدخل الجنة ؛ فقال : ولأي شيء أتعب نفسي فترك عمله وأخذ في الفسوق والمعصية ، وقال له إبليس : لك عمر طويل فتمتع في الدنيا ثم تتوب ، فأخذ في الفسوق وأنفق ماله في الفجور ، فأتاه ملك الموت في ألذ ما كان ، فقال : يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ؛ ذهب عمري في طاعة الشيطان ، فندم حين لا ينفعه الندم ؛ فأنزل الله خبره في القرآن .

وقال قتادة : هؤلاء أصناف ؛ صنف منهم قال : ﴿ يا حسرتى على مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ الله ﴾ .

وصنف منهم قال : ﴿ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ المتقين ﴾ .

(63/669)

وقال آخر : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ المحسنين ﴾ فقال الله تعالى ردّاً لكلامهم : ﴿ بلى قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِي ﴾ قال الزجاج : "بَلَى" جواب النفي وليس في الكلام لفظ النفي ، ولكن معنى ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ﴾ ما هداني ، وكأن هذ القائل قال ما هدِيت ؛ فقيل : بلى قد

بيّن لك طريق الهدى فكنت بحيث لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن .

"آيَاتِي" أي القرآن .

وقيل : عنى بالآيات المعجزات ؛ أي وضح الدليل فأنكرته وكذبته .

﴿ واستكبرت ﴾ أي تكبرت عن الإيمان ﴿ وَكُنتَ مِنَ الكافرين ﴾ .

وقال : "اسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ" وهو خطاب الذكر ؛ لأن النفس تقع على الذكر والأنثى .

يقال : ثلاثة أنفس .

وقال المبرد ؛ تقول العرب نفس واحد أي إنسان واحد .

وروى الربيع بن أنس عن أم سَلَمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت وكُنتَ مِنَ الكافرين ﴾ .

وقرأ الأعمش ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْهُ آيَاتِي ﴾ وهذا يدل على التذكير .

والربيع بن أنس لم يلحق أمّ سَلَمة إلا أن القراءة جائزة ؛ لأن النفس تقع للمذكر والمؤنث .

وقد أنكر هذه القراءة بعضهم وقال : يجب إذا كسر التاء أن تقول وكنت من الكوافر أو من الكافرات .

قال النحاس : وهذا لا يلزم ؛ ألا ترى أن قبله ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ ثم قال : ﴿ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ ولم يقل من السواخر ولا من الساخرات .

والتقدير في العربية على كسر التاء ﴿ وَاسْتَكْبَرْتِ وَكُنْتِ ﴾ من الجمع الساخرين أو من

الناس الساخرين أو من القوم الساخرين .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أي مما حاط بهم من غضب الله ونقمته .

وقال الأخفش : ﴿ تَرَى ﴾ غير عامل في قوله : ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ إنما هو ابتداء وخبر .

(64/669)

الزمخشري : جملة في موضع الحال إن كان "تَرَى" من رؤية البصر ، ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب .

﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ وبيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الكبر فقال عليه السلام : " سفَهُ الحقّ وغَمْصُ الناس " أي احتقارهم .

وقد مضى في "البقرة" وغيرها .

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم : " يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذرّ يلحقهم الصغار حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ يا عبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾

أي أفرطُوا في الجنايةِ عليها بالإسرافِ في المعَاصي . وإضافةُ العبادِ تخصصه بالمؤمنين على ما عرف القرآن الكريم .

﴿ لا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ أي لا تيأسُوا من مغفرته أولاً ولا تفضُّله ثانياً ﴿ إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ عفواً لمن يشاءُ ولو بعد حينٍ بتعذيب في الجملة بغيره حسبما يشاء . وتقييده بالتَّوبةِ خلاف الظَّاهرِ كيف لا وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ ظاهرٌ في الإطلاقِ فيما عدا الشّرك . وممَّا يدلُّ عليه التَّعليلُ بقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ على المبالغة وإفادةِ الحصرِ والوعد بالرَّحمةِ بعد المغفرة وتقديمُ ما يستدعي عمومَ المغفرة مَّما في عبادي من الدّلالةِ على الذلَّةِ والاختصاص المقتضيينِ للتَّرحم ، وتخصيصُ ضررِ الإسرافِ بأنفسهم والنَّهيُ عن القُنوطِ مطلقاً عن الرَّحمةِ فضلاً عن المغفرة وإطلاقِها وتعليلهُ بأنَّ الله يغفرُ الذُّنوبَ ووضعُ الاسمِ الجليلِ موضعَ الضَّميرِ لدلالتهِ على أنَّه المستغنِي والمنعمُ على الإطلاقِ .

والتأكيد بالجميعِ وما رُوي من أسبابِ النُّزولِ الدَّالَّةِ على ورود الآيةِ فيمن تابَ لا يقتضِي اختصاصَ الحكم بهم ووجوبُ حملِ المطلقِ على المقيّد في كلامٍ واحدٍ مثل أكرمِ الكاملينَ غيرُ مسلَّمٍ فكيف فيما هو بمنزلةِ كلامٍ واحدٍ ولا يخلُّ بذلك الأمرُ بالتَّوبةِ ، والإخلاص في قوله تعالى : ﴿ وَأَنِيبُواْ إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ إذْ ليسَ المدَّعَى أنَّ الآيةَ تدلُّ على حصولِ المغفرةِ لكل أحدٍ من غير توبةٍ وسبقِ تعذيبٍ لتُغنيَ عن الأمرِ بهما وتُنافي الوعيدَ بالعذابِ ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي القرآنَ أو المأمورَ به دون المنهيِّ عنه أو العزائمَ دون الرُّخصِ أو النَّاسخَ دون المنسوخِ ولعلَّه ما هو أنجى وأسلم كالإنابةِ والمواظبةِ على الطَّاعةِ ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ بمجيئِه لتتداركوا وتتأهَّبوا له ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ أي كراهةَ أنْ تقولَ . والتَّنكيرُ للتَّكثيرِ كما في قولِه تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ فإنَّه مسلكٌ ربَّما يسلك عند إرادة التكثيرِ والتَّعميمِ ، وقد مرَّ تحقيقُه في مطلع سورة الحجرِ ﴿ ياحسرتى ﴾ بالألفِ بدلاً من ياءِ الإضافةِ وقُرِئ يا حسرتَاه بهاء السَّكتِ وقفاً . وقُرِئ يا حسرتَاي بالجمعِ بين العوضينِ . وقُرِئ با حسرتي على الأصلِ أي احضُري فهذا أوانُ

حُضورِك . ﴿ على مَا فَرَّطتُ ﴾ أي على تفريطي وتقصيرِي ﴿ فِى جَنبِ الله ﴾ أي حانبه وفي حقِّه وطاعتِه وعليه قول مَن قال

أَمَا تتَّقينَ الله في جنبِ وامق . . . له كَبدٌ حرَّى وعَينٌ ترقرقُ

وهو كنايةٌ فيها مبالغة وقيل : في ذاتِ الله على تقديرِ مضافٍ كالطَّاعة وقيل : في قُربِه من قوله تعالى :

(67/669)

﴿ والصاحب بالجنب ﴾ وقُرِىء . في ذكرِ الله ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ الساخرين ﴾ أي المُستهزئين بدينِ الله تعالى وأهلِه . ومحلُّ الجملةِ النَّصب على الحالِ أي فرَّطتُ وأنا ساخرٌ ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِى ﴾ بالإرشاد إلى الحقّ ﴿ لَكُنتُ مِنَ المتقين ﴾ الشّركَ والمعاصيَ ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العذاب لَوْ أَنَّ كَرَّةً ﴾ رجعةً إلى الدُّنيا ﴿ فَأَكُونَ مِنَ المحسنين ﴾ في العقيدةِ والعملِ وأو للدّلالةِ على أنَّها لا تخلُو عن هذه الأقوالِ تحسُّراً وتحيُّراً وتعللاً بما لا طائل تحته . وقولُه تعالى : ﴿ بلى قَدْ جَاءتْكَ ءاياتى فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت وكُنتَ مِنَ الكافرين ﴾ ردٌّ من الله تعالى عليه لما تضمَّنه قولُه لو أنَّ الله هداني من معنى النَّفيِ وفصله عنه لما أنَّ تقديمَه يفرقُ القرائنَ وتأخيرُ المردودِ يخلُّ بالتَّرتيب الوجوديِّ لأنَّه

يتحسَّرُ بالتَّفريطِ ثم يتعلَّلُ بفقدِ الهدايةِ ثم يتمنَّى الرَّجعةَ وهو لا يمنعُ تأثيرَ قُدرةِ الله تعالى في فعلِ العبدِ ولا ما فيه من إسنادِ الفعلِ إليه كما عرفتَ ، وتذكيرُ الخطابِ باعتبار المَعنْى وقُرِىء بالتَّأنيثِ .

﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله ﴾ بأنْ وصفُوه بما لا يليقُ بشأنِه كاتّخاذ الولدِ ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ بما ينالهم من الشّدَّةِ أو بما يتخيَّلُ عليها من ظُلمة الجهل . والجملةُ حالٌ قد اكتفُي فيها بالضَّميرِ عن الواوِ على أنَّ الرُّؤيةَ بصريةٌ أو مفعولٌ ثانٍ لها على أنَّها عِرفانيةٌ ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾ أي مقامٌ ﴿ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ عن الإيمانِ والطَّاعةِ ، وهو تقريرٌ لما قبله من رُؤيتهم كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(68/669)

وقال الآلوسى :

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ﴾

في موضع المفعول له بتقدير مضاف ، وقدره الزمخشري كراهة وهو منصوب بفعل محذوف يدل عليه ما قبل أي أنذركم وأمركم بأحسن ما أنزل إليكم كراهة أن تقول ، ومن لا يشترط للنصب اتحاد الفاعل يجوز كون الناصب ﴿ أنيبوا ﴾ [الزمر : 54] أو ﴿ اتبعوا ﴾ [

الزمر : 55] وأياً ما كان فهذه الكراهة مقابل الرضا دون الإرادة فلا اعتزال في تقديرها ، وهو أولى من تقدير مخافة كما فعل الحوفي حيث قال : أي أنذرناكم مخافة أن تقول ، وابن عطية جعل العامل ﴿ أنيبوا ﴾ ولم يقدر شيئاً من الكراهة والمخافة حيث قال : أي أنيبوا من أجل أن تقول ، وذهب بعض النحاة إلى أن التقدير لئلا تقول ؛ وتنكير ﴿ تَكَلَّمُ نَفْسٌ ﴾ للتكثير بقرينة المقام كما في قول الأعشى

: ورب بقيع لو هتفت بجوه . . .

أتاني كريم ينفض الرأس مغضباً

فأنه أراد أفواجاً من الكرام ينصرونه لا كريماً واحداً ، وجوز أن يكون للتبعيض لأن القائل بعض الأنفس واستظهره أبو حيان ، قيل : ويكفي ذلك في الوعيد لأن كل نفس يحتمل أن تكون ذلك ، وجوز أيضاً أن يكون للتعظيم أي نفس متميزة من الأنفس إما بلجاج في الكفر شديد أو بعذاب عظيم ، وليس بذاك ﴿ يَا حَسْرَتِي ﴾ بالألف بدل ياء الإضافة ، والمعنى كما قال سيبويه يا حسرتي احضري فهذا وقتك .

وقرأ ابن كثير في الوقف ﴿ يا حسرتاه ﴾ بهاء السكت .

وقرأ أبو جعفر ﴿ يا حسرتي ﴾ بياء الإضافة ، وعنه ﴿ يا حسرتاي ﴾ بالألف والياء التحتية مفتوحة أو ساكنة جمعاً بين العوض والمعوض كذا قيل ، ولا يخفى أن مثل هذا غير جائز اللهم إلا شاذاً استعمالاً وقياساً ، فالأوجه أن يكون ثنى الحسرة مبالغة على نحو لبيك وسعديك وأقام بين ظهريهم وظهرانيهم على لغة بلحرث بن كعب من إبقاء المثنى على الألف في الأحوال كلها ، واختار ذلك "صاحب الكشف" ، وجوز أبو الفضل الرازي أيضاً في كتابه اللوامح أن تكون التثنية على ظاهرها على تلك اللغة ، والمراد حسرة فوت الجنة وحسرة دخول النار ، واعتبار التكثير أولى لكثرة حسراتهم يوم القيامة ﴿ نَفْسٌ ياحسرتى على مَا فَرَّطَتُ ﴾ أي بسبب تفريطي فعلى تعليلية و﴿ مصدرية ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ ﴾ [البقرة : 185] والتفريط التقصير ﴿ فِى جَنبِ الله ﴾ أي جانبه ، قال الراغب : أصل الجنب الجارحة ثم يستعار للناحية والجهة التي تليها كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال ، والمراد هنا الجهة مجازاً ، والكلام على حذف مضاف أي في جنب طاعة الله أو في حقه تعالى أي ما يحق له سبحانه ويلزم وهو طاعته عز وجل ؛ وعلى ذلك قول سابق البربري من شعراء الحماسة

: أما تتقين الله في جنب عاشق . . .

له كبد حرى عليك تقطع

والتفريط في جهة الطاعة كناية عن التفريط في الطاعة نفسها لأن من ضيع جهة ضيع ما فيها بطريق الأولى الأبلغ لكونه بطريق برهاني ، ونير ذلك قول زياد الأعجم

إن السماحة والمروءة والندى . . .

في قبة ضربت على ابن الحشرج

(70/669)

ولا مانع من أن يكون للطاعة وكذا حق الله تعالى بمعنى طاعته سبحانه جهة بالتبعية للمطيع كمكان السماحة وما معها في البيت ، ومما ذكرنا يعلم أنه لا مانع من الكناية كما توهم ، وقال الإمام : سمي الجنب جنباً لأنه جانب من جوانب الشيء ، والشيء الذي يكون من لوازم الشيء وتوابعه يكون كأنه جند من جنوده وجانب من جوانبه فلما حصلت المشابهة بين الجنب الذي هو العضو وبين ما يكون لازماً للشيء وتابعاً له لا جرم حسن إطلاق لفظ الجنب على الحق والأمر والطاعة انتهى .

وجعلوا في الكلام عليه استعارة تصريحية وليس هنا مضاف مقدر ، وليس بذاك .

وقول ابن عباس : يريد على ما ضيعت من ثواب الله ، ومقاتل : على ما ضيعت من ذكر الله ؛ ومجاهد .

والسدي : على ما فرطت في أمر الله ، والحسن : في طاعة الله ، وسعيد بن جبير : في حق الله بيان لحاصل المعنى ، وقيل : الجنب مجاز عن الذات كالجانب أو المجلس يستعمل مجازاً لربه ، فيكون المعنى على ما فرطت في ذات الله .

وضعف بأن الجنب لا يليق إطلاقه عليه تعالى ولو مجازاً ، وركاكته ظاهرة أيضاً ، وقيل : هو مجاز عن القرب أي على ما فرطت في قرب الله .

وضعف بأنه محتاج إلى تجوز آخر ، ويرجع الأمر في الآخرة إلى طاعة الله تعالى ونحوها .

وبالجملة لا يمكن إبقاء الكلام على حقيقته لتنزهه عز وجل من الجنب بالمعنى الحقيقي .

ولم أقف على عد أحد من السلف إياه من الصفات السمعية ، ولا أعول على ما في المواقف ، وعلى فرض العد كلامهم فيها شهير وكلهم مجمعون على التنزيه وسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وفي حرف عبد الله .

وحفصة ﴿ فِى ذِكْرِى الله ﴾ ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ الساخرين ﴾ أي المستهزئين بدين الله تعالى وأهله ، و ﴿ إن ﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة والجملة في محل النصب على الحال عند الزمخشري أي فرطت في حال سخريتي .

(71/669)

وقال في "البحر" : ويظهر أنها استئناف إخبار عن نفسه بما كان عليه في الدنيا لا حال ، والمقصود من ذلك الاخبار التحسر والتحزن .

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ المتقين ﴾ أي من الشرك والمعاصي .

وفسر غير واحد الهداية هنا بالإرشاد والدلالة الموصلة بناء على أنه الأنسب بالشرطية والمطابق للرد بقوله سبحانه : ﴿ بلى ﴾ [الزمر : 59] الخ ، وفسرها أبو حيان بخلق الاهتداء ، وأياً ما كان فالظاهر أن هذه المقالة في الآخرة .

﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العذاب لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ أي رجوعاً إلى الحياة الدنيا ﴿ فَأَكُونَ مِنَ المحسنين ﴾ في العقيدة والعمل ، و ﴿ لَوْ ﴾ للتمني ﴿ فَأَكُونَ ﴾ منصوب في جوابها ، وجوز في "البحر" أن يكون منتصباً بالعطف على ﴿ كَرَّةً ﴾ إذ هو مصدر فيكون مثل قوله

: فما لك عنها غير ذكري وحسرة . . .

وتسأل عن ركبانها أين يمموا

وقول الآخر

: ولبس عباءة وتقر عيني . . .

أحب لي من لبس الشفوف

ثم قال : والفرق بينهما أن الفاء إذا كانت في جواب التمني كانت أن واجبة الإضمار وكان

الكون مترتباً على حصول المتمني لا متمنى ، وإذا كانت للعطف على ﴿ كَرَّةً ﴾ جاز إظهار أن وإضمارها وكان الكون متمني .

(72/669)

﴿ بلى قَدْ جَاءتْكَ ءاياتي فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت وَكُنتَ مِنَ الكافرين ﴾ جواب من الله عز وجل لما تضمنه قول القائل ﴿ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِى ﴾ [الزمر : 57] من نفى أن يكون الله تعالى هداه ورد عليه ، ولا يشترط في الجواب ببلى تقدم النفي صريحاً وقد وقع في موقعه اللائق به لأنه لو قدم على القرينة الأخيرة أعني ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العذاب ﴾ [الزمر : 58] الخ وأوقع بعده غير مفصول بنيهما بها لم يحسن لتبتير النظم الجليل ، فإن القرائن الثلاث متناسبة متناسقة متلاصقة ، والتناسب بينهن أتم من التناسب بين القرينة الثانية وجوابها ، ولو أخرت القرينة الثانية وجعلت الثالثة ثانية لم يحسن أيضا لأن رعاية الترتيب المعنوي وهي أهم تفوت إذ ذاك ، وذلك لأن التحسر على التفريط عند تطاير الصحف على ما يدل عليه مواضع من القرآن العظيم ، والتعلل بعدم الهداية إنما يكون بعد مشاهدة حال المتقين واغتباطهم ، ولأنه للتسلي عن بعض التحسر أو من باب تمسك الغريق فهو لا حق وتمني الرجوع بعد ذوق النار ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار فَقَالُواْ

ياليتنا ياليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ ﴾ [الأنعام : 27] وكذلك لو حمل الوقوف على الحبس على شفيرها أو مشاهدتها ، وكل بعد مشاهدة حال المتقين وما لقوا من خفة الحساب والتكريم في الموقف ، ولأن اللجأ إلى التمني بعد تحقق أن لا جدوى للتعليل .

(73/669)

وقال الطيبي : إن النفس عند رؤية أهوال يوم القيامة يرى الناس مجزيين بأعمالهم فيتحسر على تفويت الأعمال عليها ثم قد يتعلل بأن التقصير لم يكن مني فإذا نظر وعلم أن التقصير كان منه تمني الرجوع ، ثم الظاهر من السياق أن النفوس جمعت بين الأقوال الثلاثة فأو لمنع الخلو ، وجيء بها تنبيهاً على أن كل واحد يكفي صارفاً عن إيثار الكفر وداعياً إلى الإنابة واتباع أحسن ما أنزل وتذكير الخطاب في ﴿ جَاءتْكَ ﴾ الخ على المعني لأن المراد بالنفس الشخص وإن كان لفظها مؤنثاً سماعياً .

وقرأ ابن يعمر .

والجحدري .

وأبو حيوة .

والزعفراني .

وابن مقسم .

ومسعود بن صالح .

والشافعي عن ابن كثير .

ومحمد بن عيسى في اختياره .

والعبسى ﴿ جَاءتْكَ ﴾ الخ بكسر الكاف والتاء ، وهي قراءة أبي بكر الصديق .

وابنته عائشة رضي الله تعالى عنهما ، وروتها أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقرأ الحسن .

والأعمش .

والأعرج ﴿ جأتك ﴾ بالهمز من غير مد بوزن فعتك ، وهو على ما قال أبو حيان :

مقلوب من جاءتك قدمت لام الكلمة وأخرت العين فسقطت الألف .

واستدل المعتزلة بالآية على أن العبد خالق لأفعال .

وأجاب الأشاعرة بأن إسناد الأفعال إلى العبد باعتبار قدرته الكاسبة .

وحقق الكوراني أنه باعتبار قدرته المؤثرة بإذن الله عز وجل لا كما ذهب إليه المعتزلة من أنه باعتبار قدرته المؤثرة أذن الله تعالى أم لم يأذن .

﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ بما ينالهم من الشدة التي تغير ألوانهم حقيقة ، ولا مانع من أن يجعل سواد الوجوه حقيقة علامة لهم غير مترتب على ما

ينالهم ، وجوز أن يكون ذلك من باب المجاز لا أنها تكون مسودة حقيقة بأن يقال : إنهم لما يلحقهم من الكآبة ويظهر عليهم من آثار الجهل بالله عز وجل يتوهم فيه ذلك .

والظاهر أن الرؤية بصرية .

(74/669)

والخطاب إما لسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام ، وإما لكل من تتأتى منه الرؤية ، وجملة ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ في موضع الحال على ما استظهره أبو حيان ، وكون المقصود رؤية سواد وجوههم لا ينافي الحالية كما توهم لأن القيد مصب الفائدة ، ولا بأس بترك الواو والاكتفاء بالضمير فيها لا سيما وفي ذكرها ههنا اجتماع واوين وهو مستثقل .

وزعم الفراء شذوذ ذلك ، ومن سلمه جعل الجملة هنا بدلاً من ﴿ الذين ﴾ كما ذهب إليه الزجاج ، وهم جوزوا إبدال الجملة من المفرد ، أو مستأنفة كالبيان لما أشعرت به الجملة قبلها وأدركه الذوق السليم منها من سوء حالهم ، أو جعل الرؤية علمية والجملة في موضع الثاني ، وأيد بأنه قرىء ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ بنصبهما على أن ﴿ وُجُوهُهُمْ ﴾ مفعول ثان و ﴿ مُّسْوَدَّةٌ ﴾ حال منه .

وأنت تعلم أن اعتبار الرؤية بصرية أبلغ في تفضيحهم وتشهير فظاعة حالهم لا سيما مع

عموم الخطاب ، والنصب في القراءة الشاذة يجوز أن يكون على الإبدال ، والمراد بالذين ظلموا أولئك القائلون المتحسرون فهو من باب إقامة الظاهر مقام المضمر ، وينطبق على ذلك أشد الانطباق قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾ أي مقام ﴿ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ الذين جاءتهم آيات الله فكذبوا بها واستكبروا عن قبولها والانقياد لها ، وهو تقرير لرؤيتهم كذلك ، وينطبق عليه أيضاً قوله الآتي : ﴿ وَيُنَجِّى ﴾ [الزمر : 61] الخ .

(75/669)

وكذبهم على الله تعالى لوصفهم له سبحانه بأن له شريكاً ونحو ذلك تعالى عما يصفون علواً كبيراً ، وقيل : لوصفهم له تعالى بما لا يليق في الدنيا وقولهم في الأخرى : ﴿ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِى ﴾ [الزمر : 57] المتضمن دعوى أن الله سبحانه لم يهدهم ولم يرشدهم ، وقيل : هم أهل الكتابين ، وعن الحسن أنهم القدرية القائلون إن شئنا فعلنا وإن لم يشأ الله تعالى وإن شئنا لم نفعل وإن شاء الله سبحانه ؛ وقيل : المراد كل من كذب على الله تعالى ووصفه بما لا يليق به سبحانه نفياً وإثباتاً فأضاف إليه ما يجب تنزيهه تعالى عنه أو نزهه سبحانه عما يجب أن يضاف إليه ، وحكى ذلك عن القاضي وظاهره يقتضي تكفير كثير من أهل القبلة ، وفيه ما فيه ، والأوفق لنظم الآية الكريمة ما قدمنا ، ولا يبعد أن يكون حكم كل من كذب على

الله تعالى عالماً بأنه كذب عليه سبحانه أو غير عالم لكنه مستند إلى شبهة واهية كذلك ؛ وكلام الحسن إن صح لا أظنه إلا من باب التمثيل ، وتعريض الزمخشري بأهل الحق بما عرض خارج عن دائرة العدل فما ذهبوا إليه ليس من الكذب على الله تعالى في شيء ، والكذب فيه وفي أصحابه ظاهر جداً .

وقرأ أبي ﴿ أجوههم ﴾ بإبدال الواو همزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(76/669)

وقال ابن عاشور :

﴿ أن تقول ﴾ تعليل للأوَامر في قوله : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾ [الزمر : 54] ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل ﴾ [الزمر : 55] على حذف لام التعليل مع (أَنْ) وهو كثير . وفيه حذف لا ﴾ النافية بعد ﴿ أن ، وهو شائع أيضاً كقوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾ [الأنعام : 155 - 157] ، وكقوله : ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ [النساء : 135

].

وعادة صاحب "الكشاف" تقدير : كراهية أن تفعلوا كذا .

وتقدير (لا) النافية أظهر لكثرة التصرف فيها في كلام العرب بالحذف والزيادة .

والمعنى : لئلا تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله .

وظاهر القول إنه القول جهرة وهو شأن الذي ضاق صَبْره عن إخفاء ندامته في نفسه فيصرخ بما حدَّث به نفسه فتكون هذه الندامة المصرح بها زائدة على التي أسرّها ، ويجوز أن يكون قولاً باطناً في النفس .

وتنكير ﴿ نَفْسٌ ﴾ للنوعية ، أي أن يَقول صنف من النفوس وهي نفوس المشركين فهو كقوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكوير : 14] .

وقول لبيد :

أو يعتلق بعض النفوس حمامها

يريد نفسه .

وحرف (يا) في قوله : ﴿ يا حسرتي ﴾ استعارة مكنية بتشبيه الحسرة بالعاقل الذي ينادي ليقبل ، أي هذا وقتك فاحضري ، والنداء من روادف المشبه به المحذوف ، أي يا حسرتي احضري فأنا محتاج إليك ، أي إلى التحسر ، وشاع ذلك في كلامهم حتى صارت هذه الكلمة كالمثل لشدة التحسر .

والحسرة : الندامة الشديدة .

والألفُ عوض عن ياء المتكلم .

وقرأ أبو جعفر وحْده ﴿ يا حسرتاي ﴾ بالجمع بين ياء المتكلم والألف التي جُعلت عوضاً عن الياء في قولهم : ﴿ يا حسرتي ﴾ .

والأشهر عن أبي جعفر أن الياء التي بعد الألف مفتوحة .

(77/669)

وتعدية الحسرة بحرف الاستعلاء كما هو غالبها للدلالة على تمكن التحسر من مدخول ﴿ على .

وما في ما فَرَّطتُ ﴾ صدرية ، أي على تفريطي في جنب الله .

والتفريط : التضييع والتقصير ، يقال : فَرَّطَه .

والأكثر أن يقال : فرّط فيه .

والجنب والجانب مترادفان ، وهو ناحية الشيء ومكانه ومنه ﴿ والصاحبِ بالجنْب ﴾ [النساء : 36] أي الصاحب المجاور .

وحرف في هنا يجوز أن يكون لتعدية فعل فَرَّطتُ ﴾ فلا يكون للفعل مفعول ويكون المفرط

فيه هو جنب الله ، أي جهته ويكون الجنب مستعاراً للشأن والحقّ ، أي شأن الله وصفاته ووصاياه تشبيهاً لها بمكان السيد وحِماه إذا أُهمل حتى اعتُدي عليه أو أَقْفَرَ ، كما قال سابق البربري :

أما تتقين الله في جنب وامق

له كبد حرّى عليكِ تَقَطَّعُ . . .

أو تكون جملة ﴿ فَرَّطت في جَنب الله ﴾ تمثيلاً لحال النفس التي أُوقفت للحساب والعقابِ بحال العبد الذي عهد إليه سيّده حراسةَ حماهُ ورعايةَ ماشيته فأهملها حتى رُعي الحِمى وهَلكت المواشي وأحضر للثقاف فيقول : يا حسرتا على ما فرطت في جنْب سيدي .

وعلى هذا الوجه يجوز إبقاء الجنب على حقيقته لأن التمثيل يعتمد تشبيه الهيئة بالهيئة .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ موصولة وفعل ﴿ فَرَّطتُ ﴾ متعدياً بنفسه على أحد الاستعمالين ، ويكون المفعول محذوفاً وهو الضمير المحذوف العائد إلى الموصول ، وحذفه في مثله كثير ، ويكون المجرور بـ ﴿ في ﴾ حالاً من ذلك الضمير ، أي كائناً ما فرطتُه في جانب الله .

وجملةُ ﴿ وإن كنت لَمِن الساخرين ﴾ خبر مستعمل في إنشاء الندامة على ما فاتها من قبول ما جاءها به الرسول من الهُدى فكانت تسخر منه ، والجملة حال من فاعل فرطت ،

أي فرطت في جنب الله تفريطَ الساخر لا تفريط الغافل ، وهذا إقرار بصورة التفريط .

و﴿ إنْ ﴾ مخففة من ﴿ إنّ ﴾ المشددة ، واللام في ﴿ لَمِنَ الساخرين ﴾ فارقة بين ﴿ إنْ ﴾ المخففة و (إنْ) النافية .

(78/669)

و ﴿ من الساخرين ﴾ أشد مبالغةً في الدلالة على اتصافهم بالسخرية من أن يقال : وإن كنتُ لَساخرة ، كما تقدم غير مرة منها عند قوله تعالى : ﴿ قال أعوذ باللَّه أن أكون من الجاهلين ﴾ في سورة [البقرة : 67] .

ومعنى ﴿ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ إنهم يقولونه لقصد الاعتذار والتنصل ، تعيد أذهانهم ما اعتادوا الاعتذار به للنبيء صلى الله عليه وسلم كما حكَى الله عنهم : ﴿ وقالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم ﴾ [الزخرف : 20] وهم كانوا يقولونه لقصد إفحام النبي حين يدعوهم فبَقيَ ذلك التفكير عالقاً بعقولهم حين يُحضرون للحساب .

والكلام في مِنَ المُتَّقين ﴾ مثلُه في ﴿ من الساخرين ﴾ .

وأما قولها : ﴿ حين ترى العذاب لو أنَّ لي كَرَّة ﴾ فهو تمنّ محض .

و﴿ لو ﴾ فيه للتمني ، وانتصب ﴿ فأكون ﴾ على جواب التمنّي .

والكرة : الرِّجعة .

وتقدم في قوله : ﴿ فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ﴾ في سورة [الشعراء : 102] ، أي كَرة إلى الدنيا فأُحْسِن ، وهذا اعتراف بأنها علمت أنها كانت من المسيئين .

وقد حُكي كلام النفس في ذلك الموقف على ترتيبه الطبيعي في جَوَلانه في الخاطر بالابتداء بالتحسر على ما أوقعت فيه نفسها ، ثم بالاعتذار والتنصل طمعاً أن ينجيها ذلك ، ثم بتمنيّ أن تعود إلى الدنيا لتعمل الإِحسان كقوله تعالى : ﴿ قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ﴾ [المؤمنون : 99 ، 100] .

فهذا الترتيب في النظم هو أحكم ترتيب ولو رتب الكلام على خلافه لفاتت الإِشارة إلى تولد هذه المعاني في الخاطر حينما يأتيهم العذاب ، وهذا هو الأصل في الإِنشاء ما لم يوجد ما يقتضي العدولَ عنه كما بينتُه في كتاب "أصول الإِنشاء والخطابة" .

بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59)

﴿ بلى ﴾ حرفٌ لإِبطال منفي أو فيه رائحة النفي ، لقصد إثبات ما نفي قبله ، فتعين أن تكون هنا جواباً لقول النفس ﴿ لو أنَّ الله هداني لكنت من المتقين ﴾ [الزمر : 57] ، لما تقتضيه ﴿ لو التي استعملت للتمنّي من انتفاء مَا تمناه وهو أن يكون الله هداه ليكون من المتقين ، أي لم يهدني الله فلم أتق .

وجملة قَدْ جاءَتك ءاياتي ﴾ تفصيل للإِبطال وبيان له ، وهو مِثل الجواب بالتسليم بعد المَنع ، أي هداك الله .

وقد قوبل كلام النفس بجواب يقابله على عدد قرائنه الثلاث ، وذلك بقوله : ﴿ قد جاءتك آياتي فكذبت بها ﴾ وهذا مقابل ﴿ لو أنَّ الله هداني ﴾ [الزمر : 57] ثم بقوله : ﴿ واستكبرت ﴾ وهو مقابل قولها : ﴿ على ما فرطتُ في جنبِ الله ﴾ [الزمر : 56] ، أي ليستْ نهايةُ أمرك التفريط بل أعظم منه وهو الاستكبار ، ثم بقوله : ﴿ وكنت مِنَ الكافرين ﴾ وهذا مقابل قولِ النفس ﴿ لَكُنتُ مِن المُتقين ﴾ [الزمر : 57] فهذه قرائن ثلاث .

والمعنى : أن الله هداك في الدنيا بالإِرشاد بآيات القرآن فقابلتَ الإِرشاد بالتكذيب والاستكبار والكفر بها فلا عذر لك .

وكان الجواب على طريقة النشر المشوش بعد اللّف رعياً لمقتضى ذلك التشويش وهو أن يقع ابتداءُ النشر بإبطال الأهم مما اشتمل عليه اللّف وهو ما ساقوه على معنى التنصل

والاعتذار من قولهم : ﴿ لو أنَّ الله هداني ﴾ [الزمر : 57] لقصد المبادرة بإعلامهم بما يدحض معذرتهم ، ثم عاد إلى إبطال قولهم : ﴿ على ما فرطتُ في جَنب الله ﴾ [الزمر : 56] فأبطل بقوله : ﴿ فكذَّبتَ بِها ﴾ ، ثم أكمل بإبطال قولهم : ﴿ لو أنَّ لي كرَّةً فأكونَ من المُحسنين ﴾ [الزمر : 58] بقوله : ﴿ وكُنت من الكافرين ﴾ .

ولم يُورَد جواب عن قول النفس ﴿ وإن كُنتُ لَمِنَ الساخِرين ﴾ [الزمر : 56] لأنه إقرار .

(80/669)

ولو لم يسلك هذا الأسلوب في النشر لهذا اللف لفات التعجيل بدحض المعذرة ، ولَفاتَتْ مقابلة القرائن الثلاث المجاب عنها بقرائنَ أَمثالِها لِما علمت من أن الإبطال روعي فيه قرائن ثلاث على وزان أقوال النفس ، وأن ترتيب أقوال النفس كان جارياً على الترتيب الطبيعي ، فلو لم يشوش النشر لوجب أن يقتصر فيه على أقلَّ من عدد قرائن اللف فتفوت نكتة المقابلة التي هي شأنُ الجدال ؛ مع ما فيه من التورك .

وتركيب قوله : ﴿ وكُنت من الكافرين ﴾ مثلُ ما تقدم آنفاً في نظائره من قوله : ﴿ وإن كنتُ لَمِن الساخرين ﴾ [الزمر : 56] وما بعده مما أقحم فيه فعل ﴿ كُنت ﴾ .

واتفق القراء على فتح التاءات الثلاث في قوله : ﴿ فكذَّبتَ بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ وكذلك فتح الكاف من قوله : ﴿ جاءَتك ﴾ راجعةً إلى النفس بمعنى الذات المغلبة في أن يراد بها الذكور ويعلم أن النساء مثلهم ، مثل تغليب صيغة جمع المذكر في قوله : ﴿ من السَّاخرين ﴾ [الزمر : 56] .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60)

عطف على إحدى الجمل المتقدمة المتعلقة بعذاب المشركين في الدنيا والآخرة ، والأحسن أن يكون عطفاً على جملة ﴿ والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا ﴾ [الزمر : 51] ، أي في الدنيا كما أصاب الذين من قبلهم ويوم القيامة تَسودّ وجوههم .

فيجوز أن يكون اسوداد الوجوه حقيقة جعله الله علامة لهم وجعل بقية الناس بخلافهم .

وقد جعل الله اسوداد الوجوه يوم القيامة علامة على سوء المصير كما جعل بياضها علامة على حسن المصير قال تعالى : ﴿ يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة اللَّه هم فيها خالدون ﴾ في سورة آل عمران (106 ، 107) .

ويجوز أن يكون ابيضاض الوجوه مستعملاً في النضرة والبهجة قال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ [القيامة : 22] ، وقال حسان بن ثابت :

بِيض الوجوه كريمةٌ أحسابهم

ويقولون في الذي يخصل خصلة يفتخر بها قومُه : بيَّضْتَ وجوهنا .

والخطاب في قوله : ﴿ تَرَى ﴾ لغير معين .

وجملة ﴿ وجوههم مُسْوَدة ﴾ مبتدأٌ وخبر ، وموقع الجملة موقع الحال من ﴿ الذين كذبوا على الله ﴾ ، لأن الرؤية هنا بصرية لا ينصب فعلها مفعولين .

ولا يلزم اقتران جملة الحال الاسمية بالواو .

و ﴿ الذين كذبوا على الله ﴾ : هم الذين نسبوا إليه ما هو منزه عنه من الشريك وغير ذلك من تكاذيب الشرك ، فالذين كذبوا على الله هم الذين ظلموا الذين ذُكروا في قوله : ﴿ والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا ﴾ [الزمر : 51] ، وصفوا أولاً بالظلم ثم وصفوا بالكذب على الله في حكاية أخرى فليس قوله : ﴿ الذين كذبوا على الله ﴾ إظهاراً في مقام الإِضمار .

ويدخل في ﴿ الذين كذبوا على الله ﴾ كل من نسَب إلى الله صفة لا دليل له فيها ، ومن شرع شيئاً فزعم أن الله شرعه متعمداً قاصداً ترويجه للقبول بدون دليل ، فيدخل أهل

الضلال الذين اختلقوا صفات لله أو نسبوا إليه تشريعاً ، ولا يدخل أهل الاجتهاد المُخطِئون في الأدلة سواء في الفروع بالاتفاق وفي الأصول على ما نختاره إذا استفرغوا الجهود .

ونسبة شيءٍ إلى الله أمرها خطير ، ولذلك قال أيمتنا : إن الحكم المقيس غيرَ المنصوص يجوز أن يقال هُو دينُ الله ولا يجوز أن يقال : قاله الله .

(82/669)

ولذلك فجملة ﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ واقعة موقع الاستئناف البياني لجملة ﴿ ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ على كلا المعنيين لأن السامع يسأل عن سبب اسوداد الوجوه فيجاب بأن في جهنم مثواهم يعني لأن السواد يناسب ما سيلفح وجوههم من مسّ النار فأجيب بطريقة الاستفهام التقريري بتنزيل السائل المقدَّرِ منزلة من يعلم أن مثواهم جهنم فلا يليق به أن يغفل عن مناسبة سواد وجوههم ، لمصيرهم إلى النار ، فإن للدخائل عَنَا وينَها ، وهذا الاستفهام كما في قوله تعالى:

﴿ ليقولوا أهؤلاء من اللَّه عليهم من بيننا أليس اللَّه بأعلم بالشاكرين ﴾ [الأنعام : 53] ، وكقول أبي مسعود الأنصاري للمغيرة بن شعبة حين كان أمير الكوفة وقد أخر الصلاة يوماً "ما هذا يا مغيرة أليس قد علمت أن جبريل نزل فصلّى فصلَّى رسول الله صلى الله عليه

وسلم .

وكقول الحجاج في خطبته في أهل الكوفة "ألستم أصحابي بالأهواز حين رمتم الغدر" الخ .

والتكبر : شدة الكبر ، ومن أوصاف الله تعالى المتكبر ، والكِبر : إظهار المرء التعاظم على غيره لأنه يُعدّ نفسه عظيماً .

وتعريف المتكبرين هنا للاستغراق ، وأصحاب التكبر مراتب أقواها الشرك ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ [غافر : 60] وهو المعني بقول النبي صلى الله عليه وسلم "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه حبة خردل من إيمان" أخرجه مسلم عن ابن مسعود ، ألا ترى أنه قابله بالإِيمان ، ودونه مراتب كثيرة متفاوتة في قوة حقيقة ماهية التكبر ، وكلها مذمومة .

وما يدور على الألسن : أن الكبر على أهل الكبر عبادة ، فليس بصحيح .

(83/669)

وفي وصفهم بالمتكبرين إيماء إلى أن عقابهم بتسويد وجوههم كان مناسباً لكبريائهم لأن المتكبر إذا كان سيّىء الوجه انكسرت كبرياؤه لأن الكبرياء تضعف بمقدار شعور صاحبها بمعرفة الناس نقائصه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(84/669)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) ﴾

يقال هذا في أقوامٍ يَرَوْن أمثالَهم تقدموا عليهم في أحوالهم ، فيتذكرون ما سَلَفَ من تقصيرهم ، ويَرَوْن ما وُفِّقَ إليه أولئك من المراتب فيعضون بنواجذ الحسرة على أنامل الخيبة .

أو يقول : لو أنَّ الله هداني لكُنْتُ كذا ، ويقول آخر : لو أنَّ لي كَرَّةً فأكون كذا ، فيقول الحقُّ – سبحانه :

﴿ بَلَى قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَاتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

فَذُقْ من العذب ما على جُرْمِك استوجَبْتَ .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ

هؤلاء الذين ادَّعوا احوالاً ولم يَصْدُقُوا فيها ، وأظهروا المحبةَ لله ولم يتحققوا بها ، وكفاهم افتضاحاً بذلك ! وأنشدوا :

ولَمَّا ادَّعَيْتُ الحُبَّ قالت كَذَبْتَني . . . فما لي أرى الأعضاءَ منك كواسيا ؟ !

فما الحُبُّ حتى تنزف العين بالبكا . . . وتخرس حتى لا تجيب المناديا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 288.289 ﴾

(85/669)

قوله تعالى ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر حال الذين أشقاهم ، أتبعهم حال الذين أسعدهم ، فقال عاطفاً لجملة على جملة لا على " ترى " المظروف ليوم القيامة ، إشارة إلى أن هذا فعله معهم في الدارين وإشارة إلى كثرة التنجية لكثرة الأهوال كثرة تفوت الحصر : ﴿ وينجي ﴾ أي مطلق إنجاء لبعض من اتقى بما أشارت إليه قراءة يعقوب بالتخفيف ، وتنجية عظمية لبعضهم بما أفادته قراءة الباقين بالتشديد ، وأظهر ولم يضمر زيادة على تعظيم حالهم وتسكين قلوبهم ﴿ الله ﴾ أي يفعل بما له من صفات الكمال في نجاتهم فعل المبالغ في ذلك ﴿ الذين اتقوا ﴾ أي بالغوا في وقاية أنفسهم من غضبه فكما وقاهم في الدنيا من المخالفات حماهم هناك من العقوبات ﴿ بمفازتهم ﴾ أي بسبب أنهم عدوا أنفسهم في مفازة بعيدة مخوفة فوقفوا فيها عن كل عمل إلا بدليل لئلا يمشوا بغير دليل فيهلكوا ، فأدتهم تقواهم إلى الفوز ، وهو الظفر بالمراد وزمانه ومكانه الذي سميت المفازة به تفاؤلاً ، ولذلك فسر ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ المفازة بالأعمال الحسنة لأنها سبب الفوز ، وقرئ بالجمع باعتبار أنواع المصدر ، وذلك كله بعناية الله بهم في الدارين ، فمفازة كل أحد في الأخرى على قدر مفازته بالطاعات في الدنيا .

ولما كان كأنه قيل : ما فعل في تنجيتهم ؟ قال ذاكراً نتيجة التنجية ﴿ لا يمسهم السوء ﴾ أي هذا النوع فلا يخافون ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أي ولا يطرق بواطنهم حزن على فائت لأنهم لا يفوت لهم شيء أصلاً .

ولما كان المخوف منه والمحزون عليه جامعين لكل ما في الكون فكان لا يقدر على دفعهما إلا المبدع القيوم ، قال مستأنفاً أو معللاً مظهراً الاسم الأعظم تعظيماً للمقام : ﴿ الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً الذي نجاهم ﴿ خالق كل شيء ﴾ فلا يكون شيء أصلاً إلا بخلقه ، وهو لا يخلق ما يتوقعون منه خوفاً ، ولا يقع لهم عليه حزن .

ولما دل هذا على القدرة الشاملة ، كان ولا بد معها من العلم الكامل قال : ﴿ وهو ﴾ وعبر بأداة الاستعلاء لأنه من أحسن مجزأتها ﴿ على كل شيء ﴾ أي مع القهر والغلبة ﴿ وكيل ﴾ أي حفيظ لجميع ما يريد منه ، قيوم لا عجز يلم بساحته ولا غفلة .

ولما كان الخافقان خزائن الكائنات ، وكان لا يتصرف في الخزائن إلا ذو المفاتيح ، قال دالاً على وكالته : ﴿ له ﴾ أي وحده ﴿ مقاليد ﴾ واحدها مقلاد مثل مفتاح ، ومقليد مثل قنديل ، وهي المفاتيح والأمور الجامعة القوية وهي استعارة لشدة التمكن من ﴿ السماوات ﴾ أي جميع أعدادها ﴿ والأرض ﴾ أي جنسها خزائنهما وأمورهما ومفاتيحهما الجامعة لكل ما فيهما ، فلا يمكن أن يكون فيهما شيء ولا أن يتصرف فيه شيء منهما ولا فيهما أحد إلا بإذنه فلا بدع في تنجيته الذين اتقوا .

ولما كان التقدير : فالذين آمنوا بالله وتقبلوا آياته أولئك هم الفائزون ، عطف عليه قوله الذي اقتضاه سياق التهديد : ﴿ والذين كفروا ﴾ أي لبسوا ما اتضح لهم من الدلالات ،

وجحدوا أن تكون الأمور كلها بيده ﴿ بآيات الله ﴾ أي الذي لا ظاهر غيرها ، فإنه ليس في الوجود إلا ذاته سبحانه وهي غيب لا يمكن المخلوق دركها ، وأفعاله وهي أظهر الأشياء ، وصفاته وهي غيب من جهة شهادة من جهة أخرى ﴿ أولئك ﴾ البعداء البغضاء ﴿ هم ﴾ خاصة ﴿ الخاسرون ﴾ فإنهم خسروا نفوسهم وكل شيء يتصل بها على وجع النفع لأن كفرهم أقبح الكفر من حيث إنه متعلق بأظهر الأشياء .

(87/669)

ولما قامت هذه الدلائل كما ترى قيام الأعلام ، فانجابت دياجير الظلام ، وكان الجهلة قد دعوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما قال المفسرون في أول سورة ص – إلى أن يكف عن آلهتهم ، وكان الإقرار عليها عبادة لها ، تسبب عن ذلك أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يصدعهم به بقوله : ﴿ قل ﴾ ولما كان مقام الغيرة يقتضي محو الأغيار ، وكان الغير إذا انمحى تبعه جميع أعراضه ، قدم الغير المفعول لأعبد المفعول – على تقدير " أن " – لتأمر فقال : ﴿ أفغير الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا يقر على فساد أصلاً .

ولما كان تقديم الإنكار على فعلهم لهم أرجع ، وتأخير ما سبق من الكلام لإنكاره أروع ، وكان مد الصوت أوكد في معنى الكلام وأفزع وأهول وأفظع ، قال صارفاً الكلام إلى

خطابهم ، لأنه أقعد في إرهابهم وأشد في اكتئابهم ﴿ تأمروني ﴾ بالإدغام المقتضي للمد في قراءة أكثر القراء .

ولعل الإدغام إشارة إلى أنهم حالوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أمر آلهتهم على سبيل المكر والخداع .

ولما قرر الإنكار لإثبات الإغيار ، أتم تقرير ذكر العامل في ﴿ غير ﴾ قال حاذفاً " أن " المصدرية لتصير صلتها في حيز الإنكار : ﴿ أعبد ﴾ وهو مرفوع لأن " أن " لما حذفت بطل عملها ، ولم يراع أيضاً حكمها ليقال : إنه يمتنع نصب " غير " بها لأن معمول الصلة لا يتقدم على الموصول .

ولما كانت عبادة غير الله أجهل الجهل ، وكان الجهل محط كل سفول ، قال : ﴿ أيها الجاهلون ﴾ أي العريقون في الجهل ، وهو التقدم في الأمور المنبهمة بغير علم – قاله الحرالي في سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 466 . 468 ﴾

(88/669)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى بعده : ﴿ وَيُنَجِّى اللهُ الذين اتقوا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾

وجب أن يكون المراد هم الذين اتقوا ذلك الكذب ، فهذا يقتضي أن كل من لم يتصف بذلك الكذب أنه يدخل تحت ذلك الوعد المذكور بقوله ﴿ وَيُنَجِّى اللهُ الذين اتقوا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ وأن يكون قولك ﴿ الذين اتقوا ﴾ المراد منه من اتقى كل الكبائر فاسداً ، فثبت أن التعصب يحمل الرجل العاقل على الكلمات المتناقضة ، بل الحق أن تقول المتقي هو الآتي بالاتقاء والآتي بالاتقاء في صورة واحدة آت بمسمى الاتقاء ، وبهذا الحرف قلنا الأمر المطلق لا يفيد التكرار ، ثم ذلك الاتقاء غير مذكور بعينه في هذه اللفظة فوجب حمله على الاتقاء عن الشيء الذي سبق ذكره وهذا هو الكذب على الله تعالى ، فثبت أن ظاهر الآية يقتضي أن من اتقى عن تلك الصفة وجب دخوله تحت هذا الوعد الكريم .

ثم قال تعالى : ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بمفازاتهم على الجمع ، والباقون بمفازتهم على التوحيد ، وحكى الواحدي عن الفرّاء أنه قال : كلاهما صواب ، إذ يقال في الكلام قد تبين أمر القوم وأمور القوم ، قال أبو علي الفارسي : الإفراد للمصدر ووجه الجمع أن المصادر قد تجمع إذا اختلفت أجناسها ، كقوله تعالى :

﴿ وَتَظُنُّونَ بالله الظنونا ﴾ [الأحزاب : 10] ولا شك أن لكل متق نوعاً آخر عن

المفازة .

المسألة الثانية :

المفازة مفعلة من الفوز وهو السعادة ، فكأن المعنى أن النجاة في القيامة حصلت بسبب فوزهم في الدنيا بالطاعات والخيرات ، فعبر عن الفوز بأوقاتها ومواضعها .

(89/669)

ثم قال : ﴿ لاَ يَمَسُّهُمُ السوء وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ والمراد أنه كالتفسير لتلك النجاة ، كأنه قيل كيف ينجيهم ؟ فقيل : ﴿ لاَ يَمَسُّهُمُ السوء وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وهذه كلمة جامعة لأنه إذا علم أنه لا يمسه السوء كان فارغ البال بحسب الحال عما وقع في قله بسبب فوات الماضي ، فحينئذ يظهر أنه سلم عن كل الآفات ، ونسأل الله الفوز بهذه الدرجات بمنه وكرمه .

المسألة الثالثة :

دلت الآية على أن المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب في القيامة ، وتأكد هذا بقوله ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] .

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62)

واعلم أنه لما أطال الكلام في شرح الوعد والوعيد عاد إلى دلائل الإلهية والتوحيد ، وفي الآية

مسائل :

المسألة الأولى :

(90/669)

قد ذكرنا في سورة الأنعام أن أصحابنا تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ [الأنعام : 102] على أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأطنبنا هناك في الأسئلة والأجوبة ، فلا فائدة ههنا في الإعادة ، إلا أن الكعبي ذكر ههنا كلمات فنذكرها ونجيب عنها ، فقال إن الله تعالى مدح نفسه بقوله ﴿ الله خالق كُلّ شَىْء ﴾ وليس من المدح أن يخلق الكفر والقبائح فلا يصح أن يحتج المخالف به ، وأيضاً فلم يكن في صدر هذه الأمة خلاف في أعمال العباد ، بل كان الخلاف بينهم وبين المجوس والزنادقة في خلق الأمراض والسباع والهوام ، فأراد الله تعالى أن يبين أنها جمع من خلقه ، وأيضاً لفظة ﴿ كُلٌّ ﴾ قد لا توجب العموم لقوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلّ شَىْء ﴾ [النمل : 23] ﴿ تُدَمّرُ كُلَّ شَىْء ﴾ [الأحقاف : 25] وأيضاً لو كانت أعمال العباد من خلق الله لما ضافها إليهم بقوله ﴿ كُفَّارًا حَسَدًا مّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [البقرة : 109] ولما صح قوله ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله ﴾ [آل عمران : 78] ولما صح قوله ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا

باطلا ﴾ [ص : 27] فهذا جملة ما ذكره الكعبي في تفسيره ، وقال الجبائي : ﴿ الله خالق كُلِّ شَيْءٍ ﴾ سوى أفعال خلقه التي صح فيها الأمر والنهي واستحقوا بها الثواب والعقاب ، ولو كانت أفعالهم خلقاً لله تعالى ما جاز ذلك فيه كما لا يجوز مثله في ألوانهم وصورهم ، وقال أبو مسلم : الخلق هو التقدير لا الإيجاد ، فإذا أخبر الله عن عباده أنهم يفعلون الفعل الفلاني فقد قدر ذلك الفعل ، فيصح أن يقال إنه تعالى خلقه وإن لم يكن موجداً له .

واعلم أن الجواب عن هذه الوجوه قد ذكرناه بالاستقصاء في سورة الأنعام ، فمن أراد الوقوف عليه فليطالع هذا الموضوع من هذا الكتاب ، والله أعلم .

(91/669)

أما قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ فالمعنى أن الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير منازع ولا مشارك ، وهذا أيضاً يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ، لأن فعل العبد لو وقع بتخليق العبد لكان ذلك الفعل غير موكول إلى الله تعالى وكيلاً عليه ، وذلك ينافي عموم الآية .

ثم قال تعالى : ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ والمعنى أنه سبحانه مالك أمرها وحافظها وهو من باب الكناية ، لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي بيده مقاليدها ،

ومنه قولهم : فلان ألقيت مقاليد الملك إليه وهي المفاتيح ، قال صاحب "الكشاف" : ولا واحد لها من لفظها ، وقيل مقليد ومقاليد ، وقيل مقلاد ومقاليد مثل مفتاح ومفاتيح ، وقيل إقليد وأقاليد ، قال صاحب "الكشاف" : والكلمة أصلها فارسية ، إلا أن القوم لما عربوها صارت عربية .

واعلم أن الكلام في تفسير قوله ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ قريب من الكلام في قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ [الأنعام : 59] وقد سبق الاستقصاء هناك ، قيل سأل عثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ فقال : " يا عثمان ما سألني عنها أحد قبلك ، تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر ، سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير ، يحيي ويميت هو على كل شيء قدير " هكذا نقله صاحب "الكشاف" .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ بآيات الله أُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

صريح الآية يقتضي أنه لا خاسر إلا كافر ، وهذا يدل على أن كل من لم يكن كافراً فإنه لا بد وأن يحصل له حظ من رحمة الله .

المسألة الثانية :

أورد صاحب "الكشاف" سؤالاً ، وهو أنه بم اتصل قوله ﴿ والذين كَفَرُواْ ﴾ ؟ وأجاب عنه بأنه اتصل بقوله تعالى : ﴿ وَيُنَجّى الله الذين اتقوا ﴾ [الزمر : 61] أي ينجي الله المتقين بمفازتهم ﴿ والذين كَفَرُواْ بآيات الله أُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ واعترض ما بينهما أنه خالق للأشياء كلها ، وأن له مقاليد السموات والأرض .

وأقول هذا عندي ضعيف من وجهين الأول : أن وقوع الفاصل الكبير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد الثاني : أن قوله ﴿ وَيُنَجّى الله الذين اتقوا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ جملة فعلية ، وقوله ﴿ والذين كَفَرُواْ بآيات الله أُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ جملة اسمية ، وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لا يجوز ، بل الأقرب عندي أن يقال إنه لما وصف الله تعالى نفسه بالصفات الإلهية والجلالية ، وهو كونه خالقاً للأشياء كلها ، وكونه مالكاً لمقاليد السموات والأرض بأسرها ، قال بعده : والذين كفروا بهذه الآيات الظاهرة الباهرة أولئك هم الخاسرون .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن عامر تأمرونني بنونين ساكنة الياء وكذلك هي في مصاحف الشام ، قال الواحدي وهو الأصل ، وقرأ ابن كثير تأمروني بنون مشددة على إسكان الأولى وإدغامها في الثانية ، وقرأ نافع تأمروني بنون واحدة خفيفة ، على حذف إحدى النونين والباقون بنون واحدة مكسورة مشددة .

المسألة الثانية :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ﴾ منصوب بأعبد وتأمروني اعتراض ، ومعناه : أفغير الله أعبد بأمركم ؟ وذلك حين قال له المشركون أسلم ببعض آلهتنا ونؤمن بإلهك ، وأقول نظير هذه الآية ، قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 14] وقد ذكرنا في تلك الآية وجه الحكمة في تقديم الفعل .

المسألة الثالثة :

إنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقاً للأشياء وبكونه مالكاً لمقاليد السموات والأرض ، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع ، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة ، واشتغل بعبادة هذه الأجسام

الخسيسة ، فقد بلغ في الجهل مبلغاً لا مزيد عليه ، فلهذا السبب قال : ﴿ أَيُّهَا الجاهلون ﴾ ولا شك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 12.9 ﴾

(94/669)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيُنَجِّي اللهُ الذين اتقوا ﴾

وقرىء : "وَيُنْجي" أي من الشرك والمعاصي .

﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ على التوحيد قراءة العامة لأنها مصدر .

وقرأ الكوفيون : "بِمَفَازَاتِهِمْ" وهو جائز كما تقول بسعاداتهم .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة ، قال : " يحشر الله مع كل امرىء عمله فيكون عمل المؤمن معه في أحسن صورة وأطيب ريح فكلما كان رُعْب أو خَوْف قال له لا تُرَع فما أنت بالمراد به ولا أنت بالمعنيّ به فإذا كثر ذلك عليه قال فما أحسنك فمن أنت فيقول أما تعرفني أنا عملك الصالح حملتني على ثقلي فوالله لأحملنك ولأدفعن عنك فهي التي قال الله : ﴿ وَيُنَجِّي اللهُ الذين اتقوا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السواء وَلاَ

هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ " ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي حافظ وقائم به .

وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ﴾ واحدها مِقليد .

وقيل : مقلاد وأكثر ما يستعمل فيه إقليد .

والمقاليد المفاتيح عن ابن عباس وغيره .

وقال السدي : خزائن السموات والأرض .

وقال غيره : خزائن السموات المطر ، وخزائن الأرض النبات .

وفيه لغة أخرى أقاليد وعليها يكون واحدها إقليد .

قال الجوهري : والإقليد المفتاح ، والمِقلد مفتاح كالمِنجل ربما يقلد به الكلأ كما يقلد القَتُّ إذا جعل حِبالاً ؛ أي يفتل والجمع المقاليد .

وأقلد البحرُ على خلقٍ كثير أي غرّقهم كأنه أغلق عليهم .

(95/669)

وخرج البيهقي عن ابن عمر " أن عثمان بن عفان رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما سألني عنها أحد ، لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده استغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير" "

ذكره الثعلبي في تفسيره ، وزاد من قالها إذا أصبح أو أمسى عشر مرات أعطاه الله ست خصال : أولها يحرس من إبليس ، والثانية يحضره اثنا عشر ألف ملك ، والثالثة يعطى قنطاراً من الأجر ، والرابعة ترفع له درجة ، والخامسة يزوجه الله من الحور العين ، والسادسة يكون له من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور ، وله أيضاً من الأجر كمن حج واعتمر فقبلت حجته وعمرته ، فإن مات من ليلته مات شهيداً .

(96/669)

وروى الحارث " عن عليّ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير المقاليد فقال : "يا عليّ لقد سألت عن عظيم المقاليد هو أن تقول عشراً إذا أصبحت وعشراً إذا أمسيت لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله وأستغفر الله ولا قوّة إلا بالله الأوّل

والآخر والظاهر والباطن له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير" " من قالها عشراً إذا أصبح ، وعشراً إذا أمسى أعطاه الله خصالاً ستاً : أولها يحرسه من الشيطان وجنوده فلا يكون لهم عليه سلطان ، والثانية يعطى قنطاراً في الجنة هو أثقل في ميزانه من جبل أحد ، والثالثة ترفع له درجة لا ينالها إلا الأبرار ، والرابعة يزوجه الله من الحور العين ، والخامسة يشهده اثنا عشر ألف مَلَك يكتبونها له في رق منشور ويشهدون له بها يوم القيامة ، والسادسة يكون له من الأجر كأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، وكمن حج واعتمر فقبل الله حجته وعمرته ، وإن مات من يومه أو ليلته أو شهره طبع بطابع الشهداء .

وقيل : المقاليد الطاعة يقال ألقى إلي فلان بالمقاليد أي أطاعه فيما يأمره ؛ فمعنى الآية له طاعة من في السموات والأرض .

قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله ﴾ أي بالقرآن والحجج والدلالات .

﴿ أولئك هُمُ الخاسرون ﴾ تقدم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ ﴾ وذلك حين دعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام وقالوا هو دين آبائك .

و"غير" نصب ب"أَعْبُدُ" على تقدير أعبد غير الله فيما تأمرونني .

ويجوز أن ينتصب ب"تَأْمُرُونِّي" على حذف حرف الجرّ ؛ التقدير : أتأمرونّي بغير الله أن

أعبده ، لأنّ أن مقدرة وأن والفعل مصدر ، وهي بدل من غير ؛ التقدير : أتأمرونّي بعبادة غير الله .

وقرأ نافع : "تَأْمُرُونِي" بنون واحدة مخففة وفتح الياء .

وقرأ ابن عامر : "تَأْمُرُونَنِي" بنونين مخففتين على الأصل .

(97/669)

الباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنها وقعت في مصحف عثمان بنون واحدة .

وقرأ نافع على حذف النون الثانية وإنما كانت المحذوفة الثانية ؛ لأن التكرير والتثقيل يقع بها ، وأيضاً حذف الأولى لا يجوز ؛ لأنها دلالة الرفع .

وقد مضى في "الأنعام" بيانه عند قوله تعالى : ﴿ أتحاجوني ﴾ [الأنعام : 80] .

﴿ أَعْبُدُ ﴾ أي أن أعبد فلما حذف "أن" رفع ؛ قاله الكسائي .

ومنه قول الشاعر :

أَلاَ أَيُّهَذَا الزاجِرِي أَحْضُرُ الوَغَى . . .

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ "أَعْبُدَ" بالنصب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(98/669)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) ﴾

المقاليد : المفاتيح ، قيل : لا واحد لها من لفظها ، قاله التبريزي .

وقيل : واحدها مقليد ، وقيل : مقلاد ، ويقال : إقليد وأقاليد ، والكلمة أصلها فارسية .

.

﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كانت لمن الساخرين ، أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ، أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ، بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ، ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ، وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يسمهم السوء ولا هم يحزنون ، الله خالق كل شيء وهو على كل

شيء وكيل ، له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ .

روي أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وفسق ، أتاه إبليس فقال له : تمتع من الدنيا ثم تب ، فأطاعه وأنفق ماله في الفجور .

فأتاه ملك الموت في ألذ ما كان ، فقال : ﴿ يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله ﴾ ، وذهب عمري في طاعة الشيطان ، وأسخطت ربي ، فندم حين لا ينفعه ، فأنزل الله خبره .

﴿ أن تقول ﴾ : مفعول من أجله ، فقدره ابن عطية : أي أنيبوا من أجل أن تقول .

وقال الزمخشري : كراهة أن تقول ، والحوفي : أنذرناكم مخافة أن تقول ، ونكر نفس لأنه أريد بها بعض الأنفس ، وهي نفس الكافر ، أو أريد الكثير ، كما قال الأعشى :

ورب نفيع لو هتفت لنحوه . . .

أتاني كريم ينقض الرأسى مغضبا

يريد أفواجاً من الكرام ينصرونه ، لا كريماً واحداً ؛ أو أريد نفس متميزة من الأنفس بالفجاج الشديد في الكفر ، أو بعذاب عظيم .

قال هذه المحتملات الزمخشري ، والظاهر الأول .

وقرأ الجمهور : يا حسرتا ، بإبدال ياء المتكلم ألفاً ، وأبو جعفر : يا حسرتا ، بياء الإضافة ، وعنه : يا حسرتي ، بالألف والياء جمعاً بين العوض والمعوض ، والياء مفتوحة أو ساكنة .

وقال أبو الفضل الرازي في تصنيفه (كتاب اللوامح) : ولو ذهب إلى أنه أراد تثنية الحسرة مثل لبيك وسعديك ، لأن معناهما لب بعد لب وسعد بعد سعد ، فكذلك هذه الحسرة بعد حسرة ، لكثرة حسراتهم يومئذ ؛ أو أراد حسرتين فقط من فوت الجنة لدخول النار ، لكان مذهباً ، ولكان ألف التثنية في تقدير الياء على لغة بلحرث بن كعب . انتهى .

وقرأ ابن كثير في الوقف : يا حسرتاه ، بهاء السكت .

قال سيبويه : ومعنى نداء الحسرة والويل : هذا وقتك فاحضري .

والجنب : الجانب ، ومستحيل على الله الجارحة ، فإضافة الجنب إليه مجاز .

قال مجاهد ، والسدي : في أمر الله .

وقال الضحاك : في ذكره ، يعني القرآن والعمل به .

وقيل : في جهة طاعته ، والجنب : الجهة ، وقال الشاعر :

أفي جنب تكنى قطعتني ملامة . . .

سليمى لقد كانت ملامتها ثناء

وقال الراجز_@_ :

الناس جنب والأمير جنب . . .

ويقال : أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته ؛ وفلان لين الجنب والجانب .

ثم قالوا : فرط في جنبه ، يريدون حقه .

قال سابق البربري :

أما تتقين الله في جنب عاشق . . .

له كبد حرى عليك تقطع

وهذا من باب الكناية ، لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه ، فقد أثبته فيه .

ألا ترى إلى قوله :

إن السماحة والمروءة والندى . . .

في قبة ضربت على ابن الحشرج

ومنه قول الناس : لمكانك فعلت كذا ، يريدون : لأجلك ، وكذلك فعلت هذا من جهتك .

وما في ما فرطت مصدرية ، أي على تفريطي في طاعة الله .

﴿ وإن كنت من الساخرين ﴾ ، قال قتادة : لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها .

وقال الزمخشري : ومحل وإن كنت النصب على الحال ، كأنه قال : فرطت وأنا ساخر ، أي فرطت في حال سخريتي . انتهى .

ويظهر أنه استئناف إخبار عن نفسه بما كان عليه في الدنيا ، لا حال .

﴿ أو تقول لو أن الله هداني ﴾ : أي خلق في الهداية بالإلجاء ، وهو خارج عن الحكمة ، أو بالألطاف ، ولم يكن من أهلها فيلطف به ، أو بالوحي ، فقد كان ، ولكنه أعرض ، ولم يتبعه حتى يهتدي .

وإنما يقول هذا تحيراً في أمره ، وتعللاً بما يجدي عليه .

كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤساء والشياطين ونحوه : لو هدانا الله لهديناكم .

انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

وانتصب ﴿ فأكون ﴾ على جواب التمني الدال عليه لو ، أو على كرة ، إذ هو مصدر ، فيكون مثل قوله :

فما لك منها غير ذكرى وحسرة . . .

وتسأل عن ركبانها أين يمموا

وقول الآخر :

للبس عباءة وتقر عيني . . .

أحب إليّ من لبس الشفوف

والفرق بينهما أن الفاء إذا كانت في جواب التمني ، كانت أن واجبة الإضمار ، وكان الكون مترتباً على حصول المتمني ، لا متمنى .

وإذا كانت للعطف على كرة ، جاز إظهار أن وإضمارها ، وكان الكون متمني .

﴿ بلى ﴾ : هو حرف جواب لمنفي ، أو لداخل عليه همزة التقرير .

ولما كان قوله : ﴿ لو أن الله هداني ﴾ وجوابه متضمناً نفي الهداية ، كأنه قال : ما هداني الله ، فقيل له : ﴿ بلى قد جاءتك آياتي ﴾ مرشدة لك ، فكذبت .

وقال الزمخشري : رد من الله عليه ومعناه : بلى قد هديت بالوحي .

انتهى ، جرياً على قواعد المعتزلة .

وقال ابن عطية : وحق بلى أن تجيء بعد نفي عليه تقرير ، وقوله : ﴿ بلى ﴾ جواب لنفي مقدر ، كأن النفس قالت : فعمري في الدنيا لم يتسع للنظر ، أو قالت : فإني لم يتبين لي الأمر في الدنيا ونحو هذا . انتهى .

وليس حق بلى ما ذكر ، بل حقها أن تكون جواب نفي .

ثم حمل التقرير على النفي ، ولذلك لم يحمله عليه بعض العرب ، وأجابه بنعم ، ووقع ذلك أيضاً في كلام سيبويه نفسه أن أجاب التقرير بنعم اتباعاً لبعض العرب .

وقال الزمخشري : فإن قلت : هلا قرن الجواب بما هو جواب له ، وهو قوله : ﴿ لو أن الله هداني ﴾ ، ولم يفصل بينهما بآية ؟ قلت : لأنه لا يخلو ، إما أن يقدم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن ، وإما أن تؤخر القرينة الوسطى .

فلم يحسن الأول لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن ؛ وأما الثاني ، فلما فيه من نقض الترتيب ، وهو التحسر على التفريط في الطاعة ، ثم التعلل بفقد الهداية .

ثم تمنى الرجعة ، فكان الصواب ما جاء عليه ، وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ، ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب .

انتهى ، وهو كلام حسن .

وقرأ الجمهور : ﴿ قد جائتك ﴾ ، بفتح الكاف وفتح تاء ما بعدها ، خطاباً للكافر ذي النفس .

وقرأ ابن يعمر والجحدري ، وأبو حيوة ، والزعفراني ، وابن مقسم ، ومسعود بن صالح ، والشافعي عن ابن كثير ، ومحمد بن عيسى في اختياره وعن نصير ، والعبسي : بكسر الكاف والتاء ، خطاب للنفس ، وهي قراءة أبي بكر الصديق وابنته عائشة ، رضي الله عنهما ، وروتهما أم سلمة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وقرأ الحسن ، والأعرج ، والأعمش : جأتك ، بالهمز من غير مد ، بوزن بعتك ، وهو

مقلوب من جاءتك ، قدمت لام الكلمة وأخرت العين فسقطت الألف ، كما سقطت في رمت وعرب .

ولما ذكر مقالة الكافر ، ذكر ما يعرض له يوم القيامة من الإنذار بسوء منقلبة ، وفي ضمنه وعيد لمعاصريه ، عليه السلام .

والرؤية هنا من رؤية البصر ، وكذبهم نسبتهم إليه تعالى البنات والصاحبة والولد ، وشرعهم ما لم يأذن به الله .

والظاهر أنه عام في المكذبين على الله ، وخصه بعضهم بمشركي العرب وبأهل الكتابين .

وقال الحسن : هم القدرية يقولون : إن شئنا فعلنا ، وإن شئنا لم نفعل .

(102/669)

وقال القاضي : يجب حمل الآية على الكل من المجبرة والمشبهة وكل من وصف الله بما لا يليق به نفياً وإثباتاً ، فأضاف إليه ما يجب أن لا يضاف إليه ، فالكل كذبوا على الله ؛ فتخصيص الآية بالمجبرة والمشبهة واليهود والنصارى لا يجوز .

وقال الزمخشري : ﴿ كذبوا على الله ﴾ : وصفوه بما لا يجوز عليه ، وهو متعال عنه ، فأضافوا إليه الولد والشريك ، وقالوا : ﴿ شفعاؤنا عند الله ﴾ وقالوا : ﴿ لو شاء

الرحمن ما عبدناهم ﴾ وقالوا : ﴿ والله أمرنا بها ﴾ ولا يعبد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح .

ويجوز أن يخلق خلقاً لا لغرض ، وقوله : لا لغرض ، ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق ، ويجسمونه بكونه مرئياً مدركاً بالحاسة ، ويثبتون له يداً وقدماً وجنباً مستترين بالبلكفة ، ويجعلون له أنداداً بإثباتهم معه قدماً .

انتهى ، وكلام من قبله على طريقة المعتزلة .

والظاهر أن الرؤية من رؤية البصر ، وأن ﴿ وجوههم مسودة ﴾ جملة في موضع الحال ، وفيها رد على الزمخشري ، إذ زعم أن حذف الواو من الجملة الاسمية المشتملة على ضمير ذي الحال شاذ ، وتبع في ذلك الفراء ، وقد أعرب هو هذه الجملة حالاً ، فكأنه رجع عن مذهبه ذلك ، وأجاز أيضاً أن تكون من رؤية القلب في موضع المفعول الثاني ، وهو بعيد ، لأن تعلق البصر برؤية الأجسام وألوانها أظهر من تعلق القلب .

وقرئ : وجوههم مسودّة بنصبهما ، فوجوههم بدل بعض من كل .

وقرأ أبي : أجوههم ، بإبدال الواو همزة ، والظاهر أن الاسوداد حقيقة ، كما مر في قوله : ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم ﴾ وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون في العبارة تجوز ، وعبر بالسواد عن ارتداد وجوههم وغالب همهم وظاهر كآبتهم .

ولما ذكر تعالى حال الكاذبين على الله ، ذكر حال المتقين ، أي الكذب على الله وغيره ، مما

يؤول بصاحبه إلى اسوداد وجهه ، وفي ذلك الترغيب في هذا الوصف الجليل الذي هو التقوى .

(103/669)

قال السدي : ﴿ بمفازتهم ﴾ : بفلاحهم ، يقال : فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده ، وتفسير المفازة قوله : ﴿ لا يسمهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ ، كأنه قيل : وما مفازتهم ؟ قيل : لا يمسهم السوء ، أي ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم ، أو بسبب منجاتهم من قوله تعالى : ﴿ فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾ أي بمنجاة منه ، لأن النجاة من أعظم الفلاح ، وسبب منجاتهم العمل الصالح ، ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنه المفازة : بالأعمال الحسنة ؛ ويجوز بسبب فلاحهم ، لأن العمل الصالح سبب الفلاح ، وهو دخول الجنة . ويجوز أن يسمى العمل الصالح بنفسه مفازة ، لأنه سببها .

فإن قلت : ﴿ لا يمسهم ﴾ ، ما محله من الإعراب على التفسيرين ؟ قلت : أما على التفسير الأول فلا محل له ، لأنه كلام مستأنف ، وأما على الثاني فمحله النصب على الحال . انتهى .

وقرأ الجمهور : بمفازتهم على الإفراد ، والسلمي ، والحسن ، والأعرج ، والأعمش ، وحمزة

، والكسائي ، وأبو بكر : على الجمع ، من حيث النجاة أنواع ، والأسباب مختلفة .

قال أبو علي : المصادر تجمع إذا اختلفت أجناسها كقوله : ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾

وقال الفراء : كلا القراءتين صواب ، تقول : قد تبين أمر الناس وأمور الناس .

ولما ذكر تعالى الوعد والوعيد ، عاد إلى دلائل الإلهية والتوحيد ، فذكر أنه خالق كل شيء ، فدل على أعمال العباد لاندراجها في عموم كل شيء ، وأنه على كل الأشياء قائم لحفظها وتدبيرها .

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ : قال ابن عباس : مفاتيح ، وهذه استعارة ، كما تقول : بيد فلان مفتاح هذا الأمر .

(104/669)

وعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أن المقاليد لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، بيده الخير ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير " وتأويله على هذا : أن لله هذه الكلمات ، يوحد بها ويمجد ، وهي مفاتيح خير السموات والأرض ، من تكلم بها من المتقين أصاب .

﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ وكلماته توحيده وتمجيده ، ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ .

وقال الزمخشري : فإن قلت : بم اتصل قوله : ﴿ والذين كفروا ﴾ ؟ قلت : بقوله : ﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم ، والذين كفروا ، هم الخاسرون ﴾ واعترض بينهما : بأن خالق الأشياء كلها ، وهو مهيمن عليها ، لا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين منها وما يستحقون عليها من الجزاء ، وأن ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ .

قال أبو عبد الله الرازي : وهذا عندي ضعيف من وجهين : الأول : أن وقوع الفاصل الكثير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد .

والثاني : أن قوله تعالى : ﴿ وينجي الله الذين اتقوا ﴾ : جملة فعلية ، وقوله : ﴿ والذين كفروا ﴾ : جملة اسمية ، وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لا يجوز ، والأقرب عندي أن يقال : إنه لما وصف بصفات الإلهية والجلالة ، وهو كونه خالق الأشياء كلها ، وكونه مالكاً لمقاليد السموات والأرض ، وقال : الذين كفروا بهذه الآيات الظاهرة الباهرة هم الخاسرون .

انتهى ، وليس بفاصل كثير .

وقوله : وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لا يجوز ، كلام من لم يتأمل لسان العرب ، ولا نظر في أبواب الاشتغال .

وأما قوله : والأقرب عندي فهو مأخوذ من قول الزمخشري ، وقد جعل متصلاً بما يليه ،

على أن كل شيء في السموات والأرض فالله خالقه وفاتح بابه ، والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(105/669)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيُنَجِّى اللهُ الذين اتقوا ﴾

ما اتصف به أولئك المتكبرون من جهنم .

وقرىء ﴿ ينجى ﴾ بالتخفيف من الانجاء ﴿ اتقوا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ اسم مصدر كالفلاح على ما في "الكشف" أو مصدر ميمي على ما في غيره من فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده منه ، وقال الراغب : هي مصدر فاز أو اسم الفوز ويراد بها الظفر بالبغية على أتم وجه كالفلاح وبه فسرها السدي ، والباء للملابسة متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول مفيدة لمقارنة تنجيتهم من العذاب لنيل الثواب أي ينجيهم الله تعالى من جهنم مثوى المتكبرين لتقواهم مما اتصف المتكبرون به ملتبسين بفلاحهم وظفرهم بالبغية وهي الجنة ، ومآله ينجيهم من النار ويدخلهم الجنة ، وكون الجنة بغية المتقي كائناً من كان مما لا شبهة

فيه .

نعم هي بغية لبعض المتقين من حيث أنها محل رؤية محبوبهم التي هي غاية مطلوبهم ولك أن تعمم البغية ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَمَسُّهُمُ السوء وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ في موضع الحال أيضاً إما من الموصول أو من ضمير ﴿ مفازتهم ﴾ مفيدة لكونهم مع التنجية أو الفوز منفياً عنهم على الدوام مساس جنس السوء والحزن ، والظاهر أن هذه الحال مقدرة ، وقيل : إنها مقارنة مفيدة لكون تنجيتهم أو مفازتهم بالجنة غير مسبوقة بمساس العذاب والحزن ، ولا يخفى أنه لا يتسنى بالنسبة إلى جميع المتقين إذ منهم من يمسه العذاب ويحزن لا محالة ، وعد وجود ذلك لقلته وانقطاعه كلا وجود تكلف بعيد ، وجوز أن يراد بالمفازة الفلاح ويجعل قوله تعالى : ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ ﴾ الخ استئنافاً لبيانها كائنة قيل : ما مفازتهم ؟ فقيل : لا يمسهم الخ .

والباء حينئذ على ما في "الكشف" سببية متعلقة بينجي أي ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم .

وتعقب بأن في جعل عدم الحزن وعدم السوء سبب النجاة تكلفاً فهما من النجاة ، والظاهر أنه لو جعلت الباء على هذا الوجه أيضاً للملابسة لا يرد ذلك ، وجوز كون المفازة اسم مكان أي محل الفوز ، وفسرت بالمنجاة مكان النجاة ، وصح ذلك لأن النجاة فوز وفلاح ، وجعلت الباء عليه للسببية وهناك مضاف محذوف بقرينة باء السببية وإن المنجاة لا تصلح سبباً أي ينجيهم بسبب منجاتهم وهو الايمان ، وهو كالتصريح بما اقتضاه تعليق الفعل بالموصول السابق ، وفسره الزمخشري بالأعمال الصالحة ، وقواه بما حكاه عن ابن عباس ليتم مذهبه ؛ أو لا مضاف بل هناك مجاز بتلك القرينة من إطلاق اسم المسبب على السبب ، والجملة بعد على الاحتمالين في هذا الوجه حال ولا يخفى أن المفازة بمعنى المنجاة مكان النجاة هي الجنة والايمان أو العمل الصالح ليس سبباً لها نفسها وإنما هو سبب دخولها فلا بد من اعتباره فلا تغفل ، وجوز أن تكون المفازة مصدراً ميمياً من فاز منه أي نجا منه يقال : طوبى لمن فاز بالثواب وفاز من العقاب أي ظفر به ونجا ، والباء إما للملابسة والجملة بيان للمفازة أي ينجيهم الله تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصة لهم أي بنفي السوء والحزن عنهم ، ولا يخفى ركاكة هذا المعنى ، وإما للسببية إما على حذف المضاف أو التجوز نظير ما مر آنفاً ، ولا يحتاج هنا إلى اعتبار الدخول كما لا يخفى ، والجملة في موضع الحال أيضاً .

وجوز على بعض الأوجه تعلق ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ بما بعده ولا يخفى أنه خلاف الظاهر وبالجملة الاحتمالات العقلية في الآية كثيرة لأن المفازة إما اسم مصدر أو مصدر ميمي أو اسم مكان من فاز به ظفر أو من فاز منه نجا والباء إما للملابسة أو للسببية أو للاستعانة ، وهي إما متعلقة بما قبلها أو بما بعدها وهذه ستة وثلاثون احتمالاً وإذا ضممت إليها احتمال حذف المضاف في بمفازتهم بمعنى منجاتهم أو نجاتهم واحتمال التجوز فيه كذلك وكذا احتمال كون جملة ﴿ لاَيَمَسُّهُمُ ﴾ الخ حالاً من الموصول واحتمال كونها حالاً من ضمير مفازتهم واحتمال كون الحال مقدرة وكونها مقارنة زادت كثيراً ، ولا يخفي أن فيها المقبول ودونه بل فيها ما لا يتسنى أصلاً فأمعن النظر ولا تجمد .

وقرأ السلمي .

والحسن .

والأعرج .

والأعمش .

وحمزة والكسائي .

وأبو بكر ﴿ بمفازاتهم ﴾ جمعاً لتكون على طبق المضاف إليه في الدلالة على التعدد صريحاً .

﴿ اللهُ خالق كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من خير وشر وإيمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة المتصف بهما لأسبابهما فالآية رادة على المعتزلة رداً ظاهراً ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يتولى التصرف فيه كيفما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة ، وكأن ذكر ذلك للدلالة على أنه سبحانه الغني المطلق وإن المنافع والمضار راجعة إلى العباد ، ولك أن تقول : المعنى أنه تعالى حفيظ على كل شيء كما قيل نحو ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر : 41] وحاصله أنه تعالى يتولى حفظ كل شيء بعد خلقه فيكون إشارة إلى احتياج الأشياء إليه تعالى في بقائها كما أنها محتاجة إليه عز وجل في وجودها .

﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ أي مفاتيحها كما قال ابن عباس .

والحسن .

وقتادة .

(108/669)

وغيرهم فقيل هو جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل : جمع مقليد وقيل : جمع مقلاد من التقليد بمعنى الإلزام ومنه تقليد القضاء وهو إلزامه النظر في أموره ، وكذا القلادة للزومها للعنق ، وجعل اسماً للآلة المعروفة للإلزام بمعنى الحفظ وهو على جميع هذه الأقوال عربي

والأشهر الأظهر كونه معرباً فهو جمع اقليد معرب إكليد وهو جمع شاذ لأن جمع افعيل على مفاعيل مخالف للقياس وجاء أقاليد على القياس ويقال : في اكليد كليد بلا همزة ، وذكر الشهاب أنه بلغة الروم اقليدس وكليد واكليد منه ، والمشهور أن كليد فارسي ولم يشتهر في الفارسية اكليد بالهمزة ، وله مقاليد كذا قيل : مجاز عن كونه مالك أمره ومتصرفاً فيه بعلاقة اللزوم ، ويكنى به عن معنى القدرة والحفظ ، وجوز كون المعنى الأول كنائياً لكن قد اشتهر فنزل منزلة المدلول الحقيقي فكنى به عن المعنى الآخر فيكون هناك كناية على كناية وقد يقتصر على المعنى الأول في ازرادة وعليه قيل هنا المعنى لا يملك أمر السماوات والأرض ولا يتمكن من التصرف فيها غيره عز وجل .

والبيضاوي بعد ذكر ذلك قال : هو كناية عن قدرته تعالى وحفظه لها وفيه مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد لمكان اللام والتقديم ، وقال الراغب : مقاليد السماوات والأرض ما يحيط بها ، وقيل : خزائنها ، وقيل : مفاتيحها ، والإشارة بكلها إلى معنى واحد وهو قدرته تعالى عليه وحفظه لها انتهى .

(109/669)

وجوز أن يكون المعنى لا يملك التصرف في خزائن السماوات والأرض أي ما أودع فيها واستعدت له من المنافع غيره تعالى ، ولا يخفى أن هذه الجملة إن كانت في موضع التعليل لقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : 62] على المعنى الأول فالأظهر الاقتصار في معناها على أنه لا يملك أمر السماوات والأرض أي العالم بأسره غيره تعالى فكأنه قيل : تعالى يتولى التصرف في كل شيء لأنه لا يملك أمره سواه عز وجل ، وإن كانت تعليلاً له على المعنى الثاني فالأظهر الاقتصار في معناها على أنه لا قدرة عليها لأحد غيره جل شأنه فكأنه قيل : هو تعالى يتولى حفظه كل شيء لأنه لا قدرة لأحد عليه غيره تعالى ، وجوز أن تكون عطف بيان للجملة قبلها وأن تكون صفة ﴿ وَكِيلٌ ﴾ وأن تكون خبراً بعد خبر فأمعن النظر في ذلك وتدبر .

وأخرج أبو يعلى .

ويوسف القاضي في "سننه" .

وأبو الحسن القطان في المطولات .

وابن السني في عمل اليوم والليلة .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال : "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى : له مقاليد السموات والأرض فقال : لا إله إلا

الله والله أكبر سبحان الله والحمد لله استغفر الله الذي لا إله إلا هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير" الحديث .

وفي رواية ابن مردويه عن ابن عباس أن عثمان جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : اخبرني عن مقاليد السماوات والأرض فقال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير يا عثمان من قالها إذا أصبح عشر مرات وإذا أمسى أعطاه الله ست خصال .

أما أولهن : فيحرس من إبليس وجنوده .

وأما الثانية : فيعطي قنطاراً من من الأجر .

(110/669)

وأما الثالثة : فيتزوج من الحور العين .

وأما الرابعة : فيغفر له ذوبه .

وأما الخامسة : فيكون مع إبراهيم عليه السلام .

وأما السادسة : فيحضره اثنا عشر ملكاً عند موته يبشرونه بالجنة ويزفونه من قبره إلى

الموقف فإن أصابه شيء من أهاويل يوم القيامة قالوا له لا تخف إنك من الآمنين ثم يحاسبه الله حساباً يسيراً ثم يؤمر به إلى الجنة فيزفونه إلى الجنة من موقفه كما تزف العروس حتى يدخلوه الجنة بإذن الله تعالى والناس في شدة الحساب .

وفي رواية العقيلي .

والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر أن عثمان سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن تفسير ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام : ما سألني عنها أحد تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده واستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير .

وفي رواية الحرث بن أبي أسامة .

وابن مردويه عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال : " هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله " وبالجملة اختلفت الروايات في الجواب ، وقيل في حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما : إنه ضعيف في سنده من لا تصلح روايته ، وابن الجوزي قال : إنه موضوع ولم يسلم له وحال الاخبار الآخر الله تعالى أعلم به والظن الضعف .

والمعنى عليها أن لله تعالى هذه الكلمات يوحد بها سبحانه ويمجد وهي مفاتيح خير

السماوات والأرض من تكلم بها من المؤمنين أصابه ، فوجه إطلاق المقاليد عليها أنها موصلة إلى الخير كما توصل المفاتيح إلى ما في الخزائن ، وقد ذكر صلى الله عليه وسلم شيئاً من الخير في حديث ابن عباس وعد في الحديث قبله عشر خصال لمن قالها كل يوم مائة مرة وهو بتمامه في "الدر المنثور .

(111/669)

﴿ ﴿ والذين كَفَرُواْ بآيات الله أولئك هُمُ الخاسرون ﴾ معطوف على قوله تعالى : ﴿ الله خالق كُلّ شَىْء ﴾ [الزمر : 62] الخ أي أنه عز شأنه متصف بهذه الصفات الجليلة الشأن والذين كفروا وجحدوا ذلك أولئك هم الكاملون في الخسران ، وقيل : على قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ ولا يظهر ذلك على بعض الأوجه السابقة فيه . وقيل : على مقدر تقديره فالذين اتقوا أو فالذين آمنوا بآيات الله هم الفائزون والذين كفروا الخ ، وفيه تكلف .

وجوز أن يكون معطوفاً على قوله تعالى : ﴿ وَيُنَجّى الله ﴾ [الزمر : 61] فيكون التقدير وينجي الله المتقين والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه تعالى مهيمن على العباد مطلع على أفعالهم مجاز عليها ، وفيه تأكيد لثواب

المؤمنين وفلاحهم وعقاب الكفرة وخسرانهم ولم يقل ويهلك الذين كفروا بخسرانهم ما قاله سبحانه : ﴿ وَيُنَجِّي ﴾ الخ للاشعار بأن العمدة في فوز المؤمنين فضله تعالى فلذا جعل نجاتهم مسندة له تعالى حادثة له يوم القيامة غير ثابتة قبل ذلك بالاستحقاق والأعمال بخلاف هلاك الفكرة فإنهم قدموه لأنفسهم بما اتصفوا به من الكفر والضلال ولم يسند له تعالى ولم يعبر عنه بالمضارع أيضاً ، وفي ذلك تصريح بالوعد وتعريض بالوعيد حيث قيل : ﴿ الخاسرون ﴾ ولم يقل الهالكون أو المعذبون أو نحوه وهو قضية الكرم .

وعطف الجملة الاسمية على الفعلية مما لا شبهة في جوازه عند النحويين ، ومما ذكرنا يعلم رد قول الإمام الرازي : إن هذا الوجه ضعيف من وجهين : الأول : وقوع الفصل الكثير بين المعطوف والمعطوف عليه .

الثاني : وقوع الاختلاف بينهما في الفعلية والاسمية وهو لا يجوز ، والإمام أبو حيان منع كون الفاصل كثيراً .

وقال في الوجه الثاني : إنه كلام من لم يتأمل كلام العرب ولا نظر في أبواب الاشتغال .

(112/669)

نعم قال في "الكشف" يؤيد الاتصال بما يليه دون قوله تعالى : ﴿ وَيُنَجِّى ﴾ أن قوله سبحانه : ﴿ وَيُنَجِّى اللهُ ﴾ متصل بقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ ﴾ [الزمر : 60] فلو قيل بعده : ﴿ والذين كَفَرُواْ بآيات الله أُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ [الزمر : 36] لم يحسن لأن الأحسن على هذا المساق أن يقدم على قوله تعالى : ﴿ وَيُنَجِّى اللهُ ﴾ على ما لا يخفى ولأنه كالتخلص إلى ما بعده من حديث الأمر بالعبادة والإخلاص إذ ذاك ، وهو كلام حسن ، ثم الحصر الذي يقتضيه تعريف الطرفين وضمير الفصل باعتبار الكمال كما أشرنا إليه لا باعتبار مطلق الخسران فإنه لا يختص بهم ؛ وجوز أن يكون قصر قلب فإنهم يزعمون المؤمنين خاسرين .

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون ﴾

أي أبعد الآيات المقتضية لعبادته تعالى وحده غير الله أعبد ، فغير مفعول مقدم لأعبد و ﴿ تَأْمُرُونِّى ﴾ اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا له صلى الله عليه وسلم : استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك لفرط غباوتهم ولذا نودوا بعنوان الجهل ، وجوز أن يكون ﴿ أَعْبُدُ ﴾ في موضع المفعول لتأمروني على أن الأصل تأمروني أن أعبد فحذفت أن وارتفع الفعل كما قيل في قوله

: ألا أيهذا الزاجري احضر الوغي . . .

ويؤيد قراءة من قرأ ﴿ أَعْبُدُ ﴾ بالنصب ، و ﴿ غَيْرِ ﴾ منصوب بما دل عليه ﴿

تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ ﴾ أي تعبدونني غير الله أي أتصيرونني عابداً غيره تعالى ، ولا يصح نصبه باعبد لأن الصلة لا تعمل فيما قبلها والمقدر كالموجود ، وقال بعضهم : هو منصوب به وأن بعد الحذف يبطل حكمها المانع عن العمل ، وقرأ ابن كثير ﴿ تَأْمُرُونِّى ﴾ بالإدغام وفتح الياء .

(113/669)

وقرأ ابن عامر ﴿ تأمرونني ﴾ بإظهار النونين على الأصل ، ونافع ﴿ اللهَ تَأْمُرُونِّى ﴾ بنون واحدة مكسورة وفتح الياء ، وفي تعيين المحذوف من النونين خلاف فقيل : الثانية لأنها التي حصل بها التكرار ، وقيل : الأولى لأنها حرف إعراب عرضة للتغيير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(114/669)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإنسان ﴾

المراد بالإنسان هنا : الجنس باعتبار بعض أفراده ، أو غالبها .

وقيل : المراد به الكفار فقط ، والأوّل أولى ، ولا يمنع من حمله على الجنس خصوص سببه ، لأن الاعتبار بعموم اللفظ ، وفاء بحقّ النظم القرآني ، ووفاء بمدلوله ، والمعنى : أن شأن غالب نوع الإنسان أنه إذا مسه ضرّ من مرض ، أو فقر ، أو غيرهما دعا الله ، وتضرع إليه في رفعه ، ودفعه ﴿ ثُمَّ إِذَا خولناه نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ أي : أعطيناه نعمة كائنة من عندنا ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ مني بوجوه المكاسب ، أو على خير عندي ، أو على علم من الله بفضلي .

وقال الحسن : على علم علمني الله إياه .

وقيل : قد علمت أني إذا أوتيت هذا في الدنيا أن لي عند الله منزلة ، وجاء بالضمير في أوتيته مذكراً مع كونه راجعاً إلى النعمة ؛ لأنها بمعنى : الإنعام .

وقيل : إن الضمير عائد إلى ما ، وهي : موصولة ، والأوّل أولى ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ هذا ردّ لما قاله ، أي : ليس ذلك الذي أعطيناك لما ذكرت ، بل هو محنة لك ، واختبار لحالك أتشكر أم تكفر ؟ قال الفراء : أنث الضمير في قوله : "هي" لتأنيث الفتنة ، ولو قال : بل هو فتنة لجاز .

وقال النحاس : بل عطيته فتنة .

وقيل : تأنيث الضمير باعتبار لفظ الفتنة ، وتذكير الأوّل في قوله : ﴿ أُوتِيتُهُ ﴾ باعتبار

معناها : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ذلك استدراج لهم من الله ، وامتحان لما عندهم من الشكر ، أو الكفر .

(115/669)

﴿ قَدْ قَالَهَا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : قال هذه الكلمة التي قالوها ، وهي قولهم : إنما أوتيته على علم الذين من قبلهم كقارون ، وغيره ، فإن قارون قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِى ﴾ [القصص : 78] ﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ يجوز أن تكون " ما " هذه نافية ، أي : لم يغن عنهم ما كسبوا من متاع الدنيا شيئاً ، وأن تكون استفهامية ، أي : أيّ شيء أغنى عنهم ذلك ﴿ فأصابهم سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ أي : جزاء سيئات كسبهم ، أو أصابهم سيئات هي جزاء كسبهم ، وسمي الجزاء سيئات لوقوعها في مقابلة سيئاتهم ، فيكون ذلك من باب المشاكلة كقوله : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] .

ثم أوعد سبحانه الكفار في عصره ، فقال : ﴿ والذين ظَلَمُواْ مِنْ هَؤُلاَء ﴾ الموجودين من الكفار ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾ كما أصاب من قبلهم ، وقد أصابهم في الدنيا ما أصابهم من القحط ، والقتل ، والأسر ، والقهر ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : بفائتين

على الله بل مرجعهم إليه يصنع بهم ما شاء من العقوبة .

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاء ﴾ أي : يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسعه له ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يقبضه لمن يشاء أن يقبضه ، ويضيقه عليه .

قال مقاتل : وعظهم الله ، ليعتبروا في توحيده ، وذلك حين مطروا بعد سبع سنين ، فقال : أو لم يعلموا أن الله يوسع الرزق لمن يشاء ، ويقتر على من يشاء ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ أي : في ذلك المذكور لدلالات عظيمة ، وعلامات جليلة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وخصّ المؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون بالآيات المتفكرون فيها .

(116/669)

ثم لما ذكر سبحانه ما ذكره من الوعيد عقبه بذكر سعة رحمته ، وعظيم مغفرته ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم : أن يبشرهم بذلك ، فقال : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ المراد بالإسراف : الإفراط في المعاصي ، والاستكثار منها ، ومعنى لا تقنطوا : لا تيأسوا من رحمة الله من مغفرته .

ثم لما نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يدفع ذلك ، ويرفعه ، ويجعل الرجاء مكان القنوط ، فقال : ﴿ إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ .

واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة ، فإنه أوّلاً أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ، ومزيد تبشيرهم ، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي ، والاستكثار من الذنوب ، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب ، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى ، وبفحوى الخطاب ، ثم جاء بما لا يبقي بعده شك ، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظنّ ، فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب ﴾ ، فالألف ، واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده ، فهو في قوّة إن الله يغفر كلّ ذنب كائناً ما كان ، إلا ما أخرجه النصّ القرآني ، وهو : الشرك ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48 ، 116] ، ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب ، بل أكد ذلك بقوله : ﴿ جَمِيعاً ﴾ فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم الصادقين في رجائه ، الخالعين لثياب القنوط الرافضين لسوء الظنّ بمن لا يتعاظمه ذنب ، ولا يبخل بمغفرته ، ورحمته على عباده المتوجهين إليه في طلب العفو الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم ، وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلاً : إنه هو الغفور الرحيم ، أي : كثير

المغفرة ، والرحمة عظيمهما بليغهما واسعهما ، فمن أبى هذا التفضل العظيم ، والعطاء الجسيم ، وظنّ أن تقنيط عباد الله ، وتأييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم الله به ، فقد ركب أعظم الشطط ، وغلط أقبح الغلط ، فإن التبشير ، وعدم التقنيط الذي جاءت به مواعيد الله في كتابه العزيز ، والمسلك الذي سلكه رسوله صلى الله عليه وسلم كما صح عنه من قوله : " يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا " وإذا تقرّر لك هذا ، فاعلم أن الجمع بين هذه الآية ، وبين قوله :

(118/669)

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48 ، 116] هو : أن كلّ ذنب كائناً ما عدا الشرك بالله مغفور لمن شاء الله أن يغفر له ، على أنه يمكن أن يقال : إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعاً يدل على أنه يشاء غفرانها جميعاً ، وذلك يستلزم : أنه يشاء المغفرة لكلّ المذنبين من المسلمين ، فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذه الحيثية .

وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة ، وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين ، وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات .

فهو : جمع بين الضب ، والنون ، وبين الملاح ، والحادي ، وعلى نفسها براقش تجني ، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع ، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين ، وقد قال : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [النساء : 48 ، 116] ، فلو كانت التوبة قيداً في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة ، وقد قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد : 6] قال الواحدي : المفسرون كلهم قالوا : إن هذه الآية في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام ، كالشرك ، وقتل النفس ، ومعاداة النبي صلى الله عليه وسلم .

قلت : هب أنها في هؤلاء القوم ، فكان ماذا ؟ ، فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب كما هو متفق عليه بين أهل العلم ، ولو كانت الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها ، واللازم باطل بالإجماع ، فالملزوم مثله .

(119/669)

وفي السنة المطهرة من الأحاديث الثابتة في الصحيحين ، وغيرهما في هذا الباب ما إن عرفه المطلع عليه حقّ معرفته ، وقدره حقّ قدره علم صحة ما ذكرناه ، وعرف حقية ما حررناه .

قرأ الجمهور : ﴿ يا عبادي ﴾ بإثبات الياء ، وصلا ، ووقفا ، وروى أبو بكر عن عاصم : أنه يقف بغير ياء .

وقرأ الجمهور : ﴿ تقنطوا ﴾ بفتح النون .

وقرأ أبو عمرو ، والكسائي بكسرها .

﴿ وَأَنِيبُواْ إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ أي : ارجعوا إليه بالطاعة لما بشرهم سبحانه بأنه يغفر الذنوب جميعاً ، أمرهم بالرجوع إليه بفعل الطاعات ، واجتناب المعاصي ، وليس في هذا ما يدلّ على تقييد الآية الأولى بالتوبة لا بمطابقة ، ولا تضمن ، ولا التزام ، بل غاية ما فيها : أنه بشّرهم بتلك البشارة العظمى ، ثم دعاهم إلى الخير ، وخوّفهم من الشرّ على أنه يمكن أن يقال : إن هذه الجملة مستأنفة خطاباً للكفار الذين لم يسلموا بدليل قوله : ﴿ وَأَسْلِمُواْ لَهُ ﴾ جاء بها لتحذير الكفار ، وإنذارهم بعد ترغيب المسلمين بالآية الأولى ، وتبشيرهم ، وهذا ، وإن كان بعيداً ، ولكنه يمكن أن يقال به ، والمعنى على ما هو الظاهر : أن الله جمع لعباده بين التبشير العظيم ، والأمر بالإنابة إليه ، والإخلاص له ، والاستسلام لأمره ، والخضوع لحكمه .

وقوله : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب ﴾ أي : عذاب الدنيا كما يفيده قوله : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ﴾ ، فليس في ذلك ما يدلّ على ما زعمه الزاعمون ، وتمسك به القانطون المقنطون ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني : القرآن ، يقول : أحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، والقرآن كله حسن .

قال الحسن : التزموا طاعته ، واجتنبوا معاصيه .

وقال السدّي : الأحسن ما أمر الله به في كتابه .

(120/669)

وقال ابن زيد : يعني : المحكمات ، وكلوا علم المتشابه إلى عالمه .

وقيل : الناسخ دون المنسوخ .

وقيل : العفو دون الانتقام بما يحق فيه الانتقام .

وقيل : أحسن ما أنزل إليكم من أخبار الأمم الماضية ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ أي : من قبل أن يفاجئكم العذاب ، وأنتم غافلون عنه لا تشعرون به .

وقيل : أراد أنهم يموتون بغتة ، فيقعون في العذاب .

والأوّل أولى ، لأن الذي يأتيهم بغتة هو : العذاب في الدنيا بالقتل ، والأسر ، والقهر ، والخوف ، والجدب ، لا عذاب الآخرة ، ولا الموت ، لأنه لم يسند الإتيان إليه .

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يا حسرتى يا حسرتى على مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ الله ﴾ قال البصريون : أي حذراً أن تقول .

وقال الكوفيون : لئلا تقول .

قال المبرد : بادروا خوف أن تقول ، أو حذراً من أن تقول نفس .

وقال الزجاج : خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها : يا حسرتا على ما فرّطت في جنب الله .

قيل : والمراد بالنفس هنا : النفس الكافرة .

وقيل : المراد به التكثير كما في قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير : 14]

قرأ الجمهور : ﴿ يا حسرتا ﴾ بالألف بدلاً من الياء المضاف إليها ، والأصل : يا حسرتي ، وقرأ ابن كثير : (يا حسرتاه) بهاء السكت وقفا ، وقرأ أبو جعفر : (يا حسرتي) بالياء على الأصل .

والحسرة : الندامة ، ومعنى ﴿ على مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ الله ﴾ : على ما فرّطت في طاعة الله ، قاله الحسن .

وقال الضحاك : على ما فرّطت في ذكر الله ، ويعني به : القرآن ، والعمل به .

وقال أبو عبيدة : ﴿ فِى جَنبِ الله ﴾ أي : في ثواب الله .

(121/669)

وقال الفراء : الجنب القرب ، والجوار ، أي : في قرب الله ، وجواره ، ومنه قوله : ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ [النساء : 36] ، والمعنى على هذا القول ، على ما فرّطت في طلب جنب الله ، أي : في طلب جواره ، وقربه ، وهو : الجنة ، وبه قال ابن الأعرابي ، وقال الزجاج : أي فرّطت في الطريق الذي هو : طريق الله من توحيده ، والإقرار بنبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا ، فالجنب بمعنى : الجانب ، أي : قصرت في الجانب الذي يؤدّي إلى رضا الله ، ومنه قول الشاعر :

للناس جنب والأمير جنب . . . أي : الناس من جانب ، والأمير من جانب ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ الساخرين ﴾ أي : وما كنت إلا من المستهزئين بدين الله في الدنيا ، ومحل الجملة النصب على الحال .

قال قتادة : لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِى لَكُنتُ مِنَ المتقين ﴾ أي : لو أن الله أرشدني إلى دينه لكنت ممن يتقي الشرك ، والمعاصي ،

وهذا من جملة ما يحتج به المشركون من الحجج الزائفة ، ويتعللون به من العلل الباطلة كما في قوله : ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء الله مَا أَشْرَكْنَا ﴾ [الأنعام : 148] ، فهي : كلمة حقّ يريدون بها باطلاً .

ثم ذكر سبحانه مقالة أخرى مما قالوا ، فقال : ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العذاب لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً ﴾ أي : رجعة إلى الدنيا ﴿ فَأَكُونَ مِنَ المحسنين ﴾ المؤمنين بالله الموحدين له ، المحسنين في أعمالهم ، وانتصاب أكون إما لكونه معطوفاً على كرّة ، فإنها مصدر ، وأكون في تأويل المصدر كما في قول الشاعر :

للبس عباءة وتقرّ عيني . . . أحبّ إليّ من لبس الشفوف

وأنشد الفرّاء على هذا :

فما لك منها غير ذكرى وخشية . . . وتسأل عن ركبانها أين يمموا

وإما لكونه جواب التمني المفهوم من قوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً ﴾ .

(122/669)

ثم ذكر سبحانه جوابه على هذه النفس المتمنية المتعللة بغير علة ، فقال : ﴿ بلى قَدْ جَاءتْكَ ءاياتى فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت وَكُنتَ مِنَ الكافرين ﴾ .

المراد بالآيات هي : الآيات التنزيلية ، وهو : القرآن ، ومعنى التكذيب بها قوله : إنها ليس من عند الله ، وتكبر عن الإيمان بها ، وكان مع ذلك التكذيب ، والاستكبار من الكافرين بالله .

وجاء سبحانه بخطاب المذكر في قوله : جاءتك ، وكذّبت ، واستكبرت ، وكنت ، لأن النفس تطلق على المذكر ، والمؤنث .

قال المبرد : تقول العرب نفس واحد ، أي : إنسان واحد ، وبفتح التاء في هذه المواضع قرأ الجمهور .

وقرأ الجحدري ، وأبو حيوة ، ويحيى بن يعمر بكسرها في جميعها ، وهي قراءة أبي بكر ، وابنته عائشة ، وأمّ سلمة ، ورويت عن ابن كثير ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ ، أي : ترى الذين كذبوا على الله بأن له شركاء ، وصاحبة ، وولدا وجوههم مسودّة لما أحاط بهم من العذاب ، وشاهدوه من غضب الله ، ونقمته ، وجملة : ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ في محل نصب على الحال .

قال الأخفش : ترى غير عامل في وجوههم مسودّة ، إنما هو : مبتدأ وخبر ، والأولى أن ترى إن كانت من الرؤية البصرية ، فجملة : ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ حالية ، وإن كانت قلبية ، فهي في محل نصب على أنها المفعول الثاني لترى ، والاستفهام في قوله : ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ للتقرير ، أي : أليس فيها مقام للمتكبرين عن طاعة الله ، والكبر هو :

بطر الحقّ ، وغمط الناس كما ثبت في الحديث الصحيح .

﴿ وَيُنَجّى الله الذين اتقوا ﴾ أي : اتقوا الشرك ، ومعاصي الله ، والباء في : ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ متعلقة بمحذوف هو : حال من الموصول ، أي : ملتبسين بمفازتهم .

قرأ الجمهور ﴿ بمفازتهم ﴾ بالإفراد على أنها مصدر ميميّ .

والفوز : الظفر بالخير ، والنجاة من الشرّ .

(123/669)

قال المبرد : المفازة مفعلة من الفوز ، وهو : السعادة ، وإن جمع ، فحسن كقولك : السعادة ، والسعادات .

والمعنى : ينجيهم الله بفوزهم ، أي : بنجاتهم من النار ، وفوزهم بالجنة .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر : " بمفازاتهم " جمع مفازة ، وجمعها مع كونها مصدراً لاختلاف الأنواع ، وجملة : ﴿ لاَ يَمَسُّهُمُ السوء ﴾ في محل نصب على الحال من الموصول ، وكذلك جملة : ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : ينفي السوء ، والحزن عنهم ، ويجوز أن تكون الباء في بمفازتهم للسببية ، أي : بسبب فوزهم مع انتفاء مساس السوء لهم ، وعدم وصول الحزن إلى قلوبهم ؛ لأنهم رضوا بثواب الله ، وأمنوا من

عقابه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم – قال السيوطي بسند صحيح ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الذين أَسْرَفُواْ ﴾ الآية في مشركي أهل مكة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال : كنا نقول ليس لمفتتن توبة ، وما الله بقابل منه شيئاً ، عرفوا الله ، وآمنوا به ، وصدقوا رسوله ، ثم رجعوا عن ذلك لبلاء أصابهم ، وكانوا يقولونه لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله فيهم ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ ﴾ الآيات ؛ قال ابن عمر : فكتبتها بيدي ، ثم بعثت بها إلى هشام بن العاصي

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي سعد قال : لما أسلم وحشي أنزل الله : ﴿ والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها ءاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التى حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ﴾ [الفرقان : 68] قال وحشيّ ، وأصحابه : فنحن قد ارتكبنا هذا كله ، فأنزل الله ﴿ قُلْ يا عِبَادِيَ الذين أَسْرَفُواْ ﴾ الآية .

(124/669)

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة قال : "خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رهط من أصحابه ، وهم يضحكون ، ويتحدّثون ، فقال : " والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً " ثم انصرف ، وأبكى القوم ، وأوحى الله إليه : يا محمد لم تقنط عبادي فرجع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : " أبشروا ، وسدّدوا ، وقاربوا " وأخرج ابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب : أنها نزلت ، فيمن أفتن .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس : أنها نزلت في مشركي مكة لما قالوا : إن الله لا يغفر لهم ما قد اقترفوه من الشرك ، وقتل الأنفس ، وغير ذلك .

وأخرج أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ثوبان : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما أحبّ أن لي الدنيا ، وما فيها بهذه الآية : ﴿ قُلْ يا عبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ "

إلى آخر الآية ، فقال رجل : ومن أشرك ؟ ، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " ألا ، ومن أشرك ثلاث مرات " .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، والترمذي وحسنه ، وابن المنذر ، وابن الأنباري في المصاحف ، والحاكم ، وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : " يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله :

إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم " وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود : أنه مرّ على قاض يذكر الناس ، فقال : يا مذكر الناس لا تقنط الناس ، ثم قرأ : ﴿ ياعبادى الذين أَسْرَفُواْ ﴾ الآية .

(125/669)

وأخرج ابن جرير عن ابن سيرين قال : قال عليّ : أيّ آية أوسع ؟ ، فجعلوا يذكرون آيات من القرآن ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ [النساء : 11] الآية ، ونحوها ، فقال علي : ما في القرآن أوسع آية من ﴿ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ ياعبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية قال : قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح ابن الله ، ومن زعم أن عزيراً ابن الله ، ومن زعم أن الله فقير ، ومن زعم أن يد الله مغلولة ، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول لهؤلاء : ﴿ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إلى الله وَيَسْتَغْفِرُونَهُ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : 74] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء من قال ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] ، وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ [القصص : 38] قال ابن عباس :

ومن آيس العباد من التوبة بعد هذا ، فقد جحد كتاب الله ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ قال : أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوا ، وعلمهم قبل أن يعلموا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(126/669)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) ﴾

عطف على جملة ﴿ ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ [الزمر : 60] إلى آخرها ، أي وينجي الله الذين اتقوا من جهنم لأنهم ليسوا بمتكبرين .

وهذا إيذان بأن التقوى تنافي التكبر لأن التقوى كمال الخُلق الشرعي وتقتضي اجتناب المنهيات وامتثال الأمر في الظاهر والباطن ، والكبرَ مرض قلبي باطني فإذا كان الكبر ملقياً صاحبه في النار بحكم قوله : ﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ [الزمر : 60] فضد أولئك ناجون منها وهم المتقون إذ التقوى تحول دون أسباب العقاب التي منها الكبر ، فالذين

اتقوا هم أهل التقوى وهي معروفة ، ولذلك ففعل ﴿ اتَّقوا ﴾ منزل منزلة اللازم لا يقدَّر له مفعول .

والمفازة يجوز أن تكون مصدراً ميمياً للفوز وهو الفلاح ، مثل المتاب وقوله تعالى : ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ [النبأ : 31] ، ولحاق التاء به من قبيل لحاق هاء التأنيث بالمصدر في نحو قوله تعالى : ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ [الواقعة : 2] .

وتقدم ذلك في اسم سورة الفاتحة وعند قوله تعالى : ﴿ فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾ في [آل عمران : 188] ، والباء للملابسة ، أي متلبسين بالفوز أو الباء للسببية ، أي بسبب ما حصلوا عليه من الفوز .

ويجوز أن تكون المفازة اسماً للفلاة ، كما في قول لبيد :

لِوِرْدٍ تقلص الغيطان عنه

يبذ مفازة الخِمس الكمال . . .

سميت مفازة باسم مكان الفوز ، أي النجاة وتأنيثها بتأويل البقعة ، وسموها مفازة باعتبار أن من حل بها سلم من أن يلحقه عدوّه ، كما قال العُديل :

ودون يد الحجاج من أن تنالني

بساطٌ بأيدي أنا عجات عريض . . .

وقول النابغة :

تدافع الناس عنا حين نركبها

من المظالم تدعى أمّ صبار . . .

وعلى هذا المعنى فالباء بمعنى (في) .

والمفازة : الجنة .

(127/669)

وإضافة مفازة إلى ضميرهم كناية عن شدة تلبسهم بالفوز حتى عُرف بهم كما يقال : فاز فوز فلان .

وقرأ الجمهور ﴿ بمفازتهم ﴾ بصيغة المفرد .

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف ﴿ بمَفَازاتهم بصيغة الجمع وهي تجري على المعنيين في المفازة لأن المصدر قد يجمع باعتبار تعدد الصادر منه ، أو باعتبار تعدد أنواعه ، وكذلك تعدد أمكنة الفوز بتعدد الطوائف ، وعلى هذا فإضافة المفازة إلى ضمير الذين اتقوا ﴾ لتعريفها بهم ، أي المفازة التي علمتم أنها لهم وهي الجنة ، وقد عُلم ذلك من آيات وأخبار منها قوله تعالى : ﴿ إن للمتقين مفازاً حدائق وأعناباً وكواعب أتراباً ﴾ [النبأ : 31 ، 33] .

(وجملة ﴿ لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ مبيِّنة لجملة ﴿ وينجّي الله الذين اتقوا بمفازتهم ﴾ لأن نفي مسّ السوء هو إنجاؤهم ونفي الحزن عنهم نفي لأثر المس السوء .

وجيء في جانب نفي السوء بالجملة الفعلية لأن ذلك لنفي حالة أهل النار عنهم ، وأهل النار في مسَ من السوء متجددٍ .

وجيء في نفي الحزن عنهم بالجملة الاسمية لأن أهل النار أيضاً في حزن وغم ثابت لازم لهم .

ومن لطيف التعبير هذا التفنن ، فإن شأن الأسواء الجسدية تجدد آلامها وشأن الأكدار القلبية دوام الإحساس بها .

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62)

هذا استئناف ابتدائي تمهيد لقوله : ﴿ قُل أفغير الله تأمروني أعبُد ﴾ [الزمر : 64] في ذكر تمسك الرسول والرسلِ من قبله بالتوحيد ونبذِ الشرك والبراءةِ منه والتصلبِ في مقاومته والتصميمِ على قطع دابره ، وجُعلت الجمل الثلاث من قوله : الله خالق كل شيء ﴾ إلى قوله : ﴿ السموات والأرض ﴾ مقدمات تؤيد ما يجيء بعدها من قوله : ﴿ قُل أفغير الله تأمروني أعبُد ﴾ [الزمر : 64] .

وقد اشتمل هذا الاستئناف ومعطوفاته على ثلاث جمل وجملة رابعة:

فالجملة الأولى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ وهذه الجملة أَدْخَلت كل موجود في أنه مخلوق لله تعالى ، فهو وليّ التصرف فيه لا يخرج من ذلك إلاّ ذاتُ الله تعالى وصفاته فهي مخصوصة من هذا العموم بدليل العقل وهو أنه خالق كل شيء فلو كان خالقَ نفسه أو صفاتِه لزم توقف الشيء على ما يتوقف هُو عليه وهذا ما يسمى بالدَّوْر في الحكمة ، واستحالتُه عقلية ، فخُص هذا العموم العقل .

والمقصود من هذا إثبات حقيقة ، والزامُ الناس بتوحيده لأنه خالقهم ، وليس في هذا قصد ثناء ولا تعاظم ، والمقصود من هذه المقدمة تذكير الناس بأنهم جميعاً هم وما معهم عبيد لله وحده ليس لغيره منّة عليهم بالإِيجاد .

الجملة الثانية : ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ وجيء بها معطوفة لأن مدلولها مغاير لمدلول التي قبلها .

والوكيلُ المتصرف في شيء بدون تعقب ولما لم يعلّق بذلك الوصف شيءٌ علم أنه موكول إليه جِنس التصرف وحقيقتُه التي تعم جميع أفراد ما يتصرف فيه ، فعم تصرفه أحوالَ جميع الموجودات من تقدير الأعمال والآجال والحركاتِ ، وهذه المقدمة تقتضي الاحتياج إليه بالإِمداد فهم بعد أن أوجدهم لم يستغنوا عنه لَمحةً مّا .

الجملة الثالثة : ﴿ لَهُ مقَاليدُ السمواتِ والأرض ﴾ وجيء بها مفصولة لأنها تفيد بيان

الجملة التي قبلها فإن الوكيل على شيء يكون هو المتصرف في العطاء والمنع .

والمقاليد : جمع إِقليد بكسر الهمزة وسكون القاف وهذا جمع على غير قياس ، وإقليد قيل معرب عن الفارسية ، وأصله (كليد) قيل من الرومية وأصله (اقليدس) وقيل كلمة يمانية وهو مما تقاربت فيه اللغات وهي كناية عن حفظ ذخائرها ، فذخائر الأرض عناصرها ومعادنها وكيفيات أجوائها وبحارها ، وذخائرُ السماوات سَير كواكبها وتصرفات أرواحها في عوالمها وعوالمنا وما لا يعلمه إلا الله تعالى .

(129/669)

ولما كانت تلك العناصر والقُوى شديدة النفع للناس وكان الناس في حاجة إليها شبهت بنفائس المخزونات فصحّ أيضاً أن تكون المقاليد استعارة مكنية ، وهي أيضاً استعارة مصرحة للأمر الإِلهي التكويني والتسخيري الذي يُفيض به على الناس من تلك الذخائر المدَّخَرة كقوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ [الحجر : 21] .

وهذه المقدمة تشير إلى أن الله هو معطي ما يشاء لمن يشاء من خلقه ، ومن أعظم ذلك النبوءة وهديُ الشريعة فإن جهل المشركين بذلك هو الذي جرَّأهم على أن أنكروا

اختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة دونهم ، واختصاص أتباعه بالهُدى فقالوا :

﴿ أهؤلاء مَنَّ الله عليهم مِنْ بيننا ﴾ [الأنعام : 53] .

فهذه الجمل اشتملت على مقدمات ثلاث تقتضي كل واحدة منها دلالة على وحدانية الله بالخلق ، ثم بالتصرف المطلق في مخلوقاته ، ثم بوضع النظم والنواميس الفطرية والعقلية والتهذيبية في نظام العالم وفي نظام البشر .

وكل ذلك موجب توحيده وتصديقَ رسوله صلى الله عليه وسلم والاستمساك بعروته كما رَشد بذلك أهل الإيمان .

فأما الجملة الرابعة وهي : ﴿ والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ فتحتمل الاعتراض ولكن اقترانها بالواو بعد نظائرها يرجح أن تكون الواو فيها عاطفة وأنها مقصودة بالعطف على ما قبلها لأن فيها زيادة على مفاد الجملة قبلها ، وتكون مقدمة رابعة للمقصود تجهيلاً للذين هم ضد المقصود من المقدمات فإن الاستدلال على الحق بإبطال ضده ضرب من ضروب الاستدلال .

(130/669)

لأن الاستدلال يعود إلى ترغيب وتنفير فإذا كان الذين كفروا بآيات الله خاسرين لا جرم كان الذين آمنوا بآيات الله هم الفائزين ، فهذه الجملة تقابل جملة ﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم ﴾ [الزمر : 61] المنتقل منها إلى هؤلاء الآيات ، وهي مع ذلك مفيدة إنذارهم وتأفين آرائهم ، لأن موقعها بعدَ دلائل الوحدانية وهي آيات دالّة على أن الله واحد يقتضي التنديدَ عليهم في عدم الاهتداء بها .

ووُصف ﴿ الذين كفروا بآيات الله ﴾ بأنهم الخاسرون لأنهم كفروا بآيات مَن له مقاليد خزائن الخير فعرَّضوا أنفسهم للحرمان مما في خزائنه وأعظمها خزائن خير الآخرة .

وآيات الله هي دلائل وجوده ووحدانيتِه التي أشارت إليها الجمل الثلاث السابقة .

والإِخبار عن الذين كفروا باسم الإِشارة للتنبيه عن أن المشار إليهم خسروا لأجْلِ ما وصفوا به قبلَ اسمِ الإِشارة وهو الكفر بآيات الله .

وتوسطُ ضمير الفصل لإِفادة حصر الخسارة فِيهم وهو قصر ادعائي بناء على عدم الاعتداد بخسارة غيرهم بالنسبة إلى خسارتهم فخسارتهم أعظم خسارة .

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64)

هذا نتيجة المقدمات وهو المقصود بالإثبات ، فالفاء في قوله : ﴿ أفغير الله ﴾ لتفريع الكلام المأمور الرسولُ صلى الله عليه وسلم بأن يقوله على الكلام الموحَى به إليه ليقرع به أسماعهم ، فإن الحقائق المتقدمة موجهة إلى المشركين فبعْدَ تقررها عندهم وإنذارهم على

مخالفة حالهم لما تقتضيه تلك الحقائقُ أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يوجّه إليهم هذا الاستفهام الإنكاري منوعاً على ما قبله إذ كانت أنفسهم قد خَسئت بما جَبَهَها من الكلام السابق تأييسها لهم من محاولة صرف الرسول صلى الله عليه وسلم عن التوحيد إلى عبادة غير الله .

(131/669)

وتوسط فعل ﴿ قُل ﴾ اعتراض بين التفريع والمفرَّع عنه لتصيير المقام لخطاب المشركين خاصة بعد أن كان مقام الكلام قبله مقامَ البيان لكل سامع من المؤمنين وغيرهم ، فكان قوله : ﴿ قُلْ ﴾ هو الواسطة في جعل التفريع خاصّاً بهم ، وهذا من بديع النظم ووفرة المعاني وهو حقيق بأن نسميه "تلوين البساط" .

و﴿ غير الله ﴾ منصوب بـ ﴿ أَعْبُدُ ﴾ الذي هو متعلق بـ ﴿ تأمُرُوني ﴾ على حذف حرف الجر مع (أَنْ) وحذف حرف الجر مع (أَنْ) كثير فقوله : ﴿ أَعْبُد ﴾ على تقدير : أن أعبد فلما حذف الجار المتعلق بـ ﴿ تأمروني ﴾ حذفت (أن) التي كانت متصلة به ، كما حذفت في قول طرفه :

ألاَ أيهذا الزاجري احضر الوغى

وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدي

وهذا استعمال جائز عند أبي الحسن الأخفش وابن مالك ونحاة الأندلس .

والجمهور يمنعونه ويجعلون قوله : ﴿ أَعْبُدُ ﴾ هو المستفهم عنه ، وفعلَ ﴿ تأمروني ﴾ اعتراضاً أو حالاً ، والتقدير : أَأَعْبُدُ غير الله حال كونكم تأمرونني بذلك ، ومنه قولهم في المثل : تَسْمَع بالمعيدي خيرٌ من أَن تراه ، وفي الحديث " وتعينُ الرجل على دابته فتحمله عليها أو تحمِلُ عليها متاعَه صدقة "

وقرأ نافع ﴿ تَأْمُرُونِي ﴾ بنون واحدة خفيفة على حذف واحدة من النونين اللتين هما نون الرفع ونون الوقاية على الخلاف في المحذوفة وهو كثير في القرآن كقوله : ﴿ فبم تبشرون ﴾ [الحجر : 54] ، وفتحَ نافع ياء المتكلم للتخفيف والتفادي من المدّ .

وقرأ الجمهور ﴿ تأمروني ﴾ بتشديد النون إدغاماً للنونين مع تسكين الياء للتخفيف .

وقرأ ابن كثير بتشديد النون وفتح الياء .

وقرأ ابن عامر ﴿ تأمرونني ﴾ بإظهار النونين وتسكين الياء .

ونداؤهم بوصف الجاهلين تقريع لهم بعد أن وصفوا بالخسران ليجمع لهم بين نقص الآخرة ونقص الدنيا .

والجهل هنا ضد العلم لأنهم جهلوا دلالة الدلائل المتقدمة فلم تفد منهم شيئاً فعمُوا عن دلائل الوحدانية التي هي بمرأى منهم ومسمع فجهلوا دلالتها على الصانع الواحد ولم يكفهم هذا الحظ من الجهل حتى تدلَّوا إلى حضيض عبادة أجسام من الصخّر الأصم .

وإطلاق الجهل على ضد العلم إطلاق عربي قديم قال النابغة :

يُخْبِرْكَ ذُو عِرْضِهم عني وعالمهم

وليس جاهلُ شيء مثل مَن عَلِما . . .

وقال السموأل أو عبدُ الملك بن عبد الرحيم الحارثي :

سَلِي إن جَهِلتِ الناس عنا وعنهم

فليسَ سواءً عالمٌ وجهول . . .

وحُذف مفعول ﴿ الجاهلون ﴾ لتنزيل الفعل منزلة اللازم كأنَّ الجهل صار لهم سجية فلا يفقهون شيئاً فهم جاهلون بما أفادته الدلائل من الوحدانية التي لو علموها لما أشركوا ولمَا دعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى اتباع شركهم ، وهم جاهلون بمراتب النفوس الكاملة جهلاً أطمَعهم أن يصرفوا النبي صلى الله عليه وسلم عن التوحيد وأن يستزِلوه بخزعبلاتهم وإطماعهم إياه أَن يعبدوا الله إن هو شاركهم في عبادة أصنامهم يحسبون الدِّين مساومة ومغابنة وتطفيفاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ الله خالق كل شىء ﴾

احتج المعتزلة على مخلوقية القرآن بقوله تعالى خالق كل شيء ونحو ذلك من الآيات فإجاب الأكثرون بأنه عام مخصوص يخص محل النزاع كسائر الصفات من العلم ونحوه

قال ابن عقيل في ألإرشاد ووقع لي أن القرآن لا يتناوله هذا الإخبار ولا يصلح لتناوله قال لأن به حصل عقد ألإعلام بكونه خالقا لكل شيء وما حصل به عقد الإعلام والإخبار لم يكن داخلا تحت الخبر قال ولو أن شخصا قال لا أتكلم اليوم كلاما إلا كان كذبا لم يدخل إخباره بذلك تحت ما اخبر به

قلت ثم تدبرت هذا فوجدته مذكورا في قوله تعالى في قصة مريم فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا وإنما أمرت بذلك لئلا تسأل عن ولدها فقولها فلن أكلم اليوم إنسيا به حصل إخبار بأنها لا تكلم الإنس ولم يكن ما أخبرت به داخلا تحت الخبر وإلا كان قولها هذا مخالفا لنذرها

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بدائع الفوائد جـ 1 صـ 318 ﴾

(134/669)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى السوء)

وهو كلّ ما يَغُمّ الإنسان من أُمور الدّارَين ، ومن الأَحوال النفسيّة والبَدَنيّة والخارجة : من فوات مال ، وفَقْد حميم .

وقوله تعالى : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أَى غير آفة بها .

وفُسّر بالبَرَص ، وذلك بعض الآفات التى تعرض لليد .

وعُبّر بالسُوءَى عن كلّ ما يَقْبُحُ ، ولذلك قوبل بالحسنى ، قال : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُواْ السُّوءَى ﴾ ، أَى عاقبة الَّذين أَشركوا النَّار ، كما قال : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى ﴾ .

والسّيّئة : الفِعلة القبيحة ، وهى ضِدّ الحَسَنة ، وأَصلها سَيْوئة ، فقلبت الواو ياءً ثمّ

أُدغمت فقيل سيّىء .

وأَفعالٌ سَيّئة .

وفلان يُحبط الحسنى بالسُوءَى ، وقد ساءَ عمله .

والحَسَنَة والسّيّئة ضربان :

أَحدهما بحسب اعتبار العقل والشَّرع ، نحو المذكر فى قوله : ﴿ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ .

والثانى : بحسب اعتبار الطبع ، وذلك ما يستخفه الطبع وما يستثقله ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هذه وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ ﴾ ،

وقوله : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ ﴾ أَى مكان الجَدْب و السَنَة الخِصْبَوا والحَيَا .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ ، أَى يطلبون العذاب .

وقولُه : ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ﴾ قرأَ ابن كثير وأَبوا عمرو بالضّمّ ، يعنى الهزيمة والشرّ .

وقرأَ الباقون بالفتح ، وهو من المَسَاءَة ، أَى ما يسوءهم فى العاقبة .

وقوله : ﴿ سَآءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ ﴾ ،

فساءَ ههنا تجرى مَجْرَى بِئْسَ .

وقوله : ﴿ سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ، نُسِبَ ذلك إلى الوجه من حيث إِنَّه يبدو فى الوجه أَثَرُ السّرور والغَمّ .

(135/669)

وقوله : ﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾ : حَلّ بهم ما يسوءُهم .

وكُنى عن الفرْج وعن العورة بالسّوءة ، قال : ﴿ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ ، وقال : ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ .

واستاءَ من السّوءِ افتعل منه ؛ كما تقول من الغم : اغْتَمّ .

وفى حديث النبىّ صلَّى الله عليه وسلم أَن رجلا قصّ عليه رُؤيا فاستاءَ لها ، ثمَّ قال : "خلافة نبوّة ، ثمّ يؤتى الله المُلْك من يشاءُ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 288.290 ﴾

(136/669)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

كما وَقَاهم -اليومَ- عن المخالفات، حماهم -غداً- من العقوبات، فالمتقون فازوا بسعادة الدارين؛ اليومَ عصمة، وغداً نعمة. اليومَ عناية وغداً حماية وكفاية.

قوله جلّ ذكره: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾.

تدخل أكسابُ العباد في هذه الجملة، ولا يَدْخُل كلامُه فيه؛ لأن المخاطِبَ لا يدخل تحت الخطاب ولا صفاته.

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63)

﴿ مَقَالِيدُ ﴾ أي مفاتيح، والمرادُ منه أنه قادر على جيمع المقدورات، فما يريد أَنْ يُوجدَه أَوْجَدَه.

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64)

أي متى يكون لكم طَمَعٌ في أن أعبدَ غيره... وبتوحيده ربَّني، وبتفريده غَذَاني، وبِشَرَابِ حُبِّه سَقَاني؟!. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 289. 290﴾

(137/669)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السبعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السبعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 65 ﴾ من سورة الزمر

وحتى الآية ﴿ 72 ﴾ من السورة

(4/670)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقديم يدل على الاختصاص ، وكانوا لم يدعوه للتخصيص ، بل للكف المقتضي للشرك ، بين أنه تخصيص من حيث إن الإله غني عن كل شيء فهو لا يقبل عملاً فيه شرك ، ومتى حصل أدنى شرك كان في ذلك العمل كله للذي أشرك ، فكان التقدير بياناً لسبب أمره بأن يقول لهم ما تقدم منكراً عليهم : قل كذا ، فلقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك وجوب

التوحيد ، فعطف عليه قوله مؤكداً لأجل ما استقر في النفوس من أن من عمل لأحد شيئاً قبل سواء كان على وجه الشركة أولا : ﴿ ولقد ﴾ ولما كان الموحي معلوماً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، بني للمفعول قوله : ﴿ أوحي إليك ﴾ ولما كان التعميم أدعى إلى التقبل قال : ﴿ وإلى الذين ﴾ ولما كان الإرسال إنما هو في بعض الزمان لبعض الناس قال : ﴿ من قبلك ﴾ ولما كان الحكم على قوم ربما كان حكماً على المجموع مع قيد الجمع خص بياناً لأنه مع كونه حكماً على المجموع حكم على كل فرد ، ولأن خطاب الرئيس خطاب لأتباعه لأنه مقتداهم .

(5/670)

ولما كان الموحى إليهم أنه من أشرك حبط عمله سواء كان هو أو غيره ، صح قوله بالإفراد موضع نحو أن الإشراك محبط للعمل وقائم مقام الفاعل ، وعدل عنه إلى ما ذكر لأنه أعظم في النهي وأقعد في الزجر لمن يتأهل له من الأمة ، وأكد لأن المشركين ينكرون معناه غاية الإنكار : ﴿ لئن ﴾ أي أوحى إلى كل منكم هذا اللفظ وهو وعزتي لئن ﴿ أشركت ﴾ أي شيئاً من الأشياء في شيء من عملك بالله وهو من فرض المحال ، ذكره هكذا ليكون أروع للأتباع ، والفعل بعد إن الشرطية للاستقبال ، فعدل هنا عن التعبير بالمضارع للمطابقة بين

اللفظ والمعنى لأن الآية سبقت للتعريض بالكفار فكان التعبير بالماضي أنسب ليدل بلفظه على أن من وقع منه شرك فقد خسر ، وبمعناه على أن الذي يقنع منه ذلك فهو كذلك .

ولما تقرر الترهيب أجاب الشرط والقسم بقوله : ﴿ ليحبطن ﴾ أي ليفسدن فيبطلن عملك فلا يبقى له أثراً ما من جهة القادر فلأنه أشرك به فيه وهو غني لا يقبل إلا الخالص ، لأنه لا حاجة إلى شيء ، وأما من جهة غيره فلأنه لا يقدر على شيء .

ولما كان السياق للتهديد ، وكانت العبادة شاملة لمت تقدم على الشرك من الأعمال وما تأخر عنه ، لم يقيده بالاتصال بالموت اكتفاء بتقييده في آية البقرة وقال : ﴿ ولتكونن ﴾ أي لأجل حبوطه ﴿ من الخاسرين ﴾ فإنه من ذهب جميع عمله لا شك في خسارته ، والخطاب للرؤساء على هذا النحو - وإن كان المراد به في الحقيقة أتباعهم - أزجر للأتباع ، وأهز للقلوب منهم والأسماع .

ولما كان التقدير قطعاً : فلا تشرك ، بنى عليه قوله : ﴿ بل الله ﴾ أي المتصف بجميع صفات الكمال وحده بسبب هذا النهي العظيم والتهديد الفظيع مهما وقعت منك عبادة ما ﴿ فاعبد ﴾ أي مخلصاً له العبادة ، فحذف الشرط ، عوض عنه بتقديم المفعول .

(6/670)

ولما كانت عبادته لا يمكن أن تقع إلا شكراً لما له من عموم النعم سابقاً ولاحقاً ، وشكر المنعم واجب ، نبه على ذلك قوله : ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف لأنه جعلك خير الخلائق .

ولما كان التقدير : فما أحسن هؤلاء ولا أجملوا حين دعوك للإشراك بالله ، وما عبدوه حق عبادته إذ أشركوا به ، عطف عليه قوله : ﴿ وما قدروا ﴾ وأظهر الاسم الأعظم في أحسن مواطنه فقال : ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ حق قدره ﴾ أي ما عظموه كما يجب له فإنه لو استغرق الزمان في عبادته وخالص طاعته بحيث لم يخل شيء منه عنها لما كان ذلك حق قدره فكيف إذا خلا بعضه عنها فكيف إذا عدل به غيره .

ولما ذكر تعظيم كل شيء ينسب إليه ، دل على باهر قدرته الذي هو لازم القبض والطي بما يكون من الحال في طي هذا الكون ، فقال كناية عن العظمة بذلك : ﴿ والأرض ﴾ أي والحال أنها ، وقدمها لمباشرتهم لها ومعرفتهم بحقيقتها .

ولما كان ما يدركون منها من السعة والكبر كافياً في العظمة وأن لم يدركوا أنه سبع ، أكد بما يصلح لجميع طبقاتها تنبيهاً للبصراء على أنها سبع من غير تصريح به فقال : ﴿ جميعاً ﴾ ولما كان أحقر ما عند الإنسان وأخفه عليه ما يحويه في قبضته ، مثل بذلك في قوله مخبراً عن المبتدأ مفرداً بفتح القاف لأنه أقعد في تحقير الأشياء العظيمة بالنسبة إلى جليل عظمته : ﴿ قبضته ﴾ .

ولما كان في الدنيا من يدعي الملك والقهر والعظمة والقدرة ، وكان الأمر في الآخرة بخلاف هذا لانقطاع الأسباب قال : ﴿ يوم القيامة ﴾ ولا قبضة هناك حقيقية ولا مجازاً ، وكذا الطي واليمين ، وإنما تمثيل وتخييل لتمام القدرة .

(7/670)

ولما كانوا يعلمون أن السماوات سبع متطابقة بما يشاهدون من سير النجوم ، جمع ليكون مع ﴿ جميعاً ﴾ كالتصريح في جميع الأرض أيضاً في قوله : ﴿ والسماوات مطويات ﴾ ولما كان العالم العلوي أشرف ، شرفه عند التمثيل باليمين فقال : ﴿ بيمينه ﴾ ولما كان هذا إنما هو تمثيل بما نعهد والمراد به الغاية في القدرة ، نزه نفسه المقدس عما ربما تشبث به المجسم والمشبه فقال : ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزه من هذه القدرة قدرته عن كل شائبة نقص وما يؤدي إلى النقص من الشرك والتجسيم وما شاكله ﴿ وتعالى ﴾ علواً لا يحاط به ﴿ عما يشركون ﴾ أي إن علوه عن ذلك علو من يبالغ فيه ، فهو في غاية من العلو لا يكون وراءها غاية لأنه لو كان له شريك لنازعه هذه القدرة أو بعضها فمنعه شيئاً منها ، وهذه معبوداتهم لا قدرة لها على شيء ، روى البخاري في صحيحه في التوحيد وغيره من عبد الله رضي عنه قال :

" جاء حبر من اليهود إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إذا كان يوم القيامة جعل الله السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع والماء والثرى على إصبع والخلائق على إصبع ثم يميزهن ثم يقول : أنا الملك ، فلقد رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يضحك حتى بدت نواجذه – تعجيباً وتصديقاً لقوله – ثم قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ – إلى : – ﴿ يشركون ﴾ [الأنعام : 91] " وروى الشيخان عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك اين الجبارون أين المتكبرون ثم يطوي الأرضين ثم يأخذهن بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون " ، وللبخاري عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 468 . 470 ﴾

(8/670)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾

واعلم أن الكلام التام مع الدلائل القوية ، والجواب عن الشبهات في مسألة الإحباط قد ذكرناه في سورة البقرة فلا نعيده ، قال صاحب "الكشاف" قرىء ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ على البناء للمفعول وقرىء بالياء والنون أي : ليحبطن الله أو الشرك وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : كيف أوحي إليه وإلى من قبله حال شركه على التعيين ؟ والجواب تقدير الآية : أوحي إليك لئن أشركت ليحبطن عملك ، وإلى الذين من قبلك مثله أو أوحي إليك وإلى كل واحد منهم لئن أشركت ، كما تقول كسانا حلة أي كل واحد منا .

السؤال الثاني : ما الفرق بين اللامين ؟ الجواب الأولى : موطئة للقسم المحذوف والثانية : لام الجواب .

السؤال الثالث : كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم ؟ والجواب أن قوله ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ قضية شرطية والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزأيها ألا ترى أن قولك لو كانت الخمسة زوجاً لكانت منقسمة بمتساويين قضية صادقة مع أن كل واحد من جزأيها غير صادق ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] ولم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة وبأنهما قد فسدتا .

السؤال الرابع : ما معنى قوله ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ ؟ والجواب كما أن طاعات الأنبياء والرسل أفضل من طاعات غيرهم ، فكذلك القبائح التي تصدر عنهم فإنها بتقدير الصدور تكون أقبح لقوله تعالى : ﴿ إِذاً لأذقناك ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات ﴾ [الإسراء : 75] فكان المعنى ضعف الشرك الحاصل منه ، وبتقدير حصوله منه يكون تأثيره في جانب غضب الله أقوى وأعظم .

(9/670)

واعلم أنه تعالى لما قدم هذه المقدمات ذكر ما هو المقصود فقال : ﴿ بَلِ الله فاعبد وَكُن مّنَ الشاكرين ﴾ ، والمقصود منه ما أمروه به من الإسلام ببعض آلهتهم ، كأنه قال إنكم تأمرونني بأن لا أعبد إلا غير الله لأن قوله ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونّى أَعْبُدُ ﴾ يفيد أنهم عينوا عليه عبادة غير الله ، فقال الله إنهم بئسما قالوا ولكن أنت على الضد مما قالوا ، فلا تعبد إلا الله ، وذلك لأن قوله ﴿ بَلِ الله فاعبد ﴾ يفيد الحصر .

ثم قال : ﴿ وَكُنْ مّنَ الشاكرين ﴾ على ما هداك إلى أنه لا يجوز إلا عبادة الإله القادر عن الإطلاق العليم الحكيم ، وعلى ما أرشدك إلى أنه يجب الإعراض عن عبادة كل ما سوى الله .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

واعلم أنه تعالى لما حكى عن المشركين أنهم أمروا الرسول بعبادة الأصنام ، ثم إنه تعالى أقام الدلائل على فساد قولهم وأمر الرسول بأن يعبد الله ولا يعبد شيئاً آخر سواه ، بين أنهم لو عرفوا الله حق معرفته لما جعلوا هذه الأشياء الخسيسة مشاركة له المعبودية ، فقال :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

احتج بعض الناس بهذه الآية على أن الخلق لا يعرفون حقيقة الله ، قالوا لأن قوله ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ يفيد هذا المعنى إلا أنا ذكرنا أن هذا صفة حال الكفار فلا يلزم من وصف الكفار بأنهم ما قدروا الله حق قدره وصف المؤمنين بذلك ، فسقط هذا الكلام .

المسألة الثانية :

قوله ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه ، وهذه الآية مذكورة في سور ثلاث ، في سورة الأنعام ، وفي سورة الحج ، وفي هذه السورة .

(10/670)

واعلم أنه تعالى لما بين أنهم ما عظموه تعظيماً لائقاً به أردفه بما يدل على كمال عظمته ونهاية جلالته ، فقال : ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ قال القفال : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة ﴾ كقول القائل وما قدرتني حق قدري وأنا الذي فعلت كذا وكذا ، أي لما عرفت أن حالي وصفتي هذا الذي ذكرت ، فوجب أن لا تحطني عن قدري ومنزلتي ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ﴾ [البقرة : 28] أي كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال ملكه فكذا ههنا ، والمعنى ﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إذ زعموا أن له شركاء وأنه لا يقدر على إحياء الموتى مع أن الأرض والسموات في قبضته وقدرته ، قال صاحب "الكشاف" الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز ، وكذلك ما روي أن يهودياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً مما قال ، قال صاحب "الكشاف" وإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول كل شيء وآخره على الزبدة

والخلاصة ، التي هي الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام ولا تكتنهها الأذهان هينة عليه ، قال ولا نرى باباً في علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ، فيقال له هل تسلم أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة ، وأنه إنما يعدل عن الحقيقة إلى المجاز عند قيام الدلالة

(11/670)

على أن حمله على حقيقته ممتنع ، فحينئذ يجب حمله على المجاز ، فإن أنكر هذا الأصل فحينئذ يخرج القرآن بالكلية عن أن يكون حجة ، فإن لكل أحد أن يقول المقصود من الآية الفلانية كذا وكذا فأنا أحمل الآية على ذلك المقصود ، ولا ألتفت إلى الظواهر ، مثاله من تمسك بالآيات الواردة في ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار ، قال المقصود بيان سعادات المطيعين وشقاوة المذنبين ، وأنا أحمل هذه الآيات على هذا المقصود ولا أثبت الأكل والشرب ولا سائر الأحوال الجسمانية ، ومن تمسك بالآيات الواردة في إثبات وجوب الصلاة فقال المقصود منه إيجاب تنوير القلب بذكر الله ، فأنا أكتفي بهذا القدر ولا أوجب هذه الأعمال المخصوصة ، وإذا عرفت الكلام في هذين المثالين فقس عليه سائر المسائل الأصولية والفروعية ، وحينئذ يخرج القرآن عن أن يكون حجة في المسائل الأصولية

والفروعية ، وذلك باطل قطعاً ، وأما إن سلم أن الأصل في علم القرآن أن يعتقد أن الأصل في الكلام حمله على حقيقته ، فإن قام دليل منفصل على أنه يتعذر حمله على حقيقته ، فحينئذ يتعين صرفه إلى مجازه ، فإن حصلت هناك مجازات لم يتعين صرفه إلى مجاز معين إلا إذا كان الدليل يوجب ذلك التعيين ، فنقول ههنا لفظ اليمين حقيقة في الجارحة المخصوصة ، ولا يمكنك أن تصرف ظاهر الكلام عن هذا المعنى إلا إذا أقمت الدلالة على أن حمل هذه الألفاظ على ظواهرها ممتنع فحينئذ يجب حملها على المجازات ، ثم تبين بالدليل أن المعنى الفلاني يصح جعله مجازاً عن تلك الحقيقة ، ثم تبين بالدليل أن هذا المجاز أولى من غيره ، وإذا ثبتت هذه المقدمات وترتيبها على هذا الوجه فهذا هو الطريق الصحيح الذي عليه تعويل أهل التحقيق فأنت ما أتيت في هذا الباب بطريقة جديدة وكلام غريب ، بل هو عين ما ذكره أهل التحقيق ، فثبت أن الفرح الذي أظهره من أنه اهتدى إلى الطريق الذي لم يعرفه غيره طريق فاسد ، دال على قلة وقوفه على المعاني ، ولنرجع

(12/670)

إلى الطريق الحقيقي فنقول لا شك أن لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الأعضاء والجوارح ، إلا أن الدلائل العقلية قامت على امتناع ثبوت الأعضاء والجوارح لله تعالى ، فوجب حمل

هذه الأعضاء على وجوه المجاز ، فنقول إنه يقال فلان في قبضة فلان إذا كان تحت تدبيره وتسخيره .

قال تعالى : ﴿ إِلاَّ على أزواجهم أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانهم ﴾ [المعارج : 30] والمراد منه كونه مملوكاً له ، ويقال هذه الدار في يد فلان ، وفلان صاحب اليد ، والمراد من الكل القدرة ، والفقهاء يقولون في الشروط وقبض فلان كذا وصار في قبضته ، ولا يريدون إلا خلوص ملكه ، وإذا ثبت تعذر حمل هذه الألفاظ على حقائقها وجب حملها على مجازاتها صوناً لهذه النصوص عن التعطيل ، فهذا هو الكلام الحقيقي في هذا الباب ، ولنا كتاب مفرد في إثبات تنزيه الله تعالى عن الجسمية والمكان ، سميناه بتأسيس التقديس ، من أراد الإطناب في هذا الباب فليرجع إليه .

المسألة الثالثة :

(13/670)

في تفسير ألفاظ الآية قوله ﴿ والأرض ﴾ المراد منه الأرضون السبع ، ويدل عليه وجوه الأول : قوله ﴿ جَمِيعاً ﴾ فإن هذا التأكيد لا يحسن إدخاله إلا على الجمع ونظيره قوله ﴿ كُلُّ الطعام ﴾ [آل عمران : 93] وقوله تعالى : ﴿ أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على

عورات النساء ﴾ [النور : 31] وقوله تعالى : ﴿ والنخل باسقات ﴾ [ق : 10]
وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [العصر : 2 ، 3] فإن هذه الألفاظ الملحة باللفظ المفرد تدل على أن المراد منه الجمع فكذا ههنا
والثاني : أنه قال بعده ﴿ والسماوات مطويات ﴾ فوجب أن يكون المراد بالأرض
الأرضون الثالث : أن الموضع موضع تعظيم وتفخيم فهذا مقتضى المبالغة ، وأما القبضة فهي المرة الواحدة من القبض ، قال تعالى : ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول ﴾ [طه : 96] والقبضة بالضم المقدار المقبوض بالكف ، ويقال أيضاً أعطني قبضة من كذا ، يريد معنى القبضة تسمية بالمصدر ، والمعنى والأرضون جميعاً قبضته أي ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة من قبضاته ، يعني أن الأرضين مع ما لها من العظمة والبسطة لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته ، أما إذا أُريد معنى القبضة ، فظاهر لأن المعنى أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة فإن قيل ما وجه قراءة من قرأ قبضته بالنصب ، قلنا جعل القبضة ظرفاً وقوله ﴿ مطويات ﴾ من الطي الذي هو ضد النشر كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السماء كَطَىِّ السجل ﴾ [الأنبياء : 104] وعادة طاوي السجل أن يطويه بيمينه ، ثم قال صاحب الكشاف : وقيل قبضته ملكه ويمينه قدرته ، وقيل مطويات بيمينه أي مفنيات بقسمه لأنه أقسم أن يقبضها ، ولما ذكر هذه الوجوه عاد إلى القول الأول

بأنها وجوه ركيكة ، وأن حمل هذا الكلام على محض التمثيل أولى ، وبالغ في تقرير هذا الكلام فأطنب ، وأقول إن حال هذا الرجل في إقدامه على تحسين طريقته ، وتقبيح

(14/670)

طريقة القدماء عجيب جداً ، فإنه إن كان مذهبه أنه يجوز ترك الظاهر اللفظ ، والمصير إلى المجاز من غير دليل فهذا طعن في القرآن وإخراج له عن أن يكون حجة في شيء ، وإن كان مذهبه أن الأصل في الكلام الحقيقة ، وأنه لا يجوز العدول عنه إلا لدليل منفل ، فهذا هو الطريقة التي أطبق عليها جمهور المتقدمين ، فأين الكلام الذي يزعم أنه علمه ؟ وأين العلم الذي لم يعرفه غيره ؟ مع أنه وقع في التأويلات العسر والكلمات الركيكة ، فإن قالوا المراد أنه لما دل الدليل على أنه ليس المراد من لفظ القبضة واليمين هذه الأعضاء ، وجب علينا أن نكتفي بهذا القدر ولا نشتغل بتعيين المراد ، بل نفوض علمه إلى الله تعالى ، فنقول هذا هو طريق الموحدين الذين يقولون إنا نعلم ليس مراد الله من هذه الألفاظ هذه الأعضاء ، فأما تعيين المراد ، فإنا نفوض ذلك العلم إلى الله تعالى ، وهذا هو طريقة السلف المعرضين عن التأويلات ، فثبت أن هذه التأويلات التي أتى بها هذا الرجل ليس تحتها شيء من الفائدة أصلاً ، والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما بين عظمته من الوجه الذي تقدم قال : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يعني أن هذا القادر القاهر العظيم الذي حارت العقول والألباب في وصف عظمته تنزّه وتقدس عن أن تجعل الأصنام شركاء له في المعبودية ، فإن قيل السؤال على هذا الكلام من وجوه الأول : أن العرش أعظم من السموات السبع والأرضين السبع ، ثم إنه قال في صفة العرش ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ [الحاقة : 17] وإذا وصف الملائكة بكونهم حاملين العرش العظيم ، فكيف يجوز تقدير عظمة الله بكونه حاملاً للسموات والأرض ؟

(15/670)

السؤال الثاني : أن قوله ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ شرح حالة لا تحصل إلا في يوم القيامة ، والقوم ما شاهدوا ذلك ، فإن كان هذا الخطاب مع المصدقين للأنبياء فهم يكونون معترفين بأنه لا يجوز القول بجعل الأصنام شركاء الله تعالى ، فلا فائدة في إيراد هذه الحجة عليهم ، وإن كان هذا الخطاب مع المكذبين بالنبوّة وهم ينكرون قوله ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة ﴾ فكيف يمكن الاستدلال به على إبطال القول بالشرك ؟

السؤال الثالث : حاصل القول في القبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الأجسام العظيمة ، وكما أن حفظها وإمساكها يوم القيامة ليس إلا بقدرة الله فكذلك الآن ، فما الفائدة في تخصيص هذه الأحوال بيوم القيامة ؟

الجواب عن الأول : أن مراتب التعظيم كثيرة فأولها تقرير عظمة الله بكونه قادراً على حفظ هذه الأجسام العظيمة ، ثم بعد تقرير عظمته بكونه قادراً على إمساك أولئك الملائكة الذين يحملون العرش .

الجواب عن الثاني : أن المقصود أن الحق سبحانه هو المتولي لإبقاء السموات والأرضين على وجوه العمارة في هذا الوقت ، وهو المتولي بتخريبها وإفنائها في يوم القيامة فذلك يدل على حصول قدرة تامة على الإيجاد والإعدام ، وتنبيه أيضاً على كونه غنياً على الإطلاق ، فإنه يدل على أنه إذا حاول تخريب الأرض فكأنه يقبض قبضة صغيرة ويريد إفناءها ، وذلك يدل على كمال الاستغناء .

الجواب عن الثالث : أنه إنما خصص تلك بيوم القيامة ليدل على أنه كما ظهر كمال قدرته في الإيجاد عند عمارة الدنيا ، فكذلك ظهر كمال قدرته عند خراب الدنيا ، والله أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 12 . 16 ﴾

(16/670)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْك وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِك لَئِنْ أَشْرَكْت لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُك وَلَتَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بَيَانُ حَالِ الْإِحْبَاطِ بِالرِّدَّةِ ، وَسَنَزِيدُهُ هَاهُنَا بَيَانًا ، فَنَقُولُ : هَذَا وَإِنْ كَانَ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ قِيلَ : إنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ أُمَّتُهُ ، وَكَيْفَمَا تَرَدَّدَ الْأَمْرُ فَإِنَّهُ بَيَانُ أَنَّ الْكُفْرَ يُحْبِطُ الْعَمَلَ كَيْفَ كَانَ ، وَلَا يَعْنِي بِهِ الْكُفْرَ الْأَصْلِيَّ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ عَمَلٌ يُحْبَطُ ، وَإِنَّمَا يَعْنِي بِهِ أَنَّ الْكُفْرَ يُحْبِطُ الْعَمَلَ الَّذِي كَانَ مَعَ الْإِيمَانِ ؛ إذْ لَا عَمَلَ إلَّا بَعْدَ أَصْلِ الْإِيمَانِ ، فَالْإِيمَانُ مَعْنًى يَكُونُ بِهِ الْمَحَلُّ أَصْلًا لِلْعَمَلِ لَا شَرْطًا فِي صِحَّةِ الْعَمَلِ ، كَمَا تَخَيَّلَهُ الشَّافِعِيَّةُ ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ لَا يَكُونُ شَرْطًا لِلْفَرْعِ ؛ إذْ الشُّرُوطُ أَتْبَاعٌ فَلَا تَصِيرُ مَقْصُودَةً ؛ إذْ فِيهِ قَلْبُ الْحَالِ وَعَكْسُ الشَّيْءِ ، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

(17/670)

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ فَمَنْ كَفَرَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ حَبِطَ عَمَلُهُ ، وَاسْتَأْنَفَ الْعَمَلَ إذَا أَسْلَمَ ، وَكَانَ كَمَنْ لَمْ يُسْلِمْ وَلَمْ يَكْفُرْ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ وَالْإِسْلَامُ وَالْهِجْرَةُ يَهْدِمَانِ مَا قَبْلَهُمَا مِنْ بَاطِلٍ ، وَلَا يَكُونُ إيمَانًا إلَّا بِاعْتِقَادٍ عَامٍّ عَلَى الْأَزْمَانِ ، مُتَّصِلٍ بِتَأْبِيدِ الْأَبَدِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَتَبَعَّضُ وَإِنْ أُفْسِدَ فَسَدَ جَمِيعُهُ ، وَهُوَ حُكْمٌ لَا يَتَجَزَّأُ شَرْعًا ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي التَّلْخِيصِ وَغَيْرِهِ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(18/670)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾

قيل : إن في الكلام تقديماً وتأخيراً ؛ والتقدير : لقد أوحي إليك لئن أشركت وأوحي إلى الذين من قبلك كذلك .

وقيل : هو على بابه ؛ قال مقاتل : أي أوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد والتوحيد محذوف .

ثم قال : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ يا محمد ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ وهو خطاب للنبي صلى الله

عليه وسلم خاصة .

وقيل : الخطاب له والمراد أمته ؛ إذ قد علم الله أنه لا يشرك ولا يقع منه إشراك .

والإحباط الإبطال والفساد ؛ قال القشيري : فمن ارتد لم تنفعه طاعاته السابقة ولكن إحباط الردة العمل مشروط بالوفاة على الكفر ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فأولائك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ [البقرة : 217] فالمطلق هاهنا محمول على المقيد ؛ ولهذا قلنا : من حج ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج .

قلت : هذا مذهب الشافعي .

وعند مالك تجب عليه الإعادة وقد مضى في "البقرة" بيان هذا مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ بَلِ الله فاعبد ﴾ النحاس : في كتابي عن أبي إسحاق لفظ اسم الله عز وجل منصوب ب ﴿ اعْبُدْ ﴾ قال : ولا اختلاف في هذا بين البصريين والكوفيين .

قال النحاس : وقال الفراء يكون منصوباً بإضمار فعل .

وحكاه المهدوي عن الكسائي .

فأما الفاء فقال الزجاج : إنها للمجازاة .

وقال الأخفش : هي زائدة .

وقال ابن عباس ؛ "فاعْبُدْ" أي فوحّد .

وقال غيره : ﴿ بَلِ اللهَ ﴾ فأطع ﴿ وَكُن مِّنَ الشاكرين ﴾ لنعمه بخلاف المشركين .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾

قال المبرد : ما عظّموه حقّ عظمته من قولك فلان عظيم القدر .

قال النحاس : والمعنى على هذا وما عظموه حق عظمته إذ عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها .

(19/670)

ثم أخبر عن قدرته وعظمته فقال : ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ .

ثم نزّه نفسه عن أن يكون ذلك بجارحة فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وفي الترمذي عن عبد الله قال : " جاء يهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك .

فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال : "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ" " قال : هذا حديث حسن صحيح .

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقبض

الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض " وفي الترمذي " عن عائشة : أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ قالت قلت فأين الناس يومئذٍ يا رسول الله ؟ قال : "على جسر جهنم" " في رواية " على الصراط يا عائشة " قال : حديث حسن صحيح .

وقوله : ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ ﴾ "ويقبض الله الأرض" عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته ؛ يقال : ما فلان إلا في قبضتي ، بمعنى ما فلان إلا في قدرتي ، والناس يقولون الأشياء في قبضته يريدون في ملكه وقدرته .

وقد يكون معنى القبض والطي إفناء الشيء وإذهابه فقوله جل وعز : ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ ﴾ يحتمل أن يكون المراد به والأرض جميعاً ذاهبة فانية يوم القيامة ، والمراد بالأرض الأرضون السبع ؛ يشهد لذلك شاهدان : قوله : ﴿ والأرض جَمِيعاً ﴾ ولأن الموضع موضع تفخيم وهو مقتضٍ للمبالغة .

وقوله : ﴿ والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ ليس يريد به طيًّا بعلاج وانتصاب ، وإنما المراد بذلك الفناء والذهاب ؛ يقال : قد انطوى عنا ما كنا فيه وجاءنا غيره .

وانطوى عنا دهر بمعنى المضي والذهاب .

واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى القدرة والملك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء: 3] يريد به الملك؛ وقال ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ [الحاقة: 45] أي بالقوّة والقدرة أي لأخذنا قوته وقدرته.

قال الفرّاء والمبرد: اليمين القوّة والقدرة.

وأنشدا:

إذا ما رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ . . .
تَلَقَّاهَا عَرابةُ بِالْيَمِينِ

وقال آخر:

ولّما رَأَيتُ الشَّمْسَ أَشْرَقَ نورُها . . .
تَناولتُ مِنها حاجتِي بِيَمينِ
قتلتُ شُنَيْفاً ثم فارانَ بَعده . . .
وكان على الآيات غيرَ أمينِ

وإنما خص يوم القيامة بالذكر وإن كانت قدرته شاملة لكل شيء أيضاً؛ لأن الدعاوى تنقطع ذلك اليوم؛ كما قال:

﴿ والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الانفطار: 91] وقال: ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة: 4]

حسب ما تقدّم في "الفاتحة" ولذلك قال في الحديث : " ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض " وقد زدنا هذا الباب في "التذكرة" بياناً ، وتكلمنا على ذكر الشمال في حديث ابن عمر قوله : "ثم يطوي الأرض بشماله" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(21/670)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ ﴾

أي من الرسل عليهم السلام ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ أي بالله تعالى شيئاً ما ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ الظاهر أن جملة ﴿ لَئِنْ ﴾ الخ نائب فاعل ﴿ أوحى ﴾ لكن قيل في الكلام حذف والأصل أوحى إليك لئن أشرت ليحبطن عملك الخ ، وإلى الذين من قبك مثل ذلك ، وقيل : لا حذف ، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد منه صلى الله عليه وسلم والمرسلين الموحي إليهم فإنه أوحى لكل ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ الخ بالافراد ، وذهب البصريون إلى أن الجمل لا تكون فاعلة فلا تقوم مقام الفاعل ، ففي "البحر" أن ﴿ إِلَيْكَ ﴾ حينئذ نائب الفاعل ، والمعنى كما قال مقاتل أوحى إليك وإلى الذين من قبلك بالتوحيد ، وقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ الخ استئناف خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم

خاصة وهو كما ترى ، وأياً ما كان فهو كلام على سبيل الفرض لتهييج المخاطب المعصوم وإقناط الكفرة والإيذان بغاية شناعة الإشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يباشره فكيف بمن عداه ، فالاستدلال بالآية على جواز صدور الكبائر من الأنبياء عليهم السلام كما في "المواقف" ليس بشيء ، فاحتمال الوقوع فرضاً كاف في الشرطية لكن ينبغي أن يعلم أن استحالة الوقوع شرعية ، ولاماً ﴿ لَقَدِ وَلَئِنِ ﴾ موطئتان للقسم واللامان بعد للجواب ، وفي عدم تقييد الإحباط بالاستمرار على الإشراك إلى الموت دليل للحنفية الذاهبين إلى أن الردة تحبط الأعمال التي قبلها مطلقاً .

(22/670)

نعم قالوا : لا يقضي منها بعد الرجوع إلى الإسلام إلا الحج ، ومذهب الشافعي أن الردة لا تحبط العمل السابق عليها ما لم يستمر المرتد على الكفر إلى الموت ، وترك التقييد هنا اعتماداً على التصريح به في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أعمالهم فِي الدنيا والاخرة وَأُوْلَئِكَ أصحاب النار هُمْ فِيهَا ﴾ [البقرة : 217] ويكون ذلك من حمل المطلق على المقيد .

وأجاب بعض الحنفية بأن في الآية المذكورة توزيعاً ﴿ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ ناظر إلى

الارتداد عن الدين ﴿ وَأُوْلَئِكَ أصحاب النار ﴾ الخ ناظر إلى الموت على الكفر فلا مقيد ليحمل المطلق عليه ، ومن هذا الخلاف نشأ الخلاف في الصحابي إذا ارتد ثم عاد إلى الإسلام بعد وفاته صلى الله عليه وسلم أو قبلها ولم يره هل يقال له : صحابي أم لا ، فمن ذهب إلى الإطلاق قال لا ومن ذهب إلى التقييد قال : نعم ، وقيل : يجوز أن يكون الإحباط مطلقاً من خصائص النبي عليه الصلاة والسلام إذ شركه وحاشاه أقبح ، وفيه ضعف لأن الغرض تحذير أمته وتصوير فظاعة الكفر فتقدير أمر يختص به لا يتعدى من النبي إلى الأمة لا اتجاه له مع أنه لا مستند له من نقل أو عقل ، والمراد بالخسران على مذهب الحنفية ما لزم من حبط العمل فكان الظاهر فتكون إلا أنه عدل إلى ما في النظم الجليل للاشعار بأن كلا من الاحباط والخسران يستقل في الزجر عن الإشراك ، وقيل : الخلود في النار فيلزم التقييد بالموت كما هو عند الشافعي عليه الرحمة .

وقرىء ﴿ لَيَحْبَطَنَّ ﴾ من أحبط ﴿ عَمَلُكَ ﴾ بالنصب أي ليحبطن الله تعالى أو الإشراك عملك ، وقرىء بالنون ونصب ﴿ عَمَلُكَ ﴾ أيضاً .

(23/670)

﴿ بَلِ اللهَ فاعبد ﴾ رد لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم ، والفاء جزائية في جواب شرط مقدر كأنه قيل : إن كنت عابداً أو عاقلاً فاعبد الله فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً عنه ، وإلى هذا ذهب الزمخشري وسلفه في كونها جزائية الزجاج ، وأنكر أبو حيان كون التقديم عوضاً عن الشرط ، ومذهب الفراء .

والكسائي أن الفاء زائدة بين المؤكد والمؤكد والاسم الجليل منصوب بفعل محذوف والتقدير الله اعبد فاعبده وقدر مؤخراً ليفيد الحصر .

وفي الانتصاف مقتضى كلام سيبويه أن الأصل تنبه فاعبد الله فحذفوا الفعل الأول اختصاراً واستنكروا الابتداء بالفاء ومنشأنها التوسط بين المعطوف والمعطوف عليه فقدموا المفعول فصارت الفاء متوسطة لفظاً ودالة على المحذوف وانضاف إليها فائدة الحصر لإشعار التقديم بالاختصاص ، واعتبار الاختصاص قيل : مما لا بد منه لأنه لم يكن الكلام رداً عليهم فيما أمروه به لولاه فإنهم لم يطلبوا منه عليه الصلاة والسلام ترك عبادة الله سبحانه بل استلام آلهتهم والشرك به عز وجل اللهم إلا أن يقال : عبادة الله سبحانه مع الشرك كلا عبادة ، والله جل وعلا أغنى الشركاء فمن أشرك في عمله أحداً معه عز وجل فعمله لمن أشرك كما يدل عليه كثير من الأخبار ، وقرأ عيسى ﴿ بَلِ اللهُ ﴾ بالرفع ﴿ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ﴾ انعامه تعالى عليك الذي يضيق عنه نطاق الحصر ، وفيه إشارة إلى موجب الاختصاص .

﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عظموه جل جلاله حق عظمته إذ عبدوا غيره تعالى وطلبوا من نبيه صلى الله عليه وسلم عبارة غيره سبحانه قاله الحسن .

والسدي ، وقال المبرد : أصله من قولهم : فلان عظيم القدر يريدون بذلك جلالته ، وأصل القدر اختصاص الشيء بعظم أو صغر أو مساواة ، وقال الراغب : أي ما عرفوا كنهه عز وجل .

وتعقب بأن معرفة كنهه تعالى أي حقيقته سبحانه لا يخص هؤلاء لتعذر الوقوف على الحقيقة ، ومن هنا

: العجز عن درك الإدراك إدراك . . .

(24/670)

والبحث عن كنه ذات الله إشراك

ولا يخفى أن المسألة خلافية ، وما ذكر على تقدير التسليم يمكن دفعه بالعناية .

نعم أولى منه ما قيل : أي ما عرفوه كما يليق به سبحانه حيث جعلوا له سبحانه شريكاً ، وظاهر كلام بعضهم أن الكلام على تقدير مضاف أي ما قدروا في أنفسهم وما تصوروا عظمة الله حق التصوف فلم يعظموه كما هو حقه عز وجل حيث وصفوه بما لا يليق بشؤنه

الجليلة من الشركة ونحوها ، وأياً ما كان فهو متعلق بما قبله من حيث أن فيه تجهيلهم في الإشراك ودعائهم رسوله صلى الله عليه وسلم إليه ، وقيل : المعنى ما وصفوا الله تعالى حق صفته إذ جحدوا البعث ووصفوه سبحانه بأنه خالق الخلق عبثاً وأنه سبحانه عاجز عن الإعادة والبعث وهو خلاف الظاهر ، وعليه يكون للتمهيد لأمر النفخ في الصور ، وضمير الجمع على جميع ما ذكر لكفار قريش كما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقيل : الضمير لليهود تكلموا في صفات الله تعالى وجلاله فالحدوا وجسموا وجاءوا بكل تخليط فنزلت .

وقرأ الأعمش حق ﴿ قَدْرِهِ ﴾ بفتح الدال ، وقرأ الحسن .

وعيسى .

وأبو نوفل .

وأبو حيوة ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ﴾ بتشديد الدال ﴿ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ بفتح الدال ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ الجملة في موضع الحال من الاسم الجليل و ﴿ جَمِيعاً ﴾ حال من المبتدأ عند من يجوزه أو من يقدر كأثبتها جميعاً كما قيل ، وهو جار مجرى الحال المؤكدة في أن العامل منتزع من مضمون الجملة ، وفي "التقريب" هو حال من الضمير في ﴿ قَبْضَتُهُ ﴾ لأنه بمعنى مقبوضة وكان الظاهر أن يؤخر عنه وإنما قدم

عليه ليعلم أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة أو بعض دون بعض ولكن عن الأرضين كلها أو عن جميع أبعاضها .

(25/670)

وجاز هذا التقديم لأن المصدر لم يعمل من حيث كونه مصدراً بل لكونه بمعنى اسم المفعول ، وقال الحوفي : العامل في الحال ما دل عليه قبضته لا هي ، وهو كما ترى ، و ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ معمول ﴿ قَبْضَتُهُ ﴾ وهي في الأصل المرة الواحدة من القبض وتطلق على المقدار المقبوض كالقبضة بضم القاف وجعلت صفة مشبهة حينئذ ، وجوز كل من إرادة المقبوضة والمعنى المصدري هنا ، والكلام على الثاني على تقدير مضاف أي ذوات قبضته أي يقبضهن سبحانه قبضة واحدة ، وقرأ الحسن ﴿ قَبْضَتُهُ ﴾ بالنصب على أنه ظرف مختص مشبه بالمبهم ولذا لم يصرح بفي معه وهو مذهب الكوفيين ، والبصريون يقولون : إن النصب في مثل ذلك خطأ غير جائز وأنه لا بد من التصريح بفي .

وقرأ عيسى .

والجحدري ﴿ مطويات ﴾ بالنصب على أن ﴿ السموات ﴾ عطف على ﴿ الأرض ﴾ مشاركة لها في الحكم أي والسماوات قبضته ، و ﴿ مطويات ﴾ حال من ﴿

السموات ﴾ عند من يجوز مجيء الحال من مثل ذلك أو من ضميرها المستتر في ﴿ قَبْضَتُهُ ﴾ على أنها بمعنى مقبوضته أو من ضميرها محذوفاً أي أثبها مطويات ، و ﴿ بِيَمِينِهِ ﴾ متعلق بمطويات أو على أن ﴿ السموات ﴾ مبتدأ و ﴿ بِيَمِينِهِ ﴾ الخبر و ﴿ مطويات ﴾ حال أيضاً إما من المبتدأ أو من الضمير المحذوف أو من الضمير المستتر في الخبر بناء على مذهب الأخفش من جواز تقديم الحال في مثل ذلك .

(26/670)

والكلام عند كثير من الخلف تمثيل لحال عظمته تعالى ونفاذ قدرته عز وجل وحقارة الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام بالإضافة إليها بحال من يكون له قبضة فيها الأرض جميعاً ويمين بها يطوي السماوات أو بحال من يكون له قبضة فيها الأرض والسماوات ويمين بها يطوي السماوات من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز بالنسبة إلى المجرى عليه وهو الله عز شأنه ، وقال بعضهم : المراد التنبيه على مزيد جلالته عز وجل وعظمته سبحانه بإفادة أن الأرض جميعاً تحت ملكه تعالى يوم القيامة فلا يتصرف فيها غيره تعالى شأنه بالكلية كما قال سبحانه : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ للَّهِ ﴾ [الحج : 56] والسماوات مطويات طي السجل للكتب بقدرته التي لا يتعاصاها شيء .

وفيه رمز إلى أن ما يشركونه معه عز وجل أرضياً كان أم سماوياً مقهور تحت سلطانه جل شأنه وعز سلطانه فالقبضة مجاز عن الملك أو التصرف كما يقال : بلد كذا في قبضة فلان ، واليمين مجاز عن القدرة التامة ، وقيل : القبضة مجاز عما ذكر ونحوه والمراد باليمين القسم أي والسماوات مفنيات بسبب قسمه تعالى لأنه عز وجل أقسم أن يفنيها ، وهو ما يهزأ منه لا مما يهتز استحساناً له ، والسلف يقولون أيضاً : إن الكلام تنبيه على مزيد جلالته تعالى وعظمته سبحانه ورمز إلى أن آلهتهم أرضية أم سماوية مقهورة تحت سلطانه عز وجل إلا أنهم لا يقولون : إن القبضة مجاز عن الملك أو التصرف ولا اليمين مجاز عن القدرة بل ينزهون الله تعالى عن الأعضاء والجوارح ويؤمنون بما نسبه إلى ذاته بالمعنى الذي أراده سبحانه وكذا يفعلون في الأخبار الواردة في هذا المقام .

فقد أخرج البخاري .

ومسلم .

والترمذي .

والنسائي .

(27/670)

وغيرهم عن ابن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إنا نجد الله يحمل السماوات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والشجر على أصبع والماء والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع فيقول : أنا الملك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ رسول الله عليه الصلاة والسلام ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ الآية ، والمتأولون يتأولون الأصابع على الاقتدار وعدم الكلفة كما في قول القائل : أقتل زيداً بأصبعي ، ويبعد ذلك ظاهر ما أخرجه الإمام أحمد .

والترمذي وصححه .

والبيهقي .

وغيرهم عن ابن عباس قال : مر يهودي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس قال : كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه وأشار بالسبابة والأرضين على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه ؟ كل ذلك يشير بأصابعه فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ وجعل بعض المتأولين الإشارة إعانة على التمثيل والتخييل . وزعم بعضهم أن الآية نزلت رداً لليهودي حيث شبه وذهب إلى التجسيم وإن ضحكه عليه الصلاة واللام المحكي في الخبر السابق كان للرد أيضاً وأن ﴿ إِنَّهُ ﴾ في الخبر من كلام الراوي على ما فهم ، ولا يخفى أن ذلك خلاف الظاهر جداً ، وجعلوا أيضاً من باب الإعانة

على التمثيل وتخييل العظمة فعله عليه الصلاة والسلام حين قرأ هذه الآية ، فقد أخرج

الشيخان .

والنسائي .

وابن ماجه .

(28/670)

وجماعة عن ابن عمر "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم المنبر ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هكذا بيده ويحركها يقبل بها ويدبر يمجد الرب نفسه أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر حتى قلنا ليخرجن به" وفي "صحيح مسلم" عن عبد الله بن مقسم أنه نظر إلى ابن عمر كيف يحكي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يأخذ الله تعالى سماواته وأرضيه بيديه ويقول : أنا الله ويقبض أصابعه ويبسطها أنا الملك .

" وفي "شرح الصحيح" للإمام النووي نقلاً عن المازري أن قبض النبي صلى الله عليه وسلم أصابعه وبسطها تمثيل لقبض هذه المخلوقات وجمعها بعد بسطها وحكاية للمبسوط

المقبوض وهو السماوات والأرضون لا إشارة إلى القبض والبسط الذي هو صفة للقابض والباسط سبحانه وتعالى ولا تمثيل لصفة الله تعالى السمعية المسماة باليد التي ليست بجارحة انتهى ، ثم إن ظاهر بعض الأخبار يقتضي أن قبض الأرض بعد طي السماوات وأنه بيد أخرى .

(29/670)

أخرج مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يطوي الله تعالى السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول : أين الجبارون أين المتكبرون ؟ ، وفي الشرح نقلاً عن المازري أيضاً أن إطلاق اليدين لله تعالى متأول على القدرة ، وكنى عن ذلك باليدين لأن أفعالنا تقع باليدين فخوطبنا بما نفهمه ليكون أوضح وأوكد في النفوس ، وذكر اليمين والشمال حتى يتم التأول لأنا نتناول باليمين ما نكرمه وبالشمال ما دون ولأن اليمين في حقنا تقوى لما لا تقوى له الشمال ، ومعلوم أن السماوات أعظم من الأرض فأضافها إلى اليمين وأضاف الأرضين إلى الشمال ليظهر التقريب في الاستعارة وإن كان الله سبحانه وتعالى لا يوصف بأن شيئاً أخف عليه من شيء ولا أثقل من شيء انتهى .

والصوفية يقولون بالتجلي الصوري مع بقاء الإطلاق والتنزيه المدلول عليه بليس كمثله شيء ، والأمر عليه سهل جداً .

ثم إن التصرف في الأرض والسماوات يكون والناس على الصراط كما جاء في خبر رواه مسلم عن عائشة مرفوعاً ، وروى أيضاً عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة " والكلام في هذا الخبر كالكلام في نظائره ، وإياك من التشبيه والتجسيم ، وكذا من نسبة ذلك إلى السلف ولا تك كالمعتزلة في التحامل عليهم والوقيعة فيهم ، ويكفي دليلاً على جهل المعتزلة بربهم زعمهم أنه عز وجل فوض العباد فهم يفعلون ما لا يشاء ويشاء ما لا يفعلون ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي أبعد من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم أو عما يشركونه من الشركاء فسبحان للتعجب وتتعلق به ﴿ عَنْ ﴾ بالتأويل بما ذكر و﴿ مَا ﴾ تحتمل المصدرية والموصولية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(30/670)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» هو تشنيع على الشرك ، وعلى ما يحيق بالمشركين من غضب اللّه ونقمته ، وأنه أمر إن وقع فيه أحد ، فلا شفاعة له عند اللّه - حتى ولو فرض - وهو مستحيل - إن كان الذي يشرك باللّه ، من أقرب المقربين إلى اللّه ، وهم أنبياء اللّه ، أو كان من أكرم خلق اللّه على اللّه ، وهو رسول اللّه !

قوله تعالى : « بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » . .

هو تأمين على ما قررته الآية السابقة ، وتوكيد لما حملت من إنكار على الكافرين دعوتهم النبىّ إلى عبادة غير اللّه . . فهم يدعون النبي إلى عبادة غير اللّه ، واللّه سبحانه وتعالى يدعوه إلى عبادته . . وفى هذا إبطال لدعوة المشركين ، وإهدار لها . .

وفى الجمع بين العبادة والشكر ، إشارة إلى أن هذه العبادة ليست عبادة قهر وقسر ، بل هى عبادة حمد وشكر ، وولاء ، وحبّ للّه سبحانه وتعالى ، الذي خلق فسوّى ، والذي قدّر فهدى ، والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى . .

(31/670)

قوله تعالى : « وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ . . وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ . . سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ » . .

أي أن هؤلاء الذين كفروا بالله ، إنما كفروا به لأنهم لم يتعرفوا إليه ، ولم يعرفوا بعض كمالاته ، وصفاته . . !

وقوله تعالى : « وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ » . جملة حالية ، من لفظ الجلالة ، أي أن هؤلاء الكافرين لم يقدروا الله حق قدره ، والحال أن الأرض تكون فى قبضته يوم القيامة ، فأنّى لهم المهرب من حسابه وعقابه ؟ .

وقوله تعالى : « وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » حال أخرى معطوف على قوله تعالى : « وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ » . . وطىّ السماء بيمين الله سبحانه وتعالى ، هو استجابتها لقدرته ، وخضوعها لسلطانه ، يطويها وينشرها ، كما شاء سبحانه . . ومثل هذا قوله تعالى : « يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » (104 : الأنبياء) .

وقوله تعالى : « سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ » . . هو ردّ المؤمنين على الكافرين ، والضالين ، الذين لم يقدروا الله حق قدره ، فأشركوا به ، وجعلوا ولاءهم لغيره . . والمؤمنون . وقد قدروا الله حق قدره . ينزّهون الله سبحانه وتعالى عن أن يكون له شركاء ، وينكرون على المشركين ما هم فيه من ضلال ، وكفر بالله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 12 صـ 1189 . 1190 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) ﴾

تأييد لأمره بأن يقول للمشركين تلكَ المقالة مقالةً إنكار أن يطمعوا منه في عبادة الله ، بأنه قول استحقوا أن يُرمَوا بغلظته لأنهم جاهلون بالأدلة وجاهلون بنفس الرسول وزكائها .

وأعقب بأنهم جاهلون بأن التوحيد هو سنة الأنبياء وأنهم لا يتطرق الإِشراك حوالي قلوبهم ، فالمقصود الأهم من هذا الخبر التعريض بالمشركين إذ حاولوا النبي صلى الله عليه وسلم على الاعتراف بإلهية أصنامهم .

والواو عاطفة على جملة ﴿ قُلْ ﴾ [الزمر : 64] .

وتأكيدُ الخبر بلام القسم وبحرف (قد) تأكيد لما فيه من التعريض للمشركين .

والوحي : الإِعلام من الله بواسطة الملَك .

والذين من قبله هم الأنبياء والمرسلون .

فالمراد القبلية في صفة النبوءة فالذين من قبلك ﴾ مراد به الأنبياء .

وجملة ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ مبيّنة لمعنى أُوحي كقوله تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ﴾ [طه : 120] .

والتاء في ﴿ أشْرَكت ﴾ تاء الخطاب لِكل من أوحي إليه بمضمون هذه الجملة من الأنبياء فتكون الجملة بياناً لما أوحي إليه وإلى الذين من قبله .

ويجوز أن يكون الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم فتكون الجملة بياناً لجملة ﴿ أُوحِي إليك ﴾ ، ويكون ﴿ وإلى الذين من قبلِكَ ﴾ اعتراضاً لأن البيان تابع للمبين عمومه ونحوه .

وأيًّا مَّا كان فالمقصود بالخطاب تعريض بقومِ الذي أوحى إليه لأن فرض إشراك النبي صلى الله عليه وسلم غير متوقَّع .

واللام في ﴿ لَئِن أشركت ﴾ موطئة للقسم المحذوف دالة عليه ، واللام في ﴿ لَيَحْبَطن ﴾ لام جواب القسم .

والحَبط : البطلان والدحض ، حَبِط عملُه : ذهب باطلاً .

والمراد بالعمل هنا : العملَ الصالح الذي يرجى منه الجزاء الحسن الأبدي .

(33/670)

ومعنى حَبطه : أن يكون لغواً غير مُجازى عليه .

وتقدم حكم الإِشراك بعد الإِيمان ، وحكم رجوع ثواب العمل لصاحبه إن عاد إلى الإِيمان بعد أن أَبطل إيمانه عند قوله تعالى : ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمتْ وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم ﴾ في سورة [البقرة : 217] .

ثم عطف عليه أن صاحب الإشراك من الخاسرين ، شبه حاله حينئذٍ بحال التاجر الذي أخرج مالاً ليربح فيه زيادةَ مال فعاد وقد ذهب ماله الذي كان بيده أو أكثرُه ، فالكلامُ تمثيل لحال من أشرك بعد التوحيد فإن الإِشراك قد طلب به مبتكروه زيادة القرب من الله إذ قالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللَّه ﴾ [يونس : 18] فكان حالهم كحال التاجر الذي طلب الزيادة على ما عنده من المال ولكنه طلب الربح من غير بابه ، فباء بخسرانه وتبابه .

وفي تقدير فرض وقوع الإشراك من الرسول والذين مَن قبله مع تحقق عصمتهم التنبيهُ على عظم أمر التوحيد وخطر الإشراك ليعلم الناس أن أعلى الدرجات في الفضل لو فرض أن يأتي عليها الإِشراك لما أبقى منها أثراً ولدحضها دحضاً .

و ﴿ بل ﴾ لإِبطال مضمون جملة لَئِن أشركت أي بل لا تشرك ، أو لإِبطال مضمون جملة ﴿ أفغير الله تأمروني أعبُدُ ﴾ .

والفاء في قوله : ﴿ فاعبد ﴾ يظهر أنها تفريع على التحذير من حبط العملِ ومن الخسران

فحصل باجتماع ﴿ بَل ﴾ والفاء ، في صدر الجملة ، أَنْ جمعت غرضين : غرضِ إبطال كلامهم ، وغرضِ التحذير من أحوالهم ، وهذا وجه رشيق .

ومقتضى كلام سيبويه : أن الفاء مفرّعة على فعل أمر محذوف يقدر بحسب المقام ، وتقديره : تَنبَّه فاعْبُد الله (أي تنبه لمكرهم ولا تغترِرْ بما أمروك أن تعبد غير الله) فحذف فعل الأمر اختصاراً فلما حذف استنكر الابتداء بالفاء فقدموا مفعول الفعل الموالي لها فكانت الفاء متوسطة كما هو شأنها في نسج الكلام وحصل مع ذلك التقديمِ حصرٌ .

(34/670)

وجعل الزمخشري والزجاج الفاء جزاءية دالة على شرط مقدر أي يدل عليه السِياق ، تقديره : إن كنت عاقلاً مقابل قوله : ﴿ أيها الجاهلون ﴾ [الزمر : 64] فاعبد الله ، فلما حذف الشرط (أي إيجازاً) عوض عنه تقديم المفعول وهو قريب من كلام سيبويه .

وعن الكسائي والفراء الفاء مؤذنة بفعل قبلها يدل عليه الفعل الموالي لها ، والتقدير : الله أعبُدْ فاعْبُد ، فلما حذف الفعل الأول حذف مفعول الفعل الملفوظ به للاستغناء عنه بمفعول الفعل المحذوف .

وتقديم المعمول على ﴿ فاعبد ﴾ لإفادة القصر ، كما تقدم في قوله : ﴿ قل اللَّه أعبد ﴾

في هذه السورة [14] ، أي أعبد الله لا غيره ، وهذا في مقام الرد على المشركين كما تضمنه قوله : ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ [الزمر : 64] .

والشكر هنا : العمل الصالح لأنه عطف على إفراد الله تعالى بالعبادة فقد تمحض معنى الشكر هنا للعمل الذي يُرضي الله تعالى والقول عموم الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم ولمن قبله أو في خصوصه بالنبي صلى الله عليه وسلم ويقاس عليه الأنبياء كالقول في ﴿ لَئِن أشركت ليحبطن عملك ﴾ .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)

(35/670)

لما جرى الكلام على أن الله تعالى خلق كل شيء وأن له مقاليد السماوات والأرض وهو مُلك عوالم الدنيا ، وذيل ذلك بأن الذين كفروا بدليل الوحدانية هم الخاسرون ، وانتقلَ الكلام هنا إلى عظمة مُلك الله تعالى في العالم الأخروي الأبدي ، وأن الذين كفروا بآيات الله الدالة على ملكوت الدنيا قد خسروا بترك النظر ، فلو اطلعوا على عظيم ملك الله في الآخرة لقدّروه حقّ قدره فتكون الواو عاطفة جملة ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة

﴾ على جملة ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ [الزمر : 63] ويكون قوله : ﴿ وما قدروا الله ﴾ الخ معترضاً بين الجملتين ، اقتضاها التناسب مع جملة ﴿ والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ [الزمر : 63] .

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة الله خالق كل شيء [الزمر : 62] فتكون جملة ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ وجملة ﴿ والأرض جميعاً قبضته ﴾ كلتاهما معطوفتين على جملة ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ [الزمر : 62] .

والمعنى : هو هو ، إلا أن الحال أوضح إفصاحاً عنه .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ والأرض جميعاً قبضته ﴾ عطفَ غرض على غرض انتُقل به إلى وصف يوم القيامة وأحوال الفريقين فيه ، وجملة ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ اعتراضاً ، وهو تمثيل لحال الجاهل بعظمة شيء بحال من لم يحقق مقدار صُبرة فنقصها عن مقدارها ، فصار معنى ﴿ ما قدروا الله : ﴾ ما عرفوا عظمته حيث لم ينزهوه عما لا يليق بجلاله من الشريك في إلهيته .

و ﴿ حقَّ قدره ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي ما قدروا الله قدرَه الحقَّ ، فانتصب ﴿ حَقَّ ﴾ على النيابة عن المفعول المطلق المبيّن للنوع ، وتقدم نظير هذا في سورة الأنعام .

وجميع : أصله اسم مفعول مثل قتيل ، قال لبيد :

عريت وكان بها الجَميع فأبكروا

منها وغودر نؤيها وثمامها . . .

وبذلك استعمل توكيداً مثلَ (كلّ) و (أَجمَع) قال تعالى : ﴿ يوم يبعثهم اللَّه جميعاً ﴾ في سورة [المجادلة : 6] .

(36/670)

وقد وقع ﴿ جميعاً ﴾ هنا حالاً من ﴿ الأرض ﴾ واسم ﴿ الأرض ﴾ مؤنث فكان تجريد (جميع) من علامة التأنيث جرياً على الوجه الغالب في جريان فعيل بمعنى مفعول على موصوفه ، وقد تلحقه علامة التأنيث كقول امرىء القيس :

فلو أنها نفس تموت جميعةٌ

ولكنها نفس تَسَاقَطُ أنفسا . . .

وانتصب ﴿ جميعاً ﴾ هنا على الحال من ﴿ الأرض ﴾ وتقدم نظيره آنفاً في قوله : ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ [الزمر : 44] .

والقبضة بفتح القاف المرّة من القَبْض ، وتقدم في قوله : ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ في سورة [طه : 96]

(والإِخبار عن الأرض بهذا المصدر الذي هو بمعنى المفعول كالخَلق بمعنى المخلوق للمبالغة في الاتصاف بالمعنى المصدري وإنما صيغ لها وزن المرة تحقيراً لها في جانب عظمة ملك الله تعالى ، وإنما لم يُجَأْ بها مضمومة القاف بمعنى الشيء المقبوض لئلا تفوت المبالغة في الاتصاف ولا الدلالة على التحقير فالقَبضة مستعارة للتناول استعارة تصريحية ، والقبضة تدل على تمام التمكن من المقبوض وأن المقبوض لا تصرّف له ولا تحرّك .

وهذا إيماء إلى تعطيل حركة الأرض وانقماع مظاهرها إذ تصبح في عالم الآخرة شيئاً موجوداً لا عمل له وذلك بزوال نظام الجاذبية وانقراض أسباب الحياة التي كانت تمد الموجودات الحية على سطح الأرض من حيوان ونبات .

وطَيُّ السماوات : استعارة مكنية لتشويش تنسيقها واختلال أَبعاد أجرامها ، فإن الطي ردّ ولفّ بعض شُقق الثوب أو الوَرق على بعض بعد أن كانت مبسوطة منتشرة على نسق مناسب للمقصود من نشره فإذا انتهى المقصود طوي المنشور ، قال تعالى : ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ [الأنبياء : 104] .

وإثبات الطي تخييل .

والباء في ﴿ بِيَمِينِه ﴾ للآلة والسببية .

واليمين : وصف لليد ولا يدَ هنا وإنما هي كناية عن القدرة لأن العمل يكون باليد اليمين قال الشاعر أنشده الفرّاء والمبرد ، قال القرطبي :

ولما رأيتُ الشمس أشرقَ نورها

تَناولتُ منها حَاجتي بيمين . . .

أي بقدرة .

وضمير (منها) يعود على مذكور في أبيات قبله .

والمقصود من هاتين الجملتين تمثيل عظمة الله تعالى بحال من أخذ الأرض في قَبضته ومن كانت السماوات مطويةً أفلاكها وآفاقها بيده تشبيه المعقول بالمتخيَّل وهي تمثيلية تنحل أجزاؤها إلى استعارتين ، وفيها دلالة على أن الأرض والسماوات باقية غير مضمحلة ولكن نظامهما المعهود اعتراه تعطيل ، وفي "الصحيح" عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه ثم يقول أَنَا المَلِك أَين ملوك الأرض " وعن عبد الله بن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد إنّا نجد أن الله يجعل السماوات على إِصبَع ، والأرضينَ على إصبع ، والشجَر على إصبع ، والماءَ والثَّرى على إصبع ، وسائر الخلق على اصبَع .

فيقول أنا الملك ، فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

ومعنى قوله : ثم قرأ هذه الآية ، نزلت قبل ذلك لأنها مما نزل بمكة .

والحَبر من أحبار يهود المدينة ، وقول الراوي : تصديقاً لقول الحَبر ، مُدرَج في الحديث من فهم الراوي كما جزم به أبو العباس القرطبي في كتابه : "المفهم على صحيح مسلم" ، وقال الخطّابي رَوى هذا الحديث غيرُ واحد عن عبد الله بن مسعود من طريق عَبِيدة فلم يذكروا قوله تصديقاً لقول الحَبر ، ولعله من الراوي ظَنٌّ وحسبان .

ا ه ، أي فهو من إدراج إبراهيم النخعي رواية عن عَبِيدَة .

(38/670)

وإنما كان ضحك النبي صلى الله عليه وسلم استهزاء بالحَبر في ظنه أن الله يفعل ذلك حقيقة وأن له يداً وأصابع حسب اعتقاد اليهود التجسيم ولذلك أعقبه بقراءة ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ لأن افتتاحها يشتمل على إبطال ما توهمه الحَبر ونظراؤه من الجسمية ، وذلك معروف من اعتقادهم وقد ردّه القرآن عليهم غيرَ مرة مما هو معلوم فلم

يحتج النبي صلى الله عليه وسلم إلى التصريح بإبطاله واكتفى بالإِشارة التي يفهمها المؤمنون ، ثم أشار إلى أن ما توهمه اليهودي توزيعاً على الأصابع إنما هو مجاز عن الأخذ والتصرف .

وفي بعض روايات الحديث فنزل قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ وهو وهَم من بعض رواته وكيف وهذه مكية وقصة الحبر مدنية .

وجملة ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ إنشاء تنزيه لله تعالى عن إشراك المشركين له آلهةً وهو يؤكد جملة ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(39/670)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى يمن)

اليُمْنُ بالضَمِّ : البَرَكَةُ كالمَيْمَنَة ، وقد يَمَنَ الشىءُ يَيْمُنُ كعَلِمَ يَعْلَمُ ، ويُمِنَ يُومَنُ كعُنِىَ يُعْنَى ، (ويَمَنَ يَيْمَنُ كمَنَعَ) ويَمُنَ يَيْمُنُ ككَرُمَ يَكْرُمُ ، فهو مَيْمُونٌ وأَيْمَنُ ويامِنٌ ويَمِينٌ ، أَى مُبارَكٌ ، والجمعُ أَيامِنُ ومَيامِينُ .

وتَيَمَّن به ، واسْتَيْمَنَ : تَبَرَّكَ .

وقَدِمَ على أَيْمَن اليَمين ، أَى اليُمن .

واليَمينُ : الجارِحَةُ ، وضدُّ اليَسار ، واستعماله فى وصف الله فى قوله تعالى :

﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ على حدّ استعمال اليَد فيه .

واليَمينُ أَيضا : البَرَكَةُ ، واليمين : المَنْزِلَةُ الجَليلَة ، والجَمْع : أَيْمُنٌ وأَيْمانٌ ، وأَيا مِنُ ، وأَيامينُ .

ويَمَنَ به يَيْمِنُ ويا مَنُ ، ويَمَّنَ ، وتَيامَنَ : ذهَبَ به ذاتَ اليَمين وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ أَى كنتم تَخْدَعُوننا بأَقْوَى الأَسْباب ، أَو من قبل الشَّهْوَة ؛ لأَن اليمينَ موضعُ الكَبد ، والكَبد مَظنَّةُ الشَّهْوَة والإِرادة .

وقيل : عن الناحية التى كان منها الحَقُّ فتَصْرفونَنا عَنْهَا .

وأَخَذَ يَمْنَةً ويَمَناً ، أَى ناحية اليَمِين .

وقيل لبلاد اليَمَن يَمَناً لأَنَّها من يَمين الكَعْبَة .

وفى الحديث : "الإِيمانُ يَمان والحكْمَةُ يَمانية" وقال : "إِنّى لأَجدَ نَفَسَ الرَّحْمان من قِبَل اليَمَن" وقد تقدّم معناه فى بصيرة "نفس" .

وكان صلَّى الله عليه وسلَّم يُحبُّ التَّيامُنَ فى كلّ شَىْءٍ حتى فى تَنَعُّله وتَرَجُّله وفى شأْنِه كلّه .

والأَيمَنُ : من يَصْنَعُ بيُمْناهُ .

واليَمينُ : القَسَمُ لأَنَّهم كانوا يَتماسَحُون بأَيمانهم فيتحالُفون وفى الحديث : "مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ فرأَى غَيْرَها خَيْراً منها فَلْيُكَفِّر عَنْ يَمِينه ثمَّ لِيَفْعَل الَّذى هو خَيْرٌ" ، والجمعُ : أَيْمُنٌ وأَيمانٌ ، قال/ الله تعالى : ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ ﴾ .

وأَيْمُنُ الله بضَمّ المِيمِ وفَتْحها ، والهمزة تُفْتَح وتكسر ، وأَيْمُ الله وأَءِيمُ الله بفتح الهمزة وكسرها .

وإذا كُسِرَت فالأَلفُ أَلِفُ قَطْع .

وأَمُ الله وأُم الله ، وأَمَ الله ، وإِمَ الله ، وإِمُ الله بكسر الهم وضمّ الميم (وفَتْحِها) ومَ الله ، ومِ الله ، ومُ الله ، ومَنَ الله بفتحهما ، ومُنُ الله بضمّهما ، ومِنِ الله بكسرهما ؛ ومُنِ الله بضم الميم وكسر النون .

ولَيْمُ الله بفتح اللاَّم ، ولَيْمَنُ الله ، وهَيْمُ الله ، كلّ ذلك بمعنى اسم وُضِعَ للقَسَم .

والتَّقدير أَيْمُنُ الله قَسَمى .

وهمزة أَيْمُنُ همزة وَصْل عند سيبويه .

وقال الفراءُ : جمع يَمينٍ وهمزته همزةُ قطع ، ويحذفونها لكثرة الاستعمال .

وقال الزجّاج والرُّمّانىّ : أَيْمُن حرفٌ لا اسمٌ .

وعند سيبويه أَمُ ومُ ومُنُ وبقيّة اللغات أَصلها أَيْمُن ، وزعم بعضهم أَنَّ مُ المفردة بدل من واو القسم .

وزعم آخرون أَنَّ مُنُ ومُ بلغاتهما حرفان وليستا بلُغَتَىْ أَيْمنُ .

والمُيَمَّنُ كمُعَظَّم : الذى يأْتى بالْيُمْن والبَرَكة .

وقوله تعالى : ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ أَى منعناه ودَفَعْناه ، فعبَّر عن ذلك بالأَخْذ باليَمِين ، كقولك : أَخَذ بيمِينِ فُلان .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ أَى أَصحابُ السّعادات والمَيامن وذلك على حسب تعارُف الناس فى العِبارة عن المَيامن باليَمِين ، وعن الأَشائم بالشمال ، وعلى ذلك قوله : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ الآيةِ .

(41/670)

وقال بعض المفسّرين : اليَمينُ ورد فى القرآن على عشرة أَوجه : الأَوّل – بمعنى القُوَّة ، قال تعالى : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ أَى بالقوة ، قيل : ومنه قوله تعالى : ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بالْيَمِين ﴾ .

الثانى – بمعنى القُدْرَة ، قال الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ أَى بقُدْرَته .

الثالث – بمعنى القَسَم : قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلُواْ اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ ﴾ ، ﴿ لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ ، ﴿ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ . . . ﴾ ، ﴿ بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ ﴾ .

الرّابع – بمعنى العَهْد : قال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا ﴾ أَى عهود .

الخامس – بمعنى الجَارِحة : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ ، ﴿ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ .

السّادس – للصّلة ولزيادة توكيد : قال تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أَى ما مَلَكَتْ ، ﴿ وما مَلَكَتْ يَمِينُك ﴾ أَى مَلَكْتَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 410.406 ﴾

(42/670)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ

الْخَاسِرِينَ (65) ﴾

لَئِنْ لاحظْتَ غيري ، وأثْبَتَّ معي في الإبداع سِوَايَ أحْبَطْتَ عَمَلكَ ، وأبطلْتَ سعَيكَ ، بل اللَّهُ – يا محمد – فاعْبُدْ ، وكُنْ من جملة عبادي الشاكرين .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

ما عرفوه حَقَّ معرفته ، وما وصفوه حقَّ وصفه ، وما عظّموه حَقَّ تعظيمه ؛ فَمَن اتصف بتمثيل ، أو جَنَحَ إلى تعطيل حَادَ عن السُّنَّةِ المُثْلَى وانحرف عن الطريقة الحسنى . وصفوا الحقَّ بالأعضاء ، وتَوَهَّموا في نَعْتِه الاجزاء ، فما قدروه حَقَّ قَدْرِه ؛ فالخَلْقُ في قبضة قدرته ، والمسوات مطويات بيمينه ، ويمينهُ قُدْرَتُه . ولأنه أقسم ان يُفْنِيَ السمواتِ ويطويَها فها قادر على ذلك .

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴾ تنزيهاً له عما أشركوا في وصفه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 290 . 291 ﴾

(43/670)

قوله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ

وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دل على عظيم قدره بعض ما يكون يوم القيامة ، أتبعه ما لا يحتمله القوي من أحوال ذلك اليوم دليلاً آخر ، فقال دالاً على عظيم قدرته وعزه وعظمته بالبناء للمفعول : ﴿ ونفخ في الصور ﴾ أي القرن العاطف للأشياء المقبل بها نحو صوته المميل لها عن أحوالها العالي عليها في ذلك اليوم بعد بعث الخلائق وهي النفخة الأولى بعد البعث التي هي بعد نفختي الموت والبعث المذكورتين في سورة يس ، والمراد بها - والله أعلم - إلقاء الرعب والمخافة والهول في القلوب إظهاراً للعظمة وترديا بالكبرياء والعز في عزة يوم المحشر ليكون أول ما يفجأهم يوم الدين ما لا يحتمله القوي ، ولا تطيقه الأحلام والنهى ، كما كان آخر ما فجأهم في يوم الدنيا وإن افترقا في التأثير ، فإن تلك أثرت الموت ، وهذه أثرت الغشي لأنه لا موت بعد البعث ، وهي الثالثة من النفخات ﴿ فصعق ﴾ أي مغشياً عليه ﴿ من في السماوات ﴾ ولما كان المقام التهويل ، وكان التصريح أهول ، أعاد الفاعل بلفظه فقال : ﴿ ومن في الأرض ﴾ .

ولما كان منهم من لا يصعق ليعرف دائماً أنه في كل فعل من أفعاله مختار قادر جبار ، استثناه فقال : ﴿ إلا من شاء الله ﴾ أي الذي له مجامع العظمة ومعاقد العز ، فيجعل الشيء الواحد هلاكاً لقوم دون قوم ، وصعقاً لقوم دون قوم ، يجعل ذلك الذي كان به الهلاك به الحياة وذلك الذي كان به الغشي به الإفاقة وإن كان بالنسبة إليهم على حد سواء ، إعلاماً بأن الفاعل لما يريد لا الأثر ، قيل : المستثنون الشهداء وقيل : غيرهم ﴿ ثم نفخ فيه أخرى ﴾ أي نفخة ثانية من هذه ، وهي رابعة من النفخة المميتة ، ودل على سرعة تأثيرها بالفجاءة في قوله : ﴿ فإذا هم قيام ﴾ أي قائمون كلهم ﴿ ينظرون ﴾ أي يقبلون أبصارهم أو ينتظرون ما يأتي بعد ذلك من أمثاله من دلائل العظمة ، وهاتان النفختان هما المرادتان في حديث تخاصم اليهود مع المسلم الذي لطم وجهه ، وفي آخره : " يصعق الناس يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش فلا أدري أفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور " – وقد رواه البخاري في الخصومات في موضعين ، وفي أحاديث الأنبياء في موضعين ، وفي الرقاق وفي التوحيد ومسلم في الفضائل ، وأبو داود في السنة ، والنسائي في التفسير والنعوت ، وبتفصيل رواياته وجمع ألفاظها يعلم أن ما ذكرته هو المراد روى البخاري ومسلم في أحاديث الأنبياء عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : " بينما يهودي يعرض سلعة له – وقال البخاري : سلعته – أعطى بها شيئاً كرهه أو لم يرضه ، قال : لا

والذي اصطفى موسى على البشر ! فسمعه رجل من الأنصار فلطم – وقال البخاري : فقام فلطم وجهه ، قال : تقول : والذي اصطفى موسى على البشر ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أظهرنا ، فذهب اليهودي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً ، وقال : فلان لطم وجهي ، – وقال البخاري : فما بال فلان لطم وجهي ؟ – فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لم لطمت وجهه ؟ قال

(45/670)

: قال يا رسول الله " والذي اصطفى موسى على البشر " وأنت بين أظهرنا ، فغضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى عرف الغضب في وجهه ، ثم قال : لا تفضلوا بين أنبياء الله فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث "

(46/670)

– وفي رواية مسلم : " أو في أول من بعث – فإذا موسى آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقة يوم الطور أو بعث قبلي ولا أقول : إن أحداً أفضل من يونس بن متى " وفي رواية للبخاري في تفسير الزمر : " إني من أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش فلا أدري أكذلك كان أم بعد النفخة " وفي رواية للبخاري في الخصومات والرقاق وأحاديث الأنبياء وهي لمسلم أيضاً قالا : استب رجلان : رجل من المسلمين ورجل من اليهود – وفي رواية لمسلم : رجل من اليهود ورجل من المسلمين – فقال المسلم : والذي اصفطى محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ على العالمين ، قال البخاري في كتاب التوحيد وأحاديث الأنبياء : في قسم يقسم به ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، قال البخاري : فغضب المسلم عند ذلك فلطم وجه اليهودي ، وقال مسلم وكذلك البخاري في التوحيد والخصومات وأحاديث الأنبياء : فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي ، فذهب اليهودي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم ، قال البخاري في الخصومات : فدعا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسلم فسأله عن ذلك فأخبره – ثم اتفقا : فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون " قال البخاري في الرقاق والخصومات وأحاديث الأنبياء ونسخة في التوحيد : " يوم القيامة فأكون في أول من يفيق " ، وفي رواية له في الخصومات ؛ " فأصعق معهم " ، وفي رواية له في الرقاق وفي رواية في التوحيد وهي رواية

لمسلم وأبي داود : " فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش " ، وقال أبو داود : " في جانب العرش ، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله " ، وفي رواية : " فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أو اكتفى بصعقة الطور "

،

(47/670)

وفي رواية للبخاري في أحاديث الأنبياء : " فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق أو كان ممن استثنى الله " – ولم يذكر قبلي وروى الحديث الترمذي في تفسير سورة الزمر وابن ماجه في الزهد : قال : قال اليهودي ، وقال ابن ماجه : رجل من اليهود بسوق المدينة : والذي اصطفى وموسى على البشر فرفع رجل من الأنصار يداً فصك بها وجهه – وقال ابن ماجه : فلطمه – قال : تقول هذا وفينا نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ونفخ في الصور " – وقال ابن ماجه : تقول هذا وفينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فذكر ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : " قال الله تعالى : ونفخ في الصور – فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، فأكون أول من رفع رأسه فإذا موسى آخذ " – وقال ابن

ماجه : " فإذا أنا بموسى آخذ – بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أرفع رأسه قبلي أم كان ممن استثنى الله ، ومن قال : أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(48/670)

وفي رواية للبخاري في الرقاق : " يصعق الناس حين يصعقون ، فأكون أول من قام ، فإذا موسى آخذ بالعرش ، فما أدري أكان فيمن صعق " ، قال : ورواه أبو سعيد ـ رضى الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه ، وللبخاري في الخصومات عن أبي سعيد الخدري ـ رضى الله عنه ـ قال : " بينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس جاء يهودي فقال : يا أبا القاسم ! ضرب وجهي رجل من أصحابك ، قال : من ؟ قال : رجل من الأنصار ، قال : ادعوه ، قال : ضربته ؟ قال : سمعته بالسوق يحلف " والذي اصطفى موسى على البشر " قلت : أي خبيث على محمد ، فأخذتني غضبة ضربت وجهه ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض " – وفي رواية في أحاديث الأنبياء : " فأكون أول من يفيق – فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أكان فيمن صعق أم حوسب بصعقته الأولى " ، وفي

رواية في أحاديث الأنبياء : " فلا أدري أفاق قبلي أو حوسب بصعقة الطور " والله أعلم – هذا ما رأيته من ألفاظ الحديث في الكتب الستة ، وأما معنى صعق فإنه صاح ومات فجأة أو غشي عليه ، قال في القاموس : الصاعقة الموت وكل عذاب مهلك وصيحة العذاب ، وصعق كسمع صعقاً ويحرك وصعقة وتصعاقاً : غشي عليه .

والصعق محركة : شدة الصوت ، وككتف : الشديد الصوت ، وقال عبد الحق في الواعي : الأزهري : الصاعقة – يعني بالفتح – وأصعقتهم – إذا أصابتهم فصعقوا وصعقوا ، ومنه حديث الحسن : ينتظر بالمصعوق ثلاثاً ما لم يخافوا عليه نتناً – يعني الذي مات فجأة ، قال : والصاعقة مصدر جاء على فاعلة ، تقول : سمعت صاعقة الرعد وثاغية الشاء ، وقوله :

(49/670)

﴿ وخر موسى صعقاً ﴾ [الأعراف : 143] أي مغشياً عليه ، دل على ذلك قوله سبحانه ﴿ فلما أفاق ﴾ إنما يقال : أفاق من العلة والغشية وبعث من الموت ، قال : وجملة الصاعقة الصوت مع النار ، وقال أبو عبد الله يعني القزاز : الصعق هو أن يسمع الإنسان صوت الهدة الشديدة فيصعق لذلك عقله ، واشتقاق الصاعقة من هذا ، سميت صاعقة لشدة صوتها وتقول : إنه لصعق ، أي شديد الصوت ، وكذا هو صعاق – انتهى .

فتحرر من هذا أن الصعق يطلق على الموت فجأة ، وعلى الغشي كذلك ، وأن الإفاقة لا تكون إلا عن غشي لا عن موت ، فعلم أن الصعقة في هذه الآية إنما هي غشي لأن الثانية عنها إفاقة ، وأيضاً فمن الأمر المحقق أنه لا يموت أحد من أهل البرزخ فكيف بالأنبياء عليهم السلام ، فالصواب حمل الصعقة المذكورة في الحديث على الغشي أو ما يشبهه ، ويؤيده التجويز لأن تكون صعقة الطور جزاء عنها ، وعلى تقدير أن تكون غشياً إن قلنا إنه يكون بنفخة الإماتة يلزم عليه أن لا يكون للغشي ولا لعدمه مدخل في الشك في أن موسى عليه السلام أفاق قبل أو لم يحصل له غشي أصلاً ، لأن الذي يكون به بطشه بالعرش – وهو بروحه وجسه – إنما هو البعث من الموت لا الإفاقة من الغشي ولا عدم الغشي قبل البعث ، فالذي يوضح الأمر ولا يدع فيه لبساً أن يكون ذلك بعد البعث ، وتكون حينئذ النفخات أربعاً : الأولى لإماتة الأحياء ، الثانية لإحياء جميع الموتى ، وهاتان هما المذكورتان في سورة يس ، ولذلك لما ذكرهما صرح في أمرهما بما لا يحتمل غيره ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ الثالثة لابتدائهم بعد البعث بالهول

الشديد ، والحال يقتضيه لأن ذلك اليوم يوم الأهوال والارعاب والارهاب ، وإظهار العظمة والجلال لتقطيع الأسباب ، والذي يدل عليه في هذا الحديث قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كثير من رواياته : " فإن الناس يصعقون يوم القيامة " فإن يوم القيامة اسم للوقت الذي أوله البعث وآخره تكامل دخول كل فريق إلى داره ومحل استقراره ، وأما صعقة الموت فإنها في دار الدنيا وهي للإنامة لا للإقامة ، ويضعف حمله على ما قبل البعث الروايات الصحيحة الجازمة بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول من تنشق عنه الأرض ، وما حكاه الكرماني من الإجماع على ذلك ولا فخر فيه إلا بحصول البعث لا بإظهار

(51/670)

الجسد من غير بعث ، فهذا الجزم ينافي ذلك الشك ، فإذا كان المراد بما في الحديث الغشي كانت نفخة أخرى للإيقاظ منه ، وهاتان المرادتان بما في هذه السورة كما في رواية السورة كما في رواية الترمذي وما في النمل ، ولذلك عبر عنها بالفزع ، ويؤيد ذلك التعبير في رواية البخاري في التفسير بالنفخة الآخرة ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أوتي جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصاراً ، ولو أنهما نفختان فقط كان التعبير بالآخرة قاصراً عما تفيده الثانية مع المساواة في عدة الحروف ، وهو مما لا يظن ببليغ ، فكيف بأبلغ الخلق المؤيد

بروح القدس ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان العدول عن الثانية إلى الآخرة مفيداً أنها أربع ، ولعل ذلك معنى

﴿ أمتنا اثنتين وأحيينا اثنتين ﴾ [غافر : 11] وسميت إماتة لشدة الغشي بها لعظم أمرها ومعنى زلزلة الساعة التي تسكر ، ويؤيده التعبير عن القيام منها بالإفاقة لا بالبعث ، ولا يعكر على هذا شيء إلا رواية البخاري في الخصومات : " فأكون أول من تنشق عنه الأرض فإذا أنا بموسى " – إلى آخره ، فالظاهر أن راويها وهم ، أو روي بالمعنى فما وفى بالغرض ، والراجح روايات من قالوا : " فأكون أول من يفيق " – بالكثرة وبزوال الإشكال ، هذا ما كان ظهر لي في النظر في المعنى وتطبيق الآيات والأحاديث عليه ، ثم رأيت شيخنا حافظ عصره أحمد بن علي بن حجر الكناني العسقلاني المصري رحمه الله نقل ما جمعت به بين الروايات في كتاب الأنبياء من شرحه للبخاري عن القاضي عياض فقال : وقال عياض : يحتمل أن يكون المراد صعقة فزع بعد البعث حين تنشق السماء والأرض .

(52/670)

وأقره على ذلك ثم نقل عن ابن حزم عين ما قلته في النفخات فقال ما نصه : تكميل : زعم ابن حزم أن النفخات يوم القيامة أربع : الأولى نفخة إماتة يموت فيها من بقي في الأرض ، حياً

، ثانيها نفخة إحياء فيقوم كل ميت ، والثالثة نفخة فزع وصعق يفيقون منها كالمغشي عليهم ، لا يموت منها أحد ، والرابعة إفاقة من ذلك الغشي ، ثم رده شيخنا بأن الصعقات أربع ، ولا يستلزم كون النفخات أكثر من اثنتين ، وذلك أنه ينفخ في الصور النفخة الأولى فيموت من كان حياً ويغشى على من كان ميتاً ، فهاتان صعقتان في النفخة الأولى ، وينفخ النفخة الثانية فيفيق من كان مغشياً عليه ويحيى من كان ميتاً ، فهاتان اثنتان في النفخة الثانية ، وهذا الرد مردود لمن حقق ما قلته بأدنى تأمل ، ويلزم عليه أن يكون أصفياء الله أشد حالاً وفزعاً ممن تقوم عليهم الساعة وهم شر عباد الله ، والعجب أن الذي رده على ابن حزم سلّمه لعياض – والله الموفق .

ولما ذكر إقامتهم بالحياة التي هي نور البدن ، أتبعه إقامتهم بنور جميع الكون ظاهراً بالضياء الحسي ، وباطناً بالحكم على طريق العدل الذي هو نور الوجود الظاهري والباطني على الحقيقة كما أن ظلم ظلامة كذلك فقال : ﴿ وأشرقت ﴾ أي أضاءت إضاءة عظيمة مالت بها إلى الحمرة ﴿ الأرض ﴾ أي التي أوجدت لحشرهم ، وعدل الكلام عن الاسم الأعظم إلى صفة الإحسان لغلبة الرحمة لا سيما في ذلك اليوم فإنه لا يدخل أحد الجنة إلا بها فقال : ﴿ بنور ربها ﴾ أي الذي رباها بالإحسان إليها بجعلها محلاً للعدل والفضل ، لا يكون فيها شيء غير ذلك أصلاً ، وذلك النور الذي هو شيء واحد يبصر به قوم دون آخرين كما كانت النفخة تارة للهلاك وتارة للحياة .

ولما كان العلم هو النور في الحقيقة ، وكان الكتاب أساس العلم وكان لذلك اليوم من العظمة ما يفوت الوصف ولذلك كذب به الكفار أتى فيما يكون فيه بإذنه بصيغة المجهول على طريقة كلام القادرين إشارة إلى هوانه وأنه طوع أمره لا كلفة عليه في شيء من ذلك وكذا ما بعده من الأفعال زيادة في تصوير عظمة اليوم بعظمة الأمر فيه فقال : ﴿ ووضع الكتاب ﴾ أي الذي أنزل إلى كل أمة لتعمل به .

ولما كان الأنبياء أعم من المرسلين ، وكان للنبي وهو المبعوث ليعمل من أمره أن يأمر بالمعروف ، وقد يتبعه من أراد الله به الخير ، وكان عدتهم مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً ، وهي قليلة جداً بالنسبة إلى جميع الناس ، عبر بهم دون المرسلين وبجمع القلة فقال : ﴿ وجاء بالنبيين ﴾ للشهادة على أممهم بالبلاغ .

ولما كان أقل ما يكون الشهود ضعف المكلفين ، عبر بجمع الكثرة فقال : ﴿ والشهداء ﴾ أي الذين وكلوا بالمكلفين فشاهدوا أعمالهم فشهدوا بها وضبطوها فأصلت الأصول وصورت الدعاوى وأقيمت البينات على حسبها من طاعة أو معصية ، ووقع الجزاء على حسب ذلك ، فظهر العدل رحمة للكفار ، وبان الفضل رحمة للمسلمين ﴿ وقضى

بينهم ﴾ أي بين العباد الذين فعل ذلك كله لأجلهم ، ولما كان السياق ظاهراً في عموم الفضل عدلاً وفضلاً كما يأتي التنبيه عليه قال : ﴿ بالحق ﴾ بأن يطابق الواقع من المثوبات والعقوبات ما وقع الخبر به في الكتب على ألسنة الرسل .

ولما كان المراد كمال الحق باعتبار عمومه لجميع الأشخاص والأعمال وكان ربما طرقه احتمال تخصيص ما ، أزال ذلك بقوله : ﴿ وهم ﴾ أي باطناً وظاهراً ﴿ لا يظلمون ﴾ أي لا يتجدد لهم ظلم في وقت أصلاً ، فلا يزادون في جزاء السيئة على المثل شيئاً ولا ينقصون في جزاء الحسنة عن العشر شيئاً .

(54/670)

ولما كان ذلك ربما كان بالنسبة إلى ما وقع فيه الحكم ، وليس نصاً في شمول الحكم لكل عمل ، نص عليه بقوله ، ذاكراً الوفاء والعمل لاقتضاء السياق ذلك بذكر الكتاب وما في حيزه من النبيين والشهداء والقضاء الحق ، وذلك كله أليق بذكر العمل المؤسس على العلم ، والوفاء الذي هو الركن الأعظم في الحق ومساق العلم ، والعلم والوفاء أوفق لجعل العمل نفسه هو الجزاء بأن يصور بما يستحقه من الصور المليحة إن كان ثواباً والقبيحة إن كان عقاباً ، والفرق بينه وبين العقل المؤسس على الشهوة وقوة الداعية : ﴿ ووفيت كل نفس ﴾ ولما

كانت التوفية في الجزاء على غاية التحرير والمبالغة في الوفاء والمشاكلة في الصورة والمعنى ، جعل الموفي نفس العمل فقال : ﴿ ما عملت ﴾ أي من الحسنات ، لذلك عبر بالعمل الذي لا يكون إلا مع العلم وأفهم الختام تقدير " والله أعلم بما يعملون " .

ولما كان المراد بالشهداء إقامة الحقوق على ما يتعارفه العباد وكان ذلك ربما أوهم نقصاً في العلم قال : ﴿ وهو أعلم ﴾ أي من العاملين والشهداء عليهم ﴿ بما يفعلون ﴾ أي مما عمل به بداعية من النفس سواء كان مع مراعاة العلم أو لا .

فالآية من الاحتباك : ذكر ما عملت أولاً يدل على ما فعلت ثانياً ، وذكر ما يفعلون ثانياً يدل عليه ما يفعلون أولاً ، وسره أن ما ذكر أوفق للمراد من نفي الظلم على حكم الوعد بالعدل والفضل لأن فيه الجزاء على كل ما بني على علم ، وأما المشتهي فما ذكر أنه يجازى عليه بل الله يعلمه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 470 . 477 ﴾

(55/670)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما قدر كمال عظمته بما سبق ذكره أردفه بذكر طريقة أخرى تدل أيضاً

على كمال قدرته وعظمته ، وذلك شرح مقدمات يوم القيامة لأن نفخ الصور يكون قبل ذلك اليوم ، فقال : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض إِلاَّ مَن شَاء الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ واختلفوا في الصعقة ، منهم من قال إنها غير الموت بدليل قوله تعالى في موسى عليه السلام ﴿ وَخَرَّ موسى صَعِقًا ﴾ [الأعراف : 143] مع أنه لم يمت ، فهذا هو النفخ الذي يورث الفزع الشديد ، وعلى هذا التقدير فالمراد من نفخ الصعقة ومن نفخ الفزع واحد ، وهو المذكور في سورة النمل في قوله ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور فَفَزِعَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ [النمل : 87] وعلى هذا القول فنفخ الصور ليس إلا مرتين .

والقول الثاني : أن الصعقة عبارة عن الموت والقائلون بهذا القول قالوا إنهم يموتون من الفزع وشدة الصوت ، وعلى هذا التقدير فالنفخة تحصل ثلاث مرات أولها : نفخة الفزع وهي المذكورة في سورة النمل والثانية : نفخة الصعق والثالثة : نفخة القيام وهما مذكورتان في هذه السورة .

وأما قوله ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ ففيه وجوه الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : عند نفخة الصعق يموت من في السموات ومن في الأرض إلا جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ثم يميت الله ميكائيل وإسرافيل ويبقي جبريل وملك الموت ثم يميت جبريل .

والقول الثاني : أنهم هم الشهداء لقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل

عمران : 169] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش " .

القول الثالث : قال جابر هذا المستثنى هو موسى عليه السلام لأنه صعق مرة فلا يصعق ثانياً .

القول الرابع : أنهم الحور العين وسكان العرش والكرسي .

(56/670)

والقول الخامس : قال قتادة الله أعلم بأنهم من هم ، وليس في القرآن والأخبار ما يدل على أنهم من هم .

ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ وفيه أبحاث :

الأول : لفظ القرآن دل على أن هذه النفخة متأخرة عن النفخة الأولى ، لأن لفظ ﴿ ثُمَّ ﴾ يفيد التراخي ، قال الحسن رحمه الله القرآن دل على أن هذه النفخة الأولى ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن بينهما أربعين " ولا أدري أربعون يوماً أو شهراً أو أربعون سنة أو أربعون ألف سنة .

الثاني : قوله ﴿ أُخْرَى ﴾ تقدير الكلام ونفخ في الصور نفخة واحدة ثم نفخ فيه نفخة

أخرى ، وإنما حسن الحذف لدلالة أخرى عليها ولكونها معلومة .

الثالث : قوله ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ يعني قيامهم من القبور يحصل عقيب هذه النفخة الأخيرة في الحال من غير تراخ لأن الفاء في قوله ﴿ فَإِذَا هُم ﴾ تدل على التعقيب .

الرابع : قوله ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ وفيه وجهان الأول : ينظرون يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب عظيم والثاني : ينظرون ماذا يفعل بهم ، ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والخمود في مكان لأجل استيلاء الحيرة والدهشة عليهم .

ولما بين الله تعالى هاتين النفختين قال : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

هذه الأرض المذكورة ليست هي هذه الأرض التي يقعد عليها الآن بدليل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ﴾ [إبراهيم : 48] وبدليل قوله تعالى : ﴿ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة ﴾ [الحاقة : 14] بل هي أرض أخرى يخلقها الله تعالى لمحفل يوم القيامة .

المسألة الثانية :

قالت المجسمة : إن الله تعالى نور محض ، فإذا حضر الله في تلك الأرض لأجل القضاء بين عباده أشرقت تلك الأرض بنور الله ، وأكدوا هذا بقوله تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ [النور : 35] .

واعلم أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه الأول : أنا بينا في تفسير قوله تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ أنه لا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى نوراً بمعنى كونه من جنس هذه الأنوار المشاهدة ، وبينا أنه لما تعذر حمل الكلام على الحقيقة وجب حمل لفظ النور ههنا على العدل ، فنحتاج ههنا إلى بيان أن لفظ النور قد يستعمل في هذا المعنى ، ثم إلى بيان أن المراد من لفظ النور ههنا ليس إلا هذا المعنى ، أما بيان الاستعمال فهو أن الناس يقولون للملك العادل أشرقت الآفاق بعدلك ، وأضاءت الدنيا بقسطك ، كما يقولون أظلمت البلاد بجورك ، وقال صلى الله عليه وسلم : " الظلم ظلمات يوم القيامة " وأما بيان أن المراد من النور ههنا العدل فقط أنه قال : ﴿ وَجِيء بالنبيين والشهداء ﴾ ومعلوم أن المجيء بالشهداء ليس إلا لإظهار العدل ، وأيضاً قال في آخر الآية بإثبات العدل وختمها بنفي الظلم والوجه الثاني : في الجواب عن الشبهة المذكورة أن قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ يدل على أنه يحصل هناك نور مضاف إلى الله تعالى ، ولا يلزم كون ذلك صفة ذات الله تعالى ، لأنه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب ، فلما كان ذلك النور من خلق الله وشرفه بأن أضافه إلى نفسه كان ذلك النور نور الله ، كقوله : بيت الله ، وناقة الله

وهذا الجواب أقوى من الأول ، لأن في هذا الجواب لا يحتاج إلى ترك الحقيقة والذهاب إلى المجاز .

والوجه الثالث : أنه قد قال فلان رب هذه الأرض ورب هذه الدار ورب هذه الجارية ، ولا يبعد أن يكون رب هذه الأرض ملكاً من الملوك ، وعلى هذا التقدير فلا يمتنع كونه نوراً .

المسألة الثالثة :

(58/670)

أنه تعالى ذكر في هذه الآية من أحوال ذلك اليوم أشياء : أولها : قوله ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ وقد سبق الكلام فيه وثانيها : قوله ﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ وفي المراد بالكتاب وجوه الأول : أنه اللوح المحفوظ الذي يحصل فيه شرح أحوال عالم الدنيا إلى وقت قيام القيامة الثاني : المراد كتب الأعمال كما قال تعالى في سورة سبحان

(59/670)

﴿ وَكُلَّ إِنسانٍ أَلزمناه طَٰئِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَٰبًا يلقاه مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : 13] وقال أيضاً في آية أخرى ﴿ مالِ هذَا الْكِتَابِ لاَ يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : 49] وثالثها : قوله ﴿ وَجِىءَ بالنبيين ﴾ والمراد أن يكونوا شهداء على الناس ، قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ [المائدة : 109] ورابعها : قوله ﴿ والشهداء ﴾ والمراد ما قاله في ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ [البقرة : 143] أو أراد بالشهداء المؤمنين ، وقال مقاتل : يعني الحفظة ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : 21] وقيل أراد بالشهداء المستشهدين في سبيل الله ، ولما بين الله تعالى أنه يحضر في محفل القيامة جميع ما يحتاج إليه في فصل الحكومات وقطع الخصومات ، بيّن تعالى أنه يوصل إلى كل أحد حقه ، وعبّر تعالى عن هذا المعنى بأربع عبارات أولها : قوله تعالى : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ وثانيها : قوله ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ وثالثها : قوله ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي وفيت كل نفس جزاء ما عملت ، ورابعها : قوله : ﴿ وَهُمْ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ يعني أنه تعالى إذا لم يكن عالماً بكيفيات أحوالهم فلعله لا يقضي بالحق لأجل عدم العلم ، أما إذا كان عالماً بمقادير أفعالهم وبكيفياتها امتنع دخول الخطأ في ذلك الحكم ، فثبت أنه تعالى عبّر عن هذا المقصود بهذه العبارات المختلفة ، والمقصود

المبالغة في تقرير أن كل مكلف فإنه يصل إلى حقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 16.18 ﴾

(60/670)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) ﴾

ذكر الله تعالى المتقين ونجاتهم ليعادل بذلك ما تقدم من ذكر الكفرة ، وفي ذلك ترغيب في حالة المتقين ، لأن الأشياء تتبين بأضدادها .

وقرأ جمهور القراء : " بمفازتهم " وذلك على اسم الجنس ، وهو مصدر من الفوز . وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكسر عن عاصم : " بمفازاتهم " على الجمع من حيث النجاة أنواع ، الأسباب مختلفة وهي قراءة الحسن والأعرج وأبي عبد الرحمن والأعمش ، وفي الكلام حذف مضاف تقديره : وينجي الله الذين اتقوا بأسباب أو بدواعي مفازاتهم . قال السدي : ﴿ بمفازتهم ﴾ بفضائلهم . وقال ابن زيد بأعمالهم .

(61/670)

وقوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ كلام مستأنف دال على الوحدانية ، وهو عموم معناه الخصوص . والوكيل : القائم على الأمر ، الزعيم بإكماله وتتميمه . والمقاليد : المفاتيح ، وقال ابن عباس ، واحدها مقلاد ، مثل مفتاح ، وفي كتاب الزهراوي : واحد المقاليد : إقليد ، وهذه استعارة كما تقول بيدك يا فلان مفتاح هذا الأمر ، إذا كان قديراً على السعي فيه . وقال السدي : المقاليد الخزائن ، وهذه عبارة غير جيدة ، ويشبه أن يقول قائل : المقاليد إشارة إلى الخزائن أو دالة عليها فيسوغ هذا القول ، كما أن الخزائن أيضاً في جهة الله إنما تجيء استعارة ، بمعنى اتساع قدرته ، وأنه يبتدع ويخترع ، ويشبه أن يقال فيما قد أوجد من المخلوقات كالريح والماء وغير ذلك إنها في خزائنه ، وهذا كله بتجوز على جهة التقريب والتفهيم للسامعين ، وقد ورد القرآن بذكر الخزائن ، ووقعت في الحديث الصحيح في قوله عليه السلام : " وما فتح الليلة من الخزائن " والحقيقة في هذا غير بعيدة ، لكنه ليس باختزان حاجة ولا قلة قدرة كما هو اختزان البشر . وقال عثمان رضي الله عنه سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ﴿ مقاليد السماوات والأرض ﴾ فقال : " لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول لا قوة إلا بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير " .

وقوله : ﴿ أفغير ﴾ منصوب ب ﴿ أعبد ﴾ ، كأنه قال : أفغير الله أعبد فيما تأمروني ؟

ويجوز أن يكون نصبه ب ﴿ تأمروني ﴾ على إسقاط أن ، تقديره أفغير الله تأمروني أن أعبد .

(62/670)

وقرأت فرقة : " تأمرونني " بنونين ، وهذا هوا الأصل . وقرأ ابن كثير : " تأمرونِّيَ " بنون مشددة مكسورة وياء مفتوحة . وقرأ ابن عامر : " تأمروني " بياء ساكنة ونون مكسورة خفيفة ، وهذا على حذف النون الواحدة وهي الموطئة لياء المتكلم ، ولا يجوز حذف النون الأولى وهو لحن لأنها علامة رفع الفعل ، وفتح نافع ، الياء على الحذف فقرأ : " تأمروني " وقرأ الباقون بشد النون وبسكون الياء .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد أوحي إليك ﴾ الآية ، قالت فرقة : في الآية تقديم وتأخير كأنه قال : " لقد أوحي إليك لئن اشركت ليحبطن عملك وإلى الذين من قبلك " ، وقالت فرقة : الآية على وجهها ، المعنى : " ولقد أوحي إلى كل نبي لئن أشركت ليحبطن عملك " . وحبط : معناه : بطل وسقط ، وبهذه الآية بطلت أعمال المرتد من صلاته وحجه وغير ذلك .

بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66)

المكتوبة : نصب بقوله : ﴿ فاعبد ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾

معناه : وما عظموا الله حق عظمته ولا وصفوه بصفاته ، ولا نفوا عنه ما لا يليق به .

واختلف الناس في المعنى بالضمير في قوله : ﴿ قدروا ﴾ قال ابن عباس : نزل ذلك في كفار قريش الذين كانت هذه الآيات كلها محاورة لهم ورداً عليهم . وقالت فرقة : نزلت الآية في قوم من اليهود تكلموا في صفات الله تعالى وجلاله ، فألحدوا وجسموا وأتوا كل تخليط ، فنزلت الآية فيهم ، وفي الحديث الصحيح : أنه جاء حبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إليه ، فقال له النبي عليه السلام حدثنا ، فقال : إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة جعل السماوات على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع ، والماء الشجر على أصبع ، وجمع الخلائق على أصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً له ، ثم قرأ هذه الآية .

(63/670)

قال القاضي أبو محمد : فرسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل بالآية ، وقد كانت نزلت . وقوله في الحديث : تصديقاً له ، أي في أنه لم يقل إلا ما رأى في كتب اليهود ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر المعنى ، لأن التجسيم فيه ظاهر واليهود معروفون باعتقاده ، ولا يحسنون حمله على تأويله من أن الأصبع عبارة عن القدرة ، أو من أنها أصبع خلق يخلق

لذلك ، ويعضدها تنكير الأصبع .

وروى سعيد بن المسيب أن سبب نزول الآية أن طائفة من اليهود جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد ، هذا الله خلق الأشياء ، فمن خلق الله ؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وساورهم ، ونزلت الآية في ذلك .

وقرأ جمهور الناس : " قدْره " بسكون الدال ، وقرأ الأعمش : بفتح الدال . وقرأ أبو حيوة والحسن وعيسى بن عمرو وأبو نوفل : " وما قدّروا " بشد الدال " حق قدَره " بفتح الدال .

وقوله تعالى : ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ معناه : في قبضته . وقال ابن عمر ما معناه : أن الأرض في قبضة اليد الواحد ، ﴿ والسماوات مطويات ﴾ باليمين الأخرى ، لأنه كلتا يديه يمين ، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : الأرض جميعاً قبضته ، والسماوات وكل ذلك بيمينه .

وقرأ عيسى بن عمر : " مطوياتٍ " بكسر التاء المنونة ، والناس على رفعها .

وعلى كل وجه ، ف " اليمين " هنا و " القبضة " وكل ما ورد : عبارة عن القدرة والقوة ، وما اختلج في الصدور من غير ذلك باطل ، وما ذهب إليه القاضي من أنها صفات زائدة على صفات الذات قول ضعيف ، ويحسب ما يختلج في النفوس التي لم يحضنها العلم .

قال عز وجل : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ . أي هو منزه عن جميع الشبه التي لا تليق به . ثم ذكر تعالى النفخ في الصور ليصعق الأحياء من أهل الدنيا والسماء ، وفي بعض الأحاديث من طريق أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن قبل هذه الصعقة الفزع ولم تتضمنها هذه الآية . و: " صعق " في هذه الآية معناه : خر ميتاً . و: ﴿ الصور ﴾ القرن ، ولا يتصور هنا غير هذا ، ومن يقول ﴿ الصور ﴾ جمع صورة ، فإنما يتوجه قوله في نفخة البعث .

وقرأ قتادة : " في الصوَر " بفتح الواو ، وهي جمع صورة .

وقوله : ﴿ إلا من شاء الله ﴾ قال السدي : استثنى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، ثم أماتهم بعد هذه الحال ، وروي ذلك عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال : استثنى الأنبياء : وقال ابن جبير : استثنى الشهداء .

وقوله : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى ﴾ هي نفخة البعث . وروي أن بين النفختين أربعين ، لا يدري أبو هريرة سنة أو يوماً أو شهراً أو ساعة . وباقي الآية بين .

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69)

﴿ أشرقت ﴾ معناه : أضاءت وعظم نورها ، يقال شرقت الشمس إذا طلعت ،

وأشرقت إذا أضاءت .

وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير : " أشرِقت " بضم الهمزة وكسر الراء على بناء الفعل للمفعول ، وهذا إنما يترتب في فعل يتعدى ، فهذا على أن يقال : أشرق البيت ، وأشرقه السراج ، فيكون الفعل متجاوزاً أو غير متجاوز بلفظ واحد كرجع ورجعته ووقف ووقفته ، ومن المتعدي من ذلك يقال أشرقت الأرض : و: ﴿ الأرض ﴾ في هذه الآية : الأرض المبدلة من الأرض المعروفة .

(65/670)

وقوله : ﴿ بنور ربها ﴾ إضافة خلق إلى خالق ، أي بنور الله تعالى ، و: ﴿ الكتاب ﴾ كتاب حساب الخلائق ، ووحده على اسم الجنس ، لأن كل أحد له كتاب على حدة .

وقالت فرقة : وضع اللوح المحفوظ ، وهذا شاذ وليس فيه معنى التوعد وهو مقصد الآية .

وقوله : ﴿ وجيء بالنبيين ﴾ أي ليشهدوا على أممهم .

وقوله : ﴿ والشهداء ﴾ قيل هو جمع شاهد ، والمراد أمة محمد الذين جعلهم الله شهداء على الناس . وقال السدي : ﴿ الشهداء ﴾ جمع شهيد في سبيل الله ، وهذا أيضاً يزول عنه معنى التوعد ، ويحتمل أن يريد بقوله : ﴿ والشهداء ﴾ الأنبياء أنفسهم ، عطف

الصفة على الصفة بالواو ، كما تقول : جاء زيد الكريم والعاقل . وقال زيد بن أسلم : ﴿ الشهداء ﴾ : الحفظة . والضمير في قوله : ﴿ بينهم ﴾ عائد على العالم بأجمعه . إذ الآية تدل عليهم . و: ﴿ لا يظلمون ﴾ معناه : لا يوضع شيء من أمورهم غير موضعه . ﴿ ووفيت ﴾ معناه : جوزيت كملاً ، وفي هذا وعيد صرح عنه قوله : ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(66/670)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

بين ما يكون بعد قبض الأرض وطيّ السماء وهو النفخ في الصور ، وإنما هما نفختان ؛ يموت الخلق في الأولى منهما ويحيون في الثانية وقد مضى الكلام في هذا في "النمل" و"الأنعام" أيضاً .

والذي ينفخ في الصور هو إسرافيل عليه السلام .

وقد قيل : إنه يكون معه جبريل لحديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : " إن صاحبي الصور بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان النظر متى يؤمران " خرجه ابن ماجه في السنن .

وفي كتاب أبي داود عن أبي سعيد الخدري قال : " ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الصُّور ، وقال : "عن يمينه جبرائيل وعن يساره ميكائيل" " واختلف في المستثنى من هم ؟ فقيل : هم الشهداء متقلّدين أسيافهم حول العرش .

روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة فيما ذكر القشيري ، ومن حديث عبد الله بن عمر فيما ذكر الثعلبي .

وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام .

(67/670)

وروي من حديث أنس : " أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ فقالوا : يا نبيّ الله من هم الذين استثنى الله تعالى ؟ قال : "هم جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت فيقول الله تعالى لمَلَك الموت يا مَلَك الموت من بقي من خلقي وهو أعلم فيقول يا رب بقي جبريل وميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف مَلَك الموت فيقول الله تعالى خذ نفس إسرافيل وميكائيل

فيخران ميتين كالطودين العظيمين فيقول متّ يا مَلَك الموت فيموت فيقول الله تعالى لجبريل يا جبريل من بقي فيقول تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإِكرام وجهك الباقي الدائم وجبريل الميت الفاني فيقول الله تعالى يا جبريل لا بدّ من موتك فيقع ساجداً يخفق بجناحيه يقول سبحانك ربي تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام" " فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطَّود العظيم على الظَّرِب من الظِّراب " ذكره الثعلبي .

وذكره النحاس أيضاً من حديث محمد بن إسحاق ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك ، " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله جل وعز : ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ قال : "جبريل وميكائيل وحملة العرش ومَلَك الموت وإسرافيل" "

وفي هذا الحديث : " إن آخرهم موتاً جبريل عليه وعليهم السلام " وحديث أبي هريرة في الشهداء أصح على ما تقدّم في "النمل" .

وقال الضحاك : هو رضوان والحور ومالك والزَّبانية .

وقيل : عقارب أهل النار وحياتها .

وقال الحسن : هو الله الواحد القهار وما يدع أحداً من أهل السماء والأرض إلا أذاقه الموت .

وقال قتادة : الله أعلم بثنياه .

وقيل : الاستثناء في قوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ يرجع إلى من مات قبل النفخة الأولى ؛ أي فيموت من في السموات والأرض إلا من سبق موته ؛ لأنهم كانوا قد ماتوا .

(68/670)

وفي الصحيحين وابن ماجه واللفظ له عن أبي هريرة قال : قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذي اصطفى موسى على البشر ؛ فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه ؛ قال : تقول هذا وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قال الله عز وجل : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ فأكون أوّل من رفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمةٍ من قوائم العرش فلا أدري أرَفَع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " وخرجه الترمذي أيضاً وقال فيه : حديث حسن صحيح .

قال القشيري : ومن حمل الاستثناء على موسى والشهداء فهؤلاءِ قد ماتوا غير أنهم أحياء عند الله .

فيجوز أن تكون الصعقة بزوال العقل دون زوال الحياة ، ويجوز أن تكون بالموت ، ولا يبعد أن يكون الموت والحياة فكل ذلك مما يجوّزه العقل ، والأمر في وقوعه موقوف على خبر صدق .

قلت : جاء في بعض طرق أبي هريرة أنه عليه السلام قال : " لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون فأكون أوّل من يفيق فإذا موسى باطِشٌ بجانب العرش فلا أدري أكان فيمن صعِق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله " خرجه مسلم .

ونحوه عن أبي سعيد الخدري ؛ والإفاقة إنما تكون عن غشية وزوال عقل لا عن موت بردّ الحياة .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أي فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بعثوا من قبورهم ، وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم ، فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون .

وقيل : قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وعِدوا به .

وقيل : هذا النظر بمعنى الانتظار ؛ أي ينتظرون ما يفعل بهم .

وأجاز الكسائي قياماً بالنصب ؛ كما تقول : خرجت فإذا زيد جالساً .

قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرض بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ إشراقها إضاءتها ؛ يقال : أشرقت الشمس إذا أضاءت وشَرَقت إذا طلعت .

ومعنى : ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ بعدل ربها ؛ قاله الحسن وغيره .

وقال الضحاك : بحكم ربها ؛ والمعنى واحد ؛ أي أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده .

والظلم ظلمات والعدل نور .

وقيل : إن الله يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به .

وقال ابن عباس : النور المذكور هاهنا ليس من نور الشمس والقمر ، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض .

وروي أن الأرض يومئذٍ من فضة تشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء .

والمعنى أنها أشرقت بنورٍ خلقه الله تعالى ، فأضاف النور إليه على حدّ إضافة الملك إلى المالك .

وقيل : إنه اليوم الذي يقضي فيه بين خلقه ؛ لأنه نهار لا ليل معه .

وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير : ﴿ وأُشْرِقَتِ الأَرْضُ ﴾ على ما لم يسم فاعله وهي قراءة على التفسير .

وقد ضل قوم هاهنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس ، وهو متعال عن (مشابهة) المحسوسات ، بل هو منوّر السموات والأرض ، فمنه كل نور خلقا وإنشاء .

وقال أبو جعفر النحاس : وقوله عز وجل : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ يبين هذا الحديث المرفوع من طرق كثيرة صحاح : " تنظرون إلى الله عز وجل لا تضامّون في رؤيته " وهو يروى على أربعة أوجه : لا تُضامُون ولا تضارُون ولا تضامُّون ولا تضارُّون ؛ فمعنى "لا تضامُون" لا يلحقكم ضيم كما يلحقكم في الدنيا في النظر إلى الملوك .

و"لا تضارُون" لا يلحقكم ضير .

و"لا تضامُّون" لا ينضم بعضكم إلى بعض ليسأله أن يريه .

و"لا تضارُّون" لا يخالف بعضكم بعضاً ؛ يقال : ضارّه مُضارّة وضِرارا أي خالفه .

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ قال ابن عباس : يريد اللوح المحفوظ .

وقال قتادة : يريد الكتاب والصحف التي فيها أعمال بني آدم ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله .

﴿ وَجِيءَ بالنبيين ﴾ أي جيء بهم فيسألهم عما أجابتهم به أممهم .

﴿ والشهدآء ﴾ الذين شهدوا على الأمم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى الناس ﴾ [البقرة : 143] .

وقيل : المراد بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله ، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبّ عن دين الله ؛ قاله السدي .

قال ابن زيد : هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : 21] فالسائق يسوقها إلى الحساب والشهيد يشهد عليها ، وهو الملك الموكل بالإنسان على ما يأتي بيانه في "قاف" .

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحق ﴾ أي بالصدق والعدل .

﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير : لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم .

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ من خير أو شر .

﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ في الدنيا ولا حاجة به عز وجل إلى كتاب ولا إلى شاهد ، ومع

ذلك فتشهد الكتب والشهود إلزاماً للحجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(71/670)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) ﴾

روي أنه قال للرسول عليه السلام : المشركون استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك ، وغير منصوب بأعبد .

قال الأخفش : تأمروني ملغاة ، وعنه أيضاً : أفغير نصب بتأمروني لا بأعبد ، لأن الصلة لا تعمل فيما قبلها ، إذ الموصول منه حذف فرفع ، كما في قوله :

ألا أيها ذا الزاجري احضر الوغى . . .

والصلة مع الموصول في موضع النصب بدلاً منه ، أي أفغير الله تأمرونني عبادته ؟ والمعنى : أتأمرونني بعبادة غير الله ؟ وقال الزمخشري : أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله : ﴿ تأمروني أعبد ﴾ ، لأنه في معنى تعبدون وتقولون لي : اعبده ، وأفغير الله تقولون لي اعبد ، فكذلك أفغير الله تقولون لي أن اعبده ، وأفغير الله تأمروني أن أعبد .

والدليل على صحة هذا الوجه قراءات من قرأ أعبد بالنصب ، يعني : بنصب الدال بإضمار أن .

وقرأ الجمهور : تأمروني ، بإدغام النون في نون الوقاية وسكون الياء ؛ وفتحها ابن كثير .

وقرأ ابن عامر : تأمرنني ، بنونين على الأصل ؛ ونافع : تأمرني ، بنون واحدة مكسورة وفتح الياء .

قال ابن عطية : وهذا على حذف النون الواحدة ، وهي الموطئة لياء المتكلم ، ولا يجوز حذف النون الأولى ، وهو لحن ، لأنها علامة رفع الفعل . انتهى .

وفي المسألة خلاف ، منهم من يقول : المحذوفة نون الرفع ، ومنهم من يقول : نون الوقاية ، وليس بلحن ، لأن التركيب متفق عليه ، والخلاف جرى في أيهما حذف ، ونختار أنها نون الرفع .

ولما كان الأمر بعبادة غير الله لا يصدر إلا من غبي جاهل ، نادهم بالوصف المقتضي ذلك فقال : ﴿ أيها الجاهلون ﴾ .

ولما كان الإشراك مستحيلاً على من عصمه الله ، وجب تأويل قوله : ﴿ لئن أشركت ﴾ أيها السامع ، ومضى الخطاب على هذا التأويل .

ويدل على هذا التأويل أنه ليس براجع الخطاب للرسول ، إفراداً لخطاب في ﴿ لئن أشركت ﴾ ، إذ لو كان هو المخاطب ، لكان التركيب : لئن أشركتما ، فيشمل ضمير هو ضمير الذين من قبله ، ويغلب الخطاب .

وقال الزمخشري : فإن قلت : المومى إليهم جماعة ، فكيف قال : ﴿ لئن أشركت ﴾ على التوحيد ؟ قلت معناه : لئن أوحى إليك ، ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ ، وإلى الذين من قبلك مثله ، وأوحى إليك وإلى كل واحد منهم ﴿ لئن أشركت ﴾ ، كما تقول : كسانا حلة ، أي كل واحد منا .

فإن قلت : كيف يصح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا يحبط أعمالهم ؟ قلت : هو على سبيل الفرض والمحالات يصح فرضها ثم ذكر كلاماً يوقف عليه في كتابه .

ويستدل بهذه الآية على حبوط عمل المرتد من صلاة وغيرها .

وأوحى : مبني للمفعول ، ويظهر أن الوحي هو هذه الجمل : من قوله : ﴿ لئن أشركت ﴾ إلى ﴿ من الخاسرين ﴾ وهذا لا يجوز على مذهب البصريين ، لأن الجمل لا تكون فاعلة ، فلا تقوم مقام الفاعل .

وقال مقاتل : أوحى إليك بالتوحيد ، والتوحيد محذوف .

ثم قال : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ ، والخطاب للنبي عليه السلام خاصة .

انتهى .

فيكون الذي أقيم مقام الفاعل هو الجار والمجرور ، وهو إليك ، وبالتوحيد فضلة يجوز حذفها لدلالة ما قبلها عليها .

وقرأ الجمهور : ﴿ ليحبطن ﴾ مبنياً للفاعل ، ﴿ عملك ﴾ : رفع به .

وقرىء : ليحبطن بالياء ، من أحبط عمله بالنصب ، أي ليحبطن الله عملك ، أو الإشراك عملك .

وقرىء بالنون أي : لنحبطن عملك بالنصب ، والجلالة منصوبة بقوله : فاعبد على حدّ قولهم : زيد فاضرب ، وله تقرير في النحو وكيف دخلت هذه الفاء .

وقال الفراء : إن شئت نصبه بفعل مضمر قبله ، كأنه يقدر : اعبد الله فاعبده .

(73/670)

وقال الزمخشري : ﴿ بل الله فاعبد ﴾ ، ردّ لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم ، كأنه قال : لا تعبد ما أمروك بعبادته ، بل إن كنت عاقلاً فاعبد الله ، فحذف الشرط وجعل تقدم المفعول عوضاً منه . انتهى .

ولا يكون تقدم المفعول عوضاً من الشرط لجواز أن يجيء : زيد فعمراً اضرب .

فلو كان عوضاً ، لم يجز الجمع بينهما .

﴿ وكن من الشاكرين ﴾ لأنعمه التي أعظمها الهداية لدين الله .

وقرأ عيسى : بل الله بالرفع ، والجمهور : بالنصب .

﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ : أي ما عرفوه حق معرفته ، وما قدروه في أنفسهم حق تقديره ، إذ أشركوا معه غيره ، وساووا بينه وبين الحجر والخشب في العبادة .

وقرأ الأعمش : حق قدره بفتح الدال ؛ وقرأ الحسن ، وعيسى ، وأبو نوفل ، وأبو حيوة : وما قدروا بتشديد الدال ، حق قدره : بفتح الدال ، أي ما عظموه حقيقة تعظيمه .

والضمير في قدروا ، قال ابن عباس : في كفار قريش ، كانت هذه الآية كلها محاورة لهم وردًّا عليهم .

وقيل : نزلت في قوم من اليهود تكلموا في صفات الله وجلاله ، فألحدوا وجسموا وجاءوا بكل تخليط .

وهذه الجملة مذكورة في الأنعام وفي الحج وهنا .

ولما أخبر أنهم ما عرفوه حق معرفته ، نبههم على عظمته وجلاله شأنه على طريق التصوير والتخييل فقال : ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويّات بيمينه ﴾ .

وقال الزمخشري : والغرض من هذا الكلام ، إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعة تصوير

عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز . انتهى .

ويعني : أو جهة مجاز معين ، والإخبار : التصوير ، والتخييل هو من المجاز .

وقال غيره : الأصل في الكلام حمله على حقيقته ، فإن قام دليل منفصل على تعذر حمله عليها ، تعين صرفه إلى المجاز .

(74/670)

فلفظ القبضة واليمين حقيقة في الجارحة ، والدليل العقلي قائم على امتناع ثبوت الأعضاء والجوارح لله تعالى ، فوجب الحمل على المجاز ، وذلك أنه يقال : فلان في قبضة فلان ، إذا كان تحت تدبيره وتسخيره ، ومنه : ﴿ أو ما ملكت أيمانهم ﴾ فالمراد كونه مملوكاً لهم ، وهذه الدار في يد فلان ، وقبض فلان كذا ، وصار في قبضته ، يريدون خلوص ملكه ، وهذا كله مجاز مستفيض مستعمل .

وقال ابن عطية : اليمين هنا والقبضة عبارة عن القدرة ، وما اختلج في الصدر من غير ذلك باطل .

وما ذهب إليه القاضي ، يعني ابن الطيب ، من أنها صفات زائدة على صفات الذات ،

قول ضعيف ، ويحسب ما يختلج في النفوس التي لم يحصها العلم .

قال عز وجل : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ : أي منزه عن جميع الشبه التي لا تليق به . انتهى .

وقال القفال : هذا كقول القائل : وما قدرني حق قدري ، وأنا الذي فعلت كذا وكذا ، أي لما عرفت أن حالي وصفتي هذا الذي ذكرت ، وجب أن لا تخطىء عن قدري ومنزلتي ، ونظيره : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ أي كيف تكفرون من هذه صفته وحال ملكه ؟ فكذا هنا ، ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ : أي زعموا أن له شركاء ، وأنه لا يقدر على إحياء الموتى ، مع أن الأرض والسموات في قبضة قدرته . انتهى .

﴿ والأرض ﴾ : أي والأرضون السبع ، ولذلك أكد بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ ، وعطف عليه ﴿ والسموات ﴾ ، وهو جمع ، والموضع موضع تفخيم ، فهو مقتض المبالغة .

والقبضة : المرة الواحدة من القبض ، وبالضم : المقدار المقبوض بالكف ، ويقال في المقدار : قبضته بالفتح ، تسمية له بالقدر ، فاحتمل هنا هذا المعنى .

واحتمل أن يراد المصدر على حذف مضاف ، أي ذوات قبضة ، أي يقبضهن قبضة واحدة ، فالأرضون مع سعتها وبسطتها لا يبلغن إلا قبضة كف ، وانتصب جميعاً على الحال .

قال الحوفي : والعامل في الحال ما دل عليه قبضته انتهى .

ولا يجوز أن يعمل فيه قبضته ، سواء كان مصدراً ، أم أريد به المقدار .

(75/670)

وقال الزمخشري : ومع القصد إلى الجمع يعني في الأرض ، وأنه أريد بها الجمع قال : وتأكيده بالجميع ، أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء ذلك الخبر ، ليعلم أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة ، ولكن عن الأراضي كلهن . انتهى .

ولم يذكر العامل في الحال ، ويوم القيامة معمول لقبضته .

وقرأ الحسن : قبضته بالنصب .

قال ابن خالويه : بتقدير في قبضته ، هذا قول الكوفيين .

وأما أهل البصرة فلا يجيزون ذلك ، كما لا يقال : زيد داراً انتهى .

وقال الزمخشري : جعلها ظرفاً مشبهاً للوقت بالمبهم .

وقرأ عيسى ، والجحدري : مطويات بالنصب على الحال ، وعطف والسموات على الأرض ، فهي داخلة في حيز والأرض ، فالجميع قبضته .

وقد استدل بهذه القراءة الأخفش على جواز : زيد قائماً في الدار ، إذ أعرب والسموات

مبتدأ ، وبيمينه الخبر ، وتقدمت الحال والمجرور ، ولا حجة فيه ، إذ يكون والسموات معطوفاً على والأرض ، كما قلنا ، وبيمينه متعلق بمطويات ، ومطويات : من الطي الذي هو ضد النشر ، كما قال تعالى : ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ وعادة طاوي السجل أن يطويه بيمينه .

وقيل : قبضته ملكه بلا مدافع ولا منازع ، وبيمينه : وبقدرته .

قال الزمخشري : وقيل : مطويات بيمينه : مفنيات بقسمه ، لأنه أقسم أن يفنيها ؛ ثم أخذ ينحى على من تأول هذا التأويل بما يوقف عليه في كتابه ، وإنما قدر عظمته بما سبق إردافه أيضاً بما يناسب من ذلك ، إذ كان فيما تقدم ذكر حال الأرض والسموات يوم القيامة ، فقال : ﴿ ونفخ في السور ﴾ ، وهل النفخ في الصور ثلاث مرات أو نفختان ؟ قول الجمهور : فنفخة الفزع هي نفخة الصعق ، والصعق هنا الموت ، أي فمات من في السموات ومن في الأرض .

قال ابن عطية : والصور هنا : القرن ، ولا يتصور هنا غير هذا .

ومن يقول : الصور جمع صورة ، فإنما يتوجه قوله في نفخة البعث .

وروي أن بين النفختين أربعين .

انتهى ، ولم يعين .

وقراءة قتادة ، وزيد بن عليّ هنا : في الصور ، بفتح الواو جمع صورة ، يعكر على قول ابن عطية ، لأنه لا يتصور هنا إلا أن يكون القرن ، بل يكون هذا النفخ في الصور مجازاً عن مشارفة الموت وخروج الروح .

وقرىء : فصعق بضم الصاد ، والظاهر أن الاستثناء معناه : ﴿ إلا من شاء الله ﴾ ، فلم يصعق : أي لم يمت ، والمستثنون : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، أو رضوان خازن الجنة ، والحور ، ومالك ، والزبانية ؛ أو المستثنى الله ، أقوال آخرها للحسن ، وما قبله للضحاك .

وقيل : الاستثناء يرجع إلى من مات قبل الصعقة الأولى ، أي يموت من في السموات والأرض إلا من سبق موته ، لأنهم كانوا قد ماتوا ، وهذا نظير : ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ ثم نفخ فيه أخرى ، واحتمل أخرى على أن تكون في موضع نصب ، والقائم مقام الفاعل الجار والمجرور ، كما أقيم في اوول ، وأن يكون في موضع رفع مقاماً مقام الفاعل ، كما صرح به في قوله : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة .

﴿ ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ أي أحياء قد أعيدت لهم الأبدان والأرواح ، ﴿ ينطرون ﴾ : أي ينتظرون ما يؤمرون ، أو ينتظرون ماذا يفعل بهم ، أو يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب عظيم .

والظاهر قيامهم الذي هو ضد القعود لأجل استيلاء الذهن عليهم .

وقرأ زيد بن علي : قياماً بالنصب على الحال ، وخبر المبتدأ الظرف الذي هو إذا الفجائية ، وهي حال لا بد منها ، إذ هي محط الفائدة ، إلا أن يقدر الخبر محذوفاً ، أي فإذا هم مبعوثون ، أي موجودون قياماً .

وأن نصبت قياماً على الحال ، فالعامل فيها ذلك الخبر المحذوف .

(77/670)

إن قلنا الخبر محذوف ، وأن لا عامل ، فالعامل هو العامل في الظرف ، فإن كان إذا ظرف مكان على ما يقتضيه كلام سيبويه ، فتقديره : فبالحضرة هم قياماً ؛ وإن كان ظرف زمان ، كما ذهب إليه الرياشي ، فتقديره : ففي ذلك الزمان الذي نفخ فيه ، هم أي وجودهم ، واحتيج إلى تقدير هذا المضاف لأن ظرف الزمان لا يكون خبراً عن الجثة ؛ وإن كانت إذا حرفاً ، كما زعم الكوفيون ، فلا بد من تقدير الخبر ، إلا أن اعتقد أن ينظرون هو الخبر ، ويكون ينظرون عاملاً في الحال .

وقرأ الجمهور : ﴿ وأشرقت ﴾ مبنياً للفاعل ، أي أضاءت ؛ وابن عباس ، وعبيد بن عمير ، وأبو الجوزاء : مبنياً للمفعول من شرقت بالضوء تشرق ، إذا امتلأت به واغتصت

وأشرقها الله ، كما تقول : ملأ الأرض عدلاً وطبقها عدلاً ، قاله الزمخشري .

وقال ابن عطية : وهذا إنما يترتب على فعل يتعدى ، فهذا على أن يقال : أشرق البيت وأشرقه السراج ، فيكون الفعل مجاوزاً وغير مجاوز ، كرجع ورجعته ووقف ووقفته .

والأرض في هذه الآية : الأرض المبدلة من الأرض المعروفة ، ومعنى أشرقت : أضاءت وعظم نورها . انتهى .

وقال صاحب اللوامح : وجب أن يكون الإشراق على هذه القراءة منقولاً من شرقت الشمس إذا طلعت ، فيصير متعدياً بالفعل بمعنى : أذهبت ظلمة الأرض ، ولا يجوز أن يكون من أشرقت إذا أضاءت ، فإن ذلك لازم ، وهذا قد تعدى إلى الأرض لما لم يذكر الفاعل ، وأقيمت الأرض مقامه ؛ وهذا على معنى ما ذهب إليه بعض المتأخرين من غير أن يتقدم في ذلك ، لأن من الأفعال ما يكون متعدياً لازماً معاً على مثال واحد . انتهى .

وفي الحديث الصحيح : " يحشر الناس على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ، ليس بها علم لأحد بنور ربها " قيل : يخلق الله نوراً يوم القيامة ، فيلبسه وجه الأرض ، فتشرق الأرض به ، وقال ابن عباس : النور هنا ليس من نور الشمس والقمر ، بل هو نور يخلقه الله فيضيء الأرض .

وروي أن الأرض يومئذ من فضة ، والمعنى : أشرقت بنور خلقه الله تعالى ، أضافه إليه إضافة الملك إلى الملك .

وقال الزمخشري : استعار الله النور للحق ، والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل ، وهذا من ذلك .

والمعنى : وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ، وبسط من القسط في الحسنات ، ووزن الحسنات والسيئات ، وينادي عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه ، لأنه هو الحق العدل ، وإضافة اسمه إلى الأرض ، لأنه يزينها حين ينشر فيها عدله ، وينصب فيها موازين قسطه ، ويحكم بالحق بين أهلها ، ولا ترى أزين للبقاع من العدل ولا أعمر لها منه ، ويقولون للملك العادل : أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك ، كما يقولون : أظلمت البلاد بجور فلان .

وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " الظلم ظلمات يوم القيامة " ، وكما فتح الآية بإثبات العدل ، ختمها بنفي الظلم .

﴿ ووضع الكتاب ﴾ : أي صحائف الأعمال ووحد ، لأنه اسم جنس ، وكل أحد له كتاب على حدة ، وأبعد من قال : الكتاب هنا اللوح المحفوظ .

وروي ذلك عن ابن عباس ، ولعله لا يصح ، وقد ضعف بأن الآية سيقت مقام التهديد في

سياق الخير .

﴿ وجيء بالنبيين ﴾ ليشهدوا على أممهم ، ﴿ والشهداء ﴾ ، قيل : جمع شاهد ، وهم الذين يشهدون على الناس بأعمالهم .

وقيل : هم الرسل من الأنبياء .

وقيل : أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، يشهدون للرسل .

وقال عطاء ، ومقاتل ، وابن زيد : الحفظة .

وقال ابن زيد أيضاً : النبيون ، والملائكة ، وأمة محمد عليه السلام ، والجوارح .

وقال قتادة : الشهداء جمع شهيد ، وليس فيه توعد ، وهو مقصود الآية .

﴿ وقضى بينهم ﴾ : أي بين العالم ، ولذلك قسموا بعد إلى قسمين : أهل النار وأهل الجنة ، ﴿ بالحق ﴾ : أي بالعدل .

﴿ ووفيت كل نفس ﴾ : أي جوزيت مكملاً .

﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ ، فلا يحتاج إلى كاتب ولا شاهد ، وفي ذلك وعيد وزيادة تهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(79/670)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَيُنَجّى الله الذين اتقوا ﴾

(80/670)

الشّركَ والمعاصيَ أي من جهنَّم . وقُرِىءَ يُنْجِي من الإنجاء . ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ مصدرٌ ميميٌّ إما من فاز بالمطلوب أي ظفر به ، والباءُ متعلقة بمحذوفٍ هو حالٌ من الموصول مفيدةٌ لمقارنة تنجيتهم من العذاب لنيلِ الثَّواب أي ينجِّيهم الله تعالى من مَثْوى المتكبّرينَ ملتبسين بفوزهم بمطلوبِهم الذي هو الجنَّةُ . وقوله تعالى ﴿ لاَ يَمَسُّهُمُ السوء وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ إمَّا حالٌ أُخرى من الموصول أو من ضميرِ مفازتِهم مفيدةٌ لكون نجاتِهم أو فوزِهم بالجنة غيرَ مسبوقةٍ بمساس العذاب والحزن . وإمَّا من فازَ منه أي نجا منه ، والباءُ للملابسة . قولُه تعالى : ﴿ لاَ يَمَسُّهُمُ ﴾ إلى آخرِه تفسيرٌ وبيانٌ لمفازتِهم أي ينجِّيهم الله تعالى ملتبسين بنجاتِهم الخاصَّةِ بهم أي بنفي السُّوءِ والحُزنِ عنهم أو للسَّببيةِ إمَّا على حذفِ المضافِ أي ينجيّهم بسبب مفازتهم التي هي تقواهم كما يُشعر به إيراده في حيّزِ الصّلةِ ، وإمَّا على إطلاقِ المفازةِ على سببها الذي هو التَّقوى وليس المرادُ نفيَ دوام المساسِ والحزن بل دوامَ نفيهما كما مرَّ مراراً . ﴿ الله خالق كُلّ شَىْءٍ ﴾ من خيرٍ وشرَ وإيمان وكفر لكن لا بالجَبْرِ

بل بمباشرة الكاسب لأسبابها . ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يتولَّى التَّصرُّفَ فيه كيفما يشاء ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ لا يملك أمرَها ولا يتمكَّن من التَّصرُّفَ فيها غيرُه وهو عبارة عن قُدرته تعالى وحفظِه لها . وفيها مزيدُ دلالةٍ على الاستقلالِ والاستبداد لأنَّ الخزائن لا يدخُلها ولا يتصرَّفُ فيها إلا من بيده مفاتيحُها . وهو جمعُ مِقْليدٍ أو مِقلادٍ من قلَّدتُه إذا ألزمتُه ، وقيل : جمعُ إقليدٍ معرَّبُ كِلِيدٍ على الشُّذوذِ كالمذاكيرِ . وعن عثمانَ رضي الله عنه أنَّه سألَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن المقاليدِ فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " تفسيرُها لا إلَه إلاَّ الله والله أكبرُ

(81/670)

وسبحانَ الله وبحمدِه وأستغفرُ الله ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله العليِّ العظيمِ هو الأوَّلُ والآخرُ والظَّاهرُ والباطنُ بيدِه الخيرُ يُحيي ويُميتُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ " والمعنى على هذا أنَّ لله هذه الكلمات يُوحد بها ويُمجّد وهي مفاتيحُ خيرِ السَّمواتِ والأرضِ من تكلَّم بها أصابَه ﴿ والذين كَفَرُواْ بئايات الله أُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ متَّصلٌ بما قبله والمعنى أنَّ الله تعالى خالقٌ لجميعِ الأشياءِ ومتصرِّفٌ فيها كيفما يشاءُ بالإحياء والإماتة بيده مقاليدُ العالم العلويِّ والسُّفليِّ . والذي كفرُوا بآياته التَّكوينيَّةِ المنصوبةِ في الآفاق والأنفسِ والتَّنزيليةِ التي

من جُملتها هاتيك الآيات النَّاطقةُ بذلك هم الخاسرون خُسراناً لا خسارَ وراءه ، هذا وقيل : هو متَّصلٌ بقوله تعالى وينجّي الله وما بينهما اعتراضٌ فتدَّبر .

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون ﴾ أي أبعدَ مشاهدةِ هذه الآياتِ غيرَ الله أعبدُ ، وتأمروني اعتراضٌ للدّلالةِ على أنَّهم أمرُوه به عَقيب ذلكَ وقالُوا استلمْ بعضَ آلهتِنا نؤمنُ بإلهك لفرطِ غباوتِهم . ويجوزُ أن ينتصبَ غيرُ بما يدلُّ عليه تأمروني أعبدُ لأنَّه بمعنى تعبّدونني ، وتقولون لي أعبد على أنَّ أصلَه تأمرونني أنْ أعبدَ فحُذف أنْ ورُفعَ ما بعدَها كما في قوله

أَلاَ أيهذا الزَّاجري أحضرُ الوَغَى . . . وأنْ أشهدَ اللذَّاتِ هَلْ أنْتَ مُخْلدِي

(82/670)

ويؤيّدهُ قراءةُ أعبدَ بالنَّصبِ وقُرِىء تأمرونني بإظهارِ النُّونينِ على الأصلِ وبحذفِ الثَّانيةِ ﴿ وَلَقَدْ أُوْحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ ﴾ أي من الرُّسلِ عليهم السَّلامُ ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ كلامٌ واردٌ على طريقةِ الفرضِ لتهييجِ الرُّسلِ وإقناطِ الكفرةِ والإيذانِ بغايةِ شناعةِ الإشراكِ وقُبحِه وكونِه بحيثُ ينهى عنه من لا يكادُ يمكن أنْ يباشرَه فكيف بمن عداهُ . وإفرادُ الخطاب باعتبار كلِّ واحدٍ واللامُ الأولى مُوطِّئة

للقسمِ والأخريانِ للجوابِ وإطلاق الاحباطِ يحتملُ أنْ يكون من خصائصِهم عند الإشراكِ منهم لأنَّ الإشراكَ منهم أشدُّ وأقبحُ وأن يكون مقيداً بالموتِ كما صرَّح به في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ وعطفُ الخسران عليه من عطفِ المسبَّبِ على السَّبب .

(83/670)

﴿ بَلِ الله فاعبد ﴾ ردٌّ لما أمروه به ولولا دلالةُ التَّقديمِ على القصرِ لم يكن كذلك ﴿ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ﴾ إنعامه عليك وفيه إشارة إلى ما يُوجب الاختصاصَ ويقتضيهِ . ﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ما قدرُوا عظمتَه تعالى في أنفسهم حقَّ عظمتِه حيثُ جعلُوا له شريكاً ووصفُوه بما لا يليقُ بشؤونه الجليلةِ وقُرِىء بالتَّشديدِ ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ تنبيهٌ على غاية عظمتِه وكمالِ قُدرته وحقارةِ الأفعال العظامِ التي تتحيَّر فيها الأوهامِ بالنسبةِ إلى قدرته تعالى ودلالةٌ على أنَّ تخريبَ العالم أهونُ شيءٍ عليه على طريقةِ التَّمثيل والتَّخييلِ من غير اعتبارِ القبضةِ واليمينِ حقيقةً ولا مجازاً كقولِهم شابتْ لُمَّةُ اللَّيلِ . والقبضةُ المرَّةُ من القبضِ أُطلقت بمعنى القبضةِ هي المقدارُ المقبوضُ بالكفِّ تسميةً بالمصدرِ أو بتقديرِ ذات قبضةٍ . وقُرِىء بالنَّصبِ على الظَّرفِ

تشبيهاً للموقَّتِ بالمُبهمِ . وتأكيدُ الأرضِ بالجميع لأنَّ المرادَ بها الأرَضون السَّبعُ أو جميعُ أبعاضِها الباديةِ والغائرة . وقُرِىء مطوياتٍ على أنَّها حالٌ والسَّمواتُ معطوفةٌ على الأرضُ منظومةٌ في حُكمِها . ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ما أبعدَ وما أعلى مَنْ هذه قدرتُه وعظمتُه عن إشراكِهم أو عمَّا يُشركونه من الشُّركاءِ .

(84/670)

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ هي النَّفخةُ الأولى ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ أي خرُّوا أمواتاً أو مغشيّاً عليهم ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ قيل : هم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ فإنَّهم لا يموتُون بعد وقيل : حَمَلةُ العرشِ . ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى ﴾ نفخةٌ أُخرى هي النَّفخةُ الثَّانيةُ . وأُخرى يحتملُ النَّصبَ والرَّفعَ . ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ قائمون من قبورِهم أو متوقفون . وقُرِىء بالنَّصبِ على أنَّ الخبرَ ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ وهو حالٌ من ضميرِه والمعنى يُقلِّبون أبصارَهم في الجوانبِ كالمبهوتينَ أو ينتظرون ما يفعل بهم . ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ بما أقام فيها من العدلِ استُعير له النُّورُ لأنَّه يزيِّنُ البقاعَ ويُظهر الحقوقَ كما يسمَّى الظُّلم ظُلمةً . وفي الحديثِ : "الظُّلم ظلماتٌ يومَ القيامةِ" ولذلك أضيف الأسمُ الجليلُ إلى ضميرِ الأرضُ أو بنور خلقه فيها بلا توسُّطِ أجسامٍ مضيئةٍ ولذلك أُضيف إلى الاسمِ

الجليلِ . ﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ الحسابُ والجزاءُ من وضع المحاسبِ كتابَ المحاسبةِ بين يديه أو صحائفُ الأعمال في أيدي العمَّالِ واكتفى باسم الجنسِ عن الجمعِ وقيل : اللَّوحُ المحفوظُ يقابل به الصَّحائفُ . ﴿ وَجِىءَ بالنبيين والشهداء ﴾ للأممِ وعليهم من الملائكةِ والمؤمنينَ وقيل : المُستشهَدون ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين العباد ﴿ بالحق وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقصِ ثواب أو زيادةِ عقابٍ على ما جرى به الوعدُ .

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي جزاءَه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فلا يفوتُه شيءٌ من أفعالِهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(85/670)

وقال الآلوسى :

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾

المشهور أن النافخ فيه ملك واحد وأنه إسرافيل عليه السلام بل حكى القرطبي الإجماع عليه .

وفي حديث أخرجه ابن ماجه .

والبزار .

وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً أن النافخ اثنان ، ويدل عليه أيضاً أخبار أخر ، منها ما أخرجه أحمد .

والحاكم عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " النافخان في السماء الثانية رأس أحدهما بالمشرق ورجلاه بالمغرب ينتظران متى يؤمران أن ينفخا في الصور فينفخا " وفي بعض الآثار ما يدل على أنه واحد وأنه شاخص ببصره إلى إسرافيل عليه السلام ما طرف منذ خلقه الله تعالى ينتظر متى يشير إليه فينفخ في الصور .

والصور قرن عظيم فيه ثقب بعدد كل روح مخلوقة ونفس منفوسة .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب أنه من لؤلؤة بيضاء في صفاء الزجاجة به ثقب دقيقة بعدد الأرواح وفي وسطه كوة كاستدارة السماء والأرض ونحن نؤمن به ونفوض كيفيته إلى علام الغيوب جل شأنه .

وأنكر بعضهم ذلك وقال : هو جمع صورة كما في قراءة قتادة .

وزيد بن علي ﴿ فِى الصور ﴾ بفتح الواو وقد مر الكلام في ذلك ، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع ، وبني الفعل للمفعول لعدم تعلق الغرض بالفاعل بل الغرض إفادة هذا الفعل من أي فاعل كان فكأنه قيل .

ووقع النفخ في الصور ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ أي ماتوا بسبب ذلك ، ويحتمل أنهم يغشى عليهم أولاً ثم يموتون ، ففي الأساس صعق الرجل إذا غشي

عليه من هدة أو صوت شديد يسمعه وصعق إذا مات .

وفي "صحيح مسلم" من حديث طويل فيه ذكر الدجال " ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أُصغي ليتا ورفع ليتا فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس "

وقرىء ﴿ فَصَعِقَ ﴾ بضم الصاد ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ قال السدي : جبريل .

وإسرافيل .

وميكائيل .

(86/670)

وملك الموت عليهم السلام ، وقيل : هم وحملة العرش فإنهم يموتون بعد ، وفي ترتيب موتهم اضطراب مذكور في "الدر المنثور" ، وقيل : رضوان والحور ومالك والزبانية وروى ذلك عن الضحاك ، وقيل : من مات قبل ذلك أي يموت من في السماوات والأرض إلا من سبق موته لأنهم كانوا قد ماتوا ؛ قال في البحر : وهذا نظير ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الاولى ﴾ [الدخان : 56] ومن الغريب ما حكى فيه أن المستثنى هو الله عز وجل ، ولا يخفى عليك حاله متصلاً كان الاستثناء أم منقطعاً ، وقيل : هو موسى عليه السلام وسيأتي الكلام إن شاء الله تعالى في تحقيق ذلك ، وقيل غير ذلك .

ويراد بالسماوات على أكثر الأقوال جهة العلو وإلا لم يتصل الاستثناء فإن حملة العرش مثلاً ليسوا في السماوات بالمعنى المعروف ، وقيل : إنه لم يرد في التعيين خبر صحيح ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ ﴾ أي في الصور وهو ظاهر في أنه ليس بجمع وإلا لقيل فيها ﴿ أخرى ﴾ أي نفخة أخرى ، وهو يدل على أن المراد بالأول ونفخ في الصور نفخة واحدة كما صرح به في مواضع لأن العطف يقتضي المغايرة فلو أريد المطلق الشامل للأخرى لم يكن لذكرها ههنا وجه ، و﴿ أخرى ﴾ تحتمل النصب على أنها صفة مصدر مقدر أي نفخة أخرى ، والرفع على أنها صفة لنائب الفاعل ، وعلى الأول كان النائب عنه الظرف .

وصح في "صحيحي البخاري" .

ومسلم أن الله تعالى ينزل بين النفختين ماء من السماء جاء في بعض الروايات أنه كالطل بالمهملة وفي بعضها كمني الرجال فتنبت منه أجساد الناس وإن بين النفختين أربعين وهذا عن أبي هريرة مرفوعاً ولم يبين فيه ما هذه الأربعون .

(87/670)

وفي حديث أخرجه أبو داود أنها أربعون عاماً ، وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن العاص قال : ينفخ في الصور النفخة الأولى من باب إيلياء الشرقي أو قال الغربي والنفخة

الثانية من باب آخر ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ قائمون من قبورهم ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ أي تنظرون ما يؤمرون أو ينتظروم ماذا يفعل بهم ، وقيل : يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب عظيم .

وتعقب بأن قولهم عند قيامهم ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يس : 52] يأباه ظاهراً نوع إباء .

وجوز أن يكون قيام من القيام مقابل الحركة أي فإذا هم متوقفون جامدون في أمكنتهم لتحيرهم .

واعترض بأن قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَإِذَا هُم مّنَ الاجداث إلى رَبّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] ظاهر في خلافه لأن النسل الاسراع في المشي ، وكذا قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الاجداث سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : 43] وقرأ زيد بن علي ﴿ قِيَاماً ﴾ بالنصب على أن جملة ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ خبرهم ﴿ وقياما ﴾ حال من ضمير ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ للفاصلة ، أو من المبتدأ عند من يجوز ذلك .

وفي "البحر" النصب على الحال وخبر المبتدأ الظرف الذي هو ﴿ إِذَا ﴾ الفجائية وهي حال لا بد منها إذ هي محط الفائدة إلا أن يقدر الخبر محذوفاً أي فإذا هم مبعوثون أو موجودون قياماً ، وإذا نصب ﴿ قِيَاماً ﴾ على الحال فالعامل فيها ذلك الخبر المحذوف إن قلنا به وإلا فالعامل هو العامل في الظرف فإن كان ﴿ إِذَا ﴾ ظرف مكان على ما يقتضيه

ظاهر كلام سيبويه فتقديه فبالحضرة هم قياماً ، وإن كان ظرف زمان كما ذهب إليه الرياشي فتقديره ففي ذلك الزمان الذي نفخ فيه هم أي وجودهم ، واحتيج إلى تقدير هذا المضاف لأن ظرف الزمان لا يكون خبراً عن الجثة ، وإن كانت ﴿ إِذَا ﴾ حرفاً كما زعم الكوفيون فلا بد من تقدير الخبر إلا إن اعتقدنا أن ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ هو الخبر ويكون عاملاً في الحال انتهى .

(88/670)

ولعمري أن مذهب الكوفيين أقل تكلفاً ، هذا وههنا إشكال بناء على أنهم فسروا نفخة الصعق بالنفخة الأولى التي يموت بها من بقي على وجه الأرض .

فإنه قد أخرج البخاري .

ومسلم .

والترمذي .

وابن ماجه .

والإمام أحمد .

وغيرهم عن أبي هريرة قال : "قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذي اصطفى موسى

على البشر فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه قال : أتقول هذا وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فذكرت ذلك لرسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : قال الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السموات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَاء الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 86] فأكون أول من يرفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله تعالى" وهو يأبى تفسير النفخة بذلك ضرورة أن موسى عليه السلام قد مات قبل تلك النفخة بألوف سنين ، واحتمال أنه عليه السلام لم يمت كما قيل في الخضر وإلياس مما لا ينبغي أن يتفوه به حي ، ويدل كما قال بعض الأجلة : على أنها نفخة البعث .

وقال القاضي عياض : يحتمل أن تكون هذه صعقة فزع بعد النشر حين تنشق السماوات فتتوافق الآيات والأحاديث وتكون النفخات ثلاثاً وهو اختيار ابن العربي .

ورده القرطبي بأن أخذ موسى عليه السلام بقائمة العرش إنما هو عند نفخة البعث وادعى أن الصحيح أن ليس إلا نفختان لا ثلاث ولا أربع كما قيل .

(89/670)

ثم قال : والذي يزيح الإشكال ما قال بعض مشايخنا : إن الموت ليس بعدم محض بالنسبة للأنبياء عليهم السلام والشهداء فإنهم موجودون أحياء وإن لم نرهم فإذا نفخت نفخة الصعق صعق كل من في السماء والأرض وصعقة غير الأنبياء موت وصعقتهم غشي فإذا كانت نفخة البعث عاش من مات وأفاق من غشي عليه ، ولذا وقع في "الصحيحين" فأكون أول من يفيق انتهى ، ولا يخفى أنه يحتاج إلى القول بجواز استعمال المشترك في معنييه معاً أو إلى ارتكاب عموم المجاز أو التزام إرادة غشي عليهم وأن موت من يموت بعض الغشي مفاد من أمر آخر فتدبر .

﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض ﴾

أي أرض المحشر وهي الأرض المبدلة من الأرض المعروفة .

وفي "الصحيح" يحشر الناس على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد وهي أوسع بكثير من الأرض المعروفة .

وفي بعض الروايات أنها يومئذ من فضة ولا يصح أي أضاءت ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ هو على ما روي عن ابن عباس نور يخلقه الله تعالى بلا واسطة أجسام مضيئة كشمس وقمر ، واختاره الإمام وجعل الإضافة من باب ﴿ نَاقَةُ الله ﴾ [الأعراف : 73] وعن محيي السنة تفسير بتجلي الرب لفصل القضاء ، وعن الحسن .

والسدي تفسيره بالعدل وهو من باب الاستعارة وقد استعير لذلك وللقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل أي وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ويبسط سبحانه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات ، واختار هذا الزمخشري وصحح أولاً تلك الاستعارة بتكررها في القرآن العظيم ، وحققها ثانياً بقوله : وينادي على ذلك إضافته إلى اسمه تعالى لأنه عز وجل هو الحق العدل إشارة إلى الصارف إلى التأويل ، وعينها ثالثها بإضافة إسمه تعالى الرب إلى الأرض لأن العدل هو الذي يتزين به الأرض لا البرهان مثلاً ، ورابعاً بما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق لأنه كله تفصيل العدل بالحقيقة ، وأيدها خامساً بالعرف العام فإن الناس يقولون للملك العادل : أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك ، وسادساً بقوله صلى الله عليه وسلم : " الظلم ظلمات يوم القيامة " فإنه يقتضي أن يكون العدل نوراً فيه ، وسابعاً بأن فتح الآية وختمها بنفي الظلم يدل عليه ليكون من باب رد العجز على الصدر على طريقة الطرف والعكس .

ورجح ما اختار الإمام بأن الأصل الحقيقة ولا صارف لأن الإضافة تصح بأدنى ملابسة ، وأيد ما حكى عن محيى السنة ببعض الأحاديث .

وتعقب ذلك صاحب الكشف فقال : إن إضافة الملابسة مجاز والترجيح لما اختاره جار الله لما ذكر من الفوائد ولأنه الشائع في استعمال القرآن ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السموات والأرض ﴾ [النور : 35] وأما تجلي الرب سبحانه فسواء حمل على تجلي الجلال أو تجلي الجمال لا يقتضي إشراق الأرض بنور إلا بأحد المعنيين أعني العدل أو عرضاً يخلقه الله تعالى عند التجلي في الأرض فلو توهم من تجليه تعالى أنه ينعكس نور منه على الأرض لاستحال إلا بالتفسير المذكور فليس قولاً ثالثاً لينصر ويؤيد بالحديث الذي لا يدل على أنه تفسير الآية المشتمل على حديث الرؤية وإلقاء ستره تعالى على العبد يذكر ما فعل به وما جنى انتهى ، ولعل الأوفق بما يشعر به كثير من الأخبار أن قوله سبحانه : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ إشارة إلى تجليه عز وجل لفصل القضاء وقد يعبر عنه بالاتيان ، وقد صرح به في قوله تعالى :

﴿ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام والملائكة ﴾ [البقرة : 210] ولم يتأول ذلك السلف بل أثبتوه له سبحانه كالنزول على الوجه الذي أثبته عز وجل لنفسه .

ولا يبعد أن يكون هذا النور هو النور الوارد في الحديث الصحيح ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ تَنذِرُ الذين

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب وَأَقَامُواْ الصلاة وَمَن تزكى فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ وَإِلَى الله المصير وَمَا يَسْتَوِى الاعمى والبصير وَلاَ الظلمات وَلاَ النور ﴾ ويقال فيه كالحجاب نحو ما قال السلف في سائر المتشابهات أو هو نوآخر يظهر عند ذلك التجلي ، ولا أقول : هو نور منعكس من الذات المقدس انعكاس نور الشمس مثلاً من الشمس بل الأمر فوق ما تنتهي إليه العقول ، وأني وهيهات وكيف ومتى يتصور إلى حقيقة ذلك الوصول ، ويومىء إلى أن ذلك التجلي مقرون بالعدل التعبير بعنوان الربوبية مضافاً إلى ضمير الأرض والله تعالى أعلم بمراده .

وقرأ ابن عباس .

وعبيد بن عمير .

(92/670)

وأبو الجوزاء ﴿ أشرقت ﴾ بالبناء للمفعول ، قال الزمخشري : من شرقت بالضوء تشرق إذا امتلأت به واغتصت وأشرقها الله تعالى كما تقول : ملأ الأرض عدلاً وطبقها عدلاً ، وقال ابن عطية : هذا إنما يترتب من فعل يتعدى فهذا على أن يقال : أشرق البيت وأشرقه السراج فيكون الفعل مجاوزاً وغير مجاوز ، وقال صاحب اللوامح وجب أن يكون الإشراق على هذه القراءة منقولاً من شرق الشمس إذا طلعت فيصير متعدياً والمعنى أذهبت ظلمة

الأرض ، ولا يجوز أن يكون من أشرقت إذا أضاءت فإن ذلك لازم وهذا قد يتعدى إلى المفعول ﴿ مَّوْعِدًا وَوُضِعَ الكتاب ﴾ قال السدي الحساب ، فالكتاب مجاز عن الحساب ووضعه ترشيح له ، والمراد به الشروع فيه ويجوز جعل الكلام تمثيلاً .

وقال بعضهم : صحائف الأعمال وضعت بأيدي العمال فالتعريف للجنس أو الاستغراق ، وقيل : اللوح المحفوظ وضع ليقابل به الصحائف فالتعريف للعهد ، وروي هذا القول عن ابن عباس ، واستبعده أبو حيان وقال : لعله لا يصح عن ابن عباس ﴿ وَجِىء بالنبيين ﴾ قيل ليسئلوا هل بلغوا أممهم ؟ وقيل : ليحضروا حسابهم ﴿ والشهداء ﴾ قال عطاء . ومقاتل .

(93/670)

وابن زيد : الحفظة ، وكأنهم أرادوا أنهم يشهدون على كل من الأمم أنهم بلغوا أو يشهدون على كل بعمله كما قال سبحانه : ﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : 21] وفي بعض الآثار أنه يؤتى باللوح المحفوظ وهو يرتعد فيقال له : هل بلغت إسرافيل ؟ فيقول : نعم يا رب بلغته فيؤتى بإسرافيل وهو يرتعد فيقال له : هل بلغك اللوح ؟ فيقول : نعم يا رب فعند ذلك يسكن روع اللوح ثم يقال لإسرافيل فأنت هل بلغت جبرائيل ؟ فيقول : نعم يا رب

فيؤتى بجبرائيل وهو يرتعد فيقال له : هل بلغك إسرافيل ؟ فيقول : نعم يا رب فعند ذلك يسكن روع إسرافيل ثم يقال لجبرائيل : فأنت هل بلغت ؟ فيقول : نعم يا رب فيؤتى بالمرسلين وهم يرتعدون فيقال لهم : هل بلغكم جبرائيل ؟ فيقولون : نعم فيسكن عند ذلك روع جبرائيل ثم يقال لهم : فأنتم هل بلغتم ؟ فيقولون : نعم فيقال للأمم : هل بلغكم الرسل ؟ فيقول كفرتهم : ما جاءنا من بشير ولا نذير فيعظم على الرسل الحال ويشتد البلبال فيقال لهم : من يشهد لكم ؟ فيقولون : النبي الأمي وأمته فيؤتى بالأمة المحمدية فيشهدون لهم أنهم بلغوا فيقال لهم : من أين علمتم ذلك ؟ فيقولون : من كتاب أنزله الله تعالى علينا ذكر سبحانه فيه أن الرسل بلغوا أممهم ويزكيهم النبي عليه الصلاة والسلام وذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143] ومن هنا قيل : المراد بالشهداء في الآية أمة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقال الجبائي .

وأبو مسلم : هم عدول الآخرة يشهدون للأمم وعليهم ، وقيل : جميع الشهداء من الملائكة وأمة محمد عليه الصلاة والسلام والجوارح والمكان ، وأياً ما كان فالشهداء جمع شاهد ، وقال قتادة .

والسدي : المراد بهم المستشهدون في سبيل الله تعالى فهو جمع شهيد وليس بذاك ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين العباد المفهوم من السياق ﴿ بالحق ﴾ بالعدل ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد بناءً على أن الظلم حقيقة لا يتصور في حقه تعالى فإن الأمر كله له عز وجل .

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي أعطيت جزاء ذلك كاملاً ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فلا يفوته سبحانه شيء من أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(95/670)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ » .

تحدّث هذه الآية والآيات التي بعدها إلى آخر السورة ، عن مشاهد القيامة ، وإرهاصاتها

، وما يلقى الكافرون من بلاء وعذاب ، وما يستقبل به المؤمنون من حفاوة وتكريم وترحيب ، فى جنات النعيم . .

(96/670)

التفسير القرآني للقرآن ، ج12 ، ص : 1192

والصور : هو البوق الذي ينفخ فيه ، كنذير بإعلان حرب ، أو وقوع غارة ، ونحو هذا . . وأصله من الصّوار ، وهو قرن الحيوان ، وقد كان البوق يتخذ عادة من قرن ثور ، أو وعل أو نحوهما . . والصوار أعلى الشيء ، وجمعه صوار ، ومؤنثه صارية . .

والنفخ فى الصور من قبل اللّه سبحانه وتعالى ، هو الأمر الذي يصدر منه سبحانه ، إلى ما يشاء من عالم الخلق ، فيستجيب له من وقع عليه الأمر ، بلا تردد أو مهل . . ولهذا شبه الأمر بالنفخ فى الصور ، حيث يفزع كل من سمع النفخة ، فيخفّ مسرعا ، متخليا عن كل شيء ، ليتوقى هذا الخطر الداهم . .

والصعق : حال من الفزع تعترى الكائن الحي ، فتشلّ حركته ، وتهدّ كيانه ، أشبه بما يكون من صعقة الصاعقة ، ومسة الكهرباء . .

وقوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » هو إشارة إلى

النفخة الأولى ، وهى نفخة الموت . . ففى هذه النفخة يصعق ، أي يموت ، من فى السموات والأرض من عالم الأحياء . .

وقوله تعالى : « إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ » . هو استثناء لمن لا تقع عليهم هذه الصعقة ، أي الذين لا يقضى بموتهم فيها ، أو الذين لا تمسهم زلزلة منها . .

والسؤال هنا هو : هل العالم العلوي مشترك مع العالم الإنسانى فى هذا الذي يجرى على الناس ، من موت ، وبعث ، وحساب وجزاء ؟ .

وإذا لم يكن مشتركا مع العالم البشرى ، فكيف يصعق من فى السموات ؟

وما تأويل قوله تعالى : « فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ؟ » .

(97/670)

التفسير القرآني للقرآن ، ج12 ، ص : 1193

والجواب على هذا . والله أعلم . أن القيامة وأهوالها ، وما فيها من حساب وجنة ، ونار ، هى مما يقع على أبناء آدم وحدهم ، على تلك الصورة التي جاءت بها الكتب السماوية ، وأنذر بها رسل الله أقوامهم ، الذين أرسلوا إليهم . .

وقد تكون هناك أحوال للعوالم الأخرى ، ولكن ليس من شأننا أن نبحث عنها ، أو نشغل

بها ، إذ كان لا يعنينا من أمرها شىء ، سواء أوقعت أو لم تقع ، وسواء أوقعت على تلك الصورة ، أو غيرها . .

وإذن ، فإن كل ما تحدث به القرآن الكريم مما يتصل بالموت ، والبعث ، والحساب ، والجزاء ، هو مما يتصل بعالمنا نحن ، لا يتجاوزه إلى العوالم الأخرى . .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ » . هو مقصور على أبناء آدم ، وما يتصل بهم فى عالمهم الأرضىّ . .

وقد تحدث القرآن الكريم عن أن لأبناء آدم صلة بالسماء ، وأن النفس الإنسانية هى من العالم العلوي ، وأنها حين تفارق الجسد لا تموت بموته ، بل تلحق بعالمها العلوي ، وتأخذ مكانها فيه . .

فالموتى من بنى آدم ، إذ تكون أجسامهم فى عالم التراب ، تكون نفوسهم فى السماء ، أو العالم العلوي . . وإنه حين ينفخ فى الصور نفخة الموت العام لأبناء آدم ، يفزع ويصعق من فى السموات ومن فى الأرض . . أما من فى السموات ، فهم الناس فى أرواحهم ونفوسهم تلك التي سبقت إلى العالم العلوي ، وأما من فى الأرض ، فهم الذين كانوا لا يزالون فى عالم الأحياء لم يموتوا بعد ، فتدركهم النفخة ، فيصعقون ويموتون . . وأما الصعقة التي تقع على الأرواح والنفوس ، فهى صعقة فزع ، وخوف من لقاء هذا الوعد ، يوم الحساب والجزاء الذي كانت هذه الصعقة إرهاصا بقرب موعده . .

التفسير القرآني للقرآن ، ج12 ، ص : 1194

ويكون قوله تعالى : « إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ » استثناء واقعا على نفوس الأخيار المصطفين من عباد اللّه ، وأوّلهم رسله ، وأنبياؤه وأولياؤه ، حيث لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون . .

وقوله تعالى : « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ » . هو إشارة إلى نفخة البعث ، بعد نفخة الموت . .

وقوله تعالى : « فإذا » . للمفاجأة . . أي أن هذا البعث يجىء على فجاءة ، دون أن يعلم أحد موعده . .

وقوله تعالى : « فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ » . إشارة إلى أن البعث يقع للناس جميعا فى لحظة واحدة ، حيث يولدون جميعا ميلادا كاملا ، على صورة كاملة . .

يجد فيها كل إنسان حواسّه ومدركاته ، ووجوده كله .

قوله تعالى : « وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ » وإشراق الأرض بنور ربها ، هو تجلّى اللّه سبحانه وتعالى عليها في هذا اليوم ، يوم القيامة ، حيث يعرض الناس على ربهم للحساب والجزاء

. .

وقوله تعالى : « وَوُضِعَ الْكِتابُ » أي الكتاب الذي سجلت فيه أعمال الناس ، حيث يرى الناس أعمالهم ، ويأخذ كل إنسان كتابه من هذا الكتاب . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (29 : الجاثية) وقوله تعالى : « وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً » (13 : الإسراء) وقوله تعالى : « وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ » . . أي دعى النبيون ليحضروا

(99/670)

التفسير القرآني للقرآن ، ج12 ، ص : 1195

محاسبة أقوامهم ، وليشهدوا على ما كان منهم ، من إيمان أو كفر . .

وفى هذا يقول اللّه تعالى : « يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ » (1 : 7 الإسراء) .

ويقول سبحانه : « فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً » (41 : النساء) .

والشهداء : هم الذين يشهدون على الناس ، من أنبياء وملائكة ، وعلماء وهداة ، ودعاة

إلى اللّه ، وكذلك ما فى كيان كل إنسان من أعضاء ، تشهد عليه ، كما يقول اللّه تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ » (24 : النور) وكما يقول سبحانه : « وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ » (21 ق) .

والصورة تمثل محكمة عليا تقضى بين الناس ، وتحدد لكل إنسان مصيره الذي هو صائر إليه . . والقائم على هذه المحكمة ، هو أحكم الحاكمين رب العالمين . .

والكتاب هو صحيفة الدعوى ، والأنبياء والشهداء هم الشهود . . والمحامون ، هم المحاكمون ، والمحاسبون ، كما يقول اللّه سبحانه : « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها » (111 : النحل) .

ثم بعد هذا تصدر الأحكام من رب الأرباب : « وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ » .

قوله تعالى : « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ » .

هو تعقيب على هذه المحاكمة ، وأن كل نفس قد قضى لها أو عليها بالحق والعدل ، وفّيت جزاء ما عملت من خير أو شر .

(100/670)

التفسير القرآني للقرآن ، ج12 ، ص : 1196

وقوله تعالى : « وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ » . احتراس من أن يقع فى الوهم أن هذه المحاكمة التي أحضر فيها الكتاب ، واستدعى لها الشهود ، قد جاءت على هذه الصورة لتكشف عن أعمال الناس ، وكلّا ، فإن اللّه سبحانه وتعالى عالم بكل ما يعملون ، لا تخفى على اللّه منهم خافية . . ولكن ذلك ليرى الناس بأعينهم ما كان منهم ، وليحاكموا أنفسهم ، وليشهدوا عدل اللّه المطلق فيما أجرى عليهم من أحكام ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 12 صـ 1191.1196 ﴾

(101/670)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾

انتقال من إجمال عظمة القدرة يوم القيامة إلى تفصيلها لما فيه من تهويل وتمثيل لمجموع الأحوال يومئذٍ مما ينذر الكافر ويبشر المؤمن ويذكر بإقامة العدل والحق ، ثم تمثيل إزجاء المشركين إلى جهنم وسوق المؤمنين إلى الجنة .

فالجملة من عطف القصة على القصة ، ومناسبة العطف ظاهرة ، وعبر بالماضي في قوله :

﴿ ونُفِخَ ﴾ وقوله : فَصَعِقَ مجازاً لأنه محقق الوقوع مثل قوله : ﴿ أتى أمر اللَّه ﴾ [النحل : 1] ، ويجوز أن تكون الواو للحال بتقدير (قد) أي والحال قد نفخ في الصور ، فتكون صيغة الماضي في فعلي (نفخ وصَعق) مستعملة في حقيقتها .

وابتدئت الجملة بحديث النفخ في الصور إذ هو ميقات يوم القيامة وما يتقدمه من موت كل حي على وجه الأرض .

وتكرر ذكره في القرآن والسنة .

والصور : بوق ينادى به البعيد المتفرق مثل الجيش ، ومثل النداء للصلاة فقد كان اليهود ينادون به : للصلاة الجامعة ، كما جاء في حديث بدء الأذان في الإسلام .

والمراد به هنا نداء الخلق لحضور الحشر أحيائِهم وأَمواتِهم ، وتقدم عند قوله : ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ في الأنعام (73) .

وهو علامة لأمر التكوين ، فالأحياء يصعقون فيموتون (كما يموت المفزوع) بالنفخة الأولى ، والأموات يصعقون اضطراباً تدبّ بسببه فيهم الحياة فيكونون مستعدين لقبول الحياة ، فإذا نفخت النفخة الثانية حلّت الأرواح في الأجساد المخلوقة لهم على مثال ما بَلي من أجسادهم التي بليت ، أو حلّتْ الأرواح في الأجساد التي لم تزل باقية غير بالية كأجساد الذين صعقوا عند النفخة الأولى ، ويجوز أن يكون بين النفختين زمن تبلَى فيه جميع الأجساد .

والاستثناء من اسم الموصول الأول ، أي إلا مَن أراد الله عدم صعقه وهم الملائكة والأرواح ، وتقدم في سورة النمل (87) ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض ﴾ ﴿ .

و﴿ ثم ﴾ تؤذن بتراخي الرتبة لأنها عاطفة جملة ، ويجوز أن تفيد مع ذلك المهلَةَ المناسبة لما بين النفختين .

و﴿ أُخْرى ﴾ صفة لمحذوف ، أي نفخة أخرى ، وهي نفخة مُخالفٌ تأثيرُها لتأثير النفخة الأولى ، لأن الأولى نفخة إهلاك وصعق ، والثانية نفخة إحياء وذلك باختلاف الصوتين أو باختلاف أمرَيْ التكوين .

وإنما ذكرت النفخة الثانية في هذه الآية ولم تذكر في قوله في سورة النمل (87) ﴿ ويوم ينفخ (1) في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه وكل أتوه داخرين ﴾ لأن تلك في غرض الموعظة بفناء الدنيا وهذه الآية في غرض عظمة شأن الله في يوم القيامة ، وكذلك وصف النفخة بالواحدة في سورة الحاقة (13 ، 15) ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ وذكرت

هنا نفختان .

وضمير ﴿ هُم ﴾ عائد على ﴿ من في السموات ومن في الأرض ﴾ فيما بقي من مفهومه بعد التخصيص بـ ﴿ إلا مَن شاء الله ﴾ وهم الذين صعقوا صعق ممات وصَعْق اضطراب يهيأ لقبول الحياة عند النفخة .

و ﴿ إذا ﴾ للمفاجأة للتنبيه على سرعة حلول الحياة فيهم وقيامهم إثره و ﴿ قيام ﴾ جمع قائم .

وجملة ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ حال .

والنظرُ : الإبصار ، وفائدة هذه الحال الدلالة على أنهم حَيُوا حياة كاملة لا غشاوة معها على أبصارهم ، أي لا دهش فيها كما في قوله تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾ في سورة الصافات (19) ، أو أريد أنهم ينظرون نظر المقلّب بصره الباحث . ويجوز أن يكون من النظرة ، أو الانتظار .

(103/670)

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69)

صوَّرت هذه الآيات جلال ذلك الموقف وجمالَه أبدع تصوير والتعريف في ﴿ الأرض ﴾ تعريف العهد الذكري الضمني فقد تضمن قوله : ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ [الزمر : 68] أنهم قيام على قَرار فإن القيام يستدعي مكاناً تقوم فيه تلك الخلائق وهو أرض الحشر وهي الساهرة في قوله تعالى في سورة [النازعات : 13 ، 14] : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ وفُسرت بأنها الأرض البيضاء النقية وليس المراد الأرض التي كانوا عليها في الدنيا فإنها قد اضمحلت قال تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ [إبراهيم : 48] .

وإشراق الأرض انتشار الضوء عليها ، يقال : أشرقت الأرض ، ولا يقال : أشرقت الشمسُ ، كما تقدم عند قوله : ﴿ بالعشي والإشراق ﴾ في سورة [ص : 18] .

(وإضافة النور إلى الرب إضافة تعظيم لأنه منبعث من جانب القدس وهو الذي في قوله تعالى : ﴿ اللَّه نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ الآية من سورة [النور : 35] .

فإضافة نور إلى الرب إضافة تشريف للمضاف كقوله تعالى : ﴿ هذه ناقة اللَّه لكم آية ﴾ [الأعراف : 73] كما أن إضافة (رب) إلى ضمير الأرض لتشريف المضاف إليه ، أي بنور خاص خلقه الله فيها لا بسطوع مصباح ولا بنور كوكب شمس أو غيرها ، وإذ قد كان النور نوراً ذاتياً لتلك الأرض كان إشارة إلى خلوصها من ظلمات الأعمال فدل على أن ما يجري

على تلك الأرض من الأعمال والأحداث حق وكمال في بابه لأن عالم الأنوار لا يشوبه شيء من ظلمات الأعمال ، ألا ترى أن العالم الأرضي لمّا لم يكن نَيِّراً بذاته بل كان نوره مقتبساً من شروق الشمس والكواكب ليلاً كان ما على وجه الأرض من الأعمال والمخلوقات خليطاً من الخير والشر .

(104/670)

وهذا يغني عن جعل النور مستعاراً للعدل فإن ذلك المعنى حاصل بدلالة الالتزام كناية ، ولو حُمل النور على معنى العدل لكان أقل شمولاً لأحوال الحق والكمال وهو يغني عنه قوله : ﴿ وقُضِي بينهم بالحق وهم لا يُظلمون ﴾ .

هذا هو الوجه في تفسير الآية وقد ذهب فيها المفسرون من السلف والخلف طرائق شتى .

و﴿ الكِتَاب ﴾ تعريفُه تعريف الجنس ، أي وضعت الكُتب وهي صحائف أعمال العباد أحضرت للحساب بما فيها من صالح وسيّئٍ .

والوضع : الحطّ ، والمراد به هنا الإِحضار .

ومجيء النبيئين للشهادة على أممهم ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ في سورة [النساء : 41] .

(والشهداء : جمع شهيد وهو الشاهد ، قال تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ في سورة [ق : 21] .

والمراد الشهداء من الملائكة الحفظة الموكلين بإحصاء أعمال العباد .

وضمير ﴿ بينَهُم ﴾ عائد إلى ﴿ مَن في السَّموات ومن في الأرض ﴾ [الزمر : 68] أي قضي بين الناس بالحق .

ويجوز أن يكون المراد بالكتاب كتب الشرائع التي شرعها الله للعباد على أَلْسنة الرسل ويكون إحضارها شاهدة على الأمم بتفاصيل ما بلَّغه الرسل إليهم لئلا يزعموا أنهم لم تبلغهم الأحكام .

وقد صوَّرت الآية صورة المَحْكمة الكاملة التي أشرقت بنور العدل ، وصدر الحكم على ما يستحقه المحكوم فيهم من كرامة ونذالة ، ولذلك قال : ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ أي صدر القضاء فيهم بما يستحقون وهو مسمى الحَق ، فمِن القضاء ما هو فصل بين الناس في معاملات بعضهم مع بعض من كل ظالم ومظلوم ومعتدٍ ومعتدىً عليه في اختلاف المعتقدات واختلاف المعاملات قال تعالى : ﴿ إن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ [النحل : 124] .

ومن القضاء القضاء على كل نفس بما هي به حقيقة من مرتبة الثواب أو العقاب وهو قوله : ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ .

فقضاء الله هو القضاء العام الذي لا يقتصر على إنصاف المتداعين كقضاء القاضي ، ولا على سلوك الداعرين كقضاء والي الشرطة ، ولا على مراقبة المُغَيِّرين كقضاء والي الحِسبة ، ولكنه قضاء على كل نفس فيما اعتدت وفيما سلكت وفيما بدلت ، ويزيد على ذلك بأنه قضاء على كل نفس بما اختَلَتْ به من عمل وبما أضمرته من ضمائر إنْ خيراً فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ .

وإلى ذلك تشير المراتب الثلاث في الآية : مرتبةُ ﴿ وقُضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ ، ومرتبة ﴿ ووفّيت كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلت ﴾ ، ومرتبة ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ .

والتوفية : إعطاء الشيء وافياً لا نقص فيه عن الحق في إعطائه ولا عن عطاء أمثاله .

وفي قوله : ﴿ مَا عَمِلت ﴾ مضاف محذوف ، أي جزاء ما عملت لظهور أن ما عمله المرء لا يوفاه بعد أن عمله وإنما يوفى جزاءه .

والقول في الأفعال الماضوية في قوله : ﴿ وأشرقت ﴾ ، ﴿ ووضع ﴾ ، ﴿ وجاء ﴾ ، ﴿ ووفيت ﴾ كالقول في قوله : ﴿ ونُفِخَ في الصور ﴾ [الزمر : 68] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ في مشركي أهل مكة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر رضي الله عنهما فكتبتها بيدي ثم بعثت إلى هشام بن العاصي .

وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان بسند لين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وحشي بن حرب قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام ، فأرسل إليه : يا محمد كيف تدعوني وأنت تزعم أن من قتل ، أو أشرك ، أو زنى ، ﴿ يلقَ أثاماً ﴾ ﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ﴾ [الفرقان : 69] وأنا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة ؟ فأنزل الله ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ [الفرقان :

70] فقال وحشي : هذا شرط شديد ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ [الفرقان : 70] فلعلي لا أقدر على هذا . فأنزل الله ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] فقال وحشي : هذا أرى بعد مشيئة فلا يدري يغفر لي أم لا فهل غير هذا ؟ فأنزل الله ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم . . . ﴾ الآية قال وحشي : هذا فهم . فأسلم ، فقال الناس : يا رسول الله : إنا أصبنا ما أصاب وحشي قال : بلى للمسلمين عامة " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد قال : لما أسلم وحشي أنزل الله ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ [الفرقان : 68] قال وحشي وأصحابه : فنحن قد ارتكبنا هذا كله . فأنزل الله ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم . . . ﴾ الآية .

(107/670)

وأخرج محمد بن نصر في كتاب الصلاة عن وحشي قال : لما كان في أمر حمزة ما كان ألقى الله خوف محمد صلى الله عليه وسلم في قلبي خرجت هارباً أكمن النهار ، وأسير الليل ، حتى صرت إلى أقاويل حمير ، فنزلت فيهم ، فاقمت حتى أتاني رسول رسول الله صلى

الله عليه وسلم يدعوني إلى الإِسلام ؟ قال : تؤمن بالله ، ورسوله ، وتترك الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله ، وشرب الخمر ، والزنا ، والفواحش كلها ، وتستحم من الجنابة ، وتصلي الخمس . قال : إن الله قد أنزل هذه الآية ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فصافحني وكناني بأبي حرب .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رهط من أصحابه يضحكون فقال :

" والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً . ثم انصرف وبكى القوم ، فأوحى الله إليه : يا محمد لم تقنط عبادي ؟ فرجع النبي صلى الله عليه وسلم وقال : أبشروا ، وقربوا ، وسددوا " .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب قال : اتفقت أنا ، وعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاصي بن وائل أن نهاجر إلى المدينة . فخرجت أنا وعياش وفتن هشام فافتتن ، فقدم على عياش أخوه أبو جهل ، والحارث بن هشام ، فقالا : إن أمك قد نذرت أن لا يظلها ظل ، ولا يمس رأسها غسل حتى تراك . فقلت : والله إن يريداك إلا أن يفتناك عن دينك وخرجا به . وفتنوه فافتتن قال : فنزلت ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ قال عمر رضي الله عنه : فكتبت إلى هشام فقدم .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ وذلك أن أهل مكة قالوا يزعم محمد أن من عبد الأوثان ، ودعا مع الله إلها آخر ، وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له . فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا الآلهة ، وقتلنا النفس ، ونحن أهل الشرك ؟ فأنزل الله ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ وقال " وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له " وإنما يعاتب الله أولي الألباب ، وإنما الحلال والحرام لأهل الإِيمان ، فإياهم عاتب ، وإياهم أمر إذا أسرف أحدهم على نفسه أن لا يقنط من رحمة الله وأن يتوب ، ولا يضن بالتوبة على ذلك الإِسراف والذنب الذي عمل ، وقد ذكر الله تعالى في سورة آل عمران المؤمنين حين سألوا المغفرة فقالوا : ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ﴾ [آل عمران : 147] فينبغي أن يعلم أنهم كانوا يصيبون الأمرين فأمرهم بالتوبة .

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت هذه الآيات الثلاث بالمدينة في وحشي وأصحابه ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ إلى قوله ﴿ وأنتم لا تشعرون ﴾ [الزمر : 55] .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة ، والوليد بن الوليد ، ونفر من المسلمين كانوا أسلموا ، ثم فتنوا وعذبوا ، فافتتنوا فكنا نقول : لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً . أقوام أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوه ، فنزلت هؤلاء الآيات وكان عمر بن الخطاب كاتباً فكتبها بيده ، ثم كتب بها إلى عياش ، والوليد ، وإلى أولئك النفر . فاسلموا وهاجروا .

(109/670)

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ثوبان قال : سمعت رسول الله ، يقول : " ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم . . . ﴾ إلى آخر الآية . فقال رجل : يا رسول الله فمن أشرك ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم قال : إلا ومن أشرك ثلاث مرات " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ ولا يبالي أنه هو الغفور الرحيم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في حسن الظن وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود أنه مر على قاصٍّ يذكر الناس فقال : يا مذكر الناس لا تقنط الناس ، ثم قرأ ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن سيرين قال : قال علي أي آية أوسع ؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن ﴿ من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ﴾ [النساء : 110] ونحوها . فقال علي رضي الله عنه : ما في القرآن أوسع آية من ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم . . . ﴾ .

(110/670)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم . . ﴾ . قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله ، ومن زعم أن المسيح ابن الله ، ومن زعم أن عزيراً ابن الله ، ومن زعم أن الله فقير ، ومن زعم أن يد الله مغلولة ، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة . يقول الله تعالى لهؤلاء ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ [المائدة : 74] ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء . من قال ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] وقال ﴿ ما علمت لكم من

إله غيري ﴾ [القصص : 38] قال ابن عباس رضي الله عنهما : من آيس العباد من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال : إن إبليس قال : يا رب زدني قال : صدوركم مساكن لكم ، وتجرون منهم مجرى الدم قال : يا رب زدني . قال : ﴿ اجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ [الإسراء : 64] فقال آدم عليه السلام : يا رب قد سلطته عليَّ وأني لا أمتنع منه إلا بك فقال : لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء . قال : يا رب زدني . قال : الحسنة عشراً أو ازيد ، والسيئة واحدة أو امحوها قال : يا رب زدني قال : باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد .

قال : يا رب زدني قال ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

وأخرج أحمد وأبو يعلى والضياء عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم لغفر لكم . والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون ، ثم يستغفرون فيغفر لهم " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم " .

وأخرج الخطيب عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود إن العبد من عبيدي ليأتيني بالحسنة فاحكمه فيّ قال داود عليه السلام . وما تلك الحسنة ؟ قال : كربة فرجها عن مؤمن قال داود عليه السلام : اللهم حقيق على من عرفك حق معرفتك أن لا يقنط منك .

وأخرج الحكيم الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال لي جبريل عليه السلام : يا محمد إن الله يخاطبني يوم القيامة ، فيقول : يا جبريل ما لي أرى فلان ابن فلان في صفوف أهل النار ؟ فأقول يا رب إنا لم نجد له حسنة يعود عليه خيرها اليوم . فيقول الله : إني سمعته في دار الدنيا يقول : يا حنان يا منان ، فأته فاسأله فيقول وهل من حنان ومنان غيري ؟ فآخذ بيده من صفوف أهل النار ، فادخله في صفوف أهل الجنة " .

وأخرج ابن الضريس وأبو القسام بن بشير في اماليه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إن الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى ، ولم يرخص لهم في معاصيه ، ولم يؤمنهم عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبة منه إلى غيره . إنه لا خير في عبادة لا علم فيها ،

ولا علم لا فهم فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال : إن للمقنطين جسراً يطأ الناس يوم القيامة على أعناقهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ألم أحدث أنك تعظ الناس ؟ قال : بلى . قالت : فإياك واهلاك الناس وتقنيطهم .

(112/670)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن زيد بن أسلم رضي الله عنه أن رجلاً كان في الأمم الماضية يجتهد في العبادة ، ويشدد على نفسه ، ويقنط الناس من رحمة الله تعالى ، ثم مات فقال : أي رب ما لي عندك ؟ قال : النار قال : فأين عبادتي واجتهادي ؟ فقيل له كنت تقنط الناس من رحمتي ، وأنا اقنطك اليوم من رحمتي .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن ناساً أصابوا في الشرك عظاماً فكانوا يخافون أن لا يغفر لهم ، فدعاهم الله بهذه الآية ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا . . . ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مجلز لاحق بن حميد السدوسي قال : " لما أنزل الله على نبيه

صلى الله عليه وسلم ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً . . . ﴾ إلى آخر الآية قام نبي الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس ، وتلا عليهم . فقام رجل فقال : يا رسول الله والشرك بالله ؟ فسكت فأعاد ذلك ما شاء الله ، فأنزل الله ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ إلى قوله ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾ [الزمر : 54] قال عكرمة رضي الله عنه : قال ابن عباس رضي الله عنهما فيها علقة ﴿ وأنيبوا إلى ربكم ﴾ .

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾ قال : اقبلوا إلى ربكم .

وأخرج ابن المنذر عن عبيد بن يعلى رضي الله عنه قال : الإِنابة الدعاء .

(113/670)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله ﴿ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت . . . ﴾ الآيات . قال أخبر الله سبحانه ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم ؟ قبل أن يعلموه ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ [فاطر : 14] ﴿ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴾ يقول المخلوقين ﴿ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ، أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴾ يقول : من المهتدين . فأخبر الله سبحانه وتعالى : أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى قال الله تعالى ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ [الأنعام : 28] وقال ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرة ﴾ [الأنعام : 110] قال : ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أوّل مرة في الدنيا .

وأخرج آدم بن إياس وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ على ما فرطت في جنب الله ﴾ قال : في ذكر الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴾ قال : فلم يكفه أن ضيع طاعة الله تعالى حتى جعل يسخر بأهل طاعة الله . قال : هذا قول صنف منهم ﴿ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ قال : هذا قول صنف منهم آخر ﴿ أو تقول حين ترى

العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴾ قال : لو رجعت إلى الدنيا قال : هذا قول صنف آخر . يقول الله رداً لقولهم وتكذيباً لهم ﴿ بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ .

(114/670)

وأخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول ﴿ لو أن الله هداني ﴾ فيكون عليه حسرة ، وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيحمد الله فيكون له شكراً ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما جلس قوم مجلساً لا يذكرون الله فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة ، وإن كانوا من أهل الجنة يرون ثواب كل مجلس ذكروا الله فيه ولا يرون ثواب ذلك المجلس فيكون عليهم حسرة " .

وأخرج البخاري في تاريخه والطبراني وابن مردويه عن أبي بكرة رضي الله عنه قال :

سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ " بلى قد جاءتك آياتي " بنصب الكاف " فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين " بنصب التاء فيهن كلهن (وينجي الله الذين اتقوا بمفازاتهم) على الجماع .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60)

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب والترمذي وحسنه والنسائي وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان . يساقون إلى سجن في جهنم . يشربون من عصارة أهل النار طينة الخبال " .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن المتكبرين يوم القيامة يجعلون في توابيت من نار ، يطبق عليهم ويجعلون في الدرك الأسفل من النار " .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي عن كعب رضي الله عنه قال : يحشر المتكبرون يوم القيامة رجالاً في صور الذر . يغشاهم الذل من كل مكان . يسلكون في نار الأنيار . يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يجاء بالجبارين والمتكبرين رجالاً في صور الذر يطؤهم الناس من هوانهم على الله حتى يقضى بين الناس ، ثم يذهب بهم إلى نار الأنيار . قيل يا رسول الله وما نار الأنيار ؟ قال : عصارة أهل النار " .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه ﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم ﴾ قال : باعمالهم .

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62)

أخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليسألنكم الناس عن كل شيء حتى يسألوكم هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله ؟ فإن سئلتم فقولوا : الله كان قبل كل شيء ، وهو خالق كل شيء ، وهو كائن بعد كل شيء . " والله أعلم .

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ له مقاليد السماوات والأرض ﴾ قال : مفاتيحها .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ له مقاليد السماوات ﴾ قال : مفاتيح بالفارسية .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة والحسن رضي الله عنهما ﴿ له مقاليد السماوات والأرض ﴾ مفاتيحها .

(116/670)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة فقال : " إني رأيت في غداتي هذه كأني أتيت بالمقاليد والموازين . فاما المقاليد : فالمفاتيح . وأما الموازين : فموازينكم هذه التي تزنون بها . وجيء بالموازين ، فوضعت ما بين السماء والأرض ، ثم وضعت في كفه . وجيء بالأمة فوضعت في الكفة الأخرى ، فرجحت بهم . ثم جيء بأبي بكر فوضع في كفة فوزن بهم ، ثم جيء بعمر فوضع في كفة والأمة في كفة فوزنهم ، ثم رفعت الميزان " .

وأخرج أبو يعلى ويوسف القاضي في سننه وأبو الحسن القطان في المطوّلات وابن السني في

عمل يوم وليلة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى ﴿ له مقاليد السماوات والأرض ﴾ قال : " لا إله إلا الله ، والله أكبر ، سبحان الله ، والحمد لله . أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الأوّل ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، يحيي ، ويميت ، وهو حي لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير . يا عثمان من قالها كل يوم مائة مرة أعطي بها عشر خصال : أما أولها فيغفر له ما تقدم من ذنبه . وأما الثانية فيكتب له براءة من النار . وأما الثالثة فيوكل به ملكان يحفظانه في ليله ونهاره من الآفات والعاهات . وأما الرابعة فيعطى قنطاراً من الاجر . وأما الخامسة فيكون له أجر من أعتق مائة رقبة محررة من ولد إسماعيل . وأما السادسة فيزوّج من الحور العين . وأما السابعة فيحرس من إبليس وجنوده . وأما الثامنة فيعقد على رأسه تاج الوقار . وأما التاسعة فيكون مع إبراهيم . وأما العاشرة فيشفع في سبعين رجلاً من أهل بيته . يا عثمان إن استطعت فلا يفوتك يوماً من الدهر تفز بها من الفائزين ، وتسبق بها الأولين والآخرين " .

(117/670)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن عثمان بن عفان رضي الله عنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : أخبرني عن ﴿ مقاليد السماوات والأرض ﴾ ؟ فقال : " سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، بيده الخير ، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . يا عثمان من قالها إذا أصبح عشر مرات وإذا أمسى أعطاه الله ست خصال : أما أولهن فَيُحْرَسُ من ابليسَ وجنوده . وأما الثانية فيعطى قنطاراً من الاجر . وأما الثالثة فيتزوج من الحور العين . وأما الرابعة فيغفر له ذنوبه . وأما الخامسة فيكون مع إبراهيم . وأما السادسة فيحضره اثنا عشر ملكاً عند موته يبشرونه بالجنة ويزفونه من قبره إلى الموقف ، فإن أصابه شيء من أهاويل يوم القيامة قالوا له لا تخف إنك من الآمنين ، ثم يحاسبه الله حساباً يسيراً ، ثم يؤمر به إلى الجنة ، يزفونه إلى الجنة من موقفه كما تزف العروس حتى يدخلوه الجنة بإذن الله ، والناس في شدة الحساب " .

وأخرج الحارث بن أبي أسامة وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سأل عثمان بن عفان رضي الله عنه عن ﴿ مقاليد السماوات والأرض ﴾ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم من كنوز العرش " .

وأخرج العقيلي والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن عثمان

رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن تفسير ﴿ له مقاليد السماوات والأرض ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما سألني عنها أحد . تفسيرها لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والله أكبر ، واستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، بيده الخير ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير " .

(118/670)

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه ﴿ له مقاليد السماوات والأرض ﴾ له مفاتيح خزائن السموات والأرض .

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64)

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، " أن قريشاً دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، ويطأون عقبه . فقالوا له : هذا لك عندنا يا محمد ، وتكف عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء . فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة هي لنا ولك فدلوه قال : حتى أنظر ما يأتيني من ربي ، فجاء الوحي ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] إلى آخر السورة وأنزل الله عليه ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين

من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ " .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن الحسن رضي الله عنه قال : قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : إياك وأجدادك يا محمد . فأنزل الله ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ إلى قوله ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)

(119/670)

أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر والدارقطني في الأسماء والصفات عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد إنا نجد أن الله يحمل السموات يوم القيامة على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع . فيقول : أنا الملك . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ .

وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن جرير وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس قال : كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه ، وأشار بالسبابة ، والأرضين على ذه ، والجبال على ذه . وسائر الخلق على ذه . كل ذلك يشير باصابعه ؟ فأنزل الله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : تكلمت اليهود في صفة الرب فقالوا ما لم يعلموه ، وما لم يروا . فأنزل الله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : اليهود نظروا في خلق السموات ، والأرض ، والملائكة ، فلما زاغوا أخذوا يقدرونه . فأنزل الله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾ [البقرة : 255] قالوا : يا رسول الله هذا الكرسي هكذا فكيف بالعرش ؟ فأنزل الله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوي السموات بيمينه ، ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ " .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ﴾ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هكذا بيده ، ويحركها يقبل بها ويدبر يمجد الرب نفسه أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا الكريم .

فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر حتى قلنا ليخرنَّ به " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " حدثتني عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ﴾ قال : " يقول أنا الجبار ، أنا أنا . . . .

ويمجد نفسه ، فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر حتى أن قلنا ليخرن به قالوا : فأين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : على جسر جهنم " " .

وأخرج البزار وابن عدي وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على المنبر ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ حتى بلغ ﴿ عما يشركون ﴾ فقال : المنبر هكذا . فذهب وجاء ثلاث مرات " .

(121/670)

وأخرج أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة جمع الله السموات السبع والأرضين السبع في قبضته ، ثم يقول " أنا الله ، أنا الرحمن ، أنا الملك ، أنا القدوس ، أنا السلام ، أنا المؤمن ، أنا المهيمن ، أنا العزيز ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تك شيئاً ، أنا الذي أعيدها اين الملوك . . . ؟ أين الجبارون . . . ؟ " .

وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن جرير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفر من أصحابه : " أنا قارىء عليكم آيات من آخر الزمر فمن بكى منكم وجبت له الجنة . فقرأها من عند ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ إلى آخر السورة فمنا

من بكى ومنا من لم يبك فقال الذين لم يبكوا : يا رسول الله لقد جهدنا أن نبكي فلم نبك فقال : إني سأقرأها عليكم فمن لم يبكِ فليتباكَ " .

وأخرج الطبراني بسند مقارب وأبو الشيخ في العظمة عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يقول ثلاث خلال غيبتهن عن عبادي لو رآهن رجل ما عمل سوء أبداً . لو كشفت غطائي فرآني حتى استيقن ويعلم كيف أعمل بخلقي إذا أمتهم . وقبضت السموات بيدي ، ثم قبضت الأرضين ، ثم قلت أنا الملك من ذا الذي له الملك دوني . ثم أريهم الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير فيستيقنوا بها ، وأريهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوا بها . ولكن عمداً غيبت عنهم ذلك لأعلم كيف يعملون ، وقد بينته لهم " .

(122/670)

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن مسروق رضي الله عنه ، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال ليهودي : " إذ ذكر من عظمة ربنا فقال : السموات على الخنصر ، والأرضون البنصر ، والجبال على الوسطى ، والماء على السبابة ، وسائر الخلق على الابهام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته ﴾

".

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يطوي الله السموات بما فيها من الخليقة ، والأرضين السبع بما فيها من الخليقة . يطوي كله بيمينه يكون ذلك في يده بمنزلة خردلة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ والسماوات مطويات بيمينه ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ﴾ قال : كلهن في يمينه .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن شيبان النحوي رضي الله عنه ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ قال : لم يفسرها قتادة .

وأخرج البيهقي عن سفيان بن عيينة رضي الله عنه قال : كل ما وصف الله من نفسه في كتابه ، فتفسيره تلاوته والسكوت عليه .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتدري ما الكرسي ؟ قلت : لا . قال : ما في السموات وما في الأرض وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ألقاها ملق في الأرض ، وما الكرسي في العرش إلا كحلقة ألقاها الملق في الأرض ، وما الماء في الريح إلا كحلقة ألقاها ملق في ارض فلاة ، وما جميع ذلك في قبضة الله عز وجل إلا كحبة وأصغر من الحبة في كف أحدكم . وذلك قوله ﴿ والأرض جميعاً

قبضته يوم القيامة ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما في السموات السبع ، والأرضين السبع ، في يد الله عز وجل إلا كخردلة في يد أحدكم .

(123/670)

وأخرج ابن جرير عن عائشة رضي الله عنها قالت : " سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ فأين الناس يومئذ ؟ قال : " على الصراط " " .

وأخرج ابن جرير عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : " أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حبر من اليهود فقال : أرأيت إذ يقول الله عز وجل في كتابه ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ﴾ فأين الخلق عند ذلك ؟ قال : هم كرتم الكتاب " .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68)

أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن جرير وابن

مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذي اصطفى موسى على البشر . فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه قال : أتقول هذا وفينا رسول الله ؟ فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قال الله ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ فأكون أوّل من يرفع رأسه ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله عز وجل " " .

(124/670)

وأخرج أبو يعلى والدارقطني في الأفراد وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سئل جبريل عليه السلام عن هذه الآية ﴿ فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ من الذين لم يشإ الله أن يصعقهم ؟ قال : هم الشهداء مقلدون باسيافهم حول عرشه ، تتلقاهم الملائكة عليهم السلام يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت ، أزمتها الدر برحائل السندس والإستبرق ، نمارها ألين من الحرير ، مدَّ خطاها مدَّ أبصار الرجل ، يسيرون في الجنة يقولون عند طول البرهة ؛ انطلقوا بنا إلى ربنا ننظر كيف يقضي بين خلقه ؟

يضحك اليهم إلهي ، وإذا ضحك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه " .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن أبي هريرة ﴿ فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ قال : هم الشهداء ثنية الله تعالى .

وأخرج سعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ إلا من شاء الله ﴾ قال : هم الشهداء ثنية الله ، متقلدي السيوف حول العرش .

(125/670)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وأبو نصر السجزي في الابانة وابن مردويه عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين استثنى الله ؟ قال " جبريل ، وميكائيل ، وملك الموت ، واسرافيل ، وحملة العرش . فإذا قبض الله أرواح الخلائق قال لملك الموت : من بقي ؟ وهو أعلم فيقول : رب سبحانك . . . . ! رب تعاليت ذا الجلال والاكرام بقي جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وملك الموت . فيقول : خذ نفس ميكائيل . فيقع كالطود العظيم . فيقول : يا ملك الموت من بقي ؟ فيقول سبحانك رب . . ! ذا الجلال

والأكرام بقي جبريل وملك الموت . فيقول مت يا ملك الموت ، فيموت فيقول يا جبريل من بقي فيقول : سبحانك . . ! يا ذا الجلال والأكرام بقي جبريل وهو من الله بالمكان الذي هو به . فيقول : يا جبريل ما بد من موتك . فيقع ساجداً يخفق بجناحيه يقول : سبحانك رب . . . ! تباركت وتعاليت ذا الجلال والأكرام ، أنت الباقي وجبريل الميت الفاني ، ويأخذ روحه في الخفقة التي يخفق فيها ، فيقع على حيز من فضل خلقه على خلق ميكائيل كفضل الطود العظيم " .

(126/670)

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في البعث عن أنس رفعه في قوله ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله . . . ﴾ قال : فكان ممن استثنى الله جبريل ، وميكائيل ، وملك الموت ، فيقول الله – وهو أعلم : يا ملك الموت من بقي ؟ فيقول بقي وجهك الكريم ، وعبدك جبريل ، وميكائيل ، وملك الموت . فيقول : توفَّ نفس ميكائيل . ثم يقول – وهو أعلم – يا ملك الموت من بقي ؟ فيقول بقي وجهك الكريم ، وعبدك جبريل ، وملك الموت . فيقول ، توف نفس جبريل . ثم يقول – وهو أعلم – يا ملك الموت من بقي ؟ فيقول : بقي وجهك الباقي الكريم ، وعبدك ملك الموت وهو ميت . فيقول : مت . ثم

ينادي أنا بدأت الخلق ، وأنا أعيده فأين الجبارون المتكبرون ؟ فلا يجيبه أحد . ثم ينادي لمن الملك اليوم فلا يجيبه أحد ، فيقول هو لله الواحد القهار ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن جابر ﴿ فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ قال : استثنى موسى عليه السلام لأنه كان صعق قبل .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ إلا من شاء الله ﴾ قال : هم حملة العرش .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : ما يبقى أحد إلا مات ، وقد استثنى والله أعلم مثنياه .

وأخرج أحمد ومسلم عن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يخرج الدجال في أمتي ، فيمكث فيهم أربعين يوماً ، أو أربعين عاماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين ليلة ، فيبعث الله عيسى بن مريم عليه السلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي ، فيطلبه فيهلكه الله تعالى ، ثم يلبث الناس بعده سنين ليس بين اثنين عداوة ، ثم يبعث الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من الإيمان إلا قبضته حتى لو كان أحدهم في كبد جبل لدخلت عليه .

يبقى شرار الناس في خفة الطير ، وأحلام السباع . لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : الا تستجيبون ؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدوها وهم في ذلك دارة أرزاقهم ، حسن عيشهم . ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا صغى . وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ، ثم لا يبقى أحد إلا صعق .

ثم يرسل الله مطراً كأنه الطل ، فتنبت منه أجساد الناس ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ ثم يقال : أيا أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ [الصافات : 24] ثم يقال : اخرجوا بعث النار فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فذلك ﴿ يوم يجعل الولدان شيباً ﴾ [المزمل : 17] وذلك ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ [القلم : 42] " .

وأخرج البخاري ومسلم وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بين النفختين أربعون . قالوا : يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال : أبيت قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت قالوا : أربعون عاماً ؟ قال : أبيت ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة " .

وأخرج أبو داود في البعث وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال : " ينفخ في الصور والصور كهيئة القرن ، فصعق من في السموات ومن في الأرض . وبين النفختين أربعون عاماً ، فيمطر الله في تلك الأربعين مطراً ، فينبتون من الأرض كما ينبت البقل ، ومن الإِنسان عظم لا تأكله الأرض . عجب ذنبه ومنه يركب جسده يوم القيامة " .

(128/670)

وأخرج ابن أبي عاصم في السنة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب ينبت ، ويرسل الله ماء الحياة فينبتون منه نبات الخضر ، حتى إذا خرجت الأجساد ، أرسل الله الأرواح فكان كل روح أسرع إلى صاحبه من الطرف ، ثم ينفخ في الصور ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ " .

وأخرج ابن المبارك عن الحسن قال : بين النفختين أربعون سنة . الأولى يميت الله بها كل حي ، والأخرى يحيي الله بها كل ميت .

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عمرو ، " أن أعرابياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ﴿ الصور ﴾ فقال : " قرن ينفخ فيه "

" .

وأخرج مسدد وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال ﴿ الصور ﴾ كهيئة القرن ، ينفخ فيه .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن حبان وابن خزيمة وابن المنذر والحاكم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر فينفخ ؟ قال المسلمون : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : قالوا ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [آل عمران : 173] على الله توكلنا " .

وأخرج أبو الشيخ وصححه وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما طرف صاحب الصور منذ وكل به مستعداً ينظر العرش ، مخافة أن يؤمر بالصيحة قبل أن يرتد إليه طرفه ، كأن عينيه كوكبان دريان " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، وهو صاحب الصور يعني اسرافيل " .

وأخرج ابن ماجة والبزار وابن مردويه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن صاحبي الصور بايديهما قرنان يلاحظان النظر حتى يؤمران " .

وأخرج البزار والحاكم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ما من صباح إلا وملكان موكلان بالصور ينتظران متى يؤمران فينفخان " .

وأخرج أحمد والحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " النافخان في السماء الثانية . رأس أحدهما بالمشرق . ورجلاه بالمغرب . ينتظران متى يؤمران أن ينفخا في الصور فينفخا " .

وأخرج عبد بن حميد والطبراني في الأوسط بسند حسن عن عبد الله بن الحارث قال : كنت عند عائشة رضي الله عنها ، وعندها كعب رضي الله عنه ، فذكر اسرافيل عليه السلام فقالت عائشة : أخبرني عن إسرافيل عليه السلام ؟ قال : له أربعة أجنحة . جناحان في الهواء ، وجناح قد تسرول به ، وجناح على كاهله ، والقلم على أذنه . فإذا نزل الوحي كتب القلم ، ودرست الملائكة ، وملك الصور أسفل منه جاث على إحدى ركبتيه ، وقد نصب الأخرى ، فالتقم الصور ، فحنى ظهره وطرفه إلى إسرافيل ضم جناحيه أن ينفخ في الصور .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي بكر الهذلي قال : إن ملك الصور الذي وكل به إحدى قدميه لفي الأرض السابعة ، وهو جاث على ركبتيه ، شاخص ببصره إلى إسرافيل عليه السلام ، ما طرف . منذ خلقه الله ينظر متى يشير إليه ، فينفخ في الصور .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب رضي الله عنه قال : خلق الله الصور من لؤلؤة بيضاء في صفاء الزجاجة ، ثم قال للعرش : خذ الصور فتعلق به ، ثم قال كن فكان إسرافيل ، فأمره أن يأخذ الصور فأخذه وبه ثقب بعدد كل روح مخلوقة ، ونفس منفوسة ، لا يخرج روحاً من ثقب واحد ، وفي وسط الصور كوة كاستدارة السماء والأرض . وإسرافيل عليه السلام واضع فمه على تلك الكوة .

(130/670)

ثم قال له الرب عز وجل : قد وكلتك بالصور فأنت للنفخة وللصيحة ، فدخل إسرافيل في مقدمة العرش ، فادخل رجله اليمنى تحت العرش ، وقدَّم اليسرى ولم يطرف منذ خلقه الله تعالى لينظر ما يؤمر به .

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن أوس بن أوس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ؛ فيه خلق آدم ،

وفيه قبض ، وفيه نفخة الصور ، وفيه الصعقة " .

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "كأني أنفض رأسي من التراب أول خارج ، فالتفت فلا أرى أحداً إلا موسى متعلقاً بالعرش ، فلا أدري أممن استثنى الله أن لا تصيبه النفخة فبعث قبلي ؟ " .

وأخرج ابن جرير عن السدي ﴿ فصعق ﴾ قال : مات ﴿ إلا من شاء الله ﴾ قال : جبريل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، ثم نفخ فيه أخرى ، قال : في الصور .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي عمران الجوني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما بعث الله إلى صاحب الصور فأخذه ، فأهوى بيده إلى فيه ، فقدم رجلاً وأخر رجلاً حتى يؤمر فينفخ ، فاتقوا النفخة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتاني ملك فقال : يا محمد اختر نبياً ملكاً أو نبياً عبداً قال : فأومأ إلى جبريل أن تواضع فقلت : نبياً عبداً ، فأعطيت خصلتين . ان جعلت أول من تنشق عنه الأرض . وأول شافع ، فارفع رأسي فاجد موسى آخذاً بالعرش فالله أعلم أصعق لهذه الصعقة الأولى ، أم أفاق قبلي ؟ ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم عن أبيه قال : كنت جالساً عند عكرمة فذكروا الذين يغرقون في البحر ، فقال عكرمة : الحمد لله الذين يغرقون في البحار ، فلا يبقى منهم شيء إلا العظام ، فتقبلها الأمواج حتى تلقيها إلى البر ، فتمكث العظام حيناً حتى تصير حائلة نخرة ، فتمر بها الإِبل فتأكلها ، ثم تسير الإِبل فتبعر ، ثم يجيء بعدهم قوم فينزلون فيأخذون ذلك البعر ، فيوقدونه في تلك النار ، فتجيء ريح فتلقي ذلك الرماد على الأرض ، فإذا جاءت النفخة قال الله ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ فخرج أولئك وأهل القبور سواء .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن العاصي قال : ينفخ في الصور النفخة الأولى من باب ايليا الشرقي . أو قال الغربي . والنفخة الثانية من باب آخر .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بين النفختين أربعون يقول الحسن فلا ندري أربعين سنة أو أربعين شهرا أو أربعين ليلة "

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بين النفختين أربعون قال أصحابه : فما سألناه عن ذلك وما زاد

غير أنهم كانوا يرون من رأيهم أنها أربعون سنة قال : وذكر لنا أنه يبعث في تلك الأربعين مطر

يقال له مطر الحياة

حتى تطيب الأرض وتهتز وتنبت أجساد الناس نبات البقل ثم ينفخ النفخة الثانية فإذا هم قيام ينظرون

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة في قوله ونفخ في الصور قال : الصور مع إسرافيل عليه السلام وفيه أرواح كل شيء يكون فيه ثم نفخ فيه نفخة الصعقة فإذا نفخ فيه نفخة البعث قال الله " بعزتي ليرجعن كل روح إلى جسده " قال : ودارة منها أعظم من سبع سموات ومن الأرض فحلق الصور على إسرافيل وهو شاخص ببصره إلى العرش حتى يؤمر بالنفخة فينفخ في الصور

وأخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله ونفخ في الصور

قال : الأولى من الدنيا والأخيرة من الآخرة

(132/670)

وأخرج عبد بن حميد وعلي بن سعيد في كتاب الطاعة والعصيان وأبو يعلى وأبو الحسن القطان في المطولات وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو موسى المديني كلاهما في المطولات وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في البعث والنشور عن أبي هريرة قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وعنده طائفة من أصحابه : " إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص بصره إلى السماء فينظر متى يؤمر فينفخ فيه

قلت : يا رسول الله وما الصور ؟ قال : القرن قلت فكيف هو ؟ قال : عظيم والذي بعثني بالحق إن عظم دارة فيه لعرض السموات والأرض فينفخ فيه النفخة الأولى فيصعق من في السموات ومن في الأرض ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون لرب العالمين فيأمر الله إسرافيل عليه السلام في النفخة الأولى أن يمدها ويطولها فلا يفتر وهو الذي يقول الله ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ص 15 فيسير الله الجبال فتكون سرابا وترتج الأرض بأهلها رجا فتكون كالسفينة الموسقة في البحر تضربها الرياح تنكفأ بأهلها كالقناديل المعلقة بالعرش تميلها الرياح وهي التي يقول الله يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة النازعات 5 – 8 فيميد الناس على ظهرها وتذهل المراضع وتضع الحوامل وتشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع وتولي الناس به مدبرين ينادي بعضهم بعضا

فبينما على ذلك إذ تصدعت الأرض كل صدع من قطر إلى قطر فرأوا أمرا عظيما لم يروا

مثله وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به عليم ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل ثم انشقت وانتثرت نجومها وخسف شمسها وقمرها

(133/670)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والأموات لا يعلمون شيئًا من ذلك فقلت : يا رسول الله فمن استثنى الله حين يقول ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ؟ قال : أولئك الشهداء وإنما يصل الفزع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون ووقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم منه وهو الذي يقول الله يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم الحج 1 إلى قوله ولكن عذاب الله شديد الحج 2

فينفخ الصور فيصعق أهل السمموات وأهل الأرض إلا من شاء الله فإذا هم خمود ثم يجيء ملك الموت إلى الجبار فيقول : يا رب قد مات أهل السموات وأهل الأرض إلا من شئت فيقول – وهو أعلم – فمن بقي ؟ فيقول : يا رب بقيت أنت الحي الذي لا يموت وبقي حملة عرشك وبقي جبريل وميكائيل وإسرافيل وبقيت أنا

فيقول الله : ليمت جبريل وميكائيل وإسرافيل وينطق الله العرش فيقول : يا رب تميت جبريل وميكائيل وإسرافيل ؟ فيقول الله له : اسكت فإني كتبت الموت على من كان تحت

عرشي

فيموتون ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار فيقول : يا رب قد مات جبريل وميكائيل وإسرافيل

فيقول الله عز وجل – وهو أعلم – فمن بقي ؟ فيقول : يا رب بقيت أنت الحي الذي لا

تموت وبقي حملة عرشك وبقيت أنا

فيقول الله له : ليمت حملة عرشي

فيموتون ويأمر الله العرش فيقبض الصور ثم يأتي ملك الموت الرب عز وجل فيقول : يا رب

مات حملة عرشك فيقول الله – وهو أعلم – فمن بقي ؟ فيقول : يا رب بقيت أنت الحي

الذي لا يموت وبقيت أنا

فيقول الله له : أنت خلق من خلقي خلقتك لما رأيت فمت فيموت فإذا لم يبق إلا الله الواحد

القهار الصمد الذي لم يلد ولم يولد كان آخرا كما كان أولا طوى السموات والأرض كطي

السجل للكتاب

ثم قال بهما فلفهما

ثم قال : أنا الجبار أنا الجبار أنا الجبار ثلاث مرات

ثم هتف بصوته لمن الملك اليوم ؟ لمن الملك اليوم ؟ لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد

ثم يقول لنفسه : لله الواحد القهار يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات إبراهيم 48

فبسطها وسطحها ثم مدها مد الأديم العكاظي لا ترى فيها عوجا ولا أمتا طه الآية 107

ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة فإذا هم في هذه المبدلة من كان في بطنها كان في بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها

ثم ينزل الله عليكم ماء من تحت العرش فيأمر الله السماء أن تمطر فتمطر أربعين يوما حتى يكون الماء فوقكم إثني عشر ذراعا ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت فتنبت نبات ؟

الطوانيت كنبات البقل حتى إذا تكاملت أجسامهم وكانت كما كانت قال الله : ليحيى حملة العرش فيحيون ويأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ثم يقول الله :

ليحيى جبريل وميكائيل فيحييان

ثم يدعو الله بالأرواح فيؤتى بهن توهج أرواح المؤمنين نورا والأخرى ظلمة فيقبضهن الله جميعا ثم يلقيها في الصور ثم يأمر إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض

فيقول : وعزتي وجلالي ليرجعن كل روح إلى جسده فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد فتدخل في الخياشيم ثم تمشي في الأجساد كما يمشي السم في اللديغ ثم تنشق الأرض عنكم

وأنا أول من تنشق الأرض عنه فتخرجون منها سراعا إلى ربكم تنسلون " مهطعين إلى الداعي يقول الكافرون هذا يوم عسر " حفاة عراة غلفا غرلا

فبينما نحن وقوف إذ سمعنا حسا من السماء شديدا فينزل أهل سماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم

ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثلي من نزل من الملائكة ومثلي من فيها من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم

ثم ينزل أهل السماء الثالثة بمثلي من نزل من الملائكة ومثلي من فيها من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم

ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف إلى السموات السبع

(135/670)

ثم ينزل الجبار في ظلل من الغمام البقرة 210 والملائكة يحمل عرشه يومئذ ثمانية وهم اليوم أربعة

أقدامهم على تخوم الأرض السفلى والأرضون والسموات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم لهم زجل بالتسبيح فيقولون : سبحان ذي العزة والجبروت سبحان ذي الملك

والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح سبحان ربنا الأعلى الذي يميت الخلائق ولا يموت

فيضع عرشه حيث يشاء من الأرض ثم يهتف بصوته فيقول : يا معشر الجن والإنس إني قد أنصت لكم منذ يوم خلقكم إلى يومك هذا

أسمع قولكم وأبصر أعمالكم فأنصتوا إلي

فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه

ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم ثم يقول ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم يس 60 إلى قوله وامتازوا اليوم أيها المجرمون يس 59 فيميز بين الناس وتجثو الأمم قال وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها الجاثية الآية 28 ويقفون موقفا واحدا مقدار سبعين عاما لا يقضى بينهم فيبكون حتى تنقطع الدموع ويدمعون دما ويعرقون عرقا إلى أن يبلغ ذلك منهم أن يلجمهم العرق وأن يبلغ الأذقان منهم

فيصيحون ويقولون : من يشفع لنا إلى ربنا ؟ فيقضي بيننا فيقولون : ومن أحق بذلك من أبيكم آدم عليه السلام فيطلبون ذلك إليه فيأبى ويقول : ما أنا بصاحب ذلك

ثم يستفزون الأنبياء نبيا نبيا كلما جاؤا نبيا أبى عليهم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حتى يأتوني فأنطلق حتى أتي فأخر ساجدا قال :

أبو هريرة رضي الله عنه وربما قال قدام العرش حتى يبعث إلي ملكا فيأخذ بعضدي

فيرفعني فيقول لي : يا محمد فأقول : نعم يا رب : ما شأنك ؟ – وهو أعلم – فأقول : يا رب

وعدتني الشفاعة فشفعني في خلقك فاقض بينهم

(136/670)

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأرجع فأقف مع الناس فيقضي الله بين

الخلائق فيكون أول من يقضى فيه في الدماء ويأتي كل من قتل في سبيل الله يحمل رأسه

وتشخب أوداجه فيقولون : يا ربنا قتلنا فلان وفلان

فيقول الله – وهو أعلم – أقتلتم ؟ فيقولون : يا ربنا قتلنا لتكون العزة لك

فيقول الله لهم : صدقتم

فيجعل لوجوههم نورا مثل نور الشمس ثم توصلهم الملائكة إلى الجنة ويأتي من كان قتل على

غير ذلك يحمل رأسه وتشخب أوداجه فيقولون : يا ربنا قتلنا فلان وفلان

فيقول : لم ؟ – وهو أعلم – فيقولون : لتكون العزة لك فيقول الله : تعستم ثم ما يبقى نفس

قتلها إلا قتل بها ولا مظلمة ظلمها إلا أخذ بها

وكان في مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء رحمه ثم يقضي الله بين من بقي من خلقه حتى لا يبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها الله تعالى للمظلوم من الظالم

حتى إنه ليكلف يومئذ شائب اللبن للبيع الذي كان يشوب اللبن بالماء ثم يبيعه فيكلف أن يخلص اللبن من الماء

فإذا فرغ الله من ذلك نادى نداء أسمع الخلائق كلهم : ألا ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله

فلا يبقى أحد عبد من دون الله شيئا إلا مثلت له آلهة بين يديه ويجعل يومئذ من الملائكة على صورة عزير ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى فيتبع هذا اليهود وهذا النصارى ثم يعود بهم آلهتهم إلى النار

فهي التي قال الله لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون الأنبياء الآية 99 فإذا لم يبق إلا المؤمنون وفيهم المنافقون فيقال لهم : يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون

فيقولون : والله ما لنا إله إلا الله وما كنا نعبد غيره فيقال لهم : الثانية

والثالثة فيقولون : مثل ذلك فيقول : أنا ربكم فهل بينكم وبين ربكم آية تعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم

فيكشف عن ساق ويريهم الله ما شاء من الآية أن يريهم فيعرفون أنه ربهم فيخرون له

سجدا لوجوههم ويخر كل منافق على قفاه يجعل الله أصلابهم كصياصي البقر ثم يأذن الله

لهم فيرفعون رؤوسهم ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم كدقة الشعر وكحد السيف

عليه كلاليب وخطاطيف وحسك كحسك السعدان دونه جسر دحض مزلة فيمرون

كطرف العين وكلمح البرق وكمر الريح وكجياد الخيل وكجياد الركاب وكجياد الرجال فناج

مسلم وناج مخدوش ومكدوش على وجهه في جهنم

فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة فدخلوها

فو الذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة

بأزواجهم ومساكنهم إذ دخلوا الجنة

فدخل كل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة مما ينشىء الله في الجنة واثنتين آدميتين من

ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله لعبادتهما في الدنيا

فيدخل على الأولى منهن في غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ عليه سبعون

زوجا من سندس

واستبرق ثم إنه يضع يده بين كتفيها فينظر إلى يدها من صدرها ومن وراء ثيابها ولحمها

وجلدها

وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في الياقوتة كبدها له مرآة

فبينما هو عندها لا يملها ولا تمله ولا يأتيها مرة إلا وجدها عذراء لا يفتران ولا يألمان

فبينما هو كذلك إذ نودي فيقال له : إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل وإن لك أزواجا غيرها

فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة كلما جاء واحدة قالت له : والله ما أرى في الجنة شيئا

أحسن منك ولا شيئا في الجنة أحب إلي منك

قال وإذا وقع أهل النار في النار وقع فيها خلق من خلق الله أوبقتهم أعمالهم فمنهم من

تأخذه النار إلى ركبتيه ومنهم من تأخذه النار في جسده كله إلا وجهه حرم الله صورهم

على النار

فينادون في النار فيقولون : من يشفع لنا إلى ربنا حتى يخرجنا من النار ؟ فيقولون : ومن

أحق بذلك من أبيكم آدم ؟ فينطلق المؤمنون إلى آدم فيقولون : خلقك الله بيده ونفخ فيك

من روحه وكلمك

(138/670)

فيذكر آدم ذنبه فيقول : ما أنا بصاحب ذلك ولكن عليكم بنوح فإنه أول رسل الله فيأتون

نوحا عليه السلام ويذكرون ذلك إليه فيذكر ذنبا فيقول : ما أنا بصاحب ذلك ولكن عليكم

يا إبراهيم فإن الله اتخذه خليلا

فيؤتى إبراهيم فيطلب ذلك إليه

فيذكر ذنبا فيقول : ما أنا بصاحب ذلك ولكن عليكم بموسى فإن الله قربه نجيا وكلمه وأنزل عليه التوراة

فيؤتى موسى فيطلب ذلك إليه فيذكر ذنبا ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى بن مريم عليه السلام

فيؤتى عيسى بن مريم عليه السلام فيطلب ذلك إليه فيقول : ما أنا بصاحب ذلك ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم

فيأتوني ولي عند ربي ثلاث شفاعات وعدنيهن فأنطلق حتى آتي باب الجنة فآخذ بحلقة الباب فاستفتح فيفتح لي فأخر ساجدا فيأذن لي من حمده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه ثم يقول : ارفع رأسك يا محمد اشفع تشفع وسل تعطه

فإذا رفعت رأسي قال لي – وهو أعلم – ما شأنك ؟ فأقول : يا رب وعدتني الشفاعة فشفعني

فأقول يا رب من وقع في النار من أمتي ؟ فيقول الله : أخرجوا من عرفتم صورته فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ثم يأذن الله بالشفاعة فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفع فيقول الله : أخرجوا من وجدتم في قلبه زنة دينار من خير فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد

وحتى لا يبقى في النار من عمل خيرا قط ولا يبقى أحد له شفاعة إلا شفع

حتى أن إبليس ليتطاول في النار لما يرى من رحمة الله رجاء أن يشفع له ثم يقول الله : بقيت

وأنا أرحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها ما لا يحصيه غيره فينبتهم على نهر يقال له

نهر الحيوان فينبتون فيه كما تنبت الحبة في حميل السيل فما يلي الشمس أخضر وما يلي

الظل أصفر فينبتون كالدر مكتوب في رقابهم : الجهنميون عتقاء الرحمن لم يعملوا لله خيرا

قط يقول مع التوحيد فيمكثون في الجنة ما شاء الله وذلك الكتاب في رقابهم ثم يقولون : يا

ربنا امح عنا هذا الكتاب فيمحوه عنهم "

(139/670)

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70)

أخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه ﴿ وأشرقت الأرض ﴾ قال : أضاءت ﴿ ووضع الكتاب ﴾ قال : الحساب .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ قال : فما يتضارون في نوره إلا كما يتضارون في اليوم الصحو الذي لا

دخن فيه ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ قال : الذين استشهدوا .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ قال : النبيون الرسل ﴿ والشهداء ﴾ الذين يشهدون بالبلاغ ، ليس فيهم طعان ولا لعان .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ قال : يشهدون بتبليغ الرسالة ، وتكذيب الأمم إياهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(140/670)

فصل

قال القرطبى :

باب في انقراض هذا الخلق وذكر النفخ والصعق وكم بين النفختين ؟ وذكر البعث والنشر والنار

مسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين - لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً - فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع

سنين ليس بين إثنين عداوة ، ثم يرسل الله عز وجل ريحاً باردة من قبل الشمال ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى إن أحدكم لو دخل في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دار رزقهم ، حسن عيشهم ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتاً قال : فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس ثم قال يرسل الله ، أو قال ينزل الله مطراً كأنه الطل فينبت منه أجساد الناس ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسؤولون ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال : فذلك يوم يجعل الولدان شيباً وذلك يوم يكشف عن ساق .

مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بين النفختين أربعون قالوا : يا أبا هريرة أربعين يوماً ؟ قال : أبيت قالوا : أربعين شهراً ؟ قال : أبيت . قالوا ؟ أربعين عاماً ؟ قال : أبيت ، ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل . قال : وليس من الإنسان شيء إلا يبلى . إلا عظماً واحداً وفي رواية لا تأكله الأرض أبداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة . وعند ابن وهب في هذا الحديث فأربعون

جمعة ؟ قال أبيت وإسناده منقطع .

فصل : هذان الحديثان مع صحتهما في غاية البيان فيما ذكرناه ويزيدهما أيضاً بياناً في أبواب ، ويأتي ذكر الدجال مستوعباً في الأشراط . إن شاء الله تعالى . وأصغى معناه : أمال . ليتا يعني صفحة العنق . ويلوط معناه : يطين ويصلح ، وقول أبي هريرة أبيت : فيه تأويلان .

الأول : أبيت أي امتنعت من بيان ذلك تفسيره وعلى هذا كان عنده علم من ذلك أي سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : أبيت أي أبيت أن أسأل عن ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وعلى هذا لم يكن عنده علم من ذلك . والأول أظهر وإنما لم يبينه لأنه لم ترهق لذلك حاجة ، ولأنه ليس من البينات والهدى الذي أمر بتبليغه ، وفي البخاري عنه أنه قال : حفظت وعاءين من علم فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم ، قال أبو عبد الله : البلعوم : مجرى الطعام ، وقد جاء أن بين النفختين أربعين عاماً ، والله أعلم وسيأتي .

وذكر هناد بن السدي قال : حدثنا وكيع عن سفيان ، عن السدي سألت سعيد بن جبير

عن هذه الآية له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك فلم يجبني فسمعنا أنه ما بين النفختين ، حدثنا وكيع عن أبي جعفر الرازي عن أبي العالية وما بين ذلك قال : ما بين النفختين . والله أعلم .

باب في قول الله تعالى

ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله

وهم الملائكة ، أو الشهداء ، أو الأنبياء ، أو حملة العرش ، أو جبريل ، أو ميكائيل ، أو ملك الموت . صعق : مات .

(142/670)

روى الأئمة عن أبي هريرة قال : قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذي اصطفي موسى على البشر . فرفع رجل من الأنصار يده فلطمه . قال : تقول هذا وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فذكرت ذلك لرسول الله قال الله عز وجل ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي . أو كان ممن استثنى الله . ومن قال : [أنا خير من يونس بن متى : فقد كذب] لفظ ابن

ماجه أخرجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن علي بن مسهر ، وأخرجه الترمذي عن أبي كريب محمد بن العلاء . قال : حدثنا عبدة بن سليمان جميعاً ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة . قال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وأخرجه البخاري ومسلم بمعناه .

فصل : واختلف العلماء في المستثنى : من هو ؟ فقيل الملائكة . وقيل الأنبياء . وقيل الشهداء واختاره الحليمي قال : وهو مروي عن ابن عباس أن الاستثناء لأجل الشهداء . فإن الله تعالى يقول : أحياء عند ربهم يرزقون وضعف غيره من الأقوال على ما يأتي وقال شيخنا أبو العباس : والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح ، والكل محتمل .

قلت : قد ورد حديث أبي هريرة بأنهم الشهداء وهو الصحيح على ما يأتي : وأسند النحاس في كتاب معاني القرآن له حدثنا الحسين بن عمر الكوفي قال : حدثنا هناد بن السرى قال : حدثنا وكيع ، عن شعبة عمارة ابن أبي حفصة ، عن حجر الهجري ، عن سعيد بن جبير في قول الله عز وجل إلا من شاء الله قال : هم الشهداء هم ثنية الله عز وجل متقلدو السيوف حول العرش .

وقال الحسن : استثنى طوائف من الملائكة يموتون بين النفختين .

قال يحيى بن سلام في تفسيره : بلغني أن آخر من يبقى منهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . ثم يموت جبريل وميكائيل وإسرافيل ثم يقول الله عز وجل لملك الموت : مت . فيموت . وقد جاء هذا مرفوعاً في حديث أبي هريرة الطويل على ما يأتي . وقيل : هم حملة العرش وجبريل وميكائيل . ملك الموت .

وقال الحليمي : من زعم أن الاستثناء لأجل حملة العرش أو جبريل وميكائيل وملك الموت أو زعم أنه لأجل الولدان والحور العين في الجنة أو زعم أنه لأجل موسى فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنا أول من تنشق عنه الأرض فأرفع رأسي فإذا موسى متعلق بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله عز وجل ؟ فإنه لم يصح شيء منها .

أم الأول : فإن حملة العرش ليسوا من سكان السموات والأرض لأن العرش فوق السموات كلها ، فكيف يكون حملته في السموات ؟ وأما جبريل وميكائيل وملك الموت فمن الصافين المسبحين حول العرش . وإذا كان العرش فوق السموات لم يكن الاصطفاف حوله في السموات . وكذلك القول الثاني لأن الولدان والحور في الجنة والجنات . وإن كان بعضها أرفع من بعض فإن جميعها فوق السموات ودون العرش ، وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء فلا شك أنها بمعزل عما خلق الله تعالى للفناء ، وصرفه إلى موسى فلا وجه لأنه قد مات

بالحقيقة فلا يموت عند نفخ الصور ثانية ، ولهذا لم يعتد في ذكر اختلاف المتأولين في الاستثناء بقول من قال : إلا من شاء الله ، أي الذين سبق موتهم قبل نفخ الصور . لأن الاستثناء إنما يكون لمن يمكن دخوله في الجملة ، فأما من لا يمكن دخوله في الجملة فيها فلا معنى لاستثنائه منها ، والذين ماتوا قبل نفخ الصور ليسوا بغرض أن يصعقوا . فلا وجه لاستثنائهم . وهذا في موسى موجود فلا وجه لاستثنائه .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر

(144/670)

موسى ما يعارض الرواية الأولى وهو أن قال : الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق . فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش . فلا أدري أفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور ؟ فظاهر هذا الحديث : أن هذه صعقة غشي تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور .

وصرف ذكر يوم القيامة إلى أنه أراد أوائله قيل : المعنى : أن الصور إذا نفخ فيه أخرى كنت أول من يرفع رأسه ، فإذا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أو جوزي بصعقة الطور ؟ أي فلا أدري أبعثه قبلي كان وهباً له وتفصيلاً من هذا الوجه ، كما

فضل في الدنيا بالتكليم أو كان جزاء له بصعقة الطور ، أي قدم بعثه على بعث الأنبياء الأخرين بقدر صعقته عندما تجلى ربه للجبل إلى أن أفاق ليكون هذا جزاء له بها .

وما عدا هذا فلا يثبت . قال شيخنا أحمد بن عمر : وظاهر حديث النبي صلى الله عليه وسلم يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية نفخة البعث ، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق . ولما كان هذا قال بعض العلماء : يحتمل أن يكون موسى عليه السلام ، ممن لم يمت من الأنبياء وهذا باطل بما تقدم من ذكر موته ، وقال القاضي عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشر حين تنشق السموات والأرض ، قال : فتستقل الأحاديث والآيات والله أعلم .

قال شيخنا أبو العباس : وهذا يرده ما جاء في الحديث أنه عليه السلام حين يخرج من قبره يلقى موسى وهو متعلق بالعرش ، وهذا إنما هو عند نفخة البعث . قال شيخنا أحمد بن عمر : والذي يزيح هذا الإشكال إن شاء الله تعالى أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك : أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء في الدنيا وإذا كان هذا في الشهداء ، كان الأنبياء بذلك أحق وأولى ، مع أنه قد صح عن النبي صلى

الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس ، وفي السماء وخصوصاً بموسى وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بما يقتضي ان الله تبارك وتعالى يرد عليه روحه حتى يرد السلام على كل من يسلم عليه إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا تدركهم ، وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم موجودون أحياء ولا يراهم أحد من نوعنا إلا من خصه الله بكرامة من أوليائه . وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فأما صعق غير الأنبياء فموت . وأما صعق الأنبياء ، فالأظهر : أنه غشية . فإذا نفخ في الصور نفخة البعث ، فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق . وكذلك قال صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم والبخاري : فأكون أول من يفيق وهي رواية صحيحة وحسنة ، فنبينا صلى الله عليه وسلم أول من يخرج من قبره قبل الناس كلهم قبل الأنبياء وغيرهم إلا موسى ، فإنه حصل له فيه تردد : هل بعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً لأنه حوسب بغشية الطور ؟ وهذه فضيلة عظيمة في حق موسى عليه السلام . ولا يلزم من فضيلة أحد الأمرين المشكوك فيهما فضيلة موسى عليه السلام على محمد مطلقاً لأن الشيء الجزئي لا

يوجب أمراً كلياً . والله أعلم .

قال المؤلف : ما اختاره شيخنا هو ما ذكره الحليمي واختاره في قوله فإن حمل عليه الحديث فذاك . قال الحليمي : وأما الملائكة الذين ذكرناهم صلوات الله عليهم فإنا لم ننف عنهم الموت . ولا أحلناه ، وإنما أبينا أن يكونوا هم المرادين بالاستثناء من الوجه الذين ذكرناه ، ثم قد وردت الأخبار بأن الله تعالى يميت حملة العرش وملك الموت وميكائيل ثم يميت آخر من يميت :

(146/670)

جبريل ويحييه مكانه ويحي هؤلاء الملائكة الذي ذكرناهم . وأما أهل الجنة فلم يأت عنهم خبر : والأظهر أنها دار الخلد . فالذي يدخلها لا يموت فيها أبداً مع كونه قابلاً للموت ، والذي خلق فيها أولى ألا يموت فيها أبداً . وأيضاً فإن الموت لقهر المكلفين . ونقلهم من دار إلى دار ، وأهل الجنة لم يبلغنا أن عليهم تكليفاً ، فإن أعفوا من الموت كما أعفوا من التكليف لم يكن بعيداً . فإن قيل : فقد قال الله تعالى كل شيء هالك إلا وجهه وهو يدل على أن الجنة نفسها تفنى ثم تعاد يوم الجزاء ، فلم أنكرتم أن يكونوا الولدان والحور يموتون ثم يحيون ؟ قيل : يحتمل معنى قوله : كل شيء هالك إلا وجهه أي ما من شيء إلا وهو قابل للهلاك

فيهلك إن أراد الله به ذلك إلا وجهه أي إلا هو سبحانه ، فإنه تعالى قديم والقديم لا يمكن أن يفنى وما عداه محدث ، والمحدث إنما يبقى قدر ما يبقيه محدثه فإذا حبس البقاء عنه فني . ولم يبلغنا في خبر صحيح ولا معلول أنه يهلك العرش فلتكن الجنة مثله .

فصل : قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث : ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب . للعلماء في تأويلات : أحسنها وأجملها ما ذكره القاضي أبو بكر بن العربي قال : أخبرني غير واحد من أصحابنا عن إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني أنه سئل : هل الباري في جهة ؟ فقال : لا هو متعال عن ذلك . قيل له : ما الدليل عليه ؟ قال الدليل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم : لا تفضلوني على يونس بن متى فقيل له : ما وجه الدليل من هذا الخبر ؟ فقال لا أقوله حتى يأخذ ضيفي هذا ألف دينار يقضي بها ديناً ، فقام رجلان فقالا : هي علينا . فقال : لا يتبع بها اثنين لأنه يشق عليه . فقال واحد : هي علي . فقال : إن يونس بن متى رمى بنفسه في البحر فالتقمته الحوت ، وصار في قعر البحر في ظلمات ثلاث ونادى لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين

كما أخبر الله ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم حين جلس على الرفرف الأخضر وارتقى به صعداً حتى انتهى به إلى موضع يسمع فيه صريف الأقلام وناجاه ربه بما ناجاه به وأوحى إليه ما أوحى بأقرب إلى الله من يونس في ظلمة البحر .

قال المؤلف : فالله سبحانه قريب من عباده يسمع دعاءهم ، ولا يخفى عليه حالهم ، كيف ما تصرفت من غير مسافة بينه وبينهم ، فيسمع ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ، تحت الأرض السفلى ، كما يسمع ويرى تسبيح حملة عرشه من فوق السبع السموات العلى ، سبحانه لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ، ولقد أحسن أبو العلاء بن سليمان المغربي حيث يقول :

يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى مناط عروقها في لحمها والمخ في تلك العظام النحل

أجالها محتومة ، أرزاقها مقسومة بعطا ، وإن لم تسأل

فلقد سألتك بالنبي محمد الهاشمي المدثر المزمل

امنن علي بتوبة تمحو بها ما كان مني في الزمان الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التذكرة فى أحوال الموتى صـ 187.193 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾

في النفخة الأولى تموتون ، ثم في النفخة الثانية تُحْشَرُون ، والنفختان متجانستان ؛ ولكنه يخلق عند إحداهما إزهاق الأرواح ؛ وفي الأخرى حياة النفوس ، لِيُعْلَمَ أن النفخةَ لا تعمل شيئاً لعينها ، وإنما الجبَّارُ بقدرته يخلق ما يشاء .

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69)

نور يخلقه في القيامة فتشرق القيامةُ به ، وذلك عند تكوير الشمس وانكدار النجوم ، ويستضيء بذلك النور والإشراق قومٌ دون قوم . الكُفَّارُ يَبْقَوْن في الظلمات ، والمؤمنون نورُهم يسعى بين أيديهم .

ويقال اليومَ إشراق ، وغداً إشراق ، اليومَ إشراقُ القلبِ بحضوره ، وغداً إشراقُ الأرض بنور ربها . ويقال غداً أنوار التولّي للمؤمنين ، واليومَ أنوار التجلّي للعارفين .

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70)

إن كان خيراً فَخَيرٌ ، وإن كان غير خَيْر فغيرُ خير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 291.292 ﴾

(149/670)

قوله تعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الأغلب على هذه المقامات التحذير ، قدم في هذه التوفية حال أهل الغضب فقال : ﴿ وسبق ﴾ أي بأمر يسير من قبلنا بعد إقامة الحساب سوقاً عنيفاً ﴿ الذين كفروا ﴾ أي غطوا أنوار عقولهم ، فالتبست عليهم الأمور فضلوا ﴿ إلى جهنم ﴾ أي الدركة التي تلقاهم بالعبوسة كما تلقوا الأوامر والنواهي والقائمين بها بمثل ذلك ، فإن ذلك لازم لتغطية العقل ﴿ زمراً ﴾ أي جماعات في تفرقة بعضهم على إثر بعض – قاله أبو عبيد – أصنافاً

مصنفين ، كل شخص مع من يلائمه في الطريقة والزمرة ، مأخوذة من الزمر وهو صوت فيه التباس كالزمر المعروف لأن ذلك الصوت من لازم الجمع .

ولما كان إغلاق الباب المقصود عن قاصده دالاًّ على صغاره ، دل على أن أمرهم كذلك بقوله ذاكراً غاية السوق : ﴿ حتى إذ جاءوها ﴾ أي على صفة الذل والصغار ، وأجاب " إذا " بقوله : ﴿ فتحت أبوابها ﴾ أي بولغ كما يفعل في أبواب السجن لأهل الجرائم بعد تكاملهم عندها في الإسراع في فتحها ليخرج إليهم ما كان محبوساً بإغلاقها من الحرارة التي يلقاهم ذكاؤها وشرارها على حالة هي أمر من لقاء البهام التي اختاروها في الدنيا على تقبل ما خالف أهويتهم من حسن الكلام .

(150/670)

ولما كان المصاب ربما رجا الرحمة ، فإذا وجد من يبكته كان تبكيته أشد عليه مما هو فيه قال : ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ إنكاراً عليهم وتقريعاً وتوبيخاً : ﴿ ألم يأتكم رسل ﴾ ولما كان قيام الحجة بالمجانس أقوى قال واصفاً لرسل : ﴿ منكم ﴾ أي لتسهل عليكم مراجعتهم .

ولما كانت المتابعة بالتذكير أوقع في النفس قال آتياً بصفة أخرى معبراً بالتلاوة التي هي

أنسب لما يدور عليه مقصد السورة من العبادة لما للنفوس من النقائص الفقيرة إلى متابعة التذكير : ﴿ يتلون ﴾ أي يوالون ﴿ عليكم آيات ﴾ ولما كان أمر المحسن أخف على النفس فيكون أدعى إلى القبول قالوا : ﴿ ربكم ﴾ أي بالبشارة إن تابعتم .

ولما كان الإنذار أبلغ في الزجر قالوا : ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم ﴾ ولما كانت الإشارة أعلى في التشخيص قالوا : ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى يوم البعث كله ، أي من الملك الجبار إن نازعتم ، فالآية من الاحتباك : ذكر الرب أولاً دلالة على حذف الجبروت ثانياً والإنذار ثانياً دليلاً على البشارة أولاً ﴿ قالوا بلى ﴾ أي قد أتونا وتلوا علينا وحذرونا .

ولما كان عدم إقبالهم على الخلاص مما وقعوا فيه مع كونه يسيراً من أعجب العجب ، بينوا موجبه بقولهم : ﴿ ولكن حقت ﴾ أي وجبت وجوباً يطابقه الواقع ، لا يقدر معه على الانفكاك عنه ﴿ كلمة العذاب ﴾ أي التي سبقت في الأزل علينا – هكذا كان الأصل ، ولكنهم قالوا : ﴿ على الكافرين ﴾ تخصيصاً بأهل هذا الوصف وبياناً لأنه موجب دخولهم وهو تغطيتهم للأنوار التي أتتهم بها الرسل .

ولما فرغوا من إهانتهم بتبكيتهم ، أنكوهم بالأمر بالدخول ، وعبر بالمبني للمفعول إشارة ألى أنهم وصلوا إلى أقصى ما يكون من الذل بحيث إنهم يمتثلون قول كل قائل جل أو قل ، فقيل في جواب من كأنه قال : ماذا وقع بعد هذا التقريع ؟ : ﴿ قيل ﴾ أي لهم جواباً لكلامهم : ﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ أي طبقاتها المتجهمة لداخليها .

(151/670)

ولما كان الإخبار بالخلود حين الدخول أوجع لهم قالوا : ﴿ خالدين ﴾ أي مقدرين الخلود ﴿ فيها ﴾ ولما كان سبب كفرهم بالأدلة هو التكبر ، سبب عن الأمر بالدخول قوله معرى عن التأكيد لأنه يقال في الآخرة ولا تكذيب فيها يقتضي التأكيد ولم يتقدم منهم هنا كذب كالنحل بل اعتراف وتندم ﴿ فبئس مثوى ﴾ أي منزل ومقام ﴿ المتكبرين ﴾ أي الذين أوجب تكبرهم حقوق كلمة العذاب عليهم ، فلذلك تعاطوا أسبابها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 477.478 ﴾

(152/670)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل القيامة على سبيل الإجمال فقال : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ

مَّا عَمِلَتْ ﴾ [الزمر : 70] بين بعده كيفية أحوال أهل العقاب ، ثم كيفية أحوال أهل الثواب وختم السورة .

أما شرح أحوال أهل العقاب فهو المذكور في هذه الآية ، وهو قوله ﴿ وَسِيقَ الذين كَفَرُواْ إلى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ قال ابن زيدان : سوق الذين كفروا إلى جهنم يكون بالعنف والدفع ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور : 13] أي يدفعون دفعاً ، نظيره قوله تعالى : ﴿ فَلِذَلِكَ الذى يَدُعُّ اليتيم ﴾ [الماعون : 2] أي يدفعه ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ [مريم : 86] .

وأما الزمر ، فهي الأفواج المتفرقة بعض في أثر بعض ، فبين الله تعالى أنهم يساقون إلى جهنم فإذا جاءوها فتحت أبوابها ، وهذا يدل على أن أبواب جهنم إنما تفتح عند وصول أولئك إليها ، فإذا دخلوا جهنم قال لهم خزنة جهنم ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أي من جنسكم ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءايات رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ فإن قيل فلم أضيف اليوم إليهم ؟ قلنا أراد لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار ، لا يوم القيامة ، واستعمال لفظ اليوم والأيام في أوقات الشدة مستفيض ، فعند هذا تقول الكفار : بلى قد أتونا وتلوا علينا ﴿ ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ وفي هذه الآية مسألتان :

المسألة الأولى :

تقدير الكلام أنه حقت علينا كلمة العذاب ، ومن حقت عليه كلمة العذاب فكيف يمكنه

الخلاص من العذاب ، وهذا صريح في أن السعيد لا ينقلب شقياً ، والشقي لا ينقلب سعيداً ، وكلمات المعتزلة في دفع هذا الكلام معلومة ، وأجوبتنا عنها أيضاً معلومة .

المسألة الثانية :

(153/670)

دلت الآية على أنه لا وجوب قبل مجيء الشرع ، لأن الملائكة بينوا أنه ما بقي لهم علة ولا عذر بعد مجيء الأنبياء عليهم السلام ، ولو لم يكن مجيء الأنبياء شرطاً في استحقاق العذاب لما بقي في هذا الكلام فائدة ، ثم إن الملائكة إذا سمعوا منهم هذا الكلام قالوا فهم ﴿ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ قالت المعتزلة : لو كان دخولهم النار لأجل أنه حقت عليهم كلمة العذاب لم يبق لقول الملائكة ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ فائدة ، بل هذا الكلام إنما يبقى مقيداً إذا قلنا إنهم إنما دخلوا النار لأنهم تكبروا على الأنبياء ولم يقبلوا قولهم ، ولم يلتفتوا إلى دلائلهم ، وذلك يدل على صحة قولنا ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 19 ﴾

(154/670)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾

هذا بيان توفية كل نفس عملها ، فيساق الكافر إلى النار والمؤمن إلى الجنة .

والزُّمَر : الجماعات واحدتها زُمْرة كظُلْمة وغُرْفة .

وقال الأخفش وأبو عبيدة : ﴿ زُمَراً ﴾ جماعات متفرقة بعضها إثر بعض .

قال الشاعر :

وتَرى النَّاسَ إلى مَنْزِله . . .

زُمَراً تَنْتَابُه بعْدَ زُمَرْ

وقال آخر :

حتّى احْزَأَلَّتْ . . .

زُمَرٌ بعد زُمَرْ

وقيل : دفعاً وزجراً بصوت كصوت المزمار .

﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ جواب إذا ، وهي سبعة أبواب .

وقد مضى في "الحجر" .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ واحدهم خازن نحو سدنة وسادن ، يقولون لهم تقريعاً وتوبيخاً .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ أي الكتب المنزلة على الأنبياء .

﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ ﴾ أي يخوّفونكم ﴿ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا قَالُواْ بلى ﴾ أي قد جاءتنا ، وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم ﴿ ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ وهي قوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 119] .

﴿ قِيلَ ادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أي يقال لهم ادخلوا جهنم .

وقد مضى الكلام في أبوابها .

قال وهب : تستقبلهم الزبانية بمقامع من نار فيدفعونهم بمقامعهم ، فإنه ليقع في الدفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعة ومضر .

﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ تقدم بيانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(155/670)

وقال الآلوسى :

﴿ وَسِيقَ الذين كَفَرُواْ إلى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ الخ

تفصيل للتوفية وبيان لكيفيتها ، والفاء ليس بلازم ، والسوق يقتضي الحث على المسير

بعنف وإزعاج وهو الغالب ويشعر بالإهانة وهو المراد هنا أي سيقوا إليها بالعنف والإهانة أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة ، والزمر جمع زمرة قال الراغب : هي الجماعة القليلة ، ومنه قيل شاة زمرة قليلة الشعر ورجل زمر قليل المروءة ، ومنه اشتق الزمر ، والزمارة كناية عن الفاجرة ، وقال بعضهم . اشتقاق الزمرة من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أبوابها ﴾ ليدخلوها وكانت قبل مجيئهم غير مفتوحة فهي كسائر أبواب السجون لا تزال مغلقة حتى يأتي أصحاب الجرائم الذين يسجنون فيها فتفتح ليدخلوها فإذا دخلوها أغلقت عليهم ، و﴿ حتى ﴾ هي التي تحكي بعدها الجملة ، والكلام على إذا الواقعة بعدها قد مر في الانعام .

وقرأ غير واحد ﴿ فُتِحَتْ ﴾ بالتشديد ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أي من جنسكم تفهمون ما ينبؤنكم به ويسهل عليكم مراجعتهم .

وقرأ ابن هرمز ﴿ تأتكم ﴾ بتاء التأنيث ، وقرىء ﴿ نَّذْرٍ مِّنكُمْ ﴾ ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءايات رَبِّكُمْ ﴾ المنزلة لمصلحتكم ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ أي وقتكم هذا وهو وقت دخولكم النار لأن المنذر به في الحقيقة العذاب ووقته ، وجوز أن يراد به يوم القيامة والآخرة لاشتماله على هذا الوقت أو على ما يختص بهم من عذابه وأهواله ، ولا

ينافيه كونه في ذاته غير مختص بهم ؛ والإضافة لامية تفيد الاختصاص لأنه يكفي للاختصاص ما ذكر ، نعم الأول أظهر فيه .

واستدل بالآية على أنه لا تكليف قبل الشرع لأنهم ويخوهم بكفرهم بعد تبليغ الرسل للشرائع وإنذارهم ولو كان قبح الكفر معلوماً بالعقل دون الشرع لقيل .

(156/670)

ألم تعلموا بما أودع الله تعالى فيكم من العقل قبح كفركم ، ولا وجه لتفسير الرسل بالعقول لإباء الأفعال المستندة إليها عن ذلك ، نعم هو دليل إقناعي لأنه إنما يتم على اعتبار المفهوم وعموم الذين كفروا وكلاهما محل نزاع ، وقيل في وجه الاستدلال : إن الخطاب للداخلين عموماً يقتضي أنهم جميعاً أنذرهم الرسل ولو تحقق تكليف قبل الشرع لم يكن الأمر كذلك . وتعقب بأن للخصم أن لا يسلم العموم ، ولمن قال بوجوب الإيمان عقلاً أن يقول : إنما وبخوهم بالكفر بعد التبليغ لأنه أبعد عن الاعتذار وأحق بالتوبيخ والإنكار ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ قد أتانا رسل منا تلواً علينا آيات ربنا وأنذرونا لقاء يومنا هذا ﴿ ولكن حَقَّتْ ﴾ أي وجبت ﴿ كَلِمَةُ العذاب ﴾ أي كلمة الله تعالى المقتضية له ﴿ عَلَى الكافرين ﴾ والمراد بها الحكم عليهم بالشقاوة وأنهم من أهل النار لسوء اختيارهم أو قوله تعالى لإبليس : ﴿ لاَمْلاَنَّ

جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 85] ووضعوا الكافرين موضع ضميرهم للإيماء إلى علية الكفر ، والكلام اعتراف لا اعتذار .

﴿ قِيلَ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا ﴾ أي مقدراً خلودكم فيها ، والقائل يحتمل أن يكون الخزنة وترك ذكرهم للعلم به مما قبل ، ويحتمل أن يكون غيرهم ولم يذكر لأن المقصود ذكر هذا المقول المهول من غير نظر إلى قائله ؛ وقال بعض الأجلة : أبهم القائل لتهويل المقول .

(157/670)

﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ أل فيه سواء كانت حرف تعريف أم اسم موصول للجنس وفاءً بحق فاعل باب نعم وبئس والمخصوص بالذم محذوف ثقة بذكره آنفاً أي فبئس مثواهم جهنم والتعبير بالمثوى لمكان ﴿ خالدين ﴾ وفي التعبير بالمتكبرين إيماءً إلى أن دخولهم النار لتكبرهم عن قبول الحق والانقياد للرسل المنذرين عليهم الصلاة والسلام وهو في معنى التعليل بالكفر ، ولا ينافي تعليل ذلك بسبق كلمة العذاب عليهم لأن حكمه تعالى وقضاءه سبحانه عليهم بدخول النار ليس إلا بسبب تكبرهم وكفرهم لسوء اختيارهم المعلوم له سبحانه في الأزل ، وكذا قول عز وجل ﴿ لأملأن ﴾ [ص : 85] فهناك سببان قريب

وبعيد والتعليل بأحدهما لا ينافي التعليل بآخر فتذكر وتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(158/670)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ اللهُ خالقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾

من الأشياء الموجودة في الدنيا ، والآخرة كائناً ما كان من غير فرق بين شيء ، وشيء وقد تقدّم تفسير هذه الآية في الأنعام ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي : الأشياء كلها موكولة إليه ، فهو : القائم بحفظها ، وتدبيرها من غير مشارك له .

﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ المقاليد ، واحدها مقليد ، ومقلاد ، أو لا واحد له من لفظه كأساطير ، وهي : مفاتيح السماوات ، والأرض ، والرزق ، والرحمة .

قاله مقاتل ، وقتادة ، وغيرهما .

وقال الليث : المقلاد الخزانة ، ومعنى الآية : له خزائن السماوات ، والأرض ، وبه قال الضحاك ، والسدّي .

وقيل : خزائن السماوات المطر ، وخزائن الأرض النبات .

وقيل : هي عبارة عن قدرته سبحانه ، وحفظه لها ، والأوّل أولى .

قال الجوهري : الإقليد المفتاح ، ثم قال : والجمع المقاليد .

وقيل : هي لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

وقيل غير ذلك .

﴿ والذين كَفَرُواْ بئايات الله أُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ أي : بالقرآن ، وسائر الآيات الدالة على الله سبحانه ، وتوحيده ، ومعنى الخاسرون : الكاملون في الخسران ؛ لأنهم صاروا بهذا الكفر إلى النار .

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون ﴾ الاستفهام للإنكار التوبيخي ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، و ﴿ غير ﴾ منصوب ب ﴿ أعبد ﴾ ، وأعبد معمول ؛ ل ﴿ تأمروني ﴾ على تقدير أن المصدرية ، فلما حذفت بطل عملها ، والأصل : أفتأمروني أن أعبد غير الله .

قاله الكسائي ، وغيره .

ويجوز أن يكون غير منصوباً بتأمروني ، وأعبد بدل منه بدل اشتمال ، وأن مضمرة معه أيضاً .

ويجوز أن يكون غير منصوبة بفعل مقدر ، أي : أفتلزموني غير الله ، أي : عبادة غير الله ، أو أعبد غير الله أعبد .

(159/670)

أمره الله سبحانه أن يقول هذا للكفار لما دعوه إلى ما هم عليه من عبادة الأصنام ، وقالوا : هو دين آبائك .

قرأ الجمهور : ﴿ تأمروني ﴾ بإدغام نون الرفع في نون الوقاية على خلاف بينهم في فتح الياء ، وتسكينها .

وقرأ نافع : (تأمروني) بنون خفيفة ، وفتح الياء ، وقرأ ابن عامر : (تأمرونني) بالفك ، وسكون الياء .

﴿ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ ﴾ أي : من الرسل ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ هذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل ، لأن الله سبحانه قد عصمهم عن الشرك ، ووجه إيراده على هذا الوجه التحذير ، والإنذار للعباد من الشرك ، لأنه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء على الفرض ، والتقدير ، فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولى .

قيل : وفي الكلام تقديم ، وتأخير ، والتقدير : ولقد أوحي إليك لئن أشركت ، وأوحي إلى الذين من قبلك كذلك .

قال مقاتل : أي أوحي إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد والتوحيد محذوف ، ثم قال : لئن أشركت يا محمد ؛ ليحبطن عملك ، وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة .

وقيل : إفراد الخطاب في قوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ باعتبار كل واحد من الأنبياء كأنه قيل : أوحي إليك ، وإلى كل واحد من الأنبياء هذا الكلام ، وهو : لئن أشركت ، وهذه الآية مقيدة بالموت على الشرك كما في الآية الأخرى ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ [البقرة : 217] وقيل : هذا خاص بالأنبياء ؛ لأن الشرك منهم أعظم ذنباً من الشرك من غيرهم ، والأوّل أولى ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بتوحيده ، فقال : ﴿ بَلِ الله فاعبد ﴾ ، وفي هذا ردّ على المشركين حيث أمروه : بعبادة الأصنام .

ووجه الردّ ما يفيده التقديم من القصر .

(160/670)

قال الزجاج: لفظ اسم الله منصوب ب ﴿ اعبد ﴾ قال: ولا اختلاف في هذا بين البصريين، والكوفيين.

وقال الفراء: هو منصوب بإضمار فعل، وروي مثله عن الكسائي، والأوّل أولى.

قال الزجاج: والفاء في: ﴿ فاعبد ﴾ للمجازاة.

وقال الأخفش: زائدة.

قال عطاء، ومقاتل: معنى ﴿ فاعبد ﴾: وحد، لأن عبادته لا تصح إلا بتوحيده ﴿ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ﴾ لإنعامه عليك بما هداك إليه من التوحيد، والدعاء إلى دينه، واختصك به من الرسالة.

﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ قال المبرد: أي ما عظموه حق عظمته، من قولك فلان عظيم القدر، وإنما وصفهم بهذا؛ لأنهم عبدوا غير الله، وأمروا رسوله بأن يكون مثلهم في الشرك.

وقرأ الحسن، وأبو حيوة، وعيسى بن عمر: "قدّروا" بالتشديد ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة ﴾ القبضة في اللغة ما قبضت عليه بجميع كفك، فأخبر سبحانه: عن عظيم قدرته بأن الأرض كلها مع عظمها، وكثافتها في مقدوره كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه كما يقولون: هو في يد فلان، وفي قبضته للشيء الذي يهون عليه التصرّف فيه، وإن لم يقبض عليه، وكذا قوله: ﴿ والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾، فإن ذكر اليمين

للمبالغة في كمال القدرة كما يطوي الواحد منا الشيء المقدور له طيه بيمينه ، واليمين في كلام العرب قد تكون بمعنى : القدرة ، والملك .

قال الأخفش : بيمينه يقول : في قدرته ، نحو قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أيمانكم ﴾ [النساء : 3] أي : ما كانت لكم قدرة عليه ، وليس الملك لليمين دون الشمال ، وسائر الجسد ، ومنه له سبحانه : ﴿ لأخَذْنَا مِنْهُ باليمين ﴾ [الحاقة : 45] أي : بالقوّة ، والقدرة ، ومنه قول الشاعر :

إذا ما راية نصبت لمجد . . . تلقاها عرابة باليمين

وقول الآخر :

ولما رأيت الشمس أشرق نورها . . . تناولت منها حاجتي بيمين

وقول الآخر :

عطست بأنف شامخ وتناولت . . . يداي الثريا قاعداً غير قائم

(161/670)

وجملة : ﴿ والارض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : ما عظموه حق تعظيمه ، والحال أنه متصف بهذه الصفة الدالة على كمال القدرة .

قرأ الجمهور برفع : ﴿ قبضته ﴾ على أنها خبر المبتدأ ، وقرأ الحسن بنصبها ، ووجهه ابن خالويه بأنه على الظرفية ، أي : في قبضته .

وقرأ الجمهور : ﴿ مطويات ﴾ بالرفع على أنها خبر المبتدأ ، والجملة في محل نصب على الحال كالتي قبلها ، و ﴿ بيمينه ﴾ متعلق ب ﴿ مطويات ﴾ ، أو حال من الضمير في ﴿ مطويات ﴾ ، أو خبر ثانٍ ، وقرأ عيسى ، والجحدري بنصب : (مطويات) ، ووجه ذلك : أن ﴿ السموات ﴾ معطوفة على ﴿ الأرض ﴾ ، وتكون ﴿ قبضته ﴾ خبراً عن الأرض ، والسموات ، وتكون ﴿ مطويات ﴾ حالاً ، أو تكون ﴿ مطويات ﴾ منصوبة بفعل مقدّر ، و ﴿ بيمينه ﴾ الخبر ، وخصّ يوم القيامة بالذكر ، وإن كانت قدرته شاملة ، لأن الدعاوي تنقطع فيه كما قال سبحانه : ﴿ الملك يَوْمَئِذٍ للَّهِ ﴾ [الحج : 56] ، وقال : ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] ، ثم نزّه سبحانه نفسه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به من المعبودات التي يجعلونها شركاء له مع هذه القدرة العظيمة ، والحكمة الباهرة .

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ هذه هي : النفخة الأولى ، والصور هو : القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ، وقد تقدّم غير مرة ، ومعنى صعق : زالت عقولهم ، فخرّوا مغشياً عليهم .

وقيل : ماتوا .

قال الواحدي : قال المفسرون : مات من الفزع ، وشدة الصوت أهل السموات ، والأرض .

قرأ الجمهور : ﴿ الصور ﴾ بسكون الواو ، وقرأ قتادة ، وزيد بن علي بفتحها جمع صورة ، والاستثناء في قوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ متصل ، والمستثنى جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل .

(162/670)

وقيل : رضوان ، وحملة العرش ، وخزنة الجنة ، والنار ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخرى ﴾ يجوز أن يكون ﴿ أخرى ﴾ في محل رفع على النيابة ، وهي صفة لمصدر محذوف ، أي : نفخة أخرى ، ويجوز أن يكون في محل نصب ، والقائم مقام الفاعل فيه ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ يعني : الخلق كلهم قيام على أرجلهم ينظرون ما يقال لهم ، أو ينتظرون ذلك .

قرأ الجمهور : ﴿ قيام ﴾ بالرفع على أنه خبر ، و ﴿ ينظرون ﴾ في محل نصب على الحال ، وقرأ زيد بن عليّ بالنصب على أنه حال ، والخبر : ﴿ ينظرون ﴾ ، والعامل في الحال ما عمل في إذا الفجائية .

قال الكسائي : كما تقول خرجت ، فإذا زيد جالساً .

﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ الإشراق الإضاءة ، يقال : أشرقت الشمس : إذا

أضاءت ، وشرقت : إذا طلعت ، ومعنى ﴿ بنور ربها ﴾ : بعدل ربها ، قاله الحسن ، وغيره .

وقال الضحاك : بحكم ربها ، والمعنى : أن الأرض أضاءت ، وأنارت بما أقامه الله من العدل بين أهلها ، وما قضى به من الحق فيهم ، فالعدل نور ، والظلم ظلمات .

وقيل : إن الله يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض ، فتشرق به غير نور الشمس ، والقمر ، ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي ، فإن الله سبحانه هو : نور السماوات ، والأرض .

قرأ الجمهور : ﴿ أشرقت ﴾ مبنياً للفاعل ، وقرأ ابن عباس ، وأبو الجوزاء ، وعبيد بن عمير على البناء للمفعول ﴿ ووضع الكتاب ﴾ قيل : هو : اللوح المحفوظ .

وقال قتادة : يعني : الكتب ، والصحف التي فيها أعمال بني آدم ، فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله ، وكذا قال مقاتل .

(163/670)

وقيل : هو من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه ، أي : وضع الكتاب للحساب ﴿ وَجِيء بالنبيين ﴾ أي : جيء بهم إلى الموقف ، فسئلوا عما أجابتهم به أممهم ﴿ والشهداء

﴿ الذين يشهدون على الأمم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما في قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس ﴾ [البقرة : 143] ، وقيل : المراد بالشهداء : الذين استشهدوا في سبيل الله ، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبّ عن دين الله .

وقيل : هم الحفظة كما قال تعالى : ﴿ وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : 21] ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحق وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أي : وقضي بين العباد بالعدل ، والصدق ، والحال أنهم لا يظلمون ، أي : لا ينقصون من ثوابهم ، ولا يزاد على ما يستحقونه من عقابهم ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ من خير ، وشرّ ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ في الدنيا لا يحتاج إلى كاتب ، ولا حاسب ، ولا شاهد ، وإنما وضع الكتاب ، وجيء بالنبيين ، والشهداء لتكميل الحجة ، وقطع المعذرة .

ثم ذكر سبحانه تفصيل ما ذكره من توفية كل نفس ما كسبت ، فقال : ﴿ وَسِيقَ الذين كَفَرُواْ إلى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ أي : سيق الكافرون إلى النار حال كونهم زمراً ، أي : جماعات متفرّقة بعضها يتلو بعضاً .

قال أبو عبيدة ، والأخفش : زمراً جماعات متفرّقة بعضها إثر بعض ، ومنه قول الشاعر :

وترى الناس إلى أبوابه . . . زمراً تنتابه بعد زمر

واشتقاقه من الزمر ، وهو : الصوت ، إذ الجماعة لا تخلو عنه ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءوهَا فُتِحَتْ أبوابها ﴾ أي : فتحت أبواب النار ، ليدخلوها ، وهي : سبعة أبواب ، وقد مضى بيان ذلك في سورة الحجر ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ جمع خازن نحو سدنة ، وسادن ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أي : من أنفسكم ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءايات رَبِّكُمْ ﴾ التي أنزلها عليهم ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ أي : يخوّفونكم لقاء هذا اليوم الذي صرتم فيه ، قالوا لهم هذا القول تقريعاً ، وتوبيخاً ، فأجابوا بالاعتراف ، ولم يقدروا عل الجدل الذي كانوا يتعللون به في الدنيا لانكشاف الأمر ، وظهوره ، ولهذا قالوا ﴿ بلى ﴾ أي : قد أتتنا الرسل بآيات الله ، وأنذرونا بما سنلقاه ﴿ ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ ، وهي : ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : 13] فلما اعترفوا هذا الاعتراف قيل ﴿ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ ﴾ التي قد فتحت لكم ؛ لتدخلوها .

وانتصاب ﴿ خالدين ﴾ على الحال ، أي : مقدّرين الخلود ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ المخصوص بالذمّ محذوف ، أي : بئس مثواهم جهنم ، وقد تقدّم تحقيق المثوى في غير موضع .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ قال : مفاتيحها .

وأخرج أبو يعلى ، ويوسف القاضي في سننه ، وأبو الحسن القطان ، وابن السني ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن عثمان بن عفان قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله : ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ﴾ ، فقال لي :

(165/670)

" يا عثمان لقد سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك ، مقاليد السموات ، والأرض : لا إله إلاّ الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، وأستغفر الله الذي لا إله إلاّ هو ، الأوّل ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، يحيي ، ويميت ، وهو حيّ لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شيءٍ قدير " ، ثم ذكر فضل هذه الكلمات .

وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ، عن عثمان قال : جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أخبرني عن مقاليد السماوات ، والأرض ، فذكره .

وأخرجه الحارث بن أبي أسامة ، وابن مردويه عن أبي هريرة ، عن عثمان .

وأخرجه العقيلي ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر ، عن عثمان .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس : أن قريشاً دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه مالاً ، فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوّجوه ما أراد من النساء ، ويطأون عقبه ، فقالوا

له : هذا لك يا محمد ، وتكفّ عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء .

قال : " حتى أنظر ما يأتيني من ربي " فجاء بالوحي : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] إلى آخر السورة ، وأنزل الله عليه : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون ﴾ إلى قوله : ﴿ مّنَ الخاسرين ﴾ .

(166/670)

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد إنا نجد أن الله يحمل السماوات يوم القيامة على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة ﴾ ، وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما من حديث أبي هريرة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ " وفي الباب أحاديث ، وآثار تقتضي حمل الآية على ظاهرها من دون تكلف لتأويل ، ولا تعسف لقال وقيل .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رجل من اليهود بسوق المدينة : والذي اصطفى موسى على البشر ، فرفع رجل من الأنصار يده ، فلطمه ، فقال : أتقول هذا وفينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " قال الله : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السموات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَاء الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ، فأكون أوّل من يرفع رأسه ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أرفع رأسه قبلي ، أو كان ممن استثنى الله "

وأخرج أبو يعلى ، والدارقطني في الإفراد ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ قال : " هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول عرشه تتلقاهم الملائكة يوم القيامة " الحديث .

وأخرجه سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد من أقوال أبي هريرة .

(167/670)

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وأبو نصر السجزي في الإبانة ، وابن مردويه عن أنس : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ ، فقال : " جبريل ، وميكائيل ، وملك الموت ، وإسرافيل ، وحملة العرش " وأخرج ابن المنذر عن جابر في قوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ قال : موسى ، لأنه كان صعق قبل .

والأحاديث الواردة في كيفية نفخ الصور كثيرة .

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَجِيء بالنبيين والشهداء ﴾ قال : النبيين الرسل ، والشهداء الذين يشهدون لهم بالبلاغ ليس فيهم طعان ، ولا لعان .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عنه في الآية قال : يشهدون بتبليغ الرسالة ، وتكذيب الأمم إياهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(168/670)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾

هذا تنفيذ القضاء الذي جاء في قوله : ﴿ وقُضي بينهم بالحق ﴾ [الزمر : 69] وقوله : ﴿ وَوُفيت كل نفسٍ ما عملت ﴾ [الزمر : 70] ، فإن عاقبة ذلك ونتيجته إيداع

المجرمين في العقاب وإيداع الصالحين في دار الثواب .

وابتدىء في الخَبر بذكر مستحقي العقاب لأنه الأهم في هذا المقام إذ هو مقام إعادة الموعظة والترهيب للذين لم يتعظوا بما تكرر في القرآن من العظات مثل هذه فأما أهل الثواب فقد حصل المقصود منهم فما يذكر عنهم فإنما هو تكريرُ بشارة وثناء .

والسَّوق : أن يجعل الماشي ماشياً آخر يسير أمامه ويلازمه ، وضدّه القَود ، والسوْق مشعر بالإزعاج والإهانة ، قال تعالى : ﴿ كأنما يساقون إلى الموت ﴾ [الأنفال : 6] .

والزُّمَر : جَمع زُمْرة ، وهي الفوج من الناس المتبوعُ بفوج آخر ، فلا يقال : مرت زمرة من الناس ، إلاّ إذا كانت متبوعة بأخرى ، وهذا من الألفاظ التي مدلولها شيء مقيّد .

وإنما جُعلوا زمراً لاختلاف دَرَجات كفرهم ، فإن كان المراد بالذين كفروا مشركي قريش المقصودين بهذا الوعيد كان اختلافهم على حسب شدة تصلبهم في الكفر وما يخالطه من حَدَب على المسلمين أو فظاظة ، ومن محايدة للنبيء صلى الله عليه وسلم أو أَذىً ، وإن كان المراد بهم جميع أهل الشرك كما تقتضيه حكاية الموقف مع قوله : ﴿ ألم يأتكم رُسُل ﴾ كان تعدد زمرهم على حسب أنواع إشراكهم .

و﴿ حتى ﴾ ابتدائية و﴿ إذا ﴾ ظرف لزمَان المستقبل يضمّن معنى الشرط غالباً ، أي سيقوا سوقاً ملازماً لهم بشدته متصل بزمن مجيئهم إلى النار .

وجملة ﴿ فتحت ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ لأنها ضمنت معنى الشرط وأغنى ذكر ﴿ إذا

﴿ عن الإِتيان بـ (لمّا) التوقيتية ، والتقدير : فلما جاءوها فتحت أبوابها ، أي وكانت مغلقة لتفتح في وجوههم حين مجيئهم فجأة تهويلاً ورعباً .

وقرأ الجمهور ﴿ فُتِّحَتْ بتشديد التاء للمبالغة في الفتح .

(169/670)

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف التاء على أصل الفعل .

والخزَنة : جمع خازن وهو الوكيل والبوّاب غلب عليه اسم الخازن لأنه يقصد لخزن المال .

والاستفهام الموجه إلى أهل النار استفهام تقريري مستعمل في التوبيخ والزجر كما دل عليه قولهم بعده : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبِئس مثوى المتكبرين ﴾ .

و﴿ منكم ﴾ صفة ل ﴿ رسل ، ﴾ والمقصود من الوصف التورك عليهم لأنهم كانوا يقولون : ﴿ أبشراً منا واحداً نتبعه ﴾ [القمر : 24] ، والتلاوة : قراءة الرسالة والكتاب لأن القارىء يتلو بعض الكلام ببعض ، وأصل الآيات : العلامات مثل آيات الطريق .

وأطلقت على الأقوال الدالة على الحق ، والمراد بها هنا الأقوال الموحى بها إلى الرسل مثل صحف إبراهيم وموسى والقرآن ، وأخصُّها باسم الآيات هي آيات القرآن لأنها استكملت كُنه الآيات باشتمالها على عظم الدلالة على الحق وإذ هي معجزات بنظمها

ولفظها ، وما عداه يسمى آيات على وجه المشاكلة كما في حديث الرجم : أن اليهودي الذي أحضر التوراة وضع يده على آية الرجم ، ولأن في معاني كثير من القرآن والكتب السماوية ما فيه دلائل نظرية على الوحدانية والبعث ونحوها من الاستدلال .

وأسندت التلاوة إلى جميع الرسل وإن كان فيهم من ليس له كتاب ، على طريقة التغليب .

وإضافة (يوم) إلى ضمير المخاطبين باعتبار كونهم فيه كقول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع " كحُرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا " فالإضافة قائمة مقام التعريف بـ (أل) العهدية .

وجوابهم بحرف ﴿ بلى ﴾ إقرار بإبطال المنفي وهو إتيان الرسل وتبليغهم فمعناه إثبات إتيانِ الرسل وتبليغِهم .

وكلمة ﴿ العذاب ﴾ هي الوعيد به على ألسنة الرسل كما في قول بعضهم في الآية الأخرى : ﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ﴾ [الصافات : 31] أي تحققت فينا ، فالتعريف في كلمة ﴿ العذاب ﴾ تعريف الجنس لإِضافتها إلى معرفة بلام الجنس ، أي كلمات .

(170/670)

ومحل الاستدراك هو ما طوي في الكلام مما اقتضى أن تَحق عليهم كلمات الوعيد ، وذلك بإعراضهم من الإِصغاء لأمر الرسل ، فالتقدير : ولكن تَكَبَّرْنا وعانَدْنَا فحقت كلمة العذاب على الكافرين ، وهذا الجواب من قبيل جواب المتندم المكروب فإنه يوجز جوابه ويقول لسائله أو لائمة : الأمرُ كما تَرى .

ولم يعطف فعل ﴿ قالوا ﴾ على ما قبله لأنه جاء في معرض المقاولة كما تقدم غير مرة انظر قوله تعالى : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ إلى قوله : ﴿ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [البقرة : 30] .

(وفعل ﴿ قيل ﴾ مبني للنائب للعلم بالفاعل إذ القائل : ادخلوا أبواب جهنم ، هم خزنتها . ودخول الباب : وُلوجه لوصول ما وراءه قال تعالى : ﴿ ادخلوا عليهم الباب ﴾ [المائدة : 23] أي لِجُوا الأرضَ المقدسة ، وهي أَرِيحا .

والمَثْوَى : محل الثواء وهو الإقامة ، والمخصوص بالذم محذوف دل عليه ما قبله والتقدير : بئس مثوى المتكبرين جهنمُ ووصفوا بـ ﴿ المتكبرين ﴾ لأنهم أعرضوا عن قبول الإسلام تكبراً عن أن يتبعوا واحداً منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(171/670)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾

الكفار يُسَاقُون إلى النار عنفاً ، والمؤمنون يُسَاقون إلى الجنة لُطْفاً ؛ فالسَّوَقُ يجمع الجنسين . . . ولكن شتان بين سَوْقٍ وسَوْق !

فإذا جاء الكفارُ قابلهم خَزَنَةُ النار بالتوبيخ والعتاب والتأنيب ؛ فلا تكريمَ ولا تعظيم ، ولا سؤال ولا استقبال . . . بل خِزْيٌ وهونٌ ، ومن كل جنسٍ من العذاب ألوان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 292 ﴾

(172/670)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والسبعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/671)

الجزء الحادى والسبعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 73 ﴾ من سورة الزمر

وحتى الآية ﴿ 75 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/671)

قوله تعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر أحوال الكافرين ، أتبعه أحوال أضدادهم فقال : ﴿ وسيق ﴾ وسوقهم إلى المكان الطيب يدل على أن موقفهم كان طيباً لأن من كان في أدنى نكد فهيئ له مكان هنيء لا يحتاج في الذهاب إليه إلى سوق ، فشتان ما بين السوقين ! هذا سوق إكرام ، وذاك سوق إهانة وانتقام ، وهذا لعمري من بدائع أنواع البديع ، وهو أن يأتي سبحانه بكلمة في حق الكفار فتدل على هوانهم بعقابهم ، ويأتي بتلك الكلمة بعينها وعلى هيئتها في حق الأبرار فتدل على إكرامهم بحسن ثوابهم ، فسبحان من أنزله معجز المباني ، متمكن المعاني ، عذب الموارد والمثاني .

(5/671)

ولما كان هذا ليس لجميع السعداء بل للخلص منهم ، دل على ذلك بقوله : ﴿ الذين اتقوا ﴾ أي لا جميع المؤمنين ﴿ ربهم ﴾ أي الذين كلما زادهم إحساناً زادوا له هيبة ، روى أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : " يوماً كان مقداره خمسين ألف سنة ، فقيل : ما أطول هذا اليوم ؟ قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة " وروى الطبراني وابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " تجتمعون يوم القيامة " – فذكر الحديث حتى قال : " قالوا : فأين المؤمنون يومئذ ؟ قال : توضع لهم كراسي من نور ويظلل عليهم الغمام يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار " ويمكن أن يكون السوق إشارة إلى قسر المقادير للفريقين على الأفعال التي هي أسباب الدارين ﴿ إلى الجنة زمراً ﴾ أهل الصلاة المنقطعين إليها المستكثرين منها على حدة ، وأهل الصوم كذلك – إلى غير من الأعمال التي تظهر آثارها على الوجوه .

ولما ذكر السوق ، ذكر غايته بقوله : ﴿ حتى إذا جاءوها ﴾ ولما كان إغلاق الباب عن الآتي يدل على تهاون به ، وفي وقوفه إلى أن يفتح له نوع هوان قال : ﴿ وفتحت ﴾ أي والحال أنها قد فتحت ﴿ أبوابها ﴾ أي إكراماً لهم قبل وصولهم إليها بنفس الفتح وبما يخرج

إليهم من رائحتها ، ويرون من زهرتها وبهجتها ، ليكون ذلك لهم سائقاً ثانياً إلى ما لم يروا مثله ولا رأوا عنه ثانياً .

ولما ذكر إكرامهم بأحوال الدار ، ذكر إكرامهم بالخزنة الأبرار ، فقال عطفاً على جواب " إذا " بما تقديره : تلقتهم خزنتها بكل ما يسرهم : ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ أي حين الوصول : ﴿ سلام عليكم ﴾ تعجيلاً للمسرة لهم بالبشارة بالسلامة التي لا عطب فيها .

(6/671)

ولما كانت داراً لا تصلح إلا للمطهرين قالوا : ﴿ طبتم ﴾ أي صلحتم لسكناها ، فلا تحول لكم عنها أصلاً ، ثم سببوا عن ذلك تنبيهاً على أنها دار الطيب ، فلا يدخلها إلا مناسب لها ، قولهم : ﴿ فادخلوها ﴾ فأنتج ذلك ﴿ خالدين ﴾ ولعل فائدة الحذف لجواب " إذا " أن تذهب النفس فيه من الإكرام كل مذهب وتعلم أنه لا محيط به الوصف ، ومن أنسب الأشياء أن يكون دخولهم من غير مانع من إغلاق باب أو منع بواب ، بل مأذوناً لهم مرحباً بهم إلى ملك الأبد .

ولما كان التقدير : فدخلوها ، عطف عليه قوله : ﴿ وقالوا ﴾ أي جميع الداخلين : ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال ، وعدلوا إلى الاسم الأعظم حثاً لأنفسهم

على استحضار جميع ما تمكنهم معرفته من الصفات فقالوا : ﴿ لله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ الذي صدقنا وعده ﴾ في قوله تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً فطابق قوله الواقع الذي وجدناه في هذه الساعة ﴿ وأورثنا ﴾ كما وعدنا ﴿ الأرض ﴾ التي لا أرض في الحقيقة غيرها وهي أرض الجنة التي لا كدر فيها بوجه وفيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، بأن جعل حالنا فيها في تمام الملك وعدم التسبب في الحقيقة فيه حال الوارث الذي هو بعد موروثه ولا شيء بعده ولا منازع له حال كوننا ﴿ نتبوأ ﴾ أي نتخذ منازل هي أهل لمن خرج منها أن يشتهي العود إليها ، وبينوا الأرض بقولهم في موضع الضمير : ﴿ من الجنة ﴾ أي كلها ﴿ حيث نشاء ﴾ لاتساعها فلا حاجة لأحد فيها أن ينازع أحداً في مكان أصلاً ، ولا يشتهي إلا مكانه .

ولما كانت بهذا الوصف الجليل ، تسبب عنه مدحها بقوله : ﴿ فنعم ﴾ أجرنا - هكذا كان الأصل ، ولكنه قال : ﴿ أجر العاملين ﴾ ترغيباً في الأعمال وحثاً على عدم الاتكال .

(7/671)

ولما ذكر سبحانه الذين ركب فيهم الشهوات ، وما وصلوا إليه من المقامات ، أتبعهم أهل الكرامات الذين لا شاغل لهم عن العبادات ، فقال صارفاً الخطاب لعلو الخبر إلى أعلى الخلق أنه لا يقوم بحق هذه الرؤية غيره : ﴿ وترى ﴾ معبراً بأخص من الإبصار الأخص من النظر كما بين في البقرة في قوله تعالى ﴿ وإن القوة لله جميعاً ﴾ [البقرة : 165]

﴿ الملائكة ﴾ القائمين بجميع ما عليهم من الحقوق ﴿ حافين ﴾ أي محدقين ومستديرين وطائفين في جموع لا يحصيها إلا الله .

من الحف وهو الجمع ، والحفة وهو جماعة الناس ، والأعداد الكثيرة ، وهو جمع حاف ، وهو الواحد من الجماعة المحدقة .

ولما كان عظيم الشيء من عظم صاحبه ، وكان لا يحيط بعظمة العرش حق الإحاطة إلا الله تعالى ، أشار إلى ذلك بإدخال الجار فقال : ﴿ من حول العرش ﴾ أي الموضع الذي يدار فيه به ويحاط به منه ، من الحول وهو الإحاطة والانعطاف والإدارة .

محدقين ببعض أحفته أي جوانبه التي يمكن الحفوف بها بالقرب منها يسمع لحفوفهم صوت بالتسبيح والتحميد والتقديس والاهتزاز خوفاً من ربهم ، فإدخال ﴿ من ﴾ يفهم أنهم مع كثرتهم إلى حد لا يحصيه إلا الله ، لا يملؤون ما حوله ، حال كونهم ﴿ يسبحون بحمد ﴾ وصرف القول إلى وصف الإحسان مدحاً لهم بالتشمير لشكر المنعم وتدريباً لغيرهم فقال : ﴿ ربهم ﴾ أي يبالغون في التنزيه عن النقص بأن يتوهم متوهم أنه محتاج إلى عرش أو غيره

، وأن يحويه مكان متلبسين بإثبات الكمال للمحسن إليهم بإلزامهم بالعبادة من غير شاغل يشغلهم ، ولا منازع من شهوة أو حظ يغفلهم ، تلذذاً بذكره وتشرفاً بتقديسه ، ولأن حقه إظهار تعظميه على الدوام كما أنه متصل الإنعام .

ولما تقدم ذكر الحكم بين أهل الشهوات بما برز عليهم من الشهادات ، ذكر هنا الحكم بينهم وبين الملائكة الذين فاضوا في أصل خلقهم بقولهم ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ الآية فقال : ﴿ وقضى بينهم ﴾ أي بين أهل الشهوات وأهل العصمة والثبات .

(8/671)

ولما كان السياق عاماً في الترغيب والترهيب عدلاً وفضلاً ، بخلاف سياق سورة يونس عليه السلام ، قال : ﴿ بالحق ﴾ بأن طوبق بما أنزلنا فيهم في الكتب التي وضعناها لحسابهم الواقع ، فمن طغى منهم أسكناه لظى بعدلنا ، ومن اتقى نعمناه في جنة المأوى بفضلنا ، لجهادهم ما فيهم من الشهوات حتى ثبتوا على الطاعات ، مع ما ينزعهم من الطبائع إلى الجهالات ، وأما الملائكة فأبقيناهم على حالهم في العبادات : ﴿ وقيل ﴾ أي من كل قائل : آخر الأمور كلها ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بجميع أوصاف الكمال ، وعدل بالقول إلى ما هو حق بهذا المقام فقال : ﴿ لله ﴾ ذي الجلال والإكرام ، علمنا ذلك في هذا

اليوم عمل اليقين كما كنا في الدنيا نعلمه علم اليقين .

ولما كان ذلك اليوم أحق الأيام بمعرفة شمول الربوبية لاجتماع الخلائق وانفتاح البصائر وسعة الضمائر ، قال واصفاً له سبحانه بأقرب الصفات إلى الاسم الأعظم : ﴿ رب العالمين ﴾ أي الذي ابتدأهم ، أولاً من العدم وأقامهم ثانياً بما رباهم به من التدبير ، وأعادهم ثالثاً بعد إفنائهم بأكمل قضاء وتقدير ، وأبقاهم رابعاً لا إلى خير ، فقد حقق وعده كما أنزل في كتابه وصدق وعيده لأعدائه كما قال في كتابه ، فتحقق أنه تنزيله ، فقد ختم الأمر بإثبات الكمال باسم الحمد عند دخول الجنان والنيران كما ابتدأ به عند ابتداء الخلق في أول الإنعام ، فله الإحاطة بالكمال في أن الأمر كما قال كتابه على كل حال ، فقد انطبق آخرها على أولها بأن الكتاب تنزيله لمطابقة كل ما فيه للواقع عندما يأتي تأويله ، وبأن الكتاب الحامل على التقوى المسببة للجنة أنزل للإبقاء الأول ، فمن أتبعه كان له سبباً للإبقاء الثاني ، وهذا الآخر هو عين أول سورة غافر فسبحان من أنزله معجزاً نظامه ، فائتاً القوى أول كل شيء منه وختامه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وأهل بيته الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 478 .

481 ﴾

(9/671)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب في الآية المتقدمة ، شرح أحوال أهل الثواب في هذه الآية ، فقال : ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً ﴾ فإن قيل السوق في أهل النار للعذاب معقول ، لأنهم لما أمروا بالذهاب إلى موضع العذاب والشقاوة لا بدّ وأن يساقوا إليه ، وأما أهل الثواب فإذا أمروا بالذهاب إلى موضع الكرامة والراحة والسعادة ، فأي حاجة فيه إلى السوق ؟

والجواب من وجوه الأول : أن المحبة والصداقة باقية بين المتقين يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] فإذا قيل لواحد منهم إذهب إلى الجنة فيقول : لا أدخلها حتى يدخلها أحبائي وأصدقائي فيتأخرون لهذا السبب ، فحينئذٍ يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة والثاني : أن الذين اتقوا ربهم قد عبدوا الله تعالى لا للجنة ولا للنار ، فتصير شدة استغراقهم في مشاهدة مواقف الجلال الجمال مانعة لهم عن الرغبة في الجنة ، فلا جرم يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة والثالث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أكثر أهل الجنة البله وعليون للأبرار " فلهذا السبب يساقون

إلى الجنة والرابع : أن أهل الجنة وأهل النار يساقون إلا أن المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسير إذ سيق إلى الحبس والقيد ، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين ، والمراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على الملوك ، فشتان ما بين السوقين .

(10/671)

ثم قال تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ الآية ، واعلم أن جملة هذا الكلام شرط واحد مركب من قيود : القيد الأول : هو مجيئهم إلى الجنة والقيد الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ فإن قيل قال أهل النار فتحت أبوابها بغير الواو ، وقال ههنا بالواو فما الفرق ؟ قلنا الفرق أن أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها ، فأما أبواب الجنة ففتحها يكون متقدماً على وصولهم إليها بدليل قوله ﴿ جنات عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبواب ﴾ [ص : 50] فلذلك جيء بالواو كأنه قيل : حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها .

القيد الثالث : قوله ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سلام عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خالدين ﴾ فبيّن

تعالى أن خزنة الجنة يذكرون لأهل الثواب هذه الكلمات الثلاث فأولها : قولهم ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ وهذا يدل على أنهم يبشرونهم بالسلامة من كل الآفات وثانيها : قولهم ﴿ طِبْتُمْ ﴾ والمعنى طبتم من دنس المعاصي وطهرتم من خبث الخطايا وثالها : قولهم ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ والفاء في قوله ﴿ فادخلوها ﴾ يدل على كون ذلك الدخول معللاً بالطيب والطهارة ، قالت المعتزلة هذا يدل على أن أحداً لا يدخلها إلا إذا كان طاهراً عن كل المعاصي ، قلنا هذا ضعيف لأنه تعالى يبدل سيئاتهم حسنات ، وحينئذٍ يصيرون طيبين طاهرين بفضل الله تعالى ، فإن قيل فهذا الذي تقدم ذكره هو الشرط فأين الجواب ؟ قلنا فيه وجهان الأول : أن الجواب محذوف والمقصود من الحذف أن يدل على أنه بلغ في الكمال إلى حيث لا يمكن ذكره الثاني : أن الجواب هو قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سلام عَلَيْكُمْ ﴾ والواو محذوف ، والصحيح هو الأول ، ثم أخبر الله تعالى بأن الملائكة إذا خاطبوا المتقين بهذه الكلمات ، قال المتقون عند ذلك ﴿ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ في قوله

(11/671)

﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : 30]

﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ والمراد بالأرض أرض الجنة ، وإنما عبر عنه بالإرث لوجوه الأول : أن الجنة كانت في أول الأمر لآدم عليه السلام ، لأنه تعالى قال : ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ [البقرة : 35] فلما عادت الجنة إلى أولاد آدم كان ذلك سبباً لتسميتها بالإرث الثاني : أن هذا اللفظ مأخوذ من قول القائل : هذا أورث كذا وهذا العمل أورث كذا فلما كانت طاعتهم قد أفادتهم الجنة ، لا جرم قالوا ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ والمعنى أن الله تعالى أورثنا الجنة بأن وفقنا للإتيان بأعمال أورثت الجنة الثالث : أن الوارث يتصرف فيما يرثه كما يشاء من غير منازع ولا مدافع فكذلك المؤمنون المتقون يتصرفون في الجنة كيف شاءوا وأرادوا ، والمشابهة علة حسن المجاز فإن قيل ما معنى قوله ﴿ حَيْثُ نَشَاء ﴾ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره ؟ قلنا يكون لكل أحد جنة لا يحتاج معها إلى جنة غيره ، قال حكماء الإسلام : الجنات نوعان ، الجنات الجسمانية والجنات الروحانية فالجنات الجسمانية لا تحتمل المشاركة فيها ، أما الروحانيات فحصولها لواحد لا يمنع من حصولها للآخرين ، ولما بيّن الله تعالى صفة أهل الجنة قال : ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ قال مقاتل ليس هذا من كلام أهل الجنة ، بل من كلام الله تعالى لأنه لما حكى ما جرى بين الملائكة وبين المتقين من صفة ثواب أهل الجنة قال بعده ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ ولما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ ذكر عقيبه ثواب الملائكة فقال كما أن دار ثواب المتقين المؤمنين هي

الجنة ، فكذلك دار ثواب الملائكة جوانب العرش وأطرافه ، فلهذا قال : ﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ أي محفين بالعرش .

قال الليث : يقال حف القوم بسيدهم يحفون حفاً إذا طافوا به .

(12/671)

إذا عرفت هذا ، فنقول بيّن تعالى أن دار ثوابهم هو جوانب العرش وأطرافه ثم قال : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ وهذا مشعر بأن ثوابهم هو عين ذلك التحميد والتسبيح ، وحينئذٍ رجع حاصل الكلام إلى أن أعظم درجات الثواب استغراق قلوب العباد في درجات التنزيه ومنازل التقديس .

ثم قال : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ والمعنى أنهم على درجات مختلفة ومراتب متفاوتة ، فلكل واحد منهم في درجات المعرفة والطاعة حد محدود لا يتجاوزه ولا يتعداه ، وهو المراد من قوله ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ أي الملائكة لما قضي بينهم بالحق قالوا الحمد لله ربّ العالمين على قضائه بيننا بالحق ، وههنا دقيقة أعلى مما سبق وهي أنه سبحانه لما قضى بينهم بالحق ، فهم ما حمدوه لأجل ذلك القضاء ، بل حمدوه بصفته الواجبة وهي كونه رباً للعالمين ، فإن من حمد المنعم لأجل أن إنعامه وصل إليه فهو في

الحقيقة ما حمد المنعم وإنما حمد الإنعام ، وأما من حمد المنعم لا لأنه وصل إليه النعمة فههنا قد وصل إلى لجة بحر التوحيد ، هذا إذا قلنا إن قوله ﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ شرح أحوال الملائكة في الثواب ، أما إذا قلنا إنه من بقية شرح ثواب المؤمنين ، فتقريره أن يقال إن المتقين لما قالوا ﴿ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاء ﴾ فقد ظهر منهم أنهم في الجنة اشتغلوا بحمد الله وبذكره بالمدح والثناء ، فبيّن تعالى أنه كما أن حرفة المتقين في الجنة الاشتغال بهذا التحميد والتمجيد ، فكذلك حرفة الملائكة الذين هم حافون حول العرش الاشتغال بالتحميد والتسبيح ، ثم إن جوانب العرش ملاصقة لجوانب الجنة ، وحينئذ يظهر منه أن المؤمنين المتقين وأن الملائكة المقربين يصيرون متوافقين على الاستغراق في تحميد الله وتسبيحه ، فكان ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بذلك التسبيح والتحميد .

(13/671)

ثم قال : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ أي بين البشر ، ثم قال : ﴿ وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبّ العالمين ﴾ والمعنى أنهم يقدمون التسبيح ، والمراد منه تنزيه الله عن كل ما لا يليق بالإلهية . وأما قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبّ العالمين ﴾ فالمراد وصفه بصفات الإلهية ،

فالتسبيح عبارة عن الاعتراف بتنزيهه عن كل ما لا يليق به وهو صفات الجلال ، وقوله ﴿ وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبّ العالمين ﴾ عبارة عن الإقرار بكونه موصوفاً بصفات الإلهية وهي صفات الإكرام ، ومجموعهما هو المذكور في قوله ﴿ تبارك اسم ربّكَ ذِى الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 78] وهو الذي كانت الملائكة يذكرونه قبل خلق العالم وهو قولهم ﴿ وَنَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : 30] وفي قوله ﴿ وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبّ العالمين ﴾ دقيقة أخرى وهي أنه لم يبين أن ذلك القائل من هو ، والمقصود من هذا الإبهام التنبيه ، على أن خاتمة كلام العقلاء في الثناء على حضرة الجلال والكبرياء ليس إلا أن يقولوا ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ وتأكد هذا بقوله تعالى في صفة أهل الجنة ﴿ دعواهم فِيهَا سبحانك اللهم وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ [يونس : 10] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 22.20 ﴾

(14/671)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾

وقرأ الجمهور : ﴿ وسيق ﴾ وجيء بكسر أوله . وقرأها ونظائرها بإشمام الضم :

الحسن وابن وثاب وعاصم والأعمش . و: ﴿ زمراً ﴾ معناه : جماعات متفرقة ، واحدها زمرة .

وقوله : ﴿ فتحت ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ ، والكلام هنا يقضي أن فتحها إنما يكون بعد مجيئهم ، وفي وقوفهم قبل فتحها مذلة لهم ، وهكذا هي حال السجون ومواضع الثقاف والعذاب بخلاف قوله : في أهل الجنة : ﴿ وفتحت ﴾ [الزمر : 73] بالواو مؤذنة بأنهم يجدونها مفتوحة كمنازل الأفراح .

وقرأ الجمهور : " فتّحت " بشد التاء في الموضعين ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيفها ، وهي قراءة طلحة والأعمش : ثم ذكر تعالى توقيف الخزنة لهم على مجيء الرسل .

وقرأ الجمهور : " يأتكم " بالياء من تحت . وقرأ الأعرج : " تأتكم " بتاء من فوق .

وقوله : ﴿ منكم ﴾ أعظم من الحجة ، أي رسل من جنسكم لا يصعب عليكم مراميهم ولا فهم أقوالهم . وقولهم : ﴿ بلى ﴾ جواب على التقرير على نفي أمر ، ولا يجوز هنا الجواب بنعم ، لأنهم كانوا يقولون : نعم لم يأتنا ، وهكذا كان يترتب المعنى ، ثم لا يجدوا حجة إلا أن كلمة العذاب حقت عليهم ، أي الكلمة المقتضية من الله تعالى تخليدهم في النار ، وهي عبارة عن قضائه السابق لهم بذلك ، وهي التي في قوله تعالى لإبليس ﴿

لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ [ص : 85] والمثوى : موضع الإقامة .

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا

(15/671)

قوله : ﴿ الذين اتقوا ربهم ﴾ لفظ يعم كل من يدخل الجنة من المؤمنين الذي اتقوا الشرك ، لأن الذين لم يتقوا المعاصي قد يساق منهم زمر وهم الذي سبق لهم أن يغفر الله لهم من أهل المشيئة ، وأيضاً فالذين يدخلون النار ثم يخرجون منها قد يساقون زمراً إلى الجنة بعد ذلك فيصيرون من أهل هذه الآية ، والواو في قوله : ﴿ وفتحت ﴾ مؤذنة بأنها قد فتحت قبل وصولهم إليها ، وقد قالت فرقة : هي زائدة . وجواب ﴿ إذا ﴾ ، ﴿ فتحت ﴾ ، وقال الزجاج عن المبرد : جواب ﴿ إذا ﴾ محذوف ، تقديره بعد قوله : ﴿ خالدين ﴾ فيها سعدوا . وقال الخليل : الجواب محذوف تقديره : حتى جاؤوها وفتحت أبوابها ، وهذا كما قدر الخليل قول الله تعالى :

﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ [الصافات : 103] وكما قدر أيضاً قول امرىء القيس : [الطويل]

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى . . . أي أجزنا وانتحى . وقال قوم : أشار إليهم ابن

الأنباري وضعف قولهم : هذه واو الثمانية مستوعباً في سورة الكهف ، وسقطت هذه الواو في مصحف ابن مسعود فهي كالأولى . و ﴿ سلام عليكم ﴾ تحية . ويحتمل أن يريد أنهم قالوا لهم سلام عليكم وأمنة لكم . و: ﴿ طبتم ﴾ معناه : أعمالاً ومعتقداً ومستقراً وجزاء .

وقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وأورثنا الأرض ﴾ يريد أرض الجنة ، قاله قتادة وابن زيد والسدي والوراثة هنا مستعارة ، لأن حقيقة الميراث أن يكون تصيير شيء إلى إنسان بعد موت إنسان ، وهؤلاء إنما ورثوا مواضع أهل أن لو كانوا مؤمنين . و: ﴿ نتبوأ ﴾ معناه : نتخذ أمكنة ومساكن .

ثم وصف حالة الملائكة من العرش وحفوفهم به ، وقال قوم : واحد ﴿ حافين ﴾ حاف . وقالت فرقة : لا واحد لقوله : ﴿ حافين ﴾ لأن الواحد لا يكون حافاً ، إذ الحفوف الإحداق بالشيء ، وهذه اللفظة مأخوذة من الحفاف وهو الجانب ، ومنه قول الشاعر [ابن هرمة] : [الطويل]

له لحظات عن حفافي سريره . . . إذا كرها فيها عقاب ونائل

(16/671)

أي عن جانبيه . وقالت فرقة : ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من حول ﴾ زائدة ، والصواب أنها لابتداء الغاية .

وقوله : ﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ قالت فرقة : معناه : أن تسبيحهم يتأتى بحمد الله وفضله . وقالت فرقة : تسبيحهم هو بترديد حمد الله وتكراره . قال الثعلبي : متلذذين لا متعبدين ولا مكلفين .

وقوله : ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ ختم للأمر ، وقول جزم عند فصل القضاء ، أي إن هذا الحاكم العدل ينبغي أن يحمد عند نفوذ حكمه وإكمال قضائه ، ومن هذه الآية جعلت ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ خاتمة المجالس والمجتمعات في العلم . وقال قتادة : فتح الله أول الخلق بالحمد ، فقال : ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ﴾ [الأنعام : 1] وختم القيامة بالحمد في هذه الآية .

قال القاضي أبو محمد : وجعل الله ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [الفاتحة : 1] فاتحة كتابه ، فبه يبدأ كل أمر وبه يختم ، وحمد الله تعالى وتقديسه ينبغي أن يكون من المؤمن كما قال الشاعر : [الطويل]

وآخر شيء أنت في كل ضجعة . . . وأول شيء أنت عند هبوبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً ﴾

يعني من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم ، ممن اتقى الله تعالى وعمل بطاعته .

وقال في حق الفريقين : ﴿ وَسِيقَ ﴾ بلفظ واحد ، فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان ، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان ؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك ، فشتان ما بين السوقين .

﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ قيل : الواو هنا للعطف عطف على جملة والجواب محذوف .

قال المبرد : أي سعدوا وفتحت ، وحذف الجواب بليغ في كلام العرب .

وأنشد :

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعةً . . .

ولكِنّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

فحذف جواب لو والتقدير لكان أروح .

وقال الزجاج : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا ﴾ دخلوها وهو قريب من الأول .

وقيل : الواو زائدة .

قاله الكوفيون وهو خطأ عند البصريين .

وقد قيل : إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى ، والتقدير حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة ، بدليل قوله : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبواب ﴾ [ص : 50] وحذف الواو في قصة أهل النار ؛ لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالاً وترويعاً لهم .

ذكره المهدوي وحكى معناه النحاس قبله .

قال النحاس : فأما الحكمة في إثبات الواو في الثاني وحذفها من الأول ، فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أعلم أنه سبقه إليه أحد ، وهو أنه لما قال الله عز وجل في أهل النار : ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ دلّ بهذا على أنها كانت مغلقة ولما قال في أهل الجنة : ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ دلّ بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها ؛ والله أعلم .

(18/671)

وقيل : إنها واو الثمانية .

وذلك من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون خمسة ستة سبعة وثمانية ، فإذا بلغوا السبعة قالوا وثمانية .

قاله أبو بكر بن عياش .

قال الله تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ [الحاقة : 7] وقال : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ﴾ ثم قال في الثامن : ﴿ والناهون عَنِ المنكر ﴾ [التوبة : 112] وقال : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] وقال : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ [التحريم : 5] وقد مضى القول في هذا في "براءة" مستوفى وفي "الكهف" أيضاً .

قلت : وقد استدل بهذا من قال إن أبواب الجنة ثمانية ؛ وذكروا حديث عمر بن الخطاب ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد يتوضأ فَيُبْلغ أو فَيُسْبِغ الوضوء ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء " خرجه مسلم وغيره .

وقد خرج الترمذي حديث عمر هذا وقال فيه : " فتح له من أبواب الجنة ثمانية أبواب يوم القيامة " بزيادة مِن ، وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية .

وقد ذكرنا ذلك في كتاب "التذكرة" وانتهى عددها إلى ثلاثة عشر باباً ، وذكرنا هناك عظم أبوابها وسعتها حسب ما ورد في الحديث من ذلك ، فمن أراده وقف عليه هناك .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ قيل : الواو ملغاة تقديره حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ﴿ قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ .

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ أي في الدنيا .

قال مجاهد : بطاعة الله .

وقيل : بالعمل الصالح .

حكاه النقاش والمعنى واحد .

وقال مقاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُقَصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا وطُيِّبوا قال لهم رضوان وأصحابه : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ بمعنى التحية ﴿ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ .

(19/671)

قلت : خرج البخاري حديث القنطرة هذا في جامعه من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"يَخْلُص المؤمنون من النار فيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد

بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا " وحكى النقاش : إن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان يشرب المؤمنون من إحداهما فتطهر أجوافهم وذلك قوله تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أبشارهم فعندها يقول لهم خزنتها : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ وهذا يروى معناه عن عليّ رضي الله عنه .

﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أي إذا دخلوا الجنة قالوا هذا .

﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ أي أرض الجنة .

قيل : إنهم ورثوا الأرض التي كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين ؛ قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسّدي وأكثر المفسرين وقيل : إنها أرض الدنيا على التقديم والتأخير .

قوله تعالى : ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ قيل : هو من قولهم أي نعم الثواب هذا .

وقيل : هو من قول الله تعالى ؛ أي نعم ثواب المحسنين هذا الذي أعطيتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الملائكة ﴾ يا محمد ﴿ حَآفِّينَ ﴾ أي محدِقين ﴿ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ في ذلك اليوم ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ متلذذين بذلك لا متعبدين به ؛ أي يصلّون حول العرش شكراً لربهم .

والحافون أخذ من حافات الشيء ونواحيه .

قال الأخفش : واحدهم حاف .

وقال الفرّاء : لا واحد له إذ لا يقع لهم الاسم إلا مجتمعين .

ودخلت "مِن" على "حَوْل" لأنه ظرف والفعل يتعدّى إلى الظرف بحرف وبغير حرف .

وقال الأخفش : "مِنْ" زائدة أي حافّين حول العرش .

وهو كقولك : ما جاءني من أحد ، فمن توكيد .

(20/671)

الثعلبي : والعرب تدخل الباء أحياناً في التسبيح وتحذفها أحياناً ، فيقولون : سبح بحمد ربك ، وسبح حمداً لله ؛ قال الله تعالى :

﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] وقال : ﴿ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ﴾ [الواقعة : 74] .

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ بين أهل الجنة والنار .

وقيل : قضي بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء وبين أممهم بالحق والعدل .

﴿ وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ أي يقول المؤمنون الحمد لله على ما أثابنا من نعمه وإحسانه ونصرنا على من ظلمنا .

وقال قتادة في هذه الآية : افتتح الله أول الخلق بالحمد لله ، فقال : ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ

السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] وختم بالحمد فقال : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ فلزم الاقتداء به ، والأخذ في ابتداء كل أمر بحمده وخاتمته بحمده .

وقيل : إن قول ﴿ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ من قول الملائكة فعلى هذا يكون حمدهم لله تعالى على عدله وقضائه .

ورُوِيَ من حديث ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر آخر سورة "الزمر" فتحرك المنبر مرتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(21/671)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾

الزمر : جمع زمرة ، قال أبو عبيد والأخفش : جماعات متفرقة ، بعضها إثر بعض .

قال :

حتى احزألت زمر بعد زمر . . .

ويقال : تزمر .

والحفوف : الإحداق بالشيء ، قال الشاعر :

تحفه جانب ضيق ويتبعه . . .

مثل الزجاجة لم يكحل من الرمد

وهذه اللفظة مأخوذة من الحفاف ، وهو الجانب ، ومنه قول الشاعر :

له لحظات عن حفافي سريره . . .

إذا كرها فيها عقاب ونائل

﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل ادخلوا أبوا جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ، وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ، وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

ولما ذكر أشياء من أحوال يوم القيامة على سبيل الإجمال ، بين بعد كيفية أحوال الفريقين وما أفضى إليه كل واحد منهما فقال : ﴿ وسيق ﴾ ، والسوق يقتضي الحث على المسير بعنف ، وهو الغالب فيه .

وجواب إذا : ﴿ فتحت أبوابها ﴾ ، ودل ذلك على أنه لا يفتح إلا إذا جاءت ؛ كسائر أبواب السجون ، فإنها لا تزال مغلقة حتى يأتي أصحاب الجرائم الذين يسجنون فيها فيفتح ثم يغلق عليهم .

وتقدم ذكر قراءة التخفيف والتشديد في فتحت وأبوابها سبعة ، كما ذكر في سورة الحجر .

﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ ، على سبيل التقريع والتوبيخ ، ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ : أي من جنسكم ، تفهمون ما ينبئونكم به ، وسهل عليكم مراجعتهم .

وقرأ ابن هرمز : تأتكم بتاء التأنيث ؛ والجمهور : بالياء .

(22/671)

﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ : أي الكتب المنزلة للتبشير والنذارة ، ﴿ وينذركم لقاء يومكم هذا ﴾ : وهو يوم القيامة ، وما يلقى فيه المسمى من العذاب ، ﴿ قالوا بلى ﴾ أي قد جاءتنا ، وتلوا وأنذروا ، وهذا اعتراف بقيام الحجة عليهم ، ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب ﴾ أي قوله تعالى : ﴿ لأملأن جهنم ﴾ ﴿ على الكافرين ﴾ : وضع الظاهر موضع المضمر ، أي علينا ، صرحوا بالوصف الموجب لهم العقاب .

ولما فرغت محاورتهم مع الملائكة ، أمروا بدخول النار .

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ : عبر عن الإسراع بهم إلى الجنة مكرمين بالسوق ، والمسوق دوابهم ، لأنهم لا يذهبون إليها إلا راكبين .

ولمقابلة قسيمهم ساغ لفظ السوق ، إذ لو لم يتقدم لفظ وسيق لعبر بأسرع ، وإذا شرطية وجوابها قال الكوفيون : وفتحت ، والواو زائدة ؛ وقال غيره محذوف .

قال الزمخشري : وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة ، فدل على أنه شيء لا يحيط به الوصف ، وحق موقعه ما بعد خالدين .

انتهى .

وقدره المبرد بعد خالدين سعدوا .

وقيل الجواب : ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ ، على زيادة الواو ، قيل : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ﴾ .

ومن جعل الجواب محذوفاً ، أو جعله : ﴿ وقال لهم ﴾ ، على زيادة الواو ؛ وجعل قوله : وفتحت جملة حالية ، أي وقد فتحت أبوابها لقوله : ﴿ جنات عدن مفتحة الأبواب ﴾ وناسب كونها حالاً أن أبواب الأفراح تكون مفتحة لانتظار من تجيء إليها ، بخلاف أبواب السجود .

﴿ وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾ : يحتمل أن يكون تحية منهم عند ملاقاتهم ، وأن كون خبراً بمعنى السلامة والأمن .

﴿ طبتم ﴾ : أي أعمالاً ومعتقداً ومستقراً وجزاء .

﴿ فادخلوها خالدين ﴾ : أي مقدرين الخلود .

﴿ وقالوا ﴾ ، أي الداخلون ، الجنة ﴿ الحمد لله الذين صدقنا وعده وأورثنا الأرض ﴾ : أي ملكناها نتصرف فيها كما نشاء ، تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه .

(23/671)

وقيل : ورثوها من أهل النار ، وهي أرض الجنة ، ويبعد قول من قال هي أرض الدنيا ، قاله قتادة وابن زيد والسدي .

﴿ نتبوأ ﴾ منها ، ﴿ حيث نشاء ﴾ : أي نتخذ أمكنة ومساكن .

والظاهر أن قوله : ﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ : أي بطاعة الله هذا الأجر من كلام الداخلين .

وقال مقاتل : هو من كلام الله تعالى .

﴿ وترى الملائكة حافين ﴾ : الخطاب للرسول حافين .

قال الأخفش : واحدهم حاف .

وقال الفراء : لا يفرد .

وقيل : لأن الواحد لا يكون حافاً ، إذ الحفوف : الإحداق بالشيء من حول العرش .

قال الأخفش : من زائدة ، أي حافين حول العرش ؛ وقيل : هي لابتداء الغاية .

والظاهر عود الضمير من بينهم على الملائكة ، إذ ثوابهم ، وإن كانوا معصومين ، يكون على حسب تفاضل مراتبهم .

فذلك هو القضاء بينهم بالحق ؛ وقيل : ضمير ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

الظاهر أن قائل ذلك هم من ذوات بينهم المخاطبة من الداخلين الجنة ومن خزنتها ، ومن الملائكة الحافين حول العرش ، إذ هم في نعم سرمدي منجاة من عذاب الله .

وقال الزمخشري : المقضي بينهم ، إما جميع العباد ، وإما الملائكة ، كأنه قيل : ﴿ وقضى بينهم بالحق ﴾ .

وقالوا : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ على إفضاله وقضائه بيننا بالحق ، وأنزل كل منا منزلته التي هي حقه .

وقال ابن عطية : وقيل : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ خاتمة المجالس المجتمعات في العلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(24/671)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

وقولُه تعالى ﴿ وَسِيقَ الذين كَفَرُواْ إلى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ الخ

تفصيلٌ للتَّوفيةِ وبيانٌ لكيفيَّتِها أي سِيقُوا إليها بالعُنفِ والإهانةِ أفواجاً متفرقةً بعضُها في إثرِ بعضٍ مترتِّبةً حسب ترتُّبِ طبقاتهم في الضَّلالةِ والشِّرارةِ . والزُّمَر جمعُ زُمْرةٍ ، واشتقاقها من الزَّمرِ وهو الصَّوتُ إذِ الجماعةُ لا تخلُو عنه . ﴿ حتى إذَا جَاءوهَا فُتِحَتْ أبوابها ﴾ ليدخلُوها . وحتَّى هي التي تُحكى بعدها الجملةُ . وقرىء بالتَّشديدِ . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ تقريعاً وتوبيخاً ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ من جنسِكم . وقُرىء نُذُر منكم . ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءايات رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ أي وقتِكم هذا وهو وقتُ دخولِهم النَّارَ ، وفيه دليلٌ على أنَّه لا تكليفَ قبل الشَّرعِ من حيثُ أنَّهم عللُّوا توبيخَهم بإتيان الرُّسلِ وتبليغِ الكُتبِ ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ قد أتونا وأنذرونا ﴿ ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ حيثُ قال الله تعالى لإبليسَ : ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقد كنَّا ممَّن تبعَه وكذَّبنا الرُّسلَ وقلنا ما نزَّل الله من شيءٍ إنْ أنتمُ إلاَّ تكذبُون .

﴿ قِيلَ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا ﴾ أي مقدَّراً خلودُكم فيها . وإبهامُ القائلِ لتهويلِ المَقُولِ ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ اللامُ للجنسِ والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ ثقةً بذكرِه آنفا أي فبئسَ مثواهُم جهنَّمُ . ولا يقدحُ ما فيه من الإشعارِ بأنَّ كونَ مثواهُم جهنَّمَ لتكبُّرِهم

عن الحقّ في أنَّ دخولَهم النَّارَ لسبق كلمةِ العذابِ عليهم فإنَّها إنَّما حُقَّتْ عليهم بناءً على تكبُّرِهم وكُفرِهم وقد مرَّ تحقيقُه في سُورة الم السَّجدةِ.

(25/671)

﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة ﴾ مساقَ إعزازٍ وتشريفٍ للإسراعِ بهم إلى دار الكرامةِ. وقيل: سِيق مراكبُهم إذْ لا يُذهبُ بهم إلا راكبينَ ﴿ زُمَراً ﴾ متفاوتينَ حسب تفاوتِ مراتبِهم في الفضلِ وعلوِّ الطَّبقةِ. ﴿ حتى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ وقُرِئ بالتَّشديدِ. وجوابُ إذا محذوفٌ للإيذانِ بأن لهم حينئذٍ من فُنون الكراماتِ ما لا يَحدِقُ به نطاقُ العباراتِ كأنَّه قيل حتَّى إذَا جَاؤُها وقد فُتِحتْ أبوابُها ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سلام عَلَيْكُمْ ﴾ من جميعِ المكارهِ والآلام ﴿ طِبْتُمْ ﴾ طهرتم من دَنَس المعاصي أو طبتُم نَفْساً بما أُتيح لكُم من النَّعيمِ. ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ كان ما كان مَّما يقصر عنه البيانُ ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ بالبعث والثَّواب ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ يريدونَ المكانَ الذي استقرُّوا فيه على الاستعارةِ وإيراثُها تمليكُها مخلَّفة عليهم من أعمالِهم أو تمكينُهم من التَّصرُّفِ فيها تمكينَ الوارثِ فيما يَرِثُه ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاء ﴾ أي يتبوأُ كلُّ واحدٍ مَّنا في أي مكانٍ أرادَه من جنَّتِهِ الواسعة على أنَّ فيها مقاماتٍ معنويةً لا

يتمانعُ واردُها ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ الجنّةُ ﴿ وَتَرَى الملائكة حَافّينَ ﴾ مُحدقين ﴿ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ أي حوله ومِن مزيدةٌ أو لابتداءِ الحفوفِ ﴿ يُسَبّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهِمْ ﴾ أي ينزهونَه تعالى عَمّا لا يليقُ به ملتبسينَ بحمدِه . والجملة حالٌ ثانيةٌ أو مقيّدةٌ للأُولى والمعنى ذاكرينَ له تعالى بوصفِ جلالِه وإكرامِه تلذُّذاً به ، وفيه إشعارٌ بأنّ أقصى درجاتِ العلّيينَ وأعلى لذائذِهم هو الاستغراقُ في شؤونه عزَّ وجلَّ ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ أي بين الخلقِ بإدخال بعضِهم النّارَ وبعضهم الجَّنةَ أو بين الملائكةِ بإقامتِهم في منازلِهم على حسبِ تفاضُلِهم ﴾

(26/671)

وَقِيلَ الحمدِ للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ أي على ما قَضَي بيننا بالحقّ وأنزل كلاًّ منّا منزلتَه التي هي حقُّه . والقائلون هم المؤمنون ممَّن قُضيَ بينهم أو الملائكةُ . وطيُّ ذكرِهم لتعيينهم وتعظيمِهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(27/671)

وقال الآلوسى :

﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً ﴾

جماعات مرتبة حسب ترتب طبقاتهم في الفضل ، وفي "صحيح مسلم" وغيره عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة ثم هم بعد ذلك منازل " والمراد بالسوق هنا الحث على المسير للإسراع إلى الإكرام بخلافه فيما تقدم فإنه لإهانة الكفرة وتعجيلهم إلى العقاب والآلام واختير للمشاكلة ، وقوله سبحانه : ﴿ إِلَى الجنة ﴾ يدفع إيهام الإهانة مع أنه قد يقال : إنهم لما أحبوا لقاء الله تعالى أحب الله تعالى لقاءهم فلذا حثوا على دخول دار كرامته جل شأنه قاله بعض الأجلة ، واختار الزمخشري أن المراد هنا بسوقهم سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين ، وهذا السوق والحث أيضاً للإسراع بهم إلى دار الكرامة .

وتعقب بأنه لا قرينة على إرادة ذلك وكون جميع المتقين لا يذهب بهم إلا راكبين يحتاج إلى دليل ، والاستدلال بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً ﴾ [مريم : 85] لا يتم إلا على القول بأن الوفد لا يكونون إلا ركباناً وأن الركوب يستمر لهم إلى أن يدخلوا الجنة ، وفي "الكشف" أنه تفسير ظاهر يؤيده الأحاديث الكثيرة ويناسب المقام لأن السوقين بعد فصل القضاء واللطف الخالص في شأن البعض والقهر الخالص في شأن البعض

ولا ينافي مقام عظمة مالك الملوك على ما توهم انتهى ، وأقول : إن حمل الذين اتقوا على المخلصين فالقول بركوبهم قول قوي وإن حمل على المحترز عن الشرك خاصة ليشمل المخلصين فالقول بذلك قول ضعيف إذ منهم من لا يدخل الجنة إلا بعد أن يدخل النار ويعذب فيها ، وظاهر كثير من الأخبار أن من هذا الصنف من يذهب إلى الجنة مشياً .

(28/671)

ففي "صحيح مسلم" عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرة ويكبو أخرى وتسفعه النار مرة فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله تعالى شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين فترفع له شجرة فيقول : أي رب أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها فأشرب من مائها فيقول الله تعالى : يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها فيقول : لا يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرها وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه" الحديث ، وقال بعض العارفين : إن المتقين يساقون إلى الجنة لأنهم قد رأوا الله تعالى في المحشر فلرغبتهم في رؤيته عز وجل ثانياً لا يحبون فراق ذلك الموطن الذي رأوه فيه ولشدة حبهم وشغفهم لا يكاد يخطر لهم أنهم سيرونه سبحانه إذا دخلوا الجنة ، والمحبة إذا عظمت فعلت بصاحبها

أعظم من ذلك وأعظم فكأنها غلبتهم حتى خيلت إليهم أن ذلك الموطن هو الموطن الذي يرى فيه عز وجل وهو محل تجليه على محبيه جل جلاله وعظم نواله فأحجموا عن المسير ووقفوا منتظرين رؤية اللطيف الخبير وغداً لسان حال كل منهم يقول

: وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي . . .

متأخر عنه ولا متقدم

(29/671)

ويدل على رؤيتهم إياه عز وجل هناك ما في "صحيح مسلم" عن أبي هريرة قال : "إن أناساً قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا قال : فإنكم ترونه كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيتبع من يعبد الشمس الشمس وينبع من يعبد القمر القمر ويتبع من يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير الصورة التي يعرفون فيقول : أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي

يعرفون فيقول : أنا ربّكم فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه ويضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذٍ اللهم سلم سلم" الحديث ، ومع هذا فسوقهم ليس كسوق الذين كفروا كما لا يخفى .

(30/671)

وقبل : السائق للكفرة ملائكة الغضب والسائق للمتقين شوقهم إلى مولاهم فهو سبحانه لهم غاية الإرب ، وليست الجنة عندهم هي المقصودة بالذات ولا مجرد الحلول بها أقصى اللذات وإنما هي وسيلة للقاء محبوبهم الذي هو نهاية مطلوبهم ﴿ حتى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ وقرىء بالتشديد ، والواو للحال والجملة حالية بتقدير قد على المشهور أي جاءوها وقد فتحت لهم أبوابها كقوله تعالى : ﴿ جنات عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الابواب ﴾ [ص : 50] ويشعر ذلك بتقدم الفتح كأن خزنة الجنات فتحوا أبوابها ووقفوا منتظرين لهم ، وهذا كما تفتح الخدم باب المنزل للمدعو للضيافة قبل قدومه وتقف منتظرة له ، وفي ذلك من الاحترام والإكرام ما فيه ، والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ الخ عطف على ﴿ فُتِحَتْ أبوابها ﴾ وجواب ﴿ إِذَا ﴾ محذوف مقدر بعد ﴿ خالدين ﴾ للإيذان بأن لهم حينئذٍ من فنون الكرامات ما لا يحيط به نطاق العبارات كأنه قيل : إذا

جاؤها مفتحة لهم أبوابها وقال لهم خزنتها ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ أي من جميع المكاره والآلام وهو يحتمل الإخبار والإنشاء .

﴿ طِبْتُمْ ﴾ أي من دنس المعاصي ، وقيل : طبتم نفساً بما أتيح لكم من النعيم المقيم ، والأول مروى عن مجاهد وهو الأظهر ، والجملة في موضع التعليل ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ أي مقدرين الخلود كان ما كان مما يقصر عنه البيان أو فازوا بما لا يعد ولا يحصى من التكريم والتعظيم ، وقدره المبرد سعدوا بعد ﴿ خالدين ﴾ أيضاً ، ومنهم من قدره قبل ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ أي حتى إذا جاءوها جاؤها وقد فتحت وليس بشيء ، ومنهم من قدره نحو ما قلنا قبل ﴿ وَقَالَ ﴾ وجعل جملة ﴿ قَالَ ﴾ الخ معطوفة عليه ، وما تقدم أقوى معنى وأظهر .

(31/671)

وقال الكوفيون : واو ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ زائدة والجواب جملة ﴿ فُتِحَتْ ﴾ وقيل : الجواب ﴿ قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ والواو زائدة ، والمعول عليه ما ذكرنا أولاً وبه يعلم وجه اختلاف الجملتين أعني قوله تعالى في أهل النار : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أبوابها ﴾ [الزمر : 71] وقوله جل شأنه في أهل الجنة : ﴿ حتى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ حيث

جيء بواو في الجملة الثانية وحذف الجواب ولم يفعل كذلك في الجملة الأولى ، فما قيل : إن الواو في الثانية واو الثمانية لأن المفتح ثمانية أبواب ولما كانت أبواب النار سبعة لا ثمانية لم يؤت بها وجه ضعيف لا يعول عليه .

واستدل المعتزلة بقوله : ﴿ طِبْتُمْ فادخلوها ﴾ حيث رتب فيه الأمر بالدخول على الطيب والطهارة من دنس المعاصي على أن أحداً لا يدخل الجنة إلا وهو طيب طاهر من المعاصي إما لأنه لم يفعل شيئاً منها أو لأنه تاب عما فعل توبة مقبولة في الدنيا .

ورد بأنه وإن دل على أن أحداً لا يدخلها إلا وهو طيب لكن قد يحصل ذلك بالتوبة المقبولة وقد يكون بالعفو عنه أو الشفاعة له أو بعد تمحيصه بالعذاب فلا متمسك فيها للمعتزلة .

وقيل : المراد بالذين اتقوا المحترزون عن الشرك خاصة فطبتم على معنى طبتم عن دنس الشرك ولا خلاف في أن دخول الجنة مسبب عن الطيب والطهارة عنه .

وتعقب بأن ذاك خلاف الظاهر لأن التقوى في العرف الغالب تقع على أخص من ذلك لا سيما في معرض الإطلاق والمدح بما عقبه من قوله تعالى : ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ [الزمر : 74] فتدبر .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74)

﴿ وَقَالُواْ ﴾ عطف على ﴿ قَالَ ﴾ [الزمر : 73] أو على الجواب المقدر بعد ﴿ خالدين ﴾ أو على مقدر غيره أي فدخلوها وقالوا : ﴿ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ بالبعث والثواب ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه فإن كانت أرض الآخرة التي يمشي عليها تسمى أرضاً حقيقة فذاك وإلا فإطلاقهم الأرض على ذلك من باب الاستعارة تشبيهاً له بأرض الدنيا ، والظاهر الأول ، وحكي عن قتادة .

وابن زيد .

والسدي أن المراد أرض الدنيا وليس بشيء ، وإيراثها تمليكها مخلفة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه بناءً على أنه لا ملك في الآخرة لغيره عز وجل وإنما هو إباحة التصرف والتمكين مما هو ملكه جل شأنه ، وقيل : ورثوها من أهل النار فإن لكل منهم مكاناً في الجنة كتب له بشرط الإيمان .

﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاء ﴾ أي يتبوأ كل منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة لا أن كلاً منهم يتبوأ في أي مكان من مطلق الجنة أو من جنات غيره المعينة لذلك الغير ، فلا يقال : إنه يلزم جواز تبوؤ الجميع في مكان واحد وحدة حقيقة وهو محال أو أن يأخذ أحدهم جنة غيره وهو غير مراد ، وقيل : الكلام على ظاهره ولكل منهم أن يتبوأ في أي مكان شاء من مطلق الجنة ومن جنات غيره إلا أنه لا يشاء غير مكانه لسلامة نفسه وعصمة الله تعالى له

عن تلك المشيئة ، وقال الإمام : قالت حكماء الإسلام : إن لكل جنتين جسمانية وروحانية ومقامات الثانية لا تمانع فيها فيجوز أن يكون في مقام واحد منها ما لا يتناهى من أربابها ، وهذه الجملة حالية فالمعنى أورثنا مقامات الجنة حالة كوننا نسرح في منازل الأرواح كما نشاء .

وقد قال بعض متألهي الحكماء : الدار الضيقة تسع ألف ألف من الأرواح والصور المثالية التي هي أبدان المتجردين عن الأبدان العنصرية لعدم تمانعها كما قيل :

سم الخياط مع الأحباب ميدان . . .

(33/671)

وفسر المقام الروحاني بما تدركه الروح من المعارف الإلهية وتشاهده من رضوان الله تعالى وعنايته القدسية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

وتعقب بأن هذا أن عد من بطون القرآن العظيم فلا كلام وإلا فحمل الجنة على مثل ذلك مما لا تعرفه العرب ولا ينبغي أن يفسر به ، على أنه ربما يقال : يرد عليه أنه يقتضي أن لكل أحد أن يصل إلى مقام روحاني من مقاماتها مع أن منها ما يخص الأنبياء المكرمين والملائكة المقربين ، والظاهر أنه لا يصل إلى مقاماتهم كل أحد من العارفين فافهم ولا تغفل ﴿ فَنِعْمَ

أَجْرُ العاملين ﴾ من كلام الداخلين عند الأكثر والمخصوص بالمدح محذوف أي هذا الأجر أو الجنة ، ولعل التعبير بأجر العاملين دون أجرنا للتعريض بأهل النار أنهم غير عاملين ، وقال مقاتل : هو من كلام الله تعالى .

﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ ﴾ أي محدقين من الحفاف بمعنى الجانب جمع حاف كما قال الأخفش ، وقال الفراء : لا يفرد فقيل : أراد أن المفرد لا يكون حافاً إذ الإحداق والإحاطة لا يتصور بفرد وإنما يتحقق بالجمع ، وقيل : أراد أنه لم يرد استعمال مفرده .

وأورد على الأول أن الإحاطة بالشيء بمعنى محاذاة جميع جوانبه فتتصور في الواحد بدورانه حول الشيء فإنه حينئذٍ يحاذي جميع جوانبه تدريجاً فيكون الحفوف بمعنى الدوران حوله أو يراد بكونه حافاً أنه جزء من الحاف وله مدخل في الحفوف ، ولو صح ما ذكر لم يصح أن يقال : طائف أو محدق أو محيط أو نحوه مما يدل على الإحاطة .

(34/671)

وأورد على الثاني أنا لم نجد ورود جمع سالم لم يرد استعمال مفرده فبعد ورود حافين الظاهر ورود حاف كما لا يخفى ، والخطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم ، وجوز أن يكون لكل من تصح منه الرؤية كأنه قيل : وترى أيها الرائي الملائكة حافين ﴿ مِنْ

حَوْلِ العرش ﴾ أي حول العرش على أن ﴿ مِنْ ﴾ مزيد على رأي الأخفش وهو الأظهر ، وقيل : هي للابتداء فحول العرش مبتدأ الحفوف وكأن الحفوف حينئذٍ للخلق ، وفي بعض الآثار ما هو ناطق بذلك ، وفيها ما يدل على أن العرش يوم فصل القضاء يكون في الأرض حيث يشاء الله تعالى والأرض يومئذٍ غير هذه الأرض ، على أن أحوال يوم القيامة وشؤون الله تعالى وراء عقولنا وسبحان من لا يعجزه شيء ، والظاهر أن الرؤية بصرية فحافين حال أولى وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ حال ثانية ، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير ﴿ حَافِّينَ ﴾ المستتر ، وجوز كون الرؤية علمية فحافين مفعول ثان وجملة ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ حال من ﴿ الملائكة ﴾ أو من ضميرهم في ﴿ حَافِّينَ ﴾ والباء في ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال أي ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده ، وحاصله يذكرون الله تعالى بوصفي جلاله وإكرامه تبارك وتعالى ، وهذا الذكر إما من باب التلذذ فإن ذكر المحبوب من أعظم لذائذ المحب كما قيل

: أجد الملامة في هواك لذيذة . . .

حباً لذكرك فليلمني اللوم

أو من باب الامتثال ويدعي أنهم مكلفون ، ولا يسلم أنهم خارجون عن خطة التكليف أو يخرجون عنها يوم القيامة ، نعم لا يرون ذلك كلفة وإن أمروا به .

وفي حديث طويل جداً أخرجه عبد بن حميد .

وعلي بن سعيد في كتاب الطاعة والعصيان .

وأبو يعلى .

وأبو الحسن القطان في المطولات .

وأبو الشيخ في العظمة .

(35/671)

والبيهقي في البعث والنشور عن أبي هريرة " فبيننما نحن وقوف أي في المحشر إذ سمعنا حساً من السماء شديداً فينزل أهل سماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم ثم تنزل أهل السماء الثانية بمثلي من نزل من الملائكة ومثلي من فيها من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم ثم تنزل أهل السماء الثالثة بمثلي من نزل من الملائكة ومثلي من فيها من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف إلى السماوات السبع ثم ينزل الجبار في ظلل من الغمام والملائكة تحمل عرشه يومئذٍ ثمانية وهم اليوم أربعة أقدامهم على تخوم الأرض السفلي والأرضون والسماوات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم لهم زجل بالتسبيح

فيقولون : سبحان ذي العزة والجبروت سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح سبحان ربنا الأعلى الذي يميت الخلائق ولا يموت فيضع عرشه حيث يشاء من الأرض ثم يهتف سبحانه بصوته فيقول عز وجل : يا معشر الجن والإنس إني قد أنصت لكم منذ يوم خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع قولكم وأبصر أعمالكم فأنصتوا إلي فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه "

الحديث .

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ أي بين العباد كلهم بإدخال بعضهم الجنة وبعضهم النار فإن القضاء المعروف يكون بينهم ، ولوضوح ذلك لا يضر كون الضمير لغير الملائكة مع أن ضمير ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ لهم إذ التفكيك لا يمتنع مطلقاً كما توهم ، وقيل : ضمير ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ للملائكة واستظهره أبو حيان ، وثوابهم وإن كانوا كلهم معصومين يكون على حسب تفاضل أعمالهم فيختلف تفاضل مراتبهم فإقامة كل في منزلته حسب عمله هو القضاء بينهم بالحق .

﴿ وَقِيلَ الحمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ أي على ما قضى بيننا بالحق ، والقائل قيل : هم المؤمنين المقضي لهم لا ما يعمهم والمقضي عليهم ، وحمدهم الأول على إنجاز وعده سبحانه وإيراثهم الأرض يتبوؤون من الجنة ما شاؤا ، وحمدهم هذا على القضاء بالحق بينهم فلا تكرار .

وقال الطيبي : إن الأول للتفصلة بين الفريقين بحسب الوعد والوعيد والسخط والرضوان ، والثاني للتفرقة بينهما بحسب الأبدان ففريق في الجنة وفريق في السعير والأول أحسن ، وقيل : هم الملائكة يحمدونه تعالى على قضائه سبحانه بينهم بالحق وإنزال كل منهم منزلته ، وعليه ليس في الحمدين شائبة تكرار لتغاير الحامدين .

وقيل : ﴿ قِيلَ ﴾ دون قالوا لتعينهم وتعظيمهم ، وجوز كون القائل جميع العباد منعمهم ومعذبهم ؛ وكأنه أريد أن الحمد من عموم الخلق المقضي بينهم هنا إشارة إلى التمام وفصل الخصام كما يقوله المنصرفون من مجلس حكومة ونحوها ، فيحمده المؤمنون لظهور حقهم وغيرهم لعدله واستراحتهم من انتظار الفصل ، ففي بعض الآثار أنه يطول الوقوف في المحشر على العباد حتى إن أحدهم ليقول : رب أرحني ولو إلى النار ، وقيل : إنهم يحمدونه إظهاراً للرضا والتسليم .

وقال ابن عطية : هذا الحمد ختم للأمر يقال عند انتهاء فصل القضاء أي إن هذا الحاكم

العدل ينبغي أن يحمد عند نفوذ حكمه وإكمال قضائه ، ومن هذه الآية جعلت ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ خاتمة المجالس في العلم ، هذا والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على رسوله محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(37/671)

وقال الشوكانى :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾

لما ذكر فيما تقدّم حال الذين كفروا ، وسوقهم إلى جهنم ، ذكر هنا حال المتقين ، وسوقهم إلى الجنة ، فقال : ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً ﴾ أي : ساقتهم الملائكة سوق إعزاز ، وتشريف ، وتكريم .

وقد سبق بيان معنى الزمر ﴿ حتى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ جواب إذا محذوف .

قال المبرد تقديره : سعدوا ، وفتحت ، وأنشد قول الشاعر :

فلو أنها نفس تموت جميعة . . . ولكنها نفس تساقط أنفسا

فحذف جواب لو ، والتقدير : لكان أروح .

وقال الزجاج : القول عندي : أن الجواب محذوف على تقدير : حتى إذا جاءوها ، وكانت هذه الأشياء التي ذكرت دخلوها ، فالجواب دخولها ، وحذف ؛ لأن في الكلام دليلاً عليه .

وقال الأخفش ، والكوفيون : الجواب ﴿ فتحت ﴾ ، والواو زائدة ، وهو خطأ عند البصريين ، لأن الواو من حروف المعاني ، فلا تزاد .

قيل : إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله ، والتقدير : حتى إذا جاءوها ، وأبوابها مفتحة بدليل قوله : ﴿ جنات عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الابواب ﴾ [ص : 50] ، وحذفت الواو في قصة أهل النار ، لأنهم وقفوا على النار ، وفتحت بعد وقوفهم إذلالاً ، وترويعاً .

ذكر معناه النحاس منسوباً إلى بعض أهل العلم ، قال : ولا أعلم أنه سبقه إليه أحد .

وعلى هذا القول تكون الواو واو الحال بتقدير قد ، أي : جاءوها ، وقد فتحت لهم الأبواب .

وقيل : إنها واو الثمانية ، وذلك أن من عادة العرب أنهم كانوا يقولون في العدد : خمسة ستة سبعة ، وثمانية ، وقد مضى القول في هذا في سورة براءة مستوفى ، وفي سورة الكهف أيضاً .

ثم أخبر سبحانه : أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين ، فقال : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سلام عَلَيْكُمْ ﴾ أي : سلامة لكم من كل آفة ﴿ طِبْتُمْ ﴾ في الدنيا ، فلم تتدنسوا بالشرك ، والمعاصي .

قال مجاهد : طبتم بطاعة الله ، وقيل : بالعمل الصالح ، والمعنى واحد .

قال مقاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة ، والنار ، فيقتصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم حتى إذا هذبوا ، وطيبوا قال لهم رضوان ، وأصحابه : ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ الآية ﴿ فادخلوها ﴾ أي : ادخلوا الجنة ﴿ خالدين ﴾ أي : مقدّرين الخلود ، فعند ذلك قال أهل الجنة : ﴿ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ بالبعث ، والثواب بالجنة ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ أي : أرض الجنة كأنها صارت من غيرهم إليهم ، فملكوها ، وتصرفوا فيها .

وقيل : إنهم ورثوا الأرض التي كانت لأهل النار لو كانوا مؤمنين .

قاله أكثر المفسرين .

وقيل : إنها أرض الدنيا ، وفي الكلام تقديم ، وتأخير ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاء ﴾ أي

: نتخذ فيها من المنازل ما نشاء حيث نشاء ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ المخصوص بالمدح محذوف ، أي : فنعم أجر العاملين الجنة ، وهذا من تمام قول أهل الجنة .

وقيل : هو من قول الله سبحانه : ﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ أي : محيطين محدقين به ، يقال : حفّ القوم بفلان إذا أطافوا به ، و "من" مزيدة .

قاله الأخفش ، أو للابتداء ، والمعنى : أن الرائي يراهم بهذه الصفة في ذلك اليوم ، وجملة : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : حال كونهم مسبحين لله ملتبسين بحمده .

وقيل : معنى يسبحون : يصلون حول العرش شكراً لربهم ، والحافين جمع حافّ ، قاله الأخفش .

(39/671)

وقال الفراء : لا واحد له إذ لا يقع لهم هذا الاسم إلا مجتمعين ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ أي : بين العباد بإدخال بعضهم الجنة ، وبعضهم النار ، وقيل : بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء ، وبين أممهم بالحق .

وقيل : بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب درجاتهم ، والأوّل أولى .

﴿ وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبّ العالمين ﴾ القائلون هم : المؤمنون حمدوا الله على قضائه بينهم ، وبين أهل النار بالحق .

وقيل : القائلون هم : الملائكة حمدوا الله تعالى على عدله في الحكم ، وقضائه بين عباده بالحقّ .

وقد أخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشدّ كوكب درّيّ في السماء إضاءة " وأخرجا ، وغيرهما عن سهل بن سعد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى باب : الريان لا يدخله إلا الصائمون " وقد ورد في كون أبواب الجنة ثمانية أبواب أحاديث في الصحيحين ، وغيرهما .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ قال : أرض الجنة .

وأخرج هناد عن أبي العالية مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(40/671)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة في قوله تعالى ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر : 1718] وقدمنا طرفاً منه في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 97] .

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58)

قد قدمنا الآيات الموضحة له من جهات في سورة الأعراف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف : 53] .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه وعلى ما يماثله من الآيات في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : 106] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية ، مع بيان جملة من آثار الكِبَر السيئة ، في سورة الأعراف ،

في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَاهبط مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ [الأعراف : 13] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الآية .

(41/671)

قد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : 88] .

وقد ذكرنا في سورة المائدة الآية المتضمنة للقيد الذي لم يذكر في هذه الآية على قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بالإيمان فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ [المائدة : 5] الآية .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] .

قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه ، بالآيات القرآنية ، في سورة الكهف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿

وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : 49] وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ [الإسراء : 13] .

قوله تعالى : ﴿ وَجِيءَ بالنبيين والشهدآء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحق وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَت ﴾ الآية .

اختلف العلماء في المراد بالشهداء في هذه الآية الكريمة فقال بعضهم : هم الحفظة من الملائكة الذين كانوا يحصون أعمالهم في الدنيا ، واستدل من قال هذا بقوله تعالى ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : 21] .

وقال بعض العلماء : الشهداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، يشهدون على الأمم ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة : 143] .

(42/671)

وقيل : الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ، وأظهر في الآية عندي ، أن الشهداء هم الرسل من البشر الذين أرسلوا إلى الأمم ، لأنه لا يقضي بين الأمة حتى يأتي رسولها ، كما صرح

تعالى بذلك في سورة يونس في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : 47] فصرح جل وعلا بأنه يسأل الرسل عما أجابتهم به أممهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ [المائدة : 109] وقال تعالى ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين ﴾ [الأعراف : 6] وقد يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] لأن كونه صلى الله عليه وسلم هو الشهيد على هؤلاء الذين هم أمته ، يدل على أن الشهيد على كل أمة هو رسولها .

وقد بين تعالى أن الشهيد على كل أمة من أنفس الأمة ، فدل على أنه ليس من الملائكة ، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [النحل : 89] والرسل من أنفس الأمم كما قال تعالى في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : 128] . وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى المؤمنين إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : 164] الآية .

والمسوغ للإيجاز بحذف الفاعل في قوله تعالى : ﴿ وَجِيءَ بالنبيين ﴾ [الزمر : 69] هو أنه من المعلوم الذي لا نزاع فيه ، أنه لا يقدر على المجيء بهم إلا الله وحده جل وعلا .

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير الكسائي هشام عن ابن عامر ، وجيء بكسر الجيم

كسرة خالصة .

وقرأه الكسائي وهشام عن ابن عامر بإشمام الكسرة الضم .

(43/671)

وإنما كان الإشمام هنا جائزاً ، والكسر جائزاً ، لأنه لا يحصل في الآية البتة ، لبس بين المبني للفاعل ، والمبني للمفعول ، إذ من المعلوم أن قوله هنا : وجيء مبني للمفعول ولا يحتمل البناء للفاعل بوجه ، وما كان كذلك جاز فيه الكسر الخالص وإشمام الكسرة الضم كما أشار له في الخلاصة بقوله :

واكسر أو أشمم فاثلاثي أعل . . . عيناً وضم حاء كبوع فاحتمل

أما إذا أسند ذلك الفعل إلى ضمير الرفع المتصل ، فإن ذلك قد يؤدي إلى اللبس ، فيشتبه المبني للمفعول ، بالمبني للفاعل ، فيجب حينئذ اجتناب الشكل الذي يوجب اللبس ، والإتيان بما يزيل اللبس من شكل أو إشمام كما أشار له في الخلاصة بقوله :

وإن بشكل خيف لبس يجتنب . . . ومن أمثلة ذلك قول الشاعر ، وقد أنشده صاحب اللسان :

وإني على المولى وإن قل نفعه . . . دفوع إذا ما صمت غير صبور

فقوله صمت أصله صيمت بالبناء للمفعول فيجب الإشمال أو الضم لأن الكسر الخالص يجعله محتملاً للبناء للفاعل كبعت وسرت . وقول جرير المرار بن عبد الرحمن بن أبي بكرة :

وأقول من جزع وقد فتنا به . . . ودموع عيني في الرداء غزار

للدافنين أخا المكارم والندا . . . لله ما ضمنت بك الأحجار

اصله فوتنا بالبناء للمفعول فيجب الكسر أو الإشمام لأن الضم الخالص يجعله محتملاً للبناء للفاعل ، كقلنا وقمنا .

قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ .

الزمر الأفواج المتفرقة ، واحدة زمرة ، وقد عبر تعالى عنها هنا بالزمر ، وعبر عنها في الملك بالأفواج في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ [الملك : 8] الآية ، وعبر عنها في الأعراف بالأمم في قوله تعالى : ﴿ قَالَ ادخلوا في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مّن الجن والإنس فِي النار كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ ﴾ [الأعراف : 38] الآية .

(44/671)

وقال في فصلت ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ ﴾ [فصلت : 25] وقال تعالى : ﴿ هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النار ﴾ [ص : 59] .

ومن إطلاق الزمر على ما ذكرنا قوله :

وترى الناس إلى منزله . . . زمراً تنتابه بعد زمر

وقول الراجز :

إن العفاة بالسيوب قد غمر . . . حتى احزألت زمراً بعد زمر

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ .

لم يبين جل وعلا هنا عدد أبوابها المذكورة ، ولكنه بين ذلك ، في سورة الحجر في قوله ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : 4344] .

وقوله تعالى : ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمر وابن عامر : (فُتِّحت) بتشديد التاء دلالة على التكثير . وقرأه عاصم وحمزة والكسائي (فُتِحت) بتخفيف التاء .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا قَالُواْ بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، في سورة بني إسرائيل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له ، في سورة النحل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادخلوا الجنة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : 32] .

(45/671)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة إذا دخلوها وعاينوا ما فيها من النعيم ، حمدوا ربهم وأثنوا عليه ، ونوهوا بصدق وعده لهم ، وذكر هذا المعنى في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي هَدَانَا لهذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لولا أَنْ هَدَانَا الله لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43] . وقوله تعالى :

﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً ﴾ [الأعراف : 44] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الذي أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر : 3335] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(46/671)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾

أطلق على تَقْدِمَة المتقين إلى الجنة فعل السَّوق على طريقة المشاكلة ل ﴿ سيقَ ﴾ [الزمر : 71] الأولِ ، والمشاكلةُ من المحسنات ، وهي عند التحقيق من قبيل الاستعارة التي لا علاقة لها إلاّ المشابهة الجُملية التي تحمل عليها مجانسة اللفظ .

وجَعلهم زُمراً بحسب مراتب التقوى .

والواو في جملة ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ واو الحال ، أي حين جاءوها وقد فتحت أبوابها

فوجدوا الأبواب مفتوحة على ما هو الشأن في اقتبال أهل الكرامة .

وقد وهِم في هذه الواو بعض النحاة مثل ابن خالويه والحريري وتبعهما الثعلبي في "تفسيره" فزعموا أنها واو تدخل على ما هو ثامن إمّا لأن فيه مادة ثمانية كقوله : ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ [الكهف : 22] ، فقالوا في ﴿ وفُتِحَت أبوابها ﴾ جيء بالواو لأن أبْواب الجنة ثمانية ، وإما لأنه ثامن في التعداد نحو قوله تعالى : ﴿ التائبون العابدون ﴾ إلى قوله : ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ [التوبة : 112] فإنه الوصف الثامن في التعداد ووقوع هذه الواوات مُصادفة غريبة ، وتنبُّه أولئك إلى تلك المصادفة تنبه لطيف ولكنه لا طائل تحته في معاني القرآن بَلْهَ بلاغتِه ، وقد زينه ابن هشام في "مغني اللبيب" ، وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ التائبون العابدون ﴾ في سورة [التوبة : 112] وعند قوله : ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ في سورة [الكهف : 22] .

(و ﴿ إذا ﴾ هنا لمجرد الزمان غير مضمنة معنى الشرط ، فالتقدير : حتّى زمنِ مجيئهم إلى أبواب الجنة ، أي خلَّتهم الملائكة الموكلون بإحفافهم عند أبواب الجنة ، كحالة من يُهدي العروس إلى بيتها فإذا أَبلغها بابه خَلَّى بينها وبين بيتها ، كأنهم يقولون : هذا منزلكم فدونكموه ، فتلقتهم خزنة الجنة بالسلام .

و ﴿ طبتم ﴾ دعاء بالطيب لهم ، أي التزكية وطيب الحالة ، والجملة إنشاء تكريم ودعاء .

والخلاف بين القراء في ﴿ فتحت ﴾ هنا كالخلاف في نظيره المذكور آنفاً .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74)

عطف هذا الكلام يؤذن بأن قولهم ذلك غيرُ جواب لقول الملائكة بل حَمدوا الله على ما منحهم من النعيم الذي وعَدهم به ، وإنما وعدهم به بعنوان الأعمال الصالحة فلما كانوا أصحاب الأعمال الصالحة جعَلوا وعد العاملين للصالحات وعداً لهم لتحقق المعلق عليه الوعدُ فيهم .

ومعنى ﴿ صدقنا ﴾ حقق لنا وعده .

وقوله : ﴿ أورثنا الأرض ﴾ كلام جرى مجرى المثل لمن ورث الملك قال تعالى : ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ [الأنبياء : 105] فعبر القرآن عن مراد أهل الجنة المختلفي اللغات بهذا التركيب العربي الدال على معاني ما نطقوا به من لغاتهم المختلفة . ويجوز أن يكون أهل الجنة نطقوا بكلام عربي ألهمهم الله إياه فقد جاء في الآثار أن كلام أهل الجنة بالعربية الفصحى .

ولفظ ﴿ الأرض ﴾ جار على مراعاة التركيب التمثيلي لأن الأرض قد اضمحلت أو بدلت .

ويجوز أن يكون لفظ ﴿ الأرض ﴾ مستعاراً للجنّة لأنها قرارهم كما أن الأرض قرار الناس في الحياة الأولى .

وإطلاق الإِيراث استعارة تشبيهاً للإِعطاء بالتوريث في سلامته من تعب الاكتساب .

والتبؤ : السكني والحلول ، والمعنى : أنهم يتنقلون في الغرف والبساتين تفنناً في النعيم .

وأرادوا بـ ﴿ العاملين ﴾ أنفسَهم ، أي عاملي الخير ، وهذا من التصريح بالحقائق فليس فيه عيب تزكية النفس ، لأن ذلك العالم عالم الحقائق الكاملة المجردة عن شوب النقائص .

(48/671)

واعلم أن الآيات وَصفت مصير أهل الكفر ومصير المتقين يوم الحشر ، وسكتت عن مصير أهل المعاصي الذين لم يلتحقوا بالمتقين بالتوبة من الكبائر وغفرانِ الصغائر باجتناب الكبائر ، وهذه عادة القرآن في الإِعراض عن وصف رجال من الأمة الإِسلامية بمعصية ربهم إلا عند الاقتضاء لبيان الأحكام ، فإن الكبائر من أمر الجاهلية فما كان لأهل الإِسلام أن يقعوا فيها فإذا وقعوا فيها فعليهم بالتوبة ، فإذا ماتوا غير تائبين فإن الله تعالى يحصي لهم حسنات

أعمالهم وطيبات نواياهم فيُقاصُّهم بها إن شاء ، ثم هم فيما دون ذلك يقتربون من العقاب بمقدار اقترابهم من حال أهل الكفر في وفرة المعاصي فيؤمر بهم إلى النار ، أو إلى الجنة ، ومنهم أهل الأعراف .

وقد تقدمت نبذة من هذا الشأن في سورة الأعراف .

﴿ وَتَرَى الملائكة حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ .

عطف على ما قبله من ذكر أحوال يوم القيامة التي عطف بعضها على بعض ابتداء من قوله تعالى : ﴿ ونُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِق مَن في السموات ومَن في الأرض ﴾ [الزمر : 68] إن من جملة تلك الأحوال حَفّ الملائكة حول العرش .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم فيكون إيذاناً بأنها رؤية دنو من العرش وملائكته ، وذلك تكريم له بأن يكون قد حواه موكب الملائكة الذين حول العرش .

والحَفُّ : الإحداق بالشيء والكون بجوانبه .

وجملة ﴿ يُسَبحون بحمد ربهم ﴾ حال ، أي يقولون أقوالاً تدل على تنزيه الله تعالى وتعظيمه مُلابِسَةً لحمدهم إياه .

فالباء في ﴿ بحمد ربهم ﴾ للملابسة تتعلق بـ ﴿ يسبحون ﴾ .

وفي استحضار الله تعالى بوصف ربهم إيماء إلى أن قربهم من العرش ترفيع في مقام العبودية الملازمة للخلائق .

﴿ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

تأكيد لجملة ﴿ وقُضِي بينهم بالحقِّ وهُم لا يُظلمون ﴾ [الزمر : 69] المتقدمةِ .

﴿ بالحق وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ ﴾ .

(49/671)

يجوز أن يكون توكيداً لجملة ﴿ وقالوا الحَمْدُ للهِ الَّذي صَدَقنا وَعْده ﴾ [الزمر : 74] .

ويجوز أن يكون حكاية قول آخر لقائلين من الملائكة والرسل وأهل الجنة ، فهو أعم من القول المتقدم الذي هو قول المسُوقين إلى الجنة من المتقين ، فهذا قولهم يحمدون الله على عدل قضائه وجميع صفات كماله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(50/671)

فائدة

قال التستري :

قوله : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ [74] قال : إن الحمد منهم في الجنة ليس

على جهة التعبد ، إذ التعبد قد رفع عنهم ، كما رفع خوف الكسب والقطع ، وبقي خوف الإجلال والتعظيم لله عزَّ وجلَّ ، وإنما الحمد منهم لذة لنفس الطبع ونفس الروح والعقل ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 135 ﴾

(51/671)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾

فعقب دخولها على الطيب بحرف الفاء الذي يؤذن بأنه سبب للدخول أي بسبب طيبكم قيل لكم ادخلوها

وأما النار فإنها دار الخبث في الأقوال والأعمال والمآكل والمشارب ودار الخبيثين فالله تعالى يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه كما يركم الشئ لتراكب بعضه على بعض ثم يجعله في جهنم مع أهله فليس فيها إلا خبيث ولما كان الناس على ثلاث طبقات : طيب لا يشينه خبيث وخبيث لا طيب فيه وآخرون فيهم خبث وطيب دورهم ثلاثة : دار الطيب

المحض ودار الخبيث المحض وهاتان الداران لا تفنيان ودار لمن معه خبث وطيب وهي الدار التي تفنى وهي دار العصاة فإنه لا يبقي في جهنم من عصاة الموحدين أحد فإنه إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة ولا يبقي إلا دار الطيب المحض ودار الخبث المحض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الوابل الصيب صـ 33 ﴾

(52/671)

وقال رحمه الله أيضا :

قال الله تعالى

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام علوقال في صفة النار حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها ﴾

بغير واو فقالت طائفة هذه واو الثمانية دخلت في أبواب الجنة لكونها ثمانية وأبواب النار سبعة فلم تدخلها الواو وهذا قول ضعيف لا دليل عليه ولا تعرفه العرب ولا أئمة العربية وإنما هو من استنباط بعض المتأخرين وقالت طائفة أخرى الواو زائدة والجواب الفعل الذي بعدها كما هو في الآية الثانية وهذا أيضا ضعيف فإن زيادة الواو غير معروف في كلامهم ولا يليق بأفصح الكلام أن يكون فيه حرف زائد لغير معنى ولا فائدة وقالت طائفة ثالثة الجواب

محذوف وقوله وفتحت أبوابها عطف على قوله جاؤها وهذا اختيار أبي عبيدة والمبرد والزجاج وغيرهم قال المبرد وحذف الجواب أبلغ عند أهل العلم قال أبو الفتح بن جني وأصحابنا يدفعون زيادة الواو ولا يجيزونه ويرون أن الجواب محذوف للعلم به

(53/671)

بقي أن يقال فما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة وذكره في آية أهل النار فيقال هذا ابلغ في الموضعين فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة حتى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم فيفجأهم العذاب بغتة فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة فإن هذا شأن الجزاء المرتب على الشرط أن يكون عقيبه فإنها دار الإهانة والخزى فلم يستأذن لهم في دخولها ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول وأما الجنة فإنها دار الله ودار كرامته ومحل خواصه وأوليائه فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم ويستشفعون إليه بأولي العزم من رسله وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم فيقول أنا لها فيأتي إلى تحت العرش ويخر ساجدا لربه فيدعه ما شاء الله أن يدعه ثم يأذن له في رفع رأسه وان يسأله حاجته فيشفع إليه سبحانه في فتح ابوابها فيشفعه ويفتحها تعظيما لخطرها وأظهارا لمنزلة رسوله وكرامته

عليه وإن مثل هذه الدار هي دار ملك الملوك ورب العالمين إنما يدخل إليها بعد تلك الأهوال العظيمة التي اولها من حين عقل العبد في هذه الدار إلى ان انتهى إليها وما ركبه من الأطباق طبقا بعد طبق وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة حتى أذن الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه في فتحها لهم وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة وحصول الفرح والسرور مما يقدر بخلاف ذلك لئلا يتوهم الجاهل أنها بمنزلة الخان الذي يدخله من شاء فجنة الله غالية بين الناس وبينها من العقبات والمفاوز والأخطار مالا تنال إلا به فما لمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ولهذه الدار فليعد

(54/671)

يكم طبتم فادخلوها خالدين عنها إلى ما هو أولى به وقد خلق له وهيئ له وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمرا من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حده كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم مستبشرين أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير كذلك يؤنس بعضهم بعضا ويفرح بعضهم ببعض وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمرا يلعن بعضهم بعضا ويتأذى بعضهم ببعض وذلك أبلغ في الخزى والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحدا

واحدا فلا تهمل تدبر قوله زمرا وقال خزنة أهل الجنة لأهلها سلام عليكم فبدؤهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه أي سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون ثم قال لهم طبتم فادخلوها خالدين أي سلامتكم ودخولها بطيبكم فإن الله حرمها إلا على الطيبين فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود وأما أهل النار فإنهم لما انتهوا إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن وفتحت لهم أبوابها وقفوا عليها وزيدوا على ما هم عليه توبيخ خزنتها وتكبيتهم لهم بقولهم ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا فاعترفوا وقالوا بلى فبشروهم بدخولها والخلود فيها وإنها بئس المثوى لهم وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها أدخلوها وقول خزنة النار لأهلها أدخلوا أبواب جهنم تجد تحته سرا لطيفا ومعنى بديعا لا يخفى على المتأمل وهو أنها لما كانت دار العقوبة وأبوابها أفظع شيء وأشده حرا وأعظمه عما يستقبل فيها الداخل من العذاب ما هو أشد منها ويدنوا من الغم والخزي والحزن والكرب بدخول الأبواب فقيل ادخلوا أبوابها صغارا لهم وأذلالا وخزيا ثم قيل لهم لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ولكن وراءها الخلود في النار وأما الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه فبشروا من أول وهلة بالدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها وتأمل قوله سبحانه جنات عدن مفتحة لهم

الأبواب متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب كيف تجد تحته معنى بديعا وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم بل تبقى مفتحة كما هي وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها كما قال تعالى إنها عليهم مؤصدة أي مطبقة ومنه سمي الباب وصيدا وهي مؤصدة في عمد ممددة قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب

قال مقاتل يعني أبوابها عليهم مطبقة فلا يفتح لها باب ولا يخرج منها غم ولا يدخل فيها روح آخر الأبد وأيضا فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتبوئهم في الجنة حيث شاؤا ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت وأيضا إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتجون إلى ذلك في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حادى الأرواح صـ 54.51 ﴾

(56/671)

وقال أيضا :

قال سبحانه وتعالى ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي

بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾

فحذف فاعل القول لأنه غير معين بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم الذي حكم فيه فيحمده أهل السموات وأهل الأرض والأبرار والفجار والإنس والجن حتى أهل النار قال الحسن أو غيره لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلا وهذا والله أعلم هو السر الذي حذف لأجله الفاعل في قوله قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها وقوله وقيل ادخلا النار مع الداخلين كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم والله تعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روضة المحبين صـ 69 ﴾

(57/671)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾

أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن جهنم إذا سيق إليها أهلها تلفحهم بعنق منها لفحة لم تدع لحماً على عظم إلا ألقته على العرقوب " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ قال : بأعمالهم أعمال السوء . والله أعلم .

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا

أخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على صورة أشد كوكب دري في السماء إضاءة " .

(58/671)

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن راهويه وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبيهقي في البعث والضياء في المختارة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : يساق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان ، فعمدوا إلى احداهما فشربوا منها ، فذهب ما في بطونهم من أذى أو قذى وبأس ، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها ، فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلن تغير أبشارهم بعدها أبداً ولن تشعث أشعارهم كأنما دهنوا بالدهان ، ثم انتهوا إلى خزنة الجنة فقالوا ﴿ سلام عليكم طبتم

فادخلوها خالدين ﴾ ثم تلقاهم الْوِلْدَان يطوفون بهم كما يطيف أهل الدنيا بالحميم ، فيقولون : ابشر بما أعد الله لك من الكرامة ، ثم ينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين ، فيقول : قد جاء فلان باسمه الذي يدعى به في الدنيا فتقول : أنت رأيته ؟ فيقول : أنا رأيته ، فيستخفها الفرح حتى تقوم على أسكفة بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر شيئاً من أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه أخضر ، وأصفر ، وأحمر ، من كل لون . ثم رفع رأسه فنظر إلى سقفه فإذا مثل البرق . ولولا أن الله تعالى قدر أنه لا ألم لذهب ببصره .

ثم طأطأ برأسه فنظر إلى أزواجه ﴿ وأكواب موضوعة . ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ﴾ [الغاشية : 14-16] فنظر إلى تلك النعمة ، ثم اتكأ على أريكة من أريكته ، ثم قال ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . . . ﴾ [الأعراف : 43] . ثم ينادي منادٍ : تحيون فلا تموتون أبداً ، وتقيمون فلا تظعنون أبداً ، وتصحون فلا تمرضون أبداً . والله تعالى أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ .

(59/671)

أخرج البخاري ومسلم والطبراني عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون " .

وأخرج مالك وأحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة ، وللجنة أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله فهل يدعى أحد منها كلها ؟ قال : نعم وأرجو أن تكون منهم " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة وأبو يعلى والطبراني والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للجنة ثمانية أبواب : سبعة مغلقة ، وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : للجنة ثمانية أبواب : باب للمصلين ، وباب للصائمين ، وباب للحاجين ، وباب للمعتمرين ، وباب للمجاهدين ، وباب للذاكرين ، وباب للشاكرين .

وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل عمل أهل

من أبواب الجنة يدعون منه بذلك العمل " .

وأخرج البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة دعي الإِنسان بأكبر عمله ، فإذا كانت الصلاة أفضل دعي بها ، وإن كان صيامه أفضل دعي به ، وإن كان الجهاد أفضل دعي به . فقال أبو بكر رضي الله عنه : أحد يدعى بعملين ؟ قال : نعم . أنت " .

(60/671)

وأخرج الطبراني في الأوسط والخطيب في المتفق والمفترق عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن في الجنة باباً يقال له الضحى ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين كانوا يديمون صلاة الضحى ؟ هذا بابكم فادخلوه برحمة الله " .

وأخرج أحمد عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما بين مصراعين من مصاريع الجنة أربعون عاماً ، وليأتين عليهم يوم وأنه لكظيظ " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " والذي نفسي بيده لما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر . أو كما بين مكة وبصرى " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه أنه خطب فقال : إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لمسيرة أربعين عاماً ، وليأتين على أبواب الجنة يوم وليس منها باب إلا وهو كظيظ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب رضي الله عنه قال : ما بين مصراعي الجنة أربعون خريفاً للراكب المجد ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ الزحام .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلمي قال إن الرجل ليوقف على باب الجنة مائة عام بالذنب عمله ، وإنه ليرى أزواجه وخدمه .

وأخرج أحمد والبزار عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله " .

وأخرج الطيالسي والدارمي عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مفاتيح الجنة الصلاة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والدارمي ومسلم وأبو داود وابن ماجة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما منكم من أحد يسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له من الجنة ثمانية أبواب ؛ من أيها شاء دخل " .

وأخرج النسائي والحاكم وابن حبان عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يوم القيامة " .

وأخرج أحمد وابن جرير والبيهقي عن عتبة بن عبد الله السلمي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من عبد يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية . من أيها شاء دخل " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان له بنتان ، أو أختان ، أو عمتان ، أو خالتان ، فَعَالَهُنَّ فتحت له أبواب الجنة " .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيما امرأة اتقت ربها ، وحفظت فرجها ، فتحت لها ثمانية أبواب الجنة فقيل لها : ادخلي من حيث شئت " .

وأخرج أبو نعيم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "

من حفظ على أمتي أربعين حديثاً ينفعهم الله بها قيل له : أدخل من أي أبواب الجنة شئت ".

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ سلام عليكم طبتم ﴾ قال : كنتم طيبين بطاعة الله .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وأورثنا الأرض ﴾ قال : أرض الجنة .

وأخرج هناد عن أبي العالية رضي الله عنه مثله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ قال : انتهت مشيئتهم إلى ما أعطوا .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أرض الجنة قال : " هي بيضاء نقية " .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : أرض الجنة رخام من فضة .

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء رضي الله عنه ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ قال : مديرين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ قال : محدقين به .

وأخرج ابن عساكر عن كعب رضي الله عنه قال : جبل الخليل ، والطور ، والجودي . يكون كل واحد منهم يوم القيامة لؤلؤة بيضاء تضيء ما بين السماء والأرض . يعني يرجعن إلى بيت المقدس حتى يجعلن في زواياه ، ويضع عليها كرسيه حتى يقضى بين أهل الجنة والنار ﴿ والملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ قال : افتتح أول الخلق بالحمد ، وختم بالحمد . فتح بقوله ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ وختم بقوله ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن وهب رضي الله عنه قال : من أراد أن يعرف قضاء الله في خلقه فليقرأ آخر سورة الزمر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) ﴾

قوله : ﴿ قُلْ يا عبادي ﴾ : قيل في هذه الآيةِ من أنواع المعاني والبيانِ أشياءُ حسنةٌ ، منها : إقبالُه عليهم ونداؤهم ، ومنها : إضافتُهم إليه إضافةَ تشريفٍ ، ومنها : الالتفاتُ من التكلم إلى الغَيْبةِ في قوله : ﴿ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ ، ومنها : إضافةُ الرحمةِ لأجلِ أسمائِه الحُسْنى ، ومنها : إعادةُ الظاهرِ بلفظِه في قولِه : " إنَّ اللَّهَ " ، ومنها : إبرازُ الجملةِ مِنْ قولِه : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ مؤكَّدةً ب " إنَّ " ، وبالفصلِ ، وبإعادة الصفتين اللتين تضمَّنَتْهما الآيةُ السابقةُ .

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56)

قوله : ﴿ أَن تَقُولَ ﴾ : مفعولٌ مِنْ أجلِه ، فقدَّره الزمخشري كراهةَ أنْ تقول ، وابنُ عطية : أَنِيبوا مِنْ أَجْلِ أَنْ تقولَ . وأبو البقاء والحوفي : أَنْذَرْناكم مخافةَ أَنْ تقولَ . ولا حاجةَ إلى إضمارِ هذا العاملِ مع وجودِ " أَنيبوا " وإنما نَكَّر نفساً لأنه أراد التكثيرَ ، كقولِ الأعشى :

3898 ورُبَّ بَقيعٍ لو هَتَفْتُ بجَوِّه . . . أتاني كريمٌ يَنْفُضُ الرأسَ مُغْضَبا

يريد : أتاني كرام كثيرون لا كريمٌ فَذٌّ ؛ لمنافاتِه المعنى المقصودَ . ويجوز أَنْ يريد : نفساً متميّزةً من بينِ الأنفسِ باللَّجاجِ الشديدِ في الكفرِ أو بالعذابِ العظيمِ .

(64/671)

قوله : " يا حَسْرتا " العامَّةُ على الألفِ بدلاً مِنْ ياءِ الإضافةِ . وعن ابن كثير " يا حَسْرَتاهْ " بهاءِ السكت وَقْفاً ، وأبو جعفر " يا حَسْرَتي " على الأصل . وعنه أيضاً " يا حَسْرتاي " بالألفِ والياء . وفيها وجهان ، أحدُهما : الجمعُ بين العِوَضِ والمُعَوَّضِ منه . والثاني : أنه تثنيةُ " حَسْرَة " مضافةً لياءِ المتكلمِ . واعْتُرِضَ على هذا : بأنه كان ينبغي أَنْ يُقالَ : يا حَسْرتيَّ بإدغامِ ياءِ النَّصْبِ في ياءِ الإضافةِ . وأُجيب : بأنه يجوز أَنْ يكونَ راعى لغة الحارثِ ابن كعبٍ وغيرهم نحو : " رأيتُ الزيدان " . وقيل : الألفُ بدلٌ من الياءِ والياءُ بعدها مزيدةٌ . وقيل : الألفُ مزيدةٌ بين المتضايفَيْنِ ، وكلاهما ضعيفٌ .

قوله : ﴿ على مَا فَرَّطْتُ ﴾ " ما " مصدريةٌ أي : على تَفْريطي . وثَمَّ مضافٌ أي : في جَنْبِ طاعةِ الله . وقيل : ﴿ فِي جَنبِ الله ﴾ المرادُ به الأمرُ والجهةُ . يقال : هو في جَنْبِ فلانٍ وجانبه ، أي : جهته وناحيته . قال الراجز :

3899 الناسُ جَنْبٌ والأميرُ جَنْبُ . . . وقال آخر :

3900 أفي جَنْبِ بَكْرٍ قَطَّعَتْني مَلامةً . . . لَعَمْري لقد طالَتْ ملامَتُها بيا

ثم اتُّسِع فيه فقيل : فَرَّط في جَنْبِه أي في حَقِّه . قال :

3901 أَمَا تَتَّقِيْنَ اللَّهَ في جَنْبِ عاشِقٍ . . . له كَبِدٌ حَرَّى عليكِ تَقَطَّعُ

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58)

قوله : ﴿ فَأَكُونَ ﴾ : في نصبِه وجهان ، أحدهما : عَطْفُه على "كَرَّة" فإنها مصدرٌ ، فعُطِفَ مصدرٌ مؤولٌ على مصدرٍ مُصَرَّح به كقولها :

3902 لَلُبْسُ عَباءةٍ وتَقَرَّ عَيْني . . . أَحَبُّ إليَّ من لُبْسِ الشُّفُوفِ

وقول الآخر :

3903 فما لَكَ منها غيرُ ذكرى وحَسْرةٍ . . . وتَسْأَلَ عن رُكْبانِها أينَ يَمَّموا

(65/671)

والثاني : أنه منصوبٌ/ على جوابِ التمني المفهومِ مِنْ قولِه : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ . والفرقُ بين الوجهين : أن الأولَ يكونُ فيه الكونُ مُتَمَنَّى ، ويجوز أَنْ تُضْمَرَ "أَنْ" وأَنْ تظهرَ ، والثاني يكون فيه الكونُ مترتباً على حصولِ المُتَمَنَّى لا مُتمنى ويجب أَنْ تُضْمَرَ "أَنْ" .

بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59)

قوله : ﴿ بلى ﴾ : حرفُ جوابٍ وفيما وقعَتْ جواباً له وجهان ، أحدُهما : هو نَفْيٌ مقدرٌ . قال ابنُ عطية : " وحَقُّ بلى أَنْ تجيْءَ بعد نفيٍ عليه تقريرٌ ، كأنَّ النفسَ قالَتْ : لم يَتَّسِعْ لي النظرُ ولم يَتَبَيَّنْ لي الأمرُ " . قال الشيخ : " ليس حَقُّها النفيَ المقررَ ، بل حَقُّها النفيُ ، ثم حُمِل التقريرُ عليه ، ولذلك أجاب بعضُ العربِ النفيَ المقررَ ب نعم دونَ بَلى ، وكذا وقع في عبارةِ سيبويه نفسه " . والثاني : أنَّ التمنيَ المذكورَ وجوابَه متضمنان لنَفْيِ الهدايةِ ، كأنه قال : لم أهتدِ ، فَرَدَّ الله عليه ذلك . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : هَلاَّ قُرِنَ الجوابُ بما هو جوابٌ له ، وهو قولُه : ﴿ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِي ﴾ ولم يَفْصِلْ بينهما . قلت : لأنه لا يَخْلو : إمَّا أَنْ يُقَدَّمَ على إحدى القرائنِ الثلاثِ فيُفَرَّقَ بينهنَّ ، وإمَّا أن تُؤَخَّرَ القرينةُ الوسطى . فلم يَحْسُنِ الأولِ لما فيه من تَبْتير النَّظْم بالجمع بين القرائن ، وأمَّا الثاني فلِما فيه من نَقْضِ الترتيبِ وهو التحسُّر على التفريط في الطاعةِ ثم التعلُّل بفَقْدِ الهدايةِ ثم تمنّي الرَّجْعَة ، فكان الصواب ما جاءَ عليه : وهو أنَّه حكى أقوالَ النفسِ على ترتيبها ونَظْمِها ، ثم أجاب مِنْ بينِها عَمَّا اقتضى الجوابَ " .

(66/671)

وقرأ العَامَّةُ " جاءَتْكَ " بفتح الكاف فكذّبْتَ واستكبرتَ ، وكنتَ ، بفتح التاءِ خطاباً للكافر دونَ النفس . وقرأ الجحدريُّ وأبو حيوةَ وابن يعمر والشافعيُّ عن ابن كثير ، ورَوَتْها أُمُّ سَلَمَةَ عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ، وبها قرأ أبو بكر وابنتُه عائشةُ رضي الله عنهما ، بكسرِ الكاف والتاءِ خطاباً للنفسِ . والحسن والأعرج والأعمش " جَأَتْكَ " بوزنِ " جَفَتْك " بهمزةٍ دون ألفٍ . فتحتمل أَنْ تكونَ قَصْراً كقراءةِ قُنْبل ﴿ أَن رَّآهُ استغنى ﴾ وأَنْ يكونَ في الكلمةِ قَلْبٌ : بأَنْ قُدِّمَتِ اللامُ على العين ، فالتقى ساكنان فحُذِفَتِ الألفُ لالتقائِهما ، نحو : رَمَتْ وغَزَتْ .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60)

(67/671)

قوله : ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ : العامَّةُ على رفعِهما ، وهي جملةٌ مِنْ مبتدأ وخبرٍ . وفي محلِّها وجهان ، أحدهما : النصبُ على الحالِ من الموصولاتِ ؛ لأنَّ الرؤيةَ بَصَرِيَّةٌ ، وكذا أَعْرَبَها الزمخشريُّ . ومِنْ مذهبِه أنه لا يجوزُ إسقاطُ الواوِ مِنْ مثلِها إلاَّ شاذّاً ، تابعاً في ذلك الفراءَ فهذا رجوعٌ منه عن ذلك . والثاني : أنها في محلِّ نصبٍ مفعولاً ثانياً ؛ لأنَّ الرؤيةَ قلبيةٌ

. وهو بعيدٌ لأن تَعَلُّقَ الرؤيةِ البصريةِ بالأجسام وألوانِها أظهرُ مِنْ تعلُّقِ القلبيةِ بهما . وقُرِئ "وجوهَهم مُسْوَدَّة" بنصبِهما ، على أنَّ "وجوهَهم" بدلُ بعضٍ مِنْ كل ، و "مُسْوَدَّةً" على ما تقدَّم من النصبِ على الحال أو على المفعولِ الثاني . وقال أبو البقاء : "ولو قُرِئ وجوهَهم" بالنصب لكانَ على بدلِ الاشتمالِ" . قلت : قد قُرِئ به والحمدُ لله ، ولكنْ ليس كما قال على بدلِ الاشتمال ، بل على بدلِ البعضِ ، وكأنه سَبْقُ لسانٍ أو طغيانُ قَلَم . وقرأ أُبَيٌّ "أُجوهُهم" بقلبِ الواوِ همزةً ، وهو فصيحٌ نحو : ﴿ أُقِّتَتْ ﴾ [المرسلات : 11] وبابه .

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61)

قوله : ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ : قرأ الأخَوان وأبو بكرٍ "بمفازاتِهم" جمعاً لمَّا اختلفَتْ أنواعُ المصدرِ جُمِعَ . والباقون بالإفرادِ على الأصلِ . وقيل : ثَمَّ مضافٌ محذوفٌ ، أي : بدواعي مَفازتِهم أو بأسبابِها . والمَفازَةُ : المَنْجاة . وقيل : لا حاجةَ لذلك ؛ إذ المرادُ بالمَفازةِ الفلاحُ .

قوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ السوء ﴾ يجوز أَنْ تكونَ هذه الجملةُ مفسِّرةً لمفازَتهم كأنَّه قيل : وما مفازَتُهم ؟ فقيل : لا يَمَسُّهم السوءُ فلا مَحَلَّ لها . ويجوز أَنْ تكونَ في محلِّ نصبٍ على الحال من الذين اتَّقَوا .

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63)

قوله: ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ ﴾: جملةٌ مستأنفةٌ. والمَقاليد: جمعُ مِقْلاد أو مِقْليد، أو لا واحدَ له مِنْ لفظِه كأَساطير وأخواتِه ويُقال أيضاً: إِقْليد وأَقاليد، وهي المفاتيح والكلمةُ فارسيةٌ مُعَرَّبَةٌ. وفي هذا الكلامِ استعارةٌ بديعة نحو قولك: بيدِ فلانٍ مِفْتاحُ هذا الأمرِ، وليس ثَمَّ مِفْتاح وإنما هو عبارةٌ عن شِدَّةِ تمكُّنِه من ذلك الشيءِ. /

قوله: ﴿ والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله ﴾ في هذه الجملةِ وجهان، أحدُهما: أَنَّها معطوفةٌ على قوله: ﴿ وَيُنَجِّي الله الذين اتقوا ﴾ [الزمر: 61] أي: يُنَجِّي المتقين بمَفازَتِهم، والكافرون هم الخاسرون. واعتُرِضَ بينهما بأَنَّه خالِقُ الأشياءِ كلِّها ومُهَيْمِنٌ عليها، قاله الزمخشري. واعترض عليه فخر الدين الرازي: بأَنَّه عَطْفُ اسميةٍ على فعليةٍ، وهو لا يجوزُ، وهذا الاعتراضُ مُعْتَرَضٌ [عليه] إذ لا مانعَ من ذلك. الثاني: أنها معطوفةٌ على قوله: ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السماوات ﴾؛ وذلك أنه تعالى لَمَّا وَصَفَ نفسَه بأَنَّه خالقُ كلِّ شيءٍ في السماوات والأرضِ، ومفاتيحُه بيده، قال: والذين كفروا أَنْ يكونَ الأمرُ كذلك أولئك هم الخاسرون.

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64)

قوله : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمروني أَعْبُدُ ﴾ : فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : - وهو الظاهرُ - أنَّ " غير " منصوبٌ ب " أَعْبُدُ " . و " أعبدُ " معمولٌ ل " تَأْمرونِّي " على إضمارِ " أنْ " المصدريةِ ، فلَمَّا حُذِفَت بَطَل عملُها وهو أحد الوجهين . والأصل : أفتأمرونِّي بأَنْ أعبدَ غيرَ اللَّه ، ثم قُدِّم مفعولُ " أعبدُ " على " تَأْمُرونِّي " العاملِ في عامِله . وقد ضَعَّف بعضُهم هذا : بأنه يَلْزَمُ منه تقديمُ معمولِ الصلةِ على الموصول ؛ وذلك أنَّ " غيرَ " منصوبٌ ب " أعبدُ " ، و " أعبدُ " صلةٌ ل " أنْ " وهو لا يجوزُ . وهذا الردُّ ليس بشيءٍ ؛ لأنَّ الموصولَ لَمَّا حُذِفَ لم يُراعَ حُكْمُه فيما ذُكِرَ ، بل إنما يراعَى معناه لتصحيح الكلامِ . قال أبو البقاء : " لو حَكَمْنا بذلك لأَفْضَى إلى حَذْفِ الموصولِ وإبقاءِ صلتِه ، وذلك لا يجوزُ إلاَّ في ضرورةِ شعرٍ . وهذا الذي ذكره فيه نظرٌ ؛ من حيث إنَّ هذا مختصٌّ ب " أنْ " دونَ سائرِ الموصولات ، وهو أنها تُحْذَفُ وتَبْقى صلتُها ، وهو منقاسٌ عند البصريين في مواضعَ تُحْذَفُ ويَبْقى عملُها ، وفي غيرِها إذا حُذِفَتْ لا يبقى عملُها إلاَّ في ضرورةٍ ، أو قليلٍ ، ويُنْشَدُ بالوجهين :

3904 ألا أيُّهذا الزاجريْ أحضرُ الوغى . . . وأنْ أشهدَ اللذاتِ هل أنتَ مُخْلِدي

ويَدُلُّ على إرادة "أنْ" في الأصل قراءةُ بعضِهم "أعبدَ" بنصب الفعل اعتداداً بأَنْ . الثاني : أنَّ "غيرَ" منصوبٌ ب "تأمرونِّي" و "أعبد" بدلٌ منه بدلُ اشتمالٍ ، و "أنْ" مضمرةٌ معه أيضاً . والتقديرُ : أفغيرَ اللَّهِ تأمرونِّي عبادتَه . والمعنى : أفتأمرونِّي بعبادة غيرِ الله . وقدَّره الزمخشري : تُعَبِّدُوني وتقولون لي : اعْبُدْه . والأصل : تَأْمُرونني أن أعبدَ ، فَحَذَفَ "أنْ" ورَفَع الفعلَ . ألا ترى أنك تقول : أفغيرَ اللَّهِ تقولون لي اعبده ، وأفغيرَ اللَّهِ تقولون لي : اعبد ، فكذلك أفغيرَ الله تقولون لي أَن أعبده ، وأفغيرَ الله تأمروني أَنْ أعبدَ . والدليلُ على صحةِ هذا الوجهِ قراءةُ مَنْ قرأ "أعبدَ" بالنصب .

وأمَّا "أعبد" ففيه ثلاثة أوجه ، أحدُها : أنه مع "أَنْ" المضمرةِ في محلِّ نصبٍ على البدلِ مِنْ "غير" وقد تقدَّم . الثاني : أنَّه في محلِّ نصبٍ على الحال . الثالث : أنه لا محلَّ له البتَّةَ .

قوله : "تَأْمُرُوْنِّي" بإدغامِ نونِ الرفعِ في نونِ الوقايةِ وفتح الياءِ ابنُ كثير ، وأَرْسلها الباقون . وقرأ نافع "تَأْمرونيَ" بنون خفيفة وفتح الياء . وابنُ عامر "تأْمرونني" بالفَكِّ وسكونِ الياء . وقد تقدَّم في سورة الأنعام والحجر وغيرِهما : أنه متى اجتمع نونُ الرفعِ مع نونِ الوقاية جاز ثلاثةُ أوجهٍ ، وتقدَّم تحقيقُ الخلافِ في أيِّهما المحذوفةِ ؟

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

قوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ : الظاهرُ أنَّ هذه الجملةَ هي القائمةُ مَقامَ الفاعلِ لأنها هي المُوْحاةُ . وأصولُ البصريين تأبى ذلك ، ويُقَدِّرون أنَّ القائمَ مقامَه ضميرُ المصدرِ ؛ لأنَّ الجملةَ لا تكونُ فاعلاً عندهم ، والقائمُ هنا مقامَ الفاعل الجارُّ والمجرورُ وهو " إليك " . وقرئ " لَيُحْبِطَنَّ " أي اللَّهُ . و " لَنُحْبِطَنَّ " بنونِ العظمةِ . و " عَمَلَكَ " مفعولٌ به على القراءتين .

بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66)

قوله : ﴿ بَلِ اللهَ فاعبد ﴾ : الجلالةُ منصوبةٌ ب " اعبُدْ " . وتقدَّم الكلامُ في مثل هذه الفاء / في البقرة . وجعَلَه الزمخشري جوابَ شرطٍ مقدرٍ أي : إنْ كنتَ عاقلاً فاعبدِ اللَّهَ فَحَذَفَ الشرطَ وجَعَلَ تقديمَ المفعولِ عِوَضاً منه . ورَدَّ الشيخُ عليه : بأنه يجوزُ أَنْ يجيءَ : " زيدٌ فعَمْراً اضرِبْ " فلو كان التقديمُ عِوَضاً لجمع بين العِوَضِ والمُعَوَّض منه . وقرأ عيسى " بل اللَّهُ " رفعاً على الابتداءِ ، والعائدُ محذوفٌ أي : فاعْبُدْه .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)

وقرأ الحسن وأبو حيوة وعيسى " قَدَّروا " بتشديد الدالِ ، " حَقَّ قَدَره " بفتح الدال .

وافقهم الأعمشُ على فتح الدالِ مِنْ " قَدَره " .

(72/671)

قوله : ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ في محلِّ نصبٍ على الحال أي : ما عَظَّموه حَقَّ تعظيمِه والحالُ أنه موصوفٌ بهذه القدرةِ الباهرةِ ، كقولِه : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً ﴾ [البقرة : 28] ؟ و " جميعاً " حالٌ وهي دالَّةٌ على أن المرادَ بالأرض الأَرَضُون ، ولأنَّ الموضِعَ موضِعُ تَفْخيمٍ ، ولِعَطْفِ الجمعِ عليها . والعاملُ في هذه الحالِ ما دَلَّ عليه قَبْضَتُه . ولا يجوز أَنْ يعملَ فيها " قبضَتُه " سواءً جَعَلْته مصدراً - لأنَّ المصدرَ لا يتقدَّم عليه معمُوله - أم مراداً به المقدارُ . قال الزمخشري : " ومع القصدِ إلى الجمع - يعني في الأرض - وأَنَّه أُريد به الجمعُ وتأكيده بالجميعِ أتبعَ الجمعَ مؤكِّدَه قبل مجيْءِ الخبرِ لِيُعْلَمَ أولَ الأمرِ أنَّ الخبرَ الذي يَرِدُ لا يقعُ عن أرضٍ واحدة ولكن عن الأراضي كلِّها " . وقال أبو البقاء : " وجميعاً حالٌ من الأرض ، والتقدير : إذا كانَتْ مجتمعةً قبضَتُه أي : مقبوضه ، فالعامل في " إذا " المصدرُ ، لأنه بمعنى المفعولِ . وقال أبو علي في " الحجة " : التقدير : ذاتُ قبضَتِه . وقد رُدَّ عليه : بأنَّ المضافَ إليه لا يَعْمَلُ فيما قبلَه ، وهذا لا يَصِحُّ لأنه الآن غيرُ مضافٍ

إليه ، وبعد حَذْفِ المضافِ لا يَبْقى حكمُه " انتهى . وهو كلامٌ فيه إشكالٌ ؛ إذ لا حاجةَ إلى تقديرِ العامل في " إذا " التي لم يُلْفَظْ بها .

(73/671)

وقوله : " قَبْضَتُه " إنْ قَدَّرْنا مُضافاً كما قال الفارسي أي : ذاتُ قبضَتِه لم يكن فيه وقوعُ المصدرِ مَوْقِعَ مفعولٍ ، وإنْ لم يُقَدَّرْ ذلك احتمل أَنْ يكونَ المصدرُ واقعاً موقعَه ، وحينئذٍ يُقال : كيف أَنَّثَ المصدرَ الواقعَ موقعَ مفعولٍ وهو غيرُ جائزٍ ؟ لا يُقال : " حُلَّةَ نَسْجةَ اليمن " بل نَسْجُ اليمن أي : منسوجته . والجواب : أن الممتنعَ دخولُ التاءِ الدالةِ على التحديد ، وهذه لمجرد التأنيثِ . كذا أُجيب ، وليس بذاك ، فإن المعنى على التحديدِ لأنه أَبْلَغُ في القدرةِ . واحتمل أَنْ يكونَ أُريد بالمصدرِ مِقْدارُ ذلك .

والقَبْضَةُ بالفتحِ : المرَّةُ ، وبالضم اسمٌ للمقبوضِ كالغَرْفة والغُرْفَة . والعامَّةُ على رفعِ " قَبْضَتُه " ، والحسنُ بنصبها . وخَرَّجها ابنُ خالويه وجماعةٌ على النصبِ على الظرفيةِ ، أي : في قبضته . وقد رُدَّ هذا : بأنها ظرفٌ مختصٌّ فلا بُدَّ مِنْ وجود " في " وهذا هو رأيُ البصريين . وأمَّا الكوفيون فهو جائزٌ عندهم ؛ إذ يُجيزون : " زيد دارَك " بالنصب أي : في دارك . وقال الزمخشري : " جعلها ظرفاً تشبيهاً للمؤقت بالمبهم " فوافق الكوفيين .

والعامَّةُ على رَفْعِ "مَطْوياتٌ" خبراً، و "بيمينِه" فيه أوجهٌ، أحدها: أنه متعلقٌ ب "مَطْوِيَّات".

(74/671)

الثاني: أنه حالٌ من الضمير في "مَطْوِيَّات". الثالث: أنه خبرٌ ثانٍ، وعيسى والجحدري نصباها حالاً. واستدلَّ بها الأخفشُ على جوازِ تقدُّم الحالِ إذا كان العاملُ فيها حرفَ جرّ نحو: "زيدٌ قائماً في الدار". وهذه لا حُجَّةَ فيها لإمكان تَخْريجِها على وجهين، أحدهما - وهو الأظهرُ - أَنْ تكونَ "السماوات" نَسَقاً على "الأرض"، ويكون قد أَخْبر عن الأَرَضين والسماواتِ بأنَّ الجميعَ قبضَتُه، وتكون "مَطْوِيَّاتٍ" حالاً من "السماوات" كما كان "جميعاً" حالاً من "الأرض"، و "بيمينه" متعلقٌ بمطويَّات. والثاني: أن يكون "مطويَّات" منصوباً بفعلٍ مقدرٍ، و "بيمينه" الخبرُ، و "مَطْوِيَّات" وعاملُه جملةٌ معترضةٌ، وهو ضعيفٌ.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68)

قوله: ﴿ فِي الصور ﴾: العامَّةُ على سكونِ الواوِ، وزيد بن علي وقتادة بفتحها جمعَ "

صُوْرة" . وهذه تَرُدُّ/ قولَ ابنِ عطية أنَّ الصُّوْرَ هنا يتعيَّنُ أَنْ يكونَ القَرْنَ . ولا يجوزُ أَنْ يكونَ جمعَ صُورَة . وقرئَ "فَصُعِقَ" مبنياً للمفعولِ ، وهو مأخوذٌ مِنْ قولهم : صَعَقَتْهم الصاعقةُ . يُقال : صَعَقَه اللَّهُ فصَعِقَ .

﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ اللهُ ﴾ متصلٌ والمستثنى : إمَّا جبريلُ وميكائيل وإسْرافيلُ ، وإمَّا رِضوانُ والحُوْرُ والزَّبانية ، وإمَّا الباري تعالى قاله الحسن . وفيه نظرٌ من حيث قولُه : ﴿ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض ﴾ فإنه تعالى لا يَتَحَيَّزُ . فعلى هذا يتعيَّنُ أَنْ يكونَ منقطعاً .

(75/671)

قوله : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى ﴾ يجوزُ أَنْ تكونَ "أخْرى" هي القائمةَ مقامَ الفاعلِ ، وهي في الأصلِ صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي : نُفِخَ فيه نَفْخَةٌ أُخرى ، ويؤيِّدُه التصريحُ بذلك في قولِه ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [الحاقة : 13] فصرَّحَ بإقامة المصدرِ . ويجوزُ أَنْ يكونَ القائمُ مقامَه الجارَّ ، و "أخرى" منصوبةٌ على ما تقدَّم .

قوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ العامَّة على رفع "قيام" خبراً . وزيد بن علي نصبَه حالاً وفيه حينئذٍ أوجهٌ ، أحدهما : أنَّ الخبرَ "يَنْظرون" وهو العاملُ في هذه الحالِ أي : فإذا هم يَنْظُرون قياماً . والثاني : أنَّ العاملَ في الحالِ ما عَمِلَ في "إذا" الفجائيةِ إذا كانت ظرفاً .

فإن كانت مكانيةً – كما قال سيبويه – فالتقدير : فبالحَضْرة هم قياماً . وإنْ كانت زمانيةً كقول الرُّمَّانيّ ففي ذلك الزمانِ هم قياماً ، أي : وجودهم . وإنما احتيج إلى تقديرِ مضافٍ في هذا الوجهِ لأنَّه لا يُخْبَرُ بالزمانِ عن الجُثَثِ . الثالث : أن الخبرَ محذوفٌ هو العامل في الحال أي : فإذا هم مبعوثون ، أو مجموعون قياماً . وإذا جَعَلْنا الفجائيةَ حَرْفاً – كقولِ بعضِهم – فالعامل في الحالِ : إمَّا "يَنْظُرون" ، وإمَّا الخبرُ المقدرُ كما تقدَّم تحقيقُهما .

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69)

قوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ ﴾ : العامَّةُ على بنائِه للفاعل . وابن عباس وأبو الجوزاء وعبيد بن عمير على بنائه للمفعول ، وهو منقولٌ بالهمزة ، مِنْ شَرَقَتْ إذا طَلَعَتْ ، وليس مِنْ أشرقَتْ بمعنى أضاءَتْ لأنَّ ذاك لازمٌ . وجعله ابنُ عطية مثل : رَجَعَ ورَجَعْتُه ، ووَقَفَ ووقَفْتُه ، يعني فيكون أَشْرَقَ لازماً ومتعدياً .

(76/671)

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ

حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71)

قوله : ﴿ زُمَراً ﴾ : حالٌ . وزُمَر جمع زُمْرَة ، وهي الجماعاتُ في تفرقةٍ بعضُها في إثْر بعضٍ وتَزَمَّروا : تجمَّعُوا قال :

3905 حتى احْزَأَلَّتْ زُمَرٌ بعد زُمَرْ . . . هذا قولُ أبي عبيدة والأخفشِ . وقال الراغب : " الزُّمْرَة الجماعةُ القليلةُ ، ومنه شاةٌ زَمِرة أي : قليلة الشَّعْر ، ورجلٌ زَمِرٌ أي : قليلُ المروءةِ . وزَمَرَتِ النَّعامة تَزْمِرُ زَماراً ، ومنه اشتقَّ الزَّمْرُ والزَّمَّارة كناية عن الفاجرة "

.

قوله : " حتى إذا " تقدَّمَ الكلامُ في حتى الداخلةِ على " إذا " غيرَ مرةٍ . وجوابُ " إذا " قوله : " فُتِحت " وتقدَّم خلافُ القراء في التشديد والتخفيف في سورة الأنعام . وقرأ ابن هرمز " ألم تَأْتِكم " بتاء التأنيث الجمعِ . و " منكم " صفةٌ لـ " رسل " أو متعلِّق بالإتيان ، و " يَتْلون " صفةٌ أخرى ، و " خالدين " في الموضعَيْن حالٌ مقدرةٌ .

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73)

قوله : ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ : في جواب " إذا " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : قوله : " وفُتحت " والواو زائدةٌ ، وهو رأيُ الكوفيين والأخفش ، وإنما جيْءَ هنا بالواوِ دونَ التي قبلها ؛ لأنَّ أبوابَ السجون مغلقةٌ إلى أَنْ يَجيْئَها صاحب الجريمة فتُفْتَحَ له ثم تُغْلَقَ عليه فناسَبَ ذلك عَدَمَ الواوِ فيها ، بخلافِ أبوابِ السرورِ والفرحِ فإنَّها تُفْتَحُ انتظاراً لمَنْ يَدْخُلُها . والثاني : أن الجوابَ قولُه : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ على زيادةِ الواوِ أيضاً أي : حتى إذا جاؤُوها قال لهم خَزَنَتُها . الثالث : أنَّ الجوابَ محذوفٌ ، قال الزمخشري : وحَقُّه أَنْ يُقَدَّرَ بعد " خالدين " . انتهى يعني لأنه يجيْء بعد متعلَّقاتِ الشرطِ وما عُطِف عليه ، والتقدير : اطمأنُّوا . وقدَّره المبرد : " سُعِدُوا " . وعلى هذين الوجهين فتكونُ الجملةُ مِنْ قولِه : و " فُتِحَتْ " في محلِّ نصب على الحال . وسَمَّى بعضُهم هذه الواوَ واوَ الثمانية . قال : لأنَّ أبوابَ الجنة/ ثمانيةٌ ، وكذا قالوا في قوله : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] وقيل : تقديرُه حتى إذا جاؤوها وفُتِحَتْ أبوابُها ، يعني أنَّ الجوابَ بلفظِ الشرطِ ولكنه بزيادةِ تقييده بالحالِ فلذلك صَحَّ .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74)

قوله : ﴿ نَتَبَوَّأُ ﴾ : جملةٌ حاليةٌ ، و " حيثُ " مفعولٌ به . ويجوز أن تكونَ ظرفاً على بابِها ، وهو الظاهرُ .

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75)

قوله : ﴿ حَآفِّينَ ﴾ : جمعُ حافّ ، وهو المُحْدِقُ بالشيءِ ، مِنْ حَفَفْتُ بالشيءِ إذا أَحَطْتُ به قال :

(78/671)

3906 يَحُفُّه جانبا نِيْقٍ وتُتْبِعُهُ . . . مثلَ الزُّجاجةِ لم تُكْحَلْ من الرَّمَدِ

وهو مأخوذٌ من الحِفاف وهو الجانبُ . قال الشاعر :

3907 له لَحَظاتٌ عن حِفافي سَرِيْرِه . . . إذا كرَّها فيها عقابٌ ونائل

وقال الفراء وتبعه الزمخشري : " لا واحدَ لحافِّين " وكأنهما رَأَيا أنَّ الواحدَ لا يكون حافًّا ؛ إذِ الحُفُوْفُ هو الإِحداقُ بالشيء والإِحاطةُ به ، وهذا لا يتحقَّق إلاَّ في جمعٍ .

قوله : " مِنْ حَوْلِ " في " مِنْ " وجهان أحدُهما – وهو قولُ الأخفش – أنها مزيدةٌ . والثاني : أنها للابتداءِ ، والضميرُ في " بينهم " إمَّا للملائكةِ ، وإمَّا للعبادِ ، و " يُسَبِّحون " حالٌ من الضمير في " حافِّين " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 433.449 ﴾

(79/671)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾

سَوّقٌ ولكن بغير تعبٍ ولانَصَبٍ ، سَوْقٌ ولكن برَوْحٍ وطَرَبٍ .

" زمراً " جماعاتٍ ، وهؤلاء هم عوامُّ أهل الجنة ، وفوق هؤلاء : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً ﴾ [مريم : 85] وفوقهم مَنْ قال فيهم : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق : 31] وفَرْقٌ بين مَنْ يُسَاقُ إلى الجنة ، وبين مَنْ تُقَرَّبُ منه الجنة . . . هؤلاء الظالمون ، والآخرون المقتصدون ، والآخرون السابقون .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا . . . ﴾ وإذا وافوا الجنة تكون الأبوابُ مُفَتَّحَةً لئلا يصيبهم نَصَبُ الانتظار .

ويقال إذا كان حديث الجنة فالواجب أن يبادر إليها ولا يحتاج ان يُسَاق ، ولعلَّ هؤلاء لا رغبةَ لهم في الجنة بكثير ؛ فَلَهُم معه في الطريق قُولُ ﴿ طِبْتُمْ ﴾ ؛ أي أنهم يُساقون إلى الجنة بلطف دون عنف .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74)

صَدَقَنا وعده بإدخالنا الجنة ، وإكمال المِنَّة .

﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ ﴾ أي أرضَ الجنة ؛ نتبوأ منها حيث نشاء . وهؤلاء قوم مخصوصون ، والذين هم قومُ " الغُرَف " أقوام آخرون .

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75)

يُسَبِّحون بحمد ربهم في عموم الأوقات . . . هذا هو عملُ الملائكة الذين من حول العرش .

(80/671)

وقُضِيَ بين أهل الجنة وأهل النار بالحقِّ ، لهؤلاء دَرَكات ولأولئك درجات . . . إلى غير ذلك من فنون الحالات . وُضِيَى بين الملائكة أيضاً في مقاماتهم على ما أراده الحقُّ في عباداتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 292 . 293 ﴾

(81/671)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ يا عبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾

يعني : أسرفوا بالذنوب على أنفسهم .

قرأ نافع ، وابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر ، ﴿ قُلْ يا عبادى ﴾ بفتح الياء ، والباقون بالإرسال .

وهما لغتان ، ومعناهما واحد ، ﴿ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ أي : لا تيأسوا من مغفرة الله ، ﴿ إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ الكبائر ، وغير الكبائر إذا تبتم ، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور ﴾ لمن تاب ، ﴿ الرحيم ﴾ بعد التوبة لهم .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة .

قال : أصاب قوم في الشرك ذنوباً عظاماً ، فكانوا يخافون أن لا يغفر الله لهم ، فدعاهم الله تعالى بهذه الآية : ﴿ قُلْ يا عبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ ﴾ .

وقال مجاهد : ﴿ قُلْ يا عبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ بقتل الأنفس في الجاهلية .

وقال في رواية الكلبي : نزلت الآية في شأن وحشي .

يعني : أسرفوا على أنفسهم بالقتل ، والشرك ، والزنى .

لا تيأسوا ﴿ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ لمن تاب .

وقال ابن مسعود : أرجى آية في كتاب الله هذه الآية .

وهكذا قال عبد الله بن عمرو بن العاص .

وروي عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : فيها عظة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنِيبُواْ إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ يعني : ارجعوا له ، وأقبلوا إلى طاعة ربكم ﴿ وَأَسْلِمُواْ لَهُ ﴾ يعني : أخلصوا ، وأقروا بالتوحيد ، ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ أي : لا تمنعون مما نزل بكم ، ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قال الكلبي : هذا القرآن أحسن ما أنزل إليهم يعني : اتبعوا ما أمرتم به .

ويقال : أحلوا ، وحرموا حرامه ، ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة ، ﴿ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ بنزوله ، ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ يعني : لكي لا تقول نفس .

(82/671)

ويقال : معناه اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم خوفاً ، قبل أن تصيروا إلى حال الندامة .

وتقول نفس : ﴿ يَا حَسْرَتَى ﴾ يعني : يا ندامتا ، ﴿ نَفْسٌ ياحسرتى على مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ الله ﴾ يعني : تركت ، وضيعت من طاعة الله .

وقال مقاتل : يعني ما ضيعت من ذكر الله .

ويقال : يا ندامتاه على ما فرطت في أمر الله .

﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ الساخرين ﴾ يعني : وقد كنت من المستهزئين بالقرآن في الدنيا .

ويقال : وقد كنت من اللاهين .

وقال أبو عبيدة : في جنب الله ، وذات الله واحد .

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِى ﴾ يعني : قبل ، أو تقول : لو أن الله هداني بالمعرفة ، ﴿ لَكُنتُ مِنَ المتقين ﴾ أي : من الموحدين .

يعني : لو بيّن لي الحق من الباطل ، لكنت من المؤمنين ، ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العذاب ﴾ يعني : من قبل أن تقول : ﴿ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً ﴾ أي : رجعة إلى الدنيا ﴿ فَأَكُونَ مِنَ المحسنين ﴾ يعني : من الموحدين .

يقول الله تعالى : ﴿ بلى قَدْ جَاءتْكَ ءاياتى ﴾ يعني : القرآن ، ﴿ فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت ﴾ أي : تكبرت ، وتجبرت عن الإيمان بها ، ﴿ وكُنتَ مِنَ الكافرين ﴾ .

قرأ عاصم الجحدري : ﴿ بلى قَدْ جَاءتْكَ ءاياتى ﴾ يعني : القرآن .

﴿ فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت ﴾ ، وكُنْتِ ، كلها بالكسر .

وهو اختيار ابن مسعود ، وصالح ، ومن تابعه من قراء سمرقند .

وإنما قرأ بالكسر ، لأنه سبق ذكر النفس ، والنفس تؤنث .

وقراءة العامة كلها بالنصب ، لأنه انصرف إلى المعنى .

يعني يقال للكافر : ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله ﴾ يعني : قالوا : بأن لله شريكاً ، ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ صار وجوههم رفعاً بالابتداء .

(83/671)

ويقال : معناه مسودة وجوههم ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي : مأوى للّذين تكبروا عن الإيمان ، ﴿ وَيُنَجِّى الله الذين اتقوا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ يعني : ينجي الله الذين اتقوا الشرك من جهنم .

قال مقاتل ، والكلبي : بأعمالهم الحسنة لا يصيبهم العذاب .

وقال القتبي : بمنجاتهم .

قرأ حمزة ، والكسائي : بِمَفَازَاتِهم بالألف ، وكذلك عاصم في رواية أبي بكر .

والباقون ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ بغير ألفِ والمفازة الفوز ، والسعادة ، والفلاح ، والمفازات جمع .

﴿ لاَ يَمَسُّهُمُ السوء ﴾ أي : لا يصيبهم العذاب ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ في الآخرة .

﴿ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي : حفيظ .

ويقال : كفيل بأرزاقهم ، ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ يعني : بيده مفاتيح السموات والأرض .

ويقال : خزائن السموات والأرض ، وهو المطر ، والنبات .

وقال القتبي : المقاليد : المفاتيح .

يعني : مفاتيحها ، وخزائنها ، وواحدها إقليد .

ويقال : إنها فارسية ، معربة ، إكليد .

﴿ والذين كَفَرُواْ بئايات الله ﴾ يعني : بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبالقرآن ، ﴿ أولئك هُمُ الخاسرون ﴾ يعني : اختاروا العقوبة على الثواب ، ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونّى ﴾ قرأ ابن عامر : تأمرونني بنونين ، وقرأ نافع : ﴿ تَأْمُرُونّى ﴾ بنون واحدة ، والتخفيف .

وقرأ الباقون : بنون واحدة ، والتشديد ، والأصل : تأمرونني بنونين ، كما روي عن ابن عامر ، إلا أنه أدغم إحدى النونين في الأخرى ، وشدد ، وتركها نافع على التخفيف .

﴿ أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون ﴾ يعني : أيها المشركون تأمروني أن أعبد غير الله ﴿ وَلَقَدْ أُوْحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ ﴾ يعني : الأنبياء بالتوحيد ، ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ أي : ثوابك ، وإن كنت كريماً عليَّ .

فلو أشركت بالله ، ليحبطنّ عملك ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ في الآخرة .

فكيف لو شرك غيرك ، فالله تعالى علم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يشرك بالله ، ولكنه أراد تنبيهاً لأمته ، أنَّ من أشرك بالله ، حبط عمله ، وإن كان كريماً على الله .

﴿ بَلِ الله فاعبد ﴾ أي : استقم على عبادة الله ، وتوحيده .

وقال مقاتل : بل الله فاعبد ، أي : فوحد الله تعالى .

وقال الكلبي : يعني أطع الله تعالى ، ﴿ وَكُنْ مّنَ الشاكرين ﴾ على ما أنعم الله عليك من النبوة ، والإسلام ، والرسالة .

ويقال : هذا الخطاب لجميع المؤمنين .

أمرهم بأن يشكروا الله تعالى على ما أنعم عليهم ، وأكرمهم بمعرفته ، ووفقهم لدينه ، ﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي : ما عظموا الله حق عظمته ، ولا وصفوه حق صفته ، ولا عرفوا الله حق معرفته .

وذلك أن اليهود والمشركين ، وصفوا الله تعالى بما لا يليق بصفاته ، فنزل : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ وفيه تنبيه للمؤمنين ، لكيلا يقولوا مثل مقالتهم ، ويعظموا الله حق عظمته ، ويصفوه حق صفته ، ﴿ فَاطِرُ السماوات والأرض جَعَلَ لَكُم مّنْ أَنفُسِكُمْ أزواجا وَمِنَ الأنعام أزواجا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] .

ثم قال : ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة ﴾ أي : في قدرته ، وملكه ، وسلطانه ، لا سلطان لأحد عليها ، وهذا كقوله : ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] .

وقال القتبي : ﴿ فِى قَبْضَتُهُ ﴾ أي : في ملكه ، نحو قولك للرجل : هذا في يدك ، وقبضتك .

أي في ملكك .

﴿ والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ أي : بقدرته .

ويقال : في الآية تقديم .

معناه : ﴿ والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ يوم القيامة .

أي : في يوم القيامة .

ويقال : ﴿ بِيَمِينِهِ ﴾ يعني : عن يمين العرش .

وقال القتبي : ﴿ بِيَمِينِهِ ﴾ أي : بقدرته نحو قوله :

(85/671)

﴿ يا أيها النبى إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أزواجك اللاتى ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ الله عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عماتك وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خالاتك اللاتى هاجرن مَعَكَ

وامرأة مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النبى أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ المؤمنين قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أزواجهم وَمَا مَلَكَتْ أيمانهم لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الأحزاب : 50] يعني : ما كانت لهم عليه قدرة .

وليس الملك لليمين دون الشمال .

ويقال : اليمين ها هنا الحلف ، لأنه حلف بعزته ، وجلاله ، ليطوينّ السموات والأرض .

ثم نزّه نفسه ، فقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : تنزيهاً لله تعالى .

يعني : ارتفع ، وتعظم عما يشركون .

يعني : عما يصفون له من الشريك ، ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّه سُئِلَ عَنِ الصُّورِ فَقَالَ : " هُوَ الْقَرْنُ وَإِنَّ عِظَمَ دَائِرَتِهِ مِثْلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَيَنْفُخُ نَفْخَةً ، فَيُفْزِعُ الخَلْقَ ، ثُمَّ يَنْفُخُ نَفْخَةً أُخْرَى ، فَيَمُوتُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، فَإِذَا كَانَ وَقْتُ النَّفْخَةِ الثَّالِثَةِ ، تَجَمَّعَتِ الأَرْوَاحُ كُلُّهَا فِي الصُّورِ ، ثُمَّ يَنْفُخُ النَّفْخَةَ الثَّالِثَةَ ، فَتَخْرُجُ الأَرْوَاحُ كُلُّهَا كَالنَّحلِ وَكَالزَّنَابِيرِ ، وَتَأْتِي كُلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَدِهَا " فذلك قوله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ يعني : يموت من في السموات ، ومن في الأرض ، ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ يعني : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت .

ويقال : أرواح الشهداء .

وروي عن سعيد بن جبير أنه قال : استثنى الله تعالى الشهداء حول العرش متقلدين بسيوفهم" .

وقال بعضهم : النفخة نفختان .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يُنْفَخُ فِي الصُّور ثَلاَثُ نَفَخَاتٍ : الأُوْلَى نَفْخَةُ الفَزَعِ ؛ والثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصَّعَقِ ، والثَّالِثَةُ نَفْخَةُ القِيَامِ لِرَبِّ العَالَمِينِ " وهو قوله : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أي : ينظرون ماذا يأمرهم .

ويقال : ينظرون إلى السماء كيف غيرت ، وينظرون إلى الأرض كيف بدلت ، وينظرون إلى الداعي كيف يدعوهم إلى الحساب ، وينظرون فيما عملوا في الدنيا ، وينظرون إلى الآباء والأمهات كيف ذهبت شفقتهم عنهم ، واشتغلوا بأنفسهم ، وينظرون إلى خصمائهم ماذا يفعلون بهم .

﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض ﴾ يعني : أضاءت ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أي : بعدل ربها .

ويقال : وأشرقت وجوه من على الأرض بمعرفة ربها ، وأظلم وجوه من على الأرض بنكرة ربها .

وقال بعضهم : هذا من المكتوم الذي لا يفسر .

﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ يعني : ووضع الحساب .

ويقال : ووضع الكتاب في أيدي الخلق ، في أيمانهم ، وشمائلهم ﴿ وَجِيءَ بالنبيين والشهداء وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ أي : بين الخلق بالعدل ، بين الظالم والمظلوم ، وبين الرسل ، وقومهم ، ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ أي : لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً .

﴿ وَوُفِّيَتْ ﴾ أي : وفرت ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي : جزاء ما عملت من خير ، أو شر ، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ، لأنه قد سبق ذكر قوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ ﴾ ثم أخبر أنه لم يدع الشهداء ليشهدوا بما يعلموا بل هو أعلم بما يفعلون ، وإنما يدعو الشهداء لتأكيد الحجة عليهم .

(87/671)

ثم قال : ﴿ وَسِيقَ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي : يساق الذين كفروا ، ﴿ إلى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ يعني : أمة أمة ، فوجاً فوجاً ، وواحدتها زمرة ، ﴿ حتى إِذَا ﴾ يعني : جهنم ، ﴿ جَاءوهَا فُتِحَتْ أبوابها ﴾ وقال أصحاب اللغة : جهنم في أصل اللغة جهنام .

وهي بئر لا قعر لها .

فحذفت الألف ، وشددت النون ، فسميت جهنم .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم : ﴿ فُتِحَتْ ﴾ بتخفيف التاء .

والباقون : بالتشديد .

فمن قرأ بالتشديد ، فلتكثير الفعل .

ومن قرأ بالتخفيف ، فعلى فعل الواحد .

وكذلك الاختلاف في الذي بعده .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ أي : خزنة جهنم ، وواحدها خازن .

وقال القتبي : الواو قد تزاد في الكلام ، والمراد به حذفه ، كقوله : ﴿ حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء : 96] يعني : اقترب ، وكقوله : ﴿ وَسِيقَ الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً حتى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أبوابها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءايات رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا قَالُواْ بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ [الزمر : 71] يعني : قال لهم .

وهذا في كلام العرب ظاهر ، كما قال امرؤ القيس .

فلما أجزنا ساحة الحي ، وانتحى .

يعني : انتحى بغير واو .

ثم قال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ يعني : آدمياً مثلكم تفهمون كلامه ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءايات رَبِّكُمْ ﴾ يعني : يقرؤون عليكم ما أوحي إليهم ، ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ يعني : أنهم يخوّفونكم بهذا اليوم ، فكأنه يقول لهم : يا أشقياء ألم يأتكم رسل منكم ؟

فأجابوه : ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ فيقرون بذلك في وقت لا ينفعهم الإقرار ، ولو كان قولهم : بلى في الدنيا ، لكان ينفعهم .

ولكنهم قالوا : بلى في وقت لا ينفعهم .

(88/671)

﴿ ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ أي : وجبت كلمة العذاب في علم الله السابق ، أنهم من أهل النار .

ويقال : وجبت كلمة العذاب ، وهي قوله الله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال وَكَلْبُهُمْ باسط ذِرَاعَيْهِ بالوصيد لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الأعراف : 18 وغيرها] ﴿ قِيلَ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا ﴾ أي : دائمين فيها ، ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ أي : بئس موضع القرار لمن تكبر عن الإيمان .

ثم بيّن حال المؤمنين المطيعين ، فقال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ ﴾ يعني : اتقوا الشرك ، والفواحش ، ﴿ إِلَى الجنة زُمَراً ﴾ يعني : فوجاً فوجاً ، بعضم قبل الحساب اليسير ، وبعضهم بعد الحساب الشديد ، على قدر مراتبهم ، ﴿ حتى إِذَا جَاءوهَا

وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ يعني : وقد فتحت أبوابها ، ويقال : ﴿ وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ قبل مجيئهم تكريماً ، وتبجيلاً لهم .

ويقال : الواو زيادة في الكلام .

ويقال : هذه الواو منسوقة على قوله : فتحت .

كما يقال في الكلام : دخل زيد ، وعمرو ، ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سلام عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خالدين ﴾ أي : فزتم ، ونجوتم .

ويقال : طابت لكم الجنة .

وقال : بعض أهل العربية : في الآية دليل على أن أبواب الجنة ثمانية ، لأنه قد ذكر بالواو .

(89/671)

وإنما يذكر بالواو ، إذا بلغ الحساب ثمانية ، كما قال في آية أخرى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثلاثة رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بالغيب وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل ربى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظاهرا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف : 22] فذكر الواو عند الثمانية ، وكما قال : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الامرون بالمعروف والناهون عَنِ المنكر

والحافظونِ لحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ [التوبة : 112] فذكرها كلها بغير واو فلما انتهى إلى الثمانية قال : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الامرون بالمعروف والناهون عَنِ المنكر والحافظونِ لحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ [التوبة : 112] ، وقال في آية أخرى : ﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أزواجا خَيْراً مِّنكُنَّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وَأَبْكَاراً ﴾ [التحريم : 5] ثم قال : عند الثمانية : ﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أزواجا خَيْراً مِّنكُنَّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وَأَبْكَاراً ﴾ [التحريم : 5] وعرف أن أبواب جهنم سبعة بالآية .

وهي قوله : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : 44] .

(90/671)

وقال أكثر أهل اللغة : ليس في الآية دليل ، لأن الواو قد تكون عند الثمانية ، وقد تكون عند غيرها ، ولكن عرف أن أبوابها ثمانية بالأخبار ، ثم إنهم لما دخلوا الجنة حمدوا الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ ﴾ يعني : الشكر لله ، ﴿ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ يعني : أنجز لنا وعده على لسان رسله ، ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ يعني : أنزلنا أرض الجنة ، ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ

الجنة حَيْثُ نَشَاء ﴾ أي : ننزل في الجنة ، ونستقر فيها ، حَيْثُ نَشَاءُ ونشتهي ، ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ أي : ثواب الموحدين ، المطيعين ، ﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ ﴾ أي : ترى يا محمد الملائكة يوم القيامة محدقين ، ﴿ مِنْ حَوْلِ العرش يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : يسبحونه ، ويحمدونه .

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ أي : بين الخلق .

وهو تأكيد لما سبق من قوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكتاب وَجِيءَ بالنبيين والشهدآء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحق وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 69] ﴿ وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ يعني : لما قضي بينهم بالحق .

أي : بالعدل ، وميزوا من الكفار حمدوا الله تعالى .

وقالوا : الحمد لله رب العالمين الذي قضى بيننا بالحق ، ونجانا من القوم الظالمين .

وقال مقاتل : ابتدأ الدنيا بالحمد لله رب العالمين .

وهو قوله : ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ وختمها بقوله : ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 182.188 ﴾

(91/671)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾

أي أسرفوا على أنفسهم في الشرك .

ويحتمل ثانياً : أسرفوا على أنفسهم في ارتكاب الذنوب مع ثبوت الإيمان والتزامه ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ أي لا تيأسوا من رحمته .

﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يغفرها بالتوبة منها ، قاله الحسن .

الثاني : يغفرها بالعفو عنها إلا الشرك .

الثالث : يغفر الصغائر باجتناب الكبائر .

﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ قيل نزلت هذه الآية والتي بعدها في وحشي قاتل حمزة ، قاله الحسن والكلبي ، وقال علي عليه السلام : ما في القرآن آية أوسع منها . وروى ثوبان قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " ما أحب أن لي الدنيا وما عليها بهذه الآية " . قوله عز وجل : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : هو ما أمرهم الله به في الكتاب ، قاله السدي .

الثاني : أن يأخذوا ما أمر وينتهوا عما نهوا عنه ، قاله الحسن .

الثالث : هو الناسخ دون المنسوخ ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : هو طاعة الله تعالى في الحرام والحلال قاله ابن زياد .

الخامس : تأدية الفرائض ، قاله زيد بن علي ، ومعاني أكثرها متقاربة .

ويحتمل سادساً : أنه الأخذ بالعزيمة دون الرخصة . وجعله منزلاً عليهم لأنه منزل إليهم على نبيهم صلى الله عليه وسلم .

قوله عز وجل : ﴿ أن تقول نفس يا حَسْرتَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه لئلا تقول نفس .

الثاني : أن لا تقول نفس ، والألف التي في يا حسرتا بدل من ياء الإضافة ففعل ذلك في الاستغاثة لمدة الصوت بها .

﴿ على ما فرطت في جنب الله ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : في مجانبة أمر الله ، قاله مجاهد والسدي .

الثاني : في ذات الله ، قاله الحسن .

الثالث : في ذكر الله ، قاله السدي ، وذكر الله هنا القرآن .

الرابع : في ثواب الله من الجنة حكاه النقاش .

الخامس : في الجانب المؤدي إلى رضا الله ، والجنب والجانب سواء .

السادس : في طلب القرب من الله ومنه قوله تعالى ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ أي بالقرب .

﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ فيه وجهان : أحدهما : من المستهزئين في الدنيا بالقرآن ، قاله النقاش .

الثاني : بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين ، قاله يحيى بن سلام .

قوله عز وجل : ﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بنجاتهم من النار .

الثاني : بما فازوا به من الطاعة .

الثالث : بما ظفروا من الإدارة .

ويحتمل رابعاً : بما سلكوا فيه مفاز ، الطاعات الشاقة ، مأخوذ من مفازة السفر .

﴿ لا يمسهم السُّوءُ ﴾ لبراءتهم منه . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا يحزنون ، بألا يخافوا سوء العذاب .

الثاني : لا يحزنون على ما فاتهم من ثواب الدنيا .

﴿ وما قدروا الله حق قدرِه ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : وما عظموه حق عظمته إذ عبدوا الأوثان من دونه ، قاله الحسن .

الثاني : وما عظموه حق عظمته إذ دعوا إلى عبادة غيره ، قاله السدي .

الثالث : ما وصفوه حق صفته ، قاله قطرب .

﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن قبضه استبدالها بغيرها لقوله ﴿ يوم تبدل الأرض ﴾ [إبراهيم : 48] وهو محتمل .

الثاني : أي هي في مقدوره كالذي يقبض عليه القابض في قبضته .

﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بقوته لأن اليمين القوة .

الثاني : في ملكه كقوله ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ [النساء : 36] .

ويحتمل طيها بيمينه وجهين :

أحدهما : طيها يوم القيامة . لقوله يوم نطوي السماء .

الثاني : أنها في قبضته مع بقاء الدنيا كالشيء المطوي لاستيلائه عليها .

(93/671)

﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ روى صفوان بن سليم أن يهودياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا القاسم إن الله أنزل عليك ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة

والسماوات مطويات بيمينه ﴾ فأين يكون الخلق ؟ قال " يكونون في الظلمة عند الجسر حتى ينجي الله من يشاء . " قال : والذي أنزل التوراة على موسى ما على الأرض أحد يعلم هذا غيري وغيرك .

قوله عز وجل : ﴿ ونفخ في الصُّور فصعق مَنْ في السموات ومن في الأرض ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الصعق الغَشي ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : وهو قول الجمهور أنه الموت وهذا عند النفخة الأولى .

﴿ إلا من شاء الله ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام . وملك الموت يقبض أرواحهم بعد ذلك ، قاله السدي ورواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : الشهداء ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : هو الله الواحد القهار ، قاله الحسن .

﴿ ثم نفخ فيه أخرى ﴾ وهي النفخة الثانية للبعث .

﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ قيل قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث الذي وعدوا به . ويحتمل وجهاً آخر ينظرون ما يؤمرون به .

قوله عز وجل : ﴿ وأشرقتِ الأرض ﴾ إشراقها إضاءتها ، يقال أشرقت الشمس إذا أضاءت ، وشَرَقت إذا طلعت .

وفي قوله ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ وجهان :

أحدهما : بعدله ، قاله الحسن .

الثاني : بنوره وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه نور قدرته .

الثاني : نور خلقه لإشراق أرضه .

الثالث : أنه اليوم الذي يقضي فيه بين خلقه لأنه نهار لا ليل معه .

﴿ ووضع الكتاب ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الحساب ، قاله السدي .

الثاني : كتاب أعمالهم ، قاله قتادة .

﴿ وجيء بالنبين الشهداء ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم الشهداء الذين يشهدون على الأمم للأنبياء أنهم قد بلغوا ، وأن الأمم قد كذبوا ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنهم الذين استشهدوا في طاعة الله ، قاله السدي .

(94/671)

﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ قال السدي بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ قال سعيد بن جبير لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم .

قوله عز وجل : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أفواجاً ، قاله الحسن .

الثاني : أمماً ، قاله الكلبي .

الثالث : جماعات ، قاله السدي . قال الأخفش جماعات متفرقة ، بعضها إثر بعض واحدها زمرة . قال خفاف بن ندبة :

كأن إخراجها في الصبح غادية . . . من كل شائبةٍ في أنها زُمَر

الرابع : دفعاً وزجراً بصوت كصوت المزمار ، ومن قولهم مزامير داود .

قوله عز وجل : ﴿ سلام عليكم طبتم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : طبتم بطاعة الله قاله مجاهد .

الثاني : طبتم بالعمل الصالح ، قاله النقاش .

الثالث : ما حكاه مقاتل أن على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان يشرب المؤمنون من إحداهما فتطهر أجوافهم فذلك قوله ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [الإنسان : 21] ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أبشارهم ، فعندها يقول لهم خزنتها :

﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ فإذا دخلوها قالوا ﴿ الحمد لله الذي

صدقنا وعده ﴾ .

وفي معنى طبتم ثلاثة أوجه :

أحدها : نعمتم ، قاله الضحاك .

الثاني : كرمتم ، قاله ثعلب .

الثالث : زكوتم ، قاله الفراء وابن عيسى .

﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ وعده في الدنيا بما نزل به القرآن ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه وعده بالجنة في الآخرة ثواباً على الإيمان .

الثاني : أنه وعده في الدنيا بظهور دينه على الأديان ، وفي الآخرة بالجزاء على الإيمان . ﴿ وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاءُ ﴾ وفي هذه الأرض قولان :

أحدهما : أرض الجنة ، قاله أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وأكثر المفسرين .

الثاني : أرض الدنيا . فإن قيل إنها أرض الجنة ففي تسميتها ميراثاً وجهان :

أحدهما : لأنها صارت إليهم في آخر الأمر كالميراث .

(95/671)

الثاني : لأنهم ورثوها من أهل النار ، وتكون هذه الأرض من جملة الجزاء والثواب ، والجنة في أرضها كالبلاد في أرض الدنيا لوقوع التشابه بينهما قضاء بالشاهد على الغائب .

﴿ نتبوأ من الجنة حيث نشآء ﴾ يعني منازلهم التي جوزوا بها ، لأنهم مصروفون عن إرادة غيرها .

وفي تأويل قوله ﴿ حيث نشاء ﴾ وجهان :

أحدهما : حيث نشاء من منزلة وعلو .

الثاني : حيث نشاء من منازل ومنازه ، فإن قيل إنها أرض الدنيا فهي من النعم دون الجزاء .

ويحتمل تأويله وجهين :

أحدهما : أورثنا الأرض بجهادنا نتبوأ من الجنة حيث نشاء بثوابنا .

الثاني : وأورثنا الأرض بطاعة أهلها لنا نتبوأ من الجنة حيث نشاء بطاعتنا له لأنهم أطاعوا فأطيعوا .

﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : فنعم أجر العاملين في الدنيا الجنة في الآخرة .

الثاني : فنعم أجر من أطاع أن يطاع .

قوله عز وجل : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ قال قتادة : محدقين .

﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ وتسبيحهم تلذذ لا تعبد . وفي قوله .

﴿ بحمد ربهم ﴾ وجهان :

أحدهما : بمعرفة ربهم ، قاله الحسن .

الثاني : يذكرون بأمر ربهم ، قاله مقاتل .

﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ أي بالعدل وفيه قولان :

أحدهما : وقضي بينهم بعضهم لبعض .

الثاني : بين الرسل والأمم ، قاله الكلبي .

﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ وفي قائله قولان :

أحدهما : أنه من قول الملائكة ، فعلى هذا يكون حمدهم لله على عدله في قضائه .

الثاني : أنه من قول المؤمنين .

فعلى هذا يحتمل حمدهم وجهين :

أحدهما : على أن نجاهم مما صار إليه أهل النار .

الثاني : على ما صاروا إليه من نعيم الجنة ، فختم قضاؤه في الآخرة بالحمد كما افتتح خلق السموات والأرض بالحمد في قوله ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات وَالأَرضَ ﴾ [الأنعام : 1] فتلزم الاقتداء به والأخذ بهديه في ابتداء كل أمر بحمده وخاتمه بحمده وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ الآية .

اختلف المفسرون في المعنيّين بهذه الآية .

فقال بعضهم : عنى بها قوماً من المشركين .

قال ابن عبّاس : نزلت في أهل مكة قالوا يزعم محمّد انه من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله الهاً آخر وقتلنا النفس التي حرم الله ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

أنبأني عبد الله بن حامد بن محمّد الأصفهاني أخبرني إبراهيم بن محمّد بن عبد الله البغدادي حدثنا أبو الحسن أحمد بن حمدان الجبلي حدثنا أبو إسماعيل حدثنا إسحاق بن سعيد أبو سلمة الدمشقي حدثنا أنس بن سفيان عن غالب بن عبد الله عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عبّاس قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وحشي يدعوه إلى الإسلام ، أرسل إليه : يا محمّد كيف تدعوني إلى دينك وأنت تزعم أنه من قتل أو شرك أو زنى يلق أثاماً ويضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، وأنا قد فعلت ذلك كله ،

فهل تجد لي رخصة ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ [مريم : 60] الآية .

قال وحشي : هذا شرط شديد فلعلي لا أقدر على هذا ، فهل غير ذلك ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : 48] .

فقال وحشي : أراني بعد في شبهة فلا أدري يغفر لي أم لا ، فهل غير ذلك ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ .

فقال وحشي : نعم هذه ، فجاء فأسلم .

فقال المسلمون : هذه له خاصة أم للمسلمين عامة ؟

قال : " بل للمسلمين عامة " .

وقال قتادة : ذكر لنا أن ناساً أصابوا ذنوباً عظاماً في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أشفقوا أن لن يتاب عليهم ، فدعاهم الله بهذه الآية .

(97/671)

وقال ابن عمر : نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين ، كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول : لا يقبل الله تعالى من هؤلاء صرفاً ولا

عدلاً أبداً ، قوم أسلموا ثم تركوا دينهم بعذاب عذبوا به ، فنزلت على هؤلاء الآيات فكان عمر بن الخطاب كاتباً فكتبها بيده ، ثم بعث بها إلى عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وإلى اولئك النفر فأسلموا وهاجروا .

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه حدثنا أبو بكر بن خرجة حدثنا محمّد بن عبد الله بن سلمان الحضرمي حدثنا محمّد بن العلاء حدثنا يونس بن بكير حدثنا ابن إسحاق حدثنا نافع عن ابن عمر عن عمر رضي الله عنه أنه قال : لما اجتمعنا إلى الهجرة ابعدت أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل وقلنا : الميعاد بيننا المناصف ميقات بني غفار ، فمن حبس منكم لم يأبها فقد حبس فليمض صاحبه ، فأصبحت عندها أنا وعياش وحبس عنا هشام وفتن فافتتن ، فقدمنا المدينة فكنا نقول : هل يقبل الله من هؤلاء توبة قوم عرفوا الله ورسوله ثم رجعوا عن ذلك لما أصابهم من الدُّنيا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ إلى قوله ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

قال عمر : فكتبتها بيدي كتاباً ثم بعثت بها إلى هشام .

قال هشام : فلما قدمت عليَّ خرجت بها إلى ذي طوى فقلت اللهم فهمنيها ، فعرفت أنها أُنزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيري فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل هشام شهيداً بأجنادين في ولاية أبي بكر رضي الله عنه .

وقال بعضهم : نزلت في قوم كانوا يرون أهل الكبائر من أهل النار ، أعلمهم الله تعالى أنه يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء .

(98/671)

وروى مقاتل بن حيان عن نافع عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب رسول الله نرى أو نقول : أنه ليس شيء من حسناتنا إلاّ وهي مقبولة حتّى نزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تبطلوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد : 33] فلما نزلت هذه الآية قلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقيل لنا : الكبائر والفواحش .

قال : فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا : قد هلك ، فنزلت هذه الآية ، فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك ، فكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه ، وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له . وأراد بالإسراف ارتكاب الكبائر ، والآية عامة للناس أجمعين ﴿ لاَ تَقْنَطُواْ ﴾ .

قرأ أبو عمرو والأعمش ويحيى بن وثاب وعيسى والكسائي ويعقوب (لا تقنِطوا) بكسر النون .

وقرأ أشهب العقيلي : بضمه .

وقرأ الآخرون : بفتحه .

روى الأعمش عن أبي سعيد الأزدي عن أبي الكنود قال : دخل عبد الله بن مسعود المسجد فإذا قاص يقص وهو يذكر النار والأغلال ، فجاء حتّى قام على رأسه وقال : يا مذكّر لِمَ تقنط الناس ثم قرأ ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ الآية .

أخبرنا ابن فنجويه حدثنا أبو حبش المقريء حدثنا ابن فنجويه حدثنا سلمة حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن زيد بن أسلم : أن رجلاً كان في الأمم الماضية يجتهد في العبادة فيشدد على نفسه ويقنّط الناس من رحمة الله ثم مات فقال : أي رب ما لي عندك ؟

قال : النار .

قال : أي رب وأين عبادتي واجتهادي ؟

فيقول : إنك كنت تقنط الناس من رحمتي في الدُّنيا ، فأنا اليوم أقنطك من رحمتي .

﴿ إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ .

(99/671)

أخبرنا عبد الله بن حامد أخبرنا حامد بن محمّد بن عبد الله حدثنا محمّد بن صالح الأشج حدثنا داود بن إبراهيم حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت بن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي " .

وفي مصحف عبد الله : (إن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء) . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ .

أخبرنا ابن فنجويه حدثنا محمّد بن المظفر حدثنا عمرو بن علي حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء قال : ما علمت أحداً من أهل العلم ولا من أصحاب محمّد صلى الله عليه وسلم يقول لذنب : إن الله لا يغفر هذا .

أخبرنا عقيل بن محمّد بن أحمد : أن المعافا بن زكريا أخبرهم عن محمّد بن جرير حدثنا زكريا بن يحيى وهداد بن أبي زائدة حدثنا حجاج حدثنا ابن لهيعة عن أبي قنبل قال : سمعت أبا عبد الرحمن المزني يقول : حدثني أبو عبد الرحمن الجيلاني أنه سمع ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سمعت رسول الله (عليه السلام) : " يقول ما أحب أن لي الدُّنيا وما فيها بهذه الآية ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ " .

فقال رجل : يا رسول الله ومن أشرك ؟

فسكت النبي (عليه السلام) ثم قال: "ألا ومن أشرك ألا ومن أشرك ألا ومن أشرك".

وبإسناده عن محمّد بن جرير حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا يونس عن ابن سيرين قال: قال علي رضي الله عنه: ما في القرآن آية أوسع من ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية.

(100/671)

وبه عن ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن منصور عن الشعبي عن شتير بن شكل قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أكثر آية فرجاً في القرآن ﴿ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ ﴾ الآية.

أخبرنا الحسين بن محمّد الحديثي حدثنا محمّد بن علي بن الحسن الصوفي حدثنا علي بن محمّد بن ماهان حدثنا سلمة بن شبيب قال: قريء على عبد الرزاق وأنا أسمع عن معمر عن الزهري قال: دخل عمر بن الخطاب على النبيّ صلى الله عليه وسلم هو يبكي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما يبكيك يا عمر؟".

قال: يا رسول الله إن بالباب شاباً قد أخرق فؤادي وهو يبكي.

فقال له رسول الله: "أدخله عليَّ".

فدخل وهو يبكي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما شأنك يا شاب ؟ " .

قال : يا رسول الله أبكاني ذنوب كثيرة وخفت من جبار غضبان عليَّ .

قال : " أشركت بالله يا شاب ؟ " .

قال : لا .

قال : " أقتلت نفساً بغير حقها ؟ " .

قال : لا .

قال : " فإن الله يغفر لك ذنبك ولو مثل السماوات السبع والأرضين السبع والجبال الرواسي " .

قال : يا رسول الله ذنب من ذنوبي أعظم من السماوات السبع ومن الأرضين السبع .

قال : " ذنبك أعظم أم العرش ؟ " قال : ذنبي .

قال : " ذنبك أعظم أم الكرسي ؟ " .

قال : ذنبي .

قال : " ذنبك أعظم أم إلهك ؟ " .

قال : بل الله أجلّ وأعظم .

فقال : " إن ربّنا لعظيم ولا يغفر الذنب العظيم إلاّ الإله العظيم " .

قال : " أخبرني عن ذنبك " .

قال : إني مستحيي من وجهك يا رسول الله .

قال : " أخبرني ما ذنبك ؟ " .

قال : إني كنت رجلاً نباشاً أنبش القبور منذ سبع سنين ، حتّى ماتت جارية من بنات الأنصار فنبشت قبرها فأخرجتها من كفنها ، ومضيت غير بعيد إذ غلبني الشيطان على نفسي ، فرجعت فجامعتها ومضيت غير بعيد إذ قامت الجارية فقالت : الويل لك يا شاب من ديّان يوم الدين يوم يضع كرسيّه للقضاء ، يأخذ للمظلوم من الظالم تركتني عريانة في عسكر الموتى ووقفتني جنباً بين يدي الله تعالى .

(101/671)

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضرب في قفاه ويقول : " يا فاسق أخرج ما أقربك من النار " .

قال : فخرج الشاب تائباً إلى الله تعالى حتّى أتى عليه ما شاء الله ثم قال : يا إله محمّد وآدم وحواء إن كنت غفرت لي فاعلم محمداً وأصحابه وإلاّ فأرسل ناراً من السماء فأحرقني بها ونجني من عذاب الآخرة .

قال : فجاء جبرئيل وله جناحان جناح بالمشرق وجناح بالمغرب قال : السلام يقرؤك

السلام . قال : " هو السلام وإليه يعود السلام " .

قال : يقول : أنت خلقت خلقي ؟ .

قال : " لا ، بل هو الذي خلقني " .

قال : يقول : أنت ترزقهم ؟

قال : " لا ، بل هو يرزقني " .

قال : أنت تتوب عليهم ؟

قال : " لا ، بل هو الذي يتوب عليَّ " .

قال : فتب على عبدي .

قال : فدعا النبيّ صلى الله عليه وسلم الشاب فتاب عليه وقال : " إن الله هو التوّاب الرحيم " " .

﴿ وأنيبوا إلى رَبِّكُمْ ﴾ أي واقبلوا وارجعوا إليه بالطاعة . ﴿ وَأَسْلِمُواْ لَهُ ﴾ واخضعوا له ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ .

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه الحافظ حدثنا أحمد بن محمّد بن إسحاق السنّي حدثنا أبو يعلى الموصلي حدثنا أبو خيثمة حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا كثير بن زيد عن الحرث بن أبي يزيد قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله تعالى الإنابة " .

﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ والقرآن كله حسن وانما معنى الآية ما قال الحسن : التزموا طاعته واجتنبوا معصيته ، فإن الذي أُنزل على ثلاثة أوجه : ذكر القبيح لنجتنبه ، وذكر الأدون لئلا نرغب فيه ، وذكر الحسن لنؤثره .

وكذلك قال السدي : الأحسن ما أمر الله به في الكتاب .

وقال ابن زيد : (واتبعوا أحسن ما أُنزل اليكم من ربّكم) يعني المحكمات وكلوا علم المتشابهات إلى عالمها .

(102/671)

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ يعني لأن لا تقول كقوله : ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : 15] ﴿ وَأَن تَصُومُواْ ﴾ [البقرة : 184] ونحوهما .

﴿ يا حسرتى ﴾ ياندامتا وحزني ، والتحسر الإغتمام على ما فات ، سُمّي بذلك لانحساره عن صاحبه بما يمنع عليه استدراكه وتلافي الأمر فيه ، والألف في قوله : (يا حسرتى) هي بالكناية للمتكلم وإنما أُريد ياحسرتي على الاضافة ، ولكن العرب تحوّل الياء التي هي كناية اسم المتكلم في الاستغاثة ألفاً فتقول : ياويلتا وياندامتا ، فيخرجون ذلك

على لفظ الدعاء ، وربّما لحقوا بها الهاء .

أنشد الفراء :

يا مرحباه بحمار ناجية . . . إذا أتى قربته للسانية

وربّما الحقوا بها الياء بعد الألف ليدل على الإضافة .

وكذلك قرأ أبو جعفر : يا حسرتاي .

﴿ على مَا فَرَّطتُ ﴾ قصّرت ﴿ فِي جَنبِ الله ﴾ قال الحسن : في طاعة الله . سعيد بن جبير : في حق الله في أمر الله . قاله مجاهد .

قال أهل المعاني : هذا كما يقال هذا صغير في جنب ذلك الماضي ، أي في أمره .

وقيل : في سبيل الله ودينه . والعرب تسمّي السبب والطريق الى الشيء جنباً تقول : تجرعت في جنبك غُصصاً وبلاءاً ، أي بسببك ولأجلك .

قال الشاعر :

أفي جنب بكر قطعتني ملامة . . . لعمري لقد كانت ملامتها ثنى

وقال في الجانب الذي يؤدي إلى رضى الله تعالى وثوابه ، والعرب تسمّي الجانب جنباً .

قال الشاعر :

الناس جنب والأمير جنب . . . يعني الناس من جانب والأمير من جانب .

﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ الساخرين ﴾ المستهزئين بدين الله تعالى وكتابه ورسوله والمؤمنين .

قال قتادة : في هذه الآية لم يكفه ان ضيع طاعة الله تعالى ، حتّى جعل يسخر بأهل طاعة الله .

(103/671)

أخبرنا الحسين بن محمّد بن فنجويه حدثنا هارون بن محمّد حدثنا محمّد بن عبد العزيز حدثنا سلمة حدثنا أبو الورد الوزان عن إسماعيل عن أبي صالح : (يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله) قال : كان رجل عالم في بني إسرائيل ترك علمه وأخذ في الفسق ، أتاه ابليس فقال له : لك عمر طويل فتمتع من الدُّنيا ثم تب .

فأخذ في الفسق ، وكان عنده مال فأنفق ماله في الفجور ، فأتاه مالك الموت في ألذّ ما كان .

فقال : من أنت ؟

فقال : أنا ملك الموت جئت لأقبض روحك .

فقال : ياحسرتي على مافرطت في جنب الله ، ذهب عمري في طاعة الشيطان وأسخطت ربّي .

فندم حين لم تنفعه الندامة ، قال : فأنزل الله سبحانه وتعالى خبره في القرآن .

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ المتقين * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العذاب لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾

رجعة إلى الدُّنيا ﴿ فَأَكُونَ مِنَ المحسنين ﴾ وفي نصب قوله : (فأكون) وجهان :

أحدهما : على جواب لو .

والثاني : على الرد على موضع الكرّة ، وتوجيه الكرّة في المعنى لو أنّ لي أنْ أكر .

كقول الشاعر : أنشده الفراء :

فمالك منها غير ذكرى وحسرة . . . وتسأل عن ركبانها أين يمموا

فنصب تسأل عطفاً على موضع الذكرى ، لأن معنى الكلام : فمالك منها إلاّ أن يذكر ،

ومنه قول الله تعالى : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ عطف يرسل على موضع الوحي في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ وَحْياً ﴾ .

﴿ بلى قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت وكُنتَ مِنَ الكافرين ﴾ .

قرأ العامة : بفتح الكاف والتاء .

وقرأت عائشة : بكسرها أجمع ، ردتها إلى النفس .

وروى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا ابن فنجويه حدثنا عمر بن الخطاب حدثنا عبد الله بن الفضل أخبرنا سعيد بن نصير قال : سمعت إسحاق بن سلمة الرازي قال : سمعت أبا جعفر الرازي يذكر عن الربيع بن أنس أنبأني عبد الله بن حامد أخبرتنا سعيدة بنت حفص بن المهتدي ببخارى قالت : حدثنا صالح بن محمّد البغدادي حدثنا عبد الله بن يونس بن بكر حدثنا أبي حدثنا عيسى بن عبد الله بن ماهان أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن ام سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : سمعت رسول الله (عليه السلام) يقول : " بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين " على مخاطبة النفس .

قال المروزي : وهي رواية السريحي عن الكسائي .

﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله ﴾ فزعم أن له ولداً وشريكاً ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ .

قال الأخفش : ترى غير عاملة في قوله : (وجوههم مسودة) إنما ابتداء وخبر .

﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ * وَيُنَجِّي الله الذين اتقوا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ .

قرأ أهل الكوفة : بالألف على الجمع .

وقرأ الباقون : بغير ألف على الواحد ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم والأخفش ، لأن المفازة هاهنا الفوز ، ومعنى الآية : بنجاتهم من العذاب بأعمالهم الحسنة .

﴿ لاَ يَمَسُّهُمُ السواء ﴾ لايصيبهم المكروه ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ

على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَّهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ﴾ أيّ مفاتيح خزائن السماوات والأرض ، واحدها مقلاد مثل مفتاح ومفاتيح ، ومقليد مثل منديل ومناديل وفيه لغة أُخرى أقاليد .

واحدها أقليد ، وقيل : هي فارسية معربة اكليل .

(105/671)

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه الدينوري بقرائتي عليه حدثنا عبيد الله بن محمّد بن شنبه حدثنا أبو حامد أحمد بن جعفر المستملي حدثنا عمر بن أحمد بن شنبه حدثنا إسماعيل بن سعيد الخدري حدثنا أغلب بن تميم عن مخلد أبي الهذيل عن عبد الرحمن أخيه قال ابن عيينة : عن عبد الله بن عمر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير هذه الآية (مقاليد السماوات والأرض) .

فقال : " يا عثمان ما سألني عنها أحد قبلك ، تفسيرها : لا إله إلاّ الله والله اكبر وسبحان الله وبحمده واستغفر الله لا قوة إلاّ بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، ياعثمان من قالها إذا أصبح أو أمسى عشر مرات أعطاه الله تعالى ست خصال : أما أولها : فيحرس من إبليس وجنده ، والثانية : يحضره

إثنا عشر ملكاً ، والثالثة : يعطى قنطاران من الجنّة ، والرابعة : يرفع له درجة ، والخامسة : يزوجه الله تعالى زوجة من الحور العين ، والسادسة : يكون له من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل ، وله أيضاً من الأجر كمن حج أو اعتمر فقبلت حجته وعمرته ، فإن مات من ليلته مات شهيداً " .

أخبرنا أبو اسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمّد بن العدل بقرائتي عليه حدثنا أحمد بن محمّد بن يحيى أخبرنا أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن زكريا الجرجاني الفقيه حدثنا أحمد بن جعفر بن نصر الرازي حدثنا محمّد بن يزيد النوفلي حدثنا حماد بن محمّد المرزوي حدثنا أبو عصمة نوح بن أبي مريم عن أبي إسحاق عن الحرث عن علي رضي الله عنه قال : سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن تفسير المقاليد .

(106/671)

فقال : " يا عليّ سألت عظيماً ، المقاليد هو أن تقول عشراً إذا اصبحت وعشراً إذا أمسيت : لا إله إلاّ الله والله أكبر سبحان الله والحمد لله واستغفر الله ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، من قالها عشراً إذا أصبح وعشراً إذا امسى أعطاه الله تعالى

خصالاً ستاً ؛ أولهن : يحرسه من إبليس وجنده فلا يكون لهم عليهم سلطان ، والثانية : يعطى قنطاراً في الجنّة أثقل في ميزانه من جبل أُحد ، والثالثة : يرفع الله له درجة لا ينالها إلاّ الأبرار ، والرابعة : يزوجه الله من الحور العين ، والخامسة : يشهده إثنا عشر ألف ملك يكتبونها في رقّ منشور يشهدون له بها يوم القيامة ، والسادسة : كمن قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، وكان كمن حج واعتمر فقبل الله حجة وعمرته ، وإن مات من يومه أو ليلته أو شهره طبع بطابع الشهداء ، فهذا تفسير المقاليد " .

﴿ والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله أولئك هُمُ الخاسرون * قُلْ أَفَغَيْرَ الله تأمروني أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون ﴾ وذلك حين دعا إلى دين آبائه . واختلف القرّاء في قوله : ﴿ تأمروني ﴾ فقرأ أهل المدينة : بنون واحدة مخففة على الحذف والتحقيق .

وقرأ أهل الشام : بنونين على الأصل .

وقرأ الآخرون : بنون واحدة مشددة على الإدغام .

﴿ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الذي عملته قبل الشرك .

وقال أهل الإشارة : معناه لئن طالعت غيري في السر ليحبطن عملك .

﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ ثم دلّه على التوحيد فقال عز من قائل : ﴿ بَلِ الله فاعبد وَكُن مِّنَ الشاكرين ﴾ لله تعالى على نعمة الايمان ﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ حين أشركوا به غيره ، ثم خبر عن عظمته فقال ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ ﴾ أيّ ملكه ﴿ يَوْمَ القيامة ﴾ بلا مانع ولا منازع ولا مدّع ، وهي اليوم أيضاً ملكه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] و و ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم ﴾ [غافر : 16] .

قال الأخفش : هذا كما يقال خراسان في قبض فلان ، ليس أنها في كفّه وإنما معناه ملكه .

﴿ والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ للطي معان منها : الإدراج كطي القرطاس والثوب بيانه يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ، ومنه الإخفاء كما تقول : طويت فلاناً عن الأعين ، وأطو هذا الحديث عني أي استره .

ومنه : الإعراض يقال : طويت عن فلان أو أعرضت عنه .

ومنه : الافناء ، تقول العرب : طويت فلاناً بسيفي ، أي أفنيته .

وقراءة العامة : مطويات بالرفع . وقرأ عيسى بن عمر : بالكسر ومحلها النصب على الحال والقطع ، وإنما يذكر اليمين للمبالغة في الاقتدار .

وقيل : هو معنى القوة ، كقول الشاعر :

تلقاها عرابة باليمين . . . وقيل : اليمين بمعنى القسم ، لأنه حلف أنه يطويها ويفنيها . وهو

اختيار علي بن مهدي الطبري قال : معناه مضنيات بقسمه .

حكى لي أُستاذنا أبو القاسم بن حبيب عنه ثم نزه نفسه ، وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثم أتى ذاكر بعض ما ورد من الآثار في تفسير هذه الآية .

(108/671)

أخبرنا عبد الله بن حامد بقرائتي عليه حدثنا محمّد بن جعفر المطري حدثنا علي بن حرب الموصلي حدثنا ابن فضيل حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا القاسم ان الله يمسك السماوات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول هكذا بيده .

فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : " وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ " .

وأنبأني عبد الله بن حامد أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق الفقيه أخبرنا العبّاس بن الفضل الاسقاطي حدثنا أحمد بن يونس حدثنا فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبيد الله قال : جاء حبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمّد أو

يا أبا القاسم ان الله يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، يهززهن فيقول : أنا الملك أنا الملك .

فضحك النبي صلى الله عليه وسلم تعجباً ممّا قال الحبر تصديقاً له ، ثم قرأ ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة ﴾ .

(109/671)

أخبرنا أحمد بن محمّد بن يوسف القصري بها أخبرنا إسماعيل بن محمّد بن إسماعيل ببغداد حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا محمّد بن صالح الواسطي عن سليمان بن محمّد عن عمر بن نافع عن أبيه قال : قال عبد الله بن عمر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على هذا المنبر يعني منبر رسول الله (عليه السلام) وهو يحكي عن ربّه تبارك وتعالى فقال : " إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة جمع السماوات والأرضين السبع في قبضته ثم قال هكذا وشد قبضته ثم بسطها ثم يقول : أنا الله ، أنا الرحمن ، أنا الملك ، أنا القدوس ، أنا السلام ، أنا المؤمن ، أنا المهيمن ، أنا العزيز ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الذي بدأت الدُّنيا ولم يك شيئاً ، أنا الذي اعدتها ، أين الملوك أين الجبابرة " .

أخبرنا ابن فنجويه الدينوري حدثنا عمر بن الخطاب حدثنا عبد الله بن الفضل حدثنا هدية ابن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ فبسط رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : " فيمجّد الله نفسه ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا العزيز ، أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون " .

قال : فرجف المنبر حتّى قلنا ليتحركنَّ به ، وقيل : ليخرنَّ به .

أخبرنا الحسين بن محمّد حدثنا عمر عن عبد الله حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو أُسامة عن عمر بن حمزة عن سالم بن عبد الله حدثني عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون " .

(110/671)

أخبرنا عبد الله بن حامد إجازة أخبرنا محمّد بن الحسين حدثنا محمّد بن جعونة أخبرنا أبو اليمان الحكم بن نافع حدثنا أبو بكر بن أبي مريم الغساني عن سعيد بن ثوبان الكلاعي عن

أبي أيوب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه أتاه حبر من أحبار اليهود فقال : إني سائلك عن أشياء فخبّرني بها .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " اسأل ذلك " .

فقال الحبر : أرأيت قول الله تعالى في كتابه : (يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات) فأين الخلق عند ذلك ؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " هم أضياف الله تعالى فلن يعجزهم ما لديه " .

فقال الحبر : فقوله سبحانه وتعالى : ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ فأين الخلق عند ذلك ؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " هم فيها كالرقيم في الكتاب " .

وقال ابن عبّاس : في هذه الآية كل ذلك يمينه ، وليس في يده الأُخرى شيء ، وإنما يستعين بشماله المشغولة يمينه ، وما السماوات والأرضون السبع في يدي الله تعالى إلاّ كخردلة في يد أحدكم .

أنبأني عقيل بن أحمد : أن المعافا بن زكريا أخبره عن محمّد بن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة حدثني ابن إسحاق عن محمّد عن سعيد قال : اتى رهط من اليهود النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا محمّد هذا الله خلق الخلق ، فمن خلقه ؟

فغضب النبي صلى الله عليه وسلم حتّى انتقع لونه ثم ساورهم غضباً لربّه فجاءه جبرئيل (

عليه السلام) فسكنه وقال : اخفض عليك جناحك وجاءه من الله بجواب ما سألوه عنه ، قال يقول الله : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * الله الصمد * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1-4] .

فلما تلاها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا له : صف لنا ربك كيف خلقه وكيف عضده وكيف ذراعه ؟

(111/671)

فغضب النبي صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول ثم ساورهم فجاءه جبرئيل فقال : مثل مقالته ، وأتاه بجواب ما سألوه ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة ﴾ الآية .

وقال مجاهد : وكلتا يدي الرحمن يمين .

أخبرنا أبو محمّد عبد الله بن حامد الأصبهاني أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق أخبرنا بشير بن موسى حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار أخبرنا عمرو بن أوس الثقفي : أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من منابر النور على يمين الرحمن وكلتا يديه

يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا " .

وقال الحسين بن الفضل والأخفش معنى الآية ﴿ والأرض جَمِيعاً . . . والسماوات مَطْوِيَّاتٌ ﴾ أي مضبوطات مربوطات بيمينه ، أي بقدرته وهي كلها في ملكه وقبضته ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء : 36] أي وما كانت لكم قدرة ، وليس الملك لليمين دون سائر الجسد والله أعلم .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ .

أخبرنا أبو محمّد الحسين بن أحمد المخلدي إملاء وقراءة أخبرنا عبد الله بن محمّد بن مسلم حدثنا أحمد بن محمّد بن أبي رجاء المصيصي حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن سليمان التيمي عن أسلم العجلي عن بشر بن شغاف عن عبد الله بن عمرو قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصور .

فقال :

" قرن ينفخ فيه " .

﴿ فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض ﴾ أيّ ماتوا وهي النفخة الثانية ﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ اختلفوا في الذين استثناهم الله تعالى .

أخبرنا أبو علي الحسين بن محمّد بن محمّد الروذبادي حدثنا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمّد ابن عبد الرحيم الشروطي حدثنا عبدان بن عبد الله بن أحمد حدثنا محمّد بن مصفي حدثنا بقية عن محمّد عن عمرو بن محمّد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبرئيل عن هذه الآية ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ : " من أُولئك الذين لم يشاء الله أن يصعقهم ؟" .

فقال : هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش " .

أخبرنا الحسين بن فنجويه بقرائتي عليه حدثنا أبو علي بن حبش المقريء قال : قرأ عليّ أبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي وأنا أسمع حدثنا يحيى بن معين حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عياش عن عمر بن محمّد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبرئيل (عليهما السلام) عن هذه الآية ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ : " من الذين لم يشاء الله تعالى أن يصعقهم ؟ .

قال : هم الشهداء متقلدون حول عرشه تتلقاهم الملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من ياقوت أزمتها الدرّ برحائل السندس والإستبرق نمارها ألين من الحرير ، مدَّ خطاها مدَّ

أبصار الرجال يسيرون في الجنّة يقولون عند طول البرهة : انطلقوا إلى ربنا لننظر كيف يقضي بين خلقه ، فيضحك إليهم إلهي عزّ وجلّ ، فإذا ضحك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه " .

أخبرنا ابن فنجويه حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الحسن بن يحيويه حدثنا عمرو بن ثور وإبراهيم بن أبي سفيان قالاً :

(113/671)

حدثنا محمّد بن يوسف الفربابي حدثنا سليمان بن حيان عن محمّد بن إسحاق عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : تلا رسول الله (عليه السلام) ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين استثنى الله تعالى ؟

قال : " هو جبرئيل وميكائيل واسرافيل وملك الموت قال : فيقول يا ملك الموت خذ نفس اسرافيل . فيقول : يا ملك الموت من بقي ؟ فيقول : سبحانك ربّي وتعاليت ذا الجلال والإكرام بقي جبرئيل وميكائيل وملك الموت . فيقول : يا ملك الموت خذ نفس ميكائيل . فياخذ نفس ميكائيل فيقع كالطود العظيم . فيقول : يا ملك الموت من بقي ؟ فيقول :

سبحانك ربّي تباركت وتعاليت ذا الجلال والإكرام بقي جبرئيل وملك الموت .

فيقول : مُت يا ملك الموت فيموت . فيقول : يا جبرئيل من بقي ؟ فيقول : تباركت وتعاليت ذا الجلال والإكرام وجهك الباقي الدائم وجبرئيل الميت الفاني قال : فيقول : يا جبرئيل لابدّ من موتك ، فيقع ساجداً يخفق بجناحيه فيقول : سبحانك ربّي تباركت وتعاليت ذا الجلال والإكرام " .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطود العظيم على الضرب من الضراب " .

أخبرنا عبد الرحمن بن أحمد بن جعفر حدثنا حاجب بن أحمد بن يرحم حدثنا محمّد بن حماد حدثنا محمّد بن الفضيل عن سليمان التيمي عن أبي نصرة عن جابر في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ قال : موسى ممّن استثنى الله تعالى ، وذلك بأنه قد صعق مرة .

(114/671)

يدل عليه ما أخبرنا عقيل بن أحمد : أن أبا الفرج البغدادي القاضي أخبرهم عن محمّد بن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبدة بن سليمان حدثنا محمّد بن عمرو حدثنا أبو سلمة

عن أبي هريرة قال : قال يهودي بسوق المدينة : والذي اصطفى موسى على البشر ، قال : فرفع رجل من الأنصار يده فصك بها وجهه فقال : تقول هذا وفينا رسول الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ فاكون أنا أول من يرفع رأسه ، فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممّن استثنى الله تعالى " .

وقال كعب الأحبار : هم إثنا عشر ، حملت العرش وجبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت .

الضحاك : هم رضوان والحور ومالك والزبانية .

قتادة : الله أعلم بثنياه .

الحسن : (إلاّ من شاء الله) يعني الله وحده . وقيل : عقارب النار وحياتها ، ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ ﴾ أي في الصور ﴿ أخرى ﴾ مرة أُخرى ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ من قبورهم ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ يعني ينظرون إلى البعث .

وقيل : ينتظرون أمر الله تعالى فيهم .

قالت العلماء : ووجه النفخ في الصور أنه علامة جعلها الله تعالى ليتصوّر بها العاقل وأخذ الأمر ، ثم تجديد الخلق .

﴿ وَأَشْرَقَتِ ﴾ وأضاءت ﴿ الأرض ﴾ .

وقرأ عبيد بن عمير : (وأشرقت) على لفظ ما لم يُسم فاعله كأنها جعلت مضيئة .

﴿ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ قال أكثر المفسرين : بضوء ربّها ، وذلك حين يبرز الرحمن لفصل القضاء بين خلقه فما يتضارون في نوره إلاّ كما يتضارون في الشمس في اليوم الصحو الذي لا دخن فيه .

وقال الضحاك : بحكم ربّها .

وقال السدي : بعدل ربّها . ويقال : إن الله تعالى خلق في القيامة نوراً يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به ، ويقال : ان الله يتجلى للملائكة فتشرق الأرض بنوره ، وأراد بالأرض عرصات القيامة .

﴿ وَوُضِعَ الكتاب وَجِيءَ بالنبيين والشهدآء ﴾ .

(115/671)

قال ابن عبّاس : يعني الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة .

وقال السدي : الذين استشهدوا في طاعة الله .

وقيل : هم الحفظة ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : 21] .

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحق وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الذين كفروا ﴾ سوقاً عنيفاً يسحبون على وجوههم ﴿ إلى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ أفواجاً بعضها على أثر بعض ، كل أمة على حدة .

وقال أبو عبيد والأخفش : يعني جماعات في تفرقة ، واحدتها زمرة .

﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ السبعة وكانت قبل ذلك مغلقة .

واختلف القراء في قوله : (فِتحت) و (فتّحت) فخففها أهل الكوفة ، وشددهما الآخرون على التكثير .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ توبيخاً وتقريعاً لهم ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا قَالُواْ بلى ولكن حَقَّتْ ﴾ وجبت ﴿ كَلِمَةُ العذاب ﴾ وهي قوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 119] .

﴿ عَلَى الكافرين * قِيلَ ادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين * وَسِيقَ الذين ﴾ وحشر الذين ﴿ اتقوا رَبَّهُمْ ﴾ فأطاعوه ولم يشركوا به ﴿ إِلَى الجنة زُمَراً ﴾ ركباناً ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ ﴾ الواو فيه واو الحال ومجازه وقد فتحت أبوابها ، فأدخل الواو هاهنا لبيان أنها كانت مفتحة قبل مجيئهم ، وحذفها من الآية الأولى لبيان أنها كانت مغلقة قبل مجيئهم ، ويقال : زيدت الواو هاهنا ، لأن أبواب الجنّة ثمانية

وأبواب الجحيم سبعة ، فزيدت الواو هاهنا فرقاً بينهما .

حكى شيخنا عبد الله بن حامد عن أبي بكر بن عبدش أنها تُسمى واو ثمانية .

(116/671)

قال : وذلك أن من عادة قريش أنهم يعدون العدد من الواحد إلى الثمانية ، فإذا بلغوا الثمانية زادوا فيها واواً فيقولون : خمسة ، ستة ، سبعة ، وثمانية ، يدل عليه قول الله تعالى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ [الحاقة : 7] وقال سبحانه : ﴿ التائبون العابدون ﴾ [التوبة : 112] ، فلما بلغ الثامن من الأوصاف قال ﴿ والناهون عَنِ المنكر ﴾ [التوبة : 112] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] ، وقال تعالى : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ [التحريم : 5] .

وقيل : زيادة الواو في صفة الجنّة علامة لزيادة رحمة الله على غضبه وعقوبته .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ قال قتادة فإذا قطعوا النار حبسوا على قنطرة بين الجنّة والنار ، فيقتص بعضهم من بعض ، حتّى إذا هدؤا واطمئنوا قال لهم رضوان وأصحابه : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين .

أخبرنا أبو صالح شعيب بن محمّد البيهقي أخبرنا أبو حاتم مكي بن عبدان التميمي حدثنا

أبو الأزهر أحمد بن الأزهر السليطي حدثنا روح بن عبادة القيسي حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه : أنه سُئل عن هذه الآية ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً ﴾ الآية .

(117/671)

فقال : سيقودهم إلى أبواب الجنّة حتّى إذا انتهوا إليها وجدوا عند بابها شجرة تخرج من تحت ساقها عينان ، فعمدوا إلى احديهما فتطهروا فيها فجرت عليهم بنضرة النعيم ، فلن تغير أجسادهم بعدها أبداً ولن تشعث أشعارهم بعدها أبداً كأنما دهنوا بالدهان ، ثم عمدوا إلى الأُخرى فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذىً أو قذىً ، وتلقتهم الملائكة على أبواب الجنّة : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، ويلقى كل غلمان صاحبهم يطوفون به فعل الولدان بالحميم إذا جاء من الغيبة يقولون : ابشر قد أعدّ الله لك كذا وكذا وأعد لك كذا وكذا ، وينطلق غلام من غلمانه يسعى إلى أزواجه من الحور العين فيقول : هذا فلان باسمه في الدُّنيا قد قدم .

فيقلنّ : أنت رأيته ؟

فيقول : نعم .

فيستخفهن الفرح حتّى يخرجن إلى أسكفة الباب ويجيء ويدخل ، فإذا سرر موضونة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه ، فإذا هو قد أُسس على جندل اللؤلؤ بين أخضر وأحمر وأبيض وأصفر من كل لون ، ثم يتكيء على أريكة من أرائكه ، ثم يرفع طرفه إلى سقفه ، فلولا أن الله تعالى قدر له لألمّ أن يذهب بصره ، أنه مثل البرق فيقول : ﴿ الحمد للَّهِ الذي هَدَانَا لهذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لولا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ [الأعراف : 43] قال : ﴿ ونودوا أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43] .

واختلف أهل العربية في جواب قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا ﴾ .

فقال بعضهم : جوابه : (فتحت) والواو فيه [مثبتة] مجازها حتّى إذا جاؤها فتحت أبوابها كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان وَضِيَآءً ﴾ [الأنبياء : 48] أي ضياء .

وقيل : جوابه : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ والواو فيه ملغاة تقديره : حتّى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها .

كقول الشاعر :

فإذا وذلك يا كبيشة لم يكن . . . إلاّ توهم حالم بخيالِ

أراد فإذا ذلك لم يكن .

وقال بعضهم : جوابه مضمر ومعنى الكلام : حتّى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، فدخلوها .

﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ ﴾ قال أبو عبيدة : جوابه محذوف مكفوف عن خبره ، والعرب تفعل هذا لدلالة الكلام عليه .

قال الأخطل في آخر قصيدة له :

خلا أن حياً من قريش تفضلوا . . . على الناس أو ان الأكارم نهشلاً

وقال عبد مناف بن ربيع في آخر قصيدة :

حتّى إذا أسلكوهم في قتائده . . . شلاء كما تطرد الجمالة الشردا

﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ يعني أرض الجنّة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون ﴾ [الأنبياء : 105] .

﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ ثواب المطيعين ﴿ وَتَرَى الملائكة حَآفِّينَ ﴾ محدقين محيطين ﴿ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ ودخول (من) للتوكيد ﴿ يُسَبِّحُونَ

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ متلذذين بذلك لا متعبدين به ، لأن التكليف يزول في ذلك اليوم ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ أي بين أهل الجنّة والنار بالحق ﴿ وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ .

أخبرنا أبو صالح شعيب بن محمّد البيهقي الفقيه أخبرنا مكي بن عبدان أخبرنا أبو الأزهر أحمد بن الأزهر حدثنا روح بن عبادة حدثنا سعيد عن قتادة في هذه الآية قال : فتح أول الخلق بالحمد وقال

﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ [الأنعام : 1] وختم بالحمد فقال : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ .

(119/671)

أخبرنا أبو عبد الله بن فنجويه حدثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن مالك حدثنا أبو طلحة أحمد بن محمّد بن عبد الكريم الفزاري حدثنا نصر بن علي حدثنا عبد الرحمن بن عثمان عن عبادة بن ميسرة عن محمّد بن المنكدر عن ابن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ على المنبر آخر سورة الزمر فتحرك المنبر مرتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 241.260 ﴾

(120/671)

وقال الزمخشرى :

﴿ قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾

أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلوّ فيها لا تَقْنَطُوا قرئ بفتح النون وكسرها وضمها إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً يعنى بشرط التوبة ، «1» وقد تكرّر ذكر هذا الشرط في القرآن ، فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكرا له فيما لم يذكر فيه ، لأنّ القرآن في حكم كلام واحد ، ولا يجوز فيه التناقض . وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود : يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء ، والمراد بمن يشاء : من تاب ، لأنّ مشيئة اللّه تابعة لحكمته وعدله ، لا لملكه وجبروته . وقيل في قراءة النبىّ صلى اللّه عليه وسلم وفاطمة رضى اللّه عنها : يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى . ونظير نفى المبالاة نفى الخوف في قوله تعالى وَلا يَخافُ عُقْباها وقيل : قال أهل مكة : يزعم محمد أنّ من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرّم اللّه لم يغفر له ، فكيف ولم نهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرّم اللّه فنزلت . وروى أنه أسلم عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما ، ثم فتنوا وعذبوا ، فافتتنوا ، فكنا نقول : لا يقبل اللّه لهم صرفا ولا عدلا أبدا ، فنزلت . فكتب بها عمر رضى اللّه عنه إليهم ، فأسلموا وهاجروا . وقيل نزلت في وحشى قاتل حمزة رضى اللّه عنه . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ما أحب أنّ لي

(1) . قوله «يعنى بشرط التوبة» عند التوبة فالعموم شامل للشرك ، وعند عدمها فلا غفران للكبائر عند المعتزلة . ويجوز بالشفاعة وبمجرد الفضل عند أهل السنة إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ كما تقرر في علم التوحيد : فارجع إليه . (ع)

(121/671)

الدنيا وما فيها بهذه الآية» فقال رجل : يا رسول اللّه ، ومن أشرك ؟ فسكت ساعة ثم قال : «ألا ومن أشرك» «1» ثلاث مرّات .

[سورة الزمر (39) : الآيات 54 إلى 59]

وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58)

بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (59)

وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وتوبوا إليه وَأَسْلِمُوا لَهُ وأخلصوا له العمل ، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة

لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة ، وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مثل قوله الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ . وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ أى يفجؤكم وأنتم غافلون ، كأنكم لا تخشون شيئا لفرط غفلتكم وسهوكم أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ كراهة أن تقوّل . فإن قلت : لم نكرت ؟ قلت : لأنّ المراد بها بعض الأنفس ، وهي نفس الكافر . ويجوز أن يراد : نفس متميزة من الأنفس : إما بلجاج في الكفر شديد . أو بعذاب عظيم . ويجوز أن يراد التكسير ، كما قال الأعشى :

وربّ بقيع لو هتفت بجوه أتانى كريم ينفض الرّأس مغضبا «2»

---

(1) . أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب في السابع والأربعين من حديث ثوبان . وفيه ابن لهيعة عن أبى قبيل وهما ضعيفان .

(2) دعا قومه حولي فجاءوا لنصره وناديت قوما بالمسناة غيبا

ورب بقيع لو هتفت بجوه أتانى كريم ينفض الرأس مغضبا

للأعشى وقيل : لأبى عمرو بن العلاء ، يصف قومه بالجبن حتى كأنهم أموات مقبورون ، صارت الأحجار مسناة فوقهم . وسنيت الشيء سهلته ، أى : منعمة مملسة . أو بالية مفتتة . ويجوز أن أصله مسننة ، فقلبت النون الثانية ألفا . وسننت الحجر حددته وملسته . وفي وصف القبور بذلك مبالغة في وصف قومه بالجبن ، بل هم دون تلك الأموات ، فرب بقيع : أى موضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى ، والمراد مقبرة ، لا بقيع الغرقد

بالغين وهو مقبرة المدينة بعينها ، لو هتفت بجوه ، أى : ناديت شجاعهم لجاءنى كريم ينفض رأسه من تراب القبر . أو من الغضب لما نالني من المكروه ، وليس المراد كريما واحدا ، بل كرماء كثيرة بمعونة المقام . والحو - بالمهملة - : الشجاع ، وبالمعجمة : العسل ، وبالجيم : ما غلظ وارتفع من الأرض .

(122/671)

وهو بريد : أفواجا من الكرام ينصرونه ، لا كريما واحدا . ونظيره : ربّ بلد قطعت ، ورب بطل قارعت . وقد اختلس الطعنة ولا يقصد إلا التكسير . وقرئ : يا حسرتى ، على الأصل .

ويا حسرتاى ، على الجمع بين العوض والمعوّض منه . والجنب : الجانب ، يقال : أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته ، وفلان لين الجنب والجانب ، ثم قالوا : فرّط في جنبه وفي جانبه ، يريدون في حقه . قال سابق البربري :

أما تتّقين الله في جنب وامق له كبد حرّى عليك تقطّع «1»

وهذا من باب الكناية ، لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه ، فقد أثبته فيه . ألا ترى إلى قوله :

إنّ السّماحة والمروءة والنّدى في قبّة ضربت على ابن الحشرج «2»

ومنه قول الناس : لمكانك فعلت كذا ، يريدون : لأجلك . وفي الحديث : «من الشرك الخفىّ أن يصلى الرجل لمكان الرجل» «3» وكذلك : فعلت هذا من جهتك . فمن حيث لم يبق فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه : قيل فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ على معنى :

فرطت في ذات اللّه . فإن قلت : فمرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كلا ذكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها ، فكأنه قيل : فرّطت في اللّه . فما معنى فرّطت في اللّه ؟ قلت : لا بدّ من تقدير مضاف محذوف ، سواء ذكر الجنب أو لم يذكر : والمعنى : فرّطت في طاعة اللّه

---

(1) أما تتقين اللّه في جنب وامق له كبد حرى عليك تقطع

غريب مشوق مولع بادكاركم وكل غريب الدار بالشوق مولع

لجميل بن معمر يستعطف صاحبته بثينة ويتوجع إليها مما نابه فيها ، أى : أما تخافين اللّه في جنب وامق ، أى : في حقه الواجب عليك ، فالجنب : كناية عن ذلك . والوامق : الشديد المحبة ، يعنى نفسه . وحرى : أى ذات حر واحتراق .

وتقطع : أصله تتقطع ، والادكار : أصله الاذتكار ، قلبت تاؤه دالا مهملة ، وأدغمت الذال المعجمة فيها ، وخاطبها خطاب جمع المذكر تعظيما . وفي البيت رد العجز على الصدر ،

وهو من بديع الكلام.

(2) . لزيادة الأعجم يمدح عبد اللّه بن الحشرج أمير نيسابور ، وهو من باب الكناية التي قصد بها النسبة ، يعنى أنه مختص بهذه الصفات لا توجد في غيره ، ولا خيمة هناك ولا ضرب أصلا.

(3) . أخرجه أحمد وإسحاق والبزار والحاكم والبيهقي . من رواية ربيح بن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه عن جده قال» خرج علينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوما . ونحن نتذاكر الدجال . فقال غير الدجال أخوف عليكم :

الشرك الخفي : أن يعمل الرجل لمكان الرجل» لفظ الحاكم.

(123/671)

وعبادة اللّه ، وما أشبه ذلك . وفي حرف عبد اللّه وحفصة : في ذكر اللّه . وما في ما فرّطت مصدرية مثلها في بِما رَحُبَتْ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ قال قتادة : لم يكفه أن ضيع طاعة اللّه حتى سخر من أهلها ، ومحل وَإِنْ كُنْتُ النصب على الحال ، كأنه قال : فرّطت وأنا ساخر ، أى :

فرّطت في حال سخريتي . وروى أنه كان في بنى إسرائيل عالم ترك علمه وفسق . وأتاه

إبليس وقال له : تمتع من الدنيا ثم تب ، فأطاعه ، وكان له مال فأنفقه في الفجور ، فأتاه ملك الموت في ألذ ما كان فقال : يا حسرتا على ما فرطت في جنب اللّه ، ذهب عمري في طاعة الشيطان ، وأسخطت ربي فندم حين لم ينفعه الندم ، فأنزل اللّه خبره في القرآن لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لا يخلو : إما أن يريد الهداية «1» بالإلجاء أو بالألطاف أو بالوحي ، فالإلجاء خارج عن الحكمة ، ولم يكن من أهل الألطاف فيلطف به . وأما الوحي فقد كان ، ولكنه عرض ولم يتبعه حتى يهتدي ، وإنما يقول هذا تحيرا في أمره وتعللا بما لا يجدي عليه ، كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤساء والشياطين ونحو ذلك ونحوه لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ وقوله بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي ردّ من اللّه عليه ، معناه : بلى قد هديت بالوحي فكذبت به واستكبرت عن قبوله ، وآثرت الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهدى .

وقرئ بكسر التاء «2» على مخاطبة النفس . فإن قلت : هلا قرن الجواب بما هو جواب له ، وهو قوله لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي ولم يفصل بينهما بآية ؟ قلت : لأنه لا يخلو : إما أن يقدّم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن . وإما أن تؤخر القرينة الوسطى ، فلم يحسن الأوّل لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن . وأما الثاني فلما فيه من نقص الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة ، ثم التعلل بفقد الهداية ، ثم تمني الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه ، وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ، ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب . فإن قلت : كيف صح أن تقع بلى جوابا لغير منفي ؟ قلت : لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي فيه

معنى : ما هديت .

[سورة الزمر (39) : آية 60]

وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60)

كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى ، وهو متعال «3» عنه ، فأضافوا إليه

---

(1) . قوله «لا يخلو إما أن يريد به الهداية» تمحل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة ، ولكن خلق الهداية لا يصل إلى حد الإلجاء ، لأنه لا يسلب الاختيار عند أهل السنة ، كخلق التقوى والطاعة وغيرها من الأفعال الاختيارية ، لما أثبتوه للعبد من الكسب فيها وإن كان فاعلها في الحقيقة هو اللّه تعالى ، كما تقرر في علم التوحيد . (ع) [. . . . .]

(2) . قوله «و قرئ بكسر التاء» لعل من كسرها كسر الكاف أيضا . (ع)

(3) . قال محمود : «يعنى الذين وصفوه تعالى بما لا يجوز عليه وهو متعال عنه . . . الخ» قال أحمد : قد عدا طور التفسير لمرض في قلبه لا دواء له إلا التوفيق الذي حرمه ، ولا يعافيه منه إلا الذي قدر عليه هذا الضلال وحتمه ، وسنقيم عليه حد الرد ، لأنه قد أبدى صفحته ، ولولا شرط الكتاب لأضربنا عنه صفحا ولوينا عن الالتفات إليه كشحا ، وباللّه التوفيق فنقول : أما تعريضه بأن أهل السنة يعتقدون أن القبائح من فعل اللّه تعالى ، فيرجمه باعتقادهم المشار إليه قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى

كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أما الزمخشري وإخوانه القدرية ، فيغيرون وجه هذه الآية ويقولون : ليس خالق كل شيء ، لأن القبائح أشياء وليست مخلوقة له .

فاعتقدوا أنهم نزهوا ، وإنما أشركوا . وأما تعريضه لهم في أنهم يجوزون أن يخلق خلقا لا لغرض ، فذلك لأن أفعاله تعالى لا تعلل ، لأنه الفعال لما يشاء . وعند القدرية ليس فعالا لما يشاء لأن الفعل إما منطو على حكمة ومصلحة ، فيجب عليه أن يفعله عندهم ، وإما عار عنها فيجب عليه أن لا يفعله فأين أثر المشيئة إذا . وأما اعتقاده أن في تكليف ما لا يطاق تظليما للّه تعالى ، فاعتقاد باطل ، لأن ذلك إنما ثبت لازما لاعتقادهم أن اللّه تعالى خالق أفعال عبيده ، فالتكليف بها تكليف بما ليس مخلوقا لهم ، والقاعدة الأولى حق ، ولازم الحق حق ، ولا معنى للظلم إلا التصرف في ملك الغير بغير إذنه ، والعباد ملك اللّه تعالى ، فكيف يتصور حقيقة الظلم منه ، تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وأما تعريضه بأنهم يجوزون أن يؤلم لا لعوض ، فيقال له : ما قولك أيها الظنين في إيلام البهائم والأطفال ، ولا أعواض لها ، وليس مرتبا على استحقاق سابق خلافا للقدرية إذ يقولون : لا بد في الألم من استحقاق سابق أو عوض . وأما اعتقاده أن تجويز رؤية اللّه تعالى يستلزم اعتقاد الجسمية ، فانه اغترار في اعتقاده بأدلة العقل المجوزة لذلك ، مع البراءة من اعتقاد الجسمية ، ولم يشعر أنه يقابل بهداية قول نبى الهدى عليه الصلاة والسلام : «إنكم سترون ربكم كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته» فهذا النص الذي ينبو عن التأويل ولا يردع المتمسك به شيء من

التهويل . وأما قوله إنهم يتسترون بالبلكفة ، فيعنى به قولهم «بلا كيف» أجل إنها لستر لا تهتكه يد الباطل البتراء ، ولا تبعد عن الهدى عين الضلال العوراء . وأما تعريضه بأنهم يجعلون للّه أندادا باثباتهم معه قدماء ، فنفى لاثباتهم صفات الكمال ، كلا واللّه ، إنما جعل للّه أندادا القدرية إذ جعلوا أنفسهم يخلقون ما يريدون ويشتهون على خلاف مراد ربهم . حتى قالوا : إن ما شاء وكان وما شاء اللّه لا يكون .

وأما أهل السنة فلم يزيدوا على أن اعتقدوا أن للّه تعالى علما وقدرة وإرادة وسمعا وبصرا وكلاما وحياة ، حسبما دل عليه العقل وورد به الشرع وأى مخلص للقدرى إذا سمع قوله تعالى وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً إلا اعتقاد أن للّه تعالى علما أو جحد آيات اللّه وإطفاء نوره ، ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وأما قوله : إنهم يثبتون للّه تعالى يدا وقدما ووجها ، فذلك فرية ما فيها مرية ، ولم يقل بذلك أحد من أهل السنة . وإنما أثبت القاضي أبو بكر صفات سمعية وردت في القرآن : اليدان والعينان والوجه ، ولم يتجاوز في إثباتها ما وردت عليه في كتاب اللّه العزيز ، على أن غيره من أهل السنة حمل اليدين على القدرة والنعمة ، والوجه على الذات ، وقد مر ذلك في مواضع من الكتاب ، فقد اتصف في هذه المباحثة بحال من بحث بظلفه على حتفه ، وتعريضه معتقده الفاسد لهتك ستره وكشفه ، وإنما حملني على إغلاظ مخاطبته الغضب للّه تعالى ولرسوله صلى اللّه عليه وسلم وأهل سنته ، فانه قد أسناء عليهم الأدب ، ونسبهم بكذبه إلى الكذب ، واللّه الموفق .

الولد والشريك ، وقالوا : هؤلاء شفعاؤنا ، وقالوا : لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ، وقالوا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح «1» ، وتجويز أن يخلق خلقا لا لغرض ، ويؤلم

(1) . قوله «قوم يسفهونه بفعل القبائح» يريد بهم أهل السنة ، حيث ذهبوا إلى أنه تعالى هو الخالق لأفعال العباد ولو معاصى ، وأن فعله لا لغرض بل لحكمة ، وإيلام الأطفال لا يستوجب عليه عوضا ، وتظليمه نسبته إلى الظلم بتجويز تكليف المحال كما في علم الأصول ، وجوزوا عليه الرؤية وهي غير مختصة بالأجسام عندهم ، وجوز السلف أن يكون له يد ونحوها ، لكن لا كالأيدى . وأراد بالقدماء صفات المعاني : كالقدرة والارادة ، حيث قال أهل السنة : إنها موجودة بوجودات زائدة على وجود الذات ، وتحقيق ذلك في التوحيد والأصول ، فانظره . والبلكفة :

قولهم «بلا كيف» . (ع)

لا لعوض ، ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق ، ويجسمونه بكونه مرئيا معاينا مدركا بالحاسة ، ويثبتون له يدا وقدما وجنبا متسترين بالبلكفة ، ويجعلون له أندادا بإثباتهم معه قدماء

وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ جملة في موضع الحال إن كان ترى من رؤية البصر ، ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب .

[سورة الزمر (39) : آية 61]

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (61)

قرئ : ينجى وينجى بِمَفَازَتِهِمْ بفلاحهم ، يقال : فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده منه . وتفسير المفازة قوله لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ كأنه قيل : ما مفازتهم ؟ فقيل : لا يمسهم السوء ، أى ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم . أو بسبب منجاتهم ، من قوله تعالى فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذابِ أى بمنجاة منه ، لأنّ النجاة من أعظم الفلاح ، وسبب منجاتهم العمل الصالح ولهذا فسر ابن عباس رضى اللّه عنهما المفازة بالأعمال الحسنة ، ويجوز : بسبب فلاحهم ، لأنّ العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة . ويجوز أن يسمى العمل الصالح في نفسه : مفازة ، لأنه سببها . وقرئ : بمفازاتهم ، على أن لكل متق مفازة . فإن قلت : لا يَمَسُّهُمُ ما محله من الإعراب على التفسيرين ؟ قلت : أما على التفسير الأوّل فلا محل له ، لأنه كلام مستأنف . وأما على الثاني فمحله النصب على

الحال .

[سورة الزمر (39) : الآيات 62 إلى 63]

اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (63)

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أى هو مالك أمرها وحافظها ، وهو من باب الكناية ، لأنّ حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها ، ومنه قولهم : فلان ألقيت إليه مقاليد الملك وهي مفاتيح ، ولا واحد لها من لفظها . وقيل : مقليد . ويقال : إقليد ، وأقاليد ، والكلمة أصلها فارسية . فإن قلت . ما للكتاب العربي المبين وللفارسية ؟ قلت : التعريب أحالها عربية ، كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملا . فإن قلت : بما اتصل قوله وَالَّذِينَ كَفَرُوا قلت : بقوله وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا أى ينجى اللّه المتقين بمفازتهم ، والذين كفروا هم الخاسرون .

واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها ، وهو مهيمن عليها ، فلا يخفي عليه شيء من أعمال المكلفين فيها وما يستحقون عليها من الجزاء ، وقد جعل متصلا بما يليه على أن كل شيء في السماوات والأرض فاللّه خالقه وفاتح بابه والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون وقيل : سأل عثمان رضى اللّه عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه

وسلم عن تفسير قوله تعالى لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، فقال : «يا عثمان» ما سألنى عنها أحد قبلك ، تفسيرها : لا إله إلا اللّه واللّه

(126/671)

أكبر ، وسبحان اللّه وبحمده ، وأستغفر اللّه ولا حول ولا قوّة إلا باللّه ، هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير» «1» وتأويله على هذا ، أن للّه هذه الكلمات يوحد بها ويمجد ، وهي مفاتيح خير السماوات والأرض : من تكلم بها من المتقين أصابه ، والذين كفروا بآيات اللّه وكلمات توحيده وتمجيده ، أولئك هم الخاسرون .

[سورة الزمر (39) : آية 64]

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (64)

أَفَغَيْرَ اللَّهِ منصوب بأعبد . وتَأْمُرُونِّي اعتراض . ومعناه ، أفغير اللّه أعبد بأمركم ، وذلك حين قال له المشركون : استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك . أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ لأنه في معنى تعبدوننى وتقولون لي : اعبد ، والأصل : تأمروننى أن أعبد ، فحذف «أن» ورفع الفعل ، كما في قوله :

ألا أيهذا الزّاجرى أحضر الوغى «2»

ألا تراك تقول : أفغير اللّه تقولون لي اعبده ، وأ فغير اللّه تقولون لي أعبد ، فكذلك أفغير اللّه تأمروننى أن أعبده . وأ فغير اللّه تأمروننى أن أعبد ، والدليل على صحة هذا الوجه : قراءة من قرأ أَعْبُدُ بالنصب . وقرئ : تأمروننى ، على الأصل . وتأمرونى ، على إدغام النون أو حذفها .

[سورة الزمر (39) : الآيات 65 إلى 66]

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66)

قرئ : ليحبطنّ عملك ، وليحبطنّ : على البناء للمفعول . ولنحبطنّ ، بالنون والياء ، أى : ليحبطنّ اللّه . أو الشرك . فإن قلت : الموحى إليهم جماعة ، فكيف قال لَئِنْ أَشْرَكْتَ على التوحيد ؟ قلت : معناه أوحى إليك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ، وإلى الذين من قبلك مثله ، أو أوحى إليك وإلى كل واحد منهم : لئن أشركت كما تقول كسانا حلة ، أى : كل واحد منا :

فإن قلت : ما الفرق بين اللامين ؟ قلت : الأولى موطئة للقسم المحذوف ، والثانية لام الجواب ، وهذا الجواب سادّ مسدّ الجوابين ، أعنى : جوابي القسم والشرط . فإن قلت : كيف صح هذا

(1) . أخرجه أبو يعلى وابن أبى حاتم والعقيلي والبيهقي في الأسماء والطبراني في الدعاء كلهم من رواية أغلب بنى تميم حدثنا مخلد أبو الهذيل عن عبد الرحيم . وعبد الرحمن بن عدى عن عبد اللّه بن عمر به ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه . وله وجه آخر عند ابن مردويه . من طريق كلب بن وائل عن عمر ورواه ابن مردويه عن الطبراني بإسناد آخر إلى ابن عباس «أن عثمان - فذكره» وفيه سلام بن وهب الجندي عن أبيه ولا أعرفهما .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 159 فراجعه إن شئت اه مصححه .

الكلام مع علم اللّه تعالى أنّ رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم ؟ قلت : هو على سبيل الفرض ، والمحالات يصح فرضها لأغراض ، فكيف بما ليس بمحال . ألا ترى إلى قوله وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً يعنى على سبيل الإلجاء ، ولن يكون ذلك لامتناع الداعي إليه ووجود الصارف عنه . فإن قلت : ما معنى قوله وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ ؟ قلت : يحتمل ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل . ويحتمل : ولتكونن

في الآخرة من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن مت على الردة. ويجوز أن يكون غضب اللّه على الرسول أشدّ، فلا يمهله بعد الردة: ألا ترى إلى قوله تعالى إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ، بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ رد لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم، كأنه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته، بل إن كنت عاقلا فاعبد اللّه، فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضا منه «1» وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ على ما أنعم به عليك، من أن جعلك سيد ولد آدم. وجوّز الفراء نصبه بفعل مضمر هذا معطوف عليه، تقديره: بل اللّه أعبد فاعبد.

[سورة الزمر (39): آية 67]

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمّا يُشْرِكُونَ (67)

لما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته وقدره في نفسه حق تقديره عظمه حق تعظيمه قيل وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وقرئ بالتشديد على معنى: وما عظموه كنه تعظيمه، ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل فقال وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين «2»

(1) . قال محمود : «أصل الكلام : إن كنت عابدا فاعبد اللّه ، فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضا منه .

اه كلامه» قال أحمد : مقتضى كلام سيبويه في أمثال هذه الآية : أن الأصل فيه فاعبد اللّه ، ثم حذفوا الفعل الأول اختصارا ، فلما وقعت الفاء أولا استنكروا الابتداء بها ، ومن شأنها التوسط بين المعطوف والمعطوف عليه ، فقدموا المفعول وصارت متوسطة لفظا ودالة على أن ثم محذوفا اقتضى وجودها ، ولتعطف عليه ما بعدها وينضاف إلى هذه الغاية في التقديم فائدة الحصر ، كما تقدم من إشعار التقديم بالاختصاص .

(2) . قال محمود : «الغرض من هذا الكلام تصوير عظمته تعالى والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ، وكذلك حكم ما يروى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أن حبرا جاء إليه فقال : يا أبا القاسم ، إن اللّه يمسك السماوات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتعجب مما قال الحبر ثم قرأ هذه الآية تصديقا له ، فإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا ما فهمه علماء البيان من غير تصوير إمساك ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة التي لا يوصل السامع إلى الوقوف عليها إلا إجراء العبارة على

مثل هذه الطريقة من التخييل ، ثم قال : وأكثر كلام الأنبياء والكتب السماوية وعليتها تخييل قد زلت فيه الأقدام قديما . اه كلامه» قال أحمد : إنما عنى بما أجراه ها هنا من لفظ التخييل التمثيل ، وإنما العبارة موهمة منكرة في هذا المقام لا تليق به بوجه من الوجوه ، والله أعلم .

(128/671)

إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ، وكذلك حكم ما يروى أن جبريل «1» جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا أبا القاسم ، إن الله يمسك السماوات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع ، ثم يهزهنّ فيقول أنا الملك «2» فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبا مما قال ثم قرأ تصديقا له وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ . . . الآية وإنما ضحك أفصح العرب صلى الله عليه وسلم وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصوّر إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أوّل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هوانا لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه ، إلا إجراء العبارة

في مثل هذه الطريقة من التخييل ، ولا ترى بابا في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام اللّه تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإنّ أكثره وعليته «3» تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديما ، وما أتى الزالون «4» إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير ، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علما لو قدروه حق قدره ، لما خفى عليهم أنّ العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه ، إذ لا يحل عقدها الموربة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو ، وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول ، قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة «5» والوجوه الرثة ، لأنّ من تأول ليس من هذا العلم في عير ولا نفير ، ولا يعرف قبيلا منه من دبير «6» . والمراد بالأرض : الأرضون السبع ، يشهد لذلك شاهدان : قوله جَمِيعاً وقوله

---

(1) . قوله «أن جبريل جاء إلى رسول اللّه» قيل : الصواب أنه حبر من أحبار اليهود لا جبريل . ويدل عليه ما في البخاري ومسلم والترمذي ، كذا بهامش . ويؤيده أن «يا أبا القاسم» عادة اليهود في ندائه صلى اللّه عليه وسلم . (ع)

(2) . متفق عليه من حديث ابن مسعود . «تنبيه» وقع عنده أن جبريل وهو تصحيف . والذي في الصحيح «جاء حبر من اليهود» وفي رواية «أن يهوديا» وفي رواية «أن رجلا من أهل الكتاب» .

(3) . قوله «و عليته» أى معظمه . (ع)

(4) . قوله «و ما أتى الزالون» أى أجيبوا (ع)

(5) . قوله «بالتأويلات الغثة» في الصحاح «الغث» نبت يختبز حبه ويؤكل في الجوع ، وتكون خبزته غليظة شبيهة بخبز الملة . (ع)

(6) . قوله «قبيلا منه من دبير» في الصحاح «القبيل» : ما تقبل به المرأة من غزلها حين تفتله . وفيه «الدبير» :

ما تدبره به المرأة من غزلها حين تفتله . ومنه قيل : فلان ما يعرف قبيلا من دبير . (ع)

(129/671)

وَالسَّماواتُ ولأنّ الموضع موضع تفخيم وتعظيم ، فهو مقتض للمبالغة ، ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر ، ليعلم أوّل الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة ، ولكن عن الأراضى كلهن . والقبضة : المرة من القبض فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ والقبضة - بالضم - : المقدار المقبوض بالكف ، ويقال أيضا : أعطنى قبضة من كذا : تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر ، كما روى : «1» أنه نهى عن خطفة السبع ، «2» وكلا المعنيين محتمل . والمعنى : والأرضون جميعا قبضته ، أى : ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة ، يعنى أنّ الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا

قبضة واحدة من قبضاته ، كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة ، كما تقول : الجزور أكلة لقمان ، والقلة جرعته ، أى : ذات أكلته وذات جرعته ، تريد : أنهما لا يفيان إلا بأكلة فذة من أكلاته ، وجرعة فردة من جرعاته .

وإذا أريد معنى القبضة فظاهر ، لأن المعنى : أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة .

فإن قلت . ما وجه قراءة من قرأ قَبْضَتُهُ بالنصب ؟ قلت : جعلها ظرفا مشبها للمؤقت بالمبهم :

مَطْوِيَّاتٌ من الطى الذي هو ضدّ النشر ، كما قال تعالى يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ وعادة طاوى السجل أن يطويه بيمينه . وقيل : قبضته : ملكه بلا مدافع ولا منازع ، وبيمينه :

بقدرته . وقيل : مطويات بيمينه مفنيات بقسمه ، لأنه أقسم أن يفنيها ، ومن اشتم رائحة من علمنا هذا فليعرض عليه هذا التأويل ليتلهى بالتعجب منه ومن قائله ، ثم يبكى حمية لكلام اللّه المعجز بفصاحته ، وما منى «3» به من أمثاله ، وأثقل منه على الروح ، وأصدع للكبد تدوين العلماء قوله ، واستحسانهم له ، وحكايته على فروع المنابر ، واستجلاب الاهتزاز به من السامعين . وقرئ :

مطويات على نظم السماوات في حكم الأرض ، ودخولها تحت القبضة ، ونصب مطويات

على الحال سُبْحانَهُ وَتَعالى ما أبعد من هذه قدرته وعظمته ، وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء .

[سورة الزمر (39) : آية 68]

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (68)

---

(1) . لم أجده هكذا . وروى أحمد وإسحاق وأبو يعلى من رواية سهل عن عبد اللّه بن يزيد عن شيخ لقيه سعيد ابن المسيب أنه سمع أبا الدرداء يقول «نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن أكل كل خطفة ونهبة والمجثمة وكل ذى ناب من السباع» ورواه أبو يعلى من رواية الإفريقي ورواه الدارمي والطبراني والنسائي في الكنى من رواية أبى أوس عن الزهري عن أبى إدريس عن أبى ثعلبة ، بلفظ «نهي عن الخطفة والمجثمة والنهبة ، وكل ذى ناب من السباع» . [. . . . .]

(2) . قوله «نهى عن خطفة السبع» أى : والمراد مخطوفه . (ع)

(3) . قوله «و ما منى به» أى ابتلى . (ع)

فإن قلت : أُخْرى ما محلها من الإعراب ؟ قلت : يحتمل الرفع والنصب : أما الرفع فعلى قوله فَإِذا نُفِخَ «1» فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ وأما النصب فعلى قراءة من قرأ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ والمعنى : ونفخ في الصور نفخة واحدة ، ثم نفخ فيه أخرى . وإنما حذفت لدلالة أخرى عليها ، ولكونها معلومة بذكرها في غير مكان . وقرئ : قياما ينظرون : يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب . وقيل : ينظرون ما ذا يفعل بهم . ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود في مكان لتحيرهم .

[سورة الزمر (39) : الآيات 69 إلى 70]

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (70)

قد استعار اللّه عز وجل النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل ، وهذا من ذاك . والمعنى وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بما يقيمه فيها من الحق والعدل ، ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات ، وينادى عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه ، لأنه هو الحق العدل . وإضافة اسمه إلى الأرض ، لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله ، وينصب فيها موازين قسطه ، ويحكم بالحق بين أهلها ، ولا ترى أزين للبقاع من العدل ، ولا أعمر لها منه . وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذي يعدل فيها ، وإنما يجوز فيها غير ربها ، ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق

وهو النور المذكور . وترى الناس يقولون للملك العادل : أشرقت الآفاق بعدلك ، وأضاءت الدنيا بقسطك ، كما تقول : أظلمت البلاد بجور فلان . قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : الظلم ظلمات يوم القيامة» «2» وكما فتح الآية بإثبات العدل ، ختمها بنفي الظلم . وقرئ : وأشرقت على البناء للمفعول ، من شرقت بالضوء تشرق : إذا امتلأت به واغتصت . وأشرقها اللّه ، كما تقول : ملأ الأرض عدلا وطبقها عدلا .

والْكِتابُ صحائف الأعمال ، ولكنه اكتفى باسم الجنس ، وقيل : اللوح المحفوظ الشُّهَداءِ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الحفظة والأخيار . وقيل : المستشهدون في سبيل اللّه

---

(1) . قوله «أما الرفع فعلى قوله فإذا نفخ» أى في الحافة . وقوله «من قرأ» أى : هناك . وقوله «حذفت» أى هنا . (ع)

(2) . متفق عليه من حديث ابن عمر . ولمسلم عن جابر والنسائي وأبى داود من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص

[سورة الزمر (39) : الآيات 71 إلى 72]

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ

يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72)

الزمر : الأفواج المتفرقة بعضها في أثر بعض ، وقد تزمروا «1» : قال :

حتّي احزألّت زمر بعد زمر «2»

وقيل في زمر الذين اتقوا : هي الطبقات المختلفة : الشهداء ، والزهاد ، والعلماء ، والقرّاء وغيرهم وقرئ : نذر منكم . فإن قلت : لم أضيف إليهم اليوم ؟ قلت : أرادوا لقاء وقتكم هذا ، وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة . وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضا في أوقات الشدّة قالُوا بَلى أتونا وتلوا علينا ، ولكن وجبت علينا كلمة اللّه لأملأنّ جهنم ، لسوء أعمالنا ، كما قالوا : غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال . واللام في المتكبرين للجنس ، لأنّ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ فاعل بئس ، وبئس فاعلها : اسم معرف بلام الجنس . أو مضاف إلى مثله ، والمخصوص بالذم محذوف ، تقديره :

فبئس مثوى المتكبرين جهنم .

[سورة الزمر (39) : الآيات 73 إلى 74]

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا

سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (73) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (74)

---

(1) . قوله «و قد تزمروا» وفي نسخة أخرى : تزامروا . وفي الصحاح : احزألت الإبل في السير : ارتفعت . (ع)

(2) إن العفاة بالسيوب قد غمر حتى احزألت زمر بعد زمر

«السيوب» في الأصل : السيول ، استعيرت للعطايا الكثيرة على طريق التصريحية . والغمر : ترشيح ، أى : أن طلاب الرزق قد عمهم الممدوح بالعطايا . واحزألت : ارتفعت سائرة من عنده «زمر» : أى أفواج بعد أفواج .

ويروى : زمرا ، على الحال ، أى : احزألت العفاة حال كونها أفواجا متتابعة . وعلى الأول ففيه إظهار في موضع الإضمار ، دلالة على التكثير .

(132/671)

حَتَّى هي التي تحكى بعدها الجمل والجملة المحكية بعدها هي الشرطية ، إلا أنّ جزاءها محذوف ، وإنما حذف لأنه صفة ثواب أهل الجنة ، فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف ، وحق موقعه ما بعد خالدين . وقيل : حتى إذا جاؤها ، جاؤها وفتحت أبوابها

، أى مع فتح أبوابها .

وقيل : أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها . وأما أبواب الجنة فمتقدّم فتحها ، بدليل قوله جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ فلذلك جيء بالواو ، كأنه قيل : حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها . فإن قلت : كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعا بلفظ السوق ؟ قلت : المراد بسوق أهل النار : طردهم إليها بالهوان والعنف ، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل . والمراد بسوق أهل الجنة : سوق مراكبهم ، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين ، وحثها إسراعا بهم إلى دار الكرامة والرضوان ، كما يفعل بمن يشرف ويكرّم من الوافدين على بعض الملوك ، فشتان ما بين السوقين طِبْتُمْ من دنس المعاصي ، وطهرتم من خبث الخطايا فَادْخُلُوها جعل دخول الجنة مسببا عن الطيب والطهارة ، فما هي إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين ، لأنها دار طهرها اللّه من كل دنس ، وطيبها من كل قذر ، فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها ، فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة ، وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة ، إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحا ، تنقى أنفسنا من درن الذنوب ، وتميط وضر هذه القلوب خالِدِينَ مقدرين الخلود الْأَرْضَ عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه واتخذوه مقرا ومتبوّأ ، وقد أورثوها : أى ملكوها وجعلوا ملوكها ، وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤن ، تشبيها بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه ، وذهابه في إنفاقه طولا وعرضا . فإن قلت : ما

معنى قوله حَيْثُ نَشاءُ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره؟ قلت:

يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره.

[سورة الزمر (39): آية 75]

وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75)

حَافِّينَ محدقين من حوله يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ يقولون: سبحان اللّه والحمد للّه، متلذذين لا متعبدين. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله بَيْنَهُمْ؟ قلت: يجوز أن يرجع إلى العباد كلهم، وأن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلا قضاء بينهم بالحق والعدل، وأن يرجع إلى الملائكة، على أن ثوابهم - وإن كانوا معصومين جميعا - لا يكون على سنن واحد، ولكن يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم في أعمالهم، فهو القضاء بينهم بالحق. فإن قلت:

قوله وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ من القائل ذلك؟ قلت: المقضى بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة، كأنه قيل: وقضى بينهم بالحق، وقالوا الحمد للّه على قضائه بيننا بالحق، وإنزال كل منا منزلته التي هي حقه.

عن عائشة رضى اللّه عنها: أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمر «1». انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 135. 148﴾

---

(1). أخرجه النسائي من رواية حماد بن زيد عن أبى أمامة عن عائشة في أثناء حديث، وأخرجه أحمد وإسحاق وأبو يعلى والترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب في التاسع عشر من هذا الوجه.

(134/671)

وقال ابن الجوزى:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يا عبادِيَ الذين أَسْرَفوا على أنفُسهم﴾

في سبب نزولها أربعة أقوال:

أحدها: أن ناساً من المشركين كانوا قد قَتَلُوا فأكْثَروا، وزَنَوْا فأكْثَروا، ثم أَتَوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إِنّ الذي تدعو إِليه لَحَسَنٌ، لو تُخْبِرُنا أَنّ لِما عَمِلْنا كفّارةً،

فنزلت هذه الآية .

رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في عَيّاش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونَفَرٍ من المسلمين كانوا قد أسلموا ، ثم عُذِّبوا فافتُتِنوا ، فكان أصحاب رسول الله يقولون : لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ هؤلاء صَرْفاً ولا عَدْلاً ، قومٌ تركوا دينهم بعذاب عُذِّبوه ! فنزلت هذه الآية ، فكتبها عمر إلى عَيّاش والوليد وأولئك النَّفَر ، فأسلموا وهاجروا ؛ وهذا قول ابن عمر .

والثالث : أنها نزلتْ في وحشي ، وهذا القول ذكرناه مشروحاً في آخر [الفرقان : 68] عن ابن عباس .

والرابع : أنَّ أهل مكَّةَ قالوا : يزعُم محمدٌ أنَّ مَنْ عَبَدَ الأوثانَ وقَتَلَ النَّفْسَ التي حرَّم اللهُ لم يُغْفَر له ، فكيف نُهاجِر ونُسْلِم وقد فَعَلْنا ذلك ؟ ! فنزلت هذه الآية ؛ وهذا مرويٌّ عن ابن عباس أيضاً .

ومعنى ﴿ أَسْرَفوا على أنفسهم ﴾ ارتكَبوا الكبائر ، والقنوط بمعنى اليأس .

﴿ وأَنيبوا ﴾ بمعنى ارجِعوا إلى الله من الشِّرك والذُّنوب ، ﴿ وأَسلِموا له ﴾ أي : أخلِصوا له التوحيد .

و ﴿ تُنْصَرون ﴾ بمعنى تُمْنَعون .

﴿ واتَّبِعوا أحسن ما أُنزل إليكم ﴾ قد بيَّنّاه في قوله ﴿ يأخُذوا بأحسنها ﴾ [الأعراف

: 145] .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ قال المبرّد : المعنى : بادِروا قَبْلَ أن تقول نَفْسٌ ، وحَذَراً من أن تقول نَفْسٌ .

وقال الزجاج : خوف أن تصيروا إلى حال تقولون فيها هذا القول .

ومعنى ﴿ يا حسرتا ﴾ يا ندامتا ويا حزنا .

والتحسُّر : الاغتمام على ما فات .

(135/671)

والأِلف في ﴿ يا حسرتا ﴾ هي ياء المتكلم ، والمعنى : يا حسرتي على الإِضافة .

قال الفراء : والعرب تحوّل الياء إلى الأِلف في كل كلام معناه الاستغاثة ويخرج على لفظ الدُّعاء ، وربما أدخلت العربُ الهاء بعد هذه الألف ، فيَخْفِضونها مَرَّةً ، ويرفعونها أخرى .

وقرأ الحسن ، وأبو العالية ، وأبو عمران ، وأبو الجوزاء : ﴿ يا حسرتي ﴾ بكسر التاء ، على الإِضافة إلى النَّفْس .

وقرأ معاذ القارىء ، وأبو جعفر : ﴿ يا حسرتايَ ﴾ بألف بعد التاء وياء مفتوحة .

قال الزجاج : وزعم الفراء أنه يجوز " يا حسرتاهَ على كذا " بفتح الهاء ، و " يا حسرتاهُ " بالضم والكسر ، والنحويّون أجمعون لا يُجيزون أن تُثْبَتَ هذه الهاءُ مع الوصل .

قوله تعالى : ﴿ في جَنْبِ الله ﴾ فيه خمسة أقوال :

أحدها : في طاعة الله تعالى ، قاله الحسن .

والثاني : في حق الله ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : في أمْر الله ، قاله مجاهد ، والزجاج .

والرابع : في ذِكْر الله ، قاله عكرمة ، والضحاك .

والخامس : في قُرْب الله ؛ روي عن الفراء أنه قال : الجَنْب : القُرْب ، أي : في قُرْب الله وجِواره ؛ يقال : فلان يعيش في جَنْبِ فلان ، أي : في قُرْبه وجواره ؛ فعلى هذا يكون المعنى : [على] ما فرَّطْتُ في طلب قُرْب الله تعالى ، وهو الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وإنْ كنتُ لَمِن السّاخِرِينَ ﴾ أي : وما كنتُ إلاّ من المستهزِئين بالقرآن وبالمؤمنين في الدُّنيا .

﴿ أوْ تقولَ لو أنَّ الله هداني ﴾ أي : أرشَدني إلى دينه ﴿ لكنتُ من المُتَّقِينَ ﴾ الشّرك ؛ فيقال لهذا القائل : ﴿ بلى قد جاءتك آياتي ﴾ قال الزجاج : و " بلى " جواب النفي ، وليس في الكلام لفظ النفي ، غير أن معنى ﴿ لو أن الله هداني ﴾ ما هُديتُ ، فقيل : " بلى قد جاءتك آياتي " .

وروى ابن أبي سريج [عن الكسائي] ﴿ جاءتكِ ﴾ ﴿ فكذَّبْتِ ﴾ ، ﴿ واسْتَكْبَرْتِ ﴾ ﴿ وكُنْتِ ﴾ ، بكسر التاء فيهنّ ، مخاطَبة للنفْس ومعنى "اسْتَكْبَرْتَ" : تكبَّرتَ عن الإِيمان بها .

قوله تعالى : ﴿ ويومَ القيامة ترَى الذين كَذَبوا على الله ﴾ فزعموا أن له ولداً وشريكاً ﴿ وُجُوهُهم مُسْوَدَّةٌ ﴾ .

وقال الحسن : هم الذين يقولون : إن شئنا فَعَلْنا ، وإِن شئنا لم نَفْعَل ، وباقي الآية قد ذكرناه آنفا [الزمر : 32] .

قوله تعالى : ﴿ ويُنَجِّي اللهُ الذين اتَّقَوا بمفازتهم ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ بمفازاتهم ﴾ قال الفراء : وهو كما قد تقول : قد تبيَّن أمرُ القوم وأمورهم ، وارتفع الصوت والأصوات ، والمعنى واحد .

وفيها للمفسرين ثلاثة أقوال :

أحدها : بفضائلهم ، قاله السدي .

والثاني : بأعمالهم ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

والثالث : بفوزهم من النار .

قال المبرّد : المَفازة : مَفْعَلة من الفوز ، وإن جُمع فحسن ، كقولك : السعادة والسعادات ،

والمعنى : ينجيهم الله بفوزهم أي : بنجاتهم من النار وفوزهم بالجنة .

قوله تعالى : ﴿ له مَقاليدُ السموات والأرض ﴾ قال ابن قتيبة : أي : مفاتيحُها وخزائنُها ،

لأن مالِكَ المفاتيح مالِك الخزائن ، واحدها إِقليد ، وجُمع على غير واحد ، كما قالوا :

مَذاكير جمع ذَكَر ، ويقال : هو فارسيّ معرَّب .

[وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي : الإِقليد : المفتاح ، فارسي معرَّب] ، قال

الراجز :

لَمْ يُؤْذِها الدّيكُ بصوتِ تَغْرِيدْ . . .

ولَمْ تُعالِجْ غَلَقاً باقْليدْ

والمِقْلِيدُ : لغةٌ في الإِقْلِيدِ ، والجمع : مَقَالِيد .

وللمفسرين في المقاليد قولان .

أحدهما : المفاتيح ، قاله ابن عباس .

والثاني : الخزائن ، قاله الضحاك .

وقال الزجاج : تفسيره : أن كل شيء في السموات والأرض ، فهو خالقه وفاتح بابه .

قال المفسرون : مفاتيح السموات : المطر ، ومفاتيح الأرض : النبات .

قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمُرونِّي أَعْبُدُ ﴾ قرأ نافع ، وابن عامر : ﴿ تأمُرُونِي أعْبُدُ ﴾ مخفَّفةً ، غير أن نافعاً فتح الياء ، ولم يفتحها ابن عامر .

وقرأ ابن كثير : ﴿ تأمرونّيَ ﴾ بتشديد النون وفتح الياء .

وقرأ الباقون بسكون الياء .

وذلك حين دعَوْه إلى دين آبائه ﴿ أيُّها الجاهلونَ ﴾ أي : فيما تأمُرون .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أُوحِيَ إليكَ وإلى الذين مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فيه تقديم وتأخير ، تقديره : ولقد أُوحِيَ إليكَ لَئن أشركتَ لَيَحْبَطَنَّ عملُكَ وكذلك أُوحيَ إلى الذين مِنْ قَبْلِكَ .

قال أبو عبيدة : ومجازها مجاز الأمرين اللَّذَين يُخْبَرُ عن أحدهما ويُكَفُّ عن الآخر ، قال ابن عباس : هذا أدبٌ من الله تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم وتهديدٌ لغيره ، لأن الله عز وجل قد عصمه من الشِّرك .

وقال غيره : إنما خاطبه بذلك ، لِيَعْرِفَ مَنْ دونَه أن الشِّرك يُحبِطُ الأعمال المتقدِّمة كلَّها ، ولو وقع من نبيٍّ .

وقرأ أبو عمران ، وابن السميفع ، ويعقوب : ﴿ لَنُحْبِطَنَّ ﴾ بالنون ، " عَمَلَكَ " بالنصب .

﴿ بَلِ اللهَ فاعْبُدْ ﴾ أي : وَحِّدْ .

قوله تعالى : ﴿ وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ سبب نزولها " أن رجلاً من أهل الكتاب أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا القاسم ، بلغك أن الله تعالى يَحْمِلُ الخلائقَ على إِصْبع والأَرَضِينَ على إِصْبَع والشَّجَر على إِصْبَع والثَّرى على إِصْبع ؟ ! فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذُه " ، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية ، قاله ابن مسعود .

[وقد أخرج البخاري ومسلم في " الصحيحين " نحوه عن ابن مسعود] .

وقد فسَّرنا أول هذه الآية في [الأنعام : 91] قال ابن عباس : هذه الآية في الكفار ، فأمّا مَنْ آمن بأنه على كل شيء قدير ، فقد قَدَرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ .

(138/671)

ثم ذكر عَظَمته بقوله ﴿ والأرضُ جميعاً قَبْضَتُه يومَ القيامة والسمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بيمينه ﴾

وقد أخرج البخاري ومسلم في " الصحيحين " من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يَقْبِضُ اللهُ الأرض يومَ القيامة ويَطْوي السماءَ بيمينه ، ثم يقول : أنا المِلك ، أين ملوكُ الأرض ؟ " وأخرجا من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : "يَطْوي الله عز وجل السموات يومَ القيامة ، ثم يأخذُهُنَّ بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا المِلك ، أين الجبّارون ، أين المتكبّرون ؟ " قال ابن عباس : الأرضُ والسموات كلُّها بيمينه .

وقال سعيد بن جبير : السموات قَبْضَةٌ والأَرَضُونَ قَبْضَةٌ .

قوله تعالى : ﴿ ونُفِخَ في الصُّور فصَعِقَ ﴾ وقرأ ابن السميفع ، وابن يعمر ، والجحدري : ﴿ فصُعِقَ ﴾ بضم الصاد ﴿ مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض ﴾ أي : ماتوا من الفزع وشِدَّة الصَّوت .

وقد بيَّنّا هذه الآية والخلاف في الذين استُثنوا في سورة [النمل : 87] .

﴿ ثُمَّ نُفِخَ فيه أُخْرى ﴾ وهي نفخة البعث ﴿ فإذا هُمْ ﴾ يعني الخلائق ﴿ قيامٌ يَنْظُرونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأَشْرَقَتِ الأرضُ بنُور ربِّها ﴾ أي : أضاءت .

والمراد بالأرض : عَرَصات القيامة .

قوله تعالى : ﴿ ووُضِعَ الكتابُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : كتاب الأعمال ، قاله قتادة ، ومقاتل .

والثاني : الحساب ، قاله السدي .

وفي الشهداء قولان :

أحدهما : أنهم الذين يَشْهَدونَ على الناس بأعمالهم ، قاله الجمهور ، ثم فيهم أربعة أقوال :

أحدها : أنهم المُرْسَلون من الأنبياء .

والثاني : أمّة محمد يَشهدونَ للرُّسل بتبليغ الرِّسالة وتكذيبِ الأُمم إيّاهم ، رويا عن ابن عباس رضي الله عنه .

والثالث : الحَفَظَه ، قاله عطاء .

والرابع : النَّبيُّون والملائكةُ وأُمَّةُ محمد صلى الله عليه وسلم والجوارح ، قاله ابن زيد .

(139/671)

والثاني : أنهم الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله ، قاله قتادة ، والأول أصح .

﴿ وُوفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ ﴾ أي : جزاء عملها ﴿ وهُوَ أَعْلَمُ بما يَفْعَلونَ ﴾ أي : لا يَحتاجُ إلى كاتب ولا شاهد .

قوله تعالى : ﴿ وسِيقَ الذين كَفَروا إلى جهنَّمَ زُمَراً ﴾ قال أبو عبيدة : الزُّمَر : جماعاتٌ في تفرقة بعضُهم على إثر بعض ، واحدها : زُمْرة .

قوله تعالى : ﴿ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ أي : من أنفُسكم .

و ﴿ كلمةُ العذاب ﴾ هي قوله ﴿ لأَملأَنَّ جهنَّمَ ﴾ [الأعراف : 18] .

قوله تعالى : ﴿ فُتِحَتْ أبوابُها ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿

فُتِّحَتْ ﴾ و ﴿ فُتِّحَتْ ﴾ مشدَّدتين ؛ وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : بالتخفيف .

وفي هذه الواو ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها زائدة ، روي عن جماعة من اللُّغويين منهم الفراء .

والثاني : أنها واو الحال ؛ فالمعنى : جاؤوها وقد فُتحتْ أبوابُها ، فدخلت الواو لبيان أن الأبواب كانت مفتَّحةٍ قبل مجيئهم ، وحذفت من قصة أهل النار لبيان أنها كانت مُغْلَقةً قبل مجيئهم ، ووجه الحكمة في ذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنَّ أهل الجنة جاؤوها وقد فُتحت أبوابُها ليستعجلوا السُّرور والفرحِ إذا رأَوا الأبواب مفتَّحةً ، وأهل النار يأتونها وأبوابُها مُغلَقة ليكون أشدَّ لحرِّها ، ذكره أبو إسحاق ابن شاقْلا من أصحابنا .

والثاني : أن الوقوف على الباب المغلق نوعُ ذُلٍّ ، فصِينَ أهلُ الجنة عنه ، وجعل في حق أهل النار ، ذكره لي بعض مشايخنا .

والثالث : أنه لو وَجَدَ أهلُ الجنة بابها مُغلَقاً لأثَّر انتظارُ فَتْحه في كمال الكَرَم ، ومن كمال الكَرَم غَلْقُ باب النّار إلى حين مجيء أهلها ، لأن الكريم يعجِّل المثوبة ، ويؤخِّر العقوبة ، وقد قال عز وجل : ﴿ ما يَفْعَلُ اللهُ بِعذابكم إِنْ شَكَرْتُمْ وآمنتُم ﴾ [النساء : 147] قال المصنف : هذا وجهٌ خطر لي .

والقول الثالث : أن الواو زِيدتْ لأنَّ أبواب الجنة ثمانيةٌ ، وأبواب النار سبعةٌ ، والعرب تَعْطِفُ في العدد بالواو على ما فوق السبعة على ما ذكرناه في قوله : ﴿ ويَقُولونَ سَبْعَةٌ وثامِنُهم كلْبُهم ﴾ [الكهف : 22] حكى هذا القول والذي قبله الثعلبي .

واختلف العلماء : أين جوابُ هذه الآية ؟ على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الجواب محذوف ، قاله أبو عبيدة ، والمبرِّد ، والزجّاج في آخرين .

وفي تقدير هذا المحذوف قولان :

أحدهما : أن تقديره : ﴿ حتى إذا جاؤوها . . .

﴾ إلى آخر الآية سُعِدوا ، قاله المبرِّد .

والثاني : ﴿ حتى إذا جاؤوها . . .

﴾ إلى قوله : ﴿ فادخُلوها خالدين ﴾ .

.

دخلوها ، وإنما حُذف ، لأن في الكلام دليلاً عليه ، وهذا اختيار الزجاج .

والقول الثاني : أن الجواب : قال لهم خزنتُها ، والواو زائدة ، ذكره الأخفش .

قال : ومثله في الشّعر .

فإذا وذلكَ يا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ . . .

إِلاَّ كَلَمَّةِ حالِمٍ بخَيالِ

أي : فإذا ذلك .

والثالث : الجواب : ﴿ حتى إِذا جاؤوها فُتحتْ أبوابُها ﴾ والواو زائدة ، حكاه الزجاج عن قوم من أهل اللغة .

وفي قوله : ﴿ طِبْتُمْ ﴾ خمسة أقوال :

أحدها : أنهم إذا انْتَهَوا إِلى باب الجنة وَجدوا عند بابها شجرةً يَخرج من تحت ساقها عينان ، فيَشربون من إِحداهما فلا يبقى في بطونهم أذىً ولا قذىً إِلاّ خرج ، ويغتَسلون من الأُخرى ، فلا تَغْبَرُّ جلودُهم ولا تَشَعَّثُ أشعارُهم أبداً ، حتى إِذا انتَهَوْا إِلى باب الجنة قال لهم عند ذلك خزنتها : ﴿ سلامٌ عليكم طِبْتُم ﴾ رواه عاصم بن ضمرة عن علي رضى الله عنه ، وقد ذكرنا في [الأعراف : 44] نحوه عن ابن عباس .

والثاني : طاب لكم المقام ، قاله ابن عباس .

والثالث : طِبْتُم بطاعة الله ، قاله مجاهد .

والرابع : أنهم طُيِّبوا قَبْلَ دخول الجنة بالمغفرة ، واقتُصَّ من بَعْضِهِم لِبَعْض ، فلمّا هُذِّبوا قالت لهم الخَزَنَةُ : طِبْتُم ، قاله قتادة .

والخامس : كنتم طِّيبِينَ في الدُّنيا ، قاله الزجاج .

فلمّا دخَلوها قالوا : ﴿ الحمدُ لله الذي صَدَقَنا وَعْدَهُ ﴾ بالجنة ﴿ وأَوْرَثَنا الأرضَ ﴾ أي أرض الجنة ﴿ نتبوّأ منها حيثُ نشاء ﴾ أي : نَتَّخِذُ فيها من المنازل ما نشاء .

وحكى أبو سليمان الدمشقي : أن أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم يدخلون الجنة قبل الأمم فينزلون منها حيث شاؤوا ، ثم تنزل الأُمم بعدهم فيها ، فلذلك قالوا : " نتبوّأ من الجنة حيثُ نشاءُ " ؛ يقول الله عز وجل : ﴿ فنِعْمَ أَجْرُ العامِلينَ ﴾ أي : نِعْمَ ثوابُ المُطِيعِينَ في الدُّنيا الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وتَرَى الملائكةَ حافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ ﴾ : أي مُحْدِقِينَ به ، يُقال : حَفَّ القومُ بفلانٍ : إذا أَحْدَقوا به ؛ ودخلتْ " مِنْ " للتوكيد ، كقولك : ما جاءني من أحدٍ .

﴿ يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ ربِّهم ﴾ قال السدي ، ومقاتل : بأَمْرِ ربِّهم .

وقال بعضهم : يُسَبِّحونَ بالحمد له حيث دخل الموحِّدون الجنة .

وقال ابن جرير : التَّسبيح هاهنا بمعنى الصَّلاة .

قوله تعالى : ﴿ وقُضِيَ بينَهم ﴾ أي : بينَ الخلائق ﴿ بالحَقِّ ﴾ أي : بالعَدْلِ ﴿ وقِيل الحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ ﴾ هذا قول أهل الجنة شُكْراً لله تعالى على إنعامه .

قال المفسِّرون : ابتدأ اللهُ ذِكْرَ الخَلْق بالحَمْدِ فقال : ﴿ الحَمْدُ لله الذي خلق السموات

والأرض ﴾ [الأنعام : 1] وختم غاية الأمر وهو استقرار الفريقين في منازلهم بالحمد لله بهذه الآية ، فنبَّه على تحميده في بداية كُلِّ أمْرٍ وخاتِمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 189.203 ﴾

(142/671)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾

روي عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية " أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا وانتهكوا الحرمات فأتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا يا محمد إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا بأن لما عملنا كفارة فنزلت والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر إلى قوله فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات قال يبدل شركهم إيماناً وزناهم إحصاناً ونزلت ﴿ قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ " أخرجه النسائي .

وعن ابن عباس أيضاً قال " بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى وحشي يدعوه إلى الإسلام فأرسل إليه كيف تدعوني إلى دينك وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق

أثاماً يضاعف له العذاب وأنا قد فعلت ذلك كله فأنزل الله تعالى ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ فقال : وحشي هذا شرط شديد لعلي لا أقدر عليه فهل غير ذلك فأنزل الله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فقال وحشي أراني بعد في شبهة فلا أدري أيغفر لي أم لا فأنزل الله تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ فقال وحشي نعم هذا فجاء فأسلم " وعن ابن عمر قال نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا فكنا نقول لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً قوم أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عذبوا به فأنزل الله تعالى هذه الآية فكتبها عمر بن الخطاب بيده ثم بعث بها إلى عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وإلى أولئك النفر فأسلموا جميعاً وهاجروا .

(143/671)

وعن ابن عمر أيضاً قال كنا معشر أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نرى أو نقول ليس شيء من حسناتنا إلا وهي مقبولة حتى نزلت ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ فلما نزلت هذه الآية قلنا ما هذا الذي يبطل أعمالنا فقلنا الكبائر

والفواحش قال فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها قلنا هلك فنزلت هذه الآية فكففنا عن القول في ذلك وكنا إذا رأينا من أصحابنا من أصاب شيئاً من ذلك خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له وقوله ﴿ أسرفوا على أنفسهم ﴾ أي تجاوزوا الحد في كل فعل مذموم قيل هو ارتكاب الكبائر وغيرها من الفواحش ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ أي لا تيأسوا من رحمة الله والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله من الكبائر ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ فإن قلت حمل هذه الآية على ظاهرها يكون إغراء بالمعاصي وإطلاقاً في الإقدام عليها وذلك لا يمكن .

قلت المراد منها التنبيه على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا مخلص له من العذاب ، فإن اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله إذ لا أحد من العصاة إلا ومتى تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة فمعنى قوله ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ أي إذا تاب وصحت التوبة غفرت ذنوبه ومن مات قبل أن يتوب فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى فإن شاء غفر له وعفا عنه وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم يدخله الجنة بفضله ورحمته فالتوبة واجبة على كل أحد وخوف العقاب مطلوب فلعل الله تعالى يغفر مطلقاً ولعله يعذب ثم يعفو بعد ذلك والله أعلم .

(فصل في ذكر أحاديث تتعلق بالآية)

روى ابن مسعود أنه دخل المسجد فإذا قاصّ يقص وهو يذكر النار والأغلال فقام على رأسه فقال لم تقنط الناس ثم قرأ ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ ولا يبالي أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن غريب (ق) .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال "كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ثم خرج يسأل هل له توبة فأتى راهباً فسأله فقال هل لي من توبة قال لا فقتله وجعل يسأل فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا فأدركه الموت فضرب صدره تخوفاً فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تقربي وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وقال قيسوا ما بينها فوجد أقرب إلى هذه بشبر فغفر له " لفظ البخاري ولمسلم قال " فدل على راهب فأتاه فقال له إن رجلاً قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة فقال لا فقتله فكمل به مائة ، ثم سال عن أعلم أهل الأرض فدلَّ على رجل عالم فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا

ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا كان نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وإلى هذه أن تباعدي وقال قيسوا ما بينهما فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض الذي أراد فقبضته ملائكة الرحمة " (ق) عن أبي هريرة قال :

(145/671)

﴿ وأنيبوا إلى ربكم ﴾ أي ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة ﴿ وأسلموا له ﴾ أي أخلصوا له التوحيد ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ أي لا تمنعون منه ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ يعني القرآن لأنه كله حسن ومعنى الآية على ما قاله الحسن الزموا طاعة الله واجتنبوا معصيته فإنه أنزل في القرآن ذكر القبيح ليجتنب وذكر الأدون لئلا يرغب فيه وذكر الأحسن لتؤثره وتأخذ به وقيل الأحسن إتباع الناسخ وترك العمل بالمنسوخ ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ يعني غافلين عنه . ﴿ أن تقول نفس ﴾ أي لئلا تقول وقيل معناه بادروا واحذروا أن تقول وقيل خوف أن تصيروا إلى حال أن تقول نفس ﴿ يا حسرتى ﴾ أي يا ندمي ويا حزني والتحسر الاغتمام

والحزن على ما فات ﴿ على ما فرطت في جنب الله ﴾ أي على ما قصرت في طاعة الله ، وقيل في أمر الله وقيل في حق الله وقيل على ما ضيعت في ذات الله وقيل معناه على ما قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله تعالى : ﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ أي المستهزئين بدين الله وبكتابه وبرسوله وبالمؤمنين قيل لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر بأهلها ﴿ أو تقول لو أن الله هداني ﴾ أي أرشدني إلى دينه وطاعته ﴿ لكنت من المتقين ﴾ أي الشرك ﴿ أو تقول حين ترى العذاب ﴾ أي عياناً ﴿ لو أن لي كرة ﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿ فأكون من المحسنين ﴾ أي الموحدين ثم أجاب الله تعالى هذا التأويل بأن الأعذار زائلة والتعليل باطل

﴿ بلى قد جاءتك آياتي ﴾ يعني القرآن ﴿ فكذبت بها ﴾ أي قلت ليست من الله ﴿ واستكبرت ﴾ أي تكبرت عن الإيمان بها ﴿ وكنت من الكافرين ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله ﴾ أي زعموا أن له ولداً وشريكاً وقيل هم الذين يقولون الأشياء إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل ﴿ وجوههم مسودة ﴾ قيل هو سواد مخالف لسائر أنواع السواد ﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ أي عن الإيمان .

(146/671)

قوله تعالى : ﴿ وينجي الله الذين اتقوا ﴾ أي الشرك ﴿ بمفازتهم ﴾ أي الطرق التي تؤديهم إلى الفوز والنجاة وقرئ بمفازاتهم أن ينجيهم بفوزهم بالأعمال الحسنة من النار ﴿ لا يمسهم السوء ﴾ أي لا يصيبهم المكروه ﴿ ولا هم يحزنون الله خالق كل شيء ﴾ أي مما هو كائن أو يكون في الدنيا والآخرة ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ أي إن الأشياء كلها موكولة إليه فهو القائم بحفظها ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ أي مفاتيح خزائن السموات والأرض واحدها مقلاد مثل مفتاح وقيل إقليد على غير قياس قيل هو فارسي معرب قال الراجز :

لم يؤذها الديك بصوت تغريد . . .

ولم يعالج غلقها بإقليد

والمعنى أن الله تعالى مالك أمرها وحافظها وهو من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الله الذي يملك مقاليدها ، وقيل مقاليد السموات خزائن الرحمة والرزق والمطر ومقاليد الأرض النبات ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ أي جحدوا بآياته الظاهرة الباهرة ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ قوله : ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ وذلك أن كفار قريش دعوه إلى دين آبائه فوصفهم بالجهل لأن الدليل القاطع قد قام بأنه هو المستحق للعبادة فمن عبد غيره فهو جاهل ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ أي الذي عملته قبل الشرك ، وهذا خطاب مع رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) والمراد به غيره لأن الله عصم نبيه (صلى الله عليه وسلم) من الشرك وفيه تهديد لغيره ﴿ ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ أي لإنعامه عليك .

(147/671)

﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ أي ما عظموه حق عظمته حين أشركوا به غيره ثم أخبر عن عظمته فقال ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (ق) عن عبد الله بن مسعود قال " جاء جبريل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال يا محمد إن الله يضع السماء على أصبع والأرض على أصبع والجبال على أصبع والشجر والأنهار على أصبع وسائر الخلق على أصبع ثم يقول أنا الملك فضحك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ وفي رواية " والماء والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع ثم يهزهن وفيه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضحك حتى بدت نواجذه تعجباً وتصديقاً له ثم قرأ ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ الآية (ق) عن ابن عمر قال : " قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين

الجبارون أين المتكبرون ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ، وفي رواية يقول : أنا الله ويقبض أصابعه ويبسطها ثم يقول أنا الملك الجبارون أين المتكبرون ، وفي رواية يقول : أنا الله ويقبض أصابعه أنا الملك حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى أني أقول أساقط هو برسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لفظ مسلم وللبخاري " أن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السموات بيمينه ويقول أنا الملك " (خ) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض " قال أبو سليمان الخطابي ليس فيما يضاف إلى الله من صفة اليدين شمال لأن الشمال محمل النقص والضعف وقد روى كلتا يديه يمين وليس عندنا معنى اليد الجارحة إنما هي صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها وننتهي إلى حيث انتهى الكتاب والأخبار

(148/671)

المأثورة الصحيحة وهذا مذهب أهل السنة والجماعة وقال سفيان بن عيينة كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه .

قوله : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض ﴾ أي ماتوا من الفزع

وهي النفخة الأولى ﴿ إلا من شاء الله ﴾ تقدم في سورة النمل تفسير هذا الاستثناء وقال الحسن إلا من يشاء الله يعني الله وحده ﴿ ثم نفخ فيه ﴾ أي في الصور ﴿ أخرى ﴾ مرة أخرى وهي النفخة الثانية ﴿ فإذا هم قيام ﴾ أي من قبورهم ﴿ ينظرون ﴾ أي ينتظرون أمر الله فيهم (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ما بين النفختين أربعون قالوا أربعون يوماً ، قال أبو هريرة : أبيت ، قالوا : أربعون شهراً ، قال أبو هريرة : أبيت ، قالوا : أربعون سنة قال : أبيت ، ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء لا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة "

﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ وذلك حين يتجلى الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء بين خلقه فما يضارون في نوره كما لا يضارون في الشمس في اليوم الصحو وقيل بعدل ربها وأراد بالأرض عرصات القيامة ﴿ ووضع الكتاب ﴾ أي كتاب الأعمال وقيل اللوح المحفوظ لأن فيه أعمال جميع الخلق من المبدأ إلى المنتهى ﴿ وجيء بالنبيين ﴾ يعني ليكونوا شهداء على أممهم ﴿ والشهداء ﴾ قال ابن عباس يعني الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة وهم أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) وقيل يعني الحفظة ﴿ وقضي بينهم الحق ﴾ أي بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿ ووفيت كل نفس

ما عملت ﴾ أي ثواب ما عملت ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأفعالهم لا يحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد .

(149/671)

قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم ﴾ يعني سوقاً عنيفاً ﴿ زمراً ﴾ أفواجاً بعضهم على أثر بعض كل أمة على حدة وقيل جماعات متفرقة واحدتها زمرة ﴿ حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها ﴾ يعني السبعة وكانت قبل ذلك مغلقة ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ يعني توبيخاً وتقريعاً ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أي من أنفسكم ومن جنسكم ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب ﴾ أي وجبت ﴿ على الكافرين ﴾ وهي قوله ﴿ لأملأن جهنم من الجنة أجمعين ﴾ ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ قوله : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ فإن قلت عبر عن الفريقين بلفظ السوق فما الفرق بينهما .

قلت المراد بسوق أهل النار طردهم إلى العذاب بالهوان والعنف كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس أو القتل ، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنهم يذهبون إليها راكبين أو المراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان فشتان ما بين السوقين ﴿ حتى

إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ فإن قلت قال في أهل النار فتحت بغير واو وهنا زاد حرف الواو فما الفرق .

قلت فيه وجوه أحدها أنها زائدة الثاني إنها واو الحال مجازه وقد فتحت أبوابها فأدخل الواو لبيان أنها كانت مفتحة قبل مجيئهم إليها وحذف الواو في الآية الأولى لبيان أن أبواب جهنم كانت مغلقة قبل مجيئهم إليها ووجه الحكمة في ذلك أن أهل الجنة إذا جاؤوها ووجدوا أبوابها مفتحة حصل لهم السرور والفرح بذلك وأهل النار إذا رأوها مغلقة كان ذلك نوع ذل وهوان لهم .

الثالث زيدت الواو هنا لبيان أن أبواب الجنة ثمانية ونقصت هناك لأن أبواب جهنم سبعة والعرب تعطف بالواو فيما فوق السبعة تقول سبعة وثمانية .

فإن قلت حتى إذا جاؤوها شرط فأين جوابه ؟

(150/671)

قلت فيه وجوه أحدها أنه محذوف والمقصود من الحذف أن يدل على أنه بلغ في الكمال إلى حيث لا يمكن ذكره الثاني أن الجواب هو قوله ﴿ وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾ بغير واو الثالث تقديره فادخلوها خالدين دخلوها فحذف دخولها لدلالة الكلام عليه ﴾

وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾ أي أبشروا بالسلامة من كل الآفات ﴿ طبتم ﴾ قال ابن عباس معناه طاب لكم المقام وقيل إذا قطعوا النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض حتى إذا هذبوا وطيبوا دخلوا الجنة فيقول لهم رضوان وأصحابه ﴿ سلام عليكم طبتم ﴾ ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ وقال علي بن أبي طالب إذا سيقوا إلى الجنة فإذا انتهوا إليها وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحتها عينان فيغتسل المؤمن من أحداهما فيطهر ظاهره ويشرب من الأخرى فيطهر باطنه وتتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة يقولون ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ .

﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ أي بالجنة ﴿ وأورثنا الأرض ﴾ أي أرض الجنة نتصرف فيها كما نشاء تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه وهو قوله تعالى : ﴿ نتبوأ ﴾ أي نزل ﴿ من الجنة ﴾ أي في الجنة ﴿ حيث نشاء ﴾ فإن قلت فما معنى قوله ﴿ حيث نشاء ﴾ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره .

(151/671)

قلت يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وحسناً وزيادة على الحاجة فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى غيره وقيل إن أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) يدخلون

الجنة قبل الأمم فينزلون فيها حيث شاؤوا ثم تنزل الأمم بعدهم فيما فضل منها قال الله : ﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ أي ثواب المطيعين في الدنيا الجنة في العقبى ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ أي محدقين محيطين بحافته وجوانبه ﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ وقيل هذا تسبيح تلذذ لا تسبيح تعبد لأن التكليف يزول في ذلك اليوم ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ بين أهل الجنة وأهل النار بالعدل ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ أي يقول أهل الجنة شكراً حين تمَّ وعد الله لهم ، وقيل ابتدأ الله ذكر الخلق بالحمد في قوله ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ﴾ وختم بالحمد في آخر الأمر وهو استقرار الفريقين في منازلهم فنبه بذلك على تحميده في بداءة كل أمر وخاتمته والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 79 . 87 ﴾

(152/671)

وقال ابن جزى :

﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾

قال علي بن أبي طالب وابن مسعود : هذه أرجى آية في القرآن ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية واختلف في سببها فقيل : في

وحشي قاتل حمزة ، لما أراد أن يسلم وخاف أن لا يغفر له ما وقع فيه من قتل حمزة ، وقيل : نزلت في قوم آمنوا ولم يهاجروا ، ففتنوا فافتتنوا ثم ندموا وظنوا أنهم لا توبة لهم ، وهذا قول عمر بن الخطاب : وقد كتب بها إلى هشام بن العاصي ، لما جرى له ذلك وقيل : نزلت في قوم من أهل الجاهلية ، قالوا : ما ينفعنا الإسلام لأننا قد زينا ، وقتلنا النفوس فنزلت الآية فيهم ، ومعناها مع ذلك على العموم في جميع الناس إلى يوم القيامة على تفصيل نذكره ، وذلك أن الذين أسرفوا على أنفسهم ، إن أراد بهم الكفار فقد اجتمعت الأمة على أنهم إذا أسلموا غفر لهم كفرهم وجميع ذنوبهم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الإسلام يَجُبُّ ما قبله " ، وأنهم إن ماتوا على الكفر فإن الله لا يغفر لهم ، بل يخلدهم في النار ، وإن أراد به العصاة من المسلمين فإن العاصي إذا تاب غفر له ذنوبه ، وإن لم يتب فهو في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، فالمغفرة المذكورة في هذه الآية ، يحتمل أن يريد بها المغفرة للكفار إذا أسلموا أو من للعصاة إذا تابوا ، أو للعصاة وإن لم يتوبوا إذا تفضل الله عليهم بالمغفرة ، والظاهر أنها نزلت في الكفار ، وأن المغفرة المذكورة هي لهم إذا أسلموا ، والدليل على أنها في الكفار ما ذكر بعدها إلى قوله : ﴿ قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت وكُنتَ مِنَ الكافرين ﴾ [الزمر : 59] .

﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني اتبعوا القرآن وليس أن بعض القرآن أحسن من بعض ، لأنه حسن كله . إنما المعنى أن يتبعوا بأعمالهم ما فيه من الأوامر . ويجتنبوا ما فيه من النواهي ، فالتفضيل الذي يقتضيه أحسن إنما هو في الإتباع ، قيل : يعني الناسخ دون المنسوخ وهذا بعيد .

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ في موضع مفعول من أجله تقديره : كراهية أن تقول نفس وإنما ذكر النفس لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكفار ﴿ فِي جَنبِ الله ﴾ أي في حق الله وقيل : في أمر الله وأصله من الجنب بمعنى الجانب ثم استعير لهذا المعنى ﴿ الساخرين ﴾ أي المستهزئين ﴿ بلى ﴾ جواب للنفس التي حكى كلامها ولا يجاوب ببلى إلا النفي وهي هنا جواب لقوله : ﴿ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ المتقين ﴾ ؛ لأنه في معنى النفي ، لأن لو حرف امتناع . وتقرير الجواب بل قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل وإنزاله الكتب . وقال ابن عطية : هي جواب لقوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ فإن معناه يقتضي أن العمر يتسع للنظر فقيل له ﴿ بلى ﴾ على وجه الرد عليه ، والأول أليق بسياق الكلام لأن قوله : ﴿ قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِي ﴾ تفسير لما تضمنته بلى ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ يحتمل أن يريد سواد اللون حقيقة أو يكون عبارة عن شدة الكرب ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ أصله من الفوز والتقدير

بسبب فوزهم ، وقيل معناه : بفضائلهم ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي قائم بتدبير كل شيء .

(154/671)

﴿ مَقَالِيدُ ﴾ مفاتيح وقيل خزائن واحدها إقليد ، وقيل لا واحد لها من لفظها وأصلها كلمة فارسية ، وقال عثمان بن عفان : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقاليد السموات والأرض فقال : هي لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله وأستغفر الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحي ويميت وهو على كل شيء قدير . فإن صح هذا الحديث فمعناه أن من قال هذه الكلمات صادقاً مخلصاً نال الخيرات والبركات من السموات والأرض لأن هذه الكلمات توصل إلى ذلك فكأنها مفاتيح له ﴿ والذين كَفَرُو ﴾ الآية قال الزمخشري : إنها متصلة بقوله ﴿ وَيُنَجِّي الله الذين اتقوا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ وما بينهما من الكلام اعتراض .

﴿ أَفَغَيْرَ الله ﴾ منصوب بأعبد ﴿ تأمروني ﴾ حذف إحدى النونين تخفيفاً وقرئ بإدغام إحدى النونين في الأخرى .

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ دليل على إحباط عمل المرتد مطلقاً خلافاً للشافعي

في قوله : لا يحبط عمله إلا إذا مات على الكفر ، فإن قيل : الموحى إليهم جماعة والخطاب بقوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ لواحد : فالجواب أنه أوحى إلى كل واحد منهم على حدته ، فإن قيل : كيف خوطب الأنبياء بذلك وهم معصومون من الشرك ، فالجواب أن ذلك على وجه الفرض والتقدير : أي لو وقع منهم شرك لحبطت أعمالهم ، لكنهم لم يقع منهم شرك بسبب العصمة ، ويحتمل أن يكون الخطاب لغيرهم وخوطبوا هم ليدل المعنى على غيرهم بالطريق الأولى .

(155/671)

﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه ولا وصفوه بما يجب له ولا نزهوه عما لا يليق به ، والضمير في قدروا لقريش وقيل : اليهود ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ المقصود بهذا تعظيم جلال الله والردّ على الكفار الذين ما قدروا الله حق قدره ، ثم اختلف الناس فيها كاختلافهم في غيرها من المشكلات ، فقالت المتأولة : إن القبضة واليمين عبارة عن القدرة وقال ابن الطيب إنها صفة زائدة على صفات الذات ، وأما السلف الصالح فسلموا علم ذلك إلى الله ، ورأوا أن هذا من المتشابه الذي لا يعلم علم حقيقته إلا الله ، وقد قال ابن عباس ما معناه : إن

الأرض في قبضته والسموات مطيوات كل ذلك بيمينه ، وقال ابن عمر ما معناه : أن الأرض في قبضة اليد الوحدة ، والسموات مطويات باليمين الأخرى لأن كلتا يديه يمين .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصور ﴾ هو القرن الذين ينفخ فيه إسرافيل ، وهذه النفخة نفخة الصعق وهو الموت ، وقد قيل : إن قبلها نفخة الفزع ولم تذكر في هذه الآية ﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ قيل : يعني جبريل وإسرافيل ، وميكائيل وملك الموت ، وثم يميتهم الله بعد ذلك وقيل : استثناء الأنبياء وقيل الشهداء ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى ﴾ هي نفخة القيام ﴿ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ إنه من النظر ، وقيل : من الانتظار أي ينتظرون ما يفعل بهم .

﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ يعني صحائف الأعمال وإنما وحّدها لأنه أراد الجنس وقيل : هو اللوح المحفوظ ﴿ وَجِيءَ بالنبيين ﴾ ليشهدوا على قومهم ﴿ والشهدآء ﴾ يحتمل أن يكون جمع شاهد أو جمع شهيد في سبيل الله ، والأول أرجح لأن فيه معنى الوعيد ، ولأنه أليق بذكر الأنبياء الشاهدين ، والمراد على هذا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم يشهدون على الناس وقيل : يعني الملائكة الحفظة ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ الضمير لجميع الخلق .

﴿ زُمَراً ﴾ في الموضعين جمع زمرة وهي الجماعة من الناس وقال صلى الله عليه وسلم : " أول زمرة يدخلون الجنة وجوههم على مثل القمر ليلة البدر ، والزمرة الثانية على مثل أشد نجم في السماء إضاءة ثم هم بعد ذلك منازل " ﴿ خَزَنَتُهَآ ﴾ جمع خازن حيث وقع ﴿ كَلِمَةُ العذاب ﴾ يعني القضاء السابق بعذابهم ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ إنما قال في الجنة و ﴿ فُتِحَتْ ﴾ أبوابها بالواو وقال في النار ﴿ فُتِحَتْ ﴾ بغير واو لأن أبواب الجنة كانت مفتحة قبل مجيء أهلها ، والمعنى حتى إذا جاؤها وأبوابها مفتحة ، فالواو واو الحال وجواب إذا على هذا محذوف ، وأما أبواب النار فإنها فتحت حين جاؤوها ، فوقع قوله : فتحت جواب الشرط فكأنه بغير واو وقال الكوفيون : الواو في أبواب الجنة واو الثمانية ، لأن أبواب الجنة ثمانية وقيل : الواو زائدة ز ﴿ فُتِحَتْ ﴾ هو الجواب ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ يعني أرض الجنة والوارثة هنا استعارة كأنهم ورثوا موضع من لم يدخل الجنة ﴿ نَتَبَوَّأُ ﴾ أي ننزل من الجنة حيث نشاء ونتخذه مسكناً ﴿ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ أي محدقين به دائرين حوله ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ الضمير لجميع الخلق كالموضع الأول ، ويحتمل هنا أن يكون للملائكة والقضاء بينهم توفية أجورهم على حسب منازلهم ﴿ وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ يحتمل أن يكون القائل لذلك الملائكة أو جميع الخلق أو أهل الجنة لقوله : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [يونس : 10] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 4 صـ 197 . 200 ﴾

وقال النسفى :

﴿ قُلْ يا عبادى الذين ﴾

وبسكون الياء : بصري وحمزة وعلي ﴿ أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلو فيها ﴿ لاَ تَقْنَطُواْ ﴾ لا تيأسوا ، وبكسر النون : علي وبصري ﴿ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ بالعفو عنها إلا الشرك ، وفي قراءة النبي عليه السلام يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي ، ونظير نفي المبالاة نفي الخوف في قوله ﴿ وَلاَ يَخَافُ عقباها ﴾ [الشمس : 16] .

قيل : نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية " ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور ﴾ بستر عظائم الذنوب ﴿ الرحيم ﴾ بكشف فظائع الكروب ﴿ وَأَنِيبُواْ إلى رَبِّكُمْ ﴾ وتوبوا إليه ﴿ وَأَسْلِمُواْ لَهُ ﴾ وأخلصوا له العمل ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب ﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ مثل قوله : ﴿ الذين يَسْتَمِعُونَ القول

فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ وقوله ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ أي يفجؤكم وأنتم غافلون كأنكم لا تخشون شيئاً لفرط غفلتكم .

(158/671)

﴿ أَن تَقُولَ ﴾ لئلا تقول ﴿ نَفْسٌ ﴾ إنما نكرت لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر ، ويجوز أن يراد نفس متميزة من الأنفس إما بلجاج في الكفر شديد أو بعذاب عظيم ، ويجوز أن يراد التكثير ﴿ ياحسرتى ﴾ الألف بدل من ياء المتكلم ، وقرىء : ﴿ يا حسرتي ﴾ على الأصل و ﴿ يا حسرتاي ﴾ على الجمع بين العوض والمعوض منه ﴿ على مَا فَرَّطَتُ ﴾ قصرت و"ما" مصدرية مثلها في ﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ [التوبة : 25] ﴿ فِى جَنبِ الله ﴾ في أمر الله أو في طاعة الله أو في ذاته ، وفي حرف عبد الله في ذكر الله والجنب الجانب يقال : أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته ، وفلان لين الجانب والجنب ، ثم قالوا : فرط في جنبه وفي جانبه يريدون في حقه ، وهذا من باب الكناية لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبته فيه ، ومنه الحديث :

" من الشرك الخفي أن يصلي الرجل لمكان الرجل " أي لأجله ، وقال الزجاج : معناه فرط في طريق الله وهو توحيده والإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ

الساخرين ﴾ المستهزئين .

قال قتادة : لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها .

ومحل ﴿ وَإِن كُنتُ ﴾ النصب على الحال كأنه قال : فرطت وأنا ساخر أي فرطت في حال سخريتي ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِى ﴾ أي أعطاني الهداية ﴿ لَكُنتُ مِنَ المتقين ﴾ من الذين يتقون الشرك ، قال الشيخ الإمام أبو منصور رحمه الله تعالى : هذا الكافر أعرف بهداية الله من المعتزلة ، وكذا أولئك الكفرة الذين قالوا لأتباعهم : ﴿ لَوْ هَدَانَا الله لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ [إبراهيم : 21] يقولون : لو وفقنا الله للهداية وأعطانا الهدى لدعوناكم إليه ، ولكن علم منا اختيار الضلالة والغواية فخذلنا ولم يوفقنا ، والمعتزلة يقولون : بل هداهم وأعطاهم التوفيق لكنهم لم يهتدوا .

(159/671)

والحاصل أن عند الله لطفاً من أعطى ذلك اهتدى ، وهو التوفيق والعصمة ومن لم يعطه ضل وغوى ، وكان استحبابه العذاب وتضييعه الحق بعد ما مكن من تحصيله لذلك ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العذاب لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً ﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿ فَأَكُونَ مِنَ المحسنين ﴾ من الموحدين ﴿ بلى قَدْ جَآءَتْكَ ءاياتى فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت وَكُنتَ مِنَ الكافرين ﴾

"بلى" رد من الله عليه كأنه يقول : بلى قد جاءتك آياتي وبينت لك الهداية من الغواية وسبيل الحق من الباطل ومكنتك من اختيار الهداية على الغواية واختيار الحق على الباطل ، ولكن تركت ذلك وضيعته واستكبرت عن قبوله ، وآثرت الضلالة على الهدى ، واشتغلت بضد ما أمرت به فإنما جاء التضييع من قبلك فلا عذر لك ، و ﴿ بلى ﴾ جواب لنفي تقديري لأن المعنى : لو أن الله هداني ما هديت وإنما لم يقرن الجواب به ، لأنه لا بد من حكاية أقوال النفس على ترتيبها ثم الجواب من بينها عما اقتضى الجواب .

﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله ﴾ وصفوه بما لا يجوز عليه من إضافة الشريك والولد إليه ، ونفى الصفات عنه ﴿ وُجُوهُهُمْ ﴾ مبتدأ ﴿ مُّسْوَدَّةٌ ﴾ خبر والجملة في محل النصب على الحال إن كان ترى من رؤية البصر ، وإن كان من رؤية القلب فمفعول ثانٍ ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾ منزل ﴿ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ هو إشارة إلى قوله ﴿ واستكبرت ﴾ ﴿ وَيُنَجِّى الله ﴾ ﴿ وَيُنَجِّى ﴾ : روح ﴿ الذين اتقوا ﴾ من الشرك ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ بفلاحهم يقال : فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده منه وتفسيره المفازة ﴿ لاَ يَمَسُّهُمُ السوء ﴾ النار ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ كأنه قيل : وما مفازتهم ؟ قيل : لا يمسهم السوء أي ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم .

أي لا يمس أبدانهم أذى ولا قلوبهم خزي ، أو بسبب منجاتهم من قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ العذاب ﴾ [آل عمران : 188] .

أي بمنجاة منه ؛ لأن النجاة من أعظم الفلاح وسبب منجاتهم العمل الصالح ، ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما المفازة بالأعمال الحسنة ويجوز بسبب فلاحهم لأن العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة ، ويجوز أن يسمى العمل الصالح في نفسه مفازة لأنه سببها ، ولا محل ل ﴿ لاَيَمَسُّهُمُ ﴾ على التفسير الأول لأنه كلام مستأنف ، ومحله النصب على الحال على الثاني .

﴿ بمفازاتهم ﴾ كوفي غير حفص .

﴿ اللهُ خالق كُلِّ شَىْءٍ ﴾ رد على المعتزلة والثنوية ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ حافظ .

﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ﴾ أي هو مالك أمرها وحافظها ، وهو من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها ، ومنه قولهم : فلان ألقيت إليه مقاليد الملك وهي المفاتيح واحدها مقليد ، وقيل : لا واحد لها من لفظها ، والكلمة أصلها فارسية ﴿ والذين كَفَرُواْ بئايات الله أُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ هو متصل بقوله ﴿ وَيُنَجّى الله الذين اتقوا ﴾ أي ينجي الله المتقين بمفازاتهم والذين كفروا هم الخاسرون .

واعترض بينهما بأنه خالق كل شيء ، فهو مهيمن عليه ، فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين فيها وما يجزون عليها ، أو بما يليه على أن كل شيء في السماوات والأرض فالله خالقه وفاتح بابه ، والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون ، وقيل : سأل عثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله : ﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ﴾ فقال " يا عثمان ما سألني عنها أحد قبلك ، تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير " وتأويله على هذا أن لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهي مفاتيح خير السماوات والأرض من تكلم بها من المتقين أصابه ، والذين كفروا بآيات الله وكلمات توحيده وتمجيده أولئك هم الخاسرون .

﴿ قُلْ ﴾ لمن دعاك إلى دين آبائك ﴿ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ ﴾ ﴿ تَأْمُرُونِّىَّ ﴾ مكي ، ﴿ تأمرونني ﴾ على الأصل : شامي ، ﴿ تَأْمُرُونِىَ ﴾ مدني ، وانتصب .

﴿ أَفَغَيْرَ الله ﴾ ب ﴿ أَعْبُدُ ﴾ و ﴿ تَأْمُرُونِّى ﴾ اعتراض ، ومعناه أفغير الله أعبد بأمركم بعد هذا البيان ﴿ أَيُّهَا الجاهلون ﴾ بتوحيد الله ﴿ وَلَقَدْ أُوْحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين

مِن قَبْلِكَ ﴾ من الأنبياء عليهم السلام ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الذي علمت قبل الشرك ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ وإنما قال ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ على التوحيد والموحى إليهم جماعة لأن معناه أوحي إليك لئن أشركت ليحبطنّ عملك وإلى الذين من قبلك مثله ، واللام الأولى موطئة للقسم المحذوف ، والثانية لام الجواب ، وهذا الجواب ساد مسد الجوابين أعني جوابي القسم والشرط .

(162/671)

وإنما صح هذا الكلام مع علمه تعالى بأن رسله لا يشركون لأن الخطاب للنبي عليه السلام والمراد به غيره ، ولأنه على سبيل الفرض ، والمحالات يصح فرضها .

وقيل : لئن طالعت غيري في السر ليحبطن ما بيني وبينك من السر ﴿ بَلِ اللهَ فاعبد ﴾ رد لما أمروه من عبادة آلهتهم كأنه قال : لا تعبد ما أمروك بعبادته بل إن عبدت فاعبد الله ؛ فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً عنه ﴿ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ﴾ على ما أنعم به عليك من أن جعلك سيد ولد آدم ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ وما عظموه حق عظمته إذ دعوك إلى عبادة غيره ، ولما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته وقدره في نفسه حق تعظيمه قيل : وما قدروا الله حق قدره .

ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريق التخييل فقال : ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ والمراد بهذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقية أو جهة مجاز .

والمراد بالأرض الأرضون السبع يشهد لذلك قوله ﴿ جَمِيعاً ﴾ ، وقوله ﴿ والسماوات ﴾ ولأن الموضع موضع تعظيم فهو مقتضٍ للمبالغة ، و ﴿ الأرض ﴾ مبتدأ و ﴿ قَبْضَتُهُ ﴾ الخبر و ﴿ جَمِيعاً ﴾ منصوب على الحال أي : والأرض إذا كانت مجتمعة قبضته يوم القيامة ، والقَبضة : المرة من القبضة .

والقُبضة : المقدار المقبوض بالكف ، ويقال : أعطني قبضة من كذا تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر ، وكلا المعنين محتمل ، والمعنى والأرضون جميعاً قبضته أي ذوات قبضته بقبضهن قبضة واحدة يعني أن الأرضين مع عظمهن وبسطهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة كما تقول : الجزور أكلة لقمان أي لا تفي إلا بأكلة فذة من أكلاته .

وإذا أريد معنى القبضة فظاهر ، لأن المعنى أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة .

والمطويات من الطي الذي هو ضد النشر كما قال : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السماء كَطَىِّ السجل لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء : 104] .

وعادة طاوي السجل أن يطويه بيمينه ، وقيل : قبضته ملكه بلا مدافع ولا منازع وبيمينه بقدرته .

وقيل : مطويات بيمينه مفنيات بقسمه لأنه أقسم أن يفنيها ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ما أبعد من هذه قدرته وعظمته وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء .

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ ﴾ مات ﴿ مَن فِى السماوات وَمَن فِى الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ أي جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، وقيل : هم حملة العرش أو رضوان والحور العين ومالك والزبانية ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى ﴾ هي في محل الرفع لأن المعنى ونفخ في الصور نفخة واحدة ثم نفخ فيه نفخة أخرى ، وإنما حذفت لدلالة ﴿ أخرى ﴾ عليها ، ولكونها معلومة بذكرها في غير مكان ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب أو ينظرون أمر الله فيهم ، ودلت الآية على أن النفخة اثنتان : الأولى للموت والثانية للبعث ، والجمهور على أنها ثلاث : الأولى للفزع ، كما قال : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَفَزِعَ ﴾ [النمل : 87] ، والثانية للموت والثالثة للإعادة .

﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض ﴾ أضاءت ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أي بعدله بطريق الاستعارة .

يقال للملك العادل : أشرقت الآفاق بعدلك ، وأضاءت الدنيا بقسطك .

(164/671)

كما يقال أظلمت البلاد بجور فلان ، وقال عليه الصلاة والسلام : " الظلم ظلمات يوم القيامة " وإضافة اسمه إلى الأرض لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله ، وينصب فيها موازين قسطه ، ويحكم بالحق بين أهلها ، ولا ترى أزين للبقاع من العدل ولا أعمر لها منه ، وقال الإمام أبو منصور رحمه الله : يجوز أن يخلق الله نوراً فينور به أرض الموقف ، وإضافته إليه تعالى للتخصيص كبيت الله وناقة الله ﴿ وَوُضِعَ الكتاب ﴾ أي صحائف الأعمال ، ولكنه اكتفى باسم الجنس أو اللوح المحفوظ ﴿ وَجَايِءَ بالنبيين ﴾ ليسألهم ربهم عن تبليغ الرسالة وما أجابهم قومهم ﴿ والشهداء ﴾ الحفظة .

وقيل : هم الأبرار في كل زمان يشهدون على أهل ذلك الزمان ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين العباد ﴿ بالحق ﴾ بالعدل ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ ختم الآية بنفي الظلم كما افتتحها بإثبات العدل ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي جزاءه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ من غير كتاب ولا شاهد ، وقيل : هذه الآية تفسير قوله ﴿ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ .

أي ووفيت كل نفس ما عملت من خير وشر لا يزاد في شر ولا ينقص من خير .

﴿ وَسِيقَ الذين كَفَرُواْ إلى جَهَنَّمَ ﴾ سوقاً عنيفاً ، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ﴿ زُمَراً ﴾ حال أي أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض ﴿ حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ ﴾ بالتخفيف فيهما : كوفي ﴿ أبوابها ﴾ وهي سبعة ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ أي حفظة جهنم وهم الملائكة الموكلون بتعذيب أهلها ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ من بني آدم ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءايات رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ أي وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ أتونا وتلوا علينا ﴿ ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ أي ولكن وجبت علينا كلمة الله

(165/671)

﴿ لأملأن جهنم ﴾ [الأعراف : 18] بسوء أعمالنا كما قالوا : ﴿ غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ ﴾ [المؤمنون : 106] ، فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال .

﴿ قِيلَ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا ﴾ حال مقدرة أي مقدرين الخلود ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ اللام فيه للجنس لأن ﴿ مَثْوَى المتكبرين ﴾ فاعل "بئس" و "بئس"

فاعلها اسم معرف بلام الجنس أو مضاف إلى مثله ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره فبئس مثوى المتكبرين جهنم .

﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً ﴾ المراد سوق مراكبهم ، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يكرم ويشرف من الوافدين على بعض الملوك ﴿ حَتَّى إِذَا جَآءُوهَا ﴾ هي التي تحكى بعدها الجمل والجملة المحكية بعدها هي الشرطية إلا أن جزاءها محذوف ، وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف ، وقال الزجاج : تقديره حتى إذا جاءوها ﴿ وَفُتِحَتْ أبوابها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سلام عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خالدين ﴾ دخلوها فحذف دخولها ؛ لأن في الكلام دليلاً عليه .

وقال قوم : حتى إذا جاءوها وجاءوها وفتحت أبوابها فعندهم جاءوها محذوف ، والمعنى : حتى إذا جاءوها وقع مجيئهم مع فتح أبوابها ، وقيل : أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها ، وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها لقوله تعالى : ﴿ جنات عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبواب ﴾ [ص : 50] .

فلذلك جيء بالواو كأنه قال : حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها طبتم من دنس المعاصي ، وطهرتم من خبث الخطايا ، وقال الزجاج : أي كنتم طيبين في الدنيا ولم تكونوا خبيثين أي لم تكونوا أصحاب خبائث ، وقال ابن عباس : طاب لكم المقام ، وجعل دخول الجنة سببا عن الطيب والطهارة لأنها دار الطيبين ومثوى الطاهرين قد طهر من كل دنس وطيبها من كل قذر ، فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها .

﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أنجزنا ما وعدنا في الدنيا من نعيم العقبى ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ أرض الجنة وقد أورثوها أي ملكوها وجعلوا ملوكها وأطلق تصرفهم فيها كما يشاءون تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه ﴿ نَتَبَوَّأُ ﴾ حال ﴿ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ أي يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوأ أي فيتخذ متبوأ ومقراً من جنته حيث يشاء ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ في الدنيا الجنة ﴿ وَتَرَى الملائكة حَآفِّينَ ﴾ حال من ﴿ الملائكة ﴾ ﴿ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ أي محدقين من حوله .

و"من" لابتداء الغاية أي ابتداء حفوفهم من حول العرش إلى حيث شاء الله ﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ حال من الضمير في ﴿ حَافِّينَ ﴾ ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي يقولون : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، أو سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، وذلك للتلذذ دون التعبد لزوال التكليف ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين الأنبياء والأمم أو بين أهل الجنة والنار ﴿

بالحق ﴾ بالعدل ﴿ وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ أي يقول أهل الجنة شكراً حين دخولها ، وتم وعد الله لهم كما قال ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [يونس : 10] ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر . الحوايم السبع كلها مكية عن ابن عباس رضي الله عنهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 62. 68 ﴾

(167/671)

وقال البيضاوى :

﴿ قُلْ يا عِبَادِى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾

أفرطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي ، وإضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن . ﴿ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ لا تيأسوا من مغفرته أولاً وتفضله ثانياً . ﴿ إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ عفواً ولو بَعْدَ بُعْدٍ ، تقييده بالتوبة خلاف الظاهر ويدل على إطلاقه فيما عدا الشرك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ الآية ، والتعليل بقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ على المبالغة وإفادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة ، وتقديم ما يستدعي عموم المغفرة مما في ﴿ عِبَادِى ﴾ من الدلالة على الذلة ،

والإِختصاص المقتضيين للترحم ، وتخصيص ضرر الإِسراف بأنفسهم والنهي عن القنوط مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة ، وإطلاقها وتعليله بأن الله يغفر الذنوب جميعاً ، ووضع اسم ﴿ الله ﴾ موضع الضمير لدلالته على أنه المستغني والمنعم على الإِطلاق والتأكيد بالجميع . وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال " ما أحب أن تكون لي الدنيا وما فيها بها ، فقال رجل يا رسول الله ومن أشرك فسكت ساعة ثم قال : ألا ومن أشرك ثلاث مرات " وما روي أن أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الوثن وقتل النفس بغير حق لم يغفر له فكيف ولم نهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس فنزلت . وقيل في عياش والوليد بن الوليد في جماعة افتتنوا أو في الوحشي لا ينفي عمومها وكذا قوله :

﴿ وَأَنِيبُواْ إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴾ بأنها لا تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب لتغني عن التوبة والإِخلاص في العمل وتنافي الوعيد بالعذاب .

(168/671)

﴿ واتبعوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ القرآن أو المأمور به دون المنهي عنه ، والعزائم دون الرخص أو الناسخ دون المنسوخ ، ولعله ما هو أنجى وأسلم كالإنابة

والمواظبة على الطاعة . ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ بمجيئه فتتداركوا .

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ ﴾ كراهة أن تقول وتنكير ﴿ نَفْسٌ ﴾ لأن القائل بعض الأنفس أو للتكثير كقول الأعشى :

وَرُبَّ بَقِيعَ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ . . . أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضَبا

﴿ يَا حسرتى ﴾ وقرىء بالياء على الأصل . ﴿ على مَا فَرَّطتُ ﴾ بما قصرت . ﴿ فِى جَنبِ الله ﴾ في جانبه أي في حقه وهو طاعته . قال سابق البربري :

أَمَا تَتَّقِينَ اللهَ فِي جَنْبٍ وَامِق . . . لَهُ كبدٌ حَرّى عَلَيْكَ تَقَطَّع

وهو كناية فيها مبالغة كقوله :

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُرُوءَةَ وَالنَّدَى . . . فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ

وقيل ذاته على تقدير مضاف كالطاعة وقيل في قربه من قوله تعالى : ﴿ والصَّاحِب بالجنب ﴾ وقرىء "في ذكر الله" . ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ الساخرين ﴾ المستهزئين بأهله ومحل ﴿ إِن كُنتَ ﴾ نصب على الحال كأنه قال فرطت وأنا ساخر .

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِى ﴾ بالإرشاد إلى الحق . ﴿ لَكُنتُ مِنَ المتقين ﴾ الشرك والمعاصي .

﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العذاب لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ المحسنين ﴾ في العقيدة والعمل ، وأو للدلالة على أنها لا تخلوا من هذه الأقوال تحيراً وتعللاً بما لا طائل تحته .

(169/671)

﴿ بلى قَدْ جَاءتْكَ ءاياتي فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت وَكُنتَ مِنَ الكافرين ﴾ رد من الله عليه لما تضمنه قوله ﴿ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِى ﴾ من معنى النفي وفصله عنه لأن تقديمه يفرق القرائن وتأخير المودود يخل بالنظم المطابق للوجود لأنه يتحسر بالتفريط ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة ، وهو لا يمنع تأثير قدرة الله في فعل العبد ولا ما فيه من إسناد الفعل إليه كما عرفت وتذكير الخطاب على المعنى ، وقرىء بالتأنيث للنفس .

﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله ﴾ بأن وصفوه بما لا يجوز كاتخاذ الولد . ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ بما ينالهم من الشدة أو بما يتخيل عليها من ظلمة الجهل ، والجملة حال إذ الظاهر أن ترى من رؤية البصر واكتفى فيها بالضمير عن الواو . ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴾ مقام . ﴿ لّلْمُتَكَبّرِينَ ﴾ عن الإيمان والطاعة وهو تقرير لأنهم يرون كذلك .

﴿ وَيُنَجّي الله الذين اتقوا ﴾ وقرىء وَيُنَجّي . ﴿ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ بفلاحهم مفعلة من الفوز وتفسيرها بالنجاة تخصيصها بأهم أقسامه وبالسعادة والعمل الصالح إطلاق لها على

السبب ، وقرأ الكوفيون غير حفص بالجمع تطبيقاً لهم بالمضاف إليه والباء فيها للسببية صلة لينجي أو لقوله : ﴿ لاَ يَمَسُّهُمُ السوء وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وهو حال أو استئناف لبيان المفازة .

﴿ الله خالق كُلّ شَىْءٍ ﴾ من خير وشر وإيمان وكفر . ﴿ وَهُوَ على كُلّ شَىْءٍ وَكِيل ﴾ يتولى التصرف .

(170/671)

﴿ لَّهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض ﴾ لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره ، وهو كناية عن قدرته وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاختصاص ، لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها الا من بيده مفاتيحها ، وهو جمع مقليد أو مقلاد من قلدته إذا ألزمته ، وقيل جمع إقليد معرب إكليد على الشذوذ كمذاكير . وعن عثمان رضي الله عنه : أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المقاليد فقال " تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير " والمعنى على هذا إن لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد ، وهي مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها أصابه . ﴿ والذين

كَفَرُواْ بئايات الله أُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ متصل بقوله ﴿ وَيُنَجّى الله الذين اتقوا ﴾ وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه مهيمن على العباد مطلع على أفعالهم مجاز عليها ، وتغيير النظم للإشعار بأن العمدة في فلاح المؤمنين فضل الله وفي هلاك الكافرين أن خسروا أنفسهم ، وللتصريح بالوعد والتعريض بالوعيد قضية للكرم أو بما يليه ، والمراد بآيات الله دلائل قدرته واستبداده بأمر السموات والأرض ، أو كلمات توحيده وتمجيده وتخصيص الخسار بهم لأن غيرهم ذو حظ من الرحمة والثواب .

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون ﴾ أي أفغير الله أعبد بعد هذه الدلائل والمواعيد ، و ﴿ تَأْمُرُونّى ﴾ اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك لفرط غباوتهم ، ويجوز أن ينتصب غير بما دل عليه ﴿ تَأْمُرُونّى أَنْ أَعْبُدَ ﴾ لأنه بمعنى تعبدونني على أن أصله تأمرونني أن أعبد فحذف إن ورفع كقوله :

(171/671)

أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضِرِ الوَغَى . . . ويؤيده قراءة ﴿ أَعْبُدُ ﴾ بالنصب ، وقرأ ابن عامر "تأمرونني" بإظهار النونين على الأصل ونافع بحذف الثانية فإنها تحذف كثيراً .

﴿ وَلَقَدْ أُوْحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ ﴾ أي من الرسل . ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ

عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ كلام على سبيل الفرض والمراد به تهييج الرسل وإقناط الكفرة والإِشعار على حكم الأمة ، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الأولى موطئة للقسم والأخريان للجواب ، وإطلاق الإِحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم لأن شركهم أقبح ، وأن يكون على التقييد بالموت كما صرح به في قوله ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ وعطف الخسران عليه من عطف المسبب على السبب .

﴿ بَلِ الله فاعبد ﴾ رد لما أمروه به ولولا دلالة التقديم على الاختصاص لم يكن كذلك .

﴿ وَكُنْ مّنَ الشاكرين ﴾ إنعامه عليك وفيه إشارة الى موجب الاختصاص .

(172/671)

﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقّ قَدْرِهِ ﴾ ما قدروا عظمته في أنفسهم حق تعظيمه حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق به ، وقرىء بالتشديد . ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ تنبيه على عظمته وحقارة الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام بالإِضافة إلى قدرته ، ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازاً كقولهم : شابت لمة الليل

، والقبضة المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة وهي المقدار المقبوض بالكف تسمية بالمصدر أو بتقدير ذات قبضة . وقرىء بالنصب على الظرف تشبيهاً للمؤقت بالمبهم ، وتأكيد ﴿ الأرض ﴾ بالجميع لأن المراد بها الأرضون السبع أو جميع أبعاضها البادية والغائرة . وقرىء ﴿ مطويات ﴾ على أنها حال و ﴿ السموات ﴾ معطوفة على ﴿ الأرض ﴾ منظومة في حكمها . ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ما أبعد وأعلى من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم ، أو ما يضاف إليه من الشركاء .

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ يعني المرة الأولى . ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ خر ميتاً أو مغشياً عليه . ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ الله ﴾ قيل جبريل ومكائيل وإسرافيل فإنهم يموتون بعد . وقيل حملة العرش . ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى ﴾ نفخة أخرى وهي تدل على أن المراد بالأُولى ونفخ في الصور نفخة واحدة كما صرح به في مواضع ، وأخرى تحتمل النصب والرفع . ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ قائمون من قبورهم أو متوقفون ، وقرىء بالنصب على أن الخبر . ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ وهو حال من ضميره والمعنى : يقلبون أبصارهم في الجوانب كالمبهوتين أو ينتظرون ما يفعل بهم .

﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ بما أقام فيها من العدل ، سماه "نور" لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما سمى الظلم ظلمة . وفي الحديث " الظلم ظلمات يوم القيامة " ولذلك أضاف اسمه إلى ﴿ الأرض ﴾ أو بنور خلق فيها بلا واسطة أجسام مضيئة ولذلك أضافه الى نفسه . ﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ ﴾ للحساب والجزاء من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه ، أو صحائف الأعمال في أيدي العمال ، واكتفى باسم الجنس عن الجمع . وقيل اللوح المحفوظ يقابل به الصحائف ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين ، وقيل المستشهدون . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين العباد . ﴿ بِالحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد . ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ جزاءه . ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فلا يفوته شيء من أفعالهم ، ثم فصل التوفية فقال :

(174/671)

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض على تفاوت أقدامهم في الضلالة والشرارة ، جمع زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه ، أو من قولهم شاة زمرة قليلة الشعر ورجل زمر قليل المروءة وهي الجمع القليل .

﴿ حتى إِذَا جَاءوهَا فُتِحَتْ أبوابها ﴾ ليدخلوها و﴿ حتى ﴾ وهي التي تحكي بعدها الجملة ، وقرأ الكوفين "فُتِحَتْ" بتخفيف التاء . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ تقريعاً وتوبيخاً . ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ من جنسكم . ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءايات رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار ، وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث إنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب . ﴿ قَالُواْ بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ كلمة الله بالعذاب علينا وهو الحكم عليهم بالشقاوة ، وأنهم من أهل النار ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بالكفرة ، وقيل هو قوله ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ قِيلَ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا ﴾ أبهم القائل لتهويل ما يقال لهم . ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ﴾ مكان . ﴿ المتكبرين ﴾ اللام فيه للجنس والمخصوص بالذم سبق ذكره ، ولا ينافي إشعاره بأن مثواهم في النار لتكبرهم عن الحق أن يكون دخولهم فيها لأن كلمة العذاب حقت عليهم ، فإن تكبرهم وسائر مقابحهم مسببة عنه كما قال عليه الصلاة والسلام " إن الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل الجنة . وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار " ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة ﴾ إسراعاً بهم إلى دار الكرامة ، وقيل سيق مراكبهم إذ لا يذهب بهم إلا راكبين . ﴿

زُمَراً ﴾ على تفاوت مراتبهم في الشرف وعلو الطبقة . ﴿ حتى إِذَا جَاءوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ حذف جواب إذا للدلالة على أن لهم حينئذ من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف ، وأن أبواب الجنة تفتح لهم قبل مجيئهم غير منتظرين ، وقرأ الكوفيون "فُتِحَتْ" بالتخفيف . ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سلام عَلَيْكُمْ ﴾ لا يعتريكم بعد مكروه . ﴿ طِبْتُمْ ﴾ طهرتم من دنس المعاصي . ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ مقدرين الخلود فيها ، والفاء للدلالة على أن طيبهم سبب لدخولهم وخلودهم ، وهو لا يمنع دخول العاصي بعفوه لأنه مطهره .

﴿ وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ بالبعث والثواب . ﴿ وَأَوْرَثَنَا الأرض ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه على الاستعارة ، وإيراثها تمليكها مخلفة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه .

﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ أي يتبوأ كل منا في أي مقام أراده من جنته الواسعة ، مع أن في الجنة مقامات معنوية لا يتمانع واردوها . ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ﴾ الجنة .

﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ ﴾ محدقين . ﴿ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ أي حوله و﴿ مِنْ ﴾ مزيدة أو لابتداء الحفوف . ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ملتبسين بحمده . والجملة حال

ثانية أو مقيدة للأولى ، والمعنى ذاكرين له بوصفي جلاله وإكرامه تلذذاً به ، وفيه إشعار بأن منتهى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في صفات الحق . ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ أي بين الخلق بإدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة ، أو بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم . ﴿ وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ أي على ما قضي بيننا بالحق . والقائلون هم المؤمنون من المقضي بينهم أو الملائكة وطي ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم .

(176/671)

عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من قرأ سورة الزمر لم يقطع رجاءه يوم القيامة وأعطاه الله ثواب الخائفين " عن عائشة رضي الله عنها : " أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 71 .

81 ﴾

(177/671)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (32) ﴾

(178/671)

التفسير : لما ضرب لعبدة الأصنام مثلاً أشار إلى نوع آخر من قبائح أفعالهم وهو أنهم يضمون على كذبهم على الله بإضافة الشريك والولد إليه تكذيبهم بالصدق يعني الأمر الذي هو الصدق بعينه أي القرآن . ومعنى ﴿ إذ جاءه ﴾ أنه لم يراع طريقة أهل الإنصاف والتدبر لكنه لما سمع به فاجأه بالتكذيب . واللام في قوله ﴿ للكافرين ﴾ لهؤلاء المعهودين الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق . قال جار الله : ويحتمل أن يكون للعموم فيشملهم وغيرهم من الكفرة . وحين بين وعيدهم عقبه بوعد الصادقين المصدّقين وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وقيل : الرسول وأبو بكر والتعميم أولى لقوله ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ قوله ﴿ ليكفر ﴾ ظاهره تعلقه ب ﴿ يشاؤن ﴾ فتكون لام العاقبة . ويحتمل تعلقه بمحذوف أي جزاؤهم وإكرامهم لأجل ذلك . قال جار الله : الأسوأ ههنا ليس للتفضيل وإنما هو كقولهم : الأشج أعدل بني مروان . وفائدة صيغة التفضيل

استعظامهم المعصية حتى إن الصغائر عندهم أسوأ أعمالهم . وقال بعض المفسرين : أراد به الكفر السابق الذي يمحوه الإيمان . واستدل مقاتل وكان شيخ المرجئة بهذه الآية فإنها تدل على أن من صدّق الأنبياء فإنه تعالى يكفر عنه أسوأ الأعمال التي أتى بها بعد الإيمان والوصف بالتقوى وفيه نظر . ثم إنهم كانوا يخوّفون المؤمنين والنبي صلى الله عليه وسلم برفض آلهتهم وتحقيرها . ويروى أنه بعث خالداً إلى العزى ليكسرها فقال له سادنها : أحذركها يا خالد ، إن لها شدّة . فعمد خالد إليها فهشم أنفها فأنزل الله تعالى ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ أي نبيه بدليل قوله ﴿ ويخوّفونك ﴾ ومن قرأ على الجمع فهي للعموم . والآيات إلى قوله ﴿ بوكيل ﴾ ظاهرة مع أنها تعلم مما سبق ذكرها مراراً . والعذاب الخزي عذاب يوم بدر ، والعذاب المقيم العذاب الدائم في الآخرة ، ومدار هذه الآي على تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أكد كون الهداية والضلال من الله تعالى بقوله ﴿ والله يتوفى

(179/671)

الأنفس ﴾ وذلك أن الحياة واليقظة تشبه الهداية ، والموت والنوم يضاهي الضلال . فكما أن الحياة والموت واليقظة والنوم لا يحصلان إلا بتخليق الله وتكوينه فكذلك الهداية والضلال ، والعارف بهذه الدقيقة عارف بسر الله في القدر ، ومن عرف سر الله في القدر

هانت عليه المصائب ، ففيه تسلية أخرى للنبي صلى الله عليه وسلم . وقيل في وجه النظم : إنه تعالى أراد أن يذكر حجة أخرى على إثبات الإله العليم القدير ليعلم أنه أحق بالعبادة من كل ما سواه فضلاً عن الأصنام . ومعنى الآية أن الله تعالى يتوفى الأنفس حين موتها . قال جار الله : أراد بالأنفس الجملة كما هي لأنها هي التي تنام وتموت ﴿ و ﴾ يتوفى الأنفس ﴿ التي لم تمت في منامها ﴾ أي يتوفاها حيت تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى كقوله

(180/671)

﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ [الأنعام : 60] والحاصل أنه يتوفى الأنفس مرتين ، مرة عند موتها ومرة عند نومها فتكون " في " متعلقة ب ﴿ يتوفى ﴾ والتوفي مستعمل في الأول حقيقة وفي الثاني مجازاً ، ولم يجوّزه كثير من أئمة الأصول . وقال الفراء : " في " متعلقة بالموت وتقديره : ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها عند انقضاء حياتها . ثم بين الفرق بين الحالين بقوله ﴿ فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الآخرى إلى أجل مسمى ﴾ من غير غلط . وقال حكماء الإسلام : النفس الإنسانية جوهر مشرق نوراني إذا تعلق بالبدن حصل ضوءه في جميع الأعضاء ظاهرها وباطنها وهو الحياة واليقظة . وأما في وقت النوم فإن ضوءه لا يقع إلا على باطن البدن وينقطع عن ظاهره ، فتبقى نفس الحياة التي

بها النفس وعمل القوى البدنية في الباطن ويفنى ما به التمييز والعقل ، وإذا نقطع هذا الضوء بالكلية عن البدن فهو الموت ، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا من القدير الخبير الذي لا شريك له في ملكه ولا نظير ، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ثم كان لمشرك أن يقول : إنما نعبد الأصنام لأنها تماثيل أشخاص كانوا عند الله مقربين فنحن نرجو شفاعتهم فأنكر الله عليهم بقوله ﴿ أم اتخذوا من دون الله ﴾ أي من دون إذنه ﴿ شفعاء ﴾ و "أم" بمعنى "بل" ، والهمزة الإنكارية وتقرير الإنكار أن هؤلاء الكفار إما أن يطعموا في شفاعة تلك التماثيل وإما في شفاعة من هذه التماثيل تماثيلهم . والأول باطل لأن هذه الأصنام جمادات لا تملك شيئاً ولا تعقل وأشار إلى هذا المعنى بقوله ﴿ قل أولو كانوا ﴾ يعني أيشفعون ولو كانوا بحيث ﴿ لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ﴾ والثاني أيضاً مستحيل لأن يوم القيامة لا يشفع أحد إلا بإذن الله وهو المراد بقوله ﴿ قل لله الشفاعة ﴾ وانتصب ﴿ جميعاً ﴾ على الحال . ولو كان تأكيداً للشفاعة لقيل جمعاء .

(181/671)

وحين قرر أن لا شفاعة لأحد إلا بإذن الله برهن على ذلك بقوله ﴿ له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾ يوم القيامة ولا ملك في ذلك اليوم إلا له . ثم ذكر نوعاً آخر من قبائح أفعال المشركين فقال ﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ أي منفرداً ذكره عن ذكر آلهتهم ﴿ اشمأزت ﴾ أي نفرت وانقبضت منه ﴿ قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دون ﴾ سواء ذكر الله معهم أو لم يذكر ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي فاجأ وقت ذكر آلهتهم وقت استبشارهم . وفي الآية طباق ومقابلة لأن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى يظهر أثره في بشرته .

(182/671)

والاشمئزاز أن يمتلىء غماً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه وذلك لاحتباس الروح الحيواني في القلب . وقيل : معنى الآية أنه إذا قيل لا إله إلا الله وحده لا شريك له . نفروا لأن فيه نفياً لآلهتهم . وفي بعض التفاسير أن هذا إشارة إلى ما روي " أنه صلى الله عليه وسلم لما قرأ سورة النجم وسوس الشيطان إليه بقوله " تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى " فاستبشر المشركون وسجدوا " ولما حكى عنهم هذا الجهل الغليظ والحمق الشديد وهو الاشمئزاز عن ذكره من ذكره رأس السعادات وعنوان الخيرات

والاستبشار بذكر أخس الأشياء وهي الجمادات ، أمر رسوله بهذا الدعاء ﴿ اللهم فاطر السموات والأرض ﴾ وهو وصفه بالقدرة التامة ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ وهو نعته بالعلم الكامل . وإنما قدم وصفه بالقدرة على وصفه بالعلم لأن العلم بكونه قادراً متقدم على العلم بكونه عالماً كما بين في أصول الدين وقد أشرنا إلى ذلك فيما سلف ﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ يعني أن نفرتهم عن التوحيد وفرحهم بالشرك أمر معلوم الفساد ببديهة العقل فلا حيلة في إزالته إلا باستعانة القدير العليم . عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفتتح صلاته بالليل فيقول : اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما أختلف فيه من الحق بإذنك إنك لتهدي إلى صراط مستقيم . وعن الربيع بن خثيم . وكان قليل الكلام أنه أخبر بقتل الحسين عليه السلام وقالوا : الآن يتكلم ، فما زاد على أن قال آه أوقد فعلوا وقرأه هذه الآية . وروي أنه قال على أثره : قتل من كان النبي صلى الله عليه وسلم . يجلسه في حجره ويضع فاه في فيه . ثم ذكر وعيدهم على ذلك المذهب الباطل بقوله ﴿ ولو أن للذين ظلموا ﴾ أي بالشرك وقد مر نظير الآية مراراً أوّلها في آل عمران وفيه قوله ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا

يحتسبون ﴾ نظير قوله في أهل الوعد ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : 17] وقيل : عملوا أعمالاً حسبوها حسنات فإذا هي سيئات . يروى أن محمد بن المنكدر جزع عند موته فقيل له في ذلك فقال : أخشى آية من كتاب الله وتلاها ، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم يكن في حسباني . وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال : ويل لأهل الرياء . ثم صرح بما أبهم قائلاً ﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ و " ما " موصولة أو مصدرية أي ظهرت لهم سيئات أعمالهم التي اكتسبوها ، أو سيئات كسبهم وذلك عند عرض الصحائف أو غير ذلك من المواقف . وجوّز أهل البيان أن يراد بالسيئات جزاء أفعالهم كقوله

﴿ وجزاء سيئة سيئة ﴾ [الشورى : 40] وإنما قال في الجاثية ﴿ سيئات ما عملوا ﴾ [الجاثية : 33] لمناسبة ألفاظ العمل ، وههنا قد وقع من ألفاظ الكسب .

(184/671)

ثم حكى نوعاً آخر من قبيح أعمالهم قائلاً ﴿ فإذا مسّ الإنسان ﴾ وقد مر مثله في مواضع أقربها أول السورة إلا أنه ذكر ههنا بفاء التعقيب لأن هذا مناقض لما حكى عنهم

عن قريب وهو أنهم يشمئزون عن ذكر الله وحده فكيف التجأوا إليه وحده عند ضر يصيبهم . ومعنى ﴿ أوتيته على علم ﴾ أوتيته على علم لله بكوني مستحقاً لذلك أو على علم عندي صار سبباً لهذه المزية ككسب وصنعة ونحو ذلك . ولا شك أن هذا نوع من الغرور فلهذا قال سبحانه ﴿ بل هي فتنة ﴾ بلاء واختبار يتميز بها الشاكر عن الكافر . ذكر الضمير أوّلاً بتأويل المخوّل وأنثه ثانياً بتأويل النقمة . ثم أشار بقوله ﴿ قد قالها ﴾ أي مجموع الكلمة التي صدرت عنهم و ﴿ الذين من قبلهم ﴾ هم قارون وقومه حيث ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾ [القصص : 78] وقومه راضون بها فكأنهم قالوها . ويجوز أن يكون في الأمم الخالية قائلون مثلها ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ من الأموال أو من المعاصي وأشار بقوله ﴿ هؤلاء ﴾ إلى أهل مكة أصابهم قتل في يوم بدر وغيره وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين فقيل لهم : أولم يعلموا أن الباسط والقابض هو الله وحده ؟ وذلك أن انتهاء الحوادث المتسلسلة يجب أن يكون إلى إرادته ومشيئته ، ولا ينافي هذا توسيط عالم الأسباب وأن يكون للكواكب كلها تأثيرات في عالمنا هذا بإذن مبدعها وفاطرها . وقول الشاعر :

فلا السعد يقضي به المشتري . . . ولا النحس يقضي علينا زحل

ولكنه حكم رب السماء . . . وقاضي القضاة تعالى وجل

كلام من غير تبين واستبصار بسر القدر . والذي يشكك به الإمام فخر الدين الرازي من أنه قد يولد إنسانان في طالع واحد ثم يصير أحدهما في غاية السعادة والآخر في غاية الشقاوة كلام غير محقق ، لأنا لو سلمنا وقوع ذلك فلاختلاف القابل ، وليس تأثير العامل السماوي في طالع ولد السلطان مثله في طالع ولد الحمامي ، وكذا اختلافات أخر لا نهاية لها . نعم لو ادعى عسر إدراك جميع الجزئيات فلا نزاع في ذلك إلا المنتفع بما ينتفع به عليه أن يقنع بما يصل إليه فهمه فلكل شيء حد وفوق كل ذي علم عليم . وحين أطنب في الوعيد أردفه ببيان كمال رحمته ومغفرته فقال ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ عن ابن عباس أن أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لن يغفر له ونحن قد عبدنا الأوثان وقتلنا الأنفس فأنزل الله هذه الآية . وعن ابن عمر : نزلت في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين أسلموا ثم عذبوا فارتدوا فنزلت فيهم ، وكان عمر كاتباً فكتبها إلى عياش والوليد وإلى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا .

وقيل : نزلت بالمدينة في وحشيّ وقد سبق . ثم إن قلنا : العباد عام فالإسراف على النفس يعم الشرك ، ولا نزاع أن عدم اليأس من الرحمة يكون مشروطاً بالتوبة والإيمان . وإن قلنا : العباد المضاف في عرف القرآن مختص بالمؤمنين فالإسراف إما بالصغائر ولا خلاف في أنها مكفرة ما اجتنبت الكبائر ، وأما بالكبائر وحينئذ يبقى النزاع بين الفريقين .

فالمعتزلة شرطوا التوبة ، والأشاعرة العفو وقد مر مراراً . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية فقال رجل : يا رسول الله ومن أشرك ؟ فسكت ساعة ثم قال : ألا ومن أشرك ثلاث مرات " رواه في الكشاف . وعلى هذا يكون مخصوصاً بشرط الإيمان .

(186/671)

ولا يخفى ما في الآية من مؤكدات الرحمة : أوّلها تسمية المذنب عبداً والعبودية تشعر بالاختصاص مع الحاجة ، واللائق بالكريم الرحيم إفاضة الجود والرحمة على المساكين . وثانيها من جهة الإضافة الموجبة للتشريف . وثالثها من جهة وصفهم بقوله ﴿ الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ كأنه قال يكفيهم من تلك الذنوب عود مضرتها عليهم لا عليّ . ورابعها نهاهم عن القنوط ، والكريم إذا أمر بالرجاء فلا يليق به إلا الكرم . وخامسها قوله ﴿ من رحمة الله ﴾ مع إمكان الاقتصار على الضمير بأن يقول " من رحمتي " فإيراد أشرف الأسماء في هذا المقام يدل على أعظم أنواع الكرم واللطف . وسادسها تكرير اسم الله تعالى في قوله ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ مع تصدير الجملة ب " إن " ، ومع إيراد صيغة المضارع المنبئة عن الاستمرار ، ومع تأكيد الذنوب بقوله ﴿ جميعاً ﴾ أي حال

كونها مجموعة . وسابعها إرداف الجملة بقوله ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ومع ما فيه من أنواع المؤكدات ومع جميع ذلك لم يخل الترغيب عن الترهيب ليكون رجاء المؤمن مقروناً بخوفه فقال ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾ وذلك أن الأشاعرة أيضاً يجوّزون أن يدخل صاحب الكبيرة النار مدة ثم يخرج منها . ومع احتمال هذا العذاب يجب الميل إلى الإنابة والإخلاص لله في العمل على أن الخوف للتقصير في الطاعة يكفي عن الخوف للتصريح بالمعصية ، وللصديقين في الأول مندوحة عن الثاني . وقال بعضهم : إن الكلام قد تم على الآية الأولى ، ثم خاطب الكفار بهذه الآيات من قوله ﴿ وأنيبوا ﴾ والمراد بالعذاب إما عذاب الدنيا كما للأمم السابقة ، وإما الموت لأنه أول أهوال الآخرة . وقوله ﴿ أحسن ما أنزل إليكم ﴾ كقوله ﴿ يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ وقد مر الأقوال فيه . وحين خوّفهم بالعذاب حكى عنهم أنهم بتقدير نزول العذاب ماذا يقولون ؟ فذكر ثلاثة أنواع من الكلمات : الأوّل أن تقول والتقدير أنذرناكم العذاب المذكور كراهة أن تقول أو لئلا .

(187/671)

تقول . قال جار الله : إنما نكرت نفس لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر ، أو نوع من الأنفس متميزة بلجاج في الكفر شديد أو بعذاب عظيم . وجوز أن يكون التنكير

لأجل التكثير كقوله " رب وفد أكرمته " . ﴿ يا حسرتا على ما فرّطت ﴾ أي قصرت . والتفريط إهمال ما ينبغي أن يقدّم ﴿ في جنب الله ﴾ واعلم أن بعض أهل التجسيم يحكمون بورود هذا اللفظ على إثبات هذا العضو لله سبحانه ولا يدري أنه بعد التسليم لا معنى للتفريط فيه ما لم يصر إلى التأويل . والصحيح ما ذهب إليه علماء البيان أن هذا من باب الكناية ، لأنك إذا أثبت الشيء في مكان الرجل وحيزه وجانبه وناحيته فقد أثبته كقوله :

إن السماحة والمروءة والندى . . . في قبة ضربت على ابن الحشرج

وتقول : لمكانك فعلت كذا . أي لأجلك . وفي الحديث " من الشرك الخفي أن يصلى الرجل لمكان الرجل " ولا بد من تقدير مضاف سواء ذكر الجنب أو لم يذكر ، وللمفسرين فيه عبارات . قال ابن عباس : أي ضيعت من ثواب الله . وقال مقاتل : ضيعت من ذكر الله . وقال مجاهد : في أمر الله . وقال الحسن : في طاعة الله . وعن سعيد بن جبير : في حق الله . وقيل : في قرب الله من الجنة من قوله ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ [النساء : 36] وقال ابن جبير : في جانب هدى الله لأن الطريق متشعب إلى الهدى والضلال فكل واحد جانب وجنب . والتحقيق في المسألة أن الشيء الذي يكون من لوازم الشيء ومن توابعه كأنه حدّ من حدوده وجانب من جوانبه ، فلما حصلت المشابهة بين الجنب الذي هو العضو وبين ما يكون لازماً للشيء وتابعاً له ، لا جرم حسن إطلاق لفظ الجنب في الآية على

أحد هذه المضافات . قال الشاعر وهو سابق البربري :

أما لتقين الله في جنب عاشق . . . . له كبد حرّى عليك تقطع ؟

(188/671)

ثم زاد في التحسر بقوله ﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ أي المستهزئين بالقرآن والنبي والمؤمنين . " إن " مخففة ، واللام فارقة ، والواو تحتمل العطف والحال . قال قتادة . لم يكفه ما ضيع من أمر الله حتى سخر من المصدّقين . النوع الثاني من كلمات النفس المعذبة ﴿ لو أن الله هداني ﴾ يجوز أن يقول مرة هذا ومرة ذلك ، أو يكون قائل كل من الكلمتين بعد أخرى والمعنى لو أرشدني إلى دينه . ﴿ لكنت من المتقين ﴾ النوع الثالث قوله عند رؤية العذاب ﴿ لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴾ قال جار الله : لما حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب وهو الثاني ، صح أن تقع " بلى " جواباً له مع أنه غير منفي ، لأن قوله ﴿ لو أن الله هداني ﴾ في معنى ما هديت .

(189/671)

قلت : هذا يصلح جواباً للقولين الثاني والثالث أي بلى قد هديت بالوحي فكذبت واستكبرت عن قبوله فلا فائدة في الرجعة ، فإن عدم القابلية وكونه واقعاً في جانب القهر لن يزول عنه . ثم صرح ببعض أنواع العذاب قائلاً ﴿ ويوم القيامة نرى الذين كذبوا على الله ﴾ وقوله ﴿ وجوههم مسودّة ﴾ مفعول ثان إن كانت الرؤية القلبية وإلا فموضعه نصب على الحال . والظاهر أن الكذب على الله هو المشار إليه في قوله ﴿ فكذبت بها ﴾ ويشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد ، ونسبته إلى العجز عن الإعادة ، ونسبة القرآن إلى كونه مختلفاً ونحو ذلك . وأما المسائل الاجتهادية التي يختلف فيها كل فريق إسلامي ولا سيما الفروعية ، فالظاهر أنها لا تدخل فيها والله أعلم . وأما سواد الوجه فإن كان في الصورة فظاهر ويكون كسائر أوصاف أهل النار من زرقة العيون وغيره ، وإن كان المراد به الخجل وشدّة الحياء ونحو ذلك فالله تعالى أعلم بمراده . ولا ريب أن الجهل والإخبار على خلاف ما عليه الأمر ونحو ذلك من الأخلاق الذميمة كلها ظلمات كما أن العلم والصدق ونحوهما أنوار كلها وفي ذلك العالم تظهر حقيقة كل شيء على المكلف ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ [يونس : 30] . ثم حكى حال المتقين يومئذ قائلاً ﴿ وينجي الله الذين اتقوا ﴾ الشرك أو المعاصي كبائر وصغائر ﴿ بمفازتهم ﴾ هي " مفعلة " من الفوز . فمن وحد فلأنه مصدر ، ومن جمع فلاختلاف أجناسها فلكل متق مفازة وهي الفلاح . ولا شك أن الباء هي التي في نحو قولك " كتب بالقلم " . فقال جار الله : تارة تفسير المفازة

هي قوله ﴿ لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ فلا محل للجملة لأنه كأنه قيل : وما مفازتهم ؟ فقيل : ﴿ لا يمسهم السوء ﴾ أي في أبدانهم . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ يتألمون قلباً على ما فات . وقال : أخرى يجوز أن يراد بسبب فلاحهم أو منجاتهم وهو العمل الصالح ، وذلك أن العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة . ويجوز أن يسمى العمل الصالح في نفسه

(190/671)

مفازة لأنه سببها . وعلى هذه الوجوه يكون قوله ﴿ لا يمسهم ﴾ منصوباً على الحال . وعن الماوردي أن المفازة ههنا البرية أي بما سلكوا مفازة الطاعات الشاقة وهو غريب . وحين تمم الوعد والوعيد أتبعه شيئاً من دلائل المالكية قائلاً ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ وقد مر في " الأنعام " . ثم أكده بقوله ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ وهو كقوله في " الأنعام " ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [الآية : 59] والمقاليد المفاتيح أيضاً فقيل : لا واحد لها من لفظها . وقيل : مقليد أو مقلد أو إقليد . والظاهر أنه في الأصل فارسي والتعريب جعله من قبيل العربي . ويروى أنه سأل عثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير الآية فقال : يا عثمان ما سألني عنها أحد قبلك ، تفسير

المقاليد لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير .

(191/671)

وقال العلماء : يعني أن هذه الكلمات مفاتيح خيرات السموات والأرض وقد يوحد الله بها ويمجد . قال أهل العرفان : بيده مفاتيح خزائن اللطف والقهر ، فيفتح على من يشاء أبواب خزائن لطفه في قلبه فتخرج ينابيع الحكمة وجواهر الأخلاق الحسنة وللآخر بالضد . قال في الكشاف قوله ﴿ والذين كفروا ﴾ متصل بقوله ﴿ وينجي ﴾ وما بينهما اعتراض دل على أنه خالق الأشياء كلها مهيمن عليها ، لا يخفى عليه أعمال المكلفين وجزاؤها فإن كل شيء في السموات والأرض فإن مفتاحه بيده . هذا والظاهر أنه لا حاجة إلى هذا التقدير البعيد حتى يعطف جملة اسمية على جملة فعلية . والأقرب أنه لما وصف نفسه بصفات المالكية والقدرة ذكر بعده ﴿ والذين كفروا ﴾ بدلائل ملكه وملكه مع كونها ظاهرة باهرة فلا أخسر منهم لأنهم عمي في الدارين فاقدون لأشرف المطالب ولذلك وبخ أهل الشرك بقوله ﴿ قل أفغير الله ﴾ أي قل لهم بعد هذا البيان أفغير الله وهو منصوب ﴿ بأعبد ﴾ و ﴿ تأمروني ﴾ اعتراض والمعنى أفغير الله ﴿ أعبد ﴾ بأمركم . وذلك أن المشركين

دعوه إلى دين آبائه . وجوز جار الله : أن ينصب بما يدل عليه جملة قوله ﴿ تأمروني أعبد ﴾ لأنه في معنى تعبدونني غير الله وتقولون لي اعبد . والأصل تأمرونني أن أعبد فحذف أن ورفع الفعل . ويمكن أن يعترض عليه بأن صلة " أن " كيف تتقدّم عليه . ويحتمل أن يجاب بأن العامل هو ما دل عليه الجملة كما قلنا لا قوله ﴿ أن أعبد ﴾ وقيل : التقدير أفبعبادة غير الله تأمروني ؟ وقوله ﴿ أيها الجاهلون ﴾ لا يكون أليق بالمقام منه لأنه لا جهل أشدّ من جهل من نهى عن عبادة أشرف الأشياء وأمر بعبادة أخس الأشياء . ثم هددّ الأمة على الشرك مخاطباً نبيه بقوله ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك ﴾ من الأنبياء مثله ﴿ لئن أشركت ﴾ فاقتصر على الأول يجوز أن يراد ولقد أوحى إليك وإلى كل واحد ممن قبلك لئن أشركت كما تقول : كسانا حلة أي كل واحد منا وقد مر نظير هذه الآية بقوله ﴿ ولئن

أتبعت أهواءهم ﴾ [البقرة : 120] وبينا أن ذلك على سبيل الفرض والشرطية لا حاجة في صدقها إلى صدق جزأيها ، أو المراد الأمة كما قلنا . وفي قوله ﴿ ولتكونن من الخاسرين ﴾ إشارة إلى أن منصب النبوة الذي هو أشرف مراتب الإنسانية وأقربها من الله

إذا بدل بضدّه الذي هو البعد عن الحضرة الإلهية لم يكن خسران وراء ذلك .

ثم ردّه صلى الله عليه وسلم إلى ما هو الحق الثابت في نفس الأمر وهو تخصيص الله بالعبادة فقال ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ على ذلك لأن توفيق العبادة منه وحده ولذا جعله مظهر اللطف حتى صار سيد ولد آدم .

(193/671)

ثم بين أنهم لما جعلوا هذه الأشياء الخسيسة مشاركة في العبادة ما عرفوا الله حق معرفته وقد مر في " الأنعام " و " الحج " . ثم أردفه بما يدل على كمال عظمته قائلاً ﴿ والأرض جميعاً قبضته ﴾ قال جار الله : الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهة حقيقة أو إلى جهة مجاز . وكذلك حكم ما يروى عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً من أهل الكتاب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا القاسم ، إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والجبال على أصبع ، والشجر على أصبع ، والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً مما قال وأنزل الله الآية تصديقاً له . وقال جار الله : وإنما ضحك

أفصح العرب وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من غير ذلك ، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التي لا تكتنهها الأوهام هينة عليه ، ثم ذكر كلاماً آخر طويلاً . واعترض عليه الإمام فخر الدين الرازي بأن هذا الكلام الطويل لا طائل تحته لأنه هل يسلم أن الأصل في الكلام حمله على حقيقته أم لا . وعلى الثاني يلزم خروج القرآن بكليته عن كونه حجة فإن لكل أحد حينئذ أن يؤوّل الآية بما شاء . وعلى الأول وهو الذي عليه الجمهور يلزمه بيان أنه لا يمكن حمل اللفظ الفلاني على معناه الحقيقي لتعين المصير إلى التأويل . ثم إن كان هناك مجازان وجب إقامة الدليل على تعيين أحدهما ، ففي هذه الصورة لا شك أن لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الجوارح إلا أن الدلائل العقلية قامت على امتناع الأعضاء والجوارح لله تعالى فوجب المصير إلى التأويل صوتاً للنص عن التعطيل . ولا تأويل إلا أن يقال :

(194/671)

المراد كونها تحت تدبيره وتسخيره كما يقال : فلان في قبضة فلان . وقال تعالى ﴿ وما ملكت أيمانهم ﴾ [الأحزاب : 50] ويقال : هذه الدار في يد فلان ويمينه ، وفلان

صاحب اليد . وأنا أقول : هذا الذي ذكره الإمام طريق أصولي ، والذي ذكره جار الله طريق بياني ، وأنهم يحيلون كثيراً من المسائل إلى الذوق فلا منافاة بينهما . ولا يرد اعتراض الإمام وتشنيعه وقد مر لنا في هذا الكتاب الأصل الذي كان يعمل به السلف في باب المتشابهات في مواضع فتذكر .

(195/671)

ولنرجع إلى الآية . قوله ﴿ والأرض ﴾ قالوا : المراد بها الأرضون لوجهين : أحدهما قوله ﴿ جميعا ﴾ فإنه يجعله في معنى الجمع كقوله ﴿ كل الطعام ﴾ [آل عمران : 93] وقوله ﴿ والنخل باسقات ﴾ [ق : 10] والثاني قوله ﴿ والسموات ﴾ ولقائل أن يقول : كل ما هو ذو أجزاء حساً أو حكماً فإنه يصح تأكيده بالجميع . وعطف السموات على الأرض في القرآن كثير . نعم قيل : إن الموضع موضع تعظيم وتفخيم فهو مقتض للمبالغة وليس ببعيد . والقبضة بالفتح المرة من القبض يعني والأرضون جميعاً مع عظمهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته فهن ذوات قبضته . وعندي أن المراد منه تصرفه يوم القيامة فيها بتبديلها كقوله ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ [إبراهيم : 48] ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ كقوله ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ [الأنبياء :

104] وقيل : معنى مطويات كونها مستولى عليها استيلاءك على الشيء المطوي عندك بيدك . وقيل : معنى مطويات كونها مستولى عليها بيمينه أي بقسمه لأنه تعالى حلف أن يطويها ويفنيها في الآخرة . وفي الآية إشارة إلى كمال استغنائه ، وأنه إذا حاول تخريب الأرض والسموات وتبديلها . وذلك في يوم القيامة سهل عليه كل السهولة ، ولذلك نزه نفسه عن الشركاء بقوله ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ثم ذكر سائر أهوال القيامة وأحوالها بقوله ﴿ ونفخ في الصور فصعق ﴾ الظاهر أن نفخ الصور مرتان ، وبعضهم روى أنه ثلاث نفخات الأولى للفزع كما جاء في " النمل " ، والثانية للموت وهو معنى الصعق ، والثالثة للإعادة . والأظهر أن الفزع يتقدم الصعق فلا يلزم منه إثبات نفختين ، وقد مر في " النمل " تفسير باقي الآية . قال جار الله : تقدير الكلام ونفخ في الصور نفخة واحدة ﴿ ثم نفخ فيه أخرى ﴾ وإنما حذفت لدلالة أخرى عليها ولكونها معلومة بذكرها في غير مكان . ومعنى ﴿ ينظرون ﴾ يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب ، أو ينظرون ماذا يفعل بهم . ويجوز أن

يكون القيام بمعنى الوقوف والجهود تحيراً . ثم وصف أرض القيامة بقوله ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ الظاهر أن هذا نور تجليه سبحانه . وقد مر شرح هذا النور في تفسير قوله ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ [الآية : 35] وفي غيره من المواضع . وقال علماء البيان : افتتح الآية بذكر العدل كما اختتم الآية بنفي الظلم . ويقال للملك العادل : أشرقت الآفاق بنور عدلك وأضاءت الدنيا بقسطك ، وفي ضدّه أظلمت الدنيا بجوره . وأهل الظاهر من المفسرين لم يستبعدوا أن يخلق الله في ذلك اليوم للأرض نوراً مخصوصاً . وقيل : أراد أرض الجنة .

ثم إن أهل البيان أكدوا قولهم بأنه أتبعه قوله ﴿ ووضع الكتاب ﴾ إلى آخره . وكل ذلك من الأمور الدالة على غاية العدل . والمراد بالكتاب إما اللوح المحفوظ يقابل به صحف الأعمال أو الصحف نفسها ولكنه اكتفى باسم الجنس .

﴿ وجيء بالنبيين ﴾ ليسألهم ربهم عن تبليغ الرسالة ويجيب قومهم بما يجيبون . والمراد بالشهداء الذين يشهدون للأمم وعليهم من الحفظة والأخيار ومن الجوارح والمكان والزمان أيضاً . وقيل : هم الذين قتلوا في سبيل الله ولعله ليس في تخصيصهم بالذكر فائدة . وحين بين أنه يحضر في محفل القيامة جميع ما يحتاج إليه في فصل الخصومات ذكر أنه يوصل أهل النار ، وختم السورة بذكر أهل الجنة فقال : ﴿ وسيق ﴾ وهو على عادة إخبار الله تعالى . والزمر الأفواج المتفرقة واحدها زمرة وكذلك في صفة أهل الجنة ، وذلك أنه يحشر

أمة بعد أمة مع إمامها إلى الجنة أو النار ، أو بعضهم قبل الحساب وبعضهم بعد الحساب على اختلاف المراتب والطبقات ، فلا ريب أن الناس محقين أو مبطلين فرق ذاهبون في طرق شتى جماعة جماعة . والخزنة جمع خازن ، والمراد بكلمة العذاب قوله ﴿ لأملأن جهنم ﴾ [السجدة : 13] أو علم الله السابق وكان القياس التكلم إلا أنه عدل إلى الظاهر فقيل على الكافرين ليعلم سبب العذاب .

(197/671)

سؤال السوق في الكفار له وجه لأنهم أهل الطرد والعنف فما وجهه في أهل الجنة ؟ الجواب من وجوه : قال جار الله : المضاف هنا محذوف أي وسيق مراكب الذين اتقوا لأنهم لا يذهبون إلا راكبين كالوافدين على ملوك الدنيا ، وحثها إسراع لهم إلى دار الكرامة والرضوان : وقيل : طباق . وقيل : أكثر أهل الجنة البله فيحتاجون إلى السوق لأنهم لا يعرفون ما فيه صلاحهم . وقيل : إنهم يقولون لا أدخلها حتى يدخلها أحبائي فيتأخرون لهذا السبب وحينئذ يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة . وقال أهل العرفان : المتقون قد عبدوا الله لله لا للجنة فيصير شدة استغراقهم في مشاهدة مطالع الجمال والجلال مانعة لهم عن الرغبة في الجنة ، فلا جرم يفتقرون إلى السوق . وقال الحكيم : كل خصلة ذميمة أو

شريفة في الإنسان فإنها تجره من غير اختياره شاء أم أبى إلى ما يضاهيه حاله فذاك معنى السوق .

سؤال آخر : لم قيل في صفة أهل النار ﴿ فتحت أبوابها ﴾ من غير واو وفي صفة أهل الجنة ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ بالواو ؟ والجواب البحث عن مثل هذه الواو قد يقال له واو الثمانية قد مر في قوله ﴿ التائبون العابدون ﴾ [التوبة : 112] وفي سورة الكهف إلا أن الذي اختص بالمقام هو أن بعضهم قالوا : إن أبواب جهنم مغلقة لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها ، وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها لقوله ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴾ [ص : 50] فلذلك جيء بالواو كأنه قيل : حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها ، وعلى هذا فجواب ﴿ حتى إذا ﴾ محذوف وحق موقعه ما بعد ﴿ خالدين ﴾ أي كان ما كان من أصناف الكرامات والسعادات . وقيل : حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها أي مع فتح أبوابها . وقيل : لأهل التأويل أن يقولوا : إن أبواب الجنة وهي أسباب حصول الكمالات مفتوحة بمعنى أنها غير ممنوع عنها بل مندوب إليها مرغب فيها ، وأبواب جهنم مغلقة بمعنى أن أسبابها ممنوع عنها على لسان الشرع والعقل جميعاً .

(198/671)

ومعنى تسليم الخزنة الإكرام والتهنئة بأنهم سلموا من أحوال الدنيا وأهوال القيامة . ومعنى ﴿ طبتم ﴾ قيل : إخبارهم عن كونهم طيبين في الدنيا بالأفعال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، أو طبتم نفساً بما نلتم من الجنة ونعيمها . وقيل : إن أهل الجنة إذا انتهوا إلى بابها وجدوا عنده عينين تجريان من ساق شجرة فيتطهرون من إحداهما فتجري عليهم نضرة النعيم فلن تتغير أبشارهم بعدها أبداً ، ويشربون من الأخرى فيذهب ما في بطونهم من أذى وقذى فيقول لهم الخزنة : طبتم . وقال جار الله : أرادوا طبتم من دنس المعاصي وطهرتم من خبث الخطايا ، ولهذا عقبه بقوله ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ ليعلم أن الطهارة عن المعاصي هي السبب في دخول الجنة والخلود فيها لأنها دار طهرها الله من دنس فلا يدخلها إلا من هو موصوف بصفتها رزقنا الله تعالى بعميم فضله وحسن توفيقه نسبة توجب ذلك . ثم حكى قول المتقين في الجنة فقال ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ أي الوعد بدخول الجنة ﴿ وأورثنا الأرض ﴾ أرض الجنة عبر عن التمليك بالإيراث وقد مرّ مراراً ﴿ نتبوّأ منها حيث نشاء ﴾ لأن لكل متق جنة توصف سعة فيتبوّأ من جنته كما يريد من غير منازع . وقال حكماء الإسلام : الجنات الجسمانية كذلك ، أما الروحانية فلا مانع فيها من المشاركة وأن يحصل لغيره ما يحصل لبعض الأشخاص . ثم وصف مآب الملائكة المقربين بعد بعثهم فقال ﴿ وترى ﴾ أيها الرائي أو النبي ﴿ الملائكة حافين ﴾ محدّقين وهو نصب على الحال . قال الفراء : لا واحد له لأنه لا بد فيه من

الجمعية . وأقول : لعله عني من حيث الاستعمال . وقيل : الحاف بالشيء الملازم له . وقوله ﴿ من حول العرش ﴾ " من " زائدة أو ابتدائية أي مبتدأ خوفهم من هناك إلى حيث شاء الله أو متصل بالرؤية ﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ تلذذاً لا تعبداً . وكان جوانب العرش دار ثواب الملائكة وإنها ملاصقة لجوانب الجنة . والضمير في قوله ﴿ وقضي بينهم ﴾ للعباد كلهم لقرائن ذكر القيامة

(199/671)

فإن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون الإقضاء بينهم بالحق والعدل . وقيل : بين الأنبياء وأممهم . وقيل : تكرار لقوله ﴿ وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق ﴾ وقيل : هو حال وقد مقدرة معه أي يسبحون بحمد ربهم وقد قضى بينهم يعني بين الملائكة على أن ثوابهم ليس على سنن واحد . ويحتمل عندي أن يعود الضمير إلى البشر والملائكة جميعاً ، والقضاء بينهم هو إنزال البشر مقامهم من الجنة أو النار ، وإنزال الملائكة حول العرش . ثم ختم السورة بقوله ﴿ وقيل الحمد لله ﴾ والقائل المقضي بينهم وهم جميع العباد كقوله ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله ﴾ [يونس : 10] جميع الملائكة حمدوا الله على إنزال كلّ منزلته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 18.6 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ قل ﴾ يا محمد ربكم المحسن إليكم يقول ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ أي : أفرطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي وإضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن ﴿ لا تقنطوا ﴾ أي : لا تيأسوا ﴿ من رحمة الله ﴾ أي : إكرام المحيط بكل صفات الكمال فيمنعكم ذلك القنوط من التوبة التي هي باب الرحمة ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي يا عبادي بسكون الياء وتسقط في الوصل ، وفتحها الباقون ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي تقنطوا بكسر النون بعد القاف والباقون بفتحها ﴿ إن الله ﴾ أي : المتفضل على عباده المؤمنين ﴿ يغفر الذنوب ﴾ لمن تاب من الشرك ﴿ جميعاً ﴾ لمن يشاء كما قال تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (النساء :) وأما الكافر إذا أسلم فإن الله تعالى لا يؤاخذه بما وقع من كفره قال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ (الأنفال :)

تنبيه : في هذه الآية أنواع من المعاني والبيان حسنة منها إقباله عليهم ونداؤهم ومنها إضافتهم إليه إضافة تشريف ومنها الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله تعالى : ﴿ من رحمة الله ﴾ ومنها إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى ومنها إعادة الظاهر بلفظه في قوله تعالى : ﴿ إن الله ﴾ ومنها إبراز الجملة في قوله تعالى ﴿ إنه هو ﴾ أي : وحده ﴿ الغفور ﴾ أي : البليغ الغفر يمحو الذنوب عمن يشاء عيناً وأثراً فلا يعاقب ولا يعاتب ﴿ الرحيم ﴾ أي : المكرم بعد المغفرة مؤكدة بأن وبالفصل وبإعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الآية السابقة روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما : "أن ناساً من أهل الشرك كانوا قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن الذي تدعو له لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة" فنزلت هذه الآية . وروى عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس : "أنها نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله تعالى عنهما حين بعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ، فأرسل إليه كيف تدعوني إلى دينك وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلقى أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة وأنا قد فعلت ذلك كله ، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ (مريم :)

فقال وحشي : هذا شرط شديد لعلي لا أقدر عليه فهل غير ذلك فأنزل الله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فقال وحشي : أراني بعد في شبهة

فلا أدري أيغفر لي أم لا فأنزل الله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ الآية قال : نعم هذا . فجاء فأسلم ، فقال المسلمون : هذا له خاصة قال : بل للمسلمين عامة" .

(202/671)

وروي عن ابن عمر قال : نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا ، وكنا نقول لا يقبل الله من هؤلاء صرفاً ولا عدلاً أبداً قد أسلموا ثم تركوا دينهم لعذاب عذبوا فيه ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات فكتبها عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بيده ، ثم بعثها إلى عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وإلى أولئك النفر فأسلموا وهاجروا .

وروي عن ابن مسعود أنه دخل المسجد وإذا قاص يقص وهو يذكر النار والأغلال فقام على رأسه فقال : يا مذكر لم تقنط الناس ثم قرأ ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ وعن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطنوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي" وروى الطبراني : "أنه صلى الله عليه وسلم قال : ما أحب أن لي

الدنيا وما فيها بها أي : بهذه الآية فقال رجل : يا رسول الله ومن أشرك ؟ فسكت ساعة ثم قال : إلاً من أشرك ثلاث مرات" .

(203/671)

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ثم خرج يسأل ، فإذا راهب فسأله فقال : هل لي توبة فقال : لا فقتله وجعل يسأل فقال رجل : ائت قرية كذا فأدركه الموت فنأى بصدره نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تقربي وإلى هذه أن تباعدي وقال : قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له" . وفي رواية فقال له : إني قتلت تسعة وتسعين نفساً فهل لي من توبة فقال : لا فقتله فكمل مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على عالم فقال : "إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا إلى أن قال : فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة" . وعن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أو نقول ليس شيء من حسناتنا إلا وهي مقبولة حتى نزلت ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ (محمد :)

فلما نزلت هذه الآية قلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا فقيل لنا : الكبائر والفواحش فكنا إذا رأينا من أصاب منها شيئاً خفنا عليه ، ومن لم يصب منها شيئاً رجونا له فأنزل الله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطنوا من رحمة الله ﴾ وأراد بالإسراف ارتكاب الكبائر .

ولما كان التقدير وأقلعوا عن ذنوبكم فإنها قاطعة عن الخير مبعدة عن الكمال عطف عليه استعظاماً قوله تعالى:

﴿ وأنيبوا ﴾ أي : ارجعوا بكليا تكم وكلوا حوائجكم وأسندوا أموركم واجعلوا طريقكم ﴿ إلى ربكم ﴾ أي : الذي لم تروا إحساناً إلا وهو منه ﴿ وأسلموا ﴾ أي : وأخلصوا ﴿ له ﴾ أعمالكم ﴿ من قبل أن يأتيكم ﴾ أي : وأنتم صاغرون ﴿ العذاب ﴾ أي : القاطع لكل عذوبة ، المجرّع لكل مرارة وصعوبة ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ أي : لا يتجدد لكم نوع نصر أبداً إن لم تتوبوا .

(204/671)

﴿ واتبعوا ﴾ أي : عالجوا أنفسكم وكلفوها أن تتبع ﴿ أحسن ما أنزل إليكم ﴾ أي : على سبيل العدل كالإحسان الذي هو أعلى من العفو الذي هو فوق الانتقام باتباع هذا القرآن

الذي هو أحسن ما نزل من كتب الله تعالى ، واتباع أحاسن ما فيه فتصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحسن إلى من ظلمك ، هذا في حق الخلائق ومثله في عبادة الخالق بأن تكون كأنك تراه الذي هو أعلى من استحضار أنه يراك الذي هو أعلى من أدائها مع الغفلة عن ذلك .

ولما كان هذا شديداً على النفس رغب فيه بقوله تعالى بمظهر صفة الإحسان موضع الإضمار : ﴿ من ربكم ﴾ أي : الذي لم يزل يحسن إليكم وأنتم تبارزونه بالعظائم . وقال الحسن رضي الله عنه : معنى الآية الزموا طاعته واجتنبوا معصيته فإن في القرآن ذكر القبيح لتجتنبه ، وذكر الأدون لئلا ترغب فيه ، وذكر الأحسن لتؤثره . وقيل : الأحسن الناسخ دون المنسوخ لقوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ (البقرة :)

وقيل : العزائم دون الرخص وقوله تعالى : ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ أي : ليس عندكم شعور بإتيانه بوجه من الوجوه فيه تهديد وتخويف .

ولما خوفهم الله تعالى بهذا العذاب بين أنهم بتقدير نزوله عليهم ماذا يقولون ، فحكى الله تعالى عنهم ثلاثة أنواع من الكلام الأول : ما ذكره بقوله تعالى:

﴿ أن ﴾ أي : كراهة أن ﴿ تقول نفسٌ ﴾ أي : عند وقوع العذاب وإفرادها وتنكيرها كاف في الوعيد لأن كل أحد يجوز أن يكون هو المراد ﴿ يا حسرتا على ما فرطت في جنب

الله ﴾ قال الحسن : قصرت في طاعة الله ، وقال مجاهد : في أمر الله ، وقال سعيد بن جبير : في حق الله وقيل : ضيعت في ذات الله ، وقيل : معناه قصرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله تعالى والعرب تسمي الجانب جنباً ، قال في "الكشاف" : هذا من باب الكناية لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبته فيه ألا ترى إلى قول الشاعر :

(205/671)

---

*إن السماحة والمروءة والندى **في قبة ضربت على ابن الحشرج*

أي : فإنه لم يصرح بثبوت هذه الصفات المذكورة لابن الحشرج بل كنى عن ذلك في قبة مضروبة عليه فأفاد اثباتها له ، والقبة تكون فوق الخيمة تتخذها الرؤساء ، وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة محضة والدوري عن أبي عمرو بين بين وورش بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ﴿ وإن ﴾ أي : والحال إني ﴿ كنت ﴾ أي : كان ذلك في طبعي ﴿ لمن الساخرين ﴾ أي : المستهزئين المتكبرين المنزلين أنفسهم في غير منزلتها وذلك أنه ما كفاني المعصية حتى كنت أسخر من أهل الطاعة أي : تقول هذا لعله يقبل منها ويعفى عنها على عادة المعترفين في وقت الشدائد لعلهم يعاودون إلى أجمل العوائد . الثاني من الكلمات التي حكاها الله تعالى عنهم بعد نزول العذاب عليهم : ما ذكره الله تعالى بقوله سبحانه:

﴿ أو تقول ﴾ أي : تلك النفس المفرطة ﴿ لو أن الله ﴾ أي : الذي له القدرة الكاملة والعلم الشامل ﴿ هداني ﴾ أي : لبيان الطريق ﴿ لكنت من المتقين ﴾ أي : الذين لا يقدمون على فعل إلا ما يدلهم عليه دليل . الثالث من الكلمات ما ذكره الله تعالى بقوله سبحانه:

﴿ أو تقول ﴾ أي : تلك النفس المفرطة ﴿ حين ترى العذاب ﴾ أي : الذي واجهها عياناً ﴿ لو أن ﴾ أي : يا ليت ﴿ لي كرة ﴾ أي : رجعة إلى دار العمل ﴿ فأكون ﴾ أي : يتسبب عن رجوعي إليها أن أكون ﴿ من المحسنين ﴾ أي : العاملين بالإحسان الذي دعا إليه القرآن .

تنبيه : في نصب فأكون وجهان أحدهما : عطفه على كرة فإنها مصدر فعطف مصدر مؤول على مصدر مصرح به كقولها :

*للبس عباءة وتقر عيني ** أحب إلي من لبس الشفوف*

والثاني : أنه منصوب على جواب التمني المفهوم من قوله تعالى : ﴿ لو أن لي كرة ﴾ والفرق بين الوجهين أن الأول : يكون فيه الكون متمنى ويجوز أن تضمر أن وأن تظهر ، والثاني : يكون فيه الكون مترتباً على حصول المتمنى لا متمنى ويجب أن تضمر أن . ثم أجاب الله تعالى هذا القائل بقوله سبحانه:

﴿ بلى قد جاءتك آياتي ﴾ أي : القرآن وهي سبب الهداية ﴿ فكذبت بها ﴾ أي : قلت ليست من عند الله ﴿ واستكبرت ﴾ أي : تكبرت عن الإيمان بها ﴿ وكنت من الكافرين ﴾ .

فإن قيل : هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله : ﴿ لو أن الله هداني ﴾ (الزمر :) ولم يفصل بينهما ؟

أجيب : بأنه لا يخلو إما أن يقدم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن وإما أن تؤخر القرينة الوسطى ، فلم يحسن الأول لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن ، وأما الثاني فيه من نقض الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة ثم التعلل بفقد الهداية ، ثم تمنى الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب ، فإن قيل : كيف صح أن تقع بلى جواباً لغير منفي ؟

أجيب : بأن قوله ﴿ لو أن الله هداني ﴾ بمعنى ما هديت .

﴿ ويوم القيامة ﴾ أي : الذي لا يصح في الحكمة تركه ﴿ ترى ﴾ أي : أيها المحسن ﴿ الذين كذبوا على الله ﴾ أي : الحائز لجميع صفات الكمال بنسبة الشريك والولد إليه ، وقال الحسن : هم الذين يقولون إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل ، قال البقاعي : وكأنه عنى من المعتزلة الذين اعتزلوا مجلسه وابتدعوا قولهم إنهم يخلقون أفعالهم قال : ويدخل فيه من تكلم

في الدين بجهل وكل من كذب وهو يعلم أنه كاذب في أي شيء كان ، فإنه من حيث إن فعله فعل من يظن أن الله تعالى لا يعلم كذبه أي : ولا يقدر على جزائه كأنه كذب على الله وقوله تعالى : ﴿ وجوههم مسودة ﴾ جملة من مبتدأ وخبر في محل نصب على الحال من الموصول لأن الرؤية بصرية وقيل : في محل نصب مفعولاً ثانياً لأن الرؤية قلبية ، ورد بأن تعلق الرؤية البصرية بالأجسام وألوانها أظهر من تعلق القلبية بهما ، وذكر أن هذا السواد مخالف لسائر أنواع السواد ﴿ أليس في جهنم مثوى ﴾ أي : مأوى ﴿ للمتكبرين ﴾ أي : الذين تكبروا على اتباع أمر الله تعالى وهو تقرير لأنهم يرونه كذلك .

(207/671)

ولما ذكر الله تعالى الذين أشقاهم أتبعهم حال الذين أسعدهم بقوله تعالى:

﴿ وينجي الله ﴾ أي : يفعل بما له من صفات الكمال في نجاتهم فعل المبالغ في ذلك ﴿ الذين اتقوا ﴾ أي : بالغوا في وقاية أنفسهم من غضبه فكما وقاهم في الدنيا من المخالفات حماهم هنا من العقوبات ﴿ بمفازتهم ﴾ أي : بسبب فلاحهم لأن العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة ، ويجوز أن يسمى العمل الصالح في نفسه مفازة لأنه سببها ، وقرأ حمزة والكسائي وشعبة بألف بعد الزاي جمعاً على أن لكل متق مفازة ، والباقون بغير ألف بعد

الزاي إفراداً وقوله تعالى ﴿ لا يمسهم السوء ﴾ جملة مفسرة لمفازتهم كأنه قيل : وما مفازتهم ؟ فقال : لا يمسهم السوء فلا محل لها ، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من الذين اتقوا ، ومعنى الكلام لا يمسهم مكروه ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أي : ولا يطرق بواطنهم حزن على فائت لأنه لا يفوت لهم شيء أصلاً .

ولما كان المخوف منه والمحزون عليه جامعين لكل ما في الكون فكان لا يقدر على دفعهما إلا القادر المبدع القيوم قال تعالى مستأنفاً أو معللاً ، مظهراً الاسم الأعظم تعظيماً للمقام: ﴿ الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرة وعلماً والذي نجاهم ﴿ خالق كل شيء ﴾ أي : من خير وشر وإيمان وكفر فلا يكون شيء أصلاً إلا بخلقه .

ولما دل هذا على القدرة الشاملة وكان لا بد معها من العلم الكامل قال تعالى : ﴿ وهو على كل شيء ﴾ أي : مع القهر والغلبة ﴿ وكيل ﴾ أي : حفيظ لجميع ما يريده قيوم لا عجز يلم بساحته ولا غفلة وقوله تعالى:

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ جملة مستأنفة والمقاليد جمع مقلاد مثل مفتاح ومفاتيح أو مقليد مثل منديل ومناديل أي : هو مالك أمرها وحافظها وهي من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها ، ومنه قولهم فلان ألقيت إليه مقاليد الملك وهي المفاتيح والكلمة أصلها فارسية ، فإن قيل : ما للكتاب المبين والفارسية ؟

أجيب : بأن التعريب قد أحالها عربية كما أخرج استعمال المهمل عن كونه مهملاً ، قال الزمخشري : "سأل عثمان النبي صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ فقال : يا عثمان ما سألني أحد عنها قبلك تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير" . وروى هذا الطبراني بسند ضعيف بل رواه ابن الجوزي في الموضوعات ، ثم قال الزمخشري وتأويله على هذا : أن الله تعالى في هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهي مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها من المتقين أصابه ، وقال قتادة ومقاتل : مفاتيح السموات والأرض بالرزق والرحمة وقال الكلبي : خزائن المطر والنبات .

ولما وصف الله تعالى بالصفة الإلهية والجلالة وهو كونه خالقاً للأشياء وكونه مالكاً لمقاليد السموات والأرض بأسرها قال بعده : ﴿ والذين كفروا ﴾ أي : لبسوا ما اتضح من الدلالات وجحدوا ﴿ بآيات الله ﴾ أي : دلائل قدرته الظاهرة الباهرة ﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء البغضاء ﴿ هم الخاسرون ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وكل شيء متصل بها على وجه النفع ، وقال الزمخشري : ﴿ والذين كفروا ﴾ متصل بقوله : ﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم ﴾ (الزمر :)

واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها وأن له مقاليد السموات والأرض ، واعترضه الرازي : بأن وينجي جملة فعلية والذين كفروا جملة اسمية وعطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يجوز واعترض الآخر بأنه لا مانع من ذلك .

ولما دعا كفار قريش النبي صلى الله عليه وسلم إلى دين آبائهم قال الله تعالى:

(209/671)

﴿ قل ﴾ أي : لهم ﴿ أفغير الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ أي : العريقون في الجهل لأن الدليل القاطع قد قام بأن الله تعالى هو المستحق للعبادة فمن عبد غيره فهو جاهل ، وقرأ نافع بتخفيف النون وفتح الياء وابن كثير بتشديد النون وسكون الياء ، وابن عامر بنونين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وسكون الياء والباقون بتشديد النون وسكون الياء .

﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ أي : الذي عملته قبل الشرك ، فإن قيل : الموحى إليهم جماعة فكيف قال لئن أشركت على التوحيد ؟

أجيب : بأن تقدير الآية أوحي إليك لئن أشركت ليحبطن عملك وإلى الذين من قبلك مثله

أي : أوحي إليك وإلى كل واحد منهم لئن أشركت كما تقول : كسانا حلة أي : كل واحد منا ، فإن قيل : كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم ؟

أجيب : بأن قوله تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ قضية شرطية ، والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزئها ، ألا ترى أن قولك لو كانت الخمسة زوجاً لكانت منقسمة بمتساويين ، قضية صادقة مع أن كل واحد من جزأيها غير صادق قال تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (الأنبياء :)

ولم يلزم من هذا صدق أن فيهما آلهة وأنهما قد فسدتا أو أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره كما قاله أكثر المفسرين أو أن ذلك على سبيل الفرض المحال ذكر ليكون ردعاً للأتباع .

ولما كان السياق للتهديد وكانت العبارة شاملة لما تقدم على الشرك من الأعمال وما تأخر عنه لم يقيده بالاتصال بالموت اكتفاء بتقييده في آية البقرة وهي ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ﴾ (البقرة :)

قال تعالى : ﴿ ولتكونن ﴾ أي : لأجل حبوطه ﴿ من الخاسرين ﴾ فإن من ذهب جميع عمله لا شك في خسارته أما من أسلم بعد ردته فإنما يحبط ثواب عمله لا عمله كما نص

عليه الشافعي .

تنبيه : اللام الأولى موطئة للقسم والأخريان للجواب .

(210/671)

ولما كان التقدير لا تشرك بنا عطف عليه قوله تعالى:

﴿ بل الله ﴾ أي : المتصف بصفات الكمال وحده ﴿ فاعبد ﴾ أي : مخلصاً له العبادة ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ أي : العريقين في هذا الوصف لأنه جعلك خير الخلائق أجمعين .

ولما حكى الله تعالى عن المشركين أنهم أمروا الرسول بعبادة الأصنام ، ثم إنه تعالى أقام الدلائل على فساد قولهم وأمر الرسول أن يعبد الله ولا يعبد سواه ، وبين أنهم لو عرفوا الله تعالى حق معرفته لما جعلوا هذه الأشياء الخسيسة مشاركة له في العبودية قال:

﴿ وما قدروا الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ حق قدره ﴾ أي : ما عظموه حق عظمته حين أشركوا به غيره مع أنهم لو استغرقوا الزمان كله في عبادته وخالص طاعته بحيث لم يخل شيء منه عنها لما كان ذلك حق قدره فكيف إذا خلا بعضه عنها فكيف إذا عدل به غيره .

ولما بين أنهم ما عظموه تعظيماً لائقاً به أردفه بما يدل على كمال عظمته بقوله تعالى :

﴿ والأرض جميعاً قبضته ﴾ وهو مبتدأ وخبر في محل نصب على الحال أي : ما عظموه حق عظمته والحال أنه موصوف بهذه القدرة الباهرة كقوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ (البقرة :)

أي : كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال ملكه كذا ، وجميعاً حال وهي دالة على أن المراد بالأرض : الأرضون لأن هذا التأكيد لا يحسن إدخاله إلا على الجمع ، وقدم الأرض على السموات لمباشرتهم لها ومعرفتهم بحقيقتها .

ولما كان في هذه الدنيا من يدعي الملك والقهر والعظمة والقدرة وكان الأمر في الآخرة بخلاف هذا لانقطاع الأسباب قال تعالى : ﴿ يوم القيامة ﴾ ولا قبضة هناك لا حقيقة ولا مجازاً وكذا الطي واليمين وإنما هو تمثيل وتخييل لتمام القدرة .

(211/671)

ولما كانوا يعلمون أن السموات سبع متطابقة بما يشاهدونه من سير النجوم جمع ليكون مع جميعاً كالتصريح في جمع الأرض أيضاً في قوله تعالى : ﴿ والسموات مطويات ﴾ أي : مجموعات ﴿ بيمينه ﴾ قال الإمام الرازي : وههنا سؤالات ؛ الأول : أن العرش أعظم من السموات السبع والأرضين السبع ثم إنه تعالى قال في صفة العرش ﴿ ويحمل عرش ربك

فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ (الحاقة :) ، فإذا وصف الملائكة بكونهم حاملين العرش العظيم فكيف يجوز تقرير عظمة الله عز وجل بكونه حاملاً للسموات والأرض ؟ وأجاب : بأن مراتب التعظيم كثيرة .

فأولها : تقرير الله بكونه قادراً على هذه الأجسام العظيمة كما أن حفظها وإمساكها يوم القيامة عظيم ، ثم بعده تقرير عظمته بكونه قادراً على إمساك أولئك الملائكة الذين يحملون العرش .

السؤال الثاني : قوله تعالى : ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ شرح حال لا تحصل إلا في القيامة والقوم ما شاهدوا ذلك فإن كان هذا الخطاب مع المصدقين للأنبياء فهم معترفون بأنه لا يجوز القول بجعل الأصنام شركاء لله فلا فائدة في إيراد هذه الحجة عليهم ، وإن كان الخطاب مع المكذبين بالنبوة فهم ينكرون قوله تعالى : ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ فكيف يمكن الاستدلال به على إبطال القول بالشرك ؟ .

وأجاب عنه : بأن المقصود منه أن المتولي لإبقاء السموات والأرضين من وجوه العمارة في هذا الوقت هو المتولي لتخريبها وإفنائها يوم القيامة ، وذلك يدل على حصول قدرة تامة على الإيجاد والإعدام ويدل أيضاً على كونه قادراً غنياً على الإطلاق ، فإنه يدل على أنه إذا حاول تخريب الأرض فكأنه يقبض وذلك يدل على كمال الاستغناء .

السؤال الثالث : حاصل القول بالقبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الأجسام العظيمة فكما أن حفظها وإمساكها يوم القيامة ليس إلا بقدرته تعالى ، فكذلك الآن فما الفائدة في تخصيص هذه الأحوال بيوم القيامة ؟ وأجاب : بأنه خصص تلك الحالة بيوم القيامة ليدل على أنه كما ظهر كمال قدرته في الإيجاد عند عمارة الدنيا يظهر كمال قدرته في الإعدام عند خراب الدنيا .

ولما كان هذا إنما هو تمثيل يعهد والمراد به الغاية في القدرة نزه نفسه المقدس عما ربما نسبه له المجسم والمشبه فقال تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ أي : تنزه من هذه القدرة قدرته عن كل شائبة نقص ﴿ وتعالى ﴾ علو الإيحاط به ﴿ عما يشركون ﴾ معه لأنه لو كان له شريك ينازعه في هذه القدرة أو بعضها لمنعه شيئاً منها وهذه معبوداتهم لا قدرة لها على شيء البتة . روى البخاري في صحيحه في التوحيد وغيره عن عبد الله بن مسعود قال : "جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إذا كان يوم القيامة جعل الله تعالى السموات على إصبع والأرضين على إصبع والماء والثرى على إصبع والخلائق على إصبع ثم يهزهن ثم يقول : أنا الملك . فلقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يضحك حتى بدت

نواجذه تعجباً وتصديقاً لقول الحبر ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ الآية" وإنما ضحك صلى الله عليه وسلم وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما فهم علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ، وإنما يدل ذلك على القدرة الباهرة وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأذهان هينة عليه هواناً لا يصل السامع إلى الوقوف عليه إلا بإجراء العبارة في مثل هذه الطريقة على التخييل .

(213/671)

وروى الشيخان عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبابرة أين المتكبرون ، ثم يطوي الأرضين ثم يأخذهن بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون" . وللبخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض" . قال أبو سليمان الخطابي : ليس فيما يضاف إلى الله عز وجل من وصف اليدين شمال لأن الشمال محل النقص والضعف ، وقد ورد كلتا يديه يمين وليس عندنا معنى اليد الجارحة وإنما هي صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها وننتهي حيث انتهى بنا

الكتاب والأخبار المأثورة الصحيحة ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة رضي الله تعالى عنهم ، وقال سفيان ابن عيينة : كل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه انتهى . وقد قدمنا أن السلف يجرون المتشابه على ما هو عليه وأن الخلف يؤولونه والأول أسلم والثاني أحكم .

ولما ذكر تعالى كمال قدرته وعظمته بما سبق ذكره أردفه بذكر طريق آخر يدل أيضاً على كمال العظمة وهو شرح مقدمات يوم القيامة فقال:

﴿ ونفخ في الصور ﴾ أي : القرن النفخة الأولى لأن نفخ الصور يكون قبل ذلك اليوم ﴿ فصعق ﴾ أي : مات ﴿ من في السموات ومن في الأرض ﴾ واختلف فيمن استثنى الله تعالى بقوله سبحانه : ﴿ إلا من شاء الله ﴾ فقال الحسن : هو الله وحده وقال ابن عباس : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام ، ثم يميت الله تعالى ميكائيل وإسرافيل وجبريل وملك الموت ، وقيل : حملة العرش ، وقيل : الحور والولدان ، وقيل : الشهداء لقوله تعالى : ﴿ بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (آل عمران :)

(214/671)

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش" . وقال جابر : هو موسى عليه السلام لأنه صعق فلا يصعق ثانياً وقال قتادة : الله أعلم بهم وليس في القرآن والأخبار ما يدل على أنهم من هم وهذا أسلم ، ﴿ ثم نفخ فيه ﴾ أي : في الصور نفخة ﴿ أخرى ﴾ أي : نفخة ثانية ﴿ فإذا هم ﴾ أي : جميع الخلائق الموتى ﴿ قيام ﴾ أي : قائمون ﴿ ينظرون ﴾ أي : يقبلون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب جسيم ، وقيل : ينتظرون أمر الله تعالى فيهم وهذا يدل على أن هذه النفخة متأخرة عن النفخة الأولى لأن لفظة ثم للتراخي ، وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما بين النفختين أربعون قالوا : أربعون يوماً ، قال أبو هريرة : أبيت ، قالوا : أربعون شهراً ، قال : أبيت ، قالوا : أربعون سنة ، قال : أبيت ، قال : ثم ينزل الله تعالى من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة" وقوله تعالى : ﴿ فإذا هم ﴾ يدل على أن قيامهم يحصل عقب هذه النفخة الأخيرة في الحال من غير تراخ لأن الفاء تدل على التعقيب .

ولما ذكر تعالى إقامتهم بالحياة التي هي نور البدن أتبعه بنور أرض القيامة فقال:

﴿ وأشرقت ﴾ أي : أضاءت إضاءة عظيمة مالت بها إلى الحمرة ﴿ الأرض ﴾ أي : التي أوجدت لحشرهم وليست بأرضنا الآن لقوله تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير

الأرض ﴾ (إبراهيم :)

. ﴿ بنور ربها ﴾ أي : خالقها وذلك حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين خلقه قال صلى الله عليه وسلم "سترون ربكم" وقال : "كما لا تضارون في الشمس في يوم الصحو" وقال الحسن والسدي : بعدل ربها . ﴿ ووضع الكتاب ﴾ أي : كتاب الأعمال للحساب لقوله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ (الإسراء :)

(215/671)

وقوله تعالى : ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ (الكهف :)

وقيل : الكتاب اللوح المحفوظ تقابل به الصحف ، وقيل : الكتاب الذي أنزل إلى كل أمة تعمل به ، واقتصر على هذا البقاعي . ﴿ وجيء بالنبيين ﴾ أي : للشهادة على أممهم واختلف في قوله تعالى : ﴿ والشهداء ﴾ فقال ابن عباس : يعني الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة وهم : محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه لقوله تعالى : ﴿ جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ (البقرة :)

وقال عطاء ومقاتل : يعني الحفظة لقوله تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾

(ق :)

وقيل : هم المستشهدون في سبيل الله .

ولما بين تعالى أنه يوصل إلى كل واحد حقه عبر عن هذا المعنى بأربع عبارات أولها قوله تعالى : ﴿ وقضى بينهم ﴾ أي : العباد ﴿ بالحق ﴾ أي : العدل ، ثانيها : قوله تعالى : ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي : لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ، ثالثها : قوله تعالى: ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ أي : جزاء ما عملته ، رابعها : قوله تعالى : ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ أي : فلا يفوته شيء من أفعالهم ثم فصل التوفية بقوله تعالى مقدماً أهل الغضب:

﴿ وسيق الذين كفروا ﴾ أي : بالعنف والدفع ﴿ إلى جهنم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴾ (الطور :)

(216/671)

أي : يدفعون إليها دفعاً وقوله تعالى : ﴿ زمراً ﴾ حال أي : جماعات في تفرقة بعضهم على أثر بعض كل أمة على حدة . ﴿ حتى إذا جاؤوها ﴾ أي : على صفة الذل والصغار ، وأجاب إذا بقوله تعالى : ﴿ فتحت أبوابها ﴾ أي : السبعة وكانت مغلقة قبل ذلك وإنما

تفتح عند وصول الكفار إليها ، وقرأ الكوفيون فتحت وفتحت الآتية بالتخفيف والباقون بالتشديد على التكثير . ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ إنكاراً عليهم وتقريعاً وتوبيخاً ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أي : من جنسكم لأن قيام الحجة بالجنس أقوى ﴿ يتلون ﴾ أي : يتلون مرة بعد مرة وشيئاً في إثر شيء ﴿ عليكم آيات ربكم ﴾ أي : المحسن إليكم من القرآن وغيره ﴿ وينذرونكم ﴾ أي : يخوفونكم ﴿ لقاء يومكم ﴾ وقولهم ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى يوم البعث ، فإن قيل : لم أضيف إليهم اليوم ؟

أجيب : بأنهم أرادوا لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة ، قال الزمخشري : وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضاً في أوقات الشدة ، ويجوز أن يراد باليوم يوم البعث كله وجرى عليه البقاعي وهو أولى ولما قال لهم الخزنة ذلك ﴿ قالوا بلى ﴾ أتونا وتلوا علينا وحذرونا ﴿ ولكن حقت ﴾ أي : وجبت ﴿ كلمة العذاب ﴾ أي : التي سبقت في الأزل علينا هكذا كان الأصل ولكنهم قالوا ﴿ على الكافرين ﴾ تخصيصاً بأهل هذا الوصف وبياناً لأنه موجب دخولهم وهو تغطيتهم الأنوار التي أتتهم بها الرسل عليهم الصلاة والسلام .

تنبيه : في الآية دليل على أنه لا وجوب قبل مجيء الشرع لأن الملائكة بينوا لهم أنهم ما بقي لهم عذر ولا على بعد مجيء الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فلو لم يكن مجيء الرسل شرطاً في استحقاق العذاب لما بقي في هذا الكلام فائدة ، وقيل : كلمة العذاب هي قوله تعالى :

﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (هود :)

ثم كأنه قيل : فماذا وقع بعد هذا التقريع ؟ .

(217/671)

﴿ قيل ﴾ : وقع أن الملائكة قالت لهم ﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ أي : طبقاتها المتجهمة لداخلها ﴿ خالدين ﴾ أي : مقدرين الخلود ﴿ فيها ﴾ ولما كان سبب كفرهم بالآيات هو التكبر قالوا لهم : ﴿ فبئس مثوى ﴾ أي : منزل ومقام ﴿ المتكبرين ﴾ أي : الذين أوجب تكبرهم حقوق كلمة العذاب عليهم فلذلك تعاطوا أسبابها .

ولما ذكر تعالى أحوال الكافرين أتبعه أحوال أضدادهم فقال عز من قائل:

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم ﴾ أي : الذين كلما زادهم إحساناً زادوا له هيبة ﴿ إلى الجنة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ زمراً ﴾ حال أي : جماعات أهل الصلاة المستكثرين منها على حدة وأهل الصوم كذلك إلى غير ذلك من الأعمال التي تظهر آثارها على الوجوه .

فإن قيل : السوق في أهل النار معقول لأنهم لما أمروا بالذهاب إلى موضع العذاب لا بد وأن يساقوا إليه وأما أهل الثواب فإذا أمروا بالذهاب إلى موضع السعادة والراحة فأي حاجة فيه إلى السوق ؟

أجيب : بأن المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ، والمراد بسوق أهل الجنة : سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين سراعاً إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك ، فشتان ما بين السوقين هذا سوق تشريف وإكرام وذاك سوق إهانة وانتقام ، وهذا من بدائع أنواع البديع وهو أن يأتي سبحانه بكلمة في حق الكفار فتدل على هوانهم بعقابهم ، ويأتي بتلك الكلمة بعينها وهيئتها في حق المؤمنين فتدل على إكرامهم بحسن ثوابهم فسبحان من أنزله معجز المباني وتمكن المعاني عذب الموارد والمثاني .

وقيل : إن المحبة والصداقة باقية بين المتقين إلى يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدواً إلا المتقين ﴾ (الإحزاب :)

فإذا قيل لواحد منهم : اذهب إلى الجنة فيقول : لا أدخلها إلا مع أحبابي وأصدقائي فيتأخرون لهذا السبب فحينئذ يحتاجون إلى السوق إلى الجنة .

(218/671)

ولما ذكر تعالى السوق ذكر غايته بقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاؤوها ﴾ اختلف في جواب إذا على أوجه أحدها قوله تعالى : ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ والواو زائدة وهو رأي الكوفيين والأخفش ، وإنما جيء هنا بالواو دون التي قبلها لأن أبواب السجون مغلقة عادة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ثم تغلق عليه فناسب ذلك عدم الواو فيها بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها ، فعلى هذا أبواب جهنم تكون مغلقة لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها ، فأما أبواب الجنة ففتحها يكون مقدماً على دخولهم إليها كما قال تعالى : ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴾ (ص :)

فلذلك جيء بالواو فكأنه قال : حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها .

ثانيها قوله تعالى : ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ أي : بزيادة الواو أيضاً أي : حتى إذا جاؤوها قال لهم خزنتها ، ثالثها : قال الزجاج : القول عندي إن الجواب محذوف تقديره دخلوها بعد قوله تعالى : ﴿ إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ﴾ أي : حين الوصول ﴿ سلام عليكم ﴾ تعجيلاً للمسرة بالبشارة بالسلامة التي لا عطب فيها ﴿ طبتم ﴾ أي : صلحتم لسكناها لأنها دار طهرها الله تعالى من كل دنس وطيبها من كل قذر فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحاً تنقي أنفسنا من درن الذنوب وتميط وضر هذه القلوب ثم سببوا عن ذلك ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ أي :

مقدرين الخلود . وسمى بعضهم الواو في قوله تعالى : ﴿ وفتحت ﴾ واو الثمانية قال : لأن أبواب الجنة ثمانية وكذا قالوا في قوله تعالى : ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ (الكهف :)

وقيل : تقدير الجواب ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ يعني أن الجواب بلفظ الشرط ولكنه بزيادة تقييده بالحال فلذلك صح ، وقدره الجلال المحلي بقوله : دخلوها وقال : إن قوله تعالى:

(219/671)

﴿ وقالوا ﴾ عطف على دخلوها المقدر ﴿ الحمد ﴾ أي : الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ الذي صدقنا وعده ﴾ في قوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ (مريم :)

فطابق قوله الواقع الذي وجدناه في هذه الساعة ﴿ وأورثنا ﴾ كما وعدنا ﴿ الأرض ﴾ أي : الأرض التي لا أرض في الحقيقة غيرها وهي أرض الجنة التي لا كدر فيها بوجه وفيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وقولهم : ﴿ نتبوأ ﴾ أي : ننزل ﴿ من الجنة حيث نشاء ﴾ جملة حالية وحيث ظرف على بابها وقيل : مفعول به ، وإنما عبر عن أرض الجنة بالأرض لوجهين ؛ أحدهما : أن الجنة كانت في أول الأمر لآدم عليه السلام لأنه تعالى قال : ﴿ فكلا

منها رغداً حيث شئتما ﴾ فلما عادت الجنة إلى أولاد آدم عليه السلام كان ذلك سبباً للإرث ، ثانيها : أن الوارث ينصرف فيما ورثه كيف شاء من غير منازع فكذلك المؤمنون يتصرفون في الجنة حيث شاؤوا وأرادوا ، فإن قيل : كيف يتبوأ أحدهم مكان غيره ؟ أجيب : بأن لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوأ من جنته حيث شاء ولا يحتاج إلى جنة غيره ولا يشتهي أحد إلا مكانه مع أن في الجنة مقامات معنوية لا يتمانع واردوها ولما كانت بهذا الوصف الجليل تسبب عنه مدحها بقوله : ﴿ فنعم ﴾ أي : أجرنا هكذا كان الأصل ولكنه قال : ﴿ أجر العاملين ﴾ ترغيباً في الأعمال وحثاً على عدم الاتكال .

ولما ذكر سبحانه الذين أكرمهم من المتقين وما وصلوا إليه من المقامات أتبعهم أهل الكرامات الذين لا شاغل لهم عن العبادات فقال تعالى صارفاً الخطاب لعلو الخبر إلى أعلى الخلق لأنه لا يقوم بحق هذه الرؤية غيره:

(220/671)

﴿ وترى الملائكة ﴾ أي : القائمين بجميع ما عليهم من الحقوق وقوله تعالى : ﴿ حافين ﴾ حال أي : محدقين ﴿ من حول العرش ﴾ أي : من جوانبه التي يمكن الحفوف بها بالقرب

منها يسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتحميد والتقديس والاهتزاز خوفاً من ربهم ، فإدخال من يفهم مع كثرتهم إلى حد لا يحصيه إلا الله تعالى أنهم لا يملؤون حوله ، وهذا أولى من قول البيضاوي : إن من زائدة وقوله تعالى : ﴿ يسبحون ﴾ حال من ضمير حافين ﴿ بحمد ربهم ﴾ أي : متلبسين بحمده يقولون سبحان الله وبحمده فهم ذاكرون له بوصفي جلاله وإكرامه تلذذاً به ، وفيه إشعار بأن منتهى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في صفات الحق ﴿ وقضي بينهم ﴾ أي : بين جميع الخلق ﴿ بالحق ﴾ أي : العدل فيدخل المؤمن الجنة والكافر النار أو بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم ﴿ وقيل ﴾ أي : وقال المؤمنون من المقضي بينهم والملائكة وطي ذكرهم لتعيينهم وتعظيمهم ﴿ الحمد ﴾ أي : الإحاطة بجميع أوصاف الكمال ، وعدل بالقول إلى ما هو أحق بهذا المقام فقال ﴿ لله ﴾ ذي الجلال والإكرام علمنا ذلك في هذا اليوم عين اليقين كما كنا في الدنيا نعلمه علم اليقين .

ولما كان هذا اليوم أحق الأيام بمعرفة شمول الربوبية لاجتماع الخلائق وانفتاح البصائر وسعة الضمائر قال واصفاً له سبحانه بأقرب الصفات إلى الاسم الأعظم ﴿ رب العالمين ﴾ أي : الذين ابتدأهم أول مرة من العدم ، وأقامهم ثانياً بما رباهم به من التدبير ، وأعادهم ثالثاً بعد إفنائهم بأكمل قضاء وتقدير وأبقاهم رابعاً لا إلى أخير وقيل : إن الله تعالى ابتدأ ذكر الخلق بالحمد لله في قوله سبحانه : ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ﴾ (الأنعام :)

(221/671)

وختم بالحمد في آخر الأمر وهو استقرار الفريقين في منازلهم فنبه بذلك على تحميده في بداية كل أمر وخاتمته والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ، وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة وأعطاه الله ثواب الخائفين" . حديث موضوع ، وقوله عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها : "أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر" رواه الترمذي وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 269 . 285 ﴾

(222/671)

وقال القاسمى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾

أي : جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والكفر : ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾ قرئ بفتح النون وكسرها : ﴿ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ أي : لا تيأسوا من مغفرته بفعل سبب يمحو أثر الإسراف

: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ أي : لمن تاب وآمن ؛ فإن الإسلام يجب ما قبله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ أي : توبوا إليه : ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ أي : استسلموا وانقادوا له ، وذلك بعبادته وحده ، وطاعته وحده ، بفعل ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ ﴾ أي : قصرت : ﴿ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ أي : في جانب أمره ونهيه ، إذ لم أتبع أحسن ما أنزل : ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ أي : المستهزئين بمن يتبع الأحسن . و : ﴿ أَن تَقُولَ ﴾ مفعول له بتقدير مضاف ؛ أي : فتداركوا كراهة أن تقول ، أو تعليل لفعل يدل عليه ما قبله ، أي : أنذركم وآمركم باتباع أحسن القول كراهة . وتفصيله في " شروح الكشاف " .

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ﴾ أي : للإسلام : ﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي : من هذا الكفر ؛ أي : تقول هذا النوع من التحسر ، والتعلل بما لا يجدي .

(223/671)

﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ أي : رجعة إلى الدنيا : ﴿ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي في الإيمان والعمل الصالح . ثم رد تعالى على تلك النفوس بقوله :

﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : بنسبة ما يستحيل عليه من الولد والشريك ، وتجويز ما يمتنع عليه من رضاه بما هم عليه ، وأمره لهم ، وغير ذلك من إفكهم : ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أي : لما ينالهم من الشدة التي تغير ألوانهم ، فالسواد حقيقي ، أو لما لحقهم من الكآبة ، ويظهر عليهم من آثار الهيئات الظلمانية ، ورسوخ الرذائل النفسانية في ذواتهم ، فالسواد مجاز بالاستعارة : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي : عن الإيمان والهدى .

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ أي : بفوزهم ، وفلاحهم لإتيانهم بأسباب الفوز ، من الاعتقادات المبنية على الدلائل ، والأعمال الصالحة : ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي : يتولى التصرف فيه كيف شاء .

(224/671)

﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : هو وحده يملك أمرها ، وخزائن غيوبها وأبواب خيرها وبركتها : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾ أي : خصه بالعبادة : ﴿ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي : الصارفين ما أنعم به عليهم ، إلى ما خلق لأجله .

قيل : كان الظاهر : لو أشركت ؛ لأن أن ، تقتضي احتمال الوقوع . وهو هنا مقطوع بعدمه . فالجواب : أن هذا الكلام وارد على سبيل الفرض . والمحالات يصح فرضها لأغراض . والمراد به تهييج الرسل ، وإقناط الكفرة ، والإيذان بغاية قبح الإشراك ، وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره ، فكيف بمن عداه ؟ .

وإطلاق الإحباط هنا يستدل به من ذهب إلى أن الردة مبطلة للعمل مطلقا ، كالحنفية . وغيرهم يرى الإحباط مقيداً بالاستمرار عليه إلى الموت ، وأنه هو المحيط في الحقيقة ، وأنه إنما ترك التقييد به اعتماداً على التصريح به في آية أخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ [البقرة : 217] .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : ما قدروا عظمته تعالى حق عظمته ، ولا عرفوا جلاله حق معرفته ؛ حيث جعلوا له شركاء ، ووصفوه بما لا يليق بشؤونه الجليلة ، مع أن عظمته وكمال قدرته تتحير فيها الأوهام ، فإن تبديل الأرض غير الأرض ، وطي السماوات كطي السجل ، أهون شيء عليه .

وفي القبضة واليمين ، مذهبان معروفان :

مذهب السلف ، وهو إثبات ذلك من غير تكييف له ، ولا تشبيه ، ولا تحريف ، ولا تبديل ، ولا تغيير ، ولا إزالة للفظ الكريم عما تعرفه العرب ، وتضعه عليه بتأويل ، يجرون على الظاهر ، ويكلون علمه إليه تعالى ، ويقرون بأن تأويله : أي : ما يؤول إليه من حقيقته ، لا يعلمه إلا الله ، وهكذا قولهم في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ، ووردت بها الأخبار الصحاح .

المذهب الثاني – القول بأن ذلك من المجاز المعروف نظيره في كلام العرب ، وإن الإطلاق لا ينحصر في الحقيقة . ثم من ذاهب إلى أن المجاز في المفردات, استعيرت القبضة للملك ، أو التصرف واليمين للقدرة ، وذاهب إلى أنه في المركب ، بتمثيل حال عظمته ونفاذ قدرته ، بحال من يكون له قبضة فيها الأرض ، ويمين بها تطوى السماوات ، وهذا ما عول عليه الزمخشري وبسطه أحس بسط .

ثم أشار إلى أن من عظيم قدرته تعالى ، أنه جعل النفخ في الصور سبب موت الكل تارة ، وحياتهم أخرى ، بقوله :

(226/671)

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ ﴾ أي : هلك : ﴿ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ أي : من خواص الملائكة ، أو من الشهداء ، روي ذلك عن بعض التابعين . وقال قتادة : قد استثنى الله ، والله أعلم ، إلى ما صار ثُنْيَتُه . وهذا هو الوجه ؛ إذ لا يصار إلى بيان المبهمات إلا بقاطع : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أي : وقوف ، يقلبون أبصارهم دهشاً وحيرةً ، أو ينتظرون ما يحل بهم .

﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أي : لأنه يتجلى لهم سبحانه لإقامة العدل والجزاء ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ أي : عرض كتب الأعمال على أهلها ليقرأ كل واحد عمله في صحيفته . أو : ﴿ الْكِتَابُ ﴾ مجاز عن الحساب وما يترتب عليه من الجزاء ، ووضعه ترشيح له . والمراد بوضعه الشروع فيه ، أو هو تمثيل . وجوهٌ نقلها الشهاب : ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ أي : الذين يشهدون للأمم وعليهم ، من الحفظة والأخيار المطلعين على أحوالهم ؛ أي : أحضروا للشهادة لهم ، أو عليهم لاطّلاعهم على أحوالهم ، وجوّز

إرادة المستشهدين في سبيل الله تعالى ، تنويهاً بشأنهم ، وترفيعاً لقدرهم ، بضمهم إلى النبيين في الموقف . ولا يبعد : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي : فتوزن أعمالهم بميزان العدل ، ويوفّون جزاء أعمالهم ، لا ينقص منها شيء ، كما قال :

(227/671)

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً ﴾ أي : أفواجاً متفرقة بعضها في أثر بعض ، على تفاوت ضلالهم وغيهم ، رعاية للعدل في التقديم والتأخير : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ أي : ليدخلوها ، ولكل فريق باب

(228/671)

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ أي : الموكلون بتعذيبهم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أي : من جنسكم تعرفون صدقهم وأمانتهم : ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي : وقتكم أو يوم القيامة ، حرصاً على صلاحكم وهدايتكم : ﴿ قَالُوا بَلَى

وَلَكِنْ حَقَّتْ ﴾ أي : وجبت : ﴿ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي : حكمه عليهم بالشقاوة ، وأنهم من أهل النار : ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ ﴾ أي : مساق إعزاز وتشريف ، للإسراع بهم إلى دار الكرامة : ﴿ زُمَراً ﴾ أي : متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ أي : من دنس المعاصي ، وطهرتم من خبث الخطايا

﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ قال السمين : في جواب : ﴿ إِذَا ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها – قوله : ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ والواو زائدة . وهو رأي الكوفيين والأخفش ، وإنما جيء هنا الواو دون التي قبلها ؛ لأن أبواب السجون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ، ثم تغلق عليه ، فناسب ذلك عدم الواو فيها ، بخلاف أبواب السرور والفرح ، فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها .

والثاني – أن الجواب قوله : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ على زيادة الواو أيضاً .

(229/671)

الثالث – أن الجواب محذوف . قال الزمخشري : وحقه أن يقدر بعد خالدين : أي لأنه يجيء بعد متعلقات الشرط ما عطف عليه . والتقدير : اطمأنوا . وقدّره المبرد : سعدوا . وعلى هذين الوجهين ، فتكون الجملة من قوله : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ في محل نصب على الحال ، والواو واو الحال ؛ أي : جاءوها مفتحة أبوابها ؛ كما صرح بمفتحة حالاً من : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ وهو قول المبرد والفارسي وجماعة ، وزعم بعضهم أن هذه الواو تسمى واو الثمانية ؛ لأن أبواب الجنة ثمانية ، وردّه في " المغني " بأنه لو كان لواو الثمانية حقيقة ، لم تكن الآية منها ؛ إذ ليس فيها ذكر عدد البتة ، وإنما فيها ذكر الأبواب ، وهي جمع يدل على عدد خاص . ثم الواو ليست داخلة عليه ، بل على جملةٍ هو فيها . انتهى .

أي وهي – على قول مثبتها – الداخلة على لفظ الثمانية على سرد العدد ، ذهاباً إلى أن بعض العرب إذا عدّوا قالوا : ستة سبعة وثمانية . إيذاناً بأن السبعة عدد تام ، وأن ما بعده عدد مستأنف ، فأشبهت واو الاستئناف .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أي : بإيصالنا إلى ما وعدنا ، وأنبأنا عنه على ألسنة رسله : ﴿ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ﴾ أي : أرض الآخرة . شبه نيلهم بأعمالهم لها ، بإرثهم من آبائهم ؛ فكأن الأعمال آباؤهم ، كما قيل :

~ وَأَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ

وكما يقال : الصدق يورث النجاة ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء ﴾ أي : يتبوأ كل من جنته الواسعة ، أي : مكان أراده : ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ أي : الذين عملوا بما عملوا : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ أي : الملائكة السماوية حافين في جنة الفردوس حول عرش الرحمن ، محدقين به . وتقدم في تفسير آية : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : 54] في الأعراف ، كلام في حملة العرش ، فتذكره : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ أي : بين الخلائق : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالعدل : ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : على ما قضى بينهم بالحق ، وأنزل كلاً منزلته التي هي حقه . والقائل : إما الحق جل جلاله ، أو الملائكة الحافون ، أو المؤمنون ممن قضي بينهم ، أو الكل ، فله الحمد عز وجل .

عن قتادة قال : افتتح الله أول الخلق بـ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ وختم بالحمد فقال : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 186.181 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾

ولما صور الله الحال المفزعة التي يكون عليها الظالمون يوم القيامة في قوله : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ عاد يفتح أبواب رحمته على مصاريعها بالتوبة . ويطمع في رحمته ومغفرته أهل المعاصي مهما يكونوا قد أسرفوا في المعصية . ويدعوهم إلى الأوبة إليه غير قانطين ولا يائسين . ومع الدعوة إلى الرحمة والمغفرة صورة ما ينتظرهم لو لم يئوبوا ويتوبوا ، ولو لم ينتهزوا هذه الفرصة المتاحة قبل إفلاتها وفوات الأوان . .

﴿ قل : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً . إنه هو الغفور الرحيم ﴾ . .

إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية . كائنة ما كانت وإنها الدعوة للأوبة . دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال . دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو

الله . إن الله رحيم بعباده . وهو يعلم ضعفهم وعجزهم . ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه . ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد . ويأخذ عليهم كل طريق . ويجلب عليهم بخيله ورجله . وأنه جاد كل الجد في عمله الخبيث ! ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه . وأنه مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه والعروة التي تشده . وأن ما ركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك ؛ ويوقعه في المعصية وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم . .

(232/671)

يعلم الله سبحانه عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له في العون ؛ ويوسع له في الرحمة ؛ ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيء له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط . وبعد أن يلج في المعصية ، ويسرف في الذنب ، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره ، ولم يعد يقبل ولا يستقبل . في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط ، يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف :

﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب

جميعاً . إنه هو الغفور الرحيم ﴾ . .

وليس بينه وقد أسرف في المعصية ، ولج في الذنب ، وأبق عن الحمى ، وشرد عن الطريق ليس بينه وبين الرحمة الندية الرخية ، وظلالها السمحة المحيية . ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة . التوبة وحدها . الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع ، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان :

﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون .

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62)

هذا القطاع الأخير في السورة ، يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذي خلق كل شيء ، المالك المتصرف في كل شيء . فتبدو دعوة المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم في مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه ! تبدو هذه الدعوة مستغربة ، والله هو خالق كل شيء ، وهو المتصرف في ملكوت السماوات والأرض بلا شريك . فأنى يعبد معه غيره ، وله وحده مقاليد السماوات والأرض ؟ !

﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ وهم يشركون به وهو وحده المعبود القادر القاهر ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ﴾ . . وبمناسبة تصوير هذه الحقيقة على هذا النحو يوم القيامة يعرض مشهداً فريداً من مشاهد القيامة ، ينتهي بموقف الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وينطق الوجود كله بحمده : ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ . . فتكون هذه هي كلمة الفصل في حقيقة التوحيد .

﴿ الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السماوات والأرض . والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ . .

إنها الحقيقة التي ينطق بها كل شيء . فما يملك أحد أن يدعي أنه خلق شيئاً . وما يملك عقل أن يزعم أن هذا الوجود وجد من غير مبدع . وكل ما فيه ينطق بالقصد والتدبير ؛ وليس أمر من أموره متروكاً لقى أو للمصادفة من الصغير إلى الكبير : ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ . . وإلى الله قياد السماوات والأرض . فهو يصرفها وفق ما يريد ؛ وهي تسير وفق نظامه الذي قدره ؛ وما تتدخل إرادة غير إرادته في تصريفها ، على ما تشهد الفطرة ، وينطق الواقع ، ويقر العقل والضمير .

﴿ والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ . .

خسروا الإدراك الذي يجعل حياتهم في الأرض متسقة مع حياة الكون كله ؛ وخسروا راحة الهدى وجمال الإيمان وطمأنينة الاعتقاد وحلاوة اليقين . وخسروا في الآخرة أنفسهم

وأهليهم . فهم الخاسرون الذين ينطبق عليهم لفظ ﴿ الخاسرون ﴾ !

وعلى ضوء هذه الحقيقة التي تنطق بها السماوات والأرض ، ويشهد بها كل شيء في الوجود ، يلقن الرسول صلى الله عليه وسلم استنكار ما يعرضونه عليه من مشاركتهم عبادة آلهتهم في مقابل أن يعبدوا معه إلهه . كأن الأمر أمر صفقة يساوم عليها في السوق !

﴿ قل : أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ؟ ﴾ . .

وهو الاستنكار الذي تصرخ به الفطرة في وجه هذا العرض السخيف الذي ينبئ عن الجهل المطلق المطبق المطموس .

(234/671)

ويعقب عليه بتحذير من الشرك . يبدأ أول ما يبدأ بالأنبياء والمرسلين . وهم صلوات الله عليهم لا يتطرق إلى قلوبهم طائف الشرك أبداً . ولكن التحذير هنا ينبه سواهم من أقوامهم إلى تفرد ذات الله سبحانه في مقام العبادة ، وتوحد البشر في مقام العبودية ، بما فيهم الأنبياء والمرسلون :

﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك : لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين ﴾ .

.

ويختم هذا التحذير من الشرك بالأمر بالتوحيد . توحيد العبادة والشكر على الهدى واليقين ، وعلى آلاء الله التي تغمر عباده ، ويعجزون عن إحصائها ، وهم فيها مغمورون :

﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ . .

﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ . .

نعم . ما قدروا الله حق قدره ، وهم يشركون به بعض خلقه . وهم لا يعبدونه حق عبادته . وهم لا يدركون وحدانيته وعظمته . وهم لا يستشعرون جلاله وقوته .

ثم يكشف لهم عن جانب من عظمة الله وقوته . على طريقة التصوير القرآنية ، التي تقرب للبشر الحقائق الكلية في صورة جزئية ، يتصورها إدراكهم المحدود :

﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة . والسماوات مطويات بيمينه . سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ . .

وكل ما يرد في القرآن وفي الحديث من هذه الصور والمشاهد إنما هو تقريب للحقائق التي لا يملك البشر إدراكها بغير أن توضع لهم في تعبير يدركونه ، وفي صورة يتصورونها . ومنه هذا التصوير لجانب من حقيقة القدرة المطلقة ، التي لا تتقيد بشكل ، ولا تتحيز في حيز ، ولا تتحدد بحدود .

ثم يأخذ في مشهد من مشاهد القيامة يبدأ بالنفخة الأولى ، وينتهي بانتهاء الموقف ، وسوق

أهل النار إلى النار . وأهل الجنة إلى الجنة . وتفرد الله ذي الجلال . وتوجه الوجود لذاته بالتسبيح والتحميد .

وهو مشهد رائع حافل ، يبدأ متحركاً ، ثم يسير وئيداً ، حتى تهدأ كل حركة ، وتسكن كل نأمة ، ويخيم على ساحة العرض جلال الصمت ، ورهبة الخشوع ، بين يدي الله الواحد القهار !

(235/671)

ها هي ذي الصيحة الأولى تنبعث ، فيصعق من يكون باقياً على ظهر الأرض من الأحياء ، ومن في السماوات كذلك إلا من شاء الله ولا نعلم كم يمضي من الوقت حتى تنبعث الصيحة الثانية :

﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله . ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ . .

ولا تذكر الصيحة الثالثة هنا . صيحة الحشر والتجميع . ولا تصور ضجة الحشر وعجيج الزحام . لأن هذا المشهد يرسم هنا في هدوء ، ويتحرك في سكون .

﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ . .

أرض الساحة التي يتم فيها الاستعراض . ونور ربها الذي لا نور غيره في هذا المقام . .

﴿ ووضع الكتاب ﴾ . . الحافظ لأعمال العباد . .

﴿ وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ . . ليقولوا كلمة الحق التي يعلمون . . وطوي كل خصام وجدال في هذا المشهد تنسيقاً لجوه مع الجلال والخشوع الذي يسود الموقف العام :

﴿ وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾ . .

فلا حاجة إلى كلمة تقال ، ولا إلى صوت واحد يرتفع . ومن ثم تجمل وتطوى عملية الحساب والسؤال والجواب التي تعرض في مشاهد أخرى . لأن المقام هنا مقام روعة وجلال .

(236/671)

(وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً) . (حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها) . .

واستقبلهم خزنتها يسجلون استحقاقهم لها ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها :

(وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) ؟

(قالوا: بلى . ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) . .

فالموقف موقف إذعان وتسليم . لا موقف مخاصمة ولا مجادلة . وهم مقرون مستسلمون !

(قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها . فبئس مثوى المتكبرين) !

ذلك ركب جهنم ركب المتكبرين . فكيف ركب الجنة ؟ ركب المتقين ؟

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75)

(وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا . حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها . وقال لهم خزنتها: سلام عليكم . طبتم . فادخلوها خالدين) . .

فهو الاستقبال الطيب . والثناء المستحب . وبيان السبب . (طبتم) وتطهرتم . كنتم طيبين . وجئتم طيبين . فما يكون فيها إلا الطيب . وما يدخلها إلا الطيبون . وهو الخلود في ذلك النعيم . .

هنا تهينم أصوات أهل الجنة بالتسبيح والتحميد :

(وقالوا: الحمد لله . الذي صدقنا وعده , وأورثنا الأرض , نتبوأ من الجنة حيث نشاء) .

فهذه هي الأرض التي تستحق أن تورث . وهم يسكنون فيها حيث شاءوا وينالون منها

الذي يريدون .

(فنعم أجر العاملين) . .

ثم يختم المشهد بما يغمر النفس بالروعة والرهبة والجلال , وما يتسق مع جو المشهد كله وظله , وما يختم سورة التوحيد أنسب ختام ; والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد ; في خشوع واستسلام . وكلمة الحمد ينطق بها كل حي وكل موجود في استسلام:

(وترى الملائكة حافين من حول العرش , يسبحون بحمد ربهم , وقضي بينهم بالحق , وقيل:الحمد لله رب العالمين) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3057 . 3063 ﴾

(237/671)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في بعض الآيات : ﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ [الزمر : 2] أي اعبده تعالى بنفسك وقلبك وروحك مخلصاً ، وإخلاص العبادة بالنفس التباعد عن

الانتقاص ، وإخلاص العبادة بالقلب العمى عن رؤية الأشخاص ، وإخلاص العبادة بالروح نفي طلب الاختصاص .

(238/671)

وذكر أن المخلص من خلص بالجود عن حبس الوجود ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ كاذب كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : 3] فيه إشارة إلى تهديد من يدعي رتبة من الولاية ليس بصادق فيها وعقوبته حرمان تلك الرتبة ﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار وَيُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ [الزمر : 5] فيه إشارة إلى أحوال السائرين إلى الله سبحانه من القبض والبسط والصحو والسكر والجمع والفرق والستر والتجلي وغير ذلك ﴿ فِى ظلمات ثلاث ﴾ [الزمر : 6] قيل : يشير إلى ظلمة الإمكان وظلمة الهيولى وظلمة الصورة ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء الليل ساجدا وَقَائِماً ﴾ يشير إلى القيام بآداب العبودية ظاهراً وباطناً من غير فتور ولا تقصير ﴿ يَحْذَرُ الآخرة ﴾ ونعيمها كما يحذر الدنيا وزينتها ﴿ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ ﴾ رضاه سبحانه عنه وقربه عز وجل : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ ﴾ قدر معبودهم جل شأنه فيطلبونه ﴿ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فيطلبون ما سواه ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ حقيقة الأمر ﴿ أُوْلُو الألباب ﴾ [الزمر : 9] وهم الذين انسلخوا من جلد وجودهم وصفوا عن

شوائب أنانيتهم ﴿ قُلْ يا أهل عِبَادِى الذين كَفَرُواْ ﴾ بي شوقاً إلي ﴿ اتقوا رَبَّكُمُ ﴾ فلا تطلبوا غيره سبحانه ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ في طلبي في هذه الدنيا بأن لم يطلبوا مني غيري ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ عظيمة وهي حسنة وجداني ﴿ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ ﴾ وهي حضرة جلاله وجماله فإنها لا نهاية لها فليسر فيها ليرى ما يرى ولا يظن بما فتح عليه انتهاء السير وانقطاع الفيض ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون ﴾ على صدق الطلب ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ من التجليات ﴿ بغير حساب ﴾ [الزمر : 10] إذ لا نهاية لتجلياته تعالى : ﴿ وَكُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ ﴿ قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى ﴾ بطلب ما سواه ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الزمر : 13] وهو عذاب القطيعة والحرمان ﴿ قُلِ الله أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى ﴾ [الزمر : 14] فلا أطلب دنيا ولا أخرى كما قيل

: وكل له سؤل ودين ومذهب . . .

ولي أنتم سؤل وديني هواكم

(239/671)

﴿ قُلْ إِنَّ الخاسرين الذين خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي الذين تبين خسران أنفسهم بإفساد استعدادها للوصول والوصال ﴿ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ من القلوب والإسرار والأرواح بالإعراض

عن طلب المولى ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ الذي تتبين فيه الحقائق ﴿ ذلك هُوَ الخسران المبين ﴾ [الزمر : 15] الذي لا خفاء فيه لفوات رأس المال وعدم إمكان التلافي ، وقال بعض الأجلة : إن للإنسان قوتين يستكمل بإحداهما علماً وبالأخرى عملاً ، والآلة الواسطة في القسم الأول هي العلوم المسماة بالمقدمات وترتيبها على الوجه المؤدي إلى النتائج التي هي بمنزلة الربح يشبه تصرف التاجر في رأس المال بالبيع والشراء ، والآلة في القسم العملي هو القوى البدنية وغيرها من الأسباب الخارجية المعينة عليها ، واستعمال تلك القوى في وجوه أعمال البر التي هي بمنزلة الربح يشبه التجارة ، فكل من أعطاه الله تعالى العقل والصحة والتمكين ثم إنه لم يستفد منها معرفة الحق ولا عمل الخير فإذا مات فات ربحه وضاع رأس ماله ووقع في عذاب الجهل وألم البعد عن عالمه والقرب مما يضاده أبد الآباد ، فلا خسران فوق هذا ولا حرمان أبين منه ، وقد أشار سبحانه إلى هذا بقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : 16] وهذا على الأول إشارة إلى إحاطة نار الحسرة بهم ﴿ لكن الذين اتقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [الزمر : 20] قيل الغرف المبنية بعضها فوق بعض إشارة إلى العلوم المكتسبة المبنية على النظريات وأنها تكون في المتانة واليقين كالعلوم الغريزية البديهية ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء ﴾ من سماء حضرته سبحانه أو من سماء القلب ﴿ مَاء ﴾ ماء

المعارف والعلوم ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ ﴾ مدارك وقوى ﴿ فِي الأَرْضِ ﴾ أرض البشرية ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً ﴾ من الأعمال البدنية

(240/671)

والأقوال اللسانية ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حطاما ﴾ [الزمر : 21] إشارة إلى أفعال المرائين وأقوالهم ترى مخضرة وفق الشرع ثم تصفر من آفة الرياء ثم تكون حطاماً لا حاصل لها إلا الحسرة ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإسلام ﴾ للانقياد إليه سبحانه ﴿ فَهُوَ على نُورٍ مّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر : 22] يستضيء به في طلبه سبحانه ، ومن علامات هذا النور محو ظلمات الصفات الذميمة النفسانية والتحلية بالأخلاق الكريمة القدسية .

﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كتابا متشابها مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ إذا قرعت صفات الجلال أبواب قلوبهم ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ﴾ [الزمر : 23] بالشوق والطلب ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء متشاكسون ﴾ يتجاذبونه وهم شغل الدنيا وشغل العيال وغير ذلك من الأشغال ﴿ وَرَجُلاً سَلَماً لّرَجُلٍ ﴾ [الزمر : 29] إشارة إلى المؤمن الخالص الذي لم يشغله شيء عن مولاه عز شأنه ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ على الله ﴾ يشير إلى حال الكاذبين في دعوى الولاية

﴿ وَكَذَّبَ بالصدق إِذْ جَاءهُ ﴾ [الزمر : 32] يشير إلى حال أقوام نبذوا الشريعة وراء ظهورهم وقالوا : هي قشر والعياذ بالله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر : 60] قيل : هو سواد قلوبهم ينعكس على وجوههم ﴿ وَسِيقَ الذين اتقوا رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً ﴾ [الزمر : 73] قيل المتقون قد عبدوا الله تعالى لله جل شأنه لا للجنة فتصير شدة استغراقهم في مشاهدة مطالع الجمال والجلال مانعة لهم عن الرغبة في الجنة فلا جرم يفتقرون إلى السوق ، وقيل : كل خصلة ذميمة أو شريفة في الإنسان فإنها تجره من غير اختيار شاء أم أبى إلى ما يضاهي حاله فذاك معنى السوق في الفريقين ، وقيل : القوم أهل وفاء فهم يقولون : لا ندخل الجنة حتى يدخلها أحبابنا فلذا يساقون إليها ولكن لا كسوق الكفرة ﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم في مقعد صدق عند مليك مقتدر بناءً على أن العرش لا يتحول ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ إشارة إلى نعيمهم ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ أعطى كل ما يستحقه ﴿ وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الزمر : 75] على انقضاء الأمر وفصل القضاء بالعدل الذي لا شبهة فيه ولا امتراء ، هذا والحمد لله تعالى على أفضاله

والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ

﴾

(242/671)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ .

سُورَةُ الزُّمَرِ

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَحْمَد بْنُ تَيْمِيَّة – قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ – :

فَصْلٌ :

قَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ وَالْمُرَادُ بِالْقَوْلِ الْقُرْآنُ كَمَا فَسَّرَهُ بِذَلِكَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وَاللَّامُ لِتَعْرِيفِ الْقَوْلِ الْمَعْهُودِ ؛ فَإِنَّ السُّورَةَ كُلَّهَا إنَّمَا تَضَمَّنَتْ مَدْحَ الْقُرْآنِ وَاسْتِمَاعَهُ وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَّا فَسَادَ قَوْلِ مَنْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ عَلَى

سَمَاعِ الْغِنَاءِ وَغَيْرِهِ وَجَعَلَهَا عَامَّةً وَبَيَّنَّا أَنَّ تَعْمِيمَهَا فِي كُلِّ قَوْلٍ بَاطِلٍ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ .

وَهُنَا سُؤَالٌ مَشْهُورٌ وَهُوَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ

(243/671)

أَحْسَنَهُ ﴾ فَقَدْ قَسَّمَ الْقَوْلَ إلَى حَسَنٍ وَأَحْسَنَ وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ مُتَّبَعٌ وَهَذَا حُجَّتُهُمْ . فَيُقَالُ : الْجَوَابُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : إلْزَامٌ وَحَلٌّ . " الْأَوَّلُ " أَنَّ هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وَمِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ فَقَدْ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِاتِّبَاعِ أَحْسَنِ مَا أُنْزِلَ إلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَرَ بَنِي إسْرَائِيلَ أَنْ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِ التَّوْرَاةِ وَهَذَا أَبْلَغُ مِنْ تِلْكَ الْآيَةِ ؛ فَإِنَّ تِلْكَ إنَّمَا فِيهَا مَدْحٌ بِاتِّبَاعِ الْأَحْسَنِ وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْقُرْآنَ فِيهِ الْخَبَرُ وَالْأَمْرُ بِالْحَسَنِ وَالْأَحْسَنِ وَاتِّبَاعُ الْقَوْلِ إنَّمَا هُوَ الْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهُ وَمُقْتَضَاهُ فِيهِ حَسَنٌ وَأَحْسَنُ لَيْسَ كُلُّهُ أَحْسَنَ وَإِنْ كَانَ الْقُرْآنُ فِي نَفْسِهِ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ؛ فَفَرَّقَ بَيْنَ حَسَنِ الْكَلَامِ بِالنِّسْبَةِ إلَى غَيْرِهِ مِنْ الْكَلَامِ وَبَيْنَ حَسَنِهِ بِالنِّسْبَةِ إلَى مُقْتَضَاهُ الْمَأْمُورِ وَالْمُخْبَرِ عَنْهُ . " الْوَجْهُ الثَّانِي " أَنْ يُقَالَ : إنَّهُ قَالَ : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ

الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ وَالْقُرْآنُ تَضَمَّنَ خَبَرًا وَأَمْرًا فَالْخَبَرُ عَنْ الْأَبْرَارِ وَالْمُقَرَّبِينَ وَعَنْ الْكُفَّارِ وَالْفُجَّارِ ؛ فَلَا رَيْبَ أَنَّ اتِّبَاعَ الصِّنْفَيْنِ حَسَنٌ

(244/671)

وَاتِّبَاعَ الْمُقَرَّبِينَ أَحْسَنُ وَالْأَمْرُ يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَ بِالْوَاجِبَاتِ والمستحبات . وَلَا رَيْبَ أَنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَى فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ حَسَنٌ وَفِعْلُ الْمُسْتَحَبَّاتِ مَعَهَا أَحْسَنُ وَمَنْ اتَّبَعَ الْأَحْسَنَ فَاقْتَدَى بِالْمُقَرَّبِينَ وَتَقَرَّبَ إلَى اللَّهِ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ كَانَ أَحَقَّ بِالْبُشْرَى . وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ هُوَ أَيْضًا أَمْرٌ بِذَلِكَ ؛ لَكِنَّ الْأَمْرَ يَعُمُّ أَمْرَ الْإِيجَابِ وَالِاسْتِحْبَابِ . فَهُمْ مَأْمُورُونَ بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ وَاجِبٍ أَمْرَ إيجَابٍ وَبِمَا فِيهِ مِنْ مُسْتَحَبٍّ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ كَمَا هُمْ مَأْمُورُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وَالْمَعْرُوفُ يَتَنَاوَلُ الْقِسْمَيْنِ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وَهُوَ يَعُمُّ الْقِسْمَيْنِ : وَقَوْلِهِ : ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ .

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ :

فَصْلٌ :

فِي السَّمَاعِ

(245/671)

أَصْلُ السَّمَاعِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ هُوَ سَمَاعُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمَاعُ فِقْهٍ وَقَبُولٍ ؛ وَلِهَذَا انْقَسَمَ النَّاسُ فِيهِ أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ : صِنْفٌ مُعْرِضٌ مُمْتَنِعٌ عَنْ سَمَاعِهِ وَصِنْفٌ سَمِعَ الصَّوْتَ وَلَمْ يَفْقَهْ الْمَعْنَى وَصِنْفٌ فَقِهَهُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْبَلْهُ وَالرَّابِعُ الَّذِي سَمِعَهُ سَمَاعَ فِقْهٍ وَقَبُولٍ . ف " الْأَوَّلُ " كَالَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ و " الصِّنْفُ الثَّانِي " مَنْ سَمِعَ الصَّوْتَ بِذَلِكَ لَكِنْ لَمْ يَفْقَهْ الْمَعْنَى . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ

(246/671)

إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ يَتَنَاوَلُ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ مِنْهُ تَفْسِيرَ اللَّفْظِ كَمَا يَفْهَمُ بِمُجَرَّدِ الْعَرَبِيَّةِ وَمَنْ فَهِمَ ذَلِكَ لَكِنْ لَمْ يَعْلَمْ نَفْسَ الْمُرَادِ فِي الْخَارِجِ وَهُوَ : " الْأَعْيَانُ " و " الْأَفْعَالُ " و " الصِّفَاتُ " الْمَقْصُودَةُ بِالْأَمْرِ

وَالْخَبَرِ ؛ بِحَيْثُ يَرَاهَا وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهَا مَدْلُولُ الْخِطَابِ : مِثْلُ مَنْ يَعْلَمُ وَصْفًا مَذْمُومًا وَيَكُونُ هُوَ مُتَّصِفًا بِهِ أَوْ بَعْضًا مِنْ جِنْسِهِ وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِيهِ . وَقَالَ تَعَالَى :

(248/671)

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ قَوْلِهِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ فَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ لَمْ يُرِدْ بِهِ مُجَرَّدَ إسْمَاعِ الصَّوْتِ لِوَجْهَيْنِ . " أَحَدِهِمَا " أَنَّ هَذَا السَّمَاعَ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا تَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَى الْمَدْعُوِّينَ إلَّا بِهِ . كَمَا قَالَ ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ وَقَالَ ﴿ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . وَالثَّانِي أَنَّهُ وَحْدَهُ لَا يَنْفَعُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ حَصَلَ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ وَكَفَرُوا بِهِ كَمَا تَقَدَّمَ بِخِلَافِ إسْمَاعِ الْفِقْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي يُعْطِيهِ اللَّهُ لِمَنْ فِيهِ خَيْرٌ وَهَذَا نَظِيرُ مَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ وَالْحَدِيثُ يَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ السَّمَاعُ الَّذِي يَفْقَهُ مَعَهُ الْقَوْلَ

فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْلَمْ فِيهِ خَيْرًا وَلَمْ يُرِدْ بِهِ خَيْرًا وَأَنَّ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا أَوْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا فَلَا بُدَّ أَنْ

(249/671)

يُسْمِعَهُ وَيُفَقِّهَهُ ؛ إذْ الْحَدِيثُ قَدْ بَيَّنَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ : فَالْأَوَّلُ مُسْتَلْزِمٌ لِلثَّانِي وَالصِّيغَةُ عَامَّةٌ فَمَنْ لَمْ يُفَقِّهْهُ لَمْ يَكُنْ دَاخِلًا فِي الْعُمُومِ فَلَا يَكُونُ اللَّهُ

(250/671)

أَرَادَ بِهِ خَيْرًا وَقَدْ انْتَفَى فِي حَقِّهِ اللَّازِمُ فَيَنْتَفِي الْمَلْزُومُ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ بَيَّنَ أَنَّ الْأَوَّلَ شَرْطٌ لِلثَّانِي : شَرْطًا نَحْوِيًّا وَهُوَ مَلْزُومٌ وَسَبَبٌ فَيَقْتَضِي أَنَّ كُلَّ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا أَسْمَعَهُ هَذَا الْإِسْمَاعَ فَمَنْ لَمْ يُسْمِعْهُ إيَّاهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ عَلِمَ فِيهِ خَيْرًا فَتَدَبَّرْ كَيْفَ وَجَبَ هَذَا السَّمَاعُ وَهَذَا الْفِقْهُ وَهَذَا حَالُ الْمُؤْمِنِينَ بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِسَمَاعٍ لَا فِقْهَ مَعَهُ أَوْ فِقْهٍ لَا سَمَاعَ مَعَهُ أَعْنِي هَذَا السَّمَاعَ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ فَقَدْ يُشْكِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ . لِظَنِّهِمْ أَنَّ هَذَا السَّمَاعَ

الْمَشْرُوطَ هُوَ السَّمَاعُ الْمَنْفِيُّ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى الَّذِي كَانَ يَكُونُ لَوْ عَلِمَ فِيهِمْ خَيْرًا وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يَقْتَضِي ذَلِكَ ؛ بَلْ ظَاهِرُهَا وَبَاطِنُهَا يُنَافِي ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ عَائِدٌ إلَى الضَّمِيرَيْنِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ وَهَؤُلَاءِ قَدْ دَلَّ الْكَلَامُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْلَمْ فِيهِمْ خَيْرًا فَلَمْ يُسْمِعْهُمْ إذْ " لَوْ " يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الشَّرْطِ دَائِمًا : وَإِذَا كَانَ اللَّهُ مَا عَلِمَ فِيهِمْ خَيْرًا فَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . بِمَنْزِلَةِ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَهُمْ " الصِّنْفُ الثَّالِثُ " . وَدَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِكُلِّ مَنْ سَمِعَ وَفَقِهَ يَكُونُ فِيهِ خَيْرٌ ؛

(251/671)

بَلْ قَدْ يَفْقَهُ وَلَا يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ فَلَا يَكُونُ فِيهِ خَيْرًا وَدَلَّتْ أَيْضًا عَلَى أَنَّ إسْمَاعَ التَّفْهِيمِ إنَّمَا يُطْلَبُ لِمَنْ فِيهِ خَيْرٌ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ فَأَمَّا مَنْ لَيْسَ يَنْتَفِعُ بِهِ فَلَا يُطْلَبُ تَفْهِيمُهُ . و " الصِّنْفُ الثَّالِثُ " مَنْ سَمِعَ الْكَلَامَ وَفَقِهَهُ ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَقْبَلْهُ وَلَمْ يُطِعْ أَمْرَهُ : كَالْيَهُودِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إلَّا قَلِيلًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ إلى قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ أَيْ تِلَاوَةً . فَهَؤُلَاءِ مِنْ " الصِّنْفِ الْأَوَّلِ " الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَيَقْرَءُونَ وَلَا يَفْقَهُونَ وَيَعْقِلُونَ - إلى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ إلى قَوْلِهِ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ

(252/671)

فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كَمَا

(253/671)

قَالَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ : ﴿ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وَقَالَ فِي النِّسَاءِ : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ

طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ إلَى آخِرِ الْقِصَّةِ فَأَخْبَرَ بِذُنُوبِهِمْ الَّتِي اسْتَحَقُّوا بِهَا مَا اسْتَحَقُّوهُ . وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ . فَعَلِمَ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي هَذَا الْقَوْلِ قَاصِدُونَ بِهِ الِامْتِنَاعَ مِنْ الْوَاجِبِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ وَ ﴿ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ فَهِيَ وَإِنْ سَمِعَتْ الْخِطَابَ وَفَقِهَتْهُ لَا تَقْبَلُهُ وَلَا تُؤْمِنُ بِهِ لَا تَصْدِيقًا لَهُ وَلَا طَاعَةً وَإِنْ عَرَفُوهُ كَمَا قَالَ : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ . ف (غُلْفٌ جَمْعُ أَغْلَفَ . وَأَمَّا " غَلَفَ " بِالتَّحْرِيكِ فَجَمْعُ غِلَافٍ وَالْقَلْبُ الْأَغْلَفُ بِمَنْزِلَةِ الْأَقْلَفِ . فَهُمْ ادَّعَوْا ذَلِكَ وَهُمْ كَاذِبُونَ فِي ذَلِكَ وَاللَّعْنَةُ الْإِبْعَادُ عَنْ الرَّحْمَةِ فَلَوْ عَمِلُوا بِهِ لَرُحِمُوا ؛ وَلَكِنْ لَمْ يَعْمَلُوا بِهِ فَكَانُوا مَغْضُوبًا عَلَيْهِمْ مَلْعُونِينَ وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ وَلَمْ يَتَّبِعْهُ وَفَقِهَ كَلَامَ الرُّسُلِ وَلَمْ يَكُنْ مُوَافِقًا لَهُ بِالْإِقْرَارِ تَصْدِيقًا وَعَمَلًا . و " الصِّنْفُ الرَّابِعُ " الَّذِينَ سَمِعُوا سَمَاعَ فِقْهٍ وَقَبُولٍ فَهَذَا هُوَ السَّمَاعُ الْمَأْمُورُ بِهِ كَمَا قَالَ

(254/671)

تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ

أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ الْآيَاتِ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ الْآيَةَ : وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ

(256/671)

وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فَالْبَيَانُ يَعُمُّ كُلَّ مَنْ فَقِهَهُ وَالْهُدَى وَالْمَوْعِظَةُ لِلْمُتَّقِينَ . وَقَوْلُهُ :

﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

(257/671)

لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ الم ﴾ ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . وَهُنَا لَطِيفَةٌ تُزِيلُ إشْكَالًا يُفْهَمُ هُنَا وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ هَذَا الْمُتَّقِي الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ كَانَ مِنْ الْمُتَّقِينَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ فَإِنَّ هَذَا أَوَّلًا مُمْتَنِعٌ ؛ إذْ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا مُتَّقِيًا مَنْ لَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا مِنْ الْقُرْآنِ . وَثَانِيًا أَنَّ الشَّرْطَ إنَّمَا يَجِبُ أَنْ يُقَارِنَ الْمَشْرُوطَ لَا يَجِبُ أَنْ يَتَقَدَّمَهُ تَقَدُّمًا زَمَانِيًّا كَاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ فِي الصَّلَاةِ . وَثَالِثًا أَنَّ الْمَقْصُودَ أَنْ يَبِينَ شَيْئَانِ : " أَحَدُهُمَا " أَنَّ الِانْتِفَاعَ بِهِ بِالِاهْتِدَاءِ وَالِاتِّعَاظِ وَالرَّحْمَةِ هُوَ وَإِنْ كَانَ مُوجِبًا لَهُ ؛ لَكِنْ لَا بُدَّ مَعَ الْفَاعِلِ مِنْ الْقَابِلِ إذْ الْكَلَامُ لَا يُؤَثِّرُ فِيمَنْ لَا يَكُونُ قَابِلًا لَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَهْدِيَ وَيَعِظَ وَيَرْحَمَ وَهَذَا حَالُ كُلِّ كَلَامٍ . " الثَّانِي " أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْمُهْتَدِينَ بِهَذَا هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ وَيُسْتَدَلُّ بِعَدَمِ

الِاهْتِدَاءِ بِهِ عَلَى عَدَمِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى كَمَا يُقَالُ الْمُتَعَلِّمُونَ لِكِتَابِ بقراط هُمْ الْأَطِبَّاءُ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَطِبَّاءَ قَبْلَ تَعَلُّمِهِ بَلْ بِتَعَلُّمِهِ وَكَمَا يُقَالُ : كِتَابُ سِيبَوَيْهِ كِتَابٌ عَظِيمُ الْمَنْفَعَةِ لِلنُّحَاةِ وَإِنْ كَانُوا إنَّمَا صَارُوا نُحَاةً بِتَعَلُّمِهِ وَكَمَا يُقَالُ : هَذَا مَكَانٌ مُوَافِقٌ لِلرُّمَاةِ وَالرُّكَّابِ .

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

فَصْلٌ :

(258/671)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ . فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَسْلُكُ الْمَاءَ النَّازِلَ مِنْ السَّمَاءِ يَنَابِيعَ وَالْيَنَابِيعُ جَمْعُ يَنْبُوعٍ وَهُوَ مَنْبَعُ الْمَاءِ كَالْعَيْنِ وَالْبِئْرِ فَدَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى أَنَّ مَاءَ السَّمَاءِ تَنْبُعُ مِنْهُ الْأَرْضُ وَالِاعْتِبَارُ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ إذَا كَثُرَ مَاءُ السَّمَاءِ كَثُرَتْ الْيَنَابِيعُ وَإِذَا قَلَّ قَلَّتْ . وَمَاءُ السَّمَاءِ يَنْزِلُ مِنْ السَّحَابِ وَاَللَّهُ يُنْشِئُهُ مِنْ الْهَوَاءِ الَّذِي فِي الْجَوِّ وَمَا يَتَصَاعَدُ مِنْ الْأَبْخِرَةِ . وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ جَمِيعَ مَا يَنْبُعُ يَكُونُ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ وَلَا هَذَا أَيْضًا مَعْلُومًا بِالِاعْتِبَارِ فَإِنَّ الْمَاءَ قَدْ يَنْبُعُ مِنْ بُطُونِ الْجِبَالِ ،

وَيَكُونُ فِيهَا أَبْخِرَةٌ يَخْلُقُ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْأَبْخِرَةُ وَغَيْرُهَا مِنْ الْأَهْوِيَةِ قَدْ تَسْتَحِيلُ كَمَا إذَا أُخِذَ إنَاءٌ فَوُضِعَ فِيهِ ثَلْجٌ فَإِنَّهُ يَبْقَى مَا أَحَاطَ بِهِ مَاءٌ وَهُوَ هَوَاءٌ اسْتَحَالَ مَاءً وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ فَعُلِمَ أَنَّهُ مُمْكِنٌ أَنْ يَكُونَ فِي الْأَرْضِ مَاءٌ لَيْسَ مِنْ السَّمَاءِ فَلَا يُجْزَمُ بِأَنَّ جَمِيعَ الْمِيَاهِ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ وَإِنْ كَانَ غَالِبُهَا مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(259/671)

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَد بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ تَيْمِيَّة الْحَرَّانِي – قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ – :

فَصْلٌ :

فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ وَأَنِيبُوا إلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ . وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي حَقِّ التَّائِبِينَ وَأَمَّا آيَتَا النِّسَاءِ قَوْلُهُ : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ فِي حَقِّ التَّائِبِينَ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ فَإِنَّ التَّائِبَ مِنْ الشِّرْكِ يُغْفَرُ لَهُ الشِّرْكُ أَيْضًا بِنُصُوصِ الْقُرْآنِ وَاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ . وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَخْصِيصٌ وَتَقْيِيدٌ وَتِلْكَ الْآيَةُ فِيهَا تَعْمِيمٌ وَإِطْلَاقٌ هَذِهِ خَصَّ

فِيهَا الشِّرْكَ بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ وَمَا عَدَاهُ لَمْ يَجْزِمْ بِمَغْفِرَتِهِ ؛ بَلْ عَلَّقَهُ بِالْمَشِيئَةِ فَقَالَ : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

(260/671)

وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ هَذِهِ كَمَا تَرُدُّ عَلَى الوعيدية مِنْ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ فَهِيَ تَرُدُّ أَيْضًا عَلَى الْمُرْجِئَةِ الواقفية الَّذِينَ يَقُولُونَ : يَجُوزُ أَنْ يُعَذِّبَ كُلَّ فَاسِقٍ فَلَا يَغْفِرُ لِأَحَدٍ وَيَجُوزُ أَنْ يَغْفِرَ لِلْجَمِيعِ فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فَأَثْبَتَ أَنَّ مَا دُونَ ذَلِكَ هُوَ مَغْفُورٌ لَكِنْ لِمَنْ يَشَاءُ فَلَوْ كَانَ لَا يَغْفِرُهُ لِأَحَدٍ بَطَلَ قَوْلُهُ : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ وَلَوْ كَانَ يَغْفِرُهُ لِكُلِّ أَحَدٍ بَطَلَ قَوْلُهُ : ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فَلَمَّا أَثْبَتَ أَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ وَأَنَّ الْمَغْفِرَةَ هِيَ لِمَنْ يَشَاءُ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى وُقُوعِ الْمَغْفِرَةِ الْعَامَّةِ مِمَّا دُونَ الشِّرْكِ ؛ لَكِنَّهَا لِبَعْضِ النَّاسِ . وَحِينَئِذٍ فَمَنْ غُفِرَ لَهُ لَمْ يُعَذَّبْ وَمَنْ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ عُذِّبَ وَهَذَا مَذْهَبُ الصَّحَابَةِ وَالسَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ وَهُوَ الْقَطْعُ بِأَنَّ بَعْضَ عُصَاةِ الْأُمَّةِ يَدْخُلُ النَّارَ وَبَعْضَهُمْ يُغْفَرُ لَهُ : لَكِنْ هَلْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْمُوَازَنَةِ وَالْحِكْمَةِ أَوْ لَا اعْتِبَارَ بِالْمُوَازَنَةِ ؟ فِيهِ قَوْلَانِ لِلْمُنْتَسِبِينَ إلَى السُّنَّةِ مِنْ أَصْحَابِنَا وَغَيْرِهِمْ بِنَاءً عَلَى أَصْلِ الْأَفْعَالِ الْإِلَهِيَّةِ هَلْ يُعْتَبَرُ فِيهَا الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ .

وَأَيْضًا فَمَسْأَلَةُ الْجَزَاءِ فِيهَا نُصُوصٌ كَثِيرَةٌ دَلَّتْ عَلَى الْمُوَازَنَةِ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا

الْمَوْضِعِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ

(261/671)

الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ فِيهِ نَهْيٌ عَنْ الْقُنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ عَظُمَتْ الذُّنُوبُ وَكَثُرَتْ فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدِ أَنْ يَقْنَطَ مِنْ

رَحْمَةِ اللَّهِ وَإِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبُهُ وَلَا أَنْ يُقَنِّطَ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ إنَّ الْفَقِيهَ كُلَّ الْفَقِيهِ الَّذِي لَا يُؤَيِّسُ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَلَا يُجَرِّئُهُمْ عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ .

وَالْقُنُوطُ يَكُونُ بِأَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لَهُ . إمَّا لِكَوْنِهِ إذَا تَابَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ تَوْبَتَهُ وَيَغْفِرُ ذُنُوبَهُ وَإِمَّا بِأَنْ يَقُولَ نَفْسُهُ لَا تُطَاوِعُهُ عَلَى التَّوْبَةِ ؛ بَلْ هُوَ مَغْلُوبٌ مَعَهَا وَالشَّيْطَانُ قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ فَهُوَ يَيْأَسُ مِنْ تَوْبَةِ نَفْسِهِ وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إذَا تَابَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَهَذَا يَعْتَرِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ .

وَالْقُنُوطُ يَحْصُلُ بِهَذَا تَارَةً وَبِهَذَا تَارَةً : فَالْأَوَّلُ ﴿ كَالرَّاهِبِ الَّذِي أَفْتَى قَاتِلَ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لَهُ فَقَتَلَهُ وَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ دُلَّ عَلَى عَالِمٍ فَأَتَاهُ فَسَأَلَهُ فَأَفْتَاهُ بِأَنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ ﴾ . وَالْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ . وَالثَّانِي كَالَّذِي يَرَى لِلتَّوْبَةِ شُرُوطًا كَثِيرَةً وَيُقَالُ لَهُ لَهَا شُرُوطٌ كَثِيرَةٌ يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ فِعْلُهَا فَيَيْأَسُ مِنْ أَنْ يَتُوبَ .

(262/671)

وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الْعَبْدِ هَلْ يَصِيرُ فِي حَالٍ تَمْتَنِعُ مِنْهُ التَّوْبَةُ إذَا أَرَادَهَا . وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجُمْهُورُ أَنَّ التَّوْبَةَ مُمْكِنَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ وَمُمْكِنٌ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُهُ وَقَدْ فَرَضُوا فِي ذَلِكَ مَنْ تَوَسَّطَ أَرْضًا مَغْصُوبَةً وَمَنْ تَوَسَّطَ جَرْحَى فَكَيْفَمَا تَحَرَّكَ قَتَلَ بَعْضَهُمْ . فَقِيلَ هَذَا لَا طَرِيقَ لَهُ إلَى التَّوْبَةِ . وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذَا إذَا تَابَ قَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ .

(263/671)

أَمَّا مَنْ تَوَسَّطَ الْأَرْضَ الْمَغْصُوبَةَ فَهَذَا خُرُوجُهُ بِنِيَّةِ تَخْلِيَةِ الْمَكَانِ وَتَسْلِيمِهِ إلَى مُسْتَحِقِّهِ لَيْسَ مَنْهِيًّا عَنْهُ وَلَا مُحَرَّمًا ؛ بَلْ الْفُقَهَاءُ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ غَصَبَ دَارًا وَتَرَكَ فِيهَا قُمَاشَهُ وَمَالَهُ إذَا أُمِرَ بِتَسْلِيمِهَا إلَى مُسْتَحِقِّهَا فَإِنَّهُ يُؤْمَرُ بِالْخُرُوجِ مِنْهَا وَبِإِخْرَاجِ أَهْلِهِ وَمَالِهِ مِنْهَا وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ نَوْعُ تَصَرُّفٍ فِيهَا لَكِنَّهُ لِأَجْلِ إخْلَائِهَا . وَالْمُشْرِكُ إذَا دَخَلَ الْحَرَمَ أُمِرَ بِالْخُرُوجِ مِنْهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ مُرُورٌ فِيهِ وَمِثْلُ هَذَا حَدِيثُ الْأَعْرَابِيِّ الْمُتَّفَقُ عَلَى صِحَّتِهِ لَمَّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَامَ النَّاسُ إلَيْهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا تُزْرِمُوهُ أَيْ لَا تَقْطَعُوا عَلَيْهِ

بَوْلَهُ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَصُبُّوا عَلَى بَوْلِهِ دَلْوًا مِنْ مَاءٍ ﴾ . فَهُوَ لَمَّا بَدَأَ بِالْبَوْلِ كَانَ إتْمَامُهُ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَقْطَعُوهُ فَيُلَوِّثَ ثِيَابَهُ وَبَدَنَهُ وَلَوْ زَنَى رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ ثُمَّ تَابَ لِنَزْعٍ وَلَمْ يَكُنْ مُذْنِبًا بِالنَّزْعِ وَهَلْ هُوَ وَطْءٌ ؟ فِيهِ قَوْلَانِ هُمَا رِوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَد . فَلَوْ حَلَفَ أَنْ لَا يَطَأَ امْرَأَتَهُ بِالطَّلَاقِ الثَّلَاثِ فَالَّذِينَ يَقُولُونَ : إنَّهُ يَقَعُ بِهِ الطَّلَاقُ الثَّلَاثُ إذَا وَطِئَهَا تَنَازَعُوا هَلْ يَجُوزُ لَهُ وَطْؤُهَا ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ : هُمَا رِوَايَتَانِ عَنْ أَحْمَد . "أَحَدُهُمَا" يَجُوزُ كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ . و "الثَّانِي" لَا يَجُوزُ كَقَوْلِ مَالِكٍ فَإِنَّهُ يَقُولُ : إذَا أَجَزْت الْوَطْءَ لَزِمَ أَنْ يُبَاشِرَهَا فِي حَالِ النَّزْعِ وَهِيَ مُحَرَّمَةٌ وَهَذَا

(264/671)

إنَّمَا يُجَوِّزُ لِلضَّرُورَةِ لَا يُجَوِّزُهُ ابْتِدَاءً وَذَلِكَ يَقُولُ النَّزْعُ لَيْسَ بِمُحَرَّمٍ .

(265/671)

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ إذَا طَلَعَ عَلَيْهِ الْفَجْرُ وَهُوَ مُولِجٌ فَقَدْ جَامَعَ لَهُمْ فِي النَّزْعِ قَوْلَانِ : فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ وَأَمَّا عَلَى مَا نَصَرْنَاهُ فَلَا يَحْتَاجُ إلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ فَإِنَّ الْحَالِفَ إذَا حَنِثَ يُكَفِّرُ يَمِينَهُ وَلَا يَلْزَمُهُ الطَّلَاقُ الثَّلَاثُ وَمَا فَعَلَهُ النَّاسُ حَالَ التَّبَيُّنِ مِنْ أَكْلٍ

وَجِمَاعٍ فَلَا بَأْسَ بِهِ لِقَوْلِهِ : (حَتَّى) . وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَقْنَطَ أَحَدٌ وَلَا يُقَنِّطَ أَحَدًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ نَهَى عَنْ ذَلِكَ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . فَإِنْ قِيلَ قَوْلُهُ : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ مَعَهُ عُمُومٌ عَلَى وَجْهِ الْإِخْبَارِ فَدَلَّ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ كُلَّ ذَنْبٍ ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنَّ مَنْ أَذْنَبَ مِنْ كَافِرٍ وَغَيْرِهِ فَإِنَّهُ يَغْفِرُ لَهُ وَلَا يُعَذِّبُهُ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ هَذَا خِلَافُ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ وَالتَّوَاتُرِ وَالْقُرْآنِ وَالْإِجْمَاعِ ؛ إذْ كَانَ اللَّهُ أَهْلَكَ أُمَمًا كَثِيرَةً بِذُنُوبِهَا وَمِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ عُذِّبَ بِذُنُوبِهِ إمَّا قَدَرًا وَإِمَّا شَرْعًا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ فَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَيْسَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا ؛ بَلْ الْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . أَيْ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ يَفْعَلُهُ أَوْ أَنَّهُ يَغْفِرُهُ لِكُلِّ تَائِبٍ

(266/671)

لَكِنْ يُقَالُ : فَلِمَ أَتَى بِصِيغَةِ الْجَزْمِ وَالْإِطْلَاقِ فِي مَوْضِعِ التَّرَدُّدِ وَالتَّقْيِيدِ ؟ قِيلَ بَلْ الْآيَةُ عَلَى مُقْتَضَاهَا فَإِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَغْفِرُ جَمِيعَ الذُّنُوبِ وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ يَغْفِرُ لِكُلِّ مُذْنِبٍ ؛ بَلْ قَدْ ذَكَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لِمَنْ مَاتَ كَافِرًا فَقَالَ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ . وَقَالَ فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ لَكِنَّ هَذَا اللَّفْظَ الْعَامَّ فِي الذُّنُوبِ هُوَ مُطْلَقٌ فِي الْمُذْنِبِينَ . فَالْمُذْنِبُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ بِنَفْيٍ وَلَا إثْبَاتٍ ؛ لَكِنْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَغْفُورًا لَهُ وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَكُونَ مَغْفُورًا لَهُ . إنْ أَتَى بِمَا يُوجِبُ الْمَغْفِرَةَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ أَصَرَّ عَلَى مَا يُنَاقِضُهَا لَمْ يَغْفِرْ لَهُ . وَأَمَّا جِنْسُ الذَّنْبِ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُهُ فِي الْجُمْلَةِ : الْكُفْرُ وَالشِّرْكُ وَغَيْرُهُمَا ؛ يَغْفِرُهَا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا لَيْسَ فِي الْوُجُودِ ذَنْبٌ لَا يَغْفِرُهُ الرَّبُّ تَعَالَى ؛ بَلْ مَا مِنْ ذَنْبٍ إلَّا وَاَللَّهُ تَعَالَى يَغْفِرُهُ فِي الْجُمْلَةِ .

(267/671)

وَهَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ جَامِعَةٌ مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ نَفْعًا وَفِيهَا رَدٌّ عَلَى طَوَائِفَ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَقُولُ إنَّ الدَّاعِيَ إلَى الْبِدْعَةِ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ وَيَحْتَجُّونَ بِحَدِيثِ إسْرَائِيلِيٍّ فِيهِ : ﴿ أَنَّهُ قِيلَ لِذَلِكَ الدَّاعِيَةِ فَكَيْفَ بِمَنْ أَضْلَلْت ؟ ﴾ وَهَذَا يَقُولُهُ طَائِفَةٌ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَى السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَلَيْسُوا مِنْ الْعُلَمَاءِ بِذَلِكَ كَأَبِي عَلِيٍّ الْأَهْوَازِيِّ وَأَمْثَالِهِ مِمَّنْ لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ

(268/671)

الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَوْضُوعَةِ وَمَا يُحْتَجُّ بِهِ وَمَا لَا يُحْتَجُّ بِهِ ؛ بَلْ يَرْوُونَ كُلَّ مَا فِي الْبَابِ مُحْتَجِّينَ بِهِ . وَقَدْ حَكَى هَذَا طَائِفَةٌ قَوْلًا فِي مَذْهَبِ أَحْمَد أَوْ رِوَايَةً عَنْهُ وَظَاهِرُ مَذْهَبِهِ مَعَ مَذَاهِبِ سَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ كَمَا تُقْبَلُ تَوْبَةُ الدَّاعِي إلَى الْكُفْرِ وَتَوْبَةُ مَنْ فَتَنَ النَّاسَ عَنْ دِينِهِمْ . وَقَدْ تَابَ قَادَةُ الْأَحْزَابِ : مِثْلُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَالْحَارِثِ ابْنِ هِشَامٍ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرِهِمْ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ عَلَى الْكُفْرِ بِدُعَائِهِمْ مَنْ قُتِلَ وَكَانُوا مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ إسْلَامًا وَغَفَرَ اللَّهُ لَهُمْ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ . وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ كَانَ مِنْ أَعْظَمِ الدُّعَاةِ إلَى الْكُفْرِ وَالْإِيذَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ وَقَدْ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَسْلَمَ ﴿ يَا عَمْرُو أَمَا عَلِمْت أَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ ﴾ وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ قَالَ كَانَ نَاسٌ مِنْ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنْ الْجِنِّ فَأَسْلَمَ أُولَئِكَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَعْبُدُونَهُمْ . فَفِي هَذَا أَنَّهُ لَمْ يَضُرَّ الَّذِينَ أَسْلَمُوا عِبَادَةَ غَيْرِهِمْ بَعْدَ الْإِسْلَامِ لَهُمْ وَإِنْ كَانُوا هُمْ أَضَلُّوهُمْ أَوَّلًا .

وَأَيْضًا فَالدَّاعِي إلَى الْكُفْرِ وَالْبِدْعَةِ وَإِنْ كَانَ أَضَلَّ غَيْرَهُ فَذَلِكَ الْغَيْرُ يُعَاقَبُ عَلَى ذَنْبِهِ ؛ لِكَوْنِهِ قَبِلَ مِنْ هَذَا وَاتَّبَعَهُ وَهَذَا عَلَيْهِ وِزْرُهُ وَوِزْرُ مَنْ اتَّبَعَهُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَعَ بَقَاءِ أَوْزَارِ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ فَإِذَا تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ وِزْرُهُ وَلَا مَا حَمَلَهُ هُوَ لِأَجْلِ إضْلَالِهِمْ وَأَمَّا هُمْ فَسَوَاءٌ تَابَ أَوْ لَمْ يَتُبْ حَالُهُمْ وَاحِدٌ ؛ وَلَكِنَّ تَوْبَتَهُ قَبْلَ هَذَا تَحْتَاجُ إلَى ضِدِّ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الدُّعَاءِ إلَى الْهُدَى كَمَا تَابَ كَثِيرٌ مِنْ الْكُفَّارِ وَأَهْلِ الْبِدَعِ وَصَارُوا دُعَاةً إلَى الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ . وَسَحَرَةُ فِرْعَوْنَ كَانُوا أَئِمَّةً فِي الْكُفْرِ ثُمَّ أَسْلَمُوا وَخَتَمَ اللَّهُ لَهُمْ بِخَيْرٍ . وَمِنْ ذَلِكَ تَوْبَةُ قَاتِلِ النَّفْسِ . وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهَا مَقْبُولَةٌ ؛ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَا تُقْبَلُ ؛ وَعَنْ أَحْمَدَ رِوَايَتَانِ . وَحَدِيثُ قَاتِلِ التِّسْعَةِ وَالتِّسْعِينَ فِي الصَّحِيحَيْنِ دَلِيلٌ عَلَى قَبُولِ تَوْبَتِهِ وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَآيَةُ النِّسَاءِ إنَّمَا فِيهَا وَعِيدٌ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ وَمَعَ هَذَا فَهَذَا إذَا لَمْ يَتُبْ . وَكُلُّ وَعِيدٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ مَشْرُوطٌ بِعَدَمِ التَّوْبَةِ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ فَبِأَيِّ وَجْهٍ يَكُونُ وَعِيدُ الْقَاتِلِ لَاحِقًا بِهِ وَإِنْ تَابَ ؟ هَذَا فِي غَايَةِ الضَّعْفِ ؟ وَلَكِنْ قَدْ يُقَالُ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَسْقُطُ حَقُّ الْمَظْلُومِ

بِالْقَتْلِ ؛ بَلْ التَّوْبَةُ تُسْقِطُ حَقَّ اللَّهِ وَالْمَقْتُولُ مُطَالِبُهُ بِحَقِّهِ وَهَذَا صَحِيحٌ فِي جَمِيعِ حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ حَتَّى الدَّيْنِ فَإِنَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ

(271/671)

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ الشَّهِيدُ يُغْفَرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ إلَّا الدَّيْنُ ﴾ لَكِنَّ حَقَّ الْآدَمِيِّ يُعْطَاهُ مِنْ حَسَنَاتِ الْقَاتِلِ . فَمِنْ تَمَامِ التَّوْبَةِ أَنْ يَسْتَكْثِرَ مِنْ الْحَسَنَاتِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مَا يُقَابِلُ حَقَّ الْمَقْتُولِ وَلَعَلَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَأَى أَنَّ الْقَتْلَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ بَعْدَ الْكُفْرِ فَلَا يَكُونُ لِصَاحِبِهِ حَسَنَاتٌ تُقَابِلُ حَقَّ الْمَقْتُولِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَبْقَى لَهُ سَيِّئَاتٌ يُعَذَّبُ بِهَا وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ قَدْ يَقَعُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ فَيَبْقَى الْكَلَامُ فِيمَنْ تَابَ وَأَخْلَصَ : وَعَجَزَ عَنْ حَسَنَاتٍ تُعَادِلُ حَقَّ الْمَظْلُومِ هَلْ يُجْعَلُ عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَقْتُولِ مَا يُعَذَّبُ بِهِ ؟ وَهَذَا مَوْضِعٌ دَقِيقٌ عَلَى مِثْلِهِ يُحْمَلُ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ لَكِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَا يُنَافِي مُوجَبَ الْآيَةِ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْفِرُ كُلَّ ذَنْبٍ الشِّرْكَ وَالْقَتْلَ وَالزِّنَا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ فَهِيَ عَامَّةٌ فِي الْأَفْعَالِ مُطْلَقَةٌ فِي الْأَشْخَاصِ . وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُهُ : ﴿ اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ عَامٌّ فِي الْأَشْخَاصِ مُطْلَقٌ فِي أَحْوَالٍ . . . (1) الْأَرْجُلِ ؛ إذْ قَدْ تَكُونُ مَسْتُورَةً بِالْخُفِّ وَاللَّفْظُ لَمْ يَتَعَرَّضْ إلَى الْأَحْوَالِ .

وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ عَامٌّ فِي الْأَوْلَادِ عَامٌّ فِي الْأَحْوَالِ ؟ إذْ قَدْ يَكُونُ الْوَلَدُ مُوَافِقًا فِي الدِّينِ وَمُخَالِفًا وَحُرًّا وَعَبْدًا . وَاللَّفْظُ لَمْ يَتَعَرَّضْ إلَى الْأَحْوَالِ .

(272/671)

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ ﴾ عَامٌّ فِي الذُّنُوبِ مُطْلَقٌ فِي أَحْوَالِهَا ؛ فَإِنَّ الذَّنْبَ قَدْ يَكُونُ صَاحِبُهُ تَائِبًا مِنْهُ وَقَدْ يَكُونُ مُصِرًّا وَاللَّفْظُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِذَلِكَ بَلْ الْكَلَامُ يُبَيِّنُ أَنَّ الذَّنْبَ يُغْفَرُ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِفِعْلِ مَا تُغْفَرُ بِهِ الذُّنُوبُ وَنَهَى عَمَّا بِهِ يَحْصُلُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلَا مَغْفِرَةٍ فَقَالَ : ﴿ وَأَنِيبُوا إلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ فَهَذَا إخْبَارٌ أَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَذِّبُ نُفُوسًا لَمْ يَغْفِرْ لَهَا كَالَّتِي كَذَّبَتْ بِآيَاتِهِ وَاسْتَكْبَرَتْ وَكَانَتْ مِنْ الْكَافِرِينَ وَمِثْلُ هَذِهِ الذُّنُوبِ غَفَرَهَا اللَّهُ لِآخَرِينَ لِأَنَّهُمْ تَابُوا مِنْهَا . فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ

تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ

(273/671)

اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ ؟ قِيلَ : إِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ بَيَّنَ تَوْبَةَ الْكَافِرِ وَإِنْ كَانَ قَدْ ارْتَدَّ ثُمَّ عَادَ إلَى الْإِسْلَامِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ

(274/671)

وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ ﴾ أَيْ أَنَّهُ لَا يَهْدِيهِمْ مَعَ كَوْنِهِمْ مُرْتَدِّينَ ظَالِمِينَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ فَمَنْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ لَمْ يَكُنْ إلَّا ضَالًّا لَا يَحْصُلُ لَهُ الْهُدَى إلَى أَيِّ دِينٍ ارْتَدَّ

. " وَالْمَقْصُودُ " أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَا يَغْفِرُ لَهُمْ إلَّا أَنْ يَتُوبُوا . وَكَذَلِكَ قَالَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ وَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ مِنْ غَيْرِ إكْرَاهٍ فَهُوَ مُرْتَدٌّ قَالَ : ﴿ ثُمَّ إنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ فِي آلِ عِمْرَانَ ذَكَرَ الْمُرْتَدِّينَ ثُمَّ ذَكَرَ التَّائِبِينَ مِنْهُمْ ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ وَمَنْ مَاتَ كَافِرًا ؛ فَقَالَ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ .

وَهَؤُلَاءِ

(275/671)

الَّذِينَ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُمْ قَدْ ذَكَرُوا فِيهِمْ أَقْوَالًا : قِيلَ لِنِفَاقِهِمْ وَقِيلَ

(276/671)

لِأَنَّهُمْ تَابُوا مِمَّا دُونَ الشِّرْكِ وَلَمْ يَتُوبُوا مِنْهُ وَقِيلَ لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ كَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَعَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ وَالسُّدِّيِّ : لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ حِينَ يَحْضُرُهُمُ الْمَوْتُ فَيَكُونُ هَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ : ازْدَادُوا كُفْرًا ثَبَتُوا عَلَيْهِ حَتَّى مَاتُوا . قُلْت : وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّائِبَ رَاجِعٌ عَنْ الْكُفْرِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَإِنَّهُ مُسْتَمِرٌّ يَزْدَادُ كُفْرًا بَعْدَ كُفْرٍ فَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ ازْدَادُوا ﴾ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِ الْقَائِلِ ثُمَّ أَصَرُّوا عَلَى الْكُفْرِ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى الْكُفْرِ وَدَامُوا عَلَى الْكُفْرِ فَهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إسْلَامِهِمْ ثُمَّ زَادَ كُفْرُهُمْ مَا نَقَصَ فَهَؤُلَاءِ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُمْ وَهِيَ التَّوْبَةُ عِنْدَ حُضُورِ الْمَوْتِ ؛ لِأَنَّ مَنْ تَابَ قَبْلَ حُضُورِ الْمَوْتِ فَقَدْ تَابَ مِنْ قَرِيبٍ وَرَجَعَ عَنْ كُفْرِهِ فَلَمْ يَزْدَدْ بَلْ نَقَصَ ؛ بِخِلَافِ الْمُصِرِّ إلَى حِينِ الْمُعَايَنَةِ فَمَا بَقِيَ لَهُ زَمَانٌ يَقَعُ لِنَقْصِ كُفْرِهِ فَضْلًا عَنْ هَدْمِهِ . وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى قَالَ : ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ وَذَكَرَ أَنَّهُمْ

آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا قِيلَ لِأَنَّ الْمُرْتَدَّ إذَا تَابَ غُفِرَ لَهُ كُفْرُهُ فَإِذَا كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ وَمَاتَ كَافِرًا حَبِطَ إيمَانُهُ فَعُوقِبَ بِالْكُفْرِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : ﴿ قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؟ فَقَالَ : مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ ﴾ فَلَوْ قَالَ : إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ كَانَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ فِي آلِ عِمْرَانَ فَقَالَ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ بَلْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ الْمُرْتَدُّ التَّائِبُ ؛ فَهَذَا إذَا كَفَرَ وَازْدَادَ كُفْرًا لَمْ يُغْفَرْ لَهُ كُفْرُهُ السَّابِقُ أَيْضًا فَلَوْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا لَمْ يَكُونُوا قَدْ ازْدَادُوا كُفْرًا فَلَا يَدْخُلُونَ فِي الْآيَةِ . وَالْفُقَهَاءُ إذَا تَنَازَعُوا فِي قَبُولِ تَوْبَةِ مَنْ تَكَرَّرَتْ رِدَّتُهُ أَوْ قَبُولِ تَوْبَةِ الزِّنْدِيقِ فَذَاكَ إنَّمَا هُوَ فِي الْحُكْمِ الظَّاهِرِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُوثَقُ بِتَوْبَتِهِ أَمَّا إذَا قُدِّرَ أَنَّهُ أَخْلَصَ التَّوْبَةَ لِلَّهِ فِي الْبَاطِنِ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إنَّهُ هُوَ

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ . وَنَحْنُ حَقِيقَةُ قَوْلِنَا أَنَّ التَّائِبَ لَا يُعَذَّبُ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ

لَا شَرْعًا وَلَا قَدَرًا وَالْعُقُوبَاتُ الَّتِي تُقَامُ مِنْ حَدٍّ أَوْ تَعْزِيرٍ إمَّا أَنْ يَثْبُتَ سَبَبُهَا بِالْبَيِّنَةِ مِثْلَ قِيَامِ الْبَيِّنَةِ بِأَنَّهُ زَنَى أَوْ سَرَقَ أَوْ شَرِبَ فَهَذَا إذَا أَظْهَرَ التَّوْبَةَ لَمْ يُوثَقْ بِهَا وَلَوْ دُرِئَ الْحَدُّ بِإِظْهَارِ هَذَا لَمْ يَقُمْ حَدٌّ فَإِنَّهُ كُلُّ مَنْ تُقَامُ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةُ يَقُولُ قَدْ تُبْت وَإِنْ كَانَ تَائِبًا فِي الْبَاطِنِ كَانَ الْحَدُّ مُكَفِّرًا وَكَانَ مَأْجُورًا عَلَى صَبْرِهِ وَأَمَّا إذَا جَاءَ هُوَ بِنَفْسِهِ فَاعْتَرَفَ وَجَاءَ تَائِبًا فَهَذَا لَا يَجِبُ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ فِي ظَاهِرِ مَذْهَبِ أَحْمَدَ نَصَّ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَهِيَ مِنْ مَسَائِلِ التَّعْلِيقِ وَاحْتَجَّ عَلَيْهَا الْقَاضِي بِعِدَّةِ أَحَادِيثَ وَحَدِيثِ الَّذِي قَالَ : ﴿ أَصَبْت حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ فَأُقِيمَتْ الصَّلَاةُ ﴾ يَدْخُلُ فِي هَذَا لِأَنَّهُ جَاءَ تَائِبًا وَإِنْ شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ كَمَا شَهِدَ بِهِ مَاعِزٌ وَالْغَامِدِيَّةُ وَاخْتَارَ إقَامَةَ الْحَدِّ أُقِيمَ عَلَيْهِ وَإِلَّا فَلَا . كَمَا فِي حَدِيثِ مَاعِزٍ : ﴿ فَهَلَّا تَرَكْتُمُوهُ ؟ ﴾ وَالْغَامِدِيَّةُ رَدَّهَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ . فَالْإِمَامُ وَالنَّاسُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ إقَامَةُ الْحَدِّ عَلَى مِثْلِ هَذَا ؛ وَلَكِنْ هُوَ إذَا طَلَبَ ذَلِكَ أُقِيمَ عَلَيْهِ كَالَّذِي يُذْنِبُ سِرًّا وَلَيْسَ عَلَى أَحَدٍ أَنْ يُقِيمَ عَلَيْهِ حَدًّا : لَكِنْ إذَا اخْتَارَ هُوَ أَنْ يَعْتَرِفَ وَيُقَامَ عَلَيْهِ الْحَدُّ أُقِيمَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَائِبًا وَهَذَا كَقَتْلِ الَّذِي يَنْغَمِسُ فِي الْعَدُوِّ هُوَ مِمَّا يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ دَرَجَتَهُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً

لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مُكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ وَهَلْ وَجَدْت أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ ﴾ . وَقَدْ قِيلَ فِي مَاعِزٍ إنَّهُ رَجَعَ عَنْ الْإِقْرَارِ وَهَذَا هُوَ أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِيهِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ ؛ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَالْأَوَّلُ أَجْوَدُ . وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : سَقَطَ الْحَدُّ لِكَوْنِهِ رَجَعَ عَنْ الْإِقْرَارِ وَيَقُولُونَ رُجُوعُهُ عَنْ الْإِقْرَارِ مَقْبُولٌ وَهُوَ ضَعِيفٌ ؛ بَلْ فَرْقٌ بَيْنَ مَنْ أَقَرَّ تَائِبًا وَمَنْ أَقَرَّ غَيْرَ تَائِبٍ فَإِسْقَاطُ الْعُقُوبَةِ بِالتَّوْبَةِ - كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ - أَوْلَى مِنْ إسْقَاطِهَا بِالرُّجُوعِ عَنْ الْإِقْرَارِ ؛ وَالْإِقْرَارُ شَهَادَةٌ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ ؛ وَلَوْ قَبِلَ الرُّجُوعَ لَمَا قَامَ حَدٌّ بِإِقْرَارٍ فَإِذَا لَمْ تُقْبَلْ التَّوْبَةُ بَعْدَ الْإِقْرَارِ مَعَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ صَادِقًا فَالرُّجُوعُ الَّذِي هُوَ فِيهِ كَاذِبٌ أَوْلَى . آخِرُهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وَسُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

عَنْ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ . قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : مَاتَ مِنْ الْفَزَعِ وَشِدَّةِ الصَّوْتِ ﴿ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ ﴾ (*) . أَخْبَرَنَا أَبُو الْفَتْحِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْكُوفِيُّ الصُّوفِيُّ أَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ التَّمِيمِيُّ ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ الرَّمْلِيُّ ثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ ثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ ﴿ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سَأَلَ جِبْرِيلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ مِنْ الَّذِي لَمْ يَشَأْ اللَّهُ أَنْ يَصْعَقَهُمْ ؟ قَالَ : هُمْ الشُّهَدَاءُ مُتَقَلِّدِينَ سُيُوفَهُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ ﴾ وَهَذَا قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ . وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَالسدي وَالْكَلْبِيُّ : هُوَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ . ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ يَعْنِي الْخَلْقَ كُلُّهُمْ قِيَامٌ عَلَى أَرْجُلِهِمْ ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ مَا يُقَالُ لَهُمْ وَمَا يُؤْمَرُونَ بِهِ . هَذَا كَلَامُ الْوَاحِدِيِّ فِي "كِتَابِ الْوَسِيطِ" .

بَيِّنُوا لَنَا

حَقِيقَةَ الصعوق هَلْ يُطْلَقُ عَلَى الْمَوْتِ فِي حَقِّ الْمَذْكُورِينَ ؟ . وَحَقِيقَةَ الِاسْتِثْنَاءِ ؟

فَأَجَابَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، الَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ النَّاسِ أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ يَمُوتُونَ حَتَّى الْمَلَائِكَةُ وَحَتَّى عِزْرَائِيلُ مَلَكُ الْمَوْتِ . وَرُوِيَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَالْمُسْلِمُونَ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مُتَّفِقُونَ عَلَى إمْكَانِ ذَلِكَ وَقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا يُخَالِفُ فِي ذَلِكَ طَوَائِفُ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ أَتْبَاعِ أَرِسْطُو وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ هِيَ الْعُقُولُ وَالنُّفُوسُ وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ مَوْتُهَا بِحَالِ ؛ بَلْ هِيَ عِنْدَهُمْ آلِهَةُ وَأَرْبَابُ هَذَا الْعَالَمِ . وَالْقُرْآنُ وَسَائِرُ الْكُتُبِ تَنْطِقُ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ عَبِيدٌ مدبرون كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمِيتَهُمْ ثُمَّ يُحْيِيَهُمْ كَمَا هُوَ قَادِرٌ

عَلَى إمَاتَةِ الْبَشَرِ وَالْجِنِّ ثُمَّ إحْيَائِهِمْ وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ وَعَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ إذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَ الْمَلَائِكَةَ غَشْيٌ ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ إذَا سَمِعَتْ الْمَلَائِكَةُ كَلَامَهُ صُعِقُوا ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ ﴿ سَمِعَتْ الْمَلَائِكَةُ كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانٍ فَيُصْعَقُونَ فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ : رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : الْحَقَّ فَيُنَادُونَ : الْحَقَّ الْحَقَّ ﴾ . فَقَدْ أَخْبَرَ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ أَنَّهُمْ يُصْعَقُونَ صعوق الْغَشْيِ فَإِذَا جَازَ عَلَيْهِمْ صعوق الْغَشْيِ جَازَ عَلَيْهِمْ صعوق الْمَوْتِ وَهَؤُلَاءِ الْمُتَفَلْسِفَةُ لَا يُجَوِّزُونَ لَا هَذَا وَلَا هَذَا وصعوق الْغَشْيِ هُوَ مِثْلُ صعوق مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ وَالْقُرْآنُ قَدْ أَخْبَرَ بِثَلَاثِ نَفَخَاتٍ : نَفْخَةِ الْفَزَعِ ذَكَرَهَا فِي سُورَةِ النَّمْلِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ . وَنَفْخَةِ الصَّعْقِ وَالْقِيَامِ ذَكَرَهُمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ

فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ . وَأَمَّا الِاسْتِثْنَاءُ فَهُوَ مُتَنَاوِلٌ لِمَنْ فِي الْجَنَّةِ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَيْسَ فِيهَا مَوْتٌ وَمُتَنَاوِلٌ لِغَيْرِهِمْ وَلَا يُمْكِنُ الْجَزْمُ بِكُلِّ مَنْ اسْتَثْنَاهُ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ أَطْلَقَ فِي كِتَابِهِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَأَجِدُ مُوسَى آخِذًا بِسَاقِ الْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي هَلْ أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَثْنَاهُ اللَّهُ ؟ ﴾ وَهَذِهِ الصَّعْقَةُ قَدْ قِيلَ إنَّهَا رَابِعَةٌ وَقِيلَ إنَّهَا مِنْ الْمَذْكُورَاتِ فِي الْقُرْآنِ ؛ وَبِكُلِّ حَالٍ النَّبِيُّ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَوَقَّفَ فِي مُوسَى هَلْ هُوَ دَاخِلٌ فِي الِاسْتِثْنَاءِ فِيمَنْ اسْتَثْنَاهُ اللَّهُ أَمْ لَا ؟ فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَجْزِمْ بِكُلِّ مَنْ اسْتَثْنَاهُ اللَّهُ لَمْ يُمْكِنَّا أَنْ نَجْزِمَ بِذَلِكَ وَصَارَ هَذَا مِثْلَ الْعِلْمِ بِقُرْبِ السَّاعَةِ وَأَعْيَانِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يُخْبِرْ بِهِ وَهَذَا الْعِلْمُ لَا يُنَالُ إلَّا بِالْخَبَرِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16 صـ 5 . 36 ﴾

(285/671)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الزّمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1)

الإعراب :

(تنزيل) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (من اللّه) متعلّق بخبر المبتدأ تنزيل .

جملة : " تنزيل الكتاب من اللّه . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

[سورة الزمر (39) : آية 2]

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2)

الإعراب :

(إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (إليك) متعلّق بـ (أنزلنا) ، (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل أنزلنا " 2 " ، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (مخلصا) حال من فاعل اعبد (له) متعلّق بـ (مخلصا) ، (الدين) مفعول به لاسم الفاعل .

جملة : " إنّا أنزلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنزلنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) أو خبر لمبتدأ محذوف ، و(من اللّه) متعلّق بالمصدر تنزيل .

(2) أو بحال من الكتاب . . ويجوز تعليقه بفعل أنزلنا ، والباء سببيّة .

وجملة: "اعبد . . . "لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي تنبّه فاعبد .

[سورة الزمر (39) : آية 3]

أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (3)

الإعراب:

(ألا) للتنبيه (للّه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ الدين (الواو) (الواو) استئنافيّة (من دونه) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (ما) نافية (إلّا) للحصر (اللام) للتعليل (يقرّبوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (إلى اللّه) متعلّق بـ (يقرّبونا) ، (زلفى) مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه مرادفه "1" .

---

(1) أجاز أبو البقاء أن يكون حالا مؤكّدة.

والمصدر المؤوّل (أن يقرّبونا . . .) في محل جرّ باللام متعلّق بـ (نعبدهم) .

(بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يحكم) ، (في ما) متعلّق بـ (يحكم) ، (فيه) متعلّق بـ (يختلفون) ، (لا) نافية.

جملة : " للّه الدين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الذين اتّخذوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتّخذوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ما نعبدهم . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي : يقولون ما نعبدهم

. . . .

وجملة القول المقدّرة في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " يقرّبونا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " إنّ اللّه يحكم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يحكم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " هم فيه يختلفون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يختلفون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

وجملة : " إنّ اللّه لا يهدي من . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يهدي من . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " هو كاذب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

[سورة الزمر (39) : الآيات 4 إلى 6]

لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (4)
خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ
ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ
بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)

الإعراب :

(لو) حرف شرط غير جازم (اللام) واقعة في جواب لو (ممّا) متعلّق بـ (اصطفى) ، والعائد محذوف " 1 " (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف .

والمصدر المؤوّل (أن يتّخذ . . .) في محلّ نصب مفعول به .

(سبحانه) مفعول مطلق لفعل محذوف (الواحد ، القهّار) نعتان للفظ الجلالة مرفوعان .

جملة : " أراد اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتّخذ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " اصطفى . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يخلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " (نسبّح) سبحان . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة - أو استئناف بيانيّ .

وجملة : " هو اللّه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(5) (بالحقّ) متعلّق بحال من الفاعل - أو من المفعول - " 2 " ، (على النهار) متعلّق بـ (يكوّر) بمعنى يدخل ، وكذلك (على الليل) ، (كلّ) مبتدأ مرفوع " 3 " ، (لأجل) متعلّق بـ (يجري) ، (ألا) للتنبيه .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر " 4 " .

---

(1) أو متعلّق بحال من الموصول الثاني (ما) .

(2) والباء للملابسة ، أو متعلّق بـ (خلق) والباء سببيّة .

(3) دالّ على عموم والتنوين عوض من محذوف ، أي كلّ واحد منهما .

(4) أو في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ اللّه .

وجملة : " يكوّر . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر " 1 " .

وجملة : " يكوّر (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة يكوّر (الأولى) .

وجملة : " سخّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق .

وجملة : "كلّ يجري . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " هو العزيز . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

(6) (من نفس) متعلّق بـ (خلقكم) ، (منها) متعلّق بـ (جعل) " 3 " ، (الواو) عاطفة (لكم) متعلّق بـ (أنزل) ، (من الأنعام) متعلّق بحال من ثمانية أزواج (في بطون) متعلّق بـ (يخلقكم) ، (خلقا) مفعول مطلق منصوب (من بعد) متعلّق بنعت لـ (خلقا) " 4 " ، (في ظلمات) بدل من (في بطون) بإعادة الجار فيتعلّق بـ (يخلقكم) " 5 " ، (اللّه) لفظ الجلالة خبر المبتدأ ذلكم (ربّكم) خبر ثان مرفوع (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (الملك) ، (لا) نافية للجنس (إلّا) للاستثناء (هو) ضمير منفصل بدل من الضمير في الخبر المحذوف في محلّ رفع (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أنّى) اسم استفهام في محلّ نصب على الظرفيّة المكانيّة متعلّق بحال من النائب الفاعل في (تصرفون) " 6 " .

---

(1) أو خبر آخر للفظ الجلالة . . . أو في محلّ نصب حال من فاعل خلق .

(2) أو في محلّ نصب حال من الشمس والقمر .

(3) بتضمينه معنى خلق . . . أو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان إذا كان من أفعال التحويل .

(4) أو متعلّق بـ (يخلقكم)

(5) أو متعلّق بـ (خلق) المجرور قبله . [. . . . .]

(6) أنّى يأتي بمعنى كيف . . فهو على هذا حال أصلا .

(289/671)

وجملة : " خلقكم من نفس . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقكم .

وجملة : " أنزل لكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقكم .

وجملة : " يخلقكم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ذلكم اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " له الملك . . . " في محلّ رفع خبر ثالث للمبتدأ ذلكم .

وجملة : " لا إله إلّا هو " في محلّ رفع خبر رابع – أو استئنافيّة – .

وجملة : " تصرفون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كان هذا شأن اللّه فأنّي تصرفون .

البلاغة

1 – العطف بـ " ثم " : في قوله تعالى " ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها " .

فعطفها بثم على الآية الأولى ، للدلالة على مباينتها لها فضلا ومزية ، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية ، فهو من التراخي في الحال والمنزلة ، لا من التراخي في الوجود .

2 - الاستعارة التبعية : في قوله تعالى " وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ " والإنزال مجاز عن القضاء والقسمة ، فإنه تعالى إذا قضى وقسم أثبت ذلك في اللوح المحفوظ ، ونزلت به الملائكة الموكلة بإظهاره ، ووصفه بالنزول مع أنه معنى شائع متعارف كالحقيقة ، والعلاقة بين الإنزال والقضاء الظهور بعد الخفاء ، ففي الكلام استعارة تبعية ، ويجوز أن يكون مجازا مرسلا .

الفوائد

1 - التصوير الفني في القرآن الكريم :

إن البيان الإلهي ، في هذه الآية ، قد جعل من صورة توالي الليل والنهار لوحة

مجسدة ظاهرة ، وهي لوحة تسري فيها الحياة والحركة ، وتنبض فيها الخطوط والألوان ، فقال تعالى يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ ومعنى التكوير اللف يقال : كار العمامة على رأسه وكوّرها ، ويقول الزمخشري إن الليل والنهار خلفه يذهب هذا ويغشى

مكانه هذا ، ومن هنا ندرك مبلغ التصوير والحركة في صورة الليل والنهار وتواليهما مع الأيام ، وندرك معنى التكوير الذي ينشئ في الذهن والخيال تلك الحركة الدائبة ، واللف والدوران ، الذي يتراءى للخيال في تعاقب الليل والنهار ، فالصورة ماثلة والحركة مطردة أبدا بلا نفاد ، والليل والنهار متلاحقان متتابعان دون توقف أو إبطاء .

2 – الظلمات الثلاث :

قال ابن عباس : الظلمات الثلاث هي : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة (وهي غشاء ولد الإنسان) . إذا وقف الإنسان متأمّلا ، متدبّرا نشأته في الرحم ، وأطواره في هذه الظلمات الثلاث ، وكيف تحوطه عناية اللّه عز وجل ، ليكمل في بطن أمه تسعة أشهر ، ثم يأتي مولودا إلى هذا الوجود ، فإنه لا يسعه إلا أن يخر ساجدا لعظمة اللّه عز وجل ، ولقدرته العظيمة التي رعته وأنشأته مخلوقا سويا في ظلمات ثلاث .

[سورة الزمر (39) : آية 7]

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (7)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب الشرط (عنكم) متعلّق بغنيّ (الواو) عاطفة (لعباده) متعلّق بـ

(يرضى) ، (الواو) عاطفة (لكم) متعلّق بـ (يرضه) ، (الواو) استئنافيّة (لا) نافية (وزارة) صفة نابت عن موصوف أي نفس وزارة وكذلك (أخرى) (إلى ربّكم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم

(291/671)

للمبتدأ مرجعكم (الفاء) (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (بذات) متعلّق بعليم .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (ينبّئكم) .

جملة : " تكفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ اللّه غني . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء " 2 " .

وجملة : " لا يرضى . . . " في محلّ رفع معطوفة على الخبر غنيّ .

وجملة : " تشكروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تكفروا .

وجملة : " يرضه . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " لا تزر وازرة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة : " إلى ربّكم مرجعكم " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأخيرة .

وجملة : " ينبّئكم " لا محلّ لها معطوفة على الاسمية الأخيرة .

وجملة: "كنتم تعملون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ - أو الاسميّ - .

وجملة: " تعملون . . . "في محلّ نصب خبر كنتم.

وجملة: "إنّه عليم "لا محلّ لها تعليليّة.

---

(1) أو موصول في محلّ جرّ، والعائد محذوف.

(2) يحتمل أن تكون الجملة تعليلا للجواب المقدّر أي: إن تكفروا يعذّبكم لأن اللّه غنيّ عنكم.

(3) أو معطوفة على الاستئنافيّة.

[سورة الزمر (39): الآيات 8 إلى 9]

وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (8)
أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (9)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (إليه) متعلّق بالحال (منيبا) ، (منه) متعلّق بنعت لنعمة (إليه) متعلّق بـ (يدعو) (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يدعو) ، (الواو) عاطفة (للّه) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (اللام) للتعليل (يضلّ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (عن سبيله) متعلّق بـ (يضلّ) .

والمصدر المؤوّل (أن يضلّ) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعل) .

(بكفرك) متعلّق بـ (تمتّع) ، (قليلا) مفعول فيه ظرف زمان - نائب عن الظرف - " 1 " ، (من أصحاب) متعلّق بخبر (إنّ) .

جملة : " مسّ . . ضرّ " في محلّ جرّ مضاف إليه . . والشرط وفعله وجوابه مستأنف .

وجملة : " دعا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " خوّله . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . والشرط وفعله وجوابه معطوف على الشرط الأول وفعله وجوابه المستأنف .

---

(1) أو هو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته .

الجدول ج 23 ، ص : 158

وجملة : " نسي . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " كان يدعو . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يدعو . . . " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نسي .

وجملة : " يضل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تمتّع . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّك من أصحاب . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(9) (أم) للإضراب الانتقاليّ بمعنى بل والهمزة التي للاستفهام الإنكاريّ (من) موصول في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف تقديره كمن هو عاص (ساجدا) حال من الضمير في قانت (هل) حرف استفهام إنكاريّ (إنّما) كافّة ومكفوفة . .

وجملة : " من هو قانت (كمن هو عاص) " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول السابق .

وجملة : " هو قانت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يحذر . . . " في محلّ نصب حال ثانية .

(293/671)

وجملة : " يرجو . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يحذر .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يستوي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يعلمون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يعلمون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " يتذكّر أولو الألباب " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة الزمر (39) : آية 10]

قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (10)

الإعراب :

(عباد) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف اتباعا لقراءة الوصل ، و(الياء) مضاف إليه (الذين) موصول في محلّ نصب نعت لعباد (للذين) متعلّق بمحذوف خبر للمبتدأ حسنة (في هذه) متعلّق بـ (أحسنوا) ، (إنّما) كافّة ومكفوفة (أجرهم) مفعول به للفعل المبني للمجهول يوفّى (بغير) متعلّق بحال من أجرهم .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أحسنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " للذين أحسنوا . . . حسنة " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أرض اللّه واسعة . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف البيانيّ " 1 " .

---

(1) أو معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " إنّما يوفّى الصابرون . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

[سورة الزمر (39) : الآيات 11 إلى 12]

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12)

الإعراب :

(التاء) في (أمرت) نائب الفاعل (أن) حرف مصدريّ ونصب (له) متعلّق بـ (مخلصا) ، (الدين) مفعول به لاسم الفاعل (مخلصا) .

والمصدر المؤوّل (أن أعبد) في محلّ نصب مفعول به عامله أمرت .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّي أمرت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أمرت . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أعبد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

(12) (اللام) للتعليل - أو بمعنى الباء للتعدية (أن أكون) مثل أن أعبد .

والمصدر المؤوّل (أن أكون . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أمرت) .

وجملة : " أمرت (الثانية) " في محلّ رفع معطوفة على جملة أمرت (الأولى) .

وجملة : " أكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

[سورة الزمر (39) : آية 13]

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13)

الإعراب :

(عصيت) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط

الجدول ج 23 ، ص : 161

(عذاب) مفعول به منصوب عامله أخاف .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّي أخاف . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أخاف . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة: "عصيت . . . "لا محلّ لها اعتراضيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله.

[سورة الزمر (39) : الآيات 14 إلى 16]

قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (16)

(295/671)

الإعراب:

(اللّه) لفظ الجلالة مفعول به مقدّم منصوب (مخلصا له ديني) مثل (مخلصا له الدين) " 1 " .

جملة: "قل . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أعبد . . . "في محلّ نصب مقول القول.

(15) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر، والأمر في (اعبدوا) للتهديد (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به " 2 "، (من دونه) حال من العائد المقدّر (الذين) موصول خبر إنّ في محلّ رفع (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق

---

(1) في الآية (11) من هذه السورة .

(2) أو نكرة موصوفة ، وجملة شئتم نعت لها .

ب (خسروا) (ألا) أداة تنبيه (هو) ضمير فصل " 1 " .

وجملة : " اعبدوا . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف أي : أمّا أنتم فاعبدوا . . . أي لا تعبدون اللّه .

وجملة : " شئتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ الخاسرين الذين . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " خسروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ذلك هو الخسران . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(16) (لهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ ظلل (من فوقهم) متعلّق بحال من ظلل " 2 " ، (من النار) متعلّق بنعت لظلل (من تحتهم) مثل من فوقهم (ظلل) معطوف على الأول بالواو " 3 " ، (ذلك) مبتدأ في محلّ رفع ، والإشارة إلى العذاب (به) متعلّق بـ (يخوّف) ، (يا

عباد) مرّ إعرابها " 4 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر " 5 " النون في (اتّقون) للوقاية قبل (ياء) المتكلّم المحذوفة لمناسبة الفاصلة ، وهي مفعول به .

وجملة : " لهم . . . ظلل " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليل – .

وجملة : " ذلك يخوّف به . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يخوّف . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ ذلك .

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره الخسران ، والجملة الاسميّة خبر المبتدأ ذلك .

(2) أو متعلّق بالخبر المحذوف .

(3) يجوز أن يكون مبتدأ مؤخّر خبره (من تحتهم) ، والعطف من عطف الجمل .

(4) في الآية (10) من هذه السورة .

(5) أو زائدة للتزيين .

وجملة النداء : " يا عباد " لا محلّ لها استئنافيّة – أو مقول القول لقول مقدّر – .

وجملة : " اتّقون " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن خفتم النار فاتّقون . . وجملة الشرط وفعله وجوابه لا محلّ لها جواب النداء .

البلاغة

التهويل : في قوله تعالى " أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ " .

تهويل رائع ، فقد جعل الجملة مستأنفة ، وصدّرها بحرف التنبيه ، وأشار بذلك إلى بعد منزلة المشار إليه في الشر ، وأنه لعظمه بمنزلة المحسوس ، ووسّط الفصل بين المبتدأ والخبر ، وعرّف الخسران ، وأتى به على فعلان الأبلغ من فعل ، ووصفه بالمبين ، من الدلالة على كمال هوله وفظاعته ، وأنه لا نوع من الخسر وراءه .

الفوائد

- أحوال المنادي المضاف لياء المتكلّم :

1 - إن كان معتل الآخر (مقصورا أو منقوصا) ثبتت معه الياء مفتوحة ، مثل :

(يا فتاي ، يا محاميّ) .

2 - إن كان صفة : أي (اسم فاعل ، أو مبالغته ، أو اسم مفعول) ثبتت معها الياء ساكنة أو مفتوحة تقول : (يا سامعي يا سامعي أجبني) (يا معبودي يا معبودي أغثني) 3 - إن كان صحيح الآخر جاز فيه أربعة أوجه :

آ - حذف الياء وإبقاء الكسرة قبلها دليلا عليها ، كقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها (يا عِبادِ فَاتَّقُونِ) ب - إبقاء الياء ساكنة (يا عبادي) ج - إبقاء الياء وفتحها (يا حسرتي على فلان) .

د - قلب الكسرة قبل الياء فتحة ، وقلب الياء ألفا ، مثل : (يا حسرتا) . فإن كان المضاف

أبا أو أما جاز فيه الأوجه الأربعة المتقدمة ، وجاز وجه خامس ، هو قلب الياء تاء مفتوحة ، مثل (يا أبت ، يا أمّت) ، ووجه سادس هو قلبها تاء مكسورة ، مثل (يا أبت) (يا أمت) ، وتبدل هذه التاء هاء عند الوقف فتقول : (يا أبه ، يا أمّه) .

وألحقوا بذلك (ابن عمي ، ابنة عمي ، ابن أمي ، ابنة أمي) فجوّزوا فيها : إثبات الياء وحذفها ، مع كسر الآخر أو فتحه : (يا بن عمّ ، يا بن عمّ) ، مع أن ياء المتكلم هنا لم يضف إليها منادى ، وإنما أضيف إليها ما أضيف إليه منادى ، فكان حقها الإثبات ، لكنهم ألحقوها بما تقدم ، بل حذفهم لها أكثر من الإثبات .

[سورة الزمر (39) : الآيات 17 إلى 18]

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (18)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (أن) حرف مصدريّ ونصب (إلى اللّه) متعلّق بـ (أنابوا) ، (لهم) متعلّق بخبر مقدّم .

والمصدر المؤوّل (أن يعبدوها) في محلّ نصب بدل اشتمال من الطاغوت .

(الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (عباد) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة بسبب قراءة الوصل . . و(الياء) المحذوفة مضاف إليه .

جملة : " الذين اجتنبوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اجتنبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يعبدوها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " أنابوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اجتنبوا . . .

وجملة : " لهم البشرى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " بشرّ عباد . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : تنبّه فبشّر . . .

(18) (الذين) موصول في محلّ نصب نعت لعبادي (الفاء) عاطفة (الذين) الثاني في محلّ رفع خبر المبتدأ أولئك (هم) ضمير فصل " 1 " ، (أولو) خبر المبتدأ أولئك الثاني .

وجملة : " يستمعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " يتّبعون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يستمعون .

وجملة : " أولئك الذين هداهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هداهم اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة : " أولئك . . . أولو الألباب " لا محل لها معطوفة على جملة أولئك . . . الأولى .

البلاغة

المبالغة : في تشبيه الشيطان بالطاغوت في قوله تعالى " وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ " . ففيها مبالغات ، وهي التسمية بالمصدر ، كأن عين الشيطان طغيان ، وأن البناء بناء مبالغة ، فإن الرحموت : الرحمة الواسعة ، والملكوت : الملك المبسوط ،

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره أولو . . . والجملة الاسميّة خبر المبتدأ أولئك .

[. . . . .]

[سورة الزمر (39) : آية 19]

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (من) اسم شرط جازم مبتدأ " 1 " ، (عليه) متعلّق بـ (حقّ) ،

(الهمزة) توكيد للأولى (الفاء) رابطة لجواب الشرط (في النار) متعلّق بمحذوف صلة من .

جملة : " من حقّ عليه كلمة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " حقّ عليه كلمة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ من .

وجملة : " أنت تنقذ . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء " 3 " .

وجملة : " تنقذ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ أنت .

البلاغة

الاستعارة التمثلية المكنية : في قوله تعالى " أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ " .

---

(1) يجوز أن يكون اسم موصول مجرّدا من الشرط مبتدأ خبره محذوف تقديره كمن هو ناج.

(2) أو معطوفة على استئناف مقدّر بالفاء أي : أمن كفر فمن حقّ عليه كلمة ، . .

(3) يجوز أن يكون الجواب محذوفا ، والجملة المذكورة مسوقة لتقرير مضمون الجملة السابقة ، وتقدير الجواب : فأنت تخلّصه .

حيث مثل حاله عليه الصلاة والسلام ، في المبالغة في تحصيل هدايتهم ، والاجتهاد في دعائهم إلى الإيمان ، بحال من يريد أن ينقذ من في النار منها . وفي الحواشي الخفاجية ، نقلا عن السعد ، أن في هذه الآية استعارة لا يعرفها إلا فرسان البيان ، وهي الاستعارة التمثيلية المكنية ، لأنه نزل ما يدل عليه قوله تعالى " أفمن " إلخ من استحقاقهم العذاب ، وهم في الدنيا ، منزلة دخولهم النار في الآخرة ، حتى يترتب عليه تنزيل بذله عليه الصلاة والسلام جهده في دعائهم إلى الايمان منزلة إنقاذهم من النار ، الذي هو من ملائمات دخول النار . وقيل : إن النار مجاز عن الضلال ، من باب إطلاق اسم المسبب على السبب ، والانقاذ بدل الهداية ، من ترشيح المجاز .

[سورة الزمر (39) : آية 20]

لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ (20)

الإعراب :

(لكن) حرف استدراك مهمل وفيه معنى الإضراب (لهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم

للمبتدأ غرف (من فوقها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ غرف الثاني (من تحتها) متعلّق بـ (تجري) ، بحذف مضاف أي من تحت عرصاتها " 1 " (وعد) مفعول مطلق لفعل محذوف (لا) نافية .

جملة : " الذين اتّقوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لهم غرف . . . " في محلّ رفع خبر للمبتدأ (الذين) .

وجملة : " من فوقها غرف . . . " في محلّ رفع نعت لغرف الأول .

وجملة : " تجري من تحتها الأنهار " في محلّ رفع نعت لغرف في الموضعين " 2 " .

وجملة : " (وعد) اللّه وعدا " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يخلف اللّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة – أو استئناف بيانيّ – .

الصرف :

(مبنيّة) ، مؤنّث مبنيّ وهو اسم مفعول من بنى الثلاثيّ ، وفيه إعلال بالقلب أصله مبنوي – بضمّ النون وسكون الواو – اجتمعت الواو والياء والأولى ساكنة قلبت الواو إلى ياء فأدغمت مع الياء الثانية ثمّ كسر ما قبل الياء للمناسبة .

---

(1) أو متعلّق بحال من الأنهار .

(2) أو في محلّ نصب حال منهما .

[سورة الزمر (39) : آية 21]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (21)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريريّ (من السماء) متعلّق بـ (أنزل) ، (الفاء) عاطفة (في الأرض) متعلّق بنعت لينابيع " 1 " ، (به) متعلّق بـ (يخرج) والباء سببيّة (ألوانه) فاعل اسم الفاعل (مختلفا) ، (ثمّ) عاطفة في المواضع الثلاثة وكذلك (الفاء) (في ذلك) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (اللام) لام الابتداء للتوكيد (ذكرى) اسم إنّ منصوب (لأولي) متعلّق بالمصدر ذكرى.

جملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " أنزل . . . " في محلّ رفع خبر أنّ.

والمصدر المؤوّل (أن اللّه أنزل . .) " في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ترى.

وجملة : " سلكه . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أنزل.

وجملة : " يخرج . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة سلكه.

وجملة : " يهيج . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يخرج " 2 " وجملة : " تراه مصفّرا " في محلّ رفع معطوفة على جملة يهيج " 3 "

---

(1) وهو إمّا مفعول به ثان بتضمين سلكه معنى جعله ، أو منتصب على الظرف إذا كان بمعنى المنبع لا بمعنى الماء النابع .

(2) جاز العطف على الرغم من اختلاف الإسناد لأن الهيجان يتمّ بقدرة اللّه وإرادته .

(3) أي فيصفرّ أي يجعله اللّه أصفر .

(303/671)

وجملة : " يجعله . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يهيج .

وجملة : " إنّ في ذلك لذكرى . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(حطاما) ، اسم بمعنى الفتات وزنه فعال بضمّ الفاء من الثلاثيّ حطم باب فرح أي تكسّر ، وباب ضرب بمعنى كسر .

[سورة الزمر (39) : آية 22]

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبتدأ " 1 " ، (للإسلام) متعلّق بفعل شرح (الفاء) رابطة لجواب الشرط (على نور) متعلّق بخبر المبتدأ هو (من ربّه) متعلّق بنعت لنور (الفاء) استئنافيّة (ويل) مبتدأ مرفوع " 2 " ، (للقاسية) متعلّق بخبر المبتدأ ويل (قلوبهم) فاعل لاسم الفاعل القاسية (من ذكر) متعلّق بالقاسية والجار للسببيّة (في ضلال) خبر المبتدأ أولئك .

جملة : " من شرح . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر للتعليل أي : أمن أسلم فمن شرح . .

وجملة : " شرح . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " هو على نور . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء " 4 " .

---

(1) أو اسم موصول . . انظر الآية (19) من هذه السورة فتخريج الإعراب متشابه .

(2) فهو دالّ على دعاء .

(3) أو لا محلّ لها إذا كان (من) اسم موصول ، وخبر المبتدأ محذوف تقديره كمن طبع على قلبه .

(4) يجوز أن تكون الجملة معطوفة بالفاء على جملة الصلة .

وجملة : " ويل للقاسية . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أولئك في ضلال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة .

الفوائد

- ورود (من) بمعنى (عن) :

ورد في الآية التي نحن بصددها (من) بمعنى عن ، في قوله تعالى فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أي عن ذكر اللّه ، وقوله تعالى يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا أي عن هذا . وقيل : هي في هذه للابتداء ، لتفيد أن ما بعد ذلك من العذاب أشدّ ، وكأن هذا القائل يعلق معناها بويل : مثل قوله تعالى فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ، ولا يصح كونه تعليقا صناعيا للفصل بالخبر ، وقيل : هي فيهما للابتداء ، أو هي في الأولى للتعليل ، أي من أجل ذكر اللّه ، لأنه إذا ذكر قست قلوبهم .

وزعم ابن مالك أن (من) في نحو (زيد أفضل من عمرو) للمجاوزة ، وكأنه قيل : جاوز زيد عمرا في الفضل ، قال : وهو أولى من قول سيبويه وغيره : إنها لابتداء الارتفاع ، في نحو (أفضل منه) ، وابتداء الانحطاط في نحو (شر منه) ، إذ لا يقع بعدها إلى . وقد يقال : ولو

كانت للمجاوزة لصح أن يحل محلها (عن) .

هذا وقد أفادت الآية ورود اسم الفاعل بمعنى الصفة المشبهة في قوله تعالى فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ . و(قاسية) اسم فاعل ، ولكنها صفة مشبهة ، لأنها دلت على صفة ثابتة فيهم ، وهذه الصفة رفعت فاعلا وهو (قلوبهم) ، وتقول القاعدة : إذا ورد اسم الفاعل أو اسم المفعول ، ودلا على صفات ثابتة ، فيعتبران : (صفة مشبهة) ، مثل :

(هذا رجل معتدل القامة) و(عليّ محمود السيرة) .

[سورة الزمر (39) : آية 23]

(305/671)

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (23)

الإعراب :

(كتابا) بدل من أحسن (مثاني) نعت ثان لكتاب منصوب (منه) متعلّق بـ (تقشعرّ) ، (إلى ذكر) متعلّق بـ (تلين) بتضمينه معنى تطمئنّ (به) متعلّق بـ (يهدي) ، (الواو) عاطفة (من)

اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به مقدّم عامله يضلل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ما) نافية مهملة (له) متعلّق بخبر مقدّم (هاد) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخر ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة فهو اسم منقوص .

جملة : " اللّه نزّل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نزّل . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " تقشعرّ منه جلود . . . " في محلّ نصب نعت ثالث لـ (كتابا) " 1 " .

وجملة : " يخشون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " تلين جلودهم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تقشعرّ " 2 " .

وجملة : " ذلك هدى اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يهدي . . . " في محلّ نصب حال من هدى والعامل فيها الإشارة ذلك .

---

(1) يجوز أن تكون حالا من (كتابا) لأنه وصف .

(2) أو لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة . [. . . . .]

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) ، والعائد محذوف .

وجملة : " من يضلل اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذلك هدى .

وجملة : " ما له من هاد " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

البلاغة

1 – وصف الواحد بالجمع : في قوله تعالى " مَثَانِيَ " :

لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل ، وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير ، ألا تراك تقول : القرآن أسباع وأخماس ، وسور وآيات ، وكذلك تقول : أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات ، ونظيره قولك : الإنسان عظام وعروق وأعصاب .

2 – فائدة التكرير : وفائدته التثنية . والتكرير : ترسيخ الكلام في الذهن ، فإن النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ ، فما لم يكرر عليها ، عودا عن بدء ، لم يرسخ فيها ، ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ، ثلاث مرات ، وسبعا ، ليركزه في قلوبهم ، ويغرسه في صدروهم .

3 – التجسيد الحي : في قوله تعالى " تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ " .

في هذا المقطع من الآية نكت بلاغية بديعة ، وأهمها التجسيد الحي ، حيث أراد سبحانه أن يجسد فرط خشيتهم ، فعرض صورة في الجلد اليابس ، وصورة من الشعر الواقف . ألا

نقول : وقف شعر رأسه من الخوف ، وفي ذكر الجلود وحدها أولا ، وقرنها بالقلوب ثانيا ، لأن الخشية التي محلها القلوب ، مستلزمه لذكر القلوب ، فكأنه قيل : تقشعر جلودهم ، وتخشى قلوبهم في أول الأمر ، فإذا ذكروا اللّه ، وذكروا رحمته وسعتها ، استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم ، وبالقشعريرة لينا في جلودهم .

وقيل : المعنى : أن القرآن لما كان في غاية الجزالة والبلاغة ، فكانوا إذا رأوا عجزهم

الجدول ج 23 ، ص : 173

عن معارضته اقشعرت الجلود منه إعظاما له وتعجبا من حسنه وبلاغته ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر اللّه .

[سورة الزمر (39) : آية 24]

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (24)

الإعراب :

(307/671)

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة (من) اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف تقديره كمن أمن منه (بوجهه) متعلّق بـ (يتّقي) ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق

بـ(يتّقي) ، (الواو) واو الحال (للظالمين) متعلّق بـ(قيل) ، (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به بحذف مضاف أي جزاء ما كنتم " 1 " ، والعائد محذوف .

جملة : " من يتّقي . . . كمن أمن " لا محلّ لها معطوفة على مستأنف مقدّر أي : أكل الناس سواء فمن يتّقي . . .

وجملة : " يتّقي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " قيل " في محلّ نصب حال بتقدير قد " 2 " .

وجملة : " ذوقوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 3 " .

وجملة : " كنتم تكسبون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تكسبون " في محلّ نصب خبر كنتم .

---

(1) يجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريا ، والمصدر المؤوّل مفعول به بحذف مضاف . .

(2) أو معطوفة على جملة يتّقي فلا محلّ لها أي يقال للظالمين ، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق والحصول .

(3) لأنها مقول القول في الأصل .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى " أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ " .

الاتقاء بالوجه ، كناية عن عدم ما يتقى به ، إذ الاتقاء بالوجه لا وجه له ، لأنه لا يتقى به ، ولا يخلو عن خدش . وأما الذي يتقى به فهما اليدان ، وهما مغلولتان إلى عنقه . وقيل : هو مجاز تمثيلي ، لأن الملقى في النار لم يقصد الاتقاء بوجهه ، ولكنه لم يجد ما يتقي به غير وجهه ، ولو وجد لفعل ، فلما لقيها بوجهه كانت حاله حال المتقي بوجهه ، فعبر عن ذلك بالاتقاء ، من باب المجاز التمثيلي .

[سورة الزمر (39) : الآيات 25 إلى 26]

(309/671)

كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (25) فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (26)

الإعراب :

(من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول (الفاء) عاطفة في الموضعين (حيث) اسم مبنيّ على الضم في محل جر بحرف الجرّ متعلّق بـ (أتاهم) ، (لا) نافيّة .

جملة : "كذّب الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أتاهم العذاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " لا يشعرون " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(26) (في الحياة) متعلّق بـ (أذاقهم) " 1 " ، (الواو) استئنافيّة (اللام) لام الابتداء للتوكيد

(لو) حرف شرط غير جازم .

وجملة : " أذاقهم اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أتاهم العذاب .

---

(1) أو بمحذوف حال من المفعول .

(310/671)

وجملة : " عذاب الآخرة أكبر " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كانوا يعلمون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " ، وجواب الشرط محذوف

تقديره ما كذّبوا رسلهم في الدنيا .

وجملة : " يعلمون " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة الزمر (39) : الآيات 27 إلى 28]

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي

عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (للناس) متعلّق بـ (ضربنا) ، (في هذا) متعلّق بـ (ضربنا) ، (القرآن) بدل من ذا – أو عطف بيان عليه – مجرور (من كلّ) متعلّق بـ (ضربنا) . .

جملة : " ضربنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لعلّهم يتذكّرون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليليّة – .

وجملة : " يتذكّرون " في محلّ رفع خبر لعلّهم .

(28) (قرآنا) حال منصوبة موطّئة – أو مؤكّدة للفظ القرآن – " 2 " ، (غير) نعت ثان لـ (قرآنا) منصوب . . أو حال .

وجملة : " لعلّهم يتّقون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليل لجعل القرآن عربيا .

---

(1) يجوز أن تكون حالا من الضمير المفعول في (أذاقهم) . . .

(2) الذي سوّغ صحّة مجيء الحال جامدة أنّها موصوفة ، فهي موطّئة للحال التي هي (عربيّا) من حيث المعنى ، ويجوز أن يكون مفعولا به للعامل يتذكّرون .

وجملة : " يتّقون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

البلاغة

1 - الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " عِوَجٍ " .

لفظ العوج مختص بالمعاني ، دون الأعيان . وقيل المراد بالعوج : الشك واللبس .

وأنشد :

وقد أتاك يقين غير ذي عوج من الإله وقول غير مكذوب

فالعوج : استعارة تصريحية .

2 - التشبيه المقلوب : في قوله تعالى " أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ " .

وأصل الكلام : أ نجعل المفسدين كالمصلحين والفجار كالمتقين ، ولكنه عكس ، مبالغة ومسايرة لظن الكافرين بأنهم أرفع مكانة من المؤمنين المتقين في الآخرة ، كما أنهم كذلك في الدنيا ، لأن الأصل أن يشبه الأدنى بالأعلى .

الفوائد

- أقسام الحال :

تنقسم باعتبارات :

1 - الأول : انقسامها باعتبار انتقال معناها ولزومه إلى قسمين : منتقلة ، وهو الغالب ، وملازمة ، وذلك واجب في ثلاث مسائل :

إحداهما : الجامدة غير المؤولة بالمشتق ، نحو (هذا مالك ذهبا) (هذه جبّتك خزّا) بخلاف نحو (بعته يدا بيد) بمعنى متقابضين ، وهو وصف منتقل ، وإنما لم يؤول في الأول لأنها مستعملة في معناها الوضعي ، بخلافها في الثاني ، وكثير يتوهم أن الحال الجامدة لا تكون إلا المؤولة بالمشتق ، وليس كذلك .

(312/671)

الثانية : المؤكدة نحو (وَلَّى مُدْبِراً) وقولك (هو الحق صادقا) لأن الصدق من لوازم الحق وصفاته .

الثالثة : التي دل عاملها على تجدد صاحبها ، نحو (خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً) وقولهم (خلق اللّه الزرافة يديها أطول من رجليها) .

2 - الثاني : انقسامها بحسب قصدها لذاتها ، وللتوطئة بها ، إلى قسمين : مقصودة وهو

الغالب ، وموطئة وهي الجامعة الموصوفة ، نحو (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا)

إنما ذكر بشرا توطئة لذكر سويا ، وتقول : (جاءني زيد رجلا محسنا) وكذلك قوله تعالى في الآية التي نحن بصددها (قُرْآناً عَرَبِيًّا) و(قرآنا) حال من كلمة (القرآن) في الآية السابقة وهي حال موطئة ، فذكر (قرآنا) توطئة لذكر (عربيا) . ورأينا في هذا المثل كيف أن الحال في المعنى هو الصفة التي جاءت بعد الحال الموطئة ، فكلمة (عربيا) هي الحال من ناحية المعنى لا الإعراب .

3 – الثالث : انقسامها بحسب الزمان إلى ثلاثة : مقارنة : وهو الغالب ، كقوله تعالى وَهذا بَعْلِي شَيْخاً ، ومقدرة كقوله تعالى فَادْخُلُوها خالِدِينَ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ أي مقدرا ذلك في المستقبل ، ومحكية ، وهي الماضية نحو (جاء زيد أمس راكبا) .

4 – الرابع : انقسامها بحسب التبيين والتوكيد إلى قسمين : مبينة ، وهو الغالب ، وتسمى مؤسسة أيضا ، ومؤكدة : وهي التي يستفاد معناها بدونها ، وهي ثلاثة :

آ – مؤكدة لعاملها كقوله تعالى وَلَّى مُدْبِراً ب – ومؤكدة لمضمون الجملة : نحو (زيد أبوك عطوفا) ح – ومؤكدة لصاحبها ، نحو : " جاء القوم طرّا " وقوله تعالى : " لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً " .

[سورة الزمر (39) : آية 29]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (29)

الإعراب :

(رجلا) بدل من (مثلا) منصوب (فيه) متعلّق بخبر مقدّم

للمبتدأ شركاء (لرجل) متعلّق بسلم (هل) حرف استفهام (مثلا) تمييز منصوب (للّه) خبر

المبتدأ الحمد (بل) للإضراب الانتقاليّ (لا) نافية . .

جملة : " ضرب اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يستويان . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " الحمد للّه . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " أكثرهم لا يعلمون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ أكثرهم .

الصرف :

(متشاكسون) ، جمع متشاكس ، اسم فاعل من الخماسيّ تشاكس ، وزنه متفاعل بضمّ

الميم وكسر العين .

(سلما) ، مصدر الثلاثيّ سلم له باب فرح ، استعمل وصفا على سبيل المبالغة أو على حذف مضاف أي ذا سلم .

البلاغة

فن المثل : في قوله تعالى " ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ " .

في الآية فن إرسال المثل ، فقد شبه حال من يعبد آلهة شتى ، بمملوك اشترك فيه شركاء شجر بينهم خلاف شديد ، وخصام مبين ، وهم يتجاذبونه ، وهو يقف متحيرا لا يدري لأيهم ينحاز ، ولأيهم ينصاع ، وأيهم أجدر بأن يطيعه ، وحال من يعبد إلها واحدا ، فهو متوفر على خدمته ، يلبي كل حاجاته ، ويصيخ سماعا لكل ما ينتدبه إليه ويطلبه منه .

[سورة الزمر (39) : الآيات 30 إلى 31]

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق ب

(تختصمون) ، وكذلك الظرف المنصوب (عند) . .

جملة : " إنّك ميّت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّهم ميّتون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " إنّكم . . . تختصمون " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّهم ميّتون .

وجملة : " تختصمون " في محلّ رفع خبر إنّكم .

الفوائد

القصاص يوم القيامة :

أفادت هذه الآية ، بأن اللّه عز وجل يوم القيامة ، يقتص من الظالم للمظلوم ، ومن المبطل للمحق ، كما

قال ابن عباس رضي اللّه عنهما ، عن عبد اللّه بن الزبير رضي اللّه عنه قال : لما نزلت ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ قال الزبير :

يا رسول اللّه أ تكون علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا . قال : نعم . فقال : إن الأمر إذن لشديد . أخرجه الترمذي

وقال : حديث حسن صحيح . وقال ابن عمر رضي اللّه عنهما : ما عشنا برهة من الدهر ، وكنا نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين ، قلنا : كيف نختصم ، وديننا واحد ، وكتابنا واحد ، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، فعرفت بأنها

فينا نزلت.

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن النبي، (صلّى اللّه عليه وسلم) قال: أ تدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال:

إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته. فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار رواه مسلم.

[سورة الزمر (39): آية 32]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (32)

الإعراب:

(315/671)

(الفاء) استئنافيّة (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ خبره أظلم (ممّن) متعلّق بأظلم (على اللّه) متعلّق بـ (كذب)، (الواو) عاطفة (بالصّدق) متعلّق بـ (كذّب)، (إذ) ظرف

للزمن الماضي في محلّ نصب متعلّق بـ (كذّب) ، (الهمزة) للاستفهام التقريريّ (في جهنّم) متعلّق بمحذوف خبر ليس (مثوى) اسم ليس مؤخّر مرفوع (للكافرين) متعلّق بمثوى .

جملة : " من أظلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كذب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : "كذّب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " جاءه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ليس في جهنّم مثوى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة الزمر (39) : الآيات 33 إلى 35]

وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (35)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (بالصدق) متعلّق بحال من فاعل جاء " 1 " ، (به) متعلّق بـ (صدّق) ، (هم) ضمير فصل (المتّقون) خبر المبتدأ أولئك .

جملة : " الذي جاء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جاء بالصدق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " صدّق به . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جاء . . .

وجملة : " أولئك . . المتّقون . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذي) . . " 2 "

---

(1) أو متعلّق بـ (جاء) وهو نعت لمنعوت محذوف أي جاء بالكلام الصادق .

(2) يجوز أن تكون جملة (هم المتقون) من المبتدأ والخبر خبر المبتدأ أولئك . .

ويجوز أن تكون جملة أولئك . . المتقون حال من فاعل جاء وجملة لهم ما يشاءون خبر المبتدأ (الذي) .

---

(34) (لهم) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ ما (عند) ظرف منصوب متعلّق بحال من العائد المحذوف أو من فاعل يشاءون . . والإشارة في (ذلك) إلى ما يريدون . .

وجملة : " لهم ما يشاءون . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ أولئك . . .

وجملة : " يشاءون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ذلك جزاء . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(35) (اللام) لام العاقبة (يكفّر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (عنهم) متعلّق بـ (يكفّر) ، (الذي) موصول مضاف إليه في محلّ جرّ (الواو) عاطفة (يجزيهم) منصوب

معطوف على (يكفّر) ، (أجرهم) مفعول به ثان منصوب ، (بأحسن) متعلّق بـ (يجزيهم) ، وعائد (الذي) محذوف أي يعملونه .

والمصدر المؤوّل (أن يكفّر . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره يسرّ لهم ذلك " 1 " .

وجملة : " يكفّر اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الأول .

وجملة : " يجزيهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يكفّر اللّه . . .

وجملة : " كانوا يعملون . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا .

---

(1) أو متعلّق بالمحسنين كأنّه قيل : الذين أحسنوا للتكفير .

الصرف :

(أسوأ) ، اسم تفضيل من الثلاثي ساء ، وعاد حرف العلة إلى أصله ، وزنه أفعل .

[سورة الزمر (39) : الآيات 36 إلى 37]

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36)
وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (37)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريريّ (كاف) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ليس ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة فهو اسم منقوص (عبده) مفعول به لاسم الفاعل كاف (الواو) استئنافيّة في الموضعين والثالثة عاطفة (بالذين) متعلّق بـ (يخوّفونك) ، (من دونه) متعلّق بمحذوف صلة الموصول (من) اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به مقدّم (يضلل) حرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ما) نافية مهملة " 1 " (له) متعلّق بخبر مقدّم (هاد) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر ، وعلامة الجرّ مثل كاف .

جملة : " أليس اللّه بكاف . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يخوّفونك . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يضلل اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما له من هاد . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

(37) (من يهد . . . من مضل) مثل من يضلل . . من هاد (أليس اللّه بعزيز) مثل أليس اللّه بكاف (ذي) نعت لعزيز مجرور لفظا وعلامة الجرّ الياء .

(1) أو عاملة عمل ليس والجار والمجرور خبر ما و(هاد) مرفوع محلّا اسم ما مؤخر.

الجدول ج 24، ص: 185

وجملة: "من يهد اللّه . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة يضلل اللّه.

وجملة: "ما له من مضلّ . . . . "في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء.

وجملة: "أليس اللّه بعزيز . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(كاف)، اسم فاعل من الثلاثيّ كفى، وزنه فاع، فيه إعلال بالحذف لمناسبة التنوين فهو اسم منقوص.

[سورة الزمر (39): آية 38]

(318/671)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) موطئة للقسم (سألتهم) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (من) اسم استفهام مبتدأ " 1 " ، (اللام) لام القسم (يقولنّ) مضارع مرفوع للتجرّد ، وعلامة الرفع ثبوت النون وقد حذفت لتوالي الأمثال ، و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و(النون) نون التوكيد (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ والخبر محذوف أي خالقهنّ (الهمزة) للاستفهام (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر و(أرأيتم) بمعنى أخبروني (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به أوّل (من دون) متعلّق بحال من العائد المقدّر أي تدعونه (أراد) مثل سألت و(النون) فيه للوقاية ، (بضرّ) متعلّق بـ (أرادني) ، (هل) حرف استفهام (أو) حرف

---

(1) أو هو اسم موصول في محلّ نصب على نزع الخافض أي : عمّن خلق . . . .

عطف (برحمة) متعلّق بـ (أرادني) الثاني (حسبي) خبر مقدّم للمبتدأ اللّه (عليه) متعلّق بـ (يتوكّل) . .

جملة : " إن سألتهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من خلق . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل السؤال المعلّق بالاستفهام ، ذلك

بتقدير حرف الجرّ .

وجملة : " خلق . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " يقولنّ . . " لا محلّ لها جواب القسم . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " للّه (خالقهنّ) . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(320/671)

وجملة : " رأيتم . . " في محل جزم جواب الشرط مقدّر أي : إن أراد اللّه ضرّي أو نفعي فأخبروني هل يمنعن ضرّي أو يحجبن نفعي " 1 " ، وجملة الشرط وفعله وجوابه مقول القول .

وجملة : " تدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " أرادني . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

وجملة : " هل هنّ كاشفات . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان عامله أرأيتم .

وجملة : " أرادني (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرادني (الأولى) .

وجملة : " هل هنّ ممسكات . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة هل هن كاشفات .

---

(1) أو لا محلّ لها جواب شرط غير جازم : إذا كان ثمّة إله سواه فأخبروني هل يمنع ضرّا أراده اللّه أو يحجب نفعا قدّره اللّه . . .

(321/671)

وجملة : " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " حسبي اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يتوكّل المتوكّلون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(ممسكات) ، جمع ممسكة مؤنّث ممسك ، اسم فاعل من الرباعيّ (أمسك) . . انظر الآية (2) من سورة فاطر .

[سورة الزمر (39) : الآيات 39 إلى 40]

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (40)

الإعراب :

(قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة للتخفيف . . . .

و(الياء) المحذوفة مضاف إليه (على مكانتكم) متعلّق بحال من فاعل اعملوا (الفاء) تعليليّة . . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا قوم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اعملوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " إنّي عامل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " سوف تعلمون . . . " لا محلّ لها تعليل لأمر العمل .

(322/671)

---

(40) (من) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به عامله تعلمون (عليه) متعلّق بـ (يحلّ) . . .

وجملة : " يأتيه عذاب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

جملة : " يخزيه . . . " في محلّ رفع نعت لعذاب .

وجملة : " يحلّ . . عذاب " في محلّ رفع معطوفة على جملة يخزيه .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ " .

فإن المكانة ، نقلت من المكان المحسوس ، إلى الحالة التي عليها الشخص ، واستعيرت لها استعارة محسوس لمعقول ، وهذا كما تستعار حيث وهنا للزمان بجامع الشمول والإحاطة . ووجه الشبه ثباتهم في تلك الحال بثبات المتمكن في مكانه .

[سورة الزمر (39) : آية 41]

إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)

الإعراب :

(إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (عليك) متعلّق بـ (أنزلنا) ، (للناس) متعلّق بـ (أنزلنا) و(اللام) سببيّة أي لأجل الناس (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل أنزلنا أو من مفعوله (الفاء) عاطفة (من) اسم شرط في محلّ رفع مبتدأ ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط في الموضعين (لنفسه) متعلّق بخبر لمبتدأ محذوف تقديره اهتداؤه (من ضلّ) مثل من اهتدى ، كل منهما في محلّ جزم فعل الشرط (إنّما) كافّة ومكفوفة (عليها) متعلّق بحال من فاعل يضلّ (الواو)

استئنافيّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (عليهم) متعلّق بوكيل (وكيل) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما .

جملة : "إنّا أنزلنا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "أنزلنا . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "من اهتدى . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : "اهتدى . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(323/671)

وجملة : " (اهتداؤه) لنفسه . . في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : "من ضلّ . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة من اهتدى . . .

وجملة : "ضلّ . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الثاني " 1 " .

وجملة : "إنّما يضلّ عليها "في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : "ما أنت عليهم بوكيل "لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

[سورة الزمر (39) : آية 42]

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)

الإعراب :

(حين) ظرف منصوب متعلّق بـ (يتوفّى) ، (الواو) عاطفة (التي) موصول في محلّ نصب معطوف على الأنفس (في منامها) متعلّق بحال من فاعل تمت " 3 " ، (الفاء) عاطفة (عليها) متعلّق بـ (قضى) ، (إلى أجل) متعلّق بـ (يرسل) (في ذلك) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (اللام) لام الابتداء للتوكيد (آيات) اسم إنّ منصوب (لقوم) متعلّق بنعت لآيات .

جملة : " اللّه يتوفّى . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتوفّى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " لم تمت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا . [. . . . .]

(2) أو معطوفة بالواو على جملة إنّما يضلّ عليها في محلّ جزم .

(3) أو متعلّق بـ (يتوفّى) .

وجملة : " يمسك . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يتوفّى .

وجملة : " قضى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) الثاني .

وجملة : " يرسل . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يمسك .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يتفكّرون " في محلّ جرّ نعت لقوم .

الفوائد

الروح والجسد :

بينت هذه الآية أن اللّه عز وجل هو الذي يتوفى أرواح العباد عند الموت ، أما النفس التي لم تمت ففي منامها ، والنفس التي يتوفاها عند النوم ، هي التي يكون بها العقل والتمييز ، وإذ لكل إنسان نفسان : نفس تكون بها الحياة وتفارقه عند الموت ، والنفس الأخرى هي التي يكون بها التمييز وتفارقه عند النوم ، ولا يزول بزوالها التنفس ، فأما النفس الأولى فهي التي يمسكها اللّه عز وجلّ ، وأما الثانية فهي التي يرسلها عند اليقظة . قال علي بن أبي طالب ، تخرج الروح عند النوم ، ويبقى شعاعها في الجسد ، فبذلك يرى الرؤيا ، فإذا انتبه من النوم عادت الروح إلى الجسد بأسرع من لحظة ، وقيل : إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام ، فتتعارف ما شاء اللّه تعالى فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها أمسك اللّه تعالى أرواح الأموات ، وأرسل أرواح الأحياء .

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره ، فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم يقول : باسمك ربي وضعت جنبي ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين .

فإن قلت : كيف الجمع بين قوله تعالى اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وبين قوله قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ والجواب : أن المتوفي في الحقيقة هو اللّه تعالى ، وملك الموت هو القابض للروح بإذن اللّه تعالى ، ولملك الموت أعوان يساعدونه في تأدية المهمة ، وقيل : تضم له الأرض

الجدول ج 24 ، ص : 191

حتى تصبح كالقصعة بين يديه ، تسهيلا لأداء المهمة . واللّه أعلم .

[سورة الزمر (39) : آية 43]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ (43)

الإعراب :

(أم) منقطعة بمعنى بل (من دون) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله اتّخذوا (الهمزة) للاستفهام (الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم (لا) نافية (شيئا) مفعول به منصوب أي شيئا من الشفاعة وغيرها (الواو) عاطفة (لا) نافية.

جملة: "اتّخذوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة ومقول القول محذوف تقديره أيشفعون . . .

وجملة: "لو كانوا . . . " في محلّ نصب حال من فاعل الفعل المقدّر وجواب الشرط محذوف يفسّره ما قبله.

وجملة: "لا يملكون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا.

وجملة: "لا يعقلون " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يملكون.

[سورة الزمر (39) : آية 44]

قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44)

الإعراب:

(للّه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ الشفاعة (جميعا) حال من الشفاعة " 1 " ، والعامل فيها الاستقرار (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ ملك (إليه) متعلّق بـ (ترجعون) ، و(الواو) في الفعل نائب الفاعل.

جملة: "قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

(1) كأنّ الشفاعة على أنواع مختلفة، أو لأنها صادرة من شفعاء مختلفين.

وجملة: "للّه الشفاعة . . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "له ملك السموات . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "إليه ترجعون . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة له ملك.

[سورة الزمر (39) : آية 45]

وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (وحده) حال من لفظ الجلالة منصوبة (الذين) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (لا) نافية (بالآخرة) متعلّق بـ (يؤمنون) المنفيّ (الواو) عاطفة (الذين) الثاني في محلّ رفع نائب الفاعل (من دونه) متعلّق بمحذوف صلة الذين (إذا) حرف فجاءة.

جملة: "ذكر اللّه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "اشمأزّت قلوب . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة : " لا يؤمنون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ذكر الذين . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " هم يستبشرون " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يستبشرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

[سورة الزمر (39) : آية 46]

قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46)

الإعراب :

(اللهم) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب ، و(الميم) المشدّدة عوض من (يا) النداء المحذوفة (فاطر) نعت للفظ الجلالة منصوب لأنه مضاف " 1 " ، (عالم) نعت ثان منصوب (بين)

---

(1) وهو عند سيبويه منادى ثان حذفت منه أداة النداء ، منصوب لأنه مضاف .

الجدول ج 24 ، ص : 193

ظرف منصوب متعلّق بـ (تحكم) (في ما) متعلّق بـ (تحكم) ، (فيه) متعلّق بـ (يختلفون) .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنت تحكم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تحكم . . . " في محلّ رفع خبر أنت .

وجملة : " كانوا فيه يختلفون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يختلفون " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة الزمر (39) : الآيات 47 إلى 51]

(327/671)

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (48) فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (49) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (للذين) متعلّق بمحذوف خبر أنّ (ما) اسم

موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم أنّ (في الأرض) متعلّق بمحذوف صلة ما (جميعا) حال منصوبة من العائد المقدّر في الصلة (الواو) عاطفة (مثله) معطوف على الموصول ما منصوب

(معه) ظرف منصوب متعلّق بحال من مثله . .

والمصدر المؤوّل (أنّ للذين ظلموا ما . . .) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت أي : لو ثبت تملّك الذين ظلموا لأموال الدنيا ومثلها معها . . .

(اللام) واقعة في جواب لو (به) متعلّق بـ (افتدوا) ، (من سوء) متعلّق بـ (افتدوا) ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (افتدوا) ، (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (بدا) ، (من اللّه) متعلّق بـ (بدا) ، (ما) موصول في محلّ رفع فاعل بدا .

جملة : " (ثبت) تملّك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " افتدوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " بدا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة افتدوا .

وجملة : " لم يكونوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يحتسبون " في محلّ نصب خبر يكونوا . .

(48) (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (بدا) الثاني (ما) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه " 1 " ، (بهم) متعلّق بـ (حاق) (ما) موصول في محلّ رفع فاعل حاق (به) متعلّق بـ (يستهزئون) ، والضمير في (به) يعود على العذاب .

وجملة : " بدا لهم سيّئات . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بدا (الأولى) .

وجملة : " كسبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثالث .

وجملة : " حاق بهم ما . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بدا . . .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الرابع .

---

(1) أو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل مضاف إليه .

وجملة : " يستهزئون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(49) (الفاء) عاطفة (الإنسان) مفعول به مقدّم (ثمّ) حرف عطف (منّا) متعلّق بنعت لنعمة (إنّما) كافّة ومكفوفة (على علم) متعلّق بحال من نائب الفاعل في (أوتيته) " 1 " ،

(بل) للإضراب الانتقاليّ (الواو) عاطفة (لا) نافية . .

وجملة : " مسّ . . ضرّ " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " دعانا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " خوّلناه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أوتيته . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هي فتنة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة – أو اعتراضيّة – وجملة : " لكنّ أكثرهم . . . " لا محل لها معطوفة على جملة هي فتنة .

وجملة : " لا يعلمون . . . " في محلّ رفع خبر لكنّ .

(50) (قد) حرف تحقيق (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول (الفاء) عاطفة (ما) نافية (عنهم) متعلّق بـ (أغنى) (ما) حرف مصدريّ " 2 " .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . . . .) في محلّ رفع فاعل أغنى . .

وجملة : " قالها الذين . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو متعلّق بـ (أوتيته) إذا كان بمعنى : على علم من اللّه بأنّي له أهل .

(2) أو اسم موصول في محلّ رفع ، والعائد محذوف .

وجملة : " ما أغنى . . ما كانوا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالها . . .

وجملة : "كانوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يكسبون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(51) (الفاء) عاطفة (ما) حرف مصدريّ " 1 " في الموضعين (الواو) عاطفة (من هؤلاء) متعلّق بحال من فاعل ظلموا (السين) حرف استقبال (الواو) حاليّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (معجزين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما .

وجملة : " أصابهم سيّئات . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما أغنى . .

وجملة : "كسبوا . . . (في الموضعين) " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الأول والثاني .

والمصدر المؤوّل الأول (ما كسبوا . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل الثاني (ما كسبوا . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " سيصيبهم سيّئات . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " ما هم بمعجزين " في محلّ نصب حال .

[سورة الزمر (39) : آية 52]

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (الواو) عاطفة (لمن) متعلّق بـ (يبسط) ، (في ذلك) متعلّق بخبر إنّ (اللام) للتوكيد (لقوم) متعلّق بنعت لآيات . . .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يبسط . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعوليّ يعملوا .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف .

جملة : " يعلموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أغفلوا ولم يعلموا . . .

وجملة : " يبسط . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يقدر . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يشاء .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يؤمنون . . . " في محلّ جرّ نعت لقوم .

[سورة الزمر (39) : آية 53]

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)

الإعراب :

(عبادي) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء ، و(الياء) مضاف إليه (الذين) موصول في محلّ نصب نعت لـ (عبادي) ، (على أنفسهم) متعلّق بـ (أسرفوا) ، (لا) ناهية جازمة (من رحمة) متعلّق بـ (تقنطوا) (جميعا) حال منصوبة من الذنوب (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (الغفور) خبر المبتدأ هو . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا عبادي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أسرفوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا تقنطوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " إنّ اللّه يغفر . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يغفر . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " إنّه هو الغفور . . . " لا محلّ لها تعليل للتعليل السابق .

---

(1) أو مستعار لمحلّ النصب توكيد للضمير المتّصل اسم إنّ ، وخبر إنّ (الغفور) .

الجدول ج 24 ، ص : 198

وجملة : " هو الغفور . . . " في محل رفع خبر إنّ .

البلاغة

في قوله تعالى " قل يا عبادي الذين أسرفوا . . إلخ " الآية : فنون عديدة ومتنوعة من علمي البديع والبيان :

1 - إضافة الرحمة إلى الاسم الجليل المحتوي على جميع معاني الأسماء على طريق الالتفات .

2 - وضع الاسم الجليل فيه موضع الضمير ، للإشعار بأن المغفرة من مقتضيات ذاته .

(332/671)

---

3 - الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله تعالى " من رحمة اللّه " لتخصيص الرحمة بالاسم الكريم .

4 – التعبير بالغفور فإنه صيغة مبالغة .

5 – إبراز الجملة من قوله تعالى " إنه هو الغفور الرحيم " مؤكدة بإن ، وبضمير الفصل ، وبالصفتين المودعتين للمبالغة .

الفوائد

– رحمة اللّه واسعة :

قال المفسرون : هذه أرجى آية في كتاب اللّه عز وجل .

عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : بعث رسول اللّه – صلّى اللّه عليه وسلم – إلى وحشي يدعوه إلى الإسلام ، فأرسل إليه كيف تدعوني إلى دينك وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاما ، يضاعف له العذاب ، وأنا قد فعلت ذلك كله ، فأنزل اللّه تعالى إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فقال وحشي : هذا شرط شديد ، لعلي لا أقدر عليه ، فهل غير ذلك ؟

فأنزل اللّه تعالى إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذِلِكَ لِمَنْ يَشاءُ فقال وحشي : أراني بعد في شبهة ، فلا أدري أيغفر لي أم لا ؟ فأنزل اللّه هذه الآية قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فقال وحشي : نعم هذا ، فجاء فأسلم .

وعن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال : نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي

ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين ، كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فارتدوا عن الإسلام ، فكنا نقول : لا يقبل اللّه من هؤلاء توبة ، فأنزل اللّه عز وجل هذه الآية ، فكتبها عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه بيده ، ثم بعث بها إلى هؤلاء النفر فأسلموا جميعا وهاجروا . ولا يظن أحد أن مفهوم الآية يقتضي أن يطلق الإنسان لنفسه العنان ويجري وراء المعاصي والكبائر ، فليس الأمر كذلك ، وإنما المراد منها التنبيه على سعة رحمة اللّه عز وجل ، وإحياء الأمل في نفوس المذنبين ، والحث على التوبة ، وعدم قطع حبل الرجاء من اللّه عز وجل .

]

سورة الزمر (39) : الآيات 54 إلى 59]

وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58)

بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (59)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إلى ربّكم) متعلّق بـ (أنيبوا) ، (له) متعلّق بـ (أسلموا) ، (من قبل) متعلّق بالفعلين (أنيبوا وأسلموا) ، (أن) حرف مصدريّ ونصب (ثمّ) حرف عطف و(الواو) في (تنصرون) نائب الفاعل .

والمصدر المؤوّل (أن يأتيكم . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

جملة : " أنيبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تقنطوا " 1 " .

---

(1) في الآية السابقة (53) .

وجملة : " أسلموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تقنطوا .

وجملة : " يأتيكم العذاب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " لا تنصرون " لا محلّ لها معطوفة على جواب شرط مقدّر أي فإذا جاءكم عذّبتم ثم لا تنصرون .

(55) (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه ، ونائب الفاعل لفعل (أنزل) ضمير مستتر هو العائد (إليكم) متعلّق بـ (أنزل) ، (من ربّكم) متعلّق بـ (أنزل) ، (من

قبل . . . العذاب) مثل الأولى ، والجارّ متعلّق بـ (اتّبعوا) (بغتة) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو ملاقيه في المعنى " 1 " ، (الواو) حاليّة (لا) نافية .

وجملة : " اتّبعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أسلموا .

وجملة : " أنزل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يأتيكم العذاب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " أنتم لا تشعرون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا تشعرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

(56) (أن) حرف مصدريّ ونصب (يا) أداة نداء وتحسّر (حسرتا) منادى متحسّر به مضاف منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الألف المنقلبة عن (الياء) ، وهي مضاف إليه . . (ما) حرف مصدريّ " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أن تقول) في محلّ نصب مفعول لأجله بحذف مضاف عامله أنيبوا . . " 3 " ، أي : كراهة أن تقول نفس . . .

---

(1) أو هو مصدر في موضع الحال أي مباغتا .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (حسرتا) ، والعائد محذوف .

(3) أو عامله مقدّر أي أنذرناكم . . .

والمصدر المؤوّل (ما فرّطت . . .) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بـ (حسرتا) .

(في جنب) متعلّق بـ (فرّطت) ، (الواو) حالية (إن) مخفّفة من الثقيلة وهي مهملة وجوبا

(اللام) الفارقة (من الساخرين) متعلّق بخبر كنت .

وجملة : " تقول نفس . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يا حسرتا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " فرّطت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " كنت لمن الساخرين " في محلّ نصب حال .

(57) (أو) حرف عطف (تقول) مضارع منصوب معطوف على (تقول) السابق (لو)

حرف شرط غير جازم (اللام) واقعة في جواب (لو) . . (من المتّقين) متعلّق بمحذوف

خبر كنت .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه هداني) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت أي (لو) ثبتت

هدايتي لكنت . .

وجملة : " تقول . . . . (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة تقول نفس (الأولى) .

وجملة : " لو (ثبتت) هدايتي . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هداني . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : "كنت من المتّقين " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(58) (أو تقول) مثل السابق (حين) ظرف منصوب متعلّق بـ (تقول) ، (لو) حرف تمنّ (لي) متعلّق بمحذوف خبر (أنّ) (كرّة) اسم أنّ منصوب (الفاء) فاء السببيّة (أكون) مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد (الفاء) ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنا (من المحسنين) متعلّق بخبر أكون .

الجدول ج 24 ، ص : 202

والمصدر المؤوّل (أن أكون . .) معطوف على مصدر مأخوذ من التمنّي المتقدّم أي : ليت ثمّة رجوعا لي فكوني محسنا " 1 " .

وجملة : " تقول . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تقول (الثانية) .

وجملة : " ترى . . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

والمصدر المؤوّل (أنّ لي كرة) في محلّ نصب مقول القول .

(59) (بلى) حرف جواب لإيجاب السؤال المنفيّ (قد) حرف تحقيق (الفاء) عاطفة (بها) متعلّق بـ (كذّبت) (الواو) عاطفة في الموضعين (من الكافرين) متعلّق بخبر كنت .

وجملة : " قد جاءتك آياتي . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر .

وجملة : "كذّبت . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة جاءتك آياتي .

---

(1) يجوز أن يكون المصدر المؤوّل معطوفا على (كرّة) من غير مراعاة السببيّة في الفاء ، والفرق بين الحالين أنّ العطف أعلاه يجعل الكون مترتّبا على التمنّي ، أمّا من غير مراعاة السببيّة فإنّ الكون فيه متمنّى كما هي الحال في كلمة كرّة . [. . . . .]

وجملة : " استكبرت " في محلّ نصب معطوفة على جملة كذّبت .

وجملة : "كنت من الكافرين " في محلّ نصب معطوفة على جملة كذّبت . .

الصرف :

(الساخرين) ، جمع الساخر ، اسم فاعل من الثلاثيّ سخر باب فرح وزنه فاعل .

البلاغة

1 - الإيضاح : في قوله تعالى " وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ " .

فإنه عطف على لا تقنطوا ، لتتميم الإيضاح ، كأنه قيل : لا تقنطوا من رحمة اللّه تعالى ،

فتظنوا أنه لا يقبل توبتكم ، وأنيبوا إليه تعالى ، وأخلصوا له عز وجل .

2 – التنكير : في قوله تعالى " أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ " .

ونكرّت " نفس " لأن المراد بها بعض الأنفس ، وهي نفس الكافر ، ويجوز أن يراد نفس متميزة من الأنفس ، إما بلجاج في الكفر شديد ، أو بعذاب عظيم ، ويجوز أن يراد التكثير ، كما قال الأعشى :

وربّ بقيع لو هتفت بجوّه أتاني كريم ينفض الرّأس مغضبا

وهو يريد : أفواجا من الكرام ينصرونه ، لا كريما واحدا . ونظيره : ربّ بلد قطعت ، ورب بطل قارعت ، وهو يقصد بلادا وأبطالا .

3 – الكناية : في قوله تعالى " عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ " .

أصل الجنب الجارحة ، ثم يستعار للناحية والجهة التي تليها ، كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك ، نحو اليمين والشمال ، والمراد هاهنا الجهة مجازا .

والتفريط في جهة الطاعة ، كناية عن التفريط في الطاعة نفسها ، لأن من ضيع جهة ضيع ما فيها بطريق الأولى الأبلغ لكونه بطريق برهاني ، ونظير ذلك قول زياد الأعجم :

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

يعني أنه مختص بهذه الصفات لا توجد في غيره ، ولا خيمة هناك ، ولا ضرب أصلا .

[سورة الزمر (39) : الآيات 60 إلى 61]

وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (61)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (ترى) ، (على اللّه) متعلّق بـ (كذبوا) ، (الهمزة) للاستفهام التقريريّ (في جهنّم) متعلّق بمحذوف خبر ليس (مثوى) اسم ليس مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة (للمتكبّرين) متعلّق بنعت لمثوى .

جملة : " ترى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كذبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " وجوههم مسودّة . . . " في محلّ نصب حال من الموصول .

وجملة : " أليس في جهنّم مثوى . . . " لا محلّ لها تعليليّة - أو استئناف لتقرير مضمون ما سبق - .

(61) (الواو) عاطفة (بمفازتهم) متعلّق بـ (ينجّي) و(الباء) سببيّة (لا) نافية في الموضعين . . .

وجملة : " ينجّي اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ترى . . .

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يمسهم السوء . . . " في محلّ نصب حال من الموصول " 1 " .

وجملة : " هم يحزنون " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يمسهم السوء .

وجملة : " يحزنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

[سورة الزمر (39) : الآيات 62 إلى 63]

اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (63)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (على كلّ) متعلّق بوكيل .

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ لما سبق .

جملة : " اللّه خالق . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو . . . وكيل " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(63) (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ مقاليد (الواو) استئنافيّة - أو عاطفة - (بآيات) متعلّق بـ (كفروا) ، (هم) ضمير فصل - أو منفصل مبتدأ خبره الخاسرون ، والجملة خبر أولئك - .

وجملة : " له مقاليد . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " الذين كفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " كفروا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أولئك . . . الخاسرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

الصرف :

(مقاليد) ، جمع مقلاد ، اسم آلة ، زنة مفتاح بكسر الميم ، أو جمع مقليد زنة منديل بكسر الميم . . يجوز أن يكون اسم جمع لا واحد له من لفظه .

[سورة الزمر (39) : آية 64]

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (64)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (غير) مفعول به مقدّم عامله أعبد ، و(النّون) المشدّدة في (تأمرونّي) هي علامة الرفع ونون الوقاية (أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الجاهلون) بدل من أيّ - أو عطف بيان عليه

، أو نعت له – تبعه في الرفع لفظا .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تأمرونّي . . . " جواب شرط مقدّر أي : إن كان اللّه خالق كلّ شيء فكيف تأمرونني أن أعبد غير اللّه .

---

(1) أو معطوفة على جملة ينجي اللّه . . في الآية (61) ، وما بينهما اعتراض .

وجملة : " أعبد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر " 1 " .

وجملة : " أيها الجاهلون " لا محلّ لها استئنافيّة .

الفوائد

– نون الوقاية :

وتسمى أيضا نون " العماد " وتأتي قبل ياء المتكلم المنتصبة بواحد من ثلاثة :

آ – الفعل ، متصرفا كان نحو " أكرمني " ، أو جامدا نحو " عساني " و(قاموا ما خلاني وما عداني وحاشاني) إن قدّرت فعلا . وأما قول رؤبة :

عددت قومي كعديد الطيس إن ذهبت القوم الكرام ليسي

فضرورة. ومعنى الطيس: الرمل الكثير. ونحو (تأمرونني) يجوز فيه الفك والإدغام (تأمرونّي) والنطق بنون واحدة. وقد قرئ بهن في السبعة. وعلى الأخيرة (أي القراءة بنون واحدة تأمروني) فقيل: النون الباقية نون الرفع، وقيل نون الوقاية، وهو الصحيح.

الثاني: اسم الفعل نحو (داركني وتراكني وعليكني) بمعنى أدركني واتركني والزمني.

الثالث: الحرف نحو "إنني" وهي جائزة الحذف مع إنّ وأنّ ولكنّ وكأنّ، وغالبة الحذف مع (لعلّ)، وقليلة الحذف مع "ليت" - وتلحق أيضا قبل الياء المخفوضة بـ (من) و(عن) إلا في الضرورة.

وقبل المضاف إليها (أي الياء المضاف إليها) لدن أو قد أو قط إلا في قليل من الكلام.

---

(1) وأصل الكلام أ تأمرونني أن أعبد غير اللّه، فلمّا حذف الحرف المصدريّ رفع الفعل، ولا عبرة بتقدّم معمول الصلة عليها لأن الحرف المصدريّ حذف، والمصدر المؤوّل (أن أعبد . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله تأمرونني.

الجدول ج 24، ص: 207

[سورة الزمر (39): الآيات 65 إلى 66]

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (إليك) متعلّق بـ (أوحي) ، وكذلك (إلى الذين) فهو معطوف عليه (من قبلك) متعلّق بمحذوف صلة الذين (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (أشركت) ماض في محلّ جزم فعل الشرط (اللام) لام القسم (يحبطنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . و(النون) نون التوكيد (الواو) عاطفة (لتكوننّ) مثل ليحبطنّ ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (من الخاسرين) متعلّق بخبر تكوننّ .

جملة : " أوحي . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إن أشركت . . . " لا محلّ لها تفسر نائب الفاعل المقدّر " 1 " .

وجملة : " يحبطنّ عملك . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " تكوننّ من الخاسرين " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

(66) (بل) للإضراب الانتقاليّ (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به مقدّم عامله اعبد (الفاء) عاطفة " 2 " ، (من الشاكرين) متعلّق بخبر كن .

---

(1) أي أوحي إليك التوحيد .

(2) هي زائدة عند الفارسيّ لأنها تقدّمت جملة إنشائيّة وفصلت الفعل عن المفعول وقد ردّ ذلك ابن هشام في المغني .

(340/671)

وجملة : " اعبد . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

تنبّه فأعبد اللّه .

وجملة : " كن من الشاكرين " لا محلّ لها معطوفة على جملة اعبد .

[سورة الزمر (39) : آية 67]

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)

الإعراب :

(341/671)

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (حقّ) مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر (الواو) حاليّة (جميعا) حال من الأرض بملاحظة معناها المتعدّد (قبضته) خبر المبتدأ الأرض مرفوع (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بقبضة بمعنى مقبوضة (الواو) عاطفة (بيمينه) متعلّق بمطويّات (سبحانه) مفعول مطلق منصوب (عمّا) متعلّق بـ (تعالى) .

جملة : " ما قدروا . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الأرض . . . قبضته " في محلّ نصب حال .

وجملة : " السموات مطويّات . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال .

وجملة : " (نسبّح) سبحانه " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة – أو استئنافيّة – وجملة : " تعالى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (نسبّح) سبحانه .

وجملة : " يشركون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(قبضة) ، اسم للكفّ المثني ، واستعمل هنا مجازا بمعنى الملك والقدرة وبمعنى المقبوض ، أو بمعنى فانية معدومة ، وزنه فعلة على وزن مصدرة المرّة من فعل قبض .

(مطويّات) ، جمع مطويّة مؤنّث مطويّ اسم مفعول من فعل طوى الثلاثيّ ، وزنه مفعول . . فيه إعلال بالقلب أصله مطووي بضمّ الواو الأولى وتسكين الثانية ، اجتمعت الواو الثانية و(الياء) في الكلمة والأولى منهما ساكنة قلبت الواو إلى ياء وأدغمت مع الياء الأخرى فقيل

مطويّ ، ثمّ كسرت الواو قبل الياء للمناسبة . .

(بيمينه) ، تؤوّل بمعنى القدرة والتملّك . . .

[سورة الزمر (39) : الآيات 68 إلى 70]

(342/671)

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (70)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (في الصور) نائب الفاعل (الفاء) عاطفة في الموضعين (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة الموصول (من) الأول ، وكذلك (في الأرض) صلة (من) الثاني (إلّا) للاستثناء (من) موصول في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع (ثمّ) حرف عطف (فيه) نائب الفاعل (أخرى) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته " 1 " ، (إذا) فجائيّة

. . .

جملة : " نفخ في الصور . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " صعق من . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نفخ في الصور . . .

وجملة : " شاء اللّه " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) يجوز أن يكون (أخرى) نائب الفاعل ، والجارّ متعلّق بـ (نفخ) .

(343/671)

وجملة : " نفخ فيه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صعق من . . .

وجملة : " إذا هم قيام . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نفخ فيه . . .

وجملة : " ينظرون . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ هم " 1 " .

(69) (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (بنور) متعلّق بـ (أشرقت) ، (بالنبيّين) نائب الفاعل (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (قضي) ، (بالحقّ) نائب الفاعل (الواو) حاليّة (لا) نافية .

وجملة : " أشرقت الأرض . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هم قيام " 2 " .

وجملة : " وضع الكتاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أشرقت .

وجملة : " جيء بالنبيّين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أشرقت .

وجملة : " قضي . . بالحقّ " لا محلّ لها معطوفة على جملة أشرقت .

وجملة : " هم لا يظلمون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا يظلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(70) (الواو) عاطفة (ما) حرف مصدريّ " 3 " ، (الواو) الثانية استئنافيّة - أو حالية (ما) حرف مصدريّ " 4 " .

والمصدر المؤوّل (ما عملت) في محلّ نصب مفعول به بحذف

---

(1) أو في محلّ نصب حال من الضمير في قيام .

(2) يجوز قطعها على الاستئناف .

(3) أو اسم موصول في محلّ نصب بحذف مضاف أي جزاء ما عملت ، والعائد محذوف .

(4) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي يفعلونه .

مضاف أي جزاء عملها .

والمصدر المؤوّل (ما يفعلون . . .) في محلّ جرّ بـ (الباء) متعلّق بأعلم .

وجملة : " وفّيت كلّ نفس . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قضي .

وجملة : " عملت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " هو أعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " يفعلون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثاني .

الصرف :

(69) جيء : أعيدت الألف إلى أصلها لمناسبة البناء للمجهول ثمّ كسرت فاؤه لأن عينه مكسورة في الأصل ، ثم سكّنت الياء لاستثقال الكسرة عليها .

البلاغة

الاستعارة : في قوله تعالى " وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا " .

وقد استعار اللّه عز وجل النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل .

الفوائد

- نفخة الصور :

الصور هو القرن ، وهو عالم كبير لا يعلمه إلا اللّه عز وجل ، وفيه منازل لأرواح الخلق ، وأفادت الآية أن عدد النفخات اثنتان ، النفخة الأولى للصعق أي (الموت) ، والثانية للبعث أي القيام من القبور ، ولكن جمهور العلماء على أن النفخات ثلاث ، والثالثة هي : نفخة الفزع ، وهي سابقة لنفخة الصعق ، بدليل قوله تعالى وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي

السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ

---

(1) أو هي في محلّ نصب حال .

(345/671)

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه :

قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : ما بين النفختين أربعون . قالوا أربعون يوما ؟

قال : أبيت .

قالوا : أربعون شهرا ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت . ثم ينزل اللّه عز وجل ماء من السماء ، فينبتون كما ينبت البقل ، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى ، إلا عظم واحد ، وهو (عجب الذنب) ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة .

وعجب الذنب :

عظم كحبة الخردل في نهاية العصعص . والعلماء على أن بين النفختين أربعين سنة ، واللّه أعلم . وبعد أن تنبت أجساد العباد ينفخ في الصور النفخة الأخيرة ، فتنطلق الأرواح من الصور إلى الأجساد ، دون أن تخطئ روح صاحبها ، فيقومون أحياء للحساب . وذلك تفسير قوله تعالى وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ أي عادت الروح للجسد واللّه أعلم .

[سورة الزمر (39) : آية 71]

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (71)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إلى جهنّم) متعلّق بـ (سيق) ، (زمرا) حال منصوبة (حتّى) حرف ابتداء (لهم) متعلّق بـ (قال) ، (الهمزة) للاستفهام التقريعيّ (منكم) متعلّق بنعت لرسل (عليكم) متعلّق بـ (يتلون) ، (لقاء) مفعول به ثان منصوب (هذا) اسم إشارة نعت لـ (يوم) في محلّ جرّ (بلى) حرف جواب لإيجاب السؤال المنفي (الواو) للاستئناف (لكن) حرف استدراك مهمل (على الكافرين) متعلّق بـ (حقّت) .

جملة : " سيق الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وفّيت كلّ نفس " 1 " .

---

(1) في الآية السابقة (70) ، ويجوز أن تكون مقطوعة على الاستئناف أصلا .

وجملة : "كفروا . . . "لا محل لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "جاءوها . . "في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "فتحت أبوابها . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "قال لهم خزنتها . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة فتحت أبوابها .

وجملة : "ألم يأتكم رسل . . . . "في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "يتلون . . . "في محلّ نصب حال من رسل " 1 " .

وجملة : "ينذرونكم . . . "في محلّ نصب معطوفة على جملة يتلون .

وجملة : "قالوا . . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . ومقول القول محذوف أي بلى جاءتنا الرسل .

وجملة : "حقّت كلمة العذاب . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(زمرا) ، جمع زمرة ، اسم جمع اشتقاقه من الزمر وهو الصوت وزنه فعلة بضمّ فسكون ، ووزن زمر فعل بضمّ ففتح .

(خزنتها) ، جمع خازن ، اسم فاعل من الثلاثيّ خزن ، وزنه فاعل ، ووزن خزنة فعلة بثلاث فتحات .

[سورة الزمر (39) : آية 72]

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72)

الإعراب :

(خالدين) حال منصوبة من فاعل ادخلوا (فيها) متعلّق بخالدين (الفاء) استئنافيّة ،

ومخصوص بئس محذوف تقديره هي أي جهنّم .

جملة : " قيل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو نعت ثان لرسل في محلّ رفع .

وجملة : " ادخلوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " .

وجملة : " بئس مثوى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة الزمر (39) : آية 73]

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (73)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إلى الجنّة) متعلّق بـ (سيق) ، (الواو) عاطفة - أو حاليّة أو زائدة (لهم)

متعلّق بـ (قال) ، (سلام) مبتدأ مرفوع " 2 " ، (عليكم) متعلّق بخبر المبتدأ سلام (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (خالدين) حال منصوبة من فاعل ادخلوها .

جملة : " سيق الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " جاءوها . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " فتحت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة جاءوها " 4 " ، وجواب الشرط محذوف تقديره اطمأنّوا أو سعدوا . . .

وجملة : " قال لهم خزنتها . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة جاءوها .

---

(1) لأنها في الأصل مقول القول . [. . . . .]

(2) النكرة هنا دالّة على مدح .

(3) أو معطوفة على جملة : سيق الذين . . في الآية (71) من هذه السورة .

(4) أو في محلّ نصب حال بتقدير قد ، إذا قدّر الجواب جاءوها وقد فتحت أي هو مقيّد بالحال وهو صحيح ويجوز أن تكون هي جواب الشرط على زيادة الواو وهو رأي الكوفيّين .

الجدول ج 24 ، ص : 215

وجملة : " سلام عليكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: " طبتم . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: " ادخلوها . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن دخلتموها فادخلوها . .

[سورة الزمر (39) : آية 74]

وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (74)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (للّه) متعلّق بخبر المبتدأ الحمد (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت للفظ الجلالة (من الجنّة) متعلّق بـ (نتبوّأ) ، (حيث) ظرف مكان مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب متعلّق بـ (نتبوّأ) ، (فنعم أجر العاملين) مثل فبئس مثوى المتكبّرين " 1 " ، والمخصوص بالمدح هو الجنّة.

---

(1) في الآية (72) من هذه السورة.

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي فدخلوها وقالوا . . .

وجملة : " الحمد للّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " صدقنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " أورثنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " نتبوأ . . . " في محلّ نصب حال من ضمير المتكلّم في (أورثنا) .

وجملة : " نشاء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نعم أجر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الفوائد

- حيث :

وطيّء تقول : (حوث) ، وهي مبنية على الضم ، ومن العرب من يعربها . وقراءة من قرأ (من حيث لا يشعرون) . وهي ظرف للمكان اتفاقا ، قال الأخفش : وقد ترد للزمان ، والغالب كونها في محل نصب على الظرفية أو خفض بمن ، وقد تخفض بغيرها كقول زهير :

فشد ولم يفزع بيوتا كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أمّ قشعم

الشاهد : جاءت حيث في محل جر بالإضافة بعد لدى ، والضمير في الفعل شد يعود إلى حصين بن ضمضم ، أحد مورثي حرب داحس والغبراء ، وأم قشعم :

المنيّة .

وقد تقع حيث مفعولا به ، ومنه قوله تعالى في الآية التي نحن بصددها الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ ومنه قوله تعالى اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ إذ المعنى أنه تعالى يعلم نفس المكان المستحق لوضع الرسالة فيه ، لا شيئا في المكان ، وناصبها يعلم محذوفا مدلولا عليه بأعلم ، لا بأعلم نفسه ، لأن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به .

وتلزم (حيث) الإضافة إلى جملة ، اسمية ، أو فعلية ، وإضافتها إلى الفعلية أكثر ، ومن ثم رجح النصب في نحو (جلست حيث زيدا أراه) وإذا اتصلت بها (ما) الكافة ضمنت معنى الشرط ، وجزمت فعلين ، كقول الشاعر :

(349/671)

حيثما تستقم يقدر لك اللّه نجاحا في غابر الأزمان

وهذا البيت دليل على مجيئها للزمان .

[سورة الزمر (39) : آية 75]

وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (75)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من حول) متعلّق بحافّين (بحمد) متعلّق بحال من فاعل يسبّحون (بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (قضي) ، (بالحقّ) نائب الفاعل (للّه) متعلّق بخبر المبتدأ الحمد (ربّ) نعت للفظ الجلالة مجرور .

جملة : " ترى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يسبّحون . . " في محلّ نصب حال من الضمير في حافّين .

وجملة : " قضي . . . بالحقّ " لا محلّ لها معطوفة على جملة ترى " 1 " .

وجملة : " قيل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ترى .

وجملة : " الحمد للّه . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 2 " .

الصرف :

(حافّين) ، جمع حافّ ، اسم فاعل من (حفّ) بالشيء أحاط به ، وزنه فاعل ، وقد جاءت عينه ولامه من حرف واحد . . . وقيل إنّ (حافّين) لا واحد له لأن الإحاطة بالشيء لا تكون إلّا من مجموع ، وهذا القول مردود بواقع الأشياء .

(حول) ، اسم يدلّ على ظرف مكان ، وزنه فعل بفتح فسكون . . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 23 صـ 149 . 217 ﴾

---

(1) أو في محلّ نصب حال بتقدير قد .

(2) لأنها في الأصل مقول القول .

(350/671)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(39) سورة الزمر

مكية وآياتها خمس وسبعون

[سورة الزمر (39) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (3)

الإعراب :

تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) تنزيل مبتدأ والكتاب مضاف اليه ومن اللّه خبر والعزيز الحكيم نعتان ويجوز أن يكون تنزيل خبرا لمبتدأ محذوف أي هذا تنزيل ومن اللّه

متعلقان بالمصدر أو بمحذوف خبر بعد خبر أو بمحذوف حال من الكتاب . (إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ) ان واسمها وجملة أنزلنا خبر والجملة مستأنفة مسوقة لبيان المنزل عليه وما يترتب عليه بعد نزوله وإليك متعلقان بأنزلنا والكتاب مفعول به وبالحق حال من الفاعل أو المفعول أي ملتبسين بالحق أو ملتبسا بالحق . (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) الفاء الفصيحة واعبد اللّه فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به ومخلصا حال وله متعلقان بمخلصا والدين مفعول به . (أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ) كلام مستأنف مقرر لما قبله وألا أداة تنبيه واستفتاح وللّه خبر مقدم والدين مبتدأ مؤخر والخالص نعت .

)

(351/671)

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى) والذين الواو استئنافية والذين مبتدأ وجملة اتخذوا صلة الموصول ومن دونه حال أو مفعول به ثان وأولياء مفعول به أول وجملة ما نعبدهم مفعول لقول محذوف هو خبر الذين أي يقولون وما نافية ونعبدهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وإلا أداة حصر وليقربونا اللام للتعليل ويقربونا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل ونا مفعول به والى اللّه

متعلقان بيقربونا وزلفى مصدر مؤكد على غير المصدر ولكنه ملاق لعامله في المعنى والتقدير ليزلفونا زلفى وأجاز أبو البقاء أن يعرب حالا مؤكدة . (إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) ان واسمها وجملة يحكم خبرها وأجاز بعضهم أن يكون قوله إن اللّه يحكم بينهم خبر الذين فيكون موضع القول المضمر نصبا على الحال أي قائلين ذلك ، وبينهم ظرف متعلق بيحكم وفيما متعلقان بيحكم أيضا وهم مبتدأ وفيه متعلقان بيختلفون وجملة يختلفون خبرهم والجملة الاسمية صلة ما .

(إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ) إن واسمها وجملة لا يهدي خبرها وفاعل يهدي مستتر يعود على اللّه ومن مفعول به وهو مبتدأ وكاذب كفار خبران له والجملة الاسمية صلة من .

الفوائد :

حروف التنبيه " ها " و " ألا " و " أما " والفرق بين " أما " و " ألا " أن " أما " للحال أو للماضي و " ألا " للاستقبال تقول :

أما ان زيدا عاقل ، تريد أنه عاقل في الحال ولا تقول ألا ، وتقول ألا ان زيدا لا يخاف أي في المستقبل ولا تقول أما ، والفرق بينهما وبين " ها " أنهما لا يدخلان إلا أول الكلام على الجملة بخلاف " ها " فتدخل على الضمير وأسماء الإشارة وإن لم تكن في أول الكلام وتدخل " أما " على القسم و " ألا " كثيرا على النداء .

إذا تقرر هذا فهل تكون هنا للاستقبال مع أن كون الدين للّه هو في كل زمان ؟ والجواب أن المراد هنا الاستقبال بالنسبة لمن يعتنقون الدين الخالص ، على أنهما يتعاوران أي تأتي " ألا " لمجرد الاستفتاح ولا يكون التنبيه مقصودا .

[سورة الزمر (39) : الآيات 4 إلى 6]

لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (4) خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)

اللغة :

(يُكَوِّرُ) : التكوير : اللف واللي يقال كار العمامة على رأسه وكورها وفيه أوجه- كما يقول الزمخشري- :

1- ان الليل والنهار خلفة يذهب هذا ويغشى مكانه هذا فكأنما ألبسه ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس ومنه قول ذي الرمة في وصف السراب :

تلوى الثنايا بحقويها حواشيه لي الملاء بأبواب التفاريج

والثنايا : العقبات والحقو الخصر والحواشي الجوانب والملاء جمع ملاءة وهي الجلباب والتفاريج جمع تفراج وهو الباب الصغير والثوب من الديباج ، وأسند اللي إلى الثنايا لأنها سبب الالتواء ، شبه إحاطة جوانبه وتراكمه في جوانب العقبة بلي الجلباب في أبواب التفاريج .

2- ان كل منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار .

(353/671)

3- ان هذا يكر على هذا كرورا متتابعا فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض .

الاعراب :

(لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ) لو حرف شرط غير جازم وأراد فعل ماض والله فاعل وأن وما في حيزها

مفعول أراد واللام رابطة لجواب لو واصطفى فعل ماض وفاعله هو أي الله تعالى والجملة لا محل لها ومما متعلق باصطفى وجملة يخلق صلة ما وما مفعول به وجملة يشاء صلة ما

والعائد محذوف أي يشاؤه (سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ) سبحانه مفعول مطلق لفعل محذوف تنزيه له تعالى عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه ، وهو مبتدأ واللّه خبره والواحد القهار نعتان اللّه . (خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) خلق فعل ماض وفاعله مستتر يعود على اللّه تعالى والسموات مفعول به والأرض عطف على السموات وبالحق حال . (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ) الجملة حالية أو مستأنفة مبينة لكيفية تصرفه في السموات والأرض ، والليل مفعول به وعلى النهار متعلقان بيكور ويكور النهار على الليل عطف على مثيلتها .

(354/671)

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) وسخر الشمس والقمر عطف على خلق السموات والأرض وكل مبتدأ وجملة يجري خبر ولأجل متعلقان بيجري ومسمى نعت لأجل وألا أداة تنبيه تصدرت الجملة لإظهار مدى الاهتمام بها ، والاعتناء بفحواها وهو مبتدأ والعزيز الغفار خبران لهو . (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها) خلقكم فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به ومن نفس جار ومجرور متعلقان بخلقكم وواحدة نعت لنفس والمراد بها آدم ثم حرف للترتيب والتراخي وسيأتي

سر العطف بها في باب البلاغة وجعل فعل ماض وفاعله مستتر يعود على اللّه تعالى ومنها متعلقان بجعل لأنه بمعنى خلق وزوجها مفعول به . (وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ) وأنزل عطف على خلقكم ولكم متعلقان

بمحذوف حال ومن الأنعام متعلقان بأنزل وثمانية أزواج مفعول به وقد تقدم معنى الزوجين في سورة الأنعام .

)

(355/671)

يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ) الجملة حالية أو استئنافية مبينة لكيفية خلق ما ذكر ، ويخلقكم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وفي بطون أمهاتكم متعلقان بيخلقكم وخلقا مفعول مطلق ومن بعد خلق صفة له ويجوز أن يتعلق بيخلقكم فيكون المصدر لمجرد التأكيد ، قال البيضاوي : " أي حيوانا سويا من بعد عظام مكسوة لحما من بعد عظام عارية من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف ، وفي ظلمات متعلقان بخلق المجرور الذي قبله ولا يجوز تعلقه بخلقا المنصوب لأنه مصدر مؤكد فلا يعمل ولا بيخلق لأنه تعلق به جار مثله ولا يتعلق حرفان متحدان لفظا ومعنى إلا

بالبدلية والعطف فإن جعلت في ظلمات بدلا من في بطون أمهاتكم بدل اشتمال لأن البطون مشتملة عليها ويكون بدلا بإعادة العامل جاز ذلك وسيأتي المراد بالظلمات الثلاث في باب الفوائد . (ذِلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) ذلكم مبتدأ والله خبره الأول وربكم خبره الثاني وله خبر مقدم والملك مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر ثالث وجملة لا إله إلا هو خبر رابع وقد تقدم إعراب كلمة الشهادة مفصلا ، فأنى الفاء استئنافية وأنى اسم استفهام متعلق بمحذوف حال وتصرفون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل .

البلاغة :

في قوله " ثم جعل منها زوجها " عطف " ثم " التي تفيد الترتيب مع التراخي في الوجود ، وظاهر الأمر يتنافى مع ذلك لأن خلق

(356/671)

حواء من آدم سابق على خلقنا منه ، وقد استشكل علماء البيان والمفسرون هذا العطف وأجابوا بأجوبة نوردها ثم ترجح ما هو أقرب إلى الرجحان قال الزمخشري : " فإن قلت ما وجه قوله ثم جعل منها زوجها وما يعطيه من معنى التراخي ؟ قلت : هما آيتان من جملة الآيات التي عددها دالّا على وحدانيته وقدرته وتشعيب هذا الخلق الفائت للحصر

من نفس آدم وخلق حواء من قصرياه (و القصريان ضلعان يليان الترقوتين) إلا أن إحداهما جعلها اللّه عادة مستمرة والأخرى لم تجر بها عادة ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيري رجل فكانت أدخل في كونها آية وأجلب لعجب السامع فعطفها بثم على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلا ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود " .

وقال غيره : " المعطوف متعلق بمعنى واحدة فثم عاطفة عليه لا على خلقكم فمعناه خلقكم من نفس واحدة أفردت بالإيجاد ثم شفعت بزوج فكانت ها هنا على بابها لتراخي الوجود " .

ونرى أن كلا الوجهين مستقيم ويصح حمل العطف عليه .

وهنا وقع ابن هشام في خطأ التلاوة فأورد هذه الآية بلفظ " هو الذي خلقكم من نفس واحدة " إلخ . . وقد أوردها شاهدا على أن قوما خالفوا في معناها وهو الترتيب تمسكا بها قال : " والجواب عن الآية من خمسة أوجه : (أحدها) أن العطف على محذوف أي من نفس واحدة أنشأها ثم جعل منها زوجها . (الثاني) ان العطف على واحدة على تأويلها بالفعل أي من نفس توحدت أي انفردت ثم جعل

منها زوجها . (الثالث) ان الذرية أخرجت من ظهر آدم عليه الصلاة والسلام كالذر ثم خلقت حواء من قصيراه . (الرابع) ان خلق حواء من آدم لما لم تجر عادة بمثله جيء بثم إيذانا بترتبه وتراخيه في الإعجاب وظهور القدرة لا لترتيب الزمن وتراخيه . (الخامس) ان ثم لترتيب الأخبار لا لترتيب الحكم وانه يقال بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب أي ثم أخبرك أن الذي صنعته أمس أعجب .

الفوائد :

أراد بقوله " في ظلمات ثلاث " ظلمة البطن ، وظلمة الرحم بفتح الراء وكسر الحاء ، والرحم بكسر الراء وسكون الحاء مؤنثة وهي مستودع الجنين في أحشاء الحبلى ، وظلمة المشيمة وهي كما في المصباح " وزان كريمة وأصلها مفعلة بسكون الفاء وكسر العين لكن ثقلت الكسرة على الياء فنقلت إلى الشين وهي غشاء ولد الإنسان .

وقال ابن الأعرابي : يقال لما يكون فيه الولد المشيمة والكيس والغلاف والجمع مشيم بحذف الهاء ومشايم مثل معيشة ومعايش ويقال لها من غيره السلا " .

[سورة الزمر (39) : الآيات 7 إلى 8]

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ

(7) وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (8)

الاعراب :

)

(358/671)

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) إن حرف شرط جازم وتكفروا فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والفاء رابطة وإن واسمها وخبرها والجملة جواب الشرط وعنكم متعلقان بغني وان تشكروا عطف على أن تكفروا ويرضه جواب الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديره هو يعود على اللّه تعالى والهاء ضمير متصل في محل نصب مفعول به بضم وسكونها وبإشباع ودونه . (وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الواو حرف عطف ولا نافية وتزر فعل مضارع مرفوع ووازرة فاعل ووزر مفعول به أي لا تحمل نفس وزر نفس أخرى وأخرى مضاف اليه على حذف منعوت أي نفس أخرى ثم حرف عطف للتراخي والى ربكم خبر مقدم ومرجعكم مبتدأ مؤخر والفاء حرف

عطف وينبئكم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وبما متعلقان بينبئكم وكنتم كان واسمها وجملة تعملون خبرها وجملة كنتم تعملون صلة الموصول (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ) إن واسمها وخبرها وبذات الصدور متعلقان بعليم والجملة تعليل للتنبئة بالأعمال .

(359/671)

(وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ) الواو استئنافية وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ومسّ فعل ماض مبني على الفتح والإنسان مفعول به مقدم وضر مبتدأ مؤخر والمراد بالضر جميع المكاره وجملة دعا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وربه مفعول به ومنيبا حال واليه متعلقان بمنيبا . (ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ) ثم حرف عطف للتراخي وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة خوله في محل جر بإضافة الظرف إليها وخوله فعل ماض وفاعل مستتر يعود على اللّه تعالى والهاء مفعوله الأول ونعمة مفعوله الثاني ومنه صفة لنعمة ولك أن تعلقه بخوّله وجملة نسي لا محل لها والفاعل مستتر تقديره هو يعود على الإنسان وما مفعول به وجملة كان صلة ما واسم كان مستتر يعود على الإنسان وجملة يدعو خبر كان وإليه متعلقان بيدعو ومن قبل متعلقان بمحذوف حال ويجوز في ما أن تكون مصدرية أي نسي كونه داعيا .

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) وجعل عطف على نسي وفاعله مستتر يعود على الإنسان ولله متعلقان بمحذوف هو مفعول جعل الثاني وأندادا مفعول جعل الأول وليضل اللام للتعليل ويضل فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وقيل اللام للعاقبة وهي تتمشى مع قراءة يضل بفتح اللام وهما قراءتان سبعيتان وعن سبيله متعلقان بيضل . (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وتمتع فعل أمر أيضا وفاعل مستتر والجملة مقول القول والمقصود بالأمر التهديد وبكفرك متعلقان بتمتع وقليلا ظرف زمان أو مفعول مطلق صفة لمصدر محذوف وجملة إنك من أصحاب النار تعليل للأمر بالتمتع وإن واسمها ومن أصحاب النار خبرها .

[سورة الزمر (39) : الآيات 9 إلى 10]

(360/671)

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (9) قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (10)

اللغة :

(قانِتٌ) : قائم بوجائب الطاعات ووظائفها ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم : " أفضل الصلاة طول القنوت " وهو القيام فيها ومنه القنوت في الوتر لأنه دعاء المصلي قائما وفي القاموس : " القنوت :

الطاعة والسكوت والدعاء والقيام في الصلاة والإمساك عن الكلام وأقنت دعا على عدوه وأطال القيام في صلاته وأدام الحج وأطال الغزو وتواضع للّه تعالى وامرأة قنيت بينة القناتة قليلة الطعم وسقاء قنيت مسيّك " وقول القاموس مسيك بكسر الميم وسكون السين أي يمسك الماء .

(آناءَ) : جمع إنى بكسر الهمزة والقصر كمعى بكسر الميم والقصر والجمع أمعاء وفي المصباح : " الآناء على أفعال هي الأوقات وفي واحدها لغتان : إني بكسر الهمزة والقصر وإني بوزن حمل " وفي المختار : " وآناء الليل : ساعاته قال الأخفش واحدها إنى مثل معى وقيل واحدها إني وإنو يقال مضى من الليل أنيان وأنوان " .

الاعراب :

)

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ) أم يجوز أن تكون متصلة ومعادلها محذوف تقديره الكافر خير أم الذي هو قانت وقد دخلت على من الموصولة فأدغمت الميم في الميم ، أو منقطعة فتقدر ببل والهمزة أي بل أمن هو قانت كغيره ؟ وقرىء بالتخفيف فالهمزة للاستفهام الانكاري ، وعلى كل فمن اسم موصول مبتدأ خبره محذوف كما تقدم وهو مبتدأ وقانت خبره والجملة صلة من وآناء الليل ظرف متعلق بقانت وساجدا حال وقائما عطف عليه وجملة يحذر الآخرة حال ثالثة وجملة يرجو رحمة ربه عطف على جملة يحذر الآخرة .

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) هل حرف استفهام معناه الإنكار ويستوي الذين فعل مضارع وفاعل وجملة يعلمون صلة والذين لا يعلمون عطف على الذين يعلمون ، وفي هذه الآية تنزيل المتعدي منزلة القاصر ولا يقدر المفعول في قوله يعلمون لأن المقدر كالموجود أي هل يستوي من ثبتت له حقيقة العلم ومن لم تثبت له والاستفهام إنكاري أي لا يستويان لأن المقصود بيان ثبوت الفعل للفاعل لا بيان وقوعه على المفعول وإيضاح الفرق بين المنزل وغيره أن قولك فلان يعطى لبيان كونه معطيا فيكون كلاما مع من جهل أصل الإعطاء وقولك فلان يعطي الدنانير لبيان جنس ما يتناوله الإعطاء لا لبيان كونه معطيا ويكون كلاما مع من ثبت له أصل الإعطاء لا مع من جهل إعطاء . . (إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ) إنما كافة

ومكفوفة

ويتذكر فعل مضارع مرفوع وأولو الألباب فاعل والجملة مستأنفة مسوقة لبيان عدم تأثير ما تقدم من قوارع وزواجر في قلوبهم لاختلال عقولهم .

)

(362/671)

قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ) يا حرف نداء وعبادي منادى مضاف والذين صفة لعبادي وجملة آمنوا صلة الذين والجملة مقول القول واتقوا ربكم فعل أمر وفاعل ومفعول به . (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ) للذين خبر مقدم وجملة أحسنوا صلة وفي هذه متعلقان بأحسنوا والدنيا بدل من اسم الاشارة وحسنة مبتدأ مؤخر وأرض اللّه مبتدأ وواسعة خبر . (إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ) الجملة تعليل لما تقدم ترغيبا في الصبر وإنما كافة ومكفوفة والصابرون نائب فاعل وأجرهم مفعول به ثان وبغير حساب حال من الأجر .

ولو لم يكن في الصبر إلا ما جاء في هذه الآية لكان في ذلك كفاية وفي الحديث : " انتظار الفرج بالصبر عبادة " وقيل لعلي بن أبي طالب : أي شيء أقرب إلى الكفر ؟ قال ذو فاقة لا صبر

له ، ومن كلامهم : " الصبر مرّ لا يتجرعه إلا حر " وكان عبد اللّه بن المقفع يقول : " إذا نزل بك أمر مهم فانظر فإن كان لك فيه حيلة فلا تعجز ، وإن كان مما لا حيلة فيه فلا تجزع " وما أحسن قوله : تعجز وتجزع وهذا الذي يسمى قلب البعض وهو معدود عند أرباب البديع من الجناس .

[سورة الزمر (39) : الآيات 11 إلى 18]

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (15)

(363/671)

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (16) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (18)

الإعراب :

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) إن واسمها وجملة أمرت خبرها والجملة مقول القول وأمرت فعل ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض المتعلق بأمرت ومخلصا حال وله متعلقان بمخلصا والدين مفعول به .

(وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) وأمرت عطف على أمرت الأولى ولأن أكون متعلقان بأمرت أي بأن أكون فاللام بمعنى الباء واسم

أكون مستتر تقديره أنا وقيل اللام للتعليل أي لأجل أن أكون وللزمخشري تقرير مطول بهذا الصدد ننقله في باب الفوائد لأهميته وأول خبر أكون والمسلمين مضاف اليه . (قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) إن واسمها وجملة أخاف خبر وفاعل أخاف مستتر تقديره أنا وإن شرطية وعصيت فعل وفاعل وهو في محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف دل عليه ما قبله أي فإني أخاف وعذاب يوم مفعول أخاف وعظيم صفة ليوم .

)

قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي) لفظ الجلالة مفعول مقدم لأعبد وأعبد فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا ومخلصا حال وله متعلقان بمخلصا وديني مفعول مخلصا أي ليكون سالما من الشرك والرياء وكل ما يشوب الأعمال مما يفسدها . (فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ) الفاء الفصيحة واعبدوا فعل أمر الغاية منه التهديد والوعيد والواو فاعل وما مفعول به وجملة شئتم صلة ومن دونه حال . (قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ) إن واسمها والذين خبرها وجملة خسروا صلة الذين وأنفسهم مفعول به وأهليهم عطف على أنفسهم ويوم القيامة ظرف لخسروا أو حال من أهليهم يعني أزواجهم وخدمهم . (أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ) ألا أداة تنبيه وذلك مبتدأ وهو مبتدأ ثان والخسران خبر هو والجملة خبر ذلك والمبين صفة للخسران ولك أن تجعل هو ضمير فصل لا محل له وسيأتي مزيد من القول في هذه الآية في باب البلاغة .

(لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ) لهم خبر مقدم ومن فوقهم حال وظلل مبتدأ مؤخر وفي الكلام إيهام سيأتي تقريره في

باب البلاغة ومن النار صفة لظلل ومن تحتهم ظلل عطف على من فوقهم ظلل . (ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ) ذلك مبتدأ أي ذلك العذاب وجملة يخوف الله به خبر وعباده مفعول يخوف ويا حرف نداء وعباد منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة اتباعا لرسم المصحف والفاء الفصيحة واتقون فعل أمر والواو فاعل والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة لما تقدم مفعول به . (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى) الذين مبتدأ وجملة اجتنبوا صلة والطاغوت مفعول به وقد تقدم القول فيه وأنه يطلق على الواحد والجمع وعلى المذكر والمؤنث وأن يعبدوها مصدر مؤول في محل نصب بدل اشتمال من الطاغوت أي عبادتها وسيأتي مزيد من القول في الطاغوت في باب البلاغة ولهم خبر مقدم والبشرى مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر الذين .

(فَبَشِّرْ عِبادِ) الفاء الفصيحة وبشر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وعباد مفعول به وعلامة نصبه فتحه مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اتباعا لرسم المصحف وفيه إظهار الضمير أي فبشرهم اهتماما بهم . (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) الذين صفة لعباد وجملة يستمعون صلة والقول مفعول به والفاء عاطفة ويتبعون عطف على يستمعون وأحسنه مفعول به . (أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ) أولئك مبتدأ والدين خبر والاشارة إلى الموصوفين بما ذكر وجملة هداهم الله صلة وأولئك مبتدأ وهم مبتدأ ثان أو ضمير فصل وأولو الألباب خبر هم والجملة خبر أولئك أو خبر أولئك .

البلاغة :

1- التهويل :

(366/671)

في قوله " ألا ذلك هو الخسران المبين " تهويل رائع فقد جعل الجملة مستأنفة وصدرها بحرف التنبيه ووسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر وعرف الخسران كأنه مما تعورف أمره واشتهر هوله ووصفه بالمبين فجعل خسرانهم غاية في الفظاعة ونهاية في الشناعة .

2- المبالغة :

وفي تشبيه الشيطان بالطاغوت وجوه ثلاثة من المبالغة :

1- تسميته بالمصدر كأنه نفس الطغيان .

2- بناؤه على فعلوت وهي صيغة مبالغة كالرحموت وهي الرحمة الواسعة والملكوت وهو الملك الواسع .

3- والشبه الثالث تقديم لامه على عينه ليفيد اختصاصه بهذه التسمية .

الفوائد :

وعدناك بنقل الفصل الممتع الذي عقده الزمخشري في إعراب قوله " إني أمرت أن أعبد اللّه

مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون من المسلمين " قال : " فإن قلت كيف عطف أمرت على أمرت وهما

واحد ؟ قلت : ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما وذلك أن الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق في الدين شيء ، وإذا اختلف وجها الشيء ومنعتا ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين ولك أن تجعل اللام مزيدة مثلها في أردت لأن أفعل ولا تزاد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح كأنها زيدت عوضا من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه ، كما عوض السين في اسطاع عوضا من ترك الأصل الذي هو أطوع ، والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله وأمرت أن أكون من المسلمين وأمرت أن أكون من المؤمنين أن أكون أول من أسلم وفي معناه أوجه : أن أكون أول من أسلم في زماني ومن قومي لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها وأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاما وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعا ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون وأن أفعل ما أستحق به الأولوية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب " فتأمله فإنه من غرر الأقوال .

(367/671)

[سورة الزمر (39) : الآيات 19 إلى 21]

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ (20) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (21)

اللغة :

(يَنابِيعَ) : في المختار : " نبع الماء : خرج وبابه قطع ودخل ونبع ينبع بالكسر نبعانا بفتح الباء لغة أيضا والينبوع عين الماء ومنه قوله تعالى " حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا " والجمع الينابيع " فما يقوله العامة وهو " نبع " مولّد غير معروف وإنما النبع مصدر وشجر تتخذ منه السهام والقسي يقال : قرعوا النبع بالنبع أي تلاقوا وتطاعنوا وما رأيت أصلب منه نبعا أي أشد منه .

(يَهِيجُ) : ييبس ويتم خفافه لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب وفي المختار : " وهاج النبت يهيج هياجا بالكسر ييبس " وفي المصباح : " وهاج البقل يهيج اصفر " .

(حُطاماً) : فتاتا وفي المصباح " حطم الشيء حطما من باب تعب فهو حطم إذا تكسر ويقال للدابة إذا أسنت حطمة ويتعدى بالحركة يقال حطمته حطما من باب ضرب

فانحطم وحطمته بالتشديد مبالغة" .

الاعراب :

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ) الهمزة للاستفهام الانكاري والفاء حرف عطف على محذوف يدل عليه السياق والتقدير أأنت مالك أمرهم فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه ، ومن شرطية أو موصولة في محل رفع بالابتداء والخبر محذوف فقدره

(368/671)

أبو البقاء كمن نجا وقدره الزمخشري فأنت مخلصه حذف لدلالة أفأنت تنقذه وقدره غيره تتأسف عليه ، والهمزة الثانية للاستفهام وأعيدت لتأكيد الإنكار والفاء رابطة وأنت مبتدأ وجملة تنقذ خبر ومن في النار مفعول به وقد أوقع الظاهر موقع المضمر وهو من في النار وكأن الأصل أفأنت تنقذه ، وأنت مبتدأ وجملة تنقذ خبر ومن في النار مفعوله فالآية على هذا جملة واحدة ، واعترض بجمع الاستفهام والشرط ولا مساغ لهذا الاعتراض لأن أداة الاستفهام داخله على جملة محذوفة عطفت عليها جملة الشرط ولم تدخل على جملة الشرط وسيأتي مزيد من القول في هذه الآية في باب البلاغة . (لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) لكن حرف عطف وإضراب بمعنى

بل وليست للاستدراك لانه لم يسبقها نفي فالكلام إضراب عن موضوع إلى موضوع مغاير للأول ، والذين مبتدأ وجملة اتقوا صلة وربهم مفعول به ولهم خبر مقدم وغرف مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر الذين ومبنية صفة لغرف أي بنيت بناء المنازل وجملة تجري من تحتها الأنهار صفة ثانية أو حال من غرف .

(وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ) وعد اللّه مصدر مؤكد لفعل محذوف دل عليه قوله لهم غرف لأنه في معنى وعدهم اللّه ذلك ولا نافية ويخلف اللّه الميعاد فعل مضارع وفاعل ومفعول به . (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ) كلام مستأنف مسوق لتمثيل الحياة الدنيا وسرعة زوالها والهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه

(369/671)

حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديره أنت وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي تر أو مفعولها لأنها قلبية أو بصرية وان واسمها وجملة أنزل خبرها ومن السماء متعلقان بأنزل وماء مفعول به ، فسلكه الفاء عاطفة وسلك فعل ماض مبني على الفتح وفاعله مستتر تقديره هو يعود على اللّه تعالى ، وينابيع ان كان بمعنى المنبع ظرف للمصدر المحذوف أي

سلكه سلوكا في ينابيع فلما أقيم مقام المصدر جعل انتصابه على المصدر ، وإن كان بمعنى النابع كان انتصابه على الحال أي نابعات ، واعترض الشهاب الخفاجي على الحالية فقال " الحالية لا تخلو من الكدر لأن حقه حينئذ أن يقال من الأرض وفي الأرض على الوجهين صفة لينابيع ، قلت : ولا أرى مانعا من نصب ينابيع على التمييز على حد قوله " وفجرنا الأرض عيونا " ولم يذكره أي واحد ممن تصدوا لإعراب القرآن ، ومنطوق كلام الزمخشري يؤيد هذا الاعراب قال : " عيونا ومسالك ومجاري كالعروق في الأجسام " وأحجم الكثيرون عن إعراب ينابيع لدقتها ، وفي الشوكاني : " فسلكه ينابيع في الأرض : أي فأدخله وأسكنه فيها ، والينابيع جمع ينبوع من نبع الماء ينبع ، والينبوع عين الماء والأمكنة التي ينبع فيها الماء فهو على الوجه الثاني منصوبا بنزع الخافض ، قال مقاتل : فجعله عيونا وركايا في الأرض " (ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ويخرج فعل مضارع والعدول إليه عن الماضي كما يقتضيه أسلوب العطف لاستحضار الصورة وبه متعلقان بيخرج وزرعا مفعول به ومختلفا نعت لزرعا وألوانه فاعل لمختلف . (ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا) ثم يهيج عطف على ثم يخرج فتراه الفاء حرف عطف والهاء مفعول به

و مصفرا حال لأن الرؤية بصرية . (ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ)

عطف على ما تقدم ويجعله حطاما فعل مضارع وفاعل مستتر والهاء مفعول به أول وحطاما مفعول به ثان وإن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وذكرى اسمها المؤخر ولأولي الألباب صفة لذكرى أو متعلقان بنفس الذكرى لأنها بمعنى التذكرة .

البلاغة :

في قوله " أ فأنت تنقذ من في النار " مجاز مرسل علاقته السببية فقد أطلق السبب وأراد المسبب والمعنى أفأنت تهديه بدعائك له إلى الايمان فتنقذه من النار .

[سورة الزمر (39) : الآيات 22 إلى 23]

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (22) اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (23)

اللغة :

(تَقْشَعِرُّ) : اقشعر جلده : ارتعد وتقبّض وتخشن وتغير لونه فهو مقشعر ، واقشعرت السنة : أمحلت وأجدبت ، واقشعرت الأرض :

تقبضت وتجمعت إذا لم ينزل عليها المطر ، ويقال اقشعر الشعر أي قام وانتصب من فزع أو برد والمصدر الاقشعرار وقال الزمخشري :

" اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضا شديدا وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس مضموما إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعيا دالا على معنى زائد ، وسيأتي مزيد تفصيل لهذه المادة في باب البلاغة .

الاعراب :

)

(371/671)

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) كلام مستأنف مسوق ليجري مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولي الألباب والهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة على جملة مقدرة أي أكل الناس سواء ومن موصولة أو شرطية في محل رفع مبتدأ فعلى الأول يكون خبرها محذوفا تقديره كمن طبع على قبله وعلى الثاني يكون خبرها فعل الشرط وجوابه معا والفاء عاطفة على كل حال وهو مبتدأ وعلى نور خبر ومن ربه صفة لنور . (فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) الفاء رابطة وويل مبتدأ

وساغ الابتداء لما فيها من معنى الدعاء بالعذاب والخسران وللقاسية خبر وقلوبهم فاعل للقاسية ومن ذكر اللّه متعلقان بالقاسية ومن إما للتعليل أي من أجل ذكره وقيل من بمعنى عن والمعنى غلظت عن قبول الذكر وأولئك مبتدأ وفي ضلال مبين خبره . (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ) لفظ الجلالة مبتدأ ، وسيأتي سر التقديم في باب البلاغة ، وجملة نزل أحسن الحديث خبر وكتابا بدل من أحسن الحديث ويجوز أن يكون حالا منه أي قرآنا متشابها ومتشابها

نعت أول ومثاني نعت ثان ، وقد مرّ معنى هذه الكلمة وسيأتي مزيد من النكت البلاغة في باب البلاغة .

(تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ) جملة تقشعر نعت ثالث ومنه متعلقان بتقشعر وجلود الذين يخشون ربهم صلة وثم حرف عطف للتراخي وتلين جلودهم فعل مضارع وفاعل وقلوبهم عطف على جلودهم والى ذكر اللّه متعلقان بتلين لأنه متضمن معنى تسكن وتطمئن إلى ذكر اللّه .

)

ذِلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ) ذلك مبتدأ وهدى اللّه خبر أو بدل من اسم الاشارة وجملة يهدي إما حال أو خبر وبه متعلقان بيهدي ومن يشاء مفعول به وجملة يشاء صلة والاشارة إلى الكتاب فالجملة حال منه . (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ) الواو استئنافية ومن اسم شرط جازم في محل نصب مفعول مقدم ليضلل واللّه فاعل والفاء رابطة وما نافية أو نافية حجازية وله خبر أو خبر هاد المقدم ومن حرف جر زائد وهاد مبتدأ مؤخر مرفوع محلا أو اسم ما مجرور لفظا وعلامة جره كسرة مقدرة على ما قبل الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين .

البلاغة :

1- في قوله " مثاني " :

وصف الواحد بالجمع لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل ، ألا تراك تقول القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات وأقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات ، ونظيره قولك الإنسان عظام وعروق وأعصاب ،

وأجاز الزمخشري وجها لطيفا آخر قال : " ويجوز أن لا يكون مثاني صفة ويكون منصوبا على التمييز من متشابها كما تقول رأيت رجلا حسنا شمائل والمعنى متشابهة مثانيه " .

2- فائدة التكرير :

وفائدة التثنية والتكرير ترسيخ الكلام في الذهن فإن النفوس تملّ عادة من الوعظ والتنبيه

وتسأم النصيحة بادىء الأمر ، ففي تكرير النصح والموعظة تعويد لها على استساغة ذلك والعمل به وقد ثبت أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يكرر عليهم ما يعظ وينصح به ثلاثا وسبعا أحيانا ليركز ذلك في نفوسهم والمعلم النابه لا يفتا يردد ما يلقيه على طلابه من دروس حتى يصبح مستساغا إليهم هشا في نفوسهم بعد أن كان صعبا ممجوجا .

3- التجسيد الحي :

(373/671)

وفي قوله " تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر اللّه "

نكت بلاغية بديعة وأهمها التجسيد الحي ، أراد سبحانه أن يجسد فرط خشيتهم فعرض عليك صورة من الجلد اليابس وصورة من الشعر الواقف ، ألا تقول : وقف شعر رأمنه من الخوف ، وفي ذكر الجلود وحدها أولا وقرنها بالقلوب ثانيا لأن ذكر الخشية التي محلها القلوب مستلزم لذكر القلوب فكأنه قيل تقشعر جلودهم وتخشى قلوبهم في أول الأمر فإذا ذكروا اللّه وذكروا رحمته وسعتها استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم وبالقشعريرة لينا في جلودهم .

وقيل المعنى أن القرآن لما كان في غاية الجزالة والبلاغة

فكانوا إذا رأوا عجزهم عن معارضته اقشعرت الجلود منه إعظاما له وتعجبا من حسنه

وبلاغته ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر اللّه .

[سورة الزمر (39) : الآيات 24 إلى 28]

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (24) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (25) فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (26) وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28)

الإعراب :

)

(374/671)

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ) الهمزة للاستئناف الإنكاري والفاء عاطفة على جملة مقدرة تفهم من مضمون السياق أي أكل الناس سواء فمن يتقي ، ومن اسم موصول في محل رفع مبتدأ وجملة يتقي بوجهه صلة وسوء العذاب مفعول به ويوم القيامة ظرف متعلق بيتقي وخبر من محذوف تقديره كمن أمن من العذاب وسيأتي معنى الاتقاء بالوجه في باب البلاغة . (وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) وقيل عطف على يتقي

أي ويقال لهم ذوقوا وإنما عدل إلى الماضي للدلالة على تحقق وقوع القول ويجوز أن تكون الواو حالية والجملة في محل نصب على الحال من ضمير يتقي وللظالمين متعلقان بقيل وفيه وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم وجملة

ذوقوا مقول القول وما مفعول ذوقوا وكنتم تكسبون كان واسمها وخبرها والجملة صلة ما .

(كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ) كلام مستأنف مسوق لبيان ما أصاب الكافرين من قبلهم من عذاب دنيوي ، وكذب الذين فعل وفاعل ومن قبلهم متعلقان بمحذوف صلة الذين ، فأتاهم العذاب عطف على ما تقدم وأتاهم فعل ومفعول به مقدم والعذاب فاعل مؤخر ومن حييث متعلقان بأتاهم وجملة لا يشعرون في محل جر بإضافة الظرف إليها .

)

(375/671)

فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا) الفاء عاطفة وأذاقهم اللّه فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر والخزي مفعول به ثان وفي الحياة الدنيا متعلقان بأذاقهم أو بمحذوف حال .

(وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) الواو عاطفة واللام لام الابتداء وعذاب الآخرة مبتدأ

وأكبر خبر ولو شرطية وكان واسمها وجملة يعلمون خبرها وجواب لو محذوف دل عليه ما قبله ومفعول يعلمون محذوف أيضا تقديره عذابها . (وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) الواو عاطفة واللام جواب للقسم المحذوف وضربنا فعل وفاعل وللناس متعلقان بضربنا على أنه مفعول به ثان لأن ضرب متضمن معنى جعل وفي هذا القرآن حال ومن كل مثل نعت لمفعول ضربنا الأول أي مثلا كائنا من كل مثل ولعل واسمها وجملة يتذكرون خبرها .

(قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) قرآنا حال موطئة لأنها ذكرت توطئة للنعت بالمشتق بينما هي جامدة وهي حال من القرآن والاعتماد فيها على الصفة وقال اللقاني : " قرآنا مصدر بمعنى القراءة فهي مؤولة بمقروءا عربيا فهو مصدر والمصدر الحال يؤول بمشتق " وقال الصفاقسي : " قيل الحال قرآنا وعربيا توطئة ومعنى التوطئة أن الاسم الجامد لما وصف بما يجوز أن يكون حالا صلح أن يكون حالا " وعلى هذا تضبط موطأة بفتح الطاء وقال السمين : " الثالث أن ينتصب على الحال من القرآن على أنها حال مؤكدة وتسمى حالا موطئة لأن الحال في الحقيقة عربيا وقرآنا توطئة له نحو جاء زيد رجلا صالحا " وهكذا قرر الزمخشري . وأجاز الزمخشري وغيره أن ينتصب قرآنا على المدح لأنه لما كان نكرة امتنع اتباعه للقرآن وأجاز أبو البقاء أن ينتصب بيتذكرون .

وغير ذي عوج نعت ثان لقرآنا وسيأتي معناه في باب البلاغة ولعلهم يتقون لعل واسمها وجملة يتقون خبرها .

(376/671)

البلاغة :

1- الكناية أو المجاز التمثيلي :

في قوله " أ فمن يتقي بوجهه سوء العذاب " كناية عن عدم الاتقاء لأن الوجه لا يتقى به وأما الذي يتقى به فهما اليدان وهما مغلولتان ولو لم يغلا لكان يدفع بهما عن الوجه لأنه أعز أعضائه وقيل هو مجاز تمثيلي لأن الملقى في النار لم يقصد الاتقاء بوجهه ولكنه لم يجد ما يتقي به النار غير وجهه ولو وجد لفعل فلما لقيها بوجهه كانت حاله حال المتقي بوجهه فعبر عن ذلك بالاتقاء من باب المجاز التمثيلي وهو جميل أيضا . قال النابغة :

سقط النصيف ولم تردوا إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

2- معنى العوج :

تقدم معنى العوج في الكهف وأن العوج بالكسر مختص بالمعاني دون الأعيان والسرّ فيه ، فارجع إليه هناك وقيل المراد بالعوج الشك واللبس ، قال :

وقد أتاك يقين غير ذي عوج من الإله وقول غير مكذوب

وعلى كل حال ففي الكلام استعارة تصريحية .

[سورة الزمر (39) : الآيات 29 إلى 32]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (29) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (32)

اللغة :

(مُتَشاكِسُونَ) : متنازعون مختلفون قال الزمخشري :

" والتشاكس والتشاخس الاختلاف تقول : تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه " وفي المختار : " رجل شكس بوزن فلس أي صعب الخلق وقوم شكس بوزن قفل وبا به سلم وحكى الفراء شكس

(377/671)

بكسر الكاف وهو القياس قلت : وقوله تعالى : فيه شركاء متشاكسون أي مختلفون عسرو الأخلاق " وفي الصحاح : " رجل شكس بالتسكين أي صعب الخلق وقوم شكس مثل رجل صدق وقوم صدق وقد شكس بالكسر من باب سلم شكاسة وحكى الفراء : رجل شكس بكسر الكاف وهو القياس " .

وللشين والسين إذا كانتا فاء ولاما للكلمة خاصة الصلابة والامتناع وسوء الخلق : يقال شئس كفرح أي صلب فهو شئس وشأس ، والشحس بالفتح شجر مثل العتم إلا أنه أطول ولا تتخذ منه القسي ليبسه ، والشخس الاضطراب والاختلاف وقد تقدم ، والشرس محركة سوء الخلق وشدة الخلاف كالشراسة والأشرس الجريء في القتال والأسد وهذا جمل لم يشرس أي لم يرض ، والشس الأرض الصلبة كأنها حجر واحد ، والشطس : الدهاء والعلم به والشطسي كجمحيّ الرجل المنكر المارد الداهية ، والشمس معروفة وليس هناك أمنع منها وشمس الفرس شموسا وشماسا منع ظهره فهو شامس وشموس والشموس الخمر لأنه تجعل شاربها شموسا ، والشموس محركة : النظر بمؤخر العين تكبرا أو تغيظا كالتشاوس . وهذا من غريب أمر لغتنا الشريفة .

(سَلَماً) : مصدر سلم وقرىء سالما على أنه اسم فاعل أي خالصا .

الاعراب :

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) كلام مستأنف مسوق لتمثيل من يعبد آلهة

(378/671)

كثيرة ومن يعبد إلها واحدا . وضرب اللّه فعل وفاعل ومثلا مفعول به ورجلا بدل من مثلا وقد تقدم إعراب نظيره ، وقال الكسائي : انتصب رجلا على إسقاط الخافض أي مثلا في رجل . وفيه خبر مقدم وشركاء مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صفة رجلا ومتشاكسون نعت لشركاء ورجلا عطف على رجلا وسلما نعت بالمصدر على سبيل المبالغة ولرجل متعلقان بالمصدر وهو حرف استفهام ويستويان فعل مضارع وفاعل ومثلا تمييز محول عن الفاعل أي لا يستوي مثلهما وأفرد التمييز لاقتصاره عليه في الأول وقرىء مثلين لمطابقة حالي الرجلين .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ) الحمد مبتدأ وللّه خبر والجملة الاسمية معترضة لأن قوله بل أكثرهم لا يعلمون إضراب انتقالي مرتبط بقوله هل يستويان وأكثرهم مبتدأ وجملة لا يعلمون خبر .

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) جملة مستأنفة مسوقة للرد عليهم فقد كانوا يتربصون موته

ويستبطئونه فأخبر اللّه تعالى أن الموت يعمهم جميعا فلا معنى للتربص والاستبطاء ولا مبرر لشماتة فان بفان ، وإنك ميت إن واسمها وخبرها وإنهم ميتون عطف على ما تقدم وسيأتي مزيد من الكلام على هذه الآية في باب البلاغة . (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وان واسمها ويوم القيامة ظرف متعلق بيختصمون وعند ربكم ظرف متعلق بمحذوف حال وسيأتي معنى الاختصام في باب الفوائد . (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ) الفاء عاطفة ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ ومعناه النفي أي لا أحد وممن متعلقان بأظلم وجملة كذب على اللّه صلة من وكذب بالصدق عطف على كذب على اللّه وإذ جاءه ظرف متعلق لكذب بالصدق أي كذب بالقرآن وقت مجيئه وجملة جاءه في محل جر بإضافة الظرف إليها .

(379/671)

(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ) الهمزة للاستفهام التقريري وليس فعل ماض ناقص وفي جهنم خبرها المقدم ومثوى اسمها المؤخر وللكافرين صفة لمثوى أو بنفس مثوى لأنه اسم مكان من ثوى أي أقام .

البلاغة :

1- فن المثل :

في قوله " ضرب اللّه مثلا رجلا فيه شركاء " الآية فن إرسال المثل فقد شبه حال من يعبد آلهة شتى بمملوك اشترك فيه شركاء شجر بينهم خلاف شديد وخصام مبين وهم يتجاذبونه ويتعاورونه في شتى آرابهم ومتباين أهوائهم فهو يقف متحيرا لا يدري لأيهم ينحاز ولأيهم ينصاع وأيهم أجدر بأن يطيعه وحال من يعبد إلها واحدا فهو متوفر على خدمته يلبي كل حاجاته ويصيخ سمعا لكل ما ينتدبه إليه ويطلبه منه .

2- الفرق بين ميت وميّت :

قال الفراء : " الميت بالتشديد من لم يمت وسيموت والميت بالتخفيف من فارقته الروح " ولذلك لم يخفف في الآية لأنه لمّا يمت ولمّا يموتوا بالنسبة لنزول الآية ، وقال الزمخشري : " والفرق بين الميت والمائت أن الميت صفة لازمة كالسيد وأما المائت فصيغة حادثة تقول زيد مائت غدا كما تقول سائد غدا أي سيموت وسيسود وإذا قلت زيد ميت فكما تقول حي في نقيضه فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت

والمعنى في قوله : إنك ميت وإنهم ميتون إنك وإياهم وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى لأنّ ما هو كائن فكأن قد مات " .

الفوائد :

و هذه نبذة لا مندوحة عن إيرادها في معنى الاختصام : فقد جاء عن عبد اللّه بن الزبير قال : لما نزلت : ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يا رسول اللّه أتكون علينا الخصومة ؟ بعد الذي بيننا في الدنيا قال نعم فقال : إن الأمر إذن لشديد " أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح وقال ابن عمر رضي اللّه عنهما عشنا برهة من الدهر وكنا نرى أن هذه الآية نزلت في أهل الكتابين : ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قلنا : كيف نختصم وديننا واحد ونبينا واحد فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا : نعم هذا هو .

وعن أبي بكرة قال : " قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار " قال القسطلاني في شرحه : أي فضرب كل واحد منهما الآخر إذا كان قتالهما بلا تأويل ، بل على عداوة دنيوية أو طلب ملك مثلا فأما من قاتل أهل البغي أو دفع الصائل فقتل فلا ، أما إذا كانا صحابيين فأمرهما عن اجتهاد لإصلاح الدين وفيه أن من عزم على المعصية أثم وإن لم يفعلها . وفي رواية إذا المسلمان جمل أحدهما على أخيه السلاح فهما على حرف جهنم فإذا قتل أحدهما صاحبه دخلاها جميعا قال : فقلنا أو قيل يا رسول اللّه هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال :

إنه أراد قتل صاحبه ، رواه البخاري ومسلم ، قال العلماء : معنى كونهما في النار أنهما يستحقان ذلك ولكن

(381/671)

أمرهما إلى اللّه تعالى إن شاء عاقبهما ثم أخرجهما من النار كسائر الموحدين وإن شاء عفا عنهما فلم يعاقبهما أصلا وقيل : هو محمول على من استحل ذلك ، وذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نصر الحق وقتال الباغين واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد وقد عفا اللّه تعالى عن المخطئ في الاجتهاد بل ثبت أنه يؤجر أجرا واحدا وان المصيب يؤجر أجرين وجعل هؤلاء الوعيد المذكور في الحديث على من قاتل بغير تأويل سائغ بل بمجرد طلب الملك .

وقد أخرج البزّار في حديث " القاتل والمقتول في النار " زيادة تبين المراد وهي : " إذا اقتتلتم على الدنيا فالقاتل والمقتول في النار " ويؤيده ما أخرجه مسلم بلفظ : " لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس زمان لا يدري القاتل فيم قتل ؟ ولا المقتول فيم قتل ؟ فقيل : كيف يكون ذلك ؟ قال : الهرج : القاتل والمقتول في النار " هذا والكلام في هذا الباب طويل يرجع

فيه إلى المطولات لأنه خارج عن نطاق هذا الكتاب.

[سورة الزمر (39) : الآيات 33 إلى 38]

وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (35) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (36) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (37)

(382/671)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38)

الاعراب:

(وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) الواو استئنافية والذي مبتدأ وجملة جاء بالصدق صلة وصدق عطف على الصلة والذي جنس المراد به بالنسبة للصلة الأولى محمد وبالنسبة للصلة الثانية المؤمنون ولذلك روعي معنى الذي في أولئك هم المتقون

، وأولئك مبتدأ وهم ضمير فصل والمتقون خبر أولئك والجملة الاسمية خبر الذي ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن مسعود " والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به " . (لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذِلكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ) لهم خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر وجملة يشاءون صلة وعند ربهم ظرف متعلق بمحذوف حال والجملة خبر ثان للذي وذلك مبتدأ وجزاء المحسنين خبر والجملة نصب على الحال . (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا) اللام للتعليل ويكفر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ولام التعليل ومجرورها متعلقان بمحذوف أي يسر لهم ذلك ليكفروا ولك أن تعلق اللام ومدخولها بالمحسنين فتكون للعاقبة أي فكانت عاقبتهم التكفير والله فاعل يكفر وعنهم

متعلقان بيكفر وأسوأ مفعول به والذي مضاف إليه وجملة عملوا صلة وليس المراد هنا باسم التفضيل معناه على بابه وإنما هي من إضافة الشيء إلى بعضه من غير تفضيل ومنه قولهم الأشج والناقص أعدل بني مروان لأن اسم التفضيل لو كان على بابه لاقتضى نظم الكلام انه يكفر عنهم أقبح السيئات فقط وهذا غير مراد طبعا .

(وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ) عطف على ما تقدم وأجرهم مفعول به ثان ليجزيهم وما قيل في معنى اسم التفضيل وهو أسوأ يقال هنا في معنى اسم التفضيل وهو أحسن لأنه تعالى لا يجزيهم على أفضل الحسنات فقط . (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ) الهمزة للاستفهام التقريري لأن همزة الإنكار إذا دخلت على النفي أثبتته بطريق المبالغة وليس واسمها والباء حرف جر زائد وكاف مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس وعبده مفعول كاف والمراد به النبي أو الجنس عامة ويؤيده قراءة حمزة والكسائي : عباده .

(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ) لك في الواو أن تجعلها للحال فتكون الجملة حالية والمعنى أليس الله كافيك حال تخويفهم إياك هذا إذا أراد بالعبد نبيه صلى الله عليه وسلم ولك أن تجعلها استئنافية فتكون الجملة مستأنفة مسوقة لتفنيد ما يعمدون إليه من تخويف بالأصنام ، ويخوفونك فعل مضارع ومفعول به وبالذين متعلقان بيخوفونك ومن دونه متعلقان بمحذوف هو الصلة ومن يضلل الله فما له من هاد تقدم إعرابها بنصها قريبا فجدد به عهدا . (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ) الجملة معطوفة على الجملة السابقة والإعراب متشابه والهمزة للاستفهام التقريري وليس واسمها وبعزيز الباء حرف جر زائد وعزيز مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس وذي انتقام نعت .

)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن شرطية وسألتهم فعل وفاعل ومفعول به وهو في محل جزم فعل الشرط ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة خلق السموات والأرض خبر والجملة في محل نصب مفعول به ثان لسألتهم المعلقة عن العمل بالاستفهام واللام واقعة في جواب القسم وجواب الشرط محذوف وفقا للقاعدة المشهورة ويقولن فعل مضارع معرب لعدم مباشرة نون التوكيد له وقد تقدمت له نظائر كثيرة والله خبر لمبتدأ محذوف أي هو الله أو مبتدأ والخبر محذوف أي خلقها . (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) الهمزة للاستفهام والفاء الفصيحة ورأيتم بمعنى أخبروني وقد تقدم القول فيها مفصلا أكثر من مرة وما تدعون مفعول رأيتم الأول ومن دون الله حال ، ويجوز أن تكون الفاء عاطفة على مقدر أي أتفكرتم بعد ما أقررتم به فرأيتم . . . (إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ) إن شرطية وأرادني الله فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وهو في محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف وجملة الشرط اعتراضية والجملة الاستفهامية هل هن كاشفات مفعول رأيتم الثاني وهن مبتدأ وكاشفات ضره خبر .

(أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ) عطف على الجملة السابقة وقرىء بتنوين

كاشفات وممسكات ونصب ضره ورحمته على المفعولية لاسمي الفاعل . (قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) حسبي اللّه مبتدأ وخبر أو بالعكس والجملة مقول القول وعليه متعلقان بيتوكل ويتوكل المتوكلون فعل مضارع وفاعل .

[سورة الزمر (39) : الآيات 39 إلى 42]

(385/671)

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (40) إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)

الإعراب :

(قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) يا حرف نداء وقوم منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة واعملوا فعل أمر وفاعل وعلى مكانتكم حال وسيأتي معنى الاستعارة هنا في باب البلاغة وان واسمها وخبرها وفي الكلام حذف أي على

مكانتي والفاء عاطفة وسوف حرف استقبال وتعلمون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل .

(مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ) من اسم موصول مفعول تعلمون والعلم هنا بمعنى المعرفة فينصب مفعولا واحدا وجملة يأتيه صلة وعذاب فاعل يأتيه وجملة يخزيه صفة لعذاب ويحل عطف على يخزيه وعليه متعلقان بيحل وعذاب فاعل يحل ومقيم نعت أي دائم ثابت . (إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ) إن واسمها وجملة أنزلنا خبرها وعليك متعلقان بأنزلنا والكتاب مفعول به وللناس متعلقان بأنزلنا أي لأجلهم وبالحق حال أي متلبسا به فهو

(386/671)

من الفاعل أو من المفعول . (فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها) الفاء عاطفة ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ واهتدى فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة ولنفسه خبر لمبتدأ محذوف أي فهدايته لنفسه والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر المبتدأ وجملة ومن ضل فإنما يضل عليها عطف على نظيرتها .

(وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) الواو عاطفة وما نافية حجازية وأنت اسمها وعليهم متعلقان بوكيل والباء حرف جر زائد ووكيل مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما . (اللَّهُ يَتَوَفَّى

الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها) اللّه مبتدأ وجملة يتوفى الأنفس خبر وحين موتها متعلق بيتوفى والواو حرف عطف والتي معطوف على الأنفس وجملة لم تمت في منامها صلة وفي منامها ظرف ليتوفى والمعنى ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها أي يتوفاها حين تنام ومنه قوله تعالى :

" وهو الذي يتوفاكم بالليل " . (فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى) الفاء عاطفة ويمسك فعل مضارع معطوف على يتوفى والتي مفعول يمسك وجملة قضى عليها الموت صلة والموت مفعول قضى ويرسل عطف على يمسك والأخرى مفعول به وإلى أجل متعلقان بيرسل أو بيمسك ومسمى نعت لأجل .

(إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبر مقدم واللام المزحلقة وآيات اسم إن ولقوم صفة لآيات وجملة يتفكرون نعت لقوم .

البلاغة :

في قوله " قل يا قوم اعملوا على مكانتكم " الآية استعارة تصريحية فقد شبهت الحال بالمكان القارّ فيه ، ووجه الشبه ثباتهم في تلك الحال بثبات المتمكن في مكانه .

[سورة الزمر (39) : الآيات 43 إلى 46]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44) وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45) قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46)

الإعراب :

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ) أم حرف عطف بمعنى بل واتخذوا فعل ماض والواو فاعل أي قريش ومن دون اللّه مفعول اتخذوا الثاني وشفعاء مفعول اتخذوا الأول . (قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري ومدخولها محذوف تقديره أيشفعون والواو حالية ولو شرطية وكان واسمها وجملة لا يملكون خبرها والجملة في موضع نصب على الحال والمعنى أيشفعون في حالة كونهم لا يملكون ولا يعقلون وشيئا مفعول به أو مفعول مطلق وقد تقدم القول فيها ولا يعقلون عطف على لا يملكون ، وجواب لو محذوف تقديره تتخذونهم أي وان كانوا بهذه الصفة تتخذونهم . (قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) للّه خبر مقدم والشفاعة مبتدأ مؤخر واللام للملك أي

انه مختص بها لا يملكها أحد إلا بتمليكه وجميعا حال وله خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ مؤخر ثم حرف عطف للترتيب والتراخي وإليه متعلقان بترجعون .

(388/671)

(وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متعلق بالجواب وجملة ذكر اللّه في محل جر بإضافة الظرف إليها واللّه نائب فاعل ووحده حال وعلى المصدر عند الخليل وسيبويه ، وجملة اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة لا محل لها لأنها جواب إذا . (وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) عطف على ما تقدم ومن دونه صلة الذين وإذا الفجائية وقد جرينا على أنها حرف فلا تحتاج إلى عامل وإذا كانت ظرف زمان أو مكان كانت معمولة لما بعدها وهم مبتدأ وجملة يستبشرون أي يستبشرون وقت ذكر الذين من دونه . (قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ) اللهم منادى والميم المشددة عوض عن يا وقد تقدم بحث ذلك مفصلا وفاطر السموات والأرض منادى مضاف وهناك أعاريب أخرى سيرد الكلام عنها مفصلا في باب الفوائد وكذلك قوله عالم الغيب والشهادة .

(أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) أنت مبتدأ وجملة تحكم خبر وبين

عبادك الظرف متعلق بتحكم وفيما متعلقان بتحكم أيضا وكانوا كان واسمها وجملة يختلفون خبر كانوا وفيه متعلقان بيختلفون وجملة كانوا إلخ صلة ما .

الفوائد :

1- عودة إلى " اللهم " :

مذهب الخليل وسيبويه أن هذا الاسم لا يوصف لأنه صار عندهم مع الميم بمنزلة الصوت أي غير متمكن في الاستعمال وذهب المبرد والزجاج إلى جواز وصفه بمرفوع على اللفظ ومنصوب على المحل وجعل فاطر السموات والأرض صفة له ، قال أبو حيان :

والصحيح مذهب سيبويه لأنه لم يسمع مثل اللهم الرحيم ارحمنا والآية ونحوها محتملة للنداء .

(389/671)

وقال ابن هشام : " وإنما قال في قل اللهم فاطر السموات والأرض : إنه على تقدير يا ولم يجعله صفة على المحلّ لأن عنده أن اسم اللّه سبحانه وتعالى لما اتصلت به الميم المعوضة عن حرف النداء أشبه الأصوات فلم يجز نعته " أي فقد صار مثل هلا إذا الميم بمنزلة صوت مضموم إلى اسم اللّه مع بقائهما على معنييهما .

2- الاستبشار والاشمئزاز :

قال الزمخشري : " الاستبشار أن يمتلىء قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلّل والاشمئزاز أن يمتلىء غما حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه " .

[سورة الزمر (39) : الآيات 47 إلى 49]

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (48) فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (49)

الاعراب :

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ) كلام مستأنف مسوق لبيان نمط من أنماط الهول الذي ينتظرهم والعذاب الشديد الذي أعد لهم .

ولو شرطية وأن وما في حيزها فاعل لفعل محذوف على الأرجح وقد تقدم تقرير ذلك أكثر من مرة ، وللذين خبرها المقدم وما اسمها المؤخر وفي الأرض صلة ما وجميعا حال ومثله عطف على ما ومعه ظرف متعلق بمحذوف حال واللام واقعة في جواب لو وافتدوا فعل

وفاعل وبه متعلقان بافتدوا ومن سوء العذاب متعلقان بافتدوا أيضا ويوم القيامة الظرف حال من فاعل افتدوا أي حال كونهم في ذلك اليوم العصيب .

(390/671)

(وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) كلام معطوف على جملة ولو أن للذين ظلموا الآية وبدا فعل ماض ولهم متعلقان به ومن اللّه حال وما فاعل وجملة لم يكونوا صلة ما وجملة يحتسبون خبر يكونوا والعائد محذوف أي يحتسبونه .

(وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) عطف على ما تقدم ولك أن تجعل الكلامين مستأنفا مسوقا لإبراز وعيدهم في أبلغ ما يكون الوعيد والتهديد وإعرابها مماثل لما تقدم .

(فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا) الفاء عاطفة لترتيب ما بعدها من المناقضة على ما سبق ذكره وسيأتي السر في إيثار الفاء مع أنها

تقدمت في أول السورة معطوفة بالواو وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط ومس الإنسان ضر فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وجملة دعانا لا محل لها لأنها جواب إذا . (ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ) ثم حرف عطف للترتيب مع

التراخي وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة خولناه في محل جر بإضافة الظرف إليها وخولناه فعل وفاعل ومفعول به ونعمة مفعول به ثان ومنّا صفة لنعمة وجملة قال لا محل لها وإنما كافة ومكفوفة وأوتيته فعل ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والهاء مفعول به وذكر الضمير لأن النعمة بمعنى الإحسان والعطاء ولك أن تعمل ان فتجعل ما موصولة في محل نصب اسمها وعلى علم خبرها والأول أرجح وعلى علم متعلقان بمحذوف حال أي حال كوني عالما أني سأعطاه لما أتمتع به من جدارة واستحقاق .

(391/671)

(بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) بل إضراب انتقالي وهي مبتدأ وفتنة خبر أي مقالته المذكورة أو النعمة وهذا أرجح ، ولكن الواو حالية ولكن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها . قال الفراء : أنّث الضمير في قوله هي لتأنيث الفتنة ولو قال : بل هو فتنة لجاز ، وتذكير الأول في قوله أوتيته باعتبار معناها .

البلاغة :

إنما عطف قوله فإذا مس الإنسان ضر في آخر السورة بالفاء وفي أولها بالواو لأن هذه نشأت عن قوله وإذا ذكر اللّه وحده اشمأزت قلوبهم أي أنهم يشمئزون عن ذكر اللّه

ويستبشرون بذكر الآلهة .

أما الأولى فلم تنشأ عما قبلها وإنما هو وصف الكلام اقتضى عطفها بالواو لمناسبة ما قبلها .

[سورة الزمر (39) : الآيات 50 إلى 52]

قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

الإعراب :

(قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) قد حرف تحقيق وقالها فعل ماض ومفعول به مقدم والهاء عائدة على مقالتهم وهي : إنما أوتيته عن علم لأنها كلمة والذين فاعله ومن قبلهم متعلقان بمحذوف صلة الموصول .

(392/671)

(فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ) الفاء عاطفة وما نافية وأغنى فعل ماض وعنهم متعلقان به وما فاعل أغنى وجملة كانوا صلة وكان واسمها وجملة يكسبون خبرها .

(فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا) الفاء عاطفة وأصابهم سيئات فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وما موصولة أو مصدرية في محل جر بالإضافة. (وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ) الواو عاطفة والذين مبتدأ وجملة ظلموا صلة ومن هؤلاء حال وجملة سيصيبهم سيئات ما كسبوا خبر الذين، وما هم: ما نافية حجازية وهم اسمها والباء حرف جر زائد ومعجزين مجرور بالباء لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما.

(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والواو عاطفة على محذوف تقديره أقالوها ولم يعلموا ولم حرف نفي وقلب وجزم ويعلموا فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي يعلموا وان واسمها وجملة يبسط الرزق خبرها ولمن متعلقان بيبسط وجملة يشاء صلة ويقدر عطف على يبسط.

(إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) إن وخبرها المقدم واللام المزحلقة وآيات اسمها المؤخر ولقوم صفة لآيات وجملة يؤمنون صفة لقوم.

[سورة الزمر (39): الآيات 53 إلى 59]

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57)

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (59)

الاعراب :

(قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان أن الإنابة مطلوبة لأن الفسحة عظيمة للمسرف . ويا عبادي منادى مضاف إلى ياء المتكلم المفتوحة وقرىء يا عباد بكسرها وقد تقدم حكم المنادى المضاف لياء المتكلم والذين نعت لعبادي وجملة أسرفوا صلة وعلى أنفسهم متعلقان بأسرفوا ولا ناهية وتقنطوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل ومن رحمة اللّه متعلقان بتقنطوا . وقنط من باب تعب وسلم فيجوز كسر نونه وفتحها في المضارع وقد قرىء بهما وفي المختار : " القنوط :

اليأس وبا به جلس ودخل وطرب وسلم فهو قنط وقنوط وقانط " وقد قرىء بالضم شذوذا .

(394/671)

(إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) إن واسمها وجملة يغفر خبرها والجملة تعليل للنهي عن القنوط ولذلك قيل : هذه أرجى آية في القرآن وسيأتي بيان ما فيها من أفانين البلاغة ، والذنوب مفعول به وجميعا حال وذلك بعد التوبة من الشرك وإن واسمها وهو ضمير فصل أو مبتدأ والغفور الرحيم خبران لإن أو لهو والجملة خبر إن . (وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ) وأنيبوا الواو عاطفة وأنيبوا فعل أمر وفاعله وإلى ربكم متعلقان بأنيبوا وأسلموا عطف أيضا وله متعلقان بأسلموا ومن قبل متعلقان بمحذوف حال وأن وما في حيزها مصدر مؤول مضاف إلى الظرف ويأتيكم فعل مضارع منصوب بأن والكاف مفعول به مقدم والعذاب فاعل مؤخر وثم حرف عطف للترتيب مع

التراخي وتؤمرون فعل مضارع مرفوع لأنه لم يعطف على يأتيكم وسيأتي السر في ذلك في باب البلاغة .

(وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) واتبعوا عطف على وأنيبوا وأحسن مفعول به لاتبعوا وما اسم موصول مضاف لأحسن وجملة أنزل إليكم صلة ومن ربكم متعلقان بأنزل أيضا . (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ) من قبل متعلقان بمحذوف حال وأن وما في حيزها في محل جر بالإضافة وبغتة حال والواو حالية وأنتم مبتدأ وجملة لا تشعرون خبر والجملة نصب على الحال .

)

(395/671)

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) أن وما في حيزها في محل نصب مفعول لأجله ، وقدّره الزمخشري كراهة أن تقول وقدّره أبو البقاء أنذر ناكم مخافة أن تقول ، ونفس فاعل تقول وسيأتي السر في تنكيرها في باب البلاغة ويا حرف نداء وحسرتا منادى مضاف لياء المتكلم المنقلبة ألفا وأصله يا حسرتي أي ندامتي وعلى ما فرطت أي على تفريطي فما مصدرية والمصدر المؤول مجرور بعلى والجار والمجرور متعلقان بحسرتا وفي جنب اللّه متعلقان بفرطت وسيأتي بحث هذه الكناية في باب البلاغة .

(وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ) الواو للحال وان مخففة من الثقيلة أي والحال أني وكان واسمها

واللام الفارقة ومن الساخرين خبر كنت ومحل الجملة نصب على الحال . (أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) أو حرف عطف وتقول عطف على أن تقول ولو شرطية وأن وما في حيزها فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت وأن واسمها وجملة هداني خبرها واللام واقعة في جواب لو وكان واسمها ومن المتقين خبرها والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط جازم .

(396/671)

)

أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أو تقول عطف على ما تقدم والفاعل مستتر تقديره هي يعود على نفس وأو للتنويع لما تقوله النفس في ذلك اليوم العصيب تعللا بما لا يفيد ولا يسفر عن فائدة ولو شرطية وأن وما في حيزها فاعل لفعل محذوف وأن وخبرها المقدم وكرة اسمها المؤخر ، فأكون : الفاء عاطفة وأكون معطوف على كرة فهو عطف على اسم خالص من التقدير بالفعل وقد تقدمت الإشارة إليه وإما تكون الفاء للسببية وأكون فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية الواقعة جوابا للتمني المفهوم من قوله لو أن لي كرة والفرق بين الوجهين أنه على الأول يكون فيه الكون من جملة

المتمنى وعلى الثاني يكون فيه الكون مترتبا على حصول المتمنى لا متمنى .

(بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ) بلى حرف جواب جاء لرد النفي الذي تضمنه قول القائل لو أن اللّه هداني وقد حرف تحقيق وجاءتك آياتي فعل ومفعول به وفاعل فكذبت بها عطف على جاءتك وكنت كان واسمها ومن الكافرين خبرها .

البلاغة :

1- في قوله : " قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه إن اللّه يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم " فنون متنوعة من علمي البديع والبيان نلخصها فيما يلي :

1- إقباله سبحانه عليهم وفي ذلك منتهى الاطمئنان لهم لمحو ما سبق لهم من ذنوب وأوضار والإشعار بأن أمامهم مندوحة من الوقت لاستدراك ما فرط ورأب ما انصدع .

2- نداؤهم ، وفي ذلك من التودّد إليهم والتلطف بهم ما يهيب بذوي المسكة من العقول منهم إلى المبادرة بالإنابة والرجوع بالتوبة .

3- إضافتهم إليه إضافة تشريف لهم ، وأنهم خلقاء بآصرة العبودية يمتون بها اليه سبحانه ، وذلك كاف لمقابلتهم ذلك بالمثل وإعلان التوبة للازدلاف اليه بها .

4- إضافة الرحمة إلى أخص أسمائه تعالى وأجلها وأنها هي الأصل في معاملته لعباده .

5- إعادة الظاهر بلفظه في قوله إن اللّه يغفر الذنوب جميعا .

6- الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله من رحمة اللّه لتخصيص الرحمة بالاسم الكريم كما تقدم آنفا .

7- إبراز الجملة من قوله إنه هو الغفور الرحيم مؤكدة بأن وبضمير الفصل وبالصفتين المودعتين للمبالغة فهذه سبعة فنون كاملة في آية واحدة .

2- الإيضاح :

وذلك في قوله " ثم لا تنصرون " فلقائل أن يقول لم لم يعطف تنصرون على أن يأتيكم المنصوب والجواب عن هذا الإشكال انه أراد – وهو أعلم – العدة بإخبارهم أنه لن ينصرهم أبدا في الاستقبال

ما داموا مصرين على عدم الإنابة محجمين عن الإسلام وقد تقدمت آية مماثلة لها في هذا الفن في سورة آل عمران .

3- التنكير :

والسر في تنكير النفس في قوله " أن تقول نفس " التقليل ، لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر وانها نفس متميزة من الأنفس بهذه السمة من اللجاج في الكفر وربما أريد بها

التكثير على حد قول الأعشى :

ورب بقيع لو هتفت بجوه أتاني كريم ينفض الرأس مغضبا

يريد كراما كثيرين لا كريما واحدا ومثله : رب بلد قطعت ، ورب بطل قارعت وهو يقصد بلادا وأبطالا .

4- الكناية :

في قوله " على ما فرطت في جنب اللّه " والجنب الجانب يقال :

أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته وفلان لين الجنب والجانب ثم قالوا فرط في جنبه وفي جانبه يريدون في حقه ، قال جميل بن معمر :

أما تتقين اللّه في جنب وامق له كبد حرى عليك تقطع

غريب مشوق مولع بادكاركم وكل غريب الدار بالشوق مولع

(398/671)

يستعطف جميل صاحبته بثينة ويتوجع إليها مما نابه فيها أي أما تخافين اللّه في جنب وامق أي في حقه الواجب عليك فالجنب كناية عن ذلك والوامق الشديد المحبة يعني نفسه وحرى أي ذات حر واحتراق ، وتقطع : أصله تتقطع والادكار أصله الاذتكار قلبت تاء الافتعال

دالا مهملة وأدغمت الذال المعجمة فيها ، وخاطبها خطاب جمع المذكر تعظيما لها وفي البيت الثاني رد العجز على الصدر وهو من بديع الكلام . وهذه الكناية تسمى كناية نسبة ، وقد تقدم القول في أقسام الكناية ، لأنك إذا أثبتّ الأمر في مكان الرجل وحيّزه فقد أثبتّه فيه ، قال زياد الأعجم :

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

يعني انه مختص بهذه الصفات لا توجد في غيره ولا خيمة هناك ولا ضرب أصلا .

الفوائد :

ألف الفصل :

ألف الفصل تزاد بعد واو الجماعة مخافة التباسها بواو النسق مثل : " وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له " ومثل : كفروا ووردوا ، ألا ترى أنهم لو لم يدخلوا الألف بعد الواو ثم اتصلت بكلام بعدها ظن القارئ أنها كفر وورد فحيزت الواو لما قبلها بألف الفصل ، ولما فعلوا ذلك في الأفعال التي تنقطع واوها من الحروف قبلها نحو ساروا وجاءوا فعلوا ذلك في الأفعال التي تتصل واوها بالحروف قبلها نحو كانوا وبانوا ليكون حكم هذه الواو في كل موضع حكما واحدا .

[سورة الزمر (39) : الآيات 60 إلى 66]

وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (63) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66)

اللغة :

(بمفازة) : المفازة : الفلاة المهلكة سميت باسم المنجاة على سبيل التفاؤل ، وفوّز المسافر : ركب المفازة ومضى فيها ، قال حسان :

للّه درّ رافع أنّى اهتدى فوّز من قراقر إلى سوى

وفوّز بإبله ، وفوّز الرجل مات فصار في مفازة ما بين الدنيا والآخرة من البرزخ الممدود أو لأن المفازة صارت اسما للمهلكة فأخذ

منها فوّز بمعنى هلك ، وفاز سهمه وخرج له سهم فائز إذا غلب ، وفاز بفائزة هنيّة وأجيز بجائزة سنية . وقد سموا اللديغ سليما تفاؤلا ببرئه كما سموا القافلة للمسافرين تفاؤلا بأوبتهم .

(مَقالِيدُ) : المقاليد جمع مقلاد مثل مفتاح ومفاتيح أو مقليد مثل منديل ومناديل والكلام من باب الكناية وعبارة القاموس :

"

(400/671)

و الإقليد برة الناقة والمفتاح كالمقلاد والمقلد وشريط يشد به رأس الجلة وشيء يطوّل مثل الخيط من الصّفر يقلد على البرة وعلى خوق القرط كالقلاد والعنق وجمعه أقلاد ، وناقة قلداء : طويلتها ، وكسكيت ومصباح : الخزانة ، وضاقت مقالده ومقاليده ضاقت عليه أموره وكمنبر : الوعاء والمخلاة والمكيال وعصا في رأسها اعوجاج " إلى أن يقول : " والقلاده : ما جعل في العنق ، وتقلد : لبسها " . على أن الزمخشري وغيره من علماء اللغة يقولون إن أصل الكلمة فارسي ، قال في الكشاف : " له مقاليد السموات والأرض أي هو مالك أمرها وحافظها وهو من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها ومنه قولهم ألقيت إليه مقاليد الملك وهي المفاتيح ولا واحد لها من لفظها وقيل مقلد ويقال إقليد وأقاليد والكلمة أصلها فارسية فإن قلت : ما للكتاب العربي المبين وللفارسية ؟ قلت : التعريب أحالها عربية كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملا " .

الاعراب :

(وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ) الواو استئنافية والظرف متعلق بتري وترى فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنت والذين مفعوله وجملة كذبوا على اللّه صلة

(401/671)

و وجوههم مبتدأ ومسودة خبر والجملة الاسمية في محل نصب حال من الموصول لأن الرؤية بصرية ويجوز أن تكون الرؤية قلبية فتكون الجملة في موضع المفعول الثاني لترى والكذب على اللّه معناه نسبة الشريك إليه . (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ) الهمزة للاستفهام التقريري وليس وخبرها المقدم ومثوى اسمها المؤخر وللمتكبرين نعت لمثوى والجملة تعليلية لاسوداد وجوههم . (وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ) الواو عاطفة وينجي اللّه الذين فعل مضارع وفاعل ومفعول به وجملة اتقوا صلة وبمفازتهم متعلقان بينجي لأنها سببية ففوزهم بالفلاح سبب النجاة . (لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) لا نافية ويمسهم السوء فعل مضارع ومفعول به وفاعل والواو عاطفة ولا نافية وهم مبتدأ وجملة يحزنون خبر وجملة لا يمسهم السوء لا محل لها لأنها مفسرة للمفازة كأنه قيل : ما مفازتهم فقيل لا يمسهم السوء ولا

يبعد أن تكون في موضع نصب على الحال من الذين اتقوا وأجاز الزمخشري أن تكون مستأنفة .

(اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) اللّه مبتدأ وخالق كل شيء خبر وهو مبتدأ وعلى كل شيء متعلقان بوكيل ووكيل خبر هو والجملة مستأنفة . (لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) له خبر مقدم ومقاليد السموات والأرض مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة أيضا . (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ) الذين مبتدأ وجملة كفروا بآيات اللّه صلة وهم مبتدأ والخاسرون خبره والجملة خبر الذين ولك أن تجعل هم ضمير فصل لا محل له كما تقدم والجملة معطوفة على وينجي اللّه الذين آمنوا عطف أحد المتقابلين

على الآخر ولا يمنع من هذا العطف كون المعطوف جملة اسمية والمعطوف عليه جملة فعلية . (قُلْ : أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء عاطفة على محذوف وغير اللّه نصب بأعبد وجملة تأمروني اعتراض وسيأتي الكلام في حذف النون وأعبد فعل مضارع والأصل تأمرونني أن أعبد فحذف أن وارتفع أعبد كما ارتفع في قول طرفة :

ألا أيها ذا الزاجري أحضر الوغى وأن اشهد اللذات هل أنت مخلدي

وفيما يلي النص الكامل لإعراب أبي البقاء لهذه الآية :

" أفغير اللّه ، في اعرابها أوجه ، أحدها : أنه منصوب بأعبد مقدما عليه وقد ضعف هذا الوجه من حيث كان التقدير أن أعبد فعند ذلك يفضي إلى تقديم الصلة على الموصول وليس بشيء لأن أن ليست في اللفظ فلا يبقى عملها فلو قدرنا بقاء حكمها لأفضى إلى حذف الموصول وبقاء صلته وذلك لا يجوز إلا في ضرورة الشعر ، والوجه الثاني أن يكون منصوبا بتأمروني وأعبد بدلا منه والتقدير قل أفتأمروني بعبادة غير اللّه عز وجل وهذا من بدل الاشتمال ومن باب أمرتك الخير ، والثالث أن غير منصوب بفعل محذوف أي أفتلزموني غير اللّه وفسره فيما بعد ، وقيل لا موضع لأعبد من الاعراب وقيل هو حال والعمل على الوجهين الأولين وأما النون فمشددة على الأصل وقد خففت بحذف الثانية وقد ذكر نظائره " ونون تأمروني نون الرفع كسرت للمناسبة وحذفت نون الوقاية لاجتماع المثلين وقرىء بسكون

الياء وفتحها فالقراءات أربع وكلها سبعية . وأيها منادى نكرة مقصودة مبني على الضم والهاء للتنبيه والجاهلون بدل من أيها .

)

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ) اللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وأوحي فعل ماض مبني للمجهول وإليك سد مسد نائب الفاعل وقيل نائب الفاعل محذوف يدل عليه سياق الكلام أي أوحي إليك التوحيد والى الذين عطف على إليك ومن قبلك متعلقان بمحذوف صلة الموصول . (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ) اللام موطئة للقسم أيضا وإن شرطية وأشركت فعل ماض في محل جزم فعل الشرط واللام واقعة في جواب القسم وهذا القسم وجوابه جواب القسم الأول وأما جواب الشرط فمحذوف على حد قول ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

ويحبطن فعل ماض مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وعملك فاعل ولتكونن عطف على ليحبطن واسم تكونن مستتر تقديره أنت ومن الخاسرين خبر . (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ) كلام معطوف على مقدر دل عليه السياق أي فلا تشرك ، واللّه نصب بفعل محذوف دل عليه فاعبد أي إن كنت عاقلا فاعبد اللّه والفاء الفصيحة واعبد فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وكن عطف على اعبد واسم كن مستتر تقديره أنت ومن الشاكرين خبر كن .

الفوائد :

أفرد سيبويه في كتابه فصلا خاصا لهذا التركيب وهو " بل اللّه فاعبد " وهذه خلاصته : الأصل فيه فاعبد اللّه ثم حذفوا الفعل الأول اختصارا فلما وقعت الفاء أولا استنكروا الابتداء بها ومن شأنها التوسط بين المعطوف والمعطوف والمعطوف عليه فقدموا المفعول وصارت متوسطة لفظا ودالة على أن ثم شرطا محذوفا اقتضى وجودها ولتعطف عليه ما بعدها ويضاف إلى هذه الغاية في التقديم فائدة الحصر كما تقدم من إشعار التقديم بالاختصاص.

[سورة الزمر (39) : الآيات 67 إلى 75]

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (70) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ

عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (71)

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (73) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (74) وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (75)

الاعراب :

)

(405/671)

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) كلام مستأنف مسوق لتصوير قدرته تعالى وما نافية وقدروا اللّه فعل وفاعل ومفعول به أي ما علموا كنهه وما عرفوه حق معرفته ، وحق قدره نصب على المفعولية المطلقة .

(وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) الواو للحال والأرض

مبتدأ وجميعا حال وقبضته خبره والجملة حال من اللّه ويوم القيامة ظرف متعلق بمحذوف حال من قبضته أو هي متعلقة بها على تضمينها معنى مقبوضة والسموات مبتدأ ومطويات خبر وبيمينه متعلقان بمطويات وعبارة أبي البقاء : " والأرض مبتدأ وقبضته الخبر وجميعا حال من الأرض والتقدير إذا كانت مجتمعة قبضته أي مقبوضة فالعامل في إذا المصدر لأنه بمعنى المفعول ، وقد ذكر أبو علي في الحجة : التقدير ذات قبضته وقد رد عليه ذلك وأن

المضاف إليه لا يعمل فيما قبله وهذا لا يصح لأنه الآن غير مضاف اليه وبعد حذف المضاف لا يبقى حكمه ويقرأ قبضته بالنصب على معنى في قبضته وهو ضعيف لأن هذا الظرف محدود فهو كقولك زيد الدار ، والسموات مطويات مبتدأ وخبر وبيمينه متعلقان بالخبر ويجوز أن يكون حالا من الضمير في الخبر وأن يكون خبرا ثانيا وقرىء مطويات بالكسر على الحال وبيمينه الخبر وقيل الخبر محذوف أي والسموات قبضته " هذا وسيأتي مزيد من القول في هذه الآية في باب البلاغة .

)

سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ) سبحانه مفعول مطلق لفعل محذوف وتعالى فعل ماض وفاعله مستتر يعود على اللّه تعالى وعما متعلقان بتعالى وجملة يشركون صلة ما . (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ) الواو حرف عطف على ما تقدم وعبر عما سيأتي بالماضي لتحقق وقوعه ونفخ فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو يعود على النافخ قيل هو إسرافيل أو اسرافيل وجبريل وفي الصور متعلقان بنفخ فصعق عطف على نفخ ومن فاعل وفي السموات ومن في الأرض صلة من وإلا أداة استثناء ومن مستثنى واختلف في المستثنى من هم ؟ على أقوال متعددة يرجع إليها في المطولات وجملة شاء اللّه صلة من . (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي لبعد ما بين النفختين ونفخ فعل ماض مبني للمجهول وفيه متعلقان بنفخ وأخرى نائب فاعل نفخ على حد قوله تعالى " فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة " ويجوز أن يكون الجار والمجرور هو القائم مقام نائب الفاعل وأخرى صفة لمصدر محذوف نابت عنه أي فهي مفعول مطلق والفاء عاطفة وإذا

الفجائية لا محل لها وهم مبتدأ وقيام خبر وجملة ينظرون خبر ثان ومعنى ينظرون يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت المشدوه إذا فاجأه خطب .

)

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ) الواو عاطفة وأشرقت الأرض فعل وفاعل وبنور ربها متعلقان بأشرقت ووضع الكتاب عطف على ما تقدم ووضع فعل ماض مبني للمجهول والكتاب نائب فاعل وأل في الكتاب للجنس أي أعطي كل واحد كتابه أي صحائف أعماله المدونة فيها حسناته أو سيئاته . (وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) وجيء عطف على ما تقدم أيضا وبالنبيين متعلقان بجيء والشهداء عطف على النبيين وقضي فعل ماض مبني للمجهول وبينهم إما ناب مناب الفاعل وإما متعلق بقضي ونائب الفاعل محذوف مقدر من المصدر المفهوم أي وقضي القضاء وبالحق متعلقان بمحذوف حال والواو حالية وهم مبتدأ وجملة لا يظلمون خبر والجملة في محل نصب على الحال .

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ) ووفيت عطف أيضا وكل نفس نائب فاعل وما مفعول به ثان لوفيت وجملة عملت صلة ولك أن تجعل ما مصدرية أي عملها فيكون المصدر المؤول هو المفعول الثاني والواو حالية أو عاطفة وهو مبتدأ وأعلم خبر وبما متعلقان بأعلم وجملة يفعلون صلة . (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً) الواو عاطفة وسيق الذين فعل ماض مبني للمجهول والذين نائب فاعل وجملة كفروا صلة وإلى جهنم متعلقان بسيق وزمرا حال وهي جمع زمرة والزمرة الجماعة واشتقاقها من الزمر وهو

الصوت لأن الجماعة يكون لها صوت دائما يقال زمر يزمر من بابي

دخل وضرب أي غنّى بالنفخ في القصب ونحوه . (حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها) حتى ابتدائية وقد تقدم القول مطولا في حتى وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة جاءوها في محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة فتحت أبوابها لا محل لها لأنها جواب إذا وأبوابها نائب فاعل .

)

(408/671)

وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ) وقال عطف على فتحت ولهم متعلقان بقال وخزنتها فاعل قال والهمزة للاستفهام التقريري الإنكاري ولم حرف نفي وقلب وجزم ويأت فعل مضارع مجزوم بلم والكاف مفعول به ورسل فاعل ومنكم صفة لرسل وجملة يتلون صفة ثانية أو حال وعليكم متعلقان بيتلون وآيات ربكم مفعول يتلون . (وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا) وينذرونكم عطف على يتلون ولقاء يومكم مفعول به ثان أو نصب بنزع الخافض ويومكم مضاف للقاء وأراد به وقت دخولهم النار وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضا في أوقات الشدة وهذا نعت ليومكم أو بدل منه . (قالُوا بَلى وَلكِنْ

حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ) بلى حرف جواب لإثبات النفي أي بلى أتونا وتلوا علينا والواو عاطفة ولكن حرف استدراك مهملة وحقت كلمة العذاب فعل وفاعل وعلى الكافرين متعلقان بحقت .

(قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) جملة مستأنفة وجملة ادخلوا مقول القول وأبواب جهنم مفعول به على السعة وخالدين حال وفيها متعلقان بخالدين والفاء استئنافية وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم ومثوى المتكبرين فاعله والمخصوص بالذم محذوف أي هي . (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً)

تقدم إعرابها بنصها وسيأتي الفرق بين السوقين في باب البلاغة .

(حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها) حتى الابتدائية وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة جاءوها في محل جر بإضافة الظرف إليها وجوابها هنا محذوف لأنه في صفة أهل الجنة فدل بحذفه على أنه شيء لا يكتنه ولا يحيط به الوصف والواو عاطفة وجملة وفتحت أبوابها معطوفة على جاءوها وسيأتي مزيد من القول فيها .

)

وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ) الواو عاطفة وقال لهم خزنتها فعل وفاعل وسلام مبتدأ وعليكم خبره وطبتم فعل وفاعل ، فادخلوها الفاء تعليلية وادخلوها فعل وفاعل ومفعول وخالدين حال . (وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ) كلام معطوف على جواب إذا المحذوف أي دخلوها وقالوا ، والحمد مبتدأ ولله خبره والجملة مقول القول والذي نعت وجملة صدقنا صلة وهي فعل ماض وفاعل مستتر ومفعول به أول ووعده مفعول به ثان . (وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ) جملة وأورثنا عطف على صدقنا والأرض مفعول به ثان وجملة نتبوأ حال من مفعول أورثنا والفاعل مستتر تقديره نحن ومن الجنة متعلقان بمحذوف حال وحيث ظرفية على بابها متعلقة بنتبوأ أو مفعول نتبوأ قال الزمخشري :

" يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره " والفاء استئنافية ونعم أجر العاملين تقدم إعرابها .

(وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) كلام مستأنف مسوق لوصف الملائكة المقربين في ذلك اليوم وترى الملائكة فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وحافين حال أي

محدقين محيطين بالعرش مصطفين بحافته وجوانبه ومن حول العرش متعلقان بحافين وجملة يسبحون بحمد ربهم حال ثانية . (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) الواو

عاطفة وقضي فعل مبني للمجهول وبينهم ظرف نائب عن فاعل الفاعل أو متعلق بقضي ونائب الفاعل مصدر مفهوم من الفعل أي قضي القضاء وبالحق حال والضمير في بينهم يرجع إلى العباد والملائكة معا وقيل عطف على قضي وجملة الحمد للّه رب العالمين مقول القول .

البلاغة :

(410/671)

تميز ختام سورة الزمر بذكر أحوال القيامة والتحميد والتسبيح كما تميز بالجزالة في اللفظ ولسنا نعني بالجزالة أن يكون اللفظ وحشيا متوعرا عليه عنجهية البداوة بل نعني بها أن يكون اللفظ متينا قويا على عذوبة في الفم وحلاوة جرسه في السمع ، ولو نظرنا إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا وما جرى هذا المجرى فإننا لا نرى شيئا من ذلك وحشي الألفاظ ولا متوعرا موغلا في الجساوة والنبو ، وسنعمد إلى إيضاح ما ورد فيها من فنون .

1- المجاز :

فأولها المجاز في قوله " والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه " فإن قبض اللّه الأرض عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته ، يقال : فلان في قبضتي يعني

انه في قدرته باعتبار ما يئول اليه لأن القابض يتصرف بما يقبضه كيف يشاء

والقبضة المرة من القبض والمراد بالأرض الأرضون السبع يشهد لذلك شاهدان أولهما قوله جميعا والثاني قوله السموات ، وطي السموات والأرض مجاز أيضا ليس يريد به طيا كما نفهمه وإنما المراد به الذهاب والفناء ، واليمين في كلام العرب تأتي بمعنى القدرة والملك كما قدمنا .

2- الفرق بين السوقين :

(411/671)

وفي قوله " وسيق " بالنسبة لأهل النار وأهل الجنة إذ عبر عن الذهاب بالفريقين جميعا بلفظ واحد فن دقيق المسلك وهو أن يأتي المتكلم بكلمة واحدة فتكون تارة دالة على الهوان والعقاب ثم يأتي بها ثانية فتكون دالة على الإكرام وحسن الثواب ، وما أجمل قول الزمخشري في هذا الصدد قال : " فإن قلت كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعا بلفظ السوق ؟ قلت : المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين وحثها إسراعا إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل

بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين " .

الفوائد :

1 - أقوال المعربين في جواب إذا :

أفاض المعربون كثيرا في جواب إذا والسر في مجيء الواو بقوله " حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها " وقد أوردنا في باب الإعراب

ما اخترناه ، أما السمين فقد لخص أقوال المعربين بقوله : " في جواب إذا ثلاثة أوجه أحدها قوله وفتحت والواو زائدة وهو رأي الكوفيين والأخفش وإنما جيء هاهنا بالواو دون التي قبلها لأن أبواب السجون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ثم تغلق عليه فناسب ذلك عدم الواو فيها بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظارا لمن يدخلها والثاني أن الجواب محذوف قال الزمخشري وحقه أن يقدر بعد خالدين يعني لأنه لا يجيء بعد متعلقات الشرط ما عطف عليه والتقدير : اطمأنوا وقدره المبرد سعدوا وعلى هذين الوجهين فتكون الجملة من قوله وفتحت أبوابها في محل نصب على الحال وسمى بعضهم هذه الواو واو الثمانية قال لأن أبواب الجنة ثمانية وكذا قالوا في قوله تعالى : وثامنهم كلبهم وقيل تقديره حتى إذا جاءوها جاءوها وفتحت أبوابها يعني ان الجواب بلفظ الشرط ولكنه يزيد بتقييده بالحال فلذلك صح " .

2- فصل ممتع للرماني :

هذا وننقل فيما يلي خلاصة وافية للفصل الذي عقده علي بن عيسى الرماني في تفسيره الكبير المفقود ، وكم يؤسفنا أن يضيع هذا الكتاب بين سمع الأرض وبصرها ، ولكن الذي يعزينا أن السيوطي نقل عنه كثيرا وذكره كل من ترجم للمؤلف فقد كان الرماني نحويا متكلما وكان شيخ العربية في زمانه شغوفا بالمنطق حتى غلب عليه في جميع تآليفه وكلامه ، قيل للصاحب : هلا صنفت تفسيرا ؟ فقال :

وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئا ؟ وكان الرماني نفسه يقول :

" تفسيري بستان تجتني منه ما تشتهي " وقد اشتهر تفسيره بين الناس وكثر ذكره في كتبهم ولم يصل إلينا هذا التفسير فهو يقول في صدد دراسته لسر الجمال في القرآن عند ما يتحدث عن هذه الآية : "كأنه قيل حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ولو ذكر الجواب لقصر عن الوجه الذي تضمنه البيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 8 صـ 387 . 453﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والسبعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والسبعون بعد الستمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة غافر)

(4/672)

(سورة غافر)

(5/672)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السورة

فيه حديث أُبىّ السّاقط : الحواميم ديباج القرآن .

وقال : الحواميم سبع ، وأَبوبا (جهنم سبعة) : جهنم ، والحُطمة ، ولَظَى ، والسّعير ، وسقر ، والهاوية ، والجحيم .

فيجيء كلّ حاميم منهنّ يوم القيامة على باب من هذه الأَبواب ، فيقول : لا أُدخِل الباب من كان مؤمنًا بى ويقرؤنى ، وعن النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : إِنَّ لكلّ شىءٍ ثمرة ، وثمرة القرآن ذوات حاميم ، هى رَوْضات محصنات ، متجاورات .

فمن أَحبَّ أَن يَرْتَع فى رياض الجنَّة فليقرأْ الحواميم .

وقال ابن عباس : لكلّ شىءٍ لُباب ، ولباب القرآن الحواميم ؛ وقال : ابن سيرين : رأَى أَحد فى المنام سبع جوار حِسَان فى مكان واحد ، لم يُرَ أَحسنُ منهنّ فقال لهنّ : لمَن أَنتنّ ؟ قلن : لمن قرأَ آل حاميم .

وقال : مَن قرأَ حم المؤمن لم يبق رُوح نبىّ ، ولا صِدّيق ، ولا شهيد ، ولا مؤمن ، إِلاَّ صَلَّوا عليه ، واستغفروا له ، وحديث علىّ : يا علىّ مَن قرأَ الحواميم السّبع بعضٌ إِثر بعض ، من قرأَ هذه السّورة لا يصف الواصفون من أَهل السّماءِ والأَرض ماله عند الله من الثَّواب ، وله بكلّ سورة قرأَها من الحواميم مثل ثواب ابن آدم الشهيد ، وله بكلّ آية قرأَها مثل ثواب الأَنصار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 412 ﴾

(6/672)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة غافر مكية – آياتها خمس وثمانون وتسمى سورة المؤمن والطول مقصودها الاستدلال على آخر التي قبلها من تصنيف الناس في الآخرة إلى صنفين ، وتوفية كل ما يستحقه على سبيل العدل ، بأن الفاعل ذلك له العزة الكاملة والعلم الشامل ، وقد بين ما يغضبه وما يرضيه غاية البيان على وجه الحكمة ، فمن لم يسلم أمره كله إليه وجادل في آياته الدالة على القيامة أو غيرها بقوله أو فعله فإنه يخزيه فيعذبه ويرديه ، وعلى ذلك دلت تسميتها بغافر ، فإنه لا يقدر على غفران ما يشاء لمن يشاء إلا كامل العزة ، ولا يعلم جميع الذنوب ليسمى غافراً لها إلا بالغ العلم ، وكذا في جميع الأوصاف التي في الآية من المثاب والعقاب ، وكذا الطول فإنه لا يقدر على التطول المطلق إلا من كان كذلك ، فإن من كان ناقص العزة فهو قابل لأنه يمنعه من بعض التطولات مانع ، ولن يكون ذلك إلا بنقصان العلم ، وكذا الدلالة بتسميتها بالمؤمن فإن قصته تدل على هذا المقصد ولا سيما أمر القيامة الذي هو جل المقصود والمدار الأعظم لمعرفة المعبود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 482 ﴾

(7/672)

فصل

قال الآلوسى :

سورة المؤمن

وتسمى سورة غافر وسورة الطول وهي كما روي عن ابن عباس وابن الزبير ومسروق وسمرة بن جندب مكية وحكى أبو حيان الإجماع على ذلك وعن الحسن أنها مكية إلا قوله تعالى : وسبح بحمد ربك لأن الصلوات نزلت بالمدينة وكانت الصلاة بمكة ركعتين من غير توقيت وأنت تعلم أن الحق قول الأكثرين : أن الخمس نزلت بمكة على أنه لا يتعين إرادة الصلاة بالتسبيح في الآية وقيل : هي مكية إلا قوله تعالى : إن الذين يجادلون الآية فإنها مدنية فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية وغيره أنها نزلت في اليهود لما ذكروا الدجال وهذا ليس بنص على أنها نزلت بالمدينة قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقولهم نزلت الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول : عني بهذه الآية كذا وقال الزركشي في البرهان : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : نزلت الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها فهو من جنس الإستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع نعم سيأتي إن شاء الله تعالى عن أبي العالية ما هو كالنص على ذلك

وآيها خمس وثمانون في الكوفي والشامي وأربع في الحجازي واثنان في البصري وقيل : ست وثمانون وقيل : ثمان وثمانون ووجه مناسبة أولها لآخر الزمر أنه تعالى لما ذكر سبحانه هناك ما يؤل إليه حال الكافر وحال المؤمن ذكر جل وعلا أنه تعالى غافر الذنب وقابل التوب ليكون استدعاء للكافر إلى الإيمان والإقلاع عما هو فيه وبين السورتين أنفسهما أوجه من المناسبة ويكفي فيها أنه ذكر في كل من أحوال يوم القيامة وأحوال الكفرة فيه وهم في المحشر وفي النار ما ذكر وقد فصل في هذه من ذلك ما لم يفصل منه في تلك

(8/672)

وفي تناسق الدرر وجه إيلاء الحواميم السبع لسورة الزمر تواخي المطالع في الإفتتاح بتنزيل الكتاب وفي مصحف ابن مسعود أول الزمر حم وتلك مناسبة جلية ثم إن الحواميم ترتيب لاشتراكها في الإفتتاح بحم وبذكر الكتاب وأنها مكية بل ورد عن ابن عباس وجابر بن زيد أنها نزلت عقب الزمر متتاليات كترتيبها في المصحف وورد في فضلها أخبار كثيرة أخرج أبو عبيد في فضائله عن ابن عباس قال : إن لكل شيء لبابا وإن لباب القرآن الحواميم وأخرج هو وابن الضريس وابن المنذر والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : الحواميم ديباج القرآن وأخرجه أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي عن أنس

رضي الله تعالى عنه وأخرج اليلمي وابن مردويه عن سمرة بن جندب مرفوعا الحواميم روضة من رياض الجنة

وأخرج محمد بن نضر والدارمي عن سعد بن إبراهيم قال : كن الحواميم يسمين العرائس

وأخرخ ابن نصر وابن مردويه عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني الراءات إلى الطواسين مكان الإنجيل وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي

وأخرج البيهقي في الشعب عن الخليل بن مرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الحواميم سبع وأبواب جهنم سبع تجيء كل حم منها فتقف على باب من هذه الأبواب تقول : اللهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرؤني وجاء في خصوص بعض آيات هذه السورة ما يدل على فضله أخرج الترمذي والبزاز ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ حم إلي وإليه

المصير وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ 39 . 40 ﴾

(10/672)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . حم المؤمن)

السّورة مكِّيّة بالاِّفاق .

عدد آياتها خمس وثمانون فى عدّ الكوفة والشَّام ، وأَربع فى الحجاز ، واثنتان فى البصرة .

وكلماتها أَلْف ومائة وتسع وتسعون .

وحروفها أَربعة آلاف وتسعمائة وستون .

الآيات المختلف فيها تسع : حم ، كظمين ، التلاق ، بارزون ، ﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، ﴿ فِي الحَمِيْمِ ﴾ ﴿ وَالبَصِيْرِ ﴾ ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ ﴿ كُنْتُمْ تُشْرِكُوْنَ ﴾ مجموع فواصل آياتها (من علق وتر) .

ولها ثلاثة أَسماء : سورة المؤمن ؛ لاشتمالها على حديث مؤمن آل فرعون – أَعنى خربيل

- فى قوله : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ ، وسورة الطَّوْل ؛ لقوله : ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ .

والثالث حم الأُولى ؛ لأَنها أُولَى ذوات حم .

معظم مقصود السّورة : المِنَّة على الخَلْق بالغفران ، وقبول التوبة ، وخطبة التوحيد على جلال الحقّ ، وتقلب الكفار بالكسب والتجارة ، وبيان وظيفة حَمَلة العرش ، وتضرّع الكفَّار فى قَعْر الجحيم ، وإظهار أَنوار العَدْل فى القيامة ، وذكر إهلاك القرون الماضية ، وإنكار فرعون على موسى وهارون ، ومناظرة خربيل لقوم فرعون نائباً عن موسى ، وعَرْض أَرواح الكفَّار على العقوبة ، ووعد النَّصر للرّسل ، وإقامة أَنواع الحجّة والبرهان على أَهل الكفر والضَّلال ، والوعد بإجابة دعاءِ المؤمنين ، وإظهار أَنواع العجائب من صنع الله ، وعجز المشركين فى العذاب ، وأَنَّ الإيمان عند اليأْس غير نافع ، والحكم بخسران الكافرين والمبطلين فى قوله : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُوْنَ ﴾ .

النَّاسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ آيتان ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ فى موضعين م آية السّيف ن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 409. 410 ﴾

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة المؤمن

376 – مسألة :

قوله تعالى : (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) وقال تعالى في العنكبوت : (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) .

وكم في اختلاف آيات القرآن وأحكامه من جدل واختلاف بين أئمة المسلمين الكبار ؟ .

جوابه :

أن المراد هنا الجدال بالباطل لإبطال الحق كقوله تعالى : (وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) وجدال المسلمين لإظهار الحق منه وفيه لا لدحوضه .

377 . مسألة :

قوله تعالى : (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا) وقال تعالى : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) والكافر شىء ولا يدخلها ؟ .

جوابه :

المراد بعموم (كُلَّ شَيْءٍ) الخصوص وهم المؤمنون كقوله (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ) أو أن المراد :

رحمته في الدنيا فإنها عامة .

مسألة :

قوله تعالى : (وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ) . وقال تعالى : (وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ) وهم يعلمون ذلك ، فما فائدة سؤاله ؟ .

جوابه :

أن المراد وفقهم للأعمال الصالحة المقتضية دخول الجنة ،

ولذلك قال تعالى : (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ) .

379 - مسألة :

قوله تعالى : (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ)

ودعاء الملائكة مستجاب ، وتقع السيئات منهم لقوله تعالى : (وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ) ؟ .

جوابه :

أن المراد : وقهم عذاب السيئات ، أو جزاء السيئات . 380 .مسألة :

قوله تعالى : (وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ)

ولا سيئة يوم القيامة ؟ .

جوابه :

المراد : جزاء السيئات أو ما يسوءهم فيه من الحزن والخوف

والعذاب.

381.مسألة:

قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28)) وقال بعده: (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34)

جوابه:

(12/672)

لما قال تعالى في الأولى: (وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ) ناسب (مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) ولما قال تعالى في الثانية: (فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ) ناسب (مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ)

382.مسألة:

قوله تعالى: (يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40)) وقال تعالى في عام: (عَطَاءً حِسَابًا (36)

؟.

جوابه في عم.

383.مسألة:

قوله تعالى: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الآية.

وقوله تعالى : (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) . وقال

جوابه :

تعالى : (وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ) . وقال تعالى : (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ) عند من وقف على " قاتل " .

جوابه :

تقدم وهو إما عام أريد به رسل مخصوصون ، وهم الذين أمروا بالقتال .

فقد قيل : ليس رسول أمر بذلك إلا نصر على من قاتله ، وإما أريد به العاقبة إما لهم أو لقومهم بعدهم وإما يراد به النصر عليهم بالحجة والدليل ، أو بالسيف ، أو بهما .

384 . مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا) وقال تعالى في طه : (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) أدخل اللام هنا دون طه ؟ .

جوابه :

أن الخطاب هنا مع المنكرين للبعث ، فناسب التوكيد باللام

والخطاب في طه مع موسى عليه السلام وهو مؤمن بالساعة

فلم يحتج إلى توكيد فيها .

385 – مسألة :

قوله تعالى : (أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57)

وقال بعده : (لَا يُؤْمِنُونَ (59) وقال تعالى بعده : (لَا يَشْكُرُونَ (61) . فاختلفت خواتم الآيات الثلاث ؟ .

جوابه :

أن من علم أن الله تعالى خلق السموات والأرض مع عظمها اقتضى ذلك علمه بقدرته على خلق الإنسان ، وإعادته ثانيا لأن الإنسان أضعف من ذلك وأيسر ، فلذلك ختمه بقوله تعالى : (لَا يَعْلَمُونَ (57) .

(13/672)

ولما ذكر الساعة ، وأنها آتية لا ريب فيها قال : (لَا يُؤْمِنُونَ (59) أي لا يصدقون بها لاستبعادهم البعث .

ولما ذكر نعمه على الناس وفضله عليهم ناسب ختم الآية بقوله (لَا يَشْكُرُونَ (61) .

386 - مسألة :

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61) ؟ .

وفي يونس (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)

جوابه :

أن هنا أظهر لفظ (النَّاسِ) وكرره ، فناسب إظهاره هنا للمشاكلة في الألفاظ وفى يونس :

أضمر الناس وكرر ضمائرهم قبل ذلك فناسب إضمارهم لما ذكرناه من المشاكلة .

387 ـ مسألة :

قوله تعالى : (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) .

تقدم في سورة الأنعام

388 ـ مسألة :

قوله تعالى : (كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ) ذكر الأحوال الثلاثة :

وفى الروم ، وفاطر ، وأول السورة : ذكر حالين

منها ؟ .

جوابه :

لما تقدم قصة فرعون وتفصيل حاله وجبروته وما ذكر عنه ، ناسب ذلك ذكر الكثرة ،

والشدة ، والآثار في الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 317 ـ 324﴾

(14/672)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ ، وبعده : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾ ما يتعلَّق بذكرهما سبق .

قوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم ﴾ ، وفى التغابن : ﴿ بِأَنَّهُ كَانَت ﴾ لأَنَّ هاءَ الكناية إنما زيدت لامتناع (أَنَّ) عن الدّخول على (كان) فخُصّت هذه السّورة بكناية المتقدّم ذكرهم ؛ موافقة لقوله : ﴿ ﴾ وخُصّت سورة التغابُن بضمير الأَمر والشأْن توصّلا إلى (كان) .

قوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ فى هذه السورة فحسْبُ ، لأَنَّ الفعل لموسى ، وفى سائر القرآن الفعل للحقّ .

قوله : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ ﴾ وفى طه ﴿ آتِيَةٌ ﴾ لأَنَّ اللام إنَّما يزاد لتأْكيد الخبر ، وتأْكيد الخبَر إنَّما يُحتاجُ إذا كان المخبرَ به شاكًّا فى الخبر ، والمخاطبون فى هذه السّورة هم الكفَّار ، فأَكَّد .

وكذلك أَكّد ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ ﴿ وَافَقَ مَا قَبْلَهُ ﴾ فى هذه السّورة باللاَّم :

قوله ﴿ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ ، وفى يونس ﴿ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ –

وقد سبق - ، لأنَّه وافق ما قبله فى هذه السّورة : ﴿ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾ ، وبعده : ﴿ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

قوله فى الآية الأُولى ﴿ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾ أَى لا يعلمون أَنَّ خَلْق الأَصغر أَسهل من خَلْق الأَكبر ، ثمَّ قال : ﴿ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴾ أَى لا يؤمنون بالبعث ثم قال : ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أَى لا يشكرون الله على فضله .

فختم كلّ آية بما اقتضاه .

قوله ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا اله إِلَّا هُوَ ﴾ سبق .

(15/672)

قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ مدح نفسه سبحانه ، وختم ثلاث آيات على التَّوالى بقوله ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وليس له فى القرآن نظير .

قوله : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ وختم السّورة بقوله ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُوْنَ ﴾ ؛ لأَنَّ الأَوّل متصل بقوله : ﴿ قَضَى بِالْحَقِّ ﴾ ونقيض الحق الباطل ، والثانى متصل بإيمان غير مُجْد ، ونقيض الإِيمان الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 412.410 ﴾

وقال العلامة الكَرْماني رحمه الله :

سورة غافر

447 - قوله تعالى أولم يسيروا في الأرض 21 ما يتعلق بذكرها قد سبق

448 - قوله ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم 22 وفي التغابن بأنه كانت 6 لأن هاء الكتابة إذا زيدت لامتناع أن عن الدخول على كان فخصت هذه السورة بكناية المتقدم ذكرهم موافقة لقوله كانوا هم أشد منهم قوة 21 وخصت سورة التغابن بضمير الأمر والشأن توصلا إلى كان

449 - قوله فلما جاءهم بالحق 25 في هذه السورة فحسب لأن الفعل لموسى وفي سائر القرآن الفعل للحق

450 - قوله إن الساعة لآتية 59 وفي طه آتية 15 لأن اللام إنما تزداد لتأكيد الخبر وتأكيد الخبر إنما يحتاج إليه إذا كان المخبر به شاكا في الخبر فالمخاطبون في هذه السورة الكفار فأكد وكذلك أكد

لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس 57 في هذه السورة باللام

451 - قوله ولكن أكثر الناس لا يشكرون 61 وفي يونس ولكن أكثرهم لا يشكرون 60 وقد سبق لأنه وافق ما قبله في هذه السورة ولكن أكثر الناس لا يعلمون 57 وبعده أكثر الناس لا يؤمنون 59 ثم قال ولكن أكثر الناس لا يشكرون 61

452 - قوله في الآية الأولى لا يعلمون 57 أي لا يعلمون أن خلق الأكبر أسهل من خلق الأصغر ثم قال لا يؤمنون 59 بالبعث ثم قال لا يشكرون 61 أي لا يشكرون الله على فضله فختم كل آية بما اقتضاه

453 - قوله خالق كل شيء لا إله إلا هو 62 سبق

454 - قوله تعالى الحمد لله رب العالمين 65 مدح نفسه سبحانه وختم ثلاث آيات على التوالي بقوله رب العالمين 64 65 66 وليس له في القرآن نظير

455 - قوله وخسر هنالك المبطلون 78 وختم السورة بقوله وخسر هنالك الكافرون 85 لأن الأول متصل بقوله قضى بالحق 78 ونقيض الحق الباطل والثاني متصل بإيمان غير مجد ونقيض الإيمان الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 186 . 187﴾

(17/672)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة المؤمن

وردت تسمية هذه السورة في السنة " حم المؤمن " روى الترمذي عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله وسلم : " من قرأ ﴿ حم ﴾ المؤمن إلى ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [غافر : 3.1] ، وآية الكرسي حين يصبح حُفِظ بهما " الحديث .

وبذلك اشتهرت في مصاحف المشرق ، وبذلك ترجمها البخاري في " صحيحه " والترمذي في " الجامع " .

ووجه التسمية أنها ذكرت فيها قصة مؤمن آل فرعون ولم تذكر في سورة أخرى بوجه صريح .

والوجه في إعراب هذا الاسم حكاية كُلمة ﴿ حم ﴾ ساكنة الميم بلفظها الذي يقرأ .

وبإضافته إلى لفظ المؤمن بتقدير : سورة حم ذكر المؤمن أو لفظ المؤمن وتسمى أيضا " سورة الطول " لقوله تعالى في أولها : ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ [غافر : 3]وقد تنوسي هذا الاسم .

وتسمى سورة غافر لذكر وصفه تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ ﴾ [غافر : 3]في أولها .

وبهذا الاسم اشتهرت في مصاحف المغرب .

وهي مكية بالاتفاق وعن الحسن استثناء قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر : 55] ، لأنه كان يرى أنها نزلت في فرض الصلوات الخمس وأوقاتها .

ويرى أن فرض صلوات خمس وأوقاتها ما وقع إلا في المدينة وإنما كان المفروض بمكة ركعتين كل يوم من غير توقيت ، وهو من بناء ضعيف على ضعيف فأن الجمهور على أن الصلوات الخمس فرضت بمكة في أوقاتها على أنه لا يتعين أن يكون المراد بالتسبيح في تلك الآية الصلوات بل يحمل على ظاهر لفظه من كل قول ينزه به الله تعالى .

وأشذ منه ما روي عن أبي العالية أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ [غافر : 56]نزلت في يهود من المدينة جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الدجال وزعموا أنه منهم .

وقد جاء في أول السورة[4]

(18/672)

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

والمراد بهم : المشركون .

وهذه السورة جُعلت الستين في عداد ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة الزمر وقبل سورة

فصلت وهي أول سور "آل حم" نزولا .

وقد كانت هذه السورة مقروءة عقب وفاة أبي طالب ، أي سنة ثلاث قبل الهجرة لما سيأتي أن أبا بكر قرأ آية ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ [غافر : 28]حين آذى نفر من قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم حول الكعبة ، وإنما اشتد أذى قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أبي طالب .

والسور المفتتحة بكلمة ﴿ حم ﴾ سبع سور مرتبة في المصاحف على ترتيبها في النزول ويدعى مجموعها "آل حم" جعلوا لها اسم "آل" لتآخيها في فواتحها .

فكأنها أسرة واحدة وكلمة "آل" تضاف إلى ذي شرف "ويقال لغير المقصود تشريفه أهل فلان" قال الكميت :

قرأنا لكم في آل حاميم آية . . .

تأولها منا فقيه ومعرب

يريد قول الله تعالى في سورة "حم عسق" ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [الشورى : 23]على تأويل غير ابن عباس فلذلك عززه بقوله : تأولها منا فقيه ومعرب .

وربما جمعت السور المفتتحة بكلمة ﴿ حم ﴾ فقيل ألحوا ميم جمع تكسير على زنة فعاليل لأن مفرده على وزن فاعيل وزنا عرض له من تركيب اسمي الحرفين : حا ، ميم فصار

كالأوزان العجمية مثل " قابيل " و " راحيل " وما هو بعجمي لأنه وزن عارض لا يعتد به .

وجمع التكسير على فعاليل يطرد في مثله .

وقد ثبت أنهم جمعوا ﴿ حم ﴾ على حواميم في أخبار كثيرة عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وسمرة بن جندب ، ونسب في بعض الأخبار إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولم يثبت بسند صحيح .

ومثله السور المفتتحة بكلمة ﴿ طس ﴾ أو ﴿ طسم ﴾ جمعوها على طواسين بالنون تغليبا .

وأنشد أبو عبيدة أبياتا لم يسم قائلها :

حلفت بالسبع الألى قد طولت . . .

وبمئين بعدها قد أمئت

(19/672)

وبثمان ثنيت وكررت . . .

وبالطواسين اللواتي ثلثت

وبالحواميم اللواتي سبعت . . .

وبالمفصل التي قد فصلت

وعن أبي عبيدة والفراء أن قول العامة الحواميم ليس من كلام العرب وتبعهما أبو منصور الجواليقي .

وقد عدت آيها أربعا وثمانين في عد أهل المدينة وأهل مكة ، وخمسا وثمانين في

(20/672)

عد أهل الشام والكوفة ، واثنتين وثمانين في عد أهل البصرة .

أغراض هذه السورة

تضمنت هذه السورة أغراضا من أصول الدعوة إلى الإيمان ، فابتدئت بما يقتضي تحدي المعاندين في صدق القرآن كما اقتضاه الحرفان المقطعان في فاتحتهما كما تقدم في أول سورة البقرة[1] .

وأجري على اسم الله تعالى من صفاته ما فيه تعريض بدعوتهم إلى الإقلاع عما هم فيه ، فكانت فاتحة السور مثل ديباجة الخطبة مشيرة إلى الغرض من تنزيل هذه السورة .

وعقب ذلك بأن دلائل تنزيل هذا الكتاب من الله بينة لا يجحدها إلا الكافرون من الاعتراف بها حسدا ، وأن جدالهم تشغيب وقد تكرر ذكر المجادلين في آيات الله خمس

مرات في هذه السورة ، وتمثيل حالهم بحال الأمم التي كذبت رسل الله بذكرهم إجمالا ، ثم التنبيه على آثار استئصالهم وضرب المثل بقوم فرعون .

وموعظة مؤمن آل فرعون قومه بمواعظ تشبه دعوة محمد صلى الله عليه وسلم قومه .

والتنبيه على دلائل تفرد الله تعالى بالإلهية إجمالا .

وإبطال عبادة ما يعبدون من دون الله .

والتذكير بنعم الله على الناس ليشكره الذين أعرضوا عن شكره .

والاستدلال على إمكان البعث .

وإنذارهم بما يلقون من هوله وما يترقبهم من العذاب ، وتوعدهم بأن لا نصير لهم يومئذ وبأن كبراءهم يتبرؤون منهم .

وتثبيت الله رسوله ص بتحقيق نصر هذا الدين في حياته وبعد وفاته .

وتخلل ذلك الثناء على المؤمنين ووصف كرامتهم وثناء الملائكة عليهم .

وورد في فضل هذه السورة الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى اله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ حم ﴾ المؤمن إلى ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [غافر : 3.1] وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ 141.143 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

التعريف بسورة غافر

هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل . قضية الإيمان والكفر . قضية الدعوة والتكذيب وأخيراً قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق , وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبرين . . وفي ثنايا هذه القضية تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ونصر الله إياهم , واستغفار الملائكة لهم , واستجابة الله لدعائهم , وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم .

وجو السورة كله – من ثم – كأنه جو معركة . وهي المعركة بين الحق والباطل , وبين الإيمان والطغيان , وبين المتكبرين المتجبرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل . تنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين !

ذلك الجو يتمثل في عرض مصارع الغابرين , كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة – وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر – وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جو السورة كله , مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة .

ولعله مما يتفق مع هذه السمة افتتاح السورة بإيقاعات ذات رنين خاص: (غافر الذنب . وقابل التوب . شديد العقاب . ذي الطول . لا إله إلا هو . إليه المصير) . . فكأنما هي مطارق منتظمة الجرس ثابتة الوقع , مستقرة المقاطع , ومعانيها كذلك مساندة لإيقاعها

الموسيقي !

كذلك نجد كلمة البأس . وبأس الله . وبأسنا . . مكررة تتردد في مواضع متفرقة من السورة . وهناك غيرها من ألفاظ الشدة والعنف بلفظها أو بمعناها .

(22/672)

وعلى العموم فإن السورة كلها تبدو وكأنها مقارع ومطارق تقع على القلب البشري وتؤثر فيه بعنف وهي تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين . وقد ترق أحياناً فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس هذا القلب برفق , وهي تعرض حملة العرش ومن حوله يدعون ربهم ليتكرم على عباده المؤمنين , أو وهي تعرض عليه الآيات الكونية والآيات الكامنة في النفس البشرية .

ونضرب بعض الأمثال التي ترسم جو السورة وظلها من هذه وتلك . .

من مصارع الغابرين: (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم , وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه , وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق . فأخذتهم . فكيف كان عقاب ?) . .

(أو لم يسيروا في الأرض , فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم , كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض , فأخذهم الله بذنوبهم ; وما كان لهم من الله من واق . ذلك

بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا , فأخذهم الله , إنه قوي شديد العقاب) . .

ومن مشاهد القيامة:(وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) . .(الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون . .)

ومن اللمسات الندية مشهد حملة العرش في دعائهم الخاشع المنيب:(الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به , ويستغفرون للذين آمنوا . ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً , فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات , ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته . وذلك هو الفوز العظيم) . .

(23/672)

ومن اللمسات الموحية عرض آيات الله في الأنفس وفي الآفاق:(هو الذي خلقكم من تراب , ثم من نطفة , ثم من علقة , ثم يخرجكم طفلاً , ثم لتبلغوا أشدكم , ثم لتكونوا شيوخاً . ومنكم من يتوفى من قبل , ولتبلغوا أجلاً مسمى , ولعلكم تعقلون . هو الذي يحيي ويميت

. فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . . (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً . إن الله لذو فضل على الناس , ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شيء . لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ?) . . (الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم . ورزقكم من الطيبات . ذلكم الله ربكم . فتبارك الله رب العالمين) .

وهذه وتلك تصور جو السورة وترسم ظلها , وتتناسق مع موضوعها وطابعها .

ويجري سياق السورة بموضوعاتها في أربعة أشواط متميزة .

(24/672)

يبدأ الشوط الأول منها بافتتاح السورة بالأحرف المقطعة: (حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) تتلوها تلك الإيقاعات الرصينة الثابتة: (غافر الذنب . وقابل التوب . شديد العقاب ذي الطول . لا إله إلا هو . إليه المصير) . . ثم تقرر أن الوجود كله مسلم مستسلم لله . وأنه لا يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فيشذون عن سائر الوجود بهذا الجدال . ومن ثم فهم لا يستحقون أن يأبه لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مهما تقلبوا في الخير والمتاع . فإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم ; وقد أخذهم الله

أخذاً , بعقاب يستحق العجب والإعجاب ! ومع الأخذ في الدنيا فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك . . ذلك بينما حملة العرش ومن حوله يعلنون إيمانهم بربهم , ويتوجهون إليه بالعبادة , ويستغفرون للذين آمنوا من أهل الأرض , ويدعون لهم بالمغفرة والنعيم والفلاح . . وفي الوقت ذاته يعرض مشهد الكافرين يوم القيامة وهم ينادون من أرجاء الوجود المؤمن المسلم المستسلم: (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) . . وهم في موقف الذلة والانكسار بعد الاستكبار , يقرون بذنبهم , ويعترفون بربهم , فلا ينفعهم الاعتراف والإقرار ,إنما يذكرون بما كان منهم من شرك واستكبار . . ومن هذا الموقف بين يدي الله في الآخرة يعود بالناس إلى الله في الدنيا . . (هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً)ويذكرهم لينيبوا إلى ربهم ويوحدوه:(فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) . ويشير إلى الوحي والإنذار بذلك اليوم العصيب . ويستطرد إلى مشهدهم يوم القيامة: (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء)وقد توارى الجبارون والمتكبرون والمجادلون: (لمن الملك اليوم ? لله الواحد القهار) . . ويستمر في عرض صور من هذا اليوم الذي يتفرد الله جل جلاله فيه بالحكم والقضاء . ويتوارى فيه ويضمحل ما يعبدون من دونه , كما يتوارى الطغاة

والفجار . .

ويبدأ الشوط الثاني بلفتة إلى مصارع الغابرين قبلهم . مقدمة لعرض جانب من قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون وهامان وقارون . تمثل موقف الطغيان من دعوة الحق . وتعرض فيها حلقة جديدة لم تعرض في قصة موسى من قبل , ولا تعرض إلا في هذه السورة . وهي حلقة ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . يدفع عن موسى ما هموا بقتله ; ويصدع بكلمة الحق والإيمان في تلطف وحذر في أول الأمر , ثم في صراحة ووضوح في النهاية . ويعرض في جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينه قوية ناصعة ; ويحذرهم يوم القيامة , ويمثل لهم بعض مشاهده في أسلوب مؤثر ; ويذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف – عليه السلام – ورسالته . . ويستطرد السياق بالقصة حتى يصل طرفها بالآخرة . فإذا هم هناك . وإذا هم يتحاجون في النار . وإذا حوار بين الضعفاء والذين استكبروا , وحوار لهم جميعاً مع خزنة جهنم يطلبون فيه الخلاص . ولات حين خلاص ! وفي ظل هذا المشهد يوجه الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) إلى الصبر والثقة بوعد الله الحق , والتوجه إلى إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار .

فأما الشوط الثالث فيبدأ بتقرير أن الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان إنما يدفعهم إلى هذا كبر في نفوسهم عن الحق , وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر . ويوجه القلوب حينئذ إلى هذا الوجود الكبير الذي خلقه الله , وهو أكبر من الناس جميعاً . لعل المتكبرين يتصاغرون أمام عظمة خلق الله ; وتتفتح بصيرتهم فلا يكونون عمياً :(وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء . قليلاً ما تتذكرون) .

ويذكرهم بمجيء الساعة , ويوجههم إلى دعوة الله الذي يستجيب للدعاء . فأما الذين يستكبرون فسيدخلون جهنم أذلاء صاغرين . ويعرض في هذا الموقف بعض آيات الله الكونية التي يمرون عليها غافلين . يعرض الليل سكناً والنهار مبصراً . والأرض قراراً والسماء بناء . ويذكرهم بأنفسهم وقد صورهم فأحسن صورهم . ويوجههم إلى دعوة الله مخلصين له الدين . ويلقن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يبرأ من عبادتهم , ويعلن نهي ربه له عن آلهتهم , وأمره له بالإسلام لرب العالمين . ويلمس قلوبهم بأن الله الواحد هو الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة . . وهو الذي يحيي ويميت . ثم يعود فيعجب رسوله (صلى الله عليه وسلم) من أمر الذين يجادلون في الله ; وينذرهم عذاب يوم القيامة في مشهد عنيف:(إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون) . . وإذ يتخلى عنهم ما أشركوا وينكرون هم أنهم كانوا يعبدون شيئاً ! وينتهي

بهم الأمر إلى جهنم يقال لهم: (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) .

. وعلى ضوء هذا المشهد يوجه الله رسوله إلى الصبر مرة أخرى , والثقة بأن وعد الله حق . سواء أبقاه حتى يشهد بعض ما يعدهم أو توفاه قبل أن يراه . فسيتم الوعد هناك .

.

(27/672)

والشوط الأخير في السورة يتصل بالشوط الثالث . فبعد توجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) للصبر والانتظار يذكر أن الله قد أرسل رسلاً قبله كثيرين . (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) . . على أن في الكون آيات قائمة , وبين أيديهم آيات قريبة ; ولكنهم يغفلون عن تدبرها . . هذه الأنعام المسخرة لهم . من سخرها ? . وهذه الفلك التي تحملهم أليست آية يرونها ! ومصارع الغابرين ألا تثير في قلوبهم العظة والتقوى ? ويختم السورة بإيقاع قوي على مصرع من مصارع المكذبين , وهم يرون بأس الله فيؤمنون (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . سنة الله التي قد خلت في عباده , وخسر هنالك الكافرون) . . هذا الختام الذي يصور نهاية المتكبرين , ويتفق مع جو السورة وظلها وطابعها الأصيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 3065 . 3068 ﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة غافر

مكية وآياتها خمس وثمانون آية

بين يدي السورة

سورة غافر مكية ، وهي تعنى بأمور العقيدة كشأن سائر السور المكية ، ويكاد يكون موضوع السورة البارز ، هو المعركة بين (الحق) و(الباطل) و(الهدى) و(الضلال) ولهذا جاء جو السورة مشحونا بطابع العنف والشدة ، وكأنه جو معركة رهيبة ، يكون فيها الطعن والنزال ، ثم تسفر عن مصارع الطغاة ، فإذا بهم حطأم وركام .

* ابتدأت السورة الكريمة بالإشادة بصفات الله الحسنى ، وآيته العظمى ، ثم عرضت لمجادلة الكافرين في آيات الله ، فمع وضوح الحق وسطوعه ، جادل فيه المجادلون ، وكابر فيه المكابرون [حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . .] .

* وعرضت السورة لمصارع الغابرين وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فلم يفلت منهم إنسان [كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم . .] الآيات .

* وفي ثنايا هذا الجو الرهيب ، يأتي مشهد حملة العرش ، في دعائهم الخاشع المنيب [الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم . .] الآيات .

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد الآخرة وأهوالها ، فإذا العباد واقفون للحساب ، بارزون أمام الملك الديان ، يغمرهم رهبة وخشوع ، وإذا القلوب لدى الحناجر ، تكاد لشدة الفزع والهول تنخلع ، وفي ذلك الموقف الرهيب ، واليوم العصيب ، يلقى الإنسان جزاءه ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر [يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . .] الآيات .

(29/672)

---

* ثم يأتي الحديث عن قصة الإيمان والطغيان ، ممثلة في دعوة موسى عليه السلام لفرعون الطاغية الجبار ، ففرعون يريد – بكبريائه وجبروته – أن يقضي على موسى وأتباعه ، خشية أن ينتشر الإيمان بين الأقوام ، وتبرز في ثنايا هذه القصة حلقة جديدة ، لم تعرض في قصة موسى من قبل ، ألا وهي ظهور رجل (مؤمن من آل فرعون) يخفي إيمانه ، يصدع بكلمة الحق في تلطف وحذر ، ثم في صراحة ووضوح ، وتنتهي القصة بهلاك فرعون الطاغية الجبار بالغرق في البحر مع أعوانه وأنصاره ، وبنجاة الداعية المؤمن وسائر المؤمنين

[ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب . .] الآيات .

* ثم تعرض السورة إلى بعض الآيات الكونية ، الشاهدة بعظمة الله ، الناطقة بوحدانيته وجلاله ، الذي يشركون به ويكفرون بآياته ، وتضرب مثلا للمؤمن والكافر : بالبصير والأعمى ، فالمؤمن على نور من الله وبصيرة ، والكافر يتخبط في الظلام [وما يستوي الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون . أن الساعة لآتية لا ريب فيها . .] الآيات .

* وتختم السورة الكريمة بالحديث عن مصارع المكذبين ، والطغاة المتجبرين ، ومشهد العذاب يأخذهم وهم في غفلتهم سادرون [فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون . .] إلى نهاية السورة الكريمة .

التسمية :

سميت " سورة غافر " لأن الله تعالى ذكر هذا الوصف الجليل - الذي هو من صفات الله الحسنى - في مطلع السورة الكريمة [غافر الذنب وقابل التوب] وكرر ذكر المغفرة في دعوة الرجل المؤمن [وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار] وتسمى سورة " المؤمن " لذكر قصة مؤمن آل فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 92.93 ﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة غافر

الجدل : شدة اللدد في الخصومة ، تقلبهم : أي تصرفهم فيها للتجارة وطلب المعاش ، والأحزاب : الجماعات الذين تحزبوا واجتمعوا على معاداة الرسل ، وهمّت : أي عزمت ، ليأخذوه : أي ليقتلوه ويعذبوه ، ليدحضوا : أي ليزيلوا ، حقت : أي وجبت ، كلمة ربك : أي حكمه بالإهلاك .

العرش : مركز تدبير العالم كما تقدم إيضاح ذلك في سورة يونس ، وندع أمر وصفه إلى عالم الغيب فهو العليم بعرشه ووصفه ، وقهم : أي احفظهم من وقيته كذا أي حفظته ، السيئات : أي الجزاء المرتب عليها .

المقت : أشد البغض ، والروح : الوحى ، يوم التلاقي : هو يوم القيامة وسمى بذلك لالتقاء الخالق بالمخلوق ، بارزون : أي ظاهرون لا يسترهم جبل ولا أكمة ولا نحوهما .

يوم الآزفة : يوم القيامة وسميت بذلك لقربها يقال أزف السفر : أي قرب ، قال :

أزف الترحّل غير أنّ ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

والحناجر : واحدها حنجرة أو حنجور كحلقوم لفظا ومعنى ، وهى لحمة بين الرأس

والعنق ، كاظمين : أي ممسكين أنفسهم على قلوبهم لئلا تخرج ، والحميم : القريب ، خائنة الأعين : يراد بها النظر إلى ما لا يحل ، ما تخفى الصدور : أي ما تكتمه الضمائر .

السلطان : الحجة والبرهان ، فرعون : ملك القبط بالديار المصرية ، وهامان وزيره ، وقارون كان أكثر الناس في زمانه تجارة ومالا ، عذت : التجأت وتحصنت ، متكبر : أي مستكبر عن اتباع الحق .

الرجل المؤمن : هو ابن عم فرعون وولىّ عهده وصاحب شرطته وهو الذي نجا مع موسى وهو المراد بقوله : " وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى " ، والبينات : هى الشواهد الدالة على صدقه ، والمسرف : المقيم على المعاصي المستكثر منها ، والكذاب : المفترى ، ظاهرين : أي غالبين عالين على بنى إسرائيل ، ما أريكم إلا ما أرى : أي ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب .

(31/672)

الأحزاب : أي الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذبوهم ، والدأب : العادة ، يوم التناد : يوم القيامة ، سمى بذلك لأن الناس ينادى فيه بعضهم بعضا للاستغاثة .

قال أمية بن أبى الصّلت :

وبثّ الخلق فيها إذ دحاها فهم سكانها حتى التّناد

عاصم : أي مانع ، مرتاب : أي شاك في دينه ، ويوسف : هو يوسف بن يعقوب عليه السلام ، وروى عن ابن عباس أنه يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، أقام فيهم نبيا عشرين سنة ، والسلطان : الحجة ، والمقت : أشد الغضب .

هامان : وزير فرعون ، الصرح : القصر الشامخ المنيف ، الأسباب : واحدها سبب ، وهو ما يتوصل به إلى شيء من حبل وسلم وطريق ، والمراد هنا الأبواب .

قال زهير بن أبى سلمى :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

والتباب : الخسران والهلاك ، ومنه قوله تعالى : " تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ " وقوله سبحانه : " وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ " .

الرشاد : ضد الغى والضلال ، متاع : أي يستمتع به أياما قليلة ثم ينقطع ويزول ، دار القرار : أي دار البقاء والدوام ، إلى النجاة : أي إلى الإيمان بالله الذي ثمرته وعاقبته النجاة ، إلى النار : أي إلى اتخاذ الأنداد والأوثان الذي عاقبته النار ، ما ليس لى به علم : أي ما لا وجود له ولم يقم عليه دليل ولا برهان ، لا جرم : أي حقّا ، دعوة : أي استجابة دعوة لمن يدعو إليه ، مردّنا : أي مرجعنا ، وأن المسرفين ، أي الذين يغلب شرهم على خيرهم ، فستذكرون : أي فسيذكر بعضكم بعضا حين معاينة العذاب ، وقاه : حفظه ،

يعرضون عليها : أي تعرض أرواحهم عليها .

المحاجة : المجادلة والخصام بين اثنين فأكثر ، الضعفاء : الأتباع والمرءوسون ، والمستكبرون : السادة أولو الرأى فيهم ، والتبع : واحدهم تابع كخدم وخادم ، مغنون :

أي دافعون ، نصيبا : أي قسطا وجزءا ، حكم : قضى ، الخزنة : واحدهم خازن وهم القوّام بتعذيب أهل النار ، ضلال : أي في ضياع وخسار

(32/672)

يوم يقوم الأشهاد : هو يوم القيامة ، والأشهاد : واحدهم شهيد بمعنى شاهد ، والهدى : ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع ، والإبكار : أول النهار إلى نصفه ، والعشى : من النصف إلى آخر النهار ، والسلطان : الحجة .

ادعوني : أي اعبدوني ، أستجب لكم : أي أثبكم على عبادتكم إياى ، داخرين :

أي صاغرين أذلاء ، لتسكنوا فيه : أي لتستريحوا فيه ، مبصرا : أي يبصر فيه ،

تؤفكون : أي تصرفون ، قرارا : أي مستقرا ، بناء : أي قبة ومنه أبنية العرب لقبابهم التي تضرب للسكنى فيها ، فتبارك : أي تقدس وتنزه ، الدين : الطاعة .

الكتاب : القرآن ، يسحبون : أي يجرّون ، الحميم : الماء الحار ، يسجرون :

أي يحرقون ، يقال سجر التنور إذا ملأه بالوقود ، ومنه : " وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ " أي : المملوء ، ضلوا عنا : أي غابوا ، تفرحون : أي تبطرون ، تمرحون : تختالون أشرارا وبطرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 24 صـ 43 . 93 ﴾ . باختصار .

(33/672)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة غافر

وهي مكية

1 - من ذلك قوله جل وعز (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) (آية 2 1) روى معمر عن قتادة قال (حم) اسم من أسماء القرآن وقيل معنى (حم) حم الأمر وفي رواية عكرمة عن ابن عباس قال (آلر) و (حم) و (نون) حروف الرحمن جل وعز مقطعة

وقرا عيسى بن عمر (حاميم تنزيل) والمعنى على قراءته أتل حاميم ولم يصرفه لأنه جعله اسما للسورة ويجوز أن يكون فتح لالتقاء الساكنين والمعنى هذا تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم 2 - ثم قال جل وعز (غافر الذنب وقابل التوب) (آية 3) ويجوز أن يكون التوب جمع

توبة كما قال: فيخبو ساعة ويهب ساعا ويجوز ان يكون التوب بمعنى التوبة 3 - ثم قال جل وعز (شديد العقاب ذي الطول) (آية 3)

روى ابن أبي نجيح (ذي الطول) قال ذي الغنى وروى سعيد عن قتادة قال ذي النعمة قال أبو جعفر الطول في اللغة الفضل والاقتدار يقال لفلان على فلان طول واللهم طل علينا برحمتك وروى علي بن أبى طلحة عن ابن عباس (ذي الطول) قال ذي السعة والغنى 4 - وقوله جل وعز (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد) (آية 4) قال قتادة أي فلا يغررك إقبالهم وإدبارهم وتصرفهم في أسفارهم قال أبو جعفر مثله قوله جل وعز لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل

والمعنى لا يغرنك سلامتهم وأناة الله لهم فإن عاقبتهم مذمومة ومصيرهم إلى النار 5 - ثم بين ان ذلك كان سبيل من قبلهم فقال (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم) (آية 5) وهم ثمود وعاد وقوم لوط ومن كان مثلهم 6 - وقوله جل وعز (وهمت كل أمة برسولهم لياخذوه) (آية 5) روى معمر عن قتادة قال ليأخذوه فيقتلوه

قال أبو جعفر ويبين هذا قوله تعالى (فأخذتهم) أي أهلكتهم ويقال للأسير أخيذ 7 – وقوله جل وعز (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) (آية 6) أي بقوله (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)

قال قتادة حق عليهم العذاب بكفرهم 8 – ثم أخبر أن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين فقال (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) (آية 7) روى معمر عن قتادة (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) قال تابوا من الشرك واتبعوا طاعتك 9 – ثم قال جل وعز (ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم) (آية 8) يروى ان عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار ما جنات عدن ؟ قال قصور من ذهب في الجنة يدخلها النبيون والصديقون والشهداء وأئمة العدل قال أبو جعفر العدن في اللغة الإقامة وقد عدن

بالمكان اقام به 10 – وقوله جل وعز (وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) (آية 9) (وقهم السيئات) قال قتادة أي العذاب (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) قال العذاب 11 – وقوله جل وعز (إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) (آية 10) في الكلام تقديم وتأخير وقد بينه أهل التفسير

قال الحسن يعطون كتابهم فإذا نظروا في سيئاتهم مقتوا أنفسهم فينادون لمقت الله إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان

(35/672)

فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم وقال مجاهد إذا عاينوا أعمالهم السيئة مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت الله لكم إذ تدعون إلى الإيمان أكبر من مقتكم أنفسكم إذ عاينتم النار 12 - وقوله جل وعز قالوا (ربنا أمتنا اثنتين واحييتنا اثنتين) (آية 11) روى أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال هي مثل قوله تعالى (وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) قال أبو جعفر المعنى على هذا في أمتنا اثنتين خلقتنا أمواتا أي نطفا ثم أحييتنا ثم أمتنا ثم أحييتنا للبعث

وقيل إحدى الحياتين وإحدى الموتتين الإحياء في القبر ثم الموت وأنهم لم يعنوا حياتهم في الآخرة 13 - وقوله جل وعز (ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم) (آية 14) أي كذبتم (وإن يشرك به تؤمنوا) أي تصدقوا 14 - وقوله جل وعز (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده) (آية 15) روى عكرمة عن ابن عباس قال (الروح) النبوة وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال (الروح) الوحي وروى معمر عن قتادة يلقي الروح قال الوحي

والرحمة قال أبو جعفر يلقي الوحي على من يختص من عباده وسمي الوحي روحا لأن الناس يحيون به أي يهتدون والمهتدي حي والضال ميت على التمثيل ومنه يقال لمن لم يفقه إنما أنت ميت وقال الله تعالى (فإنك لا تسمع الموتى) 15 - ثم قال جل وعز (لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون) أي لينذر الذي يوحى إليه ويجوز أن يكون المعنى لينذر الله يوم التلاق قال قتادة أي يوم يتلاقى أهل السماء وأهل الأرض ويلتقي

الأولون والآخرون

(36/672)

(يوم هم بارزون) قال قتادة أي لا يسترهم جبل ولا شئ 16 - ثم قال جل وعز (لا يخفى على الله منهم شئ لمن الملك اليوم) (آية 16) أي يقال هذا روى أبو وائل عن عبد الله بن مسعود قال (يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله جل وعز عليها قط فأول ما يقال (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) ثم أول ما ينظر من الخصومات في الدماء فيحضر القاتل والمقتول فيقول سل هذا لم قتلني فإن قال قتلته لتكون العزة لفلان قيل للمقتول اقتله كما قتلك وكذلك إن قتل جماعة أذيق القتل

كما أذاقهم في الدنيا قال (لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب) 17 - وقوله جل وعز

(وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) (آية 18) قال مجاهد وقتادة أي القيامة قال الكسائي يقال أزف الشئ يأزف أي دنا واقترب قال أبو جعفر قيل للقيامة الآزفة لقربها وإن بعدت عن الناس ومنه يقال أزف رحيل فلان

18 - ثم قال جل وعز (إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) (آية 18) قال قتادة شخصت من صدورهم فنشبت في حلوقهم فلم

تخرج ولم ترجع وقال غيره تزحزحت فلا قلوبهم من الفزع فلم تخرج فيستريحوا ولم ترجع ثم قال تعالى (كاظمين) أي مغتاظين ولا شئ يزيل غيظهم يقال كظم البعير بجرته إذا رددها في حلقه وكظم غيظه إذا حبسه 19 - ثم قال جل وعز (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) (آية 18) أي ليس لهم شفيع مطاع قال الحسن استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن الرجل منهم يشفع في قريبه وصديقه فإذا راى الكفار ذلك قالوا (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) 20 - ثم قال جل وعز (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) (آية 19) قال ابن عباس هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه اصحابه غض بصره فإذا رأى منهم غفلة تدسس فإذا نظروا إليه غض بصره وقد علم الله جل وعز منه أن بوده أن لو نظر إلى عورتها

وقال جرير بن عبد الله سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فأمرني أن أغض بصري 21 - وقوله جل وعز (وآثارا في الأرض) (آية 21) قال مجاهد هو مشيهم وتاثيرهم في الأرض 22 - وقوله جل وعز (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين) (آية 23) (بآياتنا) أي بالعلامات التي تدل على رسالته نحو

العصا وما أشبهها (وسلطان مبين) أي وحجة مبينة 23 - ثم أعلم جل وعز انهم ردوا الايات التي يعجز عنها المخلوقون بان قالوا ساحر كذاب (فقالوا ساحر كذاب) (آية 24) 24 - ثم قال جل وعز (فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا ابناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) (آية 25) روى معمر عن قتادة قال هذا بعد القتل الأول 25 - ومعنى (إني أخاف أن يبدل دينكم أو ان يظهر في الأرض الفساد) (آية 26) قال أبو جعفر أخاف ان يكون أحد الأمرين إما ان يذهب دينكم البتة وإما أن يستميل فيفسد عليكم ويحاربكم ويقرأ (وأن يظهر في الأرض الفساد) أي أخاف

الأمرين جميعا

26 - وقوله جل وعز (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) (آية 28) يجوز أن يكون المعنى وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون على التقديم والتأخير ويجوز أن يكون المعنى وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله) أي

لأن يقول (وإن يك كاذبا فعليه كذبه) أي لا يضركم منه شئ 27 - وقوله جل وعز (وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم) (آية 28) هذه آية مشكلة لأن كل ما وعد به نبي كان فهذا موضع كل

ففيها أجوبة: أ - منها أن بعضا بمعنى كل وهذا مذهب أبي عبيدة وأنشد: أو يرتبط بعض النفوس حمامها وهذا قول مرغوب عنه لن فيه بطلان البيان ب - قال أبو إسحاق في هذا إلزام الحجة للمناظر أن يقال أرأيت إن أصابك بعض ما اعدك أليس فيه هلاكك فالمعنى إن لم يصبكم إلا بعض ما وعدكم موسى هلكتم قال ومثله قول الشاعر: قد يدرك المتأني بعض حاجته * وقد يكون مع المستعجل الزلل

(38/672)

أي أقل أحوال المتأني أن يدرك بعض حاجته ج - وقيل ليس في قوله (يصبكم بعض الذي يعدكم) نفي للكل د - وقيل الأنبياء صلى الله عليهم يدعون على قومهم فيقولون اللهم اخسف بهم اللهم أهلكهم في أنواع من الدعاء فيصيبهم بعض ذلك ه - وفي الاية جواب خامس وهو أن موسى صلى الله عليه وسلم وعدهم بعذاب الدنيا معجلا إن كفروا وبعذاب الآخرة وإنما يلحقهم في الدنيا ما وعدهم به فيها وعذاب الآخرة مؤخر فعلى هذا

يصيبهم بعض الذي يعدهم ثم قال جل وعز (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) (آية 28)

أي كافر وقال قتادة أي أسرف على نفسه بالشرك وقال السدي وهو صاحب الدم 29 – وقوله جل وعز قال (فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) (آية 29) روي عن معاذ بن جبل أنه قرا سبيل الرشاد بتشديد الشين وقال سبيل الله جل وعز قال أبو جعفر وهذا عند أكثر أهل اللغة العربية لحن لأنه

إنما يقال أرشد يرشد ولا يكون فعال من أفعل إنما يكون من الثلاثي وإن اردت التكثير من الرباعي قلت مفعال قال أبو جعفر يجوز أن يكون رشاد بمعنى يرشد لا على أنه مشتق منه ولكن كما يقال لأال من اللؤلؤ فهو بمعناه وليس جاريا عليه ويجوز ان يكون رشاد من رشد يرشد أي صاحب رشاد كما قال: كليني لهم يا أميمة ناصب 30 – وقوله جل وعز (وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) (آية 30) قال قتادة هم قوم نوح وعاد وثمود

31 – وقوله جل وعز (ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد) (آية 32) وقرأ الضحاك يوم التناد بتشديد الدال قال أهل العربية هذا لحن لأنه من ند يند إذا مر على وجهه هاربا كما قال الشاعر: وبرك هجود قد اثارت مخافتي * نواديها اسعى بعضب مجرد قال ولا معنى

لهذا في القيامة قال أبو جعفر هذا غلط والقراءة به حسنة روى صفوان ابن عمرو عن عبد الله بن خالد قال يظهر للناس يوم القيامة

(39/672)

عنق من نار فيولون هاربين منها حتى تحيط بهم فإذا أحاطت بهم قالوا أين المفر ثم أخذوا في البكاء حتى تنفد الدموع فيكون دما ثم تشخص أبصار الكفار فذلك قوله تعالى (مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم) ويروي أنه إذا أمر بهم إلى النار ولوا هاربين منها ولو لم يكن في الاحتجاج بالقراءة إلا قوله تعالى (يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم) لكفى فأما معنى التخفيف فقال قتادة في قوله (إني أخاف عليكم يوم التناد) قال يوم ينادى كل قوم بأعمالهم وينادي أهل الجنة أهل النار وقال عبد الله بن خالد إذا حشر الناس يوم القيامة نادى

بعضهم بعضا حتى يظهر لهم عنق من النار فيولون هاربين 32 - ثم قال تعالى (ما لكم من الله من عاصم) (آية 33) قال قتادة أي من ناصر 33 - ثم قال جل وعز (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) (آية 34) أي من قبل موسى بالبينات أي بالآيات المعجزات (فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) (آية 34)

أي ظننتم ان الحجة لا تقام عليكم بعده (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب) أي مثل هذا الضلال يضل الله من هو مسرف مرتاب

34 - ثم قال جل وعز (الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم) (آية 35) على البدل من (من) ومعنى (كبر مقتا) كبر الجدال مقتا 35 - ثم قال جل وعز (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) (الآية 35) وفي قراء عبد الله بن مسعود (على قلب كل متكبر جبار) ومعنى هذه القراءة كمعنى الأولى كما يقال أنا أكلم فلانا يوم كل جمعة وكل يوم جمعة

فأما التنوين فإنه يقال قلب متكبر أي صاحبه متكبر 36 - وقوله جل وعز (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا) (آية 36) أي قصرا وكل بناء عظيم صرح (لعلي أبلغ الأسباب) (آية 36) قال قتادة أي الأبواب والسبب في اللغة ما يؤدي إلى الشئ فالمعنى لعلي أبلغ ما

يؤدي إلى السموات 37 - وقوله جل وعز (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) (آية 37) ويقرأ وصد عن السبيل وهو اختيار أبي عبيد

وروي عن ابن أبي إسحاق (وصد عن السبيل) قال أبو جعفر وأحسنها (وصد عن

السبيل) كما قال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) وقول أبي عبيد في اختياره ليس بشئ لأن من قرأه بالضم فالمعنى عنده على ما ذكر أبو حاتم وصده الشيطان عن السبيل كما قال (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) المستقيمة 38 – ثم قال جلا وعز (وما كيد فرعون إلا في تباب) (آية 37) قال مجاهد وقتادة أي في خسار قال أبو جعفر من هذا قوله جل وعز (تبت يدا أبي لهب)

وقوله (وما زادوهم غير تتبيب) 39 – وقوله جل وعز (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) (آية 40) قال قتادة يعني شركا 40 – وقوله جل وعز (ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة)

(آية 41) قال مجاهد إلى الإيمان بالله عز وجل 41 – وقوله جل وعز (لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة) (آية 43) قال مجاهد يعني الأوثان قال أبو جعفر قال الخليل معنى (لا جرم) حقا وقد جرم الشئ أي حق وأنشد : ولقد طعنت ابا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا قال أبو جعفر فأما دخول لا على جرم فلتدل على انه جواب لكلام وأنه ليس مستأنفا فالمعنى وجب بطلان ما تدعونني إليه أي ليس له استجابة دعوة تنفع 42 – وقوله (وأن المسرفين هم أصحاب النار) (آية 43) قال عبد الله بن مسعود هم السفاكون للدماء وكذلك قال

عطاء ومجاهد 43 – وقوله جل وعز (فوقاه الله سيئات ما مكروا) (آية 45) قال قتادة

كان رجلا من القبط فنجاه الله مع بني إسرائيل 44 - وقوله جل وعز (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) (آية 46)

يقال كيف يعرضون عليها غدوا وعشيا وهم من أهلها ؟ فالجواب عن هذا ما قاله عبد الله بن مسعود قال ارواح آل فرعون في أجواف طير سود تعرض كل يوم على النار مرتين يقال هذه داركم

(41/672)

وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال سمعت ميمون بن ميسرة يقول كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي أصبحنا والحمد لله وعرض آل فرعون على النار وإذا أمسى نادى امسينا والحمد لله وعرض آل فرعون على النار فلا يسمع ابا هريرة أحد إلا تعوذ بالله من النار وقال مجاهد في قوله تعالى (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) قال من أيام الدنيا قال الفراء ليس في القيامة غدو ولا عشي ولكن مقدار ذلك قال أبو جعفر التفسير على خلاف ما قال الفراء وذلك أن التفسير على أن هذا العرض إنما هو في أيام الدنيا

والمعنى ايضا بين أنه على ذلك لأنه قال جل وعز (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) ثم دل على أن هذا قبل يوم القيامة بقوله (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)

فدل على أن الأول بمنزلة عذاب القبر 45 - وقوله جل وعز (ويوم يقوم الأشهاد) (آية 51)

قال معمر عن قتادة الملائكة قال أبو جعفر واحدهم شاهد كما يقال صاحب وأصحاب

ويجوز أن يكون جمع شهيد كشريف وأشراف

46 - وقوله جل وعز (إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) (آية 56) مثل قوله (واسال القرية) المعنى ما هم ببالغي إرادتهم فيه لأن الكبر شئ قد أتوه فهذا لا يشكل وقد قيل الكبر ههنا العلو على النبي صلى الله عليه وسلم وذلك إرادتهم ولم يبلغوه فأما إرادتهم في الأول فالجدال في آيات الله جل وعز حتى يبطلوها ولم يبلغوا ذلك وقيل إنما يراد بذا اليهود تكبروا وتوقفوا وقالوا حتى يخرج الدجال ونكون معه فأعلم الله جل وعز أن هذه الفرقة من اليهود لا تلحق الدجال واستشهد صاحب هذا القول بقوله (فاستعذ بالله)

وقوله جل وعز (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) (آية 60)

روى يسيع الكندي عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الدعاء هو العبادة وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون

جهنم داخرين) قال أبو عبيدة داخرين صاغرين 48 – وقوله جل وعز (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون) (آية 71) وقرئ (والسلاسل يسحبون)

وفي قراءة أبي (بالسلاسل يسحبون) وأجاز الفراء (والسلاسل يسحبون) قال أبو جعفر من قرأ (والسلاسل يسحبون) فالمعنى عنده يسحبون السلاسل وهي قراءة ابن عباس قال وذلك اشد عليهم يكلفون أن يسحبوها ولا يطيقون ومن قرأ (والسلاسل يسحبون) فالتمام عنده (والسلاسل) ثم ابتدأ فقال (يسحبون في الحميم) قال الفراء والسلاسل بالخفض محمول على المعنى لأن المعنى أعناقهم في الأغلال والسلاسل كما حمل على المعنى قوله:

قد سالم الحيات منه القدما * الأفعوان والشجاع الشجعما 49 – ثم قال جل وعز (ثم في النار يسجرون) (آية 72) قال مجاهد أي توقد بهم النار قال أبو جعفر يقال سجرت الشئ أي ملاته ومنه (والبحر المسجور) فالمعنى على هذا تملأ بهم النار وقال الشاعر يصف وعلا: إذا شاء طالع مسجورة * ترى حولها النبع والساسما أحمد

أي عينا مملوءة 50 – وقوله جل وعز (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق) (آية 75) بين هذا بقوله سبحانه (فرحوا بما عندهم من العلم) 51 – ثم قال جل وعز (وبما كنتم تمرحون) (آية 75) قال مجاهد أي تبطرون وتأشرون 52 – وقوله جل وعز (الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون) (آية 79) أي الإبل قال قتادة في قوله تعالى (ولتبلغوا عليها حاجة في

صدوركم) الرحلة من بلد إلى بلد وقال مجاهد أي حاجة كانت 53 - وقوله جل وعز (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) (آية 83) أي رضوا به قال مجاهد قالوا نحن أعلم منكم لن تبعث ولن نحيا بعد الموت قال مجاهد (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون)

(آية 83) أي ما جاءت به الرسل الحق

(43/672)

---

54 - وقوله جل وعز (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده) (آية 85) قال قتادة أي إنهم إذا رأوا العذاب آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم 55 - ثم قال تعالى (وخسر هنالك الكافرون) (آية 85) وقد كانوا قبل ذلك خاسرين لأنه تبين خسرانهم بأن لحقهم العذاب ولم يقبل إيمانهم انتهت سورة غافر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 6 صـ 201. 237 ﴾

(44/672)

وقال الفراء :

سورة (غافر)

﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ اله إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

قوله عز جل: ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ . . . ﴾ .

جعلها كالنعت للمعرفة وهى نكرة ؛ ألا ترى أنك تقول: مررت برجل شديد القلب ، إلاّ أنه وقع معها قوله: ﴿ ذى الطول ﴾ ، وهو معرفة فأجرين مجراه . وقد يكون خفضها على التكرير فيكون المعرفة والنكرة سواء . ومثله قوله: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الوَدُودُ ، ذُو العرشِ المجيدُ ، فعَّالٌ لما يريدُ ﴾ فهذا على التكرير ؛ [/١] لأن فعّال نكرة محضة ، ومثله قوله: ﴿ رفيعُ الدرجاتِ ذو العرشِ ﴾ ، فرفيع نكرة ، وأجرى على الاستئناف ، أو على تفسير المسألة الأولى .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

وقوله: ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ . . . ﴾ .

ذهب إلى الرجال ، وفى حرف عبد الله "برسولها" ، وكلّ صواب .

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

وقوله: ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ . . . ﴾ .

وبعضهم يقرأ "جنة عدن" واحدة ، وكذلك هى فى قراءة عبد الله: واحدة .

وقوله: ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَآئِهِمْ . . . ﴾ .

من نصبٌ من مكانين: إن شئتَ جعلتَ (ومن) مردودة على الهاء والميم "وأدخلهم" ، وإن شئت على الهاء والميم فى: "وعدتهم" .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ . . . ﴾ .

(45/672)

المعنى فيه: ينادَوْن أنّ مقت الله إياكم أكبر من مقتكم أنفسكم يوم القيامة ؛ لأنهم مقتوا أنفسهم إذ تركوا الإيمان ، ولكن اللام تكفى من أن تقول فى الكلام: ناديت أن زيداً قائم ، وناديت لزيد قائم ، ومثله: ﴿ ثم بَدا لهم من بعدِ ما رَأوا الآياتِ ﴾ الآية ، اللام بمنزلة أنّ فى كل كلام ضارع القول مثل: ينادون ، ويخبرون ، وما أشبه ذلك .

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ

﴾

وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ . . . ﴾ .

الروح فى هذا الموضع: النبوة؛ لينذر من يلقى عليه الروحَ يوم التلاق. وإنما قيل "التلاق"؛ لأنه يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض.

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

وقوله: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ . . . ﴾ .

هُمْ فى موضع رفع بفعلهم بعده، و [هو] مثل قولك: آتيك يوم أنت فارغ لى.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأَزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾

وقوله: ﴿الأَزِفَةِ . . . ﴾ .

وهى: القيامة.

وقوله: ﴿كَاظِمِينَ . . . ﴾ .

نصبت على القطع من المعنى الذى يرجع من ذكرهم فى القلوب والحناجر، والمعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين. وإن شئت جعلت قطعه من الهاء فى قوله: "وأنذرهم"، والأول أجود فى العربية.

ولو كانت "كاظمون" مرفوعة على قولك: إذ القلوب لدى الحناجر إذ هم كاظمون، أو على

الاستئناف كان صوابا .

وقوله: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ . . . ﴾ .

(46/672)

تقبل شفاعته ، ثم قال: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأَعْيُنِ ﴾ يعنى: الله عز وجل ، يقال: إنّ للرجل نظرتين: فالأولى مباحة له ، والثانية محرمة عليه ، فقوله: ﴿ يعلم خائنة ﴾ الأعين فى النظرة الثانية ، وما تخفى الصدور فى النظرة الأولى . فإن كانت النظرة الأولى تعمُّداً كان فيها الإثْمُ أيضاً ، وإن لم يكن تَعَمَّدَها فهى مغفورة .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾

وقوله: ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ . . . ﴾ .

رفع (الفساد) الأعمش ، وعاصم جعلا له الفعل . وأهل المدينة والسلمى قرءوا: [وأن] يُظهرَ فى الأرض الفسادَ ، نصبوا الفساد ، وجعلوا يظهر لموسى . وأهل المدينة يلقون الألف الأولى يقولون: وأن يظهر ، وكذلك [هى] فى مصاحفهم . وفى مصاحف أهل العراق: "أو أن يَظْهَرَ" [المعنى] أنه قال: إنى أخاف التبديل على [/ب] دينكم ، أو أن يتسامع الناس

[به] ، فيصدقوه فيكون فيه فساد على دينكم .

﴿ وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾

وقوله: ﴿ [وَ] يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ . . . ﴾ .

(47/672)

قرأها العوام على التنادِ بالتخفيف ، وأثبت الحسن وحده [فيه] الياء ، وهى من تنادى القومُ . [حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: وحدثنى حبان عن الأجلح عن الضحاك بن مزاحم أنه قال: تَنْزِلُ الملائِكةُ من السموات ، فتحيط بأقطار الأرض ، ويُجَاء بجهنم ، فإذا رأوها هالتهم ، فندّوا فى الأرض كما تند الإبل ، فلا يتوجهون قُطْراً إلا رأوا ملائكة فيرجعون من حيث جاءوا ، وذلك قوله: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تنفذوا من أقطار السماواتِ والأرضِ ﴾ وذلك قوله: ﴿ وجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ وذلك قوله: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنْزِيلاً ﴾ . قال الأجلح ، وقرأها الضحاك: "التنادّ" مشددة الدال . قال حبان: وكذلك فسّرها الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس .

قال الفراء: ومن قرأها "التناد" [خفيفة] أراد يوم يدعو أهل الجنة أهل النار ، وأَهل النار

أهل الجنة ، وأصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم .

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾

وقوله: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ . . . ﴾ .

أى: كبر ذلك الجدال مقتا ، ومثله: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أضمرت فى كبرت قولهم: ﴿ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً ﴾ ومن رفع الكلمة لم يضمر ، وقرأ الحسن بذلك برفع الكلمة ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ ﴾ .

وقوله: ﴿ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ . . . ﴾ .

يضيف القلب إلى المتكبر ، ومن نوّن جعل القلب هو المتكبر الجبار ، وهى فى قراءة عبد الله "كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قَلْبِ كلِّ متكبر جبار" ، فهذا شاهدٌ لمن أضاف ، والمعنى فى تقدم القلب وتأخره واحد والله أعلم .

(48/672)

قال: سمعت بعض العرب يرجّل شعره يوم كل جمعة ، يريد : كل يوم جمعة ، والمعنى واحد .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ

إِلَى اله مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَاب ﴾

وقوله: ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . . . (أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ) فَأَطَّلِعُ . . . ﴾ .

بالرفع ، يردّه على قوله: "أبلغُ" . وَمن جعله جوابا لِلَعَلّى نصبه ، وقد قرأ به بعض القراء قال: وأنشدنى بعض العرب:

علَّ صروفَ الدَّهر أو دولاتها * يدللنا اللَّمَّةَ من لَمَّاتها

* فتستريحَ النفسُ من زَفْراتها *

فنصب على الجواب بلعلَّ .

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

وقوله: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا . . . ﴾ .

رفعت (النار) بما عاد من ذكرها فى عليها ، ولو رفَعْتها بما رفعْتَ به ﴿ سُوءَ الْعَذَاب ﴾ كان صوابا ، ولو نصبت على أنها وقعت [/١] بين راجع [من] ذكرها ، وبين كلام يتصل بما قبلها كان صوابا ، ومثله: ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُم النارُ وَعَدهَا ﴾ .

وقوله: ﴿ غُدُوّاً وَعَشِيّاً . . . ﴾ .

ليس فى الآخرة غدو ولا عشى ، ولكنه مقادير عشيات الدنيا وغدوها .

وقوله: ﴿ [وَ]يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ . . . ﴾ .

همز الألف يحيى بن وثاب وأهل الحجاز ، وخففها عاصم والحسن فقرأ "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةَ ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ" ونصب ها هنا آل فرعون على النداء : ادخوا يا آل فرعون أشد العذاب ، وفى المسألة الأولى توقَّع عليهم "أَدْخِلُوا" .

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾

(49/672)

وقوله: ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا . . . ﴾ .

رَفَعْتَ (كلّ) بفيها ، ولم تجعله نعتا لإنّا ، ولو نصبته على ذلك ، وجعلت خبر إنا [فيها] ، ومثله: ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلّهِ ﴾ ترفع ﴿ كلّه لله ﴾ ، وتنصبها على هذا التفسير .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾

قوله: ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . . . ﴾ .

قرأت القراء بالياء يعنى: يقوم بالتذكير ، ولو قرأ قارىء : ويوم تقوم كان صوبا ؛ لأن الأشهاد جمع ، والجمع من المذكر يؤنث فعله ويذكر إذا تقدم . العرب تقول: ذهبت الرجال ، وذهب الرجال .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

وقوله: ﴿ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ . . . ﴾ .

يريد : تكبروا أن يؤمنوا بما جاء به محمد صلى الله عليه ما هم ببالغى ذلك: بنائلى ما أرادوا .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُواْ أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً . . . ﴾ .

وفى حرف عبد الله "ومنكم من يكون شيوخا" فوحّد فِعل مَن ، ثم رجع إلى الشيوخ فنوى بمن الجمع ، ولو قال: شيخا لتوحيد من فى اللفظ كان صوابا .

﴿ إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ . . . ﴾ .

[ترفع السلاسل والأغلال ، ولو نصبت السلاسل وقلت: يسْحَبون ، تريد] يَسْحَبونَ سَلاسلَهم فى جهنم .

وذكر الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال: [وهم] فى السلاسل يُسْحبون ، فلا يجوز خفض السلاسل ، والخافض مضمر ؛ ولكن لو أنّ متوهما قال: إنما المعنى إذ أعناقهم فى الأغلال وفى السلاسل يسحبون جاز الخفض فى السلاسل على هذا المذهب ، ومثله مما رُدّ إلى المعنى قول الشاعر:

قد سالم الحياتِ منه القدَما * الأُفعوانَ والشُّجاعَ الشجعما

فنصب الشجاع ، والحيات قبل ذلك مرفوعة ؛ لأَنَّ المعنى: قد سالمت رجله الحيات وسالمتها ، فلما احتاج إلى نصب القافية جعل الفعل من القدم واقعا على الحيات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 5 . 11 ﴾

(51/672)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة حم المؤمن

(وقابل التوب) [3] يجوز جمع توبة . ويجوز مصدراً ، مثل توبة . (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم) [10] في [الخبر] "إن أهل النار يمقتون أنفسهم ، ويقولون قد مقتنا أنفسنا ، فيقال

لهم: لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم" . وعند البصريين: هذه لام الابتداء ، وعند الكوفيين: لام اليمين ، يدخل على مثل هذه الحكاية .

(يلقي الروح من أمره) [15] أي: الوحي . وقيل: يرسل جبريل إلى من يشاء من عباده .

(لمن الملك اليوم) [16] يقوله بين النفختين . وقيل: في القيامة ، فيجيبه الخلائق طراً (لله الواحد القهار) . (يوم الأزفة) [18] يوم القيامة . وقيل: يوم الموت الذي هو قريب .

(كاظمين)

ساكتين مغتمين . وقيل: ممسكين لحناجرهم ، من كظم القربة . (خائنة الأعين) [19] قيل: هي مسارقة النظر . وقيل: إنها النظر إلى ما نهي عنه ، كأن التقدير/: يعلم الأعين الخائنة .

(يعرضون) [46] [تجلد] جلودهم في النار غدواً وعشية ، ولا غدوة ولا عشية هناك ، ولكنه بمقادير الساعات الدنيا . (ولتبلغوا أجلاً مسمى) [67] أي: ليبلغ كل منكم أجله ، من طال عمره ومن قصر .

(بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً) [74] هذا كقولك ما أنت في شيء .

[تمت سورة المؤمن] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1266 . 1269 ﴾

وقال الأخفش :

سورة (غافر)

﴿ حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ اله إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

قال ﴿ حم ﴾ ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ فهذا على البدل لأن هذه الصفة . وأما ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ فقد يكون معرفة لأنك تقول: هذا ضاربُ زيدٍ مُقْبِلاً "اذا لم ترد به التنوين . ثم قال ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ فيكون على البدل وعلى الصفة ويجوز فيه الرفع على الابتداء والنصب على خبر المعرفة الا في ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ فانه لا يكون فيه النصب على خبر المعرفة لأنه معرفة . و"التَوْبُ" هو جماعة التَوْبَةِ ويقال "عَوْمَةٌ" و"عَوْمٌ" في "عَوْمِ السَّفِينَةِ" وقال الشاعر: [من البسيط وهو الشاهد الخامس والستون بعد المئتين]:

[165] عَوْمِ السَّفِينِ فَلَمَّا حالَ دُونَهُمُ * فَيْدُ القُرَيَّاتِ فالفِتْكَانُ فالكَرَمُ

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

قال ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ ﴾ فجمع على "الكُلّ" لأن "الكُلَّ" مذكر معناه معنى الجماعة .

﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾

وقال ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي: لأَنَّهُم أَوْ بأَنَّهم وليس ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ في موضع مفعول. ليس مثل قولك "أَأَحَقَّت أنهم" لو كان كذلك كان أَحَقَّتْ أَنَّهُمْ* .

(53/672)

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾

وقال ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ فانتصابه كانتصاب "لَكَ مِثْلُه عَبْداً" لأنك قد جعلت "وسعت" لـ"كلّ شَيْءٍ" وهو مفعول به والفاعل التاء وجئت بـ"الرَّحْمَةِ" و"العِلْم" تفسيرا قد شغل عنها الفعل كما شغل "المِثْلُ" بالهاء فلذلك نصبته تشبيها بالمفعول بعد الفاعل.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾

وقال ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فهذه اللام هي لام الابتداء كأنه "يُنَادَوْنَ" فيقال لهم لأَنَّ النِداءَ قول. ومثله في الاعراب: يقال: "لَزَيْدٌ أَفضلُ مِنْ عَمْرٍو".

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾

وقال ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴾ رفيع [رَفْعٌ] على الابتداء. والنصبُ جائز لو كان في الكلام على المدح.

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

وقال ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ فاضاف المعنى فلذلك لا ينون اليوم كما قال ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾, وقال ﴿ هذا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ معناه هذا يوم فتنتهم. ولكن لما ابتدأ الاسم [165 ب] وبقي عليه لم يقدر على جرّه وكانت الاضافة في المعنى الى الفتنة. وهذا انما يكون اذا كان "اليَوْم" في معنى "إِذْ" والا فهو قبيح.

(54/672)

الا ترى انك تقول "لَقِيتُكَ زَمَنَ زَيْدٌ أَمِيرٌ" أيْ: إِذْ زَيْدٌ اَمِيرٌ. ولو قلت "أَلْقَاكَ زَمَنَ زيدٌ أَمِيرٌ" لَمْ يحسن.

وقال ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ فهذا على ضمير "يَقُولُ" .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأَزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾

وقال ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ فانتصاب ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ على الحال كأنه أَرَادَ "القلوبُ لدىَ الحَنَاجِرِ في هذه الحال" .

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾

وقال ﴿ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ فمن نون جعل "المتكبّر الجبارَ" من صفته ومن لم ينون أضاف "القلبَ" الى المتكبر .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴾

وقال ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي ﴾ بعضُهم يضم النون* كأنه اتبعها ضمة النون التي في ﴿ هامان ﴾ كما قالوا "مِنْتُنٌ" فكسروا الميم للكسرة التي في التاء وبينها حرف ساكن فلم يحل . وكذلك لم يحل الباء في قوله ﴿ ابن لي ﴾ .

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾

وقال ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ ﴿ النَّارِ ﴾ [47] فان شئت جعلت ﴿ النُّارِ ﴾ بدلا من ﴿ سوءُ العذاب ﴾ ورفعتها على ﴿ حاقَ ﴾ وان شئت جعلتها

تفسيرا ورفعتها على الابتداء [166] كأنك تقول: "هي النار" وان شئت جررت على ان تجعل ﴿ النار ﴾ بدلا من ﴿ العذاب ﴾ كأنك اردت: "سوءُ النارِ".

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

(55/672)

وقال ﴿ غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ وفيه ضمير "يقال لهم ادْخُلُوا يا آلَ فِرْعَوْنَ" وقال بعضهم ﴿ أَدْخِلُوا ﴾ فقطع وجعله من "أَدْخَلَ يُدْخِلُ". وقال ﴿ غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ فانما هو مصدر كما تقول: "آتِيهِ ظَلاماً" تجعله ظرفا وهو مصدر جعل ظرفا ولو قلت "مَوْعِدُكَ غَدْرَةٌ" أو "مَوْعِدُكَ ظلامٌ" فرفعته كما تقول: "مَوْعِدكَ يومُ الجمعة" لم يحسن لأن هذه المصادر وما اشبهها من نحو "سَحَرَ" لا تجعل الا ظرفا والظرف كله ليس بمتمكن.

وقال ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ وقال ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ فيجوز أَنْ يكون آل فرعون أُدْخِلُوا مع المنافقين في الدَّرَكِ الأَسْفَلِ وهو أشد العذاب.

وأَمَّا قولُه ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ فقوله: لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً من عالَمِ أَهْلِ زمانِهِ.

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ ﴾

وقال ﴿ كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ لأن "التَبَعَ" يكون واحداً وجماعَةً ويجمع فيقال "أَتْباع".

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾

وقال ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ فجعل ﴿ كُلٌّ ﴾ اسماً مبتدأً كما تقول: "إِنَّا كُلُّنا فيها".

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾

وقال ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ و ﴿ تَقُومُ ﴾ كلٌّ جائز وكذلك كل جماعة مذكّر أَو مؤنّث من الانس فالتذكير والتأنيث في فعله جائز.

(56/672)

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾

وقال ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ يريد "في الإِبْكارِ" وقد تقول "بالدارِ زَيْدٌ" تريد "زَيْدٌ في الدّارِ".

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

وقال ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فقوله ﴿ أَسْتَجِبْ ﴾ إنَّما هو "أَفْعَلُ" هذه الألف سوى الف الوصل. أَلَا تَرَى أَنَّك تقول: "بِعْتَ" "تَبِيعُ" ثم تقول "أَبِيعُ" [166 ب] فتجيءُ فيها ألف لـ "أَفْعَلُ" فهي نظير الياء والتاء في "يَفْعَلُ" و "تَفْعَلُ" * تقطع كل شيء كان على "أَفْعَلُ" في وصل كان أو قطع.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

وقال ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا ﴾ كأنه أضمر "شَيْئاً". انتهى انتهى. اهـ ﴿ معاني القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 498. 503 ﴾

(57/672)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة المؤمن «1»

مكية كلها

3 - الطَّوْلِ: التفضل. يقال: طل علي برحمتك، أي تفضل.

4 - فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ أي تصرفهم في البلاد للتجارة، وما يكسبون.

ومثله: لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ [سورة آل عمران آية: 196/ 197].

5 - وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ أي ليهلكوه. من قوله: فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ.

ويقال: ليحبسوه ويعذبوه. ويقال للأسير: أخيذ.

10 - يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ. قال قتادة:

«يقول: لمقت اللّه إياكم في الدنيا - حين دعيتم إلى الإيمان، فلم تؤمنوا - أكبر من مقتكم أنفسكم حين رأيتم العذاب».

11 - قالُوا: رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ، مثل قوله:

---

(1) وتسمى سورة غافر.

وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ [سورة البقرة آية: 28]. وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة.

12 – ذِلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ : كذبتم . وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا أي تصدقوا .

15 – يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ أي الوحي .

18 – الْآزِفَةِ : القيامة . سميت بذلك : لقربها . يقال : ازفت فهي آزفة ، وأزف شخوص فلان ، أي قرب .

19 – يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ . قال قتادة : « [هي] همزه بعينه وإغماضه فيما لا يحب اللّه» .

والخيانة والخائنة واحد . قال [اللّه تعالى] : وَلا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ [سورة المائدة آية : 13] .

32 – يَوْمَ التَّنادِ أي يوم يتنادي الناس : ينادي بعضهم بعضا .

ومن قرأ : التَّنادِ بالتشديد ، فهو من «ند يند» : إذا مضي على وجهه يقال : ندت الإبل ، إذا شردت وذهبت .

36 – و37 – لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ ، أَسْبابَ السَّماواتِ أي ابوابها .

فِي تَبابٍ أي بطلان . وكذلك : الخسران . ومنه : تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [سورة المسد آية : 1] ، وقوله وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ [سورة هود آية : 101] .

40 – يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ أي بغير تقدير .

51 – وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ : الملائكة الذين يكتبون اعمال بني آدم .

56 - إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ أي تكبر عن محمد - صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم - وطمع ان يعلوه ، وما هم ببالغي ذلك .

60 - داخِرِينَ أي صاغرين .

75 - ذِلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ أي تبطرون . وقد تقدم ذكر هذا .

80 - وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ قال قتادة : «رحلة من بلد إلى بلد» .

83 - فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أي رضوا به .

85 - سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ . وسنته في الخالين :

أنهم يؤمنون به - إذا رأوا العذاب - فلا ينفعهم إيمانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 332.334 ﴾

وقال الغزنوى :

ومن سورة المؤمن

في الحديث «1» : «مثل الحواميم في القرآن مثل الحبرات في الثياب» .

3 وَقابِلِ التَّوْبِ : جمع «توبة» ك «دومة» ودوم ، و«عومة» وعوم . أو

---

(1) ذكره الزجاج في معانيه : 4/ 365 مرفوعا ، وكذا القرطبي في تفسيره : 15/ 288 ، وعزاه إلى الثعلبي .

وهو أيضا في المحرر الوجيز : 14/ 111 (ط. المغرب) ، والبحر المحيط : 7/ 446 .

والحبرات جمع حبرة : ضرب من برود اليمن ، والحبير من البرود ما كان موشيا مخططا .

النهاية لابن الأثير : 1/ 328 ، واللسان : 4/ 159 (حبر) . [. . . . .]

مصدر مثل «توبة «1» .

ذِي الطَّوْلِ : ذي الإنعام الطويل مدّته «2» .

وَالْأَحْزابُ : عاد وثمود «3» .

6 وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ : أي : على مشركي العرب كما حقّت على من قبلهم .

أَنَّهُمْ : بدل من كَلِمَةُ .

7 وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً : هذا مما نقل فيه الفعل إلى الموصوف مبالغة ، نحو : طبت به نفسا ، والتقدير : وسعت رحمتك وعلمك كلّ شيء .

10 لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ : حين يقول أهل النّار : مقتنا أنفسنا ، وهي لام الابتداء «4» ، أو لام القسم «5» .

15 يُلْقِي الرُّوحَ : الوحي الذي يحيي به القلوب ، أو يرسل جبريل .

يَوْمَ التَّلاقِ : يوم يتلقى «6» الأولون والآخرون «7» . أو يتلقى أهل

---

(1) معاني القرآن للأخفش : 2/ 674 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 26 ، والمحرر الوجيز :

14/ 113 .

(2) تفسير القرطبي : 15/ 291 ، واللسان : 11/ 414 (طول) .

(3) ينظر تفسير الطبري : 24/ 42 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 366 ، والكشاف : 3/ 415 ، وتفسير القرطبي : 15/ 293 .

(4) هذا قول الأخفش في معانيه : 2/ 675 ، ونص كلامه : «فهذه اللام هي لام الابتداء ، كأنه :

ينادون يقال لهم ، لأن النداء قول ، ومثله في الإعراب ، يقال : لزيد أفضل من عمرو» .

وحكى الطبري هذا القول في تفسيره : 24/ 47 عن البصريين .

وانظر إعراب القرآن للنحاس : 4/ 27 ، وتفسير القرطبي : 15/ 296 .

(5) اختاره الطبري في تفسيره : 24/ 47 .

(6) في «ج» : يلتقي .

(7) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 482 ، وقال : «وهو معنى قول ابن عباس» .

وانظر هذا القول عن ابن عباس رضي اللّه عنهما في زاد المسير : 7/ 211 ، وتفسير القرطبي : 15/ 300 .

السماء والأرض «1» ، أو يلقى فيه المرء عمله «2» .

16 لِمَنِ الْمُلْكُ : يقوله بين النّفختين «3» ، أو في القيامة «4» فيجيب الخلائق : لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ .

18 يَوْمَ الْآزِفَةِ : القيامة «5» ، أو يوم الموت «6» الذي هو قريب .

إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ : تلصق بالحنجرة لا ترجع ولا تخرج فيستراح .

كاظِمِينَ : ساكتين «7» / مغتمين ، حال محمولة على المعنى إذ [85/ ب]

---

(1) ورد هذا القول في أثر أخرجه عبد الرازق في تفسيره : 2/ 180 عن قتادة ،

وأخرجه الطبري في تفسيره : 24/ 50 عن قتادة ، والسدي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 279 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة .

(2) ذكره البغوي في تفسيره : 4/ 94 دون عزو ، وكذا ابن عطية في المحرر الوجيز : 14/ 123 .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 211 ، وقال : «حكاه الثعلبي» .

وذكر القرطبي في تفسيره : 15/ 300 الأقوال السابقة وقال : «وكله صحيح المعنى» .

(3) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 483 عن محمد بن كعب القرظي .

(4) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 483 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 212

وقال الماوردي رحمه اللّه : «وفي المجيب عن هذا السؤال قولان :

أحدهما : أن اللّه هو المجيب لنفسه وقد سكت الخلائق لقوله ، فيقول : للّه الواحد القهار . قاله عطاء .

الثاني : أن الخلائق كلهم يجيبه من المؤمنين والكافرين ، فيقولون : للّه الواحد القهار . قاله ابن جريج» .

(5) وهو قول الجمهور كما في زاد المسير : 7/ 212 .

وأخرجه الطبري في تفسيره : 24/ 52 عن مجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 281 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد .

(6) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 483 عن قطرب ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 212 .

(7) المفردات للراغب : 432 ، واللسان : 12/ 520 (كظم) . [. . . . .]

(63/672)

الكاظمون أصحاب القلوب «1» .

28 يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ : هذا باب من النظر يذهب فيه إلى إلزام الحجة بأيسر الأمر ، وليس فيه نفي الكلّ . قال الشاعر - وهو النّابغة «2» - :

قد يدرك المتأنّي بعض حاجته وقد يكون من المستعجل الزّلل

فكان مؤمن آل فرعون - وهو حزبيل «3» - ، وكان لفرعون بمنزلة وليّ العهد قال : أقل ما يكون في صدقه : أن يصيبكم بعض الذي يعدكم ، وفي بعض ذلك هلاككم .

19 خائِنَةَ الْأَعْيُنِ : هو مسارقة النّظر «4» ، أو النظر إلى ما نهي عنه «5» ، أي : يعلم

الأعين الخائنة .

46 يُعْرَضُونَ : تجلد «6» جلودهم في النّار غدوة وعشيا بهذه المقادير من ساعات الدنيا .

قال الحسن «7» : وجميع أهل النّار تعرض أرواحهم على النّار غير

---

(1) معاني القرآن للزجاج : 4/ 369 ، وإعراب القرآن للنحاس : 4/ 29 ، والتبيان للعكبري : 2/ 1117 .

(2) كذا في الأصل ولم يرد اسمه في نسخة (ك) ، والصحيح أنه القطامي والبيت في ديوانه : 2 من قصيدة طويلة ، وبعده :

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

(3) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 485 عن الكلبي ، وعزاه البغوي في تفسيره : 4/ 96 إلى ابن عباس رضي اللّه عنهما وأكثر العلماء .

وقيل في اسمه : «شمعان» بالشين المعجمة ، قال السهيلي في التعريف والإعلام : 151 : «و هو أصح ما قيل فيه» .

وانظر الاختلاف فيه في زاد المسير : 7/ 217 ، وتفسير القرطبي : 15/ 306 .

(4) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 484 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وذكره البغوي في تفسيره : 4/ 95 دون عزو .

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 24/ 54 عن مجاهد ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 282 وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد أيضا .

(6) في «ج» : تجدد .

(7) لم أقف على تخريج هذا الأثر .

(64/672)

أنّ لأرواح آل فرعون من الألم والعذاب ما ليس لغيرهم ، وكذلك أرواح المؤمنين يغدا بها ويراح على أرزاقها في الجنّة ، غير أنّ لأرواح الشّهداء من السّرور واللّذة ما ليس لغيرهم ، فاستدلّ بهذا من قوله على أنه يذهب إلى أنّ الأرواح أجسام .

74 بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً : ليس بإنكار ، إذ لا يكذبون في تلك النّار ، ولكنه كقولك : ما صنعت شيئا ولم أك في شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 723. 727 ﴾

(65/672)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة المؤمن

عدد 10 - 60 - 40

(وتسمى سورة غافر) نزلت بمكة بعد سورة الزمر عدا آيتي 56/ 57 فإنهما نزلتا في المدينة ، وهي خمس وثمانون آية ، والف ومئة وتسعون كلمة ، وأربعة آلاف وتسعمئة وستون حرفا ، ويوجد في القرآن سبع سور مبدوءة بما بدئت به ، وهي هذه والسجدة والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف ، ولا يوجد مثلها في عدد الآي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "حم 1" اسم للسورة ومبدأ أسماء اللّه المحسن والحكيم والحاكم والحنان والمنان والحي والمميت والمجيد والمبدئ المعيد ، قال ابن عباس : لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم ، والمر ، وحم ، ونون اسم اللّه الرحمن حروف مقطعة ، وحم بمعنى حمّ أي قضي الأمر بما كان وما سيكون من مبدأ الكون إلى منتهاه ، وهذه السور السبع تسمى آل حميم .

قال الكميت بن يزيد في الهاشميات :

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منا تقي ومغرب

وقال عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه : إن مثل صاحب القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد

لأهله منزلا فمر بأثر غيث ، فبينما هو يسير ويتعجب منه إذ هو على روضات دمثات ، فقال عجبت من الغيث الأول فهذا أعجب منه وأعجب ، فقيل له إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن ، وإن مثل هذه الروضات الدمثات مثل آل حم وتجمع بالمدّ كالطواسين والطواسيم وتقرأ بالتفخيم ومد الحاء وفتحه وإسكان الميم ، وقرأها حمزة وغيره بالإمالة ، وقرأها قراء المدينة بين الفتح والكسر ، وقرأها بعضهم بكسر الميم ويجمعها على حاميمات ، ومن شواهد هذا الجمع ما قاله ابن عساكر في تاريخه :

هذا رسول اللّه في الخيرات جاء بياسين وحاميمات

(66/672)

أما معناها فأحسن الأقوال فيها قول من قال اللّه أعلم بمراده بذلك كما هو الحال فيما تقدم من الأقوال في الر والم والمص وطسم وطس وق ونون وص ، وشبهها لأنها رموز بين اللّه تعالى ورسوله لا يعرفها على الحقيقة غيرهما ، راجع ما ذكرناه أوائل السور المذكورة تجد ما تريده ، إذ لم نترك قولا قيل فيها وزدنا فيها ما لم يقله أحد وهو أنها رموز بين اللّه ورسوله ، ومنها اتخذ الملوك والأمراء الشفرة التي لا يعرفها غيرهما ، لأن جميع ما في الدنيا أخذ من كتب اللّه السماوية ، سواء ما يتعلق بالملوك والحكام والأحكام والآداب والأخلاق والتنعيم

والتعذيب والحراسة والمراسيم وغيرها .

"تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ" الغالب المنيع ، والكلام فيها كالكلام في مبدأ سورة الزمر المارة لفظا ومعنى وإعرابا ، إلا أنه هنا يجوز

جعل تنزيل فما بعده خبرا لحميم ، وهناك ختم الآية بلفظ الحكيم ، وهنا بلفظ "الْعَلِيمِ 2" بكل ما كان وسيكون في الدنيا والآخرة وهو من تفنن النظم ولا شك أن البليغ علمه بالأشياء وكنهها يكون حكيما بتصرفاتها ووصفها ووضعها في محالها "غَافِرِ الذَّنْبِ" مهما كان لمن يشاء عدا الشرك "وَقَابِلِ التَّوْبِ" من أي كان مهما كان فاعلا ، وساتر لما كان قبل التوبة من الذنوب "شَدِيدِ الْعِقَابِ" لمن يبقى مصرا على كفره وعناده لاستكباره عن الرجوع إلى ربه "ذِي الطَّوْلِ" السعة والغنى والأنعام الدائم "لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ 3" والمرجع في الآخرة .

قد اشتملت هذه الآية العظيمة على ست صفات من صفات اللّه تعالى ملزمة للإقرار بربوبيته واستحقاقه للعبادة إذ جمعت بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب وهي وحدها كافية للإيمان به تعالى وبما جاء عنه من كتاب ورسول لمن كان له قلب واع وآذان صاغية .

مطلب الجدال المطلوب والممنوع وبحث في العرش والملائكة ومحاورة أهل النار :

قال تعالى "ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا" باللّه ورسله وكتبه ، أما المؤمنون فلا يجادلون بل يمتثلون أوامر ربهم فيه وينقادون لها ويسلمون لما جاء به الرسل ويحققونه فعلا .

واعلم أن هذه الآية والآية 176 من سورة البقرة في ج 3 وهي (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ) من أشد آيات القرآن على المجادلين فيه .

أخرج أبو داود عن أبي هريرة قال : إن جدالا في القرآن كفر ، وقال المراء في القرآن كفر .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قوما يتمارون ، فقال إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب اللّه عزّ وجل بعضه ببعض ، وإنما أنزل الكتاب ليصدق بعضه بعضا ، فلا تكذبوا بعضه ببعضه فما علمتم منه فقولوه وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه .

وروى مسلم عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال :

هاجرت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يوما فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية ، فخرج صلّى اللّه عليه وسلم يعرف في وجهه الغضب ، فقال إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب .

وقد نزلت هذه الآية في الحارث بن قيس السلمي أحد المستهزئين ، والمراد بالجدال

ما كان منه بالباطل من الطعن في آيات اللّه المبرأة من الطعن ، وما كان القصد منه ادحاض الحق وإطفاء نور اللّه عز وجل ، يؤيد هذا ما سيأتي من تشبيه حال كفار مكة بكفرة الأحزاب قبلهم .

أما الجدال في آيات اللّه لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقاومة آراء أهل العلم في استنباط معانيها وبلاغة مبانيها وردّ شبه أهل الزيغ عنها وإحراقهم بإفحامهم وإظهار جهلهم فيها فهو أعظم من الجهاد في سبيل اللّه تعالى ، وهو لازم على كل قادر كامل عارف في كلام اللّه .

(68/672)

هذا ، وما نقلناه من الأخبار أعلاه يومىء إلى هذا إذ يشعر أن نوعا من الجدال في القرآن كفر فدحضه من أعظم القربات للّه تعالى وهذا يسمى جدالا عن آيات اللّه لا في آيات اللّه ، فلذلك كان محمودا لأن الجدال يتعدى بعن إذا كان للمنع والذّب عن الشيء ، ويتعدى بفي إذا كان بخلافه وهو المذموم "فَلا يَغْرُرْكَ" يا سيد الرسل "تَقَلُّبُهُمْ" تصرف الكفرة المجادلين "فِي الْبِلادِ 4" ذاهبين آئبين سالمين غانمين في تجاراتهم وزراعاتهم وزياراتهم ، فإن عاقبة أمرهم الهلاك والخسار ، ومرجعهم إلى العذاب والدمار .

واعلم أنه كما كذبك قومك "كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ" الرسل أمثالك "قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ"

الذين تحزبوا على رسلهم بالتكذيب وقاتلوهم فنصر اللّه رسله عليهم ، وفي هذه الآية إشارة إلى أن قوم محمد وأقاربه سيتحزبون عليه أيضا ، وقد كان منهم ذلك كما سيأتي في الآية 9 من سورة الأحزاب في ج 3 ، "وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ" فيقتلوه ، وفي هذه الجملة إيماء أيضا إلى أن قوم محمد سيهون بقتله وكان منهم أيضا كما سيأتي في الآية 31 من سورة الأنفال ، وسيأتي تفصيله في بحث الهجرة في سورة العنكبوت إن شاء اللّه .

هذا سببها الظاهري ، أما سببها الباطني فهو علو شأن الإسلام وشموخ حكمته وارتفاع رايته وتعظيم أهله "وَجادَلُوا" رسلهم "بِالْباطِلِ" كما جادلوك به "لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ" الذي جاءوهم به ويمحقوه بقصد إبطاله ، ولكن اللّه تعالى يأبى إلا أن يتم نوره ويطفىء كلمة الكفر على رغم أنفهم .

قال تعالى "فَأَخَذْتُهُمْ" ودمرتهم عقابا لفعلهم ذلك "فَكَيْفَ كانَ عِقابِ 5" إياهم أي كان عقابا مهولا يتعجب منه المتعجبون "وَكَذلِكَ" مثل ما وجب العذاب على أولئك أقوام الرسل قبلك

"حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ" بالعذاب "عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا" من قومك ، لأن السبب الداعي إليه واحد وهو "أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ 6" في الآخرة فضلا عن عذاب الدنيا الذي عجلناه لهم ، يقرأ أنهم بالكسر على أن الجملة بدل من قوله كلمة ربك وبفتح الهمزة على حذف لام التعليل وهكذا .

قال تعالى "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ" من الملائكة "وَمَنْ حَوْلَهُ" منهم الحافّين به وهم سادات الملائكة وأعيانهم .

وكلمة الذين كلام مستأنف مبتدأ خبره "يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ" بأنه الواحد الفرد الصمد الذي لا شريك له ولا وزير ولا صاحبة ولا ولد ، وهذا إظهار لشرف الإيمان وترغيب المؤمنين به ، لأنهم مؤمنون حقا وإيمانهم به معلوم ، وهذا على حد وصف الأنبياء بالصلاح والصدق والوفاء وهم كذلك إظهارا لوصف هذه الخصال ، وترغيبا للمؤمنين بالاقتداء بهم فيها .

(70/672)

وكيفية تسبيحهم والله أعلم هو : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، وهم خشوع

لا يرفعون طرفهم من هيبة جلاله ، وهم أشد خوفا من جميع أهل السموات ، لأن العبد كلما ازداد قربا من ربه ازداد معرفة به ، وكلما ازداد معرفة ازداد خشية منه ، ولذلك من عرف ربه هابه كما أن الذي يتقرب من الملك يعرف من سطوته ما لا يعرفه غيره البعيد عنه ، فيشتد خوفه بقدر قربه منه ومعرفته له "وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا" ويقولون في استغفارهم "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً" أي وسع علمك ورحمتك كل شيء فكل منها تمييز محول عن الفاعل "فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا" من عبادك من كفرهم وعصيانهم "وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ" القويم في الدنيا وآمنوا برسلك وكتبك فاعف عنهم يا مولانا "وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ 7" في الآخرة "رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ" على لسان رسلك يا ربنا ، هم "وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ" الغالب المنيع سلطانه البديع شأنه "الْحَكِيمُ 8" فيما يفعل الذي لا يقع في ملكه إلا ما هو مقتضى حكمته الباهرة .

ونظير هذه الآية بالمعنى الآية 21 من سورة الطور الآتية والآية 22 من سورة الرعد في ج 3 فراجعهما ،

(71/672)

ومنها يفهم أن مطلق الإيمان كاف لإلحاقهم بهم وإدخالهم الجنة ، لأن الإنسان متى ما وسم بالإيمان صار صالحا لدخول الجنة ولو لم يعمل شيئا ، وذلك من فضل الله بعباده "وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ" وأجرهم من عقابها بكرمك وجودك وإحسانك "وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ" الموجبة للعذاب وتمنعه من قربانها بفضلك وتوفيقك وهدايتك "يَوْمَئِذٍ" يوم إذ كان في الدنيا "فَقَدْ رَحِمْتَهُ" رحمتين رحمة في الدنيا من أن يوصم بها ، ورحمة في الآخرة بالنجاة من عقابها ووبالها .

واعلم أن لفظ السيئة عام في كل شيء يعمله الإنسان بنفسه أو بغيره مالا وبدنا مادة ومعنى من كل ما يطلق عليه لفظ قبيح وجميع الحركات الرذيلة والإشارات البذيئة "وَذَلِكَ" اتقاء السيئات في الدنيا والرحمة بالآخرة هو "الْفَوْزُ الْعَظِيمُ 9" في جوار الله تعالى في جنته فلا فوز أعظم منه ولا تصل العقول إلى كنه عظمته .

انتهى كلام الملائكة عليهم السلام وهو كلام جميل بديع جامع مانع محصور في جهتين التمجيد للرب وطلب المغفرة لأهل الإيمان .

قال مطرف : أنصح عباد الله تعالى للمؤمنين الملائكة ، وأغش الخلق لهم الشياطين .

وقد وردت أخبار كثيرة في وصف الملائكة والعرش ضربنا عنها صفحا لعدم الوثوق بصحتها ، ولأنهما في الحقيقة فوق ما يقولون ولا يعرف حقيقتهما وصفتهما على ما هما عليه إلا الله تعالى ، وما نقل من الأخبار لا قيمة له ، لأنهما مما لم يشاهد وما لم يشاهد لا

يوصف .

هذا ، وقد أخرج جابر عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة اللّه تعالى عزّ وجل من حملة العرش إن ما بين شحمتي أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمئة عام .

وروى جعفر عن محمد عن أبيه عن جدّه قال : ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية كخفقان الطير المسرع ثلاثين الف عام .

(72/672)

فما بالك ببقية الأوصاف التي ذكرها الأخباريون ؟ لأن العقل لا يسعها ، فعلى العاقل أن يكتفي بما وصف اللّه في كتابه من كونهم غلاظ شداد لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وأن العرش من عظم خلق اللّه ، وأن الملائكة أقوياء أشداء متناهون في العظمة ، وقدمنا ما عثرنا عليه من الأقوال الصحيحة في الآية 20 من سورة التكوير والآية 54 من سورة الأعراف والآية 4 من سورة طه والآية الأولى من سورة الإسراء في ج 1 والآية 6 من سورة هود المارة فراجعها .

هذا ، وقد جاء دعاء الملائكة شاملا وكأنها القائل :

إن تغفر اللهم فاغفر جمّا فأي عبد لك لا ألّما

أشار إلى دعائهم .

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ" يوم القيامة من قبل خزنة جهنم حين يضجون من المكث فيها فتقول لهم الملائكة "لَمَقْتُ اللَّهِ" لكم "أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ" والمقت البغض الشديد والبغض نفار النفس من الشيء ترغب فيه ، وهو ضد الحب وأشده لمن يراه متعاطيا القبيح من الأعمال ، فالكفار يمقتون أنفسهم من طول المكث في جهنم ، لأنها أمرتهم بالسوء الذي من أجله وقعوا فيها فيغضبون عليها ويغيظونها ويعضون أناملهم من الغيظ حتى يأكلونها وينكرون على أنفسهم بما قادتهم إليها شهواتهم على رءوس الأشهاد ، فعند ذلك تناديهم الملائكة كما قص اللّه عز وجل فتقول لهم "إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ 10" باللّه وتكذبون رسله تبعا لأهوائكم واقتداء بآبائكم ، فهذا جزاؤكم ، فيجاوبونهم بقولهم

"قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ" الموتة الأولى حينما أشهدهم على أنفسهم في عالم الذر وأخذ عليهم العهد بالإيمان به وبرسله ، راجع الآية 152 من سورة الأعراف في ج 1 ، ثم خلقهم بعد هذه الموتة التي كانوا بعدها في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات مستقرين ومستودعين ،

ثم أماتهم بعد انقضاء آجالهم في الدنيا ، والموتة الثانية في القبر بعد الإحياء للسؤال "وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ" الأولى في الدنيا بالولادة والظهور إلى عالم الظهور من دنيك المستودع والمستقر راجع الآية 99 من سورة الأنعام المارة ، قال الغزالي : الولادة الأولى الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم ، ثم تكون الولادة الثانية من الرحم إلى هذه الدنيا ، والحياة الثانية الإحياء للبعث في الآخرة ، ونظير هذه الآية الآية 29 من سورة البقرة فراجعها .

هذا ، وقد عدد في هذه الآية أحوال المحنة والبلاء أربعة : موت في عالم الذر وموت في الدنيا وحياة في الدنيا وحياة في الآخرة ، وكلها عرضة إلى المحن والبلايا ، وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على عذاب القبر وفسروا الحياة الثانية فيه والموتة الثانية

(74/672)

التي تعقب هذه الحياة ، وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية 46 من هذه السورة ، وقالوا أيضا لربهم "فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا" الآن وتبنا عما كنّا عليه في الدنيا "فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ 11" للرجوع إلى الدنيا لنعمل صالحا يا إلهنا لأنا عرفنا كل شيء كنا نكرهه وننكره أنه حق كالبعث وإنزال الكتب وإرسال الرسل والجنة والنار وغيرها والحساب والعقاب على

كل ذرة من الأفعال وكل حرف من الأقوال وكل حركة من الأطوار وكل فتيل ونفير وقطمير ، وتحقق لدينا أن الشرك باطل والأوثان لا تنفع وأن الملائكة وعزير وعيسى عباد اللّه تعالى ليس لهم من الأمر شيء ولا شفيع ولا شفاعة إلا بإذن اللّه لمن يريده ، وأن اللّه منزه عن الصاحبة والولد لا وزير له ولا شريك .

فقيل لهم لا طريق إلى الرجوع إلى الدنيا ولا سبيل إلى الخروج من النار "ذِلِكُمْ" الذي أوقعكم في العذاب وحرمكم من ثواب الآخرة منّى لكم الرجوع إلى الدنيا هو "بِأَنَّهُ" كنتم "إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ" به واشمأزت نفوسكم من ذكره "وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا" تصدقوا وتستبشروا ، وقد بلغتكم رسلكم مصيره وحذرتكم هول هذا اليوم الذي تخلدون فيه بما أنتم عليه من العذاب ، وليس بوسع أحد إجابة طلبكم ، ثم تقول لهم الملائكة أيضا قولوا كما نقول نحن لا مناص مما حكم اللّه به "فَالْحُكْمُ لِلَّهِ" في هذا اليوم العصيب "الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ 12" الذي لا أعلى ولا أكبر منه ، ولا رادّ لحكمه ولا معقب لقضائه .

مطلب احتجاج الحرورية ومعنى الروح وإعلان التفرد بالملك وإجابة الكل للّه به :

قيل كان الحرورية أخذوا قولهم لا حكم إلا للّه من هذه الآية ، قال قتادة :

لما خرج أهل حروراء قال علي كرم اللّه وجهه من هؤلاء ؟ قيل المحكمون أي القائلون لا حكم إلا للّه ، فقال رضي اللّه عنه : كلمة حق أريد بها باطل .

واستدلالهم هذا فاسد واه ، ويكفي الرد عليهم قوله تعالى (فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها) الآية 35 من سورة النساء ج 3 وقوله تعالى (يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ) الاية 95 من المائدة ج 3 ، فإذا كان جل جلاله أمر بالتحكيم لحل خلاف بين الزوجين وتقدير قيمة الحيوان المصاد أو مثله فلئن يأمر بالإصلاح بين المسلمين على طريق التحكيم من باب أولى وخاصة ما يتعلق بأمر الإمامة .

قال تعالى "هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ" الدالة على قدرته في كل شيء من مكوناته :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

(76/672)

قالا أو حالا "وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً" ماء هو نفسه رزق ، وفي الآية 5 من سورة الجاثية الآتية (مِنْ رِزْقٍ) لأنه أفضل الأرزاق وأحوجها للبشر ، ويتسبب عن نزوله جميع الأرزاق لجميع الحيوانات على اختلاف أجناسها وأنواعها وفصائلها شرابا وقوتا وفاكهة غطاء ووطاء ولباسا "وَمَا يَتَذَكَّرُ" في هذا الرزق الذي فيه حياة كل نام وبقاء كل جامد "إِلَّا مَنْ يُنِيبُ 13" إلى خالقه في جميع أموره ، فالخاشع الخاضع هو الذي يتذكر في تلك الآيات

الباهرات المبرهنة على وجود الخالق وصدق ما جاء به رسله ، ولذلك "فَادْعُوا اللَّهَ" أيها الناس حالة كونكم "مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ" من كل شك وريبة وشبهة ومرية "وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ 14" إنابتكم وإخلاصكم فلا تلتفتوا إليهم ، وألجئوا إلى ربكم ذلك الإله العظيم "رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ" المعارج المعظمة في غيوبه وفي صفات جماله وجلاله وكماله وهي مصاعد الملائكة إلى عرشه العظيم حين يعرضون إليه عليها وهو كناية في علو عزّته وشامخ ملكوته ورفعة شأنه وارتفاع سلطانه وسامي برهانه ، ورفيع وما بعده اخبار لقوله تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ) إلخ أو كل منها خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو رفيع ، وكلمة رفيع لم تكرر في القرآن "ذُو الْعَرْشِ" المجيد الذي وسع كرسيه السموات والأرض وهو الذي "يُلْقِي الرُّوحَ" التي هي "مِنْ أَمْرِهِ" ولم يعلم أحد ماهيتها ، أو الوحي المعبر عنه بالروح لما فيه من حياة الأرواح "عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ" الذين اصطفاهم لطاعته واجتباهم لرسالته ، وقال بعضهم إن الروح هنا جبريل عليه السلام (فتكون جملة من أمره) سببية ، أي يلقى الروح من أجل تبليغ أمره ، ولا يخفى أن الروح يطلق على معان كثيرة الروح المعلوم والقرآن وجبريل والوحي ، وكلها ينعم اللّه بها على عبادة المهتدين في تفهيم الإيمان والمعقولات الشريفة ، والكل جائز

هنا ، والأولى أن يكون بمعنى الوحي لمناسبته لما بعده ، والله أعلم .

وقد أسهبنا البحث في الآية 86 من سورة

الإسراء فراجعها في ج 1 "لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ 15" هو يوم القيامة إذ يتلاقى فيه الأولون والآخرون وأهل الأرض والسماء والأنبياء وأممهم والعابدون والمعبودون والظالمون والمظلومون والمتحابّون في الله ، فتراهم "يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ" ظاهرون للعيان لا يخفى أحد عن أحد ، لأن الله يعطي الخلق قوة الإبصار بحيث يرى بعضهم بعضا جميعا ، لا تحول رؤية أحد عن أحد ، ثم يتجلى عليهم بحيث "لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ" من أشخاصهم ، ولا من أحوالهم وأفعالهم ، كيف وهو المطلع عليهم في حين كونهم في الرحم إلى وقت وقوفهم بين يديه في الآخرة إلى ما بعد ذلك ، لا يعزب عن علمه ذرة مما عملوه في الدنيا وما يصيبهم مثلها في الآخرة وإنما خصّ يوم بروزهم وهو عالم قبل ذلك وبعده ، ولو اختفوا في أطباق الأرض أو في أقطار السماء ، لأنهم كانوا في الدنيا يتوهمون أنه لا يراهم إذا استتروا بالحجب وأنه قد تخفى عليه بعض أحوالهم ، أما اليوم فقد زال توهمهم وانمحق ظنهم ، لأنهم مكشوفون على وجه البسيطة التي لا عوج فيها ولا ارتفاع ، ثم يقول الله تعالى لجميع خلقه "لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ" فتخضع الخلائق إجلالا لهيبته وإعظاما لجلاله وخاصة ملوك الدنيا فإنهم ينحنون لعظمته ويطأطئون رءوسهم لجلاله حياء وخجلا لا يتكلم أحد منهم ، فيجيب الربّ نفسه بنفسه "لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ" 16 الذي قهر عباده بالموت وبعثهم قسرا للحساب والجزاء الذي لا

رب غيره .

وقيل إن أهل الموقف كلهم بلسان واحد يقولون للّه الواحد القهار ، فالمؤمنون على طريق التلذذ والتذكر والكافرون على جهة الذل والصغار .

(78/672)

وما قيل إن هذا النداء يكون بعد النفخة الأولى وفناء العالم ينافيه ظاهر الآية ، لأن التلاقي لا يكون إلا بعد النفخة الثانية ، والبروز يكون في المحشر ، والنداء يكون لحاضر يسمع لا لميت ، فبطل هذا القيل من ثلاث وجوه ، ويؤكد بطلانه الدليل الرابع وهو قوله عز قوله "الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ" في دنياها "لا ظُلْمَ الْيَوْمَ" على أحد منكم ، ولا يكون هذا إلا يوم الحساب إذ يحاسب فيه كل على ما عمل إن خيرا يكافى خيرا منه وإن شرا يجازى شرا بمثله ، الحقير والخطير والقوي والضعيف والغني والفقير سواء ، فليأمن الكل من الظلم لأن

الحاكم هو ملك الملوك وقاضي

القضاة الذي لا يبالي بأحد ولا يراعي أحدا "إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ 17" يحاسب الخلق كلهم بآن واحد محاسبة شخص واحد ، لا يشغله حساب أحد عن غيره ولا يلهينه جزاء

واحد عن الآخر ، كما لا يشغله شأن عن شأن .

انتهى خطاب اللّه لخلقه الذي سيخاطبهم به في الآخرة ، وقد أعلمهم به الآن ليكونوا على بصيرة من أمرهم فيتقوه ويحذروه ويخافوه .

ثم التفت إلى حبيبه محمد صلّى اللّه عليه وسلم فقال "وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ" القيامة سميت آزفة لقرب وقتها ، لأنها لا شك آتية وكل آت قريب ، ولا يبعد على اللّه شيء قال الشاعر :

أزف الرحيل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

(79/672)

أي لا تستبعدوها أيها الناس ، فإنها مباغتتكم وسترون من شدة هولها "إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ" تصعد قلوبهم إلى حناجرهم من شدة الفزع وكثرة الوجل فتكون في تراقيهم لا تعود لأماكنها فيستريحوا ولا تخرج من أفواههم فيموتوا حال كونهم "كَاظِمِينَ" مكروبين ممسكين أنفسهم على قلوبهم ممتلئين خوفا وجزعا ، لأن في ذلك اليوم "مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ" صديق شفوق أو قريب ودود أو حبيب رءوف يميلون إليه ، ولا يقدر أحد أن يحميهم ولو بكلام "وَلَا شَفِيعٍ" لهم في ذلك اليوم "يُطَاعُ" قوله أو يسمع كلامه لأن شفعاء الكفرة أوثان مهانة لا شفاعة لها وأنها قد تتبرأ منهم وتنكر عبادتهم لها ، وقد يأتي يطاع بمعنى يجاب

قال الشاعر :

رب من أنضجت غيظا قلبه قد تمنى لي موتا لم يطع

وعليه يكون المعنى ما لهم شفيع يجاب طلبه ، أي أن لهم أصدقاء وشفعاء ولكن لا يجاب طلبهم ، وفي تلك الساعة شفعاء المؤمنين أيضا لا يقدرون أن يشفعوا إلا لمن يأذن لهم بشفاعته ، فلا يتكلمون بالشفاعة لأحد إلا بإذنه ولمن يرتضيه سواء كانوا أنبياء أو أولياء أو شهداء أو أصدقاء وأقرباء صلحاء ، فالكل إذ ذاك سكوت لا يقبل قول ولا يسمع كلام ، إلا أن المؤمنين لهم أمل بالشفاعة من هؤلاء الكرام على اللّه تعالى وهو لا يخيب أملهم ، أما الكافرون فلا أمل لهم البتة ، لأن اللّه يهين أوثانهم التي كانوا يأملون شفاعتها ، فتتقطع أفئدتهم أسفا وأسى وحزنا .

واعلموا أيها الناس أن ذلك الإله الجليل الذي ستعرضون عليه في ذلك اليوم "يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ" استراق النظر من أحدنا إلى ما لا يحل ، فكل نظرة لما نهى اللّه عنه تسمى خائنة يحاسب عليها العبد ، ألا فليتق اللّه الإنسان وليصرف نظره عن المحارم إلى ما أحل اللّه والتفكر في ملكوته والتملي من كتابه ، ولا يستحسن إلا الحسن الجائز له أن يستحسنه ، قال بعض العارفين :

وعيني إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبها

لأن البكاء من خشية اللّه يطهر المساويء "وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ 19" يعلمه أيضا وما هو أخفى لاستواء السر والعلانية عنده ، فكل ما تضمره القلوب من خيانة أو غل أو غش أو حسد أو غيره يعلمه اللّه ، فافعلوا ما شئتم أيها الناس فهو لكم بالمرصاد "وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ" بينكم وبينه وبينكم وبين عباده وأعدائه ، لا رجاء ولا رشاء ولا مودة ولا مكانة ولا مال ولا جاه ولا منصب ولا عشيرة "وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ" أوثانا ويعبدونها بدله أو يشركونها معه بالعبادة "لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ" لدعاتهم ولا لعبادهم في ذلك اليوم وقد كانوا في الدنيا يقضون بينهم بحق وباطل بحسب ما تهواه أنفسهم ، أما اليوم فالحكم كله للّه ولا يكون إلا بالحق وهذا من قبيل التهكم فيهم ، لأن من لا يوصف بالقدرة لا يقال له يقضي أو لا يقضي ، وهذا أبلغ من جعل يقضي هنا من باب المشاكلة لأن القصد السخرية بهم لا الاستدلال على صلاحيتهم للإلهية والقضاء .

واعلم أنا قد نأتي بالضمائر في مثل هذا كضمائر العقلاء موافقة لزعم عابديها ، لأن القرآن العظيم أتى بمثل ذلك لهذا الفرض "إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ" لأقوال خلقه "الْبَصِيرُ 20" بأفعالهم فيكافيء كلا بما يستحقه بمقتضى عمله ، وفي الآية تعريض بأن أصنامهم لا تبصر ولا تسمع ولا تعلم ولا تقدر على شيء ،

قال تعالى "أَ وَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ" وكيف أهلكناهم وبقيت ديارهم خاوية "كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ" من قومك يا سيد الرسل "قُوَّةً" على تحمل المشاق والقتال وغيره "وَآثاراً فِي الْأَرْضِ" أيضا أكثر منهم لأنهم مكثوا فيها وعمروا أكثر منهم كما يعلم من المعالم المتروكة عنهم وأطلال ديارهم ،

(81/672)

و مع هذا كله فلم تغن عنهم قوتهم وتعميرهم من اللّه شيئا "فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ" التي عملوها ، فاعتبروا بهم وأقلعوا عما يوجب أخذكم ، فالعاقل من اعتبر بغيره "وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ 21" يقيهم عذابه أو يحول دون نزوله بهم "ذلِكَ" الأخذ الفظيع من قبل الإله العظيم "بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ" ليؤمنوا "فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ" بكفرهم وعدم طاعتهم أنبيائهم وعدم اكتراثهم بهم وبما أظهروه لهم من الأدلة الواضحة على وحدانيته "إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ 22" دائمه لا مخلص لأحد منه ولا مهرب لمن قدّر له منه ، وكل عقاب دون عقابه هين ، لأنه منته ولا نهاية لعقاب اللّه .

(82/672)

قال تعالى فيما يقصه على نبيه "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ" 23" "إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ 24" كرر اللّه تعالى هذه القصة لنبيّه بأوسع مما ذكرها قبل في سورة القصص في ج 1 وما بعدها وغيرها تسلية له لئلا يحزن على عدم إيمان قومه ولا يضجر مما وصموه به فإن قوم موسى جابهوه بأكثر مما وصمت قريش محمدا صلى اللّه عليه وسلم ولتكون له أسوة به فلا يجزع ، وليقف على ما فعلوه به عدا ذلك "فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا" لم يكتفوا بتكذيبه وإنكار معجزاته ورميه بالكذب والسحر بل "قالُوا" لقومهم "اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ" حتى لا يتابعه أحد ، ويتركوا دينه كما فعلوا بقومه ذلك قبل ولادته ورسالته ، فأبطل اللّه كيدهم وقال "وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ 25" لأن الطريقة التي اتبعوها أولا كانت بقصد موسى ، وقد حفظه اللّه منهم حتى ربّاه في داره ، فعودهم إليها الآن بقصد التخلي عنه وعدم إيمان أحد به ، ورجوع قومه إلى دينهم لا يغني عنهم من تنفيذ قضاء اللّه بإبقائهم مؤمنين واستخلاصهم من قبضة فرعون وقومه ، كما لم تغن أعمالهم الأولى من قتل موسى ، إذ حفظه اللّه ونجاه من كيدهم .

مطلب قصة موسى مع فرعون واستشارة فرعون قومه بقتله ومدافعة مؤمن آل فرعون عنه :

ثم ذكر اللّه تعالى ما كان يضمره فرعون لموسى عليه السلام وهو "قالَ فِرْعَوْنُ" لوزرائه وخاصته وحاشيته "ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ" ليمنعه مني وذلك أنه كان مصممّا على قتله وكلما أراد تنفيذ ما صمم عليه يكفونه عنه خوف سوء السمعة لئلا يقول الناس إنه عجز عن معارضته بالحجة فقتله.

(83/672)

وهذا قول حق قد أنطقهم اللّه به ليحفظ اللّه موسى من القتل تنفيذا لوعده بذلك المار في الآية 45 من سورة طه والآية 25 من سورة القصص المارتين في ج 1، وقد نصحوا ملكهم بهذا، وهكذا الوزراء الذين يحرصون على سمعة ملكهم يشيرون عليه بكل ما يحفظ سمعته من الشوائب.

على أن فرعون لا يقدر على قتله لو وافقوه عليه، لأن اللّه تعالى حافظه ومنجز وعده له بإهلاك فرعون واستخلاص قوم بني إسرائيل منه، والخبيث فرعون يعرف يقينا بدهائه وذكائه أن موسى نبي مرسل من اللّه وأنه لا يستطيع إيقاع أي شيء به، وأنه سيهدم ملكه، ولو هم بقتله لعاجله اللّه بالهلاك، قبل أن يمسه اللّه بسوء.

ولذلك لم يجرؤ عليه، وإلا فهو السفّاك للدماء بأقل شيء، وإنما كان يهدد تهديدا رغبة

بامتداد أجله ويموه على قومه بما يقول وليظهر أنه قادر على قتله وقال لهم بما يستعجلهم لموافقته "إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ" السوي الذي أنتم عليه ويغير سلطانكم ويستذلكم فيتفوق عليكم "أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ 26" الهيجان بسبب ما يدعو إليه فيكثر القتل وتتعطل معايش الناس ومصالح الدولة ، ولهذا أريد أن توافقوني على قتله ، قاتله اللّه على هذا التمويه ، إذ ما هو عليه ليس بدين يرتضى حتى يخاف على تبديله ، وهل على وجه الأرض أفسد منه في زمانه حتى يخاف الفساد ، ولكن حب الرئاسة حبذّ له بيع الباقية بالفانية ، وحمله على ذلك .

ولما سمع موسى قوله ورأى ما هو عازم عليه قال ما أخبر اللّه عنه بقوله عز قوله "وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ 27" مخاطبا قومه عليه السلام بالتجائه إلى ربه مما توعده به فرعون ، كما أن فرعون خاطب قومه بما أراده فيه محتجا بما ذكره من الترهات ، وإنما قال (لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ) لأن فرعون وقومه لا يعتقدون وحدانية اللّه ، فجاهرهم بذلك .

ونظير هذه الآية الآية 121 من سورة الأعراف المارة في ج 1 ، ولما كان مؤمن آل فرعون المار

ذكره في الآية 7 من سورة القصص المارة في ج 1 ، يسمع قول فرعون وآله وقول موسى عليه السلام ، أخذته الأريحية ، فانتبهت مروءته "وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ" بموسى وربه من يوم ألقي في البحر ، راجع قصته في الآية المذكورة آنفا من القصص "أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا" أيها الناس بسبب "أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ" استفهام إنكار بتعجب لأن مثل هذا ينبغي أن يتّبع لا أن يقتل ، وكيف تقتلونه "وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ" اليد والعصا وإزالة العقدة وإفحام السحرة "مِنْ رَبِّكُمْ" برهانا واضحا على صدق دعوته وفي قوله رحمه اللّه (مِنْ رَبِّكُمْ) بعث لهم على أن يقتدوا به بالكفّ عن تعرضه فيما يدعيه "وَإِنْ يَكُ كاذِباً" كما تزعمون "فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ" لا يلحقكم من وباله شيء "وَإِنْ يَكُ صادِقاً" وكذبتوه بما جاءكم عنادا لا بد "يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ" به من العذاب إن لم يحل بكم كله .

وهذه على طريقة التقسيم في بديع الكلام ، أي الأمر لا يخلو من أحد هذين الأمرين وكان أوعدهم بعذاب الدنيا والآخرة ، وعليه يكون المراد بالبعض هنا عذاب الدنيا ، لأنه مهما عظم فهو جزء قليل من عذاب الآخرة ، وقد تأتي بعض بمعنى الكل ، قال عمرو القطامي :

قد يدرك المتمني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

ولعلها التأني بدليل مقابلتها بالمستعجل .

وقال :

إن الأمور إذا الأحداث دبرها دون الشيوخ ترى في بعضها خللا

وقال الآخر :

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

(85/672)

أي لا أزال أترك ما لم أرضه من الأمكنة إلا أن أموت ، والأولى حملها على ظاهرها ، لأن هذه الشواهد ليست بقوية لإمكان حمل بعض منها على ظاهرها ، هذا ، وقد أراد بخطابه فرعون ووزراءه وحاشيته الذين استشارهم بقتل موسى ، وقد سلك رضي اللّه عنه في كلامه هذا غاية في المداراة ونهاية في الإنصاف بتوفيق اللّه له وهدايته للإيمان "إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ 28" وهذه الجملة أيضا فيها مجاملة ومجاهلة ، لأن ظاهرها الذي يريد أن يفهمه لهم هو إن

كان موسى متجاوزا الحد في دعواه ، فإن اللّه يخذله فتخلصون منه دون أن تقتلوه ، وباطنه وهو الذي يريده أن فرعون باغ متجاوز الحد كثير الكذب وأن اللّه لا بد أن يخذله وتتخلص منه ، فلا توافقوه على قتل موسى .

ثم قال رضي اللّه عنه مذكرا لهم ما هم عليه من النعم ومهددا لهم بزوالها إن لم يطيعوه "يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ" على غيركم "فِي الْأَرْضِ" وقاهرين أهلها وغالبين على من فيها "فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ" عذابه بسبب إقدامنا على قتله "إِنْ جاءَنا" ولا راد له حينئذ ، أي لا تتعرضوا له فتكونوا عرضة إلى عذاب اللّه الذي لا يمنعنا منه أحد إذا نزل بنا .

(86/672)

انتهى كلام المؤمن آمننا اللّه وإياه من عذابه ثم "قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ" ما أشير عليكم يا قوم "إِلَّا ما أَرى" لنفسي من النصح "وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ 29" طريق الصلاح برأيي الصائب الذي لا أدخر منه شيئا ولا أسر غير ما أظهر وإني لا أستصوب إلا قتله لما فيه من المصلحة العامة لكم ولملككم ، وان ما ترونه من خلافي فهو خطا وستعلمون ذلك ، قاتله اللّه لو عرف سبيل الرشاد لآمن به ولكنه عديم الرشاد لأن اللّه بعثه رحمة له ولقومه فأبى قبولها ولما لم يتعرض لقول المؤمن لأنه لا يعرفه مؤمنا بموسى وهو يسمع كلامه ، انبعثت فيه الغيرة وخاف أن تتفق الكلمة على قتله لما ذكر لهم فرعون من مصلحة بقاء الملك فقوى عزمه وأخذ بالعزيمة وبادر يرد عليه بما يخوفه فيه سوء العاقبة فقال فيما يحكيه عنه ربه

"وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ" إن أجمعتم على قتله هلاكا عاما يستأصلكم "مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ 30" الأمم الذين تحزبوا واجتمعوا على رسلهم

"مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ" إذ عمهم اللّه بالغرق "وَعادٍ" إذ أهلكهم اللّه بالريح العقيم "وَثَمُودَ" دمرهم اللّه بالصيحة "وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ" أهلكوا كذلك بعذاب من عند اللّه فكان لكل يوم دمار قوم، والمراد باليوم الأيام، وإنما لم يجمع لأن جمع الأحزاب المتضمن طوائف مختلفة زمانا ومكانا وعنصرا اغنى عن جمع اليوم "وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ 31" فيعذبهم بغير ذنب، ولكنهم أرادوا الظلم فظلموا فدمرهم اللّه، ونحن يا قومنا نخشى إن أردنا قتل هذا الرجل أن يصيبنا مثل ما أصابهم.

ولما رآهم أصغوا لكلامه

(87/672)

تلبس بالجزم طلبا للكف عما أشار به فرعون، وأملا بإيمان قومه، فبادرهم بأمر الآخرة بعد أن لم ينجح معهم التهديد بأمور الدنيا، فقال "وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ 32" يوم القيامة سمي بذلك، لأن الناس تتنادى فيه كما حكاه اللّه تعالى في الآية 47 من سورة الأعراف ج 1، وينادى فيه سعد فلان وشقي فلان، وينادى بخلود أهل النار وخلود أهل

الجنة ، ويقول المؤمن (هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ) ويقول الكافر (يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ ، وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ) كما سيأتي في سورة الحاقة الآتية ذلك اليوم الذي يتبرأ فيه الناس من آبائهم وأمهاتهم "يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ" عن موقف الحساب متجهين إلى موقع العذاب "ما لَكُمْ" في ذلك اليوم المهول الذي يبرأ فيه الوالدان من أولادهم "مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ" يقيكم من عذابه ، لهذا فإني أقول لكم يا قوم إن أصررتم على قتله ضللتم "وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ 33" يهديه البتة ، وهذا تخويف لهم بالعذاب الأخروي الدائم بعد أن حذرهم العذاب الدنيوي الفاني ، وبعد أن أيس من إيمانهم وقبولهم نصحه بالكف عنه ، ورأى الوزراء والحاشية غير مبالين بذلك ، لأن ملكهم يريد قتله لمصلحتهم ولم يروا أنهم يخالفونه بعد أن بث لهم نصحه من أنه لا يريد لنفسه إلا ما يريده لهم من الخير لأنهم رأوا أنفسهم مخطئين قبلا حين استشارهم بقتله أول أمره ، وقالوا (أَرْجِهْ وَأَخاهُ) أما الآن وقد استفحل أمره وتبعه بعض قومه فلم يقدروا أن يصرحوا له بعدم قتله خوفا من أن يجابهم باللوم والتعنيف على ما سبق منهم وأنهم السبب في إبقائه لاتباعه رأيهم ، وخافوا أن يفاجئهم فيبين لهم سوء رأيهم وخطأ تدبيرهم ، ولربما أن يستفحل أمره أكثر من ذي قبل فيعجزون عن مقابلته ويصيرون سببا لضياع الملك ، إلا أنهم لم يقدروا على مجابهة المؤمن بما داهمهم به من التهديد

بسوء العاقبة لأنه لا يقابل بباطل فجنحوا عنه وأطرقوا والتزموا السكوت ، فقوي جنان المؤمن وطفق يونجهم على ما وقع من آبائهم الأولين من تكذيب الرسل ، فقال "وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ" بن يعقوب ابن إبراهيم "مِنْ قَبْلُ" مجيء موسى بن عمران هذا المتصل نسبه به "بِالْبَيِّناتِ" الواضحات كتعبير الرؤيا والإخبار بالغيب ، وحفظ أهل مصر من الهلاك بالقحط بما

ألهمه اللّه من التدبير ، وقد مكث عليه السلام أربعا وعشرين سنة يدعوهم إلى اللّه تعالى وتوحيده وأن يتركوا أوثانهم بما قد حكى اللّه عنه في الآية 37 من سورته المارة ، لأنهم كانوا عبدة أوثان وقوم فرعون كذلك ، لأنهم على أثرهم وزادوا عليهم عبادة فرعون لقوله (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى) كما سيأتي في الآية 25 من النازعات الآتية أي على هذه الأصنام التي هي أربابا ، لأنه كان يأمرهم بنحت الأصنام وتصويرها وعبادتها ، وأنه يرى نفسه فوقها ، لذلك ادعى تلك الدعوى الفاغمة التي لم يدعها أحد قبله إلا أخوه نمروذ الذي أنكر وجود الإله العظيم وأظهر لهم أن لا إله إلا هذه الأصنام ، وأنه ربها وربهم ، وزاده هذا الخبيث بما وصف به نفسه من العلو قال تعالى فيما يحكيه عن تذكير ذلك المؤمن الصادق الحازم موبخا لهم صنيعهم الأول بقوله "فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ" من الدعوة لتوحيد اللّه وترك الأوثان ، لأنكم لا تزالون تعبدونها وظننتم أن يوسف ملك لا نبي ولم تنتفعوا بهديه "حَتَّى إِذا

هَلَكَ" يوسف عليه السلام "قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا" فأقمتم على كفركم ولم تصدقوه ، وهكذا جاءكم موسى نبيا مثله فكذبتموه أيضا وأصررتم على ضلالكم "كَذَلِكَ" مثل ضلالكم الأول الواقع من أسلافكم والضلال الثاني الحادث منكم "يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ" في العصيان "مُرْتَابٌ 34" شاك في أمر النبوة .

(89/672)

واعلموا يا قومي ان المتجاوزين الحد في الطغيان الشاكين في الدين القويم هم "الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ" بغية تكذيبها و

رغبة في إبطالها "بِغَيْرِ سُلْطانٍ" لديهم وحجة يحتجون بها وبرهان يدافعون به ودليل "أَتاهُمْ" من اللّه العظيم فهؤلاء "كَبُرَ" جدالهم هذا وعظم "مَقْتاً" بغضا شديدا "عِنْدَ اللَّهِ" رب الأرباب على الحقيقة "وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا به" يكبر ويعظم أيضا ، لأن المؤمن من يتخلق بأخلاق اللّه "كَذَلِكَ" مثل ما طبع اللّه على قلوب المكذبين قبلا ، فجعلها لا تعي الحق ولا تهتدي لسلوكه "يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ" بالكسر وينوّن "مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ 35" منكم وممن يعمل عملكم ويقتفي أثركم ، وإنما خص القلب لأنه عمود البدن فإذا قوي قوي سائره وإذا ضعف ضعف باقيه ، وإذا فسد فسد الجسد كله وإذا صلح بنور

الحكمة وفقت الأعضاء لكل حسن من قول أو فعل .

ولهذا خص القلب بهاتين الخصلتين ووصفه بهما ، لأنه منبع الكبر والجبروت ، كما أنه معدن الخصال الحسنة ، فهو الكل بالكل فلم يرد فرعون ولا قومه على هذه الآيات البينات التي جمع فيها هذا المؤمن الغيور فأوعى ، لأنها حجج داحضة قاطعة وبراهين لامعة ساطعة قامعة ودلائل باهرة وامارات واضحة بالغة لا جواب لها إلا القبول ممن أراد اللّه له القبول والسكوت ممن أراد اللّه له الهلاك ، وإن فرعون خاصة يعلم أن ما جاء به هذا المؤمن الذي لم تأخذه في الحق لومة لائم ، ولم يخش فيه إلا اللّه حقا لا مرية فيه ، فلما غشيهم السكوت التفت فرعون إلى رأس وزرائه وخاطبه بقوله كما قصّ اللّه عنه :

مطلب بناء الصرح وسببه والقول السائد ما اتخذ اللّه وليا جاهلا ولو اتخذه لعلمه :

(90/672)

"وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً" قصرا عاليا مرتفعا في السماء ظاهرا المرائي على بعد ، وقد مرّ بيانه في الآية 38 من سورة القصص في ج 1 فراجعه تعلم ماهيته وما فعل اللّه به "لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ 36" ثم بين هذه الأسباب العظيمة فأبدل منها "أَسْبابَ السَّماواتِ" يريد أطرافها وأبوابها وكل ما أداك إلى الشيء فهو سبب كالرشاء الحبل

الموصل إلى الماء في غور البئر "فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى " نصب الفعل لجواب الترجي وهو جائز عند الكوفيين كالتمني ولم يجزه البصريون ، وخرجوا نصب الفعل هنا على أنه جواب للأمر وهو (ابن) وعليه قوله :

يا ناق سيري عنقا فسيحا إلى سليمان فتستريحا

أي سيري فتستريح ، قال تعالى حاكيا قول هذا الخبيث "وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا" فيما يدعيه من أن له ربا سواي ، بل هو الكاذب قبحه اللّه وأرداه ، قالوا إنه أراد بهذا البناء الرفيع رصد أحوال الكواكب التي هي أسباب تدل على الحوادث الأرضية ، فيرى هل فيها ما يدل على رسالة موسى ، لأنه كان حزاء يعرف في النجوم ، وهذا يدل على أنه كان معترفا بوجود اللّه تعالى ، ومما يؤيد اعترافه باللّه محاورة المؤمن له ولقومه المارة والآتية وعدم ردّه عليه هو وقومه ، وكان اقتصارهم على أمر قتل موسى وعدمه مع الصفح عما يتعلق بالآلهة دليل على اعترافهم بالإله العظيم ، إذ ما من أحد إلا ويعترف بوجوده ، قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

(91/672)

الآية 26 من سورة لقمان المارة وهي مكررة كثير في القرآن بألفاظ مختلفة والمعنى واحد ، وهو نسبه كل شيء للّه "كَذَلِكَ" مثل هذا التزيين والصد البذيين "زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ" فانهمك فيه انهماكا لا يرتدع عنه "وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ" السوي الموصل إلى اللّه وصد قومه عنها فضل وأضلهم ومنعه اللّه من تنفيذ ما كاده لموسى "وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ 37" دمار وفساد وهلاك ، ولما رأى المؤمن وجوم فرعون وقومه تجاه ما أسمعهم من التحذير والتهديد وضرب المثل فيمن قبلهم قويت شكيته فكر عليهم بالنصح والإرشاد والترغيب فيما عند اللّه تعالى لمن آمن به وصدق رسله ، وصرح لهم بإيمانه باللّه وحده والدار الآخرة بما ذكر اللّه عنه وهو "وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ" فيما عرضته عليكم من الهدى ودللتكم عليه من طرق الرشاد المؤدية للخير والسداد "أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ 28" الحقيقي الموصل إلى اللّه لأن الطريق الذي يريدكم فرعون عليه هو طريق الفساد لا الرشاد وهو من أسماء الأضداد وهو يعلم ذلك إلا أن توغله في حب الرياسة وتمحضه في الأنانية والعناد وانهماكه في الشهوات أدى لتصلبه في الأمر وللتمويه عليكم في القول وليغريكم فيما يسرده عليكم لاستدامة استعبادكم وامارته عليكم فأطيعوني ، وأنا الناصح الصادق البار بكم ، أن تؤمنوا بموسى الذي جاء بما جاء به يوسف قبل الذي خلص أهالي مصر وغيرها من الهلاك المادي والمعنوي ، وإن موسى سيخلصكم أيضا من محن الدنيا وعذاب الآخرة إذا آمنتم به ، والرشاد نقيض الغي وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون هو طريق الغي ،

لأن غايته التنعيم بالدنيا الفانية وأنه يريدهم للآخرة الباقية ونعيمها الدائم ، وشرع يذم الدنيا ويصغرها بأعينهم فقال "يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ" يسير يتمتع بها أياما قليلة ثم تنقطع "وَإِنَّ

(92/672)

الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ 39" الأبدي الذي لا يزول فاعملوا لها لتنالوا نعيمها فهو باق لا يزول أبدا واعملوا يا قوم خيرا إن "مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً" في هذه الدنيا "فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها" سوءا في الآخرة غير جزاء الدنيا "وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ" في الآخرة جزاء

عملهم الحسن "يُرْزَقُونَ" من النعم الجسيمة والخيرات العظيمة "فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ 40" رزقا واسعا بلا تبعة ولا تقتير ولا إسراف ولا تقدير بمقابلة العمل بل أضعافا مضاعفة فضلا منه ورحمة ، وفيها إشارة إلى عظيم فضل اللّه وشرف ثوابه ومزيد عطائه

(93/672)

"وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ 41" في هذه الآية طلب منهم أن يوازنوا بين ما يدعونه إليه من اتخاذ الأوثان الموصلة إلى النار أندادا لله – تعالى عن ذلك – وبين دعوته لهم إلى دين الله الموصل إلى الجنة ليتفكروا في هاتين الدعوتين ويميزوا بينهما ويعرفوا ثمرة كل منهما ، ولهذا قال لهم "تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ" أنه إله وإني لا أعلم إلها غير الإله الواحد الحق "وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ 42" لمن أناب إليه ، ذكر لهم صنفين عظيمين من صفات الله تعالى الذي يدعوهم لعبادته بأنه منيع غالب قوي الجانب لا يقابل ولا يغالب ، فمن التجأ إليه أوى إلى ركن شديد لا يقدر أحد أن يتسلط عليه ، وأنه كثير المغفرة لمن يرجع إليه فلا يهولن من يأوي إليه كثرة ذنوبه وعظيم خطأه فإنه يسترها له مهما كانت ، وهو واسع المغفرة ، وهذا مما قذفه الله في قلب هذا المؤمن الكامل من نور الإيمان والمعرفة ، فجعله ينطق بالحكمة توا ، إذ أبدل جهله علما وكفره إيمانا وجبنه شجاعة ، ومن هنا قيل : ما اتخذ الله من ولي جاهلا ولو اتخذه لعلمه "لَا جَرَمَ" حقا "أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ" من البقاء على دينكم وعبادة الصنم الذي "لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ" مقبولة "فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ" لأنه لا ينطق حتى يدعو الناس لعبادته ومن لا يقدر على النطق لا يجيبه أحد ، وإن من حق المعبود أن يدعو العباد لعبادته ، فإذا لم تكن له دعوة مجابة في الدنيا فمن باب أولى أن لا تكون له في الآخرة ، ولهذا عطفها عليها ، لأنها فضلا عن أنها لا تجيب

عابديها فيها فإنها تتبرأ منهم وتنكر عبادتهم حينما يؤهلها اللّه للنطق لهذه الغاية "وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ" جميعا نحن وأنتم "وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ" المتجاوزون حدود اللّه في

(94/672)

استرقاق عباده السفاكين لدماء الأبرياء الغاصبين أموالهم بغير حق ، فكأنه رحمه اللّه أراد أن يختم كلامه بما افتتحه وهو (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ) فقال وإن المسرفين في القتل وغيره

من سائر المحرمات "هُمْ أَصْحابُ النَّارِ 43" لا غيرهم لأن كل متجاوز حدود اللّه بالقتل والكفر والشرك والفواحش ومات مصرا عليها فهو من أهل النار ، كما جاءت به الآيات والآثار .

(95/672)

ولا يقال هنا إن اللّه لا يحدد عليه ، فله أن يعفو عن أمثال هؤلاء ويدخلهم الجنة ، وله أن يدخل من أهل الجنة النار لأنه جل ذكره لا يسأل عما يفعل ، ثم ضربهم بآخر سهم من

كنانته فقال "فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ" الآن يا قوم غدا إذا لم تؤمنوا بربي وتسمعوا رشدي عند معاينتكم العذاب في الآخرة ، وتندمون ولات حين مندم ولا ذكرى أقول لكم قولي هذا "وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ" وحده ، فإذا أردتم أن توقعوا بي شرا بعد نصحي إليكم فهو لا بد منقذي منكم ، ولهذا فلست بسائل عن وعيدكم وتهديدكم ، فافعلوا ما شئتم ، وذلك لما أطال عليهم وجاهرهم بإيمانه هددوه بالقتل أيضا إن لم يقلع عما يقوله لهم فأجابهم بأنه قد أدى ما هو واجب عليه وأنه لا يبالي بهم لأنه معتمد على اللّه ، ولهذا ختم مجادلته بقوله "إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ 44" يعلم المحق من المبطل وما يؤول إليه أمري وأمركم فهموا به ليأخذوه فهرب من بين أيديهم وأعماهم اللّه عنه فطلبوه فلم يجدوه وذلك قوله تعالى "فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا" فحال دون وصولهم إليه وحفظه من مكرهم وأذاهم "وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ 45" وذلك بعد أن هرب موسى بني إسرائيل ولحق بهم فرعون وجيشه حتى وصلوا إلى البحر وتراءوا وكان ما كان كما بيناه في الآية 53 من سورة الشعراء في ج 1 فراجعه ، فكان عذابهم الدنيوي بالغرق ، ولعذاب الآخرة أشد كما سيتلى عليك بعد هذا ، ومن قال إن هذا المؤمن هو موسى قول لا قيمة له فهو أوهى من بيت العنكبوت ، وكأن هذا القائل استكثر على هذا المؤمن أن يقع منه مثل هذا ولم يدر أن نظرة من بحر جوده تقلب المريض صحيحا ، والأبكم فصيحا ، والمجرم بريئا ، والكافر وليا

، والفاجر بارا ، والرجس طاهرا ، قال تعالى معرضا بعذاب آل فرعون الأخروي بعد أن ذكر عذابهم الدنيوي في الآية 130 من سورة الأعراف المارة في ج 1 بقوله عز قوله "النَّارُ

(96/672)

يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا" و

هذا العرض يكون لهم في البرزخ بعد الموت ، هو غير

عذاب الآخرة بدليل قوله تعالى "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ" يقال لخزنة جهنم "أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ 46" أعظمه وأكبر أنواعه وأفظع ألوانه وأقبح أشكاله ، ومنه إراءتهم أمكنتهم في الجنة لو كانوا مؤمنين ثم زجهم في النار حتى وصلوا إلى قعرها .

مطلب عذاب القبر ومحاججة أهل النار وبقاء النفس والدجال :

روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشية إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك للّه إليه يوم القيامة .

وفي هذا دليل ظاهر على بقاء النفس وعذاب القبر في البرزخ لا غبار عليه ، لأن المراد من

العرض في الآية والمقعد في الحديث هو برزخ القبر لا غير ، ولأن البعث يكون منه ، ولا يراد منه وجوده في الدنيا ، لأنه لم يكن حاصلا فيها ، ولا يقال إنه خاص بآل فرعون لأنه إذا ثبت في حقهم ثبت في غيرهم ، إذ لا قائل في الغرق ، تدبر .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبيد بن حميد عن هذيل بن شرحبيل أن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تغدو وتروح على النار ، فذلك عرضها .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن مسعود نحو ذلك ، وهذه الطير صور يخلقها اللّه تعالى من صور أعمالهم كما يخلق لتمثيل أرواح الشهداء طيرا خضرا ترتع في الجنة لتنعم في البرزخ قبل نعمة الآخرة .

ويؤيد هذا ، الحديث الوارد ، القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار .

وأحاديث أخرى في هذا المعنى ، وهذا البحث صلة في الآية 24 من سورة نوح الآتية إن شاء اللّه ، واللّه على كل شيء قدير .

(97/672)

ومما يشهد لهذا ما أخرجه ابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهما عن أبي هريرة أنه كان له صرختان في كل يوم غدوة وعشية كان يقول أول النهار ذهب الليل وجاء النهار

وعرض آل فرعون على النار ، ويقول أول الليل ذهب النهار وجاء الليل وعرض آل فرعون على النار ، فلا يسمع أحد صوته إلا استعاذ بالله تعالى القائل عز قوله "وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً" في الدنيا "فَهَلْ أَنْتُمْ" الآن "مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً" حصة وجزءا "مِنَ النَّارِ 47" بأن تدفعوا عنا ألمها ولو ساعة لقاء ما كنا نخدمكم في الدنيا وننقاد لأمركم بمخالفة الرسل "قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا" لأتباعهم المستضعفين "إِنَّا كُلٌّ فِيهَا" فلا نستطيع أن ندفع عن أنفسنا فكيف يمكننا أن نتحمل عنكم قسما من عذابها فاسكتوا "إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ 48" ولا راد لحكمه ولا دافع لقضاءه "وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ" لما اشتد عليهم البلاء فيها هلم "ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ 49" لنستريح فيها من ألمها المبرح "قَالُوا" لهم "أَ وَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ" وينذرونكم أيها الكفرة لقاء يومكم هذا ويحذرونكم وباله ؟ "قَالُوا بَلى" جاءونا ونصحونا وخوفوها هول هذا اليوم وعذابه ولكنا كذبناهم "قَالُوا" لهم "فَادْعُوا" أنتم لأنفسكم لا ندعو لكم نحن لأنكم لا عذر لكم بعد أن بلغكم الرسل ذلك ، ولم تصغوا لإرشادهم .

قال تعالى قاطعا لأطماعهم "وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ 50" لا يسمع ولا يجاب لأنه عبث باطل دعوا أو لم يدعوا ،

ثم ذكر ما يغيظهم ليزدادوا غما فقال "إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" بإعلاء كلمتهم على مجادليهم وتوفيقهم إلى الحجج الظاهرة والبراهين القاهرة والدلائل الباهرة مع النصر الفعلي على أعدائهم في الدين كما نوهنا به في الآية 103 من سورة يونس والآيتين 172/ 173 من سورة الصافات المارات وله صلة في الآية 47 من سورة الروم الآتية "وَ" إنا نحن الإله القادر كما ننصرهم في الدنيا سننصرهم "يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ 51" من الحفظة والأصفياء والكتب وغيرها فيشهدون على الأمم بما فعلوا في الدنيا وتكذيبهم للرسل وفيه تشهد الأمم الصالحة للرسل على أنهم بلغوا أممهم فكذبوهم ويكون لهم هذا النصر أيضا "يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ" لأنهم اعذروا في الدنيا بالإنذار من قبل الرسل والدنيا هي محل قبول العذر ، أما الآخرة فلا اعتذار فيها ولا إنذار بل يكون لهم فيها التوبيخ والتقريع واللوم "وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ" أيضا وهي الطرد من رحمة اللّه والبعد عنه "وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ 52" جهنم وبئست الدار هي .

ولفظة يوم الأخيرة بدل من

الأولى لأنه حال قيام الأشهاد لا تنفع المعاذير ، قال تعالى "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى" بجميع وسائله "وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ 53" ليهتدوا به ويعملوا بمقتضاه بحياته وبعد وفاته لأنا جعلناه "هُدًى" للناس ، لأن التوراة المعبر عنها بالكتاب هنا أجمع كتاب أنزل من بدء

الخليقة حتى نزول القرآن العظيم ، لأنه الجامع لكل ما في الكتب المتقدمة عليه "وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبابِ 54" يتذكرون بها ، لأن ذوي القلوب الواعية هم أهل التذكر والتفكر فيها ، وعلى هذا فإن قومه لم يعملوا بها ومن عمل منهم بها كان مرغما ، وقد هجروها من بعده ولم يتقيدوا بوصاياها وأهملوا أحكامها وغيروا وبدلوا قسما منها .

(99/672)

ثم التفت إلى حبيبه محمد وخاطبه عزّ خطابه بقوله "فَاصْبِرْ" يا سيد الرسل على أذى قومك وتحمل جفاهم ولا يهمنك عدم سماعهم لقولك وما تتلوه عليهم من كتابك ، فقد صبر قبلك الرسل إخوانك على أقوامهم حتى أتاهم الوقت المقدر لعذابهم ، وأنت اصبر إلى أن يحين عذابهم الذي وعدناك به "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ" بإظهار دينك وإعلاء كلمتك ونصرتك عليهم وإهلاكهم "حَقٌّ" منجز لا يخلف عن موعده المقدر له "وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ" الذي تراه ذنبا بالنسبة لمقامك ، وإن لم يكن ذنبا بالنسبة لأمتك كترك ما عمله أولى وأفضل ، وهذا من قبيل التعبد لزيادة الدرجات له صلّى اللّه عليه وسلم ولتستنّ أمته بذلك ، وقدمنا بأن الذي يعد ذنبا على الأنبياء هو من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وأوضحنا ذلك في الآية 65 من سورة الزمر المارة وغيرها ، وهذا الاستغفار أحد قسمي الطاعة وهي

التوبة عما لا ينبغي فعله ، والقسم الثاني الاشتغال بما ينبغي فعله ، وهو قوله تعالى قوله "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ 55" بعد التوبة لأن التوبة من قبيل التخلية ، والتسبيح بعدها من قبيل التحلية ، والتحلية تكون عادة بعد التخلية .

مطلب الآيتان المدنيتان وعصمة الأنبياء وكلمات لغوية والدجال ومن على شاكلته :

وهاتان الآيتان المدنيتان من هذه السورة ، قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ" وهم كفار اليهود الجهلة فهم "إِنْ فِي صُدُورِهِمْ" مما يجادلون به ما هو "إِلَّا كِبْرٌ" في نفوسهم حملهم عليها وانهم مهما تعاظموا

(100/672)

"ما هُمْ بِبالِغِيهِ" أي ذلك الكبر الذي يتوخونه بقصد الترؤس على غيرهم والتعالي عليك يا أكرم الرسل ، فأنت أكبر مما يراد بك من كبر وتعاظم "فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ" من كيدهم ومجادلتهم الباطلة والتجئ إلى ربك من مكر من يريد بك المكر وما جدالهم إلا حسدا على ما أولاك الله من النعم الكثيرة الدائمة في الآخرة "إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ" لما يقولون فيك "الْبَصِيرُ 56" لما يريدونه من البغي عليك وهو حافظك من كل ما يتوقعونه به .

وسبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا لحضرة الرسول إن صاحبنا المسيح بن داود يأتي

آخر الزمان فيبلغ سلطانه البر والبحر ويرد الملك إلينا وأنه يكون منهم ويفعل ما يفعل وهو آية من آيات اللّه ، وجادلوه مجادلة بغير حق ، لأن المسيح هو عيسى عليه السلام بن مريم الذي كذبوه وأهلوه وأرادوا قتله ، ففداه اللّه بالمنافق يهوذا كما سيأتي في الآية 157 من سورة النساء في ج 3 ، ولكنهم يريدون الدجال ممسوح العين اليمنى لأنهم من أتباعه وسيخرج آخر الزمان لإغراء الناس فيقتله السيد عيسى بن مريم ، إذ يكون نزوله إلى الأرض زمن خروج الدجال كما يأتي تفصيل هذا في الآية 61 من سورة الزخرف الآتية ، قال أبو العالية هذا الأمر من اللّه لرسوله بالاستعاذة من الدجال .

(101/672)

واعلم أن الكبير بالكسر معظم الشيء وبالضم أكبر ولد الرجل ، ومثله العظم بالضم أكثر الشيء ومعظمه وبالسكون نفس الشيء ، والجهد بالفتح الطاقة وبالضم المشقة ، ومثله الكره بالضم إذا أكرهت غيرك ، وبالفتح إذا أكرهك غيرك ، والعرض بالضم الناحية وبالفتح ضد الطول ، وربض الشيء بالسكون وسطه ، وبالفتح نواحيه ، والميل بالسكون ما كان فعلا كقولك مال عن الحق وبالفتح ما كان خلقة تقول في عنقه ميل ، والحمل بالفتح والسكون حمل كل أنثى وكل شجرة ، وبكسر الحاء ما كان على الظهر ، والقرن بالسكون

المثل من جهة السن ، وبالكسر مثله في الشدة ، والعدل بالسكون مثل الشيء وبالكسر زنته ، والحرق بالسكون من النار في الثوب والبدن ، وبالفتح نفس النار ، ولهذا البحث صلة أول سورة الكهف الآتية .

قال تعالى "لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ" قال أبو العالية المراد بالناس هنا الدجال ، وليس بشيء ، لأنه بنى قوله هذا على أن

(102/672)

المجادلين اليهود جادلوا حضرة الرسول في أمره فنزلت الآية الأولى فيهم ، وهذه نزلت بعدها معها ، وهذا فيه بعد إذ لا يلزم من كون الآية الأولى فيهم لزوم كون الثانية فيهم أيضا إذ ليس كل آية مدنية في حق اليهود ، إذ لا مانع أن تكون في مشركي العرب وغيرهم المجادلين في البعث واستعظام إعادة الأجسام بعد فتاتها على حد قوله تعالى (أَ وَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) الآية 86 من سورة يس في ج 1 أي أن خلق هذين الهيكلين العظيمين أعظم من خلق الناس وإعادتهم بعد إماتتهم فتكون مسوقة لمنكري البعث ، لأنهم لا يستدلون بالأكبر على الأدنى ، ولأن إعادة البشر بالنسبة إلى بداية خلقه كلا شيء ، كما أن إعادتهم بالنسبة لخلق السموات والأرض كلا شيء "وَلكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ 57" لكونهم في غاية الجهل ونهاية من البلادة فيما يتعلق بأمور الدين ومكونات الكون ومبتدعاته ، أما الأقل منهم أولو الألباب الذين يستدلون بالأدنى على الأكبر ويعتقدون قدرة اللّه فوق كل قدرة وقادرة على كل شيء لأنهم ينتفعون بجوارحهم فيتفكرون ويتدبرون ، ولو أن الأكثر استعملوا عقولهم لما أنكروا على اللّه قدرته ، ولكن قد استولت الغفلة عليهم فحالت دون تأملهم بذلك .

روى مسلم عن هشام بن عروة قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال ، أي أكبر فتنة منه وأعظم شوكة في انقياد الناس إليه .

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن النبيّ صلّى اللّه عليه وسلم ذكر الدجال فقال إنه أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافية .

(103/672)

ولأبي داود والترمذي عنه رضي اللّه عنه قال : قام النبي صلّى اللّه عليه وسلم في الناس فأثنى على اللّه بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال إني أنذركموه وما من نبي إلا أنذره قومه لقد أنذره نوح قومه ، ولكن سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور ، وإن اللّه تعالى

ليس بأعور ، وذلك أن الخبيث يدعي الإلهية مع نقصه والله تعالى منزه عن النقص ومبرأ منه ، والعور عيب والأنبياء معصومون منه أيضا ، لأنهم كاملو الخلقة .

راجع الآية 84 من سورة يوسف المارة وما ترشدك إليه من السور الأخرى .

وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : ما من نبيّ

إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب ، الا إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر .

وفي رواية لمسلم : بين عينيه كافر ثم تهجى ك ف ر يقرأه كل مسلم .

وروى البخاري ومسلم عن حذيفة قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول إن مع الدجال إذا خرج ماء ونارا ، فأما الذي يرى الناس أنه نار فماء ، والذي يراه الناس أنه ماء فنار محرقة ، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يرى أنه نار ، فإنه ماء عذب بارد .

ورويا عن المغيرة بن شعبة قال : ما سأل أحد رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن الدجال ما سألته ، وأنه قال لي ما يضرك ؟ قلت إنهم يقولون إن معه جبلا من خبز ونهر ماء ، قال هو أهون على الله من ذلك .

أي هذا أهون على الله من أن يجعل ما خلقه الله على يده مضلّا للمؤمنين ومشككا لقلوبهم ، وإنما جعله الله له ليزداد الذين آمنوا إيمانا ويثبت الحجة على الكافرين ، وليس معناه أن

ليس معه شيء من ذلك ، لما ثبت في الحديث المتقدم أن معه ماء ونارا ، وإذا كان معه ماء ونار فلم لا يجوز أن يكون معه جبل خبز ونهر ماء ، وإنما أعطي هذا لأنه يظهر والناس في زمن قحط وجدب كما سيأتي بعد .

(104/672)

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : يأتي المسيح من قبل المشرق وهمته المدينة حتى ينزل دبر أحد ، ثم تصرف الملائكة وجهه إلى الشام ، وهناك يهلك .

وروى مسلم عن أنس رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة .

وأخرج الترمذي وقال حديث حسن صحيح

عن مجمع ابن حارثة الأنصاري قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول يقتل ابن مريم الدجال في باب لد .

وأخرج البغوي بسنده عن أسماء بنت زيد الأنصارية قالت :

كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في بيتي فذكر الدجال ، فقال إن بين يديه ثلاث سنين ،

سنة تمسك السماء ثلث قطرها والأرض ثلث نباتها ، والثانية تمسك ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها ، والثالثة تمسك السماء قطرها والأرض نباتها كله ، فلا تبقى ذات ظلف ولا ضرس من البهائم إلا هلكت .

ومن أشد فتنته أنه يأتي الأعرابي فيقول أرأيت إن أحييت لك ابنك ألست تعلم أني ربك ؟ فيقول بلى ، فيتمثل له الشيطان نحو إبله كأحسن ما تكون ضرعا وأعظمه أسنمة ، ويأتي الرجل قد مات أخوه

ومات أبوه فيقول أرأيت إن أحييت لك أخاك وأباك ألست تعلم أني ربك ؟

فيقول بلى فيتمثل له الشيطان نحو أخيه ونحو أبيه (يستفاد من هذا أن ما يظهره اللّه على هذا الخبيث هو من نوع السحر ، وهو كذلك واللّه أعلم ، لأنه ينص على أن الشيطان يتمثل بذلك) قالت ثم خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغمّ مما حدثهم ، قال وأخذ بلحمتي الباب ، فقال فيهم أسماء ، فقالت يا رسول اللّه لقد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال ، قال إن يخرج وأنا حي فأنا حجيجه ، وإلا فإن ربي خليفتي على كل مؤمن ، قالت أسماء فقلت يا رسول اللّه إنا لنعجن عجيننا فما نخبزه حتى نجوع فكيف بالمؤمن يومئذ ؟ قال يجزيهم ما يجزي أهل السماء من التسبيح والتقديس .

(105/672)

وهذا من شدة شفقتها على المؤمنين ، وإلا فهي رضي اللّه عنها آمنة من ذلك .

وفي رواية عنها قالت : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم يمكث الدجال في الأرض أربعين سنة ، السنة كالشهر ، والشهر كالجمعة ، والجمعة كاليوم ، واليوم كاضطرام السعفة في النار .

وجاء في صحيح مسلم : قلنا يا رسول اللّه ما لبثه في الأرض ؟

قال أربعون يوما يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر الأيام كأيامكم هذه ، قلنا يا رسول اللّه فذاك الذي كسنة أتكفينا له صلاة يوم ؟ قال لا ، أقدروا له قدره ، قلنا يا رسول اللّه وما إسراعه في الأرض ؟ قال كالغيث استبدرته الريح .

وفي رواية أبي داود عنه : فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، فإنها جوازكم من فتنته ، وفيه ثم ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، فيدركه عند باب لد فيقتله .

وفي هذا الحديث إشارة إلى بركة آيات اللّه ونفعها لكل شيء حتى للأمن من فتنة الدجال وهو كذلك ، راجع الآية 82 من سورة الإسراء في ج 1 .

هذا وإن اليهود لم يريدوا من تعظيم الدجال ومن نسبته إليهم حين أن جادلوا حضرة الرسول إلا نفي رسالة عيسى بن مريم عليه السلام وجحود كونه المسيح المبشر به في التوراة والذي

أخبر عنه الأنبياء قبل ، الذي رفعه اللّه تعالى إلى سمائه ، وسينزله آخر الزمان ، لأنهم يقولون الذي سيخرج آخر الزمان هو الدجال لعنه اللّه وأخزاهم وأذلهم ، فقد كذبوا أولا بأن المسيح بن مريم ليس هو من نسل داود المبشر به مع أنه هو ، لأن أمه من نسل داود ، وقد

(106/672)

نسبه اللّه تعالى إلى إبراهيم جد داود في القرآن العظيم ، راجع الآية 85 من سورة الأنعام واللّه أصدق القائلين ، وكذبوا ثانيا بقولهم لحضرة الرسول محمد صلّى اللّه عليه وسلم لست بصاحبنا ، يعنون لست نبي آخر الزمان ، واللّه تعالى يقول خاتم النبيين ، راجع الآية 96 من سورة الأحزاب في ج 3 ، وكذبوا ثالثا بأن الدجال هو المسيح وهو نبي آخر الزمان ، ولم يبعث اللّه نبيا من لدن آدم إلى محمد صلوات اللّه عليهم ، إلا وقد حذّر أمته من الدجال وأنذرهم إياه كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة والأخبار الصريحة ، وكل ذلك من الجدال بالباطل مكابرة وعنادا ليس إلا .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ألا أحدثكم حديثا عن الدجال ما حدث به نبي قومه ؟ إنه أعور وإنه يجيء بتمثال الجنة

والنار فالتي يقول إنها الجنة هي النار ، والتي يقول إنها النار هي الجنة ، وإني أنذركم كما أنذر نوح قومه .

فأولى لهؤلاء اليهود أن يكون النبي المسيح الذي ينتظرونه أعور كذاب وأنه يدعي الإلهية وأولى .

أما كونه آية من آيات اللّه فلا ينكر ، لأنه من أمارات الساعة ، وأماراتها آيات وعبر للناس وإن منها ما يزيد المؤمن إيمانا ، وما يزيد الكافر كفرا ، قال تعالى (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً . . .

(107/672)

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ) الآيتين 134/ 135 من سورة التوبة في ج 3 ، فهذه الآيات والأحاديث والأخبار الثابتة المتواترة الصحيحة حجة قاطعة وبرهان قوي ساطع على أن الدجال الملعون ليس بالمسيح المأمون ولا بالنبي الذي هو خاتم الرسل الذي لا نبي بعده ، وإنما هو كذاب خداع مموّه أعور أشقر يظهر لأتباعه الذين أكثرهم من اليهود الحق باطلا والباطل حقا والصدق كذبا والكذب صدقا ، ومثبتة وجوده ومجيئه وكونه آية من آيات اللّه ، وإن ما يقدره اللّه على يده من إراءة الماء والنار والخبز وإحياء

الموتى صورة والخصب وتمثال الجنة والنار وانباع كنوز الأرض وإنزال المطر بإشارته إلى السماء وإنبات الأرض الكلا وغيرها مما تشبه الكرامات والمعجزات ابتلاء لخلقه واختبارا لتمييز الخبيث من الطيب ، وإن اليهود ينتظرونه يوما فيوما ، لأنهم يزعمون أن خروجه عز لهم وسلطان وإعادة لملك إسرائيل المبرأ منهم ومن أعمالهم وأقوالهم .

هذا ، ثم إن اللّه تعالى بعد ذلك

يعجزه عن كل شيء حتى عن حفظ نفسه ثم يتفرق أتباعه عنه ويقتله عيسى بن مريم عليه السلام .

قال الجبائي المعتزلي ومن وافقه من الجهمية وغيرهم بصحة وجوده ، ولكن ما يأتي به من الأشياء الخارقة عبارة عن خيالات لا حقائق لها ، وقالوا لو كانت حقا لضاهت معجزات الأنبياء .

(108/672)

أي أنها من قبيل السحر كما ذكرنا آنفا استنباطا من معنى الحديث ، إلا أن التمسك بهذا الاستنباط وحصره فيه قد يكون خطأ منهم ، لأن الدجال الخبيث لم يدع النبوة ليكون ما يأتي به تصديقا لها ، وإنما هو قاتله اللّه يدعي الإلهية وهو مكذب لها في نفس دعواه بصورة

حاله ووجود دلائل الحدوث فيه ونقص صورته وعجزه عن إزالة عور عينه وإزالة الشاهد الذي بين عينيه وعجزه عن دفع القتل عن نفسه ، فلا يغتر به إلا العوام من الناس لشدة الفاقة التي تحصل بسبب القحط وبذلك يستصحب معه الخبز الكثير ، أما المؤمنون فلا يحول صحاهم خداعه ولا تصل إلى قلوبهم

خزعبلاته لعلمهم بحاله ، والله أعلم .

(109/672)

قال تعالى "وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ" كناية عن الجاهل والعالم ولذلك حث الأنبياء على تعليمهم العلم لأممهم ليكونوا على بصيرة من هذه الفتن وأشباهها "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلَا الْمُسِيءُ" أي لا يستوون أيضا ، فتذكروا أيها الناس وتفكروا وكونوا على بصيرة من أمركم فإنكم "قَلِيلًا ما تَتَذَكَّرُونَ 58" في الأمثال التي يضربها الله لكم لأن تذكركم في مكوناته قليل جدا وإنكم في غفلة عنها لأنكم لو توغلتم في الفكر في معاني أمثال الله ومغازيه لوقفتم على علوم كثيرة وفوائد وفيرة ولعرفتم الفرق بين الأعمى والبصير والمحسن والمسيء ولتيقنتم "إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها" ولا شك ولا مرية في مجيئها عند كل مؤمن عارف "وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ 59" بها ، لأن الكفرة والجهلة دائما أكثر من المؤمنين

والعالمين في كل زمان وأوان لا في كل مكان ، إذ قد يوجد مكان على العكس وهو نادر ، وهذا العموم يخص منه بداية ذرية آدم إلى زمن قتل قابيل هابيل وبداية الزمن الذي رسى فيه نوح عليه السلام ومن معه بالسفينة على الجودي لأن الأكثر بل الكل مؤمنين على القول بأن الطوفان عم وجه الأرض كلها وإنه لم يبق إلا نوح ومن معه ولهذا سمي بأبي البشر الثاني .

مطلب في الدعاء والعبادة وإنعام اللّه على عباده ومراتب الإنسان في الخلق وذم الجدال :

(110/672)

قال تعالى "وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" دعاءكم قال بعض المفسرين ادعوني هنا بمعنى اعبدوني بدليل قوله "إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي" ولا يدعوني "سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ 60" صاغرين أذلاء مهانين لأنهم لم يدعوه ولم يعبدوه ولم يعترفوا بربوبيته ، ولا يخفى أن الدعاء مخ العبادة بل هو العبادة نفسها وزبدتها كقولك الحج عرفة والدين النصيحة أي معظمه فإبقاء اللفظ على ضاهره أولى .

ومما يدل على هذا ما رواه النعمان بن بشير صاحب معرة حلب قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول على المنبر الدعاء هو العبادة ، ثم قرأ هذه الآية ، أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح .

وأخرج الترمذي عن أنس بن مالك : الدعاء مخ العبادة .

هذا ، ولا يقال إن الإنسان يدعو فلا يستجاب له ، لأن للدعاء شروطا وآدابا أمها الإخلاص ، وأبرها اليقين ، وملاكها أكل الحلال ، وقوامها رد المظالم ، فالتخلف يكون من جهة الداعي لا من جهة الإله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء القائل (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ، وقد يكون الداعي يدعو وقلبه مشغول بغير الدعاء وقد يدعو بما لا مصلحة له به ولا فائدة لغيره أو بما فيه قطيعة رحم أو تعد على الغير ، وقد يدعو فيما فيه المصلحة والصلة ، ولكنه غير متيقن بالدعاء ولا موقن بالإجابة ، أما إذا اتصف بالشروط المطلوبة فيكون جديرا بالإجابة حالا أو مآلا بحسب المصلحة المقدرة ، والله أكرم من أن يرد سائله من بحر جوده الذي لا ينضب وواسع عطائه الذي لا ينفد ، وقدمنا في الآية 111 من سورة الإسراء ما يتعلق في هذا البحث بصورة واسعة ، فراجعها وما ترشدك إليه ، وله صلة في الآية 185 من سورة البقرة في ج 3 فراجعها أيضا .

(111/672)

قال تعالى "اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ" تأخذوا راحتكم من التعب بالنوم والاضطجاع وأنكم من الوحشة باجتماعكم بنسائكم وأولادكم "وَالنَّهَارَ مُبْصِراً"

لتتمكنوا فيه من قضاء حوائجكم وأشغالكم من من غير حاجة إلى ضياء آخر ولتقوموا فيه بوسائل معاشكم وتتعرفوا فيه لفضل ربكم فتصيبوا منه حظكم "إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ" عظيم لا يوازيه

فضل في هذا وفي غيره "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ" 61 فضله ولا يراعون حقه فيمنع استمرار نعمه عليهم لعدم شكرهم إياها ، وإذا لم يسلبها منهم يسلبها من أولادهم ، وهذا مما لا يمتري فيه أحد ، لأنه واقع مشاهد "ذَلِكُمُ" الإله العظيم كاشف الكربات ومجيب الدعوات الفعال لما ذكر هو "اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ 62" بنسبة هذا لغيره وتنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وتختلقون له أندادا وهو لا مثل له وتفترون له شركاء وهو المنفرد في السموات والأرض وتكذبون بقولكم إن اللّه أمرنا بهذا وهو لم يأمركم به "كَذَلِكَ" مثل هذا الإفك الواقع من قومك يا محمد "يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا" من قبلهم "بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ 63" ويكذبون الرسل الذين جاء وهم بها أيضا ، قال تعالى "اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرارا" تستقرون عليها في حلّكم وترحالكم "وَالسَّماءَ بِناءً" كالسقف المرفوع الذي تستظلون به من الشمس والمطر والرياح وغيرها ولكن شتان بين بنائكم وبنائه وظلالكم وظلاله .

وفي هذه الآية إشارة إلى كروية الأرض ، راجع الآية 9 من سورة لقمان المارة وما تدلك عليه من المواقع "وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ" بأن ميزكم عن الحيوانات باعتدال القامة والأكل باليد والنطق واللباس والحسن والعلم "وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ" غير رزق الحيوانات مما لذّ وطاب "ذِلِكُمُ" الرب الجليل المدبر لذلك كله والمنعم بما هنالك هو "اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ 64" مؤمنهم وكافرهم إنسهم وجنهم وملكهم وحيواناتهم وطيورهم ووحوشهم وحيتانهم وحشراتهم وديدانهم وعوالم اللّه لا تحصى ، وقد رتب الخلق جل جلاله على ثلاث مراتب : الطفولة وهي مرتبة النشوء والنماء ، وبلوغ الأشد وهي مرتبة كمال التزايد إلى قبيل تطرق الضعف ، والشيخوخة وهي مرتبة التراجع حتى بلوغ أرذل العمر ، فالذي قسم هذا التقسيم "هُوَ الْحَيُّ" الباقي وما سواه هالك ، وفيما تقدم أشار أولا لفضله المتعلق بالمكان بعد أن أشار فيما قبل إلى فضله المتعلق بالزمان ، وهنا أشار إلى العلم التام والقدرة الكاملة والحياة الدائمة ، ثم ختم بالدلالة على محض وحدانيته بقوله "لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ" أيها الناس كلكم برّكم وفاجركم لا تشركوا

معه غيره حالة كونكم "مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ" وقولوا بنهاية دعاءكم "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ 65" والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، ولما كلف بعض كفرة قريش مكة حضرة الرسول لعبادة أوثانهم ، وكان هذا التكليف قد تكرر منهم عند كل مباحثة في أمر الدين أنزل اللّه تعالى قطعا لأطماعهم عن ذلك "قُلْ" يا سيد الرسل لهؤلاء الملحين عليك بما لا يكون منك "إِنِّي نُهِيتُ" نهيا باتا ومنعت منعا جازما من قبل ربي الحق الواحد "أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" من جميع الأوثان "لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي" ببطلانها وعدم نفعها "وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ" إسلاما محضا حقيقيا "لِرَبِّ الْعالَمِينَ 66" وحده لا شريك له وأن أدعوكم لعبادته من حين تشريفي بالنبوة إلى وقت انقضاء أجلي لا أفتر ولا أحول عن هذا أبدا ، وقد جاءت هذه الآيات الثلاث مختومة بلفظ رب العالمين جل جلاله ، ولم يسبق مجيئها على هذا النمط ولا تعد مكررة ، لأن مبدأ كل آية منها ومغزاه يغاير الأخرى ، فالأولى للشكر على أفضاله ، والثانية على توحيده ، والثالثة على الاستسلام إليه ، فتدبر أيها القارئ إذا أردت أن تظفر وتفوز بمعرفة كلام اللّه .

واعلم أن المستحق للعبادة "هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ" أي خلق أباكم آدم عليه السلام الذي هو أصلكم "مِنْ تُرابٍ" وخلق زوجته حواء منه من لحم وعظم ودم "ثُمَّ" خلقكم أنتم ذريته كلكم "مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً" جعل جل شأنه مراتب الإنسان بعد خروجه من رحم أمه ثلاثة .

مطلب في مراتب الخلق على ثلاث وحالة المجادلين وأمر النبي بالصبر وشيئا من أفضاله على خلقه :

(114/672)

وكذلك جعل المراتب في الرحم ثلاثة بعد تكوينه : الأولى علقة مكونة من النطفة المخلوقة من الماءين ، والثانية مضغة مكونة من لحم ودم ، والثالثة جنين مكون من لحم وعظام وأمعاء ، فهو ما دام في بطن أمه يسمى جنينا وعند الولادة وليدا وما بعدها طفلا ، وما دام في الرضاع صبيا ومن الفطام إلى تسع سنين غلاما ومن سبع إلى اثنتي عشرة سنة مميزا ومن اثنتي عشرة إلى خمس عشرة مراهقا ، ومنها إلى

ثماني عشرة بالغا ، ومنها إلى إحدى وعشرين رشيدا ، ومنها إلى ثلاث وثلاثين كهلا وحتى الأربعين ، ومنها إلى الستين شيخا ، وإلى الثمانين أيضا ، إلا أن الستين هي سن الكمال أي منتهاه ، إذ يبدأ من الأربعين وما دون الأربعين يسمى شابا وفتى وبعد الثمانين هرما ، ويطلق لفظ الرجل على الكامل في الرجولية والفتى على الكريم اللطيف الشجاع ، ويطلق لفظ الولد والذرية على من لم يبلغ الحلم .

(115/672)

وبعد كمال أربعة أشهر في رحم أمه تنفخ فيه الروح فتنتقل بعد كمال مدته من برزخ المشيمة إلى برزخ الحضانة إلى برزخ الاستغناء كما تنتقل بعد استيفاء الأجل في الدنيا من برزخ الدنيا إلى برزخ القبر ومنه إلى برزخ الآخرة ، فالانتقالات أيضا ثلاث ثم في الآخرة من برزخ القبر إلى برزخ الموقف فإلى برزخ الحساب فإلى الجنة أو النار ، فسبحانه من إله عظيم قدر ما أراد وأراد ما قدر وهو القائل "وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ" ذلك التنقل فيسقط قبل تمام خلقه أو بعده أو يموت في الرحم أو عند الولادة أو قبل الشبوبية أو قبل الكهولة أو قبل الشيخوخة كما هو مقدر عنده تعالى المشار إليه بقوله "وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى" لبقائكم في الرحم من لحظات وأيام وشهور فلا تخرجون منه قبل استيفائها ، وكذلك بقاؤكم في الدنيا محدود لا يتقدم ولا يتأخر "وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ 67" هذه الأحوال العجيبة التي تعتوركم منذ نشأتكم إلى دخولكم الجنة أو النار ، وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية 5 من سورة الحج ج 3 ، فتتفكروا في قدرته البالغة وإبداعه الباهر ، واعلموا أنه "هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ" من أحياه من نطفة وسواه بشرا سويا عند انقضاء أجله "فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ 68" بلا كلفة ولا عناء ، راجع الآية 95 من سورة الأنعام المارة "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ" من كفرة قومك وينكرون البعث وغيره مما تخبرهم عن ربك "أَنَّى يُصْرَفُونَ 69" الصدق إلى الكذب ويعدلون الحق إلى الباطل في هذه الآية تعجيب لحضرة

الرسول من أحوال قومه المختلفة وآرائهم المضطربة الموصوفين بقوله عزّ قوله "الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ" كله أو بعضه لأن فيه ال للجنس فيشمل الكتب السماوية كلها ،

(116/672)

وكذلك إذا اعتبرت للاستغراق

"وَ"كذبوا "بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا" من التعاليم الدينية المقتبسة من الشرائع الإلهية والوحي المقدس والصحف المنزلة عليهم "فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ 70" سوء عاقبتهم ، وفي هذه الجملة تهديد شديد ووعيد كبير وصفه بقوله

"إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ" في أيديهم وأرجلهم بها "يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ 71" الماء الشديد الغليان "ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ 72" يوقدون فيها ، والسجور لإيقاد النار في التنور لغة أهالي دير الزور ولم يكرر هذا الفعل في القرآن ، وجاء بلفظ الماضي في الآية 6 من سورة الإنفطار ، وبلفظ المفعول في الآية 6 من سورة الطور الآتيتين ، وجاء لفظ إذ ، بصدر هذه الآية مع أنها للماضي موضع ، إذا للمستقبل لكونها واقعة في إخبار اللّه المتيقنة الوقوع المقطوع بها ، وإلا فلا يجوز إيقاع مثلها في غير كلام اللّه لكونه غير محقق ، تأمل .

وقد تكرر في هذه السورة ذكر الجدال في آيات اللّه في ثلاث مواضع ، ولكن كلا منها لأناس مخصوصين وأصناف مختلفين .

(117/672)

ولذلك فلا يعد تكرارا ، ومن قال باتحاد الأقوام المجادلين قال بالتكرار وهو غير وجيه ، لأن التكرار قد يكون للتأكيد لما في الجدال في آيات اللّه ما يوجب غضبه جل جلاله ، لذلك شدد فيه ليتباعد الناس عنه ويوقنوا بما أنزله إليهم إيقانا جازما دون تردد ، ويسلموا لأوامر رسلهم ، فيكون التكرار لحاجة في الأمر وهو مطلوب ، قال تعالى "ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ" وهم في النار "أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ 73" أروني إياهم ها توهم ليشفعوا لكم كما كنتم تزعمون في الدنيا "قالُوا ضَلُّوا عَنَّا" عابوا في وقت نحن أحوج ما يكون إليهم من غيره في زعمنا وفقدناهم في حالة كنا نظن وجودهم فيها ، لأنا لأجلها عبدناهم ثم قالوا بعد أن لم يجدوهم "بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ" في الدنيا "شَيْئاً" أبدا "كَذلِكَ" مثل هذا الإضلال "يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ 74" ويحيرهم في أمرهم حتى يفزعوا إلى الكذب والإنكار "ذلِكُمْ" العذاب الذي حل بكم "بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ" بالدنيا "بِغَيْرِ الْحَقِّ" بطرا وأشرا

وظلما لأنفسكم "وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ 75" تحتالون وتتكبرون على الناس وتتوسعون في الأرض بغير الحق أيضا وقد حذف من الثاني بدلالة الأول كما مر

(118/672)

آنفا ، وهذا الفعل لم يكرر في القرآن وجاء منه (مَرَحاً) في الآية 17 من سورة الإسراء في ج 1 ، ثم يقال لهم "ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ 76" عن توحيد اللّه وطاعة رسله وتعس مقرهم ومنزلهم ، قال تعالى مخاطبا حبيبه بقوله عزّ قوله "فَاصْبِرْ" على أذى قومك يا أكرم الرسل وتحمل أذاهم وجفاهم حتى يأتي الوقت المقدر لنصرتك عليهم "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ" منجز لا محالة إلا أنه لا يؤخر ولا يقدم عن أجله المقدر في علمه "فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ" بحياتك من القتل والأسر والجلاء "أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ" قبله فنريكه في الآخرة لأنهم لا يفلتون منا "فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ 77" وننتصف لك منهم وقد أراه اللّه عذابهم الدنيوي في بدر وما بعدها وسيريه عذابهم الأخروي أيضا البتة "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ" خبره وقومه في هذا القرآن "وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ" ولقد آتيناهم آيات معجزات وكذبهم أقوامهم أيضا ، فلا توجد في نفسك غضاضة فلك أسوة بهم وفي هذه الآية تسلية له صلّى اللّه عليه وسلم من ربه جلّ وعلا كي لا يضيق

صدره مما يرى من قومه ، ونظير هذه الآية الآية 38 من سورة الفرقان في ج 1 والآية 167 من سورة النساء في ج 3 فراجعهما .

(119/672)

قال تعالى "وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ" من تلقاء نفسه أو بحسب اقتراح قومه عليه إذ لا يتمكن من الإتيان بها "إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ" فإذا أذن له أظهرها على يده وإلا لا "فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ" بعذاب قوم "قُضِيَ بِالْحَقِّ" بين الرسل وأممهم "وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ 78" الذين يكلفون أنبياءهم بالمعجزات ويجادلونهم بالباطل عنادا ومكابرة ، ثم بين نبذة من أفضاله على خلقه فقال تعالى "اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها" أي اللاتي للركوب كالإبل والخيل والبراذين وشبهها "تَأْكُلُونَ 79" ففيها نعمتان نعمة الركوب ونعمة الأكل ، ومنها للأكل فقط كالغنم والمعزى وغيرهما ، ومنها للأكل والعمل كالبقر والجاموس وغيرهما ، إذ تستعمل للحراثة وقد تستعمل الإبل لها وللسقي "وَلَكُمْ فِيها" كلها "مَنافِعُ" أخرى غير الأكل والركوب والعمل من حليب ولبن وزبدة وسمن وجبن واقط وصوف ووبر وشعر للباس والبيوت وغيرها "وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ" من زيارة البلاد والآثار الموجبة للعبر وللنزه وحمل الأثقال والاتجار لكسب الأموال

بأثمانها أو بالمقايضة وتنميتها والكرم بها وغير ذلك كثير "وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ

80" برا وبحرا

يُرِيكُمْ"

اللّه تعالى ياتِهِ"

في تنقلاتكم عليها من البلاد البعيدة القائمة والمدمرة لتعتبروا بها وتشكروا الذي عافاكم مما ابتلى أهلها من العذاب الباقي أثره في ديارهم لتتذكروا فترجعوا إلى ربكم خشية أن يصيبكم ما أصابهم ولتعتبروا بها أَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ

81" أيها الناس وهي ظاهرة لا يمتري فيها أحد ، إلا من لم يكن عنده لمعة من فكر أو ذرة من عقل ، وجاءت كلمة أي هنا مذكرة في محل التأنيث لأن الشائع المستفيض هو تذكير أي في المذكر والمؤنث وقد جاء تأنيثها في المؤنث في قوله :

(120/672)

بأي كتاب أو بأية سنة ترى حبهم عارا علي وتحسب

قال تعالى "أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ" من قومك يا محمد "وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ" التي كانوا فيها أولئك المتمردون

ومصانعهم وقصورهم فيها تدل على ذلك ، لأنها منها ما هو باق حتى الآن فضلا عن وجودها زمن نزول القرآن وأن البشر الآن يعترف بعجزه عن الإتيان بمثل ما شيدوه من البناء والصروح وعظم هندستها وقوة إتقانها ومع ذلك كله "فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ 82" فيها من وقايتهم من عذاب اللّه ، وقد مرّ نظير هذه الآية في الآية 21 من هذه السورة ولا تعد مكررة لما في هذه من الألفاظ ما ليس في تلك .

ولذلك ذمهم اللّه تعالى بقوله (ذِلكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) الآية 30 من سورة النجم في ج 1 ، وقوله بما يقارب هذه الآية لفظا ومعنى "فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ" بأمور الدنيا وتدبيرها واستغنوا عما جاءهم به الأنبياء ولم يعلموا أن ذلك وحده جهل في الحقيقة إذا لم يضموا إليه العلم بأمور الآخرة ، ولذلك ذمهم اللّه في الآية 9 من سورة الروم الآتية بقوله (يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ) وفي الآية 66 من سورة

(121/672)

النمل المارة في ج 1 بقوله (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ) ولهذا فقد لحقتهم الخيبة وغشيهم الغم والحزن على ما فرحوا به في الدنيا "وَحاقَ

بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ 83" على الأنبياء وما جاءوهم به وذلك فرحهم بالسخرية على ما يبلغونهم من الأوامر والنواهي والآداب الإلهية حتى أنزل اللّه فيهم (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) الآية 12 من الصافات المارة ، قال تعالى "فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا" عذابنا وقد أحاط بهم من كل جانب "قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ 84 في الدنيا مع أنهم كانوا يشمئزون من ذكر اللّه وحده ويفرحون بذكر آلهتهم كما نعى اللّه عليهم حالتهم بقوله (وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) الآية 45 من سورة الزمر المارة ومثلها الآية 46 من سورة الإسراء في ج 1 ، قال تعالى "فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا" لأنه لا إيمان في حالتي البأس واليأس ، ولا توبة مقبولة أيضا في هاتين الحالتين وهذه "سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ" ولا مجال لتبديل ما سنّه اللّه ، راجع الآية 158 من سورة الأنعام المارة والمواضع التي تدلك عليها "وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ 85" لأنهم لم يعرفوا ذلك الخسار إلا عند إملاكهم ولا يلجأون إلى التوبة إلا في غير إبانها وإلا فهم خاسرون دائما حال نزول العذاب وقبله وبعده ، ومجموع جملة وخسر إلخ بحساب الجمل 1360 مثل الجملة المارة في الآية 173 من سورة الصافات ، فنسأل اللّه أن يدمر الكفرة ويعلي كلمة الإسلام من الآن فصاعدا ، وأن يديم خسار الكفرة وخاصة اليهود ، ويجمع شمل المؤمنين ويديم

ربجهم ، ويرفع رتبتهم على من سواهم ، إنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به هذه السورة ، هذا ، والله أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأتباعه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 3 صـ 565.603 ﴾

(123/672)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة المؤمن

مكية إلا قوله تعلى إلا الذين كفروا الآيتين فمدني

تقدم الكلام على حم في سورة البقرة تنزيل الكتاب كاف إن جعل خبرا لحم أي هذه الأحرف تنزيل الكتاب أو جعل خبرا المبتدأ محذوف ولم يجعل ما بعده فيهما صفة له وإلا فليس بوقف العزيز العليم صالح وان تعلق به ما بعده لانه راس آية وكذا شديد العقاب ذي الطول حسن وقال أبو عمرو كاف لا اله إلا هو حسن المصير تام وكذا في البلاد من بعدهم

كاف وكذا ليأخذوه فأخذتهم جائز عقاب حسن أصحاب النار للذين آمنوا كاف وكذا
الجحيم وذرياتهم جائز الحكيم كاف وكذا وقهم السيآت وفقد رحمته العظيم تام وكذا
فتكفرون من سبيل كاف وكذا به تؤمنوا الكبير حسن وكذا رزقا من ينيب كاف الكافرون
تام وكذا ذو العرش إن جعل خبر الرفيع الدرجات فان جعل بدلا منه لم يوقف عليه بل على
بارزون وهو حسن منهم شيء كاف وكذا لمن الملك اليوم لله الواحد القهار تام بما كسبت
صالح لا ظلم اليوم حسن سريع الحساب تام وكذا في كاظمين ويطاع والصدور بالحق كاف لا
يقضون بشيء تام وكذا البصير من قبلهم كاف وكذا بذنوبهم من واق حسن فأخذهم الله
كاف العقاب تام كذاب كاف نساءهم تام وكذا في ضلال والفساد والحساب وقال رجل
مؤمن قال أبو حاتم هو وقف لم قال انه لم يكن من آل فرعون لكنه كتم ايمانه منهم ومن قال كان
منهم وقف على فرعون وهو على التقديرين وقف بيان لا كاف ولا تام أي بين قوله من آل
فرعون بماذا يتعلق فعلى الأول يتعلق بيكتم أيمانه وعلى الثاني يتعلق برجل مؤمن لأنه نعت له
انتهى ولا أحب الوقف عليهما لما فيه من الفصل بين القول ومقوله لان المعقول لم يأت بعد وهو
أتقتلون رجلا أن يقول ربي اله من ربكم صالح الذي يعدكم حسن وكذا كذاب وان جاءنا
الرشاد تام من بعدهم كاف وكذا للعباد وقال أبو عمرو كأبي حاتم في الأول تام من عاصم
تام وكذا من هاد جاءكم به صالح من بعده رسولا كاف مرتاب صالح بغير سلطان أتاهم

كاف ومحلهما إذا نصب الذين بدلا من من أو رفع بدلا من مسرف فان جعل مبتدأ خبره كبر كان الوقف

(124/672)

على مرتاب تاما ولا يوقف على أتهاهم لتأخر الخبر عنه وعند الذين آمنوا تام وكذا متكبر جبار كاذبا حسن سوء عمله صالح لمن قرا وصد بضم الصاد وحسن لمن قراه بفتحها عن السبيل حسن في تباب تام الرشاد كاف وكذا متاع دار القرار تام ألا مثلها كاف وكذا ما أقول لكم والى الله وبالعباد ما مكروا جائز سوء العذاب حسن وقال أبو عمرو تام إن جعل النار مبتدأ وليس بوقف إن جعل بدلا وعشيا تام أشد العذاب كاف في النار مفهوم من النار كاف وكذا بين العباء ومن العذاب ومن العذاب قالوا بلى كاف قالوا فادعوا تام وكذا ضلال في الحياة الدنيا قيل كاف تام معذرتهم حسن وقال أبو عمرو فيهما كاف سوء الدار تام لاولي الألباب حسن والإبكار تام بغير سلطان أتاهم ليس بوقف خبر إن لم يأت وهو إن في صدورهم الأكبر بالغيه حسن ركأبي حاتم تام البصير تام وكذا لا يعلمون ولا المسيء كاف وكذا يتذكرون فيه تام لا يؤمنون تام أستجب لكم كاف داخرين تام مبصرا كاف لا يشكرون تام تؤفكون حسن يجحدون تام من الطيبات حسن فتبارك الله رب العالمين تام له

الدين حسن لله رب العالمين تام وكذا رب العالمين شيوخا كاف وكذا تعقلون كن فيكون تام وتقدم الكلام عليه أني يصرفون صالح وكذا أرسلنا والسلاسل تلام وقال أبو عمرو كاف وقيل تام ويبتدئ يسحبون بمعنى وهو يسحبون يسجرون جائز من دون الله كاف وكذا من قبل شيأ والكافرين وتمرحون والمتكبرين يرجعون تام نقصص عليك حسن بأذن الله كاف المبطلون تام تأكلون كاف وكذا تحملون تنكرون تام من فبلهم كاف وكذا يكسبون ومن العلم ويستزؤن بالله وحده جائز مشركين كاف بأسنا تام وكذا في عباده وآخر السورة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ 682.672 ﴾

(125/672)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة المؤمن (غافر)

مكية إلاَّ قوله إلاَّ الذين كفروا الآيتين فمدني كلمها ألف ومائة وتسع وتسعون كلمة وحروفها أربعة آلاف وسبعمائة وستون حرفاً وآيها ثمانون وإحدى أو ثلاث أو خمس أو ست وثمانون آية

حم بسكون الميم كسائر الحروف المقطعة وهي قراءة العامة وقرأ الزهري برفع الميم خبر

مبتدأ محذوف أو مبتدأ والخبر ما بعدها ومنعت من الصرف للعلمية والتأنيث أو العلمية وشبه العجة وذلك أنَّه ليس في الأوزان العربية فاعيل بخلاف الأعجمية ففيها قابيل وهابيل وفي الحديث لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم وفيه عن ابن مسعود مرفوعاً من أراد أن يرتع في رياض مؤنقة من الجنة فليقرأ الحواميم ومؤنقة بصيغة اسم المفعول من التأنيق وهو شدة الحسن والنضارة ورأى رجل من أهل الخير في النوم سبع جوار حسان فقال لمن أنتن فقلن نحن لمن قرأنا نحن الحواميم

تنزيل الكتاب (كاف) إن جعل خير حم أي هذه الأحرف تنزيل الكتاب وكذا إن جعل تنزيل خبر مبتدأ محذوف ولم يجعل ما بعده فيهما صفة له وليس بوقف إن جعل مبتدأ خبره الجار بعده

العزيز العليم (جائز)

العقاب ليس بوقف لأنَّ ما بعده صفة

ذي الطول (حسن) ومثله إلاَّ هو

المصير (تام)

كفروا (حسن) أي ما يجادل في إبطال آيات الله إلاَّ الذين كفروا

في البلاد (كاف)

قوم نوح ليس بوقف لأنَّ قوله والأحزاب معطوف على قوم

من بعدهم (كاف) عند أبي حاتم

ليأخذوه (حسن) أي ليقتلوه

بالباطل ليس بوقف لأنَّ بعده لام كي

الحق ليس بوقف لمكان الفاء

فأخذتهم (حسن) لاستئناف التوبيخ

عقاب (كاف)

أصحاب النار (تام) لا يليق وصله بما بعده لأنَّه لو وصله به لصار الذي يحملون العرش صفة

لأصحاب النار وذلك خطأ ظاهر فينبغي أن يسكت سكتة لطيفة

بحمد ربهم (جائز) ومثله ويؤمنون به

(126/672)

للذين آمنوا (كاف) ومثله وعلماً وكذا الجحيم على استئناف ما بعده وليس بوقف إن

جعل ما بعده معطوفاً على ما قبله وحينئذ لا يوقف على ذريّاتهم ولا على الحكيم بل على

السيآت 0

والسيآت (تام) للابتداء بالشرط

فقد رحمته (كاف) لتناهي الشرط بجوابه

العظيم (تام) ومثله فتفكرون

فاعترفنا بذنوبنا (حسن)

من سبيل (كاف) ومثله كفرتم للابتداء بالشرط

تؤمنوا (حسن)

الكبير (تام)

رزقاً (كاف)

من ينيب (تام) ومثله الكافرون على استئناف ما بعده

ذو العرش (تام) إن جعل ذو العرش خبر الرفيع وكذا إن رفع ذو العرش خبر مبتدأ محذوف وإن رفع رفيع خبر مبتدأ محذوف كان الوقف على الدرجات وليس العرش بوقف إن جعل بدلاً من رفيع

التلاق ليس بوقف لأنَّ قوله يوم هم بارزون بدل من يوم التلاق بدل كل من كل وقد اتفق علماء الرسم على كتابة يوم هم بارزون وفي والذاريات يوم هم على النار كلمتين يوم وحدها وهم وحدها لأنَّ الضمير في هم مرفوع بالابتداء في الموضعين وما بعده فيهما الخبر والقراء مجمعون على أنَّ التلاق بغير ياء إلا ابن كثير فإنَّه يقف عليع بالياء ومثله واق ويصل بالتنوين والاختيار ما عليه عامة القراء لأنَّ التنوين قد حذف الياء

بارزون (كاف)

منهم شيء (حسن) ومثله لمن الملك اليوم عند أبي حاتم

القهار (تام)

بما كسبت (جائز)

لا ظلم اليوم (حسن)

وقيل (كاف)

الحساب (تام)

يوم الآزفة ليس بوقف لأنَّ قوله إذ القلوب بدل من يوم الآزفة أو من الهاء في أنذرهم أو مفعول به اتساعاً فموضع إذ نصب بما قبله والآزفة القريبة قال كعب بن زهير :

بان الشباب وهذا الشيب قد أزفا ولا أرى لشباب بائن خلفا

ومثله في عدم الوقف الحناجر لأنّ كاظمين منصوب على الحال مما قبله وهو رأس آية

(127/672)

يطاع (كاف) قرئ ولا شفيع بالرفع والجر فالرفع عطف على موضع من حميم ومن زائدة للتوكيد والجر عطف على لفظ حميم وقوله ولا شفيع يطاع من باب * على لا حب لا

يهتدي بمناره * أي لا شفيع فلا طاعة أو ثم شفيع ولكن لا يطاع

خائنة الأعين ليس بوقف لأنَّ ما بعده معطوف على ما قبله

الصدور (تام)

بالحق (كاف) ومثله لا يقضون بشيء على القراءتين في يدعون قرأ نافع وهشام بالتاء

الفوقية والباقون بالتحتية

البصير (تام)

من قبلهم (كاف)

وآثاراً في الأرض (جائز)

بذنوبهم (حسن)

من واق (كاف) ومثله فأخذهم الله

شديد العقاب (تام) ولا وقف من قوله ولقد أرسلنا موسى إلى كذاب لاتصال الكلام بعضه

ببعض فلا يوقف على مبين لأنَّ الذي بعده متصل به ولا على قارون لمكان الفاء

كذّاب (كاف)

من عندنا ليس بوقف لأنَّ ما بعده جواب لما

نساءهم (حسن)

إلاَّ في ضلال (كاف)

وليدع ربه (حسن)

دينكم ليس بوقف لأن يظهر منصوب بالعطف على ما قبله

الفساد (كاف)

وربكم ليس بوقف لأنَّ ما بعده متعلق بما قبله

الحساب (كاف) وقد اختلف في قوله من آل فرعون بماذا يتعلق فمن قال يتعلق بيكتم قال إنَّ الرجل لم يكن من آل فرعون وكان وقفه على مؤمن ومن قال يتعلق برجل مؤمن أي رجل مؤمن من آل فرعون كان نعتاً له وكان الوقف على فرعون وعلى كلا القولين ففيه الفصل بين القول ومقوله والوقف الحسن الذي لا غبار عليه من ربكم لانتهاء الحكاية والابتداء بالشرط وفي الحديث الصدّيقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم

فعليه كذبه (حسن) ومثله يعدكم

كذاب (كاف)

ظاهرين في الأرض (حسن) ومثله إن جاءنا وكذا إلاَّ ما أرى

الرشاد (تام)

الأحزاب ليس بوقف لأنَّ قوله مثل منصوب على البدل من مثل الأول ومثله في عدم الوقف

عاد وثمود للعطف

من بعدهم (كاف) ومثله للعباد

(128/672)

التناد ليس بوقف لأنَّ قوله يوم تولون مدبرين منصوب على البدل مما قبله ومدبرين حال مما قبله وقرأ ابن عباس التناد بتشديد الدال مصدر تنادّ القوم أي ندّ بعضهم من بعض من ندّ البعير إذا هرب ونفر وابن كثير يقف عليها بالياء قال الضحاك إذا كان يوم القيامة يكشف للكفار عن جهنم فيندّون كما يند البعير قال أمية بن أبي الصلت

وبث الخلق فيها إذ دحاها فهم سكانها حتى التنادي

من عاصم (تام) للابتداء بالشرط ومثله من هاد وجميع القراء يقفون من هاد بغير ياء إلاَّ ابن كثير فإنَّه يقف عليه بالياء

بالبينات (حسن) ومثله مما جاءكم به وكذا رسولاً * في محل الذين الرفع والنصب فمرتاب تام إن جعل الذين مبتدأ خبره كبر مقتاً أي كبر جداً لهم مقتاً ولا يوقف على أتاهم بل على الذين آمنوا ومثله في الوقف على مرتاب إن جعل الذين في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين وكاف إن نصب أي الذين بتقدير أعني وليس مرتاب بوقف إن جعل الذين في

محل رفع نعتاً لما قبله أو بدلاً من مَن أو مسرف وكان الوقف على أتاهم ثم يبتدئ كبر مقتاً

وعند الذين آمنوا (حسن) في الوجهين

جبار (تام)

الأسباب ليس بوقف لأنَّ ما بعده بدل منه

السموات (حسن) لمن قرأ فأطلع بالرفع عطفاً على أبلغ وليس بوقف لمن قرأ فأطلع بالنصب

على جواب الترجي تشبيهاً للترجي بالتمني وهو مذهب كوفي والبصريون يأبون ذلك

ويقولون منصوب على جواب الأمر بعد الفاء لأنَّ الترجي لا يكون إلاَّ في الممكن وبلوغ

أسباب السموات غير ممكن لكن فرعون أبرز مالا يمكن في صورة الممكن تمويهاً على

سامعيه

إله موسى (جائز)

كاذباً (حسن) ومثله سوء عمله لمن قرأ وصدّ بفتح الصاد فصلاً بين الفعلين أعني زين ببنائه

للمفعول وصدّ ببنائه للفاعل وليس بوقف لمن قرأ وصدّ بضم الصاد ببنائه للمفعول كزين

لعطفه عليه ووسمه شيخ الإسلام بالحسن لمن قرأه بفتح الصاد أيضاً

عن السبيل (كاف)

في تباب (تام)

الرشاد (كاف) وقرأ ابن كثير اتبعوني بإثبات الياء وقفاً ووصلاً 0

متاع (حسن) فصلاً بين تنافي الدارين 0

دار القرار (تام)

إلاَّ مثلها (كاف) وقيل جائز *

وهو مؤمن ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت بعد 0

يدخلون الجنة (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل حالاً 0

بغير حساب (تام)

إلى النار (كاف) ومثله ما ليس لي به علم

الغفار (كاف) ومثله أصحاب النار ولا يوقف على إليه ولا على في الآخرة لأنَّ قوله وأن

مردنا معطوف على إنَّما ولا على إلى الله لأنَّ أن الثانية معطوفة على أنَّ الأولى 0

ما أقول لكم (كاف) ومثله إلى الله وكذا بالعباد

ما مكروا (حسن)

سوء العذاب (كاف) وقال أبو عمرو تام إن جعل النار مبتدأ أو خبر مبتدأ محذوف كأنَّ

قائلاً قال ما سوء العذاب فقيل هي النار وليس بوقف إن جعل بدلاً من سوء

وعشياً (تام) إن نصب ويوم بفعل مضمر أي ونقول يوم تقوم الساعة وعلى هذا الإضمار لا

يوقف على الساعة إلا إن اضطّر وإذا ابتدئ ادخلوا ضمت الهمزة من باب دخل يدخل

وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي بكر عن عاصم ويكون قوله آل فرعون

منصوباً على النداء كأنَّه قال ادخلوا يا آل فرعون وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي

أدخلوا بقطع الهمزة أمراً من أدخل يدخل وعلى هذه القراءة يبتدأ أدخلوا بالفتح وينتصب

آل بالإدخال مفعولاً أوّل وأشد المفعول الثاني

العذاب (كاف) لأنَّ إذ معها فعل

في النار (جائز) ومثله كنا لكم تبعاً

من النار (كاف) ومثله حكم بين العباد وكذا العذاب 0

بالبينات (جائز)

قالوا بلى (كاف)

قالوا فادعوا (تام) ومثله في ضلال 0

في الحياة الدنيا (كاف) إن نصب يوم بأعني مقدراً وليس بوقف إن نصب بالعطف على ما

قبله ولا يوقف على الأشهاد لأنَّ ما بعده منصوب بدلاً من يوم قبله أو بياناً له 0

معذرتهم (حسن) ومثله اللعنة 0

سوء الدار (تام)

الهدى (جائز)

بني إسرائيل الكتاب (حسن) إن رفع الهدى على الابتداء وليس بوقف إن نصب حالاً مما قبله كأنَّه قال هادياً وتذكرة لأولي الألباب 0

والألباب (تام)

إنَّ وعد الله حق (جائز) ومثله لذنبك وذنبك مصدر مضاف لمفعوله أي لذنب أمتك في حقك لأنَّه لا يسوغ لنا أن نضيف إليه عليه الصلاة والسلام ذنباً لعصمته 0

والإبكار (تام)

بغير سلطان أتاهم ليس بوقف هنا اتفاقاً لأنَّ خبر إن لم يأت وهو إن في صدورهم 0

ببالغيه (حسن) ومثله فاستعذ بالله وقيل كاف 0

البصير (تام)

من خلق الناس ليس بوقف لتعلق ما بعده به استدراكاً لأنَّ لكن لابد أن تقع بين متناقضين ولا يصح الكلام إلا بها 0

لا يعلمون (تام)

ولا المسيء (كاف) لأنَّ قليلاً منصوب بيتذكرون وما زائدة كأنه قال يتذكرون قليلاً

يتذكرون (تام) لا ريب فيها الأولى وصله لتعلق ما بعده به استدراكاً 0

لا يؤمنون (تام) ومثله أستجب لكم عند أبي حاتم 0

داخرين (تام) أي صاغرين 0

مبصراً (كاف) على الناس الأولى وصله 0

لا يشكرون (تام)

كل شيء (حسن) وقيل تام لأَنَّه لو وصله لصارت جملة لا إله إلا هو صفة لشيء وهذا

خطأ ظاهر 0

لا إله إلا هو (حسن)

تؤفكون (أحسن)

يجحدون (تام)

من الطيبات (حسن) ومثله ربكم

رب العالمين (تام)

إلا هو (حسن) ومثله له الدين

العالمين (تام)

من ربي (جائز)

لرب العالمين (تام) ولا وقف من قوله هو الذي إلى شيوخاً لأَنَّ ثم في المواضع الخمس للعطف

فلا يوقف على من تراب ولا على من نطفة ولا على من علقة ولا على طفلاً ولا على

أشدكم 0

شيوخاً (حسن) وقيل كاف

من قبل (جائز)

تعقلون (كاف)

ويميت (حسن) لأنَّ إذا أجيبت بالفاء فكانت بمعنى الشرط 0

كن (حسن) إن رفع فيكون خبر مبتدأ محذوف تقديره فهو يكون أو فانه يكون 0

وفيكون (تام) على القراءتين 0

(131/672)

أنى يصرفون (تام) إن جعلت الذين في محل رفع على الابتداء وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين لأنهم جعلوا الذين يجادلوا في آيات الله القدرية وليس يصرفون بوقف إن جعل الذين كذبوا بدلاً من الذين يجادلون وإن جعل الذين كذبوا في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف أو في موضع نصب بتقدير أعني كان كافياً 0

رسلنا (حسن) وقيل كاف على استئناف التهديد 0

يعملون ليس بوقف لأنَّ فسوف يعلمون تهديد للمكذبين فينبغي أن يتصل بهم لأنَّ إذ منصوبة بقوله فسوف تعلمون فهي متصرفة وجوزوا في إذ أن تكون بمعنى إذا لأنَّ العامل فيها محقق الاستقبال وهو فسوف يعلمون وغالب المعربين يقولون إذ منصوبة باذكر مقدرة ولا تكون حينئذ إلا مفعولاً به لاستحالة عمل المستقبل في الزمن الماضي 0

والسلاسل (تام) لمن رفع السلاسل بالعطف على الأغلال ثم يبتدئ يسحبون أي هم يسحبون وهي قراءة العامة وكذا يوقف على السلاسل على قراءة ابن عباس والسلاسل بالجر قال ابن الأنباري والأغلال مرفوعة لفظاً مجرورة محلاً إذ التقدير إذ أعناقهم في الأغلال وفي السلاسل لكن ضعف تقدير حرف الجر وإعماله وقد جاء في أشعار العرب وكلامهم وقرأ ابن عباس بنصب السلاسل ويسحبون بفتح الياء مبنياً للفاعل فتكون السلاسل مفعولاً مقدماً وعليها فالوقف على فيها أعناقهم لأنَّ السلاسل تسحب على إسناد الفعل للفاعل فكأنَّه قال ويسحبون بالسلاسل وهو أشد عليهم إلا أنه لما حذف الباء وصل الفعل إليه فنصبه فعلى هذا لا يوقف على السلاسل ولا على يسحبون لأنَّ ما بعده ظرف للسحب وهذا غاية في بيان هذا الوقف ولله الحمد 0

يسجرون (جائز) لأنه آخر آية أي يصيرون وقوداً للنار

من دون الله (حسن) ومثله ضلوا عنا وكذا من قبل شيأً وقيل تام لأنه انقضاء كلامهم 0

الكافرين (كاف) ومثله تمرحون

خالدين فيها (حسن)

المتكبرين (تام)

إن وعد الله حق (حسن)

أو نتوفينك ليس بوقف لمكان الفاء 0

يرجعون (تام)

من قبلك (حسن) ومثله نقصص عليك

(132/672)

بإذن الله (كاف)

المبطلون (تام)

تأكلون (كاف) ومثله تحملون

آياته (حسن)

تنكرون (تام) للابتداء بالاستفهام فأي منصوبة بتنكرون 0

من قبلهم (حسن) ومثله وآثاراً في الأرض

يكسبون (كاف)

من العلم (حسن)

يستهزؤن (كاف)

بالله وحده (جائز)

مشركين (كاف)

بأسنا (تام) عند أبي حاتم على أنَّ سنة منصوبة بفعل مقدر أي سنّ الله ذلك سنة فلما

حذف الفعل أضيف المصدر إلى الفاعل 0

في عباده (تام) عند أبي حاتم أيضاً 0

وآخر السورة (تام) وفيه رد على من يقول إن حم قسم وجوابه ما قبله وإن تقديره وخسر

هنالك الكافرون والله لأنه يلزم عليه أنه لا يجوز الوقف على آخرها فلا يلتفت إلى قوله لأنَّا لا

نعلم أحداً من الأئمة الذين أخذ عنهم تأويل القرآن أخذ به وهو جائز عربية . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ منار الهدى صـ 682.672 ﴾

(133/672)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة المؤمن :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ معاذ بن جبل1 على المنبر : "إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ2" ، أي سبيل الله .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون هذا من قولهم : رشد يرشد ، كعلام من علم يعلم ، أو من رشد يرشد ، كعباد من عبد يعبد . ولا ينبغي أن يحمل على أنه من أرشد يرشد ؛ لأن فعالا3 لم يأت إلا في أحرف محفوظة ، وهي أجبر فهو جبار ، وأسأر4 فهو سأر ، وأقصر فهو قصار ، أدرك فهو دراك ، وأنشدوا للأخطل : [142و] .

وشارب مربح بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسار5

وأجود الروايتين "بسوار" ، أي : بمعربد . وأنشد ابن الأعرابي : "غير قصار" .

وعلى أنهم قد قالوا : جبره على الأمر وقصر عن الأمر ، فينبغي أن يكون جبار وقصار من فعل ، هذين الحرفين ، وكذا ينبغي أن يعتقد في سار ودراك على أنهما خرجا بحرف الزيادة ، فصارا

---

1 هو معاذ بن جبل بن عمرو أبو عبد الرحمن الأنصاري – رضي الله عنه – أحد الذين جمعوا القرآن حفظا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم . وردت عنه الرواية في حروف القرآن ، وهو الذي أشار إليه النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله : خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى حذيفة . توفي –

رضي الله عنه - في طاعون عمواس سنة 18 ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . طبقات القراء لابن الجزري : 2 : 301 .

2 سورة غافر : 29 .

3 يريد فعالا المأخوذ من أفعل .

4 أسأر : أبقى .

5 المربح الذي ينحر لضيفانه الربح بالتحريك ، وهي الفصلان ، جمع رابح . والحصور : البخيل . وانظر الديوان : 116 .

إلى سأر ودرك تقديرا ، وإن لم خرجا إلى اللفظ استعمالا ، كما قالوا : أبقل المكان فهو باقل ، وأورس الومث 1 فهو وارس ، وأيفع الغلام فهو يافع ، وأعضى 2 الليل فهو غاض . قال :

يخرجن من أجزا وليل غاض 3

أي : مغض ، وقالوا أيضا : ألقحت الريح السحاب ، فهو لاقح . فهذا على حذف همزة أفعل ، وإنما قياسه ملقح ، فعلى ذلك خرج "الرشاد" ، أي : رشد بمعنى أرشد تقديرا لا استعمالا ، كما قال الآخر :

إذا ما استحمت أرضه من سمائه جرى وهو مودوع وواعد مصدق4

وكان قياسه أن يكون مودع لأنه من أودعته ، فودع يدع ، وهو وادع ، ولا يقال : ودعته في هذا المعنى فيقال مودع ، كوضعته فهو موضوع .

فإن قيل : فإن المعنى إنما هو على أشد ، فكيف أجزت أن يكون إنما مجيئه من رشد أو رشد في معنى رشد ، وأنه ليس من لفظ أرشد ؟ .

قيل : المعنى راجع فيما بعد إلى أنه مرشد ؛ وذلك لأنه إذا رشد أرشد ؛ لأن الإرشاد من الرشد . فكأنه من باب الاكتفاء

بذكر السبب من المسبب . وعليه قالوا في قول الله "سبحانه" : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ5 ﴾ - : إنها من لقحت هي ، فإذا لقحت ألقحت غيرها ، فهو كقولك : إنها زاكية ، فإذا زكت في نفسها أزكت غيرها ، فهذا المذهب ليس هو الأول الذي على تقدير الزيادة من ألقح ، ولكل طريق .

---

1 الرمت : شجر يشبه الفضى ، وأورس الرمت : اصفر ورقه ، فصار عليه مثل الملاء الصفر . وفي ك : الرمس ، وهو تحريف .

2 أغضى الليل : أظلم .

3 لرؤية ، وضمير "يخرجن" للعيس في بيت سابق . والأجواز : جمع جوز ، وهو وسط الشيء . وانظر الديوان 81 ، وشرح أدب الكاتب للجواليقي : 409 .

4 البيت لخفاف بن ندبة يصف فرسه . وأرضه : أسفله . وسماؤه : أعلاه . واستحمت أرضه من سمائه : عرق فابتل أسفله من أعلاه . والمصدق ، بفتح الميم والدال : الصدق في كل كل شيء يقول : إذا جرى فأبتلت حوافره من عرق أعاليه مضى فخلى بينه وبين الغاية ، لا يضرب ولا يزجر ، وإنه ليصدق راكبه فيما بعد من بلوغ الغاية . وانظر الأصمعيات : 12 ، والخصائص : 2 : 216 ، واللسان "ودع" .

5 سورة الحجر : 22 .

ومن ذلك قراءة ابن عباس والضحاك وأبي صالح والكلبي : "يَوْمَ التَّنَاد 1" ، بتشديد الدال .

قال أبو الفتح : هو تفاعل ، مصدر تناد القوم ، أي : تفرقوا ، من قولهم : ند يند ، كنفر ينفر . وتنادوا كتنافروا ، والتناد كالتنافر ، وأصله التنادد ، فأسكنت الدال الأولى وأدغمت في الثانية استثقالا لاجتماع المثلين متحركين .

فإن قيل : فهلا أظهر نحو ذلك ، وهو ملحق بالتفاعل من غير التضعيف نحو التنافر ، والتضافر ، والتحاسر ، والتحاسد .

قيل : هذا من أقبح الخطأ ، وذلك أن الغرض في الإلحاق إنما هو رفع دوات الثلاثة إلى ذوات الأربعة ، نحو جلبب ، وشملل2 ، فهما ملحقان بدحرج وهملج3 ، أو بذوات الخمسة نحو كوالل4 ، في إلحاقه بسفرجل ، مجتازا في طريقه بقفعدد5 وسبهلل6 ، أو رفع بنات الأربعة إلى بنات الخمسة ، نحو شنخف7 ، وهلقس8 في إلحاقهما بجردحل9 . فأما أن تلحق بنات الثلاثة ببنات الثلاثة فلغوا [142ظ] من القول ، فلم يكن في إلا فساد معنى قولهم : ملحق ؛ لأن الأصل لا يلحق بنفسهن فكذلك أيضا "التناد" ثلاثي ، كما أن التنافر ثلاثي, أفيلحق الشيء بنفسه ؟

ألا ترى أن ند ثلاثي ، كما أن نفر كذلك ؟ وهذا واضح .

ولو جاز هذا للزمك عليه أن تقول في شد وحل : شدد وحلل ، فتظهرهما ، وتقول : هما ملحقان بدخل وخرج .

فإن قلت : فقد قالوا في فيعل – نحو خيفق10 وصيرف – وفوعل من رددت : ريدد ورودد ، وإن كنا قد أحطنا علما بأن كل واحد من خيفق وصيرف ثلاثي الأصل .

---

1 سورة غافر : 32 .

2 شملل : أسرع .

3 هملج : ذلل .

4 الكوألل : القصير .

5 القفعدد : القصير .

6 سبهلل ، يقال : جاء سبهللا ، أي : لا شيء معه ولا سلاح عليه ، أو مختالا غير مكترث .

7 الشنخف : الرجل الضخم .

8 الهلقس : الشديد من الجوع وغيره .

9 الجردحل : الوادي ، الضخم من الإبل ، للذكر والأنثى .

10 الخيفق : الفلاة الواسعة .

(136/672)

قيل : أجل ، إلا أنك ألحقت فيهما جميعا ثلاثيا برباعي ، ألا ترى أن خيفقا وصيرفا ملحقان بجعفر وسلهب1 ؟ . فإن قال لك : ابن من رد مثل فيعل وفوعل فكأنه إنما قال : ألحق رد بجعفر على حد فيعل وفوعل ، اللذين ألحقتهما به ، وهذا واضح ، وليس كذلك التفاعل ؛ لأن التفاعل ليس ملحقا بشيء ، كإلحاق صيرف وجوهر بجعفر ، فهذا فرق .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وابن مسعود : "وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُون3" ، بفتح اللام .

قال أبو الفتح : التقدير فيه إذ الأغلال أعناقهم ويسحبون السلاسل ، فعطف الجملة من

الفعل والفاعل على التي من المبتدأ والخبر ، كما عودلت إحداهما بالأخرى في نحو قوله :

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد أموف بأدراع ابن ظبية أم تذم3

أي : أأنت موف بها أم تذم ؟ فقابل المبتدأ والخبر التي من الفعل والمفعول الجاري مجرى الفاعل وقال الله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ4 ﴾ ، أي : أصمتم ؟ وعلى أنه لو كان إذ في أعناقهم الأغلال والسلاسل يسحبون لكان أمثل قليلا ؛ من قبل أن قوله : في أعناقهم الأغلال يشبه في اللفظ تركيب الجملة من الفعل والفاعل ؛ لتقدم الظرف على المبتدأ ، كتقدم الفعل على الفاعل ، مع قوة شبه الظرف بالفعل .

وعلى أن أبا الحسن يرفع زيدا من قولك : في الدار زيد بالظرف ، كما يرفعه بالفعل . ومن غريب شبه الظرف بالفعل أنهم لم يجيزوا في قولهم : فيك يرغب أن يكون فيك مرفوعا بالابتداء ، وفي "يرغب" ضميره ، كقولك : زيد يضرب ، من موضعين : أحدهما أن الفعل لا يرتفع بالابتداء ، فكذلك الظرف .

والآخر أن الظرف لا ضمير له ، كما أن الفعل لا ضمير له . ومن ذلك أيضا قوله :

زمان على غراب غداف فطيره الشيب عني فطارا5

فعطفه الفعل على الظرف من أقوى دليل على شبهه به ، وفيه أكثر من هذا فتركناه ؛ لأن في هذا مقنعا بإذن الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 240 . 243 ﴾

---

1 السلهب : الطويل ، أو من الرجال .

2 سورة غافر : 71 .

3 البيت لراشد بن شهاب اليشكري يخاطب قيس بن مسعود بن قيس بن خالد الشيباني وانظر المفضليات : 309 .

4 انظر الصفحة 90 من هذا الجزء .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة المؤمن

مكية وآيها ثمانون وثنتان بصري وأربع حجازي وحمصي وخمس كوفي وست دمشقي خلافها تسع حم كوفي وترك كاظمين يوم التلاق تركها دمشق وعد بارزون إسرائيل الكتاب غير مدني أخير وبصري الأعمى والبصير دمشقي ومدني أخير يسحبون كوفي ومدني أخير في الحميم مكي ومدني أول كنتم تشركون كوفي ودمشقي مشبه الفاصلة ثمانية شديد العقاب له الدين معا لدى الحناجر من حميم ولا شفيع وهامان وقارون مدبرين يتحاجون في النار والسلاسل وعكسه موضعان يطاع يقول الإشهاد القراآت أمال الحاء من حم في السور السبع ابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق واختلف عن

أبي عمرو فقللها عنه صاحب التيسير والشاطبية وسائر المغاربة وفتحها عنه صاحب المبهج والمستنير وسائر العراقيين والوجهان في الطيبة وسكت أبو جعفر على الحاء والميم في كلها وأظهر ذال (فأخذتهم) وابن كثير وحفص ورويس بخلفه وأثبت الياء في (عقاب) الآية 5 في الحالين يعقوب وقرأ ﴿ كلمات ﴾ الآية 6 بالتوحيد ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف ومر بالأنعام وقرأ (وقهم) في الموضعين بضم الهاء رويس بخلفه كما مر في الفاتحة وحكم الميم مع الهاء في الثاني وهو وقهم السيآت وصلا وقع التنبيه عليه غير مرة وأدغم ذال إذ تدعون أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وقرأ (وينزل) الآية 13 بالتخفيف ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وعن الحسن (لينذر) بالتاء الفوقانية وأثبت الياء في التلاق و التناد وصلا فقط ورش وابن وردان وفي الحالين ابن كثير ويعقوب وأما ذكر الخلاف فيهما لقالون الذي أثبته في التيسير وتبعه الشاطبي فتقدم أنه انفرادة لفارس من قراءته على عبد الباقي قال في النشر ولا أعلمه يعني الخلاف عن قالون ورد من طريق من الطرق عن أبي نشيط ولا عن الحلواني وأطال في بيان ذلك ولذا حكاه في طيبته بصيغة التمريض فقال وقيل الخلف بر وأمال لا يخفى حمزة والكسائي

وخلف وقلله الأزرق بخلفه وأمال القهار أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري والدوري عن الكسائي وقلله الأزرق وحمزة بخلفه وحمزة وهو الذي في الشاطبية كأصلها وفاقا لجميع المغاربة وفتحه له العراقيون قاطبة

واختلف في ( ) والذين يدعون ( ) الآية 20 فنافع وهشام وابن ذكوان بخلفه بالخطاب على الالتفات أو إضمار قل وهو رواية المطوعي عن الصوري وعن ابن ذكوان وكذا رواه أبو الفضل والصيدلاني وسلامة عن الأخفش عن ابن ذكوان ورواه الجمهور عن الصوري والأخفش بالغيب وبه قرأ الباقون

واختلف في ( ) أشد منهم قوة (الآية 21 الأول فابن عامر منكم بالكاف موضع الهاء التفاتا إلى الخطاب والباقون منهم بضمير الغيب لقوله أو لم يسيروا ووقف على واق و هاد بالياء ابن كثير واتفقوا على تنوينه وصلا وقرأ (رسلهم) بإسكان السين أبو عمرو وفتح ياء ذروني أقتل ورش من طريق الأصبهاني وابن كثير وفتح ياء إني أخاف الثلاثة نافع وابن كثير وأبو عمر وأبو جعفر

واختلف في ﴿ وأن يظهر ﴾ الآية 26 فنافع وابو عمرو وأبو جعفر بواو النسق ويظهر بضم الياء وكسر الهاء من أظهر معدى ظهر وفاعله ضمير موسى عليه الصلاة والسلام و الفساد بالنصب على المفعول به وافقهم اليزيدي وقرأ ابن كثير وابن عامر بواو النسق أيضا (يظهر) بفتح الياء والهاء من ظهر لازم (فالفساد) بالرفع فاعله وافقهما ابن محيصن

وقرأ حفص ويعقوب ( ) أو أن (بزيادة همزة مفتوحة قبل الواو مع سكون الواو على أنها أو الإبهامية التي لأحد الشيئين و (يظهر) بضم الياء وكسر الهاء ونصب (الفساد) وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف (بأو) أيضا و (يظهر) بفتح الياء والهاء ورفع (الفساد) وافقهم الأعمش والحسن وأظهر ذال عذت نافع وابن كثير وهشام بخلفه وابن ذكوان وعاصم ويعقوب وأدغم دال وقد جاءكم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف ومر قريبا إني أخاف معا وكذا التناد وهاد وعن الأعمش ثمود بالجر والتنوين

(139/672)

واختلف في) على كل قلب (الآية 35 فابو عمرو وابن عامر بخلفه بالتنوين في الياء الموحدة على قطع قلب عن الإضافة وجعل التكبر والجبروت صفته إذ هو منبعهما وقال الجعبري وتبعه النويري لأنه أي القلب مدير الجسد والنفس مركزه لا القلب خلافا لمدعيه وافقهما اليزيدي وابن محيصن من المفردة وهي رواية هشام من طريق الداجوني وابن ذكوان من طريق الأخفش وروى الحلواني عن هشام والصوري عن ابن ذكوان بغير تنوين وبه قرأ الباقون بإضافة قلب إلى ما بعده أي على كل قلب كل شخص متكبر وفتح ياء لعلي أبلغ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر

واختلف في (فأطلع) الآية 37 فحفص بنصب العين بتقدير أن بعد الأمر في ابن لي وقيل في جواب الترجي في لعلي حملا على التمني على مذهب الكوفيين أما البصريون فيمنعون والباقون بالرفع عطفا على أبلغ وقرأ وصد بضم الصاد عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف والباقون بالفتح وسبق بالرعد وأثبت الياء في اتبعوني أهدكم وصلا قالون والأصبهاني وأبو عمرو وابو جعفر وفي الحالين ابن كثير ويعقوب ومر نظير القرار وبآل عمران في الإبرار وبص في الإشرار وقرأ يدخلون بضم الياء وفتح الحاء مبنيا للمفعول ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر وأبو جعفر ويعقوب ومر بالنساء وفتح ياء مالي أدعوكم نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبن ذكوان من طريق الصوري وهشام وأبو جعفر وقرأ وأنا أدعوكم بإثبات الألف نافع وأبو جعفر وقرأ لا جرم بالمد المتوسط حمزة بخلفه وفتح ياء امري إلى الله نافع وابو عمرو وأبو جعفر

وأمال فوقيه حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

(140/672)

واختلف في الساعة أدخلوا فابن كثير وابو عمرو وابن عامر وأبو بكر بوصل همزة أدخلو وضم الخاء أمرا من دخل الثلاثي والواو ضمير آل فرعون ونصب آل على النداء والابتداء

بهمزة مضمومة وافقهم ابن محيصن واليزيدي والحسن والباقون بقطع الهمزة المفتوحة في الحالين وكسر الخاء أمر للخزنة من أدخل رباعيا معدى لاثنين وهما آل وأشد ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على فيقول الضعفاء ومثله وما دعؤا الكافرين باثني عشر وجها مبينة أول الأنفال وقرأ رسلكم بسكون السين أبو عمرو وكذا رسلنا و رسلهم وأمال بلى شعبة بخلفه وحمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وأبو عمرو وصححهما عنه في النشر وقصر الخلاف في طيبته على الدوري وقرأ يوم لا ينفع بالتذكير نافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف ومر بالروم وقرأ إسرائل بالتسهيل أبو جعفر ومر بأول البقرة مع خلف الأزرق في مده كوقف حمزة عليه ورقق الأزرق راء كبر ماهم فيما نص عليه الداني والشاطبي وابن بليمة وفخمه عنه مكي في جماعة ومثله عشرون ويوقف لحمزة وهشام بخلف على المسيء بالنقل وبالإدغام إجراء للياء الأصلية مجرى الزائد ويجوز الروم والإشمام مع كل منهما تصير ستة

واختلف في ﴿ (ما يتذكرون ﴾ الآية 58 فعاصم وحمزة والكسائي وخلف بتاءين من فوق على الخطاب وافقهم الأعمش والباقون بالياء من تحت وتاء من فوق على الغيب وقرأ لا ريب بالمد المتوسط حمزة بخلفه وفتح ياء ادعوني أستجب ابن كثير فقط وقرأ (سيدخلون) الآية 60 بضم الياء وفتح الخاء ابن كثير وأبو بكر بخلفه وأبو جعفر ورويس

كما مر في النساء والوجهان عن أبي بكر من طريق يحيى بن آدم وروى عنه العليمي بالفتح الياء والضم للخاء كالباقين

(141/672)

وأمال فأني حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما وعن الحسن والأعمش صوركم بكسر الصاد فرارا من الضمة قبل الواو وعن ابن محيصن والحسن تسكين جاءني البينات وضم شين شيوخا نافع وأبو عمرو وهشام وحفص وأبو جعفر ويعقوب وخلف عن نفسه ومر بالبقرة كنصب فيكون لابن عامر وقرأ قيل بالإشمام هشام والكسائي ورويس وقرأ فإلينا يرجعون بفتح الياء وكسر الجيم مبنيا للفاعل يعقوب وتقدم نظير جاء أمر الله من حيث الهمزتان بهود وغيرها وأبدل همز بأسنا أبو عمرو بخلفه كوقف حمزة ووقف على سنت بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب المرسوم أشد منهم في الشامي بالكاف وفي غيره بالهاء وكتب في الكوفي أو أن يظهر بألف قبل الواو وروى نافع كغيره حذف ألف كلمت ربك على الذين كفروا واتفقوا على رسم فيقول الضعفؤا بواو وألف بعدها مع حذف الألف قبلها وكذ وما دعؤا الكافرين وعلى كتابة إلى النجوة بواو بدل الألف واتفقوا على قطع يوم هم بارزون وعلى كتابة سنت آخر

السورة وهي سنت الله التي قد خلت في عباده بالتاء واختلف في حقت كلمت ربك ففي أكثر المصاحف بالتاء ياءات الإضافة تسع ( ) إني أخاف ( ) الآية 26 30 32 في ثلاثة ( ) ذروني أقتل ( ) الآية 26 ( ) ادعوني أستجب ( ) الآية 60 ( ) لعلي أبلغ (الآية 36 ( ) ما لي أدعوكم ( ) الآية 41 ( ) أمري إلى الله (الآية 44 ( ) جاءني البينات (الآية 28 لابن محيصن والحسن والزوائد أربع (عقاب) الآية 5 (التلاق) الآية 15 (والتناد) الآية 32) اتبعون أهدكم ( ) الآية 38 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 484 487.﴾

(142/672)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة المؤمن "

" حم " سكت أبو جعفر على حرفي الهجاء على أصله والباقون بغير سكت .

" ليأخذوه " ويؤمنون ، ويستغفرون ، صلح ، الكافريون ، لينذر ، لا يخفى .

" عقاب " أثبت يعقوب الياء مطلقا وحذفها غيره في الحالين .

" كلمت ربك " قرأ المدنيان والشامي بألف بعد الميم على الجمع وغيرهم بحذف الألف

على الإفراد . وقد اختلفت المصاحف في رسمه فرسم في بعضها بالهاء وفي بعضها بالتاء وحكم الوقف عليه لسائر القراء كحكم الوقف على الموضع الثاني بيونس .

" وقهم عذاب " ضم رويس الهاء في الحالين وكسرها غيره كذلك .

" وقهم السيئات " قرأ للبصري وروح بكسر الهاء والميم وصلا والأخوان وخلف ورويس بضمهما وصلا والباقون بكسر الهاء وضم الميم وصلا وأما عند الوقف فجميع العشرة يقفون بكسر الهاء وإسكان الميم إلا رويسا فيقف بضم الهاء وإسكان الميم . فمذهبه ضم الهاء في الحالين .

" وينزل " قرأ بالتخفيف المكي والبصريان وبالتشديد غيرهم .

" مخلصين " أجمعوا على كسر لامه .

" التلاق " أثبت ورش وابن وردان الياء وصلا وفي الحالين ابن كثير ويعقوب والباقون بالحذف فيهما ومنهم قالون فليس له إلا الحذف في الحالين وما ذكره الشاطبي من الخلاف لقالون فليس من طرقه فلا يقرأ به ولذلك قال المحقق ابن الجزري: ولا أعلم الخلاف لقالون ورد من طريق من الطرق عن أبي نشيط ولا عن الحلواني .

" والذين يدعون " قرأ نافع وهشام بتاء الخطاب وغيرهما بياء الغيبة .

" البصير " آخر الربع .

الممال

" حم " أمال حا ابن ذكوان وشعبة والأخوان وخلف وقللهما ورش وأبو عمرو . النار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، القهار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش وحمزة . تجزى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ولا إمالة ولا تقليل في لدى لأجد .

المدغم

" الصغير " فأخذتهم لغير المكي وحفص ورويس ، فاغفر للذين للبصري بخلف عن الدوري ، إذ تدعون للبصري وهشام والأخوين وخلف .

(143/672)

" الكبير " الطول لا إله إلا هو ، بالباطل ليدحضوا ، وينزل لكم ، الدرجات ذو العرش .

" أشد منهم " قرأ ابن عامر منكم بالكاف في موضع الهاء .

" واق هاد " قرأ المكي بزيادة ياء بعد القاف والدال في الوقف فيهما والباقون بحذفها ولا خلاف بينهم في تنوينهما وصلا .

" تأتيهم " رسلهم ، ساحر ، بأس ، دأب ، لا يخفى .

" ذروني " فتح الياء ابن كثير وأسكنها غيره .

" إني أخاف الثلاثة " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" أو أن يظهر في الأرض الفساد " قرأ المدنيان والبصري بالواو المفتوحة بدلا من أو . ويظهر بضم الياء وكسر الهاء والفساد بنصب الدال وابن كثير وابن عامر بالواو أيضا ويظهر بفتح الياء والهاء والفساد برفع الدال ، وحفص ويعقوب أو بزيادة همزة قطع مفتوحة قبل الواو مع سكون الواو ويظهر بالضم والكسر والفساد بالنصب ، وشعبة والأخوان وخلف بأو كذلك ويظهر بفتح الياء والهاء والفساد برفع الدال .

" التناد " حكمه حكم التلاق لجميع القراء .

" قلب متكبر " قرأ البصري وابن ذكوان بتنوين الباء الموحدة في قلب وغيرهما ترك التنوين .

" لعلي أبلغ " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري والشامي وأسكنها غيرهم .

" فأطلع " قرأ حفص بنصب العين وغيره برفعها .

" وصد " ضم الصاد الكوفيون ويعقوب وفتحها غيرهم .

" اتبعون أهدكم " أثبت الياء وصلا قالون وأبو عمرو وأبو جعفر . وفي الحالين ابن كثير ويعقوب ، وحذفها الباقون في الحالين .

" يدخلون " قرأ ابن كثير والبصريان وأبو جعفر وشعبة بضم الياء وفتح الخاء ، والباقون بفتح الياء وضم الخاء .

" حساب " آخر الربع .

الممال

موسى الأربعة والدنيا وأنثى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

أرى بالإمالة للبصري والأصحاب ، وبالتقليل لورش جاءهم وجاءكم الثلاثة ، وجاءنا لابن ذكوان وخلف وحمزة . الكافرين بالإمالة لرويس والبصري والدوري والتقليل لورش .

(144/672)

جبار مثله ما عدا رويسا فله فيه الفتح . القرار بالإمالة للبصري والكسائي وخلف في اختياره وبالتقليل لورش وحمزة . أتاهم ويجزى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " " عذت " للبصري والأخوين وخلف وأبي جعفر . قد جاءكم معا للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " وقال رجل ، وإن يك كاذبا ، على أحد الوجهين ، يريد ظلما ، هلك قلتم ، زين لفرعون .

" مالي أدعوكم " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وهشام وأسكنها غيرهم .

" وتدعونني إلى النار " تدعونني لأكفر ، تدعونني إليه ، اتفقوا على إسكان الياء في الثلاثة

" وأنا أدعوكم " أثبت المدنيان ألف وأنا وصلا ، فيصير المد عندهما حينئذ منفصلا ، فيمد كل حسب مذهبه والباقون بحذف الألف ، ولا خلاف في إثباتها وقفا .

" أمري إلى الله " فتح الياء المدنيان والبصري وأسكنها غيرهم .

" بصير " رسلكم ، رسلنا ، معذرتهم ، كبر ، والبصير ، إسرائيل ، ببالغيه ، مبصرا . كله جلي .

" أدخلوا " قرأ المكي والبصري والشامي وشعبة بوصل همزة ادخلوا وضم الخاء ، وإذا ابتدءوا ضموا الهمزة . وغيرهم بهمزة قطع مفتوحة في الحالين مع كسر الخاء .

" الضعفؤا " رسمت الهمزة على واو في جميع المصاحف على الصحيح ، ففيها لحمزة وهشام اثنا عشر وجها تقدمت في جزاؤا بالمائدة .

" دعاؤا " رسمت الهمزة فيه على واو في جميع المصاحف .

" لا ينفع " قرأ نافع والكوفيون بياء التذكير وغيرهم بتاء التأنيث .

" المسيء " لهشام وحمزة في الوقف عليه النقل والإدغام ، وعلى كل السكون المحض والإشمام والروم . فمجموع الأوجه ستة .

" تتذكرون " قرأ المدنيان والمكي والبصريان والشامي بياء تحتية وتاء فوقية مفتوحتين على الغيب ، والباقون بتاءين فوقيتين مفتوحتين على الخطاب .

" ادعوني أستجب " فتح الياء ابن كثير وأسكنها غيره .

" سيدخلون " قرأ ابن كثير وشعبة ورويس وأبو جعفر بضم الياء وفتح الخاء وغيرهم بفتح الياء وضم الخاء .

" العالمين " آخر الربع .

الممال

(145/672)

النار الخمسة والغفار والدار والأبكار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش الكافرين كذلك ومعهم رويس بالإمالة . الدنيا معا وموسى لدى الوقف بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . ذكرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش .

فوقاه وبلى والهدى ، وهدى لدى الوقف ، وأتاهم والأعمى ، وتجزى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لورش بخلف عنه . وحاق لحمزة وحده . الناس لخمسة لدوري البصري . فأنى بالإمالة للأصحاب ، والتقليل لدوري البصري وورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " واستغفر لذنبك للبصري بخلف عن الدوري .

" الكبير " ويا قوم مالي ، الغفار لا جرم ، أقول لكم ، حكم بين العباد ، النار لخزنة ، جهنم ، لننصر رسلنا ، إنه هو البصير لخلق ، وقال ربكم ، وجعل لكم معا ، الليل لتسكنوا ، خالق كل شيء ، ورزقكم ، الطيبات ذلكم .

" شيوخا " كسر الشين المكي وابن ذكوان وشعبة والأخوان وضمها غيرهم .

" فيكون " نصب النون الشامي ورفعها غيره .

" رسلنا رسلهم " قيل ، فبئس ، وخسر معا ، تنكرون ، يسيروا ، بأسنا معا ، جاء أمر الله ، يستهزءون ، جلي .

" يرجعون " قرأ يعقوب بفتح الياء وكسر الجيم وغيره بضم الياء وفتح الجيم .

" سنت الله " رسمت بالتاء ، ووقف بالهاء المكي والبصريان والكسائي وغيرهم بالتاء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 284 . 288 ﴾

(146/672)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة المؤمن

قوله تعالى ﴿ حم ﴾ يقرأ بتفخيم الحاء وإمالتها وبين ذلك وقد تقدم القول فيه عند ذكر حروف المعجم فيما سلف

فإن قيل فما موضع حم من الإعراب فقل قال قوم موضع حم نصب بإضمار فعل معناه اتل أو اقرا حم وقيل موضعها خفض بالقسم إلا أنها لا تنصرف وما لا ينصرف فالنصب أولى به من الخفض لأنه مشبه بالفعل فمنع ما لا يكون إعرابا في الفعل وهو الخفض

قال الكميت

وجدنا لكم في آل حاميم آية % تأولها منا تقي ومعرب

وقيل هي اسم للسورة ودليل عليها

قوله تعالى ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ بالتاء والياء وقد تقدم القول فيه آنفا

قوله تعالى ﴿ يوم التلاق ﴾ ﴿ يوم التناد ﴾ يقرآن بإثبات الياء وصلا وبحذفها وقفا وبإثباتها وصلا ووقفا وبحذفها وصلا ووقفا وقد تقدمت الحجة في أمثاله

بما يدل عليه ومعنى التلاق التقاء السماء والارض ومعنى التناد قيل تناديهم من قبورهم وقيل ينادي اصحاب الجنة أصحاب النار وأصحاب الاعراف

قوله تعالى ﴿ أشد منهم قوة ﴾ يقرا بالهاء في منهم ونصب اشد بعده الاما قراه ابن عامر با لكاف في موضع الهاء ورفع اشد وليس في نصب اشد خلاف بين الناس ورفع ذلك لحن فالحجة لمن قراه بالهاء انه اتى بالكلام على سياقه ودليل قوله ﴿ أو لم يسيروا في الأرض ﴾

ونصب اشد لانه جعله الخبر لكان السابقة وجعل هم فاصلة عند البصريين وعمادا عند الكوفيين ليفرق بذلك بين الوصف لاسم كان وبين الخبر كقولك كان زيد الظريف قائما في الوصف وكان زيد هو الظريف في الخبر ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ إن كنا نحن الغالبين ﴾

(147/672)

فان قيل فان الفاصلة لاتدخل على خبر كان الا اذا كان معرفة فقل ان افعل متى وصل ب من كان معرفة والحجة لمن قرأه بالرفع والكاف انه جعل هم اسما مبتدا و اشد الخبر فرفعهما وجعلهما جملة في موضع نصب بخبر كان فاما الكاف فحجته فيها ان العرب ترجع منا الغيبة في الخطاب الى الحضرة ودليله قوله تعالى ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ﴾ وقد تقدم من هذا ما يستدل به على معناه

قوله تعالى ﴿ أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ يقرأ بأو وبالواو وبضم الياء وفتحها وبنصب الفساد ورفعه فالحجة لمن قرأ بأو أنه جعل الحرف لأحد الحالين على طريق الشك او الإباحة لان لأو في الكلام اربعة اوجه الشك والاباحة والتخيير وايجاد احد الشيئين منها كقوله ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ والحجة لمن قرأ بالواو انه جعل الحرف للحالين معا فاختار الواو لانها جامعة بين الشيئين

لأنه جمع بها ها هنا بين التبديل وبين ظهور الفساد والحجة لمن ضم الياء انه رد الكلام على اوله واتى به على سياقه فاضمر الفاعل فيه كما أضمره في قوله ﴿ أن يبدل دينكم ﴾ فنصب الفساد بتعدي الفعل اليه والحجة لمن فتح الياء انه قطع الفساد وظهوره من التبديل فافرده ورفعه به

ومعناه فان يبدل دينكم ظهر في الارض الفساد قوله تعالى ﴿ إني عذت ﴾ يقرا بادغام الذال في التاء لقرب المخرج وباظهار الذال على الاصل لان الحرفين غير متجانسين

(148/672)

قوله تعالى ﴿ على كل قلب متكبر جبار ﴾ اجماع القراء ها هنا على الاضافة الا اباعمرو فانه نون القلب فالحجة لمن اضاف انه جعل القلب خلفا من اسم محذوف فاقامه مقامه عند الكوفيين وهوعند البصريين صفة قامت مقام الموصوف ومعناه عندهم على كل قلب رجل متكبر او يريد به التقديم والتأخير كما حكى عن بعض فصحاء العرب ان فلانا لمن يرجل شعره كل يوم جمعه اراد كل يوم جمعه فقدم واخر والحجه لأبي عمرو انه جعل الفعل للقلب لانه ملك البدن ومستقر الكبر لان الكبر اذا سكنه تكبر له صاحبه ودليل ذلك قوله ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ لان الاعناق اذا ذلت وخضعت ذل لذلك

وخضع اربابها

ومعنى تكبر القلب قسوته لأنه إذا قسا ترك الطاعة والجبار في اللغة الذي يقتل على الغضب ودليله قوله ﴿ بطشتم جبارين ﴾

فإن قيل فقد مدح الله نفسه بهذا الاسم الذي ذم به خلقه فقل موضع المدح لله تعالى انه اجبر عباده على ما اراد منهم واحياهم واماتهم فهي صفة لا تليق إلا به ومدح لا يجب إلا له فاذا اكتسى ذلك من لا يجب له كان مذموما به

ولم يات فعال من افعل الا في ثلاثه افعال قالوا اجبر فهو جبار وادرك فهو دراك وأسأر فهو سآر

قوله تعالى ﴿ فأطلع إلى إله موسى ﴾ اجمع القراء على رفعه عطفا على قوله ابلغ إلا ما روى حفص عن عاصم بالنصب لأنه جعل الفاء فيه جوابا للفعل فنصب بها تشبيها ل لعل بليت لأن ليت في التمني أخت لعل في الترجي ومثله ما رواه عنه أيضا في عبس ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾

قوله تعالى ﴿ وصد عن السبيل ﴾ يقرأ بضم الصاد وفتحها فالحجة لمن ضم أنه دل بالضم على بناء ما لم يسم فاعله وعطفه على قوله ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله ﴾ والحجة لمن فتح أنه جعل الفعل لفرعون فاستتر اسمه فيه لتقدمه قبل ذلك وفيه حجة لأهل السنة

قوله تعالى ﴿ أدخلوا آل فرعون ﴾ يقرا بقطع الألف ووصلها فالحجة لمن قطع أنه جعله أمرا من الله عز وجل للزبانية فنصب آل فرعون بتعدي الفعل إليهم لأن دخول النار ليس مما يختارونه ولا ذلك إليهم وإنما يكرهون عليه والحجة لمن وصل أنه جعل الفعل حكاية عما يقال لهم وأضمر القول ها هنا كما أضمر في قوله تعالى ﴿ وأما الذين كفروا أفلم ﴾ يريد والله أعلم فيقال لهم أفلم ونصب آل فرعون على هذه القراءة بالنداء المضاف كما قال تعالى ﴿ ذرية من حملنا ﴾ يريد والله أعلم يا ذرية من حملنا مع نوح

قوله تعالى ﴿ يدخلون الجنة ﴾ يقرأ بضم الياء وفتح الخاء وبفتح الياء وضم الخاء فالحجة لمن ضم أنه أتى بالفعل على بناء ما لم يسم فاعله ليقربه من قوله ﴿ يرزقون ﴾ فيتفقا بلفظ واحد في بنائهما والحجة لمن فتح الياء أنه أراد أنهم إذا أدخلوا دخلوا فنسب الدخول إليهم ودليله قوله تعالى ﴿ وماتوا وهم كفار ﴾ وإنما الله أماتهم لقوله تعالى ﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ فنسب الفعل إليهم على هذا الوجه سعة ومجازا ومثله ﴿ سيدخلون جهنم ﴾ يقرأ بضم الياء وفتحها ومعنى داخرين صاغرين

قوله تعالى ﴿ لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ يقرأ بالتاء دلالة على تأنيث المعذرة وبالياء لحائل

بين الفعل والاسم أو لأن تأنيث الاسم ليس بحقيقي

قوله تعالى ! ? ! ? < ما يتذكرون > ? يقرأ بالياء والتاء ويقرأ بتاءين فالحجة لمن قرأه بالياء والتاء أنه جعل الياء دلالة على الاستقبال وعلامة للغيبة والتاء داخلة على فعل لتدل على استفادة الذكر شيئا بعد شيء كما تقول تحفظت القرآن وتنجزت حوائجي والحجة لمن قرأه بالتاءين أنه دل بالأولى على الاستقبال والحضور وبالثانية على ما قدمناه وقليلا ينتصب بقوله ﴿ يتذكرون ﴾ والوقف تام على قوله عز وجل ﴿ ولا المسيء ﴾ ثم يبتدئ بما بعده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 312.316 ﴾

(150/672)

وقال ابن زنجلة :

40 - سورة حم المؤمن أو سورة غافر

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وابو بكر حم بكسر الحاء

وقرأ الباقون بالفتح وهما لغتان قد بينا فيما تقدم

وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا أنهم أصحب النار 6

قرأ نافع وابن عامر وكذلك حقت كلمات ربك بالألف على الجمع وقرأ الباقون كلمة

وحجتهم أنها تجمع سائر الكلمات وتقع مفردة على الكثرة فإذا كان ذلك كذلك استغني بها عن الجمع كما تقول يعجبني قيامكم وقعودكم وقال لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا وقال إن أنكر الأصوات لصوت الحمير فأفرد الصوت مع الإضافة إلى الكثرة فكذلك الكلمة ومن جمع فلأن هذه الأشياء وإن كانت تدل على الكثرة قد تجمع إذا جعلت أجناسا قال وصدقت بكلمات ربها أي بشرائعه لأن الكتب قد ذكرت وقال وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن

لينذر يوم التلاق إني أخاف عليكم يوم التناد 15 و32

قرأ ابن كثير وورش لتنذر يوم التلاقي و التنادي بإثبات الياء في الوصل وابن كثير أثبتهما في الوقف وحذفهما الباقون في الحالين المعنى إني أخاف عليكم عذاب يوم التناد

من قرأ التلاقي و التنادي بالياء في الوصل والوقف فعلى

الأصل لأنه من لقيت وناديت فهو على الأصل وليس ما فيه الألف واللام من هذا كما لا ألف ولام فيه من هذا النحو مثل قاض قال سيبويه إذا لم يكن في موضع تنوين يعني اسم الفاعل فإن الثبات أجود وكذلك قولك هذا القاضي لأنها ثابتة في الوصل يريد أن الياء مع الألف واللام تثبت ولا تحذف كما تحذف في اسم الفاعل إذا لم تكن فيه الألف واللام نحو هذا قاض فاعلم فالياء مع غير الألف واللام تحذف في الوصل فإذا أدخلت الألف واللام

تثبت في اللغة التي هي أكثر عند سيبويه

وكان ورش يثبتهما وصلا ويحذفهما وقفا لأنه تبع المصحف في الوقف والأصل الدرج

(151/672)

ومن حذف الياء في الحالين فإن سيبويه زعم أن من العرب من يحذف هذا في الوقف شبهوه بما ليس فيه ألف ولام إذ كانت تذهب الياء في الوصل مع التنوين لو لم يكن ألف ولام وأخرى أن خط المصحف بغير ياء وأن العرب تجتزئ بالكسر عن الياء

والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء 20

قرأ نافع والذين تدعون بالتاء على الخطاب أي قل لهم

يا محمد وقرأ الباقون بالياء إخبارا عنهم

كانوا هم أشد منهم قوة 21

قرأ ابن عامر كانوا هم أشد منكم قوة بالكاف وكذلك هي في مصاحف أهل الشام

وقرأ الباقون منهم بالهاء أتوا بلفظ الغيبة وحجتهم أن ما قبله بلفظ الغيبة وهو قوله أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم فكذلك يكون قوله كانوا هم أشد منهم قوة على الغيبة ليكون موافقا لما قبله من ألفاظ الغيبة ومعنى قوله أشد منهم قوة

أي من قومك

وأما من قال منكم بعد ما ذكرناه من ألفاظ الغيبة فعلى الأنصراف من الغيبة إلى الخطاب كقوله إياك نعبد بعد قوله الحمد لله وحسن الخطاب هنا لأنه خطاب لأهل مكة فحسن الخطاب لحضورهم

إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد 26

قرأ عاصم وحمزة والكسائي أو أن يظهر بالألف قبل الواو و قرأ الباقون وأن يظهر بغير ألف معنى أو وقوع أحد الشيئين فالمعنى على أو إن فرعون قال إني أخاف أن يبدل دينكم أي يبطل دينكم البتة فإن لم يبطله

أوقع فيه الفساد فجعل طاعة الله هي الفساد ومن قرأ وأن فيكون المعنى أخاف إبطال دينكم والفساد معه وحجته ما جاء في التفسير أنه خاف الأمرين جميعا ولم يخف أحدهما قرأ نافع وأبو عمر وحفص يظهر بضم الياء الفساد نصب أي يظهر موسى في الأرض الفساد وحجتهم أنه أشبه بما قبله لأن قبله يبدل فأسندوا الفعل إلى موسى بإجماع الجميع وهم كانوا في ذكره فكذلك وأن يظهر في الأرض الفساد ليكون مثل يبدل فيكون الكلام من وجه واحد

وقرأ الباقون يظهر بنصب الياء الفساد رفع أرادوا أنه إذا بدل الدين يظهر الفساد بالتبديل أو أن يكون أراد وأن يظهر في الأرض الفساد لمكانه

ومن يضلل الله فما له من هاد 33

واقي و هادي أثبتهما ابن كثير في الوقف وحذفهما الباقون وقد ذكرت الحجة في سورة الرعد

كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار 35

قرأ أبو عمرو وابن عامر على كل قلب متكبر بالتنوين وقرأ الباقون بغير تنوين

من نون جعل المتكبر نعتا للقلب وصفة له لأن القلب إذا تكبر تكبر صاحبه المعنى أن صاحبه متكبر كقوله تعالى ناصية كاذبة

أضاف الفعل إلى الناصية والمعنى لصاحبها ومما يقوي ذلك قوله إن في صدورهم إلا كبر فالكبر في القلب قال اليزيدي حجة هذه القراءة قوله ونطبع على قلوبهم ولم يقل عليهم فالطبع إنما قصد به القلب ومن قرأ بالإضافة فهو الوجه لأن المتكبر هو الإنسان المعنى على قلب كل رجل متكبر

لعلي أبلغ الأسبب أسبب السموات فأطلع إلى إله موسى 36 و37

قرأ حفص فأطلع إلى إله موسى بالنصب جعله جوابا بالفاء كأنه جعل لعلي أبلغ تمنيا ونصب فأطلع على جواب التمني بالفاء جعله جوابا بالفاء لكلام غير موجب والمعنى إني

إذا بلغت اطلعت

وقرأ الباقون فأطلع بالرفع نسقا على قوله أبلغ المعنى لعلي أبلغ ولعلي أطلع ومثل هذه القراءة قوله لعله يزكى أو يذكر أي لعله يتزكى ولعله يتذكر

وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل 37

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وصد عن السبيل بضم الصاد على ما لم يسم فاعله وجعلوا الفعل لله إن الله صده عن السبيل كما قال وطبع على قلوبهم أي طبع الله عليها وحجتهم أن الكلام أتى عقيب الخبر من الله فلفظ ما لم يسم فاعله وهو قوله وكذلك زين لفرعون فجرى الكلام بعده بترك تسمية الفاعل ليأتلف الكلام على نظام واحد

(153/672)

وقرأ الباقون وصد عن السبيل بالنصب أسندوا الفعل إلى الفاعل وجعلوا الفعل له لأن فرعون تقدم ذكره وهو الصاد عن السبيل في قوله تعالى لأقطعن أيديكم وأرجلكم ونحو هذا ومما يقوي بناء الفعل للفاعل قوله الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله فذلك أسندوا ها هنا إلى الفاعل

فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب 40

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر فأولئك يدخلون الجنة بضم الياء وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال إذ كان بعدها ما يؤكدها مثل لا يظلمون و يرزقون و يحلون لأن الأخرى توكيد الأولى فإذا لم يكن معها ذلك فالياء مفتوحة ويقوي هذا قوله وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات

وقرأ الباقون يدخلون الجنة بفتح الياء وحجتهم قوله تعالى

ادخلوها بسلام آمنين وقوله ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون فكان أمر الله إيام أن يدخلوها دليلا على ما أسند الفعل إليهم والمعنيان يتداخلان لأنهم إذا أدخلوا دخلوا وإذا أدخلهم الله الجنة دخلوا فمعنى يدخلون و يدخلون واحد قال الله عز و جل وأدخل الذين آمنوا و قال سندخلهم فهم مفعولون وفاعلون

النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب 46

قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص الساعة أدخلوا آل فرعون بقطع الألف وكسر الخاء على جهة الأمر للملائكة بإدخالهم يقال للملائكة أدخلوا آل فرعون فيكون آل فرعون نصبا بوقوع الفعل عليهم وحجتهم في ذلك أن الكلام أتى عقيب الفعل الواقع بهم وهو قوله النار يعرضون عليها فهم حينئذ مفعولون فجعل الإدخال واقعا بهم ليأتلف الكلام على طرق واحد

وقرأ الباقون الساعة ادخلوا موصولة على الأمر لهم بالدخول المعنى ويوم تقوم الساعة تقول ادخلوا يا آل فرعون وحجتهم في ذلك قوله ادخلوا أبواب جهنم وقال ادخلوا في أمم قد

خلت

وتنصب آل فرعون على هذه القراءة بالنداء المضاف

يوم لا ينفع الظلمين معذرتهم 52

(154/672)

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم التاء لتأنيث المعذرة

وقرأ الباقون بالياء لأن المعذرة والعذر والاعتذار واحد كما أن الوعظ والموعظة واحد

قليلا ما تتذكرون 58

قرأ عاصم وحمزة والكسائي قليلا ما تتذكرون على الخطاب وقرأ الباقون يتذكرون بالياء

إخبارا عن الكفار وحجتهم في قوله قبلها إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان 56

الآية ثم قال ولكن أكثر الناس 57 فكأنه لما جرى الكلام قبله بالخبر ثم أتى عقيبه جعلوه

بلفظ ما تقدمه إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد قال والتاء أعم لأنها تجمع

الصنفين أي أنتم وهم

إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين 60

قرأ ابن كثير وأبو بكر سيدخلون بضم الياء على ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون بالفتح

إضبارا عنهم

وقرأ أبو عمرو سيدخلون بالفتح لأنه لم يأت بعده ما يؤكده مثل ما جاء في سائر القرآن من قوله يرزقون و لا يظلمون و يحلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 626 . 635 ﴾

(155/672)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة المؤمن

مكية وقد ذكر نظيرتها في الشامي ولا نظير لها في غيره

وكلمها ألف ومئة وتسع وتسعون كلمة

وحروفها أربعة آلاف وتسع مئة وستون حرفا

وهي ثمانون وثنتان في البصري وأربع في المدنيين والمكي وخمس في الكوفي وست في الشامي اختلافها تسع آيات (﴿ حم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ يوم التلاق ﴾) لم يعدها الشامي وعدها الباقون (﴿ بارزون ﴾) عدها الشامي ولم يعدها الباقون (﴿

كاظمين ﴾) لم يعدها الكوفي وعدها الباقون (﴿ وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ﴾) لم يعدها المدني الأخير والبصري وعدها الباقون (﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾) عدها المدني الأخير والشامي ولم يعدها الباقون (﴿ والسلاسل يسحبون ﴾) عدها المدني الأخير والكوفي والشامي ولم يعدها الباقون (﴿ في الحميم ﴾) عدها المدني الأول والمكي ولم يعدها الباقون (﴿ كنتم تشركون ﴾) عدها الكوفي والشامي ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع ستة مواضع

(﴿ مخلصين له الدين ﴾) الأول (﴿ وهامان وقارون ﴾ يوم تولون مدبرين) (﴿ وإذ يتحاجون في النار ﴾ مخلصين له الدين) الثاني (﴿ والسلاسل ﴾

ورؤوس الآي

العليم

2 المصير

3 البلاد

4 عقاب

5 النار

6 الجحيم

7 الحكيم

8 العظيم

9 فتكفرون

10 سبيل

11 الكبير

12 ينيب

13 الكافرون

14 التلاق

15 القهار

16 الحساب

17 كاظمين

تتذكرون

58 لا يؤمنون

59 داخرين

60 لا يشكرون

61 تؤفكون

62 يجحدون

63 العالمين

64 العالمين

65 العالمين

66 تعقلون

67 فيكون

68 يصرفون

69 يعلمون

70 يسحبون

71 يسجرون

72 الكافرين

74 تمرحون

75 المتكبرين

76 يرجعون

77 المبطلون

78 تأكلون

79 تحملون

80 تنكرون

81 يكسبون

82 يستهزئون

83 مشركين

84 الكافرون

85 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 218.219﴾

(156/672)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة المؤمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (حم تنزيل الكتاب) هو مثل " الم تنزيل " .

قوله تعالى (غافر الذنب وقابل التوب) كلتاهما صفة لما قبله ، والإضافة محضة ، وأما

(شديد العقاب) فنكرة ، لأن التقدير: شديد عقابه ، فيكون بدلا ، ولايجوز أن يكون شديد بمعنى مشدد كما جاء أذين بمعنى مؤذن ، فتكون الإضافة محضة فيتعرف فيكون وصفا أيضا ، وأما (ذى الطول) فصفة أيضا (لاإله إلا هو) يجوز أن يكون صفة ، وأن يكون مستأنفا .

قوله تعالى (أنهم) هو مثل الذى في يونس .

قوله تعالى (الذين يحملون) مبتدأ ، و (يسبحون) خبره (ربنا) أي يقولون ، وهذا المحذوف حال ، و (رحمة وعلما) تمييز ، والأصل وسع كل شئ علمك .

قوله تعالى (ومن صلح) في موضع نصب عطفا على الضمير في أدخلهم: أي وأدخل من صلح ، وقيل هو عطف على الضمير في وعدتهم .

قوله تعالى (من مقتكم) هو مصدر مضاف إلى الفاعل ، و (أنفسكم) منصوب به ، و (إذ) ظرف لفعل محذوف تقديره: مقتكم إذ تدعون ، ولايجوز أن يعمل فيه مقت الله لانه مصدر قد أخبر عنه ، وهو قوله: أكبر من ولا مقتكم لأنهم لم يمقتوا أنفسهم حين دعوا إلى الإيمان ، وإنما مقتوها في النار ، وعند ذلك لا يدعون إلى الإيمان .

قوله تعالى (وحده) هو مصدر في موضع الحال من الله: أي دعى مفردا وقال يونس: ينتصب على الظرف تقديره: دعى على حياله وحده ، وهو مصدر محذوف الزيادة ، والفعل منه أوحدته إيحادا .

قوله تعالى (رفيع الدرجات) يجوز أن يكون التقدير: هو رفيع الدرجات ، فيكون (ذو) صفة ، و (يلقى) مستأنفا ، وأن يكون مبتدأ ، والخبر ذو العرش أو يلقى ، و (من أمره) يجوز أن يكون حالا من الروح ، وأن يكون متعلقا بيلقى

قوله تعالى (يوم هم) يوم بدل من يوم التلاق ، ويجوز أن يكون التقدير .

(157/672)

اذكر يوم ، وأن يكون ظرفا للتلاق ، وهم مبتدأ ، و (بارزون) خبره والجملة في موضع جر بإضافة يوم إليها ، و (لا يخفى) يجوز أن يكون خبرا آخر ، وأن يكون حالا من الضمير في بارزون ، وأن يكون مستأنفا ، (اليوم) ظرف ، والعامل فيه

لمن ، أو ما يتعلق به الجار ، وقيل هو ظرف للملك (لله) أي هو لله ، وقيل الوقف على الملك ، ثم استأنف فقال: هو اليوم لله الواحد : أي استقر اليوم لله ، و (اليوم) الآخر ظرف ل (تجزى) و (اليوم) الاخير خبر " لا " أي ظلم كائن اليوم ، و (إذ) بدل من يوم الآزفة ، و (كاظمين) حال من القلوب ، لأن المراد أصحابها ، وقيل هي حال من الضمير في لدى ، وقيل هي حال من الضمير في أنذرهم (ولا شفيع يطاع) يطاع في موضع جر صفة لشفيع على اللفظ ، أو في موضع رفع على الموضع .

قوله تعالى (وأن يظهر) هو في موضع نصب: أي أخاف الأمرين ، ويقرأ " أو أن يظهر " أي أخاف أحدهما وأيهما وقع كان مخوفا .

قوله تعالى (من آل فرعون) هو في موضع رفع نعتا لمؤمن ، وقيل يتعلق ب (يكتم) أي يكتمه من آل فرعون (أن يقول) أي لأن يقول (وقد جاءكم) الجملة حال ، و (ظاهرين) حال من ضمير الجمع في لكم ، و (أريكم) متعد إلى مفعولين ، الثاني (ما أرى) وهو من الرأى الذى بمعنى الاعتقاد .

قوله تعالى (سبيل الرشاد) الجمهور على التخفيف وهو اسم للمصدر ، إما الرشد أو الإرشاد ، وقرئ بتشديد الشين ، وهو الذى يكثر منه الإرشاد أو الرشد .

قوله تعالى (يوم التناد) الجمهور على التخفيف ، وقرأ ابن عباس رضى الله عنه بتشديد الدال ، وهو مصدر تناد القوم إذا تفرقوا : أي يوم اختلاف مذاهب الناس ، و (يوم تولون) بدل من اليوم الذى قبله ، و (مالكم من الله) في موضع الحال .

قوله تعالى (الذين يجادلون) فيه أوجه: أحدها أن يكون خبر مبتدإ محذوف أي هم الذين ، وهم يرجع على قوله " من هو مسرف " لأنه في معنى الجمع .

والثانى أن يكون مبتدأ والخبر يطبع الله ، والعائد محذوف: أي على كل قلب متكبر منهم ،

و (كذلك) خبر مبتدإ محذوف أي الأمر كذلك ، وما بينهما معترض مسدد .

والثالث أن يكون الخبر "كبر مقتا " أي كبر قولهم مقتا .

والرابع أن يكون الخبر محذوفا أي معاندون ونحو ذلك .

والخامس أن يكون منصوبا بإضمار أعنى .

قوله تعالى (على كل قلب) يقرأ بالتنوين ، و (متكبر) صفة له ، والمراد صاحب القلب ويقرأ بالإضافة وإضافة كل إلى القلب يراد بها عموم القلب لاستيعاب كل قلب بالطبع ، وهو في المعنى كقراءة من قرأ على قلب كل متكبر .

قوله تعالى (أسباب السموات) هو بدل مما قبله (فأطلع) بالرفع عطفا على أبلغ ، وبالنصب على جواب الأمر : أي إن تبن لى أطلع ، وقال قوم: هو جواب لعلى إذ كان في معنى التمنى .

قوله تعالى (تدعونني) الجملة وما يتصل بها بدل ، أو تبيين لتدعوننى الأول .

قوله تعالى (وأفوض أمرى إلى الله) الجملة حال من الضمير في أقول .

قوله تعالى (النار يعرضون عليها) فيه وجهان: أحدهما هو مبتدأ ، ويعرضون خبره .

والثانى أن يكون بدلا من سوء العذاب ، ويقرأ بالنصب بفعل مضمر يفسره يعرضون عليها تقديره: يصلون النار ونحو ذلك ، ولا موضع ليعرضون على هذا ، وعلى البدل موضعه حال إما من النار أو من آل فرعون (أدخلوا) يقرأ بوصل الهمزة: أي يقال لآل فرعون ، فعلى

هذا التقدير: يا آل فرعون ، ويقرأ بقطع الهمزة وكسر الخاء: أي يقول الله تعالى للملائكة .

قوله تعالى (وإذ يتحاجون) يجوز أن يكون معطوفا على عدوا ، وأن يكون التقدير: واذكر ، و (تبعا) مصدر في موضع اسم الفاعل ، و (نصيبا) منصوب بفعل دل عليه مغنون تقديره: هل أنتم دافعون عنا أو مانعون ، ويجوز أن يكون في موضع المصدر كما كان شئ كذلك ، ألا ترى إلى قوله تعالى " لن تغنى عنهم أموالهم

ولا أولادهم من الله شيئا " فشيئا في موضع عنا ، فكذلك نصيبا .

(159/672)

قوله تعالى (يخفف عنا يوما) يجوز أن يكون ظرفا: أي يخفف عنا في يوم شيئا من العذاب ، فالمفعول محذوف ، وعلى قول الأخفش يجوز أن تكون " من " زائدة ، ويجوز أن يكون مفعولا: أي عذاب يوم كقوله تعالى " واتقوا يوما " أي عذاب يوم .

قوله تعالى (لا ينفع) هو بدل من يوم يقوم .

قوله تعالى (ولا المسئ) " لا " زائدة .

قوله تعالى (إذ الأغلال) " إذ " ظرف زمان ماض ، والمراد بها الاستقبال هنا لقوله تعالى " فسوف يعلمون " وقد ذكرت في قوله " ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب " (والسلاسل)

بالرفع يجوز أن يكون معطوفا على الأغلال ، والخبر في أعناقهم ، وأن يكون مبتدأ والخبر محذوف: أي السلاسل في أعناقهم ، وحذف لدلالة الأول عليه ، و (يسحبون) على هذا حال من الضمير في الجار أو مستأنفا وأن يكون الخبر يسحبون ، والعائد محذوف: أي يسحبون بها ، وقرئ بالنصب ، ويسحبون بفتح الياء ، والمفعول هنا مقدم على الفعل .

قوله تعالى (منهم من قصصنا) يجوز أن يكون منهم رافعا لمن ، لأنه قد وصف به رسلا ، وأن يكون مبتدأ وخبرا ، والجملة نعت لرسل ، وأن يكون مستأنفا (فأى) منصوب ب (تنكرون) .

قوله تعالى (بما عندهم من العلم) من هنا بمعنى البدل: أي بدلا من العلم وتكون حالا من " ما " أو من الضمير في الظرف .

قوله تعالى (سنة الله) هو نصب على المصدر: أي سننا بهم سنة الله ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 217.220 ﴾

(160/672)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة غافر

[سورة غافر (40) : الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (4)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (5)

(161/672)

"حم" حروف لا محل لها من الإعراب "تَنْزِيلُ" مبتدأ "الْكِتابِ" مضاف إليه "مِنَ اللَّهِ" خبر "الْعَزِيزِ" بدل "الْعَلِيمِ" بدل ثان "غافِرِ" صفة للفظ الجلالة "الذَّنْبِ" مضاف إليه "وَقابِلِ" معطوف على غافر "التَّوْبِ" مضاف إليه "شَدِيدِ" صفة أيضا "الْعِقابِ" مضاف إليه "ذِي" صفة مجرورة بالياء "الطَّوْلِ" مضاف إليه "لا" نافية للجنس تعمل عمل إن "إِلهَ" اسمه المبني على الفتح وخبرها محذوف "إِلَّا" حرف حصر "هُوَ" بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف "إِلَيْهِ" جار ومجرور خبر مقدم "الْمَصِيرُ" مبتدأ مؤخر وجملة لا إله إلّا هو

مستأنفة والجملة الاسمية الثانية مستأنفة أيضا "ما" نافية "يُجادِلُ" مضارع مرفوع "فِي آياتِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ جلالة مضاف إليه "إِلَّا" حرف حصر "الَّذِينَ" فاعل مؤخر "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة يجادل مستأنفة "فَلا" الفاء الفصيحة ولا ناهية "يَغْرُرْكَ" مضارع مجزوم بلا والكاف مفعوله "تَقَلُّبُهُمْ" فاعل "فِي الْبِلادِ" متعلقان بتقلبهم والجملة الفعلية جواب شرط لا محل لها "كَذَّبَتْ" ماض "قَبْلَهُمْ" ظرف زمان "قَوْمُ" فاعل مؤخر "نُوحٍ" مضاف إليه "وَالْأَحْزابُ" معطوف على قوم "مِنْ بَعْدِهِمْ" متعلقان بحال محذوفة والجملة مستأنفة "وَهَمَّتْ" الواو حرف عطف وماض معطوف على كذبت "كُلُّ" فاعل "أُمَّةٍ" مضاف إليه "بِرَسُولِهِمْ" متعلقان بهمت "لِيَأْخُذُوهُ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله والهاء مفعوله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بهمت "وَجادَلُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "بِالْباطِلِ" متعلقان بجادلوا "لِيُدْحِضُوا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل "بِهِ" متعلقان بالفعل "الْحَقَّ" مفعول به "فَأَخَذْتُهُمْ" حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله "فَكَيْفَ" حرف استئناف

(162/672)

وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر مقدم "كانَ" ماض ناقص "عِقابِ" اسم كان المؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة غافر (40) : الآيات 6 الى 8]

وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (6) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8)

(163/672)

"وَكَذلِكَ" الواو حرف استئناف والكاف صفة لمفعول مطلق محذوف أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره والأمر كذلك "حَقَّتْ" ماض "كَلِمَةُ" فاعل "رَبِّكَ" مضاف إليه "عَلَى الَّذِينَ" متعلقان بالفعل "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "أَنَّهُمْ" أن واسمها "أَصْحابُ" خبرها "النَّارِ" مضاف إليه والمصدر المؤول من أن وما بعدها بدل من كلمة "الَّذِينَ" مبتدأ "يَحْمِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "الْعَرْشَ" مفعوله والجملة صلة "وَمَنْ"

اسم موصول معطوف على الذين "حَوْلَهُ" ظرف مكان "يُسَبِّحُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر الذين "بِحَمْدِ" متعلقان بيسبحون "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "وَيُؤْمِنُونَ" معطوف على يسبحون "بِهِ" متعلقان بيؤمنون "وَيَسْتَغْفِرُونَ" معطوف على ما قبله "لِلَّذِينَ" متعلقان بيستغفرون "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "رَبَّنَا" منادى مضاف وجملة النداء مقول قول محذوف "وَسِعْتَ" ماض وفاعله "كُلَّ" مفعوله "شَيْءٍ" مضاف إليه "رَحْمَةً" تمييز "وَعِلْماً" معطوف على رحمة "فَاغْفِرْ" الفاء الفصيحة وفعل دعاء فاعله مستتر "لِلَّذِينَ" متعلقان باغفر "تابُوا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة اغفر جواب شرط لا محل لها "وَاتَّبَعُوا" عطف على تابوا "سَبِيلَكَ" مفعول به "وَقِهِمْ" حرف عطف وفعل دعاء مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر والهاء مفعول به أول "عَذابَ" مفعول به ثان. "الْجَحِيمِ" مضاف إليه "رَبَّنَا" منادى مضاف ونا مضاف إليه "وَأَدْخِلْهُمْ" الواو حرف عطف وفعل دعاء ومفعوله الأول والفاعل مستتر "جَنَّاتِ" مفعوله الثاني "عَدْنٍ" مضاف إليه "الَّتِي" صفة "وَعَدْتَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "وَمَنْ" حرف عطف ومن اسم موصول معطوف على مفعول وعدتهم "صَلَحَ" ماض فاعله مستتر "مِنْ آبائِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال "وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ" عطف "إِنَّكَ" إن واسمها "أَنْتَ"

مبتدأ "الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" خبران والجملة الاسمية خبر إن وجملة إن تعليل .

[سورة غافر (40) : الآيات 9 الى 12]

وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12)

"وَقِهِمُ" حرف عطف وفعل دعاء مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر والهاء مفعوله الأول "السَّيِّئاتِ" مفعوله الثاني "وَمَنْ" الواو حرف استئناف ومن اسم شرط جازم مبتدأ "تَقِ" مضارع مجزوم

(165/672)

بحذف حرف العلة "السَّيِّئاتِ" مفعول به "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان مضاف لمثله "فَقَدْ" الفاء واقعة في جواب الشرط وقد حرف تحقيق وجملتا الشرط والجواب خبر من "رَحِمْتَهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَذلِكَ" الواو حرف استئناف

واسم الإشارة مبتدأ "هُوَ" ضمير فصل "الْفَوْزُ" خبر "الْعَظِيمُ" صفة الفوز والجملة الاسمية مستأنفة "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة إن استئنافية "يُنادَوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر إن "لَمَقْتُ" اللام لام الابتداء ومقت مبتدأ "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أَكْبَرُ" خبر والجملة الاسمية مفعول ينادون "مِنْ مَقْتِكُمْ" متعلقان بأكبر "أَنْفُسَكُمْ" مفعول به مقتكم "إِذْ" ظرف زمان "تُدْعَوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "إِلَى الْإِيمانِ" متعلقان بتدعون "فَتَكْفُرُونَ" الفاء حرف عطف ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على تدعون "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "رَبَّنا" منادى مضاف والجملة مقول القول "أَمَتَّنَا" فعل ماض ومفعوله "اثْنَتَيْنِ" نائب مفعول مطلق "وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ" معطوف على ما قبله "فَاعْتَرَفْنا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "بِذُنُوبِنا" متعلقان بالفعل "فَهَلْ" الفاء حرف استئناف وهل استفهامية "إِلى خُرُوجٍ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "مِنْ" حرف جر زائد "سَبِيلٍ" مبتدأ مؤخر مجرور لفظا والجملة مستأنفة "ذِلِكُمْ" مبتدأ "بِأَنَّهُ" الباء حرف جر وأن حرف مشبه بالفعل والهاء اسمه "إِذا" ظرفية شرطية "دُعِيَ اللَّهُ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "وَحْدَهُ" حال والهاء مضاف إليه "كَفَرْتُمْ" ماض وفاعله والجملة جواب شرط لا محل لها .

وجملة الشرط وجوابه خبر أنّ والمصدر المؤول من أنّ وما بعدها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر ذلكم وجملة ذلكم مستأنفة "وَإِنْ" حرف شرط جازم "يُشْرَكْ" مضارع مجزوم "بِهِ" متعلقان بالفعل "تُؤْمِنُوا" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والواو فاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها وجملة يشرك ابتدائية لا محل لها "فَالْحُكْمُ" حرف استئناف ومبتدأ "لِلَّهِ" جار ومجرور والجملة مستأنفة "الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ" بدلان من لفظ الجلالة.

[سورة غافر (40) : الآيات 13 الى 16]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (14) رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (15) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (16)

"هُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره "يُرِيكُمْ" مضارع مرفوع والكاف مفعوله الأول "آياتِهِ" مفعوله الثاني والجملة صلة والجملة الاسمية مستأنفة "وَيُنَزِّلُ" معطوف على يريكم "لَكُمْ" متعلقان بالفعل

"مِنَ السَّماءِ" متعلقان بالفعل أيضا "رِزْقاً" مفعول به "وَما" الواو حرف عطف وما نافية "يَتَذَكَّرُ" مضارع مرفوع "إِلَّا"

(167/672)

حرف حصر "مِنَ" موصولية فاعل "يُنِيبُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة صلة وجملة ما يتذكر معطوفة على ما قبلها "فَادْعُوا" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله "اللَّهَ" والجملة خبر ثالث "مِنْ أَمْرِهِ" متعلقان بالفعل قبلهما "عَلى مَنْ" متعلقان بالفعل أيضا "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر "مِنْ عِبادِهِ" متعلقان بحال محذوفة والجملة صلة "لِيُنْذِرَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بيلقى وفاعل ينذر محذوف "يَوْمَ" ظرف زمان "التَّلاقِ" مضاف إليه "يَوْمَ" بدل من يوم السابق "هُمْ بارِزُونَ" مبتدأ وخبر والجملة مضاف إليه "لا" نافية "يَخْفى" مضارع مرفوع "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل "مِنْهُمْ" حال "شَيْءٌ" فاعل يخفى "لِمَنِ" متعلقان بخبر مقدم "الْمُلْكُ" مبتدأ مؤخر "الْيَوْمَ" ظرف زمان "لِلَّهِ" متعلقان بخبر لمبتدأ محذوف تقديره الملك كائن "الْواحِدِ" بدل من اللّه "الْقَهَّارِ" صفة.

[سورة غافر (40) : الآيات 17 الى 20]

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ
الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18) يَعْلَمُ
خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا
يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20)

(168/672)

"الْيَوْمَ" ظرف زمان "تُجْزَى" مضارع مبني للمجهول "كُلُّ" نائب فاعل "نَفْسٍ" مضاف إليه "بِمَا" متعلقان بالفعل "كَسَبَتْ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "لَا ظُلْمَ" لا نافية للجنس واسمها المبني على الفتح وخبرها محذوف "الْيَوْمَ" ظرف زمان والجملة تعليلية "إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ" إن ولفظ الجلالة اسمها وسريع خبرها والجملة مستأنفة "الْحِسَابِ" مضاف إليه "وَأَنْذِرْهُمْ" حرف استئناف وأمر فاعله مستتر والهاء مفعوله الأول "يَوْمَ" مفعوله الثاني "الْآزِفَةِ" مضاف إليه "إِذِ" بدل من يوم "الْقُلُوبُ" مبتدأ "لَدَى" ظرف مكان متعلق بالخبر المحذوف "الْحَنَاجِرِ" مضاف إليه "كَاظِمِينَ" حال منصوبة والجملة في محل جر بالإضافة "ما" نافية "لِلظَّالِمِينَ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "مِنْ" حرف جر زائد "حَمِيمٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر "وَلَا شَفِيعٍ" معطوف على من حميم والجملة مستأنفة "يُطَاعُ"

مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صفة لشفيع "يَعْلَمُ خائِنَةَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "الْأَعْيُنِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَما" حرف عطف وما موصولية معطوفة على خائنة "تُخْفِي الصُّدُورُ" مضارع وفاعله والجملة صلة "وَاللَّهُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ

"يَقْضِي" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل "وَالَّذِينَ" حرف عطف ومبتدأ "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "لا" نافية "يَقْضُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر الذين "بِشَيْءٍ" متعلقان بالفعل "إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" خبرا إنّ والجملة الاسمية مستأنفة.

[سورة غافر (40) : الآيات 21 الى 22]

(169/672)

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (21) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (22)

"أَوَلَمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والواو حرف استئناف "يَسِيرُوا" مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والجملة استئنافية لا محل لها "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "فَيَنْظُرُوا" الفاء حرف عطف وينظروا معطوف على يسيروا "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم "عاقِبَةُ" اسمها وجملة كيف كان في محل نصب مفعول ينظروا "الَّذِينَ" مضاف إليه "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة الذين "مِنْ قَبْلِهِمْ" جار ومجرور خبر كانوا "كانُوا" كان واسمها "هُمْ" ضمير فصل "أَشَدَّ" خبرها "مِنْهُمْ" متعلقان بأشد "قُوَّةً" تمييز "وَآثاراً" معطوف على قوة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بآثارا "فَأَخَذَهُمُ" الفاء حرف عطف وماض ومفعوله "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "بِذُنُوبِهِمْ" متعلقان بالفعل "وَما" الواو حالية وما نافية "كانَ" فعل ماض ناقص "لَهُمْ" جار ومجرور متعلقان بخبرها المقدم "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بواق "مِنْ" حرف جر زائد "واقٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا اسم كان المؤخر والجملة الفعلية ما كان حال "ذلِكَ" مبتدأ "بِأَنَّهُمْ" الباء حرف جر وأن واسمها "كانَتْ" فعل ماض ناقص واسمه مستتر والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بالباء وهما متعلقان بخبر ذلك المحذوف وجملة ذلك استئنافية لا محل لها

"تَأْتِيهِمْ" مضارع ومفعوله "رُسُلُهُمْ" فاعله والجملة خبر كانت "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بالفعل "فَكَفَرُوا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فَأَخَذَهُمُ" معطوف على فكفروا "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "إِنَّهُ قَوِيٌّ" إن واسمها وخبرها الأول "شَدِيدُ" خبر ثان "الْعِقابِ" مضاف إليه والجملة تعليل.

[سورة غافر (40) : الآيات 23 الى 25]

(171/672)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (23) إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (25)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا مُوسى" ماض وفاعله ومفعوله "بِآياتِنا" متعلقان بأرسلنا والجملة مقول القول "وَسُلْطانٍ" عطف على آياتنا "مُبِينٍ" صفة وجملة أرسلنا جواب قسم لا محل لها "إِلى فِرْعَوْنَ" جار ومجرور متعلقان بأرسلنا "وَهامانَ"

"وَقارُونَ" عطف على ما قبله "فَقالُوا" حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على

أرسلنا "ساحِرٌ" خبر لمبتدأ محذوف "كَذَّابٌ" خبر ثان والجملة الاسمية مقول القول "فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف ولما ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل "مِنْ عِنْدِنا" متعلقان بالفعل أيضا "قالُوا" ماض وفاعله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "اقْتُلُوا" أمر وفاعله "أَبْناءَ" مفعوله "الَّذِينَ" مضاف إليه والجملة مقول القول "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "مَعَهُ" ظرف مكان "وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ" عطف على ما قبلها "وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "كَيْدُ" مبتدأ "الْكافِرِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء "إِلَّا" حرف حصر "فِي ضَلالٍ" متعلقان بخبر محذوف والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة غافر (40) : الآيات 26 الى 28]

(172/672)

وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (26) وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (27) وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ

وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28)

(173/672)

"وَقالَ" الواو حرف عطف وماض "فِرْعَوْنُ" فاعله "ذَرُونِي" أمر والواو فاعله والنون للوقاية والياء مفعوله والجملة مقول القول "أَقْتُلْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعله مستتر "مُوسى" مفعوله "وَلْيَدْعُ" الواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلام الأمر فاعله مستتر "رَبَّهُ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها وجملة أقتل مقول القول أيضا "إِنِّي" إن واسمها "أَخافُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليل للأمر "أَنْ يُبَدِّلَ" مضارع منصوب بأن فاعله مستتر "دِينَكُمْ" مفعول به "أَوْ" حرف عطف "أَنْ يُظْهِرَ" مضارع منصوب بأن فاعله مستتر "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "الْفَسادَ" مفعول به "وَقالَ" الواو حرف عطف وماض "مُوسى" فاعله "إِنِّي" إن واسمها "عُذْتُ" ماض وفاعله والجملة الاسمية مقول القول "بِرَبِّي" متعلقان بالفعل "وَرَبِّكُمْ" عطف على بربي والجملة الفعلية خبر إن "مِنْ كُلِّ" متعلقان بالفعل "مُتَكَبِّرٍ" مضاف إليه "لا" نافية "يُؤْمِنُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة صفة لمتكبر "بِيَوْمِ" متعلقان بالفعل "الْحِسابِ"

مضاف إليه "وَقالَ" الواو حرف استئناف وماض "رَجُلٌ" فاعله والجملة مستأنفة "مُؤْمِنٌ" صفة "مِنْ آلِ" متعلقان بمحذوف صفة ثانية لرجل "فِرْعَوْنَ" مضاف إليه "يَكْتُمُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "إِيمانَهُ" مفعوله والجملة حال "أَتَقْتُلُونَ" الهمزة حرف استفهام إنكاري ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة مقول القول "رَجُلًا" مفعول به "أَنْ يَقُولَ" مضارع منصوب فاعله مستتر "رَبِّيَ اللَّهُ" مبتدأ وخبر والجملة

(174/672)

الاسمية مقول القول والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بحرف جر محذوف "وَقَدْ" الواو حالية وقد حرف تحقيق "جاءَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة حال "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بالفعل "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بالفعل أيضا "وَإِنْ" الواو حرف عطف وإن شرطية "يَكُ" مضارع ناقص مجزوم وعلامة جزمه السكون المقدر على النون المحذوفة للتخفيف واسمه مستتر "كاذِباً" خبره "فَعَلَيْهِ" الفاء واقعة في جواب الشرط والجار والمجرور متعلقان بخبر مقدم "كَذِبُهُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملة يك ابتدائية "وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ" معطوف على ما قبله "بَعْضُ" فاعل "الَّذِي" مضاف إليه "يَعِدُكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "إِنَّ اللَّهَ" إن

واسمها "لا" نافية "يَهْدِي" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة خبر إن والجملة الاسمية مقول القول "مِنْ" موصولية مفعول به "هُوَ مُسْرِفٌ" مبتدأ وخبر، "كَذَّابٌ" خبر ثان والجملة الاسمية صلة من.

[سورة غافر (40) : الآيات 29 الى 32]

يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ (29) وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَما اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (31) وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ (32)

(175/672)

"يا قَوْمِ" يا حرف نداء ومنادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة "لَكُمُ" جار ومجرور خبر مقدم "الْمُلْكُ" مبتدأ مؤخر "الْيَوْمَ" ظرف زمان "ظاهِرِينَ" حال منصوبة بالياء "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بظاهرين "فَمَنْ" الفاء حرف استئناف ومن مبتدأ "يَنْصُرُنا" مضارع مرفوع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر من والجملة الاسمية مستأنفة "مِنْ بَأْسِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" مضاف إليه "إِنْ" شرطية جازمة "جاءَنا" ماض ومفعوله والفاعل

مستتر والجملة الفعلية ابتدائية "قالَ فِرْعَوْنُ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "ما" نافية "أُرِيكُمْ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والكاف مفعوله الأول "إِلَّا" حرف حصر "ما" موصولية مفعوله الثاني "أَرى" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة وجملة أريكم مقول القول "وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ" معطوف على ما قبله "وَقالَ" الواو حرف عطف وماض "الَّذِي" فاعله "آمَنَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "يا قَوْمِ" يا حرف نداء ومنادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة للتخفيف "إِنِّي" إن واسمها "أَخافُ" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مقول القول "عَلَيْكُمْ" متعلقان بأخاف "مِثْلَ" مفعول به "يَوْمِ" مضاف إليه "الْأَحْزابِ" مضاف إليه ثان "مِثْلَ" بدل من مثل الأولى "دَأْبِ" مضاف إليه "قَوْمِ" مضاف إليه "نُوحٍ" مضاف إليه "وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ" عطف على ما قبله "مِنْ بَعْدِهِمْ" جار ومجرور صلة الذين "وَمَا" الواو حالية وما نافية تعمل عمل ليس "اللَّهُ" لفظ الجلالة اسمها "يُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر ما والجملة الاسمية حال "ظُلْماً" مفعول به

"لِلْعِبادِ" متعلقان بظلما "وَيا قَوْمِ" الواو حرف عطف ويا حرف نداء ومنادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة "إِنِّي" إن اسمها "أَخافُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة خبر إن "عَلَيْكُمْ" جار ومجرور متعلقان بأخاف "يَوْمَ" ظرف زمان "التَّنادِ" مضاف إليه وجملة النداء معطوفة على ما قبلها .

[سورة غافر (40) : الآيات 33 الى 35]

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33) وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (34) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)

(177/672)

"يَوْمَ" بدل من يوم التناد "تُوَلُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "مُدْبِرِينَ" حال منصوبة بالياء "ما" نافية تعمل عمل ليس "لَكُمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "مِنَ اللَّهِ" متعلقان بعاصم "مِنَ" حرف جر زائد "عاصِمٍ" اسم مجرور لفظا

مرفوع محلا اسم ما المؤخر "وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ" تقدم إعرابها "فَما" الفاء رابطة للجواب "ما" نافية "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "مِنَ" حرف جر زائد "هادٍ" مبتدأ مؤخر "وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "جاءَكُمْ" ماض ومفعوله "يُوسُفُ" فاعله والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بالفعل "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بالفعل أيضا "فَما زِلْتُمْ" الفاء حرف عطف وما زلتم ماض ناقص والتاء اسمه "فِي شَكٍّ" جار ومجرور خبره والجملة معطوفة على ما قبلها "مِمَّا" متعلقان بشك "جاءَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "حَتَّى" حرف ابتداء "إِذا" ظرفية شرطية "هَلَكَ" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "قُلْتُمْ" ماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها "لَنْ يَبْعَثَ" مضارع منصوب بلن "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل والجملة مقول القول "مِنْ بَعْدِهِ" متعلقان بالفعل "رَسُولًا" مفعول به "كَذلِكَ" صفة لمفعول مطلق محذوف "يُضِلُّ" مضارع "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "مِنْ" موصولية مفعول به "هُوَ" مبتدأ "مُسْرِفٌ" خبر أول "مُرْتابٌ" خبر ثان والجملة الاسمية صلة وجملة يضل مستأنفة "الَّذِينَ" بدل من من "يُجادِلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "فِي آياتِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "بِغَيْرِ" متعلقان بالفعل "سُلْطانٍ" مضاف إليه "أَتاهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صفة لسلطان "كَبُرَ" ماض فاعله مستتر "مَقْتاً" تمييز منصوب "عِنْدَ"

ظرف مكان "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَعِنْدَ" معطوف على ما قبله "الَّذِينَ" مضاف إليه "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "كَذلِكَ" صفة مفعول مطلق محذوف "يَطْبَعُ اللَّهُ" مضارع وفاعله "عَلى كُلِّ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "قَلْبِ" مضاف إليه "مُتَكَبِّرٍ" صفة "جَبَّارٍ" صفة ثانية.

[سورة غافر (40) : الآيات 36 الى 38]

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (36) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ (37) وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (38)

"وَقالَ" الواو حرف عطف وماض "فِرْعَوْنُ" فاعله "يا هامانُ" منادى مبني على الضم "ابْنِ" أمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر "لِي" متعلقان بالفعل "صَرْحاً"

مفعول به "لَعَلِّي" لعل واسمها "أَبْلُغُ" مضارع فاعله مستتر "الْأَسْبابَ" مفعول به والجملة خبر لعل والجملة الاسمية تعليل وجملة قال معطوفة على ما قبلها وجملة النداء مقول القول "أَسْبابَ" بدل من الأسباب الأولى "السَّماواتِ" مضاف إليه "فَأَطَّلِعَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية والفاعل مستتر "إِلى إِلهِ" متعلقان بالفعل "مُوسى" مضاف إليه "وَإِنِّي" إن واسمها "لَأَظُنُّهُ" اللام المزحلقة ومضارع مرفوع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "كاذِباً" مفعوله الثاني والجملة خبر إن والجملة الاسمية حال "وَكَذلِكَ" الواو حرف استئناف وكذلك صفة لمفعول مطلق محذوف "زُيِّنَ" ماض مبني للمجهول "لِفِرْعَوْنَ" متعلقان بالفعل "سُوءُ" نائب فاعل "عَمَلِهِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَصُدَّ" حرف عطف وماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "عَنِ السَّبِيلِ" متعلقان بصد والجملة معطوفة على ما قبلها "وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "كَيْدُ" مبتدأ "فِرْعَوْنَ" مضاف إليه "إِلَّا" حرف حصر "فِي تَبابٍ" متعلقان بخبر محذوف والجملة مستأنفة "وَقالَ" الواو حرف عطف وماض "الَّذِي" فاعل "آمَنَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "يا قَوْمِ" حرف نداء ومنادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة للتخفيف "اتَّبِعُونِ" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية وياء المتكلم محذوفة وهي في محل نصب مفعول به وجملة النداء مقول القول "أَهْدِكُمْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل مستتر والكاف مفعول به أول "سَبِيلَ" مفعول به ثان "الرَّشادِ" مضاف

إليه.

[سورة غافر (40) : الآيات 39 الى 42]

(180/672)

يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (40) وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42)

"يا قَوْمِ" يا حرف نداء ومنادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة للتخفيف "إِنَّما" كافة مكفوفة "هذِهِ" مبتدأ "الْحَياةُ" بدل "الدُّنْيا" صفة "مَتاعٌ" خبر "وَإِنَّ الْآخِرَةَ" حرف عطف وإن واسمها "هِيَ" ضمير فصل "دارُ" خبر

(181/672)

"الْقَرارِ" مضاف إليه وجملة إن معطوفة على ما قبلها "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "عَمِلَ" ماض فاعله مستتر "سَيِّئَةً" مفعول به "فَلا" الفاء واقعة في جواب الشرط ولا نافية "يُجْزى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "إِلَّا" حرف حصر "مِثْلَها" مفعول به ثان والجملة الاسمية مستأنفة وجملة فلا يجزى في محل جزم جواب الشرط "وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً" إعرابها كسابقه "مِنْ ذَكَرٍ" متعلقان بحال محذوفة "أَوْ أُنْثى" معطوف على ذكر "وَهُوَ مُؤْمِنٌ" الواو للحال ومبتدأ وخبره والجملة حالية "فَأُولئِكَ" الفاء واقعة في جواب الشرط واسم الإشارة مبتدأ "يَدْخُلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "الْجَنَّةَ" مفعول به والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط "يُرْزَقُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة حال "فِيها" متعلقان بحال محذوفة "بِغَيْرِ" متعلقان بالفعل "حِسابٍ" مضاف إليه "وَيا قَوْمِ" حرف عطف وحرف نداء ومنادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة للتخفيف "ما" اسم استفهام مبتدأ "لِي" متعلقان بخبر محذوف "أَدْعُوكُمْ" مضارع مرفوع والكاف مفعوله والفاعل مستتر والجملة حال "إِلَى النَّجاةِ" متعلقان بالفعل "وَتَدْعُونَنِي" حرف عطف ومضارع مرفوع والواو فاعله والنون للوقاية وياء المتكلم مفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "إِلَى النَّارِ" متعلقان بالفعل "تَدْعُونَنِي" تقدم إعرابها والجملة بدل "لِأَكْفُرَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "وَأُشْرِكَ" معطوف على لأكفر "بِهِ"

متعلقان بالفعل "ما" مفعول به "لَيْسَ" ماض ناقص "لِي" متعلقان بخبر مقدم محذوف "بِهِ" متعلقان بالخبر المحذوف "عِلْمٌ" اسم ليس المؤخر والجملة الفعلية صلة "وَأَنَا" الواو حالية وأنا مبتدأ "أَدْعُوكُمْ"

(182/672)

مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر والجملة الاسمية حال "إِلَى الْعَزِيزِ" متعلقان بالفعل "الْغَفَّارِ" بدل.

[سورة غافر (40) : الآيات 43 الى 46]

لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (44) فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (46)

"لا جَرَمَ" لا نافية للجنس وجرم اسمها المبني على الفتح "أَنَّما" أن واسمها وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل رفع خبر لا "تَدْعُونَنِي" مضارع مرفوع والواو فاعله والنون للوقاية

والياء مفعوله والجملة صلة "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل "لَيْسَ" ماض ناقص "لَهُ" متعلقان بخبر ليس المحذوف "دَعْوَةٌ" اسمها "فِي الدُّنْيا" متعلقان بصفة محذوفة والجملة خبر أن "وَلا فِي الْآخِرَةِ" عطف على سابقه "وَأَنَّ مَرَدَّنا" الواو حرف عطف وأن واسمها "إِلَى اللَّهِ" جار ولفظ الجلالة مجرور وهما متعلقان بخبر محذوف "وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ" الواو حرف عطف وأن واسمها "هُمْ" مبتدأ "أَصْحابُ" خبر "النَّارِ" مضاف

إليه والجملة خبر أن "فَسَتَذْكُرُونَ" حرف استئناف والسين للاستقبال ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة مستأنفة "ما" موصولية مفعول به "أَقُولُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة صلة "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "وَأُفَوِّضُ" معطوف على سابقه

[سورة غافر (40) : الآيات 47 الى 50]

(183/672)

وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (47) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إن حرف استئناف وإذ ظرف زمان "يَتَحاجُّونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "فِي النَّارِ" متعلقان بالفعل "فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ" الواو حرف عطف ومضارع وفاعله "لِلَّذِينَ" متعلقان

بالفعل "اسْتَكْبَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنَّا كُنَّا" إن واسمها وكان واسمها "لَكُمْ" متعلقان بتبعا "تَبَعاً" خبر كان والجملة الفعلية خبر إن "فَهَلْ" الفاء حرف استئناف وهل حرف استفهام "أَنْتُمْ" مبتدأ "مُغْنُونَ" خبر مرفوع بالواو "عَنَّا" متعلقان بمغنون "نَصِيباً" مفعول به لاسم الفاعل مغنون "مِنَ النَّارِ" متعلقان بصفة محذوفة من نصيبا و"قالَ الَّذِينَ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "اسْتَكْبَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنَّا" إن واسمها "كُلٌّ" مبتدأ "فِيها" متعلقان بخبر محذوف والجملة خبر إن والجملة الاسمية مقول القول "إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها "قَدْ" حرف تحقيق "حَكَمَ" ماض فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر إن "بَيْنَ" ظرف مكان "الْعِبادِ" مضاف إليه "وَقالَ الَّذِينَ" الواو حرف عطف وماض وفاعله "فِي النَّارِ" متعلقان بمحذوف صلة "لِخَزَنَةِ" متعلقان بقال "جَهَنَّمَ" مضاف إليه "ادْعُوا"

(184/672)

"رَبَّكُمْ" امر وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "يُخَفِّفْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعله مستتر "عَنَّا" متعلقان بالفعل "يَوْماً" ظرف زمان "مِنَ الْعَذابِ" متعلقان بصفة محذوفة ليوما "قالُوا" ماض وفاعله "أَوَلَمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري توبيخي والواو حرف عطف "تَكُ" مضارع ناقص مجزوم بلم واسمه ضمير مستتر "تَأْتِيكُمْ" مضارع

ومفعوله "رُسُلُكُمْ" فاعل "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بالفعل والجملة خبر تك "قالُوا" ماض وفاعله "بَلى" حرف جواب "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "فَادْعُوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "وَما" حرف استئناف وما نافية "دُعاءُ" مبتدأ "الْكافِرِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء "إِلَّا" حرف حصر "فِي ضَلالٍ" جار ومجرور خبر والجملة الاسمية مستأنفة.

[سورة غافر (40) : الآيات 51 الى 55]

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (51) يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (53) هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (54) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (55)

(185/672)

"إِنَّا" إن واسمها "لَنَنْصُرُ" اللام المزحلقة ومضارع فاعله مستتر "رُسُلَنا" مفعول به والجملة خبر إن "وَالَّذِينَ" عطف على رسلنا "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة والجملة الاسمية مقول قول محذوف "فِي الْحَياةِ" متعلقان بالفعل "الدُّنْيا" صفة الحياة "وَيَوْمَ" ظرف زمان

"يَقُومُ" مضارع مرفوع "الْأَشْهادُ" فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "يَوْمَ" بدل من سابقه "لا" نافية "يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ" مضارع ومفعوله المنصوب بالياء "مَعْذِرَتُهُمْ" فاعل مؤخر "وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ" لهم خبر مقدم واللعنة مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة "وَلَهُمْ سُوءُ" عطف على ما قبلها "الدَّارِ" مضاف إليه وجملة لا ينفع في محل جر بالإضافة "وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "آتَيْنا" ماض وفاعله "مُوسَى" مفعوله الأول "الْهُدى" مفعوله الثاني والجملة جواب قسم لا محل لها "وَأَوْرَثْنا بَنِي" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعول به منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "إِسْرائِيلَ" مضاف إليه "الْكِتابَ" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها "هُدىً" مفعول لأجله "وَذِكْرى" معطوف "لِأُولِي" متعلقان بذكرى "الْأَلْبابِ" مضاف إليه "فَاصْبِرْ" الفاء حرف استئناف وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّ وَعْدَ" إن واسمها "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "حَقٌّ" خبرها والجملة الاسمية تعليل لا محل لها "وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ" عطف على ما قبله "بِحَمْدِ" متعلقان بحال محذوفة "رَبِّكَ" مضاف إليه "بِالْعَشِيِّ" متعلقان بسبح "وَالْإِبْكارِ" عطف.

[سورة غافر (40) : الآيات 56 الى 58]

إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56) لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (57) وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (58)

(187/672)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "يُجادِلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "فِي آياتِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "بِغَيْرِ" متعلقان بحال محذوفة "سُلْطانٍ" مضاف إليه "أَتاهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صفة لسلطان "إِنَّ" نافية "فِي صُدُورِهِمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "إِلَّا" حرف حصر "كِبْرٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر إن "ما" عامله عمل ليس "هُمْ" اسمها "بِبالِغِيهِ" الباء حرف جر زائد واسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة صفة كبر "فَاسْتَعِذْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "إِنَّهُ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" خبران والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها "لَخَلْقُ" اللام لام

الابتداء ومبتدأ "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف عليها "أَكْبَرُ" خبر والجملة مستأنفة "مِنْ خَلْقِ" متعلقان بأكبر "النَّاسِ" مضاف إليه "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ" الواو حرف عطف ولكن واسمها "النَّاسِ" مضاف إليه "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لكن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محل لها "وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "يَسْتَوِي الْأَعْمى" مضارع وفاعله "وَالْبَصِيرُ" معطوف على الأعمى "وَالَّذِينَ" معطوف على ما قبله "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة "وَ" الواو عاطفة "لَا" زائدة لتأكيد النفي "الْمُسِيءُ" معطوفة على ما قبلها "قَلِيلًا" مفعول مطلق "ما" زائدة "تَتَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة.

[سورة غافر (40) : الآيات 59 الى 61]

(188/672)

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (59) وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (60) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لا يَشْكُرُونَ (61)

"إِنَّ السَّاعَةَ" إن واسمها "لَآتِيَةٌ" اللام المزحلقة وخبر إن والجملة مستأنفة "لا" نافية للجنس "رَيْبَ" اسمها المبني على الفتح "فِيها" متعلقان بخبرها المحذوف والجملة خبر ثان لإن "وَلَكِنَّ" الواو حرف عطف لكن حرف مشبه بالفعل "أَكْثَرَ" اسمها "النَّاسِ" مضاف إليه "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ويؤمنون مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لكن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "وَقالَ" الواو

(189/672)

حرف استئناف وماض "رَبُّكُمُ" فاعل والجملة مستأنفة "ادْعُونِي" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله والنون للوقاية والياء مفعوله والجملة مقول القول "أَسْتَجِبْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب فاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "يَسْتَكْبِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "عَنْ عِبادَتِي" متعلقان بالفعل "سَيَدْخُلُونَ" السين للاستقبال ويدخلون مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر إن والجملة الاسمية تعليل "جَهَنَّمَ" مفعول به "داخِرِينَ" حال "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "الَّذِي" خبره "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر "لَكُمُ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "اللَّيْلَ" مفعول به

"لِتَسْكُنُوا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل "فِيهِ" متعلقان بالفعل "وَالنَّهارَ" معطوف على الليل "مُبْصِراً" حال والجملة الاسمية مستأنفة والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام وهما متعلقان بجعل "إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها "لَذُو" اللام المزحلقة وذو خبرها "فَضْلٍ" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها "عَلَى النَّاسِ" متعلقان بفضل "وَلكِنَّ" الواو حرف عطف لكن حرف مشبه بالفعل "أَكْثَرَ" اسمها "النَّاسِ" مضاف إليه "لا" نافية "يَشْكُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لكن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محل لها .

[سورة غافر (40) : الآيات 62 الى 65]

(190/672)

ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (65)

"ذلِكُمُ" مبتدأ "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبر أول "رَبُّكُمْ" خبر ثان "خالِقُ" خبر ثالث "كُلِّ"

مضاف إليه "شَيْءٍ" مضاف إليه أيضا والجملة مستأنفة لا محل لها "لا" نافية للجنس "إِلهَ" اسمها "إِلَّا" حرف حصر "هُوَ" بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف "فَأَنَّى" الفاء الفصيحة أنى اسم استفهام في محل نصب حال "تُؤْفَكُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط مقدر "كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "يُؤْفَكُ" مضارع مبني للمجهول "الَّذِينَ" نائب فاعل والجملة مستأنفة "كانُوا" كان واسمها "بِآياتِ" متعلقان بيجحدون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "يَجْحَدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا صلة الذين "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "الَّذِي" اسم الموصول خبر "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "لَكُمُ" متعلقان بالفعل "الْأَرْضَ" مفعول به أول "قَرارًا" مفعول به ثان "وَالسَّماءَ بِناءً" عطف على ما قبلها "وَصَوَّرَكُمْ" ماض فاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة الاسمية مستأنفة وجملة صوركم معطوفة على

(191/672)

الصلة "فَأَحْسَنَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "صَوَّرَكُمْ" مفعول به "وَرَزَقَكُمْ" معطوف على ما قبله "مِنَ الطَّيِّباتِ" متعلقان برزقكم

"ذِلِكُمُ" مبتدأ "اللَّهُ" خبره الأول "رَبُّكُمْ" خبره الثاني والجملة الاسمية مستأنفة "فَتَبارَكَ" الفاء حرف استئناف وماض "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله "رَبُّ" صفة "الْعالَمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء والجملة مستأنفة "هُوَ الْحَيُّ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة "لا إِلهَ إِلَّا هُوَ" سبق إعرابه والجملة خبر ثان "فَادْعُوهُ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعل ومفعول به "مُخْلِصِينَ" حال "لَهُ" متعلقان بمخلصين والجملة جواب الشرط لا محل لها "الدِّينَ" مفعول به لاسم الفاعل مخلصين "الْحَمْدُ لِلَّهِ" مبتدأ وخبر "رَبِّ" صفة "الْعالَمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء والجملة مقول القول المحذوف.

[سورة غافر (40) : الآيات 66 الى 68]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (66) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنِّي" إن واسمها "نُهِيتُ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل "أَنْ أَعْبُدَ" مضارع منصوب بأن فاعله مستتر والمصدر المؤول في محل نصب بنزع الخافض أي عن عبادة الذين "الَّذِينَ" مفعول به "تَدْعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة وجملة نهيت خبر إن والجملة الاسمية مقول القول "مِنْ دُونِ" متعلقان بحال محذوفة "اللَّهِ" مضاف إليه "لَمَّا" ظرف زمان "جاءَنِي" ماض ومفعوله "الْبَيِّناتُ" فاعل مؤخر والجملة في محل جر بالإضافة "مِنْ رَبِّي" متعلقان بجاء "وَأُمِرْتُ" عطف على ما سبق "أَنْ أُسْلِمَ" مضارع منصوب بأن فاعله مستتر والمصدر المؤول في محل نصب بنزع الخافض "لِرَبِّ" متعلقان بالفعل "الْعالَمِينَ" مضاف بالياء "هُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره "خَلَقَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة والجملة الاسمية مستأنفة "مِنْ تُرابٍ" متعلقان بالفعل "ثُمَّ" حرف عطف "مِنْ نُطْفَةٍ" معطوف على ما قبله "ثُمَّ" حرف عطف "مِنْ عَلَقَةٍ" عطف أيضا "ثُمَّ" حرف عطف "يُخْرِجُكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "طِفْلًا" حال "ثُمَّ" حرف عطف "لِتَبْلُغُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله "أَشُدَّكُمْ" مفعول به والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره يبقيكم "ثُمَّ" حرف عطف "لِتَكُونُوا" مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو اسمه "شُيُوخاً" خبره والمصدر المؤول معطوف على ما قبله "وَمِنْكُمْ" الواو حرف استئناف وجار ومجرور خبر مقدم

"مِنْ" مبتدأ مؤخر "يُتَوَفَّى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة الفعلية صلة والجملة الاسمية مستأنفة "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بالفعل "وَلِتَبْلُغُوا" الواو حرف عطف ومضارع

(193/672)

منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله والمصدر المؤول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره يبقيكم لتبلغوا "أَجَلًا" مفعول به "مُسَمًّى" صفة "وَلَعَلَّكُمْ" الواو حرف عطف ولعل واسمها والجملة معطوفة على ما قبلها "تَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لعل "هُوَ الَّذِي" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة "يُحْيِي" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَيُمِيتُ" معطوف على يحيي "فَإِذَا" حرف عطف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "قَضَى أَمْرًا" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "فَإِنَّمَا" الفاء رابطة لجواب الشرط "إنما" كافة ومكفوفة "يَقُولُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر "لَهُ" متعلقان بالفعل والجملة جواب شرط لا محل لها "كُنْ" أمر تام فاعله مستتر "فَيَكُونُ" الفاء حرف استئناف ومضارع تام فاعله مستتر والجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره فهو يكون.

[سورة غافر (40) : الآيات 69 الى 75]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (74) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75)

(194/672)

"أَلَمْ" الهمزة حرف استفهام وتقرير ولم حرف جازم "تَرَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والفاعل مستتر والجملة مستأنفة "إِلَى الَّذِينَ" متعلقان بالفعل "يُجادِلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "فِي آياتِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أَنَّى" اسم استفهام في محل نصب حال "يُصْرَفُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع والواو نائب فاعل والجملة مستأنفة "الَّذِينَ" بدل من الذين السابقة "كَذَّبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِالْكِتابِ" متعلقان بالفعل "وَبِما" الواو حرف عطف وما موصولية معطوفة على بالكتاب "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بالفعل "رُسُلَنا" مفعول به "فَسَوْفَ"

الفاء حرف استئناف وسوف حرف استقبال "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة "إِذِ" ظرف زمان متعلق بيعلمون "الْأَغْلالُ" مبتدأ "فِي أَعْناقِهِمْ" متعلقان بخبر محذوف "وَالسَّلاسِلُ" معطوف على الأغلال "يُسْحَبُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون ونائب الفاعل والجملة الفعلية في محل نصب حال والجملة الاسمية في محل جر بالإضافة "فِي الْحَمِيمِ" متعلقان بالفعل "ثُمَّ" حرف عطف "فِي النَّارِ" متعلقان بيسجرون "يُسْجَرُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "ثُمَّ" حرف عطف "قِيلَ" ماض مبني للمجهول "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "أَيْنَ" اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية "ما" مبتدأ مؤخر "كُنْتُمْ" ماض ناقص واسمه "تُشْرِكُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة

(195/672)

كنتم صلة وجملة كنتم في محل رفع نائب فاعل قيل "مِنْ دُونِ" متعلقان بحال محذوفة "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "قالُوا" ماض وفاعله "ضَلُّوا" ماض وفاعله والجملة مقول القول "عَنَّا" متعلقان بضلوا "بَلْ" حرف عطف وانتقال "لَمْ نَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم بلم واسمه مستتر "نَدْعُوا" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة خبر نكن معطوفة على ما قبلها "مِنْ

قَبْلُ" متعلقان بالفعل "شَيْئاً" مفعول به "كَذلِكَ" جار ومجرور متعلقان بصفة مفعول مطلق محذوف "يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ" مضارع وفاعله ومفعوله المنصوب لاياء والجملة مستأنفة "ذلِكُمْ" مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "بِما" متعلقان بخبر محذوف "كُنْتُمْ" ماض ناقص واسمه والجملة صلة "تَفْرَحُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بتفرحون "بِغَيْرِ" متعلقان بحال محذوفة "الْحَقِّ" مضاف إليه "وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ" معطوف على ما قبله.

[سورة غافر (40) : الآيات 76 الى 78]

ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (77) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78)

(196/672)

"ادْخُلُوا" امر وفاعله "أَبْوابَ" مفعول به "جَهَنَّمَ" مضاف إليه "خالِدِينَ" حال منصوبة بالياء "فِيها" متعلقان بخالدين والجملة مقول القول المحذوف "فَبِئْسَ" الفاء حرف عطف

وماض لإنشاء الذم "مَثْوَى" فاعله "الْمُتَكَبِّرِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء والجملة معطوفة على ما قبلها "فَاصْبِرْ" حرف استئناف وأمر فاعله مستتر "إِنَّ وَعْدَ" إن واسمها "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "حَقٌّ" خبرها والجملة تعليل والجملة الفعلية مستأنفة "فَإِمَّا" الفاء حرف عطف وإن حرف شرط جازم وما زائدة "نُرِيَنَّكَ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والكاف مفعول به وفاعله مستتر "بَعْضَ" مفعول به ثان والجملة ابتدائية "الَّذِي" مضاف إليه "نَعِدُهُمْ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة صلة "أَوْ" حرف عطف "نَتَوَفَّيَنَّكَ" مضارع معطوف على نرينك "فَإِلَيْنا" الفاء واقعة في جواب الشرط والجار والمجرور متعلقان بيرجعون "يُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة جواب شرط مقدر "وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا رُسُلًا" ماض وفاعله ومفعوله والجملة جواب قسم لا محل لها "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بصفة محذوفة لرسلا "مِنْهُمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "مِنْ" مبتدأ "قَصَصْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل "وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ" معطوف على ما قبله "عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل "وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "كانَ" ماض ناقص "لِرَسُولٍ" متعلقان بخبر كان المقدم "أَنْ يَأْتِيَ" مضارع منصوب بأن والمصدر المؤول في محل رفع اسم كان "بِآيَةٍ"

متعلقان بيأتي "إِلَّا" حرف حصر "بِإِذْنِ" متعلقان بخبر كان المحذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "فَإِذا" الفاء حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَ" ماض "أَمْرُ" فاعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة في محل جر بالإضافة "قُضِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة جواب شرط غير جازم "بِالْحَقِّ" متعلقان بحال محذوفة "وَخَسِرَ" معطوف على ما قبله "هُنالِكَ" اسم إشارة في محل نصب على الظرفية المكانية "الْمُبْطِلُونَ" فاعل مرفوع بالواو.

[سورة غافر (40) : الآيات 79 الى 82]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (82)

"اللَّهُ الَّذِي" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة لا محل لها "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "لَكُمُ" متعلقان بالفعل "الْأَنْعامَ" مفعول به "لِتَرْكَبُوا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل والمصدر المؤول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بحال محذوفة "مِنْها" متعلقان بتركبوا "وَمِنْها" الواو حرف عطف ومنها متعلقان بتأكلون "تَأْكُلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلَكُمْ" الواو حرف عطف ولكم متعلقان بخبر مقدم محذوف "فِيها" متعلقان به أيضا "مَنافِعُ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلِتَبْلُغُوا" معطوف على لتركبوا "عَلَيْها" متعلقان بتبلغوا "حاجَةً" مفعول به "فِي صُدُورِكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة حاجة "وَعَلَيْها" متعلقان بتحملون "وَعَلَى الْفُلْكِ" معطوف على ما قبله "تُحْمَلُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل "يُرِيكُمْ"

الواو حرف عطف ومضارع ومفعوله وفاعل مستتر "آياتِهِ"

مفعول به ثان "أَيَّ"

الفايَكْسِبُونَ"

مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا صلة ما .

[سورة غافر (40) : الآيات 83 الى 85]

فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

(83) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ
يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ
(85)

(199/672)

"فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف ولما ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَتْهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "رُسُلُهُمْ" فاعل "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بالفعل "فَرِحُوا" ماض وفاعله "بِما" متعلقان بفرحوا "عِنْدَهُمْ" ظرف مكان "مِنَ الْعِلْمِ" متعلقان بحال محذوفة وجملة فرحوا جواب شرط غير جازم لا محل لها "وَحاقَ" الواو حرف عطف وماض "بِهِمْ" متعلقان بالفعل "ما" اسم موصول فاعل حاق "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بيستهزئون "يَسْتَهْزِؤُنَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا "فَلَمَّا" الفاء حرف عطف ولما ظرفية شرطية غير جازمة "رَأَوْا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "بَأْسَنا" مفعول به "قالُوا" ماض وفاعله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "آمَنَّا" ماض وفاعله "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة مقول القول "وَحْدَهُ" حال منصوبة "وَكَفَرْنا" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة عطف على ما سبق "بِما"

متعلقان بالفعل "كُنَّا" كان واسمها والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بمشركين "مُشْرِكِينَ" خبر كنا منصوب بالياء "فَلَمْ يَكُ" الفاء حرف استئناف ومضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون المقدر على النون المحذوفة واسمه مستتر "يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ" مضارع مرفوع ومفعوله وإيمانهم فاعله والجملة خبر يك وجملة لم يك مستأنفة "لَمَّا" ظرفية بمعنى حين "رَأَوْا بَأْسَنا" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "سُنَّتَ" مفعول مطلق "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "الَّتِي" صفة لسنة "قَدْ" حرف تحقيق "خَلَتْ" ماض فاعله مستتر "فِي عِبادِهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَخَسِرَ" حرف استئناف وماض "هُنالِكَ" اسم إشارة في محل نصب على الظرفية المكانية "الْكافِرُونَ" فاعل مرفوع بالواو والجملة مستأنفة. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 149. 167﴾

(200/672)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة غَافِر (الْمُؤمن)

ذكر فِيهَا ثَمَانِيَة أَحَادِيث

1127 - قَوْله

رَوَى أَن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه افْتقدَ رجلا ذَا بَأْس شَدِيد من أهل الشَّام فَقيل تَابع فِي الشَّرَاب فَقَالَ عمر لكَاتبه اكْتُبْ من عمر ابْن الْخطاب إِلَى فلَان بن فلَان سَلام عَلَيْك إِنِّي أَحْمد إِلَيْك الله الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم حم إِلَى قَوْله وَإِلَيْهِ الْمصير وَختم الْكتَاب وَقَالَ لرَسُوله لَا تَدْفَعهُ إِلَيْهِ حَتَّى تَجدهُ صَاحِيًا ثمَّ أَمر من عِنْده بالدُّعَاء لَهُ بالتَّوْبَة فَلَمَّا أَتَتْهُ الصَّحِيفَة جعل يَقْرَأها وَيَقُول قد وَعَدَنِي الله أَن يغْفر لي وَحَذَّرَنِي عِقَابه فَلم يزل يُرَدِّدهَا حَتَّى بَكَى ثمَّ نزع فَأحْسن النُّزُوع وَحسنت تَوْبَته فَلَمَّا بلغ عمر أمره قَالَ هَكَذَا فَاصْنَعُوا إِذا رَأَيْتُمْ أَخَاكُم قد زل زلَّة فَسَدِّدُوهُ ووفقوه وَادعوا لَهُ أَن يَتُوب الله عَلَيْهِ وَلَا تَكُونُوا إِخْوَان الشَّيْطَان عَلَيْهِ

قلت رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي كتَاب الْحِلْية فِي تَرْجَمَة يزِيد بن الْأَصَم ثَنَا عبد الله ابْن مُحَمَّد بن جَعْفَر ثَنَا مُحَمَّد بن سهل ثَنَا عبد الله بن عمر ثَنَا كثير بن هِشَام أَنا جَعْفَر بن برْقَان ثَنَا يزِيد بن الْأَصَم أَن رجلا كَانَ ذَا بَأْس وَكَانَ يوفد إِلَى عمر ابْن الْخطاب لِبَأْسِهِ وَكَانَ من أهل الشَّام وَإِن عمر فَقده فَسَأَلَ عَنهُ فَقيل لَهُ تَابع فِي الشَّرَاب إِلَى آخِره سَوَاء

وَرَوَاهُ عبد بن حميد فِي تَفْسِيره ثَنَا كثير بن هِشَام بِهِ إِلَى قَوْله وَحَذَّرَنِي عِقَابه لم يذكر بَاقِيه

وَمن طَرِيق عبد بن حميد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره حَدثنَا أبي ثَنَا مُوسَى بن مَرْوَان الرقي ثَنَا عمر بن أَيُّوب ثَنَا جَعْفَر بن برْقَان بِهِ بلَفْظ ابْن حميد

وَفِي سيرة ابْن هِشَام فِي غَزْوَة خَيْبَر عَن ابْن إِسْحَاق قَالَ لما ولي عمر بن الْخطاب ولي النُّعْمَان بن عدي بن نظلة ميسَان فَأرْسل النُّعْمَان إِلَى امْرَأَته بأَبْيَات وَكَانَت امْتنعت من الْخُرُوج مَعَه

(فَمن مبلغ الْحَسْنَاء أَن حَلِيلهَا . . . بِمَيْسَان يُسْقَى فِي زجاج وَحَنْتَم)

(إِذا كنت ندْمَانِي فَبالْأَكْبَرِ اسْقِنِي . . . وَلَا تَسْقِنِي بالْأَصْغَرِ الْمُتَثَلِّم)

(لَعَلَّ أَمِير الْمُؤمنِينَ يسوؤه . . . تَنَادمنَا فِي الْجَوْسَق الْمُتَهَدِّم)

فَبلغ ذَلِك عمر فَكتب إِلَيْهِ عمر بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم حم تَنْزِيل الْكتاب إِلَى قَوْله وَإِلَيْهِ الْمصير وَبعد فقد بَلغنِي قَوْلك لَعَلَّ أَمِير الْمُؤمنِينَ يسوؤه الْبَيْت وَأيم الله لقد سَاءَنِي ثمَّ عَزله فَلَمَّا قدم عَلَيْهِ قَالَ وَالله يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ لم يكن مَا قلته شَيْئًا وَقع وَإِنَّمَا هُوَ فضل شعر وَمَا شربت وَالله الْخمر قطّ فَقَالَ عمر أَظن ذَلِك وَلَكِن وَالله لَا تعْمل لي عملا أبدا انْتَهَى

1128 - الْحَدِيث الأول

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن جدالا فِي الْقُرْآن كفر)

قلت رَوَى من حَدِيث عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة

فَحَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا عبد الله بن أَحْمد بن حَنْبَل ثَنَا يُونُس بن عبد الرَّحِيم الْعَسْقَلَانِي ثَنَا ضَمرَة بن ربيعَة عَن عبد الله ابْن شَوْذَب عَن مُحَمَّد بن عَمْرو بن عَلْقَمَة عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة

(202/672)

قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْجِدَال فِي الْقُرْآن كفر) انْتَهَى

وَعَن الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة عبد الله بن شَوْذَب

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من حَدِيث عمر بن أبي سَلمَة عَن أَبِيه عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا بِاللَّفْظِ الْمَذْكُور وَقَالَ الشَّيْخَانِ لم يحْتَجَّا بعمر بن أبي سَلمَة وَسكت عَنهُ

وَبِهَذَا السَّنَد رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسنديهما وَالدَّارَقُطْنِيّ فِي علله

وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي كتاب الكنى من حَدِيث سعد بن إِبْرَاهِيم عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا جِدَال فِي الْقُرْآن كفر انْتَهَى ثمَّ قَالَ وَسعد لم يسمع من أبي سَلمَة انْتَهَى

وَأما حَدِيث عبد الله بن عَمْرو فَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي مُسْنده حَدثنَا فليح بن سُلَيْمَان عَن سَالم أبي النَّضر عَن سُلَيْمَان بن يسَار عَن عبد الله بن عَمْرو أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَا تجادلوا فِي الْقُرْآن فَإِن جدالا فِيهِ كفر) انْتَهَى

وَمن طَرِيق أبي دَاوُد الطَّيَالِسِيّ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع عشر مِنْهُ والْحَدِيث رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب السّنة من حَدِيث أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (المراء فِي الْقُرْآن كفر) انْتَهَى

قَالَ ابْن عبد الْبر فِي كتاب الْعلم وَمَعْنى الحَدِيث المراء الَّذِي يُؤَدّي إِلَى جَحدهَا أَو وُقُوع الشَّك فِيهَا فَهَذَا هُوَ الْكفْر وَأما التَّنَازُع فِي مَعَاني الْقُرْآن وَأَحْكَامه فَجَائِز إِجْمَاعًا انْتَهَى

1129 - الحَدِيث الثَّانِي

(203/672)

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَا تَتَفَكَّرُوا فِي عظم ربكُم وَلَكِن تَفَكَّرُوا فِيمَا خلق الله من الْمَلَائِكَة فَإِن خلقا من الْمَلَائِكَة يُقَال لَهُ إِسْرَافيل زَاوِيَة من زَوَايَا الْعَرْش عَلَى كَاهِله وَقَدمَاهُ فِي الْأَرْض السُّفْلَى وَقد مرق رَأسه من سبع سموات وَأَنه ليتضائل من عَظمَة الله حَتَّى يصير كَأَنَّهُ الْوَضع

قلت غَرِيب وَفِي تَفْسِير الثَّعْلَبِيّ وَرَوَى شهر بن حَوْشَب عَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَا تَتَفَكَّرُوا فِي عظم ربكُم) إِلَى آخِره

1130 - الحَدِيث الثَّالِث

فِي الحَدِيث إِن الله تَعَالَى أَمر جَمِيع الْمَلَائِكَة أَن يغدوا وَيَرُوحُوا بِالسَّلَامِ عَلَى حَملَة الْعَرْش تَفْضِيلًا لَهُم عَلَى سَائِر الْمَلَائِكَة

1131 - الحَدِيث الرَّابِع

فِي الحَدِيث تحشرون حُفَاة عُرَاة غرلًا

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي التَّفْسِير وَفِي الرقَاق وَمُسلم فِي صفة الْقِيَامَة من حَدِيث الْقَاسِم بن مُحَمَّد عَن عَائِشَة قَالَت سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (يحْشر النَّاس يَوْم الْقِيَامَة حُفَاة عُرَاة غرلًا) قلت يَا رَسُول الله النّسَاء وَالرِّجَال جَمِيعًا ينظر بَعضهم إِلَى بعض قَالَ (يَا عَائِشَة الْأَمر أَشد من أَن ينظر بَعضهم إِلَى بعض) انْتَهَى

1132 - الحَدِيث الْخَامِس

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم طَاف بِالْبَيْتِ فَتَلقاهُ الْمُشْرِكُونَ حِين فرغ

من ذَلِك فَأَخَذُوهُ بِمَجَامِع ردَائه فَقَالُوا أَنْت الَّذِي تَنْهَانَا أَن نعْبد مَا يعبد آبَاؤُنَا قَالَ (نعم أَنا ذَاك) فَقَامَ أَبُو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه فَالْتَزمهُ من وَرَائه وَقَال أَتَقْتلونَ رجلا أَن يَقُول رَبِّي الله وَقد جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ من ربكُم رَافعا صَوته بذلك وَعَيناهُ تسفحان حَتَّى أَرْسلُوهُ

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ أخبرنَا هناد بن السّري عَن عَبدة عَن هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبيه عَن عَمْرو بن الْعَاص أَنه سُئِلَ مَا أَشد شَيْء رَأَيْت قُرَيْشًا بلغُوا من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ مر بهم ذَات يَوْم فَقَالُوا أَنْت تَنْهَانَا أَن نعْبد مَا يعبد آبَاؤُنَا فَقَالَ (أَنا) فَقَامُوا إِلَيْهِ فَأَخذُوا بِمَجَامِع ثِيَابه قَالَ فَرَأَيْت أَبَا بكر محتضنة من رُوَائِهِ يصْرخ وَإِن عَيْنَيْهِ تَنْضَحَانِ وَهُوَ يَقُول أَتَقْتلونَ رجلا أَن يَقُول رَبِّي الله الْآيَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة وَقَالَ فِيهِ رَافعا صَوته وَعَيناهُ تسفحان حَتَّى أَرْسلُوهُ انْتَهَى

(205/672)

وَطوله ابْن حبَان فِي صَحِيحه فَرَوَاهُ فِي النَّوْع الْخَامِس وَالْأَرْبَعِينَ من الْقسم الْخَامِس من طَرِيق أبي إِسْحَاق عَن يَحْيَى بن عُرْوَة عَن عُرْوَة عَن عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاص قَالَ قلت لَهُ مَا أَكبر مَا رَأَيْت قُرَيْشًا نَالَتْ من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ حَضرتهمْ وَقد اجْتمع أَشْرَافهم يَوْمًا فِي الْحجر فَذكرُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالُوا مَا رَأَينَا

مثل هَذَا الرجل سفه أَحْلَامنَا وَشتم آبَاءَنَا وَعَابَ دِينَنَا وَفرق جماعاتنا وَسَب آلِهَتنَا وَلَقَد صَبرنَا مِنْهُ عَلَى أَمر عَظِيم فَبَيْنَمَا هم كَذَلِك إِذْ طلع رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَقبل يمشي حَتَّى اسْتَلم الرُّكْن ثمَّ مر بهم طَائِفًا بِالْبَيْتِ فَلَمَّا مر بهم غَمَزُوهُ ببَعْض القَوْل فَعرفت ذَلِك فِي وَجهه فَمر بهم الثَّانِيَة فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا ثمَّ مر بهم الثَّالِثَة فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا حَتَّى وقف ثمَّ قَالَ (أتسمعون يَا معشر قُرَيْش أما وَالَّذِي نَفْس مُحَمَّد بيَدِهِ لقد جِئْتُكُمْ بِالذبْحِ) قَالَ فَأَطْرَقَ الْقَوْم حَتَّى مَا مِنْهُم إِلَّا كَأَنَّمَا عَلَى رَأسه طَائِر ثمَّ انْصَرف عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى إِذا كَانَ الْغَد اجْتَمعُوا

(206/672)

فِي الْحجر وَأَنا مَعَهم فَقَالَ بَعضهم لبَعض ذكرْتُمْ مَا بلغ مِنْكُم وَمَا بَلغَكُمْ عَنهُ حَتَّى إِذا ناداكم بِمَا كُنْتُم تَكْرَهُونَ تركتموه فَبَيْنَمَا هم فِي ذَلِك إِذْ طلع رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَمَعَهُ رجل فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَأَحَاطُوا بِهِ يَقُولُونَ أَنْت الَّذِي تَقول كَذَا وَتَقول كَذَا قَالَ (نعم أَنا ذَاك) قَالَ فَلَقَد رَأَيْت رجلا مِنْهُم أَخذ بمجامع ردائه وَقَامَ أَبو بكر دونه يَقُول وَهُوَ يبكي وَيْلكُمْ أَتقتلون رجلا أَن يَقُول رَبِّي الله قَالَ ثمَّ انصرفوا عَنهُ فَذَلِك أَشد مَا رَأَيْت قُرَيْشًا بلغت مِنْهُ انْتَهَى وَكَذَلِكَ رَوَاهُ البرَار فِي مُسْنده وَابْن هِشَام فِي أَوَائِل سيرته وَالْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة

وَالْبرْقَانِي فِي كِتَابه يعلي وَأَبُو الْموصِلِي فِي مُسْنده

1133 - الحَدِيث السَّادِس

فِي الحَدِيث إِذا شغل عَبدِي طَاعَتي عَن الدُّعَاء أَعْطيته أفضل مَا أعطي السَّائِلين

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ

وَفِي الصَّحِيح من شغله ذكري عَن مَسْأَلَتي أَعْطيته أفضل مَا أعطي السَّائِلين

وَفِي التِّرْمِذِيّ فِي فَضَائِل الْقُرْآن بِسَنَد ضَعِيف عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (يَقُول الله تَعَالَى من شغله قِرَاءَة الْقُرْآن عَن مَسْأَلَتي أَعْطيته أفضل مَا أعطي السَّائِلين)

وَفِي مُصَنف عبد الرازق فِي كتاب الصَّلَاة أَنا سُفْيَان عَن مَنْصُور عَن

مَالك بن الْحَارِث قَالَ يَقُول الله عَزَّ وَجَلَّ إِذا شغل عَبدِي ثَنَاؤُهُ عَلَي عَن مَسْأَلَتي أَعْطيته أفضل مَا أعطي السَّائِلين انْتَهَى

1134 - الحَدِيث السَّابِع

رَوَى النُّعْمَان بن بشير عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (الدُّعَاء هُوَ الْعِبَادَة) وَقَرَأَ ادْعُونِي أَسْتَجِب لكم

قلت رَوَاهُ أَصْحَاب السّنَن الْأَرْبَعَة وَقدم تقدم فِي سُورَة مَرْيَم

1135 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ أفضل الْعِبَادَة الدُّعَاء

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الدُّعَاء من حَدِيث كَامِل بن الْعَلَاء عَن حبيب بن أبي ثَابت عَن ابْن عَبَّاس وَعَن أبي يَحْيَى عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس قَالَ أفضل الْعِبَادَة الدُّعَاء وَقَرَأَ وَقَالَ ربكُم ادْعُونِي أَسْتَجِب لكم الْآيَة انْتَهَى وَسكت عَنهُ

1136 - قَوْله

وَعَن ابْن عَبَّاس من قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله فَلْيقل عَلَى إِثْرهَا الْحَمد لله رب الْعَالمين

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه أَيْضا من حَدِيث عَلّي بن الْحسن بن شَقِيق أَنا الْحُسَيْن بن وَاقد ثَنَا الْأَعْمَش عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس قَالَ من قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله إِلَى آخِره وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْن وَلم يخرجَاهُ

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْأَسْمَاء وَالصِّفَات بِسَنَدِهِ وَمَتنه وَزَاد

فَإِن الله يَقُول فَادعوهُ مُخلصين لَهُ الدّين الْحَمد لله رب الْعَالمين

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره

وَمن طَرِيق الطَّبَرِيّ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ وَكَذَلِكَ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

1137 - قَوْله

عَن عَلّي قَالَ إِن الله بعث نَبيا أسود

(208/672)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثَنَا أَحْمد بن الْحُسَيْن التِّرْمِذِيّ ثَنَا آدم بن أبي إِيَاس ثَنَا إِسْرَائِيل عَن جَابر عَن عبد الله بن نجي عَن عَلّي بن أبي طَالب فِي قَوْله تَعَالَى مِنْهُم منى قَصَصنَا عَلَيْك وَمِنْهُم من لم نَقْصُصْ عَلَيْك قَالَ بعث الله عبدا حَبَشِيًّا نَبيا فَهُوَ الَّذِي لم نَقْصُصْ عَلَيْك انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه أَيْضا من حَدِيث آدم بن أبي إِيَاس بِهِ سندا ومتنا

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط عَن آدم بن إِيَاس وَقَالَ تَفرد بِهِ آدم

وَرَوَى الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره أخبرنَا عبد الله بن حَامِد أَنا أَبُو مُحَمَّد الْمُزنِيّ ثَنَا مطين ثَنَا عُثْمَان ثَنَا مُعَاوِيَة بن هِشَام عَن شريك عَن جَابر عَن أبي الطُّفَيْل عَن عَلّي قَالَ كَانَ أَصْحَاب الْأُخْدُود نَبيهم حبشِي بعث نَبِي من الْحَبَشَة إِلَى قومه ثمّ قَرَأَ وَلَقَد أرسلنَا رسلًا من قبلك مِنْهُم من قَصَصنَا عَلَيْك وَمِنْهُم من لم نَقْصُصْ عَلَيْك قَالَ فَدَعَاهُمْ فَتَبِعَهُ نَاس

فَأَخَذُوهُمْ وخدوا لَهُم أُخْدُودًا من نَار فَمن تبع النَّبِي رَمَوْهُ فِيهَا وَمن تَبِعَهُمْ تركُوهُ فَجَاءُوا بِامْرَأَة مَعهَا صبي رَضِيع فَجَزِعت فَقَالَ لَهَا الصَّبِي مري وَلَا تُنَافِقِي فَإِنَّك عَلَى الْحق انْتَهَى وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي سُورَة البروج من حَدِيث منْجَاب بن الْحَارث ثَنَا طلق بن غنَّام عَن قيس بن الرّبيع عَن جَابر عَن عبد الله بن نجي عَن عَلّي قَالَ بعث نَبِي من الْحَبَش إِلَى قومه فَذكره

1138 - الْحَدِيث الثَّامِن

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الْمُؤمن لم تبْق روح نَبِي وَلَا صديق وَلَا شَهِيد وَلَا مُؤمن إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ واستغفر لَهُ)

(209/672)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من طَرِيق ابْن أبي حَاتِم ثَنَا الْحسن بن مُحَمَّد بن الصَّبَاح ثَنَا شَبَابَة بن سوار وَمن طَرِيق ابْن أبي دَاوُد ثَنَا مُحَمَّد بن عَاصِم ثَنَا شَبَابَة بن سوار ثَنَا مخلد بن عبد الْوَاحِد عَن عَلّي بن زيد عَن عَطاء بن أبي مَيْمُونَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من قَرَأَ سُورَة حم الْمُؤمن لم يبْق نَبِي وَلَا صديق وَلَا شَهِيد وَإِلَّا صلوا عَلَيْهِ وَاسْتَغْفرُوا لَهُ) انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمُتَقَدّمين فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوسط بِسَنَدِهِ الْمَذْكُور فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 215. 223 ﴾

(210/672)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة المؤمن» (40)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«حم» (1) «1» مجازها مجاز أوائل السور وقال بعض العرب : بل هو اسم ، واحتج بقول شريح بن أبى أوفى العبسي :

يذكّرنى حاميم والرمح شاجر فهلّا تلا حاميم قبل التقدّم

«2» [814] وقال الكميت بن زيد الأسدىّ :

وجدنا لكم فى آل حاميم آية تأوّلها منا تقىّ ومعرب

«3» [815]

---

(1) . - 3 - 5 «هم . . . التقدم» : قد أخذ كلامه هذا عنه وأسنده إلى مجاهد هكذا : وقال مجاهد مجازها مجاز أوائل السور ويقال : بل هو اسم لقول شريح بن أبى أوفى العبسي يذكرنى البيت : وأشار إليه ابن حجر بقوله : وهذا الكلام لأبى عبيدة فى مجاز القرآن ولفظه حم مجاز . . . إلخ.

(2) . - 814 : قد اختلفوا فى عزو هذا البيت اختلافا قديما . قال ابن حجر : . . . وحكى أيضا عن ابن إسحاق أن الشعر المذكور للأشتر النخعي قال وهو الذي قتل محمد بن طلحة وذكر أبو مخنف أنه لمدلج بن كعب السعدي ويقال كعب بن مدلج . . . ويقال إن الشعر لشداد ابن معاوية العبسي . . . هكذا يطول الخلاف وانظره فى فتح الباري (8/ 425 - 426) .

وانظر البيت فى الطبري 24/ 24 ، ومعجم المرزباني ص 270 ، والاقتضاب ص 439 والجواليقي ص 359 والقرطبي 15/ 290 وشواهد المغني ص 19 وشواهد الكشاف ص 261 وانظر الخبر معه واسم قائله فى طبقات ابن سعد 5/ 39 والمعارف لابن قتيبة ص 119 والمروج للمسعودى 4/ 324 ، وابن الأثير ، الكامل 3/ 2005 .

(3) . - 815 : البيت هو 29 من يائيته فى الهاشميات وهو فى الكتاب 2/ 28 والطبري 24/ 24 والشنتمرى 2/ 30 والقرطبي 1/ 288 .

قال يونس : ومن قال هذا القول فهو منكسر عليه لأن السورة حم ساكنة الحروف فخرجت مخرج التهجي وهذه أسماء سور خرجن متحركات وإذا سمّيت سورة بشيء من هذه الأحرف المجزومة دخله الإعراب «1» . .

«غافِرِ الذَّنبِ وَقابِلِ التَّوْبِ» (3) مجازها أن يكون مصدرا وجماعا . .

«ذِي الطَّوْلِ» (3) ذى التفضل تقول العرب للرجل : إنه لذو طول على قومه أي ذو فضل عليهم «2» . .

«أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ» (11) مجازها مجاز قوله : «كنتم أمواتا فأحيينا كم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (2/ 28) فها هنا موتتان وحياتان . .

«فِي تَبابٍ» (37) فى هلكة . .

«لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ» (49) خازن وخزنة مثل ظالم وظلمة وفاعل وفعله .

«قليلا ما يتذكّرون «3»» (58) مجازها يتذكرون قليلا . «4»

---

(1) . - 1 - 3 «قال . . . الإعراب» : روى الطبري هذا الكلام عنه وقال : وحدثت عن معمر بن المثنى أنه قال . . . يوفى إلخ» .

(2) . - 5 - 6 «ذى الطول . . . عليهم» : قال ابن حجر أثناء ما أشار إلى أخذ

البخاري عن أبى عبيدة :

هو قول أبى عبيدة وزاد بقول العرب . . . إلخ (فتح الباري 8/ 426) .

(3) . - 12 «يتذكرون» : قال القرطبي (15/ 325) قراءة العامة بياء على الخبر واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم لأجل ما قبله من الخبر وما بعده وقرأ الكوفيون بالتاء على الخطاب .

(4) . - 816 : ديوانه ص 106 واللسان (حصص) .

(212/672)

«ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا» (67) مجازها أطفالا والعرب قد تضع لفظ الواحد على معنى الجميع قال عبّاس بن مرداس :

فقلنا أسلموا إنا أخوكم فقد برئت من الإحن الصدور

(100) وقال الغنوىّ :

إن تقتلوا اليوم فقد شرينا فى حلقكم عظم وقد شجينا

(99)

«وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ «1»» (80) مجازها وفى الفلك تحملون وفى آية أخرى :

«لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ» (20/ 71) أي على جذوع النخل . .

«سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ» (85) نصبها على مصدر ما جاء من فعل على غير لفظها . «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 193. 195 ﴾

---

(1) . - 6 «داخرين خاضعين» الذي ورد فى الفروق : كما فى البخاري وأشار إليه ابن حجر يقول :

هو قول أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 426) .

(2) . - 817 : ديوانه ص 275]

(213/672)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن حم وهى السورة التي يذكر فيها «المؤمن»

[سورة غافر (40) : آية 7]

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ

الْجَحِيمِ (7)

قوله تعالى: رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً [7] وهذه استعارة. لأن حقيقة السعة إنما توصف بها الأودعية والظروف التي هى أجسام، ولها أقدار ومساحات، والله سبحانه يتعالى عن ذلك.

والمراد- والله أعلم- أنّ رحمتك وعلمك وسعا كلّ شىء، فنقل الفعل إلى الموصوف على جهة المبالغة كقولهم: طبت بهذا الأمر نفسا. وضقت به ذرعا. أي طابت نفسى، وضاق ذرعى. وجعل العلم موضع المعلوم، كما جاء قوله سبحانه: وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ «1» أي بشىء من معلومه.

[سورة غافر (40): آية 15]

رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (15)

وقوله سبحانه: رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ [15]. وفى هذه الآية استعارتان.

إحداهما قوله تعالى: رَفِيعُ الدَّرَجاتِ والمعنى: أن منازل العز، ومراتب الفضل التي يخصّ بها عباده الصالحين، وأولياءه المخلصين رفيعة الأقدار، مشرفة المنار.

فالدرجات المذكورة هى التي يرفع عباده إليها، لا التي يرتفع هو بها. تعالى عن ذلك علوّا

كبيرا .

---

(1) سورة البقرة . الآية رقم 255 .

والاستعارة [«1» الأخرى] قوله سبحانه : يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ

والرّوح ها هنا كناية عن الوحى كقوله تعالى : وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا «2»

وإنما سمّى روحا لأن الناس يحيون به من موت الضلالة ، وينشرون من مدافن الغفلة . وذلك

أحسن تشبيه ، وأوضح تمثيل .

[سورة غافر (40) : آية 19]

يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ (19)

وقوله سبحانه : يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ [19] وهذه استعارة . والمراد

بخائنة الأعين - والله أعلم - الرّيب فى كسر الجفون ، ومرامز العيون .

وسمّى سبحانه ذلك خيانة ، لأنه أمارة للريبة ، ومجانب للعفة .

وقد يجوز أن تكون خائنة الأعين ها هنا صفة لبعض الأعين بالمبالغة فى الخيانة ، على

المعنى الذي أشرنا إليه . كما يقال : علّامة ، ونسّابة .

وأنشدوا قول الشاعر «3» فى مثل ذلك :

حدّثت نفسك بالوفاء ولم تكن للغدر خائنة مغلّ الأصبع

أي لم تكن موصوفا بالمبالغة فى الخيانة . ومعنى مغلّ الأصبع : أي سارق مختلس .

---

(1) هذه اللفظة ساقطة من الأصل ، وهى ضرورية فى معرض تفصيل الاستعارتين .

(2) سورة الشورى . الآية رقم 52 . [. . . . .]

(3) لم ينسبه المؤلف لقائله . وفى «شرح شواهد الكشاف» للعلامة محب الدين : أنه للشاعر الكلابي . وقد استشهد به الإمام الزمخشري فى تفسيره عند ما تحدث عن قوله تعالى فى سورة النساء :

(ولا تزال تطلع على خائنة منهم) .

وأضاف الأغلال إلى الأصبع ، كما أضاف الآخر «1» الخيانة إلى اليد فى قوله :

أوّليت العراق ورافديه فزاريّا أحذّ يد القميص

أي خفيف اليد فى السرقة والأخذ الخفيف السريع . وعنى برافديه : دجلة والفرات .

وإنما ذكرت اليد والأصبع فى هذين الموضعين ، لأن فعل السارق والمختلس فى الأكثر إنما

يكون باستعمال يده ، واستخدام أصابعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 291.289 ﴾

---

(1) هو الشاعر الفرزدق . والبيت من أبيات فى ديوانه ، وقد أشار إليه ابن قتيبة فى مقدمته لكتابه «الشعر والشعراء» ص 34 ، وهو يتحدث عن التكلف وضرورات القافية . والفرزدق يخاطب الخليفة يزيد بن عبد الملك شاكيا عمر بن هبيرة .

وفى «أساس البلاغة» للزمخشرى روى هذا البيت هكذا :

بعثت على العراق ورافديه فزاريا أحذ يد القميص

(216/672)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة غافر

سورة المؤمن أولى السور السبع المبدوءة بهذين الحرفين " حم " ، وتسمى الحواميم . قال ابن مسعود : " آل حم ديباج القرآن " ! وقال ابن عباس : " إن لكل شىء لبابا ، ولباب القرآن آل حم . . " . والواقع أن المرء يشعر بالدهشة والتعجب لوفرة دلائل التوحيد فيها ، وسرعتها

إلى امتلاك زمام القلب . وهذه السورة بدأت بقوله تعالى " حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم " . واسما العزيز والعليم من أسماء الله الحسنى ، وآثارهما تمتد إلى الكتاب النازل من لدنه جل شأنه . قال ابن كثير أى تنزيل هذا القرآن من الله ذى العزة والعلم ، فلا يرام جنابه ، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه ! ! " غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول " . من سنن القرآن الجمع بين الوعد والوعيد ، ليظل الإنسان محكوما بمشاعر الخوف والرجاء : " اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم " . إن الإنسان محتاج دائما إلى منشطات الأمل وكوابح الغرور ، فإن يأسه من النجاح يقوده إلى السقوط ، واغتراره بما عنده يمنعه السبق . وقد حكى ابن كثير قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس يفد إلى عمر بن الخطاب ، فافتقده عمر لما غاب عنه ، فقالوا له ، يا أمير المؤمنين تتابع فى هذا الشراب ! ! فدعا عمر كاتبه ، فقال اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان . سلام عليك . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير " . ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه

ويتوب الله عليه . فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد

العقاب ، قد حذرنى عقوبته ووعدنى أن يغفر لى . ولم يزل يرددها على نفسه ، ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع . فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا لكم زل زلة ، فسددوه ، ووثقوه أى لا تجعلوه يفقد الثقة فى نفسه وادعوا الله له ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه . . وقد أثبت هذه القصة لأنه يوجد فى عصرنا مقنطون من رحمة الله يحسنون إرسال طلقات التقريع والإهانة ، وكأن غايتهم إهلاك المرء حيث زلت قدمه ! ! بينما يوجد من أعداء المسلمين من يلتقط العاثرين ليخرجهم من الملة بعد ما يعدهم المغفرة ! ! ومن اللطائف أن هذه السورة تسمى سورة " غافر " ، وهى تعلن حربا على الجدال السيئ والمكابرة بالباطل والتعامى عن الحق . قال تعالى: " ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد * كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب " ؟ وتكررت كلمة الجدال خمس مرات فى هذه السورة ، كاشفة الغطاء عن أسلوب المبطلين فى معاملة الحق . إنهم أصحاب عناد ، وليسوا أتباع دليل ، يستولى على نفوسهم قهر الخصم وفرض النفس على أية صورة . ولذلك يقول الله فيهم " سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها

غافلين" . ووراء كل نزعة عدوانية وسياسة باطشة مجادلون بالباطل يعرفون الحق ويرفضون اتباعه . وقد تعرض الأنبياء لأذى أولئك الأشرار ، كما تعرض أتباع الأنبياء فى كل زمان ومكان لجورهم وكبرهم . ولكن الحياة الأرضية فترة اختبار يجب أن يتحمل الصالحون آلامها مهما فدحت ، وإن ملائكة الرحمن لترقبهم من عليائها وتدعو لهم بالثبات والسداد . ومن

هنا جاء فى هذه السورة: " الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم " . وفى سورة مؤمن آل فرعون آيتان فى صدرها عن المجادلين بالباطل المعادين للإيمان . والآية

الثالثة جاءت على لسان الرجل المؤمن الغيور ، وهو ينصح أهله الفراعنة ويحاول كفكفة شرهم . إنه يقول لهم: " ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به . . . . " . إن يوسف وهو من دعاة التوحيد شرح أصول الدين الحق ، وهاجم الوثنية السائدة وحكم مصر حكما حافلا بالعدل والرخاء ، فهل دخل الناس أفواجا فى دينه ؟

كلا ما زالوا فى شك مما جاءهم به حتى مات . فلما أرسل الله من بعده موسى تكررت المأساة وامتد حبل الكفر على نحو أغلظ "كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار" . والرجل المؤمن من آل فرعون محام من أقدر المحامين عن قضايا الإيمان ، يرق حينا ويشتد حينا ويسفر حينا ويستخفى حينا ليستغرق أطول وقت ممكن فى خدمة الحقيقة وتجليتها فى بيئة يبسط فرعون فيها سلطانه ويفرض عليها عنفوانه . ودفاعه الموفق ، وإن كان عن رسالة موسى إلا أنه دفاع عن رسالات الله كلها . وقد اقتبس منه أبو بكر بعض كلماته ، وهو يرد عدوان المشركين عن صاحب الرسالة الخاتمة . . ضمور المعرفة مع تضخم الهوى بلاء لا آخر له ، وعلاجه تكثير المعارف حتى يتسع الأفق النفسى ، وتقوية الضمير حتى لا يلين للشهوات . والأفراد والجماعات فى ذلك سواء . وفى سورة المؤمن نجد القرآن الكريم يكرر مرتين الأمر بالسياحة فى أرجاء الأرض وفى أغوار الزمان ، حتى يستفيد الإنسان ما يصوب فكره ويسدد وخطاه . قال تعالى: " أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم

قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق " . والواقع أن التاريخ البشرى حافل بالعبر ، وله قوانين تشبه قوانين الكون الطبيعى ، ودراسة أحوال الأمم فيه تقيم المائل وترشد الحائر . وفى آية أخرى يقول جل شأنه " أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون " . ويكشف القرآن عن أسباب هذا الجماح المردى ، واصفا إياه بأنه الغرور بالعلم القليل ! وهذا

الاغترار هو سر الجدال والمكابرة " فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون " . إن كثيرا من المخطئين لا يعرف من نفسه أنه مخطئ ، بل يحسب نفسه راسخا فى الصواب ! وما يفيق إلا على قارعة تقصم كبره " إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير " . وهذا هو الموضع الرابع الذى تكرر فيه الجدال فى هذه السورة ، ومواجهة هذا الموقف تحتاج إلى صبر طويل وتوبة إلى الله واستعانة به . وهو معنى قوله تعالى " فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار " .

على أن هذا الصبر لا ينبغى أن يرتبط بتربص العقاب للمجرمين ، فإن عقوبتهم قد تتأخر ، وقد تجىء بعد موت المجاهد ! ! فليؤد واجبا بهمة ، وليفوض النتيجة إلى علم الله وقدره ، ولذلك تكرر الأمر بالصبر فى قوله بعد ذلك " فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون " . وفى أوائل هذه السورة أمر بدعاء الله وحده ، وإخلاص الدين له ، وتجاوز غيره من الآلهة المزيفة ، وإن التفت حولها جماهير: " فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون * رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء . . . " (5) . والآية تصيح بأمجاد الله صياحا يزعج الذاهلين ، ويذر فى نفوسهم إحساسا غامرا بالبعث والجزاء ، ويشرح وظيفة الرسل بأنها الإعداد الروحى ليوم اللقاء . ويتكرر هذا المعنى فى السورة ثانية عند قوله تعالى: " وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين " . هل عبادة الله هدف ثانوى فى هذه الحضارة ؟ إنها ليست هدفا قط ! قد تكون خاطرا عابرا عند بعض المتدينين المتخلفين ! ولذلك وردت فى هذه السورة ثلاث آيات مفتتحة كلها باسم الجلالة ، تعريفا به وتذكيرا

بحقه . 1ـ " الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون " .

إن صباحا جديدا يطل على الإنسان نعمة يستقبلها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحمد والثناء قائلا: " الحمد لله الذى رد إلى روحى وعافانى فى جسدى وأذن لى بذكره " . فهل نتنفس هواء اليوم الجديد شاعرين بأن الحياة منحة نقدرها لصاحبها ؟ أم نستأنف ما يملأ الدنيا من لغو ولهو ، ونريق أعمارنا على التراب ؟ 2ـ " الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم . . . " . لست أدرى كيف تستقر الأرض بنا وهى تلص كل يوم حول نفسها ، فى الحين الذى تقطع فيه جزءا من دورتها حول الشمس ؟ إن الذى يمسك بها وبالسماوات لا يأذن بخلل ولا اهتزاز . وقد شهدت زلزالا لم يستغرق نصف دقيقة كدنا نفقد فيه وعينا . إن القدرة الضابطة لحركة الأفلاك تطمئن النمال فى جحورها ألا خلل ولا فوضى " سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته . . " . 3ـ " الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع . . " إلخ . كنت أرقب درسا فى عالم الحيوان فسمعت المذيع يقول: يقدر العلماء الحشرات الزاحفة والطائرة فى هذه الغابة بنصف مليار حشرة ! كان هذا الإحصاء مفاجئا لى ! قلت كم عدد الأنعام والطيور والحشرات فى القارات الخمس ؟ إن

بينها قانونا من التوازن الطبيعى يضبط حياتها ومماتها ، وعلاقاتنا بها " ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون " ؟ إننا نحن البشر معجبون بأنفسنا ، وقد نغتر بذكائنا وقدراتنا ، لأننا لا ندرى من يسكن الكون معنا . لكن هذه السورة تجىء إلينا لتقول لنا " لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون " . فلنتواضع ، ولنكسر سورات هذا الغرور . بعض الناس قد يستريح إلى عقيدة قها أو منهج ما ثم يمضى فى طريقه لا يلوى على شىء ! لعله يؤثر الصمت أو يكره الجدال أو ييأس من إقناع

(222/672)

الآخرين بصحة ما عنده وبطلان ما عندهم وهذا الصنف قليل فى الدنيا ، أو كان يمكن أن تتسع له الحياة قديما فيحيا وحده ويموت وحده ! أما فى عصرنا فإن العلاقات العامة فرضت نفسها على الناس ، فما يستطيع أحد أن يعيش فريدا . . كان المثل المضروب قديما (السلطان من لا يعرف السلطان) أما الآن فهذا متعذر فإن من لا يعرف السلطان سيسعى السلطان إلى معرفته وفرض نفسه عليه . . ! !

إن الحكم الآن صنع شبكة من العلاقات المادية والأدبية تمنع أى فرد من أن يعيش فى قوقعة ومعنى ذلك أنه لابد من الحوار والأخذ والرد وعرض وجهات النظر والاعتماد على الدليل

فى الإقناع والاقتناع وإعطاء الرأى المعارض حق الحياة ما دام مصحوبا بالإخلاص والتجرد . ويضيف الإسلام إلى ذلك دفع السيئة بالحسنة " ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون " وترك اللجاجة تأخذ مجراها حتى يبت فى مصيرها القدر فماذا تفعل لأناس يقولون لله " إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم " ! وأنا احترم حرية الرأى إلى أبعد حد ولكنى أكره الغباء والافتراء ومساندة الدعوى بالعصا واستغلاق العقل بحيث تعجز كل مفاتيح الحقيقة عن فتحه ! إن المكابرة رذيلة بغيضة ! ! وقد ووجه الإسلام من أول تاريخه بمجادلين طوال الأنفاس يرفضون الله الواحد ويستريحون إلى أوثان متعددة ، يأنف أحدهم من السجود لقيوم السموات والأرض ويذل أمام حجر أصم ! وقد استعرضت سورة غافر أحوال هؤلاء المجادلين فى خمسة مواضع كان آخرها قوله تعالى: "ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون * الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا . . " إن رد القرآن الكريم ليس تكذيبا له وحده ، إنه تكذيب لكل وحى نزل ، إنه تكذيب لموسى وعيسى ومحمد . . وقد نظرت إلى المتدينين فى الغرب فإذا هم غثاء فى تيار الحضارة الحديثة ، يكرهون الإسلام لأن آباءهم كرهوه ، فهل آمنوا بموسى وعيسى ؟ وهل استعدوا بشىء للقاء الله ؟

كلا إنهم جزء من الحضارة التى تعبد اليوم الحاضر وتكره اليوم الآخر ، إن أقطار الغرب استباحت الشهوات والمظالم ، واحتفت بالجنس الأبيض وتجهمت لسائر الأجناس . وما أنكر أن المسلمين فرطوا فى تراثهم وخافوا رسالتهم ولكن ذلك ، لا يمنع من التنبيه إلى الهاوية التى تجرنا إليها حضارة أضاعت الصلاة واتبعت الشهوات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 363 . 368 ﴾

(224/672)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والسبعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/673)

الجزء الثالث والسبعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة غافر

وحتى الآية ﴿ 17 ﴾ من نفس السورة

(4/673)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/673)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة غافر

أقول: وجه إيلاء الحواميم السبع سورة الزمر: تآخى المطالع في الافتتاح بتنزيل الكتاب وفي مصحف أبي بن كعب: أول الزمر (حم) ، وذلك مناسبة جليلة ثم إن الحواميم ترتبت لاشتراكها في الافتتاح ب(حم) ، وبذكر الكتاب بعد حم ، وأنها مكية ، بل ورد في الحديث أنها نزلت جملة وفيها شبه من ترتيب ذوات (الر) الست

فانظر ثانية الحواميم وهي فصلت ، كيف شابهت ثانية ذوات (الر) هود في تغيير الأسلوب في وصف الكتاب وأن في هود: (كتاب أُحكِمَت آياته ثُم فُصلت) وفي فصلت: (كتاب فصلت آياتهُ) وفي سائر ذوات (الر) (تلك آيات الكتاب) وفي سائر الحواميم: (تنزيلُ الكتاب) أو (والكتاب) وروينا عن جابر بن زيد وابن عباس في ترتيب نزول السور: أن الحواميم نزلت عقب الزمر ، وأنها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف: المؤمن ، ثم السجدة ، ثم الشورى ، ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف ولم يتخللها نزول غيرها وتلك مناسبة جلية واضحة في وضعها هكذا ثم ظهر لي لطيفة أخرى ، وهي: أنه في كل ربع من أرباع القرآن توالت سبع سور مفتتحة بالحروف المقطعة فهذه

السبع مصدرة ب(حم) وسبع في الربع الذي قبله ذوات (الر) الست متوالية ، و (المص) الأعراف ، فإنها متصلة بيونس على ما تقدمت الإشارة إليه وافتتح أول القرآن بسورتين من ذلك ، وأول النصف الثاني بسورتين وقال الكرماني في العجائب: ترتيب الحواميم السبع لما بينها من التشاكل الذي خصت به ، وهو: أن كل سورة منها اسفتحت بالكتاب أو وصفه ، مع تفاوت المقادير في الطول والقصر ، وتشاكل الكلام في النظام انتهى قلت: وانظر إلى مناسبة ترتيبها ، فإن مطلع غافر مناسب لمطلع الزمر ، ومطلع فصلت التي هي ثانية الحواميم مناسب لمطلع هود ، التي هي ثانية ذوات (الر) ومطلع الزخرف مؤاخ لمطلع الدخان ، وكذا مطلع الجاثية لمطلع الأحقاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 129. 131﴾

(6/673)

قوله تعالى ﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الملك الأعظم الذي يعطي كلاً من عباده ما يستحقه ، فلا يقدر أحد أن يناقض في شيء من ذلك لا يعارض (الرحمن) الذي عمهم برحمته في الدنيا بالخلق والرزق والبيان لا خفاء معه (الرحيم) الذي يخص برحمته من يشاء من عباده فيجعله حكيماً ، وفي تلك الأرض وملكوت السماء عظيماً .

﴿ حم ﴾ أي هذه حكمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي خصه بها الرحمن الرحيم الحميد المجيد مما له من صفة الكمال .

(7/673)

لما كان ختام التي قبلها إثبات الكمال لله بصدقه في وعده ووعيده بإنزال كل فريق في داره التي أعدها له ، ثبت أن الكتاب الذي فيه ذلك منه ، وأنه تام العزة كامل العلم جامع لجميع صفات الكمال فقال : ﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أي الجامع من الحدود والأحكام والمعارف والأكرام لكل ما يحتاج إليه بإنزاله بالتدريج على حسب المصالح والتقريب للأفهام الجامدة القاصرة ، والتدريب للألباب السائرة في جو المعاني والطائرة ﴿ من الله ﴾ أي الجامع لجميع صفات الكمال .

ولما كان النظر هنا من بين جميع الصفات إلى العزة والعلم أكثر ، لأجل أن المقام لإثبات الصدق وعداً ووعيداً قال : ﴿ العزيز العليم ﴾ .

(8/673)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما افتتح سبحانه سورة الزمر بالإخلاص وذكر سببه والحامل بإذن الله عليه وهو الكتاب ، وأعقب ذلك بالتعويض بذكر من بنيت على وصفهم سورة ص وتتابعت الآي في ذلك الغرض إلى توبيخهم بما ضربه سبحانه من المثل الموضح في قوله ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل ﴾ ووصف الشركاء بالمشاكسة إذ بذلك الغرض يتضح عدم استمرار مراد لأحدهم ، وذكر قبح اعتذار لهم بقولهم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] ثم أعقب تعالى بالإعلام بقهره وعزته حتى لا يتخبل مخذول شذوذ أمر عن يده وقهره ، فقال الله تعالى ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ - إلى قوله : ﴿ أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴾ [الزمر : 37] ثم أتبع ذلك بحال أندادهم من أنها لا تضر ولا تنفع فقال ﴿ قل أفرءيتم ما تدعون من دون الله أن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾ [الزمر : 38] ثم أتبع هذا بما يناسبه من شواهد عزته فقال ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾

[الزمر : 44] ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ﴾ ﴿ أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لما يشاء ويقدر ﴾ ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ ﴿ له مقاليد السماوات والأرض ﴾ ثم عنفهم وقرَّعهم بجهلهم فقال تعالى ﴿ أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ﴾ ثم اتبع تعالى - ذلك بذكر آثار العزة والقهر فذكر النفخ في الصور للصعق ثم نفخة القيام والجزاء ومصير الفريقين ، فتبارك المتفرد بالعزة والقهر ، فلما انطوت هذه الآي من آثار عزته وقهره على ما أشير إلى بعضه ، أعقب ذلك بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ حمتنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ فذكر من أسمائه سبحانه هذين الاسمين العظيمين تنبيهاً على انفراده بموجبهما وأنه العزيز الحق القاهر للخلق لعلمه تعالى بأوجه الحكمة التي

(9/673)

خفيت عن الخلق ما أخر الجزاء الحتم للدار الآخرة ، وجعل الدنيا دار ابتلاء واختبار ، مع قهره للكل في الدارين معاً ، وكونهم غير خارجين عن ملكه وقهره ، ثم قال تعالى ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ تأنيساً لمن استجاب بحمده ، وأناب بلطفه ، وجرياً على حكم

الرحمة وتغليبها ، ثم قال ﴿ شديد العقاب ذي الطول ﴾ ليأخذ المؤمن بلازم عبوديته من الخوف والرجاء ، واكتنف قوله ﴿ شديد العقاب ﴾ بقوله ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ وقوله ﴿ ذي الطول ﴾ وأشار سبحانه بقوله - ﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ - إلى قوله قبل ﴿ وأورثنا الأرض ﴾ وكأنه في تقدير : إذا كانت العاقبة لك ولأتباعك فلا عليك من تقلبهم في البلاد ، ثم بين تعالى أن حالهم في هذا كحال الأمم قبلهم ، وجدالهم في الآيات كجدالهم ، وأن ذلك لما حق عليهم من كلمة العذاب ، وسبق لهم في أم الكتاب - انتهى .

ولما تقدم آخر تلك أن كلمة العذاب حقت على الكافرين ، فكان ذلك ربما أيأس من تلبس بكفر من الفلاح ، وأوهمه أن انسلاخه من الكفر غير ممكن ، وكان الغفران - وهو محو الذنب عيناً وأثراً - مترتباً على العلم به ، والتمكن من الغفران وما رتب عليه من الأوصاف نتيجة العزة ، دل عليهما مستعطفاً لكل عاص ومقصر بقوله : ﴿ غافر الذنب ﴾ أي بتوبة وغير توبة إن شاء ، وهذا الوصف له دائماً فهو معرفة .

قال السمين : نص سيبويه على أن كل ما إضافته غير محضة جاز أن تجعل محضة وتوصف بها المعارف إلا الصفة المشبهة ، ولم يستثن الكوفيون شيئاً .

(10/673)

ولما أفهم تقديمه على التوبة أنه غير متوقف عليها فيما عدا الشرك ، وكان المشركون يقولون : قد أشركنا وقتلنا وبالغنا في المعاصي فلا يقبل رجوعنا فلا فائدة لنا في إسلامنا ، رغبهم في التوبة بذكرها وبالعطف بالواو الدالة على تمكن الوصف إعلاماً بأنه سبحانه لا يتعاظمه ذنب فقال : ﴿ وقابل التوب ﴾ وجرد المصدر ليفهم أن أدنى ما يطلق عليه الاسم كاف وجعله اسم جنس كأخواته أنسب من جعله بينها جمعاً كتمر وتمرة .

ولما كان الاقتصار على الترغيب بما أطمع عذر المتمادي من سطوته ، فقال معرياً عن الواو لئلا يؤنس ما يشعر به كل من العطف والصفة المشبهة من التمكن ، وذلك إعلاماً بخفي لطفه في أن رحمته سبقت غضبه ، وأنه لو أبدى كل ما عنده من العزة لأهلك كل من عليها كما أشير إليه بالمفاعلة في ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ﴾ [النحل : 61] فإن الفعل إذا كان بين اثنين كان أبلغ : ﴿ شديد العقاب ﴾ على أن تنكيره وإبهامه - كما قال الزمخشري - للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر ، لزيادة الإنذار وهي أخفى من دلالة الواو لو أوتي بها .

(11/673)

ولما أتم الترغيب بالعفو والترهيب من الأخذ ، أتبعه التشويق إلى الفضل ، فقال معرياً عن الواو لأن التمام لا يقتضي المبالغة ، والحذف غير مخل بالغرض فإن دليل العقل قائم على كمال صفاته سبحانه : ﴿ ذي الطول ﴾ أي سعة الفضل والإنعام والقدرة والغنى والسعة والمنة ، لا يماثله في شيء من ذلك أحد ولا يدانيه ، ثم علل تمكنه في كل شيء من ذلك بوحدانيته فقال : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ ولما أنتج هذا كله تفرده ، أنتج قطعاً قوله : ﴿ إليه ﴾ أي وحده ﴿ المصير ﴾ أي في المعنى في الدنيا ، وفي الحس والمعنى في الآخرة ، ليظهر كل من هذه الصفات ظهوراً تاماً ، بحيث لا يبقى في شيء من ذلك لبس ، فإنه لا يصح في الحكمة أن يبغي أحد على العباد ثم يموت في عزة من غير نقمة فيضيع ذلك المبغي عليه ، لأن هذا أمر لا يرضى أقل الناس أن يكون بين عبيده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 482.485 ﴾

(12/673)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ حم ﴾ وما بعده بالإمالة : حمزة وعلي وخلف ويحيى وحماد وابن مجاهد

والنقاش عن ابن ذكوان . وقرأ أبو جعفر ونافع بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب وذلك طبعاً لا اختلافاً لمعان مذكورة في "ص" . ﴿ كلمات ربك ﴾ على الجمع : أبو جعفر ونافع وابن عامر ﴿ لتنذر ﴾ بالتاء الفوقانية على أن الضمير للروح ، وقد تؤنث ، أو على خطاب الرسول : يعقوب غير رويس ﴿ التلاقي ﴾ بالياء في الحالين : ابن كثير ويعقوب وافق يزيد وورش وسهل وعباس في الوصل . ﴿ والذين تدعون ﴾ على الخطاب : نافع وهشام غير الرازي وابن مجاهد والنقاش وابن ذكوان ﴿ أشد منكم ﴾ ابن عامر . الباقون ﴿ منهم ﴾ .

الوقوف : ﴿ حم ﴾ ط كوفي ﴿ العليم ﴾ 5 لا ﴿ الطول ﴾ ط ﴿ إلا هو ﴾ ط ﴿ المصير ﴾ 5 ﴿ البلاد ﴾ 5 ﴿ من بعدهم ﴾ ص لعطف الجملتين المتفقتين ﴿ فأخذتهم ﴾ ط للابتداء بالتهديد ﴿ عقاب ﴾ 5 ﴿ النار ﴾ م لئلا يتوهم أن ما بعده صفة أصحاب النار ﴿ آمنوا ﴾ ج لحق القول المحذوف ﴿ الجحيم ﴾ 5 ﴿ وذرياتهم ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ 5 وقد يوصل للعطف ﴿ السيئات ﴾ ط ﴿ رحمته ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ 5 ﴿ فتكفرون ﴾ 5 ﴿ سبيل ﴾ 5 ﴿ كفرتم ﴾ ج للابتداء بالشرط مع العطف ﴿ تؤمنوا ﴾ ط ﴿ الكبير ﴾ 5 ﴿ رزقاً ﴾ ط ﴿ ينيب ﴾ 5 ﴿ الكافرون ﴾ 5 ﴿ ذو العرش ﴾ ج لاحتمال ما بعده الاستئناف والحال ﴿ التلاق ﴾ 5 لا ﴿ بارزون ﴾ ج لاحتمال الاستئناف وتعلقه بالظرف ﴿ شيء ﴾ ط ﴿ اليوم ﴾

ط فصلاً بين السؤال والجواب ﴿ القهار ﴾ 5 ﴿ كسبت ﴾ ط ﴿ اليوم ﴾ ط ﴿ الحساب ﴾ 5 ﴿ كاظمين ﴾ ط ﴿ يطاع ﴾ 5 ط ﴿ الصدور ﴾ 5 ﴿ بالحق ﴾ ط ﴿ بشيء ﴾ ط ﴿ البصير ﴾ 5 ﴿ من قبلهم ﴾ ط ﴿ واق ﴾ 5 ﴿ فأخذهم الله ﴾ ط ﴿ العقاب ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 20 ﴾

(13/673)

فصل

قال الفخر :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) ﴾

اعلم أن في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي حم بكسر الحاء ، والباقون بفتح الحاء ، ونافع في بعض الروايات ، وابن عامر بين الفتح والكسر وهو أن لا يفتحها فتحاً شديداً ، قال صاحب "الكشاف" : قرىء بفتح الميم وتسكينها ، ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين وإيثار أخف الحركات نحو : أين وكيف ، أو النصب بإضمار إقرأ ، ومنع الصرف

إما للتأنيث والتعريف ، من حيث إنها اسم للسورة وللتعريف ، وإنها على زنة أعجمي نحو قابيل وهابيل ، وأما السكون فلأنا بينا أن الأسماء المجردة تذكر موقوفة الأواخر .

المسألة الثانية :

الكلام المستقصى في هذه الفواتح مذكور في أول سورة البقرة ، والأقرب ههنا أن يقال حم اسم للسورة ، فقوله ﴿ حم ﴾ مبتدأ ، وقوله ﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله ﴾ خبر والتقدير أن هذه السورة المسماة بحم تنزيل الكتاب ، فقوله ﴿ تَنزِيلَ ﴾ مصدر ، لكن المراد منه المنزل . وأما قوله ﴿ مِنَ الله ﴾ فاعلم أنه لما ذكر أن ﴿ حم * تَنزِيلُ الكتاب ﴾ وجب بيان أن المنزل من هو ؟ فقال : ﴿ مِنَ الله ﴾ ثم بيّن أن الله تعالى موصوف بصفات الجلال وسمات العظمة ليصير ذلك حاملاً على التشمير عن ساق الجد عند الاستماع وزجره عن التهاون والتواني فيه ، فبين أن المنزل هو ﴿ الله العزيز العليم ﴾ .

(14/673)

واعلم أن الناس اختلفوا في أن العلم بالله ما هو ؟ فقال جمع عظيم ، أنه العلم بكونه قادراً وبعده العالم بكونه عالماً ، إذا عرفت هذا فنقول ﴿ العزيز ﴾ له تفسيران أحدهما : الغالب فيكون معناه القادر الذي لا يساويه أحد في القدرة والثاني : الذي لا مثل له ، ولا يجوز أن

يكون المراد بالعزيز هنا القادر ، لأن قوله تعالى : ﴿ الله ﴾ يدل على كونه قادراً ، فوجب حمل ﴿ العزيز ﴾ على المعنى الثاني وهو الذي لا يوجد له مثل ، وما كان كذلك وجب أن لا يكون جسماً ، والذي لا يكون جسماً يكون منزّهاً عن الشهوة والنفرة ، والذي يكون كذلك يكون منزّهاً عن الحاجة .

وأما ﴿ العليم ﴾ فهو مبالغة في العلم ، والمبالغة التامة إنما تتحقق عند كونه تعالى عالماً بكل المعلومات ، فقوله ﴿ مِنَ الله العزيز العليم ﴾ يرجع معناه إلى أن هذا الكتاب تنزيل من القادر المطلق ، الغني المطلق ، العالم المطلق ، ومن كان كذلك كان عالماً بوجوه المصالح والمفاسد ، وكان عالماً بكونه غنياً عن جر المصالح ودفع المفاسد ، ومن كان كذلك كان رحيماً جواداً ، وكانت أفعاله حكمة وصواباً منزّهة عن القبيح والباطل ، فكأنه سبحانه إنما ذكر عقيب قوله ﴿ تَنزِيلَ ﴾ هذه الأسماء الثلاثة لكونها دالة على أن أفعاله سبحانه حكمة وصواب ، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون هذا التنزيل حقاً وصواباً ، وقيل الفائدة في ذكر ﴿ العزيز العليم ﴾ أمران أحدهما : أنه بقدرته وعلمه أنزل القرآن على هذا الحد الذي يتضمن المصالح والإعجاز ، ولولا كونه عزيزاً عليماً لما صح ذلك والثاني : أنه تكفل بحفظه وبعموم التكليف فيه وظهوره إلى حين انقطاع التكليف ، وذلك لا يتم إلا بكونه عزيزاً لا يغلب وبكونه عليماً لا يخفى عليه شيء ، ثم وصف نفسه بما يجمع الوعد والوعيد

والترهيب والترغيب ، فقال : ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِى الطول لاَ إله إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المصير ﴾ فهذه ستة أنواع من الصفات :

(15/673)

الصفة الأولى : قوله ﴿ غَافِرِ الذنب ﴾ قال الجبائي : معناه أنه غافر الذنب إذا استحق غفرانه إما بتوبة أو طاعة أعظم منه ، ومراده منه أن فاعل المعصية إما أن يقال إنه كان قد أتى قبل ذلك بطاعة كان ثوابها أعظم من عقاب هذه المعصية أو ما كان الأمر كذلك فإن كان الأول كانت هذه المعصية صغيرة فيحبط عقابها ، وإن كان الثاني كانت هذه المعصية كبيرة فلا يزول عقابها إلا بالتوبة ، ومذهب أصحابنا أن الله تعالى قد يعفو عن الكبيرة بعد التوبة ، وهذه الآية تدل على ذكل وبيانه من وجوه الأول : أن غفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة من الأمور الواجبة على العبد ، وجميع الأنبياء والأولياء والصالحين من أوساط الناس مشتركون في فعل الواجبات ، فلو حملنا كونه تعالى غافر الذنب على هذا المعنى لم يبق بينه وبين أقل الناس من زمرة المطيعين فرق في المعنى الموجب لهذا المدح وذلك باطل ، فثبت أنه يجب أن يكون المراد منه كونه غافر الكبائر قبل التوبة وهو المطلوب الثاني : أن الغفران عبارة عن الستر ومعنى الستر إنما يعقل في الشيء الذي يكون باقياً موجوداً

فيستر ، والصغيرة تحبط بسبب كثرة ثواب فاعلها ، فمعنى الغفر فيها غير معقول ، ولا يمكن حمل قوله ﴿ غَافِرِ الذنب ﴾ على الكبيرة بعد التوبة ، لأن معنى كونه قابلاً للتوب ليس إلا ذلك ، فلو كان المراد غافر الذنب هذا المعنى لزم التكرار وإنه باطل فثبت أن كونه غافر الذنب يفيد كونه غافراً للذنوب الكبائر قبل التوبة الثالث : أن قوله ﴿ غَافِرِ الذنب ﴾ مذكور في معرض المدح العظيم ، فوجب حمله على ما يفيد أعظم أنواع المدح ، وذلك هو كونه غافراً للكبائر قبل التوبة ، وهو المطلوب .

الصفة الثانية : ﴿ وَقَابِلِ التوب ﴾ وفيه بحثان :

(16/673)

الأول : في لفظ التوب قولان : الأول : أنه مصدر وهو قول أبي عبيدة ، والثاني : أنه جماعة التوبة وهو قول الأخفش ، قال المبرد يجوز أن يكون مصدراً يقال تاب يتوب توباً وتوبة مثل قال يقول قولاً وقولة ، ويجوز أن يكون جمعاً لتوبة فيكون توبة وتوب مثل ثمرة وثمر إلا أن المصدر أقرب لأن على هذا التقدير يكون تأويله أنه يقبل هذا الفعل .

الثاني : مذهب أصحابنا أن قبول التوبة من المذنب يقع على سبيل التفضل ، وليس بواجب على الله ، وقالت المعتزلة إنه واجب على الله واحتج أصحابنا بأنه تعالى ذكر كونه

قابلاً للتوب على سبيل المدح والثناء ، ولو كان ذلك من الواجبات لم يبق فيه من معنى المدح إلا القليل ، وهو القدر الذي يحصل لجميع الصالحين عند أداء الواجبات والاحتراز عن المحظورات .

الصفة الثالثة : قوله ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ وفيه مباحث :

(17/673)

البحث الأول : في هذه الآية سؤال وهو أن قوله ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ يصلح أن يكون نعتاً للنكرة ولا يصلح أن يكون نعتاً للمعرفة تقول مررت برجل شديد البطش ، ولا تقول مررت بعبد الله شديد البطش ، وقوله الله اسم علم فيكون معرفة فكيف يجوز وصفه بكونه شديد العقاب مع أنه لا يصلح إلا أن يجعل وصفاً للنكرة ؟ قالوا وهذا بخلاف قولنا غافر الذنب وقابل التوب لأنه ليس المراد منهما حدوث هذين الفعلين وأنه يغفر الذنب ويقبل التوبة الآن أو غداً ، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه ، فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش ، وأما ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ فمشكل لأنه في تقدير شديد عقابه فيكون نكرة فلا يصح جعله صفة للمعرفة ، وهذا تقرير السؤال وأجيب عنه بوجوه الأول : أن هذه الصفة وإن كانت نكرة إلا أنها لما ذكرت مع سائر الصفات التي هي معارف حسن ذكرها كما في

قوله ﴿ وَهُوَ الغفور الودود * ذُو العرش المجيد * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: 14 16]

والثاني: قال الزجاج إن خفض ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ على البدل، لأن جعل النكرة بدلاً من المعرفة وبالعكس أمر جائز، واعترضوا عليه بأن جعله وحده بدلاً من الصفات فيه نبوّة ظاهرة الثالث: أنه لا نزاع في أن قوله ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب ﴾ يحسن جعلهما صفة، وإنما كان كذلك لأنهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار، فكذلك قوله ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ يفيد معنى الدوام والاستمرار، لأن صفات الله تعالى منزّهة عن الحدوث والتجدد، فكونه ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ معناه كونه بحيث يشتد عقابه، وهذا المعنى حاصل أبداً، وغير موصوف بأنه حصل بعد أن لم يكن كذلك، فهذا ما قيل في هذا الباب.

(18/673)

البحث الثاني: هذه الآية مشعرة بترجيح جانب الرحمة والفضل، لأنه تعالى لما أراد أن يصف نفسه بأنه شديد العقاب ذكر قبله أمرين كل واحد منهما يقتضي زوال العقاب، وهو كونه غافر الذنب وقابل التوب وذكر بعده ما يدل على حصول الرحمة العظيمة، وهو قوله ﴿ ذِى الطول ﴾، فكونه شديد العقاب لما كان مسبوقاً بتينك الصفتين وملحوقاً بهذه

الصفة ، دل ذلك على أن جانب الرحمة والكرم أرجح .

البحث الثالث : لقائل أن يقول ذكر الواو في قوله ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب ﴾ ولم يذكرها في قوله ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ فما الفرق ؟ قلنا إنه لو لم يذكر الواو في قوله ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب ﴾ لاحتمل أن يقع في خاطر إنسان أنه لا معنى لكونه غافر الذنب إلا كونه قابل التوب ، أما لما ذكر الواو زال هذا الاحتمال ، لأن عطف الشيء على نفسه محال ، أما كونه شديد العقاب فمعلوم أنه مغاير لكونه ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب ﴾ فاستغنى به عن ذكر الواو .

(19/673)

الصفة الرابعة : ﴿ ذي الطول ﴾ أي ذي التفضل يقال طال علينا طولاً أي تفضل علينا تفضلاً ، ومن كلامهم طل علي بفضلك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أُوْلُواْ الطول مِنْهُمْ ﴾ [الزمر : 86] ومضى تفسيره عند قوله ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً ﴾ [النساء : 25] واعلم أنه لم يصف نفسه بكونه ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ لا بد وأن يكون المراد بكونه تعالى آتياً بالعقاب الشديد الذي لا يقبح منه إتيانه به ، بل لا يجوز وصفه تعالى بكونه آتياً لفعل القبيح ، وإذا ثبت هذا فنقول : ذكر بعده كونه ذا الطول وهو كونه ذا الفضل ، فيجب أن يكون معناه

كونه ذا الفضل بسبب أن يترك العقاب الذي له أن يفعله لأنه ذكر كونه ذا الطول ولم يبين أنه ذو الطول فيما ذا فوجب صرفه إلى كونه ذا الطول في الأمر الذي سبق ذكره ، وهو فعل العقاب الحسن دفعاً للإجمال ، وهذا يدل على أنه تعالى قد يترك العقاب الذي حسن منه تعالى فعله ، وذلك يدل على أن العفو عن أصحاب الكبائر جائز وهو المطلوب .

الصفة الخامسة : التوحيد المطلق وهو قوله ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ والمعنى أنه وصف نفسه بصفات الرحمة والفضل ، فلو كان معه إله آخر يشاركه ويساويه في صفة الرحمة والفضل لما كانت الحاجة إلى عبوديته شديدة ، أما إذا كان واحداً وليس له شريك ولا شبيه كانت الحاجة إلى الإقرار بعبوديته شديدة ، فكان الترغيب والترهيب الكاملان يحصلان بسبب هذا التوحيد .

(20/673)

الصفة السادسة : قوله ﴿ إِلَيْهِ المصير ﴾ وهذه الصفة أيضاً مما يقوي الرغبة في الإقرار بعبوديته ، لأنه بتقدير أن يكون موصوفاً بصفات الفضل والكرم وكان واحداً لا شريك له ، إلا أن القول بالحشر والنشر إن كان باطلاً لم يكن الخوف الشديد حاصلاً من عصيانه ، أما لما كان القول بالحشر والقيامة حاصلاً كان الخوف أشد والحذر أكمل ، فلهذا السبب ذكر

الله تعالى هذه الصفات ، واحتج أهل التشبيه بلفظة إلى ، وقالوا إنها تفيد انتهاء الغاية ، والجواب عنه مذكور في مواضع كثيرة من هذا الكتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 23.26 ﴾

(21/673)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ حم ﴾

اختلف في معناه ؛ فقال عكرمة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ﴿ حم ﴾ اسم من أسماء الله تعالى وهي مفاتيح خزائن ربك " قال ابن عباس : "حما" اسم الله الأعظم .

وعنه : "الار" و"حما" و"نا" حروف الرحمن مقطعة .

وعنه أيضاً : اسم من أسماء الله تعالى أقسم به .

وقال قتادة ؛ إنه اسم من أسماء القرآن .

مجاهد : فواتح السور .

وقال عطاء الخراساني : الحاء افتتاح اسمه حميدٌ وحنّانٌ وحليمٌ وحكيمٌ ، والميم افتتاح اسمه ملكٌ ومجيدٌ ومنّانٌ ومتكبرٌ ومصوّرٌ ؛ يدلّ عليه ما روى أنس " أن أعرابياً سأل النبي

صلى الله عليه وسلم : ما "حم" فإنا لا نعرفها في لساننا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "بدء أسماء وفواتح سور" " وقال الضحاك والكسائي : معناه قُضِي ما هو كائن .

كأنه أراد الإشارة إلى تهجي "حما" ؛ لأنها تصير حُمَّ بضم الحاء وتشديد الميم ؛ أي قُضِي ووَقَع .

قال كعب بن مالك :

فلمّا تَلاَقَيْنا ودارت بِنَا الرَّحى . . .

ولَيْسَ لأَمْرِ حمَّه الله مَدْفَعُ

وعنه أيضاً : إن المعنى حُمَّ أمر الله أي قرب ؛ كما قال الشاعر :

قد حُمَّ يومِي فسُرَّ قومٌ . . .

قومٌ بهم غَفْلَةٌ ونَومٌ

ومنه سمّيت الحُمَّى ؛ لأنها تقرّب من المنية .

والمعنى المراد قرب نصره لأوليائه ، وانتقامه من أعدائه كيوم بدر .

وقيل : حروف هجاء ؛ قال الجرمي : ولهذا تقرأ ساكنة الحروف فخرجت مخرج التهجي ، وإذا سميّت سورة بشيء من هذه الحروف أعربت ؛ فتقول قرأت "حام" فتنصب ؛ قال الشاعر :

يُذَكِّرني حاميمَ والرُّمحُ شاجِرٌ . . .

فهلاَّ تلا حاميمَ قَبْلَ التَّقدُّمِ

وقرأ عيسى بن عمر الثقفي : "حام" بفتح الميم على معنى اقرأ حم أو لالتقاء الساكنين .

ابن أبي إسحاق وأبو السَّمَّال بكسرها .

والإمالة والكسر لالتقاء الساكنين ، أو على وجه القسم .

وقرأ أبو جعفر بقطع الحاء من الميم .

الباقون بالوصل .

وكذلك في "حام .

عسقا" .

(22/673)

وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان بالإمالة في الحاء .

وروي عن أبي عمرو بين اللفظين وهي قراءة نافع وأبي جعفر وشيبة .

الباقون بالفتح مشبعاً .

قوله تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ ابتداء والخبر ﴿ مِنَ الله العزيز العليم ﴾ .

ويجوز أن يكون "تَنْزِيلُ" خبرا لمبتدأ محذوف ؛ أي هذا "تَنْزِيلُ الْكِتَابِ" .

ويجوز أن يكون "حما" مبتدأ و"تَنْزِيلُ" خبره والمعنى : أن القرآن أنزله الله وليس منقولاً ولا مما يجوز أن يكذّب به .

قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ﴾ قال الفراء : جعلها كالنعت للمعرفة وهي نكرة .

وقال الزجاج : هي خفض على البدل .

النحاس : وتحقيق الكلام في هذا وتلخيصه أن "غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ" يجوز أن يكونا معرفتين على أنهما لما مضى فيكونا نعتين ، ويجوز أن يكونا للمستقبل والحال فيكونا نكرتين ولا يجوز أن يكونا نعتين على هذا ولكن يكون خفضهما على البدل ، ويجوز النصب على الحال ، فأما "شَدِيدِ الْعِقَابِ" فهو نكرة ويكون خفضه على البدل .

قال ابن عباس : "غَافِرِ الذَّنْبِ" لمن قال : "لاَ إله إلاَّ الله" "وَقَابِلِ التَّوْبِ" ممن قال : "لاَ إله إلاَّ الله" "شَدِيدِ الْعِقَابِ" لمن لم يقل : "لاَ إله إلاَّ الله" .

وقال ثابت البُنَاني : كنت إلى سرادق مُصْعَب بن الزبير في مكان لا تمر فيه الدواب ، قال : فاستفتحت ﴿ حم* تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم ﴾ فمر عليّ رجل على دابة فلما قلت "غَافِرِ الذَّنْبِ" قال : قل يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي ، فلما قلت : "قَابِلِ التَّوْبِ" قال : قل يا قابل التوب تقبل توبتي ، فلما قلت : "شَدِيدِ الْعِقَابِ" قال : قل يا شديد العقاب

اعف عني ، فلما قلت : "ذِي الطَّوْلِ" قال : قل يا ذا الطول طُلْ عليّ بخير ؛ فقمت إليه فَأُخِذَ ببصري ، فالتفت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً .

(23/673)

وقال أهل الإشارة : "غَافِرِ الذَّنْبِ" فضلاً "وَقَابِلِ التَّوْبِ" وعداً "شَدِيدِ الْعِقَابِ" عدلاً "لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ" فرداً .

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام ؛ فقيل له : تتابع في هذا الشراب ؛ فقال عمر لكاتبه : اكتب من عمر إلى فلان ، سلام عليك ، وأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ حم * تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم * غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِي الطول لاَ إله إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المصير ﴾ ثم ختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً ، ثم أمر مَن عنده بالدعاء له بالتوبة ، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول : قد وعدني الله أن يغفر لي ، وحذّرني عقابه ، فلم يبرح يردّدها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته .

فلما بلغ عمر أمرُه قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم قد زلّ زلّة فسدّدوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه .

و"التَّوْب" يجوز أن يكون مصدر تاب يتوب توباً ، ويحتمل أن يكون جمع توبة نحو دَوْمَة ودَوْم وعَزْمة وعَزْم ؛ ومنه قوله :

فَيَخْبو ساعَةً ويَهُبُّ ساعا . . .

ويجوز أن يكون التوب بمعنى التوبة .

قال أبو العباس : والذي يسبق إلى قلبي أن يكون مصدراً ؛ أي يقبل هذا الفعل ، كما تقول قال قولاً ، وإذا كان جمعاً فمعناه يقبل التوبات .

﴿ ذِي الطول ﴾ على البدل وعلى النعت ؛ لأنه معرفة .

وأصل الطول الإنعام والتفضل يقال منه : اللهم طُلْ علينا أي أنعم وتفضل .

قال ابن عباس : "ذِي الطَّوْلِ" ذي النعم .

وقال مجاهد : ذي الغنى والسعة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً ﴾ [النساء : 25] أي غنى وسعة .

وعن ابن عباس أيضاً : "ذِي الطَّوْلِ" ذي الغنى عمن لا يقول لا إله إلا الله .

(24/673)

وقال عكرمة : ﴿ ذِي الطول ﴾ ذي المنّ .

قال الجوهري : والطَّوْل بالفتح المنّ ؛ يقال منه طال عليه وتطوّل عليه إذا امتن عليه .

وقال محمد بن كعب : "ذِي الطَّوْلِ" ذي التفضل ؛ قال الماوردي : والفرق بين المنّ والتفضل أن المنّ عفو عن ذنب .

والتفضل إحسان غير مستحقّ .

والطول مأخوذ من الطول كأنه طال بإنعامه على غيره .

وقيل : لأنه طالت مدّة إنعامه .

﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المصير ﴾ أي المرجع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(25/673)

وقال الآلوسى :

﴿ حم ﴾ بتفخيم الألف وتسكين الميم ، وقرأ ابن عامر برواية ذكوان ، وحمزة .

والكسائي .

وأبو بكر بالإمالة الصريحة ، ونافع برواية ورش .

وأبو عمرو بالإمالة بين بين ، وقرأ ابن أبي إسحاق .

وعيسى بفتح الميم على التحريك لالتقاء الساكنين بالفتحة للخفة كما في أين وكيف ، وجوز أن يكون ذلك نصباً بإضمار اقرأ ومنع من الصرف للعلمية والتأنيث لأنه بمعنى السورة أو للعلمية وشبه العجمة لأن فاعيل ليس من أوزان أبنية العرب وإنما وجد ذلك في لغة العجم كقابيل وهابيل ، ونقل هذا عن سيبويه .

وفي "الكشف" أن الأولى أن يعلل بالتعريف والتركيب .

وقرأ أبو السمال بكسر الميم على أصل التقاء الساكنين كما في جيز : والزهري برفعها والظاهر أنه إعراب فهو إما مبتدأ أو خبر مبتدأ محذوف ، والكلام في المراد به كالكلام في نظائره ، ويجمع على حواميم وحاميمات أما الثاني فقد أنشد فيه ابن عساكر في تاريخه :

هذا رسول الله في الخيرات . . .

جاء بياسين وحاميمات

وأما الأول فقد تقدم عدة أخبار فيه ولا أظن أن أحداً ينكر صحة جميعها أو يزعم أن لفظ حواميم فيها من تحريف الرواة الأعاجم ؛ وأيضاً أنشد أبو عبيدة :

حلفت بالسبع الالى تطولت . . .

وبمئين بعدها قد أمئيت

وبثمان ثنيت وكررت . . .

وبالطواسين اللواتي تليت

وبالحواميم اللواتي سبعت . . .

وبالمفصل التي قد فصلت

وذهب الجواليقي .

والحريري .

وابن الجوزي إلى أنه لا يقال حواميم ، وفي "الصحاح" عن الفراء أن قول العامة الحواميم ليس من كلام العرب ، وحكى صاحب زاد المسير عن شيخه أبي منصور اللغوي أن من الخطأ أن تقول : قرأت الحواميم والصواب أن تقول قرأت آل حم ، وفي حديث ابن مسعود إذا وقعت في آل حم فقد وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن ، وعلى هذا قول الكميت بن زيد في الهاشميات :

وجدنا لكم في آل حم آية . . .

تأولها منا تقي ومعرب

والطواسين والطواسيم بالميم بدل النون كذلك عندهم ، وما سمعت يكفي في ردهم .

(26/673)

نعم ما قالوه مسموع مقبول كالذي قلناه لكن ينبغي أن يعلم أن آل في قولهم آل حم كما قال الخفاجي ليس بمعنى الآل المشهور وهو الأهل بل هو لفظ يذكر قبل ما لا يصح تثنيته وجمعه من الأسماء المركبة ونحوها كتأبط شراً فإذا أرادوا تثنيته أو جمعه وهو جملة لا يتأتى فيها ذلك إذ لم يعهد مثله في كلام العرب زادوا قبله لفظة آل أو ذوا فيقال : جاءني آل تابط شراً أو ذواتاً بط شراً أي الرجلان أو الرجال المسمون بهذا الاسم ، فآل حم بمعنى الحواميم وآل بمعنى ذو ، والمراد به ما يطلق عليه ويستعمل فيه هذا اللفظ وهو مجاز عن الصحبة المعنوية ، وفي كلام الرضى وغيره إشارة إلى هذا إلا أنهم لم يصرحوا بتفسيره فعليك بحفظه ، وحكي في الكشف أن الأولى أن يجمع بذوات حم أي دون حواميم أو حاميمات ومعناه السور المصحوبات بهذا اللفظ اعني حم .

﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم ﴾ الكلام فيه إعراباً كالكلام في مطلع سورة الزمر بيد أنه يجوز هنا أن يكون ﴿ تَنزِيلَ ﴾ خبراً عن ﴿ حم ﴾ ولعل تخصيص الوصفين لما في القرآن الجليل من الإعجاز وأنواع العلوم التي يضيق عن الإحاطة بها نطاق الأفهام أو هو على نحو تخصيص الوصفين فيما سبق فإن شأن البليغ عمله بالأشياء أن يكون حكيماً إلا أنه قيل ﴿ العليم ﴾ دون الحكيم تفننا

﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِى الطول ﴾ صفات للاسم الجليل كالعزيز العليم ، وذكر ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب وَذِى الطول ﴾ للترغيب وذكر ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ للترهيب والمجموع للحث على المقصود من ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ [غافر : 2] وهو المذكور بعد من التوحيد والإيمان بالبعث المستلزم للإيمان بما سواهما والإقبال على الله تعالى ، والأولان منها وان كانا اسمي فاعل إلا أنهما لم يرد بهما التجدد ولا التقييد بزمان بل أريد بهما الثبوت والاستمرار فاضافتهما للمعرفة بعدهما محضة اكسبتهما تعريفاً فصح أن يوصف بهما أعرف المعارف ، والأمر في ﴿ ذِى الطول ﴾ ظاهر جداً .

(28/673)

نعم الأمر في ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ مشكل فإن شديداً صفة مشبهة وقد نص سيبويه على أن كل ما إضافته غير محضة إذا أضيف إلى معرفة جاز أن ينوي بإضافته التمحض فيتعرف وينعت به المعرفة إلا ما كان من باب الصفة المشبهة فإنه لا يتعرف ومن هنا ذهب الزجاج إلى أن ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ بدل ، ويرد عليه أن في توسيط البدل بين الصفات تنافراً بينا لأن الوصف يؤذن بأن الموصوف مقصود والبدل بخلافه فيكون بمنزلة استئناف

القصد بعد ما جعل غير مقصود ، والجواب أنه إنما يشكل ظاهراً على مذهب سيبويه وسائر البصريين القائلين بأن الصفة المشبهة لا تتعرف أصلاً بالإضافة إلى المعرفة ، وأما على مذهب الكوفيين القائلين بأنها كغيرها من الصفات قد تتعرف بالإضافة ويجوز وصف المعرفة بها نحو مررت بزيد حسن الوجه فلا ، ويقال فيما ذكر على المذهب الأول : إن ﴿ شَدِيداً ﴾ مؤول بمشدد اسم فاعل من أشده جعله شديداً كاذين بمعنى مؤذن فيعطي حكمه ، أو يقال : إنه معرف بال والأصل الشديد عقابه لكن حذفت لأمن اللبس بغير الصفة لوقوعه بين الصفات واحتمال كونه بدلاً وحده لا يلتفت على ما سمعت إليه ورعاية لمشاكلة ما معه من الأوصاف المجردة منها والمقدر في حكم الموجود ، وقد غيروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل المشاكلة حتى قالوا : ما يعرف سحادليه من عنادليه أرادوا ما يعرف ذكره من أنثييه فثنوا ما هو وتر لأجل ما هو شفع ، وجوز كون جميع التوابع المذكورات أبدالاً وتعمد تنكير ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار .

(29/673)

وفي الكشف جعل كلها أبدالاً فيه تنافر عظيم لا سيما في إبدال ﴿ العزيز ﴾ من ﴿ الله ﴾ الاسم الجامع لسائر الصفات العلم النص وأين هذا من براعة الاستهلال ؟ وذهب مكي إلى جوز كون ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب ﴾ دون ما قبلهما بدلين وانهما حئنئذ نكرتان ، وقد علمت ما فيه مما تقدم ، وقال أبو حيان : إن بدل البداء عند من أثبته قد يتكرر وأما بدل كل من كل وبدل بعض من كل وبدل اشتمال فلا نص عن أحد من النحويين أعرفه في جواز التكرار فيها أو منعه إلا أن في كلام بعض أصحابنا ما يدل على أن البدل من البدل جائز دون تعدد البدل واتحاد المبدل منه ، وظاهر كلام الخفاجي أن النحاة صرحوا بجواز تعدده حيث قال : لا يرد على القول الإبدال قلة البدل في المشتقات ، ولا أن النكرة لا تبدل من المعرفة ما لم توصف ، ولا أن تعدد البدل لم يذكره النحاة كما قيل لأن النحاة صرحوا بخلافه في الجميع ، وللدماميني فيه كلام طويل الذيل في أول شرح الخزرجية لا يسعه هذا المقام فإن أردته فانظر فيه انتهى .

(30/673)

وعندي أن الإبدال هنا ليس بشيء كلا أو بعضاً ، و ﴿ التوب ﴾ يحتمل أن يكون مصدراً كالأوب بمعنى الرجوع ويحتمل أن يكون اسم جمع لتوبة كتمر وتمره ، و ﴿ الطول ﴾ الفضل

بالثواب والأنعام أو بذلك وبترك العقاب المستحق كما قيل وهو أولى من تخصيصه بترك العقاب وإن وقع بعد "شديد العقاب" وكون الثواب موعوداً فصار كالواجب فلا يكون فضلاً ليس بشيء فإن الوعد به ليس بواجب ، وفسره ابن عباس بالسعة والغني ، وقتادة بالنعم ، وابن زيد بالقدرة ، وتوسيط الواو بين "غافر الذنب وقابل التوب" لإفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين أن يقبل سبحانه توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات وأن يجعلها مجاءة للذنب كأنه لم يذنب كأنه قيل : جامع المغفرة والقبول قاله الزمخشري ، ووجه كما في الكشف أنها صفات متعاقبة بدون الواو دالة على معنى الجمع المطلق من مجرد الاجراء فإذا خصت بالواو احدى القرائن دل على أن المراد المعتبر فيها وفيما تقدمها خاصة صوناً لكلام البليغ عن الالغاء ، ففي الواو هنا الدلالة على أنه سبحانه جامع بين الغفران وقبول التوب للتائب خاصة ، ولا ينافي ذلك أنه عز وجل قد يغفر لمن لم يتب ، وما قيل : إن التوسيط يدل على أن المعنى كما أخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن غافر الذنب لمن لم يتب وقابل التوب لمن تاب فغير مسلم ، والتغاير الذي يذكرونه بين موقع الفعلين وهما غفران الذنب وقبول التوبة عنه المقتضى لكون الغفران بالنسبة إلى قوم والقبول بالنسبة إلى آخرين إذ جعلوا موقع الأول الذنب الباقي في الصحائف من غير مؤاخذة وموقع الثاني الذنب الزائل الممحو عنها حاصل مع الإجراء فلا مدخل للواو ، ثم ما ذكر من الوجه السابق جار على أصلي أهل السنة والمعتزلة فلا وجه لرده بما ليس بقادح وإيثار ما هو

مرجوح ، وتقديم الغافر على القابل من باب تقديم التخلية على التحلية فافهم .

وفي القطع بقبول توبة العاصي قولان لأهل السنة .

(31/673)

وفي البحر الظاهر من الآية أن توبة العاصي بغير الكفر كتوبة العاصي به مقطوع بقبولها ، وفي توحيد صفة العذاب مغمورة بصفاته تعالى الدالة على الرحمة دليل على زيادة الرحمة وسبقها فسبحانه من إله ما أرحمه وأكرمه ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ فيجب الإقبال الكلي على طاعته في أوامره ونواهيه ﴿ إِلَيْهِ المصير ﴾ فحسب لا إلى غيره تعالى لا استقلالاً ولا اشتراكاً فيجازي كلا من المطيع والعاصي ، وجملة ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ مستأنفة أو حالية ، وقيل : صفة لله تعالى أو لشديد العقاب ، وفي الآيات مما يقتضي الاتعاظ ما فيها .

أخرج عبد بن حميد عن يزيد بن الأصم أن رجلاً كان ذا بأس وكان من أهل الشام وأن عمر رضي الله تعالى عنه فقده فسأل عنه فقيل له : تتابع في الشراب فدعا عمر كاتبه فقال له : اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم ﴾ إلى قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إِلَيْهِ المصير ﴾ وختم الكتاب ، وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده ماحياً ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته

الصحيفة جعل يقرؤها ويقول : قد وعدني ربي أن يغفر لي وحذرني عقابه فلم يبرح يرددها على نفسه حتى بكي ثم نزع فأحسن النزوع فلما بلغ عمر توبته قال : هكذا فافعلوا إذا رأيتم أخاكم قد زل زلة فسددوه ووقفوه وادعوا الله تعالى أن يتوب عليه ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(32/673)

وقال ابن عاشور :

﴿ حم (1) ﴾

القول فيه كالقول في نظائره من الحروف المقطّعة في أوائل السور ، وأن معظمها وقع بعده ذكر القرآن وما يشير إليهِ لتحدّي المنكرين بالعجز عن معارضته .

وقد مضى ذلك في أول سورة البقرة وذكرنا هنالك أن الحروف التي أسماؤها ممدودة الآخِر يُنطق بها في هذه الفواتح مقصورة بحذف الهمزة تخفيفاً لأنها في حالة الوقف مثل اسم (حا) في هذه السورة واسم (را) في (أَلر) واسم (يا) في (يس) .

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2)

القول فيه كالقول في فاتحة سورة الزمر .

ويُزاد هنا أن المقصود بتوجيه هذا الخبر هم المشركون المنكرون أن القرآن منزل من عند الله .

فتجريد الخبر عن المؤكد إخراج له على خلاف مقتضى الظاهر بجعل المنكِر كغير المنكر لأنه يحف به من الأدلة ما إنْ تَأَمَّلَه ارتدع عن إنكاره فما كان من حقه أن ينكر ذلك .

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

أجريت على اسم الله ستة نعوت معارفُ ، بعضُها بحرف التعريف وبعضها بالإضافة إلى معرّف بالحرف .

ووصْفُ الله بوصفي ﴿ العَزِيزِ العَلِيم ﴾ [غافر : 2] هنا تعريض بأن منكري تنزيل الكتاب منه مغلوبون مقهورون ، وبأن الله يعلم ما تكنّه نفوسهم فهو محاسبهم على ذلك ، ورَمْزٌ إلى أن القرآن كلام العزيز العليم فلا يقدر غير الله على مثله ولا يعلم غير الله أن يأتي بمثله .

وهذا وجه المخالفة بين هذه الآية ونظيرتها من أول سورة الزمر التي جاء فيها وصف ﴿ العَزِيزِ الحكيم ﴾ [الزمر : 1] على أنه يتأتى في الوصف بالعلم ما تأَتَّى في بعض احتمالات وصف ﴿ الحكيم في سورة الزمر .

ويتأتى في الوصفين أيضاً ما تَأَتَّى هنالك من طريقي إعجاز القرآن .

وفي ذكرهما رمز إلى أن الله أعلم حيث يجعل رسالَته وأنه لا يجاري أهواء الناس فيمن يرشحونه لذلك من كبرائهم ﴿ وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] .

وفي إتْباع الوصفين العظيمين بأوصاف ﴿ غافر الذنب وقَابِل التَّوْب شَديد العِقاب ذِي الطَّول ﴾ ترشيح لذلك التعريضِ كأنه يقول : إن كنتم أذنبتم بالكفر بالقرآن فإن تدارك ذنبكم في مكنتكم لأن الله مقرَّر اتصافه بقبول التوبة وبغفران الذنب فكما غفر لمن تابوا من الأمم فقبل إيمانهم يغفر لمن يتوب منكم .

وتقديم ﴿ غافر ﴾ على ﴿ قابل التوب ﴾ مع أنه مرتب عليه في الحصول للاهتمام بتعجيل الإعلام به لمن استعدّ لتدارك أمره فوصفُ ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ تعريض بالترغيب ، وصِفتا ﴿ شَدِيد العقاب ذِي الطَّول ﴾ تعريض بالترهيب .

والتوبُ : مصدر تاب ، والتوب بالمثناة والثوب بالمثلثة والأَوْب كلها بمعنى الرجوع ، أي الرجوع إلى أمر الله وامتثاله بعد الابتعاد عنه .

وإنما عطفت صفة ﴿ وقَابِل التَّوْب ﴾ بالواو على صفة ﴿ غَافِر الذنب ﴾ ولم تُفْصَل كما فُصِلت صفتا ﴿ العليمِ ﴾ [غافر : 2] ﴿ غافرِ الذنب ﴾ وصفة ﴿ شديد العقاب ﴾ إشارة إلى نكتة جليلة وهي إفادة أن يجمَع للمذنب التائب بين رحمتين بين أن

يقبل توبته فيجعلها له طاعة ، وبين أن يمحو عنه بها الذنوب التي تاب منها وندِم على فعلها ، فيصبحَ كأنه لم يفعلها .

وهذا فضل من الله .

وقوله : ﴿ شديد العقاب ﴾ إفضاء بصريح الوعيد على التكذيب بالقرآن لأن مجيئه بعد قوله : ﴿ تنزيلُ الكِتَاب مِن الله ﴾ [غافر : 2] يفيد أنه المقصود من هذا الكلام بواسطة دلالة مستتبعات التراكيب .

(34/673)

والمراد بغافر ﴾ و ﴿ قابل ﴾ أنه موصوف بمدلوليهما فيما مضى إذ ليس المراد أنه سيغفر وسيقبل ، فاسم الفاعل فيهما مقطوع عن مشابهة الفعل ، وهو غير عامل عمَل الفعل ، فلذلك يكتسِبُ التعريف بالإِضافة التي تزيد تقريبه من الأسماء ، وهو المحمل الذي لا يناسب غيرُهُ هنا .

و ﴿ التوب ﴾ صفة مشبَّهة مضافة لفاعلها ، وقد وقعت نعتاً لاسم الجلالة اعتداداً بأن التعريف الداخل عَلى فاعل الصفة يقوم مقام تعريف الصفة فلم يخالَف ما هو المعروف في الكلام من اتحاد النعت والمنعوت في التعريف واكتساب الصفة المشبهة التعريفَ بالإِضافة

هو قول نحاة الكوفة طرداً لباب التعريف بالإضافة ، وسيبَويه يجوز اكتساب الصفات المضافةِ التعريفَ بالإِضافة إلاّ الصفة المشبهة لأن إضافتها إنما هي لفاعلها في المعنى لأن أصل ما تضاف إليه الصفة المشبهة أنه كان فاعلاً فكانت إضافتها إليه مجرد تخفيف لفظي والخطب سهل .

والطوْل يطلق على سعة الفضل وسعة المال ، ويطلق على مطلق القدرة كما في "القاموس" ، وظاهرُه الإِطلاقُ وأقره في "تاج العروس" وجعله من معنى هذه الآية ، ووقوعُه مع ﴿ شديد العقاب ﴾ ومزاوجتها بوصفي ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ ليشير إلى التخويف بعذاب الآخرة من وصف ﴿ شديد العِقَاب ﴾ ، وبعذاب الدنيا من وصف ﴿ ذِي الطَّوْل ﴾ كقوله : ﴿ أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾ [الزخرف : 42] ، وقوله : ﴿ قل إن اللَّه قادر على أن ينزل آية ﴾ [الأنعام : 37] .

وأعقب ذلك بما يدل على الوحدانية وبأن المصير ، أي المرجع إليه تسجيلاً لبطلان الشرك وإفساداً لإِحالتهم البعث .

j

فجملة ﴿ لا إله إلاَّ هو ﴾ في موضع الصفة ، وأتبع ذلك بجملة ﴿ إليه المَصِير ﴾ إنذاراً بالبعث والجزاء لأنه لما أجريت صفات ﴿ غَافِرِ الذَّنب وقَابِلِ التَّوبِ شَدِيد العِقَاب ﴾ أثير في الكلام الإِطماعُ والتخويفُ فكان حقيقاً بأن يشعروا بأن المصير إما إلى ثوابه وإما إلى عقابه فليزنوا أنفسهم ليضعوها حيث يلوح من حالهم .

وتقديم المجرور في ﴿ إليه المَصِيرُ ﴾ للاهتمام وللرعاية على الفاصلة بحرفين : حرف لين ، وحرف صحيح مثل : العليم ، والبلاد ، وعقاب .

وقد اشتملت فاتحة هذه السورة على ما يشير إلى جوامع أغراضها ويناسب الخوض في تكذيب المشركين بالقرآن ويشير إلى أنهم قد اعتزوا بقوتهم ومكانتهم وأن ذلك زائل عنهم كما زال عن أمم أشد منهم ، فاستوفت هذه الفاتحة كمال ما يطلب في فواتح الأغراض مما يسمى براعة المطلع أو براعة الاستهلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(36/673)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة المؤمن

قوله جل ذكره (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة من تحقق بها شرف من الحق مناله ، وصفت عنده أحواله ، وخلع على نفسه رداء الأفضال ، وألبس قلبه جلال الإقبال ، وأفرد روحه بروح لطف الجمال ، واستخلص سره بكشف وصف الجلال .

قوله جل ذكره (حم)

أي حُمَّ أمرٌ كائن . ويقال " الحاء " إشارة إلى حِلْمِه " والميم " إشارة إلى مجده أي : بحِلْمي ومجدي لا أُخَلِّدُ في النار مَنْ آمنَ بي .

ويقال هذه الحروف مفاتح أسمائه .

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2)

" العزيز " : المُعزِّ لأوليائه ، " العليم " بما كان ويكون منهم ، فلا يمنعه عِلمُه لما سَلَفَ منهم عن قضائه .

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

كتابٌ مُعَنْوَنٌ بقبول توبته لِعبادَه ؛ عَلِمَ أنّ العاصيَ مُنكَسِرُ القلبِ فأزال عنه الانكسارَ بأن قدَّمَ نصيبه ، فقدَّم اسمَه على قبول التوبة . فَسَكَّنَ نفوسَهم وقلوبَهم باسْمَيْنِ يُوجِبَان الرجاء ؛ وهما قولُه : ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ .

ثم عقبها بقوله : ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ ثم لم يرض حتى قال بعدئذٍ ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ .

فيُقَابِلَ قوْلَه : ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ قَوْلُه : ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ .

ويقال : غافرُ الذنبِ لِمَنْ اصرَّ واجْتَرَمَ ، وقابلُ التوبِ لمن أقرَّ وندِمَ ، شديد العقابِ لِمَنْ جَحَدَ وعَنَدَ ، ذِي الطول لمن عَرَفَ ووَحَد .

ويقال غافر الذنب للظالمين ، وقابل التوب للمقتصدين ، شديد العقاب للمشركين ، ذي الطول للسابقين .

ويقال : سُنَّةُ الله انه إذا خَوَّفَ العبادَ باسمٍ أو لفظٍ تدَارَكَ قلوبهم بأن يُبشِّرَهم باسْمَيْن أو بوَصْفين .

﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ : وإذا كان إليه المصير فقد طاب إليه المسير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 294.295 ﴾

(37/673)

قوله تعالى ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (4) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (5) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تبين ما للقرآن من البيان الجامع بحسب نزوله جواباً لما يعرض لهم من الشبه ، فدل بإزاحته كل علة عى ما وصف سبحانه به نفسه المقدس من العزة والعلم بياناً لا خفاء في شيء منه ، أنتج قول ذماً لمن يريد إبطاله وإخفاءه : ﴿ ما يجادل ﴾ أي يخاصم ويماري ويريد أن يفتل الأمور إلى مراده ﴿ في آيات ﴾ وأظهر موضع الإضمار تعظيماً للآيات فقال : ﴿ الله ﴾ أي في إبطال أنوار الملك الأعظم المحيط بصفات الكمال الدالة كالشمس على أنه إليه المصير ، بأن يغش نفسه بالشك في ذلك لشبه يميل معها ، أو غيره بالتشكيك له ، أو في شيء غير ذلك مما أخبر به تعالى ﴿ إلا الذين كفروا ﴾ أي غطوا مرائي عقولهم وأنوار بصائرهم لبساً على أنفسهم وتلبيساً على غيرهم .

ولما ثبت أن الحشر لا بد منه ، وأن الله تعالى قادر كل قدرة لأنه لا شريك له وهو محيط بجميع أوصاف الكمال ، تسبب عن ذلك قوله : ﴿ فلا يغررك تقلبهم ﴾ أي تنقلهم بالتجارات والفوائد والجيوش والعساكر وإقبال الدنيا عليهم ﴿ في البلاد ﴾ فإنه لا يكون التفعل بالقلب إلا عن قهر وغلبة ، فتظن لإمهالنا إياهم أنهم على حق ، أو أن أحداً يحميهم

علينا ، فلا بد من صيرورتهم عن قريب إلينا صاغرين داخرين ، وتأخيرهم إنما هو ليبلغ الكتاب أجله .

(38/673)

ولما نهى عن الاغترار بما لا قوة لاحد على صرفه من نفسه إلا بتأييد من الله ، علله بما يحقق معنى النهي من أن التقلب وما يثمره لا يصح أن يكون معتمداً ليزهد فيه كل من سمع هاتين الآيتين ، فقال مشيراً بتأنيث الفعل إلى ضعفهم عن المقاومة ، وتلاشيهم عند المصادمة ، وإن كانوا في غاية القوة بالنسبة إلى أبناء جنسهم : ﴿ كذبت ﴾ ولما كان تكذيبهم عظيماً وكان زمانه قديماً وما قبله من الزمان قليلاً بالنسبة إلى ما بعده وطال البلاء بهم ، جعل مستغرقاً بجميع الزمان ، فقال من غير خافض : ﴿ قبلهم ﴾ ولما كان الناس على زمن نوح عليه السلام حزباً واحداً مجتمعين على أمر واحد ولسان جامع ، وحدهم فقال : ﴿ قوم نوح ﴾ أي وقد كانوا في غاية القوة والقدرة على القيام بما يحاولونه وكانوا حزباً واحداً لم يفرقهم شيء .

ولما كان الناس من بعدهم قد كثروا وفرقهم اختلاف الألسنة والأديان ، وكان للاجمال من الروع في بعض المواطن ما ليس للتفصيل قال : ﴿ والأحزاب ﴾ أي الأمم المتفرقة الذين لا

يحصون عدداً ، ودل على قرب زمان الكفر من الإنجاء من الغرق بقوله : ﴿ من بعدهم ﴾ .

ولما كان التذكيب وحده كافياً في الأذى ، دل على أنهم زادوا عليه بالمبالغة في المناصبة بالمعاندة ، وقدم قصد الإهلاك لأنه أول ما يريده العدو فإن عجز عنه نزل إلى ما دونه فقال : ﴿ وهمَّت كل أمة ﴾ أي من الأحزاب المذكورين ﴿ برسولهم ﴾ أي الذي أرسلناه إليهم . ولما كان الأخذ يعبر عنه عن الغلبة والقهر والاستصغار مع الغضب قال : ﴿ ليأخذوه ﴾ ولما كان سوق الكلام هكذا دالاً على أنهم عجزوا عن الأخذ ، ذكر أنهم بذلوا جهدهم في المغالبة بغيره ، فقال حاذفاً للمفعول تعميماً : ﴿ وجادلوا بالباطل ﴾ أي الأمر الذي لا حقيقة له ، وليس له من ذاته إلا الزوال ، كما تفعل قريش ومن انضوى إليهم من العرب ، ثم بين علة مجادلتهم فقال : ﴿ ليدحضوا ﴾ أي ليزلقوا فيزيلوا ﴿ به الحق ﴾ أي الثابت ثباتاً لا حيلة في إزالته .

(39/673)

ولما كان من المعلوم لكل ذي لب أن فاعل ذلك مغلوب ، وأن فعله مسبب لغضب المرسل عليه ، قال صارفاً القول إلى المتكلم دفعاً للالباس ، وإشارة إلى شدة الغضب وجرده عن

مظهر العظمة استصغاراً لهم : ﴿ فأخذتهم ﴾ أي أهلكتهم وهم صاغرون غضباً عليهم وإهانة لهم .

ولما كان أخذه عظيماً ، دل على عظمته بأنه أهل لأن يسأل عن حاله لزيادة عظمتها في قوة بطشها وسرعة إهلاكها وخرقها للعوائد فقال : ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ ومن نظر ديارهم وتقرى آثارهم وقف على بعض ما أشرنا إليه ونبهنا عليه ، وحذف ياء المتكلم إشارة إلى أن أدنى من عذابه بأدنى نسبة كاف في المراد وإن كان المعذب جميع العباد .

ولما كان التقدير : فحقت عليهم كلمة الله لأخذهم على هذا الجدال إنهم أصحاب النار التي جادلوا فيها ، عطف عليه قوله : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ما حقت عليهم كلمتنا بالأخذ ، فلم يقدروا على التفصي من حقوقها ﴿ حقت ﴾ بالأخذ والنكال ﴿ كلمت ﴾ وصرف الكلام إلى صفة الإحسان تلطفاً به ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبشارة له بالرفق بقومه فقال : ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك بجميع أنواع الإحسان فهو لا يدع أعداءك .

ولما كان السياق للمجادلة بالباطل وهي فتل الخصم من اعتقاده الحق ، وذلك تغطية للدليل الحق وتلبيس ، كان الحال أحق بالتعبير بالكفر الذي معناه التغطية فلذا قال تعالى : ﴿ على الذين كفروا ﴾ أي أوقعوا الكفر وقتاً ما كلهم سواء هؤلاء العرب وغيرهم ، لأن علة الإهلاك واحدة ، وهي التكذيب الدال على أن من تلبس به مخلوق للنار ، ثم أبدل من

" الكلمة " فقال : ﴿ أنهم أصحاب النار ﴾ أي من كفر في حين من الأحيان فهو مستحق للنار في الأخرى كما أنه مستحق للأخذ في الدنيا لا يبالي الله به بالة ، فمن تداركته الرحمة بالتوبة ، ومن أوبقته اللعنة بالإصرار هلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 487.485 ﴾

(40/673)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما قرر أن القرآن كتاب أنزله ليهتدى به في الدين ذكر أحوال من يجادل لغرض إبطاله وإخفاء أمره فقال : ﴿ مَا يجادل فِى ءايات الله إِلاَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن الجدال نوعان جدال في تقرير الحق وجدال في تقرير الباطل ، أما الجدال في تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم

﴿ وجادلهم بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النمل : 125] وقال حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام ﴿ يا نوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ [هود : 32] وأما الجدال في

تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية حيث قال : ﴿ مَا يجادل فِى ءايات الله إِلاَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ وقال : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاَ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف : 58] وقال : ﴿ وجادلوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : " إن جدالاً في القرآن كفر " فقوله إن جدالاً على لفظ التنكير يدل على التمييز بين جدال لأجل تقريره والذب عنه ، قال صلى الله عليه وسلم : " إن جدالاً في القرآن كفر " وقال : " لا تماروا في القرآن فإن المراء فيه كفر " .

المسألة الثانية :

الجدال في آيات الله هو أن يقال مرة إنه سحر ومرة إنه شعر ومرة إنه قول الكهنة ومرة أساطير الأولين ومرة إنما يعلمه بشر ، وأشباه هذا مما كانوا يقولونه من الشبهات الباطلة فذكر تعالى أنه لا يفعل هذا إلا الذين كفروا وأعرضوا عن الحق .

(41/673)

ثم قال تعالى : ﴿ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البلاد ﴾ أي لا ينبغي أن تغتر بأني أمهلهم وأتركهم سالمين في أبدانهم وأموالهم يتقلبون في البلاد أي يتصرفون للتجارات وطلب المعاش ، فإني وإن أمهلتهم فإني سآخذهم وأنتقم منهم كما فعلت بأشكالهم من الأمم الماضية ، وكانت

قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن ولهم الأموال الكثيرة يتجرون فيها ويربحون ، ثم كشف عن هذا المعنى فقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ والأحزاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ فذكر من أولئك المكذبين قوم نوح والأحزاب من بعدهم أي الأمم المستمرة على الكفر كقوم عاد وثمود وغيرهم ، كما قال في سورة ص [12 ، 13] ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وفِرْعَوْنُ ذُو الأوتاد * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وأصحاب الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأحزاب ﴾ وقوله ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أي وعزمت كل أمة من هؤلاء الأحزاب أن يأخذوا رسولهم ليقتلوه ويعذبوه ويحبسوه ﴿ وجادلوا بالباطل ﴾ أي هؤلاء جادلوا رسلهم بالباطل أي بإيراد الشبهات ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ أي أن يزيلوا بسبب إيراد تلك الشبهات الحق والصدق ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي فأنزلت بهم من الهلاك ما هموا بإنزاله بالرسل ، وأرادوا أن يأخذوهم فأخذتهم أنا ، فكيف كان عقابي إياهم ، أليس كان مهلكاً مستأصلاً مهيباً في الذكر والسماع ، فأنا أفعل بقومك كما فعلت بهؤلاء إن أصروا على الكفر والجدال في آيات الله ، ثم كشف عن هذا المعنى فقال : ﴿ وكذلك حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الذين كَفَرُواْ أَنَّهُمْ أصحاب النار ﴾ أي ومثل الذي حق على أولئك الأمم السالفة من العقاب حقت كلمتي أيضاً على هؤلاء الذين كفروا من قومك فهم على شرف نزول العقاب بهم قال صاحب "الكشاف" ﴿ أَنَّهُمْ أصحاب النار ﴾ في محل الرفع بدل من قوله ﴿ كلمة ربك ﴾ أي مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار ،

ومعناه كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل ، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة ، أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن قضاء الله بالسعادة والشاقوة لازم لا يمكن تغييره ، فقالوا إنه تعالى أخبر أنه حقت كلمة العذاب عليهم وذلك يدل على أنهم لا قدرة لهم على الإيمان ، لأنهم لو تمكنوا منه لتمكنوا من إبطال هذه الكلمة الحقة ، ولتمكنوا من إبطال علم الله وحكمته ، ضرورة أن المتمكن من الشيء يجب كونه متمكناً من كل ما هو من لوازمه ، ولأنهم لو آمنوا لوجب عليهم أن يؤمنوا بهذه الآية فحينئذ كانوا قد آمنوا بأنهم لا يؤمنون أبداً ، وذلك تكليف ما لا يطاق ، وقرأ نافع وابن عامر ﴿ حَقَّتْ كلمات رَبِّكَ ﴾ على الجمع والباقون على الواحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 26 . 27 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الذين كَفَرُواْ ﴾

سجل سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر ، والمراد الجدال بالباطل ، من الطعن فيها ، والقصد إلى إدحاض الحق ، وإطفاء نور الله تعالى .

وقد دل على ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَجَادَلُوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ [غافر : 5] .

فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها ، وحل مشكلها ، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد في سبيل الله .

وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" عند قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ ﴾ [البقرة : 258] مستوفى .

﴿ فَلاَ يَغْرُرْكَ ﴾ وقرىء : "فَلاَ يَغُرَّكَ" ﴿ تَقَلُّبُهُمْ ﴾ أي تصرفهم ﴿ فِي البلاد ﴾ فإني وإن أمهلتهم لا أهملهم بل أعاقبهم .

قال ابن عباس : يريد تجارتهم من مكة إلى الشام وإلى اليمن .

وقيل : "لاَ يَغْرُرْكَ" ما هم فيه من الخير والسعة في الرزق فإنه متاع قليل في الدنيا .

وقال الزجاج : "لاَ يَغْرُرْكَ" سلامتهم بعد كفرهم فإن عاقبتهم الهلاك .

وقال أبو العالية : آيتان ما أشدّهما على الذين يجادلون في القرآن : قوله : "مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ

اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا" ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ الذين اختلفوا فِي الكتاب لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة : 176] .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ على تأنيث الجماعة أي كذبت الرسل .

﴿ والأحزاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب نحو عاد وثمود فمَن بعدهم .

﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أي ليحبسوه ويعذبوه .

وقال قتادة والسدّي : ليقتلوه .

والأخذ يرِد بمعنى الإهلاك ؛ كقوله : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج : 44] .

والعرب تسمي الأسير الأخيذ ؛ لأنه مأسور للقتل ؛ وأنشد قطرب قول الشاعر :

(44/673)

فإمّا تأخُذونِي تَقْتُلُونِي . . .

فكَمْ مِنْ آخِذٍ يَهْوَى خُلودِي

وفي وقت أخذهم لرسولهم قولان : أحدهما عند دعائه لهم .

الثاني عند نزول العذاب بهم .

﴿ وَجَادَلُوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ أي ليزيلوا .

ومنه مكان دَحْض أي مَزْلَقة ، والباطل داحض ؛ لأنه يزلق ويزل فلا يستقر .

قال يحيى بن سلاّم : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان .

﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أي بالعذاب .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي عاقبة الأمم المكذبة .

أي أليس وجدوه حقاً .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ ﴾ أي وجبت ولزمت ؛ مأخوذ من الحق لأنه اللازم .

﴿ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ هذه قراءة العامة على التوحيد .

وقرأ نافع وابن عامر : "كَلِمَاتُ" جمعاً .

﴿ عَلَى الذين كفروا أَنَّهُمْ ﴾ قال الأخفش : أي لأنهم وبأنهم .

قال الزجاج : ويجوز إنهم بكسر الهمزة .

﴿ أَصْحَابُ النار ﴾ أي المعذَّبون بها وتم الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(45/673)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) ﴾

سبع الحواميم مكيات ، قالوا بإجماع .

وقيل : في بعض آيات هذه السور مدني .

قال ابن عطية : وهو ضعيف .

وفي الحديث : " أن الحواميم ديباج القرآن " وفيه : " من أراد أن يرتع في رياض مونقة من الجنة فليقرأ الحواميم " ، وفيه : " مثل الحواميم في القرآن مثل الحبرات في الثياب وهذه الحواميم مقصورة على المواغظ والزجر وطرق الآخرة وهي قصار لا تلحق فيها سآمة "

ومناسبة أول هذه السورة لآخر الزمر أنه تعالى لما ذكر ما يؤول إليه حال الكافرين وحال المؤمنين ، ذكر هنا أنه تعالى ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ ، ليكون ذلك استدعاء للكافر إلى الإيمان ، وإلى الإقلاع عما هو فيه ، وأن باب التوبة مفتوح .

وذكر شدة عقابه وصيرورة العالم كلهم فيه ليرتدع عما هو فيه ، وأن رجوعه إلى ربه فيجازيه بما يعمل من خير أو شر .

وقرىء : بفتح الحاء ، اختيار أبي القاسم بن جبارة الهذلي ، صاحب كتاب : (الكامل في القرآن) ، وأبو السمال : بكسرها على أصل التقاء الساكنين ، وابن أبي إسحاق وعيسى : بفتحها ، وخرج على أنها حركة التقاء الساكنين ، وكانت فتحة طلباً للخفة كأين ،

وحركة إعراب على انتصابها بفعل مقدر تقديره : اقرأ حم .

وفي الحديث : " أن أعرابياً سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن حم ما هو ؟ فقال : أسماء وفواتح سور " ، وقال شريح بن أبي أوفى العبسي :

يذكرني حاميم والرمح شاجر . . .

فهلا تلا حاميم قبل التقدم

وقال الكميت :

وجدنا لكم في آل حميم آية . . .

تأولها منا تقي ومعرب

_@_أعربا حاميم ، ومنعت الصرف للعلمية ، أو العلمية وشبه العجمة ، لأن فاعيل ليس من أوزان أبنية العرب ، وإنما وجد ذلك في العجم ، نحو : قابيل وهابيل .

وتقدم فيما روي في الحديث جمع حم على الحواميم ، كما جمع طس على الطواسين .

(46/673)

وحكى صاحب زاد المسير عن شيخه ابن منصور اللغوي أنه قال : من الخطأ أن تقول : قرأت الحواميم ، وليس من كلام العرب ؛ والصواب أن يقول : قرأت آل حم .

وفي حديث ابن مسعود : " إذا وقعت في آل حميم وقعت في روضات دمثات " انتهى .

فإن صح من لفظ الرسول أنه قال : " الحواميم كان حجة على من منع ذلك " ، وإن كان نقل بالمعنى ، أمكن أن يكون من تحريف الأعاجم .

ألا ترى لفظ ابن مسعود : " إذا وقعت في آل حميم " ، وقول الكميت : وجدنا لكم في آل حاميم ؟ وتقدم الكلام على هذه الحروف المقطعة في أول البقرة ، وقد زادوا في حاميم أقوالاً هنا ، وهي مروية عن السلف ، غنينا عن ذكرها ، لاضطرابها وعدم الدليل على صحة شيء منها .

فإن كانت حم اسماً للسورة ، كانت في موضع رفع على الابتداء ، وإلا فتنزيل مبتدأ ، ومن الله الخبر ، أو خبر ابتداء ، أي هذا تنزيل ، ومن الله متعلق بتنزيل .

و﴿ العزيز العليم ﴾ : صفتان دالتان على المبالغة في القدرة والغلبة والعلم ، وهما من صفات الذات .

وقال الزجاج : غافر وقابل صفتان ، وشديد بدل . انتهى .

وإنما جعل غافر وقابل صفتين وإن كانا اسمي فاعل ، لأنه فهم من ذلك أنه لا يراد بهما التجدد ولا التقييد بزمان ، بل أريد بهما الاستمرار والثبوت ؛ وإضافتهما محضة فيعرف ، وصح أن يوصف بهما المعرفة ، وإنما أعرب ﴿ شديد العقاب ﴾ بدلاً ، لأنه من باب الصفة المشبهة ، ولا يتعرف بالأضافة إلى المعرفة ، وقد نص سيبويه على أن كل ما إضافته

غير محضة ، إذا أضيف إلى معرفة ، جاز أن ينوي بإضافته التمحض ، فيتعرف وينعت به المعرفة ، إلا ما كان من باب الصفة المشبهة ، فإنه لا يتعرف .

وحكى صاحب المقنع عن الكوفيين أنهم أجازوا في حسن الوجه وما أشبهه أن يكون صفة للمعرفة ، قال : وذلك خطأ عند البصريين ، لأن حسن الوجه نكرة ، وإذا أردت تعريفه أدخلت فيه أل .

وقال أبو الحجاج الأعلم : لا يبعد أن يقصد بحسن الوجه التعريف ، لأن الإضافة لا تمنع منه .

(47/673)

انتهى ، وهذا جنوح إلى مذهب الكوفيين .

وقد جعل بعضهم ﴿ غافر الذنب ﴾ وما بعده أبدالاً ، اعتباراً بأنها لا تتعرف بالإضافة ، كأنه لاحظ في غافر وقابل زمان الاستقبال .

وقيل : غافر وقابل لا يراد بهما المضي ، فهما يتعرفان بالإضافة ويكونان صفتين ، أي إن قضاءه بالغفران وقبول التوب هو في الدنيا .

قال الزمخشري : جعل الزجاج ﴿ شديد العقاب ﴾ وحده بدلاً بين الصفات فيه نبو ظاهر

، والوجه أن يقال : لنا صودف بين هذه المعارف هذه النكرة الواحدة ، فقد آذنت بأن كلها أبدال غير أوصاف ، ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن ، فهي محكوم عليها أنها من الرجز ، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن كانت من الكامل ، ولا نبو في ذلك ، لأن الجري على القواعد التي قد استقرت وصحت هو الأصل .

وقوله : فقد آذنت بأن كلها أبدال تركيب غير عربي ، لأنه جعل فقد أذنت جواب لما ، وليس من كلامهم : لما قام زيد فقد قام عمرو ، وقوله : بأن كلها أبدال فيه تكرار الأبدال ، أما بدل البدل عند من أثبته فقد تكررت فيه الأبدال ، وأما بدل كل من كل ، وبدل بعض من كل ، وبدل اشتمال ، فلا نص عن أحد من النحويين أعرفه في جواز التكرار فيها ، أو منعه ، إلا أن في كلام بعض أصحابنا ما يدل على أن البدل لا يكرر ، وذلك في قول الشاعر :

فإلى ابن أم أناس ارحل ناقتي . . .

عمرو فتبلغ ناقتي أو تزحف

ملك إذا نزل الوفود ببابه . . .

عرفوا موارد مزنه لا تنزف

قال : فملك بدل من عمرو ، بدل نكرة من معرفة ، قال : فإن قلت : لم لا يكون بدلاً من ابن أم أناس ؟ قلت : لأنه قد أبدل منه عمرو ، فلا يجوز أن يبدل منه مرة أخرى ، لأنه قد طرح .

انتهى .

فدل هذا على أن البدل لا يتكرر ، ويتحد المبدل منه ؛ ودل على أن البدل من البدل جائز ، وقوله : جاءت تفاعيلها ، هو جمع تفعال أو تفعول أو تفعول أو تفعيل ، وليس شيء من هذه الأوزان يكون معدولاً في آخر العروض ، بل أجزاؤها منحصرة ، ليس منها شيء من هذه الأوزان ، فصوابه أن يقول : جاءت أجزاؤها كلها على مستفعلين .

وقال سيبويه أيضاً : ولقائل أن يقول هي صفات ، وإنما حذفت الألف واللام من شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظاً ، فقد غيروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل الازدواج ، حتى قالوا : ما يعرف سحادليه من عنادليه ، فثنوا ما هو وتر لأجل ما هو شفع .

على أن الخليل قال في قولهم : لا يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذلك ، ويحسن بالرجل خير منك أن يفعل ، على نية الألف واللام ، كما كان الجماء الغفير على نية طرح الألف واللام . ومما يسهل ذلك أمن اللبس وجهالة الموصوف . انتهى .

ولا ضرورة إلى اعتقاد حذف الألف واللام من شديد العقاب ، وترك ما هو أصل في النحو ، وتشبيه بنادر مغير عن القوانين من تثنية الوتر للشفع ، وينزه كتاب الله عن ذلك كله .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يقال قد تعمد تنكيره وإبهامه للدلالة على فرط الشدة ، وعلى ما لا شيء أدهى منه ، وأمر لزيادة الإنذار .

ويجوز أن يقال هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال . انتهى .

وأجاز مكي في غافر وقابل البدل حملاً على أنهما نكرتان لاستقبالهما ، والوصف حملاً على أنهما معرفتان لمضيهما .

وقال أبو عبد الله الرازي : لا نزاع في جعل غافر وقابل صفة ، وإنما كانا كذلك ، لأنهما يفيدان معنى الدوام والاستمرار ، وكذلك شديد العقاب تفيد ذلك ، لأن صفاته منزهة عن الحدوث والتجدد ، فمعناه : كونه بحيث شديد عقابه ، وهذا المعنى حاصل أبداً ، لا يوصف بأنه حصل بعد أن لم يكن . انتهى .

(49/673)

وهذا كلام من لم يقف على علم النحو ، ولا نظر فيه ، ويلزمه أن يكون حكيم عليم من قوله : ﴿ من لدن حكيم عليم ﴾ ومليك مقتدر من قوله : ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ معارف لتنزيه صفاته عن الحدوث والتجدد ، ولأنها صفات لم تحصل بعد أن لم تكن ، ويكون

تعريف صفات بأل وتنكيرها سواء ، وهذا لا يذهب إليه مبتدىء في علم النحو ، فضلاً عمن صنف فيه ، وقدم على تفسير كتاب الله .

وتلخص من هذا الكلام المطوّل أن غافر الذنب وما عطف عليه وشديد العقاب أوصاف ، لأن المعطوف على الوصف وصف ، والجميع معارف على ما تقرر أو أبدال ، لأن المعطوف على البدل بدل لتنكير الجميع .

أو غافر وقابل وصفان ، وشديد بدل لمعرفة ذينك وتنكير شديد .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما بال الواو في قوله : ﴿ وقابل التوب ﴾ ؟ قلت : فيها نكتة جليلة ، وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين ، بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات ، وأن يجعلها محاءة للذنوب ، كأن لم يذنب ، كأنه قال : جامع المغفرة والقبول . انتهى .

وما أكثر تلمح هذا الرجل وشقشقته ، والذي أفاد أن الواو وللجمع ، وهذا معروف من ظاهر علم النحو .

وقال صاحب الغنيان : وإنما عطف لاجتماعهما وتلازمهما وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر ، وقطع شديد العقاب عنهما فلم يعطف لانفراده .

انتهى ، وهي نزغة اعتزالية .

ومذهب أهل السنة جواز غفران الله للعاصي ، وإن لم يتب إلا الشرك .

والتوب يحتمل أن يكون كالذنب ، اسم جنس ؛ ويحتمل أن يكون جمع توبة ، كبشر وبشرة ، وساع وساعة .

والظاهر من قوله : ﴿ وقابل التوب ﴾ أن توبة العاصي بغير الكفر ، كتوبة العاصي بالكفر مقطوع بقبولها .

وذكروا في القطع بقبول توبة العاصي قولين لاهل السنة .

ولما ذكر تعالى شدة عقابه أردفه بما يطمع في رحمته ، وهو قوله : ﴿ ذي الطول ﴾ ، فجاء ذلك وعيداً اكتنفه وعدان .

(50/673)

قال ابن عباس : الطول : السعة والغنى ؛ وقال قتادة : النعم ؛ وقال ابن زيد : القدرة ، وقوله : طوله ، تضعيف حسنات أوليائه وعفوه عن سيئاتهم .

ولما ذكر جملة من صفاته العلا الذاتية والفعلية ، ذكر أنه المنفرد بالألوهية ، المرجوع إليه في الحشر ؛ ثم ذكر حال من جادل في الكتاب ، وأتبع بذكر الطائعين من ملائكته وصالحي عباده فقال : ﴿ وما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ ، وجدالهم فيها قولهم : مرة سحر ، ومرة شعر ، ومرة أساطير الأولين ، ومرة إنما يعلمه بشر ، فهو جدال بالباطل ، وقد

دل على ذلك بقوله : ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ وقال السدي : ما يجادل : أي ما يماري .

وقال ابن سلام : ما يجحد .

وقال أبو العالية : نزلت في الحرث بن قيس ، أحد المستهزئين .

وأما ما يقع بين أهل العلم من النظر فيها ، واستيضاح معانيها ، واستنباط الأحكام والعقائد منها ، ومقارعة أهل البدع بها ، فذلك فيه الثواب الجزيل .

ثم نهى السامع أن يغتر بتقلب هؤلاء الكفار في البلاد وتصرفاتهم فيها ، بما أمليت لهم من المساكن والمزارع والممالك والتجارات والمكاسب ، وكانت قريش تتجر في الشأم واليمن ؛ فإن ذلك وبال عليهم وسبب في إهلاكهم ، كما هلك من كان قبلهم من مكذبي الرسل .

وقرأ الجمهور : ﴿ فلا يغررك ﴾ ، بالفك ، وهي لغة أهل الحجاز .

وقرأ زيد بن علي : وعبيد بن عمير : فلا يغرك ، بالإدغام مفتوح الراء ، وهي لغة تميم .

ولما كان جدال الكفار ناشئاً عن تكذيب ما جاء به الرسول ، عليه السلام ، من آيات الله ، ذكر من كذب قبلهم من الأمم السالفة ، وما صار إليه حالهم من حلول نقمات الله بهم ، ليرتدع بهم كفار من بعث الرسول ، عليه السلام ، إليهم ؛ فبدأ بقوم نوح ، إذ كان عليه السلام أول رسول في الأرض ، وعطف على قومه الأحزاب ، وهم الذين تحزبوا على الرسل .

ولم يقبلوا ما جاءوا به من عند الله ، ومنهم : عاد وثمود وفرعون وأتباعه ، وقدم الهم بالأخذ على الجدال بالباطل ، لأن الرسل لما عصمهم الله منهم أن يقتلوهم رجعوا إلى الجدال بالباطل .

وقرأ الجمهور : ﴿ برسولهم ﴾ ؛ وقرأ عبد الله : برسولها ، عاد الضمير إلى لفظ أمة .

﴿ ليأخذوه ﴾ : ليتمكنوا منه بحبس أو تعذيب أو قتل .

وقال ابن عباس : ليأخذوه : ليملكوه ، وأنشد قطرب :

فاما تأخذوني تقتلوني . . .

فكم من آخذ يهوى خلودي

ويقال للقتيل والأسير : أخيذ .

وقال قتادة : ﴿ ليأخذوه ﴾ : ليقتلوه ، عبر عن المسبب بالسبب .

﴿ وجادلوا بالباطل ﴾ : أي بما هو مضمحل ذاهب لا ثبات له .

وقيل : الباطل : الكفر .

وقيل : الشيطان .

وقيل : بقولهم : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ ﴿ ليدحضوا ﴾ : ليزلقوا ، ﴿ به الحق ﴾ : أي الثابت الصدق .

﴿ فأخذتهم ﴾ : فأهلكتهم .

﴿ فكيف كان عقاب ﴾ إياهم ، استفهام تعجيب من استصالهم ، واستعظام لما حل بهم ، وليس استفهاماً عن كيفية عقابهم ، وكانوا يمرون على مساكنهم ويرون آثار نعمة الله فيهم ؛ واجتزأ بالكسر عن ياء الإضافة لأنها فاصلة ، والأصل عقابي .

﴿ وكذلك حقت ﴾ : أي مثل ذلك الوجوب من عقابهم وجب على الكفرة ، كونهم من أصحاب النار ، من تقدم منهم ومن تأخروا .

﴿ أنهم ﴾ : بدل من ﴿ كلمة ربك ﴾ ، فهي في موضع رفع ، ويجوز أن يكون التقدير لأنهم وحذف لام العلة .

والمعنى : كما وجب إهلاك أولئك الأمم ، وجب إهلاك هؤلاء ، لأن الموجب لإهلاكهم وصف جامع لهم ، وهو كونهم من أصحاب النار .

وفي مصحف عبد الله : وكذلك سبقت ، وهو تفسير معنى ، لا قراءة .

وقرأ ابن هرمز ، وشيبة ، وابن القعقاع ، ونافع ، وابن عامر : كلمات على الجمع ؛ وأبو رجاء ، وقتادة ، وباقي السبعة : على الإفراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ حم ﴾ بتفخيمِ الألفِ وتسكينِ الميمِ . وقُرِىءَ بإمالةِ الألفِ وبإخراجِها بينَ بينَ وبفتحِ الميمِ لالتقاءِ الساكنينِ أو نصبِها بإضمارِ اقرأْ ونَحوِهِ ، ومنعُ الصرفِ للتعريفِ والتأنيث أو للتعريف وكونِها على زنةِ قابيلَ وهابيلَ . وبقيةُ الكلامِ فيه وفي قولِه تعالى ﴿ تنزيلُ الكتاب ﴾ كالذي سَلَفَ في آلم السجدةِ . وقولُه تعالى ﴿ مِنَ الله العزيز العليم ﴾ كما في مَطْلعِ سُورةِ الزُّمَرِ في الوجوه كُلِّها . ووجْهُ التعرضِ لنعتَي العزةِ والعلم ما ذُكِرَ هناك . ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِى الطول ﴾ إمَّا صفاتٌ أُخَرُ لتحقيق ما فيها منَ الترغيبِ والترهيبِ والحثِّ على ما هو المقصودُ ، والإضافةُ فيها حقيقيةٌ على أنَّه لمْ يُرَدْ بها زمانٌ مخصوصٌ وأريدَ بشديدِ العقابِ مشدِّدُه أو الشديدُ عقابُه بحذف اللامِ للازدواجِ وأمنِ الالتباسِ أوْ إبدالٍ وجعلُه وحْدَه بدلاً كما فعَلَه الزجَّاجُ مشوشٌ للنظمِ ، وتوسيطُ الواو بينَ الأولَيَينِ لإفادةِ الجمعِ بينَ محوِ الذنوبِ وقبولِ التوبةِ أو تغايرِ الوصفينِ إذْ رُبَّما يتوهمُ الاتحادُ أو تغايرُ موقعِ الفعلينِ لأنَّ الغفرَ هو السترُ معَ بقاءِ الذنبِ وذلكَ لمن لَمْ يتُبْ " فإنَّ التائبَ منَ الذنبِ كمنْ لا ذنبَ لَهُ " والتوبُ مصدرٌ كالتوبةِ وقيل : هُوَ جَمعُها والطَّولُ الفضلُ بترك العقابِ المستَحق ، وفي توحيد صفةِ العذابِ مغمورةً بصفاتِ الرحمةِ دليلٌ سَبْقِها ورُجْحانِها ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ فيجبُ الإقبالُ الكُلِّي عَلى طاعتِهِ في أوامرِهِ ونواهيهِ ﴿

إِلَيْهِ المصير ﴾ فحسبُ لا إلى غيرِهِ لا استقلالاً ولا اشتراكاً فيجازِي كلاًّ من المطيعِ والعاصِي.

(53/673)

﴿ مَا يجادل فِى ءايات الله ﴾ أي بالطعنِ فيَها واستعمالِ المقدماتِ الباطلةِ لإدحاضِ الحقّ كقولِه تعَالى: ﴿ وجادلوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ ﴿ إِلاَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ بَها وأمَّا الذينَ آمنُوا فلا يخطرُ ببالهم شائبةُ شبهةٍ منها فضلاً عن الطعنِ فيها وأما الجدالُ فيها لحلِّ مشكلاتها وكشفِ معضلاتها واستنباطِ حقائقِها الكلية وتوضيحِ مناهجِ الحقّ في مضايقِ الأفهامِ ومزالقِ الأقدامِ وإبطالِ شبهِ أهلِ الزيغِ والضلالِ فمنْ أعظمِ الطاعاتِ ولذلكَ قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "إنَّ جدالاً في القرآنِ كفرٌ" بالتنكيرِ للفرقِ بينَ جدالٍ وجدالٍ والفاءُ في قولِهِ تعَالى ﴿ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى البلاد ﴾ لترتيبِ النَّهي أوْ وجوبِ الانتهاءِ عَلَى ما قبلها منَ التسجيلِ عليهمْ بالكُفرِ الذي لاَ شيءَ أمقت منْهُ عندَ الله تعالىَ ولاَ أجلبُ لخُسرانِ الدُّنيا وَالآخرةِ فإنَّ منْ تحققَ ذلكَ لايكادُ يَغترُّ بمَا لهُم من حظوظِ الدُّنيا وزخارفِها فإنَّهم مأخوذونَ عَمَّا قليلٍ أخْذَ منْ قبلَهمُ منَ الأمم حسبَما ينطق به قولُه تعَالى ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ والاحزاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي الذينَ تحزبُوا على الرسلِ وناصبوهم بعدَ قومِ نوحٍ

مثلُ عادٍ وثمودَ وأضرابِهم ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ ﴾ مِنْ تلكَ الأممِ العاتيةِ ﴿ بِرَسُولِهِمْ ﴾ وَقُرِىءَ برسولِها ﴿ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ ليتمكنُوا منْهُ فيصيبوا بِهِ مَا أرادُوا من تعذيبٍ أو قتلٍ منَ الأخذِ بمَعْنى الأَسْرِ ﴿ وجادلوا بالباطل ﴾ الذي لاَ أصلَ ولاَ حقيقةَ لهُ أصلاً ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ الذي لا محيدَ عَنْه كما فعلَ هؤلاءِ المذكورونَ ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ بسببِ ذلك أخذَ عَزيزٍ مُقتدرٍ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ الذي عاقبتُهمْ بِهِ فإنَّ آثارَ دمارِهم عبرةٌ للناظرينَ ولآخذنَّ هؤلاءِ أيضاً لاتحادِهم فِي

(54/673)

الطريقةِ واشتراكِهم في الجَريرةِ كما ينبىءُ عنْهُ قولُه تعالَى :

﴿ وكذلك حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ أَيْ كَما وجبَ وثبتَ حكمُه تَعَالى وقضاؤُهُ بالتعذيبِ عَلى أولئكَ الأممِ المكذبةِ المُتحزبةِ عَلى رُسلِهم المجادلةِ بالباطلِ لإدحاضِ الحقِّ بِهِ وجبَ أَيضاً ﴿ عَلَى الذين كَفَرُواْ ﴾ أيْ كفرُوا بكَ وتحزبُوا عليكَ وَهمُّوا بَما لَمْ ينالُوا كما ينبىءُ عنْهُ إضافةُ اسمِ الربِّ إلى ضميرِه عليه الصَّلاةُ وَالسلامُ فإنَّ ذلكَ للإشعارِ بأنَّ وجوبَ كلمةِ العذابِ عليهمْ مِنْ أحكامِ تربيتِهِ التي مِنْ جُمْلتِها نصرتُهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ وتعذيبُ أعدائِهِ وذلكَ إنَّما يتحققُ بكونِ الموصولِ عبارةً عن كفارِ قومِهِ لاَ عنِ الأممِ المهلكةِ وَقولُه

تعالَى ﴿ أَنَّهُمْ أصحاب النار ﴾ فِي حَيّزِ النصب بحذفِ لام التعليلِ أيْ لأنهُمْ مستحقّو أشدّ العُقوباتِ وأفظعِها التي هيَ عذابُ النارِ وَملازمُوهَا أبداً لكونهمْ كُفَّاراً معاندينَ متحزبينَ عَلى الرسولِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كدأبِ منْ قبلهُم منَ الأممِ المهلكةِ فهُم لسائرِ فنونِ العقوباتِ أشدُّ استحقاقاً وأحقُّ استيجاباً وقيلَ : هو في محل الرفع على أنَّه بدل من كلمة ربك والمعنى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرةِ المهلكةِ كونُهم من أصحابِ النارِ أي كما وجبَ إهلاكُهم في الدُّنيا بعذابِ الاستئصالِ كذلكَ وجبَ تعذيبُهم بعذابِ النَّارِ في الآخرةِ وَمحلُّ الكافِ عَلى التقديرينِ النصبُ عَلى أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(55/673)

وقال الآلوسى :

﴿ مَا يجادل فِى ءايات الله إِلاَّ الذين كَفَرُواْ ﴾

نزلت على ما قال أبو العالية في الحرث بن قيس السلمي أحد المستهزئين ، والمراد بالجدال الجدال بالباطل من الطعن في الآيات والقصد إلى ادحاض الحق وإطفاء نور الله عز وجل لقوله تعالى بعد ، ﴿ وجادلوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ فإنه مذكور تشبيهاً لحال كفار

مكة بكفار الأحزاب من قبل وإلا فالجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ عنها أعظم جهاد في سبيل الله تعالى ؛ وفي قوله صلى الله عليه وسلم وقد أخرجه عبد بن حميد عن أبي هريرة مرفوعاً : "إن جدالاً في القرآن كفر" إيماء إلى ذلك حيث ذكر فيه جدالاً منكراً للتنويع فأشعر أن نوعاً منه كفر وضلال ونوعاً آخر ليس كذلك .

(56/673)

والتحقيق كما في الكشف إن المجادلة في الشيء تقتضي أن يكون ذلك الشيء إما مشكوكاً عند المجادلين أو أحدهما أو منكراً كذلك ، وأياً ما كان فهو مذموم اللهم إلا إذا كان من موحد لخارج عن الملة أو من محقق لزائغ إلى البدعة فهو محمود بالنسبة إلى أحد الطرفين ، وأما ما قيل : إن البحث فيها لإيضاح الملتبس ونحوه جدال عنها لا فيها فإن الجدال يتعدى بعن إذا كان للمنع والذب عن الشيء وبفي لخلافه كما ذكره الإمام وبالباء أيضاً كما في قوله تعالى : ﴿ وجادلهم بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] ففيه بحث ، وفي قوله تعالى : ﴿ في آيات الله ﴾ دون فيه بالضمير العائد إلى ﴿ الكتاب ﴾ [غافر : 2] دلالة على أن كل آية منه يكفي كفراً لمجادلة فكيف بمن ينكره كله ويقول فيه ما يقول ، وفيه أن كل آية منه

آية أنه من الله تعالى الموصوف بتلك الصفات فيدل على شدة شكيمة المجادلة في الكفر وانه جادل في الواضح الذي لا خفاء به ، ومما ذكر يظهر اتصال هذه الآية بما قبلها وارتباط قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى البلاد ﴾ بها أي إذا علمت ان هؤلاء شديدو الشكائم في الكفر قد خسروا الدنيا والآخرة حيث جادلوا في آيات الله العزيز العليم وأصروا على ذلك فلا تلتفت لاستدراجهم بتوسعة الرزق عليهم وإمهالهم فإن عاقبتهم الهلاك كما فعل بمن قبلهم من أمثالهم مما أشير إليه بقوله سبحانه :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ الخ ، والتقلب الخروج من أرض إلى أخرى .

والمراد بالبلاد بلاد الشام واليمن فإن الآية في كفار قريش وهم كانوا يتقلبون بالتجارة في هاتيك البلاد ولهم رحلة الشتاء لليمن ورحلة الصيف للشام ، ولا بأس في إرادة ما يعم ذلك وغيره ، وقرأ زيد بن علي .

(57/673)

وعبيدة بن عمير ﴿ فَلا ﴾ بالادغام مفتوح الراء وهي لغة تميم والفك لغة الحجازين ، وبدأ بقوم نوح لأنه عليه الصلاة والسلام على ما في البحر أول رسول في الأرض أو لأنهم أول قوم كذبوا رسولهم وعتوا عتواً شديداً ﴿ نُوحٍ والاحزاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي والذين تحزبوا

واجتمعوا على معاداة الرسل عليهم السلام من قوم نوح كعاد .

وثمود .

(58/673)

وقوم فرعون ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ ﴾ من تلك الأمم ﴿ بِرَسُولِهِمْ ﴾ وقرأ عبد الله ﴿ برسولها ﴾ رعاية اللفظ الأمة ﴿ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ ليتمكنوا من إيقاع ما يريدون به من حبس وتعذيب وقتل وغيره ، فالأخذ كناية عن التمكن المذكور ، وبعضهم فسره بالاسر وهو قريب مما ذكر ، وقال قتادة : أي ليقتلوه ﴿ وجادلوا بالباطل ﴾ بما لا حقيقة له قيل هو قولهم : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [يس : 15] والأولى أن يقال هو كل ما يذكرونه لنفي الرسالة وتحسين ما هم عليه ، وتفسيره بالشيطان ليس بشيء ﴿ لِيُدْحِضُواْ ﴾ ليزيلوا ﴿ بِهِ ﴾ أي بالباطل ، وقيل : أي بجدالهم بالباطل ﴿ الحق ﴾ الأمر الثابت الذي لا محيد عنه ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ بالاهلاك المستأصل لهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ فانكم تمرون على ديارهم وترون أثره ، وهذا تقرير فيه تعجيب للسامعين مما وقع بهم ، وجوز أن يكون من عدم اعتبار هؤلاء ، واكتفى بالكسرة عن ياء الإضافة في عقاب لأنه فاصلة ، واختلف في المسبب عنه الأخذ المذكور فقيل : مجموع التكذيب والهم بالأخذ

والجدال بالباطل ، واختار الزمخشري كونه الهم بالأخذ ، وقال في الكشف : وذلك لأن قوله تعالى : ﴿ وجادلوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ ﴾ هو التكذيب بعينه والأخذ يشاكل الأخذ وإنما التكذيب موجب استحقاق العذاب الأخروي المشار إليه بعد ، ولا ينكر أن كليهما يقتضي كليهما لكن لما كان ملاءمة الأخذ للأخذ أتم والتكذيب للعذاب الأخروي أظهر أنه متعلق بالأخذ تنبيهاً على كمال الملاءمة ، ثم المجادلة العنادية ليس الغرض منها إلا الإيذاء فهي تؤكد الهم من هذا الوجه بل التكذيب أيضاً يؤكده ، والغرض من تمهيد قوله تعالى : ﴿ مَا يجادل ﴾ وذكر الأحزاب إلا لما بهذا المعنى ، ثم التصريح بقوله سبحانه : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ ﴾ يدل على ما اختاره دلالة بينه فلا حاجة إلى أن يعتذر بأنه إنما اعتبر هذا لا ما سيق

(59/673)

له الكلام من المجادلة الباطلة للتسلي انتهى ، والانصاف إن فيما صنعه جار الله رعاية جانب المعنى ومناسبة لفظية إلا أن الظاهر هو التفريع على المجموع كما لا يخفى .

﴿ وكذلك حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الذين كَفَرُواْ ﴾ أي كما وجب حكمه تعالى بالاهلاك على هؤلاء المتحزبين على الأنبياء وجب حكمه سبحانه بالاهلاك على هؤلاء المتحزبين

عليك أيضاً وهم كفار قريش ﴿ أَنَّهُمْ أصحاب النار ﴾ أي لأنهم أصحاب النار أي لأن العلة متحدة وهي أنهم كفار معاندون مهتمون بقتل النبي مثلهم ، فوضع ﴿ أصحاب النار ﴾ موضع ما ذكر لأنه آخر أوصافهم وشرها والدال على الباقي ، و﴿ أَنَّهُمْ ﴾ الخ في حيز النصب بحذف لام التعليل كما أشرنا إليه ، وجوز أن يكون في محل رفع على أنه بدل من ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم ﴾ بدل كل من كل ان أريد بالكلمة قوله تعالى أو حكمه سبحانه بأنهم من أصحاب النار ، وبدل اشتمال أن أريد بها الأعم ، ويراد بالذين كفروا أولئك المتحزبون ، والمعنى كما وجب اهلاكهم بالعذاب المستأصل في الدنيا وجب اهلاكهم بعذاب النار في الآخرة أيضاً لكفرهم ، والوجه الأول أظهر بالمساق .

والتعبير بعنوان الربوبية من الإضافة إلى ضمير صلى الله عليه وسلم ، وفسرت ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم ﴾ عليه بقوله سبحانه : ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الروم : 47] ونحوه .

وفي مصحف عبد الله ﴿ وكذلك سَبَقَتْ ﴾ وهو على ما قيل تفسير معنى لا قراءة .

وقرأ ابن هرمز .

وشيبة .

وابن القعقاع .

ونافع .

وابن عامر ﴿ كلمات ﴾ على الجمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(60/673)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (4) ﴾

استئناف بياني نشأ من قوله : ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ [غافر : 2]

المقتضي أن كون القرآن منزلاً من عند الله أمرٌ لا ريب فيه كما تقدم ، فينشأ في نفوس السامعين أن يقولوا : فما بال هؤلاء المجادلين في صدق نسبة القرآن إلى الله لم تقنعهم دلائل نزول القرآن من الله ، فأجيب بأنه ما يجادل في صدق القرآن إلا الذين كفروا بالله وإذ قد كان كفر المكذبين بالقرآن أمراً معلوماً كان الإخبار عنهم بأنهم كافرون غير مقصود منه إفادة اتصافهم بالكفر ، فتعين أن يكون الخبر غير مستعمل في فائدة الخبر لا بمنطوقه ولا بمفهومه ، فإن مفهوم الحصر وهو : أن الذين آمنوا لا يجادلون في آيات الله كذلك أمر معلوم مقرر ، فيجوز أن يجعل المراد بالذين كفروا نفس المجادلين في آيات الله وأن المراد بكفرهم كفرهم بوحدانية الله بسبب إشراكهم ، فالمعنى : لا عجب في جدالهم بآيات الله فإنهم أتوا

بما هو أعظم وهو الإِشراك على طريقة قوله تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا اللَّه جهرة ﴾ [النساء : 153] .

ويجوز أن يجعل المراد بالذين كفروا جميع الكافرين بالله من السابقين والحاضرين ، أي ما الجَدل في آيات الله إلا من شأن أهل الكفر والإِشراك ، ومجادلة مشركي مكة شعبة من شعب مجادلة كل الكافرين ، فيكون استدلالاً بالأعمّ على الخاص ، وعلى كلا الوجهين تُرك عطف هذه الجملة على التي قبلها .

(61/673)

والمراد بالمجادلة هنا المجادلة بالباطل بقرينة السياق فمعنى ﴿ في آيات الله ﴾ في صدق آيات الله بقرينة قوله : ﴿ تَنزِيل الكِتَاب مِن الله العَزيز العليم ﴾ [غافر : 2] فتعين تقدير مضاف دل عليه المقام كما دَل قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ [هود : 74] ، على تقدير : في إهلاك قوم لوط ، فصيغة المفاعلة للمبالغة في الفعل من جانب واحد لإِفادة التكرر مثل : سافر وعافاه الله ، وهم يتلونون في الاختلاق ويعاودون التكذيب والقول الزور من نحو قولهم : ﴿ أساطير الأولين ﴾ [الأنعام : 25] ، ﴿ سحر

مبين ﴾ [المائدة: 110] ، ﴿ قول كاهن ﴾ [الحاقة: 42] ، ﴿ قول شاعر ﴾ [الحاقة: 41] لا ينفكون عن ذلك.

ومن المجادلة توركهم على الرسول صلى الله عليه وسلم بسؤاله أن يأتيهم بآيات كما يقترحون، نحو قولهم: ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [الإسراء: 90] الآيات وقولهم: ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ [الفرقان: 7] الآيات.

وقد كان لتعلق ﴿ في ﴾ الظرفية بالجدال، ولدخوله على نفس الآيات دون أحوالها في قوله: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ ﴾ موقعٌ عظيم من البلاغة لأن الظرفية تحْوِي جميعَ أصناف الجدال، وجُعل مجرورُ الحرف نفسَ الآيات دون تعيين نحو صدقِها أو وقوعها أو صنفها، فكان قوله: ﴿ فِي آيَاتِ اللهِ ﴾ جامعاً للجدل بأنواعه ولمتعلّقِ الجدل باختلاف أحواله والمراد الجدال بالباطل كما دل عليه تنظير حالهم بحال من قال فيهم ﴿ وجادلوا بالباطل ﴾ [غافر: 5] فإذا أريد الجدال بالحق يقيد فعل الجدال بما يدل عليه.

والمعنى : ما يجادل في آيات الله أنها من عند الله ، فإن القرآن تحدّاهم أن يأتوا بمثله فعجزوا ، وإنما هو تلفيق وتستر عن عجزهم عن ذلك واعتصام بالمكابرة فمجادلتهم بعد ما تقدم من التحدّي دالة على تمكن الكفر منهم وأنهم معاندون وبذلك حصل المقصود من فائدة هذا وإلاّ فكونهم كفاراً معلوم .

وإظهار اسم الجلالة في قوله : ﴿ ما يجادل في آيات الله ﴾ دون أن يقول : في آياته ، لتفظيع أمرها بالصريح لأن ذكر اسم الجلالة مؤذن بتفظيع جدالهم وكفرهم وللتصريح بزيادة التنويه بالقرآن .

وفُرع قوله : ﴿ فَلا يَغرُرك تَقَلُّبهم في البِلادِ ﴾ على مضمون ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ لما علمت من أن مقتضى تلك الجملة أن المجادلين في آيات الله هم أهل الكفر ، وذلك من شأنه أن يثير في نفس من يراهم في متعة ونعمة أن يتساءل في نفسه كيف يتركهم الله على ذلك ويظنّ أنهم أمنوا من عذاب الله ، ففرع عليه الجواب ﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ أي إنما هو استدراج ومقدار من حلم الله ورحمته بهم وقتاً مّا ، أو أن معناه نحن نُعلمُ أنهم يجادلون في آياتنا إصراراً على الكفر فلا يوهمْك تقلبهم في البلاد أنا لا نؤاخذهم بذلك .

والغرور : ظن أحد شيئاً حسناً وهو بضده يقال : غَرّك ، إذا جعلك تظن السيّىء حسناً .

ويكون التغرير بالقول أو بتحسين صورة القبيح .

والتقلب : اختلاف الأحوال ، وهو كناية عن تناول محبوب ومرغوب .

و﴿ البلاد ﴾ الأرض ، وأريد بها هنا الدنيا كناية عن الحياة .

والمخاطب بالنهي في قوله : ﴿ فلا يغررك ﴾ يجوز أن يكون غيرَ معين فيعم كل مَن شأنه أن يغره تقلب الذين كفروا في البلاد ، وعلى هذا يكون النهي جارياً على حقيقةِ بابه ، أي موجهاً إلى من يتوقع منه الغرور ، ومثله كثير في كلامهم ، قال كعب بن زهير :

فلا يَغُرَّنْكَ مَا مَنَّتْ وما وعدت

إِنَّ الأَمَانِيَّ والأَحلامَ تضليل . . .

(63/673)

ويجوز أن يكون الخطاب موجهاً للنبيء صلى الله عليه وسلم على أن تكون صيغة النهي تمثيلية بتمثيل حال النبي صلى الله عليه وسلم في استبطائه عقاب الكافرين بحال من غرّهُ تقلبهم في البلاد سالمين ، كقوله تعالى : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ [الحجر : 3] .

والمعنى : لا يوهمنك تناولهم مختلف النعماء واللذات في حياتهم أننا غير مؤاخذينهم على

جدالِهم في آياتنا ، أو لا يوهمنك ذلك أننا لا نعلم ما هم عليه فلم نؤاخذهم به تنزيلاً للعالم منزلة الجاهل في شدة حزن الرسول صلى الله عليه وسلم على دوام كفرهم ومعاودةِ أذاهم كقوله : ﴿ ولا تحسبن اللَّه غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ [إبراهيم : 42] ، وفي معنى هذه قوله تعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ وتقدمت في [آل عمران : 196 ، 197] . .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ

جملة ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهم قَوْم نُوحٍ ﴾ وما بعدها بيان لجملة ﴿ فلا يغرُرك تقلُّبهم في البلد ﴾ [غافر : 4] باعتبار التفريع الواقع عقب هاته الجمل من قوله : ﴿ فأخذتهم فكيف كانَ عِقَاب ﴾ ، فالمعنى : سبقتهم أمم بتكذيب الرسل كما كذبوك وجادلوا بالباطل رسلهم كما جادلك هؤلاء فأخذتهم فكيف رأيت عقابي إياهم كذلك مثل هؤلاء في إمهالهم إلى أن آخذهم .

والأحزاب : جمع حِزب بكسر الحاء وسكون الزاي وهو اسم للجماعة الذين هم سواء في شأن : من اعتقادٍ أو عمل أو عادةٍ .

والمراد بهم هنا الأمم الذين كانت كل أمة منهم متفقة في الدين ، فكل أمة منهم حزب فيما اتفقت عليه .

وفي قوله : ﴿ مِن بَعْدِهم ﴾ إشارة إلى أن قوم نوح كانوا حزباً أيضاً فكانوا يدينون بعبادة الأصنام : يغوث ، ويعوق ، ونسر ، وودَ ، وسُواع ، وكذلك كانت كل أمة من الأمم التي كذبت الرسل حزباً متفقين في الدين ، فعادٌ حزب ، وثمود حزب ، وأصحاب الأيكة حزب ، وقوم فرعون حزب .

والمعنى : أنهم جميعاً اشتركوا في تكذيب الرسل وإن تخالف بعض الأمم مع بعضها في الأديان .

وفي الجمع بين ﴿ قبلهم ﴾ و ﴿ مِن بَعْدِهِم ﴾ محسّن الطباق في الكلام .

والهمّ : العزم .

وحقه أن يعدّى بالباء إلى المعاني لأن العزم فعل نفساني لا يتعلق إلا بالمعاني .

كقوله تعالى : ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ [التوبة : 74] ، ولا يتعدّى إلى الذوات ، فإذا عدّي إلى اسم ذات تعينّ تقدير معنى من المعاني التي تلابس الذات يدل عليها المقام كما في قوله تعالى : ﴿ ولقد همت به ﴾ [يوسف : 24] أي همّت بمضاجعته .

وقد يذكر بعد اسم الذات ما يدل على المعنى الذي يُهَمّ به كما في قوله هنا : ﴿ ليأخذوه ﴾ إن الهمّ بأخذه ، وارتكابُ هذا الأسلوب لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل ، ومثله تعلق أفعال القلوب بالأسماء في ظننتك جائياً ، أي ظننت مجيئك .

والأخذ يستعمل مجازاً بمعنى التصرف في الشيء بالعقاب والتعذيب والقتل ونحو ذلك من التنكيل ، قال تعالى : ﴿ فأخذهم أخذة رابية ﴾ [الحاقة : 10] ويقال للأسير : أخيذ ، وللقتيل : أخيذ .

واختير هذا الفعل هنا ليشمل مختلف ما هَمّت به كل أمة برسولها من قتل أو غيره كما قال تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبوتك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ [الأنفال : 30] .

(والمعنى : أن الأُمم السابقة من الكفرة لم يقتصروا على تكذيب الرسول بل تجاوزوا ذلك إلى غاية الأذى من الهمّ بالقتل كما حكى الله عن ثمود : ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ﴾ [النمل : 49] .

(65/673)

وقد تآمر كفار قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة دار الندوة ليقتلوه أن يتجمع نفر من جَميع عشائرهم فيضربوه بالسيوف ضربة رجل واحد كيلا يستطيع أولياؤه من بني هاشم الأخذ بثأره ، فأخذ الله الأمم عقوبة لهم على همهم برسلهم فأهلكهم واستأصلهم .

ويفهم من تفريع قوله : ﴿ فأخذتهم ﴾ على قوله : ﴿ وهَمَّتْ كُلُّ أُمة بِرَسولهم لِيَأْخُذوه ﴾ إنذارُ المشركين أن همهم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم هو منتهى أمد الإِمهال لهم ،

فإذا صمّموا العزم على ذلك أخذهم الله كما أخذ الأمم المكذبة قبلهم حين همّت كل أمة برسولهم ليأخذوه فإن قريشاً لما همّوا بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم أنجاه الله منهم بالهجرة ثم أمكنه من نواصيهم يوم بدر .

والمراد بـ ﴿ كُلُّ أُمَّة ﴾ كل أمة من الأحزاب المذكورين .

وضمير ﴿ وجادلوا بالباطل ﴾ عائد على ﴿ كُلُّ أُمَّة ﴾ .

والمقصود : من تعداد جرائم الأمم السابقة من تكذيب الرسل والهمّ بقتلهم والجدال بالباطل تنظير حال المشركين النازل فيهم قوله : ﴿ ما يُجَادِلُ فِي آيَاتِ الله إلا الذين كَفَرُوا ﴾ [غافر : 4] بحال الأمم السابقين سواء ، لينطبق الوعيد على حالهم أكمل انطباق في قوله : ﴿ فأخَذْتُهم فَكَيفَ كَانَ عِقابِ ﴾ .

والباء في قوله : ﴿ بالباطل ﴾ للملابسة ، أي جادلوا ملابسين للباطل فالمجرور في موضع الحال من الضمير ، أو الباء لِلآلة بتنزيل الباطل منزلة الآلةِ لجدالهم فيكون الظرف لغواً متعلقاً بـ ﴿ جادلوا ﴾ .

وتقييد ﴿ جادلوا ﴾ هذا بقيد كونه ﴿ بالباطل ﴾ يقتضي تقييد ما أطلق في قوله : ﴿ مَا يُجَادل في آيات الله إلاَّ الذينَ كَفَرُوا ﴾ .

والإِدحاض : إبطال الحجة ، قال تعالى : ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ [الشورى : 16] .

والمعنى : أنهم زوروا الباطل في صورة الحقّ وروّجوه بالسفسطة في صورة الحُجَّة ليبْطلوا حجج الحق وكفى بذلك تشنيعاً لكفرهم .

(66/673)

وفُرع على قوله : ﴿ فأخذتهم ﴾ قولُه : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ كما فُرّع قوله : ﴿ فَلا يَغررك تَقَلُّبهم في البِلاد ﴾ [غافر : 4] على جملة ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ [غافر : 4] فيجري توجيه الاستفهام هنا على نحو ما جرى من توجيه الخطاب هناك .

والأخذ هنا : الغَلب .

والاستفهام بـ ﴿ كيف كانَ عقاب ﴾ مستعمل في التعجيب من حالة العقاب وذلك يقتضي أن المخاطب بالاستفهام قد شاهد ذلك الأخذ والعقاب وإنما بني ذلك على مشاهدة آثار ذلك الأخذ في مرور الكثير على ديارهم في الأسفار كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ [الحجر : 76] ونحوه ، وفي سماع الأخبار عن نزول العقاب بهم وتوصيفهم ، فنزل جميع المخاطبين منزلة من شاهد نزول العذاب بهم ، ففي هذا الاستفهام تحقيق وتثبيت لمضمون جملة ﴿ فأخذتهم ﴾ .

ويجوز أن يكون في هذا الاستفهام معنى التقرير بناء على أن المقصود بقوله : ﴿ كذَّبَت قبلهم قوم نوح ﴾ إلى قوله : ﴿ فأخذتهم ﴾ التعريض بتهديد المشركين من قريش بتنبيههم على ما حلّ بالأمم قبلهم لأنهم أمثالهم في الإِشراك والتكذيب فلذلك يكون الاستفهام عمّا حلّ بنظرائهم تقريرياً لهم بذلك .

وحذفت ياء المتكلم من ﴿ عقاب ﴾ تخفيفاً مع دلالة الكسرة عليها .

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (6)

الواو عاطفة على جملة ﴿ فكيف كان عِقَاب ﴾ [غافر : 5] ، أي ومثل ذلك الحَقّ حقت كلمات ربك فالمشار إليه المصدَر المأخوذ من قوله : ﴿ حَقَّت كَلِماتُ رَبك ﴾ على نحو ما قرر غير مرة ، أولاها عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) ، وهو يفيد أن المشبه بلغ الغاية في وجه الشبه حتى لو أراد أحد أن يشبهه لم يشبهه إلا بنفسه .

(67/673)

ولك أن تجعل المشار إليه الأَخْذَ المأخوذ من قوله : ﴿ فأخذتهم ﴾ [غافر : 5] ، أي ومثل ذلك الأخذ الذي أخذ الله به قوم نوح والأحزابَ من بعدهم حقت كلمات الله على

الذين كفروا ، فعلم من تشبيه تحقق كلمات الله على الذين كفروا بذلك الأخذِ لأن ذلك الأخذ كان تحقيقاً لكلمات الله ، أي تصديقاً لما أخبرهم به من الوعيد ، فالمراد بالذين كفروا ﴾ جميع الكافرين ، فالكلام تعميم بعد تخصيص فهو تذييل لأن المراد بالأحزاب الأمم المعهودة التي ذكرت قصصها فيكون ﴿ الذينَ كَفَروا ﴾ أعم .

وبذلك يكون التشبيه في قوله : ﴿ وكذلك حقت كلمات ربك ﴾ جارياً على أصل التشبيه من المغايرة بين المشبه والمشبه به ، وليس هو من قبيل قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ [البقرة : 143] ونظائره .

ويجوز أن يكون المراد بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ عين المراد بقوله آنفاً : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ [غافر : 4] أي مثل أخذ قوم نوح والأحزاب حقت كلمات ربك على كفار قومك ، أي حقت عليهم كلمات الوعيد إذا لم يقلعوا عن كفرهم .

و(كلمات الله) هي أقواله التي أوحى بها إلى الرسل بوعيد المكذبين ، و ﴿ على الذين كفروا ﴾ يتعلق بـ ﴿ حقت .

وقوله : أنهم أصحابُ النَّار ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من ﴿ كلمات ربك ﴾ بدلاً مطابقاً فيكون ضمير ﴿ أَنَّهُم ﴾ عائد إلى ﴿ الذين كفروا ﴾ ، أي حق عليهم أن يكونوا أصحاب النار ، وفي هذا إيماء إلى أن الله غير معاقب أمة الدعوة المحمدية بالاستئصال لأنه أراد أن يخرج منهم ذرية مؤمنين .

ويجوز أن يكون على تقدير لام التعليل محذوفةٍ على طريقة كثرة حذفها قبل (أنَّ) .

والمعنى : لأنهم أصحاب النار ، فيكون ضمير ﴿ أَنَّهُم ﴾ عائداً إلى جميع ما ذكر قبله من قوم نوح والأحزاب من بعدهم ومن الذين كفروا .

وقرأ الجمهور ﴿ كلمة ربك ﴾ بالإِفراد .

(68/673)

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بصيغة الجمع ، والإِفراد هنا مساو للجمع لأن المراد به الجنس بقرينة أن الضمير المجرور بـ (على) تعلق بفعل ﴿ حَقَّت ﴾ وهو ضمير جمع فلا جرم أن تكون الكلمة جنساً صادقاً بالمتعدد بحسب تعدد أزمان كلمات الوعيد وتعدد الأمم المتوعَّدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(69/673)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (4) ﴾

إذا ظَهر البرهانُ واتَّضحَ البيانُ استسلمَتْ الألبابُ الصاحيةُ للاستجابة والإيمان .

فأمَّا أهلُ الكفرِ فلهم عَلَى الجمود إصرارٌ ، وشُؤْمُ شركِهم يحولُ بينهم وبين الإنصاف . .

وكذلك من لا يحترمون اولياء الله ، ويُصِرُّونَ على إنكارهم ، ويعترضون عليهم بقلوبهم ، ويجادلون في جَحْدِ الكرامات ، وما يخصُّ اللَّهُ به عباده من الآيات . . فهؤلاء يميزون بين رجحانهم ونقصانهم ، وسيفتضحون كثيراً .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ

كذلك مَنْ انقرض مِنَ الكفار كان تكذيبُ الرُّسُلِ دَأْبَهم ، ولكنَّ الله –سبحانه– انتقم منهم ، وعلى كُفْرِهم احترمهم .

والمُنْكِرُ لهذا الطريق يدين بإنكاره ، ويتقرّبُ إلى الله به ، ويعد وقيعته في أولياء الله من جملة إحسانه وخيراته ، ولكن الله – سبحانه – يعذبهم في العاجل بتخليتهم فيما هم فيه ، وصَدِّ قلوبهم عن هذه المعاني ، وحرمانهم منها .

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (6)

إذا انختم على عبدٍ حُكْمُ الله بشقاوته فلا تنفعه كَثْرَةُ ما يورَدُ عليه من النُّصح . والله على أمره غالبٌ . ومَنْ أَسَرَتْه يَدُ الشقاوة فلا يُخَلِّصُه مِنْ مخالبها جُهْدٌ ولا سعاية . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 295.296 ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة عرضت أهل الكفر والضلال ، وربطت بينهم بتلك الجامعة التي تجمعهم على الباطل ، لمحاربة الحق ، والوقوف فى وجه دعاته ، وأخذهم بالبأساء والضراء . . فهم أحزاب متناصرة على الشر ، متساندة فى حجب الهدى عن أبصارهم . .

وفى قوله تعالى : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ . . الآية » عرض لجبهة الخير ، وأرباب الهدى . . وأنهم أحزاب متناصرة على الحق ، متعاونة على البر والتقوى ، يأخذ بعضهم بيد بعضهم بيد بعض إلى ما يرضى اللّه ، وينزلهم منازل رحمته ورضوانه . .

فالملائكة ، وهم من عالم غير عالم البشر ، تصلهم بالمؤمنين المتقين صلات وثيقة من المودة والألفة ، وتجمعهم على طريق واحد ، هو الطريق المتجه إلى اللّه . .

وإذا كان الملائكة - وهم من عالم النور - أقرب إلى اللّه ، وأدنى من رحمته ورضوانه - فإنهم يستغفرون ربهم للذين آمنوا ، ويدعونه لهم ، ويطلبون إليه سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم ، وأن يدخلهم الجنة مع من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، لينعموا جميعا بما ينعم به الملائكة ،

(71/673)

وليكونوا رفقاء لهم فى الملأ الأعلى ، يأنسون بهم ، ويسعدون بصحبتهم . .

وفى قوله تعالى : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ » - إشارة إلى أن الملائكة وهم أقرب المقربين إلى اللّه من خلقه ، لا يقطعهم ذلك عن التسبيح بحمده ، وهم فى أمن وعافية وسلام . . بل إنهم لأكثر خلق اللّه تسبيحا للّه ، وحمدا له ، لأنه أعرف بجلاله وعظمته .

وفى قوله تعالى : « وَيُؤْمِنُونَ بِهِ » - إشارة إلى تلك الصلة الجامعة التي تصلهم بالمؤمنين ، وهى الإيمان باللّه . . ومن هنا كان دعاؤهم للمؤمنين ، واستغفارهم له . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » (10 : الحجرات) . . ويقول سبحانه : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » (71 : التوبة) . .

وقد علّم اللّه المؤمنين أن يدعو بعضهم لبعض ويستغفر بعضهم لبعض ، إذ يقول سبحانه على لسانهم كما علمهم : « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ » (10 : الحشر) .

وفى قوله تعالى : « رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً » هو من تسبيح الملائكة للّه ، ومن استمطارهم من واسع رحمته للمؤمنين . . فمن رحمة اللّه التي وسعت كل شىء ، يطلب الملائكة الرحمة للمؤمنين ، الذين تابوا واتبعوا سبيل اللّه بالإيمان به . .

وفى قرن الرحمة بالعلم ، إشارة إلى أن رحمة اللّه إنما تقع حيث علم اللّه موقعها من عباده . .

(72/673)

وفى قوله تعالى : « وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » . إشارة إلى أنه لا يلحق بأهل الصلاح إلا الصالحون ، وأنه لا نسب بينهم أوثق من هذا النسب ، الذي يجمع بينهم فى جنات النعيم . .

وقوله تعالى : « وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ » أي ادفع عنهم السيئات ، وباعد بينهم وبينها ، بالمغفرة ، والمحو ، حتى إذا حوسبوا لم يكن فى ميزان حسابهم ما يثقله من سيئات . .

وقوله تعالى : « وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ » . . أي أن مغفرة السيئات والتجاوز عنها ، إنما هو رحمة من رحمة اللّه الذي وسع كل شيء رحمة وعلما . .

وقوله تعالى : « وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » . الإشارة إلى غفران السيئات والوقاية من شرها . . فمن وقى الشر فقد فاز فوزا عظيما ، واللّه سبحانه وتعالى يقول : « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » (185 : آل عمران) . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 12 صـ 1208 . 1210 ﴾

(73/673)

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين عداوة الكفار للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم ـ رضى الله عنه ـ م بقوله : ﴿ وما يجادل في آيات الله ﴾ ما بعده ، وكان ذلك أمراً غائظاً محزناً موجعاً ، وختم ذلك ببيان حقوق كلمة العذاب عليهم تسلية لمن عادوهم فيه سبحانه ، زاد في تسليتهم شرحاً لصدورهم وتثبيتاً لقلوبهم ببيان ولاية الملائكة المقربين لهم مع كونهم أخص الخلق بحضرته سبحانه وأقربهم من محل أنسه وموطن قدسه وبيان حقوق رحمته للذين آمنوا بدعاء أهل حضرته لهم فقال ، أو يقال : إنه لما بين حقوق كلمة العذاب ، كان كأنه قيل : فكيف النجاة ؟ قيل : بايقاع الإيمان بالتوبة عن الكفران ليكون موقعه أهلاً للشفاعة فيه من أهل الحضرة العلية ، فيغفر له إن تاب ما قدم من الكفر ، فقال مظهراً لشرف الإيمان وفضله : ﴿ الذين يحملون العرش ﴾ وهم المقربون وهم أربعة كما يذكر إن شاء الله تعالى في الحاقه ، فإذا كانت القيامة كانوا ثمانية ، وهل هم أشخاص أو صفوف فيه كلام يذكر إن شاء الله تعالى ﴿ ومن حوله ﴾ وهم جميع الملائكة وغيرهم ممن ربما أراد الله كونه محيطاً به كما تقدم في التي قبلها ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾ أي طائفين به ، فأفادت هذه العبارة النص على الجميع مع تصوير العظمة .

(74/673)

ولما كان ربما وقع في وهم أنه سبحانه محتاج إلى حملهم لعرشه أو إلى عرشه أو إلى شيء ، نبه بالتسبيح على أنه غنيّ عن كل شيء وأن المراد بالعرش والحملة ونحو ذلك إظهار عظمته لنا في مثل محسوسة لطفاً منه بنا تنزلاً إلى ما تسعه عقولنا وتحمله أفهامنا ، فقال مخبراً عن المبتدأ وما عطف عليه : ﴿ يسبحون ﴾ أي ينزهون أي يوقعون تنزيهه سبحانه عن كل شائبة نقص ملتبسين ﴿ بحمد ﴾ وصرف القول إلى ضميرهم إعلاماً بأن الكل عبيده من العلويين والسفليين القريب والبعيد ، وكائنون تحت تصرفه وقهره ، وإحسانه وجبره ، فقال : ﴿ ربهم ﴾ أي باحاطة المحسن إليهم بأوصاف الكمال .

ولما كان تعالى باطناً لا يحيط أحد به علماً ، أشار إلى أنهم مع أنهم أهل الحضرة هم من وراء حجاب الكبر وأردية العظمة ، لا فرق بينهم في ذلك وبين ما هو في الأرض السفلى بقوله : ﴿ ويؤمنون به ﴾ لأن الإيمان إنما يكون بالغيب .

ولما كانوا لقربهم أشد الخلق خوفاً لأنه على قدر القرب من تلك الحضرات يكون الخوف ، فهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة ، وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من أهل السماء السادسة وهكذا ، وكانوا قد علموا من تعظيم الله تعالى للنوع الإنساني ما لم يعلمه غيرهم لأمره سبحانه لهم بتعظيمه بما اختص به سبحانه من السجود ، وكان من أقرب ما يقترب به إلى الملك التقرب إلى أهل وده ، نبه سبحانه على ذلك كله بقوله :

﴿ ويستغفرون ﴾ أي يطلبون محو الذنوب أعياناً وآثاراً .

ولما كان الاشتراك في الإيمان أشد من الاتحاد في النسب ، قال دالاً على أن الاتصاف بذلك يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة وأبعثه على إمحاض الشفقة : ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي أوقعوا هذه الحقيقة لما بينهم من أخوة الإيمان ومجانسته وإن اختلف جنسهم في حقيقة التركيب وإن وقع منهم بعد ذلك خلل يحق عليهم الكلمة لولا العفو ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ "لن يدخل أحد الجنة بعمله" .

(75/673)

ولما ذكر استغفارهم بين عبارتهم عنه بقوله : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا بالإيمان وغيره .

ولما كان المراد بيان اتساع رحمته سبحانه وعلمه ، وكان ذلك أمراً لا يحتمله العقول ، عدل إلى أسلوب التمييز تنبيهاً على ذلك مع ما فيه من هز السامع وتشويقه بالإبهام إلى الإعلام فقال : ﴿ وسعت كل شيء ﴾ ثم بين جهة التوسع بقوله تميزاً محولاً عن الفاعل :

﴿ رحمة ﴾ أي رحمتك أي بإيجاده من العدم فما فوق ذلك ﴿ وعلماً ﴾ أي وأحاط بهم علمك ، فمن أكرمته فعن علم بما جلبته عليه مما يقتضي إهانة أو إكراماً .

ولما كان له سبحانه أن يفعل ما يشاء من تعذيب الطائع وتنعيم العاصي وغير ذلك ، قالوا

منبهين على ذلك : ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ أي رجعوا إليك عن ذنوبهم برحمتك لهم بأن تمحوا أعيانها وآثارها ، فلا عقاب ولا عتاب ولا ذكر لها ﴿ واتبعوا ﴾ أي كلفوا أنفسهم على ما لها من العوج أن لزموا ﴿ سبيلك ﴾ المستقيم الذي لا لبس فيه .

ولما كان الغفران قد يكون لبعض الذنوب ، وكان سبحانه له أن يعذب من لا ذنب له ، وأن يعذب من غفر ذنبه قالوا : ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي اجعل بينهم وبينه وقاية بأن تلزمهم الاستقامة وتتم نعمتك عليهم ، فإنك وعدت من كان كذلك بذلك ، ولا يبدل القول لديك ، وإن كان يجوز أن تفعل ما تشاء .

ولما كانت النجاة من العذاب لا تستلزم الثواب ، قالوا مكررين صفة الإحسان زيادة في الرقة في طلب الامتنان : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا بتوفيق أحبابنا الذين لذذونا بالمشاركة في عبادك بالجنان واللسان والأركان ﴿ وأدخلهم جنات عدن ﴾ أي إقامة لا عناد فيها .

ولما كانوا عالمين بأن سبحانه لا يجب عليه لأحد شيء ولا يقبح منه شيء ، نبهوا على ذلك بقولهم : ﴿ التي وعدتهم ﴾ مع الزيادة في التملق واللطافة في الحث وإدخالهم لأجل استعمالك إياهم الصالحات .

ولما كان الإنسان لا يطيب له نعيم دون أن يشاركه فيه أحبابه الذين كانوا يشاركونه في العبادة قالوا مقدمين أحق الناس بالإجلال : ﴿ ومن صلح من آبائهم ﴾ ثم أتبعوهم ألصقهم بالبال فقالوا : ﴿ وأزواجهم وذرياتهم ﴾ .

ولما كان فاعل هذا منا ربما نسب إلى ذل أو سفه ، وربما عجز عن الغفران لشخص لكثرة المعارضين ، عللوا بقولهم مؤكدين لأجل نسبة الكفار العز إلى غيره ، ومن ذلك تسميتهم العزى : ﴿ إنك أنت ﴾ أي وحدك ﴿ العزيز ﴾ فأنت تغفر لمن شئت غير منسوب إلى وهن ﴿ الحكيم ﴾ فكل فعل لك في أتم مواضعه فلذلك لا يتهيأ لأحد نقضه ولا نقصه .

(77/673)

ولما كان الإنسان قد يغفر له ويكرم ، وفيه من الأخلاق ما ربما حمله على بعض الأفعال الناقصة دعوا لهم بالكمال فقالوا : ﴿ وقهم السيئات ﴾ أي بأن تجعل بينهم وبينها وقاية بأن تطهرهم من الأخلاق الحاملة عليها بتطهير القلوب بنزع كل ما يكره منها أو بأن يغفرها لهم ولا يجازيهم عليها ، وعظموا هذه الطهارة ترغيباً في حمل النفس في هذه الدار على لزومها بقمع النفوس وإماتة الحظوظ بقولهم : ﴿ ومن تق السيئات ﴾ أي جزاءها كلها ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم إذ تدخل فريقاً الجنة وفريقاً النار المسببة عن السيئات أو إذ تزلف

الجنة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين : ﴿ فقد رحمته ﴾ أي الرحمة الكاملة التي لا يستحق غيرها أن يسمى معها رحمة ، فإن تمام النعيم لا يكون إلا بها لزوال التحاسد والتباغض والنجاة من النار باجتناب السيئات ولذلك قالوا : ﴿ وذلك ﴾ أي الأمر العظيم جداً ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الفوز العظيم ﴾ فالآية من الاحتباك : ذكر إدخال الجنات أولاً دليلاً على حذف النجاة من النار ثانياً ، ووقاية السيئات ثانياً دليلاً على التوفيق للصالحات أولاً ، وسر ذلك التشويق إلى المحبوب – وهو الجنان – بعمل المحبوب – وهو الصالح – والتنفير من النيران باجتناب الممقوت من الأعمال ، وهو السيء فذكر المسبب أولاً وحذف السبب لأنه لا سبب في الحقيقة إلا الرحمة ، وذكر السبب ثانياً في إدخال النار وحذف المسبب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 487 . 490 ﴾

(78/673)

فصل

قال الفخر :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن الكفار يبالغون في إظهار العداوة مع المؤمنين ، بيّن أن أشرف

طبقات المخلوقات هم الملائكة الذين هم حملة العرش والحافون حول العرش يبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين ، كأنه تعالى يقول إن كان هؤلاء الأراذل يبالغون في العداوة فلا تبال بهم ولا تلتفت إليهم ولا تقم لهم وزناً ، فإن حملة العرش معك والحافون من حول العرش معك ينصرونك وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى حكى عن نوعين من فرق الملائكة هذه الحكاية :

(79/673)

القسم الأول : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش ﴾ وقد حكى تعالى أن الذين يحملون العرش يوم القيامة ثمانية ، فيمكن أن يقال الذين يحملون في هذا الوقت هم أولئك الثمانية الذين يحملونه يوم القيامة ، ولا شك أن حملة العرش أشراف الملائكة وأكابرهم ، روى صاحب "الكشاف" أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تتفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله تعالى من الملائكة فإن خلقاً من الملائكة يقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله ، وقدماه في الأرض السفلى ، وقد مرق رأسه من سبع سموات

وإنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوضع " قيل إنه طائر صغير ، وروي أن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدو ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة ، وقيل خلق الله العرش من جوهرة خضراء ، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام ، وقيل حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ، ما منهم أحد إلا ويسبح بما لا يسبح به الآخر ، هذه الآثار نقلتها من "الكشاف" .

(80/673)

وأما القسم الثاني : من الملائكة الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآية فقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ والأظهر أن المراد منهم ما ذكره في قوله ﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر : 75] وأقول العقل يدل على أن حملة العرش ، والحافين حول العرش يجب أن يكونوا أفضل الملائكة ، وذلك لأن نسبة الأرواح إلى الأرواح كنسبة الأجساد إلى الأجساد ، فلما كان العرش أشرف الموجودات الجسمانية كانت الأرواح المتعلقة بتدبير العرش يجب أن تكون أفضل من الأرواح المدبرة للأجساد ، وأيضاً يشبه أن

يكون هناك أرواح حاملة لجسم العرش ثم يتولد عن تلك الأرواح القاهرة المستعلية لجسم العرش أرواح أُخر من جنسها ، وهي متعلقة بأطراف العرش وإليهم الإشارة بقوله ﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ﴾ [الزمر : 75] وبالجملة فقد ظهر بالبراهين اليقينية ، وبالمكاشفات الصادقة أنه لا نسبة لعالم الأجساد ، إلى عالم الأرواح فكل ما شاهدته بعين البصر في اختلاف مراتب عالم الأجساد ، فيجب أن تشاهده بعين بصيرتك في اختلاف مراتب عالم الأرواح .

المسألة الثانية :

دلت هذه الآية على أنه سبحانه منزّه عن أن يكون في العرش ، وذلك لأنه تعالى قال في هذه الآية ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش ﴾ وقال في آية أخرى ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثمانية ﴾ [الحاقة : 17] ولا شك أن حامل العرش يكون حاملاً لكل من في العرش ، فلو كان إله العالم في العرش لكان هؤلاء الملائكة حاملين لإله العالم فحينئذ يكونون حافظين لإله العالم والحافظ القادر أولى بالإلهية والمحمول المحفوظ أولى بالعبودية ، فحينئذ ينقلب الإله عبداً والعبد إلها ، وذلك فاسد ، فدل هذا على أن إله العرش والأجسام متعال عن العرش والأجسام .

واعلم أنه تعالى حكى عن حملة العرش ، وعن الحافين بالعرش ثلاثة أشياء :

النوع الأول : قوله ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ونظيره قوله حكاية عن الملائكة ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ [البقرة : 30] وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الملائكة حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر : 75] فالتسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي ، والتحميد الاعتراف بأنه هو المنعم على الإطلاق ، فالتسبيح إشارة إلى الجلال والتحميد إشارة إلى الإكرام ، فقوله ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ قريب من قوله ﴿ تبارك اسم رَبِّكَ ذِى الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 78] .

النوع الثاني : مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة هو قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ فإن قيل فأي فائدة في قوله ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ فإن الاشتغال بالتسبيح والتحميد لا يمكن إلا وقد سبق الإيمان بالله ؟ قلنا الفائدة فيه ما ذكره صاحب "الكشاف" ، وقد أحسن فيه جداً فقال إن المقصود منه التنبيه على أن الله تعالى لو كان حاضراً بالعرش لكان حملة العرش والحافون حول العرش يشاهدونه ويعاينونه ، ولما كان إيمانهم بوجود الله موجباً للمدح والثناء لأن الإقرار بوجود شيء حاضر مشاهد معاين لا يوجب المدح والثناء ، ألا ترى أن الإقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لا يوجب المدح والثناء ، فلما ذكر الله تعالى إيمانهم بالله على سبيل الثناء والمدح والتعظيم ، علم أنهم آمنوا به بدليل أنهم ما شاهدوه حاضراً

جالساً هناك ، ورحم الله صاحب "الكشاف" فلو لم يحصل في كتابه إلا هذه النكتة لكفاه فخراً وشرفاً .

(82/673)

النوع الثالث : مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ اعلم أنه ثبت أن كمال السعادة مربوط بأمرين : التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، ويجب أن يكون التعظيم لأمر الله مقدماً على الشفقة على خلق الله فقوله ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ مشعر بالتعظيم لأمر الله وقوله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ مشعر بالشفقة على خلق الله .

ثم في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(83/673)

احتج كثير من العلماء بهذه الآية في إثبات أن الملك أفضل من البشر ، قالوا لأن هذه الآية تدل على أن الملائكة لما فرغوا من ذكر الله بالثناء والتقديس اشتغلوا بالاستغفار لغيرهم وهم المؤمنون ، وهذا يدل على أنهم مستغنون عن الاستغفار لأنفسهم إذ لو كانوا محتاجين إليه لقدموا الاستغفار لأنفسهم على الاستغفار لغيرهم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : " ابدأ بنفسك " وأيضاً قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إلا الله واستغفر لذَنبكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ [محمد : 19] فأمر محمداً أن يذكر أولاً الاستغفار لنفسه ، ثم بعده يذكر الاستغفار لغيره ، وحكى عن نوح عليه السلام أنه قال : ﴿ رَبّ اغفر لِى ولوالدى وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ [نوح : 28] وهذا يدل على أن كل من كان محتاجاً إلى الاستغفار فإنه يقدم الاستغفار لنفسه على الاستغفار لغيره ، فالملائكة لو كانوا محتاجين إلى الاستغفار لكان اشتغالهم بالاستغفار لأنفسهم مقدماً على اشتغالهم بالاستغفار لغيرهم ، ولما لم يذكر الله تعالى عنهم استغفارهم لأنفسهم علمنا أن ذلك إنما كان لأنهم ما كانوا محتاجين إلى الاستغفار ، وأما الأنبياء عليهم السلام فقد كانوا محتاجين إلى استغفار بدليل قوله تعالى لمحمد عليه السلام ﴿ واستغفر لِذَنبكَ ﴾ وإذا ثبت هذا فقد ظهر أن الملك أفضل من البشر ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

احتج الكعبي بهذه الآية على أن تأثير الشفاعة في حصول زيادة الثواب للمؤمنين لا في إسقاط العقاب عن المذنبين ، قال وذلك لأن الملائكة قالوا ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ قال وليس المراد فاغفر للذين تابوا من الكفر سواء كان مصراً على الفسق أو لم يكن كذلك ، لأن من هذا حاله لا يوصف بكونه متبعاً سبيل ربه ولا يطلق ذلك فيه ، وأيضاً إن الملائكة يقولون ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ التى وَعَدْتَّهُمْ ﴾ وهذا لا يليق بالفاسقين ، لأن خصومنا لا يقطعون على أن الله تعالى وعدهم الجنة وإنما يجوزون ذلك ، فثبت أن شفاعة الملائكة لا يتناول إلا أهل الطاعة ، فوجب أن تكون شفاعة الأنبياء كذلك ، ضرورة أنه لا قائل بالفرق والجواب أن نقول هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملائكة المذنبين ، فنبين هذا ثم نجيب عما ذكره الكعبي ، أما بيان دلالة هذه الآية على ما قلناه فمن وجوه الأول : قوله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ والاستغفار طلب المغفرة ، والمغفرة لا تذكر إلا في إسقاط العقاب .

(85/673)

أما طلب النفع الزائد فإنه لا يسمى استغفاراً الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ وهذا يدل على أنهم يستغفرون لكل أهل الإيمان ، فإذا دللنا على أن صاحب الكبيرة مؤمن وجب دخوله تحت هذه الشفاعة الثالث : قوله تعالى : ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ طلب المغفرة للذين تابوا ، ولا يجوز أن يكون المراد إسقاط عقوبة الكبيرة بعد التوبة ، لأن ذلك واجب على الله عند الخصم ، وما كان فعله واجباً كان طلبه بالدعاء قبيحاً ، ولا يجوز أيضاً أن يكون المراد إسقاط عقوبة الصغائر ، لأن ذلك أيضاً واجب فلا يحسن طلبه بالدعاء ، ولا يجوز أن يكون المراد طلب زيادة منفعة على الثواب ، لأن ذلك لا يسمى مغفرة ، فثبت أنه لا يمكن حمل قوله ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ إلا على إسقاط عقاب الكبيرة قبل التوبة ، وإذا ثبت هذا في حق الملائكة فكذلك في حق الأنبياء لانعقاد الإجماع على أنه لا فرق ، أما الذي يتمسك به الكعبي وهو أنهم طلبوا المغفرة للذين تابوا ، فنقول يجب أن يكون المراد منه الذين تابوا عن الكفر واتبعوا سبيل الإيمان ، وقوله إن التائب عن الكفر المصر على الفسق لا يسمى تائباً ولا متبعاً سبيل الله ، قلنا لا نسلم قوله ، بل يقال إنه تائب عن الكفر وتابع سبيل الله في الدين والشريعة ، وإذا ثبت أنه تائب عن الكفر ثبت أنه تائب ، ألا ترى أنه يكفي في صدق وصفه بكونه ضارباً وضاحكاً صدور الضرب والضحك عنه مرة واحدة ، ولا يتوقف ذلك على صدور كل أنواع الضرب والضحك عنه فكذا ههنا .

المسألة الثالثة :

قال أهل التحقيق : إن هذه الشفاعة الصادرة عن الملائكة في حق البشر تجري مجرى اعتذار عن ذلة سبقت ، وذلك لأنهم قالوا في أول تخليق البشر ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدماء ﴾ [البقرة : 30] فلما سبق منهم هذا الكلام تداركوا في آخر الأمر بأن قالوا ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ وهذا كالتنبيه على أن من آذى غيره ، فالأولى أن يجبر ذلك الإيذاء بإيصال نفع عليه .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الملائكة أنهم يستغفرون للذين تابوا ، بيّن كيفية ذلك الاستغفار ، فحكى عنهم أنهم قالوا ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن الدعاء في أكثر الأمر مذكور بلفظ ﴿ رَبَّنَا ﴾ ويدل عليه أن الملائكة عند الدعاء قالوا ﴿ رَبَّنَا ﴾ بدليل هذه الآية ، وقال آدم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف : 23] وقال نوح عليه السلام ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ [هود : 47] وقال أيضاً : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ [نوح : 5] وقال أيضاً : ﴿ رَّبِّ اغفر لِي ولوالدي ﴾ [نوح : 28] وقال عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الموتى ﴾ [البقرة : 260] وقال : ﴿ رَبَّنَا اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ [إبراهيم : 41] وقال : ﴿ رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة : 128] وقال عن يوسف ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الملك ﴾ [يوسف : 101] وقال عن موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 143] وقال في قصة الوكز ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغفر لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾

(88/673)

[القصص : 16 ، 17] وحكى تعالى عن داود ﴿ فاستغفر رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [ص : 24] وعن سليمان أنه قال : ﴿ رَبِّ اغفر لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً ﴾ [ص : 35] وعن

زكريا أنه ﴿ نادى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً ﴾ [مريم : 3] وعن عيسى عليه السلام أنه قال : ﴿ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السماء ﴾ [المائدة : 114] وعن محمد صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى قال له : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشياطين ﴾ [المؤمنون : 97] وحكى عن المؤمنون أنهم قالوا ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا ﴾ [آل عمران : 191] وأعادوا هذه اللفظة خمس مرات ، وحكى أيضاً عنهم أنهم قالوا ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المصير ﴾ [البقرة : 285] إلى آخر السورة .

فثبت بما ذكرنا أن من أرضى الدعاء أن ينادي العبد ربه بقوله يا رب وتمام الإشكال فيه أن يقال لفظ الله أعظم من لفظ الرب ، فلم صار لفظ الرب مختصاً بوقت الدعاء ؟ ، والجواب كأن العبد يقول : كنت في كتم العدم المحض والنفي الصرف ، فأخرجتني إلى الوجود ، وربيتني فاجعل تربيتك لي شفيعاً إليك في أن لا تخليني طرفة عين عن تربيتك وإحسانك وفضلك .

المسألة الثانية :

السنة في الدعاء ، يبدأ فيه بالثناء على الله تعالى ، ثم يذكر الدعاء عقيبه ، والدليل عليه هذه الآية ، فإن الملائكة لما عزموا على الدعاء والاستغفار للمؤمنين بدأوا بالثناء فقالوا ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ وأيضاً أن الخليل عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء ذكر الثناء أولاً فقال : ﴿ الذى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * والذى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والذى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين ﴾ [الشعراء : 78 82] فكل هذا ثناء على الله تعالى ، ثم بعده ذكر الدعاء فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ [الشعراء : 83] .

واعلم أن العقل يدل أيضاً على رعاية هذا الترتيب ، وذلك ذكر الله بالثناء والتعظيم بالنسبة إلى جوهر الروح كالإكسير الأعظم بالنسبة إلى النحاس ، فكما أن ذرة من الإكسير إذا وقعت على عالم من النحاس انقلب الكل ذهباً إبريزاً فكذلك إذا وقعت ذرة من إكسير معرفة جلال الله تعالى على جوهر الروح النطقية ، انقلب من نحوسة النحاسة إلى صفاء القدس وبقاء عالم الطهارة ، فثبت أن عند إشراق نور معرفة الله تعالى في جواهر الروح ، يصير الروح أقوى صفاء وأكمل إشراقاً ، ومتى صار كذلك كانت قوته أقوى وتأثيره أكمل ، فكان حصول الشيء المطلوب بالدعاء أقرب وأكمل ، وهذا هو السبب في تقديم الثناء على الله على الدعاء .

المسألة الثالثة :

اعلم أن الملائكة وصفوا الله تعالى بثلاثة أنواع من الصفات : الربوبية والرحمة والعلم ، أما الربوبية فهي إشارة إلى الإيجاد والإبداع ، وفيه لطيفة أخرى وهي أن قولهم ﴿ رَبَّنَا ﴾ إشارة إلى التربية ، والتربية عبارة عن إبقاء الشيء على أكمل أحواله وأحسن صفاته ، وهذا يدل على أن هذه الممكنات ، كما أنها محتاجة حال حدوثها إلى إحداث الحق سبحانه وتعالى وإيجاده ، فكذلك إنها محتاجة حال بقائها إلى إبقاء الله ، وأما الرحمة فهي إشارة إلى أن جانب الخير والرحمة والإحسان راجح على جانب الضر ، وأنه تعالى إنما خلق الخلق للرحمة والخير ، لا للاضرار والشر ، فإن قيل قوله ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ فيه سؤال ، لأن العلم وسع كل شيء ، أما الرحمة فما وصلت إلى كل شيء ، لأن المضرور حال وقوعه في الضر لا يكون ذلك الضرر رحمة ، وهذا السؤال أيضاً مذكور في قوله

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : 156] قلنا كل وجود فقد نال من رحمة الله تعالى نصيباً وذلك لأن الموجود إما واجب وإما ممكن ، أما الواجب فليس إلا الله سبحانه وتعالى ، وأما الممكن فوجوده من الله تعالى وبإيجاده ، وذلك رحمة ، فثبت أنه لا موجود غير الله إلا وقد وصل إليه نصيب ونصاب من رحمة الله ، فلهذا قال : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ وفي الآية دقيقة أخرى ، وهي أن الملائكة قدموا ذكر الرحمة على ذكر العلم فقالوا ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ وذلك لأن مطلوبهم إيصال الرحمة وأن يتجاوز عما عليه منهم من أنواع الذنوب ، فالمطلوب بالذات هو الرحمة ، والمطلوب بالعرض أن يتجاوز عما علمه منهم ، والمطلوب بالذات مقدم على المطلوب بالعرض ، ألا ترى أنه لما كان إبقاء الصحة مطلوباً بالذات وإزالة المرض مطلوباً بالعرض لا جرم لما ذكروا حد الطب قدموا فيه حفظ الصحة على إزالة المرض ، فقالوا الطب علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصلح ويزول عن الصحة لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زائلة ، فكذا ههنا المطلوب بالذات هو الرحمة ، وأما التجاوز عما علمه منهم من أنواع الذنوب فهو مطلوب بالعرض ، لأجل أن حصول الرحمة على سبيل الكمال لا يحصل إلا بالتجاوز عن الذنوب ، فلهذا السبب وقع ذكر الرحمة سابقاً على ذكر العلم .

المسألة الرابعة :

دلت هذه الآية على أن المقصود بالقصة الأولى في الخلق والتكوين إنما هو الرحمة والفضل والجود والكرم ، ودلت الدلائل اليقينية على أن كل ما دخل في الوجود من أنواع الخير والشر والسعادة والشقاوة فبقضاء الله وقدره ، والجمع بين هذين الأصلين في غاية الصعوبة ، فعند هذا قالت الحكماء : الخير مراد مرضي ، والشر مراد مكروه ، والخير مقضي به بالذات ، والشر مقضي به باللعرض ، وفيه غور عظيم .

المسألة الخامسة :

(92/673)

قوله ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ يدل على كونه سبحانه عالماً بجميع المعلومات التي لا نهاية لها من الكليات والجزئيات ، وأيضاً فلولا ذلك لم يكن في الدعاء والتضرع فائدة لأنه إذا جاز أن يخرج عن علمه بعض الأشياء ، فعلى هذا التقدير لا يعرف هذا الداعي أن الله سبحانه يعلمه ويعلم دعاءه وعلى هذا التقدير لا يبقى في الدعاء فائدة ألبتة .

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم كيفية ثنائهم على الله تعالى حكى عنهم كيفية دعائهم ، وهو أنهم قالوا ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ واعلم أن الملائكة طلبوا بالدعاء من الله تعالى أشياء كثيرة للمؤمنين ، فالمطلوب الأول الغفران وقد سبق

تفسيره في قوله ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ فإن قيل لا معنى للغفران إلا إسقاط العذاب ، وعلى هذا التقدير فلا فرق بين قوله : فاغفر لهم ، وبين قوله ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ قلنا دلالة لفظ المغفرة على إسقاط عذاب الجحيم دلالة حاصلة على الرمز والإشارة ، فلما ذكروا هذا الدعاء على سبيل الرمز والإشارة أردفوه بذكره على سبيل التصريح لأجل التأكيد والمبالغة ، واعلم أنهم لما طلبوا من الله إزالة العذاب عنهم أردفوه بأن طلبوا من الله إيصال الثواب إليهم فقالوا ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ التى وَعَدْتَّهُمْ ﴾ فإن قيل أنتم زعمتم أن هذه الشفاعة إنما حصلت للمذنبين وهذه الآية تبطل ذلك لأنه تعالى ما وعد المذنبين بأن يدخلهم في جنّات عدن ، قلنا لا نسلم أنه ما وعدهم بذلك ، لأنا بينا أن الدلائل الكثيرة في القرآن دلّت على أنه تعالى لا يخلد أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله في النار ، وإذا أخرجهم من النار وجب أن يدخلهم الجنة فكان هذا وعداً من الله تعالى لهم بأن يدخلهم في جنّات عدن ، إما من غير دخول النار وإما بعد أن يدخلهم النار .

(93/673)

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءابَائِهِمْ وأزواجهم وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ يعني وأدخل معهم في الجنة هؤلاء الطوائف الثلاث ، وهم الصالحون من الآباء والأزواج والذريات ، وذلك لأن الرجل

إذا حضر معه في موضع عيشه وسروره أهله وعشيرته كان ابتهاجه أكمل ، قال الفرّاء والزجاج ﴿ مِنْ صالح ﴾ نصب من مكانين فإن شئت رددته على الضمير في قوله ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ ﴾ وإن شئت في ﴿ وَعَدْتَّهُمْ ﴾ والمراد من قوله ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ أهل الإيمان ، ثم قالوا : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ وإنما ذكروا في دعائهم هذين الوصفين لأنه لو لم يكن عزيزاً بل كان بحيث يغلب ويمنع لما صح وقوع المطلوب منه ، ولو لم يكن حكيماً لما حصل هذا المطلوب على وفق الحكمة والمصلحة ، ثم قالوا بعد ذلك ﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ قال بعضهم المراد وقهم عذاب السيئات ، فإن قيل فعلى هذا التقدير لا فرق بين قوله ﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ وبين ما تقدم من قوله ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ وحينئذ يلزم التكرار الخالي عن الفائدة وإنه لا يجوز ، قلنا بل التفاوت حاصل من وجهين الأول : أن يكون قوله ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ دعاء مذكور للأصول وقوله ﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ دعاءً مذكوراً للفروع الثاني : أن يكون قوله ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ مقصوراً على إزالة الجحيم وقوله ﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ يتناول عذاب الجحيم وعذاب موقف القيامة وعذاب الحساب والسؤال .

(94/673)

والقول الثاني : في تفسير ﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ هو أن الملائكة طلبوا إزالة عذاب النار بقولهم ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ وطلبوا إيصال ثواب الجنة إليهم بقولهم ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ ﴾ ثم طلبوا بعد ذلك أن يصونهم الله تعالى في الدنيا عن العقائد الفاسدة ، والأعمال الفاسدة ، وهو المراد بقولهم ﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ ثم قالوا ﴿ وَمَن تَقِ السيئات يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ يعني ومن تق السيئات في الدنيا فقد رحمته في يوم القيامة ، ثم قالوا ﴿ وذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعيماً لا ينقطع ، وبأعمال حقيرة ملكاً لا تصل العقول إلى كنه جلالته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 28.34 ﴾

(95/673)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) ﴾

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور ، وتلك الأقوال كلها تترتب في قوله : ﴿ حم ﴾ ويختص هذا الموضع بقول آخر ، قاله الضحاك . والكسائي : إن ﴿ حم ﴾ هجاء " حُمَّ " بضم الحاء وشد الميم المفتوحة ، كأنه يقول : حُمَّ الأمر ووقع تنزيل الكتاب من الله .

وقال ابن عباس : ﴿ الر ﴾ [يونس : 1 ، هود : 1 ، إبراهيم : 1 ، يوسف : 1 ، الحجر : 1] و: ﴿ حم ﴾ [غافر : 1 ، فصلت : 1 ، الشورى : 1 ، الزخرف : 1 ، الدخان : 1 ، الجاثية : 1 ، الأحقاف : 1] و: ﴿ ن ﴾ [القلم : 1] هي حروف الرحمن مقطعة في سور ، وقال القرظي أقسم الله بحلمه وملكه . وسأل أعرابي النبي صلى الله عليه وسلم عن : ﴿ حم ﴾ ما هو ؟ فقال بدء أسماء وفواتح سور .

وقرأ ابن كثير : فتح الحاء ، وروي عن أبي عمرو : كسر الحاء على الإمالة ، وروي عن نافع : الفتح ، وروي عنه : الوسط بينهما ، وكذلك اختلف عن عاصم ، وروي عن عيسى كسر الحاء على الإمالة ، وقرأ جمهور الناس : " حَمْ " بفتح الحاء وسكون الميم ، وقرأ عيسى بن عمر أيضاً ﴿ حم ﴾ بفتح الحاء وفتح الميم الأخيرة في النطق ، ولذلك وجهان : أحدهما التحريك للالتقاء مع الياء الساكنة ، والآخر : حركة إعراب ، وذلك نصب بفعل مقدر تقديره : " اقرأ حم " ، وهذا على أن تجري مجرى الأسماء ، الحجة منه قول شريح بن أوفى العبسي : [الطويل]

يذكرني حم والرمح شاجر . . . فهلا تلا حم قبل التقدم

وقول الكميت : [الطويل]

وجدنا لكم في آل حم آية . . . تأولها منا تقيّ ومعرب

وقرأ أبو السمال : ﴿ حم ﴾ بفتح الحاء وكسر الميم الآخرة ، وذلك لالتقاء الساكنين .

و: ﴿ حم ﴾ آية: و: ﴿ تنزيل ﴾ رفع بالابتداء، والخبر في قوله: ﴿ من الله ﴾ وعلى القول بأن ﴿ حم ﴾ إشارة إلى حروف المعجم يكون قوله: ﴿ حم ﴾ خبر ابتداء: و: ﴿ الكتاب ﴾ القرآن.

(96/673)

وقوله: ﴿ غافر ﴾ بدل من المكتوبة، وإن أردت ب ﴿ غافر ﴾ المضي، أي غفرانه في الدنيا وقضاؤه بالغفران وستره على المذنبين، فيجوز أن يكون ﴿ غافر ﴾ صفة، لأن إضافته إلى المعرفة تكون محضة، وهذا مترجح جداً، وإذا أردت ب ﴿ غافر ﴾ الاستقبال أو غفرانه يوم القيامة فالإضافة غير محضة، و: ﴿ غافر ﴾ نكرة فلا يكون نعتاً، لأن المعرفة لا تنعت بالنكرة، وفي هذا نظر. وقال الزجاج: ﴿ غافر ﴾ ﴿ وقابل ﴾ صفتان. و: ﴿ شديد العقاب ﴾ بدل، و: ﴿ الذنب ﴾ اسم الجنس. وأما ﴿ التوب ﴾ فيحتمل أن يكون مصدراً كالعوم والنوم فيكون اسم جنس، ويحتمل أن يكون جمع توبة كتمرة وتمر، وساعة وساع. وقبول التوبة من الكافر مقطوع لإخبار الله تعالى، وقبول التوبة من العاصي في وجوبها قولان لأهل السنة، وحكى الطبري عن أبي بكر بن عياش أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: إني قتلت، فهل لي من توبة؟ فقال نعم، اعمل ولا

تيأس ، ثم قرأ هذه الآيات إلى ﴿ قابل التوب ﴾ .

و﴿ شديد العقاب ﴾ : صفة ، وقيل بدل . ثم عقب هذا الوعيد بوعد ثان في قوله : ﴿ ذي الطول ﴾ أي ذي التطول والمن بكل نعمة فلا خير إلا منه ، فترتب في الآية بين وعدين ، وهكذا رحمة الله تغلب غضبه .

قال القاضي أبو محمد : سمعت هذه النزعة من أبي رضي الله عنه ، وهي نحو من قول عمر رضي الله عنه : لن يغلب عسر يسرين يريد في قوله تعالى ﴿ فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ﴾ [الشرح : 5- 6] .

و: ﴿ الطول ﴾ الإنعام ، ومنه : حليت بطائل . وحكى الثعلبي عن أهل الإشارة أنه تعالى : ﴿ غافر الذنب ﴾ فضلاً ، ﴿ وقابل التوب ﴾ وعداً ، و﴿ شديد العقاب ﴾ عدلاً . وقال ابن عباس : ﴿ الطول ﴾ : السعة والغنى ، ثم صدع بالتوحيد في قوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ . وبالبعث والحشر في قوله : ﴿ إليه المصير ﴾ .

وقوله : ﴿ ما يجادل في آيات الله ﴾ يريد جدالاً باطلاً ، لأن الجدال فيها يقع من المؤمنين لكن في إثباتها وشرحها .

وقوله : ﴿ فلا يغررك ﴾ أنزله منزلة : " فلا يحزنك ولا يهمنك " ، لتدل الآية على أنهم ينبغي أن لا يغتروا بإملاء الله تعالى لهم ، فالخطاب له والإشارة إلى من يقع منه الاغترار ، ويحتمل أن يكون ﴿ يغررك ﴾ بمعنى تظن أن وراء تقلبهم وإمهالهم خيراً لهم فتقول عسى أن لا يعذبوا وحل الفعل من الإدغام لسكون الحرف الثاني ، وحيث هما متحركان لا يجوز الحل ، لا تقول زيد يغررك . و: ﴿ تقلبهم في البلاد ﴾ عبارة عن تمتعهم بالمساكين والمزارع والأسفار وغير ذلك . ثم مثل لهم بمن تقدمهم من الأمم ، أي كما حل بأولئك كذلك ينزل بهؤلاء . ﴿ الأحزاب ﴾ : يريد بهم عاداً وثمود أو أهل مدين وغيرهم ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : " برسولها " ، رداً على الأمة ، وضمير الجماعة هو على معنى الأمة لا على لفظها .

وقوله : ﴿ ليأخذوه ﴾ معناه ليهلكوه كما قال تعالى : ﴿ فأخذتهم ﴾ والعرب تقول للقتيل : أخيذ ، وللأسير كذلك ، ومنه قولهم : أكذب من الأخيذ الصبحان . وقال قتادة : ﴿ ليأخذوه ﴾ معناه : ليقتلوه . و ﴿ ليدحضوا ﴾ معناه : ليزلقوا وليذهبوا ، والمدحضة المزلة والمزلقة .

وقوله : ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ تعجيب وتعظيم ، وليس باستفهام عن كيفية وقوع الأمر .

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (6)

وفي مصحف عبد الله بن مسعود : "كذلك سبقت كلمة" . والمعنى : كما أخذت أولئك المذكورين فأهلكتهم فكذلك حقت كلماتي على جميع الكفار من تقدم منهم ومن تأخر أنهم أهل النار وسكانها .

وقرأ نافع وابن عامر : "كلمات" على الجمع ، وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر وابن نصاح وقرأ الباقون : "كلمة" على الإفراد وهي للجنس ، وهي قراءة أبي رجاء وقتادة ، وهذه كلها عبارة عن ختم القضاء عليهم .

وقوله : ﴿ أنهم ﴾ بدل من ﴿ كلمة ﴾ .

(98/673)

ثم أخبر تعالى بخبر يتضمن تشريف المؤمنين ويعظم الرجاء لهم ، وهو أن الملائكة الحاملين للعرش والذين حول العرش ، وهؤلاء أفضل الملائكة يستغفرون للمؤمنين ويسألون الله لهم الرحمة والجنة ، وهذا معنى قوله تعالى في غير هذه الآية : ﴿ كان على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ [الفرقان : 16] أي سألته الملائكة ، وفسر في هذه الآية المجمل الذي في قوله تعالى في غير هذه الآية ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ [الشورى : 5] لأنه معلوم أن الملائكة لا تستغفر لكافر ، وقد يجو أن يقال معنى ذلك أنهم يستغفرون للكفار ، بمعنى طلب

هدايتهم والمغفرة لهم بعد ذلك ، وعلى هذا النحو هو استغفار إبراهيم لأبيه واستغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم للمنافقين . وبلغني أن رجلاً قال لبعض الصالحين ادع لي واستغفر لي ، فقال له : تب واتبع سبيل الله يستغفر لك من هو خير مني ، وتلا هذه الآية .

وقال مطرف بن الشخير : وجدنا أنصح العباد للعباد الملائكة ، وأغش العباد للعباد الشياطين ، وتلا هذه الآية . وروى جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة سنة "

وقرأت فرقة : " العُرش " بضم العين ، والجمهور على فتحها .

وقوله تعالى : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ نصب الرحمة على التمييز وفيه حذف تقديره : يقولون ، ومعناه : وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ، وهذا نحو قولهم : تفقأت شحماً وتصببت عرقاً وطبت نفساً . وسبيل الله المتبعة : هي الشرائع .

وقرأ جمهور الناس : " جنات عدن " على جمع الجنات . وقرأ الأعمش في رواية المفضل : " جنة عدن " على الإفراد ، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود . والعدن : الإقامة .

وقوله : ﴿ ومن يصلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ روي عن سعيد بن جبير في تفسير ذلك : أن الرجل يدخل الجنة قبل قرابته فيقول : أي أبي ؟ أين أمي ؟ أين زوجتي ؟ فيلحقون به لصلاحهم ولتنبيهه عليهم وطلبه إياهم ، وهذه دعوة الملائكة : وقرأ عيسى بن عمر : " وذريتهم " بالإفراد .

وقوله : ﴿ وقهم ﴾ أصله أوقهم ، حذفت الواو اتباعاً لحذفها في المستقبل ، واستغني عن ألف الوصل لتحرك القاف ، ومعناه : اجعل لهم وقاية تقيهم ﴿ السيئات ﴾ ، واللفظ يحتمل أن يكون الدعاء في دفع العذاب اللاحق من ﴿ السيئات ﴾ ، فيكون في اللفظ على هذا حذف مضاف ، كأنه قال : وقهم جزاء السيئات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(100/673)

وقال القرطبى :

ثم ابتدأ فقال : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾

ويروى : أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش ، وهم

خشوع لا يرفعون طرفهم ، وهم أشراف الملائكة وأفضلهم .

ففي الحديث : " أن الله تبارك وتعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة " ويقال : خلق الله العرش من جوهرة خضراء ، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام .

وقيل : حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهلِّلين مكبِّرين ، ومن ورائهم سبعون ألف صفّ قيام ، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم ، ورافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ، ومن ورائهم مائة ألف صفّ ، قد وضعوا الأيمان على الشمائل ، ما منهم أحد إلا وهو يسبّح بما لا يسبّح به الآخر .

وقرأ ابن عباس : "الْعُرْشُ" بضم العين ؛ ذكر جميعه الزمخشري رحمه الله .

وقيل : اتصل هذا بذكر الكفار ؛ لأن المعنى والله أعلم ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ ينزهون الله عز وجل عما يقوله الكفار ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ أي يسألون لهم المغفرة من الله تعالى .

وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مُجَسَّم خلقه الله عز وجل ، وأمر ملائكة بحمله ، وتَعبَّدهم بتعظيمه والطواف به ؛ كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة .

وروى ابن طَهْمان ، عن موسى بن عقبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله

الأنصاري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسير سبعمائة عام " ذكره البيهقي وقد مضى في "البقرة" في آية الكرسي عظم العرش وأنه أعظم المخلوقات .

(101/673)

وروى ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن كعب الأحبار أنه قال : لما خلق الله تعالى العرش قال : لن يخلق الله خلقاً أعظم مني ؛ فاهتز فطوّقه الله بحية ، للحية سبعون ألف جناح ، في الجناح سبعون ألف ريشة ، في كل ريشة سبعون ألف وجه ، في كل وجه سبعون ألف فم ، في كل فم سبعون ألف لسان .

يخرج من أفواهها في كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر ، وعدد ورق الشجر ، وعدد الحصى والثرى ، وعدد أيام الدنيا ، وعدد الملائكة أجمعين ، فالتَوَت الحية بالعرش ، فالعرش إلى نصف الحية وهي ملتوية به .

وقال مجاهد : بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب ، حجاب نور وحجاب ظُلْمة ، وحجاب نور وحجاب ظلمة .

﴿ رَبَّنَا ﴾ أي يقولون ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ، فلما نقل الفعل عن الرحمة والعلم نصب على التفسير .

﴿ فاغفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ أي من الشرك والمعاصي ﴿ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ أي دين الإسلام .

﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ أي اصرفه عنهم حتى لا يصل إليهم .

قال إبراهيم النخعي : كان أصحاب عبد الله يقولون الملائكة خير من ابن الكَوَّاء ؛ هم يستغفرون لمن في الأرض وابن الكَوَّاء يشهد عليهم بالكفر ، قال إبراهيم : وكانوا يقولون لا يحجبون الاستغفار عن أحد من أهل القبلة .

وقال مطرِّف بن عبد الله : وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان ، وتلا هذه الآية .

وقال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية : افهموها فما في العالم جنة أرجى منها ؛ إن مَلَكاً واحداً لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم ، كيف وجميع الملائكة وحَمَلة العرش يستغفرون للمؤمنين .

(102/673)

وقال خلف بن هشام البزار القارىء : كنت أقرأ على سليم بن عيسى فلما بلغت : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ بكى ثم قال : يا خلف ! ما أكرم المؤمن على الله نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ يروى أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار : ما جنات عدن .

قال : قصور من ذهب في الجنة يدخلها النبيون والصديقون والشهداء وأئمة العدل .

﴿ التي وَعَدْتَّهُمْ ﴾ "التي" في محل نصب نعتاً للجنات .

﴿ وَمَن صَلَحَ ﴾ "مَنْ" في محل نصب عطفاً على الهاء والميم في قوله : "وَأَدْخِلْهُمْ" .

"وَمَنْ صَلَحَ" بالإيمان ﴿ مِنْ آبَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ وقد مضى في "الرعد" نظير هذه الآية .

قال سعيد بن جُبير : يدخل الرجل الجنة ، فيقول : يا رب أين أبي وجدّي وأمي ؟ وأين ولدي وولد ولدي ؟ وأين زوجاتي ؟ فيقال إنهم لم يعملوا كعملك ؛ فيقول : يا رب كنت أعمل لي ولهم ؛ فيقال أدخلوهم الجنة .

ثم تلا : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ .

ويقرب من هذه الآية قوله : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [

الطور : 21] .

قوله تعالى : ﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ قال قتادة : أي وقهم ما يسوءهم ، وقيل : التقدير وقهم عذاب السيئات وهو أَمْرٌ من وقاه الله يقيه وقاية بالكسر ؛ أي حفظه .

﴿ وَمَن تَقِ السيئات يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أي بدخول الجنة ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ أي النجاة الكبيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(103/673)

وقال الآلوسى :

﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش ﴾

وهو جسم عظيم له قوائم الكرسي وما تحته بالنسبة إليه كحلقة في فلاة .

وفي بعض الآثار خلق الله تعالى العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام .

وذكر بعضهم في سعته أنه لو مسح مقعره بجميع مياه الدنيا مسحاً خفيفاً لقصرت عن استيعابه ويزعم أهل الهيئة ومن وافقهم أنه كرى وأنه المحدد وفلك الأفلاك وأنه كسائر الأفلاك لا يوصف بثقل ولا خفة وليس لهم في ذلك خبر يعول عليه بل الأخبار ظاهرة في

خلافه .

والظاهر أن الحمل على حقيقته وحملته ملائكة عظام .

أخرج أبو يعلى .

وابن مردويه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أذن لي أن أحدث عن ملك قد مرقت رجلاه الألاض السابعة السفلى والعرش على منكبيه وهو يقول : سبحانك أين كنت وأين تكون " .

وأخرج أبو داود .

وجماعة بسند صحيح عن جابر بفظ " أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ما بين شحمة إذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " وهم على ما في بعض الآثار ثمانية .

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ .

والبيهقي في شعب الإيمان عن هارون بن رباب قال : حملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت رخيم يقول أربعة منهم سبحانك وبحمدك على حلمك بعد عفوك وأربعة منهم سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك .

وأخرج أبو الشيخ .

وابن أبي حاتم من طريق أبي قبيل أنه سمع ابن عمر رضي الله تعالى عنهما يقول : حملة

العرش ثمانية ما بين موق أحدهم إلى مؤخر عينيه مسيرة خمسمائة عام ، وفي بعض الآثار أنهم اليوم أربعة ويوم القيامة ثمانية .

(104/673)

أخرج أبو الشيخ عن وهب قال : حملة العرش أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدوا بأربعة آخرين ، ملك منهم في صورة إنسان يشفع لبني آدم في أرزاقهم ، وملك منهم في صورة نسر يشفع للطير في أرزاقهم ، وملك منهم في صورة ثور يشفع للبهائم في أرزاقهم ، وملك منهم في صورة أسد يشفع للسباع في أرزاقهم فلما حملوا العرش وقعوا على ركبهم من عظمة الله تعالى فلقنوا لا حول ولا قوة إلا بالله فاستووا قياماً على أرجلهم .

وجاء رواية عن وهب أيضاً أنهم يحملون العرش على أكتافهم وهو الذي يشعر به ظاهر خبر أبي هريرة السابق .

وأخرج ابن المنذر .

وأبو الشيخ عن حبان بن عطية قال : حملة العرش ثمانية أقدامهم مثبتة في الأرض السابعة ورؤوسهم قد جاوزت السماء السابعة وقرونهم مثل طولهم عليها العرش .

وفي بعض الآثار أنهم خشوع لا يرفعون طرفهم ، وفي بعض لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم

من شعاع النور ، وهم على ما أخرج ابن أبي شيبة عن أبي أمامة يتكلمون بالفارسية أي إذا تكلموا بغير التسبيح وإلا فالظاهر أنهم يسبحون بالعربية ، على أن الخبر الله تعالى أعلم بصحته ، وفي بعض الآثار عن وهب أنه ليس لهم كلام إلا أن يقولوا قدوس الله القوى ملأت عظمته السماوات والأرض ، وما سيأتي إن شاء الله تعالى بعيد هذا في الآية يأبى ظاهر الحصر ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ أي والذين من حول العرش وهم ملائكة في غاية الكثرة لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى .

وقيل : حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر .

(105/673)

وذكر في كثرتهم أن مخلوقات البر عشر مخلوقات البحر والمجموع عشر مخلوقات الجو والمجموع عشر ملائكة السماء الدنيا والمجموع عشر ملائكة السماء الثانية وهكذا إلى السماء السابعة والمجموع عشر ملائكة الكرسي والمجموع عشر الملائكة الحافين بالعرش ، ولا نسبة

بين مجموع المذكور وما يعلمه الله تعالى من جنوده سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر : 31] ويقال لحملة العرش والحافين به الكروبيون جمع كروبي بفتح الكاف وضم الراء المهملة المخففة وتشديدها خطأ ثم واو بعدها باء موحدة ثم ياء .

مشددة من كرب بمعنى قرب ، وقد توقف بعضهم في سماعه من العرب وأثبته أبو علي الفارسي واستشهد له بقوله

: كروبية منهم ركوع وسجد . . .

وفيه دلالة على المبالغة في القرب لصيغة فعول والياء التي تزاد للمبالغة ، وقيل : من الكرب بمعنى الشدة والحزن وكأن وصفهم بذلك لأنه أشد الملائكة خوفاً .

وزعم بعضهم أن الكروبيين حملة العرش وأنهم أول الملائكة وجودا ومثله لا يعرف إلا بسماع .

وعن البيهقي أنهم ملائكة العذاب وكأن ذلك إطلاق آخر من الكرب بمعنى الشدة والحزن ، وقال ابن سيناء في رسالة : الملائكة الكروبيون هم العامرون لعرصات التيه الاعلى الواقفون في الموقف الأكرم زمراً الناظرون إلى المنظر الأبهى نظراً وهم الملائكة المقربون والأرواح المبرؤون ، وأما الملائكة العاملون فهم حملة العرش والكرسي وعمار السماوات انتهى .

وذهب بعضهم إلى أن حمل العرش مجاز عن تدبيره وحفظه من أن يعرض له ما يخل به أو بشيء من أحواله التي لا يعلمها إلا الله عز وجل ، وجعلوا القرينة عقلية لأن العرش كرى في حيزه الطبيهي فلا يحتاج إلى حمل ونسب ذلك إلى الحكماء وأكثر المتكلمين ، وكذا ذهبوا إلى إن الحفيف والطواف بالعرش كناية أو مجاز عن القريب من ذي العرش سبحانه ومكانتهم عنده تعالى وتوسطهم في نفاذ أمره عز وجل ، والحق الحقيقة في الموضعين ؛ وما ذكر من القرينة العقلية في حيز المنع .

وقرأ ابن عباس .

وفرقة ﴿ العرش ﴾ بضم العين فقيل : هو جمع عرش كسقف وسقف أو لغة في العرش ، والموصول الأول مبتدأ والثاني عطف عليه والخبر قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ والجملة استئناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان أن الملائكة الذين هم في المحل الأعلى مثابرون على ولاية من معه من المؤمنين ونصرتهم واستدعاء ما يسعدهم في الدراين أي ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل كالجسمية وكون العرش حاملاً له عز وجل ملتبسين بحمده جل شأنه على نعمائها التي لا تتناهي .

﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إيماناً حقيقياً كاملاً ، والتصريح بذلك مع الغني عن ذكره رأساً لإظهار فضيلة الإيمان وإبراز شرف أهله والاشعار بعلة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ فإن المشاركة في الإيمان أقوى المناسبات وأتمها وادعى الدواعي إلى النصح والشفقة وإن تخالفت الأجناس وتباعدت الأماكن ، وفيه على ما قيل : اشعار بأن حملة العرش وسكان الفرش سواء في الإيمان بالغيب إذ لو كان هناك مشاهدة للزومها من الحمل بناء على العادة الغالبة أو على أن العرش جسم شفاف لا يمنع الأبصار البتة لم يقل يؤمنون لأن الإيمان هو التصديق القلبي أعني العلم أو ما يقوم مقامه مع اعتراف وإنما يكون في الخبر ومضمونه من معتقد علمي أو ظني ناشىء من البرهان أو قول الصادق كأنه اعترف بصدق المخبر أو البرهان وأما العيان فيغنى عن البيان ، ففي ذلك رمز إلى الرد على المجسمة ، ونظيره في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تفضلوني على ابن متى " كذا قيل ، وينبغي أن يعلم أن كون حملة العرش لا يرونه عز وجل بالحاسة لا يلزم منه عدم رؤسة المؤمنين إياه تعالى في الدار الآخرة ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ على إرادة القول أي يقولون ربنا الخ ، والجملة لا محل لها من الإعراب على أنها تفسير ليستغفرون أو في محل رفع على أنه عطف بيان على تلك الجملة بناء على جوازه في الجمل أو في محل نصب على الحالية من المضير في ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

وفسر استغفارهم على هذا الوجه بشفاعتهم للمؤمنين وحملهم على التوبة بما يفيضون على سرائرهم ، وجوز أن يكونا لاستغفار في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى الأَرض ﴾ [الشورى : 5] المفسر بترك معاجلة العقاب وادرار الرزق والارتفاق بما خلق من المنافع الجمة ونحو ذلك وهو وإن لم يخص المؤمنين لكنهم أصل فيه فتخصيصهم هنا بالذكر للإشارة إلى ذلك ، والأظهر كون الجملة تفسيراً ، ونصب ﴿ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ على التمييز وهو محمول عن الفاعل والأصل وسعت رحمتك وعلمك كل شيء وحول إلى ما في النظم الجليل للمبالغة في وصفه عز وجل بالرحمة والعلم حيث جعلت ذاته سبحانه كأنها عين الرحمة والعلم مع التلويح إلى عمومها لأن نسبة جميع الأشياء إليه تعالى مستوية فتقتضي استواءها في شمولهما ، ووصفه تعالى بكمال الرحمة والعلم كالتمهيد لقوله سبحانه : ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ الخ ، وتسبب المغفرة عن الرحمة ظاهر ، وأما تسببها عن العلم فلأن المعنى فاغفر للذين عملت منهم التوبة أي من الذنوب مطلقاً بناء على أنه المتبادر من الاطلاق واتباع سبيلك وهو سبيل الحق التي نهجها الله تعالى لعباده ودعا إليها الإسلام أي علمك الشامل المحيط بما خفي وما علن يقتضي ذلك ، وفيه تنبيه على ظهارتهم من

كدورات الرياء والهوى فإن ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى وحده .

ويتضمن التمهيد المذكور الإشارة إلا أن الرحمة الواسعة والعلم الشامل يقتضينان أن ينال هؤلاء الفوز العظيم والقسط الأعلى من الرضوان وفيه إيماء إلى معنى

.

إن تغفر اللهم تغفر جما . . .

وأي عبد لك لا ألما

(109/673)

فإن العبد وإن بالغ حق المبالغة في أداء حقوقه تعالى فهو مقصر ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : " ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمته " وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات ههنا ، وفي تصدير الدعاء بربنا من الاستعطاف ما لا يخفى ولذا كثر تصدير الدعاء به ، وقوله تعالى : ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ أي واحفظهم عنه تصريح بعد تلويح للتأكيد فإن الدعاء بالمغفرة يستلزم ذلك ، وفيه دلالة على شدة العذاب .

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ التى وَعَدْتَّهُمْ ﴾ أي وعدتهم إياها فالمفعول الآخر مقدر والمراد وعدتهم دخولها ، وتكرير النداء لزيادة الاستعطاف ، وقرأ زيد بن علي .

والأعمش "جنة عدن" بالإفراد وكذا في مصحف عبد الله ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وأزواجهم وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ عطف على الضمير المنصوب في ﴿ أدخلهم ﴾ أي وأدخل معهم هؤلاء ليتم سرورهم ويتضاعف ابتهاجهم ، وجوز الفراء .

والزجاج العطف على الضمير في ﴿ التى وَعَدْتَّهُمْ ﴾ أي وعدتهم ووعدت من صلح الخ فقيل : المراد بذلك الوعد العام .

وتعقب بأنه لا يبقى على هذا للعطف وجه فالمراد الوعد الخاص بهم بقوله تعالى : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذريتهم ﴾ [الطور : 21] والظاهر العطف على الأول والدعاء بالادخال فيه صريح ، وفي الثاني ضمني والظاهر أن المراد بالصلاح الصلاح المصحح لدخول الجنة وإن كان دون صلاح المتبوعين ، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ أَخُوهُمْ صالح ﴾ بضم اللام يقال : صلح فهو صليح وصلح فهو صالح ، وقرأ عيسى "ذريتهم" بالافراد ﴿ إِنَّكَ أَنتَ العزيز ﴾ أي الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة الباهرة من الأمور التي من جملتها ادخال من طلب ادخالهم الجنات فالجملة تعليل لما قبلها .

(110/673)

﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ أي العقوبات على ما روي عن قتادة ، واطلاق السيئة على العقوبة لأنها سيئة في نفسها ، وجوز أن يراد بها المعنى المشهور وهو المعاصي والكلام على تقدير مضاف أي وقهم جزاء السيآت أو تجوز بالسبب عن المسبب ، وأياً ما كان يتكرر هذا مع ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ [غافر : 7] بل هو تعميم بعد تخصيص لشموله العقوبة الدنيوية والأخروية مطلقاً أو الدعاء الأول للمتبوعين وهذا للتابعين ، وجوز أن يراد بالسيآت المعنى المشهور بدون تقدير مضاف ولا تجوز أي المعاصي أي وقهم المعاصي في الدنيا ووقايتهم منها حفظهم عن ارتكابها وهو دعاء بالحفظ عن سبب العذاب بعد الدعاء بالحفظ عن المسبب وهو العذاب ، وتعقب بأن الأنسل على هذا تقديم هذا الدعاء على ذاك ﴿ وَمَن تَقِ السيئات يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم المؤاخذة ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ ويقال على الوجه الأخير ومن تق السيآت يوم العمل أي في الدنيا فقد رحمته في الآخرة وأيد هذا الوجه بأن المتبادر من يومئذ الدنيا لأن ﴿ إِذْ ﴾ تدل على المضي ، وفيه منع ظاهر ﴿ وَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الرحمة المفهومة من رحمته أو إلى الوقاية المفهومة من فعلها أو إلى مجموعهما ، وأمر التذكير على الاحتمالين الأولين وكذا أمر الافراد على الاحتمال الأخير ظاهر ﴿ هُوَ الفوز ﴾ أي الظفر ﴿ العظيم ﴾ الذي لا مطمع وراءه لطامع ، هذا وإلى كون المراد بالذين تابوا الذين تابوا من الذنوب مطلقاً ذهب الزمخشري ، وقال في السيآت على تقدير حذف المضاف هي الصغائر أو الكبائر المتوب عنها ، وذكر أن الوقاية منها

للتكفير أو قبول التوبة وأن هؤلاء المستغفر لهم تائبون صالحون مثل الملائكة في الطهارة وأن الاستغفار لهم بمنزلة الشفاعة وفائدته زيادة الكرامة والثواب فلا يضر كونهم موعودين المغفرة والله تعالى لا يخلف الميعاد ، وتعقب بأنه لا فائدة في ذكر الرحمة والمبالغة فيها إذا كان المغفور له مثل الملائكة عليهم السلام في الطهارة

(111/673)

وأي حاجة إلى الاستغفار فضلاً عن المبالغة ، وأن ما قاله في السيآت لا يجوز فإن إسقاط عقوبة الكبيرة بعد التوبة واجب في مذهبه وما كان فعله واجباً كان طلبه بالدعاء عبثاً قبيحاً عند المعتزلة ، وكذا إسقاط عقوبة الصغيرة فلا يحسن طلبه بالدعاء ، ولا يجوز أن يكون ذلك لزيادة منفعة لأن ذلك لا يسمى مغفرة ، حكى هذا الطيبي عن الإمام ثم قال : فحينئذ يجب القول بأن المراد بالتوبة التوبة عن الشرك كما قال الواحدي فاغفر للذين تابوا عن الشرك واتبعوا سبيلك أي دينك الإسلام ، فإن قلت لو لم يكن التوبة من المعاصي مراداً لكان يكفي أن يقولوا : فاغفر للذين آمنوا ليطابق السابق ، قلت : والله تعالى أعلم هو قريب من وضع المظهر موضع المضمر من غير اللفظ السابق وبيانه إن قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ [غافر : 7] الآية جار

مفصولا عن قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [غافر : 7] فالآية بيان لكيفية الاستغفار لا لحال المستغفر لهم ، ووصفهم المميز يعرف بالذوق ، وأما فائدة العدول عن المضمر وانه لم يقل : فاغفر لهم بل قيل : للذين تابوا فهي أن الملائكة كما عللوا الغفران في حق مفيض الخيرات جل شأنه بالعلم الشامل والرحمة الواسعة عللوا قابل الفيض أيضاً بالتوبة عن الشرك وإتباع سبيل الإسلام ، فإن قلت : هذه التوبة إنما تصح في حق من سبق شركه على إسلامه دون من ولد مسلماً ودام عليه ، قلت : الآية نازلت في زمن الصحابة وجلهم انتقلوا من الشرك إلى الإسلام ولو قيل : فاغفر لمن لم يشرك لخرجوا فغلب الصحابة رضي الله تعالى عنهم على سنن جميع الأحكام انتهى ، ولعمري أن للبحث فيه مجالاً أي مجال .

(112/673)

وفي "الكشف" إنما اختار الزمخشري ما اختاره على ما قال الواحدي من أن التوبة عن الشرك لأن التوبة عند الاطلاق تنصرف إلى التوبة من الذنوب مطلقاً على أن فيه تكراراً إذ ذاك لأن التائب عن الشرك هو المسلم ، وقد فسر متبع السبيل في هذا القول به وإذا شرط حمله العرش ومن حوله عليهم السلام صلاح التابع وهو الذرية مع ما ورد من قوله تعالى : ﴿ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور : 21] فما بال المتبوع ، وأنت تعلم أن الصلاح من

أخص أوصاف المؤمن وكذاك دعاء إبراهيم ويوسف عليهما السلام في الإلحاق بالصالحين شاهداً ، وأما أنهم غير محتاجين إلى الدعاء فجوابه أنه لا يجب أن يكون للحاجة ، ألا ترى إلى قولنا : اللهم صل على سيدنا محمد وما ورد فيه من الفضائل والمعلوم حصوله منه تعالى يحسن طلبه فإن الدعاء في نفسه عبادة ويوجب للداعي والمدعو له من الشرف ما لا يتقاعد عن حصول أصل الثواب ، ثم إن الوقاية عن السيئات إن كانت بمعنى التفكير وقع الكلام في أن السيئات المكفرة ما هي ولا خفاء أن النصوص دالة على تكفير التوبة للسيئات كلها وأن الصغائر مكفرات ما اجتنبت الكبائر فلا بد من تخصيصها به كما ذكر وإن كان معناها أن يعفى عنها ولا يؤاخذ بهما كما هو قول الواحدي ومختار الإمام ومن ائتم به فينبغي أن ينظر أن الوقاية في أي المعنيين أظهر وأن قوله تعالى : ﴿ وَمَن تَقِ السيئات يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ وما يفيده من المبالغة على نحو من أدرك مرعى الصمان فد أدرك .

(113/673)

وتعقيبه بقوله سبحانه : ﴿ وذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ في شأن المقصرين أظهر أو شأن المكفرين ، ومن هذا التقرير قد لاح أن هذا الوجه ظاهر هذا السياق وأنه يوافق أصل الفريقين وليس فيه أنه سبحانه يعفو عن الكبائر بلا توبة أو لا يعفو فلا ينافي جوازه من أدلة

أخرى إلى آخر ما قال وهو كلام حسن وإن كان في بعضه كحديث التكرار وكون الصلاح في الآية ما هو من أخص أوصاف المؤمن نوع مناقشة ، وقد يرجح كون المراد بالتوبة التوبة من الذنوب مطلقاً دون التوبة عن الشرك فقط بأن المتبادر من

﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ [غافر : 7] وق كل واحد منهم ذلك ، ومن المعلوم أنه لا بد من نفوذ الوعيد في طائفة من المؤمنين العاصين وتعذيهم في النار فيكون الدعاء بحفظ كل من المؤمنين من العذاب محرماً .

وقد نصوا على حرمة أن يقال : اللهم اغفر لجميع المؤمنين جميع ذنوبهم لذلك ، ولا يلزم ذلك على كون الدعاء للتائبين الصالحين ، وحمل الإضافة على العهد بأن يراد بعذاب الجحيم ما كان على سبيل الخلود لا يخفى حاله ؛ والاعتراض بلزوم الدعاء بمعلوم الحصول على كون المراد بالتوبة ذلك بخلاف ما إذا أريد بها التوبة عن الشرك فإنه لا يلزم ذلك إذ المعنى عليه فاغفر للذين تابوا عن الشرك ذنوبهم التي لم يتوبوا عنها وغفران تلك الذنوب غير معلوم الحصول قد علم جوابه مما في "الكشف" ، على أن كون الغفران للتائب معلوم الحصول خلافاً أشرنا إليه أول السورة .

نعم هذا اللزوم ظاهر في قولهم : ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ التى وَعَدْتَّهُمْ ﴾ [غافر : 8] ونظير ذلك ما ورد في الدعاء إثر الأذان وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، وقد أجيب عن ذلك بغير ما أشير إليه أيضاً وهو أن سبق الوعد لا يستدعي حصول الموعود بلا توسط

دعاء .

وبالجملة لا بأس بحمل التوبة على التوبة من الذنوب مطلقاً ولا يلزم من القول به القول بشيء من أصول المعتزلة فتأمل وأنصف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(114/673)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ حم ﴾

قرأ الجمهور بفتح الحاء مشبعاً ، وقرأ حمزة ، والكسائي بإمالته إمالة محضة .

وقرأ أبو عمرو بإمالته بين بين ، وقرأ الجمهور : ﴿ حم ﴾ بسكون الميم كسائر الحروف المقطعة .

وقرأ الزهري بضمها على أنها خبر مبتدأ مضمر ، أو مبتدأ ، والخبر ما بعده .

وقرأ عيسى بن عمر الثقفي بفتحها على أنها منصوبة بفعل مقدر ، أو على أنها حركة بناء لا حركة إعراب .

وقرأ ابن أبي إسحاق ، وأبو السماك بكسرها لالتقاء الساكنين ، أو بتقدير القسم .

وقرأ الجمهور بوصل الحاء بالميم .

وقرأ أبو جعفر بقطعها .

وقد اختلف في معناه ، فقيل : هو اسم من أسماء الله ، وقيل : اسم من أسماء القرآن .

وقال الضحاك ، والكسائي معناه : قضى ، وجعلاه بمعنى حمّ أي : قضى ، ووقع ، وقيل : معناه حمّ أمر الله ، أي : قرب نصره لأوليائه ، وانتقامه من أعدائه .

وهذا كله تكلف لا موجب له ، وتعسف لا ملجىء إليه ، والحق أن هذه الفاتحة لهذه السورة ، وأمثالها : من المتشابه الذي استأثر الله بعلم معناه كما قدّمنا تحقيقه في فاتحة سورة البقرة .

﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ هو : خبر ل ﴿ حم ﴾ على تقدير أنه مبتدأ ، أو خبر لمبتدأ مضمر ، أو هو : مبتدأ ، وخبره ﴿ مِنَ الله العزيز العليم ﴾ قال الرازي : المراد بتنزيل المنزل ، والمعنى : أن القرآن منزل من عند الله ليس بكذب عليه .

والعزيز : الغالب القاهر ، والعليم : الكثير العلم بخلقه ، وما يقولونه ، ويفعلونه .

﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ﴾ قال الفرّاء : جعلها كالنعت للمعرفة ، وهي : نكرة ، ووجه قوله هذا : أن إضافتها لفظية ، ولكنه يجوز أن تجعل إضافتها معنوية كما قال سيبويه : إن كل ما إضافته غير محضة يجوز أن تجعل محضة ، وتوصف به المعارف إلا الصفة المشبهة .

وأما الكوفيون ، فلم يستثنوا شيئاً بل جعلوا الصفة المشبهة كاسم الفاعل في جواز جعلها إضافة محضة ، وذلك حيث لا يراد بها زمان مخصوص ، فيجوّزون في ﴿ شديد ﴾ هنا أن تكون إضافته محضة .

وعلى قول سيبويه : لا بدّ من تأويله بمشدّد .

وقال الزجاج : إن هذه الصفات الثلاث مخفوضة على البدل .

وروي عنه : أنه جعل غافر ، وقابل مخفوضين على الوصف ، وشديد مخفوض على البدل ، والمعنى : غافر الذنب لأوليائه ، وقابل توبتهم ، وشديد العقاب لأعدائه ، والتوب مصدر بمعنى : التوبة من تاب يتوب توبة ، وتوباً ، وقيل : هو جمع توبة ، وقيل : غافر الذنب لمن قال : لا إله إلا الله ، وقابل التوب من الشرك ، وشديد العقاب لمن لا يوحده ، وقوله : ﴿ ذِى الطول ﴾ يجوز أن يكون صفة ، لأنه معرفة ، وأن يكون بدلاً ، وأصل الطول الإنعام ، والتفضل ، أي : ذي الإنعام على عباده ، والتفضل عليهم .

وقال مجاهد : ذي الغنى ، والسعة .

ومنه قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً ﴾ [النساء : 25] أي : غنى ، وسعة ، وقال عكرمة : ذي الطول ذي المنّ .

قال الجوهري : والطول بالفتح المنّ يقال منه : طال عليه ، ويطول عليه إذا امتنّ عليه .

وقال محمد بن كعب : ذي الطول ذي التفضل .

قال الماورودي : والفرق بين المنّ ، والتفضل : أن المنّ عفو عن ذنب ، والتفضل إحسان غير مستحقّ .

ثم ذكر ما يدلّ على توحيده ، وأنه الحقيق بالعبادة ، فقال : ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المصير ﴾ لا إلى غيره ، وذلك في اليوم الآخر .

ثم لما ذكر أن القرآن كتاب الله أنزله ؛ ليهتدي به في الدين ذكر أحوال من يجادل فيه لقصد إبطاله ، فقال : ﴿ مَا يجادل فِى ءايات الله إِلاَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ أي : ما يخاصم في دفع آيات الله ، وتكذيبها إلا الذين كفروا ، والمراد : الجدال بالباطل ، والقصد إلى دحض الحقّ كما في قوله : ﴿ وجادلوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ .

(116/673)

فأما الجدال لاستيضاح الحقّ ، ورفع اللبس ، والبحث عن الراجح ، والمرجوح ، وعن المحكم ، والمتشابه ، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن ، وردّهم بالجدال إلى المحكم ، فهو من أعظم ما يتقرّب المتقرّبون ، وبذلك أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ، فقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ الله ميثاق الذين أُوتُواْ الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾

[آل عمران : 187] ، وقال : ﴿ إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ البينات والهدى مِن بَعْدِ مَا بيناهُ لِلنَّاسِ فِي الكتاب أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاعنون ﴾ [البقرة : 159] ، وقال : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : 46] ﴿ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى البلاد ﴾ لما حكم سبحانه على المجادلين في آيات الله بالكفر ، نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن أن يغترّ بشيء من حظوظهم الدنيوية ، فقال : فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة في البلاد ، وما يحصلونه من الأرباح ، ويجمعونه من الأموال ، فإنهم معاقبون عما قليل ، وإن أمهلوا ، فإنهم لا يهملون .

قال الزجاج : لا يغررك سلامتهم بعد كفرهم ، فإن عاقبتهم الهلاك .

قرأ الجمهور : ﴿ لا يغررك ﴾ بفك الإدغام .

وقرأ زيد بن عليّ ، وعبيد بن عمير بالإدغام .

ثم بيّن حال من كان قبلهم ، وأن هؤلاء سلكوا سبيل أولئك في التكذيب ، فقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ والأحزاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ الضمير في من بعدهم يرجع إلى قوم نوح ، أي : وكذبت الأحزاب الذين تحزّبوا على الرسل من بعد قوم نوح كعاد ، وثمود ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أي : همت كلّ أمة من تلك الأمم المكذبة برسولهم الذي أرسل إليهم ؛ ليأخذوه ؛ ليتمكنوا منه ، فيحبسوه ، ويعذبوه ، ويصيبوا منه ما أرادوا .

وقال قتادة، والسدّي: ليقتلوه، والأخذ قد يرد بمعنى: الإهلاك، كقوله: ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج: 44] والعرب تسمي الأسير: الأخيذ ﴿ وجادلوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ أي: خاصموا رسولهم بالباطل من القول، ليدحضوا به الحق؛ ليزيلوه، ومنه مكان دحض، أي: مزلقة، ومزلة أقدام، والباطل داحض؛ لأنه يزلق، ويزول، فلا يستقرّ.

قال يحيى بن سلام: جادلوا الأنبياء بالشرك؛ ليبطلوا به الإيمان ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي: فأخذت هؤلاء المجادلين بالباطل، فكيف كان عقابي الذي عاقبتهم به، وحذف ياء المتكلم من عقاب اجتزاء بالكسرة عنها وصلا، ووقفا؛ لأنها رأس آية ﴿ وكذلك حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبّكَ عَلَى الذين كَفَرُواْ ﴾ أي: وجبت، وثبتت، ولزمت، يقال: حقّ الشيء إذا لزم، وثبت، والمعنى: وكما حقت كلمة العذاب على الأمم المكذبة لرسلهم حقت على الذين كفروا به، وجادلوك بالباطل، وتحزبوا عليك، وجملة: ﴿ أَنَّهُمْ أصحاب النار ﴾ للتعليل، أي: لأجل أنهم مستحقون للنار.

قال الأخفش: أي لأنهم، أو بأنهم.

ويجوز أن تكون في محل رفع بدلاً من كلمة.

قرأ الجمهور: ﴿ كلمة ﴾ بالتوحيد، وقرأ نافع، وابن عامر: (كلمات) بالجمع.

ثم ذكر أحوال حملة العرش ، ومن حوله ، فقال : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ ، والموصول مبتدأ ، وخبره يسبحون بحمد ربهم ، والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ببيان أن هذا الجنس من الملائكة الذين هم أعلى طبقاتهم يضمون إلى تسبيحهم لله ، والإيمان به الاستغفار للذين آمنوا بالله ، ورسوله ، وصدّقوا ، والمراد بمن حول العرش : هم : الملائكة الذين يطوفون به مهللين مكبرين ، وهو في محل رفع عطفاً على الذين يحملون العرش ، وهذا هو الظاهر .

وقيل : يجوز أن تكون في محل نصب عطفاً على العرش ، والأوّل أولى .

(118/673)

والمعنى : أن الملائكة الذين يحملون العرش ، وكذلك الملائكة الذين هم حول العرش ينزهون الله ملتبسين بحمده على نعمه ، ويؤمنون بالله ، ويستغفرون الله لعباده المؤمنين به .

ثم بيّن سبحانه كيفية استغفارهم للمؤمنين ، فقال حاكياً عنهم : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ ، وهو بتقدير القول ، أي يقولون ربنا ، أو قائلين : ربنا وسعت كل شيء رحمة ، وعلماً .

انتصاب ﴿ رحمة ﴾ ، و ﴿ علماً ﴾ على التمييز المحوّل عن الفاعل ، والأصل وسعت

رحمتك ، وعلمك كل شيء ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ أي : أوقعوا التوبة عن الذنوب ، واتبعوا سبيل الله ، وهو دين الإسلام ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ أي : احفظهم منه .

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ ﴾ و ﴿ أدخلهم ﴾ معطوف على قوله : ﴿ قهم ﴾ ، ووسط الجملة الندائية لقصد المبالغة بالتكرير ، ووصف جنات عدن بأنها ﴿ التى وَعَدْتَّهُمْ ﴾ إياها ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءابَائِهِمْ وأزواجهم وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أي : وأدخل من صلح ، والمراد بالصلاح ها هنا : الإيمان بالله ، والعمل بما شرعه الله ، فمن فعل ذلك ، فقد صلح لدخول الجنة ، ويجوز عطف ، ومن صلح على الضمير في وعدتهم ، أي : ووعدت من صلح ، والأولى عطفه على الضمير الأوّل في وأدخلهم ، قال الفراء ، والزجاج : نصبه من مكانين إن شئت على الضمير في أدخلهم .

وإن شئت على الضمير في وعدتهم .

قرأ الجمهور بفتح اللام من صلح .

وقرأ ابن أبي عيلة بضمها ، وقرأ الجمهور : ﴿ وذرياتهم ﴾ على الجمع .

وقرأ عيسى بن عمر على الإفراد ﴿ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ أي : الغالب القاهر الكثير الحكمة الباهرة .

﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ أي : العقوبات ، أو جزاء السيئات على تقدير مضاف محذوف .

قال قتادة : وقهم ما يسوؤهم من العذاب ﴿ وَمَن تَقِ السيئات يَوْمَئِذٍ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ يقال : وقاه يقيه وقاية ، أي : حفظه ، ومعنى ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أي : رحمته من عذابك ، وأدخلته جنتك ، والإشارة بقوله : ﴿ وَذَلِكَ ﴾ إلى ما تقدّم من إدخالهم الجنات ، ووقايتهم السيئات ، وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿ هُوَ الفوز العظيم ﴾ أي : الظفر الذي لا ظفر مثله ، والنجاة التي لا تساويها نجاة .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي أمامة قال : ﴿ حم ﴾ اسم من أسماء الله .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، وأبو عبيد ، وابن سعد ، وابن أبي شيبة ، وأبو داود ، والترمذي ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن المهلب بن أبي صفرة قال : حدّثني من سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ليلة الخندق : " إن أتيتم الليلة ، فقولوا حملا ينصرون "

وأخرج ابن أبي شيبة ، والنسائي ، والحاكم ، وابن مردويه عن البراء بن عازب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنكم تلقون عدوّكم ، فليكن شعاركم حملا ينصرون "

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ ذِى الطول ﴾ قال : ذي السعة ، والغنى .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه عن ابن عمر في قوله : ﴿ غَافِرِ الذنب ﴾ الآية قال : غافر الذنب لمن يقول : لا إله إلاّ الله ﴿ وَقَابِلِ التوب ﴾ ممن يقول : لا إله إلاّ الله ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ لمن لا يقول : لا إله إلاّ الله ﴿ ذِى الطول ﴾ ذي الغنى ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ كانت كفار قريش لا يوحدونه ، فوحد نفسه ﴿ إِلَيْهِ المصير ﴾ مصير من يقول : لا إله إلاّ الله ، فيدخله الجنة ، ومصير من لا يقول : لا إله إلاّ الله ، فيدخله النار .

(120/673)

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن جدالاً في القرآن كفر " وأخرج عبد بن حميد ، وأبو داود عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مراء في القرآن كفر " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(121/673)

وقال ابن عاشور :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾

استئناف ابتدائي اقتضاه الانتقال من ذكر الوعيد المؤذن بذم الذين كفروا إلى ذكر الثناء على المؤمنين ، فإن الكلام الجاري على ألسنة الملائكة مثل الكلام الجاري على ألسنة الرسل إذ الجميع من وحي الله ، والمناسبة المضادَّةُ بين الحالين والمقالين .

ويجوز أن يكون استئنافاً بيانياً ناشئاً عن وعيد المجادلين في آيات الله أن يسأل سائل عن حال الذين لا يجادلون في آيات الله فآمنوا بها .

وخص في هذه الآية طائفة من الملائكة موصوفة بأوصاف تقتضي رفعة شأنهم تذرعاً من ذلك إلى التنويه بشأن المؤمنين الذين تستغفر لهم هذه الطائفة الشريفة من الملائكة ، وإلا فإن الله قد أسند مثل هذا الاستغفار لعموم الملائكة في قوله في سورة [الشورى : 5] ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ أي من المؤمنين بقرينة قوله فيها بعده : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء اللَّه حفيظ عليهم ﴾ [الشورى : 6] .

و ﴿ الذين يحمِلُون العَرْش ﴾ هم الموكَّلون برفع العرش المحيط بالسماوات وهو أعظم السماوات ، ولذلك أضيف إلى الله في قوله تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ [الحاقة : 17] .

(و ﴿ من حَوله ﴾ طائفة من الملائكة تحفّ بالعرش تحقيقاً لعظمته قال تعالى : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ﴾ [الزمر : 75] ، ولا حاجة إلى الخوض في عددهم ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ [المدثر : 31] .

(والإِخبار عن صنفي الملائكة بأنهم يسبحون ويؤمنون به ؛ توطئة وتمهيد للإخبار عنهم بأنهم يستغفرون للذين آمنوا فذلك هو المقصود من الخبر ، فقدم له ما فيه تحقيق استجابة استغفارهم لصدوره ممن دأبهم التسبيح وصفتهم الإِيمان .

(122/673)

وصِيغةُ المضارع في ﴿ يسبحون ﴾ و ﴿ يؤمنون ﴾ و ﴿ يستغفرون ﴾ مفيدة لتجدد ذلك وتكرره ، وذلك مشعر بأن المراد أنهم يفعلون ذلك في الدنيا كما هو الملائم لقوله : ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ وقوله : ﴿ وأدخِلهم جَنَّات عَدنٍ التي وعَدتَّهُم ﴾ [غافر : 8] وقوله : ﴿ ومَن تَقِ السَّيِئات ﴾ [غافر : 9] الخ وقد قال في الآية الأخرى ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ [الشورى : 5] أي من المؤمنين كما تقدم .

ومعنى تجدد الإِيمان المستفاد من ﴿ ويؤمنون ﴾ تجدد ملاحظته في نفوس الملائكة وإلا فإن الإِيمان عقد ثابت في النفوس وإنما تجدده بتجدد دلائله وآثاره .

وفائدة الإخبار عنهم بأنهم يؤمنون مع كونه معلوماً في جانب الملائكة التنويهُ بشأن الإِيمان بأنه حال الملائكة ، والتعريضُ بالمشركين أن لم يكونوا مثل أشرف أجناس المخلوقات مثل قوله تعالى في حق إبراهيم ﴿ وما كان من المشركين ﴾ [الأنعام : 161] .

وجملة ﴿ رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شيء رَحْمَةً وعِلماً ﴾ مبيّنة ل ﴿ يستغفرون ﴾ ، وفيها قول محذوف دلت عليه طريقة التكلم في قولهم : ﴿ ربنا ﴾ .

والباء في ﴿ بِحَمْد رَبهِم ﴾ للملابسة ، أي يسبحون الله تسبيحاً مصاحباً للحمد ، فحذف مفعول ﴿ يسبحون ﴾ لدلالة المتعلّق به عليه .

والمراد بـ ﴿ الذين آمنوا ﴾ المؤمنون المعهودون وهم المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنهم المقصود في هذا المقام وإن كان صالحاً لكل المؤمنين .

وافتتح دعاء الملائكة للمؤمنين بالنداء لأنه أدخل في التضرع وأرجى للإجابة ، وتوجهوا إلى الله بالثناء بسعة رحمته وعلمه لأن سعة الرحمة مما يُطمِع باستجابة الغفران ، وسعة العلم تتعلق بثبوت إيمانِ الذين آمنوا .

ومعنى السعة في الصفتين كثرة تعلقاتهما ، وذكر سعة العلم كناية عن يقينهم بصدق إيمان المؤمنين فهو بمنزلة قول القائل ، أنت تعلم أنهم آمنوا بك ووحّدوك .

(123/673)

وجيء في وصفه تعالى بالرحمة الواسعة والعلم الواسع بأسلوب التمييز المحوّل عن النسبة لما في تركيبه من المبالغة بإسناد السعة إلى الذات ظاهراً حتى كأنَّ ذاته هي التي وَسِعَتْ ،

فذلك إجمال يستشرف به السامع إلى ما يرِد بعدَه فيجيء بعده التمييز المبيِّن لنسبة السعة أنها من جانب الرحمة وجانب العلم ، وهي فائدة تمييز النسبة في كلام العرب ، لأن للتفصيل بعد الإجمال تمكيناً للصفة في النفس كما في قوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ [مريم : 4] .

والمراد أن الرحمة والعلم وَسِعَا كل موجود ، الآن ، أي في الدنيا وذلك هو سياق الدعاء كما تقدم آنفاً ، فما من موجود في الدنيا إلا وقد نالته قسمة من رحمة الله سواء في ذلك المؤمن والكافر والإنسان والحيوان .

و﴿ كُلَّ شيءٍ ﴾ كل موجود ، وهو عام مخصوص بالعقل بالنسبة للرحمة ، أي كل شيء محتاج إلى الرحمة ، وتلك هي الموجودات التي لها إدراك تدرك به الملائم والمنافر والنافع والضار ، من الإنسان والحيوان ، إذ لا فائدة في تعلق الرحمة بالحَجر والشجر ونحوهما .

وأما بالنسبة إلى العلم فالعموم على بابه قال تعالى : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ [الملك : 14] .

ولما كان سياق هذا الدعاء أنه واقع في الدنيا كما تقدم اندفع ما عسى أن يقال إن رحمة الله لا تسع المشركين يوم القيامة إذ هم في عذاب خالد فلا حاجة إلى تخصيص عموم كل شيء بالنسبة إلى سعة الرحمة بمخصصات الأدلة المنفصلة القاضية بعدم سعة رحمة الله للمشركين بعد الحساب .

وتَفَرع على هذه التوطئة بمناجاة الله تعالى ما هو المتوسَّل إليه منها وهو طلب المغفرة للذين تابوا لأنه إذا كان قد عَلم صدق توبة من تاب منهم وكانت رحمته وسعت كلَّ شيء فقد استحقوا أن تشملهم رحمته لأنهم أحرياء بها .

ومفعولُ ﴿ فاغفر ﴾ محذوف للعلم ، أي اغفر لهم ما تابوا منه ، أي ذنوب الذين تابوا .

والمراد بالتوبة : الإِقلاع عن المعاصي وأعظمها الإشراك بالله .

(124/673)

واتباع سبيل الله هو العمل بما أمرهم واجتنابُ ما نهاهم عنه ، فالإِرشاد يشبه الطريق الذي رسمه الله لهم ودلهم عليه فإذا عملوا به فكأنهم اتبعوا السبيل فمشَوا فيه فوصلوا إلى المقصود .

﴿ وَقِهم عذاب الجحيم ﴾ عطف على ﴿ فاغفر ﴾ فهو من جملة التفريع فإن الغفران يقتضي هذه الوقاية لأن غفران الذنب هو عدم المؤاخذة به .

وعذاب الجحيم جعله اللهِ لجزاء المذنبين ، إلا أنهم عضدوا دلالة الالتزام بدلالة المطابقة إظهاراً للحرص على المطلوب .

والجحيم : شدة الالتهاب ، وسميت به جهنم دارُ الجزاء على الذنوب .

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ

إعادة النداء في خلال جمل الدعاء اعتراض للتأكيد بزيادة التضرع ، وهذا ارتقاء من طلب وقايتهم العذاب إلى طلب إدخالهم مكان النعيم .

والعَدْن : الإِقامة ، أي الخلود .

والدعاء لهم بذلك مع تحققهم أنهم موعودون به تأدُب مع الله تعالى لأنه لا يُسأل عما يفعل ، كما تقدم في سورة [آل عمران : 194] قوله : ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾

ويجوز أن يكون المراد بقولهم : ﴿ وأدخلهم ﴾ عَجِّل لهم بالدخول .

ويجوز أن يكون ذلك تمهيداً لقولهم : ﴿ وَمَن صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذريتهم ﴾ فإن أولئك لم يكونوا موعودين به صريحاً .

و ﴿ من صلح ﴾ عطف على الضمير المنصوب في ﴿ أدخلهم ﴾ .

والمعنى دعاء بأن يجعلهم الله معهم في مساكن متقاربة ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ هم وأزواجهم في ظلال ﴾ في سورة [يس : 56] ، وقوله : ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم ﴾ في سورة [الطور : 21] .

ورُتبت القرابات في هذه الآية على ترتيبها الطبيعي فإن الآباء أسبق علاقة بالأبناء ثم الأزواجُ ثم الذريات .

وجملة ﴿ إنَّك أنت العَزِيز الحَكِيم ﴾ اعتراض بين الدعوات استقصاء للرغبة في الإِجابة

بداعي محبة الملائكة لأهل الصلاح لما بين نفوسهم والنفوس الملكية من التناسب .

واقتران هذه الجملة بحرف التأكيد للاهتمام بها .

(125/673)

و (إنَّ) في مثل هذا المقام تُغني غَناء فاء السببية ، أي فعزتُك وحكمتك هما اللتان جَرَّأَتَا نَا على سؤال ذلك من جلالك ، فالعزة تقتضي الاستغناء عن الانتفاع بالأشياء النفيسة فلما وَعد الصالحين الجنة لم يكن لله ما يضنه بذلك فلا يصدر منه مطل ، والحكمةُ تقتضي معاملة المحسن بالإِحسان .

وأعقبوا بسؤال النجاة من العذاب والنعيم بدار الثواب بدعاء بالسلامة من عموم كل ما يسوءهم يوم القيامة بقولهم : ﴿ وَقِهِم السيئات ﴾ وهو دعاء جامع إذ السيئات هنا جمع سيئة وهي الحالة أو الفعلة التي تسوء من تعلقت به مثل ما في قوله : ﴿ فوقاه اللَّه سيئات ما مكروا ﴾ [غافر : 45] وقوله تعالى : ﴿ وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ [الأعراف : 131] صيغت على وزن فَيْعَلَة للمبالغة في قيام الوصف بالموصوف مثل قيّم وسيّد وصيقل ، فالمعنى : وقِهِمْ من كل ما يسوءهم .

فالتعريف في ﴿ السَّيِّئَاتِ ﴾ للجنس وهو صالح لإِفادة الاستغراق ، فوقوعه في سياق ما

هو كالنفي وهو فعل الوقاية يفيد عموم الجنس ، على أن بساط الدعاء يقتضي عموم الجنس ولو بدون لام نفي كقول الحريري :

يا أهلَ ذا المغنى وُقيتم ضُرا

وفي الحديث " اللهم أعط منفقاً خَلفاً ، ومُمسكاً تَلَفاً " أي كلّ منفق ومُمسك .

والمراد : إبلاغ هؤلاء المؤمنين أعلى درجات الرضى والقبول يومَ الجزاء بحيث لا ينالهم العذاب ويكونون في بحبوحة النعيم ولا يعتريهم ما يكدرهم من نحو التوبيخ والفضيحة .

وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله : ﴿ فوقاهم اللَّه شر ذلك اليوم ﴾ [الإنسان : 11] .

وجملة ﴿ ومن تَقِ السَّيئات يومئذ فقد رحمته ﴾ تذييل ، أي وكل من وقي السيئات يوم القيامة فقد نالته رحمة الله ، أي نالته الرحمة كاملة ففعل ﴿ رحمته ﴾ مراد به تعظيم مصدره .

وقد دل على هذا المراد في هذه الآية قوله : ﴿ وذلك هُوَ الفَوْزُ العَظِيم ﴾ إذ أشير إلى المذكور من وقاية السيئات إشارةً للتنويه والتعظيم .

ووصف الفوز بالعظيم لأنه فوز بالنعيم خالصاً من الكدرات التي تنقص حلاوة النعمة .

وتنوين ﴿ يومئذ ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي يوم إذ تدخلهم جنات عدن . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(127/673)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾

هذه الآية الكريمة تدل على أن استغفار الملائكة لأهل الأرض خاص بالمؤمنين منهم ، وقد جاءت آية أخرى يدل ظاهرها على خلاف ذلك وهي قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ الآية .

والجواب أن آية غافر مخصصة لآية الشورى ، والمعنى ويستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين لوجوب تخصيص العام بالخاص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 254 ﴾

(128/673)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾

حَمَلَةُ العرش من حَوْلَ العرش من خواص الملائكة ، مأمورون بالتسبيح لله ، ثم بالاستغفار للعاصين – لأنَّ الاستغفار للذنبِ والتوبةُ إنما تحصل من الذنب – ويجتهدون في الدعاء لهم على نحو ما في هذه الآية وما بعدها ؛ فيدعون لهم بالنجاة ، ثم برفع الدرجات ، ويحيلون الأمر في كل ذلك على رحمة الله .

﴿ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ : فلئن سلَّطَ عليك أراذل من خَلْقه – وهُم الشياطين – فلقد قيَّض بالشفاعة أفاضلَ من خَلْقِه ومن الملائكة المقرَّبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 296 . 297 ﴾

(129/673)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى

خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم الذين آمنوا ، فتشوفت النفس إلى معرفة ما لأضدادهم ، قال مستأنفاً مؤكداً لإنكارهم هذه المناداة بانكار يومها : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي أوقعوا الكفر ولو لحظة ﴿ ينادون ﴾ أي يوم القيامة بنداء يناديهم به من أراد الله من جنوده أو في الدار أرفع نعماً – أنهم آثر عند الله من فقراء المؤمنين ، أكد قوله : ﴿ لمقت الله ﴾ أي الملك الأعظم إياكم بخذلانكم ﴿ أكبر من مقتكم ﴾ وقوله : ﴿ أنفسكم ﴾ مثل قوله تعالى : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ جاز على سبيل الإشارة إلى تنزه الحضرة المقدسة عما لزم فعلهم من المقت ، فإن من دعا إلى أحد فأعرض عنه إلى غيره كان إعراضه مقتاً للمعرض عنه ، وهذا المقت منهم الموجب لمقت الله لهم موصل لهم إلى عذاب يمقتون به أنفسهم ، والمقت أشد البغض ؛ ثم ذكر ظرف مقتهم العائد وباله عليهم بقوله : ﴿ إذا ﴾ أي حين ، وأشار إلى أن الإيمان لظهور دلائله ينبغي أن يقبل من أي داع كان ، فبنى الفعل لما لم يسم فاعله فقال : ﴿ تُدعون إلى الإيمان ﴾ أي بالله وما جاء من عنده ﴿ فتكفرون ﴾ أي فتوقعون الكفر الذي هو تغطية الآيات موضع إظهارها والإذعان بها ، وهذا أعظم العقاب عند أولي

الألباب ، لأن من علم أن مولاه عليه غضبان علم أنه لا ينفعه بكاء ولا يغني عنه شفاعة ولا حيلة في خلاصه بوجه .

(130/673)

ولما كان من أعظم ذنوبهم إنكار البعث ، وكانوا قد استقروا العوائد ، وسبروا ما جرت به الأقدار في الدهور والمدائد ، من أن كل ثان لا بد له من ثالث ، وكان الإحياء لا يطلق عرفاً إلا من كان عن موت ، حكى سبحانه جوابهم بقوله الذي محطه الإقرار بالبعث والترفق بالاعتراف بالذنب حيث لا ينفع لفوات شرطه وهو الغيب : ﴿ قالوا ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا بما تقدم في دار الدنيا ﴿ أمتَّنا اثنتين ﴾ قيل : واحدة عند انقضاء الآجال في الحياة الدنيا وأخرى بالصعق بعد البعث أو الإرقاد بعد سؤال القبر ، والصحيح أن تفسيرها آية البقرة ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ [آية : 28] وأما الصعق فليس بموت ، وما في القبر فليس بحياة حتى يكون عنه موت ، وإنما هو إقدار على الكلام كما أقدر سبحانه الحصى على التسبيح والحجر على التسليم ، والضب على الشهادتين ، والفرس حين قال لها فارسها ثبي إطلال على قولها وثباً وسورة البقرة ﴿ وأحييتنا اثنين ﴾ واحدة في البطن ، وأخرى بالبعث بعد الموت ، أو واحدة

بالبعث وأخرى بالإقامة من الصعق ، أو الإقامة في القبر ، فشاهدنا قدرتك على البعث ﴿ فاعترفنا ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنّا اعترفنا بعد تكرر الإحياء ﴿ بذنوبنا ﴾ الحاصلة بسبب إنكار البعث لأن من لم يخش العاقبة بالغ في متابعة الهوى ، فذلك توبة لنا ﴿ فهل إلى خروج ﴾ أي من النار ولو على أدنى أنواع الخروج بالرجوع إلى الدنيا فنعمل صالحاً ﴿ من سبيل ﴾ فنسلكه فنخرج ثم تكون لنا موتة ثالثة وإحياءة ثالثة إلى الجنة التي جعلتها جزاء من أقر بالبعث .

(131/673)

ولما كان الجواب قطعاً : لا سبيل إلى ذلك ، علله بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ أي القضاء النافذ العظيم العالي بتخليدكم في النار مقتاً منه لكم ﴿ بأنه ﴾ أي كان بسبب أنه ﴿ إذا دُعي الله ﴾ أي وجدت ولو مرة واحدة دعوة الملك الأعظم من أي داع كان ﴿ وحده ﴾ أي محكوماً له بالوحدة أو منفرداً من غير شريك ﴿ كفرتم ﴾ أي هذا طبعكم دائماً رجعتم إلى الدنيا أولاً ﴿ وإن يشرَك به ﴾ أي يوقع الإشراك به ويجدد ولو بعدد الأنفاس من أي مشرك كان ﴿ تؤمنوا ﴾ أي بالشركاء وتجددوا ذلك غير متحاشين ومن تجديد الكفر وهذا مفهم لأن حب الله للإنسان أكبر من حبه له الدال عليه توفيقه له في أنه إذا ذكر الله وحده آمن ،

وإن ذكر معه غيره على طريقة تؤل إلى الشركة كفر بذلك الغير وجعل الأمر لله وحده ﴿ فالحكم ﴾ أي فتسبب عن القطع بأن لا رجعة ، وأن الكفار ما ضروا إلا أنفسهم مع ادعائهم العقول الراجحة ونفوذ ذلك أن كل حكم ﴿ لله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال خاص به لا دخل للعوائد في أحكامه بل مهما شاء فعل إجراء على العوائد او خرقاً لها ﴿ العلي ﴾ أي وحده عن أن يكون له شريك ، فكذب قول أبي سفيان يوم أحد " اعل هبل " وقول ابن عربي أحد أتباع فرعون أكذب وأقبح وأبطل حيث قال : العلي علا عن من وما ثم إلا هو ، فعليه الخزي واللعنة وعلى من قال بقوله وعلى من توقف في لعنه .

ولما كانت النفوس لا تنقاد غاية الانقياد للحاكم إلا مع العظمة الزائدة والقدم في المجد ، قال معبراً بما يجمع العظمة والقدم : ﴿ الكبير ﴾ الذي لا يليق الكبر إلا له ، وكبر كل متكبر وكبر كل كبير متضائل تحت دائرة كبره وكبره ، وعذابه مناسب لكبريائه فما أسفه من شقي بالكبراء فإنهم يلجئون أنفسهم إلى أن يقولوا ما لا يجديهم ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 490 . 491 ﴾

(132/673)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10) ﴾

اعلم أنه تعالى لما عاد إلى شرح أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله وهم الذين ذكرهم الله في قوله ﴿ مَا يجادل فِى ءايات الله إِلاَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ [غافر : 4] بين أنهم في القيامة يتعرفون بذنوبهم واستحقاقهم العذاب الذي ينزل بهم ويسألون الرجوع إلى الدنيا ليتلافوا ما فرط منهم فقال : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(133/673)

في الآية حذف وفيها أيضاً تقديم وتأخير ، أما الحذف فتقديره لمقت الله إياكم ، وأما التقديم والتأخير فهو أن التقدير أن يقال لمقت الله لكم حال ما تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم وفي تفسير مقتهم أنفسهم وجوه الأول : أنهم إذا شاهدوا القيامة والجنة والنار مقتوا أنفسهم على إصرارهم على التكذيب بهذه الأشياء في الدنيا الثاني :

أن الأتباع يشتد مقتهم للرؤساء الذين دعوهم إلى الكفر في الدنيا ، والرؤساء أيضاً يشتد مقتهم للأتباع فعبر عن مقت بعضهم بعضاً بأنهم مقتوا أنفسهم ، كما أنه تعالى قال : ﴿ فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة : 54] والمراد قتل بعضهم بعضاً الثالث : قال محمد بن كعب إذا خطبهم إبليس وهم في النار بقوله ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سلطان ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] ففي هذه الحالة مقتوا أنفسهم ، واعلم أنه لا نزاع أن مقتهم أنفسهم إنما يحصل في يوم القيامة ، أما مقت الله لهم ففيه وجهان الأول : أنه حاصل في الآخرة ، والمعنى لمقت الله لكم في هذا الوقت أشد من مقتكم أنفسكم في هذا الوقت (1) والثاني : وعليه الأكثرون أن التقدير لمقت الله لكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ، أكبر من مقتكم أنفسكم الآن ففي تفسير الألفاظ المذكورة في الآية أوجه الأول : أن الذين ينادونهم ويذكرون لهم هذا الكلام هم خزنة جهنم الثاني : المقت أشد البغض وذلك في حق الله تعالى محال ، فالمراد منه أبلغ الإنكار والزجر الثالث : قال الفراء ﴿ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله ﴾ معناه إنهم ينادون إن مقت الله أكبر يقال ناديت إن زيداً قائم وإن زيداً لقائم الرابع : قوله ﴿ إذ تدعون إلى الإيمان ﴾ فيه حذف والتقدير لمقت الله لكم إذ تدعون إلى الإيمان فتأتون بالكفر أكبر من مقتكم الآن أنفسكم .

---

(1) المناسب أن يقول هنا «لمقت الله لكم في ذلك الوقت» إشارة إلى بعده إذ المشار إليه يوم القيامة .

ثم إنه تعالى بيّن أن الكفار إذا خاطبوا بهذا الخطاب ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنتين ﴾ إلى آخر الآية ، والمعنى أنهم لما عرفوا أن الذي كانوا عليه في الدنيا كان فاسداً باطلاً تمنوا الرجوع إلى الدنيا لكي يشتغلوا عند الرجوع إليها بالأعمال الصالحة ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

احتج أكثر العلماء بهذه الآية في إثبات عذاب القبر ، وتقرير الدليل أنهم أثبتوا لأنفسهم موتتين حيث قالوا ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنتين ﴾ فأحد الموتتين مشاهد في الدنيا فلا بد من إثبات حياة أخرى في القبر حتى يصير الموت الذي يحصل عقيبها موتاً ثانياً ، وذلك يدل على حصول حياة في القبر ، فإن قيل قال كثير من المفسرين الموتة الأولى إشارة إلى الحالة الحاصلة عند كون الإنسان نطفة وعلقة والموتة الثانية إشارة إلى ما حصل في الدنيا ، فلم لا يجوز أن يكون الأمر كذلك ، والذي يدل على أن الأمر ما ذكرناه قوله تعالى :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ [البقرة : 28] والمراد من قوله ﴿ وَكُنتُمْ أمواتا ﴾ الحالة الحاصلة عند كونه نطفة وعلقة وتحقيق الكلام أن الإماتة تستعمل بمعنيين أحدهما : إيجاد الشيء ميتاً والثاني : تصيير الشيء ميتاً بعد أن كان حياً كقولك

وسع الخياط ثوبي ، يحتمل أنه خاطه واسعاً ويحتمل أنه صيره واسعاً بعد أن كان ضيقاً ، فلم لا يجوز في هذه الآية أن يكون المراد بالإماتة خلقها ميتة ، ولا يكون المراد تصييرها ميتة بعد أن كانت حية .

السؤال الثاني : أن هذا كلام الكفار فلا يكون حجة .

(135/673)

السؤال الثالث : أن هذه الآية تدل على المنع من حصول الحياة في القبر ، وبيانه أنه لو كان الأمر كذلك لكان قد حصلت الحياة ثلاث مرات أولها : في الدنيا ، وثانيها : في القبر ، وثالثها : في القيامة ، والمذكور في الآية ليس إلا حياتين فقط ، فتكون إحداهما الحياة في الدنيا والحياة الثانية في القيامة والموت الحاصل بينهما هو الموت المشاهد في الدنيا .

السؤال الرابع : أنه إن دلت هذه الآية على حصول الحياة في القبر فههنا ما يدل على عدمه وذلك بالمنقول والمعقول ، أما المنقول فمن وجوه الأول : قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء الليل ساجدا وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُو رَّحْمَةِ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : 9] فلم يذكر في هذه الآية إلا الحذر عن الآخرة ، ولو حصلت الحياة في القبر لكان الحذر عنها حاصلاً ، ولو كان الأمر كذلك لذكره ، ولما لم يذكره علمنا أنه غير حاصل الثاني : أنه تعالى حكى في سورة

الصافات عن المؤمنين المحقين أنهم يقولون بعد دخولهم في الجنة ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى ﴾ [الصافات : 58 ، 59] ولا شك أن كلام أهل الجنة حق وصدق ولو حصلت لهم حياة في القبر لكانوا قد ماتوا موتتين ، وذلك على خلاف قوله ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى ﴾ قالوا والاستدلال بهذه الآية أقوى من الاستدلال بالآية التي ذكرتموها ، لأنه الآية التي تمسكنا بها حكاية قول المؤمنين الذين دخلوا الجنة والآية التي تمسكتم بها حكاية قول الكافرين الذين دخلوا النار .

وأما المعقول فمن وجوه الأول : وهو أن الذي افترسته السباع وأكلته لو أعيد حياً لكان إما أن يعاد حياً بمجموعة أو بأحاد أجزائه ، والأول باطل لأن الحس يدل على أنه لم يحصل له مجموع ، والثاني باطل لأنه لما أكلته السباع ، فلو جعلت تلك الأجزاء أحياء لحصلت أحياء في معدة السباع وفي أمعائها ، وذلك في غاية الاستبعاد .

(136/673)

الثاني : أن الذي مات لو تركناه ظاهراً بحيث يراه كل واحد فإنهم يرونه باقياً على موته ، فلو جوزنا مع هذه الحالة أنه يقال إنه صار حياً لكان هذا تشكيكاً في المحسوسات ، وإنه دخول في السفسطة (والجواب) قوله لم لا يجوز أن تكون الموتة الأولى هي الموتة التي كانت

حاصلة حال ما كان نطفة وعلقة ؟ فنقول هذا لا يجوز ، وبيانه أن المذكور في الآية أن الله أماتهم ولفظ الإماتة مشروط بسبق حصول الحياة إذ لو كان الموت حاصلاً قبل هذه الحالة امتنع كون هذا إماتة ، وإلا لزم تحصيل الحاصل وهو محال وهذا بخلاف قوله ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ لأن المذكور في هذه الآية أنهم كانوا أمواتاً وليس فيها أن الله أماتهم بخلاف الآية التي نحن في تفسيرها ، لأنها تدل على أن الله تعالى أماتهم مرتين ، وقد بينا أن لفظ الإماتة لا يصدق إلا عند سبق الحياة فظهر الفرق .

(137/673)

أما قوله إن هذا كلام الكفار فلا يكون حجة ، قلنا لما ذكروا ذلك لم يكذبهم الله تعالى إذ لو كانوا كاذبين لأظهر الله تكذيبهم ، ألا ترى أنهم لما كذبوا في قولهم ﴿ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ كذبهم الله في ذلك فقال : ﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ ﴾ [الأنعام : 23 ، 24] وأما قوله ظاهر الآية يمنع من إثبات حياة في القبرة إذ لو حصلت هذه الحياة لكان عدد الحياة ثلاث مرات لا مرتين ، فنقول (الجواب) عنه من وجوه : الأول : هو أن مقصودهم تعديل أوقات البلاء والمحنة وهي أربعة الموتة الأولى ، والحياة في القبر ، والموتة الثانية ، والحياة في القيامة ، فهذه الأربعة أوقات البلاء والمحنة ، فأما الحياة في الدنيا فليست من أقسام أوقات

البلاء والمحنة فلهذا السبب لم يذكروها الثاني : لعلهم ذكروا الحياتين : وهي الحياة في الدنيا ، والحياة في القيامة ، أما الحياة في القبر فأهملوا ذكرها لقلة وجودها وقصر مدتها الثالث : لعلهم لما صاروا أحياء في القبور لم يموتوا بل بقوا أحياء ، إما في السعادة ، وإما في الشقاوة ، واتصل بها حياة القيامة فكانوا من جملة من أرادهم الله بالاستثناء في قوله ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ [الزمر : 68] الرابع : لو لم تثبت الحياة في القبر لزم أن لا يحصل الموت إلا مرة واحدة فكان إثبات الموت مرتين كذباً وهو على خلاف لفظ القرآن ، أما لو أثبتنا الحياة في القبر لزمنا إثبات الحياة ثلاث مرات والمذكور في القرآن مرتين ، أما المرة الثالثة فليس في اللفظ ما يدل على ثبوتها أو عدمها ، فثبت أن نفي حياة القبر يقتضي ترك ما دل اللفظ عليه ، فأما إثبات حياة القبر فإنه يقتضي إثبات شيء زائد على ما دل عليه اللفظ مع أن اللفظ لا إشعار فيه بثبوته ولا بعدمه فكان هذا أولى ، وأما ما ذكروه في المعارضة الأولى فنقول قوله

﴿ يَحْذَرُ الآخرة ﴾ [الزمر : 9] تدخل فيه الحياة الآخرة سواء كانت في القبر أو في القيامة ، وأما المعارضة الثانية فجوابها أنا نرجح قولنا بالأحاديث الصحيحة الواردة في

عذاب القبر .

وأما الوجهان العقليان فمدفوعان ، لأنا إذا قلنا إن الإنسان ليس عبارة عن هذا الهيكل بل هو عبارة عن جسم نوراني سار في هذا البدن كانت الإشكالات التي ذكرتموها غير واردة في هذا الباب ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

اعلم أنا لما أثبتنا حياة القبر فيكون الحاصل في حق بعضهم أربعة أنواع من الحياة وثلاثة أنواع من الموت ، والدليل عليه قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين خَرَجُواْ مِن ديارهم وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الموت فَقَالَ لَهُمُ الله مُوتُواْ ثُمَّ أحياهم ﴾ [البقرة : 243] فهؤلاء أربعة مراتب في الحياة ، حياتان في الدنيا ، وحياة في القبر ، وحياة رابعة في القيامة .

المسألة الثالثة :

قوله ﴿ اثنتين ﴾ نعت لمصدر محذوف والتقدير إماتتين اثنتين ، ثم حكى الله عنهم أنهم قالوا ﴿ فاعترفنا بِذُنُوبِنَا ﴾ فإن قيل الفاء في قوله ﴿ فاعترفنا ﴾ تقتضي أن تكون الإماتة مرتين والإحياء مرتين سبباً لهذا الاعتراف فبينوا هذه السببية ، قلنا لأنهم كانوا منكرين

للبعث فلما شاهدوا الإحياء بعد الإماتة مرتين لم يبق لهم عذر في الإقرار بالبعث ، فلا جرم وقع هذا الإقرار كالمسبب عن ذلك الإحياء وتلك الإماتة ، ثم قال : ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي هل إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء من سبيل ، أم اليأس وقع فلا خروج ، ولا سبيل إليه ؟ وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط ، واعلم أن الجواب الصريح عنه أن يقال لا أو نعم وهو تعالى لم يفعل ذلك بل ذكر كلاماً يدل على أنه لا سبيل لهم إلى الخروج فقال : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ ﴾ أي ذلكم الذي أنتم فيه ، وهو أن لا سبيل لكم إلى الخروج قط ، إنما وقع بسبب كفركم بتوحيد الله تعالى ، وإيمانكم بالإشراك به ﴿ فالحكم للَّهِ ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدي ، وقوله ﴿ العلى الكبير ﴾ دلالة على الكبرياء والعظمة ، وعلى أن عقابه لا يكون إلا كذلك ، والمشبهة استدلوا بقوله تعالى : ﴿ العلي ﴾ على العلو الأعلى في الجهة ، وبقوله ﴿ الكبير ﴾ على كبر الجثة والذات ، وكل ذلك باطل ، لأنا دللنا على أن الجسمية والمكان محالان في حق الله تعالى ، فوجب أن يكون المراد من ﴿ العلى الكبير ﴾ العلو والكبرياء بحسب القدرة والإلهية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 34 . 37 ﴾

(140/673)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾

قال الأخفش : "لَمَقْتُ" هذه لام الابتداء وقعت بعد "يُنَادَوْنَ" لأن معناه يقال لهم والنداء قول .

وقال غيره : المعنى يقال لهم : "لَمَقْتُ اللَّهِ" إياكم في الدنيا ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمان فَتَكْفُرُونَ ﴾ "أَكْبَرُ" من مقت بعضكم بعضاً يوم القيامة ؛ لأن بعضهم عادى بعضاً ومقته يوم القيامة ، فأذعنوا عند ذلك ، وخضعوا وطلبوا الخروج من النار .

وقال الكلبي : يقول كل إنسان من أهل النار لنفسه مقتك يا نفس ؛ فتقول الملائكة لهم وهم في النار : لمقت الله إياكم إذ أنتم في الدنيا وقد بعث إليكم الرسل فلم تؤمنوا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم .

وقال الحسن : يعطون كتابهم فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم فينادون "لَمَقْتُ اللَّهِ" إياكم في الدنيا ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمان فَتَكْفُرُونَ ﴾ ﴿ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ اليوم .

وقال معناه مجاهد .

وقال قتادة : المعنى "لَمَقْتُ اللَّهِ" لكم "إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ" "أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ" إذ عاينتم النار .

فإن قيل : كيف يصح أن يمقتوا أنفسهم ؟ ففيه وجهان : أحدهما أنهم أحلوها بالذنوب محل الممقوت .

الثاني أنهم لما صاروا إلى حال زال عنهم الهوى ، وعلموا أن نفوسهم هي التي أبقتهم في المعاصي مقتوها .

وقال محمد بن كعب القرظي : إن أهل النار لما يئسوا مما عند الخزنة وقال لهم مالك : ﴿ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف : 77] على ما يأتي .

(141/673)

قال بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! إنه قد نزل بكم من العذاب والبلاء ما قد ترون ، فهلّم فلنصبر فلعل الصبر ينفعنا ، كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا ، فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا فطال صبرهم ، ثم جزعوا فنادوا ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم : 21] أي من ملجأ ؛ فقال إبليس عند ذلك : ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [إبراهيم : 22] إلى قوله : ﴿ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم : 22] يقول : بمغن عنكم شيئاً ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم : 22]

فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم .

قال : فنودوا ﴿ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ قال فردّ عليهم : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فالحكم للَّهِ العلي الكبير ﴾ ذكره ابن المبارك .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنتين ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى قولهم : ﴿ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والضحاك : كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم ، ثم أحياهم ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها في الدنيا ، ثم أحياهم للبعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان ، وهو قوله تعالى :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : 28] .

وقال السدي : أميتوا في الدنيا ثم أحياهم في القبور للمسألة ، ثم أميتوا ثم أحيوا في الآخرة .

(142/673)

وإنما صار إلى هذا ؛ لأن لفظ الميت لا ينطلق في العرف على النطفة .

واستدل العلماء من هذا في إثبات سؤال القبر ، ولو كان الثواب والعقاب للروح دون الجسد فما معنى الإحياء والإماتة ؟ والروح عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح لا تموت

ولا تتغير ولا تفسد ، وهو حيّ لنفسه لا يتطرّق إليه موت ولا غشية ولا فناء .

وقال ابن زيد في قوله : ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثنتين ﴾ الآية قال : خلقهم في ظهر آدم وأخرجهم وأحياهم وأخذ عليهم الميثاق ، ثم أماتهم ثم أحياهم في الدنيا ثم أماتهم .

وقد مضى هذا في "البقرة" .

﴿ فاعترفنا بِذُنُوبِنَا ﴾ اعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف وندموا حيث لا ينفعهم الندم .

﴿ فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي هل نردّ إلى الدنيا لنعمل بطاعتك ؛ نظيره : ﴿ هَلْ إلى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى : 44] وقوله : ﴿ فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ [السجدة : 12] وقوله : ﴿ ياليتنا نُرَدُّ ﴾ [الأنعام : 27] الآية .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ "ذَلِكُمْ" في موضع رفع أي الأمر "ذَلِكُمْ" أو "ذَلِكُم" العذاب الذي أنتم فيه بكفركم .

وفي الكلام متروك تقديره فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الرد .

وذلك لأنكم "إِذَا دُعِيَ اللَّهُ" أي وُحِّد الله "وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ" وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة ، وإن أشرك به مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله .

قال الثعلبي : وسمعت بعض العلماء يقول : ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ ﴾ بعد الرد إلى الدنيا لو كان ﴿ تُؤْمِنُواْ ﴾ تصدّقوا المشرك ؛ نظيره : "وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْه" .

﴿ فالحكم للَّهِ العلي الكبير ﴾ عن أن تكون له صاحبة أو ولد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(143/673)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾

شروع في بيان أحوال الكفال بعد دخول النار .

﴿ يُنَادَوْنَ ﴾ وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم الأمارة بالسوء التي وقعوا فيما وقعوا باتباع هواها حتى أكلوا أناملهم من المقت كما أخرج ذلك عبد بن حميد عن الحسن .

وفي بعض الآثار أنهم يمقتون أنفسهم حين يقول لهم الشيطان : ﴿ فلا تَلُومُونِى وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] وقيل : يمقتونها حين يعلمون أنهم من أصحاب النار ، والمنادي الخزنة أو المؤمنون يقولون لهم إعظاماً لحسرتهم : ﴿ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ وهذا معمول للنداء لتضمنه معنى القول كأنه قيل ينادون مقولاً لهم لمقت الخ أو معمول لقول مقدر بفاء التفسير أي ينادون فيقال لهم : لمقت الخ ، وجعله معمولاً للنداء على حذف الجار وإيصال الفعل بالجملة ليس بشيء ، و ﴿ مقت ﴾ مصدر مضاف إلى

الاسم الجليل إضافة المصدر لفاعله ، وكذا إضافة المقت الثاني إلى ضمير الخطاب .

وفي الكلام تنازع أو حذف معمول الأول من غير تنازل أي لمقت الله إياكم أو أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم ، واللام للابتداء أو للقسم ، والمقت أشد البغض ؛ والخلف يؤولونه مسنداً إليه تعالى بأشد الإنكار .

﴿ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ أي إذ يدعوكم الأنبياء ونوابهم ﴿ إِلَى الإيمان ﴾ فتأبون قبوله ﴿ فَتَكْفُرُونَ ﴾ وهذا تعليل للحكم أو للمحكوم به فإذ متعلقة بأكبر وكان التعبير بالمضارع للإشارة إلى الاستمرار التجددي كأنه قيل : لمقت الله تعالى أنفسكم أكبر من مقتكم إياها لأنكم دعيتم مرة بعد مرة إلى الايمان فتكرر منكم الكفر ، وزمان المقتين واحد على ما هو المتبادر وهو زمان مقتهم أنفسهم الذي حكيناه آنفاً" .

(144/673)

ويجوز أن يكون تعليلاً لمقتهم أنفسهم وإذ متعلق بمقت الثاني فهم مقتوا أنفسهم لأنهم دعوا مراراً إلى الايمان فكفروا ، والتعبير بالمضارع كما في الوجه السابق ، وزمان المقتين كذلك ، والعلة في الحقيقة إصرارهم على الكفر مع تكرر دعائهم إلى الايمان ، وجوز أن يكون تعليلاً لمقت الله و ﴿ إِذْ ﴾ متعلقة به ، ويعلم مما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما عليه وما له ،

وظاهر صنيع جماعة من الأجلة اختيار كون ﴿ إِذْ ﴾ ظرفية لا تعليلية فقيل : هي ظرف لمقت الأول ، والمعنى لمقت الله تعالى أنفسكم في الدنيا إذ تدعون إلى الايمان فتكفرون أشد من مقتكم إياها اليوم وأنتم في النار أو وأنتم متحققون إنكم من أصحابها فزمان المقتين مختلف ، وكون زمان الأول الدنيا وزمان الثاني الآخرة مروي عن الحسن ، وأخرجه عبد بن حميد .

وابن المنذر عن مجاهد ، واعترض عليه غير واحد بلزوم الفصل بين المصدر وما في صلته بأجنبي هو الخبر ، وفي أمالي ابن الحاجب لا بأس بذلك لأن الظروف متسع فيها ، وقيل : هي لمصدر آخر يدل عليه الأول أو لفعل يدل عليه ذلك كما في البحر .

وفي "الكشف" فيه أن المقدر لا بد له من جزاآت أن استقل ويتسع الخرق وإن جعل بدلاً فحذفه وأعمال المصدر المحذوف لا يتقاعد عن الفصل بالخبر وليس أجنبياً من كل وجه ؛ وتقدير الفعل أي مقتكم الله إذ تدعون أبعد وأبعد ، وقيل : هي ظرف لمقت الثاني .

واعترض بأنهم لم يمقتوا أنفسهم وقت الدعوة بل في القيامة .

(145/673)

وأجيب بأن الكلام على هذا الوجه من قبيل قول الأمير كرم الله تعالى وجهه : إنما أكلت يوم أكل الثور الأحمر وقو لعمرو بن عدس التميمي لمطلقته دختنوس بنت لقيط وقد سألته لبناً وكانت مقفرة من الزاد : الصيف ضيعت اللبن وذلك بأن يكون مجازاً بتنزيل وقوع السبب وهو كفرهم وقت الدعوة منزلة وقوع المسبب وهو مقتهم لأنفسهم حين معاينتهم ما حل بهم بسببه ، وقيل : إن المراد عليه إذ تبين أنكم دعيتم إلى الايمان المنجي والحق الحقيق بالقبول فأبيتم أو أن المراد بأنفسهم جنسهم من المؤمنين فإنهم كانوا يمقتون المؤمنين في الدنيا إذ يدعون إلى الايمان وهو أبعد التأويلات ؛ وقال لمكي : ﴿ إِذْ ﴾ معمولة لا ذكروا مضمراً والمراد التحير والتنديم واستحسنه بعضهم وأراه خلاف المتبادر .

وادعى "صاحب الكشف" أن فيه تنافراً بيناً وعلله بما لم يظهر لي وجهه فتأمل .

وتفسير ﴿ مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ بمقت كل واحد نفسه هو الظاهر ، وجوز أن يراد به مقت بعضهم بعضاً فقيل : إن الاتباع يمقتون الرؤساء لما ورطوهم فيه من الكفر والرؤساء يمقتون الاتباع لما أنهم اتبعوهم فحملوا أوزاراً مثل أوزارهم فلا تغفل .

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ صفتان لمصدري الفعلين ، والتقدير امتنا امتاتتين اثنتين وأحييتنا إحياءتين اثنتين .

وجوز كون المصدرين موتتين وحياتين وهما إما مصدران للفعلين المذكورين أيضاً بحذف الزوائد أو مصدارن لفعلين آخرين يدل عليهما المذكوران فإن الإماتة والإحياء ينبئان عن

الموت والحياة حتماً فكأنه أمتنا فمتنا موتتين اثنتين على طرز قوله

: وعض زمان يا ابن مروان لم يدع . . .

من المال إلا مسحت أو مجلف

(146/673)

أي لم يدع فلم يبق إلا مسحت الخ ، واختلف في المراد بذلك فقيل : أرادوا بالاماتة الأولى خلقهم أمواتاً وبالثانية إماتتهم عند انقضاء آجالهم وبالإحياءة الأولى إحياءتهم بنفخ الروح فيهم وهم في الأرحام وبالثانية إحياءتهم بإعادة أرواحهم إلى أبدانهم للبعث .

وأخرج هذا ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن ابن عباس وجماعة من الحاكم وصححه عن ابن مسعود ، وعبد بن حميد .

(147/673)

وابن المنذر عن قتادة ، وروى أيضاً عن الضحاك وأبي مالك وجعلوا ذلك نظير آية البقرة ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : 28] والإماتة إن كانت حقيقة في جعل الشيء عادم الحياة سبق بحياة أم لا فالأمر ظاهر وإن كانت حقيقة في تصيير الحياة معدومة بعد أن كانت موجودة كما هو ظاهر كلامهم حيث قالوا : إن صيغة الأفعال وصيغة التفعيل موضوعتان للتصيير أي النقل من حال إلى حال ففي إطلاقها على ما عدا إماته أولى خفاء لاقتضاء ذلك سبق الحياة ولا سبق فيما ذكر ، ووجه بأن ذلك من باب المجاز كما قرروه في ضيق فم الركية ووسع أسفلها قالوا : إن الصانع إذا اختار أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع الجائز عن الآخرة فجعل صرفه عنه كنقله منه يعني أنه تجوز بالأفعال أو التفعيل الدال على التصيير وهو النقل من حال إلى حال أخرى عن لازمه وهو الصرف عما في حيز الإمكان ، ويتبعه جعل الممكن الذي تجوز إرادته بمنزلة الواقع ، وكذا جعل الأمر في ضيق فم الركية مثلاً بإنشائه على الحال الثانية بمنزلة أمره بنقله عن غيرها ، ولذا جعله بعض الأجلة بمنزلة الاستعارة بالكناية فيكون مجازاً مرسلاً مستتبعاً للاستعارة بالكناية ، فالمراد بالاماتة هناك الصرف لا النقل ، وذكر بعضهم أنه لا بد من القول بعموم المجاز لئلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز في الآية استعمال المشترك في معنييه بناء على زعم أن الصيغة مشتركة بين الصرف والنقل ، ومن أجاز ما ذكر لم يحتج للقول بذلك .

وفي "الكشف" آثر جار الله أن إحدى الإماتتين ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ﴾ [البقرة : 28] وإطلاقها عليه من باب المجاز وهو مجاز مستعمل في القرآن ، وقد ذكر وجه التجوز ، وتحقيق ذلك يبتني على حرف واحد وهو أن الإحياء معناه جعل الشيء حياً فالمادة الترابية أو النطفية إذا أفيضت عليها الحياة صدق أنها صارت ذات حياة على الحقيقة إذ لا يحتاج إلى سبق موت على الحقيقة بل إلى سبق عدم الحياة فهناك إحياء حقيقة ، وأما الإماتة فإن جعل بين الموت والحياة التقابل المشهوري استدعى المسبوقية بالحياة فلا تصح الإماتة قبلها حقيقة ، وإن جعل التقابل الحقيقي صحت ، لكن الظاهر في الاستعمال بحسب عرفي العرب والعجم أنه مشهوري انتهى ، وأراد بالمشهوري والحقيقي ما ذكروه في التقابل بالعدم والملكة فإنهم قالوا : المتقابلان بالعدم والملكة وهما أمران يكون أحدهما وجودياً والآخر عدم ذلك الوجودي في موضوع قابل له إن اعتبر قبوله بحسب شخصه في وقت اتصافه بالأمر العدمي فهو العدم والملكة المشهوران كالكوسجية فإنها عدم اللحية عما من شأنه الوقت أن يكون ملتحياً فإن الصبي لا يقال له كوسج ، وإن اعتبر قبوله أعم من ذلك بأن لا يقيد بذلك الوقت كعدم اللحية عن الطفل أو يعتبر قبوله

بحسب نوعه كالعمى للأكمه أو جنسه القريب كالعمى للعقرب أو البعيد كعدم الحركة الإرادية عن الجبل فإن جنسه البعيد أعني الجسم الذي هو فوق الجماد قابل للحركة الإرادية فهو العدم والملكة الحقيقيات لكن في بناء اقتضاء المسبوقية بالحياة وعدمه على ذلك خفاء ، وإن ضم إليه التعبير بصيغة الماضي كما لا يخفى على المتدبر .

(149/673)

ثم وجه تسبب الإماتة مرتين والإحياء كذلك لقوله تعالى : ﴿ فاعترفنا بِذُنُوبِنَا ﴾ أنهم قد أنكروا البعث فكفروا وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى لأن من لم يخش العاقبة تخرق في المعاصي فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم علموا بأن الله تعالى قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم .

وقال السدي : أرادوا بالإماتة الأولى إماتتهم عند انقضاء آجالهم وبالإحياءة الأولى إحياءتهم في القبر للسؤال وبالإماتة الثانية إماتتهم بعد هذه الإحياءة إلى قيام الساعة وبالإحياءة الثانية إحياءتهم للبعث ، واعترض عليه بأنه يلزم هذا القائل ثلاث إحياءات فكان ينبغي أن يكون المنزل أحييتنا ثلاثاً فإن ادعى عدم الاعتداد بالإحياءة المعروفة

وهي التي كانت في الدنيا لسرعة انصرامها وانقطاع آثارها وأحكامها لزمه أن لا يعتد بالإماتة بعدها .

وقال بعض المحققين في الانتصار له : إن مراد الكفار من هذا القول اعترافهم بما كانوا ينكرونه في الدنيا ويكذبون الأنبياء حين كانوا يدعونهم إلى الايمان بالله تعالى واليوم الآخر لأن قولهم هذا كالجواب عن النداء في قوله تعالى : ﴿ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ ﴾ [غافر : 10] كأنهم أجابوا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دعونا وكنا نعتقد أن لا حياة بعد الموت فالآن نعترف بالموتين والحياتين لما قاسينا من شدائدهما وأحوالهما فالذنب المعترف به تكذيب البعث ، ولهذا جعل مرتباً على القول وإنما ذكروا الإماتتين ليذكروا الإحياءين إذ كلتا الحياتين كانتا منكرتين عندهم دون الحياة المعروفة ومقام هذه الآية غير مقام قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ﴾ [البقرة : 28] فإن هذه كما سمعت لبيان الإقرار والاعتراف منهم في الآخرة بما أنكروه في الدنيا وتلك لبيان الامتنان الذي يستدعي شكر المنعم أو لبيان الدلائل لتصرفهم عن الكفر .

(150/673)

ويرجح هذا القول إن أمر إطلاق الإماتة على كلتا الإماتتين ظاهر .

وتعقبه في "الكشف" بأنه لا قرينة في اللفظ تدل على خروج الإحياء الأول مع أن الإطلاق عليه أظهر والمقابلة تنادي على دخوله .

ويكفي في الاعتراف إثبات إحياء واحد منهما غير الأول ، وقيل : إنما قالوا : ﴿ أَمَتَّنَا اثنتين ﴾ لأنهما نوعان إحياء البعث وإحياء قبله ، ثم إحياء البعث قسمان إحياء في القبر وإحياء عند القيام ولم يذكر تقسيمه لأنهم كانوا منكرين لقسميه .

وتعقب بأن ذكر الإماتة الثانية التي في القبر دليل على أن التقسيم ملحوظ ، والمراد التعدد الشخصي لا النوعي نعم هذا يصلح تأييداً لما اختاره جار الله ، وروى عن جمع من السلف من أن الإحياءات وإن كانت ثلاثاً إنما سكت عن الثانية لأنها داخلة في إحياءة البعث قاله "صاحب الكشف" ثم قال : وعلى هذا فالإماتة على مختار جار الله إماتة قبل الحياة وإماتة بعدها وطويت إماتة القبر كما طويت إحياءته ولك أن تقول إن الإماتة نوع واحد بخلاف الإحياء فروعي التعدد فيها شخصاً بخلافه ، وذكر الإماتة الثانية لأنها منكرة عندهم كالحياتين ، ويجب الاعتراف بها لا للدلالة على أن التعدد في الإحياء شخصي والحق أن ذلك وجه لكن قوله تعالى : ﴿ اثنتين ﴾ ظاهر في المرة فلذا آثر من آثر الوجه الأول وإن كانت الإماتة فيه غير ظاهرة ذهاباً إلى أن ذلك مجاز مستعمل في القرآن فتأمل .

وقال الإمام : إن أكثر العلماء احتجوا بهذه الآية في إثبات عذاب القبر وذلك أنهم أثبتوا لأنفسهم وموتتين فإحدى الموتتين مشاهد في الدنيا فلا بد من إثبات حياة أخرى في القبر حتى يصير الموت الذي عقيبها موتاً ثانياً ، وذلك يدل على حصول حياة في القبر ، وأطال الكلام في تحقيق ذلك والانتصار له ، والمنصف يرى أن عذاب القبر ثابت بالأحاديث الصحيحة دون هذه الآية لقيام الوجه المروي عمن سمعت أولاً فيها ، وقد قيل : إنه الوجه لكني أظن أن اختيار الزمخشري له لدسيسة اعتزالية ، وقال ابن زيد في الآية أريد إحياؤهم نسماً عند أخذ العهد عليهم من صلب آدم ثم إماتتهم بعد ثم إحياؤهم في الدنيا ثم إماتتهم ثم إحياؤهم وهذا صريح في أن الإحياءات ثلاث ، وقد أطلق فيه الإحياء الثالث ؛ والأغلب على الظن أنه عني به إحياء البعث ، وقيل : التثنية في كلامهم مثلها في قوله تعالى : ﴿ ذلكم ﴾ الخ

(152/673)

من غير جواب عن الخروج نفياً أو إثباتاً وإن كان الاستفهام على ظاهره ، والمراد طلب الخروج نظير ﴿ فارجعنا نَعْمَلْ صالحا ﴾ [السجدة : 12] ونحوه لقيل : ﴿ اخسؤا

فيها ﴾ [المؤمنون : 108] أو نحو ذلك كذا قيل ، وجوز أن يكونوا طلبوا الرجعة ليعملوا بموجب ذلك الاعتراف لكن مع استبعاد لها واستشعار يأس منه والجواب إقناط لهم ببيان أنهم كانوا مستمرين على الشرك فجوزوا باستمرار العقاب والخلود في النار كما يقتضيه حكمه تعالى وذلك جواب بنفي السبيل إلى الخروج على أبلغ وجه ، ولا أرى في هذا الوجه بأساً ويوشك أن يكون المتبادر ، والمعنى ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ أي بسبب أن الشأن ﴿ إِذَا دُعِيَ اللهُ ﴾ أي عبد سبحانه في الدنيا ﴿ وَحْدَهُ ﴾ أي متحداً منفرداً فهو نصب على الحال مؤول بمشتق منكر أو يوحد وحده على أنه مفعول مطلق لفعل مقدر على حد ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] والجملة بتمامها حال أيضاً حذفت وأقيم المصدر مقامها ، وفيه كلام آخر مفصل في الوفدة وقد تقدم بعضه .

﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ بتوحيده تعالى أي جحدتم وأنكرتم ذلك ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ ﴾ بالإشراك أي تذعنوا وتقروا به ، وفي إيراد ﴿ إِذَا ﴾ وصيغة الماضي في الشرطية الأولى و ﴿ إن ﴾ وصيغة المضارع في الثانية ما لا يخفى من الدلالة على سوء حالهم وحيث كان كذلك ﴿ فالحكم للَّهِ ﴾ الذي لا يحكم إلا بالحق ولا يقضي إلا بما تقتضيه الحكمة ﴿ العلي الكبير ﴾ المتصف بغاية العلوم نهاية الكبرياء فليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله ، ولذا اشتدت سطوته بمن أشرك به واقتضت حكمته خلوده في النار فلا سبيل لخروجكم منها أبداً إذ كنتم مشركين .

(153/673)

واستدلال الحرورية بهذه الآية على زعمهم الفاسد في غاية السقوط ، ويكفي في الرد عليهم قوله تعالى : ﴿ فابعثوا حَكَماً مّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مّنْ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : 35] الآية وقوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مّنْكُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(154/673)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10) ﴾

مقابلةُ سؤال الملائكةِ للمؤمنين بالنعيم الخالص يوم القيامة بما يخاطَب به المشركون يومئذٍ من التوبيخ والتنديم وما يراجِعون به من طلب العفو مؤذنة بتقدير معنى الوعد باستجابةِ دعاء الملائكة للمؤمنين ، فطيُّ ذكرِ ذلك ضرب من الإيجاز .

والانتقال منه إلى بيان ما سيحل بالمشركين يومئذٍ ضرب من الأسلوب الحكيم لأن قوله : ﴿ إنَّ الذين كفروا ينادون ﴾ الآيات مستأنف استئنافاً بيانياً كأنَّ سائلاً سأل عن تقبل دعاء الملائكة للمؤمنين فأجيب بأن الأهم أن يسأل عن ضد ذلك ، وفي هذا الأسلوب إيماء ورمز إلى أن المهم من هذه الآيات كلها هو موعظة أهل الشرك رجوعاً إلى قوله : ﴿ وكذلك حقت كلمات ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ [غافر : 6] والمراد بالذين كفروا هنا مشركو أهل مكة ، فإنهم المقصود بهذه الأخبار كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ [غافر : 7] .

والمعنى : أنهم يناديهم الملائكة تبليغاً عن رب العزة ، قال تعالى : ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ [فصلت : 44] وهو بعد عن مرتبة الجلال ، أي ينادون وهم في جهنم كما دل عليه قوله : ﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ [غافر : 11] .

واللام في ﴿ لَمَقْتُ الله ﴾ لام القسم .

والمقت : شدة البغض .

و ﴿ إذْ تُدْعَون ﴾ ظرف ل ﴿ مَقتكم أنفسكم ﴾ .

و ﴿ إذ ﴾ ظرف للزمن الماضي ، أي حينَ كنتم تدعون إلى الإيمان على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك في الدنيا بقرينة ﴿ تُدعون ﴾ وجيء بالمضارع في ﴿ تُدعَون ﴾ و ﴿ تَكفرون ﴾ للدلالة على تكرر دعوتهم إلى الإِيمان وتكرر كفرهم ، أي تجدده .

ومعنى : مقتهم أنفسهم حينئذٍ أنهم فعلوا لأنفسهم ما يُشبه المقت إذ حرموها من فضيلة الإيمان ومحاسن شرائعه ورضُوا لأنفسهم دين الكفر بعد أن أوقظوا على ما فيه من ضلال ومَغِبَّة سوءٍ ، فكان فعلهم ذلك شبيهاً بفعل المرء لبغيضه من الضر والكيد ، وهذا كما يقال : فلان عدو نفسه .

وفي حديث سعد بن أبي وقاص عن عمر بن الخطاب أن عمر قال لنساء من قريش يسألْنَ النبي صلى الله عليه وسلم ويستكثرن ، فلما دخل عمر ابتدَرْن الحجاب فقال لهن : "يا عدُوَّاتِ أنفسهن أتهبنَني ولا تهِبْنَ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالمقت مستعار لقلة التدبر فيما يضر .

وقد أشار إلى وجه هذه الاستعارة قوله : ﴿ إذْ تُدْعون إلى الإيمان فتكفرون ﴾ فمناط الكلام هو ﴿ فتكفرون ﴾ وفي ذكر ﴿ ينادون ﴾ ما يدل على كلام محذوف تقديره : أن الذين كفروا يمقتهم الله وينادَون لمقتُ الله الخ .

ومعنى مقت الله : بغضه إياهم وهو مجاز مرسل أطلق على المعاملة بآثار البغض من التحقير والعقاب فهو أقرب إلى حقيقة البغض لأن المراد به أثره وهو المعاملة بالنكال ، وهو

شائع شيوع نظائره مما يضاف إلى الله مما تستحيل حقيقته عليه ، وهذا الخبر مستعمل في التوبيخ والتنديم .

و﴿ أكبر ﴾ بمعنى أشد وأخطر أثَراً ، فإطلاق الكِبَر عليه مجاز لأن الكبر من أوصاف الأجسام لكنه شاع إطلاقه على القوة في المعاني .

ولما كان مقتهم أنفسهم حَرَمهم من الإِيمان الذي هو سبب النجاة والصلاح وكان غضب الله عليهم أوقعهم في العذاب كان مقت الله إياهم أشدّ وأنكى من مقتهم أنفسهم لأن شدة الإِيلام أقوى من الحرمان من الخير .

والمقت الأول قريب من قوله : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ﴾ [البقرة : 16] ، والمقت الثاني قريب من قوله تعالى : ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلاّ مقتاً ﴾ [فاطر : 39] وهو مقت العذاب .

(156/673)

هذا هو الوجه في تفسير الآية الملاقي لتناسق نظمها ، وللمفسرين فيها وجوه أخر تدنو وتبعد مما ذكرنا فاستعرِضْها واحكم فيها .

و﴿ أنفسكم ﴾ يتنازعه ﴿ مقتُ الله ، ﴾ و ﴿ مقتِكم ﴾ فهو مفعول المصدرين

المضافين إلى فاعليهما .

وبني فعل ﴿ تدعون ﴾ إلى النائب للعلم بالفاعل لظهور أن الداعي هو الرسول صلى الله عليه وسلم أو الرسل عليهم السلام .

وتفريع ﴿ فتكفرون ﴾ بالفاء على ﴿ تدعون ﴾ يفيد أنهم أعقبوا الدعوة بالكفر ، أي بتجديد كفرهم السابق وبإعلانه أي دون أن يتمهلوا مهلة النظر والتدبر فيما دُعوا إليه .

قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11)

جواب عن النداء الذي نودوا به من قِبل الله تعالى فحكي مقالهم على طريقة حكاية المحاورات بحذف حرف العطف ، طمعوا أن يكون اعترافهم بذنوبهم وسيلة إلى منحهم خروجاً من العذاب خروجاً مَّا ليستريحوا منه ولو بعضَ الزمن ، وذلك لأن النداء الموجه إليهم من قبل الله أوهمهم أن فيه إقبالاً عليهم .

والمقصود من الاعتراف هو اعترافهم بالحياة الثانية لأنهم كانوا ينكرونها وأما الموتتان والحياة الأولى فإنما ذُكِرْن إدماجاً للاسْتدلال في صُلب الاعتراف تزلفاً منهم ، أي أيقَنَّا أن الحياة الثانية حق وذلك تعريض بأن إقرارهم صدق لا مواربة فيه ولا تصنع لأنه حاصل عن دليل ، ولذلك جعل مسبباً على هذا الكلام بعطفه بفاء السببية في قوله : ﴿ فاعترفنا بذُنوبنا ﴾ .

والمراد بإحدى الموتتين : الحالةُ التي يكون بها الجنين لَحْماً لا حياة فيه في أول تكوينه قبل أن يُنفخ فيه الروح ، وإطلاق الموت على تلك الحالة مجاز وهو مختار الزمخشري والسكاكي بناء على أن حقيقة الموت انعدام الحياة من الحي بعد أن اتصف بالحياة ، فإطلاقه على حالة إنعدام الحياة قبلَ حصولها فيه استعارةٌ ، إلا أنها شائعة في القرآن حتى ساوت الحقيقة فلا إشكال في استعمال ﴿ أمتنا ﴾ في حقيقته ومجازه ، ففي ذلك الفعل جمع بين الحقيقة والاستعارة التبعية تبعاً لِجريان الاستعارة في المصدر ، ولا مانع من ذلك لأنه واقع ووارد في الكلام البليغ كاستعمال المشترك في معنييه ، والذين لا يرون تقييد مدلول الموت بأن يكون حاصلاً بعد الحياة يكون إطلاق الموت على حالة ما قبل الاتصاف بالحياة عندهم واضحاً ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ في سورة [البقرة : 28] ، على أن إطلاق الموت على الحالة التي قبل نفخ الروح في هذه الآية أسوغ لأن فيه تغليباً للموتة الثانية .

وأما الموتة الثانية فهي الموتة المتعارفة عند انتهاء حياة الإنسان والحيوان .

والمراد بالاحياءتَيْن : الاحياءة الأولى عند نفخ الروح في الجسد بعد مبدأ تكوينه ، والإِحياءة الثانية التي تحصل عند البعث ، وهو في معنى قوله تعالى : ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ [البقرة : 28] .

وانتصب ﴿ اثنتين ﴾ في الموضعين على الصفة لمفعول مطلق محذوف .

والتقدير : موتتين اثنتين وإحياءتَيْن اثنتين فيجيء في تقدير موتتين تغليب الاسم الحقيقي على الاسم المجازي عند من يُقيِّد معنى الموت .

(158/673)

وقد أورد كثير من المفسرين إشكال أن هنالك حياةً ثالثة لم تذكر هنا وهي الحياةُ في القبر التي أشار إليها حديث سؤال القَبر وهو حديث اشتهر بين المسلمين من عهد السلف ، وفي كون سؤال القبر يقتضي حياة الجسم حياة كاملة احتمال ، وقد يُتأول بسؤال روح الميت عِند جسده أو بحصول حياة بعض الجسد أو لأنها لما كانت حياة مؤقتة بمقدار السؤال ليس للمتصف بها تصرف الإِحياء في هذا العالم ، لم يعتد بها لاسيما والكلام مراد منه التوطئة لسؤال خروجهم من جهنم ، وبهذا يعلم أن الآية بمعزل عن أن يستدل بها لثبوت الحياة عند السؤال في القبر .

وتفرع قولهم : ﴿ فاعترفنا بذنُوبنا ﴾ على قولهم : ﴿ وأحييتنا اثنتين ﴾ اعتبار أن إحدى الإِحياءتين كانت السبب في تحقق ذنوبهم التي من أصولها إنكارهم البعث فلما رأوا البعث رأي العين أيقنوا بأنهم مذنبون إذ أنكروه ومذنبون بما استكثروه من الذنوب

لاغترارهم بالأمن من المؤاخذة عليهم بعد الحياة العاجلة .

فجملة ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ إنشاء إقرار بالذنوب ولذلك جيء فيه بالفعل الماضي كما هو غالب صيغ الخبر المستعمل في الإِنشاء مثل صيغ العقود نحو : بعتُ .

والمعنى : نعترف بذنوبنا .

وجعلوا هذا الاعتراف ضرباً من التوبة توهماً منهم أن التوبة تنفع يومئذٍ ، فلذلك فرعوا عليه : ﴿ فَهَل إلى خُرُوجٍ مِن سبيل ﴾ ، فالاستفهام مستعمل في العَرض والاستعطاف كلياً لرفع العذاب ، وقَد تكرر في القرآن حكاية سؤال أهل النار الخروجَ أو التخفيف ولو يوماً .

والاستفهام بحرف ﴿ هَل ﴾ مستعمل في الاستعطاف .

وحرف ﴿ مِن ﴾ زائد لتوكيد العموم الذي في النكرة ليفيد تطلبهم كل سبيل للخروج وشأن زيادة ﴿ مِن ﴾ أن تكُون في النفي وما في معناه دون الاثبات .

(159/673)

وقد عُدّ الاستفهام بـ ﴿ هل ﴾ خاصة من مواقع زيادة ﴿ مِن ﴾ لتوكيد العموم كقوله تعالى : ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾ [ق : 30] ، وتقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ﴾ في سورة [الأعراف : 53] ، وأن وجه اختصاص ﴿ هَل

بوقوعِ مِن الزائدة في المستفهم عنه بها أنه كثر استعمال الاستفهام بها في معنى النفي ، وزيادةُ من حينئذٍ لتأكيد النفي وتنصيص عموم النفي ، فخف وقوعها بعد هل على ألسن أهل الاستعمال .

وتنكير خروج للنَّوعية تلطفاً في السؤال ، أي إلى شيء من الخروج قليلٍ أو كثير لأن كل خروج يتنفعون به راحةٌ من العذاب كقولهم : ﴿ ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ [غافر : 49] .

والسبيل : الطريق واستعير إلى الوسيلة التي يحصل بها الأمر المرغوب ، وكثُر تصرف الاستعمال في إطلاقات السبيل والطريق والمسلك والبلوغ على الوسيلة وبحصول المقصود .

وتنكير ﴿ سبيل ﴾ كتنكير ﴿ خروج ﴾ أي من وسيلة كيف كانت بحق أو بعفو بتخفيف أو غير ذلك .

قال في "الكشاف" "وهذا كلامُ من غلب عليه اليأس والقنوط" يريد أَنَّ في اقتناعهم بخروج مَّا دلالة على أنهم يستبعدون حُصول الخروج .

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12)

عدل عن جوابهم بالحرمان من الخروج إلى ذكر سبب وقوعهم في العذاب ، وإذ قد كانوا عالمين به حين قالوا : ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ [غافر : 11] ، كانت إعادة التوقيف عليه

بعد سؤال الصفح عنه كنايةً عن استدامته وعدم استجابة سؤالهم الخروج منه على وجه يشعر بتحقيرهم .

وزيد ذلك تحقيقاً بقوله : ﴿ فالحُكمُ للهِ العَلِي الكَبِير ﴾ .

فالإِشارة بـ ﴿ ذلكم ﴾ إلى ما هم فيه من العذاب الذي أنبأ به قوله : ﴿ يُنادون لمقتُ الله أكبر من مقتِكم أنفُسكم ﴾ [غافر : 10] وما عقب به من قولهم : ﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ [غافر : 11] .

(160/673)

والباء في ﴿ بأنه ﴾ للسببية ، أي بسبب كفركم إذا دُعي الله وحده .

وضمير ﴿ بأنه ﴾ ضمير الشأن ، وهو مفسر بما بعده من قوله : ﴿ إذا دُعِيَ الله وحْدَه كفرتُم وإن يُشْرك به تؤمنُوا ﴾ ، فالسبب هو مضمون القصة الذي حاصل سببِه : بكفركم بالوحدانية وإيمانكم بالشرك .

و ﴿ إذا ﴾ مستعملة هنا في الزمن الماضي لأن دعاء الله واقع في الحياة الدنيا وكذلك كفرهم بوحدانية الله ، فالدعاء الذي مضى مع كفرهم به كان سبب وقوعهم في العذاب .

ومجيء ﴿ وإنْ يُشْرك بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ بصيغة المضارع في الفعلين مؤوّل بالماضي بقرينة ما قبله

، وإيثار صيغة المضارع في الفعلين لدلالتهما على تكرر ذلك منهم في الحياة الدنيا فإن لتكرره أثراً في مضاعفة العذاب لهم .

والدعاء : النداء ، والتوجهُ بالخطاب .

وكلا المعنيين يستعمل فيه الدعاء ويطلق الدعاء على العبادة ، كما سيأتي عند قوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعُوني أستَجِب لَكُم ﴾ في هذه السورة [60] ، فالمعنى إذا نودي الله بمسمعكم نداء دالاً على أنه إله واحد مثل آيات القرآن الدالة على نداء الله بالوحدانية ، فالدعاء هنا الإعلان والذكر ، ولذلك قوبل بقوله : ﴿ كَفَرْتُم وإن يُشْرَك بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ ، والدعاء بهذا المعنى أعم من الدعاء بمعنى سؤال الحاجات ولكنه يشمله ، أو إذا عُبد الله وحده .

ومعنى ﴿ كفرتم ﴾ جدّدتم الكفر ، وذلك إمّا بصدور أقوال منهم ينكرون فيها انفراد الله بالإلهية ، وإمّا بملاحظة الكفر ملاحظةً جديدة وتذكر آلهتهم .

ومعنى : ﴿ وإن يُشْرك به تؤمنوا ﴾ إن يَصدر ما يدل على الإشراك بالله من أقوال زعمائهم ورفاقهم الدالة على تعدد الآلهة أو إذا أُشرك به في العبادة تؤمنوا ، أي تجددوا الإيمان بتعدد الآلهة في قُلوبكم أو تؤيدوا ذلك بأقوال التأييد والزيادة .

ومتعلِّق ﴿ كفرتم ﴾ و ﴿ تؤمنوا ﴾ محذوفان لدلالة ما قبلهما .

والتقدير : كفرتم بتوحيده وتؤمنوا بالشركاء .

وجيء في الشرط الأول بـ ﴿ إذا التي الغالب في شرطها تحقق وقوعه إشارة إلى أن دعاء الله وحده أمر محقق بين المؤمنين لا تخلو عنه أيامهم ولا مجامعهم ، مع ما تفيد إذا من الرغبة في حصول مضمون شرطها .

وجيء في الشرط الثاني بحرف إنْ التي أصلها عدم الجزم بوقوع شرطها ، أو أَنَّ شرطها أمر مفروض ، مع أن الإِشراك مُحقق تنزيلاً للمحقق منزلة المشكوك المفروض للتنبيه على أن دلائل بطلان الشرك واضحة بأدنى تأمل وتدبر فنزل إشراكهم المحقق منزلة المفروض لأن المقام مشتمل على ما يَقلَع مضمون الشرط من أصله فلا يصلح إلاّ لفرضه على نحو ما يفرض المعدوم موجوداً أو المحال ممكناً .

والألف واللام في الحكم للجنس .

واللام في لله للملكِ أي جنس الحكم ملك لله ، وهذا يفيد قصر هذا الجنس على الكون لله كما تقدم في قوله : ﴿ الحمد لله ﴾ في سورة [الفاتحة : 2] وهو قصر حقيقي إذ لا حكم يوم القيامة لغير الله تعالى .

وبهذه الآية تمسك الحرورية يوم حروراء حين تداعَى جيش الكوفة وجيش الشام إلى

التحكيم فثارت الحرورية على علي بن أبي طالب وقالوا : لا حُكم إلا لله (جعلوا التعريف للجنس والصيغة للقصر) وحدّقوا إلى هذه الآية وأغضوا عن آيات جَمَّة ، فقال عليّ لما سمعها : "كلمةُ حَقَ أُريد بها باطل" اضطرب الناس ولم يتم التحكيم .

وإيثار صفتي ﴿ العَلِيّ الكَبِير ﴾ بالذكر هنا لأن معناهما مناسب لِحرمانهم من الخروج من النار ، أي لعدم نقض حكم الله عليهم بالخلود في النار ، لأن العلوّ في وصفه تعالى علوّ مجازي اعتباري بمعنى شرف القدر وكماله ، فهو العلي في مراتب الكمالات كلها بالذات ، ومن جملة ما يقتضيه ذلك تمامُ العلم وتمامُ العدل ، فلذلك لا يَحكم إلا بما تقتضيه الحكمة والعدل .

(162/673)

ووصف ﴿ الكبير ﴾ كذلك هو كبَر مجازي ، وهو قوة صفات كماله ، فإن الكبير قوي وهو الغنيُّ المطلق ، وكلا الوصفين صيغ على مثال الصفة المشبهة للدلالة على الاتصاف الذاتي المكين ، وإنما يقبل حكم النقض لأحد أمرين إما لعدم جريه على ما يقتضيه من سبب الحكم وهو النقض لأجل مخالفة الحق وهذا ينافيه وصف ﴿ العلي ، ﴾ وإمَّا لأنه

جَور ومجاوز للحد ، وهذا ينافيه وصف ﴿ الكبير ﴾ لأنه يقتضي الغِنَى عن الجور .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(163/673)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾

أشَدُّ العقوباتِ التي يُوصلها الحقُّ إليهم آثارُ سُخْطِه وغَضَبِه ، وأجَلُّ النِّعم التي يغروهم بها آثارُ رضاه عنهم . فإذا عَرَفَ الكافرُ في الآخرة أنَّ ربَّه عليه غضبانُ فلا شيء أصعبُ على قلبه من ذلك ؛ لأنه عَلِمَ أنه لا بُكاء ينفعه ، ولا عناءَ يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه ، ولا يُسْمَعُ له تضرُّعٌ ، ولا تُرْجَى له حيله .

قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11)

الإماتةُ الأولى إماتتُهم في الدنيا ثم في القبر يحييهم ، ثم يميتهم فهي الإماتةُ الثانية . والإحياء الأول في القبر والثاني عند النشر . (1)

﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ : أقروا بذنوبهم –ولكن في وقتٍ لا ينفعهم الإقرار .

﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ مما نحن فيه من العقوبة ، وإنما يقولون ذلك حين لا ينفعهم الندمُ والإقرارُ . فيُقال لهم : –

﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ أي تُصَدِّقوا المشركين لكفرهم . وهؤلاء إماتتُهم محصورة ، فأمَّا أهلُ المحبةِ فلهم في كلِّ وقتِ حياةٌ وموتٌ ، قال قائلُهم :

أموت إذا فَقَدْتُكَ ثم أحيا . . . فكم أحيا عليك وكم أموت !

فإنَّ الحقَّ – سبحانه – يُرَدِّدُ أبداً الخواصَّ من عباده بين الفناء والبقاء ، والحياة والموت ، والمحو والإثبات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 297 . 299 ﴾

---

(1) هذا الرأى يذهب إليه السّدّى أيضا ، وإنما إحياؤهم في القبور للمسألة ، ومن هذا استدل العلماء على سؤال القبر .

واستدل من الآية كذلك على إحياء الأجساد ، لأن الروح – عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح – لا تموت ولا تتغير ولا تفسد ، فلو كان الثواب والعقاب للروح – دون الجسد – فما معنى الإحياء والإماتة ؟

ويذهب ابن عباس وابن مسعود وقتادة والضحاك إلى أنهم كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم ، ثم أحياهم . ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها في الدنيا ، ثم أحياهم البعث والقيامة ، فهاتان حياتان وموتتان .

قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قصر الحكم عليه دل على ذلك بقوله ذاكراً من آيات الآفاق العلوية ما يرد الموفق عن غيه : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الذي يريكم ﴾ أي بالبصر والبصيرة ﴿ آياته ﴾ أي علاماته الدالة على تفرده بصفات الكمال تكميلاً لنفوسكم ، فينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بإعادة ما تحطم فيها من الحبوب فتفتت بعد موتها بصيرورة ذلك الحب تراباً لا تميز له عن ترابها فيتذكر به البعث لمن انمحق فصار تراباً وضل في تراب الأرض حتى لا تميز له عنه من طبعه الإنابة ، وهو الرجوع عما هو عليه من الجهل إلى الدليل بما ركز في فطرته من

العلم ، وذلك هو معنى قوله : ﴿ وينزل لكم ﴾ أي خاصاً بنفعكم أو ضركم ﴿ من السماء ﴾ أي جهة العلو الدالة على قهر ما نزل منها بإمساكه إلى حين الحكم بنزوله ﴿ رزقاً ﴾ لإقامة أبدانكم من الثمار والأقوات بانزال الماء فهو سبحانه يدلكم عليه ويتحبب إليكم لتنفعوا أنفسكم وأنتم تتبغضون إليه وتتعامون عنه لتضروها ﴿ وما يتذكر ﴾ ذلك تذكراً تاماً - بما أشار إليه الإظهار - فيقيس عليه بعث من أكلته الهوام ، وانمحق باقيه في الأرض ﴿ إلا من ينيب ﴾ أي له أهلية التجديد في كل وقت للرجوع إلى الدليل بأن يكون حنيفاً ميالاً للطافته مع الدليل حيثما مال .

(165/673)

ما هو بحلف جامد ما الفه ، ولا يحول عنه أصلاً ، لا يصغي إلي قال ولا قيل ، ولو قام على خطابه كل دليل .

ولما كان كل من الناس يدعي أنه لا يعدل عن الدليل ، وكان كل أحد مأموراً بالنظر في الدليل مأموراً بالإنابة لما دل عليه من التوجه إلى الله وحده ، كان ذلك سبباً في معرفة الكل التوحيد الموجب لاعتقاده القدرة التامة الموجب لاعتقاد البعث ، فكان سبباً لإخلاصهم ، فقال تعالى مسبباً عنه : ﴿ فادعوا ﴾ وصرح بالاسم الأعظم تدريباً للمخلصين على

كيفية الإخلاص فقال : ﴿ الله ﴾ أي المتوحد بصفات الكمال دعاء خضوع وتعبد بعد الإنابة بعد النظر في الدليل ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي الأفعال التي يقع الجزاء عليها ، فمن كان يصدق بالجزاء وبأن ربه غني لا يقبل إلا خالصاً اجتهد في تصفية أعماله ، فيأتي بها في غاية الخلوص عن كل ما يمكن أن يكدر من غير شائبة شرك جلي أو خفي كما أن معبوده واحد من غير شائبة نقص .

ولما كانت مخالفة الجنس شديدة لما تدعو إليه من المخاصمة الموجبة للمشاققة الموجبة لاستطابة الموت قال تعالى : ﴿ ولو كره ﴾ أي الدعاء منكم ﴿ الكافرون ﴾ أي الساترون لأنوار عقولهم ، والإخلاص أن يفعل العباد لربهم مثل ما فعل لهم فلا يفعلوا فعلاً من أمر أو نهي إلا لوجهه خاصة من غير غرض لأنفسهم بجلب شيء من نفع أو ضر ، وذلك لأنه سبحانه فعل لهم كل إحسان من الخلق والرزق ولأنفسهم خاصة لا لغرض يعود عليه – سبحانه وما أعز شأنه – بنفع ولا ضر ، فلا يكون شكرهم له إلا بما تقدم ، لكنه لما علم سبحانه بأن أباح لهم العمل لأجل الرجاء في ثوابه والخوف من عقابه ، ولم يجعل ذلك قادحاً في الإخلاص ، قال الاستاذ أبو القاسم القشيري : ولولا إذنه في ذلك لما كان في العالم مخلص .

(166/673)

ولما كان الإخلاص لا يتأتى إلا ممن رفعه إشراق الروح عن كدورات الأجسام ، وطارت به أنوارها عن حضيض ظلمات الجهل إلى عرش العرفان ، فصار إذ كان الملك الديان سمعه الذي يسمع به ، بمعنى أنه لا يفعل بشيء من هذه الجوارح إلا ما أمره به سبحانه يتصرف في الأكوان بإذن الفتاح العليم تكسب القلوب من ضياء أنواره ويحيى ميت الهمم بصافي أسراره ، نبه سبحانه على ذلك حثاً عليه وتشويقاً إليه بقوله ممثلاً بما يفهمه العباد مخبراً عن مبتدأ محذوف تقديره : هو ﴿ رفيع الدرجات ﴾ أي فلا يصل إلى حضرته الشماء إلا من علا في معارج العبادات ومدارج الكمالات .

ولما كنا لا نعرف ملكاً إلا بغلبته على سرير الملك ، وكانت درج كل ملك ما يتوصل بها إلى عرشه ، أشار سبحانه بجميع القلة إلى السماوات التي هي دون عرشه سبحانه ، ثم أشار إلى أن الدرج إليه لا تحصى بوجه ، لأنا لو أنفقنا عمر الدنيا في اصطناع درج للتوصل إلى السماء الدنيا ما وصلنا ، فكيف بما فوقها فكيف وعلوه سبحانه ، ليس هو بمسافة بل علو عظمة ونفوذ كلمة تنقطع دونها الآمال وتفنى الأيام والليال ، والكاشف لذلك أتم كشف تعبيره في ﴿ سأل ﴾ بصيغة منتهى الجموع ﴿ المعارج ﴾ - ثم قال ممثلاً لنا بما نعرف : ﴿ ذو العرش ﴾ أي الكامل الذي لا عرش في الحقيقة إلا هو ، فهو محيط لجميع الأكوان ومادة لكل جماد وحيوان ، وعال بجلاله وعظمه عن كل ما يخطر في الأذهان .

ولما كان الملوك يلقون أوامرهم من مراتب عظمائهم إلى من أخلصوا في ودادهم قال :

﴿ يلقي الروح ﴾ أي الذي تحيى به الأرواح حياة الأشباح بالأرواح ﴿ من أمره ﴾ أي من كلامه ، ولا شك أن الذي يلقي ليس الكلام النفسي وإنما هو ما يدل عليه ، وهو الذي يقبل النزول والتلاوة والكتابة ونحو ذلك .

(167/673)

ولما كان أمره عالياً على كل أمر ، أشار إلى ذلك بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ على من يشاء ﴾ ولما كان ما رأوه من الملوك لا يتمكنون من رفع كل من أرادوا من رقيقهم ، نبه على عظمته بقوله : ﴿ من عباده ﴾ وأشار بذلك مع الإشارة إلى أنه مطلق الأمر لا يسوغ لأحد الاعتراض عليه ، ولو اعترض كان اعتراضه أقل من أن يلتفت إليه أو يعول بحال عليه إلى توهية قولهم ﴿ أو أنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ [ص : 8] بأنه عليه السلام المخلص في عباده لم يمل إلى شيء من أوثانهم ساعة ما ولا صرف لحظة عن الإله الحق طرفة عين ، فلذلك اختصه من بينهم بهذا الروح الذي لا روح في الوجود سواه ، فمن أقبل عليه وأخلص في تلاوته والعمل بما يدعو إليه والبعد عما ينهى عنه صار ذا روح موات يحيي الأموات ويزري بالنيرات .

قال الرازي : قال ابن عطاء : حياة القلب على حسب ما ألقي إليه من الروح ، فمنهم من

ألقي إليه روح الرسالة ، ومنهم من ألقي إليه روح النبوة ، ومنهم من ألقي إليه روح الصديقية والكشف والمشاهدة ، ومنهم من ألقي إليه روح العلم والمعرفة ، ومنهم من ألقي إليه روح العبادة والخدمة ، ومنهم من ألقي إليه روح الحياة فقط ، ليس له علم بالله ولا مقام مع الله ، فهو ميت في الباطن ، وله الحياة البهيمية التي يهتدي بها إلى المعاش دون المعاد – انتهى .

وبالجملة فكل من هذه الأرواح منطق لمن ألقي عليه مطلق للسانه ببديع بيانه وإن اختلف نطقهم في بيانهم ، وتصرفهم في عظيم شأنهم .

(168/673)

ولما بين سر اختصاصه بالإرسال لهذا النبي الكريم ، أتبع ذلك بما يزيده بياناً من ثمرة الإرسال فقال : ﴿ لينذر ﴾ أي الذي اختصه سبحانه بروحه ، وعبر بما يقتضيه تصنيف الناس الذي هو مقصود السورة من الاجتماع ، وأزال وهم من قد يستحيل لقاء سبحانه لرفعه درجاته وسفول درجات غيره ﴿ يوم التلاق ﴾ أي الذي لا يستحق أن يوصف بالتلاقي على الحقيقة غيره لكونه يلتقي فيه الأولون والآخرون وأهل السماوات والأرض ولا حيلة لأحد منهم في فراق غريمه بغير فصل على وجه العدل ، وإلى هذا المعنى أشارت قراءة ابن كثير باثبات الياء في الحالين وهو واضح جداً في إفراد حزبي الأسعدين

والأخسرين فإنه تلاق لا آخر له ، وأشارت قراءة الجمهور بالحذف في الحالين إلى تلاقي هذين الجزئين : أحدهما بالآخر فإنه – والله أعلم – قل ما يكون حتى يفترقا بالأمر بكل إلى داره : الأسعدين بغير حساب ، والأخسرين لا يقام لهم وزن ، وأشار الإثبات في الموقف دون الوصل إلى الأمر الوسط وهي لمن بقي لقاءهم يمتد إلى حين القصاص لبعضهم من بعض .

ولما أفهم ذلك عدم الحجاب من بيوت أو جبال ، أو أشجار أو تلال ، أو غير ذلك من سائر ذوات الظلال ، نبه عليه في قوله معيداً ذكر اليوم لأنه أهول له : ﴿ يوم هم ﴾ أي بظواهرهم وبواطنهم ﴿ بارزون ﴾ أي برزوا لا ساتر فيه أصلاً .

ولما كان من المعلوم عندهم إنما لا ساتر له معلوم ، أجرهم على ما يعهدون ، وعبر بعبارة تعم ذلك فقال مستأنفاً في جواب من ظن أنه قد يخفي عليه شيء عن الساتر معظماً الأمر بإظهار الاسم الأعظم : ﴿ لا يخفى على الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ منهم شيء ﴾ أي من ذواتهم ولا معانيهم سواء ظهروا أو استتروا في هذا اليوم وفي غيره .

(169/673)

ولما كان من العادة المستمرة أن الملك العظيم إذا أرسل جيشه إلى من طال تمردهم عليه وعنادهم له فظفروا بهم وأحضروهم إليه أن يناديهم مناديه وهم وقوف بين يديه قد أخرستهم هيبته وأذلتهم عظمته بلسان قاله أو لسان حاله بما يبكهم به ويوبخهم ويؤسفهم على ما مضى من عصيانهم ويندمهم قال : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ أي يا من كانوا يعملون أعمال من يظن أنه لا يقدر عليه أحد ، فيجيبون بلسان الحال أو المقال كما قال بعض من قال :

سكت الدهر طويلاً عنهم . . .

قد أبكاهم دماً حين نطق

﴿ لله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ، ثم دل على ذلك بقوله : ﴿ الواحد ﴾ أي الذي لا يمكن أن يكون له ثان بشركة ولا قسمة ولا غيرها ﴿ القهار ﴾ أي الذي يقهر من يشاء متكرراً وصفه بذلك دائماً أبداً لما ثبت من غناه المطلق بوحدانيته الحقيقة .

ولما أخبر عن إذعان كل نفس بانقطاع الأسباب ، أخبرهم بما يزيد رعبهم ، ويبعث رغبهم ورهبهم ، وهو نتيجة تفرده بالملك قال : ﴿ اليوم تجزى ﴾ أي تقضى وتكافأ ، بناه للمفعول لأن المرغب المرهب نفس الجزاء ولبيان سهولته عليه سبحانه ﴿ كل نفس ﴾ لا تترك نفس واحدة لأن العلم قد شملهم والقدرة قد أحاطت بهم وعمتهم ، والحكمة قد منعت من إهمال أحد منهم .

ولما كان السياق للملك والقهر يقتضي الجزاء واعتماد الكسب الذي هو محط التكليف بالأمر والنهي ويقتضي النظر في الأسباب ، لأن ذلك شأن الملك ، قال معبراً بالباء والكسب : ﴿ بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كسبت ﴾ أي عملت ، وهي تظن أنه يفيدها سواء بسواء بالكيل الذي كالت يكال لها .

ولما كانت السببية مفهمة للعدل ، فإن الزيادة تكون بغير سبب ، قال معللاً نافياً مثل ما كانوا يتعاطونه من ظلم بعضهم لبعض في الدنيا : ﴿ لا ظلم ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ اليوم ﴾

ولما كان استيفاء الخلائق بالمجازاة أمراً لا يمكن في العادة ضبطه ، ولا يتأتى حفظه وربطه ، فكيف إذا قصدت المساواة في مثاقيل الدر فما دونها :

بميزان قسط لا يخيس شعيرة . . .

(170/673)

له شاهد من نفسه غير عائل

ضافت النفوس من خوف الطول ، فخفف عنها بقوله معلماً أن أموره على غير ما يعهدونه ، ولذلك أكد وعظم باظهار الاسم الأعظم : ﴿ إن الله ﴾ أي التام القدرة الشامل العلم ﴿ سريع الحساب ﴾ أي بليغ السرعة فيه ، لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره في

وقت حساب ذلك الغير ، ولا يشغله شأن عن شأن لأنه لا يحتاج إلى تكلف عد ، ولا يفتقر إلى مراجعة كتاب ، ولا شيء ، فكان في ذلك ترجية للفريقين وتخويف ، لأن الظالم يخشى إسراع الأخذ بالعذاب ، والمؤمن يرجو إسراع البسط بالثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 491.496 ﴾

(171/673)

فصل

قال الفخر :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾)

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما يوجب التهديد الشديد في حق المشركين أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ، ليصير ذلك دليلاً على أنه لا يجوز جعل هذه الأحجار المنحوتة والخشب المصورة شركاء لله تعالى في المعبودية ، فقال : ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمْ ءاياته ﴾ واعلم أن أهم المهمات رعاية مصالح الأديان ، ومصالح الأبدان ، فهو سبحانه وتعالى راعى مصالح أديان العباد بإظهار البينات والآيات ، وراعى مصالح أبدانهم بإنزال الرزق من السماء ، فموقع الآيات من الأديان كموقع الأرزاق من الأبدان ، فالآيات لحياة الأديان ، والأرزاق لحياة

الأبدان ، وعند حصولهما يحصل الإنعام على أقوى الاعتبارات وأكمل الجهات .

ثم قال : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ والمعنى أن الوقوف على دلائل توحيد الله تعالى كالأمر المركوز في العقل ، إلا أن القول بالشرك والاشتغال بعبادة غير الله يصير كالمانع من تجلي تلك الأنوار ، فإذا أعرض العبد عنها وأناب إلى الله تعالى زال الغطاء والوطاء فظهر الفوز التام ، ولما قرر هذا المعنى صرح بالمطلوب وهو الإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على الله تعالى فقال : ﴿ فادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ من الشرك ، ومن الالتفات إلى غير الله ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ قرأ ابن كثير ينزل خفيفة والباقون بالتشديد .

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15)

(172/673)

اعلم أنه تعالى لما ذكر من صفات كبريائه وإكرامه كونه مظهراً للآيات منزلاً للأرزاق ، ذكر في هذه الآية ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة وهو قوله ﴿ رَفِيعُ الدرجات ذُو العرش يُلْقِى الروح ﴾ قال صاحب "الكشاف" ثلاثة أخبار لقوله ﴿ هُوَ ﴾ مرتبة على قوله ﴿ الذى يُرِيكُمُ ﴾ [غافر : 13] أو أخبار مبتدأ محذوف ، وهي مختلفة تعريفاً وتنكيراً ،

قرىء ﴿ رَفِيعُ الدرجات ﴾ بالنصب على المدح ، وأقول لا بد من تفسير هذه الصفات الثلاثة :

(173/673)

الصفة الأولى : قوله ﴿ رَفِيعُ الدرجات ﴾ واعلم أن الرفيع يحتمل أن يكون المراد منه الرافع وأن يكون المراد منه المرتفع ، أما إذا حملناه على الأول ففيه وجوه الوجه الأول : : أنه تعالى يرفع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة والثاني : رافع درجات الخلق في العلوم والأخلاق الفاضلة ، فهو سبحانه عين لكل أحد من الملائكة درجة معينة ، كما قال : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] وعين لكل واحد من العلماء درجة معينة فقال : ﴿ يَرْفَعِ الله الذين ءامَنُواْ مِنكُمْ والذين أُوتُواْ العلم درجات ﴾ [المجادلة : 11] وعين لكل جسم درجة معينة ، فجعل بعضها سفلية عنصرية ، وبعضها فلكية كوكبية ، وبعضها من جواهر العرش والكرسي ، فجعل لبعضها درجة أعلى من درجة الثاني ، وأيضاً جعل لكل واحد مرتبة معينة في الخلق والرزق والأجل ، فقال : ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَكُمْ خلائف الأرض وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ درجات ﴾ [الأنعام : 165] وجعل لكل أحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة ، وفي

الآخرة آثار لظهور تلك السعادة والشقاء ، فإذا حملنا الرفيع على الرفع كان معناه ما ذكرناه ، وأما إذا حملناه على المرتفع فهو سبحانه أرفع الموجودات في جميع صفات الكمال والجلال ، أما في الأصل الوجود فهو أرفع الموجودات ، لأنه واجب الوجود لذاته وما سواه ممكن ومحتاج إليه ، وأما في دوام الوجود فهو أرفع الموجودات ، لأنه واجب الوجود لذاته وهو الأزلي والأبدي والسرمدي ، الذي هو أول لكل ما سواه ، وليس له أول وآخر لكل ما سواه ، وليس له آخر ، أما في العلم : فلأنه هو العالم بجميع الذوات والصفات والكليات والجزئيات ، كما قال : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] وأما في القدرة : فهو أعلى القادرين وأرفعهم ، لأنه في وجوده وجميع كمالات وجوده غني عن كل ما

(174/673)

سواه ، وكل ما سواه فإنه محتاج في وجوده وفي جميع كمالات وجوده إليه ، وأما في الوحدانية : فهو الواحد الذي يمتنع أن يحصل له ضد وند وشريك ونظير ، وأقول : الحق سبحانه له صفتان أحدهما : استغناؤه في وجوده وفي جميع صفات وجوده عن كل ما سواه الثاني : افتقار كل ما سواه إليه في وجوده وفي صفات وجوده ، فالرفيع إن فسرناه بالمرتفع ، كان معناه أنه أرفع الموجودات وأعلاها في جميع صفات الجلال والإكرام ، وإن فسرناه بالرافع ،

كان معناه أن كل درجة وفضيلة ورحمة ومنقبة حصلت لشيء سواه ، فإنما حصلت بإيجاده وتكوينه وفضله ورحمته .

الصفة الثانية : قوله ﴿ ذُو العرش ﴾ ومعناه أنه مالك العرش ومدبره وخالقه ، واحتج بعض الأغمار من المشابهة بقوله ﴿ رَفِيعُ الدرجات ذُو العرش ﴾ وحملوه على أن المراد بالدرجات ، السموات ، وبقوله ﴿ ذُو العرش ﴾ أنه موجود في العرش فوق سبع سموات ، وقد أعظموا الفرية على الله تعالى ، فإنا بينا بالدلائل القاهرة العقلية أن كونه تعالى جسماً وفي جهة محال ، وأيضاً فظاهر اللفظ لا يدل على ما قالوه ، لأن قوله ﴿ ذُو العرش ﴾ لا يفيد إلا إضافته إلى العرش ويكفي في إضافته إليه بكونه مالكاً له ومخرجاً له من العدم إلى الوجود ، فأي ضرورة تدعونا إلى الذهاب إلى القول الباطل والمذهب الفاسد ، والفائدة في تخصيص العرش بالذكر هو أنه أعظم الأجسام ، والمقصود بيان كمال إلهيته ونفاذ قدرته ، فكل ما كان محل التصرف والتدبير أعظم ، كانت دلالته على كمال القدرة أقوى .

الصفة الثالثة : قوله ﴿ يُلْقِي الروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : اختلفوا في المراد بهذا الروح ، والصحيح أن المراد هو الوحي ، وقد أطنبنا في بيان أنه لم سمي الوحي بالروح في أول سورة النحل في تفسير قوله ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ [النحل : 2] وقال أيضاً : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه ﴾ [الأنعام : 122] وحاصل الكلام فيه : أن حياة الأرواح بالمعارف الإلهية والجلايا القدسية ، فإذا كان الوحي سبباً لحصول هذه الأرواح سمي بالروح ، فإن الروح سبب لحصول الحياة ، والوحي سبب لحصول هذه الحياة الروحانية .

واعلم أن هذه الآية مشتملة على أسرار عجيبة من علوم المكاشفات ، وذلك لأن كمال كبرياء الله تعالى لا تصل إليه العقول والأفهام ، فالطريق الكامل في تعريفه بقدر الطاقة البشرية أن يذكر ذلك الكلام على الوجه الكلي العقلي ، ثم يذكر عقيبه شيء من المحسوسات المؤكدة لذلك المعنى العقلي ليصير الحصر بهذا الطريق معاضداً للعقل ، فههنا أيضاً كذلك ، فقوله ﴿ رَفِيعُ الدرجات ﴾ إما أن يكون بمعنى كونه رافعاً للدرجات ، وهو إشارة إلى تأثير قدرة الله تعالى في إيجاد الممكنات على احتلاف درجاتها وتباين منازلها وصفاتها ، أو إلى كونه تعالى مرتفعاً في صفات الجلال ونعوت العزة عن كل الموجودات ، فهذا الكلام عقلي برهاني ، ثم إنه سبحانه بين هذا الكلام الكلي بمزيد تقرير ، وذلك لأن ما سوى الله تعالى إما جسمانيات وإما روحانيات ، فبين في هذه الآية أن كلا القسمين مسخر تحت تسخير الحق سبحانه وتعالى ، أما الجسمانيات فأعظمها العرش ، فقوله ﴿ ذُو

العرش ﴾ يدل على استيلائه على كلية عالم الأجسام ، ولما كان العرش من جنس المحسوسات كان هذا المحسوس مؤكداً لذلك المعقول ، أعني قوله ﴿ رَفِيعُ الدرجات ﴾ وأما الروحانيات فكلها مسخرة للحق سبحانه ، وإليه الإشارة بقوله ﴿ يُلْقِي الروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ .

(176/673)

واعلم أن أشرف الأحوال الظاهرة في روحانيات هذا العالم ظهور آثار الوحي ، والوحي إنما يتم بأركان أربعة فأولها : المرسل وهو الله سبحانه وتعالى ، فلهذا أضاف إلقاء الوحي إلى نفسه فقال : ﴿ يُلْقِى الروح ﴾ والركن الثاني : الإرسال والوحي وهو الذي سماه بالروح والركن الثالث : أن وصول الوحي من الله تعالى إلى الأنبياء لا يمكن أن يكون إلا بواسطة الملائكة ، وهو المشار إليه في هذه الآية بقوله ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ فالركن الروحاني يسمى أمراً ، قال تعالى : ﴿ وأوحى فِى كُلّ سَمَاء أَمْرَهَا ﴾ [فصلت : 12] وقال : ﴿ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر ﴾ [الأعراف : 54] والركن الرابع : الأنبياء الذين يلقي الله الوحي إليهم وهو المشار إليه بقوله ﴿ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ والركن الخامس : تعيين الغرض والمقصود الأصلي من إلقاء هذا الوحي إليهم ، وذلك هو أن الأنبياء عليهم السلام يصرفون الخلق من

عالم الدنيا إلى عالم الآخرة ، ويحملونهم على الإعراض عن هذه الجسمانيات والإقبال على الروحانيات ، وإليه الإشارة بقوله ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق يَوْمَ هُم بارزون ﴾ فهذا ترتيب عجيب يدل على هذه الإشارات العالية من علوم المكاشفات الإلهية .

وبقي ههنا أن نبين أنه ما السبب في تسمية يوم القيامة بيوم التلاق ؟ وكم الصفات التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة ليوم التلاق ؟

أما السبب في تسمية يوم القيامة بيوم التلاق ففيه وجوه :

(177/673)

الأول : أن الأرواح كانت متباينة عن الأجساد فإذا جاء يوم القيامة صارت الأرواح ملاقية للأجساد فكان ذلك اليوم يوم التلاق الثاني : أن الخلائق يتلاقون فيه فيقف بعضهم على حال البعض الثالث : أن أهل السماء ينزلون على أهل الأرض فيلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : 25] الرابع : أن كل أحد يصل إلى جزاء عمله في ذلك اليوم فكان ذلك من باب التلاق وهو مأخوذ من قولهم فلان لقي عمله الخامس : يمكن أن يكون ذلك مأخوذاً من قوله ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ ﴾ [الكهف : 110] ومن قوله ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سلام ﴾ [الأحزاب : 44

] السادس : يوم يلتقي فيه العابدون والمعبودون السابع : يوم يلتقي فيه آدم عليه السلام وآخر ولده الثامن : قال ميمون بن مهران يوم يلتقي فيه الظالم والمظلوم فربما ظلم الرجل رجلاً وانفصل عنه ولو أراد أن يجده لم يقدر عليه ولم يعرفه ففي يوم القيامة يحضران ويلقى بعضهم بعضاً ، قرأ ابن كثير عنه التلاقي والتنادي بإثبات الياء في الوصل والوقف ، وهادي وواقي بالياء في الوقف وبالتنوين في الوصل .

وأما بين أن الله تعالى كم عدد من الصفات ووصف بها يوم القيامة في هذه الآية ، فنقول :

الصفة الأولى : كونه يوم التلاق وقد ذكرنا تفسيره .

الصفة الثانية : قوله ﴿ يَوْمَ هُم بارزون ﴾ وفي تفسير هذا البروز وجوه الأول : أنهم برزوا عن بواطن القبور الثاني : بارزون أي ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء ، لأن الأرض بارزة قاع صفصف ، وليس عليهم أيضاً ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث :

" يحشرون عراة حفاة غرلا " الثالث : أن يجعل كونهم بارزين كناية عن ظهور أعمالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾ [الطارق : 9] الرابع : أن

هذه النفوس الناطقة البشرية كأنها في الدنيا انغمست في ظلمات أعمال الأبدان فإذا جاء يوم القيامة أعرضت عن الاشتغال بتدبير الجسمانيات وتوجهت بالكلية إلى عالم القيامة ومجمع الروحانيات ، فكأنها برزت بعد أن كانت كامنة في الجسمانيات مستترة بها .

الصفة الثالثة : قوله ﴿ لاَ يخفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾ والمراد يوم لا يخفى على الله منهم شيء ، والمقصود منه الوعيد فإنه تعالى بيّن أنهم إذا برزوا من قبورهم واجتمعوا وتلاقوا فإن الله تعالى يعلم ما فعله كل واحد منهم فيجازي كلاً بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فهم وإن لم يعلموا تفصيل ما فعلوه ، فالله تعالى عالم بذلك ونظيره قوله ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تخفى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 18] وقال : ﴿ يَوْمَ تبلى السرائر ﴾ [الطارق : 9] وقال : ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى القبور * وَحُصِّلَ مَا فِى الصدور ﴾ [العاديات : 9 ، 10] وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة : 4] فإن قيل الله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء في جميع الأيام ، فما معنى تقييد هذا المعنى بذلك اليوم ؟ قلنا إنهم كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم ، فهم في ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما يتوهمونه في الدينا ، قال تعالى : ﴿ ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت : 22] وقال : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الناس وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله ﴾ [النساء : 108] وهو معنى قوله : ﴿ وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : 48] .

الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ والتقدير يوم ينادي فيه لمن الملك اليوم ؟ وهذا النداء في أي الأوقات يحصل فيه قولان :

الأول : قال المفسرون إذا هلك كل من في السموات ومن في الأرض فيقول الرب تعالى : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم ﴾ ؟ يعني يوم القيامة فلا يجيبه أحد فهو تعالى يجيب نفسه فيقول ﴿ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ قال أهل الأصول هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه الأول : أنه تعالى بيّن أن هذا النداء إنما يحصل يوم التلاق ويوم البروز ويوم تجزى كل نفس بما كسبت ، والناس في ذلك الوقت أحياء ، فبطل قولهم إن الله تعالى إنما ينادي بهذا النداء حين هلك كل من في السموات والأرض والثاني : أن الكلام لا بد فيه من فائدة لأن الكلام إما أن يذكر حال حضور الغير ، أو حال ما لا يحضر الغير ، والأول : باطل ههنا لأن القوم قالوا إنه تعالى إنما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل ، والثاني : أيضاً باطل لأن الرجل إنما يحسن تكلمه حال كونه وحده إما لأنه يحفظ به شيئاً كالذي يكرر على الدرس وذلك على الله محال ، أو لأجل أنه يحصل سرور بما يقوله وذلك أيضاً على الله محال ، أو لأجل أن يعبد الله بذلك الذكر

وذلك أيضاً على الله محال ، فثبت أن قول من يقول إن الله تعالى يذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل لا أصل له .

(180/673)

والقول الثاني : أن في يوم التلاق إذا حضر الأولون والآخرون وبرزوا لله نادى منادٍ ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم ﴾ فيقول كل الحاضرين في محفل القيامة ﴿ لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ فالمؤمنون يقولون تلذذاً بهذا الكلام ، حيث نالوا بهذا الذكر المنزلة الرفيعة ، والكفار يقولونه على الصغار والذلة على وجه التحسر والندامة على أن فاتهم هذا الذكر في الدنيا ، وقال القائلون بهذا القول إن صح القول الأول عن ابن عباس وغيره لم يمتنع أن يكون المراد أن هذا النداء يذكر بعد فناء البشر إلا أنه حضر هناك ملائكة يسمعون ذلك النداء ، وأقول أيضاً على هذا القول لا يبعد أن يكون السائل والمجيب هو الله تعالى ، ولا يبعد أيضاً أن يكون السائل جمعاً من الملائكة والمجيب جمعاً آخرين ، الكل ممكن وليس على التعيين دليل ، فإن قيل وما الفائدة في تخصيص هذا اليوم بهذا النداء ؟

فنقول الناس كانوا مغرورين في الدنيا بالأسباب الظاهرة ، وكان الشيخ الإمام الوالد عمر رضي الله عنه يقول : لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب ، وفي يوم القيامة زالت الأسباب ،

وانعزلت الأرباب ، ولم يبق ألبتة غير حكم مسبب الأسباب ، فلهذا اختص النداء بيوم القيامة ، واعلم أنه وإن كان ظاهر اللفظ يدل على اختصاص ذلك النداء بذلك اليوم إلا أن قوله ﴿ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ يفيد أن هذا النداء حاصل من جهة المعنى أبداً ، وذلك لأن قولنا : الله اسم لواجب الوجود لذاته ، وواجب الوجود لذاته واحد وكل ما سواه ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته ، ومعنى الإيجاد هو ترجيح جانب الوجود على جانب العدم ، وذلك الترجيح هو قهر للجانب المرجوح فثبت أن الإله القهار واحد أبداً ، ونداء لمن الملك اليوم إنما ظهر من كونه واحداً قهاراً ، فإذا كان كونه قهاراً باقياً من الأزل إلى الأبد لا جرم كان نداء ﴿ لّمَنِ الملك اليوم ﴾ باقياً في جانب المعنى من الأزل إلى الأبد .

(181/673)

الصفة الخامسة : من صفات ذلك اليوم قوله ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ .

واعلم أنه سبحانه لما شرح صفات القهر في ذلك اليوم أردفه ببيان صفات العدل والفضل في ذلك اليوم فقال : ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

هذا الكلام اشتمل على أمور ثلاثة : أولها : إثبات الكسب للإنسان والثاني : أن كسبه يوجب الجزاء والثالث : أن ذلك الجزاء إنما يستوفى في ذلك اليوم فهذه الكلمة على اختصارها مشتملة على هذه الأصول الثلاثة في هذا الكتاب ، وهي أصول عظيمة الموقع في الدين ، وقد سبق تقرير هذه الأصول مراراً ، ولا بأس بذكر بعض النكت في تقرير هذه الأصول أما الأول : فهو إثبات الكسب للإنسان وهو عبارة عن كون أعضائه سليمة صالحة للفعل والترك فما دام يبقى على هذا الاستواء امتنع صدور الفعل والترك عنه ، فإذا انضاف إليه الداعي إلى الفعل أو الداعي إلى الترك وجب صدور ذلك الفعل أو الترك عنه . وأما الثاني : وهو بيان ترتب الجزاء عليه ، فاعلم أن الأفعال على قسمين منها ما يكون الداعي إليه طلب الخيرات الجسمانية الحاصلة في عالم الدنيا ، ومنها ما يكون الداعي إليه طلب الخيرات الروحانية التي لا يظهر كمالها إلا في عالم الآخرة وقد ثبت بالتجربة أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات الراسخة ، فمن غلب عليه القسم الأول استحكمت رحمته رغبته في الدنيا وفي الجسمانيات ، فعند الموت يحصل الفراق بينه وبين مطلوبه على أعظم الوجوه ويعظم عليه البلاء ، ومن غلب عليه القسم الثاني فعند الموت يفارق المبغوض ويتصل بالمحبوب فتعظم الآلاء والنعماء ، فهذا هو معنى الكسب ، ومعنى كون ذلك الكسب موجباً للجزاء ، فظهر بهذا أن كمال الجزاء لا يحصل إلا في يوم القيامة ، فهذا قانون كلي عقلي ، والشريعة الحقة أتت بما يقوي هذا القانون الكلي في تفاصيل الأعمال

والأقوال ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(182/673)

هذه الآية أصل عظيم في أصول الفقه ، وذلك لأنا نقول لو كان شيء من أنواع الضرر مشروعاً لكان إما أن يكون مشروعاً لكونه جزاء على شيء من الجنايات أو لا لكونه جزاء والقسمان باطلان ، فبطل القول بكونه مشروعاً ، أما بيان أنه لا يجوز أن يكون مشروعاً ليكون جزاء على شيء من الأعمال فلأن هذا النص يقتضي تأخير الأجزية إلى يوم القيامة ، فإثباته في الدنيا يكون على خلاف هذا النص ، وأما بيان أنه لا يجوز أن يكون مشروعاً للجزاء لقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ﴾ [البقرة : 185] ولقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] ولقوله صلى الله عليه وسلم : " لا ضرر ولا ضرار في الإسلام " عدلنا عن هذه العمومات فيما إذا كانت المضار أجزية ، وفيما ورد نص في الإذن فيه كذبح الحيوانات ، فوجب أن يبقى على أصل الحرمة فيما عداه ، فثبت بما ذكرنا أن الأصل في المضار والآلام التحريم ، فإن وجدنا

نصاً خاصاً يدل على الشرعية قضينا به تقديماً للخاص على العام ، وإلا فهو باق على أصل التحريم ، وهذا أصل كلي منتفع به في الشريعة ، والله علم .

(183/673)

الصفة السادسة : من صفات ذلك اليوم قوله ﴿ لاَ ظُلْمَ اليوم ﴾ والمقصود أنه لما قال : ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أردفه بما يدل على أنه لا يقع في ذلك اليوم نوع من أنواع الظلم ، قال المحققون وقوع الظلم في الجزاء يقع على أربعة أقسام أحدها : أن يستحق الرجل ثواباً فيمنع منه وثانيها : أن يعطي بعض بعض حقه ولكنه لا يوصل إليه حقه بالتمام وثالثها : أن يعذب من لا يستحق العذاب ورابعها : أن يكون الرجل مستحقاً للعذاب فيعذب ويزداد على قدر حقه فقوله تعالى : ﴿ لاَ ظُلْمَ اليوم ﴾ يفيد نفي هذه الأقسام الأربعة ، قال القاضي هذه الآية قوية في إبطال قول المجبرة لأن على قولهم لا ظلم غالباً وشاهداً إلا من الله ، ولأنه تعالى إذا خلق فيه الكفر ثم عذبه عليه فهذا هو عين الظلم والجواب عنه معلوم . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ وذكر هذا الكلام في هذا الموضع لائق جداً ، لأنه تعالى لما بيّن أنه لا ظلم بين أنه سريع الحساب .

وذلك يدل على أنه يصل إليهم ما يستحقونه في الحال ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 38.43 ﴾

(184/673)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾

أي دلائل توحيده وقدرته ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السمآء رِزْقاً ﴾ جمع بين إظهار الآيات وإنزال الرزق ؛ لأن بالآيات قوام الأديان ، وبالرزق قوام الأبدان .

وهذه الآيات هي السموات والأرضون وما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والبخار والأنهار والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هلكوا .

﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ أي ما يتعظ بهذه الآيات فيوحد الله ﴿ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ أي يرجع إلى طاعة الله .

﴿ فادعوا الله ﴾ أي اعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي العبادة .

وقيل : الطاعة .

﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ عبادة الله فلا تعبدوا أنتم غيره .

قوله تعالى : ﴿ رَفِيعُ الدرجات ذُو العرش ﴾ "ذُو الْعَرْشِ" على إضمار مبتدأ .

قال الأخفش : ويجوز نصبه على المدح.

ومعنى "رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ" أي رفيع الصفات .

وقال ابن عباس والكلبي وسعيد بن جبير : رفيع السموات السبع .

وقال يحيى بن سلام : هو رفعة درجة أوليائه في الجنة ف"رَفِيعُ" على هذا بمعنى رافع فعِيل بمعنى فاعل .

وهو على القول الأول من صفات الذات ، ومعناه الذي لا أرفع قدراً منه ، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء ، وهي أصنافها وأبوابها لا مستحق لها غيره ؛ قاله الحليمي .

وقد ذكرناه في "الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" والحمد لله .

"ذُو الْعَرْشِ" أي خالقه ومالكه لا أنه محتاج إليه .

وقيل : هو من قولهم : ثُلَّ عرشُ فلان أي زال ملكه وعزه ، فهو سبحانه ﴿ ذُو العرش ﴾ بمعنى ثبوت ملكه وسلطانه وقد بيّناه في "الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" .

﴿ يُلْقِي الروح ﴾ أي الوحي والنبوة "عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ" ، وسمي ذلك روحاً لأن الناس يحيون به ؛ أي يحيون من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح.

وقال ابن زيد : الروح القرآن ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52] .

وقيل : الروح جبريل ؛ قال الله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193] وقال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس مِن رَّبِّكَ بالحق ﴾ [النحل : 102] .

﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أي من قوله .

وقيل : من قضائه .

وقيل : "مِنْ" بمعنى الباء أي بأمره .

﴿ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهم الأنبياء يشاء هو أن يكونوا أنبياء وليس لأحد فيهم مشيئة .

﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق ﴾ أي إنما يبعث الرسول لإنذار يوم البعث .

فقوله : ﴿ لِيُنذِرَ ﴾ يرجع إلى الرسول .

وقيل : أي لينذر الله ببعثه الرسل إلى الخلائق "يَوْمَ التَّلاَقِ" .

وقرأ ابن عباس والحسن وابن السَّمَيْقَع "لِتُنْذِرَ" بالتاء خطاباً للنبي عليه السلام .

"يَوْمَ التَّلاَقِ" قال ابن عباس وقتادة : يوم تلتقي أهل السماء وأهل الأرض .

وقال قتادة أيضاً وأبو العالية ومقاتل : يلتقي فيه الخلق والخالق .

وقيل : العابدون والمعبودون .

وقيل : الظالم والمظلوم .

وقيل : يلقى كل إنسان جزاء عمله .

وقيل : يلتقي الأولون والآخرون على صعيد واحد ؛ روي معناه عن ابن عباس .

وكله صحيح المعنى .

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ﴾ يكون بدلاً من يوم الأول .

وقيل : "هُمْ" في موضع رفع بالابتداء و"بَارِزُونَ" خبره والجملة في موضع خفض بالإضافة ؛

فلذلك حذف التنوين من "يَوْمَ" وإنما يكون هذا عند سيبويه إذا كان الظرف بمعنى إذ ؛

تقول لقيتك يومَ زيدٌ أميرٌ .

فإن كان بمعنى إذا لم يجز نحو أنا ألقاك يومَ زيدٌ أميرٌ .

ومعنى : "بَارِزُونَ" خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء ؛ لأن الأرض يومئذٍ قاع

صفصف لا عوج فيها ولا أمْتاً على ما تقدّم في "طه" بيانه .

﴿ لاَ يخفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ قيل : إن هذا هو العامل في "يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ" أي لا يخفى عليه شيء منهم ومن أعمالهم "يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ" .

﴿ لِّمَنِ الملك اليوم ﴾ وذلك عند فناء الخلق .

وقال الحسن : هو السائل تعالى وهو المجيب ؛ لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه سبحانه فيقول : ﴿ لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ .

النحاس : وأصح ما قيل فيه ما رواه أبو وائل عن ابن مسعود قال : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله جل وعز عليها ، فيؤمر منادٍ ينادي "لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ" فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم "لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ" فيقول المؤمنون هذا (الجواب) سروراً وتلذذاً ، ويقوله الكافرون غماً وانقياداً وخضوعاً .

فأما أن يكون هذا والخلق غير موجودين فبعيد ؛ لأنه لا فائدة فيه ، والقول صحيح عن ابن مسعود وليس هو مما يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل .

قلت : والقول الأول ظاهر جداً ؛ لأن المقصود إظهار انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوى المدَّعين وانتساب المنتسبين ؛ إذ قد ذهب كلّ مَلِك ومُلْكه ومتكبّر وملكه وانقطعت نسبهم ودعاويهم ، ودلّ على هذا قوله الحق عند قبض (الأرض) والأرواح وطيّ السماء : " "أنا المِلك أين ملوك الأرض" كما تقدّم في حديث أبي هريرة " وفي حديث ابن عمر : ثم يطوي الأرض بشماله (والسموات بيمينه) ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون

أين المتكبرون .

وعنه قوله سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم ﴾ هو انقطاع زمن الدنيا وبعده يكون البعث والنشر .

قال محمد بن كعب قوله سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم ﴾ (يكون) بين النفختين حين فني الخلائق وبقي الخالق فلا يرى غير نفسه مالكاً ولا مملوكاً فيقول : "لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ" فلا يجيبه أحد ؛ لأن الخلق أموات فيجيب نفسه فيقول : ﴿ لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ لأنه بقي وحده وقهر خلقه .

(187/673)

وقيل : إنه ينادي منادٍ فيقول : "لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ" فيجيبه أهل الجنة : ﴿ لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ فالله أعلم .

ذكره الزمخشري .

قوله تعالى : ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي يقال لهم إذا أقروا بالملك يومئذٍ لله وحده "الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ" من خير أو شر .

﴿ لاَ ظُلْمَ اليوم ﴾ أي لا ينقص أحد شيئاً مما عمله .

﴿ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحساب ﴾ أي لا يحتاج إلى تفكر وعقد يدٍ كما يفعله الحسَّاب ؛ لأنه العالم الذي لا يعزب عن عمله شيء فلا يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره ؛ وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة .

وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" .

وفي الخبر : ولا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(188/673)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾

لما ذكر جدال الكفار في آيات الله وعصيانهم ، ذكر طاعة هؤلاء المصطفين من خلقه ، وهم حمله العرش ، ﴿ ومن حوله ﴾ ، وهم الحافون به من الملائكة .

وذكروا من وصف تلك الجملة وعظم خلقهم ، ووصف العرش ، ومن أي شيء خلق ، والحجب السبعينيات التي اختلفت أجناسها ، قالوا : احتجب الله عن العرش وعن حامليه ، والله أعلم به على أن قدرته تعالى محتملة لكل ما ذكروه مما لا يقتضي تجسيماً ،

لكنه يحتاج إلى نقل صحيح .

وقرأ الجمهور : ﴿ العرش ﴾ بفتح العين ؛ وابن عباس وفرقة : بضمها ، كأنه جمع عرش ، كسقف وسقف ، أو يكون لغة في العرش .

﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ : أي ينزهونه عن جميع النقائص ، ﴿ بحمد ربهم ﴾ : بالثناء عليه بأنه المنعم على الإطلاق .

والتسبيح : إشارة إلى الإجلال ؛ والتحميد : إشارة إلى الإكرام ، فهو قريب من قوله : ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ ونظيره : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق ﴾ وقولهم : ونحن نسبح بحمدك .

﴿ ويؤمنون ﴾ : أي ويصدقون بوجوده تعالى وبما وصف به نفسه من صفاته العلا ، وتسبيحهم إياه يتضمن الإيمان .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما فائدة قوله : ﴿ ويؤمنون به ﴾ ، ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمده مؤمنون ؟ قلت : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه ، كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابة بالصلاح لذلك ، وكما عقب أعمالهم الخير بقوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ فأبان بذلك فضل الإيمان .

وفائدة أخرى ، وهي التبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة ، لكان حملة العرش ومن حوله مشاهد بن معاينين ، ولما وصفوا بالإيمان لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب .

(189/673)

ولما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم ، علم أن إيمانهم وإيمان من في الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء في أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير ، وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا ، وأنه منزه عن صفات الإجرام .

وقد روعي التناسب في قوله : ﴿ ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ ، كأنه قيل : ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم ، وفيه تنبيه على أن الإشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة ، وأبعثه على إمحاض الشفقة ، وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن ، فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان ، ولا بين سماء وأرض قط ثم لما جاء جامع الإيمان ، جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي ، حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض ، قال تعالى : ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ انتهى ، وهو كلام حسن .

إلا أن قوله : إن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير فيه نظر ، وقوله : ﴿

ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ تخصيص لعموم قوله : ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ .

وقال مطرف بن الشخير : وجدنا أصح العباد للعباد الملائكة ، وأغش العباد للعباد الشياطين ، وتلا هذه الآية . انتهى .

وينبغي أن يقال : أنصح العباد للعباد الأنبياء والملائكة .

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ : أي يقولون : ربنا واحتمل هذا المحذوف بياناً ليستغفرون ، فيكون في محل رفع ، وأن يكون حالاً ، فيكون في موضع نصب .

وكثيراً ما جاء النداء بلفظ ربنا ورب ، وفيه استعطاف العبد لمولاه الذي رباه وقام بمصالحه من لدن نشأته إلى وقت ندائه ، فهو جدير بأن لا يناديه إلا بلفظ الرب .

وانتصب رحمة وعلماً على التمييز ، والأصل : وسعت رحمتك كل شيء ، وعلمك كل شيء ؛ وأسند الوسع إلى صاحبها مبالغة ، كأن ذاته هي الرحمة والعلم ، وقد وسع كل شيء .

وقدم الرحمة ، لأنهم بها يستمطرون أحسانه ويتوسلون بها إلى حصول مطلوبهم من سؤال المغفرة .

(190/673)

ولما حكى تعالى عنهم كيفية ثنائهم عليه ، وأخبر باستغفارهم ، وهو قولهم : ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ .

وطلب المغفرة نتيجة الرحمة ، وللذين تابوا يتضمن أنك علمت توبتهم ، فهما راجعان إلى قوله : ﴿ رحمة وعلماً ﴾ ، و ﴿ اتبعوا سبيلك ﴾ ، وهي سبيل الحق التي نهجتها لعبادك ، ﴿ إنك العزيز ﴾ : الذي لا تغالب ، ﴿ الحكيم ﴾ : الذي يضع الأشياء مواضعها التي تليق بها .

ولما طلب الغفران يتضمن إسقاط العذاب ، أرادفوه بالتضرع بوقايتهم العذاب على سبيل المبالغة والتأكيد ، فقالوا : ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ ، وطلب المغفرة ، ووقاية العذاب للتائب الصالح ، وقد وعد بذلك الوعد الصادق بمنزلة الشفاعة في زيادة الثواب والكرامة .

ولما سألوا إزالة العقاب ، سألوا اتصال الثواب ، وكرر الدعاء بربنا فقالوا : ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن ﴾ .

وقرأ الجمهور : جنات جمعاً ؛ وزيد بن علي ، والأعمش : جنة عدن بالإفراد ، وكذا في مصحف عبد الله ، وتقدم الكلام في إعراب التي في قوله : ﴿ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب ﴾ في سورة مريم .

وقرأ ابن أبي عبلة : صلح بضم اللام ، يقال : صلح فهو صليح وصلح فهو صالح .

وقرأ عيسى : وذريتهم ، بالإفراد ؛ والجمهور بالجمع .

وعن ابن جبير في تفسير ذلك أن الرجل يدخل الجنة قبل قرابته فيقول : أين أبي ؟ أين أمي ؟ أين ابني ؟ أين زوجتي ؟ فيلحقون به لصلاحه ولتنبيهه عليه وطلبه إياهم ، وهذه دعوة الملائكة . انتهى .

وإذا كان الإنسان في خير ، ومعه عشيرته وأهله ، كان أبهج عنده وأسر لقلبه .

والظاهر عطف ومن على الضمير في وأدخلهم ، إذ هم المحدث عنهم والمسؤول لهم .

وقال الفراء ، والزجاج : نصبه من مكانين : إن شئت على الضمير في ﴿ وأدخلهم ﴾ ، وإن شئت على الضمير في ﴿ وعدتهم ﴾ .

(191/673)

﴿ وقهم السيئات ﴾ : أي امنعهم من الوقوع فيها حتى لا يترتب عليها اجزاؤها ، أو وقهم جزاء السيئات التي إجترحوها ، فحذف المضاف ولا تكرار في هذا ، وقوله : ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ لعدم توافق المدعو لهم أن الدعاء الأول للذين تابوا ، والثاني أنه لهم ولمن صلح من المذكورين ، أو لاختلاف الدعاءين إذا أريد بالسيئات أنفسهم ، فذلك وقاية عذاب الجحيم ، وهذا وقاية الوقوع في السيئات .

والتنوين في يومئذ تنوين العوض ، والمحذوف جملة عوض منها التنوين ، ولم تتقدم جملة يكون

التنوين عوضاً منها ، كقوله : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ ﴿ وأنتم حينئذ ﴾ أي حين إذ بلغت الحلقوم ، فلا بد من تقدير جملة يكون التنوين عوضاً منها كقوله ، يدل عليها معنى الكلام ، وهي ﴿ ومن تق السيئات ﴾ : أي جزاءها يوم إذ يؤاخذ بها ﴿ فقد رحمته ﴾ .

ولم يتعرض أحد من المفسرين الذين وقفنا على كلامهم في الآية للجملة التي عوض منها التنوين في يومئذ ، وذلك إشارة إلى الغفران .

ودخول الجنة ووقاية العذاب هو الفوز بالظفر العظيم الذي عظم خطره وجل صنعه .

ولما ذكر شيئاً من أحوال المؤمنين ، وذكر شيئاً من أحوال الكافرين ، وما يجري لهم في الآخرة من اعترافهم بذنوبهم واستحقاقهم العذاب وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا .

ونداؤهم ، قال السدي : في النار .

وقال قتادة : يوم القيامة ، والمنادون لهم الزبانية على جهة التوبيخ والتقريع .

واللام في ﴿ لمقت ﴾ لام الابتداء ولام القسم ، ومقت مصدر مضاف إلى الفاعل ، التقدير : لمقت الله إياكم ، أو لمقت الله أنفسكم ، وحذف المفعول لدلالة ما بعده عليه في قوله : ﴿ أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ .

والظاهر أن مقت الله إياهم هو في الدنيا ، ويضعف أن يكون في الآخرة ، كما قال بعضهم

لبقاء ﴿ إذ تدعون ﴾ ، مفلتاً من الكلام ، لكونه ليس له عامل تقدم ، ولا مفسر لعامل .

فإذا كان المقت السابق في الدنيا ، أمكن أن يضمر له عامل تقديره : مقتكم إذ تدعون .

(192/673)

وقال الزمخشري : وإذ تدعون منصوب بالمقت الأول ، والمعنى : أنه يقال لهم يوم القيامة : إن الله مقت أنفسكم الأمارة بالسوء والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان ، فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر ، أشد مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار ، إذ أوقعتكم فيها بأتباعكم هواهن .

انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال .

وأخطأ في قوله : ﴿ وإذ تدعون ﴾ منصوب بالمقت الأول ، لأن المقت مصدر ، ومعموله من صلته ، ولا يجوز أن يخبر عنه إلا بعد استيفائه صلته ، وقد أخبر عنه بقوله : ﴿ أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ ، وهذا من ظواهر علم النحو التي لا تكاد تخفي على المبتدئين ، فضلاً عمي تدعي العجم أنه في العربية شيخ العرب والعجم .

ولما كان الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر ، لا يجوز قدرنا العامل فيه مضمر ، أي مقتكم إذ تدعون ، وشبيهة قوله تعالى : ﴿ إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر ﴾ قدروا العامل

برجعه ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ للفصل ب ﴿ لقادر ﴾ بين المصدر ويوم .

واختلاف زماني المقتين الأول في الدنيا والآخرة هو قول مجاهد وقتادة وابن زيد والأكثرين .

وتقدم لنا أن منهم من قال في الآخرة ، وهو قول الحسن .

قال الزمخشري : وعن الحسن لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنودوا : ﴿ لمقت الله ﴾ .

وقيل : معناه لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض ، كقوله تعالى : ﴿ يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ ﴿ وإذ تدعون ﴾ تعليل . انتهى .

وكان قوله : ﴿ وإذ تدعون ﴾ تعليل من كلام الزمخشري .

وقال قوم : إذ تدعون معمول ، لأذكر محذوفة ، ويتجه ذلك على أن يكون مقت الله إياهم في الآخرة ، على قول الحسن ، قيل لهم ذلك توبيخاً وتقريعاً وتنبيهاً على ما فاتهم من الإيمان والثواب .

ويحتمل أن يكون قوله : من مقت أنفسكم ، أن كل واحد يمقت نفسه ، أو أن بعضكم يمقت بعضاً ، كما قيل : إن الأتباع يمقتون الرؤساء لما ورطوهم فيه من الكفر ، والرؤساء يمقتون الأتباع ، وقيل : يمقتون أنفسهم حين قال لهم الشيطان : ﴿ فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ ، والمقت أشد البغض ، وهو مستحيل في حق الله تعالى ، فمعناه : الإنكار والزجر .

﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين ﴾ : وجه اتصال هذه بما قبلها أنهم كانوا ينكرون البعث ، وعظم مقتهم أنفسهم هذا الإنكار ، فلما مقتوا أنفسهم ورأوا حزناً طويلاً رجعوا إلى الإقرار بالبعث ، فأقروا أنه تعالى أماتهم اثنتين وأحياهم اثنتين تعظيماً لقدرته وتوسلاً إلى رضاه ، ثم أطمعوا أنفسهم بالاعتراف بالذنوب أن يردوا إلى الدنيا ، أي إن رجعنا إلى الدنيا ودعينا للإيمان بادرنا ، إليه .

وقال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، وأبو مالك : موتهم كونهم ماء في الأصلاب ، ثم إحياؤهم في الدنيا ، ثم موتهم فيها ، ثم إحياؤهم يوم القيامة .

وقال السدي : إحياؤهم في الدنيا ، ثم إماتتهم فيها ، ثم إحياؤهم في القبر لسؤال الملكين ، ثم إماتتهم فيه ، ثم إحياؤهم في الحشر .

وقال ابن زيد : إحياؤهم نسماً عند أخذ العهد عليهم من صلب آدم ، ثم إماتتهم بعد ، ثم إحياؤهم في الدنيا ، ثم إماتتهم ، ثم إحياؤهم ، فعلى هذا والذي قبله تكون ثلاثة إحياءات ، وهو خلاف القرآن .

وقال محمد بن كعب : الكافر في الدنيا حي الجسد ، ميت القلب ، فاعتبرت الحالتان ، ثم إماتتهم حقيقة ، ثم إحياؤهم في البعث ، وتقدم الكلام في أول البقرة على الإماتتين والإحياءين في قوله : ﴿ كيف تكفرون وكنتم أمواتاً ﴾ الآية ، وكررنا ذلك هنا لبعد ما بين الموضعين .

(194/673)

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف صح أن يسمي خلقهم أمواتاً إماتة ؟ قلت : كما صح : سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل ، وقولك للحفار ضيق فم ، الركية ووسع أسفلها ، وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ، ولا من صغر إلى كبر ، ولا من ضيق إلى سعة ، ولا من سعة إلى ضيق ، وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات .

والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معاً على المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما ، وكذلك الضيق والسعة ، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين ، وهو متمكن منهما على السواء ، فقد صرف المصنوع إلى الجائز الآخر ، فجعل صرفه عنه كنقله منه . انتهى .

يعني أن خلقهم أمواتاً ، كأنه نقل من الحياة وهو الجائز الآخر .

وظاهر ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ أنه متسبب عن قبولهم .

﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ ، وثم محذوف ، أي فعرفنا قدرتك على الإماتة والإحياء ، وزال إنكارانا للبعث ، ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ السابقة من إنكار البعث وغيره .

﴿ فهل إلى الخروج ﴾ : أي سريع أو بطيء من النار ، ﴿ من سبيل ﴾ : وهذا سؤال من يئس من الخروج ، ولكنه تعلل وتحير .

﴿ ذلكم ﴾ : الظاهر أن الخطاب للكفار في الآخرة ، والإشارة إلى العذاب الذي هم فيه ، أو إلى مقتهم أنفسهم ، أو إلى المنع من الخروج والزجر والإهانة ، احتمالات .

مقوله .

وقيل : الخطاب المحاضرين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، والضمير في فإنه ضمير الشأن .

﴿ إذا دعي الله وحده ﴾ : أي إذا أفرد بالإلهية ونفيت عن سواه ، ﴿ كفرتم وإن يشرك به ﴾ : أي ذكرت اللات والعزى وأمثالهما من الأصنام ، صدقتم بألوهيتها وسكنت نفوسكم إليها .

﴿ فالحكم ﴾ بعذابكم ، ﴿ لله ﴾ ، لا لتلك الأصنام التي أشركتموها مع الله ، ﴿ العلي ﴾ عن الشرك ، ﴿ الكبير ﴾ : العظيم الكبرياء .

وقال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات ، يكلمهم الله في الأربعة ، فإذا كانت الخامسة سكتوا .

(195/673)

﴿ قالوا ربنا آمتنا اثنتين ﴾ الآية ، وفي إبراهيم : ﴿ ربنا أخرنا ﴾ الآية ، وفي السجدة : ﴿ ربنا أنصرنا ﴾ الآية ، وفي فاطر : ﴿ ربنا أخرجنا ﴾ الآية ، وفي المؤمنون : ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا ﴾ الآية ، فراجعهم اخسؤا فيها ولا تكلمون ، قال : فكان آخر كلامهم ذلك .

ولما ذكر تعالى ما يوجب التهديد الشديد في حق المشركين ، أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ، ليصير ذلك دليلاً على أنه لا يجوز جعل الأحجار المنحوتة والخشب المعبودة شركاء لله ، فقال : ﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ ، أيها الناس ، ويشمل آيات قدرته من الريح السحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها من الأثار العلوية ، وآيات كتابه المشتمل على الأولين والآخرين ، وآيات الإعجاز على أيدي رسله .

وهذه الآيات راجعة إلى نور العقل الداعي إلى توحيد الله .

ثم قال : ﴿ وينزل لكم من السماء رزقاً ﴾ ، وهو المطر الذي هو سبب قوام بنية البدن ،

فتلك الآيات للأديان كهذا الرزق للأبدان .

﴿ وما يتذكر ﴾ : أي يتعظ ويعتبر ، وجعله تذكراً لأنه مركوز في العقول دلائل التوحيد ، ثم قد يعرض الاشتغال بعبادة غير الله فيمنع من تجلى نور العقل ، فإذا تاب إلى الله تذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(196/673)

وقال الآلوسى :

﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ ءاياته ﴾

الدالة على شؤننه العظيمة الموجبة لتفرده بالألوهية لتستدلوا بها على ذلك وتعملوا بموجبها فإذا دعي سبحانه وحده تؤمنوا وإن يشرك به تكفروا ، وهذه الآيات ما يشاهد من آثار قدرته عز وجل

: وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد ﴾

وَيُنَزِّلُ ﴾ بالتشديد وقرىء بالتخفيف من الإنزال ﴿ لَكُم مِّنَ السماء رِزْقاً ﴾ أي سبب رزق وهو المطر ، وإفراده بالذكر مع كونه من جملة تلك الآيات لتفرده بعنوان كونه من آثار

رحمته وجلائل نعمته الموجبة للشكر ، وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل واستمرارهما ، وتقديم الجار والمجرور على المفعول لما مر غير مرة ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ بتلك الآيات التي هي كالمركوزة في العقول لظهورها المغفول عنها للانهماك في التقليد واتباع الهوى ﴿ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ يرجع عن الإنكار بالإقبال عليها والتفكر فيها ، فإن الجازم بشيء لا ينظر فيما ينافيه فمن لا ينيب بمعزل عن التذكر .

﴿ فادعوا الله ﴾ اعبدوه عز وجل ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ من الشرك ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ إخلاصكم وشق عليهم .

وظاهر كلام الكشاف أن ﴿ ادعوا ﴾ الخ مسبب عن الإنابة وأن فيه التفاتاً حيث قال : ثم قال للمنيبين والأصل فليدع ذلك المنيب ، على معنى إن صحت الإنابة على نحو فقد جئنا خراساناً ، وقد وافق على كونه خطاباً لمن ذكر غير واحد .

(197/673)

وفي "الكشف" التحقيق أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ [غافر : 13] الخ اعتراض وقوله سبحانه : ﴿ فادعوا الله ﴾ مسبب عن قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ ﴾ [غافر : 13] على أنه خطاب يعم المؤمن والكافر لسبق ذكرهما لا للكفار وحدهم على

نحو ﴿ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [غافر : 10] إذ ليس مما نودوا به يوم القيامة ، والمعنى فادعوه فوضع الظاهر موضع المضمر ليتمكن فضل تمكن وليشعر بأن كونه تعالى هو المعبود بحق هو الذي يقتضي أن يعبد وحده .

وفائدة الاعتراض أن هذه الآيات ودلالتها على اختصاصه سبحانه وحده بالعبادة بالنسبة إلى من ينيب لا المعاند .

وقوله في "الكشاف" : ثم قال للمنيبين إشارة إلى أن فائدة تقديم الاعتراض أن الانتفاع بالآيات على هذا التقدير فكأنه مسبب عن الإنابة معنى لما كان تسبب السابق للأحق الإنابة ، فهذا هو الوجه ولا يأباه تفسير ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ بقوله : وإن غاظ ذلك أعداءكم فإنه للتنبيه على أن امتثال ذلك الأمر إنما يكون بعد إنابتهم وكأن قد حصل ذلك وحصل التضاد بينهم وبين الكافرين ، وهو تحقيق حقيق بالقبول لكن في توجيه كلام الكشاف تكلف ظاهر .

﴿ رَفِيعُ الدرجات ﴾ صفة مشبهة أضيفت إلى فاعلها من رفع الشيء بالضم إذا علا ، وجوز أن يكون صيغة مبالغة من باب أسماء الفاعلين وأضيف إلى المفعول وفيه بعد ، و ﴿ الدرجات ﴾ مصاعد الملائكة عليهم السلام إلى أن يبلغوا العرش أي رفيع درجات ملائكته ومعارجهم إلى عرشه .

وفسرها ابن جبير بالسماوات ولا بأس بذلك فإن الملائكة يعرجون من سماء إلى سماء

حتى يبلغوا العرش إلا أنه جعل ﴿ رفيعاً ﴾ اسم فاعل مضافاً إلى المفعول فقال : أي رفع سماء فوق سماء والعرش فوقهن ، وقد سمعت آنفاً أن فيه بعداً ، ووصفه عز وجل بذلك للدلالة على سبيل الإدماج على عزته سبحانه وملكوته جل شأنه .

(198/673)

ويجوز أن يكون كناية عن رفعة شأنه وسلطانه عز شأنه وسلطانه كما أن قوله تعالى : ﴿ الودود ذُو العرش ﴾ كناية عن ملكه جل جلاله ، ولا نظر في ذلك إلى أن له سبحانه عرشاً أو لا ، فالكناية وإن لم تناف إرادة الحقيقة لكن لا تقتضي وجوب إرادتها فقد وقد ؛ وعن ابن زيد أنه قال : أي عظيم الصفات وكأنه بيان لحاصل المعنى الكنائي ، وقيل : هي درجات ثوابه التي ينزلها أولياءها تعالى يوم القيامة ، وروى ذلك عن ابن عباس وابن سلام ، وهذا أنسب بقوله تعالى : ﴿ فادعوا الله مُخْلِصِينَ ﴾ [غافر : 14] المعنى الأول أنسب بقوله تعالى : ﴿ يُلْقِى الروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ لتضمنه ذكر الملائكة عليهم السلام وهم المنزلون بالروح كما قال سبحانه : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ [النحل : 2] وأياً ما كان فرفيع الدرجات و ﴿ ذُو العرش ﴾ وجملة ﴿ يُلْقِى ﴾ أخبار ثلاثة قيل : لهو السابق في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ ﴾ [الرعد : 13] الخ واستبعده أبو حيان

بطول الفصل ، وقيل : لهو محذوفاً ، والجملة كالتعليل لتخصيص العبادة وإخلاص الدين له تعالى ، وهي متضمنة بيان إنزال الرزق الروحاني بعد بيان إنزال الرزق الجسماني في ﴿ يُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السماء رِزْقاً ﴾ [غافر : 13] فإن المراد بالروح على ما روى عن قتادة الوحي وعلى ما روى عن ابن عباس القرآن وذلك جار من القلوب مجرى الروح من الأجساد ، وفسره الضحاك بجبريل عليه السلام وهو عليه والسلام حياة القلوب باعتبار ما ينزل به من العلم .

وجوز ابن عطية أن يراد به كمل ما ينعم الله تعالى به على عباده المهتدين في تفهيم الايمان والمعقولات الشريفة وهو كما ترى ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ قيل : بيان للروح ، وفسر بما يتناول الأمر والنهي ، وأوثر على لفظ الوحي للإشارة إلى أن اختصاص حياة القلوب بالوحي من جهتي التخلي والتحلي الحاصلين بالامتثال والانتهاء .

(199/673)

وعن ابن عباس تفسير الأمر بالقضاء فجعلت ﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ﴿ الروح ﴾ أي ناشئاً من أمره أو صفة له على رأي من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أي الكائن من أمره ، وفسره بعضهم بالملك وجعل ﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية متعلقة

بمحذوف وقع حالاً أو صفة على ما ذكر آنفاً ، وكون الملك مبدأ للوحي لتلقيه عنه ، ومن فسر الروح بجبريل عليه الصلاة والسلام قال : ﴿ مِنْ ﴾ سببية متعلقة بيلقى والمعنى ينزل الروح من أجل تبليغ أمره ﴿ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهو الذي اصطفاه سبحانه لرسالته وتبليغ أحكامه إليهم ، والاستمرار التجددي المفهوم من ﴿ يُلْقِى ﴾ ظاهر فإن الإلقاء لم يزل من لدن آدم عليه السلام إلى انتهاء زمان نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو في حكم المتصل إلى قيام الساعة بإقامة من يقوم بالدعوة على ما روى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال :

" إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها " أي بإحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما ، وأمر ذلك التجدد على ما جوزه ابن عطية لا يحتاج إلى ما ذكر .

وقرىء ﴿ رَفِيعُ ﴾ بالنصب على المدح ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ علة للالقاء ، وضميره المستتر لله تعالى أو لمن وهو الملقى إليه أو للروح أو للأمر ، وعوده على الملقى إليه وهو الرسول أقرب لفظاً ومعنى لقرب المرجع وقوة الإسناد فإنه الذي ينذر الناس حقيقة بلا واسطة ، واستظهر أبو حيان رجوعه إليه تعالى لأنه سبحانه المحذف عنه ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ التلاق ﴾ مفعول لينذر أو ظرف والمنذر به محذوف أي لينذر العذاب أو نحو يوم التلاق

﴿ يَوْمَ هُم بارزون ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ التلاق ﴾ [غافر : 15] و ﴿ هُمْ ﴾ مبتدأ و ﴿ بارزون ﴾ خبر والجملة في محل جر بإضافة ﴿ يَوْمٍ ﴾ إليها ، وقيل : وهذا تخريج على مذهب أبي الحسن من جواز إضافة الظرف المستقبل كاذا إلى الجملة الاسمية نحو اجيئك إذا زيد ذاهب ، وسيبويه لا يجوز ذلك ويوجب تقدير فعل بعد الظرف يكون الاسم مرتفعاً به ، وجوز أن يكون ﴿ يَوْمٍ ﴾ ظرفاً لقوله تعالى : ﴿ لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَىْء ﴾ والظاهر البدلية ، وهذه الجملة استئناف لبيان بروزهم وتقرير له وإزاحة لما كان يتوهمه بعض المتوهمين في الدنيا من الاستتار توهماً باطلاً ، وجوز أن تكون خبراً ثانياً لهم .

وقيل : هي حال من ضمير ﴿ بارزون ﴾ و ﴿ يَوْمَ التلاق ﴾ يوم القيامة سمي بذلك قال ابن عباس : لالتلقاء الخلائق فيه ، وقال مقاتل : للالتقاء الخالق والمخلوق فيه .

وحكاه الطبرسي عن ابن عباس ، وقال السدي : لالتقاء أهل السماء وأهل الأرض ؛ وقال ميمون بن مهران : لالتقاء الظالم والمظلوم ، وحكى الثعلبي أن ذلك لالتقاء كل امرء وعمله ، واختار بعض الأجلة ما قال مقاتل وقال : هو أولى الوجوه لما فيه من حل المطلق على ما ورد في كثير من المواضع نحو ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء لَهُ ﴾ [الكهف : 110] ﴿ إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ [يونس : 7] ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ﴾ [الفرقان : 21]) .

وقال "صاحب الكشف" : القول الأول وهو ما نقل عن ابن عباس أولا أشبه لجريان الكلام فيه على الحقيقة ونفي ما يتوهم من المساواة بين الخالق والمخلوق واستقلال كل من البدلين بفائدة التهويل لما في الأول من تصوير تلاقي الخلائق على اختلاف أنواعها ، وفي الثاني من البروز لمالك أمرها بروزاً لا يبقى لأحد فيه شبهة .

(201/673)

وأما نحو قوله تعالى : ﴿ لِقَاء رَبِّهِ ﴾ فمسوق بمعنى آخر ، و﴿ بارزون ﴾ من برز وأصله حصل في براز أي فضاء ، والمراد ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء لأن الأرض يومئذٍ قاع صفصف وليس عليهم ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء في "الصحيحين" عن ابن عباس " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنكم ملاقو الله حفاة عراة غرلاً " وقيل : المراد خارجون من قبورهم أو ظاهرة أعمالهم وسرائرهم ، وقيل : ظاهرة نفوسهم لا تحجب بغواشي الأبدان مع تعلقها بها ، ولا يقبل هذا بدون ثبت من المعصوم ، والمراد بقوله تعالى : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ على ما قيل : من أحوالهم وأعمالهم .

وقيل : من أعيانهم ، واختير التعميم أي لا يخفى عليه عز شأنه شيء ما من أعيانهم

وأعمالهم وأحوالهم الجلية والخفية السابقة واللاحقة .

وقرأ أبي ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ﴾ ببناء ينذر للفاعل ورفع يوم على الفاعلية مجازاً .

وقرأ اليماني فيما ذكر صاحب اللوامح ﴿ لّيُنذِرَ ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ يَوْمٍ ﴾ بالرفع على النيابة عن الفاعل .

وقرأ الحسن .

واليماني فيما ذكر ابن خالويه ﴿ لّتُنذِرَ ﴾ بالتاء الفوقية فقيل : الفاعل فيه ضمير الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل : ضمير الروح لأنها تؤنث ؛ وقوله تعالى : ﴿ لّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ حكاية لما يسئل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به بتقدير قول معطوف على ما قبله من الجملة المنفية المستأنفة أو مستأنف يقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية بروزهم وظهور أحوالهم كأنه قيل : فما يكون حينئذٍ ؟ فقيل : يقال : ﴿ لّمَنِ الملك ﴾ الخ

﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أي من النفوس البرة والفاجرة ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي من خير أو شر ﴿ لاَ ظُلْمَ اليوم ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب ﴿ إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ [غافر : 16 ، 17] أي سريع حسابه إذ لا يشغله سبحانه شأن عن شأن فيصل إلى المحاسب من النفوس ما يستحقه سريعاً .

روي عن ابن عباس أنه تعالى إذا أخذ في حسابهم لم يقل أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها من تتمة الجواب جيء به لبيان إجمال فيه ، والتذييل لتعليل ما قبله .

والمنادي بذلك سؤالاً وجواباً واحد .

أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال : "يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله تعالى فيها قط ولم يخطأ فيها فأول ما يتكلم أن ينادي مناد ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ اليوم إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ [غافر : 16 ، 17] فأول ما يبدؤن به من الخصومات الدماء" الحديث ، وهو عند الحسن الله نفسه عز وجل ، وقيل : ملك ، وقيل : السائل هو الله تعالى أو ملك والمجيب الناس .

وذكر الطيبي تقريراً لعبارة الكشاف أن قوله تعالى : ﴿ اليوم تجزى ﴾ الخ تعليل فيجب أن يكون السائل والمجيب هو الله عز وجل ، فإنه سبحانه لما سأل ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم ﴾ وأجاب هو سبحانه بنفسه ﴿ لِلَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ كان المقام موقع السؤال وطلب التعليل فأوقع ﴿ اليوم تجزى ﴾ جواباً عنه يعني إنما اختص الملك بن تعالى لأنه وحده يقدر على مجازاة كل نفس بما كسبت وله العدل التام فلا يظلم أحداً وله التصرف فلا يشغله شأن عن شأن فيسرع الحساب ، ولو أوقع ﴿ لِلَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ جواباً عن أهل المحشر لم يحسن

هذا الاستئناف انتهى ، وفيه ما فيه .

والحق أن قوله تعالى : ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ ﴾ الخ إن كان من كلام المجيب كما هو ظاهر حديث ابن مسعود بعد أن يكون من الناس ، وجوز فيه أن لا يكون من تتمة الجواب بل هو حكاية لما سيقوله تعالى في ذلك اليوم عقيب السؤال والجواب .

وأياً ما كان فتخصيص الملك به تعالى في ذلك اليوم إنما هو بالنظر إلى ظاهر الحال من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط وظهور ذلك للكفرة والجهلة .

وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائماً .

(203/673)

وذهب محمد بن كعب القرظي إلى أن السؤال والجواب منه تعالى ويكونان بين النفختين حين يفنى عز وجل الخلائق .

وروي نحوه عن ابن عباس .

أخرج عبد بن حميد في "زوائد الزهد" .

وابن أبي حاتم .

والحاكم وصححه .

وأبو نعيم في الحلية عنه رضي الله تعالى عنه قال : "ينادي مناد بين يدي الساعة يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات وينزل الله سبحانه إلى السماء الدنيا فيقول : لمن الملك اليوم لله الواحد القهار" والسياق ظاهر في أن ذلك يوم القيامة فلعله على تقدير صحة الحديث يكون مرتين .

ومعنى جزاء النفوس بما كسبت أنها تجزى خيراً إن كسبت خيراً وشراً إن كسبت شراً .

وقيل : إن النفوس تكتسب بالعقائد والأعمال هيآت توجب لذتها وألمها لكنها لا تشعر بها في الدنيا فإذا قامت قيامتها وزالت العوائق أدركت ألمها ولذتها .

والظاهر أن هذا قول باللذة والألم الروحانيين ونحن لا ننكر حصولهما يومئذٍ لكن نقول : إن الجزاء لا ينحصر بهما بل يكون أيضاً بلذة وألم جسمانيين .

فالاقتصار في تفسير الآية على ذلك قصور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(204/673)

وقال ابن عاشور :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾

هذا استئناف ابتدائي إقبالٌ على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد أن انقضى وصف ما يلاقي المشركون من العذاب ، وما يدعون من دعاء لا يستجاب ، وقرينة ذلك قوله : ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ [غافر : 14] .

ومناسبة الانتقال هي وصفَا ﴿ العلي الكبير ﴾ [غافر : 12] لأن جملة ﴿ يريكم آياته ﴾ تناسب وصف العلوّ ، وجملة ﴿ ينزل لكم من السماء رزقاً ﴾ تناسب وصف ﴿ الكبير ﴾ بمعنى الغَنِيّ المطلق .

والآيات : دلائل وجوده ووحدانيتِه .

وهي المظاهر العظيمة التي تبدو للناس في هذا العالم كقوله : ﴿ هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ [الرعد : 12] وقوله : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ [آل عمران : 190] .

وتنزيل الرزق من السماء هو نزول المطر لأن المطر سبب الرزق وهو في نفسه آية أدمج معها امتنان ، ولذلك عُقب الأمران بقوله : ﴿ ومَا يَتَذَكَّرُ إلا مَن يُنيب ﴾ .

وصيغة المضارع في ﴿ يريكم ﴾ و ﴿ ينزل ﴾ تدل على أن المراد إراءة متجددة وتنزيل متجدد وإنما يكون ذلك في الدنيا ، فتعين أن الخطاب مستأنف مراد به المؤمنون وليس من بقية خطاب المشركين في جهنم ، ويزيد ذلك تأييداً قوله : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ [غافر : 14] .

(وعُدي فعلاً (يرى) و ﴿ ينزل ﴾ إلى ضمير المخاطبين وهم المؤمنون لأنهم الذين انتفعوا بالآيات فآمنوا وانتفعوا بالرزق فشكروا بالعمل بالطاعات فجُعل غيرهم بمنزلة غير المقصودين بالآيات لأنهم لم ينتفعوا بها كما قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] فجَعل غير العالمين كمن لا يعقل ولا يفقه .

(205/673)

ولذلك ذيلت إراءة الآيات وإنزالُ الرزق لهم بقوله : ﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ أي من آمن ونبذ الشرك لأن الشرك يصدّ أهله عن الإنصاف وإعمال النظر في الأدلة .

والإِنابة : التوبة ، وفي صيغة المضارع إشارة إلى أن الإِنابة المحصلة للمطلوب هي الإِنابة المتجددة المتكررة ، وإذ قد كان المخاطبون منيبين إلى الله كان قوله : ﴿ وما يتذكر إلاّ من ينيب ﴾ دَالاً بدلالة الاقتضاء على أنهم رأوا الآيات واطمأنوا بها وأنهم عرفوا قدر النعمة وشكروها فكان بين الإِنابة وبين التذكر تلازم عادي ، ولذلك فجملة ﴿ وما يتذكر إلاّ من ينيب ﴾ تذييل .

وتقديم ﴿ لكم ﴾ على مفعول ﴿ يُنزل ﴾ وهو ﴿ رزقاً ﴾ لكمال الامتنان بأن جُعل تنزيل الرزق لأجل الناس ولو أخر المجرور لصار صفة ل ﴿ رِزْقاً ﴾ فلا يفيد أن التنزيل

لأجل المخاطَبين بل يفيد أن الرزق صالح للمخاطبين وبين المعنيين بون بعيد ، فكان تقديم المجرور في الترتيب على مفعول الفعل على خلاف مقتضى الظاهر لأن حق المفعول أن يتقدم على غيره من متعلّقات الفعل وإنما خولف الظاهر لهذه النكتة .

وجُعل تنزيل الرزق لأَجل المخاطبين وهم المؤمنون إشارة إلى أن الله أراد كرامتهم ابتداء وأن انتفاع غيرهم بالرزق انتفاع بالتبع لهم لأنهم الذين بمحل الرضى من الله تعالى .

وتُثار من هذه الآية مسألة الاختلاف بين الأشعرية مع الماتريدي ومع المعتزلة في أن الكافر منعَم عليه أوْ لا ؟ فعن الأشعري أن الكافر غير منعم عليه في الدنيا ولا في الدين ولا في الآخرة ، وقال القاضي أبو بكر الباقلاني والماتريدي : هو منعم عليه نعمةً دنيوية ، لا دينية ولا أُخروية ، وقالت المعتزلة : هم منعم عليه نعمةً دنيوية ودينية لا أخروية ، فأما الأشعري فلم يعتبر بظاهر الملاذ التي تحصل للكافر في الحياة فإنما ذلك إملاء واستدراج لأن مآلها العذاب المؤلم فلا تستحق اسم النعمة .

(206/673)

وأنا أقول : لو استُدل له بأنها حاصلة لهم تبعاً فهي لذائد وليست نعماً لأن النعمة لذة أريد منها نفع من وصلت إليه كما أشرتُ إليه آنفاً .

وأما الباقلاني فراعى ظاهر الملاذّ فلم يمنع أن تكون نعماً وإن كانت عواقبُها آلاماً ، وآياتُ القرآن شاهدة لقوله .

وأما المعتزلة فزادوا فزعموا أن الكافر منعم عليه دِينَا ، وأرادوا بذلك أن الله مكَّن الكافر من نعمة القدرة على النظر المؤدي إلى معرفة الله وواجبِ صفاته .

والذي استقر عليه رأي المحققين من المتكلمين أن هذا الخلاف لفظي لأنه غير ناظر إلى حقيقة حالة الكافر في الدنيا والدين ، وإنما نظر كل شِق من أهل الخلاف إلى ما حفّ بأحوال الكافر في تلك النعمة فرجع إلى الخلاف في الألفاظ المصطلح عليها ومدلولاتها لا في حقائق المقصود منها .

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14)

تفريع على ما شاهدوا من الآيات وما أفيض عليهم من الرزق ، وعلى أنهم المُرْجَوون للتذكر ، أي إذ كنتم بهذه الدرجة فادعوا الله مخلصين ، ففي الفاء معنى الفصيحة كما تقدم في قوله : ﴿ وما يتذكر إلاّ من ينيب ﴾ [غافر : 13] .

والمعنى : أن الله أراكم آياته وأنزل لكم الرزق وما يتذكر بذلك إلا المنيبون وأنتم منهم فادعوا الله مخلصين لتوفر دواعي تلك العبادة .

والدعاء هنا الإعلان وذكر الله ونداؤه ويشمل الدعاء بمعنى سؤال الحاجة شمول الأعم للأَخص ، وتقدم آنفاً أن الدعاء يطلق على العبادة .

والأمر مستعمل في طلب الدوام لأن المؤمنين قد دَعوا الله مخلصين له ، فالمقصود : دوموا على ذلك ولو كره الكافرون ، لأن كراهية الكافرين ذلك من المؤمنين تكون سبباً لمحاولتهم صرفهم عن ذلك بكل وسيلة يجدون إليها سبيلاً فيُخشى ذلك أن يفتن فريقاً من المؤمنين ، فالكراهية كناية عن المقاومة والصدّ لأنهما لازمان للكراهية لأن شأن الكاره أن لا يصبر على دوام ما يكرهه ، فالأمر بقوله : ﴿ فادعوا الله مخلصين ﴾ لي نحو الأمر في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ [النساء : 136] .

وإظهار اسم الجلالة في قوله : ﴿ فادعوا الله ﴾ لأن الكلام تفريع لاستجداد غرض آخر فجعل مستقلاً عما قبله .

وتقدم تفسير ﴿ مُخلصِينَ لهُ الدينَ ﴾ في تفسير قوله : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أول سورة [الزمر : 2] .

وجملة ﴿ وَلَو كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ في موضع الحال من فاعل ﴿ ادْعوا ﴾ .

و﴿ لو ﴾ وصلية تفيد أن شرطها أقصَى ما يكون من الأحوال التي يراد تقييد عامل الحال بها ، أي اعبدوه في كل حال حتى في حال كراهية الكافرين ذلك لأن كراهية الكافرين ذلك

والمؤمنُون بين ظَهْرَانَيْهم وفي بلاد فيه سلطان الكافرين مظنة لأن يصدهم ذلك عن دعاء الله مخلصين له الدين .

وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ [الحجر : 94] وقد تقدم تفصيل (لو) هذه عند قوله : ﴿ فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ في سورة [آل عمران : 91] .

.

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15)

﴿ رَفِيعُ الدرجات ذُو العرش يُلْقِى الروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق * يَوْمَ هُم بارزون لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ ﴾ .

(208/673)

﴿ رفيعُ الدرجات ﴾ خبر عن مبتدأ محذوف هو ضمير اسم الجلالة في قوله : ﴿ فادعوا الله ﴾ [غافر : 14] وليس خبراً ثانياً بعد قوله : ﴿ هُو الَّذي يُريكم آياته ﴾ [غافر : 13] لأن الكلام هنا في غرض مستجدّ ، وحذف المسند إليه في مثله حذف اتِّبَاع

للاستعمال في حذف مثله ، كذا سماه السكاكي بعد أن يَجري من قبل الجملة حديثٌ عن المحذوف كقول عبد الله بن الزِّبير أو إبراهيم بن العباس الصولي أو محمد بن سعيد الكاتب :

سأَشكرُ عَمْراً إنْ تَراختْ منيتي
أَيَادِيَ لَم تُمْنَنْ وإنْ هِيَ جَلَّتِ . . .
فَتًى غير محجوب الغِنى عن صديقه
ولا مُظْهِرا للشكوى إذا النعل زلّت . . .

و﴿ رفيع ﴾ يجوز أن يكون صفة مشبهة .

والتعريف في ﴿ الدرجات ﴾ عوض عن المضاف إليه .

والتقدير : رفيعةٌ درجاتُه ، فلما حُول وصف ما هو من شؤونه إلى أن يكون وصفاً لذاته سلك طريق الإضافة وجُعلت الصفة المشبهة خبراً عن ضمير الجلالة وجعل فاعل الصفة مضافاً إليه ، وذلك من حالات الصفة المشبهة يقال : فلان حسنٌ فعلُه ، ويقال : فلان حسَنُ الفعل ، فيؤُول قوله : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجات ﴾ إلى صفة ذاته .

و﴿ الدرجات ﴾ مستعارة للمجد والعظمة ، وجمعها إيذان بكثرة العظمات باعتبار صفات مجد الله التي لا تحصر ، والمعنى : أنه حقيق بإخلاص الدعاء إليه .

ويجوز أن يكون ﴿ الكافرون ﴾ من أمثلة المبالغة ، أي كثير رفعِ الدرجات لمن يشاء وهو معنى قوله تعالى : ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ [يوسف : 76] .

وإضافته إلى ﴿ الدرجات ﴾ من الإِضافة إلى المفعول فيكون راجعاً إلى صفات أفعال الله تعالى .

والمقصود : تثبيتهم على عبادة الله مخلصين له الدين بالترغيب بالتعرض إلى رفع الله درجاتهم كقوله : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ في سورة [المجادلة : 11] .

(و ﴿ ذُو العَرْش ﴾ خبر ثان وفيه إشارة إلى أن رفع الدرجات منه متفاوت .

(209/673)

كما أن مخلوقاته العليا متفاوتة في العظم والشرف إلى أن تنتهي إلى العرش وهو أعلى المخلوقات كأنه قيل : إن الذي رفع السماوات ورفع العرش مَاذَا تُقَدِّرون رَفعه درجات عابديه على مراتب عبادتهم وإخلاصهم .

وجملة ﴿ يُلْقِي الرُّوحِ مِن أمْرِه ﴾ خبر ثالث ، أو بدلُ بعض من جملة ﴿ رَفِيعُ الدرجات ﴾ فإن مِنْ رفع الدرجات أَنْ يرفع بعض عِباده إلى درجة النبوءة وذلك أعظم رفع الدرجات بالنسبة إلى عِباده ، فبدل البعض هو هنا أهم أفراد المبدل منه .

والإِلقاء : حقيقته رميُ الشيء من اليد إلى الأرض ، ويستعار للاعطاء إذا كان غير مترقب

، وكثر هذا في القرآن ، قال : ﴿ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون وألقوا إلى الله يومئذٍ السلم ﴾ [النحل : 86 ، 87] .

واستعير هنا للوحي لأنه يجيء فجأة على غير ترقب كإلقاء الشيء إلى الأرض .

والروح : الشريعة ، وحقيقة الروح : ما به حياة الحيّ من المخلوقات ، ويستعار للنفيس من الأمور وللوحْي لأنه به حياة الناس المعنوية وهي كمالهم وانتظام أمورهم ، فكما تستعار الحياة للإِيمان والعِلمِ ، كذلك يستعار الروح الذي هو سبب الحياة لكمال النفوس وسلامتها من الطوايا السيئة ، ويطلق الروح على المَلَك قال:

﴿ فأرسلنا إليها روحَنا فتمثل لها بشراً سويا ﴾ [مريم : 17] .

و﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية في ﴿ مِن أمْرِهِ ﴾ ، أي بأمره ، فالأمر على ظاهره .

ويجوز أن تكون ﴿ من ﴾ تبعيضية ظرفاً مستقراً صفة ﴿ الروح ﴾ أي بَعْضَ شؤونه التي لا يطلع عليها غيره إلا من ارتضى فيكون الأمر بمعنى الشأن ، أي الشؤون العجيبة ، وقيل : ﴿ من ﴾ بيانية وأن الأمر هو الروح وهذا بعيد .

(210/673)

وهذه الآية تشير إلى أن النبوءة غير مكتسبة لأنها ابتدئت بقوله : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾ [غافر : 14] ثم أُعقب بقوله : ﴿ رفيع الدرجات ﴾ فأشار إلى عبادة الله بإخلاص سبب لرفع الدرجات ، ثم أعقب بقوله : ﴿ يُلقِي الرُّوح من أمرِه ﴾ فجيء بفعل الإلقاء وبكون الروح من أمره وبصلة ﴿ مَن يَشاء مِن عِباده ﴾ ، فآذن بأن ذلك بمحض اختياره وعلمه كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ [الأنعام : 124] .

وهذا يرتبط بقوله في أول السورة [2] ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ فأمَر رسولَه صلى الله عليه وسلم بالإخلاص في العبادة مفرعاً على إنزال الكتاب إليه ، وجاء في شأن الناس بقوله : ﴿ فادعوا الله مُخْلِصين ﴾ [غافر : 14] ثم أعقبه بقوله : ﴿ رَفيع الدرجات ﴾ .

وقد ضَرب لهم العرشَ والأنبياء مثلين لرفع الدرجات في العوالم والعقلاء ، وفيه تعريض بتسفيه المشركين ﴿ فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ﴾ [القمر : 24] ، ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] و ﴿ قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ [الأنعام : 124] .

وتخلص من ذكر النبوءة إلى النذارة بيوم الجزاء ليعود وصف يوم الجزاء الذي انقطع الكلام عليه من قوله تعالى : ﴿ ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم ﴾ [غافر : 12] الخ .

والإِنذار : إخبار فيه تحذير مما يسوء ، وهو ضد التبشير إذ هو إخبار بما فيه مسرة .

وفعله المجرد : نَذِر كعلم ، يقال : نَذِر بالعدوّ فحَذِره .

(211/673)

والهمزة في أنذر للتعدية فحقه أن لا يتعدى بالهمزة إلا إلى مفعول واحد ، وهو الذي كان فاعل الفعل المجرد ، وأن يتعدى إلى الأمر المخبَر به بالباء ، يقال : أنذرتُهم بالعَدوّ ، غير أنه غلب في الاستعمال تضمينه معنى التحذير فعدوه إلى مفعول ثان وهو استعمال القرآن ، وأما قوله في أول [الأعراف : 2] ﴿ لتنذر به ﴾ فالباء فيه للسببية أو الآلة المجازية وليست للتعدية .

وضمير به عائداً إلى الكتاب .

والضمير المستتر في لينذر ﴾ عائد إلى اسم الجلالة من قوله : ﴿ فادعوا الله ﴾ [غافر : 14] ، والأحسن أن يعود على ﴿ مَن ﴾ الموصولة لينذر من أُلقَى عليه الروحَ قومَه ، ولأن فيه تخلصاً إلى ذكر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي هو بصدد الإِنذار دون الرسل الذين سبقوا إذ لا تلائمهم صيغة المضارع ولأنه مرجِّح لإِظهار اسم الجلالة في قوله : ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ كما سيأتي .

و﴿ يوم التَلاَقي ﴾ هو يوم الحشر ، وسمي يوم التلاقي لأن الناس كلهم يلتقون فيه ، أو لأنهم يلقون ربهم لقاء مجازياً ، أي يقفون في حضرته وأمام أمره مباشرة كما قال تعالى : ﴿ الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ [يونس : 7] أي لا يرجُون يوم الحشر .

وانتصبَ ﴿ يوم التلاقي ﴾ على أنه مفعول ثان ل ﴿ ينذر ﴾ ، وحذف المفعول الأول لظهوره ، أي لينذر الناسَ .

وبَين ﴿ التَّلاَقي ﴾ و ﴿ يُلْقي ﴾ جناس .

وكتب ﴿ التَّلاَقي ﴾ في المصحف بدون ياء .

وقرأه نافع وأبو عمرو في رواية عنه بكسرة بدون ياء .

وقرأه الباقون بالياء لأنه وقع في الوصل لا في الوقف فلا موجب لطرح الياء إلا معاملة الوصل معاملة الوقف وهو قليل في النثر فيقتصر فيه على السماع .

وكفى برواية نافع وأبي عمرو سماعاً .

و﴿ يَوْمَ هُم بارزون ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ التَّلاَقي ﴾ .

و﴿ هم بارزون ﴾ جملة اسمية ، والمضاف ظرف مستقبل وذلك جائز على الأرجح بدون تقدير .

وضمير الغيبة عائد إلى ﴿ الكافِرُونَ من قوله : وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [غافر : 14] .

وجملة ﴿ لا يَخْفَى على الله منهم شيءٌ ﴾ بيان لجملة ﴿ هُم بارزون ﴾ والمعنى : أنهم واضحة ظواهرهم وبواطنهم فإن ذلك مقتضى قولهم : ﴿ مِنْهم شَيءٌ ﴾ .

وإظهار اسم الجلالة لأن إظهاره أصْرح لبعد معاده بما عقبه من قوله : ﴿ على مَن يَشَاءُ من عِبادِهِ ﴾ ، ولأن الأظهر أن ضمير ﴿ لِيُنذِر ﴾ عائد إلى ﴿ مَن يَشَاء ﴾ .

ومعنى ﴿ مِنهُم ﴾ من مجموعهم ، أي من مجموع أحوالهم وشؤونهم ، ولهذا أوثر ضمير الجمع لما فيه من الإجمال الصالح لتقدير مضاف مناسب للمقام ، وأوثر أيضاً لفظ ﴿ شَيْءٌ ﴾ لتوغله في العموم ، ولم يقل لا يخفى على الله منهم أحد ، أو لا يخفى على الله من أحدٍ شيءٌ ، أي من أجزاء جسمه ، فالمعنى : لا يخفى على الله شيء من أحوالهم ظاهرها وباطنها .

﴿ شَيْءٌ لِّمَنِ الملك اليوم للَّهِ الواحد ﴾

مقول لقول محذوف ، وحذف القول من حديث البحر .

والتقدير : يقول الله لمن الملك اليوم ، ففعل القول المحذوف جملة في موضع الحال ، أو استئناف بياني جواباً عن سؤال سائل عما ذا يقع بعد بروزهم بين يدي الله .

والاستفهام إما تقريري ليشهد الطغاة من أهل المحشر على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا

مخطئين فيما يزعمونه لأنفسهم من مُلك لأصنامهم حين يضيفون إليها التصرف في ممالك من الأرض والسماء ، مثل قول اليونان بإله البحر وإله الحرب وإله الحكمة ، وقول أقباط مصر بإله الشمس وإله الموت وإله الحكمة ، وقول العرب باختصاص بعض الأصنام ببعض القبائل مثل اللاتِ لثقيف ، وذي الخَلَصة لدوْس ، ومناةَ للأوس والخزرج .

(213/673)

وكذلك ما يزعمونه لأنفسهم من سلطان على الناس لا يشاركهم فيه غيرهم كقول فرعون : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] وقوله : ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ [الزخرف : 51] ، وتلقيب أكاسرة الفرس أنفسهم بلقب : ملك الملوك (شاهنشاه) ، وتلقيب ملوك الهند أنفسهم بلقب ملك الدنيا (شاه جهان) .

ويفسر هذا المعنى ما في الحديث في صفة يوم الحشر "ثم يقول الله أنا المَلِك أين ملوك الأرض" استفهاماً مراداً منه تخويفهم من الظهور يومئذٍ ، أي أين هم اليوم لماذا لم يظهروا بعظمتهم وخيلائهم .

ويجوز أيضاً أن يكون الاستفهام كناية عن التشويق إلى ما يرد بعده من الجواب لأن الشأن أن

الذي يسمع استفهاماً يترقب جوابه فيتمكن من نفسه الجوابُ عند سماعه فَضْلَ تمكُّن ، على أن حصول التشويق لا يفوت على اعتبار الاستفهام للتقرير ، وقريب منه : ﴿ وإذَا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دَعان ﴾ [البقرة : 186] .

و﴿ اليوم ﴾ المعرف باللام هو اليوم الحاضر ، وحضوره بالنسبة إلى القول المحكي أنه يقال فيه ، أي اليوم الذي وقع فيه هذا القول كما هو شأن أسماء الزمان الظروف إذا عُرِّفت باللام .

وجملة ﴿ لله الواحد القَهَّار ﴾ يجوز أن تكون من بقية القول المقدر الصادر من جانب الله تعالى بأن يصدر من ذلك الجانب استفهام ويصدر منه جوابه لأنه لما كان الاستفهام مستعملاً في التقرير أو التشويق كان من الشأن أن يتولى الناطق به الجواب عنه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يتساءَلُون عَنِ النبأ العَظِيم ﴾ [النبأ : 1 ، 2] .

ويجوز أن تكون مقول قول آخر محذوف ، أي فيقول المسؤولون : ﴿ لله الواحد القهَّار ﴾ إقراراً منهم بذلك ، والتقدير : فيقول البارزون لله الواحد القهار ، فتكون معترضة .

وذكر الصفتين ﴿ الواحد القَهَّار ﴾ دون غيرهما من الصفات العُلَى لأن لمعنييهما مزيد مناسبة بقوله : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ حيث شوهدت دلائل الوحدانية لله وقهره جميعَ الطغاة والجبارين .

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17)

لا ريب في أن هذه الجمل الثلاث متصلة بالمقول الصادر من جانب الله تعالى ، سواء كان مجموع الجملتين السابقتين مَقولاً واحداً أم كانت الثانية منهما من مقول أهل المحشر .

وترتيبُ هذه الجمل الخمس هو أنه لما تقرر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم بمجموع الجملتين السابقتين ، عددت آثار التصرف بذلك المُلكِ وهي الحكم على العباد بنتائج أعمالهم وأنه حكم عادل لا يشوبه ظلم ، وأنه عاجل لا يبطىء لأن الله لا يشغله عن إقامة الحق شاغل ولا هو بحاجة إلى التدبر والتأمل في طرق قضائه ، وعلى هذه النتائج جاء ترتيب ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ ، ثم ﴿ لا ظُلم اليوم ﴾ ، ثم ﴿ إن الله سَرِيع الحِساب ﴾ ، وأما مواقع هاته الجمل الثلاث فإن جملة ﴿ اليوم تجزى ﴾ الخ واقعة موقع البيان لما في جملة ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ [غافر : 16] وجوابها من إجمال ، وجملة ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ واقعة موقع بدل الاشتمال من جملة ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ أي جزاء عادلاً لا ظلم فيه ، أي ليس فيه أقل شوب من الظلم حسبما اقتضاه وقوع النكرة بعد ﴿ لا ﴾ النافية للجنس .

وتعريف ﴿ اليَوْم ﴾ في قوله : ﴿ اليوم تجزى كل نفس ﴾ وقوله : ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ نظير تعريف ﴿ لِمَن المُلك اليوم ﴾ [غافر : 16] ، وجملة ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ واقعة موقع التعليل لوقوع الجزاء في ذلك اليوم ولانتفاء الظلم عن ذلك الجزاء .

(215/673)

وتأخيرها عن تينك الجملتين مشير إلى أنها علة لهما ، فحرف التوكيد واقع موقع فاء السببية كما هو شأن ﴿ إنَّ ﴾ إذا جاءت في غير مقام رَد الإِنكار ، فسرعة الحساب تقتضي سرعة الحكم .

وسرعة الحكم تقتضي تملُّؤ الحاكم من العلم بالحق ، ومن تقدير جزاء كل عامل على عمله دون تردد ولا بحث لأن الحاكم علام الغيوب ، فكانَ قوله : ﴿ سَرِيعُ الحساب ﴾ علة لجميع ما تقدمه في هذا الغرض .

والمعنى : أن الله محاسبهم حساباً سريعاً لأنه سريع الحساب .

والحساب مصدر حاسب غيره إذا حَسِب له ما هو مطلوب بإعداده ، وفائدة ذلك تختلف فتارة يكون الحساب لقصد استحضار أشياء كيلا يضيع منها شيء ، وتارة يكون لقصد توقيف من يتعين توقيفه عليها ، وتارة يكون لقصد مجازاة كل شيء منها بعدله ،

وهذا الأخير هو المراد هنا ولأجله سمّي يوم الجزاء يومَ الحساب ، وهو المراد في قوله تعالى :

﴿ إن حسابهم إلا على ربي ﴾ [الشعراء : 113] .

والباء في قوله : ﴿ بما كسبت ﴾ للسببية ، أي تُجزى بسبب ما كسبت ، أي جزاء مناسباً لما كسبت ، أي عملت .

وفي الآية إيماء إلى أن تأخير القضاء بالحق بعد تبينه للقاضي بدون عذر ضَرب من ضروب الجور لأن الحق إنْ كان حق العباد فتأخير الحكم لصاحب الحق إبقاء لحقه بيد غيره ، ففيه تعطيل انتفاعه بحقه برهة من الزمان وذلك ظلم ، ولَعل صاحب الحق في حاجة إلى تعجيل حقه لنفع معطَّل أو لدفع ضر جَاثم ، ولعله أن يهلك في مدة تأخير حقه فلا ينتفع به ، أو لعل الشيء المحكوم به يتلف بعارض أو قصد فلا يصل إليه صاحبه بعد .

وإن كان الحق حقَّ الله كان تأخير القضاء فيه إقراراً للمنكر .

في "صحيح البخاري" " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل أبا موسى على اليمن ثم أتبعه معاذَ بن جبل فلمّا قدِم معاذ على أبي موسى ألقى إليه أبو موسى وسادة وقال له : أنزل ، وإذا رجُل موثق عند أبي موسى ، قال مُعاذ : ما هذا ؟ قال : كان يهودياً فأسلم ثم تَهوَّد .

قال مُعاذ : لا أجلس حتى يُقتَل ، قضاءَ الله ورسوله ، ثلاث مرات ، فأمر به أبو موسى فقتل " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(217/673)

فصل

قال القرطبى :

باب يفنى العباد ويبقى الملك الله وحده

البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يطوي الله السماء يوم القيامة . ثم يأخذهن بيده اليمنى . ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرض بشماله . ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ انفرد به مسلم .

وعن عبد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : يأخذ الله سماواته وأرضيه بيده . فيقول : أنا الله ويقبض أصابعه ويبسطها

فيقول : أنا الملك حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل حتى إني أقول : أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم .

فصل : هذه الأحاديث تدل على أن الله سبحانه يفني جميع خلقه أجمع كما تقدم ثم يقول الله عز وجل : لمن الملك اليوم فيجيب نفسه المقدسة بقوله : لله الواحد القهار .

وقيل : إن المنادي ينادي بعد حشر الخلق على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله عليها على ما يأتي لمن الملك اليوم فيجيبه العباد لله الواحد القهار رواه أبو وائل عن ابن مسعود واختاره أبو جعفر النحاس قال : والقول صحيح عن ابن مسعود وليس هو مما يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل .

قال المؤلف رضي الله عنه : والقول الأول أظهر لأن المقصود إظهاره انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعوى المدعين وانتساب المنتسبين . إذ قد ذهب كل ملك وملكه وكل جبار ومتكبر وملكه ، وانقطعت نسبتهم ودعاويهم وهذا أظهر . وهو قول الحسن ومحمد بن كعب وهو مقتضى قوله الحق : أنا المالك أين ملوك الأرض ؟ .

وفي حديث أبي هريرة ثم يأمر الله عز وجل إسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله . فإذا اجتمعوا

أمواتاً جاء ملك الموت إلى الجبار فيقول : قد مات أهل السماء والأرض إلا ما شئت .

فيقول الله سبحانه ـ وهو أعلم ـ من بقي ؟ فيقول يا رب بقيت أنت الحي الذي لا تموت وبقي حملة العرش وبقي جبريل وميكائيل وإسرافيل وبقيت أنا . فيقول الله عز وجل : ليمت جبريل وميكائيل . فينطق الله عز وجل العرش . فيقول أي رب يموت جبريل وميكائيل ؟ فيقول : اسكت إني كتبت الموت على كل من تحت عرشي فيموتان . قال : ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار جل جلاله . فيقول يا رب قد مات جبريل وميكائيل قيول الله سبحانه ـ وهو أعلم ـ من بقي ؟ فيقول يا رب بقيت أنت الحي الذي لا تموت وبقي حملة عرشك وبقيت أنا . فيقول : ليمت حملة العرش . فيموتون فيأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل . ثم يقول : ليمت إسرافيل . فيموت . ثم يأتي ملك الموت فيقول يا رب قد مات حملة عرشك . فيقول ـ وهو أعلم ـ من بقي ؟ فيقول بقيت أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيت أنا . فيقول الله : أنت خلق من خلقي خلقتك لما رأيت فمت فيموت . فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد . فكان كما كان أولاً طوى السماء كطي السجل للكتاب . ثم قال : أنا الجبار . لمن الملك اليوم فلم يجبه أحد فيقول جل ثناؤه وتقدست أسماؤه لله الواحد القهار .

قلت : حديث أبي هريرة هذا فيه طول وهذا وسطه ويأتي آخره في الباب بعد هذا ويأتي

أوله بعد ذلك إن شاء الله تعالى فيتصل جميعه إن شاء الله تعالى . ذكره الطبري وعلي بن معبد والثعلبي وغيرهم .

وفي حديث لقيط بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم : ثم تلبثون ما لبثتم . ثم تبعث الصيحة فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات والملائكة الذين مع ربك فأصبح ربك يطوف في البلاد وقد خلت عليه البلاد وذكر الحديث وهو حديث فيه طول . خرجه أبو داود الطيالسي في مسنده وغيره

الأوزاعي

(219/673)

قال علماؤنا : قوله : فأصبح ربك يطوف بالبلاد وقد خلت عليه البلاد إنما هو تفهم وتقريب إلى أن جميع من في الأرض يموت . وأن الأرض تبقى خالية وليس يبقى إلا الله كما قال : كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام وعند قوله سبحانه لمن الملك اليوم هو انقطاع زمن الدنيا وبعده يكون البعث والنشر والحشر على ما يأتي . وفي فناء الجنة والنار عند فناء جميع الخلق قولان :

أحدهما : يفنيهما ولا يبقى شيء سواه وهو معنى قوله الحق : هو الأول والآخر وقيل : إنه

مما لا يجوز عليهما الفناء وإنهما باقيان بإبقاء الله سبحانه . والله أعلم . وقد تقدم في الباب قبل هذا الإشارة إلى ذلك . وقد قيل : إنه ينادي مناد فيقول : لمن الملك اليوم ؟ فيجيبه أهل الجنة : لله الواحد القهار .

فصل : في بيان ما أشكل من الحديث من ذكر اليد والأصابع

إن من قائل : ما تأويل اليد عندكم واليد حقيقتها في الجارحة المعلومة عندنا . وتلك التي يكون القبض والطي بها ؟ قلنا : لفظ الشمال أشد في الإشكال .

وذلك في الإطلاق على الله محال .

والجواب : أن اليد في كلام العرب لها خمسة معان : تكون بمعنى القوة . ومنه قوله تعالى : واذكر عبدنا داود ذا الأيد وتكون بمعنى الملك والقوة . ومنه قوله تعالى : قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وتكون بمعنى النعمة . تقول العرب : كم يد لي عند فلان أي كم من نعمة أسديتها إليه . وتكون بمعنى الصلة . ومنه قوله تعالى مما عملت أيدينا أنعاماً أي مما عملنا نحن . وقال تعالى : أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح أي الذي له النكاح . وتكون بمعنى الجارحة .

ومنه قوله تعالى : وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث . وقوله في الحديث [بيده] عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته ، يقال : ما فلان إلا في قبضتي . بمعنى : ما فلان إلا في قدرتي . والناس يقولون : الأشياء في قبضة الله يريدون

في ملكه وقدرته ، وقد يكون معنى القبض والطي : إفناء الشيء وإذهابه فقوله عز وجل: والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة يحتمل أن يكون المراد به الأرض جميعاً ذاهبة فانية يوم القيامة . وقوله : والسماوات مطويات بيمينه ليس يريد به طياً بعلاج وانتصاب ، وإنما المراد بذلك الفناء والذهاب . يقال : قد انطوى عنا ما كنا فيه وجاءنا غيره وانطوى عنا دهر بمعنى المضي والذهاب .

فإن قيل : فقد قال في الحديث : ويقبض أصابعه ويبسطها وهذه حقيقة الجارحة ؟ قلنا : هذا مذهب المجسمة من اليهود والحشوية . والله تعالى متعال عن ذلك وإنما المعنى حكاية الصاحب عن النبي صلى الله عليه وسلم : يقبض أصابعه ويبسطها وليس معنى اليد في الصفات بمعنى الجارحة حتى يتوهم بثبوتها ثبوت الأصابع ، فدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي كان يقبض أصابعه ويبسطها . قال الخطابي وذكر الأصابع لم يوجد في شيء من الكتاب والسنة المقطوع بصحتهما .

فإن قيل : فقد ورد ذكر الأصابع في غير ما حديث فما جوابكم عنه ؟ فقد روى البخاري ومسلم قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم

أبلغك أن الله تعالى يحمل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والثرى على أصبع ، والخلائق على أصبع ؟ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه فأنزل الله عز وجل وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه . وروى عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها حيث يشاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك ومثله كثير . قيل له : اعلم أن الأصابع قد يكون بمعنى الجارحة والله تعالى يتقدس عن ذلك ، ويكون بمعنى القدرة على

(221/673)

الشيء ، ويسارة تقليبه ، كما تقول من استسهل شيئاً واستخفه مخاطباً لمن استثقله : أنا أحمله على أصبعي وارفعه علي بأصبعي ، وأمسكه بخنصري . وكما يقال من أطاع بجمل شيء : أنا أحمله على عيني وأفعله على رأسي . يعني به الطواعية وما أشبه ذلك . قد قال في معناه وهو كثير . ومما قال عنترة وقيل ابن زيادة التيمي :

الرمح لا أملأ كفي به واللبد لا أتبع تزواله

يريد أنه لا يتكلف أن يجمع كفه فيشتمل على الرمح لكن يطعن به خلساً بأصابعه لخفة ذلك عليه . وقوله : لا أتبع تزواله : أي إذا مال لم أمل معه .

يقول : أنا ثابت على ظهر الخيل لا يضرني فقد بعض الآلة ، ولا تغير السرج عما يريده الراكب . يصف نفسه بالفروسية في الركوب والطعن ، فلما كانت السموات والأرض أعظم الموجودات قدراً وأكبرها خلقاً كان إمساكها بالنسبة إلى الله تعالى كالشيء الحقير الذي نجعله نحن بين أصابعنا ونهزه بأيدينا ، ونتصرف فيه كيف شئنا فتكون الإشارة بقوله : ثم يقبض أصابعه ويبسطها وبقوله : ثم يهزهن كما جاء في بعض طرق مسلم وغيره . أي هي في قدرته كالحبة مثلاً في كف أحدنا التي لا نبالي بإمساكها ولا بهزها ولا تحريكها ، ولا القبض والبسط عليها ، ولا نجد في ذلك صعوبة ولا مشقة ، وقد يكون الأصبع أيضاً في كلام العرب بمعنى النعمة وهو المراد بقوله عليه السلام : إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن أي بين نعمتين من نعم الرحمن يقال : لفلان علي أصبع أي أثر حسن إذا أنعم عليه نعمة حسنة ، وللراعي على ماشيته أصبع أي أثر حسن . وأنشد الأصمعي للراعي :

ضعيف العصي بادي العروق ترى له عليها إذا ما أجدب الناس أصبعاً

وقال آخر :

صلاة وتسبيح وإعطاء سائل وذي رحم تبل منك أصبع

أي أثر حسن . وقال آخر :

من يجعل الله عليه أصبعاً في الخير والشر يلقاه معاً

فإن قيل : كيف جاز إطلاق الشمال على الله تعالى وذلك يقتضي النقص ؟ قيل :

(222/673)

هو مما انفرد به عمر بن حمزة عن سالم ، وقد روى هذا الحديث نافع وعبد الله بن مقسم عن ابن عمر لم يذكرا فيه الشمال . ورواه أبو هريرة وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يذكر فيه واحد منهم الشمال .

وقال البيهقي وروى ذكر الشمال في حديث آخر في غير هذه القصة إلا أنه ضعيف بمرة ، وكيف يصح ذلك وصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمى كلتا يديه يميناً ؟ وكان من قال ذلك أرسله من لفظه على ما وقع له أو على عادة العرب في ذكر الشمال في مقابلة اليمين .

قال الخطابي : ليس فيما يضاف إلى الله عز وجل من صفة اليد شمال ، لأن الشمال محل النقص والضعف . وقد روى كلتا يديه يمين وليس معنى اليد عندنا الجارحة ، وإنما هي صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكفيها .

وننتهي إلى حيث انتهى بنا الكتاب والسنة المأثورة الصحيحة ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة . وقد يكون اليمين في كلام العرب بمعنى القدرة والملك ومنه قوله تعالى : أو ما ملكت أيمانكم يريد بها الملك ، وقال لأخذنا منه باليمين أي بالقوة والقدرة أي أخذنا قدرته وقوته . قال الفراء : اليمين القوة والقدرة وأنشد :

إذا ما رايةً رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

وقال آخر :

ولما رأيت الشمس أشرق نورها تناولت منها حاجتي بيميني

فقلت : شنيفاً ثم فاران بعده وكان على الآيات غير أمين

قلت : وعلى هذا التأويل تخرج الآية والحديث والله أعلم . وقد تكون اليمين في كلام مالك العرب بمعنى : التبجيل والتعظيم . يقال عندنا باليمين أي بالمحل الجليل ومنه قول الشاعر :

أقول لناقتي إذ بلغتني لقد أصبحت عندي باليمين

(223/673)

أي بالمحل الرفيع وأما قوله : كلتا يديه يمين فإنه فإنه أراد بذلك التمام والكمال ، وكانت العرب تحب التيامن وتكره التياسر لما في التياسر من النقصان ، وفي التيامن من التمام . فإن قيل :

فأين يكون الناس عند طي الأرض والسماء ؟ قلنا : يكونون على الصراط على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التذكرة فى أحوال الموتى صـ 194 . 200 ﴾

(224/673)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾

يُريهم آياتِ فَضْلِه فيما يُلاطِفُهم ، ويريهم آياتِ قَهْرِه فيما يكاشفهم ، ويريهم آياتِ عَفْوِه إذا تَنَصَّلُوا ، وآياتِ جوده إذا توسَّلُوا ، وآياتِ جلالِه إذا هابوا فغابوا ، وآياتِ جمالِه إذا آبوا واستجابوا . ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ رِزْقاً ﴾ لأبدانكم وهو توفيق المجاهدات ، ولقلوبكم وهو تحقيق المشاهدات ، ولأسراركم وهو فنون المواصلات والزيادات .

﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ : يرجع من العادة إلى العبادة ، ومن الشَّكِّ إلى اليقين ، ومن الخَلْقِ إلى الحقّ ، من الجهل إلى العِلْم ، ومن النّكرة إلى العرفان .

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14)

شَرْطُ الدعاء تقديم المعرفة لتعرفَ من الذي تدعوه ، ثم تدعو بما تحتاج إليه مِمَّا لا بُدَّ لك منه ، ثم تنظر هل أعطاكَ ما تطلب وأنت لا تدري ؟ والواجبُ ألا تطلب شيئاً تكون فيه مخالفةٌ لأمره ، وأن تتباعد عن سؤالك الأشيئاء الدِّنِيَّة والدنيوية ، وأن ترضى بما يختاره لك مولاك . ومن لإخلاص في الدعاء ألا ترى الإجابة إلاّ منه ، وألا ترى لنفسك استحقاقاً إلا بفضله ، وأن تعلم أنه إن بقيت سؤالك عن مطلوبك –الذي هو حَظُّكَ– لا تَبْق عن عبادة ربِّك – التي هي حَقُّه " فإنَّ الدعاء مُخُّ العبادة " ومن الإخلاص في الدعاء أن تكون في حال الاضطرار لما لا يكون ابتداؤه جُرْماً لك ، وتكون ضرورتُك لسراية جنايتك .

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15)

(225/673)

رافعُ الدرجات للعُصاةِ بالنجاة ، وللمطيعين بالمثوبات ، ولأصفياء والأولياء بالكرامات ، ولذوي الحاجات بالكفايات ، وللعارفين بتنقيبهم عن جميع أنواع الإرادات .

ويقال درجاتُ المطيعين بظواهرهم في الجنة ، ودرجاتُ العارفين بقلوبهم في الدنيا ؛ فيرفع درجاتهم عن النظر إلى الكَونَيْن دون المساكنه إليهما . وأمَّا المحبون فيرفع درجاتِهم عن أن

يطلبوا في الدنيا والعُقبى شيئاً غيرَ رضاءِ محبوبهم . (1)

﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ : ذو المُلْكِ الرفيع . ويقال العرش الذي هو قِبْلَةُ الدعاء ، خَلَقَه أرفعَ المخلوقاتِ وأعظمَها جُثة . (2)

﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ روحٌ بها ضياءُ أبدانهم – وهو سلطانُ عقولهم ، وروحٌ بها ضياء قلوبهم – وهو شفاءُ علومهم ، وروحٌ بها ضياء أرواحهم – والذي هو للرُّوح رَوْحٌ – بقاؤهم بالله .

ويقال : روحٌ هو روح إلهام ، وورح هو روح إعلام ، وروح هو روح إكرام .

ويقال : روح النبوة ، وروح الرسالة . وروح الولاية ، وروح المعرفة .

ويقال : روح بها بقاءُ الخلق ، وروح بها ضياء الحق .

قوله جلّ ذكر : ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ .

يعلم الحاصل الموجود ، ويعلم المعدوم المفقود ؛ والذي كان والذي يكون ، والذي لا يكون مما عَلِمَ أنه لا يجوز أن يكون ، والذي جاز أن يكون أن لو كان كيف كان يكون .

﴿ لِّمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ .

لا يتقيد مُلْكُه بيومٍ ، ولا يختصُّ مُلْكُه بوقتٍ ، ولكنَّ دَعَاوَى الخَلْقِ – اليومَ – لا أصلَ لها ؛ إذ غداً تنقطع تلك الدعاوى وترتفع تلك الأوهام .

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17)

يجازيهم على أعمالهم بالجنان ، وعلى أحوالهم بالرضوان ، وعلى أنفاسهم بالقربة ، وعلى محبتهم بالرؤية .

---

(1) هنا نلاحظ أن القشيري جعل المحب أعلى درجة من العارف – مع أن العرفان الذي غايته التوحيد – هو أعلى مراتب الطريق الصوفي . ولكن نظرا لأن الحب والفناء والمعرفة كلها من الحب وإلى الحب فكثيرا ما نجد كتاب التصوف كالقشيرى والغزالي وغيرهما لا يتقيدون تقيدا حرفيا بهذا الترتيب الذي يفيد في الدراسة فقط ، وقد تناولنا هذه النقطة بالتفصيل في كتابنا «نشأة التصوف الإسلامى ط دار المعارف» فى مقدمة باب «المذاقات» .

(2) نلاحظ أن القشيري هنا يصف (العرش) مرة بأنه الملك أو قبلة الدعاء ثم يعود فيقول (. . . . وأعظمها جثة) بمعنى أن يجرد العرش مرة من المادية ثم يعود ليخلع عليه النسبة المادية ، فإذا كان ذلك بقصد مخاطبة الناس على قدر فهومهم – كما قلنا من قبل فهذا جائز . . ولكن الواقع أن القشيري يعبر عن شىء من الاضطراب الذي أصاب الأشاعرة إزاء المتشابهات ، وهو أمر تحدثنا عنه بالتفصيل في كتابنا (الإمام القشيري – تصوفه وأدبه) . . . ولعل خير ما انتهى إليه الرازي قوله «حاصل مذهب السلف أن هذه المتشابهات يجب القطع فيها بأن مراد اللّه منها شىء غير ظواهرها ، ثم يجب تفويض

معناها إلى الله ، ولا يجوز الخوض في تفسيرها » (أساس التقديس للرازى ط الكردي ص 223) :

(226/673)

ويجازي المذنبين على توبتهم بالغفران ، وعلى بكائهم بالضياء والشفاء .

﴿ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ : أي أنه يستحيل تقديرُ الظلم منه ، وكل ما يفعل فله أن يفعله .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ مع عباده ؛ لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ ، وسريعُ الحساب مع أوليائه في الحال ؛ يطالبهم بالصغير والكبير ، والنقير والقطمير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 299 . 301 ﴾

(227/673)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والسبعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والسبعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 18 ﴾ من سورة غافر

وحتى الآية ﴿ 20 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تم هذا على هذا الوجه المهول ، وكان يوم القيامة له أسماء تدل على أهواله باعتبار مواقفه وأحواله ، منها يوم البعث وهو ظاهر ، ومنها يوم التلاق لما تقدم ، ومنها يوم التغابن لغبن أكثر من فيه خسارته ، ومنها يوم الآزفة لقربه وسرعة أخذه ، وكان كأنه قيل خطاباً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وأمن ممن ألقينا هذا الروح الأعظم من أمرنا فأنذرهم ما مضى من يوم التلاقي وما عقبناه به ، عطف عليه قوله زيادة في بيان هوله إعلاماً بأنه مع ثبوته وثبوت التلاقي فيه قريب تحذيراً من تزيين إبليس للشهوات وتقريره بالتسويف بالتوبة : ﴿ وأنذرهم ﴾ أي هؤلاء المعرضين إعراض من لا يجوز الممكن ﴿ يوم الآزفة ﴾ أي الحالة الدائبة العاجلة السريعة جداً مع الضيق في الوقت وسوء العيش لأكثر الناس ، وهي القيامة ، كرر ذكرها الإنذار منها تصريحاً وتلويحاً تهويلاً لها وتعظيماً لشأنها .

ولما ذكر اليوم ، هول أمره بما يحصل فيه من المشاق فقال : ﴿ إذ القلوب ﴾ أي من كل من حضره .

ولما كان هذا الرعب على وجه غريب باطن ، عبر ب " لدى " فقال : ﴿ لدى الحناجر ﴾ أي حناجر المجموعين فيه إلا من شاء الله ، وهي جمع حنجور وهي الحلقوم وزناً ومعنى ، يعني أنها زالت عن أمكانها صاعدة من كثرة الرعب حتى كادت تخرج وصارت مواضعها من الأفئدة هواء ، وكانت الأفئدة معترضة كالشجا لا هي ترجع إلى مقارها فيستريحوا ولا تخرج فيموتوا .

ولما كان الحديث – وإن كان في الظاهر عن القلوب – إنما هو عن أصحابها ، جمع على طريقة جمع العقلاء ، وزاده حسناً أن القلوب محل الكظم ، وبها صلاح الجملة وفسادها ، وقد أسند إليها ما يسند للعقلاء فقال : ﴿ كاظمين ﴾ أي ممتلئين خوفاً ورعباً وحزناً ، ساكتين مكروبين ، قد انسدت مجاري أنفاسهم وأخذ بجميع إحساسهم .

ولما كان من المعلوم أن ذلك الكرب إنما هو للخوف من ديان ذلك اليوم ، وكان من المعهود أن الصداقات تنفع في مثل ذلك اليوم والشفاعات ، قال مستأنفاً : ﴿ ما للظالمين ﴾ أي

العريقين في الظلم منهم ﴿ من حميم ﴾ أي قريب صادق في مودتهم مهتم بأمورهم مزيل لكروبهم ، قال ابن برجان : والحميم : الماء الحار الناهي في الحرارة ، سمي القريب به لأنه يحمي لقريبه غضباً ، والغضب حرارة تعرض في القلب تخرج إلى الوجه فيحمر وتنتفخ الأوداج فيستشيط غيظاً ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ أي ليس لهم شفيع أصلاً لأن الشفيع يعلم أنه لو شفع ما أطيع فهو لا ينفع ، وقد يشفع في بعضهم بعض المقربين لعلامة فيهم يحصل بها اشتباه يظن بهم أنهم ممن يستحق الشفاعة فينبه على أنهم ليسوا بذلك ، فيبرأ منهم .

(6/674)

ولما كانت الشفاعة إنما تقع وتنفع بشرط براءة المشفوع له من الذنب إما بالاعتراف بما نسب إليه والإقلاع عنه ، وإما بالاعتذار عنه ، وكان ذلك إنما يجري عند المخلوقين على الظاهر ، ولذلك كانوا ربما وقع لهم الغلط فيمن لو علموا باطنه لما قبلوا الشفاعة فيه ، علل تعالى ما تقدم بعلمه أن المشفوع له ليس بأهل لقبول الشفاعة فيه لإحاطة علمه فقال : ﴿ يعلم خائنة ﴾ ولما كان السياق هنا للابلاغ في أن علمه تعالى محيط بكل كلي وجزئي ، فكان من المعلوم أن الحال يقتضي جمع الكثرة ، وأنه ما عدل عنه إلى جمع القلة إلا للاشارة إلى أن علمه تعالى بالكثير كعلمه بالقليل الكل ، عليه هين ، فالكثير عنده في ذلك قليل فلذا

قال : ﴿ الأعين ﴾ أي خيانتها التي هي أخفى ما يقع من أفعال الظاهر ، جعل الخيانة مبالغة في الوصف وهي الإشارة بالعين ، قال أبو حيان : من كسر وغمز ونظر يفهم منه ما يراد – انتهى .

وذلك يفعل بفعل ما يخالف الظاهر ، ولما ذكر أخفى أفعال الظاهر ، أتبعه أخفى ما في الباطن فقال : ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي عن المشفوع عنده وغير ذلك .

ولما كان العفو عن الظالم الذي لا يرجع عن ظلمه نقصاً ، لكونه لا حكمة فيه ، عبر بالاسم الأعظم في جملة حالية فقال : ﴿ والله ﴾ أي والحال أن المتصف بجميع صفات الكمال ﴿ يقضي بالحق ﴾ أي الثابت الذي لا يصح أصلاً نفيه ، فلو قضى فيمن يعلم أنه ليس بأهل للشفاعة فيه بقبول الشفاعة لنفى الحق وأثبت الباطل فخالف ذلك الكمال ﴿ والذين يدعون ﴾ أي الظالمون – على قراءة الجماعة ، وأيها الظالمون – على قراءة نافع وابن عامر بخلاف عن ابن ذكوان بالخطاب للمواجهة بالإزراء .

(7/674)

ولما كانت المراتب دون عظمته سبحانه لا تنحصر ولا يحتوي عليها كلها شيء ، أثبت الجار فقال : ﴿ من دونه ﴾ أي سواه ، ومن المعلوم أنهم خلقه فهم دون رتبته لأنهم في قهره

﴿ لا يقضون بشيء ﴾ من الأشياء أصلاً ، فضلاً عن أن يقضوا بما يعارض حكمه ، فلا مانع له من القضاء بالحق ، فلا مقتضى لقبول الشفاعة فيمن يعلم عراقته في الظلم أنه لا ينفك عنه .

ولما أخبر أنه لا فعل لشركائهم ، وأن الأمر له وحده ، علل ذلك بقوله مرهباً من الخيانة وغيرها من الشر ، مرغباً في كل خير ، مؤكداً لأجل أن أفعالهم تقتضي إنكاراً ذلك : ﴿ إن الله ﴾ عبر به لأن السياق لتحقير شركائهم وبيان أنها في غاية النقصان ﴿ هو ﴾ أي وحده .

ولما ذكر ما هو غيب ، وصفه بأظهر ظاهر فقال : ﴿ السميع ﴾ أي لكل ما يمكن أن يسمع ﴿ البصير ﴾ أي بالبصر والعلم لكل ما يمكن أن يبصر ويعلم ، فلا إدراك لشركائهم أصلاً ولا لشيء غيره بالحقيقة ، ومن لا إدراك له ولا قضاء له ، فثبت أن الأمر له وحده ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين ولا تقبل فيهم من أحد شفاعة بعد الشفاعة العامة التي هي خاصة بنبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهي المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، فإن كل أحد يحجم عنها حتى يصل الأمر إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول : أنا لها أنا لها ، ثم يذهب إلى المكان الذي أذن له فيشفع ، فيشفعه الله تعالى فيفصل سبحانه بين الخلائق ليذهب كل أحد إلى داره : جنته أو ناره ، روى الشيخان : البخاري

ومسلم عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في دعوة فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه ، فنهش منها نهشة ، فقال :

(8/674)

" أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون مم ذاك ، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر ، ويسمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحملون ، فيقول الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه وإلى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم ، فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم فذكر سؤالهم أكابر الأنبياء ، وكل واحد منهم يحيل على الذي بعده إلى أن يقول عيسى عليه السلام : اذهبوا إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فيقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يأتونه : أنا لها ، فينطلق فيسجد تحت العرش " – وهو مروي عن غير أبي هريرة عن أنس وغيره من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، ولكن لم أر فيه التصريح بالشفاعة العامة بعد رفع رأسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من السجود إلا فيما رواه البخاري في الزكاة من صحيحه في باب " من سأل الناس تكثراً " عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك

استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد فيشفع ليقضي بين الخلق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب ، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم " ، وكذا فيما رواه أبو يعلى في مسنده فقال : حدثنا عمرو بن الضحاك بن مخلد ثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد ثنا أبو رافع إسماعيل بن رافع عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : حدثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو في طائفة من أصحابه فقال : " إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السماوات والأرض خلق الصور فذكر النفخ فيه للموت ثم للبعث ثم ذكر الحشر " – وهو حديث طويل جداً إلى أن قال : " ثم يقفون موقفاً واحداً مقدار سبعين عاماً لا ينظر إليكم ولا يقضى بينكم ، فتبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم تدمعون دماً وتعرقون

(9/674)

إلى أن يبلغ ذلك منكم أن يلجمكم أو يبلغ الأذقان ، فتضجون وتقولون : من يشفع لنا إلى ربنا يقضى بيننا ، فتقولون : من أحق بذلك من أبيكم آدم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وكلمه قبلاً ، فتأتون آدم فتطلبون ذلك إليه فيأبى فيقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ثم يستقربون الأنبياء نبياً نبياً كلما جاؤوا نبياً أبى عليهم ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ : حتى تأتوني ، فأنطلق حتى آتي الفحص فأخر ساجداً فقال أبو هريرة : يا رسول الله ! ما الفحص ؟ قال : قدام العرش – حتى يبعث الله إليّ ملكاً فيأخذ بعضدي فيرفعني فيقول لي : يا محمد ! فأقول : نعم يا رب ! فيقول : ما شأنك – وهو أعلم فأقول : يا رب وعدتني فشفعني في خلقك فاقض بينهم ، قال : قد شفعتك أنا آتيكم فأقضي بينكم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فأرجع فأقف مع الناس فبينما نحن وقوف سمعنا حساً من السماء شديداً فنزل أهل السماء الدنيا مثل من في الأرض من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا ، وهو آت ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثل من نزل من الملائكة ، ومثل الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا ، وهو آت ، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف حتى ينزل الجبار تبارك وتعالى في ظلل من الغمام ، والملائكة تحمل عرشه يومئذ ثمانية ، وهو اليوم على أربعة – إلى أن قال : فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه ، ثم يهتف بصوته فيقول : يا معشر الجن والإنس ! إني قد أنصت لكم من يوم خلقتكم إلى يوم يومكم هذا أسمع قولكم ، وأبصر أعمالكم ، فانصتوا لي فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم ، ثم يقول الله عز وجل ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن

لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون هذه جهنم التي كنتم توعدون ﴾ [يس : 60-63] - أو بها تكذبون - شك أبو عاصم ، ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ [يس : 59] فتسمى النار وتجثو الأمم وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها فيقضي بين خلقه "

- فذكره وهو طويل جداً ، ثم ذكر الصراط وبعض الشفاعات الخاصة في أهل الجنة ، فذكر دخولهم الجنة ثم أنهم يشفعون في بعض أهل النار إلى أن قال : " ثم يأذن الله في الشفاعة ، فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفع "

إلى أن قال : " ثم يقول الله عز وجل : بقيت أنا وأنا أرحم الراحمين .

فيدخل الله يده في جهنم فيخرج منها لا يحصيه غيره " وروى ابن حبان في صحيحه - قال المنذري : ولا أعلم في إسناده مطعناً - عن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " يقول إبراهيم عليه السلام يوم القيامة .

يا رباه ، فيقول الرب جل وعلا : يا لبيكاه ، فيقول إبراهيم : يا رب حرقت بني – فيقول الله : أخرجوا من النار من كان في قلبه ذرة أو شعيرة من الإيمان " وروى الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم وأحمد بن منيع : " يلقى رجل أباه يوم القيامة فيقول : يا أبة ! أي ابن كنت لك ؟ فيقول : خير ابن ، فيقول : هل أنت مطيعي اليوم ، فيقول : نعم ، فيقول خذ بازرتي ، فيأخذ بازرته ، ثم ينطلق حتى يأتي الله وهو يعرض بعض الخلق ، فيقول : يا عبدي ! ادخل من أي أبواب الجنة شئت ، فيقول : أي ربي ، وأبي معي فإنك وعدتني أن لن تخزيني ، فيعرض عنه ويقضي بين الخلق ويعرضهم ثم ينظر إليه فيقول : يا ابن آدم ادخل من أي أبواب الجنة شئت فيقول : أي ربي وأبي معي فإنك قد وعدتني أن لن تخزيني قال : فيمسخ الله أباه ضبعاً أمذر أو أمجر " – شك أبو جعفر أحد رواة ابن منيع – " فيأخذ بأنفه فيقول : أبوك هو ، فيقول : ما هو بأبي ، فيهوي في النار " وهو في البخاري في أحاديث الأنبياء وتفسير الشعراء بلفظ : " يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آذر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم عليه السلام : ألم أقل لك : لا تعصني ، فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى عن أبي الأبعد ، فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال لإبراهيم عليه السلام : انظر ما تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ – وهو ذكر الضبعان – متلطخ فيؤخذ بقوامه فيلقى في النار " ، وروى أبو يعلى الموصلي والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين عن أبي

سعيد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " ليأخذن رجل بيد أبيه يوم القيامة فتقطعه النار يريد أن يدخله الجنة ، قال : فينادى أن الجنة لا يدخلها مشرك ، ألا إن الله قد حرم الجنة على كل مشرك قال : فيقول : أي رب ! أبي ، فيحول في صورة قبيحة وريح منتنة

(12/674)

فيتركه ، فكان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرون أنه إبراهيم عليه السلام " ، وروى الشيخان وغيرهما عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب على المنبر يقول :

(13/674)

" إنكم ملاقو الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيدة وعداً علينا إنا كنا فاعلين ، ألا وإن أول الخلائق يكسى إبراهيم عليه السلام ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يا رب ! أصحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول

كما قال العبد الصالح ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ – إلى قوله : ﴿ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : 118] " ورواه الترمذي والنسائي بنحوه ، ومن نحو ما قال عيسى عليه السلام قول إبراهيم عيله السلام كما حكاه الله عنه ﴿ فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ وروى مسلم في الإيمان من صحيحه والنسائي في التفسير عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ " أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم عليه السلام " ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فأنه مني ﴾ الآية – وقال عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فرفع يديه وقال : اللهم أمتي اللهم أمتي اللهم أمتي – وبكى " ، فقال الله عز وجل : يا جبريل ، اذهب إلى محمد – وربك أعلم – فاسأله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله : فأخبره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما قال وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك " ، وللشيخين في الحوض والفتن ومسلم في فضل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن سهل بن سعد وأبي سعيد ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " أنا فرطكم على الحوض ، من مر على شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، ليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم " – زاد أبو سعيد ـ رضى الله عنه ـ : فأقول : " إنهم

مني – فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول : سحقاً سحقاً لمن غير بعدي "

ولمسلم وابن ماجه – وهذا لفظه – عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ

(14/674)

قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ – فذكر خطبته في الحج ثم قال : " ألا وإني فرطكم على الحوض وأكاثر بكم الأمم ، ولا تسودوا وجهي ، ألا وإني مستنقذ أناساً ومستنقذ مني أناس فأقول : يا رب : أصحابي أصحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك " ولفظ مسلم : " أنا فرطكم على الحوض ولأنازعن أقواماً ثم لأغلبن عليهم فأقول : يا رب ! أصحابي فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك " ولمسلم عن عائشة ـ رضى الله عنهما ـ قالت : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول وهو بين ظهراني أصحابه : " إني على الحوض أنظر من يرد عليّ منكم ، فوالله ليقطعن دوني رجال فلأقولن : أي رب ! مني ومن أمتي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، ما زالوا يرجعون على أعقابهم "

وللشيخين عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " ترد عليّ أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله ، قالوا : يا نبي الله ! تعرفنا ؟ قال : نعم ، لكم سيما ليست لغيركم تردون عليّ غرّاً محجلين من آثار

الوضوء ، ولتصدن عني طائفة منكم فلا يصلون ، فأقول يا رب هؤلاء أصحابي ، فيجيبني ملك فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟ وفي رواية : بينما أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج من بيني وبينهم رجل ، فقال : هلم ؛ فقلت : إلى أين ؟ فقال : إلى النار والله ، فقلت : ما شأنهم ، فقال : إنهم ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم .

أي ضوالها - أي الناجي قليل ، وفي رواية لمسلم في الوضوء : ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم ألا هلم ، فيقال : إنهم قد بدلوا بعدك ، فأقول : سحقاً سحقاً " قال المنذري : والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 496.502 ﴾

(15/674)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية وصف يوم القيامة بأنواع أخرى من الصفات الهائلة المهيبة ،

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا في تفسير يوم الآزفة وجوهاً الأول : أن يوم الآزفة هو يوم القيامة ، والآزفة فاعلة من أزف الأمر إذا دنا وحضر لقوله في صفة يوم القيامة ﴿ أَزِفَتِ الأَزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم : 57 ، 58] وقال شاعر :

أزف الترحل غير أن ركابنا . . لما تزل برحالنا وكأن قد

والمقصود منه التنبيه على أن يوم القيامة قريب ونظيره قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] قال الزجاج إنما قيل لها آزفة لأنها قريبة وإن استبعد الناس مداها ، وما هو كائن فهو قريب .

(16/674)

واعلم أن الآزفة نعت لمحذوف مؤنث على تقدير يوم القيامة الآزفة أو يوم المجازاة الآزفة قال القفال : وأسماء القيامة تجري على التأنيث كالطامة والحاقة ونحوها كأنها يرجع معناها إلى الداهية والقول الثاني : أن المراد بيوم الآزفة وقت الآزفة وهي مسارعتهم إلى دخول النار ، فإن عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف والقول الثالث : قال أبو مسلم يوم

الآزفة يوم المنية وحضور الأجل ، والذي يدل عليه أنه تعالى وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق ، و ﴿ يَوْمَ هُم بارزون ﴾ ثم قال بعده ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة ﴾ فوجب أن يكون هذا اليوم غير ذلك اليوم ، وأيضاً هذه الصفة مخصوصة في سائر الآيات بيوم الموت قال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة : 83 ، 84] وقال : ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التراقي ﴾ [القيامة : 26] وأيضاً فوصف يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب ، وأيضاً الصفات المذكورة بعد قوله الآزفة لائقة بيوم حضور الموت لأن الرجل عند معاينة ملائكة العذاب يعظم خوفه ، فكأن قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف ، ويبقوا كاظمين ساكتين عن ذكر ما في قلوبهم من شدة الخوف ولا يكون لهم حميم ولا شفيع يدفع ما بهم من أنواع الخوف والقلق .

المسألة الثانية :

(17/674)

اختلفوا في أن المراد من قوله ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر كاظمين ﴾ كناية عن شدة الخوف أو هو محمول على ظاهره ، قيل المراد وصف ذلك اليوم بشدة الخوف والفزع ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر وَتَظُنُّونَ بالله الظنونا ﴾ [الأحزاب : 10] وقال :

﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة : 83 ، 84] وقيل بل هو محمول على ظاهره ، قال الحسن : القلوب انتزعت من الصدور بسبب شدة الخوف وبلغت القلوب الحناجر فلا تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروحوا ولكنها مقبوضة كالسجال كما قال : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الملك : 27] وقوله ﴿ كاظمين ﴾ أي مكروبين والكاظم الساكت حال امتلائه غماً وغيظاً فإن قيل بم انتصب ﴿ كاظمين ﴾ قلنا هو حال أصحاب القلوب على المعنى لأن المراد إذ قلوبهم لدى الحناجر حال كاظمين كونهم ويجوز أيضاً أن يكون حال عن القلوب ، وأن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر ، وإنما جمع الكاظمة جمع السلامة لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء كما قال :

﴿ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] وقال : ﴿ فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ [الشعراء : 4] ويعضده قراءة من قرأ كاظمون وبالجملة فالمقصود من الآية تقرير أمرين أحدهما : الخوف الشديد وهو المراد من قوله ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ ، والثاني : العجز عن الكلام وهو المراد من قوله ﴿ كاظمين ﴾ فإن الملهوف إذا قدر على الكلام حصلت له خفقة وسكون ، أما إذا لم يقدر على الكلام وبث الشكوى عظم قلقه وقوي خوفه .

المسألة الثالثة :

احتج أكثر المعتزلة في نفي الشفاعة عن المذنبين بقوله تعالى : ﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ قالوا نفى حصول شفيع لهم يطاع فوجب أن لا تحصل لهم هذا الشفيع أجاب أصحابنا عنه من وجوه : الأول : أنه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع وهذا لا يدل على نفي الشفيع ، ألا ترى أنك إذا قلت ما عندي كتاب يباع فهذا يقتضي نفي كتاب يباع ولا يقتضي نفي الكتاب وقالت العرب :

ولا ترى الضب بها ينجحر . . ولفظ الطاعة يقتضي حصول المرتبة فهذا يدل على أنه ليس لهم يوم القيامة شفيع يطيعه الله ، لأنه ليس في الوجود أحد أعلى حالاً من الله تعالى حتى يقال إن الله يطيعه الوجه الثاني : في الجواب أن المراد من الظالمين ، ههنا الكفار والدليل عليه أن هذه الآية وردت في زجر الكفار الذين يجادلون في آيات الله فوجب أن يكون مختصاً بهم ، وعندنا أنه لا شفاعة في حق الكفار والثالث : أن لفظ الظالمين ، إما أن يفيد الاستغراق ، وإما أن لا يفيد فإن أفاد الاستغراق كان المراد من الظالمين مجموعهم وجملتهم ويدخل في مجموع هذا الكلام الكفار ، وعندنا أنه ليس لهذا المجموع شفيع لأن بعض هذا المجموع هم الكفار ، وليس لهم شفيع فحينئذ لا يكون لهذا المجموع شفيع ، وإن لم يفد الاستغراق كان

المراد من الظالمين بعض من كان موصوفاً بهذه الصفة ، وعندنا أن بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع وهم الكفار ، أجاب المستدلون عن السؤال الأول ، فقالوا يجب حمل كلام الله تعالى على محمل مفيد وكل أحد يعلم أنه ليس في الوجود شيء يطيعه الله لأن المطيع أدون حالاً من المطاع ، وليس في الوجود شيء أعلى مرتبة من الله تعالى حتى يقال إن الله يطيعه وإذا كان هذا المعنى معلوماً بالضرورة كان حمل الآية عليه إخراجاً لها عن الفائدة فوجب حمل الطاعة على الإجابة والذي يدل على ورود لفظ الطاعة بمعنى الإجابة قول الشاعر :

رب من أنضجت غيظاً صدره . . قد تمنى لي موتاً لم يطع

(19/674)

أما السؤال الثاني : فقد أجابوا عنه بأن لفظ الظالمين صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم ، أقصى ما في الباب أن هذه الآية وردت لذم الكفار لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

أما السؤال الثالث : فجوابه أن قوله ﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ ﴾ يفيد أن كل واحد من

الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع يطاع ، فهذا تمام كلام القوم في تقرير ذلك الاستدلال .

(20/674)

أجاب أصحابنا عن السؤال الأول فقالوا إن القوم كانوا يقولون في الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله وكانوا يقولون إنها تشفع لنا عند الله من غير حاجة فيه إلى إذن الله ، ولهذا السبب رد الله تعالى عليهم ذلك بقوله ﴿ مَن ذَا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] فهذا يدل على أن القوم اعتقدوا أنه يجب على الله إجابة الأصنام في تلك الشفاعة ، وهذا نوع طاعة ، فالله تعالى نفى تلك الطاعة بقوله ﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾

وأجابوا عن الكلام الثاني بأن قالوا الأصل في حرف التعريف أن ينصرف إلى المعهود السابق ، فإذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع ، وكان هناك معهود سابق انصرف إليه ، وقد حصل في هذه الآية معهود سابق وهم الكفار الذين يجادلون في آيات الله ، فوجب أن ينصرف إليه وأجابوا عن الكلام الثالث بأن قالوا قوله ﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ يحتمل عموم السلب ، ويحتمل سلب العموم ، أما الأول : فعلى تقدير أن يكون المعنى أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع ، وأما الثاني :

فعلى تقدير أن يكون المعنى أن مجموع الظالمين ليس لهم حميم ولا شفيع ، ولا يلزم من نفي الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من آحاد ذلك المجموع والذي يؤكد ما ذكرناه قوله تعالى : ﴿ الذين كَفَرُواْ سَوَاء عَلَيْهِمْ ءأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 6] فقوله : إن الذين كفروا لا يؤمنون ، إن حملناه على أن كل واحد منهم محكوم عليه بأنه لا يؤمن لزم وقوع الخلف في كلام الله ، لأن كثيراً ممن كفر فقد آمن بعد ذلك ، أما لو حملناه على أن مجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أو لم يؤمن صدق وتخلص عن الخلف ، فلا جرم حملنا هذه الآية على سلب العموم ولم نحملها على عموم السلب فكذا قوله ﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ يجب حمله على سلب

(21/674)

العموم لا على عموم السلب ، وحينئذ استدلال المعتزلة بهذه الآية فهذا غاية الكلام في هذا الباب .

المسألة الرابعة :

في بيان نظم الآية ، فنقول إنه تعالى ذكر في هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف فأولها : أنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة ، أي يوم القرب من عذابه لمن ابتلي بالذنب العظيم ، لأنه إذا

قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف ، حتى قيل إن تلك الغموم والهموم أعظم في الإيحاش من عين تلك العقوبة والثاني : قوله ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ والمعنى أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة والتصق بها وصار مانعاً من دخول النفس والثالث : قوله ﴿ كاظمين ﴾ والمعنى أنه لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف ، وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب الرابع : قوله ﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فبين أنه ليس لهم قريب ينفعهم ، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته والخامس : قوله ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ والمعنى أنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديداً جداً ، قال صاحب "الكشاف" : الخائنة صفة النظرة أو مصدر بمعنى الخائنة ، كالعافية المعافاة ، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب ، والمراد بقوله ﴿ وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ مضمرات القلوب ، والحاصل أن الأفعال قسمان : أفعال الجوارح وأفعال القلوب ، أما أفعال الجوارح ، فأخفاها خائنة الأعين ، والله أعلم بها ، فكيف الحال في سائر الأعمال .

(22/674)

وأما أفعال القلوب ، فهي معلومة لله تعالى لقوله ﴿ وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ فدل هذا على كونه تعالى عالماً بجميع أفعالهم السادس : قوله تعالى : ﴿ والله يَقْضِي بالحق ﴾ وهذا أيضاً يوجب عظم الخوف ، لأن الحاكم إذا كان عالماً بجميع الأحوال ، وثبت منه أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل ، كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى السابع : أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام ، وقد بيّن الله تعالى أنه لا فائدة فيها ألبتة ، فقال : ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ الثامن : قوله ﴿ إِنَّ الله هُوَ السميع البصير ﴾ أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ، ولا يسمع منهم ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم ، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله ، فهذه الأحوال الثمانية إذا اجتمعت في حق المذنب الذي عظم ذنبه كان بالغاً في التخويف إلى الحد الذي لا تعقل الزيادة عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 44 . 47 ﴾

(23/674)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾

ثم أخبر تعالى بحال الكفار وجعل ذلك عقب حال المؤمنين ليبين الفرق ، وروي أن هذه الحال تكون للكفار عند دخولهم النار ، فإنهم إذا أدخلوا فيها مقتوا أنفسهم ، أي مقت بعضهم بعضاً . ويحتمل أن يمقت كل واحد نفسه ، فإن العبارة تحتمل المعنيين ، والمقت هو احتقار وبغض عن ذنب وريبة . هذا حده ، وإذا مقت الكفار أنفسم نادتهم ملائكة العذاب على جهة التوبيخ ، فيقولون لهم : مقت الله إياكم في الدنيا إذ كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴿ أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ اليوم ، هذا هو معنى الآية ، وبه فسر مجاهد وقتادة وابن زيد . وأضاف المصدر إلى الفاعل في قوله : ﴿ لمقت الله ﴾ والمفعول محذوف لأن القول يقتضيه . واللام في قوله : ﴿ لمقت ﴾ يحتمل أن تكون لام ابتداء ، ويحتمل أن تكون لام القسم ، وهذا أصوب . و: ﴿ أكبر ﴾ خبر الابتداء ، والعامل في : ﴿ إذ ﴾ فعل مضمر تقديره : مقتكم إذ ، وقدره قوم اذكروا ، وذلك ضعيف يحل ربط الكلام ، اللهم إلا أن يقدر أن مقت الله لهم هو في الآخرة ، وأنه أكبر من مقتهم أنفسهم ، فيصح أن يقدر المضمر اذكروا ، ولا يجوز أن يعمل فيه قوله : ﴿ لمقت ﴾ لأن خبر الابتداء قد حال بين المقت و﴿ إذ ﴾ ، وهي في صلته ، ولا يجوز ذلك .

(24/674)

واختلف المفسرون في معنى قولهم : ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحيينا اثنتين ﴾ فقال ابن عباس وقتادة والضحاك وأبو مالك : أرادوا موته كونهم ماء في الأصلاب ثم أحياهم في الدنيا ثم أماتهم الموت ثم أحياهم يوم القيامة ، قالوا وهي كالتي في سورة البقرة : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ [البقرة : 28] . وقال ابن زيد : أرادوا أنه أحياهم نسماً عند أخذ العهد عليهم قت أخذهم من صلب آدم ثم أماتهم بعد ذلك ثم أحياهم في الدنيا ثم أماتهم ثم أحياهم ، وهذا قول ضعيف ، لأن الإحياء فيه ثلاث مرات . وقال السدي : أرادوا أنه أحياهم في الدنيا ثم أماتهم ثم أحياهم في القبر وقت سؤال منكر ونكير ، ثم أماتهم فيه ثم أحياهم في الحشر ، وهذا أيضاً يدخله الاعتراض الذي في القول قبله ، والأول أثبت الأقوال . وقال محمد بن كعب القرظي : أرادوا أن الكافر في الدنيا هو حي الجسد ميت القلب فكأن حالهم في الدنيا جمعت إحياء وإماتة ، ثم أماتهم حقيقة ثم أحياهم بالبعث .

(25/674)

والخلاف في هذه الآية مقول كله في آية سورة البقرة ، وهذه الآية يظهر منها أن معناها منقطع من معنى قوله تعالى : ﴿ إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴾ وليس الأمر كذلك ، بل الآيتان

متصلتا المعنى ، وذلك أن كفرهم في الدنيا كان أيضاً بإنكارهم البعث واعتقادهم أنه لا حشر ولا عذاب ، ومقتهم أنفسهم إنما عظمه ، لأن هذا المعتقد كذبهم ، فلما تقرر مقتهم لأنفسهم ورأوا خزياً طويلاً عريضاً رجعوا إلى المعنى الذي كان كفرهم به وهو البعث وخرج الوجود مقترناً بعذابهم فأقروا به على أتم وجوهه ، أي قد كنا كفرنا بإنكارنا البعث ونحن اليوم نقر أنك أحييتنا اثنتين وأمتنا اثنتين ، كأنهم قصدوا تعظيم قدرته تعالى واسترضاءه بذلك ، ثم قالوا عقب هذا الإقرار طمعاً منهم ، فها نحن معترفون بذنوبنا ﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ ؟ وهذا كما تكلف إنساناً أن يقر لك بحق وهو ينكرك ، فإذا رأى الغلبة وضرع أقر بذلك الأمر متمماً أوفى مما كنت تطلب به أولاً ، وفيما بعد قولهم : ﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر ، تقديره : لا إسعاف لطلبتكم أو نحو هذا من الرد والزجر .

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى العذاب الذي هم فيه ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى مقت الله إياهم ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى مقتهم أنفسهم ، ويحتمل أن تكون إشارة إلى المنع والزجر والإهانة التي قلنا إنها مقدرة محذوفة الذكر لدلالة ظاهر القول عليها ، ويحتمل أن تكون المخاطبة ب ﴿ ذلكم ﴾ لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم في الدنيا ، ويحتمل أن تكون في الآخرة للكفار عامة . وقوله : ﴿ إذا دعي الله وحده ﴾ معناه : بحالة توحيد ونفي لما سواه من الآلهة والأنداد .

وقوله : ﴿ وإن يشرك به ﴾ أي إذا ذكرت اللات والعزى وغيرهما صدقتم واستقرت نفوسكم ، فالحكم اليوم بعذابكم وتخليدكم في النار ، لا لتلك التي كنتم تشركونها معه في الألوهية . و: ﴿ العلي الكبير ﴾ صفتا مدح لا في المكان ومضادة السفل والصغر .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (13)

هذه ابتداء مخاطبة في معنى توحيد الله تعالى وتبيين علامات ذلك ، وآيات الله : تعم آيات قدرته وآيات قرآنه والمعجزات الظاهرة على أيدي رسله . وتنزيل الرزق : هو في تنزيل المطر وفي تنزيل القضاء والحكم ، قيل ما يناله المرء في تجارة وغير ذلك وقرأ جمهور الناس : " ويُنْزِل " بالتخفيف . وقرأ الحسن والأعرج وعيسى وجماعة : " وينَزِّل " بفتح النون وشد الزاي .

وقوله تعالى : ﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ معناه : وما يتذكر تذكراً يعتد به وينفع صاحبه ، لأنا نجد من لا ينيب يتذكر ، لكن لما كان ذلك غير نافع عد كأنه لم يكن .

وقوله : ﴿ فادعوا الله ﴾ مخاطبة للمؤمنين أصحاب محمد عليه السلام . " وادعوا " : معناه : اعبدوا .

وقوله تعالى : ﴿ رفيع الدرجات ﴾ صفاته العلى ، وعبر بما يقرب لأفهام السامعين ، ويحتمل أن يريد ب ﴿ رفيع الدرجات ﴾ التي يعطيها للمؤمنين ويتفضل بها على عباده المخلصين في جنة . و: ﴿ العرش ﴾ هو الجسم المخلوق الأعظم الذي السماوات السبع والأرضون فيه كالدنانير في الفلاة من الأرض .

(27/674)

وقوله تعالى : ﴿ يلقي الروح ﴾ قال الضحاك : ﴿ الروح ﴾ هنا هو الوحي القرآن وغيره مما لم يتل . وقال قتادة والسدي : ﴿ الروح ﴾ النبوءة ومكانتها كما قال تعالى : ﴿ روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] ويسمى هذا روحاً لأنه يحيي به الأمم والأزمان كما يحيي الجسد بروحه ، ويحتمل أن يكون إلقاء الروح عاماً لكل ما ينعم الله به على عباده المعتدين في تفهيمه الإيمان والمعتقدات الشريفة . والمنذر على هذا التأويل : هو الله تعالى . قال الزجاج : ﴿ الروح ﴾ : كل ما به حياة الناس ، وكل مهتد حي ، وكل ضال كالميت .

وقوله : ﴿ من أمره ﴾ إن جعلته جنساً للأمور ف ﴿ من ﴾ للتبعيض أو لابتداء الغاية ، وإن جعلنا الأمر من معنى الكلام : ف ﴿ من ﴾ إما لابتداء الغاية ، وإما بمعنى الباء ، ولا تكون للتبعيض بتة وقرأ أبي بن كعب : وجماعة : " لينذِر " بالياء وكسر الذال ، وفي الفعل

ضمير يحتمل أن يعود على الله تعالى ، ويحتمل أن يعود على ﴿ الروح ﴾ ، ويحتمل أن يعود على ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من يشاء ﴾ . وقرأ محمد بن السميفع اليماني : " لينذَر " بالياء وفتح الذال ، وضم الميم من " يومُ " وجعل اليوم منذراً على الاتساع . وقرا جمهور الناس : " لتنذر " بالتاء على مخاطبة محمد عليه السلام ، ويومَ " بالنصب .

وقرأ أبو عمرو ونافع وجماعة : " التلاق " دون ياء . وقرأ أبو عمرو أيضاً وعيسى ويعقوب : " التلاقي " بالياء ، والخلاف فيها كالخلاف الذي مر في ﴿ التنادي ﴾ [غافر : 32] ، ومعناه : تلاقي جميع العالم بعضهم ببعض ، وذلك أمر لم يتفق قبل ذلك اليوم ، وقال السدي : معناه : تلاقي أهل السماء وأهل الأرض ، وقيل معناه تلاقي الناس مع بارئهم ، وهذا المعنى الأخير هو أشدها تخويفاً ، وقيل يلتقي المرء وعمله .

(28/674)

وقوله تعالى : ﴿ يوم هم بارزون ﴾ معناه في براز من الأرض ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي ، ونصب ﴿ يوم ﴾ على البدل من الأول فهو نصب المفعول ، ويحتمل أن ينصب على الظرف ويكون العامل فيه قوله : ﴿ لا يخفى ﴾ وهي حركة إعراب لا حركة بناء ، لأن الظرف لا يبنى إلا إذا أضيف إلى غير متمكن كيومئذ ، وكقول الشاعر [النابغة

الذبياني] : [الطويل]

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . . وقلت ألّما أصحُ والشيب وازع

وكقوله تعالى : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين ﴾ [المائدة : 119] وأما في هذه الآية فالجملة أمر متمكن كما تقول : جئت يوم زيد فلا يجوز البناء ، وتأمل .

وقوله تعالى : ﴿ لا يخفى على الله منهم ﴾ أي من بواطنهم وسرائرهم ودعوات صدورهم ، وفي مصحف أبي بن كعب : " لا يخفى عليه منهم شيء " بضمير بدل المكتوبة .

وقوله تعالى : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ روي أن الله تعالى يقرر هذا التقدير ويسكت العالم هيبة وجزعاً ، فيجيب هو نفسه قوله : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن هو تعالى السائل وهو المجيب . وقال ابن مسعود : أنه تعالى يقرر فيجيب العالم بذلك ، وقيل ينادي بالتقرير ملك فيجيب الناس .

قال القاضي أبو محمد : وإذا تأمل المؤمن أنه لا حول لمخلوق ولا قوة إلا بالله ، فالزمان كله وأيام الدهر أجمع إنما الملك فيها ﴿ لله الواحد القهار ﴾ ، لكن ظهور ذلك للكفرة والجهلة يتضح يوم القيامة ، وإذا تأمل تسخير أهل السماوات وعبادتهم ونفوذ القضاء في الأرض فأي ملك لغير الله عز وجل .

ثم يعلم تعالى أهل الموقف بأنه يوم المجازاة بالأعمال صالحها وسيئها ، وهذه الآية نص في أن الثواب والعقاب معلق باكتساب العبيد ، وأنه يوم لا يوضع فيه أمر غير موضعه ، وذلك قوله : ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ . ثم أخبرهم عن نفسه بسرعة الحساب ، وتلك عبارة عن إحاطته بالأشياء علماً ، فهو يحاسب الخلائق في ساعة واحدة كما يرزقهم ، لأنه لا يحتاج إلى عد وفكرة ، لا رب غيره ، وروي أن يوم القيامة لا ينتصف حتى يقيل المؤمنون في الجنة والكافرون في النار .

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18)

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالإنذار للعالم والتحذير من يوم القيامة وأهواله ، وهو الذي أراد ب ﴿ يوم الآزفة ﴾ ، قاله مجاهد وقتادة وابن زيد : ومعنى ﴿ الآزفة ﴾ : القريبة ، من أزف الشيء إذا قرب ، و ﴿ الآزفة ﴾ في الآية صفة لمحذوف قد علم واستقر في النفوس هوله ، فعبر عنه بالقرب تخويفاً ، والتقدير : يوم الساعة الآزفة أو الطامة الآزفة ونحو هذا فكما لو قال : وأنذرهم الساعة لعلم هولها بما استقر في النفوس من أمرها ، فكذلك علم هنا إذا جاء بصفتها التي تقتضي حلولها واقترابها .

وقوله : ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ معناه : عند الحناجر ، أي قد صعدت من شدة

الهول والجزع ، وهذا أمر يحتمل أن يكون حقيقة يوم القيامة من انتقال قلوب البشر إلى حناجرهم وتبقى حياتهم ، بخلاف الدنيا التي لا تبقى فيها لأحد مع تنقل قلبه حياة ، ويحتمل أن يكون تجوزاً عبر عما يجده الإنسان من الجزع وصعود نفسه وتضايق حنجرته بصعود القلب ، وهذا كما تقول العرب : كادت نفسي أن تخرج ، وهذا المعنى يجده المفرط الجزع كالذي يقرب للقتل ونحو .

(30/674)

وقوله : ﴿ كاظمين ﴾ حال مما أبدل منه قوله : ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ أو مما تضاف إليه القلوب ، لأن المراد إذ قلوب الناس لدى حناجرهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ تشخص فيه الأبصار مهطعين إلى الداع ﴾ [القمر : 8] أراد تشخص فيه أبصارهم ، والكاظم : الذي يرد غيظه وجزعه في صدره ، فمعنى الآية أنهم يطمعون برد ما يجدونه في الحناجر والحال تغالبهم . ثم أخبرهم تعالى أن الظالمين ظلم الكفر في تلك الحال ليس لهم حميم ، أي قريب يحتم لهم ويتعصب ، ولا لهم شفيع يطاع فيهم ، وإن هم بعضهم بالشفاعة لبعض فهي شفاعة لا تقبل ، وقد روي أن بعض الكفرة يقولون لإبليس يوم القيامة : اشفع لنا ، فيقوم ليشفع ، فتبدو منه أنتن ريح يؤذي بها أهل المحشر ، ثم ينحصر ويكع ويخزى . و: ﴿

يطاع ﴾ في موضع الصفة ل ﴿ شفيع ﴾ ، لأن التقدير : ولا شفيع يطاع ، وموضع ﴿ يطاع ﴾ يحتمل أن يكون خفضاً حملاً على اللفظ ، ويحتمل أن يكون رفعاً عطفاً على الموضع قبل دخول ﴿ من ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وهذه الآية كلها عندي اعتراض في الكلام بليغ .

وقوله : ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ متصل بقوله : ﴿ سريع الحساب ﴾ [غافر : 17] لأن سرعة حسابه تعالى للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكرة ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون . وقالت فرقة : ﴿ يعلم ﴾ متصل بقوله : ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ [غافر : 16] ، وهذا قول حسن يقويه تناسب المعنيين ويضعفه بعد الآية وكثرة الحائل . والخائنة : مصدر كالخيانة ، ويحتمل في الآية أن يكون ﴿ خائنة ﴾ اسم فاعل ، كما تقول : ناظرة الأعين إذا خانت في نظرها .

(31/674)

وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالى بجميع الخفيات ، فمن ذلك كسر الجفون والغمز بالعين أو النظرة التي تفهم معنى ، أو يريد بها صاحبها معنى ، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءه عبد الله بن أبي سرح ليسلم بعد ردته بشفاعة عثمان ، فتلكأ عليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بايعه ، ثم قال عليه السلام لأصحابه : " هلا قام إليه رجل حين تلكأت عليه فضرب عنقه ؟ " ، فقالوا يا رسول الله : ألا أومأت إلينا ؟ فقال عليه السلام : " ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين " وفي بعض الكتب المنزلة من قول الله عز وجل : أنا مرصاد الهمم ، أنا العالم بمجال الفكر وكسر الجفون . وقال مجاهد : ﴿ خائنة الأعين ﴾ : مسارقة النظر إلى ما لا يجوز : ثم قوى تعالى هذه الأخبار بأنه يعلم ما تخفي الصدور مما لم يظهر على عين ولا غيرها ، ومثل المفسرون في هذه الآية بنظر رجل إلى امرأة هي حرمة لغيره ، فقالوا ﴿ خائنة الأعين ﴾ : هي النظرة الثانية . ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ : أي عند النظرة الأولى التي لا يمكن المرء دفعها ، وهذا المثال جزء من ﴿ خائنة الأعين ﴾ .

ثم قدح في جهة الأصنام ، فأعلم أنه لا رب غيره ﴿ يقضي بالحق ﴾ ، أي يجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثل ، وينصف المظلوم من الظالم إلى غير ذلك من أقضية الحق والعدل ، والأصنام لا تقضي بشيء ولا تنفذ أمراً . و: ﴿ يدعون ﴾ معناه : يعبدون .

وقرأ جمهور القراء : " يدعون " بالياء على ذكر الغائب . وقرأ نافع بخلاف عنه . وأبو جعفر وشيبة : " تدعون " بالتاء على معنى قل لهم يا محمد : والذين تدعون أنتم .

ثم ذكر تعالى لنفسه صفتين بين عرو الأوثان عنهما وهي في جهة الله تعالى عبارة عن الإدراك على إطلاقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : الْخَائِنَةُ صِفَةٌ لِلنَّظْرَةِ أَوْ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْخِيَانَةِ كَالْعَافِيَةِ بِمَعْنَى الْمُعَافَاةِ وَالْمُرَادُ اسْتِرَاقُ النَّظَرِ إلَى مَا لَا يَحِلُّ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الرِّيَبِ وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُرَادَ الْخَائِنَةُ مِنْ الْأَعْيُنِ لِأَنَّ قَوْلَهُ ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ .

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ قَوْلُ الزَّمَخْشَرِيِّ إلَى مَا لَا يَحِلُّ وَافَقَهُ عَلَيْهِ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي نِهَايَةِ الْغَرِيبِ ، وَلَعَلَّهُ أَخَذَهُ مِنْ الزَّمَخْشَرِيِّ .

وَعِنْدِي أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِجَيِّدٍ ، وَإِنْ قَالَاهُ هُمَا وَغَيْرُهُمَا لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ لَمَّا أَهْدَرَ دَمَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ وَأَتَاهُ بِهِ عُثْمَانُ أَوْقَفَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَاسْتَعْطَفَهُ عَلَيْهِ إلَى أَنْ عَفَا عَنْهُ حَيَاءً مِنْ عُثْمَانَ .

فَانْصَرَفَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ يَقُومُ إلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ ؟ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَّا أَوْمَأْتَ إلَيْنَا ؟ فَقَالَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ ﴾ فَانْظُرْ ابْنُ أَبِي

سَرْحٍ كَانَ قَتْلُهُ حَلَالًا وَلَوْ أَوْمَأَ إلَيْهِ أَوْمَأَ إلَى مَا يَحِلُّ لَا إلَى مَا لَا يَحِلُّ ، وَلَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لِعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِمْ لَا يُبْطِنُونَ خِلَافَ مَا يُظْهِرُونَ فَكَانَ مِنْ خَصَائِصِهِمْ تَحْرِيمُ ذَلِكَ ، وَهُوَ حَلَالٌ فِي حَقِّ غَيْرِهِمْ وَلَوْ كَانَتْ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ هِيَ النَّظْرَةُ إلَى مَا لَا يَحِلُّ كَانَتْ حَرَامًا فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ ، وَلَمْ تَكُنْ مِنْ الْخَصَائِصِ فَلَمَّا كَانَتْ مِنْ الْخَصَائِصِ عُلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ الْإِيمَاءُ إلَى مَا لَا يَتَفَطَّنُ لَهُ الْمُومَأُ فِي حَقِّهِ ، وَلَعَلَّ تَسْمِيَتَهَا خَائِنَةً لِأَنَّ مُقْتَضَى الْمُجَالَسَةِ وَالْمُكَالَمَةِ الْمُصَافَاةُ ظَاهِرًا

(33/674)

وَبَاطِنًا ، فَاسْتِوَاءُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فِي حَقِّ الْمُتَجَالِسِينَ وَالْمُتَخَاطَبِينَ أَمْرٌ يَقْتَضِيهِ أَدَبُ الصُّحْبَةِ وَالْمُجَالَسَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ وَكَأَنَّهُ أَمَانَةٌ ، وَمُخَالَفَةُ الْأَمَانَةِ خِيَانَةٌ .

وَلَيْسَ كُلُّ خِيَانَةٍ حَرَامًا .

فَإِنَّ الْأَمَانَةَ تَنْقَسِمُ إلَى وَاجِبَةٍ وَمَنْدُوبَةٍ ، فَكَذَلِكَ تَنْقَسِمُ الْخِيَانَةُ إلَى حَرَامٍ وَمَكْرُوهٍ وَخِلَافُ الْأَوَّلِ فِي حَقِّ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ أَمَّا الْأَنْبِيَاءُ فَلِعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِمْ تَكُونُ حَرَامًا فِي حَقِّكُمْ لِأَنَّ

اللَّهَ لَمْ يَحُجَّهُمْ إلَى ذَلِكَ .

فَاسْتَوَتْ بَوَاطِنُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ ، وَلَا يُمْكِنُ الِاعْتِذَارُ عَنْ الزَّمَخْشَرِيِّ بِأَنَّ اسْتِرَاقَ النَّظَرِ فَوْقَ حَدِّ التَّكْلِيفِ ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ تَفْتَرِقْ الْحَالُ فِيهِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ ، وَلَكَانَ غَيْرَ مَوْصُوفٍ بِالْحُرْمَةِ فِي حَقِّ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَا فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ فَلَمَّا افْتَرَقَ الْحَالُ فِيهِ وَجُعِلَ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ حَرَامًا وَفِي حَقِّ غَيْرِهِمْ حَلَالًا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ فِي مَحَلِّ التَّكْلِيفِ وَالْقُدْرَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُ الزَّمَخْشَرِيِّ وَلَا يَحْسُنُ إلَى آخِرِهِ فَقَدْ قِيلَ إنَّهُ لِعَطْفِ الْعَرَضِ عَلَى الْجَوْهَرِ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّ الْعَرَضَ يُعْطَفُ عَلَى الْجَوْهَرِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَاَللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وَقِيلَ لِيَشْمَلَ أَدَقَّ أَفْعَالِ الْجَوَارِحِ وَهُوَ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ تَنْبِيهًا عَلَى أَعْلَاهَا وَأَدَقُّ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ وَهُوَ مَا تُخْفِيهِ الصُّدُورُ تَنْبِيهًا عَلَى مَا فِيهَا ، وَهُوَ مَعْنًى حَسَنٌ ، لَكِنْ لَا يَكْفِي وَالَّذِي عِنْدِي فِيمَا أَشَارَ إلَيْهِ الزَّمَخْشَرِيُّ أَنَّ النَّظْرَةَ الْخَائِنَةَ يُحْمَلُ عَلَيْهَا مَا تُخْفِيهِ الصُّدُورُ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَسَبَبُهَا الْحَامِلُ عَلَيْهَا الَّذِي هُوَ أَخْفَى مِنْهَا مِنْ قَوْلِهِ ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ وَفِي هَذَا زِيَادَةٌ ، وَهُوَ أَنَّ الْأَخْفَى هُوَ الْبَاعِثُ عَلَى ذَلِكَ فَهَذَا مَعْنَى مُسَاعِدَتِهِ

(34/674)

لِأَنَّهُ أَخَصُّ بِهِ بِخِلَافِ كَوْنِهِ عَرَضًا مَعَ جَوَاهِرَ أَوْ فِعْلِ قَلْبٍ مَعَ فِعْلِ جَارِحَةٍ فَإِنَّهُ أَمْرٌ عَامٌّ لَا خُصُوصِيَّةَ لَهُ وَإِنَّ الْعَيْنَ الْخَائِنَةَ هِيَ الَّتِي تَنْظُرُ إلَى مَا لَا يَنْبَغِي سَوَاءٌ أَكَانَتْ سِرًّا أَمْ جَهْرًا وَلَيْسَ ذَلِكَ الْمُرَادُ بَلْ الْمُرَادُ الْأَسْرَارُ انْتَهَى .

(35/674)

(آيَةٌ أُخْرَى) قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَاَللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ يَعْنِي وَالَّذِي هَذِهِ صِفَاتُهُ وَأَحْوَالُهُ لَا يَقْضِي إلَّا بِالْحَقِّ وَكَذَا قَالَ فِي قَوْلِهِ ﴿ وَاَللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ وَلَا شَكَّ فِي ذَلِكَ فِي خُصُوصِ الْكَلَامِ ، وَفَكَّرْت فِيهِ فَوَجَدْت لَهُ طَرِيقَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) مَفْهُومُ الصِّفَةِ فَإِنَّ السَّيِّئَ مَوْصُوفٌ بِالْحَقِّ وَغَيْرِهِ وَالْحُكْمُ عَلَيْهِ بِالْقَوْلِ أَوْ الْقَضَاءِ وَتَخْصِيصُهُ بِإِحْدَى صِفَتَيْ الذَّاتِ يَقْتَضِي نَفْيَهُ عَمَّا عَدَاهَا مَفْهُومُ الْمُخَالَفَةِ عِنْدَ الْقَائِلِ بِمَفْهُومِ الصِّفَةِ .

وَهَذَا مُطَّرِدٌ فِي هَذِهِ الْمَادَّةِ وَغَيْرِهَا فِي كُلِّ كَلَامٍ .

وَالطَّرِيقُ الثَّانِي – وَهُوَ الَّذِي أَشَارَ إلَيْهِ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي سُورَةِ غَافِرٍ – أَنَّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ لَا يَقْضِي إلَّا بِالْحَقِّ فَهَذَا يَخْتَصُّ بِهَذِهِ الْمَادَّةِ وَيَطَّرِدُ حَيْثُ ذُكِرَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَكَانَ سَبَبُهُ أَخْذَ ذَلِكَ مِنْ تَرْتِيبِ الْحُكْمِ عَلَى الْوَصْفِ لِيُشْعِرَ بِالْعِلَّةِ ؛ وَحَيْثُ وُجِدَتْ

الْعِلَّةُ يُوجَدُ الْمَعْلُولُ ؛ وَحَيْثُ وُجِدَ الْمَعْلُولُ يَنْتَفِي ضِدُّهُ .

وَهَذَا مَعْنَى الْحَصْرِ ، وَيَطَّرِدُ ذَلِكَ فِي مَادَّةٍ يَكُونُ الْحُكْمُ فِيهَا عَلَى اسْمٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى مَعْنًى يَقْتَضِي التَّعْلِيلَ بِذَلِكَ .

فَهَاتَانِ الطَّرِيقَتَانِ تُفِيدَانِ الْمَقْصُودَ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَلْزَمْ هَذَا الْحَصْرُ .

وَأَمَّا مَفْهُومُ اللَّقَبِ وَحَصْرُ الْمُبْتَدَأِ فِي الْخَبَرِ فَإِنَّمَا يُفِيدُ نَفْيَ الْحُكْمِ عَنْ غَيْرِ الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ الْمَخْبَرِ عَنْهُ بِأَنَّهُ بِقَوْلٍ أَوْ بِنَصٍّ ، فَذَاكَ حَصْرٌ غَيْرُ هَذَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ انْتَهَى . اهـ

﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 113.115 ﴾

(36/674)

وقال أيضا رحمه الله :

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ زِيدَتْ " مِنْ " لِإِفَادَةِ صِفَةِ الْعُمُومِ ، فَهِيَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِك : لَا حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ إذَا ثَبَتَ اسْمُ لَا مَعَهَا فِي إفَادَةِ كُلِّ فَرْدٍ مِمَّا ذُكِرَ .

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : فَإِنْ قُلْت مَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ قُلْت : يُحْتَمَلُ أَنْ يَتَنَاوَلَ النَّفْيُ الشَّفَاعَةَ وَالطَّاعَةَ مَعًا ، وَأَنْ يَتَنَاوَلَ الطَّاعَةَ دُونَ الشَّفَاعَةِ كَمَا تَقُولُ مَا عِنْدِي كِتَابٌ

يُبَاعُ ، فَهُوَ يَحْتَمِلُ نَفْيَ الْبَيْعِ وَحْدَهُ ، وَأَنَّ عِنْدَكَ كِتَابًا إلَّا أَنَّك لَا تَبِيعُهُ وَنَفْيُهُمَا جَمِيعًا وَأَنْ لَا كِتَابَ عِنْدَكَ وَلَا كَوْنُهُ مَبِيعًا وَنَحْوُهُ وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ يُرِيدُ نَفْيَ الضَّبِّ وَانْجِحَارِهِ .

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ مَدْلُولُ اللَّفْظِ وَمَعْنَاهُ نَفْيُ الْمُرَكَّبِ مِنْ الْمَوْصُوفِ وَالصِّفَةِ ، وَلَكِنْ لِانْتِفَاءِ الْمُرَكَّبِ طَرِيقَانِ وَهُمَا الِاحْتِمَالَانِ اللَّذَانِ ذَكَرَهُمَا ، فَهُمَا احْتِمَالَانِ فِي طَرِيقِ الِانْتِفَاءِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ ، لَا فِي مَدْلُولِ اللَّفْظِ وَمَعْنَاهُ .

فَإِنَّ الِاحْتِمَالَيْنِ فِي الْمَدْلُولِ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ لَهُمَا إمَّا مُشْتَرَكًا وَإِمَّا حَقِيقَةً أَوْ مَجَازًا وَهَذَا لَيْسَ كَذَلِكَ .

وَإِنَّمَا نَبَّهْنَا عَلَى ذَلِكَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ كَلَامِ الزَّمَخْشَرِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ الْفُضَلَاءِ بِخِلَافِ مَا أَوْهَمَهُ كَلَامُهُ هَذَا وَكَذَا قَوْلُك مَا عِنْدِي كِتَابٌ يُبَاعُ إنَّمَا مَدْلُولُهُ نَفْيُ كِتَابٍ مَوْصُوفٍ وَسَاكِتٌ عَمَّا سِوَاهُ ، وَالِاحْتِمَالَانِ فِي الْوَاقِعِ وَفِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَكَذَا وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ إنَّمَا دَلَّ عَلَى عَدَمِ رُؤْيَةِ الضَّبِّ مُنْجَحِرًا ، وَالِاحْتِمَالَانِ فِي الضَّبِّ بِهَا وَلَا يَنْجَحِرُ أَوْ لَا ضَبَّ بِهَا أَصْلًا ، وَحَمْلُهُ عَلَى إرَادَةِ الثَّانِي صَحِيحٌ لَيْسَ مِنْ مَدْلُولِ اللَّفْظِ ،

(37/674)

لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ مَدْلُولِ اللَّفْظِ لَاطَّرَدَ وَلَكَانَ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ وَمَقْصُودُ الشَّارِعِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ " عَلِيٌّ لَا حُبَّ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ " يُرِيدُ لَا مَنَارَ لَهُ فَيَهْتَدِي بِهِ ، تَعْرِفُ مَقْصُودَهُ ذَلِكَ مِنْ الْقَرِينَةِ لَا مِنْ اللَّفْظِ وَحْدَهُ ، أَلَا تَرَاكَ لَوْ قُلْت زَيْدٌ لَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمِهِ وَلَا عِلْمَ لَهُ مَا لَمْ يُحْسِنْ ذَلِكَ إلَّا عَلَى بَعْدٍ ، وَلَعَلَّ الْفَرْقَ أَنَّ حَيْثُ قَصَدَ وَصْفَ النَّكِرَةِ كَلَا حِبَّ وُصِفَ بِعَدَمِ الِاهْتِدَاءِ بِمَنَارِهِ فَالْأَبْلَغُ انْتِفَاءُ الْمَنَارِ ، وَفِي زَيْدٍ لَمْ يَقْصِدْ وَصْفَهُ بَلْ الْمَدْلُولُ نَفْيُ الِانْتِفَاعِ عَنْ عِلْمِهِ فَاسْتَدْعَى وُجُودَ السَّالِبَةِ الْبَسِيطَةِ الَّتِي يَذْكُرُهَا الْمَنْطِقِيُّونَ وَأَنَّهَا لَا تَقْتَضِي وُجُودَ مَوْضُوعِهَا صَحِيحٌ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ مِنْهَا مَا يُسْتَحْسَنُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَمِنْهَا مَا لَا يُسْتَحْسَنُ .

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : فَإِنْ قُلْت فَعَلَى أَيِّ الِاحْتِمَالَيْنِ يَجِبُ حَمْلُهُ ؟ قُلْت عَلَى نَفْيِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا مِنْ قِبَلِ أَنَّ الشُّفَعَاءَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ ، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا يُحِبُّونَ وَلَا يَرْضَوْنَ إلَّا مَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَضِيَهُ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ فَلَا يُحِبُّونَهُمْ ، وَإِذَا لَمْ يُحِبُّوهُمْ لَمْ يَنْصُرُوهُمْ وَلَمْ يَشْفَعُوا لَهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ قَالَ ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴾ وَلِأَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَكُونُ إلَّا فِي زِيَادَةِ التَّفَضُّلِ ، وَأَهْلُ التَّفَضُّلِ وَزِيَادَتِهِ إنَّمَا هُمْ أَهْلُ الثَّوَابِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

وَعَنْ الْحَسَنِ " وَاَللَّهِ مَا يَكُونُ لَهُمْ شَفِيعٌ أَلْبَتَّةَ " قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ حَمْلُهُ عَلَى انْتِفَاءِ الْأَمْرَيْنِ

صَحِيحٌ ، وَقَوْلُنَا " انْتِفَاء " خَيْرٌ مِنْ قَوْلِهِ " نَفْي " لِأَنَّ النَّفْيَ فِعْلُ الْفَاعِلِ ، فَيُوهِمُ أَنَّهُ مَدْلُولُ اللَّفْظِ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ وَالِاسْتِدْلَالُ لَهُ بِقَوْلِهِ

(38/674)

تَعَالَى ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴾ صَحِيحٌ ، وَمَعْنَاهُ ارْتَضَى الشَّفَاعَةَ لَهُ وَكَذَا ﴿ إلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ وَكَذَا ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ وَإِنْ كَانَتْ الْآيَةُ الْأُولَى أَصَرَّحُ فِي اشْتِرَاطِ الِارْتِضَاءِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَعْنَى لِمَنْ ارْتَضَاهُ فَتَجْتَمِعُ شُرُوطُ حَذْفِ الْعَائِدِ عَلَى الْمَوْصُولِ .

وَكَأَنَّ الزَّمَخْشَرِيَّ أَرَادَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الْفَاسِقَ غَيْرُ مُرْتَضًى فَلَا تَشْمَلُهُ الشَّفَاعَةُ ، لَكِنَّا نَقُولُ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ إلَّا لِمَنْ ارْتَضَى أَنْ يَشْفَعَ لَهُ ، فَحُذِفَ هَذَا وَتُوُسِّعَ فِي الضَّمِيرِ وَنُصِبَ بِالْفِعْلِ وَحُذِفَ حِينَئِذٍ ؛ أَوْ يُقَالُ إنَّهُ بِالْإِذْنِ بِالشَّفَاعَةِ لَهُ حَصَلَ الْعَفْوُ عَنْهُ ، فَصَارَ مُرْتَضًى فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَيَكْفِي فِي كَوْنِهِ مُرْتَضًى إسْلَامُهُ وَإِنْ كُرِهَ فِسْقُهُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ إنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَكُونُ إلَّا فِي زِيَادَةِ التَّفَضُّلِ فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ اعْتِزَالٌ مِنْهُ لِإِنْكَارِهِ الشَّفَاعَةَ الَّتِي هِيَ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهَا وَهُوَ لَا يُسَلِّمُهَا ، وَلَيْسَتْ خَاصَّةً بِأَهْلِ التَّفْضِيلِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ لَا يَقْتَضِي انْحِصَارَ ذَلِكَ فِيهِمْ ،

وَقَوْلُ الزَّمَخْشَرِيِّ إذَا لَمْ يُحِبُّوهُمْ لَمْ يَشْفَعُوا لَهُمْ قَدْ يَمْنَعُ لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ قَدْ تَكُونُ لِلرَّحْمَةِ مِنْ غَيْرِ مَحَبَّةٍ .

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فَإِنْ قُلْت الْغَرَضُ حَاصِلٌ بِذِكْرِ الشَّفِيعِ وَنَفْيِهِ فَمَا الْفَائِدَةُ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ وَنَفْيِهَا ؟ قُلْت فِي ذِكْرِهَا فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ ، وَهِيَ أَنَّهَا ضُمَّتْ إلَيْهِ لِيُقَامَ انْتِفَاءُ الْمَوْصُوفِ مَقَامَ الشَّاهِدِ عَلَى انْتِفَاءِ الصِّفَةِ ، لِأَنَّ الصِّفَةَ لَا تَتَأَتَّى بِدُونِ مَوْصُوفِهَا ، فَيَكُونُ ذَلِكَ إزَالَةً لِتَوَهُّمِ وُجُودِ الْمَوْصُوفِ .

بَيَانُهُ أَنَّك إذَا عُوتِبْت عَلَى الْقُعُودِ عَنْ الْغَزْوِ ؛ فَقُلْت : مَا لِي فَرَسٌ أَرْكَبُهُ وَلَا مَعِي سِلَاحٌ أُحَارِبُ بِهِ ، فَقَدْ جَعَلْت عَدَمَ الْفَرَسِ

(39/674)

وَفَقْدَ السِّلَاحِ عِلَّةً مَانِعَةً مِنْ الرُّكُوبِ وَالْمُحَارَبَةِ كَأَنَّك تَقُولُ كَيْفَ يَتَأَتَّى مِنِّي الرُّكُوبُ وَالْمُحَارَبَةُ وَلَا فَرَسَ لِي وَلَا سِلَاحَ مَعِي ؟ فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ مَعْنَاهُ كَيْفَ يَتَأَتَّى الشَّفِيعُ وَلَا شَفِيعَ ؟ فَكَانَ ذِكْرُ التَّشْفِيعِ وَالِاسْتِشْهَادُ عَلَى عَدَمِ تَأَتِّيهِ بِعَدَمِ الشَّفِيعِ وَضْعًا لِانْتِفَاءِ الشَّفِيعِ مَوْضِعَ الْأَمْرِ الْمَعْرُوفِ غَيْرِ الْمُنْكَرِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَوَهَّمَ خِلَافُهُ قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ (يُطَاعُ) سِتُّ فَوَائِدَ : (إحْدَاهَا) أَنَّهَا الَّذِي

تَتَشَوَّفُ إلَيْهِ نُفُوسُ مَنْ يَقْصِدُ أَنْ يَشْفَعَ فِيهِ فَكَانَ التَّصْرِيحُ بِنَفْيِهَا فَتًّا فِي أَعْضَادِ الظَّالِمِينَ وَقَطْعًا لِقُلُوبِهِمْ وَحَطْمًا لَهُمْ ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ مُتَشَوِّقًا إلَى شَيْءٍ فَصُرِّحَ لَهُ بِأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُ كَانَ أَنْكَى لَهُ مِنْ أَنْ يَدُلَّ عَلَيْهِ بِلَفْظٍ شَامِلٍ لَهُ وَلِغَيْرِهِ أَوْ مُسْتَلْزِمٍ إيَّاهُ فَكَانَتْ لِلتَّخْصِيصِ أَوْ لِلتَّوْضِيحِ أَوْ لِمُجَرَّدِ هَذَا الْقَصْدِ مَعَ مُسَاوَاتِهَا .

(الثَّانِيَةُ) أَنَّ مِنْ الشُّفَعَاءِ مَنْ لَا تُقْبَلُ شَفَاعَتُهُ فَلَا غَرَضَ فِيهِ أَصْلًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ تُقْبَلُ شَفَاعَتُهُ وَهُوَ الْمَقْصُودُ ، فَنَصَّ عَلَيْهِ تَحْقِيقًا لِمَنْ قَصَدَ نَفْيَهُ ، وَهِيَ صِفَةٌ مُخَصَّصَةٌ ، وَقَدَّمَ هَذَا الْغَرَضَ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ مَفْهُومُ الصِّفَةِ مِنْ وُجُودِ غَيْرِهِ لِقِيَامِ الدَّلِيلِ عَلَى عَدَمِهِ وَهَذِهِ الْفَائِدَةُ مُغَايِرَةٌ لِلْأُولَى ، لِأَنَّ هَذِهِ فِي آحَادِ الشُّفَعَاءِ وَتِلْكَ فِي صِفَةِ شَفَاعَتِهِمْ .

(الثَّالِثَةُ) مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مَادَّةُ "يُطَاعُ" وَالْغَالِبُ فِي الشَّفَاعَةِ اسْتِعْمَالُ لَفْظِ الْقَبُولِ وَالنَّفْعِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا ، أَمَّا الطَّاعَةُ فَإِنَّمَا تُقَالُ فِي الْأَمْرِ ، فَذِكْرُهَا هَاهُنَا لِنُكْتَةٍ بَدِيعَةٍ وَهِيَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الظَّالِمِينَ وَشَأْنُ الظَّالِمِينَ فِي الدُّنْيَا الْقُوَّةُ وَالشُّفَعَاءُ الْمُتَكَلَّمُ عَنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَأْمُرُ

(40/674)

فَيُطَاعُ نَفَى عَنْهُمْ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ تَبْكِيتًا وَحَسْرَةً ، فَإِنَّ النَّفْسَ إذَا ذَكَرَتْ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَزَالَ عَنْهَا وَخُوطِبَتْ بِهِ كَانَ أَشَدَّ عَلَيْهَا .

(الرَّابِعَةُ) أَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَأَنَّ شِدَّتَهُ بَلَغَتْ مَبْلَغًا لَا يَنْفَعُ فِيهِ إِلَّا شَفِيعٌ لَهُ قُوَّةٌ وَرُتْبَةٌ أَنْ يُطَاعَ، لَوْ وُجِدَ، وَهُوَ لَا يُوجَدُ.

وَهَذِهِ قَرِيبَةٌ مِنْ الَّتِي قَبْلَهَا، إِلَّا أَنَّهَا بِحَسَبِ الْحَاضِرِ وَتِلْكَ بِحَسَبِ الْمَاضِي.

(الْخَامِسَةُ) التَّنْبِيهُ عَلَى مَا قُصِدَ الشَّفِيعُ لِأَجْلِهِ كَقَوْلِ الْمَغْلُوبِ الَّذِي مَا عِنْدَهُ أَحَدٌ قُصِدَ الشَّفِيعُ لِأَجْلِهِ؛ يَقُولُ مَا عِنْدِي أَحَدٌ يَنْصُرُنِي، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ مَقْصُودَهُ النُّصْرَةُ.

(السَّادِسَةُ) مَا ذَكَرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ، وَحَاصِلُهُ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ نَفْيُ الصِّفَةِ وَذِكْرُ الدَّلِيلِ عَلَى نَفْيِهَا.

وَذِكْرُ الشَّيْءِ بِدَلِيلِهِ أَحْسَنُ، فَالْمَقْصُودُ نَفْيُ الطَّاعَةِ الَّتِي هِيَ قَبُولُ الشَّفَاعَةِ، وَتَعْلِيلُ ذَلِكَ النَّفْيِ بِانْتِفَاءِ الشَّفِيعِ؛ وَكَوْنُ الْمَقْصُودِ نَفْيَ الطَّاعَةِ هُوَ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ فِي كَلَامِنَا فِي الْأَوْجُهِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَالتَّعْلِيلُ أَفَادَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ هُنَا؛ وَيَخْرُجُ مِنْ دَلَالَتِهِ أَيْضًا إِفَادَةُ نَفْيِ الشَّفِيعِ عَلَى عَكْسِ مَا يَقْتَضِيهِ مَفْهُومُ الصِّفَةِ؛ فَتَكُونُ فَائِدَةً سَابِعَةً وَلْنَشْرَحْ كَلَامَهُ فَنَقُولُ قَوْلُهُ "ضُمَّتْ إِلَيْهِ" أَيْ إِلَى الْمَوْصُوفِ، وَاسْتَعْمَلَ لَفْظَ الضَّمِّ لِيُفِيدَ الْهَيْئَةَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ، فَإِنَّ الْغَرَضَ يَحْصُلُ مِنْهَا لَا مِنْ ذِكْرِ الصِّفَةِ وَحْدَهَا وَقَوْلُهُ "لِيُقَامَ" أَيْ الْغَرَضُ مِنْ الضَّمِّ هَذِهِ الْإِقَامَةُ وَقَوْلُهُ "مَقَامَ الشَّاهِدِ" أَيْ الدَّلِيلُ وَلَمْ يَذْكُرْ لَفْظَ الْعِلَّةِ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْوُجُودِيَّاتِ وَالِانْتِفَاءُ عَدَمِيٌّ وَقَوْلُهُ "لِأَنَّ الصِّفَةَ لَا تَتَأَتَّى بِدُونِ مَوْصُوفِهَا" تَعْلِيلٌ لِكَوْنِ انْتِفَاءِ الْمَوْصُوفِ شَاهِدًا وَدَلِيلًا وَهُوَ تَعْلِيلٌ صَحِيحٌ

وَيَلْزَمُ مِنْ وُجُودِ الصِّفَةِ وُجُودُ الْمَوْصُوفِ وَمِنْ عَدَمِهَا عَدَمُهُ وَلَوْ قَالَ : لِأَنَّهُ لَا تَتَأَتَّى صِفَةٌ بِدُونِ مَوْصُوفِهَا سَلِمَ مَنْ جَعَلَ اسْمَ " إنَّ " نَكِرَةً .

وَقَوْلُهُ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَيْ إقَامَةُ الْمَوْصُوفِ شَاهِدًا لِتَوَهُّمِ وُجُودِ الْمَوْصُوفِ أَيْ الشَّفِيعِ وَلَا يُرِيدُ الْمَوْصُوفَ الْمُقَيَّدَ بِكَوْنِهِ مَوْصُوفًا لِاسْتِحَالَةِ تَوَهُّمِ وُجُودِهِ بِدُونِ صِفَتِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ مُطْلَقَ الشَّفِيعِ وَإِنَّمَا كَانَتْ إقَامَةُ نَفْيِهِ شَاهِدًا مُزِيلَةً وُجُودِهِ لِأَنَّ الشَّاهِدَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا وَإِذَا كَانَ الِانْتِفَاءُ مَعْلُومًا لَمْ يَكُنْ الْوُجُودُ مَوْهُومًا .

وَهَذَا قَدْ أَشَارَ إلَيْهِ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي كَلَامِهِ حَيْثُ قَالَ : لَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَوَهَّمَ خِلَافُهُ فَعُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِنَفْيِ الشَّفِيعِ إفَادَةَ الِانْتِفَاءِ لِأَنَّ انْتِفَاءَهُ مَعْلُومٌ بِمَا قَدَّمَهُ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴾ وَنَحْوِهِ فَعُلِمَ أَنَّ الْإِخْبَارَ بِهِ هُنَا إنَّمَا قُصِدَ بِهِ مَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ وَهُوَ انْتِفَاءُ الشَّفِيعِ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِالطَّاعَةِ وَأَقَامَهُ شَاهِدًا عَلَى ذَلِكَ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكْتُبَ عَلَى الْحَاشِيَةِ أَيْ وَبَيَانًا لِأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِنَفْيِ الْمَوْصُوفِ إلَّا نَفْيَ صِفَتِهِ وَالِاسْتِدْلَالَ بِانْتِفَائِهِ عَلَى انْتِفَائِهَا وَحِينَئِذٍ لَا يَبْقَى فِي كَلَامِ الزَّمَخْشَرِيِّ إشْكَالٌ وَقَوْلُهُ " وَبَيَانُهُ " إلَى آخِرِهِ صَحِيحٌ وَقَوْلُهُ فَكَانَ الشَّفِيعُ وَالِاسْتِشْهَادُ أَيْ مَا قَدَّمْنَاهُ وَالشَّفِيعُ هُوَ قَبُولُ الشَّفَاعَةِ وَهُوَ الْمُرَادُ بِالطَّاعَةِ هُنَا وَقَوْلُهُ "

وَضْعًا " أَيْ تَنْزِيلًا لِانْتِفَاءِ الشَّفِيعِ مَنْزِلَةَ الْمَعْلُومِ الَّذِي لَا يُتَوَهَّمُ وُجُودُهُ فَلَا يُنْفَى لِقَصْدِ نَفْيِهِ فِي ذَاتِهِ بَلْ لِدَلَالَتِهِ وَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

فَهَذَا مَا ظَهَرَ لِي فِي كَلَامِ الزَّمَخْشَرِيِّ بَعْدَ أَنْ أُشْكِلَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ الْفُضَلَاءِ وَظَنُّوهُ مَعْكُوسًا وَكَمْ لَهُ مِثْلُ هَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ

(42/674)

فَهْمِهِ وَتَدْقِيقِهِ وَإِشَارَتِهِ بِالْكَلَامِ الْيَسِيرِ إلَى الْمَعْنَى الْكَثِيرِ الْغَامِضِ ، لَكِنْ فِي عِبَارَتِهِ هُنَا قُصُورٌ عَنْ مُرَادِهِ .

وَهُوَ مَوْضِعُ قَلَقٍ ، وَكُنْت مِمَّنْ ظَنَّ أَنَّ كَلَامَهُ مَعْكُوسٌ ، وَرَأَيْت عَلَيْهِ لِبَعْضِ الْفُضَلَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ حَلًّا لِإِشْكَالِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فِي حَلِّهِ وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ بِذَلِكَ وَصَارَتْ صُعُوبَتُهُ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ ؛ وَهَكَذَا الْعِلْمُ يَنْفَتِحُ بِأَدْنَى شَيْءٍ ، وَإِنِّي لَأُسِرُّ بِمَا مَنَحَنِي اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَأَرَاهُ خَيْرًا مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَا يَعْدِلُهُ مُلْكٌ وَلَا مَالٌ .

وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَنْ أُعْجَبَ بِهِ أَوْ يَحْصُلَ لِي فِي نَفْسِي مِنْهُ كِبْرٌ ، لَكِنِّي أَرَاهُ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ عَلَيَّ مَعَ ضَعْفِي وَعَجْزِي وَقِلَّةِ حِيلَتِي وَاعْتِرَافِي بِفَضْلِ الزَّمَخْشَرِيِّ كَتَبَهُ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ

الْكَافِي السُّبْكِيُّ فِي سَنَةِ إحْدَى وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 126.121 ﴾

(43/674)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة ﴾

أي يوم القيامة .

سمّيت بذلك لأنها قريبة ؛ إذ كل ما هو آتٍ قريب .

وأزفَ فلانٌ أي قرب يَأْزَفُ أَزْفاً ؛ قال النابغة :

أَزِفَ التَّرحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكابَنَا . . .

لَمَّا تَزَلْ بِرحالِنا وكَأَن قَدِ

أي قرب .

ونظير هذه الآية : ﴿ أَزِفَتِ الآزفة ﴾ [النجم : 57] أي قربت الساعة .

وكان بعضهم يتمثل ويقول :

أَزِفَ الرَّحِيلُ ولَيْسَ لِي مِن زَادِ . . .

غَيْر الذُّنُوبِ لِشِقْوَتِي ونَكَادِي

﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر كَاظِمِينَ ﴾ على الحال وهو محمول على المعنى .

قال الزجاج : المعنى إذ قلوب الناس "لَدَى الْحَنَاجِرِ" في حال كظمهم .

وأجاز الفراء أن يكون التقدير "وَأَنْذِرْهُمْ" كَاظِمِينَ .

وأجاز رفع "كَاظِمِينَ" على أنه خبر للقلوب .

وقال : المعنى إذ هم كاظمون .

وقال الكسائي : يجوز رفع ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ على الابتداء .

وقد قيل : إن المراد ب"يوم الآزِفَةِ" يوم حضور المنية ؛ قاله قطرب .

وكذا ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ عند حضور المنية .

والأوّل أظهر .

وقال قتادة : وقعت في الحناجر من المخافة فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها ، وهذا لا يكون إلا يوم القيامة كما قال : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم : 43] .

وقيل : هذا إخبار عن نهاية الجزع ؛ كما قال : ﴿ وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : 10] وأضيف اليوم إلى ﴿ الآزفة ﴾ على تقدير يوم القيامة ﴿ الآزفة ﴾ أو يوم المجادلة ﴿ الآزفة ﴾ .

وعند الكوفيين هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه مثل مسجد الجامع وصلاة الأولى .

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي من قريب ينفع ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فيشفع فيهم .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين ﴾ قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير أي يعلم الأعين الخائنة .

وقال ابن عباس : هو الرجل يكون جالساً مع القوم فتمرّ المرأة فيسارقهم النظر إليها .

(44/674)

وعنه : هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غَضَّ بصرَه ، فإذا رأى منهم غفلة تدسَّسَ بالنظر ، فإذا نظر إليه أصحابه غَضّ بصره ، وقد علم الله عز وجل منه أنه يودّ لو نظر إلى عورتها .

وقال مجاهد : هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه .

وقال قتادة : هي الهَمْزة بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى .

وقال الضحاك : هي قول الإنسان ما رأيت وقد رأى أو رأيت وما رأى .

وقال السدي : إنها الرَّمْز بالعين .

وقال سفيان : هي النظرة بعد النظرة .

وقال الفراء : "خَائِنَةَ الأَعْيُنِ" النظرة الثانية "وَما تُخْفِي الصُّدُورُ" النظرة الأولى .

وقال ابن عباس : "وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ" أي هل يزني بها لو خلا بها أو لا .

وقيل : "وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ" تكنّه وتضمره .

" ولما جيء بعبد الله بن أبي سرح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد ما اطمأن أهل مكة وطلب له الأمان عثمان رضي الله عنه ، صَمت رسولُ الله صلى الله عليه وسلم طويلاً ثم قال : "نعم" فلما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله : "ما صَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه" فقال رجل من الأنصار فهلاَّ أومأتَ إليّ يا رسول الله ؛ فقال : "إن النبي لا تكون له خائنة أعين" "

﴿ والله يَقْضِي بالحق ﴾ أي يجازي من غَضَّ بصرَه عن المحارم ، ومن نظر إليها ، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها .

﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأوثان ﴿ لاَيَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ لأنها لا تعلم شيئاً ولا تقدر عليه ولا تملك .

وقراءة العامة بالياء على الخبر عن الظالمين وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم .

وقرأ نافع وشيبة وهشام : "تَدْعُونَ" بالتاء .

﴿ إِنَّ الله هُوَ السميع البصير ﴾ "هو" زائدة فاصلة .

ويجوز أن تكون في موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبر والجملة خبر إن . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(45/674)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾

وَهُم أعلى طبقاتِ الملائكةِ عليهم السلامُ وأولُهم وجُوداً وحملهم إيَّاهُ وحفيفُهم حولَهُ مجازٌ عن حفظِهم وتدبيرِهم له وكنايةٌ عن زُلفاهُم منْ ذِي العرشِ جَلَّ جَلالُه ومكانتِهم عِنْدُه وَمحلُّ الموصولِ الرفعُ عَلى الابتداءِ خبرُه :

(46/674)

﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ والجملةُ استئنافٌ مَسوقٌ لتسليةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ببيانِ أنَّ أشرافَ الملائكةِ عليهمُ السلامُ مثابرونَ عَلى ولايةِ مَنْ معهُ منَ المُؤمنينَ ونُصْرتِهم واستدعاءِ مَا يُسعِدُهم في الدارينِ أيْ ينزهونهُ تعالى عن كُلِّ ما لا يليقُ بشأنِه الجليلِ ملتبسينَ بحمدِهِ عَلى نعمائِه التي لا تتناهَى ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إيماناً حقيقياً بحالِهم ، والتصريحُ بِهِ مع الغنِىَ عن ذِكْرِهِ رأْساً لإظهارِ فضيلةِ الإيمانِ وإبرازِ شرفِ أهلِه والإشعارِ

بعلةِ دُعَائهم للمؤمنينَ حسبما ينطِقُ بِهِ قولُه تَعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ فَإِنَّ المشاركةَ في الإيمانِ أَقْوَى المناسباتِ وأَتمُّها وأدعى الدَّواعِي إلى النصحِ والشفقةِ ، وفي نظمِ استغفارهم لهم في سلكِ وظائِفهم المفروضةِ عليهم منْ تسبيحهم وتحميدِهم وإيمانهم إيذانٌ بكمالِ اعتنائِهم بِهِ وإشعارٌ بوقوعِهِ عندَ الله تعالى فِي مَوقعِ القَبولِ . رُوِي أنَّ حملةَ العرشِ أرجلُهم في الأَرْضِ السُّفلى ورؤوسُهم قدْ خرقتِ العرشَ وهم خشوعٌ لا يرفعونَ طَرفهم . وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " لا تتفكروا في عِظَمِ ربكم ولكنْ تفكروا فيمَا خلقَ الله من الملائكةِ فإنَّ خلقاً من الملائكةِ يقالُ لهُ إسرافيلُ زاويةٌ منْ زَوَايا العرشِ عَلى كاهِلِهِ وقدماهُ في الأرضِ السُّفْلى وَقَدُ مرقَ رأسُهُ منْ سبعِ سمواتٍ وإنَّه ليتضاءلُ منْ عظمةِ الله حتَّى يصيرَ كأنُه الوصعُ " وَفي الحديثِ : " إنَّ الله أمرَ جميعَ الملائكةِ أَنْ يغدُوا ويروحُوا بالسلامِ عَلى حملةِ العرشِ تفضيلاً لهم عَلى سائِرهم " وقيل : خلقَ الله تعالى العرشَ من جوهرةٍ خضراءَ وبينَ القائمتينِ من قوائِمِهِ خفقانُ الطيرِ المسرعِ ثمانينَ عامٍ وقيل : حولَ العرشِ سبعونَ ألفَ صفّ منَ الملائكةِ يطوفونَ به مهللينَ مكبرينَ ومن ورائهم سبعونَ

ألفَ صفٍ قيامٌ قد وضعُوا أيديَهُم عَلى عواتِقِهم رافعينَ أصواتَهُم بالتهليلِ والتكبيرِ ومنْ ورائِهم مائةُ ألفِ صفٍ قدْ وضعُوا أيمانَهُم عَلى الشمائلِ ما منهمْ أحدٌ إلا وهو يسبحُ بما لا يسبحُ بِهِ الآخرُ ﴿ ربَّنَا ﴾ عَلى إرادةِ القولِ أيْ يقولونَ ربَّنا عَلى أنَّه إمّا بيانٌ لاستغفارِهم أوْ حالٌ .

﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ أيْ وَسِعتْ رحمتُكَ وعلمُكَ فأزيلَ عنْ أصلِه للإغراقِ في وصفِهِ تعالَى بالرحمةِ والعلمِ والمبالغةِ في عمومِهمَا وتقديمُ الرحمةِ لأنَّها المقصودةُ بالذات هنها والفاءُ في قولِه تعالَى ﴿ فاغفرِ للَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ أي للذين عملتَ منهم التوبةَ واتباعَ سبيلِ الحقّ لترتيبِ الدعاءِ عَلَى ما قبلها مِنْ سعةِ الرحمةِ والعلمِ ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ واحفظْهُم عنْهُ وهُوَ تصريحٌ بعدَ إشعارٍ للتأكيدِ .

(48/674)

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ ﴾ عطفٌ عَلى قِهِمْ وتوسيطُ النداءِ بينَهما للبمالغةِ في الجؤارِ ﴿ جنات عَدْنٍ التى وَعَدْتَّهُمْ ﴾ أيْ وعدَتهم إيَّاهَا وقُرِىءَ جَنَّةَ عَدْنٍ ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءابَائِهِمْ وأزواجهم وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أيْ صلاحاً مصحّحاً لدخولِ الجنةِ في الجملةِ وإنْ كانَ دونَ صلاحِ أصولِهم وهُوَ عطفٌ على الضميرِ الأولِ أيْ وأدخلها معهم هؤلاء ليتم سرورهم ويتضاعفُ

ابتهاجُهم أوْ عَلى الثانِي لكنْ لا بناءً عَلى الوعدِ العام للكلِّ كما قيل إذ لا يبقى حينئذ للعطف وجه بل بناء على الوعد الخاصّ بهمْ بقولِه تعالَى : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ بأنْ يكونُوا أعلى درجةً منْ ذريتهم قالَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ : يدخلُ المؤمنُ الجنةَ فيقولُ أينَ أبي أينَ ولدي أينَ زَوْجي فيقالُ إنَّهم لمْ يعملُوا مثلَ عملكَ فيقولُ إني كنتُ أعملُ لي ولهُم فيقالُ أَدخلوهم الجنةَ . وسبقُ الوعدِ بالإدخالِ والإلحاقِ لاَ يستدعي حصولَ الموعودِ بلا توسطِ شفاعةٍ واستغفارٍ وعليهِ مَبْنى قولِ منْ قالَ فائدةُ الاستغفارِ زيادةُ الكرامةِ والثوابِ والأولُ هو الأَولى لأنَّ الدعاءَ بالإدخالِ فيه صريحٌ وفي الثاني ضمنيٌّ وقُرِىءَ صَلُح بالضَّمِ وذرّيتهمُ بالإفرادِ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ العزيز ﴾ أي الغالبُ الذَّي لاَ يمتنعُ عليه مَقْدورٌ ﴿ الحكيم ﴾ أي الذي لا يفعلُ إلاَّ ما تقتضيهِ الحكمةُ الباهرةُ مَن الأمورِ التي منْ جُمْلتها إنجازُ الوعدِ فالجملةُ تعليلٌ لما قَبْلها .

(49/674)

﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ أي العقوباتِ لأَنَّ جزاءَ السيئةِ سيئةٌ مثلُهَا أو جزاءَ السيئاتِ عَلَى حذْفِ المُضافِ وَهُوَ تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ أوْ مخصوصٌ بالأَتْباعِ أو المعاصي في الدُّنيا فمعنى قولِه تعالَى ﴿ وَمَن تَقِ السيئات يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ : ومن تقه المعاصي في الدنيا فقد

رحمته فِي الآخرةِ كأنَّهم طلَبوا لهُمْ السببَ بعدَ مَا سألُوا المُسبَّبَ ﴿ وَذَلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى الرحمةِ المفهومةِ من (رَحْمتَه) أوْ إليَها وإلى الوقايةِ ومَا فيه منْ مَعْنى البُعدِ لما مَرَّ مِراراً منَ الإشعارِ ببُعْدِ درجةِ المُشارِ إليهِ ﴿ هُوَ الفوز العظيم ﴾ الذِي لاَ مطمعَ وَرَاءَهُ لطامعٍ .

(50/674)

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ شروعٌ في بيانِ أحوالِ الكفرة بعدَ دخولِهم النَّارَ بعدَ ما بينَ فيما سبقَ أنهُمْ أصحابُ النارِ ﴿ يُنَادَوْنَ ﴾ أيْ مِنْ مكانٍ بعيدٍ وهُمْ في النارِ وقَدْ مقتُوا أنفسَهُم الأمَّارةَ بالسُّوءِ التي وقعُوا فيمَا وقعُوا باتباعِ هَوَاهَا أوْ مقَتَ بعضُهم بعضاً من الأحبابِ كقولِه تَعَالَى : ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ أيْ أبغضوهَا أشدَّ البغضِ وَأنكروهَا أبلغَ الإنكارِ وَأظهرُوا ذلكَ على رؤوسِ الأشهادِ فيقالُ لهم عندَ ذلكَ ﴿ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أيْ لمقتُ اللهِ أنفسَكُم الأمَّارةَ بالسوءِ أوْ مقتُه إيَّاكم في الدُّنيا ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ منْ جهةِ الأنبياءِ ﴿ إِلَى الإيمان ﴾ فتأبَوْنَ قبولَهُ ﴿ فَتَكْفُرُونَ ﴾ اتّباعاً لأنفسكمْ الأمَّارةِ ومسارعةً إلى هَوَاها أوِ اقتداءً بأَخِلاَّئكم المضلينَ واستحباباً لآرائهم أكبرُ منْ مقتِكم أنفسَكُم الأمارةَ بالسوءِ أوْ مِنْ مقتِ بعضِكم بعضاً اليومَ فإذ ظرفٌ للمقتِ الأولِ وإنْ توسطَ بينَهما الخبرُ لما فِي الظروفِ من الاتساعِ وقيل : لمصدرٍ آخرَ مقدرٍ أيْ مقتُه إيَّاكم

إذْ تدعونَ وقيلَ : مفعولٌ لأذكرُوا والأولُ هو الوجْه وقيلَ : كلا المقتينِ في الآخرةِ وإذْ تدعَونَ تعليلٌ لما بينَ الظرفِ والسببِ منْ علاقةِ اللزومِ والمعنى لمقتُ اللهِ إيَّاكم الآنَ أكبرُ منْ مقتكم أنفسَكم لمَّا كنتمُ تُدعَونَ إلى الإيمانِ فتكفرونَ ، وتخصيصُ هَذَا الوجهِ بصورةِ كونِ المرادِ بأنفسِهم أضرابَهُم مما لاَ دَاعيَ إليهِ .

(51/674)

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ صفتانِ لمصدريْ الفعلينِ المذكورينِ أيْ إماتتينِ وإحياءتينِ أوْ موتتينِ وحياتينِ عَلى أنَّهما مصدرانِ لهما أيضاً بحذفِ الزوائدِ أو لفعلينِ يدلُّ عليهما المذكوران فإنَّ الإماتةَ والإحياءَ ينبئانِ عن الموتِ والحياةِ حَتْماً كأنَّه قيلَ : أمتنَا فمُتنَا موتتينِ اثنتينِ وأحييتَنا فحِيينَا حياتينِ اثنتينِ على طريقةِ قولِ مَنْ قالَ

وعضةُ دهرٍ يا ابْنَ مروانَ لمْ تدَعْ . . . منَ المالِ إلاَّ مُسْحَتٌ أو مُجلّفُ

(52/674)

أيْ لَم تدعَ فلمْ يبقَ إلا مسحتٌ الخ قيلَ : أرادُوا بالإماتةِ الأُولى خلْقَهُم أمواتاً وبالثانيةِ إماتتَهُم عندَ انقضاءِ آجالِهم على أنَّ الإماتةَ جعلُ الشيءِ عادمَ الحياةِ أعمُّ منْ أنْ يكونَ بإنشائِه كذلكَ كما في قولِهم سبحانَ منْ صغَّر البعوضَ وكبَّر الفيلَ أو بجعلِه كذلكَ بعدَ الحياةِ وبالإحياءينِ الإحياءَ الأولَ وإحياءَ البعثِ وقيل : أرادُوا بالإماتةِ الأُولى ما بعدَ حياةِ الدُّنيا وبالثانيةِ ما بعدَ حياةِ القبرِ وبالإحياءينِ ما في القبرِ وما عند البعثِ وهو الأنسبُ بحالِهم ، وأما حديثُ لزومِ الزيادةِ على النصِّ ضرورةَ تحققِ حياةِ الدُّنيا فمدفوعٌ لكنْ لا بما قيلَ من عدم اعتدادِهم بها لزوالِها وانقضائِها وانقطاعِ آثارِها وأحكامِها بل بأنَّ مقصودَهُم إحداثُ الاعترافِ بما كانوا يُنكِرونه في الدُّنيا كما ينطِقُ به قولُهم : ﴿ فاعترفنا بذنوبِنَا ﴾ والتزامُ العملِ بموجب ذلك الاعترافِ ليتوسلُوا بذلكَ إلى ما علقوا بهِ أطماعَهُم الفارغةَ من الرجْعِ إلى الدُّنيا كما قد صرَّحوا بهِ حيثُ قالوا : ﴿ فارجعنا نَعْمَلْ صالحا إنَّا مُوقِنُونَ ﴾ وَهُو الذي أرادُوه بقولِهم ﴿ فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مّن سَبِيلٍ ﴾ معَ نوعِ استبعادٍ لهُ واستشعارِ يأسٍ منْهُ لا أنَّهم قالوه بطريقِ القنوطِ البحتِ كما قيلِ : ولا ريبَ في أنَّ الذي كانَ يُنكرونَهُ ويُفرّعون عليهِ فنونَ الكفرِ والمعاصِي ليسَ إلا الإحياءَ بعدَ الموتِ وأمَّا الإحياءُ الأولُ فلم يكونُوا يُنكرونَه لينظِمُوه في سلكِ ما اعترفُوا بهِ وزعمُوا أنَّ الاعترافَ يُجديهُم نفعاً وإنما ذكرُوا الموتَةَ الأُولى معَ كونِهم معترفينَ بَها في الدُّنيا لتوقف حياةِ القبرِ عليهَا وكذا حالُ الموتةِ في القبرِ فإنَّ

مقصدَهُم الأصليَّ هوَ الاعترافُ بالإحياءينِ وإنَّما ذكرُوا الإماتتينِ لترتيبهما عليهما ذكراً حسبَ ترتبهما عليهما وجُوداً وتنكيرُ سبيلٍ

(53/674)

للإبهامِ أيْ منْ سبيلٍ مَا كيفَما كانَ وقولُه تعالَى :

﴿ ذلكم ﴾ الخ جوابٌ لَهُم باستحالةِ حصولِ مَا يرجُونه ببيانِ ما يوجبُها مِن أعمالِهم السيئةِ أيْ ذلكم الذي أنتمُ فيهِ منَ العذابِ مُطلقاً لا مقيداً بالخلودِ كَما قيلَ : ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ أيْ بسببِ أنَّ الشأنَ ﴿ إِذَا دُعِىَ اللهُ ﴾ فِي الدُّنيا أيْ عُبدَ ﴿ وَحْدَهُ ﴾ أيْ مُنْفَرِداً ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ أيْ بتوحيدِهِ ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ ﴾ أيْ بالإشراكِ به وتسارعوا فيه ، وفي إيرادِ إذَا وصيغةِ الماضِي في الشرطيةِ الأُولى وإنْ وصيغةِ المضارعِ في الثانيةِ ما لا يَخْفى منَ الدلالةِ على كمالِ سوءِ حالِهم وحيثُ كانَ حالُكم كذلكَ ﴿ فالحكم للَّهِ ﴾ الذي لا يَحكُم إلا بالحقِّ ولا يَقضِي إلاَّ بما تقتضيهِ الحكمةُ ﴿ العلى الكبير ﴾ الذي ليسَ كمثلِه شيءٌ في ذاتِه ولا في صفاتِه ولا في أفعالِه يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريدُ لا معقّبَ لحكمِه وقد حكمَ بأنَّه لا مغفرةَ للمشركِ ولا نهايةَ لعقوبتِه كَما لا نهايةَ لشناعتِه فلا سبيلَ لكُم إلى الخروجِ أَبداً .

(54/674)

﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمْ ءاياته ﴾ الدالةَ عَلى شؤونه العظيمةِ الموجبةِ لتفرده بالألوهيةِ لتستدلوا بها على ذلك وتعملوا بموجبهَا فتوحّدوه تعالَى وتخُصُّوه بالعبادةِ ﴿ وَيُنَزِّلُ ﴾ بالتشديدِ وقُرِىءَ بالتخفيفِ منَ الإنزالِ ﴿ لَكُم مّنَ السماء رِزْقاً ﴾ أيْ سببَ رزقٍ وهو المطرُ وإفرادُه بالذكرِ مع كونِه من جملةِ الآياتِ الدالةِ على كمالِ قُدرتِه تعَالى لتفردّه بعنوانِ كونِه من آثارِ رحمتِه وجلائلِ نعمتِه الموجبةِ للشكرِ ، وصيغةُ المضارعِ في الفعلينِ للدّلالةِ على تجددِ الإراءةِ والتنزيلِ واستمرارِهما ، وتقديمُ الجارّ والمجرورِ على المفعولِ لما مرَّ غيرَ مرةٍ ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ بتلكَ الآياتِ الباهرةِ ولا يَعملُ بمقتضاهَا ﴿ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ إلى الله تعَالى ويتفكرُ فيما أودَعهُ في تضاعيفِ مصنوعاتِهِ من شواهدِ قدرتِه الكاملةِ ونعمتِه الشاملةِ الموجبةِ لتخصيصِ العبادةِ بهِ تعَالَى ومن ليسَ كذلكَ فهُو بمعزلٍ منَ التذكرِ والاتعاظِ ﴿ فادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أيْ إذا كانَ الأمرُ كما ذكرَ منَ اختصاصِ التذكرِ بمنْ ينيبُ فاعبدُوه أيُّها المؤمنونَ مخلصينَ له دينَكُم بموجبَ إنابتِكم إليهِ تعالَى وإيمانِكم به ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ ذلكَ وغاظَهُم إخلاصُكم .

(55/674)

﴿ رَفِيعُ الدرجات ﴾ نحوُ بديعِ السمواتِ عَلى أنه صفةٌ مشبّهةٌ أُضيفتْ إلى فاعِلها بعدَ النقلِ إلى فُعُلٍ بالضمِّ كما هُوَ المشهورُ وتفسيرُه بالرافعِ ليكونَ منْ إضافِه اسمِ الفاعلِ إلى المفعولِ بعيدٌ في الاستعمالِ أيْ رفيعُ درجاتِ ملائكتِه أي معارجِهم ومصاعدِهم إلى العرشِ ﴿ ذُو العرش ﴾ أيْ مالكُه وهُمَا خبرانِ آخرانِ لقولِه تعالى : (هوَ) أخبرَ عنْهُ بهما إيذاناً بعلوِّ شأنِه تَعَالى وعظمِ سُلطانِه الموجبَيْنِ لتخصيصِ العبادةِ بهِ وإخلاصِ الدينِ لهُ إمَّا بطريقِ الاستشهادِ بهمَا عليهَما فإنَّ ارتفاعَ معارجَ ملائكتِه إلى العرشِ وكونَ العرشِ العظيمِ المحيطِ بأكنافِ العالمِ العلويِّ والسفليِّ تحتَ ملكوتِه وقبضةِ قدرتِه مما يقضِي بكونِ علوِّ شأنِه وعظمِ سُلطانِه في غايةٍ لاغايةَ وراءَهَا وإمَّا بجعلِهما عبارةً عنهما بطريقِ المجازِ المتفرعِ على الكنايةِ كالاستواءِ على العرشِ وتمهيداً لما يعقُبهما من قولِه تعالى ﴿ يُلْقِى الروحَ مِنْ أَمْرِه ﴾ فإنَّه خبرٌ آخرُ لمَا ذكرَ منبىءٌ عن إنزالِ الرزقِ الرُّوحانِيِّ الذي هُو الوحيُ بعدَ بيانِ إنزالِ الرزقِ الجُسمانيِّ الذي هُو المطرُ أي ينزلُ الوحيَ الجاريَ من القلوبِ منزلةَ الروحِ منَ الأجسادِ وقولُه تعالَى مِنْ أمرِه بيانٌ للروحِ الذي أريدَ بهِ الوحيُ فإنَّه أمرٌ بالخيرِ أو حالٌ منهُ أيْ حالَ كونِه ناشئاً ومبتدأً منْ أمرِه أو صفةٌ لهُ عَلى رأْيِ منْ يجوزُ حذفَ الموصولِ معَ بعضِ صلتِه أي الروحَ الكائنَ منْ أمرِه أو متعلقٌ بيُلقِي ومَنْ للسببيةِ كالباءِ مثلُ ما في قولِه تعَالى : ﴿ مّمَّا خطيئاتهم ﴾ أي يُلقِي الوحيَ بسببِ أمرِه ﴿ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهوَ الذي

اصطفاهُ لرسالتِه وتبليغِ أحكامِه إليهمْ ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ أي الله تعالَى أو الملقى عليه أو الروح، وقرىء لتنذر على أن الفاعل هو الرسول عليه الصلاة والسلام أو الرُّوحُ

(56/674)

لأنَّها قد نوّنت ﴿ يَوْمَ التلاق ﴾ إما ظرفٌ للمفعولِ الثانِي أي لينذرَ الناسَ يوم العذابَ التلاقِ وهو يومُ القيامةِ لأنَّه يتلاقَى فيهِ الأرواحُ والأجسامُ وأهلُ السمواتِ والأرضِ أو هُو المفعولُ الثانِي اتساعاً أوْ أصالةً فإنَّه منْ شدةِ هولِه وفظاعتِه حقيقٌ بالإنذارِ أصالةً وقُرِىءَ لِيُنْذرَ عَلَى البناءِ للمفعولِ ورفعِ اليومِ.

﴿ يَوْمَ هُم بارزون ﴾ بدلٌ منْ يومِ التلاقِ أيْ خارجونَ من قبورِهم أو ظاهرونَ لا يسترُهُم شيءٌ من جبلٍ أو أكَمةٍ أوْ بناءٍ لكونِ الأرضِ يومئذٍ قاعاً صفصفاً ولاَ عليهمْ ثيابٌ إنما هُم عراةٌ مكشوفونَ كما جاءَ فِي الحديثِ "يحشرونَ عُراةً حُفاه غُرْلا" وقيلَ: ظاهرةٌ نفوسُهم لا تحجبُهم غواشِي الأبدانِ. أوْ أعمالُهم وسرائرُهم ﴿ لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَىْء ﴾ استئنافٌ لبيانِ بروزِهم وتقريرٌ له وإزاحةٌ لما يتوهمُّه المتوهمونَ فِي الدُّنيا منَ الاستتارِ توهماً باطلاً أو خبرٌ ثانٍ وقيلَ: حَالٌ منْ ضميرِ بارزونَ أيْ لا يخْفى عليهِ تَعَالى شيءٌ مَا منْ أعيانِهم وأعمالِهم وأحوالِهم الجليلةِ والخفيةِ السابقةِ واللاحقةِ.

﴿ لِّمَنِ الملك اليومِ للَّهِ الواحد القهار ﴾ حكايةٌ لِمَا يقعُ حينئذٍ منَ السؤال والجوابِ بتقديرِ قولٍ معطوفٍ على ما قبلَهُ من الجملةِ المنفيةِ المستأنفةِ أو مستأنفٌ يقعُ جواباً عنْ سؤالٍ نشأَ منْ حكايةِ بروزِهم وظهورِ أحوالِهم كأنَّه قيلَ فماذا يكونُ حينئذٍ فقيلَ : يقالُ الخ أيْ يُنادِي منادٍ لِمنِ الملكُ اليومَ فيجيبُهُ أهلُ المحشرِ لله الواحدِ القهارِ وقيلَ المجيبُ هُوَ السائلُ بعينِه لما رُوي أنَّه يجمعُ اللهُ الخلائقَ يومَ القيامةِ في صعيدٍ واحدٍ في أرضٍ بيضاءَ كأنَّها سبيكةُ فضةٍ لم يعصَ اللهَ فيها قطُّ فأولُ ما يتكلمُ بهِ أنْ ينادِيَ منادٍ لمنِ الملكُ اليومَ للهِ الواحدِ القهارِ وقيلَ حكايةً لما ينطقُ بهِ لسانُ الحالِ من تقطعِ أسبابِ التصرفاتِ المجازيةِ واختصاصِ جميعِ الأفاعيلِ بقبضةِ القدرةِ الإلهيةِ ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ إلخ إمَّا منْ تتمةِ الجوابِ لبيانِ حكمِ اختصاصِ الملكِ بهِ تعالَى ونتيجتِه التي هيَ الحكمُ السويُّ والقضاءُ الحقُّ أوْ حكايةً لِمَا سيقولُه تعالى يومئذٍ عقيبَ السؤالِ والجوابِ أيْ تُجزى كُلُّ نفسٍ منَ النفوسِ البَرّةِ والفاجرةِ بما كسبتْ منْ خيرٍ أوْ شرَ ﴿ لاَ ظُلْمَ اليوم ﴾ بنقصِ ثوابٍ أوْ زيادةِ عذابٍ ﴿ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحساب ﴾ أيْ سريعٌ حسابُه تماماً إذْ لا يشغلُه تعالَى شأنٌ عنْ شأنٍ فيحاسبُ الخلائقَ قاطبةً في أقربِ زمانٍ كما نُقلَ عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عَنْهما أنَّه

تعالَى إذَا أخذَ في حسابِهم لم يقِلْ أهلُ الجنةِ إلاَّ فيهَا ولا أهلُ النارِ إلا فيهَا فيكونُ تعليلاً لقولِه تعالَى اليومَ تُجزى الخ فإنّ كونَ ذلكَ اليومِ بعينِه يومَ التلاقِي ويومَ البروزِ ممّا يوهم استبعادَ وقوعِ الكُلِّ فيهِ أو سريعٌ مَجيئاً فيكونُ تعليلاً للإنذارِ .

(58/674)

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة ﴾ أي القيامةِ سميتْ بَها لأُزوفِهَا وهُو القربُ غيرَ أنَّ فيهِ إشعاراً بضيقِ الوقتِ وقيلَ الخطةُ الآزفةُ وهي مشارفةُ أهلِ النارِ دخولَها وقيل : وقتَ حضورِ الموتِ كما في قولِه تعالَى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ وقولِه : ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التراقى ﴾ وقولُه تعالَى : ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ بدلٌ منْ يومَ الآزفةِ فإنَّها ترتفعُ من أماكِنها فتلتصقُ بحلوقِهم فلا تعودُ فيتروّحوا ولا تخرجُ فيستريحوا بالموتِ ﴿ كاظمين ﴾ عَلى الغَمّ حالٌ منْ أصحابِ القلوبِ عَلى المَعْنى إذِ الأصلُ قلوبُهم أوْ منْ ضميرِهَا في الظرفِ وجمعُ السلامةِ باعتبارِ أنَّ الكظَم منْ أحوالِ العُقلاءِ كقولِه تعالَى : ﴿ فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ أوْ منْ مفعولِ أنذرْهم عَلى أنَّها حالٌ مقدرةٌ أيْ أنذرهُم مقدراً كظمَهُم أوْ مشارفينَ الكظمَ .

﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أَيْ قريبٍ مشفقٍ ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أيْ لاَ شفيعَ مُشفَّعٌ على مَعْنى نفِي الشفاعةِ والطاعةِ معاً على طريقةِ قولِه

(59/674)

على لاحبٍ لا يُهتدى بمنارِ . . . والضمائرُ إنْ عادتْ إلى الكُفارِ وهو الظاهرُ فوضعُ الظالمينَ موضعَ ضميرِهم للتسجيلِ عليهم بالظلمِ وتعليلِ الحكمِ بهِ ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعين ﴾ النظرةَ الخائنةَ كالنظرةِ الثانيةِ إلى غيرِ المَحْرمِ واستراقِ النظرِ إليهِ أو خيانةَ الأعينِ على أنها مصدرٌ كالعافيةِ ﴿ وَمَا تُخْفِى الصدور ﴾ من الضمائرِ والأسرارِ والجملةُ خبرٌ آخرُ مثلُ يُلقي الروحَ للدّلالةِ على أنَّه ما مِنْ خفيَ إلا وهُو متعلقُ العلمِ والجزاءِ . ﴿ واللهُ يَقْضِى بالحق ﴾ لأنَّه المالكُ الحاكُم على الإطلاقِ فلا يقضِي بشيءٍ إلا وهُو حقٌّ وعدلٌ ﴿ والذين يَدْعُونَ ﴾ يعبدونَهم ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ تعالَى ﴿ لاَ يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ تهكمٌ بهم لأنَّ الجمادَ لا يُقالُ في حقِّه يَقْضِي أو لا يَقْضِي . وقُرِىءَ تَدْعُون عَلى الخطابِ التفاتاً أو على إضمارِ قُلْ ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ السميع البصير ﴾ تقريرٌ لعلمِه تعالَى بخائنةِ الأعينِ وقضائِه بالحقِّ ووعيدٌ لهمُ على ما يقولونَ ويفعلونَ وتعريضٌ بحالِ ما يدْعونَ من دونِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزفة ﴾

يوم القيامة كما قال مجاهد .

وقتادة .

وابن زيد ، ومعنى ﴿ الازفة ﴾ القريبة يقال : أزف الشخوص إذا قرب وضاق وقته ، فهي في الأصل اسم فاعل ثم نقلت منه وجعلت اسماً للقيامة لقربها بالإضافة لما مضى من مدة الدنيا أو لما بقي فإن كل آت قريب ، ويجوز أن تكون باقية على الأصل فتكون صفة لمحذوف أي الساعة الآزفة ، وقدر بعضهم الموصوفة الخطة بضم الخاء المعجمة وتشديد الطاء المهملة وهي القصة والأمر العظيم الذي يستحق أن يخط ويكتب لغرابته ، ويراد بذلك ما يقع يوم القيامة من الأمور الصعبة وقربها لأن كل آت قريب ، والمراد باليوم الوقت مطلقاً أو هو يوم القيامة ، وقال أبو مسلم : ﴿ يَوْمَ الازفة ﴾ يوم المنية وحضور الأجل . ورجح بأنه أبعد عن التكرار وأنسب بما بعده ووصف القرب فيه أظهر ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ الازفة ﴾ و ﴿ الحناجر ﴾ جمع حنجرة أو حنجور كحلقوم

لفظاً ومعنى ؛ وهي كما قال الراغب : رأس الغلصمة من خارج وهي لحمة بين الرأس والعنق ، والكلام كناية عن شدة الخوف أو فرط التألم ، وجوز أن يكون على حقيقته وتبلغ قلوب الكفار حناجرهم يوم القيامة ولا يموتون كما لو كان ذلك في الدنيا .

﴿ كاظمين ﴾ حال من أصحاب القلوب على المعنى فإن ذكر القلوب يدل على ذكر أصحابها فهو من باب ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا ﴾ [الحجر : 47] فكأنه قيل : إذ قلوبهم لدى الحناجر كاظمين عليها ، وهو من كظم القربة إذا ملأها وسد فاها ، فالمعنى ممسكين أنفسهم على قلوبهم لئلا تخرج مع النفس فإن كاظم القربة كاظم على الماء ممسكها علية لئلا يخرج امتلاء .

وفيه مبالغة عظيمة ، وجوز كونه حالاً من ضمير ﴿ القلوب ﴾ المستتر في الخبر أعني ﴿ لَدَى الحناجر ﴾ وعلى رأي من يجوز مجيء الحال من المبتدأ كونه حالاً من ﴿ القلوب ﴾ نفسها .

(61/674)

وجمع جمع العقلاء لتنزيلها منزلتهم لوصفها بصفتهم كما في قوله تعالى : ﴿ فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ [الشعراء : 4] والمعنى حال كون القلوب كاظمة على الغم والكرب ،

ومنه يعلم أنه لا يجوز أن يكون ﴿ لَدَى الحناجر ﴾ ظرف ﴿ كاظمين ﴾ لفساد المعنى والحاجة إلى تقدير محذوف مع الغنى عنه ، وكذلك على قراءة ﴿ كاظمون ﴾ للأول فقط فيتعين كون ﴿ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ خبراً و ﴿ كاظمون ﴾ خبراً آخر وبذلك يترجح كون الحال من القلوب ، وقدر الكواشي هم كاظمون ليوافق وجه الحالية من الأصحاب" وجوز كونه حالاً من مفعول ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ ﴾ أي أنذرهم مقدراً كظمهم أو مشارفين الكظم .

﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي قريب مشفق من احتم فلان لفلان احتد فكأنه الذي يحتد حماية لذويه ويقال لخاصة الرجل حامته ومن هنا فسر الحميم بالصديق ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أي ولا شفيع يشفع فالجملة في محل جر أو رفع صفة ﴿ شَفِيعٍ ﴾ والمراد نفي الصفة والموصوف لا الصفة فقط ليدل على أن ثم شفيعاً لكن لا يطاع فالكلام من باب

: لا ترى الضب بها ينجحر . . .

ولم يقتصر على نفع الشفيع بل ضم إليه ما ضم ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة فيكون ذلك الضم إزالة لتوهم وجود الموصوف حيث جعل انتفاؤه أمراً مسلماً مشهوراً لا نزاع فيه لأن الدليل ينبغي أن يكون أوضح من المدلول ، وهذا كما تقول لمن عاتبك على القعود عن الغزو مالي فرس أركبه وما معي سلاح أحارب به فليفهم ، والضمائر المذكورة من قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ ﴾ إلى هنا إن كانت للكفار كما هو

الظاهر فوضع الظالمين موضع ضميرهم للتسجيل عليهمب الظلم وتعليل الحكم ، وإن كانت عامة لهم ولغيرهمف ليس هذا من باب وضع الظاهر موضع الضمير وإنما هو بيان حكم للظالمين بخصوصهم ، والمراد بهم الكاملون في الظلم وهم الكافرون لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13]

(62/674)

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعين ﴾ أي النظرة الخائنة كالنظرة إلى غير المحرم واستراق النظر إليه وغير ذلك فخائنة صفة لموصوف مقدر ، وجعل النظرة خائنة إسناد مجازي أو استعارة مصرحة أو مكنية وتخييلية بجعل النظر بمنزلة شيء يسرق من المنظور إليه ولذا عبر فيه بالاستراق ، ويجوز أن يكون خائنة مصدراً كالكاذبة والعاقبة والعافية أي يعلم سبحانه خيانة الأعين ، وقيل : هو وصف مضاف إلى موصوفه كما في قوله

: وإن سقيت كرام الناس فاسقينا . . .

(63/674)

أي يعلم سبحانه الأعين الخائنة ولا يحسن ذلك لقوله تعالى : ﴿ وَمَا بِذَاتِ الصدور ﴾ أي والذي تخفيه الصدور من الضمائر أو إخفاء الصدور لما تخفيه من ذلك لأن الملاءمة واجبة الرعاية في علم البيان وملائم الأعين الخائنة الصدور المخفية ، وما قيل في عدم حسن ذلك من أن مقام المبالغة يقتضي أن يراد استراق العين ضم إليه هذه القرينة أولاً فغير قادح في التعليل المذكور إذ لا مانع من أن يكون على مطلوب دلائل ثم لولا القرينة لجاز أن تجعل الأعين تمهيداً للوصف فالقرينة هي المانعة وهذه الجملة على ما في "الكشاف" متصلة بأول الكلام خبر من أخبار هو في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمُ ﴾ [الرعد : 13] على معنى هو الذي يريكم الخ وهو يعلم خائنة الأعين ولم يجعله تعليلاً لنفي الشفاعة على معنى ما لهم من شفيع لأن الله تعالى يعلم منهم الخيانة سراً وعلانية قيل : لأنه لا يصلح تعليلاً لنفيها بل لنفي قبولها فإن الله تعالى هو العالم لا الشفيع والمقصود نفي الشفاعة ، ووجه تقرير هذا الخبر في هذا الموضع ما فيه من التخلص إلى ذم آلهتهم مع أن تقديمه على ﴿ الذى يُرِيكُمُ ﴾ لا وجه له لتعلقه بما قبله أشد التعلق كما أشير إليه وكذلك على ﴿ رَفِيعُ الدرجات ﴾ [غافر : 15] لاتصاله بالسابق وأمر المنيبين بالإخلاص ولما فيه من النبو من توسيط المنكر الفعلي بين المبتدأ وخبره المعرف الإسمي ، وأما توسيطه بين القرائن الثلاث فبين العصا ولحائها فلا موضع له أحق من هذا ولا يضر البعد اللفظي في مثل ذلك كما لا يخفى ، وظن بعضهم ضرره فمنهم من قال : الجملة متصلة بمجموع قوله عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الازفة ﴾ [

غافر : 18] إلى آخره ، وذلك أنه سبحانه لما أمر بإنذار ذلك اليوم وما يعرض فيه من شدة الكرب والغم وذكر تعالى أن الظالم لا يجد من يحميه من ذلك ولا من يشفع له ذكر جل وعلا اطلاعه على جميع ما يصدر من العبد وإنه مجازي بما عمل ليكون على حذر

(64/674)

من ذلك اليوم إذا علم أن الله تعالى مطلع على أعماله وإلى هذا ذهب أبو حيان .

وقال ابن عطية : هي متصلة بقوله تعالى : ﴿ سَرِيعُ الحساب ﴾ [غافر : 17] لأن سرعة حسابه تعالى للخلق إنما هي لعلمه تعالى الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكر ولا لشيء مما يحتاجه المحاسبون ، وحكى رحمه الله تعالى عن فرقة أنها متصلة بقوله تعالى : ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ ثم قال : وهذا قول حسن يقويه تناسب المعنيين ويضعفه البعد وكثرة الحائل ، وجعلها بعض متثلة بنفي قبول الشفاعة الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر : 18] فإن ﴿ يُطَاعُ ﴾ المنفي بمعنى تقبل شفاعته على أنها تعليل لذلك أي لا تقبل شفاعة شفيع لهم لأن الله تعالى يعلم منه الخيانة سراً وعلانية وليست تعليلاً لنفي الشفاعة ليرد ما قيل ، ولا يخفى ما فيه ، ولعمري أن جار الله في مثل هذا المقام لا يجارى .

﴿ واللهُ يَقْضِى بالحق ﴾ أي والذي هذه صفاته يقضي قضاءً ملتبساً بالحق لا بالباطل لاستغنائه سبحانه عن الظلم ، وتقديم المسند إليه للتقوى ، وجوز أن يكون للحصر وفائدة العدول عن المضمر إلى المظهر والإتيان بالاسم الجامع عقيب ذكر الأوصاف ما أشير إليه من إرادة الموصوف بتلك الصفات .

﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ تهكم بآلهتهم لأن الجماد لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي ، وجعله بعضهم من باب المشاكلة وأصله لا يقدرون على شيء ، واختير الأول قيل لأن التهكم أبلغ لأنه ليس المقصود الاستدلال على عدم صلاحيتهم للإلهية .

وقرأ أبو جعفر .

وشيبة .

ونافع بخلاف عنه .

(65/674)

وهشام ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بتاء الخطاب على الالتفات ، وجوز أن يكون على إضمار قل فلا يكون التفاتاً وإن عبر عنه بالغيبة قبله لأنه ليس على خلاف مقتضى الظاهر إذ هو ابتداء كلام مبني على خطابهم ﴿ إِنَّ الله هُوَ السميع البصير ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين

وما تخفي الصدور وقضاؤه سبحانه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه عز وجل ، وفيه إشارة إلى أن القاضي ينبغي أن يكون سميعاً بصيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(66/674)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10) ﴾

لما ذكر سبحانه حال أصحاب النار ، وأنها حقت عليهم كلمة العذاب ، وأنهم أصحاب النار ذكر أحوالهم بعد دخول النار ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ ﴾ .

قال الواحدي : قال المفسرون : إنهم لما رأوا أعمالهم ، ونظروا في كتابهم ، وأدخلوا النار ، ومقتوا أنفسهم بسوء صنيعهم ناداهم حين عاينوا عذاب الله مناد : ﴿ لَمَقْتُ الله ﴾ إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان ، فتكفرون ﴿ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ اليوم .

قال الأخفش : هذه اللام في لمقت هي : لام الابتداء أوقعت بعد ينادون ؛ لأن معناه : يقال لهم ، والنداء قول .

قال الكلبي : يقول كل إنسان لنفسه من أهل النار : مقتك يا نفس ، فتقول الملائكة لهم ، وهم في النار : لمقت الله إياكم في الدنيا أشدّ من مقتكم أنفسكم اليوم .

وقال الحسن : يعطون كتابهم ، فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم ، فينادون : لمقت الله إياكم في الدنيا ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ ﴾ أكبر من مقتكم أنفسكم إذ عاينتم النار ، والظرف في : ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ ﴾ منصوب بمقدّر محذوف دلّ عليه المذكور ، أي : مقتكم وقت دعائكم .

وقيل : بمحذوف هو : اذكروا .

وقيل : بالمقت المذكور ، والمقت أشدّ البغض .

(67/674)

ثم أخبر سبحانه عما يقولون في النار ، فقال : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ اثنتين في الموضعين نعتان لمصدر محذوف ، أي : أمتنا إماتتين اثنتين ، وأحييتنا إحياءتين اثنتين ، والمراد بالإماتتين : أنهم كانوا نطفاً لا حياة لهم في أصلاب آبائهم ، ثم أماتهم بعد أن صاروا أحياء في الدنيا ، والمراد بالإحياءتين : أنه أحياهم الحياة الأولى في الدنيا ، ثم أحياهم عند البعث ، ومثل هذه الآية قوله : ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ

يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: 28].

وقيل: معنى الآية: أنهم أميتوا في الدنيا عند انقضاء آجالهم، ثم أحياهم الله في قبورهم للسؤال، ثم أميتوا، ثم أحياهم الله في الآخرة، ووجه هذا القول: أن الموت سلب الحياة، ولا حياة للنطفة.

ووجه القول الأوّل: أن الموت قد يطلق على عادم الحياة من الأصل، وقد ذهب إلى تفسير الأوّل جمهور السلف.

وقال ابن زيد: المراد بالآية: أنه خلقهم في ظهر آدم، واستخرجهم، وأحياهم، وأخذ عليهم الميثاق، ثم أماتهم، ثم أحياهم في الدنيا، ثم أماتهم.

ثم ذكر سبحانه اعترافهم بعد أن صاروا في النار بما كذبوا به في الدنيا، فقال حاكياً عنهم: ﴿ فاعترفنا بِذُنُوبِنَا ﴾ التي أسلفناها في الدنيا من تكذيب الرّسل، والإشراك بالله، وترك توحيده، فاعترفوا حيث لا ينفعهم الاعتراف، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وقد جعلوا اعترافهم هذا مقدّمة لقولهم: ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي: هل إلى خروج لنا من النار، ورجوع لنا إلى الدنيا من سبيل، ومثل هذا قولهم الذي حكاه الله عنهم: ﴿ فَهَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: 44]، وقوله: ﴿ فارجعنا نَعْمَلْ صالحا ﴾ [السجدة: 12]، وقوله: ﴿ ياليتنا نُرَدُّ ﴾ [الأنعام: 27] الآية.

ثم أجاب الله سبحانه عن قولهم هذا بقوله : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ﴾ أي : ذلك الذي أنتم فيه من العذاب بسبب أنه إذا دعي الله في الدنيا وحده دون غيره كفرتم به ، وتركتم توحيده ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ ﴾ غيره من الأصنام ، أو غيرها ﴿ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ بالإشراك به ، وتجيبوا الدّاعي إليه ، فبيّن سبحانه لهم السبب الباعث على عدم إجابتهم إلى الخروج من النار ، وهو ما كانوا فيه من ترك توحيد الله ، وإشراك غيره به في العبادة التي رأسها الدّعاء ، ومحل ذلكم الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : الأمر ذلكم ، أو مبتدأ خبره محذوف ، أي : ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بذلك السبب ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فأجيبوا بأن لا سبيل إلى الرّدّ ، وذلك لأنكم كنتم إذا دعي الله .

. .

إلخ ﴿ فالحكم للَّهِ ﴾ : وحده دون غيره ، وهو الذي حكم عليكم بالخلود في النار ، وعدم الخروج منها ، و ﴿ العلى ﴾ : المتعالي عن أن يكون له مماثل في ذاته ، ولا صفاته ، و ﴿ الكبير ﴾ : الذي كبر عن أن يكون له مثل ، أو صاحبة ، أو ولد ، أو شريك ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي : دلائل توحيده ، وعلامات قدرته ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾ يعني : المطر ، فإنه سبب الأرزاق .

جمع سبحانه بين إظهار الآيات ، وإنزال الأرزاق ، لأن بإظهار الآيات قوام الأديان ،

وبالأرزاق قوام الأبدان ، وهذه الآيات هي : التكوينية التي جعلها الله سبحانه في سمواته ، وأرضه ، وما فيهما ، وما بينهما .

قرأ الجمهور : ﴿ ينزل ﴾ بالتشديد .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بالتخفيف ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ أي : ما يتذكر ، ويتعظ بتلك الآيات الباهرة ، فيستدلّ بها على التوحيد ، وصدق الوعد ، والوعيد إلا من ينيب ، أي : يرجع إلى طاعة الله بما يستفيده من النظر في آيات الله .

(69/674)

ثم لما ذكر سبحانه ما نصبه من الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه ، وإخلاص الدّين له ، فقال : ﴿ فادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي : إذا كان الأمر كما ذكر من ذلك ، فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التي أمركم بها ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ ذلك ، فلا تلتفتوا إلى كراهتهم ، ودعوهم يموتوا بغيظهم ، ويهلكوا بحسرتهم .

﴿ رَفِيعُ الدرجات ﴾ ، وارتفاع رفيع الدرجات على أنه خبر آخر عن المبتدأ المتقدّم أي : هو الذي يريكم آياته ، وهو رفيع الدرجات .

وكذلك ﴿ ذُو العرش ﴾ خبر ثالث ، ويجوز أن يكون رفيع الدرجات مبتدأ ، وخبره ﴾

ذُو العرش ﴾ ، ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف ، ورفيع صفة مشبهة ، والمعنى : رفيع الصفات ، أو رفيع درجات ملائكته ، أي : معارجهم ، أو رفيع درجات أنبيائه ، وأوليائه في الجنة .

وقال الكلبي ، وسعيد بن جبير : رفيع السموات السبع ، وعلى هذا الوجه يكون رفيع بمعنى : رافع ، ومعنى ، ذو العرش : مالكه ، وخالقه ، والمتصرف فيه ، وذلك يقتضي علوّ شأنه ، وعظم سلطانه ، ومن كان كذلك ، فهو الذي يحقّ له العبادة ، ويجب له الإخلاص ، وجملة : ﴿ يُلْقِى الروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ في محل رفع على أنها خبر آخر للمبتدأ المتقدّم ، أو للمقدّر ، ومعنى ذلك : أنه سبحانه يلقي الوحي ﴿ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ، وسمي الوحي : روحاً ، لأن الناس يحيون به من موت الكفر كما تحيا الأبدان بالأرواح ، وقوله : ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ متعلق ب ﴿ يلقى ﴾ ، و "من" لابتداء الغاية ، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف على أنه حال من الروح ، ومثل هذه الآية قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52] .

(70/674)

وقيل : الروح جبريل كما في قوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] ، وقوله : ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس مِن رَّبِّكَ بالحق ﴾ [النحل : 102] ، وقوله : ﴿ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ هم : الأنبياء ، ومعنى ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ : من قضائه ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ لينذر ﴾ مبنياً للفاعل ، ونصب اليوم ، والفاعل هو : الله سبحانه ، أو الرسول ، أو من يشاء ، والمنذر به محذوف تقديره : لينذر العذاب يوم التلاق .

وقرأ أبيّ ، وجماعة كذلك إلا أنه رفع اليوم على الفاعلية مجازاً .

وقرأ ابن عباس ، والحسن ، وابن السميفع : (لتنذر) بالفوقية على أن الفاعل ضمير المخاطب ، وهو : الرسول ، أو ضمير يرجع إلى الرّوح ؛ لأنه يجوز تأنيثها .

وقرأ اليماني : (لينذر) على البناء للمفعول ، ورفع يوم على النيابة ، ومعنى ﴿ يَوْمَ التلاق ﴾ : يوم يلتقي أهل السموات ، والأرض في المحشر ، وبه قال قتادة .

وقال أبو العالية ، ومقاتل : يوم يلتقي العابدون ، والمعبودون ، وقيل : الظالم ، والمظلوم .

وقيل : الأوّلون ، والآخرون .

وقيل : جزاء الأعمال ، والعاملون .

وقوله : ﴿ يَوْمَ هُم بارزون ﴾ بدل من يوم التلاق .

وقال ابن عطية : هو منتصب بقوله : ﴿ لاَ يخفى عَلَى الله ﴾ وقيل : منتصب بإضمار اذكر ، والأوّل أولى ، ومعنى بارزون : خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء ، وجملة : ﴿ لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾ مستأنفة مبينة لبروزهم ، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من ضمير بارزون ، ويجوز أن تكون خبراً ثانياً للمبتدأ ، أي : لا يخفى عليه سبحانه شيء منهم ، ولا من أعمالهم التي عملوها في الدنيا ، وجملة : ﴿ لّمَنِ الملك اليوم ﴾ مستأنفة جواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا يقال عند بروز الخلائق في ذلك اليوم ؟ ، فقيل : يقال : لمن الملك اليوم ؟ قال المفسرون : إذا هلك كل من في السموات ، والأرض ، فيقول الرّبّ تبارك وتعالى : ﴿ لّمَنِ الملك اليوم ﴾ يعني : يوم القيامة ، فلا يجيبه أحد ، فيجيب تعالى نفسه ، فيقول : ﴿ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ قال الحسن : هو السائل تعالى ، وهو المجيب حين لا أحد يجيبه ، فيجيب نفسه .

وقيل : إنه سبحانه يأمر منادياً ينادي بذلك ، فيقول أهل المحشر مؤمنهم ، وكافرهم : ﴿ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ وقيل : إنه يجيب المنادي بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار .

(72/674)

وقيل : هو حكاية لما ينطق به لسان الحال في ذلك اليوم لانقطاع دعاوي المبطلين ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين * يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الانفطار : 17 19] ، وقوله : ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ اليوم إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ من تمام الجواب على القول بأن المجيب هو : الله سبحانه ، وأما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم ، أو بعضهم ، فهو : مستأنف لبيان ما يقوله الله سبحانه بعد جوابهم أي : اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من خير وشرّ لا ظلم اليوم على أحد منهم بنقص من ثوابه ، أو بزيادة في عقابه ﴿ إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ أي : سريع حسابه ، لأنه سبحانه لا يحتاج إلى تفكر في ذلك كما يحتاجه غيره لإحاطة علمه بكل شيء ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة .

ثم أمر الله سبحانه رسوله : بإنذار عباده ، فقال : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة ﴾ أي : يوم القيامة سميت بذلك لقربها ، يقال : أزف فلان ، أي : قرب يأزف أزفاً ، ومنه قول النابغة :

أزف الترحل غير أن ركابنا . . . لما تزل برحالنا وكأن قد

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزفة ﴾ [النجم : 57] أي : قربت الساعة .

وقيل : إن يوم الآزفة هو : يوم حضور الموت ، والأوّل أولى .

قال الزجاج : وقيل لها : آزفة ؛ لأنها قريبة ، وإن استبعد الناس أمرها ، وما هو كائن ، فهو : قريب ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر كاظمين ﴾ وذلك أنها تزول عن مواضعها من الخوف

حتى تصير إلى الحنجرة كقوله : ﴿ وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : 10] .

﴿ كاظمين ﴾ مغمومين مكروبين ممتلئين غمًّا .

قال الزجاج : المعنى : إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم .

قال قتادة : وقعت قلوبهم في الحناجر من المخافة ، فهي لا تخرج ، ولا تعود في أمكنتها .

(73/674)

وقيل : هو إخبار عن نهاية الجزع ، وإنما قال كاظمين باعتبار أهل القلوب ، لأن المعنى : إذ قلوب الناس لدى حناجرهم ، فيكون حالاً منهم .

وقيل : حالاً من القلوب ، وجمع الحال منها جمع العقلاء ؛ لأنه أسند إليها ما يسند إلى العقلاء فجمعت جمعه .

ثم بين سبحانه : أنه لا ينفع الكافرين في ذلك اليوم أحد ، فقال : ﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي : قريب ينفعهم ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ في شفاعته لهم ، ومحل ﴿ يطاع ﴾ الجر على أنه صفة ل ﴿ شفيع ﴾ .

ثم وصف سبحانه شمول علمه لكل شيء ، وإن كان في غاية الخفاء فقال : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعين ﴾ ، وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحلّ النظر إليه ، والجملة خبر آخر لقوله : ﴿ هُوَ

الذى يُرِيكُمُ ﴾ قال المؤرج : فيه تقديم ، وتأخير ، أي : يعلم الأعين الخائنة .

وقال قتادة : خائنة الأعين : الهمز بالعين فيما لا يحب الله .

وقال الضحاك : هو قول الإنسان ما رأيت ، وقد رأى ، ورأيت ، وما رأى .

وقال سفيان : هي : النظرة بعد النظرة .

والأول أولى ، وبه قال مجاهد ﴿ وَمَا تُخْفِى الصدور ﴾ من الضمائر ، وتسرّه من معاصي الله ﴿ والله يَقْضِى بالحق ﴾ فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير ، وشرّ ﴿ والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أي : تعبدونهم من دون الله ﴿ لاَ يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ ، لأنهم لا يعلمون شيئاً ، ولا يقدرون على شيء .

قرأ الجمهور : ﴿ يدعون ﴾ بالتحتية يعني : الظالمين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وأبو حاتم ، وقرأ نافع ، وشيبة ، وهشام بالفوقية على الخطاب لهم ﴿ إِنَّ الله هُوَ السميع البصير ﴾ ، فلا يخفى عليه من المسموعات ، والمبصرات خافية .

(74/674)

وقد أخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ قال : هي مثل التي

في البقرة ﴿ كُنتُمْ أمواتا فأحياكم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : 28] كانوا أمواتاً في صلب آبائهم ، ثم أخرجهم ، فأحياهم ، ثم أماتهم ، ثم يحييهم بعد الموت .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : كنتم تراباً قبل أن يخلقكم ، فهذه ميتة ، ثم أحياكم ، فخلقكم ، فهذه حياة ، ثم يميتكم ، فترجعون إلى القبور ، فهذه ميتة أخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة ، فهذه حياة ، فهما موتتان ، وحياتان كقوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَوْمَ التلاق ﴾ قال : يوم القيامة يلتقي فيه آدم ، وآخر ولده .

وأخرج عنه أيضاً قال : ﴿ يَوْمَ التلاق ﴾ يوم الآزفة ، ونحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمه الله ، وحذره عباده .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وأبو نعيم في الحلية عنه أيضاً قال : "ينادي مناد بين يدي الساعة : يا أيها الناس أتتكم الساعة ، فيسمعها الأحياء ، والأموات ، وينزل الله إلى السماء الدنيا ، فيقول : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في البعث ، والديلمي عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله .

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن مسعود قال : "يجمع الله الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط ، فأوّل ما يتكلم أن ينادي منادٍ : ﴿ لّمَنِ الملك اليوم للَّهِ الواحد القهار ﴾ ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ اليوم إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ فأول ما يبدأ به من الخصومات الدماء" .

(75/674)

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِى الصدور ﴾ قال : الرجل يكون في القوم ، فتمرّ بهم المرأة ، فيريهم أنه يغضّ بصره عنها ، وإذا غفلوا لحظ إليها ، وإذا نظروا غضّ بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ودّ أن ينظر إلى عورتها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال : إذا نظر إليها يريد الخيانة أم لا ﴿ وَمَا تُخْفِى الصدور ﴾ قال : إذا قدر عليها أيزني بها أم لا ؟ ألا أخبركم بالتي تليها ﴿ والله يَقْضِى بالحق ﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة .

وأخرج أبو داود ، والنسائي ، وابن مردويه عن سعد قال : لما كان يوم فتح مكة أمن النبي

صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر ، وامرأتين ، وقال : " اقتلوهم ، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة " منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فاختبأ عند عثمان بن عفان ، فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة جاء به .

فقال : يا رسول الله بايع عبد الله ، فرفع رأسه ، فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى بيعته ، ثم بايعه ، ثم أقبل على أصحابه ، فقال : " أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته ، فيقتله ؟ " فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك ؟ ، فقال : " إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(76/674)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِي الطول ﴾ .

جمع جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين ، هما جلب النفع ودفع الضر ، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا

الغفور الرحيم وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم ﴾ [الحجر : 4950] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : 156] الآية . وقوله تعالى في آخر الأنعام : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : 165] . وقوله في الأعراف : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العقاب وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف : 167] والآيات بمثل ذلك كثيرة معروفة .

قوله تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ الله إِلاَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه لا يجادل في آيات الله ، أي لا يخاصم فيها محاولاً ردها ، وإبطال ما جاء فيها ، إلا الكفار .

وقد بين تعالى في غير هذا الموضع الغرض الحامل لهم على الجدال فيها مع بعض صفاتهم ، وذلك في قوله ﴿ وَيُجَادِلُ الذين كَفَرُواْ بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق واتخذوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُواْ هُزُواً ﴾ [الكهف : 56] وأوضح ذلك الغرض ، في هذه السورة الكريمة ، في قوله ﴿ وَجَادَلُوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ [غافر : 5] .

(77/674)

وقد قدمنا في سورة الحج أن الذين يجادلون في الله منهم ، أتباع يتبعون رؤسهم المضلين ، من شياطين الإنس والجن ، وهم المذكورون في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الحج : 34] .

وإن منهم قادة هم رؤساؤهم المتبوعون وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الحج : 89] الآية .

وبين تعالى في موضع آخر أن من أنواع جدال الكفار ، جدالهم للمؤمنين الذين استجابوا لله وآمنوا به وبرسوله ، ليردوهم إلى الكفر بعد الإيمان ، وبين بطلان حجة هؤلاء ، وتوعدهم بغضبه عليهم ، وعذابه الشديد وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى : 16] .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ .

نهى الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة ، ليشرع لأمته عن أن تقلب الذين كفروا في بلاد الله ، بالتجارات والأرباح ، والعافية وسعة الرزق ، كما كانت قريش تفيض عليها الأموال من أرباح التجارات ، وغيرها من رحلة الشتاء والصيف

المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف ﴾ [قريش : 2] أي إلى اليمن والشام وهم مع ذلك كفرة فجرة ، يكذبون نبي الله ويعادونه .

والمعنى : لا تغتر بإنعام الله عليهم وتقلبهم في بلاده ، في إنعام وعافية فإن الله جل وعلا يستدرجهم بذلك الإنعام ، فيمتعهم به قليلاً ، ثم يهلكهم فيجعل مصيرهم إلى النار .

(78/674)

وقد أوضح هذا المعنى في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِي البلاد مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المهاد ﴾ [آل عمران : 196197] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عملوا إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : 2324] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النار وَبِئْسَ المصير ﴾ [البقرة : 126] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدنيا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : 6970] إلى غير ذلك من الآيات .

والفاء في قوله : فلا يغررك ، سببية أي لا يمكن تقلبهم في بلاد الله . متنعمين بالأموال

والأرزاق ، سبباً لاغترارك بهم ، فتظن بهم ظناً حسناً لأن ذلك التنعم ، تنعم استدراج ، وهو زائل عن قريب ، وهم صائرون إلى الهلاك والعذاب الدائم .

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (6)

قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر (كَلِمَات) بصيغة الجمع المؤنث السالم وقرأه الباقون (كلمة ربّك) بالإفراد . وقد أوضحنا معنى الكلمة والكلمات فيما يماثل هذه الآية في سورة يس في الكلام على قوله تعالى . ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ ﴾ [يس : 7] .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ .

لم يبين هنا الآية المتضمنة لوعدهم بالجنات ، هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم .

(79/674)

ولكنه جل وعلا أوضح وعده إياهم بذلك في سورة الرعد في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَنْفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة أولئك لَهُمْ عقبى الدار جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد : 2223] الآية .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ .

التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه ، أن المراد بالإماتتين في هذه الآية الكريمة ، الإماتة الأولى ، التي هي كونهم في بطون أمهاتهم نطفاً وعلقاً ، ومضغاً . قبل نفخ الروح فيهم ، فهم قبل نفخ الروح فيهم لا حياة لهم ، فأطلق عليهم بذلك الاعتبار اسم الموت .

والإماتة الثانية هي إماتتهم وصيرورتهم إلى قبورهم عند انقضاء آجالهم في دار الدنيا .

وأن المراد بالإحياءتين ، الإحياءة الأولى في دار الدنيا ، والإحياءة الثانية ، التي هي البعث من القبور إلى الحساب ، والجزاء والخلود الأبدي ، الذي لا موت فيه ، إما في الجنة وإما في النار .

والدليل من القرآن على أن هذا القول في الآية هو التحقيق ، أن الله صرح به واضحاً في قوله جل وعلا ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : 28] وبذلك تعلم أن ما سواه من الأقوال الآية لا معوّل عليه .

(80/674)

والأظهر عندي أن المسوغ الذي سوغ إطلاق اسم الموت على العلقة ، والمضغة مثلاً ، في بطون الأمهات ، أن عين ذلك الشيء ، الذي هو نفس العلقة والمضغة ، له أطوار كما قال

تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ [نوح : 14] ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ [الزمر : 6] ، ولما كان ذلك الشيء ، تكون فيه الحياة في بعض تلك الأطوار ، وفي بعضها لا حياة له ، صح إطلاق الموت والحياة عليه من حيث إنه شيء واحد ، ترتفع عنه الحياة تارة وتكون فيه أخرى ، وقد ذكر له الزمخشري مسوغاً غير هذا ، فانظره إن شئت .

قوله تعالى : ﴿ فاعترفنا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ .

قد بين جل وعلا في غير هذا الموضع ، أن الاعتراف بالذنب في ذلك الوقت لا ينفع ، كما قال تعالى : ﴿ فاعترفوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السعير ﴾ [الملك : 11] وقال تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 12] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : فهل إلى خروج من سبيل ، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ، في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف : 53] .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ ﴾ .

قد تقدم الكلام عليه في سورة الصافات ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ

بالمجرمين إِنَّهُمْ كانوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِله إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات : 3435] الآية .

قوله تعالى : ﴿ فالحكم للَّهِ العلي الكبير ﴾ .

(81/674)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : 26] .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه جل وعلا هو الذي يُري خلقه آياته ، أي الكونية القدرية ليجعلها علامات لهم على ربوبيتهن واستحقاقه العبادة وحده ومن تلك الآيات الليل والنهار والشمس والقمر كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الليل والنهار والشمس والقمر لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ ﴾ [فصلت : 37] الآية .

ومنها السماوات والأرضون ، وما فيهما والنجوم ، والرياح والسحابن والبحار والأنهار ، والعيون والجبال والأشجار وآثار قوم هلكوا ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴾ [البقرة : 164] إلى قوله ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [

البقرة : 164] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب ﴾ [آل عمران : 190] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السماوات والأرض لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ واختلاف الليل والنهار وَمَآ أَنزَلَ الله مِنَ السمآء مِّن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرياح آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية35] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي اختلاف الليل والنهار وَمَا خَلَقَ الله فِي السماوات والأرض لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : 6] .

(82/674)

وما ذكره جل وعلا في آية المؤمن هذه ، من أنه هو الذي يُرِي خلقه آياته ، بينه وزاده إيضاحاً في غير هذا الموضع ، فبين أنه يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، وأن مراده بذلك البيان أن يتبين لهم أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق ، كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ [فصلت : 53] .

والآفاق جمع أفق وهو الناحية ، والله جل وعلا قد بين من غرائب صنعه ، وعجائبه ، في نواحي سماواته وأرضه ، ما يتبين به لكل عاقل أنه هو الرب المعبود وحده . كما أشرنا إليه ، من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والجبال ، والدواب والبحار ، إلى غير ذلك .

وبين أيضاً أن من آياته التي يريهم ولا يمكنهم أن ينكروا شيئاً منها تسخيره لهم الأنعام ليركبوها ويأكلوا من لحومها ، وينتفعوا بألبانها ، وزبدها وسمنها ، وأقطها ويلبسوا من جلودها ، وأصوافها وأوبارها وأشعارها ، كما قال تعالى : ﴿ اللهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأنعامَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر : 7980] .

(83/674)

وبين في بعض المواضع ، أن من آياته التي يريها بعض خلقه ، معجزات رسله ، لأن المعجزات آيات ، أي دلالات ، وعلامات على صدق الرسل ، كما قال تعالى في فرعون ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وأبى ﴾ [طه : 56] وبين في موضع آخر ، أن من آياته التي يريها خلقه ، عقوبته المكذبين رسلهن كما قال تعالى في قصة إهلاكه قوم لوط ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : 35] وقال في عقوبته فرعون وقومه بالطوفان والجراد والقمل إلخ : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ ﴾

[الأعراف : 133] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السمآء رِزْقاً ﴾ .

أطلق جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، الرزق وأراد المطر ، لأن المطر سبب الرزق ، وإطلاق المسبب وإرادة سببه لشدة الملابسة بينهما ، أسلوب عربي معروف ، وكذلك عكسه الذي هو إطلاق السبب وإرادة المسبب كقوله :

أكنت دماً إن لم أرعْكِ بضرَّةٍ . . . بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

فأطلق الدم وأراد الدية ، لأنه سببها .

وقد أوضحنا في رسالتنا المسمات : منع جواز المجاز ، في المنزل للتعبد والإعجاز ، أن أمثال هذا أساليب عربية ، نطقت بها العرب في لغتها ، ونزل بها القرآن ، وأن ما يقوله علماء البلاغة من أن في الآية ما يسمونه المجاز المرسل الذي يعدون من علاقاته السببية والمسببية ، لا داعي إليه ، ولا دليل عليه ، يجب الرجوع إليه .

وإطلاق الرزق في آية المؤمن هذه على المطر جاء مثله ، في المنزل للتعبد والإعجاز ، أن أمثال هذا أساليب عربية ، نطقت بها العرب في لغتها ، ونزل بها القرآن ، وأن ما يقوله علماء البلاغة من أن في الآية ما يسمونه المجاز المرسل الذي يعدون من علاقاته السببية والمسببية ، لا داعي إليه ، ولا دليل عليه ، يجب الرجوع إليه .

وإطلاق الرزق في آية المؤمن هذه على المطر جاء مثله ، في غير هذا الموضع كقوله تعالى في أول سورة الجاثية ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السمآء مِّن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الجاثية : 5] فأوضح بقوله ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أن مراده بالرزق المطر ، لأن المطر هو الذي يحيي الله به الأرض بعد موتها .

وقد أوضح جل وعلا ، أنه إنما سمي المطر رزقاً ، لأن سبب الرزقن في آيات كثيرة من كتابه ، كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 22] الآية ، والباء في قوله فأخرج به سببية كما ترى .

وكقوله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك ﴾ [إبراهيم : 32] الآية . وقوله تعالى في سورة ق : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السمآء مَآءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحصيد والنخل بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ ﴾ [ق : 911] .

وبين في آيات أخر أن الرزق المذكور ، شامل لما يأكله الناس ، وما تأكله الأنعام ، لأن ما تأكله الأنعام ، يحصل بسببه للناس الانتفاع بلحومها ، وجلودها وألبانها ، وأصوافها وأوبارها ، وأشعارها ، كما تقدم كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : 27] وقوله تعالى : ﴿ هُوَ

الذي أَنْزَلَ مِنَ السماء مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وَمِن كُلِّ الثمرات إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 1011] الآية .

(85/674)

فقوله : فيه تسيمون ، أي تتركون أنعامكم سائمة فيه تأكل منه من غير أن تتكلفوا لها مؤونة العلف كما تقدم إيضاحه بشواهده العربية ، في النحل وكقوله تعالى

﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شتى كُلُواْ وارعوا أَنْعَامَكُمْ ﴾ [طه : 5354] الآية . وقوله تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا والجبال أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات : 3133] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أن الناس ما يتذكر منهم ، أي ما يتعظ بهذه الآيات المشار إليها في قوله : ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السمآء رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ أي من رزقه الله الإنابة إليه .

والإنابة : الرجوع عن الكفر والمعاصي ، إلى الإيمان والطاعة .

وهؤلاء المنيبون ، المتذكرون ، المتعظون ، هم أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال ، المذكورون في قوله تعالى في أول سورة آل عمران : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألباب ﴾ [آل عمران : 7] وفي قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ وليعلموا أَنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ﴾ [إبراهيم : 52] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد دلت آية المؤمن هذه ، وما في معناها من الآيا تن على أن غير أولي الألباب المتذكرين المذكورين آنفاً ، لا يتذكر ولا يتعظ بالآيات ، بل يعرض عنها أشد الإعراض .

(86/674)

وقد جاء هذا المعنى موضحاً ، في آيات كثيرة من كتاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُون ﴾ [يوسف : 105] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : 2] وقوله ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ [الصافات : 14] . وقوله تعالى : ﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِي السماوات والأرض وَمَا تُغْنِي الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُون ﴾ [يونس : 101] وقوله ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [الأنعام : 4] في الأنعام

ويس إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ .

قد قدمنا الكلام على نحوه من الآيات في أول سورة الزمر ، في الكلام على قوله ﴿ فاعبد الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين أَلاَ لِلَّهِ الدين الخالص ﴾ [الزمر : 23] .

قوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ﴾ .

(87/674)

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ، في أول سورة النحل ، في الكلام على قوله تعالى ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أنذروا أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ أَنَاْ فاتقون ﴾ [النحل : 2] . وقوله تعالى في آية المؤمن هذه ﴿ هُم بَارِزُونَ لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ [غافر : 16] جاء مثله في آيات كثيرة ، كقوله في بروزهم ذلك اليوم ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد القَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : 48] وقوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُواْ للَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ [إبراهيم : 21] الآية وكقوله في كونهم لا يخفى على الله منهم شيء ذلك اليوم ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ

تخفى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 18] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ [العاديات : 11] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرض وَلاَ فِي السمآء ﴾ [آل عمران : 5] والآيات بمثل ذلك كثيرة ، وقد بيناها في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ﴾ [هود : 5] الآية ، وذكرنا طرفاً من ذلك ، في أول سورة سبأ ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ عَالِمِ الغيب لاَ يَعْزُبَ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض ﴾ [سبأ : 3] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة إِذِ القلوب لَدَى الحناجر كَاظِمِينَ ﴾ .

الإنذار ، والإعلام المقترن بتهديد خاصة ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذاراً .

وقد أوضحنا معنى الإنذار وأنواعه في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ ﴾ [الأعراف : 2] الآية .

(88/674)

والظاهر أن قوله هنا ﴿ يَوْمَ الأزفة ﴾ هو المفعول الثاني للإنذار لا ظرف له لأن الإنذار والتخويف من يوم القيامة ، واقع في دار الدنيا .

والآزفة القيامة . أي أنذرهم يوم القيامة ، بمعنى خوفهم إياه وهددهم بما فيه من الأهوال

العظام ليستعدوا لذلك في الدنيا بالإيمان والطاعة .

وإنما عبر عن القيامة بالآزفة لأجل أزوفها أي قربها ، والعرب تقول : أزف الترحل بكسر الزاي ، يأزف بفتحها ، أزفها بفتحتين ، على القياس ، وأزوفها فهو آزف ، على غير قياس ، في المصدر الأخير ، والوصف بمعنى قرب وقته وحان وقوعه ، ومنه قول نابغة ذبيان :

أزف الترحل غير أن ركابنا . . . لما تزل برحالنا وكأن قد

ويروى أفد الترحلن ومعناهما واحد .

والمعنى ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة ﴾ أي يوم القيامة القريب مجيؤها ووقوعها .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من اقتراب قيام الساعة ، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزفة لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم : 5758] وقوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [القمر : 1] الآية . وقوله تعالى ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 1] الآية . وقوله تعالى في الأحزاب : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : 63] وقوله في الشورى ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : 17] .

وقد قدمنا هذا في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوه ﴾ [النحل : 1] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر كَاظِمِين ﴾ الظاهر فيه ، أن إذ

، بدل من يوم ، وعليه فهو من قبيل المفعول به ، لا المفعول فيه ، كما بينا آنفاً .

والقلوب : جمع قلب وهو معروف .

ولدى : ظرف بمعنى عند .

والحناجر : جمع حنجرة وهي معروفة .

ومعنى كون القلوب لدى الحناجر ، في ذلك الوقت فيه لعلماء التفسير وجهان معروفان .

(89/674)

أحدهما : ما قاله قتادة وغيره ، من أن قلوبهم يومئذ ، ترتفع من أماكنها في الصدور حتى تلتصق بالحلوق ، فتكون لدى الحناجر ، فلا هي تخرج من أفواههم فيموتوا ، ولا هي ترجع إلى أماكنها في الصدور فيتنفسوا . وهذا القول هو ظاهر القرآن .

والوجه الثاني : هو أن المراد بكون القلوب ، لدى الحناجر ، بيان شدة الهول ، وفظاعة الأمر ، وعليه فالآية كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر وَتَظُنُّونَ بالله الظنونا هُنَالِكَ ابتلي المؤمنون وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ [الأحزاب : 1011] وهو زلزال خوف وفزع لا زلزال حركة الأرض .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ معناه مكروبين ممتلئين خوفاً وغماً

وحزناً .

والكظم : تردد الخوف والغيظ والحزن في القلب حتى يمتلئ منه ، ويضيق به .

والعرب تقول : كظمت السقاء إذا ملأته ماء ، وشددته عليه .

وقول بعضهم كاظمين ، أي ساكتين ، لا ينافي ما ذكرنا ، لأن الخوف والغم الذي ملأ قلوبهم يمنعهم من الكلام ، فلا يقدرون عليه ، ومن إطلاق الكظم على السكوت قول العجاج :

وربّ أسراب حجيج كظَّم . . . عن اللَّغا ورفث التكلُّمِ

ويرجع إلى هذا القول معنى قول من قال : كاظمين أي لا يتكلمون إلا من أذن له الله ، وقال الصواب ، كما قال تعالى : ﴿ لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ﴾ [النبأ : 38] .

وقوله : ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ حال من أصحاب القلوب على المعنى . والتقدير إذ القلوب لدى الحناجر أي إذ قلوبهم لدى حناجرهم في حال كونهم كاظمين ، أي ممتلئين خوفاً وغماً وحزناً ، ولا يبعد أن يكون حالاً من نفس القلوب ، لأنها وصفت بالكظم الذي هو صفة أصحابها .

ونظير ذلك في القرآن : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] فإنه أطلق في هذه الآية الكريمة ، على الكواكب والشمس والقمر صفة العقلاء في قوله تعالى : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ والمسوغ لذلك وصفه الكواكب والشمس والقمر بصفة العقلاء التي هي السجود .

ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 4] وقوله تعالى : ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] .

قوله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه في سورة البقرة وسورة الأعراف ، وأحلنا عليه مراراً .

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19)

قد قدمنا الكلام على ما يماثله من الآيات في أول سورة هود ، وفي غيرها وأحلنا عليه أيضاً مراراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(91/674)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾

الأظهر أن يكون قوله : ﴿ وأنذِرْهم ﴾ وما بعده معترضاً بين جملة ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ [غافر : 17] وجملة ﴿ يَعْلم خائِنة الأعيُن ﴾ [غافر : 19] على الوجهين الآتيين في موقع جملة ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ ، فالواو اعتراضية ، والمناسبة أن ذكر الحساب به يقتضي التذكير بالاستعداد ليوم الحساب وهو يوم الآزفة .

ويوم الآزفة يوم القيامة .

وأصل الآزفة اسم فاعل مؤنث مشتق من فعل أزِف الأمر ، إذا قرب ، فالآزفة صفة لموصوف محذوف تقديره : الساعة الآزفة ، أو القيامة الآزفة ، مثل الصاخّة ، فتكون إضافة ﴿ يوم ﴾ إلى ﴿ الآزفة ﴾ ، حقيقية .

وتقدم القول في تعدية الإِنذار إلى (اليوم) في قوله : ﴿ لتنذر يوم التلاقي ﴾ [غافر : 15] .

(و ﴿ إذْ ﴾ بدل من ﴿ يوم ﴾ فهو اسم زمان منصوب على المفعول به ، مضاف إلى جملة ﴿ القلوب لدى الحناجر ﴾ و ﴿ أل ﴾ في ﴿ القُلُوبُ ﴾ و ﴿ الحناجر ﴾ عوض عن المضاف إليه .

وأصله : إذْ قلوبهم لدى حناجرهم ، فبواسطة (أل) عُوض تعريف الإِضافة بتعريف العهد وهو رَأي نحاة الكوفة ، والبصريون يقدرون : إذ القلوب منهم والحناجر منهم والمعنى : إذ قلوب الذين تنذرهم ، يعني المشركين ، فأمَّا قلوب الصالحين يومئذٍ فمطمئنة .

والقلوب : البضعات الصنوبرية التي تتحرك حركة مستمرة ما دام الجسم حيًّا فتدفع الدم إلى الشرايين التي بها حياة الجسم .

والحناجر : جمع حَنْجَرة بفتح الحاء وفتح الجيم وهي الحُلقوم .

ومعنى القلوب لدى الحناجر : أن القلوب يشتدّ اضطراب حركتها من فرط الجزع مما يشاهِده أهلها من بوارق الأهوال حتى تتجاوز القلوبُ مواضعها صاعدة إلى الحناجر كما قال تعالى في ذكر يوم الأحزاب : ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : 10] .

وكاظم : اسم فاعل من كظَم كُظُوماً ، إذا احتبسَ نفَسُه (بفتح الفاء) .

(92/674)

فمعنى ﴿ كاظمين ﴾ : اكتين لا يستطيعون كلاماً .

فعلى هذا التأويل لا يقدَّر ل ﴿ كاظمين ﴾ مفعول لأنه عومل معاملة الفعل اللازم .

ويقال : كَظَم كظماً ، إذا سَدّ شيئاً مجرى ماء أو باباً أو طريقاً فهو كاظم ، فعلى هذا يكون المفعول مقدراً .

والتقدير : كاظمينها ، أي كاظمين حناجرهم إشفاقاً من أن تخرج منها قلوبهم من شدة

الاضطراب .

وانتصب ﴿ كاظمين ﴾ على الحال من ضمير الغائب في قوله : ﴿ أنذرهم ﴾ على أن الحال حال مقدرة .

ويجوز أن يكون حالاً من القلوب على المجاز العقلي بإسناد الكاظم إلى القلوب وإنما الكاظم أصحاب القلوب كما في قوله تعالى : ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم ﴾ [البقرة : 79] وإنما الكاتبون هم بأيديهم .

وجملة ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع ﴾ في موضع بدل اشتمال من جملة ﴿ القُلُوب لدَى الحناجِر ﴾ لأن تلك الحالة تقتضي أن يستشرفوا إلى شفاعة من اتخذوهم ليَشفعوا لهم عند الله فلا يُلفون صديقاً ولا شفيعاً .

والحميم : المحب المشفق .

والتعريف في ﴿ الظالمين ﴾ للاستغراق ليعم كل ظالم ، أي مشرك فيشمل الظالمين المنذَرين ، ومن مضى من أمثالهم فيكون بمنزلة التذييل ولذلك فليس ذكر الظالمين من الإِظهار في مقام الإِضمار .

ووصْفُ : ﴿ شفيع ﴾ بجملة ﴿ يطاع ﴾ وصْف كاشف إذ ليس أن المراد لهم شفعاء لا تطاع شفاعتهم لظهور قلة جدوى ذلك ولكن لما كان شأن من يتعرض للشفاعة أن يثق بطاعة المشفوع عنده له .

وأُتبع ﴿ شفيع ﴾ بوصف ﴿ يطاع ﴾ لتلازمهما عرفاً فهو من إيراد نفي الصفة اللازمةِ للموصوف .

والمقصودُ : نفي الموصوف بضرب من الكناية التلميحية كقول ابنِ أحمر :

ولا تَرى الضبَّ بها ينْجَحِرْ

أي لا ضبّ فيها فينجحر ، وذلك يفيد مفاد التأكيد .

والمعنى : أن الشفيع إذا لم يُطَع فليس بشفيع .

والله لا يجترىء أحد على الشفاعة عنده إلا إذا أذن له فلا يشفع عنده إلا مَن يُطاع .

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19)

(93/674)

يجوز أن تكون جملة ﴿ يعلم خائِنة الأعين ﴾ خبراً عن مبتدأ محذوف هو ضمير عائد إلى اسم الجلالة من قوله : ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ [غافر : 17] على نحو ما قرر قبله في قوله : ﴿ رفيعُ الدرجات ﴾ [غافر : 15] .

ومجموع الظاهر والمقدر استئناف للمبالغة في الإنذار لأنهم إذا ذُكِّروا بأن الله يعلم الخفايا كان إنذاراً بالغاً يقتضي الحذر من كل اعتقاد أو عمل نهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم

عنه ، فبعد أن أيأَسهم من شفيع يسعى لهم في عدم المؤاخذة بذنوبهم أيأسهم من أن يتوهموا أنهم يستطيعون إخفاء شيء من نواياهم أو أدنى حركات أعمالهم على ربهم .

ويجوز أن تكون خبراً ثانياً عن اسم إنَّ في قوله : ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ [غافر : 17] ، وما بينهما اعتراض كما مرّ على كلا التقديرين .

و ﴿ خائِنة الأعين ﴾ مصدر مضاف إلى فاعله فالخائنة مصدر على وزن اسم الفاعل مثل العَافية للمعافاة ، والعاقبة ، والكاذبة في قوله تعالى : ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ [الواقعة : 2] ويجوز إبقاء ﴿ خائنة ﴾ على ظاهر اسم الفاعل فيكون صفة لموصوف محذوف دل عليه ﴿ الأعين ، ﴾ أي يعلم نظرة الأعين الخائنة .

وحقيقة الخيانة : عمل مَن أؤتُمِن على شيء بضد مَا أؤتُمنَ لأجله بدون علم صاحب الأمانة ، ومن ذلك نقضُ العهد بدون إعلان بنبذه .

ومعنى : ﴿ خائِنة الأعين ﴾ خيانة النظر ، أي مسارقة النظر لشيء بحضرة من لا يحب النظر إليه .

فإضافة ﴿ خائنة ﴾ إلى ﴿ الأعين ﴾ من إضافة الشيء إلى آلَتِه كقولهم : ضرب السيف .

والمراد بـ ﴿ خائنة الأعين ﴾ النظرة المقصود منها إشعار المنظور إليه بما يسوء غيرها الحاضرَ استهزاء به أو إغراء به .

وإطلاق الخائنة بمعنى الخيانة على هذه النظرة استعارة مكنية ، شبه الجليس بالحليف في أنه لما جلس إليك أو جلست إليه فكأنه عاهدك على السلامة ، ألا ترى أن المجالسة يتقدّمها السلام وهو في الأصل إنباء بالمسالمة فإذا نظرت إلى آخر غَيْرِكُما نظراً خفياً لإِشارة إلى ما لا يرضي الجليسَ من استهزاء أو إغراء فكأنك نقضت العهد المدخول عليه بينكما ، فإطلاق الخيانة على ذلك تفظيع له ، ويتفاوت قربُ التشبيه بمقدار تفاوت ما وقعت النظرة لأجله في الإِساءة وآثار المضرة .

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم " ما يَكون لنبي أن تكون له خَائنة الأعين " ، أي لا تصدر منه .

و﴿ وما تُخفي الصدور ﴾ النوايا والعزائم التي يضمرها صاحبها في نفسه ، فأطلق الصدر على ما يكنّ الأعضاء الرئيسية على حسب اصطلاح أصحاب اللغة .

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ

كان مقتضى الظاهر أن يؤتَى بجملة ﴿ يقضي بالحق ﴾ معطوفة بالواو على جملة ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ [غافر : 19] فيقال : ويقضى بالحق ولكن عدل عن ذلك لما في الاسم

العلم لله تعالى من الإِشعار بما يقتضيه المسمى به من صفات الكمال التي منها العدل في القضاء ، ونظيره في الإِظهار في مقام الإِضمار قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه ﴾ [الرعد : 41] .

وليحصل من تقديم المسند إليه على المسند الفعلي تقوِّي المعنى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ [الأنفال : 36] أعيد الموصول ولم يؤت بضمير ﴿ الذين كفروا ﴾ ليُفيد تقديمُ الاسم على الفعل تقوّي الحكم .

والجملة من تمام الغرض الذي سيقت إليه جملة ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ [غافر : 19] كما تقدم ، وكلتاهما ناظرة إلى قوله : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع ﴾ [غافر : 18] أي أن ذلك من القضاء بالحق .

(95/674)

وأما جملة ﴿ والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء ﴾ فناظرة إلى جملة ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع ﴾ [غافر : 18] فبعد أن نُفي عن أصنامهم الشفاعة ، نُفيَ عنها القضاءُ بشيء مَّا بالحق أو بالباطل وذلك إظهار لعجزِها .

ولا تحْسِبنَّ جملةَ ﴿ والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء ﴾ مسوقةً ضميمة إلى جملة : ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ ليفيد مجموع الجملتين قصر القضاء بالحق على الله تعالى قَصْرَ قلب ، أي دون الأصنام ، كما أفيد القصر من ضم الجملتين في قول السمَوْأل أو عبد الملك الحارثي :

تَسيل على حد الظُّبات نفوسنا

وليست على غير الظُّبات تسيل . . .

لأن المنفي عن آلهتهم أعمّ من المثبت لله تعالى ، وليس مثل ذلك مما يضاد صيغة القصر لكفى في إفادته تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بحَمْله على إرادة الاختصاص في قوله : ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ .

فالمراد من قوله : ﴿ والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء ﴾ التذكير بعجز الذين يدعونهم وأنهم غير أهل للإلهية ، وهذه طريقة في إثبات صفة لموصوف ثم تعقيب ذلك بإظهار نقيضه فيما يُعدّ مساوياً له كما في قول أمية بن أبي الصلت :

تلك المكارمُ لا قَعْبَانِ من لَبَن

شيباً بماءٍ فصار فيما بعدُ أبوالا . . .

وإلاَّ لما كان لعطف قوله : لا قَعْبانِ من لبن ، مناسبة .

والدعاء يجوز أن يكون بمعنى النداء وأن يكون بمعنى العبادة كما تقدم آنفاً .

وجملة ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ مقررة لجمل ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور ﴾ إلى قوله : ﴿ لا يَقْضُون بشيء ﴾ [غافر : 19 ، 20] .

فتوسيط ضمير الفصل مفيد للقصر وهو تعريض بأن آلهتهم لا تسمع ولا تبصر فكيف ينسبون إليها الإلهية ، وإثبات المبالغة في السمع والبصر لله تعالى يُقرر معنى ﴿ يَقْضِي بالحق ﴾ لأن العالم بكل شيء تتعلق حكمته بإرادة الباطل ولا تخطىء أحكامه بالعثار في الباطل .

وتأكيد الجملة بحرف التأكيد تحقيق للقصر .

(96/674)

وقد ذكر التفتازاني في "شرح المفتاح" في مبحث ضمير الفصل أن القصر يُؤكَّد .

وقرأ نافع وهشام عن ابن عامر ﴿ تدعُون بتاء الخطاب على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لقرع أسماع المشركين بذلك .

وقرأ الجمهور بياء الغيبة على الظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(97/674)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) ﴾

أخرج ابن الضريس عن إسحاق بن عبد الله رضي الله عنه قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لكل شجرة ثمراً وإن ثمرات القرآن ذوات (حم) من روضات ، مخصبات ، معشبات ، متجاورات فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم ومن قرأ سورة " الدخان " في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له ، ومن قرأ ﴿ الم تنزيل ﴾ السجدة و ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ في يوم وليلة فكأنما وافق ليلة القدر ، ومن قرأ ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ فكأنما قرأ ربع القرآن ، ومن قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فكأنما قرأ ربع القرآن ، ومن قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عشر مرات بنى الله له قصراً في الجنة . فقال أبو بكر رضي الله عنه : إذن نستكثر من القصور فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكثر وأطيب ، ومن قرأ ﴿ قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ﴾ لم يَبْقَ شيء من البشر إلا قال : أي رب أعذه من شري ، ومن قرأ " أم القرآن " فكأنما قرأ ربع القرآن ، ومن قرأ ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ فكأنما قرأ ألف آية " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة رضي الله عنه قال ﴿ حم ﴾ اسم من أسماء الله تعالى .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وأبو عبيد وابن سعد وابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والحاكم وصححه وابن مردويه عن المهلب بن أبي صفرة رضي الله عنه قال : حدثني من سمع النبي صلى الله عليه وسلم : " إن قلتم الليلة ﴿ حم ﴾ لا ينصرون " .

وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي والحاكم وابن مردويه عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنكم تلقون عدوّكم غداً فليكن شعاركم ﴿ حم ﴾ لا ينصرون " .

(98/674)

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن أنس رضي الله عنه قال : " انهزم المسلمون بخيبر ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من تراب حفنها في وجوههم ، وقال ﴿ حم ﴾ لا ينصرون ، فانهزم القوم ، وما رميناهم بسهم ، ولا طعن برمح " .

وأخرج البغوي والطبراني عن شيبة بن عثمان رضي الله عنه قال : " لما كان يوم خيبر تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحصى ينفخ في وجوههم وقال : شاهت الوجوه ﴿ حم ﴾ لا ينصرون " .

وأخرج عبد بن حميد عن يزيد بن الأصم رضي الله عنه أن رجلاً كان ذا بأس وكان من

أهل الشام ، وأن عمر فقده فسأل عنه فقيل له : في الشراب ، فدعا عمر رضي الله عنه كاتبه فقال له : اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان .

. .

سلام عليكم ، فإن أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ ثم دعا ، وأمن من عنده ، فدعوا له أن يقبل الله عليه بقلبه ، وأن يتوب الله عليه . فلما أتت الصحيفة الرجل جعل يقرأها ويقول ﴿ غافر الذنب ﴾ قد وعدني أن يغفر لي ، ﴿ وقابل التوب شديد العقاب ﴾ قد حذرني الله عقابه ﴿ ذي الطول ﴾ الكثير الخير ﴿ إليه المصير ﴾ فلم يزل يرددها على نفسه حتى بكى ، ثم نزع فاحسن النزع . فلما بلغ عمر رضي الله عنه أمره قال : هكذا فافعلوا إذا رأيتم حالكم في زلة فسددوه ، ووفقوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه .

(99/674)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : كان شاب بالمدينة صاحب عبادة ، وكان عمر رضي الله عنه يحبه ، فانطلق إلى مصر ، فانفسد فجعل لا يمتنع من شر ، فقدم

على عمر رضي الله عنه بعض أهله ، فسأله حتى سأله عن الشاب فقال : لا تسألني عنه قال : لم ؟ قال : لأنه قد فسد وخلع ، فكتب إليه عمر رضي الله عنه : من عمر إلى فلان ﴿ حمتنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ فجعل يقرأها على نفسه فأقبل بخير .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ قال ﴿ غافر الذنب ﴾ لمن لم يتب ﴿ وقابل التوب ﴾ لمن تاب .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن أبي إسحاق السبيعي قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين إن قتلت فهل لي من توبة ؟ فقرأ عليه ﴿ حمتنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب ﴾ وقال : اعمل ولا تيأس .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ذي الطول ﴾ السعة والغنى .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ذي الطول ﴾ قال : ذي الغنى .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ذي الطول ﴾ قال : ذي النعم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ ذي الطول ﴾ قال : ذي المن .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله ﴿ غافر الذنب وقابل التوب . . . ﴾ قال ﴿ غافر الذنب ﴾ لمن يقول لا إله إلا الله ﴿ قابل التوب ﴾ لمن يقول لا إله إلا الله ﴿ شديد العقاب ﴾ لمن لا يقول لا إله إلا الله ﴿ ذي الطول ﴾ ذي الغنى ﴿ لا إله إلا هو ﴾ كانت كفار قريش لا يوحدونه فوحد نفسه ﴿ إليه المصير ﴾ مصير من يقول لا إله إلا هو فيدخله الجنة ، ومصير من لا يقول لا إله إلا هو فيدخله النار .

(100/674)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن ثابت البناني رضي الله عنه قال : كنت مع مصعب بن الزبير رضي الله عنه في سواد الكوفة ، فدخلت حائطاً أصلي ركعتين ، فافتتحت ﴿ حم ﴾ المؤمن حتى بلغت ﴿ لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ ، فإذا خلفي رجل على بغلة شهباء عليه مقطنات يمنية فقال : إذا قلت ﴿ قابل التوب ﴾ فقل : يا قابل التوب اقبل توبتي ، وإذا قلت ﴿ شديد العقاب ﴾ فقل : يا شديد العقاب لا تعاقبني ، ولفظ ابن أبي شيبة اعف عني ، وإذا قلت ﴿ ذي الطول ﴾ فقل : يا ذا الطول طل علي بخير قال : فقلتها ثم التفت فلم أر أحداً ، فخرجت إلى الباب فقلت : مر بكم رجل عليه مقطنات

يمينة ؟ ! قالوا : ما رأينا أحداً . كانوا يقولون إنه إلياس .

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (4)

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ ونزلت في الحرث بن قيس السلمي .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن جدالاً في القرآن كفر " .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مراء في القرآن كفر " .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي جهم رضي الله عنه قال : اختلف رجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في آية فقال أحدهما : تلقيتها من في رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الآخر أنا تلقيتها من في رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له فقال : " أنزل القرآن على سبعة أحرف ، وإياكم والمراء فيه فإن المراء كفر " .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جدال في القرآن كفر " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ قال : إقبالهم ، وإدبارهم ، وتقلبهم في أسفارهم . وفي قوله ﴿ والأحزاب من بعدهم ﴾ قال : من بعد قوم نوح ، عاد ، وثمود ، وتلك القرون . كانوا أحزاباً على الكفار ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ﴾ ليأخذوه فيقتلوه ﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا ﴾ قال : حق عليهم العذاب بأعمالهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ قال : فسادهم فيها ، وكفرهم ﴿ فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ قال : والله شديد العقاب .

أما قوله تعالى : ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ .

أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أعان باطلاً ليدحض بباطله حقاً فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله " .

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

أخرج أبو يعلى وابن مردويه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أذن لي أن أحدث عن ملك قد مرقت رجلاه الأرض السابعة ، والعرش على منكبيه وهو يقول : سبحانك أين كنت وأين تكون ؟ ! " .

وأخرج أبو داود وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات بسند صحيح عن جابر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة " .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن حبان بن عطية رضي الله عنه قال : حملة العرش ثمانية . أقدامهم مثقفة في الأرض السابعة ، ورؤوسهم قد جاوزت السماء السابعة ، وقرونهم مثل طولهم عليها العرش .

(102/674)

وأخرج أبو الشيخ عن ذاذان رضي الله عنه قال : حملة العرش أرجلهم في التخوم لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم من شعاع النور .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإِيمان عن هرون بن رباب رضي الله عنه قال : حملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت رخيم . يقول أربعة منهم : سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك . وأربعة منهم يقولون : سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك .

وأخرج أبو الشيخ وابن أبي حاتم من طريق أبي قبيل أنه سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول : حملة العرش ثمانية . ما بين موق أحدهم إلى مؤخرة عينيه مسيرة خمسمائة عام .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب رضي الله عنه قال : حملة العرش الذي يحملونه لكل ملك منهم أربعة وجوه ، وأربعة أجنحة : جناحان على وجهه ينظر إلى العرش فيصعق ، وجناحان يطير بهما . أقدامهم في الثرى ، والعرش على أكتافهم . لكل واحد منهم وجه ثور ، ووجه أسد ، ووجه إنسان ، ووجه نسر . ليس لهم كلام إلا أن يقولوا : قدوس الله القوي ، ملأت عظمته السموات والأرض .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب رضي الله عنه قال : حملة العرش أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدوا بأربعة آخرين . ملك منهم في صورة إنسان يشفع لبني آدم في أرزاقهم ، وملك منهم في سورة نسر يشفع للطير في أرزاقهم ، وملك منهم في صورة ثور يشفع للبهائم في أرزاقهم ، وملك في صورة أسد يشفع للسباع في أرزاقهم . فلما حملوا العرش وقعوا على ركبهم من عظمة الله ، فلقنوا لا حول ولا قوة إلا بالله ، فاستووا قياماً على أرجلهم .

وأخرج أبو الشيخ عن مكحول رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في حملة العرش أربعة أملاك : ملك على صورة سيد الصور وهو ابن آدم ، وملك على

صورة سيد السباع وهو الأسد ، وملك على صورة سيد الأنعام وهو الثور فما زال غضبان مذ يوم العجل إلى ساعتي هذه ، وملك على صورة سيد الطير وهو النسر " .

(103/674)

وأخرج ابن مردويه عن أم سعد رضي الله عنها قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول " العرش على ملك من لؤلؤة على صورة ديك رجلاه في تخوم الأرض ، وجناحاه في الشرق ، وعنقه تحت العرش " .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : حملة العرش كلهم على صور . قيل : يا عكرمة وما صور ؟ فأمال خده قليلاً .

وأخرج عبد بن حميد عن ميسرة رضي الله عنه قال : لا تستطيع الملائكة الذين يحملون العرش أن ينظروا إلى ما فوقهم من شعاع النور .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حملة العرش ما بين منكب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام ، وذكر : إن خطوة تلك الملك ما بين المشرق والمغرب .

وأخرج عبد بن حميد عن ميسرة رضي الله عنه قال : حملة العرش أرجلهم في الأرض

السفلى ، ورؤوسهم قد خرقت العرش ، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم ، وهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة ، وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من أهل السماء التي تليها ، وأهل السماء التي تليها أشد خوفاً من التي تليها .

وأخرج البيهقي عن عروة رضي الله عنه قال : حملة العرش منهم من صورته صورة الإِنسان ، ومنهم من صورته صورة النسر ، ومنهم من صورته صورة الثور ، ومنهم من صورته صورة الأسد .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : إن الملائكة الذين يحملون العرش يتكلمون بالفارسية .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه فقال : " ما جمعكم قالوا : اجتمعنا نذكر ربنا ، ونتفكر في عظمته فقال : لن تدركوا التفكر في عظمته . ألا أخبركم ببعض عظمة ربكم ؟ قيل : بلى يا رسول الله قال : إن ملكاً من حملة العرش يقال له إسرافيل ، زاوية من زوايا العرش على كاهله . قد مرقت قدماه في الأرض السابعة السفلى ، ومرق رأسه من السماء السابعة في مثله من خليقة ربكم تعالى " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : في بعض القراءة " الذين يحملون العرش فالذين حوله الملائكة يسبحون بحمد ربهم " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ قال مطرف بن عبد الله بن الشخير : وجدنا أنصح عباد الله لعباده الملائكة عليهم السلام ، ووجدنا أغش عباد الله لعباده الشياطين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : في بعض القراءة ﴿ الذين يحملون العرش ﴾ في قوله ﴿ فاغفر للذين تابوا – من الشرك – واتبعوا سبيلك ﴾ قال : طاعتك وفي قوله ﴿ وأدخلهم جنات عدن ﴾ قال : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يا كعب ما عدن ؟ قال : قصور من ذهب في الجنة يسكنها النبيون ، والصديقون ، وأئمة العدل وفي قوله ﴿ وقهم السيئآت ﴾ قال : العذاب .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10)

أخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ قال : إذا كان يوم القيامة فرأوا ما صاروا إليه مقتوا أنفسهم فقيل لهم ﴿ لمقت الله ﴾ إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴿ أكبر من

مقتكم أنفسكم ﴾ اليوم .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : مقتوا أنفسهم لما دخل المؤمنون الجنة وأدخلوا النار ، فأكلوا أناملهم من المقت قال : ينادون في النار ﴿ لمقت الله ﴾ إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإِيمان فتكفرون ﴿ أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ في النار .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم . . . ﴾ الآية . يقول : لمقت الله أهل الضلالة حين يعرض عليهم الإِيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوا أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة .

(105/674)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن زر الهمداني رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ قال : هذا شيء يقال لهم يوم القيامة حين مقتوا أنفسهم ، فيقال لهم ﴿ لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ قال : مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة حين مقتوا أنفسهم الآن حين علمتم أنكم من أصحاب النار .

قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11)

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال : هي مثل التي في البقرة ﴿ كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ [البقرة : 28] كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم ثم أخرجهم فأحياهم ثم يميتهم ثم يحييهم بعد الموت .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال : كنتم أمواتاً قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ، ثم أحياكم فهذه حياة ، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة فهما ميتتان وحياتان . فهو كقوله ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ [البقرة : 28] .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك رضي الله عنه قال : كانوا أمواتاً فأحياهم الله تعالى ، فأماتهم ، ثم يحييهم الله تعالى يوم القيامة .

(106/674)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال : كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم فأحياهم الله تعالى في الدنيا ، ثم أماتهم الموتة

التي لا بد منها ، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة . فهما حياتان وموتتان ﴿ فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ؟ ﴾ فهل إلى كرة إلى الدنيا من سبيل .

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14)

أخرج مسلم وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دبر الصلاة : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . ولا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون " .

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ يلقي الروح من أمره ﴾ قال : الوحي والرحمة ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ قال : يوم يتلاقى أهل السماء وأهل الأرض ، والخالق وخلقه ﴿ يوم هم بارزون ﴾ ولا يسترهم جبل ولا شيء .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يوم التلاق ، ويوم الآزفة ونحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمة الله ، وحذره عباده .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم

شيء ﴾ قال : واليوم لا يخفى على الله منهم شيء ، ولكنهم برزوا لله يوم القيامة لا يستترون بجبل ولا مدر .

(107/674)

وأخرج عبد بن حميد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ينادي مناد بين يدي الساعة : يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات ، وينزل الله إلى السماء الدنيا فيقول ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ .

وأخرج ابن أبي الدنيا في البعث والديلمي عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ينادي مناد بين الصيحة : يا أيها الناس أتتكم الساعة – ومد بها صوته يسمعه الأحياء والأموات – وينزل الله إلى السماء الدنيا ، ثم ينادي مناد : لمن الملك اليوم لله . . . ؟ الواحد القهار " .

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17)

أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر رضي الله عنه قال : بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في القصاص ، فأتيت بعيراً

فشددت عليه رحلي ، ثم سرت إليه شهراً حتى قدمت مصر فأتيت عبد الله بن أنيس فقلت له حديث بلغني عنك في القصاص فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يحشر الله العباد حفاة عراة غرلاً . قلنا ما هما ؟ قال : ليس معهم شيء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب . أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتى أقصه منها حتى اللطمة . قلنا كيف وإن نأتي الله غرلاً بهما ؟ قال : بالحسنات والسيئآت ، وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ﴾ . "

(108/674)

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الذنوب ثلاثة : فذنب يغفر ، وذنب لا يغفر ، وذنب لا يترك منه شيء . فالذنب الذي يغفر العبد يذنب الذنب فيستغفر الله فيغفر له ، وأما النذب الذي لا يغفر فالشرك ، وأما الذنب الذي لا يترك منه شيء فمظلمة الرجل أخاه . ثم قرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ يؤخذ للشاة الجماء من ذات القرون بفضل

نطحها .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : يجمع الله الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله عليها قط ولم يخط فيها . فأول ما يتكلم أن ينادي مناد : لمن الملك اليوم . . . ! لله الواحد القهار ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ فأول ما يبدأون به من الخصومات " الدماء " فيؤتى بالقاتل والمقتول فيقول : سل عبدك هذا فيم قتلتني ؟ فيقول : نعم . فإن قال قتلته لتكون العزة لله فإنها له ، وإن قال قتلته لتكون العزة لفلان فإنها ليست له ، ويبوء بإثمه فيقتله . ومن كان قتل بالغين ما بلغوا ويذوقوا الموت كما ذاقوه في الدنيا .

وأخرج الخطيب في تاريخه بسندٍ واهٍ عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يحشر الناس يوم القيامة كما ولدتهم أمهاتهم حفاة عراة غرلا . فقالت عائشة رضي الله عنها : واسوأتاه . . . ؟ ! ينظر بعضنا إلى بعض ، فضرب على منكبها وقال : يا بنت أبي قحافة شغل الناس يومئذ عن النظر ، وسموا بأبصارهم إلى السماء موقوفون أربعين سنة . لا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا يتكلمون ، سامين أبصارهم إلى السماء . يلجمهم العرق ، فمنهم من بلغ العرق قدميه ، ومنهم من بلغ ساقيه ، ومنهم من بلغ فخذيه . وبطنه ، ومنهم من يلجمه العرق .

ثم يرحم بعد ذلك على العباد فيأمر الملائكة المقربين ، فيحملون عرش الرب عز وجل حتى يوضع في أرض بيضاء كأنها الفضة لم يسفك فيها دم حرام ، ولم يعمل فيها خطيئة ، وذلك أول يوم نظرت عين إلى الله تعالى . ثم تقوم الملائكة ﴿ حافين من حول العرش ﴾ [الزمر : 75] ثم ينادي منادٍ فينادي بصوت يسمع الثقلين الجن والإنس يستمع الناس لذلك الصوت ، ثم يخرج الرجل من الموقف ، فيعرق الناس كلهم ، ثم يعرق بأخذ حسناته فتخرج معه ، فيخرج بشيء لم ير الناس مثله كثرة ، ويعرف الناس تلك الحسنات ، فإذا وقف بين يدي رب العالمين قال : أين أصحاب المظالم ؟ فيقول له الرحمن تعالى : أظلمت فلان ابن فلان في كذا وكذا . . . فيقول : نعم يا رب وذلك ﴿ يوم تشهد عليه ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ [النور : 24] فإذا فرغ من ذلك فيؤخذ من حسناته فيدع إلى من ظلمه . وذلك يوم لا دينار ولا درهم إلا أخذ من الحسنات وترك من السيئآت ، فإذا لم يبق حسنة قال : من بقي يا ربنا ، ما بال غيرنا استوفوا حقوقهم وبقينا ؟ قيل : لا تعجلوا ، فيؤخذ من سيئآتهم عليه ، فإذا لم يبق أحد يطلبه قيل له ارجع إلى أمك الهاوية فإنه ﴿ لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ ولا يبقى ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا صديق ، ولا شهيد ، إلا ظن أنه لم ينج لما رأى من شدة الحساب " .

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ

(18)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ قال : الساعة ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ قال : وقعت في حناجرهم من المخافة ، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ قال : يوم القيامة .

(110/674)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ قال : إذا عاين أهل النار النار حتى تبلغ حناجرهم ، فلا تخرج فيموتون ، ولا ترجع إلى أماكنها من أجوافهم . وفي قوله ﴿ كاظمين ﴾ قال : باكين .

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19)

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ قال : الرجل يكون في القوم ، فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غفلوا لحظ إليها ، وإذا نظروا غض بصره

عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ودَّ أنه ينظر إلى عورتها .

وأخرج أبو نعيم في الحلية وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ قال : نظرت اليها لتريد الخيانة أم لا ؟ ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ قال : إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا ؟ ألا أخبركم ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة رضي الله عنه ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ قال : يعلم همزه وإضمامه بعينيه فيما لا يحب الله تعالى .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ قال : نظر العين إلى ما نهي عنه .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الجوزاء رضي الله عنه ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ قال : كان الرجل يدخل على القوم في البيت وفي البيت امرأة ، فيرفع رأسه فيلحظ إليها ثم ينكس .

(111/674)

وأخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد رضي الله عنه قال : لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين ، وقال : " أقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة ، منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح . فاختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة جاء به فقال : يا رسول الله بايع عبد الله . فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى يبايعه ، ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ، هلا أومأت إلينا بعينك ؟ ! قال : أنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين " .

وأخرج الخطيب في تاريخه والحكيم الترمذي عن أم معبد رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اللهم طهر قلبي من النفاق ، وعملي من الرياء ، ولساني من الكذب ، وعيني من الخيانة ، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ قال : قادر على أن يقضي بالحق ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ لا يقدرون على أن يقضوا بالحق . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾

قيامةُ الكُلِّ مؤجَّلة ، وقامةُ المحبين مُعَجَّلة ؛ فَلَهم في كلِّ نَفَسٍ قيامةٌ من العقاب والعذاب والثواب ، والبُعَاد والأقتراب ، ولما لم يكن لهم في حساب ، وتشهد عليهم الأعضاء ؛ فالدمعُ يشهد ، وخَفَقَانُ القلبِ ينطق ، والنحولُ يُخْبِر ، واللونُ يُفْصِح . . . والعبدُ يَسْتُرُ ولكن البلاء يَظْهَرُ :

يا مَنْ تَغَيَّرُ صورتي لمَّا بَدَا . . . لجميع ما ظَنُّوا بنا تصديقا

وأنشدوا :

لي في محبته شهودٌ أربعٌ . . . وشهودُ كلِّ قضية اثنان

ذوبانُ جسمي وارتعادُ مفاصلي . . . وخفوقُ قلبي واعتقالُ لساني

وقلوبُهم -إذا أزِفَ الرحيلُ بَلَغت الحناجر ، وعيونهم شَرِقَتْ بدموعها إذا نودي بالرحيل وشُدَّت الرواحل .

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19)

فخائنةُ أعين المحبين استحسانهم شيئاً ، ولهذا قالوا :

يا قُرَّةَ العينِ : سَلْ عيني هل اكتحلت . . . بمنظرٍ حَسَنٍ مُذْ غِبْتَ عن بَصَرِي

ولذلك قالوا :

فعيني إذا استحسنَتْ غيركم . . . أمَرْتُ السُّهادَ بتعذيبها

ومن خائنة أعينهم أن تأخذهم السِّنَةُ والسُّبات في أوقات المناجاة ؛ وقد جاء في قصة داود عليه السلامة : كَذَبَ مَنْ أدَّعَى محبتي ، فإذا جَنَّهُ الليلُ نام عَنّي !

ومن خائنة أعين العارفين أن يكون لهم خبرٌ بقلوبهم عمَّا تقع عليه عيونُهم .

ومن خائنة أعين الموحِّدين أن تخرج منها قطرةُ دمعٍ تأسُّفاً على مخلوقٍ يفوت في الدنيا والآخرة ، ولا على أنفسهم .

ومن خائنة أعين المحبين النظرُ إلى غير المحبوب بأي وجهٍ كان ، ففي الخبر : " حُبُّكَ الشيء يعمي ويصم " .

﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ : فالحقُّ به خبير .

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ

(113/674)

يقضي للأجانب بالبعاد ، ولأهل الوصال بالوداد ، ويقضي يومَ القدوم بعَزْلِ عمال الصدود ، وإذا ذُبِحَ الموتُ غداً بين الجنة والنار على صورة كَبْشٍ أملح فلا غرابة أن يُذْبَح الفراقُ على رأسِ سكة الأحبابِ في صورة شخصٍ منكر ويصلب على جذوع العِبرة لينظرَ إلى أهلُ الحَضْرَة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 302 . 303 ﴾

(114/674)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ حم ﴾

روي عن ابن عباس أنه قال الحواميم كلها مكية .

وهكذا روي عن محمد بن الحنفية .

وقال ابن مسعود : إِنَّ ﴿ حم ﴾ دِيْبَاجُ القُرْآنِ .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الجَنَّةِ فَلْيَقْرَأْ الحَوَامِيم " .

وقال قتادة : ﴿ حم ﴾ اسم من أسماء الله الأعظم .

ويقال : اسم من أسماء القرآن .

ويقال : قسم أقسم الله بحم .

ويقال : معناه قضى بما هو كائن .

ويقال : حم الأمر أي : قدر ، وقضى ، وتم .

وقرأ ابن كثير ، وحفص ، عن عاصم : ﴿ حم ﴾ بفتح الحاء .

وقرأ أبو عمرو ، ونافع : بين الفتح والكسر ، والباقون بالكسر .

وكل ذلك جائز في اللغة .

ثم قال : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم ﴾ يعني : إنّ هذا القرآن الذي يقرأه عليكم محمد ، هو من عند الله ، العَزِيز في سلطانه ، وملكه ، الْعَلِيمِ بخلقه ، وبأعمالهم ، ﴿ غَافِرِ الذنب ﴾ لمن يقول : لا إله إلا الله ، مخلصاً ، يستر عليه ذنوبه ، ﴿ وَقَابِلِ التوب ﴾ لمن تاب ، ورجع ، ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ لمن مات على الشرك ، ولم يقل لا إله إلا الله ، ﴿ ذِى الطول ﴾ يعني : ذي الفضل على عباده ، والمن والطول في اللغة : التفضل .

يقال : طل علي برحمتك أي : تفضل .

وقال مقاتل : ذي الطَّوْلِ يعني : ذي الغنى عمن لم يوحده .

ثم وحّد نفسه فقال : ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المصير ﴾ يعني : إليه مصير العباد ، ومرجعهم في الآخرة ، فيجازيهم بأعمالهم .

قوله : ﴿ مَا يجادل فِى ءايات الله ﴾ يعني : ما يخاصم في آيات الله بالتكذيب ، ﴿ إِلاَّ الذين كَفَرُواْ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى البلاد ﴾ يعني : ذهابهم ، ومجيئهم في أسفارهم ، وتجاراتهم ، فإنهم ليسوا على شيء من الدين .

وقال مقاتل : ﴿ تَقَلُّبِهِمْ ﴾ يعني : ما هم فيه من السعة في الرزق .

(115/674)

ثم خوّفهم ليحذروا فقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ والاحزاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ يعني : الأمم من بعد قوم نوح ، ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ يعني : أرادوا أن يقتلوه ، ﴿ وجادلوا بالباطل ﴾ أي : بالشرك ، ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ يعني : ليبطلوا به دين الحق ، وهو الإسلام ، والذي جاء به الرسل .

﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أي : عاقبتهم ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ يعني : كيف رأيت عذابي لهم .

أليس قد وجدوه حقاً .

﴿ وكذلك حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ يعني : سبقت ، ووجبت كَلِمَةُ رَبِّكَ ، ﴿ عَلَى الذين كَفَرُواْ ﴾ بالعذاب ، ﴿ أَنَّهُمْ أصحاب النار ﴾ يعني : يصيرون إليها .

قرأ نافع ، وابن عامر : ﴿ كلمات ربَّكَ ﴾ بلفظ الجماعة .

والباقون : كلمة ربك بلفظ الواحد .

وهي عبارة عن الجنس .

والجنس يقع على الواحد ، وعلى الجماعة ، وقرىء في الشاذ : إِنَّهم بالكسر على معنى الابتداء ، وقراءة العامة بالنصب على معنى البناء .

ثم قال الله تعالى : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش ﴾ وهم الملائكة ، ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ من المقربين ، ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ يعني : يسبحون الله تعالى ، ويحمدونه ، ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي : يصدقون بالله ، ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ يعني : المؤمنين .

وفي الآية : دليل فضل المؤمنين ، وبيانه ، أن الملائكة مشتغلون بالدعاء لهم .

ثم وصف دعاءهم للمؤمنين وهو قولهم : ﴿ رَبَّنَا ﴾ يعني : يقولون : يا ربنا ، ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ يعني : يا ربنا رحمتك واسعة ، وعلمك محيط بكل شيء .

ويقال : معناه ملأت كل شيء نعمة ، وعلماً ، علم ما فيها من الخلق .

روى قتادة ، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قال : وجدنا أنصح عباد الله ، لعباد الله ، الملائكة .

ووجدنا أغش عباد الله ، لعباد الله ، الشياطين .

وروى الأعمش ، عن إبراهيم قال : كان أصحاب عبد الله بن مسعود يقولون : الملائكة خير للمسلمين من ابن الكواء ، الملائكة يستغفرون لمن في الأرض ، وابن الكواء يشهد عليهم بالكفر ، وكان ابن الكواء رجلاً خارجياً .

قوله : ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ أي : تجاوز عنهم يعني الذين رجعوا عن الشرك ، ﴿ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ يعني : دينك الإسلام ، ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ يعني : ادفع عنهم في الآخرة عذاب النار ﴿ رَبَّنَا ﴾ يعني : ويقولون : رَبَّنَا ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ التى وَعَدْتَّهُمْ ﴾ على لسان رسلك ، ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ أي : من وحّد الله تعالى ﴿ مِنْ ءابَائِهِمْ وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أي : وأدخلهم معهم الجنة أيضاً ، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ العزيز ﴾ في ملكك ، ﴿ الحكيم ﴾ في أمرك ، ﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ يعني : ادفع عنهم العذاب في الآخرة .

﴿ وَمَن تَقِ السيئات يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني : من دفعت العذاب عنه ، فقد رحمته .

قال مقاتل : السيئات يعني : الشرك في الدنيا ، ﴿ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ في الآخرة ، ﴿ وذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ يعني : النجاة الوافرة .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ ﴾ قال مقاتل والكلبي : لما عاين الكفار النار ، ودخلوها ، مقتوا أنفسهم أي : لاموا أنفسهم ، وغضبوا عليها .

فتقول لهم خزنة جهنم : ﴿ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ ﴾ يعني : غضب الله عليكم ، وسخطه ، أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ ﴿ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ أي : تجحدون ، وتثبتون على الكفر ، ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ يعني : كنا نطفاً أمواتاً ، ﴿ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ يعني : فأحييتنا ، ثم أمتنا عند آجالنا ، ثم أحييتنا اليوم .

وذكر عن القتبي نحو هذا .

(117/674)

وقال بعضهم : إحدى الإماتتين يوم الميثاق ، حين صيروا إلى صلب آدم ، والأخرى في الدنيا عند انقضاء الأجل ، وإحدى الإحيائين في بطن الأمهات ، والأخرى في القبر .

﴿ فاعترفنا بِذُنُوبِنَا ﴾ يعني : أقررنا بشركنا ، وظهر لنا أن البعث حق ، ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ يعني : فهل سبيل إلى الخروج من النار .

ويقال : فهل من حيلة إلى الرجوع ﴿ ذلكم ﴾ يعني : يقال لهم ذلك الخلود ﴿ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ يعني : إذا قيل لكم لا إله إلا الله جحدتم ، وأقمتم على الكفر ، ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ ﴾ يعني : إذا دعيتم إلى الشرك ، وعبادة الأوثان ، تصدقوا ﴿ فالحكم للَّهِ العلى الكبير ﴾ يعني : القضاء فيكم ﴿ للَّهِ العلى الكبير ﴾ أي : الرفيع فوق خلقه ،

القاهر لخلقه ، ﴿ الكبير ﴾ بالقدرة ، والمنزلة .

ثم قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمْ ءاياته ﴾ يعني : عجائبه ، ودلائله ، من خلق السموات والأرض ، والشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، وذلك أنه لما ذكر ما يصيبهم يوم القيامة ، عظم نفسه تعالى .

ثم ذكر لأهل مكة من الدلائل ليؤمنوا به ، فقال : ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمْ ءاياته ﴾ ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السماء رِزْقاً ﴾ يعني : المطر .

ويقال : الملائكة لتدبير الرزق .

﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ يعني : ما يتعظ بالقرآن ، إلا من يقبل إليه بالطاعة .

ويقال : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ في هذا الصنيع ، فيوحد الرب إلا من يرجع إليه ، ﴿ فادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ يعني : اعبدوه بالإخلاص ، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ يعني : وإن شق ذلك على المشركين ، الكافرين .

﴿ رَفِيعُ الدرجات ﴾ يعني : رافع ، وخالق السموات .

أي : مطبقاً بعضها فوق بعض .

ويقال : هو رافع الدرجات في الدنيا بالمنازل ، وفي الآخرة الجنة ذو الدرجات ، ﴿ ذُو العرش ﴾ يعني : رافع العرش .

ويقال : خالق العرش ، هو رب العرش ﴿ يُلْقِى الروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ يعني : ينزل جبريل بالوحي ﴿ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق ﴾ يعني : ليخوف بالقرآن .

وقرأ الحسن : ﴿ لّتُنذِرَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة .

يعني : لتنذر يا محمد .

وقراءة العامة بالياء يعني : لينذر الله .

ويقال : ﴿ لّيُنذِرَ ﴾ من أنزل عليه الوحي ﴿ يَوْمَ التلاق ﴾ قرأ ابن كثير : يَوْمَ التَّلاَقِي بالياء .

وهي إحدى الروايتين عن نافع ، والباقون بغير ياء .

فمن قرأ بالياء فهو الأصل .

ومن قرأ بغير ياء ، فلأن الكسر يدل عليه .

وقال في رواية الكلبي : ﴿ يَوْمَ التلاق ﴾ يوم يلتقي أهل السموات ، وأهل الأرض .

ويقال : يوم يلتقي الخصم ، والمخصوم ، ﴿ يَوْمَ هُم بارزون ﴾ أي : ظاهرين ، خارجين من قبورهم ، ﴿ لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَىْء ﴾ يعني : من أعمال أهل السموات ، وأهل الأرض .

﴿ لّمَنِ الملك اليوم ﴾ قال بعضهم : هذا بين النفختين .

يقول الرب تبارك وتعالى : ﴿ لّمَنِ الملك اليوم ﴾ ؟ فلا يجيبه أحد ، فيقول لنفسه : ﴿ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ .

قال بعضهم : إن ذلك لأهل الجمع يوم القيامة .

يقول : ﴿ لّمَنِ الملك اليوم ﴾ فأقر الخلائق كلهم ، وقالوا : ﴿ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ يعني : ما عملت في الدنيا من خير أو شر ، ﴿ لاَ ظُلْمَ اليوم إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ وقد ذكرناه ، ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الازفة ﴾ يعني : خوفهم بيوم القيامة .

فسمي الأزفة لقربه .

ويقال : أزف شخوص فلان يعني : قرب كما قال أَزِفَتِ الآزفة .

(119/674)

ثم قال : ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ من الخوف ، لا تخرج ، ولا تعود إلى مكانها ، ﴿ كاظمين ﴾ أي : مغمومين يتردد خوفهم في أجوافهم ﴿ مَا للظالمين ﴾ يعني : المشركين ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي قريب ، ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أي : له الشفاعة فيهم .

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الاعين ﴾ هذا موصول بقوله : ﴿ لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَىْء ﴾ وهو ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الاعين ﴾ .

وقال أهل اللغة : الخائنة والخيانة واحدة ، كقوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم ميثاقهم لعناهم وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مواضعه وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ على خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فاعف عَنْهُمْ واصفح إِنَّ الله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [المائدة : 13] .

وقال مجاهد : ﴿ خَائِنَةَ الاعين ﴾ يعني : نظر العين إلى ما نهى الله عنه .

وقال مقاتل : الغمزة فيما لا يحل له ، والنظرة إلى المعصية .

ويقال : النظرة بعد النظرة .

وقال قتادة : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الاعين ﴾ يعني : يعلم غمزه بعينه ، وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى ، ﴿ وَمَا تُخْفِى الصدور ﴾ .

﴿ والله يَقْضِى بالحق ﴾ أي : يحكم بالحق .

ويقال : يأمر بما يجب به الثواب ، وينهى عما يجب به العقاب .

﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني : يعبدون من الآلهة .

قرأ نافع ، وابن عامر : ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة .

والباقون ، بالياء على معنى الخبر عنهم .

﴿ لاَيَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ يعني : ليس لهم قدرة ، ولا يحكمون بشيء ، ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ السميع البصير ﴾ يعني : ﴿ السميع ﴾ لمقالة الكفار ﴿ البصير ﴾ بأعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 189.193 ﴾

(120/674)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ حم ﴾

فيه خمسة أوجه :

أحدهما : أنه اسم من أسماء الله أقسم به ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

الثالث : أنها حروف مقطعة من اسم الله الذي هو الرحمن ، قاله سعيد بن جبير وقال : الر وحم ون هو الرحمن .

الرابع : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله جعفر بن محمد .

الخامس : فواتح السور ، قاله مجاهد قال شريح بن أوفى العبسي :

يذكرني حاميم والرمح شاجر . . . فهلا تلا حاميم قبل التقدم

ويحتمل سادساً : أن يكون معناه حُم أمر الله أي قرب ، قال الشاعر :

قد حُمّ يومي فسر قوم . . . قومٌ بهم غفلة ونوم

ومنه سميت الحمى لأنها تقرب منه المنية .

فعلى هذا يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه يريد به قرب قيام الساعة لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " بعثت في آخرها ألفاً

" الثاني : أنه يريد به قرب نصره لأوليائه وانتقامة من أعدائه يوم بدر .

قوله عز وجل : ﴿ غافر الذنب ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه غافره لمن استغفره ، قاله النقاش .

الثاني : ساتره على من يشاء ، قاله سهل بن عبد الله .

﴿ وقابل التوب ﴾ يجوز أن يكون جمع توبة ، ويجوز أن يكون مصدراً من تاب يتوب توباً ،

وقبوله للتوبة إسقاط الذنب بها مع إيجاب الثواب عليها .

قوله عز وجل : ﴿ ذي الطول ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : ذي النعم ، قاله ابن عباس .

الثاني : ذي القدرة ، قاله ابن زيد .

الثالث : ذي الغنى والسعة ، قاله مجاهد .

الرابع : ذي الخير ، قاله زيد بن الأصم .

الخامس : ذي المن ، قاله عكرمة .

السادس : ذي التفضيل ، قاله محمد بن كعب .

والفرق بين المن والفضل أن المن عفو عن ذنب ، والفضل إحسان غير مستحق والطول مأخوذ من الطول كأنه إنعامه على غيره وقيل لأنه طالت مدة إنعامه .

قوله عز وجل : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما يماري فيها ، قاله السدي .

الثاني : ما يجحد بها ، قاله يحيى بن سلام .

(121/674)

وفي الفرق بين المجادلة والمناظرة وجهان :

أحدهما : ان المجادلة لا تكون إلا بين مبطلين أو مبطل ومحق ، والمناظرة بين محقين .

الثاني : أن المجادلة فتل الشخص عن مذهبه محقاً أو مبطلاً ، والمناظرة التوصل إلى الحق في أي من الجهتين كان .

وقيل إنه أراد بذلك الحارث بن قيس السهمي وكان أحد المستهزئين .

﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ قال قتادة : إقبالهم وإدبارهم وتقلبهم في أسفارهم ، وفيه وجهان :

أحدهما : لا يغررك تقلبهم في الدنيا بغير عذاب ، قاله يحيى .

الثاني : لا يغررك تقلبهم في السعة والنعمة قاله مقاتل وقيل إن المسلمين قالوا نحن في جهد والكفار في السعة ، فنزل ﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ حكاه النقاش وفيه حذف تقديره : فلا يغررك تقلبهم في البلاد سالمين فسيؤخذون .

قولة عز وجل : ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ليحبسوه ويعذبوه ، حكاه ابن قتيبة .

الثاني : ليقتلوه ، قاله قتادة والسدي . والعرب تقول : الأسير الأخيذ لأنه مأسور للقتل ، وأنشد قطرب قول الشاعر :

فإما تأخذوني تقتلوني . . . ومن يأخذ فليس إلى خلود

وفي وقت أخذهم لرسولهم قولان :

أحدهما : عند دعائه لهم .

الثاني : عند نزول العذاب بهم .

﴿ وجادلوا بالباطل ليُدْحضوا به الحقَّ ﴾ قال يحيى بن سلام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا به الإيمان .

﴿ فأخذتهم ﴾ قال السدي : فعذبتهم .

﴿ فكيف كان عقاب ﴾ في هذا السؤال وجهان :

أحدهما : أنه سؤال عن صدق العقاب ، قال مقاتل وجدوه حقاً .

الثاني : عن صفته ، قال قتادة : شديد والله .

قوله عز وجل : ﴿ وكذلك حقت كلمة ربِّك على الذين كفروا ﴾ أي كما حقت على أولئك حقت على هؤلاء . وفي تأويلها وجهان :

أحدهما : وكذلك وجب عذاب ربك .

الثاني : وكذلك صدق وعد ربك .

﴿ أنهم أصحاب النار ﴾ جعلهم أصحابها لأنهم يلزمونها وتلزمهم .

قوله عز وجل : ﴿ ربنا وسعت كل شَيْءٍ رحمة وعلماً ﴾ فيه وجهان :

(122/674)

أحدهما : ملأت كل شيء رحمة وعلماً ، أو رحمة عليه وعلماً به ، وهو معنى قول يحيى بن سلام .

الثاني : معناه : وسعت رحمتك وعلمك كل شيء .

﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ قال يحيى : من الشرك .

﴿ واتبعوا سبيلك ﴾ قال الإسلام لأنه سبيل إلى الجنة .

﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ بالتوفيق لطاعتك .

قوله عز وجل : ﴿ إن الذين كفروا ينادَوْنَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم ينادون يوم القيامة ، قاله قتادة .

الثاني : ينادون في النار ، قاله السدي .

﴿ لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعوْن إلى الإيمان فتكفرون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لمقت الله بكم في الدنيا إذا دعيتم إلى الإيمان فكفرتم أكبر من مقتكم لأنفسكم في الآخرة حين عاينتم العذاب وعلمتم أنكم من أهل النار ، قاله الحسن وقتادة .

الثاني : معناه : إن مقت الله لكم إذ عصيتموه أكبر من مقت بعضكم لبعض حين علمتم أنهم أضلوكم ، حكاه ابن عيسى .

فإن قيل : كيف يصح على الوجه الأول أن يمقتوا أنفسهم ؟

ففيه وجهان :

أحدهما : أنهم أحلوها بالذنوب محل الممقوت .

الثاني : أنهم لما صاروا إلى حال زال عنهم الهوى وعلموا أن نفوسهم هي التي أوبقتهم في المعاصي مقتوها .

وفي اللام التي في ﴿ لمقت الله ﴾ وجهان :

أحدهما : أنها لام الابتداء كقولهم لزيد أفضل من عمرو ، قاله البصريون .

الثاني : أنها لام اليمين تدخل على الحكاية وما ضارعها ، قاله ثعلب .

قوله عز وجل : ﴿ قالوا ربّنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنه خلقهم أمواتاً في أصلاب آبائهم ، ثم أحياهم بإخراجهم ثم أماتهم عند انقضاء آجالهم ، ثم أحياهم للبعث ، فهما ميتتان إحداهما في أصلاب الرجال ، الثانية في الدنيا ، وحياتان : إحداهما في الدنيا والثانية في الآخرة ، قاله ابن مسعود وقتادة .

(123/674)

الثاني : أن الله أحياهم حين أخذ عليهم الميثاق في ظهر آدم قوله ﴿ وإذ أخذ ربُّكَ مِن ابني آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذريتَهُمْ ﴾ [الأعراف : 171] الآية . ثم إن اللَّه أماتهم بعد أخذ الميثاق عليهم ، ثم أحياهم حين أخرجهم ، ثم أماتهم عند انقضاء آجالهم ، ثم أحياهم للبعث فتكون حياتان وموتتان في الدنيا وحياة في الآخرة ، قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

الثالث : أن الله أحياهم حين خلقهم في الدنيا ، ثم أماتهم فيها عند انقضاء أجالهم ، ثم أحياهم في قبورهم للمساءلة ، ثم أماتهم إلى وقت البعث . ثم أحياهم للعبث ، قاله

السدي .

﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ أنكروا البعث في الدنيا وأن يحيوا بعد الموت ، ثم اعترفوا في الآخرة بحياتين بعد موتتين .

﴿ فهل إلى خروج مِن سبيل ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : فهل طريق نرجع فيها إلى الدنيا فنقر بالبعث ، وهو معنى قول قتادة .

الثاني : فهل عمل نخرج به من النار ، ونتخلص به من العذاب ؟ قاله الحسن .

وفي الكلام مضمر تقديره : لا سبيل إلى الخروج .

قوله عز وجل : ﴿ ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم ﴾ أي كفرتم بتوحيد الله .

﴿ وإن يُشرك به تؤمنوا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه تصدقوا من أشرك به ، قاله النقاش .

الثاني : تؤمنوا بالأوثان ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ فالحكم لله ﴾ يعني في مجازاة الكفار وعقاب العصاة .

﴿ العلي الكبير ﴾ إنما جاز وصفه بأنه علي ولم تجز صفته بأنه رفيع لأنها صفة قد تنقل من علو المكان إلى علو الشأن والرفيع لا يستعمل إلا في ارتفاع المكان .

قوله عز وجل : ﴿ رفيع الدرجات ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : رفع السموات السبع ، قاله سعيد بن جبير والكلبي .

الثاني : عظيم الصفات ، قاله ابن زياد .

الثالث : هو رفعه درجات أوليائه ، قاله يحيى .

﴿ ذو العرش ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن عرشه فوق سماواته ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : أنه رب العرش ، قاله يحيى .

(124/674)

﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : أن الروح الوحي ، قاله قتادة .

الثاني : النبوة ، قاله السدي .

الثالث : القرآن ، قاله ابن عباس .

الرابع : الرحمة ، حكاه إبراهيم الجوني .

الخامس : أرواح عباده ، لا ينزل ملك إلا ومعه منها روح ، قاله مجاهد .

السادس : جبريل يرسله الله بأمره ، قاله الضحاك .

﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لينذر الله به يوم القيامة ، قاله الحسن .

الثاني : لينذر أنبياؤه يوم التلاق وهو يوم القيامة وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ، قاله السدي وابن زيد .

الثاني : لأنه يلتقي فيه الأولون والآخرون ، وهو معنى قول ابن عباس .

الثالث : يلتقي فيه الخلق والخالق ، قاله قتادة .

قوله عز وجل : ﴿ يومَ هم بارزون ﴾ يعني من قبورهم .

﴿ لا يخفى على الله منهم شَيْءٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه أبرزهم جميعاً لأنه لا يخفى على الله منهم شيء .

الثاني : معناه يجازيهم من لا يخفى عليه من أعمالهم شيء .

﴿ لمن الملك اليوم ﴾ هذا قول الله ، وفيه قولان :

أحدهما : أنه قوله بين النفختين حين فني الخلائق وبقي الخالق فلا يرى – غير نفسه – مالكاً ولا مملوكاً : لمن الملك اليوم فلا يجيبه لأن الخلق أموات ، فيجيب نفسه فيقول : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ لأنه بقي وحده وقهر خلقه ، قاله محمد بن كعب .

الثاني : أن هذا من قول الله تعالى في القيامة حين لم يبق من يدَّعي ملكاً ، أو يجعل له شريكاً .

وفي المجيب عن هذا السؤال قولان :

أحدهما : أن الله هو المجيب لنفسه وقد سكت الخلائق لقوله ، فيقول : لله الواحد القهار ، قاله عطاء .

الثاني : ان الخلائق كلهم يجيبه من المؤمنين . والكافرين ، فيقولون : لله الواحد القهار ، قاله ابن جريج .

قوله عز وجل : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يوم حضور المنية ، قاله قطرب .

(125/674)

الثاني : يوم القيامة وسميت الآزفة لدنوها ، وكل آزف دانٍ ، ومنه قوله تعالى ﴿ أزفت الآزفة ﴾ [النجم : 57] أي دنت القيامة .

﴿ إذ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن القلوب هي النفوس بلغت الحناجر عند حضور المنية ، وهذا قول من تأول يوم الآزفة بحضور المنية ، قاله قتادة . ووقفت في الحناجر من الخوف فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها .

﴿ كاظمين ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : مغمومون قاله الكلبي .

الثاني : باكون ، قاله ابن جريج .

الثالث : ممسكون بحناجرهم ، ماخوذ من كظم القربة وهو شد رأسها .

الرابع : ساكتون ، قاله قطرب ، وأنشد قول الشماخ :

فظلت كأن الطير فوق رؤوسها . . . صيامٌ تنائي الشمس وهي كظوم

﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ في الحميم قولان :

أحدهما : انه القريب ، قاله الحسن .

الثاني : الشفيق ، قاله مجاهد ، ومعنى الكلام : ما لهم من حميم ينفع ولا شفيع يطاع أي يجاب إلى الشفاعة ، وسميت الإجابة طاعة لموافقتها إرادة المجاب .

قوله عز وجل : ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أنه الرمز بالعين ، قاله السدي .

الثاني : هي النظرة بعد النظرة ، قاله سفيان .

الثالث : مسارقة النظر ، قاله ابن عباس .

الرابع : النظر إلى ما نهى عنه ، قاله مجاهد .

الخامس : هو قول الإنسان ما رأيت وقد رأى ، أو رأيت وما رأى ، قاله الضحاك .

وفي تسميتها خائنة الأعين وجهان :

أحدهما : لأنها أخفى الإشارات فصارت بالاستخفاء كالخيانة .

الثاني : لأنها باستراق النظر إلى المحظور خيانة .

﴿ وما تُخفي الصدور ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : الوسوسة ، قاله السدي .

الثاني : ما تضمره [عندما ترى امرأة] إذا أنت قدرت عليها أتزني بها أم لا ، قاله ابن عباس .

الثالث : ما يسره الإنسان من أمانة أو خيانة ، وعبر عن القلوب بالصدور لأنها مواضع القلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(126/674)

وقال الثعلبى :

﴿ حم ﴾ أنبأنا أبو عبد الله بن فنجويه حدثنا أبو علي بن حبش المقريء حدثنا أبو القاسم ابن الفضل حدثنا علي بن الحسن حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا يحيى بن حسان حدثنا رشد عن الحسن بن ثوبان عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حم اسم من أسماء الله تعالى وهي مفاتيح خزائن ربّك تعالى " .

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان أخبرنا مكي بن عبدان حدثنا عبد الله بن هاشم حدثنا عبد الرحمن ابن مهدي حدثنا شعبة قال : سألت السدي عن حم ؟

فقال : قال ابن عبّاس : هو اسم الله الأعظم .

وروى عكرمة عن ابن عبّاس قال : (الر) و (حم) و (ن) حروف الرحمن مقطوعة .

الوالبي عنه : قسم أقسم الله تعالى به ، وهو اسم من أسماء الله تعالى .

وقال قتادة : حم اسم من أسماء القرآن .

مجاهد : فواتح السور .

القرظي : أقسم الله تعالى بحلمه وملكه أن لا يعذب أحداً عاد إليه يقول لا إله إلاّ الله مخلصاً من قلبه .

الشعبي : شعار السورة .

وقال عطاء بن أبي مسلم الخراساني : الحاء افتتاح أسماء الله تعالى : حليم ، وحميد ، وحيّ ، وحنّان ، وحكيم ، والميم افتتاح أسمائه : ملك ، ومجيد ، ومنّان . يدل عليه ما روى عن أنس بن مالك أنه قال : سأل أعرابي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حم ، فإنا لا نعرفها في لغتنا ؟

فقال : " بدء أسماء وفواتح سور " .

وقال الضحاك والكسائي : معناه قضى ما هو كائن ، كأنه أراد الاشارة إلى حُمّ بضم الحاء

وتشديد الميم .

﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم ﴾ واختلف القراء في قوله : (حم) فكسر الحاء حيث كان ، عيسى وحمزة والكسائي وخلف ، ومثله روى يحيى وحماد عن أبي بكر عن عاصم .

وقرأ أبو جعفر وأبو عبيد وأبو حاتم وابن ذكوان بين الفتح والكسر .

ومثله روى بكر بن سهل الدمياطي وإسماعيل النخاس عن ورش عن نافع .

وقرأ الباقون : بالفتح .

﴿ غَافِرِ الذنب ﴾ قال ابن عبّاس : لمن قال : لا إله إلاّ الله .

(127/674)

﴿ وَقَابِلِ التوب ﴾ ممّن قال : لا إله إلاّ الله ﴿ شَدِيدِ العقاب ﴾ لمن لايقول : لا إله إلاّ الله

﴿ ذِي الطول ﴾ ذي الغنى عمّن لايقول : لا إله إلاّ الله .

وقال الضحاك : ذي المنن .

قتادة : ذي النعم .

السدي : ذي السعة .

الحسن : ذي الفضل .

ابن زيد : ذي القدرة ، وأصل الطول : الإنعام الذي تطول مدته على صاحبه ، يقال : اللهم طلّ علينا ، أي أنعم علينا وتفضل ، ومنه قيل للمنفع : طائل ، ويقال في الكلام : ماخليت من فلان بطائل وما حظيت منه بنائل ، أي لم أجد منه منفعة .

حدثنا الحسن بن محمّد بن فنجويه حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان حدثنا يوسف بن عبد الله ابن ماهان حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن ثابت قال : كنت إلى جانب سرادق مصعب بن الزبير في مكان لا يمر فيه الدواب ، وقد استفتحت ﴿ حم* تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم ﴾ إذ مرَّ رجل على دابة فلما قلت : (غافر الذنب) .

قال : قل : ياغافر الذنب اغفر لي ذنبي .

قلت : (وقابل التوب) .

قال : قل : ياقابل التوب اقبل توبتي . قلت : (شديد العقاب) .

قال : قل : ياشديد العقاب اعف عني عقابي .

قلت : (ذي الطول) .

قال : قل ياذي الطول طلّ عليَّ بخير .

قال : ثم التفتُ يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً .

وقال أهل الاشارة : (غافر الذنب) فضلاً (وقابل التوب) وعداً (شديد العقاب)

عدلاً .

﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المصير ﴾ فرداً . و (التّوب) يجوز أن يكون مصدراً ، ويحتمل أن يكون جمع التوبة ، مثل دومة ودوّم وعومة وعوّم .

(128/674)

أخبرنا عبد الله بن حامد قرأه عليه حدثنا محمّد بن خالد بن الحسن أخبرنا داود بن سليمان حدثنا عبد بن حميد حدثنا كثير بن هشام أخبرنا جعفر بن مرقان حدثنا يزيد بن الأصم : أن رجلاً كان ذا بأس ، وكان يوفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبأسه ، وكان من أهل الشام ، وأن عمر فقده فسأل عنه فقيل له : يتابع في هذا الشراب فدعا عمر كاتبه فقال : اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليكم ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ * حم * تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم * غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِي الطول لاَ إله إلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المصير ﴾ . وختم على الكتاب ثم دفعه إلى رسوله وقال : لا تدفعن الكتاب إليه حتّى تجده صحوان . ثم أمر من عنده فدعوا له أن يقبل الله تعالى عليه بقلبه ، وأن يتوب عليه ، فلما أتت الصحيفة الرجل جعل يقرأها ويقول قد وعدني الله تعالى أن يغفر لي وحذّرني عقابه ، فلم

يزل يرددها على نفسه حتّى بكى ثم نزع ، فاحسن النزع وحسنت توبته وحاله ، فلما بلغ عمر أمره قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم زَل زلة فسدّدوه ووفقوه وادعوا الله تعالى له أن يتوب عليه ، ولاتكونوا أعواناً للشياطين عليه .

﴿ مَا يُجَادِلُ ﴾ مايخاصم ويمادي ﴿ فِي آيَاتِ الله ﴾ بالإنكار لها ﴿ إِلاَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ .

أخبرنا عبد الله بن حامد أخبرنا محمّد بن يعقوب حدثنا محمّد بن إسحاق حدثنا خالد بن الوليد حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال : آيتان ما أشدّهما على الذين يجادلون في القرآن ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ الله إِلاَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ و ﴿ وَإِنَّ الذين اختلفوا فِي الكتاب لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة : 176] .

(129/674)

أخبرنا عبد الله بن حامد حدثنا محمّد بن خالد حدثنا داود بن سليمان أخبرنا عبد بن حميد حدثنا الحسين بن علي الجعفي عن زائد عن ليث عن سعد بن إبراهيم عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" إن جدالاً في القرآن كفر " .

﴿ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ ﴾ تصرفهم ﴿ فِي البلاد ﴾ للتجارات وبقائهم فيها مع كفرهم ، فإن الله تعالى يمهلهم ولا يهملهم ، نظيره : ﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِي البلاد * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ [آل عمران : 196 - 197] ، ثم قال : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ والأحزاب ﴾ والكفار الذين تحزبوا على أنبيائهم بالمخالفة والعداوة ﴿ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ ، أي من بعد قوم نوح ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ ويقتلوه .

قال الفراء : كان حقه أن يقول برسولها وكذلك هي في قراءة عبد الله ، ولكنه أراد بالأمة الرجال فكذلك قال : (برسولهم) .

﴿ وَجَادَلُوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ ﴾ ليبطلوا ويزيلوا ﴿ بِهِ الحق فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الذين كفروا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النار * الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ من الملائكة .

قال ابن عبّاس : حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمس مائة عام .

وقال : مسيرة أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش ، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم ، وهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة ، وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من أهل السماء التي تليها ، والتي تليها أشد خوفاً من التي تليها .

قال مجاهد : بين الملائكة وبين العرش سبعون حجاباً من نور .

أخبرنا ابن فنجويه الدينوري حدثنا مخلد بن جعفر حدثنا الحسن بن علوية حدثنا إسماعيل ابن عيسى حدثنا إسحاق أخبرني مقاتل عن الضحاك عن ابن عبّاس قال : لمّا خلق الله حملة العرش قال لهم : احملوا عرشي . فلم يطيقوا ، فخلق مع كل ملك منهم من أعوانهم مثل جنود من في السماوات من الملائكة ومن في الأرض من الخلق ، فقال : احملوا عرشي . فلم يطيقوا ، فخلق مع كل واحد منهم جنود سبع سماوات وسبع أرضين ومافي الأرض من عدد الحصى والثرى فقال : احملوا عرشي . فلم يطيقوا ، فقال : قولوا لاحول ولاقوة إلاّ بالله .

فقالوا : لاحول ولا قوة إلاّ بالله استقلينا عرش ربّنا .

قال : فنفذت أقدامهم في الأرض السابعة على متن الثرى فلم تستقر ، فكتب على قدم كل ملك اسم من اسمائه تعالى ، فاستقرت أقدامهم .

وروى شهر بن حوشب عن ابن عبّاس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تتفكروا في عظمته ولكن تفكروا فيما خلق الله تعالى من الملائكة ، فإن خلقاً من الملائكة يقال له : إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه في الأرض السفلى ، وقد مرق رأسه من سبع سماوات وأنه ليتضأل من عظمة الله تعالى حتّى يصير كأنه الوضيع " .

وروى موسى بن عقبة عن محمّد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم :

" أُذِنَ لِي أن أُحدّث عن ملك من ملائكة الله من حملة عرشه ما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام " .

وفي الخبر : أن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة عرشه ، تفضيلاً لهم على سائر الملائكة ، فهذه صفة حملة العرش .

وأما صفة العرش :

(131/674)

فروى لقمان بن عامر عن أبيه قال : ان الله تعالى خلق العرش من جوهرة خضراء ، للعرش ألف ألف رأس زاجون ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنى على اليسرى ليس منهم أحد إلاّ وهو يسبح بتحميده لايسبحه الآخر ، ما بين جناحي أحدهم مسيرة ثلاثمائة عام ، وما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه أربع مائة عام ، واحتجب الله تعالى بينه وبين الملائكه الذين هم حول العرش بسبعين حجاباً من نار ، وسبعين حجاباً من ظلمة ، وسبعين حجاباً من نور ، وسبعين حجاباً من در أبيض ، وسبعين حجاباً من ياقوت أحمر ، وسبعين حجاباً من زبرجد أخضر ، وسبعين حجاباً من ثلج ، وسبعين حجاباً من

ماء ، وسبعين حجاباً من برد ومالا يعلمه إلاّ الله تعالى .

قال : ولكل واحد من حملة العرش ومن حوله أربعة وجوه : وجه ثور ، ووجه أسد ، ووجه نسر ، ووجه إنسان ، ولكل واحد منهم أربعة أجنحة : أما جناحان فعلى وجه من أن ينظر إلى العرش فيصعق ، وأما جناحان فيتبوأ فَيَقْوى بهما ، ليس لهم كلام إلاّ التسبيح والتحميد والتكبير والتمجيد .

وقال يزيد الرقاشي : ان لله تعالى ملائكة حول العرش يسمّون المخلصين ، تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة يميدون كأنما ينفضهم من خشية الله ، فيقول لهم الربّ جلّ جلاله : يا ملائكتي مخافة تخيفكم ؟

فيقولون : يا ربّنا لو أن أهل الأرض أطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه ، ما أساغوا طعاماً ولا شراباً ولا انبسطوا في فرشهم ، ولخرجوا إلى الصحارى يخورون كما يخور البقر .

(132/674)

﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ وهذا تفسير لقوله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾ [الشورى : 5] ﴿ رَبَّنَا ﴾ أي ويقولون : ربّنا ﴿

وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ نصباً على التفسير ، وقيل : نصباً على النقل ، أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ دينك ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ .

روى الأعمش عن إبراهيم قال : كان أصحاب عبد الله يقولون الملائكة خير من ابن الكوا ، يستغفرون لمن في الأرض وابن الكوا يشهد عليهم بالكفر ، وابن الكوا رجل من الخوارج قال : وكانوا لايحبون الإستغفار على أحد من أهل هذه القبلة .

وقال : وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله للعباد الشيطان .

وسمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : سمعت أبي يقول : سمعت محمّد بن علي بن محمّد الوراق يقول : سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول لأصحابه إذ قرأ هذه الآية : افهموا فما في العالم خيراً أرجى منه .

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَّهُمْ وَمَن ﴾ في محل نصب عطفاً على الهاء والميم ﴿ صَلَحَ مِنْ آبَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ .

قال سعيد بن جبير : يدخل الرجل الجنّة فيقول : أين أبي أين أمي أين ولدي أين زوجي ؟ فيقال : لم يعملوا مثل عملك .

فيقول : كنت أعمل لي ولهم .

فيقال : ادخلوهم الجنّة .

(133/674)

﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ أنواع العذاب ﴿ وَمَن تَقِ السيئات يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم * إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ ﴾ يوم القيامة وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم حين عاينوا العذاب فيقال لهم : ﴿ لَمَقْتُ الله ﴾ إياكم في الدُّنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴿ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ ﴾ اليوم ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ عند حلول العذاب بكم ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمان فَتَكْفُرُونَ * قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ .

قال ابن عبّاس وقتادة والضحاك : كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم ، فأحياهم الله تعالى في الدُّنيا ثم أماتهم الموتة التي لابدّ منها ، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة ، فهما حياتان وموتتان ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة : 28] الآية .

وقال السدي : أُميتوا في الدّنيا ثم أُحيوا في قبورهم ، فسُئلوا ثم أُميتوا في قبورهم ، ثم أُحيوا في الآخرة .

﴿ فاعترفنا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ فنصلح أعمالنا ، نظيرها قوله : ﴿ هَلْ إلى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى : 44] ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ في الكلام متروك استغنى بدلالة الظاهر عليه ، مجازه : فأُجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك وهو العذاب والخلود في النار ، بأنه إذا دُعي الله وحده في الدُّنيا كفرتم به وأنكرتم أن لا تكون الإلهية له خالصة ، وقلتم أجعل الإلهة إلهاً واحداً ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ ﴾ غيره .

﴿ تُؤْمِنُواْ ﴾ تصدقوا ذلك المشرك . وسمعت بعض العلماء يقول : وإن يشرك به بعد الرد إلى الدُّنيا لو كان تؤمنوا تصدقوا المشرك ذكره بلفظ الإستفهام . نظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] ﴿ فالحكم للَّهِ العلي الكبير ﴾ .

(134/674)

﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السمآء رِزْقاً ﴾ بأدرار الغيث ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ * فادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ العبادة والطاعة ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون * رَفِيعُ ﴾ أيّ هو رفيع ﴿ الدرجات ﴾ يعني رافع طبقات الثواب للأنبياء والمؤمنين في الجنّة .

قال ابن عبّاس : رافع السماوات وهو فوق كل شيء وليس فوقه شيء .

﴿ ذُو العرش ﴾ خالقه ومالكه ﴿ يُلْقِي الروح ﴾ ينزل الوحي ، سمّاه وحياً ، لأنه يحيي

به القلوب كما يحيي بالأرواح الأبدان ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ من قوله وقيل بأمره ﴿ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق ﴾ .

قراءة العامة : بالياء أي ينذر الله تعالى .

وقرأ الحسن : بالتاء ، يعني لتنذر أنت يا محمّد يوم التلاق .

أخبرنا أبو الحسين بن الفضل الفقيه حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا محمّد بن عبيد الله حدثنا أبو أُسامة حدثنا المبرك بن فضالة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق ﴾ قال : يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض .

وقال قتادة ومقاتل : يلتقي فيه الخلق والخالق .

ابن زيد : يتلاقى العباد .

ميمون بن مهران : يلتقي الظالم والمظلوم والخصوم . وقيل : يلتقي العابدون والمعبودون .

وقيل : يلتقي فيه المرء مع عمله ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ﴾ خارجون من قبورهم ، ظاهرون لايسترهم شيء ﴿ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ ﴾ من أعمالهم وأحوالهم ﴿ شَيْءٌ ﴾ ومحل (هم) رفع على الابتداء و (بارزون) خبره ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم ﴾ وذلك عند فناء الخلق ، وقد ذكرنا الأخبار فيه .

قال الحسن : هو السائل وهو المجيب ، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه فيقول : ﴿ لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ الذي قهر الخلق بالموت .

أخبرنا شعيب أخبرنا مكي حدثنا أبو الأزهر حدثنا روح حدثنا حماد عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن ابن مسعود قال : يجمع الله الخلق يوم القيامة بصعيد واحد ، بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضّة لم يعص الله تعالى فيها قط ، فأول ما تتكلم به أن ينادي مناد ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ .

﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ اليوم إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ فأول ما يبدؤن به من الخصومات الدماء ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة ﴾ أي بيوم القيامة ، سمّيت بذلك لأنها قريبة ، إذ كل ما هو آت قريب .

قال النابغة :

أزف الترحل غير أن ركابنا . . . لمّا تزل برحالنا وكأن قد

أي : قَرُب ، ونظيرها هذه الآية قوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزفة ﴾ [النجم : 57] أيّ قربت القيامة .

﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ من الخوف قد زالت وشخصت من صدورهم ، فتعلقت بحلوقهم فلا هي تعود إلى أماكنها ولا هي تخرج من أفواههم فيموتوا فليسوا سواء نظيره قوله

: ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم : 43] ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ مكروبين ممتلئين خوفاً وحزناً ، والكاظم الممسك للشيء على مافيه ، ومنه كظم قربته إذا شد رأسها ، فهم قد أطبقوا أفواههم على مافي قلوبهم من شدة الخوف ، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حين يضيق به .

يقول العرب للبئر الضيقة وللسقاية المملؤة : ماء كظامة وكاظمة ، ومنه الحديث : كيف بكم [إذا] بعجت مكة كظائم .

قال الشاعر :

يخرجن من كاظمة العصن الغرب . . . يحملن عبّاس بن عبد المطلب

ونصب كاظمين على الحال والقطع .

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ قريب وصديق ، ومنه قيل للأقرباء والخاصة حامّة ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فيشفع فيهم ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين ﴾ .

وقال المؤرخ : فيه تقديم وتأخير مجازه أي الأعين الخائنة قال ابن عبّاس : هو الرجل يكون جالساً مع القوم ، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها .

(136/674)

وقال مجاهد : هي نظر الأعين إلى ما نهى الله تعالى عنه .

قتادة : هي همزة بعينه وإغماضه فيما لايحب الله تعالى ولايرضاه .

﴿ وَمَا تُخْفِي الصدور * والله يَقْضِي بالحق والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأوثان ﴿ لاَيَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ لأنها لاتعلم شيء ولا تقدر على شي .

وقرأ أهل المدينة وأيوب : تدعون بالتاء ، ومثله روى هشام عن أهل الشام والباقون : بالياء .

﴿ إِنَّ الله هُوَ السميع البصير ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 261 ـ 271 ﴾

(137/674)

وقال الزمخشرى :

سورة المؤمن

مكية . قال الحسن : إلا قوله وسبح بحمد ربك ، لأن الصلوات نزلت بالمدينة وقد قيل في الحواميم كلها : أنها مكيات : عن ابن عباس وابن الحنفية وهي خمس وثمانون آية ، وقيل ثنتان وثمانون [نزلت بعد الزمر] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة غافر (40) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

قرئ بإمالة ألف «حا» وتفخيمها ، وبتسكين الميم وفتحها . ووجه الفتح : التحريك لالتقاء الساكنين ، وإيثار أخف الحركات ، نحو أين وكيف أو النصب بإضمار اقرأ ومنع الصرف للتأنيث والتعريف أو للتعريف وأنها على زنة أعجمى نحو قابيل وهابيل . التوب والثوب والأوب :

أخوات في معنى الرجوع والطول والفضل والزياد . يقال : لفلان على فلان طول ، والإفضال . يقال :

طال عليه وتطوّل ، إذا تفضل . فإن قلت : كيف اختلفت هذه الصفات تعريفا وتنكيرا ، والموصوف معرفة يقتضى أن يكون مثله معارف ؟ قلت : أمّا غافر الذنب وقابل التوب فمعرفتان ، لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين ، وأنه يغفر الذنب ويقبل التوب الآن . أو غدا حتى يكونا في

تقدير الانفصال ، فتكون إضافتهما غير حقيقية ، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه ، فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش . وأما شديد العقاب فأمره مشكل ، لأنه في تقدير : شديد عقابه لا ينفك من هذا التقدير ، وقد جعله الزجاج بدلا . وفي كونه بدلا وحده بين الصفات نبوّ ظاهر . والوجه أن يقال : لما صودف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة ، فقد آذنت بأنّ كلها أبدال غير أوصاف ، ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن ، فهي محكوم عليها بأنها من بحر الرجز ، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن كانت من الكامل «1» ولقائل أن يقول : هي صفات ، وإنما حذف الألف واللام من شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظا ، فقد غيروا كثيرا من كلامهم عن قوانينه لأجل الازدواج ، حتى قالوا : ما يعرف سحادليه من عنادليه ، فثنوا ما هو وتر لأجل ما هو شفع ، على أنّ الخليل قال في قولهم ما يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذلك ، وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل أنه على نية الألف واللام كما كان الجماء الغفير على نية طرح الألف واللام ومما سهل ذلك الأمن من اللبس وجهالة الموصوف .

ويجوز أن يقال : قد تعمد تنكيره ، وإيهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار . ويجوز أن يقال : هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال . فإن قلت : ما بال الواو في قوله وَقَابِلِ التَّوْبِ ؟

قلت :

فيها نكتة جليلة ، وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين : بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات . وأن يجعلها محاءة للذنوب ، كأن لم يذنب ، كأنه قال : جامع المغفرة والقبول .

وروى أنّ عمر رضى اللّه عنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام ، فقيل له : تتابع في هذا الشراب ، فقال عمر لكاتبه : اكتب ، من عمر إلى فلان : سلام عليك ، وأنا أحمد إليك اللّه الذي لا إله إلا هو : بسم اللّه الرحمن الرحيم : حم إلى قوله إليه المصير . وختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا ، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة . فلما أتته الصحيفة

---

(1) . قال محمود : «فان قلت لما اختلفت هذه الصفات تعريفا وتنكيرا والموصوف معرفة يقتضى أن يكون مثله معارف ؟ وأجاب بأن غافر الذنب وقابل التوب معرفان ، لأنهما صفتان لازمتان ، وليستا لحدوث الفعل حتى يكونا حالا أو استقبالا ، بل إضافتهما حقيقة . وأما شديد العقاب فلا شك في أن إضافته غير حقيقية ، يريد :

لأنه من الصفات المشبهة ، ولا تكون إضافتها محضة أبدا . عاد كلامه قال : وجعله الزجاج بدلا وحده ، وانفراد البدل من بين الصفات فيه نبو ظاهر . والوجه أن يقال : إن جميعها أبدال غير أوصاف ، لوقوع هذه النكرة التي لا يصح أن تكون صفة كما لو جاءت قصيدة

تفاعيلها كلها على مستفعل ، قضى عليها بأنها من بحر الرجز ، فان وقع فيها جزء واحد على متفاعلن : كانت من الكامل» قال أحمد : وهذا لأن دخول مستفعلن في الكامل يمكن ، لأن متفاعلن يصير بالاضمار إلى مستفعلن ، وليس وقوع متفاعلن في الرجز ممكنا ، إذ لا يصير إليه مستفعلن البتة ، فما يفضى إلى الجمع بينهما فانه يتعين ، وهذا كما يقضى الفقهاء بالخاص على العام لأنه الطريق في الجمع بين الدليلين .

(139/674)

جعل يقرؤها ويقول : قد وعدني اللّه أن يغفر لي ، وحذرني عقابه ، فلم يبرح يردّدها حتى بكى ، ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته ، فلما بلغ عمر أمره قال : هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أخاكم قد زلّ زلة فسدّدوه ووقفوه ، وادعوا له اللّه أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه «1» .

[سورة غافر (40) : آية 4]

ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (4)

سجل على المجادلين في آيات اللّه بالكفر : والمراد : الجدال بالباطل ، من الطعن فيها ، والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور اللّه ، وقد دلّ على ذلك وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا

بِهِ الْحَقَّ فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد في سبيل اللّه ، وقوله صلى اللّه عليه وسلم : «إنّ جدالا في القرآن كفر» «2» وإيراده منكرا ، وإن لم يقل : إنّ الجدال ، تمييز منه بين جدال وجدال . فإن قلت : من أين تسبب لقوله فَلا يَغْرُرْكَ ما قبله ؟ قلت : من حيث إنهم لما كانوا مشهودا عليهم من قبل اللّه بالكفر ، والكافر لا أحد أشقى منه عند اللّه : وجب على من تحقق ذلك أن لا نرجح أحوالهم في عينه ، ولا يغره إقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد بالتجارات النافقة والمكاسب المربحة ، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن ، ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون ، فانّ مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال ، ووراءه شقاوة الأبد . ثم ضرب لتكذيبهم وعداوتهم للرسل وجدالهم بالباطل وما ادّخر لهم من سوء العاقبة مثلا : ما كان من نحو ذلك من الأمم ، وما أخذهم به من عقابه وأحله بساحتهم من انتقامه . وقرئ : فلا يغرّك .

[سورة غافر (40) : آية 5]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (5)

الْأَحْزابُ الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم وهم عاد وثمود وفرعون وغيرهم وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ

(1) . أخرجه أبو نعيم في ترجمة يزيد الأصم من رواية كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن يزيد الأصم «أن رجلا كان ذا بأس - فذكره بتمامه» ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن كثير بن هشام باختصار . وكذا ابن أبى حاتم والثعلبي .

(2) . أخرجه الطيالسي . ومن طريقه البيهقي في الشعب في التاسع عشر من حديث عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما بلفظ «لا تجادلوا في القرآن فان جدالا فيه كفر» وفي الباب عن أبى هريرة بلفظ «مراء في القرآن كفر» في الصحيح والسنن

من هذه الأمم التي هي قوم نوح والأحزاب بِرَسُولِهِمْ وقرئ برسولها لِيَأْخُذُوهُ ليتمكنوا منه ، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل . ويقال للأسير : أخيذ فَأَخَذْتُهُمْ يعنى أنهم قصدوا أخذه ، فجعلت جزاءهم على إرادة أخذه أن أخذتهم فَكَيْفَ كانَ عِقابِ فإنكم تمرون على بلادهم ومساكنهم فتعاينون أثر ذلك . وهذا تقرير فيه معنى التعجيب

[سورة غافر (40) : آية 6]

وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (6)

أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ في محل الرفع بدل من كَلِمَةُ رَبِّكَ أى مثل ذلك الوجوب وجب على

الكفرة كونهم من أصحاب النار . ومعناه : كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل ، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة ، أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل . والذين كفروا : قريش ، ومعناه . كما وجب إهلاك أولئك الأمم ، كذلك وجب إهلاك هؤلاء ، لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار . قرئ : كلمات .

[سورة غافر (40) : الآيات 7 إلى 9]

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

روى أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «لا تتفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق اللّه من الملائكة» «1» فإن خلقا من الملائكة يقال له إسرافيل : زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه في الأرض السفلى ، وقد مرق رأسه من سبع سماوات ، وإنه ليتضاءل من عظمة اللّه حتى يصير كأنه الوصع «2» . وفي الحديث : إن اللّه تعالى أمر جميع

الملائكة أن يغدوا

---

(1) . أخرجه الثعلبي . وروى شهر بن حوشب : أن ابن عباس رفعه بهذا تعليقا ، وهو في كتاب العظمة لأبى الفتح .

(2) . قوله «كأنه الوصع» طائر أصغر من العصفور . (ع)

(141/674)

ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة «1» . وقيل : خلق اللّه العرش من جوهرة خضراء ، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام . وقيل حول العرش سبعون ألف صنف من الملائكة ، يطوفون به مهللين مكبرين ، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام ، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ، ومن ورائهم مائه ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ، ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر . وقرأ ابن عباس : العرش بضم العين . فإن قلت : ما فائدة قوله وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ولا يخفى على أحد أنّ حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون ؟ «2» قلت :

فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله ، والترغيب فيه كما وصف الأنبياء في غير موضع من

كتابه بالصلاح لذلك ، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا فأبان بذلك فضل الإيمان . وفائدة أخرى : وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة «3» ، لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معاينين ، ولما وصفوا بالإيمان ، لأنه إنما يوصف بالإيمان : الغائب ، فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم ، علم أنّ إيمانهم وإيمان من في الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء : في أنّ إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير ، إلا هذا ، وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا ، وأنه منزه عن صفات الأجرام . وقد روعي التناسب في قوله وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا كأنه قيل : ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم . وفيه تنبيه على أنّ الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة ، وأبعثه على إمحاض الشفقة وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن . فإنه

---

(1) . لم أجده .

(2) . قال محمود : «إن قلت . ما فائدة قوله وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة مؤمنون بالله تعالى . . . الخ» قال أحمد : كلام حسن إلا استدلاله بقوله وَيُؤْمِنُونَ بِهِ على أنهم ليسوا مشاهدين ، فهذا لا يدل ، لأن الايمان هو التصديق غير مشروط فيه غيبة المصدق به ، بدليل صحة إطلاق الايمان بالآيات مع أنها مشاهدة ، كانشقاق القمر وقلب العصا حية . وإنما نقب الزمخشري بهذا التكلف عما في

قلبه من مرض ، لكنه طاح بعيدا عن الغرض ، فقرر أن حملة العرش غير مشاهدين ، بدليل قوله تعالى وَيُؤْمِنُونَ لأن معنى الايمان عنده التصديق بالغائب . ثم يأخذ من كونهم غير مشاهدين : أن الباري عز وجل لو صحت رؤيته لرأوه ، فحيث لم يروه لزم أن تكون رؤيته تعالى مما لا يصححه العقل ، وقد أبطلنا ما ادعاه من أن الايمان مستلزم عدم الرؤية ، ولو سلمناه فلا نسلم أنه يلزم من كون حملة العرش غير مشاهدين له تعالى أن تكون رؤيته غير صحيحة ، وقوله : ولو كانت صحيحة لرأوه :

شرطية عقيمة الانتاج ، لأن الرؤية عبارة عن إدراك : يخلق اللّه تعالى هذا الإدراك لحملة العرش ، إلا أن يذهب بالزمخشري الوهم إلى أن مصححي الرؤية يعتقدون الجسمية والاستقرار على العرش ، فيلزمهم رؤية حملة العرش له تعالى اللّه عن ذلك ، وحاشى أهل السنة ومصححي الرؤية من ذلك . [. . . . .]

(3) . قوله «كما تقول المجسمة» يريد أهل السنة ، لأنهم لما جوزوا رؤيته تعالى معاينة : لزمهم القول بأنه تعالى جسم ، ولكن الرؤية لا تستلزم الجسمية ، خلافا للمعتزلة ، كما بين في علم التوحيد . (ع)

لا تجانس بين ملك وإنسان ، ولا بين سماوي وأرضى قط ، ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلى والتناسب الحقيقي ، حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض . قال اللّه تعالى وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ . أى يقولون ربّنا وهذا المضمر يحتمل أن يكون بيانا ليستغفرون مرفوع المحل مثله ، وأن يكون حالا . فإن قلت : تعالى اللّه عن المكان ، فكيف صحّ أن يقال : وسع كل شيء ؟ قلت : الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى . والأصل :

وسع كل شيء رحمتك وعلمك ، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم ، وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم ، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء . فإن قلت : قد ذكر الرحمة والعلم فوجب أن يكون ما بعد الفاء مشتملا على حديثهما جميعا ، وما ذكر إلا الغفران وحده ؟ قلت : معناه فاغفر للذين علمت منهم التسوية واتباع سبيلك «1» . وسبيل اللّه : سبيل الحق التي نهجها «2» لعباده ودعا إليها إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى الملك الذي لا يغلب : وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئا إلا بداعي الحكمة وموجب حكمتك أن تفي بوعدك وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ أى العقوبات . أو جزاء السيئات . فحذف المضاف على أن السيئات هي الصغائر أو الكبائر المتوب عنها . والوقاية منها : التكفير أو قبول التوبة : فإن قلت : ما الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون المغفرة واللّه لا يخلف الميعاد ؟

قلت : هذا بمنزلة الشفاعة ، وفائدته زيادة الكرامة والثواب . وقرئ : جنة عدن . وصلح ، بضم اللام ، والفتح أفصح . يقال : صلح فهو صالح ، وصلح فهو صليح ، وذريتهم .

---

(1) . قال محمود : «فان قلت قد ذكر أولا الرحمة والعلم ، ثم ذكر ما توجبه الرحمة وهو الغفران ، فأين موجب العلم ؟ وأجاب بأن معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك . . . الخ» قال أحمد : كلامه هاهنا محشو بأنواع الاعتزال : منها اعتقاد وجوب مراعاة المصلحة ودواعي الحكم على اللّه تعالى . ومنها اعتقاد أن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر وجوبا وإن لم يكن توبة . ومنها اعتقاد امتناع غفران اللّه تعالى للكبائر التي لم يتب عنها . ومنها اعتقاد وجوب قبول التوبة على اللّه تعالى . ومنها جحد الشفاعة ، واعتقاد أهل السنة أن اللّه تعالى لا يجب عليه مراعاة المصلحة ، وأنه يجوز أن يعذب على الصغائر وإن اجتنب الكبائر ، وأنه يجوز أن يغفر الكبائر ما عدا الشرك وإن لم يتب منها ، وأن قبول التوبة بفضله ورحمته ، لا بالوجوب عليه ، وأنها تنال أهل الكبائر المصرين من الموحدين ، فهذه جواهر خمسة نسأل اللّه تعالى أن يقلد عقائل عقائدنا بها إلى الخاتمة ، وأن لا يحرمنا ألطافه ومراحمه آمين . وجميع ما يحتاج إلى تزييفه مما ذكره على قواعد الاعتزال في هذا الموضع قد تقدم ، غير أنه جدد هاهنا قوله : إن فائدة الاستغفار كفائدة الشفاعة ، وذلك مزيد الكرامة لا غير ، يريد : أن المغفرة للتائب واجبة على اللّه فلا تسئل ، وهذا الذي قاله مما يجعل لنفسه فيه الفضيحة ، زادت على بطلانه هذه الآية بالألسن الفصيحة ، كيف

يجعل المسئول مزيدة الكرامة لا غير. ونص الآية: فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، فهي ناطقة بأنهم يسألون من اللّه تعالى المغفرة للتائب ووقاية عذاب الجحيم، وهو الذي أنكر الزمخشري كونه مسؤلا.

(2). قوله «التي نهجها» أي: أبانها وأوضحها. أفاده الصحاح. (ع)

(143/674)

[سورة غافر (40): الآيات 10 إلى 12]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12)

أي ينادون يوم القيامة، فيقال لهم: لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ والتقدير: لمقت اللّه أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم، فاستغنى بذكرها مرة. وإِذْ تُدْعَوْنَ منصوب بالمقت الأوّل. والمعنى: أنه يقال لهم يوم القيامة: كان اللّه يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء والكفر، حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان، فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشدّ مما تمقتونهن اليوم وأنتم في

النار إذا أوقعتكم فيها باتباعكم هواهنّ . وعن الحسن : لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم ، فنودوا لمقت اللّه . وقيل : معناه لمقت اللّه إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض ، كقوله تعالى يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وإِذْ تُدْعَوْنَ : تعليل . والمقت : أشدّ البغض ، فوضع في موضع أبلغ الإنكار وأشدّه اثْنَتَيْنِ إماتتين وإحياءتين . أو موتتين وحياتين .

وأراد بالإماتتين : خلقهم أمواتا أوّلا ، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم ، وبالإحياءة الإحياءة الأولى وإحياءة البعث . وناهيك تفسيرا لذلك قوله تعالى وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ وكذا عن ابن عباس رضى اللّه عنهما . فإن قلت : كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتا : إماتة ؟ قلت : كما صح أن تقول : سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل ! وقولك للحفار : ضيق فم الركية ووسع أسفلها ، وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر ، ولا من ضيق إلى سعة ، ولا من سعة إلى ضيق . وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات ، والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معا على المصنوع الواحد ، من غير ترجح لأحدهما ، وكذلك الضيق والسعة . فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما «1» على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر ، فجعل صرفه عنه كنقله

---

(1) . قال محمود : «إحدى الإماتتين خلقهم أمواتا أولا ، والأخرى إماتتهم عند انقضاء

آجالهم ، ثم قال : فان قلت كيف سمى خلقه لهم أمواتا إماته ، وأجاب بأنه كما يقال : سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل ، وكما يقال للحفار : ضيق فم الركية ووسع أسفلها ، وليس ثم نقل من صغر إلى كبر ولا عكسه ، ولا من ضيق إلى سعة ولا عكسه . وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات . والسبب في صحته أن الكبر والصغر جائزان معا على المصنوع الواحد ، وكذلك الضيق والسعة ، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن من الآخر ، جعل صرفا عن الآخر وهو متمكن منه» قال أحمد : ما أسد كلامه ها هنا حيث صادق التمسك بأذيال نظر مالك رحمه اللّه في مسألة ما إذا باعه إحدى وزنتين معينتين على اللزوم لإحداهما والخيرة في عينها ، فانه منع من ذلك ، لأن المشترى لما كان متمكنا من تعيين كل واحدة منهما على سواء ، فإذا عين واحدة منهما بالاختيار نزل عدوله عن الأخرى ، وقد كان متمكنا منها منزلة اختيارها أولا ، ثم الانتقال عنها إلى هذه ، فإذا آل إلى بيع إحداهما بالأخرى غير معلومتى التماثل ، وهو الذي لخصه أصحابنا في قولهم : إن من خير بين شيئين فاختار أحدهما : عد متنقلا ، وقد سبقت هذه القاعدة لغير هذا الغرض فيما تقدم .

(144/674)

منه ، ومن جعل الإماتتين التي بعد حياة حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياآت ، وهو خلاف ما في القرآن ، إلا أن يتمحل فيجعل إحداها غير معتدّ بها . أو يزعم أن اللّه تعالى يحييهم في القبور ، وتستمرّ بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها ، ويعدّهم في المستثنين من الصعقة في قوله تعالى إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ . فإن قلت : كيف تسبب هذا لقوله تعالى فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا ؟ قلت : قد أنكروا البعث فكفروا ، وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى ، لأن من لم يخش العاقبة تخرق «1» في المعاصي ، فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرّرا عليهم ، علموا بأن اللّه قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء ، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ أى إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء مِنْ سَبِيلٍ قط ، أم اليأس واقع دون ذلك ، فلا خروج ولا سبيل إليه . وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط . وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيرا ، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك ، وهو قوله ذِلِكُمْ أى ذلكم الذي أنتم فيه ، وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد اللّه وإيمانكم بالإشراك «2» به فَالْحُكْمُ لِلَّهِ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد : وقوله الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ دلالة على الكبرياء والعظمة ، وعلى أن عقاب مثله لا يكون إلا كذلك ، وهو الذي يطابق كبرياءه ويناسب جبروته . وقيل : كأن الحرورية «3» أخذوا قولهم : لا حكم إلا للّه ، من هذا .

---

(1) . قوله «تخرق في المعاصي» في الصحاح : يقال : هو يتخرق في السخاء ، إذا توسع

فيه . (ع)

(2) . قال محمود : «أى إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء من سبيل قط ، أم اليأس واقع دون ذلك ، فلا خروج ولا سبيل إليه ، وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط ، وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيرا ، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك ، وهو قوله ذِلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ معناه : أن اعتياض السبيل إلى خروجكم من النار سببه كفركم بتوحيد اللّه تعالى ، وإيمانكم بالاشراك» قال أحمد : وعلى هذا النمط بنى الشعراء مثل قولهم :

هل إلى نجد وصول وعلى الخيف نزول

وإنما قصدهم أن هذا أمر غالب فيه اليأس على الطمع .

(3) . قوله «الحرورية» في الصحاح : أنها طائفة من الخوارج تنسب إلى «حرور» اسم قرية ، وكأنه يريد أهل السنة ، فإنهم الذين اشتهر عنهم هذا القول ، خلافا للمعتزلة في قولهم : إن الفعل قد يدرك الحكم قبل ورود الشرع ، كما بين في الأصول . (ع)

[سورة غافر (40) : الآيات 13 إلى 16]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (14) رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (15) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (16)

يُرِيكُمْ آياتِهِ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها . والرزق : المطر ، لأنه سببه وَما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ وما يتعظ وما يعتبر بآيات اللّه إلا من يتوب من الشرك ويرجع إلى اللّه ، فإن المعاند لا سبيل إلى تذكره واتعاظه ، ثم قال للمنيبين فَادْعُوا اللَّهَ أى اعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ من الشرك . وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم . رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ ثلاثة أخبار ، لقوله «هو» مترتبة على قوله الَّذِي يُرِيكُمْ أو أخبار مبتدإ محذوف ، وهي مختلفة تعريفا وتنكيرا . وقرئ : رفيع الدرجات بالنصب على المدح. ورفيع الدرجات ، كقوله تعالى ذِي الْمَعارِجِ وهي مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش ، وهي دليل على عزته وملكوته . وعن ابن جبير : سماء فوق سماء . والعرش فوقهن . ويجوز أن يكون عبارة عن رفعة شأنه وعلوّ سلطانه ، كما أنّ ذا العرش عبارة عن ملكه . وقيل : هي درجات ثوابه التي ينزلها أولياءه في الجنة الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ الذي هو سبب الحياة من أمره ، يريد : الوحى الذي هو أمر بالخير وبعث عليه ، فاستعار له الروح ، كما قال

تعالى أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ لِيُنْذِرَ اللّه . أو الملقى عليه : وهو الرسول أو الروح . وقرئ : لتنذر ، أى : لتنذر الروح لأنها تؤنث ، أو على خطاب الرسول . وقرئ : لينذر يوم التلاق ، على البناء للمفعول ويَوْمَ التَّلاقِ يوم القيامة ، لأن الخلائق تلتقي فيه . وقيل : يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض . وقيل :

المعبود والعابد يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء ، لأنّ الأرض بارزة قاع صفصف ، ولا عليهم ثياب ، إنما هم عراة مكشوفون ، كما جاء في الحديث «يحشرون عراة حفاة غرلا» «1» لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ أى من أعمالهم وأحوالهم . وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه : لا يخفى عليه منهم شيء . فإن قلت : قوله لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ :

بيان وتقرير لبروزهم ، واللّه تعالى لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أو لم يبرزوا ، فما معناه ؟ قلت :

معناه أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب : أنّ اللّه لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم ، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه . قال اللّه تعالى : ولكن ظننتم أنّ اللّه لا يعلم كثيرا مما تعملون . وقال تعالى :

---

(1) . متفق عليه من حديث عائشة رضى اللّه عنها .

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ

وذلك لعلمهم أنّ الناس يبصرونهم ، وظنهم أن اللّه لا يبصرهم ، وهو معنى قوله وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ حكاية لما يسئل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به . ومعناه : أنه ينادى مناد فيقول : لمن الملك اليوم ؟ فيجيبه أهل المحشر : للّه الواحد القهار . وقيل : يجمع اللّه الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص اللّه فيها قط «فأوّل ما يتكلم به أن ينادى مناد : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ . . . الآية فهذا يقتضى أن يكون المنادى هو المجيب .

[سورة غافر (40) : آية 17]

الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (17)

لما قرّر أن الملك للّه وحده في ذلك اليوم عدّد نتائج ذلك ، وهي أنّ كل نفس تجزى ما كسبت وأن الظلم مأمون ، لأن اللّه ليس بظلام للعبيد ، وأن الحساب لا يبطئ ، لأن اللّه لا يشغله حساب عن حساب ، فيحاسب الخلق كله في وقت واحد وهو أسرع الحاسبين . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : إذا أخذ في حسابهم لم يقل « 1 » أهل الجنة إلا فيها ولا أهل

النار إلا فيها .

[سورة غافر (40) : آية 18]

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ (18)

الآزفة : القيامة ، سميت بذلك لأزوفها ، أى : لقربها . ويجوز أن يريد بيوم الآزفة : وقت الخطة الآزفة ، وهي مشارفتهم دخول النار ، فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارّها فتلصق بحناجرهم ، فلا هي تخرج فيموتوا ، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروّحوا ، ولكنها معترضة كالشجا ، كما قال تعالى فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا . فإن قلت : كاظِمِينَ بم انتصب ؟

قلت : هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى ، لأن المعنى : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها . ويجوز أن يكون حالا عن القلوب ، وأن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر ، وإنما جمع الكاظم جمع السلامة ، لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ، كما قال تعالى رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ وقال فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ وتعضده قراءة من قرأ : كاظمون . ويجوز أن يكون حالا عن قوله : وأنذرهم ، أى : وأنذرهم مقدّرين أو مشارفين الكظم ، كقوله تعالى فَادْخُلُوها خالِدِينَ الحميم : المحب المشفق . والمطاع : مجاز في المشفع ، لأن حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر في أنها لا تكون إلا

لمن فوقك . فإن قلت : ما معنى قوله تعالى :

---

(1) . قوله «لم يقل أهل الجنة إلا فيها» من قال يقيل قيلولة . (ع)

(147/674)

وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ؟ قلت : يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معا ، وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة ، «1» كما تقول : ما عندي كتاب يباع ، فهو محتمل نفى البيع وحده ، وأن عندك كتابا إلا أنك لا تبيعه ، ونفيهما جميعا ، وأن لا كتاب عندك ، ولا كونه مبيعا . ونحوه :

ولا ترى الضّبّ بها ينجحر «2»

يريد : نفى الضب وانجحاره . فإن قلت : فعلى أى الاحتمالين يجب حمله؟ قلت : على نفى الأمرين جميعا ، من قبل أن الشفعاء هم أولياء اللّه ، وأولياء اللّه لا يحبون ولا يرضون إلا من أحبه اللّه ورضيه ، وأن اللّه لا يحب الظالمين ، فلا يحبونهم ، وإذا لم يحبوهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم .

قال اللّه تعالى وَما لِلظّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ وقال : وَلا يَشْفَعُونَ إِلّا لِمَنِ ارْتَضى ولأن الشفاعة لا تكون إلا في زيادة التفضل ، «3» وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب ، بدليل قوله

تعالى وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وعن الحسن رضى اللّه عنه : واللّه ما يكون لهم شفيع البتة ، فإن قلت : الغرض حاصل بذكر الشفيع ونفيه ، فما الفائدة في ذكر هذه الصفة ونفيها ؟ قلت : في ذكرها فائدة جليلة ، وهي أنها ضمت إليه ، ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة ، لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها ، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف ، بيانه : أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت : ما لي فرس أركبه ، ولا معى سلاح أحارب به ، فقد جعلت عدم الفرس وفقد السلاح علة مانعة من الركوب والمحاربة ، كأنك تقول : كيف يتأتى منى الركوب والمحاربة ولا فرس لي ولا سلاح معى ، فكذلك قوله وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ معناه :

كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع ، فكان ذكر التشفيع والاستشهاد على عدم تأتيه بعدم الشفيع :

وضعا لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف «4» غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه .

---

(1) . قال محمود : «يحتمل أن يكون المنفي الشفيع الذي هو الموصوف وصفته وهي الطاعة ، ويحتمل أن يكون المنفي الصفة وهي الطاعة والشفيع ثابت» قال أحمد : إنما جاء الاحتمال من حيث دخول النفي على مجموع الموصوف والصفة . ونفى المجموع ، كما يكون بنفي كل واحد من جزئيه ، وكذلك يكون بنفي أحدهما ، على أن المراد هنا – كما قال –

: نفى الأمرين جميعا . قال : وفائدة ذكر الموصوف أنه كالدليل على نفى الصفة ، لأنه إذا انتفى الموصوف انتفت الصفة قطعا ، قلت : فكأنه نفى الصفة مرتين من وجهين مختلفين .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 426 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) . قوله «لا تكون إلا في زيادة التفضل» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فتكون في الخروج من النار أيضا ، كما تقرر في التوحيد . وحديث الشفاعة مشهور ، نعم الكفار لا خروج لهم من النار . (ع)

(4) . قوله «موضع الأمر المعروف» أى الذي يعرفه السامع ويسلمه ، كما هو شأن الشاهد على الدعوى ، وإذا كان انتفاء الشفيع معروفا فلا ينتفي أن يتوهم وجوده ، وبهذا يتبين قوله فيما سبق ، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف . (ع)

(148/674)

[سورة غافر (40) : آية 19]

يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ (19)

الخائنة : صفة للنظرة . أو مصدر بمعنى الخيانة ، كالعافية بمعنى المعافاة ، والمراد : استراق

النظر إلى ما لا يحل ، كما يفعل أهل الريب ، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين ، لأن قوله وَما تُخْفِي الصُّدُورُ لا يساعد عليه «1» . فإن قلت : بم اتصل قوله يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ ؟ قلت : هو خبر من أخبار هو في قوله هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ مثل يُلْقِي الرُّوحَ ولكن يُلْقِي الرُّوحَ قد علل بقوله لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ فبعد لذلك عن أخواته .

[سورة غافر (40) : آية 20]

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20)

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ يعنى : والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضى إلا بالحق والعدل . لاستغنائه عن الظلم . وآلهتكم لا يقضون بشيء ، وهذا تهكم بهم ، لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه : يقضى ، أو لا يقضى إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ تقرير لقوله يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون ، وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون اللّه ، وأنها لا تسمع ولا تبصر . وقرئ : يدعون ، بالتاء والياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 148. 159﴾

---

(1) . قال محمود : «الخائنة إما صفة للنظرة وإما مصدر كالعافية» قال : «ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين» لأنه لا يساعد عليه قوله تعالى وَما تُخْفِي الصُّدُورُ قال أحمد : إنما لم

يساعد عليه لأن خائنة الأعين على هذا التقدير معناه الأعين الخائنة ، وإنما يقابل الأعين الصدور ، لا ما تخفيه الصدور ، بخلاف التأويل الأول ، فان المراد به نظرات الأعين فيطابق خفيات الصدور . [. . . . .]

(149/674)

وقال ابن الجوزى :

وفي ﴿ حم ﴾ أربعة أقوال :

أحدها : قَسَم أَقْسَمَ اللهُ به وهو من أسمائه عز وجل ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

قال أبو سليمان : وقد قيل : إن جواب القَسَم قولُه ﴿ إِنَّ الذين كفَروا يُنادَوْنَ ﴾ [المؤمن : 10] .

والثاني : أنها حروف من أسماء الله عز وجل ، ثم فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن ﴿ آلر ﴾ و ﴿ حم ﴾ و ﴿ نون ﴾ حروف الرحمن ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : أن الحاء مفتاح اسمه " حميد " ، والميم مفتاح اسمه " مجيد " ، قاله أبو العالية .

والثالث : أن الحاء مفتاح كل اسم لله ابتداؤه حاء ، مثل : " حكيم " و " حليم " و " حيّ "

، والميم مفتاح كلِّ اسمٍ له ، ابتداؤه ميم مثل " ملك " و " متكبِّر " و " مَجيد " ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

وروي نحوه عن عطاء الخراساني .

والثالث : أن معنى ﴿ حم ﴾ : قُضِيَ ما هو كائن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

ورُوي عن الضحاك والكسائي مثل هذا كأنهما أرادا الإِشارة إلى حُمَّ ، بضم الحاء وتشديد الميم .

قال الزجاج : وقد قيل في ﴿ حم ﴾ : حُمَّ الأمر .

والرابع : أن ﴿ حم ﴾ اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

وقرأ ابن كثير : ﴿ حم ﴾ بفتح الحاء ؛ وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : بكسرها ، واختلف عن الباقين .

قال الزجاج : أمّا الميم ، فساكنة في قراءة القُرّاء كلِّهم إلاّ عيسى ابن عمر ، فإنه فتحها ؛ وفتحها على ضربين .

أحدهما : أن يجعل ﴿ حم ﴾ اسماً للسُّورة ، فينصبه ولا ينوِّنه ، لأنه على لفظ الأسماء الأعجمية نحو هابيل وقابيل .

والثاني : على معنى : اتْلُ حم ، والأجود أن يكون فتح لالتقاء الساكنين حيث جعله اسماً للسُّورة ، ويكون حكاية حروف الهجاء .

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الكتاب ﴾ أي : هذا تنزيلُ الكتاب .

والتَّوْبُ : جمع تَوْبَة ، وجائز أن يكون مصدراً من تاب يَتُوب تَوْبا ، والطَّوْل : الفَضْل .

قال أبو عبيدة : يقال : فلان ذو طَوْل على قومه ، أي : ذو فَضْل .

(150/674)

وقال ابن قتيبة : يقال : طُلْ عليَّ يرحمك الله ، أي : تَفَضَّلْ .

قال الخطابي : ذو حرف النِّسبة ، والنّسبة في كلامهم على ثلاثة أوجه : بالياء كقولهم : أسديّ ، وبكريّ ، والثاني : على الجمع كقولهم : المَهالبة ، والمسامعة ، والأزارقة ، والثالث : ب ﴿ ذي ﴾ و ﴿ ذات ﴾ ، كقولهم : رجُل مال ، أي : ذو مال ، وكبش صاف ، أي : ذو صوف ، وناقة ضامر ، أي ذات ضُمر فقوله : ذو الطَّوْل ، معناه : أهْل الطَّول والفَضْل .

قوله تعالى : ﴿ ما يُجادِلُ في آيات الله ﴾ أي : ما يُخاصم فيها بالتكذيب لها ودفعها بالباطل ﴿ إلا الذين كَفَروا ﴾ وباقي الآية في [آل عمران : 196] ؛ والمعنى : إنّ عاقبة أمرهم إلى العذاب كعاقبة مَنْ قَبْلَهم .

قوله تعالى : ﴿ وهَمَّتْ كُلُّ أُمَّة برسولهم لِيَأْخُذوه ﴾ فيه قولان :

أحدهما : ليقتُلوه ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

والثاني : ليحبِسوه ويعذِّبوه ، ويقال للأسير : أخيذٌ ، حكاه ابن قتيبة .

قال الأخفش : وإنما قال : " ليأخُذوه " فجمع على الكلِّ ، لأن الكلَّ مذكَّر ومعناه معنى الجماعة .

وما بعد هذا مفسَّر في [الكهف : 56] إلى قوله ﴿ فأَخَذْتُهم ﴾ أي : عاقَبْتُهم وأهلكتُهم ﴿ فكيف كان عِقابِ ﴾ استفهام تقرير لعقوبتهم الواقعة بهم .

﴿ وكذلك ﴾ أي : مِثْل الذي حَقَّ على الأُمم المكذِّبة ﴿ حَقَّتْ كَلِمةُ رَبِّكَ ﴾ بالعذاب ، وهي قوله ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ [الأعراف : 18] على الذين كفروا من قومك .

وقرأ نافع ، وابن عامر : ﴿ حَقَّتْ كَلِماتُ رَبِّكَ ﴾ ، ﴿ أنهم ﴾ قال الأخفش : لأنهم أو بأنهم ﴿ أصحابُ النَّارِ ﴾ .

(151/674)

ثم أخبر بفضل المؤمنين فقال : ﴿ الذين يَحْمِلونَ العَرْشَ ﴾ وهم أربعة أملاك ، فإذا كان يوم القيامة جُعلوا ثمانيةً ﴿ ومَنْ حَوْلَه ﴾ قال وهب بن منبِّه : حَوْلَ العرش سبعون ألف صفٍّ من الملائكة يطوفون به ، ومن وراء هؤلاء مائة ألف صفٍّ من الملائكة ليس فيهم أحد إلاّ

وهو يسبّح بما لا يسبّحه الآخر ، وقال غيره : الذين حول العرش هم الكروبيّون وهم سادة الملائكة .

وقد ذكرنا في السُّورة المتقدّمة معنى قوله : ﴿ يسبّحون بحمد ربّهم ﴾ [الزمر : 75] .

قوله تعالى : ﴿ ربَّنا ﴾ أي : يقولون ربَّنا ﴿ وَسِعتَ كُلَّ شيءٍ رَحْمَةً وعِلْماً ﴾ قال الزجاج : هو منصوب على التمييز .

وقال غيره : المعنى : وَسِعَتْ رحمتُك وعِلْمُك كلَّ شيء ﴿ فَاغْفِرْ للذين تابوا ﴾ من الشّرك ﴿ واتَّبَعوا سبيلَكَ ﴾ وهو دين الإسلام .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : ﴿ وقِهِمُ السَّيِّئاتِ ﴾ قال قتادة : يعني العذاب .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين كَفَروا ينادَوْنَ لَمَقْتُ الله ﴾ قال المفسّرون : لمّا رأَوْا أعمالَهم وأُدخِلوا النّارِ مَقَتُوا أنفُسَهم لسُوءِ فِعْلِهم ، فناداهم مُنادٍ : لَمَقْتُ الله إيّاكم في الدُّنيا ﴿ إذ تُدْعَوْنَ إلى الإيمان فتكفُرونَ ﴾ أكبرُ مِنْ مقتكم أنفُسكم .

ثم أخبر عما يقولون في النار بقوله ﴿ ربَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ وأَحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ ﴾ وهذا مثل قوله ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ثُمَّ يميتُكم ثُمَّ يُحْييكم ﴾ [البقرة : 28] وقد فسَّرناه هنالك .

قوله تعالى : ﴿ فهل إلى خُروج ﴾ أي : من النار إلى الدنيا لنعملَ بالطاعة ﴿ مِنْ سَبيلٍ ﴾ ؟ وفي الكلام اختصار ، تقديره : فَأُجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك ؛ وقيل لهم ﴿ ذلكم ﴾ يعني العذاب الذي نزل بهم ﴿ بأنَّه إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَه كَفَرتم ﴾ أي : إذا قيل " لا إله إلا الله " أنكرتم ، وإن جُعل له شريكٌ آمنتم ، ﴿ فالحُكم لله ﴾ فهو الذي حكم على المشركين بالنار .

وقد بيَّنَّا في سورة [البقرة : 255] معنى العليّ وفي [الرعد : 9] معنى الكبير .

﴿ هُوَ الذي يُريكم آياتِه ﴾ أي : مصنوعاته التي تَدُلُّ على وَحدانيَّته وقُدرته .

والرِّزق هاهنا المطر ، سمّي رزقاً ، لأنه سبب الأرزاق .

و " يتذكَّر " بمعنى يَتَّعظ ، و " يُنيب " بمعنى يَرْجِع إلى الطاعة .

ثم أمر المؤمنين بتوحيده فقال : ﴿ فادْعُوا اللهَ مُلْصِينَ له الدِّينَ ﴾ أي : موحِّدين .

قوله تعالى : ﴿ رفيعُ الدَّرَجاتِ ﴾ قال ابن عباس : يعني رافع السموات .

وحكى الماوردي عن بعض المفسِّرين قال : معناه عظيم الصِّفات .

قوله تعالى : ﴿ ذو العَرْشَ ﴾ أي : خالِقُه ومالِكُه .

قوله تعالى : ﴿ يُلْقي الرُّوحَ ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنه القرآن .

والثاني : النُّبوّة .

والقولان : مرويّان عن ابن عباس وبالأول قال ابن زيد ، وبالثاني قال السدي .

والثالث : الوحي ، قاله قتادة .

وإنما سُمّي القرآن والوحي روحاً ، لأن قِوام الدّين به ، كما أن قِوام البدن بالرُّوح .

والرابع : جبريل ، قاله الضحاك .

والخامس : الرَّحمة ، حكاه إبراهيم الحربي .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مِنْ قضائه ، قاله ابن عباس .

والثاني : بأمره ، قاله مقاتل .

والثالث : من قوله ، ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ على مَن يشاءُ مِنْ عِبادِهِ ﴾ يعني الأنبياء .

﴿ لِيُنْذِرَ ﴾ في المشار إليه قولان .

أحدهما : أنه الله عز وجل .

والثاني : النَّبيُّ الذي يوحى إليه

والمراد ب ﴿ يومَ التَّلاق ﴾ : يوم القيامة .

وأثبت ياء ﴿ التلاقي ﴾ في الحالين ابن كثير ويعقوب ، وأبو جعفر .

وافقهما في الوصل ؛ والباقون بغير ياءٍ في الحالَيْن ، وفي سبب تسميته بذلك خمسة أقوال :

أحدها : أنه يلتقي فيه أهل السماء والأرض ، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس .

والثاني : يلتقي فيه الأوّلون والآخِرون روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : [يلتقي] فيه الخلق والخالق ، قاله قتادة ومقاتل .

والرابع : يلتقي المظلوم والظالم ، قاله ميمون بن مهران .

والخامس : يلتقي المرءُ بعمله ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُم بارِزونَ ﴾ أي ظاهِرون من قُبورهم ﴿ لا يَخْفَى على الله منهم شيء ﴾ .

فإن قيل : فهل يَخْفَى عليه منهم اليوم شيء ؟

فالجواب : أنْ لا ، غير أن معنى الكلام التهديد بالجزاء ؛ وللمفسِّرين فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : لا يَخْفَى عليه ممّا عَمِلوا شيءٌ ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا يَستترونَ منه بجبل ولا مَدَر ، قاله قتادة .

والثالث : أن المعنى : أَبْرَزهم جميعاً ، لأنه لا يَخْفَى عليه منهم شيء ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ ﴾ اتفقوا على أن هذا يقوله الله عز وجل بعد فَناء

الخلائق .

واختلفوا في وقت قوله له على قولين :

أحدهما : [أنه] يقوله عند فَناء الخلائقِ إذا لم يبق مجيب ، فيَرُدّ هو على نفسه فيقول : ﴿ للهِ الواحدِ القَهّارِ ﴾ ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه يقوله يوم القيامة .

وفيمن يُجيبه حينئذ قولان .

أحدهما : أنه يُجيب نَفْسَه ، وقد سَكَتَ الخلائقُ لقوله ، قاله عطاء .

والثاني : أن الخلائق كلَّهم يُجيبونه فيقولون ﴿ للهِ الواحدِ القهارِ ﴾ قاله ابن جريج .

قوله تعالى : ﴿ وأَنْذِرهم يومَ الآزفة ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه يومُ القيامة ، قاله الجمهور .

قال ابن قتيبة : وسميت القيامة بذلك لقُربها .

يقال : أَزِفَ شُخوص فلان ، أي : قَرُبَ .

والثاني : أنه يومُ حُضور المنيَّة ، قاله قطرب .

قوله تعالى : ﴿ إِذِ القُلوبُ لدى الحناجر ﴾ وذلك أنها ترتقي إلى الحناجر فلا تخرُج ولا تعود ، هذا على القول الأول .

وعلى الثاني : القلوب هي النُّفوس تبلغ الحناجرَ عند حضور المنيَّة ؛ قال الزجاج : و ﴿ كاظمينَ ﴾ منصوب على الحال ، والحال محمولة على المعنى ؛ لأن القلوب لا يقال لها : كاظمين ، وإنما الكاظمون أصحاب القلوب ؛ فالمعنى : إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كَظْمهم .

قال المفسِّرون : "كاظِمِين" أي : مغمومين ممتلئين خوفاً وحزناً ، والكاظم : المُمْسِك للشيء على ما فيه ؛ وقد أشرنا إلى هذا عند قوله : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : 134] .

﴿ ما لِلظّالِمِينَ ﴾ يعني الكافرين ﴿ مِنْ حَميمٍ ﴾ أي : قريب ينفعُهم ﴿ ولا شفيعٍ يُطَاعُ ﴾ فيهم فتُقْبَل شفاعتُه .

﴿ يَعْلَمُ خائنةَ الأعيُن ﴾ قال ابن قتيبة : الخائنة والخيانة واحد .

وللمفسرين فيها أربعة أقوال :

أحدها : أنه الرجُل يكون في القوم فتمرُّ به المرأة فيُريهم أنه يغُضُّ بصره ، فإذا رأى منهم غفلةً لَحَظَ إليها ، فإن خاف أن يَفْطُنُوا له غَضَّ بصره ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه نظر العين إلى ما نُهي عنه ، قاله مجاهد .

والثالث : الغمز بالعين ، قاله الضحاك والسدي .

قال قتادة : هو الغمز بالعين فيما لا يُحِبُّه الله ولا يرضاه .

والرابع : النظرة بعد النظرة قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ وما تُخْفي الصُّدورُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ما تُضْمِره من الفعل أن لو قَدَرْتَ على ما نَظَرْتَ إليه ، قاله ابن عباس .

والثاني : الوسوسة ، قاله السدي .

والثالث : ما يُسِرُّه القلب من أمانة أو خيانة حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ والله يَقْضي بالحق ﴾ أي : يحكمُ به فيَجزي بالحسنة والسَّيِّئة ﴿ والذين يَدْعُونَ مِنْ دُونِه ﴾ من الآلهة .

(155/674)

وقرأ نافع وابن عامر ﴿ تَدْعُونَ ﴾ بالتاء ، على معنى : قُلْ لهم : ﴿ لا يَقْضُونَ بشيء ﴾ أي : لا يَحْكُمونَ بشيء ولا يُجازُون به ؛ وقد نبَّه اللهُ عز وجل بهذا على أنه حَيٌّ ، لأنه إنما

يأمُر ويَقضي من كان حيّاً ، وأيّد ذلك بذِكْر السَّمع والبصر ، لأنهما إنما يثبُتان لحيٍّ ، قاله أبو سليمان الدمشقي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 204.215 ﴾

(156/674)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ حم ﴾ قال ابن عباس : ﴿ حم ﴾ اسم الله الأعظم وعنه قال الروحمون حروف اسمه الرحمن مقطعة وقيل حم اسم للسورة وقيل الحاء افتتاح أسمائه حليم وحميد وحي وحكيم وحنان ، والميم افتتاح أسمائه ملك ومجيد ومنان ، وقيل معناه حم بضم الحاء أي قضى ما هو كائن ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز ﴾ أي الغالب القادر وقيل الذي لا مثل له ﴿ العليم ﴾ أي بكل المعلومات ﴿ غافر الذنب ﴾ يعني ساتر الذنب ﴿ وقابل التوب ﴾ يعني التوبة قال ابن عباس غافر الذنب لمن قال لا إله إلا الله وقابل التوب ممن قال لا إله إلا الله ﴿ شديد العقاب ﴾ لمن لا يقول لا إله إلا الله ﴿ ذي الطول ﴾ يعني السعة والغنى وقيل ذي الفضل والنعم وأصل الطول الإنعام الذي تطول مدته على صاحبه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ يعني هو الموقوف بصفات الوحدانية التي لا يوصف بها غيره ﴿ إليه المصير ﴾ أي مصير العباد إليه في الآخرة

﴿ ما يجادل ﴾ يعني ما يخاصم ويحاجج في آيات الله يعني في دفع آيات الله بالتكذيب والإنكار إلا الذين كفروا قال أبو العالية آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن .

(157/674)

قوله تعالى : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ وقوله ﴿ وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " إن جدالاً في القرآن كفر " أخرجه أبو داود وقال المراد في القرآن كفر وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال " سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قوماً يتمارون فقال إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما أنزل الكتاب يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوه وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه " (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : هاجرت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعرف في وجهه الغضب فقال " إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب " ﴿ فلا يغررك تقلبهم ﴾ يعني تصرفهم ﴿ في البلاد ﴾ للتجارات وسلامتهم فيها مع كفرهم فإن عاقبة أمرهم العذاب ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم

﴿ يعني الكفار الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب من بعد قوم نوح ﴾ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ قال ابن عباس ليقتلوه ويهلكوه وقيل ليأسروه ﴿ وجادلوا ﴾ يعني خاصموا ﴿ بالباطل ليدحضوا ﴾ يعني ليبطلوا ﴿ به الحق ﴾ الذي جاءت به الرسل ﴿ فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ يعني أنزلت بهم من الهلاك ما هموا هم بإنزاله بالرسل وقيل معناه فكيف كان عقابي إياهم أليس كان مهلكاً مستأصلاً ﴿ وكذلك حقت ﴾ أي وجبت ﴿ كلمة ربك ﴾ يعني كما وجبت كلمة العذاب على الأمم المكذبة حقت ﴿ على الذين كفروا ﴾ يعني من قومك ﴿ إنهم ﴾ يعني بأنهم ﴿ أصحاب النار ﴾ قوله : ﴿ الذين يحملون العرش ﴾ قيل حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أردفهم الله تعالى بأربعة أخر كما قال الله تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ وهم أشرف الملائكة وأفضلهم لقربهم من الله وهم على

صورة الأوعال وجاء في الحديث إن لكل ملك منهم وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر ، ولكل واحد منهم أربعة أجنحة جناحان منها على وجهه مخافة أن ينظر إلى العرش فيصعق وجناحان يهفو بهما في الهواء ليس لهم كلام غير التسبيح والتحميد

والتمجيد ما بين أظلافهم إلى ركبهم كما بين سماء إلى سماء وقال ابن عباس : حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام ، ويروي أن أقدامهم في تخوم الأرضين والأرضون والسموات إلى حجزهم تسبيحهم سبحان ذي العزة والجبروت سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح وقيل إن أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من التي تليها والتي تليها أشد خوفاً من التي تليها .

(159/674)

وروى جابر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " أخرجه أبو داود وأما صفة العرش فقيل إنه جوهرة خضراء وهو من أعظم المخلوقات خلقاً وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال : إن ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية كخفقان الطير المسرع ثلاثين ألف عام ويكسى العرش كل يوم ألف لون من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى والأشياء كلها في العرش كحلقة في فلاة وقال مجاهد

بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب حجاب نور وحجاب ظلمة وحجاب نور وحجاب ظلمة وقيل إن العرش قبلة لأهل السماء كما أن الكعبة قبلة لأهل الأرض قوله : ﴿ ومن حوله ﴾ يعني الطائفين به وهم الكروبيون وهم سادات الملائكة ، قال وهب بن منبه : إن حول العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش يقبل هؤلاء ويدبر هؤلاء فإذا استقبل بعضهم بعضاً هلل هؤلاء وكبر هؤلاء ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام أيديهم على أعناقهم قد وضعوها على عواتقهم فإذا سمعوا تكبير أولئك وتهليلهم رفعوا أصواتهم فقالوا سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجلك أنت الله لا إله غيرك أنت الأكبر والخلق كلهم إليك راجعون ومن وراء هؤلاء وهؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنى على اليسرى ليس منهم أحد إلا يسبح بتحميد لا يسبحه الآخر ما بين جناحي أحدهم مسيرة ثلاثمائة عام وما بين شحمة أذنه إلى عاتقه أربعمائة عام واحتجب الله من الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجاباً من نار وسبعين حجاباً من ظلمة وسبعين حجاباً من نور وسبعين حجاباً من در أبيض وسبعين حجاباً من ياقوت أحمر وسبعين حجاباً من زبرجد أخضر وسبعين حجاباً من ثلج وسبعين حجاباً من ماء وسبعين حجاباً من برد وما لا يعلمه إلا الله .

(160/674)

قوله تعالى : ﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ أي ينزهون الله تعالى عما لا يليق بجلاله والتحميد هو الاعتراف بأنه هو المنعم على الإطلاق ﴿ ويؤمنون به ﴾ أي يصدقون بأنه واحد لا شريك له ولا مثل له ولا نظير له .

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ قيل إذا دخل المؤمن الجنة قال : أين أبي وأين أمي وأين ولدي وأين زوجتي ، فيقال : إنهم لم يعملوا عملك ، فيقول : إني كنت أعمل لي ولهم فيقال أدخلوهم الجنة فإذا اجتمع بأهله في الجنة كان أكمل لسروره ولذته ﴿ وقهم السيئات ﴾ أي عقوبات السيئآت بأن تصونهم من الأعمال الفاسدة التي توجب العقاب ﴿ ومن تق السيئات يومئذ ﴾ يعني من تقه في الدنيا ﴿ فقد رحمته ﴾ يعني في القيامة ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ يعني النعيم الذي لا ينقطع في جوار مليك لا تصل العقول إلى كنه عظمته وجلاله قوله تعالى :

﴿ إن الذين كفروا ينادون ﴾ يعني يوم القيامة وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم حين عرضت عليهم سيئاتهم وعاينوا العذاب فيقال لهم ﴿ لمقت الله ﴾ يعني إياكم في الدنيا ﴿ أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴾ أي اليوم عند حلول العذاب بكم .

﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال ابن عباس : كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم فأحياهم الله تعالى في الدنيا ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة فهذه موتتان وحياتان وقيل أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في القبر للسؤال ثم أميتوا في قبورهم ثم أحيوا للبعث في الآخرة وذلك أنهم عدوا أوقات البلاء والمحنة وهي أربعة الموتة الأولى ثم الحياة في القبر ثم الموتة الثانية فيه ثم الحياة للبعث فأما الحياة الأولى التي هي من الدنيا فلم يعدوها لأنها ليست من أقسام البلاء وقيل ذكر حياتين وهي حياة الدنيا وحياة القيامة وموتتين وهي الموتة الأولى في الدنيا ثم الموتة الثانية في القبر بعد حياة السؤال ولم يعدوا حياة السؤال لقصر مدتها ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ يعني إنكارهم البعث بعد الموت فلما شاهدوا البعث اعترفوا بذنوبهم ثم سألوا الرجعة بقولهم ﴿ فهل إلى خروج ﴾ يعني من النار ﴿ من سبيل ﴾ والمعنى فهلاّ إلى رجوع إلى الدنيا من سبيل لنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط من الخروج وإنما قالوا ذلك تعللاً وتحيراً والمعنى فلا خروج ولا سبيل إليه ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله تعالى : ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم ﴾ معناه فأجيبوا أن لا سبيل إلى الخروج وهذا

العذاب والخلود في النار بأنكم إذا دعى الله وحده كفرتم يعني إذا قيل لا إله إلا الله أنكرتم ذلك ﴿ وإن يشرك به ﴾ أي غيره ﴿ تؤمنوا ﴾ أي تصدقوا ذلك الشرك ﴿ فالحكم لله العلي ﴾ أي الذي لا أعلى منه ﴿ الكبير ﴾ أي الذي لا أكبر منه .

(162/674)

قوله : ﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ أي عجائب مصنوعاته التي تدل على كمال قدرته ﴿ وينزل لكم من السماء رزقاً ﴾ يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق ﴿ وما يتذكر ﴾ أي يتعظ بهذه الآيات ﴿ إلا من ينيب ﴾ أي يرجع إلى الله تعالى في جميع أموره ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أي الطاعة والعبادة ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ .

(163/674)

قوله تعالى : ﴿ رفيع الدرجات ﴾ أي رافع درجات الأنبياء والأولياء والعلماء في الجنة وقيل معناه المرتفع أي إنه سبحانه وتعالى هو المرتفع بعظمته في صفات جلاله وكماله ووحدانيته المستغني عن كل ما سواه وكل الخلق فقراء إليه ﴿ ذو العرش ﴾ أي خالقه

ومالكه ، والفائدة في تخصيص العرش بالذكر لأنه أعظم الأجسام والمقصود بيان كمال التنبيه على كمال القدرة فكل ما كان أعظم كانت دلالته على كمال القدرة أقوى ﴿ يلقي الروح ﴾ يعني ينزل الوحي سماه روحاً لأن به تحيا الأرواح كما تحيا الأبدان بالأرواح ﴿ من أمره ﴾ قال ابن عباس : من قضائه وقيل بأمره وقيل من قوله ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ يعني الأنبياء ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ يعني لينذر النبي (صلى الله عليه وسلم) بالوحي يوم التلاق وهو يوم القيامة لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ، وقيل يلتقي الخلق والخالق وقيل يلتقي العابدون والمعبودون وقيل يلتقي المرء مع عمله وقيل يلتقي الظالم والمظلوم ﴿ يوم هم بارزون ﴾ أي خارجون من قبورهم ظاهرون لا يسترهم شيء ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ أي من أعمالهم وأحوالهم ، فإن قلت إن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في سائر الأيام فما وجه تخصيص ذلك اليوم ، قلت كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله تعالى لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم وهم في ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه في الدنيا ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ أي يقول الله في ذلك اليوم بعد فناء الخلق لمن الملك فلا أحد يجيبه فيجيب نفسه تعالى فيقول ﴿ لله الواحد القهار ﴾ أي الذي قهر الخلق بالموت وقيل إذا حضر الأولون والآخرون في يوم القيامة نادى مناد لمن الملك فيجيبه جميع الخلائق في يوم

القيامة ﴿ لله الواحد القهار ﴾ فالمؤمنون يقولونه تلذذاً حيث كانوا يقولونه في الدنيا ونالوا به المنزلة الرفيعة في العقبى والكفار يقولونه على سبيل

(164/674)

الذل والصغار والندامة حيث لم يقولوه في الدنيا ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ يعني يجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ أي إن الخلق آمنون في ذلك اليوم من الظلم لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي إنه تعالى لا يشغله حساب عن حساب بل يحاسب الخلق كلهم في وقت واحد .

﴿ والله يقضي بالحق ﴾ أي يحكم بالعدل ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ يعني الأصنام ﴿ لا يقضون بشيء ﴾ لأنها لا تعلم شيئاً ولا تقدر على شيء ﴿ إن الله هو السميع ﴾ أي لأقوال الخلق ﴿ البصير ﴾ بأفعالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 92.87 ﴾

(165/674)

وقال ابن جزى :

﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ ذكر في الزمر .

﴿ ذِي الطول ﴾ أي ذي الفضل والإنعام ، وقيل : الطول : الغنى والسعة .

﴿ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البلاد ﴾ جعل لا يغررك بمعنى لا يحزنك ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، ووعيد للكفار .

﴿ والأحزاب ﴾ يراد بهم عاد وثمود وغيرهم ﴿ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أي ليقتلوه ﴿ لِيُدْحِضُواْ ﴾ أي ليبطلوا به الحق .

﴿ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ أي وجب قضاؤه .

﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ عطف على ﴿ الذين يَحْمِلُونَ ﴾ ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إن قيل : ما فائدة قوله ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ ، ومعلوم أن حملة العرش ومن حوله يؤمنون بالله ؟ فالجواب أن ذلك إظهار لفضيلة الإيمان وشرفه ، قال ذلك الزمخشري ، وقال : إن فيه فائدة أخرى وهي : أن معرفة حملة العرش بالله تعالى من طريق النظر والاستدلال ، كسائر الخلق لا بالرؤية ، وهذه نزعته إلى مذهب المعتزلة في استحالة رؤية الله .

﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ أصل الكلام وسعت رحمتك وعلمك كل شيء فالسعة في المعنى مسندة إلى الرحمة والعلم ، وإنما أسندتا إلى الله تعالى في اللفظ لقصد المبالغة في وصف الله تعالى بهما كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء .

﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ يحتمل أن يكون المعنى قهم السيئات نفسها ، بحيث لا يفعلونها ، أو يكون المعنى : قِهِمْ جزاء السيئات ، فلا تؤاخذهم بها .

(166/674)

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ المقت البغض الذي يوجبه ذنب أو عيب ، وهذه الحال تكون للكفار عند دخولهم النار ؛ فإنهم إذا دخلوها مقتوا أنفسهم ، أي مقت بعضهم بعضاً ، ويحتمل أن يمقت كل واحد منهم نفسه فتناديهم الملائكة وتقول لهم : مقت الله لكم في الدنيا على كفركم أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم .

فقوله : لمقت الله مصدر مضاف إلى الفاعل ، وحذف المفعول لدلالة مفعول مقتكم عليه وقوله : ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ ﴾ ظرف العامل فيه ﴿ مَقْتُ الله ﴾ عاماً من طريق المعنى ، ويمتنع أن يعمل فيه من طريق قوانين النحو ، لأن مقت الله مصدر فلا يجوز أن يفصل بينه وبين بعض صلته ، فيحتاج أن يقدر اللظرف عامل ، وعلى هذا جاز بعضهم الوقف على قوله ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، والابتداء بالظرف وهذا ضعيف ، لأن المراعى المعنى . وقد جعل الزمخشري ﴿ مَقْتُ الله ﴾ عاماً في الظرف ولم يعتبر الفصل .

﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ هذه الآية كقوله : ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ

يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : 28] فالموتة الأولى عبارة عن كونهم عدماً ، أو كونهم في الأصلاب ، أو في الأرحام ، والمؤتة الثانية الموت المعروف ، والحياة الأولى حياة الدنيا ، والحياة الثانية حياة البعث في القيامة . وقيل : الحياة الأولى حياة الدنيا ، والثانية : الحياة في القبر ، والموتة الأولى الموت المعروف ، والموتة الثانية بعد حياة القبر ، وهذا قول فاسد لأنه لا بدّ من الحياة للبعث فتجيء الحياة ثلاثة مرات .

(167/674)

فإن قيل : كيف اتصال قولهم أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين بما قبله ؟ فالجواب : أنهم كانوا في الدنيا يكفرون بالبعث ، فلما دخلوا النار مقتوا أنفسهم على ذلك ، فأقروا به حينئذ ليرضوا الله بإقرارهم ، حينئذ فقولهم : ﴿ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ إقرار بالبعث على أكمل الوجوه ، طمعاً منه أن يخرجوا عن المقت الذي مقتهم الله ؛ إذ كانوا يدعون إلى الإسلام فيكفرون ﴿ فاعترفنا بِذُنُوبِنَا ﴾ الفاء هنا رابطة معناها التسبب ، فإن قيل : كيف يكون قولهم : ﴿ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ سبباً لاعترافهم بالذنوب ؟ فالجواب أنهم كانوا كافرين بالبعث ، فلمّا رأوا الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم ، علموا أن الله قادر على البعث فاعترفوا بذنوبهم ، وهي إنكار البعث ، وما أوجب لهم إنكاره من المعاصي ،

فإن من لم يؤمن بالآخرة لا يبالي بالوقوع في المعاصي . ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ الباء سببية للتعليل ، والإشارة بذلكم يحتمل أن تكون للعذاب الذي هم فيه ، أو إلى مقت الله لهم أو مقتهم لأنفسهم ، والأحسن أن تكون إشارة إلى ما يقتضيه سياق الكلام وذلك أنهم لما قالوا : ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ ، كأنهم قيل لهم : لا سبيل إلى الخروج ، فالإشارة بقوله ﴿ ذَلِكُم ﴾ إلى عدم خروجهم من النار .

﴿ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ يعني : العلامات الدالة عليه من مخلوقاته ومعجزات رسله ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السمآء رِزْقاً ﴾ يعني المطر .

(168/674)

﴿ رَفِيعُ الدرجات ﴾ يحتمل أن يكون المعنى مرتفع الدرجات ، فيكون بمعنى العالي أو رافع درجات عباده في الجنة وفي الدنيا ﴿ يُلْقِي الروح ﴾ يعني الوحي ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ يحتمل أن يريد الأمر الذي هو واحد الأمور ، أو الأمر بالخبر ، فعلى الأول تكون من للتبعيض أو لإبتداء الغاية ، وعلى الثاني تكون لابتداء الغاية أو بمعنى الباء ﴿ يَوْمَ التلاق ﴾ يعني يوم القيامة ، وسمي بذلك لأن الخلائق يلتقون فيه ، وقيل : لأنه يلتقي فيه أهل السموات والأرض وقيل : لأنه يلتقي الخلق مع ربهم ، والفاعل في ينذر ضمير يعود على من

يشاء أو على الروح أو على الله .

﴿ لِّمَنِ الملك اليوم ﴾ هذا من كلام الله تعالى تقريراً للخلق يوم القيامة ؛ فيجيبونه ويقولون : ﴿ لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ وقيل : بل هو الذي يجيب نفسه ؛ لأنه الخلق يسكتون هيبة له ، وقيل : إن القائل ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم ﴾ ملك .

﴿ يَوْمَ الأزفة ﴾ يعني القيامة ومعناه القريبة ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ معناه أن القلوب قد صعدت من الصدور ، لشدّة الخوف حتى بلغت الحناجر ، فيحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجاز عبرّ به عن شدّة الخوف . والحناجر جمع حنجرة وهي الحلق ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ أي محزونين حزناً شديداً كقوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 84] وقيل : معناه يكظمونت حزنهم أي يطمعون أن يخفوه ، والحال تغلبهم ، وانتصابه على الحال من أصحاب القلوب ، لأن معناه قلوب الناس ، أو من المفعول في أنذرهم أو من القلوب .

وجمعها جمع المذكر لمّا وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي صديق مشفق ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ يحتمل أن يكون نفي الشفاعة وطاعة الشفيع أو نفي طاعة خاصة . كقولك : ما جاءني رجل صالح فنفيت الصلاح ، وإن كان قد جاءك رجل غير صالح ، والأول أحسن لأن الكفار ليس لهم من يشفع فيهم .

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين ﴾ أي استراق النظر ، والخائنة مصدر بمعنى الخيانة ، أو وصف للنظرة وهذا الكلام متصل بما تقدم من ذكر الله ، واعترض في أثناء ذلك بوصف القيامة لما استطرد إليه من قوله : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق ﴾ [غافر : 15] . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التسهيل حـ 4 صـ 4.2 ﴾

(170/674)

وقال النسفى :

﴿ حم ﴾ وما بعده بالإمالة : حمزة وعلي وخلف ويحيى وحماد ، وبني الفتح والكسر : مدني ، وغيرهم بالتفخيم ، وعن ابن عباس أنه اسم الله الأعظم ﴿ تَنزِيلُ الكتاب ﴾ أي هذا تنزيل الكتاب ﴿ مِنَ الله العزيز ﴾ أي المنيع بسلطانه عن أن يتقول عليه متقول ﴿ العليم ﴾ بمن صدق به وكذب ، فهو تهديد للمشركين وبشارة للمؤمنين ﴿ غَافِرِ الذنب ﴾ ساتر ذنب المؤمنين ﴿ وَقَابِلِ التوب ﴾ قابل توبة الراجعين ﴿ شَدِيدِ العقاب ﴾ على المخالفين ﴿ ذِى الطول ﴾ ذي الفضل على العارفين أو ذي الغنى عن الكل ، وعن ابن عباس : غافر الذنب وقابل التوب لمن قال لا إله إلا الله ، شديد العقاب لمن لا يقول لا إله إلا

الله .

والتوب والثوب والأوب أخوات في معنى الرجوع ، والطول الغنى والفضل ، فإن قلت : كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً والموصوف معرفة ؟ قلت : أما غافر الذنب وقابل التوب فمعرفتان لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين حتى يكونا في تقدير الانفصال فتكون إضافتهما غير حقيقية .

وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه ، وأما شديد العقاب فهو في تقدير شديد عقابه فتكون نكرة ، فقيل هو بدل .

وقيل : لما وجدت هذه النكرة بين هذه المعارف آذنت بأن كلها أبدال غير أوصاف .

وإدخال الواو في ﴿ وَقَابِلِ التوب ﴾ لنكتة وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين : بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات ، وأن يجعلها محّاءة للذنوب كأن لم يذنب كأنه قال : جامع المغفرة والقبول ، ورُوي أن عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام ، فقيل له : تتابع في هذا الشراب ، فقال عمر لكاتبه : اكتب من عمر إلى فلان : سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو .

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم ﴾ إلى قوله ﴿ إِلَيْهِ المصير ﴾ .

وختم الكتاب قال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً ، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة .

فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول قد وعدني الله أن يغفر لي وحذرني عقابه ، فلم يبرح يرددها حتى بكى ، ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته .

فلما بلغ عمر أمره قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم قد زل زلة فسددوه ووقفوه وادعوا له الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه .

﴿ لآ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ صفة أيضاً ل ﴿ ذِى الطول ﴾ ويجوز أن يكون مستأنفاً ﴿ إِلَيْهِ المصير ﴾ المرجع ﴿ مَا يجادل فِى ءايات الله إِلاَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ ما يخاصم فيها بالتكذيب بها والإنكار لها ، وقد دل على ذلك في قوله ﴿ وجادلوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ [غافر : 5] فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها واستنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها فأعظم جهاد في سبيل الله ﴿ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى البلاد ﴾ بالتجارات النافقة والمكاسب المربحة سالمين غانمين فإن عاقبة أمرهم إلى العذاب ، ثم بين كيف ذلك فأعلم أن الأمم الذين كذبت قبلهم أهلكت فقال ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ نوحاً ﴿ والأحزاب ﴾ أي الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم وهم عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ﴿ مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد قوم نوح ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ ﴾ من هذه الأمم التي هي قوم نوح

والأحزاب ﴿ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ ليتمكنوا منه فيقتلوه .

والأخيذ : الأسير ﴿ وجادلوا بالباطل ﴾ بالكفر ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ ليبطلوا به الإيمان ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ مظهر : مكي وحفص يعني أنهم قصدوا أخذه فجعلت جزاءهم على إرادة أخذ الرسل أن أخذتهم فعاقبتهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ وبالياء : يعقوب .

(172/674)

أي فإنكم تمرون على بلادهم فتعاينون أثر ذلك ، وهذا تقرير فيه معنى التعجيب ﴿ وكذلك حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الذين كَفَرُواْ ﴾ ﴿ كلمات رَبكَ ﴾ مدني وشامي ﴿ أَنَّهُمْ أصحاب النار ﴾ في محل الرفع بدل من ﴿ كلمة ربك ﴾ أي مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار ، ومعناه كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة .

أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل و ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ قريش ، ومعناه كما وجب إهلاك أولئك الأمم كذلك وجب إهلاك هؤلاء ؛ لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار ، ويلزم الوقف على النار .

لأنه لو وصل لصار

﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ يعني حاملي العرش والحافين حوله وهم الكروبيون سادة الملائكة صفة لأصحاب النار وفساده ظاهر .

رُوي أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورءوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم ، وفي الحديث " إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة " وقيل : حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ، ومن ورائهم سبعون ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو "يسبح بما لا يسبح به الآخر" .

﴿ يُسَبِّحُونَ ﴾ خبر المبتدأ وهو ﴿ الذين ﴾ ﴿ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي مع حمده إذ الباء تدل على أن تسبيحهم بالحمدلة ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وفائدته مع علمنا بأن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمده مؤمنون إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه كما وصف الأنبياء في غير موضع بالصلاح لذلك ، وكما عقب أعمال الخير بقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البلد : 17] .

فأبان بذلك فضل الإيمان ، وقد روعي التناسب في قوله : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ كأنه قيل : ويؤمنون به ويستغفرون لمن في مثل حالهم ، وفيه دليل على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة والشفقة ، وإن تباعدت الأجناس والأماكن ﴿ رَبَّنَا ﴾ أي يقولون ربنا وهذا المحذوف حال ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ والرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى ، إذ الأصل وسع كل شيء رحمتك وعلمك ، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم وأخرجا منصوبين على التمييز مبالغة في وصفه بالرحمة والعلم ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ أي للذين علمت منهم التوبة لتناسب ذكر الرحمة والعلم ﴿ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ أي طريق الهدى الذي دعوت إليه ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ التى وَعَدْتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ ﴾ "من" في موضع نصب عطف على "هم" في ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ ﴾ أو في ﴿ وَعَدْتَّهُمْ ﴾ والمعنى وعدتهم ووعدت من صلح من آبائهم ﴿ وأزواجهم وذرياتهم إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ أي الملك الذي لا يغلب ، وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئاً خالياً من الحكمة وموجب حكمتك أن تفي بوعدك ﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ أي جزاء السيئات وهو عذاب النار ﴿ وَمَن تَقِ السيئات يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ ﴾ أي رفع العذاب ﴿ هُوَ الفوز العظيم ﴾ .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ ﴾ أي يوم القيامة إذا دخلوا النار ومقتوا أنفسهم فيناديهم خزنة النار ﴿ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم ، فاستغنى بذكرها مرة ، والمقت أشد البغض ، وانتصاب ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمان ﴾ بالمقت الأول عند الزمخشري ، والمعنى أنه يقال لهم يوم القيامة : كان الله يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم ، وأنتم في النار إذا وقعتم فيها باتباعكم هواهن ، وقيل : معناه لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض كقوله : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ [العنكبوت : 25] ، و ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ تعليل ، وقال جامع العلوم وغيره : "إذ" منصوب بفعل مضمر دل عليه ﴿ لَمَقْتُ الله ﴾ أي يمقتهم الله حين دعوا إلى الإيمان فكفروا ، ولا ينتصب بالمقت الأول لأن قوله ﴿ لَمَقْتُ الله ﴾ مبتدأ وهو مصدر وخبره ﴿ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ، فلا يعمل في ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ ؛ لأن المصدر إذا أخبر عنه لم يجز أن يتعلق به شيء يكون في صلته لأن الإخبار عنه يؤذن بتمامه ، وما يتعلق به يؤذن بنقصانه ، ولا بالثاني لاختلاف الزمانين ، وهذا لأنهم مقتوا أنفسهم في النار وقد دعوا إلى الإيمان في الدنيا ﴿ فَتَكْفُرُونَ ﴾ فتصرون على الكفر .

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ أي إماتتين وإحياءتين أو موتتين وحياتين ، وأراد بالإماتتين خلقهم أمواتاً أولاً وإماتتهم عند انقضاء آجالهم ، وصح أن يسمى خلقهم أمواتاً إماتة ، كما صح أن يقال : سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل ، وليس ثمة نقل من كبر إلى صغر ، ولا من صغر إلى كبر ، والسبب فيه أن الصغر والكبر جائزان على المصنوع الواحد ، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر ، فجعل صرفه عنه كنقله منه .

وبالإحياءتين : الإحياءة الأولى في الدنيا ، والإحياءة الثانية البعث ، ويدل عليه قوله : ﴿ وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : 28] .

وقيل : الموتة الأولى في الدنيا ، والثانية في القبر بعد الإحياء للسؤال ، والإحياء الأول إحياؤه في القبر بعد موته للسؤال ، والثاني للبعث ﴿ فاعترفنا بِذُنُوبِنَا ﴾ لما رأوا الإماتة والإحياء قد تكررا عليهم علموا أن الله قادر على الإعادة كما هو قادر على الإنشاء ، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم ﴿ فَهَلْ إلى خُرُوجٍ ﴾ من النار .

أي إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء لنتخلص ﴿ مِّن سَبِيلٍ ﴾ قط أم اليأس واقع دون ذلك فلا خروج ولا سبيل إليه ، وهذا كلام من غلب عليه اليأس وإنما يقولون ذلك تحيراً ، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ ﴾ أي ذلكم الذي أنتم فيه وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد الله وإيمانكم بالإشراك به ﴿ فالحكم للَّهِ ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد ﴿ العلى ﴾ شأنه ، فلا يرد قضاؤه ﴿ الكبير ﴾ العظيم سلطانه ، فلا يحد جزاؤه ، وقيل : كأن الحرورية أخذوا قولهم : لا حكم إلا لله من هذا .

(176/674)

وقال قتادة : لما خرج أهل حروراء قال علي رضي الله عنه : من هؤلاء ؟ قيل : المحكمون .

أي يقولون : لا حكم إلا لله ، فقال علي رضي الله عنه : كلمة حق أريد بها باطل .

﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمْ ءاياته ﴾ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السماء ﴾ وبالتخفيف : مكي وبصري ﴿ رِزْقاً ﴾ مطراً ؛ لأنه سبب الرزق ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك

ويرجع إلى الله ، فإن المعاند لا يتذكر ولا يتعظ ، ثم قال للمنيبين : ﴿ فادعوا الله ﴾ فاعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ من الشرك ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم ﴿ رَفِيعُ الدرجات ذُو العرش يُلْقِى الروح ﴾ ثلاثة أخبار لقوله هو مرتبة على قوله : ﴿ الذى يريكم ﴾ .

أو أخبار مبتدأ محذوف ، ومعنى رفيع الدرجات رافع السماوات بعضها فوق بعض ، أو رافع درجات عباده في الدنيا بالمنزلة ، أو رافع منازلهم في الجنة .

وذو العرش مالك عرشه الذي فوق السماوات خلقه مطافاً للملائكة إظهاراً لعظمته مع استغنائه في مملكته ، والروح جبريل عليه السلام ، أو الوحي الذي تحيا به القلوب ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ من أجل أمره أو بأمره ﴿ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ ﴾ أي الله أو الملقى عليه وهو النبي عليه السلام ويدل عليه قراءة يعقوب ﴿ لِّتُنذِرَ ﴾ ﴿ يَوْمَ التلاق ﴾ يوم القيامة لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والأولون والآخرون .

(177/674)

﴿ التلاقي ﴾ : مكي ويعقوب ﴿ يَوْمَ هُم بارزون ﴾ ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء ﴿ لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾ أي من أعمالهم وأحوالهم ﴿ لِّمَنِ

الملك اليوم ﴾ أي يقول الله تعالى ذلك حين لا أحد يجيبه ، ثم يجيب نفسه بقوله ﴿ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ أي الذي قهر الخلق بالموت ، وينتصب ﴿ اليوم ﴾ بمدلول ﴿ لِمَنْ ﴾ أي لمن ثبت الملك في هذا اليوم ، وقيل : ينادي منادٍ فيقول : لمن الملك اليوم فيجيبه أهل المحشر : لله الواحد القهار .

﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ اليوم إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ لما قرر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم عدد نتائج ذلك وهي أن كل نفس تجزى بما كسبت عملت في الدنيا من خير وشر ، وأن الظلم مأمون منه لأنه ليس بظلام للعبيد ، وأن الحساب لا يبطيء لأنه لا يشغله حساب عن حساب ، فيحاسب الخلق كله في وقت واحد وهو أسرع الحاسبين ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزفة ﴾ أي القيامة سميت بها لأزوفها أي لقربها ، ويبدل من يوم الآزفة ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ أي التراقي يعني ترتفع قلوبهم عن مقارها فتلصق بحناجرهم فلا هي تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروّحوا ﴿ كاظمين ﴾ ممسكين بحناجرهم .

من كظم القربة شد رأسها ، وهو حال من القلوب محمول على أصحابها ، أو إنما جمع الكاظم جمع السلامة لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ﴿ مَا للظالمين ﴾ الكافرين ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ محب مشفق ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أي يشفع وهو مجاز عن الطاعة ، لأن الطاعة حقيقة لا تكون إلا لمن فوقك ، والمراد نفي الشفاعة والطاعة كما في

قوله :

ولا ترى الضب بها ينجحر . . .

يريد نفي الضب وانجحاره ، وإن احتمل اللفظ انتفاء الطاعة دون الشفاعة ، فعن الحسن : والله ما يكون لهم شفيع البتة .

(178/674)

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين ﴾ مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل ﴿ وَمَا تُخْفِى الصدور ﴾ وما تسره من أمانة وخيانة ، وقيل : هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة ، ثم يتفكر بقلبه في جمالها ولا يعلم بنظرته وفكرته من بحضرته ، والله يعلم ذلك كله ويعلم خائنة الأعين خبر من أخبار هو في قوله : ﴿ هُوَ الذى يُرِيكُمْ ءاياته ﴾ .

مثل ﴿ يُلْقِى الروح ﴾ ولكن يلقي الروح قد علل بقوله : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق ﴾ ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فبعد لذلك عن أخواته ﴿ والله يَقْضِى بالحق ﴾ أي والذي هذه صفاته لا يحكم إلا بالعدل ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ وآلهتهم لا يقضون بشيء ، وهذا تهكم بهم لأن ما لا يوصف

بالقدرة لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي .

﴿ تَدْعُونَ ﴾ نافع ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ السميع البصير ﴾ تقرير لقوله ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ ، ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون ، وأنه يعاقبهم عليه ، وتعريض بما يدعون من دونه وأنها لا تسمع ولا تبصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 69 . 74 ﴾

(179/674)

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَم ﴾ أماله ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر صريحاً ، ونافع برواية ورش وأبو عمرو بين بين ، وقرىء بفتح الميم على التحريك لالتقاء الساكنين ، أو النصب بإضمار اقرأ ومنع صرفه للتعريف والتأنيث ، أو لأنها على زنة أعجمي كقابيل وهابيل .

﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم ﴾ لعل تخصيص الوصفين لما في القرآن من الإِعجاز والحكم الدال على القدرة الكاملة والحكمة البالغة .

﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِى الطول ﴾ صفات أخرى لتحقيق ما فيه

من الترغيب والترهيب والحث على ما هو المقصود منه ، والإِضافة فيها حقيقية على أنه لم يرد بها زمان مخصوص ، وأريد ب ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ مشددة أو الشديد عقابه فحذف اللام للازدواج وأمن الالتباس ، أو إبدال وجعله وحده بدلاً مشوش للنظم وتوسيط الواو بين الأولين لإِفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة ، أو تغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الاتحاد ، أو تغاير موقع الفعلين لأن الغفر هو الستر فيكون لذنب باق وذلك لمن لم يتب فإن " التائب من الذنب كمن لا ذنب له " والتوب مصدر كالتوبة . وقيل جمعاً والطول الفضل بترك العقاب المستحق ، وفي توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل رجحانها . ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ فيجب الإِقبال الكلي على عبادته . ﴿ إِلَيْهِ المصير ﴾ فيجازي المطيع والعاصي .

(180/674)

﴿ مَا يجادل فِى ءايات الله إِلاَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ لما حقق أمر التنزيل سجل بالكفر على المجادلين فيه بالطعن وإدحاض الحق لقوله : ﴿ وجادلوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ وأما الجدال فيه لحل عقده واستنباط حقائقه وقطع تشبث أهل الزيغ به وقطع مطاعنهم فيه فمن أعظم الطاعات ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام " إن جدالاً في القرآن كفر "

بالتنكير مع أنه ليس جدالاً فيه على الحقيقة . ﴿ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى البلاد ﴾ فلا يغررك إمهالهم وإقبالهم في دنياهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة فإنهم مأخوذون عما قريب بكفرهم أخذ من قبلهم كما قال :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ والأحزاب مِن بَعْدِهِمْ ﴾ والذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوح كعاد وثمود . ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ ﴾ من هؤلاء . ﴿ بِرَسُولِهِمْ ﴾ وقرىء "برسولها" . ﴿ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ ليتمكنوا من إصابته بما أرادوا من تعذيب وقتل من الأخذ بمعنى الأسر . ﴿ وجادلوا بالباطل ﴾ بما لا حقيقة له . ﴿ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ﴾ ليزيلوه به . ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ بالإهلاك جزاء لهم . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ فإنكم تمرون على ديارهم وترون أثره . وهو تقرير فيه تعجيب .

﴿ وكذلك حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ وعيده أو قضاؤه بالعذاب . ﴿ عَلَى الذين كَفَرُواْ ﴾ بكفرهم . ﴿ أَنَّهُمْ أصحاب النار ﴾ بدل من كلمة ﴿ رَبَّكَ ﴾ بدل الكل أو الاشتمال على إرادة اللفظ أو المعنى .

﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ الكروبيون أعلى طبقات الملائكة وأولهم وجوداً وحملهم إياه وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له ، أو كناية عن قربهم من ذي العرش ومكانتهم عنده وتوسطهم في نفاذ أمره . ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ يذكرون الله

بمجامع الثناء من صفات الجلال والإكرام ، وجعل التسبيح أصلاً والحمد حالاً لأن الحمد مقتضى حالهم دون التسبيح أصلاً .

(181/674)

﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أخبر عنهم بالإيمان إظهاراً لفضله وتعظيماً لأهله ومساق الآية لذلك كما صرح به بقوله : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ وإشعاراً بأن حملة العرش وسكان الفرش في معرفته سواء رداً على المجسمة واستغفارهم شفاعتهم وحملهم على التوبة وإلهامهم ما يوجب المغفرة ، وفيه تنبيه على أن المشاركة في الإيمان توجب النصح والشفقة وإن تخالفت الأجناس لأنها أقوى المناسبات كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ ﴾ ﴿ رَبَّنَا ﴾ أي يقولون ﴿ رَبَّنَا ﴾ وهو بيان ل ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أو حال . ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ أي وسعت رحمتك وعلمك فأزيل عن أصله للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم والمبالغة في عمومها ، وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات ها هنا . ﴿ فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق . ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ﴾ واحفظهم عنه وهو تصريح بعد إشعار للتأكيد والدلالة على شدة العذاب .

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جنات عَدْنٍ التى وَعَدْتَّهُمْ ﴾ وعدتهم إياها . ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وأزواجهم وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ عطف على هم الأول أي أدخلهم ومعهم هؤلاء ليتم سرورهم ، أو الثاني لبيان عموم الوعد ، وقرىء "جنة عدن" و ﴿ صَلُحَ ﴾ بالضم و"ذريتهم" بالتوحيد . ﴿ إِنَّكَ أَنتَ العزيز ﴾ الذي لا يمتنع عليه مقدور . ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته ومن ذلك الوفاء بالوعد . ﴿ وَقِهِمُ السيئات ﴾ العقوبات أو جزاء السيئات ، وهو تعميم بعد تخصيص ، أو تخصيص بمن ﴿ صلح ﴾ أو المعاصي في الدنيا لقوله : ﴿ وَمَن تَقِ السيئات يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أي ومن تقها في الدنيا فقد رحمته في الآخرة كأنهم طلبوا السبب بعد ما سألوا المسبب . ﴿ وذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ يعني الرحمة أو الوقاية أو مجموعهما .

(182/674)

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ ﴾ يوم القيامة فيقال لهم : ﴿ لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لمقت الله إياكم أكبر من مقتكم أنفسكم الأمارة بالسوء . ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمان فَتَكْفُرُونَ ﴾ ظرف لفعل دل عليه المقت الأول لا له لأنه أخبر عنه ، ولا للثاني لأن مقتهم أنفسهم يوم القيامة حين عاينوا جزاء أعمالهم الخبيثة إلا أن يؤول بنحو : بالصَّيْفِ

ضيّعْتِ اللَّبَن . أو تعليل للحكم وزمان المقتين واحد .

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنتين ﴾ إماتتين بأن خلقتنا أمواتاً ثم صيرتنا أمواتاً عند انقضاء آجالنا ، فإن الإماتة جعل الشيء عادم الحياة ابتداء أو بتصيير كالتصغير والتكبير ، ولذلك قيل سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل ، وإن خص بالتصيير فاختيار الفاعل المختار أحد مفعوليه تصيير وصرف له عن الآخر . ﴿ وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ الإحياءة الأولى وإحياءة البعث . وقيل الإماتة الأولى عند انخرام الأجل والثانية في القبر بعد الإحياء للسؤال والإحياءان ما في القبر والبعث ، إذ المقصود اعترافهم بعد المعاينة بما غفلوا عنه ولم يكترثوا به ولذلك تسبب بقوله : ﴿ فاعترفنا بِذُنُوبِنَا ﴾ فإن اقترافهم لها من اغترارهم بالدنيا وإنكارهم البعث . ﴿ فَهَلْ إلى خُرُوجٍ ﴾ نوع خروج من النار . ﴿ مّن سَبِيلٍ ﴾ طريق فنسلكه وذلك إنما يقولونه من فرط قنوطهم تعللاً وتحيراً ولذلك أجيبوا بقوله :

﴿ ذلكم ﴾ الذي أنتم فيه . ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ بسبب أنه . ﴿ إِذَا دُعِيَ الله وَحْدَهُ ﴾ متحداً أو توحد وحده فحذف الفعل وأقيم مقامه في الحالية . ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾ بالتوحيد . ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ ﴾ بالإشراك . ﴿ فالحكم للَّهِ ﴾ المستحق للعبادة حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد الدائم . ﴿ العلى ﴾ عن أن يشرك به ويسوى بغيره . ﴿ الكبير ﴾ حيث حكم على من أشرك وسوى به بعض مخلوقاته في استحقاق العبادة بالعذاب السرمد .

﴿ وَهُوَ الذى يُرِيكُمْ ءاياته ﴾ الدالة على التوحيد وسائر ما يجب أن يعلم تكميلاً لنفوسكم. ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السماء رِزْقاً ﴾ أسباب رزق كالمطر مراعاة لمعاشكم.

﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ بالآيات التي هي كالمركوزة في العقول لظهورها المغفول عنها للانهماك في التقليد واتباع الهوى. ﴿ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ﴾ يرجع عن الإنكار بالإقبال عليها والتفكر فيها، فإن الجازم بشيء لا ينظر فيما ينافيه.

﴿ فادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ من الشرك. ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ إخلاصكم وشق عليهم.

﴿ رَفِيعُ الدرجات ذُو العرش ﴾ خبران آخران للدلالة على علو صمديته من حيث المعقول والمحسوس الدال على تفرده في الألوهية، فإن من ارتفعت درجات كماله بحيث لا يظهر دونها كمال وكان العرش الذي هو أصل العالم الجسماني في قبضة قدرته لا يصح أن يشرك به، وقيل الدرجات مراتب المخلوقات أو مصاعد الملائكة إلى العرش أو السموات أو درجات الثواب.

وقرىء "رَفِيعَ" بالنصب على المدح. ﴿ يُلْقِى الروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ خبر رابع للدلالة على أن

الروحانيات أيضاً مسخرات لأمره بإظهار آثارها وهو الوحي ، وتمهيد للنبوة بعد تقرير التوحيد والروح الوحي ومن أمره بيانه لأنه أمر بالخير أو مبدؤه والآمر هو الملك المبلغ . ﴿ على مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يختاره للنبوة ، وفيه دليل على أنها عطائية . ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ غاية الإلقاء والمستكن فيه لله ، أو لمن أو للروح واللام مع القرب تؤيد الثاني . ﴿ يَوْمَ التلاق ﴾ يوم القيامة ، فإن فيه تتلاقى الأرواح والأجساد وأهل السماء والأرض أو المعبودون والعباد أو الأعمال والعمال .

(184/674)

﴿ يَوْمَ هُم بارزون ﴾ خارجون من قبورهم أو ظاهرون لا يسترهم شيء أو ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشي الأبدان ، أو أعمالهم وسرائرهم . ﴿ لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾ من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم ، وهو تقرير لقوله ﴿ هُم بارزون ﴾ وإزاحة لنحو ما يتوهم في الدنيا . ﴿ لّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به ، أو لما دل عليه ظاهر الحال فيه من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط ، وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائماً .

﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ كأنه نتيجة لما سبق ، وتحقيقه أن النفوس تكتسب

بالعقائد والأعمال هيئات توجب لذتها وألمها لكنها لا تشعر بها في الدنيا لعوائق تشغلها ، فإذا قامت قيامتها زالت العوائق وأدركت لذاتها وألمها . ﴿ لاَ ظُلْمَ اليوم ﴾ ينقص الثواب وزيادة العقاب . ﴿ إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ إذ لا يشغله شأن عن شأن فيصل إليهم ما يستحقونه سريعاً .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزفة ﴾ أي القيامة سميت بها لأزوفها أي قربها ، أو الخطة الآزفة وهي مشارفتهم النار وقيل الموت . ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ فإنها ترتفع عن أماكنها فتلصق بحلوقهم فلا تعود فيتروحوا ولا تخرج فيستريحوا . ﴿ كاظمين ﴾ على الغم حال من أصحاب القلوب على المعنى لأنه على الإضافة ، أو منها أو من ضميرها في لدى وجمعه كذلك لأن الكظم من أفعال العقلاء كقوله : ﴿ فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ أو من مفعول ﴿ أَنذَرَهُمْ ﴾ على أنه حال مقدرة . ﴿ مَا لِلظَّالِمينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ قريب مشفق . ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ولا شفيع مشفع ، والضمائر إن كانت للكفار وهو الظاهر كان وضع الظالمين موضع ضميرهم للدلالة على اختصاص ذلك بهم وأنه لظلمهم .

(185/674)

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعين ﴾ النظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى غير المحرم واستراق النظر إليه ، أو خيانة الأعين . ﴿ وَمَا تُخْفِى الصدور ﴾ من الضمائر والجملة خبر خامس للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء ﴿ والله يَقْضِى بالحق ﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ تهكم بهم لأن الجماد لا يقال فيه إنه يقضي أو لا يقضي . وقرأ نافع وهشام بالتاء على الالتفات أو إضمار قل ﴿ إِنَّ الله هُوَ السميع البصير ﴾ تقرير لعلمه ب ﴿ خَائِنَةَ الأعين ﴾ وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون ، وتعريض بحال ما ﴿ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 82 . 89 ﴾

(186/674)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة غافر (المؤمن)

مكية قال الحسن : إلا قوله : ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ لأن الصلوات نزلت بالمدينة ، وقد قيل في الحواميم : أنها كلها مكية عن ابن عباس وابن الحنفية ، وتسمى : سورة الطول وسورة غافر وهي : خمس وقيل : اثنتان وثمانون آية وألف ومائة وتسع وتسعون كلمة وأربع

آلاف وتسعمائة وستون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الملك الأعظم الذي يعطي كلاً من عباده ما يستحقه فلا يقدر أحد أن يناقض في شيء من ذلك ولا يعارض . ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمهم برحمته في الدنيا بالخلق والرزق والبيان الذي لا خفاء معه . ﴿ الرحيم ﴾ الذي يخص برحمته من يشاء من عباده فيجعله حكيماً وفي ملك الأرض وملكوت السموات عليماً . وقوله تعالى:

﴿ حم ﴾ قرأه ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بإمالة الحاء محضة ، وورش وأبو عمرو بين بين والباقون بالفتح وقد سبق الكلام في حروف التهجي ، وقال ابن عباس : ﴿ حم ﴾ اسم الله الأعظم وعنه قال : الر وحم ون حروف الرحمن مقطعة وقيل : حم اسم السورة ، وقيل : الحاء افتتاح أسمائه حليم وحميد وحي وحكيم وحنان والميم افتتاح أسمائه ملك مجيد منان ، وقال الضحاك والكسائي : معناه قضى ما هو كائن كأنهما أشارا إلى أن معنى حم : حم بضم الحاء وتشديد الميم ، وهل يجوز أن يجمع حم على حواميم ؟ نقل ابن الجوزي عن شيخه الجواليقي أنه خطأ وليس بصواب بل الصواب أن يقول : قرأت آل حم . وفي الحديث عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات . وقال الكميت:

*وجدنا لكم في آل حم آية** تأولها منا تقي ومعرب*

ومنهم من جوزه ، وروي في ذلك أحاديث منها : قوله صلى الله عليه وسلم "الحواميم ديباج القرآن" . وقوله صلى الله عليه وسلم "الحواميم سبع وأبواب جهنم سبع جهنم والحطمة ولظى والسعير وسقر والهاوية والجحيم ، فتجيء كل حم منهن يوم القيامة على باب من هذه الأبواب فتقول لا يدخل النار من كان يؤمن بي ويقرؤني" . وقوله صلى الله عليه وسلم "لكل شيء ثمرة وثمرة القرآن ذوات حم هن روضات حسان مخصبات متجاورات ، فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم" . وقوله صلى الله عليه وسلم "الحواميم في القرآن كمثل الحبرات في الثياب" . وقال ابن عباس : لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم ، قال ابن عادل : فإن صحت هذه الأحاديث فهي الفصل في ذلك أي : فتدل على جواز الجمع ، وقال البيضاوي في حم السجدة : ولعل افتتاح هذه السبع بحم وتسميتها به لكونها مصدرة بيان الكتاب متشاكلة في النظم والمعنى أي : أخذاً مما قيل إن حم اسم من أسماء القرآن وقوله تعالى:

﴿ تنزيل الكتاب ﴾ أي : الجامع من الحدود والأحكام والمعارف والإكرام إما خبر لحم إن كانت مبتدأ ، وإما خبر لمبتدأ مضمر وإما مبتدأ وخبره ﴿ من الله ﴾ أي : الجامع لجميع صفات الكمال ، ولما كان النظر هنا من بين جميع الصفات إلى العزة والعلم أكثر لأجل أن المقام لإثبات الصدق وعداً ووعيداً قال تعالى : ﴿ العزيز ﴾ أي : في ملكه ﴿ العليم ﴾

بخلقه ، فبين تعالى أنه بقدرته وعلمه أنزل القرآن الذي يتضمن المصالح والإعجاز ولولا كونه عزيزاً عالماً لما صح ذلك .

(188/674)

﴿ غافر الذنب ﴾ أي : بتوبة وغير توبة للمؤمن إن شاء وأما الكافر فلا بد من توبته بالإسلام ﴿ وقابل التوب ﴾ أي : ممن عصاه وهو يحتمل أن يكون اسماً مفرداً مراداً به الجنس كالذنب وأن يكون جمعاً لتوبة كتمر وتمرة ﴿ شديد العقاب ﴾ أي : على الكافر ، فإن قيل : إن شديد صفة مشبهة فإضافته غير محضة بكل حال بخلاف اسم الفاعل إذا لم يرد به الحال ولا الاستقبال كغافر الذنب وقابل التوب فإن إضافته محضة تفيد التعريف ، قال سيبويه : كل ما إضافته غير محضة يجوز أن تجعل محضة وتوصف به المعارف إلا الصفة المشبهة ولم يستثن الكوفيون شيئاً ؟

(189/674)

أجيب : بأن شديد معناه مشدد كأذين بمعنى مأذون فتتمحض إضافته أو الشديد عقابه ، فحذف اللام للازدواج مع أمن الالتباس أو بالتزام مذهب الكوفيين هو أن الصفة المشبهة يجوز أن تتمحض إضافتها أيضاً فتكون معرفة يقولون في نحو حسن الوجه يجوز أن تصير إضافته محضة وقال الرازي : لا نزاع في جعل غافر وقابل صفتين وإنما كان كذلك لأنهما يفيدان معنى الدوام والاستمرار فكذلك شديد العقاب لأن صفاته منزهة عن الحدوث والتجدد فمعناه كونه بحيث يقال شديد عقابه وهذا المعنى حاصل أبداً ، فلا يوصف بأنه حصل بعد أن لم يكن قال أبو حيان : وهذا كلام من لم يقف على علم النحو ولا نظر فيه ويلزمه أن يكون : ﴿ حكيم عليم ﴾ و ﴿ مليك مقتدر ﴾ معارف لتنزيه صفاته عن الحدوث والتجدد ، ولأنها صفات لم تحصل بعد إن لم تكن ويكون تعريف صفاته بأل وتنكيرها سواء وهذا لا يقوله مبتدئ في علم النحو فكيف من يصنف فيه ويقدم على تفسير كتاب الله تعالى . قال الزمخشري : فإن قلت ما بال الواو في قوله : ﴿ وقابل التوب ﴾ قلت : فيها نكتة جليلة وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات ، وأن يجعلها محاءة للذنوب كأن لم يذنب ، كأنه قال : جامع المغفرة والقبول . قال ابن عادل : وبعد هذا الكلام الأنيق وإبراز هذه المعاني الحسنة ، قال أبو حيان : وما أكثر تبجح

هذا الرجل وشقشقته والذي أفادته الواو الجمع وهذا معلوم من ظاهر علم النحو . وأنشد

بعضهم:

*وكم من عائب قولاً صحيحاً **وآفته من الفهم السقيم*

وقال آخر:

*قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد **وينكر الفم طعم الماء من سقم*

(190/674)

ولما أتم الترغيب بالعفو والترهيب بالعقوبة أتبعه التشويق إلى الفضل فقال تعالى ﴿ ذي الطول ﴾ أي : سعة الفضل والإنعام والقدرة والغنى والسعة والمنة فلا يماثله في شيء من ذلك أحد ولا يدانيه ، قال ابن عباس : غافر الذنب لمن قال لا إله إلا الله وقابل التوب ممن قال لا إله إلا الله شديد العقاب لمن لا يقول : لا إله إلا الله ذي الغنى عمن لا يقول لا إله إلا الله ، وقال الحسن : ذو الفضل ، وقال قتادة : ذو النعم ثم علل تمكنه من كل شيء من ذلك بوحدانيته فقال تعالى : ﴿ لا إله إلا هو إليه ﴾ وحده ﴿ المصير ﴾ أي : المرجع فلو جعل معه إلهاً آخر يشاركه في صفة الرحمة والفضل لما كانت الحاجة إلى عبوديته شديدة فكان الترغيب والترهيب الكاملان حاصلين بسبب هذا التوحيد وقوله تعالى : ﴿ إليه المصير ﴾ مما يقوي الرغبة في الإقرار بالعبودية له ، روي أن عمر رضي الله تعالى عنه افتقد

رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام ، فقيل له : تتابع في هذا الشراب ، فقال عمر لكاتبه : اكتب من عمر إلى فلان ، سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو بسم الله الرحمن الرحيم حم إلى قوله تعالى : ﴿ إليه المصير ﴾ وختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً ، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول قد وعدني الله أن يغفر لي وحذرني عقابه ، فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع وأحسن النزوع وحسنت توبته ، فلما بلغ عمر أمره قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم قد زل زلة فسددوه وقفوه وادعوا له الله تعالى أن يتوب عليه ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه .

ولما قرر تعالى أن القرآن كتاب أنزله ليهتدي به في الدين ذكر أحوال من يجادل لغرض إبطاله فقال:

(191/674)

﴿ ما يجادل ﴾ أي : يخاصم ويماري أي : يفتل الأمور إلى مراده ﴿ في آيات الله ﴾ أي : في إبطال أنوار الملك الأعظم المحيط بصفات الكمال الدال كالشمس على أنه تعالى إليه المصير بأن يغش نفسه بالشك في ذلك ﴿ إلا الذين كفروا ﴾ قال أبو العالية : آيتان ما أشدهما على

الذين يجادلون في القرآن قوله تعالى : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ (البقرة :)

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم "إن جدالاً في القرآن كفر" . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : "سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً يتمارون في القرآن فقال : إنما أهلك من كان قبلكم أنهم ضربوا كتاب الله بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوه وما جهلتم عنه فكلوه إلى عالمه" . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فسمعت أصوات رجلين اختلفا في آية ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف في وجهه الغضب فقال : "إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب" .

تنبيه : الجدال نوعان : جدال في تقرير الحق وجدال في تقرير الباطل . أما الأول : فهو حرفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (النحل :)

وحكى عن قوم نوح قولهم : ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ (هود :)

. وأما الثاني : فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية فجدالهم في آيات الله هو قولهم مرة هذا سحر ، ومرة هذا شعر ، ومرة هو قول الكهنة ، ومرة أساطير الأولين ، ومرة إنما يعلمه بشر ، وأشباه هذا .

ولما أثبت أن الحشر لا بد منه وأن الله تعالى قادر كل القدرة لأنه لا شريك له ، وهو محيط بجميع أوصاف الكمال تسبب عن ذلك قوله تعالى : ﴿ فلا يغررك تقلبهم ﴾ أي : تنقلهم بالتجارات والفوائد والجيوش والعساكر وإقبال الدنيا عليهم ﴿ في البلاد ﴾ كبلاد الشام واليمن فإنهم مأخوذون عما قريب بكفرهم أخذ من قبلهم كما قال تعالى:

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ وقد كانوا في غاية القوة والقدرة على القيام بما يحاولونه وكانوا حزباً واحداً لم يفرقهم شيء ، ولما كان الناس من بعدهم قد كثروا وفرقهم اختلاف الألسنة والأديان وكان للإجمال من الردع في بعض المواطن ما ليس للتفصيل ، قال تعالى :

﴿ والأحزاب ﴾ أي : الأمم المتفرقة الذين لا يحصون عدداً ودل على قرب زمان الكفر من الإنجاء من الغرق بقوله : ﴿ من بعدهم ﴾ كعاد وثمود ﴿ وهمت كل أمة ﴾ أي : من هؤلاء ﴿ برسولهم ﴾ أي : الذي أرسلناه إليهم ﴿ ليأخذوه ﴾ أي : ليتمكنوا من إصابته بما أرادوه من تعذيب أو قتل . لا

ويقال للأسير : أخيذ ، وقال ابن عباس : ليقتلوه ويهلكوه ﴿ وجادلوا بالباطل ﴾ أي : بالأمر الذي لا حقيقة له وليس له من ذاته إلا الزوال كما تفعل قريش ومن ضاهاهم من

العرب ثم بين علة مجادلتهم بقوله تعالى : ﴿ ليدحضوا ﴾ أي : ليزيلوا ﴿ به الحق ﴾ أي : الذي جاءت به الرسل عليهم السلام ﴿ فأخذتهم ﴾ أي : أهلكتهم وهم صاغرون ، وقرأ ابن كثير وحفص بإظهار الذال والباقون بالإدغام ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ لهم أي : هو واقع موقعه وهم يمرون على ديارهم ويرون أثرهم وهذا تقريع فيه معنى التعجب .

تنبيه : حذفت ياء المتكلم إشارة إلى أن أدنى شيء من عذابه بأدنى نسبة كاف في المراد ، ولما كان التقدير فحقت عليهم كلمة الله تعالى عطف عليه .

(193/674)

﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل ما حقت عليهم كلمتنا بالأخذ ﴿ حقت كلمة ربك ﴾ أي : المحسن إليك وهي ﴿ لأملأن جهنم ﴾ الآية ﴿ على الذين كفروا ﴾ لكفرهم ، وقرأ نافع وابن عامر بألف بعد الميم على الجمع والباقون بغير ألف على الإفراد ، وقوله : ﴿ أنهم أصحاب النار ﴾ في محل رفع بدل من ﴿ كلمة ربك ﴾ أي : مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار ومعناها : كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل كذلك وجب هلاكهم بعذاب النار في الآخرة أو في محل نصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل ولما بين تعالى أن الكفار بالغوا في إظهار العداوة للمؤمنين بقوله : ﴿ ما يجادل

في آيات الله ﴾ وما بعده ، بين تعالى أن الملائكة الذين هم حملة العرش والحافون حوله يبالغون في إظهار المحبة والنصر للمؤمنين فقال تعالى:

﴿ الذين يحملون العرش ﴾ وهو مبتدأ وقوله : ﴿ ومن حوله ﴾ عطف عليه وقوله تعالى : ﴿ يسبحون ﴾ خبره ﴿ بحمد ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم ، قال شهر بن حوشب : حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك فلك الحمد على حلمك بعد علمك ، وأربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك فلك الحمد على عفوك بعد قدرتك قال : وكأنهم يرون ذنوب بني آدم وقيل : إنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى بأربعة أخر كما قال تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ (الحاقة :)

(194/674)

وهم من أشراف الملائكة وأفضلهم لقربهم من محل رحمة ربهم قال ابن الخازن : وجاء في الحديث : أن لكل ملك منهم وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر ، ولكل واحد منهم أربعة أجنحة جناحان منها على وجه مخافة أن ينظر إلى العرش فيضعف وجناحان يهفو بهما في الهواء ، ليس لهم كلام غير التسبيح والتحميد والتكبير والتمجيد ، ما بين أظلافهم إلى ركبهم كما بين سماء إلى سماء . وقال ابن عباس : حملة العرش ما بين كعب

أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام ، ويروى أن أقدامهم في تخوم الأرض والأرضون والسموات إلى حجزتهم وهم يقولون : سبحان ذي العزة والجبروت سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، وقال ميسرة بن عرفة : أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم ، وهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من أهل السماء التي تليها والتي تليها أشد خوفاً من التي تليها . وقال مجاهد : بين الملائكة والعرش سبعون ألف حجاب من نور وسبعون ألف حجاب من ظلمة . وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام" ، وأما صفة العرش فقيل : أنه من جوهرة خضراء وهو من أعظم المخلوقات خلقاً . روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال : بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية خفقان الطائر المسرع ثلاثين ألف عام ، ويكسي العرش كل يوم سبعين ألف لون من نور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى كلها ، والأشياء كلها في العرش كحلقة في فلاة ، وقال مجاهد : بين السماء السابعة والعرش سبعون ألف حجاب حجاب نور وحجاب ظلمة وحجاب نور وحجاب ظلمة . وقيل : إن العرش قبلة أهل السماء كما أن الكعبة قبلة أهل الأرض ، وأما من حول العرش فهم الكروبيون وهم سادات الملائكة . قال وهب بن منبه

: إن حول

العرش سبعين ألف صف من الملائكة صف خلف صف يطوفون بالعرش يقبل هؤلاء ويقبل هؤلاء ، فإذا استقبل بعضهم بعضاً هلل هؤلاء وكبر هؤلاء ، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام أيديهم على أعناقهم قد وضعوها على عواتقهم فإذا سمعوا تكبير هؤلاء وتهليلهم رفعوا أصواتهم فقالوا : سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأحلمك أنت الله لا إله غيرك أنت الأكبر ، الخلق كلهم لك راجعون ومن وراء هؤلاء وهؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنى على اليسرى ، ليس منهم أحد إلا يسبح بتحميد لا يسبحه الآخر ، ما بين جناحي أحدهم مسيرة ثلثمائة عام ، وما بين شحمتي أذنيه إلى عاتقه أربعمائة عام ، وقد احتجب الله عز وجل عن الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجاباً من نار وسبعين حجاباً من ظلمة وسبعين حجاباً من نور وسبعين حجاباً من در أبيض وسبعين حجاباً من ياقوت أحمر وسبعين حجاباً من زبرجد أخضر وسبعين حجاباً من ثلج وسبعين حجاباً من ماء وسبعين حجاباً من برد ، وما لا يعلم علمه إلا الله تعالى ، فسبحان من له هذا الملك العظيم .

ولما كان تعالى لا يحيط به علماً أحد من خلقه أشار إلى أنهم مع قربهم كغيرهم لا فرق في ذلك بينهم وبين من في الأرض السفلى بقوله تعالى : ﴿ ويؤمنون به ﴾ لأن الإيمان إنما يكون بالغيب فهم يصدقون بأنه واحد لا شريك له ولا مثل له ولا نظير له ، فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ ويؤمنون به ﴾ ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمده مؤمنون ؟

(196/674)

أجيب : بأن فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه كما وصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في غير موضع من كتابه بالصلاح ، لذلك وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ فأبان بذلك فضل الإيمان ولما كانوا لقربهم أشد الخلق خوفاً لأنه على قدر القرب من تلك الحضرات يكون الخوف وكان أقرب ما يتقرب به إلى الملك لتقربه إلى أهل وده نبه سبحانه بقوله تعالى : ﴿ ويستغفرون ﴾ أي : يطلبون محو الذنوب عيناً وأثراً ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي : أوقعوا هذه الحقيقة فهم يستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم ، وفي ذلك تنبيه على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة وأبعث على إمحاض الشفقة وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن ، فإنه لا

تجانس بين ملك وإنسان ولا بين سماوي وأرضي قط ، ولكن لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض قال تعالى : ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ (الشورى :)

واستغفارهم بأن يقولوا ﴿ ربنا ﴾ أي : أيها المحسن إلينا بالإيمان وغيره فهو معمول لقول مضمر في محل نصب على الحال من فاعل يستغفرون أو خبر بعد خبر ﴿ وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ أي : وسعت رحمتك كل شيء وعلمك كل شيء ، فأزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم كأنَّ ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء ، وأكثر ما يكون الدعاء بذكر الرب لأن الملائكة قالوا في هذه الآية وقال آدم عليه السلام : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ (الأعراف :)

وقال نوح عليه السلام : ﴿ رب إن قومي كذبون ﴾ (الشعراء :)

وقال : ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ﴾ (إبراهيم :)

وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ (البقرة :)

وقال : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ (البقرة :)

وقال يوسف عليه السلام : ﴿ رب قد آتيتني من الملك ﴾ (يوسف :)

وقال موسى عليه السلام : ﴿ رب أرني أنظر إليك ﴾ (الأعراف :)

وقال : ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾ (القصص :)

وقال سليمان عليه السلام : ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً ﴾ (ص :)

وقال عيسى عليه السلام : ﴿ ربنا أنزل علينا مائدة من السماء ﴾ (المائدة :)

وقال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ (المؤمنون :) ، فإن قيل : لفظ الله أعظم من لفظ الرب فلم خص لفظ رب بالدعاء ؟ أجيب : بأن العبد يقول : كنت في العدم المحض والنفي الصرف فأخرجتني إلى الوجود وربيتني فاجعل تربيتك وإحسانك سبباً لإجابة دعائي ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ أي : رجعوا إليك عن ذنوبهم برحمتك لهم بأن تمحوها عيناً وأثراً فلا عقاب ولا عتاب ولا ذكر لها ﴿ واتبعوا ﴾ أي : كلفوا أنفسهم على ما لها من العوج إن لزموا ﴿ سبيلك ﴾ المستقيم الذي لا لبس فيه . ولما كان الغفران قد يكون لبعض الذنوب وكان سبحانه وتعالى له أن يعذب من لا ذنب له وأن يعذب من غفر ذنبه قالوا : ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي : اجعل بينهم وبينه وقاية بأن تلزمهم الاستقامة وتتم نعمتك عليهم فإنك وعدت من كان كذلك بذلك ولا يبدل القول لديك وإن كان يجوز أن تفعل ما تشاء وإن الخلق عبيدك ، ولما طلبوا

من الله سبحانه وتعالى إزالة العذاب عنهم وكان ذلك لا يستلزم الثواب قالوا مكررين صفة الإحسان زيادة في الرقة في طلب الامتنان .

(198/674)

﴿ ربنا ﴾ أيها المحسن إلينا ﴿ وأدخلهم جنات عدن ﴾ أي : إقامة ﴿ التي وعدتهم ﴾ أي : إياها وقولهم : ﴿ ومن صلح ﴾ معطوف على هم في وعدتهم وقدموا قولهم : ﴿ من آبائهم ﴾ على قولهم : ﴿ وأزواجهم وذرياتهم ﴾ لأن الآباء أحق الناس بالإجلال وقدموا الأزواج في اللفظ على الذرية لأنهم أشد إلصاقاً بالشخص وطلبوا لهم ذلك لأن الإنسان لا يتم نعيمه إلا بأهله ، قال سعيد بن جبير : يدخل الجنة المؤمن فيقول : أين أبي أين ولدي وزوجتي ؟ فيقال له : إنهم لم يعملوا مثل عملك ، فيقول : إني كنت أعمل لي ولهم ، فيقال : أدخلوهم الجنة . ﴿ إنك أنت ﴾ أي : وحدك ﴿ العزيز ﴾ أي : فأنت تغفر لمن شئت ﴿ الحكيم ﴾ فكل فعلك في أتم مواضعه فلا يتهيأ لأحد نقضه ولا نقصه .

﴿ وقهم السيئات ﴾ أي : بأن تجعل بينهم وبينها وقاية بأن تطهرهم من الأخلاق الحاملة عليها ، فإن قيل : هذا مكرر مع قوله : ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ ؟

(199/674)

أجيب : بأن التفاوت حاصل من وجهين : أحدهما : أن يكون قولهم وقهم عذاب الجحيم دعاء مذكوراً للأصول وقولهم : وقهم السيئات دعاء مذكوراً للفروع وهم الآباء والأزواج والذريات ، ثانيهما : أن يكون قوله : ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ مقصوراً على إزالة عذاب الجحيم وقوله : ﴿ وقهم السيئات ﴾ يتناول عذاب الجحيم وعذاب موقف يوم القيامة والسؤال والحساب ، فيكون تعميماً بعد تخصيص وهذا أولى . وقال بعض المفسرين : إن الملائكة طلبوا إزالة عذاب النار عنهم بقولهم وقهم عذاب الجحيم ، وطلبوا إيصال الثواب إليهم بقولهم : وأدخلهم جنات عدن ، ثم طلبوا بعد ذلك أن يصونهم الله تعالى في الدنيا من العقائد الفاسدة بقولهم وقهم السيئات . وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الميم والهاء ، وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء وضم الميم ثم قالت الملائكة : ﴿ ومن تق السيئات ﴾ أي : جزاءها كلها ﴿ يومئذ ﴾ أي : يوم تدخل فريقاً الجنة وفريقاً النار المسببة عن السيئات وهو يوم القيامة ﴿ فقد رحمته ﴾ أي : الرحمة الكاملة التي لا يستحق غيرها معها أن يسمى رحمة فإن تمام النعيم لا يكون إلا بها لزوال التحاسد والتباغض والنجاة من النار باجتناب السيئات ولذلك قالوا : ﴿ وذلك ﴾ أي : الأمر العظيم جداً ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ أي : النعيم الذي لا ينقطع في جوار ملك لا تصل العقول إلى كنه عظمته وإجلاله هذا آخر دعاء الملائكة للمؤمنين ، قال مطرف : أنصح عباد الله

تعالى للمؤمنين الملائكة وأغش الخلق للمؤمنين هم الشياطين . ثم إنه تعالى بعد أن ذكر أحوال المؤمنين عاد إلى ذكر أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله تعالى وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ (غافر :)

فقال تعالى مستأنفاً مؤكداً لإنكارهم آيات الله تعالى:

(200/674)

﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي : أوقعوا الكفر ولو لحظة ﴿ ينادون ﴾ يوم القيامة وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم حين عرض عليهم سيئاتهم وعاينوا العذاب فيقال لهم : ﴿ لمقت الله ﴾ أي : الملك الأعظم إياكم ﴿ أكبر ﴾ والتقدير : لمقت الله لأنفسكم أكبر ﴿ من مقتكم أنفسكم ﴾ فاستغنى بذكرها مرة وقوله تعالى : ﴿ إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴾ منصوب بالمقت الأول والمعنى : أنه يقال لهم يوم القيامة : كان الله تعالى يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء والكفر حين كان يدعوكم إلى الإيمان فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر ، أشد ما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار إذا وقعتم فيها باتباعكم هواهن . وذكروا في تفسير مقتهم أنفسهم وجوهاً ؛ أولها : أنهم إذا شاهدوا القيامة والجنة والنار مقتوا أنفسهم على إصرارهم على التكذيب بهذه الأشياء في الدنيا . ثانيها : أن الأتباع يشتد مقتهم للرؤساء

الذين يدعونهم إلى الكفر في الدنيا ، والرؤساء أيضاً يشتد مقتهم للأتباع فعبر عن مقت بعضهم بعضاً بأنهم مقتوا أنفسهم كقوله تعالى : ﴿ اقتلوا أنفسكم ﴾ (النساء :) والمراد أن يقتل بعضكم بعضاً . ثالثها : قال محمد بن كعب : إذا خطبهم إبليس وهو في النار بقوله : ما كان لي عليكم من سلطان إلى قوله ولوموا أنفسكم ، ففي هذه الحالة مقتوا أنفسهم . وأما الذين ينادون الكفار بهذا الكلام فهم خزنة جهنم ، وعن الحسن : لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت الله أكبر ، وقيل : معناه لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض كقوله تعالى : ﴿ يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ (العنكبوت :)

(201/674)

و ﴿ إذ تدعون ﴾ تعليل ، والمقت : أشد البغض وذلك في حق الله تعالى محال فالمراد منه : أبلغ الإنكار وأشده ، وعن مجاهد : مقتوا أنفسهم حين رأوا أعمالهم ومقت الله تعالى إياهم في الدنيا ، إذ يدعون إلى الإيمان فيكفرون أكبر ، وقال الفراء : معناه : ينادون إن مقت الله يقال : ناديت أن زيداً قائم وناديت لزيد قائم ، وقرأ أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي بإدغام الذال في التاء والباقون بالإظهار ثم إنه تعالى بين أن الكفار إذا خوطبوا بهذا

الخطاب:

﴿ قالوا ربنا ﴾ أي : أيها المحسن إلينا بما تقدم في دار الدنيا ﴿ أمتنا اثنتين ﴾ أي : إماتتين ﴿ وأحييتنا اثنتين ﴾ أي : إحيائتين ، قال ابن عباس وقتادة والضحاك : كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم فأحياهم الله تعالى في الدنيا ثم أماتهم الموتة الأولى التي لا بد منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة فهما موتتان وحياتان وهو كقوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ (البقرة :)

وقال السدي : أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في قبورهم للمسألة ثم أميتوا في قبورهم ثم أحيوا في الآخرة ، وقيل : واحدة عند انقضاء الآجال في الحياة الدنيا وأخرى بالصعق بعد البعث أو الإرقاد بعد سؤال القبر ورد بأن الصعق ليس بموت وما في القبر ليس بحياة حتى يكون عنه موت وإنما هو إقدار على الكلام كما أقدر سبحانه الحصا على التسبيح والحجر على التسليم والضب على الشهادتين . ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ أي : بكفرنا بالبعث ﴿ فهل إلى خروج ﴾ من النار إلى الدنيا فنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك ﴿ من سبيل ﴾ أي : طريق ونظيره هل إلى مرد من سبيل ، والمعنى : أنهم لما عرفوا أن الذي كانوا عليه في الدنيا كان فاسداً باطلاً تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليشتغلوا بالأعمال الصالحة ، فإن قيل : الفاء في قوله تعالى : ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ تقتضي أن تكون الإماتة مرتين والإحياء مرتين سبباً لهذا الاعتراف فما وجه هذه السببية ؟

أجيب : بأنهم كانوا منكرين البعث فلما شاهدوا هذا الإحياء بعد الإماتة مرتين لم يبق لهم عذر في الإقرار بالبعث ، فلا جرم وقع هذا الإقرار كالمسبب عن تلك الإماتة والإحياء .

ولما كان الجواب قطعاً لا سبيل إلى ذلك علله بقوله تعالى:

﴿ ذلكم ﴾ أي : القضاء النافذ العظيم العالي بتخليدكم في النار مقتاً منه لكم ﴿ بأنه ﴾ أي : كان بسبب أنه ﴿ إذا دُعي الله ﴾ أي : الملك الأعظم من أي داع وفي إعراب قوله تعالى ﴿ وحده ﴾ وجهان ؛ أحدهما : أنه مصدر في موضع الحال وجاز مع كونه معرفة لفظاً لكونه في قوة النكرة كأنه قيل : منفرداً ، ثانيهما : وهو قول يونس : أنه منصوب على الظرف ، والتقدير : دعي على حِدَته وهو مصدر محذوف الزوائد ، والتقدير : أوحدته إيحاداً . ﴿ كفرتم ﴾ بتوحيده ﴿ وإن يشرك به ﴾ أي : يجعل له تعالى شريك ﴿ تؤمنوا ﴾ أي : تصدقوا بالإشراك ﴿ فالحكم ﴾ أي : فتسبب عن القطع بأنه لا رجعة وأن الكفار ما ضروا إلا أنفسهم مع ادعائهم العقول الراجحة ونحو ذلك أن الحكم كله ﴿ لله ﴾ أي : المحيط بصفات الكمال ﴿ العلي ﴾ أي : عن أن يكون له شريك ﴿ الكبير ﴾ أي : الذي لا

يليق الكبر إلا له .

ولما قصر الحكم عليه دل على ذلك بقوله تعالى:

(203/674)

﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ الذي يريكم ﴾ أي : بالصبر والبصيرة ﴿ آياته ﴾ أي : علاماته الدالة على تفرده بصفات الكمال وأنه لا يجوز جعل هذه الأحجار المنحوتة والخشب المصور شركاء لله عز وجل في العبودية ، ومن آياته الدالة على كمال القدرة والعظمة قوله تعالى : ﴿ وينزل لكم من السماء ﴾ أي : جهة العلو الدالة على قهر ما نزل منها بإمساكه إلى حين الحكم بنزوله ﴿ رزقاً ﴾ أي : أسباب رزق كالمطر لإقامة أبدانكم لأن أهم المهمات رعاية مصالح الأديان ومصالح الأبدان ، والله تعالى راعى مصالح أديان العباد بإظهار البينات والآيات ، وراعى مصالح أبدانهم بإنزال الرزق من السماء ، فموقع الآيات من الأديان كموقع الأرزاق من الأبدان وعند حصولهما يكمل الأنعام الكامل ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي والباقون بفتح النون وتشديد الزاي ﴿ وما يتذكر ﴾ ذلك تذكراً تاماً فيتعظ بهذه الآيات ﴿ إلا من ينيب ﴾ أي : يرجع إلى الله تعالى ويقبل بكليته إلى الله تعالى في جميع أموره فيعرض عن غير الله تعالى ولهذا قال عز من قائل:

﴿ فادعوا ﴾ وصرح بالاسم الأعظم فقال تعالى : ﴿ الله ﴾ الذي له صفات الكمال أي : فاعبدوه ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي : الأفعال التي يقع الجزاء عليها فمن كان يصدق بالجزاء وبأن ربه غني لا يقبل إلا خالصاً ، اجتهد في تصفية أعماله فيأتي بها في غاية الخلوص عن كل ما يمكن أن يكدر من غير شائبة شرك جلي أو خفي كما أن معبوده واحد من غير شائبة نقص ﴿ ولو كره ﴾ أي : الدعاء منكم ﴿ الكافرون ﴾ أي : السائرون لأنوار عقولهم .

ولما ذكر تعالى من صفات كبريائه كونه مظهراً للآيات ذكر ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة وهي قوله تعالى:

(204/674)

﴿ رفيع الدرجات ﴾ وهذا يحتمل أن يكون المراد منه الرافع ، وأن يكون المراد منه المرتفع ، فإن حملناه على الأول ففيه وجهان : أولها : أنه تعالى يرفع درجات الأنبياء والأولياء ، ثانيهما : يرفع درجات الخلق في العلوم والأخلاق الفاضلة فجعل لكل أحد من الملائكة درجة معينة كما قال تعالى عنهم : ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ (الصافات :) وجعل لكل واحد من العلماء درجة معينة فقال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم

والذين أوتوا العلم درجات ﴾ (المجادلة :)

وعين لكل جسم درجة معينة ، فجعل بعضها سفلية كدرة وبعضها فلكية وبعضها من جواهر العرش والكرسي ، وأيضاً جعل لكل واحد مزية معينة في الخلق والخلق والرزق والأجل فقال تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ (الأنعام :)

وجعل لكل واحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة ، وفي الآخرة تظهر تلك الآثار وإن حملنا الرفيع على المرتفع فهو سبحانه وتعالى أرفع الموجودات في جميع صفات الكمال والجلال .

تنبيه : في رفيع وجهان ؛ أحدهما : أنه مبتدأ والخبر ﴿ ذو العرش ﴾ أي : الكامل الذي لا عرش في الحقيقة إلا هو فهو محيط بجميع الأكوان ومادة لكل جماد وحيوان وعال بجلاله وعظمته عن كل ما يخطر في الأذهان وقوله تعالى : ﴿ يلقي الروح ﴾ أي : الوحي سماه روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح .

﴿ من أمره ﴾ قال ابن عباس : أي : رضاه ، وقوله : ﴿ يلقي ﴾ يجوز أن يكون خبراً ثانياً وأن يكون حالاً ، ويجوز أن تكون الثلاثة أخباراً لقوله تعالى : ﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ .

ولما كان أمره تعالى غالباً على كل أمر أشار إلى ذلك بأداة الاستعلاء فقال تعالى : ﴿ على من يشاء ﴾ أي : يختار ﴿ من عباده ﴾ للنبوة وفي هذا دليل على أنها عطائية وقوله : ﴿ لينذر ﴾ أي : يخوف غاية الإلقاء والفاعل هو الله تعالى ، أو الروح ، أو من يشاء ، أو الرسول . والمنذر به محذوف تقديره لينذر العذاب . ﴿ يوم التلاق ﴾ أي : يوم القيامة فإن فيه تتلاقى الأرواح والأجساد وأهل السماء والأرض ، وقال مقاتل : يلتقي الخلق والخالق تعالى . وقال ميمون بن مهران : يلتقي الظالم والمظلوم ، وقيل : يلتقي العابدون والمعبودون . وقيل : يلتقي فيه المرء مع عمله والأولى أن تفسر الآية بما يشمل الجميع .

﴿ يوم هم بارزون ﴾ أي : خارجون من قبورهم وقيل : ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو شجر أو تلال أو غير ذلك ، وقيل : بارزون كناية عن ظهور حالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ (الطلاق :)

والأولى أيضاً أن تفسر الآية بما يشمل الجميع كما قال تعالى : ﴿ لا يخفى على الله ﴾ أي : المحيط علماً وقدرة ﴿ منهم ﴾ أي : من أعمالهم وأحوالهم ﴿ شيء ﴾ وإن دق وخفي ويقول الله تعالى في ذلك اليوم بعد فناء الخلق ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ أي : يا من كانوا يعملون أعمال من يظن أنه لا يقدر عليه أحد ، فلا يجيبه أحد فيجيب نفسه فيقول تعالى :

﴿ لله ﴾ أي : الذي له جميع صفات الكمال ثم دل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ الواحد ﴾

أي : الذي لا يمكن أن يكون له ثان بشركة ولا قسيمة ولا غيرهما ﴿ القهار ﴾ أي : الذي قهر الخلق بالموت ، وقيل : يجيبونه بلسان الحال أو المقال فيقولون ذلك ، وقال الرازي : لا يبعد أن يكون السائل والمجيب هو الله تعالى ، ولا يبعد أيضاً أن يكون السائل جمعاً من الملائكة والمجيب جمعاً آخرين وليس على التعيين ، فإن قيل : الله تعالى لا يخفى عليه شيء منهم في جميع الأيام فما معنى تقييد هذا العلم بذلك اليوم ؟

(206/674)

أجيب : بأنهم كانوا يتوهمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله تعالى لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم فهم في ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما يتوهمون في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ (فصلت :)

وقال تعالى : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ﴾ (النساء :)

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ (إبراهيم :)

ولما أخبر تعالى عن إذعان كل نفس بانقطاع الأسباب أخبرهم بما يزيد رعبهم ويبعث رغبتهم وهو نتيجة تفرده بالملك فقال تعالى:

﴿ اليوم تجزى ﴾ أي : تقضى وتكافأ ﴿ كل نفس بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ كسبت ﴾ أي : عملت لا تترك نفس واحدة لأن العلم قد شملهم والقدرة قد أحاطت بهم وعمتهم ، والحكمة قد منعت إهمال أحد منهم فيجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ أي : بوجه من الوجوه ﴿ إن الله ﴾ أي : التام القدرة الشامل للعلم ﴿ سريع الحساب ﴾ أي : بليغ السرعة فيه لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره في وقت حساب ذلك الغير ولا يشغله شأن عن شأن لأنه تعالى لا يحتاج إلى تكلف عدّ ولا يفتقر إلى مراجعة كتاب ولا شيء ، فكان في ذلك ترجية وخوف الفريقين لأن المؤمن يرجو إسراع البسط بالثواب والظالم يخشى إسراع الأخذ بالعذاب ، وعن ابن عباس : إذا أخذ في حسابهم لم يقل أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها .

ثم نبه تعالى بقوله سبحانه:

﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ أي : القيامة على أن يوم القيامة قريب ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ (القمر :)

قال الزجاج : إنما قيل لها آزفة لأنها قريبة وإن استبعد الناس مداها لأن ما هو كائن قريب ، والآزفة فاعلة من أزف الأمر إذا دنا وحضر كقوله تعالى في صفة القيامة : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ (النجم :)

أي : قربت قال النابغة:

*أزف الترحل غير أن ركابنا **لما تزل برحالنا وكان وقد*

وقال كعب بن زهير:

(207/674)

---

*بان الشباب وهذا الشيب قد أزفا **ولا أرى لشباب بائن خلفا*

تنبيه: الآزفة: نعت لمحذوف مؤنث كيوم القيامة الآزفة أو يوم المجازاة الآزفة، قال القفال: وأسماء القيامة تجري على التأنيث كالطامة والحاقة لأنها مرجع معناها على الداهية، ويوم القيامة له أسماء كثيرة تدل على أهواله باعتبار مواقفه وأحواله، منها يوم البعث وهو ظاهر ومنها يوم التلاق لما مر ومنها يوم التغابن لغبن أكثر من فيه وخسرانه، وقيل: المراد بيوم الآزفة مشارفتهم دخول النار فإن عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف، وقال أبو مسلم: هو يوم حضور الأجل فإن يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب.

ولما ذكر تعالى اليوم هوّل أمره بما يحصل فيه من المشاق بقوله تعالى: ﴿إذ القلوب﴾ أي: من كل من حضره ترتفع ﴿لدى﴾ أي: عند ﴿الحناجر﴾ أي: حناجر المجموعين فيه وهو جمع حنجور وهو الحلقوم يعني أنها زالت عن أماكنها صاعدة من كثرة الرعب حتى كادت تخرج.

ثم أسند إليها ما يسند للعقلاء فقال تعالى : ﴿كاظمين﴾ أي : ممتلئين خوفاً ورعباً وحزناً مكروبين فقد استدت مجاري أنفاسهم وأخذ بجميع إحساسهم .

ولما كان من المعهود أن الصداقات تنفع في مثل ذلك والشفاعات قال تعالى مستأنفاً : ﴿ما للظالمين﴾ أي : العريقين في الظلم ﴿من حميم﴾ أي : قريب صادق في مودتهم مهتم بأمورهم مزيل لكروبهم ﴿ولا شفيع يطاع﴾ فيشفع لهم .

(208/674)

تنبيه : احتج المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة عن المذنبين ، فقالوا : نفي حصول شفيع لهم يطاع يوجب أن لا يحصل لهم هذا الشفيع وأجيبوا بوجوه ؛ أولها : أنه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع وهذا لا يدل على نفي الشفيع كقولك ما عندي كتاب يباع ، لا يقتضي نفي الكتاب فهذا ينفي أن لهم شفيعاً يطيعه الله تعالى ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، ثانيها : أن المراد بالظالمين في هذه الآية ههنا الكفار لأنها وردت في زجر الكفار قال تعالى : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان :) ، ثالثها : أن لفظ الظالمين إما أن يفيد الاستغراق أو لا ، فإن كان المراد : جميعهم فيدخل فيه الكفار ، وعندنا أنه ليس لهذا الجمع شفيعاً لأن بعضه كفار وليس لهم شفيع ، فحينئذ لا يكون لهذا الجمع شفيع ، وإن لم يفد الاستغراق

كان المراد من الظالمين بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع .

ولما أمر الله تعالى بإنذار يوم الآزفة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب وأن الظالم لا يجد من يحميه ولا يشفع له ، ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سراً وجهراً فقال تعالى: ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ أي : خيانتها التي هي أخفى ما يقع من أفعال الظاهر ، جعل الخيانة مبالغة في الوصف وهو الإشارة بالعين ، قال أبو حيان : من كسر عين وغمز ونظر يفهم المراد .

ولما ذكر أخفى أفعال الظاهر أتبعه أخفى أفعال الباطن فقال تعالى : ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي : القلوب فعلم من ذلك أن الله تعالى عالم بجميع أفعالهم لأن الأفعال على قسمين أفعال الجوارح وأفعال القلوب ، فأما أفعال الجوارح فأخفاها خيانة الأعين والله تعالى عالم بها فكيف الحال في سائر الأعمال ، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله عز وجل : ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ (غافر :)

وقوله تعالى:

﴿ والله ﴾ أي : المتصف بجميع صفات الكمال ﴿ يقضي بالحق ﴾ أي : الثابت الذي لا ينتفي يوجب عظيم الخوف لأن الحاكم إذا كان عالماً بجميع الأحوال وثبت أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى . ولما عول الكفار في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة فقال تعالى : ﴿ والذين يدعون ﴾ أي : يعبدون ﴿ من دونه ﴾ وهم الأصنام ﴿ لا يقضون ﴾ لهم ﴿ بشيء ﴾ من الأشياء أصلاً فكيف يكونون شركاء لله تعالى ، وقرأ نافع وهشام تدعون بتاء الخطاب للمشركين والباقون بياء الغيبة إخباراً عنهم بذلك .

ولما أخبر تعالى أنه لا فعل لشركائهم وأن الأمر له وحده قال تعالى مؤكداً لأجل أن أفعالهم تقتضي إنكار ذلك ﴿ إن الله ﴾ أي : المنفرد بصفات الكمال ﴿ هو ﴾ أي : وحده ﴿ السميع ﴾ أي : لجميع أقوالهم ﴿ البصير ﴾ أي : بجميع أفعالهم ، ففي ذلك تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه ، فثبت أن الأمر له وحده فما تنفعهم شفاعة الشافعين ولا تقبل فيهم من أحد شفاعة بعد الشفاعة العامة التي هي خاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهي المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، فإن كان أحد يحجم عنها حتى يصل الأمر إليه صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها أنا لها ، ثم يذهب إلى المكان الذي أذن له فيه

فيشفع فيشفعه الله تعالى ، فيفصل سبحانه وتعالى بين الخلائق ليذهب كل أحد إلى داره جنته أو ناره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 286 . 302 ﴾

(210/674)

وقال القاسمي :

﴿ حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

الكلام في مفتتح هذه السورة ، وتاليه ، كالذي سلف في [الم السجدة] .

﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾

أي : المن والفضل : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي : المرجع والجزاء : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : ما يخاصم في حجج الله ، وأدلته على وحدانيته بالإنكار لها ، إلا الذين جحدوا توحيده ، قال الزمخشري : سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر . والمراد الجدال بالباطل ، من الطعن فيها ، والقصد إلى إدحاض الحق ، وإطفاء نور الله . وقد دل على ذلك قوله : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر : 5] . فأما الجدال فيها ، لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقارحة أهل العلم في استنباط معانيها ، ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد في سبيل الله . وقوله صلّى الله عليه وسلم <

جدال في القرآن كفر > وإيراده منكراً ، تمييز منه بين جدال وجدال . انتهى : ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ أي : للتجارات ، وتمتعهم بالتجوال والترداد ، فمآلهم إلى الزوال والنفاد .

(211/674)

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ ﴾ أي : الذين تحزبوا على الرسل ، وناصبوهم : ﴿ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي : من بعد سماع أخباهم ، ومشاهدة أثارهم : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ أي : ليتمكنوا منه , ومن الإيقاع به , وإصابته بما أرادوا من تعذيب , أو قتل ، من الأخذ بمعنى الأسر ، والأخيذ الأسير : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ أي : قابلو حجج الرسل بالباطل من جدالهم : ﴿ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أي : ليزيلوا به الأمر الثابت بالحجة الصحيحة ، لكنه لا يندحض وإن كثرت الشبه ؛ لما أنه الثابت في نفسه المتقرر بذاته : ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أي : العذاب الدنيوي المعروف أخباره ، المشهود آثاره : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي : في الدار ، فيعتبر به عقاب تلك الدار .

﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ قال ابن جرير : أي : وكما حق على الأمم التي كذبت رسلها ، التي قصصت عليك ، يا محمد ، قصصها ،

وحل بها عقابي . كذلك وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك ، الذين يجادلون في آيات الله ؛ لأنهم أصحاب النار .

ثم نوه بالمؤمنين ، وبما أعدّ لهم ، بقوله تعالى :

(212/674)

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ ﴾ أي : من الملائكة . وقد سبق في تفسير آية : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : 54] ، في الأعراف ، كلام في حملة العرش ، فراجعه : ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ يعني الملائكة المقرّبين : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي : ويقرون بأنه لا إله لهم سواه ، ويشهدون بذلك لا يستكبرون عن عبادته . وفائدة التصريح بإيمانهم مع جلائه ، وهو إظهار فضيلة الإيمان ، وإبراز شرف أهله ، والإشعار بعلة دعائهم للمؤمنين ؛ حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فإن المشاركة في الإيمان أقوى المناسبات وأتمها ، وأدعى الدواعي إلى النصح والشفقة .

(213/674)

وفي نظم استغفارهم لهم في سلك وظائفهم المفروضة عليهم ، من تسبيحهم ، وتحميدهم ، وإيمانهم ، إيذان بكمال اعتنائهم به ، وإشعار بوقوعه عند الله تعالى في موقع القبول : ﴿ رَبَّنَا ﴾ أي : يقولون ربنا : ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ أي : شملت رحمتك ، وأحاط بالكل علمك : ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ أي : صراطك المستقيم بمتابعة نبيك في الأقوال ، والأعمال ، والأحوال : ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أي : عمل صالحاً منهم ، ليتم سرورهم بهم : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ أي : عقوبتها وجزاءها : ﴿ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي : لبغضه الشديد لكم ، أعظم من بغض بعضكم لبعض ، وتبرؤ كل من الآخر ، ولعنه حين تعذبون ، كما قال تعالى : ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ [العنكبوت : 25] ، أو أعظم من مقتكم أنفسكم وذواتكم ، فقد يمقتون أنفسهم حين تظهر لهم هيئاتها المظلمة ، وصفاتها المؤلمة ، وسواد الوجه الموحش ، وقبح المنظر المنفر : ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ أي : تدعون على ألسنة الرسل عليهم السلام ، إلى الإيمان به سبحانه ، فتكفرون كبراً وعتوّاً .

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ أي : أنشأتنا أمواتاً مرتين ، وأحييتنا في النشأتين كما قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة : 28] ، قال قتادة : كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم ، فأحياهم الله في الدنيا ، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة . فهما حياتان وموتتان : ﴿ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ أي : فأقررنا بما علمنا من الذنوب في الدنيا ، وذلك عند وقوع العقاب المرتب عليها ، وامتناع المحيص عنه : ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي : فهل إلى خروجنا من النار ، من سبيل ، لنرجع إلى الدنيا فنعمل غير الذي كنا نعمل . قال الزمخشري : وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط . وإنما يقولون ذلك تعللاً وتحيراً . ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك . وهو قوله تعالى :

﴿ ذَلِكُم ﴾ أي : ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ، وأن لا سبيل إلى خروج قط : ﴿ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ أي : بسبب إنكاركم أن الألوهية له خالصة ، وقولكم : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً ﴾ [ص : 5] ، وإيمانكم بالشرك : ﴿

فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ أي : فالقضاء له وحده لا للغير . فلا سبيل إلى النجاة لعلوّه وكبريائه ، فلا يمكن لأحد [في المطبوع : أحداً] ردّ حكمته وعقابه : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي : من الريح ، والسحاب ، والرعد ، والبرق ، والصواعق ، ونحوها : ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً ﴾ أي : مطراً . وإفراده بالذكر من بين الآيات ، لعظم نفعه ، وتسبب حياة كل شيء عنه : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ أي : وما يتعظ بآياته تعالى ، إلا من يرجع إليه بالتوبة والإنابة .

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي : فاعبدوه مخلصين له الدين ، عن شوب الشرك

(216/674)

﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ أي : غاظهم ذلك : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾ أي : رفيع درجات عرشه كقوله : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج : 3] ، وهي مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش . وهي دليل على عزته وملكوته ، أو هو عبارة عن رفعة شأنه ، وعلو سلطانه ، وكمالاته ، غير المتناهية : ﴿ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ ﴾ أي : الوحي والعلم اللدني الذي تحيا به القلوب الميتة : ﴿ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي : أهل عنايته الأزلية ، واختصاصه للرسالة والنبوة : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ أي : يوم القيامة الكبرى ، الذي

يتلاقى فيه العبد بربه ليحاسبه على أعماله ، أو العباد .

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ﴾ أي : من قبورهم ، أو ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل ، أو بناء ﴿ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ أي : من أعمالهم ، وأعيانهم ، وأحوالهم . وقوله : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ ينادي به الحق سبحانه ، عند فناء الكل ، أو وقت التلاقي ، والبروز ، فيجيب هو وحده : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ ﴾ أي : المتفرد بالملك : ﴿ الْقَهَّارِ ﴾ أي : الذي قهر بالغلبة كل ما سواه : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي : بإيصال ما يستحق كل منهم إليه ، من تبعات سيئاته ، وثمرات حسناته .

(217/674)

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ﴾ أي : الواقعة القريبة : ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ أي : من أهواله ترتفع القلوب عن مقارّها ، فتصير لدى الحلوق : ﴿ كَاظِمِينَ ﴾ أي : ممتلئين غمّا ، بما أفرطوا من الظلم : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي : قريب يهتمّ لشأنهم ، فيخفف عنهم غمومهم : ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أي : من يشفع في تخفيفها عنهم ؛ إذ لا تقبل شفاعة فيهم .

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ أي : نظراتها الخائنة ، وهي الممتدة إلى ما لا يحل : ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ أي : تكنّه من الضمائر والأسرار : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالعدل : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ أي : لأنهم لا يقدرون على شيء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 193.188 ﴾

(218/674)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) ﴾

هذه السورة بدء سبع سور كلها تبدأ بالحرفين : " حا . ميم " . منها سورة واحدة يذكر فيها بعد هذين الحرفين ثلاثة حروف أخر : " عين . سين . قاف " . وقد سبق الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائل السور . وأنها إشارة إلى صياغة هذا القرآن منها . وهو معجز لهم مع تيسير هذه الأحرف لهم ومعرفتهم بها ، وهي أحرف لغتهم التي يتحدثونها ويكتبونها .

وتليها الإشارة إلى تنزيل الكتاب . . إحدى الحقائق التي يتكرر الحديث عنها في السور

المكية بوجه خاص ، في معرض بناء العقيدة :

﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ . .

وهي مجرد إشارة ينتقل السياق منها إلى التعريف ببعض صفات الله الذي نزل هذا الكتاب . وهي مجموعة من الصفات ذات علاقة موضوعية بمحتويات السورة كلها وقضاياها :

﴿ العزيز العليم ، غافر الذنب . وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذي الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير ﴾ . .

العزة . والعلم . وغفران الذنب . وقبول التوبة . وشدة العقاب . والفضل والإنعام . ووحدانية الألوهية ، ووحدانية المرجع والمصير . .

وكل موضوعات السورة تتعلق بهذه المعاني ، التي جاءت في مطلع السورة . والتي سيقت في إيقاعات ثابتة الجرس ، قوية التركيب ، توحي بالاستقرار والثبات والرسوخ .

والله سبحانه يعرف نفسه لعباده بصفاته ، ذات الأثر في حياتهم ووجودهم ، ويلمس بها مشاعرهم وقلوبهم ؛ فيثير رجاءهم وطمعهم ؛ كما يثير خوفهم وخشيتهم ، ويشعرهم بأنهم في قبضته لا مهرب لهم من تصريفه .

ومنها هذه الصفات :

﴿ العزيز ﴾ : القوي القادر الذي يغلب ولا يغلب ، والذي يصرف الأمر لا يقدر عليه

أحد ، ولا يعقب عليه أحد .

﴿ العليم ﴾ . . الذي يصرف الوجود عن علم وعن خبرة ، فلا يخفى عليه شيء ، ولا يند عن علمه شيء .

﴿ غافر الذنب ﴾ . . الذي يعفو عن ذنوب العباد ، بما يعلمه سبحانه من استحقاقهم للغفران .

(219/674)

﴿ وقابل التوب ﴾ . . الذي يتوب على العصاة ، ويتقبلهم في حماه ، ويفتح لهم بابه بلا حجاب .

﴿ شديد العقاب ﴾ الذي يدمر على المستكبرين ويعاقب المعاندين ، الذين لا يتوبون ولا يستغفرون .

﴿ ذي الطول ﴾ . . الذي يتفضل بالإنعام ، ويضاعف الحسنات ، ويعطي بغير حساب .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ . . فله الألوهية وحده لا شريك له فيها ولا شبيه .

﴿ إليه المصير ﴾ . . فلا مهرب من حسابه ولا مفر من لقائه . وإليه الأوبة والمعاد .

وهكذا تتضح صلته بعباده وصلة عباده به . تتضح في مشاعرهم وتصوراتهم وإدراكهم ،

فيعرفون كيف يعاملونه في يقظة وفي حساسية ؛ وفي إدراك لما يغضبه وما يرضيه .

وقد كان أصحاب العقائد الأسطورية يعيشون مع آلهتهم في حيرة ، لا يعرفون عنها شيئاً مضبوطاً ؛ ولا يتبينون ماذا يسخطها وماذا يرضيها ، ويصورونها متقلبة الأهواء ، غامضة الاتجاهات ، شديدة الانفعالات ، ويعيشون معها في قلق دائم يتحسسون مواضع رضاها ، بالرقى والتمائم والضحايا والذبائح ، ولا يدرون سخطت أم رضيت إلا بالوهم والتخمين !

فجاء الإسلام واضحاً ناصعاً ، يصل الناس بإلههم الحق ، ويعرفهم بصفاته ، ويبصرهم بمشيئته ويعلمهم كيف يتقربون إليه ، وكيف يرجون رحمته ، ويخشون عذابه ، على طريق واضح قاصد مستقيم .

﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ، فلا يغررك تقلبهم في البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، فأخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ . .

(220/674)

بعد تقرير تلك الصفات العلوية ، وتقرير الوحدانية ، يقرر أن هذه الحقائق مسلمة من كل من في الوجود ، وكل ما في الوجود ، ففطرة الوجود كله مرتبطة بهذه الحقائق ، متصلة بها الاتصال المباشر ، الذي لا تجادل فيه ولا تماحل . والوجود كله مقتنع بآيات الله الشاهدة بحقيقته ووحدانيته . وما من أحد يجادل فيها إلا الذين كفروا وحدهم ، شذوذاً عن كل ما في الوجود وكل من في الوجود :

﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ . .

فهم وحدهم من بين هذا الوجود الهائل يشذون ؛ وهم وحدهم من بين هذا الخلق العظيم ينحرفون . وهم بالقياس إلى هذا الوجود أضعف وأقل من النمل بالقياس إلى هذه الأرض . وهم حين يقفون في وصف يجادلون في آيات الله ؛ ويقف الوجود الهائل كله في صف معترفاً بخالق الوجود مستنداً إلى قوة العزيز الجبار . . هم في هذا الموقف مقطوع بمصيرهم ، مقضي في أمرهم ؛ مهما تبلغ قوتهم ؛ ومهما يتهيأ لهم من أسباب المال والجاه والسلطان :

﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ .

.

فمهما تقلبوا ، وتحركوا ، وملكوا ، واستمتعوا ، فهم إلى اندحار وهلاك وبوار . ونهاية المعركة معروفة . إن كان ثمت معركة يمكن أن تقوم بين قوة الوجود وخالقه ، وقوة هؤلاء الضعاف المساكين !

ولقد سبقتهم أقوام وأحزاب على شاكلتهم ، توحي عاقبتهم بعاقبة كل من يقف في وجه القوة الطاحنة العارمة التي يتعرض لها من يعرض نفسه لبأس الله :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم . فكيف كان عقاب ؟ ﴾ . .

فهي قصة قديمة من عهد نوح . ومعركة ذات مواقع متشابهة في كل زمان . وهذه الآية تصور هذه القصة . قصة الرسالة والتكذيب والطغيان على مدى القرون والأجيال كما تصور العاقبة في كل حال .

(221/674)

رسول يجيء . فيكذبه طغاة قومه . ولا يقفون عند مقارعة الحجة بالحجة ، إنما هم يلجأون إلى منطق الطغيان الغليظ ، فيهمون أن يبطشوا بالرسول ، ويموهون على الجماهير بالباطل ليغلبوا به الحق . . هنا تتدخل يد القدرة الباطشة ، فتأخذهم أخذاً يعجب ويدهش ، ويستحق التعجيب والاستعراض :

﴿ فكيف كان عقاب ؟ ﴾ . .

ولقد كان عقاباً مدمراً قاضياً عنيفاً شديداً ، تشهد به مصارع القوم الباقية آثارها ،

وتنطق به الأحاديث والروايات .

ولم تنته المعركة . فهي ممتدة الآثار في الآخرة :

﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ . .

ومتى حقت كلمة الله على أحد فقد وقعت ، وقضي الأمر ، وبطل كل جدال .

وهكذا يصور القرآن الحقيقة الواقعة . حقيقة المعركة بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، وبين الدعاة إلى الله الواحد والطغاة الذين يستكبرون في الأرض بغير الحق .

وهكذا نعلم أنها معركة قديمة بدأت منذ فجر البشرية . وأن ميدانها أوسع من الأرض كلها ، لأن الوجود كله يقف مؤمناً بربه مسلماً مستسلماً ، ويشذ منه الذين كفروا يجادلون في آيات الله وحدهم دون سائر هذا الكون الكبير . ونعلم كذلك نهاية المعركة غير المتكافئة بين وصف الحق الطويل الضخم الهائل وشرذمة الباطل القليلة الضئيلة الهزيلة ، مهما يكن تقلبها في البلاد ؛ ومهما يكن مظهرها من القوة والسيطرة والمتاع !

هذه الحقيقة حقيقة المعركة والقوى البارزة فيها ، وميدانها في الزمان والمكان يصورها القرآن لتستقر في القلوب ؛ وليعرفها على وجه خاص اولئك الذين يحملون دعوة الحق والإيمان في كل زمان ومكان ؛ فلا تتعاظمهم قوة الباطل الظاهرة ، في فترة محدودة من الزمان ، ورقعة محدودة من المكان ؛ فهذه ليست الحقيقة . إنما الحقيقة هي التي يصورها لهم كتاب الله ، وتنطق بها كلمة الله . وهو أصدق القائلين . وهو العزيز العليم .

ويتصل بتلك الحقيقة الأولى أن حملة العرش ومن حوله وهم من بين القوى المؤمنة في هذا الوجود يذكرون المؤمنين من البشر عند ربهم ، ويستغفرون لهم ، ويستنجزون وعد الله إياهم ؛ بحكم رابطة الإيمان بينهم وبين المؤمنين :

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا .

ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ؛ إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ . .

ونحن لا نعرف ما هو العرش ؟ ولا نملك صورة له ، ولا نعرف كيف يحمله حملته ، ولا كيف يكون من حوله ، حوله ؛ ولا جدوى من الجري وراء صور ليس من طبيعة الإدراك البشري أن يلم بها ، ولا من الجدل حول غيبيات لم يطلع الله أحداً من المتجادلين عليها ؛ وكل ما يتصل بالحقيقة التي يقررها سياق السورة أن عباداً مقربين من الله ، ﴿ يسبحون بحمد

ربهم ﴾ . ﴿ ويؤمنون به ﴾ . . وينص القرآن على إيمانهم وهو مفهوم بداهة ليشير إلى الصلة التي تربطهم بالمؤمنين من البشر . . هؤلاء العباد المقربون يتوجهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير ما يدعو به مؤمن لمؤمن .

وهم يبدأون دعاءهم بأدب يعلمنا كيف يكون أدب الدعاء والسؤال . يقولون :

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ . .

يقدمون بين يدي الدعاء بأنهم في طلب الرحمة للناس إنما يستمدون من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، ويحيلون إلى علم الله الذي وسع كل شيء ؛ وأنهم لا يقدمون بين يدي الله بشيء ؛ إنما هي رحمته وعلمه منهما يستمدون وإليهما يلجأون :

﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ . .

(223/674)

وتلتقي هذه الإشارة إلى المغفرة والتوبة بمطلع السورة ، وبصفة الله هناك : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ . . كما تلتقي الإشارة إلى عذاب الجحيمِ ، بصفة الله : ﴿ شديد العقاب ﴾ . .

ثم يرتقون في الدعاء من الغفران والوقاية من العذاب إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله

لعباده الصالحين :

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . .

ودخول الجنة نعيم وفوز . يضاف إليه صحبة من صلح من الآباء والأزواج والذريات . وهي نعيم آخر مستقل . ثم هي مظهر من مظاهر الوحدة بين المؤمنين أجمعين . فعند عقدة الإيمان يلتقي الآباء والأبناء والأزواج ، ولولا هذه العقدة لتقطعت بينهم الأسباب :

والتعقيب على هذه الفقرة من الدعاء : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ يشير إلى القوة كما يشير إلى الحكمة . وبها يكون الحكم في أمر العباد . .

﴿ وقهم السيئات . ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته . وذلك هو الفوز العظيم ﴾ . .

وهذه الدعوة بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن لفتة إلى الركيزة الأولى في الموقف العصيب . فالسيئات هي التي توبق أصحابها في الآخرة ، وتوردهم مورد التهلكة . فإذا وقى الله عباده المؤمنين منها وقاهم نتائجها وعواقبها .

وكانت هذه هي الرحمة في ذلك الموقف . وكانت كذلك أولى خطوات السعادة . ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ . . فمجرد الوقاية من السيئات هو أمر عظيم !

وبينما أن حملة العرش ومن حوله يتجهون إلى ربهم بهذا الدعاء لإخوانهم المؤمنين . نجد الذين كفروا في الموقف الذي تتطلع كل نفس فيه إلى المعين وقد عز المعين . نجد الذين كفروا

هؤلاء وقد انبتت العلاقات بينهم وبين كل أحد وكل شيء في الوجود . وإذا هم ينادون من كل مكان بالترذيل والمقت والتأنيب . وإذا هم في موقف الذلة بعد الاستكبار . وفي موقف الرجاء ولات حين رجاء :

(224/674)

﴿ إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون قالوا : ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلى خروج من سبيل ؟ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلي الكبير ﴾ . .

والمقت : أشد الكره . وهم ينادون من كل جانب . إن مقت الله لكم يوم كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون ، أشد من مقتكم لأنفسكم وأنتم تطلعون اليوم على ما قادتكم إليه من شر ونكر ، بكفرها وإعراضها عن دعوة الإيمان ، قبل فوات الأوان . . وما أوجع هذا التذكير وهذا التأنيب في ذلك الموقف المرهوب العصيب !

والآن وقد سقط عنهم غشاء الخداع والضلال يعرفون أن المتجه لله وحده فيتجهون :

﴿ قالوا : ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ، فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلى خروج من سبيل

﴾ . .

وهي كلمة الذليل اليائس البائس . . ﴿ ربنا ﴾ . . وقد كانوا يكفرون وينكرون . أحييتنا أول مرة فنفخت الروح في الموات فإذا هو حياة ، وإذا نحن أحياء . ثم أحييتنا الأخرى بعد موتنا ، فجئنا إليك . وإنك لقادر على إخراجنا مما نحن فيه . وقد اعترفنا بذنوبنا . ﴿ فهل إلى خروج من سبيل ؟ ﴾ . بهذا التنكير الموحي باللهفة واليأس المرير .

هنا في ظل هذا الموقف البائس يجبههم بسبب هذا المصير :

﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلي الكبير ﴾ .

فهذا هو الذي يقودكم إلى ذلك الموقف الذليل . إيمانكم بالشركاء ، وكفركم بالوحدانية . فالحكم لله العلي الكبير : وهما صفتان تناسبان موقف الحكم . الاستعلاء على كل شيء ، والكبر فوق كل شيء . في موقف الفصل الأخير .

وفي ظل هذا المشهد يستطرد إلى شيء من صفة الله تناسب موقف الاستعلاء ؛ ويوجه المؤمنين في هذا المقام إلى التوجه إليه بالدعاء ، موحدين ، مخلصين له الدين ؛ كما يشير إلى الوحي للإنذار بيوم التلاقي والفصل والجزاء ، يوم يتفرد الله بالملك والقهر والاستعلاء :

﴿ هو الذي يريكم آياته ، وينزل لكم من السماء رزقاً ، وما يتذكر إلا من ينيب . فادعوا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات . ذو العرش ، يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق .

يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء . لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . لا ظلم اليوم . إن الله سريع الحساب ﴾ . .

﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ . . وآيات الله ترى في كل شيء في هذا الوجود . في المجالي الكبيرة من شمس وكواكب ، وليل ونهار ، ومطر وبرق ورعد . . وفي الدقائق الصغيرة من الذرة والخلية والورقة والزهرة . . وفي كل منها آية خارقة ، تتبدى عظمتها حين يحاول الإنسان أن يقلدها بله أن ينشئها وهيهات هيهات التقليد الكامل الدقيق ، لأصغر وأبسط ما أبدعته يد الله في هذا الوجود .

﴿ وينزل عليكم من السماء رزقاً ﴾ . . عرف الناس منه المطر ، أصل الحياة في هذه الأرض ، وسبب الطعام والشراب . وغير المطر كثير يكشفه الناس يوماً بعد يوم . ومنه هذه الأشعة المحيية التي لولاها ما كانت حياة على هذا الكوكب الأرضي . ولعل من هذا الرزق تلك الرسالات المنزلة ، التي قادت خطى البشرية منذ طفولتها ونقلت أقدامها في الطريق المستقيم ، وهدتها إلى مناهج الحياة الموصولة بالله ، وناموسه القويم .

﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ . . فالذي ينيب إلى ربه يتذكر نعمه ويتذكر فضله ويتذكر آياته التي ينساها غلاظ القلوب .

وعلى ذكر الإنابة وما تثيره في القلب من تذكر وتدبر يوجه الله المؤمنين ليدعوا الله وحده ويخلصوا له الدين ، غير عابئين بكره الكافرين :

﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ :

(226/674)

ولن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله ، وأن يدعوه وحده دون سواه . ولا أمل في أن يرضوا عن هذا مهما لاطفهم المؤمنون أو هادنوهم أو تلمسوا رضاهم بشتى الأساليب . فليمض المؤمنون في وجهتهم ، يدعون ربهم وحده ، ويخلصون له عقيدتهم . ويصغون له قلوبهم . ولا عليهم رضي الكافرون أم سخطوا . وما هم يوماً براضين !

ثم يذكر من صفات الله في هذا المقام الذي يوجه المؤمنين فيه إلى عبادة الله وحده ولو كره الكافرون . يذكر من هذه الصفات أنه سبحانه :

﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ، يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ . .

فهو سبحانه وحده صاحب الرفعة والمقام العالي ، وهو صاحب العرش المسيطر

المستعلي . وهو الذي يلقي أمره المحيي للأرواح والقلوب على من يختاره من عباده . وهذا كناية عن الوحي بالرسالة . ولكن التعبير عنه في هذه الصيغة يبين أولاً حقيقة هذا الوحي ، وأنه روح وحياة للبشرية ، ويبين ثانياً أنه يتنزل من علو على المختارين من العباد . . وكلها ظلال متناسقة مع صفة الله ﴿ العلي الكبير ﴾ . .

فأما الوظيفة البارزة لمن يختاره الله من عباده فيلقي عليه الروح من أمره ، فهي الإنذار :

﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ . .

وفي هذا اليوم يتلاقى البشر جميعاً . ويتلاقى الناس وأعمالهم التي قدموا في الحياة الدنيا . ويتلاقى الناس والملائكة والجن وجميع الخلائق التي تشهد ذلك اليوم المشهود وتلتقي الخلائق كلها بربها في ساعة الحساب فهو يوم التلاقي بكل معاني التلاقي .

(227/674)

ثم هو اليوم الذي يبرزون فيه بلا ساتر ولا واق ولا تزييف ولا خداع :

يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ» . .

والله لا يخفى عليه منهم شيء في كل وقت وفي كل حال . ولكنهم في غير هذا اليوم قد يحسبون أنهم مستورون ، وأن أعمالهم وحركاتهم خافية ، أما اليوم فيحسون أنهم

مكشوفون ، ويعلمون أنهم مفضوحون ويقفون عارين من كل ساتر حتى ستار الأوهام !

ويومئذ يتضاءل المتكبرون ، وينزوي المتجبرون ، ويقف الوجود كله خاشعا ، والعباد كلهم خضعا . ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسلطان . وهو سبحانه متفرد به في كل آن .

فأما في هذا اليوم فينكشف هذا للعيان ، بعد انكشافه للجنان . ويعلم هذا كل منكر ويستشعره كل متكبر . وتصمت كل نأمة وتسكن كل حركة .

وينطلق صوت جليل رهيب يسأل ويجيب فما في الوجود كله يومئذ من سائل غيره ولا مجيب :

«لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟» . . «لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» . .

«الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ . لا ظُلْمَ الْيَوْمَ . إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ» . .

(228/674)

اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم العدل . اليوم يوم القضاء الفصل . بلا إمهال ولا إبطاء .

ويخيم الجلال والصمت ، ويغمر الموقف رهبة وخشوع ، وتسمع الخلائق وتخشع ، ويقضى الأمر ، وتطوى صحائف الحساب .

ويتسق هذا الظل مع قوله عن الذين يجادلون في آيات الله – في مطلع السورة – : «فَلا يَغْرُرْكَ

تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ» . . فهذه نهاية التقلب في الأرض ، والاستعلاء بغير الحق ، والتجبر والتكبر والثراء والمتاع .

ويستطرد السياق يوجه الرسول – صلّى اللّه عليه وسلّم – إلى إنذار القوم بذلك اليوم ، في مشهد من مشاهد القيامة يتفرد فيه اللّه بالحكم والقضاء بعد ما عرضه عليهم في صورة حكاية لم يوجه لهم فيها الخطاب :

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ . يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» . .

والآزفة . . القريبة والعاجلة . . وهي القيامة . واللفظ يصورها كأنها مقتربة زاحفة .

والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة ، وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم ، والكظم يكربهم ، ويثقل على صدورهم وهم لا يجدون حميما يعطف عليهم ولا شفيعا ذا كلمة تطاع في هذا الموقف العصيب المكروب !

وهم بارزون في هذا اليوم لا يخفى على اللّه منهم شيء ، حتى لفتة العين الخائنة ، وسر الصدر المستور :

«يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» :

والعين الخائنة تجتهد في إخفاء خيانتها . ولكنه لا تخفى على اللّه . والسر المستور تخفيه

الصدور ، ولكنه مكشوف لعلم اللّه .

واللّه وحده هو الذي يقضي في هذا اليوم قضاءه الحق . وآلهتهم المدعاة لا شأن لها ولا حكم ولا قضاء :

(229/674)

«وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ» . .

واللّه يقضي بالحق عن علم وعن خبرة ، وعن سمع وعن رؤية . فلا يظلم أحدا ولا ينسى شيئا :

«إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3068 .

3074 ﴾

(230/674)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والسبعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والسبعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 21 ﴾ من سورة غافر

وحتى الآية ﴿ 40 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (21) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وعظهم سبحانه بصادق الأخبار عن قوم نوح ومن تبعهم من الكفار ، وختمه بالإنذار بما يقع في دار القرار للظالمين الأشرار ، أتبعه الوعظ والتخويف بالمشاهدة من تتبع الديار والاعتبار ، بما كان لهم فيها من عجائب الآثار ، من الحصون والقصور وسائر الأبنية الصغار والكبار ، فقال موبخاً ومقرراً عاطفاً على ما تقديره ألم يتعظوا بما أخبرناهم به من الظالمين الأولين من تبعهم من الإهلاك في الدنيا المتصل بالشقاء في الأخرى : ﴿ أو لم يسيروا ﴾ ولما كان المتقدمون من الكثرة والشدة والمكنة بحيث لا يعلمه إلا الله ولا يقدر آدمي على الإحاطة بمساكنهم ، نبه عليه بقوله : ﴿ في الأرض ﴾ أي أي أرض ساروا فيها وعظتهم بما حوت من الأعلام .

ولما كان السير سبباً للنظر قال : ﴿ فينظروا ﴾ أي نظر اعتبار كما هو شأن أرباب

البصائر الذين يزعمون أنهم أعلاهم .

ولما كانت الأحوال المنظور فيها المعتبر بها شديدة الغرابة ، نبه عليها بقوله : ﴿ كيف ﴾ أي أنها أهل لأن يسأل عنها ، ونبه على أن التصاقها بهم في غاية العراقة بحيث لا انفكاك لها بقوله : ﴿ كان عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ الذين كانوا ﴾ أي سكاناً للأرض عريقين في عمارتها .

(5/675)

ولما كان المنتفع بالوعظ يكفيه أدنى شيء منه ، نبه على ذلك بالجار فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ أي قبل زمانهم ﴿ كانوا ﴾ ولما كان السياق لمجادلة قريش لإدحاض الحق مع سماعهم لأخبار الأولين ، كانوا كأنهم ادعوا أنهم أشد الناس ، فاقتضى الحال تأكيد الخبر بأن الأولين أشد منهم ، فأكد أمرهم فيما نسبه إليهم معبراً بضمير الفصل بقوله : ﴿ هم ﴾ أي المتقدمون ، لما لهم من القوى الظاهرة والباطنة .

ولما كان مرجع المجادلة القوة لا الكثرة ، وقال استئنافاً في جواب من لعله يقول : ما كان أمرهم ؟ : ﴿ أشد منهم ﴾ أي هؤلاء – قرأه ابن عامر ﴿ منكم ﴾ بالكاف كما هو في مصحف أهل الشام على الالتفات للتنصيص على المراد ﴿ قوة ﴾ أي ذواتاً ومعاني

﴿ و ﴾ أشد ﴿ آثاراً في الأرض ﴾ لأن آثارهم لم يندرس بعضها إلى هذا الزمان وقد مضى عليها ألوف من السنين ، وأما المتأخرون فتنطمس آثارهم في أقل من قرن .

ولما كانت قوتهم ومكنتهم سبباً لإعجابهم وتكبرهم على أمر ربهم ومخالفة رسله ، فكان ذلك سبب هلاكهم قال : ﴿ فأخذهم الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال أخذ غلبة وقهر وسطوة ، ولما لم يتقدم شيء يسند إليه أخذهم ، قال مبيناً ما أخذوا به : ﴿ بذنوبهم ﴾ أي التي سببت لهم الأخذ ولم يغن عنهم شيء من ذلك الذي أبطرهم حتى عتوا به على ربهم ولا شفع فيهم شافع ﴿ وما كان لهم ﴾ أي من شركائهم الذين ضلوا بهم كهؤلاء ومن غيرهم ﴿ من الله ﴾ أي عوض المتصف بجميع صفات الكمال ، أو كوناً مبتدئاً من جهة عظمته وجلاله ، وأكد النفي بزيادة الجار فقال : ﴿ من واق ﴾ أي يقيهم مراده سبحانه فيهم ، لا من شركائهم ولا من غيرهم ، فعلم أن الذين من دونه لا يقضون بشيء ، ويجوز أن تكون " من " الأولى ابتدائية على بابها تنبيهاً على أن الأخذ في غاية العنف لأنه إذا لم يبتدئ من جهته سبحانه لهم وقاية لم تكن لهم باقية بخلاف من عاقبه الله عقوبة تأديب ، فإن عذابه يكون سبب بقائه لما يحصل له منه سبحانه من الوقاية .

(6/675)

ولما ذكر سبحانه أخذهم ذكر سببه بما حاصله أن الاستهانة بالرسول استهانة بمن أرسله في قوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأخذ العظيم ولما كان مقصود السورة تصنيف الناس في الآخرة صنفين ، فكانوا إحدى عمدتي الكلام ، أتى بضميرهم فقال : ﴿ بأنهم ﴾ أي الذين كانوا من قبل ﴿ كانت تأتيهم ﴾ أي شيئاً فشيئاً في الزمان الماضي على وجه قضاه سبحانه فأنفذه ﴿ رسلهم ﴾ أي الذين هم منهم ﴿ بالبينات ﴾ أي الآيات الدالة على صدقهم دلالة هي من وضوح الأمر بحيث لا يسع منصفاً إنكارها .

ولما كان مطلق الكفر كافياً في العذاب ، عبر بالماضي فقال : ﴿ فكفروا ﴾ أي سببوا عن إتيان الرسل عليهم الصلاة والسلام الكفر موضع ما كان إتيانهم سبباً له من الإيمان .

ولما سبب لهم كفرهم الهلاك قال : ﴿ فأخذهم ﴾ أي أخذ غضب ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعظم .

ولما كان قوله ﴿ فكفروا ﴾ معلماً بسبب أخذهم لم يقل : بكفرهم ، كما قال سابقاً : بذنوبهم ، لإرشاد السباق إليه .

ولما كان اجتراؤهم على العظائم فعل منكر للقدرة ، قال مؤكداً لعملهم عمل من لا يخافه : ﴿ إنه قوي ﴾ لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء ﴿ شديد العقاب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 503.504 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى لما بالغ في تخويف الكفار بعذاب الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ والمعنى أن العاقل من اعتبر بغيره ، فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار ، وأقوى آثاراً في الأرض منهم ، والمراد حصونهم وقصورهم وعساكرهم ، فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله بضروب الهلاك معجلاً حتى إن هؤلاء الحاضرين من الكفار يشاهدون تلك الآثار ، فحذرهم الله تعالى من مثل ذلك بهذا القول ، وبين بقوله ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ ﴾ أنه لما نزل العذاب بهم عند أخذه تعالى لهم لم يجدوا من يعينهم ويخلصهم ، ثم بين أن ذلك نزل بهم لأجل أنهم كفروا وكذبوا الرسل ، فحذر قوم الرسول من مثله ، وختم الكلام ب ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العقاب ﴾ مبالغة في التحذير والتخويف ، والله أعلم .

وقرأ ابن عامر وحده ﴿ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنكُمْ ﴾ بالكاف ، والباقون بالهاء أما وجه قراءة ابن عامر فهو انصراف من الغيبة إلى الخطاب ، كقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بعد قوله ﴿ الحمد لله ﴾ والوجه في حسن هذا الخطاب أنه في شأن أهل مكة ، فجعل الخطاب

على لفظ المخاطب الحاضر لحضورهم ، وهذه الآية في المعنى كقوله ﴿ مكناهم فِى الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ [الأنعام : 6] وأما قراءة الباقين على لفظ الغيبة فلأجل موافقة ما قبله من ألفاظ الغيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 47 ﴾

(8/675)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ ﴾

في موضع جزم عطف على "يَسِيرُوا" ويجوز أن يكون في موضع نصب على أنه جواب ؛ والجزم والنصب في التثنية والجمع واحد .

﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ﴾ اسم كان والخبر في "كَيْفَ" .

و ﴿ واقٍ ﴾ في موضع خفض معطوف على اللفظ .

ويجوز أن يكون في موضع رفع على الموضع فرفعه وخفضه واحد ؛ لأن الياء تحذف وتبقى الكسرة دالة عليها وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في غير موضع فأغنى عن الإعادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(9/675)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (14) ﴾

الأمر بقوله : ﴿ فادعوا الله ﴾ للمنيبين المؤمنين أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أي اعبدوه ، ﴿ مخلصين له الدّين ﴾ من الشرك على كل حال ، حتى في حال غيظ أعدائكم المتمالئين عليكم وعلى استئصالكم .

ورفيع : خبر مبتدأ محذوف .

وقال الزمخشري : ثلاثة أخبار مترتبة على قوله : ﴿ الذي يريكم ﴾ أو أخبار مبتدأ محذوف ، وهي مختلفة تعريفاً وتنكيراً . انتهى .

أما ترتبها على قوله : ﴿ هو الذي يريكم ﴾ ، فبعيد كطول الفصل ، وأما كونها أخباراً مبتدأ محذوف ، فمبني على جواز تعدد الأخبار ، إذا لم تكن في معنى خبر واحد ، والمنع اختيار أصحابنا .

وقرىء : رفيع بالنصب على المدح ، واحتمل أن يكون رفيع للمبالغة على فعيل من رافع ، فيكون الدرجات مفعول ، أي رافع درجات المؤمنين ومنازلهم في الجنة .

وبه فسرا بن سلام ، أو عبر بالدرجات عن السموات ، أرفعها سماء ، والعرش فوقهنّ .

وبه فسر ابن جبير ، واحتمل أن يكون رفيع فعيلاً من رفع الشيء علا فهو رفيع ، فيكون من

باب الصفة المشبهة ، والدرجات : المصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش ، أضيفت إليه دلالة على عزه وسلطانه ، أي درجات ملائكته ، كما وصفه بقوله : ﴿ ذي المعارج ﴾ أو يكون ذلك عبارة عن رفعه شأنه وعلو سلطانه .

كما أن قوله : ﴿ ذو العرش ﴾ عبارة عن ملكه ، وبنحوه فسر ابن زيد قال : عظيم الصفات .

و﴿ الروح ﴾ : النبوة ، قاله قتادة والسدي ، كما قال : ﴿ روحاً من أمرنا ﴾ وعن قتادة أيضاً : الوحي .

وقال ابن عباس : القرآن ، وقال الضحاك : جبريل يرسله لمن يشاء .

(10/675)

وقيل : الرحمة ، وقيل : أرواح العباد ، وهذان القولان ضعيفان ، والأولى الوحي ، استعير له الروح لحياة الأديان المرضية به ، كما قال : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ﴾ وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون القاء الروح عامل لكل ما ينعم الله به على عباده المهتدين في تفهيم الإيمان والمعقولات الشريفة . انتهى .

وقال الزجاج : الروح : كل ما به حياة الناس ، وكل مهتد حي ، وكل ضال ميت . انتهى .

وقال ابن عباس : ﴿ من أمره ﴾ : من قضائه .

وقال مقاتل : بأمره ، وحكى الشعبي من قوله ، ويظهر أن من لابتداء الغاية .

وقرأ الجمهور : ﴿ لينذر ﴾ مبنياً للفاعل ، ﴿ يوم ﴾ بالنصب ، والظاهر أن الفاعل يعود على الله ، لأنه هو المحدث عنه .

واحتمل يوم أن يكون مفعولاً على السعة ، وأن يكون ظرفاً ، والمنذر به محذوف .

وقرأ أبيّ وجماعة : كذلك إلا أنهم رفعوا يوم على الفاعلية مجازاً .

وقيل : الفاعل في القراءة الأولى ضمير الروح .

وقيل : ضمير من .

وقرأ اليماني فيما ذكر صاحب اللوامح : لينذر مبنياً للمفعول ، يوم التلاق ، برفع الميم .

وقرأ الحسن واليماني فيما ذكر ابن خالويه : لتنذر بالتاء ، فقالوا : الفاعل ضمير الروح ، لأنها تؤنث ، أو فيه ضمير الخطاب الموصول .

وقرىء : التلاق والتناد ، بياء وبغير ياء ، وسمي يوم التلاق لالتقاء الخلائق فيه ، قاله ابن عباس .

وقال قتادة ومقاتل : يلتقي فيه الخالق والمخلوق .

وقال ميمون بن مهران : يلتقي فيه الظالم والمظلوم .

وحكى الثعلبي : يلتقي المرء بعلمه .

وقال السدّي : يلاقي أهل السماء أهل الأرض .

وقيل : يلتقى العابدون ومعبودهم .

﴿ يوم هم بارزون ﴾ : أي ظاهرون من قبورهم ، لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء ، لأن الأرض إذ ذاك قاع صفصف ، ولا من ثياب ، لأنهم يحشرون حفاة عراة .

ويوماً بدل من يوم التلاق ، وكلاهما ظرف مستقبل .

(11/675)

والظرف المستقبل عند سيبويه لا يجوز إضافته إلى الجملة الإسمية ، لا يجوز : أجيئك يوم زيد ذاهب ، أجراء له مجرى إذا ، فكما لا يجوز أن تقول : أجيئك إذا زيد ذاهب ، فكذلك لا يجوز هذا .

وذهب أبو الحسن إلى جواز ذلك ، فيتخرج قوله : ﴿ يوم هم بارزون ﴾ على هذا المذهب .

وقد أجاز ذلك بعض أصحابنا على قلة ، والدلائل مذكورة في علم النحو .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون انتصابه على الظرف ، والعامل فيه قوله : ﴿ لا يخفى ﴾ ، وهي حركة إعراب لا حركة بناء ، لأن الظرف لا يبنى إلا إذا أضيف إلى غير متمكن

، كيومئذ .

وقال الشاعر :

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . .

_@_ وكقوله تعالى : ﴿ هذا يوم ينفع ﴾ وأما في هذه الآية فالجملة اسم متمكن ، كما تقول : جئت يوم زيد أمير ، فلا يجوز البناء . انتهى .

يعني أن ينتصب على الظرف قوله : ﴿ يوم هم بارزون ﴾ .

وأما قوله لا يبنى إلا إذا أضيف إلى غير متمكن ، فالبناء ليس متحتماً ، بل يجوز فيه البناء والإعراب .

وأما تمثيله بيوم ينفع ، فمذهب البصريين أنه لا يجوز فيه إلا الإعراب ، ومذهب الكوفيين جواز البناء والإعراب فيه .

وأما إذا أضيف إلى جملة إسمية ، كما مثل من قوله : جئت يوم زيد أمير ، فالنقل عن البصريين تحتم الإعراب ، كما ذكر ، والنقل عن الكوفيين جواز الإعراب والبناء .

وذهب إليه بعض أصحابنا ، وهو الصحيح لكثرة شواهد البناء على ذلك .

ووقع في بعض تصانيف أصحابنا أنه يتحتم فيه البناء ، وهذا قول لم يذهب إليه أحد ، فهو وهم .

﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ : أي من سرائرهم وبواطنهم .

قال ابن عباس : إذا هلك من في السموات ومن في الأرض ، فلم يبق إلا الله قال : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ، فلا يجيبه أحد ، فيرد على نفسه : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ .

(12/675)

وقال ابن مسعود : يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد بأرض بيضاء ، كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط ، فأول ما يتكلم به أن ينادي مناد : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ؟ فيجيبوا كلهم : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ .

روي أنه تعالى يقرر هذا التقرير ويسكت العالم هيبة وجزعاً ، فيجيب نفسه بقوله : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ ، فيجيب الناس ، وإنما خص التقرير باليوم ، وإن كان الملك له تعالى في ذلك اليوم وفي غيره ، لظهور ذلك للكفرة والجهلة ووضوحه يوم القيامة .

وإذا تأمّل من له مسكة عقل تسخير أهل السموات الأرض ، ونفوذ القضاء فيهم ، وتيقن أن لا ملك إلا لله ، ومن نتائج ملكه في ذلك اليوم جزاء كل نفس بما كسبت ، وانتفاء الظلم ، وسرعة الحساب ، إن حسابهم في وقت واحد لا يشغله حساب عن حساب .

قال ابن عطية : وهذه الآية نص في أن الثواب والعقاب معلق باكتساب العبد .

انتهى ، وهو على طريقة الأشعرية .

وروى أن يوم القيامة لا ينتصف حتى يقيل المؤمنون في الجنة والكافرون في النار .

و ﴿ يوم الآزفة ﴾ : هو يوم القيامة ، يأمر تعالى نبيه أن ينذر العالم ويحذرهم منه ومن أهواله ، قاله مجاهد وابن زيد .

والآزفة صفة لمحذوف تقديره يوم الساعة الآزفة ، أو الطامة الآزفة ونحو هذا .

ولما اعتقب كل إنذار نوعاً من الشدة والخوف وغيرهما ، حسن التكرار في الآزفة القريبة ، كما تقدم ، وهي مشارفتهم دخول النار ، فإنه إذ ذاك تزيغ القلوب عن مقارها من شدة الخوف .

(13/675)

وقال أبو مسلم : يوم الآزفة : يوم المنية وحضور الأجل ، يدل عليه أنه يعدل وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق ، ويوم بروزهم ، فوجب أن يكون هذا اليوم غيره ، وهذه الصفة مخصوصة في سائر الآيات ، يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب ، وأيضاً فالصفات المذكورة بعد قوله : ﴿ يوم الآزفة ﴾ ، لائقة بيوم حضور المنية ، لأن الرجل عند معاينة ملائكة العذاب لعظم خوفه ، يكاد قلبه يبلغ حنجرته من شدّة الخوف ، ولا يكون له حميم ولا شفيع يرفع عنه ما به من أنواع الخوف .

﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ ، قيل : يجوز أن يكون ذلك يوم القيامة حقيقة ، ويبقون أحياء مع ذلك بخلاف حالة الدنيا ، فإن من انتقل قلبه إلى حنجرته مات ، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن ما يبلغون إليه من شدة الجزع ، كما تقول : كادت نفسي أن تخرج ، وانتصب كاظمين على الحال .

قال الزمخشري : هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى ، إذا المعنى : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها ، ويجوز أن تكون حالاً عن القلوب ، وأن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها ، مع بلوغها الحناجر .

وإنما جمع الكاظم جمع السلامة ، لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ، كما قال : ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ وقال : فظلت أعناقهم لها خاضعين ، ويعضده قراءة من قرأ : كاظمون ، ويجوز أن يكون حالاً عن قوله : أي وانذرهم مقدرين .

وقال ابن عطية : كاظمين حال ، مما أبدل منه قوله تعالى : ﴿ تشخص فيه الأبصار مهطعين ﴾ أراد تشخص فيه أبصارهم ، وقال الحوفي : القلوب رفع بالإبتداء ، ولدى الحناجر الخبر متعلق بمعنى الاستقرار .

وقال أبو البقاء : كاظمين حال من القلوب ، لأن المراد أصحابها . انتهى .

(14/675)

﴿ ما للظالمين من حميم ﴾ : أي محب مشفق ، ولا شفيع يطاع في موضع الصفة لشفيع ، فاحتمل أن يكون في موضع خفض على اللفظ ، وفي موضع رفع على الموضع واحتمل أن ينسحب النفي على الوصف فقط ، فيكون من شفيع ، ولكنه لا يطاع ، أي لا تقبل شفاعته ، واحتمل أن ينسحب النفي على الموصوف وصفته : أي لا شفيع فيطاع ، وهذا هو المقصود في الآية أن الشفيع عند الله إنما يكون من أوليائه تعالى ، ولا تكون الشفاعة إلا لمن ارتضاه الله وأيضاً فيكون في زيادة التفضل والثواب ولا يمكن شيء من هذا في حق الكافر .

وعن الحسن : والله لا يكون لهم شفيع البتة ، ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ ، كقوله :

وإن سقيت كرام الناس فاسقينا . . .

_@_أي الناس الكرام ، وجوزوا أن تكون خائنة مصدراً ، كالعافية والعاقبة ، أي يعلم خيانة الأعين .

ولما كانت الأفعال التي يقصد بها التكتم بدنية ، فأخفاها خائنة الأعين من كسر جفن وغمز ونظر يفهم معنى ويريد صاحب معنى آخر وقلب ، وهو ما تحتوي عليه الضمائر ، قسم ما ينكتم به إلى هذين القسمين ، وذكر أن علمه متعلق بهما التعلق التام .

وقال الزمخشري : ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين ، لأن قوله : ﴿ وما تخفي الصدور

﴾ لا يساعد عليه .

انتهى ، يعني أنه لا يناسب أن يكون مقابل المعنى إلا المعنى ، وتقدم أن الظاهر أن يكون التقدير الأعين الخائنة ، والظاهر أن قوله : ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ الآية متصل بما قبله ، لما أمر بإنكاره يوم الآزفة ، وما يعرض فيه من شدة الكرب والغم ، وأن الظالم لا يجد من يحميه من ذلك ، ولا من يشفع له .

ذكر اطلاعه تعالى على جميع ما يصدر من العبد ، وأنه مجازي بما عمل ، ليكون على حذر من ذلك اليوم إذا علم أن الله مطلع على أعماله .

وقال ابن عطية : ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ متصل بقوله : ﴿ سريع الحساب ﴾ ، لأن سرعة حسابه للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكر ، ولا لشيء مما يحتاجه المحاسبون .

(15/675)

وقالت فرقة : يعلم متصل بقوله : ﴿ لا يخفي على الله منهم شيء ﴾ ، وهذا قول حسن ، يقويه تناسب المعنيين ، ويضعفه بعد الآية من الآية وكثرة الحائل . انتهى .

وقال الزمخشري : فإن قلت : فإن قلت : بم اتصل قوله : ﴿ يعلم خائنة الاعين ﴾ ؟ قلت

: هو خبر من أخبار هو في قوله : ﴿ هو الذي يريكم البرق ﴾ مثل : ﴿ يلقي الروح ﴾ ، ولكن من يلقي الروح قد علل بقوله : ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ ، ثم أسقط وتذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله : ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ ، فبعد لذلك عن إخوانه . انتهى .

وفي بعض الكتب المنزلة ، انا مرصاد الهمم ، انا العالم بحال الفكر وكسر العيون .

وقال مجاهد : خائنة الأعين : مسارقة النظر إلى ما لا يجوز ؛ ومثل المفسرون خائنة الأعين بالنظر الثاني إلى حرمة غير الناظر ، وما تخفي الصدور بالنظر الأول الذي لا يمكن رفعه .

﴿ والله يقضي بالحق ﴾ : هذا يوجب عظيم الخوف ، لأن الحاكم إذا كان عالماً بجميع الأحوال لا يقضي إلا بالحق في ما دق وجل خافه الخلق غاية .

﴿ والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ﴾ : هذا قدح في أصنامهم وتهكم بهم ، لأن ما لا يوصف بالقدرة ، لا يقال فيه يقضي ولا يقضى .

وقرأ الجمهور : ﴿ يدعون ﴾ بياء الغيبة لتناسب الضمائر الغائبة قبل .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، ونافع : بخلاف عنه ؛ وهشام : تدعون بتاء الخطاب ، أي قل لهم يا محمد .

﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ : تقرير لقوله : ﴿ يعلم خائننة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ ، وعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعلمون وتعريض بأصنامهم أنها لا تسمع ولا تبصر .

﴿ أوَلَم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ : أحال قريشاً على الاعتبار بالسير ، وجاز أن يكون فينظروا مجزوماً عطفاً على يسيروا وأن يكون منصوباً على جواب النفي ، كما قال :

ألم تسأل فتخبرك الرسوم . . .

(16/675)

وتقدم الكلام على مثل هذه الجملة ، وحمل الزمخشري هم على أن يكون فصلاً ولا يتعين ، إذ يجوز أن يكون هم توكيداً لضمير كانوا .

وقرأ الجمهور : منهم بضمير الغيبة ؛ وابن عامر : منكم بضمير الخطاب على سبيل الالتفات .

﴿ وآثاراً في الأرض ﴾ : معطوف على قوة ، أي مبانيهم وحصونهم وعددهم كانت في غاية الشدة .

﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً ﴾ وقال الزمخشري : أو أرادوا أكثر آثاراً لقوله :

متقلداً سيفاً ورمحاً . . .

انتهى .

أي : ومعتقلاً رمحاً ، ولا حاجة إلى ادعاء الحذف مع صحة المعنى بدونه .

﴿ من واق ﴾ : أي وما كان لهم من عذاب الله من ساتر يمنعهم منعه .

﴿ ذلك ﴾ : أي الأخذ ، وتقدم تفسير نظير ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(17/675)

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

أي مآل حال الذين كذبوا الرسل عليهم السلام قبلهم كعاد .

وثمود ، و ﴿ يَنظُرُواْ ﴾ مجزوم على أنه معطوف على ﴿ يَسِيرُواْ ﴾ ، وجوز أبو حيان كونه منصوباً في جواب النفي كما في قوله :

﴿ الم تَسْئَلُ ﴾ وتعقب بأنه لا يصح تقديره بأن لم يسيروا ينظروا .

وأجيب بأن الاستفهام إنكاري وهو في معنى النفي فيكون جواب نفي النفي ﴿ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ قدرة وتمكناً من التصرفات ، والضمير المنفصل تأكيد للمضير المتصل قبله ، وجوز كونه ضمير فصل ولا يتعين وقوعه بين معرفتين فقد أجاز الجرجاني

وقوع المضارع بعده كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : 13] نعم الأصل الأكثر فيه ذلك ، على أن أفعل التفضيل الواقع بعده من الداخلة على المفضل عليه مضارع للمعرفة لفظاً في عدم دخول أل عليه ومعنى لأن المراد به الأفضل باعتبار أفضلية معينة .

وجملة ﴿ كَانُواْ ﴾ الخ مستأنفة في جواب كيف صارت أمورهم .

وقرأ ابن عامر ﴿ مّنكُمْ ﴾ بضمير الخطاب على الالتفات .

﴿ وَءاثَاراً فِى الأرض ﴾ عطف على قوة أي وأشد آثاراً في الأرض مثل القلاع المحكمة والمدائن الحصينة ، وقد حكى الله تعالى عن قوم منهم أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً .

(18/675)

وجوز كونه عطفاً على ﴿ أَشَدَّ ﴾ بتقدير محذوف أي وأكثر آثاراً فتشمل الآثار القوية وغيرها ، وهو ارتكاب خلاف المتبادر من غير حاجة يعتد بها ، وقيل : المراد بهذه الآثار آثار أقدامهم في الأرض لعظم أجرامهم وليس بشيء أصلاً ﴿ فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مّنَ الله مِن وَاقٍ ﴾ أي وليس لهم واق من الله تعالى يقيهم ويمنع عنهم عذابه تعالى أبداً ، فكان للاستمرار والمراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار ، ومن الثانية زائدة ومن

الأولى متعلقة بواق ، وقدم الجار والمجرور للاهتمام والفاصلة لأن اسم الله تعالى قيل : لم يقع مقطعاً للفواصل .

وجوز أن تكون من الأولى للبدلية أي ما كان لهم بدلاً من المتصف بصفات الكمال واق وأريد بذلك شركاؤهم ، وأن تكون ابتدائية تنبيهاً على أن الأخذ في غاية العنف لأنه إذا لم يبتدىء من جهته سبحانه واقية لم يكن لهم باقية .

﴿ ذلك ﴾ الأخذ ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالمعجزات والأحكام الواضحة ﴿ فَكَفَرُواْ ﴾ ريثما أتتهم رسلهم بذلك ﴿ فَأَخَذَهُمُ الله إِنَّهُ قَوِىٌّ ﴾ متمكن مما يريده عز وجل غاية التمكن ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ لا يعتد بعقاب عند عقابه سبحانه ، وهذا بيان للإجمال في قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [غافر : 21] إن كانت الباء هناك سببية وبيان لسبب الأخذ إن كانت للملابسة أي أخذهم ملابسين لذنوبهم غير تائبين عنها فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(19/675)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

انتقال من إنذارهم بعذاب الآخرة على كفرهم إلى موعظتهم وتحذيرهم من أن يحل بهم عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة كما حلّ بأمم أمثالهم .

فالواو عاطفة جملة ﴿ ألم يسيروا في الأرض ﴾ على جملة ﴿ وأنذرهم يوم الأزِفَة ﴾ [غافر : 18] الخ .

والاستفهام تقريري على ما هو الشائع في مثله من الاستفهام الداخل على نفي في الماضي بحرف (لَم) ، والتقرير موجه للذين ساروا من قريش ونظروا آثار الأمم الذين أبادهم الله جزاء تكذيبهم رسلهم ، فهم شاهدوا ذلك في رحلتيهم رحلةِ الشتاء ورحلة الصيف وإنهم حدثوا بما شاهدوه مَن تضمهم نواديهم ومجالسهم فقد صار معلوماً للجميع ، فبهذا الاعتبار أسند الفعل المقرر به إلى ضمير الجمع على الجملة .

والمضارع الواقع بعد (لَم) والمضارعُ الواقع في جوابه منقلبان إلى المضي بواسطة (لم) .

وتقدم شبيه هذه الآية في آخر سورة فاطر وفي سورة الروم .

والضمير المنفصل في قوله : ﴿ كانُوا هُم ﴾ ضمير فصل عائد إلى ﴿ الظالمين ﴾ [غافر : 18] وهم كفار قريش الذين أريدوا بقوله : ﴿ وأنذرهم ﴾ [غافر : 18] ، وضمير الفصل لمجرد توكيد الحكم وتقويته وليس مراداً به قصر المسند على المسند إليه ، أي قصر

الأشدّية على ضمير : كانوا ﴾ إذ ليس للقصر معنى هنا كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ إنني أنا الله ﴾ في سورة [طه : 14] وهذا ضابط التفرقة بين ضمير الفصل الذي يفيد القصر وبين الذي يفيد مجرد التأكيد .

واقتصار القزويني في "تلخيص المفتاح" على إفادة ضمير الفصل الاختصاص تقصير تبع فيه كلام "المفتاح" وقد نبه عليه سعد الدين في "شرحه على التلخيص" .

(20/675)

والمراد بالقوة القوةُ المعنوية وهي كثرة الأمة ووفرةُ وسائل الاستغناء عن الغير كما قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا مَن أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ [فصلت : 15]

وجملة ﴿ كانوا هم أشد منهم قوّة ﴾ الخ مستأنفة استئنافاً بيانياً لتفصيل الإجمال الذي في قوله : ﴿ كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ لأن العبرة بالتفريع بعدها بقوله : ﴿ فأخَذَهم الله بذنوبهم ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ منهم ﴾ بضمير الغائب ، وقرأه ابن عامر ﴿ منكم بضمير خطاب الجماعة وكذلك رسمت في مصحف الشام ، وهذه الرواية جارية على طريقة الالتفات .

والآثار : جمع أثر ، وهو شيء أو شكل يرسمه فعل شيء آخر ، مثل أُثر الماشي في الرمْل قال تعالى : ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ [طه : 96] ومثل العشب أثر المطر في قوله تعالى : ﴿ فانظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ﴾ [الروم : 50] ، ويستعار الأثر لما يقع بعد شيء كقوله تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ﴾ [الكهف : 6] .

والمراد بالأرض : أرض أمتهم .

والفاء في ﴿ فأخَذَهُم الله ﴾ لتفريع الأخذ على كونهم أشدَّ قوة من قريش لأن القوة أريد بها هنا الكناية عن الإِباء من الحق والنفور من الدعوة ، فالتقدير : فأعرضوا ، أو فكفروا فأخذهم الله .

والآخذ : الاستئصال والإِهلاك كنّي عن العقاب بالأخذ ، أو استعمل الأخذ مجازاً في العقاب .

والذنوب : جمع ذنب وهو المعصية ، والمراد بها الإِشراك وتكذيب الرسل ، وذلك يستتبع ذنوباً جمة ، وسيأتي تفسيرها بقوله : ﴿ ذلك بأَنَّهم كانت تأتِيهم رُسُلُهم بالبينات ﴾ .

ومعنى : ﴿ وما كانَ لهُم مِنَ الله من وَاق ﴾ ما كان لهم من عقابه وقدرته عليهم ، فالواقي : هو المدافع الناصر .

و ﴿ مِن الأولى متعلقة بواقٍ ، ﴾ وقدم الجار والمجرور للاهتمام بالمجرور ، و ﴿ من ﴾ الثانية زائدة لتأكيد النفي بحرف (ما) وذلك إشارة إلى المذكور وهو أخذ الله إياهم بذنوبهم .

والباء للسببية ، أي ذلك الأخذ بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا بهم ، وفي هذا تفصيل للإجمال الذي في قوله : ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ .

والجملة بعد (أنَّ) المفتوحة في تأويل مصدر .

فالتقدير : ذلك بسبب تحقق مجيء الرسل إليهم فكفرهم بهم .

وأفاد المضارع في قوله : ﴿ تأتيهم ﴾ تجدد الإتيان مرة بعد مرة لمجموع تلك الأمم ، أي يأتي لكل أمة منهم رسول ، فجمع الضمير في ﴿ تأتيهم ﴾ و ﴿ رسلهم ﴾ وجمع الرسل في قوله : ﴿ رسلهم ﴾ من مقابلة الجمع بالجمع ، فالمعنى : أن كل أمة منهم أتاها رسول .

ولم يؤت بالمضارع في قوله : ﴿ فكفروا ﴾ لأن كفر أولئك الأمم واحد وهو الإِشراك وتكذيب الرسل .

وكرر قوله : ﴿ فأخَذَهُمُ الله ﴾ بعد أن تقدم نظيره في قوله : ﴿ فأخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِم ﴾ الخ إطناباً لتقرير أخذ الله إياهم بكفرهم برسلهم ، وتهويلاً على المنذَرين بهم أن يُساوُوهم في عاقبتهم كما سَاوَوْهم في أسبابها .

وجملة : ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ تعليل وتبيين لأخذ الله إياهم وكيفيته وسرعة أخذه المستفادة من فاء التعقيب ، فالقويّ لا يعجزه شيء فلا يعطل مراده ولا يتريث ، و ﴿ شديد العقاب ﴾ بيان لذلك الأخذ على حد قوله تعالى : ﴿ فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ [القمر : 42] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(22/675)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

أولم يسروا في أقطار الأرض بنفوسهم ، ويطوفوا مشارقها ومغاربها ليعتبروا بها فيزهدوا فيها ؟ أولم يسيروا بقلوبهم في الملكوت بجولان الفكر ليشهدوا أنوارَ التجلّي فيستبصروا بها ؟ أولم يسيروا بأسرارهم في ساحات الصمدية ليستهلكوا في سلطان الحقائق ، وليتخلَّصُوا من جميع المخلوقات قاصيها ودانيها ؟

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ

(22)

إن بغى من أهل السلوك قاصدٌ لم يصل إلى مقصوده فَلْيَعْلَمْ أنَّ مُوجِبَ حَجْبِه اعتراضٌ خَامَرَ قلبَه على بعض شيوخه في بعض أوقاته ؛ فإنَّ الشيوخَ بمحلِّ السفراء للمريدين . وفي الخبر : " الشيخُ في قومه كالنبيِّ في أمته " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 304.303 ﴾

---

(1) يقول السهروردي في عوارفه : «وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول اللّه (صلى الله عليه وسلم) وهم أحق الناس بإحياء سنته في كل ما أمر وندب وأنكر وأوجب (ص 293) عوارف المعارف ، وفي موضع آخر يقول : «فليعلم المريد أن الشيخ عنده تذكرة من اللّه ورسوله وأن الذي يعتمده مع الشيخ عوض ما لو كان في زمن رسول اللّه عليه الصلاة والسلام . ص 285 .

(23/675)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) ﴾

التفسير : ﴿ حم ﴾ اسم الله الأعظم . وقيل : ﴿ حم ﴾ ما هو كائن أي قدّر . وروي

أن أعرابياً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما حم ؟ فقال : أسماء وفواتح سور . وقد تقدم القول في حواميم في مقدمات الكتاب وفي أول " البقرة " . ومن جملة تلك التقادير أن يقال : السورة المسماة بحم . ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ وقد مر نظيره في أول " الزمر " . ثم وصف نفسه بما يجمع الوعد والوعيد فقال ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول ﴾ قالت المعتزلة : معناه أنه غافر الذنب إذا استحق غفرانه إما بالتوبة إن كان كبيراً ، أو طاعة أعظم منه ثواباً إن كان صغيراً . وقال الأشعري : إنه قد يعفو عن الكبائر بدون التوبة لئلا يلزم التكرار بقوله ﴿ قابل التوب ﴾ وليفيد المدح المطلق ويؤيده إدخال الواو بين هذين الوصفين فقط كأنه قيل : الجامع بين المغفرة إن كانت بدون توبة وبين القبول إن كانت بتوبة فقد جمع للمذنب بين رحمتين بحسب الحالتين . وقيل : غافر الذنب الصغير وقابل التوب عن الكبير ، أو غافر الذنب بإسقاط العقاب وقابل التوب بإيجاب الثواب .

(24/675)

ثم إن قبول التوبة واجب على الله أم لا ؟ فيه بحث أيضاً للفريقين . فالمعتزلة أوجبوه ، والأشعري يقول : إنه على سبيل التفضيل وإلا لم يتمدّح به . والظاهر أن التوب مصدر .

وقيل : جمع توبة أي ما ذنب تاب منه العبد إلا قبل توبته . وقد ذكر أهل الإعراب ههنا سؤالاً وهو أن غافر الذنب وقابل التوب يمكن بوجيههما بأنهما معرفتان كما سبق في ﴿ مالك يوم الدين ﴾ [الفاتحة : 3] وهو أنهما بمعنى الماضي أو الاستمرار فيصح وقوعهما صفتين لله إلا أن قوله ﴿ شديد العقاب ﴾ لا يمكن فيه هذا الوجه لأنه في معنى شديد عقابه . فإن قلنا إنه صفة لزم وقوع النكرة صفة للمعرفة ، وإن قلنا إنه بدل لزم نبوّ ظاهر للزوم بدل واحد فيما بين صفات كثيرة . وأجيب على تقدير أن لا يكون الكل أبدالاً بأن الألف واللام من شديد محذوف لمناسبة ما قبله مع الأمن من اللبس ومن جهالة الموصوف ، أو تعمد تنكيره من بين الصفات للإبهام والدلالة على فرط الشدة . وجوزوا أن تكون هذه النكتة سبباً لجعله بدلاً من بين سائر أخواته . وهذا ما قاله صاحب الكشاف . وعندي أنه لا مانع من جعل ﴿ شديد العقاب ﴾ أيضاً للاستمرار والدوام حتى يصير إضافة حقيقية . قوله ﴿ ذي الطول ﴾ أي ذي الفضل بسبب ترك العقاب وقد مر في قوله ﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً ﴾ [النساء : 25] وإنما أورد هذا الوصف بعد وصفه نفسه بشدة العقاب ليعلم أن خاتمة أمره مبنية على التفضل كما أن فاتحته مبنية على الغفران وقبول التوبة وقد تقع عقوبة في الوسط أعاذنا الله منها ، إلا أنه لا يبقى مؤمن في النار خالداً ببركة قوله لا إله إلا الله وهو المبدأ وسبب علمه أنه إليه المصير وهو المعاد . وفيه أن من آمن بالمبدأ والمعاد فإن أخل في الوسط ببعض التكاليف كان مرجواً أن يغفر الله له ويقبل توبته .

ثم بين أحوال من لا يقبل هذه التقريرات ولا يخضع لها فقال ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ والجدال في آياته نسبتها إلى الشعر تارة وإلى

(25/675)

السحر أخرى إلى غير ذلك من المطاعن وفضول الكلام . فأما البحث عنها لاستنباط حقائقها والوقوف على دقائقها وحل مشكلاتها فنوع من الجهاد في سبيل الله ، ولمكان الفرق بين هذين الجدالين قال صلى الله عليه وسلم " إن جدالاً في القرآن كفر " فنكر الجدال ليشمل أحد نوعيه فقط وهو الجدال بالباطل كما يجيء في قوله ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ ثم عقب الكلام بقوله ﴿ فلا يغررك ﴾ ليعلم أن جدالهم الصادر عن البطر والأشر والجاه والخدم لا اعتبار به وكذا ﴿ تقلبهم في البلاد ﴾ للتجارات والمكاسب فإن قريشاً كانت أصحاب أموال متجرين إلى الشام واليمن مترفين بأموالهم مستكبرين عن قبول الحق لذلك .

ثم مثل حالهم بحال الأمم السالفة الذين تحزبوا على الرسل وكادوا يقتلونهم فأهلكهم الله ودمرهم ونجى الرسل . ثم بين بقوله ﴿ وكذلك حقت ﴾ أنهم في الآخرة أيضاً معذبون . وقوله ﴿ أنهم أصحاب النار ﴾ بدل من ﴿ كلمة ربك ﴾ أي مثل ذلك الوجوب وجب

على الكفرة كونهم في الآخرة من أصحاب النار . وجوّز جار الله أن يكون ﴿ أنهم ﴾ في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل . وقوله ﴿ الذين كفروا ﴾ قريش أي كما وجب إهلاك أولئك الأمم كذلك وجب إهلاك هؤلاء لأن العلة الجامعة وهي أنهم أصحاب النار واحدة في الفريقين . ومن قرأ ﴿ كلمات ﴾ على الجمع أراد بها علم الله السابق أو معلوماته التي لا نهاية لها ، أو الآيات الواردة في وعيد الكفار .

(26/675)

وحين بين أن الكفار بالغوا في إظهار عداوة المؤمنين حكى أن أشرف طبقات أكثر المخلوقات وهم حملة العرش ، والحافون حوله يبالغون في محبتهم ونصرتهم كأنه قيل : إن كان هؤلاء الأراذل يعادونهم فلا تبال بهم ولا تقم لهم وزناً فإن الأشراف يحابونهم . روى صاحب الكشاف أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يعرفون طرفهم . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم " لا تتفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق من الملائكة فإن خلقاً من الملائكة يقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه في الأرض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وإنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع وهو طائر صغير شبه العصفور

" وروي أن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة . وقيل : خلق الله العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام ، وعدد حملة العرش يوم القيامة ثمانية لقوله عز وجل ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ [الحاقّة : 17] أما في غير ذلك الوقت فلا يعلم به إلا الله . أما الذين حول العرش فقيل : سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر . وهذه الآثار كلها منقولة من كتاب الكشاف . سؤال : ما فائدة قوله ﴿ ويؤمنون به ﴾ ولا يخفى أن حملة العرش ومن حوله مؤمنون ؟ أجاب في الكشاف بأن فائدته التنبيه على شرف الإيمان والترغيب فيه . وأيضاً فيه تكذيب المجسمة فإن الأمر لو كان على زعمهم لكانت الملائكة يشاهدونه فلا يوصفون بالإيمان به لأنه لا يوصف بالإيمان إلا الغائب ، فعلم أن إيمانهم كإيمان أهل الأرض والكل سواء في أن

(27/675)

إيمانهم بطريق النظر والاستدلال .

(28/675)

واستحسن هذا الكلام الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير حتى ترحم عليه وقال : لو لم يكن في كتابه إلا هذه النكتة لكفى به فخراً وشرفاً . وأنا أقول : لا نسلم أن الإيمان لا يكون إلا بالغائب وإلا لم يكن الإيمان بالنبي وقت تحديه بالقرآن . وإن شئت فتأمل قوله تعالى ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ فلو لم يكن إيمان بالشهادة لم يكن لقوله ﴿ بالغيب ﴾ فائدة . على أنه يحتمل أن يشاهد الرب وينكر كونه إلهاً ، ويمكن أن يكون محمول الشيء محجوباً عن ذلك الشيء فمن أين يلزم تكذيب المجسمة ؟ وقال بعضهم في الجواب : أراد أنهم يسبحون تسبيح تلفظ لا تسبيح دلالة . وزعم فخر الدين أن في الآية دلالة أخرى على إبطال قول أهل التجسيم إن الإله على العرش فإنه لو كان كما زعموا وحامل الشيء حامل لكل ما على ذلك الشيء لزم أن تكون الملائكة حاملين لإله العالم حافظين له ، والحافظ أولى بالإلهية من المحفوظ . قلت : لا شك أن هذه مغالطة فإن جاز الحمل لأجل العظمة وإظهار الكبرياء على ما يزعم الخصم في المسألة كيف يلزم منه ذلك ؟ وهل يزعم عاقل أن الحمار أشرف من الإنسان الراكب عليه من جهة الركوب عليه ؟ وإنما ذكرت ما ذكرت لكونه

وارداً على كلام الإمامين مع وفور فضلهما وبعد غورهما ، لا لأني مائل في المسألة على ما يزعم الخصم إلى غير معتقدهما . قال جار الله : وقد روعي التناسب في قوله ﴿ ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ كأنه قيل : ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم ، وفيه أنهم بعد التعظيم لأمر الله يقبلون على الشفقة على خلق الله ولا سيما المؤمنين لأن الإيمان جامع لا أجمع منه يجذب السماوي إلى الأرضي ، والروحاني إلى العنصري . احتج كثير من العلماء بالآية على أفضلية الملك قالوا : لأنها تدل على أنه لا معصية للملائكة وإلا لزم بحكم " ابدأ بنفسك " أن يستغفروا أوّلاً لأنفسهم قال الله تعالى ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ [محمد : 19] ﴿ وقال نوح رب اغفر

(29/675)

لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً ﴾ [نوح : 28] قلت : لا نزاع بالنسبة إليهم وإلى غير المعصومين من البشر وإنما النزاع بينهم وبين المعصومين فلا دليل في الآية ، ولا يلزم من طلب الاستغفار لأحد . لو سلم أن قوله ﴿ للذين آمنوا ﴾ عام أن يكون المستغفر له عاصياً على أنه قد خص الاستغفار في قوله ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ وهذا فيه بحث يجيء . وفي قولهم ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة ﴾ ولو بإعطاء الوجود ﴿ وعلماً ﴾ وقد مر في "

الأنعام " إشارة إلى أن الحمد والثناء ينبغي أن يكون مقدماً على الدعاء . وفي لفظ ﴿ ربنا ﴾ خاصية قوية في تقديم الدعاء كما ذكرنا في آخر " آل عمران " كأن الداعي يقول : كنت نفياً صرفاً وعدماً محض فأخرجتني إلى الوجود وربيتني فاجعل تربيتك لي شفيعاً إليك ، ولا ريب أن ذكر الله أول كل شيء بمنزلة الإكسير الأعظم للنحاس من حيث إنه يقوّي جوهر الروح ويكسبه إشراقاً وصفاء .

وفي تقديم الرحمة على العلم فائدة هي أن مطلوب الملائكة في هذا المقام هو أن يرحم المؤمنين فكأنهم قالوا : ارحم من علمت منه التوبة واتباع الدين . قالت علماء المعتزلة : الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون ، طلب مزيد الكرامة والثواب فهو بمنزلة الشفاعة ، وإذا ثبت شفاعة الملائكة لأهل الطاعة فكذلك شفاعة الأنبياء ضرورة أنه لا قائل بالفرق . وقال علماء السنة : إن مراد الملائكة ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ عن الكفر ﴿ واتبعوا سبيلك ﴾ الإيمان وهذا لا ينافي كون المستغفر لهم مذنبين ومما يؤيد ما قلنا أن الاستغفار طلب المغفرة والمغفرة لا تذكر إلا في إسقاط العذاب ، أما طلب النفع الزائد فإنه لا يسمى استغفاراً . قال أهل التحقيق : هذا الاستغفار من الملائكة يجري مجرى الاعتذار من قولهم ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ [البقرة : 30] أما قوله ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ فتصريح بالمطلوب بعد الرمز لأن دلالة المغفرة على الوقاية من العذاب كالضمنية .

وحين طلبوا لأجلهم إسقاط العذاب ضمناً وصريحاً طلبوا إيصال الثواب إليهم بقولهم ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾ قال علماء السنة : كل أهل الإيمان موعودون بالجنة وإن كانوا من أهل الكبائر غاية ذلك أنهم يعذبون بالنار مدّة إن لم يكن عفواً وشفاعة ثم يخرجون إلى الجنة . قال الفراء والزجاج : قوله ﴿ ومن صلح ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في ﴿ وأدخلهم ﴾ فيكون دعاء من الملائكة بإدخال هؤلاء الأصناف الجنة تكميلاً لأنس الأولين وتتميماً لابتهاجهم وإشفاقاً على هؤلاء أيضاً . ويجوز أن يكون عطفاً على الضمير في ﴿ وعدتهم ﴾ لأنه تعالى قال في سورة الرعد ﴿ أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ [الآية : 23] وعلى هذا لا يشمل دعاء الملائكة هؤلاء الأصناف اللهم إلا ضمناً . قال أهل السنة : المراد بمن صلح أهل الإيمان منهم وإن كانوا ذوي كبائر . ثم ختم الآية بقوله ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ لأنه إن لم يكن غالباً على الكل لم يصح منه وقوع المطلوب كما يراد ، وإن لم يكن حكيماً أمكن منه وضع الشيء في غير موضعه . ثم قالوا ﴿ وقهم السيئات ﴾ فقيل : يعني العقوبات أو عذاب السيئات على حذف المضاف . واعترض بأنهم قالوا مرة وقهم عذاب

الجحيم فيلزم التكرار . وأجيب بأن الأوّل دعاء للأصول وهذه لفروعهم وهم الأصناف الثلاثة ، أو الأول مخصوص بعذاب النار وهذا شامل لعذاب الموقف وعذاب الحساب وعذاب السؤال ، أو المراد بالسيئات العقائد الفاسدة والأعمال الضارة ، وعلى هذا يكون ﴿ يومئذ ﴾ في قوله ﴿ ومن تق السيئات يومئذ ﴾ إشاة إلى الدنيا .

(31/675)

وقوله ﴿ فقد رحمته ﴾ يجوز أن يكون في الدنيا وفي الآخرة . قال في الكشاف : السيئات هي الصغائر والكبائر المتوب عنها ، والوقاية منها التكفير أو قبول التوبة . ثم إنه تعالى عاد إلى شرح أحوال الكفرة المجالدين في آياته وأنهم سيعترفون يوم القيامة بما كانوا ينكرونه في الدنيا من البعث ، وذلك إذا عاينوا النشأة وتذكروا النشأة الأولى فقال ﴿ إن الذين كفروا ينادون ﴾ أي يوم القيامة . وفي الآية حذف وفيها تقديم وتأخير . أما الحذف فالتقدير لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم ، فاستغنى بذكرها مرة . وأما التقديم والتأخير فهو أن قوله ﴿ إذ تدعون ﴾ منصوب بالمقت الأول . وفي المقت وجوه : الأول كان الله يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأبون ، وذلك أشد من مقتكم أنفسكم اليوم في النار إذ أوقعتكم فيها باتباعكم هواهّن وفيه توبيخ . ولا

ريب أن سخط الله وبغضه الشديد لا نسبة له إلى سخط غيره ولهذا أوردهم النار .

الثاني عن الحسن : لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنودوا بلسان خزنة جهنم لمقت الله وهو قريب من الأول . الثالث قال محمد بن كعب : إذا خطبهم إبليس وهم في النار بقوله ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان ﴾ إلى قوله ﴿ ولوموا أنفسكم ﴾ [إبراهيم : 22] وفي هذه الحالة مقتوا أنفسهم . فلعل المعنى . لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض ومن لعنه إياه . وأما قول الكفرة في الجواب ﴿ ربنا أمتنا اثنتين ﴾ أي إماتتين اثنتين ﴿ وأحييتنا ﴾ إحياءتين ﴿ اثنتين ﴾ فللعلماء في تعيين كل من الاثنتين خلاف . أما في الكشاف فذهب إلى أن الإماتتين إحداهما خلقهم أوّلاً أمواتاً ثم نطفة ثم علقة الخ كما في الآية الأخرى ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً ﴾ [البقرة : 28] ونسب هذا القول إلى ابن عباس ووجهه بأنه كقولك للحفار : ضيق فم الركية ووسع أسفلها وليس ثم نقل من كبر إلى صغر أو بالعكس ، وإنما أردت الإنشاء على

(32/675)

هذه الصفة . والسبب في صحته أن كلا النعتين جائز على المصنوع الواحد وللصانع أن يختار أحدهما . قلت : ومما يؤيد قوله أنه بدأ بالإماتة وإلا كان الأظهر أن يبدأ بالإحياء .

قال : والإماتة الثانية هي التي في الدنيا والإحياءة الأولى هي التي في الدنيا ، والثانية هي التي بعد البعث . وأورد على هذا القول أنه يلزم أن لا تكون الإحياءة في القبر والإماتة فيه مذكورتين في القرآن بل تكونان منفيتين مع ورودهما في الحديث . أجاب بعضهم بأن حياة القبر والإماتة ممنوعة لأنه تعالى لم يذكرها ، والأحاديث الواردة فيها آحاد ، ولأن الذي افترسه السبع لو أعيد حياً لزم نقصان شيء من السبع وليس بمحسوس ، ولأن الذي مات لو تركناه ظاهراً بحيث يراه كل أحد لم يحس منه حياة وتجويز ذلك مع عدم الرؤية سفسطة وفتح لباب الجهالات .

(33/675)

وزيف هذا الجواب أهل الاعتبار بأن عدم ذكر الشيء لا يدل على عدمه ، والأحاديث في ذلك الباب صحيحة مقبولة . وإذا كان الإنسان جوهراً نورانياً مشرقاً مدبراً للبدن في كل طور على حد معلوم كما ورد في الشريعة الحقة زالت سائر الإشكالات ، ولا يلزم قياس ما بعد الموت على ما قبله وللشرع في إخفاء هذه الأمور عن نظر المكلفين حكم ظاهرة حققناها لك مرات . وقال بعضهم : في الجواب هذا كلام الكفار فلا يكون حجة . وضعف بأنه لو لم يكن صادقاً لأنكر الله عليهم . وقيل : إن مقصودهم تعديد أوقات البلاء والمحنة

وهي أربعة : الموتة الأولى ، والحياة في القبر ، والموتة الثانية ، والحياة في القيامة . فأما الحياة في الدنيا فإنها وقت ترفههم وتنعمهم فلهذا السبب لم يذكروها . وقيل : أهملوا ذكر حياة القبر لقصر مدتها أو لأنهم لم يموتوا بعد ذلك بل يبقون أحياء في الشقاوة حتى اتصل بها حياة القيامة وكانوا من جملة المستثنين في قوله ﴿ فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ [الزمر : 68] ولا يخفى أن أكثر هذه الأقوال متكلفة ولا سيما الأخير فإن قوله ﴿ الذين كفروا ﴾ عام . ولو فرض أنه مخصوص بكفار معهودين فتخصيصهم بالحياة في القبر حتى يكونوا من المستثنين بعيد جداً . وقد يدور في الخلد أن هذا النداء يحتمل أن يكون في القبر ، وعلى هذا لا يبقى إشكال لأن الإماتة والإحياء التي بعد ذلك تخرج من غير تكلف وثبت سؤال القبر كما جاء في الحديث والله تعالى أعلم بمراده . وقوله ﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ أي إلى نوع من الخروج والرد من القبر إلى الدنيا خروج سريع أو بطيء من سبيل قط أم اليأس الكلي واقع ، وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط . وكان الجواب الصريح أن يقال : لا أو نعم إلا أنه سبحانه رمز إلى عدم الخروج بقوله ﴿ ذلكم ﴾ أي ذلكم اليأس وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم في وقت التمكن من التوحيد أو ان التكليف ﴿ فالحكم لله العلي الكبير ﴾ حيث حكم

عليكم بالعذاب السرمدي وكما يناسب عظمته وكبرياءه . قيل : إن تحكيم الحرورية وهو قولهم " لا حكم إلا لله " مأخوذ من هذه الآية . ثم أراد أن يذكر طرفاً من دلائل وحدانيته وكماله فقال ﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ من الريح والسحاب والرعد والبرق ﴿ وينزل لكم من السماء ﴾ ماء هو سبب الرزق ﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ أي ما يعتبر إلا الذي أناب إلى الله وأعرض عن الشرك لينفتح عليه أبواب الأنوار والمكاشفات . ثم قال للمنيبين ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ قال جار الله : قوله ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح ﴾ ثلاثة أخبار لقوله هو مترتبة على الأول وهو قوله ﴿ الذي يريكم ﴾ أو أخبار مبتدأ محذوف وهي مختلفة تعريفاً وتنكيراً أوسطها معرفة . ثم إن الرفيع إما أن يكون بمعنى الرافع أو بمعنى المرتفع ، وعلى الأول فإما أن يراد رافع درجات الخلق في العلم والأخلاق الفاضلة كما قال ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [المجادلة : 11] وكذا في الرزق والأجل بل جعل للملائكة مقامات معينة وللأجسام البسيطة العلوية والسفلية درجات معينة كما يشهد به علم الهيئة ، وقد أشرنا إلى ذلك في أثناء هذا الكتاب . أو يراد رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة . وأما على الثاني فلا ريب أنه سبحانه أشرف الموجودات وأجلها رتبة من جهة

استغنائه في وجوده وفي جميع صفات وجوده عن كل ما سواه ، وافتقار كل ما سواه إليه في الوجود وفي توابع الوجود .

(35/675)

واعلم أن كمال كبرياء الله لا يصل إليه عقول البشر فالطريق في تعريفه أن يؤيد المعقول بنحو من المحسوس ، فلهذا عقب الله تعالى هذه الصفة بصفتين أخريين ، وذلك أن ما سوى الله إما جسمانيات وإما روحانيات . أما الجسمانيات فأعظمها العرش فأشار بقوله ﴿ ذو العرش ﴾ إلى استيلائه على كلية عالم الأجسام ، وأما الروحانيات فأشار إلى كونها تحت تسخيره بقوله ﴿ يلقي الروح ﴾ أي الوحي ﴿ من أمره ﴾ أي من عالم أمره ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ وقد مر نظيره في الآية في أول سورة النحل . وقيل من أمره حال ثم بين الغرض من الإلقاء بقوله ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ ووجه التسمية ظاهر لتلاقي الأجساد والأرواح فيه ، أو لتلاقي أهل السماء والأرض كما قال عز من قائل ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ [الفرقان : 25] ولأن كل واحد يلاقي جزاء عمله . وقال ميمون بن مهران : يوم يلتقي فيه الظالم والمظلوم ، فربما ظلم رجل رجلاً وانفصل عنه ولم يمكن التلاقي أو استضعف المظلوم ففي يوم القيامة لا بد أن يتلاقيا . وقوله ﴿ يوم هم

بارزون ﴾ بدل من الأول . ومعنى البروز ما مر في آخر سورة إبراهيم في قوله ﴿ وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ [الآية : 48] وقوله ﴿ لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ تأكيد لذلك وهذا ، وإن كان عاماً في جميع الأحوال وشاملاً للدنيا والآخرة إلا أنه خصص بالآخرة لأنهم في الدنيا كانوا يظنون أن بعض الأعمال تخفى على الله عند الاستتار بالحجب كما قال ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ فهو نظير قوله ﴿ مالك يوم الدين ﴾ [الفاتحة : 3] ثم أكد تفرّده في ذلك اليوم بالحكم والقضاء بقوله ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ ولا ريب أن الكلام مشتمل على جواب وسؤال وليس في لفظ الآية ما يدل على تعيين السائل ولا المجيب . فقال جم من المفسرين ومن أرباب القلوب : إذا هلك كل من في السموات ومن في الأرض يقول الرب تعالى : لمن الملك اليوم ؟

(36/675)

فلا يجيبه أحد .

(37/675)

فهو سبحانه يجيب عن نفسه فيقول : لله الواحد القهار . وأما الذين ألغوا صرف المعقول من أهل الأصول فقد أنكروا هذا القول إنكاراً شديداً لأنه تعالى بين أن هذا النداء في يوم التلاقي والبروز يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، وكل هذا ينافي في كون الخلق هالكين وقتئذ ، ولأن التكلم من غير سامع ولا مجيب عبث إلا أن يكون هناك ملائكة يسمعون ذلك النداء لكن المفروض فناء كل المخلوقين ، فأما أن يكون حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به وذلك أن ينادي مناد فيقول : لمن الملك اليوم ؟ فيجيبه أهل المحشر لله الواحد القهار ، يقوله المؤمن تلذذاً والكافر هواناً وتحسراً على أن فاتتهم هذه المعرفة في الدنيا فإن الملك كان له من الأزل إلى الأبد . وفائدة تخصيص هذا النداء يوم القيامة كما عرفت في ﴿ مالك يوم الدين ﴾ [الفاتحة : 3] يحكى أن نصر بن أحمد لما دخل نيسابور وضع التاج على رأسه ودخل عليه الناس فخطر بباله شيء فقال : هل فيكم من يقرأ آية ؟ فقرأ رجل روّاس ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾ فلما بلغ قوله ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ نزل الأمير عن سريره ورفع التاج عن رأسه وسجد لله تعالى وقال : لك الملك لا لي . فلما توفي الروّاس رؤي في المنام فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي وقال لي إنك عظمت ملكي في عين عبدي فلان يوم قرأت تلك الآية فغفرت لك وله . ومما يدل على تفرده سبحانه قوله ﴿ لله الواحد القهار ﴾ فإن كل واحد من الأسماء الثلاثة ينبىء عن غاية الجلال والعظمة كما مر مراراً ، وباقي الآية أيضاً مما سلف تفسيره مرات . ثم وصف يوم القيامة بأنواع أخر من

الصفات الهائلة فقال ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ وهي فاعلة من أزف الأمر أزوفاً إذا دنا ، ولا ريب أن القيامة قريبة وإن استبعد الناس مداها لأن كل ما هو كائن فهو قريب . قال جار الله : يجوز أن يريد بيوم الآزفة وقت لحظة الآزفة وهي مشارفتهم دخول النار فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارّها فتلصق بحناجرهم

(38/675)

فلا هي تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا . وقال أبو مسلم : يوم الآزفة يوم المنية وحضور الأجل لأنه تعالى ذكر يوم القيامة في قوله ﴿ يوم التلاق يوم هم بارزون ﴾ فناسب أن يكون هذا اليوم غير ذلك اليوم ، ولأنه تعالى وصف يوم الموت بنحو هذه الصفة في مواضع أخر قال ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ [الواقعة : 83] ﴿ كلا إذا بلغت التراقي ﴾ [القيامة : 26] ولا ريب أن الرجل عند معاينة أمارات الموت يعظم خوفه ، فلو جعلنا كون القلوب لدى الحناجر كناية عن شدّة الخوف جاز ، ولو حملناه على ظاهره فلا بأس .

وقوله ﴿ كاظمين ﴾ أي مكروبين . والكاظم الساكت حال امتلائه غماً وغيظاً قال عز من قائل ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : 134] وانتصابه على أنه حال عن

أصحاب القلوب كأنه قيل : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها ، أو عن القلوب .

وجمع جمع السلامة بناء على أن الكظم من أفعال العقلاء كقوله ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ [الشعراء : 4] أو عن ضمير المفعول في ﴿ وأنذرهم ﴾ أي وأنذرهم مقدّرين أو مشارفين الكظم فيكون حالاً مقدّرة . وفي قوله ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع ﴾ بحث بين الأشاعرة والمعتزلة حيث حمله الأوّلون على أهل الشرك ، والآخرون على معنى أعم حتى يشمل أصحاب الكبائر . وقد مرّ مراراً ولا سيما في قوله ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ [آل عمران : 192] ومعنى قوله ﴿ يطاع ﴾ يجاب أي لا شفاعة ولا إجابة كقوله :

(39/675)

ولا ترى الضب بها ينجحر . . . وذلك أنه لا يشفع أحد في ذلك اليوم إلا بإذن الله ، فإن أذن له أجيب وإلا فلا يوجد شيء من الأمرين . والفائدة في ذكر هذه الصفة أن يعلم أن الغرض من الشفيع منتفٍ في حقهم وإن فرض شفيع على ما يزعم أهل الشرك من أن الأصنام يشفعون لهم . وقوله ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ خبر آخر لقوله ﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ إلا أنه فصل بالتعليل وهو قوله ﴿ لينذر ﴾ وذكر وصف القيامة استطراداً ، قال

جار الله : هي صفة للنظرة أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية ، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب . قال : ولا يحسن أن تكون الخائنة صفة للأعين مضافة إليها نحو " جرد قطيفة " أي يعلم العين الخائنة لأن قوله ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ لا يساعد عليه .

قلت : يعني أن عطف العرض على الجوهر والمعنى على العين غير مناسب . وقيل : هي قول الإنسان رأيت ولم ير وما رأيت ورأى . ومضمرات الصدر وأي القلوب فيها لأنها فيها . قيل : هي ما يستره الإنسان من أمانة وخيانة . وقيل : الوسوسة . وقال ابن عباس : ما تخفي الصدور بعد النظر إليها أيزني بها أم لا . أقول : والحاصل أنه تعالى أراد أن يصف نفسه بكمال العلم فإن المجازاة تتوقف على ذلك . ففي قوله ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ إشارة إلى أنه عالم بجميع أفعال الجوارح ، وفي قوله ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ دلالة على أنه عالم بجميع أفعال القلوب . وإذا علمت هذه الصفة وقد عرفت من الأصناف السابقة كمال قدرته واستغنائه لم يبق شك في حقيّة قضائه فلذلك قال ﴿ والله يقضى بالحق ﴾ ثم وبخهم على عبادة من لا قضاء له ولا سمع ولا بصر بقوله ﴿ والذين يدعون ﴾ الخ . ثم وعظهم بالنظر في أحوال الأمم السالفة وقد مر نظير الآية في مواضع . وإنما قال في هذه السورة ﴿ ذلك بأنهم كانت ﴾ وفي " التغابن "

﴿ ذلك بأنه كانت ﴾ [الآية : 6] موافقة لضمير الفصل في قوله ﴿ كانوا هم أشد ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 20 ـ 30 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : الحاء والميم حرفان من وسط اسم الرحمن ومن وسط اسم محمد ففي ذلك إشارة إلى سر بينه وبين حبيبه صلى الله عليه وسلم لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿ غافر الذنب ﴾ للظالم ﴿ وقابل التوب ﴾ للمقتصد ﴿ شديد العقاب ﴾ للكافر ﴿ ذي الطول ﴾ للسابق ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي عن موجباتها كالرياء واتباع الهوى ﴿ لمقت الله ﴾ إياكم حين حكم عليكم بالبعد والحرمان ﴿ أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ لو كنتم تمقتونها في الدنيا فإنها أعدى عدوّكم . ومقتها منعها من هواها ، ولا ريب أن عذاب البعد الأبديّ أشدّ من رياضة أيام معدودة قلائل . ﴿ ذو العرش ﴾ عرش القلوب استوى عليها بجميع الصفات وهم العلماء بالله المستغرقون في بحر معرفته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 30 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك عجباً لأن البينات تمنع من الكفر ، فكان تقدير لمن ينكر الإرسال على هذه الصفة : فلقد أرسلناهم كذلك ، وكان موسى عليه السلام من أجل المرسلين آيات ، عطف على ذلك تسلية ونذارة لمن أدبر ، وإشارة لمن استبصر قوله : ﴿ ولقد ﴾ ولفت القول إلى مظهر العظمة كما في الآيات التي أظهرها بحضرة هذا الملك المتعاظم من الهول والعظم الذي تصاغرت به نفسه وتحاقرت عنده همته وانطمس حسه ، فقال :

﴿ أرسلنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ موسى بآياتنا ﴾ أي الدالة على جلالنا ﴿ وسلطان ﴾ أي أمر قاهر عظيم جداً ، لا حيلة لهم في مدافعة شيء منه ﴿ مبين ﴾ أي بين في نفسه مناد لكل من يمكن إطلاعه عليه أنه ظاهر جداً ، وذلك الأمر هو الذي كان يمنع فرعون من الوصول ألى أذاه مع ما له من القوة والسلطان ﴿ إلى فرعون ﴾ أي ملك

مصر .

ولما كان الأكابر أول من يتوجه إليه الأمر لأن بانقيادهم ينقاد غيرهم قال : ﴿ وهامان ﴾ أي وزيره .

ولما كان من أعجب العجب أن يكذب الرسول من جاء لنصرته واستنقاذه من شدته قال : ﴿ وقارون ﴾ أي قريب موسى عليه السلام ﴿ فقالوا ﴾ أي هؤلاء ومن تبعهم ، أما من عدا قارون فأولاً وآخراً بالقوة والفعل ، وأما قارون ففعله آخراً بين أنه مطبوع على الكفر وإن آمن أولاً ، وإن هذا كان قوله وإن لم يقله بالفعل في ذلك الزمان فقد قاله في التيه ، فدل ذلك على أنه لم يزل قائلاً به ، لأنه لم يتب منه ﴿ ساحر ﴾ لعجزهم عن مقاهرته ، ولم يقل ، " سحار " لئلا يتوهم أحد أنه يمدحه بالبراعة في علم السحر فتتحرك الهمم للإقبال عليه للاستفادة منه وهو خبر مبتدأ محذوف ، ثم وصفوه بقولهم : ﴿ كذاب ﴾ لخوفهم من تصديق الناس له ، فبعث أخصّ عباده به إلى أخسّ عباده عنده ليقيم الحجة عليه ، وأمهله عندما قابل بالتكذيب وحلم عنه حتى أعذر إليه غاية الإعذار .

(42/675)

ولما أجمل أمره كله في هاتين الآيتين ، شرع في تفصيله فقال مشيراً إلى مباردتهم إلى العناد من غير توقف أصلاً التي أشار إليها حذف المبتدأ والاقتصار على الخبر الذي هو محط الفائدة : ﴿ فلما جاءهم ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ بالحق ﴾ أي بالأمر الثابت الذي لا طاقة لأحد بتغيير شيء منه كائناً ﴿ من عندنا ﴾ على ما لنا من القهر ، فآمن معه طائفة من قومه ﴿ قالوا ﴾ أي فرعون وأتباعه ﴿ اقتلوا ﴾ أي قتلاً حقيقياً بإزالة الروح ﴿ أبناء الذين آمنوا ﴾ أي به فكانوا ﴿ معه ﴾ أي خصوهم بذلك واتركوا من عداهم لعلهم يكذبونه ﴿ واستحيوا نساءهم ﴾ أي اطلبوا حياتهن بأن لا تقتلوهن .

ولما كان هذا أمراً صاداً في العادة لمن يؤمن عن الإيمان وراداً لمن آمن إلى الكفران ، أشار إلى أنه سبحان خرق العادة بإبطاله فقال : ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما كيدهم - هكذا كان الأصل ولكنه قال : ﴿ كيد الكافرين ﴾ تعميماً وتعليقاً بالوصف ﴿ إلا في ضلال ﴾ أي مجانبة للسدد الموصل إلى الظفر والفوز لأنه ما أفادهم أولاً في الحذر من موسى عليه السلام ولا آخراً في صد من آمن به مرادهم ، بل كان فيه تبارهم وهلاكهم ، وكذا أفعال الفجرة مع أولياء الله ، ما حفر أحد منهم لأحدم منهم حفرة مكر إلا أركبه الله فيها .

(43/675)

ولما أخبر تعالى بفعله بمن تابع موسى عليه السلام ، أخبر عن فعله معه بما علم به أنه عاجز فقال : ﴿ وقال فرعون ﴾ أي أعظم الكفرة في ذلك الوقت لرؤساء أتباعه عندما علم أنه عاجز عن قتله وملأه ما رأى منه خوفاً وذعراً ، دافعاً عن نفسه ما يقال من أنه ما ترك موسى عليه السلام مع استهانته به إلا عجزاً عنه ، موهماً أن آله هم الذين يردونه عنه ، وأنه لولا ذلك قتله : ﴿ ذروني ﴾ أي اتركوني على أيّ حالة كانت ﴿ أقتل موسى ﴾ وزاد في إيهام الأغبياء والمناداة على نفسه عند البصراء بالفضيحة بقوله : ﴿ وليدع ربه ﴾ أي الذي يدعوه ويدعي إحسانه إليه بما يظهر على يديه من هذه الخوارق ، ثم علل ذلك بقوله مؤكداً إعلاماً بأنه الأمر صعب جداً لأنه كان منهم من يوهي أمره بأنه لا يؤثر ما هو فيه شيئاً أصلاً تقرباً إلى فرعون ، وإظهاراً للثبات على متابعته ﴿ إني أخاف ﴾ أي إن تركته ﴿ أن يبدل دينكم ﴾ أي الذي أنتم عليه من نسبة الفعل إلى الطبيعة بما يدعو إليه من عبادة إلهه .

ولما ألهبهم بهذا الكلام إلى مما لأتهم له على موسى عليه السلام ، زاد في ذلك بقوله : ﴿ وأن يظهر ﴾ أي بسببه – على قراءة الجماعة بفتح حرف المضارعة ﴿ في الأرض ﴾ أي كلها ﴿ الفساد ﴾ وقرأ المدنيان والبصريان وحفص بالضم إسناداً إلى ضمير موسى عليه السلام وبنصب الفساد أي بفساد المعائش فإنه إذا غلب علينا قوي على من سوانا ، فسفك الدماء وسبى الذرية ، وانتهب الأموال ، ففسدت الدنيا مع فساد الدين ، فسمى اللعين الصلاح – لمخالفته لطريقته الفاسدة – فساداً كما هو شأن كل مفسد مع المصلحين ،

وقرأ الكوفيون ويعقوب " أو أن " بمعنى أنه يخاف وقوع أحد الأمرين : التبديل أو ظهور ما هو عليه مما سماه فساداً ، وإن لم يحصل التبديل عاجلاً فإنه يحصل به الوهن .

(44/675)

ولما أعلم بمقالة العدو ، أتبعه الإعلام بقول الولي فقال : ﴿ وقال موسى ﴾ إبطالاً لهذا القول وإزالة لآثاره مؤكداً لما استقر في النفوس من قدرة فرعون : ﴿ إني عذت ﴾ أي اعتصمت عند ابتداء الرسالة ﴿ بربي ﴾ ورغبهم في الاعتصام به وثبتهم بقوله : ﴿ وربكم ﴾ أي المحسن إلينا أجمعين ، فأرسلني لاستنقاذكم من أعداء الدين والدنيا ﴿ من كل متكبر ﴾ أي عاتٍ طاغ متعظم على الحق هذا وغيره ﴿ لا يؤمن ﴾ أي لا يتجدد له تصديق ﴿ بيوم الحساب ﴾ من ربه له وهو يعلم أنه لا بد من حسابه هو لمن تحت يده من رعاياه وعبيده فيحكم على ربه بما لا يحكم به على نفسه ، ومعنى العوذ أنه لا وصول لأحد منهم إلى قتلي بسبب عوذي ، هذا أمر قد فرغ منه مرسلي لخلاصكم ، القادر على كل شيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 504.507 ﴾

(45/675)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ذروني ﴾ بفتح الياء : ابن كثير ﴿ إني أخاف ﴾ بفتح الياء : ابن كثير وأبو جعفر ونافع وأبو عمرو . أو بصيغة الترديد : عاصم وحمزة وعلي وخلف وسهل ويعقوب . الباقون : بواو العطف . ﴿ يظهر ﴾ بضم الياء وكسر الهاء من الإظهار الفساد بالنصب : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو وسهل ويعقوب والمفضل وحفص . الآخرون : بفتحهما ورفع الفساد ﴿ عذت ﴾ مدغماً : أبو عمرو وحمزة وعلي وخلف ويزيد وإسماعيل وهشام ﴿ التنادي ﴾ بالياء في الحالين : ابن كثير ويعقوب وافق يزيد وورش وسهل وعباس في الوصل ﴿ قلب متكبر ﴾ بالتنوين فيهما على الوصف : أبو عمرو وقتيبة وابن ذكوان . الباقون : على الإضافة . ﴿ لعلي أبلغ الأسباب ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿ فأطلع ﴾ بالنصب : حفص . ﴿ اتبعوني ﴾ بالياء في الحالين : سهل وابن كثير ويعقوب وافق أبو عمرو ويزيد والأصفهاني عن ورش وإسماعيل وأبو نشيط عن قالون في الوصل . ﴿ مالي ﴾ بفتح الياء : أبو عمرو وأبو جعفر ونافع ﴿ أمري إلى الله ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ﴿ تقوم ﴾ بتاء التأنيث : الرازي عن هشام ﴿ أدخلوا ﴾ من الإدخال : أبو جعفر ونافع ويعقوب وحمزة وعلي

وخلف وحفص . وعلى هذه القراءة الخطاب للزبانية . وانتصب ﴿ آل ﴾ و ﴿ أشدّ ﴾ على أنهما مفعول بهما . وعلى القراءة الأخرى هو لآل فرعون ، وانتصب ﴿ آل ﴾ على النداء لا على أنه مفعول به .

(46/675)

الوقوف : ﴿ مبين ﴾ 5 لا ﴿ كذاب ﴾ 5 ﴿ نساءهم ﴾ ط ﴿ ضلال ﴾ 5 ﴿ ربّه ﴾ ج لاحتمال اللام ﴿ مؤمن ﴾ قف قد قيل : بناء على أن الجار يتعلق بالفعل بعده والوصل أصح أنه كان من القبط ، ولو فرض أنه لم يكن منهم فالجملة وصف له ﴿ من ربكم ﴾ ج لانتهاء الاستفهام إلى الابتداء بالشرط ﴿ كذبه ﴾ ج للعطف والشرط ﴿ بعدكم ﴾ ط ﴿ كذاب ﴾ 5 ﴿ في الأرض ﴾ ز لابتداء الاستفهام والوجه الوصل لأن المقصود الوعظ به ﴿ جاءنا ﴾ ط ﴿ الرشاد ﴾ 5 ﴿ الأحزاب ﴾ 5 لا لأن ما بعده بدل ﴿ بعدهم ﴾ ط ﴿ للعباد ﴾ 5 ﴿ التناد ﴾ 5 ط لأجل البدل ﴿ مدبرين ﴾ ج لأن ما بعده يصلح حالاً واستئنافاً ﴿ من عاصم ﴾ ج لاحتمال كون ما بعده ابتداء إخبار من الله سبحانه وكونه من كلام المؤمن ﴿ من هاد ﴾ 5 ﴿ جاءكم به ﴾ ط ﴿ رسولاً ﴾ ط ﴿ مرتاب ﴾ 5 ج لاحتمال البدل فإن " من " في معنى الجمع أو الاستئناف

أي هم الذين أو أعني أنهم ﴿ آمنوا ﴾ ط ﴿ جبار ﴾ 5 ﴿ الأسباب ﴾ 5 لا ﴿ كاذباً ﴾ ط ﴿ السبيل ﴾ ط ﴿ تباب ﴾ 5 ﴿ الرشاد ﴾ ج لأن النداء يبدأ به مع أنه تكرار للأول ﴿ متاع ﴾ ز للفصل بين تنافي الدارين مع اتفاق الجملتين ﴿ القرار ﴾ 5 ﴿ مثلها ﴾ ج لعطف جملتي الشرط ﴿ حساب ﴾ 5 ﴿ النار ﴾ 5 ج لانتهاء الاستفهام إلى الأخبار ولاحتمال ابتداء استفهام آخر ﴿ الغفار ﴾ 5 ﴿ النار ﴾ 5 ﴿ لكم ﴾ ط ﴿ إلى الله ﴾ ط ﴿ بالعباد ﴾ 5 ﴿ العذاب ﴾ 5 ج لاحتمال البدل والابتداء ﴿ وعشياً ﴾ ج لاحتمال ما بعده العطف والاستئناف ﴿ الساعة ﴾ قف لحق القول المحذوف أي يقال لهم أو للزبانية ﴿ لعذاب ﴾ 5 ﴿ من النار ﴾ 5 ﴿ العباد ﴾ 5 ﴿ من العذاب ﴾ 5 ﴿ بالبينات ﴾ ط ﴿ بلى ﴾ ط ﴿ فادعوا ﴾ ج لاحتمال أن ما بعده من قول الخزنة أو ابتداء إخبار من الله تعال ﴿ ضلال ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 31.32 ﴾

(47/675)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) ﴾

واعلم أنه تعالى لما سلى رسوله بذكر الكفار الذين كذبوا الأنبياء قبله وبمشاهدة آثارهم ، سلاه أيضاً بذكر موسى عليه السلام ، وأنه مع قوة معجزاته بعثه إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه وكابروه ، وقالوا هو ساحر كذاب .

واعلم أن موسى عليه السلام ، لما جاءهم بتلك المعجزات الباهرة وبالنبوّة وهي المراد بقوله ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمْ بالحق مِنْ عِندِنَا ﴾ حكى الله تعالى عنهم ما صدر عنهم من الجهالات فالأول : أنهم وصفوه بكونه ساحراً كاذباً ، وهذا في غاية البعد ، لأن تلك المعجزات كانت قد بلغت في القوة والظهور إلى حيث يشهد كل ذي عقل سليم بأنه ليس من السحر ألبتة الثاني : أنهم قالوا ﴿ اقتلوا أَبْنَاء الذين ءامَنُواْ مَعَهُ واستحيوا نِسَاءهُمْ ﴾ والصحيح أن هذا القتل غير القتل الذي وقع في وقت ولادة موسى عليه السلام ، لأن في ذلك الوقت أخبره المنجمون بولادة عدو له يظهر عليه ، فأمر بقتل الأولاد في ذلك الوقت ، وأما في هذا الوقت فموسى عليه السلام قد جاءه وأظهر المعجزات الظاهرة ، فعند هذا أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه لئلا ينشئوا على دين موسى فيقوى بهم ، وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات ، فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ ومعناه أن جميع ما يسعون فيه من مكايدة موسى ومكايدة من آمن معه يبطل ، لأن ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها

النوع الثالث : من قبائح أفعال أولئك الكفار مع موسى عليه السلام ما حكاه الله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ موسى ﴾ وهذا الكلام كالدلالة على أنهم كانوا يمنعونه من قتله ، وفيه احتمالان .

(48/675)

والاحتمال الأول : أنهم منعوه من قتله لوجوه الأول : لعله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقاً ، فيأتي بوجوه الحيل في منع فرعون من قتله الثاني : قال الحسن : أن أصحابه قالوا له لا تقتله فإنما هو ساحر ضعيف ولا يمكنه أن يغلب سحرتك ، وإن قتلته أدخلت الشبهة على الناس وقالوا إنه كان محقاً وعجزوا عن جوابه فقتلوه الثالث : لعلّهم كانوا يحتالون في منعه من قتله ، لأجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب أولئك الأقوام ، فإن من شأن الأمراء أن يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجي حتى يصيروا آمنين من شر ذلك الملك .

والاحتمال الثاني : أن أحداً ما منع فرعون من قتل موسى وأنه كان يريد أن يقتله إلا أنه كان خائفاً من أنه لو حاول قتله لظهرت معجزات قاهرة تمنعه عن قتله فيفتضح إلا أنه لوقاحته قال : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ موسى ﴾ وغرضه منه أنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه

وغرضه منه إخفاء خوفه .

أما قوله ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ فإنما ذكره على سبيل الاستهزاء يعني أني أقتله فليقل لربه حتى يخلصه مني .

وأما قوله ﴿ إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأرض الفساد ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(49/675)

فتح ابن كثير الياء من قوله ﴿ ذَرُونِى ﴾ وفتح نافع وابن كثير وأبو عمرو الياء من ﴿ إِنِّى أَخَافُ ﴾ وأيضاً قرأ نافع وابن عمرو ﴿ وأن يَظْهَر ﴾ بالواو وبحذف أو ، يعني أنه يجمع بين تبديل الدين وبين إظهار المفاسد ، والذين قرأوا بصيغة أو فمعناه أنه لا بد من وقع أحد الأمرين وقرىء يظهر بضم الياء وكسر الهاء والفساد بالنصب على التعدية ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بلفظ أو يظهر بفتح الياء والهاء والفساد بالرفع ، أما وجه القراءة الأولى فهو أنه أسند الفعل إلى موسى في قوله ﴿ يُبَدِّلَ ﴾ فكذلك في يظهر ليكون الكلام على نسق واحد ، وأما وجه القراءة الثانية فهو أنه إذا بدل الدين فقد ظهر الفساد الحاصل بسبب ذلك التبديل .

المسألة الثانية :

المقصود من هذا الكلام بيان السبب الموجب لقتله وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا ، أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذي كانوا عليه ، فلما كان موسى ساعياً في إفساده كان في اعتقادهم أنه ساع في إفساد الدين الحق وأما فساد الدنيا فهو أنه لا بد وأن يجتمع عليه قوم ويصير ذلك سبباً لوقوع الخصومات وإثارة الفتن ، ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال : ﴿ إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال : ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الفساد ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذا الكلام حكى بعده ما ذكره موسى عليه السلام فحكى عنه أنه قال : ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائي عذت بإدغام الذال في التاء والباقون بالإظهار .

المسألة الثانية :

المعنى أنه لم يأتِ في دفع شره إلا بأن استعاذ بالله ، واعتمد على فضل الله لا جرم صانه الله عن كل بلية وأوصله إلى كل أمنية ، وعلم أن هذه الكلمات التي ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد :

الفائدة الأولى : أن لفظة ﴿ إِنِّى ﴾ تدل على التأكيد فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر في دفع الشرور والآفات عن النفس الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى .

الفائدة الثانية : أنه قال : ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ فكما أن عند القراءة يقول المسلم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن ، فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم : أعوذ بالله فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات .

الفائدة الثالثة : قوله ﴿ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ والمعنى كأن العبد يقول إن الله سبحانه هو الذي رباني وإلى درجات الخير رقاني ، ومن الآفات وقاني ، وأعطاني نعماً لا حد لها ولا حصر ، فلما كان المولى ليس إلا الله وجب أن لا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى .

الفائدة الرابعة : أن قوله ﴿ وَرَبِّكُمْ ﴾ فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به

في الاستعاذة بالله ، والمعنى فيه أن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوي ذلك التأثير جداً ، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلوات في الجماعات .

الفائدة الخامسة : أنه لم يذكر فرعون في هذا الدعاء ، لأنه كان قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه ، فترك التعيين رعاية لذلك الحق .

الفائدة السادسة : أن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنه لا فائدة في الدعاء على فرعون بعينه ، بل الأولى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفاً بتلك الصفة ، حتى يدخل فيه كل من كان عدواً سواء كان مظهراً لتلك العداوة أو كان مخفياً لها .

(51/675)

الفائدة السابعة : أن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران أحدهما : كون الإنسان متكبراً قاسي القلب والثاني : كونه منكراً للبعث والقيامة ، وذلك لأن التكبر القاسي قد يحمله طبعه على إيذاء الناس إلا أنه إذا كان مقراً بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعاً له من الجري على موجب تكبره ، فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيذاء والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلاً ، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلاً فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء .

الفائدة الثامنة : أن فرعون لما قال : ﴿ ذَرُونِى أَقْتُلْ موسى ﴾ قال على سبيل الاستهزاء ﴿ وليدع رَبَّهُ ﴾ فقال موسى إن الذي ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين والحق المنير ، وأنا أدعو ربي وأطلب منه أن يدفع الشرك عني ، وسترى أن ربي كيف يقهرك ، وكيف يسلطني عليك .

واعلم أن من أحاط عقله بهذه الفوائد علم أنه لا طريق أصلح ولا أصوب في دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم إلا الاستعاذة بالله والرجوع إلى حفظ الله ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 47.50 ﴾

(52/675)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا ﴾

وهي التسع الآيات المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء : 101] وقد مضى تعيينها .

﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة واضحة بينة ، وهو يذكر ويؤنث .

وقيل : أراد بالسلطان التوراة .

﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ﴾ خصهم بالذكر لأن مدار التدبير في عداوة موسى كان عليهم ؛ ففرعون الملك وهامان الوزير وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه الله معهما ؛ لأن عمله في الكفر والتكذيب كأعمالهما .

﴿ فَقَالُواْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ لما عجزوا عن معارضته حملوا المعجزات على السحر .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ بالحق مِنْ عِندِنَا ﴾ وهي المعجزة الظاهرة ﴿ قَالُواْ اقتلوا أَبْنَآءَ الذين آمَنُواْ مَعَهُ ﴾ قال قتادة : هذا قتل غير القتل الأول ؛ لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى ، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بني إسرائيل عقوبة لهم فيمتنع الإنسان من الإيمان ؛ ولئلا يكثر جمعهم فيعتضدوا بالذكور من أولادهم ، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب ، كالضفادع والقمّل والدّم والطوفان إلى أن خرجوا من مصر ، فأغرقهم الله .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ أي في خسران وهلاك ، وإن الناس لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا فكيده يذهب باطلاً .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذروني أَقْتُلْ موسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ "أَقْتُلْ" جزم ؛ لأنه جواب الأمر "وَلْيَدْعُ" جزم ؛ لأنه أمر و"ذَرُونِي" ليس بمجزوم وإن كان أمراً ولكن لفظه لفظ المجزوم وهو مبني .

وقيل : هذا يدلّ على أنه قيل لفرعون : إنا نخاف أن يدعو عليك فيجاب ؛ فقال : "وَلْيَدْعُ رَبَّهُ" أي لا يهولنّكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى .

(53/675)

﴿ إِنِي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أي عبادتكم لي إلى عبادة ربه ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفساد ﴾ إن لم يبدل دينكم فإنه يظهر في الأرض الفساد .

أي يقع بين الناس بسببه الخلاف .

وقراءة المدنيين وأبي عبد الرحمن السُّلَميّ وابن عامر وأبي عمرو : "وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ" وقراءة الكوفيين "أَوْ أَنْ يَظْهَرَ" بفتح الياء "الْفَسَادُ" بالرفع وكذلك هي في مصاحف الكوفيين : "أو" بألف وإليه يذهب أبو عبيد ؛ قال : لأن فيه زيادة حرف وفيه فصل ؛ ولأن "أو" تكون بمعنى الواو .

النحاس : وهذا عند حُذَّاق النحويين لا يجوز أن تكون بمعنى الواو ؛ لأن في ذلك بطلان المعاني ، ولو جاز أن تكون بمعنى الواو لما احتيج إلى هذا ها هنا ؛ لأن معنى الواو "إِنِّي أَخَافُ" الأمرين جميعاً ومعنى "أَوْ" لأحد الأمرين أي "إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ" فإن أعوزه ذلك أظهر في الأرض الفساد .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ موسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ لما هدده فرعون بالقتل استعاذ موسى بالله ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي متعظم عن الإيمان بالله ، وصفته أنه ﴿ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(54/675)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْمَوَاضِعُ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا لَفْظُ التَّبْدِيلِ وَمَا ذُكِرَ فِيهِ مَفْعُولٌ وَاحِدٌ أَوْ مَفْعُولَانِ وَمَا فِيهِ الْبَاءُ ﴿ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ ﴿ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ ﴿ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ ﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا ﴾ ﴿ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ ﴿ بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ وَقَدْ تَأَمَّلْت هَذِهِ الْآيَاتِ فَوَجَدْتُهَا

عَلَى أَقْسَامٍ مِنْهَا مَا جَاءَ التَّبْدِيلُ فِيهِ مُتَعَدِّيًا إلَى وَاحِدٍ لَمْ يُذْكَرْ مَعَهُ مَفْعُولٌ آخَرُ وَلَا مَجْرُورٌ ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ وَ ﴿ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ وَ ﴿ أَنْ أُبَدِّلَهُ ﴾ ﴿ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ وَفِي هَذِهِ الثَّلَاثِ الْمُبَدَّلُ هُوَ الْمَتْرُوكُ .

(55/675)

وَقَوْلُهُ ﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ الْمَأْتِيُّ بِهِ ، وَمَجِيءُ هَذِهِ الْآيَاتِ عَلَى هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّبْدِيلَ تَارَةً يَكُونُ بِمَعْنَى طَرْحِ الشَّيْءِ الْحَاصِلِ بِغَيْرِهِ وَتَارَةً يَكُونُ بِمَعْنَى الْإِتْيَانِ بِمَا لَمْ يَكُنْ حَاصِلًا بَدَلَ مَا هُوَ حَاصِلٌ ؛ وَالْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَهُمَا جَعْلُهُ بَدَلًا وَهُوَ صَادِقٌ فِي النَّوْعَيْنِ ، وَقِيَاسُ ذَلِكَ أَنَّهُ إذَا زِيدَ عَلَيْهِ جَارٌّ وَمَجْرُورٌ لِبَيَانِ مَا جُعِلَ بَدَلًا عَنْهُ لَا يَتَغَيَّرُ الْمَعْنَى ، وَأَنَّهُ لَوْ جَعَلْت الْهَمْزَةَ بَدَلَ التَّضْعِيفِ فِي الْفِعْلِ لَا يَتَغَيَّرُ الْمَعْنَى ، وَيَلْزَمُ مِنْ هَذِهِ

(56/675)

الْمُقَدِّمَاتِ صِحَّةُ قَوْلِ الْفُقَهَاءِ فَلَا تُبَدَّلُ الصَّادُ بِالطَّاءِ وَقَوْلُ النُّحَاةِ فَلَا تُبَدَّلُ الظَّاءُ بِالصَّادِ ، لِأَنَّ الْمَعْنَى سَوَاءٌ ، لَكِنَّهُ شَيْءٌ يَحْتَاجُ إلَى بَيَانِ الْمَقْصُودِ لِتُعْرَفَ بِالْقَرِينَةِ وَهِيَ الْعِلْمُ بِأَنَّ الْحَاصِلَ هُوَ الضَّادُ وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَرْكُهَا إلَى الطَّاءِ وَلَا جَعْلُ الطَّاءِ مَكَانَهَا فَالْفُقَهَاءُ أَرَادُوا مَعْنَى الْعِبَارَةِ الْأُولَى وَالنُّحَاةُ أَرَادُوا مَعْنَى الْعِبَارَةِ الثَّانِيَةِ وَهُوَ مَعْنًى وَاحِدٌ تَوَارَدُوا عَلَيْهِ بِعِبَارَتَيْنِ وَمَقْصُودَيْنِ انْتَهَى . انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 84.85 ﴾

(57/675)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾

وهي معجزاته عليه السلام ﴿ وسلطان مُّبِينٍ ﴾ حجة قاهرة ظاهرة ، والمراد بذلك قيل ما أريد بالآيات ونزل تغاير الوصفين منزلة تغاير الذاتين فعطف الثاني على الأول ، وقيل : المراد به بعض من آياته له شأن كالعصا ، وعطف عليه تفخيماً لشأنه كما عطف جبريل وميكال عليهما السلام على الملائكة .

وتعقب بأن مثله إنما يكون إذا غير الثاني بعلم أو نحوه أما مع إبهامه ففيه نظر ، وحكى الطبرسي أن المراد بالآيات حجج التوحيد وبالسلطان المعجزات الدالة على نبوته عليه

السلام ، وقيل الآيات المعجزات والسلطان ما أوتيه عليه السلام من القوة القدسية وظهورها باعتبار ظهور آثارها من الإقدام على الدعوة من غير اكتراث .

وقرأ عيسى ﴿ سلطان ﴾ بضم اللام .

﴿ إلى فِرْعَوْنَ وهامان ﴾ وزير فرعون ، وزعم اليهود أنه لم يكن لفرعون وزير يدعى هامان وإنما هامان ظالم جاء بعد فرعون بزمان مديد ودهر داهر نفى جاءهم من اختلال أمر كتبهم وتواريخ فرعون لطول العهد وكثرة المحن التي ابتلوا بها فاضمحلت منها أنفسهم وكتبهم .

﴿ وَقَشرُونَ ﴾ قيل هو الذي كان من قوم موسى عليه السلام ، وقيل : هو غيره وكان مقدم جنود فرعون ، وذكرهما من بين أتباع فرعون لمكانتهما في الكفر وكونهما أشهر الأتباع .

وفي ذكر قصة الإرسال إلى فرعون ومن معه وتفصيل ما جرى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان لعاقبة من هو أشد الذين كانوا من قبل وأقربهم زماناً ولذا خص ذلك بالذكر ، ولا بعد في كون فرعون وجنوده أشد من عاد ﴿ فَقَالُواْ ساحر ﴾ أي هو يعنون موسى عليه السلام ساحر فيما أظهر من المعجزات ﴿ كَذَّابٌ ﴾ في دعواه أنه رسول من رب العالمين .

﴿ فَلَمَّا جَاءهُمْ بالحق مِنْ عِندِنَا ﴾ وبلغهم أمر الله تعالى غير مكترث بقولهم ساحر كذاب ﴿ قَالُواْ ﴾ غيظاً وحنقاً وعجزاً عن المعارضة ﴿ اقتلوا أَبْنَاء الذين ءامَنُواْ مَعَهُ واستحيوا نِسَاءهُمْ ﴾ أي أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه بهم أولاً كي تصدوهم عن مظاهرة موسى عليه السلام ، فالأمر بالقتل والاستحياء وقع مرتين .

المرة الأولى حين أخبرت الكهنة والمنجمون في قول فرعون بمولود من بني إسرائيل يسلبه ملكه ، والمرة الثانية هذه ، وضمير ﴿ قَالُواْ ﴾ لفرعون ومن معه .

وقيل : إن قارون لم يصدر منه مثل هذه المقالة لكنهم غلبوا عليه ﴿ وَمَا كَيْدُ الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ في ضياع من ضلت الدابة إذا ضاعت ، والمراد أنه لا يفيدهم شيئاً فالعاقبة للمتقين ، واللام إما للعهد والإظهار في موقع الإضمار لذمهم بالكفر والإشعار بعلة الحكم أو للجنس والمذكورون داخلون فيه دخولاً أولياف ، والجملة اعتراض جيء به في تضاعيف ما حكي عنهم من الأباطيل للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهروه من الإبراق والإرعاد واضمحلاله بالمرة .

(59/675)

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ موسى ﴾ كان إذا هم بقتله كفوه بقولهم : ليس بالذي تخافه وهو أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا ساحر يقاومه ساحر مثله وإنك إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس واعتقدوا أنك عجزت عن مظاهرته بالحجة ، والظاهر أنه لعنه الله تعالى استيقن أنه عليه السلام نبي ولكن كان فيه خب وجريرة وكان قتالاً سفاكاً للدماء في أهون شيء فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه الذي يثل عرشه ويهدم ملكه ولكنه يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك فقوله : ﴿ ذَرُونِى ﴾ الخ كان تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع ويرشد إلى ذلك قوله : ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ لأن ظاهره الاستهانة بموسى عليه السلام بدعائه ربه سبحانه كما يقال : ادع ناصرك فإني منتقم منك ، وباطنه أنه كان يرعد فرائصه من دعاء ربه فلهذا تكلم به أول ما تكلم وأظهر أنه لا يبالي بدعاء ربه وما هو إلا كمن قال : ذروني أفعل كذا وما كان فليكن وإلا فما لمن يدعي أنه ربهم الأعلى أن يجعل لما يدعيه موسى عليه السلام وزناً فيتفوه به تهكماً أو حقيقة ﴿ إِنِّى أَخَافُ ﴾ إن لم أقتله ﴿ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أن يغير حالكم الذي أنتم عليه من عبادتي وعادة الأصنام وكان عليه اللعنة قد أمرهم بنحتها وإن تجعل شفعاء لهم عنده كما كان كفار مكة يقولون : ﴿ هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] ولهذا المعنى أضافوا الآلهة إليه في قولهم : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف : 127] فهي إضافة تشريف واختصاص وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين ، وقال ابن عطية :

الدين السلطان ومنه قول زهير

: لئن حللت بجي من بني أسد . . .

في دين عمرو وحالت بيننا فدك

(60/675)

أي إني أخاف أن يغير سلطانكم ويستذلكم ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ ﴾ إن لم يقدر على تغيير دينكم بالكلية ﴿ فِى الأرض الفساد ﴾ وذلك بالتهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب ويهلك الناس قتلاف وضياعاً فالفساد الذي عناه فساد دنياهم ، فيكون حاصل المعنى على ما قرر أولاً إني أخاف أن يفسد عليكم أمر دينكم بالتبديل أو يفسد عليكم أمر دنياكم بالتعطيل وهما أمران كل منهما مر ، ونحو هذا يقال على المعنى الثاني للدين ، وعن قتادة أن اللعين عنى بالفساد طاعة الله تعالى : وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو ﴿ وَأَنْ ﴾ بالواو الواصلة .

وقرأ الأعرج .

والأعمش .

وابن وثاب .

وعيسى .

وابن كثير .

وابن عامر .

والكوفيون غير حفص ﴿ يُظْهِرُ ﴾ بفتح الياء والهاء ﴿ الفساد ﴾ بالرفع .

وقرأ مجاهد ﴿ يُظْهِرُ ﴾ بتشديد الظاء والهاء ﴿ الفساد ﴾ بالرفع .

وقرأ زيد بن علي ﴿ يُظْهِرُ ﴾ بضم الياء وفتح الهاء مبنياً للمفعول ﴿ الفساد ﴾ بالرفع .

(61/675)

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ لما سمع بما أجراه اللعين من حديث قتله ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب ﴾ قاله عليه السلام مخاطباً به قومه على ما ذهب إليه غير واحد ، وذلك أنه لما كان القول السابق من فرعون خطاباً لقومه على سبيل الاستشارة وإجالة الرأي لا بمحضر منه عليه السلام كان الظاهر أن موسى عليه السلام أيضاً خاطب قومه لا فرعون وحاضريه بذلك ، ويؤيده قوله تعالى : في الأعراف ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ استعينوا ﴾ [الأعراف : 128] في هذه القصة بعينها ، وقوله تعالى هنا : ﴿ وَرَبِّكُمْ ﴾ فإن فرعون ومن معه لا يعتقدون ربوبيته تعالى واردة أنه تعالى كذلك في نفس الأمر لا

يضر في كونه مؤيداً لأن التأييد مداره الظاهر ، وصدر الكلام بأن تأكيداً وتنبيهاً على أن السبب المؤكد في دفع الشر هو العياذ بالله تعالى ، وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ ، والتربية وأضافه إليه وإليهم حثاً لهم على موافقته في العياذ به سبحانه والتوجه التام بالروح إليه جل شأنه لما في تظاهر الأرواح من استجلاب الإجابة ، وهذا هو الحكمة في مشروعية الجماعة في العبادات ، و ﴿ مِن كُلِّ ﴾ على معنى من شر كل وأراد بالتكبر الاستكبار عن الإذعان للحق وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة ومهانة نفسه وعلى فرط ظلمه وعسفه ، وضم إليه عدم الإيمان بيوم الجزاء ليكون أدل وأدل ، فمن اجتمع فيه التكبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله تعالى وعباده ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها ، واختير المنزل دون منه سلوكاً لطريق التعريض لأنه كلام وارد في عرضهم فلا يلبسون جلد النمر إذا عرض عليهم مع ما في ذلك من الدلالة على علة الاستعاذة ورعاية حق تربية اللعين له عليه السلام في الجملة .

وقرأ أبو عمرو .

وحمزة .

والكسائي ﴿ عت ﴾ بإدغام الذال المعجمة في التاء بعد قلبها تاء . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) ﴾

هذا ذكر فريق آخر من الأمم لم يشهد العرب آثارهم وهم قوم فرعون أقباط مصر ، وتقدم نظير هذه الآية في أواخر سورة هود .

وتقدم ذكر هامان وهو لقب وزير فرعون في سورة القصص .

وفي هذه القصة أنها تزيد على مَا أجمل من قصص أمم أخرى أن فيها عبرتين : عبرةً بكيد المكذبين وعنادهم ثم هلاكهم ، وعبرةً بصبر المؤمنين وثباتهم ثم نصرهم ، وفي كلتا العبرتين وعيد ووعد .

وجملة : ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ معترضة بين جملة ﴿ ولقد أَرْسَلْنَا موسى ﴾ وبين جملة ﴿ فَلَمَّا جَاءَهم بِالحَقّ ﴾ [غافر : 25] .

(وقَارون هو من بني إسرائيل كذب موسى ، وتقدم ذكره في القصص ، وقد قيل إنه كان منقطعاً إلى فرعون وخادماً له ، وهذا بعيد لأنه كان في زمرة من خرج مع موسى ، أي فاشترك أولئك في رمي رسولهم بالكذب والسحر كما فعلت قريش .

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ

أي رَمَوْه ابتداءً بأنه ساحر كذاب توهماً أنهم يلقمونه حجر الإِحجام فلما استمر على

دَعوته وجاءهم بالحق ، أي أظهر لهم الآيات الحقَّ ، أي الواضحة ، فأطلق ﴿ جاءهم ﴾ على ظهور الحق كقوله تعالى : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ﴾ [الإسراء : 81] .

و ﴿ مِن عِندِنا ﴾ وصف للحق لإفادة أنه حق خارق للعادة لا يكون إلا من تسخير الله وتأييده ، وهو آيات نبوته التسعُ .

(63/675)

ووجه وقوع ﴿ فلَمَّا جَاءَهم بالحَقِّ مِن عِندنا ﴾ بعد قوله : ﴿ أَرْسَلْنَا مُوسَى بآيَاتِنا ﴾ [غافر : 23] مع اتحاد مُفاد الجملتين فإن مفاد جملة ﴿ جاءهم ﴾ مساو لمفاد جملة ﴿ أرسلنا ﴾ ومفاد قوله : ﴿ بالحق ﴾ مساو لمفاد قوله : ﴿ بآياتنا وسُلطان مُبين ﴾ [غافر : 23] أن الأول للتنويه برسالة موسى وعظمة موقفه أمام أعظم ملوك الأرض يومئذٍ ، وأما قوله : ﴿ فلمَّا جَاءَهُم بالحَقِّ ﴾ فهو بيان لدعوته إياهم وما نشأ عنها ، وتقدير الكلام : أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون فلما جاءهم بالحق ، فسلكت في هذا النظم طريقة الإطناب للتنويه والتشريف .

وجملة ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ معترضة .

وأرادوا بقولهم اقتلوا أبناء الذين معه أن يُرهبوا أتباعه حتى ينفضوا عنه فلا يجد أنصاراً

ويبقى بنو إسرائيل في خدمة المصريين .

وضمير ﴿ جاءهم ﴾ يحمل على أنه عائد إلى غير مذكور في اللفظ لأنه ضمير جمع يدل عليه المقام وهم أهل مجلس فرعون الذين لا يخلو عنهم مجلس الملك في مثل هذه الحوادث العظيمة كما في قوله تعالى : ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين ﴾ [القصص : 38] الآية .

وليس عائداً إلى فرعون وهامان وقارون ، لأن قارون لم يكن مع فرعون حين دعاه موسى ولم يكن من المكذبين لموسى في وقت حضوره لدى فرعون ولكنه طغا بعد خروج بني إسرائيل من مصر وبلغ به طغيانه إلى الكفر كما تقدم في قصته في سورة القصص .

والضمير في قولهم : ﴿ اقتلوا ﴾ مخاطب به فرعون خطاب تعظيم مثل ﴿ ربّ ارجعون ﴾ [المؤمنون : 99] .

وإنما أبهم القائلون لعدم تعلق الغرض بعلمه ، ففعل قالوا ﴾ بمنزلة المبني للنائب أو بمنزلة : قال قائل ، لأن المقصود قوله بعده : ﴿ وَمَا كَيْدُ الكَافِرِينَ إلاَّ في ضَلالٍ ﴾ .

وهو محل الاعتبار لقريش بأن كيد أمثالهم كان مضاعاً فكذلك يكون كيدهم .

وهذا القتل غير القتل الذي فعله فرعون الذي وُلد موسى في زمنه .

وسمي هذا الرأي كيداً لأنهم تشاوروا فيه فيما بينهم دون أن يعلم بذلك موسى والذين آمنوا معه وأنهم أضمروه ولم يعلنوه ثم شغلهم عن إنفاذه ما حلّ بهم من المصائب التي ذكرت في قوله تعالى في سورة [الأعراف : 130] : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ﴾ الآية ، ثم بقوله : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد ﴾ [الأعراف : 133] الآية .

والضلال : الضياع والاضمحلال كقوله : ﴿ قالوا أئذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد ﴾ [السجدة : 10] أي هذا الكيد الذي دبروه قد أخذ الله على أيديهم فلم يجدوا لانقاذه سبيلاً .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ

عطفُ ﴿ وقال ﴾ بالواو يدل على أنه قال هذا القول في موطن آخر ولم يكن جواباً لقولهم : ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءامَنُوا مَعَهُ ﴾ [غافر : 25] ، وفي هذا الأسلوب إيماء إلى أن فرعون لم يعمل بإشارة الذين قالوا : ﴿ اقتلوا أبناء الذين ءامنوا معه ﴾ وأنه سكت ولم يراجعهم بتأييد ولا إعراض ، ثم رأى أن الأجدر قتل موسى دون أن يقتل الذين آمنوا معه لأن قتله أقطع لفتنتهم .

ومعنى : ﴿ ذروني ﴾ إعلامهم بعزمه بضرب من إظهار ميله لذلك وانتظاره الموافقة عليه بحيث يمثل حاله وحال المخاطبين بحال من يريد فعل شيء فيصدّ عنه ، فلرغبته فيه يقول

لمن يصده : دَعْنِي أفعل كذا ، لأن ذلك التركيب مما يخاطب به الممانع والملائم ونحوهما ، قال طرفة :

فان كنتَ لا تستطيع دفع منيتي

فدَعْنِي أبادرها بما ملكتْ يدي . . .

ثم استعمل هذا في التعبير عن الرغبة ولم يكن ثمة معارض أو ممانع ، وهو استعمال شائع في هذا وما يرادفه مثل : دَعْني وخَلِّني ، كما في قوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ [المدثر : 11] وقوله : ﴿ وذرني والمكذبين ﴾ [المزمل : 11] ، وقول أبي القاسم السهيلي :

دَعْنِي على حكم الهوى أتضرع

فَعَسَى يلين لِيَ الحبيب ويخشع . . .

(65/675)

وذلك يستتبع كناية عن خطر ذلك العمل وصعوبة تحصيله لأن مثله مما يَمنع المستشارُ مستشيره من الإِقدام عليه ، ولذلك عطف عليه : ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ لأن موسى خوّفهم عذاب الله وتحدّاهم بالآيات التسع .

ولام الأمر في ﴿ وَلْيَدعُ رَبَّهُ ﴾ مستعملة في التسوية وعدم الاكتراث .

وجملة ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدّلَ دِينَكُمْ ﴾ تعليل للعزم على قتل موسى .

والخوف مستعمل في الإِشفاق ، أي أظن ظناً قوياً أن يبدل دينكم .

وحذفت (مِن) التي يتعدى بها فعل ﴿ أخاف ﴾ لأنها وقعت بينه وبين (أنْ) .

والتبديل : تعويض الشيء بغيره .

وتوسم فرعون ذلك من إنكار موسى على فرعون زعمه أنه إله لقومه فإن تبديل الأصول يقتضي تبديل فروع الشريعة كلها .

والإِضافة في قوله : ﴿ دينكم ﴾ تعريض بأنهم أولى بالذبّ عن الدين وإن كان هو دينَه أيضاً لكنه تجرد في مشاورتهم عن أن يكون فيه مراعاة لحظ نفسه كما قالوا هم ﴿ أتذر موسى وقومَه ليفسدوا في الأرض ويذرَك وآلهتك ﴾ [الأعراف : 127] وذلك كله إلهاب وتحضيض .

والأرض : هي المعهودة عندهم وهي مملكة فرعون .

ومعنى إظهار موسى الفساد عندهم أنه يتسبب في ظهوره بدعوته إلى تغيير ما هم عليه من الديانة والعوائد .

وأطلق الإِظهار على الفشوّ والانتشار على سبيل الاستعارة .

وقد حمله غروره وقلة تدبره في الأمور على ظن أن ما خالف دينهم يعدّ فساداً إذ ليست

لهم حجة لدينهم غير الإِلف والانتفاع العاجل .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿ وأَنْ بواو العطف .

وقرأ غيرهم أوْ أَنْ ﴾ بـ (أو) التي للترديد ، أي لا يخلو سعي موسى عن حصول أحد هاذين .

وقرأ نافع وأبو عَمرو وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر بضم ياء ﴿ يُظهر ﴾ ونصب ﴿ الفَسَاد ﴾ أي يبدل دينكم ويكون سبباً في ظهور الفساد .

(66/675)

وقرأه ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بفتح الياء ويرفع ﴿ الفسادُ ﴾ على معنى أن الفساد يظهر بسبب ظهور أَتْباع موسى ، أو بأن يجترىء غيره على مثل دعواه بأن تزول حُرمة الدولة ، لأن شأن أهل الخوف عن عمل أن ينقلب جبنهم شجاعة إذا رأوا نجاح من اجترأ على العمل الذي يريدون مثله .

وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27)

هذا حكاية كلام صدر من موسى في غير حضرة فرعون لا محالة ، لأن موسى لم يكن ممن يضمه ملأ استشارة فرعون حين قال لقومه : ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ [غافر : 26]

ولكن موسى لما بلغه ما قاله فرعون في ملائه قال موسى في قومه : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ ، ولذلك حكِيَ فعل قوله معطوفاً بالواو لأن ذلك القول لم يقع في محاورة مع مقال فرعون بخلاف الأقوال المحكية في سورة [الشعراء : 18 31] من قوله : ﴿ قال ألم نربك فينا وليداً ﴾ إلى قوله : ﴿ قال فأْتِ به إن كنت من الصادقين ﴾ .

وقوله : ﴿ عُذتُ بِرَبِّي وَرَبِّكم مِن كُلِّ مُتَكَبِر ﴾ خطاب لقومه من بني إسرائيل تطميناً لهم وتسكيناً لإشفاقهم عليه من بطش فرعون .

والمعنى : إني أعددت العدة لدفع بطش فرعون العوذَ بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب وفي مقدمة هؤلاء المتكبرين فرعون .

(67/675)

ومعنى ذلك : أن موسى علم أنه سيجد مناوين متكبرين يكرهون ما أرسله الله به إليهم ، فدعا ربه وعلم أن الله ضمن له الحفظ وكفاه ضير كل معاند ، وذلك ما حكي في سورة [طه : 45 ، 46] : ﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمَع وأرى ﴾ فأخبر موسى قومه بأن ربه حافظٌ له ليثقوا بالله كما كان مقام النبي لاحينَ كان في أول البعثة تحرسه أصحابه في الليل فلما نزل قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر

وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين ﴾ [الحجر : 94 ، 95] الآية أمر أصحابه بأن يتخلوا عن حراسته .

وتأكيد الخبر بحرف (إنَّ) متوجه إلى لازم الخبر وهو أن الله ضمن له السلامة وأكد ذلك لتنزيل بعض قومه أو جُلهم منزلة من يتردد في ذلكِ لما رأى من إشفاقهم عليه .

والعَوذ : الالتجاء إلى المحل الذي يستعصم به العائذ فيدفع عنه مَن يروم ضره ، يقال : عاذ بالجبل ، وعاذ بالجيش ، وقال تعالى : ﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : 98] .

وعبر عن الجلالة بصفة الرب مضافاً إلى ضمير المتكلم لأن في صفة الرب إيماء إلى توجيه العوذ به لأن العبد يعوذ بمولاه .

وزيادة وصفه برب المخاطبين للإيماء إلى أن عليهم أن لا يجزعوا من مناواة فرعون لهم وأن عليهم أن يعوذوا بالله من كل ما يفظعهم .

وجُعلت صفة ﴿ لاَ يُؤمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ ﴾ مغنية عن صفة الكفر أو الإشراك لأنها تتضمن الإشراك وزيادة ، لأنه إذا اجتمع في المرء التجبر والتكذيب بالجزاء قَلَّت مبالاته بعواقب أعماله فكملت فيه أسباب القسوة والجرأة على الناس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضى كلام الرأسين ، وكانت عادة من لم يكن لهم نظام من الله رابط أن قلوبهم لا تكاد تجتمع وأنه لا بد أن يجاهر بعضهم بما عنده ولو عظم شأن الملك القائم بأمرهم ، واجتهد في جمع مفترق علنهم وسرهم ، قال تعالى مخبراً عن كلام بعض الأتباع في بعض ذلك : ﴿ وقال رجل ﴾ أي كامل في رجوليته ﴿ مؤمن ﴾ أي راسخ الإيمان فيما جاء به موسى عليه السلام .

ولما كان للإنسان ، إذا عم الطغيان ، أن يسكن بين أهل العدوان ، إذا نصح بحسب الإمكان ، أفاد ذلك بقوله : ﴿ من آل فرعون ﴾ أي وجوههم ورؤسائهم ﴿ يكتم إيمانه ﴾ أي يخفيه إخفاء شديداً خوفاً على نفسه لأن الواحد إذا شذ عن قبيلة يطمع فيه ما لا

يطمع إذا كان واحداً من جماعة مختلفة ، مخيلاً لهم بما يوقفهم عن الإقدام على قتله من غير تصريح بالإيمان .

ولما رآهم قد عزموا على القتل عزماً قوياً أوقع عليه اسم القتل ، فقال منكراً له غاية الإنكار : ﴿ أتقتلون رجلاً ﴾ أي هو عظيم في الرجال حساً ومعنى ، ثم علل قتلهم له بما ينافيه فقال : ﴿ أن ﴾ أي لأجل أن ﴿ يقول ﴾ ولو على سبيل التكرير : ﴿ ربي ﴾ أي المربي لي والمحسن إليّ ﴿ الله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال ﴿ وقد ﴾ أي والحال أنه قد ﴿ جاءكم بالبينات ﴾ أي الآيات الظاهرات من غير لبس ﴿ من ربكم ﴾ أي الذي لا إحسان عندكم إلا منه ، وكما أن ربوبيته له اقتضت عنه الاعتراف له بها فكذلك ينبغي أن تكون ربوبيته لكم داعية لكم إلى اعترافكم له بها .

ولما كان كلامه هذا يكاد أن يصرح بإيمانه ، وصله بما يشككهم في أمره ويوقفهم عن ضره ، فقال مشيراً إلى أنه لا يخلو حاله من أن يكون صادقاً أو كاذباً ، مقدماً القسم الذي هو أنفى للتهمة عنه وأدعى للقبول منه : ﴿ وإن ﴾ أي والحال أنه إن .

ولما كان المقام لضيقه غاية الضيق بالكون بين شرور ثلاثة عظيمة : قتلهم خير الناس إذ ذاك ، وإتيانهم بالعذاب ، واطلاعهم على إيمانه ، فأقل ما يدعوهم ذلك إلى اتهامه إن لم يحملهم على إعدامه داعية للإيجاز في الوعظ والمسارعة إلى الإتيان بأقل ما يمكن ، حذف النون فقال : ﴿ يك كاذباً فعليه ﴾ أي خاصة ﴿ كذبه ﴾ يضره ذلك وليس عليكم منه ضرر ، ولم يقل : أو صادقاً ، وإن كان الحال مقتضياً لغاية الإيجاز لئلا يكون قد نقص الجانب المقصود بالذات حقه ، فيكون قد أخل ببعض الأدب ، فقال مظهراً لفعل الكون عادلاً عما له إلى ما عليهم معادلاً لما ذكره عليه ونقصه عنه إظهاراً للنصفة ودفعاً للتهمة عن نفسه : ﴿ وإن يك ﴾ حذف نونه لمثل ما مضى ﴿ صادقاً يصبكم ﴾ أي على وجه العقوبة من الله وله صدقه ينفعه ولا ينفعكم شيئاً .

(70/675)

ولما كان العاقل من نظر لنفسه فلم يرد كلام خصمه من غير حجة ، وكان أقل ما يكون من توعد من بانت مخايل صدقه البعض ، قال ملزماً الحجة بالبعض ، غير ناف لما فوقه إظهاراً للانصاف وأنه لم يوصله حقه فضلاً عن التعصب له نفياً للتهمة عن نفسه : ﴿ بعض الذي ﴾ وقال : ﴿ يعدكم ﴾ دون " يوعدكم " إشارة إلى أنهم إن وافوه أصابهم جميع ما

وعدهموه من الخير ، وإلا دهاهم ما توعدهم من الشر ، والآية من الاحتباك : ذكر اختصاصه بضر الكذب أولاً دليلاً على ضده وهو اختصاصه بنفع الصدق ثانياً ، وإصابتهم ثانياً دليلاً على إصابته أولاً ، وسره أنه ذكر الضار في الموضعين ، لأنه أنفع في الوعظ لأن من شأن النفس الإسراع في الهرب منه ، ولقد قام أعظم من هذا المقام – كما في الصحيح عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ – أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وهو مظهر إيمانه وقد جد الجد بتحقق الشروع في الفعل حيث اخذ المشركون بمجامع ثوب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يطوف بالبيت فالتزمه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وهو يقول هذه الآية ، ودموعه تجري على لحيته حتى فرج الله وقد مزقوا كثيراً من شعر رأسه – ـ رضى الله عنه ـ

(71/675)

ولما كان فرعون قد نسب موسى عليه الصلاة والسلام بما زعمه من إرادته إظهار الفساد إلى الإسراف بعد ما نسبه إليه من الكذب ، علل هذا المؤمن قوله هذا الحسن في شقي التقسيم بما ينطبق إلى فرعون منفراً منه مع صلاحيته لإرادة موسى عليه الصلاة والسلام على ما زعمه فيه فرعون فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له مجامع العظمة ومعاقد العز ﴿ لا

يهدي ﴾ أي إلى ارتكاب ما ينفع واجتناب ما يضر ﴿ من هو مسرف ﴾ أي بإظهار الفساد متجاوز للحد ، وكأنه ـ رضى الله عنه ـ جوز أن يتأخر شيء مما توعد به فيسموه كذباً ، ولذا قال ﴿ يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ فعلق الأمر بالمبالغة فقال : ﴿ كذاب ﴾ لأن أول خذلانه وضلاله تعمقه في الكذب ، ويهدي من هو مقتصد صادق ، فإن كان كاذباً كما زعمتم ضره كذبه ، ولم يهتد لوجه يخلصه ، وإن كان صادقاً أصابتكم العقوبة ولم تهتدوا لما ينجيكم ، لاتصافكم بالوصفين .

ولما خيلهم بهذا الكلام الذي يمكنه توجيهه ، شرع في وعظهم إظهاراً للنصيحة لهم والتحسر عليهم فقال مذكراً لهم بنعمة الله عليهم محذراً لهم من سلبها مستعطفاً بذكر أنه منهم : ﴿ يا قوم ﴾ وعبر بأسلوب الخطاب دون التكلم تصريحاً بالمقصود فقال : ﴿ لكم الملك ﴾ ونبه على ما يعرفونه من تقلبات الدهر بقوله : ﴿ اليوم ﴾ وأشار إلى ما عهدوه من الخذلان في بعض الأزمان بقوله : ﴿ ظاهرين ﴾ أي غالبين على بني إسرائيل وغيرهم ، وما زال أهل البلاء يتوقعون الرخاء ، وأهل الرخاء يتوقعون البلاء ، ونبه على الإله الواحد القهار الذي له ملك السماوات فملك الأرض من باب الأولى ، بقوله معبراً بأداة الظرف الدالة على الاحتياج ترهيباً لهم : ﴿ في الأرض ﴾ أي أرض مصر التي هي لحسنها وجمعها المنافع كالأرض كلها ، قد غلبتم الناس عليها .

ولما علم من هذا أنهم لا يملكون جميع الكون ، تسبب عنه أن المالك للكل هو الإله الحق والملك المطلق الذي لا مانع لما يريد ، فلا ينبغي لأحد من عبيده أن يتعرض إلى ما لا قبل له به من سخطه ، فلذلك قال : ﴿ فمن ينصرنا ﴾ أي أنا وأنتم ، أدرج نفسه فيهم عن ذكر الشر بعد إفراده لهم بالملك إبعاداً للتهمة وحثاً على قبول النصيحة : ﴿ من بأس الله ﴾ أي الذي له الملك كله ، ونبه بأداة الشك على أن عذابه لهم أمر ممكن ، والعاقل من يجوز الجائز ويسعى في التدرع منه فقال : ﴿ إن جاءنا ﴾ أي غضباً لهذا الذي يدعي أنه أرسله ، ويجوز أن يكون صادقاً ، بل يجب اعتقاد ذلك لما أظهره من الدلائل ، وفي قوله هذا تسجيل عليهم بأنهم يعرفون أن الله ملك الملوك ورب الأرباب ، وكذا قول موسى عليه السلام ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض ﴾ [الاسراء : 102] وأن ادعاء فرعون الإلهية إنما هو محض عناد .

ولما سمع فرعون ما لا طعن له فيه ، فكان بحيث يخاف من بقية قومه إن أفحش في أمر هذا المؤمن ، فتشوف السامع لجوابه ، أخبر تعالى أنه رد رداً دون رد بقوله : ﴿ قال فرعون ﴾ أي لقومه جواباً لما قاله هذا المؤمن دالاً بالحيدة عن حاق جوابه على الانقطاع بالعجز عن نقض شيء من كلامه : ﴿ ما أريكم ﴾ أي من الآراء ﴿ إلا ما أرى ﴾ أي إنه الصواب على قدر مبلغ علمي ، أي إن ما أظهرته لكم هو الذي أبطنه .

(73/675)

ولما كان في كلام المؤمن تعريض في أمر الهداية ، وكان الإنسان ربما يتوافق قلبه ولسانه ، ويكون تطابقهما على ضلال ، قال : ﴿ وما أهديكم ﴾ أي بما أشرت به من قتل موسى عليه السلام وغيره ﴿ إلا سبيل الرشاد ﴾ أي الذي أرى أنه صواب ، لا أبطن شيئاً وأظهر غيره ، وربما يكون في هذا تنبيه لهم على ما يلوح من كلام المؤمن لأنه ارتاب في أمره ، وفي هذا أنه في غاية الرعب من أمر موسى عليه السلام لاستشارته لقومه في أمره واحتمال هذه المراجعات التي يلوح منها أنه يكاد ينفطر غيظاً منه ولكنه يتجلد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 507.509 ﴾

(74/675)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله ، بيّن أنه تعالى قيض إنساناً أجنبياً غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه وبالغ في تسكين تلك الفتنة واجتهد في إزالة ذلك الشر .

يقول مصنف هذا الكتاب رحمه الله ، ولقد جربت في أحوال نفسي أنه كلما قصدني شرير بشر ولم أتعرض له وأكتفي بتفويض ذلك الأمر إلى الله ، فإنه سبحانه يقيض أقواماً لا أعرفهم ألبتة ، يبالغون في دفع ذلك الشر ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في ذلك الرجل الذي كان من آل فرعون ، فقيل إنه كان ابن عم له ، وكان جارياً مجرى ولي العهد ومجرى صاحب الشرطة ، وقيل كان قبطياً من آل فرعون وما كان من أقاربه ، وقيل إنه كان من بني إسرائيل ، والقول الأول أقرب لأن لفظ الآل يقع على القرابة والعشيرة قال تعالى : ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ [القمر : 34] وعن رسول الله أنه قال : " الصديقون ثلاثة : حبيب النجار مؤمن آل ياسين ، ومؤمن آل فرعون الذي قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ والثالث علي ابن أبي طالب وهو أفضلهم " وعن جعفر بن محمد أنه قال : كان أبو بكر خيراً من مؤمن آل فرعون لأنه كان يكتم إيمانه وقال أبو بكر جهاراً ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ فكان ذلك سراً وهذا كان جهاراً .

المسألة الثانية :

لفظ من في قوله ﴿ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً بقوله ﴿ مُؤْمِنٍ ﴾ أي كان ذلك المؤمن شخصاً من آل فرعون ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله ﴿ يَكْتُمُ إِيمانه ﴾ والتقدير رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون ، وقيل إن هذا الاحتمال غير جائز لأنه يقال كتمت من فلان كذا ، إنما يقال كتمته كذا قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً ﴾ [النساء : 42] .

(75/675)

المسألة الثالثة :

رجل مؤمن الأكثرون قرأوا بضم الجيم وقرىء رجل بكسر الجيم كما يقال عضد في عضد .

المسألة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ الله ﴾ استفهام على سبيل الإنكار ، وقد ذكر في هذا الكلام ما يدل على حسن ذلك الاستنكار ، وذلك لأنه ما زاد على أن قال : ﴿ رَبِّىَ الله ﴾ وجاء بالبينات وذلك لا يوجب القتل ألبتة وقوله ﴿ وَقَدْ جَاءكُمْ بالبينات مِن رَّبِّكُمْ ﴾ يحتمل وجهين الأول : أن قوله ﴿ رَبِّىَ الله ﴾ إشارة إلى التوحيد ، وقوله ﴿ وَقَدْ جَاءكُمْ بالبينات ﴾ إشارة إلى الدلائل الدالة على التوحيد ، وهو قوله في سورة طه [50] ﴿ رَبُّنَا الذى أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ وقوله في سورة الشعراء [24]

﴿ رَبّ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾

إلى آخر الآيات ، ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية في أن الإقدام على قتله غير جائز وهي حجة مذكورة على طريقة التقسيم ، فقال إن كان هذا الرجل كاذباً كان وبال كذبه عائداً عليه فاتركوه وإن كان صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، فثبت أن على كلا التقديرين كان الأولى إبقاؤه حياً .

(76/675)

فإن قيل السؤال على هذا الدليل من وجهين الأول : أن قوله ﴿ وَإِن يَكُ كاذبا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ معناه أن ضرر كذبه مقصور عليه ولا يتعداه ، وهذا الكلام فاسد لوجوه أحدها : أنا لا نسلم أن بتقدير كونه كاذباً كان ضرر كذبه مقصوراً عليه ، لأنه يدعو الناس إلى ذلك الدين الباطل ، فيغتر به جماعة منهم ، ويقعون في المذهب الباطل والاعتقاد الفاسد ، ثم يقع بينهم وبين غيرهم الخصومات الكثيرة فثبت أن بتقدير كونه كاذباً لم يمكن ضرر كذبه مقصوراً عليه ، بل كان متعدياً إلى الكل ، ولهذا السبب العلماء أجمعوا على أن الزنديق الذي يدعو الناس إلى زندقته يجب قتله وثانيها : أنه إن كان الكلام حجة له ، فلا كذاب إلا ويمكنه أن يتمسك بهذه الطريقة ، فوجب تمكن جميع الزنادقة والمبطلين من تقرير أديانهم الباطلة

وثالثها : أن الكفار الذين أنكروا نبوّة موسى عليه السلام وجب أن لا يجوز الإنكار عليهم ، لأنه يقال : إن كان ذلك المنكر كاذباً في ذلك الإنكار فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً انتفعتم بصدقه ، فثبت أن هذا الطريق يوجب تصويب ضده ، وما أفضى ثبوته إلى عدمه كان باطلاً .

(77/675)

السؤال الثاني : أنه كان من الواجب أن يقال وإن يك صادقاً يصبكم كل الذي يعدكم لأن الذي يصيب في بعض ما يعد دون البعض هم أصحاب الكهانة والنجوم ، أما الرسول الصادق الذي لا يتكلم إلا بالوحي فإنه يجب أن يكون صادقاً في كل ما يقول فكان قوله ﴿ يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذى يَعِدُكُمْ ﴾ غير لائق بهذا المقام والجواب : عن الأسئلة الثلاثة بحرف واحد وهو أن تقدير الكلام أن يقال إنه لا حاجة بكم في دفع شره إلى قتله بل يكفيكم أن تمنعوه عن إظهار هذه المقالة ثم تتركوا قتله فإن كان كاذباً فحينئذ لا يعود ضرره إلا إليه ، وإن يك صادقاً انتفعتم به ، والحاصل أن المقصود من ذكر ذلك التقسيم بيان أنه لا حاجة إلى قتله بل يكفيكم أن تعرضوا عنه وأن تمنعوه عن إظهار دينه فبهذا الطريق (تكون) الأسئلة الثلاثة مدفوعة .

وأما السؤال الثاني : وهو قوله كان الأولى أن يقال يصبكم كل الذي يعدكم ، فالجواب عنه من وجوه الأول : أن مدار هذا الاستدلال على إظهار الإنصاف وترك اللجاج لأن المقصود منه إن كان كاذباً كان ضرر كذبه مقصوراً عليه ، وإن كان صادقاً فلا أقل من أن يصل إليكم بعض ما يعدكم ، وإن كان المقصود من هذا الكلام ما ذكر صح ، ونظيره قولله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : 24] ، والوجه الثاني : أنه عليه السلام كان يتوعدهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة ، فإذا وصل إليهم في الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الذي يعدهم به ، الوجه الثالث : حُكي عن أبي عبيدة أنه قال ورود لفظ البعض بمعنى الكل جائز ، واحتج بقول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها . . أو يرتبط بعض النفوس حمامها

والجمهور على أن هذا القول خطأ ، قالوا وأراد لبيد ببعض النفوس نفسه ، والله أعلم .

(78/675)

ثم حكى الله تعالى عن هذا المؤمن حكاية ثالثة في أنه لا يجوز إيذاء موسى عليه السلام فقال : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ وتقرير هذا الدليل أن يقال : إن الله تعالى هدى موسى إلى الإتيان بهذه المعجزات الباهرة ، ومن هداه الله إلى الإتيان

بالمعجزات لا يكون مسرفاً كذاباً فهذا يدل على أن موسى عليه السلام ليس من الكاذبين ، فكان قوله ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ إشارة إلى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض ، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى ، كذاب في إقدامه على ادعاء الإلهية ، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته ، بل يبطله ويهدم أمره .

يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا

اعلم أن مؤمن آل فرعون لما أقام أنواع الدلائل على أنه لا يجوز الإقدام على قتل موسى ، خوفهم في ذلك بعذاب الله فقال : ﴿ يا قوم لَكُمُ الملك اليوم ظاهرين فِى الأرض ﴾ يعني قد علوتم الناس وقهرتموهم ، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه ، فإنه لا قبل لكم به ، وإنما قال : ﴿ يَنصُرُنَا ﴾ و ﴿ جَاءنَا ﴾ لأنه كان يظهر من نفسه أنه منهم وأن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه ، ولما قال ذلك المؤمن هذا الكلام ﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أي لا أشير إليكم برأي سوى ما ذكرته أنه يجب قتله حسماً لمادة الفتنة ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ ﴾ بهذا الرأي ﴿ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ والصلاح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 50 . 53 ﴾

(79/675)

وقال ابن العربى :

قَوْله تعَالَى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ .

ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْمُكَلَّفَ إذَا كَتَمَ إيمَانَهُ ، وَلَمْ يَتَلَفَّظْ بِهِ لِسَانُهُ [أَنَّهُ] لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا بِاعْتِقَادِهِ . وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ : إنَّهُ إذَا نَوَى بِقَلْبِهِ طَلَاقَ زَوْجِهِ أَنَّهُ يَلْزَمُهُ ، كَمَا يَكُونُ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا بِقَلْبِهِ ، فَجَعَلَ مَدَارَ الْإِيمَانِ عَلَى الْقَلْبِ ، وَإِنَّهُ كَذَلِكَ ، لَكِنْ لَيْسَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ بِمَا لُبَابُهُ أَنَّ الْمُكَلَّفَ إذَا نَوَى الْكُفْرَ بِقَلْبِهِ كَانَ كَافِرًا ، وَإِنْ لَمْ يَلْفِظْ بِلِسَانِهِ . وَأَمَّا إذَا نَوَى الْإِيمَانَ بِقَلْبِهِ فَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَتَلَفَّظَ بِلِسَانِهِ ، وَأَمَّا إذَا نَوَى الْإِيمَانَ بِقَلْبِهِ تَمْنَعُهُ التَّقِيَّةُ وَالْخَوْفُ مِنْ أَنْ يَتَلَفَّظَ بِلِسَانِهِ [فَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا] فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا تَمْنَعُهُ التَّقِيَّةُ مِنْ أَنْ يَسْمَعَهُ غَيْرُهُ ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْإِيمَانِ أَنْ يَسْمَعَهُ الْغَيْرُ فِي صِحَّتِهِ مِنْ التَّكْلِيفِ ؛ إنَّمَا يُشْتَرَطُ سَمَاعُ الْغَيْرِ لَهُ لِيَكُفَّ عَنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾)

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ ﴾ ذكر بعض المفسرين : أن اسم هذا الرجل حبيب .

وقيل : شمعان بالشين المعجمة .

قال السُّهيلي : وهو أصح ما قيل فيه .

وفي تاريخ الطبري رحمه الله : اسمه خبرك .

وقيل : حزقيل .

ذكره الثعلبي عن ابن عباس وأكثر العلماء .

الزمخشري : واسمه سمعان أو حبيب .

وقيل : خربيل أو حزبيل .

واختلف هل كان إسرائيلياً أو قبطياً فقال الحسن وغيره : كان قبطياً .

ويقال : إنه كان ابن عم فرعون ؛ قاله السدي .

قال : وهو الذي نجا مع موسى عليه السلام ؛ ولهذا قال : "مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ" وهذا الرجل هو

المراد بقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة يسعى قَالَ يا موسى ﴾ [القصص : 20] الآية .

وهذا قول مقاتل .

وقال ابن عباس : لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذي أنذر موسى فقال : ﴿ إِنَّ الملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الصِّدِّيقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذي قال أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله والثالث أبو بكر الصِّدِّيق وهو أفضلهم " وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم أي لا تعجب من مشركي قومك .

وكان هذا الرجل له وجاهة عند فرعون ؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء .

وقيل : كان هذا الرجل من بني إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون ؛ عن السّدي أيضاً .

ففي الكلام على هذا تقديم وتأخير ، والتقدير : وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون .

فمن جعل الرجل قبطياً ف "مِن" عنده متعلقة بمحذوف صفة لرجل ؛ التقدير : وقال رجل مؤمن منسوب من آل فرعون ؛ أي من أهله وأقاربه .

ومن جعله إسرائيليا ف "مِن" متعلقة ب "يكتم" في موضع المفعول الثاني ل "يكتم" .

القشيري : ومن جعله إسرائيلياً ففيه بعد ؛ لأنه يقال كتمه أمر كذا ولا يقال كتم منه .

قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً ﴾ [النساء : 42] وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ﴾ أي لأن يقول ومن أجل "أَنْ يَقُول رَبِّيَ اللَّهُ" ف "أَنْ" في موضع نصب بنزع الخافض .

﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بالبينات ﴾ يعني الآيات التسع ﴿ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ ولم يكن ذلك لشك منه في رسالته وصدقه ، ولكن تلطفاً في الاستكفاف واستنزالاً عن الأذى .

ولو كان و "إِنْ يكن" بالنون جاز ولكن حذفت النون لكثرة الاستعمال على قول سيبويه ؛ ولأنها نون الإعراب على قول أبي العباس .

﴿ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ ﴾ أي إن لم يصبكم إلا بعض الذي يعدكم به هلكتم .

ومذهب أبي عبيدة أن معنى "بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ" كل الذي يعدكم وأنشد قول لبيد :

تَرَّاكُ أمكِنَةٍ إذا لم أَرْضَهَا . . .

أو يَرْتَبِطِ بعْضَ النفوسِ حِمَامُها

فبعض بمعنى كلّ ؛ لأن البعض إذا أصابهم أصابهم الكل لا محالة لدخوله في الوعيد ، وهذا ترقيق الكلام في الوعظ .

وذكر الماوردي : أن البعض قد يستعمل في موضع الكل تلطفاً في الخطاب وتوسعاً في الكلام ؛ كما قال الشاعر :

قَدْ يُدْرِكُ المتأَنِّي بعض حَاجتِهِ . . .

وقد يكون مَعَ المسْتَعجِلِ الزَّلَلُ

وقيل أيضاً : قال ذلك لأنه حذرهم أنواعاً من العذاب كل نوع منها مهلك ؛ فكأنه حذرهم أن يصيبهم بعض تلك الأنواع .

وقيل : وعدهم موسى بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة إن كفروا ؛ فالمعنى يصبكم أحد العذابين .

وقيل : أي يصبكم هذا العذاب الذي يقوله في الدنيا وهو بعض الوعيد ، ثم يترادف العذاب في الآخرة أيضاً .

وقيل : وعدهم العذاب إن كفروا والثواب إن آمنوا ، فإذا كفروا يصيبهم بعض ما وعدوا .

(82/675)

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ (على نفسه) ﴿ كَذَّابٌ ﴾ على ربه إشارة إلى موسى ويكون هذا من قول المؤمن .

وقيل : "مُسْرِفٌ" في عناده "كَذَّابٌ" في ادعائه إشارة إلى فرعون ويكون هذا من قول الله تعالى .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ قال القاضي أبو بكر بن العربي : ظن بعضهم أن المكلف إذا كتم إيمانه ولم يتلفظ به بلسانه لا يكون مؤمناً باعتقاده ، وقد قال مالك : إن الرجل إذا نوى بقلبه طلاق زوجته أنه يلزمه ، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه .

فجعل مدار الإيمان على القلب وأنه كذلك ، لكن ليس على الإطلاق وقد بيناه في أصول الفقه ؛ بما لبابه أن المكلف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافراً وإن لم يتلفظ بلسانه ، وأما إذا نوى الإيمان بقلبه فلا يكون مؤمناً بحال حتى يتلفظ بلسانه ، ولا تمنعه التقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى ، إنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره ، وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير في صحته من التكليف ، وإنما يشترط سماع الغير له ليكف عن نفسه وماله .

الرابعة : روى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فأخذ بمنكب رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَآءَكُمْ بالبينات مِن رَّبِّكُمْ ﴾ لفظ البخاري .

(83/675)

خرجه الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال : اجتمعت قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاث فأرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل هذا يجؤه وهذا يتلتله ، فاستغاث النبي صلى الله عليه وسلم يومئذٍ فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان ، فأقبل يجأ ذا ويتلتل ذا ويقول بأعلى صوته : ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ﴾ والله إنه لرسول الله ؛ فقطعت إحدى ضفيرتي أبي بكر يومئذٍ .

فقال عليّ : والله ليوم أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون ؛ إن ذلك رجل كتم إيمانه ، فأثنى الله عليه في كتابه ، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله عز وجل .

قلت : قول عليّ رضي الله عنه إن ذلك رجل كتم إيمانه يريد في أول أمره بخلاف الصدّيق فإنه أظهر إيمانه ولم يكتمه ؛ وإلا فالقرآن مصرح بأن مؤمن آل فرعون أظهر إيمانه لما أرادوا

قتل موسى عليه السلام على ما يأتي بيانه .

في "نوادر الأصول" أيضاً عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالوا لها : ما أشدّ شيءٍ رأيتِ المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان المشركون قعوداً في المسجد ، ويتذاكرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقول في آلهتهم ، فبيناهم كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقاموا إليه بأجمعهم وكانوا إذا سألوه عن شيء صدَقهم ، فقالوا : ألست تقول كذا في آلهتنا قال : "بلى" فتشبثوا فيه بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال له : أدرك صاحبك .

فخرج من عندنا وإن له غدائر ، فدخل المسجد وهو يقول : "ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بالبينات مِن رَّبِّكُمْ ﴾ فلهوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه ، وهو يقول : تباركت يا ذا الجلال والإكرام ؛ إكرام إكرام .

(84/675)

قوله تعالى : ﴿ يا قوم لَكُمُ الملك اليوم ﴾

هذا من قول مؤمن آل فرعون ، وفي قوله : "يَا قَوْمِ" دليل على أنه قبطي ، ولذلك أضافهم إلى

نفسه فقال : "يَا قَوْمِ" ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه "لَكُمُ الْمُلْكُ" فاشكروا الله على ذلك .

﴿ ظَاهِرِينَ فِي الأرض ﴾ أي غالبين وهو نصب على الحال أي في حال ظهوركم .

والمراد بالأرض أرض مصر في قول السدي وغيره ؛ كقوله : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض ﴾ [يوسف : 56] أي في أرض مصر .

﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ الله إِن جَآءَنَا ﴾ أي من عذاب الله تحذيراً لهم من نقمه إن كان موسى صادقاً ، فذكر وحذر فعلم فرعون ظهور حجته فقال : ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلاَّ مَآ أرى ﴾ .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما أشير عليكم إلا ما أرى لنفسي ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ في تكذيب موسى والإيمان بي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(85/675)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) ﴾

ابتدأ تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام ،

ووعيد القريش أن يحل بهم ما حل بفرعون وقومه من نقمات الله ، ووعد للمؤمنين بالظفر والنصر وحسن العاقبة .

وآيات موسى عليه السلام كثيرة ، والذي تحدى به من المعجز العصا واليد .

وقرأ عيسى : وسلطان بضم اللام ، والسلطان المبين : الحجة والبرهان الواضح .

والظاهر أن قارون هو الذي ذكره تعالى في قوله : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾ وهو من بني إسرائيل .

وقيل : هو غيره ، ونص على هامان وقارون لمكانتهما في الكفر ، ولأنهما أشهر أتباع فرعون .

﴿ فقالوا ساحر كذاب ﴾ : أي هذا ساحر ، لما ظهر على يديه من قلب العصا حية ، وظهور النور الساطع على يده ، كذاب لكونه ادعى أنه رسول من رب العالمين .

﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ﴾ : أي بالمعجزات والنبوة والدعاء إلى الإيمان بالله ، ﴿ قالوا ﴾ ، أي أولئك الثلاثة ، ﴿ اقتلوا ﴾ .

قال ابن عباس : أي أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أولاً . انتهى .

يريد أن هذا غير القتل الأول ، وإنما أمروا بقتل أبناء المؤمنين لئلا يتقوى بهم موسى عليه السلام ، وباستحياء النساء للاستخدام والاسترقاق ، ولم يقع ما أمروا به ولا تم لهم ، ولا أعانهم الله عليه .

﴿ وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ : أي في حيرة وتخبط ، لم يقع منه شيء ، ولا أنجح سعيهم ، وكانوا باشروا القتل أولاً ، فنفذ قضاء الله في إظهار من خافوا هلاكهم على يديه .

وقيل : كان فرعون قد كف عن قتل الأبناء ، فلما بعث موسى ، وأحس أنه قد وقع ما كان يحذره ، أعاد القتل عليهم غيظاً وحنقاً وظناً منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرة موسى ، وما علم أن كيده ضائع في الكرتين معاً .

(86/675)

﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه ﴾ ، قال الزمخشري : بعضه من كلام الحسن ، كان إذا هم بقتله كفوه بقولهم : ليس بالذي تخافه ، هو أقل من ذلك وأضعف ، وما هو إلا بعض السحرة ، ومثله لا يقامه إلا ساحر مثله ، ويقولون : إن قتلته أدخلت الشبهة على الناس ، واعتقدوا أنك عجزت عن مظاهرته بالحجة .

والظاهر أن فرعون ، لعنه الله ، كان قد استيقن أنه نبي ، وأن ما جاء به آيات وما هو سحر ، ولكن الرجل كان فيه خبث وجبروت ، وكان قتالاً سفاكاً للدماء في أهون شيء ، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يثل عرشه ، يهدم ملكه ؟ ولكنه يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك .

وقوله : ﴿ وليدع ربه ﴾ : شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه ، كان قوله : ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه ، وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع .

وقال ابن عطية : الظاهر من أمر فرعون أنه لما بهرت آيات موسى انهدَّ ركنه واضطربت معتقدات أصحابه ، ولم يفقد منهم من يجاذبه الخلاف في أمره ، وذلك بين من غير ما موضع في قصتهما ، وفي ذلك على هذا دليلان : أحدهما : قوله ﴿ ذروني ﴾ ، فليست هذه من ألفاظ الجبابرة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم .

الدليل الثاني : في مقالة المؤمن وما صدع به ، وأن مكاشفته لفرعون خير من مساترته ، وحكمه بنبوة موسى أظهر من تقريبه في أمره .

وأما فرعون ، فإنه نحا إلى المخرقة والاضطراب والتعاطي ، ومن ذلك قوله : ﴿ ذروني أقتل موسى وليدع ربه ﴾ : أي إني لا أبالي من رب موسى ، ثم رجع إلى قومه يريهم النصيحة والخيانة لهم ، فقال : ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم ﴾ ، والدين : السلطان ، ومنه قول زهير :

لئن حللت بجوّ في بني أسد . . .

في دين عمرو وحالت بيننا فدك

انتهى .

وتبديل دينهم هو تغييره ، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام ، كما قال : ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ أو أن يظهر الأرض الفساد ، وذلك بالتهارج الذي يذهب معه الأمن ، وتتعطل المزارع والمكاسب ، ويهلك الناس قتلاً وضياعاً ، فأخاف فساد دينكم ودنياكم معاً .

وبدأ فرعون بخوفه تغيير دينهم على تغيير دنياهم ، لأن حبهم لأديانهم فوق حبهم لأموالهم .

وقيل : ﴿ ذروني ﴾ يدل على أنهم كانوا يمنعونه من قتله ، إما لكون بعضهم كان مصدقاً له فيتحيل في منع قتله ، وإما لما روي عن الحسن مما ذكر الزمخشري ، وإما الشغل قلب فرعون بموسى حتى لا يتفرغ لهم ، ويأمنوا من شره ؛ كما يفعلون مع الملك ، إذا خرج عليه خارجي شغلوه به حتى يأمنوا من شره .

وقرأ الكوفيون : أو أن ، بترديد الخوف بين تبديل الدين أو ظهور الفساد .

وقرأ باقي السبعة : وأن بانتصاب الخوف عليهما معاً .

وقرأ أنس بن مالك ، وابن المسيب ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو رجاء ، والحسن ، والجحدري ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص : ﴿ يظهر ﴾ من أظهر مبنياً للفاعل ، ﴿ الفساد ﴾ : نصباً .

وقرأ باقي السبعة ، والأعرج ، والأعمش ، وابن وثاب ، وعيسى : يظهر من ظهر مبنياً للفاعل ، الفساد : رفعاً .

وقرأ مجاهد : يظهر بشد الظاء والهاء ، الفساد : رفعاً .

وقرأ زيد بن عليّ : يظهر : بضم الياء وفتح الهاء مبنياً للمفعول ، الفساد : رفعا " .

ولما سمع موسى بمقالة فرعون ، استعاذ بالله من شر كل متكبر منكر للمعاد .

وقال : ﴿ وربكم ﴾ : بعثاً على الاقتداء به ، فيعوذون بالله ويعتصمون به ومن كل متكبر يشمل فرعون وغيره من الجبابرة ؛ وكان ذلك على طريق التعريض ، وكان أبلغ .

والتكبر : تعاظم الإنسان في نفسه مع حقارته ، لأنه يفعل ولا يؤمن بيوم الحساب ، أي بالجزاء ، وكان ذلك آكد في جراءته ، إذ حصل له التعاظم في نفسه ، وعدم المبالاة بما ارتكب .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : عدت بالإدغام ؛ وباقي السبعة : بالإظهار .

(88/675)

وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، قيل : كان قبطياً ابن عم فرعون ، وكان يجري مجرى ولي العهد ، ومجرى صاحب الشرطة .

وقيل : كان قبطياً ليس من قرابته .

وقيل : قيل فيه من آل فرعون ، لأنه كان في الظاهر على دينه ودين أتباعه .

وقيل : كان إسرائيلياً وليس من آل فرعون ، وجعل آل فرعون متعلقاً بقوله : ﴿ يكتم إيمانه ﴾ ، لا في موضع الصفة لرجل ، كما يدل عليه الظاهر ، وهذا فيه بعد ، إذ لم يكن لأحد من بني إسرائيل أن يتجاسر عند فرعون بمثل ما تكلم به هذا الرجل .

وقد رد قول من علق من آل فرعون بيكتم ، فإنه لا يقال : كتمت من فلان كذا ، إنما يقال : كتمت فلاناً كذا ، قال تعالى : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ وقال الشاعر :

كتمتك ليلاً بالجمومين ساهراً . . .

وهمين هماً مستكناً وظاهرا

أحاديث نفس تشتكي ما يريبها . . .

وورد هموم لن يجدن مصادرا

أي : كتمتك أحاديث نفس وهمين .

قيل : واسمه سمعان .

وقيل : حبيب .

وقيل : حزقيل .

وقرأ الجمهور : ﴿ رجل ﴾ بضم الجيم .

وقرأ عيسى ، وعبد الوارث ، وعبيد بن عقيل ، وحمزة بن القاسم عن أبي عمرو : بسكون

، وهي لغة تميم ونجد .

﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ﴾ : أي لأن يقول ﴿ ربي الله ﴾ ، وهذا إنكار منه عظيم وتبكيت لهم ، كأنه قال : أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة وما لكم عليه في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها ، وهي قوله : ﴿ ربي الله ﴾ ، مع أنه ﴿ قد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ : أي من عند من نسب إليه الربوبية ، وهو ربكم لا ربه وحده ؟ وهذا استدراج إلى الاعتراف .

وقال الزمخشري : ولك أن تقدر مضافاً محذوفاً ، أي وقت أن يقول ، والمعنى : أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره ؟ انتهى .

(89/675)

وهذا الذي أجازه من تقدير المضاف المحذوف الذي هو وقت لا يجوز ، تقول : جئت صياح الديك ، أي وقت صياح الديك ، ولا أجيء أن يصيح الديك ، نص على ذلك النحاة ، فشرط ذلك أن يكون المصدر مصرحاً به لا مقدراً ، وأن يقول ليس مصدراً مصرحاً به .

﴿ بالبينات ﴾ : بالدلائل على التوحيد ، وهي التي ذكرها في طه والشعراء حالة محاورته له في سؤاله عن ربه تعالى .

ولما صرح بالإنكار عليهم ، غالطهم بعد في أن قسم أمره إلى كذب وصدق ، وأدّى ذلك في صورة احتمال ونصيحة ، وبدأ في التقسيم بقوله : ﴿ وإن يك كاذباً فعليه كذبه ﴾ ، مداراة منه وسالكاً طريق الإنصاف في القول ، وخوفاً إذا أنك عليهم قتله أنه ممن يعاضده ويناصره ، فأوهمهم بهذا التقسيم والبداءة بحالة الكذب حتى يسلم من شره ، ويكون ذلك أدنى لتسليمهم .

ومعنى ﴿ فعليه كذبه ﴾ : أي لا يتخطاه ضرره .

﴿ وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ ، وهو يعتقد أنه نبي صادق قطعاً ، لكنه أتى بلفظ بعض لإلزام الحجة بأسرها في الأمر ، وليس فيه نفي أن يصيبهم كل ما يعدهم .

وقالت فرقة : يصبكم بعض العذاب الذي يذكر ، وذلك كان في هلاكهم ، ويكون المعنى : يصبكم القسم الواحد مما يعد به ، وذلك هو بعض مما يعد ، لأنه عليه السلام وعدهم إن آمنوا بالنعمة ، وإن كفروا بالنقمة .

وقالت فرقة : بعض الذي يعدكم عذاب الدنيا ، لأنه بعض عذاب الآخرة ، ويصيرون بعد ذلك إلى النار .

وقال أبو عبيدة وغيره : بعض بمعنى كل ، وأنشدوا عمرو بن شسيم القطامي :

قد يدرك المتأني بعض حاجته . . .

وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقال الزمخشري : وذلك أنه حين فرض صادقاً ، فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد ، ولكنه أردفه ﴿ يصبكم بعض الذين يعدكم ﴾ ، ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه وافياً فضلاً أن يتعصب له .

فإن قلت : وعن أبي عبيدة أنه قسم البعض بالكل ، وأنشد بيت لبيد وهو :

تراك أمكنة إذا لم أرضها . . .

(90/675)

ويريك من بعض النفوس حمامها

قلت : إن صحت الرواية عنه فقد حق في قول المازني في مسألة العافي كان أحفى من أن يفقه ما أقول له .

انتهى ، ويعني أن أبا عبيدة خطأه الناس في اعتقاده أن بعضاً يكون بمعنى كل ، وأنشدوا أيضاً في كون بعض بمعنى كل قول الشاعر :

إن الأمور إذا الأحداث دبرها . . .

دون الشيوخ في بعضها خللا

أي : إذا رأى الأحداث ، ولذلك قال دبرها ولم يقل دبروها ، راعي المضاف المحذوف .

﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ فيه : إشارة إلى علو شأن موسى ، عليه السلام ، وأن من اصطفاه الله للنبوة لا يمكن أن يقع منه إسراف ولا كذب ، وفيه تعريض بفرعون ، إذ هو غاية الإسراف على نفسه بقتل أبناء المؤمنين ، وفي غاية الكذب ، إذ ادّعى الإلهية والربوبية ، ومن هذا شأنه لا يهديه الله .

وفي الحديث : " الصديقون ثلاثة : حبيب النجار مؤمن آل يس ، ومؤمن آل فرعون ، وعليّ بن أبي طالب " وفي الحديث : "أنه عليه السلام ، طاف بالبيت ، فحين فرغ أخذ بمجامع ردائه ، فقالوا : له أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا ؟ فقال : أنا ذاك ، فقام أبو بكر ، رضي الله عنه ، فالتزمه من ورائه وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم" ، رافعاً صوته بذلك وعيناه تسفحان بالدموع حتى أرسلوه .

وعن جعفر الصادق : أن مؤمن آل فرعون قال ذلك سرًّا ، وأبو بكر قاله ظاهراً .

وقال السدي : مسرف بالقتل .

وقال قتادة : مسرف بالكفر .

(91/675)

وقال صاحب التحرير والتحبير : هذا نوع من أنواع علم البيان تسميه علماؤنا استدراج المخاطب ، وذلك أنه لما رأى فرعون قد عزم على قتل موسى ، والقوم على تكذيبه ، أراد الانتصار له بطريق يخفي عليهم بها أنه متعصب له ، وأنه من أتباعه ، فجاءهم من طريق النصح والملاطفة فقال : ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ ، ولم يذكر اسمه ، بل قال رجلاً يوهم أنه لا يعرفه ولا يتعصب له ، ﴿ أن يقول ربي الله ﴾ ، ولم يقل رجلاً مؤمناً بالله ، أو هو نبي الله ، إذ لو قال شيئاً من ذلك لعلموا أنه متعصب .

ولم يقبلوا قوله ، ثم اتبعه بما بعد ذلك ، فقدم قوله : ﴿ وإن يك كاذباً ﴾ ، موافقة لرأيهم فيه .

ثم تلاه بقوله : ﴿ وإن يك صادقاً ﴾ ، ولو قال هو صادق وكل ما يعدكم ، لعلموا أنه متعصب ، وأنه يزعم أنه نبي ، وأنه يصدقه ، فإن الأنبياء لا تخل بشيء مما يقولونه ، ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدق ، وهو قوله : ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ . انتهى .

ثم قال : ﴿ يا قوم ﴾ نداء متلطف في موعظتهم .

﴿ لكم الملك اليوم ظاهرين ﴾ : أي عالمين : ﴿ في الأرض ﴾ : في أرض مصر ، قد غلبتم بني إسرائيل فيها ، وقهرتموهم واستعبدتموهم ، وناداهم بالملك الذي هو أعظم مراتب الدنيا وأجهلها ، وهو من جهة شهواتهم ، وانتصب ظاهرين على الحال ، والعامل

فيها هو العامل في الجار والمجرور ، وذو الحال هو ضمير لكم .

ثم حذرهم أن يفسدوا على أنفسهم بأنه إن جاءهم بأس الله لم يجدوا ناصراً لهم ولا دافعاً ، وأدرج نفسه في قوله : ﴿ ينصرنا ﴾ ، ﴿ وجاءنا ﴾ لأنه منهم في القرابة ، وليعلمهم أن الذي ينصحهم به هو مشارك لهم فيه .

وأقوال هذا المؤمن تدل على زوال هيبة فرعون من قلبه ، ولذلك استكان فرعون وقال : ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ : أي ما أشير عليكم إلا بقتله ، ولا أستصوب إلا ذلك ، وهذا قول من لا تحكم له ، وأتى بما وإلا للحصر والتأكيد .

(92/675)

﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ ، لا ما تقولونه من ترك قتله وقد كذب ، بل كان خائفاً وجلاً ، وقد علم أن ما جاء به موسى عليه السلام حق ، ولكنه كان يتجلد ، ويرى ظاهره خلاف ما أبطن .

وأورد الزمخشري وابن عطية وأبو القاسم الهذلي هنا أن معاذ بن جبل قرأ الرشاد بشد الشين .

قال أبو الفتح : وهو اسم فاعل في بنية مبالغة من الفعل الثلاثي رشد ، فهو كعباد من عبد .

وقال الزمخشري : أو من رشد ، كعلام من علم .

وقال النحاس : هو لحن ، وتوهمه من الفعل الرباعي ، ورد عليه أنه لا يتعين أن يكون من الرباعي ، بل هو من الثلاثي ، على أن بعضهم قد ذهب إلى أنه من الرباعي ، فبنى فعال من أفعل ، كدراك من أدرك ، وسآر من أسأر ، وجبار من أجبر ، وقصار من أقصر ، ولكنه ليس بقياس ، فلا يحمل عليه ما وجدت عنه مندوحة ، وفعال من الثلاثي مقيس فحمل عليه .

وقال أبو حاتم : كان معاذ بن جبل يفسرها بسبيل الله .

قال ابن عطية : ويبعد عندي على معاذ رضي الله عنه .

وهل كان فرعون إلا يدعي أنه إله ؟ وتعلق بناء اللفظ على هذا التأويل . انتهى .

وإيراد الخلاف في هذا الحرف الذي هو من قول فرعون خطأ ، وتركيب قول معاذ عليه خطأ ، والصواب أن الخلاف فيه هو قول المؤمن : ﴿ اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ .

قال أبو الفضل الرازي في (كتاب اللوامح) له من شواذ القراءات ما نصه : معاذ بن جبل سبيل الرشاد ، الحرف الثاني بالتشديد ، وكذلك الحسن ، وهو سبيل الله تعالى الذي أوضح الشرائع ، كذلك فسره معاذ بن جبل ، وهو منقول من مرشد ، كدراك من مدرك ، وجباز من مجبر ، وقصار من مقصر عن الأمر ، ولها نظائر معدودة ، فأما قصار فهو من قصر من الثوب قصارة .

وقال ابن خالويه ، بعد أن ذكر الخلاف في التناد وفي صد عن السبيل ما نصه : سبيل الرشاد بتشديد الشين ، معاذ بن جبل .

قال ابن خالويه : يعني بالرشاد الله تعالى . انتهى .

(93/675)

فهذا لم يذكر الخلاف إلا في قول المؤمن : ﴿ أهديكم سبيل الرشاد ﴾ ، فذكر الخلاف فيه في قول فرعون خطأ ، ولم يفسر معاذ بن جبل الرشاد أنه الله تعالى إلا في قول المؤمن ، لا في قول فرعون .

قال ابن عطية : ذلك التأويل من قول فرعون وَهْمٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(94/675)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾

قيل كان قبطياً ابن عم فرعون وكان يجري مجرى ولي العهد ومجرى صاحب الشرطة ، وقيل : كان إسرائيلياً ، وقيل : كان غريباً ليس من الفئتين ، ووصفه على هذين القولين بكونه من آل فرعون باعتبار دخوله في زمرتهم وإظهار أنه على دينهم وملتهم تقية وخوفاً ، ويقال نحو هذا في الإضافة في مؤمن آل فرعون الواقع في عدة أخبار ، وقيل : ﴿ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ على القولين متعلق بقوله تعالى : ﴿ يَكْتُمُ إيمانه ﴾ والتقديم للتخصيص أي رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون دون موسى عليه السلام ومن اتبعه ، ولا بأس على هذا في الوقف على مؤمن .

واعترض بأن كتم يتعدى بنفسه دون من فيقال : كتمت فلاناً كذا دون كتمت من فلان قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً ﴾ [النساء : 42] وقال الشاعر :

كتمتك ليلاً بالجمومين ساهرا . . .

وهمين هما مستكناً وظاهرا

أحاديث نفس تشتكي ما يريبها . . .

وورد هموم لن يجدن مصادرا

وأراد على ما في "البحر" كتمتك أحاديث نفس وهمين ، وفيه أنه صرح بعض اللغويين بتعديه بمن أيضاً قال في "المصباح" كتم من باب قتل يتعدى إلى مفعولين ويجوز زيادة من في المفعول الأول فيقال : كتمت من زيد الحديث كما يقال : بعته الدار وبعتها منه .

نعم تعلقه بذلك خلاف الظاهر بل الظاهر تعلقه بمحذوف وقع صفة ثانية لرجل ، والظاهر على هذا كونه من آل فرعون حقيقة وفي كلامه المحكي عنه بعد ما هو ظاهر في ذلك واسمه قيل : شمعان بشين معجمة ، وقيل : خربيل بخاء معجمة مكسورة وراء مهملة ساكنة ، وقيل : حزبيل بحاء مهملة وزاي معجمة ، وقيل : حبيب .

وقرأ عيسى .

وعبد الوارث .

وعبيد بن عقيل .

(95/675)

وحمزة بن القاسم عن أبي عمرو ﴿ رَجُلٌ ﴾ بسكون الجيم وهي لغة تميم ونجد ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً ﴾ أي أتقصدون قتله فهو مجاز ذكر فيه المسبب وأريد السبب ، وكون الإنكار لا يقتضي الوقوع لا يصححه من غير تجوز ﴿ أَن يَقُولَ رَبِّىَ الله ﴾ أي لأن يقول ذلك ﴿ وَقَدْ جَاءكُمْ بالبينات ﴾ الشاهدة على صدقه من المعجزات ، والاستدلالات الكثيرة وجمع المؤنث السالم وإن شاع أنه للقلة لكنه إذا دخلت عليه أل يفيد الكثرة بمعونة المقام .

والجملة حالية من الفاعل أو المفعول ، وهذا إنكار من ذلك الرجل عظيم وتبكيت لهم شديد كأنه قال : أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة وما لكم عليه في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله : ﴿ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ مع أنه قد جاءكم بالبينات ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي من عند من نسب إليه الربوبية وهو ربكم لا ربه وحده ، وهذا استدراج إلى الاعتراف وفي ﴿ أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ إِلَيَّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ نكتة جليلة وهي أن من يقول ربي الله أو فلان لا يقتضي أن يقابل بالقتل كما لا تقابلون بالقتل إذا قلتم : ربنا فرعون كيف وقد جعل رب من هو ربكم فكان عليكم بأن تعزروه وتوقروه لا أن تخذلوه وتقتلوه ، وجوز الزمخشري كون ﴿ أَن يَقُولَ ﴾ على تقدير مضاف أي وقت أن يقول فحذف الظرف فانتصب المضاف إليه على الظرفية لقيامه مقامه ، والمعنى أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره ، ورده أبو حيان بأن القائم مقام الظرف لا يكون إلا المصدر الصريح كجئت صياح الديك أو ما كان بما الدوامية دون الغير الصريح كجئت أن صاح أو أن يصيح الديك ، وفيه أن ابن جني كالزمخشري صرح بالجواز وكل إمام .

(96/675)

ثم أن الرجل احتاط لنفسه خشية أني عرف اللعين حقيقة أمره فيبطش به فتلطف في الاحتجاج فقال : ﴿ وَإِن يَكُ كاذبا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج في دفعه إلى قتله ﴿ وَإِن يَكُ صادقا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذى يَعِدُكُمْ ﴾ فلا أقل من أن يصيبكم بعض الذي يعدكم به أو يعدكموه ، وفيه مبالغة في التحذير فإنه إذا حذرهم من إصابة البعض أفاد أنه مهلك مخوف فما بال الكل وإظهار للإنصاف وعدم التعصب ولذا قدم احتمال كونه كاذباً ، وقيل : المراد يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا وهو بعض مواعيده كأنه خوفهم بما هو أظهر احتمالاً عندهم ، وقيل : بعض بمعنى كل وأنشدوا لذلك قول عمرو القطامي :

قد يدرك المتأني بعض حاجته . . .

وقد يكون مع المستعجل الزلل

وذهب الزجاج إلى أن ﴿ بَعْضُ ﴾ فيه على ظاهره ، والمراد إلزام الحجة وإبانة فضل المتأني على المستعجل بما لا يقدر الخصم أن يدفعن فالبيت كالآية على الوجه الأول ، وأنشدوا لمجيء بعض بمعنى كل قول الشاعر :

إن الأمور إذا الأحداث دبرها . . .

دون الشيوخ ترى في بعضها خللاً

ولا يتعين فيه فيه ذلك كما لا يخفى ، وعن أبي عبيدة أنه فسر البعض بالكل أيضاً وأنشد قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها . . .

أو يرتبط بعض النفوس حمامها

حمل البيت على معنى لا أزال أنتقل في البلاد إلى أن لا يبقى أحد أقصده من العباد ، والمحققون على أن البعض فيه على ظاهره والمراد به نفسه ، والمعنى لا أزال أترك ما لم أرضه من الأمكنة إلا أن أموت ، وقال الزمخشري : إن صحت الرواية عن أبي عبيدة في ذلك فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلقي كان أجفى من أن يفقه ما أقول له ، وفيه مبالغة في الرد ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ احتجاج آخر ذو وجهين . أحدهما أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله تعالى إلى البينات ولما عضده بتلك المعجزات .

(97/675)

وثانيهما إن كان كذلك خذ له الله تعالى وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله ، ولعله أراد به المعنى الأول وأوهمهم أنه أراد الثاني لتلين شكيمتهم ؛ وعرض لفرعون بأنه مسرف أب في القتل والفساد كذاب في ادعاء الربوبية لا يهديه الله تعالى سبيل الصواب ومنهاج النجاة ، فالجملة مستأنفة متعلقة معنى بالشرطية الأولى أو بالثانية أو بهما .

﴿ يا قوم لَكُمُ الملك اليوم ظاهرين ﴾

غالبين عالين على بني إسرائيل ﴿ فِى الأرض ﴾ أي في أرض مصر لا يقاومكم أحد في هذا الوقت ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ الله ﴾ من أخده وعذابه سبحانه ﴿ إِن جَاءنَا ﴾ أي فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله بقتله فإن ان جاءنا لم يمنعنا منه أحد ، فالفاء في فمن الخ فصيحة والاستفهام إنكاري ، وإنما نسب ما يسرهم من الملك والظهور في الأرض إليهم خاصة ونظم نفسه في سلكهم فيما يسؤهم من مجيء بأس الله تعالى تطييباً لقلوبهم وإيذاناً بأنه مناصح لهم ساع في تحصيل ما يجديهم ودفع ما يرديهم سعيه في حق نفسه ليتأثروا بنصحه .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ بعد ما سمع ذلك ﴿ مَا أُرِيكُمْ ﴾ أي ما أشير عليكم ﴿ إِلاَّ مَا أرى ﴾ إلا الذي أراده واستصوبه من قتله يعني لا استصوب إلا قتله وهذا الذي تقولونه غير صواب ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ ﴾ بهذا الرأي ﴿ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ طريق الصواب والصلاح أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أدخر منه شيئاً ولا أسر عنكم خلاف ما أظهر يعني أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول ، وقد كذب عدو الله فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى عليه السلام لكنه كان يتجلد ولولا استشعاره لم يستشر أحداً ، وعن معاذ بن جبل .

والحسن انهما قرءا ﴿ الرشاد ﴾ بشد الشين على أنه فعال للمبالغة من رشد بالكسر كعلام من علم أو من رشد بالفتح كعباد من عبد .

(98/675)

وقيل : هو من أرشد المزيد كجبار من أجبر ، وتعقب بأن فعالا لم يجيء من المزيد إلا في عدة أحرف نحو جبار ودراك وقصار وسآر ولا يحسن القياس على القليل مع أنه ثبت في بعضه كجبار سماع الثلاثي فلا يتعين كونه من المزيد فقد جاء جبره على كذا كأجبره وقصار كجبار عند بعض لا يتعين كونه من أقصر لمجيء قصر عن الشيء كأقصر عنه ، وحكى عن الجوهري أن الأقصار كف مع قدرة والقصر كف مع عجز فلا يتم هذا عليه ، واما دراك وسآر فقد خرجا على حذف الزيادة تقديراً لا استعمالاً كما قالوا : ابقل المكان فهو باقل وأورس الرمث فهو وارس ، قال ابن جنى : وعلى هذا خرج الرشاد فيكون من رشد بمعنى أرشد تقديراً لا استعمالاً فإن المعنى على ذلك ، ثم قال : فإن قيل إذا كان المعنى على أرشد فكيف أجزت أن يكون من رشد المكسور أو من رشد المفتوح ؟ قيل : المعنى راجع إلى أنه مرشد لأنه إذا رشد أرشد لأن الإرشاد من الرشد فهو من باب الاكتفاء بذكر السبب عن المسبب انتهى ، وقيل : أجيز ذلك لأن المبالغة في الرشد تكون

بالإرشاد كما قرروا في قيوم وطهور .

وقال بعض المحققين : إن رشد بمعنى اهتدى فالمعنى ما أهديكم إلا سبيل من اهتدى وعظم رشده فلا حاجة إلى ما سمعت ، وإنما يحتاج إليه لو وجب كون المعنى ما أهديكم إلا سبيل من كثر ارشاده ومن أين وجب ذلك ؟ وجوز كون فعال في هذه القراءة للنسبة كما قالوا : عواج لبياع العاج وبتات لبياع البت وهو كساء غليظ ، وقيل : طيلسان من خز أو صوف ، وأنكر بعضهم كون القراءة على صيغة فعال في كلام فرعون وإنما هي في قول الذي آمن ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ ، [غافر : 38] فإن معاذ بن جبل كان كما قال أبو الفضل الرازي .

(99/675)

وأبو حاتم يفسر ﴿ سَبِيلَ الرشاد ﴾ على قراءته بسبيل الله تعالى وهو لا يتسنى في كلام فرعون كما لا يخفى ، وستعلم إن شاء الله تعالى ان معاذاً قرأ كذلك في قول المؤمن فلعل التفسير بسبيل الله عز وجل كان فيه دون كلام فرعون والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(100/675)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

لما خوّفهم سبحانه بأحوال الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار بغيرهم ، فإن الذين مضوا من الكفار ﴿ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ من هؤلاء الحاضرين من الكفار ، وأقوى ﴿ وَآثَاراً فِي الأرض ﴾ بما عمروا فيها من الحصون والقصور ، وبما لهم من العدد والعدّة ، فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله .

وقوله : ﴿ فَيَنظُرُواْ ﴾ إما مجزوم بالعطف على يسيروا ، أو منصوب بجواب الاستفهام ، وقوله : ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ بيان للتفاوت بين حال هؤلاء وأولئك .

وقوله : ﴿ وَءاثَاراً ﴾ عطف على قوّة .

قرأ الجمهور : ﴿ أشد منهم ﴾ ، وقرأ ابن عامر : (أشد منكم) على الالتفات ﴿ فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : بسبب ذنوبهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مّنَ الله مِن وَاقٍ ﴾ أي : من دافع يدفع عنهم العذاب ، وقد مرّ تفسير هذه الآية في مواضع ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم من الأخذ ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ أي : بالحجج

الواضحة ﴿ فَكَفَرُواْ ﴾ بما جاءوهم به ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ ﴾ يفعل كلّ ما يريده لا يعجزه شيء ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ لمن عصاه، ولم يرجع إليه.

(101/675)

ثم ذكر سبحانه قصة موسى، وفرعون؛ ليعتبروا، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآياتنا ﴾ هي: التسع الآيات التي قد تقدّم ذكرها في غير موضع ﴿ وسلطان مُّبِينٍ ﴾ أي: حجة بينة واضحة، وهي: التوراة ﴿ إِلى فِرْعَوْنَ وهامان وَقَشرُونَ فَقَالُواْ ﴾ إنه ﴿ ساحر كَذَّابٌ ﴾ أي: فيما جاء به، وخصهم بالذكر؛ لأنهم رؤساء المكذبين بموسى، ففرعون الملك، وهامان الوزير، وقارون صاحب الأموال، والكنوز ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمْ بالحق مِنْ عِندِنَا ﴾، وهي: معجزاته الظاهرة الواضحة ﴿ قَالُواْ اقتلوا أَبْنَاء الذين ءامَنُواْ مَعَهُ واستحيوا نِسَاءهُمْ ﴾ قال قتادة: هذا قتل غير القتل الأوّل، لأن فرعون قد كان أمسك عن قتل الولدان وقت ولادة موسى، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بني إسرائيل، فكان يأمر بقتل الذكور، وترك النساء، ومثل هذا قول فرعون: ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءهُمْ ﴾ [الأعراف: 127] ﴿ وَمَا كَيْدُ الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ أي: في خسران ووبال، لأنه يذهب باطلاً، ويحيق بهم ما يريده الله عزّ وجلّ.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ موسى ﴾ إنما قال هذا ؛ لأنه كان في خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى مخافة أن ينزل بهم العذاب ، والمعنى : اتركوني أقتله ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ الذي يزعم : أنه أرسله إلينا ، فليمنعه من القتل إن قدر على ذلك ، أي : لا يهولنكم ذلك ، فإنه لا ربّ له حقيقة ؛ بل أنا ربكم الأعلى ، ثم ذكر العلة التي لأجلها أراد أن يقتله ، فقال : ﴿ إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ الذي أنتم عليه من عبادة غير الله ، ويدخلهم في دينه الذي هو : عبادة الله وحده ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأرض الفساد ﴾ أي : يوقع بين الناس الخلاف ، والفتنة ، جعل اللعين ظهور ما دعا إليه موسى ، وانتشاره في الأرض ، واهتداء الناس به فساداً ، وليس الفساد إلا ما هو عليه هو ، ومن تابعه .

(102/675)

قرأ الكوفيون ، ويعقوب : ﴿ أو أن يظهر ﴾ بأو التي للإبهام ، والمعنى : أنه لا بدّ من وقوع أحد الأمرين .

وقرأ الباقون : ﴿ وأن يظهر ﴾ بدون ألف على معنى : وقوع الأمرين جميعاً ، وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو بفتح الياء من : (إني أخاف) ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحفص : ﴿ يظهر ﴾ بضم الياء ، وكسر الهاء من أظهر ، وفاعله ضمير موسى ، والفساد نصباً

على أنه مفعول به ، وقرأ الباقون بفتح الياء ، والهاء ، ورفع الفساد على الفاعلية ﴿ وَقَالَ موسى إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب ﴾ قرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ عذت ﴾ بإدغام الذال ، وقرأ الباقون بالإظهار ، لما هدّده فرعون بالقتل استعاذ بالله عزّ وجلّ من كلّ متعظم عن الإيمان بالله غير مؤمن بالبعث ، والنشور ، ويدخل فرعون في هذا العموم دخولاً أوّلياً .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانه ﴾ قال الحسن ، ومقاتل ، والسدّي : كان قبطياً ، وهو : ابن عم فرعون ، وهو الذي نجا مع موسى ، وهو المراد بقوله : ﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة يسعى ﴾ [القصص : 20] الآية ، وقيل : كان من بني إسرائيل ، ولم يكن من آل فرعون ، وهو خلاف ما في الآية ، وقد تمحل لذلك بأن في الآية تقديماً ، وتأخيراً ، والتقدير : وقال رجل مؤمن من بني إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون .

قال القشيري : ومن جعله إسرائيلياً ، ففيه بعد ، لأنه يقال : كتمه أمر كذا ، ولا يقال : كتم منه كما قال سبحانه : ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً ﴾ [النساء : 42] ، وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول .

وقد اختلف في اسم هذا الرجل ، فقيل : حبيب .

وقيل : حزقيل .

وقيل غير ذلك ، قرأ الجمهور : ﴿ رجل ﴾ بضم الجيم ، وقرأ الأعمش ، وعبد الوارث بسكونها ، وهي : لغة تميم ، ونجد ، والأولى هي : الفصيحة ، وقرىء بكسر الجيم و ﴿ مؤمن ﴾ صفة لرجل ، و ﴿ من آل فرعون ﴾ صفة أخرى ، و ﴿ يكتم إيمانه ﴾ صفة ثالثة ، والاستفهام في ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً ﴾ للإنكار ، و ﴿ أَن يَقُولَ رَبِّىَ الله ﴾ في موضع نصب بنزع الخافض ، أي : لأن يقول ، أو كراهة أن يقول ، وجملة : ﴿ وَقَدْ جَاءكُمْ بالبينات مِن رَّبِّكُمْ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحات ، والدلالات الظاهرات على نبوّته ، وصحة رسالته ، ثم تلطف لهم في الدفع عنه ، فقال : ﴿ وَإِن يَكُ كاذبا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صادقا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذى يَعِدُكُمْ ﴾ ، ولم يكن قوله هذا لشك منه ، فإنه كان مؤمناً كما وصفه الله .

ولا يشك المؤمن ، ومعنى ﴿ يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذى يَعِدُكُمْ ﴾ أنه إذا لم يصبكم كله ، فلا أقلّ من أن يصيبكم بعضه ، وحذفت النون من يكن في الموضعين تخفيفاً لكثرة الاستعمال ، كما قال سيبويه ، وقال أبو عبيدة ، وأبو الهيثم : بعض هنا بمعنى : كل ، أي : يصبكم كلّ الذي يعدكم ، وأنشد أبو عبيدة على هذا قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها . . . أو يرتبط بعض النفوس حمامها

أي : كلّ النفوس ، وقد اعترض عليه ، وأجيب بأن البعض قد يستعمل في لغة العرب بمعنى

: الكلّ كما في قول الشاعر :

قد يدرك المتأني بعض حاجته . . . وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقول الآخر :

إن الأمور إذا الأحداث دبرها . . . دون الشيوخ ترى في بعضها خللا

(104/675)

وليس في البيتين ما يدلّ على ما زعموه ، وأما بيت لبيد ، فقيل : إنه أراد ببعض النفوس نفسه ، ولا ضرورة تلجىء إلى حمل ما في الآية على ذلك ، لأنه أراد التنزّل معهم ، وإيهامهم : أنه لا يعتقد صحة نبوّته كما يفيده قوله : ﴿ يَكْتُمُ إيمانه ﴾ قال أهل المعاني : وهذا على المظاهرة في الحجاج ، كأنه قال لهم : أقلّ ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم ، وفي بعض ذلك هلاككم ، فكأن الحاصل بالبعض هو الحاصل بالكل .

وقال الليث : بعض ها هنا صلة يريد يصبكم الذي يعدكم .

وقيل : يصبكم هذا العذاب الذي يقوله في الدنيا ، وهو بعض ما يتوعدكم به من العذاب .

وقيل : إنه وعدهم بالثواب ، والعقاب ، فإذا كفروا أصابهم العقاب ، وهو بعض ما وعدهم به ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ هذا من تمام كلام الرجل المؤمن ،

وهو : احتجاج آخر ذو وجهين : أحدهما : أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى البينات ، ولا أيده بالمعجزات ، وثانيهما : أنه إذا كان كذلك خذله الله ، وأهلكه ، فلا حاجة لكم إلى قتله ، والمسرف المقيم على المعاصي المستكثر منها ، والكذاب المفتري .

(105/675)

﴿ يا قوم لَكُمُ الملك اليوم ظاهرين فِى الأرض ﴾ ذكرهم ذلك الرجل المؤمن ما هم فيه من الملك ، ليشكروا الله ، ولا يتمادوا في كفرهم ، ومعنى ﴿ ظاهرين ﴾ : الظهور على الناس ، والغلبة لهم ، والاستعلاء عليهم ، والأرض أرض مصر ، وانتصاب ﴿ ظاهرين ﴾ على الحال ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ الله إِن جَاءنَا ﴾ أي : من يمنعنا من عذابه ، ويحول بيننا ، وبينه عند مجيئه ، وفي هذا تحذير منه لهم من نقمة الله بهم ، وإنزال عذابه عليهم ، فلما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصح الصحيح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة ، والرعاية بمكان مكين ، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلكاً يكون فيه جلب النفع لهم ، ودفع الضرّ عنهم ، ولهذا قال : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أرى ﴾ قال ابن زيد : أي : ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي .

وقال الضحاك : ما أعلمكم إلا ما أعلم ، والرؤية هنا هي القلبية لا البصرية ، والمفعول

الثاني هو إلا ما أرى ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ أي : ما أهديكم بهذا الرأي إلا طريق الحقّ .

قرأ الجمهور : ﴿ الرشاد ﴾ بتخفيف الشين ، وقرأ معاذ بن جبل بتشديدها على أنها صيغة مبالغة كضرّاب .

وقال النحاس : هي : لحن ، ولا وجه لذلك .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءالِ فِرْعَوْنَ ﴾ قال : لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره ، وغير امرأة فرعون ، وغير المؤمن الذي أنذر موسى الذي قال : ﴿ إِنَّ الملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص : 20] قال ابن المنذر : أخبرت أن اسمه حزقيل .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي إسحاق قال : اسمه حبيب .

(106/675)

وأخرج البخاري ، وغيره من طريق عروة قال : قيل لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنا بأشدّ شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : "بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فأخذ بمنكب

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر ، فأخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءكُمْ بالبينات مِن رَّبِّكُمْ ﴾ " .

وأخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة ، والبزار عن عليّ بن أبي طالب ، أنه قال : أيها الناس أخبروني من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت .

قال : أما أني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ، ولكن أخبروني بأشجع الناس ؟ قالوا : لا نعلم ، فمن ؟ قال : أبو بكر ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذته قريش ، فهذا يجنبه ، وهذا يتلتله ، وهم يقولون : أنت الذي جعلت الآلهة إلاهاً واحداً ، قال : فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ، ويجيء هذا ، ويتلتل هذا ، وهو يقول : ويلكم ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ ، ثم رفع بردة كانت عليه ، فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : أنشدكم أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم ، فقال : ألا تجيبون ؟ ، فوالله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون ، وذاك رجل يكتم إيمانه ، وهذا رجل أعلن إيمانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(107/675)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾

عطف قول هذا الرجل يقتضي أنه قال قوله هذا في غير مجلس شورى فرعون ، لأنه لو كان قوله جارياً مجرى المحاورة مع فرعون في مجلس استشارته ، أو كان أجاب به عن قول فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ [غافر : 26] لكانت حكاية قوله بدون عطف على طريقة المُحاورات .

والذي يظهر أن الله ألهم هذا الرجل بأن يقول مقالته إلهاماً كان أولَ مظهر من تحقيق الله لاستعاذة موسى بالله ، فلما شاع توعد فرعون بقتل موسى عليه السلام جاء هذا الرجل إلى فرعون ناصحاً ولم يكن يتهمه فرعون لأنه من آله .

وخطابه بقوله : ﴿ أتقتلون ﴾ موجَّه إلى فرعون لأن فرعون هو الذي يسند إليه القتل لأنه الآمر به ، ولحكاية كلام فرعون عقب كلام مؤمن آل فرعون بدون عطف بالواو في قوله : ﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ﴾ [غافر : 29] .

ووصفُه بأنه من آل فرعون صريح في أنه من القبط ولم يكن من بني إسرائيل خلافاً لبعض المفسرين ألا ترى إلى قوله تعالى بعده : ﴿ يا قوم لكم المُلْك اليومَ ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ [غافر : 29] فإن بني إسرائيل لم يكن لهم مُلك هنالك .

والأظهر أنه كان من قرابة فرعون وخاصته لما يقتضيه لفظ آل من ذلك حقيقةً أو مجازاً .

والمراد أنه مؤمن بالله ومؤمن بصدق موسى ، وما كان إيمانه هذا إلا لأنه كان رجلاً صالحاً اهتدى إلى توحيد الله إما بالنظر في الأدلة فصدَّق موسى عندما سمع دعوته كما اهتدى أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى تصديق النبي في حين سماع دعوته فقال له : صَدَقتَ .

وكان كتمه الإِيمان متجدداً مستمراً تقيةً من فرعون وقومه إذ علم أن إظهاره الإِيمان يُضره ولا ينفع غيره كما كان (سقراط) يكتم إيمانه بالله في بلاد اليونان خشية أن يقتلوه انتصاراً لآلهتهم .

(108/675)

وأراد بقوله : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً ﴾ إلى آخره أن يسعى لحفظ موسى من القتل بفتح باب المجادلة في شأنه لتشكيك فرعون في تكذيبه بموسى ، وهذا الرجل هو غير الرجل المذكور في سورة [القصص : 20] في قوله تعالى : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ فإن تلك القصة كانت قُبَيْل خروج موسى من مصر ، وهذه القصة في مبدأ دخوله مصر .

ولم يوصف هنالك بأنه مؤمن ولا بأنه من آل فرعون بل كان من بني إسرائيل كما هو صريح سفر الخروج .

والظاهر أن الرجل المذكور هنا كان رجلاً صالحاً نظَّاراً في أدلة التوحيد ولم يستقر الإِيمان في

قلبه على وجهه إلا بعد أن سمع دعوة موسى ، وإن الله يقيض لعباده الصالحين حُماة عند الشدائد .

قيل اسم هذا الرجل حبيب النجّار وقيل سمعان ، وقد تقدم في سورة (يس) أن حبيباً النجار من رسل عيسى عليه السلام .

وقصة هذا الرجل المؤمن من آل فرعون غير مذكورة في "التوراة" بالصريح ولكنها مذكورة إجمالاً في الفقرة السابعة من الإصحاح العاشر "فقال عبيد فرعون إلى متَى يكون لنا هذا (أي موسى) فخاً أَطْلِق الرجال ليعبدوا الرب إلههم" .

والاستفهام في ﴿ أتقتلون ﴾ استفهام إنكار ، أي يقبح بكم أن تقتلوا نفساً لأنه يقول ربي الله ، أي ولم يجبركم على أن تؤمنوا به ولكنه قال لكم قولاً فاقبلوه أو ارفضوه ، فهذا محمل قوله : ﴿ أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ﴾ وهو الذي يمكن الجمع بينه وبين كون هذا الرجل يكتم إيمانه .

و ﴿ أَنَّ يَقُولَ ﴾ .

مجرور بلام التعليل المقدرة لأنها تحذف مع (أَن) كثيراً .

وذكر اسمِ الله لأنه الذي ذكره موسى ولم يكن من أسماء آلهة القبط .

(109/675)

وأما قوله : ﴿ وقد جاءَكُم بالبينا تت من ربِّكُم ﴾ فهو ارتقاء في الحِجاج بعد أن استأنس في خطاب قومه بالكلام الموجَّه فارتقى إلى التصريح بتصديق موسى بعلة أنه جاء بالبينات ، أي الحجج الواضحة بصدقه ، وإلى التصريح بأن الذي سماه الله في قوله : ﴿ أن يقول ربي الله ﴾ هو رب المخاطبين فقال : ﴿ من ربكم ﴾ .

فجملة ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ في موضع الحال من قوله : ﴿ رجلاً ﴾ والباء في ﴿ بالبينات ﴾ للمصاحبة .

وقوله : ﴿ وإن يَكُ كاذبا فَعلَيهِ كَذِبُهُ ﴾ رجوع إلى ضرب من إيهام الشك في صدق موسى ليكون كلامه مشتملاً على احتمالَيْ تصديق وتكذيب يتداولهما في كلامه فلا يؤخذ عليه أنه مصدق لموسى بل يُخيل إليهم أنه في حالة نظر وتأمل ليسوق فرعون وملأَه إلى أدلة صدق موسى بوجه لا يثير نفورهم ، فالجملة عطف على جملة ﴿ وقد جاءكم بالبينات ﴾ فتكون حالاً .

وقَدم احتمال كذبه على احتمال صدقه زيادةً في التباعد عن ظنهم به الانتصار لموسى فأراد أن يَظهَر في مظهر المهتَم بأمر قومه ابتداء .

ومعنى : ﴿ وإن يَكُ كَاذِباً فَعلَيه كَذِبُهُ ﴾ استنزالهم للنظر ، أي فعليكم بالنظر في آياته ولا تعجلوا بقتله ولا باتباعه فإن تبين لكم كذبه فيما تحداكم به وما أنذركم به من مصائب فلم يقع شيء من ذلك لم يضركم ذلك شيئاً وعاد كذبه عليه بأن يوسم بالكاذب ، وإن تبين لكم

صدقه يصبكم بعضُ ما تَوَعَّدكم به ، أي تصبكم بوارقه فتعلموا صدقه فتتبَعوه ، وهذا وجه التعبير بـ ﴿ بعض ﴾ دون أن يقول : يصبكم الذي يعدكم به .

والمراد بالوعْد هنا الوعد بالسوء وهو المسمى بالوعيد .

أي فإن استمررتم على العناد يصبكم جميع ما توعَّدكم به بطريق الأوْلى .

(110/675)

وقد شابَه مقامُ أبي بكر الصديقِ مقامَ مؤمن آل فرعون إذ آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم حين سمع دعوته ولم يكن من آله ، ويومَ جاء عقبة بن أبي مُعيط إلى النبي صلى الله عليه وسلم (والنبي صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة) يخنقه بثوبه فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكب عقبة ودفَعه وقال : ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ .

قال علي بن أبي طالب : "والله لَيومُ أبي بكر خيرٌ من مؤمن آل فرعون ، إنَّ مؤمن آل فرعون رجل يكتم إيمانه وإن أبا بكر كان يُظهر إيمانه وبذل ماله ودمه"

وأقول : كان أبو بكر أقوى يقيناً من مؤمن آل فرعون لأن مؤمن آل فرعون كتم إيمانه وأبو بكر أظهر إيمانه .

وجملة ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ يجوز أنها من قول مؤمن آل فرعون ، فالمقصود منها تعليل قوله : ﴿ وَإِن يَكُ كاذبا فعليه كَذِبُهُ وإن يَكُ صادقاً يُصِبكم بعْض الذي يَعِدُكُم ﴾ أي لأن الله لا يقره على كذبه فإن كان كاذباً على الله فلا يلبث أن يفتضح أمره أو يهلكه ، كما قال تعالى : ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ [الحاقة : 44 46] لأن الله لا يمهل الكاذب عليه ، ولأنه إذا جاءكم بخوارق العادات فقد تبين صدقه لأن الله لا يَخرق العادة بعد تحدي المتحدّي بها إلاّ ليجعلها أمارة على أنه مرسَل منه لأن تصديق الكاذب محال على الله تعالى .

ومعنى : ﴿ يصيبكم بعض الذي يعدكم ﴾ أي مما تَوعدكم بوقوعه في الدنيا ، أو في الآخرة وكيف إذا كانت البينة نفسُها مصائب تحلّ بهم مثل الطوفان والجراد وبقية التسع الآيات .

والمسرف : متجاوز المعروف في شيء ، فالمراد هنا مسرف في الكذب لأن أعظم الكذب أن يكون على الله ، قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ﴾ [الأنعام : 93] .

(111/675)

وإذا كان المراد الإِسراف في الكذب تعين أن قوله : ﴿ كذاب ﴾ عطف بيان وليس خبراً ثانياً إذ ليس ثمة إسراف هنا غير إسراف الكذب ، وفي هذا اعتراف من هذا المؤمن بالله الذي أنكره فرعون ، رمَاه بين ظهرانَيْهم .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ إنَّ الله لاَ يَهْدِي ﴾ إلى آخرها جملة معترضة بين كلامي مؤمن آل فرعون ليست من حكاية كلامه وإنما هي قول من جانب الله في قُرآنه يقصد منها تزكية هذا الرجل المؤمن إذ هداه الله للحق ، وأنه تقيّ صادق ، فيكون نفي الهداية عن المسرف الكذاب كناية عن تقوى هذا الرجل وصدقه لأنه نطق عن هدىً والله لا يعطي الهدى من هو مسرف كذاب .

يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ

﴿ يا قوم لَكُمُ الملك اليوم ظاهرين فِى الأرض فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ الله إِن جَآءَنَا ﴾

لما توسم نهوضَ حجتِه بينهم وأنها داخلت نفوسهم ، أَمِن بأسهم ، وانتهز فرصة انكسار قلوبهم ، فصارحهم بمقصوده من الإِيمان بموسى على سَنَن الخطباء وأهل الجدل بعد تقرير المقدمات والحجج أن يهجموا على الغرض المقصود ، فوعظهم بهذه الموعظة .

وأدخل قومه في الخطاب فناداهم ليستهويهم إلى تعضيده أمام فرعون فلا يجدَ فرعون بُدّاً من الانصياع إلى اتفاقهم وتظاهرهم ، وأيضاً فإن تشريك قومه في الموعظة أدخل في باب النصيحة فابتدأ بنصح فرعون لأنه الذي بيده الأمر والنهي ، وثنّى بنصيحة الحاضرين من

قومه تحذيراً لهم من مصائبَ تصيبهم من جراء امتثالهم أمر فرعون بقتل موسى فإن ذلك يهمهم كما يهمّ فرعون .

وهذا الترتيب في إسداء النصيحة نظير الترتيب في قول النبي صلى الله عليه وسلم " ولأئمَّةِ المسلمين وعامتهم " ولا يخفى ما في ندائهم بعنوان أنهم قومه من الاستصغاء لنصحه وترقيق قلوبهم لقوله .

(112/675)

وابتداء الموعظة بقوله : ﴿ لَكُمُ المُلكُ اليَوْمَ ظاهرين في الأرْضِ ﴾ تذكيرٌ بنعمة الله عليهم ، وتمهيد لتخويفهم من غضب الله ، يعني : لا تغرنكم عظمتكم وملككم فإنهما معرضان للزوال إن غضب الله عليكم .

والمقصود : تخويف فرعون من زوال ملكه ، ولكنه جعل المُلك لقومه لتجنب مواجهة فرعون بفرض زوال ملكه .

والأرض : أرض مصر ، أي نافذاً حكمكم في هذا الصقع .

وفرع على هذا التمهيد : ﴿ فَمَن يَنصُرُنا مِن بأس الله إن جاءَنا ، ﴾ و (مَنْ) للاستفهام الإِنكاري عن كل ناصر ، فالمعنى : فلا نصر لنا من بأس الله .

وأدمج نفسه مع قومه في ﴿ ينصرنا ﴾ و ﴿ جاءنا ، ﴾ ليريهم أنه يأبى لقومه ما يأباه لنفسه وأن المصيبة إن حلت لا تصيب بعضهم دون بعض .

ومعنى ﴿ ظاهرين ﴾ غالبين ، وتقدم آنفاً ، أي إن كنتم قادرين على قتل موسى فالله قادر على هلاككم .

والبَأْس : القوة على العدوّ والمعاند ، فهو القوة على الضر .

﴿ جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلاَّ مَآ أَرَى وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ ﴾

تفطن فرعون إلى أنه المعرَّض به في خطاب الرجل المؤمن قومَه فقاطعه كلامَه وبيَّن سبب عزمه على قتل موسى عليه السلام بأنه ما عرض عليهم ذلك إلا لأنه لا يرى نفعاً إلا في قتل موسى ولا يستصوب غير ذلك ويرى ذلك هو سبيل الرشاد ، وكأنه أراد لا يترك لنصيحة مؤمنهم مدخلاً إلى نفوس مَلَئِه خيفة أن يتأثرُوا بنصحه فلا يساعدوا فرعون على قتل موسى .

ولكون كلام فرعون صدر مصدر المقاطعة لكلام المؤمن جاء فعل قوللِ فرعون مَفْصُولاً غيرَ معطوف وهي طريقة حكاية المقاولات والمحاورة .

ومعنى : ﴿ مَا أُرِيكُم ﴾ : ما أجعلكم رَائِين إلا ما أراه لنفسي ، أي ما أشير عليكم بأن تعتقدوا إلا ما أعتقده ، فالرؤية علمية ، أي لا أشير إلا بما هو معتقَدي .

والسبيل : مستعار للعمل ، وإضافته إلى الرشاد قرينة ، أي ما أهديكم وأشير عليكم إلا بعمل فيه رشاد .

(113/675)

وكأنه يعرِّض بأن كلام مؤمنهم سفاهة رأي .

والمعنى الحاصل من الجملة الثانية غير المعنى الحاصل من الجملة الأولى كما هو بَيّن وكما هو مقتضى العطف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(114/675)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾

لا يخفى ما سبق إلى الذهن في هذه الآية من توهم المنافاة بين الشرط والجزاء في البعض لأن المناسب لاشتراط الصدق هو أن يصيبهم جميع الذين يعدهم لا بعضه مع أنه تعالى لم يقل

وإن يك صادقا يصبكم كل الذي يعدكم ، وأجيب عن هذا بأجوبة من أقربها عندي أن المراد بالبعض الذي يصيبهم هو البعض العاجل الذي هو عذاب الدنيا لأنهم أشد خوفا من العذاب العاجل ، ولأنهم أقرب إلى التصديق بعذاب الدنيا منهم بعذاب الآخرة ، ومنها أن المعنى: إن يك صادقا فلا أقل من أن يصيبكم بعض الذي يعدكم ، وعلى هذا فالنكتة المبالغة في التحذير لأنه إذا حذرهم من إصابة البعض أفاد أنه مهلك مخوف فما بال الكل ، وفيه إظهار لكمال الإنصاف وعدم التعصب ولذا قدم احتمال كونه كاذبا .

ومنها –أن لفظة– البعض يراد بها الكل وعليه فمعنى بعض الذي يعدكم كل الذي يعدكم

ومن شواهد هذا في اللغة العربية قول الشاعر:

إن الأمور إذا الأحداث دبرها

دون الشيوخ ترى في بعضها خللا

يعني ترى فيها خللا .

وقول القطامي:

قد يدرك المتأني بعض حاجته

وقد يكون مع المستعجل الزلل

يعني قد يدرك المتأني حاجته .

وأما استدلال أبي عبيدة لهذا بقول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها

أو يعتلق بعض النفوس حمامها

فغلط منه لأن مراد لبيد ببعض النفوس نفسه كما بينته في رحلتي في الكلام على قوله ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 254 . 255 ﴾

(115/675)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ظهر لهذا المؤمن - رضى الله عنه - أن فرعون ذل لكلامه ، ولم يستطع مصارحته ، ارتفع إلى أصرح من الأسلوب الأول فأخبرنا تعالى عنه بقوله مكتفياً في وصفه بالفعل

الماضي لأنه في مقام الوعظ الذي ينبغي أن يكون من أدنى متصف بالإيمان بعد أن ذكر عراقته في الوصف لأجل أنه كان في مقام المجاهدة والمدافعة عن الرسول عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام الذي لا يقدم عليه إلا راسخ القدم في الدين : ﴿ وقال الذي آمن ﴾ أي بعد قول فرعون هذا الكلام الذي هو أبرد من الثلج الذي دل على جهله وعجزه وذله ﴿ يا قوم ﴾ وأكد لما رأى عندهم من إنكار أمره وخاف منهم من اتهامه فقال : ﴿ إني أخاف عليكم ﴾ أي من المكابرة في أمر موسى عليه الصلاة والسلام .

ولما كان أقل ما يخشى يكفي العاقل ، وكانت قدرة الله سبحانه عليهم كلهم على حد سواء لا تفاوت فيها فكان هلاكهم كلهم كهلاك نفس واحدة ، أفرد فقال : ﴿ مثل يوم الأحزاب ﴾ مع أن إفراده أروع وأقوى في التخويف وأفظع للاشارة إلى قوة الله تعالى وأنه قادر على إهلاكهم في أقل زمان .

(116/675)

ولما أجمل فصل وبين أو بدل بعد أن هول ، فقال بادئاً بمن كان عذابهم مثل عذابهم ، ودأبهم شبيهاً بدأبهم : ﴿ مثل دأب ﴾ أي عادة ﴿ قوم نوح ﴾ أي فيما دهمهم من الهلاك الذي محقهم فلم يطيقوه مع ما كان فيهم من قوة المحاولة والمقاومة لما يريدونه ﴿ وعاد وثمود ﴾ مع

ما بلغكم من جبروتكم .

ولما كان هؤلاء أقوى الأمم ، اكتفى بهم وأجمل من بعدهم فقال : ﴿ والذين ﴾ وأشار بالجار إلى التخصيص بالعذاب لئلا يقال : هذه عادة الدهر ، فقال : ﴿ من بعدهم ﴾ أي بالقرب من زمانهم لا جميع من جاء بعدهم .

ولما كان التقدير : أهلكهم الله وما ظلمهم ، عبر عنه تعميماً مقروناً بما تضمنه من الخبر بدليله فقال : ﴿ وما الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بأوصاف الكمال .

ولما كان في مقام الوعظ لهم ومراده ردهم عن غيهم بكل حال ، علق الأمر بالإرادة لأنها متى ارتفعت انتفى الظلم ، ونكر تعميماً فقال : ﴿ يريد ظلماً ﴾ أي يتجدد منه أن يعلق إرادته وقتاً ما بنوع ظلم ﴿ للعباد ﴾ لأن أحد لا يتوجه أبداً إلى أنه يظلم عبيده الذين هم تحت قهره ، وطوع مشيئته وأمره ، ومتى لم يعرفوا حقه وأرادوا البغي على من يعرف حقه عاقبهم ولا بد ، وإلا كان كفه ظلماً للمبغي عليهم .

(117/675)

ولما أشرق من آفاق هذا الوعظ شمس البعث ونور الحشر ، لأنه لا يسوغ أصلاً أن ملكاً يدع عبيده يبغي بعضهم على بعض من غير إنصاف بينهم ونحن نرى أكثر الخلق يموت مقهوراً من

ظالمه ، ومكسوراً من حاكمه ، فعلم قطعاً أن الموت الذي لم يقدر ولا يقدر أحد أصلاً أن يسلم منه إنما هو سوق إلى دار العرض وساحة الجزاء للقرض – كما جرت به عادة الملوك إذا وكلوا بمن يأمرون باحضاره إليهم لعرضه عليهم ليظهر التجلي في صفات الجبروت والعدل ، ومظاهر الكرم الفضل قال : ﴿ ويا قوم ﴾ ولما كانوا منكرين للبعث أكد فقال : ﴿ إني أخاف ﴾ وعبر بأداة الاستعلاء زيادة في التخويف فقال : ﴿ عليكم ﴾ ولما كان قد سماه فيما مضى بالتلاقي والآزفة لما ذكر ، عرف هنا أن الخلق فيه وجلون خائفون وأنهم لكثرة الجمع ينادُون وينادَون للرفعة أو الضعة وغير ذلك من الأمور المتنوعة التي مجموعها يدل على ظهور الجبروت وذل الخلق لما يظهر لهم من الكبرياء والعظموت فقال : ﴿ يوم التناد ﴾ أي أهواله وما يقع فيه ، فينادي الجبار سبحانه بقوله ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدو الشيطان ﴾ وينادونه " بلى يا ربنا " وتنادي الملائكة بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب " يا فلان ابن فلان أقبل لفصل النزاع " وينادي ذلك العبد " ألا سمعاً وطاعة " وينادي الفائز " ألا نعم أجر العاملين " وينادي الخائب " ألا بئس منقلب الظالمين " وينادي أصحاب الأعراف وأهل الجنة أهل النار وأهل النار أهل الجنة وينادي الكل حين يذبح الموت ، ويدعى كل أناس بإمامهم ، وتتنادى الملائكة وقد أحاطوا بالثقلين صفوفاً مترتبة ترتب السماوات التي كانوا بها بالتسبيح والتقديس ، وترتفع الأصوات بالضجيج ، بعضهم بالسرور وبعضهم بالويل والثبور ، وتنادي ألسن النيران : أي الجبارون

أين المتكبرون ، وتنادي الجنة ، أين المشمرون في مرضاة الله والصابرون ، فيا له يوماً يذل فيه العصاة العتاة ويعز المنكسرة قلوبهم من أجل الله وقرأ ابن

(118/675)

عباس - رضى الله عنهما - في آخرين بتشديد الدال من التناد على أنه مصدر تنادّ من ند البعير - إذا هرب ونفر ، وهو كقوله يوم

﴿ يفر المرء من أخيه ﴾ [عبس : 34] وتقدم في حذف ياء التلاق وإثباتها ما يمكن الفطن تنزيله هنا .

ولما كانت عادة المتنادين الإقبال ، وصف ذلك اليوم بضد ذلك لشدة الأهوال فقال مبدلاً أو مبيناً : ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ أي حين تخرج ألسنة النيران فتخطف أهل الكفران ، وتزفر زفرات يخر أهل الموقف من خشيتها ، فترى كل أمة جاثية ويفرون فلا يقصدون مكاناً إلا وجدوا به الملائكة صافين كما قال تعالى ﴿ والملك على أرجائها ﴾ [الحاقة : 17] وينادي المنادي ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ [الرحمن : 33] .

ولما كان المدبر إنما يقصد في إدباره معقلاً يمنعه ويستره أو فئة تحميه وتنصره ، قال مبيناً

حالهم : ﴿ ما لكم من الله ﴾ أي الملك الجبار الذي لا ند له ، وأعرق في النفي فقال : ﴿ من عاصم ﴾ أي مانع يمنعكم مما يراد فما لكم من عاصم أصلاً ، فإنه سبحانه يجير ولا يجار عليه .

ولما كان التقدير : لضلالكم في الدنيا فإن حالكم في ذلك اليوم مكتسب من احوالكم في هذا اليوم ، عطف عليه قوله معمماً : ﴿ ومن يضلل اللهُ ﴾ أي الملك المحيط بكل شيء الباطن في اردية الجلال الظاهر في مظاهر القهر والجمال ، إضلالاً جبله عليه فهو في غاية البيان – بما أشار إليه الفلك ﴿ فما له من هاد ﴾ أي إلى شيء ينفعه بوجه من الوجوه ، وأما الضلال العارض فيزيله الله لمن يشاء من عباده ، وهذا لا يعرف إلا بالخاتمة كما قاله الإمام أبو الحسن الأشعري : فمن مات على شيء فهو مجبول عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 512.510 ﴾

(119/675)

فصل

قال الفخر :

ثم حكى تعالى أن ذلك المؤمن رد هذا الكلام على فرعون فقال : ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ

مِّثْلَ يَوْمِ الأحزاب ﴾ .

واعلم أنه تعالى حكى عن ذلك المؤمن أنه كان يكتم إيمانه ، والذي يكتم كيف يمكنه أن يذكر هذه الكلمات مع فرعون ، ولهذا السبب حصل ههنا قولان الأول : أن فرعون لما قال : ﴿ ذَرُونِى أَقْتُلْ موسى ﴾ [غافر : 26] لم يصرح ذلك المؤمن بأنه على دين موسى ، بل أوهم أنه مع فرعون وعلى دينه ، إلا أنه زعم أن المصلحة تقتضي ترك قتل موسى ، لأنه لم يصدر عنه إلا الدعوة إلى الله والإتيان بالمعجزات القاهرة وهذا لا يوجب القتل ، والإقدام على قتله يوجب الوقوع في ألسنة الناس بأقبح الكلمات ، بل الأولى أن يؤخر قتله وأن يمنع من إظهار دينه ، لأن على هذا التقدير إن كان كاذباً كان وبال كذبه عائداً إليه ، وإن كان صادقاً حصل الانتفاع به من بعض الوجوه ، ثم أكد ذلك بقوله ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : 28] يعني أنه إن صدق فيما يدعيه من إثبات الإله القادر الحكيم فهو لا يهدي المسرف الكذاب ، فأوهم فرعون أنه أراد بقوله ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ أنه يريد موسى وهو إنما كان يقصد به فرعون ، لأن المسرف الكذاب هو فرعون والقول الثاني : أن مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه أولاً ، فلما قال فرعون ﴿ ذَرُونِى أَقْتُلْ موسى ﴾ أزال الكتمان وأظهر كونه على دين موسى ، وشافه فرعون بالحق .

واعلم أنه تعالى حكى عن هذا المؤمن أنواعاً من الكلمات ذكرها لفرعون الأول : قوله ﴿ يا قوم إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الأحزاب ﴾ والتقدير مثل أيام الأحزاب ، إلا أنه لما أضاف اليوم إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد ثمود ، فحينئذٍ ظهر أن كل حزب كان له يوم معين في البلاء ، فاقتصر من الجمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس ، ثم فسّر قوله ﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الأحزاب ﴾ بقوله ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ودأب هؤلاء دونهم في عملهم من الكفار والتكذيب وسائر المعاصي ، فيكون ذلك دائباً ودائماً لا يفترون عنه ، ولا بد من حذف مضاف يريد مثل جزاء دأبهم ، والحاصل أنه خوفهم بهلاك معجل في الدنيا ، ثم خوفهم أيضاً بهلاك الآخرة ، وهو قوله ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ والمقصود منه التنبيه على عذاب الآخرة .

والنوع الثاني : من كلمات ذلك المؤمن قوله تعالى : ﴿ وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ يعني أن تدمير أولئك الأحزاب كان عدلاً ، لأنهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للأنبياء ، فتلك الجملة قائمة ههنا ، فوجب حصول الحكم ههنا ، قالت المعتزلة : ﴿ وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ يدل على أنه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضاً ، ويدل على أنه لا يريد ظلم أحد من العباد ، فلو خلق الكفر فيهم ثم عذبهم على ذلك الكفر لكان ظالماً ، وإذا ثبت أنه لا يريد الظلم ألبتة ثبت أنه غير خالق لأفعال العباد ، لأنه لو خلقها لأرادها ، وثبت أيضاً أنه قادر على

الظلم ، إذ لو لم يقدر عليه لما حصل المدح بترك الظلم ، وهذا الاستدلال قد ذكرناه مراراً في هذا الكتاب مع الجواب ، فلا فائدة في الإعادة .

النوع الثالث : من كلمات هذا المؤمن قوله ﴿ ويا قوم إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التناد ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(121/675)

التنادي تفاعل من النداء ، يقال تنادى القوم ، أي نادى بعضهم بعضاً ، والأصل الياء وحذف الياء حسن في الفواصل ، وذكرنا ذلك في ﴿ يَوْمَ التلاق ﴾ [غافر : 15] وأجمع المفسرون على أن ﴿ يَوْمَ التناد ﴾ يوم القيامة ، وفي سبب تسمية ذلك اليوم بذلك الاسم وجوه الأول : أن أهل النار ينادون أهل الجنة ، وأهل الجنة ينادون أهل النار ، كما ذكر الله عنهم في سورة الأعراف ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾ [الاعراف : 50] ، ﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ [الاعراف : 44] ، الثاني : قال الزجاج : لا يبعد أن يكون السبب فيه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بإمامهم ﴾ [الإسرار : 71] ، الثالث : أنه ينادي بعض الظالمين بعضاً بالويل والبثور فيقولون ﴿ يا ويلنا ﴾ [الأنبياء :

14] ، الرابع : ينادون إلى المحشر ، أي يدعون الخامس : ينادي المؤمن ﴿ هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه ﴾ [الحاقة : 19] والكافر ﴿ ياليتنى لَمْ أُوتَ كتابيه ﴾ [الحاقة : 25] ، السادس : ينادى باللعنة على الظالمين السابع : يجاء بالموت على صورة كبش أملح ، ثم يذبح وينادى يا أهل القيامة لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً على فرحهم ، وأهل النار حزناً على حزنهم الثامن : قال أبو علي الفارسي : التنادي مشتق من التناد ، من قولهم ند فلان إذا هرب ، وهو قراءة ابن عباس وفسرها ، فقال يندون كما تند الإبل ، ويدل على صحة هذه القراءة قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ [عبس : 34] الآية . وقوله تعالى بعد هذه الآية ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ لأنهم إذا سمعوا زفير النار يندون هاربين ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه .

المسألة الثانية :

انتصب قوله ﴿ يَوْمَ التناد ﴾ لوجهين أحدهما : الظرف للخوف ، كأنه خاف عليهم في ذلك اليوم ، لما يلحقهم من العذاب ، إن لم يؤمنوا والآخر أن يكون التقدير إني أخاف عليكم

عذاب يوم التناد وإذا كان كذلك كان انتصاب يوم انتصاب المفعول به ، لا انتصاب الظرف ، لأن إعرابه إعراب المضاف المحذوف ، ثم قال : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ وهو بدل من قوله ﴿ يَوْمَ التناد ﴾ عن قتادة : منصرفين عن موقف يوم الحساب إلى النار ، وعن مجاهد : فارين عن النار غير معجزين ، ثم أكد التهديد فقال : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ثم نبه على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم فقال : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 53.54 ﴾

(123/675)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾

ثم أحال كفار قريش وهم أصحاب الضمير في ﴿ يسيروا ﴾ على الاعتبار بالأمم القديمة التي كذبت أنبياءها فأهلكها الله تعالى .

وقوله : ﴿ فينظروا ﴾ يحتمل أن يجعل في موضع نصب جواب الاستفهام ، ويحتمل أن يكون مجزوماً عطفاً على ﴿ يسيروا ﴾ . و : ﴿ كيف ﴾ في قوله : ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ خبر ﴿ كان ﴾ مقدم ، وفي ﴿ كيف ﴾ ضمير ، وهذا مع أن تكون ﴿ كان ﴾

الناقصة . وأما إن جعلت تامة بمعنى حدث ووقع ، ف ﴿ كيف ﴾ ظرف ملغى لا ضمير فيه .

وقرأ ابن عامر وحده : " أشد منكم " بالكاف ، وكذلك هي في مصاحف الشام ، وذلك على الخروج من غيبة إلى الخطاب . وقرأ الباقون : " أشد منهم " وكذلك هي في سائر المصاحف ، وذلك أوفق لتناسب ذكر الغيب .

والآثار في ذلك : هي المباني والمآثر والصيت الدنياوي ، وذنوبهم كانت تكذيب الأنبياء ، والواقي : الساتر المانع ، مأخوذ من الوقاية .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (22)

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى أخذه إياهم بذنوبهم وإن لم يكن لهم منه واق . ثم ذكر تعالى أن السبب في إهلاكهم هو ما قريش عليه من أن جاءهم رسول من الله ببينات من المعجزات والبراهين فكفروا به ، وذكر أن الله تعالى أخذهم ، ووصف نفسه تعالى بالقوة وشدة العقاب ، وهذا كله بيان في وعيد قريش .

(124/675)

ثم ابتدأ تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملإه ، وهي قصة فيها للنبي صلى الله عليه وسلم تسلية وأسوة ، وفيها لقريش والكفار به وعيد ومثال يخافون منه أن يحل بهم ما حل بأولئك من النقمة ، وفيها للمؤمنين وعد ورجاء في النصر والظفر وحمد عاقبة الصبر ، وآيات موسى عليه السلام كثيرة عظمها ، والذي عرضه على جهة التحدي بالعصا واليد ، ووقعت المعارضة في العصا وحدها ثم انفصلت القضية عن إيمان السحرة وغلبة الكافرين . والسلطان : البرهان .

وقرأ عيسى بن عمر : " سلُطان " بضم اللام ، والناس على سكونها .

وخص تعالى ﴿ هامان وقارون ﴾ بالذكر تنبيهاً على مكانهما من الكفر ، ولكونهما أشهر رجال فرعون وقيل إن قارون هذا ليس بقارون بني إسرائيل ، وقيل هو ذلك ، ولكنه كان منقطعاً إلى فرعون خادماً مستعيناً معه .

وقوله : ﴿ ساحر ﴾ أي في أمر العصا . و: ﴿ كذاب ﴾ في قوله : إني رسول من الله .

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم لما جاءهم موسى بالنبوة والحق من عند الله ، قال هؤلاء الثلاثة وأجمع رأيهم على أن يقتل أبناء بني إسرائيل أتباع موسى وشبانهم وأهل القوة منهم ، وأن يستحي النساء للخدمة والاسترقاق ، وهذا رجوع منهم إلى نحو القتل الأول الذي كان قبل ميلاد موسى ، ولكن هذا الأخير لم تتم فيه عزمة ، ولا أعانهم الله تعالى على شيء منه .

قال قتادة : هذا قتل غير الأول الذي كان حذر المولود ، وسموا من ذكرنا من بني إسرائيل

أبناء ، كما تقول لأنجاد القبيلة أو المدينة وأهل الظهور فيها : هؤلاء أبناء فلانة .

وقوله تعالى : ﴿ وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ عبارة وجيزة تعطي قوتها أن هؤلاء الثلاثة لم يقدرهم الله تعالى على قتل أحد من بني إسرائيل ولا نجحت لهم فيه سعاية ، بل أضل الله سعيهم وكيدهم .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26)

(125/675)

الظاهر من أمر فرعون أنه لما بهرت آيات موسى عليه السلام انهد ركنه واضطربت معتقدات أصحابه ، ولم يفقد منهم من يجاذبه الخلاف في أمره ، وذلك بين من غير ما موضع من قصتهما ، في هذه الآية على ذلك دليلان ، أحدهما قوله : ﴿ ذروني ﴾ فليست هذه من ألفاظ الجبابرة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم . والدليل الثاني : مقالة المؤمن وما صدع به ، وأن مكاشفته لفرعون أكثر من مسايرته ، وحكمه بنبوة موسى أظهر من توريته في أمره . وأما فرعون فإنما لجأ إلى المخرقة والاضطراب والتعاطي ، ومن ذلك قوله : ﴿ ذروني أقتل موسى وليدع ربه ﴾ أي إني لا أبالي عن رب موسى ، ثم رجع إلى قومه يريهم النصيحة

والحماية لهم فقال : ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم ﴾ . والدين : السلطان ، ومنه قول زهير :

لئن حللت بجوٍّ من بني أسد . . . في دين عمرو وحالت بيننا فدك

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر : " وأن " . وقرأ عاصم وحمزة والكسائي : " أو أن " ، ورجحها أبو عبيد بزيادة الحرف ، فعلى الأولى خاف أمرين ، وعلى الثانية : خاف أحد أمرين .

وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم والحسن وقتادة والجحدري وأبو رجاء ومجاهد وسعيد بن المسيب ومالك بن أنس : "يُظهِر " بضم الياء وكسر الهاء . " الفسادَ " نصيباً . وقرأ ابن كثير وابن عامر : "يَظهرَ " بفتح الياء والهاء " الفسادُ " بالرفع على إسناد الفعل إليه ، وهي قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر عن عاصم والأعرج وعيسى والأعمش وابن وثاب . وروي عن الأعمش أنه قرأ : " ويظهرُ في الأرض الفساد " برفع الراء . وفي مصحف ابن مسعود : " ويظهر " بفتح الراء .

ولما سمع موسى عليه السلام مقالة فرعون -لأنه كان معه في مجلس واحد- دعا وقال : ﴿ إني عذت بربي وربكم ﴾ الآية . وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر ببيان الذال . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي : ﴿ عذت ﴾ بالإدغام ، واختلف عن نافع ، وفي مصحف أبي بن كعب : " عت " ، على الإدغام في الخط ثم حكى مقالة رجل مؤمن من آل فرعون وشرفه بالذكر ، وخلد ثناءه في الأمم ، سمعت أبي رضي الله عنه يقول : سمعت أبا الفضل الجوهري على المنبر وقد سئل أن يتكلم في شيء من فضائل الصحابة ، فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وأنشد [عدي بن زيد] : [الطويل]

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه . . . فكل قرين بالمقارن مقتد

ماذا تريدون من قوم قرنهم الله بنبيه صلى الله عليه وسلم وخصهم بمشاهدته وتلقي الوحي منه ؟ وقد أثنى الله على رجل مؤمن من آل فرعون كتم إيمانه وأسره ، فجعله الله تعالى في كتابه وأثبت ذكره في المصاحف لكلام قاله في مجلس من مجالس الكفر ، وأين هو من عمر بن الخطاب رضي الله عنه جرد سيفه بمكة وقال : والله لا عبد الله سراً بعد اليوم .

وقرأت فرقة : " رجْل " بسكون الجيم ، كعضد وعضد ، وسبع وسبع ، وقراءة الجمهور بضم الجيم واختلف الناس في هذا الرجل ، فقال السدي وغيره : كان من آل فرعون وأهله ، وكان يكتم إيمانه ، ف ﴿ يكتم ﴾ على هذا في موضع الصفة دون تقديم وتأخير ، وقال

مقاتل : كان ابن عم فرعون . وقالت فرقة : لم يكن من أهل فرعون . (وقالت فرقة : لم يكن من أهل فرعون) . بل من بني إسرائيل ، وإنما المعنى : وقال رجل يكتم إيمانه من آل فرعون ، ففي الكلام تقديم وتأخير ، والأول أصح ، ولم يكن لأحد من بني إسرائيل أن يتكلم بمثل هذا عند فرعون ، ويحتمل أن يكون من غير القبط ، ويقال فيه من آل فرعون ، إذ كان في الظاهر على دينه ومن أتباعه ، وهذا كما قال أراكة الثقفي يرثي أخاه ويتعزى برسول الله صلى الله عليه وسلم : [الطويل]

(127/675)

فلا تبك مْيتاً بعد مْيت أجنه . . . علي وعباس وآل أبي بكر

يعني المسلمين إذ كانوا في طاعة أبي بكر الصديق .

وقوله : ﴿ أن يقول ﴾ مفعول من أجله ، أي لأجل أن يقول : وجلح معهم هذا المؤمن في هذه المقالات ثم غالطهم بعد في أن جعله في احتمال الصدق والكذب ، وأراهم أنها نصيحة ، وحذفت النون من : ﴿ يك ﴾ تخفيفاً على ما قال سيبويه وتشبيهاً بالنون في تفعلون وتفعلان على مذهب المبرد ، وتشبيهاً بحرف العلة الياء والواو على مذهب أبي علي الفارسي وقال : كأن الجازم دخل على " يكن " وهي مجزومة بعد فأشبهت النون

الياء من يقضي والواو من يدعو ، لأن خفتها على اللسان سواء .

واختلف المتأولون في قوله : ﴿ يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ فقال أبو عبيدة وغيره : ﴿ بعض ﴾ بمعنى كل ، وأنشدوا قول القطامي عمرو بن شييم : [البسيط]

قد يدرك المتأني بعض حاجته . . . وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقال الزجاج : هو إلزام الحجة بأيسر ما في الأمر ، وليس فيه نفي إضافة الكل . وقالت فرقة ، أراد : يصبكم بعض العذاب الذي يذكر ، وذلك كاف في هلاككم ، ويظهر إلي أن المعنى : يصبكم القسم الواحد مما يعد به ، وذلك هو بعض ما يعد ، لأنه عليه السلام وعدهم إن آمنوا بالنعيم وإن كفروا بالعذاب فإن كان صادقاً فالعذاب بعض ما وعد به . وقالت فرقة : أراد ببعض ما يعدكم عذاب الدنيا ، لأنه بعض عذاب الآخرة ، أي وتصيرون بعد ذلك إلى الباقي وفي البعض كفاية في الإهلاك ، ثم وعظهم هذا المؤمن بقوله : ﴿ إن الله لايهدي من هو مسرف كذاب ﴾ قال السدي : معناه : مسرف بالقتل . وقال قتادة : مسرف بالكفر .

يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)

قول هذا المؤمن : ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ﴾ استنزال لهم ووعظ لهم من جهة شهواتهم وتحذير من زوال ترفتهم ونصيحة لهم في أمر دنياهم .

وقوله : ﴿ في الأرض ﴾ يريد في أرض مصر وما والاها من مملكتهم . ثم قررهم على من هو الناصر لهم من بأس الله ، وهذه الأقوال تقتضي زوال هيبة فرعون ، ولذلك استكان هو ورجع يقول : ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ كما تقول لمن لا تحكم له .

وقوله : ﴿ أريكم ﴾ من رأى قد عدي بالهمزة ، فللفعل مفعولان أحدهما الضمير في ﴿ أريكم ﴾ والآخر ما في قوله : ﴿ إلا ما ﴾ وكأن الكلام أراكم ما أرى ، ثم أدخل في صدر الكلام ﴿ ما ﴾ النافية وقلب معناها ب ﴿ إلا ﴾ الموجبة تخصيصاً وتأكيداً للأمر ، وهذا كما تقول : قام زيد ، فإذا قلت : ما قام إلا زيد أفدت تخصيصه وتأكيد أمره . و ﴿ أرى ﴾ متعدية إلى مفعول واحد وهو الضمير الذي فيه العائد على ﴿ ما ﴾ ، تقديره : إلا ما أراه ، وحذف هذا المفعول من الصفة حسن لطول الصلة .

وقرأ الجمهور : ﴿ الرشاد ﴾ مصدر رشد ، وفي قراءة معاذ بن جبل : " سبيل الرشّاد " بشد الشين ، قال أبو الفتح : وهو اسم فاعل في بنيته مبالغة وهو من الفعل الثلاثي رشد فهو كعباد من عبد . وقال النحاس : هو لحن وتوهمه من الفعل الرباعي وقوله مردود . قال أبو حاتم : كان معاذ بن جبل يفسرها سبيل الله . ويبعد عندي هذا على معاذ رضي الله عنه

، وهل كان فرعون إلا يدعي أنه إله ، ويقلق بناء اللفظة على هذا التأويل .

واختلف الناس من المراد بقوله : ﴿ وقال الذي آمن ﴾ فقال جمهور المفسرين : هو المؤمن المذكور أولاً ، قص الله تعالى أقاويله إلى آخر الآيات . وقالت فرقة : بل كلام ذلك المؤمن قديم ، وإنما أرد تعالى ب ﴿ الذي آمن ﴾ موسى عليه السلام ، واحتجت هذه الفرقة بقوة كلامه ، وأنه جلح معه بالإيمان وذكر عذاب الآخرة وغير ذلك ، ولم يكن كلام الأول إلا بملاينة لهم .

(129/675)

وقوله : ﴿ مثل يوم الإحزاب ﴾ مثل يوم من أيامهم ، لأن عذابهم لم يكن في واحد ولا عصر واحد . و ﴿ الأحزاب ﴾ : المتحزبون على أنبياء الله تعالى ، و ﴿ مثل ﴾ الثاني بدل من الأول . والدأب . العادة .

وقوله : ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ أي من نفسه أن يظلمهم هو عز وجل ، فالإرادة هنا على بابها ، لأن الظلم منه لا يقع البتة ، وليس معنى الآية أن الله لا يريد ظلم بعض العباد لبعض ، والبرهان وقوعه ، ومحال أن يقع ما لا يريده الله تعالى .

وقوله : ﴿ يوم التنادي ﴾ معناه ينادي قوم قوماً ويناديهم الآخرون . واختلف المتأولون في

﴿ التنادي ﴾ المشار إليه ، فقال قتادة : هو نداء أهل الجنة أهل النار ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ﴾ [الأعراف : 44] ، ونداء أهل النار لهم : ﴿ أفيضوا علينا من الماء ﴾ [الأعراف : 50] . وقالت فرقة : بل هو النداء الذي يتضمنه قوله تعالى : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ [الإسراء : 71] . وقال ابن عباس وغيره : هو التنادي الذي يكون بالناس عند النفخ في الصور نفخة الفزع في الدنيا وأنهم يفرون على وجوههم للفزع الذي نالهم وينادي بعضهم بعضاً ، وروي هذا التأويل عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يكون المراد التذكير بكل نداء في القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة ، ولها أجوبة بنداء وهي كثيرة منها ما ذكرناه ، ومنها " يا أهل النار خلود لا موت " ، ومنها " يا أهل الجنة خلود لا موت " ، ومنها نداء أهل الغدرات والنداء ﴿ لمقت الله ﴾ [غافر : 10] ، والنداء ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ [غافر : 16] إلى غير ذلك .

(130/675)

وقرأت فرقة : " التنادْ " بسكون الدال في الوصل ، وهذا على إجرائهم الوصل مجرى الوقف في غير ما موضع ، وقرأ نافع وابن كثير : " التنادي " بالياء في الوصل والوقف وهذا على الأصل . وقرأ الباقون " التناد " بغير يا فيهما ، وروي ذلك عن نافع وابن كثير ، وحذفت الياء مع الألف واللام حملاً على حذفها مع معاقبها وهو التنوين . وقال سيبويه : حذفت الياء تخفيفاً . وقرأ ابن عباس والضحاك وأبو صالح والكلبي : " التنادّ " بشد الدال ، وهذا معنى آخر ليس من النداء ، بل هو من ند البعير إذا هرب ، وبهذا المعنى فسر ابن عباس والسدي هذه الآية ، وروت هذه الفرقة في هذا المعنى حديثاً أن الله تعالى إذا طوى السماوات نزلت ملائكة كل سماء فكانت صفاً بعد صف مستديرة بالأرض التي عليها الناس للحساب ، فإذا رأى العالم هو القيامة وأخرجت جهنم عنقها إلى أصحابها فر الكفار وندوا مدبرين إلى كل جهة فتردهم الملائكة إلى المحشر خاسئين لا عاصم لهم ، قالت هذه الفرقة ، ومصداق هذا الحديث في كتاب الله تعالى قوله : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ [الحاقة : 17] وقوله تعالى : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ [الفجر : 22] وقوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ [الرحمن : 33] .

وقوله تعالى : ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ معناه : على بعض الأقاويل في التنادي تفرون هروباً

من المفزع وعلى بعضها تفرون مدبرين إلى النار . والعاصم : المنجي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(131/675)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذي آمَنَ يا قوم ﴾

زادهم في الوعظ ﴿ إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الأحزاب ﴾ يعني أيام العذاب التي عذب فيها المتحزبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد .

قوله تعالى : ﴿ وياقوم إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التناد ﴾ زاد في الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه ، إما مستسلماً موطناً نفسه على القتل ، أو واثقاً بأنهم لا يقصدونه بسوء ، وقد وقاه الله شرهم بقوله الحق ﴿ فَوَقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ .

وقراءة العامة "التناد" بتخفيف الدال وهو يوم القيامة ؛ قال أمية بن أبي الصَّلت :

وبَثَّ الخلْق فيها إذْ دَحاها . . .

فَهُمْ سُكَّانُها حتّى التَّنَاد

سمي بذلك لمناداة الناس بعضهم بعضاً ؛ فينادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم

بسيماهم ، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار : ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً ﴾ [الأعراف : 44] وينادي أصحاب النار (أصحاب الجنة) : ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَآء ﴾ [الأعراف : 50] وينادي المنادي أيضاً بالشقوة والسعادة : ألا إن فلان بن فلان قد شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً ، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً .

وهذا عند وزن الأعمال .

وتنادي الملائكة أصحاب الجنة ﴿ أَن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : 43] وينادي حين يذبح الموت : يا أهل الجنة خلود لا موت ويا أهل النار خلود لا موت .

وينادي كل قوم بإمامهم إلى غير ذلك من النداء .

وقرأ الحسن وابن السميقع ويعقوب وابن كثير ومجاهد : "يوم التَّنَاد" بإثبات الياء في الوصل والوقف على الأصل .

وقرأ ابن عباس والضحاك وعكرمة "يوم التَّنَادِّ" بتشديد الدال .

قال بعض أهل العربية : هذا لحن ؛ لأنه من نَدَّ يَنِدّ إذا مَرَّ على وجهه هارباً ؛ كما قال الشاعر :

وبَرْكٍ هُجُودٍ قَدْ أثارتْ مَخَافَتِي . . .

نَواديهَا أسْعى بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ

قال : فلا معنى لهذا في القيامة .

قال أبو جعفر النحاس : وهذا غلط والقراءة بها حسنة على معنى يوم التنافر .

قال الضحاك : ذلك إذا سمعوا زفير جهنم ندّوا هرباً ، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ؛ فذلك قوله : ﴿ يَوْمَ التناد ﴾ .

وقوله : ﴿ يامعشر الجن والإنس إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض ﴾ [الرحمن : 33] الآية .

وقوله : ﴿ والملك على أَرْجَآئِهَآ ﴾ [الحاقة : 17] ذكره ابن المبارك بمعناه .

قال : وأخبرنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال : حدّثنا عبد الجبار بن عبيد الله بن سلمان في قوله (تعالى) : ﴿ إِني أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التناد يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ ثم تستجيب لهم أعينهم بالدمع فيبكون حتى ينفد الدمع ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالدم فيبكون حتى ينفد الدم ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح .

قال : يرسل عليهم من الله أمر فيولون مدبرين ، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح ، فيبكون حتى ينفد القيح فتغور أعينهم كالخرق في الطين .

وقيل : إن هذا يكون عند نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور نفخة الفزع .

ذكره علي بن معبد والطبري وغيرهما من حديث أبي هريرة ، وفيه : " فتكون الأرض كالسفينة في البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها وتذهل المراضع وتضع الحوامل ما في بطونها وتشيب الولدان وتتطاير الشياطين هاربة فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً وهي التي يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ التناد يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ " الحديث بكماله .

وقد ذكرناه في كتاب التذكرة وتكلمنا عليه هناك .

وروي عن عليّ بن نصر عن أبي عمرو إسكان الدال من "التَّنَاد" في الوصل خاصة .

(133/675)

وروى أبو معمر عن عبد الوارث زيادة الياء في الوصل خاصة وهو مذهب ورش .

والمشهور عن أبي عمرو حذفها في الحالين .

وكذلك قرأ سائر السبعة سوى ورش على ما ذكرنا عنه وسوى ابن كثير على ما تقدّم .

وقيل : سمّي يوم القيامة يوم التناد ؛ لأن الكافر ينادي فيه بالويل والثبور والحسرة .

قاله ابن جريج .

وقيل : فيه إضمار أي إني أخاف عليكم عذاب يوم التناد ؛ فالله أعلم .

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ على البدل من "يَوْمِ التَّنَاد" ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

أي من خلق الله في قلبه الضلال فلا هادي له .

وفي قائله قولان : أحدهما موسى .

الثاني مؤمن آل فرعون وهو الأظهر .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(134/675)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

أي مآلُ حالِ مَنْ قبلَهم من الأُممِ المكذبةِ لرُسلِهم كعادٍ وثمودَ وأضرابِهم . ﴿ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ قدرةً وتمكناً من التصرفاتِ . وإنَّما جيءَ بضميرِ الفصلِ معَ أنَّ حقَّه التوسطُ

بينَ معرفتينِ لمضاهاةِ أفعلَ للمعرفةِ في امتناعِ دخولِ اللامِ عليهِ . وقُرِىءَ أشدَّ منكُم بالكافِ ﴿ وَءَاثَاراً فِى الأرض ﴾ مثلُ القلاعِ الحصينةِ والمدائنِ المتينةِ ، وقيلَ : المَعْنى وأكثرَ آثاراً ، كقولِه

متقلداً سيفاً ورُمحاً . . . ﴿ فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أخذاً وبيلاً ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ الله مِن وَاقٍ ﴾ أي منْ واقٍ يقيهم عذابَ الله .

(135/675)

﴿ ذلك ﴾ أي ما ذُكِرَ من الأخذِ ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسببِ أنَّهم ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ أي المعجزاتِ أو بالأحكامِ الظاهرةِ ﴿ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ الله إِنَّهُ قَوِىٌّ ﴾ متمكنٌ مما يريدُ غايةَ التمكنِ ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ لا يُؤبَهُ عندَ عقابِه بعقابٍ . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾ وهي معجزاتُه ﴿ وسلطان مُّبِينٍ ﴾ أي وحجَّةٍ قاهرةٍ وهيَ إما عينُ الآياتِ والعطفُ لتغايرِ العنوانينِ وإما بعضُ مشاهيرِها كالعَصا أفردتْ بالذكرِ مع اندراجِها تحتَ الآياتِ لإنافتِها إفرادَ جبريلَ وميكالَ به معَ دخولِها في الملائكةِ عليهم السَّلامُ . ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وهامان وَقَارُونَ فَقَالُواْ ساحر كَذَّابٌ ﴾ أي فيما أظهرَهُ من المعجزاتِ وفيمَا ادَّعاهُ من رسالةِ ربِّ العالمينَ . ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمْ بالحق مِنْ عِندِنَا ﴾ وهو

ما ظهرَ على يدِه من المعجزاتِ القاهرةِ ﴿ قَالُواْ اقتلوا أَبْنَاء الذين ءامَنُواْ مَعَهُ واستحيوا نِسَاءهُمْ ﴾ كما قالَ فرعونُ سنقتلُ أبناءَهُم ونستحيي نساءَهُم أي أعيدُوا عليهم ما كنتُم تفعلونَهُ أولاً وكانَ فرعونُ قد كفَّ عن قتلِ الولْدانِ فلما بُعثَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأحسَّ بأَنَّه قد وقعَ ما وقعَ أعادَهُ عليهم غيظاً وَحنَقاً وزعماً منْهُ أَنَّه يصدُّهم بذلكَ عن مظاهرته ظَّناً منهُم أَنَّه المولودُ الذي حكَم المنجّمونَ والكهنةُ بذهابِ ملكِهم على يدِه ﴿ وَمَا كَيْدُ الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ أي في ضَياعٍ وبُطلانٍ لا يُغني عنهُم شيئاً وينفذ عليهم لا محالةَ القدرُ المقدورُ والقضاءُ المحتومُ . واللامُ إمَّا للعهدِ والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ لذمّهم بالكفرِ والإشعارِ بعلةِ الحكمِ ، أو للجنسِ وهم داخلونَ فيه دخولاً أولياً . والجملةُ اعتراضٌ جيءَ بهِ في تضاعيفِ مَا حُكيَ عنْهم من الأباطيلِ للمسارعةِ إلى بيانِ بطلانِ ما أظهروه من الإبراقِ والإرعادِ

(136/675)

واضمِحْلالِه بالمرةِ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ موسى ﴾ كانَ مَلؤُه إذا هَمَّ بقتلِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كفُّوه بقولِهم ليسَ هَذا بالذي تخافُه فإنَّه أقلُّ من ذاكَ وأضعفُ وما هُو إلا بعضُ السحرةِ ، وبقولِهم

إذا قتلتَهُ أدخلتَ على النَّاسِ شُبهةً واعتقدُوا أنَّكَ عجزتَ عن معارضتِه بالحجَّةِ وعَدلتَ إلى المقارعةِ بالسيفِ ، والظاهرُ من دهاءِ اللعينِ ونَكارتِه أنَّه كانَ قد استيقنَ أنَّه نبيٌّ وأنَّ ما جاءَ بِهِ آياتٌ باهرةٌ وما هُو بسحرٍ ولكنْ كانَ يخافُ إنْ همَّ بقتلِه أنْ يُعاجلَ بالهلاكِ ، وكانَ قولُه هذا تمويهاً على قومِه وإيهاماً أنَّهم هم الكافُّونَ له عن قتلِه ولولاهُم لقتلَه وما كانَ الذي يكفُّه إلا ما في نفسِه من الفزعِ الهائل . وقولُه : ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ تجلدٌ منه وإظهارٌ لعدمِ المُبالاةِ بدعائِه ولكنَّه أخوفُ ما يخافُه ﴿ إِنِّى أَخَافُ ﴾ إنْ لم أقتلْهُ ﴿ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أنْ يغيرَ ما أنتُم عليهِ من الدينِ الذي هُو عبارةٌ عن عبادتِه وعبادةِ الأصنامِ لتقربَهم إليه ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الفساد ﴾ ما يُفسدُ دُنياكُم من التحاربِ والتهارجِ إنْ لم يقدرُ على تبديلِ دينِكم بالكلِّيةِ . وقُرِئَ بالواوِ الجامعةِ ، وقُرِئَ بفتحِ الياءِ والهاءِ ورفعِ الفساد ، وقُرِئَ يَظَّهَّر بتشديدِ الظَّاءِ والهاءِ من تظَّهَّرَ بمعنى تظَاهرَ أي تتابعَ وتعاونَ .

(137/675)

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ أي لقومِه حينَ سمعَ بما تقوَّلَهُ اللعينُ من حديثِ قتلِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب ﴾ صدَّرَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كلامَهُ بإنَّ تأكيداً له وإظهاراً لمزيدِ الاعتناءِ بمضمونِه وفرطِ الرغبةِ فيه ،

وخصَّ اسمَ الربِّ المنبىءِ عن الحفظِ والتربيةِ لأنَّهما الذي يستدعيه وأضافَهُ إليهِ وإليهم حثّاً لهم على موافقتِه في العياذِ بهِ تعالى والتوكلِ عليه فإنَّ في تظاهرِ النفوسِ تأثيراً قوياً في استجلابِ الإجابةِ ولم يسمِّ فرعونَ بل ذكرَهُ بوصفٍ يعمُّه وغيرَهُ منَ الجبابرةِ لتعميمِ الاستعاذةِ والإشعارِ بعلةِ القساوةِ والجرأةِ على الله تعالى . وقُرِىءَ عُتُّ بالإدغامِ .

(138/675)

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ قيل كانَ قبطياً ابْنَ عمَ لفرعونَ آمنَ بموسى سِرّاً ، وقيلَ : كانَ إسرائيلياً ، أو غريباً مُوحداً ﴿ يَكْتُمُ إيمانه ﴾ أيْ مِنْ فرعونَ وملئِه ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً ﴾ أتقصِدونَ قتلَهُ . ﴿ أَن يَقُولَ ﴾ لأنْ يقولَ ، أو كراهةَ أنْ يقولَ ﴿ رَبِّىَ الله ﴾ أيْ وحدَهُ من غيرِ رويةٍ وتأملٍ في أمرِه ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بالبينات ﴾ والحالُ أنَّه قد جاءكُم بالمعجزاتِ الظاهرةِ التي شاهدتُموها وعهدتُموها ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أضافَهُ إليهم بعدَ ذكرِ البيناتِ احتجاجاً عليهم واستنزالاً لَهُمْ عن رُتبةِ المكابرةِ ثم أخذَهُم بالاحتجاجِ من بابِ الاحتياطِ ، فقالَ ﴿ وَإِن يَكُ كاذبا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ لا يتخطَّاهُ وبالُ كذبِه فيُحتاجَ في دفعه إلى قتلِه ﴿ وَإِن يَكُ صادقا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذى يَعِدُكُمْ ﴾ أيْ إنْ لم يُصبكم كلُّه فلا أقلَّ منْ إصابةِ بعضِه لا سيَّما إنْ تعرضتُم له بسوءٍ ، وهذا كلامٌ صادرٌ عن غايةِ الإنصافِ وعدمِ

التعصبِ ولذلكَ قدَّمَ من شِقَّيْ الترديدِ كونَهُ كاذباً أو يُصبْكُم ما يعدُكُم من عذابِ الدُّنيا وهو بعضُ ما يعدُهم كأنَّه خوَّفهم بما هو أظهرُ احتمالاً عندَهُم ، وتفسيرُ البعضِ بالكُلِّ مستدلاً بقولِ لَبيدٍ

ترَّاكُ أمكنةٍ إذا لَمْ أَرْضَها . . . أو يرتبطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

(139/675)

مردودٌ لَما أنَّ مرادَهُ بالبعضِ نَفْسُه ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ . احتجاجٌ آخرُ ذُو وجهينِ أحدُهما أنَّه لوْ كانَ مُسرفاً كذاباً لما هداهُ اللهُ تعالَى إلى البيناتِ ولَما أيَّدهُ بتلكَ المعجزاتِ وثانيهما إنْ كان كذلك خذلَه اللهُ وأهلكَهُ فَلا حاجةَ لكُم إلى قتلِه ولعلَّه أراهُم المعنى الثَّانِي وهُو عاكفٌ على المَعْنى الأول لتلينَ شكيمتُهم وقد عَرَّضَ به لفرعونَ بأنَّه مسرفٌ كذَّابٌ لا يهديه اللهُ سبيلَ الصوابِ ومنهاجَ النجاةِ .

﴿ يا قومِ لَكُمُ الملك اليوم ظاهرين ﴾ غالبينَ عالينَ عَلى بني إسرائيلَ ﴿ فِى الأرض ﴾ أي أرضِ مصرَ لا يُقاومكُم أحدٌ في هذا الوقتِ ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ الله ﴾ من أخذِه وعذابِه . ﴿ إِن جَاءنَا ﴾ أي فَلاَ تُفسدُوا أمركُم ولا تتعرضُوا لبأسِ اللهِ بقتلِه فإنَّه إنْ جاءَنا لم يمنعنا منه أحدٌ وإنَّما نسبَ ما يسرُّهم من المُلكِ والظهورِ في الأرضِ إليهم خَاصَّة

ونظمَ نفسَهُ في سلكِهم فيما يسوؤُهم من مجيء بأسِ الله تعالى تطييباً لقلوبِهم وإيذاناً بأنَّه ناصحٌ لهم ساعٍ في تحصيلِ ما يُجديهم ودفعِ ما يُرديهم سعيَهُ في حقِّ نفسِه ليُتأثَّرَ بنصحِه .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ بعد ما سَمِعَ نُصحَهُ ﴿ مَا أُرِيكُمْ ﴾ أيْ ما أُشيرُ عليكم ﴿ إِلاَّ مَا أرى ﴾ وأستصوبُهُ مِنْ قتلِه ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ ﴾ بهذا الرَّأي ﴿ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ أي الصوابِ ، أو لا أُعلِّمُكم إلاَّ ما أعلمُ ولا أُسرُّ عنكم خلافَ ما أُظهرُهُ ، ولقدْ كذبَ حيثُ كانَ مستشعراً للخوفِ الشديدِ ولكنَّه كان يتجلدُ ولولاهُ لما استشارَ أحداً أبداً . وقُرِئَ بتشديدِ الشّينِ للمبالغةِ من رشُد كعلاّم أو من رشَد كعبّاد لا من أرشد كجبار من أجبر لأنه مقصورٌ على السماع أو للنسبة إلى الرُّشْد كعوّاج وبتّات غيرَ منظور فيه إلى فَعْل .

(140/675)

﴿ وَقَالَ الذى ءامَنَ ﴾ مخاطباً لقومِه : ﴿ يا قومِ إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ في تكذيبِه والتعرضِ بالسوءِ ﴿ مّثْلَ يَوْمِ الأحزاب ﴾ مثلَ أيامِ الأممِ الماضيةِ يعني وقائِعَهُم ، وجمعُ الأحزابِ مع التفسيرِ أغنى عَن جمعِ اليومِ ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أيْ مثلَ جزاءِ ما كانوا عليهِ من الكفرِ وإيذاءِ الرُّسلِ . ﴿ والذين مِن بَعْدِهِمْ ﴾ كقومِ لوطٍ ﴿ وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً لّلعِبَادِ ﴾ فلا يُعاقبُهم بغيرِ ذنبٍ ولا يُخلّي الظالمَ منهم بغيرِ انتقامٍ وهُو أبلغُ من

قولِه تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ لما أنَّ المنفيّ فيهِ إرادةُ ظلمٍ ما فينتفي الظلمُ بطريقِ الأولويةِ ﴿ ويا قومِ إنّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التناد ﴾ خوّفهم بالعذابِ الأُخروي بعدَ تخويفِهم بالعذابِ الدنيويّ ويومُ التنادِ يومُ القيامةِ لأنَّه يُنادِي فيهِ بعضُهم للاستغاثةِ أو يتصايحونَ بالويلِ والثبورِ أو يتنادَى أصحابُ الجنةِ وأصحابُ النارِ حسبَما حُكِيَ في سورةِ الأعرافِ . وقُرِئَ بتشديدِ الدّالِ وهُو أنْ يندَّ بعضُهم من بعضٍ كقولِه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ وعنِ الضحّاكِ إذا سمعُوا زفيرَ النارِ ندُّوا هَرَباً فلا يأتونَ قُطراً من الأقطارِ إلاَّ وجدُوا ملائكةً صفوفاً فبينَا هُم يموجُ بعضهم في بعضٍ إذْ سمعُوا مُنادياً أَقبلوا إلى الحسابِ ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ بدلٌ من يومَ التنادِ أي منصرفينَ عن الموقفِ إلى النارِ أو فارينَ منها حسبَما نُقل آنفاً ﴿ مَا لَكُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ يعصمُكم من عذابِه . والجملةُ حالٌ أُخْرَى من ضميرِ تُولُّون . ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يهديه إلى طريقِ النجاةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(141/675)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ ﴾

الجمهور على أنه الرجل المؤمن الكاتم إيمانه القائل : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ﴾ [غافر : 28] قوى الله تعالى نفسه وثبت قلبه فلم يهب فرعون ولم يعبأ به فأتى بنوع آخر من التهديد والتخويف فقال : ﴿ ءامَنَ يا قوم إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الاحزاب ﴾ إلى آخره ، وقالت فرقة : كلام ذلك المؤمن قد تم ، والمراد بالذي آمن هنا هو موسى نفسه عليه السلام ، واحتجت بقوة كلامه ، وعلى الأول المعول أي قال ناصحاً لقومه : يا قوم إني أخاف عليكم في تكذيب موسى عليه السلام والتعرض له بالسوء إن يحل بكم مثل ما حل الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية ، واليوم واحد الأيام بمعنى الوقائع وقد كثر استعمالها بذلك حتى صار حقيقة عرفية أو بمعناها المعروف لغة ، والكلام عليه على حذف مضاف أي مثل حادث يوم الأحزاب .

وأياً ما كان فالظاهر جمع اليوم لكن جمع الأحزاب المضاف هو إليه مع التفسير بما بعد أغنى عن جمعه ، والمعنى عليه ورجح الافراد بالخفة والاختصار ، وقال الزجاج : المراد يوم حزب حزب بمعنى أن جمع حزب مراد به شمول أفراده على طريق البدل وهو تأويل في الثاني وما تقدم أظهر .

﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي مثل جزاء دأبهم أي عادتهم الدائمة من الكفر وإيذاء الرسل ، وقدر المضاف لأن المخوف في الحقيقة جزاء العمل لا هو ، وجاء هذا من نصب ﴿ مَثَلُ ﴾ الثاني على أنه عطف بيان لمثل الأول لأن آخر ما تناولته الإضافة قوم

نوح ، ولو قلت : أهلك الله الأحزاب قوم نوح .

وعاد .

وثمود لم يكن إلا عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام فسرى ذلك الحكم إلى أول ما تناولته الإضافة .

(142/675)

وقال ابن عطية : هو بدل من ﴿ مَثَلُ ﴾ [غافر : 30] الأول ، والاحتياج إلى تقدير المضاف على حاله ﴿ والذين مِن بَعْدِهِمْ ﴾ كقوم لوط ﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ أي فما فعل سبحانه بهؤلاء الأحزاب لم يكن ظلماً بل كان عدلاً وقسطاً لأنه عز وجل أرسل إليهم رسلهم بالبينات فكذبوهم وتحزبوا عليهم فاقتضى ذلك اهلاكهم ، وهذا أبلغ من قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بظلام لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] من حيث جعل المنفى فيه إرادة الظلم لأن من كان عن إرادة الظلم بعيداً كان عن الظلم نفسه أبعد ، وحيث نكر الظلم كأنه نفي أن يريد ظلماً ما لعباده ، وجوز الزمخشري أن يكون معناه كمعنى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر ﴾ [الزمر : 7] أي لا يريد سبحانه لهم أن يظلموا يعني أنه عز وجل دمرهم لأنهم كانوا ظالمين ، ولا يخفى أن هذا المعنى مرجوح لفظاً ومعنى ، ثم لا حجة فيه

للمعتزلة لثبوت الفرق بين أراده منه وأراده له فلو سلم أنه سبحانه لا يريد لهم أن يظلمو لم يلزم أن لا يريده منهم والممتنع عند أهل السنة هو هذا فلا احتياج إلى صرف الآية عن الظاهر عندهم أيضاً .

وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32)

خفهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي ، والتناد مصدر تنادي القوم أي نادي بعضهم بعضاً ، ويوم التناد يوم القيامة سمي بذلك لأنه ينادي فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة أو يتصايحون فيه بالويل والثبور أو لتنادي أهل الجنة وأهل النار كما حكي في سورة الأعراف أو لأن الخلق ينادون إلى المحشر أو لنداء المؤمن ﴿ هَاؤُمُ اقرؤا كتابيه ﴾ [الحاقة : 19] والكافر ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة : 25]

(143/675)

وعن ابن عباس أن هذا التنادي هو التنادي الذي يكون بين الناس عند النفخ في الصور ونفخة الفزع في الدنيا وأنهم يفرون على وجوههم للفزع الذي نالهم وينادي بعضهم بعضاً ، وروي هذا عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يراد التذكير بكل نداء في القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة .

وقرأت فرقة ﴿ التناد ﴾ بسكون الدال في الوصل إجراء له مجرى الوقف .

وقرأ ابن عباس .

والضحاك .

وأبو صالح .

والكلبى .

والزعفراني .

وابن مقسم ﴿ التناد ﴾ بتشديد الدال من ند البعير إذا هرب أي يوم الهرب والفرار لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ [عيسى : 34] الآية ، وفي الحديث " إن للناس جولة يوم القيامة يندون يظنون أنهم يجدون مهرباً " .

وقيل : المراد به يوم الاجتماع من ندا إذا اجتمع ومنه النادي .

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ بدل من ﴿ يوم التناد ﴾ [غافر : 32] أي يوم تولون عن الموقف منصرفين عنه إلى النار ، وقيل : فارين من النار ، فقد روي أنهم إذا سمعوا زفير النار هربوا فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً فلا ينفعهم الهرب ، ورجح هذا القول بأنه أتم فائدة وأظهر ارتباطاً بقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي يعصمكم في فراركم حتى لا تعذبوا في النار قاله السدى ، وقال قتادة : أي ما لكم في الانطلاق إلى النار من مانع يمنعكم منها أو ناصر ، وهذا ما يقال على المعنى الأول ليوم تولون مديرين وأيا ما

كان فالجملة حال أخرى من ضمير ﴿ تُوَلُّونَ ﴾ .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يهديه إلى طريق النجاه أصلا ، وكأن الرجل يئس من قبولهم نصحه فقال ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(144/675)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) ﴾

لما كان هذا تكملة لكلام الذي آمن ولم يكن فيه تعريج على محاورة فرعون على قوله : ﴿ مَا أريكم إلاَّ مَا أرى ﴾ [غافر : 29] الخ وكان الذي آمن قد جعل كلام فرعون في البَيْن واسترسل يكمل مقالته عُطف فعل قوله بالواو ليتصل كلامه بالكلام الذي قبله ، ولئلا يتوهم أنه قصد به مراجعة فرعون ولكنه قصد إكمال خطابه ، وعبر عنه بالذي آمن لأنه قد عرف بمضمون الصلة بعد ما تقدم .

وإعادته نداء قومه تأكيد لما قصده من النداء الأول حسبما تقدم .

وجعل الخوف وما في معناه يتعدى إلى المخوف منه بنفسه وإلى المخوف عليه بحرف (على) قال لبيد يرثي أخاه أربد :

أخشَى على أربُدَ الحُتوفَ ولا

أخشَى عليه الرياحَ والمطرا . . .

و﴿ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴾ مراد به ، الجنس لا (يومٌ) معين بقرينة إضافته إلى جمعٍ أزمانُهم متباعدة .

فالتقدير : مثل أيام الأحزاب ، فإفراد يوم للإيجاز ، مثل بطن في قول الشاعر وهو من شواهد سيبويه في باب الصفة المشبهة بالفاعل :

كلُوا في بعض بَطْنِكم تَعِفُّوا

فإن زَمانكم زمنٌ خميص . . .

والمراد بأيام الأحزاب أيام إهلاكهم والعرب يطلقون اليوم على يوم الغالب ويوم المغلوب .

والأحزاب الأمم لأن كل أمة حِزبٌ تجمعهم أحوال واحدة وتناصر بينهم فلذلك تسمى الأمة حزباً ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ في سورة [المؤمنين : 53] .

والدأْب : العادة والعمل الذي يدأب عليه عامله ، أي يلازمه ويكرره ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ في أول [آل عمران : 11] .

وانتصب ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ على عطف البيان من ﴿ مِثْلَ يَوْمِ الأحزابِ ﴾ ولما كان بياناً له كان ما يضافان إليه متحداً لا محالة فصار الأحزاب و (الدأب) في معنى واحد وإنما يتم ذلك بتقدير مضاف متحد فيهما ، فالتقدير : مثلَ يومِ جزاء الأحزاب .

مثلَ يومِ جزاء دأب قوم نوح وعاد وثمود ، أي جزاء عملهم .

ودأبهم الذي اشتركوا فيه هو الاشراك بالله .

وهذا يقتضي أن القبط كانوا على علم بما حلّ بقوم نوح وعاد وثمود ، فأما قوم نوح فكان طوفانهم مشهوراً ، وأما عاد وثمود فلقرب بلادهم من البلاد المصرية وكان عظيماً لا يخفى على مجاوريهم .

وجملة ﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ ﴾ معترضة ، والواو اعتراضية وهي اعتراض بين كلاميه المتعاطفين ، أي أخاف عليكم جزاءً عادلاً من الله وهو جزاء الإشراك .

والظلم يطلق على الشرك ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] ، ويطلق على المعاملة بغير الحق ، وقد جمع قوله : ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ نفي الظلم بمعنييه على طريقة استعمال المُشترك في معنييه .

وكذلك فعل ﴿ يريد ﴾ يطلق بمعنى المشيئة كقوله : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ [المائدة : 6] ويطلق بمعنى المحبة كقوله : ﴿ ما أريد منهم من رزق ﴾ [

الذاريات : 57] ، فلما وقع فعل الإِرادة في حيّز النفي اقتضى عموم نفي الإِرادة بمعنييها على طريقة استعمال المشترك في معنييه ، فالله تعالى لا يحب صدور ظلم من عباده ولا يشاء أن يَظلِم عبادَه .

وأول المعنيين في الإِرادة وفي الظلم أعلق بمقام الإِنذار ، والمعنى الثاني تابع للأَول لأنه يدل على أن الله تعالى لا يترك عقاب أهل الشرك لأنه عَدْل ، لأن التوعد بالعقاب على الشرك والظلمِ أقوى الأسباب في إقلاع الناس عنه ، وصدق الوعيد من متممات ذلك مع كونه مقتضى الحكمة لإِقامة العدل .

(146/675)

وتقديم اسم ﴿ اللَّهُ ﴾ على الخبر الفعلي لإِفادة قصر مدلول المسند على المسند إليه ، وإذ كان المسند واقعاً في سياق النفي كان المعنى : قصر نفي إرادة الظلم على الله تعالى قصرَ قلب ، أي الله لا يريد ظلماً للعباد بل غيره يريدونه لهم وهم قادة الشرك وأيمتُه إذ يدعونهم إليه ويَزعمون أن الله أمرهم به قال تعالى : ﴿ وإذ فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ [الأعراف : 28] .

هذا على المعنى الأول للظلم ، وأما على المعنى الثاني فالمعنى : ما الله يريد أن يَظلم عبادَه

ولكنهم يظلمون أنفسهم باتباع أيمتهم على غير بصيرة كقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ [يونس : 44] ويظلمهم دعاتهم وأيمتهم كما قال تعالى : ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ [هود : 101] ، فلم يَخْرُج تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في سياق النفي في هذه الآية عن مهيع استعماله في إفادة قصر المسند على المسند إليه فتأمله .

وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32)

أعقب تخويفهم بعقاب الدنيا الذي حلّ مثله بقوم نوح وعاد وثمود والذين مِن بعدهم بأنْ خَوَّفهم وأنذرَهم عذاب الآخرة عاطفاً جملته على جملة عذاب الدنيا .

وأَقْحَم بين حرف العطف والمعطوفِ نداء قومه للغرض الذي تقدم آنفاً .

(147/675)

و ﴿ يَوْمَ التَّنَادِي ﴾ هو يوم الحساب والحشر ، سمي ﴿ يَوْمَ التَّنَادي ﴾ لأن الخلق يتنادون يومئذٍ : فَمِن مستشفع ومن متضرع ومن مسلِّم ومهنِّىءٍ ومن موبّخ ومن معتذر ومن آمر ومن معلن بالطاعة قال تعالى : ﴿ يوم يناديهم ﴾ [فصلت : 47] ، ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ [فصلت : 44] ، ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ [

الأعراف : 44] ، ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾ [الأعراف : 50] ، ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ [الإسراء : 71] ، ﴿ دعوا هنالك ثبورا ﴾ [الفرقان : 13] ، ﴿ يوم يدعُ الداعِ إلى شيء نكر ﴾ [القمر : 6] ونحو ذلك .

ومن بديع البلاغة ذكر هذا الوصف لليومِ في هذا المقام ليُذكرهم أنه في موقفه بينهم يناديهم بـ (يا قوم) ناصحاً ومريداً خلاصهم من كل نداء مفزع يوم القيامة ، وتأهيلَهم لكل نداء سارّ فيه .

وقرأ الجمهور ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ بدون ياء في الوصل والوقفِ وهو غير منون ولكن عومل معاملة المنوّن لقصد الرعاية على الفواصل ، كقول التاسعة من نساء حديث أم زرع : "زَوجي رفيعُ العِماد ، طويل النِجَاد ، كثيرُ الرماد ، قريبُ البيت من الناد" فحذفت الياء من كلمة (الناد) وهي معرِفة .

وقرأ ابن كثير ﴿ يوم التنادي بإثبات الياء على الأصل اعتباراً بأن الفاصلة هي قوله : فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ .

و ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ ، والتولي : الرجوع ، والإدبارُ : أن يرجع من الطريق التي وراءه ، أي من حيث أتى هَرباً من الجهة التي ورد إليها لأنه وجد فيها ما يكره ، أي يوم تفرّون من هول ما تجدونه .

و ﴿ مدبرين ﴾ حال مؤكدة لعاملها وهو ﴿ تولون ﴾ .

وجملة ﴿ مَا لَكُم مِنَ اللهِ مِن عَاصِمٍ ﴾ في موضع الحال .

والمعنى : حالة لا ينفعكم التولّي .

والعاصم : المانع والحافظ .

(148/675)

و ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ متعلق بـ ﴿ عاصم ، ﴾ و ﴿ من ﴾ المتعلقة به للابتداء ، تقول : عصمه من الظالم ، أي جعله في منَعَة مبتدأة من الظالم .

وضَمن فعل (عَصم) معنى : أنقذَ وانتزعَ ، ومعنى : ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ من عذابه وعقابه لأن المنع إنما تتعلق به المعاني لا الذوات .

و ﴿ من ﴾ الداخلة على ﴿ عاصم ﴾ مزيدة لتأكيد النفي .

وَأغنى الكلام على تعدية فعل : ﴿ أَخَافُ عَلَيكم مِثلَ يَومِ الأَحْزَابِ ﴾ [غافر : 30] عن إعادته هنا .

وجملة ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ عطف على جملة ﴿ إِنّي أَخَافُ عَلَيْكُم يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ لتضمنها معنى : إني أرشدتكم إلى الحذر من يوم التنادي .

وفي الكلام إيجاز بحذف جُمل تدل عليها الجملة المعطوفة .

والتقدير : هذا إرشاد لكم فإن هداكم الله عملتم به وإن أعرضتم عنه فذلك لأن الله أضلكم ومن يضلل الله فما له من هاد ، وفي هذه الجملة معنى التذييل .

ومعنى إسناد الإِضلال والإِغواء ونحوهما إلى الله أن يكون قد خلق نفس الشخص وعقله خلقاً غير قابل لمعاني الحق والصواب ، ولا ينفعل لدلائل الاعتقاد الصحيح .

وأراد من هذه الصلة العموم الشامل لكل من حرمه الله التوفيق ، وفيه تعريض بتوقعه أن يكون فرعون وقومه من جملة هذا العموم ، وآثر لهم هذا دون أن يقول : ﴿ ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ [الزمر : 37] لأنه أحسّ منهم الإِعراض ولم يتوسم فيهم مخائل الانتفاع بنصحه وموعظته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(149/675)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ

لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان حاصل ما مضى من حالهم في أمر موسى عليه السلام أنه جاءهم بالبينات فشكوا فيها ، وختم بتحذيرهم من عذاب الدنيا والآخرة ، عطف عليه شك آبائهم في مثل ذلك ، فقال مبيناً أنهم مستحقون لما حذر منه العذاب ليشكروا نعمة الله في إمهاله إياهم ويحذروا نقمته إن تمادوا وأكد لأجل إنكارهم أن يكونوا أتوا ببينة ، وافتتح بحرف التوقع لأن حالهم اقتضت توقع ذلك ودعت إليه : ﴿ ولقد جاءكم ﴾ أي جاء آباءكم يا معشر القبط ، ولكنه عبر بذلك دلالة على أنهم على مذهب الآباء كما جرت به العادة من التقليد ، ومن أنهم على طبائعهم لا سيما إن كانوا لم يفارقوا مساكنهم : ﴿ يوسف ﴾ أي نبي الله ابن نبي الله يعقوب ابن نبي الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم .

(150/675)

ولما لم يكن مجيئه مستغرقاً لما تقدم موسى عليه السلام من الزمان أدخل الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل زمن موسى عليه السلام : ﴿ بالبينات ﴾ أي الآيات الظاهرات ولا سيما في أمر يوم التناد ﴿ فما زلتم ﴾ بكسر الزاي من زال يزال أي ما برحتم أنتم تبعاً لآبائكم ﴿ في شك ﴾ أي محيط بكم لم تصلوا إلى رتبة الظن ﴿ مما جاءكم به ﴾ من التوحيد وما يتبعه ، ودل على تمادي شكهم بقوله : ﴿ حتى إذا هلك ﴾ وكأنه عبر بالهلاك إيهاماً لهم أنه غير معظم له ، وأنه إنما يقول ما يشعر بالتعظيم لأجل محض النصيحة والنظر في العاقبة ﴿ قلتم ﴾ أي من عند أنفسكم بغير دليل كراهة لما جاء به وتضجرا منه جهلاً بالله تعالى : ﴿ لن يبعث الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال .

ولما كان مرادهم استغراق النفي حتى لا يقع البعث في زمن من الأزمان وإن قل ، أدخل الجار فقال : ﴿ من بعده ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿ رسولا ﴾ وهذا ليس إقراراً منهم برسالته ، بل هو ضم منهم إلى الشك في رسالته التكذيب برسالة من بعده ، والحجر على الملك الأعظم في عباده وبلاده والإخبار عنه بما ينافي كماله .

ولما كان كأنه قيل : هذا ضلال عظيم هل ضل أحد مثله ؟ أجيب بقوله : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الضلال العظيم الشأن ﴿ يضل ﴾ وأبرز الاسم ولم يضمره لئلا يخص الإضلال بالحيثية الماضية ، وجعله الجلالة تعظيماً للأمر لصلاحية الحال لذلك وكذا ما يأتي بعده

﴿ الله ﴾ أي بما له من صفات القهر ﴿ من هو مسرف ﴾ أي متعال في الأمور خارج عن الحدود طالب للارتفاع عن طور البشر .

(151/675)

ولما كان السياق للشك في الرسالة والقول بالظن الذي يلزم منه اتهام القادر سبحانه بالعجز أو مجانبة الحكمة قال : ﴿ مرتاب ﴾ أي يشك فيما لا يقبل الشك ويتهم غيره بما لا حظّ للتهمة فيه ، أي ديدنه التذبذب في الأمور الدينية ، فلا يكاد يحقق أمراً من الأمور ، ولا إسراف ولا ارتياب أعظم من حال المشرك فإنه منع الحق أهله وبذله لمن لا يستحقه بوجه ، وهذه الآية دليل على أن القبط طول الدهر على ما نشاهده من أنه لا ثقة بدخولهم في الدين الحق ، ولا ثبات لهم في الأعمال الصالحة .

ولما ظهر ظهوراً لا يحتمل شكاً بما أتى به موسى عليه السلام من البينات أن شكهم في رسالة الماضي وجزمهم في الحكم بنفي رسالة الآتي أعظم ضلال وأنه من الجدال الذي لا معنى له إلا فتل المحق عما هو عليه من الحق إلى ما عليه المجادل من الضلال ، وصل بذلك قوله على سبيل الاستنتاج ذماً لهم بعبارة تعم غيرهم : ﴿ الذين ﴾ أي جدال من ﴿ يجادلون ﴾ أي يقاتلون ويخاصمون خصاماً شديداً ﴿ في آيات الله ﴾ أي المحيطة

بأوصاف الكمال لا سيما الآيات الدالة على يوم التناد ، فإنها أظهر الآيات على وجوده سبحانه وعلى ما هو عليه من الصفات والأفعال وما يجوز عليه أو يستحيل .

ولما كان الجدال بالتي هي أحسن مشروعاً ، وهو بما أمر به قال : ﴿ بغير سلطان ﴾ أي تسليط ودليل ﴿ أتاهم ﴾ أي من عند من له الأمر كله ﴿ كبر ﴾ أي عظم هو ، أي الجدال المقدر مضافاً قبل ﴿ الذين ﴾ وبين ما أبهم من هذا العظم بتمييز محول عن الفاعل فقال : ﴿ مقتاً عند الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ وعند الذين آمنوا ﴾ أي الذين هم خاصته .

(152/675)

ولما كان فاعل هذا لا يكون إلا مظلم القلب ، فكان التقدير : أولئك طبع الله على قلوبهم ، وصل به استئنافاً قوله : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الطبع العظيم ﴿ يطبع ﴾ أي يختم ختماً فيه العطب ﴿ الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ على كل قلب ﴾ ولما كان فعل كل ذي روح إنما هو بقلبه ، نسب الفعل إليه في قراءة أبي عمرو وابن عامر في إحدى الروايتين عنه بالتنوين فوصفه بقوله : ﴿ متكبر ﴾ أي متكلف ما ليس له وليس لأحد غير الله ﴿ جبار ﴾ أي ظاهر الكبر قويّه قهار وقراءة الباقين بالإضافة مثلها سراء في أن السور داخل القلب ليعم جميع أفراده غير أن الوصف بالكبر والجبروت للشخص لا للقلب ، وهي

أيين من القراءة الشاذة بتقديم القلب على كل لأن تقديم كل نص في استغراق أفراد القلوب ممن اتصف بهذا الوصف ، ومن المقطوع به أن آحاد القلوب موزعة على آحاد الأشخاص لأنه لا يكون لشخص أكثر من قلب بخلاف ما إذا قدم القلب فإنه قد يدعي أن الشخص الواحد ، وأن السور لأجل جمعه لأنواع الكبر والجبروت فيكون المعنى : على قلب شخص جامع لكل فرد من أفراد التكبر والتجبر – والله الموفق .

ولما ذكر الطبع المذكور ، دل عليه بما ذكر من قول فرعون وفعله عطفاً على ما مضى من قوله وقول المؤمن ، فإنه قصد ما لا مطمع في نيله تيهاً وحماقة تكبراً وتجبراً لكثافة قلبه وفساد لبه ، فصار به ضحكة لكل من سمعه هذا إن كان ظن أنه يصل إلى ما أراد وإن كان قصد بذلك التلبيس على قومه للمدافعة عن اتباع موسى عليه السلام إلى وقت ما فقد نادى عليهم بالجهل ، والإغراق في قلة الحزم والشهامة والعقل ، فقال تعال : ﴿ وقال فرعون ﴾ أي بعد قول المؤمن هذا ، معرضاً عن جوابه لأنه لم يجد فيه مطعناً : ﴿ يا هامان ﴾ وهو وزيره ﴿ ابنِ ﴾ وعرفه بشدة اهتمامه به بالإضافة إليه في قوله : ﴿ لي صرحاً ﴾ أي بناء ظاهراً يعلوه لكل أحد .

قال البغوي : لا يخفى على الناظر وإن بعد .

وأصله من التصريح وهو الإظهار ، وتعليله بالترجي الذي لا يكون إلا في الممكن دليل على أنه كان يلبس على قومه وهو يعرف الحق ، فإن عاقلاً لا يعد ما رامه في عداد الممكن العادي فقال : ﴿ لعلي أبلغ الأسباب ﴾ أي التي لا أسباب غيرها لعظمها .

ولما كان بلوغها أمراً عجيباً ، أورده على نمط مشوق عليه ليعطيه السامع حقه من الاهتمام تفخيماً لشأنها ، ليتشوف السامع إلى بيانها ، بقوله : ﴿ أسباب السماوات ﴾ أي الأمور الموصلة إليها ، وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب إليه .

ولما ذكر هذا السبب ، ذكر المسبب عنه فقال : ﴿ فاطَّلع ﴾ أي فلعله يتسبب عن ذلك ويتعقبه أني أتكلف الطلوع ﴿ إلى إله موسى ﴾ فيكون كما ترى عطفاً على ﴿ أبلغ ﴾ ، ونصبه حفص عن عاصم على الجواب تنبيهاً على أن ما أبرزه الخبيث في عداد الممكن إنما هو تمني محال غير ممكن في العادة .

ولما كان من جملة إرادته بذلك مع إيقاف قومه إلى وقت ما عن المتابعة أن يخيلهم بأن يقول : طلعت فبحثت عما قال موسى فلم أقف له على صحة ، قدم لهم قوله مبيناً لحاله إذ ذاك لما ظن من ميل قلوبهم إلى تصديق موسى عليه السلام : ﴿ وإني لأظنه ﴾ أي موسى ﴿ كاذباً ﴾ فترك الكلام على احتمال أن يريد في الرسالة أو في الإلهية .

ولما كان هذا أمراً عجيباً ، وهو كون أحد يظن أنه يخيل للعقول أنه يصعد إلى السماء ، وأن

الإله الذي هو غني عن كل شيء وقد كان ولا شيء معه يكون في السماء ، أو في محل من المحال ، فإن كل حال في شيء يحتاج إلى محله ، وكل محتاج عاجز ولا يصلح العاجز للإلهية لو لم يجئ عن الله لما كان أهلاً لأن يصدق ، فكان التقدير : عمله فرعون لأنا زيناه له ، عطف عليه زيادة في التعجيب : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك التزيين العظيم الشأن اللاعب بالألباب .

(154/675)

ولما كان الضار هو التزيين لا المزين الخاص ، بناه للمفعول فقال : ﴿ زين ﴾ أي زين المزين النافذ الأمر ، وهو لله تعالى حقيقة بخلقه وإلزامه لأن كل ما دخل في الوجود من المحدثات فهو خلقه ، والشيطان مجازاً بالتسبب بالوسوسة التي هي خلق الله تعالى ﴿ لفرعون سوء عمله ﴾ في جميع أمره ، فاقبل عليه راغباً فيه مع بعده من عقل أقل ذوي العقول فضلاً عن ذوي الهمم منهم فضلاً عن الملوك ، وأطاعه فيه وقومه ﴿ وصُد ﴾ بنفسه ومنع غيره على قراءة الفتح ، ومنعه الله – على قراءة الكوفيين ويعقوب بالضم ﴿ عن السبيل ﴾ أي التي لا سبيل في الحقيقة غيرها ، وهو الموصلة إلى الله تعالى .

ولما كان هذا السياق بحيث يظن منه الظان أن لفرعون نوع تصرف ، نفى ذلك بقوله :

﴿ وما كيد ﴾ واعاد الاسم ولم يضمره لئلا يخص بخبيثة من الخبيثات فقال :

﴿ فرعون ﴾ أي في إبطال أمر موسى عليه السلام ﴿ إلا في تباب ﴾ أي خسار وهلاك عظيم محيط به لا يقدر على الخروج منه ، وما تعطاه إلا لأنه محمول عليه ومقهور فيه ، كما كشف عنه الحال ، فدل ذلك قطعاً على أنه لو كان له أدنى تصرف يستقل به لما أنتج فعله الخسار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 512.515 ﴾

(155/675)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

واعلم أن مؤمن آل فرعون لما قال : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر : 33] ذكر لهذا مثلاً ، وهو أن يوسف لما جاءهم بالبينات الباهرة فأصروا على الشك والشبهة ، ولم ينتفعوا بتلك الدلائل ، وهذا يدل على أن من أضله الله فما له من هاد وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قيل إن يوسف هذا هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام ، ونقل صاحب "الكشاف" أنه

يوسف بن أفراييم بن يوسف ابن يعقوب أقام فيهم نيفاً وعشرين سنة ، وقيل إن فرعون موسى هو فرعون يوسف بقي حياً إلى زمانه وقيل فرعون آخر ، والمقصود من الكل شيء واحد وهو أن يوسف جاء قومه بالبينات ، وفي المراد بها قولان الأول : أن المراد بالبينات قوله ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الواحد القهار ﴾ [يوسف : 39] ، والثاني : المراد بها المعجزات ، وهذا أولى ، ثم إنهم بقوا في نبوته شاكين مرتابين ، ولم ينتفعوا ألبتة بتلك البينات ، فلما مات قالوا إنه ﴿ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ وإنما حكموا بهذا الحكم على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان ، بل إنما ذكروا ذلك ليكون ذلك أساساً لهم في تكذيب الأنبياء الذين يأتون بعد ذلك وليس في قولهم ﴿ لن يبعث الله من بعد رسولاً ﴾ لأجل تصديق رسالة يوسف وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها وإنما هو تكذيب لرسالة من هو بعده مضموماً إلى تكذيب رسالته ، ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ أي مثل هذا الضلال يضل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه ، قال الكعبي هذه الآية حجة لأهل القدر لأنه تعالى بين كفرهم ، ثم بين أنه تعالى إنما أضلهم لكونهم مسرفين مرتابين ، فثبت أن العبد ما لم يضل عن الدين ، فإن الله تعالى لا يضله .

(156/675)

ثم بيّن تعالى ما لأجله بقوا في ذلك الشك والإسراف فقال : ﴿ الذين يجادلون فِى ءايات الله بِغَيْرِ سلطان ﴾ أي بغير حجة ، بل إما بناء على التقليد المجرد ، وإما بناء على شبهات خسيسة ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله ﴾ والمقت هو أن يبلغ المرء في القوم مبلغاً عظيماً فيمقته الله ويبغضه ويظهر خزيه وتعسه .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في ذمة لهم بأنهم يجادلون بغير سلطان دلالة على أن الجدال بالحجة حسن وحق وفيه إبطال للتقليد .

المسألة الثانية :

قال القاضي مقت الله إياهم يدل على أن فعلهم ليس بخلق الله لأن كونه فاعلاً للفعل وماقتاً له محال .

المسألة الثالثة :

الآية تدل على أنه يجوز وصف الله تعالى بأنه قد يمقت بعض عباده إلا أن ذلك صفة واجبة التأويل في حق الله كالغضب والحياء والتعجب ، والله أعلم .

ثم بيّن أن هذا المقت كما حصل عند الله فكذلك قد حصل عند الذين آمنوا .

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(157/675)

قرأ ابن عامر وأبو عمرون وقتيبة عن الكسائي ﴿ قَلْبٌ ﴾ منوناً ﴿ مُتَكَبِّرٍ ﴾ صفة للقلب والباقون بغير تنوين على إضافة القلب إلى المتكبر قال أبو عبيد الاختيار الإضافة لوجوه الأول : أن عبد الله قرأ ﴿ على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ﴾ وهو شاهد لهذه القراءة الثاني : أن وصف الإنسان بالتكبر والجبروت أولى من وصف القلب بهما ، وأما الذين قرأوا بالتنوين فقالوا إن الكبر قد أضيف إلى القلب في قوله ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ﴾ [غافر : 56] وقال تعالى : ﴿ فإنه آثم قلبه ﴾ [البقرة : 283] وأيضاً فيمكن أن يكون ذلك على حذف المضاف أي على كل ذي قلب متكبر ، وأيضاً قال قوم الإنسان الحقيقي هو القلب وهذا البحث طويل وقد ذكرناه في تفسير قوله ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] قالوا ومن أضاف ، فلا بد له من تقدير حذف ، والتقدير يطبع الله على قلب كل متكبر .

المسألة الثانية :

الكلام في الطبع والرين والقسوة والغشاوة قد سبق في هذا الكتاب بالاستقصاء ، وأصحابنا يقولون قوله ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ ﴾ يدل على أن الكل من الله والمعتزلة يقولون إن قوله ﴿ وكذلك يَطْبَعُ الله على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ يدل على أن هذا الطبع إنما حصل من الله لأنه كان في نفسه متكبراً جباراً وعند هذا تصير الآية حجة لكل واحد من هذين الفريقين من وجه ، وعليه من وجه آخر ، والقول الذي يخرج عليه الوجهان ما ذهبنا إليه وهو أنه تعالى يخلق دواعي الكبر والرياسة في القلب ، فتصير تلك الدواعي مانعة من حصول ما يدعون إلى الطاعة والانقياد لأمر الله ، فيكون القول بالقضاء والقدر حياً ويكون تعليل الصد عن الدين بكونه متجبراً متكبراً باقياً ، فثبت أن هذا المذهب الذي اخترناه في القضاء والقدر هو الذي ينطبق لفظ القرآن من أوله إلى آخره عليه .

المسألة الثالثة :

(158/675)

لا بد من بيان الفرق بين المتكبر والجبار ، قال مقاتل ﴿ مُتَكَبِّرٍ ﴾ عن قبول التوحيد ﴿ جَبَّارٍ ﴾ في غير حق ، وأقول كمال السعادة في أمرين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله فعلى قول مقاتل التكبر كالمضاد للتعظيم لأمر الله والجبروت كالمضاد للشفقة على

خلق الله ، والله أعلم .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36)

اعلم أنه تعالى لما وصف فرعون بكونه متكبراً جباراً بين أنه أبلغ في البلادة والحماقة إلى أن قصد الصعود إلى السموات ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

احتج الجمع الكثير من المشبة بهذه الآية في إثبات أن الله في السموات وقرروا ذلك من وجوه الأول : أن فرعون كان من المنكرين لوجود الله ، وكل ما يذكره في صفات الله تعالى فذلك إنما يذكره لأجل أنه سمع أن موسى يصف الله بذلك ، فهو أيضاً يذكره كما سمعه ، فلولا أنه سمع موسى يصف الله بأنه موجود في السماء وإلا لما طلبه في السماء ، الوجه الثاني : أنه قال وإني لأظنه كاذباً ، ولم يبين أنه كاذب فيماذا ، والمذكور السابق متعين لصرف الكلام إليه فكأن التقدير فأطلع إلى الإله الذي يزعم موسى أنه موجود في السماء ، ثم قال : ﴿ وَإِنِّى لأَظُنُّهُ كاذبا ﴾ أي وإني لأظن موسى كاذباً في إدعائه أن الإله موجود في السماء ، وذلك يدل على أن دين موسى هو أن الإله موجود في السماء الوجه الثالث : العلم بأنه لو وجد إله لكان موجوداً في السماء علم بديهي متقرر في كل العقول ولذلك فإن الصبيان إذا تضرعوا إلى الله رفعوا وجوههم وأيديهم إلى السماء ، وإن فرعون مع نهاية كفره لما طلب

الإله فقد طلبه في السماء ، وهذا يدل على أن العلم بأن الإله موجود في السماء علم متقرر في عقل الصديق والزنديق والملحد والموحد والعالم والجاهل .

(159/675)

فهذا جملة استدلالات المشبهة بهذه الآية ، والجواب : أن هؤلاء الجهال يكفيهم في كمال الخزي والضلال أن جعلوا قول فرعون اللعين حجة لهم على صحة دينهم ، وأما موسى عليه السلام فإنه لم يزد في تعريف إله العالم على ذكر صفة الخلاقية فقال في سورة طه ﴿ رَبُّنَا الذى أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ﴾ [طه : 50] وقال في سورة الشعراء ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَائِكُمُ الأولين * رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [الشعراء : 26 ، 28] فظهر أن تعريف ذات الله بكونه في السماء دين فرعون وتعريفه بالخلاقية والموجودية دين موسى ، فمن قال بالأول كان على دين فرعون ، ومن قال بالثاني كان على دين موسى ، ثم نقول لا نسلم أن كل ما يقوله فرعون في صفات الله تعالى فذلك قد سمعه من موسى عليه السلام ، بل لعله كان على دين المشبهة فكان يعتقد أن الإله لو كان موجوداً لكان حاصلاً في السماء ، فهو إنما ذكر هذا الاعتقاد من قبل نفسه لا لأجل أنه قد سمعه من موسى عليه السلام .

وأما قوله ﴿ وَإِنِّى لأَظُنُّهُ كاذبا ﴾ فنقول لعله لما سمع موسى عليه السلام قال : ﴿ رَبّ

السموات والأرض ﴾ ظن أنه عنى به أنه رب السموات ، كما يقال للواحد منا إنه رب الدار بمعنى كونه ساكناً فيه ، فلما غلب على ظنه ذلك حكى عنه ، وهذا ليس بمستبعد ، فإن فرعون كان بلغ في الجهل والحماقة إلى حيث لا يبعد نسبة هذا الخيال إليه ، فإن استبعد الخصم نسبة هذا الخيال إليه كان ذلك لائقاً بهم ، لأنهم لما كانوا على دين فرعون وجب عليهم تعظيمه .

وأما قوله إن فطرة فرعون شهدت بأن الإله لو كان موجوداً لكان في السماء ، قلنا نحن لا ننكر أن فطرة أكثر الناس تخيل إليهم صحة ذلك لا سيما من بلغ في الحماقة إلى درجة فرعون فثبت أن هذا الكلام ساقط .

المسألة الثانية :

(160/675)

اختلف الناس في أن فرعون هل قصد بناء الصرح ليصعد منه إلى السماء أم لا ؟ أما الظاهريون من المفسرين فقد قطعوا بذلك ، وذكروا حكاية طويلة في كيفية بناء ذلك الصرح ، والذي عندي أنه بعيد والدليل عليه أن يقال فرعون لا يخلو إما أن يقال إنه كان من المجانين أو كان من العقلاء ، فإن قلنا إنه كان من المجانين لم يجز من الله تعالى إرسال الرسول إليه ، لأن

العقل شرط في التكليف ، ولم يجز من الله أن يذكر حكاية كلام مجنون في القرآن ، وأما إن قلنا إنه كان من العقلاء فنقول إن كل عاقل يعلم ببديهة عقله أنه يتعذر في قدرة البشر وضع بناء يكون أرفع من الجبل العالي ، ويعلم أيضاً ببديهة عقله أنه لا يتفاوت في البصر حال السماء بين أن ينظر إليه من أسفل الجبال وبين أن ينظر إليه من أعلى الجبال ، وإذا كان هذا العلمان بديهيين امتنع أن يقصد العاقل وضع بناء يصعد منه إلى السماء ، وإذا كان فساد هذا معلوماً بالضرورة امتنع إسناده إلى فرعون ، والذي عندي في تفسير هذه الآية أن فرعون كان من الدهرية وغرضه من ذكر هذا الكلام إيراد شبهة في نفي الصانع وتقريره أنه قال : إنا لا نرى شيئاً نحكم عليه بأنه إله العالم فلم يجز إثبات هذا الإله ، أما إنه لا نراه فلأنه لو كان موجوداً لكان في السماء ونحن لا سبيل لنا إلى صعود السموات فكيف يمكننا أن نراه ، ثم إنه لأجل المبالغة في بيان أنه لا يمكنه صعود السموات ﴿ قَالَ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴾ والمقصود أنه لما عرف كل أحد أن هذا الطريق ممتنع كان الوصول إلى معرفة وجود الله بطريق الحس ممتنعاً ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ﴾ [الأنعام : 35] وليس المراد منه أن محمداً صلى الله عليه وسلم طلب نفقاً في الأرض أو وضع سلماً إلى السماء ، بل المعنى أنه لما عرف أن هذا المعنى ممتنع فقد عرف أنه لا سبيل لك إلى تحصيل ذلك

المقصود ، فكذا ههنا غرض فرعون من قوله ﴿ ياهامان ابن لى صَرْحاً ﴾ يعني أن الاطلاع على إله موسى لما كان لا سبيل إليه إلا بهذا الطريق وكان هذا الطريق ممتنعاً ، فحينئذٍ يظهر منه أنه لا سبيل إلى معرفة الإله الذي يثبته موسى فنقول هذا ما حصلته في هذا الباب .

واعلم أن هذه الشبهة فاسدة لأن طرق العلم ثلاثة الحس والخبر والنظر ، ولا يلزم من انتفاء طريق واحد وهو الحس انتفاء المطلوب ، وذلك لأن موسى عليه السلام كان قد بيّن لفرعون أن الطريق في معرفة الله تعالى إنما هو الحجة والدليل كما قال : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَائِكُمُ الأولين * رَّبُّ المشرق والمغرب ﴾ [الشعراء : 26 ، 28] إلا أن فرعون لخبثه ومكره تغافل عن ذلك الدليل ، وألقى إلى الجهال أنه لما كان لا طريق إلا الإحساس بهذا الإله وجب نفيه ، فهذا ما عندي في هذا الباب وبالله التوفيق والعصمة .

المسألة الثالثة :

ذهب قوم إلى أنه تعالى خلق جواهر الأفلاك وحركاتها بحيث تكون هي الأسباب لحدوث الحوادث في هذا العالم الأسفل ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ لَّعَلِّى أَبْلُغُ الأسباب أسباب السموات ﴾ ومعلوم أنها ليست أسباباً إلا لحوادث هذا العالم قالوا ويؤكد هذا بقوله تعالى في سورة ص ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأسباب ﴾ [ص : 10] أما المفسرون فقد ذكروا في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَّعَلِّى أَبْلُغُ الأسباب أسباب السموات ﴾ أن المراد بأسباب السموات طرقها

وأبوابها وما يؤدي إليها ، وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب كالرشاد ونحوه .

المسألة الرابعة :

(162/675)

قالت اليهود أطبق الباحثون عن تواريخ بني إسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجوداً ألبتة في زمان موسى وفرعون وإنما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر ، فالقول بأن هامان كان موجوداً في زمان فرعون خطأ في التاريخ ، وليس لقائل أن يقول إن وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الاسم في زمانه ، قالوا لأن هذا الشخص المسمى بهامان الذي كان موجوداً في زمان فرعون ما كان شخصاً خسيساً في حضرة فرعون بل كان كالوزير له ، ومثل هذا الشخص لا يكون مجهول الوصف والحلية فلو كان موجوداً لعرف حاله ، وحيث أطبق الباحثون عن أحوال فرعون وموسى أن الشخص المسمى بهامان ما كان موجوداً في زمان فرعون وإنما جاء بعده بأدوار علم أن غلط وقع في التواريخ ، قالوا ونظير هذا أنا نعرف في دين الإسلام أن أبا حنيفة إنما جاء بعد محمد صلى الله عليه وسلم فلو أن قائلاً ادعى أن أبا حنيفة كان موجوداً في زمان محمد عليه السلام وزعم أنه شخص آخر سوى الأول وهو يسمى بأبي

حنيفة ، فإن أصحاب التواريخ يقطعون بخطئه فكذا ههنا والجواب : أن تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الأحوال والأدوار فلم يبق على كلام أهل التواريخ اعتماد في هذا الباب ، فكان الأخذ بقول الله تعالى أولى بخلاف حال رسولنا مع أبي حنيفة فإن هذه التواريخ قريبة غير مضطربة بل هي مضبوطة فظهر الفرق بين البابين ، فهذا جملة ما يتعلق بالمباحث المعنوية في هذه الآية ، وبقي ما يتعلق بالمباحث اللفظية .

قيل الصرح البناء الظاهر لا يخفى على الناظر وإن بعد ، اشتقوه من صرح الشيء إذ ظهر و ﴿ أسباب السموات ﴾ طرقها ، فإن قيل ما فائدة هذا التكرير .

(163/675)

ولو قيل : لعلي أبلغ الأسباب السموات ، كان كافياً ؟ أجاب صاحب "الكشاف" عنه فقال : إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه ، فلما أراد تفخيم أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها ، وقوله ﴿ فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى ﴾ قرأ حفص عن عاصم ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ بفتح العين والباقون بالرفع ، قال المبرد : من رفع فقد عطفه على قوله ﴿ أبلغ ﴾ والتقدير لعلي أبلغ الأسباب ثم أطلع إلا أن حرف ثم أشد تراخياً من الفاء ، ومن نصب جعله جواباً ، والمعنى لعلي أبلغ الأسباب فمتى بلغتها أطلع والمعنى مختلف ، لأن الأول : لعلي أطلع

والثاني : لعلي أبلغ وأنا ضامر أني متى بلغت فلا بد وأن أطلع .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذه القصة قال بعدها ﴿ كاذبا وكذلك زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوء عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السبيل ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ وَصُدَّ ﴾ بضم الصاد ، قال أبو عبيدة : وبه يقرأ ، لأن ما قبله فعل مبني للمفعول به فجعل ما عطف عليه مثله ، والباقون ﴿ وَصَدَّ ﴾ بفتح الصاد على أنه منع الناس عن الإيمان ، قالوا ومن صده قوله ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ [الأعراف : 124] ويؤيد هذه القراءة قوله ﴿ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [النساء : 167] وقوله ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ﴾ [الفتح : 25] .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ ﴾ لا بد له من المزين ، فقالت المعتزلة : إنه الشيطان ، فقيل لهم إن كان المزين لفرعون هو الشيطان ، فالمزين للشيطان إن كان شيطاناً آخر لزم إثبات التسلسل في

الشياطين أو الدور وهو محال ، ولما بطل ذلك وجب انتهاء الأسباب والمسببات في درجات الحاجات إلى واجب الوجود ، وأيضاً فقوله ﴿ زُيِّنَ ﴾ يدل على أن الشيء إن لم يكن في اعتقاد الفاعل موصوفاً بأنه خير وزينة وحسن فإنه لا يقدم عليه ، إلا أن ذلك الاعتقاد إن كان صواباً فهو العلم ، وإن كان خطأً فهو الجهل ، ففاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الإنسان ، لأن العاقل لا يقصد تحصيل الجهل لنفسه ، ولأنه إنما يقصد تحصيل الجهل لنفسه إذا عرف كونه جهلاً ، ومتى عرف كونه جهلاً امتنع بقاؤه جاهلاً ، فثبت أن فاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الإنسان ، ولا يجوز أن يكون فاعله هو الشيطان ، لأن البحث الأول بعينه عائد فيه ، فلم يبق إلا أن يكون فاعله هو الله تعالى ، والله أعلم .

ويقوي ما قلناه أن صاحب "الكشاف" نقل أنه قرىء ﴿ وَزَيَّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ ﴾ على البناء للفاعل والفعل لله عزّ وجلّ ، ويدل عليه قوله ﴿ إلى إله موسى ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ والتباب الهلاك والخسران ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود : 101] وقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد : 1] ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 54 ـ 59 ﴾.

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالبينات ﴾

قيل : إن هذا من قول موسى .

وقيل : هو من تمام وعظ مؤمن آل فرعون ؛ ذَكّرهم قديم عتوهم على الأنبياء ؛ وأراد يوسف بن يعقوب جاءهم بالبينات ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار ﴾ [يوسف : 39] قال ابن جريج : هو يوسف بن يعقوب بعثه الله تعالى رسولاً إلى القبط بعد موت الملك من قبل موسى بالبينات وهي الرؤيا .

وقال ابن عباس : هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيًّا عشرين سنة .

وحكى النقاش عن الضحاك : أن الله تعالى بعث إليهم رسولاً من الجن يقال له يوسف .

وقال وهب بن منبه : إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عُمّر .

وغيره يقول : هو آخر .

النحاس : وليس في الآية ما يدل على أنه هو ؛ لأنه إذا أتى بالبينات نبيّ لمن معه ولمن بعده فقد جاءهم جميعاً بها وعليهم أن يصدّقوه بها .

﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ أي أسلافكم كانوا في شك .

﴿ حتى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ الله مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ أي من يدعي الرسالة ﴿ كَذَلِكَ

يُضِلُّ اللهُ ﴾ أي مثل ذلك الضلال ﴿ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ مشرك ﴿ مُّرْتَابٌ ﴾ شاك في وحدانية الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ الذين يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ ﴾ أي في حججه الظاهرة ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ أي بغير حجة وبرهان و "الَّذِينَ" في موضع نصب على البدل من "مَنْ" وقال الزجاج : أي كذلك يضل الله الذين يجادلون في آيات الله ف "الَّذِينَ" نصب .

قال : ويجوز أن يكون رفعاً على معنى هم الذين أو على الابتداء والخبر ﴿ كَبُرَ مَقْتاً ﴾ .

ثم قيل : هذا من كلام مؤمن آل فرعون .

وقيل : ابتداء خطاب من الله تعالى .

"مَقْتاً" على البيان أي "كَبُرَ" جدالهم "مَقْتاً" ؛ كقوله : ﴿ وَذَاتَ الشمال ﴾ [الكهف : 18] ومقت الله تعالى ذمّه لهم ولعنه إياهم وإحلال العذاب بهم .

(166/675)

﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك ﴿ يَطْبَعُ اللهُ ﴾ أي يختم ﴿ على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ حتى لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق .

وقراءة العامة "عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ" بإضافة قلب إلى المتكبر واختاره أبو حاتم وأبو

عبيد .

وفي الكلام حذف والمعنى : "كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ" على كل "مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ"

فحذف "كُلّ" الثانية لتقدّم ما يدلّ عليها .

وإذا لم يقدر حذف "كلّ" لم يستقم المعنى ؛ لأنه يصير معناه أنه يطبع على جميع قلبه وليس المعنى عليه .

وإنما المعنى أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلباً قلباً .

ومما يدل على حذف "كُلّ" قول أبي دُؤَاد :

أَكُلَّ امْرِىءٍ تَحْسَبِين امْرأً . . .

ونارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيلِ نارا

يريد وكلّ نارٍ .

وفي قراءة ابن مسعود "عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ" فهذه قراءة على التفسير والإضافة .

وقرأ أبو عمرو وابن محيصن وابن ذكوان عن أهل الشام "قلبٍ" منون على أن "متكبرٍ" نعت للقلب فكنى بالقلب عن الجملة ؛ لأن القلب هو الذي يتكبر وسائر الأعضاء تبع له ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " ويجوز أن يكون على حذف المضاف ؛ أي على كل ذي قلب متكبر ؛ تجعل الصفة لصاحب القلب .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا هامان ابن لِي صَرْحاً ﴾ لما قال مؤمن آل فرعون ما قال ، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن في قلوب القوم ، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد ، فإن بان له صوابه لم يخفِه عنهم ، وإن لم يصح ثبتهم على دينهم ؛ فأمر وزيره هامان ببناء الصرح.

وقد مضى في "القصص" ذكره.

﴿ لعلي أَبْلُغُ الأسباب ﴾ ﴿ أَسْبَابَ السماوات ﴾ "أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ" بدل من الأوّل.

وأسباب السماء أبوابها في قول قتادة والزهري والسدّي والأخفش ؛ وأنشد :

(167/675)

ومَنْ هاب أَسْبَابَ المنايا يَنَلْنَهُ . . .

ولَوْ رَامَ أَسْبَاب السَّماءِ بِسُلَّمِ

وقال أبو صالح : أسباب السموات طرقها .

وقيل : الأمور التي تستمسك بها السموات .

وكرر أسباب تفخيماً ؛ لأن الشيء إذا أبهم ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه .

والله أعلم .

﴿ فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى ﴾ فانظر إليه نظر مشرف عليه .

توهم أنه جسم تحويه الأماكن .

وكان فرعون يدعي الألوهية ويرى تحقيقها بالجلوس في مكان مشرف .

وقراءة العامة "فَأَطَّلِعُ" بالرفع نسقاً على قوله : "أَبْلُغُ" وقرأ الأعرج والسُّلَميّ وعيسى وحفص "فَأَطَّلِعَ" بالنصب ؛ قال أبو عبيدة : على جواب "لعل" بالفاء .

النحاس : ومعنى النصب خلاف معنى الرفع ؛ لأن معنى النصب متى بلغت الأسباب اطلعت .

ومعنى الرفع "لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ" ثم لعلي أطلع بعد ذلك ؛ إلا أن ثم أشد تراخياً من الفاء .

﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ أي وإني لأظن موسى كاذباً في ادعائه إلها دوني ، وإنما أفعل ما أفعل لإزاحة العلة .

وهذا يوجب شك فرعون في أمر الله .

وقيل : إن الظن بمعنى اليقين أي وأنا أتيقن أنه كاذب ، وإنما أقول ما أقوله لإزالة الشبهة عمن لا أتيقن ما أتيقنه .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سواء عَمَلِهِ ﴾ أي الشرك والتكذيب .

﴿ وَصُدَّ عَنِ السبيل ﴾ قراءة الكوفيين "وصُدَّ" على ما لم يسم فاعله وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ ويجوز على هذه القراءة "وَصِدّ" بكسر الصاد نقلت كسرة الدال على

الصاد ؛ وهي قراءة يحيى بن وثّاب وعلقمة .

وقرأ ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن بن بكرة "وَصَدٌّ عَنِ السَّبِيلِ" بالرفع والتنوين .

الباقون "وَصَدَّ" بفتح الصاد والدال .

أي صد فرعون الناس عن السبيل .

(168/675)

﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ أي في خسران وضلال ، ومنه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد : 1] وقوله : ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود : 101] وفي موضع ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود : 63] فهدّ الله صرحه وغرّقه هو وقومه على ما تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(169/675)

وقال الآلوسى :

ثم وبخهم على تكذيب الرسل السالفين فقال :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ ﴾ بن يعقوب عليهما السلام ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل موسى ﴿ بالبينات ﴾ الأمور الظاهرة الدالة على صدقه ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ من الدين ﴿ حتى إِذَا هَلَكَ ﴾ بالموت ﴿ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ غاية لقوله : ﴿ فَمَا زِلْتُمْ ﴾ وأرادوا بقولهم : ﴿ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ تكذيب رسالته ورسالة غيره أي لا رسول فيبعث فهم بعد الشك بتوا بهذا التكذيب ويكون ذلك ترقيا .

ويجوز أن يكون الشك في رسالته على حاله وبتهم إنما هو بتكذيب رسالة غيره من بعده ، وقيل : يحتمل أن يكونوا أظهروا الشك في حياته حسداً وعناداً علما مات عليه السلام أقروا بها وانكروا أن يبعث الله تعالى من بعده رسولا وهو خلاف الظاهر ، ومجيء يوسف بن يعقوب عليهما السلام المخاطبين بالبينات قيل : من باب نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد وكذلك نسبة الأفعال الباقية إليهم ، وجوز كون بعض الذين جاءهم يوسف عليه السلام حقيقة حيا ؛ ففي بعض التواريخ ان وفاة يوسف عليه السلام قبل مولد موسى عليه السلام بأربعين وستين سنة فيكون من نسبة حال البعض إلى الكل ، واستظهر في البحر أن فرعون يوسف عليه السلام هو فرعون موسى عليه السلام ، وذكر عن أشهب عن مالك أنه بلغه أنه عمر اربعمائة وأربعين سنة ، والذي ذكره أغلب المؤرخين أن فرعون موسى اسمه الريان وفرعون يوسف اسمه الوليد .

وذكر القرطبي أن فرعون الأول من العمالقة وهذا قبطي ، وفرعون يوسف عليه السلام مات في زمنه ، واختار القول بتغايرهما ، وأمر المجيء وما معه من الأفعال على ما سمعت ، وقيل : المراد بيوسف المذكور هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف الصديق أرسله الله تعالى نبينا فأقام فيهم عشرين سنة وكان من أمرهم ما قص الله عز وجل : ومن الغريب جداً ما حكاه النقاش .

(170/675)

والماوردي أن يوسف المذكور في هذه السورة من الجن بعثه الله تعالى رسولاً إليهم ، نقله الجلال السيوطي في الاتقان ولا يقبله من له أدنى إتقان .

نعم القول بأن للجن نبياً منهم اسمه يوسف أيضاً مما عسى أن يقبل كما لا يهفى .

وقرىء ﴿ أَلَّن يَبْعَثَ ﴾ بادخال عمزة الاستفهام على حرف النفي كأن بعضهم يقرر بعضاً على نفي البعثة .

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الاضلال الفظيع ﴿ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ في العصيان ﴿ مُّرْتَابٌ ﴾ في دينه شاك فيما تشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك في التقليد .

﴿ الذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾ بدل من الموصول الأول أعني من أو بيان أو صفة له

باعتبار معناه كأنه قيل : كل مسرف مرتاب أو المسرفين المرتابين ، وجوز نصبه بأعني مقدراً ، وقوله تعالى شأنه : ﴿ بِغَيْرِ سلطان ﴾ على الأوجه المذكورة متعلق بيجادلون وقوله سبحانه : ﴿ اِتيهِمْ ﴾ صفة ﴿ سلطان ﴾ والمراد باتيانه اتيانه من جهته سبحانه وتعالى اما على أيدي الرسل عليهم السلام فيكون ذاك إشارة إلى الدليل النقلي ، واما بطريق الإفاضة على عقولهم فيكون ذاك إشارة إلى الدليل العقلي ، وقد يعمم فيكون المعنى يجادلون بغير حجة صالحة للتمسك بها أصلاً لا عقلية ولا نقلية .

وقوله سبحانه : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله وَعِندَ الذين ءامَنُواْ ﴾ تقرير لما أشعر به الكلام من ذمهم وفيه ضرب من التعجب والاستعظام ، وفاعل ﴿ كَبُرَ ﴾ ضمير راجع إلى الجدال الدال عليه ﴿ يجادلون ﴾ على نحو من كذب كان شراً له أي كبر الجدال في آيات الله بغير حجة مقتا عند الله الخ ، أو إلى الموصول الأول وأفرد رعاية للفظه ، واعترض عليه بأنه حمل على اللفظ من بعد الحمل على المعنى ، وأهل العربية يجتنبونه .

(171/675)

وقال صاحب الكشف : هذا شيء نقله ابن الحاجب ولم يساعده غيره وهو غير مسلم أي كبر المسرف المرتاب المجادل في آيات الله بغير حجة مقتاً أي كبر مقته وعظم عند الله

تعالى وعند المؤمنين ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿ يَطْبَعُ الله على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الاسراف والارتياب والمجادلة بغير حق ؛ وجوز أن يكون ﴿ الذين ﴾ مبتدأ وجملة ﴿ كَبُرَ ﴾ خبره لكن على حذف مضاف هو المخبر عنه حقيقة أي جدال الذين يجادلون كبر مقتا ، وان يكون ﴿ الذين ﴾ مبتدأ على حذف المضاف ﴿ بِغَيْرِ سلطان ﴾ خبر المضاف المقدر أي جدال الذين يجادلون في ءايات الله تعالى كائن بغير سلطان ، وظاهر كلام البعض ان ﴿ الذين ﴾ مبتدأ من غير حذف مضاف و ﴿ بِغَيْرِ سلطان ﴾ خبره ، وفيه الأخبار عن الذات والجثة بالظرف وفاعل ﴿ كَبُرَ ﴾ كذلك على مذهب من يرى اسمية الكاف كالأخفش أي كبر مقتاً مثل ذلك الجدال فيكون قوله تعالى : ﴿ يَطْبَعُ ﴾ الخ استئنافاً للدلالة على الموجب لجدالهم ، ولا يخفى ما في ذلك من العدول عن الظاهر ، وفي البحر الأولى في إعراب هذا الكلام أن يكون ﴿ الذين ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ كَبُرَ ﴾ والفاعل ضمير المصدر المفهوم من ﴿ يجادلون ﴾ أي الذين يجادلون كبر جدالهم مقتاً فتأمل .

وقرأ أبو عمرو .

وابن ذكوان .

والأعرج بخلاف عنه ﴿ قَلْبٌ ﴾ بالتنوين فما بعده صفته ، ووصفه بالكبر والتجبر لأنه منبعهما كقولهم : رأت عيني وسمعت أذني ، وجوز أن يكون ذاك على حذف مضاف أي

كل ذي قلب متكبر جبار ، وجعل الصفتين لصاحب القلب لتتوافق القراءتان هذه وقراءة باقي السبعة بلا تنوين ، وعن مقاتل المتكبر المعاند في تعظيم أمر الله تعالى ، والجبار المتسلط على خقل الله تعالى ، والظاهر أن عموم كل منسحب على المتكبر والجبار أيضاً فكأنه اعتبر أولاً إضافة ﴿ قَلْبٌ ﴾ إلى ما بعد ثم اعتبرت إضافته إلى المجموع .

(172/675)

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أيها يا هامان ابن لِى صَرْحاً ﴾ بناء مكشوفاً عالياً من صرح الشيء إذا ظهر ﴿ لَعَلّى أَبْلُغُ الاسباب ﴾ أي الطرق كما روي عن السدى ، وقال قتادة : الأبواب وهي جمع سبب ويطلق على كل ما يتوصل به إلى شيء .

﴿ أسباب السموات ﴾ بيان لها ، وفي إبهامها ثم إيضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامه إلى معرفتها .

﴿ فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى ﴾ بالنصب على جواب الترجى عند الكوفيين فإنهم يجوزون النصب بعد الفاء في جواب الترجى كالتمني ؛ ومنع ذلك البصريون وخرجوا النصب هنا على أنه في جواب الأمر وهو ﴿ ابن ﴾ كما في قوله

: يا ناق سيري عنقا فسيحا . . .

إلى سليمان فنستريحا

وجوز أن يكون بالعطف على خبر لعلي بتوهم أن فيه لأنه كثيراً ما جاءنا مقرورنا بها أو على ﴿ الاسباب ﴾ على حد

.

ولبس عباءة وتقر عيني . . .

وقال بعض : إن هذا الترجي تمن في الحقيقة لكن أخرجه اللعين هذا المخرج تمويهاً على سامعيه فكان النصب في جواب التمني ، والظاهر أن البصريين لا يفرقون بين ترج وترج .

وقرأ الجمهور بالرفع عطفاً على ﴿ أَبْلُغُ ﴾ [غافر : 36] قيل : ولعله أراد أن يبني له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله تعالى إياه ، وهذا يدل على أنه مقر بالله عز وجل وإنما طلب ما يزيل شكه في الرسالة ، وكان للعين وأهل عصره اعتناء بالنجوم وأحكامها على ما قيل .

(173/675)

وهذا الاحتمال في غاية البعد عندي ، وقيل : أراد أن يعلم الناس بفساد قول موسى عليه السلام : إني رسول من رب السماوات بأنه إن كان رسولاً منه فهو ممن يصل إليه وذلك بالصعود للسماء وهو محال فما بني عليه مثله ، ومنشأ ذلك جهله بالله تعالى وظنه أنه سبحانه مستقر في السماء وان رسله كرسل الملوك يلاقونه ويصلون إلى مقره ، وهو عز وجل منزه عن صفات المحدثات والأجسام ولا تحتاج إلى ما تحتاج إليه رسل الملوك رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام ، وهذا نفي لرسالته من الله تعالى ولا تعرض فيه لنفي الصانع المرسل له ، وقال الإمام : الذي عندي في تفسير الآية أن فرعون كان من الدهرية وغرضه من هذا الكلام إيراد شبهة في نفسي الصانع وتقريره أنه قال : إنا لا نرى شيئاً نحكم عليه بأنه إله العالم فلم يجز إثبات هذا الإله ، أما أنا لا نراه فلأنه لو كان موجوداً لكان في السماء ونحن لا سبيل لنا إلى صعود السماوات فكيف يمكننا أن نراه ، وللمبالغة في بيان عدم الإمكان قال : ﴿ ياهامان ابن لِى صَرْحاً ﴾ [غافر : 36] فما هو ألا لاظهار عدم إمكان ما ذكر لكل أحد ، ولعل لا تأبى ذلك لأنها للتهكم على هذا وهي شبهة في غاية الفساد إذ لا يلزم من انتفاء أحد طرق العلم بالشيء انتفاء ذلك الشيء ، ورأيت لبعض السلفيين إن اللعين ما قال ذلك إلا لأنه سمع من موسى عليه السلام أو من أحد من المؤمنين وصف الله تعالى بالعلو أو بأنه سبحانه في السماء فحمله على معنى مستحيل في حقه تعالى لم يرده موسى عليه السلام ولا أحد من المؤمنين فقال ما قال تهكماً وتمويهاً على قومه ، وللإمام في هذا المقام

كلام رد به على القائلين بأن الله تعالى في السماء ورد احتجاجهم بما أشعرت به الآية على ذلك وسماهم المشبهة ، والبحث في ذلك طويل المجال والحق مع السلف عليهم رحمة الملك المتعال وحاشاهم ثم حاشاهم من التشبيه ، وقوله : ﴿ وَإِنِّى لاَظُنُّهُ كاذبا ﴾ يحتمل أن يكون عني به كاذباً في

(174/675)

دعوى الرسالة وأن يكون عني به كاذباً في دعوى أن له إلهاً غيري لقوله :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ [القصص : 38]

وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك التزيين البليغ المفرط ﴿ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوء عَمَلِهِ ﴾ فانهمك فيه انهماكا لا يرعوى عنه بحال ﴿ وَصُدَّ عَنِ السبيل ﴾ أي عن سبيل الرشاد ، فالتعريف للعهد والفعلان مبنيان للمفعول والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى ، ولم يفعل سبحانه كلا من التزيين والصد إلا لأن فرعون طلبه بلسان استعداده واقتضى ذلك سوء اختياره ؛ ويدل على هذا أنه قرىء ﴿ زُيِّنَ ﴾ مبنياً للفاعل ولم يسبق سوى ذكره تعالى دون الشيطان . وجوز أن يكون الفاعل الشيطان ونسبة الفعل إليه بواسطة الوسوسة ، وقرأ الحجازيان . والشامي .

وأبو عمرو ﴿ وَصُدَّ ﴾ بالبناء للفاعل وهو ضمير فرعون على أن المعنى وصد فرعون الناس عن سبيل الرشاد بأمثال هذه التمويهات والشبهات ، ويؤيده ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ ﴾ أي في خسار لأنه يشعر بتقدم ذكر للكيد وهو في هذه القراءة أظهر ، وقرأ ابن وثاب ﴿ وَصُدَّ ﴾ بكسر الصاد أصله صدد نقلت الحركة إلى الصاد بعد توهم حذفها ، وابن أبي إسحق .

وعبد الرحمن بن أبي بكرة ﴿ وَصُدَّ ﴾ بفتح الصاد وضم الدال منونة عطفاً على ﴿ سُوء عَمَلِهِ ﴾ ، وقرىء ﴿ وَصُدُّواْ ﴾ بواو الجمع أي هو وقومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(175/675)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُمْ بِهِ حتى إِذَا هَلَكَ قُلْتُم لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعدِهِ رَسُولاً ﴾ .

توسم فيهم قلة جدوى النصح لهم وأنهم مصممون على تكذيب موسى فارتقى في

موعظتهم إلى اللوم على ما مضى ، ولتذكيرهم بأنهم من ذرية قوم كذّبوا يوسف لما جاءهم بالبينات فتكذيب المرشدين إلى الحق شنشنة معروفة في أسلافهم فتكون سجية فيهم .

وتأكيد الخبر بـ (قد) ولام القسم لتحقيقه لأنهم مظنة أن ينكروه لبعد عهدهم به .

فالمجيء في قوله : ﴿ جاءكم ﴾ مستعار للحصول والظهور والباء للملابسة ، أي ولقد ظهر لكم يوسف ببيّنات .

ولا يلزم أن يكون إظهار البينات مقارناً دعوةً إلى شرع لأنه لما أظهر البينات وتحققوا مكَانتهُ كان عليهم بحكم العقل السليم أن يتبينوا آياته ويستهدوا طريقَ الهدى والنجاة ، فإن الله لم يأمر يوسف بأن يدعو فرعون وقومه ، لحكمة لعلَّها هي انتظار الوقت والحالِ المناسب الذي ادخره الله لموسى عليه السلام .

والبيّنات : الدلائل البينة المظهرة أنه مصطَفى من الله للإِرشاد إلى الخير ، فكان على كل عاقل أن يتبع خطاه ويترسم آثاره ويسأله عما وراء هذا العالم الماديِّ ، بناء على أن معرفة الوحدانية واجبة في أزمان الفترات : إما بالعقل ، أو بما تواتر بين البشر من تعاليم الرسل السابقين على الخلاف بين المتكلمين .

والبينات : إخباره بما هو مغيب عنهم من أحوالهم بطريق الوحي في تعبير الرُّؤَى ، وكذلك آية العصمة التي انفرد بها من بينهم وشهدت له بها امرأة العزيز وشاهِدُ أهلها حتى قال المَلِك : ﴿ ائتوني به استخلصه لنفسي ﴾ [يوسف : 54] ، فكانت دلائل نبوءة يوسف واضحة ولكنهم لم يستخلصوا منها استدلالاً يقتفون به أثره في صلاح آخرتهم ، وحرصوا على الانتفاع به في تدبير أمور دنياهم فأودعوه خزائن أموالهم وتدبير مملكتهم ، فقال له المِلك : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ [يوسف : 54] .

ولم يخطر ببالهم أن يسْترشدوا به في سلوكهم الديني .

فإن قلت : إذا لم يهتدوا إلى الاسترشاد بيوسف في أمور دينهم وألهاهم الاعتناء بتدبير الدنيا عن تدبير الدين فلماذا لم يدْعُهم يوسف إلى الاعتقاد بالحق واقتصر على أن سَأَل من الملك : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ [يوسف : 55] .

قلت : لأن الله لم يأمره بالدعوة للإرشاد إلا إذا سُئل منه ذلك لحكمة كما علمت آنفاً ، فأقامه الله مقام المفتي والمرشد لمن استرشد لا مقام المحتسب المغيِّر للمنكر ، و ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ [الأنعام : 124] ، فلما أقامه الله كذلك وعَلِم يوسف من قول الملك : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ [يوسف : 54] أن الملك لا يريد إلا تدبير مملكته وأمواله ، لم يسأله أكثر مما يفي له بذلك .

وأما وجوب طلبهم المعرفة والاسترشاد منه فذلك حق عليهم ، فمعنى : ﴿ فَمَا زِلْتُم في

شَكّ مِمَّا جَاءَكُم به ﴾ الإِنحاء على أسلافهم في قلة الاهتمام بالبحث عن الكمال الأعلى وهو الكمال النفساني باتباع الدين القويم ، أي فما زال أسلافكم يشعرون بأن يوسف على أمر عظيم من الهُدى غير مألوف لهم ويهرعون إليه في مهماتهم ثم لا تعزم نفوسهم على أن يطلبوا منه الإرشاد في أمور الدين .

(177/675)

فهم من أمره في حالة شك ، أي كان حاصل ما بلغوا إليه في شأنه أنهم في شك مما يكشف لهم عن واجبهم نحوه فانقضت مدة حياة يوسف بينهم وهم في شك من الأمر .

فاللام متوجه عليهم لتقصيرهم في طلب ما ينجيهم بعد الموت قال تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ﴾ [الإسراء : 18] الآيتين .

وحتى ﴾ للغاية وغايتها هو مضمون الجملة التي بعدها وهي جملة : ﴿ إذَا هَلَكَ ﴾ ، و ﴿ إذَا ﴾ هنا اسم لزمان المضي مجرورة بـ (حتى) وليست بظرف ، أي حتى زمنِ هلاك يوسف قُلتم : لن يَبعث الله من بعده رسولاً ، أي قال أسلافكم في وقت وفاة يوسف : لا يبعث الله في المستقبل أبداً رسولاً بعد يوسف ، يعنون : أنا كنا مترددين في الإِيمان بيوسف فقد استرحنا من التردد فإنه لا يجيء من يدَّعِي الرسالة عن الله من بعده ، وهذا

قول جَرى منهم على عادة المعاندين والمقاومين لأهل الإِصلاح والفضل أن يعترفوا بفضلهم بعد الموت تندماً على ما فاتهم من خير كانوا يَدعونهم إليه .

وفيه ضرب من المبالغة في الكمال في عصره كما يقال : خاتمة المحققين ، وبقية الصالحين ، ومن لا يأتي الزمان بمثله ، وحاصله أنهم كانوا في شك من بعثة رسول واحد ، وأنهم أيقنوا أن من يَدّعي الرسالة بعده كاذب فلذلك كذبوا موسى .

ومقالتهم هذه لا تقتضي أنهم كانوا يؤمنون بأنه رسول ضرورةَ أنهم كانوا في شك من ذلك وإنما أرادوا بها قطع هذا الاحتمال في المستقبل وكشفَ الشك عن نفوسهم وظاهر هذه الآية أن يوسف كان رسولاً لظاهر قوله : ﴿ قلتم لَن يَبْعثَ الله من بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ أن رسولاً محال من ضمير ﴿ من بعده ﴾ .

(178/675)

والوجه أن يكون قوله : ﴿ رسولا ﴾ مفعولَ ﴿ يبعث ﴾ وأنه لا يقتضي وصف يوسف به فإنه لم يَرِد في الأخبار عدّة في الرسل ولا أنه دعا إلى دين في مصر وكيف والله يقول : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ﴾ [يوسف : 76] ولا شك في أنه نبيء إذا وجد مساغاً للإرشاد أظهره كقوله : ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم

الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ [يوسف : 39 ، 40] وقوله : ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعتُ ملة آباءي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ﴾ [يوسف : 37 ، 38] .

وعدي فعل ﴿ جاءكم ﴾ إلى ضمير المخاطبين .

وأسند ﴿ فما زِلْتُمْ ﴾ و ﴿ قلتم ﴾ إلى ضميرهم أيضاً ، وهم ما كانوا موجودين حينئذٍ قصداً لحمل تبعة أسلافهم عليهم وتسجيلاً عليهم بأن التكذيب للناصحين واضطراب عقولهم في الانتفاع بدلائل الصدق قد ورثوه عن أسلافهم في جبلّتهم وتقرر في نفوسهم فانتقاله إليهم جيلاً بعد جيل كما تقدم في خطاب بني إسرائيل في سورة [البقرة : 49] : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ ونحوه .

جرى أكثر المفسرين على أن هذه الجمل حكاية لبقية كلام المؤمن وبعضهم جعل بعضها من حكاية كلام المؤمن وبعضَها كلاماً من الله تعالى ، وذلك من تجويز أن يكون قوله : ﴿ الَّذِينَ يجادلون في ءايات الله بغَيْرِ سلطان أتاهم كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله وَعِندَ الذين ءَامَنُواْ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ الخ بدلاً أو مبتدأ ، وسكت بعضهم عن ذلك مقتصراً على بيان المعنى دون تصدّ لبيان اتصالها بما قبلها .

والذي يظهر أن قوله : ﴿ كذلك يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ جَبَّارٍ ﴾ .

(179/675)

كله من كلام الله تعالى معترَض بين كلام المؤمن وكلام فرعون فإن هذا من المعاني الإِسلامية قصد منه العبرة بحال المكذبين بموسى تعريضاً بمشركي قريش ، أي كضلال قوم فرعون يضل الله من هو مسرف مرتاب أمثالكم ، فكذلك يكون جزاؤكم ، ويؤيد هذا الوجه قوله في آخرها : ﴿ وَعِندَ الَّذِينَ ءامَنُوا ﴾ فإن مؤمن آل فرعون لم يكن معه مؤمن بموسى وهارون غيره ، وهذا من باب تذكر الشيء بضده ، ومما يزيد يقيناً بهذا أن وصف ﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ تكرر أربع مرات من أول هذه السورة ، ثم كان هنا وسطاً في قوله : ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ [غافر : 56] ، ثم كان خاتمة في قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ﴾ [غافر : 69] .

والإِشارة في قوله كذلك : إلى الضلال المأخوذ من قوله : ﴿ يُضِلُّ اللهُ ﴾ أي مثل ذلك الضلال يضل الله المسرفين المرتابين ، أي أن ضلال المشركين في تكذيبهم محمداً صلى الله

عليه وسلم مثل ضلال قوم فرعون في تكذيبهم موسى عليه السلام .

والخطاب بالكاف المقترنة باسم الإِشارة خطاب للمسلمين .

والمسرف : المُفْرِط في فعل لا خير فيه .

والمرتاب : الشديد الريب ، أي الشك .

وإسناد الإِضلال إلى الله كإسناد نفي الهداية إليه في قوله : ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ [غافر : 28] ، وتقدم آنفاً .

وقوله : ﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ يجوز أن يكون مبتدأ خبره ﴿ كَبُرَ مُقْتاً ﴾ ويجوز أن يكون بدلاً من (مَن) في قوله : ﴿ من هو مسرف مرتاب ﴾ فبيّن أن مَا صْدَقَ (مَن) جماعة لا واحد ، فروعي في ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرتاب ﴾ لفظ (مَن) فأخبر عنه بالإِفراد ، وروعي في البدل معنى (مَن) فأبدل منه موصول الجمع .

(180/675)

وصلة ﴿ الذين ﴾ عُرف بها المشركون من قريش قال تعالى : ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ﴾ [فصلت : 40] وقال في هذه السورة [4] : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾

واختيار المضارع في ﴿ يجادلون ﴾ لإِفادة تجدد مجادلتهم وتكررها وأنهم لا ينفكون عنها .

وهذا صريح في ذمهم وكنايةٌ عن ذم جدالهم الذي أوجب ضلالهم .

وفي الموصولية إيماء إلى علة إضلالهم ، أي سببُ خلق الضلال في قلوبهم الإِسراف بالباطل تكررُ مجادلتهم قصداً للباطل .

والمجادلة : تكرير الاحتجاج لإِثبات مطلوب المجادل وإبطال مطلوب مَن يخالفهُ قال تعالى : ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل : 125] ، فمن المجادلة في آيات الله المحاجّة لإِبطال دلالتها ، ومنها المكابرة فيها كما قالوا : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : 5] ، ومنها قطع الاستماع لها ، كما قال عبد الله بن أُبَيّ بنُ سلول في وقت صراحة كفره للنبيء صلى الله عليه وسلم وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم مجلساً فيه ابن سلول فقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن سلول لاَ أحسنَ مما تقول أيُّها المرءُ ولاَ تَغْشَنَا به في مجالسنا واجلِسْ في رحلك فمن جاءك فاقْرَأ عليه .

و﴿ بِغَيْرِ سلطان ﴾ مُتعلق بـ ﴿ يجادلون ، ﴾ والباء للاستعانة ، والسلطان : الحجة .

والمعنى : أنهم يجادلون بما ليس بحجة ولكن باللَّجاج والاستهزاء .

و﴿ أتاهم ﴾ صفة ل ﴿ سلطان .

﴿ والإِتيان مستعار للظهور والحصول .

وحصول الحجة هو اعتقادها ولَوْحُها في العقل ، أي يجادلون جدلاً ليس مما تثيره العقول والنظر الفكري ولكنه تمويه وإسكات .

(181/675)

وجملة ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله ﴾ خبر ﴿ إنَّ من باب الإِخبار بالإِنشاء ، وهي إنشاء ذمّ جدالِهم المقصود منه كَمُّ فم الحق ، أي كبر جدالهم مَقْتاً عند الله ، ففاعل كبر ﴾ ضمير الجدال المأخوذ من ﴿ يجادلون ﴾ على طريقة قوله : ﴿ إعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : 8] .

و ﴿ مقتاً تمييز للكُبْر وهو تمييز نسبة محول عن الفاعل ، والتقدير : كبر مَقْتُ جدالهم .

وفعل كبر ﴾ هنا ملحق بأفعال الذم مثل : ساء ، لأن وزن فَعُل بضم العين يجيء بمعنى : نِعْم وبِئس ، ولو كانت ضمة عينه أصلية وبهذا تفظيع بالصراحة بعد أن استفيد من صلة الموصول أن جدالهم هو سبب إضلالهم ذلك الإِضلال المكين ، فحصل بهذا الاستئناف تقرير فظاعة جدالهم بطريقي الكناية والتصريح .

والكِبَر : مستعار للشدة ، أي مُقِت جدالُهم مَقْتاً شديداً .

والمقت : شدة البغض ، وهو كناية عن شدة العقاب على ذلك من الله .

وكونه مَقتاً عند الله تشنيع لهم وتفظيع .

أما عطف ﴿ وَعِندَ الذِينَ ءامَنُوا ﴾ فلم أر في التفاسير الكثيرة التي بين يدي من عَرج على فائدة عطف ﴿ وعند الذين آمنوا ﴾ ما عدا المَهائمي في "تبصرة الرحمان" إذ قال : ﴿ كَبُرَ مقْتَاً عِندَ الله ﴾ وهو موجب للإِضلال ، ويدل على أنه كبر مقتاً أنه عند الذين آمنوا ، وهم المظاهر التي يظهر فيها ظهورُ الحق ا ه .

وكلمة المهائمي كلمة حسنة يعني أن كونه مقتاً عند الله لا يحصل في علم الناس إلا بالخَبَر فزيد الخبر تأييداً بالمشاهدة فإن الذين آمنوا على قِلتهم يومئذٍ يظهر بينهم بغض مجادلة المشركين .

(182/675)

وعندي : أن أظهرَ من هذا أنّ الله أراد التنويه بالمؤمنين ولم يُرد إقناع المشركين فإنهم لا يعبأون ببغض المؤمنين ولا يصدقون ببغض الله إيّاهم ، فالمقصود الثناء على المؤمنين بأنهم يكرهون الباطل ، كما قال : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ [التوبة : 71] مع الإِشارة إلى تبجيل مكانتهم بأن ضمت عنديتهم

إلى عندية الله تعالى على نحو قوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ﴾ [آل عمران : 18] وقوله : ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ [الأنفال : 64] وقوله : ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ [الأنفال : 62] ونحو قول النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر حديث كلام الذئب فتعجب بعض من حضر فقال : " آمنت بذلك وأبو بكر " ولم يكن أبو بكر في المجلس .

وفي إسناد كراهية الجدال في آيات الله بغير سلطان للمؤمنين تلقين للمؤمنين بالإِعراض عن مجادلة المشركين على نحو ما في قوله تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ [القصص : 55] ، وقوله : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ [الفرقان : 63] وقوله : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ [الفرقان : 72] .

والقول في ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ كالقول في ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ .

والطبع : الختم ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ في سورة [البقرة : 7] .

والختم والطبع والأَكِنَّة : خَلْق الضلالة في القلب ، أي النفس .

والمتكبر : ذو الكِبْر المبالغ فيه ولذلك استعيرت صيغة التكلف .

والجبّار : مثال مبالغة من الجبر ، وهو الإكراه ، فالجبار : الذي يُكره الناس على ما لا يحبون

عمله لظلمه .

وقرأ الجمهور : ﴿ على كل قلب متكبر ﴾ بإضافة ﴿ قلب ﴾ إلى ﴿ متكبر .

(183/675)

﴿ وقرأ أبو عمرو وحْده وابنُ ذكوان عن ابن عامر بتنوين ﴿ قلبٍ على أن يكون متكبر ﴾ و ﴿ جبار ﴾ صفتين ل ﴿ قلب ، ﴾ ووصفُ القلب بالتكبر والجبر مجاز عقلي . والمقصود وصف صاحبه كقوله تعالى : ﴿ فإنه آثم قلبه ﴾ [البقرة : 283] لأنه سبب الإثم كما يقال : رأتْ عيني وسمعتْ أُذْني .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36)

هذه مقالة أخرى لفرعون في مجلس آخر غير المجلس الذي حاجّه فيه موسى ولذلك عطف قوله بالواو كما أشرنا إليه فيما عطف من الأقوال السابقة آنفاً ، وكما أشرنا إليه في سورة القصص ، وتقدم الكلام هنالك مستوفى على نظير معنى هذه الآية على حسب ظاهرها ، وتقدم ذكر (هامان) والصرح هنالك .

وقد لاح لي هنا محمل آخر أقرب أن يكون المقصودَ من الآية ينتظم مع ما ذكرناه هنالك في الغاية ويخالفه في الدلالة ، وذلك أن يكون فرعون أمَر ببناء صرح لاِقصد الارتقاء إلى

السماوات بل ليخلُوَ بنفسه رياضة ليستمد الوحي من الربّ الذي ادعى موسى أنه أَوحَى إليه إذ قال : ﴿ إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ [طه : 48] فإن الارتياض في مكان منعزل عن الناس كان من شعار الاستيحاء الكهنوتي عندهم ، وكان فرعون يحسب نفسه أهلاً لذلك لزعمه أنه ابن الآلهة وحامي الكهنة والهياكل .

(184/675)

وإنما كان يشغله تدبير أمر المملكة فكان يكِل شؤون الديانة إلى الكهنة في معابدهم ، فأراد في هذه الأزمة الجدلية أن يتصدى لذلك بنفسه ليكون قوله الفصل في نفي وجود إله آخر تضليلاً لدهماء أمته ، لأنه أراد التوطئة للإِخبار بنفي إله أخر غير آلهتهم فأراد أن يتولى وسائل النفي بنفسه كما كانت لليهود محاريب للخلوة للعبادة كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ [مريم : 11] وقوله : ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب ﴾ [آل عمران : 37] ومن اتخاذ الرهبان النصارى صوامع في أعالي الجبال للخلوة للتعبد ، ووجودها عند هذه الأمم يدل على أنها موجودة عند الأمم المعاصرة لهم والسابقة عليهم .

والأسباب : جمع سبب ، والسبب ما يوصِّل إلى مكان بعيد ، فيطلق السبب على الطريق

، ويطلق على الحبل لأنهم كانوا يتوصلون به إلى أعلى النخيل .

والمراد هنا : طرق السماوات ، كما في قول زهير:

ومن هَاب أسبابَ المنايا يَنَلْنَه . . .

وإن يَرْقَ أسبابَ السماء بسلّم

وانتصب ﴿ أسباب السماوات ﴾ على البدل المطابق لقوله : ﴿ الأسباب .

﴾ وجيء بهذا الأسلوب من الاجمال ثم التفصيل للتشويق إلى المراد بالأسباب تفخيماً لشأنها وشأنِ عمله لأنه أمرٌ عجيب ليوردَ على نفس متشوقة إلى معرفته وهي نفس (هامان) .

والاطّلاع بتشديد الطاء مبالغة في الطلوع ، والطلوع : الظهور .

والأكثر أن يكون ظهوراً من ارتفاع ، ويعرف ذلك أو عدمُه بتعدية الفعل فإن عُدي بحرف (على) فهو الظهور من ارتفاع ، وإن عُدي بحرف (إلى) فهو ظهور مطلق .

(185/675)

وقرأ الجمهور : ﴿ فأَطَّلِعُ ﴾ بالرفع تفريعاً على ﴿ أبلغ ﴾ كأنه قيل : أبلغُ ثم اطَّلِعُ ، وقرأه حفص عن عاصم بالنصب على جواب الترجي لمعاملة الترجي معاملة التمني وإن كان

ذلك غير مشهور ، والبصريون ينكرونه كأنه قيل : متى بلغتُ اطلعتُ ، وقد تكون له ههنا نكتة وهي استعارة حرف الرجاء إلى معنى التمني على وجه الاستعارة التبعية إشارة إلى بُعْد ما ترجاه ، وجعل نصب الفعل بعده قرينة على الاستعارة .

وبيْن ﴿ إلى ﴾ و ﴿ إله ﴾ الجناسُ الناقص بحرففٍ كما ورد مرتين في قول أبي تمام :

يُمدُّون من أَيْد عَواصصٍ عَوَاصِمٍ

تَصُول بأسياف قَوَاضضٍ قَواضَبِ . . .

وجملة ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّه كاذبا ﴾ معترضة للاحتراس من أن يظن (هامان) وقومه أن دعوة موسى أوهنت منه يقينَه بدينه وآلهته وأنه يروم أن يبحث بحث متأمل ناظر في أدلة المعرفة فحقق لهم أنه ما أراد بذلك إلا نفي ما ادعاه موسى بدليل الحس .

وجيء بحرف التوكيد المعزّز بلام الابتداء لينفي عن نفسه اتهام وزيره إياه بتزلزل اعتقاده في دينه .

والمعنى : إني أفعل ذلك ليظهر كذب موسى .

والظن هنا مستعمل في معنى اليقين والقطع ، ولذلك سمى الله عزمه هذا كيداً في قوله : ﴿ ومَا كَيْدُ فِرْعَونَ إلاَّ في تَبَابٍ ﴾ .

﴿ كاذبا وكذلك زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سواء عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السبيل وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى ﴾

جملة ﴿ وكذلك زُيِّنَ لفرعون ﴾ عطف على جملة ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لبيان حال

اعتقاده وعمله بعد أن بين حال أقواله ، والمعنى : أنه قال قولاً منبعثاً عن ضلال اعتقاد ومُغرياً بفساد الأعمال .

ولهذا الاعتبار اعتبارِ جميع أحوال فرعون لم تُفْصَل هذه الجملة عن التي قبلها إذ لم يقصد بها ابتداء قصة أخرى ، وهذا مما سموه بالتوسط بين كَمَالَي الاتصال والانقطاع في باب الفصل والوصل من علم المعاني .

(186/675)

وافتتاحها بـ ﴿ كذلك ﴾ كافتتاح قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) ، أي مثل ذلك التزيين أي تزيين عمل فرعون زُيِّن له سوء عمله مبالغة في أن تزيين عمله له بلغ من القوة في نوعه ما لا يوجد له شِبْه يُشبَّه به فمن أراد تشبيهه فليشبّهه بعيْنه .

وبُني فعل ﴿ وكذلك ﴾ إلى المجهول لأن المقصود معرفة مفعول التزيين لا معرفة فَاعله ، أي حَصل له تزيين سوء عمله في نفسه فحسِب الباطل حقّاً والضلال اهتداء .

وقرأ الجمهور : ﴿ وَصَدَّ ﴾ بفتح الصاد وهو يجوز اعتباره قاصراً الذي مضارعه يصِدّ بكسر الصاد ، ويجوز اعتباره متعدياً الذي مضارعه يصُد بضم الصاد ، أي أعرض عن

السبيل ومنع قومه اتباع السبيل .

وقرأه حمزة والكسائي وعاصم بضم الصاد .

والقول فيه كالقول في : ﴿ زُيِّنَ لِفِرعونَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ .

وتعريف ﴿ السبيل ﴾ للعهد ، أي سبيل الله ، أو سبيل الخير ، أو سبيل الهدى .

ويجوز أن يكون التعريف للدلالة على الكمال في النوع ، أي صد عن السبيل الكامل الصالح .

وجملة ﴿ ومَا كَيْدُ فِرعون إلا في تَبَابٍ ﴾ عطف على جملة ﴿ وكذلك زُيِّنَ لفرعون سُوءُ عَمَلِه ﴾ ، والمراد بكيده ما أَمر به من بناء الصرح والغايةِ منه ، وسمي كيداً لأنه عمل ليس المراد به ظاهره بل أريد به الإِفضاء إلى إيهام قومه كذب موسى عليه السلام .

والتباب : الخسران والهلاك ، ومنه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لهبٍ وتَبَّ ﴾ [المسد : 1] ، وحرف الظرفية استعارة تبعية لمعنى شدة الملابسة كأنه قيل : "ومَا كَيدُ فرعون إلاَّ بتَبَابٍ شديد" .

والاستثناء من أحوال مقدرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(187/675)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾

قرأ أهل الكوفة على البناء للمفعول حملا على زين وقرأ الباقون وصد بفتح الصاد ويحتمل وجهين أحدهما أعرض فيكون لازما والثاني يكون صد غيره فيكون متعديا والقراءتان كالآيتين لا يتناقضان وأما الشد على القلب ففي قوله تعالى وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في المياه الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا أطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما فهذا الشد على القلب هو الصد والمنع ولهذا قال ابن عباس يريدا منعها والمعنى قسها واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان وهذا مطابق لما في التوراة إن الله سبحانه قال لموسى اذهب إلى فرعون فإني سأقسى قلبه فلا يؤمن حتى تظهر آياتي وعجائبي بمصر وهذا الشد والتقسية من كمال عدل الرب سبحانه في أعدائه جعله عقوبة لهم على كفرهم واعراضهم كعقوبته لهم بالمصائب ولهذا كان محمودا عليه فهو حسن منه وأقبح شيء منهم فإنه عدل منه وحكمة وهو ظلم منهم وسفه فالقضاء والقدر فعل عادل حكيم غنى عليم يضع الخير والشر في أليق المواضع بهما والمقضى المقدر يكون ظلما وجورا وسفها وهو فعل

جاهل ظالم سفيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ شفاء العليل صـ 175 . 206 ﴾ .

باختصار .

(188/675)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان فساد ما قاله فرعون أظهر من أن يحتاج إلى بيان ، أعرض المؤمن عنه تصريحاً ، ولوّح إلى ما حكاه الله عنه من أنه محيط به الهلاك تلويحاً في قوله منادياً قومه ومستعطفاً لهم ثلاث مرات : الأولى على سبيل الإجمال في الدعوة ، والأخريان على سبيل التفصيل ، فقال تعالى عنه : ﴿ وقال الذي آمن ﴾ أي مشيراً إلى وهي قول فرعون بالإعراض عنه ، وعبر بالفعل إشارة إلى أنه ينبغي لأدنى أهل الإيمان أن لا يحقر نفسه عن الوعظ : ﴿ يا قوم ﴾ أي

يا من لا قيام لي إلا بهم فأنا غير متهم في نصيحتهم ﴿ اتبعون ﴾ أي كلفوا أنفسكم اتباعي لأن السعادة غالباً تكون فيما يكره الإنسان ﴿ أهدكم سبيل ﴾ أي طريق ﴿ الرشاد ﴾ أي الهدى لأنه مع سهولته واتساعه موصل ولا بد إلى المقصود ، وأما ما قال فرعون مدعياً أنه سبيل الرشاد لا يوصل إلا إلى الخسار ، فهو تعريض به شبيه بالتصريح .

ولما كان هذا دعاء على سبيل الإجمال ، وكان الداء كله في الإقبال على الفاني ، والدواء كله في الإقدام على الباقي ، قال استئنافاً في جواب من سأل عن تفصيل هذه السبيل مبيناً أنها العدول عما يفنى إلى ما يبقى محقراً للدنيا مصغراً لشأنها لأن الإخلاد إليها أصل الشر كله ، ومنه يتشعب ما يؤدي إلى سخط الله ﴿ يا قوم ﴾ كرر ذلك زيادة في استعطافهم بكونهم أهله فهو غير متهم في نصحهم لأنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه .

ولما كانت الأنفس لكونها مطبوعة على الوهم لا تعد الحاصل إلا الحاضر أكد فقال : ﴿ إنما هذه الحياة ﴾ وحقرها بقوله : ﴿ الدنيا ﴾ إشارة إلى دناءتها وبقوله : ﴿ متاع ﴾ إشارة إلى أنها جيفة لأنها في اللغة من جملة مدلولات المتاع ، فلا يتناول منها إلا كما يتناول المضطر من الجيفة لأنها دار القلعة والزوال والتزود والارتحال .

(189/675)

ولما افتتح بذم الدنيا ، ثنى بمدح الآخرة فقال : ﴿ وإن الآخرة ﴾ لكونها المقصودة بالذات ﴿ هي دار القرار ﴾ التي لا تحول منها أصلاً دائم كل شيء من ثوابها وعقابها ، فهي للتلذذ والانتفاع والترفه والاتساع لمن توسل إلى ذلك بحسن الاتباع أو للشقاوة والهلاك ، لمن اجترأ على المحارم واستخف الانتهاك قال الأصفهاني : قال بعض العارفين : لو كانت الدنيا ذهباً فانياً والآخرة خزفاً باقياً ، لكانت الآخرة خيراً من الدنيا فكيف والدنيا خزف فان ، والآخرة ذهب باق بل أشرف وأحسن .

وكما أن النعيم فيها دائم فكذلك العذاب ، فكان الترغيب في نعيم الجنان ، والترهيب من عذاب النيران ، من أعظم وجوه الترغيب والترهيب ، فالآية من الاحتباك : ذكر المتاع أولاً دليلاً على حذف التوسع ثانياً ، والقرار ثانياً دليلاً على حذف الارتحال أولاً .

(190/675)

ولما حرك الهمم بهذا الوعظ إلى الإعراض عن دار الأنكاد والأمراض ، والإقبال على دار الجلال والجمال بخدمة ذي العز والكمال ، قال في جواب من سأل عن كيفية ذلك ما حاصله أنه بالإقبال على محاسن الأعمال ، وترك السيء من الخلال ، واصلاً بذلك على طريق البيان للبيان ، ذاكراً عاقبة كل ليثبط عما يتلف ، وينشط لما يزلف ، مشيراً إلى

جانب الرحمة أغلب ، مقدماً لما هم عليه من السوء محذراً منه ليرجعوا ﴿ من عمل سيئة ﴾ أي ما يسوء من أي صنف كان : الذكور والإناث والمؤمنين والكافرين ﴿ فلا يجزى ﴾ أي من الملك الذي لا ملك سواه ﴿ إلا مثلها ﴾ عدلاً لا يزاد عليها مقدار ذرة ولا أصغر منها ويدخل النار إن لم يكن له ما يكفرها ، فهذا هو الملك الذي ينبغي الإقبال على خدمته لكونه الحكم العدل القادر على الجزاء والمساواة في الجزاء ، فالكافر لما كان على عزم إدامه الكفر كان عذابه دائماً والفاسق لما كان على نية التوبة لاعتقاده أنه في معصية وشر كان عذابه منقطعاً ، والآية على عمومها ، وما خرج منها بدليل كان مخصوصاً فيخرج عليها جميع باب الجنايات وغيره ، ومن قال : إنها في شيء معين ، لزمه أن تكون مجملة ، لأن ذاك المعين غير مذكور ، والتخصيص أولى من الإجمال كما قال أهل الأصول . ولما بين العدل في العقاب ، بين الفضل في الثواب ، تنبيهاً على أن الرحمة سبقت الغضب فقال : ﴿ ومن عمل صالحاً ﴾ أي ولو قل .

(191/675)

ولما كان من يعهدون من الملوك إنما يستعملون الأقوياء لاحتياجهم ، بين أنه على غير ذلك لأنه لا حاجة به أصلاً فقال : ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ ولما كان العمل لا يصح بدون الإيمان

قال مبيناً شرطه : ﴿ وهو ﴾ أي عمل والحال أنه ﴿ مؤمن ﴾ ولما كان في مقام الترغيب في عدله وجوده وفضله ، جعل الجزاء مسبباً عن الأعمال فقال : ﴿ فأولئك ﴾ أي العالو الهمة والمقدار ﴿ يدخلون الجنة ﴾ أي بأمر من له الأمر كله بعد أن ضاعف لهم أعمالهم فضلاً ، والآية من الاحتباك : ذكر المساواة أولاً عدلاً يدل على المضاعفة ثانياً فضلاً ، وذكر إدخال الجنة ثانياً يدل على إدخال النار أولاً ، وسره أنه ذكر فضله في كل من الشقين ﴿ يرزقون فيها ﴾ أي من غير احتياج إلى تحول أصلاً ولا إلى أسباب ، ولعل ذلك من أسرار البناء للمفعول ﴿ بغير حساب ﴾ لخروج ما فيها بكثرته عن الحصر ، فإن أدنى أهلها منزلة لو أضاف كل أهل الأرض لكفاهم من غير أن ينقص من ملكه شيء ، وهذا من باب الفضل ، وفضل الله لا حد له ، ورحمته غلبت غضبه ، وأما جزاء السيئة فمن باب العدل ، فلذلك وقع الحساب فيها لئلا يقع الظلم ، قال الأصبهاني : فإذا عارضنا عمومات الوعيد بعمومات الوعد ترجح الوعد لسبق الرحمة الغضب ، فانهدمت قواعد المعتزلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 516.518 ﴾

(192/675)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) ﴾

اعلم أن هذا من بقية كلام الذي آمن من آل فرعون ، وقد كان يدعوهم إلى الإيمان بموسى والتمسك بطريقته .

واعلم أنه نادى في قومه ثلاث مرات : في المرة الأولى دعاهم إلى قبول ذلك الدين على سبيل الإجمال ، وفي المرتين الباقيتين على سبيل التفصيل .

أما الإجمال فهو قوله ﴿ ياقوم اتبعون أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرشاد ﴾ وليس المراد بقوله ﴿ اتبعون ﴾ طريقة التقليد ، لأنه قال بعده ﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرشاد ﴾ والهدى هو الدلالة ، ومن بين الأدلة للغير يوصف بأنه هداه ، وسبيل الرشاد هو سبيل الثواب والخير وما يؤدي إليه ، لأن الرشاد نقيض الغي ، وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي .

وأما التفصيل فهو أنه بين حقارة حال الدينا وكمال حال الآخرة ، أما حقارة الدنيا فهي قوله ﴿ ياقوم إِنَّمَا هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ والمعنى أنه يستمتع بهذه الحياة الدنيا في أيام قليلة ، ثم تنقطع وتزول ، وأما الآخرة فهي دار القرار والبقاء والدوام ، وحاصل الكلام أن الآخرة باقية دائمة والدنيا منقضية منقرضة ، والدائم خير من المنقضي ، وقال بعض العارفين : لو

كانت الدينا ذهباً فانياً ، والآخرة خزفاً باقياً ، لكانت الآخرة خيراً من الدنيا ، فكيف والدنيا خزف فإن ، والآخرة ذهب باق .

(193/675)

واعلم أن الآخرة كما أن النعيم فيها دائم فكذلك العذاب فيها دائم ، وإن الترغيب في النعيم الدائم والترهيب عن العذاب الدائم من أقوى وجوه الترغيب والترهيب ، ثم بين كيف تحصل المجازاة في الآخرة ، وأشار فيه إلى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب فقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ والمراد بالمثل ما يقابلها في الاستحقاق ، فإن قيل كيف يصح هذا الكلام ، مع أن كفر ساعة يوجب عقاب الأبد ؟ قلنا إن الكافر يعتقد في كفره كونه طاعة وإيماناً فلهذا السبب يكون الكافر على عزم أن يبقى مصراً على ذلك الاعتقاد أبداً ، فلا جرم كان عقابه مؤبداً بخلاف الفاسق فإنه يعتقد فيه كونه خيانة ومعصية فيكون على عزم أن لا يبقى مصراً عليه ، فلا جرم قلنا إن عقاب الفاسق منقطع . أما الذي يقوله المعتزلة من أن عقابه مؤبد فهو باطل ، لأن مدة تلك المعصية منقطعة والعزم على الإتيان بها أيضاً ليس دائماً بل منقطعاً فمقابلته بعقاب دائم يكون على خلاف قوله ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ ، واعلم أن هذه الآية أصل كبير في علوم الشريعة

فيما يتعلق بأحكام الجنايات فإنها تقتضي أن يكون المثل مشروعاً ، وأن يكون الزائد على المثل غير مشروع ، ثم نقول ليس في الآية بيان أن تلك المماثلة معتبرة في أي الأمور فلو حملناه على رعاية المماثلة في شيء معين ، مع أن ذلك المعين غير مذكور في الآية صارت الآية مجملة ، ولو حملناه على رعاية المماثلة في جميع الأمور صارت الآية عاماً مخصوصاً ، وقد ثبت في أصول الفقه أن التعارض إذا وقع بين الإجمال وبين التخصيص كان دفع الإجمال أولى فوجب أن تحمل هذه الآية على رعاية المماثلة من كل الوجوه إلا في مواضع التخصيص ، وإذا ثبت هذا فالأحكام الكثيرة في باب الجنايات على النفوس ، وعلى الأعضاء ، وعلى الأموال يمكن تفريعها على هذه الآية .

(194/675)

ثم نقول إنه تعالى لما بيّن أن جزاء السيئة مقصور على المثل بين أن جزاء الحسنة غير مقصور على المثل بل هو خارج عن الحساب فقال : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا مّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنة يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ واحتج أصحابنا بهذه الآية فقالوا قوله ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا ﴾ نكرة في معرض الشرط في جانب الإثبات فجرى مجرى أن يقال من ذكر كلمة أو من خطا خطوة فله كذا فإنه يدخل فيه كل من أتى بتلك الكلمة أو بتلك الخطوة

مرة واحدة ، فكذلك ههنا وجب أن يقال كل من عمل صالحاً واحداً من الصالحات فإنه يدخل الجنة ويرزق فيها بغير حساب ، والآتي بالإيمان والمواظب على التوحيد والتقديس مدة ثمانين سنة قد أتى بأعظم الصالحات وبأحسن الطاعات ، فوجب أن يدخل الجنة والخصم يقول إنه يبقى مخلداً في النار أبد الآباد (1) فكان ذلك على خلاف هذا النص الصريح .

---

(1) هذا بناء على أن المؤمن العاصي بارتكاب الكبائر من المحرمات مخلد في النار ، وهو ظاهر

الحديث «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ،

أي أنه يسلب منه الإيمان ، وبناء على القول بأن الحدود زواجر لا جوابر وهو خلاف رأي أهل السنة .

(195/675)

قالت المعتزلة إنه تعالى شرط فيه كونه مؤمناً وصاحب الكبيرة عندنا ليس بمؤمن فلا يدخل في هذا الوعد والجواب : أنا بينا في أول سورة البقرة في تفسير قوله تعالى : ﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ [البقرة : 3] أن صاحب الكبيرة مؤمن فسقط هذا الكلام ، واختلفوا في

تفسير قوله ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فمنهم من قال لما كان لا نهاية لذلك الثواب قيل بغير حساب ، وقال الآخرون لأنه تعالى يعطيهم ثواب أعمالهم ويضم إلى ذلك الثواب من أقسام التفضل ما يخرج عن الحساب وقوله ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ واقع في مقابلة ﴿ إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ يعني أن جزاء السيئة له حساب وتقدير ، لئلا يزيد على الاستحقاق ، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة ، وأقول هذا يدل على أن جانب الرحمة والفضل راجح على جانب القهر والعقاب ، فإذا عارضنا عمومات الوعد بعمومات الوعيد ، وجب أن يكون الترجيح بجانب عمومات الوعد وذلك يهدم قواعد المعتزلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 60 . 61 ﴾

(196/675)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾

قد قدمنا ذكر الخلاف في هذه الأقوال كلها ، هل هي من قول مؤمني آل فرعون أو من قول موسى عليه السلام : وقالت فرقة من المتأولين منه الطبري : ﴿ يوسف ﴾ المذكور هو

يوسف بن يعقوب صلى الله عليه . وقالت فرقة : بل هو حفيده يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب . و" البينات " التي جاء بها يوسف لم تعين لنا حتى نقف على معجزاته . وروي عن وهب بن منبه أن فرعون موسى لقي يوسف ، وأن هذا التقريع له كان . وروى أشهب عن مالك أن بلغه أن فرعون عمر أربعمائة سنة وأربعين سنة . وقالت فرقة : بل هو فرعون آخر .

وقوله : ﴿ قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ حكاية لرتبه قولهم لأنهم إنما أرادوا أن يجيء بعد هذا من يدعي مثل ما ادعى ولم يقر أولئك قط برسالة الأول ولا الآخر ، ولا بأن الله يبعث الرسل فحكى رتبة قولهم ، وجاءت عبارتهم مشنعة عليهم ، ولذلك قال بإثر هذا : ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ أي كما صيركم من الكفر والضلالة في هذا الحد فنحو ذلك هو إضلاله لصنعكم أهل السرف في الأمور وتعدي الطور والارتياب بالحقائق . وفي مصحف أبي بن كعب وابن مسعود : " قلتم لن يبعث الله " ، ثم أنحى لهم على قوم صفتهم موجودة في قوم فرعون ، فكأنه أرادهم فزال عن مخاطبتهم حسن أدب واستجلاباً ، فقال ﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ أي بالإبطال لها والرد بغير برهان ولا حجة أتتهم من عند الله كبر مقت جدالهم عند الله ، فاختصر ذكر الجدال لدلالة تقدم ذكره عليه ، ورد الفاعل ب ﴿ كبر ﴾ نصيباً على التمييز كقولك : تفقأت شحماً وتصببت عرقاً . و: ﴿ يطبع ﴾ معناه . يختم بالضلال ويحجب عن الهدى .

وقرأ أبو عمرو وحده الأعرج بخلاف عنه " على كلِّ قلب " بالتنوين " متكبراً " على الصفة . وقرأ الباقون : " على كلِّ قلبِ " بغير تنوين وبإضافته إلى " متكبرٍ " . قال أبو علي : المعنى يطبع الله على القلوب إذ كانت قلباً قلباً من كل متكبر ، ويؤكد ذلك أن في مصحف عبد الله بن مسعود : " على قلب كل متكبر جبار " .

قال القاضي أبو محمد : ويتجه أن يكون المراد عموم قلب المتكبر الجبار بالطبع أي لا ذرة فيه من إيمان ولا مقاربة فهي عبارة عن شدة إظلامه .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36)

ذكر الله عز وجل مقالة فرعون حين أعيته الحيل في مقاومة موسى عليه السلام بحجة ، وظهر لجميع المشاهدين أن ما يدعو إليه موسى من عبادة إله السماء حق ، فنادى فرعون هامان وهو وزيره والناظر في أموره ، فأمره أن يبني له بناء عالياً نحو السماء . و " الصرح " كل بناء عظيم شنيع القدر ، مأخوذ من الظهور والصراحة ، ومنه قولهم : صريح النسب ، وصرح بقوله ، فيورى أن هامان طبخ الآجر لهذا الصرح ولم يطبخ قبله ، وبناه ارتفاع مائة ذراع فعبث الله جبريل فمسحه بجناحه فكسره ثلاث كسر ، تفرقت اثنتان ووقعت ثالثة

في البحر . وروي أن هامان لم يكن من القبط ، وقيل : كان منهم . و: ﴿ الأسباب ﴾ الطرق ، قاله السدي . وقال قتادة : أراد الأبواب وقيل : عنى لعله يجد مع قربه من السماء سبباً يتعلق به .

وقرأ الجمهور : " فأطلع " بالرفع عطفاً على " أبلغ " ، وقرأ حفص عن عاصم والأعرج : " فأطلعَ " بالنصب بالفاء في جواب التمني .

(198/675)

ولما قال فرعون بمحضر من ملإه ﴿ فأطلع إلى إله موسى ﴾ اقتضى كلامه الإقرار ب ﴿ إله موسى ﴾ ، فاستدرك ذلك استدراكاً قلقاً بقوله : ﴿ وإني لأظنه كاذباً ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك زين ﴾ أي إنه كما تخرق فرعون في بناء الصرح والأخذ في هذه الفنون المقصرة كذلك جرى جميع أمره . و: ﴿ زين ﴾ أي زين الشيطان سوء عمله في كل أفعاله .

وقرأ الجمهور : " وصد عن السبيل " بفتح الصاد بإسناد الفعل إلى فرعون . وقرأ حمزة والكسائي وعاصم وجماعة : " وصُدَّ " بضم الصاد وفتح الدال المشددة عطفاً على ﴿ زين ﴾ وحملاً عليه . وقرأ يحيى بن وثاب : " وصِد " بكسر الصاد على معنى صد ،

أصله ، صدد ، فنقلت الحركة ثم أدغمت الدال في الدال . وقرأ ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن بن أبي بكرة بفتح الصاد ورفع الدال المشددة وتنوينها عطفاً على قوله : ﴿ سوء عمله ﴾ .

و: ﴿ السبيل ﴾ سبيل الشرع والإيمان و﴿ التباب ﴾ : الخسران ، ومنه : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ [المسد : 1] وبه فسر مجاهد وقتادة . وتب فرعون ظاهر ، لأنه خسر ماله في الصرح وغيره ، وخسر ملكه وخسر نفسه وخلد في جهنم ، ثم وعظ الذي آمن فدعا إلى اتباع أمر الله .

وقوله : ﴿ اتبعون أهدكم ﴾ يقوي أن المتكلم موسى ، وإن كان الآخر يحتمل أن يقول ذلك ، أي اتبعوني في اتباعي موسى ، ثم زهد في الدنيا وأخبر أنه شيء يتمتع به قليلاً ، ورغب في الآخرة إذ هي دار الاستقرار .

وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وأبو رجاء وشيبة والأعمش : "يَدخُلون " بفتح الياء وضم الخاء . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم والأعرج والحسن وأبو جعفر وعيسى : "يُدخَلون " بضم الياء وفتح الخاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذي آمَنَ يا قوم اتبعون ﴾

هذا من تمام ما قاله مؤمن آل فرعون ؛ أي اقتدوا بي في الدين .

﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرشاد ﴾ أي طريق الهدى وهو الجنة .

وقيل : من قول موسى .

وقرأ معاذ بن جبل "الرَّشَّادِ" بتشديد الشين وهو لحن عند أكثر أهل العربية ؛ لأنه إنما يقال أرشد يُرشِد ولا يكون فَعَّال من أفعل إنما يكون من الثلاثي ، فإن أردت التكثير من الرباعي قلت : مِفْعال .

قال النحاس : يجوز أن يكون رشَّاد بمعنى يرشد لا على أنه مشتق منه ، ولكن كما يقال لآلٍ من اللؤلؤ فهو بمعناه وليس جارياً عليه .

ويجوز أن يكون رشاد من رشد يرشد أي صاحب رشَّاد ؛ كما قال :

كِلينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ ناصِبِ . . .

الزمخشري : وقرىء "الرَّشَّادِ" فَعَّال من رَشِد بالكسر كعَلاَّم أو من رَشَد بالفتح كعبّاد .

وقيل : من أرشد كجبّار من أجبر وليس بذاك ؛ لأن فعّالا من أفعل لم يجىء إلا في عدّة أحرف : نحو دراك وسأَّرٍ وقصّار وجبّار .

ولا يصح القياس على هذا القليل .

ويجوز أن يكون نسبته إلى الرشد كعوّاج وبتّات غير منظور فيه إلى فعل .

ووقع في المصحف "اتَّبِعُونِ" بغير ياء .

وقرأها يعقوب وابن كثير بالإثبات في الوصل والوقف .

وحذفها أبو عمرو ونافع في الوقف وأثبتوها في الوصل ، إلا وَرْشاً حذفها في الحالين ،

وكذلك الباقون ؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء ومن أثبتها فعلى الأصل .

قوله تعالى : ﴿ يا قوم إِنَّمَا هذه الحياة الدنيا مَتَاعٌ ﴾ أي يتمتع بها قليلاً ثم تنقطع وتزول .

﴿ وَإِنَّ الآخرة هِيَ دَارُ القرار ﴾ أي الاستقرار والخلود .

ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنهما لا يفنيان .

بيّن ذلك بقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ يعني الشرك ﴿ فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ وهو العذاب .

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً ﴾ قال ابن عباس : يعني لا إله إلاَّ الله .

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ مصدق بقلبه لله وللأنبياء .

﴿ فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ بضم الياء على ما لم يسم فاعله .

وهي قراءة ابن كثير وابن مُحَيْصن وأبي عمرو ويعقوب وأبي بكر عن عاصم ، يدل عليه ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ الباقون "يَدْخُلُونَ" بفتح الياء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(201/675)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) ﴾

الجمهور : على أن هذا المؤمن هو الرجل القائل : ﴿ أتقتلون رجلاً ﴾ ، قص الله أقاويله إلى آخر الآيات .

لما رأى ما لحق فرعون من الخور والخوف ، أتى بنوع آخر من التهديد ، وخوفهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة من استئصال الهلاك حين كذبوا رسلهم ، وقويت نفسه حتى سرد عليه ما سرد ، ولم يهب فرعون .

وقالت فرقة : بل كلام ذلك المؤمن قد تم ، وإنما أراد تعالى بالذي آمن بموسى ، عليه السلام ، واحتجوا بقوة كلامه ، وأنه جنح معهم بالإيمان ، وذكر عذاب الآخرة وغير ذلك ، ولم يكن

كلام الأول الاعلانية لهم ، وأفرد اليوم ، إما لأن المعنى مثل أيام الأحزاب ، أو أراد به الجمع ، أي مثل أيام الأحزاب لأنه معلوم أن كل حزب كان له يوم .

و ﴿ الأحزاب ﴾ الذين تحزبوا على أنبياء الله .

﴿ مثل دأب ﴾ ، قال ابن عطية : بدل .

وقال الزمخشري : عطف بيان .

وقال الزجاج : مثل يوم حزب ودأب عادتهم ودينهم في الكفر والمعاصي .

﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ ، أي إن إهلاكه إياهم كان عدلاً منه ، وفيه مبالغة في نفي الظلم ، حيث علقه بالإرادة .

فإذا نفاه عن الإرادة ، كأن نفيه عن الوقوع أولى وأحرى .

ولما خوفهم أن يحل بهم في الدنيا ما حل بالأحزاب ، خوفهم أمر الآخرة فقال ، تعطفاً لهم بندائهم : ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ ، وهو يوم الحشر .

والتنادي مصدر تنادي القوم : أي نادى بعضهم بعضاً .

قال الشاعر :

تنادوا فقالوا أردت الخيل فارساً . . .

فقلت أعند الله ذلكم الردى

وسمي يوم التنادي ، إما لنداء بعضهم لبعض بالويل والثبور ، وإما لتنادي أهل الجنة وأهل النار على ما ذكر في سورة الأعراف ، وإما لأن الخلق ينادون إلى المحشر ، وإما لنداء المؤمن : ﴿ هاؤم اقرؤا كتابيه ﴾ والكافر : ﴿ يا ليتني لم أوت كتابية ﴾ وقرأت فرقة : التناد ، بسكون الدال في الوصل أجراه مجرى الوقف وقرأ ابن عباس ، والضحاك ، وأبو صالح ، والكلبي ، والزعفراني ، وابن مقسم : التناد ، بتشديد الدال : من ندَّ البعير اذا هرب .

كما قال ﴿ يفر المرء من أخيه ﴾ الآية وقال ابن عباس ، وغيره : في التناد خفيفة الدال هو التنادي ، أي يكون بين الناس عند النفخ في الصور ونفخة الفزع في الدنيا ، وأنهم يفرون على وجوههم للفزع التي نالهم ، وينادي بعضهم بعضاً .

وروي هذا التأويل عن أبي هريرة ، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون التذكر بكل نداء في القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة . انتهى .

قال أمية بن أبي الصلت :

وبث الخلق فيها إذ دحاها . . .

فهم سكانها حتى التنادي

وفي الحديث : " إن للناس جولة يوم القيامة يندّون " ، يظنون أنهم يجدون مهرباً ؛ ثم تلا : ﴿

يوم تولون مدبرين ﴾ ، قال مجاهد : معناه فارين .

وقال السدّي : ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ في فراركم حتى تعذبوا في النار .

وقال قتادة : ما لكم في الانطلاق إليها من عاصم ، أي مانع ، يمنعكم منها ، أو ناصر .

ولما يئس المؤمن من قبولها قال : ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

ثم أخذ يوبخهم على تكذيب الرسل ، بأن يوسف قد جاءهم بالبينات .

والظاهر أنه يوسف بن يعقوب ، وفرعون هو فرعون موسى ، وروى أشهب عن مالك أنه بلغه أن فرعون عمر أربعمائة سنة وأربعين سنة .

وقيل : بل الجائي إليهم هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب ، وأن فرعون هو فرعون ، غير فرعون موسى .

و﴿ بالبينات ﴾ : بالمعجزات .

(203/675)

فلم يزالوا شاكين في رسالته كافرين ، حتى إذا توفى ، ﴿ قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ .

وليس هذا تصديقاً لرسالته ، وكيف وما زالوا في شك منه ، وإنما المعنى : لا رسول من

عند الله فيبعثه إلى الخلق ، ففيه نفي الرسول ، ونفي بعثته .

وقرىء : ألن يبعث ، بإدخال همزة الاستفهام على حرف النفي ، كأن بعضهم يقرر بعضاً على نفي البعثة .

﴿ كذلك ﴾ : أي مثل إضلال الله إياكم ، أي حين لم تقبلوا من يوسف ، ﴿ يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ : يعنيهم ، إذ هم المسرفون المرتابون في رسالات الأنبياء .

وجوزوا في ﴿ الذين يجادلون ﴾ أن تكون صفة لمن ، وبدلاً منه : أي معناه جمع ومبتدأ على حذف مضاف ، أي جدال الذين يجادلون ، حتى يكون الضمير في ﴿ كبر ﴾ عائداً على ذلك أولاً ، أو على حذف مضاف ، والفاعل بكبر ضمير يعود على الجدل المفهوم من قوله : ﴿ يجادلون ﴾ ، أو ضمير يعود على من على لفظها ، على أن يكون الذين صفة ، أو بدلاً أعيد أولاً على لفظ من في قوله : ﴿ هو مسرف كذاب ﴾ .

ثم جمع الذين على معنى من ، ثم أفرد في قوله : ﴿ كبر ﴾ على لفظ من .

وقال الزمخشري : ويحتمل أن يكون ﴿ الذين يجادلون ﴾ مبتدأ وبغير ﴿ سلطان أتاهم ﴾ خبراً ، وفاعل ﴿ كبر ﴾ قوله : ﴿ كذلك ﴾ ، أي ﴿ كبر مقتاً ﴾ مثل ذلك الجدال ، و ﴿ يطبع الله ﴾ كلام مستأنف ، ومن قال ﴿ كبر مقتاً ، عند الله ﴾ جدالهم ، فقد حذف الفاعل ، والفاعل لا يصح حذفه .

انتهى ، وهذا الذي أجازه لا يجوز أن يكون مثله في كلام فصيح ، فكيف في كلام الله ؟ لأن فيه تفكيك الكلام بعضه من بعض ، وارتكاب مذهب الصحيح خلافه .

(204/675)

أما تفكيك الكلام ، فالظاهر أن بغير سلطان متعلق بيجادلون ، ولا يتعقل جعله خبراً للذين ، لأنه جار ومجرور ، فيصير التقدير : ﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ : كائنون ، أو مستقرون ، ﴿ بغير سلطان ﴾ ، أي في غير سلطان ، لأن الباء إذا ذاك ظرفية خبر عن الجثة ، وكذلك في قوله ﴿ يطبع ﴾ أنه مستأنف فيه تفكيك الكلام ، لأن ما جاء في القرآن من ﴿ كذلك يطبع ﴾ ، أو نطبع ، إنما جاء مربوطاً بعضه ببعض ، فكذلك هنا .

وأما ارتكاب مذهب الصحيح خلافه ، فجعل الكاف اسماً فاعلاً بكبر ، وذلك لا يجوز على مذهب البصريين إلا الأخفش ، ولم يثبت في كلام العرب ، أعني نثرها : جاءني كزيد ، تريد : مثل زيد ، فلم تثبت اسميتها ، فتكون فاعلة .

وأما قوله : ومن قال لي آخره ، فإنّ قائل ذلك وهو الحوفي ، والظن به أنه فسر المعنى ولم يرد الإعراب .

وأما تفسير الإعراب أن الفاعل بكبر ضمير يعود على الجدال المفهوم من يجادلون ، كما قالوا

: من كذب كان شراً له ، أي كان هو ، أي الكذب المفهوم من كذب .

والأولى في إعراب هذا الكلام أن يكون الذين مبتدأ وخبره كبر ، والفاعل ضمير المصدر المفهوم من يجادلون ، وهذه الصفة موجودة في فرعون وقومه ، ويكون الواعظ لهم قد عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب ، لحسن محاورته لهم واستجلاب قلوبهم ، وإبراز ذلك في صورة تذكيرهم ، ولا يفجأهم بالخطاب .

وفي قوله : ﴿ كبر مقتاً ﴾ ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم والشهادة على خروجه عن حدّ إشكاله من الكبائر .

﴿ كذلك ﴾ : أي مثل ذلك الطبع على قلوب المجادلين ، ﴿ يطبع الله ﴾ : أي يحتم بالضلالة ويحجب عن الهدى .

وقرأ أبو عمرو بن ذكوان ، والأعرج ، بخلاف عنه : قلب بالتنوين ، وصف القلب بالتكبر والجبروت ، لكونه مركزهما ومنبعهما ، كما يقولون : رأت العين ، وكما قال : ﴿ فإنه آثم قلبه ﴾ والإثم : الجملة ، وأجاز الزمخشري أن يكون على حذف المضاف ، أي على كل ذي قلب متكبر ، بجعل الصفة لصاحب القلب .

انتهى ، ولا ضرورة تدعو إلى اعتقاد الحذف .

وقرأ باقي السبعة : قلب متكبر بالإضافة ، والمضاف فيه العام عام ، فلزم عموم متكبر جبار .

وقال مقاتل : المتكبر : المعاند في تعظيم أمر الله ، والجبار المسلط على خلق الله .

﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً ﴾ ، أقوال فرعون : ﴿ ذروني أقتل موسى ، ما أريكم إلا ما أرى ، يا هامان ابن لي صرحاً ﴾ ، حيدة عن محاجة موسى ، ورجوع إلى أشياء لا تصح ، وذلك كله لما خامره من الجزع والخوف وعدم المقاومة ، والتعرف أن هلاكه وهلاك قومه على يد موسى ، وأن قدرته عجزت عن التأثير في موسى ، هذا على كثرة سفكه الدماء .

وتقدم الكلام في الصرح في سورة القصص فأغنى عن إعادته .

قال السدي : الأسباب : الطرق .

وقال قتادة : الأبواب ؛ وقيل : عنى لعله يجد ، مع قربه من السماء ، سبباً يتعلق به ، وما أداك إلى شيء فهو سبب ، وأبهم أولاً الأسباب ، ثم أبدل منها ما أوضحها .

والإيضاح بعد الإبهام يفيد تفخيم الشيء ، إذ في الإبهام تشوق للمراد ، وتعجب من المقصود ، ثم بالتوضيح يحصل المقصود ويتعين .

وقرأ الجمهور : فأطلع رفعاً ، عطفاً على أبلغ ، فكلاهما مترجي .

وقرأ الأعرج ، وأبو حيوة ، وزيد بن علي ، والزعفراني ، وابن مقسم ، وحفص : فأطلع ، بنصب العين .

وقال أبو القاسم بن جبارة ، وابن عطية : على جواب التمني .

وقال الزمخشري : على جواب الترجي ، تشبيهاً للترجي بالتمني . انتهى .

وقد فرق النحاة بين التمني والترجي ، فذكروا أن التمني يكون في الممكن والممتنع ، والترجي يكون في الممكن .

وبلوغ أسباب السموات غير ممكن ، لكن فرعون أبرز ما لا يمكن في صورة الممكن تمويهاً على سامعيه .

(206/675)

وأما النصب بعد الفاء في جواب الترجي فشيء أجازه الكوفيون ومنعه البصريون ، واحتج الكوفيون بهذه القراءة وبقراءة عاصم ، فتنفعه الذكرى في سورة عبس ، إذ هو جواب الترجي في قوله : ﴿ لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ وقد تأولنا ذلك على أن يكون عطفاً على التوهم ، لأن خبر لعل كثيراً جاء مقروناً بأن في النظم كثيراً ، وفي النثر قليلاً .

فمن نصب ، توهم أن الفعل المرفوع الواقع خبراً كان منصوباً بأن ، والعطف على التوهم كثير ، وإن كان لا ينقاس ، لكن إن وقع شيء وأمكن تخريجه عليه خرج ، وأما هنا ، فأطلع ، فقد جعله بعضهم جواباً للأمر ، وهو قوله : ﴿ ابن لي صرحاً ﴾ ، كما قال الشاعر :

يا ناق سيري عنقاً فسيحاً . . .

إلى سليمان فنستريحا

ولما قال : ﴿ فأطلع إلى إله موسى ﴾ ، كان ذلك إقراراً بإله موسى ، فاستدرك هذا الإقرار بقوله : ﴿ وإني لأظنه كاذباً ﴾ : أي في ادعاء الإلهية ، كما قال في القصص : ﴿ لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك التزيين في إيهام فرعون أنه يطلع إلى إله موسى .

﴿ زين لفرعون سوء عمله ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ زين لفرعون ﴾ مبنياً للمفعول ؛ وقرىء : زين مبنياً للفاعل .

وقرأ الجمهور : ﴿ وصد ﴾ مبنياً للفاعل : أي وصد فرعون ؛ والكوفيون : بضم الصاد مناسباً لزين مبنياً للمفعول ؛ وابن وثاب : بكسر الصاد ، أصله صدد ، نقلت الحركة إلى الصاد بعد توهم حذفها ؛ وابن إسحاق ، وعبد الرحمن بن أبي بكرة ، بفتح الصاد وضم الدال ، منونة عطفاً على ﴿ سوء عمله ﴾ .

والتباب : الخسران ، خسر ملكه في الدنيا فيها بالغرق ، وفي الآخرة بخلود النار ، وتكرر

وعظ المؤمن إثر كلام فرعون بندائه قومه مرتين ، متبعاً كل نداء بما فيه زجر واتعاظ لو وجد من يقبل ، وأمر هنا باتباعه لأن يهديهم سبيل الرشاد .

وقرأ معاذ بن جبل : بشد الشين ، وتقدم الكلام على ذلك .

(207/675)

والرد على من جعل هذه القراءة في كلام فرعون ، وأجمل أولاً في قوله : ﴿ سبيل الرشاد ﴾ ، وهو سبيل الإيمان بالله واتباع شرعه .

ثم فسر ، فافتتح بذم الدنيا وبصغر شأنها ، وأنها متاع زائل ، هي ومن تمتع بها ، وأن الآخرة هي دار القرار التي لا انفكاك منها ، إما إلى جنة ، وإما إلى نار .

وكذلك قال : ﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ .

وقرأ أبو رجاء ، وشيبة ، والأعمش ، والإخوان ، والصاحبان ، وحفص : ﴿ يدخلون ﴾ مبنياً للفاعل ، وباقي السبعة ، والأعرج ، والحسن ، وأبو جعفر ، وعيسى : مبنياً للمفعول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(208/675)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ ﴾

هو يوسفُ بنُ يعقوبَ عليهما السَّلامُ على أنَّ فرعونَهُ فرعونُ موسى أو على نسبةِ أحوالِ الآباءِ إلى الأولادِ ، وقيلَ سِبْطُه يوسفُ بنُ إبراهيمَ بنِ يوسفَ الصدّيقِ . ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبلِ موُسى ﴿ بالبينات ﴾ بالمعجزاتِ الواضحةِ ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ من الدينِ ﴿ حتى إِذَا هَلَكَ ﴾ بالموتِ ﴿ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ ضمَّاً إلى تكذيبِ رسالتِه تكذيبَ رسالةِ مَنْ بعدَهُ أو جزماً بأنْ لا يُبعثَ بعدَهُ رسولٌ معَ الشكِّ في رسالتِه . وقُرِىءَ ألنْ يبعثَ اللهُ على أنَّ بعضَهُم يقررُ بعضاً بنفي البعثِ ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلكَ الإضلالِ الفظيعِ ﴿ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ في عصيانِه ﴿ مُّرْتَابٌ ﴾ في دينِه شاكٌّ فيما تشهدُ به البيناتُ لغلبةِ الوهمِ والانهماكِ في التقليدِ .

(209/675)

﴿ الذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾ بدلٌ من الموصولِ الأولِ أو بيانٌ له أو صفةٌ باعتبارِ معناهُ كأنَّه قيلَ كلُّ مسرفٍ مرتابٍ أو المسرفينَ المرتابينَ ﴿ بِغَيْرِ سلطان ﴾ متعلقٌ

بيجادلونَ أي بغيرِ حُجَّةٍ صالحةٍ للتمسكِ بها في الجُملةِ ﴿ ءاتاهم ﴾ صفةُ سلطانٍ ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله وَعِندَ الذين ءامَنُواْ ﴾ فيه ضربٌ من التعجبِ والاستعظامِ وفي كَبُر ضميرٌ يعودُ إلى مَنْ وتذكيرُه باعتبارِ اللفظِ وقيلَ إلى الجدالِ المستفادِ من يُجادلونَ ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلكَ الطبعِ الفظيعِ ﴿ يَطْبَعُ الله على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ فيصدرُ عنه أمثالُ ما ذُكِرَ من الإسرافِ والارتيابِ والمجادلةِ بالباطلِ. وقُرِئَ بتنوينِ قلبٍ، ووصفُه بالتكبرِ والتجبرِ لأنَّه منبعُهما ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ياهامان ابن لِى صَرْحاً ﴾ أي بناءً مكشُوفاً عالياً من صرُحَ الشيءُ إذا ظهرَ ﴿ لَّعَلِّى أَبْلُغُ الأسباب ﴾ أي الطرقَ ﴿ أسباب السموات ﴾ بيانٌ لها وفي إبهامِها ثمَّ إيضاحِها تفخيمٌ لشأنِها وتشويقٌ للسامعِ إلى معرفتِها ﴿ فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى ﴾ بالنصبِ على جوابِ الترجّي. وقُرِئَ بالرفعِ عطفاً على أبلغُ، ولعلَّه أرادَ أنْ يبنيَ له رَصَداً في موضعٍ عالٍ ليرصُدَ منْهُ أحوالَ الكواكبِ التي هي أسبابٌ سماويةٌ تدلُّ على الحوادثِ الأرضيةِ فيرى هَلْ فيها ما يدلُّ على إرسالِ الله تعالَى إيَّاهُ أو أنْ يَرَى فسادَ قولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّ إخبارَهُ من إلهِ السماءِ يتوقفُ على اطِّلاعِه عليهِ ووصولِه إليهِ وذلكَ لا يتأتَّى إلا بالصُّعودِ إلى السماءِ وهُوَ ممَّا لا يقْوَى عليهِ الإنسانُ وما ذاكَ إلا لجهلِه بالله سبحانَهُ وكيفيةِ استنبائِه ﴿ وَإِنِّى لأَظُنُّهُ كاذبا ﴾ فيما يدعيهِ من الرسالةِ ﴿ وكذلك ﴾ أيْ ومثلَ ذلكَ التزيينِ البليغِ المُفْرطِ ﴿ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوء عَمَلِهِ ﴾ فانهمكَ فيهِ انهماكاً

(210/675)

لا يرْعَوِي عنه بحال ﴿ وَصُدَّ عَنِ السبيل ﴾ أي الرشادِ . والفاعلُ في الحقيقةِ هُو الله تعالَى ، ويؤيدُه قراءةُ زُيِّنَ بالفتحِ وبالتوسطِ الشيطانُ . وقُرِىءُ وصَدَّ على أنَّ فرعونَ صدَّ الناسَ عنِ الهُدى بأمثالِ هذهِ التمويهاتِ والشبهاتِ . ويُؤيدُه قولُه تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ ﴾ أي خسَارٍ وهلاكٍ أو على أنَّه من صَدَّ صُدوداً أي أعرضَ . وقُرِىءَ بكسرِ الصَّادِ على نقلِ حركةِ الدَّالِ إليهِ . وقُرِىءَ وصَدٌّ على أنَّه عطفٌ على سوءُ عملِه وقُرِىءَ وصَدُّوا أيْ هُو وقومُهُ .

(211/675)

﴿ وَقَالَ الذى ءامَنَ ﴾ أي مؤمنُ آلِ فرعونَ ، وقيلَ مُوسَى عليهِ السَّلامُ . ﴿ ءامَنَ يا قوم اتبعون ﴾ فيما دَلَلْتُكُم عليهِ ﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرشاد ﴾ أيْ سبيلاً يصلُ سالكُه إلى المقصودِ وفيه تعريضٌ بأنَّ ما يسلُكُه فرعونُ وقومُه سبيلُ الغيِّ والضلالِ . ﴿ يا قوم إِنَّمَا هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ أي تمتعٌ يسيرٌ لسرعةِ زوالِها أجملَ لَهمُ أولاً ثمَّ فسرَ فافتتحَ بذمِّ

الدُّنيا وتصغيرِ شأنِها لأنَّ الإخلادَ إليها رأسُ كلِّ شرَ ومنه تتشعبُ فنونُ ما يُؤدّي إلى سخطِ الله تعالَى ثمَّ ثنَّى بتعظيمِ الآخرةِ فقال : ﴿ وَإِنَّ الأخرة هِيَ دَارُ القرار ﴾ لخلودِها ودوامِ ما فيها . ﴿ مِنْ عَمَلٍ ﴾ في الدُّنيا ﴿ سَيِّئَةً فَلاَ يجزى ﴾ في الآخرةِ ﴿ إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ عدلاً من الله سبحانَهُ وفيه دليلٌ على أنَّ الجناياتِ تُغْرمُ بأمثالِها ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا مّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ ﴾ الذينَ عملِوا ذلك ﴿ يَدْخُلُونَ الجنة يُرْزَقُونَ فِيهَا بغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أيْ بغيرِ تقديرٍ وموازنةٍ بالعملِ بَلْ أضعافاً مُضاعفةً فضلاً من الله عزَّ وجلَّ ورحمةً . وجعلُ العملِ عمدةً والإيمانِ حالاً للإيذانِ بأنَّه لا عبرةَ بالعملِ بدونِه ، وأنَّ ثوابَهُ أَعْلَى منْ ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(212/675)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الذى ءامَنَ ﴾

هو مؤمن آل فرعون ، وقيل : فيه نظير ما قيل في سابقه أنه موسى عليه السلام وهو ضعيف كما لا يخفى ﴿ ءامَنَ يا قوم اتبعون ﴾ فيما دللتكم عليه ﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرشاد ﴾ سبيلاً يصل به سالكه إلى المقصود ، وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي .

وقرأ معاذ بن جبل كما في البحر ﴿ الرشاد ﴾ بتشديد الشين وتقدم الكلام في ذلك فلا تغفل .

﴿ يا قوم إِنَّمَا هذه الحياة الدنيا ﴾ أي تمتع أو متمتع به يسير لسرعة زواله ﴿ وَإِنَّ الآخرة هِيَ دَارُ القرار ﴾ لخلودها ودوام ما فيها .

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ في الدنيا ﴿ فَلاَ يجزى ﴾ في الآخرة ﴿ إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ عدلاً من الله عز وجل ، واستدل به على أن الجنايات تغرم بمثلها أي بوزانها من غير مضاعفة ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا مّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ ﴾ الذين عملوا ذلك ﴿ يَدْخُلُونَ الجنة يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ بغير تقدير وموازنة بالعمل بل اضعافا مضاعفة فضلاً منه تعالى ورحمة ، وقسم العمال إلى ذكر وأنثى للاهتمام والاحتياط في الشمول لاحتمال نقص الاناث ، وجعل الجزاء في جزاء أعمالهم جملة اسمية مصدرة باسم الإشارة مع تفضيل الثواب وتفصيله تغليباً للرحمة وترغيباً فيما عند الله عز وجل ، وجعل العمل عمدة وركنا من القضية الشرطية والإيمان حالاً للدلالة على أن الإيمان شرط في اعتبار العمل والاعتداد به والثواب عليه لأن الأحوال قيود وشروط للحكم التي وقعت فيه ، ويتضمن ذلك الإشارة إلى عظيم شرفه ومزيد ثوابه ، وقرأ الأعرج .

والحسن .

وأبو جعفر .

وعيسى .

وغير واحد من السبعة ﴿ يَدْخُلُونَ ﴾ مبنياً للمفعول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(213/675)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) ﴾

ثمّ كرّر ذلك الرجل المؤمن تذكيرهم ، وحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم ، فقال الله حاكياً عنه : ﴿ وَقَالَ الذى ءامَنَ يا قوم إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مّثْلَ يَوْمِ الاحزاب ﴾ أي : مثل يوم عذاب الأمم الماضية الذين تحزبوا على أنبيائهم .

وأفرد اليوم ؛ لأن جمع الأحزاب قد أغنى عن جمعه ، ثم فسر الأحزاب ، فقال : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي : مثل حالهم في العذاب ، أو مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب ، أو مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر ، والتكذيب ﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ أي : لا يعذبهم بغير ذنب ، ونفي الإرادة للظلم يستلزم نفي الظلم بفحوى الخطاب .

ثم زاد في الوعظ ، والتذكير ، فقال : ﴿ وياقوم إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التناد ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ التناد ﴾ بتخفيف الدال ، وحذف الياء .

والأصل التنادي ، وهو : التفاعل من النداء ، يقال : تنادى القوم ، أي : نادى بعضهم بعضاً ، وقرأ الحسن ، وابن السميفع ، ويعقوب ، وابن كثير ، ومجاهد بإثبات الياء على الأصل ، وقرأ ابن عباس ، والضحاك ، وعكرمة بتشديد الدال .

قال بعض أهل اللغة : هو : لحن ، لأنه من ندّ يندّ : إذا مرّ على وجهه هارباً .

قال النحاس : وهذا غلط ، والقراءة حسنة على معنى التنافي .

(214/675)

قال الضحاك : في معناه : أنهم إذا سمعوا بزفير جهنم ندّوا هرباً ، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا صفوفاً من الملائكة ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك قوله : ﴿ يَوْمَ التناد ﴾ ، وعلى قراءة الجمهور المعنى : يوم ينادي بعضهم بعضاً ، أو ينادي أهل النار أهل الجنة ، وأهل الجنة أهل النار ، أو ينادى فيه بسعادة السعداء ، وشقاوة الأشقياء ، أو يوم ينادي فيه كلّ أناس بإمامهم ، ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعاني ، وقوله : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ بدل من يوم التناد ، أي : منصرفين عن الموقف إلى النار ، أو فارّين

منها .

قال قتادة ، ومقاتل : المعنى : إلى النار بعد الحساب ، وجملة ﴿ مَا لَكُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : ما لكم من يعصمكم من عذاب الله ، ويمنعكم منه ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يهديه إلى طريق الرشاد .

ثم زاد في وعظهم ، وتذكيرهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات ﴾ أي : يوسف بن يعقوب ، والمعنى : أن يوسف بن يعقوب جاءهم بالمعجزات ، والآيات الواضحات من قبل مجيء موسى إليهم ، أي : جاء إلى آبائكم ، فجعل المجيء إلى الآباء مجيئاً إلى الأبناء .

وقيل : المراد بيوسف هنا : يوسف بن إفراثيم بن يوسف بن يعقوب ، وكان أقام فيهم نبياً عشرين سنة .

وحكى النقاش ، عن الضحاك : أن الله بعث إليهم رسولاً من الجنّ يقال له : يوسف ، والأوّل أولى .

وقد قيل : إن فرعون موسى أدرك أيام يوسف بن يعقوب لطول عمره ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكّ مّمَّا جَاءكُمْ بِهِ ﴾ من البينات ، ولم تؤمنوا به ﴿ حتى إِذَا هَلَكَ ﴾ يوسف ﴿ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ ، فكفروا به في حياته ، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ أي : مثل ذلك الضلال الواضح يضلّ الله من هو مسرف في معاصي الله مستكثر منها مرتاب في دين الله شاكّ في وحدانيته ، ووعده ، ووعيده .

والموصول في قوله : ﴿ الذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾ بدل من "من" ، والجمع باعتبار معناها ، أو بيان لها ، أو صفة ، أو في محل نصب بإضمار أعني ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي : هم الذين ، أو مبتدأ ، وخبره يطبع ، و ﴿ بِغَيْرِ سلطان ﴾ متعلق بيجادلون ، أي : يجادلون في آيات الله بغير حجة واضحة ، و ﴿ ءاتاهم ﴾ صفة لسلطان ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله وَعِندَ الذين ءامَنُواْ ﴾ يحتمل أن يراد به التعجب ، وأن يراد به الذمّ كبئس ، وفاعل كبر ضمير يعود إلى الجدال المفهوم من يجادلون .

وقيل : فاعله ضمير يعود إلى من في ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ ، والأوّل أولى .

وقوله : ﴿ عَندَ الله ﴾ متعلق بكبر ، وكذلك ﴿ عِندَ الذين آمَنُواْ ﴾ قيل : هذا من كلام الرجل المؤمن .

وقيل : ابتداء كلام من الله سبحانه ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ أي : كما طبع على قلوب هؤلاء المجادلين ، فكذلك يطبع أي : يختم على كلّ قلب متكبر جبار .

(216/675)

قرأ الجمهور بإضافة قلب إلى متكبر ، واختار هذه القراءة أبو حاتم ، وأبو عبيد ، وفي الكلام حذف ، وتقديره : كذلك يطبع الله على كلّ قلب كل متكبر ، فحذف كلّ الثانية لدلالة الأولى عليها ، والمعنى : أنه سبحانه يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين ، وقرأ أبو عمرو ، وابن محيصن ، وابن ذكوان عن أهل الشام بتنوين قلب على أن متكبر صفة له ، فيكون القلب مراداً به الجملة ، لأن القلب هو : محل التكبر ، وسائر الأعضاء تبع له في ذلك ، وقرأ ابن مسعود على قلب كلّ متكبر .

ثم لما سمع فرعون هذا رجع إلى تكبره ، وتجبره معرضاً عن الموعظة نافراً من قبولها ، وقال : ﴿ ياهامان ابن لي صَرْحاً ﴾ أي : قصراً مشيداً كما تقدّم بيان تفسيره ﴿ لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأسباب ﴾ أي : الطرق .

قال قتادة ، والزهري ، والسدّي ، والأخفش : هي : الأبواب .

وقوله : ﴿ أسباب السموات ﴾ بيان للأسباب ، لأن الشيء إذا أبهم ، ثم فسر كان أوقع

في النفوس ، وأنشد الأخفش عند تفسيره للآية بيت زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه . . . ولو رام أسباب السماء بسلم

وقيل : أسباب السماوات : الأمور التي يستمسك بها ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلى إله موسى ﴾ قرأ الجمهور بالرفع عطفاً على أبلغ ، فهو على هذا داخل في حيز الترجي .

وقرأ الأعرج ، والسلمي ، وعيسى بن عمر ، وحفص بالنصب على جواب الأمر في قوله : ﴿ ابن لِى ﴾ ، أو على جواب الترجي كما قال أبو عبيد ، وغيره .

(217/675)

قال النحاس : ومعنى النصب خلاف معنى الرفع ، لأن معنى النصب : متى بلغت الأسباب اطلعت ، ومعنى الرفع : لعلي أبلغ الأسباب ، ولعلي أطلع بعد ذلك ، وفي هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم ، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جدًّا ﴿ وَإِنِّى لأَظُنُّهُ كاذبا ﴾ أي : وإني لأظنّ موسى كاذباً في ادعائه بأن له إلاهاً ، أو فيما يدّعيه من الرسالة ﴿ وكذلك زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوء عَمَلِهِ ﴾ أي : ومثل ذلك التزيين زين الشيطان لفرعون سوء عمله من الشرك ، والتكذيب فتمادى في الغيّ ، واستمرّ على الطغيان ﴿ وَصُدَّ عَنِ السبيل ﴾ أي : سبيل الرشاد .

قرأ الجمهور : ﴿ وصد ﴾ بفتح الصاد ، والدال ، أي : صدّ فرعون الناس عن السبيل ، وقرأ الكوفيون : ﴿ وصد ﴾ بضم الصاد مبنياً للمفعول ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وأبو حاتم ، ولعلّ وجه الاختيار لها منهما كونها مطابقة لما أجمعوا عليه في زين من البناء للمفعول ، وقرأ يحيى بن وثاب ، وعلقمة : (صد) بكسر الصاد ، وقرأ ابن أبي إسحاق ، وعبد الرحمن بن أبي بكرة بفتح الصاد ، وضمّ الدال منوّناً على أنه مصدر معطوف على سوء عمله أي : زين له الشيطان سوء العمل ، والصدّ ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ ﴾ التباب : الخسار ، والهلاك ، ومنه ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ [المسد : 1] ، ثم إن ذلك الرجل المؤمن أعاد التذكير ، والتحذير كما حكى الله عنه بقوله : ﴿ وَقَالَ الذى ءامَنَ يا قوم اتبعون أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرشاد ﴾ أي : اقتدوا بي في الدين أهدكم طريق الرشاد ، وهو : الجنة .

وقيل : هذا من قول موسى ، والأوّل أولى .

(218/675)

وقرأ معاذ بن جبل : (الرشاد) بتشديد الشين كما تقدّم قريباً في قول فرعون ، ووقع في المصحف ﴿ اتبعون ﴾ بدون ياء ، وكذلك قرأ أبو عمرو ، ونافع بحذفها في الوقف ،

وإثباتها في الوصل ، وقرأ يعقوب ، وابن كثير بإثباتها وصلا ، ووقفا ، وقرأ الباقون بحذفها وصلا ، ووقفا ، فمن أثبتها فعلى ما هو الأصل ، ومن حذفها ، فلكونها حذفت في المصحف ﴿ يا قوم إِنَّمَا هذه الحياة الدنيا مَتَاعٌ ﴾ يتمتع بها أياماً ، ثم تنقطع ، وتزول ﴿ وَإِنَّ الأخرة هِيَ دَارُ القرار ﴾ أي : الاستقرار لكونها دائمة لا تنقطع ، ومستمرّة لا تزول ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ أي : من عمل في دار الدنيا معصية من المعاصي كائنة ما كانت ، فلا يجزى إلا مثلها ، ولا يعذب إلا بقدرها ، والظاهر شمول الآية لكل ما يطلق عليه اسم السيئة .

وقيل : هي خاصة بالشرك ، ولا وجه لذلك ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا مّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي : من عمل عملاً صالحاً مع كونه مؤمناً بالله ، وبما جاءت به رسله ﴿ فَأُوْلَئِكَ ﴾ الذين جمعوا بين العمل الصالح ، والإيمان ﴿ يَدْخُلُونَ الجنة يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي : بغير تقدير ، ومحاسبة .

قال مقاتل : يقول : لا تبعة عليهم فيما يعطون في الجنة من الخير .

وقيل : العمل الصالح ، هو : لا إله إلا الله .

قرأ الجمهور : ﴿ يدخلون ﴾ بفتح التحتية مبنياً للفاعل .

وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن ، وأبو عمرو ، ويعقوب ، وأبو بكر عن عاصم بضمها مبنياً للمفعول .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ مِثْلَ دَأْبِ ﴾ قال : مثل حال .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ قال : هم الأحزاب : قوم نوح ، وعاد ، وثمود .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات ﴾ قال : رؤيا يوسف ، وفي قوله : ﴿ الذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾ قال : يهود .

(219/675)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلاَّ فِى تَبَابٍ ﴾ قال : خسران .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يا قوم إِنَّمَا هذه الحياة الدنيا ﴾ قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة سبعة آلاف سنة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الحياة الدنيا متاع ، وليس من متاعها شيء أفضل من المرأة الصالحة ، التي إذا نظرت إليها سرّتك ،

وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ، ومالها " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(220/675)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) ﴾

هذا مقال في مقام آخر قاله مؤمنُ آل فرعون ، فهذه المقالات المعطوفة بالواو مقالات متفرقة .

فابتدأ موعظته بندائهم ليلفت إليه أذهانهم ويستصغي أسماعهم ، وبعنوان أنهم قومه لَتَصْغَى إليه أفئدتهم .

ورتب خطبتُه على أسلوب تقديم الإجمال ثم تعقيبه بالتفصيل ، فابتدأ بقوله : ﴿ اتَّبِعُونِ أَهدِكُم سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ، وسبيل الرشاد مجمل وهو على إجماله مما تتوق إليه النفوس ، فربْطُ حصوله باتِّباعهم إيَّاه مما يُقبِل بهم على تلقّي ما يفسر هذا السبيل ، ويسترعي أسماعهم إلى ما يقوله إذ لعله سيأتيهم بما ترغبه أنفسهم إذ قد يَظنون أنه نقحَ رأيه ونخَل مقالَه وأنه سيأتي بما هو الحق الملائم لهم .

وتقدم ذكر ﴿ سبيل الرشاد ﴾ آنفاً .

وأعاد النداء تأكيداً لإقبالهم إذْ لاحت بوارقه فأكمل مقدمته بتفصيل ما أجمله يذكرهم بأن الحياة الدنيا محدودة بأجل غير طويل ، وأن وراءها حياةً أبدية ، لأنه علم أن أشدّ دفاعهم عن دينهم منبعثٌ عن محبة السيادة والرفاهية ، وذلك من متاع الدنيا الزائل وأن الخير لهم هو العمل للسعادة الأبدية .

وقد بنَى هذه المقدمة على ما كانوا عليه من معرفة أن وراء هذه الحياة حياة أبدية فيها حقيقة السعادة والشقاء ، وفيها الجزاء على الحسنات والسّيئات بالنعيم أو العذاب ، إذ كانت دياناتهم تثبت حياة أخرى بعد الحياة الدنيا ولكنها حَرفت معظم وسائل السعادة والشقاوة ، فهذه حقائق مسلّمة عندهم على إجمالها وهي من نوع الأصول الموضوعة في صناعة الجَدل ، وبذلك تمّت مقدمة خطبته وتهيأت نفوسهم لبيان مقصده المفسِّر لإجمال مقدمته .

فجملة ﴿ إنما هذه الحياة الدُّنيا متاع ﴾ مبينة لجملة ﴿ أَهْدِكُم سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ .

والمتاع : ما ينتفع به انتفاعاً مؤجلاً .

والقرار : الدوام في المكان .

والقصر المستفاد من قوله ﴿ إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفة ، أي لا صفة للدنيا إلا أنها نفع موقت ، وهو قصر قلب لتنزيل قومه في تهالكهم على منافع الدنيا منزلة من يحسبها منافع خالدة .

وجملتا ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ إلى آخرهما بيان لجملة ﴿ وإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرارِ ﴾ والقصر المستفاد من ضمير الفصل في قوله ﴿ وَإِنَّ الآخِرَةَ هي دَارُ القَرارِ ﴾ قصرُ قلْبٍ نظير القصر في قوله : ﴿ إنَّما هَذِهِ الحَياةُ الدُّنْيا متاع ﴾ ، وهو مؤكد للقصر في قوله : ﴿ إنَّما هَذِهِ الحَياةُ الدُّنْيا متاع ﴾ من تأكيد إثبات ضد الحكم لضد المحكوم عليه ، وهو قصر قلب ، أي لا الدنيا .

(ومَنْ) من قوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ شرطية .

ومعنى ﴿ إلاَّ مِثْلَهَا ﴾ المماثلة في الوصف الذي دل عليه اسم السيّئة وهو الجزاء السّيّء ، أي لا يجزي عن عمل السوء بجزاء الخير ، أي لا يطمعوا أن يعلموا السيئات وأنهم يجازَون عليها جزاءَ خير .

وفي "صحيح البخاري" عن وهب بن منبه وكان كثير الوعظ للناس فقيل له ، إنك بوعظك تقنط الناس فقال : "أأنا أقدر أن أقنط الناس والله يقول:

﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ [الزمر : 53]

ولكنكم تُحبون أن تُبشَّروا بالجنة على مساوي أعمالكم" .

وكأن المؤمن خصّ الجزاء بالأعمال لأنهم كانوا متهاونين بالأعمال وكان قصارى ما يهتمون به هو حسن الاعتقاد في الآلهة ، ولذلك توجد على جُدر المعابد المصرية صورة الحساب في هيئة وضع قلب الميت في الميزان ليكون جزاؤه على ما يفسر عنه ميزان قلبه .

(222/675)

ولذلك ترى مؤمن آل فرعون لم يهمل ذكر الإيمان بعد أن اهتم بتقديم الأعمال فتراه يقول : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ، فالإيمان هو أُسُّ هيكل النجاة ، ولذلك كان الكفر أُسَّ الشقاء الأبدي فإن كل عمل سيّء فإن سُوءه وفساده جُزئي مُنقَضٍ فكان العقاب عليه غير أبدي ، وأما الكفر فهو سيئة دائمة مع صاحبها لأن مقرّها قلبه واعتقاده وهو ملازم له فلذلك كان عقابه أبدياً ، لأن الحكمة تقتضي المناسبة بين الأسباب وآثارها فدل قوله : ﴿ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلها ﴾ أن جزاء الكفر شقاء أبدي لأن مِثْل الكفر في كونه ملازماً للكافر إن مات كافراً .

وبهذا البيان أبطلنا قول المعتزلة والخوارج بمساواة مرتكب الكبائر للكافر في الخلود في العذاب ، بأنه قول يفضي إلى إزالة مزية الإيمان ، وذلك تنافيه أدلة الشريعة البالغة مبلغ القطع

، ونظير هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد : 13 17] .

وترتيبه دخول الجنة على عمل الصالحات معناه : من عمل صالحاً ولم يعمل سيئة بقرينة مقابلته بقوله : ﴿ مَنْ عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ ، فإنْ خلَط المؤمن عملاً صالحاً وسيئاً فالمقاصة ، وبيانه في تفاصيل الشريعة .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ حِسابٍ ﴾ كناية على سعة الرزق ووفرته كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن اللَّه يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ في سورة [آل عمران : 37] .

و ﴿ مَن في قوله : وَمَنْ عَمِلَ صالحا ﴾ الخ شرطية ، وجوابها ﴿ فأولئك يَدْخُلون الجنَّة ﴾ .

وجيء باسم الإشارةِ للتنبيه على أن المشار إليه يستحق ما سيذكر بعد اسم الإشارة من أجْل ما ذكر قبل اسم الإشارة من الأوصاف ، وهي عمل الصالحات مع الإِيمان زيادة على استفادة ذلك من تعليقه على الجملة الشرطية .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في جملة جواب الشرط لإِفادة الحصر .

والمعنى : أنكم إن متم على الشرك والعمل السيّىء لا تدخلونها .

وقوله : ﴿ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثى ﴾ بيان لما في ﴿ مَنْ من الإبهام من جانب احتمال التعميم فلفظ ذَكَرٍ أو أنثى ﴾ مراد به عموم الناس بذكر صنفيهم تنصيصاً على إرادة العموم ، وليس المقصود به إفادة مساواة الأنثى للذكر في الجزاء على الأعمال إذ لا مناسبة له في هذا المقام ، وتعريضاً بفرعون وخاصته أنهم غير مُفلَتين من الجزاء .

وقرأ الجمهور ﴿ يَدْخُلونَ الجَنَّة ﴾ بفتح الياء .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بضمها وفتح الخاء ، والمعنى واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(224/675)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾

يعني : فيعتبروا ، ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة ﴾ يعني : آخر أمر ، ﴿ الذين كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ يعني : منعة .

قرأ ابن عامر ، ومن تابعه من أهل الشام ﴿ أَشَدَّ مِنكُمْ ﴾ بالكاف على معنى المخاطبة .

والباقون ﴿ أَشَدُّ مِنْهُم ﴾ بالهاء على معنى الخبر عنهم .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ﴾ يعني : أكثر أعمالاً .

ويقال : أشد لها طلباً ، وأبعد لها ذهاباً .

﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : عاقبهم الله ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ ﴾ أي : من مانع يمنعهم من عذاب الله .

﴿ ذلك ﴾ أي : ذلك العذاب ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ يعني : بالأمر ، والنهي .

ويقال : بالدلائل الواضحات ، ﴿ فَكَفَرُواْ ﴾ بهم ، وبدلائلهم ، ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ العقاب ﴾ أي : عاقبهم الله بذنوبهم ، إنه قادر على أخذهم ، شديد العقاب لمن عاقب .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾ التسع ، ﴿ وسلطان مُّبِينٍ ﴾ أي : حجة بيّنة ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وهامان وَقَشرُونَ فَقَالُواْ ساحر كَذَّابٌ ﴾ يعني : لم يصدقوا موسى .

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمْ بالحق مِنْ عِندِنَا ﴾ يعني : بالرسالة ، ﴿ قَالُواْ اقتلوا أَبْنَاء الذين ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾ يعني : أعيدوا القتل عليهم ، ﴿ واستحيوا نِسَاءهُمْ ﴾ فلا تقتلوهن

، ﴿ وَمَا كَيْدُ الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ أي : في خطأ بيّن .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لقومه ﴿ ذَرُونِى أَقْتُلْ موسى ﴾ يعني : خلوا عني ، حتى أقتل موسى .

﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ يعني : ليدعوا ربه موسى ، لكي يمنعه عني .

وذلك أن قومه كانوا يقولون : أرجئه وأخاه ، ولا تقتله حتى لا يفسدوا عليك الملك .

(225/675)

فقال لهم فرعون : ﴿ ذَرُونِى أَقْتُلْ موسى ﴾ فإني أعلم أن صلاح ملكي في قتله .

﴿ إِنِّى أَخَافُ أَن يُبَدّلَ دِينَكُمْ ﴾ يعني : عبادتكم إياي ، ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأرض الفساد ﴾ يعني : الدعاء إلى غير عبادتي .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو عمرو ﴿ وَإِن يَظْهَرُوا ﴾ على معنى العطف .

والباقون : ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ ﴾ على معنى الشك ، وكلاهما جائز .

وأو لأحد الشيئين : إما لشك المتكلم أو أحدهما .

والواو للجمع ، وتقع على الأمرين جميعاً .

وقرأ أبو عمرو ، ونافع ، وعاصم ﴿ يُظْهِرُ ﴾ بضم الياء ، وكسر الهاء ، ﴿ الفساد ﴾

بالنصب .

والباقون : ﴿ يُظْهِرُ ﴾ بنصب الياء ، والهاء ، ﴿ الفساد ﴾ بالضم .

فمن قرأ : يُظْهر بالضم .

فالفعل لموسى ، والفساد نصب لوقوع الفعل عليه .

ومن قرأ يَظْهَر ، فالفعل للفساد ، فيصير الفسادُ رفعاً ، لأنه فاعل .

فلما سمع موسى ذلك التهديد ، استعاذ بالله من شره ، فذلك قوله : ﴿ وَقَالَ موسى إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ يعني : أستعيذ بربي ، وربكم ، ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ عن الإيمان يعني : ﴿ لاَ يُؤْمِنُ ﴾ أي : لا يصدق ﴿ بِيَوْمِ الحساب ﴾ .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ وهو حزبيل بن ميخائيل ، هو ابن عم قارون ، وكان أبوه من آل فرعون ، وأمه من بني إسرائيل .

ويقال : كان ابن فرعون ﴿ يَكْتُمُ إِيمانه ﴾ ، وكان قد أسلم سراً من فرعون .

قوله : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ الله وَقَدْ جَاءكُمْ بالبينات مِن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني : اليد ، والعصا .

وروى الأوزاعي عن يحيى بن كثير ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو : حدثني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أقبل عقبة بن أبي معيط ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند الكعبة ، فلوى ثوبه على عنقه ، وخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر ، فأخذ بمنكبيه ، ودفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال أبو بكر : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بالبينات مِن رَّبِّكُمْ ﴾ ﴿ وَإِن يَكُ كاذبا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ يعني : فعليه وبال كذبه ، فلا ينبغي أن تقتلوه بغير حجة ، ولا برهان .

﴿ وَإِن يَكُ صادقا ﴾ في قوله ، وكذبتموه ، ﴿ يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذى يَعِدُكُمْ ﴾ من العذاب .

يعني : بعض ذلك العذاب يصبكم في الدنيا .

ويقال : بعض الذي يعدكم فيه .

أي : جميع الذي يعدكم ، كقوله : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عيسى بالبينات قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بالحكمة وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ [الزخرف : 63] أي : جميع الذي تختلفون فيه ، ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى ﴾ يعني : لا يرشد ، ولا يوفق إلى دينه ، ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ في قوله : ﴿ كَذَّابٌ ﴾ يعني : الذي عادته الكذب .

﴿ كَذَّابٌ يا قوم لَكُمُ الملك اليوم ﴾ أي : ملك مصر ، ﴿ ظاهرين فِى الأرض ﴾ أي :

غالبين على أرض مصر ، ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ الله ﴾ يعني : من يعصمنا من عذاب الله ، ﴿ إِن جَاءنَا ﴾ يعني : أرأيتم إن قتلتم موسى ، وهو الصادق ، فمن يمنعنا من عذاب الله .

فلما سمع فرعون قول المؤمن ، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أرى ﴾ يعني : ما أريكم من الهدى ، إلا ما أرى لنفسي .

(227/675)

ويقال : ما آمركم إلا ما رأيت لنفسي أنه حق وصواب ، ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ يعني : ما أدعوكم إلا إلى طريق الهدى وقرىء في الشاذ ﴿ الرشاد ﴾ بتشديد الشين .

يعني : سبيل الرشاد الذي يرشد الناس .

ويقال : رشاد اسم من أسماء أصنامه .

قوله : ﴿ وَقَالَ الذى ءامَنَ ﴾ وهو حزبيل ﴿ ءامَنَ يا قوم إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مّثْلَ يَوْمِ الاحزاب ﴾ يعني : أخاف عليكم من تكذيبكم مثل عذاب الأمم الخالية ، ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي مثل عذاب قوم نوح ، ﴿ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً

لِّلْعِبَادِ ﴾ يعني : لا يعذبهم بغير ذنب ، ﴿ لِّلْعِبَادِ وياقوم إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التناد ﴾

وهو من نَدَّ يَند ، وهو من تنادى ، يتنادى ، تنادياً .

وروى أبو صالح ، عن ابن عباس أنه قرأ : ﴿ يَوْمَ التناد ﴾ بتشديد الدال .

وقال : تندون كما تند الإبل ، وهذا موافق لما بعده ، ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ [عبس : 34 ، 35] .

وقرأ الحسن يَوْمَ التَّنَادِي بالياء ، وهو من النداء .

يوم ينادى كل قوم بأعمالهم .

وينادي المنادي من مكان بعيد .

وينادي أهل النار أهل الجنة .

وينادي أهل الجنة أهل النار ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ [الأعراف : 44] وقراءة العامة .

التناد بالتخفيف بغير ياء ، وأصله الياء ، فحذف الياء ، لأن الكسرة تدل عليه ، وقوله : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي : هاربين .

قال الكلبي : هاربين ، إذا انطلق بهم إلى النار ، فعاينوها ، هربوا .

فيقال لهم : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي : ليس لكم من عذاب الله من مانع .

وقال مقاتل : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي : ذاهبين بعد الحساب إلى النار ، كقوله : ﴿ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي ذاهبين ﴿ مَا لَكُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ يعني : من مانع من عذابه .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ ﴾ عن الهدى ، ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يعني : من مرشد ، وموفق .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات ﴾ هذا قول حزبيل أيضاً لقوم فرعون قال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ ﴾ ويقال : يعني : به أهل مصر ، وهم الذين قبل فرعون ، لأن القرون الذين كانوا في زمن فرعون ، لم يروا يوسف ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الحق مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : 91] وإنما أراد به آباءهم ﴿ بالبينات ﴾ أي : بتعبير الرؤيا .

وروي عن وهب بن منبه : قال فرعون : موسى هو الذي كان في زمن يوسف ، وعاش إلى وقت موسى .

وهذا خلاف قول جميع المفسرين .

﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ من تصديق الرؤيا ، وبما أخبركم ، ﴿ حتى إِذَا

هَلَكَ ﴾ يعني : مات ، ﴿ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ يعني : من هو مشرك ، شاك في توحيد الله .

(229/675)

ثم وصفهم فقال : ﴿ الذين يجادلون فِى ءايات الله بِغَيْرِ سلطان ﴾ أي : بغير حجة ﴿ أتاهم كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله ﴾ أي : عظم بغضاً لهم من الله ، ﴿ وَعِندَ الذين ءامَنُواْ ﴾ يعني : عند المؤمنين ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله ﴾ أي : يختم الله بالكفر ، ﴿ على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ يعني : متكبر عن عبادة الله تعالى .

قرأ أبو عمرو : ﴿ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ﴾ بالتنوين .

جعل قوله متكبر نعتاً للقلب .

ومعناه : أن صاحبه متكبر .

والباقون : ﴿ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ﴾ بغير تنوين على معنى الإضافة ، لأن المتكبر هو الرجل ، وأضاف القلب إليه .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ياهامان ابن لِى صَرْحاً ﴾ أي : قصراً مشيداً ﴿ لَّعَلِّى أَبْلُغُ الاسباب ﴾

يعني : أصعد طرق السموات ، ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ أي : انظر ﴿ إلى إله موسى ﴾ الذي يزعم أنه أرسله .

وقال مقاتل ، والقتبي : ﴿ أسباب السموات ﴾ أبوابها .

قرأ عاصم في رواية حفص : ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ بنصب العين .

والباقون : بالضم .

فمن قرأ : بالنصب .

جعله جواباً للفعل .

ومن قرأ بالضم رده إلى قوله : أبلغ الأسباب ، فأطلع .

﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ أي : لأحسب موسى كاذباً في قوله .

قال الله تعالى : ﴿ وكذلك زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أي : قبح عمله ، ﴿ وَصُدَّ عَنِ السبيل ﴾ أي : الدين ، والتوحيد .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم : ﴿ وَصُدَّ ﴾ بضم الصاد .

والباقون : بالنصب .

فمن قرأ : بالضم .

فمعناه : إن فرعون صرف عن طريق الهدى .

يعني : إن الشيطان زين له سوء عمله ، وصرفه عن طريق الهدى .

ومن قرأ : بالنصب .

فمعناه : صرف فرعون الناس عن الدين .

﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ ﴾ أي : ما صنع فرعون إلا في خسارة يوم القيامة ، كقوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ [المسد : 1] يعني : إن فرعون اختار متاعاً قليلاً ، وترك الجنة الباقية ، فكان عمله في الخسارة .

(230/675)

﴿ وَقَالَ الذى ءامَنَ ﴾ وهو حزبيل ﴿ عَلَيْهِ قَوْمٌ ﴾ ﴿ اتبعون أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرشاد ﴾ يعني : أطيعوني حتى أرشدكم ، وأبيّن لكم دين الصواب .

قوله تعالى : ﴿ سَبِيلَ الرشاد يا قوم إِنَّمَا هذه الحياة الدنيا ﴾ أي : قليل ، ﴿ وَإِنَّ الآخرة هِىَ دَارُ القرار ﴾ لا زوال لها .

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ يعني : من عمل الشرك فلا يجزى إلا النار في الآخرة .

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا مّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ يعني : من رجل ، أو امرأة ، ﴿ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنة يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي : بغير مقدار .

وقال بعض الحكماء : إن الله تعالى قال : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ ولم يقل من ذكر أو أنثى .

وقال : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا مّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى ﴾ لأن العمل الصالح يَحْسُن من الرجل ، والمرأة .

والسيئة من المرأة ، أقبح من الرجل .

فلم يذكر من ذكر أو أنثى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 193 . 198 ﴾

(231/675)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . كانوا هم أشدَّ منهم قوة ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : يعني بطشاً ، قاله يحيى .

الثاني : قدرة ، قاله ابن عيسى .

﴿ وآثاراً في الأرض ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أنها آثارهم من الملابس والأبنية ، قاله يحيى .

الثاني : خراب الأرضين وعمارتها ، قاله مجاهد .

الثالث : المشي فيها بأرجلهم ، قاله ابن جريج .

الرابع : بُعْد الغاية في الطلب ، قاله الكلبي .

الخامس : طول الأعمار ، قاله مقاتل .

ويحتمل سادساً : ما سنوا فيها من خير وشر .

قوله عز وجل : ﴿ وقال فرعون ذروني أقتُل موسى ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه أشيروا عليّ بقتل موسى لأنهم قد كانوا أشاروا عليه بأن لا يقتله لأنه لو قتله منعوه ، قاله ابن زياد .

الثاني : ذروني أتولى قتله ، لأنهم قالوا إن موسى ساحر إن قتلته هلكت لأنه لو أمر بقتله خالفوه .

الثالث : أنه كان في قومه مؤمنون يمنعونه من قتله . فسألهم تمكينه من قتله .

﴿ وليدع ربه ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وليسأل ربه فإنه لا يجاب .

الثاني : وليستعن به فإنه لا يعان .

﴿ إني أخاف أن يبدِّل دينكم ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : يغير أمركم الذي أنتم عليه ، قاله قتادة .

الثاني : معناه هو أن يعمل بطاعة الله ، رواه سعيد بن أبي عروبة .

الثالث : محاربته لفرعون بمن آمن به ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : هو أن يقتلوا أبناءكم ويستحيوا نساءكم إذا ظهروا عليكم كما كنتم تفعلون بهم ، قاله ابن جريج .

ويحتمل خامساً : أن يزول به ملككم لأنه ما تجدد دين إلا زال به ملك .

قوله عز وجل : ﴿ وقال رجلٌ مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه كان ابن عم فرعون ، قاله السدي ، قال وهو الذي نجا مع موسى .

الثاني : أنه كان قبطياً من جنسه ولم يكن من أهله ، قاله مقاتل .

قال ابن إسحاق : وكان أسمه حبيب .

وحكى الكلبي أن اسمه حزبيل ، وكان مَلِكَا على نصف الناس وله الملك بعد فرعون ، بمنزلة ولي العهد .

(232/675)

وقال ابن عباس : لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره وامرأة فرعون وغير المؤمن الذي أنذر فقال ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ﴾ [القصص : 20] .

وفي إيمانه قولان :

أحدهما : أنه آمن بمجيء موسى وتصديقه له وهو الظاهر . الثاني : أنه كان مؤمناً قبل مجيء موسى وكذلك امرأة فرعون قاله الحسن ، فكتم إيمانه ، قال الضحاك كان يكتم إيمانه للرفق بقومه ثم أظهره فقال ذلك في حال كتمه .

﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي اللهُ ﴾ أي لقوله ربي الله .

﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربِّكم ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنه الحلال والحرام ، قاله السدي .

الثاني : أنها الآيات التي جاءتهم : يده وعصاه والطوفان وغيرها ، كما قال تعالى ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقصٍ من الثمرات ﴾ [الأعراف : 130] قاله يحيى .

﴿ وإن يك كَاذباً فعليه كَذِبُه ﴾ ولم يكن ذلك لشك منه في رسالته وصدقه ولكن تلطفاً في الاستكفاف واستنزالاً عن الأذى .

﴿ وإن يَكُ صادقاً يصبكم بعض الذي يعدُكم ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه كان وعدهم بالنجاة إن آمنوا وبالهلاك إن كفروا ، فقال ﴿ يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ لأنهم إذا كانوا على إحدى الحالتين نالهم أحد الأمرين فصار ذلك بعض الوعد لا كله .

الثاني : لأنه قد كان أوعدهم على كفرهم بالهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فصار هلاكهم في الدنيا بعض وما وعدهم .

الثالث : أن الذي يبدؤهم من العذاب هو أوله ثم يتوالى عليهم حالاً بعد حال حتى يستكمل فصار الذي يصيبهم هو بعض الذي وعدهم لأنه حذرهم ما شكوا فيه وهي الحالة الأولى وما بعدها يكونون على يقين منه .

الرابع : أن البعض قد يستعمل في موضع الكل تلطفاً في الخطاب وتوسعاً في الكلام كما قال الشاعر :

قد يُدْرِكُ المتأني بعض حاجته . . . وقد يكون مع المستعجل الزلل

﴿ إن الله لا يهدي من هو مُسْرِفٌ كَذّابٌ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : مسرف على نفسه كذاب على ربه إشارة إلى موسى ، ويكون هذا من قول المؤمن .

(233/675)

الثاني : مسرف في عناده كذاب في ادعائه إشارة إلى فرعون [ويكون] هذا من قوله تعالى .

قوله عز وجل : ﴿ ويا قوم لكم الملك اليوم ظاهِرين في الأرض ﴾ قال السدي : غالبين على أرض مصر قاهرين لأهلها ، وهذا قول المؤمن تذكيراً لهم بنعم اللَّه عليهم .

﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءَنا ﴾ أي من عذاب الله ، تحذيراً لهم من نقمة ، فذكر وحذر فعلم فرعون ظهور محبته .

﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد : معناه ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي .

﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ في تكذيب موسى والإيمان بي

.

قوله عز وجل : ﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التنادِ ﴾ يعني يوم القيامة ، قال أمية بن أبي الصلت :

وبث الخلق فيها إذ دحاها . . . فهم سكانها حتى التّنَادِ

سمي بذلك لمناداة بعضهم بعضاً ، قاله الحسن .

وفيما ينادي به بعضهم بعضاً قولان :

أحدهما : يا حسرتا ، يا ويلتا ، يا ثبوراه ، قاله ابن جريج .

الثاني : ينادي أهلُ الجنة أهل النار أن ﴿ قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ﴾ [الأعراف : 44] الآية .

وينادي أهل النار الجنة ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم اللَّه ﴾ [الأعراف : 50] قاله قتادة .

وكان الكلبي يقرؤها : يوم التنادّ ، مشدودة ، أي يوم الفرار ، قال يندّون كما يندّ البعير . وقد جاء في الحديث أن للناس جولة يوم القيامة يندون يطلبون أنهم يجدون مفراً ثم تلا هذه الآية .

﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مدبرين في انطلاقهم إلى النار ، قاله قتادة .

الثاني : مدبرين في فِرارهم من النار حتى يقذفوا فيها ، قاله السدي .

﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من ناصر ، قاله قتادة .

الثاني : من مانع ، وأصل العصمة المنع ، قاله ابن عيسى .

﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ وفي قائل هذا قولان :

أحدهما : أن موسى هو القائل له .

الثاني : أنه من قول مؤمن آلِ فرعون .

قوله عز وجل : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن يوسف بن يعقوب ، بعثه الله رسولاً إلى القبط بعد موت الملك من قبل موسى بالبينات . قال ابن جريج : هي الرؤيا .

الثاني : ما حكاه النقاش عن الضحاك أن الله بعث اليهم رسولاً من الجن يقال له يوسف .

قوله عز وجل : ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : يعني مجلساً ، قاله الحسن .

الثاني : قصراً ، قاله السدي .

الثالث : أنه الآجر ومعناه أوقد لي على الطين حتى يصير آجراً ، قاله سعيد بن جبير .

الرابع : أنه البناء المبني بالآجر ، وكانوا يكرهون أن يبنوا بالآجر ويجعلوه في القبر ، قاله إبراهيم .

﴿ لعلّي أبلغ الأسباب ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ما يسبب إلى فعل مرادي .

الثاني : ما أتوصل به إلى علم ما غاب عني ، ثم بين مراده فقال :

﴿ أسباب السموات ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : طرق السموات ، قاله أبو صالح .

الثاني : أبواب السموات ، قاله السدي والأخفش ، وأنشد قول الشاعر :

ومن هاب أسباب المنايا يَنَلنه . . . ولو نال أسباب السماء بِسلَّمِ

الثالث : ما بين السموات ، حكاه عبد الرحمن بن أبي حاتم .

﴿ فأطَّلعَ إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه غلبه الجهل على قول هذا أو تصوره .

الثاني : أنه قاله تمويهاً على قومه مع علمه باستحالته ، قاله الحسن .

﴿ وما كَيْدُ فرعون إلا في تبابٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في خسران قاله ابن عباس .

الثاني : في ضلال ، قاله قتادة .

وفيه وجهان :

أحدهما : في الدنيا لما أطلعه الله عليه من هلاكه .

الثاني : في الآخرة لمصيره إلى النار ، قاله الكلبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ .

قرأه العامة : بالهاء .

وقرأ ابن عامر : منكم بالكاف . وكذلك هو في مصاحفهم .

﴿ وَآثَاراً فِي الأرض ﴾ فلم ينفعهم ذلك حين أخذهم الله ﴿ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ الله مِن وَاقٍ ﴾ يعني من عذاب الله من واق ينفعهم ويدفع عنهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ الله إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ العقاب * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إلى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُواْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَآءَهُمْ بالحق مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿ اقتلوا أَبْنَآءَ الذين آمَنُواْ مَعَهُ ﴾ .

قال قتادة : هذا قتل غير القتل الأول ، لأن فرعون كان أمسك عن قتل الولدان ، فلما بُعث إليه موسى أعاد القتل عليهم .

﴿ واستحيوا نِسَآءَهُمْ ﴾ ليصدوهم بقتل الأبناء واستحياء النساء عن متابعة موسى ومظاهرته ﴿ وَمَا كَيْدُ الكافرين ﴾ وما مكر فرعون وقومه واحتيالهم ﴿ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لملائه ﴿ ذروني أَقْتُلْ موسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ الذي يزعم أنه أرسله إلينا فيمنعه منّا ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ ﴾ يغير ﴿ دِينَكُمْ ﴾ الذي أنتم عليه بسحر ﴿ أَوْ أَن

﴾ .

قرأ أبو عمر وأهل المدينة وأهل الشام وأهل مكة : وأن بغير ألف ، وكذلك هي في مصاحف أهل الحرمين والشام .

وقرأ الكوفيون وبعض البصريين : (أو أن) بالألف ، وكذلك هي في مصاحف أهل العراق .

وقال أبو عبيد : وبها يقرأ للزيادة التي فيها ، ولأن (أو) ربما كانت في تأويل الواو ، ولا تكون الواو في معنى أو .

﴿ يُظْهِرَ فِي الأرض الفساد ﴾ .

(236/675)

قرأ أهل المدينة والبصرة : (يُظهِر) بضم الياء وكسر الهاء ، و (الفسادَ) بنصب الدال على التعدية .

ومثله روى حفص عن عاصم وهي اختيار أبي عبيد قال لقومه : يبدل دينكم ، فكذلك يظهر ليكون الفعلان على نسق واحد .

وقرأ الآخرون : بفتح الياء والهاء ورفع الدال على اللزوم ، وهي اختيار أبي حاتم .

والفساد انتقاص الأمر ، وأراد فرعون به تبديل الدين وعبادة غيره .

﴿ وَقَالَ موسى ﴾ لما توّعده فرعون بالقتل : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب * وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ اختلفوا في هذا المؤمن .

فقال بعضهم : كان من آل فرعون ، غير أنه كان آمن بموسى ، وكان يكتم إيمانه من فرعون وقومه خوفاً على نفسه .

قال السدّي ومقاتل : كان ابن عم فرعون وهو الذي أخبر الله تعالى عنه فقال : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة يسعى ﴾ [القصص : 20] .

وقال آخرون : كان إسرائيلياً ، ومجاز الآية : وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون .

واختلفوا أيضاً في اسمه .

فقال ابن عبّاس وأكثر العلماء : اسمه حزبيل .

وهب بن منبه : اسمه حزيقال .

ابن إسحاق : خبرل .

أخبرنا عبد الله بن حامد أخبرنا محمّد بن خالد أخبرنا داود بن سليمان أخبرنا عبد الواحد أخبرنا أحمد بن يونس حدثنا خديج بن معاوية عن أبي إسحاق قال : كان اسم الرجل الذي آمن من آل فرعون (حبيب) .

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن ﴾ أي لأن ﴿ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَآءَكُمْ بالبينات مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ ﴾ من العذاب .

وقال بعض أهل المعاني : أراد يصبكم كل الذي يعدكم .

والعرب تذكر البعض وتريد الكل ، كقول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها . . . أو يرتبط بعض النفوس حمامها

أي كل النفوس .

(237/675)

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ مشرك .

وقال السدي : قتّال .

﴿ كَذَّابٌ ﴾ على الله .

أخبرنا الامام أبو منصور محمّد بن عبد الله الجمشاذي حدثنا أبو العبّاس الأصم حدثنا العبّاس بن محمّد الثوري حدثنا خالد بن مخلد القطواني حدثنا سليمان بن بلال حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عمرو بن العاص قال : ما تولّى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء كان أشد من أن طاف بالبيت فلقوه حين فرغ فأخذوا بمجامع ردائه فقالوا :

أنت الذي تنهانا عمّا كان يعبد آباؤنا ؟

فقال : " أنا ذاك " .

فقام أبو بكر رضي الله عنه فالتزمه من ورائه وقال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَآءَكُمْ بالبينات مِن رَّبِّكُمْ ﴾ إلى آخر الآية رافع صوته بذلك ، وعيناه تسفحان حتّى أرسلوه .

﴿ يا قوم لَكُمُ الملك اليوم ظَاهِرِينَ ﴾ غالبين مستعلين على بني إسرائيل ﴿ فِي الأرض ﴾ أرض مصر ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ الله ﴾ عذاب الله ﴿ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ ﴾ من الرأي والنصيحة ﴿ إِلاَّ مَا أرى ﴾ لنفسي .

وقال الضحاك : ما أعلمكم إلاّ ما أعلم نظيره ﴿ بِمَآ أَرَاكَ الله ﴾ [النساء : 105] .

﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد * وَقَالَ الذي آمَنَ يا قوم إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الأحزاب * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِم ﴾ مثل ما أصابهم من العذاب ﴿ وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ * ويا قوم إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التناد ﴾ .

قرأه العامة : بتخفيف الدال ، بمعنى يوم ينادي المناد بالشقاوة والسعادة ، إلاّ أن فلان بن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، إلاّ أن فلان بن فلان شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً ، وينادي الناس بعضهم بعضاً وينادي أصحاب الأعراف ، وأهل الجنّة أهل النار ، وأهل النار أهل الجنّة ، وينادي حين يذبح الموت : يا أهل الجنّة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، وينادي كل قوم بأعمالهم . وقرأ الحسن : (التنادي) بتخفيف الدال واثبات الياء على الأصل .

وقرأ ابن عبّاس والضحاك : بتشديد الدال ، على معنى يوم التنافر ، وذلك إذا ندّوا في الأرض كما تند الابل إذا شردت على أربابها .

قال الضحاك : وذلك إذا سمعوا زفير النار ندّوا هراباً ، فلا يأتون قطراً من الاقطار إلاّ وجدوا ملائكة صفوفاً ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك قوله : ﴿ يَوْمَ التناد ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا ﴾ [الرحمن : 33] ﴿ والملك على أَرْجَآئِهَآ ﴾ [الحاقة : 17] .

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أيّ منصرفين عن موقف الحساب إلى النار .

وقال مجاهد : يعني فارّين غير معجزين .

﴿ مَا لَكُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ ناصر يمنعكم من عذابه ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ ﴾ بن يعقوب (عليه السلام) ﴿ مِن قَبْلُ بالبينات ﴾ أي من قبل

موسى بالبينات .

قال وهب : إن فرعون موسى هو فرعون يوسف ، عمّر إلى زمن موسى . وقال الباقون : هو غيره .

(239/675)

﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حتى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ مشرك ﴿ مُّرْتَابٌ ﴾ شاك ﴿ الذين يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً ﴾ أي كبر ذلك الجدال مقتاً كقوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ ﴾ [الصف : 3] و ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ [الكهف : 5] ﴿ عِندَ اللهِ وَعِندَ الذين آمَنُواْ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ ﴾ يختم الله بالكفر ﴿ على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

وقرأ أبو عمرو وابن عامر : (قلب) منّوناً .

وقرأ الآخرون : بالإضافة .

[واختاره أبو حاتم وأبو عبيد] ، وفي قراءة ابن مسعود : (على قلب كل متكبر جبار) .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا هامان ابن لِي صَرْحاً ﴾ قصراً . والصرح البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بُعد ، وأصله من التصريح وهو الإظهار .

﴿ لعلي أَبْلُغُ الأسباب * أَسْبَابَ السماوات ﴾ أي طرقها وأبوابها ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ .

قرأه العامة : برفع العين نسقاً على قوله : (أبلغ) .

وقرأ حميد الأعرج : بنصب العين .

ومثله روى حفص عن عاصم على جواب (لعلّي) بالفاء .

وأنشد الفراء عن بعض العرب :

على صروف الدهر أو دولاتها يدلننا . . . اللمّة من لماتها فتستريح النفس من زفراتها

بنصب الحاء على جواب حرف التمني .

﴿ إلى إله موسى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ ﴾ يعني موسى ﴿ كَاذِباً ﴾ فيما يقول : إن له ربّا غيري أرسله الينا ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سواء عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السبيل وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ خسار وضلال . نظيره : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد : 1] .

﴿ وَقَالَ الذي آمَنَ يا قوم اتبعون أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرشاد ﴾

(240/675)

طريق الصواب ﴿ يا قوم إِنَّمَا هذه الحياة الدنيا مَتَاعٌ ﴾ متعة وبلاغ ، تنتفعون بها مدة ثم تزول عنكم ﴿ وَإِنَّ الآخرة هِيَ دَارُ القرار * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ

صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 272 . 277 ﴾

(241/675)

وقال الزمخشري :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

هُمْ فِي كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ فصل . فإن قلت : من حق الفصل أن لا يقع إلا بين معرفتين ، فما باله واقعا بين معرفة وغير معرفة ؟ وهو أشدّ منهم . قلت : قد ضارع المعرفة في أنه لا تدخله الألف واللام ، فأجرى مجراها . وقرئ : منكم ، وهي في مصاحف أهل الشأم وَآثاراً

(242/675)

يريد حصونهم وقصورهم وعددهم ، وما يوصف بالشدة من آثارهم . أو أرادوا : أكثر آثارا ، كقوله :

متقلدا سيفا ورمحا «1»

[سورة غافر (40) : الآيات 23 إلى 25]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (23) إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (25)

وَسُلْطانٍ مُبِينٍ وحجة ظاهرة وهي المعجزات ، فقالوا : هو ساحر كذاب ، فسموا السلطان المبين سحرا وكذابا فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ : بالنبوّة : فإن قلت : أما كان قتل الأبناء واستحياء النساء من قبل خيفة أن يولد المولود الذي أنذرته الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده ؟ قلت : قد كان ذلك القتل حينئذ ، وهذا قتل آخر . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما في قوله قالُوا اقْتُلُوا أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أولا ، يريد أن هذا قتل غير القتل الأول فِي ضَلالٍ في ضياع وذهاب ، باطلا لم يجد عليهم ، يعنى . أنهم باشروا قتلهم أولا فما أغنى عنهم ، ونفذ قضاء اللّه بإظهار من خافوه ، فما يغنى عنهم هذا القتل الثاني ، وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان ، فلما بعث موسى وأحس بأنه قد وقع : أعاده عليهم غيظا وحنقا ، وظنا منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرة موسى ، وما علم أنّ كيده ضائع في الكرتين جميعا .

[سورة غافر (40) : آية 26]

وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (26)

ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى كانوا إذا همّ بقتله كفوه بقولهم : ليس بالذي تخافه ، وهو أقل من ذلك وأضعف ، وما هو إلا بعض السحرة ، ومثله لا يقاوم إلا ساحرا مثله ، ويقولون : إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس ، واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة ، والظاهر أنّ فرعون لعنه اللّه كان قد استيقن أنه نبيّ ، وأنّ ما جاء به آيات وما هو بسحر ، ولكن الرجل كان فيه خب وجربزة ، وكان قتالا سفاكا الدماء في أهون شيء ، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يثل عرشه ويهدم ملكه ، ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك . وقوله

---

(1) ورأيت زوجك في الوغى متقلدا سيفا ورمحا

الوغى : الحرب . ورمحا : نصب بمحذوف يناسبه ، أى : متقلدا سيفا وحاملا رمحا .

وروى بدل الشطر الأول :

يا ليت زوجك قد غدا

أى ذهب إلى الحرب غدوة لابسا سلاحه .

وَلْيَدْعُ رَبَّهُ شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه ، وكان قوله ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى تمويها «1» على قومه ، وإيهاما أنهم هم الذين يكفونه ، وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أن يغير ما أنتم عليه ، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام ، بدليل قوله وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ والفساد في الأرض : التفاتن والتهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش ، ويهلك الناس قتلا وضياعا ، كأنه قال : إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه . أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه . وفي مصاحف أهل الحجاز وأن يظهر بالواو ، ومعناه . إني أخاف فساد دينكم ودنياكم معا . وقرئ : يظهر ، من أظهر «2» ، والفساد منصوب ، أي : يظهر موسى الفساد . وقرئ يظهر ، بتشديد الظاء والهاء ، من تظهر بمعنى تظاهر ، أي : تتابع وتعاون .

[سورة غافر (40) : آية 27]

وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (27)

لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله : قال لقومه إِنِّي عُذْتُ بالله الذي هو ربي وربكم ، وقوله وَرَبِّكُمْ فيه بعث لهم على أن يقتدوا به ، فيعوذوا بالله عياذه ، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه ، وقال مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة ، وليكون على طريقة التعريض ، فيكون أبلغ ، وأراد بالتكبر : الاستكبار عن

الإذعان للحق ، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه ، وعلى فرط ظلمه وعسفه ، وقال لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة ، فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على اللّه وعباده ، ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها : وعذت ولذت : أخوان . وقرئ : عت ، بالإدغام .

[سورة غافر (40) : آية 28]

وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28)

---

(1) . قال محمود : «كانوا إذا هم بقتله كفوه عنه بقولهم : ليس هذا ممن يخاف ، وإنما هو ساحر لا يقاومه إلا مثله ، وقتله يوقع الشبهة عند الناس أنك إنما قتلته خوفا ، وكان فرعون لعنه اللّه في ظاهر أمره - واللّه أعلم - عالما أنه نبى خائفا من قتله مع رغبته في ذلك لولا الجزع ، وأراد أن يكتم خوفه من قتله بأن يقول لهم : ذروني أقتله ، ليكفوه عنه فينسب الانكفاف عن قتله إليهم ، لا إلى جزعه وخوفه . ويدل على خوفه منه لكونه نبيا قوله وَلْيَدْعُ رَبَّهُ وهذا من تمويهاته المعروفة» قال أحمد : هو من جنس قوله إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ فقد تقدم أن مراده بذلك أن يظهر لقومه قلة احتفاله بهم ، ويوهمهم أن قتله لهم ليس خوفا منهم ، ولكن غيظا عليهم ، وكان من عادته الحذر

والتحصن وحماية الذريعة في المحافظة على حوزة المملكة ، لا أن ذلك خوف وهلع ، ولقد كذب ، إنما كان فؤاده مملوءا رعبا .

(2) . قوله «و قرئ يظهر من أظهر» يفيد أن القراءة المشهورة : يظهر من ظهر ، والفساد مرفوع . (ع)

(244/675)

رَجُلٌ مُؤْمِنٌ وقرئ : رجل ، بسكون الجيم كما يقال : عضد ، في عضد وكان قبطيا ابن عم لفرعون :

آمن بموسى سرا وقيل كان إسرائيليا وِمِنْ آلِ فِرْعَوْنَ صفة لرجل . أو صلة ليكتم ، أى : يكتم إيمانه من آل فرعون ، واسمه : سمعان أو حبيب . وقيل : خربيل ، أو حزبيل .

والظاهر :

أنه كان من آل فرعون ، فإنّ المؤمنين من بنى إسرائيل لم يقلوا ولم يعزوا . والدليل عليه قول فرعون : أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ . وقول المؤمن فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا دليل ظاهر على أنه ينتصح لقومه أَنْ يَقُولَ لأن يقول . وهذا إنكار منه عظيم وتبكيت شديد ، كأنه قال : أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة ، وما لكم علة قط في ارتكابها إلا كلمة

الحق التي نطق بها وهي قوله رَبِّيَ اللَّهُ مع أنه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة ، ولكن بينات عدّة من عند من نسب إليه الربوبية ، وهو ربكم لا ربه وحده ، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به ، وليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم «1» ، ولك أن تقدر مضافا محذوفا ، أى : وقت أن تقول . والمعنى . أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره . وقوله بِالْبَيِّناتِ يريد بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها ، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال : لا يخلو من أن يكون كاذبا أو صادقا ، وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ أى يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره ، وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ ما يعدكم إن تعرّضتم له . فإن قلت : لم قال : بعض الَّذِي يَعِدُكُمْ وهو نبىّ صادق ، لا بد لما يعدهم أن يصيبهم

---

(1) . قال محمود : «الظاهر أن الرجل من آل فرعون ، وقيل : إنه من بنى إسرائيل . ومن آل فرعون : متعلق بيكتم ، تقديره : يكتم إيمانه من آل فرعون ، وهو بعيد ، لأن بنى إسرائيل كان إيمانهم ظاهرا فاشيا ، ولقد استدرجهم هذا المؤمن في الايمان باستشهاده على صدق موسى بإحضاره عليه السلام من عند من تنسب إليه الربوبية ببينات عدة لا بينة واحدة ، وأتى بها معرفة ، معناه : البينات العظيمة التي شهدتموها وعرفتموها على ذلك ، ليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم . . . الخ» قال أحمد : لقد أحسن الفهم والتفطن لأسرار هذا القول ، ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا قوله تعالى وَشَهِدَ شاهِدٌ

مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف ، وإن كان الصادق هو يوسف دونها ، لرفع التهمة وإبعاد الظن ، وإدلالا بأن الحق معه ، ولا يضره التأخير لهذه الفائدة .

وقريب من هذا التصرف لابعاد التهمة ما في قصة يوسف مع أخيه ، إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، حتى قيل :

إنه لما انتهى إليه قال : اللهم ما سرق هذا ولا هو بوجه سارق ، فاطمأنت أنفسهم وانزاحت التهمة عن يوسف أن يكون قصد ذلك ، فقالوا : واللّه لنفتشنه ، فاستخرجها من وعائه .

(245/675)

كله لا بعضه ؟ قلت : لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى ومناكريه إلى أن يلاوصهم « 1 » ويداريهم ، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول ، ويأتيهم من وجهة المناصحة ، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه ، فقال وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه ، ليسمعوا منه ولا يردّوا عليه ، وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد ،

ولكنه أردفه يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا ، فضلا أن يتعصب له ، أو يرمى بالحصا من ورائه ، وتقديم الكاذب على الصادق أيضا من هذا القبيل ، وكذلك قوله إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ . فإن قلت : فعن أبى عبيدة أنه فسر البعض بالكل ، وأنشد بيت لبيد :

ترّاك امكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها «2»

قلت : إن صحت الرواية عنه . فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلقى : كان أجفى من أن يفقه ما أقول له إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ يحتمل أنه كان مسرفا كذابا خذله اللّه وأهلكه ولم يستقم له أمر ، فيتخلصون منه . وأنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه اللّه للنبوّة ، ولما عضده بالبينات . وقيل : ما تولى أبو بكر من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان أشدّ من ذلك طاف صلى اللّه عليه وسلم بالبيت ، فلقوه حين فرغ ، فأخذوا بمجامع ردائه فقالوا له : أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا ، فقال : أنا ذاك ، فقام أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه فالتزمه من ورائه وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى اللّه ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، رافعا صوته بذلك ، وعيناه تسفحان ، حتى أرسلوه «3» . وعن جعفر الصادق : أنّ مؤمن آل فرعون قال ذلك سرا ، وأبو بكر قاله ظاهرا .

[سورة غافر (40) : آية 29]

يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما

أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ (29)

ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ في أرض مصر عالين فيها على بنى إسرائيل ، يعنى : أنّ لكم ملك

---

(1) . قوله «إلى أن يلاوصهم ويداريهم» في الصحاح : فلان يلاوص الشجر ، أى : ينظر كيف يأتيها لقلعها . (ع)

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 641 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(3) . أخرجه النسائي من طريق هشام عن عروة عن أبيه عن عمرو بن العاص . وابن حبان من طريق يحيى ابن عروة عن عروة عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أتم منه . قلت : علقه البخاري نحوهما .

مصر وقد علوتم الناس وقهرتموهم ، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ، ولا تتعرّضوا لبأس اللّه وعذابه ، فإنه لا قبل لكم به إن جاءكم ، ولا يمنعكم منه أحد . وقال يَنْصُرُنا وجاءنا ، لأنه منهم في القرابة ، وليعلمهم بأنّ الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى أى : ما أشير عليكم برأى إلا بما أرى من قتله ، يعنى : لا أستصوب إلا قتله ، وهذا الذي

تقولونه غير صواب وَما أَهْدِيكُمْ بهذا الرأى إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ يريد : سبيل الصواب والصلاح.

أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ، ولا أدّخر منه شيئا ، ولا أسرّ عنكم خلاف ما أظهر يعنى أنّ لسانه وقلبه متواطنان على ما يقول ، وقد كذب ، فقد كان مستشعرا للخوف الشديد من جهة موسى ، ولكنه كان يتجلد ، ولولا استشعاره لم يستشر أحدا ولم يقف الأمر على الإشارة. وقرئ : الرشاد ، فعال من رشد بالكسر ، كعلام. أو من رشد بالفتح ، كعباد . وقيل :

هو من أرشد كجبار من أجبر ، وليس بذلك ، لأنّ فعالا من أفعل لم يجئ إلا في عدّة أحرف ، نحو : درّاك وسارّ وقصار وحبار ، ولا يصح القياس على القليل . ويجوز أن يكون نسبة إلى الرشد ، كعوّاج وبتات «1» ، غير منظور فيه إلى فعل .

[سورة غافر (40) : الآيات 30 إلى 31]

وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (31)

مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ مثل أيامهم ، لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود ، ولم يلبس أنّ كلّ حزب منهم كان له يوم دمار ، اقتصر على الواحد من الجمع ، لأنّ المضاف إليه أغنى عن ذلك كقوله :

كلوا في بعض بطنكمو تعفوا «2»

وقال الزجاج: مثل يوم حزب حزب، ودأب هؤلاء: دؤوبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي، وكون ذلك دائبا دائما منهم لا يفترون عنه، ولا بدّ من حذف مضاف، يريد:

مثل جزاء دأبهم. فإن قلت: بم انتصب مثل الثاني؟ قلت: بأنه عطف بيان لمثل الأوّل لأنّ

---

(1). قوله «كعواج وبتات» أي: صاحب العاج، والعاج: عظم الفيل. والبتات: الذي يبيع البتوت، او يعملها. والبت: الطيلسان من الخز، كذا في الصحاح. (ع)

(2) كلوا في بعض بطنكم تعفوا فان زمانكم زمن خميص

أي كلوا في بعض بطونكم. وأفرد البطن لأمن اللبس، أي: لا تملؤوها، فان أطعتمونى عففتم عن الطعام. وعف يعف - بكسر عين المضارع، من باب ضرب يضرب، ثم قال: فان زمانكم، أي أمرتكم بذلك لأن زمانكم مجدب.

والخميص: الضامر البطن، فشبه الزمان المجدب بالرجل الجائع على طريق الكناية، ووصفه بالخمص تخييل لذلك.

آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح ، ولو قلت أهلك اللّه الأحزاب : قوم نوح وعاد وثمود ، لم يكن إلا عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام ، فسرى ذلك الحكم إلى أوّل ما تناولته الإضافة وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ يعنى أن تدميرهم كان عدلا وقسطا ، لأنهم استوجبوه بأعمالهم ، وهو أبلغ من قوله تعالى وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ حيث جعل المنفي إرادة الظلم ، لأنّ من كان عن إرادة الظلم بعيدا ، كان عن الظلم أبعد . وحيث نكر الظلم ، كأنه نفى أن يريد ظلما مّا لعباده «1» . ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله تعالى وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ أى لا يريد لهم أن يظلموا ، يعنى أنه دمّرهم لأنهم كانوا ظالمين «2» .

[سورة غافر (40) : الآيات 32 إلى 33]

وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33)

التنادى . ما حكى اللّه تعالى في سورة الأعراف من قوله وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ ، وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور .

وقرئ بالتشديد :

وهو أن يندّ بعضهم من بعض ، كقوله تعالى يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وعن الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندّوا هربا ، فلا يأتون قطرا من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفا ، فبيناهم يموج بعضهم في بعض : إذ سمعوا مناديا : أقبلوا إلى الحساب تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ عن قتادة منصرفين

عن موقف الحساب إلى النار . وعن مجاهد : فارّين عن النار غير معجزين .

[سورة غافر (40) : الآيات 34 إلى 35]

وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (34) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)

---

(1) . قوله «كأنه نفى أن يريد ظلما ما لعباده» هذا على مذهب المعتزلة من أنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده ، وأن الارادة بمعنى الرضا . وعند أهل السنة أنه تعالى يخلق الشر ويريده كالخير ولا يرضى الشر ، فالرضا غير الارادة عندهم ، كما تقرر في التوحيد . (ع)

(2) . قال محمود : «يجوز أن يكون معناه معنى : وما ربك بظلام للعبيد . وهذا أبلغ ، لأنه إذا لم يرد الظلم كان عن فعله الظلم أبعد ، وحيث نكر الظلم أيضا ، كأنه نفى أن يريد ظلما ما لعباده . قال : ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ فيكون المعنى : أن اللّه لا يريد لعباده أن يظلموا ، لأنه ذمهم على كونهم ظالمين» قال أحمد : هذا من الطراز الأول ، وقد تقدم مذهب أهل السنة فيما يتعلق بارادة اللّه تعالى خلافا لهذا وأشياعه .

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام. وقيل: هو يوسف بن إبراهيم «1» بن يوسف بن يعقوب:

أقام فيهم نبيا عشرين سنة. وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف، عمر إلى زمنه. وقيل: هو فرعون آخر. وبجهم بأن يوسف أتاكم بالمعجزات فشككتم فيها ولم تزالوا شاكين كافرين حَتَّى إِذا قبض قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا حكما من عند أنفسكم من غير برهان وتقدمة عزم منكم على تكذيب الرسل، فإذا جاءكم رسول جحدتم وكذبتم بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه، وليس قولهم لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا بتصديق لرسالة يوسف، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها، وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته. وقرئ: ألن يبعث اللّه، على إدخال همزة الاستفهام على حرف النفي، كأن بعضهم يقرّر بعضا بنفي البعث. ثم قال كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ أى مثل هذا الخذلان المبين «2» يخذل اللّه كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه الَّذِينَ يُجادِلُونَ بدل من مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ فإن قلت: كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذاك موحد؟ قلت: لأنه لا يريد مسرفا واحدا، فكأنه قال: كل مسرف. فإن قلت: فما فاعل كَبُرَ؟ قلت: ضمير من هو مسرف. فإن قلت:

أما قلت هو جمع، ولهذا أبدلت منه الذين يجادلون؟ قلت: بلى هو جمع في المعنى. وأما

اللفظ فموحد ، فحمل البدل على معناه ، والضمير الراجع إليه على لفظه ، وليس ببدع «3» أن يحمل على

---

(1) . قوله «و قيل هو يوسف بن إبراهيم» عبارة النسفي : أفراثيم . (ع)

(2) . قوله «أى مثل هذا الخذلان المبين» المعتزلة يؤولون الإضلال بالخذلان والترك ، بناء على مذهبهم : أن اللّه لا يخلق الشر . وأهل السنة يفسرونه بخلق الضلال في القلب ، بناء على أنه تعالى بخلق الشر كالخير كما بين في التوحيد . (ع)

(3) . قال محمود : «الذين يجادلون بدل من من هو مسرف ، لأن المراد كل مسرف . وجاز إبداله على معنى من ، لا على لفظها . قال : فان قلت ما فاعل كبر ؟ وأجاب بأنه ضمير من هو مسرف ، فحمل البدل على المعنى ، والضمير على اللفظ ، وليس ببدع» اه كلامه . قال أحمد : فيما ذكره معاملة لفظ من بعد معاملة معناها ، وهذا مما قدمت أن أهل العربية يستغربونه ، والأولى أن يجتنب في إعراب القرآن ، فان فيه إيهاما بعد إيضاح ، والمعهود في قراءة البلاغة عكسه ، والصواب أن يجعل الضمير في قوله كَبُرَ راجعا إلى مصدر الفعل المتقدم ، وهو قوله يُجادِلُونَ تقديره : كبر جدالهم مقتا ، ويجعل الَّذِينَ مبتدأ ، على تأويل حذف المضاف ، تقديره : جدال الذين يجادلون في آيات اللّه ، والضمير في قوله كَبُرَ مَقْتاً عائد إلى الجدال المحذوف ، والجملة مبتدأ وخبر . ومثله في حذف المصدر المضاف وبناء الكلام عليه : قوله تعالى أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ على

أحد تآويله ، ومثله كثير . وفيه سوى ذلك من الوجوه السالمة عما ينطرق إلى الوجه المتقدم . فالوجه العدول عنه [. . . . .]

(249/675)

اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى ، وله نظائر ، ويجوز أن يرفع الذين يجادلون على الابتداء ، ولا بدّ في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في كبر ، تقديره : جدال الذين يجادلون كبر مقتا ، ويحتمل أن يكون الَّذِينَ يُجادِلُونَ مبتدأ ، وبِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ خبرا ، وفاعل كبر قوله كَذلِكَ أى كبر مقتا مثل ذلك الجدال ، ويَطْبَعُ اللَّهُ كلام مستأنف ، ومن قال : كبر مقتا عند اللّه جدالهم ، فقد حذف الفاعل ، والفاعل لا يصح حذفه . وفي كَبُرَ مَقْتاً ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم ، والشهادة على خروجه من حد إشكاله من الكبائر .

وقرئ : سلطان بضم اللام . وقرئ : قلب ، بالتنوين . ووصف القلب بالتكبر والتجبر ، لأنه مركزهما ومنبعهما ، كما تقول : رأت العين ، وسمعت الأذن . ونحوه قوله عز وجل فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وإن كان الآثم هو الجملة . ويجوز أن يكون على حذف المضاف . أى : على كل ذى قلب متكبر ، تجعل الصفة لصاحب القلب .

[سورة غافر (40) : الآيات 36 إلى 37]

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (36) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ (37)

قيل : الصرح : البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد ، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر ، وأَسْبابَ السَّماواتِ طرقها وأبوابها وما يؤدى إليها ، وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب إليه ، كالرشاء ونحوه ، فإن قلت : ما فائدة هذا التكرير ؟ ولو قيل : لعلى أبلغ أسباب السماوات لأجزأ ؟ قلت : إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه ، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السماوات أبهمها ثم أوضحها ، ولأنه لما كان بلوغها أمرا عجيبا أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه ، ليعطيه السامع حقه من التعجب ، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان ، ثم أوضحه . وقرئ : فأطلع بالنصب «1» على جواب الترجي ، تشبيها للترجى بالتمني . ومثل ذلك التزيين وذلك الصدّ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ والمزين : إما الشيطان بوسوسته ، كقوله تعالى وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ أو الله تعالى على وجه التسبيب ، لأنه مكن» الشيطان وأمهله . ومثله زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ وقرئ : وزين له سوء عمله «3» ،

---

(1) . «و قرئ فأطلع بالنصب» يفيد أن القراءة المشهورة بالرفع على العطف . (ع)

(2) . قوله «على وجه التسبيب لأنه مكن» أول بهذا ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة ، أما عند أهل السنة فيخلقه كالخير فلا حاجة إلى هذا التأويل ، والآية على ظاهرها . (ع)

(3) . قوله «و قرئ وزين له سوء عمله» أى بدل قوله تعالى وَكَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ . (ع)

(250/675)

على البناء للفاعل والفعل للّه عزّ وجلّ ، دلّ عليه قوله إِلى إِلهِ مُوسى وصدّ ، بفتح الصاد وضمها وكسرها ، على نقل حركة العين إلى الفاء ، كما قيل : قيل . والتباب الخسران والهلاك .

وصدّ : مصدر معطوف على سوء عمله . وصدّوا هو وقومه .

[سورة غافر (40) : الآيات 38 إلى 39]

وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (38) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (39)

قال أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ فأجمل لهم ، ثم فسر فافتتح بذم لدنيا وتصغير شأنها ، لأنّ

الإخلاد إليها هو أصل الشر كله ، ومنه يتشعب جميع ما يؤدى إلى سخط اللّه ويجلب الشقاوة في العاقبة . وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها ، وأنها هي الوطن والمستقر ، وذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ، ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف ، ثم وازن بين الدعوتين : دعوة إلى دين اللّه الذي ثمرته النجاة ، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار ، وحذر ، وأنذر ، واجتهد في ذلك واحتشد ، لا جرم أن اللّه استثناه من آل فرعون ، وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين ، وهو قوله تعالى فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ وفي هذا أيضا دليل بين على أنّ الرجل كان من آل فرعون . والرشاد نقيض الغى . وفيه تعريض شبيه بالتصريح أنّ ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغى .

[سورة غافر (40) : آية 40]

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (40)

فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها لأنّ الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة ، لأنها ظلم . وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة ، لأنها فضل . قرئ : يدخلون ويدخلون بِغَيْرِ حِسابٍ واقع في مقابلة إلا مثلها ، يعنى : أن جزاء السيئة لها حساب وتقدير ، لئلا يزيد على

الاستحقاق ، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب ، بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 159.168 ﴾

(251/675)

وقال ابن الجوزى :

وقرأ ابن عامر : ﴿ أَشَدَّ مِنْكُمْ ﴾ بالكاف ، وكذلك هو في مصاحفهم ، وهو على الانصراف من الغَيْبَة إلى الخطاب ، ﴿ وما كان لهم مِنَ الله ﴾ أي : من عذاب الله ﴿ مِنْ واقٍ ﴾ يقي العذاب عنهم .

﴿ ذلك ﴾ أي : ذلك العذاب الذي نزل بهم ﴿ بأَنَّهم كانت تأتيهم رسُلُهم بالبيِّنات . . . . ﴾ إلى آخر الآية .

ثم ذكر قصة موسى وفرعون ليَعتبروا .

وأراد بقوله ﴿ اقتُلوا أبناءَ الذين آمنوا معه ﴾ أعيدوا القتل عليهم كما كان أوّلاً ، قاله ابن عباس .

وقال قتادة : كان فرعون قَدْ كفَّ عن قتل الوِلْدانِ ، فلمّا بَعَثَ اللهُ موسى ، أعاد عليهم القتل ليصُدَّهم بذلك عن متابعة موسى .

قوله تعالى : ﴿ وما كَيْدُ الكافرين إلاّ في ضلال ﴾ أي إنه يَذْهَب باطلاً ويَحيق بهم ما يريده اللهُ عز وجل .

﴿ وقال فرعونُ ذَرُوني أَقْتُلْ موسى ﴾ وإنما قال هذا ، لأنه كان في خاصَّة فرعونَ مَنْ يَمْنَعُه مِنْ قَتْله خوفاً من الهلاك ﴿ وَلْيَدْعُ ربَّه ﴾ الذي يزعُم أنه أرسله فلْيمنعه من القتل ﴿ إنِّي أَخافُ أن يبدّل دينَكم ﴾ أي : عبادتكم إيّاي ﴿ وأن يُظْهِرَ في الأرض الفسادَ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ وأن ﴾ بغير ألف .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ أو أن ﴾ بألف قبل الواو على معنى : إن لم يبدّل دِينَكم أوْقَعَ الفسادَ ، إلاّ أن نافعاً وأبا عمرو قرآ : ﴿ يُظْهِرَ ﴾ بضم الياء ﴿ الفسادَ ﴾ بالنصب .

وقرأ الباقون ﴿ يَظْهَرَ ﴾ بفتح الياء " الفسادُ " بالرفع ، والمعنى : يظهر الفساد بتغيير أحكامنا فجعل ذلك فساداً بزعمه ؛ وقيل : يقتل أبناءَكم كما تفعلون بهم .

(252/675)

فلمّا قال فرعونُ هذا ، استعاذ موسى بربّه فقال : ﴿ إنِّي عُذْتُ بربِّي وربِّكم ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر : ﴿ عُذْتُ ﴾ مبيَّنة الذّال ، وأدغمها أبو عمرو ، وحمزة ،

والكسائي ، وأبو جعفر ، وخلف ﴿ مِنْ كُلِّ متكبّرٍ ﴾ أي : متعظّم عن الإيمان فقصد فرعونُ قتل موسى ، فقال حينئذ ﴿ رجُلٌ مؤمِنُ من آل فرعون . . .

﴾ .

وفي الآل ها هنا قولان .

أحدهما : [أنه] بمعنى الأهل والنَّسب ؛ قال السدي ومقاتل : كان ابنَ عمٍّ فرعون ، وهو المراد بقوله ﴿ وجاء رجُلٌ مِنْ أقصى المدينة يَسعى ﴾ [القصص : 20] .

والثاني : أنه بمعنى القبيلة والعشيرة ؛ قال قتادة ومقاتل : كان قبطيّاً .

وقال قوم : كان إسرائيليّاً ، وإنما المعنى : قال رجل مؤمن يكتُم إيمانَه من آل فرعون ؛ وفي اسمه خمسة أقوال :

أحدها : حزبيل ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : حبيب : قاله كعب .

والثالث : سمعون ، بالسين المهملة ، قاله شعيب الجبَّائي .

والرابع : جبريل .

والخامس : شمعان ، بالشين المعجمة ، رويا عن ابن إسحاق ، وكذلك حكى الزجاج " شمعان " بالشين ، وذكره ابن ماكولا بالشين المعجمة أيضاً .

والأكثرون على أنه آمن بموسى لمّا جاء .

وقال الحسن : كان مؤمناً قبل مجيء موسى ، وكذلك امرأة فرعون .

قال مقاتل : كتم إيمانه من فرعون مائة سنة .

قوله تعالى ﴿ أتقتُلون رجُلاً أن يقولَ ﴾ أي : لأن يقولَ ﴿ ربِّيَ اللهُ ﴾ وهذا استفهام إنكار ﴿ وقد جاؤكم بالبيّنات ﴾ أي : بما يدُلُّ على صِدقه ﴿ وإن يَكُ كاذباً فعليه كَذِبُه ﴾ أي : لا يضرُّكم ذلك ﴿ وإن يَكُ صادقاً يُصِبْكم بَعْضُ الذي يَعِدُكم ﴾ من العذاب .

وفي "بَعْض" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بمعنى "كُلّ" ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد للبيد :

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إذا لَمْ أَرْضَها . . .

أَوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفوسِ حِمامُها

أراد : كُلَّ النفُّوس .

(253/675)

والثاني : أنها صِلَة ؛ والمعنى : يُصِبْكم الذي يَعِدُكم ، حُكي عن الليث .

والثالث : أنها على أصلها ، ثم في ذلك قولان .

أحدهما : أنه وعدهم النجاةَ إن آمنوا ، والهلاكَ إن كفروا ، فدخل ذِكْر البعض لأنهم على

أحد الحالين .

والثاني : أنه وعدهم على كفرهم الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فصار هلاكُهم في الدنيا بعضَ الوَعْد ، ذكرهما الماوردي .

قال الزجاج : هذا باب من النظر يذهب فيه المُناظِر إلى إلزام الحُجَّة بأيسر ما في الأمر ، وليس في هذا نفي إصابة الكلِّ ، ومثله قول الشاعر :

قَدْ يُدْرِكُ المُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ . . .

وَقَدْ يَكُونُ مِنَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وإنما ذكر البعض ليوجبَ الكلَّ ، لأن البعض من الكلّ ، ولكن القائل إذا قال : أقل ما يكون للمتأني إدراك بعض الحاجة ، وأقل ما يكون للمستعجل الزَّلل ، فقد أبان فَضْلَ المتأنِّي على المستعجِل بما لا يَقْدِر الخصم أن يدفعه ، فكأنَّ المؤمن قال لهم : أَقَلُّ ما يكون في صِدقه أن يُصيبَكم بعضُ الذي يَعِدُكم ، وفي بعض ذلك هلاككم ؛ قال : وأما بيت لبيد ، فإنه أراد ببعض النفوس : نَفْسَه وحدها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي ﴾ أي : لا يوفِّق للصَّواب ﴿ من هو مُسْرِفٌ ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أنه المشرك ، قاله قتادة .

والثاني : أنه السَّفَّاك للدَّم ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ ظاهرِين في الأرض ﴾ أي : عالِين في أرض مصر ﴿ فمن يَنْصُرنا ﴾ أي : من يَمْنَعُنا ﴿ من بأس الله ﴾ أي : من عذابه ؛ والمعنى : لا تتعرَّضوا للعذاب بالتكذيب وقَتْل النَّبيِّ ، فقال فرعونُ عند ذلك : ﴿ ما أُرِيكم ﴾ من الرَّأي والنّصيحة ﴿ إلاّ ما أَرى ﴾ لنفسي ﴿ وما أهْدِيكم ﴾ أي : أدعوكم إلاّ إلى طريق الهُدى في تكذيب موسى والإيمان بي ، وهذا يَدُلُّ على أنه انقطع عن جواب المؤمن .

(254/675)

﴿ وقال الذي آمن يا قومِ إنّي أخافُ عليكم مِثْلَ يَوْمِ الأحزابِ ﴾ قال الزجّاج : أي مِثْلَ يَوْمِ حزب حزب ؛ والمعنى : أخاف أن تُقيموا على كفركم فينزلَ بكم من العذاب مِثْلُ ما نزل بالأُمم المكذِّبة رسلهم .

قوله تعالى : ﴿ يومَ التَّنادِ ﴾ قرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ التَّنادِ ﴾ بغير ياءٍ .

وأثبت الياء في الوصل والوقف ابن كثير ، ويعقوب ، وافقهم أبو جعفر في الوصل .

وقرأ أبو بكر الصِّدّيق ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وابن جبير ، وأبو العالية/ والضحاك : ﴿ التَّنادِّ ﴾ بتشديد الدال .

قال الزجاج : أمّا إثبات الياء فهو الأصل ، وحذفها حسن جميل ، لأن الكسرة تدُلُّ على الياء ، وهو رأس آية ، وأواخر هذه الآيات على الدّال ، ومن قرأ بالتشديد ، فهو من قولهم : نَدَّ فلان ، ونَدَّ البعير : إذا هرب على وجهه ، ويدل على هذا قوله ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ وقوله ﴿ يومَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخيه ﴾ [عبس : 34] قال أبو علي : معنى الكلام إنِّي أخاف عليكم عذاب يوم التَّناد .

قال الضحاك : إذا سمع الناسُ زفير جهنم وشهيقها نَدُّوا فِراراً منها في الأرض ، فلا يتوجَّهونُ قطراً من أقطار الأرض إلا رأوْا ملائكة ، فيرجعون من حيث جاؤوا .

وقال غيره : يُؤمَر بهم إلى النار فيَفِرُّون ولا عاصم لهم .

فأمّا قراءة التخفيف ، فهي من النّداء ، وفيها للمفسرين أربعة أقوال :

أحدها : أنه عند نفخة الفزع ينادي الناسُ بعضهم بعضاً .

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" يأمرُ اللهُ عز وجل إسرافيلَ بالنَّفخة الأولى فيقول : انفُخْ نفخةَ الفزع ، فيفزَعُ أهلُ السموات والأرض إلاّ من شاء الله ، فتُسيَّر الجبالُ ، وتُرَجُّ الأرض .

وتَذْهَلُ المراضعُ ، وتضع الحواملُ ، ويولِّي الناس مُدْبِرين ينادي بعضهم بعضاً وهو قوله : ﴿ يوم التناد ﴾ "

والثاني : أنه نداء أهل الجنة والنار بعضهم بعضاً كما ذكر في [الأعراف : 4450] ، وهذا قول قتادة .

والثالث : أنه قولهم : يا حسرتنا يا ويلتنا قاله ابن جريج .

والرابع : أنه ينادى فيه كل أُناس بإمامهم بسعادة السعداء وشقاوة الأشقياء .

قوله تعالى : ﴿ يومَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : هرباً من النار .

والثاني : أنه انصرافهم إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ مالكم مِنَ اللهِ مِنْ عاصم ﴾ أي : من مانع .

قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءكم يوسف ﴾ وهو يوسف بن يعقوب ، ويقال : إنه ليس به ، وليس بشيء .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : مِنْ قَبْلِ موسى ﴿ بالبيِّناتِ ﴾ وهي الدّلالات على التوحيد ، كقوله ﴿ أأربابٌ متفرّقون خيرٌ . . . ﴾ الآية [يوسف : 39] ، وقال ابن السائب : البيِّنات : تعبير الرُّؤيا وشَقُّ القميص ، وقيل : بل بعثه الله تعالى بعد موت مِلك مصر إلى القبط .

قوله تعالى : ﴿ فما زِلتم في شَكّ مّما جاءكم به ﴾ أي : من عبادة الله وحده ﴿ حتى إذا

هَلَكَ ﴾ أي : مات ﴿ قُلْتُم لن يَبعث اللهُ مِنْ بعده رسولاً ﴾ أي : إنكم أقمتم على كفركم وظننتم أن الله لا يجدّد إيجابَ الحجة عليكم ﴿ كذلك ﴾ أي : مِثْل هذا الضَّلال ﴿ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هو مُسْرِفٌ ﴾ أي : مُشْرِكٌ ﴿ مُرتابٌ ﴾ أي : شاكٌّ في التوحيد وصِدق الرُّسل .

قوله تعالى : ﴿ الذين يجادِلونَ ﴾ قال الزجاج : هذا تفسير المسرف المرتاب ، والمعنى : هُمْ الذين يجادِلونَ في آيات الله .

قال المفسرون : يجادِلونَ في إبطالها والتكذيب بها بغير سلطان ، أي : بغير حُجَّة أتتهم من الله .

﴿ كَبُرَ مَقْتاً ﴾ أي : كَبُرَ جدالُهم مَقْتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، والمعنى : يَمْقُتهم الله ويَمْقُتهم المؤمنون بذلك الجدال .

﴿ كذلك ﴾ أي : كما طَبَع اللهُ على قلوبهم حتى كذَّبوا وجادلوا بالباطل ، يَطْبع ﴿ على كلِّ قلبِ متكبِّرٍ ﴾ عن عبادة الله وتوحيده .

(256/675)

وقد سبق بيان معنى الجبّار في [هود : 59] .

وقرأ أبو عمرو : ﴿ على كلِّ قلبٍ ﴾ بالتنوين ، وغيرُه من القرّاء السبعة يُضيفه .

وقال أبو علي : المعنى : يطبع على جملة القلب من المتكبّر .

واختار قراءة الإِضافة الزجاج : قال : لأن المتكبّر هو الإِنسان ، لا القلب .

فإن قيل : لو كانت هذه القراءة أصوب لتقدَّم القلبُ على الكُلِّ ؟ .

فالجواب : أن هذا جائز عند العرب ، قال الفراء : تقدُّم هذا وتأخُّره واحد ، سمعتُ بعض العرب يقول : هو يرجِل شعره يومَ كل جمعة ، يريد : كلَّ يوم جمعة ، والمعنى واحد .

وقد قرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : ﴿ على قلبِ كلِّ متكبّر ﴾ بتقديم القلب .

قال المفسرون : فلمّا وعظ المؤمنُ فرعونَ وزجره عن قتل موسى ، قال فرعونُ لوزيره : ﴿ يا هامانُ ابنِ لي صَرْحاً ﴾ وقد ذكرناه في [القصص : 38] .

قوله تعالى : ﴿ لعلِّي أبلُغ الأسبابَ ، أسبابَ السموات ﴾ قال ابن عباس .

وقتادة : يعني أبوابها .

وقال أبو صالح : طرقها .

وقال غيره : المعنى : لعلِّي أبلُغُ الطُّرق من سماءٍ الى سماءٍ .

وقال الزجاج لعلِّي أبلُغ ما يؤدّيني إلى السموات .

وما بعد هذا مفسَّر في [القصص : 38] إلى قوله : ﴿ وكذلك ﴾ أي : ومِثْلُ ما وصفْنا

﴿ زُيِّنَ لفرعونَ سُوءُ عمله وَصُدَّ ﴾ عن سبيل الهدى قرأ عاصم، وحمزة والكسائي: ﴿ وصُدَّ ﴾ بضم الصاد، والباقون بفتحها، ﴿ وما كَيْدُ فرعونَ ﴾ في إبطال آيات موسى ﴿ إلاَّ في تبابٍ ﴾ أي: في بطلان وخسران.

ثم عاد الكلامُ إلى نصيحة المؤمن لقومه، وهو قوله: ﴿ اتَّبِعونِ أهْدِكم سبيل الرَّشادِ ﴾ أي: طريق الهدى، ﴿ يا قومِ إنما هذه الحياةُ الدُّنيا متاعٌ ﴾ يعني الحياة في هذه الدار متاع يُتمتَّع بها أياماً ثم تنقطع ﴿ وإنَّ الآخرة هي دار القرار ﴾ التي لا زوال لها.

﴿ من عَمِلَ سيِّئةً ﴾ فيها قولان..

أحدهما: أنها الشِّرك، ومثلها جهنم، قاله الأكثرون.

(257/675)

والثاني: المعاصي، ومثلُها: العقوبةُ بمقدارها، قاله أبو سليمان الدمشقي.

فعلى الأول، العمل الصالح: التوحيد، وعلى الثاني، هو [على] الإطلاق.

قوله تعالى: ﴿ فأولئك يدخُلون الجنة ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: "يُدخَلونَ" بضم الياء.

وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: بالفتح، وعن عاصم كالقراءتين.

وفي قوله : ﴿ بغير حساب ﴾ قولان .

أحدهما : أنهم لا تَبِعَةَ عليهم فيما يُعْطَون في الجنة ، قاله مقاتل .

والثاني : أنه يُصَبُّ عليهم الرِّزق صَبّاً بغير تقتير ، قاله أبو سليمان الدمشقي . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 215.224 ﴾

(258/675)

وقال الخازن :

﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض ﴾

أي المعنى أن العاقل من اعتبر بغيره فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء فلم تنفعهم قوتهم ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾ أي يدفع عنهم العذاب ﴿ ذلك ﴾ أي ذلك العذاب الذي نزل بهم ﴿ بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ﴾ قوله : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿ اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ﴾ قيل هذا القتل غير

القتل الأول لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الوالدان فلما بعث موسى أعاد القتل عليهم فمعناه أعيدوا عليهم القتل ﴿ واستحيوا نساءهم ﴾ أي استحيوا النساء ليصدوهم بذلك عن متابعة موسى ومظاهرته ﴿ وما كيد الكافرين ﴾ أي وما مكر فرعون وقومه واحتيالهم ﴿ إلا في ضلال ﴾ أي يذهب كيدهم باطلاً ويحيق بهم ما يريده الله تعالى ﴿ وقال فرعون ﴾ أي لملئه ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ وإنما قال فرعون هذا لأنه كان في خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى وإنما منعوه عن قتله لأنه كان فيهم من يعتقد بقلبه أنه كان صادقاً ، وقيل قالوا لا تقتله فإنه هو ساحر ضعيف فلا يقدر أن يغلب سحرنا وإن قتلته قالت العامة كان محقاً صادقاً وعجزوا عن جوابه فقتلوه ﴿ وليدع ربه ﴾ أي وليدع موسى ربه الذي يزعم أنه أرسله إلينا فيمنعه منا ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم ﴾ يعني يقول فرعون أخاف أن يغير دينكم الذي أنتم عليه ﴿ أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ يعني بذاك تغيير الدين وتبديله وعبادة غيره .

(259/675)

﴿ وقال موسى ﴾ يعني لما توعده فرعون بالقتل ﴿ إني عذت بربي وربكم ﴾ يعني أن موسى لم يأت في دفع الشدة إلا بأن استعاذ بالله واعتمد عليه فلا جرم أن صانه الله عن كل

بلية ﴿ من كل متكبر ﴾ أي متعظم عن الإيمان ﴿ لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ قوله : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ قيل كان ابن عم فرعون وقيل كان من القبط وقيل كان من بني إسرائيل ، فعلى هذا يكون معنى الآية وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون وكان اسم هذا المؤمن حزبيل عند ابن عباس وأكثر العلماء وقال إسحاق كان اسمه جبريل وقيل حبيب ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ﴾ أي لأن يقول ﴿ ربي الله ﴾ وهذا استفهام إنكار وهو إشارة إلى التوحيد وقوله ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ فيه إشارة إلى تقرير نبوته بإظهار المعجزة والمعنى وقد جاءكم بما يدل على صدقه ﴿ وإن يك كاذباً فعليه كذبه ﴾ أي لا يضركم ذلك إنما يعود وبال كذبه عليه ﴿ وإن يك صادقاً ﴾ أي فكذبتموه ﴿ يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ قيل معناه يصبكم الذي يعدكم إن قتلتموه وهو صادق ، وقيل بعض على أصلها ومعناه كأنه قاله على طريق الاحتجاج أقل ما في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم وفيه هلاككم فذكر البعض ليوجب الكل ﴿ إن الله لا يهدي ﴾ يعني إلى دينه ﴿ من هو مسرف كذاب ﴾ أي على الله تعالى (خ) عن عروة بن الزبير قال : سالت عبد الله بن عمرو بن العاص عن أشد ما صنع المشركون برسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : بينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولوى ثوبه في عنقه وخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) وقال ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ .

(260/675)

قوله : ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ﴾ يعني غالبين في الأرض أي أرض مصر ﴿ فمن ينصرنا ﴾ يعني يمنعنا ﴿ من بأس الله إن جاءنا ﴾ والمعنى لكم الملك فلا تتعرضوا لعذاب الله بالتكذيب وقتل النبي فإنه لا مانع من عذاب الله تعالى إن حل بكم ﴿ قال فرعون ما أريكم ﴾ أي من الرأي والنصيحة ﴿ إلا ما أرى ﴾ يعني لنفسي ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ أي ما أدعوكم إلا إلى طريق الهدى ثم حكى الله تعالى أن مؤمن آل فرعون رد على فرعون هذا الكلام وخوفه أن يحل به ما حل بالأمم قبله

(261/675)

﴿ وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ﴾ يعني مثل عادتهم في الإقامة على التكذيب حتى أتاهم العذاب ﴿

وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ يعني لا يهلكهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم ﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ يعني يوم القيامة سمي يوم القيامة يوم التناد لأنه يدعى فيه كل أناس بإمامهم وينادي بعضهم بعضاً فينادي أصحاب الجنة أصحاب النار وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة وينادى فيه بالسعادة والشقاوة ألا إن فلان بن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً وفلان ابن فلان شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً وينادي حين يذبح الموت يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت وقيل ينادي المؤمن هاؤم اقرؤوا كتابيه وينادي الكافر يا ليتني لم أوت كتابيه وقيل يوم التناد يعني يوم التنافر من ند البعير إذا نفر وهرب وذلك أنهم إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً عليه فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ يعني منصرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ يعني يعصمكم من عذابه ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ يعني يهديه ﴿ ولقد جاءكم يوسف ﴾ يعني يوسف بن يعقوب ﴿ من قبل ﴾ يعني من قبل موسى ﴿ بالبينات ﴾ يعني قوله ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ قيل مكث فيهم يوسف عشرين سنة نبياً وقيل إن فرعون يوسف هو فرعون موسى وقيل هو فرعون آخر ﴿ فما زلتم في شك مما جاءكم به ﴾ قال ابن عباس من عبادة الله وحده لا شريك له والمعنى أنهم بقوا شاكين في نبوته لم ينتفعوا بتلك البينات التي جاءهم بها ﴿ حتى إذا هلك ﴾ يعني مات ﴿

قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ يعني أقمتم على كفركم وظننتم أن الله لا يجدد عليكم الحجة وإنما قالوا ذلك على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان عليه بل قالوا ذلك

(262/675)

ليكون لهم أساساً في تكذيب الأنبياء الذين يأتون بعده وليس قولهم لن يبعث الله من بعده رسولاً تصديقاً لرسالة يوسف كيف وقد شكوا فيها وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضمون إلى التكذيب لرسالته ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف ﴾ يعني في شركه وعصيانه ﴿ مرتاب ﴾ يعني في دينه .

﴿ الذين يجادلون في آيات الله ﴾ قيل هذا تفسير للمسرف المرتاب يعني الذين يجادلون في إبطال آيات الله بالتكذيب ﴿ بغير سلطان ﴾ أي بغير حجة وبرهان ﴿ أتاهم ﴾ من الله ﴿ كبر ﴾ أي ذلك الجدال ﴿ مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ قوله : ﴿ وقال فرعون ﴾ يعني لوزيره ﴿ يا هامان ابن لي صرحاً ﴾ يعني بناء ظاهراً لا يخفى على الناظرين وإن بعد وقد تقدم ذكره في سورة القصص ﴿ لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات ﴾ يعني طرقها وأبوابها من سماء إلى

سماء ﴿ فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه ﴾ يعني موسى ﴿ كاذباً ﴾ أي فيما يدعي ويقول إن له رباً غيري ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾ قال ابن عباس صده الله تعالى عن سبيل الهدى وقرىء وصد بالفتح أي وصد فرعون الناس عن السبيل ﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ أي وما كيده في إبطال آيات موسى إلا في خسار وهلاك .

(263/675)

قوله تعالى : ﴿ وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ أي طريق الهدى ﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ أي متعة ينتفعون بها مدة ثم تنقطع ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ يعني التي لا تزول والمعنى أن الدنيا فانية منقرضة لا منفعة فيها وأن الآخرة باقية دائمة والباقي خير من الفاني ، قال بعض العارفين : لو كانت الدنيا ذهباً فانياً والآخرة خزفاً باقياً لكانت الآخرة خيراً من الدنيا فكيف والدنيا خزف فان والآخرة ذهب باق ﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ قيل معناه من عمل الشرك فجزاؤه جهنم خالداً فيها ومن عمل بالمعاصي فجزاؤه العقوبة بقدرها ﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ يعني لا تبعة عليهم فيما

يعطون في الجنة من الخير وقيل يصب عليهم الرزق صباً بغير تقتير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 92.95 ﴾

(264/675)

وقال ابن جزى :

﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ حجة ظاهرة وهي المعجزات .

﴿ قَالُواْ اقتلوا أَبْنَآءَ الذين آمَنُواْ مَعَهُ ﴾ هذا القتل غير القتل الذي كانوا يقتلون أولاً قبل ميلاد موسى .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذروني أَقْتُلْ موسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ المعنى : أنه لا يبالي بدعاء موسى لربه ، ولا يخاف من ذلك إن قتله ، ويظهر من قوله : ﴿ ذروني ﴾ أنه كان في الناس من ينازعه في قتل موسى ، وذلك يدل على أن فرعون كان قد اضطرب أمره بظهور معجزات موسى ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأرض الفساد ﴾ يعني فساد أحوالهم في الدنيا ، أو أن يظهر وقرئ بالواو فقط ويظهر بفتح الياء ، ورفع الفساد على الفاعلية وبضم الياء ونصب الفساد على المفعولية .

﴿ وَقَالَ موسى إِنِّي عُذْتُ ﴾ الآية لما سمع موسى ما همّ به فرعون من قتله ، استعاذ بالله

فعصمه الله منه ، وقال : ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ ليشمل فرعون وغيره ، وليكون فيه وصف لغير فرعون بذلك الوصف القبيح .

(265/675)

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ قيل : أسم هذا الرجل حبيب وقيل : حزقيل ، وقيل : شمعون بالشين المعجمة ، وروي أن هذا الرجل المؤمن كان ابن عم فرعون ، فقوله : من آل فرعون صفة للمؤمن ، وقيل : كان من بني إسرائيل ، فقوله : ﴿ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ على هذا يتعلق بقوله ﴿ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ ، والأول أرجح ؛ لأنه لا يحتاج فيه إلى تقديم وتأخير ، ولقوله : ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ ﴾ لأن هذا كلام قريب شفيق ، ولأن بني إسرائيل حينئذ كانوا أذلاء ، بحيث لا يتكلم أحد منهم بمثل هذا الكلام ، و ﴿ أَن يَقُولَ ﴾ في موضع المفعول من أجله تقديره : أتقتلونه من أجل أن يقول ربي الله ﴿ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ أي إن كان موسى كاذباً في دعوى الرسالة فلا يضركم كذبه ، فلأي شيء تقتلونه ، فإن قيل : كيف قال : وإن يك كاذباً بعد أن كان قد آمن به ؟ فالجواب أنه لم يقل ذلك على وجه التكذيب له ، وإنما قاله على وجه الفرض والتقدير ، وقصد بذلك المحاجّة لقومه ، فقسم أمر موسى إلى قسمين ، ليقيم عليهم الحجة في ترك قتله على كل وجه من

القسمين ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ ﴾ قيل : إن بعض هنا بمعنى كل وذلك بعيد ، وإنما قال بعض ولم يقل كل مع أن الذي يصيبهم هو كل ما يعدهم ليلاطفهم في الكلام ، ويبعد عن التعصب لموسى ، ويظهر النصيحة لفرعون وقومه ، فيرتجى إجابتهم للحق .

(266/675)

﴿ وَقَالَ الذي آمَنَ ﴾ هو المؤمن المذكور أولاً ، وقيل : هو موسى عليه السلام وهذا بعيد ، وإنما توهموا ذلك لأنه صرح هنا بالإيمان ، وكان كلام المؤمن أولاً غير صريح ؛ بل كان فيه تورية وملاطفة لقومه ، إذ كان يكتم إيمانه ، والجواب : أنه كتم إيمانه أول الأمر ، ثم صرح به بعد ذلك ، وجاهرهم مجاهرة ظاهرة ، لما وثق بالله حسبما حكى الله من كلامه إلى قوله ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمري إِلَى الله ﴾ [غافر : 44] .

﴿ يَوْمَ التناد ﴾ التنادي يعني : يوم القيامة وسمي بذلك لأن المنادي ينادي الناس ، وذلك قوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ ﴾ [الإسراء : 71] وقيل : لأن بعضهم ينادي بعضاً ، أن ينادي أهل الجنة ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً ﴾ [الأعراف : 44] وينادي أهل النار : ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ المآء ﴾ [الأعراف : 50] ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي

منطلقين إلى النار ، وقيل : هاربين من النار .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات ﴾ قيل : هو يوسف بن يعقوب ، وقيل : هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب ، والبينات التي جاء بها يوسف لم تعيّن لنا ، واختلف هل أدركه فرعون موسى أو فرعون آخر قبله لأن كل من ملك مصر يقال له فرعون ﴿ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ الله مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ كلام هذا لا يدل على أنهم مؤمنون برسالة يوسف ، وإنما مرادهم : لم يأت أحد يدّعي الرسالة بعد يوسف ، قاله ابن عطية ، وقال الزمخشري : إنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته .

﴿ الذين يُجَادِلُونَ ﴾ بدل من مسرف مرتاب وإنما جاز إبدال الجمع من المفرد ، لأنه من معنى الجمع ، كأنه قال : كل مسرف ﴿ كَبُرَ مَقْتاً ﴾ فاعل كبر مصدر يجادلون ، وقال الزمخشري : الفاعل ضمير من هو مسرف .

(267/675)

﴿ الأسباب ﴾ هنا الطريق وقيل : الأبواب ، وكررها للتفخيم وللبيان ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ بالرفع عطف على أبلغ وبالنصف بإضمار أن في جواب لعل ، لأن الترجّي غير واجب ، فهو كالتمني في انتصاب جوابه ، ولا نقول : إن لعل أشربت معنى ليت كما قال بعض النجاة ﴿

تَبَابٍ ﴾ أي خسران .

﴿ مَتَاعٌ ﴾ أي يتمتع به قليلاً ، فإن قيل : لم كرر المؤمن نداء قومه مراراً ؟ فالجواب : أن ذلك لقصد التنبيه لهم ، وإظهار الملاطفة والنصيحة ، فإن قيل : لم جاء بالواو في قوله و ﴿ يا قوم ﴾ في الثالث دون الثاني ؟ فالجواب : أن الثاني بيان للأول وتفسير ، فلم يصح عطفه عليه بخلاف الثالث ، فإنه كلام آخر فصح عطفه عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 6.4 ﴾

(268/675)

وقال النسفى :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي آخر أمر الذين كذبوا الرسل من قبلهم ﴿ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾

"هم" فصل ، وحقه أن يقع بين معرفتين إلا أن أشد منهم ضارع المعرفة في أنه لا تدخله الألف واللام ، فأجري مجراه .

﴿ مّنكُمْ ﴾ : شامي .

﴿ وَءَاثَاراً فِى الأرض ﴾ أي حصوناً وقصوراً ﴿ فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ ﴾ عاقبهم

بسبب ذنوبهم ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ ﴾ ولم يكن لهم شيء يقيهم من عذاب الله .
﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي الأخذ بسبب أنهم ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات فَكَفَرُواْ
فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ ﴾ قادر على كل شيء ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ إذا عاقب .

(269/675)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾ التسع ﴿ وسلطان مُّبِينٍ ﴾ وحجة ظاهرة ﴿ إلى
فِرْعَوْنَ وهامان وقارون فَقَالُواْ ﴾ هو ﴿ ساحر كَذَّابٌ ﴾ فسموا السلطان المبين سحراً
وكذباً ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ بالحق ﴾ بالنبوة ﴿ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ اقتلوا أَبْنَآءَ الذين ءَامَنُواْ مَعَهُ
﴾ أي أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أولاً ﴿ واستحيوا نِسَآءَهُمْ ﴾ للخدمة ﴿ وَمَا
كَيْدُ الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ ضياع يعني أنهم باشروا قتلهم أولاً فما أغنى عنهم ! ، ونفذ
قضاء الله بإظهار من خافوه فما يغني عنهم هذا القتل الثاني ، وكان فرعون قد كف عن قتل
الولدان ، فلما بعث موسى عليه السلام وأحس بأنه قد وقع أعاده عليهم غيظاً وظناً منه
أنه يصدهم بذلك عن مظاهرة موسى عليه السلام ، وما علم أن كيده ضائع في الكرتين
جميعاً ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لملئه ﴿ ذَرُونِى أَقْتُلْ موسى ﴾ كان إذا همّ بقتله كفوه بقولهم :
ليس بالذي تخافه وهو أقل من ذلك ، وما هو إلا ساحر ، وإذا قتلته أدخلت الشبهة على

الناس واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة ، والظاهر أن فرعون قد استيقن أنه نبي وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر ، ولكن كان فيه خب وكان قتالاً سفاكاً للدماء في أهون شيء ، فكيف لا يقتل من أحس بأنه هو الذي يهدم ملكه ؟ ، ولكن كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك ، وقوله ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه ، وكان قوله : ﴿ ذَرُونِى أَقْتُلْ موسى ﴾ تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع ﴿ إِنِّى أَخَافُ ﴾ إن لم أقتله ﴿ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أن يغير ما أنتم عليه .

وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ ﴾ موسى ﴿ فِى الأرض الفساد ﴾ بضم الياء ونصب الدال : مدني وبصري وحفص ، وغيرهم بفتح الياء ورفع الدال ، والأول أولى لموافقة ﴿ يبدل ﴾ .

(270/675)

والفساد في الأرض التقاتل والتهايج الذي يذهب معه الأمن ، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش ويهلك الناس قتلاً وضياعاً كأنه قال : إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه ، وقرأ غير أهل الكوفة

﴿ وَأَنْ ﴾ ، ومعناه إني أخاف فساد دينكم ودنياكم معاً .

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ لما سمع بما أجراه فرعون من حديث قتله لقومه ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب ﴾ وفي قوله ﴿ وَرَبِّكُمْ ﴾ بعث لهم على أن يقتدوا به فيعوذوا بالله عياذه ، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه ، وقال ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة ، وليكون على طريقة التعريض فيكون أبلغ ، وأراد بالتكبر الاستكبار عن الاذعان للحق وهو أقبح استكبار ، وأدل على دناءة صاحبه وعلى فرط ظلمه ، وقال : ﴿ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب ﴾ : لأنه إذا اجتمع في الرجل التكبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده ، ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها ، وعذت ولذت أخوان .

﴿ وعت ﴾ بالإدغام : أبو عمرو وحمزة وعلي .

(271/675)

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانه ﴾ قيل : كان قبطياً ابن عم لفرعون آمن بموسى سراً ، و ﴿ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ صفة ل ﴿ رَجُلٌ ﴾ ، وقيل : كان إسرائيلياً ومن آل فرعون صلة ليكتم أي يكتم إيمانه من آل فرعون واسمه سمعان أو حبيب أو خربيل أو

حزبيل ، والظاهر الأول ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ ﴾ لأن يقول وهذا إنكار منه عظيم كأنه قيل : أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة وما لكم علة في ارتكابها إلا كلمة الحق ؟ ، وهي قوله ﴿ رَبِّيَ اللهُ ﴾ وهو ربكم أيضاً لا ربه وحده ﴿ وَقَدْ جَآءَكُمْ ﴾ الجملة حال ﴿ بالبينات مِن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني أنه لم يحضر لتصحيح قوله ببينة واحدة ولكن ببينات من عند من نسب إليه الربوبية وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به ﴿ وَإِن يَكُ كاذبا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صادقا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذى يَعِدُكُمْ ﴾ احتج عليهم بطريق التقسيم فإنه لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً ، فإن يك كاذباً فعليه وبال كذبه ولا يتخطاه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم من العذاب ، ولم يقل "كل الذي يعدكم" مع أنه وعد من نبي صادق القول مداراة لهم وسلوكاً لطريق الإنصاف فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم له وليس فيه نفي إصابة الكل ، فكأنه قال لهم : أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض ما يعدكم وهو العذاب العاجل وفي ذلك هلاككم ، وكان وعدهم عذاب الدنيا والآخرة ، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل أيضاً ، وتفسير البعض بالكل مزيف ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ مجاوز للحد ﴿ كَذَّابٌ ﴾ في ادعائه ، وهذا أيضاً من باب المجاملة ، والمعنى أنه إن كان مسرفاً كذاباً خذله الله وأهلكه فتتخلصون منه ، أو لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله بالنبوة ولما عضده بالبينات ، وقيل : أوهم أنه عنى بالمسرف موسى وهو يعني به فرعون .

﴿ يا قوم لَكُمُ الملك اليوم ظاهرين ﴾ عالين وهو حال من "كم" في ﴿ لَكُمْ ﴾ ﴿ فِى الأرض ﴾ في أرض مصر ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ الله إِن جَآءَنَا ﴾ يعني أن لكم ملك مصر ، وقد علوتم الناس وقهرتموهم ، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ، ولا تتعرضوا لبأس الله أي عذابه ، فإنه لا طاقة لكم به إن جاءكم ولا يمنعكم منه أحد ، وقال ﴿ يَنصُرُنَا ﴾ و ﴿ جَاءنَا ﴾ لأنه منهم في القرابة ، وليعلمهم بأن الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَآ أرى ﴾ أي ما أشير عليكم برأي إلا بما أرى من قتله يعني لا أستصوب إلا قتله ، وهذا الذي تقولونه غير صواب ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ ﴾ بهذا الرأي ﴿ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ طريق الصواب والصلاح ، أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أدخر منه شيئاً ولا أسر عنكم خلاف ما أظهر .

يعني أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول ، وقد كذب فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى عليه السلام ، ولكنه كان يتجلد ، ولولا استشعاره لم يستشر أحداً ولم يقف الأمر على الإشارة .

﴿ وَقَالَ الذى ءَامَنَ يا قوم إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الأحزاب ﴾ أي مثل أيامهم : لأنه لما

أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوله ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ ولم يلتبس أن كل حزب منهم كان له يوم دمار اقتصر على الواحد من الجمع ، ودأب هؤلاء دءوبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي وكون ذلك دائباً دائماً منهم لا يفترون عنه ، ولا بد من حذف مضاف ، أي مثل جزاء دأبهم ، وانتصاب ﴿ مثل ﴾ الثاني بأنه عطف بيان ل ﴿ مثل ﴾ الأول ﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ أي وما يريد الله أن يظلم عباده فيعذبهم بغير ذنب أو يزيد على قدر ما يستحقون من العذاب .

(273/675)

يعني أن تدميرهم كان عدلاً لأنهم استحقوه بأعمالهم ، وهو أبلغ من قوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] حيث جعل المنفي إرادة ظلم منكّر ومن بعد عن إرادة ظلم ما لعباده كان عن الظلم أبعد وأبعد ، وتفسير المعتزلة بأنه لا يريد لهم أن يظلموا بعيد ، لأن أهل اللغة قالوا : إذا قال الرجل لآخر "لا أريد ظلماً لك" معناه لا أريد أن أظلمك ، وهذا تخويف بعذاب الدنيا .

ثم خوفهم من عذاب الآخرة بقوله ﴿ وياقوم إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التناد ﴾ أي يوم القيامة .

﴿ التنادي ﴾ مكي ويعقوب في الحالين وإثبات الياء هو الأصل وحذفها حسن لأن الكسرة تدل على الياء وآخر هذه الآي على الدال ، وهو ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ [الآية : 44] .

﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾ [الأعراف : 50] .

﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾ [الآية : 48] .

وقيل : ينادي منادٍ : ألا إن فلانا سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، ألا إن فلاناً شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ منحرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿ مَالَكُمْ مِنَ الله ﴾ من عذاب الله ﴿ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ مانع ودافع ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ مرشد ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات ﴾ هو يوسف بن يعقوب ، وقيل : يوسف بن أفراييم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبياً عشرين سنة ، وقيل : إن فرعون موسى هو فرعون يوسف إلى زمنه .

وقيل : هو فرعون آخر وبجهم بأن يوسف أتاكم من قبل موسى بالمعجزات ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُمْ بِهِ ﴾ فشككتم فيها ولم تزالوا شاكين ﴿ حتى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ الله مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ حكماً من عند أنفسكم من غير برهان .

أي أقمتم على كفركم وظننتم أنه لا يجدد عليكم إيجاب الحجة ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ أي مثل هذا الإضلال يضل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب شاك في دينه .

﴿ الذين يجادلون ﴾ بدل من ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ وجاز إبداله منه وهو جمع لأنه لا يريد مسرفاً واحداً بل كل مسرف ﴿ فِى ءايات الله ﴾ في دفعها وإبطالها ﴿ بِغَيْرِ سلطان ﴾ حجة ﴿ أتاهم كَبُرَ مَقْتاً ﴾ أي عظم بغضاً ، وفاعل ﴿ كَبُرَ ﴾ ضمير ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ وهو جمع معنى وموحد لفظاً فحمل البدل على معناه والضمير الراجع إليه على لفظه ، ويجوز أن يرفع ﴿ الذين ﴾ على الابتداء ، ولا بد في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في ﴿ كَبُرَ ﴾ تقديره جدال الذين يجادلون كبر مقتاً ﴿ عِندَ الله وَعِندَ الذين ءَامَنُواْ كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

﴿ قَلْبٍ ﴾ بالتنوين : أبو عمرو .

وإنما وصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه منبعهما كما تقول : سمعت الأذن وهو كقوله : ﴿ فإنه آثم قلبه ﴾ [البقرة : 283] وإن كان الآثم هو الجملة .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ تمويهاً على قومه أو جهلاً منه ﴿ ياهامان ابن لى صَرْحاً ﴾ أي قصراً .

وقيل الصرح : البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد ، ومنه يقال : صرح الشيء إذا ظهر ﴿ لَّعَلِّى ﴾ وبفتح الياء : حجازي وشامي وأبو عمرو ﴿ أَبْلُغُ الأسباب ﴾ ثم أبدل منها تفخيماً لشأنها وإبانة أنه يقصد أمراً عظيماً ﴿ أسباب السماوات ﴾ أي طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب إليه كالرشاء ونحوه ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ بالنصب : حفص على جواب الترجي تشبيهاً للترجي بالتمني .

(275/675)

وغيره بالرفع عطفاً على ﴿ أبلغ ﴾ ﴿ إلى إله موسى ﴾ والمعنى فأنظر إليه ﴿ وَإِنِّى لأَظُنُّهُ ﴾ أي موسى ﴿ كاذبا ﴾ في قوله له إله غيري ﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك التزيين وذلك الصد ﴿ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السبيل ﴾ المستقيم .

وبفتح الصاد : كوفي ويعقوب أي غيره صداً أو هو بنفسه صدوداً .

والمزين الشيطان بوسوسته كقوله : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ﴾ [النمل : 24] .

أو الله تعالى ، ومثله : ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أعمالهم فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل : 4] ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ ﴾ خسران وهلاك .

﴿ وَقَالَ الذى ءَامَنَ يا قوم اتبعون ﴾ ﴿ اتبعوني ﴾ في الحالين : مكي ويعقوب وسهل .

﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرشاد ﴾ وهو نقيض الغي ، وفيه تعريض شبيه بالتصريح أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي .

أجمل أولاً ، ثم فسر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها بقوله ﴿ يا قوم إِنَّمَا هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ تمتع يسير ، فالإخلاد إليها أصل الشر ومنبع الفتن وثنى بتعظيم الآخرة وبين أنها هي الوطن والمستقر بقوله ﴿ وَإِنَّ الآخرة هِىَ دَارُ القرار ﴾ ثم ذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف بقوله :

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صالحا مّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنة يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ﴿ يُدخلون ﴾ مكي وبصري ويزيد وأبو بكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 75 . 79 ﴾

(276/675)

وقال البيضاوى :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ مآل حال الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود . ﴿ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ قدرة

وتمكناً ، وإنما جيء بالفصل وحقه أن يقع بين معرفتين لمضارعة أفعل من للمعرفة في امتناع دخول اللام عليه . وقرأ ابن عامر "أشد منكم" بالكاف . ﴿ وَءَاثَاراً فِى الأَرْضِ ﴾ مثل القلاع والمدائن الحصينة . وقيل المعنى وأكثر آثاراً كقوله : متقلداً سيفاً ورمحاً ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ ﴾ يمنع العذاب عنهم .

﴿ ذلك ﴾ الأخذ . ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالمعجزات أو الأحكام الواضحة . ﴿ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِىٌّ ﴾ متمكن مما يريده غاية التمكن . ﴿ شَدِيدُ العقاب ﴾ لا يؤبه بعقاب دون عقابه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾ يعني المعجزات . ﴿ وسلطان مُّبِينٍ ﴾ وحجة قاهرة ظاهرة ، والعطف لتغاير الوصفين أو لإفراد بعض المعجزات كالعصا تفخيماً لشأنه .

﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وهامان وَقَارُونَ فَقَالُواْ ساحر كَذَّابٌ ﴾ يعنون موسى عليه الصلاة والسلام ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان لعاقبة من هو أشد الذين كانوا من قبلهم بطشاً وأقربهم زماناً .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بالحق مِنْ عِندِنَا قَالُواْ اقتلوا أَبْنَاءَ الذين ءَامَنُواْ مَعَهُ واستحيوا نِسَاءَهُمْ ﴾ أي أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولاً كي يصدوا عن مظاهرة موسى عليه السلام .

﴿ وَمَا كَيْدُ الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ في ضياع ، ووضع الظاهر فيه موضع الضمير لتعميم الحكم والدلالة على العلة .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ موسى ﴾ كانوا يكفونه عن قتله ويقولون إنه ليس الذي تخافه بل هو ساحر ، ولو قتلته ظن أنك عجزت عن معارضته بالحجة وتعلله بذلك مع كونه سفاكاً في أهون شيء دليل على أنه تيقن أنه نبي فخاف من قتله ، أو ظن أنه لو حاوله لم يتيسر له ويؤيده قوله . ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ فإنه تجلد وعدم مبالاة بدعائه . ﴿ إِنِّي أَخَافُ ﴾ إن لم أقتله . ﴿ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أن يغير ما أنتم عليه من عبادته وعبادة الأصنام لقوله تعالى : ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى الأرض الفساد ﴾ ما يفسد دنياكم من التحارب والتهارج إن لم يقدر أن يبطل دينكم بالكلية . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بالواو على معنى الجمع ، وابن كثير وابن عامر والكوفيون غير حفص بفتح الياء والهاء ورفع الفساد .

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ أي لقومه لما سمع بكلامه . ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب ﴾ صدر الكلام بأن تأكيداً وإشعاراً على أن السبب المؤكد في دفع الشر هو العياذ بالله ، وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ والتربية ، وإضافته إليه وإليهم حثاً لهم على موافقته لما في تظاهر الأرواح من استجلاب الإجابة ، ولم يسم فرعون

وذكر وصفاً يعمه وغيره لتعميم الإستعاذة ورعاية الحق والدلالة على الحامل له على القول. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿ عُذْتُ ﴾ فيه وفي سورة "الدخان" بالإدغام وعن نافع مثله.

(278/675)

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ من أقاربه. وقيل ﴿ مِنْ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ يَكْتُمُ إيمانه ﴾ والرجل إسرائيلي أو غريب موحد كان ينافقهم. ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً ﴾ أتقصدون قتله. ﴿ أَن يَقُولَ ﴾ لأن يقول، أو وقت أن يقول من غير روية وتأمل في أمره. ﴿ رَبِّىَ اللهُ ﴾ وحده وهو في الدلالة على الحصر مثل صديقي زيد. ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بالبينات ﴾ المتكثرة الدالة على صدقه من المعجزات والاستدلالات. ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أضافه إليهم بعد ذكر البينات احتجاجاً عليهم واستدراجاً لهم إلى الاعتراف به، ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال: ﴿ وَإِن يَكُ كاذبا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج في دفعه إلى قتله. ﴿ وَإِن يَكُ صادقا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذى يَعِدُكُمْ ﴾ فلا أقل من أن يصيبكم بعضه، وفيه مبالغة في التحذير وإظهار للإنصاف وعدم التعصب، ولذلك قدم كونه كاذباً أو يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا وهو بعض مواعيده، كأنه

خوفهم بما هو أظهر احتمالاً عندهم وتفسير ال ﴿ بَعْضُ ﴾ بالكل كقول لبيد :

تَرَاكِ أَمْكنة إذا لَمْ أَرْضَهَا . . . أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمامُهَا

مردود لأنه أراد بال ﴿ بَعْضُ ﴾ نفسه . ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

احتجاج ثالث ذو وجهين :

أحدهما : أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى البينات ولما عضده بتلك المعجزات .

وثانيهما : أن من خذله الله أهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله . ولعله أراد به المعنى الأول وخيل إليهم الثاني لتلين شكيمتهم ، وعرض به لفرعون بأنه ﴿ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ لا يهديه الله سبيل الصواب وطريق النجاة .

(279/675)

﴿ يا قوم لَكُمُ الملك اليوم ظاهرين ﴾ غالبين عالين . ﴿ فِى الأرض ﴾ أرض مصر . ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ إِن جَاءَنَا ﴾ أي فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله بقتله فإنه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد ، وإنما أدرج نفسه في الضميرين لأنه كان منهم في القرابة وليريهم أنه معهم ومساهمهم فيما ينصح لهم . ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ ﴾ ما أشير عليكم . ﴿ إِلاَّ مَا أرى ﴾ وأستصوبه من قتله وما أعلمكم إلا ما علمت من الصواب

وقلبي ولساني متواطئان عليه .

﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ طريق الصواب ، وقرىء بالتشديد على أنه فعال للمبالغة من رشد كعلام ، أو من رشد كعباد لا من أرشد كجبار من أجبر لأنه مقصور على السماع أو بالنسبة إلى الرشد كعواج وبتات .

﴿ وَقَالَ الذى ءَامَنَ يا قوم إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ في تكذيبه والتعريض له . ﴿ مّثْلَ يَوْمِ الأحزاب ﴾ مثل أيام الأمم الماضية يعني وقائعهم ، وجمع ﴿ الأحزاب ﴾ مع التفسير أغنى عن جمع ﴿ اليوم ﴾ .

﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ مثل جزاء ما كانوا عليه دائباً من الكفر وإيذاء الرسل . ﴿ والذين مِن بَعْدِهِمْ ﴾ كقوم لوط . ﴿ وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً لّلْعِبَادِ ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب ولا يخلي الظالم منهم بغير انتقام ، وهو أبلغ من قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بظلام لّلْعَبِيدِ ﴾ من حيث أن المنفي فيه حدوث تعلق إرادته بالظلم .

(280/675)

﴿ وياقوم إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التناد ﴾ يوم القيامة ينادي فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة ، أو يتصايحون بالويل والثبور ، أو يتنادى أصحاب الجنة وأصحاب النار كما حكي في

"الأعراف" . وقرىء بالتشديد وهو أن يند بعضهم من بعض كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ ﴾ ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ ﴾ عن الموقف . ﴿ مُّدْبِرِينَ ﴾ منصرفين عنه إلى النار . وقيل فارين عنها . ﴿ مَا لَكُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ يعصمكم من عذابه . ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ ﴾ يوسف بن يعقوب على أن فرعونه فرعون موسى ، أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد أو سبطه يوسف بن إبراهيم بن يوسف . ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل موسى . ﴿ بالبينات ﴾ بالمعجزات . ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ من الدين . ﴿ حتى إِذَا هَلَكَ ﴾ مات . ﴿ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ ضما إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من بعده ، أو جزماً بأن لا يبعث من بعده رسول مع الشك في رسالته ، وقرىء "ألن يبعث الله" على أن بعضهم يقرر بعضاً بنفي البعث . ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الضلال . ﴿ يُضِلُّ الله ﴾ في العصيان . ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ شاك فيما تشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك في التقليد .

﴿ والذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾ بدل من الموصول الأول لأنه بمعنى الجمع . ﴿ بِغَيْرِ سلطان أتاهم ﴾ بغير حجة بل إما بتقليد أو بشبهة داحضة . ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله وَعِندَ الذين ءَامَنُواْ ﴾ فيه ضمير من وإفراده للفظ ، ويجوز أن يكون "الذين آمنوا" مبتدأ وخبره ﴿ كَبُرَ ﴾ على حذف مضاف أي : وجدال الذين يجادلون كبر مقتاً أو بغير

سلطان وفاعل ﴿ كَبُرَ ﴾ ﴿ كذلك ﴾ أي كبر مقتاً مثل ذلك الجدال فيكون قوله : ﴿ يَطْبَعُ الله على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ استئنافاً للدلالة على الموجب لجدالهم .

(281/675)

وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان قلب بالتنوين على وصفه بالتكبر والتجبر لأنه منبعهما كقولهم : رأت عيني وسمعت أذني ، أو على حذف مضاف أي على كل ذي قلب متكبر .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا هامان ابن لِى صَرْحاً ﴾ بناء مكشوفاً عالياً من صرح الشيء إذا ظهر . ﴿ لَّعَلِّى أَبْلُغُ الأسباب ﴾ الطرق .

﴿ أسباب السموات ﴾ بيان لها أو في إبهامها ثم إيضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها . ﴿ فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى ﴾ عطف على ﴿ أَبْلُغُ ﴾ . وقرأ حفص بالنصب على جواب الترجي ولعله أراد أن يبني له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية ، فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله إياه ، أو إن يرى فساد قول موسى بأن أخباره من إله السماء يتوقف على إطلاعه ووصوله إليه ، وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء وهو مما لا يقوى عليه الإنسان ، وذلك لجهله بالله وكيفية استنبائه . ﴿ وَإِنِّى لأَظُنُّهُ كاذبا ﴾ في دعوى الرسالة . ﴿ وكذلك ﴾

ومثل التزيين ، ﴿ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السبيل ﴾ سبيل الرشاد ، والفاعل على الحقيقة هو الله تعالى ويدل عليه أنه قرىء زين بالفتح وبالتوسط الشيطان . وقرأ الحجازيان والشامي وأبو عمرو ﴿ وَصُدَّ ﴾ على أن فرعون صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التمويهات والشبهات ويؤيده : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ ﴾ أي خسار .

﴿ وَقَالَ الذى ءَامَنَ ﴾ يعني مؤمن آل فرعون . وقيل موسى عليه الصلاة والسلام . ﴿ يا قوم اتبعون أَهْدِكُمْ ﴾ بالدلالة . ﴿ سَبِيلَ الرشاد ﴾ سبيلاً يصل سالكه إلى المقصود ، وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي .

﴿ يا قوم إِنَّمَا هذه الحياة الدنيا مَتَاعٌ ﴾ تمتع يسير لسرعة زوالها . ﴿ وَإِنَّ الآخرة هِىَ دَارُ القرار ﴾ لخلودها .

(282/675)

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ عدلاً من الله ، وفيه دليل على أن الجنايات تغرم بمثلها . ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صالحا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنة يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافاً مضاعفة فضلاً منه ورحمة ، ولعل

تقسيم العمال وجعل الجزاء جملة إسمية مصدرة باسم الإِشارة ، وتفضيل الثواب لتغليب الرحمة ، وجعل العمل عمدة والإِيمان حالاً للدلالة على أنه شرط في اعتبار العمل وأن ثوابه أعلى من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 89.94 ﴾

(283/675)

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ أولم يسيروا في الأرض ﴾

ولما أوعدهم سبحانه بصادق الأخبار عن قوم نوح ومن تبعهم من الكفار وختمه بالإنذار بما يقع في دار القرار للظالمين الأشرار أتبعه الوعظ والتخويف بالمشاهدة ممن تتبع الديار ، والاعتبار بما كان لهم فيها من عجائب الآثار فقال عز من قائل:

﴿ أولم يسيروا في الأرض ﴾ أي : في أي أرض ساروا فيها ﴿ فينظروا ﴾ أي : نظر اعتبار كما هو شأن أهل البصائر ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ أي : آخر أمر ﴿ الذين كانوا ﴾ أي : سكاناً للأرض عريقين في عمارتها ﴿ من قبلهم ﴾ أي : قبل زمانهم من الكفار كعاد وثمود ﴿ كانوا هم ﴾ أي : المتقدمون لما لهم من القوة الظاهرة والباطنة ﴿ أشد منهم ﴾ أي : من هؤلاء ﴿ قوة ﴾ أي : ذوات ومعاني وإنما جيء بالفصل وحقه أنه يقع بين معرفتين لمضارعة

أفعل من المعرفة في امتناع دخول اللام عليه ، وقرأ ابن عامر منكم بكاف والباقون بهاء الغيبة ﴿ و ﴾ أشد ﴿ آثاراً في الأرض ﴾ لأن آثارهم لم يندرس بعضها إلى هذا الزمان وقد مضى عليه ألوف من السنين ، وأما المتأخرون فتنطمس آثارهم في أقل من قرن ومع قوتهم ﴿ فأخذهم الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال أخذ غلبة وقهر وسطوة ﴿ بذنوبهم ﴾ أي : بسببها ﴿ وما كان لهم ﴾ من شركائهم الذين ضلوا بهم هؤلاء ومن غيرهم ﴿ من الله ﴾ أي : المتصف بجميع صفات الكمال ﴿ من واق ﴾ أي : يقيهم عذابه والمعنى : أن العاقل من اعتبر بغيره وأن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء ، ولما كذبوا رسلهم أهلكهم الله تعالى عاجلاً ، وقرأ ابن كثير في الوقف بالياء بعد القاف والباقون بغير ياء واتفقوا على التنوين في الوصل . ثم ذكر تعالى سبب أخذهم بقوله تعالى:

﴿ ذلك ﴾ أي : الأخذ العظيم ﴿ بأنهم ﴾ أي : الذين كانوا من قبل ﴿ كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أي : الآيات الدالة على صدقهم دلالة هي من وضوح الأمر بحيث لا يسع منصفاً إنكارها ، وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بضمها .

ولما كان مطلق الكفر كافياً في العذاب عبر بالماضي فقال تعالى : ﴿ فكفروا ﴾ أي : سببوا عن إتيان الرسل عليهم السلام إليهم الكفر بهم ﴿ فأخذهم الله ﴾ أي : الملك الأعظم أخذ غضب ﴿ إنه قوي ﴾ أي : متمكن مما يريد غاية التمكن ﴿ شديد العقاب ﴾ لا يؤبه بعقاب دون عقابه .

ولما سلَّى تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذكر الكفار الذين كذبوا الأنبياء عليهم السلام قبله وبمشاهدة آثارهم ، سلاه أيضاً بذكر قصة موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى:

﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ موسى بآياتنا ﴾ أي : الدالة على جلالنا ﴿ وسلطان ﴾ أي : أمر قاهر عظيم جداً لا حيلة لهم في مدافعة شيء منه ﴿ مبين ﴾ أي : بين في نفسه يتبين لكل من يمكن إطلاعه عليه أنه ظاهر ، وذلك الأمر هو الذي كان يمنع فرعون من الوصول إلى أذاه مع ما له من القوة والسلطان .

﴿ إلى فرعون ﴾ أي : ملك مصر ﴿ وهامان ﴾ أي : وزيره ﴿ وقارون ﴾ أي : قريب موسى ﴿ فقالوا ﴾ أي : هؤلاء ومن معهم هو ﴿ ساحر ﴾ لعجزهم عن مقاهرته أما من عدا قارون فأولاً وآخراً بالقوة والفعل ، وأما قارون ففعله آخراً بين أنه مطبوع على الكفر وإن آمن أولاً ، وإن هذا كان قوله وإن لم يقله بالفعل في ذلك الزمان فقد قاله في النية ، فدل

ذلك على أنه لم يزل قائلاً به لأنه لم يتب منه ثم وصفوه بقولهم : ﴿كذاب﴾ لخوفهم من تصديق الناس له .

(285/675)

﴿فلما جاءهم بالحق﴾ أي : بالأمر الثابت الذي لا طاقة لأحد بتغيير شيء منه كائناً ﴿من عندنا﴾ على ما لنا من القهر فآمن معه طائفة من قومه ﴿قالوا﴾ أي : فرعون وأتباعه ﴿اقتلوا﴾ أي : قتلاً حقيقياً بإزالة الروح ﴿أبناء الذين آمنوا﴾ به أي : فكانوا ﴿معه﴾ أي : خصوهم بذلك واتركوا من عداهم فلعلهم يكذبونه ﴿واستحيوا نساءهم﴾ أي : اطلبوا حياتهن بأن لا تقتلوهن ، قال قتادة : هذا غير القتل الأول لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان ، فلما بعث موسى عليه السلام أعاد القتل عليهم فمعناه أعيدوا عليهم القتل لئلا ينشؤوا على دين موسى فيقوى بهم ، وهذه العلة مختصة بالبنين فلهذا أمر بقتل الأبناء واستحياء نسائهم ﴿وما﴾ أي : والحال أنه ما ﴿كيد الكافرين﴾ تعميماً وتعليقاً بالوصف ﴿إلا في ضلال﴾ أي : مجانبة للسداد الموصل إلى الظفر والفوز لأنه ما أفادهم أولاً في الحذر من موسى عليه السلام ولا آخراً في صد من آمن

به مرادهم بل كان فيه تبارهم وهلاكهم ، وكذا أفعال الفجرة مع أوليائه تعالى ما حفر أحد منهم لأحد منهم حفرة مكراً إلا أركسه الله تعالى فيها .

(286/675)

﴿ وقال فرعون ﴾ أي : أعظم الكفرة في ذلك الوقت لرؤساء أتباعه عندما علم أنه عاجز عن قتله ، وملأه ما رأى منه خوفاً دافعاً عن نفسه ما يقال من أنه ما ترك موسى عليه السلام مع استهانته به إلا عجزاً منه موهماً أن قومه هم الذين يردونه عنه وأنه لولا ذلك لقتله .

﴿ ذروني ﴾ أي : اتركوني على أي حالة كانت ﴿ أقتل موسى ﴾ وزاد في الإيهام للأغبياء والمناداة على نفسه عند البصراء بقوله : ﴿ وليدع ربه ﴾ أي : الذي يدعوه ويدعي إحسانه إليه بما يظهر على يديه من هذه الخوارق ، وقيل : كان في خاصة قوم فرعون من يمنعه من قتل موسى ، وفي منعه من قتله وجوه ؛ أولها : لعله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى عليه السلام صادقاً فيتحيل في منع فرعون من قتله ، وثانيها : قال الحسن : إن أصحابه قالوا له : لا تقتله فإنما هو ساحر ضعيف ولا يمكن أن يغلب سحرنا فإن قتلته أدخلت الشبهة على الناس ويقولون : إنه كان محقاً وعجزوا عن جوابه فقتلوه ، وثالثها : أنهم كانوا يحتالون في منعه من قتله لأجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ

لتأديب تلك الأقوام ؛ لأن من شأن الأمراء أن يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجي حتى يصيروا آمنين من قبل ذلك الملك ، وقرأ ابن كثير بفتح الياء والباقون بالسكون .

ثم ذكر فرعون السبب الموجب لقتل موسى عليه السلام وهو إما فساد الدين أو فساد الدنيا فقال : ﴿ إني أخاف ﴾ أي : إن تركته ﴿ أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ أي : لا بد من وقوع أحد الأمرين إما فساد الدين ، وإما فساد الدنيا . أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو دينهم الذي كانوا عليه فلما كان موسى عليه السلام ساعياً في إفساده اعتقدوا أنه ساع في إفساد الدين الحق ، وأما فساد الدنيا فهو أن يجتمع عليه أقوام ويصير ذلك سبباً في وقوع الخصومات وإثارة الفتن ، وبدأ فرعون بذكر الدين أولاً لأن حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم .

(287/675)

ولما توعد فرعون موسى عليه السلام بالقتل لم يأت في دفع شره إلا بأن استعان بالله واعتمد على فضله كما قال تعالى:

﴿ وقال موسى إني عذت ﴾ أي : اعتصمت عند ابتداء الرسالة ﴿ بربي ﴾ ورغبهم في الاعتصام به وثبتهم بقوله : ﴿ وربكم ﴾ أي : المحسن إلينا أجمعين وأرسلني لاستنقاذكم

من أعداء الدين والدنيا ﴿ من كل متكبر ﴾ أي : عات طاغ متعظم على الحق هذا وغيره ﴿ لا يؤمن ﴾ أي : لا يتجدد له تصديق ﴿ بيوم الحساب ﴾ من ربه له وهو يعلم أنه لا بد من حسابه هو لمن تحت يده من رعاياه وعبيده فيحكم على ربه بما لا يحكم به على نفسه ، وبهذين الأمرين يقدم الإنسان على اتقاء الناس لأن المتكبر القاسي القلب قد يحمله طبعه عن إيذاء الناس إلا أنه إذا كان مقراً بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعاً له عن الجري على موجب تكبره ، فإذا لم يحصل له الإيمان بالبعث والقيامة كان طبعه داعياً له إلى الإيذاء لأن المانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائل فلا جرم تعظم القسوة والإيذاء .

واختلف في الرجل المؤمن في قوله تعالى:

﴿ وقال رجل مؤمن ﴾ أي : راسخ الإيمان ﴿ من آل فرعون ﴾ أي : من وجوههم ورؤسائهم ﴿ يكتم إيمانه ﴾ أي : يخفيه خفاء شديداً خوفاً على نفسه ، فقال مقاتل والسدي : كان قبطياً ابن عم فرعون وهو الذي حكى الله تعالى عنه : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ (القصص :) ، وقيل : كان إسرائيلياً ، وعن ابن عباس : لم يكن في آل فرعون غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذي أنذر موسى عليه السلام الذي قال : إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الصديقون حبيب النجار مؤمن آل يس ، ومؤمن آل فرعون الذي قال ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ (غافر :)

والثالث أبو بكر الصديق وهو أفضلهم" . وعن جعفر بن محمد أن مؤمن آل فرعون قال ذلك سراً وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه جهاراً ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ وروي عن عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً وقال له : أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا ؟ قال : أنا ذلك فأقبل أبو بكر رضي الله تعالى عنه فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ فكان أبو بكر أشد من ذلك" . وعن أنس بن مالك قال : "ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشي عليه ، فقام أبو بكر فجعل ينادي ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله قالوا : من هذا ؟ قيل : هذا ابن أبي قحافة" . قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : وأكثر العلماء كان اسم الرجل حزقيل ، وقال ابن إسحاق : جبريل ، وقيل : حبيب .

ولما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع فرعون وشره على الاستعاذة بالله تعالى ، بين أنه تعالى قبض له إنساناً أجنبياً حتى ذب عنه بأحسن الوجوه ، وبالغ في تسكين تلك الفتنة فقال : ﴿ أتقتلون رجلاً ﴾ أي : هو عظيم في الرجال حساً ومعنى ثم علل قتلهم له بما ينافيه فقال : ﴿ أن ﴾ أي : لأجل أن ﴿ يقول ﴾ قولاً على سبيل الإنكار ﴿ ربي ﴾ أي : المربي والمحسن إلي ﴿ الله ﴾ أي : الجامع لصفات الكمال ﴿ وقد ﴾ أي : والحال أنه قد ﴿ جاءكم بالبينات ﴾ أي : الآيات الظاهرات من غير لبس ﴿ من ربكم ﴾ أي : الذي لا إحسان عندكم إلا منه ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية على أن الإقدام على قتله غير جائز وهي حجة مذكورة على طريق التقسيم فقال : ﴿ وإن يك ﴾ أي : هذا الرجل ﴿ كاذباً فعليه ﴾ أي : خاصة ﴿ كذبه ﴾ أي : كان وبال كذبه عليه وليس عليكم منه ضرر فاتركوه ﴿ وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم ﴾ أي : العذاب عاجلاً وله صدقه ينفعه ولا ينفعكم شيئاً ، فإن قيل : لم قال ﴿ بعض الذي يعدكم ﴾ وهو نبي صادق لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله ؟

أجيب : بأنه إنما قال ذلك ليهضم موسى بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام

من أعطاه حقه وافياً فضلاً عن أن يتعصب له ، وهذا أولى من قول أبي عبيدة وغيره أن بعض بمعنى كل ، وأنشد قول لبيد :

*تراك أمكنة إذا لم أرضها **أو ترتبط بعض النفوس حمامها*

وأنشد أيضاً قول عمرو بن سهم:

d

*قد يدرك المتأني بعض حاجته **وقد يكون مع المستعجل الزلل*

وقال الآخر:

*إن الأمور إذا الأحداث دبرها **دون الشيوخ ترى في بعضها خللا*

(290/675)

وقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي : الذي له مجامع العظمة ﴿ لا يهدي ﴾ إلى ارتكاب ما ينفع واجتناب ما يضر ﴿ من هو مسرف ﴾ بإظهار الفساد وبتجاوز الحدود ﴿ كذاب ﴾ فيه احتمالان ؛ أحدهما : أن هذا إشارة إلى الرمز والتعريض بعلو شأن موسى عليه السلام ، والمعنى أن الله تعالى هدى موسى عليه السلام إلى الإتيان بالمعجزات الباهرة ومن هداه الله تعالى إلى الإتيان بالمعجزات لا يكون مسرفاً كذاباً ، فدل على أن موسى عليه السلام ليس

من المسرفين الكذابين ، ثانيهما : أن يكون المراد أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى عليه السلام كذاب في ادعائه الإلهية والله تعالى لا يهدي من هذا شأنه وصفته بل يبطله ويهدم أمره .

ولما استدل مؤمن آل فرعون على أنه لا يجوز قتل موسى عليه السلام ، خوف فرعون وقومه ذلك العذاب الذي توعدهم به في قوله : ﴿ يصيبكم بعض الذي يعدكم ﴾ فقال: ﴿ يا قوم ﴾ وعبر بأسلوب الخطاب دون التكلم تصريحاً بالمقصود فقال : ﴿ لكم الملك ﴾ ونبه على ما يعرفونه من تقلبات الدهر بقوله : ﴿ اليوم ﴾ وأشار إلى ما عهدوه من الخذلان في بعض الأزمان بقوله : ﴿ ظاهرين ﴾ أي : عالين على بني إسرائيل وغيرهم ، وما زال أهل البلاء يتوقعون الرخاء وأهل الرخاء يتوقعون البلاء ونبه بقوله : ﴿ في الأرض ﴾ أي : أرض مصر على الاحتياج ترهيباً لهم وعرفها لأنها كالأرض كلها لحسنها وجمعها المنافع ثم حذرهم من سخط الله تعالى فقال : ﴿ فمن ينصرنا ﴾ أي : أنا وأنتم أدرج نفسه فيهم عند ذكر الشر بعد إفراده لهم بالملك إبعاداً للتهمة وحثاً على قبول النصيحة . ﴿ من بأس الله ﴾ أي : الذي له الملك كله ﴿ إن جاءنا ﴾ أي : غضباً لهذا الذي يدعي أنه أرسله فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله تعالى بقتله فإنه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد .

ولما قال المؤمن هذا الكلام ﴿ قال فرعون ﴾ أي : لقومه جواباً لما قاله هذا المؤمن : ﴿ ما أريكم ﴾ من الآراء ﴿ إلا ما أرى ﴾ أي : إنه صواب على قدر مبلغ علمي ولا أرى لكم إلا ما أرى لنفسي ، وقال الضحاك : ما أعلمكم إلا ما أعلم ﴿ وما أهديكم ﴾ أي : بما أشرت به عليكم من قتل موسى وغيره ﴿ إلا سبيل الرشاد ﴾ أي : الذي أرى أنه صواب لا أظهر شيئاً وأبطن غيره .

ولما ظهر لهذا المؤمن أن فرعون ذل لكلامه ارتفع إلى أصرح من الأسلوب الأول كما أخبرنا الله تعالى بقوله:

﴿ وقال الذي آمن ﴾ أي : بعد قول فرعون هذا الكلام الذي دل على عجزه وجهله وذله ﴿ يا قوم ﴾ وأكد لما رأى عندهم من إنكار أمره وخاف منهم اتهامه فقال : ﴿ إني أخاف عليكم ﴾ أي : من المكابرة في أمر موسى عليه السلام ﴿ مثل يوم الأحزاب ﴾ أي : أيام الأمم الماضية يعني وقائعهم وجمع الأحزاب مع التفسير أغنى عن جمع اليوم مع أن إفراده أردع وأقوى في التخويف وأفظع للإشارة إلى قوة الله تعالى وأنه قادر على إهلاكهم في أقل زمان .

ولما أجمل فصل وبين أو أبدل بعد أن هول بقوله:

﴿ مثل دأب ﴾ أي : عادة ﴿ قوم نوح ﴾ أي : فيما دهمهم من الهلاك الذي محقهم فلم

يطيقوه مع ما كان فيهم من قوة المجادلة والمقاومة لما يريدونه ﴿ وعاد وثمود ﴾ مع ما بلغكم من جبروتهم .

تنبيه : لابد من حذف مضاف يريد مثل جزاء دأبهم .

ولما كان هؤلاء أقوى الأمم اكتفى بهم وأجمل من بعدهم فقال : ﴿ والذين من بعدهم ﴾ أي : بالقرب من زمانهم كقوم لوط ﴿ وما الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ يريد ظلماً للعباد ﴾ أي : فلا يهلكهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم ولا يهلكهم بغير ذنب ولا يخلي الظالم منهم بغير انتقام وهو أبلغ من قوله تعالى : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ (فصلت :)

من حيث أن المنفي فيه حدوث تعلق إرادته بالظلم .

ولما أشرق من آفاق هذا الوعظ شمس البعث ونور الحشر قال:

﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم ﴾ وقوله : ﴿ يوم التناد ﴾ أجمع المفسرون أنه يوم البعث وفي تسميته بهذا الاسم وجوه ؛ أولها : أن أصحاب النار ينادون أصحاب الجنة وأصحاب الجنة ينادون أصحاب النار كما حكى الله تعالى عنهم ، ثانيها : قال الزجاج : هو قوله تعالى

﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ (الإسراء :)

ثالثها : ينادي بعض الظالمين بعضاً بالويل والثبور فيقولون يا ويلنا . رابعها : ينادون إلى المحشر . خامسها : ينادى المؤمن ﴿ هاؤم اقرؤوا كتابيه ﴾ (الحاقة :)

والكافر ﴿ يا ليتني لم أوت كتابيه ﴾ (الحاقة :)

. سادسها : ينادى باللعنة على الظالمين . سابعها : يجاء بالموت على صورة كبش أملح ثم يذبح بين الجنة والنار ثم ينادى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت .

ثامنها : ينادى بالسعادة والشقاوة إلا أن فلان بن فلان سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً وفلان بن فلان شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً وهذه الأمور كلها تجتمع في هذا اليوم فلا بد من تسميته بها كلها .

ولما كان عادة المتنادين الإقبال وصف ذلك اليوم بضد ذلك لشدة الأهوال فقال تعالى مبدلاً أو مبيناً :

﴿ يوم تولون ﴾ أي : عن الموقف ﴿ مدبرين ﴾ قال الضحاك : إذا سمعوا زفير النار وفروا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً فيرجعون إلى أماكنهم فذلك قوله تعالى : ﴿ والملك على إرجائها ﴾ (الحاقة :)

وقوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والأنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ (الرحمن :)

وقال مجاهد : فارين من النار غير معجزين ، وقيل : منصرفين عن الموقف إلى النار ثم أكد التهديد بقوله تعالى : ﴿ مالكم من الله ﴾ أي : الملك الجبار الذي لا يذل ﴿ من عاصم ﴾ أي : من فئة تحميكم وتنصركم وتمنعكم من عذابه .

ثم نبه على قوة ضلالهم وشدة جهالتهم فقال تعالى : ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي : الملك المحيط بكل شيء ﴿ فما له من هاد ﴾ أي : إلى شيء ينفعه بوجه من الوجوه .

(293/675)

تنبيه : في قراءة هاد ما تقدم في قوله : ﴿ من واق ﴾ (الرعد :)

ولما قال لهم مؤمن آل فرعون : ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ ذكر لهم مثالاً بقوله تعالى:

﴿ ولقد جاءكم ﴾ أي : جاء آباءكم يا معشر القبط ، ولكنه عبر بذلك دلالة على أنهم على مذهب الآباء كما جرت به العادة من التقليد ومن أنهم على طبعهم لا سيما أن كانوا لم يفارقوا مساكنهم ﴿ يوسف ﴾ أي : نبي الله ابن نبي الله يعقوب ابن نبي الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام ﴿ من قبل ﴾ أي : قبل زمن موسى عليه السلام ﴿ بالبينات ﴾ أي : الآيات الظاهرات لا سيما في أمر يوم التناد ﴿ فما

زلتم ﴾ أي : ما برحتم أنتم تبعاً لآبائكم ﴿ في شك ﴾ أي : محيط بكم لم تصلوا إلى رتبة الظن ﴿ مما جاءكم به ﴾ من التوحيد ، وقال ابن عباس : من عبادة الله وحده لا شريك له فلم تنتفعوا البتة بتلك البينات ودل على تمادي شكهم بقوله تعالى : ﴿ حتى إذا هلك ﴾ فهو غاية أي : فما زلتم في شك حتى هلك ﴿ قلتم لن يبعث الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ من بعده ﴾ أي : يوسف عليه السلام ﴿ رسولاً ﴾ أي : أقمتم على كفركم وظننتم أن الله لا يجدد عليكم الحجة ، وهذا ليس إقراراً منهم برسالته بل هو ضم منهم إلى الشك في رسالته والتكذيب برسالة من بعده وقوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ خبر مبتدأ مضمر أي : الأمر كذلك أو مثل هذا الضلال ﴿ يضل الله ﴾ أي : بما له من صفات القهر ﴿ من هو مسرف ﴾ أي : مشرك متغال في الأمور خارج عن الحدود ﴿ مرتاب ﴾ أي : شاك فيما تشهد به البينات بغلبة الوهم والانهماك في التقليد ثم بين تعالى ما لأجله بقوا في الشك والإسراف فقال سبحانه:

(294/675)

﴿ الذين يجادلون ﴾ وهو مبتدأ أي : يخاصمون خصاماً شديداً ﴿ في آيات الله ﴾ أي : المحيط بأوصاف الكمال لاسيما الآيات الدالة على يوم التناد فإنها أظهر الآيات ، وكذا

الآيات الدالة على وجوده سبحانه وتعالى وعلى ما هو عليه من الصفات والأفعال وما يجوز عليه أو يستحيل ﴿ بغير سلطان ﴾ أي : برهان ﴿ أتاهم ﴾ وقوله : ﴿ كبر ﴾ أي : جدالهم ﴿ مقتاً ﴾ خبر المبتدأ ويجوز في الذين أوجه أيضاً منها : أنه بدل من قوله تعالى : ﴿ من هو مسرف ﴾ وإنما جمع اعتباراً بمعنى من ، ومنها : أن يكون بياناً له ، ومنها : أن يكون صفة له وجمع على معنى من أيضاً ، ومنها أن ينصب بإضمار أعني ، وقال الزجاج قوله : ﴿ الذين يجادلون ﴾ تفسير لمسرف مرتاب يعني هم الذين يجادلون في آيات الله أي : في إبطالها بالتكذيب بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً ﴿ عند الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ و ﴾ كبر مقتاً أيضاً ﴿ عند الذين آمنوا ﴾ أي : الذين هم خاصته ، ودلت الآية على أنه يجوز وصفه تعالى بأنه مقت بعض عباده إلا أنها صفة واجبة التأويل في حق الله تعالى كالغضب والحياء والعجب وقوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي : ومثل هذا الطبع العظيم ﴿ يطبع الله ﴾ أي : الذي له جميع العظمة يدل على أن الكل من عند الله كما هو مذهب أهل السنة ﴿ على كل قلب متكبر ﴾ أي : متكلف ما ليس له وليس لأحد غير الله ﴿ جبار ﴾ أي : ظاهر الكبر قويه قهار ، وقال مقاتل : الفرق بين المتكبر والجبار أن المتكبر عن قبول التوحيد والجبار في غير الحق ، قال الرازي : كما أن السعادة في أمرين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، فعلى قول مقاتل المتكبر كالمضاد للتعظيم لأمر الله والجبار كالمضاد للشفقة على خلق الله ، وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان : بتنوين الباء

الموحدة ، ووصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه منبعهما كقولهم : رأت عيني وسمعت أذني أو على حذف مضاف أي : على كل ذي قلب متكبر جبار فهي حينئذ مساوية لقراءة الباقين بغير تنوين ثم إن فرعون عليه اللعنة أعرض عن جواب

(295/675)

المؤمن لأنه لم يجد فيه

مطعناً .

﴿ وقال فرعون يا هامان ﴾ وهو وزيره ﴿ ابن ﴾ وعرفه بشدة اهتمامه بالإضافة إليه في قوله ﴿ لي صرحاً ﴾ أي : بناء مكشوفاً عالياً لا يخفى على الناظر وإن بعد ، من صرح الشيء إذا ظهر ﴿ لعلي أبلغ الأسباب ﴾ أي : التي لا أسباب غيرها لعظمها ، وتعليله بالترجي الذي لا يكون إلا في الممكن دليل على أنه كان يلبس على قومه وهو يعرف الحق فإن عاقلاً لا يعد ما رامه في عداد الممكن العادي .

ولما كان بلوغها أمراً عظيماً أورده على نمط مشوق إليه ليعطيه السامع حقه من الاهتمام تفخيماً لشأنه ليتشوف السامع إلى بنائه بقوله : ﴿ أسباب السموات ﴾ أي : الأمور الموصلة إليها وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب إليه ، وقرأ الكوفيون بسكون الياء والباقون

بالفتح وقرأ ﴿ فاطلع ﴾ حفص بنصب العين وفيه ثلاثة أوجه ؛ أحدها : أنه جواب الأمر في قوله ابن لي فنصب بأن مضمرة بعد الفاء في جوابه على قاعدة البصريين كقوله:

*يا ناق سيري عنقاً فسيحاً **إلى سليمان فنستريحا*

(296/675)

وهذا أوفق لمذهب البصريين ، ثانيها : قال أبو حيان : أنه منصوب على التوهم لأن خبر لعل جاء مقروناً بأن كثيراً في النظم وقليلاً في النثر ، فمن نصب توهم أن الفعل المرفوع الواقع خبراً منصوب بأن والعطف على التوهم كثير وإن كان لا ينقاس ، ثالثها : على جواب الترجي في لعل وهو مذهب كوفي وإلى هذا نحا الزمخشري وتبعه البيضاوي قال : وهو الأولى تشبيهاً للترجي بالتمني والباقون عطفاً على أبلغ أي : فلعله يتسبب عن ذلك ويتعقبه أني أتكلف الطلوع ﴿ إلى إله موسى ﴾ ولعله أراد أن يبني له صرحاً في موضع عال يرصد فيه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله تعالى إياه أو أن يرى فساد قول موسى ، فإن أخباره عن إله السماء يتوقف على اطلاعه ووصوله إليه وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء وهو مما لا يقوى عليه الإنسان وذلك لجهله بالله تعالى وكيفية أسبابه ﴿ وإني لأظنه ﴾ أي : موسى عليه

السلام ﴿كاذباً﴾ في دعوى الرسالة وفي أن له إلهاً غيري قال فرعون : ذلك تمويهاً ﴿وكذلك﴾ أي : مثل ذلك التزيين العظيم الشأن ﴿زين﴾ أي : زين المزين النافذ الأمر وهو الله تعالى حقيقة بخلقه وإلزامه لأن كل ما دخل في الوجود من المحدثات فهو خلقه والشيطان مجازاً بالتسبب بالوسوسة التي هي بخلق الله تعالى ﴿لفرعون سوء عمله﴾ في جميع أمره فأقبل عليه راغباً فيه مع بعده عن عقل أقل ذوي العقول فضلاً عن ذوي الهمم منهم فضلاً عن الملوك وأطاعه فيه قومه وقرأ غير الكوفيين ﴿وصد﴾ بفتح الصاد أي : نفسه ومنع غيره ، وقرأ الكوفيون بضمها أي : منعه الله تعالى ﴿عن السبيل﴾ أي : طريق الهدى وهي الموصلة إلى الله تعالى ﴿وما كيد فرعون﴾ أي : في إبطال ما جاء به موسى عليه السلام ﴿إلا في تباب﴾ أي : خسار وهلاك عظيم محيط به لا يقدر على الخروج منه .

ولما كان فساد ما قال فرعون أظهر من أن يحتاج إلى بيان أعرض المؤمن عنه:

(297/675)

﴿وقال الذي آمن﴾ أي : مشيراً إلى وهن قول فرعون بالإعراض عنه بقوله : ﴿يا قوم﴾ أي : يا من لا قيام لي إلا بهم وأنا غير متهم في نصيحتهم ﴿اتبعوني﴾ أي : كلفوا أنفسكم

اتباعي لأن السعادة غالباً تكون فيما يكره الإنسان ﴿ أهدكم سبيل ﴾ أي : طريق ﴿ الرشاد ﴾ أي : الهدى لأنه مع سهولته واتساعه موصل ولا بد إلى المقصود ، وأما ما قال فرعون مدعياً أنه سبيل الرشاد فلا يوصل إلا إلى النار فهو تعريض به شبيه بالتصريح به ، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي لأدنى أهل الإيمان أن لا يخلي نفسه عن الوعظ لغيره ، وقرأ ابن كثير بإثبات الياء بعد النون وقفاً ووصلاً ، وأثبتها قالون وأبو عمرو وصلاً لا وقفاً ، وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً ثم إن ذلك المؤمن زهدهم في الدنيا وكرر :

﴿ يا قوم ﴾ كما كرر إبراهيم عليه السلام يا أبت زيادة في استعطافهم بقوله : ﴿ إنما هذه الحياة ﴾ وحقرها بقوله : ﴿ الدنيا ﴾ إشارة إلى دناءتها بقوله : ﴿ متاع ﴾ إشارة إلى أنها جيفة لأنها في اللغة من جملة مدلولات المتاع فلا يتناول منها إلا كما يتناول المضطر من الجيفة لأنها دار النقلة والزوال والتزود والارتحال ، والإخلاد إليها هو أصل الشر كله ومنه تشعب جميع ما يؤدي إلى سخط الله تعالى ويجلب الشقاوة في العاقبة ثم رغبهم في الآخرة بقوله : ﴿ وإن الآخرة ﴾ أي : لكونها مقصودة بالذات ﴿ هي دار القرار ﴾ أي : التي لا تحول منها أصلاً لأنها الوطن المستقر ، قال بعض العارفين : لو كانت الدنيا ذهباً فانياً والآخرة خزفاً باقياً لكانت الآخرة خيراً من الدنيا فكيف والدنيا خزف فان والآخرة ذهب باق بل أشرف وأحسن ، وكما أن النعيم فيها دائم فكذلك العذاب فكان الترغيب في نعيم الجنان والترهيب من عذاب النيران من أعظم وجوه الترغيب والترهيب . والآية

من الاحتباك ذكر المتاع أولاً دليلاً على حذف التوسع ثانياً والقرار ثانياً دليلاً على حذف الارتحال أولاً ثم قال ذلك المؤمن لقومه:

(298/675)

﴿ من عمل سيئة ﴾ أي : ما يسوء من أي صنف كان الذكور والإناث المؤمنين والكافرين ﴿ فلا يجزى ﴾ أي : من الملك الذي لا ملك سواه ﴿ إلا مثلها ﴾ عدلاً منه لا يزاد عليها مقدار ذرة ولا أصغر منها ﴿ ومن عمل صالحاً ﴾ أي : ولو قل ﴿ من ذكر أو أنثى وهو ﴾ أي : والحال أنه ﴿ مؤمن ﴾ إذ لا يصح عمل بدون إيمان ﴿ فأولئك ﴾ أي : العالو الرتبة والهمة ﴿ يدخلون الجنة ﴾ أي : بأمر من له الأمر كله بعد أن تضاعف لهم أعمالهم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة بضم الياء وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء ﴿ يرزقون فيها ﴾ أي : الجنة من غير احتياج إلى تحيل ولا إلى أسباب ﴿ بغير حساب ﴾ لخروج ما فيها لكثرته عن الحصر فإن أدنى أهلها منزلة لو أضاف كل أهل الأرض لكفاهم من غير أن ينقص من ملكه شيء ، وهذا من باب الفضل وفضل الله لا حد له ورحمته غلبت غضبه ، وأما جزاء السيئة فمن باب العدل فلذلك وقع الحساب فيها لئلا يقع الظلم ، قال الأصبهاني : فإذا عارضنا عمومات الوعيد بعمومات الوعد ترجح الوعد بسبق

الرحمة الغضب فانهدمت قواعد المعتزلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 313.302 ﴾

(299/675)

وقال القاسمي :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾

يعني حصونهم وقصورهم وعددهم : ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ ﴾ أي : بآيات نبوته : ﴿ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ ﴾ أي : قالوا أعيدوا عليهم القتل ، كالذي كان أولاً ، واستبقوا نسائهم للخدمة : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي : وما مكرهم في دفع ما أراد الله من ظهور دينه ، إلا في ضياع ؛ إذ هو كالغثاء الذي يقذفه تيار الحق .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أي : ما أنتم

عليه من عبادة الأصنام : ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ أي : فساد مملكتي ؛ إذ يتفق الكل على متابعته ، وإجراء أحكامه .

(300/675)

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أي : التجأت إليه وتوكلت عليه ، فهو ناصر دينه ، ومعزّ أهله .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ أي : من فرعون وملئه : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ أي : من عذاب الدنيا إن تعرضتم له . وقد أشار الزمخشري إلى ما في طي هذا القول من اللطائف والأسرار ، بما ملخصه : إن هذا المؤمن استدرجهم في الإيمان باستشهاده على صدق موسى ، بإحضاره عليه السلام من عند مَن تنسب إليه الربوبية ، بينات عدة لا بينة واحدة ، وأتى بها معرفة ، معناه البينات العظيمة التي شهدتموها وعرفتموها على ذلك ، ليلين بذلك جماحهم ، ويكسر من سورتهم .

(301/675)

ثم أخذهم بالاحتجاج بطريق التقسيم ، فقال : لا يخلو من أن يكون صادقاً أو كاذباً . فإن يك كاذباً فضرر كذبه عائد عليه . أو صادقاً فيصبكم ، إن تعرضتم له ، بعضُ الذي يعدكم . وإنما ذكر بعض ، في تقدير أنه نبي صادق ، والنبي صادق في جميع ما يَعِدُ به ، لأنه سلك معهم طريق المناصحة لهم والمداراة ، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم ، وأدخل في تصديقهم له ، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه صحته ، وذلك أنه حين فرضه صادقاً ، فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يَعِدُ . ولكنه أردفه : ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام ، ليريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه ، وأثنى عليه ، فضلاً عن أن يكون متعصباً له ، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل .

قال الناصر : ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا ، قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : 26 – 27] ، فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف ، وإن كان الصادق هو يوسف ، دونها ، لرفع التهمة وإبعاد الظن ، وإدلالاً بأن الحق معه ، ولا يضره التأخير لهذه الفائدة . وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة ، ما في قصة يوسف مع أخيه ؛ إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . انتهى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ قال الزمخشري : يحتمل أنه إن كان مسرفاً كذاباً ، خذله

الله وأهلكه ، ولم يستقم له أمر ، فتتخلصون منه ، وأنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله للنبوة ، ولما عضده بالبينات .

(302/675)

﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : عالين وقاهرين ، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم بأنفسكم ، ولا تعرضونا لعذابه تعالى : ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ أي : ما أشير عليكم إلا ما أستصوبه من قتله ؛ إذ البأس السماوي من أجل قتله ، أمر متوهم . فإتباعه غلط : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ ﴾ أي : بإراءة رأي قتله : ﴿ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وهو دفع تبدل دينكم ، وإظهار الفساد في الأرض ، بإظهار أحكامه .

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم ﴾ أي : من قتله : ﴿ مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ أي : الطوائف الهالكة بالتكذيب : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي : جزائهم من الغرق : ﴿ وَعَادٍ ﴾ أي : من الريح العقيم : ﴿ وَثَمُودَ ﴾ أي : الصيحة : ﴿ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي : من الأمم المكذبة ، مما يدل على أن الهلاك سنة مستمرة لأهل التكذيب ؛ إذ لم يكن لهم ذنب آخر يوجبه : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ أي : فلا يعاقبهم بغير ذنب .

﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ يعني يوم القيامة ، أي : عذابه . سمي بذلك لما جاء في حديث < أن الأرض إذا زلزلت ، وانشقت من قطر إلى قطر ، وماجت وارتجت ، فنظر الناس إلى ذلك ، ذهبوا هاربين ينادي بعضهم بعضاً > أي : من هول فزع النفخة . وقال قتادة : ينادي كل قوم بأعمالهم ؛ ينادي أهل الجنة أهلَ الجنة وأهل النار أهلَ النار . وقيل لمناداة أهل الجنة أهل النار : ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴾ [الأعراف : 44] ، ومناداة أهل النار أهل الجنة : ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : 50] ، واختار البغوي وغيره أنه سُمّي لمجموع ذلك ؛ أي : لوقوع الكل فيه . ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي : ذاهبين فراراً من الفزع الأكبر : ﴿ كَلَّا لا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة : 11 - 12] ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي : من عذابه ، من مانع ، لتقرر الحجة عليكم : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ﴾ أي : بزيغه عن صراط ربه : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي : من حجة ، ولا مرشد إلى النجاة .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : من قبل مجيء موسى بالحجج البينة والبراهين النيرة ، على وجوب عبادته تعالى وحده . كقوله : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : 39] ، ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ﴾ أي : مع ظهور استقامته الكافية في الدلالة على صحة ما جاءكم به ، فلم يزل يقررها : ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ ﴾ أي : مات : ﴿ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ أي : يقرر حججه . فقطعتم من عند أنفسكم ، بعدم إرسال الله الرسول ، مع الشك في إرسال من أعطاه البيانات ، من فرط ضلالكم : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ أي : في التشكيك عند ظهور البراهين القطيعة : ﴿ مُّرْتَابٌ ﴾ أي : شاك مع ظهور لوائح اليقين .

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ أي : برهان : ﴿ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ أي : بطر للحق ، لا يقبل الحجة ، جبار في المجادلة ، ألدّ فيصدر عنه أمثال ما ذكر ، من الإسراف ، والارتياب ، والمجادلة في الباطل لطمس بصيرته ، فلا يكاد يظهر له الحق .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً ﴾ أي : قصراً عالياً ظاهراً لكل أحد : ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ ﴾ أي : طرقها : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ أي : لأسأله عن إرساله ، أو لأقف على كنهه : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ قال ابن جرير : أي : لأظن موسى كاذباً فيما يقول ويدعي ، من أن له في السماء ربّاً أرسله إلينا : ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أي : سبيل الرشاد لما طبع على قلبه ، من كبره ، وتجبّره ، وإسرافه ، وإرتيابه : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ أي : خسار وهلاك ، لذهاب نفقته على الصرح سدى ، وعدم نيله ، مما أراده من الاطلاع ، شيئاً .

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أي : طريق الصواب الذي ترشدون إذا أخذتم فيه ، واستكملتموه . ثم أشار إلى تفصيل ما أجمله بقوله :

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أي : تمتع يسير ، لسرعة زوالها : ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ ﴾ التي يوصل إليها سبيلي : ﴿ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أي : الاستقرار ، والخلود .

(306/675)

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي : بغير تقدير ، وموازنة بالعمل . بل أضعافاً

مضاعفة . قال الزمخشري : قوله : ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ واقع في مقابلة : ﴿ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ يعني أن جزاء السيئة له حساب وتقدير ، لئلا يزيد على الاستحقاق ، فأما جزاء العمل الصالح فبغيره تقدير وحساب ، بل ما شئت من الزيادة والكثرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 193.198 ﴾

(307/675)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿ حم ﴾ : كقوله : ﴿ الم ﴾ وبابه . وقرأ الأخَوان وأبو بكر وابن ذكوان بإمالة حاء في السورِ السبعِ إمالةً محضةً وورش وأبو عمرو بالإِمالة بينَ بينَ ، والباقون بالفتح . والعامَّةُ على سكونِ الميم كسائرِ الحروفِ المقطعة . وقرأ الزهري برفعِ الميم على أنَّها خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أو مبتدأٌ والخبرُ ما بعدها . وابن أبي إسحاق وعيسى بفتحِها ، وهي تحتملُ وجهين ، أحدهما : أنها منصوبةٌ بفعلٍ مقدرٍ أي : اقرأ حم ، وإنما مُنِعَتْ من الصرف للعلميَّةِ والتأنيثِ ، أو للعلميَّة وشبهِ العُجمة . وذلك أنه ليس في الأوزان العربيةِ وزنُ فاعيل

بخلافِ الأعجمية ، نحو : قابيل وهابيل . والثاني : أنها حركةُ بناءٍ تخفيفاً كـ أينَ وكيف .

وفي احتمال هذين الوجهين قولُ الكميت :

3908 وَجَدْنا لكم في آلِ حَمَ آيةً . . . تَأَوَّلَها منا تقيٌّ ومُعْرِبُ

وقول شريح بن أوفى :

3909 يُذَكِّرُني حمَ والرُّمْحُ شاجِرٌ . . . فهلا تلا حمَ قبلَ التقدُّمِ

وقرأ أبو السَّمَّال بكسرِها ، وهل يجوز أَنْ تُجْمَعَ " حم " على حواميم ، نَقَل ابنُ الجوزي عن شيخِه الجواليقي أنه خطأٌ ، بل الصوابُ أَنْ يقولَ : قَرَأْتُ آلَ حم . وفي الحديث عن ابن مسعود عنه عليه السلام : " إذا وَقَعْتَ في آلِ حم وَقَعْتَ في رَوْضَاتٍ " وقال الكميت :

3910 وَجَدْنا لكم في آلِ حم . . . . . .

. . . . . .

البيت . ومنهم مَنْ جَوَّزَه . ورُوِيَ في ذلك أحاديثُ منها : " الحواميم ديباجُ القرآن " ومنها : " مَنْ أرادَ أَنْ يرتعَ في رياضٍ مُونِقَةٍ من الجنة فليقرأْ الحواميم " ومنها : " مَثَلُ الحواميم في القرآن مَثَلُ الحَبِرات في الثياب " فإنْ صَحَّتْ هذه الأحاديثُ فهي الفَيْصَلُ في ذلك .

(308/675)

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2)

قوله : ﴿ تَنزِيلُ ﴾ : إمَّا خبرٌ ل " حَم " إنْ كانت مبتدأً ، وإمَّا خبرٌ لمبتدأ مضمرٍ ، وإمَّا مبتدأٌ . وخبرُه الجارُّ بعدَه .

غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

قوله : ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ﴾ في هذه الأوصافِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنها كلَّها صفاتٌ للجلالة كالعزيز العليم . وإنما جازَ وَصْفُ المعرفةِ بهذه وإنْ كانَتْ إضافتُها لفظيةً ؛ لأنه يجوزُ أَنْ تُجْعَلَ إضافتُها معنويةً فتتعرَّفَ بالإضافةِ . نَصَّ سيبويه على أنَّ كلَّ ما إضافتُه غيرُ مَحْضةٍ جاز أن يُجْعَلَ مَحْضةً ، وتُوصفَ به المعارفُ ، إلاَّ الصفةَ المشبهةَ ، ولم يَسْتَثْنِ غيرُه شيئاً وهم الكوفيون . يقولون في نحو : " حَسَنُ الوجهِ " إنه يجوزُ أن تصيرَ إضافتُه محضةً . وعلى هذا فقولُه " شديد العقابِ " من بابِ الصفةِ المشبهةِ فكيف أجزْتَ جَعْلَه صفةً للمعرفة وهو لا يَتَعَرَّفُ بالإضافة ؟

والجواب : إمَّا بالتزامِ مَذْهَبِ الكوفيين : وهو أنَّ الصفةَ المشبهةَ يجوزُ أَنْ تَتَمَحَّضَ إضافتُها أيضاً ، فتكونَ معرفةً ، وإمَّا بأنَّ شديداً بمعنى / مُشَدِّدك أَذِّنْ بمعنى مُؤَذِّن فتتمحَّضُ إضافتُه .

الثاني : أَنْ يكونَ الكلُّ أبدالاً لأنَّ إضافتَها غيرُ محضةٍ ، قاله الزمخشري . إلاَّ أنَّ الإبدال بالمشتقِّ قليلٌ جداً ، إلاَّ أن يُهْجَرَ فيها جانبُ الوصفية .

الثالث : أَنْ يكونَ " غافر " و " قابل " نعتَيْن و " شديد " بدلاً ، لِما تقدَّم : مِنْ أنَّ الصفةَ المشبهةَ لا تتعرَّفُ بالإِضافة ، قاله الزجَّاج . إلاَّ أنَّ الزمخشريَّ قال : " جَعْلُ الزجَّاجِ " شديد العقاب " وحدَه بدلاً من الصفاتِ ، فيه نُبُوٌّ ظاهرٌ ، والوجهُ أن يُقال : لَمَّا صُودِفَ بين هذه المعارفِ هذه النكرةُ الواحدةُ فقد آذَنَتْ بأنَّ كلَّها أبدالٌ غيرُ أوصافٍ . ومثالُ ذلك قصيدةٌ جاءت تفاعيلُها كلُّها على مستفعلن فهي محكومٌ عليها أنها من الرَجَز ، وإنْ وقع فيها جزءٌ واحدٌ على مَتَفاعلن كانت من الكامِل " . وقد ناقشه الشيخ فقال : " ولا نُبُوَّ في ذلك لأنَّ الجَرْيَ على القواعِدِ التي قد استقرَّتْ وصَحَّتْ هو الأصلُ وقوله : " فقد آذَنَتْ بأنَّ كلَّها أبدالٌ " تركيبٌ غيرُ عربيٍ ؛ لأنه جَعَل " فقد آذَنَتْ " جوابَ لَمَّا ، وليس من كلامهم " لَمَّا قام زيدٌ فقد قام عمروٌ " . وقولُه : بأنَّ كلَّها أبدالٌ فيه تكريرٌ للأبدالِ . أمَّا بَدَلُ البَداءِ عند مَنْ أثبتَه فقد تكرَّرَتْ فيه الأبدالُ . وأمَّا بدلُ كلٍ مِنْ كلٍ وبعضٍ مِنْ كلٍ وبدلُ اشتمالٍ فلا نصَّ عن أحد من النحويين أَعْرِفُه في جوازِ التكرارِ فيها أو مَنْعِه . إلاَّ أنَّ في كلامِ بعضِ أصحابِنا ما يَدُلُّ على أنَّ البدلَ لا يُكَرَّرُ ، وذلك في قول الشاعر :

3911 فإلى ابنِ أُمِّ أُناسٍ أَرْحَلُ ناقتي . . . عمْروٍ فتُبْلِغُ حاجتي أو تُزْحِفُ

مَلِكٍ إذا نَزَلَ الوفودُ ببابه . . . عَرَفُوا مواردَ مُزْبِدٍ لا يُنْزَفُ

قال : " فَ " مَلِكٍ " بدلٌ مِنْ " عمرو " بدلُ نكرةٍ مِنْ معرفة قال : " فإنْ قلتَ : لِمَ لا يكونُ بدلاً من " ابن أمِّ أناسٍ ؟ " قلت : لأنَّه أبدلَ منه عَمْراً ، فلا يجوزُ أَنْ يُبْدَلَ منه مرة أخرى لأنَّه قد طُرِحَ " انتهى .

(310/675)

قال الشيخ : " فَدَلَّ هذا على أنَّ البدلَ لا يتكرَّرُ ويَتَّحد المبدلُ منه ، ودَلَّ على أنَّ البدلَ من البدلِ جائزٌ " . قلت : وقد تقدَّم له هذا البحثُ آخرَ الفاتحةِ عند قوله : ﴿ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِم ﴾ [الفاتحة : 7] فعليك بمراجعته قال : " وقولُه تفاعيلُها هو جمعُ تفْعال أو تَفْعُول أو تُفْعُول أو تَفْعيل وليس شيءٌ منها معدوداً من أجزاء العَروض فإنَّ أجزاءَه منحصرةٌ ليس فيها شيءٌ من هذه الأوزانِ ، فصوابُه أَنْ يقولَ : جاءت أجزاؤُها كلُّها على مُستفعلن " .

وقال الزمخشري أيضاً : " ولقائل أَنْ يقولَ : هي صفاتٌ وإنما حُذِفت الألفُ واللامُ مِنْ " شديد " ليزاوجَ ما قبلَه وما بعدَه لفظاً فقد غَيَّروا كثيراً مِنْ كلامِهم عن قوانينِه لأجلِ الازدواجِ ، فقالوا : " ما يعرف سحادليه مِنْ عبادليه " فَثَنَّوا ما هو وِتْرٌ لأجلِ ما هو شَفْعٌ . على أن الخليلَ قال في قولهم : " ما يَحْسُنُ بالرجلِ مثلِك أَنْ يَفْعل ذلك " و " ما يَحْسُن

بالرجلِ خيرٍ منك " إنه على نيةِ الألفِ واللامِ ، كما كان " الجَمَّاء الغفير " على نيةِ طرحِ الألفِ واللامِ . ومما سهَّل ذلك الأمنُ من اللَّبْسِ وجَهالَةُ الموصوفِ " . قال الشيخُ : " ولا ضرورةَ إلى حَذْفِ أل مِنْ " شديد العقاب " وتشبيهُه بنادرٍ مُغَيَّرٍ وهو تثنيةُ الوِتْرِ لأجلِ الشَّفْعِ ، فيُنَزَّه كتابُ اللهِ عن ذلك " . قلت : أمَّا الازدواجُ – وهو المشاكلة – من حيث هو فإنه واقعٌ في القرآن ، مضى لك منه مواضعُ .

(311/675)

وقال الزمخشري أيضاً : " ويجوز أَنْ يقالَ : قد تُعُمِّد تنكيرُه وإبهامُه للدلالةِ على فَرْطِ الشِّدَّةِ وعلى ما لا شيءَ أَدْهَى منه وأَمَرُّ لزيادةِ الإنذار . ويجوز أَنْ يُقالَ : هذه النكتةُ هي الداعيةُ إلى اختيار البدلِ على الوصفِ ، إذا سُلِكَتْ طريقةُ الإبدالِ " انتهى . وقال مكي : " يجوزُ في " غافر " و " قابل " البدلُ على أنهما نكرتان لاستقبالِهما ، والوصفُ على أنهما معرفتان لمُضِيِّهما " .

وقال فخر الدين الرازي : " لا نِزاعَ في جَعْلِ غافر وقابل صفةً ، وإنما كانا كذلك لأنهما يُفيدان معنى الدَّوامِ والاستمرارِ ، فكذلك " شديدُ العقابِ " يُفيدُ ذلك ؛ لأنَّ صفاتِه مُنَزَّهةٌ عن الحدوث والتجدُّدِ فمعناه كونُه بحيث شديدٌ عقابُه . وهذا المعنى حاصلٌ أبداً

لا يُوْصَف/ بأَنَّه حَصَلَ بعد أَنْ لم يكنْ " .

قال الشيخ : " وهذا كلامُ مَنْ لم يَقِفْ على علمِ النحوِ ولا نظرَ فيه ويَلْزَمُه أَنْ يكونَ ﴿ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : 6] و ﴿ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 55] معارفَ لتنزيهِ صفاتِه عن الحُدوثِ والتجدُّدِ ، ولأنها صفاتٌ لم تَحْصُلْ بعد أَنْ لم تكنْ ، ويكونُ تعريفُ صفاتِه بأل وتنكيرُها سواءً ، وهذا لا يقولُه مُبْتدئٌ في علم النحو ، بَلْهَ أَنْ يُصَنِّفَ فيه ويُقْدِمَ على تفسيرِ كتابِ اللَّهِ تعالى " انتهى .

وقد سُرِدَتْ هذه الصفاتُ كُلُّها مِنْ غير عاطفٍ إلاَّ " قابِل التوب " قال بعضهم : " وإنما عُطِفَ لاجتماعِهما وتلازُمِهما وعَدَمِ انفكاكِ أحدِهما عن الآخر ، وقَطَعَ " شديدِ " عنهما فلم يُعْطَفْ لانفرادِه " . قال الشيخ : " وفيه نَزْعَةٌ اعتزاليَّةٌ . ومَذْهَبُ أهلِ السنة جوازُ الغفران للعاصي وإن لم يَتُبْ إلاَّ الشركَ " . قلت : وما أبعده عن نزعةِ الاعتزال . ثم أقول : التلازمُ لازمٌ مِنْ جهةِ أنه تعالى متى قَبِل التوبة فقد غَفَرَ الذنب وهو كافٍ في التلازم .

(312/675)

وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما بالُ الواوِ في قولِه : " وقابِلِ التَّوْبِ ؟ " قلت : فيها نُكْتَةٌ جليلةٌ : وهي إفادةُ الجمعِ للمذنب التائبِ بين رحمتين : بين أَنْ يَقْبَلَ توبتَه فيكتبَها طاعةً من

الطاعات وأنْ يجعلَها مَحَّاءةً للذنوب كمَنْ لم يُذْنِبْ كأنه قال : جامع المغفرةِ والقَبول " انتهى .

وبعد هذا الكلام الأنيق وإبرازِ هذه المعاني الحسنةِ . قال الشيخ : " وما أكثرَ تبجُّجَ هذا الرجلِ وشَقْشَقَتَه والذي أفاد أن الواوَ للجمعِ ، وهذا معروفٌ من ظاهرِ عَلِمِ النحوِ " .

قلت : وقد أنشدني بَعضُهم :

3912 وكم مِنْ عائبٍ قَوْلاً صحيحاً . . . وآفَتُه من الفَهْمِ السَّقيمِ

وقال آخر :

3913 قد تُنْكِرُ العينُ ضوءَ الشمسِ مِنْ رَمَدٍ . . . ويُنكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ

والتَّوْبُ : يُحتمل أَنْ يكونَ اسماً مفرداً مُراداً به الجنسُ كالذَّنب ، وأَنْ يكونَ جمعاً لتَوْبة كتَمْرٍ وتَمْرَة . و " ذي الطَّوْلِ " نعتٌ أو بدلٌ كما تقدَّمَ . والطَّوْلُ : سَعَةُ الفَضْلِ .

و﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ يجوزُ أَنْ يكون مستأنفاً ، وأَنْ يكونَ حالاً ، وهي حالٌ لازمةٌ ، وقال أبو البقاء : " يجوزُ أَنْ يكونَ صفةً " ، وعلى هذا ظاهرُه فاسدٌ ؛ لأنَّ الجملةَ لا تكونُ صفةً للمعارفِ . ويمكنُ أَنْ يريدَ أنه صفةٌ لـ " شديد العقاب " لأنَّه لم يتعرَّفْ عنده بالإضافةِ .

والقولُ في " إليه المصيرُ " كالقولِ في الجملةِ قبله ، ويجوزُ أَنْ يكونَ حالاً من الجملةِ قبلَه .

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (4)

وقرأ العامَّةُ " فلا يَغْرُرْكَ " بالفكِّ ، وهي لغةُ الحجازِ . وزيد ابن علي وعبيد بن عُمَيْر " فلا يَغُرَّكَ " بالإدغامِ مفتوحَ الراءِ ، وهي لغةُ تميمٍ .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (5)

وقرأ عبد الله " برَسولها " أعاد الضميرَ على لفظ " أُمَّة " . والجمهورُ على معناها ، وفي قوله : " لِيَأْخُذوه " عبارةٌ عن المُسَبَّبِ بالسبب ؛ وذلك أنَّ القَتْلَ مُسَبَّبٌ عن الأَخْذِ ، ومنه قيل للأسير : " أَخِيْذ " . وقال :

3914 فإمَّا تَأْخُذُوني تَقْتُلوني . . . فكَمْ مِنْ آخِذٍ يَهْوَى خُلودي

وقوله : " عِقابِ " فيه اجتزاءٌ بالكسرةِ عن ياء المتكلم وصلاً ، ووقفاً ، لأَنَّها رأسُ فاصلةٍ .

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (6)

قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ : تحتمل الكافُ أَنْ تكونَ مرفوعةَ المحلِّ على خبرِ مبتدأ مضمرٍ أي : والأمرُ كذلك ، ثم أخبر بأنه حَقَّتْ كلمةُ اللَّهِ عليهم بالعذاب ، وأَنْ تكونَ نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ ، أي : مثلَ ذلك الوجوبِ مِنْ عقابِهم وَجَبَ على الكفرةِ .

وقوله : " أنهم أصحابُ " يجوز أَنْ يكونَ على حَذْفِ حرفِ الجرِّ أي : لأَنَّهم ، فَحَذَفَ ،

فيجري في محلّها القولان . ويجوز أَنْ يكونَ في محلِّ رفعٍ بدلاً مِنْ "كلمةُ" . وقد تقدَّم خلافُهم في إفراد "كلمة" وجَمْعِها .

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7)

قوله : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ ﴾ : مبتدأٌ "ويُسَبِّحون" خبرُه .

(314/675)

والعامَّةُ على فتح عين "العَرْش" . وابن عباس في آخرين بضمها فقيل : يُحْتَمَل أَنْ يكونَ جمعاً ل "عَرْش" كـ سُقْف في سَقْف .

وقوله : "ومَنْ حَوْلَه" يَحْتمل أَنْ يكونَ مرفوعَ المحلِّ عطفاً على "الذين يَحْملون" أَخْبر عن الفريقين بأنهم يُسَبِّحون ، وهذا هو الظاهرُ ، وأَنْ يكونَ منصوبَ المحلِّ عَطْفاً على العرش ، يعني أَنَّهم يَحْملون أيضاً الملائكةَ الحافِّين بالعرشِ . وليس بظاهرٍ .

قوله : "رَبَّنا" / معمولٌ لقولٍ مضمرٍ تقديرُه : يقولون ربَّنا . والقولُ المضمرُ في محلِّ نصبٍ على الحال مِنْ فاعل "يَسْتَغْفرون" أو خبرٌ بعد خبرٍ ، و "رحمةً وعِلْماً" تمييزٌ منقولٌ من

الفاعلية ، أي : وسِع كلَّ شيءٍ رحمتُك وعِلْمُك .

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8)

قوله : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَّهُمْ ﴾ : قد تقدَّمَ نظيرُها في مريم . والعامَّةُ على " جناتِ " جمعاً ، والأعمش وزيد بن علي " جنة " بالإفراد .

قوله : " ومَنْ صَلَحَ " في محلِّ نصبٍ : إمَّا عطفاً على مفعولِ " أَدْخِلْهُمْ " ، وإمَّا على مفعولِ " وَعَدْتَهم " . وقال الفراء والزجاج : " نصبُه مِنْ مكانَيْنِ : إنْ شئتَ على الضميرِ في " أَدْخِلْهم " ، وإنْ شِئْتَ على الضميرِ في وَعَدْتَهم " .

والعامَّةُ على فتحِ لامِ " صَلَح " يقال : صَلُح فهو صالحٌ . وابنُ أبي عبلة بضمِّها يُقال : صَلَح فهو صَليح . والعامَّةُ على " ذُرِّيَّاتهم " جمعاً . وعيسى " وذُرِّيَّتهم " إفراداً .

وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

(315/675)

قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ : التنوينُ عِوَضٌ مِنْ جملةٍ محذوفةٍ ، ولكنْ ليس في الكلامِ جملةٌ مُصرَّحٌ بها ، عُوِّض منها هذا التنوينُ ، بخلافِ قولِه : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة : 84

] أي : حينَ إذْ بَلَغَتِ الحلقومَ ، لتقدُّمِها في اللفظِ ، فلا بُدَّ مِنْ تقديرِ جملةٍ ، يكون هذا عوضاً منها تقديرُه : يوم إذْ يُؤَاخَذُ بها .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10)

قوله : ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ ﴾ : منصوبٌ بمقدرٍ ، يَدُلُّ عليه هذا الظاهرُ ، تقديرُه : مَقْتِكم إذ تُدْعَوْن . وقَدَّره بعضُهم : اذكُروا إذْ تُدْعَوْن . وجَوَّز الزمخشريُّ أَنْ يكونَ منصوباً بالمَقْتِ الأول . ورَدَّ عليه الشيخُ : بأَنَّه يَلْزَمُ منه الفَصْلُ بين المصدرِ ومعمولِه بأجنبيّ وهو الخبرُ . وقال : " هذا مِنْ ظواهرِ علمِ النحوِ التي لا تكاد تَخْفَى على المبتَدِئ فَضْلاً عَمَّنْ يُدْعَى من العجم أنه شيخُ العربِ والعَجَم " . قلت : مثلُ هذا لا يَخْفى على أبي القاسم ، وإنما أراد أنه دالٌّ على ناصبه ، وعلى تقديرِ ذلك فهو مذهبٌ كوفيٌّ قال به ، أو لأنَّ الظرفَ يُتَّسَعُ فيه ما لا يُتَّسَعُ في غيره . وأيُّ غُموضٍ في هذا حتى يُنْحِي عليه هذا الإِنْحاءَ ؟ ولله القائلُ :

3915 حَسَدُوا الفتى إذ لم يَنالُوا سَعْيَه . . . فالقومُ أعداءٌ له وخُصومُ

كضَرائرِ الحَسْناءِ قُلْنَ لوَجْهِها . . . كَذِباً وزُوْراً إنه لدَمِيمُ

(316/675)

وهذا الردُّ سبقه إليه أبو البقاء ، فقال : " ولا يجوزُ أن يَعْمَلَ فيه " مَقْتُ الله " لأنه مصدرٌ أُخْبِرَ عنه ، وهو قولُه : " أكبرُ " . فمِنْ ثَمَّ أَخَذه الشيخُ . ولا يجوزُ أَنْ ينتصِبَ بالمَقْتِ الثاني ؛ لأنهم لم يَمْقُتوا أنفسَهم وَقْتَ دعائِهم إلى الإيمان ، إنما مَقَتُوها يومَ القيامةِ . والظاهرُ أنَّ مَقْتَ اللَّهِ واقعٌ في الدنيا . وجَوَّزَ الحسنُ أَنْ يكون في الآخرة . وضَعَّفه الشيخُ : بأنه "يَبْقى " إذْ تُدْعَوْن " مُفْلَتاً من الكلامِ ؛ لكونِه ليس له عاملٌ مقدمٌ ولا ما يُفَسِّر عاملاً . فإذا كان المَقْتُ في الدنيا أَمْكَنَ أَنْ يُضْمَرَ له عاملٌ تقديرُه : مَقْتِكم " . قلت : وهذا التجرُّؤُ على مثلِ الحسنِ يُهَوِّنُ عليك تَجَرُّؤَه على الزمخشريِّ ونحوِه .

واللامُ في " لَمَقْتُ " لامُ ابتداءٍ أو قسمٍ . ومفعولُه محذوفٌ أي : لمقتُ اللَّهِ إياكم أو أنفسَكم ، فهو مصدرٌ مضافٌ لفاعِله كالثاني . ولا يجوزُ أَنْ تكون المسألةُ من بابِ التنازعِ في " أنفسَكم " بين المقتَيْن لئلا يَلزمَ الفصلُ بالخبرِ بين المَقْتِ الأول ومعمولِه على تقديرِ إعمالِه ، لكنْ قد اختلف النحاةُ في مسألةٍ : وهي التنازعُ في فِعْلَيْ التعجب ، فَمَنْ مَنَعَ اعتَلَّ بما ذكرْتُه ؛ لأنه لا يُفْصَلُ بين فعلِ التعجبِ ومعمولِه . ومَنْ جَوَّزَ قال : يُلتزم إعمالُ الثاني ؛ حتى لا يَلْزَمَ الفَصْلُ . فليكُنْ هذا منه . والحقُّ عدمُ الجوازِ فإنَّه على خلافِ قاعدةِ التنازعِ .

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12)

قوله : ﴿ وَحْدَهُ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه مصدرٌ في موضعِ الحالِ ، وجاز كونُه معرفة لفظاً لكونِه في قوةِ النكرةِ كأنه قيل : منفرداً . والثاني : – وهو قولُ يونس – أنه منصوبٌ على الظرفِ ، والتقدير : دُعِي على حِيالِه ، وهو مصدرٌ محذوفُ الزوائدِ والأصلُ : أَوْحَدْتُه إيحاداً .

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15)

قوله : ﴿ رَفِيعُ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أَنْ يكونَ مبتدأً والخبرُ " ذو العرشِ " ، و " يُلْقي الروحَ " / يجوز أَنْ يكونَ خبراً ثانياً ، وأن يكونَ حالاً ، ويجوز أَنْ تكونَ الثلاثةُ أخباراً لمبتدأ محذوفٍ . ويجوز أَنْ تكونَ الثلاثةُ أخباراً لقولِه : ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ . قال الزمخشري : " ثلاثةُ أخبارٍ يجوز أَنْ تكونَ مترتبةً على قولِه : ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ ، أو أخبارَ مبتدأ محذوفٍ وهي مختلفةٌ تعريفاً وتنكيراً " . قلت : أمَّا الأولُ ففيه طولُ الفَصْلِ وتعدُّدُ الأخبارِ ، وليسَتْ في معنى خبرٍ واحدٍ . وأمَّا الثاني ففيه تَعدُّدُ الأخبارِ وليسَتْ في معنى خبرٍ واحدٍ ، وهي مسألةُ خلافٍ . ولا يجوز أَنْ يكونَ " ذو العرش " صفةً لـ " رفيعُ الدرجاتِ " إنْ جَعَلْناه صفةً مشبهةً ، أمَّا إذا جَعَلْناه مثالَ مبالغةٍ ، أي : يرفع درجاتِ المؤمنين ، فيجوزُ ذلك على أَنْ تُجْعَلَ إضافتُه مَحْضَةً ، وكذلك عند مَنْ يُجَوِّزُ تَمحُّضَ

إضافةِ الصفةِ المشبهة أيضاً ، وقد تقدَّمَ .

وقُرِئ " رفيعَ " بالنصبِ على المدح ، و " مِنْ أَمْرِه " متعلّقٌ ب "يُلْقِي " و " مِنْ " لابتداءِ الغايةِ . ويجوز أَن يكونَ متعلّقاً بمحذوفٍ على أنه حالٌ من " الروح " .

(318/675)

قوله : " لِيُنْذِرَ " العامَّةُ على بنائِه للفاعلِ ، ونصبِ اليوم . والفاعلُ هو اللَّهُ تعالى أو الروح أو مَنْ يشاء أو الرسول . ونَصْبُ اليوم : إمَّا على الظرفيَّةِ . والمُنْذَرُ به محذوفٌ تقديرُه : لِيُنْذِرَ بالعذابِ يومَ التَّلاق ، وإمَّا على المفعول به اتّساعاً في الظرفِ .

وقرأ أُبَيٌّ وجماعةٌ كذلك ، إلاَّ أنه رَفَع اليوم على الفاعليَّةِ مجازاً أي : لِيُنْذِرِ الناسَ العذابَ يومُ التلاق . وقرأ الحسن واليمانيُّ " لِتُنْذِرَ " بالتاءِ من فوقُ . وفيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ الفاعلَ ضميرُ المخاطب ، وهو الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم . والثاني : أنَّ الفاعلَ ضميرُ الروحِ فإنَّها مؤنثةٌ على رَأْيٍ . وقرأ اليمانيُّ أيضاً " لِيُنْذَرَ " مبنياً للمفعول ، " يومُ " بالرفعِ ، وهي تُؤَيِّدُ نصبَه في قراءةِ الجمهور على المفعول به اتّساعاً .

وأثبت ياءَ " التلاقي " وَصْلاً ووَقْفاً ابن كثير وأَثْبَتها في الوقف دونَ الوصل – مِنْ غير خِلافٍ – ورشٌ ، وحَذَفها الباقون وَصْلاً ووقفاً ، إلاَّ قالونَ فإنه رُوِيَ عنه وجهان : وجهٌ

كورش ، ووجهٌ كالباقين ، وكذلك هذا الخلافُ بعينِه جارٍ في ﴿ يَوْمَ التناد ﴾ [غافر : 32] . وقد تقدَّم توجيهُ هذَيْن الوجهَيْن في الرعد في قولِه : ﴿ الكبير المتعال ﴾ [الرعد : 9] .

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16)

(319/675)

قوله : ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ﴾ : في " يوم " أربعةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه بدلٌ مِنْ " يوم التلاق " بدلُ كلٍ مِنْ كل . الثاني : أَنْ ينتصِبَ بالتلاق أي : يقع التلاقي في يومِ بُروزِهم . الثالث : أنْ ينتصِبَ بقولِه : ﴿ لا يَخفى عَلَى الله ﴾ ، ذكره ابنُ عطيةَ ، وهذا على أحدِ الأقوالِ الثلاثةِ في " لا " : هل يعملُ ما بعدَها فيما قبلها ؟ ثالثها : التفصيلُ بين أَنْ تقعَ جوابَ قسمٍ فيمتنعَ ، أو لا فيجوزَ . فيجوزُ هذا على قولين من هذه الأقوالِ . الرابع : أن ينتصِبَ بإضمار " اذكُرْ " . و " يومَ " ظرفٌ مستقبلٌ كـ " إذا " . وسيبويه لا يرى إضافةَ الظرفِ المستقبلِ إلى الجمل الاسمية ، والأخفشُ يراه ، ولذلك قدَّر سيبويه في قولِه : ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] ونحوِه فعلاً قبل الاسم ، والأخفشُ لم يُقَدِّرْه ، وعلى هذا فظاهرُ الآيةِ مع الأخفش . ويُجاب عن سيبويه : بأنَّ " هم " ليس مبتدأ بل مرفوعاً بفعلٍ محذوفٍ يُفَسِّره

اسمُ الفاعل أي : يومَ برزوا ، ويكون " بارِزون " خبرَ مبتدأ مضمر فلمَّا حُذِف الفعلُ انفصل الضميرُ فبقي كما ترى ، وهذا كما قالوا في قوله :

3916 لو بغيرِ الماءِ حَلْقي شَرِقٌ . . . كُنْتُ كالغَصَّانِ بالماءِ اعتصاري

في أنَّ " حَلْقي " مرفوعُ فعلٍ يُفَسِّره " شَرِقٌ " لأنَّ " لو " لا يَليها إلاَّ الأفعالُ ، وكذا قولُه :

3917 . . . . . فهَلاَّ نَفْسُ لَيْلى شَفيعُها

(320/675)

لأنَّ " هَلاَّ " لا يَليها إلاَّ الأفعالُ ، فالمُفَسَّرُ في هذه المواضعِ أسماءٌ مُسْبَقَةٌ ، وهو نظيرُ " أنا زيداً ضاربُه " من حيث التفسيرُ . وحركة " يومَ هم " حركةُ إعرابٍ على المشهورِ . ومنهم مَنْ جَوَّزَ بناءَ الظرفِ ، وإنْ أُضيف إلى فعلٍ مضارعٍ أو جملة اسميةٍ ، وهم الكوفيون . وقد وَهِم / بعضُهم فحتَّم بناءَ الظرفِ المضافِ للجملِ الاسمية . وقد عَرَفْتَ مِمَّا تقدَّمَ أنه لا يُبْنَى عند البصريين إلاَّ ما أُضيف إلى فعلٍ ماض ، كقولِه :

3918 على حينَ عاتَبْتَ المشيبَ على الصِّبا . . . . . .

البيت . وقد تقدَّم هذا مستوفىً في آخره المائدة . وكتبوا "يومَهم" هنا وفي الذاريات منفصلاً ، وهو الأصلُ .

قوله : "لا يَخْفَى" يجوز أَنْ تكونَ مستأنفةً ، وأَنْ تكونَ حالاً من ضميرِ "بارزون" وأَنْ تكونَ خبراً ثانياً .

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17)

قوله : ﴿ اليوم ﴾ : ظرفٌ لقولِه "لِمَن المُلْكُ" ، و [يجوز] أَنْ يكونَ ظرفاً للجارِّ بعده ؛ لأنَّ التقدير : المُلْكُ لله ، فهو خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، واليومَ معمولٌ لـ "تُجْزَى" ، و "اليومَ" الأخير خبرُ "لا ظلمَ" .

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18)

قوله : ﴿ يَوْمَ الأزفة ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مفعولاً به اتّساعاً ، وأَنْ يكونَ ظرفاً ، والمفعولُ محذوفٌ . والآزِفَةُ : القريبةُ ، مِنْ أَزِفَ الشيءُ ، أي : قَرُبَ . قال النابغةُ :

3919 أَزِفَ التَّرَحُّلُ غيرَ أَنَّ رِكابَنا . . . لَمَّا تَزَلْ برحالِنا وكأَنْ قَدِ

وقال كعبُ بن زهير :

3920 بانَ الشبابُ وهذا الشيبُ قد أَزِفا . . . ولا أَرَى لشبابٍ بائنٍ خلفا

وقال الراغب : " أَزِفَ وأَفِدَ يتقاربان ، لكنَّ " أَزِفَ " يقال اعتباراً بضيقِ وقتِها . ويقال : أزِفَ الشُّخوصُ . والأَزَفُ : ضيقُ الوقت " ، قلت : فجَعَلَ بينهما فَرْقاً ، ويُرْوَى بيتُ النابغة : أَفِدَ الترحُّلُ . والآزِفَةُ : صفةٌ لمحذوفٍ ، فيجوز أَنْ يكونَ التقديرُ : الساعة الآزِفَةُ أو الطامَّةُ الآزِفة .

قوله : " إذ القلوبُ " بدْلٌ من يومِ الآزِفةِ ، أو مِنْ " هم " في " أَنْذِرْهُمْ " بدلُ اشتمالٍ .

قوله : " كاظِمين " نصبٌ على الحالِ . واختلفوا في صاحبها والعاملِ فيها . وقال الحوفي : " القلوبُ " مبتدأ . و " لدى الحناجرِ " خبرُه ، و " كاظمين " حالٌ من الضميرِ المستكنِّ فيه " . قلت : ولا بُدَّ مِنْ جوابٍ عن جمعِ القلوبِ جمعَ مَنْ يَعْقِل : وهو أَنْ يكونَ لَمَّا أَسْند إليهم ما يُسْنَدُ للعقلاءِ جُمِعَتْ جَمْعَه ، كقولِه : ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] ، ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 4] . الثاني : أنها حالٌ من " القلوب " . وفيه السؤالُ والجوابُ المتقدِّمان . الثالث : أنه حالٌ من أصحاب القلوب . قال الزمخشري : " هو حالٌ مِنْ أصحاب القلوب على المعنى ؛ إذ المعنى : إذْ قلوبُهم لدى الحناجر كاظمين عليها " . قلت : فكأَنَّه في قوةِ أَنْ جَعَلَ أل عِوَضاً من الضمير في حناجرهم : الرابع : أَنْ يكونَ حالاً مِنْ " هم " في " أَنْذِرْهم " ، وتكونُ حالاً مقدرةً ؛ لأنهم وقتَ الإنذارِ غيرُ كاظمين .

وقال ابن عطية : "كاظِمين حالٌ مِمَّا أُبْدِلَ منه " إذ القلوب " أو مِمَّا تُضاف القلوبُ إليه ؛ إذ المرادُ : إذ قلوبُ الناس لدى حناجرِهم ، وهذا كقولِه : ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [إبراهيم : 42] أراد : تَشْخَصُ فيه أبصارُهم " . قلت : ظاهرُ قولِه أنه حالٌ مِمَّا أُبْدِل منه .

(322/675)

قوله : " إذ القلوبُ " مُشْكِلٌ ؛ لأنه أُبْدِل مِنْ قوله : " يومَ الآزِفَة " وهذا لا يَصِحُّ البتةَ ، وإنما يريد بذلك على الوجه الثاني : وهو أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ " هم " في " أَنْذِرْهُمْ " بدلَ اشتمالٍ ، وحينئذ يَصِحُّ . وقد تقدَّم الكلامُ على الكَظْمِ ، والحناجر ، في آل عمران والأحزاب .

قوله : ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ "يُطاعُ" يجوز أَنْ يُحْكَمَ على موضعِه بالجرِّ نعتاً على اللفظِ ، وبالرفعِ نعتاً على المحلِّ ؛ لأنه معطوفٌ على المجرور بمِنْ المزيدةِ .

وقوله : ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ مِنْ باب :

3921 على لاحِبٍ لا يُهْتَدى بمَنارِه . . . . . .

أي : لا شفيعَ فلا طاعةَ ، أو ثَمَّ شفيعٌ ولكن لا يُطاعُ .

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (19)

قوله : ﴿ يَعْلَمُ ﴾ : فيه أربعة أوجهٍ ، أحدُها : - وهو الظاهر - أنه خبرٌ آخرُ عن " هو " في قوله : ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : بِمَ اتَّصل قولُه : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين ﴾ ؟ قلت : هو خبرٌ من أخبارِ " هو " في قولِه : ﴿ هُوَ الذي يُرِيكُمْ ﴾ مثل : ﴿ يُلْقِي الروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ [غافر : 15] ولكنْ " يُلْقي الروحَ " قد عُلِّلَ بقولِه : " لِيُنْذِرَ " ثم استطرد لذِكْرِ أحوالِ يومِ التَّلاقِ إلى قوله : ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فبَعُدَ لذلك عن أخواته " .

الثاني : أنه مُتَّصلٌ بقولِه : " وأَنْذِرْهم " لَمَّا أُمِرَ بإنذاره يوم الآزفة وما يَعْرِضُ فيه مِنْ شدَّة الغمِّ والكَرْبِ ، وأنَّ الظالمَ لا يجدُ مَنْ يَحْميه ، ولا شفيعَ له ، ذَكَر اطِّلاعَه على جميع ما يَصْدُر مِنَ الخلقِ سِرّاً وجَهْراً . وعلى هذا فهذه الجملةُ لا محلَّ لها لأنها في قوة التعليلِ للأمرِ بالإنذار .

الثالث : أنها متصلةٌ بقولِه ﴿ سَرِيعُ الحساب ﴾ [غافر : 17] .

(323/675)

الرابع : أنها متصلة بقولِه : ﴿ لاَ يَخفى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ [غافر : 16] . وعلى هذين الوجهين فيُحْتمل أَنْ تكونَ جاريةً مَجْرَى العلةِ ، وأَنْ تكونَ في محلِّ نصبٍ على الحال

.

وخائنةُ الأَعْيُن فيه وجهان ، أحدهما : أنه مصدرٌ كالعافيةِ ، أي : يَعْلَمُ خيانةَ الأعين . / والثاني : أنها صفةٌ على بابِها ، وهو مِنْ بابِ إضافةِ الصفةِ للموصوفِ ، والأصلُ : الأعين الخائنة ، كقوله :

3922 . . . . . وإن سَقَيْتِ كِرامَ الناسِ فاسْقِينا

وقد رَدَّه الزمخشريُّ وقال : " لا يَحْسُنُ أَنْ يُراد : الخائنة من الأعين ؛ لأنَّ قولَه : ﴿ وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ لا يُساعِدُ عليه " يعني أنه لا يناسِبُ أن يقابلَ المعنى إلاَّ بالمعنى . وفيه نظرٌ ؛ إذ لقائلٍ أَنْ يقولَ : لا نُسَلِّمُ أنَّ " ما " في ﴿ وَمَا تُخْفِي الصدور ﴾ مصدريةٌ حتى يَلْزَمَ ما ذكره ، بل يجوزُ أَنْ تكونَ بمعنى الذي ، وهو عبارةٌ عن نفس ذلك الشيءِ المَخْفِيِّ ، فيكونُ قد قابَلَ الاسمَ غيرَ المصدرِ بمثلِه .

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20)

قوله : ﴿ والذين يَدْعُونَ ﴾ : قرأ نافع وهشام " تَدْعُون " بالخطاب للمشركين ، والباقون بالغَيْبة إخباراً عنهم بذلك .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ

قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (21)

قوله : ﴿ فَيَنظُرُواْ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ منصوباً في جواب الاستفهام ، وأَنْ يكونَ مجزوماً نَسَقاً على ما قبله كقولِه :

(324/675)

3923 ألم تَسْأَلْ فتُخْبِرْكَ الرُّسومُ . . . . . .

. . . . . .

رواه بعضُهم بالجزمِ والنصب .

قوله : " منهم قوةً " قرأ ابنُ عامرٍ " منكم " على سبيلِ الالتفاتِ ، والباقون بضميرِ الغَيْبة جَرْياً على ما سَبَقَ من الضمائرِ الغائبةِ .

قوله : " وآثاراً " عطفٌ على " قوةً " ، وهو في قوة قولِه : ﴿ يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً آمِنِينَ ﴾ [الحجر : 82] ، وجعله الزمخشريُّ منصوباً بمقدر قال : " أو أراد : وأكثرَ آثاراً كقولِه :

3924 . . . . . قد غدا . . . مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحا

يعني : ومُعْتَقِلاً رمحاً " . ولا حاجةَ إلى هذا مع الاستغناء عنه .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26)

قوله : ﴿ أَوْ أَن ﴾ : قرأ الكوفيون " أو أَنْ " بأو التي للإبهام والباقون بواو النسق على تَسَلُّط الحرفِ على التبديل وظهور الفساد معاً . وقرأ نافعٌ وأبو عمروٍ وحفصٌ "يُظْهِرَ" بضم الياءِ وكسرِ الهاء مِنْ أَظْهر ، وفاعلُه ضميرُ موسى عليه السلام ، " الفسادَ " نصباً على المفعول به . والباقون بفتح الياء والهاء مِنْ ظهر ، " الفسادُ " رفعاً بالفاعلية وزيدُ بن علي "يُظْهَرَ" مبنياً للمفعول ، " الفسادُ " مرفوعٌ لقيامِه مقامَ الفاعل . ومجاهد "يَظَّهَّرَ" بتشديد الظاء والهاء ، وأصلها يَتَظَهَّرَ مِنْ تَظَهَّرَ بتشديد الهاء فأدغم التاء في الظاء . و " الفسادُ " رفعٌ على الفاعلية . وفتح ابن كثير ياءَ ﴿ ذروني أَقْتُلْ موسى ﴾ وسَكَّنها الباقون .

وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27)

قوله : ﴿ عُذْتُ ﴾ : أدغم أبو عمرو والأخَوان ، وأظهروا الذال مع التاء ، والباقون بالإظهار فقط . و " لا يُؤْمِنُ " صفةٌ لمتكبّر .

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28)

قوله : ﴿ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ : يُحتمل أَنْ يكونَ متعلّقاً ب " يَكْتُمُ " بعده أي : يكتمه مِنْ آلِ فرعون . والثاني : - وهو الظاهرُ - أَنَّه متعلق بمحذوفٍ صفةً لرجل . وجاء هنا على أحسنِ ترتيبٍ : حيث قَدَّمَ المفردَ ثم ما يَقْرُبُ منه وهو حرفُ الجرّ ، ثم الجملةَ . وقد تقدم إيضاحُ هذه المسألةِ في المائدةِ وغيرِها . ويترتَّبُ على الوجهين : هل كان هذا الرجلُ مِنْ قَرابَةِ فرعونَ ؟ فعلى الأولِ لا دليلَ فيه ، وعلى الثاني فيه دليلٌ . وقد رَدَّ بعضُهم الأولَ : بأنه لا يُقال : كَتَمْتُ مِنْ فلانٍ كذا ، إنما يقال : كَتَمْتُ فلاناً كذا ، فيتعدَّى لاثنين بنفسِه . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : 42] . وقال الشاعر :

3925 كَتَمْتُكَ هَمَّاً بالجَمومَيْنِ ساهِراً . . . وهَمَّيْنِ هَمَّاً مُسْتَكِنّاً وظاهراً

أحاديثَ نَفْسٍ تشتكي ما بربِّها . . . وورْدَ هُمومٍ لَنْ يَجِدْنَ مَصادِرا

أي : كتمتُك أحاديثَ نفسٍ وهَمَّيْن ، فقدَّم المعطوفَ على المعطوفِ عليه ، ومحلُّه الشعرُ .

قوله : ﴿ أَن يَقُولَ رَبِّيَ ﴾ أي : كراهةَ أَنْ يقولَ أو لأَنْ يقولَ . والعامَّةُ على ضَمِّ عين " رَجُل " وهي الفصحى . والأعمش وعبد الوارث على تسكينها ، وهي لغةُ تميمٍ ونجد . وقال الزمخشري : " ولك أَنْ تُقَدِّرَ مضافاً محذوفاً أي : وقت أَنْ يقولَ . والمعنى : أتقتلونه ساعةَ سَمِعْتم منه هذا القولَ من غير رَوِيَّةٍ ولا فِكْرٍ " . وهذا الذي أجازه رَدَّه الشيخ : بأنَّ تقديرَ هذا الوقتِ لا يجوزُ إلاَّ مع المصدرِ المُصَرَّحِ به تقول : جِئْتُكَ صياحَ الدِّيْكِ أي : وقتَ صِياحِه ، ولو قلت : أجيْئُك أنْ صاحَ الديكُ ، أو أَنْ يصيحَ ، لم يَصِحَّ . نصَّ عليه النحويون .

قوله : " وقد جاءَكم " جملةٌ حالية يجوز أَنْ تكونَ من المفعول . فإنْ قيلَ : هو نكرةٌ . / فالجوابُ : أنه في حيِّزِ الاستفهام وكلُّ ما سَوَّغَ الابتداءَ بالنكرةِ سَوَّغَ انتصابَ الحال عنها . ويجوز أَنْ يكونَ حالاً من الفاعل .

قوله : ﴿ بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ ﴾ " بعض " على بابِها ، وإنما قال ذلك ليهضِمَ موسى عليه السلام بعضَ حقه في ظاهرِ الكلام ، فيُرِيَهم أنه ليس بكلامِ مَنْ أعطاه حقه وافياً فَضْلاً أَنْ يتعصَّبَ له ، قاله الزمخشري . وهذا أَحسنُ مِنْ قولِ غيرِه : إنَّها بمعنى كل ، وأنشدوا قولَ لبيد :

3926 تَرَّاكُ أَمْكنةٍ إذا لم يَرْضَها . . . أو يَرْتَبِطْ بعضُ النفوسِ حِمامُها

وأنشدوا قولَ عمرو بن شُيَيْم :

3927 قد يُدْرِكُ المتأنِّي بعضَ حاجتِه . . . وقد يكونُ مع المستعجِلِ الزَّلَلُ

وقول الآخر :

3928 إنَّ الأمورَ إذا الأحداثُ دبَّرها . . . دون الشيوخِ ترى في بعضِها خَلَلا

(327/675)

ولا أدري كيف فَهِموا الكلَّ من البيتين الأخيرين ؟ وأمَّا الأولُ ففيه بعضُ دليلٍ ؛ لأنَّ الموتَ يأتي على الكلِّ . ولَمَّا حكى هذا الزمخشريُّ عن أبي عبيدة ، وأنشد عنه بيتَ لبيدٍ قال : " إن صَحَّتِ الروايةُ عنه فقد حَقَّ فيه قولُ المازني في مسألة العَلْقى : "كان أَجْفَى مِنْ أن يفقهَ ما أقولُه " .

قلتُ : ومسألةُ المازني معه أنَّ أبا عبيدةَ قال للمازني : " ما أكذبَ النحويين ! ! يقولون : هاءُ التأنيثِ لا تدخل على ألفِ التأنيثِ وأن الألفَ في " عَلْقَى " مُلْحقة . قال : فقلت له : وما أنكرْتَ من ذلك ؟ فقال : سَمِعْتُ رؤبةَ يُنْشِد :

3929 يَنْحَطُّ في عَلْقَى وفي مُكُوْرِ . . . فلم يُنَوِّنْها . فقلتُ : ما واحدُ عَلْقى ؟ قال : عَلْقاةٌ . قال المازني : فامتنعْتُ ولم أُفَسِّرْ له لأنه كان أَغْلظَ مِنْ أَنْ يفهمَ مثلَ هذا " قلت :

وإنما استغلظَه المازنيُّ ؛ لأنَّ الألفَ التي للإلحاق تَدْخُل عليها تاءُ التأنيثِ دالةً على الوَحْدة فيقال : أَرْطى وأَرْطاة ، وإنما الممتنعُ دخولُها على ألفِ التأنيثِ نحو : دَعْوى وصَرْعى .

وأمَّا عدمُ تنوين " عَلْقَى " فلأنَّه سَمَّى بها شيئاً بعينِه [وألفُ الإلحاقِ المقصورةُ حالَ العلميَّة تَجْري مَجْرى تاءِ التأنيث فيمتنعُ الاسمُ الذي هي فيه ، كما تمتنعُ فاطمة . وتَنْصَرِفُ قائمة] .

يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)

قوله : ﴿ ظَاهِرِينَ ﴾ : حالٌ من الضميرِ في " لكم " ، والعاملُ فيها وفي " اليومَ " ما تَعَلَّقَ به " لكم " .

قوله : " ما أُرِيْكُمْ " هي مِنْ رؤيةِ الاعتقادِ ، فتتعدَّى لمفعولَيْن ، ثانيهما ﴿ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ .

(328/675)

قوله : " الرَّشادِ " العامَّةُ على تخفيفِ الشينِ مصدرَ رشَدَ يَرْشُدُ . وقرأ معاذ بن جبل بتشديدِها ، وخَرَّجها أبو الفتح وغيرُه على أنه صفةُ مبالغةٍ نحو : ضَرَب فهو ضرَّاب ، وقد قال النحاس : " هو لحنٌ ، وتَوَهَّمه من الرباعي " يعني أَرْشد . ورُدَّ على النحاس قولُه : بأنه

يُحْتمل أَنْ يكونَ مِنْ رَشَدَ الثلاثي ، وهو الظاهرُ . وقد جاء فَعَّال أيضاً مِنْ أَفْعَل وإنْ كان لا يَنْقاسُ . قالوا : أَدْرَك فهو دَرَّاك وأَجْبَرَ فهو جَبَّار ، وأَقْصَر فهو قَصَّار ، وأَسْأَر فهو سَآر ، ويَدُلُّ على أنه صفةُ مبالغةٍ أنَّ معاذاً كان يُفَسِّرها بسبيل الله .

قال ابنُ عطية : " ويَبْعُدُ عندي على معاذ – رضي الله عنه – وهل كان فرعونُ يَدَّعي إلاَّ الإلهيَّة ؟ ويَقْلَقُ بناءُ اللفظِ على هذا التركيبِ " . قلت : يعني ابنُ عطية أنه كيف يقول فرعونُ ذلك ، فيُقِرُّ بأنَّ ثَمَّ مَنْ يهدي إلى الرشادِ غيرُه ، مع أنه يَدَّعي أنه إلهٌ ؟ وهذا الذي عَزاه ابنُ عطية والزمخشري وابن جُبارة صاحب " الكامل " إلى معاذ بن جبل من القراءة المذكورة ليس في " الرشاد " الذي هو في كلامِ فرعونَ كما توهَّموا ، وإنما هو في " الرشاد " الثاني الذي مِنْ قول المؤمنِ بعد ذلك . ويَدُلُّ على ذلك ما قاله أبو الفضل الرازي في كتابه " اللوامح " : " معاذ بن جبل " سبيل الرشاد " ، الحرف الثاني بالتشديد ، وكذلك الحسنُ ، وهو سبيلُ اللَّهِ تعالى الذي أوضحه لعبادِه ، كذلك فسَّره معاذ ، وهو منقولٌ مِنْ مُرْشِد كدَرَّاك مِنْ مُدْرِك وجَبَّار مِنْ مُجْبِر ، وقَصَّار مِنْ مُقْصِر عن الأمر ، ولها نظائرُ معدودةٌ . فأمَّا " قَصَّار الثوب " مِنْ قَصَر الثوبَ قِصارةً " فعلى هذا يزولُ إشكالُ ابنِ عطية المتقدمُ ، وتتضح القراءةُ والتفسيرُ .

وقال أبو البقاء : " وهو الذي يَكْثُر منه الإِرشادُ أو الرُّشْدُ " يعني يُحْتمل أنه مِنْ أرشدَ الرباعيِّ أو رَشَد الثلاثي . والأَوْلَى أَنْ يكونَ من الثلاثيِّ لما عَرَفْتَ أنه يَنْقاسُ دونَ الأول .

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31)

قوله : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ ﴾ : " مثل " يجوز أَنْ يكونَ بدلاً ، وأَنْ يكون عطفَ بيانٍ .

وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32)

قوله : ﴿ يَوْمَ التناد ﴾ : قد تقدَّم الخلافُ/ في يائِه : كيف تُحذف وتُثْبَت ؟ وهو مصدرُ " تَنادَى " نحو : تقاتَلَ تقاتُلاً . والأصلُ : تَنادُياً بضم الدالِ ولكنهم كسروها لتصِحَّ الياءُ .

وقرأت طائفةٌ بسكون الدالِ إجراءً للوصل مُجْرى الوقفِ . وتنادَى القومُ أي : نادى بعضُهم بعضاً . قال :

3930 تنادَوْا فقالوا أَرْدَتِ الخيلُ فارساً . . . فقُلْنا : عُبَيْدُ اللهِ ذلكمُ الرَّدِي

وقال آخر :

3931 تنادَوْا بالرحيلِ غَداً . . . وفي تَرْحالِهم نَفْسي

وقرأ ابن عباس والضحاك والكلبي وأبو صالح وابن مقسم والزعفراني في آخرين بتشديدِها ، مصدرُ " تَنادَّ " مِنْ نَدَّ البعيرُ إذا هَرَبَ ونَفَرَ ، وهو في معنى قولِه تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ [عبس : 34] الآية . وفي الحديث : " إن للناسِ جَوْلَةً يندُّون ، يظُنُّون أنهم

يَجِدُون مهرباً " وقال أمية بن أبي الصلت :

3932 وبَثَّ الخَلْقَ فيها إذ دَحاها . . . فهُمْ سُكَّانُها حتى التنادي

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)

(330/675)

قوله : ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ بدلاً من " يوم التَّناد " ، وأن يكونَ منصوباً بإضمارِ أعني . ولا يجوز أَنْ يُعْطَفَ عطفَ بيان لأنه نكرةٌ ، وما قبله معرفةٌ . وقد تقدَّم لك في قوله : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [آل عمران : 97] أنَّ الزمخشريَّ جعله بياناً مع تخالُفِهما تعريفاً وتنكيراً ، وهو عكسُ ما نحن فيه ، فإن الذي نحن فيه الثاني نكرةٌ ، والأولُ معرفةٌ .

قوله : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ يجوزُ في " مِنْ عاصِمٍ " أَنْ يكونَ فاعلاً بالجارِّ لاعتمادِه على النفي ، وأَنْ يكون مبتدأ ، و " مِنْ " مزيدةٌ على كلا التقديرَيْن . و " من الله " متعلقٌ ب " عاصِم " .

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34)

قوله : ﴿ حتى إذا ﴾ : غايةٌ لقوله : " فما زِلْتُمْ " . وقُرِئ ﴿ أَلَن يَبْعَثَ الله ﴾ بإدخالِ همزةِ التقرير ، يُقرِّر بعضُهم بعضاً .

قوله : " كذلك " أي : الأمر كذلك . " ويُضِلُّ الله " مستأنفٌ أو نعتُ مصدرٍ أي : مثلَ إضلالِ اللَّهِ إياكم – حين لم يَقْبَلوا مِنْ يوسفَ عليه السلام – يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هو مُسْرِفٌ .

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)

(331/675)

قوله : ﴿ الذين يُجَادِلُونَ ﴾ يجوز فيه عشرةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه بدلٌ مِنْ قوله : ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ وإنما جُمِع اعتباراً بمعنى " مَنْ " . الثاني : أَنْ يكونَ بياناً له . الثالث : أَنْ يكونَ صفةً له . وجُمِع على معنى " مَنْ " أيضاً . الرابع : أَنْ ينتصِبَ بإضمارِ أعني . الخامس : أَنْ يرتفعَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ أي : هم الذين . السادس : أَنْ يرتفعَ مبتدأً ، خبرُه " يَطْبَعُ اللَّهُ " . و " كذلك " خبرُ مبتدأ مضمرٍ أيضاً ، أي : الأمرُ كذلك . والعائدُ من الجملةِ وهي " يَطْبَعُ " على المبتدأ محذوفٌ ، أي : على كلِّ قلبِ متكبِّرٍ منهم . السابع : أَنْ يكونَ مبتدأً ، والخبر " كَبُرَ مَقْتاً " ، ولكنْ لا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مُضاف ليعودَ الضميرُ مِنْ " كَبُرَ " عليه

. والتقديرُ : حالُ الذين يُجادلون كَبُرَ مَقتاً ويكون " مَقْتاً " تمييزاً ، وهو مَنْقولٌ مِنَ الفاعليةِ إذ التقديرُ : كَبُرَ مَقْتُ حالِهم أي : حالِ المجادلين . الثامن : أَنْ يكونَ " الذين " مبتدأً أيضاً ، ولكن لا يُقَدَّرُ حَذْفُ مضافٍ ، ويكونُ فاعلُ " كَبُرَ " ضميراً عائداً على جدالِهم المفهومِ من قوله : " ما يُجادِلُ " . والتقدير : كَبُرَ جدالُهم مَقْتاً . و " مَقْتاً " على ما تقدَّمَ أي : كَبُرَ مَقْتُ جدالِهم . التاسع : أَنْ يكونَ " الذين " مبتدأً أيضاً ، والخبرُ ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ . قاله الزمخشري : وردَّه الشيخ : بأنَّ فيه تفكيكَ الكلامِ بعضِه من بعضٍ ؛ لأنَّ الظاهرَ تعلُّقُ " بغير سُلْطان " ب " يُجادلون " ، ولا يُتَعَقَّلُ جَعْلُه خبراً ل الذين لأنه جارٌّ ومجرورٌ ، فيصيرُ التقديرُ : الذين يُجادلون كائنون أو مستقرون بغيرِ سلطان ، أي : في غير سلطان ؛ لأنَّ الباءَ إذ ذاك ظرفيةٌ خبرٌ عن الجُثَث . العاشر : أنه مبتدأٌ وخبرُه محذوفٌ أي : مُعانِدون ونحوه ، قاله أبو البقاء .

(332/675)

قوله : " كَبُرَ مَقْتاً " يُحْتمل أَنْ يُرادَ به التعجبُ والاستعظامُ ، وأَنْ يُرادَ به الذمُّ كبِئْس ؛ وذلك أنه يجوزُ أَنْ يُبْنَى فَعُل بضمِّ العَيْن مِمَّا يجوزُ التعجُّبُ منه ، ويَجْري مَجْرى نِعْم وبِئْس في جميعِ الأحكامِ . وفي فاعِلِه ستةُ أوجهٍ ، الأول : أنه ضميرٌ عائدٌ على حالِ المضافِ إلى الذين ،

كما تقدَّم تقريرُه . / الثاني : أنه ضميرٌ يعودُ على جدالِهم المفهومِ مِنْ "يُجادلون" كما تقدَّم أيضاً . الثالث : أنه الكافُ في "كذلك" . قال الزمخشري : "وفاعلُ "كَبُرَ" قولُه : "كذلك" أي : كَبُرَ مَقْتاً مثلُ ذلك الجدالِ ، ويَطْبع اللَّهُ كلامٌ مستأنفٌ" وردَّه الشيخُ : بأنَّ فيه تَفْكيكاً للكلامِ وارتكابَ مذهبٍ ليس بصحيحٍ . أمَّا التفكيكُ فلأنَّ ما جاء في القرآن مِنْ "كذلك نَطْبَعُ" أو "يَطْبع" إنما جاء مربوطاً بعضُه ببعض فكذلك هذا ، وأمَّا ارتكابُ مذهبٍ غيرِ صحيح فإنه جَعَل الكافَ اسماً ولا تكونُ اسماً إلاَّ في ضرورةٍ ، خلافاً للأخفش .

الرابع : أنَّ الفاعلَ محذوفٌ ، نقله الزمخشري . قال : "ومَنْ قال : كَبُرَ مَقْتاً عند الله جدالُهم ، فقد حَذَفَ الفاعلَ ، والفاعلُ لا يصِحُّ حَذْفُه" . قلت : القائلُ بذلك الحوفيُّ ، لكنه لا يريدُ بذلك تفسيرَ الإعراب ، إنما يريدُ به تفسيرَ المعنى ، وهو معنى ما قَدَّمْتُه مِنْ أنَّ الفاعلَ ضميرٌ يعودُ على جدالِهم المفهومِ مِنْ فعلِه ، فصرَّح الحوفيُّ بالأصلِ ، وهو الاسمُ الظاهرُ ، ومرادُه ضميرٌ يعودُ عليه .

الخامس : أنَّ الفاعلَ ضميرٌ يعودُ على ما بعدَه ، وهو التمييزُ نحو : " نِعْمَ رَجُلاً زيدٌ " ، و " بئس غلاماً عمروٌ " . السادس : أنه ضميرٌ يعودُ على " مَنْ " مِنْ قولِه : ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ . وأعاد الضميرَ مِنْ " كَبُرَ " مفرداً اعتباراً بلفظِها ، وحينئذٍ يكونُ قد راعَى لفظَ " مَنْ " أولاً في ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ ، ثم معناها ثانياً في قوله : ﴿ الذين يُجَادِلُونَ ﴾ إلى آخره ، ثم لفظَها ثالثاً في قوله : " كَبُر " . وهذا كلُّه إذا أَعْرَبْتَ " الذين " تابعاً لَمَنْ هو مُسْرِفٌ نعتاً أو بياناً أو بدلاً .

وقد عَرَفْتَ أن الجملةَ مِنْ قولِه : " كَبُرَ مَقْتاً " فيها وجهان ، أحدهما : الرفعُ إذا جَعلْناها خبراً لمبتدأ . والثاني : أنها لا محلَّ لها إذا لم تَجْعَلْها خبراً . بل هي جملةٌ اسْتِئْنافية . وقوله : " عندَ الله " متعلقٌ ب " كَبُرَ " ، وكذلك قد تقدَّم أنَّه يجوزُ أَنْ يكونَ خبراً لمبتدأ محذوفٍ ، وأنْ يكونَ فاعلاً وهما ضعيفان . والثالث – وهو الصحيحُ – أنه معمولٌ ل " يَطْبَعُ " أي : مثلَ ذلك الطَّبْعِ يطبعُ اللَّهُ . و " يطبعُ اللَّهُ " فيه وجهان ، أظهرُهما : أنه مستأنفٌ . والثاني : أنه خبرٌ للموصولِ ، كما تقدَّم تقريرُ ذلك كلِّه .

(334/675)

قوله : " قَلْبِ متكبّرٍ " قرأ أبو عمرو وابن ذكوان بتنوين " قلب " ، وَصَفا القلبَ بالتكبُّر والجَبَروتِ ؛ لأنهما ناشئان منه ، وإنْ كان المرادُ الجملةَ ، كما وُصِف بالإثمِ في قوله : ﴿ فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : 283] . والباقون بإضافة " قلب " إلى ما بعدَه أي : على كلِّ قَلْبِ شخصٍ متكبّرٍ . وقد قَدَّرَ الزمخشريُّ مضافاً في القراءةِ الأولى أي : على كلِّ ذي قلب متكبر ، تجعلُ الصفةَ لصاحبِ القلب . قال الشيخ : " ولا ضرورةَ تَدْعو إلى اعتقادِ الحذفِ " . قلت : بل ثَمَّ ضرورةٌ إلى ذلك وهو توافُقُ القراءَتَيْن ، فإنه يَصيرُ الموصوفُ في القراءتَيْن واحداً ، وهو صاحبُ القلب ، بخلافِ عَدَمِ التقديرِ ، فإنه يَصيرُ الموصوفُ في إحداهما القلبَ وفي الأخرى صاحبَه .

أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)

قوله : ﴿ أَسْبَابَ السماوات ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه تابعٌ للأسباب قبله بدلاً أو عطفَ بيان . والثاني : أنه منصوبٌ بإضمار أَعْني ، والأول أَوْلَى ؛ إذ الأصلُ عدمُ الإضمار .

قوله : " فَأَطَّلِعَ " العامَّةُ على رفعِه عَطْفاً على " أَبْلُغُ " فهو داخِلٌ في حَيِّزِ الترجّي . وقرأ حفصٌ في آخرين بنصبِه . وفيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه جوابُ الأمرِ في قولِه : " ابْنِ لي "

فنُصِبَ بأَنْ مضمرةً بعد الفاءِ في جوابه على قاعدة البصريين كقوله :

3933 يا ناقُ سِيْري عَنَقاً فَسِيحا . . . إلى سليمانَ فَنَسْتريحا /

(335/675)

وهذا أَوْفَقُ لمذهب البصريين . الثاني : أنه منصوبٌ . قال الشيخ : " عَطْفاً على التوهُّمِ لأنَّ خبر " لعلَّ " كثيراً جاء مَقْروناً ب " أن " ، كثيراً في النظمِ وقليلاً في النثر . فمَنْ نَصَبَ تَوَهَّم أنَّ الفعلَ المرفوعَ الواقعَ خبراً منصوبٌ ب " أنْ " ، والعطفُ على التوهُّمِ كثيرٌ ، وإنْ كان لا ينقاسُ " انتهى . الثالث : أن يَنْتَصِبَ على جوابِ الترجّي في " لعلَّ " ، وهو مذهبٌ كوفي استشهد أصحابُه بهذه القراءةِ وبقراءة عاصم ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ﴾ [عبس : 3-4] بنصب " فتنفعَه " جواباً لقوله : " لعلَّه " . وإلى هذا نحا الزمخشري قال : " تشبيهاً للترجّي بالتمني " والبصريُّون يأبَوْن ذلك ، ويُخَرِّجُون القراءتَيْنِ على ما تقدَّم . وفي سورة عبس يجوز أن [يكون] جواباً للاستفهام في قوله : " وما يُدْريك " فإنه مترتبٌ عليه معنىً . وقال ابن عطية وابن جُبارة الهُذلي : " على جواب التمني " وفيه نظرٌ ؛ إذ ليس في اللفظِ تَمَنٍّ ، إنَّما فيه تَرَجٍّ . وقد فَرَّقَ الناسُ بين التمني والترجّي : بأنَّ الترجّيَ لا

يكونُ إلاَّ في الممكنِ عكسَ التمني ، فإنه يكونُ فيه وفي المستحيلِ كقولِه :

3934 لَيْتَ الشبابَ هو الرَّجيعُ على الفتى . . . والشيبُ كان هو البَدِئُ الأولُ

(336/675)

وقُرِئ " زَيَّنَ لفرعونَ " مبنياً للفاعلِ وهو الشيطانُ . وتقدَّم الخلافُ في ﴿ وَصُدَّ عَنِ السبيل ﴾ في الرعد فمَنْ بناه للفاعلِ حَذَفَ المفعولَ أي : صَدَّ قومَه عن السبيلِ . وابنُ وثَّاب " وصِدَّ " بكسرِ الصادِ ، كأنه نَقَل حركةَ الدالِ الأولى إلى فاءِ الكلمة بعد توهُّمِ سَلْبِ حركتِها . وقد تقدَّم ذلك في نحو " رِدَّ " وأنه يجوزُ فيه ثلاثُ اللغاتِ الجائزةِ في قيل وبِيع . وابن أبي إسحاق وعبد الرحمن بن أبي بكرة " وصَدٌّ " بفتح الصادِ ورفع الدالِ منونةً جعله مصدراً منسوقاً على " سوءُ عملِه " أي : زَيَّن له الشيطانُ سوءَ العملِ والصدَّ . والتَّباب : الخَسارُ . وقد تقدَّم ذلك في قوله : ﴿ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود : 101] . وتقدَّم الخِلافُ أيضاً في قوله : ﴿ يَدْخُلُونَ الجنة ﴾ في سورة النساء [الآية : 40] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 451.484 ﴾

(337/675)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والسبعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس والسبعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 41 ﴾ من سورة غافر

وحتى الآية ﴿ 63 ﴾ من نفس السورة

(4/676)

قوله تعالى ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بلغ النهاية في نصحهم ، وختم بإعلامهم بأن الناس قسمان : هالك وناج ، وكان حاصل إرادتهم لأن يكون على ما هم عليه الهلاك بالنار ، قال مبكتاً لهم بسوء مكافأتهم منادياً

لهم مكرراً للنداء لزيادة التنبيه والإيقاظ من الغفلة .

والتذكير بأنهم قومه واعضاده ، وعاطفاً على ندائه السابق لأنه غير مفصل له ولا داخل في حكمه : ﴿ ويا قوم ما ﴾ أي أيّ شيء من الحظوظ والمصالح ﴿ لي ﴾ في أني ﴿ أدعوكم إلى النجاة ﴾ والجنة بالإيمان شفقة عليكم ورحمة لكم واعترافاً بحقكم ﴿ و ﴾ مالكم من ذلك في كونكم ﴿ تدعونني إلى النار ﴾ والهلاك بالكفران ، فالآية من الاحتباك : ذكر النجاة الملازمة للايمان أولاً دليلاً على حذف الجنة أولاً ، ومراده هزهم وإثارة عزائمهم إلى الحياة منه بتذكيرهم أن ما يفعلونه معه ليس من شيم أهل المروءة يجازونه على إحسانه إليهم بالإساءة .

(5/676)

ولما أخبر بقلة إنصافهم إجمالاً ، بينه بقوله : ﴿ تدعونني ﴾ أي توقعون دعائي إلى معبوداتكم ﴿ لأكفر ﴾ أي لأجل أن أكفر ﴿ بالله ﴾ أي أستر ما يجب إظهاره بسبب الذي أناله لأن له كل شيء وله مجامع القهر والعز والعظمة والكبر ﴿ وأشرك ﴾ أي أوقع الشرك ﴿ به ﴾ أي أجعل له شريكاً .

ولما كان كل ما عداه سبحانه ليس له من ذاته إلا العدم ، أشار إلى حقارته بالتعبير بأداة ما

لا يعقل فقال : ﴿ ما ليس لي به علم ﴾ أي نوع من العلم بصلاحيته لشيء من الشركة ، فهو دعاء إلى الكذب في شيء لا يحل الإقدام عليه إلا بالدليل القطعي الذي لا يحتمل نوعاً من الشرك ، وإذا لم يكن به علم لم يكن له عزة ولا مغفرة ، فلم يكن له وجود لأن الملك لازم الإلهية وهو أشهر الأشياء ، فما ادعى له أشهر الأشياء ، فكان بحيث لا يعرف بوجه من الوجوه ، كان عدماً محضاً .

ولما بين أنهم دعوه إلى ما هو عدم فضلاً عن أن يكون له نفع أو ضر في جملة فعليه إشارة إلى بطلان دعوتهم وعدم ثبوتها ، بين لهم أنه دعاهم إلا إلى ما له الكمال كله ، ولا نفع ولا ضر إلا بيده ، فقال مشيراً بالجملة الاسمية إلى ثبوت دعوته وقوتها : ﴿ وأنا ادعوكم ﴾ أي أوقع دعاءكم الآن وقبله وبعده ﴿ إلى العزيز ﴾ أي البالغ العزة الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء .

ولما وصفه بهذا الوصف ترهيباً ، صح قطعاً وصفه ترغيباً بقوله : ﴿ الغفار ﴾ أي الذي يتكرر له دائماً محو الذنب عيناً وأثراً ولا يقدر على ذلك غير من هو بصفة العزة ، ومن صح وصفه بهذين الوصفين فهو الذي لا يجهل ما عليه ، من صفات الكمال أحد ، فالآية من الاحتباك : ذكراً أولاً عدم العلم دليلاً على العلم ثانياً ، وثانياً العزة والمغفرة دليلاً على حذفهما أولاً .

ولما كان انتفاء العلم بالشيء من أهل العلم انتفاء ذلك الشيء في أصول الدين ، كان ما دعوه إليه باطلاً ، وكان ما دعاهم إليه هو الحق ، فلذلك أنتج قطعاً قوله : ﴿ لا جرم ﴾ وهي وإن كانت بمعنى : لا ظن ولا اضطراب أصلاً - كما مضى في سورة هود عليه السلام فيها معنى العلة ، أي فلأجل ذلك لا شك في ﴿ أنما ﴾ أي الذي ﴿ تدعونني إليه ﴾ من هذه الأنداد ﴿ ليس له دعوة ﴾ بوجه من الوجوه ، فإنه لا يقوم عليها دليل بل ولا شبهة موهمة ﴿ في الدنيا ﴾ التي هي محل الأسباب ، الظاهرة لأن شيئاً منه ليس له واحد من الوصفين ﴿ ولا في الآخرة ﴾ لأن ما لا تعلم إلهيته كذلك يكون ﴿ وإن ﴾ أي ولا اضطراب في أن ﴿ مردنا ﴾ أي ردنا العظيم بالموت وموضع ردنا ووقته منتهٍ ﴿ إلى الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بصفات الكمال لما اقتضته عزته ، فيجازي كل أحد بما يستحقه ﴿ وأنَّ ﴾ أي ولا شك في أن ﴿ المسرفين ﴾ أي المجاوزين للحدود العريقين في هذا الوصف ﴿ هم ﴾ أي خاصة لأجل حكم الله بذلك عليهم ﴿ أصحاب النار ﴾ أي الذين يخلدون فيها لا يفارقونها كما يقتضيه معنى الصحبة لأن إسرافهم اقتضى إسراف ملازمتهم للنار التي طبعها الإسراف ، وقد علم أن ربها لا يجزي بالسيئة إلا مثلها .

ولما تقرر أنه لا أمر لغير الله وأنه لا بد من المعاد ، تسبب عنه بقوله : ﴿ فستذكرون ﴾ أي قطعاً بوعد لا خلف فيه مع القرب ﴿ ما أقول لكم ﴾ حين لا ينفعكم الذكر في يوم الجمع

الأعظم والزحام الذي يكون فيه القدم على القدم إذا رأيتم الأهوال والنكال والزلزال إن قبلتم نصحي وإن لم تقبلوه .

(7/676)

ولما ذكر خوفهم الذي لا يحميهم منه شيء ذكر خوفه الذي هو معتمد فيه على الله ليحيمه منه فقال عاطفاً على " ستذكرون " غير مراعى فيها معنى السين : ﴿ وأفوض ﴾ أي أنا الآن بسبب أنه لا دعوة لغير الله ﴿ أمري ﴾ فيما تمكرونه بي ﴿ إلى الله ﴾ أي الذي أحاط بكل شيء علماً وقدرة فهو يحميني منكم : إن شاء ، قال صاحب المنازل : التفويض ألطف إشارة وأوسع من التوكل بعد وقوع السبب ، والتفويض قبل وقوعه وبعده ، وهو عين الاستسلام ، والتوكل شعبة منه ، وهو على ثلاث درجات : الأولى أن تعلم أن العبد لا يملك قبل علمه استطاعة ، فلا يأمن من مكر ، ولا ييأس من معونة ، ولا يعول على نية ، والثانية معاينة الاضطرار فلا ترى عملاً منجياً ولا ذنباً مهلكاً ولا سبباً حاملاً ، والثالثة شهود انفراد الحق بملك الحركة والسكون والقبض والبسط والتفريق والجمع .

ولما علق تفويضه بالاسم العلم الجامع المقتضي للإحاطة ، على ذلك بياناً لمراده بقوله مؤكداً لأن عملهم في مكرهم به عمل من يظن أن سبحانه لا يبصرهم ولا ينصره ﴿ إن الله ﴾ وكرر

الاسم الأعظم بياناً لمراده بأنه ﴿ بصير ﴾ أي بالغ البصر ﴿ بالعباد ﴾ ظاهراً وباطناً ، فيعلم من يستحق النصرة لاتصافه بأوصاف الكمال ويعلم من يمكر فيرد مكره عليه بما له من الإحاطة .

(8/676)

ولما تسبب عن نصحه هذا لهم والتجائه إلى ملك الملوك حفظه منهم على عظم الخطر ، قال تعالى مخبراً أنه صدق ظنه ﴿ فوقاه الله ﴾ أي جعل له وقاية تجنه منهم بما له سبحانه من الجلال والعظمة والكمال جزاء على تفويضه ﴿ سيئات ﴾ أي شدائد ﴿ ما مكروا ﴾ ديناً ودنيا ، فنجاه مع موسى عليه السلام تصديقاً لوعده سبحانه بقوله ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : 35] ولما كان المكر السيء لا يحيق إلا بأهله قال : ﴿ وحاق ﴾ أي نزل محيطاً بعد إحاطة الإغراق ﴿ بآل فرعون ﴾ أي كلهم فرعون وأتباعه لأجل إصرارهم على الكفر ومكرهم ، فالإحاطة بفرعون من باب الأولى وإن لم نقل : أن الآل مشترك بين الشخص والأتباع ، لأن العادة جرت أنه لا يوصل إلى جميع أتباع الإنسان إلا بعد إذلاله وأخذه فهو مفهوم موافقة ﴿ سوء العذاب ﴾ أي العقوبة المانعة من كل مستعذب ، ثم بين ذلك بقوله : ﴿ النار ﴾ أي حال كونهم ﴿ يُعرضون عليها ﴾ أي في

البرزخ ﴿ غدواً وعشياً ﴾ أي غادين ورائحين في وقت استراحهم بالأكل واستلذاذهم به – هذا دأبهم طول أيام البرزخ ، وكان عليهم في هذا العرض زيادة نكد فوق ما ورد عاماً مما روى مالك والشيخان وغيرهم عن أن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة " ولعل زيادة النكد أنهم هم المعروضون ، فيذهب بهم في الأغلال يساقون لينظروا ما أعد الله لهم ، وعامة الناس يقتصر في ذلك على أن يكشف لهم – وهو في محالّهم – عن مقاعدهم ، ففي ذلك زيادة إهانة لهم ، وهو مثل : عرض الأمير فلاناً على السيف إذا أراد قتله ، هذا دأبهم إلى أن تقوم الساعة ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ يقال لهم : ﴿ ادخلوا آل ﴾ أي يا آل ﴿ فرعون ﴾ هو نفسه وأتباعه لأجل اتباعهم له فيما أضلهم به ، وجعله نافع وحمزة

(9/676)

والكسائي ويعقوب وحفص فعل أمر من الإدخال ، فالتقدير : نقول لبعض جنودنا : أدخلوا آله لأجل ضلالهم به اليوم ﴿ أشد العذاب ﴾ وإذا كان هذا لآله لأجله كان له أعظم منه

من باب الأولى ، وهذه الآية نص في عذاب القبر كما نقل عن عكرمة ومحمد بن كعب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 518. 521 ﴾

(10/676)

فصل

قال الفخر :

ثم استأنف ذلك المؤمن ونادى في المرة الثالثة وقال : ﴿ يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ﴾ يعني أنا أدعوكم إلى الإيمان الذي يوجب النجاة وتدعونني إلى الكفر الذي يوجب النار ، فإن قيل لم كرر نداء قومه ، ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني ؟ قلنا أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ من سنة الغفلة ، وإظهار أن له بهذا المهم مزيد اهتمام ، وعلى أولئك الأقوام فرط شفقة ، وأما المجيء بالواو العاطفة فلأن الثاني يقرب من أن يكون عين الأول ، لأن الثاني بيان للأول والبيان عين المبين ، وأما الثالث فلأنه كلام مباين للأول والثاني فحسن إيراد الواو العاطفة فيه ، ولما ذكر هذا المؤمن أنه يدعوهم إلى النجاة وهم يدعونه إلى النار ، فسّر ذلك بأنهم يدعونه إلى الكفر بالله وإلى الشرك به ، أما الكفر بالله فلأن الأكثرين من قوم فرعون كانوا ينكرون وجود الإله ، ومنهم

من كان يقر بوجود الله إلا أنه كان يثبت عبادة الأصنام وقوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ المراد بنفي العلم نفي المعلوم ، كأنه قال وأشرك به ما ليس بإله وما ليس بإله كيف يعقل جعله شريكاً للإله ؟ ولما بيّن أنهم يدعونه إلى الكفر والشرك بيّن أنه يدعوهم إلى الإيمان بالعزيز الغفار فقوله ﴿ العزيز ﴾ إشارة إلى كونه كامل القدرة ، وفيه تنبيه على أن الإله هو الذي يكون كامل القدرة ، وأما فرعون فهو في غاية العجز فكيف يكون إلهاً ، وأما الأصنام فإنها أحجار منحوتة فكيف يعقل القول بكونها آلهة وقوله ﴿ الغفار ﴾ إشارة إلى أنه لا يجب أن يكونوا آيسين من رحمة الله بسبب إصرارهم على الكفر مدة مديدة ، فإن إله العالم وإن كان عزيزاً لا يغلب قادراً لا يغالب ، لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة بإيمان ساعة واحدة ، ثم قال ذلك المؤمن ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ والكلام في تفسير لا جرم مرّ في سورة هود في قوله

(11/676)

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ [هود : 22] وقد أعاده صاحب "الكشاف" ههنا فقال ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ مساقه على مذهب البصريين أن يجعل (لا) رداً لما دعاه إليه قومه و ﴿ جَرَمَ ﴾ فعل بمعنى حق و ﴿ إِنَّمَا ﴾ مع ما في حيزه فاعله أي حق ووجب بطلان دعوته أو بمعنى كسب من قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن

صَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام أَن تَعْتَدُواْ ﴾ [المائدة : 2] أي كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته بمعنى أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته ، ويجوز أن يقال إن ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ نظيره لا بد فعل من الجرم وهو القطع كما أن بد فعل من التبديد وهو التفريق ، وكما أن معنى لا بد أنك تفعل كذا أنه لا بد لك من فعله ، فكذلك ﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار ﴾ [النحل : 62] أي لا قطع لذلك بمعنى أنهم أبداً يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ، ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام ، أي لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقاً ، وروي عن بعض العرب لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء بزنة بد (1) وفعل إخوان كرشد ورشد وكعدم وعدم هذا كله ألفاظ صاحب "الكشاف" .

ثم قال : ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدنيا وَلاَ فِى الأخرة ﴾ والمراد أن الأوثان التي تدعونني إلى عبادتها ليس لها دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وفي تفسير هذه الدعوة احتمالان .

الأول : أن المعنى ما تدعونني إلى عبادته ليس له دعوة إلى نفسه لأنه جمادات والجمادات لا تدعو أحداً إلى عبادة نفسها وقوله ﴿ فِى الأخرة ﴾ يعني أنه تعالى إذا قلبها حيواناً في الآخرة فإنها تتبرأ من هؤلاء العابدين .

---

(1) الوزن على هذا الضبط مثل عذر ، والمعنى لا بد ففي الكلام سقط .

والاحتمال الثاني : أن يكون قوله ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدنيا وَلاَ فِى الأخرة ﴾ معناه ليس له استجابة دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ، فسميت استجابة الدعوة بالدعوة إطلاقاً لاسم أحد المتضايفين على الآخر ، كقوله ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] ثم قال : ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى الله ﴾ فبين أن هذه الأصنام لا فائدة فيها ألبتة ، ومع ذلك فإن مردنا إلى الله العالم بكل المعلومات القادر على كل الممكنات الغني عن كل الحاجات الذي لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد ، فأي عاقل يجوز له عقله أن يشتغل بعبادة تلك الأشياء الباطلة وأن يعرض عن عبادة هذا الإله الذي لا بد وأن يكون مرده إليه ؟ وقوله ﴿ وَأَنَّ المسرفين هُمْ أصحاب النار ﴾ قال قتادة يعني المشركين وقال مجاهد السفاكين للدماء والصحيح أنهم أسرفوا في معصية الله بالكلمة والكيفية ، أما الكمية فالدوام وأما الكيفية فبالعود والإصرار ، ولما بالغ مؤمن آل فرعون في هذه البيانات ختم كلامه بخاتمة لطيفة فقال : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ وهذا كلام مبهم يوجب التخويف ويحتمل أن يكون المراد أن هذا الذكر يحصل في الدنيا وهو وقت الموت ، وأن يكون في القيامة وقت مشاهدة الأهوال وبالجملة فهو تحذير شديد ، ثم قال : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى الله ﴾ وهذا كلام من

هدد بأمر يخافه فكأنهم خوفوه بالقتل وهو أيضاً خوفهم بقوله ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ ثم عول في دفع تخويفهم وكيدهم ومكرهم على فضل الله تعالى فقال : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وهو إنما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام ، فإن فرعون لما خوفه بالقتل رجع موسى في دفع ذلك الشر إلى الله حيث قال : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب ﴾ [غافر : 27] فتح نافع وأبو عمرو الياء من ﴿ أَمْرِي ﴾ والباقون بالإسكان .

(13/676)

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بالعباد ﴾ أي عالم بأحوالهم وبمقادير حاجاتهم ، وتمسك أصحابنا بقوله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ على أن الكل من الله ، وقالوا إن المعتزلة الذين قالوا إن الخير والشر يحصل بقدرتهم قد فوضوا أمر أنفسهم إليهم وما فوضوها إلى الله ، والمعتزلة تمسكوا بهذه الآية فقالوا إن قوله ﴿ أفوض ﴾ اعتراف بكونه فاعلاً مستقلاً بالفعل ، والمباحث المذكورة في قوله أعوذ بالله عائدة بتمامها في هذا الموضع .

وههنا آخر كلام مؤمن آل فرعون ، والله الهادي .

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45)

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن ذلك الرجل لم يقصر في تقرير الدين الحق ، وفي الذب عنه فالله تعالى رد عنه كيد الكافرين وقصد القاصدين ، وقوله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ يدل على أنه لما صرّح بتقرير الحق فقد قصدوه بنوع من أنواع السوء ، قال مقاتل لما ذكر هذه الكلمات قصدوا قتله فهرب منهم إلى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه ، وقيل المراد بقوله ﴿ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ أنهم قصدوا إدخاله في الكفر وصرفه عن الإسلام فوقاه الله عن ذلك إلا أن الأول أولى لأن قوله بعد ذلك ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوء العذاب ﴾ لا يليق إلا بالوجه الأول ، وقوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي أحاط بهم ﴿ سُوء العذاب ﴾ أي غرقوا في البحر ، وقيل بل المراد منه النار المذكورة في قوله ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ قال الزجاج ﴿ النار ﴾ بدل من قوله ﴿ سُوء العذاب ﴾ قال : وجائز أيضاً أن تكون مرتفعة على إضمار تفسير ﴿ سُوء العذاب ﴾ كأن قائلاً قال : ما سوء العذاب ؟ فقيل : ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ .

قرأ حمزة ﴿ حاق ﴾ بكسر الحاء وكذلك في كل القرآن والباقون بالفتح أما قوله ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

احتج أصحابنا بهذه الآية على إثبات عذاب القبر قالوا الآية تقتضي عرض النار عليهم غدواً وعشياً ، وليس المراد منه يوم القيامة لأنه قال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ ، وليس المراد منه أيضاً الدنيا لأن عرض النار عليهم غدواً وعشياً ما كان حاصلاً في الدنيا ، فثبت أن هذا العرض إنما حصل بعد الموت وقبل يوم القيامة ، وذلك يدل على إثبات عذاب القبر في حق هؤلاء ، وإذ ثبت في حقهم ثبت في حق غيرهم لأنه لا قائل بالفرق ، فإن قيل لم لا يجوز أن يكون المراد من عرض النار عليهم غدواً وعشياً عرض النصائح عليهم في الدنيا ؟ لأن أهل الدين إذا ذكروا لهم الترغيب والترهيب وخوفوهم بعذاب الله فقد عرضوا عليهم النار ، ثم نقول في الآية ما يمنع من حمله على عذاب القبر وبيانه من وجهين : الأول : أن ذلك العذاب يجب أن يكون دائماً غير منقطع ، وقوله ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ يقتضي أن لا يحصل ذلك العذاب إلا في هذين الوقتين ، فثبت أن هذا لا يمكن حمله على عذاب القبر الثاني : أن الغدوة والعشية إنما يحصلان في الدينا ، أما في القبر فلا وجود لهما ، فثبت بهذين الوجهين أنه لا يمكن حمل هذه الآية على عذاب القبر والجواب : عن السؤال الأول أن في الدنيا عرض عليهم كلمات تذكرهم أمر النار ، لا أنه يعرض عليهم نفس النار ، فعلى قولهم يصير معنى الآية الكلمات المذكرة لأمر النار كانت تعرض عليهم ، وذلك يفضي إلى ترك ظاهر اللفظ والعدول إلى

المجاز ، أما قوله الآية تدل على حصول هذا العذاب في هذين الوقتين وذلك لا يجوز ، قلنا لم لا يجوز أن يكتفي في القبر بإيصال العذاب إليه في هذين الوقتين ، ثم عند قيام القيامة يلقى في النار فيدوم عذابه بعد ذلك ، وأيضاً لا يمتنع بأن يكون ذكر الغدوة والعشية كناية عن الدوام كقوله

(15/676)

﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [مريم : 62] أما قوله إنه ليس في القبر والقيامة غدوة وعشية ، قلنا لم لا يجوز أن يقال إن عند حصول هذين الوقتين لأهل الدنيا يعرض عليهم العذاب ؟ والله أعلم .

المسألة الثانية :

قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ أدخلوا آل فرعون ﴾ أي يقال لخزنة جهنم : أدخلوهم في أشد العذاب ، والباقون أدخلوا على معنى أنه يقال لهؤلاء الكفار : أدخلوا أشد العذاب ، والقراءة الأولى اختيار أبي عبيدة ، واحتج عليها بقوله تعالى : ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ فهذا يفعل بهم فكذلك ﴿ أَدْخِلُواْ ﴾ وأما وجه القراءة الثانية فقوله

﴿ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ ﴾ ، وههنا آخر الكلام في قصة مؤمن آل فرعون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 65.61 ﴾

(16/676)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ويا قوم مَا لي أَدْعُوكُمْ إِلَى النجاة ﴾

أي إلى طريق الإيمان الموصل إلى الجنان ﴿ وتدعونني إِلَى النار ﴾ بيّن أن ما قال فرعون من قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ سبيل الغيّ عاقبته النار وكانوا دعوه إلى اتباعه ؛ ولهذا قال : ﴿ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بالله وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ وهو فرعون ﴿ وَأَنَاْ أَدْعُوكُمْ إِلَى العزيز الغفار ﴾ .

﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ تقدّم الكلام فيه .

ومعناه حقاً .

﴿ أَنَّمَا تدعونني إِلَيْهِ ﴾ "مَا" بمعنى الذي ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ﴾ قال الزجاج : ليس له استجابة دعوة تنفع ؛ وقال غيره : ليس له دعوة توجب له الألوهية ﴿ فِي الدنيا وَلاَ فِي الآخرة ﴾ .

وقال الكلبي : ليس له شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة .

وكان فرعون أوّلاً يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ، ثم دعاهم إلى عبادة البقر ، فكانت تُعبَد ما كانت شابة ، فإذا هَرِمت أمر بذبحها ، ثم دعا بأخرى لتعبد ، ثم لما طال عليه الزمان قال أنا ربكم الأعلى .

﴿ وَأَنَّ المسرفين هُمْ أَصْحَابُ النار ﴾ قال قتادة وابن سيرين : يعني المشركين .

وقال مجاهد والشعبي : هم السفهاء والسفاكون للدماء بغير حقّها .

وقال عِكرمة : الجبارون والمتكبّرون .

وقيل : هم الذين تعدوا حدود الله .

وهذا جامع لما ذكر .

و"أَنَّ" في المواضع في موضع نصب بإسقاط حرف الجر .

وعلى ما حكاه سيبويه عن الخليل من أن "لاَ جَرَمَ" رد لكلام يجوز أن يكون موضع "أَنَّ" رفعاً على تقدير وجب أن ما تدعونني إليه ، كأنه قال : وجب بطلان ما تدعونني إليه ، والمردّ إلى الله ، وكون المسرفين هم أصحاب النار .

قوله تعالى : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ تهديد ووعيد .

و"ما" يجوز أن تكون بمعنى الذي أي الذي أقوله لكم .

ويجوز أن تكون مصدرية أي فستذكرون قولي لكم إذا حلّ بكم العذاب .

﴿ وَأُفَوِّضُ أمري إِلَى الله ﴾ أي أتوكل عليه وأسلم أمري إليه .

وقيل : هذا يدل على أنهم أرادوا قتله .

وقال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدروا عليه .

وقد قيل : القائل موسى .

والأظهر أنه مؤمن آل فرعون ؛ وهو قول ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ أي من إلحاق أنواع العذاب به فطلبوه فما وجدوه ؛ لأنه فوض أمره إلى الله .

قال قتادة : كان قبطياً فنجاه الله مع بني إسرائيل .

فالهاء على هذا لمؤمن آل فرعون .

وقيل : إنها لموسى على ما تقدّم من الخلاف .

﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سواء العذاب ﴾ قال الكسائي : يقال حاق يَحِيق حَيْقاً وحُيُوقاً إذا نزل ولزم .

ثم بين العذاب فقال : ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ وفيه ستة أوجه : يكون رفعاً على البدل

من "سُوءُ" .

ويجوز أن يكون بمعنى هو النار .

ويجوز أن يكون مرفوعاً بالابتداء .

وقال الفراء : يكون مرفوعاً بالعائد على معنى النار عليها يعرضون ، فهذه أربعة أوجه في الرفع ، وأجاز الفراء النصب ؛ لأن بعدها عائداً وقبلها ما يتصل به ، وأجاز الأخفش الخفض على البدل من "الْعَذَابِ" .

والجمهور على أن هذا العرض في البرزخ .

واحتج بعض أهل العلم في تثبيت عذاب القبر بقوله : ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ ما دامت الدنيا .

كذلك قال مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال : هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا ، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ .

وفي الحديث عن ابن مسعود : أن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تعرض على النار بالغداة والعشي فيقال هذه داركم .

وعنه أيضاً : إن أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين فذلك عرضها .

وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال : سمعت ميمون بن (مهران) يقول : كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي : أصبحنا والحمد لله وعُرِضَ آلُ فرعون على النار .

فإذا أمسى نادى : أمسينا والحمد لله وعُرِض آلُ فرعون على النار ؛ فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوّذ بالله من النار .

وفي حديث صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "إن الكافر إذا مات عُرِض على النار بالغداة والعشيّ"ثم تلا ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ وإن المؤمن إذا مات عُرِض روحه على الجنة بالغَدَاة والعشي" "

وخرّج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشيّ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة " قال الفراء : في الغداة والعشيّ بمقادير ذلك في الدنيا .

وهو قول مجاهد .

قال : "غُدُوًّا وَعَشِيًّا" قال : من أيام الدنيا .

وقال حماد بن محمد الفزاريّ : قال رجل للأوزاعي رأينا طيوراً تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب ، بيضاً صغاراً فَوْجاً لا يعلم عددها إلا الله ، فإذا كان العشاء رجعت مثلها سوداً .

قال : تلك الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون ، يعرضون على النار غدوّاً وعشيا ، فترجع إلى أوكارها وقد احترقت رياشها وصارت سوداً ، فينبت عليها من الليل رياشها بيضاً وتتناثر السود ، ثم تغدو فتعرض على النار غدوّاً وعشيا ، ثم ترجع إلى وَكْرها فذلك دأبها ما كانت في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : ﴿ أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ وهو الهاوية .

قال الأوزاعي : فبلغنا أنهم ألفا ألف وستمائة ألف .

و"غُدُوًّا" مصدر جعل ظرفاً على السعة .

و"عَشِيًّا" عطف عليه وتم الكلام .

(19/676)

ثم تبتدىء "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ" على أن تنصب يوماً بقوله : ﴿ أدخلوا ﴾ ويجوز أن يكون منصوباً ب "يُعْرَضُونَ" على معنى "يُعْرَضُونَ" على النار في الدنيا "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ" فلا يوقف عليه .

وقرأ نافع وأهل المدينة وحمزة والكسائي : "أَدْخِلُوا" بقطع الألف وكسر الخاء من أدخل وهي اختيار أبي عبيد ؛ أي يأمر الله الملائكة أن يدخلوهم ، ودليله ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ .

الباقون "ادْخُلُوا" بوصل الألف وضم الخاء من دخل أي يقال لهم : "ادْخُلُوا" يا "آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ" وهو اختيار أبي حاتم .

قال : في القراءة الأولى : "آلَ" مفعول أول و"أَشَدَّ" مفعول ثان بحذف الجر ، وفي القراءة الثانية منصوب ؛ لأنه نداء مضاف .

وآل فرعون : من كان على دينه وعلى مذهبه ، وإذا كان من كان على دينه ومذهبه في أشد العذاب كان هو أقرب إلى ذلك .

وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن العبد يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً منهم يحيى بن زكريا ولد مؤمناً وحيي مؤمناً ومات مؤمناً وإن العبد يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً منهم فرعون ولد كافراً وحيي كافراً ومات كافراً " ذكره النحاس .

وجعل الفرّاء في الآية تقديماً وتأخيراً مجازه : "أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ" .

"النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا" فجعل العرض في الآخرة ، وهو خلاف ما ذهب إليه الجمهور من انتظام الكلام على سياقه على ما تقدّم .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) ﴾

كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة واهتماماً بالمنادي له ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به دعوته ، وترك العطف في النداء الثاني وهو ﴿ يا قوم إِنَّمَا هذه الحياة ﴾ [غافر : 39] الخ لأنه تفسير لما أجمل في النداء قبله من الهداية إلى سبيل الرشاد فإنها التحذير من الاخلاد إلى الدنيا والترغيب في إيثار الآخرة على الأولى وقد أدى ذلك فيه على أتم وجه وأحسنه ولم يترك في هذا النداء لأنه ليس بتلك المثابة وذلك لأنه للموازنة بين الدعوتين دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار ، وليس ذلك من تفسير الهداية في شيء بل ذلك لتحقيق أنه هادوانهم مضلون وأن ما عليه هو الهدى وما هم عليه هو الضلال فهو عطف على النداء الأول أو المجموع ، وقيل : هو عطف على النداء الثاني داخل معه في التفسير لما أجمل في النداء الأول تصريحاً وتعريضاً ، ولكل وجه وفي الترجيح كلام .

﴿ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ ﴾ بدل من ﴿ تدعونني إلى النار ﴾ [غافر : 41] أو عطف

بيان له بناء على أنه يجري في الجمل كالمفردات أو جملة مستأنفة مفسرة لذلك ، والدعاء كالهداية في التعدية بإلى واللام ﴿ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ ﴾ أي بكونه شريكاً له تعالى في المعبودية أو بربوبيته وألوهيته ﴿ عِلْمٍ ﴾ ونفي العلم هنا كناية عن نفي المعلوم ، وفي إنكاره للدعوة إلى ما لا يعلمه اشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان موجب للعلم بها .

(21/676)

﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العزيز الغفار ﴾ المستجمع لصفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والإرادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران وخص هذان الوصفان بالذكر وإن كان كناية عن جميع الصفات لاستلزامهما ذلك كما أشير إليه لما فيهما من الدلالة على الخوف والرجاء المناسب لحاله وحالهم .

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدنيا وَلاَ فِى الآخرة ﴾ سياقه على مذهب البصريين ان ﴿ لا ﴾ رد لكلام سابق وهو ما يدعونه إليه ههنا من الكفر بالله سبحانه وشرك الآلهة الباطلة عز وجل به ودجرم ﴾ فعل ماض بمعنى ثبت وحق كما في قوله

: ولقد طعنت أبا عبيدة طعنة . . .

جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

(22/676)

وأن ما في حيزها فاعله أي ثبت وحق عدم دعوة للذي تدعونني إليه من الأصنام إلى نفسه أصلاً يعني ان من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد المكرمين كالأنبياء والملائكة إلى نفسه ويأمرهم بعبادته ثم يدعو العباد بعضهم بعضاً إليه تعالى وإلى طاعته سبحانه اظهاراً لدعوة ربهم عز وجل وما تدعون إليه وإلى عبادته من الأصنام لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدعى الربوبية أصلاً لا في الدنيا لأنه جماد فيها لا يستطيع شيئاً من دعاء وغيره ولا في الآخرة لأنه إذا انشأه الله تعالى فيها حيواناً تبرأ من الدعاة إليه ومن عبدته وحاصله حق إن ليس لآلهتكم دعوة أصلاً فليست بالهة حقة أو بمعنى كسب وفاعله ضمير الدعاء السابق الذي دعاه قومه وان مع ما في حيزها مفعوله أي كسب دعاؤكم إياي إلى آلهتكم أن لا دعوة لها أي ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوتها وذهابها ضياعاً ، وقيل : ﴿ جَرَمَ ﴾ اسم لا وهو مصدر مبني على الفتح بمعنى القطع والخبر أن مع ما في حيزها على معنى لا قطع لبطلان دعوة ألوهية الأصنام أي لا ينقطع ذلك البطلان في وقت من الأوقات فينقلب

حقاً ، وهذا البطلان هو معنى النفي الذي يفهم من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ﴾ الخ ، و﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ على هذا مثل لا بد فإنه من التبديد وهو التفريق وانقطاع بعض الشيء من بعض ، ومن ثم قيل : المعنى لا بد من بطلان دعوة الأصنام أي بطلانها أمر ظاهر مقرر ، ونقل هذا القول عن الفراء ، وعنه ان ذلك هو أصل ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ لكنه كثر استعماله حتى صار بمعنى حقاً فلهذا يجاب بما يجاب به القسم في مثل لا جرم لآتينك .

وفي الكشاف وروي عن العرب لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء أي لا بد وفعل وفعل إخوان كرشد ورشد وعدم وعدم ، وهذه للغة تؤيد القول بالاسمية في اللغة الأخرى ولا تعينها كما لا يخفى ، وقد تقدم شيء من الكلام في لا جرم أيضاً فليتذكر .

(23/676)

ولام له في جميع هذه الأوجه لنسبة الدعوة إلى الفاعل على ما سمعت من المعنى ، وجوز أن يكون لنسبتها لي المفعول فإن الكفار كانوا يدعون آلهتهم فنفي في الآية دعاءهم إياها على معنى نفي الاستجابة منها لدعائهم إياها ، فالمعنى ان ما تدعونني إليه من الأصنام ليس له استجابة دعوة لمن يدعوه أصلاً أو ليس له دعوة مستجابة أي لا يدعي دعاء يستجيبه لداعيه .

فالكلام اما على حذف الماضف أو على حذف الموصوف ، وجوز التجوز فيه للدعوة عن استجابتها التي تترتب عليها ، وهذا كما سمي الفعل المجازي عليه باسم الجزاء في قولهم : كما تدين تدان هو من باب المشاكلة عند بعض ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ ﴾ أي مرجعنا إليه تعالى بالموت ، وهذا عطف على ﴿ إِن تَدْعُونَنِى فِى الآخرة وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ المسرفين هُمْ أصحاب النار ﴾ وفسر ابن مسعود .

ومجاهد .

﴿ المسرفين ﴾ هنا بالسفاكين للدماء بغير حلها فيكون المؤمن قد ختم تعريضاً بما أفتتح به تصريحاً في قوله : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً ﴾ [غافر : 28]

وعن قتادة أنهم المشركون فإن الإشراك اسراف في الضلالة ، وعن عكرمة أنهم الجبارون المتكبرون ، وقيل : كل غلب شره خيره فهو مسرف والمراد بأصحاب النار ملازموها ، فإن أريد بالمسرفين ما يدخل فيه المؤمن أريد بالملازمة العرفية الشاملة للمكث الطويل ، وإن أريد بهم ما يخص الكفرة فهي بمعنى الخلود .

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ ﴾ وقرىء ﴿ فَسَتَذَّكُرُونَ ﴾ بالتشديد أي فسيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب ﴿ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ من النصائح ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللهِ ﴾ ليعصمني من كل سوء ﴿ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بالعباد ﴾ فيحرس من يلوذ به سبحانه منهم من

المكاره ، وهذا يحتمل أن يكون جواب توعدهم المفهوم من قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر : 37] أو من قوله سبحانه :

(24/676)

﴿ فَوقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ ويحتمل أن يكون متاركة والتفريع في ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ ﴾ على قوله الأخير : ﴿ حِسَابٍ ويا قوم مَا لِى أَدْعُوكُمْ ﴾ الخ ، وجعله من جعل ذلك معطوفاً على ﴿ يا قوم ما لي أدعوكم ﴾ [غافر : 41] الثاني تفريعاً على جملة الكلام ، و﴿ مَا ﴾ في ﴿ مَا مَكَرُواْ ﴾ مصدرية و﴿ السيئات ﴾ الشدائد أي فوقاه الله تعالى شدائد مكرهم ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي بفرعون وقومه ، فاستغنى بذكرهم عن ذكره ضرورة أنه أولى منهم بذلك ، ويجوز أن يكون آل فرعون شاملاً له عليه اللعنة بأن يراد بهم مطلق كفرة القبط كما قيل في قوله تعالى : ﴿ اعلموا ءالَ دَاوُودُ ﴾ [سبأ : 13] انه شامل لداود عليه السلام ، وكانوا على ما حكي الاوزاعي ولا اعتقد صحته ألفي ألف وستمائة ألف .

وعن ابن عباس أن هذا المؤمن لما أظهر إيمانه قصد فرعون قتله فهرب إلى جبل فبعث في طلبه ألف رجل فمنهم من أدركه يصلي والسباع حوله فلما هموا ليأخذوه ذبت عنه

فأكلتهم ، ومنهم من مات في الجبل عطشاً ، ومنهم من رجع إلى فرعون خائباً فاتهمه وقتله وصبله ، فالمراد بآل فرعون هؤلاء الألف الذين بعثهم إلى قتله أي فنزل بهم وأصابهم ﴿ فِرْعَوْنَ سُوء العذاب ﴾ الغرق على الأول وأكل السباع والموت عطشاً والقتل والصلب على ما روى عن ابن عباس والنار عليهما ولعله الأولى ، وإضافة ﴿ سُوء ﴾ إلى العذاب لامية أو من إضافة الصفة للموصوف

﴿ النار ﴾ مبتدأ وجملة قوله تعالى ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ خبره والجملة تفسير لقوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ ﴾ [غافر : 45] الخ .

(25/676)

وجوز أن تكون ﴿ النار ﴾ بدلاً من ﴿ سُوء العذاب ﴾ و ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ في ضموع الحال منها أو من الآل ، وأن تكون النار خبر مبتدأ محذوف هو ضمير ﴿ سُوء العذاب ﴾ كأنه قيل : ما سوء العذاب ؟ فقيل : هو النار ، وجملة ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ تفسير على ما مر ، وفي الوجه الأول من تعظيم أمر النار وتهويل عذابها ما ليس في هذا الوجه كما ذكره "صاحب الكشاف" ، ومنشأ التعظيم على ما في "الكشف" الاجمال والتفسير في كيفية تعذيبهم وإفادة كل من الجملتين نوعاً من التهويل .

الأولى : الإحاطة بعذاب يستحق أن يسمى سوء العذاب .

والثانية : النار المعروض هم عليها غدواً وعشياً .

والسر في إفادة تعظيم النار في هذا الوجه دون ما تضمن تفسير ﴿ سُوء العذاب ﴾ وبيان كيفية التعذيب أنك إذا فسرت ﴿ سُوء العذاب ﴾ بالنار فقد بالغت في تعظيم سوء العذاب .

ثم استأنفت بيعرضون عليها تتميماً لقوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ﴾ من غير مدخل للنار فيما سيق له الكلام ، وإذا جئت بالجملتين من غير نظر إلى المفردين وإن أحدهما تفسير للآخر فقد قصدت بالنار قصد الاستدلال حيث جعلتها معتمد الكلام وجئت بالجملة بياناً وإيضاحاً للأولى كأنك قد آذنت بأنها أوضح لاشتمالها على ما لا أسوأ منه أعني النار ؛ على أن من موجبات تقديم المسند إليه إنباؤه عن التعظيم مع اقتضاء المقام له وههنا كذلك على ما لا يخفى ، والتركيب أيضاً يفيد التقوى على نحو زيد ضربته .

ومن هنا قال "صاحب الكشف" : هذا هو الوجه ، وأيد بقراءة من نصب ﴿ النار ﴾ بناء على أنها ليست منصوبة بأخص أو أعني بل بإضمار فعل يفسره ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ مثل يصلون فإن عرضهم على النار إحراقهم بها من قولهم : عرض الأساري على السيف قتلوا به ، وهو من باب الاستعارة التمثيلية بتشبيه حالهم بحال متاع يبرز لمن يريد أخذه ، وفي ذلك جعل النار كالطالب الراغب فيهم لشدة استحقاقهم الهلاك ، وهذا العرض

لأرواحهم .

أخرج ابن أبي شيبة .

(26/676)

وعبد بن حميد .

عن هزيل بن شرحبيل أن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تغدو وتروح على النار

فذلك عرضها .

أخرج ابن أبي شيبة .

وهناد .

وعبد بن حميد .

عن هزيل بن شرحبيل أن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تغدو وتروح على النار

فذلك عرضها .

وأخرج عبد الرزاق .

وابن أبي حاتم عن ابن مسعود نحو ذلك ، وهذه الطير صور تخلق لهم من صور أعمالهم ،

وقيل .

ذاك من باب التمثيل وليس بذاك ، وذكر الوقتين ظاهر في التخصيص بمعنى أنهم يعرضون على النار صباحاً مرة ومساء مرة أي فيما هو صباح ومساء بالنسبة إلينا ، ويشهد له ما أخرجه ابن المنذر .

والبيهقي في "شعب الايمان" وغيرهما عن أبي هريرة أنه كان له صرختان في كل يوم غدوة وعشية كان يقول أول النهار : ذهب الليل وجاء النهار وعرض آل فرعون على النار ، ويقول أول الليل : ذهب النهار وجاء الليل وعرض آل فرعون على النار فلا يسمع أحد صوته إلا استعاذ بالله تعالى من النار ، والفصل بين الوقتين إما بترك العذاب أو بتعذبهم بنوع آخر غير النار .

وجوز أن يكون المراد التأبيد اكتفاء بالطرفين المحيطين عن الجميع ، وأياً ما كان ففي الآية دليل ظاهر على بقاء النفس وعذاب البرزخ لأنه تعالى بعد أن ذكر ذلك العرض قال جل شأنه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ وهو ظاهر في المغايرة فيتعين كون ذلك في البرزخ ، ولا قائل بالفرق بينهم وبين غيرهم فيتم الاستدلال على العموم ، وفي "الصحيحين" .

وغيرهما عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيء إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى " و ﴿ يَوْمٍ ﴾ على ما استظهره أبو حيان معمول لقول مضمر ، والجملة عطف على ما قبلها أي ويوم تقوم الساعة يقال للملائكة : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب أي عذاب جهنم فإنه أشد مما كانوا فيه أو أشد عذاب جهنم فإن عذابها ألوان بعضها أشدّ من بعض ، وعن بعض أشد العذاب هو عذاب الهاوية ، وقيل : هو معمول ﴿ أَدْخِلُواْ ﴾ .

وقيل : هو عطف على ﴿ عشياً ﴾ فالعامل فيه ﴿ أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ ﴾ و ﴿ أَدْخِلُواْ ﴾ على إضمار القول وهو كما ترى ، وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

والحسن .

وقتادة .

وابن كثير ، والعربيان .

وأبو بكر ﴿ أَدْخِلُواْ ﴾ على أنه أمر لآل فرعون بالدخول أي ادخلوا يا آل فرعون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه أرسل نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، بآياته وحججه الواضحة كالعصا واليد البيضاء إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوهن وزعموا أنه ساحر .

وأوضح هذا المعنى ، في آيات كثيرة كقوله تعالى عن فرعون وقومه : ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف : 132] ، وقوله تعالى عن فرعون ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر ﴾ [طه : 71] . وقوله تعالى : ﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الشعراء : 34] والآيات بمثل ذلك كثيرة . وقد بيناها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، عاذ بربه ، أي اعتصم به ، وتمنع من كل متكبر ، أي متصف بالكبر ، لا يؤمن بيوم الحساب ، أي لا

يصدق بالبعث والجزاء .

وسبب عياذ موسى بربه المذكور ، أن فرعون قال لقومه : ﴿ ذروني أَقْتُلْ موسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إني أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأرض الفساد ﴾ [غافر : 26] .

فعياذ موسى المذكور بالله إنما هو في الحقيقة من فرعون ، وإن كانت العبارة أعم من خصوص فرعون ، لأن فرعون لا شك أنه متكبر ، لا يؤمن بيوم الحساب فهو داخل في الكلام دخولاً أولياً ، وهو المقصود بالكلام .

(29/676)

وما ذكره جل وعلا في آية المؤمن هذه ، من عياذ موسى بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب كفرعون ، وعتاة قومه ، ذكر نحوه في سورة الدخان في قوله تعالى عن موسى مخاطباً فرعون وقومه : ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾ [الدخان : 20] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ الله ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أن رجلاً مؤمناً من آل فرعون يكتم إيمانه ، أي يخفى

عنهم أنه مؤمن ، أنكر على فرعون وقومه إرادتهم قتل نبي الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، حين قال فرعون ﴿ ذروني أَقْتُلْ موسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ [غافر : 26] الآية . مع أنه لا ذنب له ، يستحق به القتل ، إلا أنه يقول : ربي الله .

(30/676)

وقد بين في آيات أخر أن من عادة المشركين قتل المسلمين والتنكيل بهم ، وإخراجهم من ديارهم من غير ذنب ، إلا أنهم يؤمنون بالله ويقولون : ربنا الله ، كقوله تعالى في أصحاب الأخدود ، الذين حرقوا المؤمنين ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود النار ذَاتِ الوقود إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنين شُهُودٌ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بالله العزيز الحميد ﴾ [البروج : 48] وقوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ الله على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الذين أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله ﴾ [الحج : 3940] . وقوله تعالى : عن الذين كانوا سحرة لفرعون ، وصاروا من خيار المؤمنين ، لما هددهم فرعون قائلاً ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف : 124] أنهم أجابوه ، بما ذكره الله عنهم ، في قوله : ﴿ قالوا إِنَّآ إلى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ [الأعراف : 126] إلى غير ذلك من

الآيات .

والتحقيق أن الرجل المؤمن المذكور في هذه الآية من جماعة فرعون كما هو ظاهر قوله تعالى : ﴿ من آل فرعون ﴾ .

فدعوى أنه إسرائيلي ، وأن في الكلام تقديماً وتأخيراً . وأن من آل فرعون متعلق بيكتم ، أي وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون أي يخفى إيمانه عن فرعون وقومه خلاف التحقيق كما لا يخفى .

وقيل : إن هذا الرجل المؤمن هو الذي قال لموسى ﴿ إِنَّ الملأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فاخرج ﴾ [القصص : 20] وقيل غيره .

واختلف العلماء في اسمه اختلافاً كثيراً فقيل : اسمه حبيب ، وقيل اسمه شمعان ، وقيل اسمه حزقيل ، وقيل غير ذلك ولا دليل على شيء من ذلك .

(31/676)

والظاهر في إعراب المصدر المنسبك من أن وصلتها في قوله تعالى ، في هذه الآية الكريمة ، أن يقول ربي الله ، أنه مفعول من أجله .

وقال البخاري رحمه الله في صحيحه في تفسير هذه الآية الكريمة : حدثنا علي بن عبد الله

حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي قال حدثني يحيى بن أبي كثير قال حدثني محمد بن إبراهيم التيمي حدثني عروة بن الزبير قال قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله قد أجاءكم بالبينات من ربكم " .

قال تعالى : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ .

الظاهر أن أرى في هذه الآية الكريمة علمية ، عرفانية ، تتعدى لمفعول واحد كما أشار له في الخلاصة بقوله :

لعلم عرفان وظَنِّ تهمهْ تعديةُ لواحد ملتزمة

وعليه فالمعنى : قال فرعون ما أعلمكم وأعرفكم ، من حقيقة موسى وأنه ينبغي أن يقتل ، خوف أن يبدل دينكمن ويظهر الفساد في أرضكم ، إلا ما أرى أي أعلم وأعرف أنه الحق والصواب فما أخفى عنكم خلاف ما أظهره لكم ، وما أهديكم بهذا إلا سبيل الرشاد ، أي طريق السداد والصواب .

وهذان الأمران اللذان ذكر تعالى عن فرعون أنه قالهما في هذه الآية الكريمة ، قد بين في آيات أخر أن فرعون كاذب في كل واحد منهما .

(32/676)

أما الأول منهما وهو قوله : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى ﴾ فقد بين تعالى كذبه فيه في آيات من كتابه وأوضح فيها أنه يعلم ويتيقن أن الآيات التي جاءه بها موسى حق ، وأنها إلا الله ، وأنه جحدها هو ومن استيقنها معه من قومه ليستخفوا بها عقول الجهلة منهم كقوله تعالى في سورة النمل ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سواء فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ﴾ [النمل : 1214] .

فقوله تعالى : في هذه الآية ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ دليل واضح على أن فرعون كاذب في قوله : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى ﴾ .

وكقوله تعالى في سورة بني إسرائيل : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هؤلاء إِلاَّ رَبُّ السماوات والأرض بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يافرعون مَثْبُوراً ﴾ [الإسراء : 102] فقول نبي الله موسى

لفرعون ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هؤلاء إِلاَّ رَبُّ السماوات والأرض ﴾ مؤكداً إخباره بأن فرعون عالم بذلك بالقسمن وقد دل أيضاً على أنه كاذب في قوله : ما أريكم إلا ما أرى .

وكان غرض فرعون بهذا الكذب ، التدليس والتمويه ليظن جهلة قومه ، أن معه الحقن كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله : ﴿ فاستخف قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف : 54] .

(33/676)

وأما الأمر الثاني وهو قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد ﴾ فقد بين تعالى كذبه فيه في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود : 97] . وقوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هدى ﴾ [طه : 79] .

وقال بعض العلماء في قوله : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أرى ﴾ أي ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي ، من قتل موسى . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ .

هذه الآية الكريمة ، وأمثالها من الآيات الدالة عن أن السيئات لا تضاعف ، ولا تجزي إلا بمثلها بينها وبين الآيات الأخرى الدالة على أن السيئات ربما ضوعفت في بعض الأحوال ،

كقوله تعالى في نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات ﴾ [الإسراء : 75] وقوله تعالى في نسائه رضي الله عنهن ﴿ يانسآء النبي مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العذاب ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب : 30] إشكال معروف . وقد قدمنا الجواب عنه موضحاً في سورة النمل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَن جَآءَ بالسيئة فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : 90] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

(34/676)

قد أوضحنا معنى هذه الآية الكريمة ، وبينا العمل الصالح بالآيات القرآنية ، وأوضحنا الآيات المبينة لمفهوم المخالفة ، في قوله : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ في مواضع متعددة من هذا الكتاب المباركن في سورة النحل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : 97] الآية . وفي أول سورة الكهف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً

مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ [الكهف : 23] .

قوله تعالى : ﴿ وتدعونني إِلَى النار تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بالله وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ .

الظاهر أن جملة قوله تدعونني لأكفر بالله ، بدل من قوله : وتدعونني إلى النار ، لأن الدعوة إلى الكفر بالله والإشراك به دعوة إلى النار .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفر والإشراك بالله مستوجب لدخول النار ، بينه تعالى في آيات كثيرة من كتابه كقوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيهِ الجنة وَمَأْوَاهُ النار ﴾ [المائدة : 72] ، وقد قدمنا ما فيه كفاية من ذلك ، في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء ﴾ [الحج : 31] الآية .

التحقيق الذي لا شك فيه ، أن هذا الكلام ، من كلام مؤمن آل فرعون الذي ذكر الله عنه ، وليس لموسى فيه دخل .

(35/676)

وقوله ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ [غافر : 44] ، يعني أنهم يوم القيامة ، يعلمون صحة ما كان يقول لهم ، ويذكرون نصيحته ، فيندمون حيث لا ينفع الندم ، والآيات الدالة على مثل هذا من أن الكفار تنكشف لهم يوم القيامة حقائق ما كانوا يكذبون به في الدنيا

كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحق قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : 6667] وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : 88] . وقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ : 45] وقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : 34] وقوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ [ق : 22] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمري إِلَى الله إِنَّ الله بَصِيرٌ بالعباد ﴾ دليل واضح على أن التوكل الصادق على أن التوكل الصادق على الله ، وتفويض الأمور إليه ، سبب للحفظ والوقاية من كل سوء ، وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل ، كقولهم سها فسجد ، أي سجد لعلة سهوه ، وسرق فقطعت يده ، أي لعلة سرقته ، كما قدمنا مراراً .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من كون التوكل على الله سبباً للحفظ ، والوقاية من السوء ، جاء مبنياً في آيات أخر ، كقوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : 3] . وقوله تعالى : ﴿ الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فاخشوهم فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء ﴾ [آل عمران : 173174] .

وقد ذكرنا الآيات الدالة على ذلك بكثرة ، في أول سورة بني إسرائيل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : 2] .

والظاهر أن ما في قوله ﴿ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ مصدرية ، أي فوقاه الله سيئات مكرهم ، أي أضرار مكرهم وشدائده ، والمكر : الكيد .

فقد دلت هذه الآية الكريمة ، على أن فرعون وقومه أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن الكريم وأن الله وقاه ، أي حفظه ونجاه ، من أضرار مكرهم وشدائده بسبب توكله على الله ، وتفويضه أمره إليه .

وبعض العلماء يقول : نجاه الله منهم مع موسى وقومه وبعضهم يقول : صعد جبلاً فأعجزهم الله عنه ونجاه منهم ، وكل هذا دليل عليه ، وغاية ما دل عليه القرآن أن الله وقاه سيئات مكرهم ، أي حفظه ونجاه منها .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سواء العذاب ﴾ معناه أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن ، وقاه الله مكرهم ، ورد العاقبة السيئة عليهم ، فرد سوء مكرهم إليهم ، فكان المؤمن المذكور ناجياً ، في الدنيا والآخرة وكان فرعون وقومه هالكين ، في الدنيا والآخرة والبرزخ .

فقال في هلاكهم في الدنيا :

﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ ﴾ [الأنفال : 54] الآيتن وأمثالها من الآيات .

وقال في مصيرهم في البرزخ ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّا وَعَشِيّاً ﴾ [غافر : 46] .

وقال في عذابهم في الآخرة : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ [غافر : 46] .

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، من حيق المكر السيئ ، بالماكر أوضحه تعالى في قوله ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] .

والعرب تقول حاق به المكروه يحيق به حيقاً وحيوقاً ، إذا نزل به وأحاط به ، ولا يطلق إلا على إحاطة المكروه خاصة .

(37/676)

يقال حاق به السوء والمكروه ، ولا يقال حاق به الخير ، فمادة الحيق من الأجوف الذي هو يائي العينن والوصف منه حائق على القياس ، ومنه قول الشاعر :

فأوطأ جُرْد الخيل عقر دِيارِهم . . . وحاقَ بهمْ من يأس ضبَّة حائقُ

وقد قدمنا أن وزن السيئة بالميزان الصرفي ، فيعلة من السوء فأدغمت ياء الفيعلة الزائدة في الواو ، التي هي عين الكلمة ، بعد إبدال الواو ياء على القاعدة التصريفية المشار إليها ،

في الخلاصة بقوله :

إن يسكن السابق من وَاوٍ ويَا . . . واتصلا ومن عروض عَرِيَا

فياء الواو فليّنْ مدغماً . . . وشذَّ معطي غير ما قد رسما . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(38/676)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) ﴾

أعاد نداءهم وعطفت حكايته بواو العطف للإشارة إلى أن نداءه اشتمل على ما يقتضي في لغتهم أن الكلام قد تخطى من غرض إلى غرض وأنه سَيَطْرَق ما يغاير أول كلامه مغايرة مَّا تُشبه مغايرة المتعاطفين في لغة العرب ، وأنه سيرتقي باستدراجهم في دَرَج الاستدلال إلى المقصود بعد المقدمات ، فانتقل هنا إلى أن أنكر عليهم شيئاً جرى منهم نحوه وهو أنهم أعقبوا موعظتَهُ إياهم بدعوته للإقلاع عن ذلك وأن يتمسك بدينهم وهذا شيء مطوي في خلال القصة دلت عليه حكاية إنكاره عليهم ، وهو كلامُ آيسسٍ من استجابتهم لقوله فيه : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ [غافر : 44] ، ومُتَوقِّعٍ أذاهم لقوله : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي

إِلَى الله ﴾ [غافر : 44] ، ولقوله تعالى آخر القصة : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ [غافر : 45] .

فصرّح هنا وبيّن بأنه لم يزل يدعوهم إلى اتباع ما جاء به موسى وفي اتّباعه النجاة من عذاب الآخرة فهو يدعوهم إلى النجاة حقيقة ، وليس إطلاق النجاة على ما يدعوهم إليه بمجاز مرسل بل يدعوهم إلى حقيقة النجاة بوسائط .

(39/676)

والاستفهام في ﴿ مَا لِي أَدْعُوكم إلى النجاة ﴾ استفهام تعجبي باعتبار تقييده بجملة الحال وهي ﴿ وتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ فجملة ﴿ وتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ في موضع الحال بتقدير مبتدأ ، أي وأنتم تدعونني إلى النار وليست بعطف لأن أصل استعمال : ما لي أفعل ، وما لي لا أفعل ونحوه ، أن يكون استفهاماً عن فعل أو حالٍ ثبت للمجرور باللام (وهي لام الاختصاص) ، ومعنى لام الاختصاص يَكسب مدخولها حالةً خَفيًّا سببُها الذي عُلق بمدخول اللام نحو قوله تعالى : ﴿ ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل اللَّه اثّاقلتم إلى الأرض ﴾ [التوبة : 38] ﴿ ما لي لا أرى الهدهد ﴾ [النمل : 20] وقولك لمن يستوقفك : ما لك ؟ فتكون الجملة التي بعد اسم الاستفهام وخبره جملة فعلية .

وتركيب : ما لي ونحوه ، هو كتركيب : هل لك ونحوه في قوله تعالى : ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ [النازعات : 18] وقول كعب بن زهير :

ألا بلغا عني بُجيرا رسالة

فهل لك فيما قلتَ ويحْك هلْ لَكَ . . .

فإذا قامت القرينة على انتفاء إرادة الاستفهام الحقيقي انصرف ذلك إلى التعجب من الحالة ، أو إلى الإِنكار أو نحو ذلك .

فالمعنى هنا على التعجب يعني أنه يعجب من دعوتهم إياه لدينهم مع ما رأوا من حرصه على نصحهم ودعوتهم إلى النجاة وما أتاهم به من الدلائل على صحة دعوته وبطلان دعوتهم .

وجملة ﴿ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بالله ﴾ بيان لجملة ﴿ وتدعونني إلى النار ﴾ لأن الدعوة إلى النار أمر مجمل مستغرب فبينه ببيان أنهم يدعونه إلى التلبس بالأسباب الموجبة عذاب النار .

والمعنى : تدعونني للكفر بالله وإشراك ما لا أعلم مع الله في الإِلهية .

ومعنى ﴿ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ ما ليس لي بصحته أو بوجوده علم ، والكلام كناية عن كونه يعلم أنها ليست آلهة بطريق الكناية بنفي اللازم عن نفي الملزوم .

وعطف عليه ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفَّار ﴾ فكان بياناً لمجمل جملة ﴿ أَدْعُوكُمْ إِلَى النجاة ﴾ .

وإبراز ضمير المتكلم في قوله : ﴿ وأنا أدعوكم ﴾ لإِفادة تقوِّي الخبر بتقديم المسند إليه على خبره الفعلي .

وفعل الدعوة إذا ربط بمتعلق غير مفعوله يعدّى تارة باللام وهو الأكثر في الكلام ، ويعدى بحرف (إلى) وهو الأكثر في القرآن لما يشتمل عليه من الاعتبارات ولذلك علق به معموله في هذه الآية أربع مرات بـ (إلى) ومرة باللام مع ما في ربط فعل الدعوة بمتعلقه الذي هو من المعنويات من مناسبة لام التعليل مثل ﴿ تدعونني لأَكْفُرَ بالله وأُشْرِكَ بِهِ ﴾ ، وربطِه بما هو ذات بحرف (إلى) في قوله : ﴿ أَدْعُوكم إلى النجاة ﴾ فإن النجاة هي نجاة من النار فهي نجاة من أمر محسوس ، وقوله : ﴿ وتدعونني إلى النَّار ﴾ وقوله : ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ﴾ الخ ، لأن حرف (إلى) دالّ على الانتهاء لأن الذي يدعو أحداً إلى شيء إنما يدعوه إلى أن ينتهي إليه ، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى توحيده بالربوبية فشبه بشيء محسوس تشبيه المعقول بالمحسوس ، وشبه اعتقادُه صحتَه بالوصول إلى الشيء المسعي إليه ، وشبهت الدعوة إليه بالدلالة على الشيء المرغوب الوصول إليه فكانت في حرف (إلى) استعارة مكنية وتخييلية وتبعية ،

وفي ﴿ العَزِيزِ الغفار ﴾ استعارة مكنية ، وفي ﴿ أدعوكم ﴾ استعارة تبعية وتخييلية .

وعدل عن اسم الجلالة إلى الصفتين ﴿ العَزِيزِ الغفار ﴾ لإدماج الاستدلال على استحقاقه الإفراد بالإلهية والعبادة ، بوصفه ﴿ العزيز ﴾ لأنه لا تناله الناس بخلاف أصنامهم فإنها ذليلة توضع على الأرض ويلتصق بها القتام وتلوثها الطيور بذرقها ، ولإدماج ترغيبهم في الإقلاع عن الشرك بأن الموحد بالإلهية يغفر لهم ما سلف من شركهم به حتى لا ييأسوا من عفوه بعد أن أساءوا إليه .

(41/676)

وجملة ﴿ لا جَرَمَ أنما تَدْعُونني ﴾ بيان لجملة ﴿ تَدْعُونني لأَكْفُرَ بالله ﴾ .

وكلمة ﴿ لا جَرَمَ ﴾ بفتحتين في الأفصح من لغاتٍ ثلاث فيها ، كلمة يراد بها معنى لا يثبت أو لا بد ، فمعنى ثبوته لأن الشيء الذي لا ينقطع هو باق وكل ذلك يؤول إلى معنى حق وقد يقولون : لا ذا جرم ، ولا أنَّ ذا جرم ، ولا عَنَّ ذا جرم ، ولاَ جَرَ بدون ميم ترخيماً للتخفيف .

والأظهر أن ﴿ جَرم اسم لا فعل لأنه لو كان فعلاً لكان ماضياً بحسب صيغته فيكون دخول لا عليه من خصائص استعمال الفعل في الدعاء .

والأكثر أن يقع بعدها (أنَّ) المفتوحة المشددة فيقدر معها حرف (في) ملتزماً حذفه غالباً .

والتقدير : لا شك في أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة .

وتقدم بيان معنى لا جَرم وأن جرم فعل أو اسم عند قوله تعالى : ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ في سورة [هود : 22] .

وَمَا صَدَق ﴿ ما الأصنام ، وأعيد الضمير عليها مفرداً في قوله : لَيْسَ لَهُ ﴾ مراعاة لإفراد لفظ (ما) .

وقوله : ﴿ لاَ جَرم أَنَّما تدعونني إليه ﴾ إلى قوله : ﴿ أصحاب النَّار ﴾ واقع موقع التعليل لجملتي ﴿ ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ﴾ لأنه إذا تحقق أن لا دعوة للأصنام في الدنيا بدليل المشاهدة ، ولا في الآخرة بدلالة الفحوى ، فقد تحقق أنها لا تنجي أتباعها في الدنيا ولا يفيدهم دعاؤها ولا نداؤها .

وتحقق إذن أن المرجو للإنعام في الدنيا والآخرة هو الربّ الذي يدعوهم هو إليه .

وهذا دليل إقناعي غير قاطع للمنازع في إلهية رب هذا المؤمن ولكنه أراد إقناعهم واستحفظهم دليلَه لأنهم سيظهر لهم قريباً أن رب موسى له دعوة في الدنيا ثقة منه بأنهم سيرون انتصار موسى على فرعون ويرون صرف فرعون عن قتل موسى بعد عزمه عليه فيعلمون أن الذي دعا إليه موسى هو المتصرف في الدنيا فيعلمون أنهُ المتصرف في الآخرة .

ومعنى ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ﴾ انتفاء أن يكون الدعاء إليه بالعبادة أو الالتجاء نافعاً لا نفي وقوع الدعوة لأن وقوعها مشاهَد .

فهذا من باب "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب" وقولهم : ليس ذلك بشيء ، أي بشيء نافع ، وبهذا تعلم أن ﴿ دعوة مصدر متحمل معنَى ضمير فاعل ، أي ليست دعوةُ داع ، وأنّ ضمير له ﴾ عائد إلى (ما) الموصولة ، أي لا يملك دعوة الداعين ، أي لا يملك إجابتهم .

وعطفت على هذه الجملة جملة ﴿ وأنَّ مردَّنَا إلى الله ﴾ عطفَ اللازم على ملزومه لأنه إذا تبين أن رب موسى المسمى (الله) هو الذي له الدعوة ، تبين أن المرد أي المصير إلى الله في الدنيا بالالتجاء والاستنصار وفي الآخرة بالحكم والجزاء .

ولو عطف مضمون هذه الجملة بالفاء المفيدة للتفريع لكانت حقيقة بها ، ولكن عُدل عن ذلك إلى عطفها بالواو اهتماماً بشأنها لتكون مستقلة الدلالة بنفسها غيرَ باحثٍ سامعُها على ما ترتبط به ، لأن الشيء المتفرع على شيء يعتبر تابعاً له ، كما قال الأصوليون في أنّ جوابَ السائل غيرَ المستقل بنفسِه تابع لعُموم السُّؤال .

وكذلك جملة ﴿ وأنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أصحاب النَّارِ ﴾ بالنسبة إلى تفرع مضمونها على مضمون جملة ﴿ وأنَّ مَرَدَّنا إلى الله ﴾ لأنه إذا كان المصير إليه كان الحكم والجزاء بين الصائرين إليه من مُثاب ومعاقب فيتعين أن المعاقَب هم الكافرون بالله .

فالإِسراف هنا : إفراط الكفر ، ويشمل ما قيل : إنه أريد هنا سفك الدم بغير حق ليصرف فرعون عن قتل موسى عليه السلام .

والوجه أن يعم أصحاب الجرائم والآثام .

(43/676)

والتعريف فيه تعريف الجنس المفيد للاستغراق وهو تعريض بالذين يُخاطبهم إذْ هُم مسرفون على كل تقدير فهم مسرفون في إفراط كفرهم بالرب الذي دعا إليه موسى ، ومسرفون فيما يستتبعه ذلك من المعاصي والجرائم فضمير الفصل في قوله : ﴿ هُمْ أصحاب النَّارِ ﴾ يفيد قصراً ادعائياً لأنهم المتناهون في صحبة النار بسبب الخلود بخلاف عصاة المؤمنين ، وهذا لِحَمل كلام المؤمن على موافقة الواقع لأن المظنون به أنه نبي أو مُلْهَم وإلاّ فإن المقام مقام تمييز حال المؤمنين من حال المشركين ، وليس مقام تفصيل درجات الجزاء في الآخرة .

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44)

هذا الكلام متاركة لقومه وتنهية لخطابه إياهم ولعله استشعر من ملامحهم أو من مقاطعتهم كلامه بعبارات الإِنكار ، ما أيأَسَه من تأثرهم بكلامه ، فتحدّاهم بأنهم إن أعرضوا عن الانتصاح لنصحه سيندمون حين يرون العذاب إما في الدنيا كما اقتضاه تهديده لهم بقوله : ﴿ إِنِّي أخافُ عليكم مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴾ [غافر : 30] ، أو في الآخرة كما اقتضاه قوله : ﴿ إِنِّي أخافُ عليكم يَومَ التَّنادِ ﴾ [غافر : 32] ، فالفاء تفريع على جملة ﴿ ما لِيَ أدْعُوكم إلى النجاة وتَدْعُونني إلى النَّار ﴾ [غافر : 41] .

وفعل ﴿ ستذكرون ﴾ مشتق من الذُّكْر بضم الذال وهو ضد النسيان ، أي ستذكرون في عقولكم ، أي ما أقول لكم الآن يحضر نصب بصائركم يوم تحققه ، فشبه الإِعراض بالنسيان ورمز إلى النسيان بما هو من لوازمه في العقل مُلازمةَ الضد لضده وهو التذكر على طريقة المكنية وفي قرينتها استعارة تبعية .

والمعنى سيحلّ بكم من العذاب ما يُذَكِّركم ما أقوله : إنَّه سيحل بكم .

(44/676)

وجملة ﴿ وَأُفَوِّضُ أمرِي إلى الله ﴾ عطف على جملة ﴿ ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ﴾ ، ومساق هذه الجملة مساق الانتصاف منهم لما أظهروه له من الشرّ ، يعني : أني أَكِل شأني وشأنكم معي إلى الله فهو يجزي كل فاعل بما فعل ، وهذا كلام مُنصِف فالمراد بـ ﴿ أمري ﴾ شأني ومُهمّي .

ويدل لمعنى الانتصاف تعقيبه بقوله : ﴿ إن الله بَصيرٌ بالعِبَادِ ﴾ معللاً تفويض أمره معهم إلى الله بأن الله عليم بأحوال جميع العباد فعموم العباد شَمِله وشمل خصومَهُ .

وقال في "الكشاف" قوله : ﴿ وأُفَوِّضُ أمرِي إلى الله ﴾ لأنهم توعدوه اه .

يعني أن فيه إشعاراً بذلك بمعونة ما بعده .

و﴿ العباد ﴾ الناس يطلق على جماعتهم اسم العباد ، ولم أر إطلاق العبد على الإِنسان الواحد ولا إطلاق العبيد على الناس .

والبصير : المطلع الذي لا يخفى عليه الأمر .

والبَاء للتعدية كما في قوله تعالى : ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ [القصص : 11] ، فإذا أرادوا تعدية فعل البصر بنفسه قالوا : أبصره .

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45)

تفريع ﴿ فَوَقَاهُ الله ﴾ مؤذن بأنهم أضمروا مكراً به .

وتسميته مكراً مؤذن بأنهم لم يُشعروه به وأن الله تكفل بوقايته لأنه فوّض أمره إليه .

والمعنى : فأنجاه الله ، فيجوز أن يكون نجا مع موسى وبني إسرائيل فخرج معهم ، ويجوز أن يكون فرّ من فرعون ولم يعثروا عليه .

و(ما) مصدرية .

والمعنى : سيئات مكْرهم .

وإضافة ﴿ سيئات ﴾ إلى (مكر) إضافة بيانية ، وهي هنا في قوة إضافة الصفة إلى الموصوف لأن المكر سيّء .

وإنما جُمع السيئات باعتبار تعدد أنواع مكرهم التي بيّتوها .

وحَاق : أحاط .

والعذاب : الغرَق .

والتعريف للعهد لأنه مشهور معلوم .

وتقدم له ذكر في السور النازلة قبل هذه السورة .

(45/676)

ومناسبة فعل ﴿ حَاق لذلك العذاب أنه مما يَحيق على الحقيقة ، وإنما كان الغرَق سوء عذاب لأن الغريق يعذب باحتباس النفَس مدة وهو يطفو على الماء ويغوص فيه ويُرعبه

هول الأمواج وهو مُوقن بالهلاك ثم يكون عُرضة لأكْل الحيتان حيًّا وميّتاً وذلك ألم في الحياة وخزي بعد الممات يُذكرون به بين الناس .

وقوله : النَّارُ يُعْرَضُونَ عليها غُدُواً وعَشياً ﴾ يجوز أن يكون جملة وقعت بدلاً من جملة ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ ، فيجعل ﴿ النَّار ﴾ مبتدأ ويجعل جملة ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ خبراً عنه ويكون مجموع الجملة من المبتدأ وخبره بدل اشتمال من جملة ﴿ وحَاقَ بِآلِ فِرعون سُوءُ العَذَّابِ ﴾ لأن سوء العذاب إذا أريد به الغرق كان مشتملاً على موتهم وموتُهم يشتمل على عرضهم على النار غدُوًّا وعشِيًّا ، فالمذكور عَذَابَان : عذاب الدنيا وعذابُ الغرق وما يلحق به من عذابٍ قبل عذاب يوم القيامة .

ويجوز أن يكون ﴿ النار ﴾ بدلاً مفرداً من ﴿ سُوءُ العَذَابِ ﴾ بدلاً مطابقاً وجملة ﴿ يُعْرَضُونَ عليها ﴾ حالاً من ﴿ النار ﴾ فيكون المذكور في الآية عذاباً واحداً ولم يذكر عَذاب الغرق .

وعلى كلا الوجهين فالمذكور في الآية عذاب قبل عذاب يوم القيامة فذلك هو المذكور بعده بقوله : ﴿ ويَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ادْخِلُوا ءالَ فِرْعَونَ أشَدَّ العَذَابِ ﴾ .

(46/676)

والعرض حقيقته : إظهار شيء لمن يراه لترغيب أو لتحذير وهو يتعدّى إلى الشيء المظْهَر بنفسه وإلى من يُظهَر لأجله بحرف (على) ، وهذا يقتضي أن المعروض عليه لا يكون إلا من يَعقل ومنزّلاً منزلة من يعقل ، وقد يقلب هذا الاستعمال لقصد المبالغة كقول العرب "عرضتُ الناقةَ على الحوض" ، وحقه : عرضت الحوض على الناقة ، وهو الاستعمال الذي في هذه الآية وقوله في سورة الأحقاف (20) ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾ وقد عدَّ علماء المعاني القلب من أنواع تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ومثلوا له بقول العرب : عرضت الناقة على الحوض .

واختلفوا في عدّه من أفانين الكلام البليغ فعدّه منها أبو عبيدة والفارسي والسكاكي ولم يقبله الجمهور ، وقال القزويني : إن تضمن اعتباراً لطيفاً قُبِل وإلاّ رُدّ .

وعندي أن الاستعمالين على مقتضى الظاهر وأن العَرض قد كثر في معنى الإمرار دون قصد الترغيب كما يقال : عُرض الجيش على أميره واستعرضه الأمير .

ولعلّ أصله مجاز ساوى الحقيقة فليس في الآيتين قلب ولا في قول العرب : عرضت الناقة على الحوض ، قَلب ، ويقال : عُرض بنو فلان على السيف ، إذا قُتلوا به .

وخرج في "الكشف" آية الأحقافِ على قولهم : عُرض على السيفِ .

ومعنى عرضهم على النار أن أرواحهم تُشاهِد المواضع التي أعدت لها في جهنم ، وهو ما يبينه حديث عبد الله بن عُمر في "الصحيح" قال : قال رسول الله : " إن أحدكم إذا مات

عُرض عليه مقْعَدُه بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثَك الله يوم القيامة "

وقولُه : ﴿ غُدُوّاً وعَشِيّاً ﴾ كناية عن الدوام لأن الزمان لا يخلو عن هاذين الوقتين .

(47/676)

وقوله : ﴿ ويَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلوا ءالَ فِرْعون أشدَّ العَذَابِ ﴾ هذا ذكر عذاب الآخرة الخالد ، أي يُقال : أَدخلوا آل فرعون أشد العذاب ، وعلم من عذاب آل فرعون أن فرعون داخل في ذلك العذاب بدلالة الفحوى .

وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر ويعقوب ﴿ أدخلوا ﴾ بهمزة قطع وكسر الخاء .

وقرأ الباقون بهمزة وصل وضم الخاء على معنى أن القول مُوجّه إلى آل فرعون وأن ﴿ ءَالَ فِرْعَونَ ﴾ منادى بحذف الحرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(48/676)

فصل فى منزلة التفويض

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة التفويض

قال صاحب المنازل: وهو ألطف إشارة وأوسع معنى من التوكل فإن التوكل بعد وقوع السبب والتفويض قبل وقوعه وبعده وهو عين الاستسلام والتوكل شعبة منه يعني أن المفوض يتبرأ من الحول والقوة ويفوض الأمر إلى صاحبه من غير أن يقيمه مقام نفسه في مصالحه بخلاف التوكل فإن الوكالة تقتضي أن يقوم الوكيل مقام الموكل فالتفويض: براءة وخروج من الحول والقوة وتسليم الأمر كله إلى مالكه

فيقال: وكذلك التوكل أيضا وما قدحتم به فى التوكل يرد عليكم نظيره في التفويض سواء فإنك كيف تفوض شيئا لا تملكه ألبتة إلى مالكه وهل يصح أن يفوض واحد من آحاد الرعية الملك إلى ملك زمانه فالعلة إذن في التفويض أعظم منها في التوكل بل لو قال قائل: التوكل فوق التفويض وأجل منه وأرفع لكان مصيبا ولهذا كان القرآن مملوءا به أمرا وإخبارا عن خاصة الله وأوليائه وصفوة المؤمنين بأن حالهم التوكل وأمر الله به رسوله في أربعة مواضع من كتابه وسماه المتوكل كما في صحيح البخارى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قرأت في التوراة صفة النبي صلى الله عليه وسلم: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم سميته

المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق

وأخبر عن رسله بأن حالهم كان التوكل وبه انتصروا على قومهم وأخبرر

(49/676)

النبي عن السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: أنهم أهل مقام التوكل ولم يجيء التفويض في القرآن إلا فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون من قوله: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [غافر: 44] وقد أمر الله رسوله بأن يتخذه وكيلا فقال: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل: 9] وهذا يبطل قول من قال من جهلة القوم: إن توكيل الرب فيه جسارة على البارى لأن التوكل يقتضي إقامة الوكيل مقام الموكل وذلك عين الجسارة قال: ولولا أن الله أباح ذلك وندب إليه: لما جاز للعبد تعاطيه وهذا من أعظم الجهل فإن اتخاذه وكيلا هو محض العبودية وخالص التوحيد إذا قام به صاحبه حقيقة ولله در سيد القوم وشيخ الطائفة سهل بن عبد الله التستري إذ يقول: العلم كله باب من التعبد والتعبد كله باب من الورع والورع كله باب من الزهد والزهد كله باب من التوكل فالذي نذهب إليه: أن التوكل أوسع من التفويض وأعلى وأرفع قوله: فإن التوكل بعد وقوع السبب والتفويض قبل وقوعه وبعده يعني بالسبب: الاكتساب فالمفوض قد فوض أمره إلى

الله قبل اكتسابه وبعده والمتوكل قد قام بالسبب وتوكل فيه على الله فصار التفويض أوسع فيقال: والتوكل قد يكون قبل السبب ومعه وبعده فيتوكل على الله أن يقيمه في سبب يوصله إلى مطلوبه فإذا قام به توكل على الله حال مباشرته فإذا أتمه توكل على الله في حصول ثمراته فيتوكل على الله قبله ومعه وبعده فعلى هذا: هو أوسع من التفويض على ما ذكر قوله: وهو عين الاستسلام أي التفويض عين الانقياد بالكلية إلى

الحق سبحانه ولا يبالي أكان ما يقضى له الخير أم خلافه والمتوكل يتوكل على الله في مصالحه وهذا القدر هو الذي لحظه القوم في هضم مقام التوكل ورفع مقام التفويض عليه وجوابه من وجهين

(50/676)

أحدهما: أن المفوض لا يفوض أمره إلى الله إلا لإرادته أن يقضي له ما هو خير له في معاشه ومعاده وإن كان المقضي له خلاف ما يظنه خيرا فهو راض به لأنه يعلم أنه خير له وإن خفيت عليه جهة المصلحة فيه وهكذا حال المتوكل سواء بل هو أرفع من المفوض لأن معه من عمل القلب ما ليس مع المفوض فإن المتوكل مفوض وزيادة فلا يستقيم مقام التوكل إلا بالتفويض فإنه إذا فوض أمره إليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه ونظير هذا: أن من فوض

أمره إلى رجل وجعله إليه فإنه يجد من نفسه بعد تفويضه اعتمادا خاصا وسكونا وطمأنينة إلى المفوض إليه أكثر مما كان قبل التفويض وهذا هو حقيقة التوكل الوجه الثاني: أن أهم مصالح المتوكل: حصول مراضي محبوبه ومحابه فهو يتوكل عليه في تحصيلها له فأي مصلحة أعظم من هذه

وأما التفويض: فهو تفويض حاجات العبد المعيشية وأسبابها إلى الله فإنه لا يفوض إليه محابه والمتوكل يتوكل في محابه والوهم إنما دخل من حيث يظن الظان: أن التوكل مقصور على معلوم الرزق وقوة البدن وصحة الجسم ولا ريب أن هذا التوكل ناقص بالنسبة إلى التوكل في إقامة الدين والدعوة إلى الله

قال: وهو على ثلاث درجات الأول أن يعلم أن العبد لا يملك قبل عمله استطاعة فلا يأمن من مكر ولا ييأس من معونة ولا يعول على نية

(51/676)

أي يتحقق أن استطاعته بيد الله لا بيده فهو مالكها دونه فإنه إن لم يعطه الاستطاعة فهو عاجز فهو لا يتحرك إلا بالله لا بنفسه فكيف يأمن المكر وهو محرك لا محرك يحركه من حركته بيده فإن شاء ثبطه وأقعده مع القاعدين كما قال فيمن منعه هذا التوفيق: ﴿ وَلَكِنْ

كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة: 46] فهذا مكر الله بالعبد : أن يقطع عنه مواد توفيقه ويخلي بينه وبين نفسه ولا يبعث دواعيه ولا يحركه إلى مراضيه ومحابه وليس هذا حقا على الله فيكون ظالما بمنعه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا بل هو مجرد فضله الذي يحمده على بذله لمن بذله وعلى منعه لمن منعه إياه فله الحمد على هذا وهذا ومن فهم هذا فهم بابا عظيما من سر القدر وانجلت له إشكالات كثيرة فهو سبحانه لا يريد من نفسه فعلا يفعله بعبده يقع منه ما يحبه ويرضاه فيمنعه فعل نفسه به وهو توفيقه لأنه يكرهه ويقهره على فعل مساخطه بل يكله إلى نفسه وحوله وقوته ويتخلى عنه فهذا هو المكر قوله: ولا ييأس من معونة يعني إذا كان المحرك له هو الرب جل جلاله وهو أقدر القادرين وهو الذي تفرد بخلقه ورزقه وهو أرحم الراحمين فكيف ييأس من معونته له قوله: ولا يعول على نية أي لا يعتمد على نيته وعزمه ويثق بها فإن نيته وعزمه بيد الله تعالى لا بيده وهي إلى الله لا إليه فلتكن ثقته بمن هي في يده حقا لا بمن هي جارية عليه حكما فصل قال: الدرجة الثانية: معاينة الاضطرار فلا يرى عملا منجيا

ولا ذنبا مهلكا ولا سببا حاملا أي يعاين فقره وفاقته وضرورته التامة إلى الله بحيث إنه يرى في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة وفاقة تامة إلى الله فنجاته إنما هي بالله لا بعمله

وأما قوله: ولا ذنبا مهلكا فإن أراد به: أن هلاكه بالله لا بسبب ذنوبه: فباطل معاذ الله من ذلك وإن أراد به: أن فضل الله وسعته ومغفرته ورحمته ومشاهدة شدة ضرورته وفاقته إليه: يوجب له أن لا يرى ذنبا مهلكا فإن افتقاره وفاقته وضرورته تمنعه من الهلاك بذنوبه بل تمنعه من اقتحام الذنوب المهلكة إذ صاحب هذا المقام لا يصر على ذنوب تهلكه وهذا حاله فهذا حق وهو من مشاهد أهل المعرفة

وقوله: ولا سببا حاملا أي يشهد : أن الحامل له هو الحق تعالى لا الأسباب التي يقوم بها فإنه وإياها محمولان بالله وحده

فصل قال: الدرجة الثالثة: شهود انفراد الحق بملك الحركة والسكون

والقبض والبسط ومعرفته بتصريف التفرقة والجمع هذه الدرجة تتعلق بشهود وصف الله تبارك وتعالى وشأنه والتي قبلها تتعلق بشهود حال العبد ووصفه أي يشهد حركات العالم وسكونه صادرة عن الحق تعالى في كل متحرك وساكن فيشهد تعلق الحركة باسمه الباسط وتعلق السكون باسمه القابض فيشهد تفرده سبحانه بالبسط والقبض

وأما معرفته بتصريف التفرقة والجمع فأن يكون المشاهد عارفا بمواضع التفرقة والجمع

والمراد بالتفرقة: نظر الاعتبار ونسبة الأفعال إلى الخلق

والمراد بالجمع: شهود الأفعال منسوبة إلى موجدها الحق تعالى وقد يريدون بالتفرقة

والجمع: معنى وراء هذا الشهود وهو حال التفرقة والجمع فحال التفرقة: تفرق القلب في أودية الإرادات وشعابها وحال الجمع: جمعيته على مراد الحق وحده فالأول: علم التفرقة والجمع والثاني: حالهما والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 143.137 ﴾

(53/676)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) ﴾

أَكْرَمُ خَلْقِه في وقته كان موسى عليه السلام، وأخَسُّ خَلْقِه وأذلُّهم في حُكْمِه وأشدُّهم كفراً كان فرعون؛ فما قال أحدٌ غيره: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: 38].

فَبَعَثَ اللَّهُ - أخصَّ عباده إلى أخسِّ عباده، فقابله بالتكذيب، ونَسبَه إلى السِّحر، وأَنْبَهُ بكل أنواع التانيب. ثم لم يُعَجِّلْ اللَّهُ عقوبته، وأمهله إلى أن أوصل إليه شِقْوَتَه - إنه سبحانه حليمٌ بعباده.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

عَزَم على إهلاكه وإهلاك قومه ، واستعان على ذلك بجُنْدِه وخَيْلِه ورَجْلِه ، ولكن كان كما قال الله : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ ، لأنه إذا حَفَرَ أحدٌ لِوَلِيٍّ من أولياء الله تعالى حُفْرةً ما وقع فيها غيرُ حَافِرها . . . بذلك أجرى الحقُّ سُنَّتَه .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ

﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أي لِيَسْتَعِنْ بربه ، وإني أخاف أن يبدل دينكم ، وأخاف أن يُفْسِدَ في الأرض ، وكان المفْسِدُ هو فرعون ، وهو كما قيل في المثل : " رمَتْنِي بدائها وانْسَلَّتْ " ولكن كادَ له الكيد ، والكائد لا يتخلص من كيده .

فاستغاث موسى بربه ، وانْتُدِبَ في الردِّ عليهم مؤمِنٌ بالله وبموسى كان يكتم إيمانه عن فرعون وقومه :

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28)

(54/676)

نَصَحَهُم واحتَجَّ عليهم فلم ينجح فيهم نُصْحٌ ولا قَولٌ . وكم كَرَّرَ ذلكْ المؤمن من آل فرعون القولَ وأعاد لهم النُّصْحَ ! فلم يستمعوا له ، وكان كما قيل :

وكم سُقْتُ في آثاركم من نصيحةٍ . . . وقد يستفيد البغضة المتنصّحُ

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34)

بَيَّنَ أَنَّ تكذيبَهم كتكذيب آبائهم وأسلافهم من قبل ، وكما أهلك أولئك قديماً كذلك يفعل بهؤلاء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ .

السببُ ما يُتَوَصَّلُ به إلى الشيء ؛ أي لعلّي أصل إلى السماء فأطَّلِعَ إلى إله موسى . ولو لم يكن من المضاهاة بين مَنْ قال إن المعبودَ في السماء وبين الكافر إلا هذا لكفي به خِزْياً لمذهبهم . وقد غَلِطَ فرعونُ حين تَوَهَّمَ أَنَّ المعبودَ في السماء ، ولو كان في السماء لكان فرعونُ مُصِيباً في طَلَبه من السماء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَالِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ .

أخبر أَنَّ اعتقادَه بأَنَّ المعبودَ في السماء خطأٌ ، وأَنَّه بذلك مصدودٌ عن سبيل الله .

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39)

أصرَّ على دعائه وأصرُّوا على جحودهم وعُنُودِهم .

(55/676)

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40)

﴿ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ : في المقدار لا في الصفة ؛ لأن الأولى سيئة ، والمكافأة من الله عليها حسنة وليست بسيئة .

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ يعني في الحال ، لأنَّ مَنْ لا يكون مؤمناً في الحال لا يكون منه العملُ الصالح ،

﴿ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ : أي رزقاً مؤبَّداً مُخلَّداً ، لا يخرجون من الجنة ولا مِمَّا هم عليه من المآل .

وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41)

وهذا كُلُّه مِنْ قَوْل مؤمن آل فرعونَ ، ويقوله على جهة الأحتجاج لقومه ، ويلزمهم الحجة به .

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42)

تدعونني لأكفر بالله وأشرك به من غير علم لي بصحة قولكم ، وأنا أدعوكم إلى الله وإلى ما أوضحه بالبرهان ، وأقيم عليه البيان .

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43)

لا جَرَمَ أنَّ ما تدعونني إليه باطل ؛ فليس لتلك الأصنام حياةٌ ولا عِلْمٌ ولا قُدْرَةٌ ، وهي لا تنفع ولا تَضُرُّ . ولقد علمنا -بقول الذين ظهر صِدْقُهم بالمعجزاتِ- كَذِبَكُم فيما تقولون .

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44)

أفوض أمري إلى الله ، وأتوكل عليه ، ولا أخاف منكم ، ولا من كيدكم .

(56/676)

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)

والآية تدلُّ على عذاب القبر .

ويقال إنَّ أرواح الكفار في حواصل طير سُودٍ تُعْرَضُ على النار غدواً وعشياً إلى يوم القيامة حيث تدخل النار .

﴿ أَدْخِلُواْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ : أي يا آل فرعون أُدخُلوا أشدَّ العذاب ، فَنَصَبه على النداء المضاف . ويقرأ " أَدْخِلوا " على الأمر .

﴿ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ : أي أصعبهُ ، وأصعبُ عذابٍ للكفار في النار يأسُهم من الخروج عنها . أمَّا العصاةُ من المؤمنين فأشدُّ عذابهم في النار إذا علموا أن هذا يومُ لقاء المؤمنين ، فإذا عرفوا ذلك فذلك اليومُ أشدُّ أيام عذابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 304.309 ﴾

(57/676)

فصل

قال القرطبى :

باب ذكر حديث البراء المشهور الجامع لأحوال الموتى عند قبض أرواحهم وفي قبورهم أخرجه أبو داود الطيالسي وعبد بن حميد في مسنديهما وعلي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية . وهناد بن السرى في زهده . وأحمد بن حنبل في مسنده وغيرهم .

وهو حديث صحيح له طرق كثيرة تهمم بتخريج طرقه علي بن معبد . فأما أبو داود الطيالسي فقال : حدثنا أبو عوانة عن الأعمش . وقال هناد وأحمد : حدثنا أبو معاوية

عن الأعمش عن المنهال عن عمرو ، وقال : أبو داود : حدثنا عمرو بن ثابت سمعه من المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء ـ يعني ابن عازب ـ وحديث أبي عوانة أتمهما ، قال البراء : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ، ولما يلحد ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله ، كأنما على رؤوسنا الطير ، قال عمر بن ثابت : وقع ولم يقله أبو عوانة ، فجعل يرع بصره وينظر إلى السماء ويخفض بصره وينظر إلى الأرض ، ثم قال : أعوذ بالله من عذاب القبر قالها مراراً ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، جاءه ملك فجلس عند رأسه فيقول اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ورضوان فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقا قال : عمرو في حديثه ، ولم يقله أبو عوانة وإن كنتم ترون غير ذلك . وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم أكفان من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوطها . فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها في يده طرفة عين قال : فذلك قوله تعالى : توفته رسلنا وهم لا يفرطون قال : فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت ، فتعرج به الملائكة فلا يأتون على جند بين السماء والأرض إلا قالوا : ما هذه الروح ؟ فيقال : فلان ، بأحسن أسمائه حتى ينتهوا به أبواب سماء الدنيا فيفتح له ، ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهي إلى السماء السابعة ،

فيقال : اكتبوا كتابه في عليين وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون فيكتب كتابه في عليين . ثم يقال : ردوه إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم ، وفيها نعيدهم ، ومنها نخرجهم تارة أخرى ، قال : فيرد إلى الأرض ، وتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه ، فيقولان من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول ربي الله وديني الإسلام ، فيقولان : فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله . فيقولان : وما يدريك ؟ فيقول : جاءنا بالبينات من ربنا فآمنت به وصدقت قال : وذلك قوله تعالى : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال : وينادي منادي السماء أن قد صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وأروه منزله منها ويفسح له مد بصره . ويمثل عمله له في صورة رجل حسن الوجه طيب الرائحة حسن الثياب فيقول : أبشر بما أعد الله لك ابشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم فينقول : بشرك الله بخير ، من أنت فوجهك الوجه الذي جاء بالخير ؟ فيقول : هذا يومك الذي كنت توعد ، أو الأمر الذي كنت توعد أنا عملك الصالح فو الله ما علمتك إلا كنت سريعاً في طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً . فيقول يا رب أقم الساعة كي أرجع إلى أهلي ومالي قال : فإن كان فاجراً وكان في إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة جاء ملك ، فجلس عند رأسه فقال : اخرجي أيتها النفس

الخبيثة أبشري بسخط من الله وغضبه ، فتنزل الملائكة سود الوجوه معهم مسوح من نار فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها في يده طرفة عين ، قال : فتفرق في جسده فيستخرجها ، تقطع منها العروق والعصب كالسفود الكثير الشعب في الصوف المبتل ، فتؤخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة وجدت فلا تمر على جند فيما بين السماء والأرض ، إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هذا فلان بأسوأ أسمائه حتى

(59/676)

ينتهوا به إلى سماء الدنيا فلا يفتح لهم ، فيقولون : ردوه إلى الأرض إني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها نعيدهم ، ومنها نخرجهم تارة أخرى قال : فيرمي به من السماء . قال : وتلا هذه الآية ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق . قال : فيعاد إلى الأرض وتعاد فيه روحه ، ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهزانه ويجلسانه فيقولون : من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : لا أدري . فيقولون : فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فلا يهتدي لاسمه فيقال : محمد ، فيقول : لا أدري سمعت الناس يقولون ذلك قال : فيقال : لا دريت ، فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه . ويمثل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب ، فيقول : أبشر بعذاب الله

وسخطه ، فيقول : من أنت فوجهك الذي جاء بالشر ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث فوالله ما عملتك إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله سريعاً إلى معصية الله .

قال عمرو في حديثه عن المنهال عن زاذان عن البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم : فيقيض له أصم أبكم بيده مرزبه ضرب بها جبل صار تراباً أو قال : رميما فيضربه به ضربة تسمعها الخلائق إلا الثقلين ، ثم تعاد فيه الروح فيضرب ضربة أخرى لفظ أبي داود الطيالسي وخرجه علي بن معبد الجهني من عدة طرق بمعناه : وزاد فيه : ثم يقيض له اعمى أصم معه مرزبة من حديد فيضربه فيدق بها من ذؤابته إلى خصره ثم يعاد فيضربه ضربة فيدق بها من ذؤابته إلى خصره وزاد في بعض طرقه عند قوله مرزبة من حديد : لو اجتمع عليه الثقلان لم ينقلوها . فيضرب بها ضربة فيصير تراباً ثم تعاد فيه الروح ، ويضرب بها ضربة يسمعها من على الأرض غير الثقلين ، ثم يقال : افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له باباً إلى النار ، فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار وزاد فيه عند قوله : وانقطاع من الدنيا : نزلت به ملائكة غلاظ شداد معهم حنوط من نار

(60/676)

وسرابيل من قطران يحتوشونه فتنتزع نفسه كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل يقطع معه عروقها ، فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك في السماء وكل ملك في الأرض وخرج أبو عبد الله الحسين بن الحسين بن حرب ، صاحب ابن المبارك في رقائقه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه كان يقول : [إذا قتل العبد في سبيل الله كان أول قطرة تقطر من دمه ، إلى الأرض كفارة للخطايا ثم يرسل الله عز وجل بربطة من الجنة فيقبض فيها روحه . وصورة من صور الجنة فيركب فيها روحه ثم يعرج مع الملائكة كأن معهم والملائكة على أرجاء السماء ، فيقولان : قد جاء روح من الأرض طيبة ، ونسمة طيبة ، فلا تمر بباب إلا فتح لها ، ولا ملك إلا صلى عليها ودعا لها : ويشيعها ، حتى يؤتى بها الرحمن . فيقولون : يا ربنا هذا عبدك توفيته في سبيلك فيسجد قبل الملائكة ، ثم تسجد الملائكة بعد ثم يطهر ويغفر له ثم يؤمر فيذهب به إلى الشهداء فيجدهم في قباب من حرير في رياض خضر عندهم حوت وثور يظل الحوت يسبح في أنهار الجنة يأكل من كل رائحة في أنهار الجنة ، فإذا أمسى وكزه الثور بقرنه فيذكيه فيأكلون لحمه فيجدون في لحمه طعم كل رائحة ويبيت الثور في أفناء الجنة فإذا أصبح غداً عليه الحوت فوكزه بذنبه فيذكيه فيأكلون فيجدون في لحمه طعم كل رائحة في الجنة ثم يعودون وينظرون إلى منازلهم من الجنة ، ويدعون الله عز وجل أن تقوم الساعة ، فإذا توفي العبد المؤمن بعث الله عز وجل إليه ملكين وأرسل إليه بخرقة من الجنة ، فقال : اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى روح

وريحان ورب عنك غير غضبان ، فتخرج كأطيب ريح من مسك ما وجدها أحد بأنفه قط ، والملائكة على أرجاء السماء يقولون قد جاء من قبل الأرض روح طيبة ونسمة طيبة فلا تمر بباب إلا فتح لها ولا بملك إلا دعا لها وصلى عليها ، حتى يؤتى بها الرحمن فتسجد الملائكة ثم يقولون : هذا عبدك فلان قد توفيته وكان يعبدك

(61/676)

لا يشرك بك شيئاً ، فيقول مروه فليسجد فتسجد النسمة ، ثم يدعى ميكائيل فيقول : اذهب بهذه فاجعلها مع أنفس المؤمنين حتى أسألك عنها يوم القيامة ثم يؤمر فيوسع عليه قبره سبعين ذراعاً عرضه وسبعين ذراعاً طوله ، وينبذ له فيه الرياحين ويستر بالحرير ، فإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره . وإن لم يكن معه جعل له في قبره نور مثل نور الشمس . ويكون مثله كمثل العروس ينام فلا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، قال : فيقوم من نومه كأنه لم يشبع من نومته ، وإذا توفي العبد الفاجر أرسل الله إليه ملكين وأرسل بقطعة من نجاد أنتن من كل نتن وأخشن من كل خشن ، فقالا : أخرجي أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى حميم وعذاب ، ورب عليك غضبان أخرجي وساء ما قدمت لنفسك ، فتخرج كأنتن رائحة وجدها أحد بأنفه قط وعلى أرجاء السماء ملائكة يقولون : قد جاءت من الأرض روح

خبيثة ، ونسمة خبيثة فتغلق دونها أبواب السماء ، ولا تصعد إلى السماء ثم يؤمر فيضيق عليه قبره ويرسل عليه حيات أمثال أعناق البخت فتأكل لحمه حتى لا تذر على عظمه لحماً ، ويرسل عليه ملائكة صم عمي يضربونه بفطاطيس من حديد لا يسمعون صوته فيرحموه ، ولا يبصرونه فيرحموه ، ولا يخطئون حتى يضربونه ، ويعرض عليه مقعده من النار بكرة وعشيا يدعو بأن يدوم ذلك ولا يخلص إلى النار .

وخرج أبو عبد الرحمن النسائي بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا احتضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون : أخرجي راضية مرضياً عنك إلى روح وريحان ورب راض غير غضبان فتخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً حتى يأتوا به باب السماء فيقولون : ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض ؟ فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فيقولون : دعوه فإنه كان في غم الدنيا فإذا قال : ما أتاكم ؟

قالوا : ذهب به إلى أمه الهاوية وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون : اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله فيخرج كأنتن ريح خبيثة حتى يأتوا به باب الأرض فيقولون : ما أنتن هذه الريح ؟ حتى يأتوا به أرواح الكفار .

وخرج أبو داود الطيالسي قال : حدثنا حماد ، عن قتادة ، عن أبي الجوزاء ، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا قبض العبد المؤمن جاءته ملائكة الرحمة فتسلم تسل نفسه في حريرة بيضاء فيقولون : ما وجدنا ريحاً أطيب من هذه . فيسألونه فيقولون : ارفقوا به فإنه خرج من غمم الدنيا . فيقولون : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ قال : وأما الطافر فتخرج نفسه فتقول خزنة الأرض ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه فيهبط به إلى أسفل الأرض .

الرد على الملحدة

قلت : وهنا فصول ستة في الرد على الملحدة :

الفصل الأول

تأمل يا أخي وفقني الله وإياك هذا الحديث وما قبله من الأحاديث ترشدك إلى أن الروح والنفس شيء واحد وأنه جسم لطيف مشابك للأجسام المحسوسة يجذب ويخرج . وفي أكفانه يلف ويدرج : وبه إلى السماء يعرج . لا يموت ولا يفنى وهو مما له أول وليس له آخر .

وهو بعينين ويدين . وأنه ذو ريح طيب وخبيث . وهذه صفة الأجسام لا صفة الأعراض .

(63/676)

وقد قال بلال في حديث الوادي : أخذ بنفسي يا رسول الله الذي أخذ بنفسك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مقابلاً له في حديث زيد بن أسلم في حديث الوادي : يا أيها الناس إن الله قبض أرواحنا ولو شاء ردها إلينا في حيز غير هذا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الروح إذا قبض تبعه البصر وقال : فذلك حين يتبع بصره نفسه وهذا غاية في البيان ولا عطر بعد عروس ، وقد اختلف الناس في الروح اختلافاً كثيراً : أصح ما قيل فيه : ما ذكرناه لك وهو مذهب أهل السنة : أنه جسم ، فقد قال تعالى : الله يتوفى الأنفس حين موتها . قال أهل التأويل : يريد الأرواح ، وقد قال تعالى : فلولا إذا بلغت الحلقوم يعني النفس عند خروجها من الجسد ، وهذه صفة الجسم ولم يجر لها ذكر في الآية لدلالة الكلام عليها ، كقول الشاعر :

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

وكل من يقول : إن الروح يموت ويفنى فهو ملحد . وكذلك من يقول : بالتناسخ : أنها إذا

خرجت من هذا ركبت في شيء آخر : حمار أو كلب أو غير ذلك . وإنما هي محفوظة بحفظ الله إما منعمة وإما معذبة . على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الفصل الثاني

(64/676)

الإيمان بعذاب القبر وفتنته : واجب . والتصديق به : لازم . حسب ما أخبر به الصادق . وأن الله تعالى يحيي العبد المكلف في قبره برد الحياة إليه ويجعله من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه ليعقل ما يسأل عنه وما يجيب به ويفهم ما أتاه من ربه وما أعد له في قبره من كرامة أو هوان . وبهذا نطقت الأخبار عن النبي المختار صلى الله عليه وسلم وعلى آله آناء الليل وأطراف النهار ، وهذا مذهب أهل السنة والذي عليه الجماعة من أهل الملة . ولم تفهم الصحابة الذين نزل القرآن بلسانهم ولغتهم من نبيهم عليه السلام غير ما ذكرنا . وكذلك التابعون بعدهم إلى هلم جراً ، ولقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بفتنة الميت في قبره وسؤال منكر ونكير وهما الملكان له : يا رسول الله أيرجع إلى عقلي ؟ قال : نعم . قال : إذا أكفيكهما . والله لئن سألاني سألتهما . فأقول لهما : أنا ربي الله فمن ربكما أنتما ؟ .

وخرج الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوماً فتاني القبر . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أترد علينا عقولنا يا رسول الله ؟ فقال : نعم كهيئاتكم اليوم ، فقال عمر : في فيه الحجر .

وقال سهل بن عمار : رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته . فقلت له ما فعل الله بك ؟ فقال إنه أتاني في قبري ملكان فظان غليظان ، فقالا : ما دينك ؟ ومن ربك ؟ ومن نبيك ؟ فأخذت بلحيتي البيضاء . وقلت : ألمثلي يقال هذا ؟ وقد عملت الناس جوابكما ثمانين سنة . فذهبا . وقالا : أكتبت عن حريز بن عثمان ؟ قلت نعم . فقالا : إنه كان يبغض علياً فأبغضه الله .

وفي حديث البراء : [فتعاد روحه في جسده] وحسبك . وقد قيل : إن السؤال والعذاب إنما يكون على الروح دون الجسد . وما ذكرناه لك أولا أصح والله أعلم .

الفصل الثالث

أنكرت الملحدة من تمذهب من الإسلاميين بمذهب الفلاسفة : عذاب القبر وأنه ليس له حقيقة ، واحتجوا بأن قالوا : إنا نكشف القبر فلم نجد فيه ملائكة عمياً صماً يضربون

الناس بفطاطيس من حديد ولا نجد فيه حيات ولا ثعابين ولا نيراناً ولا تنانين . وكذلك لو كشفنا عنه في كل حالة لوجدناه فيه لم يذهب ولم يتغير ، وكيف يصح إقعاده ونحن لو وضعنا الزئبق بين عينيه لوجدناه بحاله ، فكيف يجلس ويضرب ولا يتفرق ذلك ؟ وكيف يصح إقعاده وما ذكرتموه من الفسحة ؟ ونحن نفتح القبر فنجد لحده ضيقاً ونجد مساحته على حد ما حفرناها لم يتغير علينا ، فكيف يسعه ويسع الملائكة السائلين له ؟ وإنما ذلك كله إشارة إلى حالات ترد على الروح من العذاب الروحاني ، وإنها لا حقائق لها على موضوع اللغة .

والجواب : أنا نؤمن بما ذكرناه . والله أن يفعل ما يشاء من عقاب ونعيم . ويصرف أبصارنا عن جميع ذلك بل يغيبه عنا . فلا يبعد في قدرة الله تعالى فعل ذلك كله بعد في قدرة الله تعالى فعل ذلك كله إذا هو القادر على كل ممكن جائز فإنا لو شئنا لأزلناه الزئبق عن عينيه ، ثم نضجعه ونرد الزئبق وكذلك يمكننا أن نعمق القبر ونوسعه حتى يقوم فيه قياماً فضلاً عن العقود . وكذلك يمكننا أن نوسع القبر ذراع فضلاً عن سبعين ذراعاً ، والرب سبحانه أبسط منا قدرة ، وأقوى منا قوة ، وأسرع فعلاً ، وأحصى منا حساباً إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون ولا رب لمن يدعى الإسلام إلا من هذه صفته ، فإذا كشفنا نحن عن ذلك رد الله سبحانه الأمر على ما كان نعم لو كان الميت بيننا موضوعاً فلا يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألاه من غير أن يشعر الحاضرون بهما ، ويجيبهما من غير أن يسمع

الحاضرون جوابهما . ومثال ذلك : نائمان بيننا أحدهما ينعم والآخر يعذب ، ولا يسعر بذلك أحد ممن حولهما من المنتبهين ، ثم إذا استيقظا أخبر كل واحد منهما عما كان فيه .

(66/676)

وقد قال بعض علمائنا : إن دخول الملك القبور جائز أن يكون تأويله : اطلاعه عليها وعلى أهلها . وأهلها مدركون له عن بعد من غير دخول ولا قرب . ويجوز أن يكون الملك للطافة أجزائه يتولج في خلال المقابر فيتوصل إليهم من غير نبش ويجوز أن ينبشهما ثم يعيدها الله إلى مثل حالها على وجه لا يدركها أهل الدنيا .

ويجوز أن يكون الملك يدخل من تحت قبورهم من مداخل لا يهتدي الإنسان إليها .

وبالجملة : فأحوال المقابر وأهلها على خلاف عادات أهل لدنيا في حياتهم فليس تنقاس أحوال الآخرة على أحوال الدنيا . وهذا مما لا خلاف فيه . ولولا خبر الصادق بذلك لم نعرف شيئاً مما هنالك . فإن قالوا : كل حديث يخالف مقتضى المعقول يقطع بتخطئة ناقله ، ونحن نرى المصلوب على صلبه مدة طويلة وهو لا يسأل ولا يحيى وكذلك يشاهد الميت على سريره وهو لا يجيب سائلاً ولا يتحرك ومن افترسه السباع ، ونهشه الطيور ، وتفرقت

أجزاؤه في أجواف الطير ، وبطون الحيتان وحواصل الطيور ، وأقاصي التخوم ، ومدارج الرياح ، فكيف تجتمع أجزاؤه ؟ أم كيف تتألف أعضاؤه ؟ وكيف تتصور مساءلة الملكين لمن هذا وصفه ؟ أم كيف يصير القبر على من هذا حاله روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ؟ والجواب عن هذا من وجوه أربعة : .

أحدها : أن الذي جاء بهذا هم الذين جاءوا بالصلوات الخمس وليس لنا طريق إلا ما نقلوه لنا من ذلك .

الثاني : ما ذكره القاضي لسان الأمة وهو : أن المدفونين في القبور يسألون . والذين بقوا على وجه الأرض فإن الله تعالى يحجب المكلفين عما يجري عليهم كما حجبهم عن رؤية الملائكة مع رؤية الأنبياء عليه والسلام لهم . ومن أنكر ذلك فلينكر نزول جبرائيل عليه السلام على الأنبياء عليهم السلام . وقد قال الله تعالى : في وصف الشياطين إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم .

الثالث : قال بعض العلماء : لا يبعد أن ترد الحياة إلى

المصلوب ونحن لا نشعر به كما أنا نحسب المغمى عليه ميتاً . وكذلك صاحب السكتة وندفنه على حسبان الموت ، ومن تفرقت أجزاؤه فلا يبعد أن يخلق الله الحياة في أجزائه .

قلت : ويعيده كما كان . كما فعل بالرجل الذي أمر إذا مات أن يحرق ثم يسحق ثم يذري حتى تنسفه الرياح [الحديث] وفيه : [فأمر الله البر فجمع ما فيه . وأمر البحر فجمع ما فيه . ثم قال : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : خشيتك . أو قال مخافتك] خرجه البخاري ومسلم وفي التنزيل فخذ أربعة من الطير الآية .

الرابع : قال أبو المعالي : المرضي عندنا : أن السؤال يقع على أجزاء يعملها الله تعالى من القلب أو غيره فيحييها ويوجه السؤال عليها . وذلك غير مستحيل عقلاً . قال بعض علمائنا : وليس هذا بأبعد من الذر الذي أخرجه الله تعالى من صلب آدم عليه السلام وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا : بلى .

الفصل الرابع

فإن قالوا : ما حكم الصغار عندكم ! قلنا : هم كالبالغين وأن العقل يكمل لهم ليعرفوا بذلك منزلتهم وسعادتهم ويلهمون الجواب عما يسألون عنه . وهذا ما تقتضيه ظواهر الأخبار ، فقد جاء أن القبر ينضم عليه كما ينضم على الكبار . وقد تقدم . وذكر هناد بن السرى قال : حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [إن كان ليصلى على النفوس ما أن عمل خطيئة قط فيقول : اللهم أجره من

عذاب القبر] .

الفصل الخامس

(68/676)

فإن قالوا : فما تأويلكم في القبر : حفرة من النار ، أو روضة من رياض الجنة ؟ قلنا : ذلك محمول عندنا على الحقيقة لا على المجاز . وأن القبر يملأ على المؤمن خضراً وهو العشب من البنات ، وقد عينه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : هو الريحان كما في حق الكافر يفرش له لوحان من نار ، وقد تقدم . وقد حمله بعض علمائنا على المجاز والمراد خفة السؤال على المؤمن ، وسهولته عليه وأمنه فيه ، وطيب عيشه ووصفه بأنه جنة تشبيهاً بالجنة والنعيم فيها بالرياض يقال : فلان في الجنة إذا كان في رغد من العيش وسلامة . فالمؤمن يكون في قبره في روح وراحة وطيب عيش ، وقد رفع الله عن عينيه الحجاب حتى يرى مد بصره كما في الخبر ، وأراده بحفرة النار ضغطة القبر وشدة المساءلة والخوف والأهول التي تكون فيها على الكفرة وبعض أهل البكائر : والله أعلم ، والأول أصح لأن الله سبحانه ورسوله يقص الحق ولا استحالة في شيء من ذلك .

الفصل السادس

روى أبو عمر في التمهيد عن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب : أيها الناس إن الرجم حق فلا تخذ عن عنه . وإن آية ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم . وأن أبا بكر قد رجم . وإنا قد رجمنا بعدهما . وسيكون أقوام من هذه الأمة يكذبون بالرجم . ويكذبون بالدجال ويكذبون بطلوع الشمس من مغربها . ويكذبونها بعذاب القبر . ويكذبون بالشفاعة ، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا .

(69/676)

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : هؤلاء هم القدرية والخوارج ، ومن سلك النار سبيلهم . وافترقوا في ذلك فرقاً . فصار أبو الهذيل وبشر : إلى أن خرج عن سلمة الإيمان ، فإنه يعذب بين النفختين ، وأن المساءلة إنما تقع في تلك الأوقات وأثبت البلخي وكذلك الجبائي وابنه : عذاب القبر . ولكنهم نفوه عن المؤمنين وأثبتوه الكافرين والفاسقين . وقال الأكثرون من المعتزلة : لا يجوز تسمية ملائكة الله تعالى بمنكر ونكير ، وإنما المنكر ما يبدو من تلجلجله إذا سئل ، وتقريع الملكين له هو النكير ، وقال صالح : عذاب القبر جائز ، وأنه يجري على الموتى من غير رد الأرواح إلى الأجساد ، وأن الميت يجوز أن يألم ويحس ويعلم . وهذا مذهب جماعة من الكرامية . وقال بعض المعتزلة : إن الله يعذب الموتى في قبورهم ،

ويحدث فيهم الآلام وهم لا يشعرون ، فإذا حشروا وجدوا تلك الآلام . وزعموا أن سبيل المعذبين من الموتى ، كسبيل السكران أو المغشى عليه ، لو ضربوا لم يجدوا الآلام ، فإذا عاد إليهم العقل وجدوا تلك الآلام ، وأما الباقون من المعتزلة . مثل ضرار بن عمرو وبشر المريسي ويحيى بن كامل وغيرهم ، فإنهم أنكروا عذاب القبر أصلاً ، وقالوا : إن من مات فهو ميت في قبره إلى يوم البعث وهذه أقوال كلها فاسدة تردها الأخبار الثابتة وفي التنزيل : النار يعرضون عليها غدواً وعشياً . وسيأتي من الأخبار مزيد بيان ، وبالله التوفيق والعصمة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التذكرة فى أحوال الموتى صـ 129 . 148 ﴾

(70/676)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى التفويض)

يقال : فَوّض إليه أَمرَه أَى ردّه إليه .

وأَصله من قولهم : أَمرهم فوضَى بينهم وفوْصُوضَى وفَوْضُوضاءُ إذا كانوا مختلِطين

يتصرّف كلّ منهم فى (مال الآخر) .

وقوم فَوْضَى : متساوون لا رئيس لهم .

أَو متفرّقون أَو مختلِط بعضُهم ببعض .

ومنه شركة المفاوضة وشركة التفاوض .

وهو الاشتراك فى كلّ شيءٍ .

واختُلِف فى التفويض والتَّوكُّل أَيّهما أَعلى وأَرفع .

فقال الشيخ أَبو عبد الله الأَنصارى : التفويض أَلطف إِشارةً وأَوسع معنى ؛ فإِنَّ التَّوكُّل بعد وقوع السّبب ، والتَّفويض قبل وقوعه وبعده .

وهو من الاستسلام ، والتوكُّل شُعبةٌ منه يعنى أَنَّ المفوّض بين أَمر الحَول والقوّة ، ويُفوضّ الأَمر إِلى صاحبه من غير أَن يقيمه مُقام نفسه فى مصالحة .

بخلاف التوكُّل فإِنَّ الوكالة تقتضى أَن يقوم [الوكيل] مقام الموكّل .

والتفويض براءَة وخروج من الحول والقوة وتسليم الأَمر كلَّه إِلى مالكه .

وقال غيره : كذلك التوكل أَيضاً ، و[ما] قَدَحْتُم به فى التوكُّل يرِد عليكم نظيره فى التّفويض سواءً ، فإِنَّا نقول : كيف يفوّض شيئاً لا يملكه البتَّة إِلى مالكه وهل يصحّ أَن يفوّض واحد من آحاد الرّعيّة المُلْك إِلى مِلك زمانه .

فالعلَّة إِذاً فى التَّفويض أَعظم منها فى التوكُّل .

بل لو قال : قائل : التَّوكُّل فوق التفويض وأَجلّ منه وأرفع ، لكان مصيباً .

ولهذا القرآن مملوء به أَمراً وإِخباراً عن خاصّة الله وأَوليائه وصفوة عباده ؛ فإِنَّه حالهم ، وأَمر به رسوله فى أَربعة مواضع كما تقدّم فى بصيرة التوكُّل .

وسماه المتوكِّل فى التوراة ؛ ثبت ذلك فى صحيح البخارى ، وأَخبر عن رُسُله بأَنَّ حالهم التوكُّل ، وأَخبر النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن السبعين أَلفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أَنَّهم أَهل مقام التَّوكُّل .

(71/676)

ولم يجيءْ التفويض فى القرآن إلاَّ فيما حكاه تعالى عن مؤمن آل فرعون من قوله ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وسيعود تمام الكلام عليه فى مقصد التَّصوف إن شاءَ الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 325 . 326 ﴾

(72/676)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا من خبر موسى عليه السلام وفرعون أمراً غريباً جداً ، قل من يعرفه على ما هو عليه ، لأنه من خفي العلم ، أشار سبحانه إلى ذلك بقوله : ﴿ وإذ ﴾ أي اذكر لهم هذا الذي أنبأناك به مما كان في الزمن الأقدم ، ولا وصول له إليك إلا من جهتنا ، لأنهم يعلمون قطعاً أنك ما جالست عالماً قط ، واذكر لهم ما يكون في الزمن الآتي حين ﴿ يتحاجون ﴾ أي هؤلاء الذين نعذبهم ﴿ في النار ﴾ أي يتخاصمون فيما أتباعهم ورؤساؤهم بما لا يغنيهم : ﴿ فيقول الضعفاء ﴾ أي الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ أي طلبوا أن يكونوا كبراء .

ولما كانوا لشدة ما هم فيه يتبرأ كل منهم من صاحبه .

أكدوا قولهم : ﴿ إنا كنا لكم ﴾ أي دون غيركم ﴿ تبعاً ﴾ أي أتباعاً ، فتكبرتم على الناس بنا ، وهو عند البصريين يكون واحداً كجمل ويكون جمعاً كخدم جمع خادم ، ولعله عبر به إشارة إلى أنهم كانوا في عظيم الطواعية لهم على قلب رجل واحد ولما كان الكبير يحمي تابعه ، سببوا عن ذلك سؤالهم فقالوا : ﴿ فهل أنتم ﴾ أي أيها الكبراء ﴿ مغنون ﴾ أي كافون ومجزون وحاملون ﴿ عنا نصيباً من النار ﴾ .

ولما أتى بكلام الضعفاء مضارعاً على الأصل ، وإشارة مع تصوير الحال لأنه أقطع إلى طول خصامهم لأنه أشد في إيلامهم ، فتشوف السامع إلى جوابهم ، استأنف الخبر عنه بصيغة الماضي تأكيداً لتحقيق وقوعه رداً قد يتوهمه الضعيف من أن المستكبر له قوة المدافعة وإباء الأنفة فقال : ﴿ قال الذين استكبروا ﴾ أي من شدة ما هم فيه .

ولما كان الأتباع قد ظنوا أن المتبوعين يغنون عنهم ، أكدوا إخبارهم لهم بما ينافي ذلك فقالوا : ﴿ إنّا كل ﴾ أي كلنا كائنون ﴿ فيها ﴾ أي النار ، كل يناله من العذاب بقدر ما يستحقه سواء إن جادلتمونا أو تركتم جدالنا ولا يظلم بك أحداً ، فلة قدرنا على شيء لأغنينا عن أنفسنا ، ولو سألنا أن نزاد أو ننقص لما أجبنا .

فإن هذه دار العدل فاتركونا وما نحن فيه .

ولما كان حكم الله تعالى مانعاً مما كان يفعل في الدنيا من فك المجرم وإيثاق غيره به ، وكان

سؤالهم في الإغناء سؤال من يجوز أن يكون حكمه على ما عليه الأحكام من حكام أهل الدنيا ، عللوا جوابهم مؤكدين فقالوا : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط بأوصاف الكمال ﴿ قد حكم بين العباد ﴾ أي بالعدل ، فأدخل أهل الجنة دارهم ، وأهل النار نارهم ، فلا يغني أحد عن أحد شيئاً .

(74/676)

ولما دل على أنه لا يغني أحد عن أحد شيئاً ، أخبر انهم لما رأوا بعدهم من الله وأنهم ليسوا بأهل لدعائه سبحانه ، علقوا آمالهم بتوسط الملائكة ، فأخبر عن ذلك منهم بقوله :

﴿ وقال الذين في النار ﴾ أي جميعاً الأتباع والمتبوعون ﴿ لخزنة ﴾ ووضع موضع الضمير قوله : ﴿ جهنم ﴾ للدلالة على أن سؤالهم لأهل الطبقة التي من شأنها وشأن خزنتها تجهم داخليها ليدل على أنهم لسوء ما هم فيه لا يعقلون ، فهم لا يضعون شيئاً في محله كما كانوا في الدنيا : ﴿ ادعوا ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بأنكم لا تجدون ألماً من النار ﴿ يخفف عنه يوماً ﴾ أي مقداره ﴿ من العذاب ﴾ أي بعضه .

ولما سألوهم ، استأنفوا جوابهم إشارة إلى ما حصل من تشوف السامع إليه ، معرفين لهم

بسياقه بالسبب ، الجاعل لهم في محل الاطراح والسفول عن التأهل لأن يسمع لهم كلام ، فقال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ قالوا ﴾ أي الخزنة .

(75/676)

ولما كان التقدير : ألم تكن لكم عقول تهديكم إلى الاعتقاد الحق ، عطف عليه قوله إلزاماً لهم الحجة وتوبيخاً وتنديماً بتفويت أوقات الدعاء المجاب : ﴿ أولم ﴾ ولما كان المقام خطراً ، والمرام وعراً عسراً ، فكانوا محتاجين إلى الإيجاز ، قالوا مشيرين بذكر فعل الكون مع اقتضاء الحال للإيجاز إلى عراقة الرسل عليهم السلام في النصح المنجي من المخاوف بالمعجزات والرفق والتّلطف وطول الأناة والحلم والصبر مع شرف النسب وطهارة الشيم وحسن الأخلاق وبداعة الهيئات والمناظر ولطافة العشرة وجلالة المناصب : ﴿ تك ﴾ بإسقاط النون مع التصوير للحال بالمضارع ﴿ تأتيكم ﴾ على سبيل التجدد شيئاً في أثر شيء ﴿ رسلكم ﴾ أي الذين هم منكم فأنتم جديرون بالإصغاء إليهم والإقبال عليهم ، لأن الجنس إلى الجنس أمثل ، والإنسان من مثله أقبل ﴿ بالبينات ﴾ أي التي لا شيء أوضح منها ﴿ قالوا ﴾ أي الكفار : ﴿ بلى ﴾ أي أتونا كذلك ، ثم استأنفوا جوابهم لما حصل من التشوف إليه بما حاصله عدم إجابتهم فسببوا عن إخبارهم بعدم إجابتهم

للرسل عدم إجابة دعائهم فقال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ قالوا ﴾ أي الخزنة : ﴿ فادعوا ﴾ أي أنتم الآن الله أو أهل الله من رسل البشر أو الملائكة أو غيرهم ، أو لا تدعوا فإنه لا يسمع لكم .

ولما كان أمرهم بالدعاء موجباً لأن يظنوا نفعه ، أتبعوه بما أيأسهم لأن ذلك أنكأ وأوجع وأشد عليهم وأفظع بقولهم : ﴿ وما ﴾ دعاؤكم - هكذا كان الأصل ، ولكنه أتى بالوصف تعليقاً للحكم به فقال : ﴿ دعاءُ الكافرين ﴾ أي الساترين لمرائي عقولهم عن أنوار العقل المؤيد بصحيح النقل ﴿ إلا في ضلال ﴾ أي ذهاب في غير طريق موصل كما كانوا هم في الدنيا كذلك فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، من زرع شيئاً في الدنيا حصده في الآخرة ، والآخرة ثمرة الدنيا لا تثمر إلا من جنس ما غرس في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 521.523 ﴾

(76/676)

فصل

قال الفخر :

(77/676)

واعلم أن الكلام في تلك القصة لما انجر إلى شرح أحوال النار ، لا جرم ذكر الله عقيبها قصة المناظرات التي تجري بين الرؤساء والأتباع من أهل النار فقال : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النار ﴾ والمعنى اذكر يا محمد لقومك إذ يتحاجون أي يحاجج بعضهم بعضاً ، ثم شرح خصومتهم وذلك أن الضعفاء يقولون للرؤساء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ في الدنيا ، قال صاحب "الكشاف" تبعاً كخدم في جمع خادم أو ذوي تبع أي أتباع أو وصفاً بالمصدر ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النار ﴾ أي فهل تقدرون على أن تدفعوا أيها الرؤساء عنا نصيباً من العذاب ، واعلم أن أولئك الأتباع يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف ، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء وإيلام قلوبهم ، لأنهم هم الذين سعوا في إيقاع هؤلاء الأتباع في أنواع الضلالات فعند هذا يقول الرؤساء ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ يعني أن كلنا واقعون في هذا العذاب ، فلو قدرت على إزالة العذاب عنك لدفعته عن نفسي ، ثم يقولون ﴿ إِنَّ الله قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العباد ﴾ يعني يوصل إلى كل أحد مقدار حقه من النعيم أو من العذاب ، ثم عند هذا يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين فيرجعون إلى خزنة جهنم ويقولون لهم ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ العذاب ﴾ فإن قيل لم لم يقل : وقال الذين في النار لخزنتها بل قال : ﴿ وَقَالَ الذين فِى النار لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ ؟ قلنا فيه وجهان الأول : أن يكون المقصود من ذكر جهنم التهويل والتفظيع

والثاني : أن يكون جهنم اسماً لموضع هو أبعد النار قعراً ، من قولهم بئر جهنام أي بعيدة القعر ، وفيها أعظم أقسام الكفار عقوبة وخزنة ذلك الموضع تكون أعظم خزنة جهنم عند الله درجة ، فإذا عرف الكفار أن الأمر كذلك استغاثوا بهم ، فأولئك الملائكة يقولون لهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بالبينات ﴾ والمقصود أن قبل إرسال

(78/676)

الرسل كان للقوم أن يقولوا إنه

﴿ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ ﴾ [المائدة : 19] أما بعد مجيء الرسل فلم يبق عذر ولا علة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] وهذه الآية تدل على أن الواجب لا يتحقق إلا بعد مجيء الشرع ، ثم إن أولئك الملائكة يقولون للكفار ادعوا أنتم فإنا لا نجترىء على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين أحدهما : كون المشفوع له مؤمناً والثاني : حصول الإذن في الشفاعة ولم يوجد واحد من هذين الشرطين فإقدامنا على هذه الشفاعة ممتنع لكن ادعوا أنتم ، وليس قولهم فادعوا لرجاء المنفعة ، ولكن للدلالة على الخيبة ، فإن الملك المقرب إذا لم يسمع دعاؤه فكيف يسمع دعاء الكفار ، ثم يصرحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون ﴿ وَمَا دُعَاء الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ فإن قيل إن الحاجة

على الله محال ، وإذا كان كذلك امتنع أن يقال : إنه تأذى من هؤلاء المجرمين بسبب جرمهم ، وإذا كان التأذي محالاً عليه كانت شهوة الانتقام ممتنعة في حقه ، إذا ثبت هذا فنقول إيصال هذه المضار العظيمة إلى أولئك الكفار إضرار لا منفعة فيه إلى الله تعالى ولا لأحد من العبيد ، فهو إضرار خال عن جميع الجهات المنتفعة فكيف يليق بالرحيم الكريم أن يبقى على ذلك الإيلام أبد الآباد ودهر الداهرين ، من غير أن يرحم حاجتهم ومن غير أن يسمع دعاءهم ومن غير أن يلتفت إلى تضرعهم وانكسارهم ، ولو أن أقصى الناس قلباً فعل مثل هذا التعذيب ببعض عبيده لدعاه كرمه ورحمته إلى العفو عنه مع أن هذا السيد في محل النفع والضرر والحاجة ، فأكرم الأكرمين كيف يليق به هذا الإضرار ؟ قلنا أفعال الله لا تعلل و ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] فلما جاء الحكم الحق به في الكتاب الحق وجب الإقرار به ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 65.66 ﴾

(79/676)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) ﴾

قد تقدم ذكر الخلاف هل هذه المقالة لموسى أو لمؤمن آل فرعون . والدعاء إلى طاعة الله وعبادته وتوحيده هو الدعاء إلى سبب النجاة فجعله دعاء إلى النجاة اختصاراً واقتضاباً . وكذلك دعاؤهم إياه إلى الكفر واتباع دينهم : هو دعاء إلى سبب دخول النار ، فجعله دعاء إلى النار اختصاراً ، ثم بين عليهم ما بين الدعوتين من البون في أن الواحدة شرك وكفر ، والأخرى دعوة إلى الإسناد إلى عزة الله وغفرانه .

وقوله : ﴿ ما ليس لي به علم ﴾ ليس معناه أني جاهل به ، بل معناه العلم بأن الأوثان وفرعون وغيره ليس لهم مدخل في الألوهية ، وليس لأحد من البشر علم بوجه من وجوه النظر بأن لهم في الألوهية مدخلاً ، بل العلم اليقين بغير ذلك من حدوثهم متحصل ، و: ﴿ لا جرم ﴾ مذهب سيبويه والخليل أنها ﴿ لا ﴾ النافية دخلت على ﴿ جرم ﴾ ، ومعنى : ﴿ جرم ﴾ ثبت ووجب ، ومن ذلك جرم بمعنى كسب ، ومنه قول الشاعر [أبو اسماء بن الضريبة] : [الكامل]

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة . . . جرمت فزارة بعدها من أن يغضبوا

أي أوجبت لهم ذلك وثبتته لهم ، فكأنه الكلام نفي للكلام المردود عليه ب ﴿ لا ﴾ ، وإثبات للمستأنف ب ﴿ جرم ﴾ و" أن " على هذا النظر في موضع رفع ب ﴿ جرم ﴾ ، وكذلك ﴿ أن ﴾ الثانية والثالثة ، ومذهب جماعة من أهل اللسان أن ﴿ لا جرم ﴾

بمعنى لا بد ولا محالة ف ﴿ أن ﴾ على هذا النظر في موضع نصب بإسقاط حرف الجر ، أي لا محالة بأن ما . و" ما " بمعنى الذي واقعة على الأصنام وما عبدوه من دون الله .

(80/676)

وقوله : ﴿ ليس له دعوة ﴾ أي قدر وحق يجب أن يدعى أحد إليه ، فكأنه تدعونني إلى ما لا غناء له وبين أيدينا خطب جليل من الرد إلى الله . وأهل الإسراف والشرك . هم أصحاب النار بالخلود فيها والملازمة ، أي فكيف أطيعكم مع هذه الأمور الحقائق ، في طاعتكم رفض العمل بحسبها والخوف . قال ابن مسعود ومجاهد : المسرفون : سفاكو الدماء بغير حلها . وقال قتادة : هم المشركون . ثم توعدهم بأنهم سيذكرون قوله عن حلول العذاب بهم ، وسوف بالسين . إذ الأمر محتمل أن يخرج الوعيد في الدنيا أو في الآخرة ، وهذا تأويل ابن زيد . وروى اليزيدي وغيره عن أبي عمرو فتح الياء من : " أمريَ " ، والضمير في : ﴿ وقاه ﴾ يحتمل أن يعود على موسى ، ويحتمل أن يعود على مؤمن آل فرعون ، وقال قائلو ذلك : إن ذلك المؤمن نجا مع موسى عليه السلام في البحر ، وفر في جملة من فر معه من المتبعين .

وقرأ عاصم : ﴿ فوقاه الله ﴾ بالإمالة .

﴿ وحاق ﴾ معناه : نزل ، وهي مستعملة في المكروه . و : ﴿ سوء العذاب ﴾ الغرق وما بعده من النار وعذابها .

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)

(81/676)

قوله : ﴿ النار ﴾ رفع على البدل من قوله : ﴿ سوء ﴾ [غافر : 45] . وقالت فرقة : ﴿ النار ﴾ رفع بالابتداء وخبره : ﴿ يعرضون ﴾ . وقالت فرقة : هذا الغدو والشعي هو في الدنيا ، أي في كل غدو وعشي من أيام الدنيا يعرض آل فرعون على النار . وروي في ذلك عن الهزيل بن شرحبيل والسدي : أن أرواحهم في أجواف الطير سود تروح بهم وتغدو إلى النار ، وقاله الأوزاعي حين قال له رجل : إني رأيت طيوراً بيضاً تغدو من البحر ثم ترجع بالعشي سوداً مثلها ، فقال الأوزاعي : تلك هي التي في حواصلها أرواح آل فرعون يحترق رياشها وتسود بالعرض على النار . وقال محمد بن كعب القرظي وغيره : أراد أنهم يعرضون في الآخرة على النار على تقدير ما بين الغدو والعشي ، إذا لا غدو ولا عشي في الآخرة ، وإنما ذلك على التقدير بأيام الدنيا وقوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ يحتمل أن يكون

﴿ يوم ﴾ عطفاً على ﴿ عشياً ﴾ ، والعامل فيه ﴿ يعرضون ﴾ ، ويحتمل أن يكون كلاماً مقطوعاً والعامل في : ﴿ يوم ﴾ ﴿ ادخلوا ﴾ ، والتقدير : على كل قول يقال ادخلوا .

وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم والأعرج وأبو جعفر وشيبة والأعمش وابن وثاب وطلحة : " أدخلوا " بقطع الألف . وقرأ علي بن أبي طالب وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم والحسن وقتادة : " ادخلوا " بصلة الألف على الأمر ل ﴿ آل فرعون ﴾ على هذه القراءة منادى مضاف . و: ﴿ أشد ﴾ نصب على ظرفية .

والضمير في قوله : ﴿ يتحاجون ﴾ لجميع كفار الأمم ، وهذا ابتداء قصص لا يختص بآل فرعون ، والعامل في ﴿ إذ ﴾ ، فعل مضمر تقديره : واذكر . قال الطبري : ﴿ وإذ ﴾ هذه عطف على قوله : ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ [غافر : 18] وهذا بعيد .

قال القاضي أبو محمد : والمحاجة : التحاور بالحجة والخصومة .

و : ﴿ الضعفاء ﴾ يريد في القدر والمنزلة في الدنيا . و: ﴿ الذين استكبروا ﴾ هم أشراف الكفار وكبراؤهم ، ولم يصفهم بالكبر إلا من حيث استكبروا ، لأنهم من أنفسهم كبراء ، ولو كانوا كذلك في أنفسهم لكانت صفته الكبر أو نحوه مما يوجب الصفة لهم . و" تبع " : قيل هو جمع واحد تابع ، كغائب وغيب ، وقيل هو مفرد يوصف به الجمع ، كعدل وزور وغيره .

وقوله : ﴿ مغنون عنا ﴾ أي يحملون عنا كله ومشقته ، فأخبرهم المستكبرون أن الأمر قد انجزم بحصول الكل منهم فيها وأن حكم الله تعالى قد استمر بذلك .

وقوله : ﴿ كل فيها ﴾ ابتداء وخبر ، والجملة موضع خبر " إن " .

وقرأ ابن السميفع : " إنا كلاًّ " ، بالنصب على التأكيد .

ثم قال جميع من في النار لخزنتها وزبانيتها : ﴿ ادعوا ربكم ﴾ عسى أن يخفف عنا مقدار يوم من أيام الدنيا من العذاب ، فراجعتهم الخزنة على معنى التوبيخ لهم . والتقرير : ﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ فأقر الكفار عند ذلك وقالوا ﴿ بلى ﴾ ، أي قد كان ذلك ، فقال لهم الخزنة عند ذلك : فادعوا أنتم إذاً ، وعلى هذا معنى الهزء بهم ، فادعوا أيها الكافرون الذين لا معنى لدعائهم ، وقالت فرقة : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ هو من قول الخزنة . وقالت فرقة : هو من قول الله تعالى إخباراً منه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وجاءت هذه الأفعال على صيغة المضي ، قال الناس الذين استكبروا وقال

للذين في النار ، لأنها وصف حال متيقنة الوقوع فحسن ذلك فيها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(83/676)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النار ﴾

أي يختصمون فيها ﴿ فَيَقُولُ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ عن الانقياد لِلأَنْبِيَاءِ ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ فيما دعوتمونا إليه من الشرك في الدنيا ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ ﴾ أي متحملون ﴿ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النار ﴾ أي جزءاً من العذاب .

والتبع يكون واحداً ويكون جمعاً في قول البصريين واحده تابع .

وقال أهل الكوفة : هو جمع لا واحد له كالمصدر فلذلك لم يجمع ولو جمع لقيل أتباع .

﴿ قَالَ الذين استكبروا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ أي في جهنم .

قال الأخفش : "كُلٌّ" مرفوع بالابتداء .

وأجاز الكسائي والفراء "إِنَّا كُلاًّ فِيهَا" بالنصب على النعت والتأكيد للمضمر في "إِنَّا"

وكذلك قرأ ابن السَّمَيْقَع وعيسى بن عمر .

والكوفيون يسمون التأكيد نعتاً .

ومنع ذلك سيبويه قال : لأن "كُلاًّ" لا تنعت ولا ينعت بها .

ولا يجوز البدل فيه لأن المخبر عن نفسه لا يبدل منه غيره ، وقال معناه المبرد قال : لا يجوز أن يبدل من المضمر هنا ؛ لأنه مخاطب ولا يبدل من المخاطَب ولا من المخاطب ، لأنهما لا يشكلان فيبدل منهما ؛ هذا نص كلامه .

﴿ إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العباد ﴾ أي لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره ؛ فكل منا كافر .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين فِي النار ﴾ من الأمم الكافرة .

ومن العرب من يقول اللذون على أنه جمع مسلم معرب ، ومن قال : "الَّذِينَ" في الرفع بناه كما كان في الواحد مبنياً .

وقال الأخفش : ضمت النون إلى الذي فأشبه خمسةَ عشرَ فبني على الفتح .

﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ خزنة جمع خازن ويقال : خُزَّان وخُزَّن .

﴿ ادعوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ العذاب ﴾ "يُخَفِّفْ" جواب مجزوم وإن كان بالفاء كان منصوباً ، إلا أن الأكثر في كلام العرب في جواب الأمر وما أشبهه أن يكون بغير فاء وعلى هذا جاء القرآن بأفصح اللغات كما قال :

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ . . .

قال محمد بن كعب القرظي : بلغني أو ذكر لي أن أهل النار استغاثوا بالخزنة ؛ فقال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين فِي النار لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادعوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ العذاب ﴾ فسألوا يوماً واحداً يخفَّف عنهم فيه العذابُ فردَّت عليهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بالبينات قَالُواْ بلى قَالُواْ فادعوا وَمَا دُعَاءُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ الخبر بطوله .

وفي الحديث عن أبي الدرداء خرجه الترمذي وغيره قال : يلقى على أهل النار الجوع حتى يَعْدِل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون منه فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، فيأكلونه لا يغني عنهم شيئاً ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غُصَّة فيغَصُّون به ، فيذكرون أنهم كانوا في الدنيا يجيزون الغصص بالماء ، فيستغيثوا بالشراب فيرفع لهم الحميم بالكلاليب ، فإذا دنا من وجوههم شواها ، فإذا وقع في بطونهم قطّع أمعاءهم وما في بطونهم ، فيستغيثون بالملائكة يقولون : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ العذاب ﴾ فيجيبوهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بالبينات قَالُواْ بلى قَالُواْ فادعوا وَمَا دُعَاءُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ أي خسار وتبار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ ويا قوم مَا لِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النجاة وَتَدْعُونَنِى إِلَى النار ﴾

كررَ نداءَهم إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة واعتناء بالمنادى له ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحَهُ . ومدارُ التعجبِ الذي يلوحُ به الاستفهامُ دعوتُهم إيَّاهُ إلى النارِ ودعوته إياهم إلى النجاة كأنه قيل : أخبروني كيف هذه الحال أدعوكم إلى الخير وتدعونني إلى الشرّ وقد جعلَه بعضُهم من قبيلِ ما لي أراكَ حزيناً أي ما لكَ تكونُ حزيناً . وقولُه تعالَى : ﴿ تَدْعُونَنِى لأَكْفُرَ بالله ﴾ بدلٌ أو بيانٌ فيه تعليلٌ والدعاءُ كالهدايةِ في التعديةِ بإلى واللامِ ﴿ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ ﴾ بشركتِه له تعالى في المعبوديةِ وقيل بربوبيتِه ﴿ عِلْمٌ ﴾ والمرادُ نفيُ المعلومِ والإشعارُ بأنَّ الألوهيةَ لا بُدَّ لها من بُرهانٍ موجبٍ للعلمِ بها . ﴿ وَأَنَاْ أَدْعُوكُمْ إِلَى العزيز الغفار ﴾ الجامعِ لجميعِ صفاتِ الألوهيةِ من كمالِ القُدرةِ والغَلبةِ وما يتوقفُ عليهِ من العلمِ والإرادةِ والتمكنِ من المجازاةِ والقدرةِ على التعذيبِ والغفرانِ .

(86/676)

﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ لا ردَّ لما دعَوهُ إليهِ وجرمَ فعلٌ ماضٍ بمعنى حقَّ وفاعلُه قولُه تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدنيا وَلاَ فِى الأخرة ﴾ أيْ حق ووجب عدم دعوة آلهتهم إلى عبادتها أصلاً أو عدم دعوة مستجابة أو عدم استجابةِ دعوةٍ لهَا وقيلَ جرمَ بمعنى كسبَ وفاعلُه مستكنٌّ فيهِ أي كسبَ ذلكَ الدعاءُ إليهِ بطلانَ دعوتِه بمعنى ما حصلَ من ذلكَ إلا ظهورُ بطلانِ دعوتِه وقيل : جرمَ فعلٌ من الجَرْمِ وهو القطعُ كما أن بُدّاً من لا بد فُعْلٌ من التبديد أي التفريق والمعنى لا قطع لبطلان ألوهية الأصنام أي لا ينقطع في وقت ما فينقلب حقاً ويؤيده قولهم لا جُرْم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء وفُعْلٌ وفَعَلٌ أخوان كرُشْد ورَشَد ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى الله ﴾ أي بالموتِ عطفٌ على أنَّ ما تدعونني داخلٌ في حُكمِه وكذا قولُه تعالى : ﴿ وَأَنَّ المسرفين ﴾ أي في الضلالِ والطغيانِ كالإشراكِ وسفكِ الدّماءِ ﴿ هُمْ أصحاب النار ﴾ أي مُلازمُوهَا ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ ﴾ وقُرِىءَ فَستذكَّرُونَ أي فسيذكّرُ بعضُكم بعضاً عند معاينةِ العذابِ ﴿ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ من النضائحِ ﴿ وَأُفَوّضُ أَمْرِى إِلَى الله ﴾ قالَه لما أنَّهم كانُوا توعّدُوه ﴿ إِنَّ الله بَصِيرٌ بالعباد ﴾ فيحرُسُ مَنْ يلوذُ به من المكارهِ ﴿ فَوقَاهُ الله سَيّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ شدائدَ مكرِهم وما همّوا به من إلحاقِ أنواعِ العذابِ بمن خالفَهم قيل نَجا معَ مُوسى عليهِ السَّلامُ ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي بفرعونَ وقومِه ، وعدمُ التصريحِ بِهِ للاستغناءِ بذكرِهم عنْ ذكرِه ضرورةَ أنَّه أولى منُهم

بذلكَ وقيل : بطَلَبةِ المؤمنِ منْ قومِه لما أنَّه فرَّ إلى جبلٍ فاتبعَهُ طائفةٌ ليأخذُوه فوجدُوه يُصلّي والوحوسُ صفوفٌ حولَهُ فرجعُوا رُعْباً فقتلَهُم ﴿ سُوء العذاب ﴾ الغرقُ والقتلُ والنَّارُ .

(87/676)

﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مَسْوقةٌ لبيانِ كيفيةِ سوءِ العذابِ ، أو النَّارُ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ ، كأنَّ قائلاً قالَ ما سوءُ العذابِ فقيلَ هُو النَّارُ ويُعرضونَ استئنافٌ للبيانِ ، أو بدلٌ من سوءِ العذابِ ويُعرضون حالٌ منَها أو من الآلِ ولا يشترطُ في الحَيْقِ أنْ يكونَ الحائقُ ذلكَ السوءَ بعينِه حتَّى يردَ أنَّ آلَ فرعونَ لم يهمُّوا بتعذيبِه بالنَّارِ ليكونَ ابتلاؤهم بها من قبيلِ رجوعِ ما هَمُّوا بِهِ عليهم بلْ يكفي في ذلكَ أنْ يكونَ مما يطلقُ عليهِ اسمُ السوءِ . وقُرِئتْ منصوبةً على الاختصاصِ أو بإضمارِ فعلٍ يفسرُه يُعرَضونَ مثلُ يُصْلَون فإنَّ عرضَهُم على النَّارِ بإحراقِهم بها من قولِهم عُرِضَ الأُسَارى على السيفِ إذا قُتِلُوا بِهِ وذلكَ لأرواحِهم كما رَوَى ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنْهُ أنَّ أرواحَهُم في أجوافِ طيرٍ سُودٍ تُعرضُ على النَّارِ بُكرةً وعشياً إلى يومِ القيامةِ ، وذكرُ الوقتينِ إمَّا للتخصيصِ وإمَّا فيما بينهُمَا فاللهُ تعالَى أعلمُ بحالِهم وإمَّا للتأبيدِ هذا ما دامتِ الدُّنيا .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ يقالُ للملائكةِ ﴿ أَدْخِلُواْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ أي

عذابَ جهنَم فإنَّه أشدُّ ممَّا كانُوا فيه ، أو أشدّ عذابِ جهنَم ، فإنَّ عذابَها ألوانٌ بعضُها أشدُّ من بعضٍ . وقُرِىءَ ادخُلُوا من الدخولِ أي يُقالُ لهم ادخُلُوا يا آلَ فرعونَ أشدَّ العذابِ .

(88/676)

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النار ﴾ أي واذكُر لقومِكَ وقتَ تخاصُمِهم فيَها ﴿ فَيَقُولُ الضعفاء ﴾ منهم ﴿ لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ وهُم رؤساؤُهم ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أتباعاً كخَدَمٍ في جمعِ خَادِمٍ ، أو ذَوِي تبعٍ أي أتْباعٍ على إضمار المضافِ أو تَبَعاً على الوصفِ بالمصدرِ مبالغةً ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النار ﴾ بالدفعِ أو بالحملِ ، ونصيباً منصوبٌ بمضمرٍ يدلُّ عليه مغنونَ أي دافعونَ عنَّا نصيباً الخ . أو بمغنونَ على تضمينِه مَعْنى الحملِ أي مغنونَ عنَّا حاملينَ نصيباً الخ أو نُصبَ على المصدريةِ كشيئاً في قوله تعالى : ﴿ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أموالهم وَلاَ أولادهم مِّنَ الله شَيْئًا ﴾ فإنَّه في موقعِ غَناءٍ فكذلكَ نصيباً ﴿ قَالَ الذين استكبروا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أي نحنُ وأنتُم فكيفَ تُغنِي عنكُم ولو قَدرنا لأغنيَنا عن أنفسِنا . وقُرِىءَ كُلاًّ على التأكيدِ لاسمِ إنَّ بمَعنى كُلَّنا وتنوينُه عوضٌ عن المضافِ إليهِ ولا مساغَ لجعلِه حالاً من المستكنِّ في الظرفِ فإنَّه لا يعملُ في الحالِ المتقدمةِ كما يعملُ في الظرفِ

المتقدمِ فإنَّك تقولُ كلَّ يومٍ لكَ ثوبٌ ولاَ تقولُ جديداً لك ثوبٌ ﴿ إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العباد ﴾ وقضَى قضاءً متقناً لا مردَّ لهُ ولا معقّبَ لحُكمهِ.

(89/676)

﴿ وَقَالَ الذين فِى النار ﴾ من الضعفاءِ والمستكبرينَ جميعاً لَمَّا ضاقتْ حيلُهم وعيّتْ بهم عِللُهم ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ أي للقوَّامِ بتعذيبِ أهلِ النَّارِ، ووضعُ جهنمَ موضعَ الضميرِ للتهويلِ والتفظيعِ أو لبيانِ محلِّهم فيها بأنْ تكونَ جهنمُ أبعدَ دركاتِ النَّارِ وفيها أَعْتَى الكفرةِ وأطغاهُم أو لكونِ الملائكةِ الموكلينَ بعذابِ أهلِها أقدرَ على الشفاعةِ لمزيدِ قُربهم منَ الله تعالى: ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً ﴾ أي مقدارَ يومٍ أو في يومٍ ما منَ الأيامِ على أنه ظرفٌ لا معيارُ شيئاً ﴿ مّنَ العذاب ﴾ واقتصارهُم في الاستدعاءِ على ما ذُكرَ من تخفيفِ قدرٍ يسيرٍ من العذابِ في مقدارِ قصيرٍ من الزمانِ دونَ رفعِه رأساً أو تخفيفِ قدرٍ كثيرٍ منْهُ في زمانٍ مديدٍ لأنَّ ذلكَ عندهُم مما ليسَ في حيزِ الإمكانِ ولا يكادُ يدخلُ تحتَ أَمانيّهم ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الخزنةُ ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بالبينات ﴾ أيْ ألمْ تُنبهوا على هَذا ولم تكُ تأتيكُم رسلُكم في الدُّنيا على الاستمرارِ بالحججِ الواضحةِ الدالةِ على سُوءِ مغبةِ ما كنتُم عليهِ من الكُفرِ والمَعاصِي، كَما في قولِه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُم رُسل مِنْكُم يَتْلونَ

عَلَيْكُم ءايات رَبِكُم وَيُنْذِرُونَكُم لِقَاء يَومِكُم هذا ﴾ أرادُوا بذلكَ إلزامَهُم وتوبيخَهُم على إضاعةِ أوقاتِ الدُّعاءِ وتعطيلِ أسبابِ الإجابةِ ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ أي أتونا بها فكذَّبناهُم كما نطقَ به قولُه تعالَى : ﴿ بلى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضلال كَبِيرٍ ﴾ والفاءُ في قولِه تعالَى : ﴿ قَالُواْ فادعوا ﴾ فصحيحةٌ كما في قولِ مَنْ قال

(90/676)

فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانا . . . أيْ إذا كانَ الأمرُ كذلكَ فادعُوا أنتُم فإنَّ الدعاءَ لمن يفعلُ ذلكَ مما يستحيلُ صدورُه عنَّا وتعليلُ امتناعِهم عنِ الدعاءِ بعدمِ الإذنِ فيه معَ عرائه عن بيانِ أنَّ سببَهُ من قبلِهم كما تُفصحُ عنه الفاءُ رُبَّما يُوهُم أنَّ الإذنَ في حيزِ الإمكانِ وأنَّهم لو أُذنَ لهم فيهِ لفعلُوا ولم يريدُوا بأمرِهم بالدعاءِ إطماعَهُم في الإجابةِ بل إقناطَهم منَها وإظهارَ خيبتهم حسبما صرَّحُوا بهِ في قولِهم : ﴿ وَمَا دُعَاء الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ أي ضياعٍ وبُطلانٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(91/676)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النار ﴾

معمولاً لا ذكر محذوفاً أي واذكر وقت تخاصمهم في النار ، والجملة معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة لا على مقدر تقديره اذكر ما تلي عليك من قصة موسى عليه السلام .

وفرعون .

ومؤمن آل فرعون ولا على قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى البلاد ﴾ [غافر : 4] أو على قوله سبحانه : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الازفة ﴾ [غافر : 18] لعدم الحاجة إلى التقدير في الأول وبعد المعطوف عليه في الأخيرين .

وزعم الطبري أن ﴿ إِذْ ﴾ معطوفة على ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ [غافر : 18] وهو مع بعده فيه ما فيه ، وجوز أن تكون معطوف على ﴿ غُدُوّاً ﴾ [غافر : 46] وجملة ﴿ يَوْمٍ تَقُومُ ﴾ اعتراض بينهما وهو مع كونه خلاف الظاهر قليل الفائدة ، وضمير يتحاجون على ما اختاره ابن عطية وغيره لجميع كفار الأمم ، ويتراءى من كلام بعضهم أنه لكفار قريش ، وقيل : هو لآل فرعون ، وقوله تعالى : ﴿ فَيَقُولُ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ تفصيل للمحاجة والتخاصم في النار أي يقول المرؤسون لرؤسائهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا ﴾ في الدنيا ﴿ لَكُمْ تَبَعًا ﴾ تباعاً فهو كخدم في جمع خادم .

وذهب جمع لقلة هذا الجمع إلى أن ﴿ تَبَعًا ﴾ مصدر إما بتقدير مضاف أي إنا كنا لكم ذوي تبع أي أتباعاً أو على التجوز في الظرف أو الإسناد للمبالغة بجعلهم لشدة تبعيتهم كأنهم عين التبعية ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النار ﴾ بدفع بعض عذابها أو بتحمله عنا ، و﴿ مُّغْنُونَ ﴾ من الغناء بالفتح بمعنى الفائدة ، و﴿ نَصِيباً ﴾ بمعنى حصة مفعول لما دل عليه من الدفع أو الحمل أوله بتضمين أحدهما أي دافعين أو حاملين عنا نصيباً ، ويجوز أن يكون نصيباً قائماً مقام المصدر كشيئاً في قوله تعالى : ﴿ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أموالهم وَلاَ أولادهم مِّنَ الله شَيْئًا ﴾ .

(92/676)

و﴿ مِنَ النار ﴾ [آل عمران : 10] على هذا متعلق بمغنون وعلى ما قبله ظرف مستقر بيان لنصيباً .

﴿ قَالَ الذين استكبروا ﴾ للضعفاء ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ نحن وأنتم فكيف نغني عنكم ولو قدرنا لدفعنا عن أنفسنا شيئاً من العذاب ؛ ورفع ﴿ كُلٌّ ﴾ على الابتداء وهو مضاف تقديراً لأن المراد كلنا و﴿ فِيهَا ﴾ خبره والجملة خبر إن .

وقرأ ابن السميقع .

وعيسى بن عمر ﴿ كَلاَّ ﴾ بالنصب ، وخرجه ابن عطية .

والزمخشري على أنه توكيد لاسم إن ، وكون كل المقطع عن الإضافة يقع تأكيداً اكتفاء بأن المعنى عليها مذهب الفراء ونقله أبو حيان عن الكوفيين .

ورده ابن مالك في "شرحه للتسهيل" ، وقيل : هو حال من المستكن في الظرف .

وتعقب بأنه في معنى المضاف ولذا جاز الابتداء به فكيف يكون حالاً ، وإذا سلم كفاية هذا المقدار من التنكير في الحالية فالظرف لا يعمل في الحال المتقدمة كما يعمل في الظرف المتقدم نحو كل يوم لك ثوب .

وأجيب عن أمر العمل بأن الأخفش أجاز عمل الظرف في حال إذا توسطت بينه وبين المبتدأ نحو زيد قائماً في الدار عندك وما في الآية الكريمة كذلك ، على أن بعضهم أجاز ذلك ولو تقدمت الحال على المبتدأ والظرف ؛ نعم منعه بعضهم مطلقاً لكن المخرج لم يقلده ، وابن الحاجب جوزه في بعض كتبه ومنعه في بعض ، قيل : وقد يوفق بينهما بأن المنع على تقدير عمل الظرف لنيابته عن متعلقه ، والجواز على جعل العامل متعلقه المقدر فيكون لفظياً لا معنوياً ، وإلى هذا التخريج ذهب ابن مالك وأنشد له قول بعض الطائيين

: دعا فأجبنا وهو بادي ذلة . . .

لديكم فكان النصر غير قريب

وحمل قوله تعالى : ﴿ والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : 67] في قراءة النصب

على ذلك ، وقال أبو حيان : الذي اختاره في تخريج هذه القراءة أن كلا بدل من اسم إن لأن كلا يتصرف فيها بالابتداء ونواسخه وغير ذلك فكأنه قيل : أن كلا فيها .

(93/676)

وإذا كانوا قد تأولوا حولاً أكتعاً ويوماً أجمعاً على البدل مع أنهما لا يليان العوامل فأن يدعي في كل البدل أولى ، وأيضاً فتنكير ﴿ كُلٌّ ﴾ ونصبه حالاً في غاية الشذوذ نحو مررت بهم كلا أي جميعاً .

ثم قال : فإن قلت : كيف تجعله بدلاً وهو بدل كل من كل من ضمير المتكلم وهو لا يجوز على مذهب جمهور النحويين ؟ قلت : مذهب الأخفش .

والكوفيين جوازه وهو الصحيح ، على أن هذا ليس مما وقع فيه الخلاف بل إذا كان البدل يفيد الإحاطة جاز أن يبدل من ضمير المتكلم وضمير المخاطب لا نعلم خلافاً في ذلك كقوله تعالى : ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ [المائدة : 114] وكقولك : مررت بكم صغيركم وكبيركم معناه مررت بكم كلكم وتكون لنا عيداً كلنا ، فإذا جاز ذلك فيما هو بمعنى الإحاطة فجوازه فيما دل على الإحاطة وهو ﴿ كُلٌّ ﴾ أولى ولا التفات لمنع المبرد البدل فيه لأنه بدل من ضمير المتكلم لأنه لم يحقق مناط الخلاف انتهى ، ولعل القول

بالتوكيد أحسن من هذا وأقرب ، ورد ابن مالك له لا يعول عليه ﴿ إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العباد ﴾ فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، وقدر لكل منا ومنكم عذاباً لا يدفع عنه ولا يتحمله عنه غيره .

(94/676)

﴿ وَقَالَ الذين فِى النار ﴾ من الضعفاء والمستكبرين جميعاً لما ضاقت بهم الحيل وعيت بهم العلل ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ أي للقوام بتعذيب أهل النار ، وكان الظاهر لخزنتها بضمير النار لكن وضع الظاهر موضعه للتهويل ، فإن جهنم أخص من النار بحسب الظاهر لإطلاقها على ما في الدنيا أو لأنها محل لأشد العذاب لشامل للنار وغيرها ، وجوز أن يكون ذلك لبيان محل الكفرة في النار بأن تكون جهنم أبعد درجاتها من قولهم : بئر جهنام بعيدة القعر وفيها أعتى الكفرة وأطغاهم ، فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله عز وجل فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم وقالوا لهم : ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً ﴾ أي مقدار يوم من أيام الدنيا ﴿ مِّنَ العذاب ﴾ أي شيئاً من العذاب ، فمفعول ﴿ يُخَفِّفْ ﴾ محذوف ، و ﴿ مِنْ ﴾ تحتمل البيان والتبعيض

، ويجوز أن يكون المفعول ﴿ يَوْماً ﴾ بحذف المضاف نحو ألم يوم و﴿ مّنَ العذاب ﴾ بيانه ، والمراد يدفع عنا يوماً من أيام العذاب :

(95/676)

﴿ قَالُواْ أُوذِينَا لِمَ تَكْفُرُونَ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بالبينات ﴾ أي لم تنبهوا على هذا ولم تك تأتيكم رسلكم في الدنيا على الاستمرار بالحجج الواضحة الدالة على سوء مغبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصي كما في قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذين كَفَرُواْ إلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءوهَا فُتِحَتْ أبوابها وَقَالَ ﴾ وأرادوا بذلك إلزامهم وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء وتعطيل أسباب الإجابة ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ أي أتونا بها فكذبناهم كما نطق به قوله تعالى : ﴿ بلى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضلال كَبِيرٍ ﴾ [الملك : 9] والفاء في قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ فادعوا ﴾ فصيحة أي إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم فإن الدعاء لمن يفعل فعلكم ذلك مستحيل صدوره عنا ، وقيل : في تعليل امتناع الخزنة عن الدعاء : لأنا لم نؤذن في الدعاء لأمثالكم ، وتعقب بأنه مع عرائه عن بيان أن سببه من قبل الكفرة كما يفصح عنه الفاء ربما يوهم أن الإذن في حيز الإمكان وأنهم لو أذن لهم لفعلوا فالتعليل الأول أولى ، ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء اطماعهم في الإجابة بل

إقناطهم منها وإظهار خيبتهم حيثما صرحوا به في قولهم : ﴿ وَمَا دُعَاء الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ أي في ضياع وبطلان أي لا يجاب ، فهذه الجملة من كلام الخزنة ، وقيل : هي من كلامه تعالى إخباراً منه سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

واستدل بها مطلقاً من قال : إن دعاء الكافر لا يستجاب وأنه لا يمكن من الخروج في الاستسقاء ، والحق أن الآية في دعاء الكفار يوم القيامة وأن الكافر قد يقع في الدنيا ما يدعو به ويطلبه من الله تعالى إثر دعائه كما يشهد بذلك آيات كثيرة ، وأما أنه هل يقال لذلك إجابة أم لا فبحث لا جدوى له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(96/676)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾

يجوز أن يكون ﴿ إذ ﴾ معمولاً ل (اذْكُرْ) محذوفٍ فيكون عطفاً على جملة ﴿ وأنذرهم يوم الأزِفَةِ ﴾ ، والضميرُ عائداً إلى ﴿ الذّينَ يجادلون في ءاياتت الله بغَيْرِ سلطان ﴾ [غافر : 35] وما بين هذا وذاك اعتراض واستطراد لأنها قصد منها عظة المشركين بمن سبقهم من الأمم المكذبين فلما استُوفي ذلك عاد الكلام إليهم .

ويفيد ذلك صريحَ الوعيد للمشركين بعد أن ضُربت لهم الأمثال كما قال تعالى : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ [محمد : 10] ، وقد تكرر في القرآن موعظة المشركين بمثل هذا كقوله تعالى : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾ الآية في سورة [البقرة : 166] ، وقوله : ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ الآية في سورة [الأعراف : 38] .

(ويجوز أن تكون ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ ﴾ عطفاً على جملة ﴿ ويوم تقوم الساعة ادخلوا ءالَ فرعونَ أشدَّ العذاب ﴾ [غافر : 46] لأن (إذْ) و (يومَ) كليهما ظرف بمعنى (حين) ، فيكون المعنى : وحين تقوم الساعة يقال : أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب ، وحين يتحاج أهل النار فيقول الضعفاء الخ .

وقرن ﴿ فَيَقُولُ الضعفاؤا ﴾ بالفاء لإفادة كون هذا القول ناشئاً عن تحاجّهم في النار مع كون ذلك دَالاً على أنه في معنى متعلَّق ﴿ إذ ، وهذا استعمال من استعمالات الفاء التي يسميها النحاة زائدة ، وأثبت زيادتها جماعة منهم الأخفش والفراء والأعلم وابن بَرهان ، وحكاه عن أصحابه البصريين .

وضمير يتحاجون ﴾ على هذا الوجه عائد إلى آل فرعون .

ويفيد مع ذلك تعريضاً بوعيد المشركين كما هو مقتضى المماثلة المسوقة وضمير ﴿ يتحاجون ﴾ غير عائد إلى ﴿ ءَالَ فِرعونَ ﴾ [غافر : 46] لأن ذلك يأباه قوله : ﴿ وقال الذين في النار لِخَزنة جهنم ادعوا ربكم ﴾ [غافر : 49] وقوله : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأتيكم رُسُلكم بالبينات ﴾ [غافر : 50] ولم يَأت آل فرعون إلا رسول واحد هو موسى عليه السلام فيعود ضمير ﴿ يتحاجون ﴾ إلى معلوم من المقام وهم أهل النار .

والتحاجّ : الاحتجاج من جانبين فأكثرَ ، أي إقامة كل فريق حجته وهو يقتضي وقوع خلاف بين المتحاجّين إذ الحجة تأييد لدعوى لدفع الشك في صحتها .

والضعفاء : عامة الناس الذين لا تصرُّف لهم في أمور الأمة .

والذين استكبروا : سادة القوم ، أي الذين تكبروا كِبْراً شديداً ، فالسين والتاء فيه للمبالغة .

وقول الضعفاء للكبراء هذا الكلامَ يحتمل أنه على حقيقته فهو ناشىء عما اعتادوه من اللجإ إليهم في مهمهم حين كانوا في الدنيا فخالوا أنهم يتولون تدبير أمورهم في ذلك المكان ولهذا أجاب الذين استكبروا بما يفيد أنهم اليوم سواء في العجز وعدم الحيلة فقالوا : ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ أي لو أغنينا عنكم لأغنينا عن أنفسنا .

وتقديم قولهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُم تبعاً ﴾ على طلب التخفيف عنهم من النار ، مقدمة

للطلب لقصد توجيهه وتعليله وتذكيرهم بالولاء الذي بينهم في الدنيا ، يلهمهم الله هذا القول لافتضاح عجز المستكبرين أن ينفعوا أتباعهم تحقيراً لهم جزاء على تعاظمهم الذي كانوا يتعاظمون به في الدنيا .

ويحتمل أن قول الضعفاء ليس مستعملاً في حقيقة الحث على التخفيف عنهم ولكنه مستعمل في التوبيخ ، أي كنتم تدعوننا إلى دين الشرك فكانت عاقبة ذلك أنا صرنا في هذا العذاب فهل تستطيعون الدفع عنا .

وتأكيد ﴿ إِنَّا كنا لكُم تَبَعاً ﴾ بـ (إنَّ) للاهتمام بالخبر وليس لرد إنكار .

(98/676)

والتبع : اسم لمن يتبع غيره ، يستوي فيه الواحد والجمع ، وهو مثل خَدَم وَحَشَم لأن أصله مصدر ، فلذلك استوى فيه الواحد والجمع ، وقيل التَبَع : جمع لا يجري على الواحد ، فهو إذن من الجموع النادرة .

والاستفهام في قوله : ﴿ فَهَلْ أنتُم مُغْنُونَ ﴾ مستعمل في الحث واللوم على خذلانهم وترك الاهتمام بما هم فيه من عذاب .

وجيء بالجملة الاسمية الدالة على الثبات ، أي هل من شأنكم أنكم مغنون عنّا .

و﴿ مغنون ﴾ اسم فاعل من أغنى غناء بفتح الغين والمدّ ، أي فائدة وإجزاء .

والنصيب : الحَظ والحصة من الشيء ، قال تعالى : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ إلى قوله : ﴿ نصيباً مفروضاً ﴾ [النساء : 7] .

وقد ضمّن ﴿ مغنون ﴾ معنى دافعون ورادُّون ، فلذلك عُدي إلى مفعولٍ وهو ﴿ نصيباً ﴾ أي جُزءاً من حر النار غير محدد المقدار من قوتها ، و ﴿ مِنَ النَّار ﴾ بيان ل ﴿ نَصِيباً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فهل أنتم مغنون عنا من عذاب اللَّه من شيء ﴾ [إبراهيم : 21] فهم قانعون بكل ما يخفف عنهم من شدة حرّ النار وغير طامعين في الخروج منها .

ويجوز أن يكون ﴿ مغنون ﴾ على معناه دون تضمين ويكون ﴿ نصيباً ﴾ منصوباً على المفعول المطلقِ لمغنون والتقدير غَناء نصيباً ، أي غناء مَّا ولو قليلاً .

و﴿ منَ النَّارِ ﴾ متعلقاً بـ ﴿ مغنون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وما أغني عنكم من اللَّه من شيء ﴾ [يوسف : 67] .

ويجوز أن يكون النصيب الجزءَ من أزمنة العذاب فيكون على حذف مضاف تقديره : من مُدة النار .

ولما كان جواب الذين استكبروا للذين استضعفوا جارياً في مجرى المحاورة جرّد فعل ﴿ قال من حرف العطف على طريقة المحاورة كما تقدم غير مرة .

ومعنى قولهم : إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ نحن وأنتم مستوون في الكون في النار فكيف تطمعون أن ندفع عنكم شيئاً من العذاب .

(99/676)

وعلى وجه أن يكون قول الضعفاء ﴿ إنا كُنَّا لَكُمْ تَبعاً ﴾ إلى آخره توبيخاً ولوماً لزعمائهم يكون قول الزعماء ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ اعترافاً بالغلط ، أي دَعُوا لومنا وتوبيخنا فقد كفانا أنا معكم في النار وتأكيد الكلام بـ (إنّ) للاهتمام بتحقيقه أو لتنزيل من طالبوهم بالغناء عنهم من عذاب النار مع مشاهدتهم أنهم في العذاب مثلهم ، منزلة من يحسبهم غير واقعين في النار ، وفي هذا التنزيل ضرب من التوبيخ يقولون : ألستم ترونا في النار مثلكم فكيف نغني عنكم .

و﴿ كل ﴾ مرفوع بالابتداء وخبره ﴿ فيها ﴾ والجملة من المبتدأ وخبره خبر (إنَّ) وتنوين (كل) تنوين عوض عن المضاف إليه ، إذ التقدير : إنا كلُّنا في النار .

وجملة ﴿ إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ ﴾ تتنزل منزلة بدل الاشتمال من جملة ﴿ إِنَّا كُلٌّ فيها ﴾ فكلتا الجملتين جواب لهم مؤيس من حصول التخفيف عنهم .

والمعنى : نحن مستوون في العذاب وهو حكم الله فلا مطمع في التقصي من حكمه فقد

جوزي كل فريق بما يستحق .

وما في هذه الجملة الثانية من عموم تعلق فعل الحكم بين العباد ما يجعل هذا البدل بمنزلة التذييل ، أي أن الله حكم بين العباد كلهم بجزاء أعمالهم فكان قسطنا من الحكم هذا العذاب .

فكلمة ﴿ حَكَمَ ﴾ هنا مستعملة في معناها الحقيقي وهو المكان المتوسط ، أي وقع حكمه وقضاؤه في مجمعهم الذي حضره من حُكم عليه ومن حكم له ومن لم يتعرض للحكومة لأنه من أهل الكرامة بالجنة ، فليست كلمة (بين) هنا بمنزلة (بين) في قوله تعالى : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل اللَّه ﴾ [المائدة : 48] فإنها في ذلك مستعملة مجازاً في التفرقة بين المحق والمبطل .

(100/676)

وفي هذه الآية عبرة لزعماء الأمم وقادتهم أن يحذروا الارتماء بأنفسهم في مهاوي الخسران فيوقعوا المقتدين بهم في تلك المهاوي فإن كان إقدامهم ومغامرتهم بأنفسهم وأممِهم على علم بعواقب ذلك كانوا أحرياء بالمذمة والخزي في الدنيا ومضاعفة العذاب في الآخرة ، إذ ما كان لهم أن يغرُّوا بأقوام وكلوا أمورهم بقادتهم عن حسن ظن فيهم ، أن يخونوا أماناتهم فيهم

كما قال تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ [العنكبوت : 13] ، وإن كان قَحْمهم أنفسهم في مضائق الزعامة عن جهل بعواقب قصورهم وتقصيرهم فإنهم ملومون على عدم التوثق من كفاءتهم لتدبير الأمة فيخبطوا بها خبط عشواء حتى يزلوا بها فيَهْوُوا بها من شواهق بعيدة فيصيروا رميماً ، ويَلْقوا في الآخرة جحيماً .

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49)

لما لم يجدوا مساغاً للتخفيف من العذاب في جانب كُبرائهم ، وتنصّل كبراؤُهم من ذلك أو اعترفوا بغلطهم وتوريطهم قومَهم وأنفسَهم تمالأَ الجميع على محاولة طلب تخفيف العذاب بدعوة من خَزَنَة جهنم ، فلذلك أسند القول إلى الذين في النار ، أي جميعهم من الضعفاء والذين استكبروا .

وخَزَنَة : جمع خَازن ، وهو الحافظ لما في المكان من مال أو عروض .

و﴿ خزنة جهنم ﴾ هم الملائكة الموكَّلون بما تحويه من النار ووَقودها والمعذبين فيها وموكلون بتسيير ما تحتوي عليه دار العذاب وأهلها ولذلك يقال لهم : خزنة النار ، لأن الخزن لا يتعلق بالنار بل بما يحويها فليس قوله هنا : ﴿ جهنم ﴾ إظهاراً في مقام الإِضمار إذ لا يحسن إضافة خزنة إلى النار ولو تقدم لفظ جهنم لقال : لخزنتها ، كما في قوله في سورة [الملك : 86] ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب (جهنم) وبئس المصير ﴾ إلى قوله : ﴿ سألهم خزنتها ﴾ فإن الضمير ل ﴿ جهنم ﴾ لا ل ﴿ النار ﴾ .

وفي "الكشاف" أنه من الإِظهار في مقام الإِضمار للتهويل بلفظ ﴿ جهنم ﴾ ، والمسلك الذي سلكناه أوضح .

وفي إضافة (رب) إلى ضمير المخاطبين ضرب من الإِغراء بالدعاء ، أي لأنكم أقرب إلى استجابته لكم .

ولما ظنُّوهم أرجى للاستجابة سألوا التخفيف يوماً من أزمنة العذاب وهو أنفع لهم من تخفيف قوة النار الذي سألوه من مستكبريهم .

وجزم ﴿ يخفف ﴾ بعد الأمر بالدعاء ، ولعله بتقدير لام الأمر لكثرة الاستعمال ، ومن أهل العربية من يجعله جزماً في جواب الطلب لتحقيق التسبب .

فيكون فيه إيذان بأن الذين في النار واثقون بأن خزنة جهنم إذا دعوا الله استجاب لهم .

وهذا الجزم شائع بعد الأمر بالقول وما في معناه لهذه النكتة وحقه الرفع أو إظهار لام الأمر .

وتقدم الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ في سورة [إبراهيم : 31] .

(وضمّن ﴿ يخفف ﴾ معنى ينقص فنصب ﴿ يوماً ، ﴾ أو هو على تقدير مضاف ، أي

عذاب يوم ، أي مقدار يوم ، وانتصب ﴿ يوماً ﴾ على المفعول به ل ﴿ يخفف ﴾ .

واليومُ كناية عن القلة ، أي يخفف عنا ولو زمناً قليلاً .

و ﴿ مِنَ العَذَابِ ﴾ بيان ل ﴿ يوماً ﴾ لأنه أريد به المقدار فاحتاج إلى البيان على نحو التمييز .

ويجوز تعلقه بـ ﴿ يخفف ﴾ .

وجوَابُ خزنة جهنم لهم بطريق الاستفهام التقريري المراد به : إظهارُ سوء صنيعهم بأنفسهم إذ لم يتبعوا الرسل حتى وقعوا في هذا العذاب ، وتنديمُهم على ما أضاعوه في حياتهم الدنيا من وسائل النجاة من العقاب .

وهو كلام جامع يتضمن التوبيخ ، والتنديم ، والتحسير ، وبيان سبب تجنب الدعاء لهم ، وتذكيرهم بأن الرسل كانت تحذرهم من الخلود في العذاب .

والواو في قوله : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُم رُسُلُكُم ﴾ لم يعرج المفسرون على موقعها .

(102/676)

وهي واو العطف عطف بها (خزنة جهنم) كلامهم على كلام الذين في النار من قَبيل طريقة عطف المتكلم كلاماً على كلامٍ صدر من المخاطب إيماء إلى أن حقه أن يكون من

بقية كلامه وأن لا يُغفِله ، وهو ما يلقب بعطف التلقين كقوله تعالى:

﴿ قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي ﴾ [البقرة : 124] فإن أهل النار إذا تذكروا ذلك علموا وجاهة تنصل خزنة جهنم من الشفاعة لهم ، وتفريع ﴿ فادعو ﴾ على ذلك ظاهر على كلا التقديرين .

وهمزة الاستفهام مقدمة من التأخير على التقديرين ، لوجوب صدارتها .

وجملة ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ يجوز أن تكون من كلام خزنة جهنم تذييلاً لكلامهم يبين أن قولهم : ﴿ فادعو ﴾ مستعمل في التنبيه على الخطأ ، أي دعاؤكم لم ينفعكم لأن دعاء الكافرين في ضلال والواو اعتراضية ، ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى تذييلاً واعتراضاً .

والبينات : الحجج الواضحة والدعَوات الصريحة إلى اتباع الهدى .

فلم يسعهم إلا الاعتراف بمجيء الرسل إليهم بالبينات فقالوا : بلى ، فرد عليهم خزنة جهنم بالتنصل من أن يدعُوا الله بذلك ، إلى إيكال أمرهم إلى أنفسهم بقولهم : ﴿ فادعو ﴾ تفريعاً على اعترافهم بمجيء الرسل إليهم بالبينات .

ومعنى تفريعه عليه هو أنه مفرع عليه باعتبار معناه الكِنائي الذي هو التنصل من أن يَدعُوا لهم ، أي كما توليتم الإعراض عن الرسل استبداداً بآرائكم فتولَّوا اليومَ أمرَ أنفسكم فادعوا أنتم ، فإن "من تولى قُرها يَتولَّى حَرَّها" ، فالأمر في قوله : ﴿ فادعو ﴾ مستعمل في الإِباحة

أو في التسوية ، وفيه تنبيه على خطإِ السائلين في سُؤالهم .

وزيادة فعل الكَون في ﴿ أوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكم ﴾ للدلالة على أن مجيء الرسل إلى الأمم أمر متقرر محقّق ، لما يدل عليه فعل الكَون من الوجود بمعنى التحقق ، وأما الدلالة على أن فعل الإِتيان كان في الزمن الماضي فهو مستفاد من (لَم) النافية في الماضي .

(103/676)

والضلال : الضياع ، وأصله : خطأ الطريق ، كما في قوله تعالى : ﴿ أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد ﴾ [السجدة : 10] .

والمعنى : أن دعاءهم لا ينفعهم ولا يُقبل منهم ، وسواء كان قوله : ﴿ وَمَا دُعاء الكافرين إلاَّ فِي ضلال ﴾ من كلام الملائكة أو من كلام الله تعالى فهو مقتض عموم دعائهم لأن المصدر المضاف من صيغ العموم فيقتضي أن دعاء الكافرين غير متقبل في الآخرة وفي الدنيا لأن عموم الذوات يستلزم عموم الأزمنة والأمكنة .

وأما ما يوهم استجابة دعاء الكافرين نحو قوله تعالى : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ﴾ [الأنعام : 63 ، 64] وقوله : ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه

لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ [يونس : 22 ، 23] ، فظاهر أن هذه لا تدل على استجابة كرامة ولكنها لتسجيل كفرهم ونكرانهم ، وقد يُتوهم في بعض الأحوال أن يَدْعو الكافر فيقع ما طَلبه وإنما ذلك لمصادفة دعائه وقَت إجابة دعاء غيره من الصالحين ، وكيف يستجاب دعاء الكافر وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم استبعاد استجابة دعاء المؤمن الذي يأكل الحرام ويلبس الحرام في حديث مسلم عن أبي هريرة : "ذَكَر رسول الله صلى الله عليه وسلم رَجُلاً يُطيل السَّفَر أشعثَ أَغْبَرَ يُمدُّ يديْه إلى السماء : يا رَبِّ يا رَبِّ ، ومطعَمُه حَرام ومَشْرَبُه حرام وغُذِّي بالحرام فأَنَّى يستجاب له" .

ولهذا لم يقل الله : فلما استجاب دعاءهم ، وإنما قال : فلما نجاهم ، أي لأنه قدّر نجاتهم من قبل أن يدعوا أو لأن دعاءهم صادف دعاء بعض المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(104/676)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾

يقول الضعفاء للذين استكبروا : أنتم أضللتمونا ، ويقول لهم المستكبرون : أنتم وافقتمونا باختياركم (1) ؛ فمحاجةُ بعضهم لبعضٍ تزيد في غيظ قلوبهم ، فكما يُعَذَّبون بنفوسهم يعذبون بضِيقِ صدورهم وببُغْضِ بعضهم لبعض .

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49)

وهذه أيضاً من أمارات الأجنبية ، فهم يُدْخِلُونَ واسطةً بينهم وبين ربّهم . (2) ثم إن الله ينزع الرحمة عن قلوب الملائكة كي لا يستشفعوا لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 309 ﴾

---

(1) لاحظ هنا كيف يحرص القشيري على إبراز عنصر الاختيار لدى الإنسان ، مع معرفتنا السابقة بأنه ينادي بأن اللّه خالق كل شيء حتى أكساب العباد ، وقد حاول أن يوفق بين الاتجاهين فقال : يجري هذا من العبد فعلا ومن اللّه حكما .

(2) من ذلك نفهم أن القشيري لا يرى بالواسطة عند الدعاء ، بل ينبغي أن تدعو اللّه مباشرة .

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) ﴾

(106/676)

التفسير : لما وبخ الكفار بعدم السير في الأرض للنظر والاعتبار أو بعدم النظر في أحوال الماضين مع السير في الأقطار وقد وصف الماضين بكثرة العدد والآثار الباقية ، أراد أن يصرح بقصة واحدة من قصصهم تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وزيادة توبيخ وتذكير لهم . وكان في قصة موسى وفرعون من العجائب ما فيها ، فلا جرم أوردها ههنا مع فوائد زائدة على ما في المواضع الأخر منها : ذكر مؤمن من آل فرعون وما وعظ ونصح به قومه . ولأن القصة قد تكررت مراراً فلنقتصر في التفسير على ما يختص بالمقام . قوله ﴿ بالحق ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة . وقوله ﴿ اقتلوا ﴾ يريد به إعادة القتل كما مر في " الأعراف " في قوله ﴿ سنقتل أبناءهم ﴾ [الآية : 127] قوله ﴿ إلا في ضلال ﴾ أي في ضياع واضمحلال . فإن كان اللام في ﴿ الكافرين ﴾ للجنس فظاهر لأن وبال كيدهم يعود بالآخرة عليهم حين يهلكون ويدخلون النار ، وإن كان للعهد وهم فرعون وقومه فأظهر كما

قص عليك من حديث إغراقهم وإستيلاء موسى وقومه على ديارهم . قوله ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ ظاهره مشعر بأن قومه كانوا يمنعونه من قتله وفيه احتمالات : الأول لعله كان فيهم من يعتقد نبوّة موسى فيأتي بوجوه الحيل في منع فرعون . الثاني قال الحسن : إن أصحابه قالوا لا تقتله فإنما هو ساحر ضعيف ولا يمكنه أن يغلب سحرتك ، وإن قتلته أدخلت الشبهة على الناس وقالوا : إنه كان محقاً وعجزوا عن جوابه فقتله . الثالث : لعل مراد أمرائه أن يكون فرعون مشغول القلب بأمر موسى حتى إنهم يكونون في أمن وسعة . قال جار الله : إن فرعون كان فيه خب وجريرة وكان قتالاً سفاكاً للدماء في أهون شيء فكيف لا يقصد قتل من أحسن بأن في وجوده هدم ملكه وتغيير ما هو عليه من عبادة أصنامه كما قال ﴿ إني أخاف أن يبدّل ﴾ الآية . ولكنه كان قد استيقن أنه نبي وكان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك . قال : وقوله ﴿ وليدع ربّه ﴾ شاهد صدق على فرط خوفه من دعوة ربه . وقال غيره

(107/676)

: هو على سبيل الاستهزاء يعني إن أقتله فليقل لربه الذي يدّعي وجوده حتى يخلصه . ومعنى تبديل الدين تغيير عبادة الأصنام كما مر في " الأعراف " في قوله ﴿ ويذرك وآلهتك

﴿ [الآية : 127] والفساد التهارج والتنازع واختلاف الآراء والأهواء ، أراد أن يحدث لا محالة من إبقائه فساد الدين والدنيا جميعاً ، أو أحد الأمرين على القراءتين .

(108/676)

ثم حكى ما ذكره موسى في دفع شر فرعون وهو العوذ بالله . وفي تصدير الجملة بأن دلالة على أن الطريق المعتبر في دفع الآفات الاستغاثة والاستعاذة برب الأرض والسموات . وفي قوله ﴿ بربي ﴾ إشارة إلى أن الذي رباني وإلى درجات الخير رقاني سيعصمني من شر هذا المارد الجاني . وفي قوله ﴿ وربكم ﴾ احتراز عن أن يظن ظانّ أنه يريد به فرعون لأنه رباه في صغره ﴿ ألم نربك فينا وليدا ﴾ [الشعراء : 18] وفيه بعث لقوم موسى على أن يقتدوا به في الاستعاذة فإن اجتماع النفوس له تأثير قوي . وفي قوله ﴿ من كل متكبر ﴾ أي متكبر عن قبول الحق على سبيل العموم فائدتان : إحداهما شمول الدعاء فيدخل فيه فرعون بالتبعية . والثانية أن فرعون رباه في الصغر فلعله راعى حسن الأدب في عدم تعيينه . وأما وصف المتكبر بقوله ﴿ لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ فلأن الموجب لإيذاء الناس أمران : أحدهما قسوة القلب . والثاني عدم اعتقاد بالجزاء والحساب . ولا ريب أنه إذا اجتمع الأمران كان الخطب أفظع لاجتماع المقتضى وارتفاع المانع . ثم شرع في قصة مؤمن

آل فرعون . والأصح أنه كان قبطياً ابن عم لفرعون آمن بموسى سراً واسمه سمعان أبو حبيب أو خربيل . وقيل : كان إسرائيلياً . وزيف بأن المؤمنين من بني إسرائيل لو يعتلوا ولم يعزوا لقوله ﴿ اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ﴾ فما الوجه في تخصيصه ؟ ولقائل أن يقول : الوجه تخصيصه بالوعظ والنصيحة إلا أن قوله : ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله ﴾ وقوله ﴿ يا قوم ﴾ على رأس كل نصيحة يغلب على الظن أن يتنصح لقومه . ومعنى ﴿ أن يقول ﴾ لأجل قوله أو وقت أن يقول كأنه قال منكراً عليهم أترتكبون الفعلة الشنعاء وهي قتل نفس محرمة أي نفس كانت لأجل كلمة حقة وهي قوله ﴿ ربى الله ﴾ والدليل على حقيتها إظهار الخوارق والمعجزات . وفي قوله ﴿ من ربكم ﴾ استدراج لهم إلى الاعتراف بالله . ثم احتج عليهم بالتقسيم العقلي أنه لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً . على الأول يعود وبال كذبه

(109/676)

عليه ، وعلى الثاني أصابكم ما يتوعدكم به من العقاب . واعترض على الشق الأوّل بأن الكاذب يجب دفع شره بإمالته إلى الحق أو بقتله ، ولهذا أجمع العلماء على أن الزنديق الذي يدعو الناس إلى دينه يجب قتله . وعلى الشق الثاني بأنه أوعدهم بأشياء والنبي صادق في

مقالته لا محالة فلم قال ﴿ يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ ولم يقل "كل الذي" ؟ والجواب عن الأوّل أنه إنما ردّد بين الأمرين بناء على أن أمره مشكوك فيما بينهم ، والزمان زمان الفترة والحيرة ، فأين هذا من زماننا الذي وضح الحق فيه وضوح الفجر الصادق بل ظهور الشمس في ضحوة النهار ؟ وعن الثاني أنه من كلام المنصف كأنه قال : إن لم يصبكم كل ما أوعد فلا أقل من أن يصيبكم بعضه ، أو أراد عذاب الدنيا وكان موسى أوعدهم عذاب الدنيا والآخرة جميعاً .

وعن أبي عبيدة : أن البعض ههنا بمعنى الكل وأنشد قول لبيد :

ترّاك أمكنه إذا لم أرضها . . . أو يرتبط بعض النفوس حمامها

(110/676)

وخطأه جار الله وكثير من أهل العربية وقالوا : إنه أراد ببعض النفوس فقط . ثم أكد حقية أمر موسى بقوله ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ وقد هداه الله إلى المعجزات الباهرة فهو إذن ليس بمتجاوز عن حدّ الاعتدال ولا بكذاب . وقيل : إنه كلام مستأنف من الله عز وجل ، وفيه تعريض بأن فرعون مسرف في عزمه على قاتل موسى كذاب في ادّعاء الإلهية فلا يهديه الله إلى شيء من خيرات الدارين ويزيل ملكه ويدفع شره ، وقد يلوح من

هذه النصيحة وما يتلوها من المواعظ أن مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه إلى أن قصدوا قتل موسى وعند ذلك أظهر الإيمان وترك التقية مجاهداً في سبيل الله بلسانه . ثم ذكرهم نعمة الله عليهم وخوّفهم زوالها بقوله ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ﴾ أي غالبين على أرض مصر ومن فيها من بني إسرائيل والقبط ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله ﴾ من يخلصنا من عذابه ﴿ إن جاءنا ﴾ وذلك لشؤم تكذيب نبيه ﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أي ما أشير عليكم برأي إلا بما أرى من قبله ﴿ وما أهديكم ﴾ بهذا الرأي ﴿ إلا سبيل الرشاد ﴾ وصلاح الدين والدنيا ، أو ما أعلمكم من الصواب ولا أسر خلاف ما أظهر . قال جار الله : وقد كذب فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى ولكنه كان يتجلد . وحكى أبو الليث أن الرشاد اسم من أسماء أصنامه . قوله ﴿ مثل دأب ﴾ قال جار الله صاحب الكشاف : لا بد من حذف مضاف أي مثل جزاء دأبهم وهو عادتهم المستمرة في الكفر والتكذيب . ثم قال : إنه عطف بيان للأوّل لأن آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح . ولو قلت أهلك الله الأحزاب قوم نوح وعاد وثمود لم يكن إلا عطف بين لإضافة قوم إلى أعلام فسرى ذلك الحكم إلى أوّل المضافات . قلت : لا بأس من جعله بدلاً كما مرّ . وقوله ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ أبلغ من قوله ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ [فصلت : 46] لأن نفي الإرادة آكد من نفي الفعل ولتنكير الظلم في سياق النفي . وفيه أن تدميرهم

(111/676)

كان عدلاً وقسطاً . وقيل : معناه أنه لا يريد لهم أن يظلموا فدمرهم لكونهم ظالمين . وحين خوّفهم عذاب الدنيا خوّفهم عذاب الآخرة أيضاً فقال ﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ أما اليوم فيمكن انتصابه على الظرفية كأنه أخبر عن خوفه في ذلك اليوم لما يلحقهم من العذاب ، والأولى أن يكون مفعولاً به أي أحذركم عذاب ذلك اليوم .

(112/676)

وفي تسمية يوم القيامة يوم التناد وجوه منها : أن أهل الجنة ينادون أهل النار وبالعكس كما مر في سورة الأعراف . ومنها أنه من قوله ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ [الإسراء : 71] ومنها أن بعض الظالمين ينادي بعضاً بالويل والثبور قائلين يا ويلنا . ومنها أنهم ينادون إلى المحشر . ومنها أنه ينادي المؤمن هاؤم اقرؤا كتابيه والكافر يا ليتني لم أوت كتابيه . ومنها أنه يجاء بالموت على صورة كبش أملح ثم يذبح وينادي في أهل القيامة لا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً على فرح ، وأهل النار حزناً على حزن . وقال أبو علي الفارسي : التناد مخفف

من التنادّ مشدداً وأصله من ندّ إذا هرب نظيره ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه ﴾ [عبس : 34] الخ . ويؤيده قراءة ابن عباس مشدداً وتفسيره بأنهم يندون كما تند الإبل . وقوله بعد ذلك ﴿ يوم تولّون مدبرين ﴾ أنهم إذا سمعوا زفير النار ندّوا هاربين فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه . وقال قتادة : معنى تولون مدبرين انصرافهم عن موقف الحساب إلى النار . ثم أكد التهديد بقوله ﴿ ما لكم من الله ﴾ الآية . ثم ذكر مثالاً لمن لا يهديه الله بعد إضلاله وهو قوله ﴿ ولقد جاءكم يوسف ﴾ وفيه أقوال ثلاثة أحدها : أنه يوسف بن يعقوب ، وفرعون موسى هو فرعون يوسف ، والبينات إشارة إلى ما روي أنه مات لفرعون فرس قيمته ألوف فدعا يوسف فأحياه الله . وأيضاً كسفت الشمس فدعا يوسف فكشفها الله ، ومعجزاته في باب تعبير الرؤيا مشهورة ، فآمن فرعون ثم عاد إلى الكفر بعد ما مات يوسف . والثاني هو يوسف بن ابن إبراهيم بن يوسف ابن يعقوب ، أقام فيهم عشرين سنة قاله ابن عباس . والثاني هو يوسف بن ابن إبراهيم بن يوسف إليهم رسولاً من الجن اسمه يوسف وأورده أقضى القضاة أيضاً وفيه بعد . قال المفسرون في قوله ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ ليس إشارة إلى أنهم صدّقوا يوسف لقوله ﴿ فما زلتم في شك ﴾ وإنما

الغرض بيان أن تكذيبهم لموسى مضموم إلى تكذيب يوسف ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ قلت : هذا إنما يصح إذا لم يكن فرعون يوسف قد آمن به لكنه مرويّ كما قلنا اللهم إلا أن يقال : لولا شكه في أمره لما كفر بعد موته قال جار الله : فاعل كبر ضمير عائد إلى من هو مسرف لأنه موحد اللفظ وإن كان مجموع المعنى . وجوّز أن يكون ﴿ الذين يجادلون ﴾ مبتدأ على تقدير حذف المضاف أي جدال الذين يجادلون كبر . وجوّز آخرون أن يكون التقدير الذين يجادلون كبر جدالهم على حذف الفاعل للقرينة .

(114/676)

وفي قوله ﴿ وعند الذين آمنوا ﴾ إشارة إلى أن شهادة المؤمنين عند الله بمكان حتى قرنها إلى شهادة نفسه . والمقصود التعجب والاستعظام لجدالهم وخروجه عن حدّ أشكاله من الكبائر ، ووصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه مركزهما ومنبعهما ، أو باعتبار صاحبه . ومن قرأ بالإضافة فظاهر إلا أنه قيل : فيه قلب والأصل على قلب كل متكبر كما يقال : فلان يصوم كل يوم جمعة أي يوم كل جمعة . ثم أخبر الله سبحانه عن بناء فرعون ليطلع على

السماء وقد تقدّم ذكره في سورة القصص . قال أهل اللغة : الصرح مشتق من التصريح الإظهار ، وأسباب السموات طرقها كما مر في أوّل " ص " ف ﴿ ليرتقوا في الأسباب ﴾ [الآية : 10] فائدة بناء الكلام على الإبدال هي فائدة الإجمال ثم التفصيل والإبهام ثم التوضيح من تشويق السامع وغيره . من قرأ ﴿ فأطّلع ﴾ بالرفع فعلى العطف أي لعلي أبلغ فأطلع . ومن قرأ بالنصب فعلى تشبيه الترجي بالتمني . والتباب الخسران والهلاك كما مر في قوله ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ [هود : 101] استدل كثير من المشبهة بالآية على أن الله في السماء قالوا : إن بديهة فرعون قد شهدت بأنه في ذلك الصوب وأنه سمع من موسى أنه يصف الله بذلك وإلا لما رام بناء الصرح . والجواب أن بديهة فرعون لا حجة فيها ، وسماعه ذلك من موسى ممنوع . وقد يطعن بعض اليهود بل كلهم في الآية بأن تواريخ بني إسرائيل تدل على أن هامان لم يكن موجوداً في زمان موسى وفرعون وإنما ولد بعدهما بزمان طويل ، ولو كان مثل هذا الشخص موجوداً في عصرهما لنقل لتوفرت الدواعي عن نقله . والجواب أن الطعن بتاريخ اليهود المنقطع الوسط لكثرة زمان الفترة أولى من الطعن في القرآن المعجز المتواتر أولاً ووسطاً وآخراً .

ثم عاد سبحانه إلى حكاية قول المؤمن وأنه أجمل النصيحة أوّلاً بقوله ﴿ اتبعون أهدكم ﴾ ثم استأنف مفصلاً قائلاً ﴿ إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ يتمتع به أياماً قلائل ثم يترك عند الموت إن لم يزل نعيمها قبل ذلك ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ المنزل الذي يستقر فيه . ثم بين أنه كيف تحصل المجازاة في الآخرة وفيه إشارة إلى أن جانب الرحمة أرجح . ومعنى الرزق بغير حساب أنه لا نهاية لذلك الثواب ، أو أنه يعطى بعد الجزاء شيئاً زائداً على سبيل التفضل غير مندرج تحت الحساب . ثم صرح بأنهم يدعونه إلى النار وهو يدعوهم إلى الخلاص عنها وفسر هذه الجملة بقوله ﴿ تدعونني لأكفر بالله ﴾ الآية . ليعلم أن الشرك بالله أعظم موجبات النار والتوحيد ضدّه . وفي قوله ﴿ ما لي أدعوكم ﴾ من غير أن يقول " ما لكم " مع أن الإنكار يتوجه في الحقيقة إلى دعائهم لا إلى المجموع ولا إلى دعائه سلوك لطريق الإنصاف .

(116/676)

ووجه تخصيص العزيز الغفار بالمقام أنه غالب على من أشرك به غفور لمن تاب عن كفره . قوله ﴿ لا جرم ﴾ لا ردّ لكلامهم ، وجرم بمعنى كسب أو وجب أو لا بد وقد سبق في " هود " و " النحل " . ومعنى ﴿ ليس له دعوة ﴾ أنه لا يقدر في الدنيا على أن يدعو الناس

إلى نفسه لأنه جماد ، ولا في الآخرة لأنه إذا أنطقه الله فيها تبرأ من عابديه . ويجوز أن يكون على حذف المضاف أي ليس له استجابة دعوة كقوله ﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ﴾ [الرعد : 14] عن قتادة : المسرفين هم المشركون . ومجاهد : السفاكون للدماء بغير حلها . وقيل : الذين غلب شرهم خيرهم . وقيل : الذين جاوزوا في المعصية حدّ الاعتدال كما بالدوام والإصرار وكيفا بالشناعة وخلع العذار ﴿ فستذكرون ﴾ أي في الدنيا عند حلول العذاب أو في الآخرة عند دخول النار ﴿ وأفوّض أمري إلى الله ﴾ قاله لأنهم توعدوه . وفيه وفي قوله ﴿ فوقاه الله ﴾ دليل واضح على أنه أظهر الإيمان وقت هذه النصائح . قال مقاتل : لما تمم هذه الكلمات قصدوا قتله فهرب منهم إلى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه . قوله ﴿ وحاق بآل فرعون ﴾ معناه أنه رجع وبال مكرهم عليهم فأغرقوا ثم أدخلوا ناراً . ولا يلزم منه أن يكونوا قد هموا بإيصال مثل هذا السوء إليه ، ولئن سلّم أن الجزاء يلزم فيه المماثلة لعل فرعون قد همّ بإغراقه أو بإحراقه كما فعل نمرود . قوله ﴿ يعرضون عليها ﴾ أي يحرقون بها . يقال : عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به . وقوله ﴿ غدوّاً وعشياً ﴾ إما للدوام كما مر في صفة أهل الجنة ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ [مريم : 62] وإما لأنه اكتفى في القبر بإيصال العذاب إليهم في هذين الوقتين . وفي سائر الأوقات إما أن

يبقى أثر ذلك وألمه عليهم ، وإما أن يكون فترة وإما أن يعذبوا بنوع آخر من العذاب الله أعلم بحالهم . وفي الآية دلالة ظاهرة على إثبات عذاب القبر لأن تعذيب يوم القيامة يجيء

(117/676)

في قوله ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد بعرض النار عرض النصائح عليهم في الدنيا لأن سماع الحق مرّ طعمه ؟ قلنا : عدول عن الظاهر من غير دليل . ولما انجز الكلام إلى شرح أحوال أهل النار عقبة بذكر المناظرات التي تجري فيها بين الرؤساء والأتباع والمعنى : اذكر يا محمد وقت تحاجهم وقد مر نظير ذلك مراراً . وفي قولهم ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ أي قضى لكل فريق بما يستحقه إشارة إلى الإقناط الكليّ ، ولهذا رجعوا عن محاجة المتبوعين إلى الالتماس من خزنة النار أن يدعوا الله بتخفيف العذاب عنهم زماناً . قال المفسرون : إنما لم يقل لخزنتها لأن جهنم اسم قعر الناس فكأن لخزنتها قرباً من الله وهم أعظم درجة من سائر الخزنة فلذلك خصوهم بالخطاب . أما قول الخزنة لهم ﴿ فادعوا ﴾ ودعاء الكافر لا يسمع ؛ فالمراد به التوبيخ والتنبيه على اليأس كأنهم قالوا : الشفاعة مشروطة بشيئين : كون المشفوع له مؤمناً والشافع مأذوناً له فيها ، والأمر إن ههنا مفقودان على أن الحجة قد لزمتهم والبينة ألجأتهم . ثم أكدوا ذلك بقولهم ﴿ وما دعاء

الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي لا أثر له ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 38.32 ﴾

(118/676)

قوله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (54) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان حاصل ما مضى من هذا القص الذي هو أحلى من الشراب ، وأغلى من الجوهر المنظم في أعناق الكواعب الأتراب ، لأنه سبحانه نصر الرسل على أممهم حين هموا بأخذهم ، فلم يصلوا إليهم ثم أهلكهم الله هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فعذبهم أشد العذاب ، وكذلك نصر موسى عليه السلام والمؤمن الذي دافع عنه ، وكان نصر اهل الله قاطبة خفياً ، لأنهم يُبتلون ثم يكون لهم العاقبة ، فكان أكثر الجامدين وهم أكثر الناس يظن

أنه لا نصره لهم ، قال الله تعالى لافتاً القول إلى مظهر العظمة ، لأن النصرة عنها تكون على سبيل الاستنتاج مما مضى مؤكداً تنبيهاً للأغبياء على ما يخفى عليهم : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ لننصر رسلنا ﴾ أي على من ناوأهم ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي اتسموا بهذا الوصف وإن كانوا في أدنى رتبة .

(119/676)

ولما كانت الحياة تروق وتحلو بالنصرة وتتكدر بضدها ، ذكرها لذلك ولئلا يتوهم لو سقطت أن نصرتهم تكون رتبتها دنية فقال : ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بالزامهم طريق الهدى الكفيلة بكل فوز وبالحجة والغلبة ، وإن غلبوا في بعض الأحيان فإن العاقبة تكون لهم ، ولو بأن يقيض سبحانه لأعدائهم من يقتص ولو بعد حين ، وأقل ذلك أن لا يتمكن أعداؤهم من كل ما يرون منهم ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ أي في الدار الآخرة من الملائكة والنبيين وسائر المقربين ، جمع شهيد كشريف وأشراف ، إشارة إلى أن شهادتهم بليغة في بابها ، لما لهم من الحضور التام ، وإلى ذلك يشير تذكير الفعل والتعبير بجمع القلة ، ولكن الجياد قليل مع أنهم بالنسبة إلى أهل الموقف كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، وإنما عبر بذلك إشارة إلى أهل الحكم بصفات الجبروت للقسط ، فيرفع أولياءه بكل اعتبار ، ويهين أعداءهم كل

إهانة .

ولما وصف اليوم الآخر بما لا يفهمه كثير من الناس ، أتبعه ما أوضحه على وجه بين نصره لهم غاية البيان ، فقال مبدلاً مما قبله : ﴿ يوم لا ينفع الظالمين ﴾ الذين كانوا عريقين في وضع الأشياء في غير مواضعها ﴿ معذرتهم ﴾ أي اعتذارهم وزمانه ومكانه - بما أشار إليه كون المصدر ميمياً ولو جل - بما أشار إليه قراءة التذكير للفعل فعلم بذلك أنهم لا يجدون دفاعاً بغير الاعتذار وأنه غير نافعهم لأنهم لا يعتذرون إلا بالكذب ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 23] أو بالقدر ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا ﴾ [المؤمنون : 106] ﴿ ولهم ﴾ أي خاصة ﴿ اللعنة ﴾ أي البعد عن كل خير ، مع الإهانة بكل ضير ﴿ ولهم ﴾ أي خاصة ﴿ سوء الدار ﴾ وهي النار الحاوية لكل سوء - هذا مع ما يتقدمها من المواقف الصعبة ، وإذا كان هذا لهم فما ظنك بما هو عليهم ، وقد علم من هذا أن لأعدائهم - وهم الرسل وأتباعهم - الكرامة والرحمة ولهم قبول الاعتذار وحسن الدار ، فظهرت بذلك أعلام النصرة ، وصح ما أخبر به من تمام القدرة .

(120/676)

ولما كان التقدير : فلقد نصرنا موسى رسولنا مع إبراق فرعون وإرعاده ، عطف عليه قوله دالاً على الكرامة والرحمة ، مؤكداً لإزالة ما استقر في النفوس من أن ملوك الدنيا لا يغلبهم الضعفاء : ﴿ ولقد آتينا ﴾ أي بما لنا من العزة ﴿ موسى الهدى ﴾ أي في الدين اللازم منه أن يكون له العاقبة وإن تناهت ضخامة من يعانده ، لأنه ضال عن الهدى ، والضال هالك وإن طال المدى ، وذلك بما آتيناه من النبوة والكتاب .

ولما كانت النبوة خاصة والكتاب عاماً قال : ﴿ وأورثنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ بني إسرائيل ﴾ بعد ما كانوا فيه من الذل ﴿ الكتاب ﴾ أي الذي أنزلنا عليه وآتيناه الهدى به - وهو التوراة - إيتاء هو كالإرث لا ينازعهم فيه أحد ، ولا أهل له في ذلك الزمان غيرهم ، حال كونه ﴿ هدى ﴾ أي بياناً عاماً لكل من تبعه ﴿ وذكرى ﴾ أي عظة عظيمة ﴿ لأولي الألباب ﴾ أي القلوب الصافية والعقول الوافية الشافية ، فذكر إيتاء موسى الثمرة وذكر إيراثهم السبب إشارة إلى أنهم من جنى ثمرته فاهتدي ، ومنهم من ضل ، وذلك تحذير للاتباع ، وتشريف للأنبياء بما نالوه من مراتب الارتفاع .

(121/676)

ولما كان التقدير بعد أن تقدم الوعد المؤكد بنصرة الرسل وأتباعهم : ولقد آتيناك الهدى والكتاب كما آتينا موسى ، ولننصرنك مثل ما نصرناه وإن زاد إبراق قومك وإرعادهم ، فإنهم لا يعشرون فرعون فيما كان فيه من الجبروت والقهر والعز والسلطان والمكر ولم ينفعه شيء منه ، سبب عنه قوله : ﴿ فاصبر ﴾ أي على أذاهم فإنا نوقع الأشياء في أتم محالها على ما بنينا عليه أحوال هذه الدار من إجراء المسببات على أسبابها ، ثم علل ذلك بقوله صارفاً القول عن مظهر العظمة الذي هو مدار النصرة إلى اسم الذات الجامع لجميع الكمالات التي من أعظمها إنفاذ الأمر وصدق الوعد : ﴿ إن وعد الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ حق ﴾ أي في إظهار دينك وإعزاز أمرك ، فقد رأيت ما اتفق لموسى عليه السلام مع أجبر أهل ذلك الزمان وما كان له من العاقبة ، قال القشيري : الصبر في انتظار الموعود من الحق على حسب الإيمان والتصديق ، فمن كان تصديقه ويقينه أتم وأقوى كان صبره أكمل وأوفى .

ولما تكفل هذا الكلام من التثبيت بانجاز المرام ، وكان من الأمر المحتوم أن لزوم القربات يعلى الدرجات فيوصل إلى قوة التصرفات ، أمر بالإعراض عن ارتقاب النصر والاشتغال بتهذيب الأحوال لتحصيل الكلام ، موجهاً الخطاب إلى أعلى الخلق ليكون من دونه من باب الأولى فقال : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ أي وهو كل عمل كامل لأن ذلك غفر لك ما تقدم من

ذنبك وما تأخر فتستن بك أمتك ، وسماه ذنباً من باب " حسنات الأبرار سيئات المقربين " .

(122/676)

ولما أمره بالاستغفار عند الترقية في درجات الكمال ، المطلع على بحور العظمة ومفاوز الجلال ، أمره بالتنزيه عن شائبة نقص والإثبات لكل رتبة كمال ، لافتاً القول إلى صفة التربية والأحسان لأنه من أعظم مواقعها فقال : ﴿ وسبح ﴾ أي نزه ربك عن شائبة نقص كلما علمت بالصعود في مدارج الكمال نقص المخلوق في الذات والأعمال ملتبساً ﴿ بحمد ربك ﴾ أي إثبات الإحاطة باوصاف الكمال للمحسن إليك المربي لك ، ولا تشتغل عنه بشيء فإن الأعمال من أسباب الظفر .

ولما كان المقام لإثبات قيام الساعة ، وكان العشي أدل عليها ، قدمه فقال : ﴿ بالعشي والإبكار ﴾ فإن تقلبهما دائماً دل على كمال مقلبهما وقدرته على إيجاد المعدوم الممحوق كما كان وتسويته ، ومن مدلول الآية الحث على صلاتي الصبح والعصر ، وهما الوسطى لأنهما تشهدهما ملائكة الليل وملائكة النهار ، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : بل على الصلوات الخمس – نقله البغوي .

وذلك لأن العشى من زوال الشمس ، والأبكار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 523 . 525 ﴾

(123/676)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ لا ينفع ﴾ على التذكير : نافع وحمزة وعلي وخلف وعاصم ﴿ تتذكرون ﴾ بتاء الخطاب : عاصم وحمزة وعلي وخلف . ﴿ ادعوني أستجب ﴾ بفتح الياء : ابن كثير . ﴿ سيدخلون ﴾ من الإدخال مجهولاً : ابن كثير ويزيد وعباس ورويس وحماد وأبو بكر غير الشموني ﴿ شيوخاً ﴾ بكسر الشين : ابن كثير وابن عامر وحمزة وعلي وهبيرة والأعشى ويحيى وحماد .

(124/676)

الوقوف ﴿ الأشهاد ﴾ 5 لا لأن ﴿ يوم ﴾ يدل من الأول ﴿ الدار ﴾ 5 ﴿ الكتاب ﴾ 5 لا ﴿ الألباب ﴾ 5 ﴿ والأبكار ﴾ 5 ﴿ أتاهم ﴾ لا لأن ما بعده خبر "إن" ﴿ ما هم ببالغيه ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ بالله ﴾ ط ﴿ البصير ﴾ 5 ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 ﴿ ولا المسيء ﴾ ط ﴿ يتذكرون ﴾ 5 ﴿ لا يؤمنون ﴾ 5 ﴿ أستجب لكم ﴾ ط ﴿ داخرين ﴾ 5 ﴿ مبصراً ﴾ ط ﴿ لا يشكرون ﴾ 5 ﴿ شيء ﴾ لا لئلا يوهم أن ما بعده صفة شيء وخطؤه ظاهر ﴿ إلا هو ﴾ ز لابتداء الاستفهام ورجحان الوصل لفاء التعقيب ولتمام مقصود الكلام ﴿ يؤفكون ﴾ 5 ﴿ يجحدون ﴾ 5 ﴿ الطيبات ﴾ ط ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿ الدين ﴾ 5 ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿ شيوخاً ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ تعقلون ﴾ 5 ﴿ ويميت ﴾ ج لأجل الفاء مع الشرط ﴿ فيكون ﴾ 5 ﴿ في آيات الله ﴾ ط لانتهاء الاستفهام وابتداء آخر ﴿ يصرفون ﴾ 5 ج لاحتمال كون ﴿ الذين ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿ يصرفون ﴾ ﴿ رسلنا ﴾ قف إن لم تقف على ﴿ يصرفون ﴾ ﴿ يعلمون ﴾ 5 لا لتعلق الظرف ﴿ والسلاسل ﴾ ط لأن ما بعده مستأنف. وقيل: ﴿ والسلاسل ﴾ مبتدأ والعائد محذوف أي والسلاسل يجرون بها في الحميم ﴿ يسجرون ﴾ 5 ج للآية مع العطف ﴿ من دون الله ﴾ ط ﴿ شيئاً ﴾ ط ﴿ الكافرين ﴾ 5 ﴿ تمرحون ﴾ 5 ﴿ خالدين فيها ﴾ ج ﴿ المتكبرين ﴾ 5 ﴿ حق ﴾ 5 ﴿ للشرط ﴾ مع الفاء ﴿ يرجعون ﴾ 5 ﴿ نقصص عليك ﴾

ط ﴿ بإذن الله ﴾ ج ﴿ المبطلون ﴾ 5 ﴿ تأكلون ﴾ 5 ز للآية مع العطف وشدّة اتصال المعنى ﴿ تحملون ﴾ 5 ط لأن ما بعده مستأنف ولا وجه للعطف . ﴿ تنكرون ﴾ 5 ﴿ من قبلهم ﴾ ط للفصل بين الاستخبار والأخبار ﴿ يكسبون ﴾ 5 ﴿ يستهزؤن ﴾ 5 ﴿ مشركين ﴾ 5 ﴿ بأسنا ﴾ الثاني ط ﴿ في عباده ﴾ ج لأن الفعل المعطوف عليه مضمر وهو سن ﴿ الكافرون ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 40 ﴾

(125/676)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) ﴾

اعلم أن في كيفية النظم وجوهاً الأول : أنه تعالى لما ذكر وقاية الله موسى صلوات الله عليه وذلك المؤمن من مكر فرعون بين في هذه الآية أنه ينصر رسله والذين آمنوا معه والثاني : لما بين من قبل ما يقع بين أهل النار من التخاصم وأنهم عند الفزع إلى خزنة جهنم يقولون ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بالبينات ﴾ [غافر : 50] أتبع ذلك بذكر الرسل وأنه ينصرهم في

الدنيا والآخرة والثالث : وهو الأقرب عندي أن الكلام في أول السورة إنما وقع من قوله ﴿ مَا يجادل فِى ءايات الله إِلاَّ الذين كَفَرُواْ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى البلاد ﴾ [غافر : 4] وامتد الكلام في الرد على أولئك المجادلين وعلى أن المحقين أبداً كانوا مشغولين بدفع كيد المبطلين ، وكل ذلك إنما ذكره الله تعالى تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتصبيراً له على تحمل أذى قومه .

ولما بلغ الكلام في تقرير المطلوب إلى الغاية القصوى وعد تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن ينصره على أعدائه في الحياة الدنيا وفي الآخرة فقال : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءامَنُواْ ﴾ الآية ، أما في الدنيا فهو المراد بقوله ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ ، وأما في الآخرة فهو المراد بقوله ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ﴾ فحاصل الكلام أنه تعالى وعد بأنه ينصر الأنبياء والرسل ، وينصر الذين ينصرونهم نصرة يظهر أثرها في الدنيا وفي الآخرة .

(126/676)

واعلم أن نصرة الله المحقين تحصل بوجوه أحدها : النصرة بالحجة ، وقد سمى الله الحجة سلطاناً في غير موضع ، وهذه النصرة عامة للمحقين أجمع ، ونعم ما سمى الله هذه النصرة سلطاناً لأن السلطنة في الدنيا قد تبطل ، وقد تتبدل بالفقر والذلة والحاجة والفتور ، أما

السلطنة الحاصلة بالحجة فإنها تبقى أبد الآباد ويمتنع تطرق الخلل والفتور إليها وثانيها : أنهم منصورون بالمدح والتعظيم ، فإن الظلمة وإن قهروا شخصاً من المحقين إلا أنهم لا يقدرون على إسقاط مدحه عن ألسنة الناس وثالثها : أنهم منصورون بسبب أن بواطنهم مملوءة من أنوار الحجة وقوة اليقين ، فإنهم إنما ينظرون إلى الظلمة والجهال كما تنظر ملائكة السموات إلى أخس الأشياء ورابعها : أن المبطلين وإن كان يتفق لهم أن يحصل لهم استيلاء على المحقين ، ففي الغالب أن ذلك لا يدوم بل يكشف للناس أن ذلك كان أمراً وقع على خلاف الواجب ونقيض الحق وخامسها : أن المحق إن اتفق له أن وقع في نوع من أنواع المحذور فذلك يكون سبباً لمزيد ثوابه وتعظيم درجاته وسادسها : أن الظلمة والمبطلين كما يموتون تموت آثارهم ولا يبقى لهم في الدنيا أثر ولا خبر .

وأما المحقون فإن آثارهم باقية على وجه الدهر والناس بهم يقتدون في أعمال البر والخير ولمحنهم يتركون فهذا كله أنواع نصرة الله للمحقين في الدينا وسابعها : أنه تعالى قد ينتقم للأنبياء والأولياء بعد موتهم ، كما نصر يحيى بن زكريا فإنه لما قتل به سبعون ألفاً ، وأما نصرته تعالى إياهم في الآخرة فذلك بإعلاء درجاتهم في مراتب الثواب وكونهم مصاحبين لأنبياء الله ، كما قال :

﴿ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مّنَ النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] .

واعلم أن في قوله ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ إلى قوله ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ دقيقة معتبرة وهي أن السلطان العظيم إذا خص بعض خواصه بالإكرام العظيم والتشريف الكامل عند حضور الجمع العظيم من أهل المشرق والمغرب كان ذلك ألذ وأبهج فقوله ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا إلى وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ المقصود منه هذه الدقيقة ، واختلفوا في المراد بالأشهاد ، والظاهر أن المراد كل من يشهد بأعمال العباد يوم القيامة من ملك ونبي ومؤمن ، أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون بما شاهدوا ، وأما الأنبياء فقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : 143] قال المبرد يجوز أن يكون واحد الأشهاد شاهداً كأطيار وطائر وأصحاب وصاحب ، ويجوز أن يكون واحد الأشهاد شهيداً كأشراف وشريف وأيتام ويتيم .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللعنة وَلَهُمْ سُوء الدار ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر لا تنفع بالتاء لتأنيث المعذرة والباقون بالياء كأنه أريد الاعتذار .

واعلم أن المقصود أيضاً من هذا شرح تعظيم ثواب أهل الثواب ، وذلك لأنه تعالى بيّن أنه ينصرهم في يوم يجتمع فيه الأولون والآخرون ، فحالهم في علو الدرجات في ذلك اليوم ما ذكرناه وأما حال أعدائهم فهو أنه حصلت لهم أمور ثلاثة أحدها : أنه لا ينفعهم شيء من المعاذير ألبتة وثانيها : أن ﴿ لَهُمُ اللعنة ﴾ وهذا يفيد الحصر يعني اللعنة مقصورة عليهم وهي الإهانة والإذلال وثالثها : سوء الدار وهو العقاب الشديد فهذا اليوم إذا كان الأعداء واقعين في هذه المراتب الثلاثة من الوحشة والبلية ، ثم إنه خص الأنبياء والأولياء بأنواع التشريفات الواقعة في الجمع الأعظم فهنا يظهر أن سرور المؤمن كم يكون ، وأن غموم الكافرين إلى أين تبلغ .

فإن قيل قوله ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ يدل على أنهم يذكرون الأعذار إلا أن تلك الأعذار لا تنفعهم فكيف الجمع بين هذا وبين قوله ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 36] قلنا قوله ﴿ لاَّ تَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ لا يدل على أنهم ذكروا الأعذار ، بل ليس فيه إلا أنه ليس عندهم عذر مقبول نافع ، وهذا القدر لا يدل على أنهم ذكروه أم لا .

وأيضاً فيقال يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون في وقت ولا يعتذرون في وقت آخر ، ولما بين الله تعالى أنه ينصر الأنبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة ذكر نوعاً من أنواع تلك النصرة في الدنيا فقال : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الهدى ﴾ ويجوز أن يكون المراد من الهدى ما آتاه الله من العلوم الكثيرة النافعة في الدنيا والآخرة ، ويجوز أن يكون المراد تلك الدلائل القاهرة التي أوردها على فرعون وأتباعه وكادهم بها ، ويجوز أن يكون المراد هو النبوّة التي هي أعظم المناصب الإنسانية ، ويجوز أن يكون المراد إنزال التوراة عليه .

(129/676)

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِى إسرائيل الكتاب هُدًى وذكرى لأُوْلِى الألباب ﴾ يجوز أن يكون المراد منه أنه تعالى لما أنزل التوراة على موسى بقي ذلك العلم فيهم وتوارثوه خلفاً عن سلف ، ويجوز أن يكون المراد سائر الكتب التي أنزلها الله عليهم وهي كتب أنبياء بني إسرائيل التوراة والزبور والإنجيل ، والفرق بين الهدى والذكرى وأن الهدى ما يكون دليلاً على الشيء وليس من شرطه أن يذكر شيئاً آخر كان معلوماً ثم صار منسياً ، وأما الذكرى فهي الذي يكون كذلك فكتب أنبياء الله مشتملة على هذين القسمين بعضها دلائل في أنفسها ، وبعضها مذكرات لما ورد في الكتب الإلهية المتقدمة .

ولما بيّن أن الله تعالى ينصر رسله وينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة وضرب المثال في ذلك بحال موسى وخاطب بعد ذلك محمداً صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ فالله ناصرك كما نصرهم ومنجز وعده في حقك كما كان كذلك في حقهم ، ثم أمره بأن يقبل على طاعة الله النافعة في الدنيا والآخرة فإن من كان لله كان الله له .

(130/676)

واعلم أن مجامع الطاعات محصورة في قسمين التوبة عما لا ينبغي ، والاشتغال بما ينبغي ، والأول مقدم على الثاني بحسب الرتبة الذاتية فوجب أن يكون مقدماً عليه في الذكر ، أما التوبة عما لا ينبغي فهو قوله ﴿ واستغفر لِذَنبِكَ ﴾ والطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام يتمسكون به ونحن نحمله على التوبة عن ترك الأولى والأفضل ، أو على ما كان قد صدر عنهم قبل النبوة ، وقيل أيضاً المقصود منه محض التعبد كما في قوله ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ ﴾ [آل عمران : 194] فإن إيتاء ذلك الشيء واجب ثم إنه أمرنا بطلبه ، وكقوله ﴿ رَبِّ احكم بالحق ﴾ [الأنبياء : 112] من أنا نعلم أنه لا يحكم إلا بالحق ، وقيل إضافة المصدر إلى الفاعل والمفعول فقوله ﴿ واستغفر لِذَنبِكَ ﴾ من باب إضافة المصدر إلى المفعول أي واستغفر لذنب أمتك في حقك ، وأما الاشتغال بما ينبغي

فهو قوله ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعشى والإبكار ﴾ والتسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل ما لا يليق به ، والعشي والإبكار ، قيل صلاة العصر وصلاة الفجر ، وقيل الإبكار ، عبارة عن أول النهار إلى النصف ، والعشي عبارة عن النصف إلى آخر النهار ، فيدخل فيه كل الأوقات ، وقيل المراد طرفا النهار ، كما قال : ﴿ وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار ﴾ [هود : 114] وبالجملة فالمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله ، وأن لا يفتر اللسان عنه ، وأن لا يغفل القلب عنه ، حتى يصير الإنسان بهذا السبب داخلاً في زمرة الملائكة ، كما قال في وصفهم ﴿ يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : 20] ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 66.68 ﴾

(131/676)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾

ويجوز حذف الضمة لثقلها فيقال : "رُسْلَنَا" والمراد موسى عليه السلام .

﴿ والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا ﴾ في موضع نصب عطف على الرسل ، والمراد المؤمن الذي وعظ .

وقيل : هو عام في الرسل والمؤمنين ، ونصرهم بإعلاء الحجج وإفلاحها في قول أبي العالية .

وقيل : بالانتقام من أعدائهم .

قال السدي : ما قَتَل قوم قط نبياً أو قوماً من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله عز وجل من ينتقم لهم ، فصاروا منصورين فيها وإن قُتِلوا .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ يعني يوم القيامة .

قال زيد بن أسلم : "الأَشْهَادُ" أربعة : الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد .

وقال مجاهد والسدي : "الأَشْهَادُ" الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأمم بالتكذيب .

وقال قتادة : الملائكة والأنبياء .

ثم قيل : "الأَشْهَادُ" جمع شهيد مثل شريف وأشراف .

وقال الزجاج : "الأَشْهَادُ" جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب .

النحاس : ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال ولا يقاس عليه ولكن ما جاء منه مسموعاً أُدِّي كما سمع ، وكان على حذف الزائد .

وأجاز الأخفش والفراء : "وَيَوْمَ تَقُومُ الأَشْهَادُ" بالتاء على تأنيث الجماعة .

وفي الحديث عن أبي الدرداء وبعض المحدثين يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من ردّ عن عِرْض أخيه المسلم كان حقاً على الله عز وجل أن يردّ عنه نار جهنم " ثم تلا :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ ﴾ .

وعنه عليه السلام أنه قال : " من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله عز وجل يوم القيامة مَلَكاً يحميه من النار ومن ذكر مسلماً بشيء يشينه به وقفه الله عز وجل على جسر من جهنم حتى يخرج مما قال " ﴿ يَوْمَ ﴾ بدل من يوم الأوّل .

﴿ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ قرأ نافع والكوفيون "يَنْفَعُ" بالياء .

الباقون بالتاء .

(132/676)

﴿ وَلَهُمُ اللعنة وَلَهُمْ سواء الدار ﴾ "اللَّعْنَةُ" البعد من رحمة الله و"سُوءُ الدَّارِ" جهنم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الهدى ﴾ هذا دخل في نصرة الرسل في الدنيا والآخرة أي آتيناه التوراة والنبوة .

وسميت التوراة هدى بما فيها من الهدى والنور ؛ وفي التنزيل : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة : 44] .

﴿ وَأَوْرَثْنَا بني إِسْرَائِيلَ الكتاب ﴾ يعني التوراة جعلناه لهم ميراثاً .

﴿ هُدًى ﴾ بدل من الكتاب ويجوز بمعنى هو هدى ؛ يعني ذلك الكتاب .

﴿ وذكرى لأُوْلِي الألباب ﴾ أي موعظة لأصحاب العقول .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾

أي فاصبر يا محمد على أذى المشركين ، كما صبر من قبلك "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ" بنصرك وإظهارك ، كما نصرت موسى وبني إسرائيل .

وقال الكلبي : نسخ هذا بآية السيف .

﴿ واستغفر لذَنبِكَ ﴾ قيل : لذنب أمتك حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

وقيل : لذنب نفسك على من يجوّز الصغائر على الأنبياء .

ومن قال لا تجوز قال : هذا تعبد للنبي عليه السلام بدعاء ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا ﴾ [آل عمران : 194] والفائدة زيادة الدرجات وأن يصير الدعاء سنة لمن بعده .

وقيل : فاستغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعشي والإبكار ﴾ يعني صلاة الفجر وصلاة العصر ؛ قاله الحسن وقتادة .

وقيل : هي صلاة كانت بمكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ركعتان غُدْوة وركعتان عشيّة .

عن الحسن أيضاً ذكره الماوردي .

فيكون هذا مما نسخ والله أعلم .

وقوله : ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ بالشكر له والثناء عليه .

وقيل : "وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ" أي استدم التسبيح في الصلاة وخارجاً منها لتشتغل بذلك عن استعجال النصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(133/676)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) ﴾

بدأ المؤمن بذكر المتسبب عن دعوتهم ، وأبدى التفاضل بينهما .

ولما ذكر المسببين ، ذكر سببهما ، وهو دعاؤهم إلى الكفر والشرك ، ودعاؤه إياهم إلى الإيمان والتوحيد .

وأتى بصيغة العزيز ، وهو الذي لا نظير له ، والغالب الذي العالم كلهم في قبضته يتصرف فيهم كما يشاء ، الغفار لذنوب من رجع إليه وآمن به ، وأوصل سبب دعائهم بمسببه ، وهو الكفر والنار ، وأخر سبب مسببه ليكون افتتاح كلامه واختتامه بما يدعو إلى الخير .

وبدأ أولاً بجملة اسمية ، وهو استفهام المتضمن التعجب من حالتهم ، وختم أيضاً بجملة

اسمية ليكون أبلغ في توكيد الأخبار .

وجاء في حقهم ﴿ وتدعونني ﴾ بالجملة الفعلية التي لا تقتضي توكيداً ، إذ دعوتهم باطلة لا ثبوت لها ، فتؤكد .

و﴿ ما ليس لي به علم ﴾ هي الأوثان ، أي لم يتعلق به علمي ، إذ ليس لها مدخل في الألوهية ولا لفرعون .

قال الزمخشري : فإن قلت : لم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني ؟ قلت : لأن الثاني داخل في كلام هو بيان للمجمل وتفسير له ، فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو ، وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة . انتهى .

وتقدم الكلام على لا جرم .

وقال الزمخشري هنا ، وروي عن العرب : لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء ، يريد لا بد ، وفعل وفعل أخوان ، كرشد ورشد ، وعدم وعدم .

﴿ أنما ﴾ : أي أن الذي تدعونني إليه ، أي إلى عبادته ، ﴿ ليس له دعوة ﴾ ، أي قدر وحق يجب أن يدعى إليه ، أو ليس له دعوة إلى نفسه ، لأن الجماد لا يدعو ، والمعبود بالحق يدعو العباد إلى طاعته ، ثم يدعو العباد إليها إظهاراً لدعوة ربهم .

وقال الزجاج: المعنى ليس له استجابة دعوة توجب الألوهية في الدنيا ولا في الآخرة، أو دعوة مستجابة جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ولا منفعة كلا دعوة، أو سميت الاستجابة باسم الدعوة، كما سمى الفعل المجازى عليه باسم الجزاء في قوله: كما تدين تدان.

وقال الكلبي: ليست له شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة، وكان فرعون أولاً يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ثم دعاهم إلى عبادة البقر، وكانت تعبد ما دامت شابة، فإذا هزلت أمر بذبحها ودعا بأخرى لتعبد.

فلما طال عليه الزمان قال: ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ولما ذكر انتفاء دعوة ما عبد من دون الله وذكر أن مرد الجميع إلى الله، أي إلى جزائه، ﴿ وأن المسرفين ﴾: وهم المشركون في قول قتادة، والسفاكون للدماء بغير حلها في قول ابن مسعود ومجاهد.

وقيل: من غلب شره خيره هو المسرف.

وقال عكرمة: هم الجبارون المتكبرون.

وختم المؤمن كلامه بخاتمة لطيفة توجب التخويف والتهديد وهي قوله: ﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾: أي إذا حل بكم عقاب الله.

﴿ وأفوّض أمري ﴾ إلى قضاء الله وقدره، لا إليكم ولا إلى أصنامكم، وكانوا قد

توعدوه .

ثم ذكر ما يوجب التفويض ، وهو كونه تعالى بصيراً بأحوال العباد وبمقادير حاجاتهم .

قال مقاتل : لما قال هذه الكلمات ، قصدوا قتله ؛ فهرب هذا المؤمن إلى الجبل ، فلم يقدروا عليه .

وقيل : لما أظهر إيمانه ، بعث فرعون في طلبه ألف رجل ؛ فمنهم من أدركه ، فذب السباع عنه وأكلتهم السباع ، ومنهم من مات في الجبال عطشاً ، ومنهم من رجع إلى فرعون خائباً ، فاتهمه وقتله وصلبه .

وقيل : نجا مع موسى في البحر ، وفر في جملة من فر معه .

﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ : أي شدائد مكرهم التي تسوؤه ، وما هموا به من أنواع العذاب لمن خالفهم .

(135/676)

﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ ، قال ابن عباس : هو ما حاق بالألف الذين بعثهم فرعون في طلب المؤمن ، من أكل السباع ، والموت بالعطش ، والقتل والصلب ، كما تقدم .

وقيل : ﴿ سوء العذاب ﴾ : هو الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة .

﴿ النار ﴾ بدل من ﴿ سوء العذاب ﴾ ، أو خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قيل : ما سوء العذاب : قيل : النار ، أو مبتدأ خبره ﴿ يعرضون ﴾ ، ويقوي هذا الوجه قراءة من نصب ، أي تدخلون النار يعرضون عليها .

وقال الزمخشري : ويجوز أن ينصب على الاختصاص .

والظاهر أن عرضهم على النار مخصوص بهذين الوقتين ، ويجوز أن يراد بذكر الطرفين الدوام في الدنيا ، والظاهر أن العرض خلاف الإحراق .

وقال الزمخشري : عرضهم عليها : إحراقهم بها ، يقال : عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به .

انتهى ، والظاهر أن العرض هو في الدنيا .

وروي ذلك عن الهذيل بن شرحبيل ، وعن ابن مسعود والسدي : أن أرواحهم في جوف طيور سود ، تروح بهم وتغدوا إلى النار .

وقال رجل للأوزاعي : رأيت طيوراً بيضاً تغدوا من البحر ، ثم تروح بالعشي سوداً مثلها ، فقال الأوزاعي : تلك التي في حواصلها أرواح آل فرعون ، يحرق رياشها وتسود بالعرض على النار .

وقال محمد بن كعب وغيره : أراد أنهم يعرضون في الآخرة على تقدير ما بين الغدوّ والعشي ، إذ لا غدوّ ولا عشي في الآخرة ، وإنما ذلك على التقدير بأيام الدنيا .

وعن ابن مسعود : تعرض أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار على النار بالغداة والعشي ، يقال : هذه داركم .

(136/676)

وفي صحيح البخاري ، ومسلم ، من حديث ابن عمران ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة " واستدل مجاهد ومحمد بن كعب وعكرمة ومقاتل بقوله : ﴿ النار يعرضون عليها غدوًّا وعشياً ﴾ : أي عند موتهم على عذاب القبر في الدنيا .

والظاهر تمام الجملة عند قوله : ﴿ وعشياً ﴾ ، وأن يوم القيامة معمول لمحذوف على إضمار القول ، أي ويوم القيامة يقال لهم : ادخلوا .

وقيل : ويوم معطوف على وعشياً ، فالعامل فيه يعرضون ، وأدخلوا على إضمار الفعل .

وقيل : العامل في يوم أدخلوا .

وقرأ الأعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعمش ، وابن وثاب ، وطلحة ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص : أدخلوا ، أمراً للخزنة من أدخل .

وعليّ ، والحسن ، وقتادة ، وابن كثير ، والعربيان ، وأبو بكر : أمراً من دخل آل فرعون أشد العذاب .

قيل : وهو الهاوية .

قال الأوزاعي : بلغنا أنهم ألفا ألف وستمائة ألف .

﴿ وإذ يتحاجون في النار ﴾ : الظاهر أن الضمير عائد على فرعون .

وقال ابن عطية : والضمير في قوله : ﴿ يتحاجون ﴾ لجميع كفار الأمم ، وهذا ابتداء قصص لا يختص بآل فرعون ، والعامل في إذ فعل مضمر تقديره واذكروا .

وقال الطبري : وإذ هذه عطف على قوله : ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ ، وهذا بعيد . انتهى ، والمحاجة : التحاور بالحجة والخصومة .

والضعفاء : أي في القدر والمنزلة في الدنيا .

والذين استكبروا : أي عن الإيمان واتباع الرسل .

﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ : أي ذوي تبع ، فتبع مصدر أو اسم جمع لتابع ، كآيم وأيم ، وخادم وخدم ، وغائب وغيب .

﴿ فهل أنتم مغنون عنا ﴾ : أي حاملون عنا ؟ فأجابوهم : ﴿ إنا كنا فيها ﴾ ، وأن حكم الله قد نفذ فينا وفيكم ، إنا مستمرون في النار .

وقرأ ابن المسيفع ، وعيسى بن عمران : كلا بنصب كل .

وقال الزمخشري ، وابن عطية : على التوكيد لاسم إن ، وهو معرفة ، والتنوين عوض من المضاف إليه ، يريد : إنا كلنا فيها . انتهى .

وخبر إن هو فيها ، ومن رفع كلا فعلى الابتداء ، وخبره فيها ، والجملة خبر إن .

وقال ابن مالك في تصنيفه (تسهيل الفوائد) : وقد تكلم على كل ، ولا يستغنى بنية إضافته ، خلافاً للفرّاء والزمخشري .

انتهى ، وهذا المذهب منقول عن الكوفيين ، وقد رد ابن مالك على هذا المذهب بما قرره في شرحه (التسهيل) .

وقال الزمخشر : فإن قلت : هل يجوز أن يكون كلاً حالاً قد عمل فيها فيها ؟ قلت : لا ، لأن الظرف لا يعمل ، والحال متقدمة ، كما يعمل في الظرف متقدماً ، تقول : كل يوم لك ثوب ، ولا تقول : قائماً في الدار زيد . انتهى .

وهذا الذي منعه أجازه الأخفش إذا توسطت الحال ، نحو : زيد قائماً في الدار ، وزيد قائماً عندك ، والتمثيل الذي ذكره ليس مطابقاً في الآية ، لأن الآية تقدم فيها المسند إليه الحكم ، وهو اسم إن ، وتوسطت الحال إذا قلنا إنها حال ، وتأخر العامل فيها ، وأما تمثيله

بقوله : ولا تقول قائماً في الدار زيد ، تأخر فيه المسند والمسند إليه ، وقد ذكر بعضهم أن المنع في ذلك إجماع من النحاة .

وقال ابن مالك : والقول المرضي عندي أن كلاً في القراءة المذكورة منصوب على أن الضمير المرفوع المنوي في فيها ، وفيها هو العامل ، وقد تقدمت الحال عليه مع عدم تصرفه ، كما قدمت في قراءة من قرأ :

﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ وفي قول النابغة الذبياني :

رهط ابن كوز محقبي أدراعهم . . .

فيهم ورهط ربيعة بن حذار

وقال بعض الطائيين :

دعا فأجبنا وهو باديّ ذلة . . .

لديكم فكان النصر غير قريب

انتهى .

(138/676)

وهذا التخريج هو على مذهب الأخفش ، كما ذكرناه ، والذي أختاره في تخريج هذه القراءة أن كلاً بدل من اسم إن ، لأن كلاً يتصرف فيهما بالابتداء ونواسخه وغير ذلك ، فكأنه قال : إن كلاً بدل من اسم إن ، لأن كلاً فيها : وإذا كانوا قد تأولوا حولا أكتعاً ويوماً أجمعاً على البدل ، مع أنهما لا يليان العوامل ، فإن يدعى في كل البدل أولى ، وأيضاً فتنكير كل ونصبه حالاً في غاية الشذوذ ، والمشهور أن كلاً معرفة إذا قطعت عن الإضافة .

حكى : مررت بكل قائماً ، وببعض جالساً في الفصيح الكثير في كلامهم ، وقد شذ نصب كل على الحال في قولهم : مررت بهم كلاً ، أي جميعاً .

فإن قلت : كيف يجعله بدلاً ، وهو بدل كل من كل من ضمير المتكلم ، وهو لا يجوز على مذهب البصريين ؟ قلت : مذهب الأخفش والكوفيين جوازه ، وهو الصحيح ، على أن هذا ليس مما وقع فيه الخلاف ، بل إذا كان البدل يفيد الإحاطة ، جاز أن يبدل من ضمير المتكلم وضمير المخاطب ، لا نعلم خلافاً في ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا ﴾ وكقولك : مررت بكم صغيركم وكبيركم ، معناه : مررت بكم كلكم ، وتكون لنا عيداً كلنا .

فإذا جاز ذلك فيما هو بمعنى الإحاطة ، فجوازه فيما دل على الإحاطة ، وهو كل أولى ، ولا التفات لمنع المبرد البدل فيه ، لأنه بدل من ضمير المتكلم ، لأنه لم يتحقق مناط الخلاف .

ولما أجاب الضعفاء المستكبرون قالوا جميعاً : ﴿ لخزنة جهنم ﴾ ، وأبرز ما أضيف إليه

الخزنة ، ولم يأت ضميراً ، فكان يكون التركيب لخزنتها ، لما في ذكر جهنم من التهويل ، وفيها أطغى الكفار وأعتاهم .

(139/676)

ولعل الكفار توهموا أن ملائكة جهنم الموكلين بعذاب تلك الطغاة هم أقرب منزلة عند الله من غيرهم من الملائكة الموكلين ببقية دركات النار ، فرجوا أن يجيبوهم ويدعوا لهم بالتخفيف ، فراجعتهم الخزنة على سبيل التوبيخ لهم والتقرير : ﴿ أوَلم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ ، فأجابوا بأنهم أتتهم ، ﴿ قالوا ﴾ : أي الخزنة ، ﴿ فادعوا ﴾ أنتم على معنى الهزء بهم ، أو فادعوا أنتم ، فإنا لا نجترىء على ذلك .

والظاهر أن قوله : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ من كلام الخزنة : أي دعاؤكم لا ينفع ولا يجدي .

وقيل : هو من كلام الله تعالى إخباراً منه لمحمد (صلى الله عليه وسلم) .

وجاءت هذه الأخبار معبراً عنها بلفظ الماضي الواقع لتيقن وقوعها .

ثم ذكر تعالى أنه ينصر رسله ويظفرهم بأعدائهم ، كما فعل بموسى عليه السلام ، حيث أهلك عدوّه فرعون وقومه ، وفيه تبشير للرسول عليه السلام بنصره على قومه ، ﴿ في

الحياة الدنيا ﴾ ، العاقبة الحسنة لهم ، ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ : وهو يوم القيامة .

قال ابن عباس : ينصرهم بالغلبة ، وفي الآخرة بالعذاب .

وقال السدّي : بالانتقام من أعدائهم .

وقال أبو العالية : بإفلاح حجتهم .

وقال السدّي أيضاً : ما قتل قوم قط نبيًّا أو قوماً من دعاة الحق إلا بعث الله من ينتقم لهم ، فصاروا منصورين فيها وإن قتلوا . انتهى .

ألا ترى إلى قتلة الحسين ، رضي الله عنه ، كيف سلط الله عليهم المختار بن عبيد يتبعهم واحداً واحداً حتى قتلهم ؟ وبختنصر تتبع اليهود حين قتلوا يحيى بن زكريا ، عليهما السلام ؟ وقيل : والنصر خاص بمن أظهره الله تعالى على أمّته ، كنوح وموسى ومحمد عليهم السلام ، لأنا نجد من الأنبياء من قتله قومه ، كيحيى ، ومن لم ينصر عليهم .

وقال السدي : الخبر عام ، وذلك أن نصرة الرسل والأنبياء واقعة ولا بد ، إما في حياة الرسول المنصور ، كنوح وموسى عليهما السلام ، وإما بعد موته .

(140/676)

ألا ترى إلى ما صنع الله تعالى ببني إسرائيل بعد قتلهم يحيى عليه السلام من تسليط بختنصر حتى انتصر ليحيى عليه السلام ؟ وقرأ الجمهور : يقوم بالياء ؛ وابن هرمز ، وإسماعيل ، والمنقري عن أبي عمرو : بتاء التأنيث .

الجماعة والأشهاد ، جمع شهيد ، كشريف وأشراف ، أو جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب ، كما قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد ﴾ وقال : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ والظاهر أنه من الشهادة .

وقيل : من المشاهدة ، بمعنى الحضور .

﴿ يوم لا ينفع ﴾ : بدل من يوم ﴿ يقوم ﴾ .

وقرىء : تنفع بالتاء وبالياء ، وتقدم ذكر الخلاف في ذلك في آخر الروم ، ويحتمل أنهم يعتذرون ولا تقبل معذرتهم ، أو أنهم لا معذرة لهم فتقبل .

﴿ ولهم اللعنة ﴾ والإبعاد من الله .

﴿ ولهم سوء الدار ﴾ : سوء عاقبة الدار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(141/676)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءامَنُواْ ﴾ الخ

كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى لبيان أن ما أصاب الكفرة من العذاب المحكى من فروع حكم كلي تقتضيه الحكمة هو أن شأننا المستمر أننا ننصر رسلنا وأتباعهم ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي وغير ذلك من العقوبات ، ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق للكفرة من صورة الغلبة امتحاناً إذ العبرة إنما هي بالعواقب وغالب الأمر ، وقد تقدم تمام الكلام في ذلك فتذكر ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الاشهاد ﴾ أي ويوم القيامة عبر عنه بذلك للأشعار بكيفية النصرة وأنها تكون عند جمع الأولين والآخرين وشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ وعلى الكفرة بالتكذيب ، فالاشهاد جمع شهيد بمعنى شاهد كإشراف جمع شريف ، وقيل : جمع شاهد بناء على أن فاعلاً قد يجمع على أفعال ، وبعض من لم يجوز يقول : هو جمع شهد بالسكون اسم جمع لشاهد كما قالوا في صحب بالسكون اسم جمع لصاحب ، وفسر بعضهم ﴿ الاشهاد ﴾ بالجوارح وليس بذاك ، وهو عليهما من الشهادة ، وقيل : هو من المشاهدة بمعنى الحضور .

وفي "الحواشي الخفاجية" أن النصرة في الآخرة لا تتخلف أصلاً بخلافها في الدنيا فإن الحرب فيها سجال وإن كانت العاقبة للمتقين ولذا دخلت ﴿ فِى ﴾ على ﴿ الحياة ﴾ دون قرينه لأن الظرف المجرور بفي لا يستوعب كالمنصوب على الظرفية كما ذكره الأصوليون

انتهى ، وفيه بحث .

وقرأ ابن هرمز .

وإسماعيل وهي رواية عن أبي عمرو ﴿ تَقُومُ ﴾ بتاء التأنيث على معنى جماعة الأشهاد .

(142/676)

﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ﴾ و ﴿ لا ﴾ قيل : تحتمل أن تكون لنفي النفع فقط على معنى أنهم يعتذرون ولا ينفعهم معذرتهم لبطلانها وتحتمل أن تكون لنفي النفع والمعذرة على معنى لا تقع معذرة لتنفع ، وفي "الكشاف" يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة ولكنها لا تنفع لأنها باطلة وأنهم لو جاءوا بمعذرة لم تكن مقبولة لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 36] وأراد على ما في "الكشف" أن عدم النفع إما لأمر راجع إلى المعذرة الكائنة وهو بطلانها ، وإما لأمر راجع إلى من يقبل العذر ولا نظر فيه إلى وقوع العذر ؛ والحاصل أن المقصود بالنفي الصفة ولا نظر فيه إلى الموصوف نفياً أو إثباتاً ، وليس في كلامه إشارة إلى إرادة نفيهما جميعاً فتدبر ، وقرأ غير الكوفيين .

ونافع ﴿ لاَّ تَنفَعُ ﴾ بالتاء الفوقية ، ووجهها ظاهر ، وأما قراءة الياء فلأن المعذرة مصدر وتأنيثه غير حقيقي مع أنه فصل عن الفعل بالمفعول ﴿ وَلَهُمُ اللعنة ﴾ أي البعد من الرحمة .

﴿ وَلَهُمْ سُوء الدار ﴾ هي جهنم وسوءها ما يسوء فيها من العذاب فإضافته لأمية أو هي من إضافة الصفة للموصوف أي الدار السوأى .

ولا يخفى ما في الجملتين من إهانتهم والتهكم بهم .

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الهدى ﴾ ما يهتدي به من المعجزات والصحف والشرائع فهو مصدر تجوز به عما ذكر أو جعل عين الهدى مبالغة فيه .

(143/676)

﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِى إسرائيل الكتاب ﴾ تركنا عليهم بعد وفاته عليه السلام من ذلك التوراة فالإيراث مجاز مرسل عن الترك أو هو استعارة تبعية له ، ويجوز أن يكون المعنى جعلنا بني إسرائيل آخذين الكتاب عنه عليه السلام بلا كسب فيشمل من في حياته عليه السلام كما يقال : العلماء ورثة الأنبياء ، وهو وجه إلا أن اعتبار بعد الموت أوفق في الإيراث والعلاقة عليه أتم ، وإرادة التوراة من الكتاب هو الظاهر ، وجوز أن يكون المراد به جنس ما أنزل على أنبيائهم فيشمل التوراة والزبور والإنجيل .

﴿ هُدًى وذكرى ﴾ هداية وتذكرة أي لأجلهما أو هادياً ومذكراً فهما مصدران في موضع الحال ﴿ لأوْلِى الألباب ﴾ لذوي العقول السليمة الخالصة من شوائب الوهم ، وخصوا لأنهم المنتفعون به .

(144/676)

﴿ فاصبر ﴾ أي إذا عرفت ما قصصناه عليك للتأسي فاصبر على ما نالك من أذية المشركين ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ إياك والمؤمنين بالنصر المشار إليه بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءامَنُواْ ﴾ [غافر : 51] أو جميع مواعيده تعالى ويدخل فيه وعده سبحانه بالنصر دخولاً أولياً ﴿ حَقّ ﴾ لا يخلفه سبحانه أصلاً فلا بد من وقوع نصره جل شأنه لك وللمؤمنين ، واستشهد بحال موسى ومن معه وفرعون ومن تبعه ﴿ واستغفر لِذَنبِكَ ﴾ أقبل على أمر الدين وتلاف ما ربما يفرط مما يعد بالنسبة إليك ذنباً وإن لم يكنه ، ولعل ذلك هو الاهتمام بأمر العدا بالاستغفار فإن الله تعالى كافيك في النصر وإظهار الأمر ، وقيل : ﴿ لِذَنبِكِ ﴾ لذنب أمتك في حقك ، قيل : فإضافة المصدر للمفعول ﴿ وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ بالعشى والابكار ﴾ أي ودم على التسبيح والتحميد لربك على أنه عبر بالطرفين وأريد جميع الأوقات ، وجوز أن يراد خصوص الوقتين ، والمراد بالتسبيح معناه

الحقيقي كما في الوجه الأول أو الصلاة ، قال قتادة : أريد صلاة الغداة وصلاة العصر ، وعن الحسن أريد ركعتان بكرة وركعتان عشياً ، قيل : لأن الواجب بمكة كان ذلك ، وقد قدمنا إن الحس لا يقول بفرضية الصلوات الخمس بمكة فقيل : كان يقول بفرضية ركعتين بكرة وركعتين عشياً .

وقيل : إنه يقول كان الواجب ركعتين في أي وقت اتفق ، والكل مخالف للصريح المشهور ، وجوز على إرادة الدوام أن يراد بالتسبيح الصلاة ويراد بذلك الصلوات الخمس ، وحكى ذلك في "البحر" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(145/676)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) ﴾

كرّر ذلك الرجل المؤمن دعاءهم إلى الله ، وصرّح بإيمانه ، ولم يسلك المسالك المتقدّمة من إيهامه لهم أنه منهم ، وأنه إنما تصدّى التذكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى كما يقوله الرجل المحبّ لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه ، فقال :

﴿ وياقوم مَا لِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النجاة وَتَدْعُونَنِى إِلَى النار ﴾ أي : أخبروني عنكم كيف هذه الحال : أدعوكم إلى النجاة من النار ، ودخول الجنة بالإيمان بالله ، وإجابة رسله ، وتدعونني إلى النار بما تريدونه مني من الشرك .

قيل : معنى ﴿ مَا لِى أَدْعُوكُمْ ﴾ : ما لكم أدعوكم ؟ كما تقول : ما لي أراك حزيناً ، أي : ما لك .

ثم فسر الدعوتين ، فقال : ﴿ تَدْعُونَنِى لأَكْفُرَ بالله وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ﴾ ، فقوله : تدعونني بدل من تدعونني الأولى ، أو بيان لها ﴿ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي : ما لا علم لي بكونه شريكاً لله ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العزيز الغفار ﴾ أي : إلى العزيز في انتقامه ممن كفر ﴿ الغفار ﴾ لذنب من آمن به .

﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ قد تقدّم تفسير هذا في سورة هود ، وجرم فعل ماض بمعنى : حقّ ، ولا الداخلة عليه لنفي ما ادّعوه ، وردّ ما زعموه ، وفاعل هذا الفعل هو : قوله : ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدنيا وَلاَ فِى الأخرة ﴾ أي : حقّ ، ووجب بطلان دعوته .

قال الزجاج : معناه : ليس له استجابة دعوة تنفع .

وقيل : ليس له دعوة توجب له الألوهية في الدنيا ، ولا في الآخرة .

وقال الكلبي : ليس له شفاعة ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ ﴾ أي : مرجعنا ، ومصيرنا إليه بالموت أوّلاً ، وبالبعث آخراً ، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير ، وشرّ ﴿ وَأَنَّ المسرفين هُمْ أصحاب النار ﴾ أي : المستكثرين من معاصي الله .

قال قتادة ، وابن سيرين : يعني : المشركين .

وقال مجاهد ، والشعبي : هم السفهاء السفاكون للدّماء بغير حقها .

وقال عكرمة : الجبارون ، والمتكبرون .

وقيل : هم الذين تعدّوا حدود الله ، "وأن" في الموضعين عطف على "أن" في قوله : ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ﴾ ، والمعنى : وحقّ أن مردّنا إلى الله ، وحقّ أن المسرفين إلخ ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ إذا نزل بكم العذاب ، وتعلمون أني قد بالغت في نصحكم ، وتذكيركم ، وفي هذا الإبهام من التخويف ، والتهديد ما لا يخفى ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللهِ ﴾ أي : أتوكل عليه ، وأسلم أمري إليه .

قيل : إنه قال هذا لما أرادوا الإيقاع به .

قال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل ، فلم يقدروا عليه .

وقيل : القائل هو : موسى ، والأوّل أولى .

﴿ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ أي : وقاه الله ما أرادوا به من المكر السيّىء ، وما

أرادوه به من الشرّ .

قال قتادة : نجاه الله مع بني إسرائيل ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العذاب ﴾ أي : أحاط بهم ، ونزل عليهم سوء العذاب .

قال الكسائي : يقال : حاق يحيق حيقاً ، وحيوقاً : إذا نزل ، ولزم .

قال الكلبي : غرقوا في البحر ، ودخلوا النار ، والمراد بآل فرعون : فرعون ، وقومه ، وترك التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره لكونه أولى بذلك منهم ، أو المراد بآل فرعون فرعون نفسه .

والأوّل أولى ؛ لأنهم قد عذبوا في الدنيا جميعاً بالغرق ، وسيعذبون في الآخرة بالنار ، ثم بيّن سبحانه ما أجمله من سوء العذاب ، فقال : ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ ، فارتفاع النار على أنها بدل من سوء العذاب .

(147/676)

وقيل : على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ ، وخبره يعرضون ، والأوّل أولى ، ورجحه الزجاج ، وعلى الوجهين الأخيرين تكون الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر .

وقرىء بالنصب على تقدير فعل يفسره يعرضون من حيث المعنى ، أي : يصلون النار

يعرضون عليها ، أو على الاختصاص ، وأجاز الفرّاء الخفض على البدل من العذاب .

وذهب الجمهور أن هذا العرض هو في البرزخ .

وقيل : هو في الآخرة .

قال الفرّاء : ويكون في الآية تقديم ، وتأخير ، أي : أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب النار يعرضون عليها غدوًّا ، وعشيا ، ولا ملجىء إلى هذا التكلف ، فإن قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ يدل دلالة واضحة على أن ذلك العرض هو في البرزخ ، وقوله : ﴿ أَدْخِلُوا ﴾ هو بتقدير القول ، أي : يقال للملائكة : أدخلوا آل فرعون ، و ﴿ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ هو : عذاب النار .

قرأ حمزة ، والكسائي ، ونافع ، وحفص : ﴿ أدخلوا ﴾ بفتح الهمزة ، وكسر الخاء ، وهو على تقدير القول كما ذكر .

وقرأ الباقون : (ادخلوا) بهمزة وصل من دخل يدخل أمراً لآل فرعون بالدخول بتقدير حرف النداء ، أي : ادخلوا يا آل فرعون أشدّ العذاب .

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ الظرف منصوب بإضمار اذكر .

والمعنى : اذكر لقومك وقت تخاصمهم في النار ، ثم بيّن سبحانه هذا التخاصم ، فقال : ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الانقياد للأنبياء ، والاتباع لهم ، وهم : رؤساء الكفر ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ جمع لتابع ، كخدم ، وخادم ، أو مصدر واقع موقع اسم

الفاعل ، أي : تابعين ، أو على حذف مضاف ، أي : ذوي تبع .

قال البصريون : التبع يكون واحداً ، ويكون جمعاً .

(148/676)

وقال الكوفيون : هو جمع لا واحد له ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النار ﴾ أي : هل تدفعون عنا نصيباً منها ، أو تحملونه معنا ، وانتصاب ﴿ نصيباً ﴾ بفعل مقدّر يدل عليه مغنون ، أي : هل تدفعون عنا نصيباً ، أو تمنعون على تضمينه معنى حاملين ، أي : هل أنتم حاملون معنا نصيباً ، أو على المصدرية .

﴿ قَالَ الذين استكبروا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ هذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والمعنى : إنا نحن ، وأنتم جميعاً في جهنم ، فكيف تغني عنكم .

قرأ الجمهور : ﴿ كلّ ﴾ بالرّفع على الابتداء ، وخبره : ﴿ فِيهَا ﴾ والجملة خبر إن ، قاله الأخفش .

وقرأ ابن السميفع ، وعيسى بن عمر : (كلا) بالنصب .

قال الكسائي ، والفراء على التأكيد لاسم إن بمعنى : كلنا ، وتنوينه عوض عن المضاف إليه .

وقيل : على الحال ، ورجحه ابن مالك ﴿ إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العباد ﴾ أي : قضى بينهم بأن فريقاً في الجنة ، وفريقاً في السعير .

﴿ وَقَالَ الذين فِى النار ﴾ من الأمم الكافرة ، مستكبرهم ، وضعيفهم ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ جمع خازن ، وهو القوّام بتعذيب أهل النار ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ العذاب ﴾ يوماً ظرف ؛ ليخفف ، ومفعول يخفف محذوف ، أي : يخفف عنا شيئاً من العذاب مقدار يوم ، أو في يوم ، وجملة ﴿ قَالُواْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بالبينات ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والاستفهام للتوبيخ ، والتقريع ﴿ قَالُواْ بلى ﴾ أي : أتونا بها ، فكذبناهم ، ولم نؤمن بهم ، ولا بما جاءوا به من الحجج الواضحة ، فلما اعترفوا ﴿ قَالُواْ ﴾ أي : قال لهم الملائكة الذين هم : خزنة جهنم ﴿ فادعوا ﴾ أي : إذا كان الأمر كذلك ، فادعوا أنتم ، فإنا لا ندعو لمن كفر بالله ، وكذّب رسله بعد مجيئهم بالحجج الواضحة .

(149/676)

ثم أخبروهم : بأن دعاءهم لا يفيد شيئاً ، فقالوا : ﴿ وَمَا دُعَاء الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ أي : في ضياع ، وبطلان ، وخسار ، وتبار ، وجملة : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءامَنُواْ ﴾ مستأنفة من جهته سبحانه ، أي : نجعلهم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم ،

والموصول في محل نصب عطفاً على رسلنا ، أي : لننصر رسلنا ، وننصر الذين آمنوا معهم ﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ بما عوّدهم الله من الانتقام منهم بالقتل ، والسلب ، والأسر ، والقهر ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ﴾ ، وهو : يوم القيامة .

قال زيد بن أسلم : الأشهاد هم : الملائكة ، والنبيون .

وقال مجاهد ، والسدّي : الأشهاد الملائكة تشهد للأنبياء بالإبلاغ ، وعلى الأمم بالتكذيب .

قال الزجاج : الأشهاد جمع شاهد مثل صاحب ، وأصحاب .

قال النحاس : ليس باب فاعل أن يجمع على أفعال ، ولا يقاس عليه ، ولكن ما جاء منه مسموعاً أدّى على ما يسمع ، فهو على هذا جمع شهيد ، مثل شريف ، وأشراف ، ومعنى نصرهم يوم يقوم الأشهاد : أن الله يجازيهم بأعمالهم ، فيدخلهم الجنة ، ويكرمهم بكراماته ، ويجازي الكفار بأعمالهم ، فيلعنهم ، ويدخلهم النار ، وهو معنى قوله : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللعنة ﴾ أي : البعد عن الرّحمة ﴿ وَلَهُمْ سُوء الدار ﴾ أي : النار ، ويوم بدل من يوم يقوم الأشهاد ، وإنما لم تنفعهم المعذرة ؛ لأنها معذرة باطلة ، وتعلة داحضة ، وشبهة زائغة .

قرأ الجمهور : (تنفع) بالفوقية .

وقرأ نافع ، والكوفيون بالتحتية ، والكل جائز في اللغة .

وقد أخرج البخاريّ في تاريخه ، وابن المنذر عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَأَنَّ المسرفين هُمْ أصحاب النار ﴾ قال : السفاكين للدّماء بغير حقها .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(150/676)

" إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة ، والعشيّ ، إن كان من أهل الجنة ، فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فمن أهل النار ، يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة " زاد ابن مردويه : "ثم قرأ ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ " .

وأخرج البزار ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما أحسن محسن مسلم ، أو كافر إلا أثابه الله " قلنا : يا رسول الله ما إثابة الكافر ؟ قال : " المال ، والولد ، والصحة ، وأشباه ذلك " قلنا : وما إثابته في الآخرة ؟ قال : " عذاباً دون العذاب " وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أدخلوا آل فرعون العذاب ﴾ " .

وأخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن أبي الدنيا ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي

في الشعب عن أبي الدرداء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من ردّ عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه نار جهنم يوم القيامة ، ثم تلا ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءامَنُواْ ﴾ " وأخرج ابن مردويه من حديث أبي هريرة مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(151/676)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) ﴾

كلام مستأنف وهو استخلاص للعبرة من القصص الماضية مسوق لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ووعده بحسن العاقبة ، وتسلية المؤمنين ووعدهم بالنصر وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة .

وذلك أن الكلام من ابتداء السورة كان بذكر مجادلة المشركين في القرآن بقوله تعالى : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ [غافر : 4] وأوما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأن شِيَعهم آيلة إلى خسار بقوله : ﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ [غافر : 4] ، وامتد الكلام في الرد على المجادلين وتمثيل حالهم بحال أمثالهم من الأمم التي آل أمرها إلى خيبة

واضمحلال في الدنيا وإلى عذاب دائم في الآخرة ولما استوفى الغرضُ مقتضاه من اطناب البيان بَيّن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عَقِبَه أنه ينصر رسله وَالذين آمنوا في الدنيا كما دل عليه قوله في آخر الكلام ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ﴾ [غافر : 77] .

وقد عُلم من فعل النصر أن هنالك فريقاً منصوراً عليهم الرسلُ والمؤمنون في الدنيا والآخرة ، ومن المتعين أنهم الفريقُ المعاند للرسل وللمُؤمنين ، فنصر الرسل والمؤمنين عليهم في الدنيا بإظهارهم عليهم وإبادتهم ، وفي الآخرة بنعيم الجنة لهم وعذاب النار لأعدائهم .

والتعبير بالمضارع في قوله : لننصر ﴾ لما فيه من استحضار حالات النصر العجيبة التي وُصفَ بعضها في هذه السورة ووصف بعضٌ آخر في سُور أخرى تقدم نزولها ، وإلا فإن نصر الرسل الذين سبقوا محمداً صلى الله عليه وسلم قد مضى ونصْرُ محمد صلى الله عليه وسلم مترقّب غير حاصل حين نزول الآية .

وتأكيد الخبر بـ (إنَّ) وبجَعْل المسند فعلياً في قوله : ﴿ لننصر ﴾ مراعًى فيه حال المعرَّض بهم بأن الله ينصر رسله عليهم وهم المشركون لأنهم كانوا يكذبون بذلك .

وهذا وعْد للمؤمنين بأن الله ناصرهم على من ظلمهم في الحياة الدنيا بأن يوقع الظالم في سوء عاقبة أو بأن يسلط عليه من ينتقم منه بنحوٍ أو أشدّ مما ظلَم به مؤمناً .

والأشهاد : جمع شَاهد .

والقيام : الوقوف في الموقف .

والأشهاد : الرسل ، والملائكة الحفَظةُ والمؤمنون من هذه الأمة ، كما أشار إليه قوله : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : 143] ، وذلك اليوم هو يوم الحشر ، وشهادة الرسل على الذين كفروا بهم من جملة نصرهم عليهم وكذلك شهادة المؤمنين .

و﴿ يومَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُم ﴾ بدل من ﴿ يوم يقوم الأشهاد ﴾ وهو منصوب على البدلية من الظرف .

والمراد بالظالمين : المشركون .

والمعذرة اسم مَصْدر اعتَذر ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا معذرة إلى ربكم ﴾ في سورة [الأعراف : 164] .

وظاهرُ إضافة المعذرة إلى ضميرهم أنهم تصدر منهم يومئذٍ معذرة يعتذرون بها عن الأسباب التي أوجبت لهم العذاب مثل قولهم : ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ [الأعراف : 38] وهذا لا ينافي قوله تعالى : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات : 36] الذي هو في انتفاء الاعتذار من أصله لأن ذلك الاعتذار هو الاعتذار المأذون فيه ، وقد تقدم

ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فيومئذٍ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ في سورة [الروم : 57] .

(وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿ لا ينفع ﴾ بالياء التحتية لأن الفاعل وهو "معذرة" غير حقيقي التأنيث وللفصل بين الفعل وفاعله بالمفعول .

وقرأ الباقون بالتاء الفوقية على اعتبار التأنيث اللفظي .

و ﴿ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ عطف على جملة ﴿ لا يَنفَعُ الظالمين معذِرَتُهُم ﴾ أي ويوم لهم اللعنة .

واللعنة : البعد والطرد ، أي من رحمة الله ، ﴿ ولَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ هي جهنم .

وتقديم (لهم) في هاتين الجملتين للاهتمام بالانتقام منهم .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53)

(153/676)

هذا من أوضح مُثُل نصر الله رسله والذين آمنوا بهم وهو أشبه الأمثال بالنصر الذي قدره الله تعالى للنبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فإن نصر موسى على قوم فرعون كوّن الله به أمةً عظيمة لم تكن يؤبه بها وأوتيتْ شريعة عظيمة ومُلكاً عظيماً ، وكذلك كان نصر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وكان أعظمَ من ذلك وأكملَ وأشرفَ .

فجملة : ﴿ ولقد ءاتينا موسى الهدى ﴾ الخ معترضة بين ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر : 51] وبين التفريع عليه في قوله : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ﴾ [غافر : 55] ، وأيّ نصر أعظم من الخلاص من العبودية والقِلة والتبعِ لأمة أخرى في أحكام تلائم أحوال الأمة التابعة ، إلى مصير الأمة مالكة أمر نفسها ذات شريعة ملائمة لأحوالها ومصالحها وسيادة على أمم أخرى ، وذلك مَثَل المسلمين مع النبي صلى الله عليه وسلم وبعدَه وهو إيماء إلى الوعد بأن القرآن الذي كذَّب به المشركون باق موروث في الأمة الإِسلامية .

والهُدى الذي أوتيه موسى هو ما أوحي إليه من الأمر بالدعوة إلى الدين الحق ، أي الرسالة وما أنزل إليه من الشريعة وهي المراد بالكتاب ، أي التوراة ، وهو الذي أورثه الله بني إسرائيل ، أي جعله باقياً فيهم بعد موسى عليه السلام فهم ورثوه عن موسى ، أي أخذوه منه في حياته وأبقاه الله لهم بعد وفاته ، فإطلاق الإِيراث استعارة .

وفي ذلك إيذان بأن الكتاب من جملة الهدى الذي أوتيه موسى ، قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ [المائدة : 44] ، ففي الكلام إيجاز حذف تقديره : ولقد آتينا موسى الهدى والكتابَ وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ، فإن موسى أُوتي من الهدى ما لم يرثه بنو إسرائيل وهو الرسالة وأوتي من الهدى ما أُورثه بنو إسرائيل وهو الشريعة التي في التوراة .

و ﴿ هُدىً ﴾ و ﴿ ذِكْرَى ﴾ حالان من ﴿ الكتاب ، ﴾ أي هدى لبني إسرائيل وذكرى لهم ، ففيه علم ما لم يعلمه المتعلمون ، وفيه ذكرى لما علمه أهل العلم منهم ، وتشمل الذكرى استنباط الأحكام من نصوص الكتاب وهو الذي يختص بالعلماء منهم من أنبيائهم وقضاتهم وأحبارهم ، فيكون ﴿ لأُوْلِي الألباب ﴾ متعلقاً بـ ﴿ ذكرى ﴾ .

وأولو الألباب : أولو العقول الراجحة القادرة على الاستنباط .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (55)

تفريع على قوله : ﴿ إنَّا لَنَنصُر رُسُلنا ﴾ [غافر : 51] أي فاعلم أنّا ناصروك والذين آمنوا واصبر على ما تلاقيه من قومك ولا تهن .

وجملةُ : ﴿ إن وعد الله حق ﴾ تعليل للأمر بالصبر .

و ﴿ إنّ للاهتمام بالخبر وهي في مثل هذا المقام تغني غناء فاء التعليل فكأنه قيل : فوعد الله حق ويفاد بأن التأكيد الذي هو للاهتمام والتحقيق .

ووعد الله هو وعد رسوله بالنصر في الآية السابقة وفي غير ما آية .

والمعنى لا تستبطىء النصر فإنه واقع ، وذلك ما نصر به النبي في أيامه على المشركين يوم بدر ويوم الفتح ويوم حنين وفي أيام الغزوات الأخرى .

وما عرض من الهزيمة يوم أُحُد كان امتحاناً وتنبيهاً على سوء مغبة عدم الحفاظ على

وصية الرسول أن لا يبرحوا من مكانهم ثم كانت العاقبة للمؤمنين .

وعُطف على الأمر بالصبر الأمرُ بالاستغفار والتسبيح فكانَا داخلين في سياق التفريع على الوعد بالنصر رمزٌ إلى تحقيق الوعد لأنه أَمَرَ عقبه بما هو من آثار الشكر كنايةً عن كون نعمة النصر حاصلة لا محالة ، وهذه كناية رمزية .

(155/676)

والأمر بالاستغفار أمر بأن يطلب من الله تعالى المغفرة التي اقتضتها النبوءة ، أي اسأل الله دوام العصمة لتدوم المغفرة ، وهذا مقام التخلية عن الأكدار النفسية ، وفيه تعريض بأن أمته مطلوبون بذلك بالأحرى كقوله : ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركتَ ليحبطن عملك ﴾ [الزمر : 65] وأيضاً فالنبي صلى الله عليه وسلم مأمور بالاستغفار تعبداً وتأدباً .

وأمر بتسبيح الله تعالى وتنزيهه بالعشي والإِبكار ، أي الأوقات كلها فاقتصر على طرفي أوقات العمل .

والعشيّ : آخر النهار إلى ابتداء ظلمة الليل ، ولذلك سمي طعام الليل عشاء ، وسميت الصلاة الأخيرة بالليل عشاء .

والإِبكار : اسم لبُكرة النهار كالإِصباح اسم للصباح ، والبكرة أول النهار ، وتقدمت في قوله : ﴿ أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾ في سورة [مريم : 11] .

وتقدم العشيّ في قوله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ في سورة [الأنعام : 52] .

وهذا مقام التحَلِّي بالكمالات النفسية وبذلك يتم الشكر ظاهراً وباطناً .

وجُعل الأمران معطوفين على الأمر بالصبر لأن الصبر هنا لانتظار النصر الموعود ، ولذلك لم يؤمر بالصبر لَمَّا حصَل النصر في قوله : ﴿ إذا جاء نَصْرُ الله والفَتْحُ ورأَيتَ النَّاسَ يَدْخُلونَ في دِين الله أفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر : 31] فإن ذلك مقام محض الشكر دون الصبر .

وقد أخبر الله نبيئه صلى الله عليه وسلم بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كما في أول سورة الفتح ، فتعين أن أمره بالاستغفار في سورة غافر قبل أن يخبره بذلك ، لطلب دوام المغفرة ، وكان أمره به في سورة النصر بعدَ أن أخبره بغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، للارشاد إلى شكر نعمة النصر ، وقد قال بعض الصحابة للنبيء صلى الله عليه وسلم في شأن عبادته : إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : "أفلا أكون عبداً شكوراً" .

وكان يُكثر أن يقول في سجوده "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي" .

بعد نزول سورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ [النصر : 1] قالت عائشة رضي الله عنها يتأول القرآن .

وبحكم السياق تعلم أن الآية لا علاقة لها بفرض الصلاة ولا بأوقاتها وإنما هي على نحو قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ في سورة [النصر : 3] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(157/676)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

أخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾ قال : من واق يقيهم ، ولا ينفعهم .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا . . . ﴾ . قال : هذا بعد القتل الأول ، ولفظ عبد بن حميد هذا قتل غير القتل الأوّل الذي كان .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى ﴾ قال : أنظر من يمنعه مني .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ قال : أن يقتلوا أبناءكم ويستحيوا نساءكم إذا ظهروا عليكم كما كنتم تفعلون بهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم ﴾ أي أمركم الذي أنتم عليه ﴿ أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ والفساد عنده أن يعمل بطاعة الله ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ قال : المشرك أسرف على نفسه بالشرك .

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره ، وغير امرأة فرعون ، وغير المؤمن الذي أنذر موسى عليه السلام ؛ الذي قال : " أن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك " قال ابن المنذر أخبرت ان اسمه حزقيل .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي إسحاق رضي الله عنه قال : كان اسم الرجل الذي آمن من آل فرعون حبيب .

(158/676)

وأخرج البخاري وابن المنذر وابن مردويه من طريق عروة رضي الله عنه قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قال ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة والحكيم الترمذي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : " ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً كان أشد من أن طاف بالبيت ضحى فلقوه حين فرغ ، فأخذوا بمجامع ردائه وقالوا : أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا ؟ قال : أنا ذاك . فقام أبو بكر رضي الله عنه فالتزمه من ورائه ، ثم قال

﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ رافعاً صوته بذلك وعيناه يسحان حتى أرسلوه " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشي عليه . فقام أبو بكر رضي الله عنه ، فجعل ينادي ويلكم ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ قالوا : من هذا ؟ قال : هذا ابن أبي قحافة .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن مردويه من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، نحوه .

(159/676)

وأخرج البزار وأبو نعيم في فضائل الصحابة عن علي رضي الله عنه أنه قال : أيها الناس أخبروني بأشجع الناس ؟ قالوا : أنت . قال : لا . قالوا : فمن ؟ قال : أبو بكر رضي الله عنه . لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذته قريش . هذا يحثه ، وهذا يبلبله ، وهم يقولون : أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً قال : فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر رضي الله عنه ، يضرب هذا ، ويجاهد هذا ، وهو يقول ﴿ ويلكم ﴾ أتقتلون رجلاً أن

يقول ربي الله ﴾ ثم رفع علي رضي عنه بردة كانت عليه ، فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : أنشدكم بالله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر رضي الله عنه خير من مؤمن آل فرعون ؟ ذاك رجل يكتم إيمانه ، وهذا رجل أعلن إيمانه .

يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ مثل دأب ﴾ مثل حال .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ مثل دأب قوم نوح ﴾ قال : هم الأحزاب ﴿ قوم نوح وعادٍ وثمود ﴾ .

وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32)

(160/676)

أخرج ابن المبارك وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه قال : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها ، فتكون الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الرب ، فينزلون فيحيطون بالأرض ومن بها ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، ثم الخامسة ، ثم السادسة ، ثم السابعة . فصفوا صفاً دون صف ، ثم ينزل الملك الأعلى ليسري جهنم فإذا رآها أهل الأرض هربوا ، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا

سبعة صفوف من الملائكة ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه . فذلك قوله ﴿ يوم التناد ﴾ يعني بتشديد الدال ﴿ يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ﴾ وذلك قوله ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً وجيء يومئذ بجهنم ﴾ [الفجر : 22-23] وقوله ﴿ يا معشر الجن والإِنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ [الرحمن : 33] وقوله ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها ﴾ [الحاقة : 17] يعني ما تشقق فيها . فبينما هم كذلك إذ سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ يوم التناد ﴾ قال : ينادى كل قوم بأعمالهم . فينادي أهل النار أهل الجنة ، وأهل الجنة أهل النار ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ إلى النار ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ أي من ناصر .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ قال : ينادي أهل الجنة أهل النار ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ﴾ [الأعراف : 44] قال : وينادي أهل النار أهل الجنة ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾ [الأعراف : 50] .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ قال : قادرين غير معجزين .

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ قال : رؤيا يوسف عليه السلام .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان ﴾ قال : بغير برهان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما رآه المؤمنون حسناً فهو حسن عند الله ، وما رآه المؤمنون سيئاً فهو سيء عند الله . وكان الأعمش رضي الله عنه يتأول بعده ﴿ كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر ﴾ مضاف لا ينون في قلب .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً ﴾ قال : كان أوّل من بنى بهذا الآجر وطبخه ﴿ لعلي أبلغ الأسباب ﴾ قال : الأبواب ﴿ أسباب ﴾ أي أبواب ﴿ السماوات ، وكذلك زيّن لفرعون سوء عمله وصد

عن السبيل ﴾ قال : فعل ذلك به ﴿ وزين له سوء عمله وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ أي في ضلال وخسار .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ يا هامان ابنِ لي صرحاً ﴾ قال : اَوْقِدْ على الطين حتى يكون الآجُرُّ .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح رضي الله عنهم في قوله ﴿ أسباب السماوات ﴾ قال : طرق السموات .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إلا في تباب ﴾ قال : خسران .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ في تباب ﴾ قال : في خسارة .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ " وصدوا عن السبيل " برفع الصاد .

يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الدنيا جمعة من جمع الآخرة . سبعة آلاف سنة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الحياة الدنيا متاع ، وليس من متاعه شيء خيراً من المرأة الصالحة التي إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك " .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ استقرت الجنة بأهلها ، واستقرت النار بأهلها ﴿ من عمل سيئة ﴾ قال : الشرك ﴿ فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً ﴾ أي خيراً ﴿ من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ لا والله ما هناك مكيال ولا ميزان .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ " فأولئك يدخلون الجنة " بنصب الياء .

وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41)

أخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد عن مجاهد في قوله ﴿ ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة ﴾ قال : إلى الإيمان ! وفي قوله ﴿ لا جرم إنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ﴾ قال : الوثن ليس بشيء ﴿ وإن المسرفين ﴾ السفاكين الدماء بغير حقها ﴿ هم أصحاب النار ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال ﴿ ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ قال : لا

يضر ولا ينفع ﴿ وإن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ قال : جميع أصحابنا ﴿ إن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فوقاه الله سيئآت ما مكروا ﴾ قال : كان قبطياً من قوم فرعون ، فنجا مع موسى وبني إسرائيل حين نجوا .

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)

(163/676)

أخرج ابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد عن هذيل بن شرحبيل رضي الله عنه قال : إن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تغدو وتروح على النار . فذلك عرضها ، وأرواح الشهداء في أجواف طير خضر ، وأولاد المسلمين الذين لم يبلغوا الحنث في أجواف عصافير من عصافير الجنة ترعى وتسرح .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه أنه سئل عن أرواح الشهداء قال : تجعل أرواحهم في أجواف طير خضر تسرح في الجنة ، وتأوي بالليل إلى قناديل من ذهب معلقة بالعرش فتأوي فيها . قيل فأرواح الكفار ؟ قال : توجد أرواحهم فتجعل في أجواف طير

سود تغدو وتروح على النار . ثم قرأ هذه الآية ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تسرح بهم في الجنة حيث شاءوا ، وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت ، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح . فذلك عرضها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ قال : صباحاً ومساءً . يقال لهم : هذه منازلكم ، فانظروا إليها توبيخاً ونقمة وصغاراً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ قال : ما كانت الدنيا تعرض أرواحهم .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه . أنه كان له صرختان في كل يوم غدوة وعشية . كان يقول أول النهار : ذهب الليل وجاء النهار ، وعرض آل فرعون على النار فلا يسمع أحد صوته إلا استعاذ بالله من النار .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت وابن جرير عن الأوزاعي رضي الله عنه ؛ أنه سأله رجل فقال : يا أبا عمرو إنا نرى طيراً أسود تخرج من البحر فوجاً فوجاً لا يعلم عددها إلا الله تعالى فإذا كان العشاء عاد مثلها بيضا ؟ ! قال : وفطنتم لذلك ؟ قالوا : نعم . قال : تلك في حواصلها أرواح آل فرعون ﴿ يعرضون على النار غدواً وعشياً ﴾ فترجع وكورها وقد أحرقت رياشها وصارت سوداء ، فينبت عليها ريش أبيض وتتناثر السود ، ثم تعرض على النار ، ثم ترجع إلى وكورها ، فذلك دأبهم في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده من الغداة والعشي . إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار . يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة . زاد ابن مردويه ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ " .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما أحسن محسن مسلم أو كافر إلا أثابه الله . قلنا يا رسول الله ما إثابة الكافر ؟ قال : المال ، والولد ، والصحة ،

وأشباه ذلك . قلنا : وما إثابته في الآخرة ؟ قال : عذاباً دون العذاب " وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ قراءة مقطوعة الألف .

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51)

(165/676)

أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه نار جهنم . ثم تلا ﴿ إنا لننصر رسلنا . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن مردويه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية رضي الله عنه في قوله ﴿ إنا لننصر رسلنا . . ﴾ الآية . قال : ذلك في الحجة . يفتح الله حجتهم في الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في هذه الآية قال : لم يبعث الله إليهم من ينصرهم ، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا وهم منصورون فيها .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ قال : هم

الملائكة .

وأخرج عبد الرزاق عن قتادة رضي الله عنه ، مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سفيان رضي الله عنه قال : سألت الأعمش عن قوله ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال ﴿ الأشهاد ﴾ ملائكة الله ، وأنبياؤه ، والمؤمنون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال ﴿ الأشهاد ﴾ أربعة : الملائكة الذين يحصون أعمالنا . وقرأ ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ [ق : 21] . والنبيون شهداء على أممهم . وقرأ ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ [النساء : 41] . وأمة محمد صلى الله عليه وسلم شهداء على الأمم . وقرأ ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [الحج : 78] . والأجساد والجلود . وقرأ ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ [فصلت : 21] .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشي والإِبكار ﴾ قال : صل لربك ﴿ بالعشي والإِبكار ﴾ قال : الصلوات المكتوبات .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ بالعشي والإِبكار ﴾ قال : صلاة الفجر والعصر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(167/676)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (21) ﴾

سبق أن أجملنا موضوع هذا الشوط من السورة . وقبل الاستعراض التفصيلي له نلاحظ أن هذه الحلقة من القصة تجيء هنا متمشية بموضوعها مع موضوع السورة ، ومتمشية بطريقة التعبير فيها وأحياناً بعباراتها ذاتها مع طريقة التعبير في السورة كذلك ، وتكرر بعض عباراتها . . وعلى لسان الرجل المؤمن من آل فرعون ترد معان وتعبيرات وردت من قبل في السورة . فهو يذكر فرعون وهامان وقارون بأنهم يتقلبون في البلاد ، ويحذرهم يوماً مثل يوم الأحزاب ، كما يحذرهم يوم القيامة الذي عرضت مشاهده في مطالع السورة كذلك .

ويتحدث عن الذين يجادلون في آيات الله ومقت الله لهم ومقت المؤمنين كما جاء ذلك في الشوط الأول . ثم يعرض السياق مشهدهم في النار أذلاء ضارعين يدعون فلا يستجاب لهم ، كما عرض مشهد أمثالهم من قبل في السورة .

وهكذا وهكذا مما يوحي بأن منطق الإيمان ومنطق المؤمنين واحد ، لأنه يستمد من الحق الواحد . ومما ينسق جو السورة ، ويجعل لها " شخصية " موحدة الملامح . وهي الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن .

﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم . وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فكفروا ، فأخذهم الله ، إنه قوي شديد العقاب ﴾ . .

(168/676)

هذا المعبر بين قصة موسى عليه السلام وموضوع السورة قبلها يذكر المجادلين في آيات الله من مشركي العرب بعبرة التاريخ قبلهم ؛ ويوجههم إلى السير إلى الأرض ، ورؤية مصارع الغابرين ، الذين وقفوا موقفهم . وكانوا أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض . ولكنهم مع هذه القوة

والعمارة كانوا ضعافاً أمام بأس الله . وكانت ذنوبهم تعزلهم عن مصدر القوة الحقيقية ، وتستعدي عليهم قوى الإيمان ومعها قوة الله العزيز القهار : ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم . وما كان لهم من الله من واق ﴾ . . ولا واقي إلا الإيمان والعمل الصالح والوقوف في جبهة الإيمان والحق والصلاح . فأما التكذيب بالرسل وبالبينات فنهايته إلى الدمار والنكال :

﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فكفروا ، فأخذهم الله ، إنه قوي شديد العقاب ﴾ . .

وبعد هذه الإشارة الكلية المجملة يبدأ في عرض نموذج من نماذج الذين كانوا من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض . فأخذهم الله بذنوبهم . وهم فرعون وقارون وهامان . ومن معهم من المتجبرين الطغاة .

وتنقسم هذه الحلقة من قصة موسى عليه السلام إلى مواقف ومناظر ، تبدأ من موقف عرض الرسالة على فرعون وملئه . وتنتهي هنالك في الآخرة ، وهم يتحاجون في النار . وهي رحلة مديدة . ولكن السياق يختار " لقطات " معينة من هذه الرحلة ، هي التي تؤدي الغرض من هذه الحلقة في هذه السورة بالذات :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وهامان وقارون ، فقالوا : ساحر كذاب ﴾ .

.

هذا هو موقف اللقاء الأول . موسى ومعه آيات الله ، ومعه الهيبة المستمدة من الحق الذي بيده . وفرعون وهامان وقارون . ومعهم باطلهم الزائف وقوتهم الظاهرة ومركزهم الذي يخافون عليه من مواجهة الحق ذي السلطان . . عندئذ لجأوا إلى الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق : ﴿ فقالوا : ساحر كذاب ﴾ . .

(169/676)

ويجمل السياق تفصيل ما حدث بعد هذا الجدال ، ويطوي موقف المباراة مع السحرة ، وإيمانهم بالحق الذي غلب باطلهم ولقف ما يأفكون . ويعرض الموقف الذي تلا هذه الأحداث :

﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا واستحيوا نساءهم ﴾ .

ويعقب عليه قبل أن تكمل الآية :

﴿ وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ . .

إنه منطق الطغيان الغليظ ، كلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان ، وخاف أن يستعلي الحق ، بما فيه من قوة وفصاحة ووضوح ، وهو يخاطب الفطرة فتصغي له وتستجيب .

كما استجاب السحرة الذين جيء بهم ليغلبوا موسى وما معه ، فانقلبوا أول المؤمنين بالحق

في مواجهة فرعون الجبار .

فأما فرعون وهامان وقارون فقالوا :

﴿ اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾ . .

ولقد كان فرعون في أيام مولد موسى قد أصدر مثل هذا الأمر . وهناك أحد احتمالين فيما حدث بعد ذلك الأمر الأول . . الاحتمال الأول أن فرعون الذي أصدر ذلك الأمر كان قد مات وخلفه ابنه أو ولي عهده ، ولم يكن الأمر منفذاً في العهد الجديد ، حتى جاء موسى وواجه الفرعون الجديد ، الذي كان يعرفه وهو ولي للعهد ، ويعرف تربيته في القصر ، ويعرف الأمر الأول بتذبيح الذكور وترك الإناث من بني إسرائيل . فحاشيته تشير إلى هذا الأمر ، وتوحي بتخصيصه بمن آمنوا بموسى ، سواء كانوا من السحرة أو من بني إسرائيل القلائل الذين استجابوا له على خوف من فرعون وملئه . . والاحتمال الثاني : أنه كان فرعون الأول الذي تبنى موسى ، ما يزال على عرشه . وقد تراخى تنفيذ الأمر الأول بعد فترة أو وقف العمل به بعد زوال حدته . فالحاشية تشير بتجديده ، وتخص به الذين آمنوا مع موسى وحدهم للإرهاب والتخويف .

فأما فرعون فكان له فيما يبدو رأي آخر ، أو اقتراح إضافي في أثناء التآمر . ذلك أن يتخلص من موسى نفسه . فيستريح !

﴿ وقال فرعون : ذوروني أقتل موسى ، وليدع ربه ، إني أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ . .

(170/676)

ويبدو من قوله : ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ . . أن رأيه هذا كان يجد ممانعة ومعارضة من ناحية الرأي كأن يقال مثلاً : إن قتل موسى لا ينهي الإشكال . فقد يوحي هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيداً ، والحماسة الشعورية له وللدين الذي جاء به ، وبخاصة بعد إيمان السحرة في مشهد شعبي جامع ، وإعلانهم سبب إيمانهم ، وهم الذين جيء بهم ليبطلوا عمله ويناوئوه .

. وقد يكون بعض مستشاري الملك أحس في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له ، ويبطش بهم . وليس هذا ببعيد ، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة ، ويتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتدون عليه ! ويكون قول فرعون : ﴿ وليدع ربه ﴾ . . رداً على هذا التلويح ! وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون ، كانت تبجحاً واستهتاراً ، لقي جزاءه في نهاية المطاف كما سيجيء .

ولعله من الطريف أن نقف أمام حجة فرعون في قتل موسى :

﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ . .

فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني ، عن موسى رسول الله – عليه السلام –

﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ ؟ ! !

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح ؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل ؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ ؟

إنه منطق واحد . يتكرر كلما التقى الحق والباطل ، والإيمان والكفر . والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان . والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين .

فأما موسى عليه السلام فالتجأ إلى الركن الركين والحصن الحصين ، ولاذ بالجناب الذي يحمي اللائذين ، ويجير المستجيرين :

﴿ وقال موسى : إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ . .

(171/676)

قالها . واطمأن . وسلم أمره إلى المستعلي على كل متكبر ، القاهر لكل متجبر ، القادر على حماية العائذين به من المستكبرين . وأشار إلى وحدانية الله ربه وربهم لم ينسها أو

يتركها أمام التهديد والوعيد . كما أشار إلى عدم الإيمان بيوم الحساب . فما يتكبر متكبر وهو يؤمن بيوم الحساب ، وهو يتصور موقفه يومئذ حاسراً خاشعاً خاضعاً ذليلاً ، مجرداً من كل قوة ، ما له من حميم ولا شفيع يطاع .

هنا انتدب رجل من آل فرعون ، وقع الحق في قلبه ، ولكنه كتم إيمانه . انتدب يدفع عن موسى ، ويحتال لدفع القوم عنه ، ويسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتى ، ويتدسس إلى قلوبهم بالنصيحة ويثير حساسيتها بالتخويف والإقناع :

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذي آمن : يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد .

ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ؛ فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولاً . كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند

الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ . .

إنها جولة ضخمة هذه التي جالها الرجل المؤمن مع المتآمرين من فرعون وملئه . وإنه منطق الفطرة المؤمنة في حذر ومهارة وقوة كذلك .

(172/676)

إنه يبدأ بتفظيع ما هم مقدمون عليه : ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله ﴾ . . فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب ، واقتناع نفس ، تستحق القتل ، ويرد عليها بإزهاق روح ؟ إنها في هذه الصورة فعلة منكرة بشعة ظاهرة القبح والبشاعة .

ثم يخطو بهم خطوة أخرى . فالذي يقول هذه الكلمة البريئة : ﴿ ربي الله ﴾ . . يقولها ومعه حجته ، وفي يده برهانه : ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ . . يشير إلى تلك الآيات التي عرضها موسى عليه السلام ورأوها ، وهم فيما بينهم وبعيداً عن الجماهير يصعب أن يماروا فيها !

ثم يفرض لهم أسوأ الفروض ؛ ويقف معهم موقف المنصف أمام القضية ؛ تمشياً مع أقصى فرض يمكن أن يتخذوه : ﴿ وإن يك كاذباً فعليه كذبه ﴾ . . وهو يحمل تبعة عمله ، ويلقى جزاءه ، ويحتمل جريرته . وليس هذا بمسوغ لهم أن يقتلوه على أية حال !

وهناك الاحتمال الآخر ، وهو أن يكون صادقاً . فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال ، وعدم التعرض لنتائجه : ﴿ وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ . . وإصابتهم ببعض الذي يعدهم هو كذلك أقل احتمال في القضية ، فهو لا يطلب إليهم أكثر منه . وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام .

ثم يهددهم من طرف خفي ، وهو يقول كلاماً ينطبق على موسى كما ينطبق عليهم : ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ . . فإذا كان موسى فإن الله لا يهديه ولا يوفقه ، فدعوه له يلاقي منه جزاءه . واحذروا أن تكونوا أنتم الذين تكذبون على موسى وربه وتسرفون ، فيصيبكم هذا المآل !

وحين يصل بهم إلى فعل الله بمن هو مسرف كذاب ، يهجم عليهم مخوفاً بعقاب الله ، محذراً من بأسه الذي لا ينجيهم منه ما هم فيه من ملك وسلطان ، مذكراً إياهم بهذه النعمة التي تستحق الشكران لا الكفران :

﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض . فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ ﴾ . .

(173/676)

إن الرجل يشعر بما يشعر به القلب المؤمن ، من أن بأس الله أقرب ما يكون لأصحاب الملك والسلطان في الأرض ؛ فهم أحق الناس بأن يحذروه ، وأجدر الناس بأن يحسوه ويتقوه ، وأن يبيتوا منه على وجل ، فهو يتربص بهم في كل لحظة من لحظات الليل والنهار .

ومن ثم يذكرهم بما هم فيه من الملك والسلطان ، وهو يشير إلى هذا المعنى المستقر في حسه البصير . ثم يجمل نفسه فيهم وهو يذكرهم ببأس الله : ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ ﴾ ليشعرهم أن أمرهم يهمه ، فهو واحد منهم ، ينتظر مصيره معهم ؛ وهو إذن ناصح لهم مشفق عليهم ، لعل هذا أن يجعلهم ينظرون إلى تحذيره باهتمام ، ويأخذونه مأخذ البراءة والإخلاص . وهو يحاول أن يشعرهم أن بأس الله إن جاء فلا ناصر منه ولا مجير عليه ، وأنهم إزاءه ضعاف ضعاف .

هنا يأخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة . تأخذه العزة بالإثم . ويرى في النصح الخالص افتياتاً على سلطانه ، ونقصاً من نفوذه ، ومشاركة له في النفوذ والسلطان : ﴿ قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ . .

إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صواباً ، وأعتقده نافعاً . وإنه لهو الصواب والرشد بلا شك ولا جدال ! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب ؟ ! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون ؟ ! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً ؟ وإلا فلم كانوا طغاة ؟ !

ولكن الرجل المؤمن يجد من إيمانه غير هذا ؛ ويجد أن عليه واجباً أن يحذر وينصح ويبدي

من الرأي ما يراه . ويرى من الواجب عليه أن يقف إلى جوار الحق الذي يعتقده كائناً ما كان رأي الطغاة . ثم هو يطرق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تحس وتستيقظ وترتعش وتلين . يطرق قلوبهم بلفتها على مصارع الأحزاب قبلهم . وهي شاهدة ببأس الله في أخذ المكذبين والطغاة :

﴿ وقال الذي آمن : يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم . وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ . .

(174/676)

ولكل حزب كان يوم . ولكن الرجل المؤمن يجمعها في يوم واحد : ﴿ مثل يوم الأحزاب ﴾ فهو اليوم الذي يتجلى فيه بأس الله . وهو يوم واحد في طبيعته على تفرق الأحزاب . . ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ إنما يأخذهم بذنوبهم ، ويصلح من حولهم ومن بعدهم بأخذهم بأيام الله .

ثم يطرق على قلوبهم طرقة أخرى ، وهو يذكرهم بيوم آخر من أيام الله . يوم القيامة . يوم التنادي :

﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم . ومن

يضلل الله فما له من هاد ﴾ . .

وفي ذلك اليوم ينادي الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف . وينادي أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار . وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ، وأصحاب النار أصحاب الجنة . . فالتنادي واقع في صور شتى . وتسميته ﴿ يوم التناد ﴾ تلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك ، وتصور يوم زحام وخصام .

وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن : ﴿ يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ﴾ . . وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم ، أو محاولتهم الفرار . ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار . وصورة الفزع والفرار هي أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين في الأرض ، أصحاب الجاه والسلطان !

﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ . . ولعل فيها إشارة خفية إلى قولة فرعون : ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ . . وتلميحاً بأن الهدى هدى الله . وأن من أضله فلا هادي له . والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال .

وأخيراً يذكرهم بموقفهم من يوسف ، ومن ذريته كان موسى عليهما السلام وكيف وقفوا موقف الشك من رسالته وما جاءهم به من الآيات ، فلا يكرروا الموقف من موسى ، وهو يصدق ما جاءهم به يوسف ، فكانوا منه في شك وارتياب . ويكذب ما جزموا به من أن

الله لن يبعث من بعده رسولاً ، وها هو ذا موسى يجيء على فترة من يوسف ويكذب هذا المقال :

(175/676)

﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولاً . كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم . كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا . كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ . .

وهذه هي المرة الوحيدة في القرآن التي يشار فيها إلى رسالة يوسف عليه السلام للقوم في مصر . وقد عرفنا من سورة يوسف ، أنه كان قد وصل إلى أن يكون على خزائن الأرض ، المتصرف فيها . وأنه أصبح " عزيز مصر " وهو لقب قد يكون لكبير وزراء مصر . وفي السورة كذلك ما قد يؤخذ منه أنه جلس على عرش مصر وإن لم يكن ذلك مؤكداً وذلك قوله :

﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ وقد يكون العرش الذي رفع عليه أبويه شيئاً آخر غير عرش المملكة

المصرية الفرعونية . وعلى أية حال فقد وصل يوسف إلى مكان الحكم والسلطان . ومن ثم نملك أن نتصور الحالة التي يشير إليها الرجل المؤمن . حالة شكهم فيما جاءهم به يوسف من قبل ، مع مصانعة يوسف صاحب السلطان وعدم الجهر بتكذيبه وهو في هذا المكان !

﴿ حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ . . وكأنما استراحوا لموته ، فراحوا يظهرون ارتياحهم في هذه الصورة ، ورغبتهم عما جاءهم به من التوحيد الخالص ، الذي يبدو مما تكلم به في سجنه مع صاحبي السجن : ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ فزعموا أن لن يجيئهم من بعده رسول ، لأن هذه كانت رغبتهم .

وكثيراً ما يرغب المرء في شيء ثم يصدق تحققه ، لأن تحققه يلبي هذه الرغبة !

والرجل المؤمن يشتد هنا وهو يشير إلى هذا الارتياب والإسراف في التكذيب فيقول :

﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ . .

فينذرهم بإضلال الله الذي ينتظر كل مسرف مرتاب في عقيدته وقد جاءته معها البينات .

ثم يشتد في مواجهتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات الله بغير حجة ولا برهان . وهم يفعلون هذا في أبشع صورة . ويندد بالتكبر والتجبر ، وينذر بطمس الله لقلوب المتكبرين المتجبرين !

﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا . كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ . .

والتعبير على لسان الرجل المؤمن يكاد يكون طبق الأصل من التعبير المباشر في مطالع السورة . المقت للمجادلين في آيات الله بغير برهان ، والإضلال للمتكبرين المتجبرين حتى ما يبقى في قلوبهم موضع للهدى ، ولا منفذ للإدراك .

وعلى الرغم من هذه الجولة الضخمة التي أخذ الرجل المؤمن قلوبهم بها ؛ فقد ظل فرعون في ضلاله ، مصراً على التنكر للحق . ولكنه تظاهر بأنه آخذ في التحقق من دعوى موسى . ويبدو أن منطق الرجل المؤمن وحجته كانت من شدة الوقع بحيث لم يستطع فرعون ومن معه تجاهلها . فاتخذ فرعون لنفسه مهرباً جديداً :

﴿ وقال فرعون : يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب . أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى . وإني لأظنه كاذباً . وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ . .

يا هامان ابن لي بناء عالياً لعلي أبلغ به أسباب السماوات ، لأنظر وأبحث عن إله موسى هناك ﴿ وإني لأظنه كاذباً ﴾ . . هكذا يموه فرعون الطاغية ويحاور ويداور ، كي لا يواجه الحق جهرة ، ولا يعترف بدعوة الوحدانية التي تهز عرشه ، وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه . وبعيد عن الاحتمال أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه . وبعيد أن يكون جاداً في البحث عن إله موسى على هذا النحو المادي الساذج . وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حداً يبعد معه هذا التصور . إنما هو الاستهتار والسخرية من جهة . والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرى . وربما كانت هذه خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن في حديث الرجل المؤمن ! وكل هذه الفروض تدل على إصراره على ضلاله ، وتبجحه في جحوده : ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل ﴾ . . وهو مستحق لأن يصد عن السبيل ، بهذا المراء الذي يميل عن الاستقامة وينحرف عن السبيل .

ويعقب السياق على هذا المكر والكيد بأنه صائر إلى الخيبة والدمار :

﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ . .

وأمام هذه المراوغة ، وهذا الاستهتار ، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة ، بعدما دعا القوم إلى اتباعه في الطريق إلى الله ، وهو طريق الرشاد .

وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة ؛ وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية ؛ وحذرهم عذاب الآخرة ؛ وبين لهم ما في عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان :

(178/676)

﴿ وقال الذي آمن : يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار . تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله . إن الله بصير بالعباد ﴾ . .

إنها الحقائق التي تقررت من قبل في صدر السورة ، يعود الرجل فيقررها في مواجهة فرعون وملئه . إنه يقول في مواجهة فرعون :

﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ . .

وقد كان فرعون منذ لحظات يقول : ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ فهو التحدي

الصريح الواضح بكلمة الحق لا يخشى فيها سلطان فرعون الجبار ، ولا ملأه المتآمرين معه من أمثال هامان وقارون . وزيري فرعون فيما يقال .

ويكشف لهم عن حقيقة الحياة الدنيا : ﴿ إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ . . متاع زائل لا ثبات له ولا دوام . ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ . . فهي الأصل وإليها النظر والاعتبار .

ويقرر لهم قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار :

﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها . ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ . .

فقد اقتضى فضل الله أن تضاعف الحسنات ولا تضاعف السيئات ، رحمة من الله بعباده ، وتقديراً لضعفهم ، وللجواذب والموانع لهم في طريق الخير والاستقامة ، فضاعف لهم الحسنات ، وجعلها كفارة للسيئات . فإذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب ، رزقهم الله فيها بغير حساب .

ويستنكر الرجل المؤمن أن يدعوهم إلى النجاة فيدعونه إلى النار ، فيهتف بهم في استنكار :

﴿ ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ؟ ﴾ . .

وهم لم يدعوه إلى النار . إنما دعوه إلى الشرك . وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار ؟ إنها قريب من قريب . فهو يبدل الدعوة بالدعوة في تعبيره في الآية التالية :

﴿ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم . وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ . .

وشتان بين دعوة ودعوة . إن دعوته لهم واضحة مستقيمة . إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار . يدعوهم إلى إله واحد تشهد آثاره في الوجود بوحدانيته ، وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره .

يدعوهم إليه ليغفر لهم وهو القادر على أن يغفر ، الذي تفضل بالغفران : ﴿ العزيز الغفار ﴾ . . فإلى أي شيء يدعونه ؟ يدعونه للكفر بالله . عن طريق إشراك ما لا علم له به من مدعيات وأوهام وألغاز !

ويقرر من غير شك ولا ريبة أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شيء ، وليس لهم شأن لا في دنيا ولا في آخرة ، وأن المرد لله وحده ، وأن المسرفين المتجاوزين للحد في الادعاء سيكونون أهل النار :

﴿ لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة . وأن مردنا إلى الله . وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ .

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة ؟ وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تلعثم ، بعدما كان يكتم إيمانه ، فأعلن عنه هذا الإعلان ؟ لا يبقى إلا أن يفوض أمره إلى الله . وقد قال كلمة وأراح ضميره ، مهدداً إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى . والأمر كله إلى الله :

﴿ فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ﴾ . .

وينتهي الجدل والحوار . وقد سجل مؤمن آل فرعون كلمته الحق خالدة في ضمير الزمان . ويجمل السياق حلقات القصة بعد هذا . وما كان بين موسى وفرعون وبني إسرائيل . إلى موقف الغرق والنجاة : ويقف ليسجل " لقطات " بعد هذا الموقف الأخير . وبعد الحياة :

﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

﴿ وإذ يتحاجون في النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا : إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد . وقال الذين في النار لخزنة جهنم : ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب . قالوا :

أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى . قالوا : فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ . .

لقد طويت الدنيا ، وعرضت أول صفحة بعدها . فإذا الرجل المؤمن الذي قال كلمة الحق ومضى ، قد وقاه الله سيئات مكر فرعون وملئه ، فلم يصبه من آثارها شيء في الدنيا ، ولا فيما بعدها أيضاً . بينما حاق بآل فرعون سوء العذاب :

﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً . ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

والنص يلهم أن عرضهم على النار غدواً وعشياً ، هو في الفترة من بعد الموت إلى قيام الساعة . وقد يكون هذا هو عذاب القبر . إذ أنه يقول بعد هذا : ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ . . فهو إذن عذاب قبل يوم القيامة . وهو عذاب سيء . عرض على النار في الصباح وفي المساء . إما للتعذيب برؤيتها وتوقع لذعها وحرها وهو عذاب شديد وإما لمزاولتها فعلاً .

فكثيراً ما يستعمل لفظ العرض للمس والمزاولة . وهذه أدهى . . ثم إذا كان يوم القيامة أدخلوا أشد العذاب !

فأما في الآية التالية فقد كانت القيامة فعلاً ، والسياق يلتقط لهم موقفاً في النار ! وهم يتحاجون فيها :

﴿ فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ ﴾ .

إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا . لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً وإمعات ! ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنماً تساق ! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار !

(181/676)

لقد منحهم الله الكرامة . كرامة الإنسانية . وكرامة التبعة الفردية . وكرامة الاختيار والحرية . ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعاً . تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية . لم يقولوا لهم : لا . بل لم يفكروا أن يقولوها . بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال . . ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ . . وما كان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكون شفيعاً لهم عند الله . فهم في النار . ساقهم إليها قادتهم كما كانوا يسوقونهم في الحياة . سوق الشياه ! ثم ها هم أولاء يسألون كبراءهم : ﴿ فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ ﴾ . . كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد ، وأنهم يحمونهم من الفساد ، وأنهم يمنعونهم من الشر والضر وكيد الأعداء !

فأما الذين استكبروا فيضيقون صدراً بالذين استضعفوا ، ويجيبونهم في ضيق وبرم

وملالة . وفي إقرار بعد الاستكبار :

﴿ قال الذين استكبروا : إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ . .

﴿ إنا كل فيها ﴾ . . إنا كل ضعاف لا نجد ناصراً ولا معيناً . إنا كل في هذا الكرب والضيق سواء . فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعاف سواء ؟

﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ . . فلا مجال لمراجعة في الحكم ، ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل . وقد قضي الأمر ، وما من أحد من العباد يخفف شيئاً من حكم الله .

وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، اتجه هؤلاء وهؤلاء لخزنة جهنم في ذلة تعم الجميع ، وفي ضراعة تسوي هؤلاء بهؤلاء :

﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم : ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ . .

إنهم يستشفعون حراس جهنم ، ليدعوا ربهم . في رجاء يكشف عن شدة البلاء : ﴿ ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ . . يوماً . يوماً فقط . يوماً يلقطون فيه أنفاسهم ويستريحون . فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء .

ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة . فهم يعرفون الأصول . ويعرفون سنة الله ، ويعرفون أن الأوان قد فات . وهم لهذا يزيدون المعذبين عذاباً بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب :

﴿ قالوا : أو لم تك تأتيكم بالبينات ؟ . . قالوا : بلى ﴾ .

وفي السؤال وفي جوابه ما يغني عن كل حوار .

وعندئذ نفض الخزنة أيديهم منهم ، وأسلموهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار :

﴿ قالوا : فادعوا ﴾ . .

إن كان الدعاء يغير من حالكم شيئاً ، فتولوا أنتم الدعاء .

وتعقب الآية قبل تمامها على هذا الدعاء :

﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ . .

لا يبلغ . ولا يصل . ولا ينتهي إلى جواب . إنما هو الإهمال والازدراء للكبراء والضعفاء سواء .

عند هذا الموقف الحاسم يجيء التعقيب الأخير على الحلقة كلها ، وعلى ما تقدمها من الإشارة إلى الأحزاب التي تعرضت لبأس الله ، بعد التكذيب والاستكبار .

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار . ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل

الكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب . فاصبر إن وعد الله حق . واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ﴾ . .

هذا التعقيب الجازم ، يناسب ذلك الموقف الحاسم . ولقد اطلعت منه البشرية على مثل من نهاية الحق والباطل . نهايتهما في هذه الأرض ونهايتهما كذلك في الآخرة . ورأت كيف كان مصير فرعون وملئه في الحياة الدنيا ، كما رأوهم يتحاجون في النار ، وينتهون إلى إهمال وصغار . وذلك هو الشأن في كل قضية كما يقرر القرآن :

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ . .

(183/676)

فأما في الآخرة فقد لا يجادل أحد من المؤمنين بالآخرة في هذه النهاية . ولا يجد ما يدعوه إلى المجادلة . وأما النصر في الحياة الدنيا فقد يكون في حاجة إلى جلاء وبيان .

إن وعد الله قاطع جازم : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا . . ﴾ . . بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذباً مطروداً ، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب ، وفيهم من يلقى في الأخدود ، وفيهم من

يستشهد ، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد . . فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ، ويفعل بها الأفاعيل !

ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور . ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير .

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان ، وحيز محدود من المكان . وهي مقاييس بشرية صغيرة . فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان . ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك . وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها . فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها . وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها !

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم ، قريبة الرؤية لأعينهم . ولكن صور النصر شتى .

(184/676)

وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة . . إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها . . أكان في موقف نصر أم في موقف

هزيمة ؟ ما من شك في منطق العقيدة أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار . كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار . هذه صورة وتلك صورة . وهما في الظاهر بعيد من بعيد . فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب ! . . والحسين رضوان الله عليه وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب ، المفجعة من جانب ؟ أكانت هذه نصراً أم هزيمة ؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة . فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً . فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف ، وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه . يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين . من المسلمين . وكثير من غير المسلمين !

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام ، كما نصرها باستشهاده . وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة ، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه ، فتبقى حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد . وربما كانت حافزاً محركاً لخطى التاريخ كله مدى أجيال . .

ما النصر ؟ وما الهزيمة ؟ إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور . ومن القيم . قبل أن نسأل : أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا !

على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة . ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة . لقد انتصر محمد صلى الله عليه وسلم في حياته . لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض . فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعاً . من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة . فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته ، ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة ، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهودة . ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة ، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية . وفق تقدير الله وترتيبه .

وهنالك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك . إن وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا . ولا بد أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها . وحقيقة الإيمان كثيراً ما يتجوز الناس فيها . وهي لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره وأشكاله . وإن هنالك لأشكالاً من الشرك خفية ؛ لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده ، ويتوكل عليه وحده ، ويطمئن إلى قضاء الله فيه ، وقدره عليه ، ويحسن أن الله وحده هو الذي يصرفه فلا خيرة له إلا ما اختار الله .

ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضى والقبول . وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين

يدي اللّه ، ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير .

فسيكل هذا كله للّه . ويلتزم . ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير . . وذلك معنى من معاني النصر . . النصر على الذات والشهوات . وهو النصر الداخلي الذي لا يتم نصر خارجي بدونه بحال من الأحوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3076 . 3087 ﴾

(186/676)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى التذكر والتفكر)

التَّذكُر : تَفعُّل من الذِّكر .

والذِكر : هيئة للنَّفْس ، بها يمكن للإِنسان أَن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة .

والفكرة : قوّة مُطرِّقة للعلم إِلى المعلوم .

والتفكُّر غيره ؛ فإِنذَ تلك القوّة بحسب نظر العقل ، وذلك للإِنسان دون الحيوان .

ولا يقال إِلاَّ فيما يمكن أَن يَحصل له صورة فى القلب .

ولهذا رُوِيَ "تَفَكّروا فى آلاءِ الله ، ولا تفكّروا فى ذاتِ اللهِ" .

إذ كان الله منزّهاً أَن يوصَف بصورة .

قال – تعالى – : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ ، ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

ثمّ اعلم أَنَّ التذكُّر قرين الإنابة .

قال – تعالى – : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ .

والتَّذكُّر والتفكُّر مَنْزلان يُثْمران أَنواع المعارف ، وحقائق الإيمان والإحسان .

فالعارف لا يزال يَعُود تفكُّره على تذكُّره ، وتذكُّره على تفكُّره ، حتى يُفتح قُفْل قلبه بإذن الفتَّاح العليم .

قال الحسن البصرىّ : ما زال أَهل العلم يعودون بالتذكر على التفكُّر ، بالتَّفكُّر على التَّذكُّر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت .

قال الشيخ أَبو عبد الله الأَنصارىّ : والتَّذكُّر فوق التَّفكُّر ؛ لانَّ التفكُّر طلبٌ ، والتَّذكُّر وجودٌ .

يعنى أَنَّ التماسُ الغايات من مبادئها .

وقوله : التذكُّر وجوده لأَنه يكون فيما قد حصل بالتَّفكُّر ، ثمّ غاب عنه بالنِّسيان ، فإذا تذكَّره وجده ، وظفِر به .

واختير له بناءُ التفعّل ؛ لحصوله بعد مُهْلة وتدريج ؛ كالتبصّر ، والتفهُّم .

فمنزلة التذكُّر من التفكُّر منزلةُ حصولِ الشيءِ المطلوب بعد التفتيش عليه .

(187/676)

ولهذا كانت آيات الله المتلوّة والمشهودةُ ذكرى ؛ كما قال فى المتلوّة : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ ، وقال فى القرآن : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وقال فى الآية المشهودة : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ فالتَّبصرة آية البصر ، والتَّذكرة آية القلب .

وفرقٌ بينهما .

وجُعِلا لأَهل الإِنابة ؛ لأَنه إذا أَناب إلى الله أَبصر مواقع الآيات والعِبَر ، فاستدلَّ بها على ما هى آيات له ، فزال عنه الاعتراضُ بالإِنابة ، والعمى بالتبصرة ، والغفلةُ بالتَّذكر ؛ لأَنَّ التبصّرة توجب له حصول صورة المدلول فى القلب ، بعد غفلته عنها .

فترتَّبت المنازل الثلاثة أَحسن ترتيب .

ثمّ إنَّ

كلاًّ منها يمدّ صاحبها ، ويقوّيه ، ويثمره .

وقال – تعالى – فى آياته المشهودة : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُواْ فِي الْبِلاَدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

والنَّاس ثلاثة : رجل قلبه مَيّت ، فذلك الَّذى لا قلب له : فهذا ليست هذه الآية تذكرة فى حقّه .

ورجل حَىّ مستَعِدّ ، لكنَّه غير مستمِع للآيات المتلوّة ، التى تُجزئه عن الآيات المشهودة : إمّا لعدم ورودها ، أَو لوصولها إليه ، ولكن قلبه مشغول عنها بغيره .

فهو غائب القلب ، ليس حاضرا .

فهذا أَيضاً لا يحصل له الذكرى ، مع استعداده ، ووجود قلبه .

(188/676)

والثالث رجل حَىّ القلب ، مستعدّ ، تليت عليه الآيات ، فأَصْغَى بسمعه ، وأَلقى السّمع ، وأَحضر قلبه ، ولم يَشغله بغيره ، فهم ما يسمعه ، فهو شاهد القلب ، مُلْقٍ للسمع .

فهذا القسم هو الَّذى ينتفع بالآيات الملتوّة والمشهودة .

فالأَوّل بمنزلة الأَعمى الَّذى لا يبصر .

والثانى بمنزلة الطَّامح بصرُه إلى غير جهة المنظور إليه .

والثالث بمنزلة المُبصر الذى فتح بصره الطامح لرؤية المقصود ، وأَتبعه بصره ، وقلبه ، على توسُّط من البعد والقرب .

فهذا هو الَّذى يراه .

فإِن قيل : فما موقع (أَو) من قوله – تعالى – : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ قيل : فيها سرّ لطيف .

ولسنا نقول : إِنَّها بمعنى الواو كما يقول ظاهريّة النحاة .

فاعلم أَنَّ الرّجل قد يكون له قلب وقَّاد ، مُلِئَ باستخراج العِبَر ، واستنباط الحِكَم .

فهذا قلبه يُوقعه على التَّذكُّر ، والاعتبار .

فإِذا سمع الآيات كانت له نوراً على نور .

وهؤلاءِ أَكملُ خَلْق الله – تعالى – ، وأَعظمهم إِيماناً ، وبصيرة ؛ حتى كأَنَّ الَّذى أَخبرهم به الرّسولُ قد كان مشاهَداً لهم ، لكن لم يشعروا بتفاصيله ، وأَنواعه .

حتى قيل : إِنَّ الصّدّيق – رضى الله عنه – كان حاله مع النبىّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – كحال رجلين دخلا داراً .

فرأَى أَحدهما تفاصيل ما فيها ، وجزئيّاتها ، والآخر وقع بصرُه على ما فى الدّار ، ولم ير

تفاصيله ولا جزئيّاته ؛ لكنه علم أَنَّ فيها أُموراً عظيمة ، لم يدرِك بصرُه تفاصيلها ، ثم خرجا ، فسأَله عمّا رأَى فى الدّار ، فجعل كلَّما أَخبره بشئٍ صدّقه ، لِمَا عنده من شواهده .

وهذه أَعلى درجات الصّدّيقيّة .

ولا يستبعد أَن يَمُنّ الله تعالى على عبد بمثل هذا الإِيمان ؛ لأَنَّ فضل الله لا يدخل تحت حَصْر ولا حسبان .

فصاحب هذا القلب إِذا سمع الآيات .

وفى قلبه نور من البصيرة ازداد بها نوراً إِلى نوره .

(189/676)

فإِن لم يكن للعبد مثلُ هذا القلب فأَلقى السّمع ، وشهد قلبُه ، ولم يغِبْ ، حصل له التَّذكُّر أَيضاً ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ والوابل والطَّلّ فى جميع الأَعمال ، وآثارها ، وموجباتها .

وأَهل الحبّ سابقون ومقرّبون ، وأَصحاب يمين ، وبينهما من درجات التفصيل ما بينهما ، والله أَعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 319 . 322 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56) لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (58) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الأمر بشغل هذين الوقتين أمراً بشغل غيرهما من باب الأولى ، لأن أول النهار وقت الاشتغال بالأعمال والاهتمام بالابتداء والتمام ، وآخره وقت التهيؤ للراحة والمقيل بالأكل والشرب وما يتبعهما ، وكان ذلك موجباً للاشتغال عن أعداء الدين رأساً ، وكان ذلك أمراً على النفوس شاقاً علله بما يقتضي المداومة على الأعمال والإعراض عنهم لأن خذلانهم أمر قد فرغ منه فقال معللاً للمداومة على الطاعة : ﴿ إن الذين يجادلون ﴾ أي يناصبون بالعداوة لنقل أهل هذا الدين عنه إلى ما هم عليه من الباطل ، ولفت القول إلى

الجلالة الدالة على نهاية العظمة تهويناً لشأنهم فقال : ﴿ في آيات الله ﴾ أي الملك الأعظم الدالة على تمام قدرته اللازم منه قدرته على البعث الذي في تذكره صلاح الدين والدنيا ﴿ بغير سلطان ﴾ أي أمر مسلط ودليل مسلك ﴿ أتاهم إن ﴾ أي ما ﴿ في صدورهم ﴾ بصدودهم عن سواء السبيل ، وآذن ذكر الصدور دون القلوب لعظم الكبر جداً بأنه قد ملأ القلوب وفاض منها حتى شغل الصدور التي هي مساكنها ﴿ إلا كبر ﴾ أي عن اتباع الحق مع إشراق ضيائه واعتلاء لألائه إرادة إطفائه أو إخفائه ، والكبر إرادة التقدم والتعظم والرئاسة ، وأن يكون مريد ذلك فوق كل أحد ﴿ ما هم ببالغيه ﴾ أي ببالغي مقتضاه من إبطال الدين تكبراً عن أن يكونوا تحت أوامره ، لا يبلغون ذلك بوجه من الوجوه ، ولا بد أن يظهر الدين بنصر الرسول ومن تبعه من المؤمنين على أهل الكتاب والمشركين وغيرهم من أنواع الكافرين ، ثم يبعثون فيكون أعداؤهم أسفل سافلين صغرة داخرين .

(191/676)

ولما ظهر من أول هذا الكلام وآخره تصريحاً وتلويحاً بما أفاده أسلوب كلام القادرين المصوغ لأعم من يمكن أن يخطر في البال أنه تعالى وصف نفسه في مطلع السورة بأنه غالب لكل

شيء ولا يغلبه شيء وأن الذي بهم إنما هو إرادة أن يكونوا عالين غالبين ، عنه قوله تعالى : ﴿ فاستعذ ﴾ أي اطلب العوذ ﴿ بالله ﴾ المحيط بكل شيء من شر كبرهم كما عاذ به موسى عليه السلام لينجز لك ما وعدك كما أنجز له ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه ﴾ أي على ما له من البطون ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ السميع ﴾ لكل ما يمكن أن يسمع .

ولما كان السياق للعياذ من شياطين الإنس الذين لهم المكر الظاهر والباطن ، ختم بقوله : ﴿ البصير ﴾ الصالح للبصر والبصيرة فيعم المحسوس والمعلوم ، وختم آيتي الأعراف وفصلت المسبوقتين لنزغ الشيطان الذي هو وساوس وخطرات باطنة بالعليم .

(192/676)

ولما كان أعظم النظر في آية المجادلة المكررة من أول السورة إلى هنا إلى البعث وصيرورة العباد إلى الله بالحشر ليقع فيه الحكم الفصل ، وتتحقق نصرة الأنبياء وأتباعهم يوم يقوم الأشهاد ، دل على قدرته عليه بما هو كالتعليل لما نفى في آية المجادلة من بلوغهم لما قصدوا من الكبر ، فقال مؤكداً تنزيلاً للمقر العالم منزلة الجاهل المعاند لمخالفة فعله لاعتقاده : ﴿ لخلق السماوات ﴾ أي خلق الله لها على عظمها وارتفاعها وكثرة منافعها واتساعها ﴿ والأرض ﴾ على ما ترون من عجائبها وكثرة متاعها ﴿ أكبر ﴾ عند كل من يعقل من

الخلق في الخلق ﴿ من خلق الناس ﴾ أي خلق الله لهم لأنهم شعبة يسيرة من خلقهما ، فعلم قطعاً أن الذي قدر على ابتدائه على عظمه قادر على إعادة الناس على حقارتهم ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ وهم الذين ينكرون البعث وغيره مما يمكن أن تتعلق به القدرة وصح به السمع ﴿ لا يعلمون ﴾ أي لا علم لهم أصلاً ، بل هم كالبهائم لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم ، فهم لا يستدلون بذلك على القدرة على البعث كما أن البهائم ترى الظاهر فلا تدرك به الباطن ، بل هم أنزل رتبة من البهائم ، لأن هذا النحو من العلم في غاية الظهور فهو كالمحسوس ، فمن توقف فيه كان جماداً .

(193/676)

ولما ثبت بهذا القياس الذي لا خفاء به لا دافع له ولا مطعن فيه أن القادر على خلق الكبير ابتداء قادر على تسوية الصغير إعادة ، وثبت به أيضاً أن خلق الناس ليس مستنداً إلى طبائع السماوات والأرض وإلا لتساووا في العلم والجهل ، والقدر والهيئة والشكل ، لأن اقتضاء الطبائع لذلك على حد سواء لا تفاوت فيه ، وهي لا اختيار لها ، وكان من الناس من يقول : إن هذا الإيجاد إنما هو للطبائع ، ومن هؤلاء فرعون الذي مضى في هذه السورة كثير من كشف عواره وإظهار عاره ، دل على إبطاله بأن ذلك قول يلزمه التساوي فيما نشأ

عن ذي الطبع لأن لا اختيار له ونحن نشاهد الأشياء مختلفة ، فدل ذلك قطعاً على أنها غير مستندة إلى طبيعة بل إلى فاعل مختار ، فكان التقدير بما أرشد إليه سياق الآية قطعاً مع ختمها بنفي العلم وعطف ما بعدها على غير مذكور : وأقلهم يعلمون ، فثبت أن خالقهم الذي فاوت بينهم قادر مختار لا شريك له ، فإنه ما يستوي العالم والجاهل : ﴿ وما يستوي ﴾ أي بوجه من الوجوه من حيث البصر ﴿ الأعمى والبصير ﴾ وذلك موجب للعلم بأن استناد المتخالفين ليس إلى الطبيعة ، بل إلى فاعل مختار .

(194/676)

ولما ذكر الظلام والنور الحسيين ، أتبعه المعنويين نشراً مشوشاً ليكشف قسما الظلام قسمي النور إشارة إلى أن المهتدي عزيز الوجود ، كالذهب الإبريز بين النقود ، فقال : ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذه الحقيقة ثبتت أو لا ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ كذلك فكانوا محسنين ﴿ ولا المسيء ﴾ أي الثابت الإساءة الذي كفر وعمل الصالحات ، ووقع التغاير في العطف لأن المراد – والله أعلم – نفس التساوي بين أفراد الأعمى وأفراد البصير والمحسن والمسيء ، ولكنه لما كان في المخاطبين الغبي والذكي ، عطف البصير بغير " لا " ليكون ظاهر ذلك نفي المساواة بين نوعي الأعمى والبصير ، لأن نفي المساواة بين أفراد الأنواع

دقيق ، واقتصر على الواو في عطف ﴿ الذين آمنو ﴾ لأنه لا ينتظم أن يراد جعل الأعمى والبصير فريقاً والمؤمن الموصوف فريقاً ، وينتفي التساوي بينهما لأنه لا لبس في أن المؤمنين الموصوفين كالبصير ، وليس فيهم من يتوهم مساواته للأعمى ، فكان من الجلي معرفة أن المراد نفي مساواة الأعمى للبصير ونفي مساواة المؤمن الموصوف للمسيء ، وزيدت " لا " في المسيء وعبر فيه بالإفراد إشارة للفطن إلى أن المراد نفي التساوي بين أفراد كل نوع لأن ذلك أدل على القدرة ، وأنها بالاختيار ، وهذا بخلاف الظلمات في سورة فاطر لأنه لو تركت " لا " هناك لتوهم متوهم أن المنفي المساواة بين الأعمى والبصير وبين الظلمات ، فيوجد حينئذ الطعن بأن الظلمات مساوية لهما باعتبار أن الظلمة منها كثيف جداً لا يمكن نفوذ البصر فيه ، ومنها خفيف جداً يكون تسميته ظلاماً بالنسبة إلى النور الساطع ، والآية من الاحتباك : ذكر عمل الصالحات أولاً دليلاً على ضدها ثانياً ، والمسيء ثانياً دليلاً على المحسنين أولاً ، وسره أنه ذكر الصلاح ترغيباً والإساءة ترهيباً .

(195/676)

ولما تقرر هذا على هذا النحو من الوضوح الذي لا مانع للإنسان من فهمه ورسوخه في علمه إلا عدم تذكره لحسه حتى في نفسه قال تعالى : ﴿ قليلاً ما يتذكرون ﴾ أي المجادلون أو أيها

المجادلون أو الناس لأن المتذكر غاية التذكر - بما دل عليه الإظهار - منكم قليل - على قراءة الكوفيين بالخطاب لأنه أقوى في التبكيت ، وأدل على الغضب .

ولما ثبت بهذا كله تمام القدرة وانتفى ما توهمه من لا بصر له من الطبائع ثبت قطعاً قوله : ﴿ إن الساعة ﴾ أي القيامة التي يجادله فيها المجادلون ﴿ لآتية ﴾ وعزتي ! للحكم بالعدل في المقارنة بين المسيء والمحسن لأنه لا يسوغ في الحكمة عند أحد من الخلق أن يساوي أحد بين محسن عبيده ومسيئهم ، فكيف يظن ذلك بأحكم الحاكمين الذي نشاهده يميت المسيء وهو في غاية النعمة والمعصية ، والمحسن وهو في غاية البلاء والطاعة ، والمظلوم قبل أن ينتصف من الظالم ، ولهذا الأمر الظاهر قال : ﴿ لا ريب فيها ﴾ أي لا شك في إتيانها بوجه من الوجوه ، لأفضي فيها بالعدل فأدخل فيها ناساً دار رحمتي ، وآخرين نقمتي .

ولما وصل الحال في أمرها إلى حد لا خفاء به أصلاً ، نفى الإيمان دون العلم فقال تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي بما فيهم من النوس وهو الاضطراب ، وراعى معنى الأكثر فجمع لأن الجمع أدل على المراد وأقعد في التبكيت : ﴿ لا يؤمنون ﴾ أي لا يجعلون المخبر لهم بإتيانها آمناً من التكذيب مع وضوح علمها لديهم ، وما ذاك إلا لعناد بعضهم وقصور نظر الباقين على الحس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 526 . 529 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾

اعلم أنا بينا أن الكلام في أول هذه السورة إنما ابتدىء رداً على الذين يجادلون في آيات الله ، واتصل البعض بالبعض وامتد على الترتيب الذي لخصناه ، والنسق الذي كشفنا عنه إلى هذا الموضع ، ثم إنه تعالى نبّه في هذه الآية على الداعية التي تحمل أولئك الكفار على تلك المجادلة ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين يجادلون فِى ءايات الله بِغَيْرِ سلطان ﴾ إنما يحملهم على هذا الجدال الباطل كبر في صدرهم فذلك الكبر هو الذي يحملهم على هذا الجدال الباطل ، وذلك الكبر هو أنهم لو سلموا نبوتك لزمهم أن يكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك ، لأن النبوّة تحتها كل ملك ورياسة وفي صدورهم كبر لا يرضون أن يكونوا في خدمتك ، فهذا هو الذي يحملهم على هذه المجادلات الباطلة والمخاصمات الفاسدة .

ثم قال تعالى : ﴿ مَّا هُم ببالغيه ﴾ يعني أنهم يريدون أن يكونوا تحت يدك ولا يصلون إلى هذا المراد ، بل لا بدّ وأن يصيروا تحت أمرك ونهيك ، ثم قال : ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي

فالتجىء إليه من كيد من يجادلك ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ بما يقولون ، أو تقول ﴿ البصير ﴾ بما تعمل ويعملون ، فهو يجعلك نافذ الحكم عليهم ويصونك عن مكرهم وكيدهم .

(197/676)

واعلم أنه تعالى لما وصف جدالهم في آيات الله بأنه بغير سلطان ولا حجة ذكر لهذا مثالاً ، فقال ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ والقادر على الأكبر قادر على الأصغر لا محالة ، وتقرير هذا الكلام أن الاستدلال بالشيء على غيره على ثلاثة أقسام أحدها : أن يقال لما قدر على الأضعف وجب أن يقدر على الأقوى وهذا فاسد وثانيها : أن يقال لما قدر على الشيء قدر على مثله ، فهذا استدلال حق لما ثبت في العقول أن حكم الشيء حكم مثله وثالثها : أن يقال لما قدر على الأقوى الأكمل فبأن يقدر على الأقل الأرذل كان أولى ، وهذا الاستدلال في غاية الصحة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل ألبتة ، ثم إن هؤلاء القوم يسلمون أن خالق السموات والأرض هو الله سبحانه وتعالى ، ويعلمون بالضرورة أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس وكان من حقهم أن يقروا بأن القادر على خلق السموات والأرض يكون قادراً على إعادة الإنسان الذي خلقه أولاً ، فهذا برهان جلي في إفادة هذا المطلوب ، ثم إن هذا البرهان على قوته صار بحيث لا يعرفه

أكثر الناس ، والمراد منهم الذين ينكرون الحشر والنشر ، فظهر بهذا المثال أن هؤلاء الكفار يجادلون في آيات الله بغير سلطان ولا حجة ، بل بمجرد الحسد والجهل والكبر والتعصب ، ولما بيّن الله تعالى أن الجدال المقرون بالكبر والحسد والجهل كيف يكون ، وأن الجدال المقرون بالحجة والبرهان كيف يكون ، نبّه تعالى على الفرق بين البابين بذكر المثال فقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأعمى والبصير ﴾ يعني وما يستوي المستدل والجاهل المقلد ، ثم قال : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَلاَ المسىء ﴾ فالمراد بالأول التفاوت بين العالم والجاهل ، والمراد بالثاني التفاوت بين الآتي بالأعمال الصالحة وبين الآتي بالأعمال الفاسدة الباطلة ، ثم قال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعني أنهم وإن كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل ، وأن العمل

الصالح خير من العمل الفاسد ، إلا أنه قليلاً ما تتذكرون في النوع المعين من الاعتقاد أنه علم أو جهل ، والنوع المعين من العمل أنه عمل صالح أو فاسد ، فإن الحسد يعمي قلوبهم ، فيعتقدون في الجهل والتقليد أنه محض المعرفة ، وفي الحسد والحقد والكبر أنه محض الطاعة ، فهذا هو المراد من قوله ﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي

﴿ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب ، أي قل لهم قليلاً ما تتذكرون ، والباقون بالياء على الغيبة .

ولما قرر الدليل الدال على إمكان وجود يوم القيامة ، أردفه بأن أخبر عن وقوعها ودخولها في الوجود فقال : ﴿ إِنَّ الساعة لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 69.70 ﴾

(199/676)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) ﴾

أخبر الله تعالى أنه ينصر رسله والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، قال بعض المفسرين : وهذا خاص فيما أظهره الله على أمته كنوح وموسى ومحمد وليس بعام ، لأنا نجد من الأنبياء من قتله قومه كيحيى ولم ينصر عليهم ، وقال السدي : الخبر عام على وجهه ، وذلك أن نصرة الرسل واقعة ولا بد ، إما في حياة الرسول المنصور كنوح وموسى ، وإما فيما يأتي من الزمان بعد موته ، ألا ترى إلى ما صنع الله ببني إسرائيل بعد قتلهم يحيى من تسليط

بختنصر عليهم حتى انتصر ليحيى ، ونصر المؤمنين داخل في نصر الرسل ، وأيضاً فقد جعل الله للمؤمنين الفضلاء وداً ووهبهم نصراً إذ ظلموا وحضت الشريعة على نصرهم ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " من رد عن أخيه المسلم في عرضه ، كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم " ، وقوله عليه السلام : " من حمى مؤمناً من منافق يغتابه ، بعث الله ملكاً يحميه يوم القيامة " .

وقوله تعالى : ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ يريد يوم القيامة .

وقرأ الأعرج وأبو عمرو بخلاف " تقوم " بالتاء . وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة : " يقوم " بالياء . و﴿ الأشهاد ﴾ : جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب . وقالت فرقة : أشهاد : جمع شهيد ، كشريف وأشراف .

و: ﴿ يوم لا ينفع ﴾ بدل من الأول . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وقتادة وعيسى وأهل مكة " لا تنفع " بالتاء من فوق . وقرأ الباقون : " لا ينفع " بالياء ، وهي قراءة جعفر وطلحة وعاصم وأبي رجاء ، وهذا لأن تأنيث المعذرة غير حقيقي ، وأن الحائل قد وقع ، والمعذرة : مصدر يقع كالعذر . و: ﴿ اللعنة ﴾ : الإبعاد . و: ﴿ سوء الدار ﴾ فيه حذف مضاف تقديره : سوء عاقبة الدار .

ثم أخبر تعالى بقصة موسى وما أتاه من النبوة تأنيساً لمحمد عليه السلام ، وضرب أسوة وتذكيراً لما كانت العرب تعرفه من أمر موسى ، فيبين ذلك أن محمداً ليس ببدع من الرسل .

و: ﴿ الهدى ﴾ النبوة والحكمة ، والتوراة تعم جميع ذلك .

وقوله : ﴿ وأورثنا ﴾ عبر عن ذلك بالوراثة إذ كانت طائفة بني إسرائيل قرناً بعد قرن تصير فيها التوراة إماماً ، فكان بعضهم يرثها عن بعض وتجيء التوراة في حق الصدر الأول منهم على تجوز . و: ﴿ الكتاب ﴾ التوراة . ثم أمر نبيه عليه السلام بالصبر وانتظار إنجاز الوعد أي فستكون عاقبة أمرك كعاقبة أمره . وقال الكلبي : نسخت آية القتال الصبر حيث وقع .

وقوله تعالى : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ يحتمل أن يكون ذلك قبل إعلام الله إياه إنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، لأن آية هذه السورة مكية ، وآية سورة الفتح مدنية متأخرة ، ويحتمل أن يكون الخطاب في هذه الآية له والمراد أمته ، أي إنه إذا أمر بهذا فغيره أحرى بامتثاله .

﴿ والإبكار ﴾ والبكر : بمعنى واحد . وقال الطبري : ﴿ الإبكار ﴾ من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس . وحكي عن قوم أنه من طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى . وقال الحسن : ﴿ بالعشي ﴾ ، يريد صلاة العصر ﴿ والإبكار ﴾ : يريد به صلاة الصبح .

ثم أخبر تعالى عن أولئك الكفار الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان وهم يريدون بذلك طمسها والرد في وجهها أنهم ليسوا على شيء ، بل في صدورهم وضمائرهم كبر وأنفة عليك حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله ، ثم نفى أن يكونوا يبلغون آمالهم بحسب ذلك الكبر فقال : ﴿ ما هم ببالغيه ﴾ وهنا حذف مضاف تقديره : ببالغي إرادتهم فيه ، وفي هذا النفي الذي تضمن أنهم لا يبلغون أملاً تأنيس لمحمد عليه السلام . ثم أمره تعالى الاستعاذة بالله في كل أمره من كل مستعاذ منه ، لأن الله يسمع أقواله وأقوال مخالفيه . وهو بصير بمقاصدهم ونياتهم ، ويجازي كلاًّ بما يستوجبه ، (والمقصد بأن يستعاذ منه عند قوم الكبر المذكور) ، كأنه قال : هؤلاء لهم كبر لا يبغون منه أملاً ، ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من حالهم . وذكر الثعلبي : أن هذه الاستعاذة هي من الدجال وفتنته ، والأظهر ما قدمناه من العموم في كل مستعاذ منه .

لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57)

قوله تعالى : ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ توبيخ لهؤلاء الكفرة المتكبرين ، كأنه قال : مخلوقات الله أكبر وأجل قدراً من خلق البشر ، فما لأحد منهم يتكبر

على خالقه ، ويحتمل أن يكون الكلام في معنى البعث والإعادة ، فأعلم أن الذي خلق السماوات والأرض قوي قادر على خلق الناس تارة أخرى . والخلق على هذا التأويل مصدر مضاف إلى المفعول . وقال النقاش : المعنى مما يخلق الناس ، إذ هم في الحقيقة لا يخلقون شيئاً ، فالخلق في قوله : ﴿ من خلق الناس ﴾ مضاف إلى الفاعل على هذا التأويل .

(202/676)

وقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ يقتضي أن الأقل منهم يعلم ذلك ، ولذلك مثل الأكثر الجاهل : ب ﴿ الأعمى ﴾ ، والأقل العالم : ب ﴿ البصير ﴾ ، وجعل : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ يعادلهم قوله : ﴿ ولا المسيء ﴾ وهو اسم جنس يعم المسيئين ، وأخبر تعالى أن هؤلاء لا يستوون ، فكذلك الأكثر الجهلاء من الناس لا يستوون مع الأقل الذين يعلمون .

وقرأ أكثر القراء والأعرج وأبو جعفر وشيبة والحسن : " يتذكرون " بالياء على الكناية عن الغائب . وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وقتادة وطلحة وعيسى وأبو عبد الرحمن : " تتذكرون " بالتاء من فوق على المخاطبة . والمعنى : قل لهم يا محمد . ثم جزم الإخبار بأن

الساعة آتية ، وهي القيامة المتضمنة للبعث من القبور والحساب بين يدي الله تعالى ، واقترن الجمع إلى الجنة وإلى النار .

وقوله تعالى : ﴿ لا ريب فيها ﴾ ، أي في نفسها وذاتها ، وإن وجد من العالم من يرتاب فيها فليست فيها في نفسها ريبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(203/676)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُجَادِلُونَ ﴾

يخاصمون ﴿ فِي آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ أي حجة ﴿ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ قال الزجاج : المعنى ما في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغي إرادتهم فيه .

قدره على الحذف .

وقال غيره : المعنى ما هم ببالغي الكبر على غير حذف ؛ لأن هؤلاء قوم رأوا أنهم إن اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم قل ارتفاعهم ، ونقصت أحوالهم ، وأنهم يرتفعون إذا لم يكونوا تبعاً ، فاعلم الله عز وجل أنهم لا يبلغون الارتفاع الذي أملوه بالتكذيب .

والمراد المشركون .

وقيل : اليهود ؛ فالآية مدنية على هذا كما تقدم أول السورة .

والمعنى : إن تعظَّموا عن اتباعِ محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا إن الدجال سيخرج عن قريب فيردّ الملك إلينا ، وتسير معه الأنهار ، وهو آية من آيات الله (فذلك كبر لا يبلغونه) فنزلت الآية فيهم .

قاله أبو العالية وغيره .

وقد تقدم في "آل عمران" أنه يخرج ويطأ البلاد كلها إلا مكة والمدينة .

وقد ذكرنا خبره مستوفى في كتاب "التذكرة" .

وهو يهودي واسمه صاف ويكنى أبا يوسف .

وقيل : كل من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا حسن ؛ لأنه يعم .

وقال مجاهد : معناه في صدورهم عظمة ما هم ببالغيها والمعنى واحد .

وقيل : المراد بالكبر الأمر الكبير أي يطلبون النبوة أو أمراً كبيراً يصلون به إليك من القتل ونحوه ، ولا يبلغون ذلك .

أو يتمنون موتك قبل أن يتم دينك ولا يبلغونه .

قوله تعالى : ﴿ فاستعذ بالله ﴾ قيل : من فتنة الدجال على قول من قال إن الآية نزلت في اليهود .

وعلى القول الآخر من شر الكفار .

وقيل : من مثل ما ابتلوا به من الكفر والكبر .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ﴾ "هُوَ" يكون فاصلاً ويكون مبتدأ وما بعده خبره والجملة خبر إن على ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ مبتدأ وخبره .

(204/676)

قال أبو العالية : أي أعظم من خلق الدجال حين عظّمته اليهود .

وقال يحيى بن سلام : هو احتجاج على منكري البعث ؛ أي هما أكبر من إعادة خلق الناس فلم اعتقدوا عجزي عنها .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ أي المؤمن والكافر والضال والمهتدي .

﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي ولا يستوي العامل للصالحات ﴿ وَلاَ المسياء ﴾ الذي يعمل السيئات .

﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ قراءة العامة بياء على الخبر واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأجل

ما قبله من الخبر وما بعده .

وقرأ الكوفيون بالتاء على الخطاب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الساعة لآتِيَةٌ ﴾ هذه لام التأكيد دخلت في خبر إن وسبيلها أن تكون في أوّل الكلام ؛ لأنها توكيد الجملة إلا أنها تُزحلَق عن موضعها ؛ كذا قال سيبويه .

تقول : إن عمراً لخارج ؛ وإنما أخرت عن موضعها لئلا يجمع بينها وبين إنّ ؛ لأنهما يؤدّيان عن معنى واحد ، وكذا لا يجمع بين إنّ وأنّ عند البصريين .

وأجاز هشام إنّ أنّ زيداً منطلق حقّ ؛ فإن حذفت حقّاً لم يجز عند أحد من النحويين علمته ؛ قاله النحاس .

﴿ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ﴾ لا شك ولا مرية .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لا يصدّقون بها وعندها يبين فرق ما بين الطائع والعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(205/676)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾

دلائله سبحانه التي نصبها على توحيده وكتبه المنزلة وما أظهر على أيدي رسله من المعجزات ﴿ بِغَيْرِ سلطان اتيهِمْ ﴾ أي بغير حجة في ذلك أتتهم من جهته تعالى ، والجال متعلق بيجادلون وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيان الحجة للإيذان بأن المتكلم في أمر الدين لا بدّ من استناده إلى حجة واضحة وبرهان مبين ، وهذا عام في كل مجادل مبطل وإن نزل في قوم مخصوصين وهم على الأصح مشركو مكة .

وقوله تعالى : ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ﴾ خبر لإن و ﴿ إن ﴾ نافية ، والمراد بالصدور القلوب أطلق عليها للمجاورة والملابسة ، والكبر والتكبر والتعاظم أي ما في قلوبهم إلا تكبرا عن الحق وتعاظم عن التفكر والتعلم أو هو مجاز عن إرادة الرياسة والتقدم على الإطلاق أو إرادة أن تكون النبوة لهم أي ما في قلوبهم إلا إرادة الرياسة أو أن تكون النبوة لهم دونك حسداً وبغياً حسبما قالوا : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] وقالوا : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : 11] ولذلك يجادلون في آياته تعالى لا أن فيها موقع جدال ما أو أن لهم شيئاً يتوهم صلاحيته لأن يكون مداراً لمجادلتهم في الجملة ، وقوله تعالى : ﴿ مَّا هُم ببالغيه ﴾ صفة لكبر أي ما هم ببالغي موجب الكبر ومقتضيه وهو ما متعلق إرادتهم من دفع الآيات أو من الرياسة أو النبوة ، وقال الزجاج : المعنى ما يحملهم على تكذيبك إلا ما في صدورهم من الكبر عليك وما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر لأن الله تعالى أذلهم ، وقيل : الجملة مستأنفة

وضمير ﴿ بالغيه ﴾ لدفع الآيات المفهوم من المجادلة ، وما تقدم أظهر ، وقال مقاتل : المجادلون الذين نزلت فيهم الآية اليهود عظموا أمر الدجال فنزلت .

وإلى هذا ذهب أبو العالية .

أخرج عبد بن حميد .

(206/676)

وابن أبي حاتم بسند صحيح عنه قال : إن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الدجال يكون منا في آخر الزمان ويكون من أمره ما يكون فعظموا أمره وقالوا : يصنع كذا وكذا فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ الذين يجادلون ﴾ الخ ، وهذا كالنص في أن أمر اليهود كان السبب في نزولها ، وعليه تكون الآية مدنية وقد مر الكلام في ذلك فتذكر .

وفي رواية أن اليهود كانوا يقولون : يخرج صاحبنا المسيح بن داود يريدون الدجال ويبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك ، حكاها في "الكشاف" ثم قال : فسمي الله تعالى تمنيهم ذلك كبراً ونفي سبحانه أن يبلغوا متمناهم ، ويخطر لي على هذا القول أن اليهود لم يريدوا من تعظيم أمر الدجال سوى نفي أن يكون نبينا صلى الله عليه وسلم النبي المبعوث في آخر الزمان الذي بشر به أنبياؤهم وزعم أن المبشر

به هو ذلك اللعين ، ففي بعض الروايات أنهم قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام : لست صاحبنا يعنون النبي المبشر به أنبياؤهم ، فالإضافة لأدنى ملابسة بل هو المسيح بن داود يبلغ سلطانه البر والبحر ويسير معه الأنهار ، وفي ذلك بزعمهم دفع الآيات الدالة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم والداعي لهم إلى ذلك الكبر والحسد وحب أن لا تخرج النبوة من بني إسرائيل ، فمعنى الآية عليه نحو معناها على القول بكون المجادلين مشركي مكة .

(207/676)

ثم إن اليهود عليهم اللعنة كذبوا أولاً بقولهم للنبي عليه الصلاة والسلام : لست صاحبنا ، وثانياً بقولهم : بل هو المسيح بن داود يعنون الدجال ، أما الكذب الأول فظاهر ، وأما الثاني فلأنه لم يبعث نبي إلا وقد حذر أمته الدجال وأنذرهم إياه كما نطقت بذلك الأخبار ، وهم قالوا : هو صاحبنا يعنون المبشر ببعثته آخر الزمان ، وكل ذلك من الجدال في آيات الله تعالى بغير سلطان ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي فالتجىء إليه تعالى من كيد من يحسدك ويبغي عليك ، وفيه رمز إلى أنه من همزات الشياطين ، وقال أبو العالية : هذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ من فتنة الدجال بالله عز وجل ﴿ أَنَّهُ السميع البصير ﴾ أي لأقوالكم وأفعالكم ، والجملة لتعليل الأمر قبلها .

﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ تحقيق للحق وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه من أمر البعث الذي هو كالتوحيد في وجوب الايمان به على منهاج قوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس : 81] وإضافة ﴿ خَلْقَ ﴾ إلى ما بعده من إضافة المصدر إلى مفعوله أي لخلق الله تعالى السماوات والأرض أعظم من خلقه سبحانه الناس لأن الناس بالنسبة إلى تلك الأجرام العظيم كلا شيء ، والمراد أن من قدر على خلق ذلك فهو سبحانه على خلق ما لا يعد شيئاً بالنسبة إليه بدأ وإعادة أقدر وأقدر .

(208/676)

وقال أبو العالية : الناس الدجال وهو بناء على ما روى عنه في المجادلين ، ولعمري أن تطبيق هذا ونحوه على ذلك في غاية البعد وأنا لا أقول به ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وهم الكفرة ، ولما كان ما قبل لإثبات البعث الذي يشهد له العقل وتقتضيه الحكم اقتضاء ظاهراً ناسب نفي العلم عمن كفر به لأنهم لو كانوا من العقلاء الذين من شأنهم التدبر والتفكر فيما يدل عليه لم يصدر عنهم إنكاره ، ولم يذكر للعلم مفعولاً لأن المناسب للمقام تنزيله منزلة اللازم ، وقيل : المراد لا يعلمون أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس أي لا

يجرون على موجب العلم بذلك من الإقرار بالبعث ومن لا يجري على موجب علمه هو والجاهل سواء .

وفي "البحر" أنه تعالى نبه على أنه لا ينبغي أن يجادل في آيات الله ولا يتكبر الإنسان بقوله سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ ﴾ الخ أي أن مخلوقاته تعالى أكبر وأجل من خلق البشر فما لأحدهم يجادل ويتكبر على خالقه سبحانه وتعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون لا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم ولذلك جادلوا وتكبروا ، ولا يخفى أنه تفسير قليل الجدوى .

(209/676)

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الاعمى والبصير ﴾ أي الغافل عن معرفة الحق في مبدئه ومعاده ومن كانت له بصيرة في معرفتها ، وتفسير ﴿ البصير ﴾ بالله تعالى و ﴿ الاعمى ﴾ بالصنم غير مناسب هنا ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي المحسن ولذا قوبل بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ المسىء ﴾ وعدل عن التقابل الظاهر كما في الأعمى والبصير إلى ما في النظم الجليل إشارة إلى أن المؤمنين علم في الإحسان ، وقدم ﴿ الاعمى ﴾ لمناسبة العمى ما قبله من نفي العلم ، وقدم الذين آمنوا بعد لمجاورة البصير ولشرفهم ، وفي مثله طرق أن يجاور كل ما يناسبه كما هنا ، وأن يقدم ما يقابل الأول ويؤخر ما يقابل الآخر كقوله تعالى : ﴿ وَمَا

يَسْتَوِي الاعمى والبصير وَلاَ الظلمات وَلاَ النور وَلاَ الظل وَلاَ الحرور ﴾ [فاطر : 19- 21] وأن يؤخر المتقابلان كالأعمى والأصم والسميع والبصير وكل من باب التفنن في البلاغة وأساليب الكلام ، والمقصود من نفي استواء من ذكر بيان أن هذا التفاوت مما يرشد إلى البعث كأنه قيل : ما يستوي الغافل والمستبصر والمحسن والمسيء فلا بد أن يكون لهم حال أخرى يظر فيها ما بين الفريقين من التفاوت وهي فيما بعد البعث .

(210/676)

وأعيدت ﴿ لا ﴾ في المسيء تذكيراً للنفي السابق لما بينهما من الفصل بطول الصلة ، ولأن المقصود بالنفي أن الكافر المسيء لا يساوي المؤمن المحسن ، وذكر عدم مساواة الأعمى للبصير توطئة له ، ولو لم يعد النفي فيه فربما ذهل عنه وظن أنه ابتداء كلام ، ولو قيل : ولا الذين آمنوا والمسيء لم يكن نصاً فيه أيضاً لاحتمال أنه مبتدأ كلام ، ولو قيل : ولا الذين آمنوا والمسيء لم يكن نصاً فيه أيضاً لاحتمال أنه مبتدأ و ﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ خبره وجمع على المعنى قاله الخفاجي ، وهو إن تم فعلى القراءة بياء الغيبة ، وقيل : لم يقل ولا الذين آمنوا والمسيء لأن المقصود نفي مساواة المسيء للمحسن لا نفي مساواة المحسن له إذ المراد بيان خسارته ولا يصفو عن كدر فتدبر ، والموصول مع عطف عليه معطوف على

﴿ الاعمى ﴾ مع ما عطف عليه عطف المجموع على المجموع كما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأول والاخر والظاهر والباطن ﴾ [الحديد : 2] ولم يترك العطف بينهما بناء على أن الأول مشبه به والثاني مشبه وهما متحدان مآلاً لأن كلا من الوصفين الأولين مغاير لكل من الوصفين الأخيرين وتغاير الصفات كتغاير الذوات في صحة التعاطف ، ووجه التغاير أن الغافل والمستبصر والمحسن والمسيء صفات متغايرة المفهوم بقطع النظر عن اتحاد ما صدقهما وعدمه ، وقيل : التغاير بين الوصفين الأولين والوصفين الأخيرين من جهة أن القصد في الأولين إلى العلم ، وفي الأخيرين إلى العمل ، وهو وجه لا بأس به ، وقيل : هما وإن اتحدا ذاتاً متغايران اعتباراً من حيث أن الثاني صريح والأول مذكور على طريق التمثيل ، ونظر فيه بأنه لو اكتفى بمجرد هذه المغايرة لزم جواز عطف المشبه على المشبه به وعكسه .

﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكراً قليلاً تتذكرون .

وقرأ الجمهور .

والأعرج .

والحسن .

وأبو جعفر .

وشيبة بياء الغيبة والضمير للناس أو الكفار ، قال الزمخشري : والتاء أعم ، وعلله "صاحب التقريب" بأن فيه تغليب الخطاب على الغيبة ، وقال القاضي : إن التاء للتغليب أو الالتفات أو أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمخاطبة أي بتقدير قل قبله ، وآثر العلامة الطيبي الالتفات لأن العدول من الغيبة إلى الخطاب في مقام التوبيخ يدل على العنف الشديد والإنكار البليغ ، فهذه الآية متصلة بخلق السماوات وهو كلام مع المجادلين .

وتعقبه "صاحب الكشف" بأنه يجوز أن يجعل ما ذكر نكتة التغليب فيكون أولى لفائدة التعميم أيضاً فليفهم ، والظاهر أن التغليب جار على احتمال كون الضمير للناس واحتمال كونه للكفار لأن بعض الناس أو الكفار مخاطب هنا ؛ والتقليل أيضاً يصح إجراؤه على ظاهره لأن منهم من يتذكر ويهتدي ، وقال الجلبي : الضمير إذا كان للناس فالتقليل على معناه الحقيقي والمستثنى هم المؤمنون وإذا كان للكفار فهو بمعنى النفي ، ثم الظاهر أن المخاطب من خاطبه صلى الله عليه وسلم من قريش فمن قال : المخاطب هو النبي عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى : ﴿ فاصبر ﴾ [غافر : 55] ولا يناسب إدخاله فيمن لم يتذكر فقدسها ولم يتذكر .

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي في مجيئها أي لا بد من مجيئها ولا محالة لوضوح الدلالة على جوازها وإجماع الأنبياء على الوعد الصادق بوقوعها .

ويجوز أن يكون المعنى أنها آتية وأنها ليست محلاً للريب أي لوضوح الدلالة إلى آخر ما مر ، والفرق أن متعلق الريب على الأول المجيء وعلى هذا الساعة والحمل عليه أولى .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ لا يصدقون بها لقصور نظرهم على ما يدركونه بالحواس الظاهرة واستيلاء الأوهام على عقولهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(212/676)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ يَتَحَآجُّونَ فِي النار ﴾

(213/676)

أصله يتفاعلون في الحجة أي يختصمون ، ويحتج بعضهم على بعض ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ [ص : 64] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ

بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : 3133] . وقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : 3839] وقوله تعالى ، ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ [البقرة : 166167] وقوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ

لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم : 2122] والآيات بمثل هذا كثيرة ، وقد قدمنا الكلام عليها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك .

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أن أهل النار طلبوا من خزنة جهنم أن يدعوا لهم الله أن يخفف عنهم من شدة عذاب النار .

وقد بين في سورة الزخرف أنهم نادوا مالكاً خاصة ، من خزنة أهل النار ، ليقضي الله عليهم ، أي ليميتهم فيستريحوا بالموت من عذاب النار .

وقد أوضح جل وعلا في آيات من كتابه ، أنهم لا يجابون في واحد من الأمرين .

فلا يخفف عنهم العذاب ، الذي سألوا تخفيفه ، في سورة المؤمن هذه

ولا يحصل لهم الموت الذي سألوه في سورة الزخرف ، فقال تعالى في عدم تخفيف العذاب عنهم في هذه الآية . ﴿ قالوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بالبينات قَالُواْ بلى قَالُواْ فادعوا وَمَا دُعَاءُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ [غافر : 50] وقال تعالى ﴿ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر : 36] وقال تعالى : ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ﴾ [النبأ : 30] : وقال تعالى : ﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف : 75] : وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان : 65] وقال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ [الفرقان : 77] وقال تعالى : ﴿ لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ [البقرة : 162] . وقال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : 68] .

وقال تعالى في عدم موتهم في النار : ﴿ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ [فاطر : 36] . وقال تعالى : ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم : 17] . وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب ﴾ [النساء : 56] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ [طه : 74] . وقال تعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى الذى يَصْلَى النار الكبرى ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا ﴾ [الأعلى : 1113] ولما قالوا ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف : 77] أجابهم بقوله : ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف : 77] .

قوله تعالى : ﴿ قالوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بالبينات ﴾ .

قد قدمنا الكلام عليه مع الآيات التي بمعناه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [آل عمران : 146] الآية ، وذكرنا طرفاً من ذلك في الصافات ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ [الصافات : 171172] وستأتي له زيادة إيضاح إن شاء الله في سورة المجادلة .

اللام في قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الهدى ﴾ موطئة للقسم وصيغة الجمع في آتينا وأورثنا للتعظيم .

والمراد بالهدى ما تضمنه التوراة من الهدى في العقائد والأعمال : وأورثنا بني إسرائيل الكتاب وهو التوراة ، وقوله : هدى وذكرى لأولي الألباب مفعول من أجله أي لأجل الهدى والتذكير .

وقال بعضهم : هدى حال ، وورود المصدر المنكر حالاً معروف ، كما أشار له في الخلاصة بقوله :

ومصدر منكر حالاً يقع . . . بكثرة كبغتة زيد طلع

(217/676)

وقال القرطبي : هدى بدل من الكتاب ، أو خبر مبتدأ محذوف ، وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن الله أنزل التوراة على موسى وأنزل فيها الهدى لبني إسرائيل جاء موضحاً في آيات من كتاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الكتاب وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : 2] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لبني إِسْرَائِيلَ ﴾ [السجدة : 23] الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ والربانيون والأحبار ﴾ [المائدة : 44] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولى بَصَآئِرَ للنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : 43] وقوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألواح مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : 145] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56)

قوله تعالى : ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه في سورة الأعراف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَاهبط مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف : 13] ، وذكرنا هناك بعض النتائج السيئة الناشئة عن الكبر .

قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ .

(218/676)

قد قدمنا أن هذه الآية من البراهين الدالة على البعث ، وأوضحنا كل البراهين الدالة على البعث بالآيات القرآنية بكثرة في سورة البقرة ن وسورة النحلن وأحلنا على مواضع ذلك مراراً .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَلاَ المسياء ﴾ الآية .

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ، وما يستوي الأعمى والبصير ، قد قدمنا الكلام عليه في

سورة هود ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ [هود : 24] الآية .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَلاَ المسياء ﴾ قد قدمنا إيضاح معناه بالآيات القرآنية ، في سورة ص في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِي الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ [ص : 28] .

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة سَعِيراً ﴾ [الفرقان : 11] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(219/676)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الذين يجادلون فى ءايات الله بِغَيْرِ سلطان أتاهم إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ .

جرى الكلام من أول السورة إلى هنا في مَيدان الرد على مجادلة المشركين في آيات الله ودَحض شُبههم وتوعدهم على كفرهم وضرب الأمثال لهم بأمثالهم من أهل العناد ابتداء من قوله : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ [غافر : 4] وقوله : ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ [غافر : 21] ، كما ذُكرت أمثال أضدادهم من أهل الإِيمان من حَضَر منهم ومَن غَبَرَ من قوله : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون [هود : 96 ، 97] ثم قوله : وقال رجل مؤمن من ءال فرعون ﴾ [غافر : 28] ، وخُتم ذلك بوعد النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالنصر كما نُصر النبيئون من قبله والذين آمنوا بهم ، وأُمر بالصبر على عناد قومه والتوجه إلى عبادة ربه ، فكان ذكر الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان عقب ذلك من باب المثل المشهور : "الشيء بالشيء يُذكر" .

وبهذه المناسبة انتقل هنا إلى كشف ما تكنه صدور المجادلين من أسباب جدالهم بغير حق ، ليَعلم الرسول صلى الله عليه وسلم دخيلتهم فلا يحسب أنهم يكذبونه تنقصاً له ولا تجويزاً للكذب عليه ، ولكن الذي يدفعهم إلى التكذيب هو التكبر عن أن يكونوا تبعاً للرسول صلى الله عليه وسلم ووراء الذين سبقوهم بالإِيمان ممن كانوا لا يعبَأون بهم .

وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ [الأنعام : 33] .

(فقوله : ﴿ إنَّ الذينَ يُجادلُونَ في ءاياتت الله ﴾ الآية استئناف ابتدائي وهو كالتكرير لِجملة ﴿ الذين يجادلون في ءايات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله ﴾ [غافر : 35] تكرير تعداد للتوبيخ عند تنهية غرض الاستدلال كما يوقَّف الموبخ المرة بعد المرة .

(220/676)

و ﴿ الذِينَ يجادلون ﴾ هم مشركو أهل مكة وهم المخبَر عنهم في قوله أولَ السورة : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ [غافر : 4] .

ومعنى المجادلة في آيات الله تقدم هنالك .

ويتعلق قوله : ﴿ بِغَيْرِ سلطان ﴾ بـ ﴿ يجادلون .

﴿ والباء للمصاحبة ، أي مصاحب لهم غير سلطان ، أي غير حجة ، أي أنهم يجادلون مجادلة عناد وغصْب .

وفائدة هذا القيد تشنيع مجادلتهم وإلا فإن المجادلة في آيات الله لا تكون إلا بغير سلطان لأن آيات الله لا تكون مخالفة للواقع فهذا القيد نظير القيد في قوله : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ [القصص : 50] ، وكذلك وصف ﴿ سلطان ﴾ بجملة ﴿ أتاهم ﴾ لزيادة تفظيع مجادلتهم بأنها عرية عن حجة لديهم فهم يجادلون بما ليس لهم به علم

، وتقدم نظير أول هذه الآية في أثناء قصة موسى وفرعون في هذه السورة .

و﴿ إنْ في قوله : إن في صُدُورِهم إلاَّ كِبْرٌ ﴾ نافية والجار والمجرور خبر مقدم ، والاستثناء مفرّغ ، و ﴿ كبر ﴾ مبتدأ مؤخَّر ، والجملة كلها خبر عن ﴿ الَّذِينَ يُجادلون ﴾ .

وأطلق الصدور على القلوب مجازاً بعلاقة الحلول ، والمراد ضمائر أنفسهم ، والعرب يطلقون القلب على العقل لأن القلب هو الذي يحس الإِنسان بحركته عند الانفعالات النفسية من الفرح وضده والاهتمامِ بالشيء .

والكِبْر من الانفعالات النفسية ، وهو : إدراك الإِنسان خواطر تشعره بأنه أعظم من غيره فلا يرضى بمساواته بَلْهَ متابعته ، وتقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿ إلا إبليس أبى واستكبر ﴾ في سورة [البقرة : 34] .

والمعنى : ما يحملهم على المجادلة في آيات الله إلا الكِبر على الذي جاءهم بها وليست مجادلتهم لدليل لاح لهم .

(221/676)

وقد أثبت لهم الكبرَ الباعثَ على المجادلة بطريق القصر ليُنفَى أن يكون داعيهم إلى المجادلة شيء آخر غير الكِبْر على وجه مؤكد ، فإن القصر تأكيد على تأكيد لما يتضمنه من إثبات

الشيء بوجه مخصوص مؤكّد ، ومن نفي ما عداه فتضمن جملتين .

وجملة ﴿ ما هُمْ بِبالِغِيه ﴾ يجوز أن تكون معترضة ، ويجوز أن تكون في موضع الصفة ل ﴿ كبر .

﴾ وحقيقة البلوغ : الوصول ، قال تعالى : ﴿ إلى بلد لم تكونوا بالغيبة إلا بشق الأنفس ﴾ [النحل : 7] ويطلق على نوال الشيء وتحصيله مجازاً مرسلاً كما في قوله تعالى : ﴿ ما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ [سبأ : 45] وهو هنا محمول على المعنى المجازي لا محالة ، أي ما هم ببالغي الكِبر .

وإذ قد كان الكبر مثبتاً حصوله في نفوسهم إثباتاً مؤكداً بقوله : ﴿ إنَّ في صُدُورهم إلاَّ كِبرٌ ﴾ ، تعيّن أن نفي بلوغهم الكِبر منصرف إلى حالات الكِبر : فإما أن يراد نفي أهليتهم للكبر إذ هم أقل من أن يكون لهم الكبر كقوله تعالى : ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون : 8] أي لا عزة حقاً لهم ، فالمعنى هنا : كِبْر زيفٌ ، وإما أن يراد نفي نوالهم شيئاً من آثار كِبْرهم مثل تحقير الذين يتكبرون عليهم مثل احتقار المتكبر عليهم ومخالفتهم إياهم فيما يدعونهم إليه فضلاً عن الانتظام في سلك اتباعهم ، وإذلالهم ، وإفْحام حجتهم ، فالمعنى : ما هم ببالغين مرادهم الذي يأملونه منك في نفوسهم الدالة عليه أقوالهم مثل قولهم : ﴿ نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30] وقولهم : ﴿

لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [فصلت : 26] ونحو ذلك من أقوالهم الكاشفة لآمالهم .

(222/676)

فتنكير : ﴿ كبر ﴾ للتعظيم ، أي كبر شديد بتعدد أنواعه ، وتمكنه من نفوسهم ، فالضمير البارز في ﴿ ببالغيه ﴾ عائد إلى الكبر على وجه المجاز بعلاقة السببية أو المسببية ، والداعي إلى هذا المجاز طلب الإِيجاز لأن تعليق نفي البلوغ باسم ذات الكبر يشمل جميع الأحوال التي يثيرها الكِبر ، وهذا من مقاصد إسناد الأحكام إلى الذوات إن لم تقم قرينة على إرادة حالة مخصوصة ، كما في قوله تعالى : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم ﴾ [الزخرف : 32] أي جميع أحوال معيشتهم .

فشمل قوله : ﴿ ما هم ببالغيه ﴾ عدم بلوغهم شيئاً مما ينطوي عليه كِبرُهم ، فما بلغوا الفضل على غيرهم حتى يتكبروا ، ولا مطمع لهم في حصول آثار كبرهم ، كما قال تعالى: ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتو عتواً كبيراً ﴾ [الفرقان : 21] .

وقد نُفي أن يبلغوا مرادهم بصوغه في قالب الجملة الاسمية لإِفادتها ثبات مدلولها ودوامه ، فالمعنى ، أنهم محرومون من بلوغه حرماناً مستمراً ، فاشتمل تشويه حالهم إثباتاً ونفياً على

خصوصيات بلاغية كثيرة .

ومن المفسرين من جعل مَا صَدْقَ : ﴿ الذين يجادلون في ءايات الله ﴾ هنا اليهودَ ، وجعله في معنى قوله تعالى : ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ [النساء : 54] ، وارتقى بذلك إلى القول بأن هذه الآية مدنية ألحقت بالسورة المكية كما تقدم في مقدمة تفسير السورة ، وأيدوا تفسيرهم هذا بآثار لو صحت لم تكن فيها دلالة على أكثر من صلوحية الآية لأن تُضرب مثلاً لكل فريق يجادلون في آيات الله بغير سلطان جدالاً يدفعهم إليهم الكبر .

﴿ ببالغيه فاستعذ بالله إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾

لما ضمن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن الذين يجادلونه فيما جاءهم به يحدوهم إلى الجدال كبرهم المنطوي على كيدهم وأنهم لا يبلغون من أضمروه وما يضمرونه ، فَرّع على ذلك أن أَمَرَه بأن يجعل الله معاذه منهم ، أي لا يعبأ بما يبيتونه ، أي قدم على طلب العوذ بالله .

وحذف متعلق (استعذ) لقصد تعميم الاستعاذة من كل ما يخاف منه .

وجملة ﴿ إنَّه هوَ السَّمِيع البصِير ﴾ تعليل للأمر بالدوام على الاستعاذة ، أي لأنه المطلع على أقوالهم وأعمالهم وأنت لا تحيط علماً بتصاريف مكرهم وكيدهم .

والتوكيد بحرف (إنّ) ، والحصرُ بضمير الفصل مراعى فيه التعريض بالمتحدث عنهم وهم الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان .

والمعنى : أنه هو القادر على إبطال ما يصنعونه لا أنت فكيف يتم لهم ما أضمروه لك .

لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57)

مناسبة اتصال هذا الكلام بما قبله أن أهم ما جادلوا فيه من آيات الله هي الآيات المثبِتة للبعث وجدالهم في إثبات البعث هو أكبر شبهة لهم ضللت أنفسهم وروجوها في عامَّتِهم فقالوا : ﴿ أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد ﴾ [الرعد : 5] .

فكانوا يسخرون من النبي صلى الله عليه وسلم لأجل ذلك ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد أفترى على اللَّه كذباً أم به جنة ﴾ [سبأ : 7 ، 8] ، ولما كانوا مقرّين بأن الله هو خالق السماوات والأرض أقيمت عليهم الحجة على إثبات البعث بأنّ بعْث الأموات لا يبلغ أمره مقدار أمر خلق السماوات والأرض بالنسبة إلى قدرة الله تعالى .

والكلام مؤذن بقَسَم مقدّر لأن اللام لام جواب القسم ، والمقصود : تأكيد الخبر .

ومعنى ﴿ أكبر ﴾ أنه أعظم وأهم وأكثر متعلَّقاتتِ قدرة بالقادر عليه لا يعجز عن خلق ناس يبعثهم للحساب .

فالمراد بالناس في قوله : ﴿ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ الذين يعيد الله خلقتهم كما بدأهم أول مرة ويودع فيهم أرواحهم كما أودعها فيهم أول مرة .

والخبر مستعمل في غير معناه لأن كون خلقها أكبر هو أمر معلوم وإنما أريد التذكير والتنبيه عليه لعدم جريهم على موجَب علمهم به .

(224/676)

وموقع الاستدراك في قوله : ﴿ ولكن أكثرَ النَّاسِ لا يعلَمُون ﴾ ما اقتضاه التوكيد بالقَسَم من اتضاح أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس .

فالمعنى : أن حجة إمكان البعث واضحة ولكن الذين ينكرونها لا يعلمون ، أي لا يعلمون الدليل لأنهم متلاهون عن النظر في الأدلة مقتنعون ببادىء الخواطر التي تبدو لهم فيتخذونها عقيدة دون بحث عن معارضها ، فلما جرَوا على حالة انتفاء العلم نُزلوا منزلة من لا علم لهم فلذلك نزل فعل ﴿ يعلمون ﴾ منزلة اللازم ولم يذكر له مفعول .

فالمراد بـ ﴿ أكثَرَ النَّاسِ ﴾ هم الذين يجادلون في آيات البعث وهم المشركون ، وأما الذين

علموا ذلك فهم المؤمنون وهم أقل منهم عدداً .

وإظهار لفظ ﴿ الناس ﴾ في قوله : ﴿ ولكنّ أكثَر النّاس لا يعلمون ﴾ مع أن مقتضى الظاهر الإضمار ، لتكون الجملة مستقلة بالدلالة فتصلح لأن تَسير مسير الأمثال ، فالمعنى أنهم أنكروا البعث لاستبعادهم خلق الأجسام مع أن في خلق السماوات والأرض ما لا يبقَى معه استبعاد مثل ذلك .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (58)

لما نزّلهم منزلة من لا يعلم ضرب مثلاً لهم وللمؤمنين ، فمثَل الذين يجادلون في أمر البعث مع وضوح إمكانه مَثَل الأعمى ، ومثل المؤمنين الذين آمنوا به حال البصير ، وقد علم حال المؤمنين من مفهوم صفة ﴿ أكثر الناس ﴾ لأن الأكثرين من الذين لا يعلمون يقابلهم أقلون يعلمون .

والمعنى : لا يستوي الذين اهتدوا والذين هم في ضلال ، فإطلاق الأعمى والبصير استعارة للفريقين الذين تضمنهما قوله : ﴿ ولكنّ أكثرَ النّاسِ لا يعلَمون ﴾ [غافر : 57] .

(ونفيُ الاستواء بينهما يقتضي تفضيل أحدهما على الآخر كما قدمنا في قوله تعالى : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين ﴾ الآية في سورة [النساء : 95] ، ومن المتبادر أن الأفضل هو صاحب الحال الأفضل وهو البصير إذ لا يختلف الناس في أن البصَر أشرف من العمى في شخص واحد ، ونفي الاستواء بدون متعلِّق يقتضي العموم في متعلقاته ، لكنه يُخص بالمُتعلِّقات التي يدل عليها سياق الكلام وهي آيات الله ودلائل صفاته ، ويسمى مثل هذا العموم العمومَ العرفي ، وتقدم نظيرها في سورة فاطر [19] .

وقوله : ﴿ والذينَ ءامنوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ ولا المُسِيء ﴾ زيادة بيان لفضيلة أهل الإيمان بذكر فضيلتهم في أعمالهم بعد ذكر فضلهم في إدراك أدلة إمكان البعث ونحوه من أدلة الإيمان .

والمعنى : وما يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيئون ، أي في أعمالهم كما يؤذن بذلك قوله : ﴿ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا المُسِيء ﴾ ، وفيه إيماء إلى اختلاف جزاء الفريقين وهذا الإيماء إدماج للتنبيه على الثواب والعقاب .

والواو في قوله : ﴿ والذين ءامنوا ﴾ عاطفةٌ الجملةَ على الجملة بتقدير : وما يستوي الذين آمنوا .

والواو في قوله : ﴿ ولا المُسِيء ﴾ عاطفة ﴿ المسيء ﴾ على ﴿ الذين آمنوا ﴾ عطفَ المفرد على المفرد ، فالعطف الأول عطف المجموع مثل قوله تعالى : ﴿ هو الأول

والآخر والظاهر والباطن ﴾ [الحديد : 3] .

وإنما قدم ذكر الأعمى على ذكر البصير مع أن البصر أشرف من العمى بالنسبة لذات واحدة ، والمشبهَ بالبصير أشرفُ من المشبه بالأعمى إذ المشبه بالبصير المؤمنون ، فقدم ذكر تشبيه الكافرين مراعاة لكون الأهمّ في المقام بيانَ حال الذين يجادلون في الآيات إذ هم المقصود بالموعظة .

وأما قوله : ﴿ والذين ءامنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ ولا المُسِيء ﴾ فإنما رتب فيه ذكر الفريقين على عكس ترتيبه في التشبيه بالأعمى والبصير اهتماماً بشرف المؤمنين .

(226/676)

وأعيدت (لا) النافية بعد واو العطف على النفي ، وكان العطف مغنياً عنها فإعادتها لإِفادة تأكيد نفي المساواة ومقام التوبيخ يقتضي الإِطناب ، ولذلك تُعدّ (لا) في مثله زائدة كما في "مغني اللبيب" ، وكان الظاهر أن تقع (لا) قبل (الذين آمنوا) ، فعدُل عن ذلك للتنبيه على أن المقصود عدم مساواة المسيء لمن عَمِل الصالحات ، وأن ذكر الذين آمنوا قبل المسيء للاهتمام بالذين آمنوا ولا مُقتضي للعدول عنه بعد أن قُضي حق الاهتمام بالذين سبق الكلام لأجل تمثيلهم ، فحصل في الكلام اهتمامان .

وقريب منه ما في سورة فاطر في أربع جمل : اثنتين قُدّم فيهما جانب تشبيه الكافرين ، واثنتين قُدّم فيهما تشبيه جانب المؤمنين ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ [فاطر : 19 22] .

و﴿ قليلاً ﴾ حال من ﴿ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ في قوله تعالى قبله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ، و (ما) في قوله : ﴿ مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ مصدرية وهي في محل رفع على الفاعلية .

وهذا مؤكد لمعنى قوله : ﴿ ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعْلَمُون ﴾ لأن قلة التذكر تؤول إلى عدم العلم ، والقلةُ هنا كناية عن العدم وهو استعمال كثير ، كقوله تعالى : ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ [البقرة : 88] ، ويجوز أن تكون على صريح معناها ويكون المراد بالقلة عدم التمام ، أي لا يعلمون فإذا تذكروا تذكروا تذكراً لا يتممونه فينقطعون في أثنائه عن التعمّق إلى استنباط الدلالة منه فهو كالعدم في عدم ترتب أثره عليه .

وقرأ الجمهور ﴿ يَتَذَكَّرُون بياء الغيبة جرياً على مقتضى ظاهر الكلام ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف تتذكرون ﴾ بتاء الخطاب على الالتفات ، والخطاب للذين يجادلون في آيات الله .

وكون الخطاب لجميع الأمة من مؤمنين ومشركين وأن التذكر القليل هو تذكر المؤمنين فهو قليل بالنسبة لعدم تذكر المشركين بعيد عن سياق الردّ ولا يلاقي الالتفات .

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59)

لما أُعطي إثبات البعث ما يحق من الحجاج والاستدلال ، تهيأَ المقام لاستخلاص تحقيقه كما تُستخلص النتيجة من القياس ، فأُعلن بتحقيق مجيء ﴿ الساعة ﴾ وهي ساعة البعث إذ ﴿ الساعة ﴾ في اصطلاح الإسلام علَم بالغلَبة على ساعة البعث ، فالساعة والبعث مترادفان في المآل ، فكأنه قيل : إن الذي جادل فيه المجادلون سيقع لا محالة إذ انكشفت عنه شبه الضالّين وتمويهاتُهم فصار بيّناً لا ريب فيه .

وتأكيد الخبر بـ (إنَّ) ولام الابتداء لزيادة التحقيق ، وللإِشارة إلى أن الخبر تحقق بالأدلة السابقة .

وذلك أن الكلام موجه للذين أنكروا البعث ، ولهذا لم يؤت بلام الابتداء في قوله في سورة [طه : 15] ﴿ إن الساعة آتية ﴾ لأن الخطاب لموسى عليه السلام .

وجيء باسم الفاعل في ﴿ آتية ﴾ الذي هو حقيقة في الحال ، للإِيماء إلى أنها لما تحققت فقد صارت كالشيء الحاضر المشاهد .

والمراد تحقيق وقوعها لا الإِخبار عن وقوعها .

وجملة ﴿ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ مؤكدة لجملة ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ ، ونُفِي الريب عن نفس الساعة ، والمراد نفيه عن إتيانها لدلالة قوله : ﴿ آتية ﴾ على ذلك .

ومعنى نفي الريب في وقوعها : أن دلائلها واضحة بحيث لا يُعتد بريب المرتابين فيها لأنهم ارتابوا فيها لعدم الرِوِيَّةِ والتفكر ، وهذا قريب من قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [البقرة : 2] .

(228/676)

فموقع الاستدراك الذي في قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ هو ما يثيره نفي الريب عن وقوعها من أن يتساءل متسائل كيف ينفي الريب عنها والريب حاصل لكثير من الناس ، فكان الاستدراك بقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ جواباً لذلك السؤال .

والمعنى : ولكن أكثر الناس يمرون بالأدلة والآيات وهم معرضون عن دلالتها فيبقون غيرَ مؤمنين بمدلولاتها ولو تأملوا واستنبطوا بعقولهم لظهر لهم من الأدلة ما يؤمنون بعده ، فلذلك نفي عنهم هنا وصف الإِيمان .

وهذا الاستدراك استئناف بياني ، ولولا أن (لكنَّ) يكثر أن تقع بعد واو العطف لكانت الجملة جديرة بالفصل دون عطف ، فهذا العطف تحلية لفظية .

و﴿ أكثر النَّاسِ ﴾ هم المشركون ، وهم يومئذٍ أكثر من المؤمنين جداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(229/676)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : فعل ذلك ربكم ليقضي بين عباده بالعدل فيدخل المحسن الجنة نصرة له ، والمسيء النار خذلاناً وإهانة له ، لما برز به وعده من أنه ينصر رسله وأتباعهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وقال لعباده كلهم : آمنوا لأسلمكم من غوائل تلك الدار ، عطف عليه قوله : ﴿ وقال ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بهدايتكم ووعدكم النصرة : ﴿ ادعوني ﴾ أي

استجيبوا لي بأن تعبدوني وحدي فتسألوني ما وعدتكم به من النصرة على وجه العبادة ، وهذا معنى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " الدعاء هو العبادة " فقد حصر الدعاء في العبادة سواء كانت بدعاء أو صلاة أو غيرهما ، فمن كان عابداً خاضعاً لله تعالى بسؤال أو غيره كانت عبادته دعاء ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : وحدوني اغفر لكم .

(230/676)

وعن الثوري أنه قيل له : ادع ، فقال : إن ترك الذنوب هو الدعاء : ﴿ أستجب ﴾ أي أوجد الإجابة إيجاداً عظيماً كأنه ممن يطلب ذلك بغاية الرغبة فيه ﴿ لكم ﴾ في الدنيا أي بإيجاد ما دعوتم به ، أو كشف مثله من الضر ، أو إدخاره في الآخرة ، ليظهر الفرق بين من له الدعوة ومن ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا تتكلوا على ما سبق به الوعد فتتركوا الدعاء فتتركوا العبادة التي الدعاء مخها ، فكل ميسر لما خلق له ، قال القشيري ، وقيل : الدعاء مفتاح الإجابة ، وأسنانه لقمة الحلال – انتهى – والآية بمعنى آية البقرة ﴿ أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي ﴾ [آية : 186] .

ولما كان السبب في ترك الدعاء في العادة الكبر ، فكان كأنه قيل : ولا تتركوا دعائي تكونوا مستكبرين ، علله ترهيباً في طيه ترغيب بقوله : ﴿ إن الذين يستكبرون ﴾ أي يوجدون

الكبر ، ودل على أن المراد بالدعاء العبادة بقوله : ﴿ عن عبادتي ﴾ أي عن الاستجابة لي فيما دعوت من العبادة بالمجادلة في آياتي والإعراض عن دعائي في جميع ما ينوبهم في الشدة والرخاء ﴿ سيدخلون ﴾ بوعد لا خلف فيه ﴿ جهنم ﴾ فتلقاهم جزاء على كبرهم بالتجهم والعبوسة والكراهة ﴿ داخرين ﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين ، فالآية من الاحتباك : ذكر الدعاء أولاً دليلاً على حذفه ثانياً ، والعبادة ثانياً دليلاً على حذفها أولاً .

(231/676)

ولما ختم ذلك أيضاً بأمر الساعة ، زاد في الدلالة عليه وعلى الفعل بالاختيار والحكمة التي لا يسوغ معها إهمال الخلق من غير حساب ، في دار ثواب وعقاب ، بعد الإتقان لدار العمل بالخطإ والصواب ، فقال معللاً مفتتحاً بالاسم الأعظم الذي لا يتخيل أن المسمى به يهمل المتكبرين عليه مع الإبلاغ في الإحسان إليهم ﴿ الله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال ﴿ الذي جعل لكم ﴾ لا غيره ﴿ الّيل ﴾ أي مظلماً ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ راحة ظاهرية بالنوم الذي هو الموت الأصغر ، وراحة حقيقية بالعبادة التي هي الحياة الدائمة ﴿ والنهار مبصراً ﴾ لتنتشروا فيه باليقظة التي هي إحياء في المعنى ، فالآية من الاحتباك : حذف الظلام أولاً لكونه ليس من النعم المقصودة في أنفسها لما دل عليه من الإبصار الذي هو المقصود من نعمة

الضياء المقصود في نفسه ، وحذف الانتشار لأنه بعض ما ينشأ عن نعمة الإبصار لما دل عليه من السكون الذي هو المقصود الأعظم من الليل : للراحة لمن أرادها ، والعبادة لمن اعتمدها واستزادها .

ولما كان بعض الكفرة ينسب الأفعال كما مضى للطبائع ويجعلها بغير اختيار ، قال مستأنفاً أو معللاً مؤكداً : ﴿ إن الله ﴾ أي ذا الجلال والإكرام ﴿ لذو الفضل ﴾ أي عظيم جداً باختياره ﴿ على الناس ﴾ أي كافة باختلاف الليل والنهار وما يحتويان عليه من المنافع .

(232/676)

ولما بلغت هذه الآيات من الدلالة على الوحدانية والبعث ونفى أمر الطبائع حداً قل أن يوجد في غيرها ، فكان المخالف مذموماً لذلك غاية الذم ، فكان التعميم بالذم للمخالفين واقعاً في أوفق محاله ، وكان الاسم قد يراد بعض مدلومه ، وكان المراد هنا التعميم ، أظهر للإفهام إرادة ذلك ، ولم يضمر ليتعلق الحكم بالوصف المفهم للنوس المشير إلى أن صاحبه قاصر عن درجة أول أسنان المؤمنين فيعلم أن هذا النوع مطبوع على ذلك فقال : ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ أي بما لهم من الاضطراب وعدم الثبات في لزوم الصواب ﴿ لا يشكرون ﴾ فينسبون أفعاله سبحانه إلى غيره جهلاً ، أو يعملون بما يسلب عنهم اسم الشكر من الشرك

وغيره ، ويجوز أن يكون المراد بالناس أولاً كل من يتأتى منه النوس ، وهو كل من برز من الوجود ، وبهم ثانياً الجن والإنس – والله أعلم .

ولما ثبت بآية الخافقين وآية الملوين ثبوتاً لا شك فيه أصلاً شمول القدرة بالاختيار ، قال معظماً بأداة البعد وميم الجمع : ﴿ ذلكم ﴾ أي أيها المخاطبون ! – الواحد القهار العظيم الشأن الذي علم بما ذكر من أفعاله أنه لا يشاركه أحد ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعظم المعلوم لكل أحد المتميز عن كل شيء بالأفعال التي لا يشاركه أحد ولذلك قال : ﴿ ربكم ﴾ أي المربي لكم والمحسن إليكم بقدرته واختياره المتفرد بربوبيتكم لا رب لكم سواه .

(233/676)

ولما كان في سياق الامتنان بالنعم للدلالة على الساعة التي ينكرونها ويجادلون في أمرها ، قدم الخلق على التهليل فقال : ﴿ خالق كل شيء ﴾ أي بما ثبت من تمام قدرته بإبداع الخافقين ثائبين والملوين متعاقبين دائبين ، ولا مانع له من إعادة الثقلين لأنه ﴿ لا إله إلا الله ﴾ بل كان ذلك واجباً في الحكمة ، لأن المنعم عليهم انقسموا إلى شاكر وكافر ، فوجب في الحكمة إقامة الساعة للفصل بينهم ، وجاء ذلك على ترتيب مطلع السورة ، فإن العزيز ناظر إلى كمال القدرة على الإيجاد والإعدام ، والعليم هو المتوحد بكمال الذات ، فإن

إحاطة العلم تستلزم كل كمال ، والقدرة قد لا تستلزم العلم كما للحيوانات العجم ، وهذا بخلاف ما مضى في آية الأنعام ، فإن السياق هناك لإنكار الشرك وإثبات الوحدانية بما دل عليها من عموم الخلق طبق ما مضى أيضاً في مطلعها .

ولما أنتجت هذه الأخبار – التي كل منها مقرر لما قبله بكونه كالعلة له – الوحدانية المطلقة اللازم منها كل كمال ، سبب عنها قوله منكراً مبكتاً : ﴿ فأنى ﴾ أي فكيف ومن أي وجه ﴿ تؤفكون ﴾ أي تقلبون عن وجوه الأدلة إلى أقفائها فتعبدون الأوثان وتجادلون في الساعة التي يلزم من الطعن فيها الطعن في الحكمة التي الطعن فيها طعن في الإلهية التي الطعن فيها طعن في وجود هذا الوجود ومكابرة فيه ، وذلك مؤدٍ إلى سقوط المتكلم به بكل اعتبار لمكابرته في المشاهد المحسوس ، وفي المعقول المركوز في جميع النفوس .

(234/676)

ولما كشف هذا السياق عن أن هذا الصرف أمر لا يقدم عليه عاقل ، كان كأنه قيل : هل وقع لأحد غير هؤلاء مثل هذا ؟ فأجيب بقوله : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا الصرف الغريب البعيد عن مناهيج العقلاء ﴿ يؤفك ﴾ أي يصرف صرف سيئاً – بناه للمفعول إشارة إلى تمام قدرته عليه بكل سبب كان ، ولأنه المتعجب منه ﴿ الذين كانوا ﴾

مطبوعين على أنهم ﴿ بآيات الله ﴾ أي ذي الجلال والجمال ﴿ يجحدون ﴾ أي ينكرون عناداً ومكابرة ، فدل هذا على أن كل من تكبر عن حق فأنكره مع علمه به عوقب بمسخ القلب وعكس الفهم ، فصار له الصرف عن وجوه الدلائل إلى أقفائها ديدناً بحيث يموت كافراً إن لم يتداركه الله برحمة منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 529 . 532 ﴾

(235/676)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾

(236/676)

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن القوم بالقيامة حق وصدق ، وكان من المعلوم بالضرورة أن الإنسان لا ينتفع في يوم القيامة إلا بطاعة الله تعالى ، لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات ،

ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع ، لا جرم أمر الله تعالى به في هذه الآية فقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ واختلف الناس في المراد بقوله ﴿ ادعونى ﴾ فقيل إنه الأمر بالدعاء ، وقيل إنه الأمر بالعبادة ، بدليل أنه قال بعده ﴿ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ ولولا أن الأمر بالدعاء أمر بمطلق العبادة لما بقي لقوله ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ معنى ، وأيضاً الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن كقوله ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثا ﴾ [النساء : 117] وأجيب عنه بأن الدعاء هو اعتراف بالعبودية والذلة والمسكنة ، فكأنه قيل إن تارك الدعاء إنما تركه لأجل أن يستكبر عن إظهار العبودية وأجيب عن قوله إن الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن ، بأن ترك الظاهرة لا يصار إليه إلا بدليل منفصل ، فإن قيل كيف قال : ﴿ ادعونى استجب لَكُمْ ﴾ وقد يدعى كثيراً فلا يستجاب أجاب الكعبي عنه بأن قال : الدعاء إنما يصح على شرط ، ومن دعا كذلك استجيب له ، وذلك الشرط هو أن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة ، ثم سأل نفسه فقال : فما هو أصلح يفعله بلا دعاء ، فما الفائدة في الدعاءا وأجاب : عنه من وجهين الأول : أن فيه الفزع والانقطاع إلى الله والثاني : أن هذا أيضاً وارد على الكل ، لأنه إن علم أنه يفعله فلا بدّ وأن يفعله ، فلا فائدة في الدعاء ، وإن علم أنه لا يفعله فإنه ألبتة لا يفعله ، فلا فائدة في الدعاء ، وكل ما يقولونه ههنا فهو جوابنا ، هذا تمام ما ذكره ، وعندي

فيه وجه آخر وهو أنه قال : ﴿ ادعوني استجب لَكُمْ ﴾ فكل من دعا الله وفي قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأقاربه وأصدقائه وجده واجتهاده ،

(237/676)

فهو في الحقيقة ما دعا الله إلا باللسان ، أما بالقلب فإنه معول في تحصيل ذلك المطلوب على غير الله ، فهذا الإنسان ما دعا ربه في وقت ، أما إذا دعا في وقت لا يبقى في القلب التفات إلى غير الله ، فالظاهر أنه تحصل الاستجابة ، إذا عرفت هذا ففيه بشارة كاملة ، وهي أن انقطاع القلب بالكلية عما سوى الله لا يحصل إلا عند القرب من الموت ، فإن الإنسان قاطع في ذلك الوقت بأنه لا ينفعه شيء سوى فضل الله تعالى ، فعلى القانون الذي ذكرناه وجب أن يكون الدعاء في ذلك الوقت مقبولاً عند الله ، ونرجو من فضل الله وإحسانه أن يوفقنا للدعاء المقرون بالإخلاص والتضرع في ذلك الوقت ، واعلم أن الكلام المستقصى في الدعاء قد سبق ذكره في سورة البقرة .

(238/676)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخرين ﴾ أي صاغرين وهذا إحسان عظيم من الله تعالى حيث ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء ، فإن قيل روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال حكاية عن رب العزة أنه قال : " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين " فهذا الخبر يقتضي أن ترك الدعاء أفضل ، هذه الآية تدل على أن ترك الدعاء يوجب الوعيد الشديد ، فكيف الجمع بينهما ؟ قلنا لا شك أن العقل إذا كان مستغرقاً في الثناء كان ذلك أفضل من الدعاء ، لأن الدعاء طلب للحظ والاستغراق في معرفة جلال الله أفضل من طلب الحظ ، أما إذا لم يحصل ذلك الاستغراق كان الاشتغال بالدعاء أولى ، لأن الدعاء يشتمل على معرفة عزة الربوبية وذلة العبودية ، ثم قال تعالى ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ واعلم أن تعلقه بما قبله من وجهين الأول : كأنه تعالى قال : إني أنعمت عليك قبل طلبك لهذه النعم الجليلة العظيمة ، ومن أنعم قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالأشياء القليلة بعد السؤال والثاني : أنه تعالى لما أمر بالدعاء ، فكأنه قيل الاشتغال بالدعاء لا بد وأن يكون مسبوقاً بحصول المعرفة ، فما الدليل على وجود الإله القادر ، وقد ذكر الله تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وقدرته وحكمته ، واعلم أنا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته ، إما فلكية ، وإما عنصرية ، أما الفلكيات فأقسام كثيرة أحدها : تعاقب الليل والنهار ، و (لما) كان أكثر مصالح العالم مربوطاً بهما فذكرهما الله تعالى في هذا المقام ، وبيّن أن الحكمة

في خلق الليل حصول الراحة بسبب النوم والسكون ، والحكمة في خلق النهار ، إبصار الأشياء ليحصل مكنة التصرف فيها على الوجه الأنفع ، أما أن السكون في وقت النوم سبب للراحة فبيانه من وجهين : الأول : أن الحركات توجب الإعياء من حيث إن الحركة توجب السخونة والجفاف ، وذلك

(239/676)

يوجب التألم والثاني : أن الإحساس بالأشياء إنما يمكن بإيصال الأرواح الجسمانية إلى ظاهر الحس ، ثم إن تلك الأرواح تتحلل بسبب كثرة الحركات فتضعف الحواس والإحساسات ، وإذا نام الإنسان عادت الأرواح الحساسة في باطن البدن وركزت وقويت وتخلصت عن الإعياء ، وأيضاً الليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتداركان ما حصل في النهار من الحر والجفاف بسبب ما حدث من كثرة الحركات ، فهذه هي المنافع المعلومة من قوله تعالى : ﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الليلِ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ وأما قوله ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ فاعلم أن الإنسان مدني بالطبع ، ومعناه أنه ما لم يحصل مدينة تامة لم تنتظم مهمات الإنسان في مأكوله ومشروبه وملبسه ومنكحه ، وتلك المهمات لا تحصل إلا بأعمال كثيرة ، وتلك الأعمال تصرفات في أمور ، وهذه التصرفات لا تكمل إلا بالضوء والنور حتى يميز الإنسان

بسبب ذلك النور بين ما يوافقه وبين ما لا يوافقه ، فهذا هو الحكمة في قوله ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ فإن قيل كان الواجب بحسب رعاية النظم أن يقال هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه ، أو فجعل لكم الليل ساكناً ولكنه لم يقل كذلك بل قال في الليل لتسكنوا فيه ، وقال في النهار مبصراً فما الفائدة فيه ؟ وأيضاً فما الحكمة في تقديم ذكر الليل على ذكر النهار مع أن النهار أشرف من الليل ؟ قلنا : أما الجواب عن الأول : فهو أن الليل والنوم في الحقيقة طبيعة عدمية فهو غير مقصود بالذات ، أما اليقظة فأمور وجودية ، وهي مقصودة بالذات ، وقد بيّن الشيخ عبد القاهر النحوي في "دلائل الإعجاز" أن دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليهما ، فهذا هو السبب في هذا الفرق ، والله أعلم ، وأما الجواب عن الثاني : فهو أن الظلمة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية والعدم في المحدثات مقدم على الوجود ، ولهذا السبب قال في أول سورة الأنعام

(240/676)

﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] .

واعلم أنه تعالى لما ذكر ما في الليل والنهار من المصالح والحكم البالغة قال : ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو

فَضْلٍ عَلَى الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ والمراد أن فضل الله على الخلق كثير جداً ولكنهم لا يشكرونه ، واعلم أن ترك الشكر لوجوه : أحدها : أن يعتقد الرجل أن هذه النعم ليست من الله تعالى مثل أن يعتقد أن هذه الأفلاك واجبة الوجود لذواتها وواجبة الدوران لذواتها ، فحينئذٍ هذا الرجل لا يعتقد أن هذه النعم من الله وثانيها أن الرجل وإن اعتقد أن كل العالم حصل بتخليق الله وتكوينه إلا أن هذه النعم العظيمة ، أعني نعمة تعاقب الليل والنهار لما دامت واستمرت نسيها الإنسان ، فإذا ابتلي الإنسان بفقدان شيء منها عرف قدرها مثل أن يتفق لبعض الناس والعياذ بالله أن يحبسه بعض الظلمة في آبار عميقة مظلمة مدة مديدة ، فحينئذٍ يعرف ذلك الإنسان قدر نعمة الهواء الصافي وقدر نعمة الضوء ، ورأيت بعض الملوك كان يعذب بعض خدمه بأن أمر أقواماً حتى يمنعونه عن الاستناد إلى الجدار ، وعن النوم فعظم وقع هذا التعذيب وثالثها : أن الرجل وإن كان عارفاً بمواقع هذه النعم إلا أنه يكون حريصاً على الدنيا محباً للمال والجاه ، فإذا فاته المال الكثير والجاه العريض وقع في كفران هذه النعم العظيمة ، ولما كان أكثر الخلق هالكين في أحد هذه الأودية الثلاثة التي ذكرناها ، لا جرم قال تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ ونظيره قوله تعالى :

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ﴾ [سبأ : 13] وقول إبليس ﴿ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين ﴾ [الأعراف : 17] ولما بيّن الله تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الإله القادر الرحيم الحكيم قال : ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ خالق كُلّ شَىْءٍ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ قال صاحب "الكشاف" ذلكم المعلوم المميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو أخبار مترادفة أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء لا إله إلا هو أخبار مترادفة أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وأنه لا ثاني له ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ والمراد فأنى تصرفون ولم تعدلون عن هذه الدلائل وتكذبون بها ، ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك يُؤْفَكُ الذين كَانُواْ بآيات الله يَجْحَدُونَ ﴾ يعني أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة لطلب الحق وخوف العاقبة أُفِك كما أفكوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 70 ﴾ 73.

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ الآية ؛

روى النعمان بن بشير قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " الدعاء هو العبادة " ثم قرأ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة .

وكذا قال أكثر المفسرين ؛ وأن المعنى : وحِّدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفر لكم .

وقيل : هو الذكر والدعاء والسؤال .

قال أنس : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شِسْع نعله إذا انقطع " ويقال الدعاء : هو ترك الذنوب .

وحكى قتادة أن كعب الأحبار قال : أعطيَتْ هذه الأمة ثلاثاً لم تُعْطهن أمة قبلهم إلا نبيّ : كان إذا أرسل نبيّ قيل له أنت شاهد على أمتك ، وقال تعالى لهذه الأمة : ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس ﴾ [البقرة : 143] وكان يقال للنبيّ : ليس عليك في الدين من حرج ، وقال لهذه الأمة : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] وكان يقال للنبيّ ادعني أستجب لك ، وقال لهذه الأمة : "ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" .

قلت : مثل هذا لا يقال من جهة الرأي .

وقد جاء مرفوعاً ؛ رواه ليث عن شهر بن حَوْشَب عن عبادة بن الصامت ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أعطِيت أمتي ثلاثاً لم تُعطَ إلا للأنبياء كان الله تعالى إذا بعث النبيّ قال ادعني أستجب لك وقال لهذه الأمة : "ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" وكان الله إذا بعث النبيّ قال : ما جعل عليك في الدين من حرج وقال لهذه الأمة : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] وكان الله إذا بعث النبيّ جعله شهيداً على قومه وجعل هذه الأمة شهداء على الناس " ذكره الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" .

(243/676)

وكان خالد الربعي يقول : عجيب لهذه الأمة! قيل لها : "ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" أمرهم بالدعاء ووعدهم الاستجابة وليس بينهما شرط .

قال له قائل : مثل ماذا ؟ قال : مثل قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [البقرة : 25] فهاهنا شرط ، وقوله : ﴿ وَبَشِّرِ الذين آمنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ [يونس : 2] فليس فيه شرط العمل ؛ ومثل قوله : ﴿ فادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ فهاهنا شرط ، وقوله تعالى : ﴿ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ليس فيه شرط .

وكانت الأمة تفزع إلى أنبيائها في حوائجها حتى تسأل الأنبياء لهم ذلك .

وقد قيل : إن هذا من باب المطلق والمقيد على ما تقدّم في "البقرة" بيانه .

أي "أَسْتَجِبْ لَكُمْ" إن شئت ؛ كقوله : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ ﴾ [الأنعام : 41] .

وقد تكون الاستجابة في غير عين المطلوب على حديث أبي سعيد الخدري على ما تقدّم في "البقرة" بيانه فتأمله هناك .

وقرأ ابن كثير وابن محيصن ورُوَيس عن يعقوب وعَيّاش عن أبي عمرو وأبو بكر والمفضَّل عن عاصم ﴿ سَيُدْخَلُونَ ﴾ بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسمّ فاعله .

الباقون "يَدْخُلُونَ" بفتح الياء وضم الخاء .

ومعنى ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين أذلاء وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ الليلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ ﴿ جَعَلَ ﴾ هنا بمعنى خلق ؛ والعرب تفرّق بين جعل إذا كانت بمعنى خلق وبين جعل إذا لم تكن بمعنى خلق ؛ فإذا كانت بمعنى خلق فلا تعديها إلا إلى مفعول واحد ، وإذا لم تكن بمعنى خلق عدتها إلى مفعولين ؛ نحو قوله : ﴿ إِنَّا جعلناه قُرْءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ وقد مضى هذا المعنى في غير موضع .

﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ أي مضيئاً لتبصروا فيه حوائجكم وتتصرفوا في طلب معائشكم .

﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ فضله وإنعامه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ بيّن الدلالة على وحدانيته وقدرته . ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان بعد أن تبينت لكم دلائله كذلك ؛ أي كما صرفتم عن الحق مع قيام الدليل عليه ف ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ ﴾ يصرف عن الحق ﴿ الذين كَانُواْ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(245/676)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾

أي اعبدوني أثبكم على ما روي عن ابن عباس .

والضحاك .

ومجاهد .

وجماعة .

وعن الثوري أنه قيل له : ادع الله تعالى فقال : إن ترك الذنوب هو الدعاء يعني أن الدعاء

باللسان ترجمة عن طلب الباطن وأنه إنما يصح لصحة التوجه وترك المخالفة فمن ترك الذنوب فقد سأل الحق بلسان الاستعداد وهو الدعاء الذي يلزمه الإجابة ومن لا يتركها فليس بسائل وإن دعاه سبحانه ألف مرة ؛ وما ذكر مؤيد لتفسير الدعاء بالعبادة ومحقق له فإن ترك الذنوب من أجل العبادات وينطبق على ذلك كمال الانطباق قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخرين ﴾ أي صاغرين أذلاء .

وجوز أن يكون المعنى اسألوني أعطكم وهو المروى عن السدي فمعنى قوله تعالى : ﴿ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ يستكبرون عن دعائي لأن الدعاء نوع من العبادة ومن أفضل أنواعها ، بل روى ابن المنذر .

والحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال : أفضل العبادة الدعاء وقرأ الآية ، والتوعد على الاستكبار عنه لأن ذلك عادة المترفين المسرفين وإنما المؤمن يتضرع إلى الله تعالى في كل تقلباته ، وفي إيقاع العبادة صلة الاستكبار ما يؤذن بأن الدعاء باب من أبواب الخضوع لأن العبادة خضوع ولأن المراد بالعبادة الدعاء والاستكبار إنما يكون عن شيء إذا أتى به لم يكن مستكبراً .

قال في "الكشف" : وهذا الوجه أظهر بحسب اللفظ وأنسب إلى السياق لأنه لما جعل المجادلة في آيات الله تعالى من الكبر جعل الدعاء وتسليم آياته من الخضوع لأن الداعي له تعالى الملتجىء إليه عز وجل لا يجادل في آياته بغير سلطان منه البتة ، والعطف في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ﴾ من عطف مجموع قصة على مجموع أخرى لاستئوائهما في الغرض ، ولهذا لما تم هذه القصة أعني قوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [غافر : 60-68] صرح بالغرض في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾ [غافر : 69] كما بني القصة أولاً على ذلك في قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الذين يجادلون فِى ءايات الله بِغَيْرِ سلطان ﴾ [غافر : 56] ولو تؤمل في هذه السورة الكريمة حق التأمل وجد جل الكلام مبنياً على رد المجادلين في آيات الله المشتملة على التوحيد والبعث وتبيين وجه الرد في ذلك بفنون مختلفة ، ثم انظر إلى ما ختم به السورة كيف يطابق ما بدئت من قوله سبحانه : ﴿ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ ﴾ [غافر : 4] وكيف صرح آخراً بما رمز إليه أولاً لتقضي منه العجب فهذا وجه العطف انتهى .

(247/676)

وما ذكره من أظهرية هذا الوجه بحسب اللفظ ظاهر جداً لما في الأولى من ارتكاب خلاف الظاهر قبل الحاجة إليه في موضعين في الدعاء حيث تجوز به عن العبادة لتضمنها له أو لأنه عبادة خاصة أريد به المطلق ، وفي الاستجابة حيث جعلت الإثابة على العبادة لترتبها عليها استجابة مجازاً أو مشاكلة بخلاف الثاني فإن فيه ارتكاب خلاف الظاهر وهو التجوز في موضع واحد وهو ﴿ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ ومع هذا هو بعد الحاجة فلم يكن كنزع الخف قبل الوصول إلى الماء بل قيل : لا حاجة إلى التجوز فيه لأن الإضافة مراد بها العهد هنا فتفيد ما تقدم ، لكن كونه أنسب بالسياق أيضاً مما لا يتم في نظري ، وأياً ما كان ﴿ فأستجب ﴾ جزم في جواب الأمر أي إن تدعوني أستجب لكم والاستجابة على الوجهين مشروطة بالمشيئة حسبما تقتضيه أصولنا ، وقد صرح بذلك في استجابة الدعاء قال سبحانه :

﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾ [الأنعام : 41] والاستكبار عن عبادة الله تعالى دعاء كانت أو غيره كفر يترتب عليه ما ذكر في الآية الكريمة .

وأما ترك ذلك لا عن استكبار فتفصيل الكلام فيه لا يخفى ، والمقامات في ترك الدعاء فقيل : متفاوتة فقد لا يحسن كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : " من لم يدع الله تعالى يغضب عليه " أخرجه أحمد .

وابن أبي شيبة .

والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً ، وقد يحسن كما يدل عليه ما روي من ترك الخليل عليه السلام الدعاء يوم ألقي في النار وقوله علمه بحالي يغني عن سؤالي ، وربما يقال : ترك الدعاء اكتفاء بعلم الله عز وجل دعاء والله تعالى أعلم .

وقرأ ابن كثير .

وأبو بكر .

وزيد بن علي .

وأبو جعفر ﴿ سَيَدْخُلُونَ ﴾ مبنياً للمفعول من الإدخال واختلفت الرواية عن عاصم .

، وأبي عمرو .

(248/676)

﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ لتستريحوا فيه بأن أغاب سبحانه فيه الشمس فجعله جل شأنه بارداً مظلماً وجعل عز وجل برده سبباً لضعف القوى المحركة وظلمته سبباً لهدو الحواس الظاهرة إلى أشياء أخرى جعلها أسباباً للسكون والراحة ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ يبصر فيه أو به فالنهار إما ظرف زمان للإبصار أو سبب له .

وأياً ما كان فإسناد الإبصار له بجعله مبصراً إسناد مجازي لما بينهما من الملابسة ، وفيه

مبالغة وأنه بلغ الإبصار إلى حد سرى في نهار المبصر ، ولذا لم يقل : لتبصروا فيه على طرز ما وقع في قرينه ، فإن قيل : لم لم يقل جعل لكم الليل ساكناً ليكون فيه المبالغة المذكورة وتخرج القرينتان مخرجاً واحداً في المبالغة ، قلت : أجيب عن ذلك بأن نعمة النهار أتم وأعظم من نعمة الليل فسلك مسلك المبالغة فيها ، وتركت الأخرى على الظاهر تنبيهاً على ذلك ، وقيل : إن النعمتين فرسا رهان فدل على فضل الأولى بالتقديم وعلى فضل الأخرى بالمبالغة وهو كما ترى ، وقيل : لم يقل ذلك لأن الليل يوصف على الحقيقة بالسكون فيقال : ليل ساكن أي لا ريح فيه ولا يبعد أن يكون السكون بهذا المعنى حقيقة عرفية .

فلو قيل : ساكناً لم يتميز المراد نظراً إلى الإطلاق وإن تميز نظراً إلى قرينة التقابل .

وكان رجحان هذا الأسلوب لأن الكلام المحكم الواضح بنفسه من أول الأمر هو الأصل لا سيما في خطاب ورد في معرض الامتنان للخاصة والعامة ، وهم متفاوتون في الفهم والدراية الناقصة والتامة ، وفي "الكشف" لما لم يكن الإبصار علة غائية في نفسه بل العلة ابتغاء الفضل كما ورد مصرحاً به في سورة القصص بخلاف السكون والدعة في الليل صرح بذلك في الأول ورمز في الثاني مع إفادة نكتة سرية في الإسناد المجازي .

وقال الجلبي : إذا حملت الآية على الاحتباك ، وقيل : المراد جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً لتنتشروا فيه ولتبتغوا من فضل الله تعالى فحذف من الأول بقرينة الثاني ومن الثاني بقرينة الأول لم يحتج إلى ما ذكر في تعليل ترك المبالغة في القرينة الأولى ، وهذا هو المشهور في الآية والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ ﴾ لا يوازيه فضل ولقصد الإشعار به لم يقل المفضل ﴿ عَلَى الناس ﴾ برهم وفاجرهم ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواقع النعم ، وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم ، وذلك من إيقاعه على صريح اسمهم الظاهر الموضوع موضع الضمير الدال على أنه من شأنهم وخاصتهم في الغالب .

﴿ ذلكم ﴾ المتصف بالصفات المذكورة المقتضية للألوهية والربوبية ﴿ الله رَبُّكُمْ خالق كُلِّ شَىْءٍ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ أخبار مترادفة تخصص اللاحقة السابقة وتقلل اشتراكها في المفهوم نظراً إلى أصل الوضع وتقررها ، وجوز في بعضها الوصفية والبدلية ، وأخر ﴿ خالق كُلِّ شَىْءٍ ﴾ عن ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 102] في آية سورة الأنعام ، وقدم هنا لما أن المقصود ههنا على ما قيل الرد على منكري البعث فناسب تقديم ما يدل عليه ، وهو أنه منه سبحانه وتعالى مبدأ كل شيء فكذا إعادته .

وقرأ زيد بن علي ﴿ خالق ﴾ بالنصب على الاختصاص أي أعني أو أخص خالق كل شيء فيكون ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ استئنافاً مما هو كالنتيجة للأوصاف المذكورة فكأنه قيل

: الله تعالى متصف بما ذكر من الصفات ولا إله إلا من اتصف بها فلا إله إلا هو ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف ومن أي جهة تصرفون من عبادته سبحانه إلى عبادة غيره عز وجل .

وقرأ طلحة في رواية ﴿ يُؤْفَكُونَ ﴾ بياء الغيبة .

(250/676)

﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الذين كَانُواْ بآيات الله يَجْحَدُونَ ﴾ أي مثل ذلك الإفك العجيب الذي لا وجه له ولا مصحح أصلاً يؤفك كل من جحد بآياته تعالى أي آية كانت لا إفكاً آخر له وجه ومصحح في الجملة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(251/676)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ﴾ أيها الناس .

﴿ ادْعُونِى ﴾ وحدوني واعبدوني .

﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ؛ أي : أثبكم بقرينة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِى ﴾ يتعظمون عن طاعتي ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ﴾ حال كونهم ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ ؛ أي : صاغرين أذلاء فإن الدخر

وإن فسر بالسؤال كان الاستكبار الصارف عنه منزلاً منزلة الاستكبار عن العبادة ، فأقيم الثاني مقام الأول للمبالغة .

أو المراد بالعبادة الدعاء ، فإنه من أفضل أبوابها ، فأطلق العام على الخاص مجازاً .

يقال : ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة ادعوني بلا خفاء أستجب لكم بالوفاء ادعوني بلا خطأ ، أستجب لكم بالعطاء ، ادعوني بشرط الدعاء ، وهو الأكل من الحلال .

قيل : الدعاء مفتاح الحاجة وأسنانه لقمة الحلال .

قال الحكيم الترمذي قدس سره : من دعا الله ، ولم يعمر قبل ذلك سبيل الدعاء بالتوبة والإنابة وأكل الحلال واتباع السنن ومراعاة السر ، كان دعاؤه مردوداً ، وأخشى أن يكون جوابه الطرد واللعن .

يقال : كان من دعاه استجاب له إما بما سأله ، أو بشيء آخر هو خير له منه .

ويقال : الكافر ليس يدعوه حقيقة ؛ لأنه إنما يدعو من له شريك ، والله تعالى لا شريك له .

وكذا المعطلة ؛ لأنهم إنما يعبدون إلهاً لا صفات له في الحياة والسمع والبصر والكلام والقدرة والإرادة بزعمهم ، فهم لا يعبدون الله تعالى ، وكذا المشبهة إنما يدعون إلهاً له

جوارح وأعضاء ، والله تعالى منزه عن ذلك ؛ فإنه ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

(252/676)

قال الشافعي رحمه الله : من انتهض لطلب مدبره ؛ فإن اطمأن إلى موجود ينتهي إليه فكره ، فهو مشبه ، وإن اطمأن إلى نفي محض ، فهو معطل ، وإن اطمأن إلى موجود واعتراف بالعجز عن إدراكه ، فهو موحد ، فأهل السنة يثبتون تعالى صفات ثبوتية وينزهونه عما لا يليق به ، فهم إنما يدعون الله تعالى ، فما من مؤمن يدعو الله ويسأله شيئاً إلا أعطاه إما في الدنيا وإما في الآخرة .

ويقول : هذا ما طلبت في الدنيا ، وقد ادخرته لك إلى هذا اليوم حتى يتمنى العبد أنه ليته لم يعط شيئاً في الدنيا .

ويقال : لم يوفق العبد للدعاء إلا لإرادة الله إجابته ، لكن وقوع الإجابة حقيقة ، إنما يكون في الزمان المتعين للدعاء كالسلطان إذا كان في وقت الفرح والاستبشار لا يرد السائل البتة .

قال الفضل بن عياض والناس وقوف بعرفات : ما تقولون لو قصد هؤلاء الوفد بعض الكرماء يطلبون منه دانقاً أكان يردهم ، فقالوا : لا .

فقال : والله للمغفرة في جنة كرم الله أهون على الله من الدانق في جنة كرم ذلك الرجل ، فعرفات وزمان الوقوف من مظان الإجابة .

وكذا جميع أمكنة العبادات وأوقات الطاعات ؛ لأن الله تعالى إذا رأى عبده حيث أمر رضي عنه واستجاب دعاءه ، ونعم ما قال سفيان حيث قال بعضهم : ادع الله ، فقال : ترك الذنوب هو الدعاء .

قال بعض العارفين بالله : الصلاة أفضل الحركات والصوم أفضل السكنات والتضرع في هياكل العبادات يحل ما عقدته الأفلاك الدائرات .

ولا بد من حسن الظن بالله .

حكي عن بعض البله ، وهو في طواف الوداع أنه قال له رجل وهو يمازحه : هل أخذت من الله براءتك من النار ، فقال الأبله له : وهل أخذ الناس ذلك ، فقال : نعم ، فبكى ذلك الأبله ، ودخل الحجر وتعلق بأستار الكعبة ، وجعل يبكي ويطلب من الله أن يعطيه كتابه بعتقه من النار ، فجعل أصحابه والناس يطوفون يعرفونه أن فلاناً مزح معك ، وهو لا يصدقهم ،

بل بقي مستمراً على حاله ، فبينما هو كذلك سقطت عليه ورقة من طرف الميزاب فيها براءته وعتقه من النار فسر بها وأوقت الناس عليها ، وكان من آية ذلك الكتاب أنه يقرأ من كا ناحية على السواء ، لا يتغير كلما قلبت الورقة انقلبت الكتابة لانقلابها ، فعلم الناس أنه من عند الله .

قال في "ترويح القلوب" : الأدب في ابتداء كل توجه أو دعاء أو اسم التوبة .

وذكر محامد الله ، والثناء عليه والتشفع بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والصلاة عليه ، وهو مفتاح باب السعادة ، وأكل الحلال ، وهو الترياق المجرب والتبري من الحول والقوة وترك الالتجاء لغير الله وحسن الظن بالله ، وجمع الهمة وحضور القلب وغاية الدعاء ، إظهار الفاقة ، وإلا فالله يفعل ما يريد :

في الحديث : "إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها ، وإذا فرغتم فامسحوا بها وجوهكم" ، "وما سئل الله شيئاً أحب إليه من أن يسأل العافية" .

كما في "كشف الأسرار" : ومنه عرف أن مسح اليدين على الوجه عقيب الدعاء سنة ، وهو الأصح كما في "القنية" .

قال في "الأسرار المحمدية" : كان عليه السلام يأمر أصحابه بمسح الوجه باليدين بعد الفراغ من الدعاء ، ويحرض عليه .

وسر ذلك أن الإنسان حال دعائه متوجه إلى الله تعالى بظاهره وباطنه ، ولذا يشترط حضور القلب فيه ، وصحة الاستحضار فسر الرفع والمسح أن اليد الواحدة تترجم عن توجهه بظاهره ، واليد الأخرى عن توجهه بباطنه ، واللسان مترجم عن جملته ومسح الوجه هو التبرك ، والتنبيه على الرجوع إلى الحقيقة الجامعة بين الروح والبدن ؛ لأن وجه الشيء حقيقة ، والوجه الظاهر مظهرها ، والمستحب أن يرفع يديه عند الدعاء إلى حذاء صدره .

كذا فعله النبي عليه السلام .

كما رواه ابن عباس رضي الله عنهما ، والأفضل أن يبسط كفيه ويكون بينهما فرجة ، وإن قلت : ولا يضع إحدى يديه على الأخرى ، فإن كان وقت عذر أو برد ، فأشار بالمسبحة قام مقام بسط كفيه ، والسنة أن يخرج بدنه حين الدعاء من كميه .

(255/676)

قال سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي قدس سره : دعوت الله ليلة ، فأخرجت إحدى يدي ، والأخرى ما قدرت على إخراجها من شدة البرد ، فنعست ، فرأيت في منامي أن

يدي الظاهر مملوءة نوراً ، والأخرى فارغة ، فقلت : ولم ذلك يا رب ، فنوديت : أن اليد التي خرجت للطلب ملأناها ، والتي توارت حرمت .

ثم إن قوله : ادعوني أستجب لكم .

يشير إلى أن معنى ادعوني : اطلبوا مني ؛ أي : لا تطلبوا من غيري ، فإن من كنت له يكون له ما كان لي .

وإن من يطلبني يجدني .

كما قال : إن من طلبني وجدني .

قال الشيخ سعدي :

خلاف طريقت بود كا وليا

تمنا كنند از خدا جز خدا

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الداعين العابدين له بالإخلاص .

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ ولتستريحوا ، فإن الليل لكونه بارداً رطباً تضعف فيه القوى المحركة ، ولكونه مظلماً يؤدي إلى سكون الحواس ، فتستريح النفس والقوى والحواس بقلة أشغالها وأعمالها ، كما قال ابن هيصم : جعل الليل مناسباً للسكون من الحركة ؛ لأن الحركة على وجهين : حركة طبع من الحرارة ، وحركة اختيار من الخطرات المتتابعة بسبب الحواس ، فخلق الليل مظلماً لتنسد الحواس وبارداً لتسكن الحركة ، ولذا

قيل للبرد القر ؛ لأجل أن البرد يقتضي السكون والحر الحركة .

﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ؛ أي : مبصراً فيه أو به ، يعني : يبصر به المبصرون الأشياء ، ولكونه حاراً يقوي الحركات في اكتساب المعاش ، فإسناد الإبصار إلى النهار مجاز فيه مبالغة ، ولقصد المبالغة عدل به عن التعليل إلى الحال ؛ بأن قال : مبصراً دون لتبصروا فيه أو به ، يعني : أن نفس النهار لما جعل مبصراً فهم أن النهار لكمال سببيته للإبصار وكثرة آثار القوة الباصرة فيه ، جعل كأنه هو المبصر ، فإن قيل : فلم يسلك هناك سبيل المبالغة .

(256/676)

قلنا : لأن نعمة النهار لشبهها بالحياة أتم ، وأولى من نعمة الليل التي تشبه الموت ، فكانت أحق بالمبالغة إذ المقام مقام الامتنان ؛ ولأن الليل يوصف بالسكون لسكون هوائه وصفا مجازياً متعارفاً ، فسلوك سبيل المبالغة فيه يوقع الاشتباه ، كما أشير إليه في "الكشاف" ، ثم إذا حملت الآية على الاحتباك .

وقيل : المراد جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً لتنتشروا فيه ولتبتغوا من فضل الله ، فحذف من الأول بقرينة الثاني .

ومن الثاني بقرينة الأول ، لم يحتج إلى ما ذكر .

كذا أفاده سعدي المفتي .

قال بعضهم : جعل الليل لتسكنوا فيه إلى روح المناجاة والنهار مبصراً لتبصروا فيه بوادي القدرة .

وفيه إشارة إلى ليل البشرية ليسكن أهل الرياضات والمجاهدات فيه إلى استرواح القلوب ساعة فساعة ، لئلا يمل من مداومة الذكر .

والتعبد وحمل أعباء الأمانة ، وإلى نهار الروحانية لجعله مظهراً للجد والاجتهاد في الطلب والتصبر على التعب ، وسكون الناس في الليل على أقسام .

أهل الغفلة يسكنون إلى استراحة النفوس والأبدان .

وأهل الشهوة يسكنون إلى أمثالهم من الرجال والنسوان .

وأهل الطاعة يسكنون إلى حلاوة أعمالهم وبسطهم واستقلالهم وأهل المحبة يسكنون إلى أنين النفوس وحنين القلوب ، وضراعة الأسرار واشتعال الأرواح بنار الشوق ، وهم يعدمون القرار في ليلهم ونهارهم ، أولئك أصحاب الاشتياق أبداً في الاحتراق :

هر كه از درد خدا آگاه شد

ذكر وفكرش دائما الله شد

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ ﴾ عظيم .

﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ بخلق الليل والنهار لا يوازيه فضل ولا يدانيه .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ : تكرير الناس لتنصيص الكفر أن بهم بإيقاعه على صريح اسمهم الظاهر الموضوع موضع الضمير الدال على أن ذلك كان شأن الإنسان ، وخاصته في الغالب ؛ أي : لا يشكرون فضل الله وإحسانه لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواضع النعم ؛ أي : رفعة شأنها وعلو قدرها ، وإذا فقدوا شيئاً منها يعرفون قدرها مثل أن يتفق لبعض .

والعياذ بالله أن يحسبه بعض الظلمة في بئر عميق مظلم مدة مديدة ؛ فإنه حينئذ يعرف قدر نعمة الهواء بالصافي وقدر نعمة الضوء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 8 صـ 271. 276 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾

لما كانت المجادلة في آيات الله تشمل مجادلتهم في وحدانية الإلهية كما دل عليه قوله الآتي ، ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون اللَّه قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ﴾ [غافر : 73 ، 74] ، فجَعل ﴿ لم نكن ندعوا ﴾ نقيض ما قيل لهم ﴿ أين ما كنتم تشركون ﴾ ، وتشمل المجادلَة في وقوع البعث كما دل عليه قوله بعدَ هذه ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات اللَّه أنى يصرفون ﴾ إلى قوله : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ [غافر : 69 71] الآية ، أُعقب ذكر المجادلة أولاً بقوله : ﴿ لَخَلق السموات والأرضِ أكْبرُ من خَلقِ النَّاس ﴾ [غافر : 57] وذلك استدلال على إمكان البعث ، ثم عطف عليه قوله : ﴿ وقَالَ ربُّكم ادعُوني أستَجِب لكُم ﴾ الآية تحذيراً من الإشراك به ، وأيضاً لما ذُكر أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بدعاء الله وحده أمراً مفرّعاً على توبيخ المشركين بقوله : ﴿ ذلكم بأَنَّه إذَا دُعيَ الله وحْدَه كَفَرتم ﴾ [غافر : 12] وعلى قوله عقب ذلك : ﴿ ومَا يتذكَّرُ إلاَّ مَن يُنيب ﴾ [غافر : 13] وانتقَل الكلام أثر ذلك إلى الأَهمّ وهو الأمر بإنذار المشركين بقوله : ﴿ وأنذِرْهُم يومَ الأزِفَة ﴾ [غافر : 18] الخ ، وتتابعت الأغراض حتى استوفت مقتضاها ، عاد الكلام الآن إلى ما يشمل عبادة المؤمنين الخالصةَ لله تعالى وهو أيضاً متصل بقوله : ﴿ ومَا دَعاؤُا الكافرين إلاَّ في ضلال ﴾ [غافر : 50] .

فلما تقدم ذكر الدعاء بمعنييه : معنى العبادة ، ومعنى سُؤال المطلوب ، أردف بهذا الأمر الجامع لكلا المعنيين .

(259/676)

والقول المخبَر عنه بفعل : ﴿ قال ربكم ﴾ يجوز أن يراد به كلام الله النفسي ، أي ما تعلقت إرادة الله تعلقاً صلاحياً ، بأن يقوله عند إرادة تكوينه ، ويجوز أن يراد القول اللفظي ويكون التعبير بـ (قال) الماضي إخباراً عن أقوال مضت في آيات قبل نزول هذه الآية مثل قوله : ﴿ فادعوا اللَّه مخلصين له الدين ﴾ [غافر : 14] بخلاف قوله : ﴿ أجيب دعوة الداعِ إذ دعان ﴾ [البقرة : 186] فإنه نزل بعد هذه الآية ، ويجوز أن يكون الماضي مستعملاً في الحال مجازاً ، أي يقول ربكم : ادعوني .

والدعاء يطلق بمعنى النداء المستلزم للاعتراف بالمُنَادَى ، ويطلق على الطلب وقد جاء من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ما فيه صلاحية معنى الدعاء الذي في هذه الآية لما يلائم المعنيين في حديث النعمان بن بشير قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " الدعاء هو العبادة " ثم قرأ ﴿ وقَالَ ربُّكم ادعُوني أستَجِب لكم إنَّ الذِّين يستَكبرون عَن عبادتي سيَدخلُون جهنَّم داخِرين ﴾ رواه الترمذي .

وقال : هذا حديث حسن صحيح ، فإن قوله : "الدعاء هو العبادة" يقتضي اتحاد الحقيقتين فإذا كان الدعاء هو العبادة كانت العبادة هي الدعاء لا محالة .

فالدعاء يطلق على سؤال العبد من الله حاجته وهو ظاهر معناه في اللغة ، ويطلق على عبادة الله على طريق الكناية لأن العبادة لا تخلو من دُعاء المعبود بنداءِ تعظيمه والتضرع إليه ، وهذا إطلاق أقل شيوعاً من الأول ، ويراد بالعبادة في اصطلاح القرآن إفراد الله بالعبادة ، أي الاعتراف بوحدانيته .

والاستجابة تطلق على إعطاء المسؤول لمن سأله وهو أشهر إطلاقها وتطلق على أثر قبول العبادة بمغفرة الشرك السابق وبحصول الثواب على أعمال الإِيمان فإفادة الآية على معنى طلب الحاجة من الله يناسب ترتب الاستجابة على ذلك الطلب معلقاً على مشيئة الله أو على استيفاء شروط قبول الطلب ، وإعطاء خير منه في الدنيا ، أو إعطاء عوض منه في الآخرة .

(260/676)

وإفادتها على معنى إفراد الله بالعبادة ، أي بأن يتوبوا عن الشرك ، فترتب الاستجابة هو قبول ذلك ، فإن قبول التوبة من الشرك مقطوع به .

فلما جمعت الآية بين الفعلين على تفاوت بين شيوع الإِطلاق في كليهما علمنا أن في المعنى المراد ما يشبه الاحتباك بأن صرح بالمعنى المشهور ، في كلا الفعلين ثم أعقب بقوله : ﴿ إنَّ الذين يَسْتكبرون عَن عِبادي ، ﴾ فعلمنا أن المراد الدعاء والعبادة ، وأن الاستجابة أريد بها قبول الدعاء وحصول أثر العبادة .

ففعل ﴿ ادعوني ﴾ مستعمل في معنييه بطريقة عموم المشترك .

وفعل ﴿ أستجب ﴾ مستعمل في حقيقته ومجازه ، والقرينة ما علمتَ ، وذلك من الإِيجاز والكلامِ الجامع .

وتعريف الله بوصف الرب مضافاً إلى ضمير المخاطبين لما في هذا الوصف وإضافتِه من الإِيماء إلى وجوب امتثال أمره لأن من حق الربوبية امتثال ما يأمر به موصوفها لأن المربوبَ محقوق بالطاعة لربه ، ولهذا لم يعرج مع هذا الوصف على تذكير بنعمته ولا إشارة إلى كمالات ذاته .

وجملة ﴿ إنَّ الذين يَسْتكبرون عن عِبادَتي سيدخلون جهنَّم ﴾ تعليل للأمر بالدعاء تعليلاً يفيد التحذير من إباية دعاء الله حين الإِقبال على دعاء الأصنام ، كما قال تعالى : ﴿ ذلكم بأَنَّه إذا دُعِي الله وحْدَه كفرتم وإن يُشرك به تُؤْمنوا ﴾ [غافر : 12] وكان المشركون لا يضرعون إلى الله إلا إذا لم يتوسموا استجابة شركائهم ، كما قال تعالى : ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ [الإسراء : 67] .

ومعنى التعليل للأمر بالدعاء بهذا التحذير : أن الله لا يحب لعباده ما يفضي بهم إلى العذاب ، قال تعالى : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ [الزمر : 7] ففي الآية دليل على طلب الله من عباده أن يدعوه في حاجاتهم .

ومشروعية الدعاء لا خلاف فيها بين المسلمين وإنما الخلاف في أنه ينفع في رد القدر أو لا ؟ وهو خلاف بيننا وبين المعتزلة .

(261/676)

وليس في الآية حجة عليهم لأنهم تأولوا معنى ﴿ أستجِبْ لكم ﴾ ، وتقدم قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ الآية في سورة [البقرة : 186] ، وفي الإتيان بالموصول إيماء إلى التعليل .

و ﴿ داخرين ﴾ حال من ضمير ﴿ سيدخلون ﴾ أي أذلة ، دخَر كمنَع وفرِح : صغر وذلّ ، وتقدم قوله : ﴿ سجداً للَّه وهم داخرون ﴾ في سورة [النحل : 48] .

وقرأ الجمهور ﴿ سيدخلون ﴾ بفتح التحتية وضم الخاء .

وقرأه أبو جعفر ورويس عن يعقوب بضم التحتية وفتح الخاء على البناء للنائب ، أي سيدخلهم ملائكة العذاب جهنم .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا

يجوز أن يكون اسم الجلالة بدلاً من ﴿ ربكم ﴾ في ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ﴾ [غافر : 60] اتبع ﴿ ربكم ﴾ بالاسم العلم ليُقضَى بذلك حقّان : حق استحقاقه أن يطاع بمقتضى الربوبية والعبودية ، وحقُّ استحقاقه الطاعة لصفات كماله التي يجمعها اسم الذات .

ولذلك لم يؤت مع وصف الرب المتقدم بشيء من ذكرِ نعمِهِ ولا كمالاته اجتزاء بمقتضى حق الربوبية ، وذكر مع الاسم العلَم بعض إنعامه وإفضاله ثم وُصف الاسم بالموصول وصلته إشارةً إلى بعض صفاته ، وإيماءً إلى وجه الأمر بعبادته ، وتكون الجملة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن تقوية الأمر بدعائه .

ويجوز أن يكون اسم الجلالة مبتدأ والموصول صفة له ويكون الخبر قوله : ﴿ ذلكم الله ربُّكم ﴾ [غافر : 64] ويكون جملة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ ﴾ معترضة ، أو أن يكون اسم الجلالة مبتدأ والموصولُ خبراً .

(262/676)

واعتبار الجملة مستأنفة أحسن من اعتبار اسم الجلالة بدلاً لأنه أنسب بالتوقيف على سوء شكرهم ، وبمقام تعداد الدلائل وأسعد بقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا

﴾ [غافر : 64] ، فتكون الجملة واقعة موقع التعليل لجملة ﴿ إنَّ الذين يستَكْبِرون عن عِبَادتي سيدخلون جَهنَّم دَاخِرِين ﴾ [غافر : 60] ، أي تسببوا لأنفسهم بذلك العقاب لأنهم كفروا نعمة الله إذ جعل لهم الليل والنهار .

وعلى هذه الاعتبارات كلها فقد سجلت هذه الآية على الناس تقسيمهم إلى : شاكر نعمة ، وكفورها ، كما سجلت عليهم الآية السابقة تقسيمهم إلى : مؤمن بوحدانية الله ، وكافر بها .

وهذه الآية للتذكير بنعمة الله تعالى على الخلق كما اقتضاه لام التعليل في قوله : ﴿ أَسْتَجِبْ ﴾ واقتضاه التذييل بقوله : ﴿ إنَّ الله لَذُو فَضْلٍ على النَّاسِ ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرون .

﴾ وأدمج في التذكير بالنعمة استدلال على انفراده تعالى بالتصرف بالخلق ، والتدبير الذي هو مُلازم حقيقة الإلهية .

وابتدىء الاستدلال بدلائل الأكوان العلوية وآثارها الواصلة إلى الأكوان السفلية ، وهي مظهر النعمة بالليل والنهار فهما تكوينان عظيمان دالاّن على عظيم قدرة مُكونهما ومنظِّمهما وجاعلهما متعاقبين ، فنيطت بهما أكثر مصالح هذا العالم ومصالح أهله ، فمن مصالح العالم حصول التعادل بين الضياء والظلمة ، والحرارةِ والبرودة لتكون الأرض لائقة بمصالح مَن عليها فتنبت الكلأ وتنضج الثمار ، ومن مصالح سكان العالم سكون الإنسان

والحيوان في الليل لاسترداد النشاط العصبي الذي يُعييه عمل الحواس والجسد في النهار ، فيعود النشاط إلى المجموع العصبي في الجسد كله وإلى الحواس ، ولولا ظلمة الليل لكان النوم غير كامل فكانَ عود النشاط بطيئاً وواهناً ولعاد على القوة العصبية بالانحطاط والاضمحلال في أقرب وقت فلم يتمتع الإنسان بعمر طويل .

(263/676)

ومنها انتشار الناس والحيوان في النهار وتبيّن الذوات بالضياء ، وبذلك تتم المساعي للناس في أعمالهم التي بها انتظام أمر المجتمع من المدن والبوادي ، والحضر والسفر ، فإن الإنسان مدني بالطبع ، وكادح للعمل والاكتساب ، فحاجته للضياء ضرورية ولولا الضياء لكانت تصرفات الناس مضطربة مختبطة .

وللتنويه بشأن إبصار الناس في الضياء وكثرة الفوائد الحاصلة لهم من ذلك أُسند الإِبصار إلى النهار على طريقة المجاز العقلي لقوة الملابسة بين الأفعال وزمانها ، فأسند إبصار الناس إلى نفس النهار لأنه سبب بعضه وسبب كمال بعض آخر .

فأما نعمة السكون في الليل فهي نعمة واحدة هي رجوع النشاط .

وفي ذكر الليل والنهار تذكير بآية عظيمة من المخلوقات وهي الشمس التي ينشأ الليل من

احتجاب أشعتها عن نصف الكرة الأرضية وينشأ النهار من انتشار شعاعها على النصف المقابل من الكرة الأرضية ، ولكن لما كان المقصد الأول من هذه الآية الامتنان ذَكَر الليل والنهار دون الشمس ، وقد ذكرت الشمس في آيات أخرى كان الغرض الأهمّ منها الدلالة على عظيم القدرة والوحدانية كقوله : ﴿ والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ [الأنعام : 96]

ودلت مقابلةُ تعليل إيجاد الليل بعلة سكون الناس فيه ، بإسناد الإِبصار إلى ذات النهار على طريقة المجاز العقلي وإنما المبصرون الناس في النهار ، على احتباك إذ يفهم من كليهما أن الليل ساكن أيضاً ، وأن النهار خُلق ليُبصِرَ الناسُ فيه إذ المنة بهما سواء ، فهذا من بديع الإِيجاز مع ما فيه من تفنن أسلوبي الحقيقة والمجاز العقلي .

ولم يعكس فيُقَلْ : جَعل لكم الليل ساكناً والنهار لتبصروا فيه ، لئلا تفوت صراحة المراد من السكون كيلاَّ يُتوهم أن سكون الليل هو شدة الظلام فيه كما يقال : ليل سَاج ، لقلة الأصوات فيه .

وتقدم الكلام على الليل والنهار في سورة [البقرة : 164] عند قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴾ ، وفي مواضع أخرى .

وجملة ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ على النَّاسِ ﴾ اعتراض هو كالتذييل لجملة ﴿ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنوا فِيه ﴾ لأن الفضل يشمل جعل الليل والنهار وغير ذلك من النعم ، ولأن ﴿ الناس ﴾ يعمّ المخاطبين بقوله : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ﴾ وغيرَهم من الناس .

وتنكير ﴿ فضل ﴾ للتعظيم لأن نعم الله تعالى عظيمة جليلة ولذلك قال : ﴿ لَذُو فَضْلٍ ﴾ ولم يقل : لمتفضل ، ولا لَمُفْضِل ، فعُدل إلى إضافة (ذو) إلى ﴿ فضل ﴾ لتأتِّي التنكير المشعر بالتعظيم .

وعدل عن نحو : له فضل ، إلى ﴿ لَذُو فَضْلٍ ﴾ لما يدل عليه (ذو) من شرف ما يضاف هو إليه .

والاستدراك بـ ﴿ لكن ﴾ ناشىء عن لازم ﴿ ذو فضل على الناس ﴾ لأن الشأن أن يشكر الناس ربّهم على فضله فكان أكثرهم كافراً بنعمه ، وأيّ كفر للنعمة أعظم من أن يتركوا عبادة خالقهم المتفضلِ عليهم ويعبدوا ما لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً .

وخرج بـ ﴿ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ الأقلُّ وهم المؤمنون فإنهم أقل ﴿ ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ [المائدة : 100] .

والعدول عن ضمير (الناس) في قوله : ﴿ ولكن أكثر النَّاسِ لا يَشْكُرون ﴾ إلى الاسم

الظاهر ليتكرر لفظ الناس عند ذكر عدم الشكر كما ذكر عند التفضل عليهم فيسجل عليهم الكفران بوجه أصرح.

وقد علمت مما تقدم وجه اختلاف المنفيَّات في قوله: ﴿ ولكنَّ أكثر النَّاسِ لا يعْلَمُون ﴾ [غافر: 57] وقوله: ﴿ ولكِنَّ أكثر النَّاس لا يؤمنون ﴾ [غافر: 59] وقوله: ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾، فقد أُتبع كل غرض أريد إثباته بما يناسب حال منكريه.

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62)

(265/676)

اتصل الكلام على دلائل التفرد بالإلهية من قوله: ﴿ ذلكم الله ربُّكُم خالق كلِّ شَيءٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ مُخْلِصين له الدِّينَ ﴾ [غافر: 62 65] اتصال الأدلة بالمستدل عليه.

والإشارة بـ ﴿ ذلكم ﴾ إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿ الله الَّذِي جَعَلَ لَكُم اللَّيْلَ لِتَسْكنوا فِيه ﴾ [غافر: 61].

وعدل عن الضمير إلى اسم الإشارة لإفادة أنه تعالى معلوم متميز بأفعاله المنفرد بها بحيث إذا ذكرت أفعاله تميز عما سواه فصار كالمشاهد المشار إليه، فكيف تلتبس إلهيته بإلهية مزعومة للأصنام فليست للذين أشركوا به شبهة تلبِّس عليهم ما لا يفعل مثل فعله، أي

ذلكم ربكم لا غيره وفي اسم الإِشارة هذا تعريض بغباوة المخاطبين الذين التبست عليهم حقيقة إلهيته .

وقوله : ﴿ اللهُ ربُّكم خالق كل شَيْءٍ لا إله إلا هُو ﴾ أخبار أربعة عن اسم الإِشارة ، ابتدىء فيها بالاسم الجامع لصفات الإِلهية إجمالاً ، وأردف بـ ﴿ ربكم ﴾ أي الذي دبر خلق الناس وهيّأ لهم ما به قوام حياتهم .

ولما كان في معنى الربوبية من معنى الخلق ما هو خَلْق خاص بالبشر بأنه خالق الأشياء كلها كما خلقهم ، وأردف بنفي الإِلهية عن غيره فجاءت مضامين هذه الأخبار الأربعة مترتبة بطريقة الترقّي ، وكان رابعها نتيجة لها ، ثم فرع عليها استفهام تعجيبي من انصرافهم عن عبادته إلى جانب عبادة غيره مع وضوح فساد إعراضهم عن عبادته .

و﴿ أَنَّى ﴾ اسم استفهام عن الكيفية ، وأصله استفهام عن المكان فإذا جعلوا الحالة في معنى الجانب ومثار الشيء استفهموا بـ (أنّى) عن الحالة ويشعر بذلك قوله تعالى : ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ في سورة [الأنعام : 101] .

و﴿ تؤفكون ﴾ تُصرفون ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ قاتلهم اللَّه أَنّى يؤفكون ﴾ في سورة [براءة : 30] ، وبناؤه للمجهول لإِجمال بسبب إعراضهم إذ سيُبين بحاصل الجملة بعده .

كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63)

هذه الجملة معترضة بمنزلة التعليل لمضمون الجملة التي قبلها وهو التعجيب من انصرافهم عن عبادة ربهم خالقهم وخالق كل شيء فإن في تعليل ذلك ما يبين سبب التعجيب ، فجيء في جانب المأفوكين بالموصول لأن الصلة تومىء إلى وجه بناء الخبر وعلتِه ، أي أن استمرارهم على الجحد بآيات الله دون تأمل ولا تدبّر في معانيها ودلائلها يَطبع نفوسهم على الانصراف عن العلم بوجوب الوحدانية له تعالى .

فالإِشارة بذلك إلى الإِفك المأخوذ من فعل ﴿ تؤفكون ﴾ [غافر : 62] أي مثل إفككم ذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون .

فيجوز أن يكون المراد بالذين كانوا بآياتِ الله يَجْحَدون ﴾ المخاطبين بقوله : ﴿ ذلكم الله ربُّكم ﴾ [غافر : 62] ، ويكون الموصول وصلته إظهاراً في مقام الإِضمار ، والمعنى : كذلك تؤفكون ، أي مثل أَفككم تُؤفكون ، ويكون التشبيه مبالغة في أن إفكهم بلغ في كنه الأَفك النهاية بحيث لو أراد المقرِّب أن يقربه للسامعين بشبيه له لم يجد شبيهاً له أوضح منه وأجلى في ماهيته فلا يسعه إلا أن يشبهه بنفسه على الطريقة المألوفة المبينة في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] ، وبذلك تكون صلة الموصول من قوله : ﴿ الذين كانوا بئاياتت الله يجحَدُون ﴾ إيماء إلى علة إفكهم تعليلاً صريحاً .

ويجوز أن يكون المراد بـ ﴿ الذين كانوا بآياتِ الله يجحَدُون ﴾ كلَّ من جحد بآيات الله من مشركي العرب ومن غيرهم من المشركين والمكذبين فيصير التعليل المومى إليه بالصلة تعليلاً تعريضياً لأنه إذا كان الأفك شأن الذين يجحدون بآيات الله كلهم فقد شمل ذلك هؤلاء بحكم المماثلة .

وصيغة المضارع لاستحضار الحالة ، وذكر فعل الكون للدلالة على أن الجحد بآيات الله شأنهم وهجِّيراهم .

(267/676)

وهذا أصل عظيم في الأخلاق العلمية ، فإن العقول التي تتخلق بالإِنكار والمكابرة قبل التأمل في المعلومات تصرف عن انكشاف الحقائق العلمية فتختلط عليها المعلومات ولا تميّز بين الصحيح والفاسد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(268/676)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والسبعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والسبعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 64 ﴾ من سورة غافر

وحتى الآية ﴿ 81 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/677)

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقرر أنه سبحانه ربنا وحده ، وأن مدعي ربوبية ما سواه معاند ، لأنه سبحانه متميز بأفعاله التي لا يشاركه فيها أحد ، دل على ذلك بوجه مركوز في الطبائع صحته ، واضح في العقول معرفته ، كالمعلل لتسمية هذا الإنكار جحوداً ، فقال دالاً بالخافقين بعد الدلالة بما نشأ عنهما من الملوين ، وأخر هذا لأنه مع كونه أجلى سبب بقرارية الأرض وفلكية السماء

لذاك ، بما حصل فيه من الاختلاف ، فقال : ﴿ الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء ﴿ الذي جعل ﴾ أي وحده ﴿ لكم الأرض ﴾ أي مع كونها فراشاً ممهداً ﴿ قراراً ﴾ مع كونها في غاية الثقل ، ولا ممسك لها سوى قدرته ﴿ والسماء ﴾ على علوها وسعتها مع كونها افلاكاً دائرة بنجوم طول الزمان سائرة ، ينشأ عنها الليل والنهار والإظلام والإبصار ﴿ بناء ﴾ مظلة كالقبة من غير عماد حامل ، ومن المعلوم لكل ذي عقل أن الأجسام الثقيلة تقتضي بطبعها تراص بعضها على بعض ، فلا يمنع بعضها من السقوط على بعض إلا بقوة وقسر ، فالآية من الاحتباك : ذكر القرار أولاً دليلاً على الدوران ثانياً ، والبناء ثانياً دليلاً على الفراش أولاً .

ولما ذكر المسكين ذكر الساكن دالاً على أنه الفاعل في الكل باختياره وتمام قدرته بتصويره الإنسان بصورة لا يشبهها صورة شيء من الحيوانات ، وفاوت بين أفراده في هيئة تلك الصورة على أنحاء لا تكاد تنضبط في نفسها ، ولا تشبه واحدة منها الأخرى ، ولا في الخافقين شيء يشبهها محال تصويرها عليه فقال : ﴿ وصوركم ﴾ والتصوير على غير نظام واحد لا يكون بقدرة قادر تام القدرة مختار لا كما يقول أهل الطبائع ﴿ فأحسن صوركم ﴾ على أشكال وأحوال مع أنها أحسن الصور ليس في الوجود ما يشبهها ، وليس فيها صورة تشبه الأخرى لتسدوا انطباع تصويرها إليه ، فثبت قطعاً أنه هو المصور سبحانه على غير مثال كما أنه الذي أبدع الموجود كله كذلك .

ولما ذكر المسكن والساكن ، ذكر ما يحتاج إليه في مدة السكن فقال : ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ الشهية الملائمة للطبائع النافعة على وجه لا احتياج معه بوجه ، فلا دليل أدل على تمام العلم وشمول القدرة ووجود الاختيار من هذا التدبير في حفظ المسكن والسقف وتدبير ما به البقاء على وجه يكفي الساكن من جميع الوجوه على مر السنين وتعاقب الأزمان ، وبث من الساكن – مع أنه قطعة يسيرة جداً من أديم الأرض – أنسالاً شعبهم شعباً فرعها إلى فروع لا تسعها الأرض ، فدبر بحكمته وسعة علمه وقدرته تدبيراً وسع لهم به الأرض ، وعمهم به الرزق ، كما روى الإمام أحمد في كتاب الزهد عن الحسن أنه قال : لما خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام وذريته قالت الملائكة عليهم السلام : إن الأرض لا تسعهم ، قال : فإني جاعل موتاً ، قالوا : إذا لا يهنأهم العيش ، قال : فإني جاعل أملاً .

ولما دل هذا قطعاً على التفرد ، قال على وجه الإنتاج : ﴿ ذلكم ﴾ أي الرفيع الدرجات ﴿ الله ﴾ أي المالك لجميع الملك ، ودلهم على ما مضى بتربيتهم وما فيها من بديع الصنائع فقال : ﴿ ربكم ﴾ أي لا غيره ، ولما أفاد هذا الدليل تربية لا مثل لها ، دالة على إحاطة العلم وتمام القدرة على وجه لا حاجة معه مع حسنه وثباته تسبب عنه ولا بد قوله :

﴿ فتبارك ﴾ أي ثبت ثباتاً عظيماً مع اليمن والخير وحسن المدد والفيض ﴿ الله ﴾ أي المختص بالكمال ، ورقى الخطاب وعظم إيضاحاً للدلالة فقال : ﴿ رب العالمين ﴾ كلهم أنتم وغيركم ، ثم دل على ما أفاده الدليل معللاً بقوله : ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الحي ﴾ وكل ما عداه لا حياة له ، لأنه ليس له من ذاته إلا العدم ، فأنتج ذلك قطعاً قوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ فتسبب عنه قوله : ﴿ فادعوه ﴾ أي وحده بالقول والفعل على وجه العبادة ، وذلك معنى ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي من كل شرك جلي أو خفي .

(6/677)

ولما أمر بقصر الهمم عليه ، علله بقوله : ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال ، وأظهر موضع الإضمار إشارة إلى أن له من الصفات العلي ما لا ينحصر : ﴿ لله ﴾ أي المسمى بهذا الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى لذاته .

ولما كان هذا الوجود على ما هو عليه من النظام ، وبديع الارتسام ، دالاً دلالة قطعية على الحمد ، قال واصفاً بما هو كالعلة للعلم بمضمون الخبر : ﴿ رب العالمين ﴾ أي الذي رباهم هذه التربية فإنه لا يكون إلا كذلك ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : من قال ﴿ لا إله إلا الله ﴾ فليقل على أثرها ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

ولما أمر سبحانه بما دل على استحقاقه إياه ، أنتج قطعاً قوله : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء الذين يجادلونك في التوحيد والبعث مقابلاً لإنكارهم بالتأكيد : ﴿ إني نهيت ﴾ أي ممن لا ناهي غيره ، نهياً عاماً ببراهين العقل ، ونهياً خاصاً بأدلة النقل ﴿ أن أعبد ﴾ ولما أهلوهم لأعلى المقامات ، عبر عنهم إرخاء للعنان بقوله : ﴿ الذين تدعون ﴾ أي يؤهلونهم لأن تدعوهم ، ودل على سفولهم بقوله تعالى : ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ، ودل على أنه ما كان متعبداً قبل البعث بشرع أحد بقوله : ﴿ لما جاءني البينات ﴾ أي الحجج الواضحة جداً من أدلة العقل والنقل ظاهرة ، ولفت القول إلى صفة الإحسان تنبيهاً على أنه كما يستحق الإفراد بالعبادة لذاته يستحقها شكراً لإحسانه فقال : ﴿ من ربي ﴾ أي المربي لي تربية خاصة هي أعلى من تربية كل مخلوق سواي ، فلذلك أنا أعبده عبادة تفوق عبادة كل عابد .

ولما أخبر بما يتخلى عنه ، أتبعه الأمر بما يتحلى به فقال : ﴿ وأُمرت أن أسلم ﴾ أي بأن أجدد إسلام كليتي في كل وقت على سبيل الدوام ﴿ لرب العالمين ﴾ لأن كل ما سواه مربوب فالإقبال عليه خسار ، وإذا نهى هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك وأمر بهذا لكون الآمر والناهي ربه لأنه رب كل شيء ، كان غيره مشاركاً له في ذلك لا محالة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 532 ـ 534 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾

اعلم أنا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته إما أن تكون من دلائل الآفاق أو من باب دلائل الأنفس ، أما دلائل الآفاق فالمراد كل ما هو غير الإنسان من كل هذا العالم وهي أقسام كثيرة ، والمذكور منها في هذه الآية أقسام منها أحوال الليل والنهار وقد سبق ذكره وثانيها : الأرض والسماء وهو المراد من قوله ﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً والسماء بِنَاء ﴾ قال ابن عباس في قوله ﴿ قَرَاراً ﴾ أي منزلاً في حال الحياة وبعد الموت ﴿ والسماء بِنَاء ﴾ كالقبة المضروبة على الأرض ، وقيل مسك الأرض بلا عمد حتى أمكن التصرف عليها ﴿ والسماء بِنَاء ﴾ أي قائماً ثابتاً وإلا لوقعت علينا ، وأما دلائل الأنفس فالمراد منها دلالة أحوال بدن الإنسان ودلالة أحوال نفسه على وجود الصانع القادر الحكيم ، والمذكور منها في هذه الآية قسمان أحدها : ما هو حاصل مشاهد حال كما حاله والثاني : ما كان حاصلاً في ابتداء خلقته وتكوينه .

أما القسم الأول : فأنواع كثيرة والمذكور منها في هذه الآية أنواع ثلاثة أولها : حدوث صورته وهو المراد من قوله ﴿ وَصَوَّرَكُمْ ﴾ وثانيها : حسن صورته وهو المراد من قوله ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ ، وثالثها : أنه رزقه من الطيبات وهو المراد من قوله ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ وقد أطنبنا في تفسير هذه الأشياء في هذا الكتاب مراراً لا سيما في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ ﴾ [الإسراء : 70] ولما ذكر الله تعالى هذه الدلائل الخمسة اثنين من دلائل الآفاق وثلاثة من دلائل الأنفس قال : ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ فتبارك الله رَبُّ العالمين ﴾ وتفسير تبارك إما الدوام والثبات وإما كثرة الخيرات ، ثم قال : ﴿ هُوَ الحى لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ وهذا يفيد الحصر وأن لا حي إلا هو ، فوجب أن يحمل ذلك على الحي الذي يمتنع أن يموت امتناعاً ذاتياً وحينئذٍ لا حي إلا هو فكأنه أجرى الشيء الذي يجوز زواله مجرى المعدوم .

(9/677)

واعلم أن الحي عبارة عن الدراك الفعال والدراك إشارة إلى العلم التام ، والفعال إشارة إلى القدرة الكاملة ، ولما نبه على هاتين الصفتين من صفات الجلال نبه على الصفة الثالثة وهي

: الوحدانية بقوله لا إله إلا هو ، ولما وصفه بهذه الصفات أمر العباد بشيئين أحدها : بالدعاء والثاني : بالإخلاص فيه ، فقال : ﴿ فادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ ثم قال : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فيجوز أن يكون المراد قول : ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ ويجوز أن يكون المراد أنه لما كان موصوفاً بصفات الجلال والعزة استحق لذاته أن يقال له الحمد لله رب العالمين ولما بيّن صفات الجلال والعظمة قال : ﴿ قُلْ إِنّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ فأورد ذلك على المشركين بألين قول ليصرفهم عن عبادة الأوثان ، وبيّن أن وجه النهي في ذلك ما جاءه من البينات ، وتلك البينات أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة على ما تقدم ذكره ، وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق إلا به ، وأن جعل الأحجار المنحوتة والخشب المصورة شركاء له في المعبودية مستنكر في بديهة العقل .

ولما بيّن أنه أمر بعبادة الله تعالى فقال : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبّ العالمين ﴾ وإنما ذكر هذه الأحكام في حق نفسه لأنهم كانوا يعتقدون فيه أنه في غاية العقل وكمال الجوهر ، ومن المعلوم بالضرورة أن كل أحد فإنه لا يريد لنفسه إلا الأفضل الأكمل ، فإذا ذكر أن مصلحته لا تتم إلا بالإعراض عن غير الله والإقبال بالكلية على طاعة الله ظهر به أن هذا الطريق أكمل من كل ما سواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 73 . 74 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً ﴾

زاد في تأكيد التعريف والدليل ؛ أي جعل لكم الأرض مستقراً لكم في حياتكم وبعد الموت .

﴿ والسمآء بِنَآءً ﴾ تقدّم .

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي خلقكم في أحسن صورة .

وقرأ أبو رزين والأشهب العقيلي "صِوَرَكُمْ" بكسر الصاد ؛ قال الجوهري : والصِّور بكسر الصاد لغة في الصُّوَر جمع صورة ، وينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجواري :

أشبَهْنَ مِن بَقَرِ الْخَلْصَاءِ أعْيُنَها . . .

وهُنَّ أحْسَنُ مِن صِيرانِها صِوراً

(والصِّيران جمع صُوَار وهو القطيع من البقر والصِوار أيضاً وعاء المسك) وقد جمعهما الشاعر بقوله :

إذ لاحَ الصّوارُ ذكَرتُ لَيْلَى . . .

وأذْكُرُها إذا نَفَحَ الصّوَارُ

والصِّيار لغة فيه .

﴿ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطيبات ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ تقدّم .

﴿ هُوَ الحي ﴾ أي الباقي الذي لا يموت ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ فادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي الطاعة والعبادة .

﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ قال الفراء : هو خبر وفيه إضمار أمر أي ادعوه واحمدوه .

وقد مضى هذا كله مستوفى في "البقرة" وغيرها .

وقال ابن عباس : من قال : "لاَ إله إِلاَّ الله" فليقل "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ ﴾ أي قل يا محمد : نهاني الله الذي هو الحي القيوم ولا إله غيره ﴿ أَنْ أَعْبُدَ ﴾ غيره ﴿ لَمَّا جَآءَنِيَ البينات مِن رَّبِّي ﴾ أي دلائل توحيده ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ أذل وأخضع ﴿ لِرَبِّ العالمين ﴾ وكانوا دعوه إلى دين آبائه ، فأمر أن يقول هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(11/677)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53) ﴾

ولما ذكر ما حل بآل فرعون ، واستطرد من ذلك إلى ذكر شيء من أحوال الكفار في الآخرة ، عاد إلى ذكر ما منح رسوله موسى عليه السلام فقال : ﴿ ولقد آتينا موسى الهدى ﴾

تأنيساً لمحمد عليه السلام ، وتذكيراً لما كانت العرب تعرفه من قصة موسى عليه السلام .

والهدى ، يجوز أن يكون الدلائل التي أوردها على فرعون وقومه ، وأن يكون النبوة ، وأن يكون التوراة .

﴿ وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ﴾ : الظاهر أنه التوراة ، توارثوها خلف عن سلف ، ويجوز أن يكون الكتاب أريد به : ما أنزل على بني إسرائيل من كتب أنبيائهم ، كالتوراة والزبور والإنجيل ، ﴿ هدى ﴾ ودلالة على الشيء المطلوب ، ﴿ وذكرى ﴾ لما كان منسياً فذكر به تعالى في كتبه .

وانتصب ﴿ هدى وذكرى ﴾ على أنهما مفعولان له ، أو على أنهما مصدران في موضع الحال .

ثم أمر تعالى نبيه بالصبر فقال : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ﴾ ، من قوله : ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ ، فلا بد من نصرك على أعدائك .

وقال الكلبي : نسخ هذا بآية السيف .

﴿ واستغفر لذنبك ﴾ ، قال ابن عطية : يحتمل أن يكون قبل إعلام الله تعالى إياه أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، لأن آية هذه السورة مكية ، وآية سورة الفتح مدنية متأخرة ، ويحتمل أن يكون الخطاب له في هذه الآية ، والمراد أنه إذا أمر هو بهذا فغيره أحرى بامتثاله .

وقال أبو عبد الله الرازي : محمول على التوبة من ترك الأفضل والأولى .

وقيل : المقصود منه محض تعبد ، كما في قوله تعالى : ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ فإن إيتاء ذلك الشيء واجب ، ثم إنه أمرنا بطلبه .

وقيل : ﴿ لذنبك ﴾ : لذنب أمتك في حقك .

قيل : فأضاف المصدر للمفعول ، ثم أمره بتنزيهه تعالى في هذين الوقتين اللذين الناس مشتغلون فيهما بمصالحهم المهمة .

(12/677)

ويجوز أن يكون المراد سائر الأوقات ، وعبر بالظرفين عن ذلك .

وقال ابن عباس : أراد بذلك الصلوات الخمس .

وقال قتادة : صلاة الغداة ، وصلاة العصر .

وقال الحسن : ركعتان قبل أن تفرض الصلاة .

وعنه أيضاً : صلاة العصر ، وصلاة الصبح .

والظاهر أن المجادلين في آيات الله ، وهي دلائله التي نصبها على توحيده وكتبه المنزلة ، وما أظهر على يد أنبيائه من الخوارق ، هم كفار قريش والعرب .

﴿ بغير سلطان ﴾ : أي حجة وبرهان .

﴿ في صدورهم إلا كبر ﴾ : أي تكبر وتعاظم ، وهو إرادة التقدم والرياسة ، وذلك هو الحامل على جدالهم بالباطل ، ودفعهم ما يجب لك من تقدمك عليهم ، لما منحك من النبوة وكلفك من أعباء الرسالة .

﴿ ما هم ببالغيه ﴾ : أي ببالغي موجب الكبر ومقتضيه من رياستهم وتقدمهم ، وفي ذلك إشارة إلى أنهم لا يرأسون ، ولا يحصل لهم ما يؤملونه .

وقال الزجاج : المعنى على تكذيبك إلا ما في صدورهم من الكبر عليك ، وما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر ، لأن الله أذلهم وقال ابن عطية : تقديره مبالغي إرادتهم فيه .

وقال مقاتل : هي في اليهود .

قال مقاتل : عظمت اليهود الدجال وقالوا : إن صاحبنا يبعث في آخر الزمان وله سلطان ، فقال تعالى : ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله ﴾ ، لأن الدجال من آياته ، ﴿ بغير سلطان ﴾ : أي حجة ، ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من فتنة الدجال .

والمراد بخلق الناس الدجال ، وإلى هذا ذهب أبو العالية ، وهذا القول أصح .

وقال الزمخشري : وقيل المجادلون هم اليهود ، وكانوا يقولون : يخرج صاحبنا المسيح بن داود ، يريدون الدجال ، ويبلغ سلطانه البر والبحر ، وتسير معه الأنهار ، وهو آية من آيات الله ، فيرجع إلينا الملك ، فسمى الله تمنيتهم ذلك كبراً ، ونفى أن يبلغوا متمناهم . انتهى .

وكان رئيس اليهود في زمانه في مصر موسى بن ميمون الأندلسي القرطبي قد كتب رسالته إلى يهود اليمن أن صاحبهم يظهر في سنة كذا وخمسمائة ، وكذب عدوّ الله .

(13/677)

جاءت تلك السنة وسنون بعدها كثيرة ، ولم يظهر شيء مما قاله ، لعنه الله .

وكان هذا اليهودي قد أظهر الإسلام ، حتى استسلم اليهود بعض ملوك المغرب ، ورجل من الأندلس .

فيذكر أنه صلى بالناس التراويح وهم على ظهر السفينة في رمضان ، إذ كان يحفظ القرآن .

فلما قدم مصر ، وكان ذلك في دولة العبيديين ، وهم لا يتقيدون بشريعة ، رجع إلى اليهودية وأخبر أنه كان مكرهاً على الإسلام ، فقبل منه ذلك ، وصنف لهم تصانيف ، ومنها : (كتاب دلالة الحائرين) ، وإنما استفاد ما استفاد من مخالطة علماء الأندلس وتودده لهم ، والرياسة إلى الآن بمصر لليهود في كل من كان من ذريته .

﴿ فاستعذ بالله ﴾ : أي التجيء إليه من كيد من يحسدك .

﴿ إنه هو السميع ﴾ لما تقول ويقولون ، ﴿ البصير ﴾ بما تعمل ﴿ ويعملون ﴾ ، فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرهم .

ثم نبه تعالى أنه لا ينبغي أن يجادل في آيات الله ولا يتكبر الإنسان بقوله ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ : أي إن المخلوقات أكبر واجل من خلق البشر ، فما لأحد يجادل ويتكبر على خلقه .

وقال الزمخشري : وجادلتهم في آية الله كان مشتملة على انكار البعث وهو اصل المجادلة ومدارها ، فجحدوا بخلق السموات والأرض ، لأنهم كانوا مقرنين بأن الله خالقها ، وبأنها خلق عظيم لا يقدر قدره ، وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين ، فمن قدر على خلقها مع عظمها على خلق الإنسان مهانته أقدر ، وهو أبلغ من الإستشهاد بخلق مثله انتهى .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الكلام في معنى البعث والإعادة ، فأعلم تعالى أنا الذي خلق السموات والأرض قوي قادر على خلق الناس تارة أخرى ، فالخلق مصدر أضيف إلى المفعول ، وقال النقاش : المعنى مما خلق الناس ، إذا هم في الحقيقة لا يملكون شيئاً ، فالخلق مضاف للفاعل .

(14/677)

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ : أي لا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم ، ونفي العلم عن الأكثر وتخصيصه به يدل على أن القليل يعلم ، ولذلك ضرب مثلاً للجاهل بالأعمى ، وللعالم بالبصير ، وانتفاء الاستواء بينهما هو من الجهة الدالة على العمى وعلى البصر ، وإلا فهما مستويان في غير ما شيء .

ولما بعد ، قسم الذين آمنوا بطول صلة الموصول ، كرر لا توكيداً ، وقدم ﴿ والذين آمنوا ﴾ المجاورة قوله : ﴿ والبصير ﴾ ، وهما طريقان ، أحدهما : أن يجاور المناسب هكذا ، والآخر : أن يتقدم ما يقابل الأول ويؤخر ما يقابل الآخر ، كقوله تعالى : ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ﴾ وقد يتأخر المتماثلان ، كقوله تعالى : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ وكل ذلك تفنن في البلاغة وأساليب الكلام .

ولما كان قد تقدم : ﴿ ولكن أكثر النار لا يعلمون ﴾ ، فكان ذلك صفة ذم ناسب أن يبدأ في ذكر التساوي بصفة الذم ، فبدأ بالأعمى .

وقرأ قتادة ، وطلحة ، وأبو عبد الرحمن ، وعيسى ، والكوفيون : تتذكرون بتاء الخطاب ؛ والجمهور ، والأعرج ، والحسن ، وأبو جعفر ، وشيبة : بالياء على الغيبة .

ثم أخبر بما يدل على البعث من إتيان الساعة ، وأنه لا ريب في وقوعها ، وهو يوم القيامة ، حيث الحساب وافتراق الجمع إلى الجنة طائعهم ، وإلى النار كافرهم ومن أراد الله تعذيبه

من العصاة بغير الكفر .

والظاهر حمل الدعاء والاستجابة على ظاهرهما ، إلا أن الاستجابة مقيدة بمشيئة الله .

قال السدي : اسألوني أعطكم ؛ وقال الضحاك : أطيعوني آتكم ؛ وقالت فرقة منهم مجاهد : ادعوني ، اعبدوني وأستجب لكم ، آتيكم على العبادة .

وكثيراً جاء الدعاء في القرآن بمعنى العبادة ، ويقوي هذا التأويل قوله : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ .

وما روى النعمان بن بشير ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " الدعاء هو العبادة " ، وقرأ هذه الآية .

(15/677)

وقال ابن عباس : وحدوني أغفر لكم ؛ وقيل للثوري : ادع الله تعالى ، فقال : إن ترك الذنوب هو الدعاء .

وقال الحسن ، وقد سئل عن هذه الآية : اعملوا وأبشروا ، فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ويزيدهم من فضله .

وقال أنس : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى

شسع نعله " ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ : أي عن دعائي .

وقرأ جمهور السبعة ، والحسن ، وشيبة : سيدخلون مبنياً للفاعل ؛ وزيد بن علي ، وابن كثير ، وأبو جعفر : مبنياً للمفعول ؛ واختلف عن عاصم وأبي عمرو .

داخرين : ذليلين .

﴿ الله الذين جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾ : تقدم الكلام على مثل هذه الجملة في سورة يونس .

و ﴿ لذو فضل ﴾ : أبلغ من : لمفضل أو لمتفضل ، كما قال ﴿ لذو عمل ﴾ لما علمناه ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ لما يؤدي إليه من كونه صاحبه ومتمكناً منه ، بخلاف أن يؤتي بالصفة ، فإنه قد يدل على غير الله بالاتصاف به في وقت ما ، لا دائماً ، وذكر عموم فضله وسوغه على الناس ، ثم قال : ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ ، فأتى به ظاهراً ، ولم يأت التركيب : ولكن أكثرهم .

قال الزمخشري : في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم ، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه ، كقوله : ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ انتهى .

﴿ ذلكم ﴾ : أي المخصوص بتلك الصفات التميز بها من استجابته لدعائكم ، ومن جعل الليل والنهار كما ذكر ، ومن تفضله عليكم .

﴿ الله ربكم ﴾ : الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية ، وإنشاء الأشياء والوحدانية .

فكيف تصرفون عن عبادة من هذه أوصافه إلى عبادة الأوثان ؟ وقرأ زيد بن علي : خالق بنصب القاف ، وطلحة في رواية : يؤفكون بياء الغيبة والجمهور : بضم القاف وتاء الخطاب .

(16/677)

قال الزمخشري : خالق نصباً على الاختصاص كذلك ، أي مثل ذلك الصرف صرف الله قلوب الجاحدين بآيات الله من الأمم على طريق الهدى .

ولما ذكر تعالى ما امتن به من الليل والنهار ، ذكر أيضاً ما امتن به من جعل الأرض مستقراً والسماء بناء ، أي قبة ، ومنه أبنية العرب لمضاربهم ، لأن السماء في منظر العين كقبة مضروبة على وجه الأرض .

وقرأ الجمهور : صوركم بضم الصاد ، والأعمش ، وأبو رزين : بكسرها فراراً من الضمة قبل الواو استثقالاً ، وجمع فعلة بضم الفاء على فعل بكسرها شاذ ، وقالوا قوة وقوى بكسر القاف على الشذوذ أيضاً قيل : لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان .

وقيل : لم يخلقهم منكوسين كالبهائم ، كقوله : ﴿ في أحسن تقويم ﴾ وقرأت فرقة : صوركم بضم الصاد وإسكان الواو ، على نحو بسرة وبسر ، ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ : امتن عليهم بما يقوم بأود صورهم والطيبات المستلذات طعماً ولباساً ومكاسب .

وقال ابن عباس : من قال : لا إله إلا الله ، فليقل على أثرها : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وقال نحوه سعيد بن جبير ، ثم قرأ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(17/677)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءامَنُواْ ﴾

كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ من جهتِه تعالَى لبيانِ أنَّ ما أصابَ الكفرةَ من العذابِ المحكيِّ من فروعِ حكمٍ كليَ تقتضيه الحكمةُ وهو أنَّ شأنَنا المستمرَّ أنَّا ننصرُ رسلنَا وأتباعَهُم ﴿ فِى الحياة الدنيا ﴾ بالحجَّةِ والظفرِ والانتقامِ لهم من الكفرةِ بالاستئصالِ والقتلِ والسَّبي وغيرِ ذلكَ من العقوباتِ ولا يقدحُ في ذلكَ ما قدْ يتفقُ لهم من صورةِ الغلبةِ امتحاناً إذِ العبرةُ إنَّما هيَ بالعواقبِ وغالبِ الأمر .

﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الاشهاد ﴾ أي يومَ القيامةِ عبرَ عنْهُ بذلكَ للإشعارِ بكيفيةِ النُصرةِ وأنَّها تكونُ عندَ جميعِ الأولينَ والآخِرينَ بشهادةِ الأشهادِ للرسلِ بالتبليغِ وعلى الكفرةِ بالتكذيبِ ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ بدلٌ من الأولِ وعدمُ نفعِ المعذرةِ لأنَّها باطلةٌ . وقُرِىءَ لا تنفعُ بالتاءِ ﴿ وَلَهُمُ اللعنة ﴾ أيْ البُعدُ عن الرحمةِ ﴿ وَلَهُمْ سُوء الدار ﴾ أي جهنُم ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الهدى ﴾ ما يُهتدَى بهِ من المعجزاتِ والصحفِ والشرائعِ ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِى إسراءيل الكتاب ﴾ وتركنَا عليهم من بعدِه التوراةَ ﴿ هُدًى وذكرى ﴾ هدايةً وتذكرةً أو هادياً ومذكراً ﴿ لأُوْلِى الألباب ﴾ لذوِي العقولِ السليمةِ العاملينَ بما في تضاعيفِه ﴿ فاصبر ﴾ على ما نالكَ من أذيةِ المشركينَ ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ أيْ وعدَه الذي ينطقُ بهِ قولُه تعالَى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ أو وعدَهُ الخاصَّ بكَ أو جميعَ مواعيدِه التي من جُمْلتِها ذلكَ ﴿ حَقّ ﴾ لا يحتملُ الإخلافَ أصلاً واستشهدْ بحالِ مُوسى وفرعونَ ﴿ واستغفر لذَنبكَ ﴾ تداركاً لما فرَطَ منكَ من تركِ الأَوْلى في بعضِ الأحايينِ فإنَّه تعالَى كافيكَ في نُصرةِ دينكَ وإظهارِه على الدِّينِ كُلِّه ﴿ وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ بالعشى والإبكار ﴾ أيْ ودُمْ على التسبيحِ ملتبساً

بحمدِه تعالَى ، وقيلَ صَلِّ لهذينِ الوقتينِ إذْ كانَ الواجبُ بمكةَ ركعتينِ بُكرةً وركعتينِ عشياً ، وقيلَ صلِّ شُكراً لرّبكَ بالعشيِّ والإبكارَ ، وقيلَ هُمَا صلاةُ العصرِ وصلاةُ الفجرِ .

(19/677)

﴿ إِنَّ الذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾ ويجحدونَ بها ﴿ بِغَيْرِ سلطان أتاهم ﴾ في ذلكَ من جهتِه تعالَى ، وتقييدُ المجادلةِ بذلكَ مع استحالةِ إتيانِه للإيذانِ بأنَّ التكلّمَ في أمرِ الدّينِ لا بُدّ من استنادِه إلى سلطانٍ مبينٍ ألبتةَ وهذا عامٌّ لكلِّ مجادلٍ مُبطلٍ وإنْ نزلَ في مُشركي مكةَ . وقولُه تعالَى : ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ﴾ خبرٌ لإنَّ ، أيْ ما فِي قلوبِهم إلا تكبرٌ عن الحقِّ وتعظّمٌ عن التفكرِ والتعلمِ ، أو إلاَّ إرادةُ الرياسةِ والتقدمِ على الإطلاقِ أو إلا إرادةُ أنْ تكونَ النبوةُ لهم دونَك حسداً وبغياً حسبَما قالُوا : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتينِ عظيمٍ ﴾ وقالُوا : ﴿ لو كانَ خيراً ما سبقونَا إليهِ ﴾ ولذلكَ يُجادلون فيها لا أنَّ فيها موقعَ جدالٍ ما أو أنَّ لهمُ شيئاً يتوهم أنْ يَصلُحَ مداراً لمُجادلتِهم في الجُملةِ . وقولُه تعالى : ﴿ مَّا هُم ببالغيه ﴾ صفةٌ لكِبرٌ . قال مجاهدٌ ما هُم ببالغي مقتضَى ذلكَ الكِبرِ وهُو ما أرادُوه من الرياسةِ أو النبوةِ ، وقيلَ المجادلونَ هم اليهودُ وكانُوا يقولونَ لستَ صاحبنَا المذكورَ في التوراةِ بلْ هُو المسيحُ بنُ داودَ يريدونَ الدجّالَ يخرجُ في آخرِ الزمانِ ويبلغُ سلطانُه

البَرَّ والبحرَ وتسيرُ معه الأنهارُ وهُو آيةٌ من آياتِ الله تعالى فيرجعُ إلينا المُلكُ فسمَّى الله تعالَى تمنِّيَهم ذلكَ كبْراً ونَفَى أنْ يبلغُوا مُتمنَّاهُم ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي فالتجىءْ إليهِ من كيدِ مَنْ يحسدُكَ ويبغِي عليكَ وفيهِ رمزٌ إلى أنَّه من هَمَزاتِ الشياطينِ ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ﴾ لأقوالِكم وأفعالِكم . وقولُه تعالَى :

(20/677)

﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ تحقيقٌ للحقِّ وتبيينٌ لأشهرِ ما يُجادلونَ فيهِ من أمرِ البعثِ على منهاجِ قولِه تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ لقصُورِهم في النظرِ والتأملِ لفرطِ غفلتِهم واتباعِهم لأهوائِهم . ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأعمى والبصير ﴾ أي الغافلُ والمستبصرُ ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَلاَ المسىء ﴾ أي والمحسنُ والمسيءُ فلا بُدَّ أنْ تكونَ لهم حالٌ أُخرى يظهرُ فيها ما بينَ الفريقينِ من التفاوتِ وهيَ فيما بعدَ البعثِ وزيادةُ لا في المسيءِ لتأكيدِ النفي لطولِ الكلامِ بالصلةِ ولأنَّ المقصودَ نفي مساواتِه للمحسنِ فيَما له من الفضلِ والكرامةِ والعاطفُ الثاني عطفُ الموصولِ بما عُطفَ عليهِ على الأعمى والبصيرُ لتغايرِ الوصفينِ في المقصودِ أو الدلالةِ بالصراحةِ والتمثيلِ ﴿

قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ على الخطابِ بطريقِ الالتفاتِ أي تذكراً قليلاً تتذكرون ، وقُرِىءَ على الغَيبةِ . والضميرُ للناسِ أو الكفَّارِ .

﴿ إِنَّ الساعةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي في مجيئِها لوضوحِ شواهدِها وإجماعِ الرسلِ على الوعدِ بوقوعِها . ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ لا يُصدقونَ بها لقصورِ أنظارِهم على ظواهرِ ما يُحسُّون به .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى ﴾ أي اعبدونِي ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي أُثِبْكُم لقولِه تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخرين ﴾ أيْ صاغرينَ أذلاّء وإنْ فُسِّرَ الدعاءُ بالسؤالِ كانَ الأمرُ الصارفُ عنه منزّلاً منزلةَ الاستكبارِ عن العبادةِ للمبالغةِ أو المرادُ بالعبادةِ الدعاءُ فإنَّه من أفضلِ أبوابِها . وقُرِىءَ سيُدخلُونَ على صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ من الإدخالِ .

(21/677)

﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ بأنْ حلقَهُ بارداً مُظلماً ليُؤدّيَ إلى ضعفِ المحركاتِ وهُدءِ الحواسِّ لتستريحُوا فيهِ . وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ قد مرَّ سرُّه مراراً ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ أي مُبصَراً فيهِ أو بهِ . ﴿ إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ ﴾ عظيمٍ لا يُوازيه

ولا يدانيه فضلٌ . ﴿ عَلَى الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ لجهلِهم بالمُنعمِ وإغفالِهم مواضعَ النعمِ ، وتكريرُ النَّاسِ لتخصيصِ الكفرانِ بهم .

(22/677)

﴿ ذلكم ﴾ المتفردُ بالأفعالِ المقتضيةِ للألوهيةِ والربوبيةِ ﴿ الله ربُّكُمْ خالق كُلِّ شَىْءٍ لاَّ إله إلاَّ هُوَ ﴾ أخبارٌ مترادفةٌ تخصصُ اللاحقةُ منها السابقةَ وتُقررها . وقُرِىءَ خالقَ بالنصبِ على الاختصاصِ فيكونُ لاَ إلَه إلا هُو استئنافاً بما هُو كالنتيجة للأوصاف المذكورةِ ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيفَ ، ومن أيِّ وجهٍ تُصرفونَ عن عبادتِه خاصَّةً إلى عبادةِ غيرِه ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الذين كَانُواْ بئايات الله يَجْحَدُونَ ﴾ أي مثلَ ذلكَ الإفكِ العجيبِ الذي لا وجَه لهُ ولا مصححَ أصلاً يؤفكُ كلُّ من جحدَ بآياتِه تعالَى أيَّ آيةٍ كانتْ لا إفكاً آخرَ له وجهٌ ومصحّحٌ في الجملة ﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً والسماء بِنَاء ﴾ بيانٌ لفضلِه تعالى المتعلقِ بالمكانِ بعد بيانِ فضلِه المتعلقِ بالزمانِ . وقولُه تعالَى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ بيانٌ لفضلِه المتعلقِ بأنفسِهم ، والفاءُ في فأحسنَ تفسيريةٌ فإنَّ الإحسانَ عينُ التصويرِ أي صوَّركُم أحسنَ تصويرٍ حيثُ خلقكُم مُنتصِبي القامةِ باديَ البَشَرةِ متناسبَ الأعضاءِ والتخطيطاتِ متهيئاً لمزاولةِ الصنائعِ واكتسابِ الكمالاتِ . ﴿

وَرَزَقَكُم مّنَ الطيبات ﴾ أي اللذائذِ ﴿ ذلكم ﴾ الذي نُعتَ بما ذُكرَ من النعوتِ الجليلةِ ﴿ الله ربُّكُمُ ﴾ خبرانِ لذلكُم ﴿ فَتَبَارَكَ الله ﴾ أي تعالَى بذاتِه ﴿ رَبّ العالمين ﴾ أي مالكُهم ومربيهم والكلُّ تحتَ ملكوتِه مفتقرٌ إليه في ذاتِه ووجودِه وسائرِ أحوالِه جميعاً بحيثُ لو انقطعَ فيضُه عَنه آناً لانعدمَ بالكليةِ .

(23/677)

﴿ هُوَ الحى ﴾ المتفردُ بالحياةِ الذاتيةِ الحقيقةِ ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ إذْ لاَ موجودَ يدانيهِ في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه ﴿ فادعوه ﴾ فاعبدُوه خاصَّةً لاختصاصِ ما يُوجبه به تعالَى ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي الطاعةَ من الشركِ الجليّ والخفيّ ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ أيْ قائلينَ ذلكَ ، عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهُمَا : مَنْ قالَ لا إلهَ إلاَّ الله فليقُلْ علَى أثرِها الحُمد الله ربّ العالمينَ .

﴿ قُلْ إِنّى نُهيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَمَّا جَاءِنى البينات مِن رَّبّى ﴾ من الحججِ والآياتِ أو من الآياتِ لكونِها مؤيدةً لأدلةِ العقلِ منبهةً عليها فإنَّ الآياتِ التنزيليةَ مفسراتٌ للآياتِ التكوينيةِ الآفاقيةِ والأنفُسية . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبّ العالمين ﴾ أيْ بأنْ أنقادَ لهُ وأخلصَ له دِيني . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ اللهُ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً ﴾

أي مستقراً ﴿ والسماء ﴾ أي قبة ومنه أبنية العرب لقبابهم التي تضرب وإطلاق ذلك على السماء على سبيل التشبيه ، وهو تشبيه بليغ وفيه إشارة لكريتها .

وهذا بيانل فضله تعالى المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان ، وقوله سبحانه :

﴿ بالحق وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ بيان لفضله تعالى المتعلق بأنفسهم ، والفاء في ﴿ فَأَحْسَنَ ﴾ تفسيرية فالمراد صوركم أحسن تصوير حيث خلق كلاً منكم منتصب القامة بادي البشرة متناسب الأعضاء والتخطيطات متهيأ لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات .

وقرأ الأعمش .

وأبو رزين ﴿ صُوَرَكُمْ ﴾ بكسر الصاد فراراً من الضمة قبل الواو ، وجمع فعلة بضم الفاء على فعل بكسرها شاذ ومنه قوة وقوى بكسر القاف في الجمع .

وقرأ فرقة ﴿ صُوَرَكُمْ ﴾ بضم الصاد وإسكان الواو على نحو بسرة وبسر ﴿ وَرَزَقَكُم

مّنَ الطيبات ﴾ أي المستلذات طعماً ولباساً وغيرهما وقيل الحلال ﴿ ذلكم ﴾ الذي نعت بما ذكر من النعوت الجليلة ﴿ اللهُ ربُّكُمُ ﴾ خبران لذلكم ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ ﴾ تعالى بذاته ﴿ رَبّ العالمين ﴾ أي مالكهم ومربيهم والكل تحت ملكوته مفتقر إليه تعالى في ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعها بحيث لو انقطع فيضه جل شأنه عنه آنا لعدم بالكلية .

﴿ هُوَ الحى ﴾ المنفرد بالحياة الذاتية الحقيقية ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ إذ لا موجود يدانيه في ذاته وصفاته وأفعاله عز وجل ﴿ فادعوه ﴾ فاعبدوه خاصة لاختصاص ما يوجب ذلك به تعالى .

وتفسير الدعاء بالعبادة هو الذي يقتضيه قوله تعالى : ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي الطاعة من الشرك الخفي والجلي وأنه الأليق بالترتب على ما ذكر من أوصاف الربوبية والألوهية ، وإنما ذكرت بعنوان الدعاء لأن اللائق هو العبادة على وجه التضرع والانكسار والخضوع ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ أي قائلين ذلك .

أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

(25/677)

والحاكم وصححه .

والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين وذلك قوله تعالى : ﴿ فادعوه مُخْلِصِينَ ﴾ الخ .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير نحو ذلك ، وعلى هذا ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ الخ من كلام المأمورين بالعبادة قبله ، وجوز كونه من كلام الله تعالى على أنه إنشاء حمد ذاته سبحانه بذاته جل شأنه .

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَمَّا جَاءِنِى البينات مِن رَّبِّى ﴾ من الحجج والآيات أو من الآيات لكونها مؤيدة لأدلة العقل منبهة عليها فإن الآيات التنزيلية مفسرات للآيات التكوينية الآفاقية والأنفسية ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ أي بأن انقاد له تعالى وأخلص له عز وجل ديني . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(26/677)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53) ﴾

قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الهدى ﴾ هذا من جملة ما قصه الله سبحانه قريباً من نصره

لرسله ، أي : آتيناه التوراة ، والنبوّة ، كما في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة : 44] قال مقاتل : الهدى من الضلالة يعني : التوراة ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِى إسراءيل الكتاب * هُدًى وذكرى لأُوْلِى الالباب ﴾ المراد بالكتاب : التوراة ، ومعنى ﴿ أورثنا ﴾ : أن الله سبحانه لما أنزل التوراة على موسى بقيت بعده فيهم ، وتوارثوها خلفاً عن سلف .

وقيل : المراد بالكتاب : سائر الكتب المنزلة على أنبياء بني إسرائيل بعد موت موسى ، وهدى ، وذكرى في محل نصب على أنهما مفعول لأجله ، أي : لأجل الهدى ، والذكر ، أو على أنهما مصدران في موضع الحال ، أي : هادياً ومذكراً ، والمراد بأولي الألباب : أهل العقول السليمة .

ثم أمر الله ، رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على الأذى ، فقال : ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ أي : اصبر على أذى المشركين كما صبر من قبلك من الرسل إن وعد الله الذي وعد به رسله حقّ لا خلف فيه ، ولا شك في وقوعه كما في قوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171 173] قال الكلبي : نسخ هذا بآية السيف .

ثم أمره سبحانه بالاستغفار لذنبه ، فقال : ﴿ واستغفر لِذَنبِكَ ﴾ قيل : المراد ذنب أمتك

، فهو على حذف مضاف .

وقيل : المراد الصغائر عند من يجوّزها على الأنبياء .

(27/677)

وقيل : هو مجرد تعبد له بالاستغفار لزيادة الثواب ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعشى والإبكار ﴾ أي : دم على تنزيه الله ملتبساً بحمده .

وقيل : المراد صلّ في الوقتين صلاة العصر ، وصلاة الفجر .

قاله الحسن ، وقتادة .

وقيل : هما صلاتان ركعتان غدوة ، وركعتان عشية ، وذلك قبل أن تفرض الصلوات الخمس ﴿ إِنَّ الذين يجادلون فِى ءايات الله بِغَيْرِ سلطان أتاهم ﴾ أي : بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من جهة الله سبحانه ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ﴾ أي : ما في قلوبهم إلا تكبراً عن الحق يحملهم على تكذيبك ، وجملة : ﴿ مَّا هُم ببالغيه ﴾ صفة لكبر قال الزجاج : المعنى : ما في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغي إرادتهم فيه ، فجعله على حذف المضاف .

وقال غيره : ما هم ببالغي الكبر .

وقال ابن قتيبة : المعنى : إن في صدورهم إلا كبر ، أي : تكبر على محمد صلى الله عليه وسلم ، وطمع أن يغلبوه ، وما هم ببالغي ذلك .

وقيل : المراد بالكبر : الأمر الكبير ، أي : يطلبون النبوّة ، أو يطلبون أمراً كبيراً يصلون به إليك من القتل ، ونحوه ، ولا يبلغون ذلك .

وقال مجاهد : معناه : في صدورهم عظمة ما هم ببالغيها .

والمراد بهذه الآية : المشركون .

وقيل : اليهود كما سيأتي بيانه آخر البحث إن شاء الله .

ثم أمره الله سبحانه بأن يستعيذ بالله من شرورهم ، فقال : ﴿ فاستعذ بالله إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ﴾ أي : فالتجىء إليه من شرّهم ، وكيدهم ، وبغيهم عليك إنه السميع لأقوالهم البصير بأفعالهم لا تخفى عليه من ذلك خافية .

(28/677)

ثم بيّن سبحانه عظيم قدرته ، فقال : ﴿ لَخَلْقُ * السموات والأرض *أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ أي : أعظم في النفوس ، وأجلّ في الصدور ، لعظم أجرامهما ، واستقرارهما من غير عمد ، وجريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب ، فكيف ينكرون البعث ، وإحياء

ما هو دونهما من كل وجه كما في قوله : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [ياس : 81] قال أبو العالية : المعنى : لخلق السموات ، والأرض أعظم من خلق الدجال حين عظمته اليهود .

وقال يحيى بن سلام : هو احتجاج على منكري البعث ، أي : هما أكبر من إعادة خلق الناس ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ بعظيم قدرة الله ، وأنه لا يعجزه شيء .

ثم لما ذكر سبحانه الجدال بالباطل ذكر مثالاً للباطل ، والحق ، وأنهما لا يستويان ، فقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأعمى والبصير ﴾ أي : الذي يجادل بالباطل ، والذي يجادل بالحق ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَلاَ المسىء ﴾ أي : ولا يستوي المحسن بالإيمان ، والعمل الصالح ، والمسيء بالكفر ، والمعاصي ، وزيادة "لا" في ، ﴿ ولا المسيء ﴾ للتأكيد ﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ يتذكرون ﴾ بالتحتية على الغيبة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وأبو حاتم ، لأن قبلها ، وبعدها على الغيبة لا على الخطاب ، وقرأ الكوفيون بالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات ، أي : تذكراً قليلاً ما تتذكرون .

﴿ إِنَّ الساعة لأَتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي : لا شك في مجيئها ، وحصولها ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بذلك ، ولا يصدقونه لقصور أفهامهم ، وضعف عقولهم عن إدراك الحجة ، والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث .

ثم لما بيّن سبحانه أن قيام الساعة حق لا شك فيه ، ولا شبهة ، أرشد عباده إلى ما هو الوسيلة إلى السعادة في دار الخلود ، فأمر رسوله : أن يحكي عنه ما أمره بإبلاغه ، وهو : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال أكثر المفسرين المعنى : وحدوني ، واعبدوني أتقبل عبادتكم ، وأغفر لكم .

وقيل : المراد بالدعاء : السؤال بجلب النفع ، ودفع الضر .

قيل : الأوّل أولى ؛ لأن الدعاء في أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو : العبادة .

قلت : بل الثاني أولى ؛ لأن معنى الدعاء حقيقة ، وشرعاً هو : الطلب ، فإن استعمل في غير ذلك ، فهو : مجاز ، على أن الدعاء في نفسه باعتبار معناه الحقيقي هو : عبادة ، بل مخ العبادة كما ورد بذلك الحديث الصحيح ، فالله سبحانه قد أمر عباده بدعائه ، ووعدهم بالإجابة ، ووعده الحق ، وما يبدّل القول لديه ، ولا يخلف الميعاد .

ثم صرّح سبحانه بأن هذا الدعاء باعتبار معناه الحقيقي ، وهو الطلب هو من عبادته ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخرين ﴾ أي : ذليلين صاغرين ، وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله ، وفيه لطف بعباده عظيم ، وإحسان إليهم جليل حيث توعد من ترك طلب الخير منه ، واستدفاع الشرّ به بهذا الوعيد البالغ ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة ، فيا عباد الله وجهوا رغباتكم ، وعوّلوا في كل

طلباتكم على من أمركم بتوجيهها إليه ، وأرشدكم إلى التعويل عليه ، وكفل لكم الإجابة به بإعطاء الطلبة ، فهو الكريم المطلق الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم ، وملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا والدين .

(30/677)

قيل : وهذا الوعد بالإجابة مقيد بالمشيئة ، أي : أستجب لكم إن شئت كقوله سبحانه : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء ﴾ [الأنعام : 41] الله ، قرأ الجمهور : ﴿ سيدخلون ﴾ بفتح الياء ، وضم الخاء مبنياً للفاعل ، وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن ، وورش ، وأبو جعفر بضم الياء ، وفتح الخاء مبنياً للمفعول .

ثم ذكر سبحانه بعض ما أنعم به على عباده ، فقال : ﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ اليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ من الحركات في طلب الكسب لكونه جعله مظلماً بارداً تناسبه الراحة بالسكون ، والنوم ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ أي : مضيئاً ، لتبصروا فيه حوائجكم ، وتتصرفوا في طلب معايشكم ﴿ إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ يتفضل عليهم بنعمه التي لا تحصى ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ النعم ، ولا يعترفون بها ، إما لجحودهم لها ، وكفرهم بها كما هو شأن الكفار ، أو لإغفالهم للنظر ، وإهمالهم لما يجب من شكر المنعم ، وهم : الجاهلون ﴿

ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالق كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ بيّن سبحانه في هذا كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده ، قرأ الجمهور خالق بالرفع على أنه خبر بعد الخبر الأوّل عن المبتدأ ، وقرأ زيد بن عليّ بنصبه على الاختصاص ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي : فكيف تنقلبون عن عبادته ، وتنصرفون عن توحيده ؟ ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الذين كَانُواْ بئايات الله يَجْحَدُونَ ﴾ أي : مثل الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله المنكرون لتوحيده .

ثم ذكر لهم سبحانه نوعاً آخر من نعمه التي أنعم بها عليهم مع ما في ذلك من الدلالة على كمال قدرته ، وتفرّده بالإلهية ، فقال : ﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً والسماء بِنَاء ﴾ أي : موضع قرار فيها تحيون ، وفيها تموتون ﴿ والسماء بِنَاء ﴾ أي : سقفاً قائماً ثابتاً .

(31/677)

ثم بيّن بعض نعمه المتعلقة بأنفس العباد ، فقال : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي : خلقكم في أحسن صورة .

قال الزجاج : خلقكم أحسن الحيوان كله .

قرأ الجمهور : (صوركم) بضم الصاد ، وقرأ الأعمش ، وأبو رزين بكسرها .

قال الجوهري : والصور بكسر الصاد لغة في الصور بضمها ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ أي : المستلذات ﴿ ذلكم ﴾ المنعوت بهذه النعوت الجليلة ﴿ الله رَبُّكُمْ فتبارك الله رَبُّ العالمين ﴾ أي : كثرة خيره ، وبركته ﴿ هُوَ الحى لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ أي : الباقي الذي لا يفنى المنفرد بالألوهية ﴿ فادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي : الطاعة ، والعبادة ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ قال الفراء : هو خبر ، وفيه إضمار أمر ، أي : احمدوه .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم .

قال السيوطي : بسند صحيح عن أبي العالية قال : إن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن الدجال يكون منا في آخر الزمان ، ويكون في أمره ، فعظموا أمره ، وقالوا : نصنع كذا ، ونصنع كذا ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الذين يجادلون فِى ءايات الله بِغَيْرِ سلطان أتاهم إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم ببالغيه ﴾ " قال : لا يبلغ الذي يقول : ﴿ فاستعذ بالله ﴾ فأمر نبيه أن يتعوّذ من فتنة الدجال لخلق السماوات ، والأرض أكبر من خلق الدجال .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في الآية قال : هم : اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ﴾ قال : عظمة قريش .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري في الأدب المفرد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدعاء هو : العبادة " ثم قرأ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ قال : عن دعائي ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخرين ﴾ " .

قال الترمذي : حسن صحيح .

وأخرج ابن مردويه ، والخطيب عن البراء : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الدعاء هو العبادة ، وقال ربكم : ﴿ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ " وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال : وحدوني أغفر لكم .

وأخرج الحاكم وصححه ، عن جرير بن عبد الله في الآية قال : اعبدوني .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدعاء

الاستغفار " وأخرج ابن أبي شيبة ، والحاكم ، وأحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من لم يدع الله يغضب عليه " وأخرج أحمد ، والحكيم الترمذي ، وأبو يعلى ، والطبراني ، عن معاذ بن جبل ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا ينفع حذر من قدر ، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ، ومما لم ينزل ، فعليكم بالدعاء " وأخرج الترمذي ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" الدعاء مخّ العبادة " وأخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : أفضل العبادة الدعاء ، وقرأ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ الآية .

(33/677)

وأخرج البخاري في الأدب عن عائشة قالت : سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أيّ العبادة أفضل ؟ فقال : " دعاء المرء لنفسه " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : من قال : لا إله إلاّ الله ، فليقل على أثرها : الحمد لله ربّ العالمين ، وذلك قوله : ﴿ فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله ربّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ اللهُ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً والسمآء بِنَاءً ﴾ .

استئناف ثان بناء على أحسن الوجوه التي فسرنا بها موقع قوله : ﴿ اللهُ الذي جَعَل لكُمُ الليْلَ لِتَسكنوا فيهِ ﴾ [غافر : 61] كما تقدم فلذلك لم تعطف على التي قبلها لأن المقام مقام تعداد دلائل انفراده تعالى بالتصرف وبالإنعام عليهم حتى يفتضح خطلُهم في الإشراك به وكفرانِ نعمه ، فذكّرهم في الآية السابقة بآثار قدرته في إيجاد الأعراض القائمة بجواهر هذا العالم ، وهما عَرَضا الظلمة والنور ، وفي كليهما نعم عظيمة على الناس ، وذكّرهم في هذه الآية بآثار خلْق الجواهر في هذا العالم على كيفيات هي نعمة لهم ، وفي خلق أنفسهم على صور صالحة بهم ، فأما إن جعلتَ اسم الجلالة في قوله : ﴿ اللهُ الذي جعَل ﴾ الخ بدلاً من ﴿ ربكم ﴾ في ﴿ وقال ربكم ادعوني ﴾ [غافر : 60] ، فإن جملة ﴿ اللهُ الذي جعل لكم الأرض قراراً ﴾ تكون مستأنفة استئنافاً ابتدائياً .

والموصول وصلته يجوز أن يكون صفة لاسم الجلالة فيكون الخبر قولَه : ﴿ ذلكم اللهُ ربُّكُم ﴾ وهو أولى لأن المقصود إثبات إلهيته وحده بدليل ما هو مشاهد من إتقان صنعه

الممزوج بنعمته .

ويجوز أن يكون الموصول خبراً فيكون الخبر مستعملاً في الامتنان والاعتبار ، ولمّا كان المقصود الأول من هذه الآية الامتنان كما دل عليه قوله : ﴿ لكم ﴾ قُدمت الأرض على السماء لأن الانتفاع بها محسوس وذكرت السماء بعدها كما يستحضر الشيء بضده مع قصد إيداع دلائل علم الهيئة لمن فيهم استعداد للنظر فيها وتتبع أحوالها على تفاوت المدارك وتعاقب الأجيال واتساع العلوم .

والقرار أصله ، مصدر قرّ ، إذا سكن .

(35/677)

وهو هنا من صفات الأرض لأنه في حكم الخبر عن الأرض ، فالمعنى يحتمل : أنه جعلها قارة غير مائدة ولا مضطربة فلم تكن مثل كُرة الهواء مضطربة متحركة ، ولو لم تكن قارة لكان الناس في عناء من اضطرابها وتزلزلها ، وقد يفضي ذلك بأكثرهم إلى الهلاك وهذا في معنى قوله : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ﴾ في سورة [الأنبياء : 31] .

ويحتمل أن المعنى جعل الأرض ذات قَرار ، أي قَرارٍ لكم ، أي جعلها مستقَراً لكم كقوله تعالى : ﴿ وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ [المؤمنون : 50] أي خلقها على كيفية

تلائم الاستقرار عليها بأن جعلها يابسة غير سائلة ولو شاء لجعل سطح الأرض سيالاً كالزئبق أو كالعَجَل فلا يزال الإنسان سائخاً فيها يطفو تارة ويسيخ أخرى فلا يكاد يبقى على تلك الحالة ، وذلك كوسَط سبخة (التَّاكْمَرْتْ) المسماة : "شط الجريد" الفاصل بين "نفطة" و "نفزاوة" من الجنوب التونسي فإن فيها مسافات إذا مشت فيها القوافل ساخت في الأرض فلا يُعثر عليها ، ولذلك لا تسير فيها القوافل إلا بهُداة عارفين بمسالك السير في علامات منصوبَة ، فكانت خلقة الأرض دالة على عظيم قدرة الله وعلى دقيق حكمته وعلى رحمته بالإِنسان والحيوان المعمور بهما وجه الأرض .

والبناء : ما يُرفع سمكه على الأرض للاتقاء من الحر والبرد والمطر والدواب .

ووصف السماء بالبناء جار على طريقة التشبيه البليغ ، وتقدم الكلام مستوفى عند قوله تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ﴾ في سورة [البقرة : 22] .

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ ﴾ .

(36/677)

لا جرم أن حكمة الله تعالى التي تعلقت بإيجاد ما يحفّ بالإنسان من العوالم على كيفيات ملائمة لحياة الإِنسان وراحته قد تعلقت بإيجاد الإِنسان في ذاته على كيفية ملائمة له مدة

بقاء نوعه على الأرض وتحت أديم السماء ولذلك أعقَب التذكيرَ بما مَهَّد له من خلق الأرض والسماء ، بالتذكير بأنه خلقه خلقاً مستوفياً مصلحتَه وراحتَه .

وعبّر عن هذا الخلق بفعل ﴿ صوركم ﴾ لأن التصوير خلق على صورة مرادة تشعر بالعناية ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ﴾ [الأعراف : 11] فاقتضى حسن الصور فلذلك عُدل في جانب خلق الإِنسان عن فعل الجعل إلى فعل التصوير بقوله : ﴿ وصوركم ﴾ فهو كقوله تعالى : ﴿ الذي خلقك فسوّاك فعدّلَك في أي صورة ﴾ [الانفطار : 7 ، 8] ثم صرح بما اقتضاه فعل التصوير من الإِتقان والتحسين بقوله : ﴿ فأحْسَن صُوَركم ﴾ .

والفاء في قوله : ﴿ فأَحْسَن صُوَركم ﴾ عاطفة جملة على جملة ودالّة على التعقيب أي أوجد صورة الإنسان فجاءت حسنة .

وعطف على هذه العبرة والمنة منةٌ أُخرى فيها عبرة ، أي خلقكم في أحسن صورة ثم أمدكم بأحسنِ رزق ، فجمع لكم بين الإِيجاد والإِمداد ، ولما كان الرزق شهوة في ظاهره وكان مشتملاً على حكمة إمداد الجسم بوسائل تجديد قُواه الحَيوية وكان في قوله : ﴿ ورزقكم ﴾ إيماء إلى نعمة طُول الوجود فلم يكن الإنسان من الموجودات التي تظهر على الأرض ثم تضمحلّ في زمن قريب وجمع له بين حسن الإِيجاد وبين حسن الإِمداد فجَعل ما به مددَ الحياة وهو الرزق من أحسن الطيبات على خلاف رزق بقية أنواع الحيوان .

﴿ الطيبات ذَلِكُمُ الله ربُّكُمْ فتبارك الله رَبُّ ﴾

موقع ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ كموقع نظيره المتقدم آنفاً .

(37/677)

وإعادة هذا تكرير للتوقيف على خطل رأيهم في عبادة غيره على طريقة التعريض ، بقرينة ما تقدم في نظيره من قوله : ﴿ لا إله إلاَّ هو فأَنَّى تُؤفكون ﴾ [غافر : 62] ، وقرينةِ قوله هنا : ﴿ لا إله إلا هُو فادعوه مخلصين له الدين ﴾ [غافر : 65] .

وفُرِّع على ما ذُكِرَ من بدائع صنعه وجزيل منّهِ .

أن أنشِيءَ الثناءُ عليه بما يفيد اتصافه بعظيم صفات الكمال فقال : ﴿ فَتَبَارك الله ﴾ ، وفعل ﴿ تبارك ﴾ صيغةُ مفاعلة مستعملة مجازاً في قوةِ ما اشتُقّ منه الفعل .

وهو مشتقّ من اسم جامد وهو البَركَة ، والبركَة : اسم يدل على تزايد الخير .

وإظهار اسم الجلالة مع فعل ﴿ تبارك ﴾ دون الإِتيان بضمير مع تقدم اسمه ، فالإِظهار لتكون الجملة كلمةَ ثناء مستقلة .

و ﴿ رَبِّ العالمين ﴾ خالق أجناس العقلاء من الناس والملائكة والجنّ .

وهذا الوصف من تمام الإِنشاء لأن في ذكر ربوبيته للعالمين وهم أشرف أجناس الموجودات

استحضاراً لما أفاضه عليهم من خيرات الإيجاد والإمداد .

﴿ هُوَ الحي لاَ إله إلاَّ هُوَ فادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ .

استئناف ثالث للارتقاء في إثبات إلهيته الحقّ بإثبات ما يناسبها وهو الحياة الكاملة ، فهذه الجملة مقدمة لجملة ﴿ لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ فإثبات الحياة الواجبة لذاته فإن الذي رَبَّ العالمين وأوجدَهم على أكمل الأحوال وأمدهم بما به قوامهم على ممر الأزمان لا جرم أنه موصوف بالحياة الحق لأن مدبّر المخلوقات على طول العصور يجب أن يكون موصوفاً بالحياة ، إذ الحياة (مع ما عرض من عسر في تعريفها عند الحكماء والمتكلمين) هي صفة وجودية تصحح لمن قامت به الإدراكَ والإرادة والفعل ، وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ في سورة [البقرة : 28] .

(38/677)

فإن كان اتصاف موصوفها بها مسبوقاً بعدم فهي حياة ممكنة عارضة مثل حياة الملائكة وحياة الأرواح وحياة الإنسان وحياة الحيوان وحياة الأساريع ، فتكون متفاوتة في موصوفاتها بتفاوت قوتها فيها ومتفاوتة في موصوفها الواحد بتفاوت أزمانها مثل تفاوت حياة الشخص الواحد في وقت شبابه ، وحياته في وقت هرمه ومثل حياة الشخص وقت

نشاطه وحياته وقت نومه ، وبذلك التفاوت تصير إلى الخفوت ثم إلى الزوال ، ويظهر أثر تفاوتها في تفاوت آثارها من الإدراك والإرادة والفعل .

وإن كان اتصاف موصوفها بها أزليًّا غير مسبوق بعدم فهي حياة واجب الوجود سبحانه وهي حياة واجبة ذاتية .

وهي الحياة الحقيقية لأنها غير معرَّضة للنقص ولا للزوال ، فلذلك كان الحيّ حقيقة هو الله تعالى كما أنبأت عنه صيغة الحصر في قوله : ﴿ هُوَ الحَيُّ ﴾ وهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بحياة ما سواه من الأحياء لأنها عارضة ومعرّضة للفناء والزوال .

فموقع قوله : ﴿ لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ موقع النتيجة من الدليل لأن كل من سواه لا حياة له واجبةً ، فهو معرض للزوال فكيف يكون إلهاً مدبراً للعالم .

وجميع ما عبد من دون الله هو بَيْن ما لم يتصف بالحياة تماماً كالأصنام من الحجارة أو الخشب أو المعادن .

ومثلَ الكواكب الشمسسِ والقمر والشجر ، وبين ما اتّصف بحياة عارضة غير زائلة كالملائكة ، وبين ما اتصف بحياة عارضة زائلة من معبودات البشر مثل (بُوذة) و (بَرْهَما) بَلْهَ المعبودات من البقر والثعابين .

قال تعالى : ﴿ والذين تدعون من دون اللَّه لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴾ [النحل : 20] أي لا يستطيع أحدهم التصرف بالإيجاد والإحياء وهو مخلوق ، أي معرض للحياة ﴿

أمواتٌ غير أحياء وما يشعرون أيّان يبعثون ﴾ [النحل : 21] فجعل نفي الحياة عنهم في الحال أو في المآل دلالة على انتفاء إلهيتهم وجعل نفي إدراك بعض المدركات عنهم دلالة على انتفاء إلهيتهم .

(39/677)

وبعد اتضاح الدلالة على انفراده تعالى بالإِلهية فرع عليه الأمر بعبادته وحده غير مشركين غيره في العبادة لنهوض انفراده باستحقاق أن يُعبد .

والدعاء : العبادة لأنها يلازمها السؤال والنداء في أولها وفي أثنائها غالباً ، لأن الدعاء عنوان انكسار النفس وخضوعها كما تقدم آنفاً عند قوله تعالى:

﴿ وقَالَ رَبُّكم ادعُوني أستَجِبْ لَكُم ﴾ [غافر : 60] وكما في قوله الآتي : ﴿ بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً ﴾ [غافر : 74] .

والإِخلاص : الإِفراد وتصفية الشيء مما ينافيه أو يفسده .

والدين : المعاملة .

وأطلق على الطاعة وهو المراد هنا لأنها أشد أنواع المعاملة بين المطيع والمطاع .

والمعنى : فإذ كان هو الحي دون الأصنام وكان لا إله غيره فاعبدوه غير مشركين معه غيره

في عبادته .

ويدخل في ماهية الإِخلاص دخولاً أولياً ترك الرِّيَاء في العبادة لأن الرياء وهو أن يقصد المتعبد من عبادته أن يَراه الناس سواء كان قصداً مجرداً أو مخلوطاً مع قصد التقرب إلى الله .

كل ذلك لا يخلو من حصول حظ في تلك العبادةِ لغير الله وإن لم يكن ذلك الحظ في جوهرها .

وهذا معنى ما جاء في الحديث "إن الرياء الشرك الأصغر" .

وتقديم ﴿ له ﴾ المتعلق بمخلصين على مفعول ﴿ مخلصين ﴾ لأنه الأهم في هذا المقام به لأنه أشد تعلقاً بمتعلقه من تعلق المفعول بعامله .

﴿ الدين الحمد للَّهِ رَبِّ ﴾

يجوز أن تكون إنشاء للثناء على الله كما هو شأن أمثالها في غالب مواقع استعمالها كما تقدم في سورة الفاتحة ، فيجوز أن تكون متصلة بفعل ﴿ فادعوه ﴾ على تقدير قول محذوف ، أي قائلين ، الحمد لله رب العالمين ، أو قولوا : الحمد لله رب العالمين ، وقرينة المحذوف هو أن مثل هذه الجملة مما يجري على ألسنة الناس كثيراً فصارت كالمثل في إنشاء الثناء على الله .

والمعنى : فاعبدوه بالعمل وبالثناء عليه وشكره .

ويجوز أن تكون كلاماً مستأنفاً أريد به إنشاء الثناء على الله من نفسه تعليماً للناس كيف يحمدونه ، كما تقدم في وجوه نظيرها في سورة الفاتحة .

أو جارياً على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم على نحو قوله تعالى : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد للَّه رب العالمين ﴾ [الأنعام : 45] عقب قوله : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب اللَّه أو أتتكم الساعة أغير اللَّه تدعون إن كنتم صادقين ﴾ الآيات من سورة [الأنعام : 40] .

وعندي : أنه يجوز أن يكون ﴿ الحمد ﴾ مصدراً جيء به بدلاً من فعله على معنى الأمر ، أي أحمدوا اللَّه ربَّ العالمين .

وعدل به عن النصب إلى الرفع لقصد الدلالة على الدوام والثبات كما تقدم في أول الفاتحة .

وفصل الجملة عن الكلام الذي قبلها أسعد بالاحتمالين الأول والرابع .

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66)

جملة معترضة بين أدلة الوحدانية بدلالة الآيات الكونية والنفسية ليَجْرُوا على مقتضاها في أنفسهم بأن يعبدوا الله وحده ، فانتقل إلى تقرير دليل الوحدانية بخبر الوحي الإلهي بإبطال عبادة غير الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ليعمل بذلك في نفسه ويبلغ ذلك

إليهم فيعلموا أنه حُكم الله فيهم ، وأنهم لا عذر لهم في الغفلة عنها أو عدم إتقان النظر فيها أو قصور الاستنتاج منها بعد أن جاءهم رسول من الله يبينّ لهم أنواعاً بمختلف البيان من أدلّة برهانية وتقريبية إقناعية .

(41/677)

وأن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يدعوهم إلى ما يريده لنفسه فهو ممحض لهم النصيحة ، وهاديهم إلى الحجة لتتظاهر الأدلة النظرية بأدلة الأمر الإلهي بحيث يقوى إبطال مذهبهم في الشرك ، فإن ما نزل من الوحي تضمن أدلة عقلية وإقناعية وأوَامر إلهية وزواجر وترغيبات ، وكل ذلك يحوم حول إثبات تفرد الله تعالى بالإلهية والربوبية تفرداً مطلقاً لا تشوبه شائبة مشاركة ولو في ظاهر الحال كما تشوب المشاركة في كثير من الصفات الأخرى في مثل المُلك والمِلك والحَمد ، والنفع والضر ، والكرم والإعانة وذلك كثير .

فكان قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءَنِي البينات مِن رَّبِي ﴾ إبطالاً لعبادة غير الله بالقول الدال على التحذير والتخويف بعد أن أبطل ذلك بدلالة الحجة على المقصود .

وهذه دلالة كنائية لأن النهي يستلزم التحذير .

وذكر مجيء البينات في أثناء هذا الخبر إشارة إلى طرق أخرى من الأدلة على تفرد الله بالإِلهية تكررت قبل نزول هذه الآية .

وكان تقديم المسند إليه وهو ضمير ﴿ إني ﴾ على الخبر الفعلي لتقوية الحكم نحو : هو يعطي الجزيل ، وكان تخصيص ذاته بهذا النهي دون تشريكهم في ذلك الغرض الذي تقدم مع العلم بأنهم مَنْهيُّون عن ذلك وإلا فلا فائدة لهم في إبلاغ هذا القول فكان الرسول صلى الله عليه وسلم من حين نشأته لم يسجد لصنم قط وكان ذلك مصرفة من الله تعالى إياه عن ذلك إلهاماً إلهيا إرهاصاً لنبوءته .

و﴿ لمّا ﴾ حرف أو ظرف على خلاف بينهم ، وأيًّا مَّا كان فهي كلمة تفيد اقتران مضمون جملتين تليانها تُشبِهان جملتي الشرط والجزاء ، ولذلك يدعونها (لمّا) التوقيتية ، وحصولَ ذلك في الزمن الماضي ، فقوله : ﴿ لَمَّا جاءَنِي البينَاتُ من رَّبِي ﴾ توقيت لنهيه عن عبادة غير الله بوقت مجيء البينات ، أي بينات الوحي فيما مضى وهو يقتضي أن النهي لم يكن قبل وقت مجيء البينات .

والمقصود من إسناد المنهية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم التعريضُ بنهي المشركين ، فإن الأمر بأن يقول ذلك لا قصد منه إلا التبليغ لهم وإلا فلا فائدة لهم في الإِخبار بأن الرسول عليه الصلاة والسلام منهي عن أن يعبد الذين يدعون من دون الله ، يعني : فإذا كنتُ أنا منهياً عن ذلك فتأملوا في شأنكم واستعملوا أنظاركم فيه ، ليسوقهم إلى النظر في الأدلة سوقاً لَيّناً خفياً لاتِّبَاعِه فيما نهى عنه ، كما جاء ذلك صريحاً لا تعريضاً في قول إبراهيم عليه السلام لأبيه

﴿ يا أبت إني قد جَاءني من العلم ما لم يَأتِك فاتَّبِعْني أهدِك صراطاً سوِيًّا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمان عصيا ﴾ [مريم : 43 ، 44] وبُني الفعل للنائب لظهور أن الناهي هو الله تعالى بقرينة مقام التبليغ والرسالة .

ومعنى الدعاء في قوله : ﴿ الَّذِينَ تَدْعُون ﴾ يجوز أن يكون على ظاهر الدعاء ، وهو القول الذي تسأل به حاجة ، ويجوز أن يكون بمعنى تعبدون كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وقَالَ رَبُّكم ادعُوني أستجب لكم ﴾ [غافر : 60] فيكون العدول عن أن يقول : أن أعبد الذين تعبدون ، تفنناً .

و(مِنْ) في قوله : ﴿ مِن رَّبِي ﴾ ابتدائية ، وجعل المجرور بـ (من) وصف (رب) مضافاً إلى ضمير المتكلم دون أن يجعل مجرورها ضميراً يعود على اسم الجلالة إظهاراً في مقام الإِضمار على خلاف مقتضى الظاهر لتربية المهابة في نفوس المعرَّض بهم ليعلموا أن

هذا النهي ومجيء البينات هو من جانب سيّده وسيدهم فما يسعهم إلا أن يطيعوه ولذلك عززه بإضافة الرب إلى الجميع في قوله : ﴿ وَأُمِرتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ أي ربكم ورب غيركم فلا منصرف لكم عن طاعته .

(43/677)

والإسلام : الانقياد بالقول والعمل ، وفعله متعدّ ، وكثر حذف مفعوله فنزّل منزلة اللازم ، فأصله : أسلم نفسه أو ذاتَه أو وجهه كما صرح به في نحو قوله تعالى : ﴿ فقل أسلمت وجهي للَّه ﴾ ، ومن استعماله كاللازم قوله تعالى : ﴿ فقل أسلمت وجهي لله ﴾ في سورة آل عمران (20) وقوله تعالى : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ في سورة البقرة (131) ، وكذلك هو هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(44/677)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية رضي الله عنه قال : إن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الدجال يكون منا في آخر الزمان ، ويكون من أمره فعظموا أمره ، وقالوا : يصنع كذا . . . فأنزل الله ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ قال : لا يبلغ الذي يقول ﴿ فاستعذ بالله ﴾ فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ من فتنة الدجال ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ الدجال .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان ﴾ قال : هم اليهود نزلت فيهم ، فيما ينتظرونه من أمر الدجال .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ قال : زعموا أن اليهود قالوا يكون منا ملك في آخر الزمان ، البحر إلى ركبتيه ، والسحاب دون رأسه ، يأخذ الطير بين السماء والأرض . معه جبل خبز ونهر . فنزلت ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ إن في صدورهم إلا كبر ﴾ قال : عظمة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة . إنما حملهم على التكذيب الزيغ الذي في قلوبهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ قال ﴿ الأعمى ﴾ الكافر ﴿ والبصير ﴾ المؤمن ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون ﴾ قال : هم في بغيهم بعد .

(45/677)

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما كان من فتنة ولا تكون حتى تقوم الساعة أعظم من فتنة الدجال ، وما من نبي إلا حذر قومه ولأخبرنكم عنه بشيء ما أخبره نبي قبلي . فوضع يده على عينه ، ثم قال : أشهد أن الله ليس بأعور " .

وأخرج ابن عدي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من نبي إلا وقد حذر أمته الدجال . وهو أعور بين عينيه طفرة ، مكتوب عليه كافر ، معه واديان ؛ أحدهما جنة ، والآخر نار . فناره جنة ، وجنته نار " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن داود بن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد وصف الدجال لأمته . وَلأَصِفَنَّهُ صفةً لم يصفها أحد كان قبلي ، إنه أعور ، وإن الله عز وجل ليس بأعور ".

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي وحسنه عن أبي عبيدة بن الجراح . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنه لم يكن نبي إلا قد أنذر قومه الدجال ، وأنا أنذركموه . فوصف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : لعله سيدركه بعض من رآني وسمع كلامي قالوا : يا رسول الله كيف قلوبنا يومئذ ؟ قال : مثلها اليوم أو خير " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد في مسنده والحاكم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني خاتم ألف نبي أو أكثر . ما بعث نبي إلا وقد حذر أمته ، وإني قد بين لي من أمره ما لم يتبين لأحد ، وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، وعينه اليمنى جاحظة كأنها في حائط مجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري ، معه من كل لسان ، ومعه صورة الجنة خضراء يجري فيها الماء ، ومعه صورة النار سوداء تدخن ، يتبعه من كل قوم يدعونهم بلسانهم إليها " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور والكذاب . ألا أنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ، ومكتوب بين عينيه كافر " .

وأخرج يعقوب بن سفيان عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من نبي إلا وقد حذر أمته الدجال ، وإني أحذركم أمره . إنه أعور ، وإن ربكم عز وجل ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر ، يقرأه الكاتب وغير الكاتب ، معه جنة ونار ، فناره جنة ، وجنته نار " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني لخاتم ألف نبي أو أكثر ، وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال ، وإنه قد تبين لي ما لم يتبين لأحد منهم ، وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : " قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : إني انذركموه وما من نبي إلا قد أنذر قومه . لقد أنذر نوح قومه . ولكن سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه ، تعلمون أنه أعور ، وإن الله ليس بأعور " .

وأخرج أحمد عن عبد الله بن عمر قال : كنا نحدث بحجة الوداع ولا نرى أنه الوداع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره قال : " ما بعث الله من نبي إلا قد أنذر أمته . لقد أنذر نوح أمته والنبيون من بعده . إلا ما خفي عليكم من شأنه فلا يخفين عليكم . إن ربكم ليس بأعور . قالها ثلاثا " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الدجال أعور العين عليها طفرة . مكتوب بين عينيه كافر " .

(47/677)

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الدجال أعور جعد حجان أحمر كان رأسه غصن شجرة . أشبه الناس بعبد العزى ، فأما هلك الهلك فإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأنا أعلم بما مع الدجال . معه نهران يجريان . أحدهما رأى العين نار تتأجج ، فمن أدرك ذلك فليأت النار الذي يراه ، فليغمض عينيه ، ثم يطأطىء رأسه يشرب فإنه بارد وإن الدجال ممسوح العين عليه طفرة غليظة ، مكتوب بين عينيه كافر يقرأها كل مؤمن كاتب

وغير كاتب " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الا أحدثكم عن الدجال حديثاً ما حدثه نبي قط . إنه أعور ، وإنه يجيء معه بمثل الجنة والنار ، فالذي يقول هي الجنة هي النار ، وإني أنذركم به كما أنذر نوح قومه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والطبراني والحاكم عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سمع منكم بخروج الدجال فلينأى عنه ما استطاع ، فإن الرجل يأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فما يزال به حتى يتبعه مما يرى من الشبهات " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : " ما كان أحد يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدجال أكثر مني قال : وما تسألني عنه ؟ قلت : إن الناس يقولون : إن معه الطعام والشراب . قال : هو أهون على الله من ذلك " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من شر فتنة المسيح الدجال " .

(48/677)

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من نجا من ثلاثة فقد نجا ، قالها ثلاث مرات قالوا : ما ذاك يا رسول الله ؟ قال : داء ، والدجال ، وقتل خليفة يصطبر بالحق يعطيه " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : يمكث الناس بعد خروج الدجال أربعين عاماً ، ويغرس النخل وتقوم الأسواق .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي العلاء بن الشخير رضي الله عنه : أن نوحاً عليه السلام ومن بعده من الأنبياء عليهم السلام كانوا يتعوّذون من فتنة الدجال .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة رضي الله عنه قال : لا يخرج الدجال حتى يكون خروجه أشهى إلى المسلمين من شرب الماء على الظمأ ، فقال له رجل : لم ؟ قال : من شدة البلاء والشر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة رضي الله عنه قال : حتى لا يكون غائب أحب إلى المؤمن خروجاً منه ، وما خروجه بأضر للمؤمن من حصاة يرفعها من الأرض ، وما علم أحدهم أدناهم وأقصاهم إلا سواء .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي وائل رضي الله عنه قال : أكثر أتباع الدجال اليهود ، وأولاد الأمهات .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال : كان بمقدمة الأعور الدجال ستمائة ألف يلبسون

التيجان .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم عن هشام بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه وابن ماجة عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أن الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان ، يتبعه أقوام كان وجوههم المجان المطرقة " .

وأخرج أحمد عن أبيّ بن كعب ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده الدجال فقال : " إحدى عينيه كأنها زجاجة خضراء " .

(49/677)

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عاصم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما مسيح الضلالة فرجل أجلى الجبهة ، ممسوخ العين اليسرى ، عريض النحر ، فيه دمامة كأنه فلان بن عبد العزى ، أو عبد العزى بن فلان " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سفينة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إنه

لم يكن نبي إلا حذر الدجال أمته . أعور العين اليسرى ، بعينه اليمنى طفرة غليظة ، بين عينيه كافر ، معه واديان . أحدهما جنة . والآخر نار ، فجنته نار ، وناره جنة ، ومعه ملكان يشبهان نبيين من الأنبياء . أحدهما عن يمينه ، والآخر عن شماله ، فيقول من الناس إلا صاحبه فيقول صاحبه : صدقت . فيسمعه الناس ، فيحسبون ما صدق الدجال ، وذلك فتنة ثم يسير حتى يأتي الشام فينزل عيسى ، فيقتله الله عند عقبة أفيق " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يمكث أبوا الدجال ثلاثين عاماً لا يولد لهما ولد ، ثم يولد لهما غلام أعور . أضر شيء . وأقله نفعاً ، تنام عيناه ولا ينام قلبه . ثم نعت أبويه فقال : أبوه رجل طوال ضرب اللحم ، طويل الأنف ، كان أنفه مهار . وأمه امرأة فرغانية ، عظيمة " الثديين " " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الدجال يطوي الأرض كلها إلا مكة والمدينة ، فيأتي المدينة فيجد كل نقب من أنقابها صفوفاً من الملائكة ، فيأتي سبخة الجرف فيضرب رواقه ، ثم ترتجف المدينة ثلاث رجفات ، فيخرج إليه كل منافق ومنافقة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة رضي الله عنه قال : لو خرج الدجال لآمن به قوم في قبورهم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : يهبط الدجال من كور كرهان ،

معه ثمانون ألفاً عليهم الطيالسة ينتعلون ، كأن وجوههم مجان مطرقة .

وأخرج ابن أبي شيبة من طريق حوط العبدي عن عبد الله رضي الله عنه قال : إن أذن حمار الدجال لتظل سبعين ألفاً .

(50/677)

وأخرج ابن أبي شهبة عن جنادة بن أمية الدري رضي الله عنه قال : دخلت أنا وصاحب لي على رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : حدثنا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تحدثنا عن غيره ، وإن كان عندنا مصدقاً قال : نعم . قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : " أنذركم الدجال أنذركم الدجال أنذركم الدجال . فإنه لم يكن نبي إلا أنذره أمته ، وأنه فيكم أيتها الأمة ، وأنه جعد آدم ممسوخ العين اليسرى ، وإن معه جنة ونارا ، فناره جنة ، وجنته نار ، وإن معه نهر ماء ، وجبل خبز ، وإنه يسلط على نفس فيقتلها ، ثم يحييها لا يسلط على غيرها ، وإنه يمطر السماء ، وينبت الأرض ، وإنه يلبث في الأرض أربعين صباحاً حتى يبلغ منها كل منهل ، وإنه لا يقرب أربعة مساجد : مسجد الحرام ، ومسجد الرسول ، ومسجد المقدس ، ومسجد الطور ، وما عليكم من الأشياء فإن الله ليس بأعور مرتين " .

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني عن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " والله لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً آخرهم الأعور الدجال . ممسوخ العين اليسرى كأنها عين أبي يحيى الشيخ من الأنصار ، وإنه متى يخرج فإنه يزعم أنه الله ، فمن آمن به وصدقه واتبعه فليس ينفعه صالح له من عمل له سلف ، ومن كفر به وكذبه فليس يعاقب بشيء من عمل له سلف . وإنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبيت المقدس ، فهزمه الله وجنوده . حتى أن حرم الحائط ، أو أصل الشجرة ينادي : يا مؤمن هذا كافر يستتر بي فتعال فاقتله ، ولن يكون ذاك كذلك حتى تروا أموراً يتفاقم شأنها في أنفسكم ، فتتساءلون بينكم هل كان نبيكم ذكر لكم منها شيئاً ذكر أو حتى تزول جبال عن مراتبها ، ثم على أثر ذلك القبض . وأشار بيده إلى الموت " .

(51/677)

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدجال يخوض البحار إلى ركبتيه ، ويتناول السحاب ، ويسبق الشمس إلى مغربها ، وفي جبهته قرن منه الحيات ، وقد صور في جسده السلاح كله حتى ذكر السيف والرمح والدرق " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : يخرج الدجال فيمكث في الأرض أربعين صباحاً يبلغ منها كل منهل . اليوم منها كالجمعة ، والجمعة كالشهر ، والشهر كالسنة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليصحبن الدجال قوم يقولون : انا لنصحبه ، وانا لنعلم انه كذاب ، ولكنا إنما نصحبه لنأكل من الطعام ، ونرعى من الشجر ، وإذا نزل غضب الله نزل عليهم كلهم " .

وأخرج الطبراني عن أشعث بن أبي الشعثاء عن أبيه قال : ذكر الدجال عند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال : لا تكثروا ذكره فإن الأمر إذا قضي في السماء كان أسرع لنزوله إلى الأرض أن يظهر على ألسنة الناس .

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60)

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الدعاء تلو العبادة . ثم قرأ ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي

﴿ قال : عن دعائي ﴾ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ هل تدرون ما عبادة الله ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ! قال : هو اخلاص الله مما سواه " .

(52/677)

وأخرج ابن مردويه والخطيب عن البراء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الدعاء هو العبادة . وقرأ ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ قال : اعبدوني .

وأخرج ابن جرير عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ قال : صاغرين .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدعاء الإِستغفار " .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من لم يدع الله يغضب عليه " .

وأخرج أحمد والحكيم الترمذي وأبو يعلى والطبراني عن معاذ رضي الله عنه قال : لن ينفع

حذر من قدر ، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ، ومما لم ينزل . فعليكم بالدعاء عباد الله .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا فتح الله على عبد بالدعاء فليدع ، فإن الله يستجيب له " .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن عدي في نوادر الأصول عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله يحب الملحين في الدعاء " .

وأخرج الحكيم الترمذي عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : نجد فيما أنزل الله تعالى في بعض الكتب ، أن الله تعالى يقول : أنزل البلاء استخرج به الدعاء .

وأخرج ابن المنذر عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ قال : قال ربكم : " عبدي إنك ما دعوتني ورجوتني فإني سأغفر لك على ما كان فيك ، ولو لقيتني بقراب الأرض خطايا لقيتك بقرابها مغفرة ، ولو أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي " .

(53/677)

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أفضل العبادة الدعاء وقرأ ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم . . . ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ ادعوني أستجب لكم . . . ﴾ . قال : اعملوا ، وابشروا ، فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن كعب رضي الله عنه أنه تلا هذه الآية فقال : ما أعطي أحد من الأمم ما أعطيت هذه الأمة إلا بني الرجل المجتبى ، يقال له : سل تعطه .

وأخرج البخاري في الأدب عن عائشة رضي الله عنها قالت : " سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي العبادة أفضل ؟ فقال : " دعاء المرء لنفسه " " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن كعب رضي الله عنه قال : قال الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام : " قل للمؤمنين لا يستعجلوني إذا دعوني ، ولا يبخلوني ، أليس يعلمون أني أبغض البخيل فكيف أكون بخيلاً ! يا موسى لا تخف مني بخلاً أن تسألني عظيماً ، ولا تستحي أن تسألني صغيراً . اطلب إليَّ الدقة ، واطلب إليَّ العلف لشاتك . يا موسى أما علمت أني خلقت الخردلة فما فوقها ؟ وأني لم أخلق شيئاً إلا وقد علمت أن الخلق يحتاجون إليه ، فمن يسألني مسألة وهو يعلم أني قادر أعطي وأمنع ، وأعطيته مسألته مع المغفرة فإن حمدني حين أعطيته وحين أمنعه أسكنته دار الحمادين ، وأيما عبد لم

يسألني مسألة ثم أعطيته كان أشد عليه من الحساب

وأخرج الحكيم الترمذي عن مالك بن أنس رضي الله عنه قال : قال عروة بن الزبير رضي الله عنه : أني لأسأل الله تعالى حوائجي في صلاتي . حتى أسأله الملح لأهلي .

وأخرج الحكيم الترمذي عن زهرة بن معبد رضي الله عنه قال : سمعت محمد بن المنكدر رضي الله عنه يدعو يقول : اللهم قوِّ ذكري ، فإن فيه منفعة لأهلي .

(54/677)

وأخرج أحمد في الزهد عن ثابت البناني رضي الله عنه قال : تعبد رجل سبعين سنة ، فكان يقول في دعائه : رب اجزني بعملي فادخل الجنة ، فمكث فيها سبعين عاماً ، فلما وفت قيل له : اخرج قد استوفيت عملك . أي شيء كان في الدنيا أوثق في نفسه ، فلم يجد شيئاً أوثق في نفسه مما دعا الله سبحانه ، فأقبل يقول في دعائه : رب سمعتك وأنا في الدنيا ، وأنت تقيل العثرات فأقل اليوم عثرتي . فترك في الجنة .

أما قوله تعالى : ﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ .

(55/677)

أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مغفل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن عيسى ابن مريم عليه السلام قال : يا معشر الحواريين الصلاة جامعة ، فخرج الحواريون في هيئة العبادة قد تضمرت البطون ، وغارت العيون ، واصفرت الألوان ، فسار بهم عيسى عليه السلام إلى فلاة من الأرض ، فقام على رأس جرثومة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم أنشأ يتلو عليهم آيات الله وحكمته فقال : يا معشر الحواريين اسمعوا ما أقول لكم . اني لأجد في كتاب الله المنزل الذي أنزل الله في الإِنجيل أشياء معلومة فاعملوا بها ، قالوا : يا روح الله وما هي ؟ قال : خلق الليل لثلاث خصال ، وخلق النهار لسبع خصال ، فمن مضى عليه الليل والنهار وهو في غير هذه الخصال خاصمه الليل والنهار يوم القيامة فخصماه . خلق الليل لتسكن فيه العروق الفاترة التي أتعبتها في نهارك ، وتستغفر لذنبك الذي كسبته في النهار ثم لا تعود فيه ، وتقنت فيه قنوت الصابرين . فثلث تنام ، وثلث تقوم ، وثلث تتضرع إلى ربك . فهذا ما خلق له الليل ، وخلق النهار لتؤدي فيه الصلاة المفروضة التي عنها تسأل وبها تُحاسَبْ وبر والديك ، وأن تضرب في الأرض تبتغي المعيشة معيشة يومك ، وأن تعود فيه ولياً لله تعالى كيما يتعهدكم الله برحمته ، وأن تشيعوا فيه جنازة كيما تنقلبوا مغفوراً لكم ، وأن تأمروا بمعروف وتنهوا عن منكر فهو ذروة الإِيمان وقوام الدين ، وأن تجاهد في سبيل الله تراحموا إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام في قبته . ومن مضى عليه الليل

والنهار وهو في غير هذه الخصال خاصمه الله والنهار يوم القيامة وهو عند مليك مقتدر " .

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65)

(56/677)

أخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرهما الحمد لله رب العالمين . وذلك قوله ﴿ فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه كان يستحب إذا قال : لا إله إلا الله يتبعها الحمد لله رب العالمين ، ثم يقرأ هذه الآية ﴿ هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ﴾ والله أعلم .

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66)

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة قالا : يا محمد ارجع عما تقول وعليك بدين آبائك وأجدادك . فأنزل الله تعالى ﴿ قل إني نهيت

أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(57/677)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) ﴾

ننصرهم بالآياتِ وفنونِ التعريفات حتى يعرفوا ويشهدوا ان الظَّفَرَ وضِدَّه من الله ، والخيرَ والشرَّ من الله .

ويقال ننصرهم على أعدائهم بكيدٍ خفيٍّ ولطفٍ غيرِ مرئيٍّ ، من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون ؛ ننصرهم في الدنيا بالمعرفة وباليقين بأنَّ الكائنات من الله ، وننصرهم في الآخرة بأن يشهدوا ذلك ، ويعرفوا – بالاضطرار – أنَّ التأثيرَ من الله ، وغاية النصرة أن يَقْتُلَ الناصرُ عدوَّ مَنْ ينصره ، فإذا أراد حَتْفَه تحقَّق بأن لا عَدُوَّ على الحقيقة ، وأنَّ الخَلْقَ أشباحٌ تجري عليهم أحكامُ القدرة ؛ فالوليُّ لا عدوَّ له ، ولا صديق له إلاّ الله ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة : 257] .

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52)

دليلُ الخطابِ أن المؤمنين ينفعهم تَنَصُّلُهم ، ولهم من الله الرحمة ، ولهم حُسْنُ الدار ، وما بقي من هذه الدنيا إلا اليسير .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (54)

مضى طَرَفٌ من البيان في قصة موسى .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (55)

الصبرُ في انتظار الموعود من الحقِّ على حسب الإيمان والتصديق ؛ فَمَنْ كان تصديقهُ ويقينُه أتمَّ وأقوى كان صبرُه أتم وأوفى .

﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ : وهو – سبحانه – يُعْطِي وإن توَهَّمَ العبدُ أنه يُبْطِي .

(58/677)

ويقال الصبر على قسمين : صبرٌ على العافية ، وصبرٌ على البلاء ، والصبرُ على العافية أشدُّ من الصبر على البلاء ، فصبرُ الرجال على العافية وهو أتمُّ الصبر . (1)

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ . وفي هذا دليل على أنه كانت له ذنوب ، ولم يكن جميعُ استغفاره

لأمته لأنه قال في موضع آخر : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : 19] وهنا لم يذكر ذلك . ويمكن حَمْلُ الذنبِ على ما كان قبل النبوة ؛ إذ يجوز أن يكون العبد قد تاب من الزَّلَّة ثم يجب عليه الاستغفار منها كلما ذكرها ، فإن تجديد التوبة يجب كما يجب أصلُ التوبة .

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56)

﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ﴾ : أي بغير حجة .

﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ أي ليس في صدورهم إلا كِبْرٌ يمنعهم عن الانقياد للحق ، ويبقون به عن الله ، ولا يصلون إلى مرادهم .

لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57)

أي خَلْقُ السموات والأرضِ أكبرُ من بعثهم وخَلْقهم مرةً أخرى بعد أن صاروا رميماً ؛ فالقوم كانوا يُقِرُّون بخَلْقِ السموات والأرض ، وينكرون أمرَ البعث .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (58)

أراد به : ما يستوي المؤمنُ والكافرُ ، ولا المربوطُ بشهوته كالمبسوط بصفوته ، ولا المجذوبُ بقربته كالمحجوب بعقوبته ، ولا المُرَقّي إلى مشاهدته كالمُبقّي في شاهده ، ولا المجدود بسعادته كالمردود لشقاوته .

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (59)

---

(1) لأن قوة الإنسان قد تنسيه ذكر المنعم فيصبر عنه - وهذا جفاء ، ولكن ضعف الإنسان في البلاء يدعوه إلى الصبر في اللّه ، قال قائلهم :

والصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود

(59/677)

أنَّ ميقاتَ الحسابِ لكائنٌ وإن وقعت المدةُ في أوانه .

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (60)

معناه : أدعوني أستجب لكم إن شِئتُ ؛ لأنه قال في آية أخرى : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ [الأنعام : 41] .

ويقال ادعوني بشرطِ الدعاء ، وشرطُ الدعاء الأكلُ من الحلال ؛ إذا يقال الدعاء مفتاحُه الحاجة ، وأسبابُهُ اللقمةُ الحلال .

ويقال كلُّ مَنْ دعاه استجاب له إمّا بما يشاء له . أوبشيء آخر هو خيرُ له منه .

ويقال الكافر ليس يدعوه ؛ لأنه إنما يدعو مَنْ له شريك ، وهو لا شريكَ له .

ويقال : إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فيما مِنْ مؤمنٍ يدعو الله ويسأله شيئاً إلا أعطاه في الدنيا ، فأما في الآخرة فيقول له : هذا ما طلبْتَه في الدنيا ، وقد ادْخرتُه لك لهذا اليوم حتى ليتمنى العبدُ أنه ليته لم يُعطَ شيئاً في الدنيا قط .

ويقال : ادعوني بالطاعات استَجبْ لكم بالثواب والدرجات .

ويقال ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة . ويقال ادعوني بالتنصل أستجب لكم بالتفضُّل . ويقال ادعوني بحسَبِ الطاقة أستجب لكم بكشف الفاقة .

ويقال ادعوني بالسؤال أستجب لكم بالنّوال والأفضال .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عِنْ عِبَادَتِى ﴾ أن يستكبرون عن دعائي ، سيدخلون جهنم صاغرين .

قوله جلّ ذكره : ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ .

سكونُ الناسِ في الليل على أقسام : أهلُ الغفلة يسكنون إلى غفلتهم ، واهل المحبة يسكنون بحكم وصلتهم ، وشتّان بين سكونِ غفلةٍ وسكونِ وصلة !

قومٌ يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم ، وقومٌ يسكنون إلى حلاوة أعمالهم ؛ لبسطهم واستقلالهم ، وقومٌ يعدِمون القرار في ليلهم ونهارهم وأولئك اصحابُ الاشتياق . . . إبداً في الاحتراق .

﴿ ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ الذي جعل سكونكم معه ، وانزعاجكم له ، واشتياقكم إليه ، ومحبتكم فيه ، وانقطاعكم إليه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً والسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ .

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ : خَلقَ العرشَ والكرسيّ والسموات والأرضين وجميعَ المخلوقاتِ ولم يقُلْ هذا الخطاب ، وإنما قال لنا : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ وليس الحَسَنُ ما يستحسنه الناسُ بل الحَسنُ ما يستحسنه الحبيبُ :

ما حطك الواشون عن رتبةٍ . . . عندي ولا ضرَّكَ مُعتابُ

كانهم أُثْنَوْا –ولم يعلما– . . . عليكَ عندي بالذي عابوا

لم يَقُلْ للشموس في علائها ، ولا للأقمار في ضيائها : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ .

ولما انتهى إلينا قال ذلك ، وقال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] .

ويقال إن الواشين قبَّحوا صورتكم عندنا ، بل الملائكةُ كُتبوا في صحائفكم قبيحَ ما ارتكبتم . . ومولاكم أحسن صوركم ، بأن محا من ديوانكم الزّلاّت ، وأثبت بدلاً منها الحسنات ، قال تعالى : ﴿ يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد : 39] ، وقال : ﴿

فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان : 70] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ .

ليس الطيبُ ما تستطيبه النفْسُ إنما الطيب ما يستطيبُه القلبُ ، فالخبزُ القفار أطيب للفقير الشكر من الحلواء للغنيّ المتَسَخّط .

ورزْقُ النفوس الطعامُ والشرابُ ، ورزقُ القلوب لذاذات الطاعات .

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65)

﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴾ : الذى لا يموت ، ولا فضلُه يفوت ، فادعوه بلسان القوت ، وذلك عليه لا يفوت .

(61/677)

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66)

قُلْ – يا محمد – إني نهيت عن عادة ما تدعون من دون الله ، أي أُمِرْتُ بالتبرّي عمَّا عبدتم ، والإعراض عمّا به اشتغلتم ، والاستسلام للذي خلقني ، وبالنبوة استخصّني . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 310.315 ﴾

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(39) ﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قرارا . . . ﴾

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذا النص القرآني المعجز جاء في الربع الأخير من سورة غافر وهي سورة مكية , عدد آياتها 85, وقد سميت بهذا الاسم الجليل غافر الذي هو صفة من صفات الله العلا لوروده في مطلع السورة , وفي ثناياها بصيغة الغفار وهو من أسماء الله الحسني .

ويدور محور سورة غافر حول قضيتي الإيمان والكفر , وصراع أهليهما عبر التاريخ , ومحاولات أهل الباطل للعلو , في الأرض , والتجبر علي الخلق بغير الحق - تماما كما تفعل الولايات المتحدة الأمريكية وذنبها الأعوج المسمي إسرائيل , وحلفاؤهما اليوم - وترد آيات

السورة الكريمة باستعراض لبأس الله الذي يأخذ المتجبرين في الأرض أخذ عزيز مقتدر , وتشير إلي عدد من مصارع الغابرين الذين طغوا وبغوا في الأرض بغير الحق , فكان جزاؤهم من الله الإفناء الكامل , وماذلك علي الله بعزيز . . . ! !

وتبدأ سورة غافر بالحرفين المقطعين حم وبهما تبدأ سبع سور من سور القرآن الكريم وتسمي بالحواميم أو بـآل حم والحروف المقطعة التي تفتتح بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم , والتي تضم أسماء نصف حروف الهجاء العربية الثمانية والعشرين تعتبر من أسرار القرآن التي لم يتم اكتشافها بعد , وإن بذلت محاولات عديدة من أجل ذلك .

ويلي هذا الاستفتاح بيان من الله (تعالي) بأن القرآن الكريم هو تنزيل من الله العزيز العليم الذي وصف ذاته العلية بقوله : غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير * والغفر هو الستر والمحو والتكفير , و (الطول) هو الفضل والإنعام عن غني وسعة واقتدار .

وتخاطب الآيات خاتم الانبياء

والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله (صلي الله عليه وسلم) بالحقيقة الواقعة : أنه لا يجادل في آيات الله بغير علم إلا الذين كفروا , وأنه لا يجوز ان يحزنه تقلب الكافرين في البلاد بشئ من السلطان والبطش (كما ينقلب الأمريكان والإسرائيليون وأعوانهم اليوم) فإن ذلك استدراج لهم , حتي إذا ما بالغوا في جرائمهم أخذهم الله بذنوبهم أخذ من سبقوهم من الأمم الكافرة والمشركة من أمثال قوم نوح والأحزاب الذين أفسدوا في الأرض إفسادا كبيرا , فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر , وتؤكد السورة أن مصيرهم إلي جهنم وبئس المصير . . . ! !

وتحدثت السورة عن حملة العرش وعمن حولهم من الملائكة الذين يسبحون بحمد الله ويؤمنون به , ويستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض , ويدعون للذين تابوا منهم بالنجاة من عذاب الجحيم , ويسألون الله (تعالي) لهم , ولمن صلح من آبائهم , وأزواجهم , وذرياتهم جنات عدن , وأن يقيهم السيئات , كما تعرض لشئ من أحوال الكافرين والمشركين يتذللون بين يدي الله يوم القيامة في انكسار واضح وهم يقولون : ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلي خروج من سبيل * .

وتستشهد السورة بالعديد من آيات الله في الكون , وتوصي المؤمنين بالثبات علي التوحيد الخالص لله ولو كره الكافرون , وتصفه (سبحانه وتعالي) بأنه : رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره علي من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * وهو يوم التقاء الخلق في

المحشر , وهو يوم عصيب , يبرز فيه الخلق امام الله (تعالي) لا يخفي علي الله منهم شئ , وينادي فيهم المنادي : لمن الملك اليوم ؟ ويأتي الجواب حاسما , جازما قاطعا : لله الواحد القهار و (الروح) هنا هي الوحي والنبوة لأن القلوب تحيا بهما كما تحيا الاجساد بأرواحها . . . ! !

ويأتي القرار الإلهي : اليوم تجزي كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

وتحذر الآيات

(64/677)

من أهوال يوم القيامة : إذ القلوب لدي الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع وتؤكد أن الله (تعالي) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور * والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ إن الله هو السميع البصير * .

وتعتب الآيات علي الذين لم يعتبروا بمصارع الأمم البائدة والذين . . . كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فأخذهم الله بذنوبهم , وما كان لهم من الله من واق * وتعرض السورة لقصة سيدنا موسي (عليه السلام) مع كل من فرعون وهامان وقارون , ومحاولة فرعون القضاء علي الحق وجنده وأتباعه , قمعا للإيمان , ونشرا للشرك والكفر والطغيان (تماما كما يفعل

الأمريكان وحلفاؤهم اليوم) وتشير إلي مؤمن آل فرعون الذي كان يخفي إيمانه , وحديثه إلي قومه , وتحذيره إياهم من مصائر الغابرين من أقوام نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ومن أهوال يوم التناد , ومن إهمالهم دعوة يوسف (عليه السلام) من قبل , ومن أغترارهم بالدنيا ومتاعها الزائل بينما الآخرة هي دار القرار , وذلك كله بشئ من اللطف والحذر .

وتتحدث الآيات عن كيف زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل فحاق بآل فرعون سوء العذاب في الدنيا (بغرقه في اليم هو وجنده وأعوانه ونجاة رسول الله موسي ومن آمن معه) , وفي قبورهم , كما تؤكد الآيات , ويوم تقوم الساعة حيث يلقون أشد العذاب .

وتعرض الآيات للحوار بين الذين اتبعوا والذين اتبعوا وهم في النار , ورجاؤهم في مذلة بادية إلي خزنة جهنم كي يدعوا الله تعالي أن يخفف عنهم يوما من العذاب . . . . ! !

وتؤكد الآيات أن الله تعالي ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ,

وتعرض لشئ من أخبار سيدنا موسي (عليه السلام) مع بني إسرائيل , وتأمر المصطفي (صلي الله عليه وسلم) بالصبر والاستغفار والتسبيح بحمد الله بالعشي والإبكار , والاستعاذة بالله من الكبر الكاذب الذي يتخفي

وراءه الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم .

وكما لا يستوي الأعمي والبصير لا يستوي المسيئون والصالحون , وتجزم الآيات بأن الساعة أتية لا ريب فيها , وتطالب المؤمنين بالتوجه إلي الله تعالي بالدعاء , فيستجيب لهم , لأن الدعاء هو قمة الخضوع لله بالطاعة , وأن الذين يستكبرون عن الدعاء سوف يدخلون جهنم داخرين . . .

وتصف الآيات شيئًا من أحوال المكذبين بكتب الله ورسله من الكفار والمشركين , وتوصي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بالثبات علي التوحيد الخالص لله , والصبر علي ما يلقي من عناد الكافرين , وتؤكد أن وعد الله حق , وأن الله (تعالي) قد أرسل رسلا من قبل , قص شيئًا من أخبار بعضهم عليه , ولم يقصص عن البعض الآخر , وأنه ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله , فإذا جاءت الآية . . . وجحد بها المكذبون . . ! استحقوا حينئذ عقاب رب العالمين فخسروا خسرانا مبينا . . . ! !

وتختتم السورة بعتاب للمرة الثانية علي الذين لم يعتبروا بمصارع الأمم البائدة من قبلهم والذين كانوا أكثر منهم عددا , وأشد منهم قوة وأثارا في الأرض , فما أغني عنهم ما كانوا يكسبون , لأنهم كذبوا رسل الله إليهم , واستعلوا عليهم بما كان عندهم من العلم فحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون , فلما رأوا عقاب الله محيطا بهم قالوا : آمنا بالله وحده , وكفرنا بما كنا به مشركين , ولكن ما كان ينفعهم هذا الإيمان الاضطراري بعد أن رأوا العذاب واقعا بهم ,

وهي سنة الله التي قد خلت في عباده , وخسر هنالك الكافرون . . . ! !

ومن الآيات الكونية التي استشهدت بها السورة علي توحيد الألوهية , والربوبية , وتنزيه الاسماء والصفات لهذا الخالق العظيم , والاستدلال علي طلاقة قدرته في إبداعه لخلقه ما يلي :

(1) إنزال الرزق من السماء .

(2) تضاؤل خلق الناس - علي عظمته - بجوار خلق السماوات والأرض .

(3) حتمية الآخرة .

(4) تخصيص

الليل لراحة وسكون العباد وجعل النهار مبصرا .

(66/677)

---

(5) حقيقة الخلق ووحدانية الخالق .

(6) أن الله (تعالي) قد جعل الأرض قرارا , والسماء بناء .

(7) وأنه (تعالي) قد صور بني الإنسان فأحسن صورهم , ورزقهم من الطيبات .

(8) أن الله (تعالي) خلق الناس من تراب , ثم من نطفة , ثم من علقة , ثم يخرجهم طفلا ,

ثم يبلغوا أشدهم , ثم ليكونوا شيوخا , حتي يبلغوا أجلا مسمي , فيتوفاهم الله ومنهم من يتوفي من قبل .

(9) أن الله (تعالي) هو الذي يحيي ويميت , فإذا قضي أمرا فإنما يقول له كن فيكون .

(10) خلق الله (تعالي) الأنعام ليركب الناس منها , ومنها يأكلون .

(11) مكن الله (تعالي) بقدرته مياه البحار أن تحمل الفلك بقوانين الطفو حتي تكون وسيلة لنقل الناس وحمل أمتعتهم .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي أكثر من مقال لاستيعابها , ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا علي جعل الأرض قرارا وأبدأ بدلالة تلك اللفظة في اللغة العربية .

مدلول اللفظة (قرارا) في اللغة العربية

مركز ثقل الارض فى قلبها

يقال في العربية (قر) في مكانه (يقر) (قرارا) إذا ثبت ثبوتا جامدا , وأصله من (القر) وهو البرد لأنه يقتضي السكون , والحر يقتضي الحركة , و (القرار) المستقر من الأرض , و (القرار) في المكان (الاستقرار) فيه تقول : (قررت) بالمكان بالكسر (أقر) (قرارا) , و (قررت) أيضا بالفتح (قرارا) و (قرورا) , و (استقر) فلان إذا تحري (القرار) , و (الإقرار) : إثبات الشئ .

قال (تعالي) : الله الذي جعل لكم الأرض قرارا . . . أي مستقرا تعيشون فيها , ويسأل (

سبحانه وتعالي) سؤال التبكيت للكافرين بقوله : أمن جعل الأرض قرارا . . . (النمل :61) أي مستقرا , وقال (تعالي) في صفة الآخرة : وإن الآخرة هي دار القرار *(غافر :39) .

وقال في أصحاب الجنة :

أصحاب الجنة يؤمئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا *(الفرقان :24)

وقال سبحانه وتعالي : خالدين فيها حسنت مستقرار ومقاما *(الفرقان :76)

(67/677)

وقال في وصف النار : إنها ساءت مستقرا ومقاما *(الفرقان :66)

وقال (عز من قائل) : جهنم يصلونها وبئس القرار *(إبراهيم :29)

وقال (سبحانه وتعالي) : . . . ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلي حين *

(البقرة :36 والأعراف 24)

وقال (جل شأنه) : وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . . *(الانعام :98) .

أقوال المفسرين

في تفسير قوله (تعالي) : الله الذي جعل لكم الأرض قرارا . . . (غافر :64)

ذكر أبن كثير (يرحمه الله) ما نصه : . . . . أي جعلها لكم مستقرا , تعيشون عليها وتتصرفون فيها , وتمشون في مناكبها . . .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين (رحمهما الله رحمة واسعة) ما نصه : اي مكانا لاستقراركم وحياتكم .

وجاء في الظلال :(رحم الله كاتبها رحمة واسعة) ما نصه : . . . . والأرض قرار صالح لحياة الإنسان بتلك الموافقات الكثيرة التي أشرنا إلي بعضها إجمالا . . . .

وجاء في صفوة

البيان لمعاني القرآن (علي كاتبه من الله الرضوان ما نصه :(الأرض قرارا) مستقرا تعيشون فيها . .

وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم (جزي الله المشاركين في كتابته خير الجزاء) ما نصه : الله ـ وحده ـ الذي جعل لكم الأرض مستقرة صالحة لحياتكم عليها . . . . .

وجاء في صفوة التفاسير جزي الله كاتبها خير الجزاء ما نصه : أي جعلها مستقرا لكم في حياتكم وبعد مماتكم , قال ابن عباس : جعلها منزلا لكم في حال الحياة وبعد الموت . . . .

الله الذي جعل لكم الأرض قرارا . . .

في مفهوم العلوم المكتسبة .

جاء ذكر هذه الحقيقة في كتاب الله مرتين : أولاهما في سورة النمل حيث يقول ربنا (تبارك وتعالي):

أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أءلة مع الله بل أكثرهم لا يعلمون *(النمل 61)

وتكرر هذا السؤال : أءله مع الله ؟ خمس مرات في خمس آيات متتاليات من سورة النمل استنكارا لشرك المشركين بالله . . . ! !

ويأتي الجواب قاطعا جازما حاسما في كل مرة :

(68/677)

بل هم قوم يعدلون (النمل :60)

بل أكثرهم لا يعلمون (النمل :61)

قليلا ما تذكرون (النمل :62)

تعالي الله عما يشركون (النمل :63)

قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين

(النمل :64) .

وتسبق هذه الآيات الخمس بالحقيقة القاطعة التي يقررها ربنا (تبارك وتعالي) لذاته العلية علي لسان هدهد سليمان بقوله الحق : الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم *(النمل :26) .

والمرة الثانية التي جاءت فيها الإشارة إلي جعل الأرض قرارا هي الأية التي نحن بصددها من سورة غافر والتي يقول فيها الحق (تبارك وتعالي) :

الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين *(غافر :64)

وواضح من دلالة اللغة , ومن شروح المفسرين أن التعبير جعل الأرض قرارا تعني مستقرا في ذاتها , وقرار للحياة علي سطحها , وهما قضيتان مختلفتان ولكنهما متصلتان اتصالا وثيقا ببعضهما علي النحو التالي :

أولا : جعل الأرض قرارا

بمعني مستقرة بذاتها

الأرض ثالثة الكواكب السيارة الداخلية جريا حول الشمس , ويسبقها من هذه الكواكب الداخلية قربا من الشمس كل من عطارد والزهرة علي التوالي , ويليها إلي الخارج أي بعدا عن الشمس بالترتيب : المريخ , المشتري , زحل يورانوس نبتيون , وبلوتو , وهناك مدار لمجموعة من الكويكبات بين كل من المريخ والمشتري يعتقد بأنها بقايا لكوكب عاشر انفجر

منذ زمن بعيد , كما أن الحسابات الفلكية التي قام بها عدد من الفلكيين الروس تشير إلي أحتمال وجود كوكب حادي عشر لم يتم رصده بعد اطلقوا عليه اسم بروسوبينا أو بريبنا .

(69/677)

وبهذا يصبح عدد كواكب المجموعة الشمسية أحد عشر كوكبا , وهنا يبرز التساؤل عن إمكانية وجود علاقة ما بين هذه الحقيقة الفلكية ـ التي لم تكتمل معرفتها إلا في أواخر القرن العشرين ـ وبين رؤيا سيدنا يوسف (علي نبينا وعليه من الله السلام) التي يصفها الحق (تبارك وتعالي) في محكم كتابه بقوله :

إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين * . (يوسف :4)

وإن كان ظاهر الأمر في السورة الكريمة أن المقصود هو ما تحقق بالفعل بعد تلك الرؤيا بسنين عديدة من سجود إخوة يوسف الأحد عشر وأبويه له عند قدومهم إلي مصر من بادية الشام , وعلي الرغم من ذلك فإن هذه العلاقة لايمكن استبعادها , وهذا السبق القرآني بالإشارة إليها لايمكن تجاهله . . . . ! !

والأرض عبارة عن كوكب صخري , شبه كروي له الأبعاد التالية :

متوسط قطر الأرض =12,742 كيلو متر

متوسط محيط الأرض =40,042 كيلو متر

مساحة سطح الأرض =510,000,000 كيلو متر مربع منها :

149 مليون كم 2 يابسة

361 مليون كم 2 ماء

حجم الأرض =108,000,000 كيلو متر مكعب

متوسط كثافة

الأرض =5,52 جرام / للسنتيمتر المكعب

كتلة الأرض =5520 مليون مليون مليون طن

متوسط كثافة الصخور في قشرة الأرض =2,5 جرام / للسنتيمتر المكعب

متوسط كثافة الصخور الجرانيتية المكونة لكتل القارات =2,7 جرام / للسنتيمتر المكعب

متوسط كثافة الصخور البازلتية المكونة لقيعان المحيطات =2,9 جرام / للسنتيمتر

المكعب

أمن جعل الأرض قرارا

وبمقارنة متوسط كثافة الصخور المكونة لقشرة الأرض والتي تتراوح بين 2,9,2,5 جرام للسنتيمتر المكعب مع متوسط كثافة الأرض ككل والمقدرة بحوالي 5,52 جرام للسنتيمتر المكعب ثبت أن كثافة المادة المكونة للأرض تزداد باستمرار من سطحها في اتجاه مركزها حيث تتراوح الكثافة من 10 إلي 13,5 جرام للسنتيمتر المكعب ويفسر ارتفاع متوسط الكثافة بالقرب من مركز الأرض بوجود نسبة عالية من الحديد , وغيره من العناصر الثقيلة في قلب الأرض , وتناقص نسبة هذه العناصر الثقيلة بالتدريج في اتجاه قشرة الأرض .

وتقدر نسبة الحديد في الأرض بحوالي 35,9% من مجموع كتلة الأرض المقدرة بحوالي 5520 مليون مليون مليون طن , وعلي ذلك فإن كمية الحديد في الأرض تقدر بحوالي الألف وخمسمائة مليون مليون مليون طن , ويتركز هذا الحديد في قلب الأرض علي هيئة كرة ضخمة من الحديد (90%) والنيكل (9%) وبعض العناصر الخفيفة من مثل السيليكون , والكربون والفوسفور والكبريت والتي لاتشكل في مجموعها أكثر من 1% مما يعرف باسم لب الأرض , والذي تشكل كتلته 31% من كتلة الأرض , ويمثل طول قطره حوالي 55% من طول قطر الأرض , أما باقي الحديد في الأرض (5,9% من كتلة الأرض) فيتوزع علي باقي كتلة الأرض (وشاح الأرض وغلافها الصخري) بسمك يقدر بحوالي

ثلاثة آلاف كيلو متر (2895 كيلو مترا) في تناقص مستمر يصل بنسبة الحديد في الغلاف الصخري للأرض إلي 5,6% .

وتركيز هذه الكتلة الهائلة من الحديد وغيره من العناصر الثقيلة في قلب الأرض من وسائل جعله جرما مستقرا في ذاته .

وهنا تأتي الإشارة القرآنية إلي تلك الحقيقة سبقا يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق , ويشهد للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة لأن أحدا في زمانه ولا لقرون متطاولة من بعده لم يكن له علم بهذه الحقيقة التي لم يكتشفها الإنسان إلا في القرن العشرين , وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالي) :

(71/677)

إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها *(الزلزلة : 1,2)

ولو أن الزلزال المقصود هنا هو زلزال الآخرة عند نفخة البعث , إلا أن الحقيقة المصاحبة للهزة الأرضية تبقي واحدة , ولو أن المفسرين السابقين قد رأوا في أثقال الأرض إشارة ضمنية إلي أجساد الموتي (بما تحمل من أوزار) والتي تلفظها الأرض من داخل بطنها بسبب هذا الزلزال الأخير , تلفظهم أحياء للحساب والجزاء , وإن كان رسول الله (صلي

الله عليه وسلم) قد وصف لبعث الأموات صورة مغايرة لذلك .

والأثقال جمع ثقل (بكسر فسكون) وهو الحمل الثقيل , أو جمع ثقل (بالتحريك) وهو كل نفيس مصون .

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه يروي عن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) قوله : تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوانة من الذهب والفضة , فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت , ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي , ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي , ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئًا .

وهذا الحديث الشريف يؤكد أن المقصود بأثقال الأرض في سورة الزلزلة هو الأحمال الثقيلة كما أثبتت الدراسات العلمية الحديثة , وليست أجساد الموتي فقط كما تخيل العديد من المفسرين السابقين , وهذا سبق علمي قرآني ونبوي معجز لأن أحدا من البشر لم يكن له علم بأن أثقال الأرض في جوفها حتي القرن العشرين .

ويقدر متوسط المسافة بين الأرض والشمس بحوالي مائة وخمسين مليونا من الكيلومترات , وهذه المسافة قد حددتها بتقدير من

الله الخالق (سبحانه وتعالي) كتلة الأرض تطبيقا لقوانين الجاذبية , والتي تنادي بأن قوة الجذب بين جسمين تتناسب تناسبا طرديا مع كتلة كل منهما , وتناسبا عكسيا مع مربع

المسافة بينهما حسب المعادلة التالية :

قوة الجاذبية بين كتلتين م 1 , م 2 = ثابت الجاذبية * م 1 * م 2 / مربع المسافة بينهما

(72/677)

وهذا يعني أنه كلما زادت كتلة أي من الجسمين زادت قوة الجذب بينهما , وكلما زادت المسافة بينهما قلت قوة الجاذبية .

والاتزان بين قوة جذب الشمس للأرض , والقوة النابذة المركزية التي دفعت بالأرض الأولية من الشمس هو الذي حدد (بمشيئة الله الخالق) بعد الأرض عن الشمس .

والارتباط الوثيق بين كل من كتلتي الأرض والشمس بطريقة منتظمة بمعني أنه كلما تغيرت كتلة أحدهما تغيرت كتلة الآخر بنفس المعدل , هو من الأمور التي تعمل علي تثبيت بعد الأرض عن الشمس , وجعلها مستقرة في دورانها حول محورها , وفي جريها حول الشمس في مدار محدد مما يؤدي إلي تثبيت كمية الطاقة الشمسية التي تصل إلي الأرض وهي من عوامل تهيئتها لاستقبال الحياة واستقرارها , وذلك لأن كمية الطاقة التي تصل من الشمس إلي كل كوكب من كواكبها تتناسب تناسبا عكسيا مع بعد الكوكب عن الشمس , وكذلك تتناسب سرعة جري الكوكب في مداره حول الشمس .

والأرض كوكب فريد في صفاته الفيزيائية والكيميائية والفلكية مما أهله بجدارة إلي أن يكون مهدا للحياة الأرضية بكل مواصفاتها النباتية , والحيوانية , والإنسية .

فقد أثبتت دراسات الفيزياء الأرضية أن الأرض مبنية من عدد من النطق المتمركزة حول كرة مصمطة من الحديد والنيكل تعرف باسم لب الأرض الصلب أو اللب الداخلي للأرض , وتقسم هذه النطق الأرضية علي أساس من تركيبها الكيميائي أو علي أساس من صفاتها الميكانيكية علي النحو التالي :

(1) قشرة الأرض : وتتكون من صخور نارية ومتحولة صلبة تتغطي بسمك قليل من الصخور الرسوبية أو

الرسوبيات (التربة) في كثير من الأحيان , وتغلب الصخور الحامضية وفوق الحامضية علي كتل القارات وذلك من مثل الجرانيت والصخور الجرانيتية (بمتوسط كثافة 2,7 جرام / للسنتيمتر المكعب) ويغلب علي قيعان البحار والمحيطات الصخور القاعدية وفوق القاعدية من مثل البازلت والجابرو (بمتوسط كثافة 2,9 جرام / للسنتيمتر المكعب) .

(73/677)

ويتراوح متوسط سمك القشرة الأرضية في كتل القارات من 35 إلي 40 كيلو مترا , وإن تجاوز ذلك تحت المرتفعات الأرضية من مثل الجبال .

ويتراوح متوسط سمك القشرة الأرضية المكونة لقيعان البحار والمحيطات من 5 إلي 8 من الكيلو مترات .

(2) الجزء السفلي من الغلاف الصخري للأرض : ويتكون من صخور صلبة تغلب عليها الصخور الحامضية وفوق الحامضية في كتل القارات بسمك يصل إلي 85 كيلو مترا , بينما تغلب عليها الصخور القاعدية وفوق القاعدية تحت البحار والمحيطات بسمك في حدود 60 كيلو مترا .

ويفصل هذا النطاق عن قشرة الأرض سطح انقطاع للموجات الاهتزازية يعرف باسم الموهو (TheMohoDiscontinuity) .

(3) الجزء العلوي من وشاح الأرض (نطاق الضعف الأرضي) :

وتوجد فيه الصخور في حالة لدنة , شبه منصهرة (أو منصهرة انصهارا جزئيا في حدود 1%) , ويتراوح سمك هذا النطاق بين 280 كيلو مترا ,335 كيلو مترا , وهو مصدر للعديد من نشاطات الأرض من مثل الزلازل , والبراكين , وتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض , وتكون الجبال والسلاسل الجبلية .

(4) الجزء الأوسط من وشاح الأرض : ويتكون من مواد صلبة , كثيفة , ويقدر سمكه

بحوالي 270 كيلو مترا , ويحده من أسفل ومن أعلي مستويات من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل يقع أحدهما علي عمق 400 كيلومتر من سطح الأرض , ويقع الآخر علي عمق 670 كيلو مترا من سطح الأرض .

(5) الجزء السفلي من وشاح الأرض : ويتكون من مواد صلبة تعلو لب الأرض السائل , ويحده من أعلي أحد مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل علي عمق 670 كيلو مترا من سطح الأرض , ويحده من أسفل نطاق انتقالي شبه منصهر يفصله عن لب الأرض السائل علي عمق 2885 كيلو مترا من سطح الأرض , ولذا يقدر سمك هذا النطاق بحوالي 2215 كيلو مترا .

(6) لب الأرض السائل (الجزء الخارجي من لب الأرض) :

وهو نطاق سائل يحيط بلب الأرض الصلب , وله نفس تركيبه الكيميائي تقريبا , ويقدر سمكه بحوالي 2275 كيلو مترا (من عمق 2885 كيلو مترا إلي عمق 5160 كيلو مترا تحت سطح الأرض) , وتفصله عن النطاقين الأعلي والأسفل منطقتان انتقاليتان شبه منصهرتين , أضخمهما المنطقة السفلي والتي يقدر سمكها بحوالي 450 كيلو مترا .

(7) لب الأرض الصلب (اللب الداخلي للأرض) : وهو عبارة عن كرة ضخمة من الحديد (90%) والنيكل (9%) مع القليل من العناصر الخفيفة من مثل السيليكون , الكربون , الكبريت , الفوسفور والتي لاتكاد نسبتها أن تتعدي 1% .

وهذا هو نفس تركيب النيازك الحديدية تقريبا , والتي تصل الأرض بملايين الأطنان سنويا , ويعتقد بأنها ناتجة عن انفجار بعض الأجرام السماوية .

وهذه البنية الداخلية للأرض تدعمها دراسة النيازك التي تهبط علي الأرض , كما تؤيدها قياسات الجاذبية الأرضية والاهتزازات الناتجة عن الزلازل .

ولولا هذه البنية الداخلية للأرض , ما تكون لها مجالها المغناطيسي , ولا قوتها الجاذبية , ولولا جاذبية الأرض لهرب منها غلافها الغازي والمائي , ولاستحالت الحياة , ولولا المجال المغناطيسي للأرض لدمرتها الأشعة الكونية المتسارعة من الشمس ومن بقية نجوم السماء .

والأرض تجري حول الشمس في فلك بيضاني قليل الاستطالة , بسرعة تقدر بحوالي 30 كيلو مترا في الثانية , لتتم دورتها في سنة شمسية مقدارها 365.25 يوم تقريبا وتدور حول محورها بسرعة تقدر اليوم بحوالي 30 كيلو مترا

في الدقيقة عند خط الاستواء فتتم دورتها هذه في يوم مقداره 24 ساعة تقريبا , يتقاسمه

ليل ونهار , بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول السنوية , والتي تنتج بسبب ميل محور دوران الأرض علي دائرة البروج بزاوية مقدارها 66,5 درجة تقريبا .

(75/677)

كذلك فإن حركات الأرض العديدة ومنها حركتها المحورية , والمدارية , وترنحها في دورانها حول محورها , وتذبذبها (نودانها أو ميسانها) , وقربها وبعدها من الشمس في حركتها المدارية , والتغير التدريجي في توازن حركاتها مع حركات القمر حولها , ومع باقي كواكب المجموعة الشمسية ومع الشمس حول مركز المجرة , وباتجاه كوكبة الجاثي , ومع المجرة , حول مركز التجمع المجري , وكلها حركات تحتاج إلي ضبط وإحكام حتي تصبح الأرض مستقرة بذاتها , وقرارا للحياة علي سطحها .

وتكفي في ذلك الإشارة إلي دور الجبال في تثبيت الأرض والتقليل من ترنحها في دورتها حول محورها تماما كما تقوم قطع الرصاص التي توضع حول إطارات السيارات في التقليل من معدلات ترنحها أثناء جري السيارة .

ثانيا : جعل الأرض قرارا بمعني قرارا لسكانها

ومن معاني جعل الأرض قرارا لسكانها هو جعل الظروف العامة للأرض مناسبة للحياة

علي سطحها , ومن أولها مقدار جاذبية الأرض الذي يمسك بكل من غلافها المائي والغازي وبالأحياء علي سطحها , والماء هو سر الحياة علي الأرض , ولذا جعل ربنا (تبارك وتعالي) كوكب الأرض أغني الكواكب التي نعرفها في المياه حتي ليسميه العلماء بالكوكب الأزرق أو الكوكب المائي , وتقدر كمية المياه علي سطح الأرض بحوالي 1360 مليون كيلو متر مكعب , ويغطي الماء حوالي 71% من مساحة الأرض بينما لاتتعدي مساحة اليابسة اليوم 29% من مساحة الأرض .

كذلك فإن غاز الأوكسجين يشكل سرا من أسرار الحياة الراقية علي الأرض فجعل الله (تعالي) لها غلافا غازيا تقدر كتلته بحوالي خمسة آلاف مليون مليون طن , ويقدر سمكه بعدة

آلاف من الكيلو مترات فوق مستوي سطح البحر حيث يصل ضغطه إلي حوالي الكيلو جرام علي السنتيمتر المربع , ويتناقص مع الارتفاع إلي واحد من مليون من ذلك الضغط في أجزائه العليا .

ويضم الجزء السفلي من هذا الغلاف الغازي (من 6 إلي 20 كيلومترا فوق مستوي سطح البحر) حوالي 66% من كتلته , ويتكون من غازات النيتروجين (بنسبة 78,1% بالحجم) والأوكسجين (بنسبة 21% بالحجم) والأرجون (بنسبة 0,93% بالحجم) , وثاني أكسيد الكربون (بنسبة 0,03% بالحجم) بالإضافة إلي نسب ضئيلة من بخار الماء وغازات أخري . ولولا هذا التركيب للغلاف الغازي ما استقامت الحياة علي الأرض .

كذلك فإن كتلة وأبعاد الأرض , ومسافتها من الشمس قدرت كلها بدقة بالغة , فلو كانت الأرض أصغر قليلا لاندفعت بعيدا عن الشمس ولفقدت الكثير من طاقتها , ولما كان بمقدورها الاحتفاظ بغلافها المائي والغازي , وبالتالي لاستحالت الحياة , ولو كانت أكبر قليلا لاندفعت الي مسافة أقرب من الشمس ولأحرقتها حرارتها , ولزادت قدرتها علي جذب الأشياء زيادة ملحوظة مما يعوق الحركة , ويحول دون النمو الكامل للأحياء , ويخل بالميزان الحراري علي سطحها .

وكذلك يعتمد طول السنة الأرضية علي بعد الأرض من الشمس , ويعتمد طول يوم الأرض علي سرعة دورانها حول محورها , وكل ذلك مرتبط بأبعاد الأرض , وكذلك يعتمد تبادل الفصول المناخية علي ميل محور دوران الأرض علي دائرة البروج فلو لم يكن مائلا ما تبادلت الفصول , ولاختل نظام الحياة علي الأرض .

ولولا تصدع الغلاف الصخري للأرض , وتحرك ألواحه متباعدة عن بعضها البعض

ومصطدمة ببعضها البعض لما تكونت الجبال , ولا ثارت البراكين , ولاحدثت الهزات الأرضية , وكلها من صور ديناميكية الأرض , ووسائل تجديد وتثبيت غلافها الصخري , وإثرائها بالمعادن , وتكوين التربة وتحرك دورة الماء حول الأرض ودورة الصخور , وبناء القارات وهدمها , وتكون المحيطات واتساعها ثم اغلاقها وزوالها , وهذه الحركات الأرضية (وغيرها كثير) لعبت و ـ لاتزال تلعب ـ أدوارا أساسية في جعل الأرض كوكبا مهيئا لاستقبال الحياة الأرضية وصالحا للعمران .

(77/677)

هذه بعض آيات الله في جعل الأرض كوكبا مستقرا في ذاته علي الرغم من حركاته العديدة , وجريه في فسحة الكون , وفي تهيئته ليكون مستقرا للحياة التي أراد الله أن تزدهر علي سطحه , علي الرغم من المخاطر العديدة المحيطة به , حتي يؤمن الناس بقدر الرعاية الإلهية التي يحيطنا الله بها في هذا الكون , ويستشعرون حاجتهم إلي هذا الخالق العظيم وإلي رحمته وعنايته في كل وقت وفي كل حين لأننا لوتركنا لأنفسنا طرفة عين أو أقل من ذلك لهلكنا . . .

وسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق :

الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (غافر :64)

وعاتب الكافرين والمشركين والمتشككين بقوله الحق :

أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أءله مع الله بل أكثرهم لايعلمون (النمل :61) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(78/677)

قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قامت الأدلة وسطعت الحجج على أنه سبحانه رب العالمين الذين من جملتهم

المخاطبون ، ولا حكم للطبيعة ولا غيرها ، أتبع ذلك آية أخرى في أنفسهم هي أظهر مما مضى ، فوصل به على طريق العلة لمشاركتهم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الأمر والنهي في التي قبلها قوله تعالى : ﴿ هو ﴾ لا غيره ﴿ الذي ﴾ ولما كان الوصف بالتربية ماضياً ، عبر عنه به فقال : ﴿ خلقكم من تراب ﴾ أي أصلكم وأكلكم التي تربى به أجسادكم ﴿ ثم من نطفة ﴾ من مني يمنى ﴿ ثم من علقة ﴾ مباعداً حالها لحال النطفة كما كان النطفة مباعداً لحال التراب ، ﴿ ثم ﴾ بعد أن جرت شؤون أخرى ﴿ يخرجكم ﴾ أي يجدد إخراجكم شيئاً بعد شيء ﴿ طفلاً ﴾ لا تملكون شيئاً ولا تعلمون شيئاً ، ثم يدرجكم في مدارج التربية صاعدين بالقوة في أوج الكمال طوراً بعد طور وحالاً بعد حال ﴿ لتبلغوا أشدكم ثم ﴾ يهبطكم بالضعف والوهن في مهاوي السفول ﴿ لتكونوا شيوخاً ﴾ ضعفاء غرباء ، قد مات أقرانكم ، ووهت أركانكم ، فصرتم تخشون كل أحد .

ولما كان هذا مفهماً لأنه حال الكل ، بين أنه ما أريد به إلا البعض لأن المخاطب الجنس ، وهو يتناول البعض كما يتناول الكل فقال : ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ بقبض روحه وجميع معانيه .

ولما كان الموت ليس مستغرقاً للزمن الذي بين السنين وإنما هو في لحظة يسيرة مما بينهما ، أدخل الجار على الظرف فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل حال الشيخوخة أو قبل حال الأشدية .

ولما كان المعنى : لتتفاوت أعماركم وأحوالكم وأعمالكم ، عطف عليه قوله :

﴿ ولتبلغوا ﴾ أي كل واحد منكم ﴿ أجلاً مسمى ﴾ أي له سماه الملك الذي وكل به في بطن أمه عن إذننا وبأمرنا الذي قدرناه في الأزل ، فلا يتعداه مرة ، ولا بمقدار ذرة فيتجدد للملائكة إيمان في كل زمان .

ولما كانت هذه الأمور مقطوعاً بها عند من يعلمها ، وغير مترجاة عند من يجهلها ، فإنه لا وصول للآدمي بحيلة ولا فكر إلى شيء منها ، فعبر فيها اللام ، وكان التوصل بالتفكر فيها والتدبر إلى معرفة أن الإله واحد في موضع الرجاء للعاقل قال : ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ أي فتعلموا بالمفاوتة بين الناس فيها ببراهين المشاهدة بالتقليب في أطوار الخلقة وأدوار الأسنان ، وإرجاع أواخر الأحكام على أوائلها أن فاعل ذلك قادر مختار حكيم قهار ، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء .

ولما نظم سبحانه هذا الدليل في صنع الآدمي من التراب ، وختمه بأن دلالته على البعث – بإجراء سنته في إرجاع أواخر الأمور على أوائلها وغير ذلك – لا يحتاج إلى غير العقل ، أنتج عنه قوله : ﴿ هو ﴾ لا غيره ﴿ الذي يحيي ويميت ﴾ كما تشاهدونه في أنفسكم

وكما مضى لكم الإشارة إليه بخلق السماوات والأرض ، فإن من خلقهما خلق ما بينهما من الآجال المضروبة باختلاف الليل والنهار والشهور والأعوام لبلوغ الأفلاك مواضعها ، ثم رجوعها عوداً على بدء مثل تطوير الإنسان بعد الترابية من النطفة إلى العلقة إلى ما فوقها ، ثم رجوعه في مدارك هبوطه إلى أن تصير تراباً كما كان ، فليست النهاية بأبعد من البداية .

(80/677)

ولما كانت إرادته لا تكون إلا تامة نافذة ، سبب عن ذلك قوله معبراً بالقضاء : ﴿ فإذا قضى أمراً ﴾ أي أراد أيّ أمر كان من القيامة أو غيرها ﴿ فإنما يقول له كن ﴾ ولما كانت ﴿ إذا ﴾ شرطية أجابها في قراءة ابن عامر بقوله : ﴿ فيكون ﴾ وعطفها في قراءة غيره على ﴿ كن ﴾ بالنظر إلى معناه ، أو يكون خبراً لمبتدأ أي فهو يكون ، وعبر بالمضارع تصويراً للحال وإعلاماً بالتجدد عند كل قضاء ، وقد مضى في سورة البقرة إشباع الكلام في توجيه قراءة ابن عامر بما تبين به أنها أشد من قراءة غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 534.536 ﴾

(81/677)

فصل

قال الفخر :

ثم قال : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ﴾ .

واعلم أنا قد ذكرنا أن الدلائل على قسمين دلائل الآفاق والأنفس ، أما دلائل الآفاق فكثيرة والمذكور منها في هذه الآية أربعة : الليل والنهار والأرض والسماء ، وأما دلائل الأنفس فقد ذكرنا أنها على قسمين أحدها : الأحوال الحاضرة حال كمال الصحة وهي أقسام كثيرة ، والمذكور ههنا منها ثلاثة أنواع : الصورة وحسن الصورة ورزق الطيبات .

وأما القسم الثاني : وهو كيفية تكون هذا البدن من ابتداء كونه نطفة وجنيناً إلى آخر الشيخوخة والموت فهو المذكور في هذه الآية فقال : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ فقيل المراد آدم ، وعندي لا حاجة إليه لأن كل إنسان فهو مخلوق من المني ومن دم الطمث ، والمني مخلوق من الدم فالإنسان مخلوق من الدم والدم إنما يتولد من الأغذية والأغذية إما حيوانية وإما نباتية ، والحال في تكون ذلك الحيوان كالحال في تكون الإنسان ، فالأغذية بأسرها منتهية إلى النباتية والنبات إنما يكون من التراب والماء ، فثبت أن كل إنسان فهو متكون من التراب ، ثم إن ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة بعد كونه علقة مراتب

كثيرة إلى أن ينفصل من بطن الأم ، فالله تعالى ترك ذكرها ههنا لأجل أنه تعالى ذكرها في سائر الآيات .

(82/677)

واعلم أنه تعالى رتب عمر الإنسان على ثلاث مراتب أولها : كونه طفلاً ، وثانيها : أن يبلغ أشده ، وثالثها : الشيخوخة وهذا ترتيب صحيح مطابق للعقل ، وذلك لأن الإنسان في أول عمره يكون في التزايد والنشوء والنماء وهو المسمى بالطفولية والمرتبة الثانية : أن يبلغ إلى كمال النشوء وإلى أشد السن من غير أن يكون قد حصل فيه نوع من أنواع الضعف ، وهذه المرتبة هي المراد من قوله ﴿ لتبلغوا أشدكم ﴾ والمرتبة الثالثة : أن يتراجع ويظهر فيه أثر من آثار الضعف والنقص ، وهذه المرتبة هي المراد من قوله ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً ﴾ وإذا عرفت هذا التقسيم عرفت أن مراتب العمر بحسب هذا التقسيم لا تزيد على هذه الثلاثة ، قال صاحب "الكشاف" قوله ﴿ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا .

ثم قال : ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطاً .

ثم قال : ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ ومعناه يفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى وهو وقت الموت وقيل يوم القيامة .

ثم قال : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ما في هذه الأحوال العجيبة من أنواع العبر وأقسام الدلائل .

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68)

(83/677)

اعلم أنه تعالى لما ذكر انتقال الإنسان من كونه تراباً إلى كونه نطفة ثم إلى كونه علقة ثم إلى كونه طفلاً ثم إلى بلوغ الأشد ثم إلى الشيخوخة واستدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر قال بعده : ﴿ هو الذى يحيي ويميت ﴾ يعني كما أن الانتقال من صفة إلى صفة أخرى من الصفات التي تقدم ذكرها يدل على الإله القادر ، فكذلك الانتقال من الحياة إلى الموت وبالعكس يدل على الإله القادر وقوله ﴿ فَإِذَا قضى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فيه وجوه الأول : معناه أنه لما نقل هذه الأجسام من بعض هذه الصفات إلى صفة أخرى لم يتعب في ذلك التصرف ولم يحتج إلى آلة وأداة ، فعبّر عن نفاذ قدرته في الكائنات والمحدثات من غير معارض ولا مدافع بما إذا قال : ﴿ كن فيكون ﴾ الوجه الثاني : أنه عبّر عن الإحياء والإماتة بقول ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فكأنه قيل الانتقال من كونه تراباً إلى كونه نطفة ، ثم إلى كونه

علقة انتقالات تحصل على التدرج قليلاً قليلاً ، وأما صيرورة الحياة فهي إنما تحصل لتعليق جوهر الروح النطقية به ، وذلك يحدث دفعة واحدة ، فلهذا السبب وقع التعبير عنه بقوله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ الوجه الثالث : أن من الناس من يقول إن تكون الإنسان إنما ينعقد من المني والدم في الرحم في مدة معينة وبحسب انتقالاته من حالات إلى حالات ، فكأنه قيل إنه يمتنع أن يكون كل إنسان عن إنسان آخر ، لأن التسلسل محال ، ووقوع الحادث في الأزل محال ، فلا بد من الاعتراف بإنسان هو أول الناس ، فحينئذٍ يكون حدوث ذلك الإنسان لا بواسطة المني والدم ، بل بإيجاد الله تعالى ابتداء ، فعبّر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 74 . 75 ﴾

(84/677)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾

آية تفضل ونعمة ووعد لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بالإجابة عند الدعاء ، وهذا الوعد مقيد بشرط المشيئة لمن شاء تعالى ، لا أن الاستجابة عليه حتم لكل داع ، لا سيما لمن تعدى في دعائه ، فقد عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاء الذي قال : اللهم

أعطني القصر الأبيض الذي عن يمين الجنة . وقالت فرقة : معنى : ﴿ ادعوني ﴾ و ﴿ استجب ﴾ ، معناه : بالثواب والنصر ، ويدل على هذا التأويل قوله : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ ويحتج له لحديث النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الدعاء هو العبادة " وقرأ هذه الآية . وقال ابن عباس : المعنى : وحدوني أغفر لكم . وقيل للثوري : ادع الله ، فقال : إن ترك الذنوب هو الدعاء .

وقرأ ابن كثير وأبو جعفر : " سيُدخَلون " بضم الياء وفتح الخاء . وقرأ نافع وحمزة والكسائي وابن عامر والحسن وشيبة : بفتح الياء وضم الخاء ، واختلف عن أبي عمرو وعن عاصم . والداخر : هو الصاغر الذليل .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا

هذا تنبيه من الله تعالى على آيات ، وعبر ، متى تأملها العاقل أدته إلى توحيد الله والإقرار بربوبيته .

وقوله تعالى : ﴿ والنهار مبصراً ﴾ مجازه يبصر فيه ، كما تقول : نهار صائم ، وليل قائم .

وقوله تعالى : ﴿ خالق كل شيء ﴾ مخلوق ، وما يستحيل أن يكون مخلوقاً كالقرآن والصفات فليس يدخل في هذا العموم ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ تدمر كل شيء ﴾ [الأحقاف : 25] معناه كل شيء مبعوث لتدميره .

وقرأت فرقة : " تؤفكون " بالتاء ، وقرأت فرقة : " يؤفكون " بالياء ، والمعنى في القراءة الأولى قل لهم .

(85/677)

و : ﴿ تؤفكون ﴾ معناه : تصرفون على طريق النظر والهدى ، وهذا تقرير بمعنى التوبيخ والتقريع ، ثم قال لنبيه : ﴿ كذلك يؤفك ﴾ أي على هذه الهيئة وبهذه الصفة صرف الله تعالى الكفار الجاحدين بآيات الله من الأمم المتقدمة على طريق الهدى ، ثم بين تعالى نعمته في أن جعل ﴿ الأرض قراراً ﴾ ومهاداً للعباد ، ﴿ والسماء بناء ﴾ وسقفاً .

وقرأ الناس : " صُوركم " بضم الصاد . وقرأ أبو رزين : " صِوركم " بكسر الصاد . وقرأت فرقة : " صوركم " بكسر الواو على نحو بسرة وبسر .

وقوله تعالى : ﴿ من الطيبات ﴾ يريد من المستلذات طعماً ولباساً ومكاسب وغير ذلك ، ومتى جاء ذكر ﴿ الطيبات ﴾ بقرينة ﴿ رزقكم ﴾ ونحو فهو المستلذ ، ومتى جاء بقرينة تحليل أو تحريم كما قال تعالى : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ [الأعراف : 32] وكما قال : ﴿ ويحل لهم الطيبات ﴾ [الأعراف : 157] والطيبات في مثل هذا : الحلال ، وعلى هذا النظر يخرج مذهب مالك رحمه الله

في الطيبات والخبائث ، وقول الشافعي رحمه الله : إن الطيبات هي المستلذات ، والخبائث ، هي المستقذرات ضعيف ينكسر بمستلذات محرمة ومستقذرات محللة لا رد له في صدرها ، وأما حيث وقعت الطيبات مع الرزق فإنما هي تعديد نعمة فيما يستحسنه البشر ، لا سيما هذه الآية التي هي مخاطبة لكفار ، فإنما عددت عليه النعمة التي يعتقدونها نعمة ، وباقي الآية بين .

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65)

لما سددت الآيات صفات الله تعالى التي تبين فساد حال الأصنام كان من أبينها أن الأصنام موات جماد ، وأنه عز وجل الحي القيوم ، وصدور الأمور من لدنه ، وإيجاد الأشياء وتدبير الأمر دليل قاطع على أنه حي لا إله إلا هو .

(86/677)

وقوله : ﴿ فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين ﴾ كلام متصل مقتضاه : ادعوه مخلصين بالجهد ، وبهذه الألفاظ قال ابن عباس : من قال لا إله إلا الله ، فليقل على أثرها : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ . وقال نحو هذا سعيد بن جبير ثم قرأ هذه الآية .

ثم أمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يصدع بأنه نهي عن عبادة الأصنام التي عبدها الكفار

من دون الله ، ووقع النهي لما جاءه الوحي والهدي من ربه تعالى ، وأمر بالإسلام الذي هو الإيمان والأعمال . وقوله : ﴿ لرب العالمين ﴾ أي إن استسلم لرب العالمين واخضع له بالطاعة .

ثم بين تعالى أمر الوحدانية والألوهية بالعبرة في ابن آدم وتدريج خلقه ، فأوله خلق آدم عليه السلام من تراب من طين لازب ، فجعل البشر من التراب كما كان منسلاً من الخلوق من التراب . وقوله تعالى : ﴿ من نطفة ﴾ إشارة إلى التناسل من آدم فمن بعده . والنطفة : الماء الذي خلق المرء منه . والعلقة : الدم الذي يصير من النطفة . والطفل هنا : اسم جنس . وبلوغ الأشد : اختلف فيه : فقيل ثلاثون ، وقيل ستة وثلاثون ، وقيل أربعون : وقيل ستة وأربعون ، وقيل عشرون ، وقيل ثمانية عشر ، وقيل خمسة عشر ، وهذه الأقوال الأخيرة ضعيفة في الأشد .

وقوله تعالى : ﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ عبارة تتردد في الأدراج المذكورة كلها ، فمن الناس من يموت قبل أن يخرج طفلاً ، وآخرون قبل الأشد ، وآخرون قبل الشيخوخة .

وقوله : ﴿ ولتبلغوا أجلاً مسمى ﴾ أي هذه الأصناف كلها مخلوقة ميسرة ليبلغ كل واحد منها أجلاً مسمى لا يتعداه ولا يتخطاه ولتكون معتبراً . ﴿ ولعلكم ﴾ أيها البشر ﴿ تعقلون ﴾ الحقائق إذا نظرتم في هذا وتدبرتم حكمة الله تعالى .

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68)

(87/677)

قوله تعالى : ﴿ فإذا قضى أمراً ﴾ عبارة عن إنفاذ الإيجاد ، وإخراج المخلوق من العدم وإيجاد الموجودات هو بالقدرة ، واقتران الأمر بذلك : هو عظمة في الملك وتخضيع للمخلوقات وإظهار للقدرة بإيجاده ، والأمر للموجد إنما يكون في حين تلبس القدرة بإيجاده لا قبل ذلك ، لأنه حينئذ لا يخاطب في معنى الوجود والكون ولا بعد ذلك ، لأن ما هو كائن لا يقال له ﴿ كن ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(88/677)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي أطفالاً .

وقد تقدّم هذا .

﴿ ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ ﴾ وهي حالة اجتماع القوّة وتمام العقل .

وقد مضى في "الأنعام" بيانه .

﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً ﴾ بضم الشين قراءة نافع وابن محيصن وحفص وهشام ويعقوب وأبو عمرو على الأصل ؛ لأنه جمع فَعْل ، نحو : قَلْب وقُلُوب ورأس ورؤوس .

وقرأ الباقون بكسر الشين لمراعاة الياء وكلاهما جمع كثرة ، وفي العدد القليل أشياخ والأصل أشيخ ؛ مثل فلس وأفلس إلا أن الحركة في الياء ثقيلة .

وقرىء "شَيْخاً" على التوحيد ؛ كقوله : "طِفْلاً" والمعنى كل واحد منكم ؛ واقتصر على الواحد لأن الغرض بيان الجنس .

وفي الصحاح : جمع الشّيخ شُيوخ وأشياخ وشِيخة وشِيخان ومَشْيخة ومَشَايخ ومَشْيوخاء ، والمرأة شَيخة .

قال عبيد :

كأَنَّها شَيْخَةٌ رَقُوبُ . . .

وقد شاخ الرجل يَشِيخ شَيخاً بالتحريك على أصله وشَيْخوخة ، وأصل الياء متحركة فسكنت ؛ لأنه ليس في الكلام فعْلول .

وشَيَّخ تَشْيِيخاً أي شاخ .

(وَشَيَّخته) دعوته شيخاً للتبجيل .

وتصغير الشيخ شُيَيخ وشِيَيخ أيضاً بكسر الشين ولا تقل شُوَيخ .

النحاس : وإن اضطر شاعر جاز أن يقول أشيخ مثل عين وأعين إلا أنه حسن في عين ؛ لأنها مؤنثة .

والشيخ من جاوز أربعين سنة .

﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ﴾ قال مجاهد : أي من قبل أن يكون شيخاً ، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سِقطاً .

﴿ ولتبلغوا أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ قال مجاهد : الموت للكل .

واللام لام العاقبة .

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ذلك فتعلموا أن لا إله غيره .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ زاد في التنبيه أي هو الذي يقدر على الإحياء والإماتة .

﴿ فَإِذَا قضى أَمْراً ﴾ أي أراد فعله قال : ﴿ لَهُ كُن فيَكُونُ ﴾ .

ونصب "فيكون" ابن عامر على جواب الأمر .

وقد مضى في "البقرة" القول فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(89/677)

وقال الآلوسى :

﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ﴾

في ضمن خلق آدم عليه السلام منه حسبما مر تحقيقه ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي ثم خلقكم خلقاً تفصيلياً من نطفة أي من منى ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ قطعة دم جامد ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي أي أطفالاً وهو اسم جنس صادق على القليل والكثير .

وفي "المصباح" ، قال ابن الأنباري : يكون الطفل بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والجمع ويجوز فيه المطابقة أيضاً ؛ وقيل : إنه أفرد بتأويل خلق كل فرد من هذا النوع ثم يخرج كل فرد منه طفلاً ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ للام فيه متعلقة بمحذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا وذلك المحذوف عطف على ﴿ يُخْرِجُكُمْ ﴾ وجوز أن يكون ﴿ لِتَبْلُغُواْ ﴾ عطفاً على علة مقدرة ليخرجكم كأنه قيل : ثم يخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا أشدكم وكمالكم في القوة والعقل ، وكذا الكلام في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً ﴾ ويجوز عطفه على ﴿ لِتَبْلُغُواْ ﴾ .

وقرأ ابن كثير .

وابن ذكوان .

وأبو بكر .

وحمزة .

والكسائي ﴿ شُيُوخاً ﴾ بكسر الشين .

وقرىء ﴿ شَيْخاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ طِفْلاً ﴾ ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشد أو قبله أيضاً ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ ﴾ متعلق بفعل مقدر بعده أي ولتبلغوا ﴿ أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ هو يوم القيامة بفعل ذلك الخلق من تراب وما بعده من الأطوار ، وهو عطف على ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ والمراد من يوم القيامة ما فيه من الجزاء فإن الخلق ما خلقوا إلا ليعبدوا ثم يبلغوا الجزاء ، وتفسير الأجل المسمى بذلك مروى عن الحسن ، وقال بعض : هو يوم الموت .

وتعقب بأن وقت الموت فهم من ذكر التوفي قبله فالأولى تفسيره بما تقدم ، وظاهر صنيع الزمخشري ترجيح هذا على ما بين في "الكشف" ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ولكي تعقلوا ما في ذلك التنقل في الأطوار من فنون الحكم والعبر .

(90/677)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال : أي ولعلكم تعقلون عن ربكم أنه يحييكم كما أماتكم .

﴿ هُوَ الذى يحيى ﴾ الأموات ﴿ وَيُمِيتُ ﴾ الأحياء أو الذي يفعل الإحياء والإماتة ﴿

فَإِذَا قضى أَمْراً ﴾ أراد بروز أمر من الأمور إلى الوجود الخارجي ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ من غير توقف على شيء من الأشياء أصلاً .

وهذا عند الخلف تمثيل لتأثير قدرته تعالى في المقدورات عند تعلق إرادته سبحانه بها وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه من غير أن يكون هناك آمر ومأمور وقد تقدم الكلام في ذلك ، والفاء الأولى للدلالة على أن ما بعدها من نتائج ما قبلها من حيث أنه يقتضي قدرة ذاتية غير متوقفة على العدد والمواد ، وجوز فيها كونها تفصيلية وتعليلية أيضاً فتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(91/677)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم ﴾ يا بني آدم .

﴿ مِّن تُرَابٍ ﴾ ؛ أي : من ضمن خلق أبيكم آدم .

﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ؛ أي : ثم خلقكم خلقاً تفصيلياً من مني .

قال الراغب : النطفة الماء الصافي ، ويعبر بها عن ماء الرجل ؛ أي : ماء الصلب يوضع في الرحم كما قال ابن سينا : ()

لا تكثرن من الجماع فإنه

ماء الحياة يصب في الأرحام

والمعنى : خلق أصلكم آدم من تراب ، ثم خلقكم من نطفة نسلاً بعد نسل ، أو خلق كل واحد منكم من التراب ، بمعنى أن كل إنسان مخلوق من المني ، وهو من الدم ، وهو من الأغذية الحيوانية والنباتية والحيوانية لا بد أن تنتهي إلى النباتية ، وإلا لزم أن يتسلسل الحيوانات إلى غير النهاية ، والنبات إنما يتولد من الماء والتراب ، أو خلق قالبكم في بدء أمركم من الذرة الترابية التي استخرجها من صلب آدم ، ثم أودعها في قطرة نطفة بنيه .

﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ ، وهي الدم الجامد ؛ لأن المني يصير على هذا الشكل بعد أربعين يوماً في بطن الأم .

﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلا ﴾ : الطفل الولد ما دام ناعماً كما في "المفردات" والصغير من كل شيء أو المولود ما في "القاموس" : وحد الطفل من أول ما يولد إلى أن يستهل صارخاً إلى انقضاء ستة أعوام كما في تفسير الفاتحة للفناري ، والطفل مفرد لا جمع ، كما وهم .

وقوله : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا ﴾ الآية محمول على الجنس ، وكذا هو في هذا المقام جنس وضع موضع الجمع ؛ أي : الأطفال ، أو المعنى ، ثم يخرج كل واحد منكم من رحم الأم حال كونه طفلاً لتكبروا شيئاً فشيئاً .

﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ ، كمالكم في القوة والعقل .

وبالفارسية : (بغايت قوت خود كه منتهاى شبا بست) .

قال في "القاموس" : الأشد واحد جاء على بناء الجمع ، بمعنى القوة ، وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين .

(92/677)

وفي "كشف الأسرار" : يقال : إذا بلغ الإنسان إحدى وعشرين سنة دخل في الأشد ، وذلك حين اشتد عظامه وقويت أعضاؤه .

﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ ؛ أي : تصيروا إلى حالة الشيخوخة ، والشيخ يقال لمن طعن في السن واستبانت فيه ، أو من خمسين ، أو إحدى وخمسين إلى آخر عمره ، وإلى ثمانين ، كما في "القاموس" .

قال في "كشف الأسرار" : يقال : إذا ظهر البياض الإنسان فقد شاب ، وإذا دخل في الهرم ، فقد شاخ .

قال الشاعر :

فمن عاش شب ومن شب شاب

ومن شاب شاخ ومن شاخ مات

روي : أن أبا بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، قد شبت فقال : "شيبتني هود وأخواتها" ، يعني : سورة هود ، وكان الشيب برسول الله صلى الله عليه وسلّم قليلاً ، يقال : كان شاب منه إحدى وعشرون شعرة بيضاء ، ويقال : سبع عشرة شعرة .

وقال أنس رضي الله عنه : لم يكن في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء وقال بعض الصحابة : ما شاب رسول الله وسئل آخر منهم فأشار إلى عنفقته يعني كان مكان البياض في عنفقته ؛ أي : في شعيرات بين الشفة السفلى والذقن ، وإنما اختلفوا لقلتها .

يقال : كان إذا ادهن خفي شيبه .

﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى ﴾ : يقبض روحه ويموت .

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ؛ أي : من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشد ، أو قبله أيضاً .

﴿ وَلِتَبْلُغُوا ﴾ : متعلق بفعل مقدر بعده ؛ أي : ولتبلغوا .

﴿ أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ وقتاً محدوداً معيناً لا تتجاوزونه هو وقت الموت ، أو يوم القيامة يفعل ذلك ؛ أي : ما ذكر من خلقكم من تراب ، وما بعده من الأطوار المختلفة ، ولكون المعنى على هذا لم يعطف على ما قبله من لتبلغوا ولتكونوا ، وإنما قلنا ، أو يوم القيامة ؛ لأن الآية تحتوي على جميع مراتب الإنسان من مبدأ فطرته إلى منتهى أمره فجاز أن يراد أيضاً : يوم الجزاء ؛ لأنه المقصد الأقصى ، وإليه كمية الأحوال .

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ولكي تعقلوا ما في ذلك الانتقال من طور إلى طور من فنون الحكم والعبر وتستدلوا به على وجود خالق القوى والقدر .

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِ ﴾ الأموات كما في الأرحام وعند البعث .

﴿ وَيُمِيتُ ﴾ : الأحياء كما عند انقضاء الأجل .

وفي القبر بعد السؤال ، وأيضاً : يحيي القلوب الميتة بنور ربوبيته ولطفه ، ويميت القلوب بنار قهره ، فإذا حيي القلب مات النفس ، وإذا مات القلب حيي النفس .

قال الحسين النوري قدس سره : هو الذي أحيا العالم بنظره ، فمن لم يكن به وبنظره حياً ، فهو ميت ، وإن نطق تحرك (ع) : (خوشا دلى كه زنور خدا بود روشن) .

﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا ﴾ : القضاء بمعنى التقدير عبر به عن لازمه الذي هو إرادة التكوين ؛ كأنه قيل : إذا قدر شيئاً من الأشياء ، وأراد كونه .

﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ من غير توقف على شيء من الأشياء أصلاً : يعني :

وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى في المقدورات عند تعلق إرادته بها ، وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه من غير أن يكون هناك أمر أو مأمور حقيقة .

وذهب بعضهم : إلى أنه حقيقة ، وأن الله تعالى مكون الأشياء بهذه الكلمة ، فيقول بكلامه الأزلي لا بالكلام الحادث الذي هو المركب من الأصوات والحروف كن ؛ أي : احدث فيكون ؛ أي : فيحدث ، ولما لم يتعلق خطاب التكوين بالفهم ، واشتمل على أعظم الفوائد ، وهو الوجود جاز تعلقه بالمعدوم .

وفي "كشف الأسرار" : فيكون مرة واحدة لا يثنى قوله .

وفي "التكملة" قوله : كن لا يخلو إما أن يكون قبل وجود المأمور ، أو بعد وجوده ، فإن قيل : قبل وجوده أدى ذلك إلى مخاطبة المعدوم ، ولا يصح في العقل ، وإن قيل : بعد وجوده أدى ذلك إلى إبطال معنى : كن ؛ لأن المأمور إذا كان موجوداً قبل الأمر ، فلا معنى للأمر بالكون .

والجواب : أن الأمر مقارن للمأمور لا يتقدم ولا يتأخر عنه ، فمع قوله : كن ، يوجد المأمور ، وهذه كمسألة الحركة والسكون في الجوهر ، فإنه إذا قدرنا جوهراً ساكناً بمحل ، ثم انتقل إلى محل آخر ، فإنما انتقل بحركة ، فلا تخلو الحركة من أن تطرأ عليه في المحل الأول ، أو في الثاني ، فإن قيل في الأول ، فقد اجتمعت مع السكون ، وإن قيل في الثاني ، فقد انتقل بغير

حركة ، وإن قيل : لم تطرأ في هذا ، ولا في هذا فقد طرأت عليه في غير محل ، وكل هذا محال .

والجواب : أن الحركة هي معنى خصصه بالمحل الثاني ، فنفس إخلائه للمحل الأول ، هي نفس شغله للمحل الثاني .

واعلم أن الله تعالى أنزل الحروف الثمانية والعشرين ، وجعل حقائقها الثمانية والعشرين منزلاً لا على ما فصل عند قوله تعالى : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾ ، وجعل مفاصل اليدين أيضاً ثمانية وعشرين .

(95/677)

أربعة عشر في يد واحدة وأخرى في أخرى على أن يكون لكل أصبع ثلاثة مفاصل إلا الإبهام وجعل كل أصبع مظهر الأصل من الأصول الخمسة ، فالإبهام مظهر القدرة والمسبحة مظهر الحياة والوسطى مظهر العلم ، والبنصر مظهر الإرادة ، والخنصر مظهر القول ، ولما كان العلم أعم حيطة جعل متوسطاً بين الأصلين اللذين في يمينه ، وهي الحياة والقدرة ، وبين الأصلين اللذين في يساره ، وهي الإرادة والقول ، وإنما سقط عن أصل القدرة المفصل الثالث ؛ لأن كل واحد من الأربعة عام التعلق بخلاف القدرة ؛ فإنها محجورة

الحكم غير مطلقة ؛ لأنه لا يتعلق حكمها إلا بالممكن ، فلم يعم نفوذه ، ولعدم عموم حكم القدرة جعل مظهرها الذي هو الإبهام ذا مفصلين ، ولكون أمر القدرة مبهماً وكيفية تعلقها بالمقدور شيئاً غامضاً سمي المظهر بالإبهام ، فلا يجوز البحث عن كيفية تعلق القدرة بالمقدور ، كما لا يجوز البحث عن كيفية وجود الباري ، وعن كيفية العذاب بعد الموت ، ونحو ذلك ، مما هو من الغوامض .

(96/677)

وحقيقة الإحياء والإماتة ترجع إلى الإيجاد ، ولكن الوجود إذا كان هو الحياة سمي فعله إحياء ، وإذا كان هو الموت سمي فعله إماتة ، ولا خالق للموت والحياة إلا الله ، ولا مميت ولا محيي إلا الله تعالى ، فهو خالق الحياة ومعطيها لكل من شاء حياته على وجه يريده ومديمها ، لمن أراد دوامها له كما شاء بسبب ، وبلا سبب ، وكذا خالق الموت ومسلطة على من شاء من الأحياء متى شاء ، وكيف شاء بسبب ، وبلا سبب ، ومن عرف أنه المحيي المميت لم يهتم بحياة ، ولا موت ، بل يكون مفوضاً مستسلماً في جميع أحواله لمن بيده الحياة والموت ، كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (الشعراء : 78) الآية .

وخاصية المحيي وجود الألفة ، فمن خاف الفراق ، أو الحبس ، فليقرأه على جسده عدده .

وخاصية الاسم المميت أن يكثر منه المسرف الذي لم تطاوعه نفسه على الطاعة ، فإنها تفعلها عن أوصافها المانعة عن القيام بأمر الله تعالى ، ثم إن الماء مظهر الاسم المحيي ، والتراب مظهر الاسم المميت ، وهكذا الموجودات مع أسماء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح البيان حـ 8 صـ 280.283 ﴾

(97/677)

وقال ابن عاشور :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾

استئناف رابع بعد استئناف جملة ﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴾ [غافر : 65] وما تفرع عليها ، وكلها ناشىء بعضه عن بعض .

وهذا الامتنان بنعمة الإِيجاد وهو نعمة لأن المَوجُود شرف والمعدوم لا عناية به .

وأدمج فيه الاستدلال على الإبداع .

وتقدم الكلام على أطوار خَلق الإنسان في سورة الحج ، وتقدم الكلام على بعضه في سورة

فاطر .

والطفل : اسم يصدق على الواحد والاثنين والجمع ، للمذكر والمؤنث قال تعالى : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ [النور : 31] وقد يطابق فيقال : طفل وطفلان وأطفال .

واللامات في قوله : ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغوا أشُدَّكُم ﴾ وما عطف عليه بـ (ثم) متعلقات بمحذوف تقديره : ثم يبقيكم ، أو ثم ينشئكم لتبلغوا أشدكم ، وهي لامات التعليل مستعملة في معنى (إلى) لأن الغاية المقدرة من الله تشبه العلة فيما يفضي إليها ، وتقدم نظيره في سورة الحج .

وقوله : ﴿ ولتبلغوا أجَلاً مُسَمَّى ﴾ عطف على ﴿ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ﴾ أي للشيخوخة غاية وهي الأجلُ المسمّى أي الموت فلا طور بعد الشيخوخة .

وأما الأجل المقدّر للذين يهلكون قبل أن يبلغوا الشيخوخة فقد استفيد من قوله : ﴿ وَمِنكم مَّن يُتَوفَّى مِن قَبْلُ ﴾ أن من قبل بعض هذه الأطوار ، أي يتوفى قبل أن يخرج طفلاً وهو السقط أو قبل أن يبلغ الأشدّ ، أو يتوفّى قبل أن يكون شيخاً .

ولتعلقه بما يليه خاصة عطف عليه بالواو ولم يعطف بـ (ثم) كما عطفت المجرورات الأخرى ، والمعنى : أن الله قدّر انقراض الأجيال وخَلَقَهَا بأجيال أخرى ، فالحي غايته الفناء وإن طالت حياته ، ولمّا خلقه على حالة تؤول إلى الفناء لا محالة كان عالماً بأن من

جملة الغايات في ذلك الخلقِ أن يَبلغوا أجلاً .

وبُني ﴿ قبل ﴾ على الضم على نية معنى المضاف إليه ، أي من قبل ما ذُكر .

(98/677)

والأشُدّ : القوة في البدن ، وهو ما بين ثمانَ عشرةَ سنةً إلى الثلاثين وتقدم في سورة يوسف [22] .

وشيوخ : جمع شيخ ، وهو مَن بلغ سِن الخمسين إلى الثمانين ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وهذا بعلي شيخاً ﴾ في سورة [هود : 72] .

ويجوز في (شيوخ) ضم الشين .

وبه قرأ نافع وأبو عمرو وحَفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب وخلف .

ويجوز كسر الشين وبه قرأ ابن كثير وحمزة ، والكسائي .

وقوله : ﴿ ولَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ ﴾ عطف على ﴿ ولتبلغوا أجَلاً مُسَمًّى ﴾ أي أن من جملة ما أراده الله من خلق الإنسان على الحالة المبينة ، أن تكون في تلك الخلقة دلالة لآحاده على وجود هذا الخالق الخَلْقَ البديع ، وعلى إنفراده بالإلهية ، وعلى أن ما عداه لا يستحق وصف الإلهية ، فمن عقل ذلك من الناس فقد اهتدى إلى ما أُريد منه ومن لم يعقل ذلك فهو

بمنزلة عديم العقل .

ولأجل هذه النكتة لم يؤت لفعل ﴿ تعقلون ﴾ بمفعول ولا بمجرور لأنه نزل منزلة اللازم ، أي رجاء أن يكون لكم عقول فهو مراد لله من ذلك الخلق فمن حكمته أن جعل ذلك الخلق العجيب علة لأمور كثيرة .

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68)

استئناف خامس ومناسبة موقعه من قوله : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكم من تُراب ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ يُخرِجُكم طِفْلاً ﴾ إلى ﴿ ومِنكم مَن يُتَوفَّى من قَبْلُ ولتبلغوا أجَلاً مُسَمى ولعلكم تعقِلُون ﴾ [غافر : 67] فإن من أول ما يُرجَى أن يعقلوه هو ذلك التصرف البديع بخلق الحياة في الإنسان عند تكوينه بعد أن كان جثة لا حياة فيها ، وخلق الموت فيه عند انتهاء أجله بعد أن كان حياً متصرفاً بقوته وتدبيره .

فمعنى ﴿ يحيي ﴾ يُوجِد المخلوق حيّا .

ومعنى ﴿ يميت ﴾ أنه يُعدم الحياة عن الذي كان حيّاً ، وهذا هو محل العبرة .

وأما إمكان الإحياء بعد الإماتة فمدلول بدلالة قياس التمثيل العقلي وليس هو صريح الآية .

والمقصود الامتنان بالحياة تبعاً لقوله قبل هذا : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكم مِن تُراب ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ يخرجكم طِفلاً ﴾ [غافر : 67] .

وفي قوله : ﴿ يُحيِي ويُمِيت ﴾ المحسن البديعي المسمى الطِّباق .

وفرع على هذا الخبر إخبار بأنه إذا أراد أمراً من أمور التكوين من إحياء أو إماتة أو غيرهما فإنه يقْدر على فعله دون تردّد ولا معالجة ، بل بمجرد تعلق قدرته بالمقدور وذلك التعَلق هو توجيه قدرته للإِيجاد أو الإعدام .

فالفاء من قوله : ﴿ فَإِذَا قَضَى ﴾ فاء تفريع الإِخبار بما بعدها على الإِخبار بما قبلها .

وقول : ﴿ كن ﴾ تمثيل لتعلق القدرة بالمقدور بلا تَأْخير ولا عُدَّة ولا معاناة وعلاج بحال من يرد إذن غيره بعمل فلا يزيد على أن يوجه إليه أمراً فإن صدور القول عن القائل أسرع أعمال الإِنسان وأيسر ، وقد اختير لتقريب ذلك أخصر فعل وهو ﴿ كن ﴾ المركب من حرفين متحرك وساكن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(100/677)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (74) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (77) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما علم من هذا أنه لا كلفة عليه في شيء من الأشياء بهذه الأمور المشاهدة في أنفسهم وفي الآفاق ، أنتج التعجب من حالهم لمن له الفهم الثاقب والبصيرة الوقادة ، وجعل ذلك آياته الباهرة وقدرته القاهرة الظاهرة ، فلذلك قال لافتاً الخطاب إلى أعلى الخلق لأن ذم الجدال بالباطل من أجل مقصود هذه السورة : ﴿ ألم تر ﴾ أي يا أنور الناس قلباً وأصفاهم لباً ، وبين بعدهم بأداة النهاية فقال : ﴿ إلى الذين يجادلون ﴾ أي بالباطل ، ونبه على ما في هذه الآيات من عظمته التي لا نهاية لها بإعادة الاسم الجامع فقال : ﴿ في آيات الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ أنى ﴾ أي وكيف ومن أي وجه ﴿ يُصرفون ﴾ عن الآيات الحقة الواضحة التي

سبقت بالفطرة الأولى إلى جذور قلوبهم ، فلا حجة يوردون ولا عذاب عن أنفسهم يردون ، لأنه سبحانه استاقهم – كما قال ابن برجان – بسلاسل قهره المصوغة من خالص عزماتهم وعزائهم إرادتهم من حقيقة ذواتهم إلى خزي الدنيا وعذاب الآخرة – فصل ما جادلوا فيه واصفاً لهم بما يزيد في التعجيب من شدة جهلهم وتعاظم عماهم فقال : ﴿ الذين كذبوا ﴾ وحذف المفعول إشارة إلى عموم التكذيب : ﴿ بالكتاب ﴾ أي بسببه في جميع ما له من الشؤون التي تفوت الحصر والعظمة في كل أمر كان أشير بأداة الكمال إلى أنه لكماله كأنه لا كتاب غيره لأن من سمعه فكأنما سمعه من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لإعجازه ، فمن كذب بحرف منه فقد كذب بكل كتاب الله .

(101/677)

ولما كان التذكيب به تكذيباً بجميع الرسالات الإلهية ، أكد عظمته بذلك وبالإضافة إلى مظهر العظمة ، تحذيراً للمكذبين من سطواته ، وتذكيراً لهم بأن العمل مع الرسول عمل مع من أرسله ، فلذا لفت الكلام على الاسم الجامع لصفتي الجلال والإكرام فقال تعال : ﴿ وبما أرسلنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ به رسلنا ﴾ من جميع الملل والشرائع بكتاب كان أو بغيره ، وهو بحيث لا يحاط بكنه جلاله وعظمه حاله ، ولذا تسبب عنه تهديدهم في قوله

تعالى : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أي بوعيد صادق لا خلف فيه ، ما يحل بهم من سطوتنا .

ولما كانوا في الدنيا قد جمعت أيديهم إلى أذقانهم بجوامع السطوة ، ثم وصلت بسلاسل القهر يساقون بها عن مقام الظفر بالنجاح إلى أهويات الكفر بالجدال بالباطل ومهامه الضلال المبين كما قال تعالى ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ﴾ [يس : 8] الآية ، فجعل باطن تلك السلاسل الدنيوية والأغلال ظاهراً في ذلك المجمع قال : ﴿ إذ ﴾ أي حين تكون ﴿ الأغلال ﴾ جمع غل ، قال في ديوان الأدب ، هو الذي يعذب به الإنسان .

وقال القزاز : الغل من الحديد معروف ، ويكون من القد ، وقال في النهاية : هو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه ، ويقال لها جامعة أيضاً – انتهى .

(102/677)

وأصله الإدخال ، يدخل فيه العنق واليد فتجمعان به ، وذلك معنى قول الصغاني في مجمع البحرين : في رقبته غل من حديد ، وقد غلت يده إلى عنقه ﴿ في أعناقهم ﴾ أي جامعة لأيديهم إلى تراقيهم ، وعبر بإذ ومعناها المضي مع سوف ومعناها الاستقبال ، لأن التعبير بالمضي إنما هو إشارة إلى تحقق الأمر مع كونه مستقبلاً ﴿ والسلاسل ﴾ أي في أعناقهم أيضاً يقيدهم ذلك عن كل تصرف لكونهم لم يتقيدوا بكتاب ولا رسول ، والسلسلة من :

تسلسل الشيء : اضطرب ، قال الراغب : كأنه تصور منه تسلسل متردد ، فردد لفظه تنبيهاً على تردد معناه ، وما سلسل متردد في مقره حتى صفا ، حال كونهم

﴿ يسحبون ﴾ أي بها ، والسحب : الجر بعنف ﴿ في الحميم ﴾ أي الماء الحار الحاضر الذي يكسب الوجوه سواداً ، والأعراض عاراً ، والأرواح عذاباً والأجسام ناراً ، والقلوب هماً واللحوم ذوباناً واعتصاراً ، وذلك عوض ترفيعهم لأنفسهم عن سحبها بأسباب الأدلة الواضحات في كلف العبادات ومرارات المجاهدات وحرارات المنازلات .

ولما أخبر عن تعذيبهم بالماء الحار الذي من شأنه أن يضيق الأنفاس ، ويضعف القوى ، ويخفف القلوب ، أخبر بما هو فوق ذلك فقال : ﴿ ثم في النار ﴾ أي عذابها خاصة

﴿ يسجرون ﴾ أي يلقون فيها وتوقد بهم مكردسين مركوبين كما يسجر التنور بالحطب - أي يملأ - وتهيج ناره ، وكما يسجر - أي يصب - الماء في الحلق ، فيملؤونها فتحمى بهم ويشتد اضطرامها لكونهم كانوا في الدنيا وقود المعاصي ، والفتن بهم يشب وقودها ويقوى عودها ، ويثبت عمودها ، لأنهم لم يلقوا أنفسهم في نيران الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومخالفات الشهوات في أبواب الأوامر والنواهي ، التي هي في الظاهر نيران ، وفي الحقيقة جنان .

ولما كان المدعو إنما يدخر لأوقات الشدائد ، قال موبخاً لهم مندماً مقبحاً لقاصر نظرهم لأنفسهم بانياً للمفعول لأن المنكىء هذا القول مطلقاً لا لكونه من قائل معين : ﴿ ثم قيل لهم ﴾ أي بعد أن طال عذابهم ، وبلغ منهم كل مبلغ ، ولم يجدوا ناصراً يخلصهم ولا شافعاً يخصصهم : ﴿ أين ﴾ والتعبير عنهم بأداة ما لا يعقل في أحكم مواضعه في قوله : ﴿ ما كنتم ﴾ أي دائماً ﴿ تشركون ﴾ أي بدعائكم لهم في مهماتكم دعاء عبادة مع تجديده في كل وقت ؛ ثم بين سفولهم بقوله لافتاً القول عن مظهر العظمة إلى أعظم منه فقال : ﴿ من دون الله ﴾ أي المحيط بجميع العز وكل العظمة ، لتطلبوا منهم تخليصكم مما أنتم فيه أو تخفيفه : ﴿ قالوا ﴾ أي مسترسلين مع الفطرة وهي الفطرة الأولى على الصدق : ﴿ ضلوا عنا ﴾ فلا نراهم كما ضللنا نحن في الدنيا عما ينفعنا .

ولما رأوا أن صدقهم قد أوجب اعترافهم بالشرك ، دعتهم رداءة المكر ورذالة الطباع إلى الكذب ، فاسترسلوا معها فبادروا أن أظهروا الغلظ فقالوا ملبسين على من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ظانين أن ذلك ينفعهم كما كان ينفعهم عند المؤمنين في دار الدنيا : ﴿ بل لم نكن ندعو ﴾ أي لم يكن ذلك في طباعنا .

ولما كان مرادهم نفي دعائهم أصلاً ورأساً في لحظة فما فوقها ، لا النفي المقيد بالاستغراق ، فإنه لا ينفي ما دونه ، أثبتوا الجار فقالوا : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل هذه الإعادة ﴿ شيئاً ﴾

لنكون قد أشركنا به ، فلا يقدرهم الله إلا على ما يزيد في ضرهم ويضاعف ندمهم ويوجب لعن أنفسهم ولعن بعضهم بعضاً بحيث لا يزالون في ندم كما كان حالهم في الدنيا ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ [الأنعام : 24] فالآية من الاحتباك : ذكر الإشراك أولاً دليلاً على نفيهم له ثانياً ، والدعاء ثانياً دليلاً على تقديره أولاً .

(104/677)

ولما كان في غاية الإعجاب من ضلالهم ، كان كأنه قيل : هل يضل أحد من الخلق ضلال هؤلاء ، فأجيب بقوله : ﴿ كذلك ﴾ أي نعم مثل هذا الضلال البعيد عن الصواب ﴿ يضل الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ، عن القصد النافع من حجة وغيرها ﴿ الكافرين ﴾ أي الذين ستروا مرائي بصائرهم لئلا يتجلى فيها ثم صار لهم ذلك ديدناً .

ولما تم جواب السؤال عن التعجب من هذا الضلال ، رجع إلى خطاب الضلال فقال معظماً لما ذكر من جزائهم بأداة البعد وميم الجمع نصاً على تقريع كل منهم : ﴿ ذلكم ﴾ أي الجزاء العظيم المراتب ، الصعب المراكب الضخم المواكب ﴿ بما كنتم ﴾ أي دائماً ﴿ تفرحون ﴾ أي تبالغون في السرور وتستغرقون فيه وتضعفون عن حمله للإعراض عن

العواقب .

ولما كانت الأرض سجناً ، فهي في الحقيقة دار الأحزان ، حسن قوله : ﴿ في الأرض ﴾ أي ففعلتم فيها ضد ما وضعت له ، وزاد ذلك حسناً قوله : ﴿ بغير الحق ﴾ فأشعر أن السرور لا ينبغي إلا إذا كان مع كمال هذه الحقيقة ، وهي الثبات دائماً للمفروح به ، وذلك لا يكون إلا في الجنة ﴿ وبما ﴾ أي وبسبب ما ﴿ كنتم تمرحون ﴾ أي تبالغون في الفرح مع الأشر والبطر والنشاط الموجب الاختيال والتبختر والخفة بعدم احتمال الفرح .

ولما كان السياق لذم الجدال ، وكان الجدال إنما يكون عن الكبر ، وكان الفرح غير ملازم للكبر ، لم يسبب دخول النار عنه ، بل جعله كالنتيجة لجميع ما مضى فقال : ﴿ ادخلوا ﴾ أي أيها المكذبون .

ولما كان في النار أنواع من العذاب ، دل على تعذيبهم بكل نوع بذكر الأبواب جزاء على ما كانوا يخوضون بجدالهم في كل نوع من أنواع الأباطيل فقال : ﴿ أبواب جهنم ﴾ أي الدركة التي تلقي صاحبها بتكبر وعبوسة وتجهم ﴿ خالدين فيها ﴾ أي لازمين لما شرعتم فيه بالدخول من الإقامة لزوماً لا براح منها أصلاً .

(105/677)

ولما كانت نهاية في البشاعة والخزي والسوء ، وكان دخولهم فيها مقروناً بخلودهم سبباً لنحو أن يقال : فهي مثواكم ، تسبب عنه قوله : ﴿ فبئس مثوى ﴾ دون أن يقال : مدخل ﴿ المتكبرين ﴾ أي موضع إقامتهم المحكوم بلزومهم إياه لكونهم تعاطوا ما ليس لهم ، ولا ينبغي أن يكون إلا الله يقول الله تعالى : " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعنيهما قصمته " ولم يؤكد جملة ﴿ بئس ﴾ هنا لأن مقاولتهم هذه بنيت على تجدد علمهم في الآخرة بأحوال النار ، وأحوال ما سببها ، والتأكيد يكون للمنكر ومن في عداده ، وحال كل منهما مناف للعلم ، وزاد ذلك حسناً أن أصل الكلام مع الأعلم للسر الذي تقدم - ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبعد جداً من التأكيد .

ولما كان هذا في الجزاء أعظم الشماتة بهم ، فكان فيهم أعظم التسلية لمن جادلوه وتكبروا عليه ، سبب عنه قوله : ﴿ فاصبر ﴾ أي ارتقاباً لهذه النصرة ، ثم علل بقوله مؤكداً لأجل تكذيبهم بالوعد : ﴿ إن وعد الله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال ﴿ حق ﴾ أي في نصرتك في الدارين فلا بد من وقوعه ، وفيه أعظم تأسية لك ولذلك سبب عنه مع صرف القول إلى ما يأتي الاعتراض إشارة إلى أنه لا يسأل عما يفعل ، قوله تعالى : ﴿ فإما نرينك ﴾ وأكده ب " ما " والنون ومظهر العظمة لأنكارهم لنصرته عليهم ولبعثهم ﴿ بعض الذي نعدهم ﴾ أي بما لنا من العظمة مما يسرك فيهم من عذاب أو متاب قبل وفاتك ، فذاك إلينا وهو علينا هين .

(106/677)

ولما ذكر فعل الشرط وحذف جوابه للعلم به ، عطف عليه قوله : ﴿ أو نتوفينَّك ﴾ أي قبل أن ترى ذلك فيهم وأجاب هذا المعطوف بقوله : ﴿ فإلينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ يرجعون ﴾ أي معي في الدنيا فنريهم بعد وفاتك من نصر أصحابك عليهم بما تسرك به في برزخك فإنه لا بقاء لجولة باطلهم ، وحساً في القيامة فنريك فيهم فوق ما تؤمل من النصرة المتضمنة لتصديقك وتكذيبهم ، وإكرامك وإهانتهم ، والآية من الاحتباك : ذكر الوفاة ثانياً دليلاً على حذفها أولاً ، والرؤية أولاً دليلاً على حذفها ثانياً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 536.540 ﴾

(107/677)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) ﴾

اعلم أنه تعالى عاد إلى ذم الذين يجادلون في آيات الله فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يجادلون فِى ءايات الله أنى يُصْرَفُونَ ﴾ وهذا ذم لهم على أن جادلوا في آيات الله ودفعها والتكذيب بها ، فعجب تعالى منهم بقوله ﴿ أنى يُصْرَفُونَ ﴾ كما يقول الرجل لمن لا يبين : أنى يذهب بك تعجباً من غفلته ، ثم بيّن أنهم هم ﴿ الذين كَذَّبُواْ بالكتاب ﴾ أي بالقرآن ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ من سائر الكتب ، فإن قيل سوف للاستقبال ، وإذ للماضي فقوله ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الأغلال فِى أعناقهم ﴾ مثل قولك : سوف أصوم أمس قلنا المراد من قوله ﴿ إِذْ ﴾ هو إذاً ، لأن الأمور المستقبلة لما كان في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد ، والمعنى على الاستقبال ، هذا لفظ صاحب "الكشاف" .

(108/677)

ثم إنه تعالى وصف كيفية عقابهم فقال : ﴿ إِذِ الأغلال فِى أعناقهم والسلاسل يُسْحَبُونَ ، فِى الحميم ﴾ والمعنى : أنه يكون في أعناقهم الأغلال والسلاسل ، ثم يسحبون بتلك السلاسل في الحميم ، أي في الماء المسخن بنار جهنم ﴿ ثُمَّ فِى النار يُسْجَرُونَ ﴾ والسجر في اللغة الإيقاد في التنور ، ومعناه أنهم في النار فهي محيطة بهم ، ويقرب منه قوله تعالى : ﴿ نَارُ الله الموقدة التى تَطَّلِعُ عَلَى الافئدة ﴾ [الهمزة : 6 ، 7] ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ

تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ فيقولون ﴿ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم ، ثم قالوا ﴿ بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً ﴾ أي تبيّن أنهم لو لم يكونوا شيئاً ، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً ، كما تقول حسبت أن فلاناً شيء ، فإذا هو ليس بشيء إذا جربته فلم تجد عنده خيراً ، ويجوز أيضاً أن يقال إنهم كذبوا وأنكروا أنهم عبدوا غير الله ، كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأنعام أنهم قالوا ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الكافرين ﴾ قال القاضي : معناه أنه يضلهم عن طريق الجنة ، إذ لا يجوز أن يقال يضلهم عن الحجة إذ قد هداهم في الدنيا إليها ، وقال صاحب "الكشاف" ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الكافرين ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم ، حتى أنهم لو طلبوا الآلهة أو طلبتم الآلهة لم يجد أحدهما الآخر ، ثم قال : ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الأرض ﴾ أي ذلكم الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق ، وهو الشرك وعبادة الأصنام ﴿ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ ﴾ السبعة المقسومة لكم ، قال الله تعالى : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : 44] ، ﴿ خالدين فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ والمراد منه ما قال في الآية المتقدمة في صفة هؤلاء المجادلين

﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ﴾ [غافر : 56] .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (77)

اعلم أنه تعالى لما تكلم من أول السورة إلى هذا الموضع في تزييف طريقة المجادلين في آيات الله ، أمر في هذه الآية رسوله بأن يصبر على إيذائهم وإيحاشهم بتلك المجادلات ، ثم قال : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ وعنى به ما وعد به الرسول من نصرته ، ومن إنزال العذاب على أعدائه ، ثم قال : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ يعني أولئك الكفار من أنواع العذاب ، مثل القتل يوم بدر ، فذلك هو المطلوب ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل إنزال العذاب عليهم ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الذى وعدناهم فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ [الزخرف : 41 ، 42] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 76 . 77 ﴾

(110/677)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله أنى يُصْرَفُونَ ﴾

قال ابن زيد : هم المشركون بدليل قوله : ﴿ الذين كَذَّبُواْ بالكتاب وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا

﴾ .

وقال أكثر المفسرين : نزلت في القدرية .

قال ابن سيرين : إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية فلا أدري فيمن نزلت .

قال أبو قبيل : لا أحسب المكذّبين بالقدَر إلا الذين يجادلون الذين آمنوا .

وقال عقبة بن عامر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " نزلت هذه الآية في القدَرِية " ذكره المهدوي .

قوله تعالى : ﴿ إِذِ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أي عن قريب يعلمون بطلان ما هم فيه إذا دخلوا النار وغُلّت أيديهم إلى أعناقهم .

قال التيمي : لو أن غُلاًّ من أغلال جهنم وضع على جبل لوَهَصه حتى يبلغ الماء الأسود .

﴿ والسلاسل ﴾ بالرفع قراءة العامة عطفاً على الأغلال .

قال أبو حاتم : ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ مستأنف على هذه القراءة .

وقال غيره : هو في موضع نصب على الحال ، والتقدير : "إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ" مسحوبين .

وقرأ ابن عباس وأبو الجوزاء وعكرمة وابن مسعود "والسَّلاسِلَ" بالنصب "يُسْحَبُونَ" بفتح الياء والتقدير في هذه القراءة ويسحبون السلاسل .

قال ابن عباس : إذا كانوا يجرونها فهو أشدّ عليهم .

وحكي عن بعضهم "والسلاسِلِ" بالجر ووجهه أنه محمول على المعنى ؛ لأن المعنى أعناقهم في الأغلال والسلاسلِ ؛ قاله الفرّاء .

وقال الزجاج : ومن قرأ "والسلاسِلِ يسحبون" بالخفض فالمعنى عنده وفي "السلاسِلِ يُسْحَبُونَ" .

(111/677)

قال ابن الأنباري : والخفض على هذا المعنى غير جائز ؛ لأنك إذا قلت زيد في الدار لم يحسن أن تضمر "في" فتقول زيد الدارِ ، ولكن الخفض جائز على معنى إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل ، فتخفض السلاسل على النسق على تأويل الأغلال ؛ لأن الأغلال في تأويل الخفض ؛ كما تقول : خاصم عبد الله زيداً العاقلين فتنصب العاقلين .

ويجوز رفعهما ؛ لأن أحدهما إذا خاصم صاحبه فقد خاصمه صاحبه ؛ أنشد الفرّاء :

قد سَالَم الحياتِ مِنه القدَمَا . . .

الأُفْعُوَانَ والشُّجاعَ الشَّجْعَما

فنصب الأفعوان على الإتباع للحيات إذا سالمت القدم فقد سالمتها القدم .

فمن نصب السلاسل أو خفضها لم يقف عليها .

و"الحميم" المتناهي في الحر .

وقيل : الصديد المغلي .

﴿ ثُمَّ فِي النارِ يُسْجَرُونَ ﴾ أي يطرحون فيكونون وقوداً لها ؛ قاله مجاهد .

يقال : سجرت التنور أي أوقدته ، وسجرته ملأته ؛ ومنه ﴿ والبحر المسجور ﴾ [الطور : 6] أي المملوء .

فالمعنى على هذا تملأ بهم النار ، وقال الشاعر يصف وعلا :

إذا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً . . .

تَرَى حَوْلَها النَّبْعَ والسِّمْسِمَا

أي عيناً مملوءة .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ .

﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي هلكوا وذهبوا عنا وتركونا في العذاب ؛ من ضلّ الماءُ في اللبن أي خفي .

وقيل : أي صاروا بحيث لا نجدهم .

﴿ بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً ﴾ أي شيئاً لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع .

وليس هذا إنكاراً لعبادة الأصنام ، بل هو اعتراف بأن عبادتهم الأصنام كانت باطلة ؛ قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الكافرين ﴾ أي كما فعل بهؤلاء من الإضلال يفعل بكل

كافر .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أي ذلكم العذاب ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ بالمعاصي يقال لهم ذلك توبيخاً .

(112/677)

أي إنما نالكم هذا بما كنتم تظهرون في الدنيا من السرور بالمعصية وكثرة المال والأتباع والصحة .

وقيل إن فرحهم بما عندهم أنهم قالوا للرّسل : نحن نعلم أنا لا نبعث ولا نعذّب .

وكذا قال مجاهد في قوله جل وعز : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ﴾ [غافر : 83] .

﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ قال مجاهد وغيره : أي تبطَرون وتأشَرون .

وقد مضى في "سبحان" بيانه .

وقال الضحاك : الفرح السرور ، والمرح العدوان .

وروى خالد عن ثور عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يبغض البذخين الفرحين ويحب كل قلب حزين ويبغض أهل بيت لَحمِين ويبغض كل حبر سمين "

فأما أهل بيت لَحمِين : فالذي يأكلون لحوم الناس بالغيبة .

وأما الحبر السمين : فالمتحبر بعلمه ولا يخبر بعلمه الناس ؛ يعني المستكثر من علمه ولا ينتفع به الناس .

ذكره الماوردي .

وقد قيل في اللَّحِمِين : أنهم الذين يكثرون أكل اللحم ؛ ومنه قول عمر : اتقوا هذه المجازر فإنّ لها ضراوة كَضَراوة الخمر ؛ ذكره المهدوي .

والأوّل قول سفيان الثوري .

﴿ ادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أي يقال لهم ذلك اليوم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ [الحجر : 44] .

﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ تقدم جميعه .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ هذا تسلية للنبيّ عليه السلام ؛ أي إنا لننتقم لك منهم إما في حياتك أو في الآخرة .

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ في موضع جزم بالشرط وما زائدة للتوكيد وكذا النون وزال الجزم وبني الفعل على الفتح .

﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ عطف عليه ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ الجواب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾

أمر الله تعالى نبيه ، عليه السلام ، أن يخبرهم بأنه نهى أن يعبد أصنامهم ، لما جاءته البينات من ربه ، فهذا نهي بالسمع ، وإن كان منهياً بدلائل العقل ، فتظافرت أدلة السمع وأدلة العقل على النهي عن عبادة الأوثان .

فمن أدلة السمع قوله تعالى : ﴿ أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ﴾ إلى غير ذلك ، وذكره أنه نهى بالسمع لا يدل على أنه كان منهياً بأدلة العقل .

ولما نهى عن عبادة الأوثان ، أخبر أنه أمر بالاستسلام لله تعالى ، ثم بين أمر الوحدانية والألوهية التي أصنامهم عارية عن شيء منهما ، بالاعتبار في تدريج ابن آدم بأن ذكر مبدأه الأول ، وهو من تراب .

ثم أشار إلى التناسل بخلقه من نطفة ، والطفل اسم جنس ، أو يكون المعنى : ﴿ ثم يخرجكم ﴾ ، أي كل واحد منكم طفلاً ، وتقدم الكلام على بلوغ الأشد .

و ﴿ من قبل ﴾ ، قال مجاهد : من قبل أن يكون شيخاً ، قيل : ويجوز أن يكون من قبل

هذه الأحوال ، إذا خرج سقطاً ، وقيل : عبارة بتردده في التدريج المذكور ، ولا يختص بما قبل الشيخ ، بل منهم من يموت قبل أن يخرج طفلاً ، وآخر قبل الأشد ، وآخر قبل الشيخ .

﴿ ولتبلغوا ﴾ : متعلق بمحذوف ، أي يبقيكم لتبلغوا ، أي ليبلغ كل واحد منكم أجلاً مسمى لا يتعداه .

قال مجاهد : يعني موت الجميع ، وقيل : هو يوم القيامة .

و ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ما في ذلك من العبرة والحجج ، إذا نظرتم في ذلك وتدبرتم .

ولما ذكر ، رتب الإيجاد ، ذكر أنه المتصف بالإحياء والإماتة ، وأنه متى تعلقت إرادته بإيجاد شيء أوجده من غير تأخر ، وتقدم الكلام على مثل هذه الجمل .

(114/677)

ثم قال بعد ظهور هذه الآيات : ألا تعجب إلى المجادل في آيات الله كيف يصرف عن الجدال فيها ويصير إلى الإيمان بها ؟ والظاهر أنها في الفكار المجادلين في رسالة الرسول عليه السلام والكتاب الذي جاء به بدليل قوله : ﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ ، ثم هددهم بقوله : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ ، وهذا قول الجمهور .

وقال محمد بن سيرين وغيره : هي إشارة إلى أهل الأهواء من الأمة ، ورووا في نحو هذا

حديثاً وقالوا : هي في أهل القدر ومن جرى مجراهم ، ويلزم قائلي هذه المقالة أن يجعل قوله : ﴿ الذين كذبوا ﴾ كلاماً مستأنفاً في الكفار ، ويكون ﴿ الذين كذبوا ﴾ مبتدأ ، وخبره : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ .

وأما على الظاهر ، فالذين بدل من الذين ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوباً على الذم ، وإذ ظرف لما مضى ، فلا يعمل فيه المستقبل ، كما لا يقول : سأقوم أمس ، فقيل : إذا يقع موقع إذ ، وأن موقعها على سبيل المجاز ، فيكون إذ هنا بمعنى إذا ، وحسن ذلك تيقن وقوع الأمر ، وأخرج في صيغة الماضي ، وإن كان المعنى على الاستقبال .

قال النخعي : لو أن غلاًّ من أغلال جهنم وضع على جبل ، لأرحضة حتى يبلغ إلى الماء الأسود .

وقرأ : والسلاسل عطفاً على الأغلال ، يسحبون مبنياً للمفعول .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وزيد بن علي ، وابن وثاب ، والمسيء في اختياره : والسلاسل بالنصب على المفعول ، يسحبون مبنياً للفاعل ، وهو عطف جملة فعلية على جملة اسمية .

وقرأت فرقة منهم ابن عباس : والسلاسل ، بجر اللام .

قال ابن عطية : على تقدير ، إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل ، فعطف على المراد من الكلام لا على ترتيب اللفظ ، إذ ترتيبه فيه قلب ، وهو على حد قول العرب : أدخلت

القلنسوة في رأسي ، وفي مصحف أبيّ : وفي السلاسل يسحبون .

وقال الزمخشري : ووجهه أنه لو قيل : إذ أعناقهم في الأغلال ، مكان قوله : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم ﴾ ، لكان صحيحاً مستقيماً .

(115/677)

فلما كانتا عبارتين معتقبتين ، حمل قوله : ﴿ والسلاسل ﴾ على لعبارة الأخرى ، ونظيره قول الشاعر :

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة . . .

ولا ناعب إلا ببين غرابها

كأنه قيل : بمصلحين .

وقرىء : وبالسلاسل ، انتهى ، وهذا يسمى العطف على التوهم ، ولكن توهم إدخال حرف الجر على مصلحين أقرب من تغيير تركيب الجملة بأسرها ، والقراءة من تغيير تركيب الجملة السابقة بأسرها ، ونظير ذلك قول الشاعر :

أحدك لن ترى بثعيلبات . . .

ولا بيداء ناجية زمولا

ولا متدارك والليل طفل . . .

ببعض نواشع الوادي حمولا

التقدير : لست براء ولا متدارك .

وهذا الذي قاله ابن عطية والزمخشري سبقهما إليه الفراء ، قال : من جر السلاسل حمله على المعنى ، لأن المعنى : أعناقهم في الأغلال والسلاسل .

وقال الزجاج : من قرأ بجفص والسلاسل ، فالمعنى عنده : وفي السلاسل يسحبون .

وقال ابن الأنباري : والخفض على هذا المعنى غير جائز ، لو قلت : زيد في الدار ، لم يحسن أن تضمر في فتقول : زيد الدار ، ثم ذكر تأويل الفراء ، وخرج القراءة ثم قال : كما تقول : خاصم عبد الله زيداً العاقلين ، بنصب العاقلين ورفعه ، لأن أحدهما إذا خاصمه صاحبه فقد خاصمه الآخر .

انتهى ، وهذه المسألة لا تجوز عند البصريين ، وهي منقول جوازها عن محمد بن سعفان الكوفي ، قال : لأن كل واحد منهما فاعل مفعول ، وقرىء : وبالسلاسل يسحبون ، ولعل هذه القراءة حملت الزجاج على أن تأول الخفض على إضمار حرف الجر ، وهو تأويل شذوذ .

وقال ابن عباس : في قراءة من نصب والسلاسل ، وفتح ياء يسحبون إذا كانوا يجرونها ، فهو أشد عليهم ، يكلفون ذلك وهم لا يطيقون .

وقال مجاهد : ﴿ يسجرون ﴾ : يطرحون فيها ، فيكونون وقوداً لها .

وقال السدي : يسجرون : يحرقون .

(116/677)

ثم أخبر تعالى أنهم يوقفون يوم القيامة من جهة التوبيخ والتقريع ، فيقال لهم : أين الأصنام التي كنتم تعبدون في الدنيا ؟ فيقولون : ﴿ ضلوا عنا ﴾ : أي تلفوا منا وغابوا واضمحلوا ، ثم تضطرب أقوالهم ويفزعون إلى الكذب فيقولون : ﴿ بل لم نكن نعبد شيئاً ﴾ ، وهذا من أشد الاختلاط في الذهن والنظر .

ولما تبين لهم أنهم لم يكونوا شيئاً ، وما كانوا يعبدون بعبادتهم شيئاً ، كما تقول : حسبت أن فلاناً شيء ، فإذا هو ليس بشيء إذا اختبرته ، فلم تر عنده جزاء ، وقولهم : ﴿ ضلوا عنا ﴾ ، مع قوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ يحتمل أن يكون ذلك عند تقريعهم ، فلم يكونوا معهم إذ ذاك ، أو لما لم ينفعوهم قالوا : ﴿ ضلوا عنا ﴾ ، وإن كانوا معهم .

﴿ كذلك ﴾ : أي مثل هذه الصفة وبهذا الترتيب ، ﴿ يضل الله الكافرين ﴾ ، وقال الزمخشري : أي مثل ضلال آلهتهم عنهم ، يضلهم عن آلهتهم ، حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم

الآلهة لم يتصادفوا .

ذلكم الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح ، ﴿ بغير الحق ﴾ : وهو الشهادة عبادة الأوثان .

وقال ابن عطية : ذلك العذاب الذي أنتم فيه مما كنتم تفرحون في الأرض بالمعاصي والكفر . انتهى .

و ﴿ تمرحون ﴾ ، قال ابن عباس : الفخر والخيلاء ؛ وقال مجاهد : الاشر والبطر . انتهى ، فقال لهم ذلك توبيخاً أي إيماناً لكم هذا بما كنتم تظهرون في الدنيا من السرور بالمعاصي وكثرة المال والأتباع والصحة .

وقال الضحاك : الفرح والسرور ، والمرح : العدوان ، وفي الحديث : " إن الله يبغض البذخين الفرحين ويحب كل قلب حزين " وتفرحون وتمرحون من باب تجنيس التحريف المذكور في علم البديع ، وهو أن يكون الحرف فرقاً بين الكلمتين .

(117/677)

﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ : الظاهر أنه قيل لهم : ادخلوا بعد المحاورة السابقة ، وهم قد كانوا في النار ، ولكن هذا أمر يقيد بالخلود ، وهو الثواء الذي لا ينقطع ،

فليس أمراً بمطلق الدخول ، أو بعد الدخول فيها أمروا أن يدخلوا سبعة أبواب التي لكل باب منها جزء مقسوم من الكفار ، فكان ذلك أمراً بالدخول يفيد التجزئة لكل باب .

وقال ابن عطية : وقوله تعالى : ﴿ ادخلوا ﴾ معناه : يقال لهم قبل هذه المحاورة في أول الأمر ادخلوا ، لأن هذه المخاطبة إنما هي بعد دخولهم ، وفي الوقت الذي فيه الأغلال في أعناقهم .

وأبواب جهنم : هي السبعة المؤدّية إلى طبقاتها وأدراكها السبعة . انتهى .

وخالدين : حال مقدرة ، ودلت على الثواء الدائم ، فجاء التركيب : ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ : فبئس مدخل المتكبرين ، لأن نفس الدخول لا يدوم ، فلم يبالغ في ذمّه ، بخلاف الثواء الدائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(118/677)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ﴾

أيْ في ضمنِ خلقِ آدمَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ منه حسبَما مرَّ تحقيقُه مراراً . ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أي ثمَّ خلقكُم خلقاً تفصيلياً من نطفة أي منيَ . ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾

أي أطفالاً . والإفراد لإرادة الجنسِ ، أو لإرادةِ كلِّ واحدٍ من أفرادِه . ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ علةٌ ليخرجَكم معطوفةً على علةٍ أُخرى له مناسبةٌ لها كأنَّه قيلَ ثم يُخرجَكُم طِفْلاً لتكبَروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلُغوا كمالَكُم في القوةِ والعقلِ وكَذا الكلامُ في قولِه تعالى : ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً ﴾ ويجوزُ عطفُه عَلى لتبلغُوا . وقُرِىءَ شيخاً كقولِه تعالَى طِفْلاً ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلِ الشيخوخةِ بعد بلوغِ الأشدّ أو قبلَه أيضاً . ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ ﴾ متعلقٌ بفعلٍ مقدرٍ بعدَهُ أي ولتبلغُوا ﴿ أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ هُو وقتُ الموتِ ، أو يومَ القيامةِ يفعلُ ذلكَ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ولكي تعقلُوا ما في ذلكَ من فنونِ الحِكَمِ والعِبر ﴿ هُوَ الذى يُحْىِ ﴾ الأمواتَ ﴿ وَيُمِيتُ ﴾ الأحياءَ أو الذي يفعلُ الإحياءَ والإماتةَ ﴿ فَإِذَا قضى أَمْراً ﴾ أي أرادَ أمراً من الأمورِ ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ من غيرِ توقفٍ على شيءٍ من الأشياءِ أصلاً وهذا تمثيلٌ لتأثيرِ قُدرتِه تعالى في المقدوراتِ عند تعلقِ إرادتِه بها وتصويرٌ لسرعةِ ترتبِ المكوناتِ على تكوينِه من غيرِ أنْ يكونَ هناكَ أمرٌ ومأمورٌ . والفاءُ الأُولَى للدِلالةِ على أنَّ ما بعدَها من نتائجِ ما قبلها من اختصاصِ الإحياءِ والإماتةِ به سبحانَه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يجادلون فِى ءايات الله أنى يُصْرَفُونَ ﴾ تعجيبٌ من أحوالِهم الشنيعةِ وآرائِهم الركيكةِ وتمهيدٌ لما يعقُبه من بيانِ تكذيبِهم بكلِّ القُرآنِ وبسائرِ الكتبِ والشرائعِ وترتيبُ الوعيدِ على ذلكَ كما أنَّ ما سبقَ من قولِه تعالَى : ﴿ إِنَّ الذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾ الخ بيانٌ لابتناءِ جدالِهم على مَبْنى فاسدٍ لا يكادُ يدخلُ تحتَ الوجودِ هُو الأمنيَّةُ الفارغةُ فلا تكريرَ فيهِ أي انظُرْ إلى هؤلاءِ المكابرينَ المُجادلينَ في آياتِه تعالَى الواضحةِ الموجبةِ للإيمانِ بها الزاجرةِ عن الجدالِ فيها كيفَ يُصرفونَ عنها معَ تعاضدِ الدَّواعِي إلى الإقبالِ عليها وانتفاءِ الصوارفِ عنها بالكُلِّيةِ . وقولُه تعالَى : ﴿ الذين كَذَّبُواْ بالكتاب ﴾ أيْ بكُلِّ القُرآنِ أو بجنسِ الكُتبِ السماويةِ فإنَّ تكذيبَهُ تكذيبٌ لهَا في محلِّ الجرِّ على أنَّه بدلٌ من الموصولِ الأولِ أو في حيزِ النصبِ أو الرفعِ على الذمِّ ، وإنما وُصلَ الموصولُ الثَّاني بالتكذيبِ دُونَ المُجادلةِ لأنَّ المعتادَ وقوعَ المُجادلةِ في بعضِ الموادِ لا في الكُلِّ . وصيغةُ الماضِي للدِلالةِ على التحققِ كما أنَّ صيغةَ المضارعِ في الصلةِ الأُولى للدلالةِ على تجددِ المجادلةِ وتكررِها ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ من سائرِ الكتبِ أو مطلقِ الوَحيِ والشرائعِ ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ كُنْهَ ما فعلُوا من الجدالِ والتكذيبِ عند مشاهدتِهم لعقوباتِه ﴿ إِذِ الأغلال فِى أعناقهم ﴾ ظرفٌ ليعلمونَ إذ المَعْنى على الاستقبالِ . ولفظُ الماضِي لتيقنِه ﴿ والسلاسل ﴾ عطفٌ على الأغلالِ . والجارُّ في نيةِ التأخيرِ وقيل : مبتدأ حذف خبره لدلالة خبر الأول عليه ، وقيل : قوله تعالى : ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ بحذفِ العائدِ أي يُسحبونَ

بَها وهُو على الأولَينِ حالٌ من المُستكنّ في الظرفِ وقيل : استئنافٌ وقعَ جواباً عن سؤالٍ نشأَ من حكايةِ

(120/677)

حالِهم كأَنَّه قيلَ فماذَا يكونُ حالُهم بعدَ ذلكَ فقيلَ يُسحبونَ ﴿ فِى الحميم ﴾ وقُرِىءَ والسلاسلَ يَسحبون بالنَّصبِ وَفتحِ الياءِ عَلَى تقديمِ المفعولِ وعطفِ الفعليةِ على الاسميةِ ، والسَّلاسلِ بالجرّ حملاً على المَعْنى لأنَّ قولَه تعالى : ﴿ الأغلالِ فِى أعناقهم ﴾ في مَعْنى أعناقُهم في الأغلالِ أو إضماراً للباءِ ويدلُّ عليه القراءةُ بِهِ ﴿ ثُمَّ فِى النار يُسْجَرُونَ ﴾ أي يُحرقونَ مِنْ سجرَ التنورَ إذا ملأَهُ بالوقودِ ومنُه السَّجيرُ للصديقِ كأَنَّه سُجّر بالحبّ أي مُلىءَ والمرادُ بيانُ أَنَّهم يُعذبونَ بأنواعِ العذابِ ويُنقلونَ من بابٍ إلى بابٍ ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ الله قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي يقالُ لَهُمْ ويقولونَ . وصيغةُ المَاضِي للدلالةِ على التحقيقِ ومَعْنى ضلُّوا عنَّا غابُوا عنَّا وذلكَ قبلَ أنْ يُقرنَ بهم آلهتُهم أو ضاعُوا عنَّا فلم نجدْ ما كُنَّا نتوقعُ منُهم . ﴿ بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً ﴾ أي بَلْ تبينَ لنَا أَنَّا لم نكُنْ نعبدُ شيئاً بعبادتِهم لما ظهرَ لنا اليومَ أَنَّهم لم يكونُوا شيئاً يعتدُّ بِهِ كقولِك حسبتُه فلم يكُنْ .

﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلكَ الضلالِ الفظيعِ ﴿ يُضِلُّ الله الكافرين ﴾ حيثُ لا يهتدونَ إلى

شيءٍ ينفعُهم في الآخرةِ أو كما ضلَّ عنُهم آلهتُهم يُضلّهم عن آلهتِهم حتَّى لو تطالبُوا لم يتصادفُوا .

﴿ ذلكم ﴾ الإضلالُ ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الأرض ﴾ أي تبطَرون وتتكبرون ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ وهُو الشركُ والطغيانُ ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ تتوسعونَ في البطر والأشَر . والالتفاتُ للمبالغة في التوبيخِ .

(121/677)

﴿ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ ﴾ أي أبوابَها السبعةَ المقسومةَ لكُم ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ مقدراً خلودَكم فيها ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ أي عن الحقِّ جهنمُ والتعبيرُ عن مدخلِهم بالمَثْوى لكونِ دخولِهم بطريقِ الخلودِ ﴿ فاصبر ﴾ إلى أنْ يُلاقُوا ما أُعدَّ لهمُ من العذابِ ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ بتعذيبِهم ﴿ حَقّ ﴾ كائنٌ لا محالَة ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ أي فإنْ نُرِكَ وما مزيدةٌ لتأكيدِ الشرطيةِ ولذلكَ لحقتِ النونُ الفعلَ ولا تلحقُه مع إنْ وحدَها ﴿ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ وهو القتلُ والأسرُ ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبلَ ذلكَ ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يومَ القيامةِ فنجازيهم بأعمالِهم وهُو جوابُ نتوفينكَ وجوابُ نرينك محذوفٌ مثلُ فذاكَ ويجوزُ أن يكونَ جواباً لهما بمعْنى إنْ نُعذبهم في حياتِك أو لم نُعذبْهم فإنَّا نعذبهم في الآخرةِ أشدَّ

العذابِ وأفظَعه كما ينبىءُ عنْهُ الاقتصارُ على ذِكرِ الرجوعِ في هذا المعرضِ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(122/677)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يجادلون فِى ءايات الله أنى يُصْرَفُونَ ﴾

تعجيب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن وبسائر الكتب والشرائع وترتيب الوعيد على ذلك ، كما أن ما سبق من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يجادلون ﴾ [غافر : 56] الخ بيان لابتناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد يدخل تحت الوجود فلا تكرير فيه كذا في إرشاد العقل السليم .

وقال القاضي : تكرير ذكر المجادلة لتعدد المجادل بأن يكون هناك قوماً وهنا قوماً آخرين أو المجادل فيه بأن يحمل في كل على معنى مناسب ففيما مر في البعث وهنا في التوحيد أو هو للتأكيد اهتماماً بشأن ذلك .

واختار ما في الإرشاد ، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعي إلى

الإقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها بالكلية .

[يم الله تعالى :

﴿ الذين كَذَّبُواْ بالكتاب ﴾ أي بكل القرآن أو بجنس الكتب السماوية فإن تكذيبه تكذيب لها في محل الجر على أنه بدل من الموصول الأول أو بيان أو صفة له أو في محل النصب على الذم أو في محل الرفع على أنه خبر محذوف أو مبتدأ خبره ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وإنما وصل الموصول الثاني بالتكذيب دون المجادلة لأن المعتاد وقوع المجادلة في بعض المواد لا في الكل .

وصيغة الماضي للدلالة على التحقيق كما أن صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ من سائر الكتب على الوجه الأول في تفسير الكتاب أو مطلق الوحى والشرائع على الوجه الثاني فيه .

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ كنه ما فعلوا من الجدال والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته .

إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71)

(123/677)

بلفظ المضي للدلالة على تحققه حتى كأنه ماض حقيقة فلا تنافر بين سوف وإذ ﴿ والسلاسل ﴾ عطف على ﴿ الاغلال ﴾ والجار والمجرور في نية التأخير كأنه قيل : إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم ، وقوله تعالى : ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ أي يجرون .

﴿ فِى الحميم ﴾ حال من ضمير ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ أو ضمير ﴿ فِى أعناقهم ﴾ أو جملة مستأنفة لبيان حالهم بعد ذلك ، وجوز كون ﴿ السلاسل ﴾ مبتدأ وجملة ﴿ والسلاسل يُسْحَبُونَ ﴾ خبره والعائد محذوف أي يسحبون بها .

وجوز كون ﴿ الاغلال ﴾ مبتدأ ﴿ والسلاسل ﴾ عطف عليه والجملة خبر المبتدأ و ﴿ فِى أعناقهم ﴾ في موضع الحال ، ولا يخفى حاله ، وقرأ ابن مسعود .

وابن عباس .

وزيد بن علي .

وابن وثاب ﴿ والسلاسل يُسْحَبُونَ ﴾ بنصب السلاسل وبناء يسحبون للفاعل فيكون السلاسل مفعولاً مقدماً ليسحبون ، والجملة معطوفة على ما قبلها ، ولا بأس بالتفاوت اسمية وفعلية .

وقرأت فرقة منهم ابن عباس في رواية ﴿ والسلاسل ﴾ بالجر ، وخرج ذلك الزجاج على الجر بخافض محذوف كما في قوله

: أشارت كليب بالأكف الأصابع . . .

أي وبالسلاسل كما قرىء به أو في السلاسل كما في مصحف أبي ، والفراء على العطف بحسب المعنى إذ الأغلال في أعناقهم بمعنى أعناقهم في الأغلال ، ونظيره قوله

: مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة . . .

ولا ناعب إلا ببين غرابها

ويسمى في غير القرآن عطف التوهم ، وذهب إلى هذا التخريج الزمخشري .

(124/677)

وابن عطية ، وابن الأنباري بعد أن ضعف تخريج الزجاج خرج القراءة على ما قال الفراء قال : وهذا كما تقول : خاصم عبد الله زيداً العاقلين بنصب العاقلين ورفعه لأن أحدهما إذا خاصم صاحبه فقد خاصم الآخر ، وهذه المسألة لا تجوز عند البصريين ونقل جوازها عن محمد بن سعدان الكوفي قال : لأن كل واحد منهما فاعل مفعول ﴿ ثُمَّ فِى النار يُسْجَرُونَ ﴾ يحرقون ظاهراً وباطناً من سجر التنور إذا ملأه إيقاداً ويكون بمعنى ملأه بالحطب ليحميه ، ومنه السجير للصديق الخليل كأنه سجر بالحب أي ملىء ، ويفهم من "القاموس" أن السجر من الأضداد ، وكلا الاشتقاقين مناسب في السجير أي ملىء من حبك أو فرغ من غيرك إليك والأول أظهر .

والمراد بهذا وما قبله أنهم معذبون بأنواع العذاب سحبهم على وجوههم في النار الموقدة ثم تسليط النار على باطنهم وأنهم يعذبون ظاهراً وباطناً فلا استدراك في ذكر هذا بعد ما تقدم .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي يقال لهم ويقولون ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع ، والسؤال للتوبيخ ، وضلالهم عنهم بمعنى غيبتهم من ضلت دابته إذا لم يعرف مكانها ، وهذا لا ينافي ما يشعر بأن آلهتهم مقرونون بهم في النار لأن للنار طبقات ولهم فيها مواقف فيجوز غيبتهم عنهم في بعضها واقترانهم بهم في بعض آخر ، ويجوز أن يكون ضلالهم استعارة لعدم النفع فحضورهم كالعدم فذكر على حقيقته في موضع وعلى مجازه في آخر ﴿ بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً ﴾ أي بل تبين لنا اليوم إنا لم نكن نعبد في الدنيا شيئاً يعتد به ، وهو إضراب عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودة عندهم أو ليست بنافعة إلى أنها ليست شيئاً يعتد به .

(125/677)

وفي ذلك اعتراف بخطئهم وندم على قبيح فعلهم حيث لا ينفع ذلك ، وجعل الجلبي هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] يفزعون إلى الكذب

لحيرتهم واضطرابهم ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الكافرين ﴾ أنه تعالى يحيرهم في أمرهم حتى يفزعون إلى الكذب مع علمهم بأنه لا ينفعهم ، ولعل ما تقدم هو المناسب للسياق .

ومعنى هذا مثل ذلك الإضلال يضل الله تعالى في الدنيا الكافرين حتى أنهم يدعون فيها ما يتبين لهم أنه ليس بشيء أو مثل ضلال آلهتهم عنهم في الآخرة نضلهم عن آلهتهم فيها حتى لو طلبوا الآلهة وطلبتهم لم يلق بعضهم بعضاً أو مثل ذلك الضلال وعدم النفع يضل الله تعالى الكافرين حتى لا يهتدوا في الدنيا إلى ما ينفعهم في الآخرة ، وفي المجمع كما أضل الله تعالى أعمال هؤلاء وأبطل ما كانوا يؤملونه كذلك يفعل بأعمال جميع من يتدين بالكفر فلا ينتفعون بشيء منها ، فإضلال الكافرين على معنى إضلال أعمالهم أي إبطالها ، ونقل ذلك عن الحسن ، وقيل في معناه غير ذلك .

(126/677)

﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى المذكور من سحبهم في السلاسل والأغلال وتسجيرهم في النار وتوبيخهمب السؤال ، وجوز على بعض الأوجه أن يكون إشارة إلى إضلال الله تعالى الكافرين ، وإلى الأول ذهب ابن عطية أي ذلكم العذاب الذي أنتم فيه ﴿ بِمَا كُنتُمْ

تَفْرَحُونَ فِي الأرض ﴾ تبطرون وتأشرون كما قال مجاهد : ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ وهو الشرك والمعاصي أو بغير استحقاق لذلك ، وفي ذكر ﴿ الأرض ﴾ زيادة تفظيع للبطر ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ تتوسعون في الفرح ، وقيل : المعنى بما كنتم تفرحون بما يصيب أنبياء الله تعالى وأولياءه من المكاره وبما كنتم تتوسعون في الفرح بما أوتيتم حتى نسيتم لذلك الآخرة واشتغلتم بالنعمة عن المنعم ، وفي الحديث " الله تعالى يبغض البذخين الفرحين ويحب كل قلب حزين " وبين الفرح والمرح تجنيس حسن ، والعدول إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ لأن ذم المرء في وجهه تشهير له ، ولذا قيل : النصح بين الملأ تقريع .

﴿ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ ﴾ أي الأبواب المقسومة لكم ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ مقدرين الخلود ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ عن الحق جهنم ، وكان مقتضى النظم الجليل حيث صدر بادخلوا أن يقال : فبئس مدخل المتكبرين ليتجاوب الصدر والعجز لكن لما كان الدخول المقيد بالخلود سبب الثواء عبر بالمثوى وصح التجاوب معنى ، وهذا الأمر على ما استظهره في "البحر" مقول لهم بعد المحاورة السابقة وهم في النار ، ومطمح النظر فيه الخلود فهو أمر بقيد الخلود لا بمطلق الدخول ، ويجوز أن يقال : هم بعد الدخول فيها أمروا أن يدخلوا الأبواب المقسومة لهم فكان أمراً بالدخول بقيد التجزئة لكل باب ، وقال ابن عطية : يقال لهم قبل هذه المحاورة في أول الأمر ادخلوا .

﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ بتعذيب أعدائك الكفرة ﴿ حَقّ ﴾ كائن لا محالة ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ أصله فإن نرك فزيدت ﴿ مَا ﴾ لتوكيد ﴿ إن ﴾ الشرطية ولذلك جاز أن يلحق الفعل نون التوكيد على ما قيل : وإلى التلازم بين ما ونون التوكيد بعد أن الشرطية ذهب المبرد .

والزجاج فلا يجوز عندهما زيادة ما بدون إلحاق نون ولا إلحاق نون بدون زيادة ما ورد بقوله :

فإما تريني ولي لمة . . .

فإن الحوادث أودي بها

ونسب أبو حيان على كلام فيه جواز الأمرين إلى سيبويه والغالب أن إن إذا أكدت بما يلحق الفعل بعدها نون التوكيد على ما نص عليه غير واحد ﴿ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ وهو القتل والأسر ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم ، وهو جواب ﴿ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ وجواب ﴿ نُرِيَنَّكَ ﴾ محذوف مثل فذاك ، وجوز أن يكون جواباً لهما على معنى أن نعذبهم في حياتك أو لم نعذبهم فإنا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب ويدل على شدته الاقتصار على ذكر الرجوع في هذا المعرض .

والزمخشري آثر في الآية هنا ما ذكر أولاً وذكر في الرعد في نظيرها أعني قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ [الرعد : 40] ما يدل على

أن الجملة المقرونة بالفاء جواب على التقديرين ، قال في "الكشف" : والفرق أن قوله تعالى : ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ عدة للإنجاز والنصر وهو الذي همه عليه الصلاة والسلام وهم المؤمنين معقود به لمقتضى هذا السياق فينبغي أن يقدر فذاك هناك ثم جيء بالتقدير الثاني رداً لشماتتهم وإنه منصور على كل حال وإتماماً للتسلي ، وأما مساق التي في الرعد فلا يجاب التبليغ وإنه ليس عليه غير ذلك كيفما دارت القضية ، فمن ذهب إلى إلحاق ما هنا بما في الرعد ذهب عنه مغزى الزمخشري انتهى فتأمل ولا تغفل .

وقرأ أبو عبد الرحمن .

(128/677)

ويعقوب ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ بفتح الياء ، وطلحة بن مصرف .

ويعقوب في رواية الوليد بن حسان بفتح تاء الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(129/677)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) ﴾

بنيت هذه السورة على إبطال جدل الذين يجادلون في آيات الله جدال التكذيب والتورّك كما تقدم في أول السورة إذ كان من أولها قوله : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ [غافر : 4] وتكرر ذلك خمس مرات فيها ، فنبه على إبطال جدالهم في مناسبات الإبطال كلها إذ ابتدىء بإبطاله على الإجمال عقب الآيات الثلاث من أولها بقوله : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ [غافر : 4] ثم بإبطاله بقوله : ﴿ الذين يجادلون في ءايات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله ﴾ [غافر : 35] ، ثم بقوله : ﴿ إنَّ الذين يُجادلُون في ءاياتت الله بغَير سُلطانٍ أتاهم إن في صُدُورهم إلاَّ كِبْرٌ ﴾ [غافر : 56] ثم بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِين يجادلون في آياتِ الله أَنَّى يُصْرَفُون ﴾ .

وذلك كله إيماء إلى أن الباعث لهم على المجادلة في آيات الله هو ما اشتمل عليه القرآن من إبطال الشرك فلذلك أعقب كل طريقة من طرائق إبطال شركهم بالإنحاء على جدالهم في آيات الله ، فجملة ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِين يجادلون في آياتِ الله ﴾ مستأنفة للتعجيب من حال انصرافهم عن التصديق بعد تلك الدلائل البيّنة .

والاستفهام مستعمل في التقرير وهو منفي لفظاً ، والمراد به : التقرير على الإثبات ، كما تَقدم غير مرة ، منها عند قوله : ﴿ قال أولم تؤمن ﴾ في سورة [البقرة : 260] .

والرؤية عِلمية ، وفعلها معلق عن العمل بالاستفهام بـ ﴿ أنى يُصْرَفُونَ ﴾ ، و (أَنَّى) بمعنى (كيف) ، وهي مستعملة في التعجيب مثل قوله : ﴿ أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ﴾ [آل عمران : 47] أي أرأيت عجيب انصرافهم عن التصديق بالقرآن بصارف غير بيّن منشَؤه ، ولذلك بني فعل ﴿ يصرفون ﴾ للنائب لأن سبب صرفهم عن الآيات ليس غير أنفسهم .

(130/677)

ويجوز أن تكون (أَنَّى) بمعنى (أين) ، أي أَلا تعجبُ من أين يصرفهم صارف عن الإِيمان حتى جادلوا في آيات الله مع أن شُبَه انصرافهم عن الإِيمان منتفية بما تكرر من دلائل الآفاق وأنفسِهم وبما شاهدوا من عاقبة الذين جادلوا في آيات الله ممن سبقهم ، وهذا كما يقول المتعجب من فعل أحد "أين يُذْهَب بك" .

وبناء فعل ﴿ يصرفون ﴾ للمجهول على هذا الوجه للتعجيب من الصارف الذي يصرفهم وهو غير كائن في مكان غير نفوسهم .

وأبدل ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بالكتاب ﴾ من ﴿ الَّذِينَ يجادلون ﴾ لأن صلتي الموصولين صادقتان على شيء واحد ، فالتكذيب هو ما صْدَقُ الجدال ، والكتاب : القرآن .

وعَطْف ﴿ وَبِمَا أَرْسَلنا به رُسُلنا ﴾ يجوز أن يكون على أصل العطف مقتضياً المغايرة ، فيكون المراد : وبما أرسلنا به رسلنا من الكتب قبل نزول القرآن ، فيكون تكذيبهم ما أُرسلت به الرسل مراداً به تكذيبهم جميعَ الأديان كقوله تعالى : ﴿ وما قدروا اللَّه حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [الأنعام : 91] ، ويحتمل أنه أريد به التكذيب بالبعث فلعلهم لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بإثبات البعث سألوا عنه أهل الكتاب فأثبتوه فأنكر المشركون جميع الشرائع لذلك .

ويجوز أن يكون عطفَ مرادف ، فائدته التوكيد ، والمراد بـ ﴿ رسلنا ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم كقوله : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ [الشعراء : 105] يعني الرسول نوحاً على أن في العطف فائدة زائدة على ما في المعطوف عليه وهي أن مما جاء به الرسول مواعظ وإرشاداً كثيراً ليس من القرآن .

وتفرع على تكذيبهم وعيدهم بما سيلقونه يوم القيامة فقيل فسوف يعلمون ، أي سوف يجدون العذاب الذي كانوا يجادلون فيه فيعلمونه .

(131/677)

وعبر عن وجدانهم العذاب بالعلم به بمناسبة استمرارهم على جهلهم بالبعث وتظاهرهم بعدم فهم ما يقوله الرسول فأنذروا بأن ما جهلوه سيتحققونه يومئذٍ كقول الناس : ستعرف منه ما تجهل ، قال أبو علي البصير :

فتذم رأيك في الذين خصصتَهم

دُوني وتَعْرِف منهم ما تجهل . . .

وحذف مفعول يعلمون ﴾ لدلالة ﴿ كَذَّبُوا بالكتاب ﴾ عليه ، أي يتحققون ما كذبوا به .

والظرف الذي في قوله : ﴿ إذِ الأغلال في أعناقهم ﴾ متعلق بـ ﴿ يعلمون ﴾ أي يعلمون في ذلك الزمن .

وشأن (إذْ) أن تكون اسماً للزمن الماضي واستعملت هنا للزمن المستقبل بقرينة (سوف) فهو إما استعمالُ المجاز بعلاقة الإطلاق ، وإما استعارة تبعية للزمن المستقبل المحقق الوقوع تشبيهاً بالزمن الماضي وقد تكرر ذلك .

ومنه اقترانها بـ (يوم) في نحو قوله : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ [الزلزلة : 4] ، وقوله : ﴿ يومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللَّه ﴾ [الروم : 4 ، 5] .

وأول ما يعلمونه حين تكون الأغلال في أعناقهم أنهم يتحققون وقوع البعث .

والأغلال : جمع غُل ، بضم العين ، وهو حلقة من قِدَ أو حديد تحيط بالعنق تناط بها سلسلة من حديد ، أو سَير من قِدّ يُمسك بها المجرم والأسير .

والسلاسل : جمع سِلْسِلة بكسر السينين وهي مجموع حلق غليظة من حديد متصل بعضها ببعض .

ومن المسائل ما رأيته أن الشيخ ابن عرفة كان يوماً في درسه في التفسير سئل : هل تكون هذه الآية سنداً لما يفعله أمراء المغرب أصلحهم الله من وضع الجناة بالأغلال والسلاسل جرياً على حكم القياس على فعل الله في العقوبات كما استنبطوا بعض صور عقاب من عمل قوم لوط من الرجم بالحجارة ، أو الإِلقاء من شاهق .

فأجاب بالمنع لأن وضع الغل في العنق ضرب من التمثيل وإنما يوثق الجاني من يده ، قال : لأنهم إنما قاسوا على فعل الله في الدنيا ولا يقاس على تصرفه في الآخرة لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الإِحراق بالنار ، وقوله : " إنما يعذب بها رب العزة "

(132/677)

وجملة ﴿ يُسْحَبُون في الحَمِيم ﴾ حال من ضمير ﴿ أعناقهم ﴾ أو من ضمير ﴿ يعلمون ﴾ .

والسَّحْب : الجرّ ، وهو يجمع بين الإِيلام والإِهانة .

والحميم : أشد الحرّ .

و(ثُمّ) عاطفة جملة ﴿ فِي النَّارِ يُسْجَرون ﴾ على جملة ﴿ يُسْحَبون في الحَمِيم ﴾ .

وشأن (ثمّ) إذا عطَفَت الجمل أن تكون للتراخي الرتبي وذلك أن احتراقهم بالنار أشد في تعذيبهم من سحبهم على النار ، فهو ارتقاء في وصف التعذيب الذي أُجمل بقوله : ﴿ فَسَوفَ يَعْلَمُونَ ﴾ والسَّجْرُ بالنار حاصل عقب السحب سواء كان بتراخخٍ أم بدونه .

والسجر : ملْءُ التنور بالوقود لتقوية النار فيه ، فإسناد فعل ﴿ يسجرون ﴾ إلى ضميرهم إسناد مجازي لأن الذي يسجر هو مكانهم من جهنم ، فأريد بإسناد المسجور إليهم المبالغة في تعلق السجر بهم ، أو هو استعارة تبعية بتشبيههم بالتنور في استقرار النار بباطنهم كما قال تعالى : ﴿ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾ [الحج : 20] .

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِنْ دُونِ اللَّهِ

(ثمّ) هذه للتراخي الرتبي لا محالة لأن هذا القول يقال لهم قبل دخول النار ، بدليل أن مما وقع في آخر القول : ﴿ ادخُلوا أَبْوَابَ جَهَنَّم ﴾ ، ودخول أبواب جهنم قبل السحْب في حميمها والسَّجْرِ في نارها .

وهذا القيل ارتقاء في تقريعهم وإعلان خطَل آرائهم بين أهل المحشر وهو أشد على النفس من ألم الجسم ، ولأن هذا القول مقدمة لتسليط العذاب عليهم لاشتماله على بيان سبب العذاب من عبادة الأصنام وازدهائهم في الأرض بكفرهم ومَرَحِهم ، وهو أيضاً ارتقاء في وصف أحوالهم الدالة على نكالهم إذْ ارتقى من صفة جزائهم على إشراكهم وهو شيء

غير مستغرب ترتُّبه على الشرك إلى وصف تحقيرهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها وذلك غريب من أحوالهم وأشدّ دلالة على بطلان إلهية أصنامهم وهو المقصد المهم من القوارع التي سلطت عليهم في هذه السورة .

(133/677)

فموقع المعطوف بـ (ثمّ) هنا كموقع المعطوف بها في قول أبي نواس:

قُل إن ساد ثم سادَ أبوه . . .

قَبله ثم سادَ من قبلُ جدُّه

من حيث كانت سيادة جدّه أرسخت له سيادة أبيه وأعقبت سيادة نفسه ، وهذا استعمال موجود بكثرة .

وصيغ (قيلَ) بصيغة المضيّ لأنه محقق الوقوع فكأنه وقع ومَضى وكذلك فعل ﴿ قَالُوا ضَلُّوا ﴾ .

والقائل لهم : ناطق بإذن الله .

و(أين) للاستفهام عن مكان الشيء المجهول المكان ، والاستفهام هنا مستعمل في التنبيه على الغلط والفضيحة في الموقف فإنهم كانوا يزعمون أنهم يعبدون الأصنام ليكونوا شفعاء

لهم من غضب الله فلما حق عليهم العذاب فلم يجدوا شفعاء ذكروا بما كانوا يزعمونه فقيل لهم ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ ، فابتدروا بالجواب قبل انتهاء المقالة طمعاً في أن ينفعهم الاعتذار .

فجملة ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عنا ﴾ معترضة في أثناء القول الذي قيل لهم ، ومعنى ﴿ ضَلُّوا ﴾ غابوا كقوله : ﴿ أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد ﴾ [السجدة : 10] أي غُيبنا في التراب ، ثم عرض لهم فعلموا أن الأصنام لا تفيدهم .

فأضربوا عن قولهم : ﴿ ضَلُّوا عَنَّا ﴾ وقالوا : ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أي لم نكن في الدنيا ندعو شيئاً يغني عنا ، فنفي دعاء شيء هنا راجع إلى نفي دعاء شيء يُعتدّ به ، كما تقول : حسبتُ أن فلاناً شيء فإذا هو ليس بشيء ، إن كنتَ خبرته فلم تر عنده خيراً .

وفي الحديث : "سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال : "ليسوا بشيء" أي ليسوا بشيء معتدّ به فيما يقصدهم الناس لأجله ، وقال عباس بن مرداس :

وقد كنت في الحرب ذا تدراء

فلم أعط شيئاً ولم أمنع . . .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ﴾ في سورة [

العقود : 68] ، إذ ليس المعنى على إنكار أن يكونوا عبدوا شيئاً لمنافاته لقولهم : ﴿ ضَلُّوا عَنَّا ﴾ المقتضي الاعترافَ الضمني بعبادتهم .

(134/677)

وفسر كثير من المفسرين قولهم : ﴿ بَل لَّمْ نَكُن ندْعُوا من قَبْلُ شيئاً ﴾ أنه إنكار لعبادة الأصنام بعد الاعتراف بها لاضطرابهم من الرعب فيكون من نحو قوله تعالى : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 23] .

ويجوز أن يكون لهم في ذلك الموقف مقالان ، وهذا كله قبل أن يحشروا في النار هم وأصنامهم فإنهم يكونون متماثلين حينئذٍ كما قال تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون اللَّه حصب جهنم ﴾ .

وجملة ﴿ كذلك يُضِلُّ الله الكافرين ﴾ تذييل معترض بين أجزاء القول الذي يقال لهم .

ومعنى الإِشارة تعجيب من ضلالهم ، أي مثل ضلالهم ذلك يُضل الله الكافرين .

والمراد بالكافرين : عموم الكافرين ، فليس هذا من الإِظهار في مقام الإِضمار .

والتشبيه في قوله : ﴿ كذلك يُضِلُّ الله الكافرين ﴾ يُفيد تشبيه إضلال جميع الكافرين بإضلاله هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله ، فتكون جملة ﴿ كذلك يُضِلُّ الله الكافرين ﴾

تذييلاً ، أي مثل إضلال الذين يجادلون في آيات الله يُضل الله جميع الكافرين ، فيكون إضلال هؤلاء الذين يجادلون مشبهاً به إضلال الكافرين كلهم ، والتشبيه كناية عن كون إضلال الذين يجادلون في آيات الله بلغ قوة نوعه بحيث ينظّر به كل ما خفي من أصناف الضلال ، وهو كناية عن كون مجادلة هؤلاء في آيات الله أشدُّ الكفر .

والتشبيه جار على أصله وهو إلحاق ناقص بكامل في وصف ولا يكون من قبيل ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ [البقرة : 143] ولا هو نظير قوله المتقدم ﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات اللَّه يجحدون ﴾ [غافر : 63] .

وقوله : ﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون ﴾ تكملة القيل الذي يقال لهم حينَ إِذْ الإِغلالُ في أعناقهم .

والإِشارة إلى ما هم فيه من العذاب .

و(مَا) في الموضعين مصدرية ، أي ذلكم مسبب على فرحكم ومرحكم اللذين كانا لكم في الدنيا ، والأرض : مطلقة على الدنيا .

والفرح : المسرة ورضى الإِنسان على أحواله ، فهو انفعال نفساني .

والمرح ما يَظهر على الفارح من الحركات في مشيه ونظره ومعاملته مع الناس وكلامه وتكبره فهو هيئة ظاهرية .

و﴿ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ يتنازعه كل من ﴿ تفرحون ﴾ و ﴿ تمرحون ﴾ أي تفرحون بما يسركم من الباطل وتزدهون بالباطل فمن آثار فرحهم بالباطل تطاولُهم على الرسول صلى الله عليه وسلم ومن المرح بالباطل استهزاؤهم بالرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين ﴾ [المطففين : 30 ، 31] .

فالفرح كلما جاء منهياً عنه في القرآن فالمراد به هذا الصنف منه ، كقوله تعالى : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن اللَّه لا يحب الفرحين ﴾ [القصص : 76] لا كلُّ فَرح ، فإن الله امتنّ على المؤمنين بالفرح في قوله : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللَّه ﴾ [الروم : 4 ، 5] .

وبين ﴿ تفرحون وتمرحون ﴾ الجناس المحرَّف .

وجملة ﴿ ادْخُلوا أَبْوَابَ جَهَنَّم ﴾ يجوز أن تكون استئنافاً بيانياً لأنهم لما سمعوا التقريع والتوبيخ وأيقنوا بانتفاء الشفيع ترقبوا ماذا سيؤمر به في حقهم فقيل لهم ﴿ أدْخُلوا أبوَابَ جهنَّم ﴾ ، ويجوز أن تكون بدل اشتمال من جملة ﴿ ذلكم بِمَا كنتم تفرحون ﴾ الخ ، فإن مدلول اسم الإِشارة العذابُ المشاهد لهم وهو يشتمل على إدخالهم أبواب جهنم والخلودَ

فيها .

ودخول الأبواب كناية عن الكون في جهنم لأن الأبواب إنما جعلت ليسلك منها إلى البيت ونحوه .

و﴿ خالدين ﴾ حال مقدرة ، أي مقدراً خلودكم .

(136/677)

وفرع عليه ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ، والمخصوص بالذم محذوف لأنه يدل عليه ذكر جهنم أي فبئس مثوى المتكبرين جهنمُ ، ولم يتصل فعل (بئس) بتاء التأنيث لأن فاعله في الظاهر هو ﴿ مثوى ﴾ لأن العبرة بإسناد فعل الذم والمدح إلى الاسم المذكور بعدهما ، وأما اسم المخصوص فهو بمنزلة البيان بعد الإجمال فهو مبتدأ خبره محذوف أو خبرُ مبتدإٍ محذوف ، ولذلك عدّ باب نعم وبئس من طرق الإطناب .

والمثوى : محل الثواء ، والثواء : الإقامة الدائمة ، وأوثر لفظ ﴿ مثوى ﴾ دون (مُدخل) المناسب لِ ﴿ ادخلوا ﴾ لأن المثوى أدل على الخلود فهو أولى بمساءِتهم .

والمراد بالمتكبرين : المخاطبون ابتداء لأنهم جادلوا في آيات الله عن كِبْر في صدورهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يجادلون في ءايات الله بغير سلطان أتاهم إن في صُدُورهم إلاَّ كِبْرٌ

مَا هُم ببالغيه ﴾ [غافر : 56] ولأن تكبرهم من فرحهم .

وإنما عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر وهو ﴿ المتكبرين ﴾ للإِشارة إلى أن من أسباب وقوعهم في النار تكبرهم على الرسل .

وليكون لكل موصوف بالكِبْر حظ من استحقاق العقاب إذا لم يتُب ولم تغلب حسناته على سيئاته إن كان من أهل الإيمان .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (77)

(137/677)

قد كان فيما سبق من السورة ما فيه تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم على ما تلقَّاه به المشركون من الإِساءة والتصميم على الإِعراض ابتداء من قوله في أول السورة ﴿ فَلاَ يَغْرُرك تقلُّبهم في البلاد ﴾ [غافر : 4] ثم قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا في الأرض فَيَنْظُرُوا كيْفَ كانَ عاقبة الذين كانُوا مِن قَبْلِهم ﴾ [غافر : 21] ، ثم قوله : ﴿ إنَّا لَنَنْصر رُسُلنا ﴾ [غافر : 51] ثم قوله : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك ﴾ [غافر : 55] الآية ، ففرع هنا على جميع ما سبق وما تخلله من تصريح وتعريض أن أمر الله النبي صلى الله

عليه وسلم بالصبر على ما يلاقيه منهم ، وهذا كالتكرير لقوله فيما تقدم ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [غافر : 55] .

(138/677)

وذلك أن نظيره المتقدم ورد بعد الوعد بالنصر في قوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : 51] ثم قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ [غافر : 53] الآية ، فلما تمّ الكلام على ما أخذ الله به المكذبين من عذاب الدنيا انتقَلَ الكلامُ إلى ذكر ما يلقونه في الآخرة بقوله : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ ﴾ [غافر : 70 ، 71] الآيات ، ثم أعقبه بقوله : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ عوْداً إلى بدء إذ الأمر بالصبر مفرّع على ما اقتضاه قوله : ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [غافر : 4 ، 5] الآيات ، ثم قوله : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ [غافر : 18] ثم قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ [غافر : 21] وما بعده ، فلما حصل الوعد بالانتصاف من مكذبي النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة ، أعقب بقوله : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ

﴿ فإن مناسبة الأمر بالصبر عقب ذلك أن يكون تعريضاً بالانتصار له ولذلك فرع على الأمر بالصبر الشرطُ المردَّد بين أن يريه بعض ما توعدهم الله به وبين أن لا يراه ، فإن جواب الشرط حاصل على كلتا الحالتين وهو مضمون ﴿ فإلينا يُرْجعون ﴾ أي أنهم غير مفلَتين من العقاب ، فلا شك أن أحد الترديدْين هو أن يرى النبي صلى الله عليه وسلم عذابهم في الدنيا .

ولهذا كان للتأكيد بـ (إنَّ) في قوله : ﴿ إنَّ وعد الله حق ﴾ موقعُه ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين استبطأوا النصر كما قال تعالى : ﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر اللَّه ﴾ [البقرة : 214] فنزلوا منزلة المتردد فيه فأُكد وعده بحرف التوكيد .

(139/677)

والتعبير بالمضارع في قوله : ﴿ يرجعون ﴾ لإفادته التجدد فيشعر بأنه رجوع إلى الله في الدنيا .

وقوله : ﴿ فإمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ شرط ، اقترن حرف (إنْ) الشرطية بحرف (ما) الزائدة للتأكيد ولذلك لحقت نون التوكيد بفعل الشرط .

وعطف عليه ﴿ أو نَتَوفَّيَنَّكَ ﴾ وهو فعل شرط ثان .

وجملة ﴿ فإلينا يُرْجَعُون ﴾ جواب لفعل الشرط الثاني لأن المعنى على أنه جواب له .

وأما فعل الشرط الأول فجوابه محذوف دل عليه أول الكلام وهو قوله : ﴿ إنَّ وعد الله حق ﴾ وتقديرُ جوابه : فإما نرينك بعض الذي نعدهم فذاكَ ، أو نتوفينك فإلينا يُرجعون ، أي فهم غير مفلَتين مما نعدهم .

وتقدم نظير هذين الشرطين في سورة يونس إلا أن في سورة [يونس : 46] ﴿ فإلينا مرجعهم ﴾ وفي سورة غافر ﴿ فإلينا يُرْجعون ﴾ ، والمخالفة بين الآيتين تفنن ، ولأن ما في يونس اقتضى تهديدهم بأن الله شهيد على ما يفعلون ، أي على ما يفعله الفريقان من قوله : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ [يونس : 42] وقوله : ﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ [يونس : 43] فكانت الفاصلة حاصلة بقوله : ﴿ على ما يفعلون ﴾ [يونس : 46] ، وأما هنا فالفاصلة معاقبة للشرط فاقتضت صوغ الرجوع بصيغة المضارع المختتم بواو ونون ، على أن ﴿ مرجعهم ﴾ [يونس : 46] معرف بالإِضافة فهو مشعر بالمرجع المعهود وهو مرجعهم في الآخرة بخلاف قوله : ﴿ يرجعون ﴾ المشعر برجوع متجدد كما علمت .

والمعنى : أنهم واقعون في قبضة قدرتنا في الدنيا سواء كان ذلك في حياتك مثل عذاب يوم بدر أو بعد وفاتك مثل قتلهم يوم اليمامة ، وأما عذاب الآخرة فذلك مقرر لهم بطريق الأَوْلى

، وهذا كقوله : ﴿ أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾ [الزخرف : 42] .

(وتقديم المجرور في قوله : ﴿ فإلينا يُرْجعون ﴾ للرعاية على الفاصلة وللاهتمام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(140/677)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قسم له الله سبحانه الحال إلى إصابتهم أو وفاته (صلى الله عليه وسلم) ، وكان قد بقي مما هو أقر لعينه وأشفى لصدره أن يريهم في حياته آية تلجئهم إلى الإيمان ، وتحملهم على

الموافقة والإذعان ، فيزول النزاع بحسن الاتباع ، كما وقع لقوم يونس عليه الصلاة والسلام ، قال عاطفاً على ما تقديره في تعليل الأمر بالصبر ، فلقد أرسلناك إليهم ولننفذن أمرنا فيهم ، وأما أنت فما عليك إلا البلاغ : (ولقد أرسلنا) أي على ما لنا من العظمة (رسلاً) أي بكثرة .

(141/677)

ولما كان الإرسال إنما هو في بعض الزمان الماضي وإن كان بلوغ رسالة كل لمن بعده موجبة لانسحاب حكم رسالته إلى مجيء الرسول الذي يقفوه ، أثبت الجار لإرادة الحقيقة فقال : (من قبلك) أي إلى أممهم ليبلغوا عنا ما أمرناهم به : (منهم من قصصنا) أي بما لنا من الإحاطة (عليك) أي أخبارهم وأخبار أممهم) ومنهم من لم نقصص (وإن كان لنا العلم التام والقدرة الكاملة (عليك) لا أخبارهم ولا أخبار أممهم ولا ذكرناهم لك بأسمائهم (وما) أي أرسلناهم والحال أنه ما (كان لرسول) أصلاً (أن يأتي بآية) أي ملجئة أو غير ذلك مما يجادل فيه قومه أو يسلمون استعجالاً لاتباع قومه له ، أو اقتراحاً من قومه عليه أو غير ذلك مما يجادل فيه قومه أو يسلمون له أو ينقادون ، وصرف الكلام عن المظهر المشير إلى القهر إلى ما فيه – مع الإهانة – الإكرام فقال : (إلا بإذن الله) أي بأمره وتمكينه ، فإن له

الإحاطة بكل شيء ، فلا يخرج شيء عن أمره ، فإن لم يأذن في ذلك رضوا وسلموا وصبروا واحتبسوا ، وإن أذن في شيء من ذلك من عذاب أو آية ملجئة أو غير ذلك جاءهم ما أذن فيه (فإذا جاء) وزاد الأمر عظماً لمزيد الخوف والرجاء بالإظهار دون الإضمار فقال : (أمر الله) أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ، وأمره ما توعد به من العذاب عند العناد بعد الإجابة إلى المقترح ، ومن القيامة وما فيها ، وتكرير الاسم الأعظم لتعظيم المقام باستحضار ما له من صفات الجلال والإكرام ، ولثبات ما أراد ولزومه عبر عنه بالقضاء ، فقال مشعراً بصيغة المفعول بغاية السهولة : (قُضِيَ) أي بأمره على أيسر وجه وأسلهه (بالحق) أي الأمر الثابت الذي تقدم الوعد به وحكم بثبوته من إهلاك ناس وإنجاء آخرين أو إيمان قوم وكفر آخرين – وهذا كله هو الذي أجرى سبحانه سنته القديمة بثبوته ، واما الفضل من الإمهال والتطول بالنعم فإنما هو قبل الإجابة إلى المقترحات ، والدليل على أن هذا من مراد الآية ما

يأتي من قوله : (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) وما أشبهه (وخسر) أي هلك أو تحقق وتبين بالمشاهدة أنه خسر (هنالك) أي في ذلك الوقت العظيم بعظمة ما أنزلنا فيه ،

ظرف مكان استعير للزمان إيذاناً بغاية الثبات والتمكن في الخسارة تمكن الجالس (المبطلون) أي المنسوبون إلى إيثار الباطل على الحق ، إما باقتراح الآيات مع إيتانهم بما يغنيهم عنها وتسميتهم له سحراً أو بغير ذلك ، إما بتيسرهم على الرجوع عما هم فيه من العناد من غير إذعان وإما الهلاك ، وإما بإدحاض الحجج والحكم عليهم بالغلب ثم النار ولو بعد حين ، ومن هذه الآية أخذ سبحانه في رد مقطع السورة على مطلعها ، فهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى) وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) وما كان لرسول أن يأتي بآية (إلى) وجادلوا بالباطل (و) أفلم يسيروا في الأرض (إلى) فأخذتهم فكيف كان عقاب (وهذا وما بعده مما اشتمل عليه من الحكمة والقدرة إلى الثلاث الآيات الأول .

ولما كان المبطلون ليسوا أشد ولا أقوى من بعض الحيوانات العجم ، دل على ما أخبر به من نافذ نصرته فيهم بقوله مذكراً لهم نعمته مستعطفاً إلى طاعته دالاً على التوحيد بعد تليينهم بالوعيد مظهراً الاسم الجامع إشارة إلى أن هذه الآية من الدلالات لا يحصى : (الله) أي الملك الأعظم (الذي جعل لكم (لا غيره (الأنعام) أي الأزواج الثمانية بالتذليل والتسخير (لتركبوا منها) وهي الإبل مع قوتها ونفرتها ، والتعبير باللام في الركوب مطلقاً ثم فيه مقيداً ببلوغ الأماكن الشاسعة إشارة إلى أن ذلك هو المقصود منها بالذات ، وهو الذي اقتضى تركيبها على ما هي عليه ، فنشأ منه بقية المنافع فكانت تابعة .

ولما كان الاقتيات منها - في عظيم نفعه وكثرته وشهوته - بحيث لا يناسبه غيره ، عد الغير عدماً فقال تعالى : (منها) أي من الأنعام كلها (تأكلون) بتقديم الجار .

(143/677)

ولما كان التصرف فيها غير منضبط ، أجمله بقوله : (ولكم فيها) أي كلها (منافع) أي كثيرة بغير ذلك في الدر والوبر والصوف وغيرها .

ولما كان سوقها وبلوغ الأماكن الشاسعة عليها في أقرب مدة لنيل الأمور الهائلة عظيم الجدوى جداً ، نبه على عظمته بقطعه عما قبله بإجمال المنافع ثم تفصيله منه فقال : (ولتبلغوا) أي مستعلين (عليها) وهي في غاية الذل والطواعية ، ونبههم على نقصهم وعظيم نعمته عليهم بقوله : (حاجة) أي جنس الحاجة .

ولما كان في مقام التعظيم لنعمه لأن من سياق الامتنان وإظهار القدرة وحدها وجمع ما تضمر فيه فقال : (في صدوركم) إشارة إلى أن حاجة واحدة ضاقت عنها قلوب الجميع حتى فاضت منها فملأت مساكنها .

ولما كان الحمل يكون مع مطلق الاستعلاء سواء كان على أعلى الشيء أولاً بخلاف الركوب ، قال معبراً بأداة الاستعلاء فيها وفي الفلك غير سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ،

فإنها كانت مغطاة كما حكي فكانوا في بطنها لا على ظهرها : (وعيلها) أي في البر (وعلى الفلك) أي في البحر (تحملون) أي تحمل لكم أمتعتكم فإن حمل الإنسان نفسه تقدم بالركوب .

وأشار بالنباء للمفعول أنه سخر ذلك تسخيراً عظيماً لا يحتاج معه إلى علاج في نفس الحمل .

ولما كانت هذه آية عظيمة جعلها سبحانه مشتملة على آيات كثيرة ، عبر فيها بالماضي وعطف بالمضارع تنبيهاً على ما تقديره : فأراكم هذه الآيات البينات منها ، قوله : (ويريكم) أي في لحظة (آياته) أي الكثيرة الكبيرة فيها وفي غيرها من أنفكسم ومن الآفاق ، ودل على كثرة الآيات وعظمتها بإسقاط تاء التأنيث كما هو المستفيض في غير النداء بإظهار الاسم الأعظم في قوله : (فأيّ آيات الله) أي المحيط بصفات الكمال) تنكرون (حتى تتوجه لكم المجادلة في آياته التي من أوضحها البعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 542.540 ﴾

(144/677)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾

والمعنى أنه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : أنت كالرسل من قبلك ، وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الباقين ، وليس فيهم أحد أعطاه الله آيات ومعجزات إلا وقد جادله قومه فيها وكذبوه فيها وجرى عليهم من الهم ما يقارب ما جرى عليك فصبروا ، وكانوا أبداً يقترحون على الأنبياء إظهار المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل العناد والتعنت ، ثم إن الله تعالى لما علم أن الصلاح في إظهار ما أظهره ، وإلا لم يظهره ولم يكن ذلك قادحاً في نبوتهم ، فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة لما لم يكن إظهارها صلاحاً ، لا جرم ما أظهرناها ، وهذا هو المراد من قوله ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ ثم قال : ﴿ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بالحق ﴾ وهذا وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات ﴿ وَأَمَرُّ الله ﴾ القيامة ﴿ والمبطلون ﴾ هم المعاندون الذين يجادلون في آيات الله ، ويقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79)

اعلم أنه تعالى لما أطنب في تقرير الوعيد عاد إلى ذكر ما يدل على وجود الإله الحكيم

الرحيم ، وإلى ذكر ما يصلح أن يعد إنعاماً على العباد ، قال الزجاج الإبل خاصة ، وقال القاضي هي الأزواج الثمانية ، وفي الآية سؤالات :

(145/677)

السؤال الأول : أنه لم أدخل لام الغرض على قوله ﴿ لتركبوا ﴾ وعلى قوله ﴿ لتبلغوا ﴾ ولم يدخل على البواقي فما السبب فيه ؟ الجواب : قال صاحب "الكشاف" الركوب في الحج والغزو إما أن يكون واجباً أو مندوباً ، فهذان القسمان أغراض دينية فلا جرم أدخل عليهما حرف التعليل ، وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباحات ، فلا جرم ما أدخل عليها حرف التعليل ، نظيره قوله تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل : 8] فأدخل التعليل على الركوب ولم يدخله على الزينة .

السؤال الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ ﴾ معناه تحملون في البر والبحر إذا عرفت هذا فنقول : لم لم يقل وفي الفلك كما قال ﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ [هود : 40] والجواب : أن كلمة على للاستعلاء فالشيء الذي يوضع في الفلك كما يصح أن يقال وضع فيه يصح أن يقال وضع عليه ، ولما صح الوجهان كانت لفظة على أولى حتى يتم المراد في قوله ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ ﴾ ولما ذكر الله هذه الدلائل

الكثيرة قال : ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ ﴾ يعني أن هذه الآيات التي عددناها كلها ظاهرة باهرة ، فقوله ﴿ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ ﴾ تنبيه على أنه ليس في شيء من الدلائل التي تقدم ذكرها ما يمكن إنكاره ، قل صاحب "الكشاف" قوله ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ ﴾ جاء على اللغة المستفيضة ، وقولك : فأية آيات الله قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب ، وهي في أي أغرب لإبهامه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 77 . 78 ﴾

(146/677)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ ﴾

عزّاه أيضاً بما لقيت الرسل من قبله .

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أي أنبأناك بأخبارهم وما لقوا من قومهم .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾ أي من قبل نفسه ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ اللهِ ﴾ أي إذا جاء الوقت المسمى لعذابهم أهلكهم الله ، وإنما التأخير لإسلام من علم الله إسلامه منهم ، ولمن في أصلابهم من المؤمنين .

وقيل : أشار بهذا إلى القتل ببدر .

﴿ قُضِيَ بالحق وَخَسِرَ هُنَالِكَ المبطلون ﴾ أي الذين يتبعون الباطل والشرك .

قوله تعالى : ﴿ الله الذي جَعَلَ لَكُمُ الأنعام ﴾ قال أبو إسحاق الزجاج : الأنعام ها هنا الإبل .

﴿ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فاحتج من منع من أكل الخيل وأباح أكل الجمال بأنّ الله عز وجل قال في الأنعام : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وقال في الخيل : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [النحل : 8] ولم يذكر إباحة أكلها .

وقد مضى هذا في "النحل" مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ في الوبر والصوف والشعر واللبن والزبد والسمن والجبن وغير ذلك .

﴿ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أي تحمل الأثقال والأسفار .

وقد مضى في "النحل" بيان هذا كله فلا معنى لإعادته .

ثم قال : ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ يعني الأنعام في البر ﴿ وَعَلَى الفلك ﴾ في البحر ﴿ تُحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي آياته الدالة على وحدانيته وقدرته فيما ذكر .

﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ ﴾ نصب "أيا" ب"تنكرون" ، لأن الاستفهام له صدر الكلام فلا يعمل فيه ما قبله ، ولو كان مع الفعل هاء لكان الاختيار في "أيّ" الرفع ؛ ولو كان الاستفهام بألف أو هل وكان بعدهما اسم بعده فعل معه هاء لكان الاختيار النصب ، أي إذا كنتم لا تنكرون أن هذه الأشياء من الله فلم تنكرون قدرته على البعث والنشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(148/677)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً ﴾

ذوي خطر وكثرة ﴿ مِن قَبْلِكَ ﴾ من قبل إرسالك .

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا ﴾ أوردنا أخبارهم وآثارهم ﴿ عَلَيْكَ ﴾ كنوح وإبراهيم .

وموسى عليهم السلام .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ وهم أكثر الرسل عليهم الصلاة والسلام ، أخرج الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال : "قلت يا رسول الله كم عدة الأنبياء ؟ قال مائة

ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً" والظاهر أن المراد بالرسول في الآية ما هو أخص من النبي ، وربما يوهم صنيع القاضي أن المراد به ما هو مساو للنبي .

وأياً ما كان لا دلالة في الآية على عدم علمه صلى الله عليه وسلم بعدد الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام كما توهم بعض الناس ، ورد لذلك خبر الإمام أحمد وجرى بيننا وبينه من النزع ما جرى ، وذلك لأن المنفي القص وقد علمت معناه فلا يلزم من نفي ذلك نفي ذكر أسمائهم ، ولو سلم فلا يلزم من نفى ذكر الأسماء نفى ذكر أن عدتهم كذا من غير تعرض لذكر أسمائهم ، على أن النفي بلم وهي على الصحيح تقلب المضارع ماضياً فالمنفي القص في الماضي ولا يلزم من ذلك استمرار النفي فيجوز أن يكون قد قصوا عليه عليه الصلاة والسلام جميعاً بعد ذلك ولم ينزل ذلك قرآناً ، وأظهر من ذلك في الدلالة على عدم استمرار النفي قوله تعالى : ﴿ رُسُلاً قَدْ قصصناهم عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ لتبادر الذهن فيه إلى أن المراد لم نقصصهم عليك من قبل لمكان ﴿ قصصناهم عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء : 164] وبالجملة الاستدلال بالآية على أنه صلى الله عليه وسلم لم يعلم عدة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ولا علمها بعد جهل عظيم بل خذلان جسيم نعوذ بالله تعالى من ذلك ، وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه .

عن علي كرم الله تعالى وجهه في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ قال : بعث الله تعالى عبداً حبشياً نبياً فهو ممن لم يقصص على محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن ابن عباس بلفظ "إن الله تعالى بعث نبياً أسود في الحبش فهو ممن لم يقصص عليه عليه الصلاة والسلام" والمراد بذلك على نحو ما مر أنه لم تذكر له صلى الله عليه وسلم قصصه وآثاره ولا أوردت عليه أحواله وأخباره كما كان في شأن موسى وعيسى وغيرهما من المرسلين عليهم الصلاة والسلام ، ولا يمكن أن يقال : المراد أنه لم يذكر له صلى الله عليه وسلم بعثة شخص موصوف بذلك إذ لا يساعد عليه اللفظ ، وأيضاً لو أريد ما ذكر فمن أين علم علي كرم الله تعالى وجهه أو ابن عباس ذلك وهل يقول باب مدينة العلم على علم لم يفض عليه من تلك المدينة حاشاه ثم حاشاه وكذا ابن عمه العباس عبد الله .

(150/677)

واستشكل هذا الخبر بأن فيه رسالة العبد وقد قالوا العبد لا يكون رسولاً ، وأجيب بأن العبد فيه ليس بمعنى المملوك وهو الذي لا يكون رسولاً لنقصان تصرفه ونفرة النفوس عن اتباعه بل هو أحد العبيد بمعنى السودان عرفاً ولو قيل : إن العبد بهذا المعنى لا يكون

رسولاً أيضاً لنفرة النفوس عن اتباعه كنفرتها عن اتباع المملوك قلنا : على تقدير تسليم النفرة إنما هي فيما إذا كان الإرسال لغير السودان وأما إذا كان الإرسال للسودان فليست هناك نفرة أصلاف ، وظاهر لفظ ابن عباس أن ذلك الأسود إنما بعث في الحبش والتزام أنه لا يكون رسول من السودان أولاد حام مما لا يساعد عليه الدليل لأنه إن كانت النفرة مانعة من الإرسال فهي لا تتحقق فيما إذا كان الإرسال إلى بني صنفه ؛ وإن كان المانع أنه لا يوجد متأهر للإرسال في بني حام لنقصان عقولهم وقلة كما لهم فدعوى ذلك جهل والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته وكم رأينا في أبناء حام من هو أعقل وأكمل من كثير من أبناء سام ويافث ، وإن كان قد ورد فأطع من نبينا صلى الله عليه وسلم أنه لا يكون من أولئك رسول فليذكر وأنى به ثم أن أمر النبوة فيمن ذكر أهون من أمر الرسالة كما لا يخفى ، وكأنه لمجموع ما ذكرنا قال الخفاجي عليه الرحمة : في صحة الخبر نظر ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ أي وما صح وما استقام لرسول من أولئك الرسل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً ﴾ بمعجزة ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ فالمعجزات على تشعب فنونها عطايا من الله تعالى قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة كسائر القسم ليس لهم اختيار في إيثار بعضها والاستبداد بإتيان المقترح بها ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ بإنجاء المحق وإثابته وإهلاك المبطل وتعذيبه ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ﴾ أي

وقت مجيء أمر الله تعالى اسم كان استعير للزمان ﴿ المبطلون ﴾ المتمسكون بالباطل على الإطلاق فيدخل فيهم

(151/677)

المعاندون المقترحون دخولاً أولياً ومن المفسرين من فسر المبطلين بهم وفسر أمر الله بالقيامة ، ومنهم من فسره بالقتل يوم بدر وما ذكرنا أولى .

وأبعد ما رأينا في الآية أن المعنى فإذا أراد الله تعالى إرسال رسول وبعثة نبي قضى ذلك وأنفذه بالحق وخسر كل مبطل وحصل على فساد آخرته .

﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الأنعام ﴾ المراد بها الإبل خاصة كما حكي عن الزجاج واختاره صاحب الكشاف ، واللام للتعليل لا للاختصاص فإن ذلك هو المعروف في نظير الآية أي خلقها لأجلكم ولمصلحتكم ، وقوله تعالى : ﴿ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا ﴾ الخ تفصيل لما دل عليه الكلام إجمالاً ، ومن هنا جعل ذلك بعضهم بدلاً مما قبله بدل مفصل من مجمل بإعادة حرف الجر ، و﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية أي ابتداء تعلق الركوب بها أو تبعيضية وكذا ﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وليس المراد على إرادة التبعيض أن كلاً من الركوب والأكل مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن كل بعض

منها صالح لكل منهما .

نعم كثيراً ما يعدون النجائب من الإبل للركوب ، والجملة على ما ذهب إليه الجلبي عطف على المعنى فإن قوله تعالى : ﴿ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا ﴾ في معنى منها تركبون أو إن منها تأكلون في معنى لتأكلوا منها لكن لم يؤت به كذلك لنكتة .

وقال العلامة التفتازاني : إن هذه الجملة حالية لكن يرد على ظاهره أن فيه عطف الحال على المفعول له ولا محيص عنه سوى تقدير معطوف أي خلق لكم الأنعام منها تأكلون ليكون من عطف جملة على جملة .

وتعقبه الخفاجي بقوله : لم يلح لي وجه جعل هذا الواو عاطفة محتاجة إلى التقدير المذكور مع أن الظاهر أنها واو حالية سواء قلنا إنها حال من الفاعل أو المفعول والمنساق إلى ذهني العطف بحسب المعنى ، ولعل اعتباره في جانب المعطوف أيسر فيعتبر أيضاً في قوله تعالى :

(152/677)

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ أي غير الركوب والأكل كالألبان والأوبار والجلود ويقال : إنه في معنى ولتنتفعوا بمنافع فيها أو نحو ذلك ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ أي أمراً ذا بال تهتمون به وذلك كحمل الأثقال من بلد إلى بلد ، وهذا عطف على ﴿ لتركبوا منها

﴾ [غافر : 79] جاء على نمطه ، وكان الظاهر المزاوجة بين الفوائد المحصلة من الأنعام بأن يؤتى باللام في الجميع أو تترك فيه لكن عدل إلى ما في "النظم الجليل" لنكتة .

قال صاحب الكشف : إن الأنعام ههنا لما أريد بها الإبل خاصة جعل الركوب وبلوغ الحاجة من أتم الغرض منها لأن جل منافعها الركوب والحمل عليها ، وأما الأكل منها والانتفاع بأوبارها وألبانها بالنسبة إلى ذينك الأمرين فنزر قليل ، فأدخل اللام عليهما وجعلا مكتنفين لما بينهما تنبيهاً على أنه أيضاً مما يصلح للتعليل ولكن قاصراً عنهما ، وأما الاختصاص المستفاد من قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فلأنها من بين ما يقصد للركوب ويعد للأكل فلا ينتقض بالخيل على مذهب من أباح لحمها ولا بالبقر ، وقال صاحب الفرائد : إنما قيل ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ ولم يقل : لتأكلوا منها ولتصلوا إلى المنافع لأنهم في الحال آكلون وآخذون المنافع وأما الركوب وبلوغ الحاجة فأمران منتظران فجيء فيهما بما يدل على الاستقبال .

وتعقب بأن الكل مستقبل بالنسبة إلى زمن الخلق .

وقال القاضي : تغيير النظم في الأكل لأنه في حيز الضرورة ، وقيل في توجيهه : يعني أن مدخول الغرض لا يلزم أن يترتب على الفعل ، فالتغيير إلى صورة الجملة الحالية مع الإتيان بصيغة الاستمرار للتنبيه على امتيازه عن الركوب في كونه من ضروريات الإنسان .

ويطرد هذا الوجه في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ لأن المراد منفعة الشرب واللبس وهذا مما يلحق بالضروريات وهو لا يضر نعم فيه دغدغة لا تخفى .

(153/677)

وقال الزمخشري : إن الركوب وبلوغ الحاجة يصح أن يكونا غرض الحكيم جل شأنه لما فيهما من المنافع الدينية كإقامة دين وطلب علم واجب أو مندوب فلذا جيء فيهما باللام بخلاف الأكل وإصابة المنافع فإنهما من جنس المباحات التي لا تكون غرض الحكيم .

وهو مبني على مذهبه من الربط بين الأمر والإرادة ولا يصح أيضاً لأن المباحات التي هي نعمة تصح أن تكون غرض الحكيم جل جلاله عندهم ، ويا ليت شعري ماذا يقول في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ [يونس : 67] نعم لو ذكر أنه لاشتماله على الغرض الديني كان أنسب بدخول اللام لكان وجهاً إن تم .

وقيل : تغيير النظم الجليل في الأكل لمراعاة الفواصل كما أن تقديم الجار والمجرور لذلك .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ فكالتابع للأكل فأجرى مجراه وهو كما ترى ، وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ توطئة لقوله سبحانه : ﴿ وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ ﴾ ليجمع بين سفائن البر وسفائن البحر فكأنه قيل : وعليها في البر وعلى الفلك في البحر تحملون فلا

تكرار .

وفي إرشاد العقل السليم لعل المراد بهذا الحمل حمل النساء والولدان عليها بالهودج وهو السر في فصله عن الركوب ، وتقديم الجار قيل : لمراعاة الفواصل كتقديمه قبل .

وقيل التقديم هنا وفيما تقدم للاهتمام ؛ وقيل : ﴿ عَلَى الفلك ﴾ دون في الفلك كما في قوله تعالى : ﴿ احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ [هود : 40] لأن معنى الظرفية والاستعلاء موجود فيها فيصح كل من العبارتين ، والمرجح لعلى هنا المشاكلة .

(154/677)

وذهب غير واحد إلى أن المراد بالأنعام الأزواج الثمانية فمعنى الركوب والأكل منها تعلقهما بالكل لكن لا على أن كلاً منهما مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن بعضها يتعلق به الأكل فقط كالغنم وبعضها يتعلق به كلاهما كالإبل ومنهم من عد البقر أيضاً وركوبه معتاد عند بعض أهل الأخبية ، وأدرج بعضهم الخيل والبغال وسائر ما ينتفع به من البهائم في الأنعام وهو ضعيف .

ورجح القول بأن المراد الأزواج الثمانية على القول المحكي عن الزجاج من أن المراد الإبل خاصة بأن المقام مقام امتنان وهو مقتض للتعميم ، والظاهر ذاك ، وكون المقام مقام امتنان

غير مسلم بل هو مقام استدلال كقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية : 17] كما يشعر به السياق ، ولا يأباه ذكر المنافع فإنه استطرادي .

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ ﴾ أي دلائله الدالة على كمال شؤونه جل جلاله ﴿ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ ﴾ أي فأي آية من تلك الآيات الباهرة ﴿ تُنكِرُونَ ﴾ فإن كلاً منها من الظهور بحيث لا يكاد يجترىء على إنكارها من له عقل في الجملة ، فأي للاستفهام التوبيخي وهي منصوبة بتنكرون ، وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتهويل إنكارها وتنكير أي في مثل ما ذكر هو الشائع المستفيض والتأنيث قليل ومنه قوله

: بأي كتاب أم بأية سنة . . .

ترى حبهم عاراً علي وتحسب

قال الزمخشري : لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهي في أي أغرب لإبهامه لأنه اسم استفهام عما هو مبهم مجهول عند السائل والتفرقة مخالفة لما ذكر لأنها تقتضي التمييز بين ما هو مؤنث ومذكر فيكون معلوماً له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 24 صـ ﴾

(155/677)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾

ذكرنا عند قوله تعالى : ﴿ ما يجادل في ءايات الله إلا الذين كفروا ﴾ في أول هذه السورة [4] أن من صور مجادلتهم في الآيات إظهارهم عدم الاقتناع بمعجزة القرآن فكانوا يقترحون آيات كما يريدون لقصدهم إفحام الرسول صلى الله عليه وسلم فلما انقضى تفصيل الإبطال لضلالهم بالأدلة البَيِّنَة والتذكير بالنعمة والإنذارِ بالترهيب والترغيب وضربِ الأمثال بأحوال الأمم المكذّبة ثم بوعد الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالنصر وتحقيق الوعد ، أعقب ذلك بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ما كان شأنُه إلا شأنَ الرُّسُل من قبله أن لا يأتوا بالآيات من تلقاءِ أنفسهم ولا استجابةً لرغائب معانديهم ولكنها الآيات عند الله يُظهر ما شاء منها بمقتضى إرادته الجارية على وفق علمه وحكمته ، وفي ذلك تعريض بالرد على المجادلين في آيات الله ، وتنبيه لهم على خطأ ظنهم أن الرُّسل تنتصب لمناقشة المعاندين .

فالمقصود الأهمّ من هذه الآية هو قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ وأما قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ ﴾ الخ فهو كمقدمة للمقصود لتأكيد العموم من قوله : ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ ، وهو مع ذلك يفيد بتقديمه معنى مستقلاً من رد مجادلتهم فإنهم كانوا يقولون : ﴿ ما أنزل اللَّه على بشر من شيء ﴾ [

الأنعام : 91] ويقولون : ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ [الأنعام : 8] فدُمغت مزاعمهم بما هو معلوم بالتواتر من تكرر بعثة الرسل في العصور والأمم الكثيرة .

(156/677)

وقد بعث الله رسلاً وأنبياء لا يعلم عددهم إلا الله تعالى لأن منهم من أعلم الله بهم نبيه صلى الله عليه وسلم ومنهم من لم يعلمه بهم إذ لا كمال في الإِعلام بمن لم يعلمه بهم ، والذين أعلمه بهم منهم من قصّهُ في القرآن ، ومنهم من أعلمه بهم بوحي غير القرآن فورد ذكر بعضهم في الآثار الصحيحة بتعيين أو بدون تعيين ، ففي الحديث : " أن الله بعث نبيئاً اسمه عَبُّود عبداً أسود " وفي الحديث ذكر : حَنظلة بن صفوان نَبيُ أهل الرس ، وذكرُ خالد بن سِنان نبي عَبس ، وفي الحديث : " أن نبيئاً لسعَتْه نملة فأحرق قريتها فعوتِبَ في ذلك " ولا يكاد الناس يحصون عددهم لتباعد أزمانهم وتكاثر أممهم وتقاصِي أقطارهم مما لا تحيط به علوم الناس ولا تستطيع إحصاءه أقلام المؤرخين وأخبار القصاصين وقد حصل من العلم ببعضهم وبعض أممهم ما فيه كفاية لتحصيل العبرة في الخير والشر ، والترغيب والترهيب .

وقد جاء في القرآن تسمية خمسةَ عشر رسولاً وهم : نوح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وهُود وصالح وشعيب وموسى وهارون وعيسى ويونس

ومحمد صلى الله عليه وسلم واثنا عشر نبيئاً وهم : داود وسليمان وأيوب وزكرياء ويحيى وإلياس واليسع وإدريس وآدم وذو الكِفل وذو القرنين ولقمان ونبيئة وهي مريم .

وورد بالإِجمال دون تسمية صاحبُ موسى المسمى في السنة خضراء ونبيُ بني إسرائيل وهو صمويل وتُبَّعٌ .

وليس المسلمون مطالبين بأن يعلموا غير محمد صلى الله عليه وسلم ولكن الأنبياء الذين ذكروا في القرآن بصريح وصف النبوءة يجب الإِيمان بنبوءتهم لمن قرأ الآيات التي ذكروا فيها وعدتهم خمسة وعشرون بين رسول ونبيء ، وقد اشتمل قوله تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ إلى قوله : ﴿ ولوطاً ﴾ [الأنعام : 83 86] على أسماء ثمانية عشر منهم وذكر أسماء سبعة آخرين في آيات أخرى وقد جمعها من قال:

حَتْم على كل ذي التكليف معرفة . . .

بأنبياء على التفصيل قد علموا

(157/677)

في تلك حجتنا منهم ثمانية . . .

من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا . . .

ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

واعلم أن في كون يوسف رسولاً ترددا بينتُه عند قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ في هذه السورة [34] ، وأن في نبوءة الخضر ولقمان وذي القرنين ومريم ترددا .

واخترتُ إثبات نبوءتهم لأن الله ذكر في بَعْضهم أنه خاطبهم ، وذكر في بعضهم أنه أوتى الحِكمة وقد اشتهرتْ في النبوءة ، وفي بعضهم أنه كلمتْه الملائكة .

ولا يجب الإِيمان إلا بوقوع الرسالة والنبوءة على الإِجمال .

ولا يجب على الأمة الإِيمان بنبوءة رسالة معين إلا محمداً صلى الله عليه وسلم أو من بلغ العلمُ بنبوءته بين المسلمين مبلغ اليقين لتواتره مثل موسى وعيسى وإبراهيم ونوح .

ولكن من اطلع على ذكر نبوءة نبيء بوصفه ذلك في القرآن صريحاً وجب عليه الإِيمان بما علمه .

وما ثبت بأخبار الآحاد لا يجب الإِيمان به لأن الاعتقادات لا تجبُ بالظن ولكن ذلك تعْليم لا وجوبُ اعتقاد .

وتنكير ﴿ رسلاً ﴾ مفيد للتعظيم والتكثير ، أي أرسلنا رسلاً عددهم كثير وشأنهم عظيم .

وعطف ﴿ ومَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ الخ بالواو دون الفاء يفيد استقلال هذه الجملة بنفسها لما فيها من معنى عظيم حقيق بأن لا يكون تابعاً لغيره ، ويكتفي في الدلالة على ارتباط الجملتين بموقع إحداهما من الأخرى .

والآية : المعجزة ، وإذن الله : هو أمر التكوين الذي يخلق الله به خارق العادة ليجعله علامة على صدق الرسول .

ومعنى إتيان الرسول بآية : هو تحديه قومه بأن الله سيؤيده بآية يعينّها مثل قول صالح عليه السلام : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ [الأعراف : 73] وقول موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ أَوَلَو جئتك بشيء مبين ﴾ [الشعراء : 30] الآية .

(158/677)

وقول عيسى عليه السلام : ﴿ إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيها فيكون طائراً بإذن اللَّه ﴾ [آل عمران : 49] وقول محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ [البقرة : 23] .

فالباء في ﴿ بآية باء التعدية لفعل أَنْ يَأْتِيَ ﴾ وأما الباء في ﴿ بإذن الله ﴾ فهي باء السببية دخلت على مستثنىً من أسباب محذوفة في الاستثناء المفرغ ، أي ما كان له أن

يأتي بآية بسبب من الأسباب إلا بسبب إذن الله تعالى .

وهذا إبطال لما يتوركون به من المقترحات والتعلات .

وفُرِع عليه قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالحَقِّ ﴾ أي فإذا جاء أمر الله بإظهار الرسول آية ظهر صدق الرسول وكان ذلك قضاء من الله تعالى لرسوله بالحق على مكذبيه ، فإذن الله هو أمره التكويني بخلق آية وظهورها .

وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ ﴾ الأمر : القضاء والتقدير ، كقوله تعالى : ﴿ أتى أمر اللَّه فلا تستعجلوه ﴾ [النحل : 1] وقوله : ﴿ أو أمر من عنده ﴾ [المائدة : 52] وهو الحدث القاهر للناس كما في قول عمر لما قال له أبو قَتَادة يومَ حُنين "ما شأن الناس" حين انهزموا وفَرّوا قال عمر : "أَمرُ الله" .

(159/677)

وفي العدول عن : إذن الله ، إلى ﴿ أَمْرُ اللهِ ﴾ تعريض بأن ما سيظهره الله من الإِذن لمحمد صلى الله عليه وسلم هي آيات عقاب لمعانديه ، فمنها : آية الجوع سبع سنين حتى أكلوا الميتة ، وآيةُ السيففِ يوم بدر إذْ استأصل صناديدَ المكذبين من أهل مكة ، وآية السيففِ يوم حُنين إذ استأصل صناديدَ أهل الطائف ، وآية الأحزاب التي قال الله عنها : ﴿ يا أيها

الذين آمنوا اذكروا نعمة اللَّه عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ﴾ [الأحزاب : 9] ثم قال : ﴿ وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى اللَّه المؤمنين القتال وكان اللَّه قوياً عزيزاً وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ [الأحزاب : 25 27] .

وفي إيثار قُضِيَ بالحَق ﴾ بالذكر دون غيره من نحو : ظهر الحق ، أو تبين الصدق ، ترشيح لما في قوله : ﴿ أَمْرُ الله ﴾ من التعريض بأنه أمر انتصاف من المكذبين .

ولذلك عطف عليه ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي خسر الذين جَادلوا بالباطل ليُدحضوا به الحق .

والخسران : مستعار لحصول الضرّ لمن أراد النفع ، كخسارة التاجر الذي أرادَ الربح فذهب رأس ماله ، وقد تقدم معناه غير مرة ، منها قوله تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ في أوائل سورة [البقرة : 16] .

و ﴿ هنالك ﴾ أصله اسم إشارة إلى المكان ، واستعير هنا للإِشارة إلى الزمان المعبر عنه بـ (إذا) في قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ الله ﴾ .

وفي هذه الاستعارة نكتة بديعية وهي الإِيماء إلى أن المبطلين من قريش ستأتيهم الآية في مكان من الأرض وهو مكان بَدر وغيره من مواقع إعمال السيف فيهم فكانت آيات محمد صلى الله عليه وسلم حجة على معانديه أقوى من الآيات السماوية نحو الصواعق أو الريح ، وعن الآياتِ الأرضية نحو الغَرق والخسف لأنها كانت مع مشاركتهم ومداخلتهم حتى يكون انغلابهم أقطع لحجتهم وأخزى لهم نظير آية عَصَا موسى مع عِصيّ السحرة .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79)

انتقال من الامتنان على الناس بما سخر لأجْلهم من نظام العوالم العليا والسفلى ، وبما منحهم من الإِيجاد وتطوره وما في ذلك من الألطاف بهم وما أدمج فيه من الاستدلال على انفراده تعالى بالتصرف فكيف ينصرف عن عبادته الذين أشركوا به آلهة أخرى ، إلى الامتنان بما سخر لهم من الإِبل لمنافعهم الجمّة خاصّة وعامّة ، فالجملة استئناف سادس .

والقول في افتتاحها كالقول في افتتاح نظائرها السابقة باسم الجلالة أو بضميره .

والأنعام : الإِبل والغنم والمعز والبقر .

والمراد هنا : الإِبلُ خاصة لقوله : ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيهَا حَاجَةً ﴾ وقوله : ﴿ وَعَلَيْهَا وعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ وكانت الإِبل غالب مكاسبهم .

والجَعْل : الوضع والتمكين والتهيئة ، فيحمل في كل مقام على ما يناسبه وفائدة الامتنان

تقريب نفوسهم من التوحيد لأن شأن أهل المروءة الاستحياء من المنعم .

وأدمج في الامتنان استدلال على دقيق الصنع وبليغ الحكمة كما دل عليه قوله : ﴿ ويُرِيكُم ءاياته ﴾ [غافر : 81] أي في ذلك كله .

واللام في ﴿ لكم ﴾ لام التعليل ، أي لأجلكم وهو امتنان مُجمل يشمل بالتأمل كل ما في الإبِل لهم من منافع وهم يعلمونها إذا تذكّروها وعدُّوها .

ثم فصّل ذلك الإجمال بعضَ التفصيل بذكر المهمّ من النعم التي في الإبِل بقوله : ﴿ لِتَرْكَبُوا منهَا ﴾ إلى ﴿ تحملون .

(161/677)

﴿ فاللام في ﴿ لِتَرْكَبُوا منهَا ﴾ لام كي وهي متعلقة بـ ﴿ جعل ﴾ أي لركوبكم .

و(مِنْ) في الموضعين هنا للتبعيض وهي صفة لمحذوف يدل عليه (من) أي بعضاً منها ، وهو ما أعد للأسفار من الرواحل .

ويتعلق حرف (مِن) بـ ﴿ تركبوا ﴾ ، وتعلُّقُ (مِن) التبعيضية بالفعل تعلق ضعيف وهو الذي دعا التفتازاني إلى القول بأن (مِن) في مثله اسمٌ بمعنى بعضٍ ، وتقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا باللَّه ﴾ في سورة [البقرة : 8] .

وأريد بالركوب هنا الركوب للراحة من تَعب الرِّجلين في الحاجة القريبة بقرينة مقابلته بقوله : ﴿ وَلِتَبلُغُوا عَليهَا حَاجَةً في صُدُورِكُم ﴾ .

وجملة ﴿ وَمِنْها تَأْكُلُونَ ﴾ في موضع الحال من ﴿ الأنعام ، ﴾ أو عطف على المعنى من جملةِ ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا ﴾ لأنها في قوة أن يقال : تركبونَ منها ، على وجه الاستئناف لبيان الإجمال الذي في ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأنعام ﴾ ، وعلى الاعتبارين فهي في حيّز ما دخلت عليه لاَم كي فمعناها : ولتأكلوا منها .

وجملة ﴿ ولكم فيها منافع ﴾ عطف على جملة ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، والمعنى أيضاً على اعتبار التعليل كأنه قيل : ولتجتنوا منافعها المجعولة لكم وإنما غيّر أسلوب التعليل تفنناً في الكلام وتنشيطاً للسامع لئلا يتكرر حرف التعليل تكراراتٍ كثيرة .

والمنافع : جمع منفعة ، وهي مَفْعلة من النفع ، وهي : الشيء الذي ينتفع به ، أي يستصلح به .

فالمنافع في هذه الآية أريد بها ما قابل منافع أكل لحومها في قوله : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ مثل الانتفاع بأوبارها وألبانها وأثمانها وأعواضِها في الديَات والمهور ، وكذلك الانتفاع بجلودها باتخاذها قباباً وغيرَها وبالجلوس عليها ، وكذلك الانتفاع بجَمال مرآها في العيون في المسرح والمراح ، والمنافع شاملة للركوب الذي في قوله : ﴿ لِتَركبوا مِنهَا ﴾ ، فذكر المنافع بعد ﴿ لِتَركبوا منها ﴾ تعميم بعد تخصيص كقوله تعالى:

﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ [طه : 18] بعد قوله : ﴿ هي عصاي أتوكؤ عليها ﴾ [طه : 18] ، فذُكر هنا الشائع المطروق عندهم ثم ذكر مثيله في الشيوع وهو الأكل منها ، ثم عاد إلى عموم المنافع ، ثم خص من المنافع الأسفار ، فإن اشتداد الحاجة إلى الأنعام فيها تجعل الانتفاع بركوبها للسفر في محل الاهتمام .

ولما كانت المنافع ليست منحصرة في أجزاء الأنعام جيء في متعلقها بحرف (في) دون (مِن) لأن (في) للظرفية المجازية بقرينة السياق فتشمل كل ما يُعدّ كالشيء المحوي في الأنعام ، كقول سَبْرَةَ بن عَمْرو الفقعسي من شعراء الحماسة يذكر ما أخذه من الإبل في ديةِ قريبٍ :

نحابي بها أكفاءَنا ونُهينُها

وَنَشْرَبَ في أثمانها ونُقامر . . .

وأنبأ فعل ﴿ لِتَبْلغوا ﴾ أن الحاجة التي في الصدور حاجة في مكان بعيد يطلبها صاحبها .

والحاجة : النية والعزيمة .

والصدور أطلق على العقول اتباعاً للمتعارف الشائع كما يطلق القلوب على العقول .

وأعقب الامتنان بالأنعام بالامتنان بالفلك لمناسبة قوله : ﴿ وِلتَبلُغُوا عَلَيها حَاجَةً في صُدُورِكُم ﴾ فقال : ﴿ وَعَلَيهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحمَلُونَ ﴾ ، وهو انتقال من الامتنان بجعل الأنعام ، إلى الامتنان بنعمة الركوب في الفلك في البحار والأنهار فالمقصود هو قوله : ﴿ وعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وعليها ﴾ فهو تمهيد له وهو اعتراض بالواو الاعتراضية تكريراً للمنّة ، على أنه قد يشمل حمل الأثقال على الإبل كقوله تعالى : ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ [النحل : 7] فيكون إسناد الحمل إلى ضمير الناس تغليباً .

(163/677)

ووجه الامتنان بالفلك أنه امتنان بما ركَّب الله في الإنسان من التدبير والذكاء الذي توصل به إلى المخترعات النافعة بحسب مختلف العصور والأجيال ، كما تقدم في سورة [البقرة : 164] عند قوله تعالى : ﴿ والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ الآيات ، وبيّنا هنالك أن العرب كانوا يركبون البحر الأحمر في التجارة ويركبون الأنهار أيضاً قال النابغة يصف الفرات :

يظل من خوفه الملاح معتصماً

بالخيزرانة بعد الأين والنجَد . . .

والجمع بين السفر بالإِبل والسفر بالفلك جمع لطيف ، فإن الإِبل سفائن البر ، وقديماً سموها بذلك ، قاله الزمخشري في تفسير سورة المؤمنين .

وإنما قال : ﴿ وَعلَى الفُلْكِ ﴾ ولم يقل : وفي الفلك ، كما قال : ﴿ فإذا ركبوا في الفلك ﴾ [العنكبوت : 65] لمزاوجة والمشاكلة مع ﴿ وعليها ، ﴾ وإنما أعيد حرف (على) في الفلك لأنها هي المقصودة بالذكر وكان ذكر ﴿ وعليها ﴾ كالتوطئة لها فجاءت على مثالها .

وتقديم المجرورات في قوله : ﴿ وَمِنْهَا تأكُلُون ﴾ وقوله : ﴿ وَعَلَيها وعَلَى الفُلْكِ ﴾ لرعاية على الفاصلة مع الاهتمام بما هو المقصود في السياق .

وتقديم ﴿ لكم ﴾ على ﴿ الأنعام ﴾ مع أن المفعول أشد اتصالاً بفعله من المجرور لقصد الاهتمام بالمنعَم عليهم .

وأما تقديم المجرورين في قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ فللاهتمام بالمنعم عليهم والمنعم بها لأنه الغرض الأول من قوله : ﴿ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأنعام ﴾ .

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81)

عطف على جملة ﴿ لَكُمُ الأنعام ﴾ [غافر : 79] أي الله الذي يريكم آياته .

وهذا انتقال من متعدد الامتنان بما تقدم من قوله : ﴿ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ [غافر : 61] ، ﴿ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً ﴾ [غافر : 64] ، ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ﴾ [غافر : 67] ، ﴿ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنعام ﴾ [غافر : 79] ، فإن تلك ذكرت في معرض الامتنان تذكيراً بالشكر ، فنبّه هنا على أن في تلك المنن آيات دالة على ما يجب للَّه من الوحدانية والقدرة والحكمة .

ولذلك كان قوله : ويُرِيكُمْ ءاياته ﴾ مفيداً مُفاد التذييلِ لما في قوله : ﴿ آياته ﴾ من العموم لأن الجمع المعرف بالإِضافة من صيغ العموم ، أي يريكم آياته في النعم المذكورات وغيرها من كل ما يدلّ على وجوب توحيده وتصديق رسله ونبذِ المكابرة فيما يأتونهم به من آيات صدقهم .

وقد جيء في جانب إراءة الآيات بالفعل المضارع لدلالته على التجدد لأن الإِنسان كلما انتفع بشيء من النعم علم ما في ذلك من دلالة على وحدانية خالقها وقدرته وحكمته .

والإِراءة هنا بَصرية ، عُبر بها عن العلم بصفات الله إذ كان طريق ذلك العلم هو مشاهدة تلك الأحوال المختلفة فمن تلك المشاهدة ينتقل العقل إلى الاستدلال ، وفيه إشارة إلى أن دلالة وجود الخالق ووحدانيته وقدرته برهانية تنتهي إلى اليقين والضرورة .

وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لزيادة التنويه بها ، والإرشاد إلى إجادة النظر العقلي في

دلائلها ، وأما كونُها جائية من لدن الله وكونُ إضافتها من الإِضافة إلى ما هو في معنى الفاعل ، فذلك أمر مستفاد من إسناد فعل ﴿ يريكم ﴾ إلى ضميره تعالى .

وفرع على إراءة الآيات استفهام إنكاري عليهم من أجل إنكارهم ما دلت عليه تلك الآيات .

(165/677)

و (أيّ) اسم استفهام يطلب به تمييز شيء عن مشاركه فيما يضاف إليه (أيُّ) ، وهو هنا مستعمل في إنكار أن يكون شيء من آيات الله يمكن أن ينكر دون غيره من الآيات فيفيد أن جميع الآيات صالح للدلالة على وحدانية الله وقدرته لا مساغ لادّعاء خفائه وأنهم لا عذر لهم في عدم الاستفادة من إحدى الآيات .

والأكثر في استعمال (أي) إذا أضيفت إلى اسم مؤنثِ اللفظ أن لا تلحقها هاء التأنيث اكتفاء بتأنيث ما تضاف إليه لأن الغالب في الأسماء التي ليست بصفات أن لا يُفْرَق بين مذكرها ومؤنثها بالهاء نحو حمار فلا يقال للمؤنث حمارة .

و (أيّ) اسم ويزيد بما فيه من الإِبهام فلا يفسره إلا المضاف إليه فلذلك قال هنا ﴿ فَأَيَّ ءاياتت الله ﴾ دون : فأيّة آيات الله ، لأن إلحاق علامة التأنيث بـ (أي) في مثل هذا قليل ،

ومن غير الغالب تأنيث (أي) في قول الكميت :

بأي كتاب أم بأيَّةِ سُنة

تَرى حُبهم عاراً عليَّ وتَحسبُ . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(166/677)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والسبعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/678)

الجزء الثامن والسبعون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 82 ﴾ من سورة غافر

وحتى الآية ﴿ 85 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/678)

قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وصل الأمر إلى حد من الوضوح لا يخفى على أحد ، تسبب عنه لفت الخطاب عنهم دلالة على الغضب الموجب للعقاب المقتضي للرهيب فقال : (أفلم يسيروا) أي هؤلاء الذين هم أضل من الأنعام (في الأرض) أيّ أرض كانت ، سير اعتبار (فينظروا) نظر ادكار فيما سلكوه من سلبها ونواحيها ، ونبه زيادة العظمة فيما حثهم على النظر فيه بسوقه مساق الاستفهام تنبيهاً على خروجه عن أمثاله ، ومباينته لأشكاله ، بقوله : (كيف كان عاقبة) أي آخر أمر (الذين) ولما كانوا لا يقدرون على استغراق نظر جميع الأرض وآثار جميع أهلها ، نبه بالجار على ما تيسر فقال تعالى : (من قبلهم) أي مع قرب الزمان والمكان ، لوما كانوا معتمدين في مغالبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومجادلته بالباطل في الآيات الظاهرة على كثرتهم وقوتهم وقلة أصحابه مع ضعفهم ، وكان قد تقدم الإنكار عليهم في المجادلة لإدحاض الحق ، وعظيم النكير عليهم بعدم النظر عن المسير في الأرض بأعين الاعتبار في الآثار ، من المساكن والديار ، لمن مضى من الأشرار ، وأثبت لهم الأشدية وأنها لم تغن عنهم ، وذكر فرعون وما كان له من المكنة بالمال والرجال ، وأنه أخذه أخذة صارت مثلاً من الأمثال ، وكان قد بقي مما قد يتعلل به في المبالغة الكثرة ، ذكرها مضمومة إلى الشدة تأكيداً لمضمون الخبر في أنه لا أمر لأحد مع أمره ، فقال مستانفاً جواباً

لمن يقول : ما كانت عاقبتهم ؟ فقال : (كانوا أكثر منهم) أي عدداً أضعافاً مضاعفة ولا سيما قوم نوح عليه الصلاة والسلام : (وأرشد قوة (في الأبدان كقوم هود عليه الصلاة والسلام الذين قالزا كما يأتي في التي بعدها

77 ( ) من أشد منا قوة ( ) 7

[فصلت : 15] (وآثاراً في الأرض) بنحت البيوت في الجبال ، بقوة أبدانهم وعظم عقولهم واحتيالهم وما تبوا من المصانع لنجاتهم حين جاءهم أمرنا بل كانوا كأمس الذاهب .

(5/678)

ولما أخبر عن كثرتهم وقوتهم وآثارهم الدالة على مكنتهم ، سبب عنه شرح حالهم ، الذي أدى إلى هلاكهم واغتيالهم ، فقال مبيناً لما أغنى : (فلما جاءتهم رسلهم) أي الذين أرسلناهم إليهم وهم منهم يعرفون صدقهم وأمانتهم (بالبينات) أي الدالة على صدقهم لا محالة (فرحوا) أي القوم الموصوفون (بما عندهم من العلم) الذي أثروا به تلك الآثار في الأرض من إنباط المياه وجر الأثقال وهندسة الأبنية ومعرفة الأقاليم وإرصاد الكواكب لأجل معرفة أحوال المعاش ، وغير ذلك من ظواهر العلوم المؤدية إلى التفاخر والتعاظم

والتكاثر وقوفاً مع الوهم ، وتقييداً بالحاضر من الرسم من علم ظاهر الحياة الدنيا وقناعة بالفاني كما قال التي قبلها

77 (ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم) 7

(6/678)

[الزمر : 49] وكما قال قارون لما قيل له (وأحسن كما أحسن الله إليك) : (قال) : (إنما أوتيته على علم عندي (وفرحهم به لأداهم إلى التوسع في الدنيا والتلذذ بما واستهزوا بما اتهم به الرسل من علم الباطن الداعي إلى الإعراض عن الفاني والإقبال على الباقي والخوف مما بعد الموت من الأمور الغائبة والأهوال الآتية والكوائن العظيمة المستورة بحجاب هذه الحياة الدنيا الواهي ، على ما فيها من الذوات والمعاني والأحوال والأوجال والدواهي ، والذي حركهم إلى الفرح بما عندهم هو ما هم فيه من الزهرة مع ما يرون من تقلل الرسل وأتباعهم من الدنيا ، وإسراع المصائب إليهم ، وكثرة ما يعانونه من الهموم والأنكاد ، ويكابدونه من الأنداد والأضداد ، فاشتد استهزاؤهم بهم وبما أتوا به من بعدّهم ذلك محالاً وباطلاً وضلالاً ، وكانوا لا ينفكون من فعل الفرح الأشر البطر بالتضاحك والتمايل كما قال الله تعالى (فلما جاءهم إذا هم منها يضحكون) ونصبوا

للرسل واتباعهم المكايد ، وأحاطوا بهم المكر والغوايل ، وهموا بأخذهم فأنجينا رسلنا ومن آمن بهم منهم وأتيناهم بما أزال فرحهم ، وأطال غمهم وترحهم (وحاق) أي أحاط على وجه الشدة (بهم بما كانوا) أي عادة مستمرة .

(7/678)

ولما كان استهزائهم بالحق عظيماً جداً ، عد استهزائهم بغيرة عدماً ، وأشار إلى ذلك بتقديم الجال فقال : (به يستهزؤون) من الوعيد الذي كانوا قاطعين ببطلانه فعلم قطعاً أنه إنما يفرح من العلم بما تضمن النجاة والسعادة الأبدية على أن سوق الكلام هكذا مليء بالاستهزاء بهم والتهكم عليهم لأنهم نصبوا العالم المطيق المنطيق الذي إذا غلب خصمه فأسكته وألقمه الحجر فأخرسه وأفحمه بواضح الحجة وقويم المحجة ظهر عليه السرور وغلبه الفرح فإن عاند خصمه ووقف مع وهمه استهزأ به وتضاحك منه – هذا مع ما عنده من عمايات الجهل التي لا يكفرون على إنكارها بدليل اعتراف هؤلاء الذين أرسل إليهم هذا النبي الكريم أن أهل الكتاب أعلم منهم ، فكانوا يوجهون ركابهم إلى اليهود يسألونهم عن أمرهم وأمره على أنه قد أتاهم بما يعلي به قدرهم على أهل الكتاب ، ويجعلهم المخصوصين بالسيادة على مر الأحقاب ، وهم يأبون بمجادلتهم بالباطل إلا سفولاً

وإعراضاً عن الصواب ، وعدولاً ونكوصاً ونكولاً ، والآية مرشدة إلى أنه لا يتعلم إلا من ظن من نفسه القصور ، ولهذا كل أقبل شيء للعلم الصغار ، والآية من الاحتباك : إثبات الفرح أولاً دليل عل حذف ضده ثانياً ، وإثبات الاستهزاء ثانياً دليل على حذف مثله أولاً .

(8/678)

ولما كانت هذه السورة في بيان العزة التي هي نتيجة كمال العلم وشمول القدرة ، وكان عظم العزة بحسب عظمة المأخوذ بها المعاند لها ، كرر ذكر المجادلة في هذه السورة تكريراً أذن بذلك فقال في أولها (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا) ثم دل على أنهم مأخوذون من غير أن يغني عنهم جدالهم الذي أنتجه ضلالهم ، وعلى توابع ذلك ترغيباً وترهيباً إلى أن قال (هو الذي يريكم آياته) وذكر بعض ما اشتد إلفهم له حتى سقطت غرابته عندهم ، فنبههم على ما فيه ليكفهم عن الجدال ويغتنوا به على اقتراح غيره ، ثم ذكر قصة موسى عليه الصلاة والسلام مذكراً لهم ما حصل من تعذيب المكذبين المجادلين بعد وقوع ما اقترحوا من الآيات بقولهم (فائت بآية إن كنت من الصادقين) ومضى يذكر وينذر ويحذر في تلك الأساليب التي هي أمضى من السيوف ، وأجلى من الشموس في الصحو دون

الكسوف ، حتى قال (الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا) ثم شرع في إتمام قصة موسى عليه السلام إلى أن قال (إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم) لشدة الإلف وضوحها جدال المجادل ، وضلال المماحك المماحل ، لولا أنه قد أخرجتها شدة الألف لها من حيز الغرابة من خلق الخافقين وتكوير الملوين ، وبسط الأرض ورفع السماء وتصوير الإنسان وما فيه من عظيم الشأن ، فكشفت ستورها ، وبين دلالتها وظهورها ، ولفت الكلام إلى تهديد المجادلين بقوله منكراً عليهم (ألم تر إلى الذين يجادلون) خصمه بما هو من حججه كالشمس نوراً وطلعة وظهوراً أنكر بالاستفهام الذي هو أمر من وقع السهام .

(9/678)

فلما ثبت بذلك عنادهم وغلظتهم وقوتهم في لددهم واشتدادهم ، بين جهلهم بذلهم عند ما أحكموا عقده من شرهم ، فقال مبيناً لما أجمل من الحيق مسبباً عنه لافتاً القول إلى مظهر العظمة ترهيباً : (فلما رأوا) أي عاينوا (بأسنا) أي عذابنا الشديد على ما له مجامع العظمة ، ومعاقد العز ونفوذ الكلمة ، كما ظهر لنا في هذا البأس من غير إشكال ولا إلباس ، وأكدوا ذلك نافين لما كانوا فيه من الشرك : بقولهم (وحده) ودل على إنحلال

عراهم ووهي قواهم بزيادة التصريح في قولهم : (وكفرنا بما كنا) أي جبلة وطبعاً (به مشركين) لأنا علمنا أنه لا يغني من دون الله شيء .

(10/678)

ولما كان الكفر بالغيب سببا لعدم قبول الإيمان عند الشهادة قال : (فلم يك) أي لم يصح ولم يقبل بوجه من الوجوه لأنهم لا كون يساعد على ذلك ولا بأدنى درجات الكون ، فأشار بكان إلى أن هذا أمر مستقر وشأن مستمر لكل أمة ليس خاصا بالمحدث عنهم ومن مضى قبلهم وبحذف لام الكلمة إلى أنهم أمعنوا في الترقق بتقرير الإيمان وتكريره وتسريحه ، والوقت ضيق والمجال حصير ، وقد أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ، فلم يكونوا لفوات الوقت موفين بما طلب منهم (ينفعهم إيمانهم) أي يتجد لهم نفعة بعد ذلك لأنه إيمان إلجاء واضطرار لا إيمان طواعية واختيار (لما رأوا) وأظهر موضع الإضمار زيادة في الترهيب ، فقال : (بأسنا) لأن الإيمان لا يتحقق ولا يتصور إلا مع الغيب ، وأما عند الشهادة فقد كشفت سريرته على أنه قد فاتت حقيقته وصثورته ، فلو ردوا لعادوا ، ولو أتاهم بعد ذلك العذاب لانقادوا ، ولهذا السر قال تعالى صارفا القول إلى الاسم المقتضي لمزج الحكمة بالعظمة : (سنت الله) أي سن الملك الأعظم المحيط علما وقدرة ذلك ف

يكل دهر سنة ، ولذا قال (التي قد خلت في عباده) أن الإيمان بعد كشف الغطاء لا يقبل ، وكل أمة كذبت الرسل أهلكت ، وكل من أجيب إلى الإيمان المقترحة فلم يؤمن عذب ، سنها سنة وأمضاها عزمة ، فلا غير لها ، فربح إذ ذاك المؤمنون (وخسر) أي هلك أو تحقق وتبين أنه خسر . ولما كان المكان لا ينفك عن الزمان ، استعير ظرفه له وليدل على غاية التمكن فقيل : (هنالك) أي في ذلك الوقت العظيم الشأن بما كان فيه وكان (الكافرون) أي العريفون في هذا الوصف فلا انفكاك بينهم وبينه ، وقد التف آخرها بما بين من كمال العزة وتمام القدرة وشمول العلم مما رتب من أسباب الهداية والإضلال ووالإشقاء والإسعاد والنجاة والإهلاك بأولها أي التفاف ، واكتنفت البداية والنهاية بيان ذلك مع ما اشتمل عليه الوسط أيضا منه أعظم اكتناف ، فسبحان من هذا إنزاله

، وتبارك اسمه وجل جلاله ، ولا إله سواه ولا حول ولا قوة إلا بالله ، رب سهل كريم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 542 . 546 ﴾

(11/678)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

اعلم أنه تعالى راعى ترتيبا لطيفاً في آخر هذه السورة ، وذلك أنه ذكر فصلاً في دلائل الإلهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة ، ثم أردفه بفصل التهديد والوعيد وهذا الفصل الذي وقع عليه ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد ، والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكبر العظيم في صدورهم بهذا ، والسبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه ، فمن ترك الانقياد للحق لأجل طلب هذه الأشياء فقد باع الآخرة بالدنيا ، فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة ، لأن الدنيا فانية ذاهبة ، واحتج عليه بقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني لو ساروا في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتمردين ، ليست إلا الهلاك والبوار ، مع أنهم كانوا أكثر عدداً ومالاً وجاهاً من هؤلاء المتأخرين ، فلما لم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة والدولة القاهرة إلا الخيبة والخسار ، والحسرة والبوار ، فكيف يكون حال هؤلاء الفقراء المساكين ، أما بيان أنهم كانوا أكثر من هؤلاء عدداً فإنما يعرف في الأخبار ، وأما أنهم كانوا أشد قوة وآثاراً في الأرض ، فلأنه قد بقيت آثارهم بحصون عظيمة بعدهم ، مثل الأهرام الموجودة بمصر ، ومثل هذه البلاد العظيمة التي بناها الملوك المتقدمون ، ومثل ما حكى الله عنهم من أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ ما في قوله ﴿ فَمَا أغنى عَنْهُمْ ﴾

نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ومحلها النصب ، وما في قوله ﴿ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع يعني أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم .

(12/678)

ثم بيّن تعالى أن أولئك الكفار لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات فرحوا بما عندهم من العلم ، واعلم أن الضمير في قوله ﴿ فَرِحُواْ ﴾ يحتمل أن يكون عائداً إلى الكفار ، وأن يكون عائداً إلى الرسل ، أما إذا قلنا إنه عائد إلى الكفار ، فذلك العلم الذي فرحوا به أي علم كان ؟ وفيه وجوه الأول : أن يكون المراد الأشياء التي كانوا يسمونها بالعلم ، وهي الشبهات التي حكاها الله عنهم في القرآن كقولهم ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر ﴾ [الجاثية : 24] وقولهم ﴿ لَوْ شَاء الله مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا ﴾ [الأنعام : 148] وقولهم ﴿ مَن يُحيِ العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : 78] ، ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 36] وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الأنبياء ، كما قال : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون : 53] ، الثاني : يجوز أن يكون المراد علوم الفلاسفة ، فإنهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علومهم ، وعن سقراط أنه سمع بمجيء بعض الأنبياء فقيل له لو هاجرت فقال نحن قوم مهديون فلا حاجة بنا إلى من

يهدينا الثالث : يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال تعالى :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافلون ﴾ [الروم : 7] ، ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم ﴾ [النجم : 30] فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزؤا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ، ففرحوا به .

(13/678)

أما إذا قلنا الضمير عائد إلى الأنبياء ففيه وجهان الأول : أن يجعل الفرح للرسل ، ومعناه أن الرسل لما رأوا من قومهم جهلاً كاملاً ، وإعراضاً عن الحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم وإعراضهم ، فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه ، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم الثاني : أن يكون المراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به ، كأنه قال استهزؤا بالبينات ، وبما جاؤا به من علم الوحي فرحين ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُواْ ءامَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾

البأس شدة العذاب ومنه قوله تعالى : ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ [الأعراف : 165] فإن قيل أي فرق بين قوله ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُم ﴾ وبين ما لو قيل فلم ينفعهم إيمانهم ؟ قلنا هو مثل كان في نحو قوله ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ [مريم : 35] والمعنى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم ، فإن قيل اذكروا ضابطاً في الوقت الذي لا ينفع الإتيان بالإيمان فيه ، قلنا إنه الوقت الذي يعاين فيه نزول ملائكة الرحمة والعذاب ، لأن في ذلك الوقت يصير المرء ملجأ إلى الإيمان فذلك الإيمان لا ينفع إنما ينفع مع القدرة على خلافه ، حتى يكون المرء مختاراً ، أما إذا عاينوا علامات الآخرة فلا .

ثم قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ والمعنى أن عدم قبول الإيمان حال اليأس سنة الله مطردة في كل الأمم .

ثم قال : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ فقوله ﴿ هُنَالِكَ ﴾ مستعار للزمان أي وخسروا وقت رؤية البأس ، والله الهادي للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 80.79 ﴾

(14/678)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ﴾

ظاهر الآية أنها في الكفار المجادلين في رسالة محمد والكتاب الذي جاء به بدليل قوله : ﴿ الذين كذبوا بالكتاب ﴾ . وهذا قول ابن زيد والجمهور من المفسرين . وقال محمد بن سيرين وغيره ، قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ﴾ هي إشارة إلى أهل الأهواء من الأمة ، وروت هذه الفرقة في نحو هذا حديثاً وقالوا هي في أهل القدر ومن جرى مجراهم ، ويلزم قائلي هذه المقالة أن يجعلوا قوله تعالى : ﴿ الذين كذبوا ﴾ كلاماً مقطوعاً مستأنفاً في الكفار . ﴿ الذين ﴾ ابتداء وخبره : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ ، ويحتمل أن يكون خبر الابتداء محذوفاً والفاء متعلقة به .

وقوله تعالى : ﴿ إذ الأغلال ﴾ يعني يوم القيامة ، والعامل في الظرف ﴿ يعلمون ﴾ وعبر عن ظرف الاستقبال بظرف لا يقال إلا في الماضي ، وذلك لما تيقن وقوع الأمر حسن تأكيده بالإخراج في صيغة المضي ، وهذا كثير في القرآن كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ﴾ [المائدة : 116] قال الحسن بن أبي الحسن : لم تجعل السلاسل في أعناق أهل النار ، لأنهم أعجزوا الرب ، لكن لترسبهم إذا أطفاهم اللهب .

(15/678)

وقرأ جمهور الناس : " والسلاسلُ " عطفاً على ﴿ الأغلال ﴾ . وقرأ ابن عباس وابن مسعود : " والسلاسلَ " بالنصب " يسحَبون " بفتح الحاء وإسناد الفعل إليهم وإيقاع الفعل على " السلاسل " . وقرأت فرقة " والسلاسلِ " بالخفض على تقدير إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل . فعطف على المراد من الكلام لا على ترتيب اللفظ ، إذ ترتيبه فيه قلب ، وهو على حد قول العرب : أدخلت القلنسوة في رأسي . وفي مصحف أبي بن كعب : " وفي السلاسل يسحبون " . و: ﴿ يسحبون ﴾ معناه يجرون ، والسحب الجر . و﴿ الحميم ﴾ : الذائب الشديد الحر من النار ، ومنه يقال للماء السخن : حميم . و: ﴿ يسجرون ﴾ قال مجاهد معناه : توقد النار بهم ، والعرب تقول : سجرت التنور إذا ملأتها . وقال السدي : ﴿ يسجرون ﴾ يحرقون .

ثم أخبر تعالى أنهم يوقفون يوم القيامة على جهة التوبيخ والتقريع ، فيقال لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدون من دون الله ؟ فيقولون : ﴿ ضلوا عنا ﴾ أي تلفوا لنا وغابوا واضمحلوا ، ثم تضطرب أقوالهم ويفزعون إلى الكذب فيقولون : ﴿ بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً ﴾ وهذا من أشد الاختلاط وأبين الفساد في الدهر والنظر فقال الله تعالى لنبيه : ﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ أي كهذه الصفة المذكورة وبهذا الترتيب .

ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75)

المعنى يقال للكفار المعذبين ﴿ ذلكم ﴾ العذاب الذي أنتم فيه ﴿ بما كنتم تفرحون ﴾ في الدنيا بالمعاصي والكفر . و: ﴿ يمرحون ﴾ قال مجاهد معناه : الأشر والبطر . وقال ابن عباس : الفخر والخيلاء .

وقوله تعالى : ﴿ ادخلوا ﴾ معناه : يقال لهم قبل هذه المحاورة في أول الأمر ﴿ ادخلوا ﴾ ، لأن هذه المخاطبة إنام هي بعد دخولهم وفي الوقت الذي فيه الأغلال في أعناقهم . و: ﴿ أبواب جنهم ﴾ هي السبعة المؤدية إلى طبقاتها وأدراكها السبعة . والمثوى : موضع الإقامة .

(16/678)

ثم أنس تعالى نبيه ووعده بقوله : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ﴾ أي في نصرك وإظهار أمرك ، فإن ذلك أمر إما أن ترى بعضه في حياتك فتقر عينك به ، وإما أن تموت قبل ذلك فإلى أمرنا وتعذيبنا يصيرون ويرجعون .

وقرأ الجمهور : "يُرجعون " بضم الياء . وقرأ أبو عبد الرحمن ويعقوب "يَرجعون " بفتح الياء . وقرأ طلحة بن مصرف ويعقوب في رواية الوليد بن حسان : بفتح التاء منقوطة من فوق .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ﴾ الآية رد على العرب الذين قالوا : إن الله لا يبعث بشراً رسولاً واستبعدوا ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ منهم من قصصنا ﴾ قال النقاش : هم أربعة وعشرون .

وقوله تعالى : ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ روي من طريق أنس بن مالك عن النبي عليه السلام أن الله تعالى بعث ثمانية آلاف رسول . وروي عن سلمان عن النبي عليه السلام قال : " بعث الله أربعة آلاف نبي " وروي عن ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما أنه قال : بعث الله رسولاً من الحبشة أسود ، وهو الذي يقص على محمد .

قال القاضي أبو محمد : وهذا إنما ساقه على أن هذا الحبشي مثال لمن لم يقص ، لا أنه هو المقصود وحده ، فإن هذا بعيد .

وقوله تعالى ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ رد على قريش في إنكارهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم وقولهم إنه كاذب على الله تعالى . والإذن يتضمن علماً وتمكيناً . فإذا اقترن به أمر قوي كما هو في إرسال النبي ، ثم قال تعالى : ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ أي إذا أراد الله إرسال رسول وبعثة نبي ، قضى ذلك وأنفذه بالحق ، وخسر كل مبطل وحصل على فساد آخرته ، وتحتمل الآية معنى آخر ، وهو أن يريد ب ﴿ أمر الله ﴾ القيامة ، فتكون الآية توعداً لهم بالآخرة .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79)

هذه آيات عبر وتعديد نعم . و: ﴿ الأنعام ﴾ الأزواج الثمانية . ع و: ﴿ منها ﴾ الأولى للتبعيض ، لأن المركوب ليس كل الأنعام ، بل الإبل خاصة . ﴿ ومنها ﴾ الثانية لبيان الجنس ، لأن الجميع منها يؤكل . وقال الطبري في هذه الآية : إن ﴿ الأنعام ﴾ تعم الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير وغير ذلك ما ينتفع به في البهائم ، ف ﴿ منها ﴾ في الموضعين للتبعيض على هذا ، لكنه قول ضعيف ، وإنما الأنعام ، الأزواج الثمانية التي ذكر الله فقط . ثم ذكر تعالى المنافع ذكراً مجملاً ، لأنها أكثر من أن تحصى .

وقوله تعالى : ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ يريد قطع المهامه الطويلة والمشاق البعيدة . و: ﴿ الفلك ﴾ السفن ، وهو هنا جمع . و: ﴿ تحملون ﴾ يريد : براً وبحراً . وكرر الحمل عليها ، وقد تقدم ذكر ركوبها لأن المعنى مختلف وفي الأمرين تغاير ، وذلك أن الركوب هو المتعارف فيما قرب واستعمل في القرى والمواطن نظير الأكل منها وسائر المنافع بها ، ثم خصص بعد ذلك السفر الأطوال وحوائج الصدور مع البعد والنوى ، وهذا هو الحمل الذي قرنه بشبيهه من أمر السفن . ثم ذكر تعالى آياته عامة جامعة لكل عبرة وموضع نظر ، وهذا غير منحصر لاتساعه ، ولأن في كل شيء له آية تدل على وحدانيته ، ثم

قررهم على جهة التوبيخ بقوله : ﴿ فأي آيات الله تنكرون ﴾ . ثم احتج تعالى على قريش بما يظهر في الأمم السالفة من نقمات الله في الكفرة الذين ﴿ كانوا أكثر ﴾ عدداً ﴿ وأشد قوة ﴾ أبدان وممالك ، وأعظم آثاراً في المباني والأفعال من قريش والعرب ، فلم يغن عنهم كسبهم ولا حالهم شيئاً حين جاءهم عذاب الله وأخذه و﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ نافية . قال الطبري : وقيل هي تقرير وتوقيف .

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83)

(18/678)

الضمير في : ﴿ جاءتهم ﴾ عائد على الأمم المذكورين الذين جعلوا مثلاً وعبرة .

واختلف المفسرون في الضمير في : ﴿ فرحوا ﴾ على من يعود ، فقال مجاهد وغيره : هو عائد على الأمم المذكورين ، أي بما عندهم من العلم في ظنهم ومعتقدهم من أنهم لا يبعثون ولا يحاسبون . قال ابن زيد : واغتروا بعلمهم في الدنيا والمعايش ، وظنوا أنه لا آخرة ففرحوا ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ [الروم : 7] وقالت فرقة : الضمير في ﴿ فرحوا ﴾ عائد على الرسل ، وفي هذا الرسل حذف ، وتقديره :

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ كذبوهم ، ففرح الرسل بما عندهم من العلم بالله والثقة به ، وبأنه سينصرهم . ﴿ وحاق ﴾ معناه : نزل وثبت ، وهي مستعملة في الشر . و﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما كانوا ﴾ هو العذاب الذي كانوا يكذبون به ويستهزئون بأمره ، والضمير في ﴿ بهم ﴾ عائد على الكفار بلا خلاف . ثم حكى حالة بعضهم ممن آمن بعد تلبس العذاب بهم فلم ينفعهم ذلك ، وفي ذكر هذا حض للعرب على المبادرة وتخويف من التأني لئلا يدركهم عذاب لا تنفعهم توبة بعد تلبسه بهم . وأما قصة قوم يونس فرأوا العذاب ولم يكن تلبس بهم ، وقد مر تفسيرها مستقصى في سورة يونس عليه السلام . و: ﴿ سنة الله ﴾ نصب على المصدر . و: ﴿ خلت ﴾ معناه : مضت واستمرت وصارت عادة .

وقوله : ﴿ هنالك ﴾ إشارة إلى أوقات العذاب ، أي ظهر خسرانهم وحضر جزاء كفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(19/678)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرض ﴾

حتى يشاهدوا آثار الأمم السالفة ﴿ كانوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ عدداً ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأرض فَمَآ أغنى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من الأبنية والأموال وما أدالوا به من الأولاد والأتباع؛ يقال: دلوت بفلان إليك أي استشفعت به إليك.

وعلى هذا "ما" للجحد أي فلم يغن عنهم ذلك شيئاً.

وقيل: "ما" للاستفهام أي أيّ شيء أغنى عنهم كسبهم حين هلكوا.

ولم ينصرف "أَكْثَرَ"؛ لأنه على وزن أفعل.

وزعم الكوفيون أن كل ما لا ينصرف فإنه يجوز أن ينصرف إلا أفعل من كذا فإنه لا يجوز صرفه بوجه في شعر ولا غيره إذا كانت معه من.

قال أبو العباس: ولو كانت مِن المانعة من صرفه لوجب ألا يقال: مررت بخير منك وشر (منك و) من عمرو.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ أي بالآيات الواضحات.

﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ﴾ في معناه ثلاثة أقوال.

قال مجاهد: إن الكفار الذين فرحوا بما عندهم من العلم قالوا: نحن أعلم منهم لن نعذّب ولن نبعث.

وقيل: فرح الكفار بما عندهم من علم الدنيا نحو ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا ﴾ [الروم: 7].

وقيل : الذين فرحوا الرسل لمّا كذبهم قومهم أعلمهم الله عز وجل أنه مهلك الكافرين ومنجيهم والمؤمنين ف"فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ" بنجاة المؤمنين ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي بالكفار ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي عقاب استهزائهم بما جاء به الرسل صلوات الله عليهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ أي عاينوا العذاب .

﴿ قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أي بالأوثان التي أشركناهم في العبادة ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ ﴾ بالله عند معاينة العذاب وحين رأوا البأس .

(20/678)

﴿ سُنَّةَ الله ﴾ مصدر ؛ لأن العرب تقول : سَنّ يسن سنّاً وسُنّة ؛ أي سنّ الله عز وجل في الكفار أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب وقد مضى هذا مبيناً في "النساء" و"يونس" وأن التوبة لا تقبل بعد رؤية العذاب وحصول العلم الضروري .

وقيل : أي احذروا يا أهل مكة سنّة الله في إهلاك الكفرة ف"سنّة اللَّهِ" منصوب على التحذير والإغراء .

﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ قال الزجاج : وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك إلا أنه بيّن

لنا الخسران لما رأوا العذاب .

وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أي "لَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا" "وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ" كسنتنا في جميع الكافرين ف"سنة" نصب بنزع الخافض أي كسنّة الله في الأمم كلها .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(21/678)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (77) ﴾

أمر تعالى نبيه بالصبر تأنيساً له ، وإلافهو ، عليه السلام ، في غاية الصبر ، وأخبر بأن ما وعده من النصر والظفر وإعلاء كلمته وإظهار دينه حق .

قيل : وجواب ﴿ فإما نرينك ﴾ محذوف لدلالة المعنى عليه ، أي فيقر عينك ، ولا يصح أن يكون ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ جواباً للمعطوف عليه والمعطوف ، لأن تركيب ﴿ فإما نرينك ﴾ بعض الموعود في حياتك ، ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ ليس بظاهر ، وهو يصح أن

يكون جواب ، ﴿ أو نتوفينك ﴾ : أي ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ ، فننتقم منهم ونعذبهم لكونهم لم يتبعوك .

ونظير هذه الآية قوله : ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾ إلا أنه هنا صرح بجواب الشرطين .

وقال الزمخشري : ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ متعلق بقوله : ﴿ نتوفينك ﴾ ، وجزاء ﴿ نرينك ﴾ محذوف تقديره : فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب ، وهو القتل يوم بدر فذاك ، أو أن نتوفينك قبل يوم بدر ، فإلينا يرجعون يوم القيامة ، فننتقم منهم أشد الانتقام .

وقد تقدم للزمخشري نحو هذا البحث في سورة يونس في قوله : ﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ﴾ ورددنا عليه ، فيطالع هناك .

وقال الزمخشري أيضاً : ﴿ فإما نرينك ﴾ أصله فإن نرك ، وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، ولذلك ألحقت النون بالفعل .

ألا تراك لا تقول : إن تكرمني أكرمك ، ولكن أما تكرمني أكرمك ؟ انتهى .

وما ذهب إليه من تلازم ما لمزيده ، ونون التوكيد بعد أن الشرطية هو مذهب المبرد والزجاج .

وذهب سيبويه إلى أنك إن شئت أتيت بما دون النون ، وإن شئت أتيت بالنون دون ما .

قال سيبويه في هذه المسألة : وإن شئت لم تقحم النون ؛ كما أنك إذا جئت لم تجيء بما ، يعني لم تقحم النون مع مجيئك بما ، ولم تجيء بما مع مجيئك بالنون .

وقرأ الجمهور : يرجعون بياء الغيبة مبنياً للمفعول ؛ وأبو عبد الرحمن ، ويعقوب : بفتح الياء ؛ وطلحة بن مطرف ، ويعقوب في رواية الوليد بن حسان : بفتح تاء الخطاب .

ثم رد تعالى على العرب في إنكارهم بعثة الرسل ، وفي عدد الرسل اختلاف .

روي أنه ثمانية آلاف من بني إسرائيل ، وأربعة آلاف من غيرهم .

وروي : بعث الله أربعة آلاف نبي ، ﴿ منهم من قصصنا عليك ﴾ : أي من أخبرناك به ، أما في القرآن فثمانية عشر .

﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ ، وعن علي ، وابن عباس : أن الله بعث نبياً أسود في الحبش ، فهو ممن لم يقصص عليه .

﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ : أي ليس ذلك راجعاً إليهم ، لما اقترحوا على الرسل قال : ليس ذلك إلى لا تأتي آية إلا إن شاء الله ، ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ : رد ووعيد بإثر اقتراحهم الآيات ، وأمر الله : لقيامة .

والمبطلون : المعاندون مقترحون الآيات ، وقد أتتهم الآيات ، فأنكروها وسموها سحراً ، أو ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ : أي أراد إرسال رسول وبعثة نبي ، قضي ذلك وأنفذه ﴾

بالحق ﴾ ، وخسر كل مبطل ، وحصل على فساد آخرته ، أو ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ : وهو القتل ببدر .

ثم ذكر تعالى آيات اعتبار وتعداد نِعم فقال : ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام ﴾ ، وهي ثمانية الأزواج ، ويضعف قول من أدرج فيها الخيل والبغال والحمير وغير ذلك مما ينتفع به من البهائم ، وقول من خصها بالإبل وهو الزجاج .

﴿ لتركبوا منها ﴾ : وهي الإبل ، إذ لم يعهد ركوب غيرها .

﴿ ومنها تأكلون ﴾ : عام في ثمانية الأزواج ، ومن الأولى للتبعيض .

وقال ابن عطية : ومن الثانية لبيان الجنس ، لأن الجمل منها يؤكل .

انتهى ، ولا يظهر كونها لبيان الجنس ، ويجوز أن تكون فيه للتبعيض ولابتداء الغاية .

(23/678)

ولما كان الركوب منها هو أعظم منفعة ، إذ فيه منفعة الأكل والركوب .

وذكر إيضاً أن في الجميع منافع من شرب لبن واتخاذ دثار وغير ذلك ، أكد منفعة الركوب بقوله : ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ من بلوغ الأسفار الطويلة ، وحمل الأثقال إلى البلاد الشاسعة ، وقضاء فريضة الحج ، والغزو ، وما أشبه ذلك من المنافع الدينية

والدنيوية .

ولما كان الركوب وبلوغ الحاجة المترتبة عليه قد يتوصل به إلى الانتقال لأمر واجب ، أو مندوب كالحج وطلب العلم ، دخل حرف التعليل على الركوب وعلى المترتب عليه من بلوغ الحاجات ، فجعل ذلك علة لجعل الأنعام لنا .

ولما كان الأكل وإصابة المنافع من جنس المباحات ، لم يجعل ذلك علة في الجعل ، بل ذكر أن منها نأكل ، ولنا فيها منافع من شرب لبن واتخاذ دثار وغير ذلك ، كما أدخل لام التعليل في لتركبوها ، ولم يدخلها على الزينة في قوله : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾

ولما ذكر تعالى ما امتن به من منة الركوب للإبل في البر ، ذكر ما امتن به من نعمة الركوب في البحر فقال : ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ .

ولما كان الفلك يصح أن يقال فيه : حمل في الفلك ، كقوله : ﴿ احمل فيها ﴾ ويصح أن يقال فيه حمل على الفلك ، اعتبر لفظ على لمناسبة قوله : ﴿ وعليها ﴾ ، وإن كان معنى في صحيحاً ﴿ ويريكم آياته ﴾ : أي حججه وأدلته على وحدانيته .

﴿ فأي آيات الله تنكرون ﴾ : أي إنها كثيرة ، فأيها ينكر ؟ أي لا يمكن إنكار شيء منها في العقول ، ﴿ فأي آيات الله ﴾ منصوب بتنكرون .

قال الزمخشري : ﴿ فأي آيات ﴾ جاءت على اللغة المستفيضة ، وقولك : فأية آيات الله قليل ، لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو : حمار وحمارة غريب ،

وهي في أي أغرب لإبهامه .

انتهى ، ومن قلة تأنيث : أي قوله :

بأي كتاب أم بأية سنة . . .

ترى حبهم عاراً عليّ وتحسب

(24/678)

_@_وقوله : وهي في أي أغرب ، إن عنى أياً على الإطلاق فليس بصحيح ، لأن المستفيض في النداء أن يؤنث نداء المؤنث لقوله تعالى :

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ ولا يعلم من يذكرها فيه فيقول : يا أيها المرأة ، إلا صاحب كتاب البديع في النحو .

وإن عنى غير المناداة ، فكلامه صحيح ، فقل تأنيثها في الاستفهام وموصولة ، وما في قوله : ﴿ فما أغنى ﴾ نافية شرطية واستفهامية في معنى النفي ، وما فيما كانوا مصدرية ، أو بمعنى الذي ، وهي في موضع رفع ، والضمير في ﴿ جاءتهم ﴾ عائد على ﴿ الذين من قبلهم ﴾ .

وجاء قوله : ﴿ من العلم ﴾ على جهة التهكم بهم ، أي في الحقيقة لا علم لهم ، وإنما لهم

خيالات واستبعادات لما جاءت به الرسل ، وكانوا يدفعون ما جاءت به الرسل بنحو قولهم : ﴿ ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ أو اعتقدوا أن عندهم علماً يستغنون به عن علم الأنبياء ، كما تزعم الفلاسفة .

والدهريون كانوا إذا سمعوا بوحي الله ، دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم .

ولما سمع سقراط ، لعنه الله ، بموسى ، صلوات الله على نبينا وعليه ، قيل له : لو هاجرت إليه ، فقال : نحن قوم مهذبون ، فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا .

وعلى هذين القولين تكون الضمائر متناسقة عائدة على مدلول واحد .

وقيل : الضمير في ﴿ فرحوا ﴾ ، وفي ﴿ بما عندهم ﴾ عائد على الرسل ، أي فرحت الرسل بما أوتوا من العلم ، وشكروا الله عليه ، لما رأوا جهل من أرسلوا إليهم واستهزاءهم بالحق ، وعلموا سوء عاقبتهم .

وقيل : الضمير في ﴿ فرحوا ﴾ عائد على الأمم ، وفي ﴿ بما عندم ﴾ عائد على الرسل ، أي فرح الكفار بما عند الرسل من العلم فرح ضحك واستهزاء .

وقال الزمخشري : ومنها ، أي من الوجوه التي في الآية في قوله : ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ ، مبالغة في نفي فرحهم بالوحي الموجب لأقصى الفرح والسرور في تهكم بفرط جهلهم وخلوهم من العلم . انتهى .

ولا يعبر بالجملة الظاهر كونها مثبتة عن الجملة المنفية إلا في قليل من الكلام ، نحو قولهم : شر أهر ذا ناب ، على خلاف فيه ، ولما آل أمره إلى الإيتاء المحصور جاز .

وأما في الآية فينبغي أن لا يحمل على القليل ، لأن في ذلك تخليطاً لمعاني الجمل المتباينة ، فلا يوثق بشيء منها .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ : علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال تعالى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ ذلك مبلغهم من العلم ، فلما جاءتهم الرسل بعلوم الديانات ، وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات ، لم يلتفتوا إليها ، وصغروها واستهزؤوا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ، ففرحوا به .

انتهى ، وهو توجيه حسن ، لكن فيه إكثار وشقشقة .

﴿ بأسنا ﴾ : أي عذابنا الشديد ، حكى حال من آمن بعد تلبيس العذاب به ، وأن ذلك لم يك نافعاً ، وفي ذلك حض على المبادرة إلى الإيمان ، وتخويف من التأني .

فأما قوم يونس ، فإنهم رأوا العذاب لم يلتبس بهم ، وتقدمت قصتهم .

وإيمانهم مرفوع بيك اسماً لها ، أو فاعل ينفعهم .

وفي يك ضمير الشأن على الخلاف الذي في : كان يقوم زيد ، ودخل حرف النفي على الكون ، لا على النفي ، لأنه يؤدي إلى نفي الصحة ، إي لم يصح ولم يستقم لقوله : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ وترادف هذه الفاءات ، أما في ﴿ فما أغنى ﴾ ، فلأنه كان نتيجة قوله : ﴿ كانوا أكثر منهم ، ولما جاءتهم رسلهم ﴾ ، جار مجرى البيان والتفسير لقوله : ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ .

(26/678)

و ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ تابع لقوله : ﴿ فلما جاءتهم ﴾ ، كأنه قال : فكفروا به فلما رأوا بأسنا آمنوا ولم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأس الله ، وانتصب سنة على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ، أي أن ما فعل بهم هي سنة الله التي قد مضت وسبقت في عباده من إرسال الرسل والإعزاز بهم ، وتعذيب من كذبهم واستهانتهم واستئصالهم بالهلاك ، وعدم الانتفاع بالإيمان حالة تلبس العذاب بهم .

وهنالك ظرف مكان استعير للزمان ، أي وخسر في ذلك الوقت الكافرون .

وقيل : سنة منصوب على التحذير ، أي احذروا سنة الله يا أهل مكة في إعداد الرسل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(27/678)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ إذْ قيلَ عددُ الأنبياءِ عليهم السلام مائةٌ وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً ، والمذكورُ قصصُهم أفرادٌ معدودةٌ وقيلَ أربعةُ آلافٍ من بني إسرائيلَ وأربعةُ آلافٍ من سائرِ النَّاس . ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ أي وما صحَّ وما استقامَ لرسولٍ منهم ﴿ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ فإنَّ المعجزاتِ على تشعبِ فنونِها عطايَا من الله تعالَى قسمها بينَهم حسبَما اقتضتْهُ مشيئتُه المبنيةُ على الحكمِ البالغةِ كسائرِ القَسْمِ ليسَ لهم اختيارٌ في إيثارِ بعضِها والاستبدادِ بإتيانِ المقترحِ منَها ﴿ فَإِذَا جَاء أَمْرُ الله ﴾ بالعذابِ في الدُّنيا والآخرةِ ﴿ قُضِيَ بالحق ﴾ بإنجاءِ المُحقِّ وإثابتِه وإهلاكِ المُبطلِ وتعذيبِه ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ﴾ أي وقتَ مجيءِ أمرِ الله ، اسمُ مكانٍ استعيرَ للزمانِ ﴿ المبطلون ﴾ أي المتمسكونَ بالباطلِ على الإطلاقِ فيدخلُ فيهم المعاندونَ المقترحونَ دخولاً أولياً .

(28/678)

﴿ الله الذى جعَل لَكُمُ الأنعام ﴾ قيلَ هيَ الإبلُ خَاصَّةً ، أي خلقَها لأجلِكُم ومصلحتِكم . وقولُه تعالى : ﴿ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ تفصيلٌ لما دلَّ عليهِ اللامُ إجمالاً ، ومِنْ لابتداءِ الغايةِ ومعناهَا ابتداءُ الركوبِ والأكلِ منَها أي تعلقهُما بَها ، وقيل : للتبعيضِ أي لتركبُوا بعضَها وتأكلُوا بعضَها لا على أنَّ كلاًّ من الركوبِ والأكلِ مختصٌّ ببعضٍ معينٍ منها بحيثُ لا يجوزُ تعلقُه بما تعلقَ به الآخرُ بلْ على أنَّ كلَّ بعضٍ منَها صالحٌ لكلَ منهما ، وتغييرُ النظمِ الكريمِ في الجُملةِ الثانيةِ لمُراعاةِ الفواصلِ معَ الإشعارِ بأصالةِ الركوبِ ﴿ وَلَكُمْ فيهَا منافع ﴾ أُخرُ غيرُ الركوبِ والأكلِ كألبانِها وأوبارِها وجلودِها ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ بحملِ أثقالِكم من بلدٍ إلى بلدٍ ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ ﴾ لعلَّ المرادَ به حملُ النساءِ والولدانِ عليها بالهودجِ ، وهو السرُّ في فصلِه عن الركوبِ . والجمعُ بينَها وبينَ الفلكِ في الحملِ لما بينَهمَا من المناسبةِ التامَّةِ حتى سُميتْ سفائنَ البرِّ وقيلَ : هي الأزواجُ الثمانيةُ فمعنى الركوبِ والأكلِ منها تعلقُهمَا بالكلِّ لكنْ لا على أنَّ كلاًّ منهُمَا تعلقُه بما تعلقَ به الآخرُ بل على أنَّ بعضَها يتعلقُ به كلاهُما كالإبلِ والبقرِ ، والمنافعُ تعمُّ الكلَّ ، وبلوغُ الحاجةِ عليها يعمُّ البقرَ ﴿ وَيُرِيكُمْ ءاياته ﴾ دلائلَه الدالةَ على كمالِ قُدرتِه ووفورِ رحمتِه ﴿ فَأَىَّ ءايات الله ﴾ أي فأيَّ آيةٍ من تلكَ الآياتِ الباهرةِ ﴿ تُنكِرُونَ ﴾ فإنَّ كلاًّ منها من الظهورِ بحيثُ لا يكادُ يجترئُ على إنكارِها مَنْ له عقلٌ في الجملةِ وهو ناصبٌ لأيَّ

، وإضافةُ الآياتِ إلى الاسمِ الجليلِ لتربيةِ المهابةِ وتهويلِ إنكارِها وتذكيرُ أيْ هُو الشائعُ المستفيضُ ، والتأنيثُ قليلٌ لأنَّ

(29/678)

التفرقةَ بين المذكرِ والمؤنثِ في الأسماءِ غيرُ الصفاتِ نحوُ حمارٌ وحمارةٌ غريبٌ وهيَ في أيَ أغربُ لإبهامِه .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾ أي أقعدُوا فلم يسيرُوا ﴿ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأممِ المُهلكةِ . وقولُه تعالَى : ﴿ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ الخ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ مبادِي أحوالِهم وعواقِبها ﴿ وَءَاثَاراً فِى الأرض ﴾ باقيةً بعدَهُم من الأبنيةِ والقصورِ والمصانعِ ، وقيل هي آثارُ أقدامِهم في الأرضِ لعظمِ أجرامِهم ﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ مَا الأُولى نافيةٌ أو استفهاميةٌ منصوبةٌ بأَغْنَى ، والثانيةُ موصولةٌ أو مصدريةٌ مرفوعةٌ ، أيْ لم يُغنِ عنهُم أو أيَّ شيءٍ أغنَى عنهُم مكسوبُهم أو كسبُهم .

(30/678)

﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالمعجزاتِ أو بالآياتِ الواضحةِ ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ﴾ أي أظهرُوا الفرحَ بذلكَ وهو ما لَهُم من العقائدِ الزائغةِ والشُّبهِ الداخصةِ. وتسميتُها علماً للتهكمِ بهم، أو علمُ الطبائعِ والتنجيمِ والصنائعِ ونحوِ ذلك، أو هو علمُ الأنبياءِ الذي أظهرَهُ رسلُهم على أنَّ مَعْنى فرحِهم بهِ ضحِكُهم منْهُ واستهزاؤُهم بهِ، ويؤيدُه قولُه تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ وقيلَ الفرحَ أيضاً للرسلِ فإنَّهم لَمَّا شاهدُوا تمادي جهلِهم وسوءَ عاقبتِهم فرِحُوا بمَا أُوتوا منَ العلمِ المُؤدّي إلى حُسنِ العاقبةِ وشكرُوا اللهَ عليهِ وحاقَ بالكافرينَ جزاءُ جهلِهم واستهزائِهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ شدةَ عذابِنا ومنْهُ قولُه تعالى: ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ يعنونَ الأصنامَ ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانهم لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ أي عندَ رؤيةِ عذابِنا لامتناعِ قبولِه حينئذٍ ولذلكَ قيلَ فلم يكُ بمعنى لم يصحَّ ولم يستقمْ. والفاءُ الأُولى لبيانِ عاقبةِ كثرتِهم وشدةِ قوتِهم وما كانُوا يكسبونَ بذلكَ زعماً منهُم أنَّ ذلكَ يُغني عنهُم فلم يترتبْ عليهِ إلا عدمُ الإغناءِ فبهذا الاعتبارِ جرى مَجرى النتيجةِ وإنْ كانَ عكسَ الغرضِ ونقيضَ المطلوبِ كما في قولِك وعظتُه فلم يتعظْ، والثانيةُ تفسيرٌ وتفصيلٌ لما أُبهمَ وأُجملَ من عدمِ الإغناءِ وقد كثُر في الكلامِ مثلُ هذه الفاءِ ومبناها على أنَّ التفسيرَ بعدَ الإبهامِ والتفصيلَ بعد الإجمالِ، والثالثةُ لمجردِ التعقيبِ وجعلِ ما بعدَها تابعاً لما قبلَها واقعاً

عقيبه لأنَّ مضمونَ قولِه تعالَى : فلمَّا جاءتْهُم الخ هُو أنَّهم كفَرُوا فصارَ مجموعُ الكلامِ بمنزلةِ أنْ يقالَ فكفرُوا ثمَّ لما

(31/678)

رَأَوا بأسَنا آمنُوا ، والرابعةُ للعطفِ على آمنُوا كأنَّه قيلَ فآمنُوا فلم ينفعْهُم لأنَّ النافعَ هُو الإيمانُ الاختياريُّ ﴿ سُنَّةَ اللهِ التى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ ﴾ أي سَنَّ اللهُ تعالَى ذلكَ سُنَّةً ماضيةً في العباد وهو من المصادر المؤكدةِ ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ أي وقتَ رؤيتِهم البأسَ على أنَّه اسمُ مكانٍ قد استُعيرَ للزمانِ كما سلفَ آنِفاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(32/678)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾

أي أقعدوا فلم يسيروا على أحد الرأيين :

﴿ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِى الأرض ﴾ الخ استئناف نظير ما مر في نظيره أول السورة بل أكثر الكلام هناك جار ههنا ﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿ مَا ﴾ الأولى : نافية أو استفهامية في معنى النفي في محل نصب بأغنى ، والثانية : موصولة في موضع رفع به أو مصدرية والمصدر الحاصل بالتأويل مرفوع به أيضاً أي لم يغن عنهم أو أي شيء أغنى عنهم الذي كسبوه أو كسبهم .

﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ المعجزات أو الآيات الواضحات الشاملة لذلك ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مّنَ العلم ﴾ ذكر فيه ستة أوجه .

الأول : أن المراد بالعلم عقائدهم الزائغة وشبههم الداحضة فيما يتعلق بالمبدأ والمعاد وغيرهما أو عقائدهم المتعلقة بأحوال الآخرة كما هو ظاهر كلام الكشاف ، والتعبير عن ذلك بالعلم على زعمهم للتهكم كما في قوله تعالى : ﴿ بَلِ ادرك عِلْمُهُمْ فِى الآخرة ﴾ [النمل : 66] .

والمعنى أنهم كانوا يفرحون بذلك ويستحقرون له علم الرسل عليهم السلام ويدفعون به البينات .

الثاني : أن المراد به علم الفلاسفة والدهريين من بني يونان على اختلاف أنواعه فكانوا إذا سمعوا بوحي الله تعالى دفعوه وصغروا علم الأنبياء عليهم السلام إلى ما عندهم من ذلك .

وعن سقراط أنه سمع بموسى عليه الصلاة والسلام ، وقيل له : لو هاجرت إليه فقال : نحن

قوم مهذبون فلا حاجة لنا إلى من يهذبنا .

والزمان متشابه فقد رأينا من ترك متابعة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم واستنكف عن الانتساب إلى شريعة أحد منهم فرحاً بما لحس من فضلات الفلاسفة وقال : إن العلم هو ذاك دون ما جاء به الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين .

(33/678)

الثالث : أن أصل المعنى فلما جاءتهم رسلهم بالبينات لم يفرحوا بما جاءهم من العلم فوضعوا موضعه فرحوا بما عندهم من الجهل ثم سمي ذلك الجهل علماً لاغتباطهم به ووضعهم إياه مكان ما ينبغي لهم من الاغتباط بما جاءهم من العلم ، وفيه التهكم بفرط جهلهم والمبالغة في خلوهم من العلم ، وضمير ﴿ فَرِحُواْ ﴾ و ﴿ عِندَهُمُ ﴾ على هذه الأوجه للكفرة المحدث عنهم .

الرابع : أن يجعل ضمير ﴿ فَرِحُواْ ﴾ للكفرة وضمير ﴿ عِندَهُمُ ﴾ للرسل عليهم السلام ، والمراد بالعلم الحق الذي جاء المرسلون به أي فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به ، وخلاصته أنهم استهزؤا بالبينات وبما جاء به الرسل من علم الوحي ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ ﴾ .

الخامس : أن يجعل الضمير أن للرسل عليهم السلام ، والمعنى أن الرسل لما رأوا جهل الكفرة المتمادي واستهزاءهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله تعالى وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم ، وحكي هذا عن الجبائي السادس : أن يجعل الضميران للكفار ، والمراد بما عندهم من العلم علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مّنَ الحياة الدنيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافلون ﴾ [الروم : 7] ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مّنَ العلم ﴾ [النجم : 30] فلما جاءهم الرسل بعلم الديانات وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤا بها واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به ، قال صاحب الكشف : والأرجح من بين هذه الأوجه الستة الثالث ففيه التهكم والمبالغة في خلوهم من العلم ومشتمل على ما يشتمل عليه الأول وزيادة سالم عن عدم الطباق للواقع كما في الثاني وعن قصور العبارة عن الأداء كالرابع وعن فك الضمائر كما في الخامس ، والسادس قريب لكنه قاصر عن فوائد الثالث انتهى فتأمله جداً .

وأبو حيان استحسن الوجه السادس وتعقب الوجه الثالث بأنه لا يعبر بالجملة الظاهر كونها مثبتة عن الجملة المنفية إلا في قليل من الكلام نحو شر أهر ذا ناب على خلاف فيه ، ولما آل أمره إلى الإثبات المحصور جاز ، وأما الآية فينبغي أن لا تحمل على القليل لأن في ذلك تخليطاً لمعاني الجمل المتباينة فلا يوثق بشيء منها ، وأنت تعلم أنه لا تباين معنى بين لم يفرحوا بما جاءهم من العلم و ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ﴾ على ما قرر .

نعم هذا الوجه عندي مع ما فيه من حسن لا يخلو عن بعد ، وكلام صاحب الكشف لا يخلو عن دغدغة .

(35/678)

﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ شدة عذابنا ومنه قوله تعالى : ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ [الأعراف : 165] ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ يعنون الأصنام أو سائر آلهتهم الباطلة :

(36/678)

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُم لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أي عند رؤية عذابنا لأن الحكمة الإلهية قضت أن لا يقبل مثل ذلك الإيمان ، و﴿ أيمانهم ﴾ رفع بيك اسماً لها أو فاعل ﴿ يَنفَعُهُمْ ﴾ وفي ﴿ يَكُ ﴾ ضمير الشأن على الخلاف الذي في كان يقوم زيد ، ودخل حرف النفي على الكون لا على النفع لإفادة معنى نفي الصحة فكأنه لم يصح ولم يستقم حكمة نفع إيمانهم إياهم عند رؤية العذاب ، وههنا أربعة فاءات فاء ﴿ فَمَا أغنى ﴾ [غافر : 82] وفاء ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ ﴾ [غافر : 83] وفاء ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا ﴾ وفاء ﴿ فَلَمْ يَكُ ﴾ فالفاء الأولى : مثلها في نحو قولك : رزق المال فمنع المعروف فما بعدها نتيجة مآلية لما كانوا فيه من التكاثر بالأموال والأولاد والتمتع بالحصون ونحوها ، والثانية : تفسيرية مثلها في قولك : فلم يحسن إلى الفقراء بعد فمنع المعروف في المثال فما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ [غافر : 83] إيضاح لذلك المجمل وأنه كيف انتهى بهم الأمر إلى عكس ما أملوه وأنهم كيف جمعوا واحتشدوا وأوسعوا في إطفاء نور الله وكيف حاق المكر السيء بأهله إذ كان في قوله سبحانه : ﴿ فَمَا أغنى عَنْهُمْ ﴾ إيماءً بأنهم زاولوا أن يجعلوها مغنية ، والثالثة : للتعقيب ، وجعل ما بعدها تابعاً لما قبلها واقعاً عقيبه ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ مترتب على قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ ﴾ الخ تابع له لأنه بمنزلة فكفروا إلا أن ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ ﴾ الآية بيان كفر مفصل مشتمل على سوء معاملتهم وكفرانهم بنعمة الله تعالى العظمى من الكتاب والرسول فكأنه قيل : فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا ، ومثلها الفاء الرابعة فما

بعدها عطف على آمنوا دلالة على أن عدم نفع إيمانهم ورده عليهم تابع للإيمان عند رؤية العذاب كأنه قيل : فلما رأوا بأسنا آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم إذ النافع إيمان الاختيار ﴿ سُنَّتَ اللهِ التى قَدْ خَلَتْ فِى

(37/678)

عِبَادِهِ ﴾ أي سن الله تعالى ذلك أعني عدم نفع الإيمان عند رؤية البأس سنة ماضية في البعاد ، وهي من المصادر المؤكدة ك ﴿ وعد ﴾ [النساء : 122] الله ﴿ وصبغة الله ﴾ [البقرة : 138] وجوز انتصابها على التحذير أي احذروا يا أهل مكة سنة الله تعالى في أعداء الرسل .

﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفاً ، وهذا الحكم خاص بإيمان البأس وأما توبة البأس فهي مقبولة نافعة بفضل الله تعالى وكرمه ، والفرق ظاهر .

وعن بعض الأكابر أن إيمان البأس مقبول أيضاً ومعنى ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانهم لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ أن نفس إيمانهم لم ينفعهم وإنما نفعهم الله تعالى حقيقة به ، ولا يخفى عليك حال

هذا التأويل وما كان من ذلك القبيل والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(38/678)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66) ﴾

أمر الله سبحانه رسوله أن يخبر المشركين بأن الله نهاه عن عبادة غيره ، وأمره بالتوحيد ، فقال : ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ وهي : الأصنام .

ثم بيّن وجه النهي ، فقال : ﴿ لَمَّا جَاءِنى البينات مِن رَّبِّى ﴾ ، وهي : الأدلة العقلية والنقلية ، فإنها توجب التوحيد ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ أي : أستسلم له بالانقياد ، والخضوع .

ثم أردف هذا بذكر دليل من الأدلة على التوحيد ، فقال : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ أي : خلق أباكم الأوّل ، وهو : أدم ، وخلقه من تراب يستلزم خلق ذرّيته منه ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ قد تقدّم تفسير هذا في غير موضع ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي :

أطفالاً ، وأفرده لكونه اسم جنس ، أو على معنى : يخرج كلّ واحد منكم طفلاً ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ ، وهي : الحالة التي تجتمع فيها القوّة ، والعقل .

(39/678)

وقد سبق بيان الأشدّ مستوفى في الأنعام ، واللام التعليلية في : ﴿ لتبلغوا ﴾ معطوفة على علة أخرى ، ﴿ ليخرجكم ﴾ مناسبة لها ، والتقدير : لتكبروا شيئاً ، فشيئاً ، ثم لتبلغوا غاية الكمال ، وقوله : ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً ﴾ معطوف على لتبلغوا ، قرأ نافع ، وحفص ، وأبو عمرو ، وابن محيصن ، وهشام : ﴿ شيوخاً ﴾ بضم الشين ، وقرأ الباقون بكسرها ، وقرىء وشيخاً على الإفراد لقوله طفلاً ، والشيخ من جاوز أربعين سنة ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل الشيخوخة ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ أي : وقت الموت ، أو يوم القيامة ، واللام هي : لام العاقبة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : لكي تعقلوا توحيد ربكم ، وقدرته البالغة في خلقكم على هذه الأطوار المختلفة ﴿ هُوَ الذى يُحْيِي وَيُمِيت ﴾ أي : يقدر على الإحياء ، والإماتة ﴿ فَإِذَا قضى أَمْراً ﴾ من الأمور التي يريدها ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ من غير توقف ، وهو : تمثيل لتأثير قدرته في المقدورات عند تعلق إرادته بها ، وقد تقدّم تحقيق معناه في البقرة ، وفيما بعدها .

ثم عجب سبحانه من أحوال المجادلين في آيات الله ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾ ، وقد سبق بيان معنى المجادلة ﴿ أنى يُصْرَفُونَ ﴾ أي : كيف يصرفون عنها مع قيام الأدلة الدالة على صحتها ، وأنها في أنفسها موجبة للتوحيد .

قال ابن زيد : هم : المشركون بدليل قوله : ﴿ الذين كَذَّبُواْ بالكتاب وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ قال القرطبي : وقال أكثر المفسرين : نزلت في القدرية .

(40/678)

قال ابن سيرين : إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدرية ، فلا أدري فيمن نزلت ، ويجاب عن هذا بأن الله سبحانه قد وصف هؤلاء بصفة تدلّ على غير ما قالوه ، فقال : ﴿ الذين كَذَّبُواْ بالكتاب ﴾ أي : بالقرآن ، وهذا وصف لا يصحّ أن يطلق على فرقة من فرق الإسلام ، والموصول إما في محل جرّ على أنه نعت للموصول الأوّل ، أو بدل منه ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الذمّ ، والمراد بالكتاب : إما القرآن ، أو جنس الكتب المنزلة من عند الله ، وقوله : ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ معطوف على قوله ﴿ بالكتاب ﴾ ، ويراد به ما يوحى إلى الرسل من غير كتاب إن كانت اللام في الكتاب للجنس ، أو سائر الكتب إن كان المراد بالكتاب القرآن ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم ، ووبال كفرهم ،

وفي هذا وعيد شديد ، والظرف في قوله : ﴿ إِذِ الأغلال فِى أعناقهم ﴾ متعلق ﴿ يعلمون ﴾ ، أي : فسوف يعلمون وقت كون الأغلال في أعناقهم ﴿ والسلاسل ﴾ معطوف على الأغلال ، والتقدير : إذ الأغلال ، والسلاسل في أعناقهم ، ويجوز أن يرتفع السلاسل على أنه مبتدأ وخبره محذوف لدلالة في أعناقهم عليه ، ويجوز أن يكون خبره ﴿ يُسْحَبُونَ فِى الحميم ﴾ بحذف العائد ، أي : يسحبون بها في الحميم ، وهذا على قراءة الجمهور برفع السلاسل ، وقرأ ابن عباس ، وابن مسعود ، وعكرمة ، وأبو الجوزاء بنصبها ، وقرءوا : (يسحبون) بفتح الياء مبنياً للفاعل ، فتكون السلاسل مفعولاً مقدّماً ، وقرأ بعضهم بجرّ السلاسل .

قال الفراء : وهذه القراءة محمولة على المعنى ، إذ المعنى : أعناقهم في الأغلال ، والسلاسل .

(41/678)

وقال الزجاج : المعنى على هذه القراءة : وفي السلاسل يسحبون ، واعترضه ابن الأنباري : بأن ذلك لا يجوز في العربية ، ومحل يسحبون على تقدير عطف السلاسل على الأغلال ، وعلى تقدير كونها مبتدأ ، وخبرها في أعناقهم النصب على الحال ، أو لا محل له ، بل هو

مستأنف جواب سؤال مقدّر ، والحميم هو : المتناهي في الحرّ .

وقيل : الصديد ، وقد تقدّم تفسيره ﴿ ثُمَّ فِى النار يُسْجَرُونَ ﴾ يقال : سجرت التنور أي : أوقدته ، وسجرته ملأته بالوقود ، ومنه ﴿ والبحر المسجور ﴾ [الطور : 6] أي : المملوء ، فالمعنى : توقد بهم النار ، أو تملأ بهم .

قال مجاهد ، ومقاتل : توقد بهم النار ، فصاروا وقودها .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ الله ﴾ هذا توبيخ ، وتقريع لهم ، أي : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي : ذهبوا ، وفقدناهم ، فلا نراهم ، ثم أضربوا عن ذلك ، وانتقلوا إلى الإخبار بعدمهم ، وأنه لا وجود لهم ، فقالوا : ﴿ بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً ﴾ أي : لم نكن نعبد شيئاً ، قالوا هذا لما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة ، والجهالة ، وأنهم كانوا يعبدون ما لا يبصر ، ولا يسمع ، ولا يضرّ ، ولا ينفع ، وليس هذا إنكاراً منهم لوجود الأصنام التي كانوا يعبدونها ، بل اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت باطلة ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ الله الكافرين ﴾ أي : مثل ذلك الضلال يضلّ الله الكافرين حيث عبدوا هذه الأصنام التي أوصلتهم إلى النار ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى الإضلال المدلول عليه بالفعل ، أي : ذلك الإضلال بسبب ﴿ مَّا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الأرض ﴾ أي : بما كنتم تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله ، والسرور بمخالفة رسله ، وكتبه .

وقيل : بما كنتم تفرحون به من المال ، والأتباع ، والصحة ، وقيل : بما كنتم تفرحون به من إنكار البعث .

(42/678)

وقيل : المراد بالفرح هنا : البطر ، والتكبر ، وبالمرح : الزيادة في البطر .

وقال مجاهد ، وغيره : تمرحون ، أي : تبطرون ، وتأشرون .

وقال الضحاك : الفرح السرور ، والمرح العدوان .

وقال مقاتل : المرح البطر ، والخيلاء ﴿ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ ﴾ حال كونكم ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ أي : مقدّرين الخلود فيها ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ عن قبول الحق جهنم .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر ، فقال : ﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ أي : وعده بالانتقام منهم كائن لا محالة ، إما في الدنيا ، أو في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب في الدنيا بالقتل ، والأسر ، والقهر ، وما في ﴿ فإما ﴾ زائدة على مذهب المبرد ، والزجاج ، والأصل فإن نرك ، ولحقت بالفعل نون التأكيد ، وقوله : ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ معطوف على ﴿ نرينك ﴾ أي : أو نتوفينك قبل إنزال العذاب بهم ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة ، فنعذبهم ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن

قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أي : أنبأناك بأخبارهم ، وما لقوه من قومهم ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ خبره ، ولا أوصلنا إليك علم ما كان بينه ، وبين قومه ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ لا من قبل نفسه ، والمراد بالآية : المعجزة الدالة على نبوّته ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ ﴾ أي : إذا جاء الوقت المعين لعذابهم في الدنيا ، أو في الآخرة ﴿ قُضِيَ بِالحق ﴾ فيما بينهم ، فينجي الله بقضائه الحق عباده المحقين ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ﴾ أي : في ذلك الوقت ﴿ المبطلون ﴾ الذين يتبعون الباطل ، ويعملون به .

(43/678)

ثم امتنّ سبحانه على عباده بنوع من أنواع نعمه التي لا تحصى ، فقال : ﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الأنعام ﴾ أي : خلقها لأجلكم ، قال الزجاج : الأنعام ها هنا الإبل ، وقيل : الأزواج الثمانية ﴿ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا ﴾ من للتبعيض ، وكذلك في قوله : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ويجوز أن تكون لابتداء الغاية في الموضعين ، ومعناها : ابتداء الركوب ، وابتداء الأكل ، والأوّل أولى .

والمعنى : لتركبوا بعضها ، وتأكلوا بعضها ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ أخر غير الركوب ، والأكل من الوبر ، والصوف ، والشعر ، والزبد ، والسمن ، والجبن ، وغير ذلك ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ

عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ قال مجاهد ، ومقاتل ، وقتادة : تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد ، وقد تقدم بيان هذا مستوفى في سورة النحل ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ ﴾ أي : على الإبل في البرّ ، وعلى السفن في البحر .

وقيل : المراد بالحمل على الأنعام هنا : حمل الولدان ، والنساء بالهوادج ﴿ وَيُرِيكُمْ ءاياته ﴾ أي : دلالاته الدالة على كمال قدرته ، ووحدانيته ﴿ فَأَىَّ ءايات الله تُنكِرُونَ ﴾ ، فإنها كلها من الظهور ، وعدم الخفاء بحيث لا ينكرها منكر ، ولا يجحدها جاحد ، وفيه تقريع لهم ، وتوبيخ عظيم ، ونصب ﴿ أيّ ﴾ بتنكرون ، وإنما قدم على العامل فيه ، لأن له صدر الكلام .

ثم أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار ، والتفكر في آيات الله ، فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم التي عصت الله ، وكذبت رسلها ، فإن الآثار الموجودة في ديارهم تدلّ على ما نزل بهم من العقوبة ، وما صاروا إليه من سوء العاقبة .

(44/678)

ثم بيّن سبحانه أن تلك الأمم كانوا فوق هؤلاء في الكثرة ، والقوّة ، فقال : ﴿ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ أي : أكثر منهم عدداً ، وأقوى منهم أجساداً ، وأوسع منهم أموالاً ، وأظهر منهم ﴿ آثَارا فِى الأرض ﴾ بالعمائر ، والمصانع ، والحرث ﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ يجوز أن تكون " ما " الأولى استفهامية ، أي : أيّ شيء أغنى عنهم ، أو نافية .

أي : لم يغن عنهم ، و " ما " الثانية يجوز أن تكون موصولة ، وأن تكون مصدرية .

﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ أي : بالحجج الواضحات ، والمعجزات الظاهرات ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مّنَ العلم ﴾ أي : أظهروا الفرح بما عندهم مما يدعون أنه من العلم من الشبه الداحضة ، والدعاوي الزائغة ، وسماه علماً تهكماً بهم ، أو على ما يعتقدونه .

وقال مجاهد : قالوا : نحن أعلم منهم لن نعذب ، ولن نبعث .

(45/678)

وقيل : المراد من علم أحوال الدنيا لا الدين كما في قوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مّنَ الحياة الدنيا ﴾ [الروم : 7] ، وقيل : الذين فرحوا بما عندهم من العلم هم : الرسل ، وذلك أنه لما كذبهم قومهم أعلمهم الله بأنه مهلك الكافرين ، ومنجي المؤمنين ، ففرحوا بذلك ﴿ وَحَاقَ

بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ أي : أحاط بهم جزاء استهزائهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ أي : عاينوا عذابنا النازل بهم ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ ، وهي : الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانهم لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ أي : عند معاينة عذابنا ، لأن ذلك الإيمان ليس بالإيمان النافع لصاحبه ، فإنه إنما ينفع الإيمان الاختياري لا الإيمان الاضطراري ﴿ سُنَّتَ الله التى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ ﴾ أي : التي قد مضت في عباده ، والمعنى : أن الله سبحانه سن هذه السنّة في الأمم كلها أنه لا ينفعهم الإيمان إذا رأوا العذاب ، وقد مضى بيان هذا في سورة النساء ، وسورة التوبة ، وانتصاب سنّة على أنها مصدر مؤكد لفعل محذوف بمنزلة وعد الله ، وما أشبهه من المصادر المؤكدة .

وقيل : هو منصوب على التحذير ، أي : احذروا يا أهل مكة سنّة الله في الأمم الماضية ، والأوّل أولى .

﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ أي : وقت رؤيتهم بأس الله ، ومعاينتهم لعذابه .

قال الزجاج : الكافر خاسر في كل وقت ، ولكنه يتبين لهم خسرانهم إذا رأوا العذاب .

(46/678)

وقد أخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث والنشور ، عن عبد الله بن عمرو قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِذِ الأَغلالُ فِي أعناقهم ﴾ إلى قوله : ﴿ يُسْجَرُونَ ﴾ ، فقال : " لو أن رصاصة مثل هذه ، وأشار إلى جمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض ، وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها ، أو قال قعرها " وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار ، عن ابن عباس قال : يسحبون في الحميم ، فينسلخ كل شيء عليهم من جلد ، ولحم ، وعرق حتى يصير في عقبه حتى إن لحمه قدر طوله ، وطوله ستون ذراعاً ، ثم يكسى جلداً آخر ، ثم يسجر في الحميم .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ قال : بعث الله عبداً حبشياً ، فهو ممن لم يقصص على محمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(47/678)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾

قال بعض العلماء ﴿ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ : اعبدوني أثبكم من عبادتكم ، ويدل لهذا قوله بعده : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

وقال بعض العلماء : ﴿ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي اسألوني أعطكم .

ولا منافاة بين القولين ، لأن دعاء الله من أنواع عبادته .

وقد أوضحنا هذا المعنى ، وبينا وجه الجمع بين قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : 186] مع قوله تعالى : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ ﴾ [الأنعام : 41] فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61)

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ، في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً والنوم سُبَاتاً وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ﴾ [الفرقان : 47] وفي سورة بني إسرائيل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ الليل وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الإسراء : 12] .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67)

(48/678)

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ، في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ ﴾ [الحج : 5] الآية ، وفي غير ذلك من المواضع .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فيَكُونُ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] . وبينا أوجه القراءة في قوله : فيكون هناك .

ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76)

لم يبين هنا جل وعلا عدد أبواب جهنم ، ولكنه بين ذلك في سورة الحجر ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : 4344] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ .

(49/678)

ما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن الله تبارك وتعالى قص على نبيه صلى الله عليه وسلم ، أنباء بعض الرسل ، أي كنوح وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وموسى ، وأنه لم يقصص عليه أنباء رسل آخرين ، بينه في غير هذا الموضع ، كقوله في سورة النساء : ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء : 164] ، وأشار إلى ذلك في سورة إبراهيم في قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات ﴾ [إبراهيم : 9] الآية . وفي سورة الفرقان في قوله تعالى : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَأَصْحَابَ الرس وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴾ [الفرقان : 38] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بالحق وَخَسِرَ هُنَالِكَ المبطلون ﴾ .

قوله هنا : فإذا جاء أمر الله أي قامت القيامة ، كما قدمنا إيضاحه في قوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : 1] فإذا قامت القيامة ، قضى بين الناس بالحق الذي

لا يخالطه حيف ولا جور ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكتاب وَجِيءَ بالنبيين والشهدآء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحق ﴾ [الزمر : 69] الآية .

وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى الملائكة حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ﴾ [الزمر : 75] .

والحق المذكور في هذه الآيات : هو المراد بالقسط المذكور في سورة يونس في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط ﴾ [يونس : 47] .

(50/678)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أنه إذا قامت القيامة يخسر المبطلون ، أوضحه جل وعلا في سورة الجاثية في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون ﴾ [الجاثية : 27] .

والمبطل هو : من مات مصراً على الباطل .

وخسران المبطلين المذكور هنا ، قد قدمنا بيانه في سورة يونس ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس : 45] .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79)

قد قدمنا أن لفظة جعل ، تأتي في اللغة العربية لأربعة معان ، ثلاثة منها في القرآن .

الأول : إتيان جعل بمعنى اعتقد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً ﴾ [الزخرف : 19] أي اعتقدوهم إناثاً ، ومعلوم أن هذه تنصب المبتدأ والخبر .

الثاني : جعل بمعنى صيَّر ، كقوله : ﴿ حتى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 15] وهذه تنصب المبتدأ والخبر أيضاً .

الثالث : جعل بمعنى خلق ، كقوله تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] أي خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور .

والظاهر ، أن منه قوله هنا : ﴿ الله الذي جَعَلَ لَكُمُ الأنعام ﴾ أي خلق لكم الأنعام ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ [النحل : 5] ، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعاماً ﴾ [يس : 71] الآية .

الرابع : وهو الذي ليس في القرآن جعل بمعنى شرع ، ومنه قوله :

وقد جعلت إذا ما قمت يثقلني . . . ثوبي فانهض نهض الشارب السَّكِرِ

وما ذكره الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، من الامتنان بهذه النعم الكثيرة ، التي أنعم عليهم بها ، بسبب خلقه لهم الأنعام وهي الذكور والإناث ، من الإبل والبقر والضأن والمعز ، كما قدمنا إيضاحه في سورة آل عمران في الكلام على قوله : والأنعام والحرث بينه أيضاً في مواضع أخر ، كقوله تعالى : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ﴾ [النحل : 57] والدفء ما يتدفؤون به في الثياب المصنوعة من جلود الأنعام وأوبارها وأشعارها وأصوافها .

(52/678)

وقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأَنعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ [النحل : 80] . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : 7173] وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ

مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ [النحل : 66] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنعامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون : 2122] . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الأَنعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين ﴾ [الأنعام : 142143] إلى قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذا ﴾ [الأنعام : 144] وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأَنعامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر : 6] الآية . وقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنعامِ أَزْوَاجاً ﴾ [الشورى : 11] الآية . وقوله تعالى : ﴿ والذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف : 12] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

(53/678)

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ الآية .

قد ذكرنا الآيات الموضحة له في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك ، وبينا مواضعها في سورة الروم ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [الروم : 9] الآية .

فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85)

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ، في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [يونس : 51] ، وفي سورة ص في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ [ص : 3] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(54/678)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

تفريع هذا الاستفهام عقب قوله : ﴿ وَيُرِيكُم ءاياته ﴾ [غافر : 81] ، يقتضي أنه مساوق للتفريع الذي قبله وهو ﴿ فَأَيَّ ءايات الله تُنكِرُونَ ﴾ [غافر : 81] فيقتضي أن السيْر المستفهم عنه بالإنكار على تركه هو سير تحصل فيه آيات ودلائل على وجود الله ووحدانيته وكلا التفريعينْ متصل بقوله : ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُم وَعَلَيها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [غافر : 80] ، فذلك هو مناسبة الانتقال إلى التذكير بعبرة

آثار الأمم التي استأصلها الله تعالى لما كذبت رُسله وجحدت آياته ونعمه .

وحصل بذلك تكرير الإنكار الذي في قوله قبل هذا : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيروا في الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانوا مِن قَبْلِهِم كَانُوا هم أَشَدَّ منهم قُوَّةً ﴾ [غافر : 21] الآية ، فكان ما تقدم انتقالاً عقب آيات الإنذار والتهديد ، وكان هذا انتقالاً عقب آيات الامتنان والاستدلال ، وفي كلا الانتقالين تذكير وتهديد ووعيد .

وهو يشير إلى أنهم إن لم يكونوا ممن تزعهم النعم عن كفران مسديها كشأن أهل النفوس الكريمة فليكونوا ممن يردعهم الخوف من البطش كشأن أهل النفوس اللئيمة فليضعوا أنفسهم حيث يختارون من إحدى الخطتين .

والقول في قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَءَاثَاراً فِي الأَرْضِ ﴾ مثل القول في نظيره السابق في هذه السورة ، وخولف في عطف جملة ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ بين هذه الآية فعطفت بالفاء للتفريع لوقوعها بعد ما يصلح لأن يفرع عنه إنكار عدم النظر في عاقبة الذين من قبلهم بخلاف نظيرها الذي قبلها فقد وقع بعد إنذارهم بيوم الآزفة .

(55/678)

وجملة ﴿ فَمَا أغنى عَنْهم مَا كَانُوا يَكْسِبونَ ﴾ معترضة والفاء للتفريع على قوله : ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُم ﴾ وهو كقوله تعالى : ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ [ص : 57]

وقول عنترة :

ولقد نَزَلْتِ فلا تظنّي غيره

مني بمنزلة المحَبّ المكرَم . . .

وفائدة هذا الاعتراض التعجيل بإفادة إن كثرتهم وقوتهم وحصونهم وجناتهم لم تغن عنهم من بأس الله شيئاً .

وجملة ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُم رُسُلُهم بالبينات ﴾ الآية مفرعة على جملة ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُم ﴾ أي كانوا كذلك إلى أن جاءتهم رسل الله إليهم بالبينات فلم يُصدقوهم فرأوا بأسنا .

وجعلها في "الكشاف" جارية مجرى البيان والتفسير لقوله : ﴿ فَمَا أغنى عَنْهُم ﴾ ، وما سلَكْتُه أنا أحسن ومَوقع الفاء يؤيده .

ولِما في (لَمَّا) من معنى التوقيت أفادت معنى أن الله لم يغير ما بهم من النعم العظمى حتى كذبوا رسله .

وجواب (لمّا) جملة ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِنَ العِلْمِ ﴾ وما عطف عليها .

واعلم أن المفسرين ذهبوا في تفسير هذه الآية طرائق قِدداً ذكر بعضها الطبري عن بعض سلف المفسرين .

وأنهاها صاحب "الكشاف" إلى ستّ ، ومال صاحب "الكَشف" إلى إحداها ، وأبو حيان إلى أُخرى ولا حاجة إلى جلب ذلك .

والطريقة التي يرجح سلوكها هي أن هنا ضمائر عشرة هي ضمائر جمع الغائبين وأن بعضها عائد لا محالة على ﴿ الَّذِينَ مِن قَبلِهم ﴾ وأن وجه النظم أن تكون الضمائر متناسقة غير مفككة فلذا يتعين أن تكون عائدة إلى معاد واحد ، فالذين (فَرحوا بما عندهم من العلم) هم (الذين جَاءتهم رُسُلهم بالبينات) ، وهم الذين (حَاق بهم ما كانوا به يستهزئون) ، والذين رأوا بأس الله ، فما بنا إلا أن نُبين معنى ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِنَ العِلمِ ﴾ .

(56/678)

فالفَرَح هنا مكنّى به عن آثاره وهي الازدهاء كما في قوله تعالى : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح ﴾ [القصص : 76] أي بما أنت فيه مكنىً به هنا عن تمسكهم بما هم عليه ، فالمعنى : أنهم جادلوا الرسل وكابروا الأدلة وأعرضوا عن النظر .

وما عندهم من العلم هو معتقداتهم الموروثة عن أَهل الضلالة من أسلافهم .

قال مجاهد : قالوا لرسلهم : نحن أعلم منكم لن نُبعث ولن نُعذب أ هـ .

وإطلاق العلم على اعتقادهم تهكم وجري على حسب معتقدهم وإلا فهو جهل .

وقال السُدّي : فرحوا بما عندهم من العلم بجهلهم يعني فهو من قبيل قوله تعالى : ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ [الأنعام : 148].

وحاق بهم : أحاط ، يقال : حاق يحيق حيقا ، إذا أحاط ، وهو هنا مستعار للشدة التي لا تنفيس بها لأن المحيط بشيء لا يدع له مَفرجاً .

و﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هو الاستئصال والعذاب .

والمعنى : أن رسلهم أوعدوهم بالعذاب فاستهزؤوا بالعذاب ، أي بوقوعه وفي ذكر فعل الكون تنبيه على أن الاستهزاء بوعيد الرسل كان شنشنة لهم ، وفي الإتيان بـ ﴿ يستهزؤون ﴾ مُضارعاً إفادة لتكرر استهزائهم .

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84)

﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قالوا ءَامَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانهم لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾

موقع جملة ﴿ فَلَمَّا رَأَوا بَأْسَنَا ﴾ من قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُم رُسُلهم بالبينات ﴾ [غافر : 83] كموقع جملة ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُم رُسُلهم من قوله : كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُم ﴾ [غافر : 82] لأن إفادة (لمَّا) معنى التوقيت يثير معنى توقيتِ انتهاء ما قبلها ، أي دام دُعاء الرسل إياهم ودام تكذيبهم واستهزاؤهم إلى أن رَأوا بأسنا فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده .

والبَأْس : الشدة في المكروه ، وهو جامع لأصناف العذاب كقوله تعالى : ﴿ فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ [الأنعام : 42 ، 43] فذلك البأس بمعنى البَأساء ، ألا ترى إلى قوله : تضرعوا وهو هنا يقول : فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ فالبأس هنا العذاب الخارق للعادة المنذِرُ بالفناء فإنهم لما رأوه علموا أنه العذاب الذي أُنذروه .

وفرّع عليه قوله : ﴿ فَلَم يَكُ يَنفَعُهُم إيمانهم لَمَّا رَأَوا بَأْسَنَا ﴾ ، أي حين شاهدوا العذاب لم ينفعهم الإِيمان لأن الله لا يقبل الإِيمان عند نزول عذابه .

وعُدل عن أن يقال : فلم ينفعهم ، إلى قوله : ﴿ فَلَم يَكُ يَنفَعُهُم ﴾ لدلالة فعل الكون على أن خبره مقررُ الثبوتِ لاسمه ، فلما أريد نفي ثبوت النفع إياهم بعد فوات وقته اجتلب لذلك نفي فعل الكون الذي خبره ﴿ ينفعهم ﴾ .

والمعنى أن الإِيمان بعد رؤية بوارق العذاب لا يفيد صاحبه مثل الإِيمان عند الغَرْغرة ومثل الإِيمان عند طلوع الشمس من مغربها كما جاء في الحديث الصحيح وسيأتي بيان هذا

عَقبه .

﴿ بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ التى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ﴾

(58/678)

انتصب ﴿ سُنَّتَ اللهِ ﴾ على النيابة عن المفعول المطلق لأن ﴿ سنت ﴾ اسم مصدر السَّنِّ ، وهو آتتٍ بدلاً من فعله ، والتقدير : سَنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً ، فالجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً لسؤال مَن يسأل لماذا لم ينفعهم الإيمان وقد آمنوا ، فالجواب أن ذلك تقدير قدّره الله للأمم السالفة أعلمهم به وشَرَطه عليهم فهي قَديمة في عباده لا ينفع الكافر الإيمان إلا قبل ظهور البأس ولم يستثن من ذلك إلا قوم يونس قال تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴾ [يونس : 98] .

وهذا حكم الله في البأس بمعنى العقاب الخارق للعادة والذي هو آية بينة ، فأما البأس الذي هو معتاد والذي هو آية خفية مثل عذاب بأس السيف الذي نَصر الله به رسوله يومَ بدر ويومَ فتح مكة ، فإنَّ من يؤمن عند رؤيته مثل أُبي سفيان بن حرب حين رأى جيش الفتح ، أو بعد أن ينجو منه مثل إيمان قريش يوم الفَتح بعد رفع السيف عنهم ، فإيمانه كامل مثل إيمان

خالد بن الوليد ، وأبي سفيان بن الحَارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد ارتداده .

(59/678)

ووجه عدم قبول الإِيمان عند حلول عذاب الاستئصال وقبولِ الإِيمان عند نزول بأس السيف ؛ أن عذاب الاستئصال مشارفة للهلاك والخروج من عالم الدنيا فإيقاع الإِيمان عنده لا يحصِّل المقصد من إيجاب الإِيمان وهو أن يكون المؤمنون حزباً وأنصاراً لدينه وأنصاراً لرسله ، وماذا يغني إيمان قوم لم يَبق فيهم إلاّ رمق ضعيف من حياة ، فإيمانهم حينئذٍ بمنزلة اعتراف أهل الحشر بذنوبهم وليست ساعة عمل ، قال تعالى في شأن فرعون : ﴿ إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين ءالآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ [يونس : 90 ، 91] ، أي فلم يبق وقت لاستدراك عصيانه وإفساده ، وقال تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ [الأنعام : 158] فأشار قوله : أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ إلى حكمة عدم انتفاع أحد بإيمانه ساعتئذٍ .

وإنما كان ما حل بقوم يونس حالاً وسيطاً بين ظهور البأس وبين الشعور به عند ظهور

علاقاته كما بيّناه في سورة يونس .

وجملة ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ كالفذلكة لقوله : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُم إيمانهم لَمَّا رَأَوا بَأْسَنَا ﴾ ، وبذلك آذنت بانتهاء الغرض من السورة .

و﴿ هنالك ﴾ اسم إشارة إلى مكانٍ ، استعير للإشارة إلى الزمان ، أي خسروا وقتَ رؤيتهم بأسنا إذْ انقضت حياتهم وسلطانهم وصاروا إلى ترقب عذاب خالد مستقبل .

والعدول عن ضمير ﴿ الَّذِينَ كانوا مِن قَبْلِهم كَانُوا هم أَشَدَّ منهم قُوَّةً ﴾ [غافر : 21] إلى الاسم الظاهر وهو الكافرون ﴾ إيماءٌ إلى أن سبب خسرانهم هو الكفر بالله وذلك إعذار للمشركين من قريش .

أسلوب سورة غافِر

أسلوبها أسلوبُ المحاجّة والاستدلال على صدق القرآن وأنه منزل من عند الله ، وإبطال ضلالة المكذبين وضرب مثلهم بالأمم المكذبة ، وترهيبهم من التمادي في ضلالهم وترغيبهم في التبصر ليهتدوا .

وافتتحت بالحرفين المقطعين من حروف الهجاء لأن أول أغراضها أن القرآن من عند الله ففي حرفي الهجاء رمزٌ إلى عجزهم عن معارضته بعد أن تحدّاهم ، لذلك فلم يفعلوا ، كما تقدم في فاتحة سورة البقرة .

وفي ذلك الافتتاح تشويق إلى تطلّع ما يأتي بعده للاهتمام به .

وكان في الصفات التي أجريت على اسم مُنزِّل القرآن إيماء إلى أنه لا يشبه كلام البشر لأنه كلام العزيز العليم ، وإيماء إلى تيسير إقلاعهم عن الكفر ، وترهيب من العقاب على الإِصرار ، وذلك كله من براعة الاستهلال .

ثم تُخلص من الإِيماء والرمز إلى صَريح وصف ضلال المعاندين وتنظيرهم بسابقيهم من الأمم التي استأصلها الله .

وخص بالذكر أعظم الرسل السالفين وهو موسى مع أمةٍ من أعظم الأمم السالِفة وهم أهل مصر وأطيل ذلك لشدة مماثلة حالهم لحال المشركين من العرب في الاعتزاز بأنفسهم ، وفي قلة المؤمنين منهم مثل مؤمن آل فرعون ، وتخلل ذلك ثَبات موسى وثَبات مؤمن آل فرعون إيماء إلى التنظير بثبات محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، ثم انتقل إلى الاستدلال على الوحدانية وسعة القدرة على إعادة الأموات .

وختمت بذكر أهل الضلال من الأمم السالفة الذين أَوْبقهم الإِعجابُ برأيهم وثقتهم بجهلهم فصمَّت آذانهم عن سماع حجج الحق ، وأعماهم عن النظر في دلائل الكون فحسبوا أنهم

على كمال لا ينقصهم ما به حاجة إلى الكمال ، فحاق بهم العذاب ، وفي هذا رد العجز على الصدر .

وخوّف الله المشركين من الانزلاق في مهواة الأولين بأن سنة الله في عباده الإِمهال ثم المؤاخذة ، فكان ذلك كلمة جامعة للغرض أذنت بانتهاء الكلام فكانت محسن الختام .

(61/678)

وتخلل في ذلك كلّه من المستطردات والانتقالات بذكر ثناء الملأ الأعلى على المؤمنين وثنائهم على الكافرين ، وذكر ما هم صائرون إليه من العذاب والندامة ، وتمثيل الفارق بين المؤمنين والكافرين ، وتشويه حال الكافرين في الآخرة ، وتثبيت المؤمنين على إيمانهم وأن الله ناصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة ، وأمْرَهم بالصبر والتوكل ، وأن شأن الرسول صلى الله عليه وسلم كشأن الرسل من قبله في لُقيان التكذيب وفي أنه يأتي بالآيات التي أجراها الله على يديه دون مقترحات المعاندين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 24 صـ ﴾

(62/678)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾

أخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : يثغر الغلام لسبع ، ويحتلم لأربعة عشر ، وينتهي طوله لإحدى وعشرين ، وينتهي عقله لثمان وعشرين ، ويبلغ أشده لثلاث وثلاثين .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير رضي الله عنه ﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ قال : من قبل أن يكون شيخاً ﴿ ولتبلغوا أجلاً مسمى ﴾ الشيخ والشاب ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ عن ربكم أنه يحييكم كما أماتكم وهذه لأهل مكة كانوا يكذبون بالبعث .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ أنّى يصرفون ﴾ قال : أنّى يكذبون وهم يعقلون .

إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71)

أخرج أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ، في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ فقال : " لو أن رصاصة مثل هذه – وأشار إلى جمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض وهي

مسيرة خمسمائة سنة – لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً – الليل والنهار – قبل أن تبلغ أصلها أو قال قعرها " .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه عن يعلى بن منبه رضي الله عنه رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينشىء الله سحابة لأهل النار سوداء مظلمة يقال لها ولأهل النار أي شيء تطلبون ؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقولون : يا ربنا الشراب ، فتمطرهم أغلالاً تزيد في أعناقهم ، وسلاسل تزيد في سلاسلهم ، وجمراً يلتهب عليهم " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ ﴿ والسلاسل يسحبون ، في الحميم ﴾ .

(63/678)

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير رضي الله عنه وهو يصلي في شهر رمضان يردد هذه الآية ﴿ فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ، في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ .

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ﴿ يسحبون ، في

الحميم ﴾ فيسلخ كل شيء عليهم من جلد ، ولحم ، وعرق ، حتى يصير في عقبه . حتى ان لحمه قدر طوله ستون ذراعاً . ثم يكسى جلداً آخر ، ثم يسجر في الحميم ، فيسلخ كل شيء عليهم من جلد ولحم وعرق .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ يسجرون ﴾ قال : توقد بهم النار . وفي قوله ﴿ تمرحون ﴾ قال : تبطرون وتاشرون .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ

أخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ قال : بعث الله عبداً حبشياً نبياً ، فهو ممن لم يقصص على محمد صلى الله عليه وسلم .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ قال : أسفاركم لحاجتكم ما كانت . وفي قوله ﴿ وآثاراً في الأرض ﴾ قال : المشي فيها بأرجلهم . وفي قوله ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ قال : قولهم نحن أعلم منهم ولن نعذب ، وفي قوله ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ قال : ما جاءت به رسلهم من الحق .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ قال : من بلد إلى بلد . وفي قوله ﴿ سنت الله التي قد خلت في عباده ﴾ قال : سننه أنهم كانوا إذا رأوا بأسنا آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم عند ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 7 صـ ﴾

(64/678)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا ﴾

رَوَى سُفْيَانُ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إبْرَاهِيمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا ﴾ قَالَ : بُنِيَ بِالْآجُرِّ ، وَكَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَبْنُوا بِالْآجُرِّ وَيَجْعَلُونَهُ فِي قُبُورِهِمْ " .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ رَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ الْأَعْمَشِ وَمَنْصُورٍ عَنْ سَبِيعٍ الْكِنْدِيِّ عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ الْآيَةَ . ﴾

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ غُدُوًّا وَعَشِيًّا قَبْلَ الْقِيَامَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(65/678)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً ﴾ .

فمن تُرْبَةٍ إلى قطْرَةٍ ؛ ومن قطرةٍ إلى عَلَقَةٍ . . ثم من بطون أُمهاتكم إلى ظهوركم في دنياكم . .

ثم من حال كونكم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً .

وهو الذي يحيي ويميت ، ثم يبعث في أُخرى الدارين .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69)

في آيات الله يتبلّدُون ؛ فلا حُجة يوردُون ، ولا عذاب عن أنفسهم يرُدُّون ، سيعلمون حين لا ينفعهم عِلمُهم ، ويعتذرون حين لا يُسمَع عُذْرُهم ، وذلك عندما

إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72)

يُسحبُون في النار والأغلالُ في أعناقهم ، ثم يُذاقُون ألوان العذاب . فإذا أُقرُّوا بكفرهم وذنوبهم يقال لهم : أدخلوا جهنم خالدين فيها ، فبئس مثواهم ومصيرهم ، وساء ذهابُهم ومسيرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ .

كُنْ بِقلبكَ فارغاً عنهم ، وانظر من بعدُ إلى ما يُفعلُ بهم ، واستيقن بأنه لا بقاء لجولة باطلهم . . فإن لقيت بعض ما نتوعدُهم به وإلاّ فلا تكُ في ريبٍ من مقاساتهم ذلك بَعْدُ . ثم أكَّدَ تسليتَه إياه وتجديدَ تصبيره وتعريفه بقوله :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

قصصنا عليك قصصَ بعضهم ، ولم نخبرك عن قصص الآخرين .

ولم يكن في وسع أحدٍ الإتيان بمعجزة إلا إذا أظهرنا نحن عليه ما أردنا إذا ما أردنا . فكذلك إن طالبُوك بآيةٍ فقد أظهرنا عليك من الآيات ما أزحنا به العُذْرُ ، ووضحنا صِحّةَ الأمر . . وما اقترحُوه . . فإن شئنا أظْهَرنا ، وإن شِئنا تَركنا .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79)

ذكّرهم عظيمَ إنعامه بتسخير الأنعام ؛ فقال جعلها لكم لتنتفعوا بها بالركوب والحمل والعمل ، ولتستقوا ألبانها ، ولتأكلوا لحومها وشحومَها ، ولتنتفعوا بأصوافها وأوبارها وأشعارها ، ولتقطعوا مسافة بعيدةً عليها . . فعلى الأنعام وفي الفُلْكِ تنتقلون من صقْعٍ إلى صُقعٍ . . وأنا الذي يَسَّرْتُ لكم هذا ، وأنا الذي ألهمتكم الانتفَاع به ؛ فثقُوا في ذلك واعرفوه .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82)

أمَرَهم بالاعتبار بِمَنْ كانُوا قبلهُمْ ؛ كانوا أشدّ قوةً وأكثر أموالاً وأطول أعماراً ، فانجرُّوا في حِبَالِ آمالهم ، فوقعوا في وهْدَةِ غرورهم ، وما في الحقِّ عن مراده فيهم ، واغتروا بسلامتهم في مُدّةِ ما أرخينا لهم عنان آمالهم ، ثم فاجأناهُم بالعقوبة ، فلم يُعْجِزُوا الله في مُرادِه منهم . فلمّا رأوا شِدّةَ البأسِ ، ووقعوا مذلّةِ الخيبة واليأس تمنّوا أن لو أُعيدُوا إلى الدنيا من الرأس . . فقابلهم الله بالخيبة (1) ؛ وخرطهم في سِلكِ مَن أبادهم من أهل الشِّرْكِ

والسّخْطِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 315.318 ﴾

---

(1) لأن التوبة لا تكون بعد حصول العلم الضروري ورؤية العذاب ، فإن أوانها يكون قد انقضى .

(67/678)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ ويا قوم مَا لِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النجاة ﴾

يعني : أن حزبيل قال لقومه : ما لي أدعوكم إلى التوحيد ، والطاعة ، وذلك سبب النجاة ، والمغفرة ، فلم تطيعوني ، ﴿ وَتَدْعُونَنِى إِلَى النار ﴾ يعني : إلى عمل أهل النار .

ثم بيّن عمل أهل النار فقال : ﴿ تَدْعُونَنِى لأَكْفُرَ بالله ﴾ يعني : لأجحد بوحدانية الله ، ﴿ وَأُشْرِكَ بِهِ ﴾ أي : أشرك بالله ، ﴿ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ﴾ يعني : ما ليس لي به حجة بأن مع الله شريكاً ، ﴿ وَأَنَاْ أَدْعُوكُمْ إِلَى العزيز الغفار ﴾ يعني : إلى دين العزيز الغفار ﴿ العزيز ﴾ في ملكه ﴿ الغفار ﴾ لمن تاب .

﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ أي : حقاً يقال ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ يعني : لا بد .

﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدنيا ﴾ أي : ليس له قدرة .

ويقال : ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا .

﴿ وَلاَ فِى الآخرة وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى الله ﴾ أي مصيرنا ، ومرجعنا إلى الله يوم القيامة ، ﴿ وَأَنَّ المسرفين ﴾ يعني : المشركين ، ﴿ هُمْ أصحاب النار ﴾ يعني : هم في النار أبداً .

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ يعني : ستعرفون إذا نزل بكم العذاب ، وتعلمون أن ما أقول لكم من النصيحة أنه حق .

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى الله ﴾ يعني : أمر نفسي إلى الله ، وأدع تدبيري إليه ، ﴿ إِنَّ الله بَصِيرٌ بالعباد ﴾ يعني : عالم بأعمالهم ، وبثوابهم .

فأرادوا قتله ، فهرب منهم ، فبعث فرعون في طلبه ، فلم يقدروا عليه ، فذلك قوله : ﴿ فَوَقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ يعني : دفع الله عنه شر ما أرادوا ، ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ﴾ يعني : نزل بهم ﴿ سُوء العذاب ﴾ يعني : شدة العذاب ، وهو الغرق .

(68/678)

﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ قال ابن عباس : يعني : تعرض أرواحهم على النار ، ﴿ غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ هكذا قال قتادة ، ومجاهد ، وقال مقاتل : تعرض روح كل كافر على منازلهم

من النار كل يوم مرتين .

وقال ابن مسعود : " أَرْوَاحُهُم في جوْف طَيْر سُودٍ يَرَوْنَ مَنَازِلهم غُدوة وَعَشِيَّةً " .

وقال هذيل بن شرحبيل : " أرواح الشهداء في جوف طير خضر تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش " .

وإن أرواح آل فرعون في جوف طير سود تغدو ، وتروح ، على النار فذلك عرضها .

والآية تدل على إثبات عذاب القبر ، لأنه ذكر دخولهم النار يوم القيامة .

وذكر أنه تعرض عليهم النار قبل ذلك غدواً وعشياً .

ثم قال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ يعني : يقال لهم يوم القيامة : ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ .

قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو : ﴿ أَدْخِلُواْ ﴾ بضم الألف ، والخاء .

وهكذا قرأ عاصم في رواية أبي بكر .

والباقون : بنصب الألف ، وكسر الخاء .

فمن قرأ ﴿ أَدْخِلُواْ ﴾ بالضم .

فمعناه : ادخلوا يا آل فرعون ﴿ أَشَدَّ العذاب ﴾ ، فصار الآل نصباً بالنداء .

ومن قرأ ﴿ أَدْخِلُواْ ﴾ بالنصب .

معناه : يقال للخزنة : أدخلوا آل فرعون .

يعني : قوم فرعون ﴿ أَشَدَّ العذاب ﴾ يعني : أسفل العذاب .

فصار الآل نصباً لوقوع الفعل عليه .

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ أي : يتخاصمون في النار الضعفاء ، والرؤساء ، فَيَقُولُ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ يعني : لرؤسائهم ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ في الدنيا ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا ﴾ أي : حاملون عنا ، ﴿ نَصِيباً مِّنَ النار ﴾ يعني : بعض الذي علينا من العذاب ، باتباعنا إياكم ، كما كنا ندفع عنكم المؤونة في دار الدنيا .

(69/678)

﴿ قَالَ الذين استكبروا ﴾ يعني : الرؤساء يقولون للضعفاء : ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ يعني : نعذب نحن ، وأنتم على قدر حصصكم في الذنوب ، فلا يغني واحد واحداً ، ﴿ إِنَّ الله قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العباد ﴾ أي : قضى بين العباد ، بين التابع والمتبوع .

ويقال : ﴿ حَكَمَ بَيْنَ العباد ﴾ يعني : أنزلنا منازلنا ، وأنزلكم منازلكم .

﴿ وَقَالَ الذين فِى النار لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ إذا اشتد عليهم العذاب ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ ﴾ يعني : سلوا ربكم .

﴿ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ العذاب ﴾ يعني : يوماً من أيام الدنيا ، حتى نستريح ، فترد الخزنة

عليهم فتقول : ﴿ قَالُواْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بالبينات ﴾ يعني : ألم تخبركم الرسل أن عذاب جهنم إلى الأبد .

ويقال : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بالبينات ﴾ يعني : ألم تخبركم الرسل بالدلائل ، والحجج ، والبراهين ، فكذبتموهم .

﴿ قَالُواْ بلى قَالُواْ فادعوا ﴾ يعني : تقول لهم الخزنة ، فادعوا ما شئتم ، فإنه لا يستجاب لكم .

﴿ وَمَا دُعَاء الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ أي : في خطأ بيّن .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ بالغلبة ، والحجة ، ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ بهم يعني : الذين صدقوهم ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ أي : بالحجة ، والغلبة على جميع الخلق .

يعني : على جميع أهل الأديان ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الاشهاد ﴾ قال مقاتل : يعني : الحفظة من الملائكة ، يشهدون عند رب العالمين للرسل بالبلاغ ، وعلى الكافرين بتكذيبهم .

وقال الكلبي : يعني : يوم القيامة يقوم الرسل عند رب العالمين ، ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ يعني : لا ينفع الكافرون اعتذارهم .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ يَوْمٌ لاَّ تَنفَعُ ﴾ بالتاء بلفظ التأنيث ، لأن المعذرة مؤنثة .

والباقون : بالياء .

وانصرف إلى المعنى ، يعني : لا ينفع لهم اعتذارهم ﴿ وَلَهُمُ اللعنة ﴾ أي : السخطة ﴿ وَلَهُمْ سُوء الدار ﴾ أي : عذاب جهنم .

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الهدى ﴾ يعني : التوراة فيها هدى ، ونور من الضلالة ، ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِى إسراءيل الكتاب ﴾ يعني : أعطيناهم على لسان الرسل التوراة ، والإنجيل ، والزبور ﴿ هُدًى ﴾ أي : بياناً من الضلالة .

ويقال : فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وذكرى لِاوْلِى الالباب ﴾ يعني : عظة لذوي العقول .

﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ يعني : اصبر يا محمد على أذى المشركين .

فإن وعد الله حق ، وهو ظهور الإسلام على الأديان كلها ، وفتح مكة .

﴿ واستغفر لِذَنبِكَ ﴾ .

وهذا قبل نزول قوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ [الفتح : 2] .

ويقال : ﴿ أَسْتَغْفِرُ لِذَنبِكِ ﴾ أي : لذنب أمتك ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي : صل بأمر ربك ﴿ بالعشى ﴾ أي : صلاة العصر ، ﴿ والإبكار ﴾ يعني : صلاة الغداة .

ويقال : سبح الله تعالى ، واحمده بلسانك في أول النهار ، وآخره .

﴿ إِنَّ الذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾ قال الكلبي ومقاتل : يعني : اليهود ، والنصارى ، كانوا يجادلون في الدجال .

وذلك أنهم كانوا يقولون : إن صاحبنا يبعث في آخر الزمان ، وله سلطان ، فيخوض البحر ، وتجري معه الأنهار ، ويرد علينا الملك .

فنزل : ﴿ إِنَّ الذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾ يعني : في الدجال .

لأن الدجال آية من آيات الله ، ﴿ بِغَيْرِ سلطان ﴾ أي : بغير حجة ﴿ ءاتاهم ﴾ من الله .

﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم ببالغيه ﴾ أي : ما في قلوبهم إلا عظمة ﴿ مَّا هُم ببالغيه ﴾ يعني : ما هم ببالغي ذلك الكبر الذي في قلوبهم ، بأن الدجال منهم .

(71/678)

وقال القتبي : إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ تكبراً على محمد صلى الله عليه وسلم ، وطمعاً أن يغلبوه ، وما هم ببالغي ذلك .

وقال الزجاج : معناه وما هم ببالغي إرادتهم ، وإرادتهم دفع آيات الله .

وروى أبو جعفر الرازي ، عن الربيع ، عن أبي العالية قال : إن اليهود ذكروا الدجال ،

وعظموا أمره ، فنزل : ﴿ إِنَّ الذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾ يعني : إن الدجال من آيات الله ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من فتنة الدجال ، فإنه ليس ثم فتنة أعظم من فتنة الدجال .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لقول اليهود ، ﴿ البصير ﴾ يعني : العليم بأمر الدجال .

ويقال : ﴿ السميع ﴾ لدعائك ، ﴿ البصير ﴾ برد فتنة الدجال عنك .

﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ قال الكلبي ومقاتل : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض ﴾ أعظم من خلق الدجال .

ويقال : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض ﴾ أعظم من خلق الناس بعد موتهم .

يعني : أنهم يبعثون يوم القيامة ، ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الدجال خلق من خلق الله .

ويقال : لا يعلمون أن الله يبعثهم ، ولا يصدقون .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الاعمى والبصير ﴾ يعني : الكافر ، والمؤمن في الثواب ، ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَلاَ المسىء ﴾ يعني : لا يستوي الصالح ، مع الطالح ، ﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : يتعظون ، ويعتبرون .

قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بالتاء على وجه المخاطبة .

والباقون : بالياء ﴿ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ على معنى الخبر عنهم .

وفي كلا القراءتين مَا للصلة ، والزينة .

﴿ إِنَّ الساعة لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ﴾ يعني : قيام الساعة آتية لا شك فيها عند المؤمنين ،

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : لا يصدقون الله تعالى .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال الكلبي معناه : وحدوني ، أغفر لكم .

(72/678)

وقال مقاتل : معناه : وقال ربكم لأهل الإيمان ، ادعوني أستجب لكم ، ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ أي : عن توحيدي ، فلا يؤمنون بي ، ولا يطيعونني .

﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخرين ﴾ أي : صاغرين .

ويقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى ﴾ يعني : الدعاء بعينه : ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ يعني : أستجب دعاءكم .

وقال بعض المتأخرين : معناه ادعوني بلا غفلة ، أستجب لكم بلا مهلة .

وقيل أيضاً : ادعوني بلا جفاء ، أستجب لكم بالوفاء .

وقيل أيضاً : ادعوني بلا خطأ ، أستجب لكم مع العطاء .

وروى النعمان بن بشير ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ العِبَادَةُ ، ثُمَّ قرأ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ

جَهَنَّمَ داخرين ﴾ " قرأ ابن كثير ، وعاصم ، في رواية أبي بكر ، وإحدى الروايتين ، عن أبي عمرو : ﴿ سَيَدْخُلُونَ ﴾ بضم الياء ، ونصب الخاء على معنى فعل ما لم يسم فاعله ، وتكون جهنم مفعولاً ثانياً .

والباقون : يدخلون بنصب الياء ، وضم الخاء ، على الإخبار عنهم بالفعل المستقبل ، على معنى سوف يدخلون .

﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الليل ﴾ أي : خلق لكم الليل ، ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ أي : لتستقروا فيه ، وتستريحوا فيه ، ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ أي : مضيئاً لابتغاء الرزق ، والمعيشة .

ويقال : ﴿ مُبْصِراً ﴾ معناه : يبصر فيه ، ﴿ إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ يعني : على أهل مكة بتأخير العذاب عنهم .

ويقال ﴿ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ أي : على جميع الناس ، بخلق الليل والنهار ، ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ لربهم في النعمة فيوحدونه ، ويطيعونه .

﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ ﴾ يعني : الذي خلق هذا هو ربكم ، ﴿ خالق كُلِّ شَىْءٍ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي : تصرفون ، وتحولون .

(73/678)

ويقال : ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي : من أين تكذبون ، ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ ﴾ أي : هكذا يكذب .

ويقال : هكذا يحول ، ﴿ الذين كَانُواْ بِآيات الله يَجْحَدُونَ ﴾ ويقال : هكذا يؤفك الذين كانوا من قبلهم .

﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً ﴾ أي بسط لكم الأرض ، وجعلها موضع قراركم ، ﴿ والسماء بِنَاء ﴾ أي : خلق السماء فوقكم مرتفعاً ، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ ﴾ أي : خلقكم ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ ولم يخلقكم على صورة الدَّواب ، ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي : أحكم خلقكم ، ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ أي : الحلالات .

يقال : اللذيذات ، ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ ﴾ يعني : الذي خلق هذه الأشياء هو ربكم ، ﴿ فتبارك الله رَبُّ العالمين ﴾ أي : فتعالى الله رب العالمين .

ويقال : هو من البركة يعني : البركة منه .

﴿ هُوَ الحى ﴾ يعني : هو الحي الذي لا يموت ، ويميت الخلائق ، ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ يعني : بالتوحيد ، ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ يعني : قولوا الحمد لله رب العالمين الذي صنع لنا هذا .

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ ﴾ يعني : قل يا محمد لأهل مكة : ﴿ إِنِّى نُهِيتُ ﴾ ﴿ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ يعني : نهاني ربي أن أعبد الذين تعبدون من دون الله من الأصنام ،

﴿ لَمَّا جَاءِنِى البينات مِن رَّبِّى ﴾ يعني : حين جاءني الواضحات ، وهو القرآن ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ يعني : أستقيم على التوحيد ، ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ وقد ذكرناه من قبل ، ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً ﴾ يعني : يعيش الإنسان إلى أن يصير شيخاً ، ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ﴾ ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ يعني : الشباب ، والشيخ ، يبلغ ﴿ أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ وقتاً معلوماً .

(74/678)

ويقال : في الآية تقديم ، ومعناه : ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً ﴾ أي : لتبلغوا ﴿ أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ يعني : وقت انقضاء أجله ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل أن يبلغ أشده . ويقال : من قبل أن يصير شيخاً ، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : لكي تعقلوا أمر ربكم ، ولتستدلوا به ، وتتفكروا في خلقه .

﴿ هُوَ الذى إِلَه ﴾ أي : يحيي للبعث ، ويميت في الدنيا ، على معنى التقديم ، ويقال : معناه هو الذي يحيي في الأرحام ، ويميت عند انقضاء الآجال ، ﴿ فَإِذَا قضى أَمْراً ﴾ يعني : أراد أن يخلق شيئاً ، ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يجادلون فِى ءايات الله ﴾ أي : يجادلون في القرآن ، أنه ليس منه ، ﴿ أنى يُصْرَفُونَ ﴾ يعني : من أين يصرفون عن القرآن ، والإيمان من أين تعدلون عنه إلى غيره ؟ ويقال : عن الحق ، والتوحيد .

ثم وصفهم فقال : ﴿ الذين كَذَّبُواْ بالكتاب ﴾ أي : بالقرآن ، ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ يعني : بالتوحيد .

ويقال : بالأمر ، والنهي ، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ماذا ينزل بهم في الآخرة .

ثم وصف ما ينزل بهم ، فقال عز وجل : ﴿ إِذِ الاغلال فِى أعناقهم ﴾ يعني : ترد أيمانهم إلى أعناقهم ﴿ والسلاسل يُسْحَبُونَ ﴾ يعني : تجعل السلاسل في أعناقهم ، يُسْحَبُونَ ، ويجرون ، ﴿ فِى الحميم ﴾ يعني : في ماء حار ، قد انتهى حره .

قال مقاتل ﴿ يُسْحَبُونَ فِى الحميم ﴾ يعني : في حر النار .

وقال الكلبي : يعني : في الماء الحار .

﴿ ثُمَّ فِى النار يُسْجَرُونَ ﴾ أي : يوقدون ، فصاروا وقوداً .

وروي عن ابن عباس أنه قرأ : ﴿ والسلاسل ﴾ بنصب اللام ، ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ بنصب الياء ، يعني : أنهم يسحبون السلاسل .

وقال : هو أشد عليهم .

وقراءة العامة ﴿ والسلاسل ﴾ بضم اللام ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ بالضم على معنى فعل ما لم

يسم فاعله .

والمعنى : أن الملائكة يسحبونهم في السلاسل .

(75/678)

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي : تقول لهم الخزنة : ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ أي : تعبدون ، ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ من الأوثان ، ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ يعني : اشتغلوا بأنفسهم عنا ، ﴿ بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً ﴾ وذلك أنهم يندمون على إقرارهم ، وينكرون ، ويقولون : ﴿ بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً ﴾ في الدنيا .

ويقال : معناه بل لم نكن نعبد شيئاً ينفعنا .

يقول الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ الله الكافرين ﴾ عن الحجة ، ﴿ ذلكم ﴾ أي : ذلكم العذاب ، ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الأرض ﴾ أي : تبطرون ، وتتكبرون في الأرض ﴿ بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي : تعصون ، وتستهزئون بالمسلمين ، ﴿ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ أي : فبئس مقام المتكبرين عن الإيمان .

﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ يعني : اصبر يا محمد على أذى الكفار ، ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ أي : كائن ، ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب يعني : فإما نرينك

بعض الذي نعدهم من العذاب في الدنيا ، وهو القتل ، والهزيمة .

﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ من قبل أن نرينك عذابهم في الدنيا ، ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يعني : يرجعون إلينا في الآخرة ، فنجزيهم بأعمالهم .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ ﴾ يعني : إلى قومهم ، ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ يعني : سميناهم لك ، فأنت تعرفهم ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ يعني : لم نسمهم لك ولم نخبرك بهم يعني : أنهم صبروا على أذاهم ، فاصبر أنت يا محمد على أذى قومك كما صبروا .

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾ أي : ما كان لرسول ، من القدرة ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً ﴾ أي بدلائل ، وبراهين ، ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ يعني : بأمره .

(76/678)

﴿ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللهِ ﴾ يعني : العذاب ، ﴿ قُضِيَ بِالحَقِّ ﴾ أي : عذبوا ، ولم يظلموا حين عذبوا ، ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ المبطلون ﴾ .

أي : خسر عند ذلك المبطلون .

يعني : المشركون .

ويقال : يعني : الظالمون .

ويقال : الخاسرون .

ثم ذكر صنعه ليعتبروا فقال : ﴿ اللهُ الذى جَعَلَ لَكُمُ الأنعام ﴾ يعني : خلق لكم البقر ، والغنم ، والإبل ، ﴿ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا ﴾ أي بعضها وهو الإبل ، ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي : من الأنعام منافع في ظهورها ، وشعورها ، وشرب ألبانها ، ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ أي ما في قلوبكم ، من بلد إلى بلد ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ ﴾ يعني : على الأنعام ، وعلى السفن ، ﴿ وَيُرِيكُمْ ءاياته ﴾ يعني : دلائله ، وعجائبه ، ﴿ وَيُرِيكُمْ ءاياته فَأَىَّ ءايات ﴾ بأنها ليست من الله ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض ﴾ يعني : يسافروا في الأرض ، ﴿ فَيَنظُرُواْ ﴾ أي : فيعتبروا ، ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : آخر أمر من كان قبلهم ، كيف فعلنا بهم حين كذبوا رسلهم ، ﴿ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ يعني : أكثر من قومك في العدد ، ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ من قومك ، ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ﴾ ، يعني : مصانعهم أعظم آثاراً في الأرض ، وأطول أعماراً ، وأكثر ملكاً في الأرض ، ﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ يعني : لم ينفعهم ما عملوا في الدنيا ، حين نزل بهم العذاب .

﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالأمر ، والنهي ، وبخبر العذاب ، ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ﴾ يعني : من قلة علمهم ، رضوا بما عندهم من العلم ، ولم ينظروا إلى دلائل الرسل .

ويقال : رضوا بما عندهم .

فقالوا : لن نعذب ، ولن نبعث .

(77/678)

ويقال : ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ﴾ أي : علم التجارة ، كقوله ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافلون ﴾ [الروم : 7] .

﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي نزل بهم ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ أي : يسخرون به ، ويقولون : إنه غير نازل بهم .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ أي : عذابنا في الدنيا ، ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا ﴾ أي : تبرأنا ، ﴿ بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ يعني : بما كنا به مشركين من الأوثان ، ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانهم ﴾ يعني : تصديقهم ، ﴿ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ أي : حين رأوا عذابنا .

قال القتبي : البأس الشدة .

والبأس العذاب كقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ وكقوله : ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّواْ ﴾ بأسنا ، ﴿ سُنَّتَ الله التى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ ﴾ قال مقاتل : يعني : كذلك كانت سنة الله ﴿ فِى عِبَادِهِ ﴾ .

يعني : العذاب في الأمم الخالية إذا عاينوا العذاب ، لم ينفعهم الإيمان .

وقال القتبي : هكذا سنة الله أنه من كفر عذبه ، ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ أي : خسر عند ذلك الكافرون بتوحيد الله عز وجل ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 198 . 206 ﴾

(78/678)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ لا جَرَمَ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه : لا بد ، قاله المفضل .

الثاني : معناه : لقد حق واستحق ، قاله المبرد .

الثالث : أنه لا يكون إلا جواباً كقول القائل : فعلوا كذا ، فيقول المجيب : لا جرم انهم سيندمون ، قاله الخليل .

﴿ أن ما تدعونني إليه ﴾ أي من عبادة ما تعبدون من دون الله .

﴿ ليس له دعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : لا يستجيب لأحد في الدنيا ولا في الآخرة ، قاله السدي .

الثاني : لا ينفع ولا يضر في الدنيا ولا في الآخرة ، قاله قتادة .

الثالث : ليس له شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة ، قاله الكلبي .

﴿ وأن مردنا إلى الله ﴾ أي مرجعنا بعد الموت إلى الله ليجازينا على أفعالنا .

﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : يعني المشركين ، قاله قتادة .

الثاني : يعني السفاكين للدماء بغير حق ، قاله الشعبي ، وقال مجاهد : سمى الله القتل سرفاً .

قوله عز وجل : ﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني في الآخرة ، قاله ابن زيد .

الثاني : عند نزول العذاب بهم ، قاله النقاش .

﴿ وأفوّض أمري إلى الله ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه : وأسلم أمري إلى الله ، قاله ابن عيسى .

الثاني : أشهد عليكم الله ، قاله ابن بحر .

الثالث : أتوكل على الله ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بأعمال العباد .

الثاني : بمصير العباد .

وفي قائل هذا قولان :

أحدهما : أنه من قول موسى .

الثاني : من قول مؤمن آل فرعون ، فعلى هذا يصير بهذا القول مظهراً لإيمانه . قوله عز وجل : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن موسى وقاه الله سيئات ما مكروا ، فعلى هذا فيه قولان :

أحدهما : أن مؤمن آل فرعون نجاه الله مع موسى حتى عبر البحر واغرق الله فرعون ، قاله قتادة ، وقيل إن آل فرعون هو فرعون وحده ومنه قول أراكة الثقفي :

(79/678)

لا تبك ميتاً بعد موت أحبةٍ . . . عليّ وعباس وآل أبي بكر

يريد أبا بكر .

الثاني : أن مؤمن آل فرعون خرج من عنده هارباً إلى جبل يصلي فيه ، فأرسل في طلبه ، فجاء الرسل وهو في صلاته وقد ذبت عنه السباع والوحوش أن يصلوا إليه ، فعادوا إلى

فرعون فأخبروه فقتلهم فهو معنى قوله ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ .

﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم قومه ، وسوء العذاب هو الغرق ، قاله الضحاك .

الثاني : رسله الذين قتلهم ، وسوء العذاب هو القتل .

قوله عز وجل : ﴿ النار يعرضون عليها غُدُوّاً وعشيّاً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه يعرض عليهم مقاعدهم من النار غدوة وعشية ، فيقال : لآلِ فرعون هذه منازلكم ، توبيخاً ، قاله قتادة .

الثاني : أن أرواحهم في أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح فذلك عرضها ، قاله ابن مسعود .

الثالث : أنهم يعذبون بالنار في قبرهم غدواً وعشياً ، وهذا لآل فرعون خصوصاً . قال مجاهد : ما كانت الدنيا .

﴿ ويوم تقوم الساعةُ ﴾ وقيامها وجود صفتها على استقامة ، ومنه قيام السوق وهو حضور أهلها على استقامة في وقت العادة .

﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ لأن عذاب جهنم مُخْتَلِف . وجعل الفراء في الكلام تقديماً وتأخيراً وتقديره : ادخلوا آل فرعون أشد العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ، وهو خلاف ما ذهب إليه غيره من انتظام الكلام على سياقه .

قوله عز وجل : ﴿ إنا لننصُرُ رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بإفلاج حجتهم ، قاله أبو العالية .

الثاني : بالانتقام من أعدائهم قال السدي : ما قتل قوم قط نبياً أو قوماً من دعاة الحق من المؤمنين إلا بعث الله من ينتقم لهم فصاروا منصورين فيها وإن قُتلوا .

﴿ ويومَ يقَوم الأشْهاد ﴾ بمعنى يوم القيامة . وفي نصرهم قولان :

أحدهما : بإعلاء كلمتهم وإجزال ثوابهم .

الثاني : إنه بالانتقام من أعدائهم .

وفي ﴿ الأشهاد ﴾ ثلاثة أقاويل :

(80/678)

أحدها : أنهم الملائكة شهدوا للأنبياء بالإبلاغ ، وعلى الأمم بالتكذيب ، قاله مجاهد والسدي .

الثاني : انهم الملائكة والأنبياء ، قاله قتادة .

الثالث : أنهم أربعة : الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد ، قاله زيد بن أسلم ثم في ﴿ الأشهاد ﴾ أيضاً وجهان :

أحدهما : جمع شهيد مثل شريف ، وأشراف .

الثاني : أنه جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب .

قوله عز وجل : ﴿ فاصبر إنَّ وعد الله حق ﴾ فيه قولان :

أحدهما : هو ما وعد الله رسوله في آيتين من القرآن أن يعذب كفار مكة ، قاله مقاتل .

الثاني : هو ما وعد الله رسوله أن يعطيه المؤمنين في الآخرة ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ واستغفر لذنبك ﴾ اي من ذنب إن كان منك . قال الفضيل : تفسير الاستغفار أقلني .

﴿ وسبح بحمد ربِّك ﴾ قال مجاهد : وصَلِّ بأمر ربك .

﴿ بالعشي والإبكار ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها صلاة العصر والغداة ، قاله قتادة .

الثاني : أن العشي ميل الشمس إلى أن تغيب ، والإبكار أول الفجر ، قاله مجاهد .

الثالث : هي صلاة مكة قبل أن تفرض الصلوات الخمس ركعتان غدوة وركعتان عشية ، قاله الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ إنّ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أي بغير حجة جاءتهم .

﴿ إن في صدورهم إلا كبرٌ ما هم ببالغيه ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن اكبر العظمة التي في كفار قريش ، ما هم ببالغيها ، قاله مجاهد .

الثاني : ما يستكبر من الاعتقاد وفيه قولان :

أحدهما : هو ما أمله كفار قريش في النبي صلى الله عليه وسلم وفي أصحابه أن يهلك ويهلكوا ، قاله الحسن .

الثاني : هو أن اليهود قالوا إن الدجال منا وعظموا أمره ، واعتقدوا أنهم يملكون ، وينتقمون ، قاله أبو العالية .

﴿ فاستعذ بالله ﴾ من كبرهم .

﴿ إنه هو السميع ﴾ لما يقولونه ﴿ البصير ﴾ بما يضمرونه .

قوله عز وجل : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

(81/678)

أحدها : لخلق السموات والأرض أعظم من خلق الدجال حين عظمت اليهود شأنه ، قاله أبو العالية .

الثاني : أكبر من إعادة خلق الناس حين أنكرت قريش البعث ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : أكبر من أفعال الناس حين أذل الكفار بالقوة وتباعدوا بالقهر .

قوله عز وجل : ﴿ وقال ربكم ادعوني استجبْ لكم ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه وحدوني بالربوبية أغفر لكم ذنوبكم ، قاله ابن عباس .

الثاني : اعبدوني استجب لكم ، قاله جرير بن عبد الله ، أي اتبعكم على عبادتكم .

الثالث : سلوني أعطكم ، قاله السدي . وإجابة الداعي عند صدق الرغبة مقيد بشرط الحكمة . وحكى قتادة أن كعب قال : أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطهن أمّة قبلكم إلا نبي : كان إذا أرسل نبي قيل له : أنت شاهد على أمتك ، وجعلكم شهداء على الناس ، وكان يقال للنبي ، ليس عليك في الدين من حرج ، وقال لهذه الأمة : وما جعل عليكم في الدين من حرج ، وكان يقال للنبي : ادعني أستجب لك ، وقال لهذه الأمة : ادعوني أستجب لكم .

قوله عز وجل : ﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لتستريحوا فيه من عمل النهار .

الثاني : لتكفوا فيه عن طلب الأرزاق .

الثالث : لتحاسبوا فيه أنفسكم على ما عملتم بالنهار .

﴿ والنهار مبصراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مبصراً لقدرة الله في خلقه .

الثاني : مبصراً لمطالب الأرزاق .

قوله عز وجل : ﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : كذلك يصرف ، قاله يحيى .

الثاني : كذلك يكذب بالتوحيد ، قاله مقاتل .

الثالث : كذلك يعدل عن الحق ، قاله ابن زيد .

قوله عز وجل : ﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون . . ﴾ الآية . في الفرح والمرح وجهان :

أحدهما : أن الفرح : السرور والمرح : البطر ، فسرّوا بالإمهال وبطروا بالنعم

الثاني : الفرح والسرور ، قاله الضحاك ، والمرح العدوان .

(82/678)

روى خالد عن ثور عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى يبغض البذخين الفرحين المرحين ، ويحب كل قلب حزين ويبغض أهل بيت لحمين ، ويبغض كل حبر سمين " فأما أهل بيت لحمين فهم الذين يأكلون لحوم الناس بالغيبة ، وأما الحبر السمين فالمتحبر بعلمه ولا يخبر به الناس ، يعني المستكثر من علمه ولا ينفع به الناس .

قوله عز وجل : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العِلمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : بقولهم نحن أعلم منهم لن نبعث لن نعذب ، قاله مجاهد .

الثاني : بما كان عندهم أنه علم وهو جهل ، قاله السدي .

الثالث : فرحت الرسل بما عندهم من العلم بنجاتهم وهلاك أعدائهم ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : رضوا بعلمهم واستهزأوا برسلهم ، قاله ابن زيد .

﴿ وحاق بهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أحاط بهم ، قاله الكلبي .

الثاني : عاد عليهم .

﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : محمد صلى الله عليه وسلم أنه ساحر .

الثاني : بالقرآن أنه شِعْر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 5 صـ ﴾

(83/678)

وقال الثعلبى :

﴿ ويا قوم مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النجاة وتدعونني إِلَى النار * تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بالله وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العزيز الغفار * لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تدعونني إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدنيا وَلاَ فِي الآخرة ﴾ ينتفع بها .

وقال السديّ : يعني لايستجيب لأحد في الدُّنيا ولا في الآخرة ، فكان معنى الكلام : ليست

له استجابة دعوة .

وقال قتادة : ليست له دعوة مستجابة . وقيل : ليس له دعوة في الدُّنيا ولا في الآخرة إلاّ عبدوها ، لأن الأوثان لم تأمر بعبادتها في الدُّنيا ، ولم تدع الربوبية وفي الآخرة تتبرأ من عابديها ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ ﴾ مرجعنا ﴿ إِلَى اللهِ وَأَنَّ المسرفين هُمْ أَصْحَابُ النار ﴾ .

قال ابن عبّاس وقتادة : يعني المشركين .

وقال مجاهد : هم السفّاكون الدماء بغير حقها .

وقال عكرمة : الجبارين المتكبرين .

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ إذا عاينتم العذاب حين لا ينفعكم الذكر ﴿ وَأُفَوِّضُ أمري إِلَى الله ﴾ وذلك انهم توعدوه لمخالفة دينهم ﴿ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بالعباد ﴾ عالم بأمورهم من المحق منهم ومن المبطل ﴿ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ .

قال قتادة : نجا مع موسى وكان قبطياً .

﴿ وَحَاقَ ﴾ نزل ﴿ بِآلِ فِرْعَوْنَ سواء العذاب ﴾ في الدُّنيا الغرق وفي الآخرة النار وذلك قوله : ﴿ النار ﴾ وهي رفع على البدل من السوء ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ وأصل العرض اظهار الشيء .

قال قتادة : يعرضون عليها صباحاً ومساءاً ، يقال لهم : يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخاً ونقمة وصغاراً لهم .

وقال السدي وهذيل بن شرحبيل : هو أنهم لما هلكوا جُعلت أرواحهم في أجواف طير سود ، فهي تُعرض على النار كل يوم مرتين تغدوا وتروح إلى النار حتى تقوم الساعة .

(84/678)

أخبرني عقيل بن محمّد بن أحمد الجرجاني : أن أبا الفرج البغدادي القاضي أخبرهم عن محمّد بن جرير حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير حدثنا حماد بن محمّد الفزاري قال : سمعت الأوزاعي وسأله رجل فقال : يرحمك الله رأينا طيوراً تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب بيضاً فوجاً فوجاً ، لايعلم عددها إلاّ الله تعالى ، فإذا كان العشي رجع مثلها سوداً .

قال : وفطنتم لذلك ؟

قال : نعم .

قال : إن تلك الطيور في حواصلها أزواج آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً ، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رياشها وصارت سوداً ، فنبت عليها أرياش من الليل بيض وتناثر السود ، ثم تغدوا فيعرضون على النار غدواً وعشياً ثم ترجع إلى وكورها ، فذلك دأبهم في الدُّنيا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى : ﴿ أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ .

قال : وكانوا يقولون : إنهم ستمائة ألف مقاتل .

قال عكرمة ومحمّد بن كعب : هذه الآية تدل على عذاب القبر ، لأن الله تعالى ميّز عذاب الآخرة فقال : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ ادخلوا .

قرأ أهل المدينة والكوفة إلاّ أبا بكر ويعقوب : بقطع الألف وكسر الخاء من الادخال .

وقرأ الباقون : بوصل الألف وضم الخاء من الدخول .

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النار فَيَقُولُ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ في الدُّنيا ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النار ﴾ والتبع يكون واحداً وجمعاً .

وقال نحويوا البصرة : وواحده تابع .

وقال أهل الكوفة : هو جمع لا واحد له ، لأنه كالمصدر وجمعه أتباع .

﴿ قَالَ الذين استكبروا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ .

وقرأ ابن السميفع : (إنا كلاً فيها) بالنصب ، جعلها نعتاً وتأكيداً ل (إنا) .

﴿ إِنَّ الله قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العباد * وَقَالَ الذين فِي النار ﴾ إذا اشتد .

الشعبي قال : كنية الدجال أبو يوسف .

(85/678)

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَلاَ المسياء قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بالتاء أهل الكوفة وغيرهم : بالياء .

واختاره أبو عبيد قال : لأن أول الآيات وآخرها خبر عن قوم .

﴿ إِنَّ الساعة لآتِيَةٌ ﴾ لجائية ﴿ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بها ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُم ﴾ أي وحدوني وأعبدوني دون غيري أجبكم وآجركم واثيبكم واغفر لكم ، هذا قول أكثر المفسرين . يدل عليه سياق الآية .

وقال بعضهم : هو الذكر والدعاء والسؤال .

أخبرنا ابن فنجويه حدثنا محمّد بن الحسن حدثنا أبو بكر بن أبي الخصيب حدثني عثمان ابن خرداد حدثنا قطر بن بشير حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليسأل أحدكم ربّه حاجته كلها حتّى شسع نعله إذا إنقطع " .

﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ توحيدي وطاعتي ، عن أكثر المفسرين .

وقال السديّ : عن دعائي .

أخبرنا عقيل بن محمّد أبو المعافا بن زكريا أخبرنا محمّد بن جرير حدثنا محمّد بن بشار حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن منصور والأعمش عن ذر عن سبع الحضرمي عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "

الدعاء هو العبادة ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ " عن دعائي .

وباسناده عن ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشام بن القاسم عن الأشجع قال : قيل لسفيان : ادع الله . قال : إن ترك الذنوب هو الدعاء ﴿ سَيَدْخُلُونَ ﴾ .

قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأبو حاتم : بضم الياء وفتح الخاء .

واختلف فيه .

عن أبي عمرو وعاصم غيرهم ضده .

(86/678)

﴿ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين ﴿ الله الذي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ فأنى تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ ﴾ كما أفكتم عن الحق مع قيام الدلائل ، كذلك ﴿ يُؤْفَكُ الذين كَانُواْ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ * الله الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً والسمآء بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ .

قرأه العامة : بضم الصاد . وقرأ أبو رزين العقيلي : وأحسن صوركم بكسر الصاد ، وهي

لغة .

﴿ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطيبات ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين * هُوَ الحي لاَ إله إِلاَّ هُوَ فادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين * قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَمَّا جَآءَنِيَ البينات مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ وذلك حين دُعي إلى الكفر [فأمر أن يقول هذا] .

﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي أطفالاً ، نظيره :

﴿ أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء ﴾ [النور : 31] . ﴿ ثُمَّ لِتبلغوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ﴾ أن يصير شيخاً ﴿ ولتبلغوا ﴾ جميعاً ﴿ أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ وقتاً محدوداً لا تجاوزونه ولا تسبقونه ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ذلك فتعرفوا أن لا إله غيره فعل ذلك ﴿ هُوَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الله أنى يُصْرَفُونَ ﴾ .

قال ابن زيد : هم المشركون .

وقال أكثر المفسرين : نزلت في القدريّة .

أخبرني عقيل بن محمّد إجازة أخبرنا المعافا بن زكريا أخبرنا محمّد بن جرير أخبرنا محمّد ابن بشار ومحمّد بن المثنى حدثنا مؤمل حدثنا سفيان عن داود بن أبي هند عن محمّد بن سيرين قال : إن لم تكن هذه الآية نزلت في القدريّة فأنا لا أدري فيمن نزلت . ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أنى يُصْرَفُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً ﴾ إلى آخر الآية .

وبه عن ابن جرير حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني مالك بن أبي الخير الزيادي عن أبي قبيل عن عقبة بن عامر الجهني : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سيهلك من أمتي أهل الكتاب وأهل اللين " .

فقال عقبة : يا رسول الله وما أهل الكتاب ؟

قال : " قوم يتعلمون كتاب الله يجادلون الذين آمنوا " .

فقال : وما أهل اللين ؟

فقال : " قوم يتبعون الشهوات ويضيّعون الصلوات " .

قال أبو قتيل : لا أحسب المكذبين بالقدر إلاّ الذين يجادلون الذين آمنوا ، وأما أهل اللين فلا أحسبهم إلاّ أهل العمود ليس عليهم إمام جماعة ولا يعرفون شهر رمضان .

قال محمّد بن جرير : أهل العمود الحي العظيم .

﴿ الذين كَذَّبُواْ بالكتاب وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ ﴾ .

أخبرنا ابن فنجويه الدينوري حدثنا ابن حبش المقريء حدثنا ابن فنجويه حدثنا سلمة حدثنا عبد الرزاق أخبرنا ابن التيمي عن أبيه قال : لو أن غلاً من أغلال جهنّم وضع على جبل لوهصه حتّى يبلغ الماء الأسود .

﴿ والسلاسل ﴾ .

قرأه العامة : بالرفع ، عطفاً على الأغلال .

أخبرنا ابن فنجويه الدينوري حدثنا أبو علي بن حبش المقريء حدثنا أبو القاسم بن الفضل حدثنا أبو زرعة حدثنا نصر بن علي حدثني أبي عن هارون عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عبّاس أنه قرأ : ﴿ والسلاسل يُسْحَبُونَ * فِي الحميم ﴾ بنصب اللام والياء . يقول : إذا كانوا يسحبونها كان أشد عليهم .

(88/678)

أخبرنا الحسين بن محمّد الحديثي حدثنا محمّد بن علي بن الحسن الصوفي حدثنا عبد الله ابن محمّد بن عبد العزيز البغوي حدثني جدي حدثني منصور بن عمار حدثنا بشر بن

طلحة عن خالد بن الدريك عن يعلى بن منبه رفعه قال : ينشيء الله تعالى لأهل النار

سحابة سوداء مظلمة فيقال يا أهل النار ما تشتهون ؟

فيسألون بارد الشراب .

فتمطرهم أغلالاً تزيد في أغلالهم وسلاسلا تزيد في سلاسلهم وجمراً يلتهب النار عليهم .

﴿ ثُمَّ فِي النار يُسْجَرُونَ ﴾ أي توقد بهم النار .

قال مجاهد : يصيرون وقوداً للنار .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ الله ﴾ يعني الأصنام ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾

فلا نراهم ﴿ بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً ﴾ أنكروا . وقيل : جهلوا .

وقال بعضهم : فيه إضمار ، أي لم نكن ندعو من قبل شيئاً ببصر وبسمع وبضر وبنفع .

وقال الحسين بن الفضل : يعني لم نكن نصنع من قبل شيئاً ، أي ضاعت عبادتنا لها فلم نكن نصنع شيئاً .

قال الله سبحانه وتعالى ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ الله الكافرين ﴾ .

(89/678)

﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ تبطرون وتأمرون ﴿ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ تفخرون وتختالون وتنشطون ﴿ ادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين * فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب في حياتك ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل أن يحل بهم ذلك ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ خبرهم في القرآن ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ الله قُضِيَ بالحق وَخَسِرَ هُنَالِكَ المبطلون * الله الذي ﴾ تحق له العبادة هو الذي ﴿ جَعَلَ ﴾ خلق ﴿ لَكُمُ الأنعام لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ في أصوافها وأوبارها وأشعارها وألبانها ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ تحمل أثقالكم في أسفاركم من بلد إلى بلد ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ ﴾ نظيره ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البر والبحر ﴾ [الإسراء : 70] .

﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ الله تُنكِرُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ ﴾ يعني مصانعهم وقصورهم ﴿ فَمَآ أَغنى عَنْهُم ﴾ أيّ لم ينفعهم ﴿ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ وقيل : هو بمعنى الإستفهام ، ومجازه : أي شيء أغنى عنهم كسبهم .

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَرِحُواْ ﴾ يعني الأُمم ﴿ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ﴾ .

قال مجاهد : قولهم نحن أعلم منهم لن نعذب ولن نبعث ، وقيل : أشروا بما عندهم من العلم ، بما كان عندهم أنه علم وهو جهل .

(90/678)

وقال الضحاك : رضوا بالشرك الذي كانوا عليه .

وقال بعضهم : هو الفرح راجع إلى الرسل يعني فرح الرسل بما عندهم من العلم بنجاتهم وهلاك أعدائهم .

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أيّ تبرأنا ممّا كنا نعدل بالله ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ عذاباً ﴿ سُنَّتَ الله التي ﴾ في نصبها ثلاثة أوجه أحدها : بنزع الخافض أيّ كسنّة الله .

والثاني : على المصدر ، لأن العرب تقول سنَّ يسنّ سنّاً وسنّة .

والثالث : على التحذير والأغراء ، أي احذروا سنّة الله كقوله : (ناقة الله وسنّة الله) .

﴿ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ وهي أنهم إذا عاينوا عذاب الله لم ينفعهم أيمانهم ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ بذهاب الدارين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 8 صـ 284.277 ﴾

(91/678)

وقال الزمخشري :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) ﴾

فإن قلت : لم كرر نداء قومه ؟ ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني ؟ قلت : أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة . وفيه : أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم ،

(92/678)

وهو يعلم وجه خلاصهم ، ونصيحتهم عليه واجبة ، فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ، ويستدعي بذلك أن لا يتهموه ، فإنّ سرورهم سروره ، وغمهم غمه ، وينزلوا على تنصيحه لهم ، كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه : يا أبت . وأما المجيء بالواو العاطفة ، فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له ، فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو ، وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة . يقال : دعاه إلى كذا

ودعاه له ، كما تقول : هداه إلى الطريق وهداه له ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ أى بربوبيته ، والمراد بنفي العلم : نفى المعلوم ، كأنه قال :

وأشرك به ما ليس بإله ، وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلها «1»

[سورة غافر (40) : الآيات 43 إلى 44]

لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (44)

لا جَرَمَ سياقه على مذهب البصريين : أن يجعل لا ردّا لما دعاه إليه قومه . وجرم : فعل بمعنى حق ، وأنّ مع ما في حيزه فاعله ، أى : حق ووجب بطلان دعوته . أو بمعنى : كسب ، من قوله تعالى وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا أى : كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته ، على معنى أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته .

ويجوز أن يقال : أن لا جرم ، نظير : لا بدّ ، فعل من الجرم ، وهو القطع ، كما أن بدّا فعل من التبديد وهو التفريق ، فكما أن معنى : لا بد أنك تفعل كذا ، بمعنى : لا بعد لك من فعله ، فكذلك لا جرم أن لهم النار ، أى : لا قطع لذلك ، بمعنى أنهم أبدا يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع ، لبطلان دعوة الأصنام ، أى لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب

حقا . وروى عن العرب : لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء ، بزنة بد ، وفعل وفعل : أخوان . كرشد ورشد ، وعدم وعدم لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ معناه : أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط ، أى :

من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته ، ثم يدعو العباد إليها إظهارا لدعوة ربهم وما تدعون إليه وإلى عبادته ، لا يدعو هو إلى ذلك ولا يدعى الربوبية ، ولو كان حيوانا ناطقا لضجّ من دعائكم . وقوله فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ يعنى أنه في الدنيا جماد لا يستطيع شيئا

---

(1) . قال محمود : المراد بنفي العلم نفى المعلوم ، كأنه قال : وأشرك به ما ليس باله ، وما ليس باله كيف يصح أن يعلم إلها » قال أحمد : وهذا من قبيل

على لاحب لا يهتدى بمناره

أى : لا منار له فيهتدى به ، وكلام الزمخشري ها هنا أشد من كلامه على قوله تعالى حكاية عن فرعون ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي .

من دعاء وغيره ، وفي الآخرة : إذا أنشأه اللّه حيوانا ، تبرأ من الدعاة إليه ومن عبدته .

وقيل معناه ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ولا في الآخرة . أو دعوة مستجابة ، جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ولا منفعة فيها كلا دعوة ، أو سميت الاستجابة باسم الدعوة ، كما سمى الفعل المجازى عليه باسم الجزاء في قولهم : كما تدين تدان . قال اللّه تعالى لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ . الْمُسْرِفِينَ عن قتادة : المشركين . وعن مجاهد : السفاكين الدماء بغير حلها . وقيل : الذين غلب شرهم خيرهم هم المسرفون . وقرئ : فستذكرون ، أى : فسيذكر بعضكم بعضا وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ لأنهم توعدوه .

[سورة غافر (40) : الآيات 45 إلى 46]

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (46)

فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ ما مَكَرُوا شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم . وقيل : نجا مع موسى وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ما هموا به من تعذيب المسلمين . ورجع عليهم كيدهم النَّارُ بدل من سوء العذاب . أو خبر مبتدإ محذوف ، كأن قائلا قال : ما سوء العذاب ؟ فقيل : هو النار . أو مبتدأ خبره يُعْرَضُونَ عَلَيْها وفي هذا الوجه تعظيم للنار وتهويل من عذابها ، وعرضهم عليها : إحراقهم بها . يقال : عرض الإمام الأسارى على

السيف إذا قتلهم به ، وقرئ : النار ، بالنصب ، وهي تعضد الوجه الأخير . وتقديره : يدخلون النار يعرضون عليها . ويجوز أن ينتصب على الاختصاص غُدُوًّا وَعَشِيًّا في هذين الوقتين يعذبون بالنار ، وفيما بين ذلك اللّه أعلم بحالهم ، فإمّا أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب ، أو ينفس عنهم .

ويجوز أن يكون غُدُوًّا وَعَشِيًّا : عبارة عن الدوام . هذا ما دامت الدنيا ، فإذا قامت الساعة قيل لهم أَدْخِلُوا يا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ عذاب جهنم . وقرئ : أدخلوا آل فرعون ، أى : يقال لخزنه جهنم : أدخلوهم . فإن قلت : قوله وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ معناه : أنه رجع عليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين ، كقول العرب : من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا ، فإذا فسر سوء العذاب بنار جهنم : لم يكن مكرهم راجعا عليهم ، لأنهم لا يعذبون بجهنم . قلت :

يجوز أن يهم الإنسان بأن يغرق قوما فيحرق بالنار ، ويسمى ذلك حيقا لأنه همّ بسوء فأصابه ما يقع عليه اسم السوء . ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه ، ويجوز أن يهمّ فرعون - لما سمع إنذار المسلمين بالنار ، وقول المؤمن وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ - فيفعل نحو ما فعل نمروذ ويعذبهم بالنار ، فحاق به مثل ما أضمره وهمّ بفعله . ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر .

[سورة غافر (40) : آية 47]

وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (47)

واذكر وقت يتحاجون تَبَعاً تباعا ، كخدم في جمع خادم . أو ذوى تبع ، أى : أتباع ، أو وصفا بالمصدر .

[سورة غافر (40) : آية 48]

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ (48)

وقرئ . كلا ، على التأكيد لاسم إن ، وهو معرفة ، والتنوين عوض من المضاف إليه ، يريد : إنا كلنا . أو كلنا فيها . فإن قلت : هل يجوز أن يكون «كلا» حالا قد عمل فِيها فيها ؟ قلت : لا لأن الظرف لا يعمل في الحال متقدمه كما يعمل في الظرف متقدما تقول كل يوم لك ثوب ولا تقول قائما في الدار زيد قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ قضى بينهم وفصل بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

[سورة غافر (40) : الآيات 49 إلى 50]

وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (49) قالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ

لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ للقوّام بتعذيب أهلها . فإن قلت : هلا قيل : الذين في النار لخزنتها ؟ قلت : لأن في ذكر جهنم تهويلا وتفظيعا ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعرا ، من قولهم : بئر جهنام بعيدة القعر «1» ، وقولهم في النابغة : جهنام ، تسمية بها ، لزعمهم أنه يلقى الشعر على لسان المنتسب إليه ، فهو بعيد الغور في علمه بالشعر «2» ، كما قال أبو نواس في خلف الأحمر :

قليذم من العياليم الخسف «3»

---

(1) . قوله «بئر جهنام بعيدة القعر . . . الخ» في الصحاح : بكسر الجيم والهاء . (ع)

(2) . قال محمود : «فان قلت : فهلا قيل لخزنتها ، وأجاب أن في ذكر جهنم تهويلا وتفظيعا ، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعرا من قولهم : بئر جهنام ، أى : بعيدة القعر ، وكان النابغة يسمى الجهنام لبعد غوره في الشعر» قال أحمد : الأول أظهر ، والتفخيم فيه من وجهين ، أحدهما : وضع الظاهر موضع المضمر ، وهو الذي أشار إليه والثاني : ذكره وهو شيء واحد بظاهر غير الأول أفظع منه ، لأن جهنم أفظع من النار ، إذ النار مطلقة ، وجهنم أشدها .

(3) أودى جميع العلم مذ أودى خلف من لا يعد العلم إلا ما عرف

راوية لا يجتنى من الصحف قليذم من العياليم الخسف

لأبي نواس يرثي خلف الأحمر بن أحمد . وأودى ملك ومن لا يعد العلم صفة خلف ، أي : لا يعتبر من العلم إلا بما عرفه حق اليقين وتلقاه بالتلقين . أو عرفه بالاستنباط من قواعد السابقين ، فهو راوية ، أي : كثير الرواية لا يأخذ من الكتب ، شبهها بالروضة المثمرة على طريق المكنية ، والاجتناء تخييل . وقليذم : البئر الغزيرة الماء .

والعيلم : الحفرة الكثيرة الماء . والخف : البعيدة الغور العميقة ، شبهه بذلك تشبيها بليغا ، لكثرة علمه ومعرفته للمعاني البعيدة الخفية .

(95/678)

وفيها أعتى الكفار وأطغاهم ، فلعل الملائكة الوكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من اللّه تعالى ، فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ إلزام للحجة وتوبيخ ، وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع ، وعطلوا الأسباب التي يستجيب اللّه لها الدعوات قالُوا فَادْعُوا أنتم ، فإنا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين : كون المشفوع له غير ظالم ، والإذن في الشفاعة مع مراعاة وقتها ، وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين ، وليس قولهم فَادْعُوا لرجاء المنفعة ، ولكن للدلالة على الخيبة ، فإنّ الملك المقرّب إذا لم يسمع دعاؤه ، فكيف يسمع دعاء الكافر .

[سورة غافر (40) : الآيات 51 إلى 52]

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (51) يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52)

فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ أى في الدنيا والآخرة ، يعنى أنه يغلبهم في الدارين جميعا بالحجة والظفر على مخالفيهم ، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحانا من اللّه ، فالعاقبة لهم ، ويتيح اللّه من يقتص «1» من أعدائهم ولو بعد حين : والأشهاد . جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب ، يريد : الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمّة محمد صلى اللّه عليه وسلم لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ . واليوم الثاني بدل من الأوّل ، يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة ولكنها لا تنفع لأنها باطلة ، وأنهم لو جاءوا بمعذرة لم تكن مقبولة «2» لقوله تعالى وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ البعد من رحمة اللّه وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ أى سوء دار الآخرة وهو عذابها . وقرئ : تقوم . ولا تنفع ، بالتاء والياء .

---

(1) . قوله «من يقتص» أى : يقدر . (ع)

(2) . قال محمود : «يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة لكنها لا تنفعهم ، لأنها باطلة . ويحتمل أنهم لا يعتذرون ، ولو جاءوا بمعذرة لم تكن مقبولة قال أحمد : «هما الاحتمالان في قوله تعالى وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ ولكن بين الموضعين فرقا يصير أحدهما معه عكس الآخر ، وذلك أنه هنا على تقدير أن يكون المراد أنهم لا معذرة لهم البتة ، يكون قد نفى صفة المعذرة وهي

المنفعة التي لها تراد المعذرة ، قطعا لرجائهم كي لا يعتذروا البتة ، كأنه قيل إذا لم يحصل ثمرة المعذرة فكيف يقع ما لا ثمرة له وفي الآية المتقدمة جعل نفى الموصوف بتا لنفى الصفة ولهذا أولى النفي في هذه الآية الفعل ، وفي المتقدمة أولى النفي الذات المنسوب إليها الفعل .

(96/678)

[سورة غافر (40) : الآيات 53 إلى 54]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (53) هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (54)

يريد بالهدى جميع ما آتاه في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع وَأَوْرَثْنا وتركنا على بنى إسرائيل من بعده الْكِتابَ أى التوراة هُدىً وَذِكْرى إرشادا وتذكرة ، وانتصابهما على المفعول له أو على الحال . وأولو الألباب : المؤمنون به العاملون بما فيه .

[سورة غافر (40) : آية 55]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (55)

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ يعنى أنّ نصرة الرسل في ضمان اللّه ، وضمان اللّه لا يخلف ، واستشهد بموسى وما آتاه من أسباب الهدى والنصرة على فرعون وجنوده ، وإبقاء آثار

هداه في بنى إسرائيل ، والله ناصرك كما نصرهم ، ومظهرك على الدين كله ، ومبلغ ملك أمّتك مشارق الأرض ومغاربها ، فاصبر على ما يجرّعك قومك من الغصص ، فإن العاقبة لك وما سبق به وعدى من نصرتك وإعلاء كلمتك حق ، وأقبل على التقوى واستدرك الفرطات بالاستغفار ، ودم على عبادة ربك والثناء عليه بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ وقيل : هما صلاتا العصر والفجر .

[سورة غافر (40) : آية 56]

إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56)

إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ إلا تكبر وتعظم ، وهو إرادة التقدّم والرياسة ، وأن لا يكون أحد فوقهم ، ولذلك عادوك ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدّمهم ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك ، لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة . أو إرادة أن تكون لهم النبوّة دونك حسدا وبغيا . ويدل عليه قوله تعالى لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ أو إرادة دفع الآيات بالجدال ما هُمْ بِبالِغِيهِ أى ببالغي موجب الكبر ومقتضية ، وهو متعلق إرادتهم من الرياسة أو النبوّة أو دفع الآيات .

وقيل : المجادلون هم اليهود ، وكانوا يقولون : يخرج صاحبنا المسيح بن داود ، يريدون الدّجال ، ويبلغ سلطانه البر والبحر ، وتسير معه الأنهار ، وهو آية من آيات اللّه فيرجع إلينا

الملك ، فسمى اللّه تمنيهم ذلك كبرا ، ونفى أن يبلغوا متمناهم فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ فالتجئ إليه من كيد من

(97/678)

يحسدك ويبغى عليك إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لما تقول ويقولون الْبَصِيرُ بما تعمل ويعملون ، فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرهم .

[سورة غافر (40) : آية 57]

لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (57)

فإن قلت . كيف اتصل قوله لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بما قبله ؟ قلت : إن مجادلتهم في آيات اللّه كانت مشتملة على إنكار البعث ، وهو أصل المجادلة ومدارها ، فحجوا بخلق السماوات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن اللّه خالقها وبأنها خلق عظيم لا يقادر قدره ، وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين ، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر ، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله « 1 » لا يَعْلَمُونَ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم .

[سورة غافر (40) : آية 58]

وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (58)

ضرب الأعمى والبصير مثلا للمحسن والمسيء . وقرئ : يتذكرون بالياء والتاء ، والتاء أعم .

[سورة غافر (40) : آية 59]

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (59)

لا رَيْبَ فِيها لا بد من مجيئها ولا محالة ، وليس بمرتاب فيها ، لأنه لا بد من جزاء لا يُؤْمِنُونَ لا يصدقون بها .

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : كيف اتصل قوله لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بما قبله ؟ وأجاب بأن مجادلتهم في آيات اللّه كانت مشتملة على إنكار البعث ، وهو أصل المجادلة ومدارها ، فحجوا بخلق السماوات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن اللّه خالقها ، وبأنها خلق عظيم ، فخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين ، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على الإنسان الضعيف أقدر ، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله» قال أحمد : الأولوية في هذا الاستشهاد ثابتة بدرجتين ، أحدهما ما ذكره من أن القادر على العظيم هو على الحقير أقدر . الثانية : أن مجادلتهم كانت في البعث وهو الاعادة ولا شك أن الابتداء أعظم وأبهر من الاعادة ، فإذا كان ابتداء خلق العظيم يعنى السماوات والأرض داخلا

تحت القدرة فابتداء خلق الحقير: يعنى الناس أدخل تحتها ، وإعادته أدخل من ابتدائه ، فهو أولى بأن يكون مقدورا عليه مما اعترفوا به من خلق السماوات والأرض بدرجتين ، وإلى هذا الترتيب وقعت الاشارة بقوله تعالى في الم غُلِبَتِ الرُّومُ :

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ

فقرر أن قيام السماء والأرض هو بأمره ، أى: خلقها من آياته ، فكيف بما هو أحط من قيامها بدرجتين وهو إعادة البشر أهون عليه من الابتداء ليتحقق الدرجتان المذكورتان ، فقال تعالى وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وإذا تأملت الذي ذكرته منسوبا لما ذكره الزمخشري: علمت أن ما ذكره هو لباب المراد فجدد عهدا به إن لم تعلم ذلك .

(98/678)

[سورة غافر (40) : آية 60]

وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (60)

ادْعُونِي اعبدوني ، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن . ويدل عليه قوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي والاستجابة : الإثابة وفي تفسير مجاهد : اعبدوني أثبكم . وعن الحسن - وقد سئل عنها - : اعملوا وأبشروا ، فإنه حق على اللّه أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله . وعن الثوري أنه قيل له : ادع اللّه ، فقال . إن ترك الذنوب هو الدعاء . وفي الحديث «إذا شغل عبدى طاعتي عن الدعاء . أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» «1» وروى النعمان بن بشير رضى اللّه عنه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

«الدعاء هو العبادة» «2» وقرأ هذه الآية . ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما ، ويريد بعبادتي : دعائي ، لأنّ الدعاء باب من العبادة ومن أفضل أبوابها ، يصدقه قول ابن عباس رضى اللّه عنهما : أفضل العبادة الدعاء «3» . وعن كعب : أعطى اللّه هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلا نبيا مرسلا : كان يقول لكل نبىّ أنت شاهدي على خلقي ، وقال لهذه الأمة لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وكان يقول : ما عليك من حرج ، وقال لنا ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وكان يقول : ادعني أستجب لك ، وقال لنا ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ . وعن ابن عباس : وحدوني أغفر لكم ، وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ، ثم للعبادة بالتوحيد داخِرِينَ صاغرين .

[سورة غافر (40) : آية 61]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (61)

مُبْصِراً من الإسناد المجازى ، لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار . فإن قلت : لم قرن الليل بالمفعول له ، والنهار بالحال ؟ وهلا كانا حالين أو مفعولا لهما فيراعى حق المقابلة ؟ قلت : هما متقابلان من حيث المعنى ، لأن كل واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر ، ولأنه لو قيل :

---

(1) . أخرجه عبد الرزاق عن سفيان عن منصور عن مالك بن الحرث قال «يقول اللّه : إذا اشتغل عبدى بثنائه عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» وهذا مرسل ، وفي الترمذي عن أبى سعيد «من شغله قراءة القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» .

(2) . أخرجه أصحاب السنن ، وتقدم في مريم .

(3) . أخرجه الحاكم في الدعاء من وجهين عنه .

(99/678)

لتبصروا فيه ، فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازى ، ولو قيل : ساكنا - والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ، ألا ترى إلى قولهم : ليل ساج ، وساكن لا ريح فيه - لم تتميز الحقيقة من المجاز . فإن قلت : فهلا قيل : لمفضل ، أو لمتفضل ؟ قلت : لأن الغرض تنكير

الفضل ، وأن يجعل فضلا لا يوازيه فضل ، وذلك إنما يستوي بالإضافة . فإن قلت : فلو قيل :

ولكن أكثرهم ، فلا يتكرر ذكر الناس ؟ قلت : في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم ، وأنهم هم الذين يكفرون فضل اللّه ولا يشكرونه ، كقوله : إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ ، إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

[سورة غافر (40) : الآيات 62 إلى 63]

ذِلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذِلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63)

ذِلِكُمُ المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أخبار مترادفة ، أى : هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وإنشائه لا يمتنع عليه شيء ، والوحدانية : لا ثانى له فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فكيف ومن أى وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان . ثم ذكر أن كل من جحد بآيات اللّه ولم يتأملها ولم يكن فيه همة طلب الحق وخشية العاقبة : أفك كما أفكوا . وقرئ : خالق كل شيء ، نصبا على الاختصاص . وتؤفكون : بالتاء والياء .

[سورة غافر (40) : الآيات 64 إلى 65]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ

الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (65)

هذه أيضا دلالة أخرى على تمييزه بأفعال خاصة، وهي أنه جعل الأرض مستقرا وَالسَّماءَ بِناءً أى قبة. ومنه: أبنية العرب لمضاربهم، لأنّ السماء في منظر العين كقبة مضروبة على وجه الأرض فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وقرئ بكسر الصاد والمعنى واحد. قيل: لم يخلق حيوانا أحسن صورة من الإنسان: وقيل لم يخلقهم منكوسين كالبهائم، كقوله تعالى فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ فَادْعُوهُ فاعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى الطاعة من الشرك والرياء، قائلين الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما: من قال لا إله إلا اللّه. فليقل على أثرها: الحمد للّه رب العالمين «1».

---

(1). أخرجه الطبري، والحاكم أيضا، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن مردويه من رواية الأعمش عن مجاهد عنه. [.....]

(100/678)

[سورة غافر (40): آية 66]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ

أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (66)

فإن قلت : أما نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن عبادة الأوثان بأدلة العقل حتى جاءته البينات من ربه ؟ قلت : بلى ولكن البينات لما كانت مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومضمنة ذكرها نحو قوله تعالى أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ وأشباه ذلك من التنبيه على أدلة العقل - كان ذكر البينات ذكر الأدلة العقل والسمع جميعا ، وإنما ذكر ما يدل على الأمرين جميعا ، لأن ذكر تناصر الأدلة أدلة العقل وأدلة السمع أقوى في إبطال مذهبهم ، وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية «1» .

[سورة غافر (40) : آية 67]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67)

لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ متعلق بفعل محذوف تقديره : ثم يبقيكم لتبلغوا . وكذلك لتكونوا . وأما وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى فمعناه : ونفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى ، وهو وقت الموت . وقيل : يوم القيامة . وقرئ : شيوخا ، بكسر الشين . وشيخا ، على التوحيد ، كقوله طِفْلًا والمعنى :

كل واحد منكم . أو اقتصر على الواحد ، لأنّ الغرض بيان الجنس مِنْ قَبْلُ من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطا وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ما في ذلك من العبر

والحجج .

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : النبي عليه الصلاة والسلام قد اتضحت له أدلة العقل على التوحيد قبل مجيء الوحى ، فعلام تحمل الآية ؟ وأجاب بأن الأمر كذلك ولكن البينات مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومتضمنة ذكرها ، نحو قوله أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ وأشباه ذلك من التنبيه على أدلة العقل والسمع جميعا ، وإنما ذكر ما يدل على الأمرين جميعا لأن ذكر الأمرين أقوى في إبطال مذهبهم ، وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية» قال أحمد : اللائق بقواعد السنة أن يقال : أما معرفة اللّه تعالى ومعرفة وحدانيته واستحالة كون الأصنام آلهة ، فمستفاد من أدلة العقول ، وقد ترد الأدلة العقلية في مضامين السمعيات . وأما وجوب عبادة اللّه تعالى وتحريم عبادة الأصنام ، فحكم شرعي لا يستفاد إلا من السمع ، فعلى هذا يترك الجواب عن هذا السؤال . وقوله تعالى إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إنما أريد به – واللّه أعلم – : تحريم عبادة غير اللّه ، فهذا لا يستفاد إلا من نهى اللّه تعالى عن ذلك ، لا من العقل ، لكن قاعدة الزمخشري تقتضي أن تحريم عبادة غير اللّه تعالى تتلقى من العقل قبل ورود الشرع ، إذ العقل عنده حاكم بمقتضى التحسين والتقبيح ، ولهذا أورد الاشكال عليه ، واحتاج إلى الجواب عنه ، ثم قوله في الجواب أن أدلة الشرع مقوية لأدلة العقل ضعيف ، مع اعتقاده أن العقل يدل على الحكم قطعا ، وما دل قطعا كيف يحتمل الزيادة والتأكيد ، والقطعيات لا تفاوت في ثبوتها .

[سورة غافر (40) : آية 68]

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68)

فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يكونه من غير كلفة ولا معاناة. جعل هذا نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة، وسائر ما ذكر من أفعاله الدالة على أنّ مقدورا لا يمتنع عليه، كأنه قال: فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمرا كان أهون شيء وأسرعه.

[سورة غافر (40) : الآيات 69 إلى 76]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (74) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76)

بِالْكِتابِ بالقرآن وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا من الكتب. فإن قلت: وهل قوله فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ

الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ إلى مثل قولك : سوف أصوم أمس ؟ قلت :

المعنى على إذا : إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار اللّه تعالى متيقنة مقطوعا بها :

عبر عنها بلفظ ما كان ووجد ، والمعنى على الاستقبال . وعن ابن عباس : والسلاسل

يسحبون بالنصب وفتح الياء ، على عطف الجملة الفعلية على الاسمية . وعنه :

والسلاسل يسحبون بجر السلاسل .

ووجهه أنه لو قيل : إذ أعناقهم في الأغلال مكان قوله إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ لكان صحيحا

مستقيما ، فلما كانتا عبارتين معتقبتين : حمل قوله وَالسَّلاسِلُ على العبارة الأخرى .

ونظيره :

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلّا ببين غرابها «1»

كأنه قيل : بمصلحين . وقرئ : وبالسلاسل يسحبون فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ من سجر التنور إذا

---

(1) . مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 381 فراجعه إن شئت اه مصححه .

ملأه بالوقود . ومنه : السجير «1» ، كأنه سجر بالحب ، أى : مليء . ومعناه : أنهم في

النار فهي محيطة بهم ، وهم مسجورون بالنار مملوءة بها أجوافهم . ومنه قوله تعالى نارُ اللَّهِ

الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ اللهم أجرنا من نارك فإنا عائذون بجوارك ضَلُّوا عَنَّا غابوا عن عيوننا ، فلا نراهم ولا ننتفع بهم . فإن قلت : أما ذكرت في تفسير قوله تعالى إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ : أنهم مقرونون بآلهتهم ، فكيف يكونون معهم وقد ضلوا عنهم ؟ قلت :

يجوز أن يضلوا عنهم إذا وبخوا وقيل لهم : أينما كنتم تشركون من دون اللّه فيغيثوكم ويشفعوا لكم ، وأن يكونوا معهم في سائر الأوقات «2» ، وأن يكونوا معهم في جميع أوقاتهم ، إلا أنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم ضالون عنهم بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً أى تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئا ، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئا كما تقول : حسبت أنّ فلانا شيء فإذا هو ليس بشيء إذا خبرته فلم تر عنده خيرا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم ، حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا ذلِكُمْ الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بِغَيْرِ الْحَقِّ وهو الشرك وعبادة الأوثان ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ السبعة المقسومة لكم . قال اللّه تعالى لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ . خالِدِينَ مقدّرين الخلود فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ عن الحق المستخفين به مثواكم أو جهنم . فإن قلت : أليس قياس النظم أن يقال : فبئس مدخل المتكبرين ، كما تقول : زر بيت اللّه فنعم المزار ، وصل في المسجد الحرام فنعم المصلى ؟ قلت : الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثواء .

[سورة غافر (40) : آية 77]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (77)

فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ أصله : فإن ترك . و«ما» مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، ولذلك ألحقت النون بالفعل «3» . ألا تراك لا تقول . إن تكرمني أكرمك ، ولكن : إما تكرمني أكرمك . فإن قلت :

لا يخلو إما أن تعطف أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ على نرينك وتشركهما في جزاء واحد وهو قوله تعالى فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ فقولك : فإمّا نرينك بعض الذي نعدهم فإلينا يرجعون : غير صحيح ، وإن

---

(1) . قوله «و منه السجير» في الصحاح : «سجير الرجل» : صفيه وخليله ، والجمع السجراء . (ع)

(2) . قوله «في سائر الأوقات» أى باقى الأوقات بعد وقت التوبيخ . (ع)

(3) . قال محمود : «المصحح للحاق النون المؤكدة دخول ما المؤكدة للشرط ، ولولا «ما» لم يجز دخولها» قال أحمد : وإنما كان كذلك لأن النون المؤكدة حقها أن تدخل في غير الواجب ، والشرط من قبيل الواجب ، إلا أنه إذا أكد قوى إبهامه فقربته قوة الإبهام من غير الواجب ، فيساغ دخول النون فيه .

جعلت فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ مختصا بالمعطوف الذي هو نتوفينك ، في المعطوف عليه بغير جزاء .

قلت : فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ متعلق بنتوفينك ، وجزاء نُرِيَنَّكَ محذوف ، تقديره : فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك . أو إن نتوفينك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم «1» منهم أشدّ الانتقام ونحره قوله تعالى فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ .

[سورة غافر (40) : آية 78]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78)

وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ قيل : بعث اللّه ثمانية آلاف نبىّ : أربعة آلاف من بنى إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر الناس . وعن علىّ رضى اللّه عنه : أنّ اللّه تعالى بعث نبيا أسود «2» ، فهو ممن لم يقصص عليه . وهذا في اقتراحهم الآيات على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم عنادا ، يعنى : إنا قد أرسلنا كثيرا من الرسل وما كان لواحد منهم أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فمن لي بأن آتى بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء اللّه ويأذن في الإتيان بها فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وعيد وردّ عقيب اقتراح الآيات . وأمر اللّه : القيامة الْمُبْطِلُونَ هم المعاندون الذين اقترحوا الآيات وقد أتتهم الآيات فأنكروها وسموها سحرا .

[سورة غافر (40) : الآيات 79 إلى 81]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81)

---

(1) . قال محمود : «إما أن يشرك مع الأول في الشرط ويكون قوله فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ جزاء مشركا بينهما فلا يستقيم المعنى ، على : فاما نرينك بعض الذي نعدهم . . فالينا يرجعون وإن جعل الجزاء مختصا بالثاني بقي الأول بغير جزاء . وأجاب بأنه مختص بالثاني ، وجزاء الأول محذوف ، تقديره : فاما نرينك بعض الذي نعدهم وهو ما حل بهم يوم بدر ، فذاك . أو نتوفينك ، فالينا يرجعون فننتقم منهم» قال أحمد : وإنما حذف جواب الأول دون الثاني لأن الأول إن وقع فذاك غاية الأمل في إنكائهم ، فالثابت على تقدير وقوعه معلوم ، وهو حصول المراد على التمام .

وأما إن لم يقع ووقع الثاني وهو توفيه قبل حلول المجازاة بهم ، فهذا هو الذي يحتاج إلى ذكره للتسلية وتطمين النفس ، على أنه وإن تأخر جزاؤهم عن الدنيا فهو حتم في الآخرة ولا بد منه . قال : ومثله قوله تعالى فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ : كأنه يستشهد على أن جزاء الأول محذوف بذكر هذه الآية

(2) . أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط وابن مردويه من رواية جابر الجعفي عن عبد

اللّه بن يحيى عن على رضى اللّه عنه في قوله وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ قال أرسل اللّه عبدا حبشيا ، فهو الذي لم نقصص عليك» وروى الثعلبي من وجه آخر عن جابر عن أبى الطفيل عن على «كان أصحاب الأخدود نبيهم حبشي . بعث نبى من الحبشة إلى قومه . ثم قرأ وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ الآية .

(104/678)

الأنعام : الإبل خاصة . فإن قلت : لم قال لِتَرْكَبُوا مِنْها ولتبلغوا عليها ، ولم يقل ، لتأكلوا منها ولتصلوا إلى منافع ؟ أو هلا قال : منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون «1» عليها حاجة في صدوركم ؟ قلت : في الركوب : الركوب في الحج والغزو ، وفي بلوغ الحاجة : الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم ، وهذه أغراض دينية إمّا واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق به إرادة الحكيم . وأما الأكل وإصابة المنافع : فمن جنس المباح الذي لا يتعلق «2» به إرادته : ومعنى قوله وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ وعلى الأنعام وحدها لا تحملون ، ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر . فإن قلت : هلا قيل : وفي الفلك ، كما قال قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ؟

قلت : معنى الإيعاء «3» ومعنى الاستعلاء : كلاهما مستقيم ، لأنّ الفلك وعاء لمن يكون

فيها حمولة له يستعليها ، فلما صح المعنيان صحت العبارتان . وأيضا فليطابق قوله وَعَلَيْها ويزاوجه أَيَّ آياتِ اللَّهِ

جاءت على اللغة المستفيضة . وقولك : فأية آيات اللّه قليل ، لأنّ التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب ، وهي في أى أغرب لإبهامه .

[سورة غافر (40) : الآيات 82 إلى 83]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (83)

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : هلا قيل لتركبوا منها ولتأكلوا منها ولتبلغوا ، ومنها تركبون ومنها تأكلون ، وعليها تبلغون ؟ وأجاب بأن في الركوب الركوب في الغزو والحج ، وفي بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى بلد لاقامة دين أو علم ، وهذه أغراض دينية : إما واجبة أو مندوبة مما يتعلق به إرادة الحكيم . وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به الارادة» قال أحمد : جواب متداع للسقوط مؤسس على قاعدة واهية ، وهي أن الأمر راجع إلى الارادة ، فالواجب والمندوب مرادان ، لأنهما مندرجان في الأمر ، والمباح غير مراد ، لأنه غير مأمور به ، وهذا من هنيات المعتزلة في إنكار كلام النفس ، فلا نطيل فيه النفس . وقاعدة أهل الحق أنه لا ربط بين الأمر والارادة ، فقد يأمر بخلاف ما يريد ، ويريد

خلاف ما يأمر به ، فالجواب الصحيح إذا أن المقصود المهم من الأنعام والمنفعة المشهورة فيها إنما هي الركوب وبلوغ الحوائج عليها بواسطة الأسفار والانتقال في ابتغاء الأوطار ، فلذلك ذكرهما هنا مقرونين باللام الدالة على التعليل والغرض . وأما الأكل وبقية المنافع كالأصواف والأوبار والألبان وما يجرى مجراها فهي وإن كانت حاصلة منها فغير خاصة بها خصوص الركوب والحمل وتوابع ذلك ، بل الأكل بالغنم خصوصا الضأن أشهر ، فلذلك اختيرت الضحايا منها على الغنم ، فلذلك جردت هذه المنافع بالأخبار عن وجودها فيها غير مقرونة بما يدل على أنها المقصود .

(2) . قوله «المباح الذي لا يتعلق به» مبنى على مذهب المعتزلة : أن الارادة بمعنى الأمر فلا تتعلق إلا بالمطلوب .

وعند أهل السنة : هي صفة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، فتتعلق بجميع الممكنات ، كما تقرر في علم التوحيد . (ع)

(3) . قوله «معنى الايعاء» في الصحاح : أوعيت الزاد والمتاع : إذا جعلته في الوعاء . (ع)

(105/678)

وَآثاراً قصورهم ومصانعهم . وقيل : مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ، ومحلها النصب ، والثانية موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع ، يعنى أى شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فيه وجوه : منها أنه أراد العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ : وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون لا نبعث ولا نعذب ، وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى ، وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به البينات وعلم الأنبياء ، كما قال عز وجل كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ومنها : أن يريد علم الفلاسفة والدهريين من بنى يونان ، وكانوا إذا سمعوا بوحي اللّه : دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم . وعن سقراط : أنه سمع بموسى صلوات اللّه عليه وسلامه ، وقيل له .

لو هاجرت إليه فقال : نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا . ومنها : أن يوضع قوله فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ولا علم عندهم البتة ، موضع قوله : يفرحوا بما جاءهم من العلم ، مبالغة في نفى فرحهم بالوحي الموجب لأقصى الفرح والمسرة ، مع تهكم بفرط جهلهم وخلوهم من العلماء . ومنها أن يراد : فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به ، كأنه قال : استهزؤا بالبينات وبما جاءوا به من علم الوحى فرحين مرحين . ويدل عليه قوله تعالى وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ومنها : أن يجعل الفرح

للرسل . ومعناه : أن الرسل لما رأوا جهلهم المتمادى واستهزائهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم :

فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا اللّه عليه ، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم .

ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم : علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال تعالى يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ ، ذِلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات - وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف «1» عن الملاذ والشهوات - لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ، ففرحوا به .

---

(1) . قوله «و الظلف» في الصحاح : ظلفت نفسي عن كذا - بالكسر - تظلف ظلفا ، أى : كفت . (ع)

[سورة غافر (40) : الآيات 84 إلى 85]

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (85)

البأس : شدّة العذاب . ومنه قوله تعالى بِعَذابٍ بَئِيسٍ . فإن قلت : أى فرق بين قوله تعالى فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ وبينه لو قيل : فلم ينفعهم إيمانهم ؟ قلت : هو من كان في نحو قوله ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ والمعنى : فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم «1» . فإن قلت : كيف ترادفت هذه الفاءات ؟ قلت : أما قوله تعالى فَما أَغْنى عَنْهُمْ فهو نتيجة قوله كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وأما قوله فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فجار مجرى البيان والتفسير ، لقوله تعالى فَما أَغْنى عَنْهُمْ كقولك : رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء . وقوله فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا تابع لقوله فَلَمَّا جاءَتْهُمْ كأنه قال : فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا ، وكذلك : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ تابع لإيمانهم لما رأوا بأس اللّه سُنَّتَ اللَّهِ بمنزلة وَعَدَ اللَّهُ وما أشبهه من المصادر المؤكدة . وهُنالِكَ مكان مستعار للزمان ، أى : وخسروا وقت رؤية البأس ، وكذلك قوله وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ بعد قوله فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ أى : وخسروا وقت مجيء أمر اللّه ، أو وقت القضاء بالحق .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبى ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 168.183﴾

---

(1) . قال محمود : «فان قلت : أى فرق بين قوله : فلم يك ينفعهم إيمانهم . وبينه لو قيل : فلم ينفعهم ، وأجاب بأن معنى كانَ هنا معناها في قوله ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ بمعنى :

فلم يستقم ولم يصح أن ينفعهم إيمانهم ، قال أحمد : كان الذي ثبت التصرف فيها بإجراء نونها مجرى حروف العلة حتى حذفت للجازم هي كانَ الكثير استعمالها ، المكرر دورانها في الكلام . وأما كانَ هذه فليست كثيرة التصرف حتى يتسع فيها بالحذف ، بل هي مثل : صان ، وحان» في القلة ، فالأولى بقاؤها على بابها المعروف ، وفائدة دخولها في هذه الآية وأمثالها : المبالغة في نفى الفعل الداخلة عليه بتعديد جهتى نفيه عموما باعتبار الكون ، وخصوصا باعتباره في هذه الآية مثلا ، فكأنه نفى مرتين ، والله أعلم .

(2) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه .

(107/678)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ويا قومِ مالي أدعُوكم ﴾

أي : مالَكم ، كما تقول : ما لي أراك حزيناً ، معناه : مالَك ، ومعنى الآية : أخبِروني كيف هذه الحال ، أدعوكم ﴿ إلى النجاة ﴾ من النار بالإِيمان ﴿ وتَدْعونني إلى النّار ﴾ أي : إلى الشّرِك الذي يوجب النّار ؟ ! ثم فسَّر الدَّعوتَين بما بعد هذا .

ومعنى ﴿ ليس لي به عِلْم ﴾ أي : لا أعلم هذا الذي ادَّعَوْه شريكاً له .

وقد سبق بيان ما بعد هذا [البقرة : 129] [طه : 82] إلى قوله : ﴿ ليس له دعوة ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : ليس له استجابة دعوة ، قاله السدي .

والثاني : ليس له شفاعة ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ وأنَّ مَرَدَّنا إلى الله ﴾ أي : مَرْجِعنا ؛ والمعنى أنه يجازينا بأعمالنا .

وفي المُسْرِفين قولان قد ذكرناهما عند قوله : ﴿ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : 28] .

قوله تعالى : ﴿ فستَذْكُرونَ ما أقول لكم ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ، وأبو عمران الجوني ، وأبو رجاء : ﴿ فستَذَكَّرونَ ﴾ بفتح الذال وتخفيفها وتشديد الكاف وفتحها ؛ وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأيوب السختياني : بفتح الذال والكاف وتشديدهما جميعاً .

أي : إذا نزل العذاب بكم ، ما أقول لكم في الدنيا من النصيحة ؟ ! .

﴿ وأُفَوِّضُ أمري إلى الله ﴾ أي : أَرُدُّه ، وذلك أنهم تواعدوه لمخالَفَتِهِ دينَهم ﴿ إنَّ الله بصير بالعباد ﴾ أي : بأوليائه وأعدائه .

ثم خرج المؤمن عنهم ، فطلبوه فلم يَقْدِروا عليه ، ونجا مع موسى لمَّا عبر البحر ، فذلك قوله ﴿ فوقاه اللهُ سيِّئاتِ ما مكَروا ﴾ أي : ما أرادوا به من الشَّرِّ ﴿ وحاقَ بآل فرعونَ ﴾ لما لجوا في البحر ﴿ سوءُ العذاب ﴾ قال المفسّرون هو الغرق .

قوله تعالى : ﴿ النّارُ يُعْرَضُونَ عليها غُدُوّاً وعَشِيّاً ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس : إن

أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يُعْرَضُونَ على النار كُلَّ يوم مرَّتين فيقال : يا آل فرعون هذه داركم .

(108/678)

وروري ابن جرير قال حدثنا عبد الكريم بن أبي عمير ، قال : حدثنا حماد بن محمد البلخي قال : سمعت الأوزاعي ، وسأله رجل فقال : رأينا طيوراً تخرج من البحر فتأخذ ناحية الغرب بِيْضاً ، فَوْجاً فَوْجاً ، لا يعلم عددها إلا الله ، فإذا كان العشيّ رجع مثلها سُوداً ، قال : وفَطَنْتم إلى ذلك ؟ قال : نعم ، إن تلك الطير في حواصلها أرواح آل فرعون يُعْرَضُونَ على النار غدوّاً وعشيّاً ، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رياشها وصارت سوداء ، فينبُت عليها من الليل رياش بِيض ، وتتناثر السود ، ثم تغدو ويعرضون على النار غدوّاً أوعشياً ، [ثم ترجع إلى وكورها] ، فذلك دأبها في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قال الله عزوجل ﴿ أَدْخِلوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب ﴾ .

وقد روى البخاري ومسلم في " الصحيحين " من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) " إنَّ أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقْعَدُه بالغَداة والعشيّ ، إن كان من أهل الجنة فمن [أهل] الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن [أهل] النار ، يقال : هذا

مقعدك حتى يبعثك اللهُ إليه يوم القيامة "

وهذه الآية تدل على عذاب القبر ، لأنه بيَّن ما لهم في الآخرة فقال ﴿ ويومَ تقومُ الساعةُ ادخِلوا ﴾ قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، [وأبو عمرو] ، وأبو بكر وأبان عن عاصم : ﴿ الساعةُ ادْخُلوا ﴾ بالضم وضم الخاء على معنى الأمر لهم بالدخول ، والابتداءُ على قراءة هؤلاء بضم الألف .

وقرأ الباقون : بالقطع مع كسر الخاء على جهة الأمر للملائكة بإدخالهم ، وهؤلاء يبتدئون بفتح الألف .

قوله تعالى : ﴿ وإذ يتحاجُّون في النار ﴾ المعنى : واذكر لقومك يا محمد إذ يختصمون ، يعني أهل النار ، والآية مفسَّرة في [سورة إبراهيم : 21] ، والذين استكبروا هم القادة . ومعنى ﴿ إنّا كُلٌّ فيها ﴾ أي : نحن وأنتم ، ﴿ إنّ الله قد حَكَم بين العباد ﴾ أي : قضى هذا علينا وعليكم .

(109/678)

ومعنى قول الخَزَنَة لهم : ﴿ فادْعُوا ﴾ أي : نحن لا نَدْعو لكم ﴿ وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال ﴾ أي : إن ذلك يَبْطُل ولا يَنْفَع .

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنوا في الحياة الدُّنيا ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن ذلك بإثبات حُججهم .

والثاني : بإهلاك عدوِّهم .

والثالث : بأن العاقبة تكون لهم .

وفصلُ الخطاب : أن نصرهم حاصل لابدَّ منه ، فتارة يكون بإعلاءِ أمرهم كما أعطى داود وسليمان من المُلك ما قهرا به كل كافر ، وأظهر محمدا صلى الله عليه وسلم على مكذِّبيه ، وتارة يكون بالانتقام من مكذِّبيهم بانجاء الرسل وإهلاك أعدائهم كما فعل بنوح وقومه وموسى وقومه ، وتارة يكون بالانتقام من مكذِّبيهم بعد وفاة الرُّسل ، كتسليطه بختنصر على قَتَلَة يحيى بن زكريا .

وأمّا نصرهم يوم يقوم الأشهاد فإن الله منجيهم من العذاب ، وواحد الأشهاد شاهد ، كما أن واحد الأصحاب صاحب .

وفي الأشهاد ثلاثة أقوال :

أحدها : الملائكة شهدوا للأنبياء بالإبلاغ وعلى الأُمم بالتكذيب ، قاله مجاهد والسدي .

قال مقاتل : وهم الحَفَظة من الملائكة .

والثاني : الملائكة والأنبياء قاله قتادة .

والثالث : أنهم أربعة : الأنبياء والملائكة والمؤمنون والجوارح ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ يومَ لا يَنْفَعُ ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : " تَنْفَعُ " بالتاء ، والباقون بالياء ؛ لأن المعذرة والاعتذار بمعنى ﴿ الظالمين معذرتُهم ﴾ أي : لا يُقْبَلُ منهم إن اعتذروا ﴿ ولهم اللعنةُ ﴾ أي : البُعد من الرَّحمة .

وقد بيَّنّا في [الرعد : 25] أن " لهم " بمعنى " عليهم " و ﴿ وسوءُ الدار ﴾ : النار .

﴿ ولقد آتينا موسى الهُدى ﴾ من الضلالة ، يعني التوراة ﴿ وأورَثْنا بني إسرائيل الكتابَ ﴾ بعد موسى ، وهو التوراة أيضا في قول الأكثرين ؛ وقال ابن السائب : التوراة والإنجيل والزَّبور .

والذِّكرى بمعنى التذكير .

(110/678)

﴿ فاصْبِر ﴾ على أذاهم ﴿ إنّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ في نصرك ، وهذه الآية في هذه السورة في موضعين [غافر : 5577] ، وقد ذكروا أنها منسوخة بآية السيف .

ومعنى : ﴿ سَبِّح ﴾ صَلِّ .

وفي المراد بصلاة العشيّ والإبكارِ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها الصلوات الخمس ، قاله ابن عباس .

والثاني : صلاة الغداة وصلاة العصر ، قاله قتادة .

والثالث : أنها صلاة كانت قبل أن تُفرض الصلوات ، ركعتان غُدوةً وركعتان عشيَّةً ، قاله الحسن .

وما بعد هذا قد تقدم آنفا [المؤمن : 4] إلى قوله : ﴿ إنْ في صُدورهم إلاّ كِبرٌ . . . ﴾ الآية نزلت في قريش ؛ والمعنى : ما يَحْمِلُهم على تكذيبك إلاّ ما في صدورهم من التكبُّر عليك ، وما هم ببالغي مقتضى ذلك الكِبْر ؛ لأن الله تعالى مُذِلُّهم ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من شرِّهم ؛ ثم نبَّه على قدرته بقوله ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أكبرُ من خَلْقِ الناس ﴾ أي : من إعادتهم ، وذلك لكثرة أجزائها وعظم جِرْمها ، فنبَّههم على قُدرته على إعادة الخَلْق ﴿ ولكنَّ أكثر الناس لا يَعلمونَ ﴾ يعني الكفار حين لا يستدلُّون بذلك على التوحيد .

وقال مقاتل : عظَّمت اليهودُ الدجّالَ وقالوا : إن صاحبنا يُبعَث في آخر الزمان وله سلطان ، فقال الله : ﴿ إن الذين يجادِلونَ في آيات الله ﴾ لأن الدجّال من آياته ، ﴿ بغير سُلطان ﴾ أي : [بغير] حجة ، فاستعذ بالله من فتنة الدجّال .

قال : والمراد ب ﴿ خَلْق الناس ﴾ : الدجّال ؛ وإلى نحو هذا ذهب أبو العالية ، والأول أصح .

وما بعد هذا ظاهر إلى قوله : ﴿ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لكم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : وحِّدوني واعبُدوني أُثِبْكم ، قاله ابن عباس .

والثاني : سلوني أُعْطِكم ، قاله السدي .

﴿ إن الذين يَستكبِرونَ عن عبادتي ﴾ فيه قولان .

أحدهما : عن توحيد ، .

(111/678)

والثاني : عن دعائي ومسألتي ﴿ سَيَدْخُلونَ جهنَّم ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو بكر عن عاصم ، وعباس بن الفضل عن أبي عمرو : ﴿ سيُدْخَلونَ ﴾ [بضم الياء] ، والباقون بفتحها والدّاخر الصّاغر .

وما بعد هذا قد سبق في مواضع متفرقة [يونس : 67] [القصص : 73] [الأنعام : 95] [النمل : 61] [الأعراف : 54 29] [الحج : 5] إلى قوله ﴿ ولِتبلُغوا أجلاً مسمىً ﴾ وهو أجل الحياة إلى الموت ﴿ ولعلَّكم تَعقِلونَ ﴾ توحيدَ الله وقدرتَه .

﴿ ألم ترَ إلى الذين يجادِلون في آيات الله ﴾ يعني القرآن ، يقولون : ليس من عند الله ، ﴿ أنَّى يُصْرَفونَ ﴾ أي : كيف صُرِفوا عن الحق إلى الباطل ؟ ! وفيهم قولان .

أحدهما : أنهم المشركون ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم القَدَرِيَّة ، ذكره جماعة من المفسرين .

وكان ابن سيرين يقول : إن لم تكن نزلت في القَدَرِيَّة فلا أدري فيمن نزلت .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو رزين ، وأبو مجلز ، والضحاك ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : ﴿ والسلاسلَ يَسحبونَ ﴾ بفتح اللام والياء .

وقال ابن عباس : إذا سحبوها كان أشدَّ عليهم .

قوله تعالى : ﴿ يُسْجَرُونَ ﴾ قال مجاهد : توقدَ بهم النار فصاروا وَقودَها .

قوله تعالى : ﴿ أين ما كنتم تشركونَ ﴾ مفسَّر في [الأعراف : 190] .

وفي قوله : ﴿ لَمْ نكن نَدْعو من قَبْلُ شيئاً ﴾ قولان .

أحدهما : أنهم أرادوا أن الأصنام لم تكن شيئاً ، لأنها لم تكن تضرُ ولا تنفع ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : أنهم قالوه على وجه الجحود ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

﴿ كذلك ﴾ أي : كما أضلَّ اللهُ هؤلاء يُضِلُّ الكافرين .

(112/678)

﴿ ذلكم ﴾ العذاب الذي نزل بكم ﴿ بما كنتم تَفرحونَ في الأرض بغير الحق ﴾ أي : بالباطل ﴿ وبما كنتم تَمرحونَ ﴾ وقد شرحنا المَرَح في [بني إسرائيل : 37] وما بعد

هذا قد تقدَّم بتمامه [النحل : 29] [يونس : 109] [النساء : 164] إلى قوله : ﴿ وما كان لرسولٍ أن يأتيَ بآية إلاّ باذن الله ﴾ وذلك لأنهم كانوا يقترِحون عليه الآيات ﴿ فإذا جاء أمرُ الله ﴾ وهو قضاؤه بين الأنبياء وأُممهم و ﴿ المبطلون ﴾ : أصحاب الباطل .

قوله تعالى : ﴿ ولِتبلُغوا عليها حاجةً في صُدوركم ﴾ أي : حوائجكم في البلاد .

قوله تعالى : ﴿ فأيَّ آيات الله تُنْكِرونَ ﴾ استفهام توبيخ .

قوله تعالى : ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ في " ما " قولان .

أحدهما : أنها للنفي .

والثاني : [أنها] للاستفهام ذكرهما ابن جرير .

قوله تعالى : ﴿ فرِحوا بما عندهم من العِلْم ﴾ في المشار إليهم قولان :

أحدهما : [أنهم] الأُمم المكذِّبة ، قاله الجمهور ؛ ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : أنهم قالوا : نحن أعلم منهم لن نُعَثُ ولن نُحَاسَبَ ، قاله مجاهد .

والثاني : فرحوا بما كان عندهم أنه عِلْم ، قاله السدي .

والقول الثاني : أنهم الرُّسل ؛ والمعنى : فرِح الرُّسل لمّا هلك المكذِّبون ونَجَوْا بما عندهم من العِلْم بالله إذ جاء تصديقُه ، حكاه أبو سليمان وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وحاق بهم ﴾ يعني بالمكذِّبين العذاب الذي كانوا به يستهزؤون والبأس :

العذاب .

ومعنى ﴿ سُنَّةَ الله ﴾ : أنه سَنَّ هذه السُّنَّة في الأُمم ، أي : أن إيمانهم لا ينفعُهم إذا رأوا العذاب ، ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

فإن قيل : كأنهم لم يكونوا خاسرين قبل ذلك ؟

فعنه جوابان .

أحدهما : أن " خسر " بمعنى " هلك " قاله ابن عباس .

والثاني : أنه إنما بيَّن لهم خُسرانهم عند نزول العذاب ، قاله الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 7 صـ 224.239 ﴾

(113/678)

وقال الخازن :

﴿ ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ﴾

معناه أنا أدعوكم إلى الإيمان الذي يوجب النجاة من النار وأنتم تدعونني إلى الشرك الذي يوجب النار ثم فسر ذلك فقال ﴿ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ﴾ أي لا أعلم أن الذي تدعونني إليه إله وما ليس بإله كيف يعقل جعله شريكاً للإله الحق ؛ ولما بين

أنهم يدعونه إلى الكفر والشرك بين أنه يدعوهم إلى الإيمان بقوله ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز ﴾ أي في انتقامه ممن كفر ﴿ الغفار ﴾ أي لذنوب أهل التوحيد ﴿ لا جرم ﴾ يعني حقاً ﴿ أنما تدعونني إليه ﴾ يعني الصنم ﴿ ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ يعني ليست له استجابة دعوة لأحد في الدنيا ولا في الآخرة وقيل ليست له دعوة إلى عبادته في الدنيا ولا في الآخرة لأن الأصنام لا تدعي الربوبية ولا تدعو إلى عبادتها وفي الآخرة تتبرأ من عابديها ﴿ وأن مردنا إلى الله ﴾ يعني مرجعنا إلى الله فيجازي كلاًّ بما يستحقه ﴿ وأن المسرفين ﴾ يعني المشركين ﴿ هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم ﴾ أي إذا عاينتم العذاب حين لا ينفعكم الذكر ﴿ وأفوض أمري إلى الله ﴾ أي أرد أمري إلى الله وذلك أنهم توعدوه لمخالفته دينهم ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ يعني يعلم المحق من المبطل ثم خرج المؤمن من بينهم فطلبوه فلم يقدروا عليه وذلك قوله تعالى : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ يعني ما أرادوا به من الشر قيل إنه نجا مع موسى وكان قبطياً ﴿ وحاق ﴾ يعني نزل ﴿ بآل فرعون سوء العذاب ﴾ يعني الغرق في الدنيا والنار في الآخرة وذلك قوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ يعني صباحاً ومساء قال ابن مسعود " أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود يعرضون على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح إلى النار ويقال يا آل فرعون هذه منازلكم حتى تقوم الساعة " وقيل تعرض روح كل كافر على النار بكرة وعشياً ما دامت الدنيا .

ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر أعاذنا الله تعالى منه بمنّه وكرمه (ق) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حين يبعثك الله تعالى إليه يوم القيامة " ثم أخبر الله تعالى عن مستقرهم يوم القيامة فقال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون ﴾ أي يقال لهم ادخلوا يا آل فرعون ﴿ أشد العذاب ﴾ قال ابن عباس ألوان من العذاب غير الذي كانوا يعذبون بها منذ أغرقوا .

قوله تعالى : ﴿ وإذ يتحاجون ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك إذ يختصمون يعني أهل النار ﴿ في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً ﴾ أي في الدنيا ﴿ فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار قال الذين استكبروا ﴾ يعني الرؤساء والقادة ﴿ إنا كل فيها ﴾ يعني نحن وأنتم ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ أي قضى علينا وعليكم ﴿ وقال الذين في النار ﴾ يعني حين اشتد عليهم العذاب ﴿ لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب قالوا ﴾ يعني الخزنة ﴿ أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ يعني لا عذر

لكم بعد مجيء الرسل ﴿ قالوا بلى ﴾ أي اعترفوا بذلك ﴿ قالوا فادعوا ﴾ يعني أنتم إنا لا نَّدعوا لكم لأنهم علموا أنه لا يخفف عنهم العذاب قال الله تعالى : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ يعني يبطل ويضل ولا ينفعهم .

(115/678)

قوله : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴾ قال ابن عباس بالغلبة والقهر ، وقيل بالحجة وقيل بالانتقام من الأعداء في الدنيا والآخرة وكل ذلك حاصل لهم فهم منصورون بالحجة على من خالفهم تارة وقد نصرهم الله بالقهر على من عاداهم وأهلك أعداءهم بالانتقام منهم كما نصر يحيى بن زكريا لما قتل فإنه قتل به سبعين ألفاً ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ يعني وننصرهم يوم القيامة يوم يقوم الأشهاد وهم الحفظة من الملائكة يشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ أي إن اعتذروا عن كفرهم لم يقبل منهم ﴿ ولهم اللعنة ﴾ أي البعد من الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ يعني جهنم .

(116/678)

﴿ ولقد آتينا موسى الهدى ﴾ يعني النبوة وقيل التوراة ﴿ وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ﴾ يعني التوراة وقيل سائر الكتب المنزلة على أنبيائهم ﴿ هدى وذكرى لأولي الألباب ﴾ قوله تعالى : ﴿ فاصبر ﴾ أي يا محمد على أذاهم ﴿ إن وعد الله حق ﴾ أي في إظهار دينك وإهلاك أعدائك قال الكلبي نسخت آية القتال آية الصبر ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ يعني الصغائر وهذا على قول من يجوزها على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل يعني على ترك الأولى والأفضل وقيل على ما صدر منه قبل النبوة وعند من لا يجوز الصغائر على الأنبياء يقول هذا تعبد من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) ليزيده درجة ولتصير سنة لغيره من بعده وذلك لأن مجامع الطاعات محصورة في قسمين التوبة عما لا ينبغي ، والاشتغال بما ينبغي والأول مقدم وهو التوبة من الذنوب والثاني الاشتغال بالطاعات وهو قوله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ أي نزه ربك عما لا يليق بجلاله وقيل صل شاكراً لربك ﴿ بالعشي والإبكار ﴾ يعني صلاة العصر وصلاة الفجر وقال ابن عباس الصلوات الخمس ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ يعني كفار قريش ﴿ إن في صدورهم ﴾ يعني ما في قلوبهم ﴿ إلا كبر ﴾ قال ابن عباس ما حملهم على تكذيبك إلا ما في صدورهم من الكبر والعظمة ﴿ ما هم ببالغيه ﴾ يعني ببالغي مقتضى ذلك الكبر وقيل معناه إن في صدورهم إلا كبر على محمد (صلى الله عليه وسلم) وطمع أن يغلبوه

وما هم ببالغي ذلك وقيل نزلت في اليهود وذلك أنهم قالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) إن صاحبنا المسيح بن داود يعنون الدجال يخرج في آخر الزمان فيبلغ سطانه البر والبحر ويرد الملك إلينا قال الله تعالى : ﴿ فاستعذ بالله ﴾ أي من فتنة الدجال ﴿ إنه هو السميع ﴾ يعني لأقوالهم ﴿ البصير ﴾ يعني بأفعالهم .

(117/678)

قوله : ﴿ لخلق السموات والأرض ﴾ يعني مع عظمهما ﴿ أكبر من خلق الناس ﴾ أي من إعادتهم بعد الموت والمعنى أنهم مقرون أن الله تعالى خلق السموات والأرض وذلك أعظم في الصدور من خلق الناس فكيف لا يقرون بالبعث بعد الموت ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ يعني أن الكفار لا يعلمون حيث لا يستدلون بذلك على توحيد خالقها ، وقال قوم معنى أكبر من خلق الناس أي أعظم من خلق الدجال ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعني اليهود الذين يخاصمون في أمر الدجال .

(فصل في ذكر الدجال)

(م) عن هشام بن عروة قال سمعت النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول " ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال " معناه أكبر فتنة وأعظم شوكة من الدجال (ق)

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما

" أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ذكر الدجال فقال إنه أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافئة " ولأبي داود والترمذي عنه قال " قام النبي (صلى الله عليه وسلم) في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال إني أنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه لقد أنذر نوح قومه ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور " (ق) عن أنس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ما من نبي إلا وقد أنذر قومه الأعور الكذاب ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر " وفي رواية لمسلم " بين عينيه كافر ثم تهجى ك ف ر ويقرؤه كل مسلم " عن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت " كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بيتي فذكر الدجال ، فقال إن بين يديه ثلاث سنين سنة تمسك السماء ثلث قطرها والأرض .

والثانية تمسك السماء ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها .

(118/678)

والثالثة تمسك السماء قطرها كله والأرض نباتها كله نباتها كله فلا تبقى ذات ظلف ولا ضرس من البهائم إلا هلكت ومن أشد فتنته أنه يأتي الأعرابي فيقول : أرأيت إن أحييت

لك إبلك ألست تعلم أني ربك قال : فيقول : بلى ، فيتمثل الشيطان نحو إبله كأحسن ما تكون ضروعاً وأعظمه أسنمة ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه فيقول : أرأيت إن أحييت لك أخاك وأباك ألست تعلم أني ربك فيقول بلى فيتمثل له الشيطان نحو أخيه ونحو أبيه قالت : ثم خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغمّ مما حدثهم قالت وأخذ بلحمتي الباب فقال مهيم أسماء فقلت : يا رسول الله لقد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال قال : إن يخرج وأنا حي فأنا حجيجه وإلا فإن ربي خليفتي على كل مؤمن ، قالت أسماء : فقلت يا رسول الله والله إنا لنعجن عجيناً فما نخبزه حتى نجوع فكيف بالمؤمنين يومئذ ، قال : يجزيهم ما يجزىء أهل السماء من التسبيح والتقديس " وفي رواية عنها قالت قال النبي (صلى الله عليه وسلم) " يمكث الدجال في الأرض أربعين سنة السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاضطرام السعفة في النار " هذا حديث أخرجه البغوي بسنده والذي جاء في صحيح مسلم قال " قلنا يا رسول الله ما لبثه في الأرض قال أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم هذه قلنا يا رسول الله فذاك اليوم الذي كسنة أتكفينا له صلاة يوم قال لا أقدروا له قدره قلنا يا رسول الله وما إسراعه في الأرض قال كالغيث استذرته الريح "

(119/678)

وفي رواية أبي داود عنه " فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فإنها جواركم من فتنته وفيه ثم ينزل عيسى عند المنارة البيضاء شرقي دمشق فيدركه عند باب لد فيقتله " (ق) عن حذيفة قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " إن مع الدجال إذا خرج ماء وناراً ، فأما الذي يرى الناس أنه نار فماء بارد والذي يرى الناس أنه ماء فنار محرقة فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يرى أنه نار فإنه ماء عذب بارد " (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال ما حدث به نبي قومه إنه أعور وإنه يجيء بمثال الجنة ولنار فالتي يقول إنها الجنة هي النار وإني أنذركم كما أنذر نوح قومه " (ق) " عن المغيرة بن شعبة قال " ما سأل أحد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الدجال ما سألته وإنه قال لي ما يضرك قلت إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء قال هو أهون على الله من ذلك " عن عمران بن حصين أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " من سمع بالدجال فليناً منه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به الشبهات أو قال لما يبعث به من الشبهات " أخرجه أبو داود (ق) عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ليس نقب من نقابها إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها فينزل السبخة ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج إليه كل

كافر ومنافق " (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " يأتي المسيح من قبل المشرق وهمته المدينة حتى ينزل دبر أحد ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام وهناك يهلك " عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال : حدثنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " الدجال يخرج بأرض بالمشرق يقال لها خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة " أخرجه

(120/678)

الترمذي ، وقال حديث حسن غريب (م) .

عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة " عن مجمع بن جارية الأنصاري قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " يقتل ابن مريم الدجال بباب لد " أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح .

(121/678)

قال الشيخ محيي الدين النووي : قال القاضي عياض هذه الأحاديث التي وردت في قصة الدجال حجة للمذهب الحق في صحة وجوده وأنه شخص بعينه ابتلى الله تعالى به عباده فأقدره على أشياء من المقدورات من إحياء الميت الذي يقتله ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه وجنته وناره وإتباع كنوز الأرض له وأمره السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تنبت فتنبت ويقع كل ذلك بقدرة الله تعالى وفتنته ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ويبطل أمره ويقتله عيسى ابن مريم عليه السلام ويثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء خلافاً لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة وخلافاً للجبائي المعتزلي وموافقيه من الجهمية وغيرهم في أنه صحيح الوجود ولكن الأشياء التي يأتي بها زعموا أنها مخاريق وخيالات لا حقائق لها وزعموا أنها لو كانت حقاً لضاهت معجزات الأنبياء وهذا غلط من جميعهم لأنه لم يدع النبوة فيكون ما معه كالتصديق له وإنما يدعي الربوبية وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ووجود دلائل الحدوث فيه ونقص صورته وعجزه عن إزالة العور الذي في عينه وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه ولهذه الدلائل لا يغتر به إلا عوام من الناس لشدة الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو خوفاً من فتنته لأن فتنته عظيمة جداً تدهش العقول وتحير الألباب ولهذا حذرت الأنبياء من فتنته فأما أهل

التوفيق فلا يغترون به ولا يخدعون بما معه لما سبق من العلم بحاله ولهذا يقول له الذي يقتله ثم يحييه ما ازددت فيك إلا بصيرة قوله

(122/678)

قوله : ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ أي الجاهل والعالم ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ﴾ أي لا يستوون ﴿ قليلاً ما تتذكرون إن الساعة ﴾ يعني القيامة ﴿ لآتية لا ريب فيها ﴾ أي لا شك في قيامها ومجيئها ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ أي لا يصدقون بالبعث بعد الموت ، قوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ أي اعبدوني دون غيري أجبكم وأثبكم وأغفر لكم فلما عبر عن العبادة بالدعاء جعل الإثابة استجابة عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول على المنبر " الدعاء هو العبادة ثم قرأ ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ " أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من لم يسأل الله يغضب عليه " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب عن أنس بن مالك قال " الدعاء مخ العبادة " أخرجه الترمذي وعنه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " ليس

شيء أكرم على الله من الدعاء " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب ؛ فإن قلت كيف قال ادعوني أستجب لكم وقد يدعو الإنسان كثيراً فلا يستجاب له ، قلت الدعاء له شروط منها الإخلاص في الدعاء وأن لا يدعو وقلبه لاه مشغول بغير الدعاء وأن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة للإنسان وأن لا يكون فيه قطيعة رحم فإذا كان الدعاء بهذه الشروط كان حقيقاً بالإجابة فإما أن يعجلها له وإما أن يؤخرها له يدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ما من رجل يدعو الله تعالى بدعاء إلا استجيب له فإما أن يعجل له به في الدنيا وإما أن يدخر له في الآخرة وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل قالوا يا رسول الله وكيف يستعجل قال يقول دعوت ربي فما استجاب لي " أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وقيل الدعاء هو الذكر والسؤال ﴿ إن الذين

(123/678)

يستكبرون عن عبادتي ﴾ أي عن توحيدي وقيل دعائي ﴿ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين ذليلين .

(124/678)

قوله : ﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ أي لتحصل لكم الراحة فيه بسبب النوم والسكون ﴿ والنهار مبصراً ﴾ أي لتحصل لكم فيه مكنة التصرف في حوائجكم ومهماتكم ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ذلكم الله ربكم ﴾ أي ذلكم المميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو الله ربكم ﴿ خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴾ أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق الأشياء كلها وأنه لا شريك له في ذلك ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فأنى تصرفون عن الحق ﴿ كذلك ﴾ أي كما أفكتم عن الحق مع قيام الدلائل كذلك ﴿ يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون الله الذي جعل لكم الأرض قراراً ﴾ أي فراشاً لتستقروا عليها وقيل منزلاً في حال الحياة وبعد الموت ﴿ والسماء بناء ﴾ أي سقفاً مرفوعاً كالقبة ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ أي خلقكم فأحسن خلقكم قال ابن عباس خلق ابن آدم قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده وغير ابن آدم يتناول بفيه ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ قيل هو ما خلق الله تعالى لعباده من المأكل والمشرب من غير رزق الدواب ﴿ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين هو الحي ﴾ وهذا يفيد الحصر أي لا حي إلا هو فوجب أن يحمل ذلك على الذي يمتنع أن يموت امتناعاً تاماً ثابتاً وهو الله تعالى الذي لا يوصف بالحياة الكاملة إلا هو ، والحي هو المدرك الفعال لما يريد وهذه إشارة إلى العلم التام والقدرة التامة ولما نبه على هذه

الصفات نبه على كمال الوحدانية بقوله ﴿ لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ أي فادعوه واحمدوه ، قال ابن عباس من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين ﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ وذلك حين دعي إلى الكفر أمره الله تعالى أن يقول ذلك .

(125/678)

قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من تراب ﴾ يعني أصلكم آدم وقيل يحتمل أن كل إنسان خلق من تراب لأنه خلق من النطفة وهي من الأغذية والأغذية من النبات والنبات من التراب ﴿ ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ﴾ يعني أن مراتب الإنسان بعد خروجه من بطن أمه ثلاث الطفولية وهي حالة النمو والزيادة إلى أن يبلغ كمال الأشد من غير ضعف ثم يتناقص بعد ذلك وهي الشيوخة ﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ أي من قبل أن يصير شيخاً ﴿ ولتبلغوا ﴾ أي جميعاً ﴿ أجلاً مسمى ﴾ أي وقتاً محدود لا تجاوزونه يعني أجل الحياة إلى الموت ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ أي ما في هذه الأحوال العجيبة من القدرة الباهرة الدالة على توحيده وقدرته ﴿ هو

الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أي يكونه من غير كلفة ولا معاناة ولا تعب وكل ذلك من كمال قدرته على الإحياء والإماتة وسائر ما ذكر من الأفعال الدالة على قدرته كأنه قال من الاقتدار إذا قضى أمراً كان أهون شيء وأسرعه .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله ﴾ يعني القرآن ﴿ أنى يصرفون ﴾ أي عن دين الحق وقيل نزلت في القدرية .

(126/678)

﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ﴾ فيه وعيد وتهديد ثم وصف ما أوعدهم به فقال تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ﴾ يعني يجرون بتلك السلاسل ﴿ في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ يعني توقد بهم النار ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ﴾ يعني الأصنام ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ أي فقدناهم فلم نرهم ﴿ بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ﴾ قيل إنهم أنكروا عبادتها ، وقيل لم نكن ندعوا شيئاً ينفع ويضر ، وقيل ضاعت عبادتنا لها فكأنا لم نكن ندعو من قبل شيئاً ﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ أي كما أضل هؤلاء ﴿ ذلكم ﴾ أي العذاب الذي نزل بكم ﴿ بما كنتم تفرحون ﴾ أي تبطرون وتأشرون ﴿ في الأرض بغير الحق وبما كنتم

تمرحون ﴾ أي تختالون وتفرحون به ﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ يعني السبعة ﴿ خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ يعني عن الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) أي بنصرك على الأعداء ﴿ فإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ أي من العذاب في حياتك ﴿ أو نتوفينك ﴾ أي قبل أن يحل ذلك بهم ﴿ فإلينا يرجعون ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ﴾ أي خبره وحاله في القرآن ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ أي لم نذكر لك حال الباقين منهم وليس منهم أحد إلا أعطاه الله تعالى آيات ومعجزات ، وقد جادله قومه وكذبوه فيها وما جرى عليهم يقارب ما جرى عليك فصبروا وهذا تسلية لنبيه (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ يعني بأمره وإرادته ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ أي قضاؤه بين الأنبياء والأمم ﴿ قضي بالحق ﴾ يعني بالعدل ﴿ وخسر هنالك المبطلون ﴾ يعني الذين يجادلون في آيات الله بغير حق وفيه وعيد وتهديد لهم .

(127/678)

قوله تعالى : ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ﴾ أي في أصوافها وأوبارها وأشعارها وألبانها ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ أي تحمل أثقالكم من بلد إلى بلد في أسفاركم وحاجاتكم ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ أي على الإبل في البر وعلى السفن في البحر ﴿ ويريكم آياته ﴾ أي دلائل قدرته ﴿ فأي آيات الله تنكرون ﴾ يعني أن هذه الآيات التي ذكرها ظاهرة باهرة فليس شيء منها يمكن إنكاره .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض ﴾ يعني مصانعهم وقصورهم والمعنى لو سار هؤلاء في أطراف الأرض لعرفوا أن عاقبة هؤلاء المنكرين المتمردين الهلاك والبوار مع أنهم كانوا أكثر عدداً وأموالاً من هؤلاء ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ أي لم ينفعهم ﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ أي أي شيء أغنى عنهم كسبهم ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا ﴾ أي رضوا ﴿ بما عندهم من العلم ﴾ قيل هو قولهم لن نبعث ولن نعذب وقيل هو علمهم بأحوال الدنيا سمي ذلك علماً على ما يدعونه ويزعمونه وهو في الحقيقة جهل ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما رأوا بأسنا ﴾ أي عذابنا ﴿ قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ أي تبرأنا مما كنا نعدل بالله ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده ﴾ يعني أن سنة الله قد جرت في الأمم الخالية بعدم قبول الإيمان عند معاينة

البأس وهو العذاب يعني بتلك السنة أنهم إذا رأوا العذاب آمنوا ولا ينفعهم إيمانهم عند معاينة العذاب ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ يعني بذهاب الدارين قيل الكافر خاسر في كل وقت ولكنه يتبين خسرانه إذا رأى العذاب والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 6 صـ 104.95 ﴾

(128/678)

وقال ابن جزى :

﴿ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾

أي ليس لي علم بربوبيته والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال : وأشرك به ما ليس بإله ، وإذا لم يكن إلهاً لم يصح ربوبيته .

﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ أي لا بد ولا شك ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ﴾ قال ابن عطية ليس له قدر ولا حق ، يجب أن يدعى إليه كأنه قال : أتدعونني إلى عبادة ما لا خطر له في الدنيا ، ولا في الآخرة ، ويحتمل اللفظ أن يكون معناه : ليس له دعوة قائمة ، أي لا يدعى أحد إلى عبادته .

﴿ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ دليل على أن من فوض أمره إلى الله عز وجل كان الله معه .

﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ النار بدل من سوء العذاب ، أو مبتدأ أو خبر مبتدأ مضمر ، وعرضهم عليها من حين موتهم إلى يوم القيامة ، وذلك مدّة البرزخ بدليل قوله : يوم القيامة ﴿ أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ واستدل أهل السنة بذلك على صحة ما ورد من عذاب القبر ، وروي أن أرواحهم في أجواف طيور سود تروح بهم وتغدوا إلى النار ﴿ غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ قيل : معناه في كل غدوة وعشية من أيام الدنيا ، وقيل : المعنى على تقدير : ما بين الغدوة والعشية ، لأن الآخرة لا غدوة فيها ولا عشية .

﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ إن قيل : هلا قال الذين في النار لخزنتها فلم صرح باسمها ؟ فالجواب أن في ذكر جهنم تهويلاً ليس في ذكر الضمير ﴿ وَمَا دُعَاءُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ يحتمل أن يكون من كلام خزنة جهنّم فيكون متّصلاً بقوله : ﴿ فادعوا ﴾ أن يكون من كلام الله تعالى استئنافاً .

(129/678)

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ قيل : إن هذا خاص فيمن أظهره الله على الكفار ، وليس بعام ؛ لأن من الأنبياء من قتله قومه كزكريا ويحيى ، والصحيح أنه عام ، والجواب عما ذكروه أن زكريا ويحيى لم يكونا من الرسل ، إنما كانا من الأنبياء الذي ليسوا بمرسلين ، وإنما ضمن الله

نصر الرسل خاصة ، لا نصر الأنبياء كلهم ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ يعني يوم القيامة ، والأشهاد جمع شاهد أو شهيد ، ويحتمل أن يكون بمعنى الحضور . أو الشهادة على الناس أو الشهادة في سبيل الله ، والأظهر أنه بمعنى الشهادة على الناس لقوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ [النساء : 41] .

﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ يحتمل أنهم لا يتعذرون أو يعتذرون ، ولكن لا تنفعهم معذرتهم ، والأول أرجح لقوله : ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 36] فنفى الاعتذار والانتفاع به .

﴿ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ يعني وعده لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالنصر والظهور على أعدائه الكفار ﴿ بالعشي والإبكار ﴾ قيل : العشي صلاة العصر والإبكار صلا الصبح ، وقيل : العشي بعد العصر إلى الغروب والإبكار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

﴿ إِنَّ الذين يُجَادِلُونَ ﴾ يعني كفار قريش ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ﴾ أي تكبر وتعاظم ، يمنعهم من أن يتبعوك أن ينقادوا إليك وقيل : كبرهم أنهم أرادوا النبوة لأنفسهم ، ورأوا أنهم أحق بها ، والأول أظهر لأن إرادتهم النبوة لأنفسهم حسد ، والأول هو الكبر ﴿ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ أي لا يبلغون ما يقتضيه كبرهم من الظهور عليك ، ومن نيل النبوة ﴿

فاستعذ بالله ﴾ أي استعذ من شرهم لأنهم أعداء لك ، واستعذ من مثل حالهم في الكبر والحسد ، واستعذ بالله من جميع أمورك على الاطلاق .

(130/678)

﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ الخلق هنا مصدر مضاف إلى المفعول ، والمراد به الاستدلال على البعث ، لأن الإله الذي خلق السموات والأرض على كبرها ، قادر على إعادة الأجسام بعد فنائها ، وقيل : المراد توبيخ الكفار المتكبرين ، كأنه قال : خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، فما بال هؤلاء يتكبرون على خالقهم ، وهم من أصغر مخلوقاته وأحقرهم ، والأول أرجح لوروده في مواضع من القرآن لأنه قال بعده : ﴿ إِنَّ الساعة لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ﴾ فقدم الدليل ، ثم ذكر المدلول .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ الدعاء هنا هو الطلب والرغبة ، وهذا وعد مقيّد بالمشيئة ، وهي موافقة القدر لمن أراد أن يستجيب له ، وقيل : أدعوني هنا : اعبدوني بدليل قوله بعده : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم : " الدعاء هو العبادة ثم تلا الآية " ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ لكم على هذا القول بمعنى أغفر لكم أو أعطيكم أجوركم . والأول أظهر ، ويكون قوله : ﴿ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

﴿ بمعنى يستكبرون عن الرغبة إليّ كما قال صلى الله عليه وسلم : " من لم يسأل الله يغضب عليه " وأما قوله صلى الله عليه وسلم : " الدعاء هو العبادة " فمعناه أن الدعاء والرغبة إلى الله هي العبادة ، لأن الدعاء يظهر فيه افتقار العبد وتضرعه إلى الله ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ أي صاغرين .

﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ ذكر في ﴿ يونس : 67] .

(131/678)

﴿ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطيبات ﴾ يعني المستلذات ، لأنه جاء ذكر الطيبات في معرض الإنعام فيراد به المستلذات ، وإذا جاء في معرض التحليل والتحريم فيراد به الحلال والحرام ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ هذا متصل بما قبله ، قال ذلك ابن عطية والزمخشري وتقديره : ادعوه مخلصين قائلين ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ ولذلك قال ابن عباس : من قال لا إله إلا الله فليقل الحمد لله رب العالمين ، ويحتمل أن يكون الحمد لله استئنافاً .

﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أراد الجنس ولذلك أفرد لفظه مع أن الخطاب لجماعة ﴿ ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ ﴾ ذكر الأشد في سورة يوسف عليه السلام : [يوسف : 22] واللام تتعلق بفعل محذوف تقديره : ثم يبقيكم لتبلغوا وكذلك ليكونوا أو أما لتبلغوا أجلاً مسمى

فمتعلق بمحذوف آخر تقديره : فعل ذلك بكم لتبلغوا أجلاً مسمى هو الموت أو يوم القيامة

.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يُجَادِلُونَ ﴾ يعني كفار قريش ، وقيل : هم أهل الأهواء كالقدرية وغيرهم ، وهذا مردود بقوله : ﴿ الذين كَذَّبُواْ بالكتاب ﴾ إلا إن جعلته منقطعاً مما قبله وذلك بعيد ﴿ إِذِ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ ﴾ العامل في إذ يعملون وجعل الظرف الماضي من الموضع المستقبل لتحقيق الأمر به ﴿ إِذِ الأغلال ﴾ أي يجرون والحميم الماء الشديد الحرارة ﴿ يُسْحَبُونَ * فِي الحميم ﴾ أي يجرون في الحميم والماء الشديد الحرارة ﴿ ثُمَّ فِي النار يُسْجَرُونَ ﴾ هذا من قولك : سجرت التنور إذا ملأته بالنار ، فالمعنى أنهم يدخلون فيها كما يدخل الحطب في التنور ، ولذلك قال مجاهد في تفسيره : توقد بهم النار (تمرحون) من المرح وهو الأشر والبطر . وقيل : الفخر والخيلاء .

(132/678)

﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ إن قيل : قياس النظم أن يقول بئس مدخل الكافرين لأنه تقدم قبله ادخلوا . فالجواب أن الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثوى ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ ﴾ أصل إما إن نريك ودخلت ما الزائدة بعد إن الشرطية ، وجواب الشرط

محذوف تقديره : إن أريناك بعض الذي نعدهم من العذاب قرّت عينك بذلك ، وإن توفيناك قبل ذلك فإلينا يرجعون ، فننتقم منهم أشد الانتقام .

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى بعث ثمانية آلاف رسول وفي حديث آخر أربعة آلاف ، وفي حديث أبي ذر أن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً منهم الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر ؛ فذكر الله بعضهم في القرآن ، فهم الذي قص عليه ولم يذكر سائرهم فهم الذين لم يقصص عليه ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بالحق ﴾ قال الزمخشري : أمر الله : القيامة ، وقال ابن عطية : المعنى إذا أراد الله إرسال رسول قضي ذلك ، ويحتمل أن يريد بأمر الله إهلاك المكذبين للرسل لقوله : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ المبطلون ﴾ هنالك في الموضعين يراد به الوقت والزمان ، وأصله ظرف كان ثم وضع موضع ظرف الزمان (الأنعام) هي الإبل والبقر والضأن والمعز ، فقوله : ﴿ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا ﴾ يعني الإبل ، و ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ يعني اللحوم والمنافع منها اللبن والصوف وغير ذلك ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً ﴾ يعني قطع المسافة البعيدة ، وحمل الأثقال على الإبل ، ﴿ تُحْمَلُونَ ﴾ يريد الركوب عليها وإنما كرره بعد قوله : ﴿ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا ﴾ لأنه أراد الركوب الأول المتعارف في القرى والبلدان وبالحمل عليها ، الأسفار البعيدة ، قاله ابن عطية ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ هذا عموم بعد ما قدم من الآيات المخصوصة ولذلك وبخهم بقوله : ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ ﴾ .

(133/678)

﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ﴾ الضمير يعود على الأمم المكذبين وفي تفسير علمهم وجوه : أحدها أنه ما كانوا يعتقدون من أنهم لا يبعثون ولا يحاسبون ، والثاني أنه علمهم بمنافع الدنيا ووجوه كسبها ، والثالث أنه علم الفلاسفة الذين يحتقرون علوم الشرائع وقيل : الضمير يعود على الرسل ، أي فرحوا بما أعطاهم الله من العلم وشرائعه أو بما عندهم من العلم بأن الله ينصرهم على من يكذبهم ، وأما الضمير في ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ فيعود على الكفار باتفاق ، ولذلك ترجع أن يكون الضمير في ﴿ فَرِحُواْ ﴾ يعود عليهم ليتسق الكلام (سنة الله) انتصب على المصدرية والله سبحانه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 10.6 ﴾

(134/678)

وقال النسفى :

ثم وازن بين الدعوتين دعوته إلى دين الله الذي ثمرته الجنات ، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد

الذي عاقبته النار بقوله ﴿ ويا قوم مَالِيَ ﴾ وبفتح الياء : حجازي وأبو عمرو ﴿ أَدْعُوكُمْ إِلَى النجاة ﴾ أي الجنة ﴿ وَتَدْعُونَنِى إِلَى النار تَدْعُونَنِى لأَكْفُرَ بالله ﴾ هو بدل من ﴿ تَدْعُونَنِى ﴾ الأول يقال : دعاه إلى كذا ودعاه له كما يقال هداه إلى الطريق وهداه له ﴿ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي بربوبيته والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال : وأشرك به ما ليس بإله وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلهاً ﴿ وَأَنَاْ أَدْعُوكُمْ إِلَى العزيز الغفار ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى ، وتكرير النداء لزيادة التنبيه لهم والإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه أنهم قومه وأنه من آل فرعون .

وجيء بالواو في النداء الثالث دون الثاني ، لأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له بخلاف الثالث .

(135/678)

﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ عند البصريين لا رد لما دعاه إليه قومه ، و "جرم" فعل بمعنى حق و "أن" مع ما في حيزه فاعله أي حق ووجب بطلان دعوته ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدنيا وَلاَ فِى الآخرة ﴾ معناه أن تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط أي من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته ، وما تدعون إليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك

ولا يدعي الربوبية ، أو معناه ليس له استجابة دعوة في الدنيا ولا في الآخرة أو دعوة مستجابة ، جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ولا منفعة كلا دعوة ، أو سميت الاستجابة باسم الدعوة كما سمي الفعل المجازي عليه بالجزاء في قوله : "كما تدين تدان" ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى الله ﴾ وأن رجوعنا إليه ﴿ وَأَنَّ المسرفين ﴾ وأن المشركين ﴿ هُمْ أصحاب النار فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أي من النصيحة عند نزول العذاب ﴿ وَأُفَوِّضُ ﴾ وأسلم ﴿ أَمْرِى ﴾ وبفتح الياء : مدني وأبو عمرو ﴿ إِلَى الله ﴾ لأنهم توعدوه ﴿ إِنَّ الله بَصِيرٌ بالعباد ﴾ بأعمالهم ومالهم ﴿ فَوَقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم ، وقيل : إنه خرج من عندهم هارباً إلى جبل فبعث قريباً من ألف في طلبه فمنهم من أكلته السباع ومن رجع منهم صلبه فرعون ﴿ وَحَاقَ ﴾ ونزل .

﴿ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العذاب النار ﴾ بدل من ﴿ سُوءُ العذاب ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل : ما سوء العذاب ؟ فقيل : هو النار ، أو مبتدأ خبره ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ وعرضهم عليها إحراقهم بها يقال : عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به .

(136/678)

﴿ غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ أي في هذين الوقتين يعذبون بالنار ، وفيما بين ذلك إما أن يعذبوا بجنس آخر أو ينفس عنهم ، ويجوز أن يكون غدواً وعشياً عبارة عن الدوام هذا في الدنيا ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ يقال لخزنة جهنم ﴿ أَدْخلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ من الإدخال : مدني وحمزة وعلي وحفص وخلف ويعقوب ، وغيرهم ﴿ أدخلوا ﴾ أي يقال لهم ادخلوا يا آل فرعون ﴿ أَشَدَّ العذاب ﴾ أي عذاب جهنم ، وهذه الآية دليل على عذاب القبر .

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ ﴾ واذكر وقت تخاصمهم ﴿ فِى النار فَيَقُولُ الضعفاؤا لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ يعني الرؤساء ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ تباعاً كخدم في جمع خادم ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ ﴾ دافعون ﴿ عَنَّا نَصِيباً ﴾ جزاءً ﴿ مِّنَ النار قَالَ الذين استكبروا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ التنوين عوض من المضاف إليه أي إنا كلنا فيها لا يغني أحد عن أحد ﴿ إِنَّ الله قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العباد ﴾ قضى بينهم بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿ وَقَالَ الذين فِى النار لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ للقوّام بتعذيب أهلها .

(137/678)

وإنما لم يقل "لخزنتها" لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً ، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعراً من قولهم "بئر جهنّام" بعيدة القعر وفيها أعتى الكفار وأطغاهم ، فلعل الملائكة الموكلين

بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله تعالى فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم ﴿ ادعوا ربَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً ﴾ بقدر يوم من الدنيا ﴿ مِّنَ العذاب قَالُواْ ﴾ أي الخزنة توبيخاً لهم بعد مدة طويلة ﴿ أَوَلَمْ تَكُ ﴾ أي ولم تك قصة ، وقوله ﴿ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم ﴾ تفسير للقصة ﴿ بالبينات ﴾ بالمعجزات ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الكفار ﴿ بلى قَالُواْ ﴾ أي الخزنة تهكماً بهم ﴿ فادعوا ﴾ أنتم ولا استجابة لدعائكم ﴿ وَمَا دعاؤا الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ بطلان وهو من قول الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من كلام الخزنة .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءَامَنُواْ فِى الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ﴾ أي في الدنيا والآخرة يعني أنه يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على مخالفيهم وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحاناً من الله والعاقبة لهم ، ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين .

و ﴿ يوم ﴾ نصب محمول على موضع الجار والمجرور كما تقول جئتك في أمس واليوم ، والأشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب يريد الأنبياء والحفظة ، فالأنبياء يشهدون عند رب العزة على الكفرة بالتكذيب والحفظة يشهدون على بني آدم بما عملوا من الأعمال .

﴿ تَقُومُ ﴾ بالتاء : الرازي عن هشام

﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ هذا بدل من ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ﴾ أي لا يقبل عذرهم .

(138/678)

﴿ لاَّ ينفَعُ ﴾ كوفي ونافع ﴿ وَلَهُمُ اللعنة ﴾ البعد من رحمة الله ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدار ﴾ أي سوء دار الآخرة وهو عذابها ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الهدى ﴾ يريد به جميع ما أتى به في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِى إسراءيل الكتاب ﴾ أي التوراة والإنجيل والزبور لأن الكتاب جنس أي تركنا الكتاب من بعد هذا إلى هذا ﴿ هُدًى وذكرى ﴾ إرشاداً وتذكرة ، وانتصابهما على المفعول له أو على الحال ﴿ لِأُوْلِى الألباب ﴾ لذوي العقول .

﴿ فاصبر ﴾ على ما يجرعك قومك من الغصص ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ يعني إن ما سبق به وعدي من نصرتك وإعلاء كلمتك حق ﴿ واستغفر لِذَنبِكَ ﴾ أي لذنب أمتك ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعشى والإبكار ﴾ أي دم على عبادة ربك والثناء عليه .

وقيل : هما صلاتا العصر والفجر .

وقيل : قل سبحان الله وبحمده .

﴿ إِنَّ الذين يجادلون فِى ءايات الله بِغَيْرِ سلطان أتاهم ﴾ لا وقف عليه لأن خبر "إن" ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ﴾ تعظم وهو إرادة التقدم والرياسة وأن لا يكون أحد فوقهم ، فلهذا عادوك ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدمهم ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة ، أو إرادة أن تكون لهم النبوة دونك حسداً وبغياً وبدل عليه قوله : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : 11] أو إرادة دفع الآيات بالجدل ﴿ مَّا هُم ببالغيه ﴾ ببالغي موجب الكبر ومقتضيه وهو متعلق إرادتهم من الرياسة أو النبوة أو دفع الآيات ﴿ فاستعذ بالله ﴾ فالتجيء إليه من كيد من يحسدك ويبغي عليك ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لم تقول ويقولون ﴿ البصير ﴾ بما تعمل ويعملون فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرهم .

(139/678)

﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ لما كانت مجادلتهم في آيات الله مشتملة على إنكار البعث ، وهو أصل المجادلة ومدارها حجوا بخلق السماوات الأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها فإن من قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر .

﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ لأنهم لا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأعمى والبصير والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَلاَ المسىء ﴾ "لا" زائدة ﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون بتاءين : كوفي ، وبياء وتاء : غيرهم ، و ﴿ قَلِيلاً ﴾ صفة مصدر محذوف أي تذكراً قليلاً يتذكرون و"ما" صلة زائدة .

﴿ إِنَّ الساعة لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ﴾ لا بد من مجيئها وليس بمرتاب فيها لأنه لا بد من جزاء لئلا يكون خلق الخلق للفناء خاصة ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ لا يصدقون بها ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى ﴾ اعبدوني ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أثبكم فالدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن ويدل عليه قوله ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ وقال عليه السلام : "الدعاء هو العبادة" وقرأ هذه الآية صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : وحدوني أغفر لكم وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ثم للعبادة بالتوحيد .

وقيل : سلوني أعطكم ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ﴾ ﴿ سيُدخلون ﴾ مكي وأبو عمرو .

﴿ داخرين ﴾ صاغرين .

﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ هو من الإسناد المجازي أي مبصراً فيه لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار .

وقرن ﴿ الليل ﴾ بالمفعول له و ﴿ النهار ﴾ بالحال ولم يكونا حالين أو مفعولاً لهما رعاية لحق المقابلة لأنهما متقابلان معنى ، لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر ، ولأنه لو قيل لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي ، ولو قيل ساكناً لم تتميز الحقيقة من المجاز إذ الليل يوصف بالسكون على الحقيقة ، ألا ترى إلى قولهم ليل ساجٍ أي ساكن لا ريح فيه ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ ولم يقل لمفضل أو لمتفضل لأن المراد تنكير الفضل وأن يجعل فضلاً لا يوازيه فضل وذلك إنما يكون بالإضافة ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ ولم يقل "ولكن أكثرهم" حتى لا يتكرر ذكر الناس لأن في هذا التكرير تخصيصاً لكفران النعمة بهم وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه كقوله : ﴿ إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ﴾ [الحج : 66] .

وقوله : ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : 34] .

﴿ ذلكم ﴾ الذي خلق لكم الليل والنهار ﴿ الله رَبُّكُمْ خالق كُلِّ شَىْءٍ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ أخبار مترادفة أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الربوبية والإلهية وخلق كل شيء والوحدانية ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان ؟ ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الذين كَانُواْ بآيات الله يَجْحَدُونَ ﴾ أي كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يطلب الحق أفك كما أفكوا .

﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً ﴾ مستقراً ﴿ والسمآء بِنَاءً ﴾ سقفاً فوقكم ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ قيل : لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان .

(141/678)

وقيل : لم يخلقهم منكوسين كالبهائم ﴿ وَرَزَقَكُم مّنَ الطيبات ﴾ اللذيذات ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ فتبارك الله رَبُّ العالمين هُوَ الحى لاَ إله إِلاَّ هُوَ فادعوه ﴾ فاعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي الطاعة من الشرك والرياء قائلين ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما : من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين .

ولما طلب الكفار منه عليه السلام عبادة الأوثان نزل ﴿ قُلْ إِنّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَمَّا جَآءَنِى البينات مِن رَّبِّى ﴾ هي القرآن وقيل العقل والوحي ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ أستقيم وأنقاد ﴿ لِرَبِّ العالمين هُوَ الذى خَلَقَكُمْ ﴾ أي أصلكم ﴿ مّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ اقتصر على الواحد لأن المراد بيان الجنس ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا وكذلك ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً ﴾ وبكسر الشين : مكي وحمزة وعلي وحماد ويحيى والأعشى ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل بلوغ الأشد أو من قبل الشيوخة ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ أَجَلاً

مُّسَمًّى ﴾ معناه ويفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى وهو وقت الموت أو يوم القيامة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ما في ذلك من العبر والحجج ﴿ هُوَ الذى يُحْيِى وَيُمِيتُ فَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي فإنما يكوّنه سريعاً من غير كلفة.

(142/678)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يجادلون فِى ءايات الله أنى يُصْرَفُونَ ﴾ ذكر الجدال في هذه السورة في ثلاثة مواضع فجاز أن يكون في ثلاثة أقوام أو ثلاثة أصناف أو للتأكيد ﴿ الذين كَذَّبُواْ بالكتاب ﴾ بالقرآن ﴿ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ من الكتاب ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الاغلال فِى أعناقهم ﴾ "إذا" ظرف زمان ماضٍ والمراد به هنا الاستقبال كقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا لأن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله تعالى مقطوعاً بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد، والمعنى على الاستقبال ﴿ والسلاسل ﴾ عطف على ﴿ الأغلال ﴾ والخبر ﴿ فِى أعناقهم ﴾ والمعنى إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم ﴿ يُسْحَبُونَ فِى الحميم ﴾ يجرون في الماء الحار ﴿ ثُمَّ فِى النار يُسْجَرُونَ ﴾ من سجر التنور إذا ملأه بالوقود ومعناه أنهم في النار فهي محيطة بهم وهم مسجورون بالنار مملوءة بها أجوافهم ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي تقول لهم الخزنة ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ الله ﴾ يعني

الأصنام التي تعبدونها ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع بهم ﴿ بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً ﴾ أي تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً كما تقول : حسبت أن فلاناً شيء فإذا هو ليس بشيء إذا خبرته فلم تر عنده خيراً . ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ الله الكافرين ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلون عن آلهتهم حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا ، أو كما أضل هؤلاء المجادلين يضل سائر الكافرين الذين علم منهم اختيار الضلالة على الدين ﴿ ذلكم ﴾ العذاب الذي نزل بكم ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق وهو الشرك وعبادة الأوثان فيقال لهم ﴿ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ ﴾ السبعة المقسومة لكم .

(143/678)

قال الله تعالى : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : 44] .

﴿ خالدين فِيهَا ﴾ مقدرين الخلود ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ عن الحق جهنم ﴿ فاصبر ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ بإهلاك الكفار ﴿ حَقٌّ ﴾ كائن ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ أصله فإن نريك و"ما" مزيدة لتوكيد معنى الشرط ولذلك ألحقت النون بالفعل ، ألا تراك

لا تقول إن تكرمني أكرمك ولكن إما تكرمني أكرمك ﴿ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ هذا الجزاء متعلق ب ﴿ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ وجزاء ﴿ نُرِيَنَّكَ ﴾ محذوف وتقديره وإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل يوم بدر فذاك ، أو إن نتوفينك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ ﴾ إلى أممهم ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ قيل : بعث الله ثمانية آلاف نبي : أربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس .

وعن علي رضي الله عنه : إن الله تعالى بعث نبياً أسود فهو ممن لم تذكر قصته في القرآن ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ وهذا جواب اقتراحهم الآيات عناداً يعني إنا قد أرسلنا كثيراً من الرسل وما كان لواحد منهم أن يأتي بآية إلا بإذن الله فمن أين لي بأن آتي بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء الله ويأذن في الإتيان بها ؟ ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ الله ﴾ أي يوم القيامة وهو وعيد ورد عقيب اقتراحهم الآيات ﴿ قُضِيَ بالحق وَخَسِرَ هُنَالِكَ المبطلون ﴾ المعاندون الذين اقترحوا الآيات عناداً .

﴿ الله الذى جَعَلَ ﴾ خلق ﴿ لَكُمُ الأنعام ﴾ الإبل ﴿ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ أي الألبان والأوبار ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ أي لتبلغوا عليها ما تحتاجون إليه من الأمور ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ وعلى الأنعام ﴿ وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ ﴾ أي على الأنعام وحدها لا تحملون ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر ﴿ وَيُرِيكُمْ ءاياته فَأَىَّ ءايات الله تُنكِرُونَ ﴾ أنها من عند الله.

و﴿ أَي ﴾ نصب ب ﴿ تُنكِرُونَ ﴾ وقد جاءت على اللغة المستفيضة.

وقولك "فأية آيات الله" قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهي في "أي" أغرب لإبهامه ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ عدداً ﴿ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ بدناً ﴿ وَءَاثَاراً فِى الأرض ﴾ قصوراً ومصانع.

﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ ﴾ "ما" نافية ﴿ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ﴾ يريد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غافلون ﴾ [الروم : 7] فلما جاءتهم الرسل بعلوم الديانات وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات، لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزءوا بها واعتقدوا أنه لا علم أنفع

وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به ، أو علم الفلاسفة والدهريين فإنهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم .

(145/678)

وعن سقراط أنه سمع بموسى عليه السلام وقيل له : لو هاجرت إليه فقال : نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا ، أو المراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به كأنه قال : استهزءوا بالبينات وبما جاءوا به من علم الوحي فرحين مرحين ، ويدل عليه قوله ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أو الفرح للرسل أي الرسل لما رأوا جهلهم واستهزاءهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ شدة عذابنا ﴿ قَالُواْ ءَامَنَّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ أي فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم ﴿ سُنَّتَ اللّهِ ﴾ بمنزلة وعد الله ونحوه من المصادر المؤكدة ﴿ التي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ أن الإيمان عند نزول العذاب لا ينفع وأن العذاب نازل بمكذبي الرسل ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ هنالك مكان مستعار للزمان والكافرون خاسرون في كل أوان ، ولكن يتبين

خسرانهم إذا عاينوا العذاب ، وفائدة ترادف الفاءات في هذه الآيات أن ﴿ فَمَا أغنى عَنْهُمْ ﴾ نتيجة قوله ﴿ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ و ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ كالبيان والتفسير لقوله ﴿ فَمَا أغنى عَنْهُمْ ﴾ كقولك رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء ، و ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ تابع لقوله ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ ﴾ كأنه قال : فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا ، وكذلك ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانهم ﴾ تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 79 . 87 ﴾

(146/678)

وقال البيضاوى :

﴿ ويا قوم مَا لِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النجاة وَتَدْعُونَنِى إِلَى النار ﴾

كرر ندائهم إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة واهتماماً بالمنادى له ، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه ، وعطفه على النداء الثاني الداخل على ما هو بيان لما قبله ولذلك لم يعطف على الأول ، فإن ما بعده أيضاً تفسير لما أجمل فيه تصريحاً أو تعريضاً أو على الأول .

﴿ تَدْعُونَنِى لأَكْفُرَ بالله ﴾ بدل أو بيان فيه تعليل والدعاء كالهداية في التعدية بإلى واللام .

﴿ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ ﴾ بربوبيته . ﴿ عِلْمٌ ﴾ والمراد نفي المعلوم والإشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان فاعتقادها لا يصح إلا عن إيقان . ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى العزيز الغفار ﴾ المستجمع لصفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والإرادة ، والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران .

﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ لا رد لما دعوه إليه ، و ﴿ جَرَمَ ﴾ فعل بمعنى حق وفاعله : ﴿ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدنيا وَلاَ فِي الآخرة ﴾ أي حق عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلاً لأنها جمادات ليس لها ما يقتضي ألوهيتها أو عدم دعوة مستجابة أو عدم استجابة دعوة لها . وقيل ﴿ جَرَمَ ﴾ بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه أي كسب ذلك الدعاء إليه أن لا دعوة له بمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته ، وقيل فعل من الجرم بمعنى القطع كما إن بدا من لا بد فعل من التبديد وهو التفريق ، والمعنى لا قطع لبطلان دعوة ألوهية الأصنام أي لا ينقطع في وقت ما فتنقلب حقاً ، ويؤيده قولهم لا جرم إنه لغة فيه كالرشد والرشد . ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى الله ﴾ بالموت . ﴿ وَأَنَّ المسرفين ﴾ في الضلالة والطغيان كالإشراك وسفك الدماء . ﴿ هُمْ أصحاب النار ﴾ ملازموها .

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ ﴾ وقرىء ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ ﴾ أي فسيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب. ﴿ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ من النصيحة. ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ ﴾ ليعصمني من كل سوء. ﴿ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بالعباد ﴾ فيحرسهم وكأنه جواب توعدهم المفهوم من قوله: ﴿ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ شدائد مكرهم. وقيل الضمير لموسى عليه الصلاة والسلام. ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ﴾ بفرعون وقومه فاستغنى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك. وقيل بطلبة المؤمن من قومه فإنه فر إلى جبل فاتبعه طائفة فوجدوه يصلي والوحوش حوله صفوفاً فرجعوا رعباً فقتلهم. ﴿ سُوءُ العذاب ﴾ الغرق أو القتل أو النار.

﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ جملة مستأنفة أو ﴿ النار ﴾ خبر محذوف و﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ استئناف للبيان، أو بدل و﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ حال منها، أو من الآل وقرئت منصوبة على الاختصاص أو بإضمار فعل يفسره ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ مثل يصلون، فإن عرضهم على النار إحراقهم بها من قولهم: عرض الأسارى على السيف إذا قتلوا به، وذلك لأرواحهم كما روى ابن مسعود أن أرواحهم في أجواف طيور سود تعرض على النار بكرة وعشياً إلى يوم القيامة، وذكر الوقتين تحتمل التخصيص والتأييد، وفيه دليل على بقاء النفس وعذاب القبر. ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ﴾ أي هذا ما دامت الدنيا فإذا قامت الساعة قيل لهم: ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ يا آل فرعون. ﴿ أَشَدَّ العذاب ﴾ عذاب

جهنم فإنه أشد مما كانوا فيه ، أو أشد عذاب جهنم . وقرأ حمزة والكسائي ونافع ويعقوب وحفص ﴿ أَدْخِلُواْ ﴾ على أمر الملائكة بإدخالهم النار .

(148/678)

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النار ﴾ واذكر وقت تخاصمهم فيها ويحتمل العطف على غدوا . ﴿ فَيَقُولُ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ تفصيل له . ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ تباعاً كخدم في جمع خادم أو ذوي تبع بمعنى أتباع على الإضمار أو التجوز . ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النار ﴾ بالدفع أو الحمل ، و﴿ نَصِيباً ﴾ مفعول به لما دل عليه ﴿ مُّغْنُونَ ﴾ أوله بالتضمين أو مصدر كشيئاً في قوله تعالى : ﴿ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أموالهم وَلاَ أولادهم مِّنَ الله شَيْئًا ﴾ فيكون من صلة ل ﴿ مُّغْنُونَ ﴾ .

﴿ قَالَ الذين استكبروا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ نحن وأنتم فكيف نغني عنكم ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا ، وقرىء "كلا" على التأكيد لأنه بمعنى كلنا وتنوينه عوض عن المضاف إليه ، ولا يجوز جعله حالاً من المستكن في الظرف فإنه لا يعمل في الحال المتقدمة كما يعمل في الظرف المتقدم كقولك كل يوم لك ثوب . ﴿ إِنَّ الله قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العباد ﴾ بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، و﴿ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ ﴿ وَقَالَ الذين فِى النار لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ

﴿ أي لخزنتها ، ووضع ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ موضع الضمير للتهويل أو لبيان محلهم فيها ، إذ يحتمل أن تكون ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ أبعد دركاتها من قولهم : بئر جهنم بعيدة القعر . ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً ﴾ قدر يوم . ﴿ مِّنَ العذاب ﴾ شيئاً من العذاب ، ويجوز أن يكون المفعول "يوم" بحذف المضاف و﴿ مِّنَ العذاب ﴾ بيانه .

﴿ وَقَالُواْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بالبينات ﴾ أرادوا به إلزامهم للحجة وتوبيخهم على إضاعتهم أوقات الدعاء وتعطيلهم أسباب الإجابة . ﴿ قَالُواْ بلى قَالُواْ فادعوا ﴾ فإنا لا نجترىء فيه إذ لم يؤذن لنا في الدعاء لأمثالكم ، وفيه إقناط لهم عن الإجابة . ﴿ وَمَا دُعَاءُ الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ ضياع لا يجاب ، وفيه اقناط لهم عن الإجابة .

(149/678)

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءَامَنُواْ ﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة . ﴿ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ﴾ أي في الدارين ولا ينتقض ذلك بما كان لأعدائهم عليهم من الغلبة أحياناً إذ العبرة بالعواقب وغالب الأمر ، و﴿ الأشهاد ﴾ جمع شاهد كصاحب وأصحاب ، والمراد بهم من يقوم يوم القيامة الشهادة على الناس من الملائكة والأنبياء والمؤمنين .

﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ بدل من الأول وعدم نفع المعذرة لأنها باطلة ، أو لأنه لم يؤذن لهم فيعتذروا . وقرأ غير الكوفيين ونافع بالتاء . ﴿ وَلَهُمُ اللعنة ﴾ البعد عن الرحمة . ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدار ﴾ جهنم .

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الهدى ﴾ ما يهتدي به في الدين من المعجزات والصحف والشرائع . ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِى إسراءيل الكتاب ﴾ وتركنا عليهم بعده من ذلك التوراة .

﴿ هُدًى وذكرى ﴾ هداية وتذكرة أو هادياً ومذكراً .

﴿ لأُوْلِى الألباب ﴾ لذوي العقول السليمة .

﴿ فاصبر ﴾ على أذى المشركين . ﴿ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ بالنصر لا يخلفه ، واستشهد بحال موسى وفرعون . ﴿ واستغفر لِذَنبِكَ ﴾ وأقبل على أمر دينك وتدارك فرطاتك بترك الأولى والاهتمام بأمر العدا بالاستغفار ، فإنه تعالى كافيك في النصر إظهار الأمر . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعشى والإبكار ﴾ ودم على التسبيح والتحميد لربك . وقيل صلِّ لهذين الوقتين ، إذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين عشياً .

(150/678)

﴿ إِنَّ الذين يجادلون فِى ءايات الله بِغَيْرِ سلطان أتاهم ﴾ عام في كل مجادل مبطل وإن نزل في مشركي مكة واليهود حين قالوا : لست صاحبنا بل هو المسيح بن داود يبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار . ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ﴾ إلا تكبر عن الحق وتعظم عن التفكر والتعلم ، أو إرادة الرياسة أو إن النبوة والملك لا يكونان إلا لهم . ﴿ مَّا هُم ببالغيه ﴾ ببالغي دفع الآيات أو المراد . ﴿ فاستعذ بالله ﴾ فالتجىء إليه . ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ﴾ لأقوالكم وأفعالكم .

﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ فمن قدر على خلقها مع عظمها أولاً من غير أصل قدر على خلق الإنسان ثانياً من أصل ، وهو بيان لا شكل ما يجادلون فيه من أمر التوحيد . ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لفرط غفلتهم واتباعهم أهواءهم .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأعمى والبصير ﴾ الغافل والمستبصر . ﴿ والذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَلاَ المسىء ﴾ والمحسن والمسيء فينبغي أن يكون لهم حال يظهر فيها التفاوت ، وهي فيما بعد البعث وزيادة لا في المسيء لأن المقصود نفي مساواته للمحسن فيما له من الفضل والكرامة ، والعاطف الثاني عطف الموصول بما عطف عليه على ﴿ الأعمى والبصير ﴾ لتغاير الوصفين في المقصود ، أو الدلالة بالصراحة والتمثيل . ﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكراً ما قليلاً يتذكرون ، والضمير للناس أو الكفار . وقرأ الكوفيون

بالتاء على تغليب المخاطب ، أو الالتفات أو أمر الرسول بالمخاطبة .

﴿ إِنَّ الساعة لأَتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ﴾ في مجيئها لوضوح الدلالة على جوازها وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها . ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ لا يصدقون بها لقصور نظرهم على ظاهر ما يحسون به .

(151/678)

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى ﴾ اعبدوني . ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أثبكم لقوله : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخرين ﴾ صاغرين ، وإن فسر الدعاء بالسؤال كان الاستكبار الصارف عنه منزلاً منزلته للمبالغة ، أو المراد بالعبادة الدعاء فإنه من أبوابها . وقرأ ابن كثير وأبو بكر "سَيُدْخَلُونَ" بضم الياء وفتح الخاء .

﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ اليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ لتستريحوا فيه بأن خلقه بارداً مظلماً ليؤدي إلى ضعف الحركات وهدوء الحواس . ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ يبصر فيه أو به ، وإسناد الإبصار إليه مجاز فيه مبالغة ولذلك عدل به عن التعليل إلى الحال : ﴿ إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ لا يوازيه فضل ، وللإشعار به لم يقل لمفضل . ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ لجهلهم بالمنعم وإغفالهم مواقع النعم ، وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم .

﴿ ذلكم ﴾ المخصوص بالأفعال المقتضية للألوهية والربوبية . ﴿ اللهُ رَبُّكُمْ خالق كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ أخبار مترادفة تخصص اللاحقة السابقة وتقررها ، وقرىء "خالق" بالنصب على الاختصاص فيكون ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ استئنافاً بما هو كالنتيجة للأوصاف المذكورة . ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الذين كَانُواْ بِآيات الله يَجْحَدُونَ ﴾ أي كما أفكوا أفك عن الحق كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها .

﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً والسماء بِنَاءً ﴾ استدلال ثان بأفعال أخر مخصوصة . ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ بأن خلقكم منتصب القامة بادي البشرة متناسب الأعضاء ، والتخطيطات متهيأ لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات . ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطيبات ﴾ اللذائذ . ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ فتبارك الله رَبُّ العالمين ﴾ فإن كل ما سواه مربوب مفتقر بالذات معرض للزوال .

(152/678)

﴿ هُوَ الحي ﴾ المتفرد بالحياة الذاتية . ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ إذ لا موجد سواه ولا موجد يساويه أو يدانيه في ذاته وصفاته . ﴿ فادعوه ﴾ فاعبدوه . ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي الطاعة من الشرك والرياء . ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ قائلين له .

﴿ قُلْ إِنّي نُهيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَمَّا جَاءَنِى البينات مِن رَّبِّى ﴾ من الحجج والآيات أو من الآيات فإنها مقوية لأدلة العقل منبهة عليها . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبّ العالمين ﴾ بأن أنقاد له أو أخلص له ديني .

﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أطفالاً ، والتوحيد لإرادة الجنس أو على تأويل كل واحد منكم .

﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ﴾ اللام فيه متعلقة بمحذوف تقديره : ثم يبقيكم لتبلغوا وكذا في قوله : ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً ﴾ ويجوز عطفه على ﴿ لِتَبْلُغُواْ ﴾ وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام "شُيُوخاً" بضم الشين . وقرىء "شيخاً" كقوله " طِفْلاً" . ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ﴾ من قبل الشيخوخة أو بلوغ الأشد . ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ ﴾ ويفعل ذلك لتبلغوا : ﴿ أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ هو وقت الموت أو يوم القيامة . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ما في ذلك من الحجج والعبر .

﴿ هُوَ الذى يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قضى أَمْراً ﴾ فإذا أراده . ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فلا يحتاج في تكوينه إلى عدة وتجشم كلفة ، والفاء الأولى للدلالة على أن ذلك نتيجة ما

سبق من حيث أنه يقتضي قدرة ذاتية غير متوقفة على العدد والمواد .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يجادلون فِى ءايات الله أنى يُصْرَفُونَ ﴾ عَن التصديق به وتكريم ذم المجادلة لتعدد المجادل ، أو المجادل فيه أو للتأكيد .

(153/678)

﴿ الذين كَذَّبُواْ بالكتاب ﴾ بالقرآن أو بجنس الكتب السماوية . ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ من سائر الكتب أو الوحي والشرائع . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ جزاء تكذيبهم . ﴿ إِذِ الأغلال فِى أعناقهم ﴾ ظرف ل ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ إذ المعنى على الاستقبال ، والتعبير بلفظ المضي لتيقنه . ﴿ والسلاسل ﴾ عطف على ﴿ الأغلال ﴾ أو مبتدأ خبره . ﴿ يُسْحَبُونَ ﴾ .

﴿ فِى الحميم ﴾ والعائد محذوف أي يسحبون بها ، وهو على الأول حال . وقرىء ﴿ والسلاسل يُسْحَبُونَ ﴾ بالنصب وفتح الياء على تقديم المفعول وعطف الفعلية على الاسمية ، ﴿ والسلاسل ﴾ بالجر حملاً على المعنى ﴿ إِذِ الإغلال فِى أعناقهم ﴾ بمعنى أعناقهم في الأغلال ، أو إضماراً للباء ويدل عليه القراءة به . ﴿ ثُمَّ فِى النار يُسْجَرُونَ ﴾ يحرقون من سجر التنور إذا ملأه بالوقود ، ومنه السجير للصديق كأنه سجر بالحب أي

ملىء . والمراد أنهم يعذبون بأنواع من العذاب وينقلون من بعضها إلى بعض .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ غابوا عنا وذلك قبل أن تقرن بهم آلهتهم ، أو ضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم . ﴿ بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً ﴾ أي بل تبين لنا لم نكن نعبد شيئاً بعبادتهم فإنهم ليسوا شيئاً يعتد به كقولك : حسبته شيئاً فلم يكن . ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الضلال . ﴿ يُضِلُّ اللهُ الكافرين ﴾ حتى لا يهتدوا إلى شيء ينفعهم في الآخرة ، أو يضلهم عن آلهتهم حتى لو تطالبوا لم يتصادفوا .

﴿ ذلكم ﴾ الإضلال . ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الأرض ﴾ تبطرون وتتكبرون . ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ وهو الشرك والطغيان . ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ تتوسعون في الفرح ، والعدول إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ .

(154/678)

﴿ ادخلوا أبواب جَهَنَّمَ ﴾ الأبواب السبعة المقسومة لكم . ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ مقدرين الخلود . ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ عن الحق جهنم ، وكان مقتضى النظم فبئس مدخل المتكبرين ولكن لما كان الدخول المقيد بالخلود بسبب الثواء عبر بالمثوى .

﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله ﴾ بهلاك الكافرين . ﴿ حَقّ ﴾ كائن لا محالة . ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ

﴿ فإن نرك ، وما مزيدة لتأكيد الشرطية ولذلك لحقت النون الفعل ولا تلحق مع أن وحدها . ﴿ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ وهو القتل والأسر . ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل أن تراه . ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم ، وهو جواب ﴿ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ ، وجواب ﴿ نُرِيَنَّكَ ﴾ محذوف مثل فذاك ، ويجوز أن يكون جواباً لهما بمعنى إن نعذبهم في حياتك أو لم نعذبهم فإنا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب ، ويدل على شدته الاقتصار بذكر الرجوع في هذا المعرض .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ إذ قيل عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، والمذكور قصصهم أشخاص معدودة . ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ فإن المعجزات عطايا قسمها بينهم على ما اقتضته حكمته كسائر القسم ، ليس لهم اختيار في إيثار بعضها والاستبداد بإتيان المقترح بها . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ ﴾ بالعذاب في الدنيا أو الآخرة . ﴿ قُضِيَ بالحق ﴾ بإنجاء المحق وتعذيب المبطل . ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ المبطلون ﴾ المعاندون باقتراح الآيات بعد ظهور ما يغنيهم عنها .

﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الأنعام لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فإن من جنسها ما يؤكل كالغنم ومنها ما يؤكل ويركب كالإبل والبقر .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا منافع ﴾ كالألبان والجلود والأوبار . ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ بالمسافرة عليها . ﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ في البر . ﴿ وَعَلَى الفلك ﴾ في البحر . ﴿ تُحْمَلُونَ ﴾ وإنما قال ﴿ وَعَلَى الفلك ﴾ ولم يقل في الفلك للمزاوجة ، وتغيير النظم في الأكل لأنه في حيز الضرورة . وقيل لأنه يقصد به التعيش وهو من الضروريات والتلذذ والركوب والمسافرة عليها قد تكون لأغراض دينية واجبة أو مندوبة ، أو للفرق بين العين والمنفعة .

﴿ وَيُرِيكُمْ ءاياته ﴾ دلائله الدالة على كمال قدرته وفرط رحمته . ﴿ فَأَىَّ آيَاتِ الله ﴾ أي فأي آية من تلك الآيات . ﴿ تُنكِرُونَ ﴾ فإنها لظهورها لا تقبل الإنكار ، وهو ناصب "أي" إذا لو قدرته متعلقاً بضميره كان الأولى رفعه والتفرقة بالتاء في أي أغرب منها في الأسماء غير الصفات لإبهامه .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءاثَاراً فِى الأرض ﴾ ما بقي منهم من القصور والمصانع ونحوهما ، وقيل آثار أقدامهم في الأرض لعظم أجرامهم .

﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ "ما" الأولى نافية أو استفهامية منصوبة بأغنى ، والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة به .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات . ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ﴾ واستحقروا علم الرسل ، والمراد بالعلم عقائدهم الزائغة وشبههم الداحضة كقوله : ﴿ بَلِ ادرك عِلْمُهُمْ فِى الاخرة ﴾ وهو قولهم : لا نبعث ولا نعذب ، وما أظن الساعة قائمة ونحوها ، وسماها علماً على زعمهم تهكماً بهم ، أو علم الطبائع والتنجيم والصنائع ونحو ذلك ، أو علم الأنبياء ، وفرحهم به ضحكهم منه واستهزاؤهم به ويؤيده : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وقيل الفرح أيضاً للرسل فإنهم لما رأوا تمادي جهل الكفار وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ شدة عذابنا . ﴿ قَالُواْ ءَامَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ يعنون الأصنام .

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمانهم لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ﴾ لامتناع قبوله حينئذ ولذلك قال : ﴿ لَمْ يَكُ ﴾ بمعنى لم يصح ولم يستقم ، والفاء الأولى لأن قوله : ﴿ فَمَا أغنى ﴾ كالنتيجة لقوله : ﴿ كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ ، والثانية لأن قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ كالتفسير لقوله :

﴿ فَمَا أغنى ﴾ والباقيتان لأن رؤية البأس مسببة عن مجيء الرسل وامتناع نفي الإيمان مسبب عن الرؤية . ﴿ سُنَّتَ الله التى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ ﴾ أي سن الله ذلك سنة ماضية في العباد وهي من المصادر المؤكدة . ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس ، اسم مكان استعير للزمان . عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 94.104 ﴾

(157/678)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) ﴾

التفسير : هذا من تمام قصة موسى وعود إلى مقام انجر الكلام منه وذلك أنه لما قيل ﴿ فوقاه الله ﴾ وكان المؤمن من أمة موسى علم منه ومما سلف مراراً أن موسى وسائر قومه قد نجوا وغلبوا على فرعون وقومه فلا جرم صرح بذلك فقال ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ الآية . ونصرتهم في الدنيا بإظهار كلمة الحق وحصول الذكر الجميل واقتداء الناس بسيرتهم إلى مدة ما شاء الله ، وقد ينصرون بعد موتهم كما أن يحيى بن زكريا لما قتل قتل به سبعون

ألفاً . وأما نصرهم في الآخرة فمن رفع الدرجات والتعظيم على رؤوس الأشهاد من الحفظة والأنبياء والمؤمنين وقد مر باقي تفسير الأشهاد في أوائل " هود " .

(158/678)

ثم بين أن يوم القيامة لا اعتذار فيه لأهل الظلم والغواية وإن فرض اعتذار فلا يقبل وسوء الدار عذاب الآخرة . ثم أخبر عن إعطاء موسى التوراة وإيراثها قومه بعده . والمراد بكون الكتاب هدى أنه دليل في نفسه ، وبكونه ذكرى أن يكون مذكراً للشيء المنسيّ . وحين فرغ من قصة موسى وما تعلق بها خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم مسلياً له بقوله ﴿ فاصبر إن وعد الله ﴾ بالنصر وإعلاء كلمة الحق ﴿ حق ﴾ كما قص عليك من حال موسى وغيره . ثم أمره باستغفاره لذنبه وقد سبق البحث في مثله مراراً . والعشيّ والإبكار صلاتا العصر والفجر أو المراد الدوام . قوله ﴿ إن الذين يجادلون ﴾ عود إلى ما انجر الكلام إليه من أول السورة إلى ههنا . وفيه بيان السبب الباعث لكفار قريش على هذا الجدال وهو الكبر والحسد وحب الرياسة ، وأن يكون الناس تحت تصرفهم وتسخيرهم لا أن يكونوا تحت تصرف غيرهم فإن النبي صلى الله عليه وسلم لا بد أن تكون الأمة تحت أمره ونهيه وذلك تخيل فاسد لأن الغلبة لدين الإسلام ولهذا قال ﴿ ما هم ببالغيه ﴾ ثم

أمره أن يستعيذ في دفع شرورهم بالله السميع لأقوالهم البصير بأحوالهم فيجازيهم على حسب ذلك . ثم إنهم كانوا أكثر ما يجادلون في أمر البعث فاحتج الله تعالى عليهم بقوله ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ ومن قدر على الأصعب في نظر المخالف وقياسه كان على الأسهل أقدر ، فظاهر أن هؤلاء الكفار يجادلون في آيات الله بغير سلطان ولا برهان بل لمجرد الحسد والكبير بل لا يعرفون ما البرهان وكيف طريق النظر والاستدلال ولهذا قال ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

(159/678)

ثم نبه على الفرق بين الجدال المستند على العناد والتقليد وبين الجدال المستند إلى الحجة والدليل قائلاً ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ وحين بين التفاوت بين الجاهل والعالم أراد أن يبين التفاوت بين المحسن والمسيء ثم قال ﴿ قليلاً ما تتذكرون ﴾ وفيه مزيد توبيخ وتقريع ، وفيه أن هذا التفاوت مما يعثر عليه المكلف بأدنى تأمل لو لم يكن معانداً مصراً . ثم صرح بوجود القيامة قائلاً ﴿ إن الساعة لآتية ﴾ أدخل اللام في الخبر بخلاف ما في " طه " لأن المخاطبين ههنا شاكون بخلاف المخاطب هناك وهو موسى ، وهذه الآية كالنتيجة لما قبلها . ومعنى ﴿ لا يؤمنون ﴾ لا يصدّقون بالبعث . ثم إنه كان من المعلوم أن الإنسان لا

ينتفع في يوم القيامة إلا بالطاعة فلا جرم أشار إليها بقوله ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ أكثر المفسرين على أن الدعاء ههنا بمعنى العبادة ، والاستجابة بمعنى الإنابة بقوله سبحانه ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن كقوله

(160/678)

﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثاً ﴾ [النساء : 117] روى النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الدعاء العبادة " وقرأ هذه الآية . وجوّز آخرون أن يكون الدعاء والاستجابة على ظاهرهما ، ويراد بعبادتي دعائي لأن الدعاء باب من العبادة يصدّقه قول ابن عباس : أفضل العبادة الدعاء . وقد مرّ تحقيق الدعاء في سورة البقرة في قوله ﴿ أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ [الآية : 186] وقد فسره ابن عباس بمعنى آخر قال : وحدوني أغفر لكم . وفي الدعاء . قال جار الله : وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ثم للعبادة بالتوحيد . ومعنى ﴿ داخرين ﴾ صاغرين . وقال أهل التحقيق : كل من دعا الله وفي قلبه مثقال ذرة من المال والجاه وغير ذلك فدعاؤه لساني لا قلبي ولهذا قد لا يستجاب لأنه اعتمد على غير الله . وفيه بشارة هي أن دعاء المؤمن وقت حلول أجله

يكون مستجاباً ألبتة لانقطاع تعلقه وقتئذ عما سوى الله . ثم إنه تعالى ذكر نعمته على الخلائق بوجود الليل والنهار وقد مر نظير الآية مراراً ولا سيما في أواخر " يونس " وأواسط " البقرة " . وكرر ذكر الناس نعياً عليهم وتخصيصاً لكفران النعمة بهم من بين سائر المخلوقات . وأما وجه النظم فكأنه يقول : إني أنعمت عليك بهذه النعم الجليلة قبل السؤال فكيف لا أنعم عليك بما هو أقل منه بعد السؤال ؟ ففي تحريض على الدعاء . وأيضاً الاشتغال بالدعاء مسبوق بمعرفة المدعوّ فلذلك ذكر في عدّة آيات دلائل باهرة من الآفاق والأنفس على وحدانيته واتصافه بنعوت الكمال . قوله ﴿ ذلكم الله ﴾ إلى قوله ﴿ إلا هو ﴾ قد مر في " الأنعام " . قوله ﴿ كذلك يؤفك ﴾ أي كل من جحد بآيات الله ولم يكن طالباً للحق فإنه مصروف عن الحق كما صرفوا . قوله ﴿ فأحسن صوركم ﴾ كقوله ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ [الإسراء : 70] ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ [التين : 4] قوله ﴿ الحمد لله ربّ العالمين ﴾ إما استئناف مدح من الله تعالى لنفسه ، وإما بتقدير القول

(161/678)

أي فادعوه مخلصين قائلين الحمد لله . قوله ﴿ لما جاءني البينات ﴾ شامل لأدلة العقل والنقل جميعاً . قوله ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ متعلق بمحذوف أي ثم يبقيكم لتبلغوا وكذلك لتكونوا . وأما قوله ﴿ ولتبلغوا أجلاً مسمى ﴾ فمتعلق بفعل آخر تقديره ونفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى هو الموت أو القيامة ، ورجاء منكم أن تعقلوا ما في ذلك من العبر . وحيث انجر الكلام إلى ذكر الأجل وصف نفسه بأن الإحياء والإماتة منه ، ثم أشار بقوله ﴿ فإذا قضى ﴾ الخ إلى نفاذ قدرته في الكائنات من غير افتقار في شيء مّا إلى آلة وعدّة . وأشار إلى أن الإحياء والإماتة ليسا من الأشياء التدريجية ولكنهما من الأمور الدفعية المتوقفة على أمر كن فقط ، وذلك أن الحياة تحصل بتعلق النفس الناطقة بالبدن ، والموت يحدث من قطع ذلك التعلق ، وكل من الأمرين يحصل في آن واحد .

(162/678)

ويمكن أن يكون فيه إشارة إلى خلق الإنسان الأوّل وهو آدم كقوله ﴿ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ [آل عمران : 59] ثم عاد إلى ذم المجادلين وذكر وعيدهم قائلا ﴿ ألم تر ﴾ الآية والكتاب القرآن . وما أرسل به الرسل سائر الكتب . وقوله ﴿ فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم ﴾ ليس كقول القائل : سوف أصوم أمس . بناء على أن سوف

للاستقبال وإذ للمضي ، لأن " إذ " ههنا بمعنى " إذا " إلا أنه ورد على عادة أخبار الله نحو ﴿ وسيق ﴾ [الزمر : 73] ﴿ ونادى ﴾ [الأعراف : 48] وقال المبرد : إذ صارت زماناً قبل سوف لأن العلم وقع منهم بعد ثبوت الأغلال . والمعنى علموا من الأغلال الذي كانوا أوعدوه من بعد أن حق بالوجود . ومعنى ﴿ يسجرون ﴾ قال جار الله : هو من سجر التنور إذا ملأه بالوقود ، ومعناه أنهم في النار فهي محيطة بهم وهم مسجورون بها مملوءة أجوافهم منها . والحاصل أنهم يعذبون مرة بالماء الشديد الحرارة ومرة بالنار . وقال مقاتل : في الحميم يعني في حر النار ﴿ ثم قيل لهم ﴾ على سبيل التوبيخ ﴿ أينما كنتم ﴾ " ما " موصولة مبتدأ و " أين " خبرها . ومعنى ﴿ ضلّوا ﴾ غابوا وضاعوا ولم يصل إلينا ما كنا نرجوه من النفع والشفاعة ، وأكدوا هذا المعنى بقوله ﴿ بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ﴾ يعتدّ به كما تقول : حسبت أن فلاناً شيء فإذا هو ليس بشيء أي ليس عنده خير . ومن جوّز الكذب على الكفار لم يحتج إلى هذا التأويل وقال : إنهم أنكروا عبادة الأصنام . ثم قال ﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ قالت الأشاعرة : أي عن الحجة والإيمان . وقالت المعتزلة : عن طريق الجنة بالخذلان . وقال في الكشاف : أي مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يجد أحدهما الآخر . واعترض عليه بأنهم مقرونون بآلهتهم في النار لقوله ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله

حصب جهنم ﴾ [الأنبياء : 98] والجواب أن كون الجميع في النار لا ينافي غيبة أحدهما عن

(163/678)

الآخر . وأجاب في الكشاف باختلاف الزمان وبتفسير الضلال بعدم النفع . ﴿ ذلكم ﴾ العذاب بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح أي النشاط ﴿ بغير الحق ﴾ وهو الشرك وعبادة الصنم . ويجوز أن يكون القول محذوفاً أي يقال لهم ادخلوا أبواب جهنم السبعة المقسومة لكل طائفة مقدّرين الخلود فيها ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ يعني الذين مر ذكرهم في قولهم ﴿ إن في صدوركم إلاّ كبر ﴾ والمخصوص بالذم محذوف وهو مثواكم أو جهنم . قال جار الله : إنما لم يقل " فبئس مدخل المتكبرين " حتى يكون مناسباً لقوله ﴿ ادخلوا ﴾ كقولك : زر بيت الله فنعم المزار . لأن الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثواء . وحين زيف طريقة المجادلين مرة بعد مرة أمر رسوله بالصبر على إيذائهم وإيحاشهم إلى إنجاز الوعد بالنصرة قال ﴿ فإما نرينّك بعض الذي نعدهم ﴾ من عذاب الدنيا فذاك ﴿ أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ هذا التقدير ذكره جار الله ، وقد مر في " يونس " مثله .

(164/678)

وأقول : لا بأس أن يعطف قوله ﴿ أو نتوفينك ﴾ على ﴿ نرينك ﴾ ويكون الرجوع إلى الله جزاء لهما جميعاً ومعناه : إنا نجازيهم على أعمالهم يوم القيامة سواء عذبوا في الدنيا أو لم يعذبوا . ثم سلاه بحال الأنبياء السابقة ليقتدي بهم في الصبر والتماسك فقال ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ الآية . ذهب بعض المفسرين إلى أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً . وقيل : ثمانية آلاف ، نصف ذلك من بني إسرائيل والباقي من سائر الناس . ولعل الأصح أن عددهم لا يعلمه إلا الله لقوله تعالى ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ﴾ [إبراهيم : 9] لكن الإيمان بالجميع واجب . عن علي رضي الله عنه . بعث الله نبياً أسود لم يقص علينا قصته . ثم إن قريشاً كانوا يقترحون آيات تعنتاً كما مر في أواخر " سبحان " وأول " الفرقان " وغيرهما فلا جرم قال الله تعالى ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله ﴾ بعذاب الدنيا أو بالقيامة . وقال ابن بحر : أمر الله الآية التي اقترحوها وذلك أنه يقع الاضطرار عندها ﴿ وخسر هنالك ﴾ أي في ذلك الوقت استعير المكان للزمان ﴿ المبطلون ﴾ وهم أهل الأديان الباطلة . ثم عاد إلى نوع آخر من دلائل التوحيد قائلاً ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا ﴾ قال جار الله : ظاهر النظم يقتضي إدخال لام الغرض في القرائن الأربع أو خلو الكل عنها فيقال : لتركبوا ولتأكلوا ولتصلوا إلى منافع ولتبلغوا . أو يقال : منها تركبون ومنها

تأكلون وتصلون وتبلغون إلا أنه ورد على ما ورد لأن الركوب قد يجب كما في الحج والغزو ، وكذلك السفر من بلد إلى بلد لهجرة أو طلب علم لا أقل من الندب فصح أن يكونا غرضين . وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباح الذي لا تتعلق به إرادته كثير تعلق شرعاً . وإنما قال ﴿ على الفلك ﴾ ولم يقل " وفي الفلك " مع صحته إذ هي كالوعاء إزدواجاً لقوله ﴿ وعليها ﴾ [المؤمنون :

(165/678)

22] والحمل محمول على الظاهر . وقيل : هو من قول العرب : حملت فلاناً على الفرس إذا وهب له فرساً . ثم وبخهم بقوله ﴿ ويريكم آياته فأيّ آيات الله تنكرون ﴾ . ثم حرضهم وزاد توبيخهم بقوله ﴿ أفلم يسيروا ﴾ الآية . وقد سبق . وقوله ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ " ما " نافية أو استفهامية ومحلها النصب . وقوله ﴿ ما كانوا ﴾ مصدرية أو موصولة أي كسبهم أو الذي كسبوا . قوله ﴿ فرحوا ﴾ لا يخلو إما أن يكون الضمير عائداً إلى الكفار أو إلى الرسل .

(166/678)

وعلى الأول فيه وجوه منها : أنه تهكم بعلمهم الذي يزعمون كقولهم ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ [الكهف : 36] ﴿ أئذا كنا تراباً وعظاماً أئنا لفي خلق جديد ﴾ [ق : 4] ومنها أنه أراد بذلك شبهات الدهرية وبعض الفلاسفة كقولهم ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] وكانوا إذا سمعوا بوحي الله دفعوه وحقروا علم الأنبياء بالنسبة إلى علمهم كما يحكى عن سقراط أنه سمع بموسى عليه السلام فقيل له : لو هاجرت إليه ؟ فقال : نحن قوم مهديون فلا حاجة بنا إلى من يهدينا . ويروى أن جالينوس قال لعيسى عليه السلام : بعثت لغيرنا . ومنها أن يراد علمهم بظاهر المعاش كقوله ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ [الروم : 7] وذلك مبلغهم من العلم فرحوا به وأعرضوا عن علم الديانات . وعلى الثاني يكون معناه أن الرسل لما رأوا جهل قومهم وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم . ووجه آخر وهو أن يكون ضمير ﴿ فرحوا ﴾ للكفار وضمير ﴿ عندهم ﴾ للرسل أي فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك واستهزاء . ثم بين أن إيمان البأس وهو حالة عيان العذاب أو أمارات نزول سلطان الموت غير نافع وقد مر مراراً . ومعنى ﴿ فلم يك ينفعهم ﴾ لم يصح ولم يستقم لأن الإلجاء ينافي التكليف . وترادف الفاءات في قوله ﴿ فما أغني ﴾ ﴿ فلما جاءتهم ﴾ ﴿ فلما رأوا ﴾ ﴿ فلم يك ﴾ لترتيب الأخبار ولتعاقب المعاني من غير تراخٍ . وقال

جار الله : فما أغنى نتيجة قوله ﴿ كانوا أكثر منهم ﴾ وقوله ﴿ فلما جاءتهم ﴾ جار مجرى البيان والتفسير لقوله ﴿ فلما أغنى ﴾ وقوله ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ تابع لقوله ﴿ فلما جاءتهم ﴾ كأنه قال : فكفروا كقولك : رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء . وقوله ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ آمنوا وكذلك ﴿ فلم يك ﴾ تابع لإيمانهم بعد البأس . قال أهل البرهان : وإنما قال ههنا ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ وفيما قبل ﴿ المبطلون ﴾ لأنه قال هناك

﴿ قضى بالحق ﴾ ونقيض الحق الباطل ، وههنا ذكر أن إيمان البأس غير مجد ونقيضه الكفر والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 40 . 45 ﴾

(167/678)

وقال الخطيب الشربيني :

ثم كرر الوعظ عليهم بقوله:

﴿ ويا قوم ما ﴾ أي : أي شيء من الحظوظ والمصالح ﴿ لي ﴾ في أني ﴿ أدعوكم إلى النجاة ﴾ والجنة شفقة عليكم ورحمة لكم واعترافاً بحقكم ﴿ وتدعونني إلى النار ﴾ والهلاك بالكفر فالآية من الاحتباك ، ذكر النجاة الملازمة للإيمان أولاً دليلاً على حذف

الهلاك الملازم للكفران ثانياً والنار ثانياً دليلاً على حذف الجنة أولاً ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بفتح ياء مالي والباقون بسكونها واتفقوا على سكون الياء من تدعونني .

ولما أخبر ذلك المؤمن بقلة إنصافهم إجمالاً بينه بقوله:

﴿ تدعونني ﴾ أي : توقعون دعائي إلى معبوداتكم ﴿ لأكفر ﴾ أي : لأجل أن أكفر ﴿ بالله ﴾ الذي له مجامع القهر والعز والعظمة والكبرياء ﴿ وأشرك به ﴾ أي : أجعل له شريكاً ﴿ ما ليس لي به ﴾ أي : بربوبيته ﴿ علم ﴾ أي : نوع من العلم بصلاحيته لشيء من الشركة فهو دعاء إلى الكذب في شيء لا يحل الإقدام عليه إلا بالدليل القطعي الذي لا يحتمل نوعاً من الشرك ، فالمراد بنفي العلم نفي الإله كأنه قال وأشرك به ما ليس بإله وما ليس بإله كيف يعقل جعله شريكاً للإله .

ولما بين أنهم يدعونه إلى الكفر بين أنه يدعوهم إلى الإيمان بقوله : ﴿ وأنا أدعوكم ﴾ أي : أوقع دعاءكم الآن وقبله وبعده ﴿ إلى العزيز ﴾ أي : البالغ العزة الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ، وأما فرعون فهو في غاية العجز فكيف يكون إلهاً وأما الأصنام فإنها أحجار منحوتة فكيف يعقل كونها آلهة ، وقرأ نافع وأنا بالمد بعد النون ، وقالون يمد ويقصر وورش بالمد لا غير والباقون بغير مد . وقوله : ﴿ الغفار ﴾ أي : الذي يتكرر منه دائماً محو الذنوب عيناً وأثراً إشارة إلى أنهم يجب عليهم أن لا ييأسوا من رحمة الله تعالى بسبب

إصرارهم على الكفر مدة مديدة فإن الإله العالم وإن كان عزيزاً لا يغلب قادراً لا يعارض لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة بإيمان ساعة واحدة وقوله:

(168/678)

﴿ لا جرم ﴾ رد لما دعوه إليه وجرم فعل بمعنى حق وفاعله ﴿ أنما ﴾ أي : الذي ﴿ تدعونني إليه ﴾ من هذه الأنداد ﴿ ليس له دعوة ﴾ بوجه من الوجوه فإنه لا إدراك له هذا إن أريد ما لا يعقل وإن أريد شيء مما يعقل فلا دعوة له مقبولة بوجه فإنه لا يقوم عليها دليل بل ولا شبهة موهمة ﴿ في الدنيا ﴾ أي : التي هي محل الأسباب الظاهرة ﴿ ولا في الآخرة ﴾ أي : ليس له استجابة دعوة فيهما فسمى استجابة الدعوة دعوة إطلاقاً لاسم أحد المتضايفين على الآخر كقوله تعالى ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ (الشورى :) وكقولهم : "كما تدين تدان" ، وقيل : ليس له دعوة أي : عبادة في الدنيا لأن الأوثان لا تدعي الربوبية ولا تدعو إلى عبادتها وفي الآخرة تتبرأ من عابديها ثم قال : ﴿ وأن مردنا ﴾ أي : مرجعنا ﴿ إلى الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة بصفات الكمال فيجازي كل أحد بما يستحقه ﴿ وأن المسرفين ﴾ أي : المجاوزين للحدود الغريقين في هذا الوصف ، قال قتادة : وهم المشركون لقوله تعالى : ﴿ هم ﴾ أي : خاصة ﴿ أصحاب النار ﴾ أي : ملازموها

، وعن مجاهد : هم السفاكون للدماء بغير حلها ، وقيل : الذين غلب شرهم هم المسرفون .

ولما بالغ هذا المؤمن في هذا الشأن ختم كلامه بخاتمة لطيفة هي قوله:

﴿ فستذكرون ﴾ أي : قطعاً بوعد لا خلف فيه مع القرب ﴿ ما أقول لكم ﴾ حين لا ينفعكم الذكر في يوم الجمع الأعظم والزحام الذي يكون فيه القدم على القدم إذا رأيتم الأهوال والنكال والزلزال إن قبلتم نصحي أو لم تقبلوه .

(169/678)

ولما خوفهم بذلك توعدوه وخوفوه بالقتل فعوّل في دفع تخويفهم وكبرهم ومكرهم على الله تعالى بقوله : ﴿ وأفوض ﴾ أي : أنا الآن بسبب أنه لا دعوة لغير الله ﴿ أمري ﴾ أي : فيما تمكرونه بي ﴿ إلى الله ﴾ أي : الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً فهو يحمي منكم من شاء وهو إنما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام حين خوفه فرعون بالقتل فرجع موسى عليه السلام في دفع ذلك الشر إلى الله تعالى فقال : إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون . Y

ولما علق تفويضه بالاسم العلم الجامع المقتضي للإحاطة علل ذلك بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي

: الذي لا يخفى عليه شيء ﴿ بصير ﴾ أي : بالغ العلم ﴿ بالعباد ﴾ ظاهراً وباطناً فيعلم من يستحق النصرة فينصره لاتصافه بأوصاف الكمال ويعلم من يمكر فيرد مكره عليه بما له من الإحاطة ، قال مقاتل : فلما قال هذه الكلمات قصدوا قتله .

﴿ فوقاه الله ﴾ أي : حصل له وقاية تنجيه منهم جزاء على تفويضه ﴿ سيئات ﴾ أي : شدائد ﴿ ما مكروا ﴾ ديناً ودنيا فنجاه مع موسى عليه السلام ، قال قتادة : وكان قبطياً تصديقاً لوعده سبحانه بقوله تعالى : ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ (القصص :)

(170/678)

ولما كان المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله قال تعالى : ﴿ وحاق ﴾ أي : نزل محيطاً بعد إحاطة الإغراق ﴿ بآل فرعون ﴾ أي : فرعون وأتباعه لأجل إصرارهم على الكفر ومكرهم هذا إن قلنا أن الآل مشترك بين الشخص وأتباعه وإن لم نقل ذلك فالإحاقة بفرعون من باب أولى لأن العادة جرت أنه لا يوصل إلى جميع أتباع الإنسان إلا بعد إذلاله وأخذه ﴿ سوء العذاب ﴾ أي : الغرق في الدنيا والنار في الآخرة ، فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ معناه : أنه رجع إليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين ، كقول العرب : من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً ، فإذا فسر سوء العذاب بالغرق في

الدنيا ونار جهنم في الآخرة لم يكن مكرهم راجعاً إليهم لأنهم لا يعذبون بذلك ؟

أجيب : بأنهم هموا بشر فأصابهم ما وقع عليه اسم السوء ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه وقوله تعالى:

﴿ النار ﴾ في إعرابه ثلاثة أوجه ؛ أحدها : أنه بدل من سوء العذاب ، قاله الزجاج ، ثانيها : أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هو أي : سوء العذاب النار لأنه جواب لسؤال مقدر وقوله تعالى : ﴿ يعرضون ﴾ على هذين الوجهين يجوز أن يكون حالاً من النار وأن يكون حالاً من آل فرعون ، ثالثها : أنه مبتدأ وخبره يعرضون ﴿ عليها غدواً وعشياً ﴾ أي : صباحاً ومساء ، قال ابن مسعود : أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود يعرضون على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح إلى النار ويقال : يا آل فرعون هذه منازلكم حتى تقوم الساعة . وقال قتادة : تعرض روح كل كافر على النار بكرة وعشياً ما دامت الدنيا .

وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى يوم القيامة" .

(171/678)

ثم أخبر الله تعالى عن مستقر آل فرعون يوم القيامة بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ يقال لهم : ﴿ أدخلوا آل ﴾ أي : يا آل ﴿ فرعون ﴾ أي : هو بنفسه وأتباعه لأجل اتباعهم له فيما أضلهم به ﴿ أشد العذاب ﴾ وهو عذاب جهنم ، أجارنا الله تعالى نحن وأحباءنا منها فإنه أشد مما كانوا فيه أو أشد عذاب جهنم ، وهذه الآية نص على إثبات عذاب القبر كما نقل عن عكرمة ومحمد بن كعب ، وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الخاء وصلاً وابتداء على أمر الملائكة بإدخالهم النار ، والباقون بوصل الهمزة وضم الخاء وصلاً في الابتداء بضم الهمزة واختلف في العامل في قوله تعالى:

﴿ وإذا ﴾ على ثلاثة أوجه ؛ أحدها : أنه معطوف على غدواً فيكون معمولاً ليعرضون على النار في هذه الأوقات كلها ، قاله أبو البقاء ، ثانيها : أنه معطوف على قوله إذا القلوب لدى الحناجر قاله الطبري ونظر فيه لبعد ما بينهما ، وثالثها : أنه منصوب بإضمار اذكر أي : واذكر يا أشرف الخلق لقومك إذ ﴿ يتحاجون ﴾ أي : الكفار ﴿ في النار ﴾ أي : يتخاصمون فيها أتباعهم ورؤساؤهم مما لا يغنيهم ﴿ فيقول الضعفاء ﴾ أي : الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ أي : طلبوا أن يكونوا كبراءهم الرؤساء ﴿ أنا كنا لكم ﴾ أي : دون غيركم ﴿ تبعاً ﴾ أي : أتباعاً فتكبرتم على الناس بنا ﴿ فهل أنتم ﴾ أيها الكبراء ﴿ مغنون ﴾ أي : كافون ومجزئون وحاملون ﴿ عنا نصيباً من النار ﴾ .

تنبيه : تبعاً اسم جمع لتابع ونحوه خادم وخدم ، قال البغوي : والتبع يكون واحداً وجمعاً في قول أهل البصرة واحده تابع ، وقال الكوفيون : هو جمع لا واحد له وجمعه أتباع ، وقيل : إنه مصدر واقع موقع اسم الفاعل أي : تابعين ، وقيل : مصدر ولكنه على حذف مضاف أي : ذوي تبع ونصيباً منصوب بفعل مقدر يدل عليه قولهم مغنون وتقديره : هل أنتم دافعون عنا نصيباً ، وقيل : منصوب على المصدر ، قال البقاعي : كما كان شيئاً كذلك ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ في موضع غني فكذلك نصيباً ومن النار صفة لنصيباً .

﴿ قال الذين استكبروا ﴾ أي : من شدة ما هم فيه ﴿ إنا كل ﴾ أي : نحن وأنتم ﴿ فيها ﴾ فكيف نغني عنكم ولو قدرنا أغنينا عن أنفسنا ﴿ إن الله ﴾ أي : المحيط بأوصاف الكمال ﴿ قد حكم ﴾ بالعدل ﴿ بين العباد ﴾ أي : فأدخل أهل الجنة دارهم وأهل النار دارهم فلا يغني أحد عن أحد شيئاً فعند ذلك يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين فيرجعون كلهم إلى خزنة جهنم يسألونهم كما حكى الله عنهم بقوله سبحانه وتعالى:

﴿ وقال الذين في النار ﴾ أي : جميعاً الأتباع والمتبوعون ﴿ لخزنة جهنم ﴾ أي : لخزنتها فوضع جهنم موضع المضمر للتهويل أو لبيان محلهم فيها ، قال البيضاوي : ويحتمل أن تكون جهنم أبعد دركاتها من قولهم بئر جهنام أي : بكسر الجيم والهاء وتشديد النون بعيد القعر ، وقال بعض أهل اللغة : هي مشتقة من الجهومة وهي الغلظ سميت بذلك : لغلظ عذابها وهي عجمية منعت من الصرف للتعريف والعجمة ، وقيل : عربية ومنعت من الصرف للتعريف والتأنيث ﴿ ادعوا ربكم ﴾ أي : المحسن إليكم بأنكم لا تجدون ألماً من النار ﴿ يخفف عنا يوماً ﴾ أي : قدر يوم ﴿ من العذاب ﴾ أي : شيئاً ، فيوماً ظرف ليخفف ومفعول يخفف محذوف أي : يخفف عنا شيئاً من العذاب في يوم ويجوز أن يكون من العذاب هو المفعول ليخفف ومن تبعيضية ويوماً ظرفاً ، سألوا أن يخفف عنهم بعض العذاب لا كله في يوم ما لا في كل يوم ولا في يوم معين .

﴿ قالوا ﴾ أي : الخزنة لهم ﴿ أولم تك تأتيكم ﴾ على سبيل التجدد شيئاً في أثر شيء ﴿ رسلكم ﴾ أي : الذين هم منكم وأنتم جديرون بالإصغاء إليهم والإقبال عليهم لأن الجنس إلى الجنس أميل والإنسان من مثله أقبل ﴿ بالبينات ﴾ أي : التي لا شيء أوضح

منها أرادوا بذلك إلزامهم الحجة وتوبيخهم على إضاعتهم أوقات الدعاء وتعطيلهم أسباب الإجابة ، وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بضمها وكذلك رسلنا ورسلهم ﴿ قالوا ﴾ أي : الكفار ﴿ بلى ﴾ أي : أتونا كذلك ﴿ قالوا ﴾ أي : الخزنة لهم ﴿ فادعوا ﴾ أي : أنتم فإنا لا نشفع لكافر ﴿ وما دعاء الكافرين ﴾ أي : الذين ستروا مرأى عقولهم عن أنوار الحق ﴿ إلا في ضلال ﴾ أي : ذهاب في غير طريق موصل كما كانوا هم في الدنيا كذلك فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، من زرع شيئاً في الدنيا حصده في الآخرة والآخرة ثمرة الدنيا لا تثمر إلا من جنس ما غرس في الدنيا وفي هذا إقناطهم عن الإجابة .

ولما ذكر تعالى وقاية موسى عليه السلام وذلك المؤمن من مكر فرعون وقومه منّ بقوله تعالى:

(174/678)

﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ لننصر رسلنا ﴾ أي : على من عاداهم ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي : اتسموا بهذا الوصف ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ أي : بإلزامهم طريق الهدى الكفيلة بكل فوز وبالحجة والغلبة وإن غلبوا في بعض الأحيان ، فإن العاقبة تكون لهم ولو بأن يقيض الله تعالى لأعدائهم من يقتص منهم ولو بعد حين وقل أن يتمكن أعداؤهم من كل

ما يريدون منهم ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ وهو جمع شاهد كصاحب وأصحاب والمراد بهم : من يقوم يوم القيامة للشهادة على الناس من الملائكة والأنبياء والمؤمنين ، أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون للرسل بالتبليغ وعلى الكفار بالتكذيب ، وأما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ (النساء :)

وأما المؤمنون فقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ (البقرة :)

وقوله تعالى:

﴿ يوم ﴾ بدل من يوم قبله أو بيان له أو نصب بإضمار أعني يوم ﴿ لا تنفع الظالمين ﴾ أي : الذين كانوا عريقين في وضع الأشياء في غير موضعها ﴿ معذرتهم ﴾ أي : اعتذارهم ، فإن قيل : هذا يدل على أنهم يذكرون الأعذار ولكن تلك الأعذار لا تنفعهم فكيف هذا مع قوله تعالى : ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ (المرسلات :)

؟

أجيب : بأن هذا لا يدل على أنهم ذكروا الاعتذار بل ليس فيه إلا أن ليس عندهم عذر مقبول ، وهذا لا يدل على أنهم ذكروه أم لا وأيضاً يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون في وقت ولا يعتذرون في وقت آخر ، وقرأ نافع والكوفيون بالياء التحتية والباقون بتاء الخطاب

﴿ ولهم ﴾ أي : خاصة ﴿ اللعنة ﴾ أي : البعد عن كل خير مع الإهانة بكل ضير

﴿ ولهم ﴾ أي : خاصة ﴿ سوء الدار ﴾ أي : الآخرة أي : أشد عذابها .

ولما بين تعالى أنه ينصر الأنبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة ذكر نوعاً من أنواع تلك النصرة في الدنيا فقال تعالى:

(175/678)

﴿ ولقد آتينا ﴾ أي : بما لنا من العزة ﴿ موسى الهدى ﴾ أي : ما يُهتَدَى به في الدنيا من المعجزات والصحف والشرائع ﴿ وأورثنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ بني إسرائيل ﴾ أي : بعد ما كانوا فيه من الذل ﴿ الكتاب ﴾ أي : الذي أنزلناه عليه وآتيناه الهدى به وهو التوراة إيتاء هو الإرث لا ينازعهم فيه أحد توارثوه خلفاً عن سلف ولا أهل له في ذلك الزمان غيرهم وأورثناه لهم من بعد موسى عليه السلام حال كونه .

﴿ هدى ﴾ أي : بياناً عاماً لكل من تبعه ﴿ وذكرى ﴾ أي : عظة عظيمة ﴿ لأولي الألباب ﴾ أي : القلوب الصافية والعقول الوافية الشافية .

ولما بين تعالى أنه ينصر رسله وينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة وضرب المثال في ذلك بحال موسى عليه السلام خاطب بعد ذلك محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿ فاصبر ﴾ أي : يا أشرف الخلق على أذى قومك كما صبر موسى عليه السلام على أذى فرعون ﴿ إن وعد الله ﴾ أي : الذي له الكمال كله ﴿ حق ﴾ أي : في إظهار دينك وإهلاك أعدائك قال الكلبي : نسخت آية القتل آية الصبر ، وقوله تعالى : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ إما أن يكون المصدر مضافاً للمفعول أي : لذنب أمتك في حقك ، وإما أن يكون ذلك تعبداً من الله تعالى ليزيده به درجة وليصير سنة يستن به من بعده ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشي ﴾ هو من بعد الزوال ﴿ والإبكار ﴾ قال الحسن رضي الله عنه : يعني صلاة العصر وصلاة الفجر . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الصلوات الخمس وذلك أن العشي من زوال الشمس إلى غروبها والإبكار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، ولما ابتدأ بالرد على الذين يجادلون في آيات الله واتصل الكلام بعضه ببعض على الترتيب المتقدم إلى هنا نبه تعالى على الماهية التي تحمل الكفار على تلك المجادلة فقال تعالى:

(176/678)

﴿ إن الذين يجادلون ﴾ أي : يناصبون العداوة ﴿ في آيات الله ﴾ أي : الملك الأعظم الدالة على تمام قدرته اللازم منه قدرته على البعث الذي في تذكره صلاح الدين والدنيا ﴿ بغير سلطان ﴾ أي : برهان ﴿ أتاهم أن ﴾ أي : ما ﴿ في صدورهم ﴾ أي : بصدهم عن

سواء السبيل ، قال ابن عادل : ما حملهم على تكذيبك ﴿ إلا كبر ﴾ أي : تكبر عن الحق وتعظم عن التفكير والتعلم وآذن ذكر الصدور دون القلوب بعظمه جداً فإنه قد ملأ القلوب وفاض منها حتى شغل الصدور التي هي مساكنها ﴿ ما هم ببالغيه ﴾ قال مجاهد : ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر لأن الله تعالى مذلهم ، وقال ابن قتيبة : إن في صدورهم إلا كبر على محمد صلى الله عليه وسلم وطمع أن يغلبوه وما هم ببالغي ذلك ، قال المفسرون : نزلت في اليهود وذلك أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم "إن صاحبنا المسيح بن داود يعنون الدجال يخرج في آخر الزمان فيبلغ سلطانه البر والبحر ويرد الملك علينا" قال الله تعالى : ﴿ فاستعذ ﴾ أي : اعتصم ﴿ بالله ﴾ أي : المحيط بكل شيء من فتنة الدجال ومن كيد من يحسدك ويبغى عليك وغير ذلك كما عاذ به موسى عليه السلام لينجز لك ما وعدك به كما أنجز له ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ إنه هو ﴾ أي : وحده ﴿ السميع ﴾ أي : لأقوالهم ﴿ البصير ﴾ أي : لأفعالهم .

ولما وصف تعالى جدالهم في الآيات بأنه بغير سلطان ولا حجة ذكر لهذا مثالاً فقال:

﴿ لخلق السموات ﴾ أي : على عظمها وارتفاعها وكثرة منافعها واتساعها

﴿ والأرض ﴾ أي : على ما ترون من عجائبها وكثرة منافعها ﴿ أكبر ﴾ عند كل من يعقل ﴿ من خلق الناس ﴾ أي : خلق الله تعالى لهم لأنهم شعبة يسيرة من خلقهما فعلم قطعاً أن الذي قدر على ابتدائه مع عظمه قادر على إعادة الناس على حقارتهم ﴿ ولكن أكثر

الناس ﴾ وهم الذين ينكرون البعث وغيره ﴿ لا يعلمون ﴾ أي : لا علم لهم أصلاً بل هم كالبهائم لغلبة الغفلة عليهم .

(177/678)

تنبيه : تقدير هذا الكلام أن الاستدلال بالشيء على غيره ينقسم ثلاثة أقسام ؛ أحدها : أن يقال لما قدر على الأضعف وجب أن يقدر على الأقوى وهذا فاسد . ثانيها : أن يقال لما قدر على الشيء قدر على مثله فهذا الاستدلال صحيح لما ثبت في الأصول أن حكم الشيء حكم مثله . ثالثها : أن يقال لما قدر على الأقوى الأكمل قدر على الأقل الأرذل بالأولى ، وهذا الاستدلال في غاية الصحة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل البتة ثم إن هؤلاء القوم يسلمون أن خالق السموات والأرض هو الله تعالى ويعلمون بالضرورة أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وكان من حقهم أن يقروا بأن القادر على خلق السموات والأرض يكون قادراً على إعادة الإنسان الذي خلقه أولاً فهذا برهان كلي في إفادة هذا المطلوب ، ثم إن هذا البرهان على قوته صار لا يعرفه أكثر الناس ، والمراد منه : الذين ينكرون الحشر والنشر فظهر بهذا المثال أن هؤلاء الكفار يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ولا حجة بل بمجرد الحسد والكبر والغضب .

ثم لما بين تعالى أن الجدال المقرون بالكبر والحسد والجهل كيف يكون وإن الجدال بالحجة والبرهان كيف يكون نبه تعالى على الفرق بين البيانين بذكر مثال فقال تعالى:

﴿ وما يستوي ﴾ أي : بوجه من الوجوه من حيث البصر ﴿ الأعمى والبصير ﴾ أي : وما يستوي المستدل والجاهل المقلد ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي : أوجدوا حقيقة الإيمان ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أي : تحقيقاً لإيمانهم ﴿ ولا المسيء ﴾ أي : وما يستوي المحسن والمسيء فلا زائدة للتوكيد لأنه لما طال الكلام بالصلة بعد قسم المؤمنين أعاد معه لا توكيداً ، والمراد بالأول : التفاوت بين العالم والجاهل ، وبالثاني : التفاوت بين الآتي بالأعمال الصالحة وبين الآتي بالأعمال السيئة الباطلة .

(178/678)

ولما تقرر هذا على هذا النحو من الوضوح الذي لا مانع للإنسان من فهمه ورسوخه قال تعالى : ﴿ قليلاً ما يتذكرون ﴾ أي : يتعظ المجادلون وإن كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل وأن العمل الصالح خير من العمل الفاسد إلا أنه قليلاً ما يتذكرون ، فبين في النوع الأول المعنى من الاعتقاد أنه علم أو جهل وفي النوع الثاني المعنى من العمل أنه عمل صالح أو فاسد .

تنبيه : التقابل يأتي على ثلاث طرق ؛ إحداها : أن يجاور المناسب ما يناسبه كهذه الآية . والثانية : أن يتأخر المتقابلان كقوله تعالى : ﴿ مثل الفريقين ﴾ كالأعمى والأصم والبصير والسميع . الثالثة : أن يقدم مقابل الأول ويؤخر مقابل الآخر كقوله تعالى : ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ﴾ (فاطر : ـ)

كل ذلك تفنن في البلاغة ، وقدم الأعمى في نفي التساوي لمجيئه بعد صفة الذم في قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وقرأ الكوفيون بالتاء على تغليب المخاطب أو الالتفات للمذكورين بعد الإخبار عنهم ، أو أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمخاطبة ، والباقون بياء الغيبة نظراً لقوله تعالى : ﴿ إن الذين يجادلون ﴾ وهم الذين التفت إليهم في قراءة الخطاب .

ولما قرر الدليل على إمكان وجود يوم القيامة أردفه بالإخبار عن وقوعها فقال تعالى: ﴿ إن الساعة ﴾ أي : القيامة التي يجادل فيها المجادلون ﴿ لآتية ﴾ أي : للحكم بالعدل بين المسيء والمحسن لأنه لا يسوغ في الحكمة عند أحد من الخلق أن يساوي بين محسن عبيده ومسيئهم ﴿ لا ريب ﴾ أي : لا شك ﴿ فيها ﴾ أي : في إتيانها .

ولما حصل الحال في أمرها إلى حد لا خفاء به أصلاً نفى الإيمان دون العلم فقال تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ أي : لا يصدقون بها وما ذاك إلا لعناد بعضهم ولقصور نظر الباقين على الحس .

تنبيه : يأتي قبل قيام الساعة فتن أعظمها فتنة المسيح الدجال فعن هشام بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ما بين خلق آدم عليه السلام إلى قيام الساعة أكبر من خلق الدجال" . معناه أكبر فتنة وأعظم شوكة من الدجال ، وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال فقال : "إنه أعور عين اليمنى كأنها عنبة طافية" ولأبي داود والترمذي عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فأثنى على الله تعالى بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال : "إني أنذركموه وما من نبي إلا أنذر قومه ، ولكن سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه تعلمون إنه أعور والله سبحانه ليس بأعور" . وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من نبي إلا وأنذر قومه وأمته الأعور الدجال ألا وأنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر" وفي رواية مسلم : "بين عينيه ك ف ر يقرؤه كل مسلم" . وعن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي فذكر الدجال فقال : "إن بين يديه ثلاثة سنين سنة تمسك السماء ثلث قطرها والأرض ثلث نباتها ، والثانية تمسك السماء ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها ، والثالثة تمسك السماء

قطرها كله والأرض نباتها كله فلا تبقى ذات ظلف ولا ذات ضرس من البهائم إلا هلكت ، ومن أشد فتنته أن يأتي الأعرابي فيقول : أرأيت إن أحييت لك إبلك ألست تعلم إني ربك ؟ فيقول : بلى ، فيمثل له مثل إبله كأحسن ما تكون ضروعاً وأسنمة ، ويأتي الرجل قد مات أخوه ومات أبوه فيقول : إن أحييت لك أباك وأحييت لك أخاك ألست تعلم أني ربك ؟ فيقول : بلى ، فيمثل له الشيطان نحو أبيه ونحو أخيه قالت : ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم رجع والقوم في اهتمام وغم مما حدثهم فأخذ بلحمتي الباب فقال : مهيم أسماء قلت : يا رسول الله قد خلعت أفئدتنا بذكر الدجال قال : إن يخرج وأنا حي

(180/678)

فأنا حجيجه وإلا

فربي خليفتي على كل مؤمن ، قالت : فقلت يا رسول الله : إنا لنعجن عجيننا فما نخبزه حتى نجوع فكيف بالمؤمنين حينئذ ؟ قال : يجزيهم ما يجزي أهل السماء من التسبيح والتقديس" . وروى البغوي بسنده عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يمكث الدجال في الأرض أربعين سنة السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم

كاضطرام السعفة في النار" انتهى . والذي جاء في صحيح مسلم قالت : قلت يا رسول الله ما مكثه في الأرض ؟ قال : "أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم قلنا : يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة يكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا اقدروا له قدراً ، قلنا : يا رسول الله وما إسراعه في الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح" . وفي رواية أبي داود : "فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فإنها جواركم من فتنته" ومنه : "ثم ينزل عيسى عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق فيدركه عند باب لد فيقتله" وعن حذيفة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن مع الدجال إذا خرج ماء وناراً ، فأما الذي يرى الناس أنه نار فماء بارد وأما الذي يرى الناس أنه ماء فنار تحرق ، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يرى الناس أنه نار فإنه ماء عذب بارد" . وعن أبي هريرة : "ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال ما حدث به نبي قومه إنه أعور وإنه يجيء بمثال الجنة والنار فالتي يقول : إنها الجنة هي النار وإني أنذركم كما أنذر نوح قومه" وعن المغيرة بن شعبة قال : "ما سأل أحد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدجال أكثر ما سألته وأنه قال لي : ما يضرك قلت إنهم يقولون : أن معه جبال خبز ونهر ماء قال : هو أهون على الله من ذلك" . m

(181/678)

أي : أهون على الله من أن يجعل ما خلق الله بيده مضلاً للمؤمنين ومشككاً لقلوبهم ، بل إنما جعله الله تعالى ليزدادوا إيماناً وتثبت الحجة على الكافرين والمنافقين ، وليس معناه ليس معه شيء من ذلك لما مر في الحديث أن معه ماء وناراً وذكر فيه أحاديث كثيرة ، وفي هذا القدر تذكرة لأولي الألباب أجارنا الله تعالى وأحبابنا من فتنته آمين .

ولما بين تعالى أن القول بالقيامة حق وكان من المعلوم بالضرورة أن الإنسان لا ينتفع في يوم القيامة إلا بطاعة الله والتضرع إليه لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات .

ولما كان أشق أنواع الطاعات الدعاء والتضرع لا جرم أمر الله تعالى به فقال سبحانه: ﴿ وقال ربكم ﴾ أي : المحسن إليكم بهدايتكم ووعدكم النصرة ﴿ ادعوني ﴾ أي : اعبدوني دون غيري ﴿ أستجب لكم ﴾ أي : أثبكم وأغفر لكم بقرينة قوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون ﴾ أي : يوجدون الكبر ﴿ عن عبادتي ﴾ أي : عن الاستجابة لي فيما دعوت إليه من العبادة بالمجادلة في آياتي والإعراض عن دعائي ﴿ سيدخلون ﴾ أي : بوعد لا خلف فيه ﴿ جهنم ﴾ فتلقاهم جزاء على كفرهم بالتجهم والعبوسة والكراهة ﴿ داخرين ﴾ أي : صاغرين حقيرين ذليلين وإن فسر الدعاء بالسؤال كان الاستكبار الصارف عنه منزلاً منزلته للمبالغة والمراد بالعبادة : الدعاء فإنه من أبوابها ، روي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "الدعاء مخ العبادة" وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من لم يسأل الله تعالى يغضب عليه" ، فإن قيل : أنه صلى الله عليه وسلم قال حكاية عن ربه عز وجل : "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين" فهذا يقتضي أن ترك الدعاء أفضل فكيف من لم يسأل الله يغضب ؟

(182/678)

أجيب : بأنه إن كان مستغرقاً في الثناء على الله تعالى فهو أفضل من الدعاء لأن الدعاء طلب الجنة والاستغراق في معرفة الله تعالى وجلاله أفضل من طلب الجنة وإلا فالدعاء أفضل ، وعن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : "الدعاء هو العبادة" ثم قرأ الآية ، فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ وقد يدعو الإنسان كثيراً فلا يستجاب له ؟ أجاب الكعبي : بأن الدعاء إنما يصح بشرط ومن دعا كذلك أستجيب له ، وذلك الشرط هو أن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة ، ثم سأل نفسه فقال : إن الله تعالى يفعل ما هو الأصلح بغير دعاء فما فائدة الدعاء وأجاب عنه بأن فيه الفزع والانقطاع إلى الله تعالى ، وأجاب الرازي عن الأول : بأن كل من دعا الله تعالى وفي قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأصدقائه

واجتهاده فهو في الحقيقة ما دعا الله تعالى إلا باللسان وأما القلب فهو يعول في تحصيل ذلك المطلوب على غير الله تعالى ، فهذا إنسان ما دعا ربه وأما إذا دعا في وقت لا يكون القلب فيه ملتفتاً إلى غير الله تعالى فالظاهر أنه يستجاب له ، وقال القشيري : الدعاء مفتاح الإجابة وأسنانه لقمة الحلال ، وقرأ ابن كثير وشعبة بضم ياء سيدخلون وفتح الخاء والباقون بفتح الياء وضم الخاء .

ولما أمر الله تعالى بالدعاء فكأنه قيل الاشتغال بالدعاء لا بد وأن يكون مسبوقاً بحصول المعرفة فما الدليل على وجود الإله القادر فقال تعالى مفتتحاً بالاسم الأعظم:

(183/678)

﴿ الله ﴾ أي : المحيط بصفات الكمال ﴿ الذي جعل لكم ﴾ لا غيره ﴿ الليل ﴾ أي : مظلماً ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ راحة ظاهرة بالنوم الذي هو الموت الأصغر وراحة حقيقية بالعبادة التي هي الحياة الدائمة ﴿ والنهار مبصراً ﴾ لتنظروا فيه باليقظة التي هي إحياء بالمعنى ، فالآية من الاحتباك حذف الظلام أولاً لكونه ليس من النعم المقصودة في نفسها لما دل عليه من الإبصار الذي هو المقصود من نعمة الضياء المقصود في نفسه ، وحذف الانتشار لأنه بعض ما ينشأ عن نعمة الإبصار لما دل عليه من السكون الذي هو المقصود

الأعظم من الليل للراحة لمن أرادها والعبادة لمن اعتمدها واستزادها ، فإن قيل : هلا قيل بحسب رعاية النظم : هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه أو يقال جعل لكم الليل ساكناً والنهار مبصراً ولكنه لم يقل ذلك فما الحكمة فيه وفي تقديم ذكر الليل ؟

أجيب عن الأول : بأن الليل والنوم في الحقيقة طبيعة عدمية فهو غير مقصود بالذات وأما النور واليقظة فأمور وجودية مقصودة بالذات ، وقد بين الشيخ عبد القادر في دلائل الإعجاز أن دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليها فهذا هو السبب في الفرق ، وأجيب عن الثاني : بأن الظلمة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية والعدم في المحدثات مقدم على الوجود فلهذا السبب قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ (الأنعام :)

. ﴿ إن الله ﴾ أي : ذا الجلال والإكرام ﴿ لذو فضل ﴾ أي : عظيم جداً باختياره ﴿ على الناس ﴾ أي : كافة باختلاف الليل والنهار وما يحتويان عليه من المنافع ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ الله فلا يؤمنون وينسبون أفعاله سبحانه إلى غيره جهلاً ويعلمون بما يسلب عنهم اسم الشكر من الشرك وغيره ، فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ ولم يقل ولكن أكثرهم ولا يكرر ذكر الناس ؟

أجيب : بأن في هذا التكرار تخصيصاً لكفران النعمة بهم وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله تعالى ولا يشكرونه كقوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (إبراهيم :)

ولما بين تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الإله القادر قال تعالى:

﴿ ذلكم ﴾ أي : أيها المخاطبون ﴿ الله ﴾ أي : الملك الأعظم المعلوم لكل أحد المتميز عن كل شيء بالأفعال التي لا يشاركه فيها أحد ﴿ ربكم ﴾ أي : المربي لكم المحسن إليكم ﴿ خالق كل شيء ﴾ أي : بما ثبت من تمام قدرته لأنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي : هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية فهي أخبار مترادفة وإذا كان خالق كل شيء

﴿ فأنى ﴾ أي : فكيف ومن أي وجه ﴿ تؤفكون ﴾ أي : تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

﴿ كذلك ﴾ أي : مثل هذا الصرف البعيد عن مناهج العقلاء ﴿ يؤفك ﴾ أي : يصرف ﴿ الذين كانوا ﴾ أي : مطبوعين على أنهم ﴿ بآيات الله ﴾ أي : ذي الجلال والكمال ﴿ يجحدون ﴾ أي : ينكرون عناداً ومكابرة .

ولما كان دلائل وجوده تعالى إما أن تكون من دلائل الآفاق وهي غير الإنسان وهي أقسام وذكر منها أحوال الليل والنهار كما تقدم ، ذكر أيضاً منها ههنا الأرض والسماء فقال تعالى:

﴿ الله ﴾ أي : الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء ﴿ الذي جعل ﴾ أي : وحده

﴿ لكم الأرض ﴾ أي : مع كونها فراشاً ممهداً ﴿ قراراً ﴾ مع كونها في غاية الثقل ولا ممسك لها سوى قدرته ﴿ والسماء ﴾ أي : على علوها وسعتها مع كونها أفلاكاً دائرة بنجوم طول الزمان سائرة ينشأ عنها الليل والنهار والأظلام ﴿ بناء ﴾ مظلة كالقبة من غير عماد وحامل . ثم ذكر دلائل النفس وهي دلالة أحوال بدن الإنسان على وجود الصانع القادر الحكيم بقوله تعالى : ﴿ وصوركم ﴾ والتصوير على غير نظام واحد لا يكون إلا بقدرة قادر تام القدرة مختار ﴿ فأحسن صوركم ﴾ على أشكال وأحوال مع أنها أحسن الصور ليس في الوجود ما يشبهها لم يخلق الله تعالى حيواناً أحسن صورة من الإنسان كما قال تعالى : ﴿ في أحسن تقويم ﴾ (التين :)

(185/678)

قال ابن عباس رضي الله عنهما : خلق الإنسان قائماً معتدلاً يأكل ويتناول بيده وغير ابن آدم يتناول بفيه .

ولما ذكر تعالى المساكن والساكن ذكر ما يحتاج إليه في مدة السكن فقال سبحانه ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أي : الشهية الملائمة للطباع وقيل : هو ما خلق الله تعالى لعباده من المأكل والمشرب من غير رزق الدواب ، وعن الحسن : أنه قال لما خلق الله تعالى

آدم عليه السلام وذريته قالت الملائكة عليهم السلام : إن الأرض لا تسعهم قال الله تعالى : فإني جاعل موتاً ، قالوا : إذاً لا يهنأ لهم العيش قال تعالى : فإني جاعل أملاً .

ولما دل هذا على التفرد قال تعالى على وجه الإنتاج ﴿ ذلكم ﴾ أي : الرفيع الدرجات ﴿ الله ﴾ أي : المالك لجميع الملك ﴿ ربكم ﴾ أي : المحسن إليكم لا غيره ﴿ فتبارك ﴾ أي : ثبت ثباتاً عظيماً مع اليمن والخير وحسن المدد والفيض ﴿ الله ﴾ المختص بالكمال ﴿ رب العالمين ﴾ كلهم فهو المحسن إليهم بالتربية وغيرها . ثم نبه تعالى بقوله سبحانه: ﴿ هو الحي ﴾ بما يفيد الحصر بأنه لا حي على الدوام إلا هو ثم نبه تعالى على وحدانيته بقوله سبحانه : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ ثم أمر العباد بالإخلاص في الدعاء فقال تعالى : ﴿ فادعوه ﴾ أي : اعبدوه ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي : من كل شرك جلي أو خفي .

ولما كان تعالى موصوفاً بصفات الجلال والعزة استحق لذاته أن يقال له : ﴿ الحمد ﴾ أي : الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أي : المسمى بهذا الاسم الجامع لمجامع معاني الأسماء الحسنى ﴿ رب العالمين ﴾ أي : الذي رباهم هذه التربية ، وقال الفراء : هو خبر وفيه إضمار الأمر ومجازه فادعوه واحمدوه ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : من قال لا إله إلا الله فليقل : على أثرها الحمد لله رب العالمين .

ولما أورد على المشركين تلك الأدلة الدالة على إثبات إله العالم أمره بقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء الذين يجادلونك في البعث مقابلاً لإنكارهم بالتوكيد ﴿ إني نهيت ﴾ أي : ممن لا نهي لغيره نهياً عاماً ببراهين العقول ونهياً خاصاً بأدلة النقل ﴿ أن أعبد الذين تدعون ﴾ أي : تعبدون ﴿ من دون الله ﴾ أي : الذي له الكمال كله ، قال البقاعي : ودل على أنه ما كان متعبداً قبل البعثة بشرع أحد بقوله : ﴿ لما جاءني البينات ﴾ أي : الحجج وهي ما تقدم من الدلائل الدالة على أن إله العالم قد ثبت كونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق إلا له وأما الأحجار المنحوتة والأخشاب المصورة فلا تصح أن تكون شركاء له . ثم نبه على أنه تعالى كما يستحق الإفراد بالعبادة لذاته يستحقها شكراً لإحسانه بقوله : ﴿ من ربي ﴾ أي : المربي لي تربية خاصة هي أعلى من كل مخلوق سواي فأنا أعبده عبادة تفوق عبادة كل عابد .

ولما أمره بما ينهى عنه أمره بما يتحلى به فقال : ﴿ وأمرت أن أسلم ﴾ أي : حين دعي إلى الكفر ﴿ لرب العالمين ﴾ لأن كل ما سواه مربوب له فالإقبال عليه خسار وإذا نهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأمر بهذا لكون الآمر والناهي هو رب العالمين كان غيره مشاركاً له في ذلك لا محالة .

ولما استدل تعالى على إثبات الإلهية بدليل الآفاق وذكر منها الليل والنهار والأرض والسماء ، ثم ذكر الليل على إثبات الإله القادر بخلق الأنفس وهو نوعان ؛ أحدهما : حسن

الصورة ورزق الطيبات ، ذكر النوع الثاني : وهو كيفية تكوين البدن من ابتداء كونه نطفة وجنيناً إلى آخر الشيخوخة والموت فقال تعالى:

(187/678)

﴿ هو ﴾ أي : لا غيره ﴿ الذي خلقكم من تراب ﴾ أي : بخلق أبيكم آدم عليه السلام منه ، قال الرازي : وعندي لا حاجة إلى ذلك لأن كل إنسان فهو مخلوق من المني ومن دم الطمث ، والمني مخلوق من الدم والدم إنما يتولد من الأغذية إما حيوانية وإما نباتية ، والحال في ذلك الحيوان كالحال في تكوين الإنسان فكانت الأغذية كلها منتهية إلى النبات ، والنبات إنما يكون من التراب والماء ، فثبت أن كل إنسان متكون من التراب ، ثم إن ذلك التراب يصير نطفة كما قال تعالى : ﴿ ثم من نطفة ﴾ أي : من مني ﴿ ثم من علقة ﴾ أي : دم غليظ متباعد حاله عن حال النطفة كما كان حال النطفة متباعداً عن حال التراب ﴿ ثم ﴾ بعد أن جرت شؤون أخرى ﴿ يخرجكم ﴾ أي : يجدد إخراجكم شيئاً بعد شيء ﴿ طفلاً ﴾ أي : أطفالاً والتوحيد لإرادة الجنس أو على تأويل كل واحد منكم لا تملكون شيئاً ولا تعلمون شيئاً ﴿ ثم ﴾ يدرجكم في مدارج التربية صاعدين بالقوة في أوج الكمال طوراً بعد طور وحالاً بعد حال ﴿ لتبلغوا أشدكم ﴾ أي : تكامل قوتكم من الثلاثين سنة

إلى الأربعين وعن الشعبي صغر الغلام لسبع سنين ويحتلم لأربع عشرة وينتهي طوله لإحدى وعشرين وينتهي عقله لثمان وعشرين ويبلغ أشده لثلاث وثلاثين ﴿ ثم ﴾ يهبطكم بالضعف والوهن في مهاوي السفول ﴿ لتكونوا شيوخاً ﴾ ضعفاء غرباء قد ماتت قوتكم ووهنت أركانكم ، وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص بضم الشين والباقون بكسرها ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ بقبض روحه ﴿ من قبل ﴾ أي : قبل حال الشيخوخة أو قبل حال الأشدية أو قبل هذه الأحوال إذا خرج .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ لتبلغوا أشدكم ﴾ متعلق قال الزمخشري : بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا أشدكم وكذلك لتكونوا وأما قوله : ﴿ ولتبلغوا ﴾ أي : كل واحد منكم ﴿ أجلاً مسمى ﴾ فمعناه ويفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى وهو وقت الموت وقيل : يوم القيامة ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ أي : ما في ذلك من العبر والحجج وتستدلون بهذه الأحوال العجيبة على وحدانية الله تعالى .

(188/678)

ولما ذكر تعالى انتقال الأجسام من كونها تراباً إلى أن بلغت الشيخوخة واستدل بهذه التقديرات على وجود الإله القادر أنتج قوله تعالى:

﴿ هو ﴾ أي : لا غيره ﴿ الذي يحيي ويميت ﴾ كما تشاهدونه في أنفسكم فكما أن الانتقال من صفة إلى صفة أخرى من الصفات المتقدمة يدل على الإله القادر فكذلك الانتقال من الحياة إلى الموت وبالعكس يدل على الإله القادر .

ولما كانت إرادته لا تكون إلا تامة تسبب عن ذلك قوله تعالى : ﴿ فإذا قضى أمراً ﴾ أي أراد أي : أمر كان من القيامة أو غيرها ﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾ فلا يحتاج في تكوينه إلى عدة وتجشم كلفة ، وقرأ ابن عامر بنصب النون والباقون بالرفع وتقدم توجيه ذلك في سورة البقرة ، ثم إنه تعالى عاد إلى ذم الذين يجادلون في آيات الله مخاطباً بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم فقال:

﴿ ألم تر ﴾ أي : يا أنور الناس قلباً وأصفاهم لباً ﴿ إلى الذين يجادلون ﴾ أي : بالباطل ﴿ في آيات الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ أني ﴾ أي : كيف ومن أي وجه ﴿ يصرفون ﴾ أي : عن التصديق وتكرير ذم المجادلة بتعدد المجادل والمجادل فيه أو للتوكيد وقوله تعالى: ﴿ الذين كذبوا ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من الموصول قبله أو بياناً أو نعتاً أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوباً على الذم ﴿ بالكتاب ﴾ أي : بسببه في جمع ما له من الشؤون التي تفوق الحصر وهو القرآن أو بجنس الكتب السماوية ﴿ وبما أرسلنا ﴾ أي : على ما لنا من العظمة ﴿ به رسلنا ﴾ أي : من جميع الملل والشرائع بكتاب كان أو بغيره ولذا تسبب عنه تهديدهم في قوله تعالى : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أي : بوعد صادق لا خلف فيه ما يحل بهم

من سطواتنا وقوله تعالى:

﴿ إذِ الأغلال في أعناقهم ﴾ ظرف ليعلمون ، فإن قيل : سوف للاستقبال وإذ للماضي فهو مثل قولك سوف أصوم أمس ؟

(189/678)

أجيب : بأن المعنى على إذا إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد والمعنى على الاستقبال قالوا وكما تقع إذا موقع إذ في قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ (الجمعة :)

كذلك تقع إذ موقعها وقوله تعالى : ﴿ والسلاسل ﴾ عطف على الأغلال ، فتكون في الأعناق ، والسلسلة معروفة ، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره في أرجلهم وخبره ﴿ يسحبون ﴾ والعائد محذوف أي : بها والسحب الجر بعنف ، والسحاب من ذلك لأن الريح تجره أو أنه يجر الماء ﴿ في الحميم ﴾ أي : الماء الحار الذي يكسب الوجوه سواداً والأعراض عاراً والأرواح عذاباً والأجسام ناراً ﴿ ثم في النار يسجرون ﴾ أي : يلقون فيها وتوقد بهم مكردسين كما يسجر التنور بالحطب ، كما قال تعالى : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ (البقرة :)

والسجير الخليل الذي يسجر في مودة خليله ، كقولهم : فلان يحترق في مودة فلان ، هذه كيفية عقابهم .

﴿ ثم قيل لهم ﴾ تبكيتاً أي : بعد أن طال عذابهم وبلغ منهم كل مبلغ ولم يجدوا ناصراً يخلصهم ولا شافعاً يخصصهم ﴿ أين ﴾ وأكد التعبير عنهم بأداة ما لا يعقل في قوله تعالى : ﴿ ما كنتم ﴾ أي : دائماً ﴿ تشركون ﴾ ﴿ من دون الله ﴾ أي : معه وهي الأصنام ﴿ قالوا ضلوا ﴾ أي : غابوا ﴿ عنا ﴾ فلا نراهم كما ضللنا نحن في الدنيا عما ينفعنا وذلك قبل أن تقرن آلهتهم أو ضاعوا عنا فلم نجد منهم ما كنا نتوقع منهم ﴿ بل لم نكن ندعو ﴾ أي : لم يكن ذلك في طباعنا ﴿ من قبل ﴾ أي : قبل هذه الإعادة ﴿ شيئاً ﴾ لنكون قد أشركنا به أنكروا عبادتهم إياها كقولهم في سورة الأنعام : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ (الأنعام :)

وقال الحسن بن الفضل : أي : لم نكن نصنع من قبل شيئاً ، أي : ضاعت عبادتنا لها كما يقول من ضاع عمله ما كنت أعمل شيئاً ثم يقرنون بآلهتهم كما قال تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ (الأنبياء :)

أي : وقودها ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل إضلال هؤلاء المكذبين ﴿ يضل الله ﴾ أي : المحيط علماً وقدرة عن القصد النافع من حجة وغيرها ﴿ الكافرين ﴾ أي : الذين ستروا مرائي بصائرهم لئلا ينجلي فيها الحق ثم صار لهم ذلك ديدناً .

﴿ ذلكم ﴾ أي : الجزاء العظيم ﴿ بما كنتم ﴾ أي : دائماً ﴿ تفرحون ﴾ أي : تبالغون في السرور وتستغرقون فيه ﴿ في الأرض بغير الحق ﴾ من الإشراك وإنكار البعث فأشعر ذلك أن السرور لا ينبغي إلا إذا كان مع كمال هذه الحقيقة وهي الثبات دائماً للمفروح به وذلك لا يكون إلا في الجنة ﴿ وبما ﴾ أي : وبسبب ما ﴿ كنتم تمرحون ﴾ أي : تبالغون في الفرح مع الأشر والبطر والنشاط الموجب للاختيال والتبختر والخفة بعدم احتمال الفرح .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ تفرحون وتمرحون ﴾ من باب التحنيس المحرف وهو أن يقع الفرق بين اللفظين بحرف .

ولما كان السياق لذم الجدال وكان الجدال إنما يكون عن الكبر قال تعالى:

﴿ ادخلوا ﴾ أي : أيها المكذبون ﴿ أبواب جهنم ﴾ أي : الأبواب السبعة المقسومة لكم قال تعالى : ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ (الحجر :)

لكل باب منهم جزء مقسوم ، وسميت : جهنم لأنها تلقى صاحبها بتكبر وعبوس وتجهم ﴿ خالدين فيها ﴾ أي : مقدرين الخلود ﴿ فبئس مثوى ﴾ أي : مأوى ﴿ المتكبرين ﴾ أي : عن الحق والمخصوص بالذم محذوف أي : مثواكم ، فإن قيل : كان قياس النظم أن يقول

: فبئس مدخل المتكبرين كما تقول : زرت بيت الله فنعم المزار وصليت في المسجد فنعم المصلى ؟

أجيب : بأن الدخول لا يدوم وإنما يدوم المثوى فلذلك خصه بالذم وإن كان الدخول أيضاً مذموماً .

ولما زيف تعالى طريقة المجادلين في آيات الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر بقوله:

(191/678)

﴿ فاصبر ﴾ أي : على أذاهم بسبب المجادلة وغيرها ﴿ إن وعد الله ﴾ أي : الجامع لصفات الكمال ﴿ حق ﴾ أي : بنصرتك في الدارين فلا بد من وقوعه ﴿ فإما نرينك ﴾ قال الزمخشري : أصله فإن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ولذلك ألحقت النون بالفعل ألا تراك لا تقول : إن تكرمني أكرمك ولكن إما تكرمني أكرمك ، قال أبو حيان : وما ذكره من تلازم النون وما الزائدة ليس مذهب سيبويه إنما هو مذهب المبرد والزجاج ونص سيبويه على التخيير ﴿ بعض الذي نعدهم ﴾ به من العذاب في حياتك وجواب الشرط محذوف أي : فذاك ﴿ أو نتوفينك ﴾ أي : قبل تعذيبهم ﴿ فإلينا يرجعون ﴾ أي : فنعذبهم أشد العذاب فالجواب المذكور للمعطوف فقط .

﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ رسلاً ﴾ أي : بكثرة ﴿ من قبلك ﴾ إلى أممهم ليبلغوا عنا ما أمرناهم به ﴿ منهم من قصصنا ﴾ بما لنا من العظمة ﴿ عليك ﴾ أي : أخبارهم وأخبار أممهم ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ لا أخبارهم ولا أخبار أممهم ولا ذكرناهم لك بأسمائهم وإن كان لنا العلم التام والقدرة الكاملة ، روي أن الله تعالى بعث ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس ﴿ وما ﴾ أي : أرسلناهم والحال أنه ما ﴿ كان لرسول ﴾ أصلاً ﴿ أن يأتي بآية ﴾ أي : ملجئة أو غير ملجئة مما يطلب الرسول استعجالاً لاتباع قومه له أو اقتراحاً من قومه عليه ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي : بأمره وتمكينه فإن له الإحاطة بكل شيء فلا يخرج شيء عن أمره وهم عبيد مربوبون .

(192/678)

تنبيه : معنى الآية أن الله تعالى قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنت كالرسل من قبلك وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الباقين وليس منهم أحد أعطاه الله آيات ومعجزات إلا وقد جادله قومه وكذبوه فيها فصبروا وكانوا أبداً يقترحون على أنبيائهم عليهم السلام إظهار المعجزات الزائدة على الحاجة عناداً وعبثاً ، وما كان لرسول أن يأتي

بآية إلا بإذن الله تعالى والله سبحانه علم الصلاح في إظهار ما أظهروه دون غيره ولم يقدح ذلك في نبوتهم ، فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة لما لم يكن إظهارها صلاحاً لا جرم ما أظهرناها ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ أي : المحيط بكل شيء قدرة وعلماً بنزول العذاب على الكفار ﴿ قُضِي ﴾ أي : بأمره على أيسر وجه وأسهله بين الرسل ومكذبيهم ﴿ بالحق ﴾ الأمر الثابت ﴿ وخسر هنالك ﴾ أي : في ذلك الوقت العظيم ﴿ المبطلون ﴾ أي : المنسوبون إلى إيثار الباطل على الحق المعاندون الذين يجادلون في آيات الله ، فيقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة تعنتاً وعبثاً ، وقرأ قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر ، وسهل ورش وقنبل الهمزة الثانية وأبدلاها أيضاً ألفاً ، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين .

ولما ذكر الله تعالى الوعيد عاد إلى ذكر ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم ، وإلى ذكر ما يصلح أن يعد إنعاماً على العباد فقال تعالى:

﴿ الله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ الذي جعل لكم ﴾ أي : لا غيره ﴿ الأنعام ﴾ أي : الأزواج الثمانية بالتذلل والتسخير ، وقال الزجاج : الأنعام الإبل خاصة ﴿ لتركبوا منها ﴾ وهي الإبل مع قوتها ونفرتها وقد تركب البقر أيضاً ﴿ ومنها ﴾ أي : من الأنعام كلها ﴿ تأكلون ﴾ ولما كان التصرف فيها غير منضبط أجمله بقوله تعالى:

﴿ ولكم فيها ﴾ أي : كلها ﴿ منافع ﴾ أي : كثيرة بغير ذلك من الدر والوبر والصوف وغيرها ﴿ ولتبلغوا عليها ﴾ وهي في غاية الذل والطواعية ونبههم على نقصهم وعظم نعمته عليهم بقوله تعالى : ﴿ حاجة ﴾ أي : جنس الحاجة ، وقوله تعالى : ﴿ في صدوركم ﴾ إشارة إلى أن حاجة واحدة ضاقت عنها قلوب الجميع حتى فاضت منها فملأت مساكنها ﴿ وعليها ﴾ أي : الإبل في البر ﴿ وعلى الفلك ﴾ أي : في البحر ﴿ تحملون ﴾ أي : تحملون أمتعتكم الثقيلة من مكان إلى مكان آخر وأما حمل الإنسان نفسه فقد مر بالركوب ، فإن قيل : لِمَ لم يقل وفي الفلك كما قال تعالى في سورة هود : ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ﴾ (هود :)

أجيب : بأن كلمة على للاستعلاء فالشيء الذي يوضع على الفلك كما صح أن يقال وضع فيه صح أن يقال وضع عليه ، ولما صح الوجهان كانت لفظة على أولى حتى تتم المزاوجة في قوله تعالى ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ (المؤمنون :)

وقال بعضهم : أن لفظ فيها هناك أليق لأن سفينة نوح عليه السلام كما قيل مسبقة عليهم وهي محيطة بهم كالوعاء وأما غيرها فالاستعلاء فيه واضح لأن الناس على ظهرها .

ولما كانت هذه آية عظيمة جعلها الله سبحانه وتعالى مشتملة على آيات كثيرة قال تعالى: ﴿ ويريكم ﴾ أي : في كل لحظة ﴿ آياته ﴾ أي : دلائل قدرته ﴿ فأي آيات الله ﴾ أي :

المحيط بصفات الكمال الدالة على وحدانيته ﴿ تنكرون ﴾ حتى تتوجه لكم المجادلة في آياته وهذا استفهام توبيخ .

تنبيه : أي : منصوب بتنكرون وقدم وجوباً لأن له صدر الكلام وتذكيره أشهر من تأنيثه ، قال الزمخشري : وقولك فأية آيات الله قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهو في أي : أغرب لإبهامه ، قال أبو حيان : ومن قلة تأنيث أي : قول الشاعر :

*بأي كتاب أم بأية سنة ** ترى حبهم عاراً علي وتحسب*

(194/678)

قال ابن عادل : وقوله وهو في أي أغرب إن عني أياً على الإطلاق فليس بصحيح ؛ لأن المستفيض في النداء أن تؤنث في نداء المؤنث كقوله تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ (الفجر :)

ولا نعلم أحداً ذكر تذكيرها فيه فيقول : يا أيها المرأة إلا صاحب "البديع في النحو" وإن عني غير المناداة فكلامه صحيح ، يقل تأنيثها في الاستفهام وموصولة وشرطية .

ولما وصل الأمر إلى حد من الوضوح لا يخفى على أحد تسبب عنه لفت الخطاب عنهم

دلالة على الغضب الموجب للعقاب المقتضي للرهب فقال تعالى:

﴿ أفلم يسيروا ﴾ أي: هؤلاء الذين هم أضل من الإنعام، لما حصل في صدورهم من الكبر العظيم طلباً للرياسة والتقديم على الغير في المال والجاه ﴿ في الأرض ﴾ أي أرض كانت سير اعتبار ﴿ فينظروا ﴾ نظر تفكر فيما سلكوه من سبلها ونواحيها ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ أي: آخر ﴿ الذين من قبلهم ﴾ أي: مع قرب الزمان والمكان أو بعد ذلك ﴿ كانوا أكثر منهم ﴾ عَدداً وعُدداً ومالاً وجاهاً ﴿ وأشد قوة ﴾ في الأبدان كقوم هود عليه السلام وبناء ﴿ وآثاراً في الأرض ﴾ بنحت البيوت في الجبال وحفر الآبار وبناء المصانع الجليلة وغير ذلك ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ بقوة أبدانهم وعظم عقولهم واحتيالهم وما رتبوا من المصانع لنجاتهم حين جاءهم الموت بل كانوا كأمس الذاهب.

تنبيه: ما الأولى نافية أو استفهامية منصوبة بأغنى، والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة به.

﴿ فلما جاءتهم رسلهم ﴾ أي: الذين قد أرسلناهم إليهم وهم يعرفون صدقهم وأماناتهم ﴿ بالبينات ﴾ أي: المعجزات الظاهرات الدالة على صدقهم لا محالة واختلف في عود ضمير فرحوا في قوله تعالى: ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ على وجهين؛ أحدهما: أنه عائد إلى الكفار واختلف في ذلك العلم الذي فرحوا به فقيل: هو الأشياء التي كانوا

يسمونها علماً وهي الشبهات المحكية عنهم في القرآن كقولهم : ﴿ ما يهلكنا إلا الدهر ﴾ (الجاثية :)

(195/678)

وقولهم : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ (الأنعام :)

وقولهم : ﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ (يس :)

﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ (الكهف :)

فكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الأنبياء كما قال تعالى : ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (الروم :)

وقيل : المراد علم الفلاسفة فإنهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله تعالى دفعوه وصغروا علوم الأنبياء عن علومهم ، كما روي عن بقراط أنه سمع بمجيء بعض الأنبياء عليهم السلام فقيل له : لو هاجرت إليه فقال : نحن قوم مهتدون فلا حاجة بنا إلى من يهدينا . وقيل : المراد علمهم بأمر الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كقوله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ذلك مبلغهم من العلم ﴾ (النجم : ـ)

فلما جاءت الرسل عليهم السلام بعلوم الديانات ومعرفة الله عز وجل ومعرفة المعاد وتطهير

النفس من الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزؤوا بها واعتقدوا أن لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به ، ويجوز أن يكون المراد علم الأنبياء وفرح الكفار به ضحكهم واستهزاؤهم به ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وحاق ﴾ أي : أحاط على وجه الشدة ﴿ بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي : من الوعيد الذي كانوا قاطعين ببطلانه ، والوجه الثاني : أنه عائد على الرسل وفيه وجهان ؛ أحدهما : أن تفرح الرسل إذا رأوا من قوم جهلاً كاملاً وإعراضاً عن الحق وعلموا سوء غفلتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم وإعراضهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله تعالى وحاق بالجاهلين جزاء جهلهم واستهزائهم ، الثاني : أن المراد أن الرسل فرحوا بما عند الكفار من العلم فرح ضحك واستهزاء .

﴿ فلما رأوا ﴾ أي : عاينوا ﴿ بأسنا ﴾ أي : عذابنا الشديد ومنه قوله تعالى : ﴿ بعذاب بئيس ﴾ (الأعراف :)

(196/678)

﴿ قالوا آمنا بالله ﴾ أي : الذي له مجامع العظمة ومعاقد العز ونفوذ الكلمة ﴿ وحده ﴾ لا نشرك به شيئاً ﴿ وكفرنا بما كنا ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ به مشركين ﴾ يعنون الأصنام أي : لأنا علمنا أنه لا يغني من دون الله شيء .

ولما كان الكفر بالغيب سبباً لعدم قبول الإيمان عند الشهادة قال تعالى:

﴿ فلم يك ينفعهم ﴾ أي : لم يصح ولم يقبل بوجه من الوجوه ﴿ إيمانهم ﴾ أي : لا يتجدد لهم نفعه بعد ذلك لأنه إيمان الجاء واضطرار ، لا إيمان طواعية واختيار ﴿ لما رأوا ﴾ وأظهر موضع الإضمار زيادة في الترهيب فقال تعالى شأنه : ﴿ بأسنا ﴾ أي : عذابنا لامتناع قبول الإيمان حينئذ لأنه لا يتحقق ولا يتصور إلا مع الغيب ، وأما عند الشهادة فقد كشفت سريرته على انه قد فاتت حقيقته وصورته ، ولو ردوا لعادوا لما نهو عنه ، فإن قيل : أي : فرق بين قوله تعالى : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم ﴾ وبينه ، لو قيل فلم ينفعهم إيمانهم ؟

أجيب : بأنه من كان في نحو قوله تعالى : ﴿ ما كان الله أن يتخذ من ولد ﴾ (مريم :)

والمعنى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم . فإن قيل : كيف ترادفت هذه الفاءات ؟

أجيب : بأن قوله تعالى : ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ نتيجة قوله تعالى : ﴿ كانوا أكثر منهم ﴾ وأما قوله تعالى : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم ﴾ فجار مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى : ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ كقولك رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء وقوله تعالى ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ تابع لقوله تعالى : ﴿ فلما جاءتهم ﴾ كأنه قال : فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا فكذلك فلم يك ينفعهم إيمانهم تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ سنت الله ﴾ أي : الملك الأعظم ، يجوز انتصابها على المصدر المؤكد لمضمون الجملة أي : الذي فعله الله تعالى بهم سنة سابقة من الله تعالى ويجوز انتصابها على التحذير

أي : احذروا سنة الله تعالى في المكذبين ﴿ التي قد خلت في عباده ﴾ وتلك السنة أنهم إذا عاينوا العذاب آمنوا ولم ينفعهم إيمانهم .

(197/678)

فائدة : رسمت سنة بتاء مجرورة ووقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالهاء ، والباقون بالتاء ، وأمال الكسائي الهاء في الوقف ﴿ وخسر ﴾ أي : هلك أي : تحقق وتبين أنه خسر ﴿ هنالك الكافرون ﴾ أي : العريقون في هذا الوصف فلا انفكاك بينهم وبين الكفر .

تنبيه : هنالك في الأصل اسم مكان قيل : استعير هنا للزمان ولا حاجة له فالمكانية فيه ظاهرة ، وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له" حديث موضوع . وعن ابن سيرين رأى رجل في المنام سبع جوار حسان في مكان واحد لم ير أحسن منهن فقال لهن : لمن أنتن فقلن لمن يقرأ آل حم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 6 صـ 313.336 ﴾

(198/678)

وقال القاسمي :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾

أي : بوجوده علم ؛ إذ لا وجود له : ﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ ﴾ أي : الغالب الذي يقهر من عصاه : ﴿ الْغَفَّارِ ﴾ أي : الذي يستر ظلمات نفوس من أطاعه ، بأنواره .

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي : الذي تدعوني إلى عبادته ، ليس له دعوة في الدنيا لدفع الشدائد ، والأمراض ونحوها ، ولا في الآخرة لدفع أهوالها ، على ما قاله المهايمي . أو لا دعوة له في الدارين لعدمه بنفسه ، واستحالة وجوده فيهما ، على ما قاله القاشاني . وقال الشهاب : عدم الدعوة عبارة عن جماديتها ، وأنها غير مستحقة لذلك .

وسياق : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ عند البصريين أن يكدن لا ردّاً لما دعاه إليه قومه و : ﴿ جَرَمَ ﴾ بمعنى كسب ؛ أي : وكسب دعاؤهم إليه بطلان دعوته ؛ أي : ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته ، ويجوز أن يكون : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ نظير لابد من الجرم وهو القطع . فكما أنك تقول : لابد لك أن تفعل . والبد من التبديد الذي هو التفريق ، ومعناه لا مفارقة لك من فعل

كذا ، فكذلك [في المطبوع : فكذالك] : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ معناه لا انقطاع لبطلان دعوة الأصنام . بل هي باطلة أبداً . هذا ما يستفاد من " الكشاف " .

(199/678)

وفي " الصحاح " : قال الفراء : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا محالة ، ولا بد فجرت على ذلك ، وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة حقا ، فلذلك يجاب عنها باللام . ألا تراهم يقولون : لا جرم لآتيناك . وقد حقق الكلام فيها ابن هشام في " المغني " في بحث ، والجلال في " همع الهوامع " أثناء بحث إن والقسم ، فنظرهما ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي : في الضلالة ، والطغيان ، وسفك الدماء : ﴿ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أي : في النصح عند معاينة الأهوال ، وما يحيق بكم : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : وأسلم أمري إليه ، وأجعله له ، وأتوكل عليه ، فإنه الكافي من توكل عليه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أي : فيعلم المطيع منهم ، والعاصي ، ومن يستحق المثوبة والعقوبة .

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾ أي : فرفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون ، بإيمانه وتصديق رسوله موسى ، مكروه ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه ، من العذاب

والبلاء ، فنجاه منه : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : بفرعون ، وقومه : ﴿ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ يعني الغرق ، أو النار . وعلى الأول ، فقوله تعالى :

(200/678)

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ﴾ جملة مستأنفة مبنية لكيفية نزول العذاب بهم ، على أن : ﴿ النَّارُ ﴾ مبتدأ ، وجملة : ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ خبره . وعلى الثاني ، فالنار خبر لمحذوف ، وهو خبر العذاب السيء ، أو هي بدل من : ﴿ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ . والمراد عرض أرواحهم عليها دائماً . واكتفى بالطرفين المحيطين - الغدو والعشي - عن الجميع ، وبه يستدل على عذاب القبر والبرزخ . وقاناه الله تعالى ، بمنه .

(201/678)

قال السيوطي : وفي " العجائب " للكرماني ، في الآية أدل دليل على عذاب القبر ؛ لأن المعطوف غير المعطوف عليه ؛ يعني قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ أي : هذا العرض ما دامت الدنيا ، فإذا قامت الساعة يقال لهم : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

وهو عذاب جهنم ؛ لأنه جزاء شدة كفرهم : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ أي : يتخاصمون فيها ، الأتباع والمتبوعون : ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ أي : أتباعاً كالمكرهين : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أي : نحن وأنتم . فكيف نغني عنكم ؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ أي : بأن أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ولا معقب لحكمه . أو بأن قدّر عذاباً لكل منا لا يدفع عنه ، ولا يتحمله عنه غيره ، قال الشهاب : وهذا أنسب بما قبله .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ أي : لما أيسوا من التخفيف عند المحاجّة : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ أي : يدفع عنا يوماً من أيام العذاب ، أو ألَم يوم ، وشدته .

(202/678)

﴿ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : المتكاثرة على صدقهم ، المنذرة بهذه الشدة : ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أي : جاءوا بها , وأخبروا مع البينات : ﴿ قَالُوا فَادْعُوا ﴾ أي : إن كان ينفعكم ، وهيهات : ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي : في ضياع لا

يجاب .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ أي : لننصرهم في الدارين ، أما في الدنيا ، فبإهلاك عدوهم واستئصاله عاجلاً ، أو بإظفارهم بعدوّهم وإظهارهم عليه ، وجعل الدولة لهم , والعافية لأتباعهم , وأما في الآخرة ، فبالنعيم الأبدي ، والحبور السرمدي . و : ﴿ الْأَشْهَادُ ﴾ جمع شاهد ، وهم من يشهد على تبليغ الرسل وتكذيبهم ظلماً , أو جمع شهيد ، كأشراف وشريف .

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ قال ابن جرير : ذلك يوم لا ينفع أهل الشرك اعتذارهم ، لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل ؛ وذلك أن الله قد أعذر إليهم في الدنيا ، وتابع عليهم الحجج فيها ، فلا حجة لهم في الآخرة إلا الاعتصام بالكذب ؛ بأن يقولوا : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] ، ولذا كانت لهم اللعنة ، وهي البعد من رحمة الله , وشر ما في الدار الآخرة من العذاب الأليم .

(203/678)

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ﴾ أي : ما يهتدي به , فكذب به فرعون ، وقومه كما كذبت قريش : ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ أي : وتركنا عليهم بعده من ذلك التوراة .

﴿ هُدًى ﴾ أي : بياناً لأمر دينهم ، وما ألزمناهم من شرائعها : ﴿ وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي : لذوي الحجى ، والعقول منهم .

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أي : إذا تلوت ما قصصناه عليك للناس ، فاصبر على أذى المشركين ، واصدع بما تؤمر : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : بنصرك على من خالف ، لا خلف له وهو منجزه ، واذكر نبأ موسى وفرعون : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ أي : سله غفرانه ، وعفوه : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق : 39] .

(204/678)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ أي : يدفعون الحق بالباطل ، ويردّون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة ، بلا برهان ولا حجة من الله : ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ أي : إلا تكبّر عن الحق ، وتعظم عن التفكر ، وغمط لمن جاءهم به ، حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله ، والكرامة التي أكرمك بها من النبوة : ﴿ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ قال ابن جرير : أي : الذي حسدوك عليه أمر ليسوا بمدركيه ولا نائليه . لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وليس بالأمر الذي يدرك بالأماني . وقد قيل : إن معناه إن

في صدورهم إلا عظمة ، ما هم ببالغي تلك العظمة ، لأن الله مذلّهم : ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ قال ابن جرير : أي : فاستجر بالله يا محمد ، من شر هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان ، ومن الكبر أن يعرض في قلبك منه شيء : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أي : لما يقولون ، وبما يعملون ، فسيجازيهم .

تنبيه :

قال كعب ، وأبو العالية : نزلت هذه الآية في اليهود ، وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم ، وأنهم يملكون به الأرض . فأمر صلى الله عليه وسلم أن يستعذ بالله من فتنته . قال ابن كثير : وهذا قول غريب ، وفيه تعسف بعيد . وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم ، ولم يذكره ابن جرير ، على ولعه بالغريب والضعيف .

وفي " الإكليل " : ليس في القرآن الإشارة إلى الدجال إلا في هذه الآية ، أي : على صحة هذه الرواية .

(205/678)

﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ أي : لإنشائهما ، وابتداعهما من غير شيء ، أعظم من خلق البشر : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لا ينظرون ،

ولا يتأملون لغلبة الجهل عليهم ؛ ولذا يجعلون إعادة الشيء أعظم من خلقه عن عدم ، مع أنه أهون وأيسر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ أي : ما يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً ، وهو مثل الكافر الذي لا يتأمل حجج الله بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها ، فيعلم وحدانيته وقدرته على خلق ما شاء ، ويؤمن به – والبصير الذي يرى بعينيه ما شخص لهما ويبصره . وذلك مثل المؤمن الذي يرى بعينيه حجج الله فيتفكر فيها ، ويتعظ ، ويعلم ما دلت من توحيد صانعه ، وعظيم سلطانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : ولا يستوي أيضاً المؤمنون بالله ورسوله ، المطيعون لربهم : ﴿ وَلَا الْمُسِيءُ ﴾ وهو الكافر بربه ، العاصي له ، المخالف أمره : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : حججه تعالى . فيعتبرون ويتعظون ؛ أي : لو تذكّروا آياته واعتبروا بها ، لعرفوا خطأ ما هم مقيمون عليه ، من إنكار البعث ، ومن قبح الشرك .

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي : فأيقنوا بمجيئها ، وأنكم مبعوثون ، ومجازون بأعمالكم ، فتوبوا : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : لا يصدقون بمجيئها ؛ يعني المشركين .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي : اعبدوني أُثِبْكم . قال الزمخشري : والدعاء بمعنى العبادة ، كثير في القرآن ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي : صاغرين أذلاء . قال الشهاب : إطلاق الدعاء على العبادة مجاز ، لتضمن العبادة له ، لأنه عبادة خاصة أريد به المطلق ، وجعل الإثابة لترتبها عليها استجابة ، مجازاً ، أو مشاكلة . وإنما أوّل به لأن ما بعده يدل عليه . والمقام يناسبه الأمر بالعبادة . وقد جوّز أن يراد بالدعاء ، والاستجابة ظاهرهما ، ويراد بالعبادة الدعاء مجازاً ؛ لأنه باب من العبادة عظيم ، وفرد من أفرادها فخيم . قال الشهاب : ولو قيل لا حاجة إلى التجوّز ، لأن الإضافة المراد بها العهد هنا ، فيفيد ما ذكر من غير تجوّز – لكان أحسن . انتهى .

وعلى الوجه الثاني – وهو أن المراد بالدعاء السؤال – اقتصر كثير من المفسرين . قال المهايمي : ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ لأن الدعاء من العبد غاية في التذلل لربه ، وهو محبوب لربه . فإذا أتى العبد بمحبوب الرب عظمه بالاستجابة ، وإذا لم يستجب له في الدنيا عوضه في الآخرة ، ولحبه التذلل أمر العباد بالعبادة ، فإن استكبروا كان لهم غاية الإذلال . وقال القاشاني : الآية في دعاء الحال ؛ لأن الدعاء باللسان مع عدم العلم بأن المدعو به خير له أم لا ، دعاء المحجوبين ، وأما الدعاء الذي لا تتخلف عنه الاستجابة ، فهو دعاء الحال بأن

يهيئ العبد استعداده لقبول ما يطلبه ، ولا تتخلف الاستجابة عن هذا الدعاء . كمن طلب المغفرة ، فتاب إلى الله ، وأناب بالزهد والطاعة . انتهى .

(207/678)

وتقدم في آية : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : 186] ، فوائد تناسب هذا المقام ، فلتراجع . ثم أشار تعالى إلى أنه كيف لا يلزم العباد عبادته ، وقد أنعم عليهم بما يقضي شكره بالعبادة ، مما أجلاه منافع الليل والنهار ، بقوله سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي : الله الذي لا تصلح الألوهية إلا له ، ولا تنبغي عبادة غيره ، هو الذي جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه ، فتستردوا بالراحة فيه ، ما فاتكم من القوى في العمل بالنهار : ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ أي : أن يبصر فيه ، أو به لتتحركوا لتحصيل الأكساب الدينية والدنيوية ، فقد تفضل الله عليكم بهما وبما فيهما ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي : ليشكروه بعبادته : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي : عن طاعته إلى إثبات الشريك وعبادته .

﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي : من الأمم المتقدمة الهالكة ؛ أي : فسلكتم أنتم معشر قريش مسلكهم ، وركبتم محجتهم في الضلال .

(208/678)

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً ﴾ أي : تستقرون عليها وتسكنون فوقها : ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاء ﴾ أي : مبنية مرفوعة فوقكم بغير عمد ترونها لمصالحكم ، وقوام دنياكم .

وقد فسر البناء بالقبة المضروبة ؛ لأن العرب تسمّي المضارب أبنية .

فهو تشبيه بليغ ، وهو إشارة إلى كرويتها [في المطبوع : كريتها] . قال الشهاب : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي : يجعل كل عضو في مكان يليق به ، ليتم الانتفاع بها ، فتستدلوا بذلك على كمال حكمته : ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أي : لذيذات المطاعم ، والمشارب لتشكروه وحده : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : الذي لا تصلح الربوبية إلا له .

﴿ هُوَ الْحَيُّ ﴾ أي : الذي لا يموت ، الدائم الحياة ، وكل شي سواه فمنقطع الحياة غير دائمها : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي : مفردين له الطاعة ، لا تشركوا في عبادته شيئاً : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : الثناء والشكر لله ، مالك جميع أجناس

الخلق ، لا للأوثان التي لا تملك شيئاً ، ولا تقدر على ضرر ولا نفع .

قال ابن جرير : وكان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أن يتبع ذلك : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تأولاً منهم هذه الآية ، بأنها أمر من الله بقيل ذلك . ثم أسنده عن ابن عباس ، وابن جبير .

(209/678)

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : من الآلهة والأوثان : ﴿ لَمَّا جَاءِنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي ﴾ أي : الآيات الواضحات من عنده ، على وجوب وحدته ، وتفرده بالعبادة : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : لأخضع له بالطاعة دون غيره من الأشياء .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ أي : مما يرجع إليه . أو خلق أباكم آدم منه : ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ أي : يبقيكم لتبلغوا أشدكم ، فتتكامل قواكم : ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا ﴾ أي : إذا تناهى شبابكم ، وتمام خلقكم : ﴿ شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل أن يصير شيخاً : ﴿ وَلِتَبْلُغُوا ﴾ أي : ونفعل ذلك لتبلغوا : ﴿ أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ أي : ميقاتاً محدوداً لحياتكم ، وهو وقت الموت ، أو

لجزائكم وهو يوم القيامة : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : ولكي تعقلوا حجج الله عليكم بذلك ، وتتدبروا آياته ، فتعرفوا بها أنه لا إله غيره .

(210/678)

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي : يكونه من غير كلفة ولا معاناة ، وقد تقدم في [سورة] البقرة الكلام على هذه الآية مطولاً .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ أي : عن الرشد إلى الغي : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ ﴾ أي : بكتاب الله ، وهو القرآن : ﴿ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ﴾ أي : الماء الحار . قال المهايمي : لدفعهم برد اليقين من دلائل الكتاب ، والسنة : ﴿ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ أي : يحرقون . قال المهايمي : لإحراقهم الأدلة العقلية والنقلية .

(211/678)

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أي : غابوا فلم نعرف مكانهم ، وهذا قبل أن يقرنوا معهم ، أو ضلالهم استعارة لعدم نفعها لها . فحضورهم كالعدم : ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أي : ما كنا مشركين . وكذبوا لحيرتهم واضطرابهم . أو بمعنى : تبين لنا أنا لم نكن نعبد شيئاً . قال القاشاني : لاطلاعهم على أن ما عبدوه ، وضيعوا أعمارهم في عبادته ، ليس بشيء ، فضلاً عن إغنائه عنهم شيئاً :

﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : أهل الكفر به ، عنه وعن رحمته ، فلا يخفف عنهم العذاب .

﴿ ذَلِكُم ﴾ أي : العذاب : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي : بسبب فرحكم في الدنيا ، بغير ما أذن الله لكم به ، من الباطل والمعاصي ، وبمرحكم فيها . والمرح هو الأشر ، والبطر ، والخيلاء . وبين الفرح والمرح تجنيس بديع .

﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي : منزل المتعظمين عن الإيمان والتوحيد ، جهنم .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : فاصبر على جدال هؤلاء المتكبرين في آيات الله ، وعلى تكذيبهم ، فإن وعد الله إياك بالظفر عليهم ، حق ثابت : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ أي : من العذاب والنقمة : ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ أي : قبل أن يحل بهم ما يحل : ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ أي : فنحكم بينهم بالحق ، وهو الخلود في النار ، لمناسبة نفوسهم الكدرة الظلمانية ، البعيدة عن الحق ، واستحكام ملكات رذائلهم .

(213/678)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أي : لتقف على ما وفينا لهم من وعد النصر إياهم في الدنيا : ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ أي : لمكان الطول ، مع أن في نبئهم ما يشاكل نبأ المذكورين ، والشيء يعتبر بشكله : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي : بأمره . وهذا رد لمقترحهم وتعنتهم في طلب ما قص عنهم من آية : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ [الإسراء : 90] الآية ، بأن الإتيان بذلك مرده مشيئة الله تعالى وإرادته به ، وقد شاء أن تكون الآية العظمى تنزيله ، الأكبر من كل آية ، والأعظم من كل خارقة . فهو خير الآيات ، وأحسنها ، وأقوم المعجزات ، وأمتنها . كما قال تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [

البقرة : 106] ، وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ [العنكبوت : 51] ، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي : عند عدم الإيمان بالآية المقترحة ، بعد إتيانها : ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : من المؤاخذة ، بعد تقرير الحجة المقترحة لهم : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أي : في دعواهم الشريك ، وافترائهم الكذب .

(214/678)

﴿ اللَّهُ ﴾ أي : الذي لا تصلح الألوهية إلا له : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ ﴾ أي : مسخرة : ﴿ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ من الجلود ، والأوبار ، والأصواف : ﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أي : بالمسافرة عليها : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ ﴾ أي : في طريق البحر : ﴿ تُحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي : دلائله الدالة على فرط رحمته ، وكمال قدرته : ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : من الحصون ، والقصور ، والمباني ، والعَدد ، والعُدد : ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : مما لا يدفع به العذاب الأرضي ، ولا السماوي .

(215/678)

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ أي : الخالي عن نور الهداية والوحي ، ورضوا بها عن قبول هداية الرسل ، ومعارفهم ، واستهزأوا برسلهم لاستصغارهم بما جاءوا به ، في جنب ما عندهم من العلم الوهمي : ﴿ وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي : من عذاب الله : ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ أي : جزاؤه : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ أي : مضت في خلقه ، أن لا يقبل توبة , ولا إيماناً في تلك الحال : ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ أي : وهلك ، عند مجيء بأسه تعالى ، الكافرون بربهم الجاحدون توحيد خالقهم ، ففاتتهم سعادة الأبد ، والعيش الرغد .

نسأله تعالى المعافاة من غضبه وعقابه ، والموافاة مع زمرة أحبابه . آمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 14 صـ 198.210 ﴾

(216/678)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ

بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56) ﴾

هذا الشوط متصل تمام الاتصال بالشوط الذي قبله ، وهو استمرار للفقرة الأخيرة من الدرس الماضي . وتكملة لتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم للصبر على التكذيب والإيذاء والصد عن الحق والتبجح بالباطل . فبعد هذا التوجيه يكشف عن علة المجادلة في آيات الله بغير حجة ولا برهان . إنه الكبر الذي يمنع أصحابه من التسليم بالحق وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر الذي يحيك في الصدور .

ومن ثم يجيء التنبيه إلى عظمة هذا الكون الذي خلقه الله ، وصغر الناس جميعاً بالقياس إلى السماوات والأرض . ويمضي الدرس يعرض بعض الآيات الكونية . وفضل الله في تسخير بعضها للناس وهم أصغر منها وأضأل . ويشير إلى فضل الله على الناس في ذوات أنفسهم . وهذه وتلك تشهد بوحدانية المبدع الذي يشركون به . ويوجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الجهر بكلمة التوحيد والإعراض عما يعبدون من دون الله . وينتهي الشوط بمشهد عنيف من مشاهد القيامة يسألون فيه عما يشركون سؤال التبكيت والترذيل .

ويختم كما ختم الشوط الماضي . بتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصبر سواء أبقاه الله ليشهد بعض ما وعدهم ، أم توفاه إليه قبل مجيء وعد الله . فالأمر لله . وهم إليه راجعون على كل حال .

﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه . فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير . لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما يستوي الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ، قليلاً ما تتذكرون . إن الساعة لآتية لا ريب فيها ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . وقال ربكم : ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ . .

إن هذا المخلوق الإنساني لينسى نفسه في أحيان كثيرة ، ينسى أنه كائن صغير ضعيف ، يستمد القوة لا من ذاته ، ولكن من اتصاله بمصدر القوة الأول . من الله . فيقطع اتصاله هذا ثم يروح ينتفخ ، ويورم ، ويتشامخ ، ويتعالى . يحيك في صدره الكبر . يستمده من الشيطان الذي هلك بهذا الكبر . ثم سلط على الإنسان فأتاه من قبله !

وإنه ليجادل في آيات الله ويكابر . وهي ظاهرة ناطقة معبرة للفطرة بلسان الفطرة . وهو يزعم لنفسه وللناس أنه إنما يناقش لأنه لم يقتنع ، ويجادل لأنه غير مستيقن . والله العليم بعباده ، السميع البصير المطلع على السرائر ، يقرر أنه الكبر . والكبر وحده . هو الذي يحيك في الصدر . وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدال فيما لا جدال فيه . الكبر والتطاول إلى ما هو أكبر من حقيقته . ومحاولة أخذ مكان ليس له ، ولا تؤهله له حقيقته .

وليست له حجة يجادل بها ، ولا برهان يصدع به . إنما هو ذلك الكبر وحده :

﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ . .

(218/678)

ولو أدرك الإنسان حقيقته وحقيقة هذا الوجود . ولو عرف دوره فأتقنه ولم يحاول أن يتجاوزه . ولو اطمأن إلى أنه كائن مما لا يحصى عدده من كائنات مسخرة بأمر خالق الوجود ، وفق تقديره الذي لا يعلمه إلا هو ، وأن دوره مقدر بحسب حقيقته في كيان هذا الوجود . . لو أدرك هذا كله لاطمأن واستراح ، ولتطامن كذلك وتواضع ، وعاش في سلام مع نفسه ومع الكون حوله . وفي استسلام لله وإسلام .

﴿ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ . .

والاستعاذة بالله في مواجهة الكبر توحي باستبشاعه واستفظاعه . فالإنسان إنما يستعيذ بالله من الشيء الفظيع القبيح ، الذي يتوقع منه الشر والأذى . . وفي الكبر هذا كله . وهو يتعب صاحبه ويتعب الناس من حوله ؛ وهو يؤذي الصدر الذي يحيك فيه ويؤذي صدور الآخرين . فهو شر يستحق الاستعاذة بالله منه . . ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ . . الذي

يسمع ويرى ، والكبر الذميم يتمثل في حركة ترى وفي كلام يسمع . فهو يكل أمره إلى السميع البصير يتولاه بما يراه .

ثم يكشف للإنسان عن وضعه الحقيقي في هذا الكون الكبير . وعن ضآلته بالقياس إلى بعض خلق الله الذي يراه الناس ، ويدركون ضخامته بمجرد الرؤية ، ويزيدون شعوراً به حين يعلمون حقيقته :

﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

والسماوات والأرض معروضتان للإنسان يراهما ، ويستطيع أن يقيس نفسه إليهما . ولكنه حين " يعلم " حقيقة النسب والأبعاد وحقيقة الأحجام والقوى ، يطامن من كبريائه ، ويتصاغر ويتضاءل حتى ليكاد يذوب من الشعور بالضآلة . إلا أن يذكر العنصر العلوي الذي أودعه الله إياه ، والذي من أجله كرمه . فهو وحده الذي يمسك به أمام عظمة هذا الكون الهائل العظيم . .

ولمحة خاطفة عن السماوات والأرض تكفي لهذا الإدراك .

هذه الأرض التي نحيا عليها تابع صغير من توابع الشمس تبلغ كتلتها ثلاثة من مليون من كتلة الشمس ! ويبلغ حجمها أقل من واحد من مليون من حجم الشمس .

وهذه الشمس واحدة من نحو مائة مليون من الشموس في المجرة القريبة منا ؛ والتي نحن منها . وقد كشف البشر حتى اليوم نحو مائة مليون من هذه المجرات ! متناثرة في الفضاء الهائل من حولها تكاد تكون تائهة فيه !

والذي كشفه البشر جانب ضئيل صغير لا يكاد يذكر من بناء الكون ! وهو على ضآلته هائل شاسع يدير الرؤوس مجرد تصوره . فالمسافة بيننا وبين الشمس نحو من ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال . ذلك أنها رأس أسرة كوكبنا الأرضي الصغير . بل هي على الأرجح أم هذه الأرض الصغيرة .

ولم تبعد أرضنا عن أحضان أمها بأكثر من هذه المسافة : ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال ! أما المجرة التي تتبعها الشمس فقطرها نحو من مائة ألف مليون سنة . . ضوئية . . والسنة الضوئية تعني مسافة ست مائة مليون ميل ! لأن سرعة الضوء هي ستة وثمانون ومائة ألف ميل في الثانية !

وأقرب المجرات الأخرى إلى مجرتنا تبعد عنا بنحو خمسين وسبعمائة ألف سنة ضوئية . . !

ونذكر مرة أخرى أن هذه المسافات وهذه الأبعاد وهذه الأحجام هي التي استطاع علم البشر الضئيل أن يكشف عنها . وعلم البشر هذا يعترف أن ما كشفه قطاع صغير في هذا

الكون العريض !

والله سبحانه يقول :

﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . .

وليس على قدرة الله أكبر ولا أصغر . ولا أصعب ولا أيسر . فهو خالق كل شيء بكلمة . . إنما هي الأشياء كما تبدو في طبيعتها ، وكما يعرفها الناس ويقدرونها . . فأين الإنسان من هذا الكون الهائل ؟ وأين يبلغ به كبره من هذا الخلق الكبير ؟

(220/678)

﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ . . ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ﴾ . . فالبصير يرى ويعلم ؛ ويعرف قدره وقيمته ، ولا يتطاول ، ولا ينتفخ ولا يتكبر لأنه يرى ويبصر . والأعمى لا يرى ولا يعرف مكانه ، ولا نسبته إلى ما حوله ، فيخطئ تقدير نفسه وتقدير ما يحيط به ، ويتخبط هنا وهنالك من سوء التقدير . . وكذلك لا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء . إن أولئك أبصروا وعرفوا فهم يحسنون التقدير . وهذا عمي وجهل فهو يسيء . . يسيء كل شيء . يسيء إلى نفسه ، ويسيء إلى الناس . ويسيء قبل كل شيء إدراك قيمته وقيمة ما حوله . ويخطئ في قياس نفسه إلى ما حوله .

فهو أعمى . . والعمى عمى القلوب !

﴿ قليلاً ما تتذكرون ﴾ . .

ولو تذكرنا لعرفنا . فالأمر واضح قريب . لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والتذكير . .

ثم لو تذكرنا الآخرة ، ووثقنا من مجيئها ، وتصورنا موقفنا فيها ، واستحضرنا مشهدنا بها :

﴿ إن الساعة لآتية لا ريب فيها ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ . .

ومن ثم فهم يجادلون ويستكبرون ، فلا يذعنون للحق ، ولا يعرفون مكانهم الحق ، فلا يتجاوزوه .

والتوجه إلى الله بالعبادة ، ودعاؤه والتضرع إليه ، مما يشفي الصدور من الكبر الذي تنتفخ به ، فيدعوها إلى الجدال في آيات الله بغير حجة ولا برهان . والله سبحانه يفتح لنا أبوابه لنتوجه إليه وندعوه ، ويعلن لنا ما كتبه على نفسه من الاستجابة لمن يدعوه ؛ وينذر الذين يستكبرون عن عبادته بما ينتظرهم من ذل وتنكيس في النار :

﴿ وقال ربكم : ادعوني أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ . .

وللدعاء أدب لا بد أن يراعى . إنه إخلاص القلب لله . والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها ، أو تخصيص وقت أو ظرف ، فهذا الاقتراح ليس من أدب السؤال .

والاعتقاد بأن التوجه للدعاء توفيق من الله . والاستجابة فضل آخر . وقد كان عمر رضي الله عنه يقول : " أنا لا أحمل همّ الإجابة إنما أحمل همّ الدعاء . فإذا ألهمت الدعاء كانت الإجابة معه " وهي كلمة القلب العارف ، الذي يدرك أن الله حين يقدر الاستجابة يقدر معها الدعاء . فهما حين يوفق الله متوافقان متطابقان .

فأما الذين يستكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم !

وهذه نهاية الكبر الذي تنتفخ به قلوب وصدور في هذه الأرض الصغيرة ، وفي هذه الحياة الرخيصة ، وتنسى ضخامة خلق الله . فضلاً على نسيانها عظمة الله . ونسيانها للآخرة وهي آتية لا ريب فيها . ونسيانها للموقف الذليل في الآخرة بعد النفخة والاستكبار .

ولما ذكر الذين يستكبرون عن عبادة الله ، شرع يعرض بعض نعم الله على الناس ، تلك النعم التي توحي بعظمته تعالى والتي لا يشكرون الله عليها ، بل يستكبرون عن عبادته والتوجه إليه :

﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً . إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شيء ، لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون ؟ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون . الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء ، وصوركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات . ذلكم الله ربكم ،

فتبارك الله رب العالمين . هو الحي ، لا إله إلا هو ، فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين ﴾ . .

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان . والأرض والسماء خلقان كونيان كذلك . وهي تذكر مع تصوير الله للبشر وإحسان صورهم ، ومع رزق الله لهم من الطيبات . . وتعرض كلها في معرض نعم الله وفضله على الناس ، وفي معرض الوحدانية وإخلاص الدين لله . فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والخلائق والمعاني ، وعلى وجود الصلة بينها ، ووجوب تدبرها في محيطها الواسع ، وملاحظة الارتباط بينها والاتفاق .

(222/678)

إن بناء الكون على القاعدة التي بناه الله عليها ، ثم سيره وفق الناموس الذي قدره الله له ، هو الذي سمح بوجود الحياة في هذه الأرض ونموها وارتقائها ، كما أنه هو الذي سمح بوجود الحياة الإنسانية في شكلها الذي نعهده ، ووافق حاجات هذا الإنسان التي يتطلبها تكوينه وفطرته . وهو الذي جعل الليل مسكناً له وراحة واستجماماً ، والنهار مبصراً معيناً على الرؤية والحركة ، والأرض قراراً صالحاً للحياة والنشاط ، والسماء بناء متماسكاً لا يتداعى ولا ينهار ، ولا تختل نسبه وأبعاده ولو اختلت لتعذر وجود الإنسان على هذه

الأرض وربما وجود الحياة ! وهو الذي سمح بأن تكون هناك طيبات من الرزق تنشأ من الأرض وتهبط من السماء فيستمتع بها هذا الإنسان ، الذي صوره الله فأحسن صورته ، وأودعه الخصائص والاستعدادات المتسقة مع هذا الكون ، الصالحة للظروف التي يعيش فيها مرتبطاً بهذا الوجود الكبير .

. فهذه كلها أمور مرتبطة متناسقة كما ترى ؛ ومن ثم يذكرها القرآن في مكان واحد ، بهذا الترابط . ويتخذ منها برهانه على وحدانية الخالق . ويوجه في ظلها القلب البشري إلى دعوة الله وحده ، مخلصاً له الدين ، هاتفاً : الحمد لله رب العالمين . ويقرر أن الذي يصنع هذا ويبدعه بهذا التناسق هو الذي يليق أن يكون إلهاً . وهو الله . رب العالمين . فكيف يصرف الناس عن هذا الحق الواضح المبين ؟

ونذكر هنا لمحات خاطفة تشير إلى بعض نواحي الارتباط في تصميم هذا الكون وعلاقته بحياة الإنسان . . مجرد لمحات تسير مع اتجاه هذه الإشارة المجملة في كتاب الله . .

" لو كانت الأرض لا تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ما تعاقب الليل والنهار " . .

" لو دارت الأرض حول نفسها أسرع مما تدور لتناثرت المنازل ، وتفككت الأرض ، وتناثرت هي الأخرى في الفضاء " . .

" لو دارت الأرض حول نفسها أبطأ مما تدور لهلك الناس من حر ومن برد . وسرعة دوران الأرض حول نفسها ، هذه السرعة القائمة الكائنة اليوم ، هي سرعة توافق ما على الأرض من حياة حيوانية نباتية بأوسع معانيها " .

" لولا دوران الأرض حول نفسها لفرغت البحار والمحيطات من مائها " .

" ماذا يحدث لو استقام محور الأرض ، وجرت الأرض في مدارها حول الشمس في دائرة ، الشمس مركزها ؟ إذن لاختفت الفصول ، ولم يدر الناس ما صيف وما شتاء ، وما ربيع وما خريف " .

" لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام ، لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين . ولما أمكن وجود حياة النبات " .

" ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً في الثانية . وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق . ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ولكانت العاقبة مروعة . أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إرباً من مجرد حرارة مروره " .

" لو كان الأوكسجين بنسبة 50 في المائة مثلاً أو أكثر في الهواء بدلاً من 21 في المائة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال . لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر . ولو أن نسبة الأوكسجين في الهواء قد هبطت إلى 10 في المائة أو أقل فإن الحياة ربما طابقت نفسها عليها في خلال الدهور . ولكن في هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التي ألفها الإنسان كالنار مثلاً تتوافر له " .

وهناك آلاف الموافقات في تصميم هذا الكون لو اختل منها أدنى اختلال ما كانت الحياة في صورتها هذه التي نعرفها ، موافقة هكذا لحياة الإنسان .

(224/678)

فأما الإنسان ذاته فمن حسن صورته هذه الهيئة المتفردة بين سائر الأحياء ؛ وهذا الاكتمال من ناحية الأجهزة لأداء وظائفه جميعها في يسر ودقة ؛ وهذا التوافق بين تكوينه والظروف الكونية العامة التي تسمح له بالوجود والحركة في هذا الوسط الكوني كما هو كائن ؛ وذلك كله فوق خاصيته الكبرى التي جعلت منه خليفة في الأرض ؛ مجهزاً بأداة الخلافة الأولى : العقل والاتصال الروحي بما وراء الأشكال والأعراض .

ولو رحنا نبحث دقة التكوين الإنساني وتناسق أجزائه ووظائفه بوصفها داخلة في قوله تعالى : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ لوقفنا أمام كل عضو صغير ، بل أمام كل خلية مفردة ، في هذا الكيان الدقيق العجيب .

ونضرب مثلاً لهذه الدقة العجيبة فك الإنسان ووضع الأسنان فيه من الناحية الآلية البحتة . إن هذا الفك من الدقة بحيث إن بروز واحد على عشرة من المليمتر في اللثة أو في اللسان ، يزحم اللثة واللسان ؛ وبروز مثل هذا الحجم في ضرس أو سن يجعله يصطك بما يقابله ويحتك ! ووجود ورقة كورقة السيجارة بين الفكين العلوي والسفلي يجعلها تتأثر بضغط الفكين عليها فتظهر فيها علامات الضغط لأنها من الدقة بحيث يلتقيان تماماً ليمضغ الفك ويطحن ما هو في سمك ورقة السيجارة !

ثم . . إن هذا الإنسان بتكوينه هذا مجهز ليعيش في هذا الكون . . عينه هذه مقيسة على الذبذبات الضوئية التي تقتضي وظيفته في الأرض أن يراها . وأذنه تلك مقيسة على الذبذبات الصوتية التي تقتضي وظيفته في الأرض أن يسمعها . وكل حاسة فيه أو جارحة مصممة وفق الوسط المهيأ لحياته ، ومجهزة كذلك بالقدرة على التكيف المحدود عند تغير بعض الظروف .

إنه مخلوق لهذا الوسط . ليعيش فيه ، ويتأثر به ، ويؤثر فيه . وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط وتكوين هذا الإنسان . وتصوير الإنسان على هذه الصورة ذو علاقة بوسطه . أي بالأرض والسماء . ومن ثم يذكر القرآن صورته في نفس الآية التي يذكر فيها الأرض والسماء . . ألا إنه الإعجاز في هذا القرآن . .

وتكفي هذه الإشارات بهذا الاختصار إلى دقة صنع الله وتناسقه بين الكون والإنسان .

ونقف وقفات سريعة أمام النصوص القرآنية :

﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾ . .

إن السكون بالليل ضرورة لكل حي . ولا بد من فترة من الظلام تسكن فيه الخلايا الحية وتستكن لتزاول نشاطها في النور . ولا يكفي مجرد النوم لتوفير هذا السكون . بل لا بد من ليل . لا بد من ظلام . فالخلية الحية التي تتعرض لضوء مستمر تصل إلى حد من الإجهاد تتلف معه أنسجتها لأنها لم تتمتع بقسط ضروري لها من السكون .

﴿ والنهار مبصراً ﴾ . . والتعبير على هذا النحو تعبير مصور مشخص . وكأنما النهار حي يبصر ويرى . وإنما الناس هم الذين يبصرون فيه . لأن هذه هي الصفة الغالبة . .

وتقلب الليل والنهار على هذا النحو نعمة في طيها نعم . ولو كان أحدهما سرمداً . بل لو كان أطول مما هو مرات معدودة لانعدمت الحياة . فلا عجب أن يقرن توالي الليل والنهار

بذكر الفضل الذي لا يشكره أكثر الناس :

﴿ إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ . .

ويعقب على هاتين الظاهرتين الكونيتين ، بأن الذي خلقهما هو الذي يكون إلهاً يستحق هذا الاسم العظيم :

﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء ، لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون ؟ ﴾ . .

(226/678)

وإنه لعجيب يستحق التعجيب أن يرى الناس يد الله في كل شيء ، ويعلموا أنه الخالق لكل شيء معرفة حتمية مفروضة على العقل فرضاً بحكم وجود الأشياء ، واستحالة ادعاء أحد أنها من خلقه ، وعدم استقامة القول بأنها وجدت من غير موجد . عجيب يستحق التعجيب أن يكون هذا كله ، ثم يصرف الناس عن الإيمان والإقرار . . ﴿ فأنى تؤفكون ؟ ﴾ . .

ولكنه هكذا يصرف ناس عن هذا الحق الواضح . هكذا كما يقع من المخاطبين الأولين بالقرآن . كذلك كان في كل زمان ؛ بلا سبب ولا حجة ولا برهان :

﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ . .

وينتقل من ظاهرتي الليل والنهار ، إلى تصميم الأرض لتكون قراراً ، والسماء لتكون بناء :

﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء ﴾ . .

والأرض قرار صالح لحياة الإنسان بتلك الموافقات الكثيرة التي أشرنا إلى بعضها إجمالاً .

والسماء بناء ثابت النسب والأبعاد والحركات والدورات ومن ثم تضمن الاستقرار والثبات لحياة هذا الإنسان ، المحسوب حسابهم في تصميم هذا الوجود ، المقدرة في بنائه تقديراً . .

ويربط بتكوين السماء والأرض تكوين الإنسان ورزقه من الطيبات على النحو الذي أشرنا إلى بعض أسراره :

﴿ وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ﴾ . .

ويعقب على هذه الآيات والهبات كما عقب على الأولى :

﴿ ذلكم الله ربكم . فتبارك الله رب العالمين ﴾ . .

ذلكم الذي يخلق ويقدر ويدبر ، ويراعيكم ويقدر لكم مكاناً في ملكه . . ذلكم الله ربكم .

﴿ فتبارك الله ﴾ . . وعظمت بركته وتضاعفت . ﴿ رب العالمين ﴾ . . أجمعين .

﴿ هو الحي ﴾ . .

أجل . هو وحده الحي . الحي حياة ذاتية غير مكسوبة ولا مخلوقة . وغير مبتدئة ولا منتهية . وغير حائلة ولا زائلة . وغير متقلبة ولا متغيرة . وما من شيء له هذه الصفة من

الحياة. سبحانه هو المتفرد بالحياة.

وهو المتفرد بالألوهية. بما أنه المتفرد بالحياة. فالحي الواحد هو الله:

﴿ لا إله إلا هو ﴾ . .

(227/678)

ومن ثم . . ﴿ فادعوه مخلصين له الدين ﴾ . . واحمدوه في الدعاء: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ . .

وأمام هذه الآيات والهبات، وما تلاها من تعقيبات، وفي أشد اللحظات امتلاء بحقيقة الوحدانية، وحقيقة الألوهية.

وحقيقة الربوبية، يجيء التلقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلن للقوم أنه منهي عن عبادة ما يدعون من دون الله، مأمور بالإسلام لله رب العالمين:

﴿ قل: إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله، لما جاءني البينات من ربي، وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ . .

أعلن لهؤلاء الذين يصرفون عن آيات الله ويجحدون هباته، أنك نهيت عن عبادة ما يدعون من دون الله. وقل لهم: إنني نهيت وانتهيت ﴿ لما جاءني البينات من ربي ﴾

فعندي بينة ، وأنا بها مؤمن ، ومن حق هذه البينة أن أقتنع بها وأصدق ، ثم أعلن كلمة الحق . . ومع الانتهاء عن عبادة غير الله وهو سلب الإسلام لرب العالمين وهو إيجاب ومن الشقين تتكامل العقيدة .

ثم يستعرض آية من آيات الله في أنفسهم بعد ما استعرض آياته في الآفاق . هي آية الحياة الإنسانية وأطوارها العجيبة ؛ وليتخذ من هذه الحياة مقدمة لتقرير حقيقة الحياة كلها بين يدي الله :

﴿ هو الذي خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخاً ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلاً مسمى ، ولعلكم تعقلون . هو الذي يحيي ويميت ، فإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن . فيكون ﴾ . .

وهذه النشأة الإنسانية فيها ما لم يدركه علم الإنسان ، لأنه كان قبل وجود الإنسان . وفيها ما يشاهده ويراقبه . ولكن هذا إنما تم حديثاً بعد نزول هذا القرآن بقرون !

(228/678)

فخلق الإنسان من تراب حقيقة سابقة على وجود الإنسان . والتراب أصل الحياة كلها على وجه هذه الأرض . ومنها الحياة الإنسانية . ولا يعلم إلا الله كيف تمت هذه الخارقة ،

ولا كيف تم هذا الحادث الضخم في تاريخ الأرض وتاريخ الحياة . وأما تكاثر الإنسان بعد ذلك عن طريق التزاوج فيتم عن طريق التقاء خلية التذكير وهي النطفة بالبويضة ، واتحادهما ، واستقرارهما في الرحم في صورة علقة . . وفي نهاية المرحلة الجنينية يخرج الطفل بعد عدة تطورات كبرى في طبيعة الخلية الأولى ، تعد إذا نحن نظرنا إليها بتدبر أطول وأكبر من الأطوار التي يمر بها الطفل من ولادته إلى أن ينتهي أجله ، والتي يقف السياق عند بعض مراحلها البارزة : مرحلة الطفولة . ثم بلوغ الأشد حوالي الثلاثين . ثم الشيخوخة . وهي المراحل التي تمثل أقصى القوة بين طرفين من الضعف . ﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ أن يبلغ هذه المراحل جميعاً أو بعضها . ﴿ ولتبلغوا أجلاً مسمى ﴾ مقدراً معلوماً لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون . ﴿ ولعلكم تعقلون ﴾ . . فمتابعة رحلة الجنين . ورحلة الوليد . وتدبر ما تشيران إليه من حسن الخلق والتقدير ، مما للعقل فيه دور كبير . . ورحلة الجنين رحلة عجيبة ممتعة حقاً . وقد عرفنا الكثير عنها بعد تقدم الطب وعلم الأجنة بشكل خاص .

ولكن إشارة القرآن إليها بهذه الدقة منذ حوالي أربعة عشر قرناً أمر يستوقف النظر . ولا يمكن أن يمر عليه عاقل دون أن يقف أمامه يتدبره ويفكر فيه .

ورحلة الجنين ورحلة الطفل كلتاهما توقع على الحس البشري وتلمس القلب الإنساني في أي بيئة وفي أي مرحلة من مراحل الرشد العقلي . وكل جيل يحس لهذه اللمسة وقعها على

طريقته وحسب معلوماته . فيخاطب القرآن بها جميع أجيال البشر . . فيحسون . . ثم يستجيبون أو لا يستجيبون !

وهو يعقب عليها بعرض حقيقة الإحياء والإماتة . وحقيقة الخلق والإنشاء جميعاً :

﴿ هو الذي يحيي ويميت . فإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن . فيكون ﴾ . .

(229/678)

وتكثر الإشارة في القرآن إلى آيتي الحياة والموت . لأنهما تلمسان قلب الإنسان بشدة وعمق . ثم لأنهما الظاهرتان البارزتان المكررتان في كل ما يقع عليه حس الإنسان . وللإحياء والإماتة مدلول أكبر مما يبدو لأول مرة . فالحياة ألوان . والموت ألوان . وإن رؤية الأرض الميتة . ثم رؤيتها تنبض بالحياة . ورؤية الشجرة الجافة الأوراق والأغصان في موسم ، ثم رؤيتها والحياة تنبث منها في كل موضع ، وتخضر وتورق وتزهر ، كما لو كانت الحياة تتفجر منها وتفيض . ورؤية البيضة . . ثم الفرخ . ورؤية البذرة ثم النبتة . . وعكس هذه الرحلة . . من الحياة إلى الموت ، كالرحلة من الموت إلى الحياة . . كلها تلمس القلب وتستجيشه إلى قدر من التأثر والتدبر يختلف باختلاف النفوس والحالات .

ومن الحياة والموت إلى حقيقة الإنشاء وأداة الإبداع . وإن هي إلا الإرادة يتمثل اتجاهها إلى

الخلق . خلق أي شيء . في كلمة ﴿ كن ﴾ . . فإذا الوجود ينبثق على إثرها ﴿ فيكون ﴾ فتبارك الله أحسن الخالقين . .

وأمام نشأة الحياة البشرية . وفي ظل مشهد الحياة والموت . وحقيقة الإنشاء والإبداع . . يبدو الجدال في آيات الله مستغرباً مستنكراً ؛ ويبدو التكذيب بالرسل عجيباً نكيراً . ومن ثم يواجهه بالتهديد المخيف في صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة :

﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ؟ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون . إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ، في الحميم ثم في النار يسجرون . ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً . كذلك يضل الله الكافرين . ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون . ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها . فبئس مثوى المتكبرين ﴾ . .

إنه التعجيب من أمر الذين يجادلون في آيات الله ، في ظل استعراض هذه الآيات . مقدمة لبيان ما ينتظرهم هناك !

﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ؟ ﴾ . .

﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ . .

وهم كذبوا كتاباً واحداً . ورسولاً واحداً . ولكنهم إنما يكذبون بهذا كل ما جاء به الرسل . فهي عقيدة واحدة ، تتمثل في أكمل صورها في الرسالة الأخيرة .

ومن ثم فهم كذبوا بكل رسالة وبكل رسول . . كل مكذب في القديم والحديث صنع هذا حين كذب رسوله الذي جاءه بالحق الواحد وبعقيدة التوحيد .

﴿ فسوف يعلمون ﴾ . .

ثم يعرض ماذا سوف يعلمون . .

إنها الإهانة والتحقير في العذاب . لا مجرد العذاب . ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ﴾ . . بهذه المهانة كما تسحب الأنعام والوحوش ! وعلام التكريم ؟ وقد خلعوا عن أنفسهم شارة التكريم ؟ !

وبعد السحب والجر في هذا العذاب وفي هذه المهانة ، ينتهي بهم المطاف إلى ماء حار وإلى نار :

﴿ في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ . .

أي يربطون ويحبسون ، على طريقة سجر الكلاب . أي يملأ لهم المكان ماء حاراً وناراً موقدة . وإلى هذا ينتهون . وبينما هم في هذا العذاب المهين يوجه إليهم التبكيت والترذيل

والإحراج والإعنات :

﴿ ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ ﴾ . .

فيجيبون إجابة المخدوع الذي انكشفت له خدعته ، وهو يائس حسير .

﴿ قالوا : ضلوا عنا . بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً ﴾ . .

غابوا عنا فلم نعد نعرف لهم طريقاً ، وما عادوا يعرفون لنا طريقاً . بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً . فقد كانت كلها أوهاماً وأضاليل !

وعلى إثر الجواب البائس يجيء التعقيب العام :

﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ . .

ثم يوجه إليهم التأنيب الأخير :

﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون . ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ . .

(231/678)

يا مغيث ! وأين إذن كان السحب في السلاسل والأغلال ، وكان الماء الحار والنار ؟ يبدو أنها كانت مقدمة للدخول في جهنم للخلود . . ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ . . فعن

الكبر نشأت هذه المهانة . وجزاء على الكبر كان هذا التحقير !

وأمام هذا المشهد . مشهد الذل والمهانة والعذاب الرعيب . وعاقبة الجدال في آيات الله ، والكبر النافخ في الصدور . . أمام هذا المشهد وهذه العاقبة يتجه السياق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصيه بالصبر عل ما يجده من كبر ومن جدال ، والثقة بوعد الله الحق على كل حال . سواء أراه الله بعض الذي يعدهم في حياته ، أو قبضه إليه وتولى الأمر عنه . فالقضية كلها راجعة إلى الله ، وليس على الرسول إلا البلاغ ، وهم إليه راجعون :

﴿ فاصبر إن وعد الله حق . فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ . .

وهنا نقف أمام لفتة تستحق التدبر العميق . إن هذا الرسول الذي يلاقي ما يلاقي من الأذى والتكذيب والكبر والكنود ، يقال له ما مفهومه : أد واجبك وقف عنده . فأما النتائج فليست من أمرك . حتى شفاء صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد الله للمتكبرين المكذبين ليس له أن يعلق به قلبه ! إنه يعمل وكفى . يؤدي واجبه ويمضي . فالأمر ليس أمره . والقضية ليست قضيته . إن الأمر كله لله . والله يفعل به ما يريد .

يا لله ! يا للمرتقى العالي .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ

لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78)

(232/678)

هذا الشوط استكمال للتعقيب في آخر الدرس الماضي . استكمال لتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى الصبر ، حتى يأذن الله ، ويتحقق وعده ووعيده ، سواء تحقق هذا في حياته صلى الله عليه وسلم أم استأخر بعد وفاته . فالأمر ليس أمره ، إنما هو أمر هذه العقيدة والمؤمنين بها والمجادلين فيها ، المستكبرين عنها . والحكم في هذا الأمر هو الله . وهو الذي يقود حركتها ويوجه خطواتها كما يشاء .

فأما هذا الشوط الجديد الذي تختم به السورة فيستطرد في عرض جوانب أخرى من هذه الحقيقة . .

إن قصة هذا الأمر قصة طويلة وقديمة ، ولم تبدأ برسالة الإسلام ورسوله عليه الصلاة والسلام فقبله كانت رسل . قص الله بعضهم عليه وبعضهم لم يقصصهم عليه . وكلهم ووجهوا بالتكذيب والاستكبار . وكلهم طولب بالآيات والخوارق . وكلهم تمنى لو يأتي الله بخارقة يذعن لها المكذبون . ولكن ما من آية إلا بإذن الله ، في الوقت الذي يريده الله . فهي

دعوته ، وهو يصرفها كيف يشاء .

على أن آيات الله مبثوثة في الكون ، معروضة للأنظار في كل زمان ومكان . يتحدث منها هنا عن الأنعام ، والفلك ، ويشير إشارة عامة إلى سائرها الذي لا يملك إنكاره أحد .

ويختم السورة بلمسة قوية عن مصارع الغابرين ، الذين وقفوا موقف المكذبين ، وغرهم ما كانوا فيه من القوة والعمارة والعلم . ثم أدركتهم سنة الله : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده ، وخسر هنالك الكافرون ﴾ . .

وبهذا الإيقاع تختم السورة التي دارت كلها على المعركة بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والصلاح والطغيان حتى ختمت هذا الختام الأخير . .

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك ؛ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله قضي بالحق ، وخسر هنالك المبطلون ﴾ . .

(233/678)

إن لهذا الأمر سوابق كثيرة ، قص الله على رسوله بعضها في هذا الكتاب ، وبعضها لم يقصصه . وفيما قصه من أمر الرسل ما يشير إلى الطريق الطويل الواصل الواضح المعالم ؛

وما يقرر السنة الماضية الجارية التي لا تتخلف ؛ وما يوضح حقيقة الرسالة ووظيفة الرسل وحدودها أدق إيضاح .

وتؤكد الآية حقيقة تحتاج إلى توكيدها في النفس ، وتتكئ عليها لتقررها تقريراً شديداً :

﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ . .

فالنفس البشرية ولو كانت نفس رسول تتمنى وترغب أن تستعلي الدعوة وأن يذعن لها المكابرون سريعاً . فتتطلع إلى ظهور الآية الخارقة التي تقهر كل مكابرة . ولكن الله يريد أن يلوذ عباده المختارون بالصبر المطلق ؛ ويروضوا أنفسهم عليه ؛ فيبين لهم أن ليس لهم من الأمر شيء ، وأن وظيفتهم تنتهي عند حد البلاغ ، وأن مجيء الآية هو الذي يتولاه حينما يريد .

لتطمئن قلوبهم وتهدأ وتستقر ؛ ويرضوا بكل ما يتم على أيديهم ويدعوا الأمر كله بعد ذلك لله .

ويريد كذلك أن يدرك الناس طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة ، ويعرفوا أن الرسل بشر منهم ، اختارهم الله ، وحدد لهم وظيفتهم ، وما هم بقادرين ولا محاولين أن يتجاوزوا حدود هذه الوظيفة . .

كذلك ليعلم الناس أن تأخير الآيات رحمة بهم ؛ فقد قضى في تقديره بأن يدمر على المكذبين بعد ظهور الآيات . وإذن فهي مهلة ، وهي من الله رحمة :

﴿ فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴾ . .

ولم يعد هناك مجال لعمل ولا لتوبة ولا لرجعة بعد قضاء الله الأخير .

ثم يوجه طلاب الخوارق إلى آيات الله الحاضرة التي ينسون وجودها بطول الألفة . وهي لو تدبروها بعض هذه الخوارق التي يطلبون ؛ وهي شاهدة كذلك بالألوهية ؛ لبطلان أي ادعاء بأن أحداً غير الله خلقها ، وأي ادعاء كذلك بأنها خلقت بلا خالق مدبر مريد :

(234/678)

﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ، ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ، ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ، وعليها وعلى الفلك تحملون . . ويريكم آياته ، فأي آيات الله تنكرون ؟ ﴾ . .

وخلق هذه الأنعام ابتداء آية خارقة كخلق الإنسان . فبث الحياة فيها وتركيبها وتصويرها كلها خوارق ، لا يتطاول الإنسان إلى ادعائها ! وتذليل هذه الأنعام وتسخيرها للإنسان ، وفيها ما هو أضخم منه جسماً وأشد منه قوة ، وهو جعلها : ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ، ومنها تأكلون . . ﴾ وهذه لا يستحق الاحترام أن يقول قائل : إنها هكذا وجدت والسلام ! وإنها ليست خارقة معجزة بالقياس إلى الإنسان ! وإنها لا تدل

على الخالق الذي أنشأها وسخرها بما أودعها من خصائص وأودع الإنسان ! ومنطق الفطرة يقر بغير هذا الجدال والمراء .

ويذكرهم بما في هذه الآيات الخوارق من نعم كبار :

﴿ لتركبوا منها ، ومنها تأكلون ﴾ ، ﴿ ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم . وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ . .

والحاجات التي كانت في الصدور والتي كانوا يبلغونها على الأنعام هي حاجات ضخمة في ذلك الزمان . قبل نشوء كل وسائل النقل والسفر والاتصال إلا على هذه الأنعام . وما تزال هناك حاجات تبلغ على هذه الأنعام حتى اليوم وغد . وهناك حتى اللحظة أسفار في بعض الجبال لا تبلغها إلا الأنعام مع وجود القطار والسيارة والطيارة ، لأنها مجازات ضيقة لا تتسع لغير أقدام الأنعام !

﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ . .

وهذه كتلك آية من آيات الله . ونعمة من نعمه على الإنسان . وسير الفلك على الماء قائم على نواميس وموافقات في تصميم هذا الكون : سمائه وأرضه . يابسه ومائه . وفي طبيعة أشيائه وعناصره . لا بد أن توجد حتى يمكن أن يسير الفلك على الماء . سواء سار بالشراع أم بالبخار أم بالذرة ، أم بغيرها من القوى التي أودعها الله هذا الكون ، ويسر

استخدامها للإنسان .

. ومن ثم تذكر في معرض آيات الله ، وفي معرض نعمه على السواء .

(235/678)

وكم هنالك من آيات من هذا النوع الحاضر المتناثر في الكون ، لا يملك إنسان أن ينكره وهو جاد :

﴿ ويريكم آياته . فأي آيات الله تنكرون ؟ ﴾

نعم إن هنالك من ينكر . وهنالك من يجادل في آيات الله . وهنالك من يجادل بالباطل ليدحض به الحق . . ولكن أحداً من هؤلاء لا يجادل إلا عن التواء ، أو غرض ، أو كبر ، أو مغالطة ، لغاية أخرى غير الحقيقة .

هنالك من يجادل لأنه طاغية كفرعون وأمثاله ، يخشى على ملكه ، ويخشى على عرشه ، لأن هذا العرش يقوم على أساطير يذهب بها الحق ، الذي يثبت بثبوت حقيقة الألوهية الواحدة !

وهنالك من يجادل لأنه صاحب مذهب في الحكم كالشيوعية يتحطم إذا ثبتت حقيقة العقيدة السماوية في نفوس البشر . لأنه يريد أن يلصق الناس بالأرض ؛ وأن يعلق قلوبهم

بمعداتهم وشهوات أجسادهم ؛ وأن يفرغها من عبادة الله لتعبد المذهب أو تعبد الزعيم !

وهنالك من يجادل لأنه ابتلي بسيطرة رجال الدين كما وقع في تاريخ الكنيسة في العصور الوسطى ومن ثم فهو يريد الخلاص من هذه السيطرة . فيشتط فيرد على الكنيسة إلهها ، الذي تستعبد باسمه الناس !

وهنالك أسباب وأسباب . . غير أن منطق الفطرة ينفر من هذا الجدال ، ويقر بالحقيقة الثابتة في ضمير الوجود ؛ والتي تنطق بها آيات الله بعد كل جدال !

وفي الختام يجيء ذلك الإيقاع القوي الأخير :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . سنة الله التي قد خلت في عباده . وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

ومصارع الغابرين كثيرة في تاريخ البشرية ؛ وبعضها ما تزال له آثار تحكي قصته ؛ وبعضها حفظته الروايات على الألسنة ، أو حفظته الأوراق والكتب . والقرآن كثيراً ما يوجه القلوب إليها ، لما فيها من دلالة على حقائق ثابتة في خط سير البشرية ؛ ولما لها كذلك من أثر في النفس الإنسانية عميق عنيف . والقرآن يخاطب الفطرة بما يعلمه منزل هذا القرآن من حقيقة الفطرة ، ومساربها ومداخلها ، وأبوابها التي تطرق فتفتح ، بعضها بعد نقرة خفيفة وبعضها بعد طرقات كثيرة إن كان قد ران عليها الركام !

وهنا يسألهم وينشطهم للسير في الأرض ، بعين مفتوحة ، وحسن متوفز ، وقلب بصير لينظروا ويتدبروا ما كان في الأرض قبلهم ؛ وما يتعرضون هم لجريانه عليهم :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ ﴾ .

(237/678)

وقبل أن يذكر كيف كان هذه العاقبة , يصف حال الذين من قبلهم , ويقرن إليها حالهم هم لتتم الموازنة , وتتم العبرة:

(كانوا أكثر منهم , وأشد قوة وآثاراً في الأرض) . .

توافرت لهم الكثرة والقوة والعمران . ومن هؤلاء أجيال وأمم كانت قبل العرب , قص الله

على رسوله بعضها , ولم يقصص عليه بعضها . ومنهم من كان العرب يعرفون قصته ويمرون بآثاره . .

(فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) . .

ولم تعصمهم قوة ولا كثرة ولا عمارة , مما كانوا يعتزون به ويغترون . بل كان هذا هو أصل شقائهم , وسبب هلاكهم:

(فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) . .

والعلم – بغير إيمان – فتنة . فتنة تعمي وتطغي . ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهري يوحي بالغرور , إذ يحسب صاحبه أنه يتحكم بعلمه هذا في قوى ضخمة , ويملك مقدرات عظيمة , فيتجاوز بنفسه قدرها ومكانها ! وينسى الآماد الهائلة التي يجهلها . وهي موجودة في هذا الكون ; ولا سلطان له عليها . بل لا إحاطة له بها . بل لا معرفة له بغير أطرافها القريبة . وبذلك ينتفخ فيأخذ أكثر من حقيقته . ويستخفه علمه وينسى جهله . ولو قاس ما يعلم إلى ما يجهل وما يقدر عليه في هذا الكون إلى ما يعجز حتى عن إدراك سره لطامن من كبريائه , وخفف من فرحه الذي يستخفه .

وهؤلاء فرحوا بما عندهم من العلم . واستهزأوا بمن يذكرهم بما وراءه:

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85)

(وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) . .

فلما عاينوا بأس الله , سقط عنهم القناع , وأدركوا مدى الغرور , واعترفوا بما كانوا ينكرون , وأقروا بوحدانية الله , وكفروا بشركائهم من دونه . ولكن الأوان كان قد فات:

(238/678)

(فلما رأوا بأسنا قالوا :آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) . .

ذلك أن سنة الله قد جرت على أن لا تقبل التوبة بعد ظهور بأس الله:فهي توبة الفزع لا توبة الإيمان:

(سنة الله التي قد خلت في عباده) . .

وسنة الله ثابتة لا تضطرب ولا تختلف ولا تحيد عن الطريق .

(وخسر هنالك الكافرون) .

وعلى هذا المشهد العنيف . مشهد بأس الله يأخذ المكذبين . ومشهدهم يستغيثون ويفزعون , ويعلنون كلمة الإذعان والتسليم . تختم السورة . فيتناسق هذا الختام مع جوها وظلها وموضوعها الأصيل .

ولقد مررنا في ثنايا السورة بقضايا العقيدة التي تعالجها السور المكية: قضية التوحيد , وقضية البعث , وقضية الوحي . . ولكنها لم تكن هي موضوع السورة البارز . إنما كانت المعركة بين الحق والباطل , والإيمان والكفر , والصلاح والطغيان , هي البارزة , وكانت ملامح المعركة هي التي ترسم "شخصية السورة" . . وسماتها المميزة لها بين سور القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3087.3102 ﴾

(239/678)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) ﴾

قوله : ﴿ ويا قوم ﴾ : قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ولِمَ جاء بالواوِ في النداء الثالثِ دونَ الثاني ؟ قلت : لأنَّ الثاني داخلٌ في كلامٍ هو بيانٌ للمُجْمَلِ وتفسيرٌ له ، فأُعْطِي الداخلُ عليه حكمَه في امتناعِ دخولِ الواو . وأما الثالثُ فداخِلٌ على كلامٍ ليس بتلك المَثابةِ " .

قوله : ﴿ وتدعونني إِلَى النار ﴾ هذه الجملةُ مستأنفةٌ أُخبر عنهم بذلك بعد استفهامِه عن دعاءِ نفسِه . ويجوز أن يكونَ التقديرُ : وما لكم تَدْعُونني إلى النارِ ، وهو الظاهرُ .

ويَضْعُفُ أَنْ تكونَ الجملةُ حالاً أي : ما لكم أدعوكم إلى النجاةِ حالَ دعائِكم إياي إلى النار ؟

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42)

قوله : ﴿ تَدْعُونَنِي ﴾ : هذه الجملةُ بدلٌ مِنْ " تَدْعونني " الأولى على جهةِ البيان لها ، وأتى في قولِه " تَدْعُونني " بجملةٍ فعليةٍ ليدُلَّ على أنَّ دعوتَهم باطلةٌ لا ثبوتَ لها ، وفي قوله : " وأنا أَدْعوكم " بجملة اسميةٍ ليدُلَّ على ثبوتِ دعوتِه وتقويتِها .

وقد تقدَّم الخلافُ في ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ [غافر : 43] . وقال الزمخشري هنا : ورُوي عن العرب " لا جُرْمَ أنه يفعل كذا " بضم الجيم وسكونِ الراء بمعنى لا بُدَّ ، وفُعْل وفَعَل أخَوان كرُشْد ورَشَد وعُدْم وعَدَم " .

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44)

قوله : ﴿ وَأُفَوِّضُ ﴾ : هذه مستأنفةٌ . وجَوَّز أبو البقاء أَنْ تكونَ حالاً مِنْ فاعل " أَقول " .

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)

قوله: ﴿ النار ﴾: الجمهورُ على رفعِها. وفيه ثلاثةُ أوجه، أحدُها: أنه بدلٌ مِنْ "سوءُ العذاب". الثاني: أنها خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي: هو أي سوءُ العذابِ النارُ؛ لأنه جوابٌ لسؤالٍ مقدرٍ و "يُعْرَضُون" على هذين الوجهين: يجوز أَنْ يكون حالاً من "النار" ويجوز أن يكونَ حالاً من "آل فرعون". الثالث: أنه مبتدأٌ، وخبرُه "يُعْرَضون". وقُرِئ "النارَ" منصوباً. وفيه وجهان، أحدهما: أنه منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ يُفَسِّره "يُعْرَضون" من حيث المعنى أي: يَصْلَوْن النارَ يُعْرَضون عليها، كقوله: ﴿ والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ ﴾ [الإنسان: 31]. والثاني: أَنْ ينتصبَ على الاختصاص. قاله الزمخشري، فعلى الأولِ لا مَحَلَّ لـ "يُعْرَضُون" لكونِه مفسِّراً، وعلى الثاني هو حالٌ كما تقدَّمَ.

(241/678)

قوله: "ويومَ تقومُ" فيه ثلاثةُ أوجهٍ، أظهرها: أنه معمولٌ لقولٍ مضمرٍ، وذلك القولُ المضمرُ محكيٌّ به الجملةُ الأمريَّةُ من قوله "أدخِلوا" والتقدير: ويُقال له/ يومَ تقومُ الساعةُ: أدْخِلوا. الثاني: أنه منصوبٌ بأَدخِلوا أي: أدْخِلوا يومَ تقومُ. وعلى هذين الوجهين فالوقفُ تامٌّ على

قوله " وعَشِيّاً " . والثالث : أنه معطوفٌ على الظرفَيْن قبلَه ، فيكونُ معمولاً ل "يُعْرَضُون" . فالوقفُ على هذا على قولِه " الساعة " و " أَدْخِلوا " معمولٌ لقولٍ مضمرٍ أي : يُقال لهم كذا وكذا . وقرأ الكسائي وحمزة ونافع وحفص " أدْخِلُوا " بقطع الهمزةِ أمراً مِنْ أَدْخَلَ ، فآلَ فرعون مفعولٌ أولُ ، و " أشدَّ العذاب " مفعولٌ ثانٍ . والباقون " ادْخُلوا " بهمزةِ وصلٍ مِنْ دَخَلَ يَدْخُلُ . فآلَ فرعونَ منادى حُذِف حرفُ النداءِ منه ، و " أشدَّ " منصوبٌ به : إمَّا ظرفاً ، وإمّا مفعولاً به ، أي : ادخلوا يا آل فرعونَ في أشدّ العذاب .

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47)

قوله : ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ ﴾ : في العاملِ في " إذ " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه معطوفٌ على " غُدُوّاً " فيكونُ معمولاً ل "يُعْرَضون" أي : يُعْرَضُونَ على النار في هذه الأوقاتِ كلِّها ، قاله أبو البقاء . والثاني : أنه معطوفٌ على قولِه ﴿ إِذِ القلوب لَدَى الحناجر ﴾ [غافر : 18] قاله الطبري . وفيه نظرٌ لبُعْدِ ما بينهما ، ولأنَّ الظاهرَ عَوْدُ الضميرِ مِنْ "يَتَحاجُّون" على آل فرعون . الثالث : أنه منصوبٌ بإضمارِ " اذْكُرْ " وهو واضحٌ .

قوله : " تَبَعاً " فيه ثلاثةُ أوجه ، أحدُها : أنه اسمُ جمعٍ لتابعٍ ، ونحوه : خادِمٍ وخَدَم ، وغائِب ، وغَيَبَ ، وأَديم وأَدَم . والثاني : أنه مصدرٌ واقع موقعَ اسمِ الفاعلِ أي : تابِعين . والثالث : أنه مصدرٌ أيضاً ، ولكنْ على حَذْفِ مضاف أي : ذوي تَبَع .

قوله : " نصيباً " فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أَنْ ينتصبَ بفعلٍ مقدرٍ يَدُلُّ عليه قولُه " مُغْنُون " تقديرُه : " هل أنتم دافِعون عنا نصيباً . الثاني : أَنْ يُضمَّنَ " مُغْنون " معنى حامِلين . الثالث : أَنْ ينتصبَ على المصدرِ . قال أبو البقاء : "كما كان " شيءٌ " كذلك ، ألا ترى إلى قولِه ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِّنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : 116] ف " شيْئاً " في موضعِ غَناء ، فكذلك " نصيباً " . و " من النار " صفةٌ ل " نَصيباً " .

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (48)

(243/678)

قوله : ﴿ إِنَّا كُلٌّ ﴾ : العامَّةُ على رفع "كلٌّ" ، ورفعُه على الابتداء و " فيها " خبرُه ، والجملةُ خبرُ " إنَّ " ، وهذا كقولِه في آل عمران : ﴿ قُلْ إِنَّ الأمر كُلَّهُ للَّهِ ﴾ في قراءة أبي عمرو . وقرأ ابن السَّمَيْفع وعيسى بن عمر بالنصب وفيه ثلاثة أوجهٍ ، أحدُها : أَنْ يكونَ تأكيداً لاسم " إنَّ " . قال الزمخشري : " توكيدٌ لاسم إنَّ ، وهو معرفةٌ . والتنوينُ عوضٌ من

المضافِ إليه ، يريد : إنَّا كلَّنا فيها " انتهى . يعني فيكون " فيها " هو الخبر . وإلى كونِه تأكيداً ذهب ابنُ عطية أيضاً . وقد ردَّ ابن مالكٍ هذا المذهبَ فقال في " تسهيله " : " ولا يُستغنى بنية إضافتِه خلافاً للزمخشري " : قلت : وليس هذا مذهباً للزمخشري وحدَه بل هو منقول عن الكوفيين أيضاً . الثاني : أَنْ تكونَ منصوبةً على الحال ، قال ابن مالك : " والقولُ المَرْضِيُّ عندي أنَّ " كلاً " في القراءة المذكورة منصوبةٌ على الحال من الضمير المرفوع في " فيها " ، و " فيها " هو العاملُ وقد قُدِّمَتْ عليه مع عَدَمِ تصرُّفه ، كما قُدِّمَتْ في قراءةِ مَنْ قرأ : ﴿ والسماوات مَطْوِيَّاتٍ بيَمِينِهِ ﴾ . وكقولِ النابغة :

3935 رَهْطُ ابنِ كُوْزٍ مُحقِبِيْ أَدْراعِهم . . . فيهمْ ورَهْطُ ربيعةَ بنِ حُذار

وقول بعض الطائيين :

3936 دعا فَأَجَبْنَا وَهْو بادِيَ ذلَّةٍ . . . لديكمْ وكان النصرُ غيرَ بعيدِ

(244/678)

يعني بنصب " باديَ " وهذا هو مذهبُ الأخفش ، إلاَّ أنَّ الزمخشريَّ مَنَعَ مِنْ ذلك قال : " فإنْ قلتَ : هل يجوز أَنْ يكونَ " كلاًّ " حالاً قد عَمِل فيه " فيها " ؟ قلت : لا ؛ لأنَّ الظرفَ لا يعملُ في الحال متقدمةً كما يعملُ في الظرفِ متقدّماً . تقول : كلَّ يوم لك ثوبٌ . ولا تقول :

قائماً في الدار زيد " . قال الشيخ : " وهذا الذي منعه أجازه الأخفشُ إذا توسَّطَتِ الحالُ نحو : " زيدٌ قائماً في الدار " و " زيدٌ قائماً عندك " ، والمثالُ الذي ذكره ليس مطابقاً لِما في الآية ؛ لأنَّ الآيةَ تَقَدَّمَ فيها المسندُ إليه الحكمُ وهو اسمُ إنَّ ، وتوسَّطَتِ الحالُ إذا قلنا إنها حالٌ ، وتأخَّر العاملُ فيها . وأمَّا تمثيلُه بقولِه : ولا تقولُ : " قائماً في الدار زيد " ، فقد تأخَّر فيه المسندُ والمسندُ إليه . وقد ذكر بعضُهم أنَّ المنعَ في ذلك إجْماعٌ من النحاة " .

قلت : الزمخشريُّ مَنْعُه صحيحٌ لأنه ماشٍ على مذهبِ الجمهور ، وأمَّا تمثيلُه بما ذَكَر فلا يَضُرُّه لأنه في محلِّ المَنْعِ ، فعدمُ تجويزِه صحيحٌ .

الثالث أنَّ "كلاً" بدلٌ مِنْ "ن" في "إنَّا" ، لأنَّ "كلاً" قد وَلِيَتْ العوامِل/ فكأنه قيل : إنَّ كلاً فيها .

وإذا كانوا قد تأوَّلوا قولَه :

2937 . . . . . حَوْلاً أَكْتَعاً . . . [وقوله :] .

(245/678)

2938 . . . . . وحَوْلاً أَجْمعا . . . على البدلِ مع عدم تصرُّفِ أكتع وأَجْمع فلأَنْ يجوزَ ذلك في "كل" أَوْلَى وأَحْرى . وأيضاً فإنَّ

المشهورَ تعريفُ "كل" حالَ قَطْعها . حُكي في الكثير الفاشي : "مررتُ بكلٍ قائماً وببعض جالساً" ، وعزاه بعضُهم لسيبويه . وتنكيرُ "كل" ونصبها حالاً في غايةِ الشذوذ نحو : "مررت بهم كلاً" أي : جميعاً . فإن قيل : فيه بدلُ الكل من الكل في ضمير الحاضر ، وهو لا يجوز . أجيب بوجهين ، أحدهما : أن الكوفيين والأخفش يَرَوْن ذلك ، وأنشدوا قولَه :

3939 أنا سيفُ العشيرةِ فاعْرِفوني . . . حُمَيْداً قد تَذَرَّيْتُ السَّناما

فحُميداً بدل من ياء "اعرِفوني" ، وقد تأوَّلَه البصريون على نصبه على الاختصاص .

والثاني : أن هذا الذي نحن فيه ليس محلَّ الخلافِ لأنه دالٌّ على الإحاطة والشمول . وقد قالوا : إنه متى كان البدل دالاًّ على ذلك جاز ، وأنشدوا :

3940 فما بَرِحَتْ أقدامنا في مكانِنا . . . ثلاثتِنا حتى أُزِيْرُوا المنَائيا

(246/678)

ومثلُه قولُه تعالى : ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ [المائدة : 114] ، قالوا "ثلاثتنا" بدلٌ من "ن" في "مكاننا" لدلالتِها على الإحاطة ، وكذلك "لأوَّلنا وآخِرنا" بدلٌ من "ن" في "لنا" ، فلأَنْ يجوزَ ذلك في "كل" التي هي أصلٌ في الشمولِ والإحاطة بطريق الأَوْلَى .

هذا كلامُ الشيخِ في الوجه الثالث وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ المبردَ ومكيّاً نصّاً على أن البدلَ في هذه الآيةِ لا يجوزُ ، فكيف يُدَّعَى أنه لا خِلافَ في البدلِ والحالةُ هذه ؟ لا يُقال : إنَّ في الآية قولاً رابعاً : وهو أنَّ "كلاً" نعتٌ لاسم "إنَّ" وقد صرَّح الكسائيُّ والفراء بذلك فقالا : هو نعتٌ لاسمِ "إنَّ" لأنَّ الكوفيين يُطْلقون اسمَ النعتِ على التأكيدِ ، ولا يريدون حقيقةَ النعتِ . وممن نَصَّ على ما قلتُه من التأويلِ المذكورِ مكيٌّ رحمه الله تعالى ، ولأنَّ الكسائيَّ إنما جوَّز نعتَ ضميرِ الغائبِ فقط دونَ المتكلمِ والمخاطب .

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (49)

(247/678)

قوله : ﴿ يَوْماً مِّنَ العذاب ﴾ : في "يوماً" وجهان ، أحدهما : أنه ظرفٌ لـ "يُخَفِّفْ" . ومفعولُ "يُخَفِّفْ" محذوفٌ أي : يُخَفِّف عنا شيئاً من العذاب في يوم . ويجوز على رأي الأخفش أن تكون "مِنْ" مزيدةً ، فيكون "العذاب" هو المفعولَ ، أي : يُخَفف عنا في يوم العذاب . الثاني : أَنْ يكونَ مفعولاً به ، واليوم لا يُخَفَّف ، وإنما يُخَفَّفُ مظروفُه فالتقديرُ : يُخَفِّف عذابَ يومٍ . وهو قَلِقٌ لقولِه "من العذاب" ، والقولُ بأنَّه صفةٌ مؤكِّدةٌ كالحالِ أقلقُ منه . والظاهرُ أنَّ "مِن العذاب" هو المفعولُ لـ "يُخَفِّف" ، و "مِنْ" تبعيضيَّةٌ ، و "يوماً"

ظرفٌ . سألوا أَنْ يخففَ عنهم بعضَ العذابِ لا كلَّه في يومٍ ما ، لا في كلِّ يومٍ ولا في يومٍ معين .

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51)

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ﴾ : قرأ الجمهور " يقوم " بالياء مِنْ أسفلَ . وأبو عَمْرٍو في روايةِ المنقريِّ عنه وابنُ هرمز وإسماعيل بالتاء مِنْ فوقُ لتأنيثِ الجماعةِ ، والأشهادُ يجوز أَنْ يكونَ جمعَ شهيد كـ شَريف وأَشْراف ، وهو مطابِقٌ لقولِه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ [النساء : 41] وأَنْ يكونَ جمعَ شاهِد كـ صاحِب وأصحاب ، وهو مطابِقٌ لقولِه : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ﴾ [الأحزاب : 45] .

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52)

قوله : ﴿ يَوْمَ ﴾ : بدلٌ مِنْ " يوم " قبلَه أو بيانٌ له ، أو نُصِب بإضمار أَعْني . وقد تقدَّم الخلافُ في قولِه " يَنْفَع الظالمين " بالتاء والياء آخر الروم .

هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (54)

(248/678)

قوله : ﴿ هُدًى وذكرى ﴾ : فيهما وجهان ، أحدهما : أنهما مفعولٌ مِنْ أجلهما أي : لأجلِ الهدى والذِّكْر . والثاني : أنهما مصدران في موضعِ الحالِ .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (55)

قوله : ﴿ لِذَنبِكَ ﴾ : قيل : المصدرُ مضافٌ للمفعولِ أي : لذنب أمَّتِك في حقِّك .

والظاهرُ أنَّ اللَّهَ يقولُ ما أرادَ ، وإنْ لم يَجُزْ لنا نحن أَنْ نُضيفَ إليه صلَّى الله عليه وسلَّم ذنباً

.

لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57)

قوله : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ : المصدران مُضافان لمَفْعولِهما . والفاعلُ محذوفٌ وهو اللَّهُ تعالى . ويجوزُ أَنْ يكونَ الثاني مضافاً للفاعلِ أي : أكبرُ ممَّا يَخْلُقُه الناسُ أي : يَصْنَعونه . ويجوزُ أَنْ يكونا مصدرَيْن واقعَيْن موقعَ المخلوقِ أي : مَخلوقُهما أكبرُ مِنْ مَخْلوقهم أي : جُرْمُها أكبرُ مِنْ جُرْمِهم .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (58)

(249/678)

قوله : ﴿ وَلَا المسيآء ﴾ : "لا" زائدةٌ للتوكيدِ لأنه لَمَّا طالَ الكلامُ بالصلة بَعُدَ قَسِيْمُ المؤمنين ، فأعاد معه "لا" توكيداً . وإنما قَدَّم المؤمنين لمجاوَرَتهم/ قولَه : "والبصير" ،

واعلَمْ أنَّ التقابلَ يجيْءُ على ثلاثِ طرقٍ ، أحدُها : أَنْ يجاورَ المناسبُ ما يناسِبُه كهذه الآيةِ . والثانية : أَنْ يتأخَّرَ المتقابلان كقولِه تعالى : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ [هود : 24] . والثالثة : أن يُقَدِّمَ مقابلَ الأولِ ، ويُؤَخِّرَ مقابلَ الآخر ، كقولِه تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير وَلاَ الظلمات وَلاَ النور ﴾ [فاطر : 19] وكلُّ ذلك تَفَنُّنٌ في البلاغة . وقَدَّمَ الأعمى في نَفْيِ التساوي لمجيئِه بعد صفةِ الذم في قولِه ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

قوله : " تَتَذَكَّرون " قرأ الكوفيون بتاء الخطاب ، والباقون بياءِ الغَيْبة . فالخطابُ على الالتفاتِ للمذكورَيْن بعد الإخبار عنهم ، والغيبةُ نظراً لقولِه : ﴿ إِنَّ الذين يُجَادِلُونَ ﴾ وهم الذين التفتَ إليهم في قراءةِ الخطاب .

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62)

قوله : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ : العامَّةُ على الرفعِ ، وزيد بن علي نصبَه ، قال الزمخشري : " على الاختصاص " . وقرأ طلحة بياءِ الغيبة .

كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63)

قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ ﴾ : أي : مثلَ ذلك الإفك .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64)

قوله : ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ : قرأ أبو رزين والأعمش : " صِوَرَكم " بكسر الصاد فِراراً من الضمة قبل الواوِ ، وقرأَتْ فرقةٌ بضم الصادِ وسكونِ الواو وجَعَلَتْه اسمَ جنسٍ لصورةٍ كبُسْرٍ وبُسْرَة .

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70)

قوله : ﴿ الذين كَذَّبُوا ﴾ : يجوز فيه أوجه : أَنْ يكونَ بدلاً من الموصول قبلَه ، أو بياناً له ، أو نعتاً ، أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ ، أو منصوباً على الذمّ . وعلى هذه الأوجهِ فقولُه " فسوف يعلمونَ " جملةٌ مستأنفةٌ سِيقَتْ للتهديدِ . ويجوزُ أَنْ يكونَ مبتدأً ، والخبرُ الجملةُ مِنْ قولِه " فسوف يَعْلَمون " ودخولُ الفاءِ فيه واضحٌ .

إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71)

قوله : ﴿ إِذِ الأغلال ﴾ : جَوَّزوا في " إذ " هذه أَنْ تكونَ بمعنى " إذا " لأنَّ العاملَ فيها محقَّقُ الاستقبالِ ، وهو " فسوف يَعْلمون " ، قالوا : وكما تقع " إذا " موقعَ " إذ " في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة : 11] كذلك تقع " إذ " مَوْقِعَها ، وقد مضى نحوٌ من هذا في البقرة عند قوله ﴿ وَلَوْ يَرَى الذين ظلموا إِذْ يَرَوْنَ العذاب ﴾ [البقرة : 165] . قالوا : والذي حَسَّن هذا تَيَقُّنَ وقوعَ الفعلِ فأُخْرِجَ في صورةِ الماضي .

قلت : ولا حاجةَ إلى إخراجِ " إذ " عن موضوعِها ، بل هي باقيةٌ على دلالتِها على المضيِّ ، وهي منصوبةٌ بقولِه " فسوف يَعْلَمون " نَصْبَ المفعولِ به أي : فسوف يعلمونَ يومَ القيامة وَقْتَ الأغلالِ في أعناقِهم أي : وقتَ سببِ الأغلالِ ، وهي المعاصي التي كانوا يَفْعَلونها في الدنيا كأَنَّه قيل : سيعرفون وقتَ معاصيهم التي تجعل الأَغلالَ في أعناقِهم . وهو وجهٌ واضحٌ ، غايةُ ما فيه التصرُّف في " إذ " بجَعْلِها مفعولاً بها ، ولا يَضُرُّ ذلك ؛ فإنَّ المُعْرِبين غالِبُ أوقاتِهم يقولون : منصوبٌ ب اذْكُرْ مقدراً ولا يكون حينئذٍ إلاَّ مفعولاً به لاستحالةِ عملِ المستقبلِ في الزمنِ الماضي . وجَوَّزوا أَنْ يكونَ منصوباً ب اذْكُرْ مقدَّراً أي : اذكُرْ لهم وقتَ الأغلالِ ليخافوا ويَنْزَجِروا . فهذه ثلاثةُ أوجهٍ ، خيرُها أوسطُها .

قوله : " والسَّلاسِلُ " العامَّةُ على رَفْعِها . وفيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه معطوفٌ على الأغلال ، وأخبر عن النوعَيْن بالجارِ ، فالجارُّ في نية التأخير . والتقديرُ : إذ الأغلالُ والسَّلاسلُ في أعناقِهم . الثاني : أنه مبتدأٌ ، وخبرُه محذوفٌ لدلالةِ خبر الأولِ عليه . الثالث : أنه مبتدأٌ أيضاً ، وخبرُه الجملةُ مِنْ قولِه "يُسْحَبُون" . ولا بُدَّ مِنْ ذِكْرٍ يعودُ عليه منها . والتقديرُ : والسَّلاسلُ يُسْحَبُون بها حُذِفَ لقوةِ الدلالةِ عليه . فَيُسْحَبُون مرفوع المحلِّ على هذا الوجهِ . وأمَّا في الوجهَيْن المتقدِّمين فيجوز فيه النصبُ على الحالِ من الضمير المَنْوِيِّ في الجارِّ ، ويجوز أَنْ يكونَ مستأنفاً .

وقرأ ابن مسعود وابنُ عباس وزيد بن علي وابن وثاب والمسيبي في اختيارِه " والسلاسلَ " نَصْباً "يَسْحَبون" بفتح الياءِ مبنياً للفاعلِ ، فيكون " السلاسلَ " مفعولاً مقدماً ، ويكونُ قد عَطَفَ جملةً فعليةً على جملةٍ اسميةٍ . قال ابن عباس في معنى / هذه القراءة : " إذ كانوا يَجُرُّوْنها ، فهو أشدُّ عليهم يُكَلَّفون ذلك ، ولا يُطيقونه " . وقرأ ابنُ عباس وجماعةٌ " والسلاسلِ " بالجرِّ ، "يُسْحَبون" مبنياً للمفعولِ . وفيها ثلاثةُ تأويلاتٍ ، أحدُها : الحَمْلُ على المعنى تقديرُه : إذ أعناقُهم في الأغلالِ والسلاسلِ ، فلمَّا كان معنى الكلام ذلك حُمِل عليه في العطف . قال الزمخشري : " ووجهُه أنه لو قيل : إذ أعناقُهم في الأغلال ، مكانَ قوله : ﴿ إِذِ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ ﴾ لكان صحيحاً مستقيماً ، فلمَّا كانتا عبارتين مُعْتَقِبتين حَمَلَ قولَه : " والسلاسل " على العبارةِ الأخرى .

ونظيرُه :

3941 مَشائيمُ ليسوا مُصْلِحين عشيرةً . . . ولا ناعِبٍ إلاَّ ببَيْنٍ غُرابُها

(253/678)

كأنه قيل : بمُصْلحين " وقُرِئ " بالسلاسِل " . وقال ابن عطية : " تقديرُه : إذ أعناقُهم في الأغلالِ والسلاسِل ، فعُطِفَ على المرادِ من الكلام لا على ترتيبِ اللفظِ ، إذ ترتيبُه فيه قَلْبٌ وهو على حَدّ قولِ العرب " أَدْخَلْتُ القَلَنْسُوَةَ في رأسي " . وفي مصحف أُبَيّ ﴿ وفي السلاسل يُسْحَبُونَ ﴾ . قال الشيخ بعد قولِ ابنِ عطيةَ والزمخشريِّ المتقدِّم : " ويُسمَّى هذا العطفَ على التوهُّم ، إلاَّ أنَّ تَوَهُّمَ إدخالِ حرفِ الجرِّ على " مُصْلِحين " أقربُ مِنْ تغييرِ تركيب الجملةِ بأَسْرِها ، والقراءةُ مِنْ تغييرِ تركيبِ الجملةِ السابقة بأَسْرِها .

ونظيرُ ذلك قولُه :

3942 أجِدَّكَ لن تَرَى بثُعَيْلباتٍ . . . ولا بَيْداءَ ناجيةً ذَمُوْلا

ولا متدارِكٍ والليلُ طَفْلٌ . . . ببعضِ نواشِغِ الوادي حُمُوْلا

التقدير : لستَ براءٍ ولا متدارِكٍ . وهذا الذي قالاه سَبَقَهما إليه الفراء فإنه قال : " مَنْ جَرَّ السلاسل حَمَله على المعنى ، إذ المعنى : أعناقُهم في الأغلال والسلاسل " .

الوجه الثاني : أنه عطفٌ على " الحميم " ، فقدَّم على المعطوف عليه ، وسيأتي تقريرُ هذا . الثالث : أن الجرَّ على تقدير إضمار الخافِض ، ويؤيِّدُه قراءةُ أُبيّ " وفي السلاسل " وقرأه غيرُه " وبالسلاسل " وإلى هذا نحا الزجَّاج . إلاَّ أنَّ ابنَ الأنباري رَدَّه وقال : " لو قلتَ : " زيد في الدارِ " لم يَحْسُنْ أَنْ تُضْمَر " في " فتقول : " زيدٌ الدارِ " ثم ذكر تأويلَ الفراء . وخَرَّج القراءةَ عليه ثم قال : كما تقول : " خاصَمَ عبدُ الله زيداً العاقلَيْن " بنصب " العاقلين " ورفعِه ؛ لأنَّ أحدَهما إذا خاصمه صاحبه ، فقد خاصمه الآخرُ . وهذه المسألةُ ليسَتْ جاريةً على أصول البصريين ، ونَصُّوا على مَنْعها ، وإنما قال بها من الكوفيين ابنُ سعدان . وقال مكيٌّ : " وقد قُرِئَ والسلاسلِ ، بالخفضِ على العطف على " الأَعْناق " وهو غَلَط ؛ لأنه يَصير : الأغلال في الأعناق وفي السلاسل ، ولا معنى للأغلال في السلاسل " . قلت : وقوله على العطفِ على " الأعناقِ " ممنوعٌ بل خَفْضُه على ما تقدَّم . وقال أيضاً : " وقيل : هو معطوفٌ على " الحميم " وهو أيضاً لا يجوزُ ؛ لأنَّ المعطوفَ المخفوضَ لا يتقدَّم على المعطوفِ عليه ، لو قلت : " مررتُ وزيدٍ بعمرو " لم يَجُزْ ، وفي المرفوع يجوزُ نحو : " قام وزيدٌ عمرو " ويَبْعُد في المنصوب ، لا يَحْسُنُ : " رأيتُ وزيداً عمراً " ولم يُجِزْه في المخفوض أحدٌ "

.

قلت : وظاهرُ كلامِه أنه يجوزُ في المرفوع بعيدٌ ، وقد نصُّوا أنه لا يجوزُ إلاَّ ضرورةً بثلاثة شروطٍ : أن لا يقعَ حرفُ العطفِ صدراً ، وأَنْ يكونَ العاملُ متصرفاً ، وأَنْ لا يكونَ المعطوفُ عليه مجروراً ، وأنشدوا :

3943 . . . . . عليكِ ورحمةُ اللَّهِ السَّلامُ

إلى غيرِ ذلك من الشواهدِ ، مع تَنْصيصِهم على أنه مختصٌّ بالضرورة .

(255/678)

والسِّلْسِلَةُ معروفةٌ . قال الراغب " وتَسَلْسَلَ الشيءُ : اضطرَبَ كأنه تُصُوِّرَ منه تَسَلُّلٌ مترددٌ ، فتَرَدُّدُ لفظِه تنبيهٌ على تردُّد معناه . وماءٌ سَلسَلٌ مترددٌ في مقرِّه " . والسَّحْبُ : الجرّ بعنفٍ ، والسَّحابُ من ذلك ؛ لأنَّ الريحَ تجرُّه ، أو لأنه يجرُّ الماءَ . وسَجَرْتُ التَّنُّورَ أي : ملأتُه ناراً وهَيَّجْتُها . ومنه البحر المَسْجُور أي : المملوء . وقيل : المضطرِمُ ناراً . قال الشاعر :

3944 إذا شاءَ طالعَ مَسْجُوْرَةً . . . تَرَى حَوْلَها النَّبْعَ والشَّوْحَطا

فمعنى قولِه تعالى هنا : ﴿ ثُمَّ فِي النار يُسْجَرُونَ ﴾ أي : يُوْقَدُ لهم ، كقوله : ﴿ وَقُودُهَا الناس ﴾ [البقرة : 24] والسَّجِيْرُ : الخليلُ الذي يُسْجَرُ في مودَّةِ خليلِه ، كقولهم : فلان يحترق في مودةِ فلان .

ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75)

قوله : ﴿ تَفْرَحُونَ ﴾ : " تَمْرَحون " مِنْ باب التجنيس المحرَّفِ ، وهو أن يقعَ الفرقُ بين اللفظَيْنِ بحرفٍ .

ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76)

قوله : ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ﴾ : المخصوصُ محذوفٌ أي : جهنم ، أو مثواكم ، ولم يَقُلْ فبِئْسَ مَدْخَلُ ؛ لأنَّ الدخولَ لا يَدوم وإنما يَدُوْمُ الثَّواءُ ؛ فلذلك خَصَّه بالذمِّ ، وإنْ كان الدخولُ أيضاً مَذْموماً .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (77)

قوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ : قال الزمخشري : " أصلُه : فإنْ نَرَكَ و " ما " مزيدةٌ لتأكيدِ معنى الشرطِ ، ولذلك أُلحِقَتِ النونُ بالفعل . ألا تراك لا تقول : إنْ تُكْرِمَنّي أُكْرِمْك ، ولكنْ إمَّا

تُكْرِمَنِّي أكرمْك " . قال الشيخ : " وما ذكره مِنْ تلازمِ النونِ ، و " ما " الزائدة ليس مذهبَ سيبويه ، إنما هو مذهبُ المبردِ والزجَّاجِ ، ونصَّ سيبويه على التخيير " . / قلت : وهذه القواعدُ وإنْ تقدَّمَتْ مُسْتَوفاةً ، إلاَّ أنِّي أذكُرها لذِكْرِهم إياها ، وفي ذلك تنبيهٌ أيضاً وتذكيرٌ بما تقدَّم .

(257/678)

قوله : " فإلينا يُرْجَعُون " ليس جواباً للشرطِ الأولِ ، بل جواباً لِما عُطِفَ عليه ، وجوابُ الأولِ محذوفٌ . قال الزمخشري : " فإلينا يُرْجَعُون " متعلّق بقولِه : " نَتَوَفَّيَنَّك " وجوابُ " نُرِيَنَّك " محذوفٌ تقديرُه : فإنْ نُرِيَنَّك بعضَ الذي نَعِدُهم مِنَ العذابِ وهو القَتْلُ يومَ بدرٍ فذاك ، وإنْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبلَ يومِ بَدْرٍ فإلينا يُرْجَعُون فننتقمُ منهم أشدَّ الانتقامَ " . قلت : قد تقدَّمَ مثلُ هذا في سورةِ يونس وبحثُ الشيخِ معه فَلْيُلْتَفَتْ إليه . وقال الشيخ : " وقال بعضُهم : جوابُ " فإمَّا نُرِيَنَّك " محذوفٌ لدلالةِ المعنى عليه أي : فَتَقَرُّ عَيْنك . ولا يَصِحُّ أَنْ يكونَ " فإلينا يُرْجَعُون " جواباً للمعطوفِ عليه والمعطوفِ ، لأنَّ تركيبَ " فإمَّا نُرِيَنَّكَ بعضَ الذين نَعِدُهم في حياتك فإلينا يُرْجَعون " ليس بظاهرٍ ، وهو يَصِحُّ أَنْ يكونَ جوابَ " أو نَتَوَفَّيَنَّك " أي : فإلينا يُرْجَعُون فننتقمُ منهم ونُعَذِّبُهم لكونِهم لم يَتَّبِعوك . نظيرُ هذه الآيةِ قولُه تعالى : ﴿

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الذي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ [الزخرف : 42] إلاَّ أنه هنا صَرَّحَ بجوابِ الشرطَيْن " . قلت : وهذا بعينِه هو قولُ الزمخشريِّ .

وقرأ السُّلميُّ ويعقوبُ "يَرْجَعون " بفتحِ ياءِ الغَيْبَةِ مبنياً للفاعلِ . وابنُ مصرف ويعقوب أيضاً بفتحِ تاءِ الخطاب .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78)

(258/678)

قوله : ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ " منهم " صفةً لـ " رُسُلاً " ، فيكون " مَنْ قَصَصْنا " فاعِلاً به لاعتمادِه ، ويجوزُ أَنْ يكونَ خبراً مقدماً ، و " مَنْ " مبتدأٌ مؤخر . ثم في الجملة وجهان : الوصفُ لـ " رُسُلاً " وهو الظاهرُ والاستئنافُ .

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79)

قوله : ﴿ مِنْهَا ، وَمِنْهَا ﴾ : " مِنْ " الأولى يجوزُ أَنْ تكونَ للتبعيضِ ، إذ ليس كلُّها تُرْكَبُ ،

ويجوز أَنْ تكونَ لابتداءِ الغايةِ إذ المرادُ بالأنعامِ شيءٌ خاصٌّ ، وهي الإبل . قال الزجَّاج : " لأنه لم يُعْهَدْ للركوبِ غيرُها " . وأمَّا الثانيةُ فكالأولى . وقال ابنُ عطية : " هي لبيانِ الجنسِ " قال : " لأنَّ الخيلَ منها ولا تُؤْكَلُ " .

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80)

قوله : ﴿ وَعَلَى الفلك ﴾ : اخْتِير لفظُ " على " هنا على لفظِ " في " كقولِه : ﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا ﴾ [هود : 40] لمناسبةِ قولِه : " وعليها " ، كذا أجابُوا . ويظهر أنَّ " في " هناك أليقُ ؛ لأنَّ سفينةَ نوحٍ عليه السلام على ما يقال كانَتْ مُطْبِقَةً عليهم ، وهي محيطةٌ بهم كالوعاءِ . وأمَّا غيرُها فالاستعلاءُ فيه واضحٌ ؛ لأنَّ الناسَ على ظهرِها .

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81)

(259/678)

قوله : ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ الله ﴾ : منصوبٌ ب " تُنْكِرون " وقُدِّمَ وجوباً ؛ لأنَّ له صَدْرَ الكلامِ . قال مكي : " ولو كان مع الفعلِ هاءٌ لكان الاختيارُ الرفعَ في " أي " بخلافِ ألفِ الاستفهامِ تَدْخُلُ على الاسمِ ، وبعدها فعلٌ واقعٌ على ضميرِ الاسمِ ، فالاختيارُ النصبُ نحو قولِك : أزيداً ضَرَبْتَه ، هذا مذهبُ سيبويهِ فرَّقَ بين الألفِ وبين أيّ " قلت : يعني أنَّك إذا قلتَ : "

أيُّهم ضربْتَه "كان الاختيارُ الرفعَ لأنه لا يُحْوِج إلى إضمارٍ ، مع أنَّ الاستفهامَ موجودٌ في " أزيداً ضربْتُه "يُختار النصبُ لأجلِ الاستفهامِ فكان مُقْتَضاه اختيارَ النصبِ أيضاً ، فيما إذا كان الاستفهامُ بنفس الاسمِ . والفرقُ عَسِرٌ . وقال الزمخشري : " فأيَّ آياتِ جاءتْ على اللغةِ المستفيضةِ . وقولك : " فأيةَ آياتِ اللَّهِ " قليلٌ ؛ لأنَّ التفرقةَ بين المذكرِ والمؤنثِ في الأسماءِ غيرِ الصفاتِ نحو : حِمار وحِمارة غريبٌ ، وهو في " أيّ " أغربُ لإبهامِه " . قال الشيخ : " ومِنْ قِلَّةِ تأنيثِ " أيّ " قولُه :

3945 بأيِّ كتابٍ أم بأيةِ سُنَّةٍ . . . ترى حُبَّهم عاراً عليَّ وتَحْسَبُ

قوله : " وهو في أيّ أغربُ " إنْ عنى " أيًّا " على الإطلاق فليس بصحيحٍ ، لأنَّ المستفيضَ في النداء أَنْ يُؤَنَّثَ في نداء المؤنث كقولِه تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ [الفجر : 27] ولا نعلَمُ أحداً ذكر تَذْكيرها فيه ، فيقولُ : يا أيُّها المرأة ، إلاَّ صاحبَ " البديع في النحو " ، وإنْ عنى غيرَ المناداةِ فكلامُه صحيحٌ يَقِلُّ تأنيثها في الاستفهامِ وموصولةً وشرطيةً " .

قلت : وأمَّا إذا وقعَتْ صفةً لنكرةٍ وحالاً لمعرفةٍ ، فالذي ينبغي أَنْ يجوزَ الوجهان كالموصولةِ ، ويكون التأنيثُ أقلَّ نحو : " مررتُ بامرأةٍ أيةِ امرأة " و " جاءَتْ هندٌ أيةَ امرأةٍ " ، وكان ينبغي للشيخِ أن ينبِّهَ على هذين الفرعَيْنِ .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82)

قوله : ﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُم ﴾ : يجوزُ في ما أَنْ تكونَ نافيةً ، واستفهاميةً بمعنى النفي ، ولا حاجةَ إليه .

قوله : " ما كانوا " يجوزُ أَنْ تكونَ " ما " مصدريةً ، ويجوزُ أَنْ تكونَ بمعنى الذي ، فلا عائدَ على الأولِ ، وعلى الثاني هو محذوفٌ أي : يَكْسِبونه ، وهي فاعلٌ ب " أَغْنَى " على التقديرَيْن .

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83)

(261/678)

قوله : ﴿ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه تهكُّمٌ بهم . والمعنى : ليس عندهم علمٌ . الثاني : أنَّ ذلك جاء على زَعْمِهم أنَّ عندهم عِلْماً يَنْتَفعون به . الثالث : أنَّ " مِنْ " بمعنى بَدَل أي : بما عندهم من الدنيا بدلَ العلمِ . وعلى هذه الأوجه فالضميران

للكفارِ . الرابع : / أَنْ يكونَ الضَميران للرسل أي : فَرِحَ الرسُل بما عندهم من العلم .

الخامس : أنَّ الأولَ للكفارِ ، والثاني للرسل ، ومعناه : فَرِحَ الكفارُ فَرَحَ ضَحِكٍ واستهزاءٍ بما عند الرسُلِ مِن العلمِ ، إذ لم يَأْخُذوه بقَبولٍ ويمتثِلوا أوامرَ الوحيِ ونواهيه . وقال الزمخشري : " ومنها – أي من الوجوه – أَنْ يُوْضَعَ قولُه : ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ﴾ مبالغةً في نَفْيِ فَرَحِهم بالوحيِ الموجِبِ لأَقْصى الفرحِ والمَسَرَّةِ مع تهكُّمٍ بفَرْطِ خُلُوِّهم من العلم وجَهْلِهم " . قال الشيخ : " ولا يُعَبَّرُ بالجملةِ الظاهرِ كونُها مُثْبتةً عن الجملةِ المنفيةِ ، إلاَّ في قليلٍ من الكلام نحو : " شَرٌّ أهرَّ ذا نابٍ " ، على خلافٍ فيه ، ولما آلَ أمرُه إلى الإثباتِ المحصورِ جازَ . وأمَّا في الآيةِ فينبغي أَنْ لا يُحْمَلَ على القليلِ ؛ لأن في ذلك تَخْليطاً لمعاني الجملِ المتباينةِ .

فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85)

(262/678)

قوله : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ ﴾ : يجوزُ رفعُ " إيمانُهم " اسماً لـ " كان " ، و " يَنْفَعُهم " جملةٌ خبراً مقدماً ، ويجوزُ أَنْ يرتفعَ بأنه فاعلُ " يَنْفَعُهم " ، وفي " كان " ضميرُ الشأن . وقد

تقدَّم لك هذا مُحقَّقاً عند قولِه : ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ ﴾ [الأعراف : 137] وأنه لا يكونُ من بابِ التنازع فعليك بالالتفاتِ إليه ، ودَخل حرفُ النفي على الكونِ لا على النفيِ ؛ لأنه بمعنًى لا يَصِحُّ ولا ينبغي ، كقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ [مريم : 35]

.

قوله : " سُنَّةَ اللَّهِ " يجوزُ انتصابُها على المصدرِ المؤكِّدِ لمضمونِ الجملةِ ، يعني : أنَّ الذي فَعَلَ اللَّهُ بهم سُنَّةٌ سابقةٌ من الله . ويجوزُ انتصابُها على التحذيرِ أي : احذروا سنةَ اللَّهِ في المكذِّبين التي قد خَلَتْ في عبادِه . و " هنالك " في الأصل مكان . قيل : واسْتُعير هنا للزمانِ ، ولا حاجةَ له ، فالمكانيَّةُ فيه ظاهرةٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 504.484 ﴾

(263/678)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في بعض الآيات : على ما أشار إليه بعض السادات ﴿ حم ﴾ [غافر : 1] إشارة إلى ما أفيض على قلب محمد صلى الله عليه وسلم من الرحمن فإن الحاء والميم

من وسط الاسمين الكريمين ، وفي ذلك أيضاً سر لا يجوز كشفه ولما صدرت السورة بما أشار إلى الرحمة وأنها وصف المدعو إليه والداعي ذكر بعد من صفات المدعو إليه وهو الله عز وجل ما يدل على عظم الرحمة وسبقها ، وفي ذلك من بشار المدعو ما فيه .

﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءامَنُواْ ﴾ [غافر : 7] الخ فيه إشارة إلى شرف الإيمان وجلالة قدر المؤمنين وإلى أنه ينبغي للمؤمنين من بني آدم أن يستغفر بعضهم لبعض ؛ وفي ذلك أيضاً من تأكيد الدلالة على عظم رحمة الله عز وجل ما لا يخفى ﴿ فادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [غافر : 14] بأن يكون غير مشوب بشيء من مقاصد الدنيا والآخرة ﴿ يُلْقِى الروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ قيل : في إطلاق الروح إشارة إلى روح النبوة وهو يلقى على الأنبياء ، وروح الولاية ويلقى على العارفين ، وروح الدراية ويلقى على المؤمنين الناسكين ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق ﴾ [غافر : 15] قيل التلاقي مع الله تعالى ولا وجود لغيره تعالى وهو مقام الفناء المشار إليه بقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ هُم بارزون ﴾ من قبور وجودهم ﴿ لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَىْءٌ لّمَنِ الملك اليوم للَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] إذ ليس في الدار غيره ديار ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من التجلي ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ في بذل الوجود للمعبود ﴿ لاَ ظُلْمَ اليوم ﴾ [غافر : 17] فتنال كل نفس من التجلي بقدر بذلها من الوجود لا أقل من ذلك ﴾ .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الازفة إِذِ القلوب لَدَى الحناجر كاظمين ﴾ [غافر : 18] هذه قيامة العوام المؤجلة ويشير إلى قيامة الخواص المعجلة لهم ، فقد قيل : إن لهم في كل نفس قيامة من العتاب والعقاب والثواب والبعاد والاقتراب وما لم يكن لهم في حساب ، وخفقان القلب ينطق والنحول يخبر واللون يفصح والمشوق يستر ولكن البلاء يظهر ، وإذا أزف فناء الصفات بلغت القلوب الحناجر وشهدت العيون بما تخفي الضمائر ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الاعين وَمَا تُخْفِى الصدور ﴾ [غافر : 19] خائنة أعين المحبين استحسانهم تعمد النظر إلى غير المحبوب باستحسان واستلذاذ وما تخفيه الصدور من متمنيات النفوس ومستحسنات القلوب ومرغوبات الأرواح ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قيل أي اطلبوني مني أجبكم فتجدوني ومن وجدني وجد كل شيء فالدعاء الذي لا يرد هو هذا الدعاء ، ففي بعض الأخبار من طلبني وجدني ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ دعائي وطلبي ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ﴾ الحرمان والبعد مني ﴿ داخرين ﴾ [غافر : 60] ذليلين مهينين ﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ [غافر : 61] فيه إشارة إلى ليل البشرية ونهار الروحانية ، وذكر أن سكون الناس في الليل

المعروف على أقسام فأهل الغفلة يسكنون إلى استراحة النفوس والأبدان ، وأهل الشهوة يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم من الرجال والنسوان ، وأهل الطاعة يسكنون إلى حلاوة أعمالهم وقوة آمالهم .

(265/678)

وأهل المحبة يسكنون إلى أنين النفوس وحنين القلوب وضراعة الإسرار واشتعال الأرواح بالأشواق التي هي أحر من النار ﴿ الله الذى جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً ﴾ يشير إلى أنه تعالى جعل أرض البشرية مقراً للروح ﴿ والسماء ﴾ بناء أي سماء الروحانية مبنية عليها ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر : 64] بأن جعلكم مرايا جماله وجلاله ، وفي الخبر "خلق الله تعالى آدم على صورته" وفي ذلك إشارة إلى رد ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدماء ﴾ [البقرة : 30] ولله تعالى من قال :

ما حطك الواشون عن رتبة . . .

عندي ولا ضرك مغتاب

كأنهم أثنوا ولم يعلموا . . .

عليك عندي بالذي عابوا

والكافر لسوء اختياره التحق بالشياطين وصار مظهراً لصفات القهر من رب العالمين ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ ، [الزخرف : 76] تم الكلام على سورة المؤمن والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(266/678)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة غافر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

الإعراب :

(تنزيل) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (من اللّه) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (غافر) نعت ثالث للفظ الجلالة مجرور (شديد) بدل من لفظ الجلالة " 2 " مجرور (ذي) نعت للفظ الجلالة مجرور وعلامة الجرّ الياء (لا) نافية للجنس (إلّا) للاستثناء (هو) ضمير منفصل في محل رفع بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف (إليه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (المصير) .

جملة : " تنزيل الكتاب من اللّه . . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

---

(1) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا .

(2) لأن الإضافة في الصفة المشبّهة ليست محضة بل لفظيّة أي شديد عقابه ، فشديد ليس معرفة تماما .

وجملة : " لا إله إلّا هو . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إليه المصير " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(غافر) ، لفظه اسم فاعل من (غفر) الثلاثيّ وزنه فاعل ومعناه صفة مشبّهة لدلالته على الثبوت .

(قابل) ، مثل غافر .

(التوب) ، مصدر سماعيّ لفعل تاب يتوب باب قال وهو الرجوع عن الذنب ، ومثله توبة ، بوزن فعل بفتح الفاء وسكون العين . . وقال الأخفش هو جمع توبة .

[سورة غافر (40) : الآيات 4 إلى 5]

ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (4) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (5)

الإعراب :

(268/678)

(ما) نافية (في آيات) متعلّق بـ (يجادل) ، (إلّا) للحصر (الذين) موصول في محلّ رفع فاعل (الفاء) لربط المسبّب بالسبب (لا) ناهية جازمة (في البلاد) متعلّق بتقلّبهم .

جملة : " ما يجادل . . إلّا الذين . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يغررك تقلّبهم . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : تنبه فلا يغررك . . " 1 " .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة في محلّ جزم جواب شرط أي مقدّر أي : إن كان المجادلون في آيات اللّه كفّارا فلا يغررك تقلّبهم . . فهم مأخوذون عن قريب بكفرهم أخذ من قبلهم .

---

(5) (قبلهم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (كذّبت) ، (من بعدهم) متعلّق بحال من الأحزاب (الواو) عاطفة في الموضعين (برسولهم) متعلّق بـ (همّت) ، (اللام) للتعليل (يأخذوه) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام .

والمصدر المؤوّل (أن يأخذوه) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (همّت) .

(بالباطل) متعلّق بـ (جادلوا) ، (ليدحضوا) مثل ليأخذوه . . والجارّ متعلّق بـ (جادلوا) ، (به) متعلّق بـ (يدحضوا) ، (الفاء) عاطفة والثانية استئنافيّة (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب خبر كان (عقاب) اسم كان مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلّم المحذوفة لمناسبة الفاصلة . . و(الياء) مضاف إليه .

وجملة : "كذّبت . . قوم" لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " همّت كلّ . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّبت . . قوم .

وجملة : " يأخذوه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " جادلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّبت .

وجملة : " يدحضوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " أخذتهم . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّبت .

وجملة : " كان عقاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

---

(1) يجوز أن تكون جوابا لشرط مقدّر أي : لمّا عاقبتهم كان عقابي عادلا ، أو فهو واقع موقعه والاستفهام للتقرير .

الفوائد

- الجدال في آيات القرآن :

دلت هذه الآية على كفر الذين يكذبون بآيات اللّه عز وجل ، ولا يسلمون بما فيها من أحكام ، بل يحاولون دحضها وإبطالها والاعتراض عليها .

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي (صلّى اللّه عليه وسلم) قال : إن جدالا في القرآن كفر . أخرجه أبو داود .

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سمع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) قوما يتمارون فقال : إنما أهلك من كان قبلكم بهذا . ضربوا كتاب اللّه عز وجل بعضه ببعض .

وإنما أنزل الكتاب يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم منه فقولوه ، وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه .

[سورة غافر (40) : آية 6]

وَكَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (6)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كذلك) متعلّق بمحذوف مطلق عامله حقّت (على الذين) متعلّق بـ (حقّت) .

والمصدر المؤوّل (أنّهم أصحاب . . .) في محلّ رفع بدل من (كلمة) ربّك . . بدل اشتمال بحسب المعنى أو كلّ بحسب اللفظ .

جملة : " حقّت كلمة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

[سورة غافر (40) : الآيات 7 إلى 9]

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

الإعراب :

(الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (من) موصول في محلّ رفع معطوف على المبتدأ (الذين) ، (حوله) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة من (بحمد) متعلّق بحال من فاعل يسبّحون (به) متعلّق بـ (يؤمنون) ، (للذين) متعلّق بـ (يستغفرون) ، (ربّنا) منادى مضاف منصوب (رحمة) تمييز محوّل عن فاعل (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (للذين) متعلّق بـ (اغفر) ، (عذاب) مفعول به ثان منصوب .

جملة : " الذين يحملون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يسبّحون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " يؤمنون به . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يسبّحون .

وجملة : " يستغفرون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يسبحون .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر . .

وجملة القول المقدّرة في محلّ نصب حال من فاعل يستغفرون أي :

يقولون ربّنا وسعت . . .

وجملة : " وسعت . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اغفر . . . " في محل جزم جواب شرط مقدّر أي : إن وسعت رحمتك كلّ شي

ء فاغفر للذين تابوا . . .

(272/678)

وجملة : " تابوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة : " اتّبعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " قهم . . " معطوفة على جملة اغفر . . .

(8) (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (ربّنا) مثل الأول (التي) موصول في محلّ نصب نعت

لجنّات (من) موصول في محلّ نصب معطوفة على الضمير المفعول في (أدخلهم أو وعدتهم) ،

(من آبائهم) متعلّق بحال من فاعل صلح (أنت) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ " 1 " خبره

(العزيز) .

وجملة النداء . . لا محلّ لها اعتراضيّة للاسترحام .

وجملة : " أدخلهم . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة اغفر . . .

وجملة : " وعدتهم . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " صلح " . . لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " إنّك أنت العزيز . . . " لا محلّ لها تعليل للاسترحام .

وجملة : " أنت العزيز . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(9) (الواو) عاطفة والثانية استئنافيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به عامله تق (يومئذ) ظرف زمان منصوب مضاف إلى ظرف آخر متعلّق بـ (تق) ، والتنوين فيه عوض من جملة محذوفة " 2 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (الواو) استئنافيّة (هو) ضمير فصل " 3 " .

وجملة : " قهم . . . (الثانية) " في محلّ جزم معطوفة على جملة اغفر .

وجملة : " تق . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " رحمته . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " ذلك . . . الفوز " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو في محلّ نصب مستعار لتوكيد الضمير المتّصل اسم إنّ .

(2) أي يوم إذ تدخل من تشاء الجنّة أو النار .

(3) أو ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره الفوز ، والجملة الاسميّة خبر المبتدأ ذلك .

(273/678)

الصرف :

(تق) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، أصله تقي ، وفيه إعلال آخر بالحذف لأنه مضارع لمعتلّ الفاء حذفت فاؤه في المضارع ماضيه وقى . . وزنه تع بحذف فائه ولامه .

البلاغة

الإسجال بعد المغالطة : في قوله تعالى " رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ " .

وهذا الفن : هو فن طريف من فنون البلاغة ، أطلق عليه فن " الإسجال بعد المغالطة " ، وهو أن يقصد المتكلم غرضا من ممدوح ، فيأتي بألفاظ تقرر بلوغه ذلك الغرض ، إسجالا منه على الممدوح به ، وبيان ذلك ، أن يشترط شرطا يلزم من وقوعه وقوع ذلك الغرض ، ثم يخبر بوقوعه مغالطة ، وقد يقع الإسجال لغير مغالطة . وهذا النوع هو الذي وقع في الكتاب العزيز .

الفوائد

- حملة العرش :

قيل : هم أربعة من الملائكة ، وهم من أشرف الملائكة وأفضلهم لقربهم من اللّه عز وجل ، وجاء في الحديث ، أنهم ليس لهم كلام غير التسبيح والتحميد والتمجيد ، ما بين أظلافهم إلى ركبهم كما بين سماء إلى سماء ، وقال ابن عباس :

جملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام ،

وروى جابر عن النبي (صلّى اللّه عليه وسلم) قال : أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة اللّه عز وجل من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام .

أخرجه أبو داود .

[سورة النساء (4) : آية 10]

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (10)

الإعراب :

(الواو) في (ينادون) نائب الفاعل (اللام) لام الابتداء للتوكيد (من مقتكم) متعلّق بأكبر (أنفسكم) مفعول به للمصدر مقتكم (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب

متعلّق بـ (مقت) الأول " 1 " ، (تدعون) مثل ينادون (إلى الإيمان) متعلّق بـ (تدعون) ، (الفاء) عاطفة .

جملة : " إنّ الذين كفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ينادون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لمقت اللّه أكبر . . . " لا محلّ لها تفسير للنداء " 2 " .

وجملة : " تدعون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تكفرون " في محلّ جرّ معطوفة على جملة تدعون .

الصرف :

(ينادون) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله يناداون – بألف بعد الدال – التقى ساكنان – الألف والواو – فحذفت الألف وبقي ما قبلها مفتوحا دلالة عليها ، وزنه يفاعون بفتح العين .

(تدعون) ، يأخذ حكم ينادون في الإعلال ، كلاهما معتلّ اللام مبنيّ للمجهول .

[سورة غافر (40) : الآيات 11 إلى 12]

قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11)

ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12)

الإعراب :

(ربّنا) منادى مضاف منصوب (اثنتين) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته ، في الموضعين ، عامل الأول أمتنا ، وعامل

---

(1) أي مقت اللّه إيّاكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم الآن وأنتم في النار . . ولا مانع من توسط الخبر بين المبتدأ والظرف . [. . . . .]

(2) أو هي للاستئناف البيانيّ .

(275/678)

الثاني أحييتنا (الفاء) عاطفة (بذنوبنا) متعلّق بـ (اعترفنا) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (هل) حرف استفهام (إلى خروج) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (سبيل) وهو مجرور لفظا مرفوع محلا .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ربّنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أمتّنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أحييتنا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أمتنا .

وجملة : " اعترفنا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أمتنا .

وجملة : " هل إلى خروج من سبيل " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن قبل اعترافنا بذنوبنا فهل نخرج من النار . . .

(12) (ذلكم) مبتدأ (اللّه) لفظ الجلالة نائب الفاعل (وحده) حال منصوبة من لفظ الجلالة . .

والمصدر المؤوّل (أنّه إذا دعي . . .) في محلّ جرّ بـ (الباء) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ذلكم .

ونائب الفاعل لفعل (يشرك) محذوف دلّ عليه سياق الكلام أي شريك (به) متعلّق بـ (يشرك) ، (الفاء) استئنافيّة (للّه) متعلّق بخبر المبتدأ (الحكم) . .

وجملة : " ذلكم بأنّه . . . " لا محلّ لها تعليل لمقدّر أي لا ليس ثمّة خروج من النار بسبب كفركم .

وجملة الشرط إذا وفعله وجوابه في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " دعي اللّه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "كفرتم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إن يشرك به . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة خبر أنّ .

الجدول ج 24 ، ص : 228

وجملة : " تؤمنوا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " الحكم للّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى " رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ " .

لأن المراد بالميتتين الاثنتين : خلقهم أمواتا أولا ، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم ثانيا .

---

(1) أو في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : فإن جاء الحساب فالحكم للّه .

والمراد بالإحيائتين : الإحياءة الأولى ، وإحياءة البعث . وقد أوضح سبحانه ذلك بقوله : " وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ " ففي تسمية خلقهم أمواتا إماتة مجاز ، لأنه باعتبار ما كان ، وقد أوضح ذلك الزمخشري أبلغ إيضاح في فصله الممتع بهذا الصدد ، ننقله بنصه ، لنفاسته . قال : " فإن قلت : كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتا إماتة ، قلت : كما صح أن تقول : سبحان من صغر حجم البعوضة وكبر حجم الفيل ، وقولك للحفار : ضيق فم الركبة ، ووسع أسفلها ، وليس ثم نقل من صغر إلى كبر ، ولا عكسه ، ولا من ضيق إلى سعة ، ولا عكسه ، وإنما أراد الإنشاء على تلك الصفات . والسبب في صحته

أن الكبر والصغر جائزان معا على المصنوع الواحد ، من غير ترجح لأحدهما . وكذلك الضيق والسعة ، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخذ فجعل صرفه منه كنقله منه " .

[سورة غافر (40) : الآيات 13 إلى 17]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (14) رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (15) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (17)

(277/678)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لكم) متعلّق بحال من (رزقا) ، (من السماء) متعلّق بـ (ينزّل) ، (الواو) اعتراضيّة (ما) نافية (إلّا) للحصر (من) موصول في محلّ رفع فاعل يتذكّر .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يريكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " ينزّل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يريكم .

وجملة : " ما يتذكّر إلّا من . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة " 1 " .

وجملة : " ينيب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

(14) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (مخلصين) حال منصوبة من فاعل ادعوا (له) متعلّق بمخلصين (الدين) مفعول به لاسم الفاعل مخلصين (الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم .

وجملة : " ادعوا اللّه . . . " في محل جزم جواب شرط مقدّر أي :

إن أردتم رضا اللّه فادعوه مخلصين .

وجملة : " كره الكافرون . . . " في محلّ نصب حال . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

(15) (رفيع) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي اللّه (ذو) خبر ثان مرفوع وعلامة الرفع الواو (من أمره) متعلّق بحال من الروح " 2 " ، (على من) متعلّق بـ (يلقي) ، (من عباده) متعلّق بحال من العائد المحذوف (اللام)

---

(1) أو في محلّ نصب حال من ضمير الخطاب في (يريكم) ، أو في (لكم) .

(2) أو متعلّق بـ (يلقي) ومن سببيّة .

الجدول ج 24 ، ص : 230

للتعليل (ينذر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمفعول به الأول محذوف أي الناس

(يوم) مفعول به ثان منصوب بحذف مضاف أي : شدة يوم التلاق أو أهوال يوم التلاق .

(التلاق) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة .

والمصدر المؤوّل : " أن ينذر . . . " في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يلقي) .

وجملة : " هو رفيع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يلقي . . . " في محلّ رفع خبر ثالث للمبتدأ المحذوف .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

(278/678)

وجملة : " ينذر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

(16) (يوم) الثاني بدل من يوم التلاق منصوب (لا) نافية (على اللّه) متعلّق بـ (يخفى) ،

(منهم) متعلّق بحال من شيء (لمن) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ الملك (اليوم)

متعلّق بالمصدر الملك ، (للّه) متعلّق بخبر لمبتدأ محذوف تقديره الملك .

وجملة : " هم بارزون . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لا يخفى . . . شيء " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (هم) " 1 " .

وجملة : " لمن الملك . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي يقول اللّه : لمن الملك

. . .

وجملة : " (الملك) للّه " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر آخر .

أي يقول اللّه يجيب نفسه : الملك للّه . . وجملة القول المقدّرة استئناف بيانيّ .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من الضمير في (بارزون) .

---

(17) (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تجزى) ، (كلّ) نائب الفاعل مرفوع (ما)

حرف مصدريّ " 1 " .

والمصدر المؤوّل (ما كسبت . .) في محلّ جرّ بـ (الباء) متعلّق بـ (تجزى) ، و(الباء)

سببيّة .

(لا) نافية للجنس (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بخبر لا . .

وجملة : " تجزى كلّ نفس . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول المقدّر .

وجملة : " كسبت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " لا ظلم اليوم . . " لا محلّ لها استئناف آخر في حيّز القول .

وجملة : " إنّ اللّه سريع . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(15) رفيع : صفة مشبّهة للثلاثيّ رفع باب كرم أي علا قدره ، وزنه فعيل . . وقد يكون مبالغة اسم الفاعل على فعيل من رفع يرفع باب فتح أي رافع درجات المؤمنين كثيرا . .

(التلاق) ، أصله التلاقي ، مصدر قياسيّ لفعل تلاقى الخماسيّ ، وقياسه أن يكون ما قبل آخره مضموما ، ولكنّه كسر لمناسبة الياء ، بعد رجوع الألف إلى أصلها اليائيّ .

البلاغة

المجاز المرسل : - في قوله تعالى " وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً " .

أي قطرا ، والرزق مسبب عن المطر ، فالعلاقة في هذا المجاز مسببية .

- وفي قوله تعالى " يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ " .

فالمراد بالروح الوحي ، وسمي الوحي روحا لأنه يجري من القلوب مجرى الأرواح من الأجساد ، فهو مجاز مرسل علاقته السببية ، وجعله الزمخشري استعارة تصريحية .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ . . . والعائد محذوف أي كسبته .

الفوائد

- الفرق بين الصفة المشبهة واسم الفاعل :

ورد في هذه الآية قوله تعالى رَفِيعُ الدَّرَجاتِ و(رفيع) صفة مشبهة . ولعلنا من خلال إيضاح الفرق بين الصفة المشبهة واسم الفاعل نستطيع أن نتبيّن معنى كل منهما :

1 - اسم الفاعل يصاغ من المتعدي واللازم كضارب وقائم ومستخرج ومستكبر .

وهي لا تصاغ إلا من اللازم كحسن وجميل .

2 - أنه يكون للأزمنة الثلاثة ، وهي لا تكون إلا للحاضر ، أي الماضي المتصل بالزمن الحاضر .

3 - أن منصوب اسم الفاعل يجوز أن يتقدم عليه نحو " زيد عمرا ضارب " ولا يجوز (زيد وجهه حسن) .

4 - أن معموله يكون سببيا أو أجنبيا نحو (زيد ضارب غلامه وعمرا) . ولا يكون معمولها إلا سببيا تقول : " زيد حسن وجهه " أو (الوجه) . ويمتنع (زيد حسن عمرا) .

5 - أنه لا يخالف فعله في العمل ، وهي تخالفه ، فإنها تنصب مع قصور فعلها تقول : " زيد حسن وجهه " ويمتنع " زيد حسن وجهه " بالنصب .

6 - أنه يجوز حذفه وبقاء معموله ، ولهذا أجازوا " أنا زيدا ضاربه " و " هذا ضارب زيد

وعمرا " بخفض زيد ونصب عمر ، وبإضمار فعل أو وصف منون .

ولا يجوز (مررت برجل حسن الوجه والفعل) بخفض الوجه ونصب الفعل .

7 - أنه يفضل مرفوعه ومنصوبة مثل (زيد ضارب في الدار أبوه عمرا) ويمتنع عند الجمهور (زيد حسن في الحرب وجهه) رفعت أو نصبت -

(281/678)

[سورة غافر (40) : الآيات 18 إلى 20]

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ (18) يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ (19) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يوم) مفعول به ثان منصوب (إذ) ظرف في محلّ نصب بدل من يوم (لدى) ظرف مبني في محلّ نصب متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ القلوب (كاظمين) حال من القلوب " 1 " ، (ما) نافية مهملة (للظالمين) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (حميم) وهو مجرور لفظا مرفوع محلّا (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (شفيع) معطوف على حميم لفظا ، وفاعل

(يعلم) ضمير مستتر يعود على اللّه (ما) موصول في محلّ نصب معطوف على خائنة.

جملة: "أنذرهم.. "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "القلوب لدى الحناجر... "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "ما للظالمين من حميم... "في محلّ نصب حال من يوم الآزفة والرابط مقدّر أي فيه "2".

وجملة: "يطاع... "في محلّ جرّ - أو رفع - نعت لشفيع.

وجملة: "يعلم... "لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "تخفي الصدور.. "لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

(20) (الواو) استئنافيّة (بالحقّ) متعلّق بـ (يقضي)، (الواو) عاطفة (من دونه) متعلّق بحال من العائد المحذوف أي يدعونهم من دونه (لا) نافية

---

(1) جمع بالياء والنون معاملة أصحاب القلوب.

(2) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

(بشيء) متعلّق بـ (يقضون) ، (هو) ضمير فصل " 1 " .

وجملة : " اللّه يقضي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يقضي بالحقّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " الذين يدعون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه يقضي . . .

وجملة : " الذين يدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يقضون . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " إنّ اللّه . . السميع " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(18) الآزفة : مؤنّث الآزف ، اسم فاعل من (أزف) باب فرح أي قرب ، وزنه فاعلة ، والآزفة في الآية نعت لمنعوت محذوف أي القيامة الآزفة .

(20) يقضون : فيه إعلال بالحذف أصله يقضيون بضم الياء نقلت حركتها إلى الضاد ثم حذفت لالتقاء الساكنين .

البلاغة

1 – الكناية : في قوله تعالى " إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ " .

الكلام كناية عن شدة الخوف أو فرط التألم .

2 – الاستعارة : في قوله تعالى " يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ " .

أي النظرة الخائنة ، كالنظرة إلى غير المحرم واستراق النظر إليه وغير ذلك ، وجعل النظرة خائنة إسناد مجازي ، أو استعارة مصرحة أو مكنية وتخييلية بجعل النظر بمنزلة شيء يسرق من المنظور إليه .

---

(1) أو ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره السميع ، والجملة الاسميّة هو السميع خبر إنّ .

الجدول ج 24 ، ص : 235

[سورة غافر (40) : الآيات 21 إلى 22]

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (21) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (22)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام وفيه معنى التخويف (الواو) عاطفة (في الأرض) متعلّق بـ (يسيروا) ، (الفاء) عاطفة (ينظروا) مضارع مجزوم معطوف على (يسيروا) " 1 " ، (كيف) اسم

استفهام في محلّ نصب خبر كان (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول الذين (هم) ضمير فصل " 2 " ، (قوّة) تمييز منصوب (في الأرض) متعلّق بنعت لـ (آثارا) ، (الفاء) عاطفة (بذنوبهم) متعلّق بحال من ضمير المفعول (الواو) عاطفة (ما) نافية (لهم) متعلّق بخبر كان (من اللّه) متعلّق بواق (واق) مجرور لفظا مرفوع محلّا اسم كان ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة بسبب التنوين فهو اسم منقوص .

جملة : " لم يسيروا . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : أغفلوا ولم يسيروا .

وجملة : " ينظروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يسيروا .

وجملة : " كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام كيف ، بتقدير حرف الجرّ .

---

(1) يجوز أن يكون منصوبا بأن مضمرة بعد الفاء ، و(الفاء) سببيّة تقدّمها استفهام .

(2) ضمير الفصل لا يقع إلّا بين معرفتين ، وهنا وقع بين معرفة ونكرة ، ولكن النكرة مشابهة للمعرفة بسبب امتناع دخول أل عليها لأن اسم التفضيل هنا متلو بحرف الجر (من) .

وجملة : "كانوا . . أشدّ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أخذهم اللّه . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كانوا . . .

وجملة : " ما كان لهم من اللّه من واق " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخذهم اللّه .

(22) الإشارة في (ذلك) إلى الأخذ (بالبيّنات) متعلّق بحال من رسلهم . .

والمصدر المؤوّل (أنّهم كانت تأتيهم رسلهم . .) في محلّ جرّ بـ (الباء) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ذلك (الفاء) عاطفة في الموضعين .

وجملة : " ذلك بأنّهم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : "كانت تأتيهم رسلهم . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

(285/678)

وجملة : "كانت تأتيهم رسلهم . . . " في محلّ نصب خبر كانت .

وجملة : "كفروا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كانت .

وجملة : " أخذهم اللّه . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كفروا . .

وجملة : " إنّه قويّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة غافر (40) : الآيات 23 إلى 25]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (23) إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (25)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (بآياتنا) حال من موسى أو من فاعل أرسلنا .

جملة : " أرسلنا . . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر ، وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

(24) (إلى فرعون) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (الفاء) عاطفة (ساحر) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (كذّاب) خبر ثان مرفوع .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسلنا .

وجملة : " (هو) ساحر " في محلّ نصب مقول القول .

(25) (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب قالوا (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل جاءهم (من عندنا) متعلّق بحال من الحقّ " 1 " ، (معه) ظرف منصوب متعلّق بحال من فاعل آمنوا " 2 " . (الواو) استئنافيّة (ما) نافية مهملة (إلّا) للحصر (في ضلال) متعلّق بخبر المبتدأ (كيد) .

وجملة : " جاءهم بالحقّ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " اقتلوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " استحيوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة اقتلوا .

---

(1) أو متعلّق بـ (جاءهم) .

(2) أو متعلّق بـ (آمنوا) .

(286/678)

وجملة : " ما كيد . . إلّا في ضلال " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(24) كذّاب : صيغة مبالغة من الثلاثي كذب وزنه فعّال بفتح الفاء ، وتشديد العين المفتوحة .

(25) استحيوا : فيه إعلال بالحذف ، مضارعه يستحييون – بياءين – نقلت حركة الضم في الياء الثانية إلى الأولى لتخفيف الثقل ، ثمّ حذفت (الياء) الثانية لالتقاء الساكنين

فأصبح يستحيون . فلمّا انتقل الفعل إلى الأمر بقي الإعلال السابق . . وزنه استفعوا .

[سورة غافر (40) : آية 26]

وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (26)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (أقتل) مضارع مجزوم جواب الطلب ، والفاعل أنا (الواو) عاطفة (اللام) لام الأمر (أن) حرف مصدريّ ونصب . في الموضعين (في الأرض) متعلّق بـ (يظهر) " 1 " .

جملة : " قال فرعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ذروني . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أقتل . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي : إن تتركوني أو إن تذروني أقتل . .

وجملة : " يدع . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ذروني .

وجملة : " إنّي أخاف . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " أخاف . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يبدّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يظهر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

والمصدر المؤوّل (أن يبدّل . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله أخاف .

والمصدر المؤوّل (أن يظهر . . .) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل الأول .

[سورة غافر (40) : آية 27]

وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (27)

---

(1) أو متعلّق بحال من الفساد . [. . . . .]

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (بربيّ) متعلّق بـ (عذت) ، (من كلّ) متعلّق بـ (عذت) ، (لا) نافية (بيوم) متعلّق بـ (يؤمن) .

جملة : " قال موسى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّي عذت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " عذت . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لا يؤمن . . . " في محلّ جرّ نعت لكلّ متكبّر .

الصرف :

(عذت) ، فيه إعلال بالحذف فهو معتلّ أجوف أسند إلى تاء الفاعل ، التقى ساكنان عين الفعل ولامه فحذفت عينه وحرّك الأول بالضمّ دلالة على نوع الحرف المحذوف ، وزنه فلت .

[سورة غافر (40) : الآيات 28 إلى 33]

وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ (29) وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (31) وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ (32)

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من آل) متعلّق بنعت ثان لرجل (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (أن) حرف مصدريّ ونصب .

والمصدر المؤوّل (أن يقول) في محلّ جرّ بلام مقدّرة متعلّق بـ (تقتلون) .

(الواو) واو الحال (قد) حرف تحقيق (بالبيّنات) متعلّق بحال من فاعل جاء (من ربّكم) متعلّق بحال من البيّنات " 1 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين (يك) مضارع ناقص مجزوم وعلامة الجزم السكون على النون المحذوفة للتخفيف (الفاء) رابطة لجواب الشرط (عليه) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ كذبه (إن يك صادقا) مثل إن يك كاذبا ، (الذي) اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه ، والعائد محذوف تقديره إيّاه (لا) نافية (من) اسم موصول مفعول به في محلّ نصب .

جملة : " قال رجل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يكتم . . . " في محلّ رفع نعت ثالث لرجل " 2 " .

وجملة : " تقتلون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يقول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ربّي اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " جاءكم . . . " في محلّ نصب حال من (رجلا) ، أو من فاعل يقول .

وجملة : " إن يك كاذبا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أ تقتلون . . .

وجملة : " عليه كذبه . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إن يك صادقا . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إن يك كاذبا .

---

(1) أو متعلّق بـ (جاءكم) .

(2) أو في محلّ نصب حال من رجل لأنه وصف .

وجملة : " يصبكم بعض . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يعدكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " إنّ اللّه لا يهدي . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " لا يهدي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " هو مسرف . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

(29) (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل (الياء) المحذوفة للتخفيف ، وهي مضاف إليه (لكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ الملك (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به الخبر (ظاهرين) حال منصوبة من الضمير في (لكم) ، (في الأرض) متعلّق بظاهرين (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (من)

اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (من بأس) متعلّق بـ (ينصرنا) بتضمينه معنى ينقذنا (جاءنا) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (ما) نافية (إلّا) للحصر (ما) موصول في محلّ نصب مفعول به ثان عامله أريكم أي أعلمكم (الواو) عاطفة (سبيل) مفعول به ثان.

وجملة النداء: "يا قوم" لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: "لكم الملك . . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "من ينصرنا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن جاء بأس اللّه فمن ينصرنا منه.

وجملة: "ينصرنا . . . " في محل رفع خبر المبتدأ (من).

وجملة: "إن جاءنا . . . " لا محلّ لها تفسير للشرط المقدّر.

وجملة: "قال فرعون . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ما أريكم . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "أرى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

الجدول ج 24، ص: 242

وجملة: "ما أهديكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ما أريكم.

(30) (الواو) عاطفة (عليكم) متعلّق بـ (أخاف)، (مثل) مفعول به منصوب . .

وجملة: "قال الذي آمن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال فرعون.

وجملة : " آمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يا قوم (الثانية) " لا محلّ لها اعتراضيّة للتحذير .

وجملة : " إنّي أخاف . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أخاف عليكم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(290/678)

---

(31) (مثل) الثاني بدل من الأول منصوب (من بعدهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول الذين (الواو) اعتراضيّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (للعباد) متعلّق بـ (ظلما) .

وجملة : " ما اللّه يريد . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " يريد ظلما . . . " في محلّ نصب خبر ما .

(32 - 33) (الواو) عاطفة (يا قوم . . يوم التناد) مثل يا قوم . . يوم الأحزاب .

مفردات وجملا ، وعلامة الجرّ في (التناد) الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة لمناسبة الفاصلة . (يوم) بدل من يوم الأول منصوب مثله (مدبرين) حال مؤكّدة من فاعل تولّون (ما) نافية مهملة (لكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ عاصم (من اللّه) متعلّق بعاصم (عاصم) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ (الواو) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب

مفعول به مقدّم ، و(يضلل) حرك بالكسر لالتقاء الساكنين (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ما له من هاد) مثل ما لكم من عاصم ، وعلامة الجرّ في (هاد) الكسرة المقدّرة على (الياء) المحذوفة فهو اسم منقوص .

وجملة : " تولّون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . .

وجملة : " ما لكم من اللّه من عاصم " في محلّ نصب حال من فاعل تولّون .

وجملة : " يضلل اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء " 1 " .

وجملة : " ما له من هاد " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

الصرف :

(29) الرشاد : مصدر سماعيّ للثلاثيّ رشد باب نصر ، وزنه فعال بفتح الفاء ، وثمّة مصدر آخر للفعل هو رشد بضمّ فسكون .

(32) التناد : أصله التنادي ، مصدر الخماسيّ تنادي ، وكان حقّ ما قبل الآخر أن يكون مضموما ولكنّه كسر لمناسبة (الياء) . . وفيه إعلال بالقلب أولا لأن الألف فيه أصلها (واو) من الندوة وهو مكان الالتقاء حيث يتنادى الحاضرون فيه وفيه إعلال بالحذف ثانيا لمناسبة فواصل الآي ، وزنه التفاع .

البلاغة

---

(1) وهي جملة إنّي أخاف عليكم يوم التناد .

الكلام المنصف : في قوله تعالى " أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ " .

فقد استدرجهم هذا الرجل المؤمن ، باستشهاده على صدق موسى ، بإحضاره عليه السلام من عند من تنسب إليه الربوبية ، ببينات عدة لا ببينة واحدة ، وأتى بها معرفة ، ليلين بذلك جماحهم ، ويكسر من سورتهم ، ثم أخذهم بالاحتجاج بطريق التقسيم ، فقال : لا يخلو أن يكون صادقا أو كاذبا ، فإن يك كاذبا فضرر كذبه عائد عليه ، أو صادقا فأنتم مستهدفون لإصابتكم ببعض ما يعدكم به ، وإنما ذكر بعض مع تقدير أنه نبي صادق ، والنبي صادق في جميع ما يعد به ، لأنه سلك معهم . طريق المناصحة لهم والمداراة .

[سورة غافر (40) : آية 34]

وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (34)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (جاءكم) ، (بالبيّنات) متعلّق بحال من يوسف (الفاء)

عاطفة (في شكّ) متعلّق بخبر ما زلتم (ممّا) متعلّق بشكّ (به) متعلّق بحال من فاعل (جاءكم) " 1 " ، (حتّى) حرف ابتداء (من بعده) متعلّق بـ (يبعث) ، (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يضلّ (من) اسم موصول مفعول به (مرتاب) خبر ثان مرفوع.

جملة : " جاءكم يوسف . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . .

وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " ما زلتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

وجملة : " جاءكم به . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " هلك . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

---

(1) أو متعلّق بـ (جاءكم) .

وجملة : " قلتم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة : " لن يبعث اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " يضل اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " هو مسرف . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الصرف :

(زلتم) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون فحذفت عين الفعل للساكنين وزنه فلتم .

(مرتاب) ، اسم فاعل من الخماسيّ ارتاب ، مضارعه يرتاب أعلت عينه لأنه من الريب وأصله يرتيب ، بفتح التاء وكسر الياء ، ثمّ قلبت الياء ألفا لتحرّكها وانفتاح ، ما قبلها ، فلمّا صيغ منه اسم الفاعل بقي الإعلال على حاله ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين . . هذا ويجوز أن يكون لفظ (مرتاب) اسم مفعول أيضا في تعبير آخر .

[سورة غافر (40) : آية 35]

الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)

الإعراب :

(في آيات) متعلّق بـ (يجادلون) ، (بغير) متعلّق بحال من فاعل يجادلون ، وفاعل (كبر) ضمير يعود على مصدر يجادلون المفهوم من السياق أي : كبر جدالهم مقتا " 1 " ، (مقتا) تمييز محوّل عن فاعل منصوب (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (مقتا) ، وكذلك (عند) الثاني فهو معطوف عليه (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يطبع (على كلّ) متعلّق بـ

(يطبع) ، (جبّار) نعت لـ (متكبّر) مجرور مثله .

جملة : " الذين يجادلون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " يجادلون . . . " لا محلّ لها صل الموصول (الذين) .

وجملة : " كبر (جدالهم) . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) " 3 " .

---

(1) يجوز أن يكون الفاعل محذوفا دلّ عليه السياق أي : كبر قولهم مقتا .

(2) أو هو استئناف في حيّز قول المؤمن المتقدّم .

(3) يجوز أن يكون الخبر محذوفا تقديره معاندون ، والجملة استئنافيّة . . وبعضهم

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " يطبع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الفوائد

- لمحة عن " كلّ " :

هي اسم موضوع لاستغراق أفراد المنكّر ، كقوله تعالى كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ والمعرّف المجموع ، نحو (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً) وأجزاء المفرد المعرف ، نحو (كل زيد حسن) ،

فإذا قلت : (أكلت كلّ رغيف لزيد) كانت لعموم الأفراد ، فإن أضفت الرغيف إلى زيد صارت لعموم أجزاء فرد واحد . ومن هنا وجب في قراءة غير أبي عمر وابن ذكوان في الآية التي نحن بصددها كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ بترك تنوين قلب – تقدير (كل) بعد (قلب) ليعم أفراد القلوب كما عمّ أجزاء القلب .

وترد (كل) – باعتبار كل واحد مما قبلها وما بعدها – على ثلاثة أوجه :

1 – أن تكون نعتا لنكرة أو معرفة ، فتدل على كماله ، وتجب إضافتها إلى اسم ظاهر يماثله لفظا ومعنى ، نحو (أطعمنا شاة كلّ شاة) وقول الأشهب بن رملية :

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كلّ القوم يا أمّ خالد

2 – أن تكون توكيدا لمعرفة ، وتجب إضافتها إلى اسم مضمر ، راجع إلى المؤكد كقوله تعالى فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ .

3 – أن تكون تابعة ، بل تالية للعوامل ، فتقع مضافة إلى الظاهر ، نحو كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ وغير مضافة وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ واعلم أن لفظ كل حكمه الإفراد والتنكير ، وأن معناها بحسب ما تضاف إليه .

يجعل جملة يطبع خبرا بإعراب (كذلك) خبرا لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك والجملة اعتراضيّة .

[سورة غافر (40) : الآيات 36 إلى 37]

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (36) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبابٍ (37)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لي) متعلّق بـ (ابن) ، (أسباب) بدل من الأسباب الأول منصوب (الفاء) فاء السببيّة (أطلع) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد (الفاء) ، (إلى إله) متعلّق بـ (أطلع) . .

والمصدر المؤوّل (أن أطّلع . . .) في محلّ رفع معطوف على مصدر منتزع من الأمر المتقدّم أي ليكن منك بناء فاطّلاع منّي .

(37) (الواو) عاطفة (اللام) المزحلقة للتوكيد ، (الواو) استئنافيّة (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله زيّن (لفرعون) متعلّق بـ (زيّن) ، (عن السبيل) متعلّق بـ (صدّ) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية مهملة (إلّا) للحصر (في تباب) خبر المبتدأ كيد . . .

جملة : " قال فرعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء وجوابه . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ابن . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لعلّي أبلغ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أبلغ الأسباب . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

وجملة : " أطّلع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

الجدول ج 24 ، ص : 248

وجملة : " إنّي لأظنّه . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " أظنّه كاذبا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " زيّن . . . سوء عمله " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " صدّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة زيّن .

وجملة : " ما كيد فرعون إلّا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة زيّن " 1 " .

الصرف :

---

(1) أو هي استئنافيّة أخرى .

(تباب) مصدر سماعيّ لفعل تبّ باب نصر ، وزنه فعال بفتح الفاء ، وللفعل مصدر أخرى هي تبّ زنة فعل بفتح فسكون وتبب بفتحتين وتبيب زنة فعيل وكلّها بمعنى الهلاك والخسران .

[سورة غافر (40) : الآيات 38 إلى 44]

وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (38) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (40) وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42)

لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (44)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يا قوم) مرّ إعرابها " 1 " و(النون) في (اتّبعون) نون الوقاية (أهدكم) مضارع مجزوم جواب الطلب (سبيل) مفعول به ثان منصوب .

جملة : " قال الذي . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اتّبعون . . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أهدكم . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بـ (الفاء) أي : إن تتّبعوني أهدكم . . .

(39) (إنّما) كافّة ومكفوفة (الحياة) بدل من اسم الإشارة المبتدأ – أو عطف بيان عليه – مرفوع (هي) ضمير فصل " 2 " وجملة : النداء : " يا قوم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " هذه الحياة . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " إنّ الآخرة . . دار القرار " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

(40) (من) اسم شرط جازم مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية ، ونائب الفاعل في (يجزى) ضمير يعود على من (إلّا) للحصر (مثلها) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (من عمل صالحا) مثل من عمل سيّئة (من ذكر) متعلّق بحال من فاعل عمل (الواو) حالية (الفاء) رابطة لجواب الشرط (فيها) متعلّق بـ (يرزقون) " 3 " ، (بغير) متعلّق بحال من نائب الفاعل " 4 " .

---

(1) في الآية (29) من هذه السورة .

(2) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره دار ، والجملة الاسميّة خبر إنّ .

(3) أو متعلّق بحال من نائب الفاعل .

(4) أو بحال من المفعول المقدّر .

(296/678)

وجملة : " من عمل . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز جواب النداء .

وجملة : " عمل سيّئة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " لا يجزى . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . . والجملة الاسميّة في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " من عمل (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة (من عمل) الأولى .

وجملة : " هو مؤمن . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " أولئك يدخلون . . . " في محلّ جزم جواب الشرط الثاني مقترنة بالفاء .

وجملة : " يدخلون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " يرزقون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يدخلون .

(41) (الواو) عاطفة (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (لي) متعلّق بخبر المبتدأ (إلى النجاة) متعلّق بـ (أدعو) (إلى النار) متعلّق بـ (تدعونني) .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا في الشرطين المتعاطفين . [. . . . .]

(297/678)

وجملة : " يا قوم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يا قوم السابقة .

وجملة : " مالي . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أدعوكم . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (لي) .

وجملة : " تدعونني . . . " في محلّ نصب حال من مقدّر أي وما لكم تدعونني والجملة المقدّرة معطوفة على جملة مالي . . .

(اللام) لام التعليل (أكفر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام

(بالله) متعلّق بـ (أكفر) ، (أشرك) مضارع منصوب معطوف على (أكفر) ، (به) متعلّق بـ (أشرك) ، (ما) اسم موصول " 1 " في محلّ نصب مفعول به (لي) متعلّق بخبر ليس (به) متعلّق بـ (علم) وهو اسم ليس مؤخّر (الواو) عاطفة (إلى العزيز) متعلّق بـ (أدعوكم) .

والمصدر المؤوّل (أن أكفر . . .) في محلّ جرّ بـ (اللام) متعلّق بـ (تدعونني) .

وجملة : " تدعونني (الثانية) " في محلّ نصب بدل من جملة تدعونني (الأولى) .

وجملة : " أكفر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " أشرك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أكفر .

وجملة : " ليس لي به علم . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " أنا أدعوكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تدعونني " 2 " .

وجملة : " أدعوكم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنا) .

(43) (لا) نافية للجنس (جرم) اسم مبني على الفتح في محلّ نصب اسم لا " 3 " ، (ما) موصول في محلّ نصب اسم أنّ " 4 " ، و(النون) الثانية في (تدعونني) نون الوقاية (إليه) متعلّق بـ (تدعونني) ، (له) متعلّق بخبر ليس (دعوة) اسم ليس مؤخّر مرفوع (في الدنيا) متعلّق بدعوة (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (في الآخرة) متعلّق بما تعلّق به (في الدنيا) فهو

---

(1) أو نكرة موصوفة في محلّ نصب ، والجملة بعدها نعت لها .

(2) يجوز أن تكون الجملة حالا من مفعول تدعونني .

(3) انظر مزيد إيضاح وتفصيل في تخريجات (لا جرم) في الآية (22) من سورة هود وفي الآية (23) من سورة النحل .

(4) رسمت (أنّما) في المصحف موصولة ، وحقّها أن تكون مفصولة .

معطوف عليه (الواو) عاطفة (إلى اللّه) متعلّق بخبر أنّ . . (هم) ضمير فصل " 1 " .

والمصدر المؤوّل (أنّما تدعونني . .) في محلّ جرّ بـ (في) المحذوف متعلّق بمحذوف خبر لا " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أنّ مردنا إلى اللّه) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل السابق .

وجملة : " لا جرم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز جواب النداء .

وجملة : " تدعونني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ليس له دعوة . . . في محلّ رفع خبر أنّ . "

(44) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (السين) حرف استقبال (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به " 3 " (لكم) متعلّق بـ (أقول) ، (الواو) عاطفة (إلى اللّه) متعلّق بـ (أفوّض) ، (بالعباد) متعلّق ببصير .

وجملة : " ستذكرون . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا عاينتم العذاب يوم القيامة فستذكرون ما أقول . . .

وجملة : " أقول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، والعائد محذوف .

وجملة : " أفوض . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ستذكرون .

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره أصحاب . . والجملة الاسميّة خبر أنّ .

(2) وفي التخريجات الأخرى هو فاعل لـ (جرم) على زيادة لا أو فاعل (لا جرم) – كلمة واحدة – بمعنى حقّ .

(3) أو حرف مصدري . . والمصدر المؤوّل في محلّ نصب ولا حذف للعائد .

(299/678)

وجملة : " إنّ اللّه بصير . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(38) أهدكم : فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم أصله أهديكم ، وزنه أفعكم .

(41) النجاة : مصدر سماعيّ لفعل نجا باب نصر ، وزنه فعلة بفتح الفاء واللام والعين ساكنة ، وفيه إعلال بالقلب أصله نجوة بفتح الواو ، نقلت حركة الواو إلى الجيم – إعلال بالتسكين – ثمّ قلبت الواو ألفا ، مفتوح ما قبلها ، وثمّة مصادر أخرى للفعل هي نجاء بقلب الواو همزة زنة فعال لفتح الفاء ، ونجو زنة فعل بفتح فسكون ، ونجاية .

البلاغة

التكرير : في نداء قومه بقوله " يا قَوْمِ " .

كرر نداءهم إيقاظا لهم عن سنة الغفلة ، واهتماما بالمنادي له ، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به دعوته ، وترك العطف في النداء الثاني وهو " يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا " لأنه تفسير لما أجمل في النداء قبله من الهداية إلى سبيل الرشاد فإنها التحذير من الإخلاد إلى الدنيا والترغيب في إيثار الآخرة على الأولى .

[سورة غافر (40) : الآيات 45 إلى 46]

فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (46)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (بآل) متعلّق بـ (حاق) . .

والمصدر المؤوّل (ما مكروا . .) في محل جرّ مضاف إليه .

جملة : " وقاه اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف .

الجدول ج 24 ، ص : 254

وجملة : " مكروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " حاق . . . سوء . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وقاه اللّه .

(46) (النار) مبتدأ مرفوع " 1 " ، والواو في (يعرضون) نائب الفاعل (عليها) متعلّق بـ (يعرضون) ، (غدوا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يعرضون) ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل مقدّر تقديره يقول اللّه . . . (أشدّ) مفعول به ثان منصوب بتضمين أدخلوا معنى أذيقوا . .

وجملة : " النار يعرضون عليها . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " يعرضون . . . " في محلّ رفع جرّ المبتدأ النار .

وجملة : " تقوم الساعة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أدخلوا . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي يقول اللّه للملائكة أدخلوا . . .

[سورة غافر (40) : آية 47]

وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (47)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفي في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر " 3 " ، (في النار) متعلّق بحال من فاعل (يتحاجوّن) ، (الفاء) عاطفة (للذين) متعلّق بـ (يقول) ، (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (لكم) متعلّق بـ (تبعا) (الفاء) عاطفة (هل) حرف

استفهام

---

(1) أو بدل من سوء العذاب ، والجملة بعده حال ، أو هو خبر لمبتدأ محذوف والجملة بعده حال أيضا .

(2) أو هي بدل من سوء العذاب في محلّ رفع .

(3) أجاز أبو البقاء أن يكون معطوفا على الظرف (غدوا) متعلّق بما تعلّق به . . .

(300/678)

(عنّا) متعلّق بـ (مغنون) ، (نصيبا) مفعول به لاسم الفاعل مغنون بتضمينه معنى حاملون " 1 " ، (من النار) متعلّق بنعت لـ (نصيبا) .

جملة : " (اذكر) إذ يتحاجّون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتحاجّون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يقول الضعفاء " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يتحاجّون .

وجملة : " استكبروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " إنّا كنّا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كنّا لكم تبعا " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " هل أنتم مغنون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إنّا كنّا . .

[سورة غافر (40) : آية 48]

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ (48)

الإعراب :

(كلّ) مبتدأ مرفوع " 2 " ، (فيها) متعلّق بخبر المبتدأ كلّ (قد) حرف تحقيق (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (حكم) .

جملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " استكبروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " إنّا كلّ فيها . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر نعت له عامله مغنون أي مغنون عنّا غناء نصيبا من النار ، ذكره أبو البقاء .

(2) دلّ على عموم وهو على نيّة الإضافة أي كلّ فريق منّا ، والتنوين فيه عوض من هذا المحذوف . . .

وجملة : "كلّ فيها . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " إنّ اللّه قد حكم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " قد حكم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الفوائد

- مسألة وخلاف :

شجر خلاف بين النحويين في إعراب (كلا) في من قرأ (إنا كلّا فيها) مع أن القراءة المشهورة هي الرفع . أما قراءة الرفع فلا إشكال فيها ، فقال الأخفش : كلّ :

مرفوع بالابتداء . وأجاز الكسائي والفراء (إنا كلا فيها) بالنصب على النعت والتأكيد للضمير في (إنا) . وكذلك قرأ ابن السميقع وعيسى بن عمر . والكوفيون يسمون التأكيد نعتا ، ومنع ذلك سيبويه ، قال : لأن كلّا لا تنعت ولا ينعت بها ، ولا يجوز البدل فيه لأن المخبر عن نفسه لا يبدل منه غيره . وقال معناه المبرد ، قال : لا يجوز أن يبدل من المضمر هنا لأنه مخاطب ، ولا يبدل من المخاطب ولا من المخاطب لأنهما لا يشكلان فيبدل منهما .

وأجاز الفراء والزمخشري أن تقطع "كل" المؤكد بها عن الإضافة لفظا ، تمسكا بقراءة بعضهم (إنا كلا فيها) . وخرجها ابن مالك على أن "كلا" حال من ضمير الظرف ، وفيه ضعف من وجهين : تقديم الحال على عامله الظرف ، وقطع "كل" عن الإضافة لفظا وتقديرا لتصير نكرة فيصبح حالا ، والأجود أن تقدر "كلا" بدلا من اسم إنّ ، وإنما جاز إبدال الظاهر من ضمير الحاضر ، بدل كل ، لأنه مفيد للإحاطة ، مثل : "قمت ثلاثتكم" ، وبدل الكل لا يحتاج إلى ضمير ، ويجوز لـ (كل) أن تلي العوامل إذا لم تتصل بالضمير نحو (جاءني كل القوم) فيجوز مجيئها بدلا ، بخلاف "جاءني كلهم" فلا يجوز إلا في الضرورة ، فهذا أحسن ما قيل في هذه القراءة .

[سورة غافر (40) : آية 49]

وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (49)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة - أو عاطفة (في النار) متعلّق بمحذوف صلة الموصول الذين (لخزنة) متعلّق بـ (قال) ، (يخفّف) مضارع مجزوم جواب الطلب ، والفاعل هو (عنّا) متعلّق بـ (يخفّف) منصوب (من العذاب) متعلّق بـ (يخفّف) " 1 " ومفعوله محذوف أي شيئا .

جملة : "قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : "ادعوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: "يخفّف . . . "لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي: إن تدعوا ربّكم يخفّف . . .

البلاغة

وضع الظاهر موضع المضمر: في قوله تعالى "لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ" .

وضع جهنم موضع الضمير، للتهويل والتفظيع، أو لبيان محلهم فيها، بأن تكون جهنم أبعد دركات النار، وفيها الكفرة، أو لكون الملائكة الموكلين بعذاب أهلها أقدر على الشفاعة، لمزيد قربهم من اللّه تعالى.

[سورة غافر (40): آية 50]

---

(1) يجوز أن يكون الجارّ نعتا للمفعول المحذوف و(من) تبعيضيّة. [. . . . .]

(2) أو معطوفة على جملة قال الذين في السابقة.

قالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (50)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الواو) عاطفة (تك) مضارع مجزوم ناقص وعلامة الجزم السكون الظاهر على النون المحذوفة للتخفيف ، واسمه ضمير مستتر وجوبا تقديره هم يعود على رسلكم ، وفيه تنازع ، و(رسلكم) فاعل تأتيكم مرفوع (بالبيّنات) متعلّق بحال من رسلكم (بلى) حرف جواب ، والمجاب عنه محذوف ، أي : أتونا

فكذّبناهم (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (الواو) استئنافيّة (ما) نافية مهملة (إلّا) للحصر (في ضلال) متعلّق بخبر المبتدأ دعاء .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لم تك تأتيكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول المقدّر أي أ تركتكم رسلكم ولم تك تأتيكم . . .

وجملة : " تأتيكم رسلكم . . . " في محلّ نصب خبر تك .

وجملة : " قالوا . . . (الثانية) " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " بلى والمجاب عنه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قالوا (الثالثة) " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ادعوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أردتم الدعاء فدعوا . . .

وجملة الشرط وجوابه في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما دعاء الكافرين إلّا في ضلال " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

[سورة غافر (40) : الآيات 51 إلى 52]

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (51) يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52)

الإعراب :

---

(1) يحتمل أن تكون من كلام اللّه تعالى لنبيّه ، ويحتمل أن تكون من كلام الخزنة .

(304/678)

(اللام) المزحلقة للتوكيد (الواو) عاطفة في الموضعين (الذين) موصول في محلّ نصب معطوف على رسلنا (في الحياة) متعلّق بـ (ننصر) ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل محذوف دلّ عليه المذكور أي وننصرهم يوم يقوم . .

جملة : "إنّا لننصر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "ننصر . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : "آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "يقوم الأشهاد " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(52) (يوم) بدل من يوم السابق منصوب (لا) نافية (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بخبر مقدّم

للمبتدأ (اللعنة) ومثله (لهم) الثاني . .

وجملة : "لا ينفع . . معذرتهم" في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "لهم اللعنة . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة لا ينفع . .

وجملة : "لهم سوء . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة لهم اللعنة .

[سورة غافر (40) : الآيات 53 إلى 54]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (53) هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (54)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (الهدى) مفعول به ثان منصوب وكذلك (الكتاب) ، (هدى) مفعول لأجله منصوب " 1 " ، (لأولي) متعلّق بذكرى " 2 " .

جملة : "آتينا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "أورثنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتينا .

---

(1) أو مصدر في موضع الحال .

(2) أو متعلّق بنعت لذكرى . .

[سورة غافر (40) : آية 55]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (55)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (لذنبك) متعلّق بـ (استغفر) ، (بحمد) متعلّق بحال من فاعل سبّح (بالعشيّ) متعلّق بـ (سبّح) .

جملة : " اصبر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن آذاك قومك فاصبر كما صبر موسى . . .

وجملة : " إنّ وعد اللّه حقّ " لا محلّ لها استئنافيّة - أو اعتراضيّة - .

وجملة : " استغفر . . . " معطوفة على جملة اصبر .

وجملة : " سبّح . . . " معطوفة على جملة اصبر .

[سورة غافر (40) : آية 56]

إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56)

الإعراب :

(إنّ الذين . . . أتاهم) مرّ إعرابها " 1 " ، (إن) حرف نفي (في صدورهم) خبر مقدّم للمبتدأ كبر (إلّا) أداة حصر (ما) نافية عاملة عمل ليس (بالغيه) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (باللّه) متعلّق بـ (استعذ) ، (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (البصير) خبر ثان مرفوع.

جملة : "إنّ الذين يجادلون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) في الآية (35) من هذه السورة.

وجملة : "يجادلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "أتاهم . . . " في محلّ جرّ نعت لسلطان.

وجملة : "إن في صدورهم إلّا كبر . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة : "ما هم ببالغيه . . . " في محلّ رفع نعت لكبر.

وجملة : "استعذ . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن جاؤوك يجادلونك فاستعذ باللّه.

وجملة : "إنّه هو السميع . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

[سورة غافر (40) : الآيات 57 إلى 58]

لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (57) وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (58)

الإعراب :

(اللام) لام الابتداء (من خلق) متعلّق بأكبر (الواو) عاطفة (لا) نافية .

جملة : " خلق السموات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لكنّ أكثر الناس لا يعلمون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " لا يعلمون . . . " في محلّ رفع خبر لكنّ .

(58) (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (ما) نافية (الذين) اسم موصول في محلّ رفع معطوف على البصير " 1 " و(لا) زائدة لتأكيد النفي (المسيء) معطوف على (الذين) " 2 " ، (قليلا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو

(1 ، 2) للمجاورة ، ويجوز عطفه على الأعمى لأن الواو لمطلق العطف . هذا وإنّ التقابل بالعطف يكون بإحدى طرق ثلاث ، الأولى أن يناسب المجاور نظيره كهذه الآية فقدّم

المؤمنين ليناسب البصير ، والثانية أن يتأخّر المتقابلان كقوله تعالى : مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، والثالثة أن يقدّم مقابل الأول ويؤخّر مقابل الآخر كقوله تعالى : وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ وكلّ ذلك لعوامل بلاغية في أسلوب رفيع .

(307/678)

صفته عامله تتذكّرون (ما) زائدة لتأكيد القلّة . .

وجملة : " ما يستوي الأعمى . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول .

وجملة : " تتذكّرون " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(المسيء) ، اسم فاعل من الرباعيّ أساء ، وزن مفعل بضمّ الميم وكسر العين ، وفي اللفظ إعلال بالتسكين بدءا من المضارع ، فحقّ الياء أن تكون مكسورة ، سكّنت ونقلت حركتها إلى السين قبلها - إعلال بالتسكين - .

البلاغة

1 - فن الإلجاء : في قوله تعالى " لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ " .

(308/678)

وهذا الفن هو فن رفيع من فنون البلاغة ، وهو أن يبادر المتكلم خصمه بما يلجئه إلى الاعتراف بصحته ، وبهذا صح التحاقه مع ما قبله من الكلام ، فإن مجادلتهم في آيات اللّه كانت مشتملة على أمور كثيرة من الجدال والمغالطة واللجاج والسفسطة ، وفي مقدمتها إنكار البعث . وهو في الواقع أصل المجادلة ومحورها الذي تدور عليه ، فبادر سبحانه إلى مبادهتهم بما يسقط في أيديهم ، ويقطع عليهم طرق المكابرة والمعاندة ، وهو خلق السموات والأرض ، وقد كانوا مقرين

بأن اللّه خالقها ، وبأنها خلق عظيم ، فخلق الناس بالقياس شيء هين ، ومن قدر على خلقها مع عظمها كان ولا شك على خلق الإنسان الضعيف أقدر ، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله . والأولوية في هذا الاستشهاد ثابتة بدرجتين : إحداهما : أن القادر على العظيم هو على الحقير أقدر . وثانيتهما : أن مجادلتهم كانت في البعث وهو الإعادة ، ولا شك أن الابتداء أعظم وأبهر من الإعادة .

2 – التفنن وأسلوب الكلام : في قوله تعالى " وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ " .

(309/678)

حيث قدم سبحانه وتعالى " الأعمى " لمناسبة العمى ما قبله من نفي العلم ، حيث أتى قبله " وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " ، وقدم " الَّذِينَ آمَنُوا " بعد لمجاورة البصير ولشرفهم . وفي مثله طرق أن يجاور كل ما يناسبه كما هنا ، وأن يقدم ما يقابل الأول ويؤخر ما يقابل الآخر ، كقوله تعالى " وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ " وأن يؤخر المتقابلان كالأعمى والأصم والسميع والبصير ، وكل ذلك من باب التفنن في البلاغة وأساليب الكلام .

3 – الالتفات : في قوله تعالى " قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ " .

العدول من الغيبة إلى الخطاب في مقام التوبيخ ، يدل على العنف الشديد .

الفوائد

1 – (ولكنّ) معنى لكنّ : الاستدراك ، والتوكيد ، والاستدراك ، مثل : خالد كريم لكنّه جبان ، والتوكيد ، مثل : لو زارني خليل لأكرمته لكنّه لم يزرني . وهذا حرف من الحروف

التي تدخل على الجملة الاسمية فتنصب الأول ويسمى اسمها وترفع الخبر ويسمى خبرها ، وهذه الحروف هي : " إنّ – أنّ – كأنّ – لكنّ – ليت – لعلّ " .

فأمّا (إنّ وأنّ) فحرفان يفيدان التوكيد ، وكأنّ : تفيد التشبيه ، ولعلّ للتوقع ، وليت للتمني .

2 – (ل) لام الابتداء مفتوحة ، معناها التوكيد . ولا تدخل إلّا على الاسم أو الفعل المضارع ، مثل : لخلق السموات والأرض ، وإنّ ربك ليحكم بينهم .

ودخول لام الابتداء على النكرة يجعلها صالحة للابتداء بها ، مثل : لرجل قائم ، كما أن لام الابتداء تجعل الخبر واجب التأخير ، مثل : لزيد قائم ، وتدخل على خبر إنّ ، مثل : إنّ إبراهيم لمجتهد ، ولا يجوز دخولها على خبر باقي أخوات إنّ ، فلا يقال : لعل زيدا لقائم .

(310/678)

---

3 – (الّذين) اسم موصول للجمع المذكّر العاقل مبنيّ على الفتح ، يحتاج إلى صلة وعائد ومحل من الاعراب ومحله من الاعراب على حسب موقعه من الكلام .

[سورة غافر (40) : الآيات 59 إلى 60]

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (59) وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي

أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (60)

الإعراب :

(اللام) المزحلقة للتوكيد (لا) نافية للجنس (فيها) متعلّق بخبر لا (الواو) عاطفة (لكنّ . . . لا يؤمنون) مثل ولكنّ . . . لا يعلمون " 1 " .

جملة : " إنّ الساعة لآتية . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا ريب فيها . . . " في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) .

وجملة : " لكنّ أكثر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ الساعة لآتية .

وجملة : " لا يؤمنون " في محلّ رفع خبر لكنّ .

---

(1) في الآية (57) من هذه السورة .

---

(60) (الواو) عاطفة (أستجب) مضارع مجزوم جواب الطلب (لكم) متعلّق بـ (أستجب) ، (عن عبادتي) متعلّق بـ (يستكبرون) ، (السين) حرف استقبال (داخرين) حال منصوبة ، وعلامة النصب الياء .

وجملة : " قال ربّكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ الساعة لآتية .

وجملة : " ادعوني . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أستجب لكم . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي : إن تدعوني أستجب لكم .

وجملة : " إنّ الذين يستكبرون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " يستكبرون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " سيدخلون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

البلاغة

المجاز والمشاكلة : في قوله تعالى " وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ " .

---

(1) أو تعليليّة لما قبلها بتضمين الدعاء معنى العبادة .

مجاز مرسل علاقته السببية ، لأن الدعاء سبب العبادة . وفي قوله أستجب لكم مشاكلة ، لأن الإثابة مترتبة عليها . وإنما جعلنا الكلام مجازا بقرينة قوله بعد ذلك " إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي " ، ويؤيد هذا المجاز

حديث النعمان بن بشير عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) قال : " الدعاء هو العبادة

"

وقرأ هذه الآية ، وقول ابن عباس : أفضل العبادة الدعاء .

[سورة غافر (40) : الآيات 61 إلى 63]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (61) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63)

الإعراب :

(الذي) اسم موصول في محلّ رفع خبر المبتدأ اللّه (لكم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان تقديره سكنا " 1 " (اللام) للتعليل (تسكنوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام . . . والواو فاعل (فيه) متعلّق بـ (تسكنوا) .

والمصدر المؤوّل (أن تسكنوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعل) .

(الواو) عاطفة (النهار مبصرا) معطوفان على المفعولين المتقدّمين بالترتيب (اللام) المزحلقة ، وعلامة الرفع في (ذو) الواو فهو من الأسماء الخمسة (على الناس) متعلّق بفضل (الواو) عاطفة (لكنّ . . . لا يشكرون) مثل ولكنّ . . لا يعلمون " 2 " .

جملة : " اللّه الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " تسكنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " إنّ اللّه لذو فضل . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل .

---

(1) وذلك بدليل قوله تعالى : لتسكنوا .

(2) في الآية (57) من هذه السورة .

وجملة : " لكنّ أكثر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ اللّه لذو . . .

وجملة : " لا يشكرون " في محلّ رفع خبر لكنّ .

(62) (اللّه ، ربكم ، خالق) ثلاثة أخبار مرفوعة للمبتدأ ذلكم (لا) نافية للجنس (إلّا) للاستثناء (هو) ضمير في محلّ رفع بدل من الضمير المستتر في الخبر المقدّر أي لا إله موجود إلّا هو (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أنّى) اسم استفهام في محلّ نصب على الظرفيّة متعلّق بحال من النائب الفاعل في (تؤفكون) " 1 " .

وجملة : " ذلكم اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا إله إلّا هو . . . " في محلّ رفع خبر رابع للمبتدأ (ذلكم) .

وجملة : " تؤفكون . . . " لا محل لها جواب شرط مقدّر أي إذا كانت هذه صفات اللّه

فأنّى تؤفكون . . .

(63) (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله (يؤفك) ، (الذين) موصول في محلّ رفع نائب الفاعل (بآيات) متعلّق بـ (يجحدون) .

وجملة : " يؤفك الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يجحدون . . . " في محل نصب خبر كانوا . . .

البلاغة

1 - الاسناد المجازي : في قوله تعالى " مُبْصِراً " .

فقد أسند الإبصار إلى النهار ، مع أن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار .

وقرن الليل بالمفعول له ، والنهار بالحال ، لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر ،

---

(1) وقد يضمّن (أنّي) معنى كيف فيكون في محلّ نصب حالا أصلا .

(314/678)

ولأنه لو قيل لتبصروا فيه ، فاتت الفصاحة التي في الاسناد المجازي ، ولو قيل :

ساكنا - والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ألا ترى إلى قولهم ، ليل ساج ،

وساكن لا ريح فيه – لم تتميز الحقيقة من المجاز .

2 – وضع الظاهر موضع المضمر : في قوله تعالى " وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ " فقد كان السياق يقتضي أن يقول ولكن أكثرهم ، فلا يتكرر ذكر الناس ، ولكن في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم ، وأنهم هم الذين يكفرون فضل اللّه ولا يشكرونه ، كقوله : " إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ " " إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ " " إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ " .

[سورة غافر (40) : الآيات 64 إلى 65]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (65)

الإعراب :

(اللّه الذي . . . بناء) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين وكذلك (الفاء) في الموضعين (من الطّيّبات) متعلّق بـ (رزقكم) ، (ذلكم اللّه ربّكم) مرّ إعرابها " 2 " .

جملة : " اللّه الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " صوّركم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أحسن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صوّركم .

وجملة : " رزقكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعل .

---

(1) في الآية (61) من هذه السورة .

(2) في الآية (62) من هذه السورة . [. . . . .]

الجدول ج 24 ، ص : 269

وجملة : " ذلكم اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تبارك اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ذلكم اللّه .

(315/678)

---

(65) - (لا إله إلّا هو) مرّ إعرابها " 1 " (الفاء) عاطفة لربط المسبب بالسبب

(مخلصين) حال منصوبة من فاعل ادعوه (له) متعلّق بحال من (الدين) ، وهو مفعول اسم الفاعل مخلصين (للّه) متعلّق بخبر المبتدأ الحمد . . .

وجملة : " هو الحيّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا إله إلّا هو . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (هو) .

وجملة : " ادعوه . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " الحمد للّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

الصرف :

(صوركم) ، جمع صورة ، اسم لشكل الإنسان وغيره أو هيئته ، وزنه فعلة بضمّ فسكون .

[سورة غافر (40) : آية 66]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (66)

الإعراب :

(من دون) حال من الضمير العائد المحذوف (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب " 3 " و(النون) في (جاءني) نون الوقاية (من ربّي) متعلّق بحال من البيّنات .

---

(1) في الآية (62) من هذه السورة .

(2) أو هي في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر في محلّ نصب حال من فاعل ادعوه أي ادعوه . . قائلين : الحمد للّه .

(3) يجوز أن يكون مجرّدا من الشرط فيتعلّق بـ (نهيت) .

والمصدر المؤوّل (أن أعبد) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (نهيت) أي : نهيت عن عبادة الذين تدعون .

(لربّ) متعلّق بـ (أسلم) . . والمصدر المؤوّل (أن أسلم) في محلّ نصب مفعول به عامله أمرت .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّي نهيت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نهيت . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أعبد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " تدعون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

(317/678)

وجملة : " جاءني البيّنات . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله . . .

وجملة : " أمرت . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة نهيت .

وجملة : " أسلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

[سورة غافر (40) : آية 67]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67)

الإعراب :

(من تراب) متعلّق بـ (خلقكم) بحذف مضاف أي خلق أباكم (ثمّ) حرف عطف في المواضع الخمسة (من نطفة) متعلّق بما تعلّق به (من تراب) فهو معطوف عليه ، وكذلك (من علقة) ، (طفلا) حال من ضمير الخطاب (اللام) للتعليل (تبلغوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ومثله (تكونوا) . . .

والمصدر المؤوّل (أن تبلغوا . . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره يبقيكم .

والمصدر المؤوّل (أن تكونوا . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بالفعل المحذوف فهو معطوف على المصدر الأول .

(الواو) عاطفة (منكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ المؤخّر (من) ، (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ بـ (من) متعلّق بـ (يتوفّى) ، (الواو) عاطفة (لتبلغوا) مثل الأول (الواو) عاطفة . . .

والمصدر المؤوّل (أن تبلغوا . . .) في محلّ جر معطوف على تعليل مقدّر متعلّق بفعل

محذوف تقديره فعل ذلك أي : فعل ذلك لتعيشوا ولتبلغوا . . .

جملة : " هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلقكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يخرجكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " تبلغوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

(318/678)

وجملة : " تكونوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثاني .

وجملة : " منكم من . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقكم .

وجملة : " تبلغوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثالث .

وجملة : " تبلغوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثالث .

وجملة : " لعلّكم تعقلون " لا محلّ لها معطوفة على تعليل مستأنف مقدّر أي لعلّكم تعلمون ذلك ولعلّكم تعقلون .

وجملة : " تعقلون . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

[سورة غافر (40) : آية 68]

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة والثانية رابطة لجواب الشرط (إنّما) كافّة ومكفوفة (له) متعلّق بـ (يقول)، (الفاء) عاطفة.

جملة: "هو الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يحيي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: "يميت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يحيي.

وجملة: "قضى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "يقول . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "كن . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "يكون . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . . .

والجملة الاسميّة لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّما يقول . . .

[سورة غافر (40): الآيات 69 إلى 76]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73)

مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (74)
ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوابَ
جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التعجّبي (إلى الذين) متعلّق بـ (تر) بمعنى تنظر (في ايات) متعلّق بـ (يجادلون) (أنّي) اسم استفهام بمعنى كيف في محلّ نصب حال عامله يصرفون ، و(الواو) في (يصرفون) نائب الفاعل .

جملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يجادلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يصرفون . . . " في محلّ نصب حال من الموصول (الذين) " 1 " .

(70) (الذين) بدل من الموصول الأول في محلّ جرّ " 2 " ، (بالكتاب) متعلّق بـ (كذّبوا) وكذلك (بما) فهو معطوف عليه (به) متعلّق بحال من رسلنا (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (سوف) حرف استقبال .

وجملة : "كذّبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يعلمون . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا جاء العذاب فسيعلمون .

(71) - (إذ) ظرف مستعار للمستقبل في محلّ نصب متعلّق بـ (يعلمون) " 3 " ، (في أعناقهم) متعلّق بخبر المبتدأ الأغلال (السلاسل) مبتدأ خبره جملة يسحبون والرابط مقدّر أي بها " 4 " .

وجملة : " الأغلال في أعناقهم . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(2) أو هو مبتدأ خبره جملة سوف يعلمون بزيادة الفاء .

(3) أو هو مفعول به لفعل يعلمون ، أي يعلمون وقت تصبح الأغلال في أعناقهم .

(4) يجوز أن يكون معطوفا على الأغلال ، فالعطف حينئذ من عطف المفردات .

(320/678)

وجملة : " السلاسل يسحبون (بها) " في محلّ جرّ معطوفة على جملة الأغلال .

وجملة : " يسحبون (بها) " في محلّ رفع خبر المبتدأ السلاسل .

(72) (في الحميم) متعلّق بـ (يسحبون) ، (في النار) متعلّق بـ (يسجرون) ، و(الواو) في الفعلين نائب الفاعل .

وجملة : " يسجرون . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة الأغلال . . . " 1 " .

(73) – (لهم) متعلّق بـ (قيل) ، (أين) اسم استفهام في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بمحذوف خبر مقدم للمبتدأ (ما) ، وهو اسم موصول والعائد محذوف .

وجملة : " قيل . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يسجرون .

وجملة : " أين ما كنتم . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل .

وجملة : "كنتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تشركون " في محلّ نصب خبر كنتم .

(74) – (من دون) متعلّق بحال من العائد المحذوف (عنّا) متعلّق بـ (ضلّوا) بتضمينه معنى غابوا (بل) للإضراب الانتقاليّ (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (ندعو) ، (شيئًا) مفعول به منصوب " 2 " (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يضلّ .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة : " ضلّوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لم نكن ندعو . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو على جملة السلاسل يسحبون .

(2) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر أي لم نكن نعبد شيئا من العبادة حين كنّا نعبدها .

(321/678)

وجملة : " ندعو . . . " في محلّ نصب خبر نكن .

وجملة : " يضل اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(75) - (بما) متعلّق بخبر المبتدأ " ذلكم " ، والإشارة فيه إلى العذاب (في الأرض) متعلّق بـ (تفرحون) ، (بغير) حال من فاعل تفرحون (الواو) عاطفة (بما كنتم تمرحون) مثل بما كنتم تفرحون .

وجملة : " ذلكم بما كنتم . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر .

وجملة : "كنتم تفرحون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تفرحون . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

وجملة : "كنتم تمرحون . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " تمرحون . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

(76) - (خالدين) حال منصوبة من فاعل ادخلوا (فيها) متعلّق بخالدين (الفاء)

استئنافيّة " 1 " ، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره هي أي جهنّم .

وجملة : " ادخلوا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول المقدّر .

وجملة : " بئس مثوى المتكبّرين " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

الصرف :

(71) - السلاسل : جمع السلسلة ، اسم معروف ، وزنه فعللة بكسر الفاء واللام الأولى ، ووزن سلاسل فعالل .

الفوائد

- الجواب وشبه الجواب :

كما أن الفاء تربط الجواب بشرطه ، كذلك تربط شبه الجواب بشبه الشرط ، وذلك في نحو قولنا (الذي يأتيني فله درهم) . وبدخولها فهم ما أراده المتكلم من

---

(1) أو رابطة لجواب شرط مقدّر .

(2) أو جواب شرط مقدّر أي إن تدخلوا جهنّم فبئس مثوى الكافرين هي ، أي فبئس مدخل . .

الجدول ج 24 ، ص : 276

ترتّب لزوم الدرهم على الإتيان ، ولو لم تدخل احتمل ذلك وغيره ، وكذلك ورد مثال ذلك

في الآية التي نحن بصددها في قوله تعالى الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ، فالاسم الموصول في الآية الكريمة حمل معنى الشرط ، لذا جاءت الفاء لتربط شبه الجواب بشبه الشرط ، لأن الاسم الموصول ليس شرطا خالصا . وهذه الفاء بمنزلة لام التوطئة في قوله تعالى لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ في إيذانها بما أراده المتكلم من معنى القسم ، وقد قرئ بالإثبات قوله تعالى وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ أي قرئ بإثبات الفاء وحذفها .

(322/678)

ويقول أبو البقاء العكبري : ومن حذف الفاء من القراء حمله على قوله تعالى وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ وعلى ما جاء من قول الشاعر ، وينسب البيت لعبد الرحمن بن حسان :

من يفعل الحسنات اللّه يشكرها والشر بالشر عند اللّه مثلان

ويجوز أن تجعل (ما) على هذا المذهب بمعنى (الذي) ، وفيه ضعف . واللّه أعلم .

[سورة غافر (40) : آية 77]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (77)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة في الموضعين (إن) حرف شرط جازم (ما) زائدة (نرينّك) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط (بعض) مفعول به ثان منصوب (الذي) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (أو) حرف عطف (نتوفّينّك) مثل (نرينّك) بالعطف (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إلينا) متعلّق بـ (يرجعون) ، و(الواو) فيه نائب الفاعل .

جملة : " اصبر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ وعد اللّه حقّ " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إمّا نرينّك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف أي فذاك أمر بيّن .

وجملة : " نعدهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " نتوفّينّك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نرينّك .

وجملة : " إلينا يرجعون " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ، والجملة الاسميّة في محلّ جزم جواب الشرط الثاني " 1 " .

[سورة غافر (40) : آية 78]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (من قبلك) متعلّق بـ (أرسلنا) " 2 " (منهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (من) (عليك) متعلّق بـ (قصصنا) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (ما) نافية (لرسول) متعلّق بمحذوف خبر كان (بآية) متعلّق بـ (يأتي) ، (إلّا) للاستثناء (بإذن) متعلّق بمحذوف حال مستثنى من عموم الأحوال .

والمصدر المؤوّل (أن يأتي . . .) في محلّ رفع اسم كان " 3 " .

(الفاء) عاطفة (بالحقّ) نائب الفاعل " 4 " ، (هنالك) اسم إشارة في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بـ (خسر) " 5 " .

جملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة جوابا للشرطين معا فيكون التقدير : (إن نعذّبهم في حياتك أو لا نعذبهم فإنّا نعذّبهم في الآخرة) .

(2) أو متعلّق بنعت لـ (رسلا) .

(3) والتقدير : ما كان إتيان آية مسموحا لرسول في كلّ حال إلّا حال كونه بإذن اللّه .

[. . . . .]

(4) أو متعلّق بـ (قضي) ونائب الفاعل محذوف هو مصدر الفعل أي القضاء .

(5) أو مستعار للزمان .

(323/678)

وجملة : " منهم من قصصنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " قصصنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " منهم من لم نقصص . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة منهم من قصصنا .

وجملة : " لم نقصص . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " ما كان لرسول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسلنا .

وجملة : " يأتي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " جاء أمر . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قضي بالحقّ . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " خسر . . . المبطلون " لا محلّ لها معطوفة على جملة قضي بالحقّ .

[سورة غافر (40) : الآيات 79 إلى 81]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها

حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81)

الإعراب :

(لكم) متعلّق بـ (جعل) بتضمينه معنى خلق " 2 " ، (اللام) للتعليل (تركبوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (منها) متعلّق بـ (تركبوا) ، ومن للابتداء أو تبعيضيّة ، (الواو) استئنافيّة (منها) متعلّق بفعل تأكلون (لكم) خبر مقدّم (فيها) متعلّق بحال من منافع - أو بالخبر المحذوف - (منافع) مبتدأ مؤخّر مرفوع (لتبلغوا) مثل لتركبوا (عليها)

---

(1) أو في محلّ نصب نعت ثان لـ (رسلا) .

(2) أو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان تقديره مركوبات بدليل قوله : لتركبوا .

متعلّق بحال من فاعل تبلغوا . .

والمصدر المؤوّل (أن تركبوا) في محلّ جرّ بـ (اللام) متعلّق بـ (جعل) .

والمصدر المؤوّل (أن تبلغوا) في محلّ جرّ بـ (اللام) متعلّق بـ (جعل) معطوف على المصدر الأول .

(عليها ، على الفلك) متعلّقان بـ (تحملون) ، و(الواو) فيه نائب الفاعل (في صدوركم) نعت لحاجة.

(آياته) مفعول به ثان منصوب (الفاء) استئنافيّة (أيّ) اسم استفهام للتوبيخ مفعول به مقدّم منصوب.

جملة: "اللّه الذي . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "جعل . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: "تركبوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: "تأكلون "لا محلّ لها استئنافيّة" 1 " .

وجملة: "لكم فيها منافع . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأخيرة.

وجملة: "تبلغوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر الثاني.

وجملة: "تحملون "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يريكم "لا محلّ لها معطوفة على جملة تحملون" 2 " .

وجملة: "تنكرون "لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة غافر (40) : الآيات 82 إلى 85]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ

فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (83) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (85)

---

(1) أو اعتراضيّة.

(2) أو معطوفة على جملة الصلة جعل لكم . . وما بين الجملتين اعتراض.

(325/678)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام بمعنى التخويف والتوبيخ (الفاء) عاطفة في المواضع الثلاثة (في الأرض) متعلّق بـ (يسيروا) ، (ينظروا) مضارع مجزوم معطوف على (يسيروا) " 1 " ، (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب خبر كان (من قبلهم) متعلّق بمحذوف صلة الموصول الذين (منهم) متعلّق بأكثر (قوّة) تمييز أشدّ منصوب (في الأرض) متعلّق بنعت لآثار (ما) نافية " 2 " والثانية مصدريّة " 3 " ، (عنهم) متعلّق بـ (أغنى) .

جملة: " لم يسيروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أعجزوا فلم يسيروا .

وجملة : " ينظروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يسيروا " 4 " .

وجملة : " كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام على تقدير الجارّ . .

---

(1) يجوز أن يكون منصوبا بأن مضمرة بعد الفاء ، و(الفاء) سببيّة ، تقدّمها استفهام . وانظر الآية (21) من هذه السورة فهذه نظير تلك .

(2) أو هي استفهاميّة في محل نصب مفعول به لفعل أغنى .

(3) أو اسم موصول في محلّ رفع والعائد محذوف .

(4) يجوز أن تكون صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر إذا كانت الفاء سببيّة بعد الاستفهام .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ما أغنى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كانوا . . .

وجملة : " كانوا . . . (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ .

(ما) .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا يكسبون) في محلّ رفع فاعل أغنى .

وجملة : " يكسبون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

(83) (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب فرحوا (بالبيّنات) متعلّق بحال من رسلهم (بما) متعلّق بـ (فرحوا) ، (عندهم) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة الموصول ما (من العلم) حال من الضمير العائد في الصلة المقدّرة (بهم) متعلّق بـ (حاق) ، (به) متعلّق بـ (يستهزئون) .

وجملة : " جاءتهم رسلهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . .

وجملة : " فرحوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " حاق بهم ما كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يستهزئون . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

(84) (فلمّا) مثل الأول (رأوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(الواو) فاعل (بالله) متعلّق بـ (آمنّا) ، (وحده) حال منصوبة (بما) متعلّق بـ (كفرنا) ، (به) متعلّق بمشركين .

وجملة : " رأوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "آمنّا . . . "في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كفرنا . . . "في محلّ نصب معطوفة على جملة آمنا . .

(327/678)

وجملة : "كنّا . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(85) (الفاء) عاطفة (يك) مضارع ناقص مجزوم وعلامة الجزم السكون على النون المحذوفة للتخفيف ، واسم (يك) ضمير مستتر وجوبا تقديره هو يعود على (إيمانهم) " 1 " بحسب قاعدة التنازع ، ففاعل (ينفعهم) هو إيمانهم (لمّا) مثل الأول ومتعلّق بمضمون الجواب (سنّة) مفعول مطلق لفعل محذوف " 2 " ، (التي) اسم موصول في محلّ نصب نعت لسنّة (في عباده) متعلّق بـ (خلت) ، (الواو) عاطفة (خسر هنالك الكافرون) مرّ إعراب نظيرها " 3 " .

وجملة : " لم يك ينفعهم إيمانهم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا " 4 " .

وجملة : " ينفعهم إيمانهم . . . "في محلّ نصب خبر يك .

وجملة : " رأوا . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : لمّا رأوا بأسنا لم يك ينفعهم إيمانهم إذا آمنوا . . . .

وجملة : " (سنّ اللّه) ذلك سنّة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو اعتراضيّة - وجملة : " قد خلت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " خسر هنالك الكافرون " لا محلّ لها معطوفة على جملة لم يك . . .

---

(1) أو هو ضمير الشأن .

(2) أو مفعول به لفعل محذوف على التحذير أي : احذروا سنّة اللّه .

(3) في الآية (78) من هذه السورة .

(4) أو معطوفة على مقدّر ناتج عن قولهم آمنّا . . أي فآمنوا فلم يك ينفعهم إيمانهم .

[. . . . .]

(328/678)

الصرف :

(سنّت) ، رسمت التاء مبسوطة في المصحف ، وحقّها أن تكون مربوطة .

البلاغة

فن التهكم : في قوله تعالى " فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ " .

فقد أظهروا الفرح بذلك ، وهو ما لهم من العقائد الزائفة ، والشبه الداحضة .

وتسميتها علما للتهكم بهم .

الفوائد

- أنواع التنوين :

(329/678)

---

1 - تنوين التمكين : وهو اللاحق للاسم المعرب المنصرف إعلاما ببقائه على أصله ، وأنه لم يشبه الحرف فيبنى ، ولا الفعل فيمنع الصرف ، ويسمى أيضا " تنوين الصرف " وذلك " كزيد ورجل ورجال " وقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ 2 - تنوين التنكير : وهو اللاحق لبعض الأسماء : المبنية ، فرقا بين معرفتها ونكرتها ، ويقع في باب اسم الفعل بالسماع ك (صه ومه وإيه) ، وفي العلم المختوم بـ (ويه) بقياس نحو : (جاءني سيبويه وسيبويه آخر) . والفرق بين (إيه) و(إيه) أن الأولى غير المنونة فتعني زدني من حديثك المعهود الذي تسمعني إياه ، ومعنى (إيه) بالتنوين زدني من أي حديث تشاء .

وأما تنوين " رجل " ونحوه من المعربات فتنوين تمكين ، لا تنوين تنكير ، كما قد يتوهم بعض الطلبة ، ولهذا لو سميت به رجلا بقي ذلك التنوين بعينه مع زوال التنكير .

3 – تنوين المقابلة : وهو اللاحق لنحو (مسلمات) جعل في مقابلة النون في " مسلمين " .

وقيل : هو عوض عن الفتحة نصبا ، ولو كان كذلك لم ينون في حالة الرفع والجر ، وقيل : هو تنوين التمكين ، ويرده ثبوته مع التسمية به كعرفات ، كما تبقى نون مسلمين مسمى به ، وتنوين التمكين لا يجامع العلتين ، ولهذا لو سمي بـ (مسلمة أو عرفة) زال تنوينهما .

4 – تنوين العوض : وهو اللاحق عوضا من حرف أصلي : مثل (جواز وغواش) فإنه عوض من الياء المحذوفة ، أو عوضا من حرف زائد : كجندل ، فإن تنوينه عوض من ألف جنادل ، قال ذلك ابن مالك ، والذي يظهر خلافه ، وأنه تنوين الصرف وليس ذهاب الألف كذهاب الياء من (جوار وغواش) .

(330/678)

أو عوضا من المضاف إليه مفردا أو جملة ، فالمفرد ، هو التنوين اللاحق لـ (بعض وكل) إذا قطعتا عن الإضافة كقوله تعالى وَكُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ . وقيل هو تنوين التمكين رجع لزوال الإضافة التي كانت تعارضه .

وأما تنوين الجملة ، فهو اللاحق لـ (إذ) كقوله تعالى وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ والتقدير (فهي يوم إذ انشقت) ثم حذف الجملة المضاف إليها للعلم بها ، وجيء بالتنوين

عوضا عنها .

5 – تنوين الترنّم : وهو اللاحق للقوافي المطلقة ، بدلا من حرف الإطلاق ، وهو (أي حرف الإطلاق) الألف والواو والياء ، وذلك في إنشاد بني تميم ، ولا يختص هذا التنوين بالاسم بدليل قول جرير

أقلي اللوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت فقد أصابن

الأصل : أصابا ، الألف للإطلاق وأبدلت بنون للترنم .

6 – تنوين الضرورة : وهو اللاحق لما لا ينصرف كقول امرئ القيس :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقال لك الويلات إنك مرجلي

نون الشاعر " عنيزة " وهي ممنوعة من الصرف للضرورة ، وللمنادى المبني على الضم ، كقول الأحوص :

سلام اللّه يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام

نون الشاعر " مطر " وهو منادى مبني على الضم لا يجوز تنوينه إلا لضرورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 24 صـ 219.284 ﴾

(331/678)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(40) سورة غافر

مكية وآياتها خمس وثمانون

[سورة غافر (40) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (4)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (5) وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (6)

اللغة :

(حم) : تقدم القول في أوائل السور بما يغني عن المزيد ونضيف هنا الآن ما قاله الجوهري : " وآل حم سور في القرآن فأما قول العامة الحواميم فليس من كلام العرب " وقال أبو عبيدة : " الحواميم سور في القرآن على غير قياس " قال " والأولى أن تجمع بذوات حم " ويتلخص من هذا أن هذه السور السبع تسمى الحواميم وتسمى آل حم وتسمى ذوات حم فلها جموع

ثلاثة خلافا للجوهري الذي أنكر الأول وقال الكميت يمدح آل البيت :

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منا تقي ومعرب

(332/678)

فهو بمعنى ذوات أي في السور المنسوبة إلى هذا اللفظ ومن المعلوم أن لفظ آل كما يطلق على الأهل يطلق بمعنى ذو فيذكر قبل ما لا يصح تثنيته وجمعه من الأسماء المركبة المركبة ونحوها كتأبط شرا ، فإذا أرادوا تثنيته وجمعه وهو جملة لا يتأتى فيها ذلك ولم يعهد مثله في كلام العرب زادوا قبله لفظ آل أو ذو فقالوا : جاءني آل تأبط شرا أو ذو تأبط شرا أي الرجلان أو الرجال المسمون بذلك ومنه آل حم بمعنى الحواميم في قول الكميت الآنف الذكر .

(التَّوْبِ) : في المختار : " التوب الرجوع عن الذنب وبابه قال وتوبة أيضا وقال الأخفش التوب جمع توبة كدوم ودومة " .

(الطَّوْلِ) : الفضل والزيادة والانعام الواسع في الصحاح :

" والطول بالفتح : المن يقال منه طال يطول من باب قال إذا امتن عليه " وقال الماوردي : " الفرق بين المن والفضل أن المن عفو عن ذنب والتفضل إحسان غير مستحق " .

الاعراب :

(حم ، تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) تقدم القول في

(333/678)

إعراب فواتح السور وأيسر ما فيه أنها خبر لمبتدأ مضمر أو مبتدأ والخبر ما بعدها ، وتنزيل الكتاب مبتدأ ومن اللّه خبره والعزيز العليم صفتان . (غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ) هذه صفات أيضا للجلالة وسيأتي في باب الفوائد ما قيل في المغايرة بين بعض الصفات والموصوف من حيث التعريف والتنكير . (لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) يجوز أن تكون هذه الجملة صفة كما قال أبو البقاء ولكن يرد عليه أن الجملة لا تكون صفة للمعارف ويمكن أن يريد أنه صفة لشديد العقاب فالأولى أن تكون جملة مستأنفة وأن تكون حالا لازمة وقد تقدم إعراب كلمة الشهادة مفصلا ، وإليه خبر مقدم والمصير مبتدأ مؤخر . (ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) ما نافية ويجادل فعل مضارع مرفوع وفي آيات اللّه متعلقان بيجادل وإلا أداة حصر والذين فاعل وجملة كفروا صلة . (فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ) الفاء الفصيحة ولا ناهية ويغررك فعل مضارع مجزوم بلا والكاف مفعول به وتقلبهم فاعل وفي البلاد متعلقان بتقلبهم والمعنى إذا ثبت عندك أن المجادلين في آيات اللّه

كفار فلا تغترر بتقلبهم في البلاد بالتجارات المربحة فإنهم مأخوذون بكفرهم .

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ) كذبت فعل ماض والتاء للتأنيث وقبلهم ظرف متعلق بمحذوف حال وقوم نوح فاعل والأحزاب عطف على قوم نوح وهم قوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم ومن بعدهم متعلقان بمحذوف حال . (وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ) وهمت عطف على كذبت وكل أمة فاعل وبرسولهم متعلقان بهمت واللام للتعليل ويأخذوه فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل والهاء مفعول به ومعنى ليأخذوه ليتمكنوا

(334/678)

من الإيقاع به . (وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ) وجادلوا عطف على همت وبالباطل متعلقان بمحذوف حال وليدحضوا اللام للتعليل ويدحضوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وبه متعلقان بيدحضوا والحق مفعول به ، فأخذتهم عطف على جادلوا ، فكيف : الفاء عاطفة وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم وعقاب اسم كان مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اتباعا لرسم المصحف .

(وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ) الكاف يجوز أن تكون نعتا لمصدر محذوف وقد تقدم تقرير ذلك أكثر من مرة ويحتمل أن تكون خبر لمبتدأ محذوف أي والأمر كذلك وكلمة ربك فاعل وعلى الذين كفروا متعلقان بحقت وأنهم أصحاب النار المصدر المؤول في محل رفع بدل من كلمة ربك أو في محل نصب بنزع الخافض وهو لام التعليل .

الفوائد :

1- التغاير بين الموصوف والصفة :

من مباحث النحو الجليلة وقوع التغاير ، في الظاهر ، بين الموصوف والصفة فلقائل أن يقول : كيف جاز وصف المعرفة وهو اللّه سبحانه بغافر الذنب وقابل التوب وشديد العقاب لأن هذه الثلاث مشتقات ، وإضافة المشتق لا تفيده تعريفا فمن ثم وقع التغاير المشار إليه ، وقد أجاب سيبويه عن ذلك بقوله : " إن كل ما إضافته غير محضة يجوز أن تجعل محضة وتوصف به المعارف إلا الصفة المشبهة "

أما الكوفيون فلم يستثنوا الصفة المشبهة أيضا فقالوا في نحو حسن الوجه إنه يجوز أن تصير إضافته محضة ، فعلى مذهبهم يصح أن تكون الثلاث نعوتا ، وعلى مذهب سيبويه يعرب شديد العقاب بدلا ، وفيما يلي تقرير الزمخشري بهذا الصدد قال : " فإن قلت : كيف اختلفت هذه الصفات تعريفا وتنكيرا والموصوف معرفة يقتضي أن يكون مثله معارف ؟ قلت : أما غافر الذنب وقابل التوب فمعرفتان لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين وانه يغفر الذنب ويقبل التوب الآن أو غدا حتى يكونا في تقدير الانفصال فتكون إضافتهما غير حقيقية وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش وأما شديد العقاب فأمره مشكل لأنه في تقدير شديد عقابه لا ينفك من هذا التقدير وقد جعله الزجاج بدلا وفي كونه بدلا وحده بين الصفات نبو ظاهر والوجه أن يقال لما صودف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة فقد آذنت بأن كلها أبدال غير أوصاف ومثل ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن فهي محكوم عليها بأنها من بحر الرجز فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن كانت من الكامل ، ولقائل أن يقول هي صفات وإنما حذف الألف واللام من شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظا فقد غيروا كثيرا من كلامهم عن قوانينه لأجل الازدواج . . . . على أن الخليل قال في قولهم ما يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذلك وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل كذا ، أنه على نية الألف واللام كما كان الجماء الغفير على نية طرح الألف ، واللام ومما سهل ذلك الأمن من اللبس وجهالة

الموصوف . ويجوز أن يقال قد تعمد تنكيره وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى مالا شيء أدهى منه وأمرّ لزيادة الإنذار . ويجوز أن

يقال هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريق الابدال "

.

2- نكتة زيادة الواو :

(336/678)

وفي زيادة الواو في قوله وقابل التوب نكتة جليلة وهي إفادة الجمع بين رحمتي مغفرة الذنب وقبول التوب ، وروي أن عمر بن الخطاب افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام فقيل له تتابع في هذا الشراب فقال عمر لكاتبه اكتب من عمر إلى فلان سلام عليك وأنا أحمد اللّه الذي لا إله إلا هو ، بسم اللّه الرحمن الرحيم حم إلى قوله إليه المصير وختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة ، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول قد وعدني اللّه أن يغفر لي وحذرني عقابه فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته فلما بلغ عمر قال هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم قد زلّ زلة فسددوه ووفقوه وادعوا له اللّه أن يتوب عليه ولا تكونوا أعوانا

للشياطين عليه . قلت :

وما فعله عمر رضي اللّه عنه يجب أن يكون مثالا يحتذى في حسن الأدب وطريقة الهداية التي تهدي بالتي هي أحسن وتتفادى الغلظة والشدة في القول وسوء التنديد بما يفعله المذنب .

3- الجدال مذموم إلا في الحق :

وفي قوله " ما يجادل في آيات اللّه إلا الذين كفروا " إلماع إلى ما ينطوي عليه الجدال المذموم لادحاض الحق وإطفاء نور اللّه ، أما الجدال في الآيات لإزالة مشكلها وحل ملتبسها ومقارعة العلماء في

استنباط معانيها وطرق إعرابها وحسن بيانها فأمر محمود بل هو مطلوب مفروض وعلى هذا الأساس ورد قوله صلى اللّه عليه وسلم :

" إن جدالا في القرآن كفر " فقد أورده منكرا للتمييز بين جدال وجدال .

4- البدلية في قوله " إنهم من أصحاب النار " :

أعربنا " انهم من أصحاب النار " بدلا من كلمة ربك ولم نوضح نوع البدل والظاهر أنه يصح أن يكون بدلا مطابقا أو بدل اشتمال فإذا نظرنا إلى اللفظ كان مطابقا لاتحاد مدلوله مع مدلول البدل وإذا اعتبرنا المعنى كان بدل اشتمال لأن معناه وعيده إياهم ، وحكمه الأزلي

بشقائهم.

]

(337/678)

سورة غافر (40) : الآيات 7 إلى 9]

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

الإعراب:

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ) الذين مبتدأ وجملة يحملون العرش صلة ومن حوله

عطف على الذين وحوله ظرف متعلق بمحذوف صلة الذين وجملة يسبحون بحمد ربهم خبر الذين وبحمد متعلقان بمحذوف حال أي ملابسين للحمد ويؤمنون به عطف على

يسبحون والبحث في معنى حملة العرش ومن هم يرجع إليه في المطولات . (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً) ويستغفرون عطف على ما قبله وللذين متعلقان بيستغفرون وجملة آمنوا صلة وربنا منادى مضاف حذف منه حرف النداء وهو مقول قول محذوف في محل نصب على الحال أي قائلين ، ووسعت فعل وفاعل وكل شيء مفعول به ورحمة وعلما تمييزان والتمييز هنا محول عن الفاعل أي وسعت رحمتك كل شيء ووسع علمك كل شيء .

(338/678)

)

فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) الفاء الفصيحة واغفر فعل أمر وفاعله أنت وللذين متعلقان باغفر وجملة تابوا صلة والمعنى فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع السبيل القويمة ، واتبعوا سبيلك عطف على للذين تابوا وقهم : ق فعل أمر مبني على حذف حرف العلة والهاء مفعول به أول وعذاب الجحيم مفعول به ثان . (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) ربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء وأدخلهم عطف على ما تقدم وأدخلهم فعل أمر

للدعاء والفاعل مستتر تقديره أنت والهاء مفعول به أول وجنات عدن مفعول به ثان على السعة والتي صفة وجملة وعدتهم صلة التي ومن في محل نصب عطف على مفعول أدخلهم أو على مفعول وعدتهم وقال الفراء والزجاج " نصبه من مكانين إن شئت على الضمير في أدخلهم وإن شئت على الضمير في وعدتهم وجملة صلح صلة " والأول أرجح ومن آبائهم وما عطف عليه في محل نصب حال .

(339/678)

)

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) إن واسمها وأنت مبتدأ أو ضمير فصل والعزيز الحكيم خبران لأنت والجملة خبر انك أو خبران لإن وأنت لا محل لها كما تقدم . (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ) الواو عاطفة وقهم فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت ومفعول به والسيئات مفعول به ثان والواو عاطفة ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وتق فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والسيئات مفعول به ويومئذ الظرف متعلق بتق وإذ مضاف ليوم والتنوين عوض من جملة محذوفة وقصده من الكلام السابق أي يوم إذ تدخل من تشاء الجنة ومن تشاء النار والفاء رابطة لجواب الشرط وقد حرف تحقيق

ورحمته فعل وفاعل ومفعول به والجملة لا محل لها . (وَذِلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ذلك مبتدأ وهو مبتدأ ثان والفوز العظيم خبر ويجوز إعراب هو ضمير فصل لا محل له والإشارة إلى ما ذكر من الرحمة ووقاية السيئات .

البلاغة :

في قوله " ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم " فن طريف من فنون البلاغة أطلق عليه فن " الاسجال بعد المغالطة " وهو أن يقصد المتكلم غرضنا من ممدوح فيأتي بألفاظ تقرر بلوغه ذلك الغرض إسجالا منه على الممدوح به ، وبيان ذلك أن يشترط شرطا يلزم من وقوعه وقوع ذلك الغرض ثم يخبر بوقوعه مغالطة وإن لم يكن قد وقع بعد ليقع المشروط ، وقد يقع الاسجال لغير مغالطة وهذا النوع هو الذي وقع في الكتاب العزيز وقد تقدم بحثه ومثاله في آل عمران ، أما النوع الأول فيقع في الشعر كقول ابن نباتة السعدي :

جاء الشتاء وما عندي له عدد إلا ارتعادي وتصفيقي بأسناني

فإن هلكت فمولانا يكفنني هبني هلكت فهبني بعض أكفاني

[سورة غافر (40) : الآيات 10 إلى 12]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12)

الإعراب :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) كلام مستأنف مسوق للشروع في بيان أحوال الكفرة بعد دخولهم النار . وإن واسمها وجملة كفروا صلة الذين وجملة ينادون خبر إن وينادون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل ، والمنادون هم الملائكة بعد أن مقت الكفار أنفسهم وهم يكتوون بنار جهنم ، واللام لام الابتداء ومقت اللّه مبتدأ والاضافة من إضافة المصدر لفاعله والمفعول به محذوف أي إياكم وأكبر خبر ومن مقتكم متعلقان بأكبر وأنفسكم مفعول مقتكم . (إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ) إذ

ظرف متعلق بمقت اللّه وإن توسط بينهما الخبر لأن الظروف يتوسع فيها ما لا يتوسع في غيرها ومنع ذلك أبو البقاء لما تقدم وجعل الظرف متعلقا بفعل محذوف تقديره مقتكم إذ

تدعون ، وجملة تدعون في محل جر بإضافة الظرف إليها وتدعون فعل مضارع مبني للمجهول والواو هي نائب الفاعل وإلى الإيمان متعلقان بتدعون ، فتكفرون الفاء عاطفة وتكفرون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والمعنى المتحصل من الآية أنهم عند ما يزجون في غيابات النار ويذوقون الهول من احتراقهم بها ينطلقون بالملامة بعضهم على بعض ويتراشقون التهم ويلقي كل واحد الملامة على الآخر فيدعون من مكان سحيق أن مقت اللّه إياكم أو أنفسكم الأمّارة بالسوء إذ تدعون في الدنيا من جهة الأنبياء فلا تصيخون للسمع ، ولا تبالون بالنصح والإرشاد ، سادرين في مطاوعة أهوائكم الجموح.

(قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ) قالوا فعل وفاعل وربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء وأمتنا فعل ماض والتاء فاعل ونا ضمير متصل في نصب مفعول به واثنتين مفعول مطلق ناب عدده عن المصدر أي إماتتين اثنتين وكذلك وأحييتنا اثنتين ، واعترفنا فعل وفاعل وبذنوبنا متعلقان باعترفنا ، فهل الفاء عاطفة وهل حرف استفهام والى خروج خبر مقدم ومن حرف جر زائد وسبيل مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر . (ذِلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ) ذلكم مبتدأ والاشارة إلى العذاب وبأنه خبر وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة دعي في محل جر بإضافة الظرف إليها واللّه نائب فاعل ووحده حال وجملة كفرتم لا محل لها لأنها جواب إذا وجملة الشرط

وجوابه خبر أنه والمراد كفرتم بالتوحيد . (وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ)

الواو عاطفة وإن شرطية ويشرك فعل الشرط مجزوم وهو فعل مضارع مبني للمجهول وبه سد مسد نائب الفاعل وتؤمنوا جواب الشرط والفاء عاطفة لأن هذا الكلام من جملة ما يقال لهم في الآخرة والحكم مبتدأ والله خبره والعلي الكبير صفتان .

البلاغة :

1- المجاز المرسل :

في قوله " ربنا أمتنا اثنتين " مجاز مرسل لأن المراد بالميتتين الاثنتين خلقهم أمواتا أولا واماتتهم عند انقضاء آجالهم ثانيا والمراد بالإحياءتين الاحياءة الأولى واحياءة البعث وقد أوضح سبحانه ذلك بقوله : " وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم " ففي تسمية خلقهم أمواتا إماتة مجاز لأنه باعتبار ما كان ، وقد أوضح ذلك الزمخشري أبلغ إيضاح في فصله الممتع بهذا الصدد ننقله بنصه لنفاسته قال : " فإن قلت كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتا إماتة ، قلت : كما صح أن تقول : سبحان من صغر حجم البعوضة وكبر حجم الفيل ، وقولك للحفار ضيّق فم الركية ووسّع أسفلها وليس ثم نقل من صغر إلى كبر ولا عكسه ولا

من ضيق إلى سعة ولا عكسه وإنما أرد الإنشاء على تلك الصفات والسبب في صحته أن الكبر والصغر جائزان معا على المصنوع الواحد من غير ترجح لأحدهما وكذلك الضيق والسعة فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر فجعل صرفه منه كنقله منه " .

2- الاستفهام بمعنى اليأس :

(343/678)

وفي قوله " فهل إلى خروج من سبيل " في هذا الاستفهام يأس مقنط واستحالة مفرطة كأنهم لفرط ما يكابدونه يتمنون الخروج من هذا الأسى المطبق من الهول المستحكم ولكن أي تمن ؟ إنه تمني من غلب عليه اليأس والقنوط وتنكير خروج للدلالة على أي خروج كان سواء أكان سريعا أم بطيئا وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيرا ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله " ذلكم بأنه إذا دعي اللّه وحده كفرتم " ومعناه أن السبب يعود إلى كفركم فلا تطمعوا في زوال ما أنتم فيه لأنه جريرتكم وعلى أنفسكم تقع الملامة وقد تعلق الشعراء بأهداب هذا التعبير البديع فقال بعضهم :

هل إلى نجد وصول وعلى الخيف نزول

وقصدهم أن هذا أمر غلب فيه اليأس على الطمع وحيل بين المتمني وما يتمناه.

[سورة غافر (40) : الآيات 13 إلى 18]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (14) رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (15) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (17)

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ (18)

اللغة:

(الْآزِفَةِ) : القيامة سميت بذلك لأزوفها أي لقربها من أزف الرحيل أي قرب وفي المصباح: "أزف الرحيل أزفا من باب تعب وأزوفا دنا وقرب وأزفت الآزفة القيامة" وفي الأساس: أزف الرحيل:

دنا وعجل ومنه أقبل يمشي الأزفى بوزن الجمزى وكأنه من الوزيف والهمزة عن واو ،

وساءني أزوف رحيلهم وأزف رحيلهم . . . .

والآزفة القيامة لأزوفها . قال هدبة :

وبادرها مصر العشيّة قرمها ذر البيت يغشاه من القرّ آزف

(الْحَناجِرِ) : في المختار : " والحنجرة بالفتح والحنجور بالضم الحلقوم " وفي القاموس : " والحنجور السفط الصغير وقارورة للذريرة والحلقوم كالحنجرة والحناجر جمعه " .

الاعراب :

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً) كلام مستأنف مسوق للتدليل على أن الحكم له سبحانه وهو مبتدأ والذي خبر وجملة يريكم صلة وآياته مفعول به وينزل لكم عطف على يريكم ومن

السماء متعلقان بينزل للدلالة على تجدد الإراءة والتنزيل وديمومتهما واستمرارهما . (وَما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ) الواو عاطفة وما نافية ويتذكر فعل مضارع مرفوع وإلا أداة حصر ومن فاعل وجملة ينيب صلة . (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ) الفاء الفصيحة

أي إذا كان الأمر كما ذكر فادعوا ، ولفظ الجلالة مفعول به ومخلصين حال وله جار ومجرور متعلقان بمخلصين والدين مفعول به والواو حالية ولو شرطية وكره الكافرون فعل وفاعل والمفعول به محذوف أي إخلاصكم أو دعوتكم . (رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ) رفيع الدرجات خبر لمبتدأ محذوف وذو العرش خبر ثان وجملة يلقي الروح خبر ثالث أي اللّه ومن أمره متعلقان بيلقي أو بمحذوف حال من الروح أي الوحي أي حال كونه ناشئا من أمره والمراد بالروح الوحي وسيأتي السبب في تسميته بذلك في باب البلاغة وعلى من متعلقان بيلقي وجملة يشاء صلة ومن عباده حال ، ولينذر اللام للتعليل وينذر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بيلقي وفاعل ينذر يجوز أن يكون اللّه أو الروح أو من يشاء ويوم مفعول به لينذر والتلاق مضاف اليه وحذفت الياء اتباعا لرسم المصحف وقرىء بإثباتها وسمي يوم القيامة بيوم التلاق لأن الخلائق تلتقي فيه .

(يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ) يوم بدل من يوم التلاق بدل كل من كل وهم مبتدأ وبارزون خبر والجملة الاسمية في محل جر بإضافة الظرف إليها فحركة يوم حركة اعراب على المشهور وسيأتي تقرير ذلك في باب الفوائد وجملة لا يخفى حال من ضمير بارزون أو خبر ثان وقيل هي مستأنفة ورجح الزمخشري الحالية

و لعله على صواب وعلى اللّه متعلقان بيخفى ومنهم حال لأنه كان في الأصل صفة لشيء وشيء فاعل يخفى . (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ) حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به فالجملة مقول قول محذوف أي يقوله تعالى ويجيب نفسه والقول معطوف على ما قبله أو مستأنف في جواب سؤال مقدر كأنه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقال لمن الملك . ولمن خبر مقدم والملك مبتدأ مؤخر واليوم ظرف متعلق بالملك وللّه خبر لمبتدأ محذوف تقديره الملك للّه والواحد القهار نعتان للّه وقال الزمخشري : " ينادي مناد فيقول لمن الملك اليوم فيجيبه أهل المحشر للّه الواحد القهار " .

(الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ) الظرف متعلق بتجزى والكلام تتمة للمقول وتجزى فعل مضارع مبني للمجهول وكل نفس نائب فاعل وبما متعلقان بتجزى وما موصولة أو ظرفية .

(لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ) لا نافية للجنس وظلم اسمها المبني على الفتح واليوم ظرف متعلق بمحذوف خبر وإن واسمها وخبرها والجملة تعليل لعدم الظلم أي أنه تعالى لا يشغله حساب عن حساب فهو سريع في حسابه عادل في حكمه . (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ) الواو عاطفة على ما تقدم وأنذرهم فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به أول ويوم الآزفة مفعول به ثان وإذ بدل من يوم الآزفة والقلوب مبتدأ ولدي الحناجر ظرف متعلق بمحذوف خبر والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها وكاظمين

حال من القلوب وعوملت الحناجر في جمعها بالياء والنون معاملة أصحابها وسيأتي تقرير الزمخشري في باب البلاغة . (ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ)

(347/678)

الجملة حال من أصحاب القلوب وما نافية حجازية أو مهملة وللظالمين خبر مقدم ومن حرف جر زائد وحميم اسم ما المؤخر أو مبتدأ ولا شفيع عطف على حميم وجملة يطاع صفة لشفيع وفي الكلام مجاز سيأتي تفصيله في باب البلاغة .

البلاغة :

1- في قوله " يلقي الروح من أمره " مجاز مرسل لأن المراد بالروح الوحي وسمي الوحي روحا لأنه يجري من القلوب مجرى الأرواح من الأجساد فهو مجاز مرسل علاقته السببية وجعله الزمخشري استعارة تصريحية وليس ببعيد .

2- التمثيل :

وفي قوله " إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين " استعارة تمثيلية لتجسيد الهول في ذلك اليوم الذي تكون فيه مشارفتهم للنار فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها فتلصق بحناجرهم فلا

هي تخرج فيموتوا ويستريحوا ولا هي ترجع إلى مواطنها فيتنفسوا الصعداء ويتروحوا ولكنها معترضة كالشجا .

3- عكس الظاهر :

وفي قوله " ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع " عكس الظاهر وقد تقدم ذكر هذا الفن أكثر من مرة إذ لا شفيع لهم أصلا فضلا عن أن يكون مطاعا .

4- قول الزمخشري في كاظمين :

وقال الزمخشري : " فإن قلت : بم انتصب كاظمين ؟ قلت : هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى لأن المعنى إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها ويجوز أن يكون حالا عن القلوب وان القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر وانما جمع الكاظم جمع السلامة لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء كما قال تعالى :

" رأيتهم لي ساجدين " وقال : فظلت أعناقهم لها خاضعين " .

الفوائد :

إضافة الزمان إلى الجمل :

يجوز في الزمان إذا أضيف إلى جملة الإعراب على الأصل والبناء فإن كان ما وليه فعلا مبنيا فالبناء أرجح للتناسب أو لشبه الظرف حينئذ بحرف الشرط في جعل الجملة التي

تليه مفتقرة إليه والى غيره كقول النابغة الذبياني :

على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت : ألما أصح والشيب وازع

(348/678)

يروى على حين بالخفض على الاعراب وعلى حين بالفتح على البناء وهو الأرجح لكونه مضافا إلى مبني أصالة وهو عاتبت وقد يكون البناء حالة عارضة فيجزي لأمر كذلك كقوله :

لأجتذبن منهن قلبي تحلما على حين يستصبين كل حليم

يروى بخفض حين على الاعراب وفتحه على البناء لكونه مضافا إلى مبني وهو يستصبين فإنه مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث وماضيه استصبيت فلانا إذا جعلته في عداد الصبيان وإن كان ما وليه فعلا مضارعا معربا أو جملة اسمية فالإعراب أرجح من البناء وهو واجب عند البصريين لعدم التناسب وإنما قلنا بأرجحية الاعراب لأن نافعا وهو من كبار القراء قرأ " هذا يوم ينفع " بالفتح على البناء لا على الاعراب وأجاب جمهور البصريين بأن الفتحة فيه ليست فتحة بناء وإنما هي فتحة إعراب مثلها في صمت يوم الخميس والتزموا لأجل ذلك أن تكون الاشارة ليست لليوم وإلا لزم كون الشيء ظرفا لنفسه

ولهذا قال الفارسي وابن مالك بأرجحية الاعراب ، قال في الخلاصة :

وقبل فعل معرب أو مبتدأ أعرب ومن بنى فلن يفندا

[سورة غافر (40) : الآيات 19 إلى 22]

يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ (19) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (21) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (22)

الاعراب :

)

(349/678)

يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ) الجملة خبر رابع للمبتدأ المحذوف الذي أخبر برفيع الدرجات وما بعده أو هو خبر من أخبار هو الذي يريكم أو هي في محل نصب على الحال أو هي تعليلية لا محل لها . ويعلم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره هو أي اللّه تعالى وخائنة

الأعين مفعول به والإضافة بمعنى من أي الخائنة من الأعين فعلى هذا تكون خائنة نعت لمحذوف أي العين الخائنة ويجوز أن تكون الخائنة مصدرا كالعاقبة والكاذبة أي يعلم خيانة الأعين ، وسيأتي مزيد بحث عن هذا التعبير في باب البلاغة ، والواو حرف عطف وما عطف على خائنة الأعين وجملة تخفي الصدور صلة ما .

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ) الواو حرف عطف والله مبتدأ وجملة يقضي بالحق خبره وبالحق متعلقان بيقضي أو بمحذوف حال أي ملتبسا به .

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) الواو عاطفة والذين مبتدأ وجملة يدعون صلة ومن دونه متعلقان بيدعون والعائد محذوف أي يدعونهم من دونه بمعنى يعبدونهم وجملة لا يقضون بشيء خبر الذين وان واسمها وهو مبتدأ أو ضمير فصل والسميع البصير خبر ان لهو أو لإن .

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ) الهمزة للاستفهام الانكاري أنكر عليهم عدم الاعتبار بأحوال غيرهم والواو عاطفة على مقدر يقتضيه المقام أي أغفلوا ولم يسيروا ولم حرف نفي وقلب وجزم ويسيروا فعل مضارع مجزوم بلم وفي الأرض متعلقان بيسيروا ، فينظروا الفاء سببية أو عاطفة وينظروا

منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية أو مجزوم عطف على يسيروا وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر مقدم لكان وعاقبة اسمها والجملة في محل نصب على المفعولية لينظروا وجملة كانوا صلة الذين ومن قبلهم خبر كانوا . (كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ) كان واسمها وهم ضمير فصل لا محل له وأشد خبرها وساغ دخول ضمير الفصل بين معرفة ونكرة وهو لا يقع إلا بين معرفتين لأن النكرة هنا – وهي أشد – بمثابة المعرفة من حيث امتناع دخول أل عليها لأن اسم التفضيل المقرون بمن لا تدخل عليه أل ومنهم متعلقان بأشد وقوة تمييز وآثارا عطف على قوة وفي الأرض صفة لآثارا وجعله الزمخشري منصوبا بمقدر أي أكثر آثارا على حد قوله " متقلدا سيفا ورمحا " (فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ) الفاء عاطفة وأخذهم اللّه فعل ومفعول به وفاعل وبذنوبهم متعلقان بأخذهم والباء للسببية أي بسبب ذنوبهم والواو حرف عطف وما نافية وكان فعل ماض ناقص ولهم خبرها المقدم ومن اللّه متعلقان بواق ومن حرف جر زائد وواق مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه اسم كان المؤخر .

(ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ) ذلك مبتدأ والاشارة للأخذ والباء حرف جر للسببية وأن ومدخولها في محل جر بالباء والجار والمجرور خبر ذلك وأن واسمها وجملة تأتيهم خبر كانت واسمها مستتر تقديره هي ورسلهم فاعل تأتيهم

وبالبينات متعلقان بتأتيهم فكفروا عطف على تأتيهم فأخذهم اللّه عطف على قوله فكفروا .

(إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ) تعليل للأخذ وان واسمها وقوي خبر أول وشديد العقاب خبر ثان .

البلاغة :

فن الفرائد :

(351/678)

في قوله " يعلم خائنة الأعين " فن الفرائد وهو من فنون البديع والمختص بالفصاحة دون البلاغة لأنه عبارة عن إتيان المتكلم في كلامه بلفظة تتنزل منزلة الفريدة من حب العقد وهي الجوهرة التي لا نظير لها تدل على جزالة منطقه ، وعظم فصاحته ، وقوة عارضته ، وأصالة عربية بحيث تكون هذه اللفظة لو سقطت من الكلام عزت على الفصحاء غرابتها وهي كثيرة في القرآن وقد مر الكثير منها وهي هنا في لفظة " خائنة " فإنها بمفردها سهلة مستساغة كثيرة الجريان على الألسن فلما أضيفت إلى الأعين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هذا الوقع بحيث لا يتاح الإتيان بمثلها ولا يكاد يقع ذو فكر سليم

وذهن مستقيم على شبهها ، وقد شغلت هذه الكلمة كبار العلماء وأرباب الفصاحة وسنورد أقوالا منها ، فقال ابن عباس : " هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها " وقال مجاهد : " هي مسارقة نظر الأعين إلى ما قد نهى اللّه عنه " وقال الضحاك " هي قول الإنسان ما رأيت وقد رأى " وقال السدي : " إنه الرمز بالعين " وقال سفيان : " هو النظرة بعد النظرة " وقال الفراء : " خائنة الأعين هي النظرة الثانية وما تخفي الصدور النظرة الأولى " وقال ابن عباس : " وما تخفي الصدور أي هل يزني بها لو خلا بها أو لا " وقيل " وما تخفي الصدور تكنّه وتضمره " .

[سورة غافر (40) : الآيات 23 إلى 27]

(352/678)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (23) إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (25) وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (26) وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (27)

الإعراب :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة للشروع في قصة موسى مع فرعون واللام جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق وأرسلنا فعل وفاعل وموسى مفعول به وبآياتنا متعلقان بأرسلنا وسلطان عطف على بآياتنا ومبين نعت ، ولك أن تعلق بآياتنا بمحذوف حال أي ملتبسا بآياتنا ولعله أولى . (إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا : ساحِرٌ كَذَّابٌ) إلى فرعون متعلقان بأرسلنا وهامان وقارون عطف على فرعون ، فقالوا عطف على أرسلنا وساحر كذاب خبران لمبتدأ محذوف أي هو ساحر كذاب . (فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ) الفاء استئنافية ولما ظرفية حينية أو رابطة حرفية وجاءهم فعل ومفعول به وفاعل مستتر وبالحق متعلقان بجاءهم ومن عندنا متعلقان بمحذوف حال وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وهو لما واقتلوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول وأبناء الذين مفعول به وجملة آمنوا صلة ومعه ظرف مكان متعلق بآمنوا واستحيوا عطف على اقتلوا أي استبقوا ونساءهم مفعول به .

(وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ) الواو حالية وما نافية وكيد الكافرين مبتدأ وإلا أداة حصر وفي ضلال خبر كيد . (وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ) الواو عاطفة وقال فرعون فعل ماض وفاعل وذروني فعل أمر وفاعل ومفعول به والجملة مقول القول وأقتل فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعل مستتر تقديره أنا يعود على القائل وهو فرعون لأن قومه كانوا يكفونه عن قتله تهوينا لأمره واستصغارا لشأنه ، وليدع الواو عاطفة واللام لام الأمر ويدع فعل مضارع مجزوم بلام الأمر والمقصود بالأمر هنا التعجيز بزعمه وربه مفعول به . (إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ) الجملة تعليل لمطالبته بقتل موسى وإن واسمها وأن وما في حيزها مفعول أخاف وأن حرف مصدري ونصب ويبدل فعل مضارع منصوب بأن ودينكم مفعول به وأو حرف عطف وأن يظهر عطف على أن يبدل وفي الأرض متعلقان بيظهر والفساد مفعول يظهر . (وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ) الواو عاطفة وقال موسى فعل وفاعل وان واسمها وجملة عذت خبرها والجملة مقول القول ومن كل متكبر متعلقان بعذت وجملة لا يؤمن نعت لمتكبر وبيوم الحساب متعلقان بيؤمن .

[سورة غافر (40) : الآيات 28 إلى 29]

وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ (29)

الإعراب :

(وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ) كلام مستأنف مسوق لإيراد الحل الملائم للعقدة القصصية بعد أن عاذ موسى بربه ليكفيه شر هذا اللعين . وقال رجل فعل ماض وفاعل ومؤمن نعت لرجل ومن آل فرعون نعت ثان إن كان الرجل قبطيا والتقدير وقال رجل مؤمن منسوب من آل فرعون وإن كان الرجل إسرائيليا فمن متعلقة بيكتم في موضع المفعول الثاني ليكتم والأول أرجح ، وجملة يكتم إيمانه صفة ثالثة لرجل وسيأتي مزيد بحث عن هذا الرجل والإعراب في باب الفوائد . (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ) الهمزة للاستفهام الانكاري وتقتلون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل

ورجلا مفعول به وأن وما في حيزها في محل نصب مفعول لأجله أي لأجل هذا القول من غير روية وتدبر وتأمل ، وأجاز الزمخشري أن يكون ظرفا على تقدير مضاف أي وقت أن يقول ، وردّ المعربون ذلك بأنه لا يجوز أن يطرد

(355/678)

هذا التقدير في المصدر المؤول قالوا : إن ذلك إنما يكون مع المصدر المصرح به نحو جئتك مقدم الحاج وخفوق النجم لا مع المقدر فلا تقول أجيئك أن يصيح الديك تريد وقت صياحه ، وسيرد مزيد بحث في هذا الموضوع في باب الفوائد . وربي مبتدأ واللّه خبره أو بالعكس والجملة مقول القول والواو حالية وقد حرف تحقيق وجاءكم فعل ماض وفاعل مستتر تقديره هو والكاف مفعول به وبالبينات متعلقان بجاءكم ومن ربكم في موضع نصب على الحال .

(وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) الواو عاطفة وإن شرطية ويك فعل الشرط وعلامة جزمه السكون المقدر على النون المحذوفة للتخفيف واسمها ضمير مستتر تقديره هو وكاذبا خبرها ، فعليه الفاء رابطة لجواب الشرط وعليه خبر مقدم وكذبه مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملة إن يك

صادقا يصيبكم بعض الذي يعدكم عطف على الجملة السابقة ، وبعض فاعل يصيبكم وجملة يعدكم صلة . (إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) ان واسمها وجملة لا يهدي خبرها ومن مفعول به وهو مبتدأ ومسرف خبر وكذاب خبر ثان والجملة صلة من . (يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ) هذا من تتمة كلام الرجل المؤمن ويا حرف نداء وقوم منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة ولكم خبر مقدم والملك مبتدأ مؤخر واليوم ظرف متعلق بما تعلق به الخبر وظاهرين حال من الضمير في لكم وفي الأرض متعلقان بظاهرين أي غالبين في الأرض .

(فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا) الفاء الفصيحة ومن اسم استفهام مبتدأ وجملة ينصرنا خبر ومن بأس اللّه متعلقان بينصرنا وإن

شرطية وجاءنا فعل الشرط والجواب محذوف دل عليه ما قبله أي فمن ينصرنا وفاعل جاءنا يعود على بأس اللّه . (قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى) قال فرعون فعل وفاعل وما نافية وأريكم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به وإلا أداة حصر وما اسم موصول مفعول أريكم وجملة أرى صلة الموصول أي ما أشير عليكم إلا بما أشير به

على نفسي ولا أعلمكم إلا ما علمت . (وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) عطف على ما تقدم وسبيل الرشاد مفعول ثان لأهديكم أو نصب بنزع الخافض .

البلاغة :

الكلام المنصف :

في قوله تعالى : " أ تقتلون رجلا أن يقول . . . الآية " الكلام المنصف وقد استوفاه الزمخشري في تحليله الممتع وسنلخص ما قاله مع تعليق يقتضيه المقام : فقد استدرجهم هذا الرجل المؤمن باستشهاده على صدق موسى عليه السلام من عند من تنسب اليه الربوبية ببينات عدة لا ببينة واحدة وأتى بها معرفة ليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم ثم أخذهم بالاحتجاج بطريق التقسيم فقال لا يخلو أن يكون صادقا أو كاذبا فإن يك كاذبا فضرر كذبه عائد عليه أو صادقا فأنتم مستهدفون لإصابتكم ببعض ما يعدكم به وإنما ذكر بعض مع تقدير أنه نبي صادق والنبي صادق في جميع ما يعد به لأنه سلك معهم طريق المناصحة لهم والمداراة فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم وأدخل في تصديقهم له ليسمعوا منه ، فهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام

ليريهم أنه لم يتكلم كلام المتعصب له ، المتحيز إلى جانبه وكذلك قدم الكاذب على الصادق لهذا الغرض ، ويشبه موقف هذا الرجل المؤمن إلى حد بعيد موقف أبي بكر فقد طاف

عليه الصلاة والسلام بالبيت فلقوه فأخذوا بمجامع ردائه وقالوا أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا ؟ فقال عليه السلام : أنا ذلك فجاء أبو بكر فالتزمه وقال :

(357/678)

أ تقتلون رجلا أن يقول ربي اللّه وقد جاءكم بالبينات من ربكم رافعا صوته وعيناه تسفحان حتى أرسلوه .

الفوائد :

قد يجعل المصدر ظرفا :

قد يجعل المصدر حينا لسعة الكلام فيقال كان ذلك مقدم الحاج وخفوق النجم بمعنى مغيبه وخلافة فلان وصلاة العصر ومنه سير عليه ترويحتين وانتظر به نحر جزورين وقوله تعالى وادبار النجوم ، وإنما يفعلون ذلك توسعا وإيجازا : فالتوسع بجعل المصدر حينا وليس من أسماء الزمان ، والإيجاز الاختصار بحذف المضاف إذ التقدير في قولك خفوق النجم وصلاة العصر وقت خفوق النجم ووقت صلاة العصر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، واختص هذا التوسع بالأحداث لأنها منقضية كالأزمنة وليست ثابتة كالأعيان فجاز جعل وجودها وانقضائها أوقاتا للأفعال وظروفا لها كأسماء الزمان ومعنى

سير عليه ترويحتين زمن ترويحتين ومعنى وانتظر به نحر جزورين أي زمن نحر جزورين والمراد مدة هذا الزمن ، والترويحتين تثنية الترويحة واحدة التراويح في الصلاة يقال صلى ترويحتين وصلى خمس ترويحات

وهي أزمنة موقتة تقع في جواب متى من حيث هي موقتة فيقال متى سير عليه فيقال خفوق النجم ومقدم الحاج وصلاة العصر وتقع في جواب كم من حيث كانت مدة معلومة فإذا قيل كم سير عليه جاز أن يكون جوابه مقدم الحاج وخلافة فلان إن شئت رفعته بفعل ما لم يسم فاعله وإن شئت نصبته على الظرف كل ذلك عربي جيد ، فأما قوله :

" وادبار النجوم " قرىء بكسر الهمزة وفتحها فمن كسر كانت مصدرا جعل حينا توسعا فهو من باب خفوق النجم ومقدم الحاج ومن فتح الهمزة كانت جمع دبر على حد قفل وأقفال أو دبر على طنب وأطناب وقد استعمل ذلك ظرفا كقولك : جئتك في دبر كل صلاة وفي أدبار الصلوات ، قال الشاعر :

على دبر الشهر الحرام بأرضنا وما حولها جدّت عليه سنون تلمّع

فقراءة من كسر الهمزة أدخل في الظرفية في قراءة من فتح ولذلك يقل ظهور في مع المكسورة بخلاف من فتح .

[سورة غافر (40) : الآيات 30 إلى 35]

وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (31) وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33) وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (34) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)

الاعراب :

)

وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ) الواو عاطفة وقال الذي آمن فعل ماض وفاعل وجملة آمن صلة وهو الذي قال : أتقتلون رجلا إلخ . ويا حرف نداء وقوم منادى مضاف لياء المتكلم المحذوفة وان واسمها وجملة أخاف خبر وعليكم متعلقان بأخاف ومثل مفعول به ويوم الأحزاب مضاف اليه . (مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ) مثل عطف بيان أو بدل لمثل الأول ودأب مضاف إليه ولا بد من تقدير مضاف محذوف أي مثل جزاء وعادة من كفر قبلكم من تعذيبهم في الدنيا وما بعده عطف عليه ومن بعدهم صلة الموصول . (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ) الواو عاطفة وما نافية حجازية ولفظ الجلالة اسمها وجملة يريد خبرها وظلما مفعول به والعباد نعت لظلما يعني أن تدميرهم كان استحقاقا بما اجترحوه واقترفوه من آثام . (وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ) عطف على إني أخاف ويوم التناد مفعول أخاف وهو يوم القيامة والتناد بحذف الياء وإثباتها في كل من الوصل والوقف وذلك لفظا أما خطا فهي محذوفة وقد تقدم في الأعراف أنه يكثر في ذلك اليوم العصيب نداء أصحاب الجنة النار وبالعكس والنداء بالسعادة لأهلها وبالشقاوة لأهلها .

(يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ) يوم بدل من يوم الأول وجملة تولون في محل جر بإضافة الظرف إليها ومدبرين حال وما نافية حجازية ولكم خبرها المقدم ومن اللّه متعلقان بعاصم ومن حرف جر زائد وعاصم اسم ما والجملة في

محل نصب على الحال ولك أن تهمل ما لتقدم خبرها ومن يضلل اللّه فما له من هاد تقدم إعرابها بنصها قريبا فجدد به عهدا .

)

(360/678)

وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ) كلام معطوف على ما تقدم لأنه من تمام وعظ مؤمن آل فرعون ذكّرهم بعتو آبائهم على الأنبياء وقيل هو من كلام موسى فيكون مستأنفا . واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وجاءكم يوسف فعل ماض ومفعول به وفاعل ومن قبل متعلقان بمحذوف حال أي من قبل موسى فبناء الظرف على الضم لأن المضاف اليه منوي معناه وبالبينات متعلقان بجاءكم .

(فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ) الفاء عاطفة وما زلتم فعل ماض وناقص والتاء اسمها وفي شك خبرها ومما صفة لشك وجملة جاءكم صلة وبه متعلقان بجاءكم . (حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا) حتى حرف غاية لقوله ما زلتم وإذا ظرف متضمن معنى الشرط وجملة هلك في محل جر بإضافة الظرف إليها وجملة قلتم لا محل لها لأنها جواب إذ ولن حرف نفي ونصب واستقبال ويبعث فعل مضارع منصوب بلن ولفظ الجلالة

فاعل ومن بعده حال ورسولا مفعولا به . (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ) كذلك نعت لمصدر محذوف وقد تقدم كثيرا ويضلل اللّه فعل مضارع وفاعل ومن مفعول به وهو مبتدأ ومسرف مرتاب خبران له والجملة الاسمية صلة . (الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ

مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)

(361/678)

هذه الآية شغلت المعربين كثيرا وتشعبت أقوالهم فيها وأوصل السمين أوجه الاعراب فيها إلى عشرة مما يضيع القارئ في متاهاته ولعل أولاها بالذكر وأقربها إلى المعقول ما ذكره أبو حيان قال ما نصه : " والأولى في إعراب هذا الكلام أن يكون الذين مبتدأ وخبره كبر والفاعل ضمير المصدر المفهوم من يجادلون وهذه الصفة موجودة في فرعون وقومه ويكون الواعظ لهم قد عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب لحسن محاورته لهم واستجلاب قلوبهم وأبرز ذلك في صورة تذكرهم فلم يخصهم بالخطاب وفي قوله كبر ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم " .

ونورد فيما يلي الاعراب الذي اختاره الزمخشري قال :

" الذين يجادلون بدل من من هو مسرف فإن قلت : كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذاك موحد ؟ قلت لأنه لا يريد مسرفا واحدا فكأنه قال : كلّ مسرف وجاز إبداله على معنى من لا على لفظها فإن قلت فما فاعل كبر ؟ قلت : ضمير من هو مسرف ، فإن قلت : أما قلت هو جمع ولهذا أبدلت منه الذين يجادلون ؟ قلت : بل هو جمع في المعنى وأما اللفظ فموحد فحمل البدل على معناه والضمير الراجع إليه على لفظه وليس ببدع أن يحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى وله نظائر ، ويجوز أن نرفع الذين يجادلون على الابتداء ولا بد في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع اليه الضمير في كبر تقديره جدال الذين يجادلون كبر مقتا ، ويحتمل أن يكون الذين يجادلون مبتدأ وبغير سلطان أتاهم خبرا وفاعل كبر قوله كذلك أي كبر مقتا مثل ذلك الجدال ويطبع اللّه

كلام مستأنف ومن قال كبر مقتا عند اللّه جدالهم فقد حذف الفاعل والفاعل لا يصح حذفه " .

(362/678)

أما أبو البقاء فقد قال ما نصه : " الذين يجادلون فيه أوجه أحدها أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين وهم يرجع على قوله من هو مسرف لأنه في معنى الجمع والثاني أن

يكون مبتدأ والخبر يطبع اللّه والعائد محذوف أي على كل قلب متكبر منهم وكذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك وما بينهما معترض مسدد والثالث أن يكون الخبر كبر مقتا أي كبر قولهم مقتا والرابع أن يكون الخبر محذوفا أي معاندون ونحو ذلك والخامس أن يكون منصوبا بإضمار أعني " هذا وسنورد في باب الفوائد مناقشة سريعة لهذه الأقوال .

هذه ومقتا تمييز محول عن الفاعل أي كبر مقت جدالهم وفيما يلي عبارة السمين : " كبر مقتا يحتمل أن يراد به التعجب والاستعظام وأن يراد به الذم كبئس وذلك أنه يجوز أن يبني فعل بضم العين مما يجوز التعجب منه ويجري مجرى نعم وبئس في جميع الأحكام وفي فاعله ستة أوجه " إلى أن يقول : " الثاني أنه يعود على جدالهم المفهوم من يجادلون كما تقدم " إلى أن يقول : " الخامس أن الفاعل ضمير يعود على ما بعده وهو التمييز نحو نعم رجلا زيد وبئس غلاما عمرو وعند اللّه ظرف لكبر " وكذلك نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الطبع ويطبع اللّه فعل مضارع وفاعل وعلى كل قلب متعلق بيطبع وقلب مضاف ومتكبر مضاف إليه أي على كل قلب شخص متكبر وجبار نعت ثان .

الفوائد :

1 – مناقشة قيمة :

ذكر الزمخشري أن " من " في " من هو مسرف " عوملت معاملة لفظها من بعد معاملة معناها وقد استغرب أهل العربية هذا لأن فيه إبهاما بعد إيضاح وهذا غير لائق ببيان القرآن لأن البلاغيين يرون العكس والصواب أن يجعل الضمير في قوله كبر راجعا إلى مصدر الفعل المتقدم وهو قوله يجادلون تقديره كبر جدالهم مقتا ويجعل الذين مبتدأ على تأويل حذف المضاف تقديره جدال الذين يجادلون في آيات اللّه والضمير في قوله كبر مقتا عائد إلى الجدال المحذوف والجملة مبتدأ وخبر ومثله في حذف المصدر المضاف وبناء الكلام عليه قوله تعالى : " أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن باللّه " على أحد تأويله ومثله كثير .

2- كل قلب :

كل لعموم الضلال جمع القلب لا لعموم القلوب أي شملت الضلالة جميع أجزاء القلب فلم يبق فيه محل للاهتداء والمعروف أن كلّا إذا دخلت على نكرة مطلقا أو على معرفة مجموعة تكون لعموم الأفراد وإذا دخلت على معرفة مفردة تكون لعموم الأجزاء وهنا عوملت الإضافة غير المحضة معاملة الإضافة المحضة .

[سورة غافر (40) : الآيات 36 إلى 46]

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (36) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ

إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ
فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَباب (37) وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (38) يا قَوْمِ
إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ
مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ
حِسابٍ (40)

(364/678)

وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ
ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ
دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (43)
فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (44) فَوَقاهُ اللَّهُ
سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (45)
النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ
(46)

اللغة :

(صَرْحاً) : الصرح- كما في المصباح- بيت واحد يبنى مفردا طولا ضخما ، وقال في الكشاف : " الصرح البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد ، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر وهذه المادة عجيبة في مدلولها إنها تدل في جميع مشتقاتها على الظهور والإبانة ، قالوا : لبن صريح : ذهبت رغوته وخلص وعربي صريح من عرب صرحاء : غير هجناء ونسب صريح وكأس صراح : لم تمزج وصرّحت الخمرة : ذهب عنها الزبد ولقيته مصارحة : مجاهرة وصرّح النهار : ذهب سحابه وأضاءت شمسه قال الطرماح في وصف ذئب :

إذا امتلّ يعدو قلت ظلّ طخاءة ذرى الريح في أعقاب يوم مصرح

وصرح بما في نفسه وبني صرحا وصروحا وقعد في صرحة داره : في ساحتها .

(الْأَسْبابَ) : جمع سبب وأسباب السموات مراقيها أو نواحيها أو أبوابها والسبب أيضا الحبل وما يتوصل به إلى غيره وقد جمع زهير بينهما بقوله :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم

و السبب أيضا من مقطعات الشعر حرف متحرك وحرف ساكن أو حرفان متحركان والأول يسمى خفيفا والثاني ثقيلا " .

(تَبابٍ) : خسار وهوان وفي القاموس " التبّ والتّبب والتّباب والتبيب والتتبيب : النقص والخسار وتبّا له ، وتبّا تبيبا مبالغة " .

(لا جَرَمَ) : تقدم بحثها وسيأتي مزيد تفصيل عنها في باب الفوائد .

الاعراب :

(وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْ

خبر إن . (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها) من اسم شرط جازم مبتدأ وعمل فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وسيئة مفعول به والفاء رابطة ولا نافية ويجزى فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وإلا أداة حصر ومثلها مفعول يجزى الثاني . (وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ) . الواو عاطفة ومن شرطية مبتدأ وعمل فعل ماض فعل الشرط وصالحا مفعول به أو نعت لمصدر محذوف أي عملا صالحا ومن ذكر حال أو أنثى عطف على من ذكر ، وهو مؤمن الواو للحال وهو مبتدأ ومؤمن خبر والجملة نصب على الحال .

(فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ) الفاء رابطة وأولئك اسم إشارة مبتدأ

وجملة يدخلون الجنة خبر أولئك والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملة يرزقون حال والواو نائب فاعل

(366/678)

و فيها حال وبغير نعت للمفعول به المحذوف أي يرزقون رزقا واسعا بلا حساب ولا تبعة .

(وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ) عطف على ما تقدم وما اسم استفهام مبتدأ ولي خبره وجملة أدعوكم حالية والى النجاة متعلقان بأدعوكم وتدعونني إلى النار عطف على أدعوكم إلى النجاة . (تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ) جملة تدعونني بدل وجملة وتدعونني بمثابة التعليل ولأكفر اللام للتعليل وأكفر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر تقديره أنا وبالله متعلقان بأكفر وأشرك عطف على لأكفر وما مفعول به وجملة ليس لي به علم صلة وليس فعل ماض ناقص ولي خبرها المقدم وبه متعلقان بعلم وعلم اسم ليس المؤخر .

(وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) الواو عاطفة وأنا مبتدأ وجملة أدعوكم خبر وإلى العزيز الغفار متعلقان بأدعوكم . (لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ) لا نافية وجرم فعل ماض بمعنى حق ووجب وأن وما في حيزها فاعل جرم أي حق

ووجب بطلان دعوته وأن واسمها وحقها أن تكتب مفصولة لأن ما اسم موصول بمعنى الذي لكنها رسمت موصولة اتباعا لسنة المصحف وجملة تدعونني صلة وإليه متعلقان بتدعونني وجملة ليس خبر أن وله خبر ليس المقدم ودعوة اسمها المؤخر وفي الدنيا نعت ولا في الآخرة عطف على في الدنيا .

(وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ) عطف على ما تقدم وأن واسمها والى اللّه خبرها وان المسرفين عطف أيضا وهم ضمير فصل لا محل له أو مبتدأ وأصحاب النار خبر أن أو خبر هم والجملة خبر أن . (فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ)

(367/678)

الفاء الفصيحة والسين حرف استقبال وتذكرون فعل مضارع والواو فاعل وما مفعول به وجملة أقول صلة ولكم متعلقان بأقول وأفوض عطف وأمري مفعول به والى اللّه متعلقان بأفوض أي إذا نزل بكم العذاب .

(إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ) إن واسمها وبصير خبرها وبالعباد جار ومجرور متعلقان ببصير .

(فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ) الفاء عاطفة على محذوف يقتضيه السياق أي لما توعدوه بالقتل وقصدوه به فعلا هرب منهم ولاذ بالمغاور وشعاب

الجبال فطلبوه فلم يقدروا عليه فوقاه اللّه . ووقاه اللّه فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وسيئات مفعول به ثان أو نصب بنزع الخافض وما مصدرية أو موصولة أي سيئات مكرهم به أو سيئات الذي مكروا به وحاق فعل ماض وبآل فرعون متعلقان بحاق وسوء العذاب فاعل . (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا) النار خبر مبتدأ محذوف أي هو أي سوء العذاب ويجوز أن تعرب بدلا من سوء العذاب ويجوز أن تعرب مبتدأ وجملة يعرضون خبر وعلى الوجهين الأولين تعرب جملة يعرضون حالا وقرىء النار بالنصب على الاختصاص بفعل محذوف وعليها متعلقان بيعرضون وغدوا وعشيا ظرفان متعلقان بيعرضون أيضا .

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ) الظرف متعلق بقول محذوف أي يقال لهم يوم تقوم الساعة وجملة أدخلوا مقول القول ويجوز أن يتعلق بأدخلوا أي ادخلوا يوم تقوم الساعة وعلى هذين الوجهين يكون الوقف تاما على قوله وعشيا ويجوز أن يكون معطوفا على الظرفين قبله فيكون متعلقا بيعرضون والوقف

على هذا الوجه على قوله الساعة وادخلوا مقول قول مقدر أي يقال لهم كذا وكذا وأدخلوا فعل أمر من أدخل وآل فرعون مفعول به أول وأشد العذاب مفعول به ثان وقرىء أدخلوا بهمزة الوصل من دخل يدخل فآل فرعون حينئذ منادى حذف منه حرف النداء وأشد العذاب مفعول به .

البلاغة :

في تكرير نداء قومه مبالغة في التنبيه والتحدي وقرع العصا وإمحاض النصيحة والإيقاظ من سنة الغفلة ، كأنما عز عليه أن يستهدفوا للمصير المحزن الذي سيصيرون إليه وكأنه مترجح بين التلطف بهم لأن ما يحزنهم يحزنه وما يسوءهم يسوءه فهم قومه على كل حال ، وقد سدروا في متاهات الغفلة وقد سبق تقرير هذا الموقف في مناصحة إبراهيم لأبيه عند ما كرر نصيحته إليه متلطفا بقوله :

يا أبت مكررا .

هذا وقد جيء بالواو في النداء الثالث خلافا لأن النداء الثاني بمثابة بيان للأول وتفسير له فأعطي حكمه في عدم دخول الواو عليه وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة .

الفوائد :

1 – في نصب قوله " فأطلع " ثلاثة أوجه :

أ – انه جواب للأمر وهو قوله ابن لي فنصب بأن مضمرة بعد الفاء في جوابه ومثاله في الشعر

قول أبي النجم العجلي :

يا ناق سيري عنقا فسيحا إلى سليمان فنستريحا

ب- إنه جواب للترجي والى هذا نحا الزمخشري قال :

" وقرىء فأطلع بالنصب على أنه جواب الترجي تشبيها للترجي بالتمني " .

ج- انه معطوف على التوهم لأن خبر لعل كثيرا ما جاء مقرونا بأن في النظم والنثر فمن نصب توهم أن الفعل المرفوع الواقع خبرا منصوب بأن والعطف على التوهم كثير وان كان غير مقيس .

2- لا جرم :

(369/678)

بسطنا القول في هود حول " لا جرم " وأوردنا الأوجه المستفيضة فيها وقد اخترنا في الإعراب ما ذهب إليه الخليل وسيبويه وجمهور البصريين فتكون " لا " ردا لما دعاه إليه قومه و" جرم " بمعنى كسب أي وكسب دعاؤهم إليه بطلان دعوته أي ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته ، ويجوز أن يكون " لا جرم " نظير " لا بد " من الجرم وهو القطع فكما أنك تقول لا بد لك أن تفعل ، والبد من التبديد الذي هو التفريق ومعناه لا مفارقة لك من

فعل كذا فكذلك " لا جرم " معناه لا انقطاع لبطلان دعوة الأصنام بل هي باطلة أبدا .

[سورة غافر (40) : الآيات 47 إلى 52]

وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (47) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ (48) وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (49) قالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ (50) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (51) يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52)

اللغة :

(يَتَحاجُّونَ) : يتخاصمون يقال : حاجّه حجاجا ومحاجّة ومحاجة : خاصمه والمحجاج الكثير الخصومة .

(تَبَعاً) : جمع تابع كخدم جمع خادم أو هو مصدر وصف به .

(جَهَنَّمَ) سيأتي القول فيها في باب البلاغة .

الاعراب :

)

وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) الواو استئنافية وإذ ظرف لما مضى متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر يا محمد لقومك وجملة يتحاجون في محل جر بإضافة الظرف إليها وفي النار متعلقان بيتحاجون والفاء تفريعية لتفصيل التحاج والتخاصم ويقول الضعفاء فعل مضارع وفاعل وللذين متعلقان بيقول وجملة استكبروا صلة . (إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ) إن واسمها وجملة كنا خبرها والجملة مقول القول وكان واسمها ولكم متعلقان بمحذوف صفة لتبعا أو متعلقان به إذا اعتبر مصدرا ،

فهل الفاء عاطفة وهل حرف استفهام وأنتم مبتدأ ومغنون خبره وعنا متعلقان بمغنون ونصيبا مفعول لمغنون أي دافعون عنا نصيبا من النار ، وعبارة أبي البقاء " نصيبا منصوب بفعل دل عليه مغنون تقديره : هل أنتم دافعون عنا أو مانعون ويجوز أن يكون في موضع المصدر كما كان شيء كذلك ألا ترى إلى قوله تعالى : " لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من اللّه شيئا " فشيئا في موضع غنى فكذلك نصيبا " ومن النار صفة لنصيبا .

)

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ) قال الذين فعل ماض وفاعل وجملة استكبروا صلة الذين وإنا إن واسمها وكلّ مبتدأ ساغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم وفيها خبر كل والجملة خبر إن وان واسمها وجملة قد حكم خبر إن وبين العباد ظرف متعلق بحكم . (وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ) الواو عاطفة وقال الذين فعل ماض وفاعل وفي النار متعلقان بمحذوف صلة الذين ولخزنة جهنم متعلقان بقال ووضع جهنم موضع الضمير للتهويل وسيأتي مزيد من هذا البحث في باب البلاغة وادعوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وربكم مفعول به والجملة مقول القول ويخفف فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وعنا متعلقان بيخفف ويوما ظرف متعلق بيخفف أيضا ومن العذاب صفة لمحذوف هو مفعول يخفف أي يخفف عنا شيئا من العذاب في يوم .

(قالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ ؟) قالوا فعل وفاعل والضمير يعود لخزنة جهنم والهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي

والواو عاطفة على مقدر أي ألم تنتهوا عن هذا ولم تك تأتيكم ، ولم حرف نفي وقلب وجزم وتك فعل مضارع مجزوم وعلامة جزمه السكون المقدر على النون المحذوفة للتخفيف واسم تك مستتر وجملة تأتيكم خبر ورسلكم فاعل تأتيكم وقد تنازعه كل من تك

وتأتيكم فأعطى فاعلا للثاني وأضمر في الأول ويجوز العكس وبالبينات متعلقان بتأتيكم (قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ) قالوا فعل وفاعل وبلى حرف جواب لإثبات النفي وقالوا فعل وفاعل أيضا ، فادعوا الفاء الفصيحة وادعوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والواو للحال وما نافية ودعاء مبتدأ والكافرين مضاف اليه وإلا أداة حصر وفي ضلال خبر دعاء .

(372/678)

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ) تعليل لضياع دعائهم لأنه مسلوب الحجة وان واسمها واللام المزحلقة وجملة ننصر رسلنا خبر إنا والذين عطف على رسلنا وجملة آمنوا صلة وفي الحياة الدنيا متعلقان بننصر ولا يقدح في هذا التأكيد ما يبدو أنهم يغلبون في بعض الأحيان ابتلاء وامتحانا فإن العبرة بالعواقب والأمور بخواتيمها ، ويوم يقوم الاشهاد عطف على في الحياة الدنيا أي لننصرنهم في الحياة الدنيا وفي يوم القيامة وجملة يقوم الاشهاد في محل جر بإضافة الظرف إليها والأشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب . (يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) يوم بدل من يوم قبله وجملة لا ينفع في محل جر بإضافة الظرف إليها والظالمين مفعول به ومعذرتهم فاعل والواو

عاطفة ولهم خبر مقدم واللعنة مبتدأ مؤخر ولهم سوء الدار عطف على لهم اللعنة .

البلاغة :

في قوله " لخزنة جهنم " فيه – كما قلنا – وضع الظاهر موضع المضمر للتهويل ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار غورا من قولهم بئر جهنام أي بعيدة القعر ، وكان النابغة يسمي الجهنام لبعد غوره في الشعر ، والأول أظهر والتفخيم فيه من وجهين : أحدهما وضع الظاهر موضع المضمر والثاني ذكره وهو شيء واحد بظاهر غير الأول أفظع منه لأن جهنم أفظع من النار إذ النار مطلقة وجهنم أشدها ، هذا وقد جاء في القاموس ما نصه : " وركية جهنّام مثلثة الجيم وجهنم كعملّس بعيدة القعر وبه سميت جهنم أعاذنا اللّه تعالى منها " قال شارحه : " قوله وبه سميت جهنم جرى على أنها عربية لم تجر للتأنيث والتعريف وجرى يونس وغيره على أنها أعجمية لا تجري للتعريف والعجمة " وقوله لم تجر بمعنى لم تنصرف وهي عبارة سيبويه واصطلاح البصريين المنصرف وغير المنصرف واصطلاح الكوفيين المجري وغير المجري .

(373/678)

[سورة غافر (40) : الآيات 53 إلى 59]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (53) هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (54) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (55) إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56) لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (57)

وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (58) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (59)

الاعراب :

)

(374/678)

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ) كلام مستأنف مسوق لإيراد نموذج عظيم من نماذج النصر الذي وعد اللّه به أنبياءه وأولياءه في الدنيا واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وآتينا فعل وفاعل وموسى مفعول به والهدى مفعول به ثان

وأورثنا عطف على آتينا وهو فعل وفاعل وبني إسرائيل مفعول به أول والكتاب مفعول به ثان . (هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ) هدى وذكرى نصب على أنهما مفعول من أجله أي لأجل الهدى والذكرى أو على أنهما مصدران في موضع الحال ولأولي الألباب نعت لذكرى أو هو متعلق بذكرى . (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) الفاء الفصيحة أي إن عرفت هذه الحقيقة الثابتة وهي أن اللّه ينصر رسله وأولياءه فاصبر يا محمد على أذى قومك وإن واسمها وخبرها واستغفر لذنبك عطف على فاصبر أي واستدرك المفرطات بذنبك وقيل الكلام على حذف مضاف أي لذنب أمتك .

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ) عطف أيضا وبحمد ربك حال وبالعشي والإبكار متعلقان بسبح . (إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ) إن واسمها وجملة يجادلون خبر إن وفي آيات

اللّه متعلقان بيجادلون وبغير سلطان حال أي حال كونهم غير مستندين في جدالهم إلى حجة إلا المكابرة واللجاج وهما سلاحان مغلولان وجملة أتاهم نعت لسلطان . (إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ) إن نافية وفي صدورهم خبر مقدم وإلا أداة حصر وكبر

مبتدأ مؤخر والجملة خبر إن وما نافية حجازية وهم اسمها وببالغيه الباء حرف جر زائد وبالغيه مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما والجملة نعت لكبر أي ببالغي مقتضى كبرهم وهو التعاظم . (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) الفاء الفصيحة واستعذ فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وبالله متعلقان باستعذ وان واسمها وهو ضمير فصل أو مبتدأ والسميع البصير خبر إن .

(لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) اللام لام الابتداء وخلق السموات والأرض مبتدأ وأكبر خبر ومن خلق الناس متعلقان بأكبر ولكن الواو للحال ولكن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها وسيأتي سر تلاحم هذا القول مع ما قبله في باب البلاغة . (وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا ما تَتَذَكَّرُونَ) الواو عطف على ما تقدم وما نافية ويستوي الأعمى فعل مضارع وفاعل والبصير عطف على الأعمى والذين آمنوا عطف على الأعمى والبصير وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات جملة معطوفة داخلة في حيز الصلة ولا المسيء الواو عاطفة ولا زائدة للتوكيد والمسيء عطف على ما قبله وسيأتي ترتيب هذه المنسوقات في باب البلاغة وقليلا مفعول مطلق أو ظرف زمان وما زائدة وتتذكرون فعل مضارع مرفوع وفاعله .

)

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) إن واسمها واللام المزحلقة وآتية خبرها ولا نافية للجنس وريب اسمها وفيها خبرها والجملة خبر ثان لأن ولكن أكثر الناس لا يؤمنون تقدم إعراب هذه الجملة قبل قليل فجدد به عهدا .

البلاغة :

1 – فن الإلجاء :

في قوله " لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس " فن رفيع من فنون البلاغة وهو فن الإلجاء وهو أن يبادر المتكلم خصمه بما يلجئه إلى الاعتراف بصحته وبهذا صح التحامه مع ما قبله من الكلام فإن مجادلتهم في آيات اللّه كانت مشتملة على أمور كثيرة من الجدال والمغالطة واللجاج والسفسطة وفي مقدمتها إنكار البعث وهو في الواقع أصل المجادلة ومحورها الذي عليه تدور ، فبادر سبحانه إلى مبادهتهم بما يسقط في أيديهم ، ويقطع عليهم طرق المكابرة والمعاندة وهو خلق السموات والأرض وقد كانوا مقرين بأن اللّه خالقها وبأنها خلق عظيم فخلق الناس بالقياس شيء هين ومن قدر على خلقها مع عظمها كان ولا شك على خلق الإنسان الضعيف أقدر وبه أقمن . هذا والأولوية في هذا الاستشهاد على درجتين : إحداهما أن القادر على العظيم هو على الحقير أقدر وثانيهما

أن مجادلتهم كانت في البعث وهو الإعادة وما من ريب في أن الابتداء أعظم وأبهر من الإعادة .

2- فن حسن النسق :

(377/678)

وفي قوله " وما يستوي الأعمى والبصير " الآية فن حسن النسق وفي ترتيب النسق ثلاث طرق إحداها أن يجاور المناسب ما يناسبه كهذه الآية فالأعمى يجاور البصير وهذان الوصفان مستعاران لمن غفل عن معرفة الحق في مبدئه ومعاده وقدم الأعمى في نفي التساوي لمجيئه بعد صفة الذم في قوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون والذين آمنوا وعملوا الصالحات أي المحسن يجاور المسيء وقدم الذين آمنوا لمجاورته للبصير وناهيك بهذه المجاورة شرفا للمؤمن ، وثاني الطريقتين أن يتأخر المتقابلان كقوله تعالى " مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع " وثالثتهما أن يقدم مقابل الأول ويؤخر مقابل الآخر كقوله تعالى : " وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور " وهذه الطرق الثلاث يتخير المتكلم في إيرادها حسب مقتضى الحال ووفق نواميس البلاغة وطرائقها والله أعلم .

الفوائد :

لام الابتداء :

تفيد أمرين : أولهما توكيد مضمون الجملة ولهذا زحلقوها في باب إن عن صدر الجملة كراهية ابتداء الكلام بمؤكدين ، وثانيهما تخليص المضارع للحال . وتدخل باتفاق في موضعين :

1- على المبتدأ نحو : " لأنتم أشد رهبة في صدورهم من اللّه ذلك بأنهم قوم لا يفقهون " .

2- بعد إن وتدخل في هذا الباب على ثلاثة باتفاق : الاسم نحو " إن ربي لسميع الدعاء " والمضارع لشبهه به نحو " وإن ربك ليحكم بينهم " والظرف نحو " وإنك لعلى خلق عظيم " وعلى ثلاثة باختلاف : الماضي الجامد نحو (إن زيدا لعسى أن يقوم) والماضي المقرون بقد والماضي المتصرف المجرد من قد .

ومن لام الابتداء لام القسم نحو " لينبذن في الحطمة " ونحو " ولسوف يعطيك ربك فترضى " .

[سورة غافر (40) : الآيات 60 إلى 63]

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (60) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (61) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63)

اللغة :

(داخِرِينَ) : صاغرين وفي المصباح : " دخر الشخص يدخر بفتحتين دخورا : ذل وهان وأدخرته بالألف للتعدية " .

الاعراب :

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) كلام مستأنف مسوق لبيان فضل الدعاء أي العبادة وسيرد في باب البلاغة المجاز في هذه الكلمة وقال ربكم فعل ماض وفاعل وادعوني فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة مقول القول ، واستجب فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب ولكم متعلقان باستجب . (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ) إن واسمها وجملة يستكبرون صلة الذين عن عبادتي متعلقان بيستكبرون وجملة سيدخلون خبر إن وجهنم مفعول به على السعة وداخرين حال . (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً) اللّه مبتدأ والذي خبره وجملة جعل صلة ولكم متعلقان بجعل لأنه

بمعنى خلق والليل مفعول به ولتسكنوا اللام للتعليل وتسكنوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والواو فاعل وفيه متعلقان بتسكنوا والنهار عطف على الليل ومبصرا حال .

)

(379/678)

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ) إن واسمها واللام المزحلقة وذو فضل خبر إن وعلى الناس متعلقان بفضل ولكن الواو عاطفة ولكن واسمها وجملة لا يشكرون خبر لكن .

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) اسم الإشارة مبتدأ والاشارة إلى المعلوم المتميز بالأفعال المقتضية لربوبيته والله خبر أول وربكم خبر ثان وخالق كل شيء خبر ثالث (لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) تقدم إعراب كلمة الشهادة مفصلا فجدد به عهدا والجملة خبر رابع والفاء الفصيحة وأنى اسم استفهام بمعنى كيف في محل نصب حال وتؤفكون أي تصرفون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل أي فكيف تصرفون عن الإيمان بعد ما قامت البراهين على ربوبيته ؟

(كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) الكاف نعت لمصدر محذوف أي مثل إفك هؤلاء إفك الذين كانوا بآيات اللّه يجحدون ، والذين نائب فاعل وجملة كانوا صلة الموصول وكان واسمها وبآيات اللّه متعلقان بيجحدون وجملة يجحدون خبرها .

البلاغة :

1- المجاز والمشاكلة :

في قوله " وقال ربكم ادعوني أستجب لكم " مجاز مرسل علاقته السببية لأن الدعاء سبب العبادة وفي قوله أستجب لكم مشاكلة لأن الإثابة مترتبة عليها وإنما جعلنا الكلام مجازا بقرينة قوله بعد ذلك " إن الذين يستكبرون عن عبادتي " ويؤيد هذا المجاز حديث النعمان بن بشير عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال :

" الدعاء هو العبادة " وقرأ هذه الآية ، وقول ابن عباس : أفضل العب

ت جريان الحكم أتم ، والرضا بما سبق به القدر أولى ، وقال قوم يكون صاحب دعاء بلسانه ورضا بقلبه ليأتي بالأمرين جميعا " قال القشيري : " والأولى أن يقال الأوقات مختلفة ، ففي بعض الأحوال الدعاء أفضل من

السكوت وهو الأدب ، وفي بعض الأحوال السكوت أفضل من الدعاء وهو الأدب وإنما يعرف ذلك بالوقت فإذا وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء أولى به وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت أنم " .

فإن قيل : كيف قال تعالى " ادعوني أستجب لكم " وقد يدعو الإنسان كثيرا فلا يستجاب له ؟ وقيل في الجواب : " الدعاء له شروط منها : الإخلاص في الدعاء ، وأن لا يدعو وقلبه لاه ومشغول بغير الدعاء ، وأن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة للإنسان ، وأن لا يكون فيه قطيعة رحم فإذا كان الدعاء بهذه الشروط كان حقيقا بالإجابة فإما أن يعجلها له وإما أن يؤخرها له ، يدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ما من رجل يدعو اللّه تعالى بدعاء إلا استجيب له فإما أن يعجل له في الدنيا وإما أن يؤخر له في الآخرة وإما أن يكفّر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدعو بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل قالوا : يا رسول اللّه وكيف يستعجل ؟ قال :

يقول : دعوت فما استجاب لي " .

وأورد الغزالي سؤالا آخر قال : " فإن قيل : فما فائدة الدعاء مع أن القضاء لا مردّ ؟ فاعلم أن من جملة القضاء ردّ البلاء بالدعاء ، فالدعاء سبب لردّ البلاء ووجود الرحمة كما أن الترس سبب لدفع السلاح ، والماء سبب لخروج النبات من الأرض ، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء والبلاء ، وليس من شرط الاعتراف بالقضاء أن لا يحمل

السلاح وقد قال اللّه تعالى : " وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم " فقدر اللّه تعالى الأمر وقدر سببه " .

وهذا سؤال قد تكون الإجابة متقدمة عليه وقد روينا في كتاب الترمذي : عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

(381/678)

"من سره أن يستجيب اللّه تعالى له عند الشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء " ومعنى سره : أعجبه وأوقعه في الفرح والسرور وأن يستجيب اللّه فاعل سره ومفعول يستجيب محذوف أي دعاءه وقوله عند الشدائد ظرف للاستجابة أي حصول الأمور الشديدة من المكروهات ، والكرب بضم ففتح جمع كربة وهي الغم يأخذ بالنفس ، وقوله فليكثر الدعاء إلخ جواب الشرط ، ولرخاء بفتح الراء سعة العيش وحسن الحال وإنما كان كذلك لأن إكثاره في وقت الرخاء يدل على صدق العبد في عبوديته والتجائه إلى ربه في جميع أحواله وانه يشكره في الرخاء كما يشكره في الشدة ويتوجه إليه بكليته ليكون له عدة .

وقال الإمام أبو حامد الغزالي في الاحياء : " آداب الدعاء عشرة :

والأول أن يترصّد الأزمان الشريفة كيوم عرفة وشهر رمضان ويوم الجمعة والثلث الأخير من

الليل ووقت الأسحار ، الثاني أن يغتنم الأحوال الشريفة كحالة السجود والتقاء الجيوش ونزول الغيث وإقامة الصلاة وبعدها ، الثالث استقبال القبلة ورفع اليدين ويمسح بهما وجهه في آخره ، الرابع خفض الصوت بين المخافتة والجهر ، الخامس أن لا يتكلف السجع ، السادس التضرع والخشوع والرهبة ، السابع أن يجزم بالطلب ويوقن بالإجابة ، الثامن أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثا ولا يستبطىء الإجابة ، التاسع أن يفتتح الدعاء بذكر اللّه تعالى ، العاشر هو الأصل في الإجابة وهو التوبة ورد المظالم والإقبال على اللّه تعالى " .

2- لمحة عن القشيري :

اقتبسنا في هذا الفصل قبسة من الرسالة القشيرية ولإتمام الفائدة يحسن بنا أن نورد لمحة موجزة عنها وعن مؤلفها لأنها تمدنا

بصورة كاملة عن التصوف ورجاله منذ ظهر التصوف في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري حتى عصر المؤلف ، وتعتبر على الرغم من صغر حجمها نسبيا أفضل وثيقة علمية وتاريخية في موضوعها ، وقبل تلخيص الرسالة لا بد من الإشارة إلى صاحبها فهو الشيخ عبد الكريم بن هوازن المعروف بزين الإسلام أبي القاسم القشيري ولد سنة 376

ه ولد في بيت عربي قح فقد كان أبوه قشيريا من قبيلة قشير بن كعب التي وردت خراسان زمن الأمويين وكانت أمه سلمية وخاله أبو عقيل السلمي من وجوه دهاقين ناحية استوا قريبا من نيسابور وفي هذه المنطقة عاش أجداده الأقربون ، ونحن لا نعلم إلا القليل عن طفولته الأولى ولكننا نعلم أن أباه مات وهو صغير فعهد بأمر تربيته إلى أبي القاسم اليماني الذي كان صديقا لأسرة القشيري فقرأ عليه الأدب والعربية ثم انتقل إلى نيسابور حيث أخذ العلم عن بعض الأجلاء من علمائها وحضر مجلس الأستاذ الشهير أبي علي الحسن بن علي الدقاق الذي كان من كبار مشايخ الصوفية في عصره فأعجب القشيري به واستحسن كلامه وسلك طريقته فقبله الشيخ وأشار عليه بتعلّم العلم فحضر دروس الشيخ أبي بكر محمد بن بكر الطوسي ثم الأستاذ أبي بكر بن نورك الذي توفي سنة 406 ه وكان أصوليا كبيرا وبعد وفاته اختلف إلى الأستاذ أبي اسحق الأسفراييني وجمع بين طريقته وطريقة ابن نورك ثم نظر بعد ذلك في كتب القاضي أبي بكر الباقلاني المتوفى سنة 403 ه وهو مع كل هذا يداوم على حضور مجلس أبي علي الدقاق إلى أن اختاره لصحبته وزوّجه من ابنته ولما مات الأستاذ أبو علي صحب الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي المؤرخ الصوفي الكبير وأصبح شيخ خراسان غير منازع في الفقه على مذهب الإمام الشافعي والكلام على مذهب الإمام أبي الحسن

الأشعري كما كانت له الصدارة في الحديث والأدب واللغة وقد وصف الباخرزي المتوفى سنة 467 مقدرته على الوعظ المؤثر بقوله : " ولو قرع الصخر بسياط تحذيره لذاب ، ولو ربط إبليس في مجلس تذكيره لتاب ، وله فصل الخطاب في فضل المنطق المستطاب " .

ويبدو أن الشهرة الواسعة التي تمتع بها القشيري في نيسابور قد أثارت الحقد والحسد في نفوس فقهاء هذه المدينة فشرعوا يعدون العدة للحطّ من قدره وذلك بتلفيق الاتهامات وإذاعة الأكاذيب حوله وقد نجحوا في مسعاهم وحلت بالقشيري محنة شديدة لقي فيها ألوانا من العنت والآلام والتشريد ونحيل القارئ إلى طبقات السبكي ليقرأ تفاصيل تلك المحنة التي دامت خمس سنين إلى أن ردّ عليه عضد الدولة شرفه والتأم شمل مجلسه كما كان .

خلاصة الرسالة القشيرية :

تتألف الرسالة من الأقسام الرئيسية الآتية :

1 – مقدمة يشرح فيها الباعث على تأليفه الرسالة فقد لاحظ أن بعض صوفية عصره قد ضلوا سبل الرشاد فعقد النية على وضع كتاب يرجع فيه بالتصوف إلى سيرته الأولى ، ويخلصه من البدع التي تسربت إليه وهذه هي عبارته نوردها بنصها لما فيها من روعة التصوير لهذه المأساة ، يقول : " اعلموا رحمكم اللّه أن المحققين من هذه الطائفة انقرض

أكثرهم ، ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم كما قيل :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

ويذكر القشيري في هذه المقدمة أيضا بيانا بأصول العقائد الإيمانية التي دان بها أوائل الصوفية وبنوا قواعد أمرهم في الطريق عليها ثم يلخص وجهة نظره في تسع مسائل يرجع إليها من يشاء في رسالته .

2- وهو قسم يترجم فيه لطائفة من الصوفية مبتدئا بإبراهيم ابن أدهم ومنتهيا بأحمد بن عطاء .

3- وهو تفسير ألفاظ تدور بين الصوفية وبيان ما يشكل منها .

4- وهو في أدب الطريق وما يعرض للسالك من عقبات في سفره إلى اللّه .

5- خاتمة بها وصيته للمريدين .

(384/678)

هذا وقد كانت الرسالة موضع عناية الدارسين وقد وضعت عليها عدة شروح أشهرها شرح الشيخ زكريا الأنصاري .

[سورة غافر (40) : الآيات 64 إلى 68]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (65) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (66) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68)

الاعراب :

)

(385/678)

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) كلام مستأنف مسوق لبيان تفضله تعالى المتعلق بالمكان بعد بيان تفضله المتعلق بالزمان واللّه مبتدأ والذي خبره وجملة جعل صلة ولكم متعلقان بمحذوف حال والأرض مفعول به أول وقرارا مفعول به ثان لأن الجعل هنا بمعنى التصيير وإذا اعتبرت بمعنى الخلق كانت قرارا حالا

بمعنى مستقرة والسماء بناء عطف على ما تقدم وصوركم فعل وفاعل مستتر ومفعول به ، فأحسن عطف على صوركم وصوركم مفعول به ومعنى كون السماء بناء إنها مبنية كالقبة المضروبة في نظر العين . (وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذِلكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ) ورزقكم عطف على ما تقدم ومن الطيبات متعلقان برزقكم وذلكم مبتدأ واللّه خبر وربكم خبر ثان .

(فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ) الفاء حرف عطف وتبارك فعل ماض واللّه فاعل ورب العالمين نعت اللّه . (هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) هو مبتدأ والحي خبر وكلمة الشهادة التي تقدم اعرابها خبر ثان فادعوه الفاء الفصيحة وادعوه فعل أمر وفاعل ومفعول به ومخلصين حال وله متعلقان بمخلصين والدين مفعول لمخلصين .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) تقدم إعرابها في مستهل الكتاب والجملة مقول لقول محذوف هو حال من فاعل فادعوه أي قائلين الحمد للّه إلخ ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة على أنها من كلامه ذاته سبحانه .

)

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِي الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي) إن واسمها وخبرها مقول القول وجملة نهيت خبر إن والتاء نائب فاعل وأن أعبد المصدر المؤول في محل نصب بنزع الخافض أي عن عبادة الذين تدعون وجملة تدعون صلة ومن دون اللّه حال ولما ظرف بمعنى حين أو رابطة وجاءني البينات فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وجملة جاءني في محل جر بإضافة الظرف إليها .

(وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ) عطف على نهيت وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض أي بالإسلام ولرب العالمين متعلقان بأسلم . (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ) هو مبتدأ والذي خبر وجملة خلقكم صلة ومن تراب متعلقان بخلقكم والكلام مستأنف مسوق لبيان كيفية تكون البدن وما بعده عطف عليه . (ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا) عطف أيضا ويخرجكم فعل مضارع وفاعل وطفلا حال من الكاف في يخرجكم . (ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً) عطف أيضا واللام للتعليل وتبلغوا منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم وكذلك لتكونوا شيوخا وشيوخا خبر كان وقرىء بضم الشين وكسرها . (وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ) الجملة مستأنفة ومنكم متعلقان بمحذوف خبر ل " من " ومن قبل متعلقان بيتوفى (وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) الواو عاطفة

ولتبلغوا الجار والمجرور متعلقان بمحذوف أيضا تقديره ونفعل ذلك ونحوه وأجلا مفعول به

ومسمى نعت ولعلكم تعقلون عطف على قوله لتبلغوا أشدكم .

)

(387/678)

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) هو مبتدأ والذي خبره وجملة يحيي ويميت صلة ، فإذا الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة قضى في محل جر بإضافة الظرف إليها وأمرا مفعول به ، فإنما الفاء رابطة وإنما كافة ومكفوفة ويقول فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره هو وله متعلقان بيقول وكن فعل أمر تام وفاعل مستتر تقديره أنت والفاء استئنافية وجملة يكون خبر لمبتدأ محذوف أي فهو يكون وقرىء فيكون بفتحها على أن الفاء سببية والفاعل ضمير مستتر تقديره هو .

الفوائد :

كائنا ما كان :

اختلف في كان وكائنا في قولك : لأضربنه كائنا ما كان فقال الفارسي : هما تامان في الموضعين وما مصدرية وهي وما بعدها فاعل كائنا أي كونه وقيل هما ناقصان في الموضعين وفي كائنا ضمير هو اسمه وخبره ما وهي موصولة وصلتها كان واسمها وخبرها واسمها

ضمير مستتر فيها وخبرها محذوف تقديره إياه واسم كائن المستتر فيه وخبر كان عائدان على الشخص المضروب وتقدير الكلام حينئذ لأضربنه كائنا الذي كان إياه وكائنا حال من مفعول لأضربنه وفيه اطلاق ما على العاقل وهو جائز ويجوز أن تكون ما نكرة موصوفة وقد يقال من كان فيكون الكلام جاريا على وجهه.

[سورة غافر (40) : الآيات 69 إلى 76]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73)

مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (74) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76)

اللغة:

(السَّلاسِلُ) : جمع سلسلة وهي الدائرة من حديد ونحوه تتصل أجزاؤها أو حلقاتها

بعضها ببعض ومنه سلاسل البرق أي ما استطال منه في عرض السحاب وسلاسل الكتاب : سطوره ، قال الراغب : وتسلسل الشيء اضطرب كأنه تصور منه تسلسل متردد فتردد لفظه تنبيه على تردد معناه وماء سلسل أي متردد في مقره .

(يُسْجَرُونَ) : يوقدون من سجر التنور إذا ملأه بالوقود .

الاعراب :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ) الهمزة للاستفهام التقريري التعجبي ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع

(389/678)

مجزوم بإلى والفاعل مستتر تقديره أنت والى الذين متعلقان بتر أي تنظر وجملة يجادلون بآيات اللّه صلة وأنى اسم استفهام في محل نصب حال ويصرفون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل ومتعلقه محذوف أي يصرفون عن الإيمان بالكلية . (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) الذين بدل من الذين الأولى وكذبوا صلة وبالكتاب متعلقان بكذبوا وبما عطف على بالكتاب وجملة أرسلنا صلة وبه متعلقان بأرسلنا ورسلنا مفعول به والفاء استئنافية وسوف حرف استقبال ويعلمون فعل مضارع مرفوع

والجملة مستأنفة مسوقة للتهديد ، هذا ويجوز أن تعرب الذين خبرا لمبتدأ محذوف فيكون محلها الرفع أو منصوبا على الذم ويجوز أن يكون مبتدأ خبره فسوف يعلمون والفاء رابطة لما في الموصول من رائحة الشرط . (إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ) إذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بيعلمون أو هي في محل نصب مفعول به ليعلمون ولا يتنافى كون الظرف ماضيا وسوف يعلمون مستقبلا ففي جعلها مفعولا به تفاد من استحالة عمل المستقبل في الزمن الماضي ، ولك أن تقول لا منافاة لأن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار اللّه تعالى متيقنة مقطوعا بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد والمعنى على الاستقبال .

وعبارة السمين " ولا حاجة لإخراج إذ عن موضوعها بل هي باقية على دلالتها على المضي وهي منصوبة بقوله فسوف يعلمون ، نصب المفعول به أي فسوف يعلمون يوم القيامة وقت الأغلال في أعناقهم أي وقت سبب الأغلال وهي المعاصي التي كانوا يفعلونها في الدنيا كأنه قيل سيعرفون وقت معاصيهم التي تجعل الأغلال في أعناقهم وهو وجه صحيح غاية ما فيه التصرف في

(390/678)

إذ تجعلها مفعولا به ولا يضرنا ذلك فإن المعربين غالب أوقاتهم يقولون منصوب باذكر مقدرا ولا تكون حينئذ إلا مفعولا به لاستحالة عمل المستقبل في الزمن الماضي وجوزوا أن تكون منصوبة باذكر مقدر أي اذكر لهم وقت الأغلال ليخافوا وينزجروا فهذه ثلاثة أوجه خيرها أوسطها " .

وعبارة أبي البقاء : إذ ظرف زمان ماض والمراد بها الاستقبال هنا لقوله تعالى : فسوف يعلمون ، والأغلال مبتدأ وفي أعناقهم خبر والسلاسل عطف على الأغلال والظرف في نية التأخير عنهما فهو خبر عنهما معا وجملة يسحبون حال أو مبتدأ وخبره جملة يسحبون والرابط مقدر تقديره بها وقرىء بنصب السلاسل ويسحبون بفتح الياء فهو مفعول مقدم ليسحبون .

وعبارة الزمخشري : " وعن ابن عباس والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء على عطف الجملة الفعلية على الاسمية وعنه والسلاسل يسحبون بجر السلاسل ووجهه أنه لو قيل إذ أعناقهم في الأغلال مكان قوله إذ الأغلال في أعناقهم لكان صحيحا مستقيما فلما كانتا عبارتين متعقبتين حمل قوله والسلاسل على العبارة الأخرى ونظيره :

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا بين غرابها

كأنه قيل بمصلحين وقرىء وبالسلاسل يسحبون " فهو على قراءة الجر من باب عطف

التوهم وقد تقدم بحثه . وعندئذ يكون فيه فن القلب وهو كثير شائع في كلامهم وقد تقدم بحثه وفيه عطف التوهم بعد ذلك .

(391/678)

)

فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ) في الحميم متعلقان بيسحبون ، ثم حرف عطف للتراخي وفي النار متعلقان بيسجرون والجملة عطف على ما قبلها . (ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ) ثم قيل أي ثم يقال أو يقولون وصيغة الماضي لتحقق وقوع القول ولهم متعلقان بقيل وأين اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وما اسم موصول مبتدأ مؤخر وجملة كنتم صلة وجملة تشركون خبر كنتم . (مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا) من دون اللّه حال وقالوا فعل وفاعل وجملة ضلوا عنا مقول القول (بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ) بل حرف إضراب انتقالي ولم حرف نفي وقلب وجزم ونكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلم واسمها مستتر تقديره نحن وجملة ندعو خبرها ومن قبل حال وشيئا مفعول به وكذلك نعت لمصدر محذوف ويضل اللّه الكافرين فعل مضارع وفاعل ومفعول به . (ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)

اسم الإشارة مبتدأ والإشارة للإضلال أو العذاب وبما خبر وجملة كنتم صلة وجملة تفرحون خبر كنتم وفي الأرض متعلقان بتفرحون وبغير الحق حال . (وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) عطف على قوله كنتم تفرحون والمرح هو الفرح أو أشده كما في المصباح . (ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) ادخلوا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول قول محذوف وأبواب جهنم مفعول به على السعة وخالدين حال وفيها متعلقان بخالدين والفاء عاطفة وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم ومثوى المتكبرين فاعل بئس والمخصوص بالذم محذوف أي هي ولم يقل مدخل المتكبرين لإفادة الديمومة والخلود بلفظ الثواء .

الفوائد :

(392/678)

رسمت " أين " مفصولة من " ما " في المصحف ووصلت في مواضع أخرى ، وعبارة ابن الجزري (" فأينما كالنحل صل " أي صل " أين " مع " ما " في قوله تعالى " أينما تولوا فثم وجه اللّه " بالبقرة كالنحل أي كما تصله بها في قوله " أينما يوجهه لا يأت بخير " بالنحل " ومختلف في الأحزاب والنساء وصف " أي والاختلاف في " أين ما كنتم تعبدون " في الشعراء و "

أينما ثقفوا " في الأحزاب و" أينما تكونوا يدرككم الموت " في النساء وصف أي ذكر أي ذكره أهل الرسم وما عدا الثلاثة نحو " فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا " و" أين ما كنتم تدعون من دون اللّه " في الأعراف و" أين ما كنتم تشركون " في غافر و" أين ما كانوا " في المجادلة مقطوع) .

[سورة غافر (40) : الآيات 77 إلى 78]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (77) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78)

الإعراب :

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) الفاء الفصيحة أي إن بدا لك منهم ما بدا من صد وإعراض فلا تبتئس واصبر فإننا سننتقم لك منهم .

واصبر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وإن واسمها وخبرها تعليل

للأمر بالصبر . (فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ) الفاء عاطفة وإن الشرطية مدغمة في ما الزائدة ونرينك فعل الشرط مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم والفاعل مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به وبعض الذي مفعول به ثان وجملة نعدهم صلة الذي ، أو نتوفينك عطف على نرينك والفاء رابطة ، وإلينا يرجعون : إلينا متعلقان بيرجعون والجملة جواب للشرط الثاني وهو نتوفينك وجواب الشرط الأول والتقدير فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك أو أن نتوفينك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام .

وإنما حذف جواب الأول دون الثاني لأن الأول إن وقع فذاك غاية الأمل في إنكائهم فالثابت على تقدير وقوعه معلوم وهو حصول المراد على التمام وأما إن لم يقع ووقع الثاني وهو توفيه قبل حلول المجازاة بهم فهذا هو الذي يحتاج إلى ذكره للتسلية وتطمين النفس على أنه وإن تأخر جزاؤهم عن الدنيا فهو حتم في الآخرة ولا بد منه .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) الواو عاطفة واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وأرسلنا فعل وفاعل ورسلا مفعول به ومن قبلك نعت لرسلك أو متعلقان بأرسلنا ومنهم خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة قصصنا صلة وعليك متعلقان بقصصنا ومنهم من لم نقصص عليك عطف على الجملة الأولى وهي نعت لرسلا أو مستأنفة .

(وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) الواو عاطفة وما نافية وكان فعل ماض ناقص ولرسول خبر كان المقدم وأن وما في حيزها اسمها المؤخر وبآية متعلقان بيأتي وإلا أداة حصر وبإذن اللّه

(394/678)

استثناء من أعم الأحوال . (فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ) الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة جاء أمر اللّه في محل جر باضافة الظرف إليها وجملة قضي بالحق لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ونائب فاعل قضي مستتر تقديره هو أي الأمر وبالحق حال أي ملتبسا بالحق وخسر فعل ماض وهنالك اسم إشارة في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بخسر والمبطلون فاعل خسر .

الفوائد :

ضمير النكرة نكرة أم معرفة ؟

تساءل بعضهم عن الضمير في قوله " منهم من قصصنا " والعائد على قوله " رسلا " أهو نكرة أم معرفة ؟ وأجاب بأنه نكرة لأن مدلوله كمدلول المرجوع إليه وهو نكرة فوجب أيضا أن يكون الراجع نكرة إذ التنكير والتعريف باعتبار المعنى والصحيح انه معرفة لأن الهاء في

قولك : " جاءني رجل وضربته " ليست شائعة شياع رجل لأنها تدل على الرجل الجائي خاصة لا على رجل والذي يحقق ذلك أنك تقول جاءني رجل ثم تقول : أكرمني الرجل ولا تعني بالرجل سوى الجائي ولا خلاف في أن الرجل معرفة فوجب أن يكون الضمير معرفة أيضا لأنه بمعناه .

[سورة غافر (40) : الآيات 79 إلى 85]

(395/678)

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (83) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (85)

الاعراب :

)

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ) كلام مستأنف مسوق لتعديد بعض آلائه سبحانه ، والله مبتدأ والذي خبره وجملة جعل صلة ولكم متعلقان بجعل لأنها بمعنى خلق والأنعام مفعول به ، وقد تقدم تفسيرها في سورة الأنعام ولا معنى لتخصيص الإبل وحدها ، ولتركبوا اللام للتعليل وتركبوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بجعل لأنها علة الخلق ومنها متعلقان بتركبوا أي من بعضها فمن للتبعيض ولا معنى لجعلها ابتدائية ومنها تأكلون عطف على ما تقدم (وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ) الجملة معطوفة . (وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) وعليها متعلقان بتحملون وعلى الفلك عطف على وعليها . يُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ)

ويريكم آياته عطف

على جعل لكم الأنعام وآياته مفعول به ثان ، فأي : الفاء عاطفة وأي مفعول مقدم لتنكرون وقدم وجوبا لأن لأسماء الاستفهام الصدارة وتنكرون فعل مضارع مرفوع والاستفهام

للتوبيخ قال الزمخشري :

" وقد جاءت على اللغة المستفيضة وقولك فأية آيات اللّه قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهي في أي أغرب " قلت وقد ورد تأنيثها كثيرا ومنه قول الكميت :

بأي كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عارا علي وتحسب

)

(397/678)

أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) كلام مستأنف مسوق للشروع في توبيخهم والهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي والفاء عاطفة على مقدر أي أعجزوا فلم يسيروا في الأرض أي في نواحيها وأطرافها والفاء فاء السببية وينظروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية والواو فاعل وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم وعاقبة اسمها المؤخر ومن قبلهم متعلقان بمحذوف صلة الموصول . (كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ) كلام مستأنف مسوق لبيان مبدأ أحوالهم وعواقبها وكان واسمها وأكثر خبرها ومنهم متعلقان بأكثر وقوة تمييز وآثارا عطف على قوة

وفي الأرض نعت لآثارا . (فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ) الفاء عاطفة وما نافية أو استفهامية في محل نصب مفعول أغنى المقدم وأغنى فعل ماض وعنهم متعلقان بأغنى وما الثانية موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع على الفاعلية أي لم يغن عنهم أو أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم .

(فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) الفاء هذه هي الفاء الثانية من أربع فاءات متعاقبة فالأولى للعطف كما قلنا بيّنت عاقبة كثرتهم وشدة قوتهم . والثانية عاطفة أيضا تشير إلى تفصيل ما أبهم من عدم الإغناء ولما ظرف بمعنى حين أو رابطة وجاءتهم رسلهم فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل وبالبينات متعلقان بجاءتهم وجملة فرحوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وعندهم ظرف متعلق بمحذوف صلة ما ومن العلم حال (وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) وحاق عطف على فرحوا وبهم متعلقان بحاق وما موصولة فاعل وجملة كانوا صلة وكان واسمها وبه متعلقان بيستهزئون وجملة يستهزئون خبر كانوا وسيأتي معنى هذا الكلام في باب البلاغة .

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) وهذه هي الفاء الثالثة وهي لمجرد العطف والتعقيب أي التي تجعل ما بعدها تابعا لما قبلها واقعا عقبه ولما حينية ورأوا فعل ماض وفاعل والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها وبأسنا مفعول به وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجملة آمنا مقول القول وبالله متعلقان بآمنا ووحده حال . (وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ) وكفرنا عطف على آمنا وبما متعلقان بكفرنا وجملة كنا صلة ما وكان واسمها وبه متعلقان بمشركين ومشركين خبر كنا . (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا) وهي الفاء الرابعة وهي للعطف وجملة يك معطوفة على آمنّا كأنه قيل فآمنوا فلم ينفعهم إيمانهم وقد أفادت العطف مع التفسير ، ويك فعل مضارع ناقص مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون المقدر على النون المحذوفة للتخفيف واسمها مستتر تقديره هو أي الشأن وجملة ينفعهم خبرها وايمانهم فاعل ينفعهم ويجوز رفع إيمانهم اسما لكان وجملة ينفعهم خبرها المقدم وليست المسألة من باب التنازع ولما حينية وجملة رأوا بأسنا في محل جر بإضافة الظرف إليها . (سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ) سنة الله مصدر مؤكد لفعل مقدر من لفظه أي سن تعالى بهم سنة من قبلهم ويجوز أن يكون منصوبا على التحذير أي احذروا سنة الله في المكذبين والتي صفة لسنة وجملة قد خلت صلة وفي عباده متعلقان بخلت أي مضت في عباده والواو استئنافية وخسر فعل ماض وهنالك اسم إشارة في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بخسر والكافرون فاعل

خسر وقد استعير ظرف المكان للزمان أي وخسروا وقت رؤية اليأس ويجوز ابقاؤه على أصله .

البلاغة :

فن التهكم :

(399/678)

في قوله " فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم " الآية فن التهكم وهو في الأصل تهدم البناء ، يقال تهكمت البئر إذا انهدمت والغضب الشديد والتندم على الأمر الفائت وهو في اصطلاح البيانيين الاستهزاء والسخرية من المتكبرين لمخاطبتهم بلفظ الإجلال في موضع التحقير ، والبشارة في موضع التحذير ، والوعد في موضع الوعيد ، والعلم في موضع الجهل ، تهاونا من القائل بالمقول له واستهزاء به ، وقد تقدمت الاشارة إلى هذا الفن كثيرا في كتابنا ، قال الزمخشري : " أراد العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى : بل ادّارك علمهم في الآخرة ، وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون لا نبعث ولا نعذب وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي

عنده للحسنى ، وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا ،

وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به البينات وعلم الأنبياء كما قال عز وجل : كل حزب بما لديهم فرحون " وما أجمل قول الحماسي :

أتاني من أبي أنس وعيد فثل تغيظ الضحاك جسمي

ثل أهلك ، والتغيظ : الغيظ ، وكني عن أبي أنس بالضحاك الذي كان ملكا قصدا للاستهزاء .

الفوائد :

حذف نون مضارع كان المجزوم :

تقدم القول في حذف نون مضارع كان المجزوم بشرط كونه مجزوما بالسكون غير متصل بضمير نصب ولا بساكن ، وقد وقع ذلك في التنزيل في ثمانية عشر موضعا ، وقد سمع في الشعر حذفها إذ وليها ساكن ، قال الخنجر بن صخر الأسدي :

فإن لم تك المرآة أبدت وسامة فقد أبدت المرآة جبهة ضيغم

فحذف النون مع ملاقاة الساكن ، والمرآة بكسر الميم ومدّ الهمزة آلة الرؤية فكأنه نظر وجهه فيها فلم يره حسنا فتسلى بأنه يشبه الضيغم وهو الأسد ، والوسامة بفتح الواو : الحسن والجمال وحمله جمهور النحاة على الضرورة واستشهد بقول النجاشي :

فلست بآتيه ولا أستطيعه ولاك اسقني إن كان ماؤك ذا فضل

فحذف نون لكن ضرورة واستدل الفراء بهذا البيت على أن لكن المشددة مركبة وأصلها لكن ان فطرحت الهمزة للتخفيف ونون لكن للساكنين ومن طريف ما يروى عن هذا البيت أن النجاشي الشاعر عرض له ذئب في سفره فحكى أنه دعا الذئب إلى الطعام وقال له : هل لك من أخ يعني نفسه يواسيك بطعامه بغير من ولا بخل فقال له الذئب دعوتني إلى شيء لم تفعله السباع قبلي من مؤاكلة بني آدم ولست بآتيه ولا أستطيعه ولكن إن كان في مائك الذي معك فضل عما تحتاج اليه فاسقني منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 8 صـ 454.528﴾

(401/678)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والسبعون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/679)

الجزء التاسع والسبعون بعد الستمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة فصلت)

(4/679)

(سورة فصلت)

(5/679)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السّورة :

فيه حديث أُبىّ المردود : من قرأَ هذه السورة أَعطاه الله بكلّ حرف عشرَ حسنات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 417 ﴾

(6/679)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة فصلت مكية - آياتها أربع وخمسون وتسمى حم السجدة مقصودها الإعلام بأن العلم إنما هو ما اختاره المحيط بكل شيء قدره وعلماً من علمه لعباده فشرعه ، لهم ، فجاءتهم به عنه رسله ، وذلك العلم هو الحامل على الإيمان بالله والاستقامة على طاعته

المقترن بهما – كما تقدم في الزمر في قوله (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) [آية : 9] فتكون عاقبته الكشف الكلي حين يكون سبحانه سمع العالم الذي يسمع به ، (بصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها) – إلى آخر الحديث القدسي الذي معناه أنه يوفقه سبحانه فلا يفعل إلا ما يرضيه ، وعلى ذلك دل اسمها (فصلت) بالإشارة إلى ما في الآية المذكورة فيها هذه الكلمة من الكتاب المفصل لقوم يعلمون .

والسجدة بالإشارة إلى ما في آيتها من الطاعة له بالسجود الذي هو أقرب مقرب من الملك الديان ، والتسبيح الذي هو المدخل الأول للإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 547 ﴾

(7/679)

فصل

قال الآلوسى :

سورة فصلت

وتسمى السجدة وسورة حم السجدة وسورة المصابيح وسورة الأقوات وهي مكية بلا خلاف ولم أقف فيها على استثناء وعدد آياتها كما قال الداني خمسون وآيتان بصري

وشامي وثلاث مكي ومدني وأربع كوفي ومناسبتها لما قبلها أنه سبحانه ذكر قبل أفلم يسيروا في الأرض الخ وكان ذلك متضمنا تهديدا وتقريعا لقريش وذكر جل شأنه هنا نوعا آخر من التهديد والتقريع لهم وخصهم بالخطاب في قوله تعالى : فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة عاد وثمود ثم بين سبحانه كيفية إهلاكهم وفيه نوع بيان لما في قوله تعالى : أفلم يسيروا الآية وبينهما أوجه من المناسبة غير ما ذكر وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الخليل بن مرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ تبارك وحم السجدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ 94 ﴾

(8/679)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . حم .

تنزيل من الرحمن الرحيم)

السورة مكِّيّة بالاتِّفاق .

عدد آياتها أَربع وخمسون فى عدّ الكوفة ، وثلاث فى عدّ الحجاز ، واثنتان فى عَدّ البصرة

، والشَّأْم .

وكلماتها سبعمائة وست وتسعون .

وحروفها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسون .

المختلف فيا آيتان : حم ﴿ عَادٍ وَثَمُودٍ ﴾ مجموع فواصل آياتها (ظن طب حرم صد)

وللسّورة اسمان : حم السّجدة ، لاشْتمالها على السجدة ، وسورة المصابيح ؛ لقوله : ﴿ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ﴾ .

معظم مقصود السّورة : بيان شرف القرآن ، وإعراض الكفَّار من قبوله ، وكيفيّة تخليق الأَرض والسّماءِ ، والإشارة إلى إهلاك عاد وثمود ، وشهادة الجوارح على العاصين فى القيامة ، وعجز الكفَّار فى سجن جهنَّم ، وبشارة المؤمنين بالخلود فى الجِنان ، وشرف المؤذِّنين بالأَذان ، والاحتراز من نزغات الشيطان ، والحُجّة والبرهن على وحدانيّة الرّحمن ، وبيان شرف القرآن ، والنفع والضرّ ، والإِساءَة ، والإِحسان ، وجزع الكفَّار عند الابتلاءِ والامتحان ، وإظهار الآيات الدّال على الذَّات والصّفات الحسان ، وإحاطة علم الله بكلّ شىء من الإِسرار والإِعلان ، بقوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ آية واحدة ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ م آية السّيف ن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 413.414 ﴾

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة حم السجدة

389 - مسألة :

قوله تعالى : (خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) ثم قال تعالى : (وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ) ثم قال : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) . . . (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ)

فظاهره ثمانية أيام

وقال تعالى فى عدة مواضع (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

جوابه :

أنه أضاف اليومين اللذين دحي فيهما الأرض ، وأخرج ماءها ومرعاها إلى اليومين اللذين خلق فيهما الأرض فصارت أربعة أيام .

فقوله تعالى : (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا) إلى آخره ، معطوف على (خَلَقَ الْأَرْضَ) تقديره : خلق الأرض وجعل فيها رواسي وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة

أيام.

مسألة:

قوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ) و (ثُمَّ) تقتضي

الترتيب، فظاهره أن تسوية السماء بعد دحي الأرض وأقواتها وبركاتها، وقد قال تعالى

في النازعات: (والأرض بعد ذلك دحاها) ؟ .

جوابه:

أن (ثُمَّ) قد تأتى لترتيب الأخبار لا لترتيب الوقائع المخبر عنها، فيكون تقديره: ثم يخبركم

أنه: (اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) الآية، ونحوه قوله تعالى في سورة الأنعام: (ثُمَّ آتَيْنَا

مُوسَى الْكِتَابَ) بعد قوله تعالى: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ) وهو كثير فى القرآن وكلام

العرب، ومنه البيت المشهور وهو أن:

من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد بعد ذلك جده

391 - مسألة:

قوله تعالى: (فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ). وفى القمر: (فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ)

وفى الحاقة: (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا).

جوابه:

أن " اليوم " يعبر به عن " الأيام " كقولهم : يوم الحرة ، ويوم بعاث ، وقد يراد به اليوم الذي بدأ به الريح ، يقال : كان آخر أربعا في الشهر .

392 . مسألة :

قوله تعالى : (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) وقال (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) .

جوابه :

أن ذلك في من علم الله تعالى أنه لا يؤمن . أو يكون عاما مخصوصا بمن علم الله ذلك منه .

392 . مسألة :

قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ) وقال تعالى في النمل : (حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي) فحذف (ما)

جوابه :

أنه إذا أريد تحقيق جزاء الشرط لبعده من معناه أكد (بما)

على عادتهم عند قصد التأكيد بزيادة الحروف ، وإذا لم يكن

الجزاء بعيدا من معنى الشرط لم يحتج إلى تأكيد .

ولفظ "المجيء" لا يعقل منه ، ولا يفهم شهادة السمع والبصر

فاحتاج إلى تأكيد الشرط ب (ما) وسؤال الخلق عند مجيئهم

في القيامة مفهوم منه لعلمهم أن الحشر لذلك فلم يحتج إلى توكيد .

394 - مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36) وفى الأعراف :

(سَمِيعٌ عَلِيمٌ) تقدم جوابه في الأعراف .

395 - مسألة :

قوله تعالى : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا) وقال في هود :

هو - (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ) ولم يقل : (مِنَّا) .

جوابه :

أن آية هود تقدم فيها لفظ (مِنَّا) في قوله تعالى :

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ) فتركت ثانيا للدلالة عليها أولا . ولم يتقدم هنا ذلك .

396 .مسألة :

قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ) وفى الأحقاف : (وَكَفَرْتُمْ بِهِ) ؟

جوابه :

أنه يجوز أن يكون (ثم) هنا للاستبعاد من الكفر مع العلم بكونه من عند الله فإن التخلف عن الإيمان بعد ظهور كونه من عند الله مستبعد عند العقلاء ، ولذلك قال تعالى : مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) ، وهو كقوله تعالى : (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) و "الواو" في الأحقاف واو العطف بمعنى الجمع ، وجواب الشرط مقدر تقديره : إن اجتمع كونه من عند الله وكفرتم به وشهادة الشاهد وإيمانه ألستم بكفركم ظلمة ودل عليه أن الله لا يهدى القوم الظالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 324.330 ﴾

(12/679)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أَى مع اليومين اللَّذين تقدّما فى قوله : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ كيلا يزيد العدد على ستَّة أَيَّام ، فيتطرّق إِليه كلام المعترض .

وإِنما جَمَع بينهما ولم يذكر اليومين على الانفراد بعدهما ؛ لدقيقة لا يهتدى إِليها إِلا كلّ فطن خِرِّيت وهى أَنَّ قوله : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ صلة ﴿ الَّذِي ﴾ و ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ

أَندَاداً ﴾ عطف على ﴿ لَتَكْفُرُونَ ﴾ و ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ عطف على قوله : ﴿ خَلَقَ الأَرْضَ ﴾ وهذا ممتنع فى الإِعراب لا يجوز فى الكلام ، وهو فى الشعر من أَقبح الضرورات ، لا يجوز أَن يقال : جاءَنى الذى يكتب وجلس ويقرأُ : لأَنَّه لا يحال بين صلة الموصول وما يُعطف عليه بأَجنبىّ من الصّلة ؛ فإِذا امتنع هذا لم يكن بُدّ من إِضمار فعل يصحّ الكلام به ومعه ، فيضمر ﴿ خَلَقَ الأَرْضَ ﴾ بعد قوله ﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيصير التقدير : ذلك ربّ العالمين ، خَلَق الأَرض وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدّر فيها أَقواتها ، فى أَربعة أَيّام ؛ ليقع هذا كلّه فى أَربعة أَيام .

فسقط الاعتراض والسّؤال .

وفيه معجزة وبرهان .

قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وفى الزخرف وغيره ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ بغير (ما) ؛ لأَنَّ (حتى) ههنا الَّتى تجرى مجرى واو العطف فى نحو قولك : أَكلت السّمكة حتى رأْسَها أَى ورأْسها .

وتقدير الآية : فهم يوزعون ، وإِذا ما جاءُوها و (ما) هى الَّتى تزاد مع الشَّرط ، نحو أَينما ، وحيثما .

وحتى فى غيرها من السّورة للغاية .

قوله : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ومثله فى الأَعراف ، لكنه ختم بقوله ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ؛ الآية فى هذه السّورة متَّصلة بقوله : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ وكان مؤكَّداً بالتكرار ، وبالنفى والإثبات ، فبالغ فى قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ بزيادة (هو) وبالأَلف واللام ، ولم يكن فى الأَعراف هذا النَّوع من الاتّصال ، فأَتى على القياس : المخبرُ عنه معرفة ، والخبر نكرة .

قوله : ﴿ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ وفى عسق بزيادة قوله : ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وزاد فيها أَيضاً : ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ لأَنَّ المعنى : تفرق قول اليهود فى التَّوراة ، وتفرّق قولُ الكافرين فى القرآن ، ولولا كلمة سبَقَت من ربّك بتأْخير العذاب إلى يوم الجزاءِ ، لقُضى بينهم بإنزال العذاب عليهم ، وخُصّت عسق

بزيادة قوله تعالى : ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لأَنَّه ذكر البداية فى أَوّل الآية وهو ﴿ وَمَا تَفَرَّقُواْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ وهو مبدأُ كفرهم ، فحسن ذكر النّهاية الّتى أُمهلوا إليها ؛ ليكون محدوداً من الطَّرفين .

قوله : ﴿ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ [فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ وبعده : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ] فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ لا منافاة بينهما ؛ لأَنَّ معناه : قَنُوط من الصّنم ، دَعَّاء لله .

وقيل : يئوس قَنُوط بالقلب دَعَّاء باللّسان .

وقيل : الأَوّل فى قوم والثَّانى فى آخرين .

وقيل الدُّعاءُ مذكور فى الآيتين ، وهو ﴿ لاَّ يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ ﴾ فى الأَوّل ، و ﴿ ذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ فى الثَّانى .

(14/679)

قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ [بزيادة مِن] وفى هود : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ ، لأَنَّ فى هذه السّورة بيّن جهة الرّحمة ، وبالكلام حاجة إلى ذكرها وحَذَف فى هود ؛ اكتفاءً بما قبله ، وهو قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ ، وزاد فى هذه السّورة (من) لأَنه لمّا حدّ الرّحمة والجهة الواقعة منها ، حَدَّ الطَّرف الَّذى بعدها فتشاكلا فى التحقيق .

وفى هود لمّا أَهمل الأَوّل أَهمل الثَّانى .

قوله : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ ﴾ وفى الأَحقاف ﴿ وَكَفَرْتُم بِهِ ﴾ بالواو ؛ لأَنَّ معناه فى هذه السّورة : كان عاقبة أَمركم بعد الإِمهال للنّظر والتدبّر الكفر ، فحسن دخول ثُمّ ، وفى الأَحقاف عطف عليه ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ ﴾ ؛ فلم يكن عاقبة أَمرهم .

(وكان) من مواضع الواو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 414.
417 ﴾

(15/679)

وقال العلامة الكَرْماني رحمه الله :

سورة فصلت

456 - قوله تعالى في أربعة أيام 10 أي مع اليومين الذين تقدما قوله خلق الأرض في يومين 9 لئلا يزيد العدد على ستة أيام فيتطرق إليه كلام المعترض

وإنما جمع بينهما ولم يذكر اليومين على الانفراد بعدهما لدقيقة لا يهتدي إليها كل أحد وهي أن قوله خلق الأرض في يومين صلة الذي و تجعلون له أندادا عطف على قوله لتكفرون 9 و جعل فيها رواسي 10 عطف على قوله خلق الأرض 9 وهذا تفريع في الإعراب لا يجوز في الكلام وهو في الشعر من أقبح الضرورات لا يجوز أن يقال جاءني الذي يكتب وجلس ويقرأ لأنه لا يحال بين صلة الموصول وما يعطف بأجنبي من الصلة

فإذا امتنع هذا لم يكن بد من إضمار فعل يصح الكلام به ومعه فيضمر خلق الأرض بعد قوله ذلك رب العالمين 9 فيصير التقدير ذلك رب العالمين خلق الأرض وجعل فيها رواسي من

فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام ليقع هذا كله في أربعة أيام ويسقط الاعتراض والسؤال وهذه معجزة وبرهان

457 - قوله حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم 20 وفي الزخرف وغيره حتى إذا جاءنا 38 حتى إذا جاءونا 43 بغير ما لأن حتى ههنا هي التي تجري مجرى واو العطف نحو قولك أكلت السمكة حتى رأسها أي ورأسها وتقدير الآية فهم يوزعون إذا جاءوها وما هي التي تزاد مع الشروط نحو أينما وحيثما وحتى في غيرها من السور للغاية

458 - قوله وإما ينزعنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم 36 ومثله في الأعراف لكنه ختم بقوله إنه سميع عليم 200 لأن الآية في هذه السورة متصلة بقوله وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم 35 فكان مؤكدا بالتكرار وبالنفي والإثبات فبالغ في قوله إنه هو السميع العليم 36 بزيادة هو وبالألف واللام ولم يكن في الأعراف هذا النوع من الاتصال فأتى على القياس المخبر عنه معرفة والخبر نكرة

(16/679)

---

459 - قوله ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم 45 وفي حمعسق بزيادة قوله إلى أجل مسمى وزاد فيها أيضا بغيا بينهم لأن المعنى تفرق قول اليهود في التوراة وتفرق قول

الكافرين في القرآن ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخر العذاب إلى يوم الجزاء لقضى بينهم بإنزال العذاب عليهم

وخصت حمعسق بزيادة قوله إلى أجل مسمى لأنه ذكر البداية في أول الآية وهو وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم 14 وهو مبدأ كفرهم فحسن ذكر النهاية التي أمهلوا إليها ليكون محدودا من الطرفين

460 – قوله وإن مسه الشر فيئوس قنوط 49 وبعده وإن مسه الشر فذو دعاء عريض 51 لا منافاة بينهما لأن معناه قنوط من الضيم دعاء الله وقيل يئوس قنوط بالقلب دعاء باللسان وقيل الأول

في قوم والثاني في آخرين وقيل الدعاء مذكور في الآيتين ودعاء عريض في الثاني

461 – قوله ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته 50 بزيادة منا و من وفي هود ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته 10 لأن ما في هذه السورة بين جهة الرحمة وبالكلام حاجة إلى ذكرها وحذف في هود اكتفاء بما قبله وهو قوله ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة 9 وزاد في هذه السورة من لأنه لما حد الرحمة والجهة الواقعة منها حد الطرف الذي بعدها ليتشاكلا في التحديد

وفي هود لما أهمل الأول أهمل الثاني

462 – قوله أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به 52 وفي الأحقاف وكفرتم به 10

بالواو لأن معناه في هذه السورة كان عاقبة أمركم بعد الإمهال للنظر والتدبر الكفر فحسن دخول ثم وفي الأحقاف عطف عليه وشهد شاهد 10 فلم يكن عاقبة أمرهم فكان من مواضع الواو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 188.190 ﴾

(17/679)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة فصلت

تسمى حم السجدة بإضافة حم إلى السجدة كما قدمناه في أول سورة المؤمن ، وبذلك ترجمت في صحيح البخاري وفي جامع الترمذي لأنها تميزت عن السور المفتتحة بحروف حم بأن فيها سجدة القرآن .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن خليل بن مرة1 أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ : تبارك ، وحم السجدة2 .

وسميت في معظم مصاحف المشرق والتفاسير سورة السجدة ، وهو اختصار قولهم حم

السجدة وليس تمييزا لها بذات السجدة .

وسميت هذه السور في كثير من التفاسير سورة فصلت

واشتهرت تسميتها في تونس والمغرب سورة فصلت لوقوع كلمة ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ في أولها

فعرفت بها تمييزا لها من السور المفتتحة بحروف حم .

كما تميزت سورة المؤمن باسم سورة غافر عن بقية السور المفتتحة بحروف حم .

وقال الكواشي : وتسمى سورة المصابيح لقوله تعالى فيها ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا

بِمَصَابِيحَ ﴾ [فصلت : 3] ، وتسمى سورة الأقوات لقوله تعالى ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾

[فصلت : 10]

وقال الكواشي في التبصرة : تسمى سجدة المؤمن ووجه هذه التسمية قصد تمييزها عن

سورة الم السجدة المسماة سورة المضاجع فأضافوا هذه إلى السورة التي قبلها وهي

---

1 هو خليل بن مرة الضبعي " بضم الضاد المعجمة وفتح الموحدة " البصري الرقي, روى

عن عطاء وقتادة, وروى عنه الليث وابن وهب وأحمد بن حنبل .

قال البخاري : هو منكر الحديث توفي سنة ستين ومائة .

2 المعروف هو حديث الترمذي عن جابر : "كان رسول الله لا ينام حتى يقرأ ﴿ الم

تَنْزِيلُ ﴾ و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ ولا منافات بين الحديثين .

سورة المؤمن ، كما ميزوا سورة المضاجع باسم سجدة لقمان لأنها واقعة بعد سورة لقمان .

وهي مكية بالاتفاق نزلت بعد سورة غافر وقبل سورة الزخرف ، وعدت الحادية والستين في ترتيب نزول السور .

وعدت آيها عند أهل المدينة وأهل مكة ثلاثا وخمسين ، وعند أهل الشام والبصرة اثنتين وخمسين ، وعند أهل الكوفة أربع وخمسين .

أغراضها

التنويه بالقرآن والإشارة إلى عجزهم عن معارضته .

وذكر هديه ، وأنه معصوم من أن يتطرقه الباطل ، وتأييده بما أنزل إلى الرسل من قبل الإسلام .

وتلقى المشركين له بالإعراض وصم الآذان .

وإبطال مطاعن المشركين فيه وتذكيرهم بأن القرآن نزل بلغتهم فلا عذر لهم أصلا في عدم انتفاعهم بهديه .

وزجر المشركين وتوبيخهم على كفرهم بخالق السماوات والأرض مع بيان ما في خلقها من الدلائل على تفرده بالإلهية .

وإنذارهم بما حل بالأمم المكذبة من عذاب الدنيا ووعيدهم بعذاب الآخرة وشهادة سمعهم وأبصارهم وأجسادهم عليهم وتحذيرهم من القرناء المزينين لهم الكفر من الشياطين والناس وأنهم سيندمون يوم القيامة على اتباعهم في الدنيا وقوبل ذلك بما للموحدين من الكرامة عند الله .

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بدفعهم بالتي هي أحسن وبالصبر على جفوتهم وأن يستعيذ بالله من الشيطان وذكرت دلائل تفرد الله بخلق المخلوقات العظيمة كالشمس والقمر .

ودلائل إمكان البعث وأنه واقع لا محالة ولا يعلم وقته إلا الله تعالى وتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتأييد الله إياهم بتنزل الملائكة بالوحي ، وبالبشارة للمؤمنين وتخلل ذلك أمثال مختلفة في ابتداء خلق العوالم وعبر في تقلبات أهل الشرك .

والتنويه بإيتاء الزكاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 25 صـ 5 . 6﴾

(19/679)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف سورة فصلت

قضية العقيدة بحقائقها الأساسية هي التي تعالجها هذه السورة . . الألوهية الواحدة . والحياة الآخرة . والوحي بالرسالة . يضاف إليها طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية . وكل ما في السورة هو شرح لهذه الحقائق , واستدلال عليها . وعرض لآيات الله في الأنفس والآفاق , وتحذير من التكذيب بها , وتذكير بمصارع المكذبين في الأجيال السابقة , وعرض لمشاهد المكذبين يوم القيامة . وبيان أن المكذبين من الجن والإنس هم وحدهم الذين لا يسلمون بهذه الحقائق ولا يستسلمون لله وحده ; بينما السماء والأرض والشمس والقمر والملائكة . . . كلهم يسجدون لله ويخشعون ويسلمون ويستسلمون .

فعن حقيقة الألوهية الواحدة يرد في مطلع السورة: قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد , فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . . و:(قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ? ذلك رب العالمين) . . ويحكى عن عاد وثمود أن رسلهم قالت لهم هذه الحقيقة ذاتها : ألا تعبدوا إلا الله . . وفي وسطها يرد : (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر , واسجدوا لله الذي خلقهن) . . وفي نهايتها يرد عن الحقيقة ذاتها : (ويوم يناديهم أين شركائي ? قالوا :آذناك ما منا من شهيد) . .

وعن قضية الآخرة يرد تهديد للذين لا يؤمنون بالآخرة: (وويل للمشركين الذين لا يؤتون

الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) . . وتختم بقوله: (ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم , ألا إنه بكل شيء محيط) . . كما يرد ذكر هذه القضية في مشاهد القيامة وهي عرض لما يقع فيها يقوم على تأكيد وقوعها طبعاً . بل إن هذا الطريق أشد توكيداً لهذه القضية وتشخيصاً .

(20/679)

وعن قضية الوحي يرد كلام كثير يكاد يجعل هذا الموضوع هو موضوع السورة الرئيسي . فهي تفتتح به في تفصيل: (حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه , وفي آذاننا وقر , ومن بيننا وبينك حجاب , فاعمل إننا عاملون . قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي . . .) . . . وفي وسطها يجيء عن استقبال المشركين لهذا القرآن: (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) . . ثم يرد تفصيل كثير لهذا الاستقبال والرد على أقوالهم فيه: (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم , وإنه لكتاب عزيز , لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه , تنزيل من حكيم حميد . ما يقال لك: إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم . ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا: لولا فصلت آياته ؟ أأعجمي وعربي ؟ قل: هو للذين آمنوا هدى

وشفاء , والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر , وهو عليهم عمى . أولئك ينادون من مكان بعيد . . .) . .

وأما عن طريقة الدعوة وخلق الداعية فيرد قوله: (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً , وقال: إنني من المسلمين . ولا تستوي الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتي هي أحسن , فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا , وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم . وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله , إنه هو السميع العليم) . .

هذه القضايا تعرض في حشد من المؤثرات الشعورية العميقة . تعرض في المجال الكوني الحافل بالآيات العظام . وتعرض في عالم النفس البشرية العجيبة التكوين . وتعرض في مجال بشري من مصارع الغابرين . وأخيراً تعرض في جو من مشاهد القيامة وتأثيرها العميق ; وبعض هذه المشاهد فريد في صوره ومواقفه يثير الدهش الشديد .

(21/679)

ومن بين المشاهد الكونية في هذه السورة مشهد الخلق الأول للأرض والسماء بكثير من التفصيل المثير: قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ? ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام

سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين , وأوحى في كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً . ذلك تقدير العزيز العليم . . ومن بينها كذلك آيات الليل والنهار والشمس والقمر وعبادة الملائكة وخشوع الأرض بالعبادة ونبضها بالحياة: (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ; فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . إن الذي أحياها لمحيي الموتى , إنه على كل شيء قدير) . . أما النفس البشرية فيكشف عن حقيقتها في هذه السورة , وتعرض على أصحابها عارية من كل ستار: (لا يسأم الإنسان من دعاء الخير , وإن مسه الشر فيؤوس قنوط , ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن: هذا لي , وما أظن الساعة قائمة , ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى , فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه , وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) . .

(22/679)

ومن مصارع الغابرين يصور مصرع عاد ومصرع ثمود : فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق , وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة , وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى , فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون . .

ومن مشاهد القيامة المؤثرة في هذه السورة: يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء . وهو خلقكم أول مرة , وإليه ترجعون . . ومنها كذلك مشهد الحنق الواضح من المخدوعين على الخادعين: (وقال الذين كفروا : ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس , نجعلهما تحت أقدامنا , ليكونا من الأسفلين !) . .

وهكذا تعرض حقائق العقيدة – في السورة – في هذا الحشد من المؤثرات العميقة . ولعل هذا الحشد المنوع من تلك المؤثرات يصف جو السورة , ويصور طابعها , ويرسم ظلالها . . والواقع أن القلب يجد أنه منذ مطلع السورة إلى ختامها أمام مؤثرات وإيقاعات تجول به في ملكوت السماوات والأرض , وفي أغوار النفس , وفي مصارع البشر , وفي عالم القيامة ,

وتوقع على أوتاره إيقاعات شتى كلها مؤثر عميق . .

ويجري سياق السورة بموضوعاتها ومؤثراتها في شوطين اثنين , متماسكي الحلقات . .

(23/679)

الشوط الأول يبدأ بالآيات التي تتحدث عن تنزيل الكتاب وطبيعته وموقف المشركين منه . وتليها قصة خلق السماء والأرض . فقصة عاد وثمود . فمشهدهم في الآخرة تشهد عليهم الأسماع والأبصار والجلود . ومن هنا يرتد إلى الحديث عنهم في الدنيا وكيف ضلوا هذا الضلال , فيذكر أن الله قيض لهم قرناء سوء من الجن والإنس . يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم . ومن آثار هذا قولهم: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون . ثم موقفهم يوم القيامة حانقين على هؤلاء الذين خدعوهم من قرناء الجن والإنس ! وعلى الضفة الأخرى الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا . وهؤلاء تتنزل عليهم الملائكة – لا قرناء السوء – يطمئنونهم ويبشرونهم ويعلنون ولايتهم لهم في الدنيا والآخرة . ويلي هذا ما جاء عن الدعوة والداعية . . وبذلك ينتهي هذا الشوط .

ويليه الشوط الثاني يتحدث عن آيات الله من الليل والنهار والشمس والقمر والملائكة العابدة , والأرض الخاشعة , والحياة التي تهتز فيها وتربو بعد الموات . ويلي هذا الحديث

عن الذين يلحدون في آيات الله وفي كتابه , وهنا يجيء ذلك الحديث عن هذا الكتاب .

ويشار إلى كتاب موسى واختلاف قومه فيه . ويوكل أمرهم إلى الله بعد الأجل المضروب .

وهنا يرد حديث عن الساعة واختصاص علم الله بها . وعلمه بما تكنه الأكمام من ثمرات , وما تكنه الأرحام من أنسال . ويعرض مشهد الكافرين وهم يسألون عن الشركاء . يلي هذا الحديث عن النفس البشرية عارية من أستارها . ومع حرص الإنسان على نفسه هكذا فإنه لا يحتاط لها فيكذب ويكفر , غير محتاط لما يعقب هذا التكذيب من دمار وعذاب .

وتختم السورة بوعد من الله أن يكشف للناس عن آياته في الأنفس والآفاق حتى يتبينوا ويثقوا : سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم . ألا إنه بكل شيء محيط . .

وتختم السورة بهذا الإيقاع الأخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 3105 . 3107 ﴾

(24/679)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة فصلت

مكية نزلت بعد غافر وآياتها أربع وخمسون آية

بين يدي السورة

هذه السورة الكريمة مكية ، وهي تتناول جوانب العقيدة الإسلامية (الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء) وهي الأهداف الأساسية لسائر السور المكية التي تهتم بأركان الإيمان

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ، المنزل من عند الرحمن ، بالحجج الواضحة ، والبراهين الساطعة ، الدالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام ، فهو المعجزة الدائمة الخالدة للنبي الكريم .

* وتحدثت السورة عن أمر " الوحي والرسالة " فقررت حقيقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأنه بشر خصه الله تعالى بالوحي ، وأكرمه بالنبوة ، وإختاره من بين سائر الخلق ليكون داعيا إلى الله ، مرشدا إلى دينه المستقيم .

* ثم انتقلت السورة للحديث عن مشهد الخلق الأول للحياة ، خلق السموات والأرض ، بذلك الشكل الدقيق المحكم ، الذي يلفت أنظار المعرضين عن آيات الله ، للنظر والتفكر والتدبر ، ولكن ظلمات الكفر هي التي تحول بينهم وبين الإيمان ، فالكون كله ناطق بعظمة الله ، شاهد بوحدانيته جل وعلا .

* وعرضت السورة للتذكير بمصارع المكذبين ، وضربت على ذلك الأمثلة بأقوى الأمم وأعتاها ، قوم " عاد " الذين بلغ من جبروتهم أن يقولوا [من أشد منا قوة] ؟ وذكرت ما حل بهم وبثمود من الدمار الشامل ، والهلاك المبين ، حين تمادوا في الطغيان وكذبوا رسل الله .

* وبعد الحديث عن المجرمين يأتي الحديث عن المؤمنين المتقين ، الذين استقاموا على شريعة الله ودينه ، فأكرمهم الله بالأمن والأمان في دار الجنان ، مع النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين .

* ثم تحدثت السورة عن الآيات الكونية المعروضة للأنظار ، في هذا الكون الفسيح ، الزاخر بالحكم والعجائب ، وموقف الملحدين بآيات الله ، المتعامين عن كل تلك الآيات الظاهرة الباهرة .

(25/679)

---

* وختمت السورة بوعد الله للبشرية ، بأن يطلعهم على بعض أسرار هذا الكون في آخر الزمان ، ليستدلوا على صدق ما أخبر عنه القرآن [سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد] .

التسمية :

سميت " سورة فصلت " لأن الله تعالى فصل فيها الآيات ، ووضح فيها الدلائل على قدرته ووحدانيته ، وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته ، وخلقه لهذا الكون البديع ، الذي ينطق بجلال الله وعظيم سلطانه . ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 115.114 ﴾

(26/679)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة فصلت

لا يسمعون : أي لا يقبلون ولا يطيعون ، من قولهم : تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولى : أي لم يقبله ولم يعمل به فكأنه لم يسمعه ، والأكنة واحدها كنان كأغطية وغطاء : وهى خريطة السهام والمراد أنها في أغطية متكاثفة ، والوقر : الثقل في السمع

فاستقيموا إليه : أي فأخلصوا له العبادة ، ويل : أي هلاك ، لا يؤتون الزكاة :

أي لا يتصدقون بجزء من مالهم للسائل والمحروم ، ممنون : أي مقطوع من قولهم مننت الحبل

إذا قطعته ، ومنه قول ذى الإصبع :

إنى لعمرك ما بابى بذي غلق على الصديق ولا خيرى بممنون

فى يومين : أي في نوبتين ، والرواسي : الجبال الثوابت ، أقواتها : أي أقوات أهلها ، سواء :

أي كاملة لا نقصان فيها ولا زيادة ، للسائلين : أي لطالبى الأقوات المحتاجين إليها ، استوى :

أي عمد وقصد نحوها قصدا سويا من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجها لا

يلتفت معه إلى عمل آخر ، دخان : أي مادة غازية أشبه بالدخان ، فقضاهن : أي فرغ من

تسويتهن ، أمرها : أي شأنها وما هى مستعدة له واقتضت الحكمة أن يكون فيها ،

بمصابيح : أي بكواكب ونجوم ، وحفظا : أي وحفظناها حفظا من الآفات .

صاعقة : أي عذابا شديد الوقع كأنه صاعقة . قال المبرد : الصاعقة المرة المهلكة لأىّ

شىء كان ، وهى في الأصل الصيحة التي يحصل بها الهلاك ، أو قطعة نار تنزل من السماء

معها رعد شديد ، من بين أيديهم ومن خلفهم : أي من كل ناحية ، صرصرا :

أي باردة تهلك بشدة بردها . أنشد قطرب قول الحطيئة في المديح :

المطعمون إذا هبّت بصرصرة والحاملون إذا استودوا على الناس

استودوا : أي سئلوا الدية . نحسات واحدها نحسة (بكسر الحاء) أي نكدات مشئومات

، والهون : الذل .

يوزعون : أي يحبسن أولهم ليلحق آخرهم لكثرتهم من قولهم ، وزعته : أي كففته ،

جلودهم : أي جوارحهم ، أرداكم : أي أهلككم ، مثوى : أي مقام ، وإن يستعتبوا : أي

يطلبوا العتبى والرضا ، من المعتبين : أي المجابين إلى ما يطلبون

يقال أعتبنى فلان : أي أرضانى بعد إسخاطه إياى ، قال الخليل : تقول استعتبته فأعتبنى

:

أي استرضيته فأرضانى

دعا إلى اللّه : أي دعا إلى توحيده ، المسلمين : أي الخاضعين ، الحسنة : ما ترضى اللّه

ويتقبلها ، والسيئة : ما يكرهها ويعاقب عليها ، ادفع : أي ردّ ، والحميم : الصديق ، وما

يلقاها : أي يتقبلها ويحتملها ، حظّ : أي نصيب وافر من الخير ، ينزعنك :

أي يوسوسنّ لك ، وأصل النزغ : النخس ، فاستعذ باللّه : أي التجئ إليه .

الآية : هى البرهان والحجة ، يسأمون : أي يملّون ، خاشعة : أي جامدة يابسة لا نبات فيها

، اهتزت : أي تحركت ، وربت : أي انتفخت .

يقال : ألحد الحافر في الأرض : إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق منها ، والمراد بالملحدين

المنحرفون في تأويل الآيات بحملها على المحامل الباطلة ، والذكر : القرآن ، من بين يديه ومن

خلفه : أي من جميع جهاته ، حكيم : أي في جميع أفعاله ، حميد :

أي محمود إلى جميع خلقه بكثرة نعمه عليهم .

الساعة : يوم القيامة ، الأكمام : واحدها كمّ (بالكسر) : وعاء الثمرة وقد يطلق على كل ظرف لمال أو غيره ، آذناك : أي أعلمناك يقال آذنه يؤاذنه أي أعلمه كما قال :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يملّ منه الثّواء

ضل عنهم : أي غاب وزال ، ظنوا : أي أيقنوا وعلموا ، محيص : أي مهرب يقال حاص يحيص حيصا : إذا هرب .

لا يسأم : أي لا يملّ ، والخير : المال والصحة والعزة والسلطان ونحوهما ، والشر :

(28/679)

الفقر والمرض ونحوهما ، واليأس : انقطاع الرجاء من حصول الخير ، والقنوط : (بالفتح) من اتصف بالقنوط (بالضم) وهو ظهور أثر اليأس على الإنسان من المذلة والانكسار ، والرحمة هنا : الصحة وسعة العيش ، والضراء : المرض وضيق العيش ونحوهما ، هذا لى :

أي هذا ما استحقه لما لى من الفضل والعمل ، والحسنى : الكرامة ، والغليظ هنا : الكثير ، نأى بجانبه : أي تكبر واختال ، وعريض : أي كثير مستمر يقولون أطال فى الكلام ،

وأعرض فى الدعاء : إذا أكثر .

أرأيتم : أي أخبرونى ، أضل : أي أكثر ضلالا وبعدا عن الحق ، والشقاق :

الخلاف ، والآفاق : النواحي من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها واحدها أفق

(بضمتين وبضم فسكون) وشهيد : أي شاهد على كل ما يفعله خلقه ، لا يعزب عنه مثقال

ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ومرية : أي شك ، من لقاء ربهم : أي من البعث بعد

الممات ، محيط : أي عالم بجميع الأشياء لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 24 صـ 104 : حـ 25 صـ 9 ﴾ . باختصار .

(29/679)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

تفسير سورة فصلت

مكية وآياتها 54 آية

بسم الله الرحمن الرحيم سورة فصلت وهي مكية 1 - من ذلك قوله جل وعز (حم تنزيل

من الرحمن الرحيم (آية 1 ، 2) الخبر عند البصريين (كتاب فصلت آياته) (آية 3) وقال

بعض الكوفيين هذا كتاب (فصلت آياته) أي أنزلت متفرقة وقال الحسن فصلت بالوعيد

وقال مجاهد (فصلت) فسرت

وقال قتادة بين حلالها وحرامها والطاعة والمعصية

2 – ثم قال جل وعز (قرآنا عربيا لقوم يعلمون) (آية 3) (قرآنا عربيا) أي في حال الإجتماع (لقوم يعلمون) أي لمن يعلم العربية (بشيرا ونذيرا) نعت للقرآن 3 – وقوله جل وعز (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه) (آية 5) أي في أغطية أي ليست تعي ما تقول والوقر الصمم 4 – ثم قال جل وعز (ومن بيننا وبينك حجاب فأعمل إننا عاملون) (آية 5) حجاب أي حاجز

وهو يزيد على معنى (قلوبنا في أكنة) لأن معنى (قلوبنا في أكنة) أي ليس نجيبك إلى شئ مما تدعونا إليه ثم قال (فاعمل إننا عاملون) أي فاعمل في هلاكنا فإنا عاملون على مثل ذلك ويجوز أن يكون المعنى فاعمل بدينك فإننا عاملون بديننا 5 – وقوله جل وعز (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) (آية 7) قيل أي لا يؤمنون

وقال قتادة الزكاة فطرة الإسلام فمن أداها برئ ونجا ومن لم يؤدها هلك 6 – وقوله جل وعز (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) (آية 8) قال مجاهد أي غير محسوب قال أبو جعفر يقال مننت الشئ فهو ممنون ومنين إذا قطعته كما قال: فترى خلفها من الرجع والوقع * منينا كأنه أهباء يعني بالمنين بعد الغبار المنقطع الضعيف ويجوز أن يكون المنون يمن به 7 – وقوله جل وعز (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين) (آية 9)

روى سفيان عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس وابن أبي ذيب عن سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن عبد الله بن سلام قالا وهذا معنى قولهما ابتدأ الله جل وعز بخلق الأرضين يوم الأحد فخلق سبع أرضين في يوم الأحد ويوم الاثنين ثم (جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها) يقول أرسى الجبال وشق الأنهار وغرس الأشجار وجعل المنافع في يومين يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء (ثم استوى إلى السماء) فخلقها سبع سموات في يوم

الخميس ويوم الجمعة قال ابن عباس ولذلك سميت يوم الجمعة لأنه اجتمع فيها الخلق قال عبد الله بن سلام قضاهن سبع سموات في آخر ساعة من يوم الجمعة ثم خلق فيها آدم على عجل وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة قال أبو جعفر معنى (وبارك فيها) على قولهما شق أنهارها وغرس أشجارها وقيل معنى (بارك فيها) أكثر فيها من الأوقات وقيل معناه كما يقال باركت عليه أي قلت بورك فيك 8 - قال عكرمة في قوله تعالى (وقدر فيها أوقاتها) (آية 10) جعل اليماني باليمن والسابري بسابور

قال أبو جعفر فالمعنى على هذا جعل فيها ما يتعايش به ويتجر فيه وقيل (أقواتها) ما يتقوت

ويؤكل وقول ابن عباس وابن سلام يحتمل المعنيين والله أعلم 9 - ثم قال جل وعز (في أربعة أيام سواء للسائلين) (آية 10) المعنى في تتمة أربعة أيام (سواء) أي استوت استواء وقال الفراء هو متعلق بقوله (وقدر فيها أقواتها)

سواء وقرأ الحسن (سواء) بالخفض أي في أربعة أيام مستوية تامة وبالاسناد الأول عن ابن عباس في قوله تعالى (للسائلين) قال من سألك فقال لك في كم خلق الله السموت والأرض فقل

(31/679)

له في هذا قال أبو جعفر فالمعنى على هذا القول جوابا للسائلين وفيه قول آخر وهو أن المعنى وقدر فيها أقواتها للسائلين أي للمحتاجين أي لمن سأل لأن الناس يسألون أقواتهم وهذا مذهب ابن زيد قال قدر ذلك ى قدر مسائلهم علم ذلك 10 - وقوله جل وعز (ثم استوى إلى السماء) (آية 11) دل على أن خلق السماء بعد خلق الأرض وقد قال في موضع آخر (والأرض بعد ذلك دحاها) ؟ ففي هذا أجوبة: روى هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس قال خلق الله الأرض أول ثم خلق السماء ثم دحا الأرض والماء بعد ذلك قال (دحا) أي بسط وقيل المعنى ثم أخبركم بهذا كما قال جل وعز (ثم كان من الذين

آمنوا) وهو في القرآن كثير وقيل (ثم) ههنا بمعنى الواو وهذا لا يصح ولا يجوز

والجوابان حسنان جيدان 11 - وقوله جل وعز (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها

قالتا أتينا طائعين) (آية 11) في هذا أجوبة:

أ- منهما أن الله جل وعز جعل فيهما ما يميزان ويجيبان عما قيل لهما ب - وقال محمد بن

يزيد هذا إخبار عن الهيئة أي صارتا في هيئة من قال أي هو كما قال امتلأ الحوض وقال

قطني أي حسبي أي صار في هيئة من يقول وقيل أخبرنا الله عز وجل بما نعرف من سرعة

الإجابة وقد علمنا أنه ليس شئ اسرع من أن يقال للإنسان افعل فيقول قد فعلت فاخبر الله

جل وعز عن إجابة السموات والأرض إلى أمره جل وعز فأما قوله تعالى (طائعين) ولم يقل

طائعات فقال فيه الفراء معناه أتينا بمن فينا طائعين

قال أبو جعفر الأحسن في هذا وهو مذهب جلة النحويين أنه جل وعز لما أخبر عنها بأفعال

ما يعقل جاء فيها بما يكون لمن يعقل كما في قوله تعالى (والشمس والقمر رأيتهم لي

ساجدين)

(32/679)

فأما الكسائي فأجاز في كل شئ أن يجمع بالواو والنون والياء والنون وهذا لا يعرج عليه

12 - وقوله جل وعز (فقضاهن سبع سموات في يومين) (آية 12) (فقضاهن) أي

أحكمهن كما قال الشاعر: وعليهما مسرودتان قضاهما * داود أو صنع السوابغ تبع 13

- وقوله جل وعز (وأوحى في كل سماء أمرها) (آية 12)

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال ما أمر وما أراده وروى سعيد عن قتادة قال خلق

شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها قال أبو جعفر القولان متقاربان وكأن المعنى والله أعلم

وأوحى في كل سماء إلى الملائكة بما أراد من أمرها 14 - ثم قال جل وعز (وزينا السماء

الدنيا بمصابيح وحفظا) (آية 12) أي وحفظناها حفظا من الشياطين بالكواكب والمعنى

ائنكم لتكفرون بمن هذه قدرته وتجعلون له أمثالا

مما تنحتون بأيديكم ؟ 15 - ثم قال جل وعز (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل

صاعقة عاد وثمود) (آية 13) أي فإن أعرضوا عن التوحيد وما جئت به (فقل أنذرتكم

صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) أي انذرتكم أن ينزل بكم عذاب كما نزل بهم (إذ جاءتهم

الرسل من بين أيديهم) يعني من جاء قبلهم كما قال تعالى (مصدقا لما بين يديه) ثم قال (ومن

خلفهم) فيه قولان: أحدهما أن المعنى ومن بعد كونهم

والقول الآخر أن يكون الضمير يعود على الرسل 16 - وقوله جل وعز (فأرسلنا عليهم

ريحا صرصرا) (آية 16) روى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال شديدة السموم وروى معمر

عن قتادة قال باردة قال أبو جعفر قول قتادة ابين وكذا قال عطاء لأن (صرصرا) مأخوذ من صر والصر في كلام العرب البرد كما قال الشاعر: لها غدر كقرون النساء * ركبن في يوم ريح وصر وليس القولان بمتناقضين لأن لأنه يروى أنها كانت ريحا باردة تحرق كما تحرق النار وقد قال أبو عبيدة (صرصر) شديدة الصوت عاصف وقد روي عن مجاهد شديدة الشؤم 17 - ثم قال جل وعز (في أيام نحسات) (آية 16)

(33/679)

قال مجاهد أي مشائيم وقال قتادة مشئومات نكدات 18 - وقوله جل وعز (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) (آية 17)

روى علي بن أبى طلحة عن ابن عباس قال بينا لهم قال أبو جعفر بينا لهم الخير والشر قال سبحانه (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) وكما قال تعالى (وهديناه النجدين) قال علي بن أبي طالب الخير والشر و (الهون) الهوان 19 - وقوله جل وعز (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون) (آية 19) قال أبو الأحوص وأبو رزين ومجاهد وقتادة أي يحبس أولهم على آخرهم

قال أبو الأحوص فإذا تكاملت العدة بدئ بالأكابر فالأكابر جرما قال أبو جعفر يقال وزعه

يزعه ويزعه إذا كفه ومنه لما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن ومنه لا بد للناس من وزعة 20 - وقوله جل وعز (حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم

وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) (آية 20) قال الفراء الجلد ههنا والله أعلم الذكر كني عنه كما قال تعالى (أو جاء أحد منكم من الغائط) والغائط: الصحراء قال أبو جعفر وقال غيره هو الجلد بعينه وروى أبو الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال يجادل المنافق عند الميزان ويدفع الحق ويدعي الباطل فيختم على فيه ثم

تستنطق جوارحه فتشهد عليه ثم يطلق عنه فيقول بعدا لكن وسحقا إنما كنت أجادل عنكن 21 - وقوله جل وعز (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شئ) (آية 21) هذا تمام الكلام 22 - ثم قال (وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون) (آية 21) وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى (وما كنتم تستترون) قال تتقون قال أبو جعفر المعنى وما كنتم تستترون من أن يشهد عليكم سمعكم قال عبد الله بن مسعود كنت مستترا باستار الكعبة فجاء ثقفي وقرشيان كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فتحدثوا بينهم بحديث فقال أحدهم أترى الله يسمع ما نقول فقال الآخران

يسمعنا إذا جهرنا ولا يسمعنا إذا خافتنا وقال الآخر إن كان يسمعنا إذا جهرنا فهو يسمعنا إذا خافتنا 23 - فأنزل الله جل وعز (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم) إلى قوله (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) (آية 22 ، 24) وروى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (أن يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم) قال تدعون يوم القيامة مفدمة أفواهكم بفدام فأول ما يبين عن الإنسان فخذه وكفه 24 - وقوله جل وعز (وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) (آية 23) أي حين ظننتم أنه لا يسمعكم وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الله (أنا عند ظن عبدي بي) ومعنى أرداكم أهلككم 25 - وقوله جل وعز (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) (آية 24)

والنار مثوى لهم صبروا أو لم يصبروا ففي هذا جوابان: أحدهما ان المعنى فإن يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار كما قال سبحانه فما أصبرهم على النار فالنار مثوى لهم (وإن يستعتبوا) في النار

وقيل (وإن يستعتبوا) في الدنيا وهم مقيمون على كفرهم والجواب الآخر: فإن يصبروا في النار أو يجزعوا فالنار مثوى لهم ويكون قوله (وإن يستعتبوا) يدل على الجزع لأن المستعتب

جزع 26 - وقوله جل وعز (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) (آية 25)

(35/679)

قال مجاهد يعني الشياطين قال أبو جعفر معنى قيضت له كذا سببته له من حيث لا يحتسب 27 - ثم قال جل وعز (فزينوا لهم ما بين أيديهم) (آية 25) أي ما يعملونه من المعاصي (وما خلفهم) وما عزموا على أن يعملوه 28 - وقوله جل وعز (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) (آية 26) وقرأ عيسى وابن أبي إسحاق (والغوا) بضم الغين حكى الكسائي لغا يلغو وعلى هذا (والغوا فيه) وحكى لغا يلغى ولغي يلغى والمصدر على هذا مقصور روى داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم بمكة إذا قرأ رفع صوته فتطرد قريش عنه الناس ويقولون (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وإذا خافت بقراءته لم يسمع من يريد فأنزل الله جل وعز (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد في وقوله (والغوا فيه) قال بالمكاء والتصفيق والتخليط على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ كانت قريش تفعله قال أبو جعفر اللغو في اللغة ما لا يعرف له

حقيقة ولا يحصل معناه فمعنى والغوا فيه أي عارضوه باللغو 29 - وقوله جل وعز (ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد) (آية 28)

المعنى: ذلك العذاب الشديد جزاء أعداء الله ثم بين الجزاء فقال (النار لهم فيها دار الخلد) والنار هي دار الخلد والعرب تفعل هذا على التوكيد كما قال: أخو رغائب يعطيها ويسالها وقد * يأبى الظلامة منه النوفل الزفر وهو هو كما يقال لك في هذا المنزل دار واسعة وهو الدار ولا يجوز عند الكوفيين حتى يخالف لفظ الثاني لفظ الأول لا تقول على قولهم في هذا المنزل منزل حسن على أن الثاني الأول وهو عند البصريين كله جيد وفي قراءة عبد الله بن مسعود (ذلك جزاء أعداء الله النار

دار الخلد)

(36/679)

---

30 - وقوله جل وعز (وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين اضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا) (آية 29) قال حبة العرني وعقبة الفزاري سئل علي بن أبى طالب عليه السلام عن قوله جل وعز أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس فقال هما إبليس الأبالسة وابن آدم الذي قتل أخاه وكذلك روي عن ابن مسعود وابن عباس 31 - وقوله جل وعز (إن

الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) (آية 30) قال مجاهد وإبراهيم قالوا لا إله إلا الله ثم استقاموا روي عن أبي بكر الصديق أنه قال لهم ما معنى (ثم استقاموا) ؟ فقالوا لم يعصوا الله فقال لقد صعبتم الأمر إنما هو استقاموا على ألا يشركوا بالله شيئا

وقال مجاهد وإبراهيم ثم استقاموا لم يشركوا وقال الزهري قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ثم استقاموا) على طاعة الله عز وجل ولم يروغوا روغان الثعلب وروى معمر عن قتادة ثم استقاموا قال على طاعة الله قال أبو جعفر في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم استقيموا ولن تحصوا أي استقيموا على أمر الله وطاعته 32 - ثم قال جل وعز (تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا

تحزنوا) (آية 30) قال مجاهد (تتنزل عليهم الملائكة) عند الموت أن لا تخافوا ولا تحزنوا روى سفيان عن زيد بن اسلم قال لا تخافوا ما أمامكم من العذاب ولا تحزنوا على ما خلفكم من عيالكم وضيعتكم فقد خلفتم فيها بخير وفي قراءة ابن مسعود: (تتنزل عليهم الملائكة لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) قال زيد بن اسلم يقال لهم هذا عند الموت 33 - وقوله جل وعز (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا) (آية 33) في معناه ثلاثة اقوال: فمذهب الحسن أنها عامة لجميع المؤمنين

وروى هشيم عن عوف عن ابن سيرين في قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) قال ذلك النبي صلى الله عليه وسلم أي دعا إلى توحيد الله وقال محمد بن نافع قالت عائشة نزلت في المؤذنين (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا) وقال أبو الزاهرية: قالت عائشة: إني لارجو أن يكون المؤذنون هم الذين قال الله فيهم: (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا) 34 - وقوله جل وعز (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة) (آية 34) (لا) زائدة للتوكيد

35 - ثم قال جل وعز (ادفع بالتي هي أحسن) (آية 34) قال عطاء ومجاهد تقول إذا لقيته سلام عليكم ويروى عن ابن عباس في قوله ادفع بالتي هي أحسن قال هما الرجلان متقاولان حتى فيقول أحدهما لصاحبه يا صاحب كذا وكذا فيقول له الآخر إن كنت صادقا علي فغفر الله لي وإن كنت كاذبا فغفر الله لك وحدثنا بكر بن سهل قال حدثنا أبو صالح عن معاوية عن علي بن أبى طلحة عن ابن عباس ادفع بالتي هي أحسن قال أمر الله جل وعز المؤمنين بالصبر عند الغضب والحلم والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم

36 - ثم قال جل وعز (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) (آية 35) قال يقول الذين أعد الله لهم الجنة روى معمر عن قتادة كانه ولي حميم قال

قريب 37 - ثم قال جل وعز (وما يلقاها إلا الذين صبروا) (آية 35) أي وما يلقى هذه الفعلة غلا الذين يكظمون الغيظ (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) أي من الخير وروى معمر عن قتادة قال الحظ العظيم الجنة 38 - ثم قال جل وعز وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله) (آية 36)

(38/679)

أي إن عرض لك الشيطان ليصدك تعالى عن الحلم فاستعذ بالله منه واحلم 39 - وقوله جل وعز (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن) (آية 37) أي ومن علاماته التي تدل على قدرته ووحدانيته (الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن) ويجوز ان يكون المعنى واسجدوا لله الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر ويجوز أن يكون المضمر يعود على الشمس والقمر لأن الاثنين جميع

ويجوز ان يكون يعود على معنى الآيات

40 - ثم قال جل وعز (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسامون) (آية 38) أي فإن استكبروا عن أن يوحدوا الله ويتبعوك (فالذين عند ربك) أي

فالملائكة الذين عند ربك فإن يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون أي لا يملون 41 - ثم زادهم في الدلالة فقال جل وعز (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) (آية 39) قال قتادة أي غبراء متهشمة 42 - ثم قال جل وعز (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) (آية 39) قال مجاهد اهتزت أي بالنبات قال أبو جعفر يقال اهتز الإنسان أي تحرك ومنه قوله:

* تراه كنصل السيف يهتز للندى * إذا لم تجد عند امرئ السوء عمر مطمعا ثم قال (وربت) قال مجاهد أي ارتفعت لتنبت قال أبو جعفر قرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع وخالد (وربأت) معناه عظمت من الربيئة 43 - وقوله جل وعز (إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا) (آية 40) قال مجاهد المكاء وما ذكر معه وقال قتادة الإلحاد التكذيب قال أبو جعفر أصل الإلحاد العدول عن الشئ والميل عنه

ومنه اللحد لأنه جانب القبر

(39/679)

فمعنى ألحد في آيات الله مال عن الحق فيها أي جعلها على غير معناها 44 - وقوله جل وعز (أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة) (آية 40) (أفمن يلقى في النار) أبو جهل بن هشام (خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة) عمار بن ياسر ثم قال (اعملوا ما شئتم)

وقد بين جل وعز ذلك قال مجاهد هذا على الوعيد 45 – وقوله جل وعز (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) (آية 41)

قال قتادة أي بالقرآن قال أبو جعفر وفي الخبر قولان: أحدهما أن المعنى إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم أولئك ينادون من مكان بعيد والقول الآخر: أن الخبر محذوف أي هلكوا وهذا القول الاختيار عند النحويين جميعا فيما علمت وقوله (وإنه لكتاب عزيز) أي قاهر لا يقدر أحد أن يأتي بمثله 46 – وقوله جل وعز (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) (آية 42) في معناه أقوال: أ – فمن احسنها أن المعنى لا يأتيه الشيطان من بين يديه فينتقص منه ولا من خلفه فيزيد فيه قال مجاهد الباطل الشيطان وقال الحسن حفظ الله القرآن من الشيطان فلا يقدر أن يزيد فيه ولا ينقص منه قال الحسن (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وروى معمر عن قتادة في قوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) قال لا يقدر الشيطان أن يبطل منه حقا ولا يحق فيه باطلا قال أبو جعفر معنى يحق فيه باطلا يزيد فيه باطلا فيصير حقا فهذا قول ب – وقيل معنى (لا يأتيه الباطل من بين يديه) لا يبطله كتاب قبله ولا يأتي بعده كتاب فيبطله وهذا قول الفراء أي لا

يوجد فيه باطل من إحدى الجهتين ج – وقيل معنى (لا يأتيه الباطل من بين يديه) من قبل أن يتم نزوله (ولا من خلفه) من بعد تمام نزوله ويكون أيضا (من بين يديه) بعد نزوله كله (ومن خلفه) قبل تمامه د – وقيل المعنى لا يأتيه الباطل قبل أن ينزل لأن الأنبياء وقد

بشرت به فلم يقدر الشيطان على أن يدحض ذلك ولا من خلفه بعد أن أنزله – وقيل معنى (من بين يديه ولا من خلفه) على التكثير أي لا ياتيه الباطل البتة 47 – وقوله جل وعز (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) (آية 43) قال أبو صالح أي من الأذى وقوله تعالى (إن ربك لذو مغفرة) أي لمن آمن بك (وذو عقاب أليم) أي لمن كذبك 48 – وقوله جل وعز (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته) (آية 44) أي بينت قال أبو جعفر أصل هذا أن التفصيل لا يكون إلا للعرب وهم أصحاب البيان 49 – ثم قال جل وعز (أعجمي وعربي) (آية 44) قال سعيد بن جبير أي أقرآن أعجمي ونبي عربي ؟ قال قتادة اي لو جعلنا القرآن أعجميا لأنكروا ذلك

وقالوا أعرب مخاطبون بالعجمية فكان ذلك أشد لتكذيبهم وقرأ ابن عباس والحسن وأبو الأسود (أعجمي) بغير استفهام والعين ساكنة والمعنى على هذه القراءة لولا فصلت آياته فكان منها

أعجمي تفهمه العجم وعربي تفهمه العرب ؟ ويكون (أعجمي) بدلا من (آياته) وحكي أنه قرئ (أعجمي) ؟ على أن الأصل عجمي دخلت عليه ألف الاستفهام

قال أبو جعفر قال أبو إسحاق الأعجمي الذي لا يفصح كان من العرب أو من العجم والعجمي الذي ليس من العرب كان فصيحا أو غير فصيح قال أبو جعفر والقراءة الأخرى بعيدة لأنهم قد أجمعوا على قوله (ولو جعلناه قرآنا أعجميا) 50 - وقوله جل وعز (والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى) (آية 44) (وقر) أي صمم على التمثيل وهو عليهم عمى قال قتادة القرآن وقيل الوقر عليهم عمى

وقرأ ابن عباس ومعاوية وعمرو بن العاص (وهو عليهم عمي) على أنه فعل ماض وحكي (وهو عليهم عم 51 - ثم قال جل وعز (أولئك ينادون من مكان بعيد) (آية 44) حكى أهل اللغة أنه يقال للذي يفهم أنت تسمع من قريب ويقال ويقال للذي لا يفهم أنت تنادى من مكان بعيد

(41/679)

أي كأنه ينادي منو موضع بعيد منه فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه ومذهب الضحاك أنهم ينادون يوم القيامة باقبح اسمائهم من مكان بعيد ليكون ذلك اشد عليهم في الفضيحة والتوبيخ 52 - ومعنى قوله جل وعز (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم) (آية 45) أنهم قد أخروا إلى مدة يعلمها الله وأنه لا يعاجلهم بالهلاك 53 - وقوله جل وعز (إليه يرد

علم الساعة وما تخرج من ثمارت من أكمامها) (آية 47) روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال حين تطلع وقال غيره هي الطلعة تخرج من قشرها قال أبو جعفر القول الأول أعم أي وما تخرج من ثمرة من غلافها الذي كانت فيه وذلك أول ما تطلع وغلاف كل شئ كمه 54 – وقوله جل وعز (ويوم يناديهم اين شركائي) (آية 47) أي على زعمكم (قالوا آذناك) هذا من قول الالهة أي أعلمناك

يقال آذنته فأذن أي أعلمته فعلم والأصل في هذا من الأذن أي أوقعته في أذنه ومنه: آذنتنا ببينها أسماء

ومنه قوله جل وعز (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن) أي اعملوا ما شئتم ثم اعتذروا منه فإنه يعذركم ويقبل ما تعلمونه به ومنه الأذان إنما هو إعلام بالصلاة ثم قال تعالى (ما منا من شهيد) أي ما منا من شهد أن لك شريكا 55 – ثم قال جل وعز (وظنوا ما لهم من محيص) (آية 47) (وظنوا) أي وأيقنوا 56 – وقوله جل وعز (لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط) (آية 49)

أي لا يمل من أن يصيبه الخير وفي قراءة عبد الله (من دعاء بالخير) (وإن مسه الشر) أي إن مسه شئ يسير من الشر يئس وقنط 57 – وقوله جل وعز (ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة) (آية 50) قال مجاهد أي بعملي وأنا حقيق بهذا وهذا يراد به الكافر الا

ترى أن بعده (وما أظن الساعة قائمة) وقوله تعالى (ولئن رجعت إلى ربي) أي على قولك

58 - وقوله جل وعز (وإذا انعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) (آية 51)

(42/679)

أي تباعد ولم يدعنا وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع أعرض وناء بجانبه الألف قبل الهمزة

فيجوز أن يكون معناه من ناء إذا نهض ويجوز أن يكون على قلب الهمز بمعنى الأول 59 -

وقوله جل وعز (وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) (آية 51) أي كبير يقال له دعاء

عريض وطويل بمعنى واحد 60 - وقوله جل وعز (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم

حتى يتبين لهم أنه الحق) (آية 53) أي في آفاق الدنيا وتقلب أحوالها (وفي أنفسهم) مثل

ذلك

قال مجاهد (في الآفاق) فتح القرى (وفي أنفسهم) فتح مكة 61 - وقوله جل وعز (أو لم

يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) (آية 53)

المعنى أو لم يكفهم بربك أي أو لم يكفهم ربك بما دلهم به على توحيد الله جل وعز مما فيه

كفاية لهم لأنه على كل شئ شهيد ؟

ويجوز أن يكون المعنى أنه له على كل شئ شاهد بانه محدث وإذا شهده جازى عليه 62

- ثم قال جل وعز (ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم) (آية 54) أي في شك وقرأ الحسن (في مرية) (الا إنه بكل شئ محيط) أي قد أحاط بعلم الغيب والشهادة جل وعز انتهت سورة حم السجدة (فصلت) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 6 صـ 241 . 287 ﴾

(43/679)

وقال الفراء :

سورة (فصلت)

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قوله عز وجل: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً . . . ﴾ .

تنصب [قرآنا] على الفعل ، أى: فصلت آياته كذلك ، ويكون نصبا على القطع ؛ لأَن الكلام تام عند قوله ؛ (آياته) . ولو كان رفعا على أنه من نعت الكتاب كان صوابا . كما قال فى موضع آخر: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ ، وكذلك قوله: ﴿ بَشِيراً ونذيراً ﴾ فيه ما فى: ﴿ قرآنا عربيا ﴾ .

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ

إِنَّا عَامِلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ . . . ﴾ .

يقول: بيننا وبينك فُرقة فى ديننا ، فاعمل فى هلاكنا إننا عاملون فى ذلك منك ، ويقال: فاعمل لما تعلم من دينك فإننا عاملون بديننا .

﴿ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ . . . ﴾ .

والزكاة فى هذا الموضع: أن قريشا كانت تطعم الحاج وتسقيهم ، فحرَمُوا ذلك من آمن بمحمد صلى الله عليه ؛ فنزل هذا فيهم ، ثم قال: وفيهم أعظم من هذا كفرهم بالآخرة .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا . . . ﴾ .

وفى قراءة عبد الله: وقسم فيها أقواتها ، جعل فى هذه ماليس فى هذه ليتعايشوا ويتجروا .

وقوله: ﴿ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ . . . ﴾ .

نصبها عاصم وحمزة ، وخفضها الحسن ، فجعلها من نعت الأَيام ، وإن شئت من نعت

الأربعة ، ومن نصبها جعلها متصلة بالأَقوات ، وقد ترفع كأنه ابتداء ، كأنه قال: ذلك سواء للسائلين ، يقول لمن أراد علمه .

(44/679)

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾

وقوله: ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا . . . ﴾ .

جعل السماوات والأَرضين كالثّنتين كقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّماءَ والأَرْضَ وما بَيْنَهُمَا ﴾ ولم يقل: [وما] بينهن ، ولو كان كان صوابا .

وقوله: ﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ . . . ﴾ .

ولم يقل: طائعتين ، ولا طائعياتٍ . ذُهب به إلى السماوات ومن فيهن ، وقد يجوز: أن تقول ، وإن كانتا اثنتين: أتينا طائعين ، فيكونان كالرجال لمّا تكلمتا .

﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

وقوله: ﴿ فَقَضَاهُنَّ . . . ﴾ .

يقول: خلقهن ، وأحكمهن .

وقوله: ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا . . . ﴾ .

يقول: جعل فى كل سماء ملائكة فذلك أمرها .

﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ . . . ﴾ .

أتت الرسل آباءهم ، ومن كان قبلهم ومن خلفهم يقول: وجاءتهم أنفسهم رسل من بعد أولئك الرسل ، فتكون الهاء والميم فى (خلفهم) للرسل ، وتكون لهم تجعل من خلفهم لما معهم .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ رِيحاً صَرْصَراً . . . ﴾ .

باردة تُحْرق [كما تحرق] النار .

وقوله: ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ . . . ﴾ .

العوام على تثقيلها لكسر الحاء ، وقد خفف بعض أهل المدينة: (نَحْسات) .

قال: [وقد سمعت بعض العرب ينشد:

أبلغْ جذاما ولخما أن إخوتهم * طيا وبهراء قوم نصرهم نحس] .

وهذا لمن ثقّل، ومن خفّف بناه على قوله: "فى يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ" .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ . . . ﴾ .

القراءة برفع ثمود، قرأ بذلك عاصم، وأهل المدينة والأعمش. إلا أن الأعمش كان يجرى ثمود فى كل القرآن إلا قوله: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ ﴾، فإنه كان لا ينون، لأَنّ كتابه بغير ألف. ومن أجراها جعلها اسماً لرجل أو لجبل، ومن لم يجرها جعلها اسماً للأُمة التى هى منها قال: وسمعت بعض العرب يقول: تترك بنى أسد وهم فصحاء، فلم يُجْرِ أسدَ، وما أردت به القبيلة من الأَسماء الى تجرى فلا تجرها، وإجراؤها أجود فى العربية مثلَ قولك: جاءتك تميمٌ بأسرها، وقيس بأسرها، فهذا مما يُجْرَى، ولا يُجْرى مثل التفسير فى ثمود وأسد.

وكان الحسن يقرأ: "وأَمَّا ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ" بنصب، وهو وجه، والرفع أجود منه، لأَنّ أمّا تطلب الأسماء، وتمتنع من الأفعال، فهى بمنزلة الصلة للاسم، ولو كانت أمّا حرفا يلى

الاسم إذا شئت ، والفعل إذا شئت كان الرفع والنصب معتدلين مثل قوله: ﴿ والْقَمَرَ قَدَّرْنَاه مَنازِلَ ﴾ ، ألا ترى أنّ الواو تكون مع الفعل ، ومع الاسم ؟ فتقول: عبدُالله ضربته وزيداً تركته ؛ لأنك تقول: وتركتُ زيدا ، فتصلح فى الفعل الواو كما صلحت فى الاسم ، ولا تقول: أمّا ضربتَ فعبدالله ، كما تقول: أمّا عبدالله فضربت ، ومن أجاز النصب وهو يرى هذه العلة [/ب] فإنه يقول: خِلْقَةُ ما نصب الأسماءَ أن يسبقها لا أن تسبقه . وكل صواب .

وقوله: ﴿ فَهَدَيْنَاهُمْ . . . ﴾ .

يقول: دللناهم على مذهب الخير ، ومذهب الشر كقوله: ﴿ وهَدَيْنَاهُ النَّجدينِ ﴾ . الخير ، والشر .

(46/679)

[حدثنا أبو العباس قال ، حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: حدثنى قيس عن زياد بن علاقة عن أبى عمارة عن على بن أبى طالب أنه قال فى قوله: ﴿ وهَدَيناهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ : الخير ، والشر .

قال أبو زكريا : وكذلك قوله: ﴿ إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شَاكِراً وإمَّا كَفُوراً ﴾ .

والهدى على وجه آخر الذى هو الإرشاد بمنزلة قولك: أسعدناه، من ذلك.

قوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ فى كثير من القرآن.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ . . . ﴾.

فهى من وزعتُ، ومعنى وزعتُه: حبسته وكففته، وجاء فى التفسير: يحبس أولهم على آخرهم حتى يدخلوا النار.

قال: وسمعتُ بعض العرب يقول: لأبعثن عليكم من يزَعُكُم ويُحْكِمُكُم من الحَكمَة التى للدابة. قال: وأنشدنى أبو ثَرْوان العُكْلى:

فإنكما إن تُحكِمَانى وترسلا * علىّ غُواة الناس إِيبَا وتضلعاً

فهذا من ذلك، إيب: من أَبَيْتُ وآبى.

﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم . . . ﴾.

الجلد ها هنا – والله أعلم – الذَّكر، وهو ما كنى عنه كما قال: ﴿ وَلَكِنْ لاَ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ يريد: النكاح. وكما قال: ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِن الْغَائِطِ ﴾، والغائط: الصحراء، والمراد من ذلك: أو قضى أحد منكم حاجةً.

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَاكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ

اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ . . . ﴾ .

يقول: لم تكونوا تخافونِ أن تشهد عليكم جوارحكم فتستتروا منها ، ولم تكونوا لتقدروا على الاستتار ، ويكون على التعبير: أى لم تكونوا تستترون منها .

(47/679)

وقوله: ﴿ وَلَاكِن ظَنَنتُمْ . . . ﴾ .

فى قراءة عبد الله مكان ﴿ ولكن ظننتم ﴾ ، ولكن زعمتم ، والزعم ، والظن فى المعنى واحد ، وقد يختلفان .

﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ . . . ﴾ .

"ذلكم" فى موضع رفع بالظن ، وجعلت "أرداكم" فى موضع نصب ، كأنك قلت: ذلكم ظنكم مُرْدِياً لكم . وقد يجوز أن تجعل الإرداءَ هو الرافع فى قول من قال: هذا عبد الله قائم [/1] يريد : عبد الله هذا قائم ، وهو مستكره ، ويكون أرداكم مستأنفا لو ظهر اسما لكان رفعا مثل قوله فى لقمان: ﴿ الم ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ، هُدًى ورحمةٌ ﴾ ، قد قرأها

حمزة كذلك ، وفى قراءة عبد الله : "أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِى شَيْخٌ" ، وفى ق: ﴿ هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ كل هذا على الاستئناف ؛ ولو نويت الوصل كان نصبا ، قال: وأنشدنى بعضهم:

مَنْ يك ذا بَتٍّ فهذا بَتِّى * مُقيِّظٌ مصيِّف مُشَتِّى

* جمعته من نعجات ست *

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ . . . ﴾ .

من أمر الآخرة ، فقالوا: لا جنة ، ولا نار ، ولا بعث ، ولا حساب ، وما خلفهم من أمر الدنيا فزينوا لهم اللذات ، وجمع الأموال ، وترك النفقات فيه وجوه البر ، فهذا ما خلفهم ، وبذلك جاء التفسير ، وقد يكون ما بين أيديهم ما هم فيه من أمر الدنيا ، وما خلفهم من أمر الآخرة .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَاذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَالْغَوْاْ فِيهِ . . . ﴾ .

قاله كفّار قريش ، قال لهم أبو جهل: إذا تلا محمد صلى الله عليه القرآن فالغوا فيه الْغَطوا ، لعله يبدّل أو ينسى فتغلبوه .

﴿ ذَلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ ذَلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ ، ثم قال: ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ . . . ﴾ .

وهى النار بعينها ، وذلك صواب لو قلت: لأهل الكوفة منها دار صالحة ، والدار هى الكوفة ، وحسن حين قلت [بالدار] والكوفة هى والدار فاختلف لفظاهما ، وهى فى قراءة عبد الله: "ذلك جزاء أعداءِ الله النار دار الخلد" فهذا بيّن لا شىء فيه ، لأن الدار هى النار .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴾

وقوله: ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ . . . ﴾ .

يقال: إن الذى أضلهم من الجن إبليس [و] من الإنس قابيل الذى قتل أخاه يقول: هو أول من سنّ الضلالة من الإنس .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ . . . ﴾ .

عند الممات يبشرونهم بالجنة ، وفى قراءتنا "ألاّ تخافوا" ، وفى قراءة عبد الله "لا تخافوا" بغير أَنْ على مذهب الحكاية .

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ . . . ﴾ .

يريد ما يلقّى دفع السيئة بالحسنة إلاّ مَن هو صابر ، أو ذو حظ عظيم ، فأَنَّثها لتأنيث الكلمة ، ولو أراد الكلام [فذكر] كان صوابا .

(49/679)

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ . . . ﴾ .

يقول: يصدنّك عن أمرنا إياك يدفع بالحسنة السيئة فاستعذ بالله تعّوذ به .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُواْ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

وقوله: ﴿ لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُواْ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ . . . ﴾ .

خلق الشمس والقمر والليل والنهار ، وتأنيثهن فى قوله: "خلقهن" [/ب] ؛ لأن كل ذكر من غير الناس وشبههم فهو فى جمعه . مؤنث تقول: مرّ بى أثواب فابتعتهن ، وكانت لى مساجد فهدمتهن وبنيتهن يبنى [على] هذا .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ . . . ﴾ .

زاد رِيْعُها ، وربَت ، أى: أنها تنتفخ ، ثم تصدّع عن النبات .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ . . . ﴾ .

يقال: أين جواب إنّ ؟ فإن شئت جعلته ﴿ أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ . وإن شئت كان فى قوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . . . ﴾ ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ . . . ﴾ ، فيكون جوابه معلوماً فيترك ، وكأنه أعربُ الوجهين وأشبهه بما جاء فى القرآن .

﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

وقوله: ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ . . . ﴾ ، يقول: التوراة والإنجيل لا تكذبه وهى [من] بين يديه ﴿ ولا من خلفه ﴾ ، يقول: لا ينزل بعده كتاب يكذبه .

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾

وقوله: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ . . . ﴾ .

جزع (صلى الله عليه) من تكذيبهم إياه ، فأنزل الله جل وعز عليه: ما يقال لك من التكذيب إلا كما كذب الرسل من قبلك:

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾

قرأ الأعمش وعاصم: ﴿ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ . . . ﴾ .

استفهام ، وسكنا العين ، وجاء التفسير: أيكون هذا الرسول عربياً والكتاب أعجمى ؟

وقرأ الحسن بغير استفهام: أعجمى وعربى ، كأنه جعله من قِبلهم ، يعنى الكفَرة ، أى: هلاَّ فصلت آياته منها عربى يعرفه العربى ، وعجمى يفهمه العجمى ، فأنزل الله عز وجل:

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ . . . ﴾ .

وقرأها بعضهم: "أَعَجَمِيٌّ وعربى" يستفهم وينسبه إلى العجم .

وقوله: ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . . ﴾ .

حدثنا الفراء قال: وحدثنى غير واحد منهم [أبو الأحوص و] مندل عن موسى بن أبى عائشة عن سليمان بن قَتّة عن ابن عباس أنه قرأ: عَمٍ.

وقوله: ﴿ أُوْلَائِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . . . ﴾ .

تقول للرجل الذى لا يفهم قولك: أنت تنادَى من بعيد ، تقول للفَهِم: إنك لتأخذ الشىء من قريب . وجاء فى التفسير: كأنما ينادون [من السماء] فلا يسمعون .

(51/679)

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَةٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا . . . ﴾ .

قِشْر الكُفُرّاةِ كِمْ ، وقرأها أهل الحجاز: ﴿ وما تخرج من ثمراتٍ ﴾ .

وقوله: ﴿ قَالُوا آذَنَّاكَ . . . ﴾ .

هذا من قول الآلهة التى كانوا يعبدونها فى الدنيا . قالوا: أعلمناك ما منا من شهيد بما قالوا .

﴿ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾

وقوله: ﴿ لاَّ يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ . . . ﴾ .

وفى قراءة عبدالله : "من دعاء بالخير" .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾

وقوله: ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ . . . ﴾ يقول: ذو دعاء كثير إن وصفته بالطول والعرض فصواب:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

وقوله: [/1] ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ . . . ﴾ .

[أنه إن شئت جعلتَ أنَّ فى موضع خفض على التكرير: أو لم يكف بربك بأنه على كل شىء شهيد ، وإن شئتَ جعلته رفعا على قولك: أو لم يكف بربك] شهادته على كل شىء ، والرفع أحبّ إلىَّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 11 . 21 ﴾

(52/679)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة حم السجدة

(لا يسمعون) [4] لا يقبلون . قال المخزومي: 1066- وخل كنت عين النصح [منه] ومستمعاً لما يهوى سميعا 1067- أطاف بغية فنهيت عنها وقلت له أرى أمراً شنيعاً . فجمع بين المستمع والسميع ، فكان أحدهما غير صاحبه . (خلق الأرض في يومين) [9] ثم قال: (في أربعة) أي: الإكمال والإتمام في أربعة .

(ممنون) [8] منقوص . (أقواتها) [10] نباتها وأشجارها حتى أنهارها وثمارها . وقيل: جعل في كل أرض ما ليس في الأخرى . (قالتا أتينا طائعين) [11] أي: لم [يمتنع] عليه [كونهما] ، وكانتا [كما] أراد .

أو لو كان إجابتهما بكلام لكان بهذا القول: (أتينا طائعين) . وقد مضى شواهده ونظائره .

(فقضاهن) [12] أحكم خلقهن . قال الهذلي: 1068- وكلاهما في كفه يزنية فيها سنان كالمنارة أصلع 1069- وعليهما ماذيتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع .

(أتينا طائعين)

جمعت جمع العقلاء ، لأنها أخبرت عنها وعمن يكون فيها من العباد المؤمنين . (ريحاً صرصراً) [16] باردة ، وكانت الدبور . (نحسات) بكسر الحاء ، صفة مثل حذر وفزع ، وأبو عمرو يعترض عليه من جهتين: -إحداهما : بأنه لم يسمه نحس ينحس ، حتى تبنى

منه الصفة. -والثاني: أنه لا يضاف إلى الصفة، وقد قيل: (يوم نحس). فالأولى أن يكون مصدراً، ثم يجمع على "نحسات" ساكنة/الحاء، لاختلاف أنواع النحس ومراته، كما يقال: ضربات وقعدات.

وذهب ابن بحر: أن نحسات هي الباردات، والنحس: البرد، كأنه يتحاشى ما يقوله أصحاب التنجيم من سعادة الأيام ونحوسها. (صاعقة) [17] صيحة جبريل. (حتى إذا ما جاءوها) [20]

قال المغربي: "ما" إذا جاءت بعد "إذا" أفاد معنى "قد" في تحقيق وقوع الفعل الماضي. (يوزعون) [19] يدفعون. وقيل: يحبس أولهم على آخرهم. (وقالوا لجلودهم) [21] كناية عن الفروج. (وقيضنا لهم) [25]

(53/679)

خلينا بينهم وبينهم. (ما بين أيديهم) زينوا لهم الدنيا، وهونوا عليهم المعاصي. (وما خلفهم) أنسوهم [أمر] الآخرة، وأذهلوهم عنها. ([و] الغوا فيه) [26] لغا يلغوا ويلغى لغاً ولغواً: إذا خلط الكلام وأكثر [فيه ما] لا يفهم ولا يفيد. وقيل: إن لغا بمعنى تكلم فقط، سواء كان تخليطاً أو بياناً وتفصيلاً، ومنه اللغة: فعلة من لغوت، مثل: كرة وثبة، لأن الثبة

كأنها مقلوب ثاب يثوب ، فيكون المعنى: تكلموا فيه بالرد والاعتراض .

و(لا تسمعوا) [26] لا تقبلوا . (أرنا الذين أضلانا) [29] إبليس وقابيل فهما اللذان سنا الفساد وبدآ به . (ثم استقاموا) [30] جمعت جميع الخيرات ، وانتظمت كل الطاعات ، مع فرط إيجازها . (ألا تخافوا) أي: ما أمامكم . (ولا تحزنوا) على ما خلفتم من الأسباب .

(لهم البشرى) يبشرون في ثلاثة مواضع ، عند الموت وفي القبر ويوم البعث . و(ادفع بالتي هي أحسن) [34] التبسم عند اللقاء ، والابتداء بالسلام . (وما يلقاها إلا الذين صبروا) [35] أي: دفع السيئة بالحسنة . (ذو حظ عظيم) أي: في الدين والعقل . (الذي خلقهن) [37] غلب تأنيث اسم الشمس تذكير/غيرها ، لأنها أعظم . (خاشعة) [39] غبراء متهشمة . (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) [43]

قيل لهم ولك: (إن ربك لذو مغفرة) [43] (ءاعجمي) [44] أي: لو جعلنا هذا القرآن أعجمياً لقالوا –على وجه الإنكار–: أكتاب أعجمي وقوم عرب . (ينادون من مكان بعيد) لقلة أفهامهم ، أو لبعد إجابتهم . (من محيص) [48] من محيد . (ءاذناك) [47] أعلمناك . (إليه يرد علم الساعة) كل من سئل عنها قال: الله أعلم . ([فـ]ـذو دعاء عريض) [51]

كل عرض له طول ، فقد تضمن المعنيين ، ولأنه على مجانسة صدر الآية (أعرض ونئا بجانبه) ، ومثله: (فأقم وجهك للدين القيم) ، وقوله: (يا أسفى على يوسف) ، (وجنى الجنتين) ، (وأسلمت مع سليمان) ، و(ليريه كيف يواري) ، و(قال إني لعملكم من القالين) ، و(فروح وريحان) ، و(إن يردك بخير فلا راد لفضله) . (وفي أنفسهم) [53] بالأمراض والأسقام . (في الأفاق) بالصواعق .

وقيل: بظهور ما لا يعهد في السماء من الكواكب ذوات الأذناب والذوائب وغيرها .

[تمت سورة فصلت] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1270 . 1281 ﴾

(55/679)

وقال الأخفش :

سورة (فصلت)

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قال ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ فالكتاب خبر المبتدأ أخبر [به] أن التنزيل كتاب ثم قال ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ شغل الفعل بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل فنصب

القرآن .

﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾

وقوله ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ حين شغل عنه . وان شئت جعلته نصبا على المدح كأنه حين أقبل على مدحه فقال "ذَكَرْنَا قُرْآناً عَرَبِيّاً بَشِيراً وَنَذِيراً" أَوْ "ذَكَرْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً" وكان فيما مضى من ذكره دليل على ما أضمر [167] وقال ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ معناه – والله أعْلَمُ – "وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ" ولكن دخلت "مِنْ" للتوكيد .

﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

وأما قوله ﴿ خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ثم قال ﴿ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ [10] فانما يعني ان هذا مع الأول اربعة ايام كما تقول "تَزَوَّجْتُ أَمْسِ امرأَةً ، واليومَ ثِنْتَيْنِ" واحداهما التي تزوجتها امس .

قال ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ يقول: "بِخَيْرٍ" .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾

وَأَمَّا من نَصَبَ ﴿ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ فجعله مصدرا كأنه قال "اِسْتِواءً" وقد قرىء بالجرّ وجعل اسما للمستويات أي: في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ تامَّةٍ .

(56/679)

﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

وقال ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ﴾ كأنه قال "وَحَفِظْنَاهَا حِفْظاً" لأنه حين قال: "زَيَّنَّاهَا بِمَصَابِيحَ" قد أخبر أنه نظر في امرها وتعاهدها فذا يدل على الحِفْظِ كأنه قال: "وَحَفِظْنَاهَا حِفْظاً" .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ﴾

وقال ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ وهي لغة من قال "نَحْس" و ﴿ نَحِسات ﴾ لغة من قال "نَحِس" .

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُواْ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

وقال ﴿ قَالُواْ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فجاء اللفظ بهم مثل اللفظ في الانس لما خبّر عنهم بالنطق والفعل كما قال ﴿ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ ﴾ لما عقلن وتكلمن صرن بمنزلة الانس في لفظهم . وقال الشاعر: [من الرجز وهو الشاهد الخامس والثلاثون بعد المئتين]:

[167 ب] فَصَبَّحَتْ وَالطَّيْرَ لَمْ تَكَلَّمِ * جَابِيَةً طُمَّتْ بِسَيْلٍ مُفْعَمِ

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾

(57/679)

وقال ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ ﴾ أي: لا تطيعوه . كما تقول "سَمِعْتُ لكَ" وهو – والله اعلم – على وجه "لا تَسْمَعُوا القرآنَ" . وقال ﴿ وَالْغَوْاْ فِيهِ ﴾ لأنها من "لَغَوْتُ" "يَلْغَا" مثل "مَحَوْتُ" "يَمْحا" وقال بعضهم ﴿ وَالْغُوا فِيهِ ﴾ وقال "لَغَوْتَ" "تَلْغُو" مثل "مَحَوْتَ" "تَمْحُو" وبعض العرب يقول: "لَغِيَ" "يَلْغَى" وهي قبيحة قليلة ولكن "لَغِيَ بِكَذَا وكَذا" أي: أُغْرِيَ بِهِ فهو يقوله ونَصْنَعُه .

﴿ ذَلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

وقال ﴿ ذَلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ رفع على الابتداء كأنه تفسيرا للجزاء .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

وقال ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ يقول: بأن لا تخافوا .

﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾

[وقال] ﴿ نُزُلاً ﴾ لأنه شغل ﴿ لَكُمْ ﴾ بـ ﴿ مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ ﴾ [31] حتى صارت بمنزلة الفاعل وهو معرفة وقوله ﴿ نُزُلاً ﴾ ينتصب على "نَزَّلْنَا نُزُلا" نحو قوله ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

(58/679)

وقال ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ وقد يجوز ، لأنك تقول: "لا يَسْتَوِي عبدُ الله وَلَا زَيْدٌ" اذا أردت: لا يَسْتَوِي عبدُ الله وَزَيْدٌ" لأنهما جميعاً لا يستويان . وان شئت قلت ان الثانية زائدة تريد : لا يَسْتَوِي عبدُ الله وَزَيْدٌ . فزيدت [لا] توكيدا كما قال ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أي: لأن يعلم . وكما قال ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ .[168] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾

وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ فزعم بعض المفسرين ان خبره ﴿ أُوْلَائِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [44] وقد يجوز ان يكون على الاخبار التي في القرآن يستغنى بها كما استغنت اشياء عن الخبر اذ طال الكلام وعرف المعنى نحو قوله ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ وما أشبهه . وحدثني شيخ من أهل العلم قال: "سمعت عيسى بن عمر يسأل عمرو بن عبيد": ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ اين خبره؟" فقال عمرو: "معناه في التفسير ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ كفروا به ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾" فقال عيسى: "جاء يا أبا عثمان" .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَائِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾

(59/679)

وقال ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ يقول: ﴿ هَلاَّ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَعَرَبِيٌّ ﴾ يعني النبي صلى الله عليه

وسلم وقد قرئت [من] غير استفهام وكلٌّ جائز في معنى واحد .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾

وقال ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أي: فاستيقنوا ، لأن ﴿ ما ﴾ ها هنا حرف وليس باسم والفعل لا يعمل في مثل هذا فلذلك جعل الفعل ملغى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 504. 509 ﴾

(60/679)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة فصلت «1»

مكية كلها

5 - وَفِي آذانِنا وَقْرٌ أي صمم .

10 - وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها : جمع قوت ، وهو : ما أوتيه ابن آدم لأكله ومصلحته سَواءً لِلسَّائِلِينَ . قال قتادة : «من سأل فهو كما قال اللّه» .

11 - ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ أي عمد لها .

12 - فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ ، أي صنعهن وأحكمهن . قال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

[أي صنعما داود وتبع] .

وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها أي جعل في كل سماء ملائكة .

16 - (الريح الصرصر) : الشديدة .

فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ قال قتادة : «نكدات مشئومات» . قال الشاعر :

فسيروا بقلب العقرب اليوم ، إنه سواء عليكم بالنحوس وبالسعد

---

(1) وتسمى سورة السجدة أو حم السجدة .

---

17 - وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ أي دعوناهم ودللناهم .

الْعَذابِ الْهُونِ أي الهوان .

20 - وَجُلُودُهُمْ كناية عن الفروج .

23 - وأَرْداكُمْ : أهلككم .

26 - وَالْغَوْا فِيهِ : الغطوا فيه .

29 - رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا - مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ - نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا . يقال : إبليس

وابن آدم الذي قتل أخاه ، فسن القتل .

30 - إِنَّ الَّذِينَ قالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ، ثُمَّ اسْتَقامُوا أي آمنوا ، ثم استقاموا على طاعة اللّه .

قال النبي - صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلم - : «استقيموا ، ولن تحصوا» .

32 - نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ أي رزقا .

39 - اهْتَزَّتْ أي اهتزت بالنبات ، وَرَبَتْ : علت وانتفخت .

42 - لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ . قالوا : لا يستطيع الشيطان أن يبطل منه حقا ، ولا يحق منه باطلا .

43 - ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ . تعزية [له صلى اللّه عليه وسلم وتسلية] أي قد قيل للرسل قبلك : ساحر وكذاب ، كما قيل لك .

44 - وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا ، لَقالُوا : لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ ، أي هلّا فصلت آياته ، أي أنزلت مفصلة بالآي ! . كأن التفصيل للسان العرب ! .

ثم ابتدأ فقال : ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ! ؟ حكاية عنهم . كأنهم يعجبون

فيقولون : أكتاب اعجمي ونبي عربي ؟ كيف يكون هذا ! ؟ . فكان ذلك أشد لتكذيبهم .

44 - أُولَئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ : لقلة أفهامهم . يقال للرجل الذي لا يفهم : أنت تنادي من مكان بعيد ! .

47 - وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها أي من المواضع التي كانت فيها مستترة . وغلاف كل شيء : كمته . وإنما قيل : كم القميص ، من هذا .

47 - قالُوا آذَنَّاكَ : أعلمناك . هذا من قول الآلهة التي كانوا يعبدون في الدنيا . ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ لهم بما قالوا وادعوه فينا .

51 - فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ أي كثير . إن وصفته بالطول أو بالعرض ، جاز في الكلام .

53 - سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ قال مجاهد : «فتح القرى ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ : فتح مكة» .

54 - أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ أي في شك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 335. 337 ﴾

(63/679)

وقال الغزنوى :

سورة حم السجدة

4 لا يَسْمَعُونَ : لا يقبلون «1» .

9 خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ : ثم قال : فِي أَرْبَعَةِ : أي : الإكمال والإتمام في «أربعة» .

8 سَواءً : مصدر ، أي : استوت سواء «2» ، ورفعه «3» على تقدير : فهي سواء .

لِلسَّائِلِينَ : معلّق بقوله : وَقَدَّرَ لأنّ كلّا يسأل الرزق «4» .

8 مَمْنُونٍ : منقوص «5» .

12 فَقَضاهُنَّ : أحكم خلقهنّ «6» .

---

(1) أي : لا يسمعون سماع قبول .

(2) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 196 ، ومعاني الزجاج : 4/ 381 ، وإعراب القرآن للنحاس :

4/ 50 .

(3) وهي قراءة أبي جعفر كما في تفسير الطبري : 24/ 98 ، والبحر المحيط : 7/ 486 ، والنشر : 3/ 288 .

(4) عن معاني القرآن للزجاج : 4/ 381 .

(5) تفسير الطبري : 24/ 93 ، والمفردات للراغب : 474 .

(6) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 288 ، ومعاني الزجاج : 4/ 381 ، وتفسير

الماوردي:

3/ 498.

(64/679)

---

11 أَتَيْنا طائِعِينَ: لم يمتنع عليه كونهما وكانتا كما أراد، وجمع العقلاء لأنّ الخبر عنهما وعمّن يكون فيهما من العباد المؤمنين.

ريح صرصر «1»: باردة «2».

16 نَحِساتٍ: صفة مثل: حذر وفزع «3».

ونَحِساتٍ: ساكنه الحاء «4» مصدر وجمعه لاختلاف أنواعه ومرّاته، أو نحسات هي الباردات «5»، والنّحس: البرد «6».

17 صاعِقَةُ: صيحة جبريل «7» عليه السّلام.

[86/أم] 20 حَتَّى إِذا ما جاؤُها: «ما» بعد/ «إذا» تفيد معنى «قد» في تحقيق الفعل «8».

19 يُوزَعُونَ: يدفعون «9».

21 وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ: كناية عن الفروج «10».

---

(1) في قوله تعالى: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ . . . [آية: 16].

[. . . . .]

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 24/ 102 عن قتادة، والضحاك، والسدي.

(3) الكشاف: 3/ 449، والبحر المحيط: 7/ 490.

(4) قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن كثير كما في السبعة لابن مجاهد: 576، والتبصرة لمكي:

319، والتيسير: 193.

(5) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره: 3/ 499 عن النقاش، وكذا القرطبي في تفسيره:

15/ 348.

(6) اللسان: 6/ 227 (نحس).

(7) ينظر هذا القول في تفسير الماوردي: 2/ 219، وتفسير البغوي: 2/ 391، وتفسير القرطبي: 9/ 61.

(8) ذكر المؤلف - رحمه الله - هذا القول في وضح البرهان: 2/ 267 عن المغربي، والعبارة هناك: «ما إذا جاءت بعد إذا أفاد معنى «قد» في تحقيق وقوع الفعل الماضي».

(9) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 197 ، وتفسير البغوي : 4/ 112 ، وتفسير القرطبي :

15/ 350 .

(10) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 16 ، وذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 389 ، والزجاج في معانيه : 4/ 382 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 500 عن ابن زيد .

وعزاه البغوي في تفسيره : 4/ 112 إلى السدي وجماعة .

وضعف الطبري هذا القول في تفسيره : 24/ 106 .

(65/679)

---

25 وَقَيَّضْنا : خلينا «1» ، يقال : هذا قيض لهذا وقيّاض ، أي : مساو ، وقضني به وقايضني : بادلني «2» .

ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ : زيّنوا لهم الدنيا ، وَما خَلْفَهُمْ : أنسوهم أمر الآخرة «3» أو هو دعاؤهم : أن لا بعث ولا جزاء «4» .

وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ : بمصيرهم إلى العذاب الذي أخبروا به .

26 وَالْغَوْا فِيهِ : لغا يلغو [لغوا] «5» ولغى يلغي لغا : إذا خلط الكلام «6» .

وقيل : لغى تكلم فقط «7» ، واللّغة [محذوفة اللام] «8» «فعلة» منه ، أي :

تكلموا فيه بالرد .

ولا تَسْمَعُوا : لا تقبلوا .

29 أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا : إبليس وقابيل سنّا الفساد وبدءا به «9» .

---

(1) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 501 عن ابن عيسى .

(2) ينظر تفسير القرطبي : 15/ 354 ، واللسان : 7/ 225 (قيض) .

(3) تفسير الطبري : 24/ 111 ، وتفسير الماوردي : 3/ 501 .

(4) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 501 عن الكلبي .

(5) عن نسخة «ج» . [. . . . .]

(6) معاني القرآن للزجاج : 4/ 384 ، والمفردات للراغب : 451 ، واللسان : 15/ 251 (لغا) .

(7) اللسان : 15/ 251 (لغا) .

(8) عن نسخة «ج» .

(9) ورد هذا القول في أثر أخرجه عبد الرازق في تفسيره : 2/ 186 ، والطبري في تفسيره :

(24/ 113 - 114) عن علي بن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنه ، وعن قتادة .

وأخرجه - أيضا - الحاكم في المستدرك : 2/ 440 ، كتاب التفسير ، عن علي رضي اللّه عنه ، وقال : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي .

ونقله القرطبي في تفسيره : 15/ 357 عن ابن عباس ، وابن مسعود وغيرهما .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 7/ 321 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن علي رضي اللّه عنه .

قال السهيلي في التعريف والإعلام : 152 : «ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع : «ما من مسلم يقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من ذنبه ، لأنه أول من سن القتل» اه .

الحديث أخرجه البخاري في صحيحه : 4/ 104 ، كتاب الأنبياء ، باب «خلق آدم وذريته» .

ومسلم في صحيحه : 3/ 1304 ، كتاب القسامة ، باب «بيان إثم من سن القتل» عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه .

وضعف ابن عطية في المحرر الوجيز : (14/ 181 ، 182) القول الذي ذكره المؤلف ، لأن ولد آدم مؤمن وعاص ، وهؤلاء إنما طلبوا المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود من النوعين

. . .

وقال : «ولفظ الآية يزحم هذا التأويل ، لأنه يقتضي أن الكفرة إنما طلبوا اللذين أضلا» .

وقال أبو حيان في البحر المحيط : 7/ 495 : «والظاهر أن «اللذين» يراد بهما الجنس ، أي : كل مغو من هذين النوعين» اه .

(66/679)

---

30 ثُمَّ اسْتَقَامُوا : جمعت «1» جميع الخيرات .

مُ الْبُشْرى

: يبشّرون في ثلاثة مواضع : عند الموت ، وفي القبر ، ويوم البعث «2» .

34 وادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ : التبسّم عند اللقاء ، والابتداء بالسّلام .

35 وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا : أي : دفع السّيّئة بالحسنة .

36 يَنْزَغَنَّكَ : يصرفنّك عن الاحتمال .

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ : من شرّه وامض على علمك «3» .

37 الَّذِي خَلَقَهُنَّ : غلب تأنيث اسم الشّمس تذكير غيرها لأنّها أعظم .

أو يرجع على معنى الآيات ، إذ قال : ومن آياته هذه الأشياء «4» .

---

(1) في «ج» : جمعوا .

(2) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 3/ 503 .

(3) عن معاني القرآن للزجاج : 4/ 387 ، وفيه : «وامض على حلمك» .

(4) الكشاف : 3/ 454 ، والبحر المحيط : 7/ 498 .

---

39 خاشِعَةً : غبراء متهشمة «1» .

وَرَبَتْ : عظمت ، ويقرأ «2» : وربأت لأنّ النّبت إذا همّ أن يظهر ارتفعت له الأرض «3» .

40 يُلْحِدُونَ : يميلون عن الحق في أدلّتنا .

42 مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ : لا يبطله شيء مما وجد قبله أو معه ولا يوجد بعده «4» .

وقيل «5» : لا في إخباره عمّا تقدم ولا عمّا تأخر .

44 ءَأَعْجَمِيٌّ : أي : لو جعلناه أعجميا لقالوا : كتاب أعجميّ وقوم عرب .

والأعجميّ الذي لا يفصح ولو كان عربيا ، والعجمي من العجم ولو تفاصح بالعربية «6» .

يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ : لقلة أفهامهم ، أو لبعد إجابتهم .

48 مِنْ مَحِيصٍ : من محيد «7» .

47 آذَنَّاكَ : أعلمناك «8» .

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ : كلّ من سئل عنها قال : اللّه أعلم .

---

(1) تفسير الطبري : 24/ 122 ، ومعاني الزجاج : 4/ 387 ، وتفسير البغوي : 4/ 116 .

(2) هذه قراءة أبي جعفر من القراء العشرة .

النشر : 3/ 289 ، وإتحاف فضلاء البشر : 2/ 444 .

(3) عن معاني الزجاج : 4/ 388 ، وانظر إعراب القرآن للنحاس : 4/ 63 .

(4) ذكره الزجاج في معانيه : 4/ 388 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 507 عن قتادة .

(5) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 507 عن ابن جريج ، وكذا القرطبي في تفسيره : 15/ 367 وذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 262 دون عزو .

(6) معاني القرآن للزجاج : 4/ 389 ، واللسان : 12/ 387 (عجم) . [. . . . .]

(7) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 198 ، والمفردات للراغب : 136 .

(8) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 390 ، وتفسير الطبري : 25/ 2 ، ومعاني الزجاج : 4/ 391 .

ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ : يشهد أن لك شريكا «1» ، أو شهيد لهم «2» .

ذو دعاء عريض «3» : كلّ عرض له طول ، فقد تضمّن المعنيين ، ولأنه [86/ب] على مجانسة صدر / الآية أَعْرَضَ «4» .

53 وَفِي أَنْفُسِهِمْ : بالأمراض والأسقام «5» .

وفِي الْآفاقِ : بالصّواعق «6» ، وقيل «7» : في ظهور مثل الكواكب ذوات الذوائب .

وقيل «8» : فِي الْآفاقِ : بفتح أقطار الأرض ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ بفتح مكة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 727 . 732 ﴾

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (25/ 1 ، 2) عن السدي ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 265 عن مقاتل .

(2) هذا معنى قول الفراء في معانيه : 3/ 20 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 390 ، وانظر زاد المسير : 7/ 265 ، وتفسير الفخر الرازي : 27/ 138 .

(3) من قوله تعالى : وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ [آية : 51] .

(4) ينظر تفسير الماوردي : 3/ 509 ، والمحرر الوجيز : 14/ 199 .

(5) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 510 عن ابن جريج ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 267 ، وذكره القرطبي في تفسيره : 15/ 374 دون عزو .

(6) ينظر المصادر السابقة .

(7) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 509 ، والفخر الرازي في تفسيره : 27/ 129 دون عزو .

ونقله البغوي في تفسيره : 4/ 119 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 14/ 199 عن عطاء ، وابن زيد .

(8) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 509 عن السدي ، وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير : 7/ 267 إلى السدي ، ومجاهد ، والحسن .

وانظر تفسير البغوي : 4/ 118 ، وتفسير الفخر الرازي : 27/ 139 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة فصلت

عدد 11 - 61 - 41

نزلت بمكة بعد سورة غافر المؤمن ، وهي أربع وخمسون آية ، وتسعمئة وست وتسعون كلمة ، وثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسون حرفا :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "حم" 1 "تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ" 2 تقدم مثله وفيه ما فيه .

واعلم يا أكرم الرسل أن المنزل عليك من لدنا هو "كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ" تفصيلا شافيا وبينت تبيينا كافيا وافيا وأعني به "قُرْآنًا عَرَبِيًّا" أنزلناه "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" 3 هذه اللغة حق العلم فيجيلون النظر في مبانيه ويتفقهون في معانيه ويعرفون المراد منه ، وفي هذه الآية إيذان بتعليم اللغة العربية للوقوف على معاني القرآن العظيم ، فيجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمها ، لأن القرآن لا يقرأ إلا بها :

مطلب عدم جواز ترجمة القرآن وبحث في الزكاة وفي معجزات القرآن :

وان الترجمة باللفظ والمعنى غير ممكنة ، إذ الحروف العربية لا توجد كلها في اللغات الأجنبية ، فيضطر المترجم إلى تبديل حرف بغيره أو تحريره ، ويجر هذا التغيير إلى تبديل كلمة تعطي غير المعنى المراد من أجلها ، ومن المعلوم أن تغير شيء من كتاب اللّه كفر ، إذ قد يختل المعنى المقصود منه وهو مبرأ من الخلل ، أما تفسيره باللغات الأجنبية مع المحافظة على متنه فجائز ، ومن هنا طرأ التحريف على الكتب السماوية المترجمة ، راجع هذا

البحث في المقدمة تقف على ما تريده .

وقد جعلنا هذا الكتاب المنزل عليك يا خاتم الرسل (بشيرا) للطائعين المنقادين لأحكامه بالجنة ونعيمها "وَنَذِيراً" للعاصين الجاحدين له بالنار وجحيمها "فَأَعْرَضَ"

(70/679)

أكثرهم عن الأخذ به والامتثال لأوامره "أَكْثَرُهُمْ" عنه لسابق سقائهم "فَهُمْ" أي قومك يا سيد الرسل "لا يَسْمَعُونَ" 4 اليه تكبرا وأنفة مع أنه بلغتهم ، وقد أنزل على رجل منهم ، وعلى هذا المثل السائر (زجرته فلم يسمع) "وَقَالُوا" لرسولنا الذي يدعوهم إليه "قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ" أغطية كثيفة "مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ" ولذلك لا نفقهه "وَفِي آذانِنا وَقْرٌ" ثقل وصمم ولهذا لا نسمعه "وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ" ستر كثيف غليظ مانع من الرؤية حاجز ، من التواصل والتوفيق لما بين ديننا ودينك من البون الشاسع ، وأرادوا بذكر هذه الموانع المختلقة إقناطه عليه السلام من إجابتهم إليه ، وذلك أنه لما كان القلب محل المعرفة والسمع والبصر معينين على تحصيل المعارف قالوا له أن هذه الثلاثة محجورة عن أن يصل إليها شيء من قولك ، فكيف تريد أن نعي ما تقوله لنا أو نفهمه "فَاعْمَلْ" على ما يقتضيه دينك واتركنا "إِنَّنا عامِلُونَ" 5 على ديننا أيضا .

قيل إن السبب في نزول هذه الآية أن قريشا أقبلت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال لهم ما يمنعكم من الإسلام فتسودوا العرب فقال له أبو جهل ذلك القول وأخذ ثوبا فمده بين يدي الرسول وبينهم حتى لا يرى أحدهم الآخر ، وقالوا له إنك بشر مجنون ليس إلا قال تعالى "قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ" كما تقولون ولست ملكا ولا بي مما تقولونه من الجنون والسحر ، وإنما "يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ" سميع بصير لا أصنام جامدة لا تفقه ولا تعلم ولا تسمع ولا تبصر "فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ" يا قومي وارفضوا ما أنتم عليه "وَاسْتَغْفِرُوهُ" من الشرك "وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ" 6 به غيره "الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ" لبخلهم وحبهم للمال وعدم شفقتهم على الفقراء المعدمين والأرامل المحتاجين ، ولم يعلموا ما أعد اللّه للمشركين ولا يفقهون كنهه ، قال ابن عباس المراد بالزكاة هنا تزكية النفس من الشرك بحجة ان الزكاة لم تفرض ، إلا أن المعنى لا يستقيم لوجود فعل يؤتون ، فمعه لا يجوز أن يقال يزكون أنفسهم ، بل يعطون الزكاة والإعطاء يكون من الشخص لغيره مما هو عنده ، وليس لديهم زكاة في هذا المعنى ليعطوها لأنفسهم ، لهذا يكون الأولى أن يراد بالزكاة هنا ما كان متعارفا إعطاؤها عندهم

قبل نزول القرآن ، كصلاة الركعتين قبل فرض الصلاة ، إذ لم تخل أمة من الصلاة والزكاة والصيام ، إذ تعبدهم بها كما تعبد هذه الأمة بها على اختلاف بالقدر والهيئة ، فعلى ظاهر هذه الآية يكون عدم إعطاء الزكاة كفرا ، ولهذا حكم أبو بكر رضي اللّه عنه بكفر مانعي الزكاة ، وحجة من قال إنها تزكية النفس ان الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان وهما حاصلان فلا يلزم الكفر وقال الفراء كانت قريش تطعم الحاج فمنعته عمن آمن بحمد أي ، ونزلت "وَهُمْ" قومك يا محمد مع عدم إتيانهم بها تراهم "بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ" 7 جاحدون وجودها مع انها حق ثابت يعترف بها أهل الكتب السماوية كلهم ، ومما يدل على هذا أن المراد بالزكاة إعطاء المال ، قوله تعالى "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" التي من جملتها انفاق المال للمعوزين "لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ" 8 به عليهم لأنه بمقابل أعمالهم الصالحة وعطاء هذا الأجر فضل من اللّه تعالى ، لأنه هو الذي أعطى المال للمتصدق وهو الذي وفقه للتصدق وجعل ثواب الزكاة غير مقطوع ولا منقوص لما فيها من الرأفة على عباد اللّه وعياله ، هذا ولو كان المراد بالزكاة هنا تزكية النفس لكانت هذه الآية معترضة لعدم مناسبة ذكرها بل جيء بها استطرادا تعريضا بالمشركين المستغرقين بالدنيا التاركين للآخرة ، وقد جعل جل شأنه منع الزكاة مقرونا بالكفر ، لأنها معيار الإيمان المستكين بالقلب ، ولهذا خصها

من بين أوصاف الكفرة ، وقيل إن المال شقيق الروح ، وهو عند من لا إيمان له أغلى منها

قال بعض الأدباء البخلاء :

وقالوا شقيق الروح مالك فاحتفظ به فأجبت المال خير من الروح

أرى حفظه يقضي بتحسين حالتي وتضييعه يقضي لتسآل مقبوح

(73/679)

قال في الكشف : الأولى إبقاء اللفظ على ظاهره لأن صرفه عن حقيقته الشائعة من غير موجب لا يجوز ، كيف ومعنى الإيتاء لا يقر قراره ، نعم لو كان بدل يؤتون يأتون كما في قوله تعالى "وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى " الآية 56 من سورة التوبة لجاز ذلك بالنظر للفرق بين الإيتاء والإتيان ، ولم يقرأ أحد من القراء بها ، لهذا لا يجوز الركون لذلك القول ، ولا يخفى أن اطلاق الاسم

(74/679)

على طائفة مخرجة من المال على وجه القربة من أناس عندهم فضل على حاجتهم كان شايعا قبل فرض الزكاة ، وكان يسمى عندهم زكاة أيضا ، وكانوا متفاخرين بإعطائها ، بدليل قول أمية بن الصلت في مدح طائفة من قومه : الفاعلون للزكوات ، وإن ما جاء في تفسير الإمام الرازي من ان ويلا خصت بالأصناف الثلاثة المشركين ، ومانعي الزكاة والكافرين حسن جدا لو لا ان الآية عدتهم صنفا واحدا ، إذ وصفت المشركين بمانعي الزكاة وسمتهم الكافرين تدبر هذا ، وان خطتنا في هذا التفسير المبارك اتباع الظاهر ما استطعنا ، لأن الجنوح إلى التأويل مع إمكان عدمه قد يكون خوضا والخوض قد يؤدي إلى الوقوع فيما لا ينبغي ، وقد ذم اللّه تعالى الخائضين راجع الآية 67 من سورة الأنعام المارة والآية 140 من سورة المائدة والآية 31 من سورة التوبة في ج 3 ، لهذا أرى الكف عن التوغل في مثل هذا مطلوبا لأن اللّه تعالى لو شاء لقول ما يقدمون على تأويله ، ولكنه لم يشأ ، فعلى العاقل أن يترك مشبثته لمشيئة اللّه ويعلم أن كثرة ذكر الزكاة في القرآن العظيم لزيادة الحث على اعطائها وشدة التحذير من منعها ، لأن بذل المال في سبيل اللّه أقوى دليل على الاستقامة وصدق النية وقوة الإيمان ونصح الطوية ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا قرت بها عصبيتهم ولانت شكيمتهم ، وما ارتد بنو حنيفة إلا بمنع الزكاة ، ففي هذه الآية بعث لاستنهاض همم المؤمنين على أدائها عن طيب نفس وتخويف عظيم على منعها ، قيل إن هذه الآية الأخيرة نزلت بالزمى والمرضى والهرمي المتحقق عجزهم عن العمل

الصالح بأن يكتب لهم مثله ، بدليل ما رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم غير مرة ولا مرتين يقول ، إذا كان العبد يعمل عملا صالحا فشغله مرض أو سفر كتب اللّه له كصالح ما كان يعمل ، وهو صحيح مستقيم .

(75/679)

فيا سيد الرسل "قُلْ" لهؤلاء الكفرة القائلين ذلك القول المشار اليه في الآية الخامسة ما يلي :

مطلب خلق السموات والأرض وما فيها ولما ذا كان في ستة ايام وفي خلق آدم :

"أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ" استفهام انكار عن هذا المنكر وعن المنكر الآخر المبين في قوله "وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندادًا"

أكفاء وأشباها من الملائكة والجن وغيرهما من سائر الأوثان المنحوتة من أحجار وأخشاب والمصوغة من الفضة والذهب والحديد وغيرهما من المعادن بصنع أيديكم لا تقدر على خلق شيء لأنها عاجزة عن حفظ نفسها ومع هذا فإنكم تعبدونها وتعرضون عن الإله الخلاق "ذَلِكَ" المستحق للعبادة وحده "رَبُّ الْعَالَمِينَ" 9 أجمع الناطق منهم والأعجم والمتحرك والجامد "وَجَعَلَ فِيها" في الأرض التي خلقها في يومين الأحد والأثنين "رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِها" راجع الآية 9 من سورة لقمان المارة "وَبارَكَ فِيها" بالأشجار والثمار

والزروع والأنهار والحيوان والحيتان من جميع ما يحتاجه البشر وغيره "وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا" أرزاقها لكل ما فيها وكميّتها وكيفيتها "فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ" اليومين الأولين والخميس والجمعة لأنه خلق السماء بعد الأرض في يومي الثلاثاء والأربعاء قبل خلق الروامي وتقدير الأقوات لا انه غيرهما وهذا كما تقول سرت من القنيطرة إلى دمشق في يومين والى النبك في أربعة أيام أي في تتمة أربعة أيام ، ولا بد من هذا التقدير لأنه بغيره يكون تمام الخلق بثمانية أيام وهو مناف لما جاء في قوله تعالى في آيات عديدة في ستة أيام كما أوضحناه في الآية 54 من سورة الفرقان والآية 59 من الأعراف في ج 1 "سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ" 10 الذين يسألونك يا أكرم الخلق عن مقدار الزمن الذي خلق ربك فيه الأرض وما فيها بلا زيادة ولا نقص

(76/679)

"ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ" شيء ظلماني كالدخان ، وقد مرّ أن عرش الرحمن كان على الماء وكان قبله عماء ، راجع الآية 6 من سورة هود المارة ، وأحدث اللّه في هذا الماء سخونة ، فارتفع زبد ودخان ، فأما الزبد فبقي على وجه الماء فأيبسه اللّه وأحدث منه الأرض ، وأما الدخان فارتفع وعلا ، فخلق منه السموات ، قال الراجز في صفة الأرض :

فبطنها محشوة بالغار وقشرها قد شق بالبحار

ومما يدل على هذا قوله تعالى (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) الآية 7 من سورة الطور الآتية ، وقوله صلّى اللّه عليه وسلم : (البحر طباق جهنم) وقد أسهبنا البحث في هذا في الآية 27 من سورة الحجر المارة فراجعها ، وفي هذه الآية معجزة من معجزات القرآن أيضا ، إذ لم يكن عالم أو فيلسوف في ذلك العهد أخبر حضرة الرسول أن هذا الكون

كان بادىء بدء مملوء بالسديم أي الأثير والهيولى ، مع أن هذه القضية لم تعرف إلا بعد نزول القرآن بمئات من السنين .

والدخان أجزاء أرضية لطيفة ترتفع بالهواء مع الجرارة ، والبخار أجزاء مائية ترتفع في الهواء مع الأشعة الراجعة من سطوح المياه ، فعبر بالدخان عن مادة السماء أي الهيولى والصورة الجسمية أو عن الأجزاء المتصغرة المركبة منها أي الأجزاء التي لا تتجزأ .

ولما كان أول حدوثها مظلمة سميت بالدخان تشبيها لها به من حيث أنها أجزاء متفرقة غير متراصة ولا متواصلة عديمة النور ، أشبه شيء بالدخان .

أما الإستواء فقد تقدم توضيحه في الآية 54 من سورة الأعراف والآية 5 من سورة طه المارتين في ج 1 ، وهو متى ما عدّي بعلى يكون بمعنى الاستيلاء والاستعلاء كقوله تعالى (الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى) الآية المذكورة من طله ، ومنى ما عدي بإلى كما هنا يكون

بمعنى الانتهاء ، فاحفظ هذا وتذكره عند كل جملة من هذا القبيل ، وراجع بيانه فيما أرشدناك إليه من المواضع .

(77/679)

قال تعالى "فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً" وهذا تمثيل لتحتيم قدرة اللّه تعالى فيها واستحالة امتناعهما المشعر به "قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ" 11 فوجدتا كما أرادهما اللّه تعالى ، وجاء الجمع بلفظ العقلاء لأنه تعالى لما خاطبهما بأوصاف العقلاء أجراهما في الجمع مجرى من يعقل ، ونظيره (ساجِدِينَ) في الآية 4 من سورة يوسف وهو جمع للكواكب وقد خاطب اللّه تعالى من لا يعقل بصيغة من يعقل في كثير من آي القرآن ، لذلك السبب ، ولهذا جرينا أيضا على هذا المجرى تبعا لكلام اللّه تعالى ولتلك الأسباب نفسها .

وليعلم أن اللّه تعالى خلق أولا الأرض ، ثم السماء ، ثم دحا الأرض ، بدليل قوله تعالى (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحاها) الآية 30 من سورة النازعات الآتية لا انها خلقت بعد السماء بل خلقت قبلها ودحيت بعدها ، ولهذا قلنا آنفا في الآية العاشرة إن خلق الأرض في يومي الأحد والاثنين وما فيها في يومي الخميس والجمعة ، إذ كان خلق السماء في الثلاثاء والأربعاء تدبر ، ولا تغفل .

وعلى هذا "فَقَضاهُنَّ" ذلك الإله العظيم كلهن وما فيهن وسواهن "سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها" مما أراد أن يكون فيها مما لا يعلمه على الحقيقة غيره ، ولهذا البحث صلة في الآية المذكورة من

(78/679)

سورة النازعات الآتية إذ يفهم من هذه الآية أن خلق الأرض ودحوها قبل خلق السماء ، وآية النازعات توضح أن الدحو بعد خلق السماء وهو ما أجمع عليه المفسرون وقال الأخباريون وأصحاب السير والمؤرخون : أول ما خلق اللّه التربة ، أي الأرض بلا دحو ولا بسط ولا مد ولا تمهيد في يومي الأحد والإثنين ، ثم سوى السموات السبع وما فيهن في الثلاثاء والأربعاء ، ثم مد الأرض ودحاها وشق بحارها وأنهارها وثقلها بالجبال وجعل فيها فجاجا وأودية في الخميس والجمعة ، ثم خلق آدم في آخر ساعة من يوم الجمعة أي سوى خلقه من التراب وتركه ولم ينفخ فيه الروح بدليل أول سورة الإنسان وما جاء في الأخبار أن إبليس كان يمر به ويتأمله ويفكر في خلقه ، ويقول إنه أجوف لا يتمالك ، وهكذا إلى أن أراد اللّه تعالى نفخ الروح فيه فنفخها وصار بشرا سويا ، أو أنه خلقه في غير تلك الجمعة التي أتم فيها خلق السموات والأرض ، بدليل خلق الجان الذين سكنوا الأرض قرونا

كثيرة ، ثم فسدوا وبغوا فأهلكهم اللّه ولم يبق منهم طائعا في الظاهر إلا إبليس بدلالة الآية 30 من البقرة في ج 3 فراجعها ، وبعد أن خلق اللّه الحيوانات بأصرها والوحوش والأشجار وكل ما في الأرض خلق آدم أي نفخ فيه الروح ، لأن كل ما في الأرض خلقه لأجله ولذريته .

(79/679)

هذا واعلم أن اللّه تعالى قادر على خلق الكون بما فيه وإبادته في لحظة واحدة ، لأنه عبارة عن الأمر بلفظ كن فيكون بين الكاف والنون ، قال تعالى (إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) الآية 81 من سورة يس وهي مكررة كثيرا في القرآن في المعنى ، وقال تعالى (وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) الآية 20 من سورة القمر المارة في ج 1 ، وإنما القصد من خلقها في ستة أيام هو أنه جعل لكل شيء حدا محدودا لا يتعداه ، فلا يدخل شيء من مخلوقاته في الوجود إلا بالوقت الذي قدره لدخوله ، وانه ليعلّم خلقه التثبت في الأمر والتأني بفعله ، قال صلّى اللّه عليه وسلم التأني من اللّه والعجلة من الشيطان ، وانه إذا جعل الشيء دفعة واحدة ظن وقوعه اتفاقيا ، وإذا حدث تدريجيا شيئا فشيئا على سبيل المصلحة والحكمة كان أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة ، والقول الفصل في هذا وأمثاله هو أن

يقال إن أفعال اللّه لا تعلل ، ومن علم أنه لا يسأل

هما يفعل ، وأيقن بالقدرة ، وأن الحكيم لا يفعل شيئا إلا عن حكمة ، وعلم أن اللّه أحكم الحاكمين حكما وحكمة ، سكت وسلم فحفظ وغنم وسلم ، وإلا فهو على خطر عظيم حفظنا اللّه ووقانا .

وهو القائل "وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ" كواكب مختلفة في الحجم والشكل واللون والضياء والسير "وَحِفْظاً" من الشيطان الذي يسترق السمع ، راجع الآية 11 من سورة الصافات المارة "ذِلكَ" الصنع البديع والتقدير العظيم "تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" 12 البالغ علمه كل خفي وجلي

(80/679)

العالم بشئون خلقه كلها وفيما أودعه في مكوناته من الحكم والمنافع والمصالح لعباده "فَإِنْ أَعْرَضُوا" عنك يا سيد الرسل بعد أن أبديت لهم ذلك ولم يعتبروا بما أبدعه ربك من الآيات الدالات على وحدانيته وعظيم سلطانه وبالغ قدرته "فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ" 13 وقرئ صعقة والصعق الموت خوفا ، وذلك أن عادا أهلكوا بالريح وثمود بالصيحة ، وإنما أهلكهم اللّه لأنهم حين "إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ" من

كل جانب بمعنى أنهم بذلوا وسعهم وقصارى جهدهم بأنواع الإرشاد والنصح وأنذروهم "أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ" وحده واتركوا عبادة الأوثان "قالُوا" عنادا وعتوا إنا لا نطيع بشرا مثلنا "لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً" يدعوننا لعبادته لأن البشر لا يصلح للنيابة عن اللّه في الدعوة إليه "فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ" 14 لا نصدق بما جئتم به ونكذبكم لأنكم مثلنا لا فضل لكم علينا يؤهلكم لهذه الدعوة.

مطلب قول رسول قريش لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم وما رد عليه به حضرة الرسول والأيام النحسات:

قال ملأ من قريش وأبو جهل: قد التبس علينا أمر محمد فالتمسوا رجلا عاقلا عالما بالشعر والسحر والكهانة يكلمه ويأتينا ببيانه، فاتفقوا على عتبة بن ربيعة، فذهب إليه، وقال يا محمد أنت خير أم هاشم، أنت خير أم عبد المطلب، أنت خير أم عبد اللّه، فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا، فإن كان ما بك للرياسة عقدنا لك ألويتنا فكنت رئيسا ما بقيت، وإن كان ما بك من الباءة زوجناك عشر نساء تختارهن من بنات قريش كلها، وإن كان ما بك من المال جمعنا لك ما تستغني به

أنت وعقبك من بعدك، والنبي صلّى اللّه عليه وسلم ساكت، فلما فرغ قال اسمع يا عتبة:

بسم اللّه الرحمن الرحيم حم حتى بلغ هذه الآية ، فقام عتبة وأمسك على فيه ، وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ، واحتبس عن قومه لما أدركه من مغزى ما تلاه عليه وقر لديه معناه ، وما دخل في روعه من الخشية ، فقال أبو جهل صبأ واللّه عتبة يا معشر قريش ، وأعجبه طعام محمد لفاقته ، هلم فانطلقوا إليه نؤنبه على ذلك ، فلما وصلوا إليه قال له أبو جهل ما قال وزاد على التأنيب بأن قال له سنجمع لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ، فغضب عتبة وأقسم لا يكلم محمدا أبدا ، وقال يا معشر قريش إني من أكثركم مالا ، ولكن أتيته فكلمته ، وذكر لهم ما قال له ، فأجابني بشيء واللّه ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة ، وقرأ عليهم ما سمعه منه ، ولما قرأ (فَإِنْ أَعْرَضُوا) نهضت فأمسكت بقية وناشدته الرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب ، وهذا الذي ألزمني بيتي ما هو كما يقول أبو جهل ، وأنتم تعلمون أني لست بذلك الرجل .

وهذا الخبر رواه البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبد اللّه ونقله محمد بن كعب القرظي بزيادة ، وقال إن عتبة كان سيدا حليما ، وكانت هذه القصة بعد إسلام حمزة رضي اللّه عنه وتكاثر المسلمين ، وقال أطيعوني يا معشر قريش واعتزلوه ، فو اللّه ليكوننّ له نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه ، وإن يظهر فعزّه عزكم ، وأنتم أسعد الناس به .

قالوا سحرك والله ، لقد جئت بغير الوجه الذي ذهبت به ، قال هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم ، ولم يرد الله له ، ولأبي جهل وجماعته الخير ، فأصروا على عنادهم فهلكوا كفارا .

(82/679)

"فَأَمَّا عادٌ" قوم هود عليه السلام "فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ" وتعاظموا على أهلها واستولوا على ما ليس لهم منها ظلما "وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً" لينزعنا عنها ، يهدّدون نبيهم بهذا القول حينما خوفهم عذاب الله معتمدين على ضخامة أجسادهم وقوة سواعدهم ، قالوا كان أحدهم يقلع الشجرة من الأرض والصخرة من الجبل بيده ، فرد الله عليهم بقوله عزّ قوله "أَ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً" لأنه قادر على إبادتهم بصيحة من أحد ملائكته ، ولو شاء لانتزع قوتهم وجعلهم أضعف خلقه ولكنهم بغوا بما أنعم الله عليهم "وَكانُوا بِآياتِنا" التي أريناهم إياها "يَجْحَدُونَ" 15 ويكذبون قدرتنا مع اعترافهم بها "فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً" عاصفا شديدا باردا له صوت قاصف ، وهذا أحد أسماء رياح العذاب ، وعاصف وقاصف وعقيم ، ورياح الرحمة لها أربعة أسماء أيضا : ناشرات ومبشرات ومرسلات وذاريات ، ويأتي في القرآن العظيم ذكر الريح غير الموصوف للعذاب ، والرياح للرحمة ، كما أن المطر للعذاب ، والغيث للرحمة ، وكان

ذلك الريح الصرصر "فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ" نكدات مشؤومات مغيرات للنعم مكدرات للعبش ، قالوا كان أولها يوم الأربعاء من صفر ، وآخرها الأربعاء من آخره ، قالوا وما أنزل اللّه عذابا إلا يوم الأربعاء ، وقدمنا ما يتعلق في هذا في الآية 20 من سورة القمر في ج 1 والآية 102 من سورة الصّافات والآية 22 من سورة الحجر المارتين ، وذكرنا أنه لا قباحة للأيام ، وأن الشؤم والقباحة بعمل أهلها ، قال الأصمعي :

إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

وقال الآخر :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

(83/679)

إلى أن قال : ولو نطق الزمان لقد هجانا راجع الآيتين 62/ 51 من سورة الزمر المارة ، ومنه تعلم أن النحس والسعد والصفاء والكدر بتقدير اللّه تعالى لا علاقة للأيام والنجوم والأمكنة وغيرها بذلك ، واعلموا أيها الناس إنما أرسلنا عليهم هذا العذاب بالدنيا "لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ" بسبب استكبارهم فيها فيذلوا ويحتقروا "وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى" أشد إهانة وأكثر مهانة "وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ" 16 منه البتة وكل ما كان من اللّه لا

رافع ولا مؤخر له .

قال تعالى "وَأَمَّا ثَمُودُ" قوم صالح "فَهَدَيْناهُمْ" ودللناهم على طريق النجاة بواسطة نبيهم "فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى " اختاروا الكفر على الإيمان بطوعهم ورضاهم سوقا ورغبة ولم يلتفتوا لدعوة نبيهم عليه السلام ونبذوا نصحه وإرشاده وراء ظهورهم "فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ" داهية وقارعة الذل والمهانة "بِما كانُوا يَكْسِبُونَ" 17 في الدنيا من إهانة نبيهم واحتقار

معجزته وهي الناقة إذ عقروها فعقرهم اللّه "وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا" منهم مع نبيهم "وَكانُوا يَتَّقُونَ" 18 التعدي عليه وعلى معجزته فأنجيناهم معه جزاء خشيتهم عقاب اللّه الدنيوي وخوفهم عذابه الأخروي .

مطلب معنى الهداية وما قيل فيها وشهادة الأعضاء وكلام ذويها :

(84/679)

واعلم أن معنى الهداية لدى أهل السنة والجماعة هو الدلالة فقط وصلت إلى المطلوب أو لم تصل ، قال تعالى (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) الآية 53 من سورة الشورى الآتية ، لأن اللّه تعالى أنزل الآيات وأرسل الرسل وأعطاهم العقل وأمرهم بالهداية ومكنهم منها

وأزاح عللهم ولم يبق لهم عذرا لحصول بغيتهم بحصول موجبها ومقتضيها ، ولا وجه لقول بعضهم اشتراط التوصل إلى المطلوب أخذا من قوله هديته فاهتدى بمعنى حصول البغية كما تقول ردعته فارتدع لما تقدم ، كما لا وجه لاستدلالهم في هذه الآية على أن الإيمان باختيار العبد على الاستقلال بناء على قولهم في قوله تعالى (فَهَدَيْناهُمْ) بكونه دل على نصب الأدلة وإزاحة العلة ، وقوله (فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى) يدل على أنهم أنفسهم آثروه ، لأن الإيمان لا يكون إلا بتوفيق اللّه تعالى ، ولأن لفظ (فَاسْتَحَبُّوا) يشعر بأن قدرة اللّه تعالى هي المؤثرة ، وأن لقدرة العبد مدخلا ما ، وهو الجزء الاختياري للإنسان الذي يجعل له رغبة ورضا وشوقا ما ، في فعل ما يقدم عليه ، على أن المحبة مطلقا ليست اختيارية محضة بالاتفاق وإيثار العمى وهو الاستحباب المأخوذ من معنى استحبوا ، وهو لا يكون إلا من الأفعال الاختيارية ، ومعنى كون المحبة ليست اختيارية انها بعد حصول ما تتوقف عليه من أمور اختيارية تكون بجذب الطبيعة من غير اختيار للشخص في ميل قلبه وارتباط هواه بمن يحبه ، فهي نفسها غير اختيارية باعتبار مقدماتها .

اختيارية بحسب ما تؤول إليه لأنها لا تكون إلا عن رغبة وميل ، ولذلك كلّفنا بمحبة اللّه تعالى ومحبة رسله صلوات اللّه عليهم وسلامه .

قال تعالى (وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها) الآية 189 من الأعراف في ج 1 فقد جعل

علّة ميلها كونها منه بما يدل على أن المحبة ميل روحاني طبيعي ، وإليه الإشارة بقوله صلّى اللّه عليه وسلم : الأرواح جنود بجندة ما تعارف منها أتلف .

(85/679)

وقد تكون المحبة لأمور أخر كالحسن والإحسان والكمال

ولها آثار يطلق عليها محبة كالطاعة والانقياد والتعظيم ، وهذه هي التي يكلف الإنسان بها ، لأنها اختيارية ، فتدبر وتفكر وافهم واعرف وفتح عينيك تهدى وترشد .

قال تعالى "وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ" المتوغلون في إنكاره وجحود آياته وتكذيب أنبيائه "إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ" 19 يستوقف أولهم ليلحق آخرهم .

فيحبسون حتى إذا تكاملوا سيقوا إلى أرض الموقف "حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ" فروجهم وأيديهم وأرجلهم وجميع جوارحهم لأنها هي التي للامس الحرام بدليل تخصيصها بعد ، وإنما كنى اللّه تعالى عنها بالجلود تحاشيا عن ذكرها وتعليما لعباده الأدب بالمكالمات ، وكثير أمثاله في القرآن وشهادتهم "بِما كانُوا يَعْمَلُونَ" 20 بالدنيا فينطق كل بما وقع منه إذ تكت الألسنة عن النطق : فعلت الجوارح

"وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا" بما كتمناه نحن لئلا تعذبوا "قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ

كُلَّ شَيْءٍ" ولا نقدر على المخالفة والكتمان "وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ" من لا شيء ، فهو قادر على انطاقنا "وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" 21 بعد الحساب إذ يضعكم موضع المجازات المترتبة عليكم ، كما أرجعكم إليه بعد الموت "وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ" أيها العصاة عند ارتكابكم الفواحش بالحيطان والحجب خيفة من اللّه ليسترها عليكم الآن ، وإنما كنتم تستترون خشية أن يطلع عليكم الناس وما كنتم تظنون "أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ" بأفعالكم القبيحة "وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ" 22 في دنياكم من الخير والشر ، روى البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال :

(86/679)

اجتمع قريشيان وثقفي ، أو ثقفيان وقريشي عند البيت كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم ، فقال أحدهما للآخر أترون أن اللّه يسمع ما نقول ؟ قال الآخر يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا ، وفي رواية قال : فذكرت ذلك للنبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فأنزل اللّه هذه الآية .

على أن الآية عامة ولا قول في الحديث من حيث الصحة ، لأنه جاء برواية الشيخين وناهيك بهما ثقة ، وإنما في كونه سببا للنزول وعلى صحة ذلك فإنه لا يخصص حكم الآية ،

ومثل هذا القول يقال في الحديث المذكور في

الآية 8 المارة آنفا ، وقدمنا في الآية 65 من سورة يس في ج 1 ما يتعلق في شهادة الأعضاء من الأحاديث ما به كفاية فراجعها ، فإذا كان اللّه تعالى وكل بالإنسان حفظة يحصون عليه أعماله وأنفاسه ، وفضلا عن هذا فإنه يستنطق جوارحه عما يقع منها ، فينبغي للمؤمن أن لا يمر عليه حال إلا بملاحظة ربه عز وجل ، فإن عليه رقباء منه ، قال أبو نواس :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن اللّه يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

(87/679)

ويكفيك قوله تعالى (وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) الآية 42 من سورة إبراهيم الآتية ، ولا يستغرب نطق الأعضاء بما وقع منها بقدرة اللّه تعالى ، بعد أن نرى الأسطوانة تتكلم بما وقع عليها ، والشريط السينمائي ينطق بما تكلم عليه على اختلافه ، وهما من صنع البشر ، فما بالك بما هو من صنع اللّه خالق البشر ، إذا لا يتطرق أحدكم بالظن في ذلك فيهلك ، وقد قال تعالى "وَذِلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ" أوقعكم في الردى ، أي الهلاك ، وفي هذه الإشارة الدالة على البعد إيذان بغاية بعد منزلة ظنهم في

الشر والسوء "فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ" 23 بسبب ظنكم ذلك ، لأن اللّه تعالى أنعم عليكم في هذه الجوارح لتستعملوها فيما خلقت لها فتنالوا سعادة الدارين ، فإذا حرفتموها لغير ما خلقت لها كانت سببا لشقائكم فيها ، لأن استعمالكم إياها في طرق الخير يؤدي إلى إدراك ما تهتدون به إليه من اليقين ومعرفة رب العالمين الموصلة للسعادة الأبدية ، وصرفها لغير ذلك يؤدي إلى كفران النعمة الموصل إلى الشقاء الأبدي ، قال بعد أن حكم عليهم بشهادة أنفسهم وأعضائهم "فَإِنْ يَصْبِرُوا" على ما صاروا إليه من العذاب أو لا يصبروا "فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ" لأن صبرهم ليس فيه مظنة الفرج حتى يأملوا الانتفاع به فصبرهم وفجرهم بحقهم سواء ، والآية هذه على حد قوله تعالى (أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ) الآية 20 من سورة إبراهيم الآتية ، وقوله تعالى (فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ) الآية 16 من سورة الطور الآتية "وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا" يطلبوا العتبى والرضاء "فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ" 24

(88/679)

أيضا ، إذ لا سبيل للرضاء حتى يكونوا من المسترضين ولا محل له "وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ" هيأنا لهم أخدانا من نظرائهم الشياطين (فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ" من زخارف

الدنيا المحيطة بهم "وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ" الصادر ممّا بالعذاب "فِي" جملته "أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ" 25 دنياهم وآخرتهم كغيرهم من الأمم الظالمة "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا" من أهل مكة "لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ" الذي يتلوه عليكم محمد "وَالْغَوْا فِيهِ" قولوا عند قراءته قولا لا رقوع له كي يتشوش القارئ ويلتبس على السامع "لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ" 26 في لغوكم على تلاوة محمد ، فلا تتركون مجالا للسامع أن يفهمه كما هو ، وذلك أن المشركين علموا عذوبة ألفاظ القرآن وكمال معانيه وجزالة جمله ، وعرفوا أن من أحبط به علما وعقله مال إليه ، فخافوا على أنفسهم وغيرهم من الانخراط في الدين المنزل عليه وقبول ما جاءهم به ، فلذلك صار بعضهم يوحي إلى بعض بأن كل من يسمع محمدا يقرأ فليكثر من اللغو ورفع الصوت ليختلط عليه الأمر وعلى السامع أيضا ، فلا يعقله تماما خشية تسرب قوله إلى الناس فيؤمنوا به ، فأنزل اللّه هذه الآية ينعى عليهم بها سوء صنيعهم ، راجع الآية 115 من الأعراف في ج 1 ، ثم هددهم بقوله "فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا" أظهر مكان الإضمار إشعارا بعظم عقابهم المشار بكونه "عَذَابًا شَدِيدًا" على فعلهم هذا "وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ" 27 تهديدا مؤكدا بالقسم ، أي وعزتي وجلالي لأعاقبتهم على سيئاتهم هذه بأسوأ منها ولا نكافئنهم على أعمالهم الحسنة من صلة رحم وإقراء ضيف وإغاثة ملهوف وغيرها ، لأنهم كانوا يفعلونها لنشر الصيت رياء وسمعة وتفاخرا ، ولا نثيبنهم على الأحسن من أعمالهم مما هي خالية من

تلك الشوائب ، لأنا كافيناهم عليها في الدنيا من صحة وسعة رزق وجاه وغيرها ، بل نجازيهم ونعاقبهم على أفعالهم السيئة بأعظم العقوبات وأسوئها ، وعلى الأسوإ أكثر من السيء "ذِلكَ" التشديد عليهم بالجزاء "جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ" المحاربين له في الدنيا هو "النَّارُ" التي لا يقاس عذابها بعذاب "لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ" الإقامة الدائمة "جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ"

28 ويكذبون رسلنا الذين جاءوهم بها ويسخرون بهم "وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا" بعد قذفهم بالنار وعدم النظر إلى طلباتهم الواهية "رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا" في الدنيا عن الدين القويم وأوقعانا في هذا العذاب الأليم "مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا" في هذه النار انتقاما منهم "لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ" 29 فيها فيتالا عذابا أكبر من عذابنا ، لأنهما هما اللذان أوقعانا فيه ، فلا يلتفت إلى قولهم لأن أولئك لهم مكان خاص في النار أيضا مع أمثالهم .

مطلب ما للمؤمنين المستقيمين عند اللّه ومراتب الدعوة إلى اللّه ودفع الشر بالحسنة :

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا" بأفعالهم وأقوالهم على إيمانهم "تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ

الْمَلائِكَةُ" بالرحمة من اللّه عند الموت وفي القبر وزمن البعث تؤنسهم وتقول لهم "أَلَّا تَخافُوا"
من هذه الأهوال التي ترونها في المواقع الثلاثة "وَلا تَحْزَنُوا" على ما فاتكم من الدنيا فإن اللّه
تعالى أبدلكم خيرا منها وآمنكم من كل هم وغم وعناء ، والحزن غم يلحق الإنسان من توقع
مكروه أو خوف فوات محبوب أو حصول ضار ، "وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ"
30 بها على لسان رسلكم في الدنيا والآن
"نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ"
وأنصاركم ومتولوا أمركم كما كنا لكم "فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ"

(90/679)

اليوم "فِي الْآخِرَةِ"
كذلك لا نفارقكم أبدا حتى تدخلوا مقركم في الجنة "وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ"
من أكل وشرب ولبس وظلال وترف وصحبة ونساء وغيرها "وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ"
31 تطلبون وتتمنون من كل ما يخطر ببالكم وهذا أعم من الأول "نُزُلًا" هذا الذي ذكر كله
بمقام ما يقدم للضيف أول نزوله من شراب وقهوة ، فما بالك بما يقدم له بعد ، وناهيك برب
المنزل "نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ" 32 بالنازلين كثير المغفرة لما وقع منهم كيف وهو أكرم الأكرمين

ممطر الألطاف والكرامة على عصاته ، فكيف بأضيافه ومطيعيه "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ" أيا كان من عباده المخلصين وأمر بطاعته ونهى عن معصيته ، وهذا عام في كل مؤمن يدعو الناس عامة طائعهم وعاصيهم برّهم وفاجرهم إلى عبادة اللّه ويدخل فيه الأنبياء بالدرجة

الأولى ثم الأمثل فالأمثل ، ولا وجه لتخصيصها بالرسل عليهم السلام كما قاله بعض المفسرين ، لأن إجراءها على عمومها أوفق للفظ وأنسب بالمعنى وأحسن بالمقصد "وَعَمِلَ صالِحاً" بإخلاص وحسن نية "وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" 33 المذعنين المنقادين للّه تعالى قلبا وقالبا .

واعلم أن للدعوة إلى اللّه مراتب : الأولى دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالآيات والمعجزات والحجج والبراهين المقرونة بالتحدي وبالسيف إذا لم ينجع ذلك .

الثانية دعوة العلماء بالحجج والبراهين وطرق الإرشاد والنصح وضرب الأمثال فقط ، ولا شك أن العلماء أقسام : علماء باللّه ، وعلماء بصفاته ، وعلماء بأحكامه ، وقد يجمع الكل بواحد إذا كان من العارفين :

وليس على اللّه بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وكل من هؤلاء مكلف بإرشاد الناس إلى طرق الهداية ، أوتوا من قوة في النطق وفي الدلائل الشرعية .

الثالثة دعوة المجاهدين ، وهذه لا تكون إلا بالسيف لأنهم مأمورون من قبل ولي الأمر بقتال الكفار حتى يؤمنوا ، وقتال الخارجين عن الطريقة الإسلامية حتى يذعنوا ، فإذا آمن الأولون وأذعن الآخرون وجب عليهم الكف عن قتالهم ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

الرابعة دعوة المؤذنين إلى الصلاة ، فينبغي لمن سمع الصوت أن يجيب الداعي ، ولهذا فما روي عن عائشة أن هذه الآية نزلت في المؤمنين خاصة ، مع أنها عامة لا يخصصها رواية عائشة رضي اللّه عنها على فرض صحة نزولها فيما قالت ، لأنها مطلقة في كل من يدعو إلى اللّه ويحث الناس على سلوك طريقة السوي لا يقيدها قيد أبدا .

هذا ، وعلي من يتصدى للإرشاد أن يكون بمقتضى الآية 135 من سورة النحل الآتية "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ" في الآثار والأعمال والأحكام ، بل بينهما برن شاسع ، فيا أيها الإنسان الكامل "ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" بالإحسان إلى من أساء إليك والصبر على أذاه والتأني عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند القدرة ، فهذه هي الحالة التي وصفها اللّه بالأحسن ، وشتان بين من تحلى بالخصال الممدوحة ، ومن تقمص بالخلال

المذمومة ، والآية عامة في كل فعل حسن وسيئ قليلا كان أو كثيرا ، خطيرا كان أو حقيرا ، فعلى العاقل أن يحسن لمن أساء إليه ، ويصل من قطعه ، ويعرض عمن آذاه ، ويعطي من حرمه ، ويمدح من يذمه ، ويدعو لمن شتمه ، ويعفو عمن تعدى عليه أو على ماله أو ولده أو أهله ، اتباعا لكلام اللّه وأحاديث رسوله ، ولا يتأنى في ذلك ، ففي التأني تفوت الفرص ، وهو محمود في غير هذا وأمثاله مثل تزويج البكر وإقراء الضيف ودفن الميت وغيره ، كان سيدنا عيسى عليه السلام إذا مرّ بأناس يشتمونه يدعو لهم فقال له أصحابه في ذلك ، فقال كل ينفق مما عنده .

وعليه المثل المشهور : وكل إناء بالذي فيه ينضح .

(92/679)

وكان من تعاليمه عليه السلام : من ضربك على خدّك الأيمن فأعطه الأيسر ، ومن أخذ ثوبك فأعطه رداءك ، وكان يأمر بمحبة الأعداء والعفو عن الاعتداء ، وكان أزهد الناس في الدنيا عاش ثلاثا وثلاثين سنة في الأرض ، ورفع إلى السماء ولم يختص بمحل يأوي إليه حتى آواه اللّه برفعه إليه "فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" 34 مخلص صادق في محبتك ولوع في مودتك ، لأن اللّه تعالى يقلب عداوته صداقة محضة بأن يجعله أدنى لك

من قريبك ، قال :

إن العداوة تستحيل مودة بتدارك الهفوات بالحسنات

"وَمَا يُلَقَّاهَا" أي تلك الخصال الحميدة "إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا" على أنفسهم وتحملوا المكاره وتجرعوا الشدائد وكظموا الغيظ وتركوا الانتقام ، فصارت طبيعتهم الصبر وشأنهم العفو وديدنهم التحمل "وَمَا يُلَقَّاهَا" الأمور المذكورة آنفا ويقوم بها "إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" 35 أي موفق للخير ميسّر للهدى مسوق المرشد ذو نصيب كبير من كمال النفس ، وحظ عظيم من طهارة القلب ، وحصة جليلة من مكارم الأخلاق .

مطلب في النزغ وسجود التلاوة وعهد اللّه في حفظ القرآن :

قال تعالى "وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ" أيها الإنسان الكامل "مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ" فتحس بما ينخسه في قلبك ويوسوس فيه بصدرك من ترغيبك لفعل ما لا ينبغي فعله وصرفك عن القيام بتلك الخصال النفيسة وحثك للانتقام ، فاحذر أن تطيعه ، وإن حاك في نفسك شيء من اجراء المقابلة "فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ" منه والجأ إليه

ليحفظك من خدعه وغشه "إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ" لمن يستغيث به فيجيبه وهو "الْعَلِيمُ" 36 بصدق ركونك إليه فيحفظك من شر نزغاته ، ويحول دون التفاتك إليه ، وقدمنا ما يتعلق بالنزغ في الآية 100 من سورة يوسف وفي الآية 12 من سورة يونس المارتين ، وفيهما ما يرشدك لمراجعته من الآيات الباحثة عن هذا .

اعلم أن مناسبة هذه الآية لما قبلها هو دفع ما يتوهم إن فعل ذلك بمقابل إساءة الغير قد يكون ذلا أو خوفا أو عارا من الناس ، وإن حصول هذه الوساوس من الشيطان الذي لا يريد إلا الشر للإنسان ، كيف وقد حذّرنا اللّه منه بقوله عزّ قوله (وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً) الآية 60 من سورة النساء في ج 3 ، بأن تجنحوا بكليتكم إلى المساوى والمكاره وتعرضوا عن العفو ومكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ، فعلى العاقل أن ينتبه لذلك ، لأن تلك الأعمال الحسنة ما هي إلا من علو النفس وزكاة القلب وكمال الإيمان ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، قال تعالى "وَمِنْ آيَاتِهِ" الدالة على توحيده وعظيم قدرته وبالغ حكمته "اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ" المسخّرات بأمره لمنافع الخلق وما في الكون كله يخضعون لعظمته ويسجدون كل بحسبه انقيادا لجلاله ، فإذا علمتم هذه تفعل هذا وهي دونكم في العقل والفضل ، فيا أيها العقلاء "لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ" لأنها ليست بأهل لذلك ولأنها من جملة مخلوقاته الكائنين في قبضته "وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ" لمنافعكم فهو وحده المستحق للسجود "إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" 37 تخصونه بعبادتكم وتطلبون ثوابها "فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا" عن حصر السجود للّه وعمدوا إلى غيره ،

فاترك يا أكمل الرسل هؤلاء الذين اختاروا المخلوقين على الخالق "فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ" من الملائكة الكرام يسجدون له كما يسجد المؤمنون أمثالك و"يُسَبِّحُونَ" له "بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ" 38 من عبادته ويملون منها ولا يتكاسلون عنها وهنا موضع السجود على الوجه الأكمل لا عند قوله (تَعْبُدُونَ) كما قاله بعض القراء ، بل عند تمام هذه الآية الأخيرة لأن السجود يكون عند تمام المعنى المراد به فتكون السجدة آية واحدة

(94/679)

فقط ، كما في الإنشقاق والنجم والسجدة والفرقان

والحج ومريم والعلق والأعراف والرعد ، وتكون آيتين كهذه ، وسجدة ص ، وتكون ثلاث آيات كالنمل والنحل والإسراء ، وعلى هذا لا يكون السجود إلا عند ختام الآية الأولى بل عند تمام الثانية في فصّلت هذه وص ، وعند تمام الثالثة في النمل والنحل والإسراء ، وهذه السجدة من عزائم السجود ، وقدمنا ما يتعلق فيها في الآية 45 من سورة ص في ج 1 ، وفيها ما يرشدك لما تتمناه .

قال تعالى "وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً" متكامنة من شدة التبيس مغبّرة وعليها آثار الذل بسبب ذواء نبلتها "فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ" تمايل نباتها وتحرك بمرور الرياح

عليه "وَرَبَتْ" فاشت وانتفخت ولانت ، ونظير هذه الآية الآية من سورة الحج في ج 3 مع اختلاف في بعض الكلمات ، فقل يا أكرم الرسل لهؤلاء المنكرين إعادة الأجسام من قومك "إِنَّ الَّذِي أَحْيَاها" بعد يبسها المشابه للموت في الإنسان "لَمُحْيِ الْمَوْتى" من البشر وغيرهم مرة ثانية كما خلقهم أول مرة وهو أهون عليه "إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" 39 لا يعجزه شيء وليس عليه شيء بأهون من غيره .

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا" وينحرفون عن تأويلها فيميلون عن الحق المبشرة به إلى الباطل الذي يريدونه على حد قوله تعالى (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ) الآية 45 من المائدة في ج 3 ، وهي مكررة في القرآن لفظا ومعنى .

(95/679)

واعلم يا سيد الرسل أن هؤلاء "لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا" لأنا نراهم ونرى ما يعملون ، وفي هذه الجملة تهديد كبير بعظيم مجازاتهم "أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ" هذا تمثيل للكافر على الإطلاق "خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً" من العذاب "يَوْمَ الْقِيامَةِ" وهذا تمثيل للمؤمن مطلقا أيضا ، وما قيل إن هذه الآية نزلت في أبي جهل وحضرة الرسول ، أو في أبي بكر أو عمار بن ياسر أو عمر أو عثمان أو حمزة على اختلاف الأقوال في ذلك ، وفرض صحة هذا السبب لا يقيدها عن

عمومها ولا يخصصها عن إطلاقها ، لأن العبرة دائما لعموم اللفظ لا لخصوص السبب .

ثم ذكر تعالى ما هو غاية في التخويف والتهديد والوعيد لأولئك الملحدين بقوله عز قوله "اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ" أن تعملوه أيها الكفرة "إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" 40 والبصير بالشيء يعلمه ويعلم ما يستحقه

فاعله من العقوبة ، وهذه الآية غاية في التشديد وعظم التهديد للملحدين خاصة ، ويدخل فيها من على شاكلتهم من الكفرة

"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ" الجملة من ان واسمها وخبرها واقعة مبتدأ وجملة (أُولئِكَ يُنادَوْنَ) إلخ خبرها ، وما بينهما اعتراض ، والمراد بالذكر هنا هو القرآن "وَإِنَّهُ" ذلك الذكر وَلَكِتابٌ عَزِيزٌ" عديم النظير محمي بحماية اللّه كريم عليه محفوظ ؟ ؟ ؟ التبديل والتغيير والتحريف "لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ" الذي يريده الملحدون ليوقعوا فيه تناقضا بزعمهم "مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ" قبله وأمامه "وَلا مِنْ خَلْفِهِ" ورائه ودبره ، لا يتطرق إليه الباطل بوجه من الوجوه لأنه "تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ" 41 في أقواله وأفعاله محمود على ما أسداه من النعم المتتابعة إلى خلقه ، ومن أجلّها هذا القرآن المصون ، وتقدم في الآية 9 من سورة الحجر ما يتعلق في هذا البحث ، المراجعة .

ثم إنه جل شأنه عزى حبيبه محمد على ما يلاقيه من قومه بقوله جل قوله "ما يُقالُ لَكَ" يا حبيبي مما تراه من الأذى والجفا في القول والفعل "إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ" فلك أسوة بهم فلا تضجر ولا تحزن "إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ" لمن آمن بك منهم ومن غيرهم عما سبق من ذنبه مهما كان "وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ" 42 لمن أصر على التكذيب "وَلَوْ جَعَلْناهُ" ذلك الكتاب المعبر عنه بالذكر "قُرْآناً أَعْجَمِيًّا" يتلى بغير لغة قومك "لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ" بالعربية لفهمناه وآمنا به فكيف تريد أن نؤمن بما لا نفهمه "ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ" كيف يكون ذلك أتهدى أمة عربية بلسان أعجمي لا تعيه كلا ، لا يكون ذلك ، أي لتذرعوا بالإنكار في هذه الحجة ولصح قولهم (قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ) الآية 5 المارة ، لأنهم لا يحيطون بمعناه أما وأنه أنزل بلغتهم فلم يبق لهم ما يعتذرون به ، فلا يصح قولهم ذلك بأنه أعجمي لا نفهمه .

وفي هذه الآية إشارة على أنه لو نزل بلسان العجم لكان قرآنا فيكون دليلا لأبي حنيفة رحمه اللّه في جواز الصلاة إذا قرأ بالفارسية ، وتقدم أن بينا عدم جواز ترجمة القرآن باللغات الأجنبية في الآية 3 المارة ، لأنها لا تحتوي على جميع الحروف العربية ، فليس بوسع أعظم عالم باللغة المترجم إليها وباللغة العربية أن يعبر

عن كل كلمة منه بلفظها ومعناها من غير أدنى تغيير فيها بل تعرض المحال ، لأن إمكان

وجود لغة أجنبية تحتوي على الحروف العربية كلها محال ، وإن ما اطلعتما عليه من اللغات التركية والإفرنسية والعبرية والسريانية والكردية والهندية والإنجليزية والألمانية لا تحتوي عليها ، وغيرها كذلك ، وإمكان التعبير عن بعض كلماته لا يكفي ، لأنه لا يجوز أن يترك منه حرف واحد .

(97/679)

أما ما جاء عن أبي حنيفة فهي عبارة عن حفظ آية طويلة أو ثلاث آيات قصار بمقدار ما تصح به الصلاة للعاجز عن تعليمها بالعربية خشية من ترك الصلاة التي لا تصح بغير القراءة ، فذلك ممكن ، إذ يوجد في القرآن ما هو ممكن الترجمة بذلك القدر من آيات الدعاء والرجاء ، أما كله أو نصفه أو عشره أو معشاره فلا يمكن البتة ، لأنه خارج عن طوق البشر ، وقدمنا في الآية 195 من سورة الشعراء في ج 1 ، ما يتعلق بهذا البحث بصورة موضحة فراجعها .

مطلب القرآن هدى لأناس ضلال الآخرين بآن واحد ، وعدم جواز نسبة الظلم إلى اللّه تعالى :

قال تعالى "قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً" من الضلال وإرشاد للحق "وَشِفاءٌ" من مرض الشرك

والشك الذي يحوك بالقلب وبعض الأمراض لصاحب اليقين القوي الاعتقاد ، راجع الآية 80 من سورة الإسراء ج 1 ، "وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ" به "فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ" ثقل وصمم عن سماعه "وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى" لا يبصرونه لأنهم لا ينظرون إليه عن صدق وحقيقة ولا يسمعونه سماع قبول فيكون ظلمة وشبهة ومرضا عليهم فهو بآن واحد نور لأناس ظلمة لآخرين ، لأنهم لا ينتفعون به فيكون عليهم بالضد من غيرهم "أُولَئِكَ" الصم العمي عن القرآن "يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ" 44 فلم يسمعوا ذلك النداء ولم يعوه ، شبه اللّه تعالى عدم فهمهم بما دعوا إليه بمن ينادى من مسافة بعيدة فإنه إن سمع الصوت لا يفقه المعنى ، وهو مثل يقال للذي لا يفهم : أنت تنادي من مكان بعيد ، والنداء على الشخص من بعد فيه إهانة له وعدم اكتراث به ، ولهذا فإن الكفرة يوم القيامة ينادون بكفرهم وقبح أعمالهم بأشنع أسمائهم من مكان بعيد هوانا بهم وإذلالا لهم ، فتعظم السمعة عليهم وتتكاثف المصائب بفضيحتهم على رؤوس الأشهاد .

قال تعالى

"وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ" من قبل قومه ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر مثل قومك يا محمد "وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ" بتأخير العذاب "لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ" في الدنيا وأهلكوا جميعا كسائر الأمم السالفة ، ولكن أرجأناهم بمقتضى سابق علمنا ليؤمن مؤمنهم ويصر كافرهم "وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ" 45 صفة مؤكدة للشك ، كما أن قوم موسى كانوا في ريب من كتابهم "مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ" 46 فلا يعذب إلا المسيء بحسب إساءته فقط ، وحاشاه من الظلم ، وقدمنا في الآية 16 من سورة يونس المارة ما يتعلق بعدم جواز نسبة الظلم إلى اللّه فراجعها ، ونظير هذه الآية الآية 15 من سورة الجاثية الآتية ، إلا أنها ختمت بغير ما ختمت به هذه .

قال تعالى "إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ" عند السؤال عنها ، أي إذا سئلت يا سيد الرسل عن زمن القيامة فقل علمها عند اللّه وحده "وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها" أو عينها ، ومن الأولى مؤكدة للتنكير مما يزيد عمومه وإطلاقه ، أي مطلق ثمره من جميع أنواعها ، وكذلك من قوله "وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ" وأمره وإرادته أي لا يكون شيء من ذلك كما لا يكون غيره بغير علم اللّه وأنه ما يقع من ذلك على لسان بعض العارفين من الإخبار بوقت الإثمار ووقت تكون الحمل وزمن الوضع وبيان الموضع ، هو من إلهام اللّه تعالى إياهم .

أما ما يقوله المنجمون والسحرة والكهنة فمن طريق الحسبان والظن والتوسم ، راجع الآية 76 من سورة الحجر المارة تجد هذا البحث مستوفيا "وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي" الذين سميتموهم بالدنيا أحضروهم إليّ الآن لأسألهم عن الذي حدا بهم لهذه الدعوى الباطلة "قالُوا آذَنَّاكَ" أخبرناك يا ربنا وأعلمناك بأنه "ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ" 47 الآن بأن لك شركاء البتة ، وذلك لأن الذين اتخذوهم شركاء ينكرون ذلك ويتبرءون منهم عند معاينة العذاب ، وقبله في الوقف وهو الحساب .

قال تعالى "وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ" من الشركاء "مِنْ قَبْلُ" في الدنيا "وَظَنُّوا" أيقنوا إيقانا لا ريب فيه أنهم "ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ" 48 من العذاب ولا محيد عنه وحاص بمعنى عدل ومال وماد وحاد وهرب ، والأنسب بالمقام ما ذكرناه "لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ" لا يمل ولا يضجر من تكرار طلبه بل يظل يسأله مالا وولدا وجاها ورياسة وعافية بصورة دائمة ، ولو أعطى أحدكم نهرين لتمنى الثالث "وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ" من شدة وفقر وفاقة أو مرض وذل أو فقد شيء ما "فَيَؤُسٌ" شديد اليأس من روح اللّه "قَنُوطٌ" 49 كثير التفاؤل بالشر وقطع الرجاء من رحمة اللّه وفضله ، ولقد بولغ هذا الكلام من جهتين من جهة الصيغة ، لأن فعولا من صيغ المبالغة ، ومن جهة التكرار ، وهذه صفة الكافر بالدنيا والآخرة أيضا .

قيل نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة ، وهي عامة يدخل في عمومها هذان الكافران وغيرهما دخولا أوليا .

قال تعالى في وصف هذا الكافر أيضا "وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا" من غنى وعافية ورياسة "مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ" من فقر ومرض وذل

(100/679)

"لَيَقُولَنَّ" بلا حياء ولا أدب "هذا لِي" حقي استحقيته بعملي "وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ" التي تخبرنا بها يا محمد "قَائِمَةً" واقعة ، يريد أنه ليس موقنا بالبعث ، وأن أهل هذه الدنيا يحيون حياة ثانية ، ثم أقسم الخبيث فقال "وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي" على فرض صحة قولك "إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى" المنزلة الحسنة بالآخرة أيضا كما هي بالدنيا على فرض وجودها ، وهذا قياس مغلوط أشبه بقياس أخيه إبليس الذي أشرنا إليه في الآية 12 من الأعراف في ج 1 ، لأن نعم الدنيا لا يستدل بها على نعم الآخرة من حيث حيازتها ، لأن الدنيا تملك بالمال والآخرة بالأعمال .

قال تعالى مقسما ومؤكدا "فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا" أمثل هذا القائل أن الأمر ليس كما زعم وأنهم مستحقون الإهانة لا الكرامة "بِمَا عَمِلُوا" في الدنيا من السوء ثم أقسم ثانيا فقال

"وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ" 50 شديد لا يطاق في نار جهنم على ما فرط منهم .

قال تعالى "وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى " تباعد بطرا عن شكر المنعم "بِجانِبِهِ" بنفسه تعاظماً وتكبرا ووضع الجانب مكان النفس ، لأن مكان الشيء وجهته لينزل منزلة نفسه ، ومنه قول الكتاب في مكاتباتهم إلى جناب وجانب فلان يريدون نفسه وذاته ، وعليه قوله تعالى :

(وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ) الآية 46 من سورة الرحمن ج 3 أي ذاته ، وقول الشاعر :

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

وقال أبو عبيد نأى نهض بجانبه وهو عبارة عن التكبر وشموخ الأنف ، هذا وقد يعبر عن ذات الشخص بالمقام والمجلس بقصد التعظيم والاحتشام عن التصريح بالاسم ويتركون التصريح لزيادة الاحترام ، قال زهير :

فعرض إذا ما جئت بالبان والحمى وإياك أن تنسى فتذكر زينبا

سيكفيك من ذاك المسمى إشارة فدعه ، مصونا بالجلال محجبا

(101/679)

وليس من هذا قوله تعالى (وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ) الآية 36 من سورة النساء ج 3 ، وقوله تعالى (عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) الآية 56 من سورة الزمر المارة كما ستطلع عليه في تفسيرها إن شاء الله "وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ" 51 كثير مستمر كناية عن الإقبال على الدعاء بكليته والإلحاق به والابتهال صباح مساء ، والعرض من وصف الأجسام وهو أقصر الامتدادين والطول أطولهما ، ويفهم عرفا من العريض العظم والاتساع ، يقال بالقلم العريض أي الكبير الذي يقرأ عن بعد ، وإن صيغة المبالغة وتنوين التنكير فيه يشعران بذلك .

ويستلزم وصف الدعاء بالعرض وصفه بالطول أيضا ، هذا وقد تضمنت هذه الآيات نوعين من طغيان الإنسان الأول شدة حرصه على جمع الدنيا وشدّة جزعه على الفقد ، والتعريض بتظليم ربه ، تعالى عن ذلك ، في قوله هنا لي مديحا فيه سوء اعتقاده بالمعاد المستجلب لتلك المساوى كلها ، والثاني بين طيشه المتولد عنه إعجابه بنفسه واستكباره عند وجود النعمة واستكانته عند فقدها ، وقد ضمّن ذلك ذمّه بشغله بالنعمة عن المنعم بالحالتين أما في الأولى فظاهر ، وأما في الثانية فلأن التضرع جزعا على الفقد ليس رجوعا إلى المنعم ، بل تأسفا على الفقد المشغل عن المنعم كل الإشغال ، تدبر ، قال تعالى أيها الناس "قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ" هذا القرآن "مِنْ عِنْدِ اللَّهِ" كما ذكرت لكم "ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ" لقولكم إنه ليس من عنده ، أخبروني "مَنْ أَضَلُّ" منكم بتجارئكم على هذا القول ، وقد وضع محل

هذه الجملة "مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ" خلاف "بَعِيدٍ" 52 عن الحق وهو أبلغ إذ تفيد لا أضل منكم أبدا ، لأنكم في

(102/679)

خلاف بعيد غاية البعد عن الحق السوي ، قال تعالى "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا" عند حلول الوقت المقدر لخذلانهم "فِي الْآفَاقِ" نواحي الأرض شرقا وغربا ، ومن جميع جهاتها ، وأفاق السماء نواحيها وجوانبها أيضا ، والأفق القطر وما تراه من اتصال السماء بالأرض يسمى أفقا أيضا ، وفسر بعض المفسرين هذه الآية بما أجراه اللّه تعالى على يد نبيه صلّى اللّه عليه وسلم وأصحابه وخلفائه الكرام رضي اللّه عنهم ومن حذا حذوهم وتبع خططهم من فتوحات البلاد والقرى والاستيلاء على الأراضي الدالة على قوة الإسلام ومتانة شكيمة المسلمين للمؤمنين الذين اخترقوا البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وافتتحوها وكانوا واسطة هداية أهلها ، وعلى وهن الباطل وتفرق جنده وتشتيت أهله وخذلان الكفرة وإذلالهم ، وذلك استدلالا من معنى السين في (سنريهم) لدلالتها على الاستقبال أي أنّا سنري أصحابك وأمتك بعدك آياتنا الدالة على قدرتنا بمحق الباطل وإظهار الحق من بعدك ، كما أريناكه في حياتك ، وعليه يكون الخطاب في الآية عاما للكافرين والمؤمنين

الموجودين زمن صاحب الرسالة فمن بعدهم ، ولا مانع من ذلك "وَفِي أَنْفُسِهِمْ" نريهم آياتنا أيضا بإنزال البلاء على الكافرين من قحط أو خوف وقتل وأصر وجلاء كما أراهم في بدر وما بعدها من المواقع وزمن الفتح وبعده ، وبمقابل هذا للمسلمين رخاء وظفر وعز وغنيمة ، وفي هذه الآية على التفسير الأول إشارة إلى فتح مكة عنوة لما فيها من معنى لتهديد في لفظ سنريهم والوعيد وهو من الإخبار بالعيب وإن مكة شرفها اللّه لم تفتح عنوة على يد أحد قبله قط ، وعلى التفسير الثاني إلى فتح بلاد العرب خاصة استشعارا من قوله (وَفِي أَنْفُسِهِمْ) والبلاد الأخرى عامة وإلى أن ذلك كله كائن لا محالة لإخبار اللّه تعالى به ، وهذا وإن كان فتحا بالنسبة إلى الأرض والبلاد فهو آية بالنسبة إلى الأنفس ، ونفس الإنسان فيها آيات

(103/679)

كثيرة لم يحط بها البشر ، ومن قرأ علم التشريح ووقف على ماهيته وشاهد تراكيب الإنسان عرف مغزى قول علي كرم اللّه وجهه :

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ومن العجيب أن بعض العلماء بالطب مع وقوفهم على علم التشريح ينكرون الإله مع أن

المنكر يجب أن يؤمن لما يرى من صنع المبدع في هذا الوجود ،

ولكن من يضلل اللّه فماله من هاد "حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ" القرآن المخبر عن ذلك هو "الْحَقُّ" المنزل من عند اللّه العاوي عن كل شائبة "أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ" يا سيد الرسل الذي أنزل عليك هذا القرآن وجعل فيه بيانا لكل شيء مما كان ويكون "أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" 53 لا يغيب عن علمه ما يقع في جميع مكوناته وإن كل ما يجري فيها يراه ويسمعه وتكون بأمره وإرادته ، قال تعالى "أَلَا إِنَّهُمْ" قومك يا حبيبي مع ظهور هذه الآيات المثبتة للتوحيد والتنزيه والأمر بالعدل والإحسان ، لم يزالوا "فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ" في الآخرة لأنهم ينكرون البعث وسيعلمونه حين يشاهدونه "أَلَا إِنَّهُ" ذلك الإله الواحد العظيم القادر على كل شيء "بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ" 54 إحاطة ضافية لعلمه بواطن الأمور وظواهرها ، ومن كان كذلك فلا يخفى عليه شيء البتة .

ولعظم شأن معاني هذه الآية رءف فيها أداة التنبيه ليتنبّه القارئ إلى معانيها ويتذكر ويتفكر فيما انطوت عليه هذا .

ومنا قيل إن هذه الآية تنبىء عن أن علوم اللّه تعالى غير متناعيه ، قيل ولو لا يلتفت إليه بل إنها تفضي أن علمه محيط بكل شيء من الأشياء ، وتقيد أن كل واحد منها مثناه لا كون مجموعها متناهيا ، ولا أن علوم اللّه متناهية تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، ولا يوجد في القرآن سورة مختومة بهذه اللفظة غير هذه السورة .

(104/679)

هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وأتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، آمين ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 1 ـ 26 ﴾

(105/679)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة فصلت

مكية

وتقدم الكلام على حم تنزيل من الرحمن الرحيم حسن إن جعل خبرا لحم أو خبر المبتدأ محذوف وليس جعل تنزيل مبتدأ خبره من الحمن الرحيم صحيح إن وجد مسموغ للابتداء بتنزيل آية جائزا نجعل ما بعده حالا من محذوف تقديره بينت آياته قرآنا وان جعل حالا من

فصلت فليس بوقف ونذيرا كاف لا يسمعون حسن وللسائلين ولمن قرا سواء بالرفع إن
يقف على أربعة أيام ويبتدئ سواء بمعنى هو سواء طائعين كاف وكذا امرها بمصابيح
وحفظا والعليم والا الله كافرون حسن وكذا منا قوة منهم قوة صالح يحجبون كاف وكاذ
الدنيا لا ينصرفون تام يكسبون كاف يتقون تام يوزعون كاف وكذا يعملون علينا صالح
ترجعون كاف وكذا تعملون ومن الخاسرين ولا يوقف على أرداكم وان زعمه بعضهم من
المعتبين صالح وكذا وما خلفهم والانس خاسرين تام تغلبون كاف وكذا أعداد الله النار
حسن وزعم بعضهم أن الوقف على أعداد يجحدون تام وكذا من الاسفلين وتوعدون وفي
الآخرة صالح تدعون ليس بوقف لكن يرخص فيه لأنه راس آية رحيم تام وكذا من المسلمين
ولا السيئة وحميم فاستعذ با الله العليم والقمر كاف وكذا تعبدون لا يسأمون تام وربت
كاف الموتى صالح قدير تام وكذا الا يخفون علينا ويوم القيامة ما شئتم حسن بما تعملون
بصير تام إن الذين كنزوا بالذكر لما جاءهم كاف والخبر محذوف أي يعذبون عزيز صالح ولا
من خلفه كاف حميد تام وكذا من قبلك وأليم فصلت آياته كاف لمن قرا أأعجمي
بالاستفهام الإنكاري لأنه خبر مبتدأ محذوف وليس بوقف لمن قراه بالخبر لانه بدل من آياته
وعربي تام وكذا وشفاء عمي حسن بعيد تام فاختلفت فيه لقضي بينهم صالح مريب تام
وكذا فعليها وللعبيد والساعة وقال أبو عمرو كأبي حاتم في الساعة إلا بعلمه كاف من
شهيد حسن من قبل وظنوا حقا والأحسن الوقف على من قبل والابتداء بقوله وظنوا

بمعنى عملوا من محيص تام من دعاء الخير مفهوم وقال أبو عمرو كابي حاتم كاف قنوط كاف وكذا للحسنى غليظ تام وكذا عريض وبعيد والحق

(106/679)

وشهيد ومن لقاء ربهم وآخر السورة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ682.

688 ﴾

(107/679)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة فصلت

مكية كلمها سبعمائة وست وتسعون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسون حرفاً وآيها اثنتان أو ثلاث أو أربع وخمسون آية تنزيل خبر حم على القول بأنها اسم للسورة أو خبر مبتدأ محذوف أي هذا تنزيل أو مبتدأ خبره كتاب فصلت أو كتاب خبر ثان أو بدل من تنزيل أو فاعل بالمصدر وهو تنزيل أي نزل كتاب قاله أبو البقاء وفصلت آياته صفة كتاب 0

من الرحمن الرحيم (حسن) إن جعل تنزيل مبتدأ خبره من الرحمن الرحيم أو جعل خبر حم أو خبر مبتدأ محذوف وليس بوقف إن جعل تنزيل مبتدأ خبره كتاب فصلت وكذا إن جعل كتاب بدلاً من تنزيل 0

فصلت آياته (جائز) إن نصب قرآنا بمحذوف أي بينت آياته قرآناً أو نصب قرآناً على المدح بفعل مقدر أي بينت آياته قرآناً عربياً وليس بوقف إن جعل حالاً من فصلت أي فصلت آياته في حال عربيته عربياً ليس بوقف لأنَّ قوله لقوم متصل بفصلت كأنه قال فصلنا آياته للعالمين ومثله في عدم الوقف لقوم يعلمون لأنَّ بشيراً ونذيراً نعتان لقرآناً لأنَّ القرآن يبشر المؤمنين بالجنة وينذر الكافرين بالنار أو هما حالان من كتاب أو من آياته أو من الضمير في قرآناً لأنه بمعنى مقروء 0

ونذيراً (حسن)

لا يسمعون (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل معطوفاً على ما قبله 0

تدعونا إليه (حسن) ومثله وقر وكذا حجاب 0

عاملون (كاف) وقيل تام 0

مثلكم (حسن) على استئناف ما بعده يوحي إليّ ليس بوقف لأنَّ إنما قد عمل فيها يوحي 0

إله واحد (حسن)

واستغفروه (تام) عند نافع

للمشركين ليس بوقف لأنَّ قوله الذين تابع له 0

لا يؤتون الزكاة (حسن)

كافرون (تام) للفصل بين صفة الكافرين والمؤمنين وعملوا الصالحات ليس بوقف لأن خبر إن لم يأت بعد وهو لهم أجر والوقف على ممنون (تام) أي غير مقطوع وقيل الذي لا حساب عليه 0

أنداداً (كاف) ومثله رب العالمين

(108/679)

سواء للسائلين قرئ سواء بالحركات الثلاث فمن قرأ سواء بالرفع وهو أبو جعفر خبر مبتدأ محذوف أي هي سواء لا تزيد ولا تنقص أو مبتدأ وخبره للسائلين وقف على أيام وكذا من قرأه بالنصب بفعل مقدر أي استوت سواء وهي قراءة العامة وليس بوقف لمن قرأه بالجر نعتاً لأيام والتقدير في أربعة أيام مستويات

للسائلين (كاف)

وهي دخان (حسن) ومثله أو كرهاً

طائعين (كاف)

في يومين (جائز)

أمرها (كاف) ومثله بمصابيح إن نصب وحفظاً بفعل محذوف أي وحفظناها حفظاً ويلزم عليه الابتداء بكلمة والوقف عليها وقيل الوقف على حفظاً أي جعلنا النجوم زينة وحفظاً 0

العليم (كاف)

وثمود (حسن) لأن إذ متعلقة بمحذوف أي اذكر إذ ولا يصح تعلقه بأنذرتكم ومن خلفهم ليس بوقف لأن أن مخففة من الثقيلة والتقدير بأنه لا تعبدوا إلا الله 0

وإلا الله (حسن)

كافرون (كاف)

قوة (حسن)

منهم قوة (جائز)

يجحدون (تام)

في الحياة الدنيا (كاف) ومثله أخزى 0

لا ينصرون (تام)

فهديناهم (جائز) ومثله على الهدى 0

يكسبون (كاف)

آمنوا (جائز)

يتقون (تام) ويوم منصوب بمقدر 0

إلى النار ليس بوقف

يوزعون (كاف) أي يحبس أولهم لآخرهم ليتلاحقوا وهذا يدل على كثرتهم وإنهم لا اختيار لهم في أنفسهم نسأل الله السلامة والنجاة من كل شدة ومحنة 0

يعلمون (كاف)

علينا (حسن) وكذا كل شيء وقيل (تام) على أن ما بعده ليس من كلام الجلود والمراد الجوارح 0

أول مرة (كاف) وكذا ترجعون ولا وقف من قوله وما كنتم تعملون لاتصال الكلام بعضه ببعض 0

والوقف على أرداكم (جائز) إن جعل ذلكم مبتدأ خبره أرداكم وكذا إن جعل ظنكم وأرداكم خبرين لذلكم وكذا إن جعل ظنكم خبراً من ذلكم وأرداكم بدلاً والمعنى ظنكم هو الذي أرداكم وأدخلكم النار 0

من الخاسرين (كاف)

مثوى لهم (حسن) لعطف جملتي الشرط 0

من المعتبين (كاف)

وما خلفهم (حسن) ومثله والإنس للابتداء بإن 0

خاسرين (تام)

تغلبون (كاف) ومثله يعملون

(109/679)

النار (حسن) إن رفعت النار نعتاً أو بدلاً من جزاء وإن رفعتها خبر مبتدأ محذوف وقفت

على أعداء الله ثم تبتدئ النار لهم فيها 0

دار الخلد (حسن) إن نصبت جزاء بمقدر وليس بوقف إن نصب بما قبله 0

يجحدون (تام)

والإنس ليس بوقف لأنَّ قوله نجعلهما جواب الأمر ومثله في عدم الوقف تحت أقدامنا لأنَّ ما

بعده منصوب بما قبله 0

من الأسفلين (تام)

ثم استقاموا ليس بوقف لأنَّ خبر إن لم يأت بعد 0

ولا تحزنوا (حسن)

توعدون (كاف)

وفي الآخرة (حسن) ومثله أنفسكم 0

ما تدعون (حسن) إن نصب نزلاً بمقدر والتقدير أصبتم نزلاً أو وجدتم نزلاً وليس بوقف إن نصب حالاً مما قبله كأنه قال ولكم ما تمنون في هذه الحالة أو ولكم فيها الذي تدّعونه حال كونه معدّاً على أنَّه حال من الموصول أو من عائده أو حال من فاعل تدعون وقول ابن عطية أنَّ نزلاً نصب على المصدر المحفوظ خلافه لأنَّ مصدر نزل نزولاً لا نزلاً لأنَّ النزل ما يعدُّ للنزيل وهو الضيف 0

رحيم (تام) ومثله من المسلمين 0

ولا السيئة (حسن) وقيل كاف 0

هي أحسن (جائز)

حميم (كاف)

صبروا (جائز) وليس بوقف إن أعيد الضمير في يلقاها إلى دفع السيئة بالحسنة أو إلى البشرى 0

عظيم (تام)

فاستعذ بالله (كاف)

العليم (تام)

والقمر (حسن) ومثله ولا للقمر

الذي خلقهنّ ليس بوقف لأنَّ حرف الشرط الذي بعده جوابه ما قبله 0

تعبدون (كاف)

والنهار (حسن)

لا يسأمون (تام)

خاشعة (حسن)

وربت (كاف) ومثله لمحيي الموتى

قدير (تام) ومثله لا يخفون علينا ورسموا أم من بميمين مقطوعتين كما ترى 0

يوم القيامة (حسن) ومثله ما شئتم

بصير (تام) على استئناف ما بعده وغير تام إن جعل ما بعده بدلاً من إن الذين يلحدون

لأنهم لكفرهم طعنوا فيه وحرفوا تأويله فلا وقف فيما بينهما 0

إنَّ الذين كفروا بالذكر لما جاءهم (كاف) عند من جعل خبر إن محذوفاً تقديره لهم عذاب

شديد وليس بوقف إن جعل خبر إن أولئك ينادون 0

(110/679)

عزيز (جائز) وإن كان لا يأتيه الباطل من تمام صفة النكرة لأَنَّه رأس آية 0

ولا من خلفه (كاف)

حميد (تام)

من قبلك (كاف)

أليم (تام)

فصلت آياته (كاف) لمن قرأ أأعجمي بهمزتين محققتين وهم أبو بكر وحمزة والكسائي وقرأ هشام بهمزة واحدة إخباراً والباقون بهمزة ومدة معناه أكتاب أعجمي ورسول عربي على وجه الإنكار لذلك وليس بوقف لمن قرأ بهمزة واحدة بالقصر خبراً لأَنَّه بدل من آياته والمعنى على قراءته بالخبر لقالوا هلا فصلت آياته فكان منه عربي تعرفه العرب وأعجمي تعرفه العجم وهو مرفوع خبر مبتدأ محذوف أي هو أعجمي أو مبتدأ والخبر محذوف أي أعجمي وعربي يستويان أو فاعل فعل محذوف أي يستوي أعجمي وعربي وهذا ضعيف إذ لا يحذف بالفعل إلاَّ في مواضع 0

وعربي (تام) على القراءتين ومثله وشفاء

وقر (حسن) ومثله عمى وقيل كاف على استئناف ما بعده ومن جعل خبر إن أولئك ينادون لم يوقف على شيء من قوله بصير إلى بعيد لاتصال الكلام بعضه ببعض من جهة المعنى 0

بعيد (تام) ومثله اختلف فيه

لقضي بينهم (جائز) وكاف على استئناف ما بعده 0

مريب (تام)

فلنفسه (جائز) وقال ابن نصير النحوي لا يوقف على أحد المعادلين حتى يؤتى بالثاني والأصح الفصل بينهما ولا يخلط أحدهما مع الآخر

فعليها (كاف)

للعبيد (تام)

الساعة (حسن) وتام عند أبي حاتم 0

إلا بعلمه (تام) عند نافع على القراءتين أعني ثمرات بالجمع وبها قرأ نافع وابن عامر والباقون ثمرة بالأفراد 0

أين شركائي ليس بوقف لأنَّ قالوا عامل يوم ومثله في عدم الوقف آذناك لأنَّ ما بعده في موضع نصب به وجّوز أبو حاتم الوقف على آذناك وعلى ظنوا والابتداء بالنفي بعدهما على سبيل الاستئناف 0

ما منا من شهيد (كاف) ومنا خبر مقدم ومن شهيد مبتدأ مؤخر أو شهيد فاعل بالجار قبله لاعتماده على النفي 0

وظنوا (تام) قاله أبو حاتم السجستاني والأجود الوقف على من قبل والابتداء بقوله وظنوا

0

من محيص (تام)

(111/679)

من دعاء الخير (حسن) وكاف عند أبي حاتم وهو مصدر مضاف لمفعوله وفاعله محذوف أي هو 0

قنوط (كاف)

هذا لي ليس بوقف لكراهية الابتداء بما لا يقوله المسلم وهو وما أظن الساعة قائمة وتقدم إن هذا ومثله لا كراهة فيه ونقل عن جماعة كراهته وليس كما ظنوا لأن الوقف على جميع ذلك القارئ غير معتقد لمعناه وإنما ذلك حكاية عن قول قائله حكاه الله عمن قاله ووعيد ألحقه الله بقائله والوصل والوقف في المعتقد سواء كما تقدم عن النكزاوي 0

للحسنى (كاف) للابتداء بالوعيد 0

غليظ (تام)

بجانبه (جائز) وقال ابن نصير النحوي لا يوقف على أحد المعادلين حتى يؤتى بالثاني والأصح التفريق بينهما 0

عريض (تام)

ثم كفرتم به ليس بوقف لأنَّ قوله من أضل في موضع المفعول الثاني لا رأيتم 0

بعيد (تام) للابتداء بالسين 0

في الآفاق ليس بوقف لأنَّ ما بعده معطوف على ما قبله ومثله في عدم الوقف 0

وفي أنفسهم لأنَّ الذي بعده قد عمل فيه ما قبله 0

أنَّه الحق (تام) للابتداء بالاستفهام ومثله في التمام شهيد وكذا من لقاء ربهم

آخر السورة (تام) .

أهـ ﴿ منار الهدى صـ 682.688 ﴾

(112/679)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة السجدة (فصلت)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد : "أَتَيْنَا طَائِعِين1" .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون "آتينا" هنا فاعلنا ، كقولك : سارعنا وسابقنا ، ولا يكون أفعلنا ؛ لأن ذلك متعد إلى مفعولين ، وفاعلنا متعد إلى مفعول [143و] واحد . وحذف الواحد أسهل من حذف الاثنين ؛ لأنه كلما قل الحذف كان أمثل من كثرته . نعم ، ولما في سارعنا من معنى أسرعنا . ومثل "آتينا" في أنه فاعلنا لا أفعلنا القراءة الأخرى : "وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا2" ، أي : سارعنا بها ، وقد تقدم ذكره .

ومن ذلك قراءة الحسن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري : "وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا" ، بضم الياء - "فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ3" ، بكسر التاء .

قال أبو الفتح : أي لو استعتبوا لما أعتبوا ، كقولك : لو استعطفوا لما عطفوا ؛ لأنه لا غناء عندهم ، ولا خير فيهم ، فيجيبوا إلى جميل ، أو يدعوا إلى حسن . وإذا جاز للشاعر أن يقول :

لها حافر مثل قعب الوليد تتخذ الفار فيه مغارا4

ومعناه : لو اتخذت فيه مغارا لوسعها - جاز أيضا أن يقال : "وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا" ؛ لأن الشرط ليس بصريح إيجاب ، ولا بد فيه من معنى الشك . وتتخذ الغار فيه لفظ التصريح به5 ، وهو

---

1 سورة السجدة : 11 .

2 سورة الأنبياء : 47 .

3 سورة السجدة : 24 .

4 سبق في الصفحة 93 من الجزء الأول غير معزو إلى قائله ، ونذكر هنا أنه لابن الخرع .

وانظر كامل المبرد : 2 : 98 .

5 به ، أي : الإيجاب .

مع ذلك لم يقع ، ولا يقع فهذا طريق قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ ؛ لأن لفظه لفظ الشك ، وإن لم يكن هناك استعتاب لهم أصلا . ألا ترى إلى قوله في الآية الأخرى : ﴿ فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ؟1 ﴾ .

ومن ذلك قراءة بكر بن حبيب السهمي : "وَالْغَوْا فِيه"2 ، بضم الغين .

قال أبو الفتح : اللغو اختلاط القول في تداخله ، يقال منه : لغا يلغو ، وهو لاغ . ومنه الحديث : من قال في الجمعة : صه فقد لغا3 ، يراد بذلك توقيرها وتوفيتها حقها من الخشوع والإخبات4 فيها ، أي : فهو بمنزلة من أطال الكلام وخلط فيه . وفي الحديث أيضا : إياكم وملغاة أول الليل ، أي : كثرة الحديث . فهذا كالحديث المرفوع : خرج علينا عمر ، فجدب لنا السمر5 ، أي : عابه .

ونحو منه قول الله "سبحانه" : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا6 ﴾ ، وقوله : و ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ7 ﴾ ، أي : بالباطل ، فهو راجع إلى هذا ؛ لأن كثرة القول مدعاة إلى الباطل ، وقوله "تعالى" : ﴿ لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً8 ﴾ يحتمل أمرين :

أحدهما كلمة لاغية .

والآخر أن يكون مصدرا ، كالعاقبة ، والعافية ، أي : لا يسمع فيها لغو ، وهذا أقوى من الأول ؛ لأن في ذلك إقامة الصفة مقام الموصوف ، وهذا غير مستحسن في القرآن .

---

1 سورة الجاثية : 35 .

2 سورة السجدة : 26 .

3 نصه في اللسان "لغا" : من قال يوم الجمعة والإمام يخطب لصاحبه : صه فقد لغا .

4 الأخبات : الخشوع والتواضع .

5 عبارته في اللسان "جدب" : جدب لنا عمر السمر بعد عتمة .

6 سورة الفرقان : 72 .

7 سورة القصص : 55 ، وفي هامش نسخة الأصل : في الأصل : مروا باللغو .

8 سورة الغاشية : 11 .

ويقال فيه أيضا : لغى يلغى لغا ، قال :

عن اللغا ورفث التكلم1

ويقال أيضا : لغى بالشيء يلغي به ، كقولك : لزمه وأحبه ، فيكون كقوله : من أحب شيئًا أكثر من ذكره . يقال : لغى به ، وغرى به ، وغره به ، ولكي به ، ولزم به ، وسدك به ، وعسق به : إذا واصله ، وأقام عليه .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر يزيد : "وَرَبَأَتْ2" .

قال أبو الفتح : هذه القراءة راجعة بمعناها إلى معنى ما عليه قراءة الجماعة ، وذلك أن الأرض إذا ربت ارتفعت ، والرابئ أيضا كذلك ؛ لأنه هو المرتفع . ومنه الربيئة ، وهو طليعة القوم وذلك لشخوصه على الموضع المرتفع . قال الهذلي [143ظ] .

فوردن والعيوق مقعد رابئ الضـرباء خلف النجم لا يتتلع3

ومن ذلك قراءة الحسن وأبي الأسود والجحدري وسلام والضحاك وابن عامر ؛ بخلاف : "أَعْجَمِي"4 ، بهمزة واحدة مقصورة ، والعين ساكنة .

---

1 للعجاج ، وقبله :

ورب أسراب حجيج كظم

وحجيج : حجاج . وكظم عن اللغا : ممسكون عن الخوض في اللهو والباطل . والرفث : الفحش في القول . وانظر الديوان : 59 ، واللسان "لغا" ، وشواهد الكشاف : 135 .

2 سورة السجدة : 39 .

3 من قصيدة لأبي ذؤيب يرثى بها أولاده ويروى "فوق النظم" مكان "خلف النجم" . وضمير وردن لحمار الوحشي وأتنه الأربع في بيت سابق . والعيوق : كوكب أحمر يطلع حيال الثريا ، وفوق الجوزاء . والضرباء : جمع ضريب ككريم وهو الذي يضرب القداح ، وهو الموكل بها . ورابئ الضرباء : الذي يقعد خلف ضارب قداح الميسر يرتبئ لهم فيما يخرج منها ن فيخبرهم به ، ويعتمدون على قوله فيه والنجم : الثريا . وأما فوق النظم فيريد به نظم الجوزاء ويتتلع : يتقدم ويرتفع . يريد أن الحمار وأتنه وردت الماء والعيوق من الثريا بكان الرابئ من الضرباء ، وإنما يكون ذلك في صميم الحر عند الأسحار ، وهو وقت ورود الوحش الماء . وانظر الديوان : 1 : 6 ، الخزانة : 1 : 201 .

4 سورة السجدة : 44 .

وقرأ بهمزة واحدة غير ممدودة وفتح العين – عمرو بن ميمون .

قال أبو الفتح : أما "أَعْجَمِي" ، بقصر الهمزة ، وسكون العين فعلى أنه خبر لا استفهام ، أي : لقالوا : لولا فصلت آياته ، ثم أخبر فقال : الكلام الذي جاء به أعجمي ، أي : قرآن ، وكلام أعجمي . ولم يخرج مخرج الاستفهام على معنى التعجب والإنكار على قراءة الكافة ، وهذا كقولك للآمر بالمعروف ، التارك لاستعماله : أراك تأمر بشيء ولا تفعله . وعلى قراءة الكافة : أتأمر بالبر وتتركه ؟ .

وأما قراءة عمرو بن ميمون : "أَعْجَمِي" فهذه همزة استفهام ، وهو منسوب إلى العجم . وأما أعجمي بسكون العين فلفظه لفظ . النسب ، وليس هناك حقيقة نسب ، وإنما هو لتوكيد معنى الصفة . ونظيره قولهم : رجل أحمر وأحمري ، وأشقر وأشقري . وعليه قول العجاج :

غضف طواها الأمس كلابي 1

أي : كلاب ، يعني صاحب كلاب ، كبغال وحمار . وقوله أيضا :

والدهر بالإنسان دواري 2

أي : دوار . فكذلك أعجمي ، معناه أعجم . ومنه قولهم : زياد الأعجم . رجل أعجم ، ومرأة عجماء ، وقوم عجم . فهذا كأحمر وحمراء وحمر .

فأما الأعاجم فتكسير أعجمي ، وهو على حذف زيادة ياءي الإضافة . وجاز تكسيره

على أفاعل ؛ لأنه بدخول ياءي الإضافة عليه فارق في اللفظ باب أفعل وفعلاء ، فكسر تكسير الأسماء .

ووجه مفارقته إياه لحاق تاء التأنيث ، فصار كظريف وظريفة ، وقائم وقائمة . فلما فارق أحكام أفعل وفعلاء كسر على الأفاعل ، فجرى مجرى أحمد وأحامد . نعم ، وصرفه عند لحاق التأنيث له يزيده بعدا عن حكم أحمر وبابه ، وأنت أيضا تصرفه معرفة ونكرة ، وأحمر لا ينصرف معرفة ونكرة . والحديث هنا طويل ، وفيما مضى كاف على ما عقدنا عليه من الاقتصاد في هذا الكتاب ، على حد ما سئلنا في معناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 244.247﴾

---

1 انظر الصفحة 311 من الجزء الأول .

2 انظر الصفحة 310 من الجزء الأول .

3 في ك الاقتصار .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة فصلت

مكية وآيها خمسون وثنتان بصري وشامي وثلاث حجازي وأربع كوفي خلافها اثنان حم كوفي وعاد وثمود حجازي وكوفي مشبه الفاصلة موضعان عذابا شديدا هدى وشفاء القراآت تقدم أول غافر إمالة حم وسكت أبي جعفر على حرفها وقرأ ابن كثير وقرآنا بالنقل وأمال آذاننا الدوري عن الكسائي وعن المطوعي قل إنما بفتح القاف وألف بعدها فعلا ماضيا وعنه أيضا يوحي بكسر وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل بلا فصل واختلف عن هشام فجمهور المغاربة عنه على التسهيل مع الفصل وجمهور العراقيين عنه على التحقيق مع الفصل وعدمه وذهب جماعة إلى الفصل عن هشام من طريق الحلواني بلا خلاف فهو من جملة السبعة المتقدم بيانها والباقون بالتحقيق مع عدم الفصل

(117/679)

واختلف في (سواء) الآية 10 فأبو جعفر بالرفع خبر المبتدأ مضمر أي هي سواء وقرأ يعقوب بالجر صفة للمضاف أو المضاف إليه وافقه الحسن والباقون بالنصب على المصدر بفعل مقدر أي استوت استواء أو على الحال من ضمير أقواتها وأمال فقضاهن حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ومثله أوحى واستوى وأدغم ذال إذ جاءتهم أبو عمرو وهشام واختلف في (نحسات) الآية 16 فابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي

وأبو جعفر وخلف بكسر الحاء على القياس لأنه صفة لأيام جمع بالألف والتاء وقياس الصفة من فعل بالكسر وافقهم الأعمش والباقون بالسكون مخفف من فعل المكسور ولا حاجة إلى حكاية إمالة فتحة السين من نحسات عن أبي الحارث كما فعل الشاطبي رحمه الله تعالى تبعا لأصله فإنه لو صح لم يكن من طرقهما ولا من طرقنا كما قاله صاحب النشر رحمه الله تعالى وأمال أخرى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ومثله العمى و الهدى وعن الحسن وأما ثمود بفتح الدال بلا تنوين وافقه المطوعي هنا خاصة بخلفه وعنه أيضا بالرفع والتنوين وافقه الشنبوذي فيه والجمهور على ضم الدال بلا تنوين على الابتداء والجملة بعده خبره وهو متعين عند الجمهور لأن أما لا يليها الابتداء فلا يجوز فيه الاشتغال إلا على قلة كما قاله السمين

(118/679)

واختلف في ( ) يحشر أعداء الله (الآية 19 فنافع ويعقوب بنون العظمة المفتوحة وضم الشين مبنيا للفاعل وأعداء بالنصب مفعول به أي نحشر نحن والباقون بياء الغيب مضمومة مع فتح الشين مبنيا للمفعول وأعداء بالرفع على النيابة وقرأ ترجعون بفتح التاء وكسر الجيم مبنيا للفاعل يعقوب وأمال أرديكم حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وكذا مثوى

وقفا وضم يعقوب الهاء من أيديهم ومر حكم الهاء والميم من عليهم القول ضما وكسرا
وأبدل الهمزة الثانية واوا مفتوحة من جزاء أعداء نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر
ورويس وقرأ أرنا بإسكان الراء ابن كثير وأبو عمرو بخلفه وهشام في غير رواية الداجوني
وابن ذكوان وأبو بكر ويعقوب والوجه الثاني لأبي عمرو من روايتيه الاختلاس والباقون
بالكسر ومنهم هشام في وجهه الثاني وقصر في الأصل هنا نقل الاختلاس على الدوري عن
أبي عمرو وفيه نظر ولعله سبق قلم وقرأ للذين بتشديد النون ابن كثير وتقدم حكم عليهم
الملائكة ضما وكسرا للهاء والميم ويوقف لحمزة على ما تشتهي أنفسكم ونحوه المتوسط
بغيره المنفصل بعد الياء بالتحقيق ثم بالسكت على الياء ثم بالنقل ثم بالإدغام واتفقوا على
عدم إمالة دعا إلى الله لكونه واويا مرسوما بالألف وأمال يلقاها معا حمزة والكسائي
وخلف وقللهما الأزرق بخلفه ويوقف لحمزة على يسامون بوجه واحد وهو النقل وحكى
بين بين وهو ضعيف وأمال ترى الأرض وصلا السوسي بخلفه وقرأ وربأت بهمزة قبل التاء
أبو جعفر ومر بأول الحج وأمال أحياها الكسائي وقللها الأزرق بخلفه وقرأ (يلحدون)
بفتح الياء والحاء حمزة وقرأ قيل بالإشمام هشام والكسائي ورويس وقرأ ﴿ (ءأعجمي
﴾ الآية 44 بهمزتين على الاستفهام مع تسهيل الثانية والفصل قالون وأبو عمرو وابو
جعفر وابن ذكوان بخلف عنه في الفصل والأكثر على عدمه قال في النشر وقرأت له بكل من
الوجهين وأشار إليه في الطيبة بقوله أعجمي خلف مليا وقرأ ورش والبزي وحفص بتسهيل

الثانية مع القصر وبه قرأ قنبل ورويس في أحد وجهيهما وللأزرق وجه آخر إبدالها ألفا مع المد على قاعدته وقرأ قنبل ورويس نفي وجههما الثاني وهشام في أحد أوجهه الثلاثة بهمزة واحدة على الخبر والثاني لهشام بهمزتين مخففة فمسهلة مع المد والثالث له كذلك لكن مع القصر وبه مع التحقيق قرأ الباقون وهم أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وروح وتقدم تفصيل الطرق في الأصول وأمال آذانهم الدوري عن الكسائي وأمال عمى هدى وقفا حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق بخلفه

واختلف في ( ) من ثمرات ( ) الآية 47 فنافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر بالألف على الجميع وافقهم الحسن والباقون بغير ألف على التوحيد و ضم الهاء من يناديهم يعقوب وفتح ياء الإضافة من شركائي ابن كثير وفتح ياء ربي إن أبو عمرو

وأبو جعفر ونافع بخلف عن قالون والفتح عن قالون رواية الجمهور وأطلق الخلاف عنه في الشاطبية كأصلها والطيبة وصحح الوجهين في النشر قال غير أن الفتح عنه أكثر واشهر وأقيس وقرأ ونائ الآية 51 بتقديم الألف على الهمزة على وزن جاء ابن ذكوان وأبو جعفر والباقون بتقديم الهمزة على الألف وأمال الهمزة والنون معا الكسائي وخلف عن

حمزة وعن نفسه وأمال الهمزة فقط خلاد وبالفتح والصغرى الأزرق في الهمزة مع فتح النون وله ثلاثة البدل على ما مر وأما إمالة الهمزة هنا لأبي بكر وللسوسي في السورتين فانفرداتان لا يقرأ بهما ولذا أسقطهما من الطيبة كما سبق إيضاحه بالإسراء ويوقف عليه لحمزة بوجه واحد بين بين ولا يصح سواه كما في النشر وبه يعلم ما أطلقه في الأصل هنا وضم الهاء من سنريهم يعقوب

المرسوم كتبوا سبع سموت ونحوه بحذف الألفين نافع عن المدني كغيره من ثمرت بحذف الألف وبالتاء المجرورة واتفقوا على رسم الهمزة ياء من أئنكم وعلى قطع أم عن من في أم من يأتي آمنا ياءات الإضافة ثنتان من ( ) شركائي قالوا ( ) ربي إن ( ) الآية 50 . انتهى انتهى . اهـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 488.490﴾

(120/679)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة فصلت "

حم . لأبي جعفر ، قرآنا ، بشيرا ونذيرا ، إليه ، إله واحد ، واستغفروه ، كافرون ، أجر غير ، سبق مثله مرارا .

"ممنون " آخر الربع .

الممال

جاءني وجاء وجاءتهم لابن ذكوان وخلف وحمزة ، يتوفى ومسمى لدى الوقف وقضى ومثوى لدى الوقف وأغنى ويوحى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . أنى ، بالإمالة للأصحاب والتقليل لدوري البصري وورش بخلف عنه .

" الكافرين " بالإمالة للبصري والدوري ورويس وبالتقليل لورش . النار مثله ما عدا رويسا فبالفتح . وحاق لحمزة .

" حم " بإمالة حا لابن ذكوان وشعبة والأخوين وخلف وبتقليلها لورش والبصري ، آذاننا لدوري الكسائي .

المدغم

" الكبير " خلقكم ، يقول له ، قيل لهم: جعل لكم .

" أئنكم " قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية بين بين مع إدخال ألف بينهما وابن كثير وورش ورويس بالتسهيل من غير إدخال وهشام بالإدخال ، قولا واحدا ، لأنه من المواضع السبعة ، مع التسهيل وتركه والتسهيل مقدم له في الأداء لأنه مذهب الجمهور واقتصر عليه غير واحد والباقون بالتحقيق من غير إدخال ، ولحمزة عند الوقف على قل أئنكم من الأوجه ماله عند الوقف على قل ، ءأنتم أعلم ، بالبقرة وقد سبقت .

" سواء " قرأ أبو جعفر برفع الهمزة مع التنوين ويعقوب بخفضها كذلك والباقون بنصبها منونة ولحمزة في الوقف تسهيلها مع المد والقصر .

" وهي " تقدير ، أيديهم ، ومن خلفهم ، كافرون ، عليهم ، لم عند الوقف ، وهو إليه ، تسترون ، كثيرا ، يصبروا ، جلي .

" وللأرض ائتيا " أبدل الهمزة وصلا ورس والسوسي وأبو جعفر ووقفا حمزة وهذا عند وصل للأرض بائتيا نوأما عند الوقف على وللأرض والابتداء بائتيا ، فالجميع يبتدئون بهمزة وصل مكسورة مع إبدال الهمزة الساكنة بعدها ياء ساكنة مدية .

" فقضاهن " وقف عليه يعقوب بهاء السكت .

" نحسات " أسكن السين نافع وابن كثير والبصريان وكسرها غيرهم .

(121/679)

" نحشر أعداء " قرأ نافع ويعقوب بالنون المفتوحة والشين المضمومة ونصب همزة أعداء وغيرهم بالياء التحتية المضمومة في مكان النون والشين المفتوحة ورفع همزة أعداء .

" ترجعون " قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم وغيره بضم التاء وفتح الجيم .

" المعتبين " آخر الربع .

الممال

" استوى " فقضاهن وأوحى وأخزى والعمى والهدى وأرداكم ومثوى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه الدنيا معا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، جاءتهم وشاء وجاءوها لابن ذكوان وخلف وحمزة النار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، ولا إمالة ولا تقليل لأحد في نحسات . وما روي من إمالة أبي الحارث فيه فغير صحيح وقد أشار إلى عدم صحته قول الشاطبي:

وقول مميل السين لليث أخملا فلا يقرأ به .

المدغم

" الصغير " إذ جاءتهم للبصري وهشام .

" الكبير " " فقال لها " أنطق كل شيء خلقكم .

أيديهم ، عليهم القول ، عليهم الملائكة ، وأبشروا من غفور ، إياه خير ، من خلفه ، قيل مغفرة ، جعلناه قرآنا . وهو . بظلام . جلي .

" جزاء أعداء " أبدل الهمزة الثانية واوا خالصة المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها الباقون .

" أرنا " أسكن الراء السوسي وشعبة وابن كثير وابن عامر ويعقوب واختلس كسرتها الدوري عن البصري وكسرها كسرا كاملا الباقون .

" اللذين " قرأ المكي بتشديد النون في الحالين مع القصر والتوسط والمد في الياء والباقون بالتخفيف مع القصر وصلا ومع الأوجه الثلاثة وقفا والمراد بالقصر في الوصل إسقاط المد بالكلية فينطق بياء ساكنة لينة وأما القصر في الوقف فالمراد به المد بقدر حركتين .

كقصر المكي .

" يسأمون " وقف عليه حمزة بنقل حركة الهمزة إلى السين مع حذف الهمزة فينطق بسين مفتوحة وبعدها الميم المضمومة .

" وربت " قرأ أبو جعفر بزيادة همزة مفتوحة بين الباء والتاء وغيره بتركها .

" يلحدون " قرأ حمزة بفتح الياء والحاء وغيره بضم الياء وكسر الحاء .

(122/679)

" ءأعجمي " قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية مع إدخال ألف بينهما ، وابن كثير وابن ذكوان وحفص ورويس بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية من غير إدخال ، ولورش وجهان أحدهما كابن كثير والآخر إبدالها حرف مد مع الإشباع للساكنين . وهشام بإسقاط الأولى وتحقيق الثانية .

وروح وشعبة والأخوان وخلف بتحقيق الأولى والثانية من غير إدخال فالجميع يثبتون

الأولى محققة ، ما عدا هشاما فيحذفها كما علمت .

" للعبيد " آخر الربع .

الممال

الدنيا والموتى وموسى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . وترى الأرض عند الوقف على ترى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش وعند الوصل فبالإمالة للسوسي بخلف عنه . يلقاها معا ويلقى وهدى وعمى لدى الوقف عليها بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . النهار والنار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش أحياها بالإمالة للكسائي والتقليل لورش بخلف عنه . جاءهم لابن ذكوان وخلف وحمزة ، آذانهم لدوري الكسائي .

المدغم

" الكبير " النار لهم ، الخلد جزاء ، توعدون نحن ، تدعون نزلا ، الشيطان نزغ ، إنه هو ، والقمر لا ، بالذكر لما ، يقال لك ، قيل للرسل ، فاختلف فيه .

" ثمرات " قرأ المدنيان والشامي وحفص بألف بعد الراء على الجمع وغيرهم بحذف الألف على الإفراد ومن قرأ بالجمع وقف بالتاء وأما من قرأ بالإفراد فوقف بالهاء منهم المكي والبصريان والكسائي ووقف بالتاء شعبة وحمزة وخلف في اختياره .

" يناديهم " سنريهم ، أذقناه ، مسته ، عذاب غليظ ، أرأيتم ، سبق مثله مرارا .

" شركائي " فتح الياء المكي وأسكنها غيره وورش على أصله في البدل ووقف حمزة بتسهيل الهمزة مع المد والقصر .

" لا يسأم " فيه لحمزة وقفا النقل فقط .

" فيؤس " فيه لورش ثلاثة البدل ولحمزة عند الوقف التسهيل والحذف .

(123/679)

" ربي إن " فتح الياء ورش وأبو عمرو وأبو جعفر واختلف عن قالون فروي عنه الفتح والإسكان والوجهان صحيحان ولكن الفتح أرجح .

" فلننبئن " لحمزة في الوقف عليه إبدال الهمزة ياء خالصة فقط .

" ونآى " قرأ أبو جعفر وابن ذكوان بتقديم الألف على الهمزة على وزن جاء والباقون بتقديم الهمزة على الألف على وزن رآى وأربعة ورش فيه لا تخفى وقد سبق مثله في الإسراء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 288 . 291 ﴾

(124/679)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة حم السجدة فصلت

قوله تعالى ﴿ في أيام نحسات ﴾ يقرأ بإسكان الحاء وكسرها فالحجة لمن أسكن أنه اراد جمع نحس ودليله قوله تعالى ﴿ في يوم نحس مستمر ﴾ ويحتمل أن يكون أراد كسر الحاء فأسكنها تخفيفا والحجة لمن كسر انه جعله جمعا للصفة من قول العرب هذا يوم نحس وزن هذا رجل هرم

قال الشاعر :

أبلغ جذاما ولخما أن إخوتهم

طيا وبهراء قوم نصرهم نحس

قوله تعالى ﴿ ويوم يحشر أعداء الله ﴾ يقرأ بالياء والرفع وبالنون والنصب فالحجة لمن قرأ بالياء أنه اراد الإخبار بفعل ما لم يسم فاعله فرفع الإسم به والحجة لمن قرأ بالنون أنه جعله من إخبار الله تعالى عن نفسه فنصب الاسم بتعدي الفعل إليه

قوله تعالى ﴿ من ثمرات من أكمامها ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع وقد ذكر من الحجة في أمثاله ما يغني عن إعادة قول فيه

قوله تعالى ﴿ أأعجمي وعربي ﴾ يقرأ بهمزتين محققتين وبهمزة ومدة بعدها فالحجة لمن

حقق أنه أتى بالكلام على واجبه لأن الهمزة الأولى للإنكار لقولهم والتوبيخ لهم والثانية ألف قطع والحجة لمن أبدل من ألف القطع مدة أنه استثقل الجمع بين همزتين فخفف إحداهما بالمد ومعناه لو فعلنا هذا لقالوا أقرآن أعجمي ونبي عربي هذا محال

والفرق بين الأعجمي والعجمي أن الأعجمي الذي لا يتكلم بالعربية وإن كان عربي الأصل والعجمي منسوب إلى العجم وإن كان فصيحا

قوله تعالى ﴿ أرنا الذين ﴾ يقرأ بكسر الراء باختلاس حركتها وبإسكانها وقد ذكر فيما مضى

قوله تعالى ﴿ ونأى بجانبه ﴾ مذكور في بني إسرائيل بوجوه القراءة فيه وشرح علله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 316.317 ﴾

(125/679)

وقال ابن زنجلة :

41 - سورة حم السجدة أو فصلت

فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات 16

قرأ نافع وابن كثير وابو عمرو في أيام نحسات ساكنة الحاء وحجتهم قوله في يوم نحس مستمر

ولم يقل نحس

وقرأ الباقون نحسات بكسر الحاء جعلوها صفة من باب فرق قال الكسائي والفراء هما لغتان بمعنى واحد يقال يوم نحس ونحس وايام نحسات ونحسات أي مشائيم

ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون 19

قرأ نافع ويوم نحشر بالنون أعداء الله بالفتح نسقا على قوله قبلها ونجينا الذين آمنوا وحجتهم قوله يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا فرد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه

وقرأ الباقون ويوم يحشر أعداء الله بالياء على ما لم يسم فاعله لم يحملوا على نجينا بل استأنفوا الكلام وحجتهم أنه عطف عليه مثله وهو قوله فهم يوزعون

وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والأنس 29

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر أرنا ساكنة الراء وقرأ الباقون أرنا بكسر الراء كان الأصل أرئنا على وزن أكرمنا ثم حذفوا الياء للوقف فصار أرئنا ثم تركت الهمزة كما تركت في ترى ونرى وتركت الراء ساكنة على ما كانت في الأصل ومن كسر الراء نقل حركة الهمزة إلى الراء فصار أرنا

قرأ ابن كثير أرنا اللذين بتشديد النون والأصل اللذيين فحذفت الياء وجعل التشديد عوضا من الياء المحذوفة التي كانت في اللذين

وقرا الباقون بالتخفيف ولم يعوضوا من الياء شيئا وقد ذكرت في سورة النساء

إن الذين يلحدون في ءايتنا لا يخفون علينا 40

قرأ حمزة إن الذين يلحدون بفتح الياء من لحد يلحد

إذا مال أي يجعلون الكلام على غير جهته

وقرأ الباقون يلحدون بضم الياء من ألحد يلحد إلحادا وحجتهم قوله ومن يرد فيه بإلحاد

بظلم وهو مصدر من ألحد

ولو جعلناه قرءانا عربيا لقالوا لولا فصلت ءايته ءأعجمي وعربي 44

(126/679)

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر أأعجمي بهمزتين الأولى ألف الاستفهام على وجه الإنكار

منهم والثانية ألف القطع

قرأ القواس أعجمي بهمزة واحدة على وجه الخبر لا على معنى الاستفهام أي هلا بينت

آياته فجعل بعضه بيانا للعرب وبعضه بيانا للعجم

وقرأ الباقون آعجمي بهمزة واحدة ومد كأنهم كرهوا الجمع بين همزتين فلينوا الثانية وقد

ذكرت الحجة والمعنى ولو جعلنا قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أي هلا بينت آياته

آعجمي وعربي أي قرآن أعجمي ونبي عربي

وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه 47

قرأ نافع وابن عامر وحفص من ثمرات من أكمامها بالألف على الجمع وحجتهم أنها مكتوبة في المصاحف بالتاء وأخرى وهي

أنه ليس يراد ثمرة دون ثمرة وإنما يراد جمع الثمرات ويقوي الجمع قوله فأخرجنا به من ثمرات مختلفا ألوانها

وقرأ الباقون من ثمرة من أكمامها على واحدة لأن الثمرة تؤدي عن الثمار لأنها الجنس وحجتهم قوله وما تحمل من أنثى قالوا كما أفرد أنثى كذلك ينبغي أن يكون من ثمرة مفردة ويكون المراد أجناس الثمار وكذلك وما تحمل من أنثى ليس بواحدة إنما هو أجناس الإناث ويقوي الإفراد أيضا قوله من أكمامها قال أبو عمرو ولو كانت من ثمرات لكانت من أكمامهن

وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه 51

قرأ ابن عامر وناء على وزن فاع قالوا هذا من باب القلب ووزنه فلع ومثل هذا في القلب قولهم رأى وراء وقال قوم هو من ناء ينوء أي نهض كما قال سبحانه وتعالى ما إن مفاتحه لتنوء أي تنهض والأصل نوأ فانقلبت الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ومددت تمكينا للهمزة

وقرأ حمزة والكسائي ونأي بكسر النون والهمزة فكسرا الهمزة ولمجيء الياء حين أمالوا الياء ثم كسروا النون لكسرة الهمزة

قرأ خلاد عن حمزة ونصير ونئي بفتح النون وكسر الهمزة

وإنما كسروا الهمزة لمجيء الياء وتركوا النون على حالها

(127/679)

وقرأ الباقون ونأى بفتح النون والهمزة على وزن ونعا قالوا لأن الياء انقلبت ألفا فلا أصل لها في الإمالة. انتهى انتهى. اهـ ﴿حجة القراءات صـ 635. 639﴾

(128/679)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني:

سورة حم السجدة

مكية وقد ذكر نظيرتها في الكوفي ولا نظير لها في غيره

وكلمها سبع مئة وست وسبعون كلمة

وحروفها ثلاثة آلاف وثلاث مئة وخمسون حرفا

وهي خمسون وآيتان بصري وشامي وثلاث مدنيان ومكي وأربع كوفي

اختلافها آيتان (﴿ حم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ عاد وثمود ﴾) لم يعدها البصري والشامي وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضعان وهما قوله تعالى (﴿ عذابا شديدا ﴾ هدى وشفاء) ورؤوس الآي

الرحيم

2 يعلمون

3 لا يسمعون

4 عاملون

5 للمشركين

6 كافرون

7 ممنون

8 العالمين

9 للسائلين

10 طائعين

11 العليم

12 وثمود

13 كافرون

14 يجحدون

15 لا ينصرون

16 يكسبون

17 يتقون

18 يوزعون

19 يعملون

20 ترجعون

21 تعملون

22 الخاسرين

23 المعتبين

24 خاسرين

25 تغلبون

26 يعملون

27 يجحدون

28 الأسفلين

29 توعدون

30 تدعون

31 رحيم

32 المسلمين

33 حميم

34 عظيم

35 العليم

36 تعبدون

37 لا يسأمون

38 قدير

39 بصير

40 عزيز

41 حميد

42 أليم

43 بعيد

44 مريب

45 للعبيد

46 شهيد

47 محيص

48 قنوط

49 غليظ

50 عريض

51 بعيد

52 شهيد

53 محيط

54 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 220﴾

(129/679)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة حم السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (تنزيل من الرحمن) هو مثل أول سجدة لقمان (كتاب) أي هو كتاب ، ويجوز أن يكون مرفوعا بتنزيل: أي نزل كتاب ، وأن يكون خبرا بعد خبر أو بدلا ، و (قرآنا) حال موطئة من آياته ، ويجوز أن يكون حالا من كتاب لأنه قد وصف .

قوله تعالى (مما تدعونا) هو محمول على المعنى ، لأن معنى في أكنة محجوبة عن سماع ما تدعونا إليه ، ولايجوز أن يكون نعتا لأكنة ، لأن الأكنة الأغشية ، وليست الأغشية مما تدعونا إليه ، و (ممنون) مفعول من مننت الحبل: أي قطعته .

قوله تعالى (وجعل فيها) هو مستأنف غير معطوف على خلق ، لأنه لو كان معطوفا عليه لكان داخلا في الصلة ، ولايجوز ذلك لأنه قد فصل بينهما بقوله تعالى " وتجعلون " إلى آخر الآية ، وليس من الصلة في شئ .

قوله تعالى (في أربعة أيام) أي في تمام أربعة أيام ، ولولا هذا التقدير ، لكانت الأيام ثمانية ، يومان في الأول وهو قوله " خلق الأرض في يومين " ويومان في الآخرة ، وهو قوله " فقضاهن سبع سموات في يومين " (سواء) بالنصب وهو مصدر: أي فاستوت استواء ، ويكون في موضع الحال من الضمير في أقواتها أو فيها أو من الأرض ، ويقرأ بالجر على الصفة للأيام ، وبالرفع على تقدير: هي سواء .

قوله تعالى (ائتيا) أي تعاليا ، و (طوعا) و (كرها) مصدران في موضع الحال ، و (أتينا) بالقصر: أي جئنا ، وبالمد: أي أعطينا من أنفسنا الطاعة ،

و(طائعين) حال وجمع ، لأنه قد وضعها بصفات من يعقل ، أو التقدير: أتينا بمن فينا فلذلك جمع ، وقيل جمع على حسب تعدد السموات والأرض (وحفظا) أي وحفظناها حفظا ، أو للحفظ (إذ جاءتهم) يجوز أن يكون ظرفا لأنذرتكم كما تقول: لقيتك إذ كان كذا ، ويجوز أن يكون صفة لصاعقة ، أو حالا من صاعقة الثانية .

قوله تعالى (نحسات) يقرأ بكسر الحاء .

(130/679)

وفيه وجهان: أحدهما هو اسم فاعل مثل نصب ونصبات ، والثاني أن يكون مصدرا في الأصل مثل الكلمة ويقرأ بالسكون ، وفيه وجهان: أحدهما هي بمعنى المكسورة وإنما سكن لعارض .

والثاني أن يكون اسم فاعل في الأصل وسكن تخفيفا .

قوله تعالى (وأما ثمود) هو بالرفع على الابتداء ، و (فهديناهم) الخبر وبالنصب على فعل محذوف تقديره: وأما ثمود فهدينا ، فسره قوله تعالى فهديناهم .

قوله تعالى (ويوم نحشر) هو ظرف لما دل عليه ما بعده وهو قوله تعالى (فهم يوزعون) كأنه قال يمنعون يوم نحشر .

قوله تعالى (أن يشهد) أي من أن يشهد ، لأن تستتر لا يتعدى بنفسه .

قوله تعالى (وذلكم) هو مبتدأ ، و (ظنكم) خبره ، و (الذى) نعت للخبر ، أو خبر بعد خبر ، و (أرادكم) خبر آخر ، ويجوز أن يكون الجميع صفة أو بدلا وأرداكم الخبر ، ويجوز أن يكون أرداكم حالا ، وقد معه مرادة .

قوله تعالى (يستعتبوا) يقرأ بفتح الياء وكسر التاء الثانية: أي أن يطلبوا زوال ما يعتبون منه (فما هم من المعتبين) بفتح التاء : أي من المجابين إلى إزالة العتب ، ويقرأ " يستعتبوا " بضم الياء وفتح التاء : أي يطلب منهم ما لا يعتبون عليه ، فما هم من المعتبين بكسر التاء : أي ممن يزيل العتب .

قوله تعالى (والغوا فيه) يقرأ بفتح الغين من لغا يلغا ، وبضمها من لغا يلغو ، والمعنى سواء .

قوله تعالى (النار) هو بدل من جزاء أو خبر مبتدإ محذوف ، أو مبتدأ وما بعده الخبر ، وجزاء مصدر : أي جوزوا بذلك جزاء ، ويجوز أن يكون منصوبا بجزاء أعداء الله ، وأن يكون حالا .

قوله تعالى (ألا تخافوا) يجوز أن يكون التقدير : بأن لا تخافوا أو قائلين لا تخافوا فعلى الأول هو حال: أي تتنزل بقولهم لا تخافوا ، وعلى الثاني الحال محذوفة .

قوله تعالى (نزلا) فيه وجهان: أحدهما هو مصدر في موضع الحال من الهاء المحذوفة أو من ما: أي لكم الذى تدعونه معدا وما أشبهه، و (من) نعت له والثانى هو جمع نازل مثل صابر وصبر، فيكون حالا من الواو في تدعون أو من الكاف والميم في لكم، فعلى هذا يتعلق من بتدعون: أي يطلبونه من غفور، أو بالظرف: أي استقر ذلك من غفور، فيكون حالا من " ما ".

قوله تعالى (كأنه ولى) فيه وجهان: أحدهما هو حال من الذى بصلته، والذى مبتدأ، وإذا للمفاجأة، وهى خبر المبتدإ: أي بالحضرة المعادي مشيها للولى، والفائدة تحصل من الحال.

والثانى أن يكون خبر المبتدإ، وإذا ظرف لمعنى التشبيه، والظرف يتقدم على العامل المعنوي، والضمير في (يلقاها) للخصلة أو الكلمة.

قوله تعالى (خلقهن) الضمير للآيات، وهى الليل والنهار والشمس والقمر.

قوله تعالى (إن الذين كفروا) خبر " إن " محذوف: أي معاندون أو هالكون، وقيل هو أولئك ينادون.

قوله تعالى (أعجمى) على الاستفهام ، ويقرأ بهمزة واحدة ، وفتح العين على النسب إلى عجم ، و (عمى) مصدر عمى مثل صدى صدى ، ويقرأ بكسر الميم: أي مشكل فهو اسم فاعل ، ويقرأ عمى على أنه فعل ماض ، فعلى يتعلق باسم الفاعل أو الفعل وأما المصدر فلا يتعلق به لتقدمها عليه ، ولكن يجوز أن يكون على التبيين أو حالا منه .

قوله تعالى (فلنفسه) هو خبر مبتدإ محذوف: أي فهو لنفسه .

قوله تعالى (وما تحمل) " ما " نافية ، لأنه عطف عليها ولا تضع ، ثم نقض النفى بإلا ، ولو كانت بمعنى الذى معطوفة على الساعة لم يستقم ذلك ، فأما قوله تعالى " وما تخرج من ثمرة " فيجوز أن تكون بمعنى الذى ، والأقوى أن تكون نافية .

قوله تعالى (آذناك) هذا الفعل يتعدى إلى مفعول بنفسه ، وإلى آخر بحرف جر ، وقد وقع النفى وما في خبره موقع الجار والمجرور .

وقال أبو حاتم: يوقف على آذناك ، ثم يبتدأ فلا موضع للنفي .

(132/679)

وأما قوله تعالى (وظنوا) فمفعولاها قد أغنى عنهما (وما لهم من محيص) وقال أبو حاتم: يوقف على ظنوا ، ثم أخبر عنهم بالنفى ، و (دعاء الخير) مصدر مضاف إلى المفعول ، والفاعل محذوف ، و (ليقولن هذا لى) جواب الشرط ، والفاء محذوفة ، وقيل هو جواب قسم محذوف .

قوله تعالى (بربك) الباء زائدة ، وهو فاعل يكف ، والمفعول محذوف: أي ألم يكفك ربك: وقيل هذا (أنه) في موضع البدل من الفاعل إما على اللفظ أو على الموضع: أي ألم يكفك ربك شهادته ، وقيل في موضع نصب مفعول يكفى أي ألم يكفك ربك شهادته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 220. 223 ﴾

(133/679)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة فصلت

[سورة فصلت (41) : الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (2) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)

بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (4)

وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6)

(134/679)

"حم" سبق إعرابها "تَنْزِيلٌ" خبر لمبتدأ محذوف "مِنَ الرَّحْمنِ" متعلقان بتنزيل "الرَّحِيمِ" بدل "كِتابٌ" بدل من تنزيل "فُصِّلَتْ" ماض مبني للمجهول "آياتُهُ" نائب فاعل والجملة صفة لكتاب "قُرْآناً" حال "عَرَبِيًّا" صفة "لِقَوْمٍ" متعلقان بالفعل "يَعْلَمُونَ" مضارع وفاعله والجملة صفة لقوم "بَشِيراً" حال "وَنَذِيراً" معطوف عليه "فَأَعْرَضَ" الفاء حرف عطف وماض "أَكْثَرُهُمْ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "فَهُمْ" الفاء حرف عطف وهم مبتدأ "لا" نافية "يَسْمَعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر المبتدأ "وَقالُوا" حرف استئناف وماض وفاعله "قُلُوبُنا" مبتدأ "فِي أَكِنَّةٍ" متعلقان بخبر محذوف والجملة مقول القول وجملة قالوا مستأنفة "مِمَّا" متعلقان بأكنة "تَدْعُونا" مضارع مرفوع ونا مفعوله والفاعل مستتر "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَفِي" الواو حرف عطف في حرف جر "آذانِنا" اسم

مجرور متعلقان بخبر مقدم محذوف "وَقْرٌ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَمِنْ بَيْنِنا" الواو حرف عطف وجار ومجرور متعلقان بخبر مقدم محذوف "وَبَيْنِكَ" معطوف على بيننا "حِجابٌ" مبتدأ مؤخر "فَاعْمَلْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والجملة جواب شرط لا محل لها "إِنَّنا عامِلُونَ" إن واسمها وخبرها والجملة تعليلية "قُلْ" أمر "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أَنَا بَشَرٌ" مبتدأ وخبره والجملة مقول القول "مِثْلُكُمْ" صفة "يُوحى" مضارع مبني للمجهول والجملة صفة ثانية "إِلَيَّ" متعلقان بالفعل "إِنَّما" كافة ومكفوفة "إِلهُكُمْ" مبتدأ "إِلهٌ" خبر "واحِدٌ" صفة والمصدر المؤول من أن وما بعدها نائب فاعل يوحى "فَاسْتَقِيمُوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون وفاعله الواو والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل "وَاسْتَغْفِرُوهُ" معطوف على ما قبله "وَوَيْلٌ" الواو حرف استئناف ومبتدأ

(135/679)

"لِلْمُشْرِكِينَ" جار ومجرور خبره والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة فصلت (41) : الآيات 7 الى 10]

الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ

أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8) قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10)

"الَّذِينَ" بدل "لا" نافية "يُؤْتُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "الزَّكَاةَ" مفعول به والجملة صلة "وَهُمْ" الواو حالية ومبتدأ "بِالْآخِرَةِ" متعلقان بكافرون "هُمْ" ضمير فصل "كَافِرُونَ" خبر المبتدأ والجملة حالية

(136/679)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة والجملة الاسمية مستأنفة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحَاتِ" مفعول به "لَهُمْ" خبر مقدم "أَجْرٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر إن "غَيْرُ" صفة "مَمْنُونٍ" مضاف إليه "قُلْ" أمر فاعله مستتر "أَإِنَّكُمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري توبيخي وإن واسمها "لَتَكْفُرُونَ" اللام المزحلقة ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر إن والجملة الاسمية مقول القول وجملة قل مستأنفة "بِالَّذِي" متعلقان بالفعل "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "الْأَرْضَ" مفعول به والجملة صلة "فِي يَوْمَيْنِ" متعلقان بخلق "وَتَجْعَلُونَ" الواو حرف عطف وتجعلون مضارع مرفوع والواو فاعله "لَهُ"

متعلقان بالفعل "أَنْداداً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "ذِلكَ" مبتدأ "رَبُّ" خبر "الْعالَمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء والجملة الاسمية مستأنفة "وَجَعَلَ" الواو حرف استئناف وماض فاعله مستتر "فِيها" متعلقان بجعل "رَواسِيَ" مفعول به والجملة مستأنفة "مِنْ فَوْقِها" متعلقان بصفة محذوفة "وَبارَكَ" معطوف على جعل "فِيها" متعلقان بالفعل "وَقَدَّرَ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر "فِيها" متعلقان بقدر "أَقْواتَها" مفعول به "فِي أَرْبَعَةِ" متعلقان بقدر "أَيَّامٍ" مضاف إليه "سَواءً" مفعول مطلق لفعل محذوف "لِلسَّائِلِينَ" متعلقان بسواء .

[سورة فصلت (41) : الآيات 11 الى 13]

ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (11) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ (13)

"ثُمَّ" حرف عطف "اسْتَوى " ماض فاعله مستتر "إِلَى السَّماءِ" متعلقان بالفعل "وَهِيَ" الواو حالية ومبتدأ "دُخانٌ" خبر والجملة حال والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها "فَقالَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "لَها" متعلقان بالفعل "وَلِلْأَرْضِ" معطوف على لها "ائْتِيا" أمر مبني على حذف النون والألف فاعل "طَوْعاً" حال "أَوْ" حرف عطف "كَرْهاً" معطوف على طوعا وجملة ائتيا مقول القول "قالَتا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَتَيْنا" ماض وفاعله "طائِعِينَ" حال والجملة مقول القول "فَقَضاهُنَّ" الفاء حرف عطف وماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "سَبْعَ" مفعول به ثان "سَماواتٍ" مضاف إليه "فِي يَوْمَيْنِ" متعلقان بالفعل "وَأَوْحى " معطوف على ما قبله "فِي كُلِّ" متعلقان بأوحى "سَماءٍ" مضاف إليه "أَمْرَها" مفعول به "وَزَيَّنَّا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله "السَّماءَ" مفعول به "الدُّنْيا" صفة والجملة مستأنفة "بِمَصابِيحَ" متعلقان بزينا "وَحِفْظاً" الواو حرف عطف ومفعول مطلق لفعل محذوف والجملة معطوفة على ما قبلها "ذلِكَ" مبتدأ "تَقْدِيرُ" خبر "الْعَزِيزِ" مضاف إليه "الْعَلِيمِ" بدل والجملة الاسمية مستأنفة "فَإِنْ" الفاء حرف استئناف وإن شرطية "أَعْرَضُوا" ماض وفاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "فَقُلْ" الفاء واقعة في جواب الشرط وأمر فاعله مستتر "أَنْذَرْتُكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول وجملة فقل في محل جزم جواب الشرط "صاعِقَةً" مفعول به ثان "مِثْلَ" صفة

"صاعِقَةً" مضاف إليه "عادٍ" مضاف إليه "وَثَمُودَ" معطوف على عاد .

[سورة فصلت (41) : الآيات 14 الى 16]

(138/679)

إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (14) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ (16)

(139/679)

"إِذْ" ظرف زمان "جاءَتْهُمُ" ماض ومفعوله "الرُّسُلُ" فاعل "مِنْ بَيْنِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة "أَيْدِيهِمْ" مضاف إليه "وَمِنْ خَلْفِهِمْ" معطوف عليه "أَنْ" مخففة من الثقيلة "لا تَعْبُدُوا" مضارع مجزوم بلا والواو فاعله "أَلَّا" حرف حصر "اللَّهَ" لفظ

الجلالة مفعول به والجملة الفعلية خبر أن والمصدر المؤول من أن واسمها المحذوف وخبرها في محل جر بحرف جر محذوف "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "لَوْ" شرطية غير جازمة "شاءَ" ماض "رَبُّنا" فاعله والجملة ابتدائية "لَأَنْزَلَ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض فاعله مستتر والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "مَلائِكَةً" مفعول به "فَإِنَّا" حرف عطف وإن ونا اسمها "بِما" متعلقان بكافرون "أُرْسِلْتُمْ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل "بِهِ" متعلقان بالفعل "كافِرُونَ" خبر مرفوع بالواو والجملة صلة والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "فَأَمَّا" الفاء حرف استئناف وأما حرف شرط وتفصيل "عادٌ" مبتدأ "فَاسْتَكْبَرُوا" الفاء واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله والجملة خبر عاد "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "بِغَيْرِ" متعلقان بحال محذوفة والجملة الاسمية مستأنفة "الْحَقِّ" مضاف إليه "وَقالُوا" حرف عطف وماض وفاعله "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ "أَشَدُّ" خبر والجملة مقول القول "مِنَّا" متعلقان بأشد "قُوَّةً" تمييز وجملة قالوا معطوفة على ما قبلها "أَوَلَمْ" الهمزة للاستفهام الإنكاري والواو حرف عطف ولم حرف جازم "يَرَوْا" مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها "الَّذِي" صفة والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي يروا "خَلَقَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "هُوَ أَشَدُّ" مبتدأ وخبر والجملة الاسمية خبر أن والجملة الفعلية

صلة الموصول "مِنْهُمْ" متعلقان بأشد "قُوَّةً" تمييز "وَكانُوا" الواو حرف عطف وكان واسمها "بِآياتِنا" متعلقان بيجحدون "يَجْحَدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا معطوفة على ما قبلها "فَأَرْسَلْنا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "رِيحاً" مفعول به "صَرْصَراً" صفة "فِي أَيَّامٍ" متعلقان بالفعل "نَحِساتٍ" صفة لأيام "لِنُذِيقَهُمْ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والهاء مفعول به أول "عَذابَ" مفعول به ثان "الْخِزْيِ" مضاف إليه "فِي الْحَياةِ" متعلقان بالفعل "الدُّنْيا" صفة. والمصدر المؤول في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بأرسلنا ، "وَلَعَذابُ" الواو حرف استئناف واللام للابتداء

وعذاب مبتدأ "الْآخِرَةِ" مضاف إليه "أَخْزى" خبر والجملة مستأنفة "وَهُمْ" الواو حرف عطف ومبتدأ "لا" نافية "يُنْصَرُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة فصلت (41) : الآيات 17 الى 20]

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا

يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20)

(141/679)

"وَأَمَّا" الواو حرف عطف وأما حرف شرط وتفصيل "ثَمُودُ" مبتدأ "فَهَدَيْنَاهُمْ" الفاء واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله ومفعوله والجملة خبر المبتدأ "فَاسْتَحَبُّوا" الفاء حرف عطف وماض معطوف على هديناهم "الْعَمَى" مفعول به "عَلَى الْهُدَى" متعلقان باستحبوا "فَأَخَذَتْهُمْ" معطوف على ما قبله "صَاعِقَةُ" فاعل "الْعَذَابِ" مضاف إليه "الْهُونِ" صفة "بِمَا" متعلقان بأخذتهم "كَانُوا" كان واسمها "يَكْسِبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا صلة "وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَكَانُوا" الواو حرف عطف وكان واسمها "يَتَّقُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا "وَيَوْمَ" الواو حرف استئناف ومفعول فيه لفعل محذوف "يُحْشَرُ" مضارع مبني للمجهول "أَعْدَاءُ" نائب فاعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة في محل جر بالإضافة "إِلَى النَّارِ" متعلقان بالفعل

"فَهُمْ" الفاء حرف عطف ومبتدأ "يُوزَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "حَتَّى" حرف ابتداء "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "ما" زائدة "جاؤُها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "شَهِدَ" ماض "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "سَمْعُهُمْ" فاعل "وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ" عطف على سمعهم وجملة شهد جواب شرط لا محل لها "بِما" متعلقان بشهد "كانُوا" كان واسمها "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا صلة.

[سورة فصلت (41) : الآيات 21 الى 23]

(142/679)

وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (23)

"وَقالُوا" الواو حرف عطف وماض وفاعله "لِجُلُودِهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة

على ما قبلها "لِمَ" اللام حرف جر وما اسم استفهام في محل جر باللام متعلقان بما بعدهما "شَهِدْتُمْ" ماض وفاعله

(143/679)

و الجملة مقول القول "عَلَيْنا" متعلقان بالفعل "قالُوا" ماض وفاعله "أَنْطَقَنَا" ماض ومفعوله "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعله والجملة مقول القول "الَّذِي" صفة للّه "أَنْطَقَ كُلَّ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "شَيْءٍ" مضاف إليه والجملة صلة "وَهُوَ" الواو حالية ومبتدأ "خَلَقَكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "أَوَّلَ" ظرف زمان "مَرَّةٍ" مضاف إليه والجملة الفعلية خبر المبتدأ والاسمية حال "وَإِلَيْهِ" الواو حرف عطف وجار ومجرور متعلقان بما بعدهما "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَما" الواو حرف عطف وما نافية "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَسْتَتِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم "أَنْ يَشْهَدَ" مضارع منصوب بأن والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالفعل "سَمْعُكُمْ" فاعل "وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ" عطف على سمعكم "وَلكِنْ" الواو حرف عطف ولكن حرف استدراك "ظَنَنْتُمْ" ماض وفاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها "لا"

نافية "يَعْلَمُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي ظننتم "كَثِيراً" مفعول به "مِمَّا" متعلقان بكثيرا "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "وَذِلِكُمْ" الواو حرف عطف ومبتدأ "ظَنُّكُمُ" خبره "الَّذِي" صفة "ظَنَنْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "بِرَبِّكُمْ" متعلقان بالفعل "أَرْداكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة حال "فَأَصْبَحْتُمْ" الفاء حرف عطف وماض ناقص واسمه "مِنَ الْخاسِرِينَ" جار ومجرور خبر أصبح والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة فصلت (41) : الآيات 24 الى 27]

(144/679)

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24) وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (25) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (27)

"فَإِنْ" الفاء حرف استئناف وإن شرطية "يَصْبِرُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو

فاعله "فَالنَّارُ" الفاء واقعة في جواب الشرط والنار مبتدأ "مَثْوىً" خبره "لَهُمْ" متعلقان بمثوى والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملة يصبروا ابتدائية "وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا" معطوف على ما قبله "فَما" حرف عطف وما نافية "هُمْ" اسم ما "مِنَ الْمُعْتَبِينَ" متعلقان بخبر ما المحذوف والجملة في محل جزم جواب الشرط "وَقَيَّضْنا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "قُرَناءَ" مفعول به والجملة مستأنفة "فَزَيَّنُوا" الفاء حرف عطف وزينوا ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "ما" مفعول به "بَيْنَ" ظرف مكان "أَيْدِيهِمْ" مضاف إليه "وَما خَلْفَهُمْ" معطوف على ما قبله "وَحَقَّ" ماض معطوف على ما قبله "عَلَيْهِمُ" متعلقان بالفعل "الْقَوْلُ" فاعل "فِي أُمَمٍ" متعلقان بحال محذوفة "قَدْ" حرف تحقيق

(145/679)

"خَلَتْ" ماض فاعله مستتر "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بالفعل "مِنَ الْجِنِّ" متعلقان بحال محذوفة "وَالْإِنْسِ" معطوف على ما قبله والجملة صفة لأمم "إِنَّهُمْ" إن واسمها "كانُوا خاسِرِينَ" كان واسمها وخبرها المنصوب بالياء والجملة خبر إن والجملة الاسمية تعليل "وَقالَ" الواو حرف استئناف وماض "الَّذِينَ" فاعله "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة قال مستأنفة

"لا تَسْمَعُوا" لا الناهية ومضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله والجملة مقول القول "لِهذَا" متعلقان بالفعل "الْقُرْآنِ" بدل من اسم الإشارة "وَالْغَوْا" الواو حرف عطف وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فِيهِ" متعلقان بالفعل "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها "تَغْلِبُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر لعل والجملة الاسمية تعليل "فَلَنُذِيقَنَّ" الفاء حرف استئناف واللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة "الَّذِينَ" مفعول به "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة نذيقن جواب قسم محذوف "عَذاباً" مفعول به ثان "شَدِيداً" صفته "وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ" معطوف على لنذيقن "أَسْوَأَ" مفعول به ثان "الَّذِي" مضاف إليه "كانُوا" كان واسمها "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا صلة الذي.

[سورة فصلت (41) : الآيات 28 الى 30]

(146/679)

ذِلكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (28)
وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ

الْأَسْفَلِينَ (29) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30)

"ذِلكَ جَزاءُ" مبتدأ وخبره "أَعْداءِ" مضاف إليه "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "النَّارُ" بدل "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "فِيها" متعلقان بالخبر المحذوف أيضا "دارُ" مبتدأ مؤخر "الْخُلْدِ" مضاف إليه والجملة الاسمية مستأنفة "جَزاءُ" مفعول مطلق لفعل محذوف "بِما" متعلقان بجزاء "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة "بِآياتِنا" متعلقان بما بعدهما "يَجْحَدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة ذلك جزاء مستأنفة "وَقالَ" الواو حرف استئناف وماض "الَّذِينَ" فاعل والجملة مستأنفة "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "رَبَّنا" منادى مضاف ونا ضمير متصل مضاف إليه "أَرِنَا" فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة ونا مفعوله الأول "الَّذِينَ" مفعوله الثاني "أَضَلَّانا" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "مِنَ الْجِنِّ" متعلقان بحال محذوفة "وَالْإِنْسِ" معطوف على الجن "نَجْعَلْهُما" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعل مستتر والهاء مفعوله الأول "تَحْتَ" ظرف مكان بموضع المفعول الثاني "أَقْدامِنا" مضاف إليه "لِيَكُونا" مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والألف اسكنتم صلة.

[سورة فصلت (41) : الآيات 31 الى 34]

نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34)

"نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ"

مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة "فِي الْحَياةِ"

متعلقان بأولياؤكم "الدُّنْيا"

صفة "وَفِي الْآخِرَةِ"

عطف على ما قبله "وَلَكُمْ"

الواو حرف عطف ولكم خبر مقدم "فِيها"

متعلقان بالخبر المحذوف "ما"

اسم موصول مبتدأ مؤخر "تَشْتَهِي"

مضارع "أَنْفُسُكُمْ"

فاعله والجملة صلة ما والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ"

معطوف على الجملة السابقة والإعراب واحد "نُزُلًا" حال "مِنْ غَفُورٍ" متعلقان بصفة محذوفة من نزلا "رَحِيمٍ" بدل "وَمَنْ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "أَحْسَنُ" خبر والجملة مستأنفة "قَوْلًا" تمييز "مِمَّنْ" متعلقان بأحسن "دَعا" ماض فاعله مستتر "إِلَى اللَّهِ" متعلقان بدعا والجملة صلة "وَعَمِلَ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر "صالِحاً" صفة لمفعول مطلق محذوف والجملة معطوفة على ما قبلها "وَقالَ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّنِي" إن واسمها "مِنَ الْمُسْلِمِينَ" جار ومجرور خبرها والجملة الاسمية مقول القول "وَلا" الواو حرف استئناف ولا نافية "تَسْتَوِي" مضارع "الْحَسَنَةُ" فاعله والجملة مستأنفة "وَلَا السَّيِّئَةُ" معطوف على الحسنة "ادْفَعْ" أمر فاعله مستتر "بِالَّتِي" متعلقان بالفعل "هِيَ أَحْسَنُ" مبتدأ وخبر والجملة الاسمية صلة "فَإِذَا" الفاء الفصيحة وإذا الفجائية "الَّذِي" مبتدأ "بَيْنَكَ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "وَبَيْنَهُ" معطوف على بينك "عَداوَةٌ" مبتدأ مؤخر والجملة صلة "كَأَنَّهُ" كأن واسمها "وَلِيٌّ" خبرها "حَمِيمٌ" صفة والجملة الاسمية خبر الذي.

[سورة فصلت (41) : الآيات 35 الى 37]

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36) وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37)

(149/679)

"وَمَا" الواو حرف استئناف وما نافية "يُلَقَّاهَا" مضارع مبني للمجهول وها مفعول به ثان "إِلَّا" حرف حصر "الَّذِينَ" نائب فاعل "صَبَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة وجملة ما يلقاها مستأنفة "وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا" معطوف على سابقه "ذُو" نائب فاعل "حَظٍّ" مضاف إليه "عَظِيمٍ" صفة "وَإِمَّا" الواو حرف استئناف وإن شرطية وما زائدة "يَنْزَغَنَّكَ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والكاف مفعول به "مِنَ الشَّيْطَانِ" متعلقان بحال محذوفة "نَزْغٌ" فاعل مؤخر وجملة ينزغنك ابتدائية لا محل لها "فَاسْتَعِذْ" الفاء واقعة في جواب الشرط وأمر فاعله مستتر "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل "إِنَّهُ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "السَّمِيعُ" خبر أول "الْعَلِيمُ" خبر ثان والجملة الاسمية تعليل "وَ" الواو حرف استئناف "مِنْ آيَاتِهِ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "اللَّيْلُ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة

"وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ" معطوف على ما قبله "لا تَسْجُدُوا" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله "لِلشَّمْسِ" متعلقان به والجملة مستأنفة "وَلا لِلْقَمَرِ" معطوف على ما قبله "وَاسْجُدُوا" أمر وفاعله "لِلَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "الَّذِي" صفة "خَلَقَهُنَّ" ماض ومفعوله وفاعل مستتر والجملة صلة "إِنْ" حرف شرط جازم "كُنْتُمْ" ماض ناقص واسمه "إِيَّاهُ" مفعول به مقدم "تَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية جواب شرط لا محل لها وجملة كنتم ابتدائية لا محل لها .

[سورة فصلت (41) : الآيات 38 الى 40]

(150/679)

فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (38) وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40)

"فَإِنِ" الفاء حرف استئناف وإن شرطية "اسْتَكْبَرُوا" ماض وفاعله وهو في محل جزم فعل الشرط والجملة ابتدائية لا محل لها "فَالَّذِينَ" الفاء حرف تعليل للشرط المحذوف ومبتدأ

"عِنْدَ" ظرف مكان "رَبِّكَ" مضاف إليه "يُسَبِّحُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر الذين والجملة الاسمية تعليل "لَهُ" متعلقان بالفعل "بِاللَّيْلِ" متعلقان بالفعل أيضا "وَالنَّهارِ" معطوفة "وَهُمْ" الواو حالية ومبتدأ "لا" نافية "يَسْأَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر والجملة الاسمية حالية "وَمِنْ" الواو حرف عطف من حرف جر "وَمِنْ آياتِهِ" متعلقان بخبر مقدم "أَنَّكَ" أن واسمها "تَرَى" مضارع فاعله

(151/679)

مستتر "الْأَرْضَ" مفعول به والمصدر المؤول في محل رفع مبتدأ مؤخر وجملة ترى خبر أن "خاشِعَةً" حال "فَإِذا" الفاء حرف عطف وإذا ظرفية شرطية "أَنْزَلْنا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "عَلَيْهَا" متعلقان بالفعل "الْماءَ" مفعول به "اهْتَزَّتْ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب شرط لا محل لها "وَرَبَتْ" عطف على اهتزت "إِنَّ الَّذِي" إن واسمها "أَحْياها" ماض ومفعوله وفاعل مستتر والجملة صلة "لَمُحْيِ" اللام المزحلقة وخبر إن والجملة الاسمية تعليل "الْمَوْتى" مضاف إليه "إِنَّهُ" إن واسمها "عَلى كُلِّ" متعلقان بقدير "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيرٌ" خبر إن "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "يُلْحِدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "فِي آياتِنا" متعلقان بيلحدون "لا" نافية "يَخْفَوْنَ" مضارع مرفوع

والواو فاعله والجملة الاسمية إن الذين مستأنفة "عَلَيْنا" متعلقان بالفعل "أَفَمَنْ" الهمزة حرف استفهام وتوبيخ والفاء استئناف ومن اسم موصول مبتدأ "يُلْقى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة الفعلية صلة والجملة الاسمية مستأنفة "فِي النَّارِ" متعلقان بالفعل "خَيْرٌ" خبر المبتدأ "أَمْ" حرف عطف "مَنْ" موصولية مبتدأ "يَأْتِي" مضارع فاعله مستتر "آمِناً" حال والجملة الفعلية صلة "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه وخبر المبتدأ محذوف والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "اعْمَلُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعله "ما" موصولية مفعول به "شِئْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنَّهُ" إن واسمها "بِما" متعلقان بما بعدهما "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "بَصِيرٌ" خبر إن والجملة صلة والجملة الاسمية تعليل.

[سورة فصلت (41) : الآيات 41 الى 43]

(152/679)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (43)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "كَفَرُوا" ماض وفاعله "بِالذِّكْرِ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية صلة وخبر إن محذوف تقديره هالكون والجملة الاسمية مستأنفة "لَمَّا" حينية "جاءَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "وَإِنَّهُ" الواو حالية وإن اسمها "لَكِتابٌ" اللام المزحلقة وخبر إن "عَزِيزٌ" صفة والجملة حال "لا" نافية "يَأْتِيهِ" مضارع ومفعوله "الْباطِلُ" فاعل مؤخر والجملة صفة ثانية لكتاب "مِنْ بَيْنِ" متعلقان بالفعل "يَدَيْهِ" مضاف إليه "وَلا مِنْ خَلْفِهِ" معطوف على ما قبله "تَنْزِيلٌ" خبر لمبتدأ محذوف والجملة الاسمية مستأنفة "مِنْ حَكِيمٍ" متعلقان بتنزيل "حَمِيدٍ" صفة لحكيم "ما" نافية "يُقالُ" مضارع مبني للمجهول "لَكَ" متعلقان بالفعل "إِلَّا" حرف حصر "ما" نائب فاعل "قَدْ" حرف تحقيق "قِيلَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "لِلرُّسُلِ" متعلقان بالفعل "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بحال محذوفة وجملة قيل صلة ما وجملة يقال مستأنفة "إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها "لَذُو" اللام المزحلقة وذو خبرها والجملة الاسمية بدل من ما وصلتها "مَغْفِرَةٍ" مضاف إليه "وَذُو عِقابٍ" معطوف على ما قبله "أَلِيمٍ" صفة عقاب.

[سورة فصلت (41) : آية 44]

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44)

"وَلَوْ" الواو حرف استئناف ولو شرطية غير جازمة "جَعَلْنَاهُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "قُرْآنًا" مفعوله الثاني "أَعْجَمِيًّا" صفة والجملة ابتدائية لا محل لها "لَقَالُوا" اللام واقعة في جواب الشرط وماض وفاعله والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "لَوْلَا" حرف تحضيض "فُصِّلَتْ آيَاتُهُ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل "ءَأَعْجَمِيٌّ" الهمزة حرف استفهام إنكاري وأعجمي خبر لمبتدأ محذوف والجملة الاسمية مستأنفة "وَعَرَبِيٌّ" معطوف على أعجمي "قُلْ" أمر فاعله مستتر "هُوَ" مبتدأ "لِلَّذِينَ" جار ومجرور متعلقان بحال محذوفة "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "هُدًى" خبر المبتدأ والجملة الاسمية مقول القول وجملة قل مستأنفة "وَشِفَاءٌ" معطوف على هدى "وَالَّذِينَ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "لَا" نافية "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "فِي آذَانِهِمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "وَقْرٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر الذين وجملة الذين مستأنفة "وَهُوَ" الواو حرف عطف ومبتدأ "عَلَيْهِمْ" متعلقان بحال محذوفة "عَمًى" خبر المبتدأ والجملة معطوفة على ما قبلها "أُولَئِكَ" مبتدأ "يُنَادَوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "مِنْ مَكَانٍ" متعلقان

"بَعِيدٍ" صفة مكان.

[سورة فصلت (41) : الآيات 45 الى 46]

(154/679)

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (46)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "آتَيْنا مُوسَى" ماض وفاعله ومفعوله الأول "الْكِتابَ" مفعوله الثاني والجملة جواب القسم لا محل لها "فَاخْتُلِفَ" الفاء حرف عطف وماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "فِيهِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلَوْ لا" الواو حرف استئناف ولولا حرف شرط غير جازم "كَلِمَةٌ" مبتدأ والخبر محذوف وجوبا "سَبَقَتْ" ماض فاعله مستتر "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بالفعل والجملة صفة كلمة "لَقُضِيَ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بالفعل "وَإِنَّهُمْ" الواو حالية وإن واسمها "لَفِي" اللام المزحلقة "فِي شَكٍّ" متعلقان بخبر إن المحذوف "مِنْهُ" متعلقان بشك

"مُرِيبٍ" صفة شك والجملة الاسمية حال "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "عَمِلَ" ماض فاعله مستتر "صالِحاً" مفعول به "فَلِنَفْسِهِ" الفاء رابطة والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف "وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها" معطوف على ما قبله "وَما" الواو حالية وما نافية "رَبُّكَ" اسمها "بِظَلَّامٍ" الباء حرف جر زائد وظلام مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما العاملة عمل ليس "لِلْعَبِيدِ" متعلقان بظلام وجملتا الشرط والجواب خبر من وجملة وما ربك حال.

[سورة فصلت (41) : الآيات 47 الى 48]

(155/679)

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48)

(156/679)

"إِلَيْهِ" جار ومجرور متعلقان بيرد "يُرَدُّ" مضارع مبني للمجهول "عِلْمُ" نائب فاعل "السَّاعَةِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَما" الواو حرف عطف وما نافية "تَخْرُجُ" مضارع "مِنْ" حرف جر زائد "ثَمَراتٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل تخرج "مِنْ أَكْمامِها" متعلقان بتخرج والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "وَما" ما نافية "تَحْمِلُ" مضارع "مِنْ أُنْثى" من حرف جر زائد وأنثى مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل تحمل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلا تَضَعُ" معطوفة على ما قبلها "إِلَّا" حرف حصر "بِعِلْمِهِ" جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال مستثنى من عموم الأحوال أي مقرونا بعلمه "وَيَوْمَ" الواو استئنافية وظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر وهو مفعول به "يُنادِيهِمْ" مضارع ومفعوله وفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "أَيْنَ" اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر مقدم "شُرَكائِي" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مفعول به ثان لينادي هم "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "آذَنَّاكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "ما" نافية "مِنَّا" متعلقان بخبر مقدم "مِنْ شَهِيدٍ" من حرف جر زائد وشهيد مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر "وَضَلَّ" الواو حرف عطف وماض "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "ما" فاعل "كانُوا" كان واسمها "يَدْعُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا صلة ما وجملة ضل معطوفة على ما قبلها لا محل لها "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بمحذوف حال "وَظَنُّوا" الواو حرف عطف وماض وفاعله "ما" نافية "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف

"مِنْ مَحِيصٍ" من حرف جر زائد ومحيص مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة سدت مسد مفعولي ظن .

[سورة فصلت (41) : الآيات 49 الى 50]

(157/679)

لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (50)

"لا" نافية "يَسْأَمُ" مضارع "الْإِنْسانُ" فاعله "مِنْ دُعاءِ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "الْخَيْرِ" مضاف إليه "وَإِنْ" الواو حرف عطف وإن شرطية "مَسَّهُ الشَّرُّ" ماض ومفعوله وفاعله والجملة ابتدائية "فَيَؤُسٌ" الفاء واقعة في جواب الشرط ويؤوس خبر لمبتدأ محذوف "قَنُوطٌ" خبر ثان والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط "وَلَئِنْ" الواو حرف استئناف واللام موطئة للقسم وإن شرطية "أَذَقْناهُ"

(158/679)

ماض وفاعله ومفعوله الأول "رَحْمَةً" مفعوله الثاني "مِنَّا" متعلقان برحمة والجملة ابتدائية "مِنْ بَعْدِ" صفة لرحمة "ضَرَّاءَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "مَسَّتْهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صفة ضراء "لَيَقُولَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد والجملة جواب القسم لا محل لها "هذا" مبتدأ "لِي" خبر والجملة الاسمية مقول القول "وَما" الواو حالية وما نافية "أَظُنُّ" مضارع فاعله مستتر "السَّاعَةَ" مفعوله الأول "قائِمَةً" مفعوله الثاني والجملة حال "وَلَئِنْ" اللام موطئة للقسم وإن شرطية "رُجِعْتُ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل "إِلى رَبِّي" متعلقان بالفعل "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "لِي" متعلقان بخبر إن المحذوف "عِنْدَهُ" ظرف مكان متعلق بالخبر المحذوف "لَلْحُسْنى" اللام لام الابتداء والحسنى اسم إن المؤخر والجملة جواب القسم لا محل لها "فَلَنُنَبِّئَنَّ" الفاء حرف استئناف واللام واقعة في جواب القسم المحذوف ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر "الَّذِينَ" مفعول به أول "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِما" متعلقان بالفعل وهما مفعوله الثاني "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَلَنُذِيقَنَّهُمْ" معطوف على ما قبله "مِنْ عَذابٍ" متعلقان بالفعل وهما مفعوله الثاني "غَلِيظٍ" صفة عذاب.

[سورة فصلت (41) : الآيات 51 الى 54]

وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (51) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)

"وَإِذا" الواو حرف عطف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "أَنْعَمْنا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "عَلَى الْإِنْسانِ" متعلقان بالفعل "أَعْرَضَ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "وَنَأى" معطوف على أعرض "بِجانِبِهِ" متعلقان بالفعل "وَإِذا" تقدم إعرابها "مَسَّهُ الشَّرُّ" ماض ومفعوله وفاعله "فَذُو" الفاء واقعة في جواب الشرط غير الجازم وذو خبر لمبتدأ محذوف مرفوع بالواو "دُعاءٍ" مضاف إليه "عَرِيضٍ" صفة والجملة الاسمية جواب الشرط لا محل لها "قُلْ" أمر فاعله مستتر "أَرَأَيْتُمْ" الهمزة حرف استفهام وماض وفاعله ومفعوله الأول محذوف "إِنْ" شرطية "كانَ مِنْ عِنْدِ" ماض ناقص ومن عند متعلقان بالخبر المحذوف واسمها محذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه وجملة كان ابتدائية وجملة أرأيتم مقول القول وجملة قل مستأنفة "ثُمَّ" حرف عطف "كَفَرْتُمْ"

ماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "مِنْ" مبتدأ "أَضَلُّ" خبر والجملة مفعول به ثان لرأيتم "مِمَّنْ" متعلقان بأضل "هُوَ" مبتدأ "فِي شِقَاقٍ" خبره "بَعِيدٍ" صفة والجملة الاسمية صلة الموصول "سَنُرِيهِمْ" السين حرف استقبال ومضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر والجملة مستأنفة "آيَاتِنَا" مفعوله

(160/679)

الثاني "فِي الْآفَاقِ" حال "وَفِي أَنْفُسِهِمْ" معطوف على سابقه "حَتَّى" حرف غاية وجر "يَتَبَيَّنَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "أَنَّهُ الْحَقُّ" أن واسمها وخبرها وأن وما بعدها في تأويل مصدر فاعل يتبين "أَوَلَمْ يَكْفِ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والواو حرف عطف على مقدر ومضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة "بِرَبِّكَ" الباء حرف جر زائد ورب مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل يكف "أَنَّهُ" أن واسمها "عَلَى كُلِّ" متعلقان بشهيد "شَيْءٍ" مضاف إليه "شَهِيدٌ" خبر أن والجملة الاسمية بدل من ربك "أَلَا" حرف تنبيه واستفتاح "إِنَّهُمْ" إن واسمها "فِي مِرْيَةٍ" متعلقان بمحذوف خبر "مِنْ لِقَاءِ" متعلقان بمحذوف صفة مرية "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "أَلَا" حرف استفتاح

"إِنَّهُ" إن واسمها "بِكُلِّ" متعلقان بمحيط "شَيْءٍ" مضاف إليه "مُحِيطٌ" خبر. انتهى

انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن/ لدعاس حـ 3 صـ 168. 180﴾

(161/679)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة حم فصلت

ذكر فِيهَا ثَلَاثَة أَحَادِيث

1139 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن أَبَا جهل قَالَ فِي مَلأ من قُرَيْش قد الْتبس علينا أَمر مُحَمَّد فَلَو الْتَمَسْتُمْ لنا رجلا عَالما بِالسحرِ وَالْكهَانَة وَالشعر فَكَلمهُ ثمَّ أَتَانَا ببَيَان من أمره فَقَالَ عتبَة بن ربيعَة وَالله لقد سَمِعت الشّعْر وَالْكهَانَة وَالسحر وَعلمت من ذَلِك علما وَمَا يخْفَى عَلَي فَأَتَاهُ فَقَالَ يَا مُحَمَّد أَنت خير أم هَاشم أَنت خير أم عبد الْمطلب أَنت خير أم عبد الله فَبِمَ تَشْتُم آلِهَتنَا وتظللنا فَإِن كنت تُرِيدُ الرِّئَاسَة عَقدنَا لَك اللِّوَاء فَكنت رَئِيسا وَإِن كَانَت بك الْبَاءَة زَوَّجْنَاك عشرَة نسْوَة تختار هن أَي بَنَات قُرَيْش شِئْت وَإِن كَانَ بك الْمَال جَمعنَا لَك مَالا

تَسْتَغْنِي بِهِ وَرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سَاكِت فَلَمَّا فرغ قَالَ (بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم حم إِلَى قَوْله صَاعِقَة مثل صَاعِقَة عَاد وَثَمُود فَأَمْسك عتبَة عَلَى فَمه وَنَاشَدَهُ الله وَالرحم وَرجع إِلَى أَهله وَلم يخرج إِلَى قُرَيْش فَلَمَّا احْتبس عَنْهُم قَالُوا مَا نرَى عتبَة إِلَّا قد صَبأ فَانْطَلَقُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا يَا عتبَة مَا حَبسك عَنَّا إِلَّا أَنَّك قد صَبَأت فَغَضب وَأقسم أَلا يكلم مُحَمَّدًا أبدا ثمَّ قَالَ وَالله لقد كلمته فَأَجَابَنِي بِشَيْء مَا هُوَ شعر وَلَا كُهَّانه وَلَا سحر وَلما بلغ صَاعِقَة عَاد وَثَمُود أَمْسَكت بِفِيهِ وَنَاشَدْته الرَّحِم أَن يكف وَقد علمْتُم أَن مُحَمَّدًا إِذا قَالَ شَيْئًا لم يكذب فَخفت أَن ينزل بكم الْعَذَاب

(162/679)

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة وَالْحَاكِم بِسَنَدِهِ إِلَى الْأَجْلَح بن عبد الله الْكِنْدِيّ عَن الذَّيَّال بن حَرْمَلَة عَن جَابر بن عبد الله قَالَ أَبُو جهل فِي مَلأ من قُرَيْش لقد انْتَشَر علينا أَمر مُحَمَّد فَلَو الْتَمَسْتُمْ عَالما بالسحر وَالْكهَانَة وَالشعر فَكَلمهُ ثمَّ أَتَانَا ببَيَان من أَمره فَقَالَ عتبَة لقد سَمِعت السحر وَالْكهَانَة وَالشعر وَعلمت من ذَلِك علما وَمَا يخْفَى عَلَيّ إِن كَانَ كَذَلِك فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ يَا مُحَمَّد أَنْت خير أم هَاشم أَنْت خير أم عبد الْمطلب أَنْت خير أم عبد الله فَبِمَ تَشْتُم آلِهَتنَا وتظللنا وَآبَاءنَا فَإِن كنت إِنَّمَا بك الرِّئَاسَة عَقدنَا لَك ألويتنا وَكنت رَأْسنَا مَا

بقيت وَإِن كَانَ بك الْبَاءَة زوَّجْنَاك عشرَة نسْوَة تختارهن من أَي أَبْيَات قُرَيْش شِئْت وَإِن كَانَ بك الْمَال جَمعنَا لَك من أَمْوَالنَا مَا تَسْتَغْنِي بِهِ أَنْت وَعَقِبك من بعْدك وَرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سَاكِت لَا يتَكَلَّم فَلَمَّا فرغ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم حم تَنْزِيل من الرَّحْمَن الرَّحِيم كتاب فصلت آيَاته قُرْآنًا عَرَبيا حَتَّى بلغ فَقل أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَة مِثَال صَاعِقَة عَاد وَثَمُود فَأَمْسك عتبَة عَلَى فِيهِ وَنَاشَدَهُ الرَّحِم ليكف عَنهُ لفظ ابْن مرْدَوَيْه وَرجع إِلَى أَهله وَلم يخرج إِلَى قُرَيْش وَاحْتبس عَنْهُم فَقَالَ أَبُو جهل يَا معشر قُرَيْش وَالله مَا نرَى عتبَة إِلَّا قد صبا إِلَى مُحَمَّد وَأَعْجَبهُ طَعَامه وَمَا ذَلِك إِلَّا من حَاجَة أَصَابَته انْطَلقُوا بنَا إِلَيْهِ فَأتوهُ فَقَالَ أَبُو جهل وَالله يَا عتبَة مَا حَسبنَا إِلَّا أَنَّك صَبَأت إِلَى مُحَمَّد وَأَعْجَبَك أمره فَإِن كَانَت بك حَاجَة

(163/679)

جَمعنَا لَك من أَمْوَالنَا مَا يُغْنِيك عَن طَعَام مُحَمَّد فَغَضب وَأقسم بِاللَّه لَا يكلم مُحَمَّدًا أبدا وَقَالَ لَقد علمْتُم أَنِّي من أَكثر قُرَيْش مَالا وَلَكِنِّي أَتَيْته فَقص عَلَيْهِم الْقِصَّة فَأَجَابَنِي بِشَيْء مَا هُوَ بسحر وَلَا شعر وَلَا كهَانَة قَرَأَ بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم حم تَنْزِيل من الرَّحْمَن الرَّحِيم حَتَّى بلغ فَقل أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَة مثل صَاعِقَة عَاد وَثَمُود فَأَمْسَكت بِفِيهِ وَنَاشَدْته الرَّحِم أَن

يكف وَقد علمْتُم أَن مُحَمَّدًا إِذا قَالَ شَيْئًا لم يكذب فَخفت أَن ينزل بكم الْعَذَاب انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي الْبَاب التَّاسِع عشر

وَرَوَاهُ أبي ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي أَوَائِل الْمَغَازِي وَعَن ابْن أبي شيبَة رَوَاهُ عبد حميد وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسنديهما

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره وَمن طَرِيقه رَوَاهُ الْبَغَوِيّ وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

(164/679)

وَسَنَد ابْن أبي شيبَة ثَنَا عَلّي بن مسْهر عَن الْأَجْلَح بِهِ وَهَذَا إِسْنَاد صَالح فالأجلح بن عبد الله الْكِنْدِيّ أَبُو جُحَيْفَة الْكُوفِي يُقَال اسْمه يَحْيَى وَإِنَّمَا الْأَجْلَح لقب لَهُ وَثَّقَهُ يَحْيَى بن مِعِين وَالْعجلِي وَقَالَ أَبُو حَاتِم يكْتب حَدِيثه وَلَا يحْتَج بِهِ (وَثَّقَهُ يَحْيَى بن مِعِين الْعجلِيّ مكر وَقَالَ أَبُو حَاتِم يكْتب حَدِيثه وَلَا يحْتَج بِهِ) وَقَالَ النَّسَائِيّ لَيْسَ بذلك وَقَالَ ابْن عدي لم أجد لَهُ حَدِيثا مُنْكرا إِلَّا أَنه يعد من شيعَة الْكُوفَة وَهُوَ عِنْدِي صَدُوق مُسْتَقِيم الحَدِيث وَأما الذَّيَّال بن حَرْمَلَة فَذكره ابْن أبي حَاتِم فِي كِتَابه وَلم يذكرهُ بجرح وَإِنَّمَا قَالَ رَوَى عَن ابْن عمر وَجَابِر وَعنهُ الْأَجْلَح وحجاج بن أَرْطَاة وَفطر سَمِعت أبي يَقُول ذَلِك انْتَهَى

وَرَوَاهُ الإِمَام مُحَمَّد بن إِسْحَاق فِي السِّيرَة فَقَالَ ثني يزِيد بن زِيَاد عَن مُحَمَّد بن كَعْب الْقرظِيّ قَالَ حدثت أَن عتبَة بن ربيعَة فَذكره هَكَذَا مُرْسلا بِزِيَادَة وَنقص

1140 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن سُفْيَان بن عبد الله الثَّقَفِيّ قَالَ قلت يَا رَسُول الله أَخْبرنِي بِأَمْر أَعْتَصِم بِهِ قَالَ (قل رَبِّي الله ثمَّ اسْتَقِم) قَالَ فَقلت مَا أخوف مَا يخَاف عَلَي فَأخذ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلسَانِهِ نَفسه ثمَّ قَالَ (هَذَا)

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي الطِّبّ وَابْن ماجة فِي الْفِتَن من حَدِيث عبد الرَّحْمَن ابْن مَاعِز عَن سُفْيَان بن عبد الله الثَّقَفِيّ قَالَ قلت يَا رَسُول الله حَدثنِي بِأَمْر أَعْتَصِم بِهِ قَالَ (قل رَبِّي الله ثمَّ اسْتَقِم) قلت يَا رَسُول الله مَا أخوف مَا أَخَاف عَلَي فاخذ بِلسَان نَفسه ثمَّ قَالَ (هَذَا) انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ

حَدِيث حسن صَحِيح انْتَهَى

(165/679)

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الأول من الْقسم الأول وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الرقَاق وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير فِي سُورَة الْأَحْقَاف من حَدِيث شُعْبَة عَن يعلي ابْن عَطاء عَن عبد الله بن سُفْيَان بن عبد الله الثَّقَفِيّ عَن أَبِيه قَالَ قلت يَا رَسُول الله مرني بِأَمْر فِي الْإِسْلَام لَا أسَال عَنهُ أحدا غَيْرك قَالَ (قل آمَنت بِاللَّه ثمَّ اسْتَقِم) قَالَ فنًّا أَبْقَى فَأخذ بِلسَان نَفسه انْتَهَى

وَيُوجد فِي بعض نسخ النَّسَائِيّ عَن سُفْيَان بن عبد الله عَن أَبِيه وَهُوَ غلط نبه عَلَيْهِ ابْن عَسَاكِر فِي أَطْرَافه

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث وَالثَّلَاثِينَ وَهُوَ سَنَد صَحِيح رِجَاله كلهم ثِقَات

وَشطر الْحَدِيث فِي مُسلم رَوَاهُ فِي كتاب الْإِيمَان عَن عُرْوَة عَن سُفْيَان بن عبد الله الثَّقَفِيّ قَالَ قلت يَا رَسُول الله قل لِي فِي الْإِسْلَام قولا لَا أسأَل عَنهُ أحدا بعْدك قَالَ (قل آمَنت بِاللَّه ثمَّ اسْتَقِم) انْتَهَى

1141 - الْحَدِيث الثَّالِث

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من قَرَأَ سُورَة السَّجْدَة أعطَاهُ الله بِكُل حرف عشر حَسَنَات)

قلت ذكره الثَّعْلَبِيّ من رِوَايَة أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير سَنَد وَذكره فِي الْفَائِق لِابْنِ غَنَائِم التنيسِي

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان إِلَّا أَنه قَالَ بعَدَد كل حرف . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 227.230 ﴾

(166/679)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة حم السجدة

قوله تعالى : (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) ، الآية/ 34 .

كان ذلك قبل فرض القتال .

قوله تعالى : (وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا) ، الآية/ 44 .

فيه دليل على أن القرآن بلغة العرب ، وأنه ليس أعجميا . . . وإذا نقل عن اللسان العربي

إلى غيره لم يكن قرآنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ

363 ﴾

(167/679)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة حم السّجدة» (41)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : «وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها» (10) واحدها قوت وهى الأرزاق وما احتيج إليه . .

«فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ» (10) مجاز نصبها مجاز المصدر . .

«قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ» (11) هذا مجاز الموات والحيوان الذي يشبّه تقدير فعله بفعل الآدميين . .

«وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً» (12) مجاز نصبها كنصب المصادر . .

«فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً» (16) الشديدة الصوت العاصف «1» «2» ، وقال ابن ميّادة «3» :

أشاقك المنزل والمحضر أودت به ريدانة صرصر

[818]

---

(1) . - 9 «هى . . . العاصفة» الذي ورد فى الفروق : مروى عن أبى عبيدة (فتح

الباري 8/ 430)

(2) . - 9 «معنى عاصفة» الذي ورد فى الفروق : رواها القرطبي (15/ 347) عن أبى عبيدة. [. . . . . .]

(3) . - 10 «ابن ميادة» : هو الرماح بن أبرد بن ثريان بن سراقة من بنى مرّة وأمه ميادة غلبت عليه وهو شاعر إسلامى انظر ترجمته فى الشعراء ص 484 والسمط ص 307 والخزانة 1/ 77 .

(168/679)

«نَحِساتٍ» (16) ذوات نحوس أي مشاييم «1» . .

«الْعَذابِ الْهُونِ» (17) أي الهوان . .

«يُوزَعُونَ» (19) يدفعون مجازها يفعلون من وزعت «2» «3» . .

«كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» (34) الحميم القريب «4» . .

«وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ» (37) أي خلق الليل والنهار والشمس والقمر فلما انتهى الكلام إلى الشمس والقمر وهما يعبدان نهى عن عبادتهما وأمر بعبادة الذي خلقهما وخلق الليل

والنهار فصار هاهنا جميعا وجميع الحيوان ذكرا كان أو مؤنثا أو ذكرا مع مؤنث يخرج إلى التأنيث . .

«اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ» (40) لم يأمرهم بعمل الكفر إنما هو توعد .

---

(1) . - 1 «نحسات . . . مشاييم» : روى ابن حجر هذا الكلام عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 430) .

(2) . - 819 : من قصيدة طويلة فى الأغانى 10/ 71 - 72 وهو فى الشعراء ص 274 مع آخرين .

(3) . - 3 «يوزعون . . . وزعت» : روى ابن حجر تفسيره هذا عنه (فتح الباري 8/ 431) .

(4) . - 4 «الحميم القريب» : روى تفسيره هذا البخاري ولكن وقع اسمه معمر فى أكثر الروايات :

وفيه قال ابن حجر : ولى حميم القريب : كذا للأكثر وعند النسفي وقال معمر فذكره ومعمر هو إن المثنى أبو عبيدة وهذا كلامه قال فى قوله كأنه . . . إلخ (فتح الباري 8/ 421) .

«مِنْ أَكْمامِها» (47) أي أوعيتها واحدها كمّة وهو ما كانت فيه وكم وكمّة واحد وجمعها أكمام وأكمّة . .

«مِنْ مَحِيصٍ» (48) يقال : حاص عنه حاد عنه «1» .

«يوس» (49) فعول من يئست . .

«قَنُوطٌ» (49) فعول من قنط ومجازهما واحد . .

«أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ» (51) أي تباعد عنى . .

«مِرْيَةٍ» (54) ومرية «2» أي امتراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 196 198. ﴾

---

(1) . - 1 - «من أكمامها . . . حاد» : روى ابن حجر هذا الكلام عنه (فتح الباري 8/ 421) .

(2) . - 7 «مرية ومربة» : أخذ البخاري تفسيره هذا عنه وأشار إليه ابن حجر بقوله : هو قول أبى عبيدة أيضا (فتح الباري 8/ 421) .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن حم وهى السورة التي تجب فيها «السجدة»

«1»

[سورة فصلت (41) : آية 5]

وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (5)

قوله تعالى : وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ [5] وهذه استعارة .

والأكنّة جمع كنان ، وهو الستر والغطاء . مثل : عنان ، وأعنّة .

وسنان ، وأسنّة .

وليس هناك على الحقيقة شىء مما أشاروا إليه . وإنما أخرجوا هذا الكلام مخرج الدلالة على استثقالهم ما يسمعونه من قوارع القرآن ، وبواقع البيان . فكأنهم من قوة الزهادة فيه ، وشدّة الكراهية له ، قد وقرت أسماعهم عن فهمه ، وأكنّت قلوبهم دون علمه .

وذلك معروف فى عادات الناس أن يقول القائل منهم لمن يشنأ كلامه ، ويستثقل خطابه : ما أسمع قولك ، ولا أعى لفظك . وإن كان صحيح حاسّة السمع . إلا أنه حمل الكلام على الاستثقال والمقت .

وعلى هذا قول الشاعر «2» :

وكلام سيّىء قد وقرت أذنى عنه ، وما بي من صمم

---

(1) هى سورة فصلت ، وهى السورة الحادية والأربعون من القرآن .

(2) لم أهتد إلى اسم هذا الشاعر ، وقد ورد هذا البيت فى «أساس البلاغة» للزمخشرى مادة «وقر» ولم يذكر قائله . وروايته فى الأساس هكذا :

كم كلام سيىء قد وقرت أذنى عنه ، وما بي من صمم

[سورة فصلت (41) : آية 11]

ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (11)

وقوله تعالى : ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ ، فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ [11] . وهذه استعارة . فليس هناك - على الحقيقة - قول ولا جواب ، وإنما ذلك عبارة عن سرعة تكوين السموات والأرض . كما قال تعالى :

إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «1» ولو لم يكن المراد ما ذكرنا لكان فى

هذا الكلام أمر للمعدوم ، وخطاب لغير الموجود . وذلك يستحيل من من فعل الحكيم سبحانه .

ومعنى قوله تعالى : قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ أنهما جرتا على المراد ، ووقفتا عند الحدود والأقدار ، من غير معاناة طويلة ، ولا مشقة شديدة . فكانت فى ذلك جارية مجرى الطائع المميّز إذا انقاد إلى ما أمر به ، ووقف عند ما وقف عنده .

وقال بعضهم : معنى قوله سبحانه : ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً أي : كونا على ما أريد منكما من لين وشدة ، وسهل وحزونة ، وصعب وذلول ، ومبرم وسحيل «2» .

والكره والشدة بمعنى واحد فى اللغة العربية . يقول القائل منهم لغيره : أنا أكره فراقك . أي يصعب علىّ أن أفارقك .

وقال سبحانه : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ «3» أي شديد عليكم . ومعنى الطوع هاهنا : التشهد «4» والانقياد من غير إبطاء ولا اعتياص .

وإنما قال سبحانه : قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ لأنه جعل السموات والأرض كلّها كالواحدة والأرض جميعا كذلك ، فحسن أن يعبر عنهما بعبارة الاثنين دون عبارة الجميع .

---

(1) سورة النحل الآية رقم 40 .

(2) المبرم : الخيط أو الحبل الذي فتل فتلتين ، والسحيل : الحبل الذي فتل فتلا واحدا .

(3) سورة البقرة. الآية رقم 216.

(4) هكذا بالأصل. ولعلها التسهل.

وأما قوله سبحانه: قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ فكان وجه الكلام أن يكون طائعتين، أو طائعات ردا على معنى التأنيث. فالمراد به- والله أعلم- عند بعضهم: قالتا أتينا بمن فينا من الخلق طائعين. فكان (طائعين) وصفا للخلق المميزين، لا وصفا للسموات والأرض.

وقال بعضهم: لمّا تضمّن الكلام ذكر السموات والأرض فى الخطاب لهما، والكناية عنهما بما يخاطب به أهل التمييز ويكنى به عن السامعين الناطقين، أجريتا فى رد الفعل إليهما مجرى العاقل اللبيب، والسامع المجيب. وذلك مثل قوله تعالى:

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ «1». ولو أجرى اللفظ على حقيقته، وحمل على محجّته لقيل ساجدات. ولكن المراد بذلك لما كان ما أشرنا إليه حسن، أن يقال ساجدين، وطائعين.

[سورة فصلت (41): آية 17]

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا

يَكْسِبُونَ (17)

وقوله سبحانه : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى [17] وهذه استعارة . والمراد بالعمى هاهنا ظلام البصيرة ، والمتاه فى الغواية . فإن ذلك أخفّ على الإنسان وأشد ملاءمة للطباع ، من تحمل مشاق النظر ، والتلجيج فى غمار الفكر .

[سورة فصلت (41) : آية 23]

وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (23)

وقوله تعالى : وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ [23] وهذه استعارة . لأن الظن الذي ظنوه على الحقيقة لم يردهم بمعنى يهلكهم . وإنما أهلكهم اللّه سبحانه جزاء على ما ظنوه به من الظنون السيئة ، ونسبوه إليه من الأفعال القبيحة . فلما كان ذلك الظن سببا فى هلاكهم جاز أن ينسب إليه الهلاك الواقع بهم .

---

(1) سورة يوسف . الآية رقم 4 .

[سورة فصلت (41) : آية 39]

وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها

لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)

وقوله سبحانه: وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً، فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ [39] وهذه استعارة. وقد مضى الكلام على نظيرها فى «الحج». إلا أن ها هنا زيادة، وهى صفة الأرض بالخشوع، كما وصفت هناك بالهمود. واللفظان جميعا يرجعان إلى معنى واحد، وهو ما يظهر على الأرض من آثار الجدب، وأعلام المحل، فتكون كالإنسان الخاشع الذي قد سكنت أطرافه، وتطأطأ استشرافه.

[سورة فصلت (41): الآيات 41 الى 42]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42)

وقوله سبحانه: وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ، لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [41]، [42] وهذه استعارة. وقد قيل فيها أقوال:

منها أن يكون المراد بذلك أن هذا الكتاب العزيز لا يشبهه شىء من الكلام المتقدم له، ولا يشبهه شىء من الكلام الوارد بعده. فهذا معنى: مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ لأنه لو أشبهه شىء من الكلام المتقدم أو الكلام المتأخر لأبطل معجزته، وفصم حجته.

فكأن الباطل قد أتاه من إحدى الجهتين المذكورتين، إما من جهة أمامه، وإما من جهة ورائه. وهذا معنى عجيب.

وقال بعضهم : معنى ذلك أنه لا تعلق به الشّبهة من طريق المشاكلة ، ولا الحقيقة من جهة المناقضة ، فهو الحق الخالص الذي لا يشوبه شائب ، ولا يلحقه طالب .

وقال بعضهم : معنى ذلك أن الشيطان والإنسان لا يقدران على أن ينتقصا منه حقا ، ولا يزيدا فيه باطلا .

وقال بعضهم : معنى ذلك أنه لا باطل فيه من الإخبار عمّا كان وما يكون . فكأنّ المراد بقوله سبحانه : لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أي من جهة ما أخبر عنه

(174/679)

من الأمور الواقعة . وبقوله : وَلا مِنْ خَلْفِهِ أي من جهة ما أخبر عنه من الأمور المتوقعة .

[سورة فصلت (41) : آية 44]

وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (44)

وقوله سبحانه : أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ [44] وهذه استعارة .

والمراد بها - والله أعلم - صفتهم بالتباعد عن طريق الرشد ، والإعراض عن دعاء الحق .

كأنهم من شدة الذهاب بأسماعهم ، والانصراف بقلوبهم ينادون من مكان بعيد . فالنداء غير مسمع لهم ، ولا واصل إليهم . ولو سمعوه لضلّ عنهم فهمه ، للصدّ «1» المنفرج بينهم وبينه .

[سورة فصلت (41) : آية 51]

وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (51)

وقوله سبحانه وتعالى : وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ ، وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ [51] وهذه استعارة ، والمراد بها صفة الدعاء بالسّعة والكثرة ، وليس يراد العرض الذي هو ضد للطول . وذلك أن صفة الشيء بالعرض تفيد فيه معنى الطول ، لأنه لو لم يكن مع العرض طول لكان العرض هو الطّول .

ألا ترى أنهم يصفون الرّمح بالطول ، ولا يصفونه بالعرض إذ كان طوله أضعاف عرضه .

ويصفون الإزار بأنه عريض إذ كان عرضه مقاربا لطوله .

وقد استقصينا شرح ذلك فى كتابنا الكبير ، واقتصرنا منه ها هنا على البلغة الكافية ، والنكتة الشافية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 292. 296 ﴾

---

(1) غير واضحة بالأصل ، ولعلها للبعد .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة فصلت

" تنزيل من الرحمن الرحيم " من ينابيع الرحمة تنزلت آيات الكتاب ، فهى هداية تقى الناس شرور أنفسهم وسيئات أعمالهم ، وتحميهم من خطل الأفكار وفوضى الغرائز ، وطغيان القوى وعوج الأهواء ! إن الوحى المبارك فيه الخير كله والعدل كله " كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا " . أهل الوعى يدركون فضل هذه الآيات التى تجد الأتقياء بالرضا ، وتتوعد الأغبياء بالشقاء ، وما أقل الواعين فى الناس ! ولذلك قال " فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون " . وعروبة القرآن سمة الوحى المعجز ، فلو ترجمت معانيه إلى لسان آخر ما كان المترجم قرآنا . إن الله اختار لغة العرب لتكون وعاء وحيه ، واصطفى أهل هذه اللغة ليقودوا الناس إلى الخير . وفى الجاهلية الأولى لم يقبل الناس على الإسلام أول الأمر ، بل كان إعراضهم عنه قاسيا جافيا ، ومازال محمد بهم – عليه الصلاة والسلام – حتى عرفوا الحقيقة وافتدوها بالنفس والمال ، وهدموا دولا ظلت دهرا طويلا تحمى الطاغوت وتفرض العدوان . . أما عرب الجاهلية المعاصرة فقد انحدرت إليهم خستان: تقاليد آبائهم أيام انحلال الحضارة الإسلامية ، وتقاليد الغرب المادى الغارق فى

ملذاته وأوهامه ! ولا أعرف ناسا أوضع من ملاحدة العرب ، وأبعد عن الفكر والإنصاف ، ويمكن أن يرددوا مقالة أبى جهل وأضرابه " وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون " . وقد شاء الله أن يحمل العرب رسالة الإسلام . وأن تفضل هداياته بلسانهم ، وقال "ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته

أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد " .

(176/679)

ذلك ، ويعتبر عربيا أى امرئ من القارات الخمس استعرب وجاد فى لغة القرآن . فالعروبة ليست دم جنس معين ، وقد أسلم قديما من الفرس والروم من خدم القرآن ولسانه أكثر ممن ولد فى بطحاء الجزيرة ! والمهم ألا تكون على القلوب أغشية وألا تكون على الحواس علل تمنع من حسن السمع والنظر . . وأى امرئ سَوىّ يستطيع بعدئذ أن يتبع محمدا وهو يناشد البشر أجمعين " قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون " . هل

الاستقامة على الصراط والاستغفار من الخطأ تكاليف شاقة ؟ وهل توحيد الله والرحمة بالفقراء واجبات صعبة ؟ ؟ إنها كذلك عند أولى الأثرة والكبر ! ومصير هؤلاء كالح ، ولذلك هدد القرآن العرب – الأولين والآخرين – بالويل إذا طال إعراضهم عن الحق وجفاؤهم لرسوله ، إنه مصير آبائهم الأقدمين من عاد وثمود ! " فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . . " . إن عاقبة الأخلاق القبيحة متشابهة وإن تباعدت السنون . لماذا هلكت عاد ؟ " فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة " . ولماذا هلكت ثمود ؟ " وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى . . " . إن بطر الحق وغمص الناس عند عاد ، وإيثار الغى على الرشاد والباطل على الحق عند ثمود ، هو ما أودى بهما . . فهل ينجو غيرهم من هذا المصير إذا تخلق بهذه الأخلاق ؟ كلا إن الله لا يصلح عمل المفسدين . إننى أنظر إلى عرب اليوم وموقفهم من الإسلام فيغلبنى التشاؤم . . ! ثم إن عذاب الدنيا لا يغنى عن عذاب الآخرة " ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . . " . إن السمع والبصر نعم أسداها الله للإنسان كى يعرف من عظمة الخلق عظمة الخالق ، وكى

يطل بعقله على الكون الكبير ، فيقول الله أكبر . . فإذا عزل المرء سمعه وغطى بصره ، ولم يتخذ طريقا إلى الله ، فإن هذه المشاعر المهدرة ستكون أول من يشهد عليه ويعين على عذابه ، يوم يلقى فى النار ويواجه مصيرا لم تلق الحيوانات مثله ! ويلاحظ أنه بين عرض الدعوة وجزاء مكذبيها وقع اعتراض معنوى طويل تضمن الكلام عن نشأة الخليقة ونظام الملكوت الضخم: " قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين " . إن الإنسان من هذه الأرض نشأ وعلى خيراتها يحيا ، ومنذ استخلفه الله فيها جعله ملكا على عناصرها ليكون عبدا لربه الذى سواه ونفخ فيه من روحه . . لكن الإنسان نسى وطغى . والظاهر من كلام العلماء أن الله أبدع المجموعة الشمسية أولا " خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور " . ثم أنشأ البشرية بعدما مهد الأرض لسكناها ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها . وهنا ، وفى مواضع أخرى لفت الإنسان إلى أقرب شىء إليه ، إلى الأرض التى عليها يعيش ، ويؤمن إن شاء أو يكفر ! ! وذكر هذه الحقائق عقب عرض الدعوة مفهوم ، فتدبرها أساس الإيمان ، والتعامى عنها سبب البوار . فى وسط سورة " فصلت " حديث عن عوالم أخرى تتصل بالإنسان وهويهم بالخير أو بالشر . إنه حديث عن الجن ووساوسها والملائكة وإلهاماتها ، والماديون ينكرون ذلك

كله ، وليس لديهم دليل إلا وقوفهم عند الحس . ونحن نحترم المادة وما وراءها ونعترف بعالم الجن والملائكة والبشر جميعا . من الجن مؤمنون أخيار ، ومنهم شياطين تلازم المرء وتنتهز غفلاته لتغريه بمعصية الله والتهاون بحقوقه . وقد انتهز إبليس – كبير الشياطين – خور – آدم وغفلته وأزه على الأكل من الشجرة المحرمة ، وحلف له كاذبا أنه ناصح أمين ! وأكل آدم وطرد من الجنة ، والسبب الأول نسيانه وضعف عزيمته . والسبب الثانى

(178/679)

تربص الشيطان به وانتهازه الفرصة لخديعته . وكذلك فعل الشيطان مع خصوم الإسلام صدر الدعوة قال تعالى:

" وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين * وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون " . إن الكافرين رفضوا القرآن وكرهوا سماعه ، وأغراهم الشيطان أن يحدثوا ضجيجا فى مجلسه حتى لا يخلص إلى القلوب ، وهذا منتهى الفشل فى مواجهة الحق والعجز عن مجادلته . وكل صاد عن الحق يغريه الشيطان بمثل هذه الأفعال . ويوم الحساب يندمون على هذا الهوس " وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا

من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين " . أما أولو الألباب الذين شرحوا بالحق صدرا واتجهوا إلى نصرته ، فإن الملائكة تحفهم وتؤنس وحشتهم وتعينهم على تخطى العقبات: " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون " . ويرى أغلب المفسرين أن هذه الآية تتنزل على المحتضرين وهم فى آخر منازل الدنيا وأول منازل الآخرة ، لتطمئنهم على ما تركوا من أحبة ولتشرح صدورهم بما سيلقون من رضوان ! ! ولا بأس بهذا القول ، وهو لا ينفى ما يدل عليه السياق من أن الملائكة تهبط على المؤمنين فى أثناء جهادهم فتلهمهم الرشد وتعينهم على الحق . وقد صح أن الرسول – عليه الصلاة والسلام – قال ! لرجل أحسن الثناء على الله: أعانك عليها ملك كريم ، وقال لحسان بن ثابت وهو ينافح عن رسول الله: روح القدس يؤيدك . إن الملائكة تعين على الحق كما تعين الشياطين على الباطل ، والأساس فى الثواب والعقاب هو اتجاه الإنسان ، وكسبه واكتسابه . . " والشيطان ماهر فى تجز الإنسان بعيدا عن الله وفى تعمية الصراط المستقيم أمامه ، فكانت الدعوة إلى الله عملا يذكر الناس وينشط الكسول . والمفروض أن جهاز الدعوة يحرس

الحقائق ويرد الشياطين ويطارد الأوهام والأهواء " ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين " . والرسل أئمة الدعاة على امتداد الزمن ، ونشاطهم ركن فى دعم الإيمان وانتصار الخير ، وأول ما يتجهون إليه تعريف الناس بربهم وتحبيبهم فيه .

وقد جاءت آيات فى السورة لتحقيق هذا المعنى

" ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن " . " ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . . " . " إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه " . والمحزن أن أجهزة الدعوة الإسلامية معطوبة ، وقد تكون فى بعض الأعصار والأمصار معدومة ، وتفريط العرب فى خدمة الدعوة لا يمكن الدفاع عنه ، وانشغالهم بأهوائهم وعصبياتهم أسقط دولتهم وأضاع رسالتهم ، ويمكن أن تساق فيهم الآيات . " إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا . . " . " إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . . " . إن حمل العرب لرسالة محمد هو حمل لرسالات الأنبياء قاطبة . فهم فى الدنيا يمثلون الوحى من الأزل حتى النهاية " ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . . " . أما أهل الكتاب فقد أضاعوا ما لديهم ونسوا قواعده " ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم " . ومن الغريب أن القوم أنشط من المسلمين المعاصرين فى

خدمة مواريثهم . . ولهم مطارات لتنقيل الدعاة بين الشرق والغرب ! ! وقد ختمت السورة بآيات تغنى العرب المحدثين والعرب القدامى جميعا " قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد " ؟ ثم يقول تعالى " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد " ؟ إن كل يوم يجيء يزيد أشعة القرآن وهجا وحقائقه قوة ،

(180/679)

ويزيد نبوة محمد رسوخا وصدقا . لقد دعا إلى التوحيد الخالص ، فهل اكتشف إله جديد غير مرسل الأنبياء المعروفين ؟ ولقد وضع نظما للفرد والمجتمع والدولة ، فهل وجدت فى هذه النظم ثغرة ؟ إنه ما يعيبها إلا التعطيل والإهمال " ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 369 . 373 ﴾

(181/679)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثمانون بعد الستمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثمانون بعد الستمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة فصلت

وحتى الآية ﴿ 18 ﴾ من نفس السورة

(4/680)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/680)

قوله تعالى ﴿ حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي لم يرض لإحاطته بأوصاف الكمال من جلال الكتاب إلا ما اقترن بجمال

العمل (الرحمن) الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ففصل الكتاب تفصيلاً وبينه غاية البيان (الرحيم) الذي خص العلماء العاملين بسماع الدعوة ونفوذ الكلمة) حم) أي حكمة محمد التي أعجزت الخلائق .

(6/680)

ولما ختمت غافر الكفرة جادلوا في آيات الله بالباطل ، وفرحوا بما عندهم من علم ظاهر الحياة الدنيا ، وأنهم عند البأس انسلخوا عنه وتبرؤوا منه ورجعوا إلى ما جاءت به الرسل فلم يقبل منهم ، فعلم أن كل علم لم ينفع عند الشدة والبأس فليس بعلم ، بل الجهل خير منه ، وكان ذلك شاقاً على النبي (صلى الله عليه وسلم) خوفاً من أن يكون آخر أمر أمته الهلاك ، مع الإصرار على الكفر إلى مجيء البأس ، وأن يكون أغلب أحواله (صلى الله عليه وسلم) النذارة ، افتتح سبحانه هذه السورة بأن هذا القرآن رحمة لمن كان له علم وله قوة توجب له القيام فيما ينفعه ، وكرر الوصف بالرحمة في صفة العموم وصفة الخصوص إشارة إلى أن أكثر الأمة مرحوم ، وأعلم أن الكتاب فصل تفصيلاً وبين تبييناً لا يضره جدال مجال ، وكيد مماحك مماحل ، وأنه مغن بعجز الخلق عنه عن اقتراح الآيات فقال مخبراً عن مبتدأ : (تنزيل) أي بحسب التدريج عظيم) من الرحمن) أي الذي له الرحمة العامة للكافر والمؤمن

بإنزال الكتب وإرسال الرسل) الرحيم) أي الذي يخص رحمته بالمؤمنين بإلزامهم ما يرضيه عنهم .

ولما تشوف السامع إلى بيان هذا التنزيل المفرق بالتدريج ، بين أنه مع ذلك حاوٍ لكل خير فقال مبدلاً من تنزيل : (كتاب) أي جامع قاطع غالب .

(7/680)

ولما كان الجمع ربما أدى إلى اللبس قال : (فصلت) أي تفصيل الجوهر) آياته) أي بينت بياناً شافياً في اللفظ والمعنى مع كونها مفصلة إلى أنواع من المعاني ، وإلى مقاطع وغايات ترقى جلائل المعاني إلى أعلى النهايات ، حال كونه) قرآناً) أي جامعاً مع التفصيل ، وهو مع الجمع محفوظ بما تؤديه مادة (قرا) من معنى الإمساك ، وهو مع جمع اللفظ وضبطه وحفظه وربطه منشور اللواء منتشر المعاني لا إلى حد ، ولا نهاية وعد ، بل كلما دقق النظر جل المفهوم ، ولذلك قال تعالى : (عربياً (لأن لسان العرب أوسع الألسن ساحة ، وأعمقها عمقاً وأغمرها باحة ، وأرفعها بناء وأفصحها لفظاً ، وأبينها معنى وأجلها في النفوس وقعاً ، قال الحرالي : وهو قرأن لجمعه ، فرقان لتفصيله ، ذكر لتنبيهه على ما في الفطر والجبلات ، وجوده حكيم لإنبائه الاقتضاءات الحكمية ، مجيد لإقامته قسطاس

العدل ، عربي لبيانه عم كل شيء ، كما قال تعالى في سوره أحسن القصص ، وتفصيل كل شيء مبين لمحوه الكفر بما أبان من إحاطة أمر الله ، محفوظ لإحاطته حيث لم يختص فيقبل العدول عن سنن .

ولما كان لا يظهر إلا لمن له قابلية ذلك ، وأدمن اللزوم ذلاً للأعتاب ، والقرع خضوعاً وحباً للأبواب ، قال معلقاً ب (فصلت أو تنزيل) أو (الرحمن الرحيم) : (لقوم) أي ناس فيهم قوة الإدراك لما يحاولونه) يعملون) أي فيهم قابلية العلم وتجدد الفهم

(8/680)

بما فيهم من سلامة الطبع وسلاسة الانقياد لبراهين العقل والسمع وحدة الأذهان وفصاحة اللسان وصحة الأفكار وبعد الأغوار ، وفي هذا تبكيت لهم في كونهم لا ينظرون محاسنه فيهتدوا بها كما يعتنون بالنظر في القصائد حتى يقضوا لبعضها على بعض حتى أنهم ليعلقون بعضها على الكعبة المشرفة تشريفاً له ، وفيه حث لهم – وهم أولو العزائم الكبار – على العلم بع ليغتنوا عن سؤال اليهود ، وفيه بشرى بأنه تعالى يهب العرب بعد هذا الجهل علماً كثيراً ، وعن هذا الكفر إيماناً عظيماً كبيراً ، وفي الآية إشارة إلى ذم المقترحين المشار إليهم آخر التي قبلها بأنهم قد أتاهم ما أغناهم عنه من آيات هذا الكتاب الذي عجزوا عن

مباراته ، ومناظرته ومجاراته وذلك في غاية الغرابة ، لأنه كلام من جنس كلامهم في كونه عربياً ، وقد خالفت كلامهم وأسجاعهم ، مع كونه ليس شعراً ولا سجعاً أصلاً ولا هم من أنواع نثرهم ، ولا من ضروب خطبهم ، فعجزوا عن الإيتان بشيء من مثله في مر الأحقاب وكر الدهور والأعضار ، وكفى بذلك معجزة شديدة الغرابة بمن ينيب .

وقال الإمام أبو جعفر ابن الزبير : لما تضمنت سورة غافر بيان حال المعاندين وجاحدي الآيات ، وأن ذلك ثمرة تكذيبهم وجدلهم ، وكان بناء السورة على هذا الغرض بدليل افتتاحها وختمها ، ألا ترى قوله تعالى

(ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا)

[غافر : 4] وتأنيس نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام بقوله

(فلا يغررك تقبلهم في البلاد)

[غافر : 4] فقد تقدم ذلك من غيرهم فأعقبهم سوء العاقبة والأخذ الوبيل) كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه (فعصمتهم واقية

(إنا لننصر رسلنا)

[غافر : 51] وقال تعالى :

(وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ( ) 7

[غافر : 5] أي رأيت ما حل بهم وقد بلغك خبرهم ، فلا اعتبر هؤلاء بهم

---

77 ( ) أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وإثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ( ) 7

[غافر : 21] وإنما أخذهم بتكذيبهم الآيات) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله (ثم ذكر تعالى من حزب المكذبين فرعون وهامان وقارون ، وبسط القصة تنبيهاً على سوء عاقبة من عتند وجادل بالباطل وكذب الآيات ، ثم قال تعالى بعد آيات) إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه (إذ الحول والقوة ليست لهم

(فاستعذ بالله ( ) 7

[الأعراف : 300] من شرهم ، فخلق غيرهم لة استبصروا أعظم من خلقهم

(لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس)

[غافر : 57] وهو غير آمنين من الأخذ من كلا الخلقين

(إنما نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء)

[سبأ : 9] ثم قال تعالى بعد هذا) ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنّى يصرفون (إن

أمرهم لعجيب في صرفهم عن استيضاح الآيات بعد بيانها ، ثم ذكر تعالى سوء حالهم في العذاب الأخروي وواهي اعتذارهم بقولهم

(ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً)

[غافر : 74] ثم صبر تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) بقوله :

(فاصبر إن وعد الله حق)

(10/680)

[الروم : 60] ثم أعاد تنبيههم فقال تعالى : (أفلم يسيروا في الأرض (إلى ختم السورة ، ولم يقع من هذا التنبيه الذي دارت عليه آي هذه السورة في سورة الزمر شيء ولا من تكرار التحذير من تكذيب الآيات ، فلما بينت على هذا الغرض أعقبت بذكر الآية العظيمة التي تحديت بها العرب ، وقامت بها حجة الله سبحانه على الخلق ، وكان قيله لهم : احذروا ما قدم لكم ، فقد جاءكم محمد (صلى الله عليه وسلم) بأوضح آية وأعظم برهان) تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً (وتضمنت هذه السورة العظيمة من بيان عظيم الكتاب وجلالة قدره وكبير الرحمة به ما لا يوجد في غيرها من أقرانها كما أنها في الفصاحة تبهر العقول بأول وهلة ، فلا يمكن العربي الفصيح في شاهد

برهان أدنى توقف ، ولا يجول في وهمه إلى معارضة بعض آيها أدنى تشوف ، وأنه لكتاب عزيز) لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ( ) ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي (فوبخهم سبحانه وتعالى وأدحض حجتهم وأرغم باطلهم وبكَّت دعاويهم ثم قال) قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في اذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ( ) إنما يستجيب الذين يسمعون (وقرعهم تعالى في ركيك جوابهم عن واضح حجته بقولهم) قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر (وقولهم) لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه (وهذه شهادة منهم على أنفسهم بالانقطاع عن معارضته ، وتسجيلهم بقوة عارضته ، ثم فضحهم بقوله) قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به (– الآية ، وتحملت السورة مع هذا بيان هلاك من عاند وكذب ممن كان قبلهم وأشد قوة منهم ، وهم الذين قدم ذكرهم مجملاً في سورة غافر في آيتي) أو لم يسيروا في الأرض ( ) أفلم يسيروا (فقال تعالى مفصلاً لبعض ذلك الإجمال) فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل

(11/680)

صاعقة عاد وثمود (ثم قال) فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة (ثم قال تعالى) فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً (الاية ، ثم قال) وأما ثمود (فبين تعالى حالهم وأخذهم ، فاعتضد التحام السورتين ، واتصال المقصدين – والله أعلم – انتهى .

ولما كان حال الإنسان إن مال إلى جانب الخوف الهلع أو إلى جانب الرجاء البطر ، فكان لا يصلحه إلا الاعتدال ، بالتوسط الموصل إلى الكمال ، بما يكون لطبعه بمنزلة حفظ الصحة ودفع المرض لبدنه ، قال واصفاً ل (قرآناً)) بشيراً) أي لمن اتبع (ونذيراً) أي لمن امتنع فانقطع .

روى أبو نعيم في الحلية في تلاجمة إمامنا الشافعي رضي الله عنه وأرضاه أنه روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجه أنه قال في خطبة له : وأعجب ما في الإنسان قلبه ، وله مواد من الحكمة وأضداد من خلافها إن سنح له الرجاء ادلهمه الطمع ، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن سعد بالرضى نسي التحفظ ، وإن ناله الخوف شغله الحزن ، وإن أصابته مصيبة قصمه الجزع ، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى ، وإن عضته فاقة شغله البلاء ، وإن أجهده الجوع قعد به الضعف ، فكل تقصير به مضر وكل إفراط به مفسد .

ولما كانت عادتهم دوام الاحتياط في كل بشارة ونذارة بأمر دنيوي ، سبب عن هذا مخالفتهم لعادتهم في ترك الحزم بالجزم بالإعراض فقال : (فأعرض أكثرهم) أي عن تجويز

شيء من بشائره أو نذائره) فهم (لذلك) لا يسمعون) أي يفعلون فعل من لا يسمع فهم لا يقبلون شيئاً مما دعا إليه وحث عليه .

(12/680)

ولما أخبر عن إعراضهم ، أخبر عن مباعدتهم فيه فقال : (وقالوا) أي عند إعراضهم ممثلين لمباعدتهم في عدم قبولهم : (قلوبنا في أكِنَّة) أي أغشية محيطة بها ، ولما كان السياق في الكهف للعظمة كان الأنسب له أداة الاستعلاء فقال) إنا جعلنا على قلوبهم أكنة (وعبروا هنا بالظرف إبعاداً لأن يسمعوا) مما) أي مبتدئة تلك الأغشية وناشئة من الأمر الذي) تدعونا (أيها المخبر بأنه نبي) إليه (فلا سبيل له إلى الوصول إليها لنفيه أصلاً .

ولما كان القلب أفهم لما يرد إليه من جهة السمع قالوا : (وفي آذاننا (التي هي أحد الطرق الموصلة إلى القلوب (وقر) أي ثقل قد أصمها عن سماعه) ومن بيننا وبينك) أي مبتدئ من الحد الذي فصلك منا والحد الذي فصلنا منك في منتصف المسافة قي ذلك) حجاب (ساتر كثيف ، فنحن لا نراك لنفهم عنك بالإشارة ، فانسدت طرق الفهم لما نقول) فاعمل) أي بما تدين به .

ولما كان تكرار الوعظ موضعاً للرجاء في رجوع الموعوظ قطعوا ذلك الرجاء بالتأكيد

بأداته ، وزادوه بالنون الثالثة والتعبير بالاسمية فقالوا : (إننا عاملون) أي بما ندين به فلا مواصلة بيننا بوجه ليستحي أحد منا من الآخر في عمله أو يرجع إليه ، ولو قال) وبيننا (من غير) من (لأفهم أن البينين بأسرهما حجاب ، فكان كل من الفريقين ملاصقاً لبينه ، وهو نصف الفراغ الحاصل بينه

وبين خصمه ، فيكون حينئذ كل فريق محبوساً بحجابة لا يقدر على عمل فينا في ما بعده أو يكون بينهما اتصال أقله بالإعلام بطرق من أراد من المتباينين الحجاب ، فأفادت (من) التبعيض مع إفادة الابتداء ، فإنهم لا يثبتون الحجاب في غير أمور الدين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 547.552 ﴾

(13/680)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ سواء ﴾ بالرفع : يزيد . وقرأ يعقوب بالجر . الباقون : بالنصب ﴿ نحسات ﴾ بسكون الحاء : ابن كثير وأبو عمرو ونافع وسهل ويعقوب ﴿ وأما ثمود ﴾ بالنصب : المفضل ﴿ نحشر ﴾ بالنون ﴿ أعداء ﴾ بالنصب : نافع ويعقوب . الآخرون

: بالياء مجهولاً ﴿ أعداء ﴾ مرفوعاً .

الوقوف : ﴿ حم ﴾ كوفي ﴿ الرحيم ﴾ 5 ج لأن قوله ﴿ كتاب ﴾ يصلح أن يكون بدلاً من ﴿ تنزيل ﴾ وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو كتاب . ويجوز أن يكون ﴿ تنزيل ﴾ هو مع وصفه مبتدأ ﴿ وكتاب ﴾ خبره ﴿ يعلمون ﴾ 5 ج لأن ﴿ وبشيراً ﴾ صفة أخرى ل ﴿ قرآناً ﴾ ﴿ ونذيراً ﴾ 5 ج لاختلاف الجملتين ﴿ لا يسمعون ﴾ 5 ﴿ عاملون ﴾ 5 ﴿ واستغفروه ﴾ ج ﴿ للمشركين ﴾ 5 لا ﴿ كافرون ﴾ 5 ﴿ ممنون ﴾ 5 ﴿ وأنداداً ﴾ ط ﴿ العالمين ﴾ 5 لا للآية مع العطف ﴿ أيام ﴾ ط لمن نصب ﴿ سواء ﴾ أو رفع ومن خفض لم يقف ﴿ للسائلين ﴾ 5 ﴿ كرهاً ﴾ ط ﴿ طائعين ﴾ 5 ﴿ أمرها ﴾ ج للعدول ﴿ بمصابيح ﴾ ج لحق المحذوف أي وحفظناها حفظاً ولعل الوصل أولى لما يجيء ﴿ وحفظاً ﴾ 5 ﴿ العليم ﴾ 5 ﴿ وثمود ﴾ 5 بناء على أن " إذ " يتعلق بمحذوف هو اذكر أو بمعنى الفعل في الصاعقة أي يصعقون إذ ذاك ، ولا يجوز أن يتعلق ب ﴿ أنذرتكم ﴾ ﴿ إلا الله ﴾ ط ﴿ كافرون ﴾ 5 ﴿ منا قوّة ﴾ ط ﴿ منهم قوّة ﴾ ط للفصل بين الإخبار والاستخبار ﴿ يجحدون ﴾ 5 ﴿ الدنيا ﴾ ج ﴿ لا ينصرون ﴾ 5 ﴿ يكسبون ﴾ 5 ﴿ يتقون ﴾ 5 ﴿ يوزعون ﴾ 5 ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿ علينا ﴾ ط ﴿ ترجعون ﴾ 5 ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ الخاسرين ﴾ 5

﴿ مثوى لهم ﴾ ط ﴿ المعتبين ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 48.47 ﴾

(14/680)

فصل

قال الفخر :

﴿ حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) ﴾

اعلم أن في أول هذه السورة احتمالات أحدها : وهو الأقوى أن يقال حام اسم للسورة وهو في موضع المبتدأ وتنزيل خبره ، وثانيها : قال الأخفش : تنزيل رفع بالابتداء وكتاب خبره ، وثالثها : قال الزجاج : تنزيل رفع بالابتداء وخبره كتاب فصلت آياته ووجهه أن قوله ﴿ تَنزِيلَ ﴾ تخصص بالصفة وهو قوله ﴿ مِّنَ الرحمن الرحيم ﴾ فجاز وقوعه مبتدأ .

(15/680)

واعلم أنه تعالى حكم على السورة المسماة بحام بأشياء أولها : كونه تنزيلاً والمراد المنزّل والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور ، يقال هذا بناء الأمير أي مبنيه ، وهذا الدرهم ضرب السلطان أي مضروبه ، والمراد من كونها منزلاً أن الله تعالى كتبها في اللوح المحفوظ وأمر جبريل عليه السلام بأن يحفظ تلك الكلمات ثم ينزل بها على محمد صلى الله عليه وسلم ويبلغها إليه ، فلما حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبريل عليه السلام سمي لذلك تنزيلاً وثانيها : كون التنزيل من الرحمن الرحيم ، وذلك يدل على كون التنزيل نعمة عظيمة من الله تعالى لأن الفعل المقرون بالصفة لا بد وأن يكون مناسباً لتلك الصفة ، فكونه تعالى رحماناً رحيماً صفتان دالتان على كمال الرحمة ، فالتنزيل المضاف إلى هاتين الصفتين لا بد وأن يكون دالاً على أعظم وجوه النعمة ، والأمر في نفسه كذلك ، لأن الخلق في هذا العالم كالمرضى والزمنى والمحتاجين ، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية ، فكان أعظم النعم عند الله تعالى على أهل هذا العالم إنزال القرآن عليهم وثالثها : كونه كتاباً وقد بينا أن هذا الاسم مشتق من الجمع وإنما سمي كتاباً لأنه جمع فيه علوم الأولين والآخرين ورابعها : قوله ﴿ فُصِّلَتْ ءاياته ﴾ والمراد أنه فرقت آياته وجعلت تفاصيل في معان مختلفة فبعضها في وصف ذات الله تعالى وشرح صفات التنزيه والتقديس وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته وعجائب أحوال خلقه السموات والأرض والكواكب وتعاقب الليل والنهار وعجائب

أحوال النبات والحيوان والإنسان ، وبعضها في أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب ونحو الجوارح ، وبعضها في الوعد والوعيد والثواب والعقاب درجات أهل الجنة ودرجات أهل النار ، وبعضها في المواعظ والنصائح وبعضها في تهذيب الأخلاق ورياضة النفس ، وبعضها في قصص الأولين وتواريخ الماضين ، وبالجملة

(16/680)

فمن أنصف علم أنه ليس في يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمباحث المتباينة مثل ما في القرآن وخامسها : قوله ﴿ قُرْءَاناً ﴾ والوجه في تسميته قرآناً قد سبق وقوله تعالى : ﴿ قُرْءاناً ﴾ نصب على الاختصاص والمدح أي أُريد بهذا الكتاب المفصل قرآناً من صفته كيت وكيت ، وقيل هو نصب على الحال وسادسها : قوله ﴿ عَرَبِيّاً ﴾ والمعنى أن هذا القرآن إنما نزل بلغة العرب وتأكد هذا بقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم : 4] وسابعها : قوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ والمعنى إنا جعلناه عربياً لأجل أنا أنزلناه على قوم عرب فجعلناه بلغة العرب ليفهموا منه المراد ، فإن قيل قوله ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ متعلق بماذا ؟ قلنا يجوز أن يتعلق بقوله ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ أو بقوله ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ أي تنزيل من الله لأجلهم أو فصلت آياته لأجلهم ،

والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده ، أي قرآناً عربياً كائناً لقوم عرب ، لئلا يفرق بين الصلات والصفات وثامنها وتاسعها : قوله ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ يعني بشيراً للمطيعين بالثواب ونذيراً للمجرمين بالعقاب ، والحق أن القرآن بشارة ونذارة إلا أنه أطلق اسم الفاعل عليه للتنبيه على كونه كاملاً في هذه الصفة ، كما يقال شعر شاعر وكلام قائل .

الصفة العاشرة : كونهم معرضين عنه لا يسمعون ولا يلتفتون إليه ، فهذه هي الصفات العشرة التي وصف الله القرآن بها ، ويتفرع عليها مسائل :

المسألة الأولى :

(17/680)

القائلون بخلق القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه الأول : أنه وصف القرآن بكونه تنزيلاً ومنزلاً والمنزل والتنزيل مشعر بالتصيير من حال ، فوجب أن يكون مخلوقاً الثاني : أن التنزيل مصدر والمصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين الثالث : المراد بالكتاب إما الكتاب وهو المصدر الذي هو المفعول المطلق أو المكتوب الذي هو المفعول الرابع : أن قوله ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ يدل على أن متصرفاً يتصرف فيه بالتفصيل والتمييز ، وذلك لا يليق بالقديم الخامس : أنه إنما سمي قرآناً لأنه قرن بعض أجزائه بالبعض وذلك يدل على كونه مفعول

فاعل ومجعول جاعل السادس : وصفه بكونه عربياً ، وإنما صحت هذه النسبة لأجل أن هذه الألفاظ إنما دخلت على هذه المعاني بحسب وضع العرب واصطلاحاتهم ، وما جعل بجعل جاعل وفعل فاعل فلا بدّ وأن يكون محدثاً ومخلوقاً الجواب : أن كل هذه الوجوه التي ذكرتموها عائدة إلى اللغات وإلى الحروف والكلمات ، وهي عندنا محدثة مخلوقة ، إنما الذي ندعي قدمه شيء آخر سوى هذه الألفاظ ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

ذهب أكثر المتكلمين إلى أنه يجب على المكلف تنزيل ألفاظ القرآن على المعاني التي هي موضوعة لها بحسب اللغة العربية ، فأما حملها على معان أُخر لا بهذا الطريق فهذا باطل قطعاً ، وذلك مثل الوجوه التي يذكرها أهل الباطن ، مثل أنهم تارة يحملون الحروف على حساب الجمل وتارة يحملون كل حرف على شيء آخر ، وللصوفية طرق كثيرة في الباب ويسمونها علم المكاشفة والذي يدلل على فساد تلك الوجوه بأسرها قوله تعالى : ﴿ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ وإنما سماه عربياً لكونه دالاً على هذه المعاني المخصوصة بوضع العرب وباصطلاحاتهم ، وذلك يدل على أن دلالة هذه الألفاظ لم تحصل إلا على تلك المعاني المخصوصة ، وأن ما سواه فهو باطل .

المسألة الثالثة :

ذهب قوم إلى أنه حصل في القرآن من سائر اللغات كقوله ﴿ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الكهف : 31] و ﴿ سِجّيلٍ ﴾ [هود : 82] فإنهما فارسيان ، وقوله ﴿ مشكاة ﴾ [النور : 35] فإنها من لغة الحبشة وقوله ﴿ قسطاس ﴾ [الإسراء : 35] فإنه من لغة الروم والذي يدل على فساد هذا المذهب قوله ﴿ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ ، وقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم : 4] .

المسألة الرابعة :

قالت المعتزلة لفظ الإيمان والكفر والصلاة والزكاة والصوم والحج ألفاظ شرعية لا لغوية ، والمعنى أن الشرع نقل هذه الألفاظ عن مسمياتها اللغوية الأصلية إلى مسميات أخرى ، وعندنا أن هذا باطل ، وليس للشرع تصرف في هذه الألفاظ عن مسمياتها إلا من وجه واحد ، وهو أنه خصص هذه الأسماء بنوع واحد من أنواع مسمياتها مثلاً ، الإيمان عبارة عن التصديق فخصصه الشرع بنوع معين من التصديق ، والصلاة عبارة عن الدعاء فخصصه الشرع بنوع معين من الدعاء ، كذا القول في البواقي ودليلنا على صحة مذهبنا قوله تعالى : ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ ، وقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ .

المسألة الخامسة :

إنما وصف الله القرآن بكونه ﴿ عَرَبِيّاً ﴾ في معرض المدح والتعظيم وهذا المطلوب لا يتم إلا

إذا ثبت أن لغة العرب أفضل اللغات .

واعلم أن هذا المقصود إنما يتم إذا ضبطنا أقسام فضائل اللغات بضابط معلوم ، ثم بينا أن تلك الأقسام حاصلة فيه لا في غيره ، فنقول لا شك أن الكلام مركب من الكلمات المفردة ، وهي مركبة من الحروف ، فالكلمة لها مادة وهي الحروف ، ولها صورة وهي تلك الهيئة المعينة الحاصلة عند التركيب .

(19/680)

فهذه الفضيلة إنما تحصل إما بحسب مادتها أو بحسب صورتها ، أما التي بحسب مادتها فهي آحاد الحروف ، واعلم أن الحروف على قسمين بعضها بينة المخارج ظاهرة المقاطع وبعضها خفية المخارج مشتبهة المقاطع ، وحروف العرب بأسرها ظاهرة المخارج بينة المقاطع ، ولا يشتبه شيء منها بالآخر .

وأما الحروف المستعملة في سائر اللغات فليست كذلك بل قد يحصل فيها حرف يشتبه بعضها بالبعض ، وذلك يخل بكمال الفصاحة ، وأيضاً الحركات المستعملة في سائر لغة العرب حركات ظاهرة جلية وهي النصب والرفع والجر ، وكل واحد من هذه الثلاثة فإنه يمتاز عن غيره امتيازاً ظاهراً جلياً ، وأما الإشمام والروم فيقل حصولهما في لغات العرب ،

وذلك أيضاً من جنس ما يوجب الفصاحة ، وأما الكلمات الحاصلة بحسب التركيب فهي أنواع :

أحدها : أن الحروف على قسمين متقاربة المخرج ومتباعدة المخرج ، وأيضاً الحروف على قسمين منها صلبة ومنها رخوة ، فيحصل من هذا التقسيم أقسام أربعة الصلبة المتقاربة ، والرخوة المتقاربة ، والصلبة المتباعدة ، والرخوة المتباعدة ، فإذا توالى في الكلمة حرفان صلبان متقاربان .

(20/680)

صعب اللفظ بها ، لأن بسبب تقارب المخرج يصير التلفظ بها جارياً مجرى ما إذا كان الإنسان مقيداً ثم يمشي ، وبسبب صلابة تلك الحروف تتوارد الأعمال الشاقة القوية على الموضع الواحد من المخرج ، وتوالي الأعمال الشاقة يوجب الضعف والإعياء ، ومثل هذا التركيب في اللغة العربية قليل وثانيها : أن جنس بعض الحروف ألذ وأطيب في السمع ، وكل كلمة يحصل فيها حرف من هذا الجنس كان سماعها أطيب وثالثها : الوزن فنقول : الكلمة إما أن تكون ثنائية أو ثلاثية أو رباعية ، وأعدلها هو الثلاثي لأن الصوت إنما يتولد بسبب الحركة ، والحركة لا بد لها من مبدأ ووسط ومنتهى ، فهذه ثلاث مراتب ، فالكلمة لا بد

وأن يحصل فيها هذه المراتب الثلاثة حتى تكون تامة ، أما الثنائية فهي ناقصة وأما الربا عية فهي زائدة ، والغائب في كلام العرب الثلاثيات ، فثبت بما ذكرنا ضبط فضائل اللغات ، والاستقراء يدل على أن لغة العرب موصوفة بها ، وأما سائر اللغات فليست كذلك ، والله أعلم .

المسألة السادسة :

قوله ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني إنما جعلناه ﴿ عَرَبِيّاً ﴾ لأجل أن يعلموا المراد منه ، والقائلون بأن أفعال الله معللة بالمصالح والحكم ، تمسكوا بهذه الآية وقالوا إنها تدل على أنه إنما جعله ﴿ عَرَبِيّاً ﴾ لهذه الحكمة ، فهذا يدل على أن تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه جائز .

المسألة السابعة :

قال قوم القرآن كله غير معلوم بل فيه ما يعلم وفيه ما لا يعلم ، وقال المتكلمون لا يجوز أن يحصل فيه شيء غير معلوم ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ قرءاناً عربياً لقوم يعلمون ﴾ يعني إنما جعلناه عربياً ليصير معلوماً والقوم بأنه غير معلوم يقدح فيه .

المسألة الثامنة :

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ يدل على أن الهادي من هداه الله وأن الضال من أضله الله وتقريره أن الصفات التسعة المذكورة للقرآن توجب قوة الاهتمام بمعرفته وبالوقوف على معانيه ، لأنا بينا أن كونه نازلاً من عند الإله الرحمن الرحيم يدل على اشتماله على أفضل المنافع وأجل المطالب ، وكونه ﴿ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ مفصلاً يدل على أنه في غاية الكشف والبيان ، وكونه ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ يدل على أن الاحتياج إلى فهم ما فيه من أهم المهمات ، لأن سعي الإنسان في معرفة ما يوصله إلى الثواب أو إلى العقاب من أهم المهمات ، وقد حصلت هذه الموجبات الثلاثة في تأكيد الرغبة في فهم القرآن وفي شدة الميل إلى الإحاطة به ، ثم مع ذلك فقد أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه ونبذوه وراء ظهورهم ، وذلك يدل على أنه لا مهدي إلا من هداه الله ، ولا ضال إلا من أضله الله .

واعلم أنه تعالى لما وصف القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولا يسمعونه ، بيّن أنهم صرحوا بهذه النفرة والمباعدة وذكروا ثلاثة أشياء أحدها : أنهم قالوا ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ وأكنة جمع كنان كأغطية جمع غطاء ، والكنان هو الذي يجعل فيه السهام وثانيها : قولهم ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ أي صمم وثقل من استماع قولك وثالثها : قولهم ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ والحجاب هو الذي يمنع من الرؤية والفائدة في كلمة ﴿ مِنْ ﴾ في قوله ﴿ وَمِن بَيْنِنَا ﴾ أنه لو قيل : وبيننا وبينك حجاب ، لكان المعنى أن حجاباً حصل وسط الجهتين ، وأما بزيادة لفظ ﴿ مِنْ ﴾ كأن المعنى أن الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك ،

فالمسافة الحاصلة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب ، وما بقي جزء منها فارغاً عن هذا الحجاب فكانت هذه اللفظة دالة على قوة هذا الحجاب ، هكذا ذكره صاحب "الكشاف" وهو في غاية الحسن .

(22/680)

واعلم أنه إنما وقع الاقتصار على هذه الأعضاء الثلاثة ، وذلك لأن القلب محل المعرفة وسلطان البدن والسمع والبصر هما الآلتان المعينتان لتحصيل المعارف ، فلما بيّن أن هذه الثلاثة محجوبة كان ذلك أقصى ما يمكن في هذا الباب .

واعلم أنه إذا تأكدت النفرة عن الشيء صارت تلك النفرة في القلب فإذا سمع منه كلاماً لم يفهم معناه كما ينبغي ، وإذا رآه لم تصر تلك الرؤية سبباً للوقوف على دقائق أحوالك ذلك المرئي ، وذلك المدرك والشاعر هو النفس ، وشدة نفرة النفس عن الشيء تمنعها من التدبر والوقوف على دقائق ذلك الشيء ، فإذا كان الأمر كذلك كان قولهم ﴿ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءاذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ استعارات كاملة في إفادة المعنى المراد ، فإن قيل إنه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار في معرض الذم ، وذكر أيضاً ما يقرب منه في معرض الذم فقال : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة :

88] .

ثم إنه تعالى ذكر هذه الأشياء الثلاثة بعينها في معرض التقرير والإثبات في سورة الأنعام فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الأنعام : 25] فكيف الجمع بينهما ؟ قلنا إنه لم يقل ههنا أنهم كذبوا في ذلك إنما الذي ذمهم عليه أنهم قالوا : إنا إذا كنا كذلك لم يجز تكليفنا وتوجيه الأمر والنهي علينا ، وهذا الثاني باطل ، أما الأول فلأنه ليس في الآية ما يدل على أنهم كذبوا فيه .

(23/680)

واعلم أنهم لما وصفوا أنفسهم بهذه الصفات الثلاثة قالوا ﴿ فاعمل إِنَّنَا عاملون ﴾ والمراد فاعمل على دينك إننا عاملون على ديننا ، ويجوز أن يكون المراد فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك ، والحاصل عندنا أن القوم ما كذبوا في قولهم ﴿ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءاذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ بل إنما أتوا بالكفر والكلام الباطل في قولهم ﴿ فاعمل إِنَّنَا عاملون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 81 .

85 ﴾

(24/680)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ حم* تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم ﴾

قال الزجاج : "تَنْزِيلٌ" رفع بالابتداء وخبره ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ وهذا قول البصريين .

وقال الفراء : يجوز أن يكون رفعه على إضمار هذا .

ويجوز أن يقال : "كِتَابٌ" بدل من قوله : ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ .

وقيل : نعت لقوله : "تَنْزِيلٌ" .

وقيل : "حما" أي هذه "حما" كما تقول باب كذا ، أي هو باب كذا ف"حما" خبر ابتداء مضمر أي هو "حما" ، وقوله "تَنْزِيلٌ" مبتدأ آخر ، وقوله : "كِتَابٌ" خبره .

"فُصِّلَتْ آيَاتُهُ" أي بُيِّنت وفسرت .

قال قتادة : ببيان حلاله من حرامه ، وطاعته من معصيته .

الحسن : بالوعد والوعيد .

سفيان : بالثواب والعقاب .

وقرىء "فَصَلَتْ" أي فرّقت بين الحق والباطل ، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها ؛ من قولك فصل أي تباعد من البلد .

﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ في نصبه وجوه؛ قال الأخفش: هو نصب على المدح.

وقيل: على إضمار فعل؛ أي اذكر "قُرْآنًا عَرَبِيًّا".

وقيل: على إعادة الفعل؛ أي فصلنا "قُرْآنًا عَرَبِيًّا".

وقيل: على الحال أي "فُصِّلَتْ آيَاتُهُ" في حال كونه "قُرْآنًا عَرَبِيًّا".

وقيل: لما شغل "فُصِّلَتْ" بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل انتصب "قُرآنًا" لوقوع البيان عليه.

وقيل: على القطع.

﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ قال الضحاك: أي إن القرآن منزل من عند الله.

وقال مجاهد: أي يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل.

وقيل: يعلمون العربية فيعجزون عن مثله.

ولو كان غير عربيّ لما علموه.

قلت: هذا أصح، والسورة نزلت تقريعاً وتوبيخاً لقريش في إعجاز القرآن.

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ حالان من الآيات والعامل فيه "فُصِّلَتْ".

وقيل: هما نعتان للقرآن "بَشِيرًا" لأولياء الله "نَذِيرًا" لأعدائه.

وقرىء "بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ" صفة للكتاب.

أو خبر مبتدأ محذوف.

﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ يعني أهل مكة ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ سماعاً ينتفعون به .

وروي أن الريان بن حرملة قال : قال الملأ من قريش وأبو جهل قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره ؛ فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر ، وعلمت من ذلك علماً لا يخفى عليّ إن كان كذلك .

فقالوا : إيته فحدّثه .

فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له : يا محمد ! أنت خير أم قصيّ بن كلاب ؟ أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فبم تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا ، وتسفِّه أحلامنا ، وتذم ديننا ؟ فإن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت ، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت ، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك .

والنبي صلى الله عليه وسلم ساكت ، فلما فرغ قال : "قد فرغت يا أبا الوليد ؟" قال : نعم .

(26/680)

(قال فاسمع مني) فقال : "يا ابن أخي اسمع" قال : ﴿ بِسمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ حم* تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم *كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي صلى الله عليه وسلم ، وناشده الله والرحمَ ليسْكُتَنّ ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل فقال : أصبوتَ إلى محمد ؟ أم أعجبكَ طعامه ؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً ، ثم قال : والله لقد تعلمون أني من أكثر قريش مالاً ، ولكني لما قصصت عليه القصة أجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ؛ ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله : ﴿ مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وأمسكت بفيه وناشدته بالرَّحِم أن يكفّ ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب ؛ يعني الصاعقة .

وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنباري في كتاب الردّ له عن محمد بن كعب القرظي ، وأن

النبي صلى الله عليه وسلم قرأ "حما .

فُصِّلَتْ" حتى انتهى إلى السجدة فسجد وعتبة مصغ يستمع ، قد اعتمد على يديه من وراء ظهره .

فلما قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم القراءة قال له : " يا أبا الوليد قد .

سمعتَ الذي قرأتُ عليك فأنت وذاك " فانصرف عتبة إلى قريش في ناديها فقالوا : والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضى به من عندكم .

ثم قالوا : ما وراءك أبا الوليد ؟ قال : والله لقد سمعت كلاماً من محمد ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ، فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي ؛ خلُّوا محمداً وشأنه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ ، فإن أصابته العرب كُفِيتموه بأيدي غيركم ، وإن كان ملكاً أو نبياً كنتم أسعد الناس به ؛ لأن مُلْكَه مُلْككُم وَشَرَفه شرفُكم .

(27/680)

فقالوا : هيهات ! سحرك محمد يا أبا الوليد .

وقال : هذا رأيي لكم فاصنعوا ما شئتم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ الأكِنة جمع كِنانٍ وهو الغطاء .

وقد مضى في "البقرة" .

قال مجاهد : الكنان للقلب كالجنة للنبل .

﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أي صَمَم ؛ فكلامك لا يدخل أسماعنا ، وقلوبنا مستورة عن فهمه .

﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ أي خلاف في الدين ، لأنهم يعبدون الأصنام وهو يعبد الله عز وجل .

قال معناه الفراء وغيره .

وقيل : ستر مانع عن الإجابة .

وقيل : إن أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً وقال : يا محمد بيننا وبينك حجاب .

استهزاء منه .

حكاه النقاش وذكره القشيري .

فالحجابُ هنا الثوب .

﴿ فاعمل إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ أي اعمل في هلاكنا فإنا عاملون في هلاكك ؛ قاله الكلبي .

وقال مقاتل : اعمل لإلهك الذي أرسلك ، فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها .

وقيل : اعمل بما يقتضيه دينك ، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا .

ويحتمل رابعاً : فاعمل لآخرتك فإنا نعمل لدنيانا ؛ ذكره الماوردي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(28/680)

وقال الآلوسى :

﴿ حم ﴾ أن جعل اسماً للسورة أو القرآن فهو إما خبر لمحذوف أو مبتدأ خبره .

﴿ تَنزِيلَ ﴾ على المبالغة أو التأويل المشهور ، وهو على الأول خبر بعد خبر ، وخبر مبتدأ محذوف أن جعل ﴿ حم ﴾ مسروداً على نمط التعديد عند الفراء ، وقوله تعالى : ﴿ مّنَ الرحمن الرحيم ﴾ من تتمته مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أو خبر آخر للمبتدأ المحذوف أو تنزيل مبتدأ لتخصصه بما بعده خبره .

﴿ كتاب ﴾ وحكي ذلك عن الزجاج .

والحوفي ، وهو على الأوجه الأول بدل منه أو خبر آخر أو خبر لمحذوف ، وجملة ﴿ فُصّلَتْ ءاياته ﴾ على جميع الأوجه في موضع الصفة لكتاب ، وإضافة التنزيل إلى ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ من بين أسمائه تعالى للإيذان بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية حسبما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين

﴿ [الأنبياء : 107] وتفصيل آياته تمييزها لفظاً بفواصلها ومقاطعها ومبادىء السور وخواتمها ، ومعنى بكونها وعداً ووعيداً وقصصاً وأحكاماً إلى غير ذلك بل من أنصف علم أنه ليس في بدء الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم والمباحث المتباينة عبارة وإشارة مثل ما في القرآن .

وعن السدي ﴿ فُصّلَتْ ءاياته ﴾ أي بينت ففصل بين حرامه وحلاله وزجره وأمره ووعده ووعيده ، وقال الحسن : فصلت بالوعد والوعيد ، وقال سفيان : بالثواب والعقاب ، وما ذكرنا أولاً أعم ولعل ما ذكروه من باب التمثيل لا الحصر ، وقيل : المراد فصلت آياته في التنزيل أي لم تنزل جملة واحدة وليس بذاك .

(29/680)

وقرىء ﴿ فُصّلَتْ ﴾ بفتح الفاء والصاد مخففة أي فرقت بين الحق والباطل ، وقال ابن زيد : بين النبي صلى الله عليه وسلم ومن خالفه على أن فصل متعد أو فصل بعضها من بعض باختلاف الفواصل والمعاني على أن فصل لازم بمعنى انفصل كما في قوله تعالى : ﴿ فَصَلَتِ العير ﴾ [يوسف : 94] وقرىء ﴿ فُصّلَتْ ﴾ بضم الفاء وكسر الصاد مخففة على أنه مبني للمفعول والمعنى على ما مر ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ نصب على المدح بتقدير

أعني أو أمدح أو نحوه أو على الحال فقيل : من ﴿ كِتَابٌ ﴾ لتخصصه بالصفة ، وقيل : من ﴿ ءاياته ﴾ وجوز في هذه الحال أن تكون مؤكدة لنفسها وأن تكون موطئة للحال بعدها ، وقيل : نصب على المصدر أي يقرؤه قرآناً ، وقال الأخفش : هو مفعول ثان لفصلت ، وهو كما ترى إن لم تكن أخفش ، وأياً ما كان ففي ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ امتنان بسهولة قراءته وفهمه لنزوله بلسان من نزل بين أظهرهم ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي معانيه لكونه على لسانهم على أن المفعول محذوف أو لأهل العلم والنظر على أن الفعل منزل منزلة اللازم ولام ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ تعليلية أو اختصاصية وخصهم بذلك لأنهم هم المنتفعون به والجار والمجرور إما في موضع صفة أخرى لقرآناً أو صلة لتنزيل أو لفصلت قال الزمخشري : ولا يجوز أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده أي قرآناً عربياً كائناً لقوم عرب لئلا يفرق بين الصلات والصفات ، ولعله أراد لئلا يلزم التفريق بين الصفة وهي قوله تعالى :

(30/680)

﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ وموصوفها وهو ﴿ قُرْءاناً ﴾ [فصلت : 3] بناءً على أنه صفة له بالصلة وهي ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ على تقدير تعلقه بتنزيل أو بفصلت وبين الصلة وموصولها بالصفة أي ﴿ تَنزِيلَ ﴾ أو ﴿ فُصِّلَتْ ﴾ و ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ والجمع للمبالغة على حد قولك لمن يفرق

بين أخوين : لا تفعل فإن التفريق بين الأخوان مذموم أو أراد لئلا يفرق بين الصلتين في الحكم مع عدم الموجب للتفريق وهو أن يتصل ﴿ مّنَ الرحمن ﴾ [فصلت : 2] بموصوله ولا يتصل ﴿ لِقَوْمٍ يعملون ﴾

وكذلك بين الصفتين وهو ﴿ عَرَبِيّاً ﴾ بموصوفه ولا يتصل ﴿ بَشِيراً ﴾ والجمع لذلك أيضاً .

واختار أبو حيان كون الجار والمجرور صلة ﴿ فُصّلَتْ ﴾ وقال : يبعد تعلقه بتنزيل لكونه وصف قبل أخذ متعلقه إن كان ﴿ مّنَ الرحمن ﴾ في موضع الصفة أو أبدل منه ﴿ كِتَابٌ ﴾ أو كان خبراً لتنزيل فيكون في ذلك البدل من الموصول أو الإخبار عنه أخذه متعلقه وهو لا يجوز ولعل ذلك غير مجمع عليه ، وكون ﴿ بَشِيراً ﴾ صفة ﴿ قُرْءاناً ﴾ هو المشهور ، وجوز أن يكون مع ما عطف عليه حال من ﴿ كِتَابٌ ﴾ أو من ﴿ ءاياته ﴾ وقرأ زيد بن علي ﴿ بَشِيرٍ ﴾ ونذير برفعهما وهي رواية شاذة عن نافع على الوصفية لكتاب أو الخبرية لمحذوف أي هو بشير لأهل الطاعة ونذير لأهل المعصية ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ عن تدبره وقبوله ، والضمير للقوم على المعنى الأول ليعلمون وللكفار المذكورين حكماً على المعنى الثاني ، ويجوز أن يكون للقوم عليه أيضاً بأن يراد به ما من شأنهم العلم والنظر ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يقبلون ولا يطيعون من قولك : تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه وهو مجاز مشهور .

وفي "الكشف" أن قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ ﴾ مقابل قوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : 3] وقوله سبحانه : ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ مقابل قوله جل شأنه : ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ أي أنكروا إعجازه والإذعان له مع العلم ولم يقبلوا بشائره ونذره لعدم التدبر .

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ ﴾ أي أغطية متكاثفة ﴿ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ من الإيمان بالله تعالى وحده وترك ما ألفينا عليه آباءنا و ﴿ مِنْ ﴾ على ما في "البحر" لابتداء الغاية ﴿ وَفِى ءاذانِنَا وَقْرٌ ﴾ أي صمم وأصله الثقل .

وقرأ طلحة بكسر الواو وقرىء بفتح القاف ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ غليظ يمنعنا عن التواصل ومن للدلالة على أن الحجاب مبتدأ من الجانبين بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ولم يبق ثمت فراغ أصلاً .

وتوضيحه أن البين بمعنى الوسط بالسكون وإذا قيل : بيننا وبينك حجاب صدق على حجاب كائن بينهما استوعب أولاً ، وأما إذا قيل : من بيننا فيدل على أن مبتدأ الحجاب من الوسط أعني طرفه الذي يلي المتكلم فسواء أعيد ﴿ مِنْ ﴾ أو لم يعد يكون الطرف الآخر منتهى باعتبار ومبتدأ باعتبار فيكون الظاهر الاستيعاب لأن جميع الجهة أعني البين

جعل مبتدأ الحجاب فالمنتهى غيره البتة ، وهذا كاف في الفرق بين الصورتين كيف وقد أعيد البين لاستئناف الابتداء من تلك الجهة أيضاً إذ لو قيل : ومن بيننا بتغليب المتكلم لكفى ، ثم ضرورة العطف على نحو بيني وبينك إن سلمت لا تنافي إرادة الإعادة له فتدبر ، وما ذكروه من الجمل الثلاث تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ومج أسماعهم له وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول صلى الله عليه وسلم وأرادوا بذلك إقناطه عليه الصلاة والسلام عن اتباعهم إياه عليه الصلاة والسلام حتى لا يدعوهم إلى الصراط المستقيم .

(32/680)

وذكر أبو حيان أنه لما كان القلب محل المعرفة والسمع والبصر معينان على تحصيل المعارف ذكروا أن هذه الثلاثة محجوبة عن أن يصل إليها مما يلقيه الرسول صلى الله عليه وسلم شيء ولم يقولوا على قلوبنا أكنة كما قالوا : وفي آذاننا وقر ليكون الكلام على نمط واحد في جعل القلوب والآذان مستقر الأكنة والوقر وإن كان أحدهما استقرار استعلاء والثاني استقرار احتواء إذ لا فرق في المعنى بين قلوبنا في أكنة وعلى قلوبنا أكنة والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أن يفقهوه ولو قيل إنا جعلنا قلوبهم في أكنة لم يختلف المعنى

فالمطابقة حاصلة من حيث المعنى والمطابيع من العرب لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني ، واختصاص كل من العبارتين بموضعه للتفنن على أنه لما كان منسوباً إلى الله تعالى في سورة بني إسرائيل والكهف كان معنى الاستعلاء والقهر أنسب ، وههنا لما كان حكاية عن مقالهم كان معنى الاحتواء أقرب ، كذا حققه بعض الأجلة ودغدغ فيه ، وتفسير الأكنة بالأغطية هو الذي عليه جمهور المفسرين فهي جمع كنان كغطاء لفظاً ومعنى : وقيل : هي ما يجعل فيها السهام .

أخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ ﴾ قالوا كالجعبة للنبل ﴿ فاعمل ﴾ على دينك وقيل في إبطال أمرنا ﴿ إِنَّنَا عاملون ﴾ على ديننا وقيل : في إبطال أمرك والكلام على الأول متاركة وتقنيط عن اتباعه عليه الصلاة والسلام ، ومقصودهم أننا عاملون ، والأول : توطئة له ، وحاصل المعنى أنا لا نترك ديننا بل نثبت عليه كما نثبت على دينك ، وعلى الثاني : هو مبارزة بالخلاف والجدال ، وقائل ما ذكر أبو جهل ومعه جماعة من قريش .

(33/680)

ففي خبر أخرجه أبو سهل السري من طريق عبد القدوس عن نافع بن الأزرق عن ابن عمر عن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية أقبلت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم : ما يمنعكم من الإسلام فتسودوا العرب ؟ فقالوا : يا محمد ما نفقه ما تقول ولا نسمعه وان على قلوبنا لغلفا وأخذ أبو جهل ثواباً فمده فيما بينه وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : يا محمد قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، وفيه فلما كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد اعرض علينا الإسلام فلما عرض عليهم الإسلام أسلموا عن آخرهم فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال : الحمد الله بالأمس تزعمون أن على قلوبكم غلفا وقلوبكم في أكنة مما أدعوكم إليه وفي آذانكم وقرأ وأصبحتم اليوم مسلمين فقالوا : يا رسول الله كذبنا والله بالأمس لو كذلك ما اهتدينا أبداً ولكن الله تعالى الصادق والعباد الكاذبون عليه وهو الغني ونحن الفقراء إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(34/680)

وقال ابن عاشور :

﴿ حم (1) ﴾

القول في الحروف الواقعة فاتحةَ هذه السورة كالقول في ﴿ ألم ﴾

تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2)

افتتح الكلام باسم نكرة لما في التنكير من التعظيم .

والوجه أن يكون ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ مبتدأ سَوَّغ الابتداء به ما في التنكير من معنى التعظيم فكانت بذلك كالموصوفة وقوله : ﴿ مِنَ الرحمنن الرَّحِيم ﴾ خبر عنه .

وقوله : ﴿ كتاب بَدل من تنزيل فحصل من المعنى : أن التنزيل من الله كتاب ، وأن صفته فُصّلت آياته ، موسوماً بكونه قرآناً عربياً ، فحصل من هذا الأسلوب أن القرآن منزّل من الرحمان الرحيم مفصلاً عربياً .

ولك أن تجعل قوله : مِنَ الرحمنن الرَّحِيم ﴾ في موضع الصفة للمبتدأ وتجعل قوله : ﴿ كتاب ﴾ خبرَ المبتدأ ، وعلى كلا التقديرين هو أسلوب فخم وقد مَضى مثله في قوله تعالى : ﴿ آلمص كتاب أنزل إليك ﴾ [الأعراف : 1 ، 2] .

والمراد : أنه منزّل ، فالمصدر بمعنى المفعول كقوله : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 192 ، 193] وهو مبالغة في كونه فَعَل الله تنزيله ، تحقيقاً لكونه موحى به وليس منقولاً من صحف الأولين .

وتنكير ﴿ تنزيل وكتاب لإفادة التعظيم .

والكتاب : اسم لمجموع حروف دالة على ألفاظ مفيدة وسمي القرآن كتاباً لأن الله أوحى

بألفاظه وأمر رسوله بأن يكتب ما أُوحي إليه ، ولذلك اتخذ الرسول كتَّاباً يكتبون له كل ما ينزل عليه من القرآن .

وإيثار الصفتين الرحمن الرَّحِيمِ ﴾ على غيرهما من الصفات العلية للإِيماء إلى أن هذا التنزيل رحمة من الله بعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور كقوله تعالى : ﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ [الأنعام : 157] وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] وقوله : ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ [العنكبوت : 51] .

(35/680)

والجمع بين صفتي ﴿ الرحمن الرَّحِيم ﴾ للإيماء إلى أن الرحمة صفة ذاتيَّة لله تعالى ، وأن متعلقها منتشر في المخلوقات كما تقدم في أول سورة الفاتحة والبسملة .

وفي ذلك إيماء إلى استحماق الذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب بأنهم أعرضوا عن رحمة ، وأن الذين اهتدوا به هم أهل المرحمة لقوله بعد ذلك : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ [فصلت : 44] .

ومعنى : ﴿ فُصِّلَتْ ءاياته ﴾ بُينت ، والتفصيل : التبيين والإخلاء من الالتباس .

والمراد : أن آيات القرآن واضحة الأغراض لا تلتبس إلا على مكابر في دلالة كل آية على المقصود منها ، وفي مواقعها وتمييز بعضها عن بعض في المعنى باختلاف فنون المعاني التي تشتمل عليها ، وقد تقدم في طالعة سورة هود .

ومن كمال تفصيله أنه كان بلغة كثيرة المعاني ، واسعة الأفنان ، فصيحة الألفاظ ، فكانت سالمة من التباس الدلالة ، وانغلاق الألفاظ ، مع وفرة المعاني غير المتنافية في قلة التراكيب ، فكان وصفه بأنه عربي من مكملات الإِخبار عنه بالتفصيل .

وقد تكرر التنويه بالقرآن من هذه الجهة كقوله : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ [الشعراء : 195] ولهذا فرع عليه ذم الذين أعرضوا عنه بقوله هنا ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُم فَهُمْ لاَ يَسْمَعُون ﴾ وقوله هنالك:

﴿ كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [الشعراء : 200 ، 201] .

والقرآن : الكلام المقروء المتلوّ .

وكونه قُرآناً من صفات كماله ، وهو أنه سهْل الحفظ ، سهْل التلاوة ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ [القمر : 22] ولذلك كان شأن الرسول صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن عن ظهر قلب ، وكان شأن المسلمين الاقتداء به في ذلك على حسب

الهمم والمَكْنَات ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشير إلى تفضيل المؤمنين بما عندهم من القرآن .

(36/680)

وكان يوم أحد يقدم في لحد شهدائه مَن كان أكثرهم أخذاً للقرآن تنبيهاً على فضل حفظ القرآن زيادة على فضل تلك الشهادة .

وانتصب ﴿ قرآناً على النعت المقطوع للاختصاص بالمدح وإلا لكان مرفوعاً على أنه خبر ثالث أو صفة للخبر الثاني ، فقوله : قرآناً ﴾ مقصود بالذكر للإشارة إلى هذه الخصوصية التي اختص بها من بين سائر الكتب الدينية ، ولولا ذلك لقال : كتاب فصّلت آياته عربي كما قال في سورة الشعراء (195) ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ ولك أن تجعله منصوباً على الحال .

وقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ صفة ل ﴿ قرآناً ﴾ ظرفٌ مستقر ، أي كائناً لقوم يعلمون باعتبار ما أفاده قوله : ﴿ قُرءَاناً عَرَبِيّاً ﴾ من معنى وضوح الدلالة وسطوع الحجة ، أو يتعلق ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون ﴾ بقوله : ﴿ تنزيل أو بقوله : فُصِّلَتْ ءاياته ﴾ على معنى أن فوائد تنزيله وتفصيله لقوم يعلمون دون غيرهم فكأنه لم يُنزل إلا لهم ، أي فلا بدع إذا أعرض

عن فهمه المعاندون فإنهم قوم لا يعلمون ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ [يونس : 101] وقوله : ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [العنكبوت : 43] وقوله : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ [يوسف : 2] وقوله : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ [العنكبوت : 49] .

والبشير : اسم للمبشر وهو المخبر بخبر يسر المخبَر .

والنذير : المخبر بأمر مَخُوف ، شبه القرآن بالبشير فيما اشتمل عليه من الآيات المبشرة للمؤمنين الصالحين ، وبالنذير فيما فيه من الوعيد للكافرين وأهل المعاصي ، فالكلام تشبيه بليغ .

وليس : ﴿ بشيراً ﴾ أو ﴿ نذيراً ﴾ اسمي فاعل لأنه لو أريد ذلك لقيل : مُبشراً ومُنذراً .

والجمع بين : ﴿ بشيراً ﴾ و ﴿ نَذِيراً ﴾ من قبيل محسن الطِّبَاق .

وانتصب ﴿ بشيراً ﴾ على أنه حال ثانية من ﴿ كتاب ﴾ أو صفة ل ﴿ قرآناً ، ﴾ وصفة الحال في معنى الحال ، فالأَوْلى كونه حالاً ثانية .

(37/680)

وجيء بقوله : ﴿ نذيراً ﴾ معطوفاً بالواو للتنبيه على اختلاف موقع كل من الحالين فهو بشير لقوم وهم الذين اتبعوه ونذير لآخرين ، وهم المعرضون عنه ، وليس هو جامعاً بين البشارة والنذارة لطائفة واحدة فالواو هنا كالواو في قوله : ﴿ ثيبات وأبكارا ﴾ [التحريم : 5] بعد قوله : ﴿ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ﴾ [التحريم : 5] .

وتفريع ﴿ فأعْرَضَ أكْثَرُهُم ﴾ على ما ذكر من صفات القرآن .

وضمير ﴿ أكثرهم ﴾ عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون كما هي عادة القرآن في غير موضع .

والمعنى : فأعرض أكثر هؤلاء عما في القرآن من الهدى فلم يهتدوا ، ومن البشارة فلم يُعنوا بها ، ومن النذارة فلم يحذروها ، فكانوا في أشد الحماقة ، إذ لم يعنوا بخَير ، ولا حَذِرُوا الشر ، فلم يأخذوا بالحيطة لأنفسهم وليس عائداً ل ﴿ قوم يعلمون ﴾ لأن الذين يعلمون لا يُعرض أحد منهم .

والفاء في قوله : ﴿ فَهُمْ لا يَسْمَعُون ﴾ للتفريع على الإِعراض ، أي فهم لا يُلقون أسماعهم للقرآن فضلاً عن تدبره ، وهذا إجمال لإِعراضهم .

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في ﴿ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ دون أن يقول : فلا يسمعون لإِفادة تقوّي الحكم وتأكيده .

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5)

عطف ﴿ وقالوا ﴾ على ﴿ فأعرض ﴾ [فصلت : 4] أو حالٌ من ﴿ أكثرهم ﴾ [فصلت : 4] أو عطف على ﴿ لا يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت : 4] ، أو حال من ضميره ، والمعنى : أنهم أعرضوا مصرحين بقلة الاكتراث وبالانتصاب للجفاء والعداء .

وهذا تفصيل للإعراض عما وُصف به القرآن من الصفات التي شأنها أن تقربهم إلى تلقيه لا أن يَبعدوا ويعرضوا وقد جاء بالتفصيل بأقوالهم التي حرمتهم من الانتفاع بالقرآن واحداً واحداً كما ستعلمه .

(38/680)

والمراد بالقلوب : العقول ، حكي بمصطلح كلامهم قولهم إذ يطلقون القلب على العقل .

والأكنة : جمع كنان مثل : غطاء وأغطية وزناً ومعنى ، أثبتت لقلوبهم أغطية على طريقة التخييل ، وشُبهت القلوب بالأشياء المغطّاة على طريقة الاستعارة المكنية .

ووجه الشبه حيلولة وصول الدعوة إلى عقولهم كما يحول الغطاء والغلاف دون تناول ما تحته .

ومَا يدعوهم إليه يعم كل ما دعاهم إليه من المدلولات وأدلتها ، ومنها دلالة معجزة القرآن وما تتضمنه من دلالة أمية الرسول صلى الله عليه وسلم من نحو قوله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ [العنكبوت : 48] .

وجعلت القلوب في أكنة لإفادة حرف ﴿ في ﴾ معنى إحاطة الظرف بالمظروف .

وكذلك جعل الوَقر في القلوب لإفادة تغلغله في إدراكهم .

و(مِن) في قوله : ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ بمعنى (عن) مثل قوله تعالى : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر اللَّه ﴾ [الزمر : 22] وقوله : ﴿ قد كنا في غفلة من هذا ﴾ [الأنبياء : 97] ، والمعنى : قلوبنا في أكنة فهي بعيدة عما تدعونا إليه لا ينفذ إليها .

والوَقر بفتح الواو : ثقل السمع وهو الصمم ، وكأنَّ اللغة أخذته من الوِقر بكسر الواو ، وهو الحِمل لأنه يثقل الدَّابة عن التحرك ، فأطلقوه على عدم تحرك السمع عند قرع الصوت المسموع ، وشاع ذلك حتى ساوى الحقيقة ففتحوا له الواو تفرقة بين الحقيقة والمجاز ، كما فرقوا بين العَضّ الحقيقي وعظِّ الدهر بأن صيروا ضادهُ ظاء .

وقد تقدم ذكر الأكنة والوقر في قوله : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴾ في الأنعام (25) وفي سورة الإسراء (46) .

والحجاب : الساتر للمرئيّ من حائط أو ثوب .

أطلقوا اسم الحجاب على ما يمنع نفوسهم أن يأخذوا بالدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من كراهية دينه وتجافي تقلده بجامعِ أن الحجاب يحول بين الرائي والمَرْئيّ فلا ينظر أحدهما الآخر ولا يصل إليه ، ومرادهم البراءة منه .

مثل نبوّ قلوبهم عن تقبُّل الإسلام واعتقاده بحال ما هو في أكنّة ، وعدمَ تأثر أسماعهم بدعوته بصَم الآذان ، وعدمَ التقارب بين ما هم عليه وما هو عليه بالحجاب الممدود بينه وبينهم فلا تلاقيَ ولا ترائيَ .

وقد جمعوا بين الحالات الثلاث في التمثيل للمبالغة في أنهم لا يقبلون ما يدعوهم إليه .

واجتلابُ حرف ﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِك حِجَابٌ ﴾ لتقوية معنى الحجاب بين الطرفين وتمكن لازمه الذي هو بُعد المسافة التي بين الطرفين لأن ﴿ مِن ﴾ هذه زائدة لتأكيد مضمون الجملة .

وضمير ﴿ بيننا ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ أكثرهم ﴾ [فصلت : 4] .

وعطف وبينك ﴾ تأكيد لأن واو العطف مغنية عنه وأكثر استعمال (بين) أن يكون معطوفاً عليه مثله كقوله تعالى : ﴿ قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ [الزخرف : 38] .

وقد جعل ابن مالك (من) الداخلة على (قبل) و (بعد) زائدة فيكون (بَين) مقيساً

على (قبل) و (بعد) لأن الجميع ظروف .

وهذا القول المحكي عنهم في القرآن بـ ﴿ قالوا ﴾ يحتمل أن يكون القرآن حكاه عنهم بالمعنى ، فجمع القرآن بإيجازه وبلاغته ما أطالوا به الجدال وأطنبوا في اللجاج ، ويحتمل أنه حكاه بلفظهم فيكون مما قاله أحد بلغائهم في مجامعهم التي جمعت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم وهذا ظاهر ما في سيرة ابن إسحاق ، وزعم أنهم قالوه استهزاء وأن الله حكاه في سورة الكهف .

(40/680)

ويحتمل أن يكونوا تلقفوه ممّا سمعوه في القرآن من وصف قلوبهم وسمعهم وتباعدهم كقوله : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴾ في سورة الإسراء (46) ، فإن سورة الإسراء معدودة في النزول قبل سورة فصلت .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ في سورة الإسراء (45) أيضاً ، فجمعوا ذلك وجادلوا به الرسول .

فيكون ما في هذه الآية من البلاغة قد اقتبسوه من آيات أخرى .

قيل : إن قائله أبو جهل في مجمع من قريش فلذلك أسند القول إليهم جميعاً لأنهم مشائعون

له .

وقد جاء في حكاية أقوالهم ما فيه تفصيل ما يقابل ما ذُكر قبله من صفات القرآن وهي ﴿ تَنزِيلٌ مِنَ الرحمنن الرَّحِيمِ كتاب فُصِّلَتْ ءاياته قُرْءَاناً عَرَبِياً ﴾ [فصلت : 2 ، 3] ، فإن كونَه تنزيلاً من الرحمان الرحيم يستدعي تفهمه والانتفاع بما فيه ، فقوبل بقولهم : قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إليهِ ﴾ وكونَهُ فُصلت آياته يستدعي تلقّيها والاستماعَ إليها فقوبل بقولهم : ﴿ في آذاننا وقر ﴾ ، أي فلا نسمع تفصيله ، وكونَه قرآناً عربياً أشد إلزاماً لهم بفهمه فقوبل ذلك بما يقطع هذه الحجة وهو ﴿ من بيننا وبينك حجاب ﴾ أي فلا يصل كلامه إليهم ولا يتطرق جانبهم ، فهذه تفاصيل إعراضهم عن صفات القرآن .

وقولهم : ﴿ فاعْمَل إنَّنَا عاملون ﴾ تفريع على تأييسهم الرسول من قبولهم دعوته وجعل قولهم هذا مقابِل وصف القرآن بأنه بَشير ونذير لظهور أنه تعين كونه نذيراً لهم بعذاب عظيم لأنهم أعرضوا فحكي ما فيه تصريحهم بأنهم لا يعبأُون بنذارته فإن كان له أذى فليؤذهم به وهذا كقول فرعون : "ذَرَوني أَقتُل موسى ولْيَدْعُ ربه" .

وحذف مفعولا (اعمل) و ﴿ عاملون ﴾ ليعُمّ كل ما يمكن عمله كل مع الآخر ما يناسبه .

والأمر في قوله : ﴿ فاعمل ﴾ مستعمل في التسوية كقول عنترة بن الأخرس المعْنِي :

أَطِلْ حملَ الشَّناءةِ لِي وبُغضي

وعِشْ ما شئْتَ فانظر من تضيرُ . . .

وكقوله تعالى : ﴿ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾ [فصلت : 40] .

والخَبر في قولهم : ﴿ إنَّا عاملون ﴾ مستعمل في التهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(42/680)

فصل

قال الإمام ابن قتيبة :

باب ذكر العرب وما خصّهم اللّه به من العارضة والبيان واتّساع المجاز

وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب ، وما خصّ اللّه به لغتها دون جميع اللغات ، فإنه ليس في جميع الأمم أمّة أوتيت من العارضة ، والبيان ، واتساع المجال ، ما أوتيته العرب خصّيصى من اللّه ، لما أرهصه في الرسول ، وأراده من إقامة الدليل على نبوّته بالكتاب ، فجعله علمه ، كما جعل علم كل نبي

من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه :

فكان لموسى فلق البحر ، واليد ، والعصا ، وتفجّر الحجر في التّيه بالماء الرّواء ، إلى سائر أعلامه زمن السّحر .

وكان لعيسى إحياء الموتى ، وخلق الطير من الطين ، وإبراء الأكمه والأبرص ، إلى سائر أعلامه زمن الطب .

وكان لمحمد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، لم يأتوا به ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، إلى سائر أعلامه زمن البيان .

فالخطيب من العرب ، إذا ارتجل كلاما في نكاح ، أو حمالة ، أو تحضيض ، أو صلح ، أو ما أشبه ذلك – لم يأت به من واد واحد ، بل يفتنّ : فيختصر تارة إرادة التخفيف ، ويطيل تارة إرادة الإفهام ، ويكرّر تارة إرادة التوكيد ، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجميين ، ويشير إلى الشيء ويكني عن الشيء .

وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال ، وقدر الحفل ، وكثرة الحشد ، وجلالة المقام .

ثمّ لا يأتي بالكلام كلّه ، مهذّبا كلّ التّهذيب ، ومصفّى كلّ التّصفية ، بل تجده يمزج ويشوب ، ليدل بالنّاقص على الوافر ، وبالغثّ على السمين . ولو جعله كلّه

نجرا "1" واحدا ، لبخسه بهاءه ، وسلبه ماءه .

ومثل ذلك الشّهاب من القبس نبرزه للشّعاع ، والكوكبان يقترنان ، فينقص النّوران ، والسّخاب "2" ينظم بالياقوت والمرجان والعقيق والعقيان ، ولا يجعل كلّه جنسا واحدا من الرفيع الثّمين ، ولا النّفيس المصون .

وألفاظ العرب مبنية على ثمانية وعشرين حرفا ، وهي أقصى طوق اللّسان .

وألفاظ جميع الأمم قاصرة عن ثمانية وعشرين ولست واجدا في شيء من كلامهم حرفا ليس في حرفنا إلا معدولا عن مخرجه شيئا ، مثل الحرف المتوسط مخرجي القاف والكاف ، والحرف المتوسط مخرجي الفاء والباء .

فهذه حال العرب في مباني ألفاظها .

ولها الإعراب الذي جعله اللّه وشيا لكلامها ، وحلية لنظامها ، وفارقا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين ، والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول ، لا يفرّق بينهما ، إذا تساوت حالاهما في إمكان الفعل أن يكون لكلّ واحد منهما – إلا بالإعراب .

ولو أن قائلا قال : هذا قاتل أخي بالتنوين ، وقال آخر : هذا قاتل أخي بالإضافة – لدّل التنوين على أنه لم يقتله ، ودلّ حذف التنوين على أنه قد قتله .

ولو أن قارئا قرأ : فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (76) [يس : 76] وترك طريق الابتداء بإنّا ، وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب (أنّ) بالقول كما ينصبها بالظن – لقلب المعنى عن جهته ، وأزاله عن طريقته ، وجعل النبيّ ، عليه السلام ، محزونا لقولهم : إنّ اللّه يعلم ما يسرّون وما يعلنون . وهذا كفر ممن تعمّده ، وضرب من اللحن لا تجوز الصلاة به ، ولا يجوز للمأمومين أن يتجوّزوا فيه .

وقد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم : "لا يقتل قرشي صبرا بعد اليوم" "3" .

فيمن رواه "حزما" أوجب ظاهر الكلام للقرشي ألا تقتل إن ارتد ، ولا يقتصّ منه إن قتل .

---

(1) النجر : اللون .

(2) السخاب ، بالخاء المعجمة : كل قلادة كانت ذات جواهر ، أو لم تكن .

(3) أخرجه مسلم في الجهاد حديث 88 ، وأحمد في المسند 3/ 412 ، 4/ 213 ، والدارمي 2/ 198 ، والبيهقي في دلائل النبوة 5/ 79 ، والحميدي في مسنده 568 ، وابن أبي عاصم في السنة 2/ 638 ، وابن أبي شيبة في مصنفه 12/ 173 ، 14/ 490 ، والتبريزي في مشكاة المصابيح 5993 ، والمتقي الهندي في كنز العمال 33804 ، 33885 ، 37985 . [. . . . .]

ومن رواه "رفعا" انصرف التأويل إلى الخبر عن قريش : أنه لا يرتدّ منها أحد عن الإسلام فيستحقّ القتل .

أفما ترى الإعراب كيف فرق بين هذين المعنيين .

وقد يفرقون بحركة البناء في الحرف الواحد بين المعنيين .

فيقولون : رجل لعنة ، إذا كان يلعنه الناس . فإن كان هو الذي يلعن الناس ، قالوا : رجل لعنة فحركوا العين بالفتح .

ورجل سبّة إذا كان يسبه الناس ، فإن كان هو يسبّ الناس قالوا : رجل سببة .

وكذلك : هزأة ، وهزأة وسخرة ، وسخرة وضحكة ، وضحكة وخدعة ، وخدعة .

وقد يفرقون بين المعنيين المتقاربين بتغيير حرف في الكلمة حتى يكون تقارب ما بين اللفظين ، كتقارب ما بين المعنيين .

كقولهم للماء الملح الذي لا يشرب إلا عند الضرورة : شروب ، ولما كان دونه مما قد يتجوّز به : شريب .

وكقولهم لما ارفضّ على الثوب من البول إذ كان مثل رؤوس الإبر : نضح ، ورشّ الماء عليه يجزىء من الغسل ، فإن زاد على ذلك قليلا قيل له : نضخ ولم يجزىء فيه إلا الغسل .

وكقولهم للقبض بأطراف الأصابع : قبض وبالكف : قبض وللأكل بأطراف الأسنان :

قضم وبالفم : خضم .

ولما ارتفع من الأرض : حزن فإن زاد قليلا قيل : حزم .

وللذي يجد البرد : خصر فإن كان مع ذلك جوع قيل : خرص .

وللنار إذا طفئت : هامدة فإن سكن اللّهب وبقي من جمرها شيء قيل : خامدة .

وللقائم من الخبل : صائم فإن كان ذلك من حفىّ أو وجى ، قيل : صائن .

وللعطاء : شكد فإن كان مكافأة قيل : شكم .

وللخطأ من غير التعمد : غلط فإن كان في الحساب قيل : غلت .

(45/680)

و للضيق في العين : خوص فإن كان ذلك في مؤخّرها قيل : حوص .

وقد يكتنف الشيء معان فيشتقّ لكل معنى منها اسم من اسم ذلك الشيء ، كاشتقاقهم من البطن للخميص : مبطّن وللعظيم البطن إذا كان خلقة : بطين فإذا كان من كثرة الأكل قيل مبطان وللمنهوم : بطن وللعليل البطن : مبطون .

ويقولون : وجدت الضّالة ووجدت في الغضب ، ووجدت في الحزن ، ووجدت في الاستغناء . ثم يجعلون الاسم الضّالة : وجودا ووجدانا وفي الحزن وجدا وفي الغضب

موجدة وفي الاستغناء وجدا .

في أشياء كثيرة ، ليس لاستقصاء ذكرها في كتابنا هذا ، وجه .

وللعرب الشّعر الذي أقامه اللّه تعالى لها مقام الكتاب لغيرها ، وجعله لعلومها مستودعا ، ولآدابها حافظا ، ولأنسابها مقيّدا ، ولأخبارها ديوانا لا يرثّ على الدّهر ، ولا يبيد على مرّ الزّمان .

وحرسه بالوزن ، والقوافي ، وحسن النّظم ، وجودة التخيير – من التدليس والتّغيير ، فمن أراد أن يحدث فيه شيئا عسر ذلك عليه ، ولم يخف له كما يخفى في الكلام المنثور .

وقد تجد الشاعر منهم ربما زال عن سننهم شيئا ، فيقولون له : ساندت ، وأقويت ، وأكفأت ، وأوطأت .

وإنما خالف في السّناد بين ردفين ، أو حرفين قبل ردفين ، كقول عمرو بن كلثوم "1" :

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وقال في بيت آخر "2" :

كأن متونهنّ متون غدر تصفّقها الرياح إذا جرينا

فالحاء من فأصبحينا (ردف) وهي مكسورة ، والراء من جرينا (ردف) وهي مفتوحة .

---

(1) البيت من الوافر ، وهو في ديوان عمرو بن كلثوم ص 64 ، وخزانة الأدب 3/ 178 ، وشرح شواهد الشافية ص 251 ، وشرح شواهد المغني 1/ 119 ، ولسان العرب

(مدر) ، (ندر) ، (صحن) .

(2) البيت من الوافر ، وهو في ديوان عمرو بن كلثوم ص 85 ، وجمهرة أشعار العرب 1/ 409 ، وشرح ديوان امرئ القيس ص 331 ، وشرح القصائد السبع ص 416 ، وشرح القصائد العشر ص 357 ، وشرح المعلقات السبع ص 184 ، وشرح المعلقات العشر ص 95 ، ولسان العرب (غرا) ، وفيه :

"غرينا" بدل "جرينا" . والبيت بلا نسبة في تاج العروس (سند) ، (غرا) ، وكتاب العين 7/ 229 .

(46/680)

وخالف في (الإقواء) بحرف نقصه من شطر البيت الأول ، كقول الآخر "1" :

جنّت نوار ولات هنّا حنّت وبدا الذي كانت نوار أجنّت

لمّا رأت ماء السّلا مشروبا والفرث يعصر في الإناء أرنّت

وكقول حميد بن ثور "2" :

إني كبرت وإنّ كلّ كبير ممّا يظنّ به يملّ ويفتر

وخالف في الإكفاء بأن رفع قافية وخفض أخرى .

وخالف في الإبطاء بأن أعاد قافية مرتين .

وقال ابن الرّقاع يذكر تنقيحه شعره "3" :

وقصيدة قد بتّ أجمع بينها حتى أقوّم ميلها وسنادها

نظر المثقّف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها

وقال ذو الرّمّة "4" :

وشعر قد أرقت له غريب أجانبه المساند والمحالا

هذا قول أبي عبيدة .

---

(1) البيتان من الكامل ، والبيت الأول لشبيب بن جعيل في الدرر 1/ 244 ، 2/ 119 ، وشرح شواهد المغني ص 919 ، والمؤتلف والمختلف ص 84 ، والمقاصد النحوية 1/ 418 ، ولحجل بن نضلة في الشعر والشعراء ص 102 ، ولهما معا في خزانة الأدب 4/ 195 ، وبلا نسبة في تخليص الشواهد ص 130 ، وتذكرة النحاة ص 734 ، والجنى الداني ص 489 ، وجواهر الأدب ص 249 ، وخزانة الأدب 5/ 463 ، وشرح الأشموني 1/ 66 ، 126 ، ومغني اللبيب ص 592 ، وهمع الهوامع 1/ 78 ، 126 .

والبيت الثاني لحجل بن نضلة في لسان العرب (سلا) . ويروى صدر البيت في اللسان :

لما رأت ماء السّلى مشروبها

(2) البيت من الكامل ، وهو في ديوان حميد بن ثور ص 85 ، والشعر والشعراء 1/ 43 .

(3) البيتان من الكامل ، وهما لعدي بن الرقاع في ديوانه ص 38 ، والشعر والشعراء 1/ 24 ، والموشح ص 13 ، والطرائف الأدبية ص 89 ، وخزانة الأدب 4/ 470 ، ومعجم الشعراء ص 253 ، والأغاني 8/ 177 ، وكتاب الحيوان 3/ 64 ، والبيان والتبيين 3/ 244 ، وبلا نسبة في مقاييس اللغة 1/ 383 .

(4) البيت من الوافر ، وهو في ديوان ذي الرمة ص 1532 ، ولسان العرب (سند) ، وجمهرة اللغة ص 1124 .

وبعضهم يجعل الإقواء رفع قافية وجرّ أخرى .

وقول أبي عبيدة أجود عندي لأن الإقواء من القوّة ، والقوّة : طاقة من الحبل ، يقال : ذهبت قوّة من الحبل ، إذا ذهبت منه طاقة ، وكذلك إذا ذهب جزء من البيت ، وهو الذي يسمى المزاحف . فقد ذهبت منه قوة ، كما ذهب قوة من الحبل ، كما قال ذلك "1" :

لما رأت ماء السلا مشروبا فقد ذهب منه شيء ، فلو قال : (مشروبة) لكان مستويا .

وللعرب المجازات في الكلام ، ومعناها : طرق القول ومآخذه . ففيها الاستعارة : والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والتكرار ، والإخفاء ، والإظهار ، والتعريض ، والإفصاح ، والكناية ، والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز إن شاء اللّه تعالى .

وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة ، كما نقل الإنجيل عن السّريانية إلى الحبشيّة والرّومية ، وترجمت التوراة والزبور ، وسائر كتب اللّه تعالى بالعربية لأن العجم لم تتّسع في المجاز اتّساع العرب .

ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى : وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ [الأنفال : 58] - لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها ، وتصل مقطوعها وتظهر مستورها ، فتقول : إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد ، فخفت منهم خيانة ونقضا ، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم ، وآذنهم بالحرب لتكون أنت وهم في العلم بالنّقض على استواء .

وكذلك قوله تعالى : فَضَرَبْنا عَلى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (11) [الكهف : 11] إن أردت أن تنقله بلفظه ، لم يفهمه المنقول إليه ، فإن قلت : أنمناهم سنين عددا ،

---

(1) يروى البيت بتمامه :

لمّا رأت ماء السّلى مشروبها والفرث يعصر في الإناء أرنّت

والبيت من الكامل ، وهو لحجل بن نضلة في لسان العرب (سلا) .

(48/680)

لكنت مترجما للمعنى دون اللفظ .

وكذلك قوله تعالى : وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً (73) [الفرقان : 73] إن ترجمته بمثل لفظه استغلق ، وإن قلت : لم يتغافلوا أدّيت المعنى بلفظ آخر .

وقد اعترض كتاب اللّه بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا ، واتبعوا ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ [آل عمران : 7] بأفهام كليلة ، وأبصار عليلة ، ونظر مدخول ، فحرّفوا الكلام عن مواضعه ، وعدلوه عن سبله .

ثم قضوا عليه بالتّناقض ، والاستحالة ، واللّحن ، وفساد النّظم ، والاختلاف .

وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضّعيف الغمر ، والحدث الغرّ ، واعترضت بالشبه في القلوب ، وقدحت بالشكوك في الصدور .

(49/680)

ولو كان ما نحلوا إليه على تقريرهم وتأوّلهم – لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول اللّه ، صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، يحتجّ عليه بالقرآن ، ويجعله العلم لنبوّته ، والدليل على صدقه ، ويتحداه في موطن بعد موطن ، على أن يأتي بسورة من مثله . وهم الفصحاء والبلغاء ، والخطباء والشعراء ، والمخصوصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد ، واللّدد ، في الخصام ، مع اللّب والنّهى ، وأصالة الرّأي . وقد وصفهم اللّه بذلك في غير موضع من الكتاب ، وكانوا مرّة يقولون : هو سحر ، ومرة يقولون : هو قول الكهنة ، ومرة : أساطير الأولين .

ولم يحك اللّه تعالى عنهم ، ولا بلغنا في شيء من الروايات – أنهم جدبوه من الجهة التي جدبه منها الطاعنون .

فأحببت أن أنضح عن كتاب اللّه ، وأرمي من ورائه بالحجج النيّرة ، والبراهين البيّنة ، وأكشف للناس ما يلبسون .

فألفت هذا الكتاب ، جامعا لتأويل مشكل القرآن ، مستنبطا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح ، وحاملا ما لم أعلم فيه مقالا لإمام مطّلع – على لغات العرب لأري به المعاند موضع المجاز ، وطريق الإمكان ، من غير أن أحكم فيه برأي ، أو أقضي عليه بتأويل .

ولم يجز لي أن أنص بالإسناد إلى من له أصل التفسير إذ كنت لم أقتصر على وحي القوم حتى كشفته ، وعلى إيمائهم حتى أوضحته ، وردت في الألفاظ ونقصت ،

وقدّمت وأخرت ، وضربت لبعض ذلك الأمثال والأشكال ، حتى يستوي في فهمه السامعون .

وأسأل اللّه التجاوز عن الزّلة بحسن النية ، فيما دللت عليه ، وأجريت إليه ، والتوفيق للصواب ، وحسن الثواب .

الحكاية عن الطاعنين

وكان مما بلغنا عنهم : أن يحتجّون بقوله عز وجل : وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً [النساء : 82] وبقوله : لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ [فصلت : 42] .

(50/680)

و قالوا : وجدنا الصحابة ، رضي اللّه عنهم ، ومن بعدهم ، يختلفون في الحرف :

فابن عباس يقرأ : وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ [يوسف : 45] وغيره يقرأ : بَعْدَ أُمَّةٍ . و"عائشة" تقرأ : "إذ تلقونه" [النور : 15] وغيرها يقرأ : تَلَقَّوْنَهُ . وأبو بكر الصديق يقرأ وجاءت سكرة

الحقّ بالموت والناس يقرؤون : وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ [ق : 19] .

وقرأ بعض القراء :

وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وقرأ الناس : وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً [يوسف : 31] . وكان ابن مسعود يقرأ : إن كانت إلا زقية واحدة [يس : 29] ويقرأ كالصوف المنفوش [القارعة : 5] .

مع أشباه لهذه كثيرة ، يخالف فيها مصحفه المصاحف القديمة والحديثة . وكان يحذف من مصحفه أمّ الكتاب ويمحو المعوّذتين ويقول : لم تزيدون في كتاب اللّه ما ليس فيه ؟ .

و(أبيّ) يقرأ : إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها [طه : 15] من نفسي فكيف أظهركم عليها .

ويزيد في مصحفه افتتاح (دعاء القنوت) إلى قول الداعي : (إن عذابك بالكافرين ملحق) ويعدّه سورتين من القرآن .

و(القرّاء) يختلفون : فهذا يرفع ما ينصبه ذاك ، وذاك يخفض ما يرفعه هذا .

وأنتم تزعمون أن هذا كله كلام رب العالمين ، فأيّ شيء بعد هذا الاختلاف تريدون ؟

وأي باطل بعد الخطإ واللحن تبتغون ؟ .

وقد رويتم من الطريق الذي ترتضون : روى أبو معاوية ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن (عائشة) أنها قالت :

ثلاثة أحرف في كتاب اللّه هنّ خطأ من الكاتب : قوله : إِنْ هذانِ لَساحِرانِ [طه : 63] .

وفي سورة المائدة : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ [المائدة : 69] .

وفي سورة النساء : لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ [النساء : 162] حدثناه إسحاق بن راهويه .

قالوا : ورويتم عن عثمان أنه نظر في المصحف فقال : أرى فيه لحنا وستقيمه العرب بألسنتها .

وقالوا : وهل التناقض إلا مثل قوله : فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ (39) [الرحمن : 39] وهو يقول في موضع آخر : فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (93) [الحجر : 92، 93] .

ومثل قوله : هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (35) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (36) [المرسلات : 35، 36] .

ويقول في موضع آخر : ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31) [الزمر : 31] . ويقول : هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ [البقرة : 111] .

ومثل قوله : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (25) [الطور : 25، والصافات : 27] .

وهو يقول في موضع آخر : فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ [المؤمنون : 101] .

ومثل قوله : قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (9) [فصلت : 9] .

وقال بعد ذلك : ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (11) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ [فصلت : 11 ، 12] فدلت هذه الآية على أنه خلق الأرض قبل السماء .

(52/680)

وقال في موضع آخر : أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (27) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (28) [النازعات : 27 ، 28] ثم قال : وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (30) [النازعات : 30] .

فدلت هذه الآية على أنه خلق السماء قبل الأرض .

ومثل قوله : لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6) [الغاشية : 6] .

وهو يقول في موضع آخر : فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (35) وَلا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36)

والضريع : نبت ، فهل يجوز أن يكون في النار نبات وشجر ، والنار تأكلهما ؟ .

ومثل قوله تعالى : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33) [الأنفال : 33] ، ثم قال على أثر ذلك : وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ [الأنفال : 34] .

وقالوا : فأين قوله : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى ، من قوله : فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ [النساء : 3] .

وأين قوله : جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ، من قوله : ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [المائدة : 97] .

وأين قوله : أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ ، من قوله : إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [لقمان : 31] ، أو ليس هذا مما يستوي فيه الصبّار والشّكور وغير الصبّار والشّكور ؟ .

(53/680)

وما معنى قوله : كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ [الحديد : 20] ؟ ولم خص الكفار دون المؤمنين ؟ أو ليس هذا مما يستوي فيه المؤمنون والكافرون ، ولا ينقص إيمان المؤمنين إن

أعجبهم ؟ .

وقالوا في قوله عز وجل : خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ [هود : 107] : استثناؤه المشيئة من الخلود ، يدل على الزوال ، وإلا فلا معنى للاستثناء . ثم قال : عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ [هود : 108] ، أي غير مقطوع.

وقالوا في قوله : لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى [الدخان : 56] :

كيف يستثنى موتا كان في الدنيا من مكثهم في الجنة ؟ وهل يجوز أن يقال في الكلام :

لا أعطيك اليوم درهما إلا ما أعطيتك أمس ؟ .

وقالوا في قوله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (96) [مريم : 96] : هل يجوز أن يقال : فلان يجعل لك حبّا ، أي يحبك ؟ .

وفي قوله : وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (9) [النبأ : 9] والسّبات هو : النوم ، فكيف يجوز أن يجعل نومنا نوما ؟ .

وفي قوله : وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (15) قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ [الإنسان :

15 ، 16] وقوله : لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (33) [الذاريات : 33] : كيف يكون زجاج من فضة ؟ وحجارة من طين ؟ .

وقالوا في قوله : فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (95) [يونس : 94 ، 95] : هل كان النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، يشك فيما يأتيه به جبريل ؟ وكيف يدعو الشاكين من هو على مثل سبيلهم ؟ وكيف يرتاب فيما يأتيه به الروح الأمين ، ويأتيه الثّلج واليقين بخبر أهل الكتاب عنه أنه حق ، وهم يكذبون ويحرّفون ويقولون على اللّه ما لا يعلمون ؟ .

وقالوا في قوله : وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا [مريم : 62] : أنتم تزعمون أنه لا شمس هناك ولا ليل ، وهذا يدل على أوقات مختلفة ، وشمس وفيء ، ونهار وليل ، لأن البكرة تدل على أول النهار ، والعشيّ يدل على آخره ، وما كان له أول وآخر فله انصرام ، وإذا انصرم عاقبه الليل والنهار .

وقالوا في سورة الأنفال ، حين ذكرها ، ثم وصف المؤمنين فقال : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

[الأنفال : 2 - 4] ، ثم قال : كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ [الأنفال : 5] : و(كما) تأتي لتشبيه الشيء ، ولم يتقدم من الكلام ما يشبّه به إخراج اللّه إياه .

(55/680)

وقالوا في قوله : وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ (40) [الرعد : 40] كيف يكون عليه البلاغ بعد الوفاة ؟ .

وقالوا : في قوله في الرعد : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ [الرعد : 35] ، أين الشيء الذي جعلت له الجنة مثلا ؟ وهل يجوز أن يقال : "مثل الدار التي وعدتك سكناها ، يطّرد فيها نهر ، وتظلك فيها ، شجرة" . ويمسك القائل ؟ .

قالوا : وقال في موضع آخر : يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ [الحج : 73] ولم يأت به .

وقالوا في قوله تعالى : وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ [الأحزاب : 10] : كيف تبلغ القلب الحلوق ، والقلوب إن زال عن موضعه شيئا ، مات صاحبه ؟ .

وقالوا في قوله تعالى : فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ [النحل : 112] : كيف يذاق اللباس ؟ وإنما كان وجه الكلام : فألبسها اللّه لباس الجوع والخوف . أو غشّاها اللّه لباس

الجوع والخوف . أو فأذاقها اللّه الجوع والخوف . ويحذف اللباس .

وقالوا في قوله : سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16) [القلم : 16] : ما هذا من العقوبة ؟ وفي أي الدّارين يسمه : أفي الدنيا أم في الآخرة ؟ .

فإن كان في الدنيا ، فإنه لم يبلغنا أن أحدا من المشركين ، وسم على أنفه .

وإن كان في النار ، فما أعدّ للكافرين فيها من صنوف العذاب ، أكثر من الوسم على الأنف .

وقالوا : ماذا أراد بإنزال المتشابه في القرآن ، من أراد لعباده الهدى والبيان ؟ .

وتعلقوا بكثير منه لطف معناه : لما فيه من المجازات بمضمر لغير مذكور ، أو محذوف من الكلام متروك ، أو مزيد فيه يوضح معناه حذف الزيادة ، أو مقدّم يوضح معناه التأخير ، أو مؤخر يوضح معناه التقديم ، أو مستعار ، أو مقلوب .

(56/680)

وتكلموا في الكناية ، مثل قوله : تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) [المسد : 1] ، ومثل قوله : لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا [الفرقان : 28] .

وفي تكرار الكلام في : قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (1) [الكافرون : 1] ، وفي سورة الرحمن .

وفي تكرار الأنباء والقصص ، من غير زيادة ولا إفادة .

وفي مخالفة معنى الكلام مخرجه .

وقد ذكرت الحجّة عليهم في جميع ما ذكروا ، وغيره مما تركوا ، وهو يشبه ما أنكروا ، ليكون الكتاب جامعا للفن الذي قصدت له .

وأفردت للغريب كتابا ، كي لا يطول هذا الكتاب ، وليكون مقصورا على معناه ، خفيفا على من قرأه إن شاء اللّه تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 17 . 28 ﴾

(57/680)

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبروا باعراضهم وعللوا بعدم فهمهم بما يدعو إليه ، أمره سبحانه بجواب يبين أنهم

على محض العناد فقال : (قل) أي لهؤلاء الذين عجزوا عن رد شيء من أمرك بشيء يقبله ذو عقل فادعوا ما ينادي عليهم بالعجز : (إنما أنا بشر مثلكم (لا غير بشر مما لا يرى ، والبشر يرى بعضه بعضاً ويسمعه ويبصره فقولكم أنه لا وصول لكم إلى رؤيتي ولا إدراك شيء مما أقول مما لا وجه له أصلاً .

ولما كان ادعاؤهم لعدم المواصلة بينهم قد تضمن شيئين : أحدهما فيه ، والآخر فيما يدعو إليه ، ونقض الأول ، قال في الثاني : (يوحى إليّ) أي بطريق يخفى عليكم) إنما إلهكم) أي الذي يستحق العبادة) إله واحد (لا غير واحد ، وهذا مما دلت عليه الطرق النقلية ، وانعقد عليه الإجماع في أوقات الضرورات النفسانية ، أي لست مغايراً للبشر ممن يخفى عليكم شخصه كالملك ، ولا يعجم عليهم مراده بصوته كسائر الحيوانات ، ومع كوني بشراً فلست بمغاير لكم في الصنف بكوني أعجمياً ، بل أنا مثلكم سواء في كوني عربياً ، ومع ذلك كله فأصل ما أوحي إلي ليس معبراً عنه بجمل طوال تمل أو تنسى ، أو يشكل فهمها ، وإنما هو حرف واحد وهو التوحيد ، فلا عذر لكم أصلاً في عدم فهمه ولا سماعه ولا رؤية قائله .

ولما قطع حجتهم وأزال علتهم ، سبب عن ذلك قوله : (فاستقيموا) أي اطلبوا واقصدوا وأوجدوا القوام متوجهين وإن كان في غاية البعد عنكم) إليه (غير معرجين أصلاً على نوع شرك بشفيع ولا غيره .

ولما كان أعظم المراد من الوحي العلم والعمل ، وكان رأس العلم التوحيد فعرفه وأمر بالاستقامة فيه ، أتبعه رأس العمل وهو ما أنبأ عن الاعتراف بالعجز مع الاجتهاد فقال : (واستغفروه) أي اطلبوا منه غفران ذنوبكم ، وهو محوها عيناً وأثراً حتى لا تعاقبوا عليها ولا تعاتبوا بالندم عليها ، والإقلاع عنها حالاً ومآلاً .

واما أمر بالخير ، رغب فيه ووهب من ضده ، فكان التقدير للترغيب : فالفلاح والفوز لمن فعل ذلك ، فعطف عليه ما السياق له فقال : (وويل) أي وسواة وهلاك (للمشركين) .

ولما كانت العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادة في أمرين : التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، وكان أفضل أبواب التعظيم لأمر الله الإقرار بوحدانيته ، فكان أخس الأعمال التي بين العبد وربه الإخلال بذلك ، وكان اخس الأعمال التي بين العبد وربه الإخلال بذلك ، وكان أخس الأعمال التي بين العبد وبين الخلق منع ما أوجه الله في الزكاة ، وكان معنى الشرك الحكم بأن ما لا شيء له أصلاً وما لا يمكن أن يكون له ملك تام على شيء أصلاً قد شارك من له الكل خلقاً وتصرفاً فيما هو عليه من الملك التام الذي لا شوب فيه ، وكانت الزكاة إشراك من له ملك غير تام لمثله في جزء يسير من ماله .

قال ذاماً لمن أبى أن يشارك الخلائق وأشرك بالخالق : (الذين لا يؤتون) أي أمثالهم من أولاد آدم) الزكاة (من المال الذي لا صنع لهم في خلقه ، فهو مخلف عن أبيهم آدم ، فالقياس يقتضي اشتراكهم كلهم فيه على حد سواء ، ولكنا رحمناهم بتخصيص كل واحد منهم بما ملكت يمينه منه بطريقة ، فقد حكموا في أمر ربهم بما لا يرضونه لأنفسهم ، فإنهم أبوا أن يشركوا ببذل الزكاة بعض أخوانهم في بعض مالهم الذي ملكهم له ضعيف ، وأشركوا ما لا يملك شيئاً أصلاً بما لا نفع مع المالك المطلق .

(59/680)

ولما كان مما تضمنه إشراكهم وإنكارهم البعث أنهم أداهم شحهم إلى استغراقهم في الدنيا والأقبال بكلياتهم على لذاتها ، فأنكروا الآخرة ، فصار محط حالهم أنهم أثبتوا لمن لا فعل أصلاً فعلاً لا يمكنه تعاطيه بوجه ، ونفوا عن الفاعل المختار الذي هم لأفعاله الهائلة في كل وقت يشاهدون ، وإليه في منافعهم ومضارهم يقصدون ، ما أثبت لنفسه من فعله ، فقال مؤكداً تنبيهاً على أن إنكارهم هذا مما لا يكاد يصدق : (وهم بالآخرة) أي الحياة التي بعد هذه ولا بعد لها) هم) أي بخاصة من بين أهل الملل) كافرون (فاختصموا بإنكار شيء لم يوافقهم عليه أحد في حق من يشاهدون في كل وقت من أفعاله أكثر من ذلك ، وأثبتوا لمن لم

يشاهدوا له فعلاً قط ما لا يمكنه فعله أصلاً ، وهم يدعون العقول الصحيحة والآراء المتينة ورضوا لأنفسهم بالدناءة في منع الزكاة وحكموا بأعظم منها على الله وهم يدعون مكارم الأخلاق ومعالي الهمم ، فأقبح بهذه عقولاً وأسفل بها هماً فقد تضمنت الآية أن الويل لمن اتصف بصفات ثلاثة : الشرك الذي هو ضد التعليم لأمر الله ، والامتناع من الزكاة الذي هو ضد الشفقة على

خلق الله وإنكار القيامة المؤدي إلى الاستغراق فيما أبغض الله في طلب الدنيا ولذاتها وهو من الاستهانة بأمر الله ، قال الأصبهاني : وتمام الكلام في أنه لا زيادة على هذه المراتب الثلاثة أن الإنسان له ثلاثة أيام : أمس واليوم والغد ، فمعرفة كيف ينبغي وقوع الأحوال في الاليوم الحاضر هو بالإحسان إلى أهل العلم بقدر الطاقة ، ومعرفة الأحوال في اليوم المستقبل بالإقرار بالبعث والقيامة ، فإذا كان الإنسان على ضد الحق في هذه المراتب الثلاثة كان في نهاية الجهل والضلال .

(60/680)

ولما ذكر ما للجاهلين وعيداً وتحذيراً ، ذكر ما لأضدادهم وعداً وتبشيراً ، فقال مجيباً لمن تشوف لذلك مؤكداً لإنكار من ينكره : (إن الذين آمنوا) أي بما آتاهم الله من العلم النافع)

وعملوا الصالحات (من الزكاة وغيرها ليكون عملهم شرعياً نافعاً ، ولما كان افتتاح السورة بالرحمن الرحيم مشعراً بأن الأسباب الظاهرية انمحت عند السبب الحقيقي الذي هو رحمته ، أعرى الخبر عن الفاء ، فقال إيذاناً بعظم الجزاء لأن سببه رحمة الرحيم ، ولو كان بالفاء لآذنت أنه على مقدار العمل الذي هو سببه : (لهم أجر) أي عظيم) غير ممنون) أي مقطوع - جزاء على سماحهم بالفاني اليسير من أموالهم في الزكاة وغيرها وما أمر الله به من أقوالهم في الآخرة والدنيا ، والممنون : المقطوع من مننت الحبل أي قطعته بقطع مننه ومنه قولهم : قد منه السفر أي قطعه وأذهب منته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 554.552 ﴾

(61/680)

فصل

قال الفخر :

ولما حكى الله عنهم هذه الشبهة أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن هذه الشبهة بقوله ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ ﴾ وبيان هذا الجواب كأنه يقول إني لا أقدر أن أحملكم على الإيمان جبراً وقهراً فإني بشر مثلكم ولا امتياز بيني وبينكم إلا بمجرد

أن الله عزّ وجلّ أوحى إليّ وما أوحى إليكم فأنا أبلغ هذا الوحي إليكم ، ثم بعد ذلك إن شرفكم الله بالتوحيد والتوفيق قبلتموه ، وإن خذلكم بالحرمان رددتموه ، وذلك لا يتعلق بنبوتي ورسالتي ، ثم بيّن أن خلاصة ذلك الوحي ترجع إلى أمرين : العلم والعمل ، أما العلم فالرأس والرئيس فيه معرفة التوحيد ، ذلك لأن الحق هو أن الله واحد وهو المراد من قوله ﴿ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ وإذا كان الحق في نفس الأمر ذلك وجب علينا أن نعترف به ، وهو المراد من قوله ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ ﴾ ونظيره قوله

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] وقوله ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ [فصلت : 30] وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه ﴾ [الأنعام : 153] وفي قوله تعالى : ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ ﴾ وجهان الأول : فاستقيموا متوجهين إليه الثاني : أن يكون قوله ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ ﴾ معناه فاستقيموا له لأن حروف الجر يقام بعضها مقام البعض .

(62/680)

واعلم أن التكليف له ركنان أحدهما : الاعتقاد والرأس والرئيس فيه اعتقاد التوحيد ، فلما أمر بذلك انتقل إلى وظيفة العمل والرأس والرئيس فيه الاستغفار ، فلهذا السبب قال :

﴿ واستغفروه ﴾ فإن قيل المقصود من الاستغفار والتوبة إزالة ما لا ينبغي وذلك مقدم على فعل ما ينبغي ، فلم عكس هذا الترتيب ههنا وقدم ما ينبغي على إزالة ما لا ينبغي ؟ قلنا ليس المراد من هذا الاستغفار الاستغفار عن الكفر ، بل المراد منه أن يعمل ثم يستغفر بعده لأجل الخوف من وقوع التقصير في العمل الذي أتى به كما قال صلى الله عليه وسلم : " وإنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة " ولما رغب الله تعالى في الخير والطاعة أمر بالتحذير عما لا ينبغي ، فقال : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكواة وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ وفي هذه الآية مسائل :

المسألة الأولى :

وجه النظم في هذه الآية من وجوه الأول : أن العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادات مربوطة بأمرين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، وذلك لأن الموجودات ، إما الخالق وإما الخلق ، فأما الخالق فكمال السعادة في المعاملة معه أن يقر بكونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة ، ثم يأتي بأفعال دالة على كونه في نهاية العظمة في اعتقادنا وهذا هو المراد من التعظيم لأمر الله ، وأما الخلق فكمال السعادة في المعاملة معهم أن يسعى في

دفع الشر عنهم وفي إيصال الخير إليهم ، وذلك هو المراد من الشفقة على خلق الله ، فثبت أن أعظم الطاعات التعظيم لأمر الله ، وأفضل أبواب التعظيم لأمر الله الإقرار بكونه واحداً وإذا كان التوحيد أعلى المراتب وأشرفها كان ضده وهو الشرك أخس المراتب وأرذلها ، ولما كان أفضل أنواع المعاملة مع الخلق هو إظهار الشفقة عليهم كان الامتناع من الزكاة أخس الأعمال ، لأنه ضد الشفقة على خلق الله ، إذا عرفت هذا فنقول إنه تعالى أثبت الويل لمن كان موصوفاً بصفات ثلاثة أولها : أن يكون مشركاً وهو ضد التوحيد .

وإليه الإشارة بقوله ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ وثانيها : كونه ممتنعاً من الزكاة وهو ضد الشفقة على خلق الله ، وإليه الإشارة بقوله ﴿ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكواة ﴾ وثالثها : كونه منكراً للقيامة مستغرقاً في طلب الدنيا ولذاتها ، وإليه الإشارة بقوله ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ وتمام الكلام في أنه لا زيادة على هذه المراتب الثلاثة أن الإنسان له ثلاثة أيام : الأمس واليوم والغد .

أما معرفة أنه كيف كانت أحوال الأمس في الأزل فهو بمعرفة الله تعالى الأزلي الخالق لهذا العالم .

(64/680)

وأما معرفة أنه كيف ينبغي وقوع الأحوال في اليوم الحاضر فهو بالإحسان إلى أهل العالم بقدر الطاقة ، وأما معرفة الأحوال في اليوم المستقبل فهو الإقرار بالبعث والقيامة ، وإذا كان الإنسان على ضد الحق في هذه المراتب الثلاثة كان في نهاية الجهل والضلال ، فلهذا حكم الله عليه بالويل ، فقال : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكواة وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ وهذا ترتيب في غاية الحسن ، والله أعلم الوجه الثاني : في تقرير كيفية النظم أن يقال المراد بقوله ﴿ لاَ يُؤْتُونَ الزكواة ﴾ أي لا يزكون أنفسهم من لوث الشرك بقولهم : لا إله إلا الله ، وهو مأخوذ من قوله تعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 7] الثالث : قال الفرّاء : إن قريشاً كانت تطعم الحاج ، فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا في إثبات أن الكفار مخاطبون بفروع الإسلام بهذه الآية ، فقالوا إنه تعالى ألحق الوعيد الشديد بناء على أمرين أحدهما : كونه مشركاً والثاني : أنه لا يؤتي الزكاة ، فوجب أن يكون لكل واحد من هذين الأمرين تأثير في حصول ذلك الوعيد ، وذلك يدل على أن لعدم إيتاء الزكاة من المشرك تأثيراً عظيماً في زيادة الوعيد ، وذلك هو المطلوب .

المسألة الثالثة :

احتج بعضهم على أن الامتناع من إيتاء الزكاة يوجب الكفر ، فقال إنه تعالى لما ذكر هذه الصفة ذكر قبلها ما يوجب الكفر ، وهو قوله ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ وذكر أيضاً بعدها ما يوجب الكفر ، وهو قوله ﴿ وَهُمْ بِالآخرة هُمْ كافرون ﴾ فلو لم يكن عدم إيتاء الزكاة كفراً لكان ذكره فيما بين الصفتين الموجبتين للكفر قبيحاً ، لأن الكلام إنما يكون فصيحاً إذا كانت المناسبة مرعية بين أجزائه ، ثم أكدوا ذلك بأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حكم بكفر مانعي الزكاة والجواب : لما ثبت بالدليل أن الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان وهما حاصلان عند عدم إيتام الزكاة ، فلم يلزم حصول الكفر بسبب عدم إيتاء الزكاة ، والله أعلم .

ثم إنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أردفه بوعد المؤمنين ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع ، من قولك مننت الحبل ، أي قطعته ، ومنه قولهم قد منه السفر ، أي قطعه ، وقيل لا يمن عليهم ، لأنه تعالى لما سماه أجراً ، فإذاً الأجر لا يوجب المنّة ، وقيل نزلت في المرضى والزمنى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأحسن ما كانوا يعملون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 85 .

87 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾

أي لست بمَلَك بل أنا من بني آدم .

قال الحسن : علمه الله تعالى التواضع .

﴿ يوحى إِلَيَّ ﴾ أي من السماء على أيدي الملائكة ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ﴿ ف ﴾ آمنوا به و ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ ﴾ أي وجهوا وجوهكم بالدعاء له والمسألة إليه ، كما يقول الرجل : استقم إلى منزلك ؛ أي لا تعرج على شيء غير القصد إلى منزلك .

﴿ واستغفروه ﴾ أي من شرككم .

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكاة ﴾ قال ابن عباس : لا يشهدون "أن لا إله إلا الله" وهي زكاة الأنفس .

وقال قتادة : لا يقرون بالزكاة أنها واجبة .

وقال الضحاك ومقاتل : لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة .

قرّعهم بالشح الذي يأنف منه الفضلاء ، وفيه دلالة على أن الكافر يعذب بكفره مع منع

وجوب الزكاة عليه .

وقال الفراء وغيره : كان المشركون ينفقون النفقات ، ويسقون الحجيج ويطعمونهم ، فحرّموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فنزلت فيهم هذه الآية .

﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ فلهذا لا ينفقون في الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون .

الزمخشري : فإن قلت لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقروناً بالكفر بالآخرة ؟ قلت : لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته (واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته) ألا ترى إلى قوله عز وجل : ﴿ وَمَثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابتغآء مَرْضَاتِ الله وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [البقرة : 265] أي يثبتون أنفسهم ، ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا ، فقويت عصبتهم ولانت شكيمتهم ؛ وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة ، فنصبت لهم الحروب وجوهدوا .

(67/680)

وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين ، وقرِن بالكفر بالآخرة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال ابن عباس :

غير مقطوع ؛ مأخوذ من مننت الحبل إذا قطعته ؛ ومنه قول ذي الإصبع :

إِنّي لَعَمْرُكَ ما بابي بِذِي غَلَقٍ . . .

على الصَّدِيقِ ولا خَيْرِي بِممنونِ

وقال آخر :

فَتَرَى خَلْفَها مِنَ الرَّجْعِ والْوَقْ . . .

عِ مَنِينا كأَنَّهُ أَهْبَاء

يعني بالمَنِين الغبَار المنقطع الضعيف .

وعن ابن عباس أيضاً ومقاتل : غير منقوص .

ومنه المَنُون ؛ لأنها تنقص منَّة الإنسانِ أي قوّته ؛ وقاله قطرب ؛ وأنشد قول زهير :

فَضْل الجِيادِ على الخيلِ البطاءِ فَلاَ . . .

يُعْطِي بِذلِك مَمْنُوناً ولا نَزِقَا

قال الجوهري : والمنّ القطع ، ويقال النقص ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

وقال لبيد :

غبْسٌ كَوَاسِبُ لاَ يُمَنُّ طَعَامُها . . .

وقال مجاهد : "غَيْرُ مَمْنُونٍ" غير محسوب .

وقيل : "غَيْرُ مَمْنُونٍ" عليهم به .

قال السدي : نزلت في الزَّمْنى والمَرْضَى والْهَرْمَى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(68/680)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾

لست ملكاً ولا جنياً لا يمكنكم التلقي منه ، وهو رد لقولهم : ﴿ بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : 5] ﴿ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ أي ولا أدعوكم إلى ما عنه العقول وإنما أدعوكم إلى التوحيد الذي دلت عليه دلائل العقل وشهدت له شواهد السمع ، وهذا جواب عن قولهم : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ﴾ [فصلت : 5] ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ ﴾ فاستووا إليه تعالى بالتوحيد واخلاص العبادة ولا تتمسكوا بعرا الشرك وتقولوا لمن يدعوكم إلى التوحيد : قلوبنا في أكنة الخ ﴿ واستغفروه ﴾ مما سلف منكم من القول والعمل وهذا وجه لا يخلو عن حسن في ربط الأمر بما قلبه ، وفي إرشاد العقل السليم أي لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بيني وبينكم حجاب وتباين مصحح لتباين

الأعمال والاديان كما ينبىء عنه قولكم : ﴿ فاعلم إِنَّنَا عاملون ﴾ [فصلت : 5] بل إنما أن بشر مثلكم مأمور بما آمركم به حيث أخبرنا جميعاً بالتوحيد بخطاب جامع بيني وبينكم ، فإن الخطاب في ﴿ ألهاكم ﴾ محكى منتظم للكل لا أنه خطاب منه عليه الصلاة والسلام للكفرة كما في مثلكم وهو مبني على اختيار الوجه الأول في ﴿ فاعلم إِنَّنَا عاملون ﴾ ولا بأس به من هذه الجهة نعم فيه قصور من جهة أخرى ، وقال صاحب الفرائد : ليس هذا جواباً لقولهم إذ لا يقتضي أن يكون له جواب ، وحاصله لا تتركهم وما يدينون لقولهم ذلك المقصود منه أن تتركهم ، سلمنا أنه جواب كلن المراد منه أني بشر فلا أقدر أن أخرج قلوبكم من الأكنة وأرفع الحجاب من البين والوقر من الآذان ولكني أوحى إلي وأمرت بتبليغ ﴿ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ وللإمام كلام قريب مما ذكر في حيز التسليم ، وكلا الكلامين غير واف بجزالة النظم الكريم ، وجعله الزمخشري جواباً من أن المشركين طالما يتمسكون في رد النبوة بأن مدعيها بشر ويجب أن يكون ملكاً ولا يجوز أن يكون بشراً ولذا لا يصغون إلى قول الرسول ولا يتفكرون فيه فقوله عليه

الصلاة والسلام : إني لست بملك وإنما أنا بشر من باب القلب عليهم لا القول بالموجب ولا من الأسلوب الحكيم في شيء كما قيل كأنه صلى الله عليه وسلم قال : ما تمسكتم به في رد نبوتي من أني بشر هو الذي يصحح نبوتي إذ لا يحسن في الحكمة أن يرسل إليكم الملك فهذا يوجب قبولكم لا الرد والغلو في الأعراض .

وقوله : ﴿ يُوحِى إِلَىَّ إِنَّمَا إلهكم ﴾ تمهيد للمقصود من البعثة بعد إثبات النبوة أولاً مفصلاً بقوله تعالى : ﴿ حم ﴾ [فصلت : 1] الآيات ومجملاً ثانياً بقوله : ﴿ يوحى إِلَىَّ ﴾ ثم قيل : ﴿ إِنَّمَا إلهكم ﴾ بياناً للمقصود فقوله ﴿ يُوحَى ﴾ إلى مسوق للتمهيد ، وفيه رمز إلى إثبات النبوة ، وهذا المعنى على القول بأن المراد من ﴿ فاعمل ﴾ الخ فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك ظاهر ، وأما على القول الأول فوجهه أن الدين هو جملة ما يلتزمه المبعوث إليه من طاعة الباعث تعالى بواسطة تبليغ المبعوث فهو مسبب عن نبوته المسببة عن دليلها فأظهروا بذلك أنهم منقادون لما قرر لديهم آباؤهم من منافاة النبوة للبشرية وأنه دينهم فقيل لهم ما قيل ، وهو على هذا الوجه أكثر طباقاً وأبلغ ، وهذا حسن دقيق وما ذكر أولا أسرع تبادراً ، وفي الكشف أن ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَىَّ ﴾ في مقابلة إنكارهم الاعجاز والنبوة وقوله : ﴿ فاستقيموا ﴾ يقابل عدم القبول وفيه رمز إلى شيء مما سمعت فتأمل ، وقرأ ابن وثاب .

والأعمش ﴿ قَالَ إِنَّمَا ﴾ فعلا ماضياً ، وقرأ النخعي .

والأعمش ﴿ يُوحَى ﴾ بكسر الحاء على أنه مبني للفاعل أي يوحي الله إلى أنما الهكم إله واحد .

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ من شركهم بربهم عز وجل .

(70/680)

﴿ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكاة ﴾ لبخلهم وعدم اشفاقهم على الخلق وذلك من أعظم الرذائل ﴿ وَهُمْ بالآخرة هُمْ كافرون ﴾ مبتدأ وخبر وهم الثاني ضمير فصل و﴿ بالآخرة ﴾ متعلق بكافرون ، والتقديم للاهتمام ورعاية الفاصلة ، والجملة حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم في الدنيا وإنكارهم للآخرة ، وحمل الزكاة على معناها الشرعي مما قاله ابن السائب ، وروي عن قتادة .

والحسن .

والضحاك ، ومقاتل ، وقيل : الزكاة بالمعنى اللغوى أي لا يفعلون ما يزكي أنفسهم وهو الإيمان والطاعة .

وعن مجاهد .

والربيع لا يزكون أعمالهم ، وأخرج ابن جرير .

وجماعة عن ابن عباس أنه قال : في ذلك أي لا يقولون لا إله إلا الله وكذا الحكيم الترمذي .

وغيره عن عكرمة فالمعنى حينئذ لا يطهرون أنفسهم من الشرك ، واختار ذلك الطيبي قال : والمعنى عليه فاستقيموا إليه التوحيد واخلاص العبادة له تعالى وتوبوا إليه سبحانه مما سبق لكم من الشرك وويل لكم إن لم تفعلوا ذلك كله فوضع موضعه منع إيتاء الزكاء ليؤذن بأن الاستقامة على التوحيد واخلاص العمل لله تعالى والتبري عن الشرك هو تزكية النفس ، وهو أوفق لتأليف النظم ، وما ذهب إليه حبر الأمة إلا لمراعاة النظم

وجعل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

(71/680)

أي غير مقطوع مذكوراً على جهة الاستطراد تعريضاً بالمشركين وان نصيبهم مقطوع حيث بم يزكوا أنفسهم كما زكوا ، واستدل على الاستطراد بالآية بعد ، وفي الكشف القول الأول أظهر والمشركون باق على عمومه لا من باب إقامة الظاهر مقام المضمر كهذا القول وأن الجملة معترضة كالتعليل لما أمرهم به وكذلك ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ الآية لأنه بمنزلة وويل للمشركين وطوبى للمؤمنين ، وفيهما من التحذير والترغيب ما يؤكد أن الأمر بالإيمان

والاستقامة تأكيداً لا يخفى حاله على ذي لب ، وكذلك الزكاة فيه على الظاهر ، وخص من بين أوصاف الكفرة منعها لما أنها معيار على الإيمان المستكن في القلب كيف ، وقد قيل : المال شقيق الروح بل قال بعض الأدباء :

وقالوا شقيق الروح مالك فاحتفظ . . .

به فأجبت المال خير من الروح

أرى حفظه يقضي بتحسين حالتي . . .

وتضييعه يفضي لتسآل مقبوح

والصرف عن الحقيقة الشرعية الشائعة من غير موجب لا يجوز كيف ومعنى الايتاء لا يقر قراره ، نعم لو كان بدله يأتون كما في قوله تعالى : ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴾ [التوبة : 54] لحسن لا يقال : إن الزكاة فرضت بالمدينة والسورة مكية لأنا نقول : إطلاق الاسم على طائفة مخرجة من المال على وجه من القربة مخصوص كان شائعاً قبل فرضيتها بدليل شعر أمية بن أبي الصلت الفاعلون للزكوات ، على أن هذا الحق على هذا الوجه المعروف فرض بالمدينة ، وقد كان في مكة فرض شيء من المال يخرج إلى المستحق لا على هذا الوجه وكان يسمى زكاة أيضاً ثم نسخ انتهى .

ومنه يعلم سقوط ما قاله الطيبي .

بقي مخالفة الحبر وهي لا تتحقق إلا إذا تحقق الرواية عنه وبعده الأمر أيضاً سهل ، ولعله رضي الله تعالى عنه كان يقرأ لا يأتون من الإتيان إذ القراءة المشهورة تأبى ذلك إلا بتأويل بعيد ، والعجب نسبة ما ذكر عن الحبر في البحر إلى الجمهور أيضاً ، وحمل الآية على ذلك مخلص بعض ممن لا يقول بتكليف الكفار بالفروع لكن لا يخفى حال الحمل وهي على المعنى المتبادر دليل عليه ومن لا يقول به قال : هم مكلفون باعتقاد حقيتها دون إيقاعها والتكليف به بعد الإيمان فمعنى الآية لا يؤتون الزكاة بعد الإيمان ، وقيل : المعنى لا يقرون بفرضيتها ، والقول بتكليف المجنون أقرب من هذا التأويل ، وقيل كلمة ﴿ وَيْلٌ ﴾ تدل على الذم لا التكليف وهو مذموم عقلاً ، وفيه بحث لا يخفى ؛ هذا وقيل : في ﴿ مَمْنُونٍ ﴾ لا يمن به عليهم من المن بمعنى تعداد النعم ، وأصل معناه الثقل فأطلق على ذلك لثقله على الممنون عليه ، وعن ابن عباس تفسيرها بالمنقوص ، وأنشدوا لذي الأصبع العدواني :

أني لعمرك ما بأبي بذي غلق . . .

عن الصديق ولا زادي بممنون

والآية على ما روي عن السدى نزلت في المرضى والهرمي إذا عجزوا عن كمال الطاعات كتب لهم من الأجر في المرض والهرم مثل الذي كان يكتب لهم وهم أصحاء وشبان ولا

تنقص أجورهم وذلك من عظيم كرم الله تعالى ورحمته عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(73/680)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

استئناف ابتدائي هو تلقين الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجيب قولهم : ﴿ فاعْمَل إنَّنَا عاملون ﴾ [فصلت : 5] المفرّعَ على قولهم : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إليهِ ﴾ [فصلت : 5] إلى آخره جوابَ المُتبرىء من أن يكون له حول وقوة ليعمل في إلجائهم إلى الإيمان لَمَّا أبوْه إذ ما هو إلا بشر مثلهم في البشرية لا حول له على تقليب القلوب الضالة ، إلى الهدى ، وما عليه إلا أن يبلغهم ما أوحَى الله إليه .

وهذا الخبر يفيد كناية عن تفويض الأمر في العمل بجزائهم إلى الله تعالى كأنه يقول : وماذا أستطيع أن أعمل معكم فإني رسول من الله فحسابكم على الله .

فصيغة القصر في ﴿ إنَّمَا أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم ﴾ تفيد قصراً إضافياً ، أي أنَا مقصور على البشرية دون التصرف في قلوب الناس .

وبيَّن مما تميَّز به عنهم على وجه الاحتراس من أن يتلقفوا قوله : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم ﴾ تلقفَ من حصَّل على اعتراف خصمه بنهوض حجته بما يُثبت الفارق بينه وبينهم في البشرية ، وهو مضمون جملة ﴿ يوحى إِلَيَّ ﴾ وذلك للتسجيل عليهم إبطال زعمهم المشهور المكرر أن كونه بشراً مانع من إرساله عن الله تعالى لقولهم : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ [الفرقان : 7] ، ونحوه مما تكرر في القرآن .

ومثل هذا الاحتراس ما حكاه الله عن قول الكفار لرسلهم : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن اللَّه يمن على من يشاء من عباده ﴾ [إبراهيم : 10 ، 11] .

(74/680)

وحرصاً على إبلاغ الإرشاد إليهم بيَّن له ما يوحى إليه بقوله : ﴿ إِنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ إعادةِ لِمَا أبلغهم إياه غيرَ مرة ، شأنَ القائم بهدي الناس أن لا يغادر فرصة لإِبلاغهم الحق إلا انتهزها .

ونظيره ما جاء في محاورة موسى وفرعون ﴿ قال فرعون وما رب العالمين قال رب

السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم مؤمنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ [الشعراء : 23 28] .

و﴿ أنما ﴾ مفتوحة الهمزة ، وهي أخت ﴿ إنما ﴾ المكسورة وإنما تفتح همزتها إذا وقعت معمولة لما قبلها ولم تكن في الابتداء كما تفتح همزة (أنَّ) وتكسر همزة (إن) لأن إنَّمَا أو (أنَّما) مركبان من (إنَّ) أو (أنَّ) مع (ما) الكافة الزائدة للدلالة على معنى (مَا) وَ (إلا) حتى ذهب وَهَلُ بعضهم أن (ما) التي معها هي النافية اغتراراً بأن معنى القصر إثبات الحكم للمذكور ونفيُه عما عداه مثلَ (ما) و (إلاَّ) ولا ينبغي التردد في كون أَنما المفتوحةِ الهمزة مفيدة القصرَ مثلُ أُختها المكسورة الهمزة وبذلك جزم الزمخشري في تفسير سورة الأنبياء ، وما رده أبو حيان عليه إنما هو مجازفة ، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿ قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل انتم مسلمون ﴾ في سورة الأنبياء (108) .

فقوله : ﴿ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ إدماج للدعوة إلى الحق في خلال الجواب حرصاً على الهدْي .

وكذلك التفريع بقوله : ﴿ فاسْتَقِيمُوا إلَيْهِ واسْتَغْفِرُوهُ ﴾ فإنه إتمام لذلك الإدماج بتفريع فائدته عليه لأن إثبات أن الله إله واحد إنما يقصد منه إفراده بالعبادة ونبذُ الشرك .

هذا هو الوجه في توجيه ارتباط ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ﴾ بقولهم : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ [فصلت : 5] الخ .

(75/680)

وموقع أَنَّمَا إلهكم إله واحِدٌ ﴾ أنه نائب فاعل ﴿ يوحى إِلَيَّ ﴾ ، أيْ يوحَى إِليَّ معنى المصدر المنسبك من ﴿ أَنَّمَا إلهكم إله واحِدٌ ﴾ وهو حصر صفة الله تعالى في أنه واحد ، أي دون شريك .

ومماثلته لهم : المماثلة في البشرية فتفيد تأكيدَ كونه بشراً .

والاستقامة : كون الشيء قويماً ، أي غير ذي عوج وتطلق مجازاً على كون الشيء حقاً خالصاً ليست فيه شائبة تمويه ولا باطل .

وعلى كون الشخص صادقاً في معاملته أو عهده غير خالط به شيئاً من الحيلة أو الخيانة ، فيقال : فلان رجل مستقيم ، أي صادق الخُلُق ، وإن أريد صدقه مع غيره يقال : استقام له ، أي استقام لأجله ، أي لأجل معاملته منه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ [التوبة : 7] والاستقامة هنا بهذا المعنى ، وإنما عُدّي بحرف (إلى) لأنها كثيراً ما تعاقب اللام ، يقال : ذهبتُ له

وذهبت إليه ، والأحسن أن إيثار (إلى) هنا لتضمين (استقيموا) معنى : توجهوا ، لأن التوحيد توجه ، أي صرف الوجه إلى الله دون غيره ، كما حكَى عن إبراهيم : ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ [الأنعام : 79] ، أو ضمّن (استقيموا) معنى : أنيبوا ، أي توبوا من الشرك كما دل عليه عطف ﴿ واستغفروه .

والاستغفار : طلب العفو عما فرط من ذنب أو عصيان وهو مشتق من الغَفْر وهو الستر .

والمعنى : فأخلصوا إلى الله في عبادته ولا تشركوا به غيره واسألوا منه الصفح عما فرط منكم من الشرك والعناد .

واستغفروه وَوَيْلٌ ﴾ ﴿ لِّلْمُشْرِكِينَ * الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكواة وَهُمْ بالاخرة هُمْ كافرون ﴾ وعيد للمشركين بسوء الحال والشقاء في الآخرة يجوز أن يكون من جملة القول الذي أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقوله فهو معطوف على جملة ﴿ إِنَمَّا أَنَا بَشَرٌ ﴾ .

(76/680)

ويجوز أن يكون كلاماً معترضاً من جانب الله تعالى فتكون الواو اعتراضية بين جملة ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ﴾ وجملة ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ ﴾ [فصلت : 9] أي

أجبهم بقولك : أنا بشر مثلك يوحى إليّ ونحن أعتدنا لهم الويل والشقاء إن لم يقبلوا ما تدعوهم إليه ، فيكون هذا إخباراً من الله تعالى .

وذكر المشركين إظهار في مقام الإِضمار ويستفاد تعليق الوعيد على استمرارهم على الكفر من الإِخبار عن الويل بكونه ثابتاً للمشركين والموصوفين بالذين لا يؤتون الزكاة وبأنهم كافرون بالبعث لأن تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعليَّة ما منه الاشتقاق ، ولأن الموصول يؤذن بالإِيماء إلى وجه بناء الخبر .

فأما كون الشرك وإنكارِ البعث موجِبَيْن للويل فظاهر ، وأما كون عدم إيتاء الزكاة موجباً للويل فذلك لأنه حَمَّل عليهم ما قارن الإشراك وإنكار البعث من عدم الانتفاع بالأعمال التي جاء بها الإسلام ، فذِكرُ ذلك هنا لتشويه كفرهم وتفظيع شركهم وكفرانهم بالبعث بأنهما يدعوانهم إلى منع الزكاة ، أي إلى القسوة على الفقراء الضعفاء وإلى الشحّ بالمال وكفى بذلك تشويهاً في حكم الأخلاق وحكم العُرف فيهم لأنهم يتعيرون باللؤم ، ولكنهم يبذلون المالَ في غير وجهه ويحرمون منه مستحقيه .

(77/680)

ويعلم من هذا أن مانع الزكاة من المسلمين له حظ من الويل الذي استحقه المشركون لمنعهم الزكاة في ضمن شركهم ، ولذلك رأى أبو بكر قتال مانعي الزكاة ممن لم يرتدوا عن الإسلام ومنَعوا الزكاة مع المرتدين ، ووافقه جميع أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم ف ﴿ الزكاة ﴾ في الآية هي الصدقة لوقوعها مفعول ﴿ يؤتون ، ﴾ ولم تكن يومئذٍ زكاة مفروضة في الإسلام غير الصدقة دون تعيين نُصُبٍ ولا أصنافِ الأرزاق المزكّاةِ ، وكانت الصدقة مفروضة على الجملة ، ولبعض الصدقة ميقات وهي الصدقة قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ [المجادلة : 12] .

وجملة ﴿ وهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كافرون ﴾ إما حال من ضمير ﴿ يؤتون ﴾ وإما معطوفة على الصلة .

وضمير ﴿ هُمْ كافرون ﴾ ضمير فصل لا يفيد هنا إلا توكيد الحكم ويشبه أن يكون هنا توكيداً لفظياً لا ضميرَ فصل ومثله قوله : ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ في سورة يوسف (37) ، وقوله : ﴿ إنني أنا اللَّه ﴾ في سورة طه (14) .

وتقديم ﴿ بِالآخِرَة ﴾ على متعلقه وهو ﴿ كافرون ﴾ لإفادة الاهتمام .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8)

استئناف بياني نشأ عن الوعيد الذي تُوُعّد به المشركون بعد أن أُمروا بالاستقامة إلى الله

واستغفارِه عما فرط منهم ، كأنَّ سائلاً يقول : فإن اتعظوا وارتدعوا فماذا يكون جزاؤهم ، فأفيد ذلك وهو أنهم حينئذٍ يكونون من زمرة ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ ، وفي هذا تنويه بشأن المؤمنين .

وتقديم ﴿ لهم ﴾ للاهتمام بهم .

والأجر : الجزاء النافع ، عن العمل الصالح ، أو هو ما يُعطَوْنه من نعيم الجنة .

(78/680)

والممنون : مفعول من المَنّ ، وهو ذِكر النعمة للمنعَم عليه بها ، والتقدير غير ممنون به عليهم ، وذلك كناية عن كونهم أُعطُوه شكراً لهم على ما أسلفوه من عمل صالح فإن الله غفور شكور ، يعني : أن الإِنعام عليهم في الجنة ترافقه الكرامة والثناء فلا يُحسون بخجل العطاء ، وهو من قبيل قوله : ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ [البقرة : 264] ، فأجرهم بمنزلة الشيء المملوك لهم الذي لم يعطه إياهم أحد وذلك تفضل من الله ، وقريب منه قول لبيد :

غُضْفٌ كواسبُ لا يُمَنُّ طعامها

أي تأخذ طعامها بأنفسها فلا منّة لأحد عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(79/680)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه سفههم في كفرهم بالآخرة ، شرع في ذكر الأدلة على قدرته عليها وعلى كل ما يريد بخلق الأكوان وما فيها الشامل لهم ولمعبوداتهم من الجمادات وغيرها الدال على أنه واحد لا شريك له ، فقال منكراً عليهم ومقرراً بالوصف لأنهم كانوا عالمين بأصل الخلق : (قل) أي لمن أنكر الآخرة منكراً عليه بقولك : (أئنكم (وأكد لإنكارهم التصريح بما

يلزمهم من الكفر) لتكفرون) أي توجدون حقيقة الستر لأنوار العقول الظاهرة) بالذي خلق الأرض) أي على سعتها وعظمتها من العدم) في يومين (فتنكرون قدرته على إعادة ما خلقه منها ابتداء مع اعترافكم بأنه ابتدأ خلقها وخلق ذلك منها ، وهذا اليومان الأحد والاثنين – نقل هذا عن ابن عباس رضي الله عنه ما وعبد الله بن سلام رضي الله عنه – قال ابن الجوزي : والأكثرين ، وحديث مسلم الذي تقدم في سورة البقرة

(خلق الله التربة يوم السبت)

يخالف هذا ، فإن البداءة فيه

بيوم السبت وهو مصرح بأن خلق الأرض وما فيها في ستة أيام كما هو ظاهر هذه الآية ، ويجاب بأن المراد بالخلق فيه إخراج أقواتها بالفعل ، والمراد هنا تهيئتها لقبول ذلك ، ويشكل أيضاً بأن الأيام إنما كانت بدوران الأفلاك ، وإنما كان ذلك بعد تمام الخلق بالفعل ، فالظاهر أن المراد باليوم ما قاله الحرالي : مقدار ما يتم فيه أمر ظاهر أو مقدار يومين تعرفونها من أيام الدنيا .

ولما ذكر كفرهم بالبعث وغيره ، عطف على) تكفرون (قوله : (وتجعلون) أي مع هذا الكفر) له أنداداً (مما خلقه ، فتثبتون له أفعالاً وأقوالاً مع أنكم لم تروا شيئاً من ذلك ، فأنكرتم ما تعملون مثله وأكبر منه ، وأثبتّم ما لم تعملوه أصلاً ، هذا هو الضلال المبين .

ولما بكتهم على قبيح معتقدهم ، عظم ذلك بتعظيم شأنه سبحانه فقال : (ذلك) أي الإله

العظيم) رب العالمين) أي موجدهم ومربيهم ، وذلك يدل قطعاً على جميع ما له من صفات الكمال .

(80/680)

ولما ذكر ما هم به مقرون من إبداعها ، أتبعه ما جعل فيها من الغرائب ، فقال عاطفاً على ما تقديره : أبدع الأرض على ما ذكر : (وجعل (ولا يجوز عطفه على صلة الموصول للفصل بأجنبي) فيها رواسي (هي أشدها وهي الجبال ، ونبه على أنها مخالفة للرواسي في كونها تحت ما يراد إرساؤه فقال : (من فوقها (فمنعتها من الميد ، فعل ذلك لكونه أدل على القدرة ، فإنها لو كانت من تحت لظن أنها ، أساطين حاملة ، ولتظهر منافع الجبال بها أنفسها وبما فيها ، ويشاهد أنها أثقال مفتقرة إلى حامل .

ولما هيأها لما يراد منها ، ذكر ما أودعها فقال : (وبارك فيها) أي جعلها قابلة ميسرة للسير إليه والإقبال عليه ، ودالة على جميع صفاته الحسنى وأسمائه العلى وغير ذلك من المعارف والقدر والقوى) وقدر فيها أقواتها) أي جعلها مع البركة على مقدار لا تتعداه ، منهاج بديع دبره في الأزل وارتضاه ، وقدره فأمضاه ، ومن ذلك أنه خص بعض البلاد بشيء لا يوجد في غيرها لتنظيم عمارة الأرض كلها باحتياج بعضهم إلى بعض ، فكان جميع ما تقدم من

إيداعها وإيداعها ما ذكر من متاعها ، دفعة واحدة لا ينقص عن حاجة المحتاجين أصلاً ، وإنما ينقص توصلهم أو توصل بعضهم إليه فلا يجد له حينئذ ما يكفيه ، وفي الأرض أضعاف كفايته ، ثم ذكر فذلكة خلق الأرض وما فيها فقال : (في أربعة أيام (وهذا العدد عن ضم اليومين الماضيين إلى يومي الأقوات وهما الثلاثاء والأربعاء ، أو يكون المعنى في تتمته أربعة أيام ، ولا يحمل على الظاهر ليكون ستة لأنه سيأتي للسماوات يومان فكانت تكون ثمانية ، فتعارض آية) ألم السجدة ( ) لله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام (وفصل مقدار ما خلقها فيه ومقدار ما خص

(81/680)

الأقوات والمنافع لأحاطة العلم بأنه يخص كل أمر من الأمرين يومان ، ونص على الأولين ليكون ذلك أدل على القدرة فيحسن موقع النعي عليهم بما فصل به الآيتين من اتخاذ الأنداد ، وإنما كان أدل على القدرة ، لأنه إيجاد ذوات محسوسة من العدم قائمة بأنفسها بخلاف البركة ، وتقدير الأقوات فإنه أملا لا يقوم بنفسه ، فلم يفرد يوميه بالذكر ، بل جعلهما تابعين كما أن ما قدر فيهما تابع ، ولم يفعل ذلك في أقل من لمح البصر مع تمام القدرة عليه ، لأن هذا أدل على الاختيار وأدخل في الابتلاء والاختيار ، ليضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ، فيكون

أعظم لأجورهم لأنه أدل على تسليمهم ، وجعل مدة خلقها ضعف مدة السماء مع كونها أصغر من السماء دلالة على أنها هي المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين ، فزادت بما فيها من كثرة المنافع وتباين أصناف الأعراض والجواهر لأن ذلك أدخل في المنة على سكانها ، والاعتناء بشأنهم وشأنها ، وزادت أيضاً بما فيها من الابتلاء بالتهيئة للمعاصي والمجاهدات والمعالجات التي يتنافس فيها الملأ الأعلى ويتخاصم - كل ذلك دلالة على أن المدة ما هي لأجل القدرة بل لأجل التنبيه على ما في المقدر من المقدور وعجائب الأمور ، وليعلم أيضاً بخلق السماء التي هي أكبر جرماً وأتقن جسماً وأعظم زينة وأكثر منافع بما لا يقايس في أقل من مدة خلق الأرض أن خلقها في تلك المدة ليس للعجز عن إيجادها في أقل من اللمح ، بل لحكم تعجز عن حملها العقول ، ولعل تخصيص السماء بقصر المدة دون العكس لإجراء أمرها على ما نتعارفه من أن بناء السقف أخف من بناء البيت تنبيهاً على أنه بنى أمر دارنا هذه على الأسباب تعليماً للتأني وتدريباً على السكينة والبعد من العجلة .

(82/680)

ولما كان لفظ) سواء (الذي هو بمعنى العدل الذي لا يزيد عن النصف ولا ينقص يطلب اثنين ، تقول : سواء زيد وعمرو) إلى كلمة سواء بيننا وبينكم (قال تعالى مزيلاً لما أوهمه قوله : (أربعة أيام (من أنها للأقوات والبركة ليكون مع يومين من الأرض ستة ، ناصباً على المصدر : (سواء) أي التوزيع إلى يومين ويومين على السواء) للسائلين) أي لمن سأل أو كان بحيث يسأل ويشتد بحثه بسؤال أو نظر عن التوفيق بين ظاهر هذه الآية وبين غيرها ، لا بد في كل يوم منها من زيادة عن الذي قبله أو نقص ، ومجموع الأربعة كأربعة من أيام الدنيا لا تزيد عليها ولا تنقص ، وقراءة يعقوب بجر (سواء) معينة لأن تكون نعتاً ل (أربعة) وقراءة أبي جعفر بالرفع خبر لمبتدأ محذوف ، وعن خلقها وتتميمها في أربعة أيام كانت فصولها أربعة ، قال ابن برجان : ألا

ترى الأمر إلى السماء أولاً في إنزال الماء فيخلقه فيما هنالك ثم ينزله إلى الأرض والنبات والحيوان عن الماء الذي ينزل من السماء إلى الأرض بمنزلة النسل بين الذكر والأنثى وبمنزلة تسخير السماء والأرض وما بينهما لما وجدنا له فافهم – أمر قويم وحكمة شائعة آية قضاؤه بركات الأرض في أربعة أيام بواسطة ما قدر في السماء من أمر وهي الأربعة الفصول من السنة .

الشتاء الربيع الصيف والخريف ، فهذه الأيام معلومة بالمشاهدة ، فيهن يتم زرع الأرض وبركات الدنيا وجميع ما يخرجه منها من فؤائد وعجائب ، قال : وقوله (السائلين) تعجيب

وإغراب وتعظيم للمراد المعنى بالخطاب ، وقد يكون معنى السواء زائداً إلى ما تقدم أن بهذه الأربعة الأيام استوت السنة مطالعها ومغاربها وقربها وبعدها وارتفاعها ونزولها في شمالي بروجها وجنوبيها باحكام ذلك كله وتوابعه – انتهى .

(83/680)

ولما كانت السماوات أعظم من الأرض في ذاتها بنور أبنيتها واتساعها وزينتها ودوران أفلاكها وارتفاعها ، نبه على ذلك بالتعبير بأداة التراخي ، ولفظ الاستواء وحب الغاية الدال على عظيم العناية فقال : (ثم استوى) أي قصد قصداً هو القصد منتهياً قصده) إلى السماء وهي) أي والحال أنها) دخان (بعد ما فتقها من الأرض ، قالوا : كان ذلك الدخان بخار الماء فهو مستعار من المرتفع من النار ، وهو تشبيه صوري ، فالسماء متقدمة في الدخانية على الأرض ، تقدم الذكر على الأنثى ثم خلقت ذات الرض وبعد تصوير السماء أولاً إيجاداً وتتميماً لتسوية السماء بعد أن كانت دخاناً ، ويومان لتتميم المنافع فتداخلت الأعداد لتداخل الأفعال ،) فقال لها) أي عقب مقارنتين لما قدرته فيكما وأردته منكما من إخراج المنافع من المياه والنبات والمعادن وغيرها ، ووضع المصدر موضع الحال مبالغة فقال : (طوعاً أو كرهاً) أي طائعين أو كارهتين في إخراج ما

أودعتكما من الأمانة في أوقاتها وعلى ما ينبغي من مقاديرها وهيآتها طوع تسخير لا تكليف) قالتا أتينا) أي نحن وما فينا ما بيننا .

ولما جعلهما موضع المخاطبة للتي هي للعقلاء والتكلم ، قال جامعاً لهما باعتبار أفرادهما وما فيهما جمع من يعقل : (طائعين) أي في كل ما رسمته فينا لا نحمل من ذلك شيئاً بل نبذله على ما أمرت به لا نغير ولا نبدل ، وذلك هو بذلهما للأمانة ، وعدم حملها ، وجمع الأمر لهما في الإخبار لا يدل على جمعه في الزمان ، بل قد يكون القول لهما متعاقباً) فقضاهن) أي خلقهن وصنعهن حال كونهن معدودات) سبع سماوات)

(84/680)

صنعاً نافذاً هو كالقضاء لا تخلف فيه) في يومين) أي الخميس والجمعة إذا حسب مقدار ما يخصهن من التكوين في الستة الأيام التي كان فيها جحميع الخافقين ، وما بينهما كان بمقدار ما خص واحداً من الأرض ومن أقواتها لا يزيد على مدة منهما ولا ينقص ، فيكون الذي خصهما ثلث المجموع ، قال ابن جرير : وإنما سمي يوم الجمعة لأن الله تعالى جمع فيه خلق السماوات والأرض .

يعني فرغ من ذلك وأتمه) وأوحى) أي ألقى بطريق خفي وحكم مبتوت قوي) في كل سماء

أمرها) أي الأمر الذي دبرها ودبر منافعها به على نظام محكم لا يختل ، وزمام مبرم لا ينحل

.

ولما عم ، خص ما للتي تلينا إشارة إلى تشريفنا ، فقال صارفاً القول إلى مظهر العظمة تنبيهاً على ما في هذه الآية من العظم : (وزينّا) أي بما لنا من العظمة) السماء الدنيا) أي القربى إليكم لأجلكم) بمصابيح (من زواهر النجوم ، وشفوفها عنها لا ينافي أن تكون في غيرها مما هو أعلى منها ، ودل السياق على أن المراد : زينة) و (حفظناها بها) حفظاً (من الشياطين ، فالآية من الاحتباك : حذف فعل الحفظ بدلالة المصدر ، ومصدر الزينة بما دل عليه من فعلها .

(85/680)

ولما كان هذا أمراً باهراً ، نبه على عظمته بقوله صارفاً الخطاب إلى صفتي العز والعلم إعلاماً بأنهما أساس العظمة ومدارها : (ذلك) أي الأمر الرفيع والشأن البديع) تقدير العزيز (الذي لا يغلبه شيء وهو يغلب كل شيء (العليم) المحيط علماً بكل شيء وكما قدر سبحانه ذلك بعزته وعلمه قضى أنه لا يفيد العز الدائم إلا ما شرعه من العلم ، وفي ختمه بالوصفين بشارة للأمة التي خوطبت بهما أنه يوتيها من عزه وعلمه لا سيما بالهبة وما

شاكلها من الطبائع وغيرها ما لم يؤت أمه من الأمم قبلها ، وسر خلقه سبحانه العالم في مدة ولم يكن قي لمحة وجعلها ستة لا أقل ولا أكثر أنه لو خلقه في لمحة لكان ذلك شبهة لمن يقول : إنه فاعل بالذات لا بالاختيار ، فاقتضى الحال عدداً ، ثم اقتضى الحال أن يكون ستة لأنها أول عدد يدل على الكمال لأنها عدد تام كسورها لا تزيد عنها ولا تنقص ، فآذن ذلك بأن للفاعل نعوت الكمال وأوصاف التمام والتعال ، ولم يخلقه فيما دون ذلك من العدد لأنه ناقص ، وخلق الأرض في يومين مكررين باعتبار الذات والمنافع إيذاناً بما يقع فيها من المعصية بالشرك الذي هو تثنية وإفك ، ولم يكرر في السماء لأن آياتها أدل على التوحيد ولم يحصل من أهلها ما يدل على الوعيد ، وليكون إيجادها في أقل من مدة الأرض – مع أنها أكبر جرماً وأعجب صنعاً وأتقن جسماً – أدل على الفعل بالاختيار بعجائب الحكم وغرائب الأسرار الكبار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 554. 558 ﴾

(86/680)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر محمداً صلى الله عليه وسلم في الآية الأولى أن يقول ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : 110] ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ واستغفروه ﴾ [فصلت : 6] أردفه بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشركة بينه تعالى وبين هذه الأصنام في الإلهية والمعبودية ، وذلك بأن بيّن كمال قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض في مدة قليلة ، فمن هذا صفته كيف يجوز جعل الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والمعبودية ؟ فهذا تقرير النظم ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ ابن كثير : أينكم لتكفرون بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد ، وأما نافع في رواية قالون وأبو عمرو فعلى هذه الصورة ، إلا أنهما يمدان ، والباقون همزتين بلا مد .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ أَئِنَّكُمْ ﴾ استفهام بمعنى الإنكار ، وقد ذكر عنهم شيئين منكرين أحدهما : الكفر بالله .

وهو قوله ﴿ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ وثانيهما : إثبات الشركاء والأنداد له ، ويجب أن يكون الكفر المذكور أولاً مغايراً لإثبات الأنداد له ، ضرورة أن عطف أحدهما على الآخر يوجب التغاير ، والأظهر أن المراد من كفرهم وجوه الأول : قولهم إن الله تعالى لا يقدر على حشر الموتى ، فلما نازعوا في ثبوت هذه القدرة فقد كفروا بالله الثاني : أنهم كانوا ينازعون في صحة التكليف ، وفي بعثة الأنبياء ، وكل ذلك قدح في الصفات المعتبرة في الإلهية ، وهو كفر بالله الثالث : أنهم كانوا يضيفون إليه الأولاد ، وذلك أيضاً قدح في الإلهية وهو يوجب الكفر بالله ، فالحاصل أنهم كفروا بالله لأجل قولهم بهذه الأشياء ، وأثبتوا الأنداد أيضاً لله لأجل قولهم بإلهية تلك الأصنام ، واحتج تعالى على فساد قولهم بالتأثير فقال كيف يجوز الكفر بالله ، وكيف يجوز جعل هذه الأصنام الخسيسة أنداداً لله تعالى ، مع أنه تعالى هو الذي خلق الأرض في يومين ، وتمم بقية مصالحها في يومين آخرين وخلق السموات بأسرها في يومين آخرين ؟ فمن قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة ، كيف يعقل الكفر به وإنكار قدرته على الحشر والنشر ، وكيف يعقل إنكار قدرته على التكليف وعلى بعثة الأنبياء ، وكيف يعقل جعل هذه الأصنام الخسيسة أنداداً له في المعبودية والإلهية ، فإن قيل من استدل بشيء على إثبات شيء ، فذلك الشيء المستدل به يجب أن يكون مسلماً عند الخصم حتى يصح الاستدلال به ، وكونه تعالى خالقاً للأرض في يومين أمر لا يمكن إثباته بالعقل المحض ، وإنما يمكن إثباته بالسمع

ووحي الأنبياء ، والكفار كانوا منازعين في الوحي والنبوّة ، فلا يعقل تقرير هذه المقدمة عليهم ، وإذا امتنع تقرير هذه المقدمة عليهم امتنع الاستدلال بها على فساد مذاهبهم ، قلنا إثبات كون السموات والأرض مخلوقة بطريق العمل ممكن ، فإذا ثبت ذلك أمكن الاستدلال به على وجود الإله القادر القاهر العظيم ،

(88/680)

وحينئذ يقال للكافرين فكيف يعقل التسوية بين الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة وبين الصنم الذي هو جماد لا يضر ولا ينفع في المعبودية والإلهية ؟ بقي أن يقال : فحينئذ لا يبقى في الاستدلال بكونه تعالى خالقاً للأرض في يومين أثر ، فنقول هذا أيضاً له أثر في هذا الباب ، وذلك لأن أول التوراة مشتمل على هذا المعنى ، فكان ذلك في غاية الشهرة بين أهل الكتاب ، فكفار مكة كانوا يعتقدون في أهل الكتاب أنهم أصحاب العلوم والحقائق ، والظاهر أنهم كانوا قد سمعوا من أهل الكتاب هذه المعاني واعتقدوا في كونها حقة ، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ يحسن أن يقال لهم أن الإله الموصوف بالقدرة على خلق الأشياء العظيمة في هذه المدة الصغيرة كيف يليق بالعقل جعل الخشب المنجور والحجر المنحوت شريكاً له في المعبودية والإلهية ؟ فظهر بما قررنا أن هذا الاستدلال قوي حسن .

وأما قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ رَبُّ العالمين ﴾ أي ذلك الموجود الذي علمت من صفته وقدرته أنه خلق الأرض في يومين هو رب العالمين وخالقهم ومبدعهم ، فكيف أثبتم له أنداداً من الخشب والحجر ؟ ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقاً للأرض في يومين أخبر أنه أتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك فالأول : قوله ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ والمراد منها الجبال ، وقد تقدم تفسير كونها ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ في سورة النحل (15) ، فإن قيل : ما الفائدة في قوله ﴿ مّن فَوْقِهَا ﴾ ولم لم يقتصر على قوله ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسيَ شامخات ﴾ [المرسلات : 27] ﴿ وَجَعَلْنَا فِى الأرض رَوَاسِيَ ﴾ [الرعد : 3] قلنا لأنه تعالى لو جعل فيها رواسي من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الأساطين التحتانية هي التي أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النزول ، ولكنه تعالى قال خلقت هذه الجبال الثقال فوق الأرض ، ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أثقال ، وكلها مفتقرة إلى ممسك وحافظ ، وما ذاك الحافظ المدبر إلا الله سبحانه وتعالى والنوع الثاني : مما أخبر الله تعالى في هذه الآية قوله ﴿ وبارك فِيهَا ﴾ والبركة كثرة الخير والخيرات الحاصلة من الأرض أكثر مما يحيط به الشرح والبيان ، وقد

ذكرناها بالاستقصاء في سورة البقرة قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد شق الأنهار وخلق الجبال وخلق الأشجار والثمار وخلق أصناف الحيوانات وكل ما يحتاج إليه من الخيرات والنوع الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ وفيه أقوال الأول : أن المعنى وقدر فيها أقوات أهلها ومعايشهم وما يصلحهم ، قال محمد بن كعب : قدر أقوات الأبدان قبل أن يخلق الأبدان والقول الثاني : قال مجاهد : وقدر فيها أقواتها من المطر ، وعلى هذا القول فالأقوات للأرض لا للسكان ، والمعنى أن الله تعالى قدر لكل أرض حظها من المطر والقول

(90/680)

الثالث : أن المراد من إضافة الأقوات إلى الأرض كونها متولدة من تلك الأرض ، وحادثة فيها لأن النحويين قالوا يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب فالشيء قد يضاف إلى فاعله تارة وإلى محله أخرى ، فقوله ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ أي قدر الأقوات التي يختص حدوثها بها ، وذلك لأنه تعالى جعل كل بلدة معدناً لنوع آخر من الأشياء المطلوبة ، حتى أن أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة في تلك البلدة وبالعكس ، فصار هذا المعنى سبباً لرغبة الناس في التجارات من اكتساب الأموال ، ورأيت من كان يقول صنعة الزراعة

والحراثة أكثر الحرف والصنائع بركة ، لأن الله تعالى وضع الأرزاق والأقوات في الأرض قال : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ وإذا كانت الأقوات موضوعة في الأرض كان طلبها من الأرض متعيناً ، ولما ذكر الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التدبير قال بعده : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ وههنا سؤالات :

السؤال الأول : أنه تعالى ذكر أنه خلق الأرض في يومين ، وذكر أنه أصلح هذه الأنواع الثلاثة في أربعة أيام أُخر ، وذكر أنه خلق السموات في يومين ، فيكون المجموع ثمانية أيام ، لكنه ذكر في سائر الآيات أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام فلزم التناقض ، واعلم أن العلماء أجابوا عنه بأن قالوا المراد من قوله ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ مع اليومين الأولين ، وهذا كقول القائل سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام ، وسرت إلى الكوفة في خمسة عشر يوماً يريد كلا المسافتين ، ويقول الرجل للرجل أعطيتك ألفاً في شهر وألوفاً في شهرين فيدخل الألف في الألوف والشهر في الشهرين .

(91/680)

السؤال الثاني : أنه لما ذكر أنه خلق الأرض في يومين ، فلو ذكر أنه خلق هذه الأنواع الثلاثة الباقية في يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وأبعد عن الغلط ، فلم ترك هذا التصريح ،

وذكر ذلك الكلام المجمل ؟ والجواب : أن قوله ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ فيه فائدة على ما إذا قال خلقت هذه الثلاثة في يومين ، وذلك لأنه لو قال خلقت هذه الأشياء في يومين لم يفد هذا الكلام كون هذين اليومين مستغرقين بتلك الأعمال لأنه قد يقال عملت هذا العمل في يومين مع أن اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل ، أما لما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الأشياء ، ثم قال بعده : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ دل ذلك على أن هذه الأيام الأربعة صارت مستغرقة في تلك الأعمال من غير زيادة ولا نقصان .

السؤال الثالث : كيف القراءات في قوله ﴿ سَوَآء ﴾ ؟ والجواب : قال صاحب "الكشاف" قرىء ﴿ سَوَآء ﴾ بالحركات الثلاثة الجر على الوصف والنصب على المصدر استوت سواء أي استواء والرفع على هي سواء .

السؤال الرابع : ما المراد من كون تلك الأيام الأربعة سواء ؟ فنقول إن الأيام قد تكون متساوية المقادير كالأيام الموجودة في أماكن خط الاستواء وقد تكون مختلفة كالأيام الموجودة في سائر الأماكن ، فبيّن تعالى أن تلك الأيام الأربعة كانت متساوية غير مختلفة .

(92/680)

السؤال الخامس : بم يتعلق قوله ﴿ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ ؟ الجواب فيه وجهان : الأول : أن الزجاج قال قوله ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أي في تتمة أربعة أيام ، إذا عرفت هذا فالتقدير ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ في تتمة أربعة أيام لأجل السائلين أي الطالبين للأقوات المحتاجين إليها والثاني : أنه متعلق بمحذوف والتقدير كأنه قيل هذا الحصر والبيان لأجل من سأل كم خلقت الأرض وما فيها ، ولما شرح الله تعالى كيفية تخليق الأرض وما فيها أتبعه بكيفية تخليق السموات فقال : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السماء وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السماء ﴾ من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلتفت معه إلى عمل آخر ، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج ، ونظيره قولهم استقام إليه وامتد إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ ﴾ [فصلت : 6] والمعنى ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها ، من غير صرف يصرفه ذلك .

البحث الثاني : ذكر صاحب "الأثر" أنه كان عرش الله على الماء قبل خلق السموات والأرض فأحدث الله في ذلك الماء سخونة فارتفع زبد ودخان ، أما الزبد فيبقى على وجه الماء فخلق الله منه اليبوسة وأحدث منه الأرض ، وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق الله منه السموات .

واعلم أن هذه القصة غير موجودة في القرآن ، فإن دل عليه دليل صحيح قبل وإلا فلا ، وهذه القصة مذكورة في أول الكتاب الذي يزعم اليهود أنه التوراة ، وفيه أنه تعالى خلق السماء من أجزاء مظلمة ، وهذا هو المعقول لأنا قد دللنا في المعقولات على أن الظلمة ليست كيفية وجودية ، بدليل أنه لو جلس إنسان في ضوء السراج وإنسان آخر في الظلمة ، فإن الذي جلس في الضوء لا يرى مكان الجالس في الظلمة ويرى ذلك الهواء مظلماً ، وأما الذي جلس في الظلمة فإنه يرى ذلك الذي كان جالساً في الضوء ويرى ذلك الهواء مضيئاً ، ولو كانت الظلمة صفة قائمة بالهواء لما اختلفت الأحوال بحسب اختلاف أحوال الناظرين ، فثبت أن الظلمة عبارة عن عدم النور ، فالله سبحانه وتعالى لما خلق الأجزاء التي لا تتجزأ ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء كانت مظلمة عديمة النور ، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمساً وقمراً ، وأحدث صفة الضوء فيها فحينئذ صارت مستنيرة ، فثبت أن تلك الأجزاء حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السموات والشمس والقمر كانت مظلمة ، فصح تسميتها بالدخان ، لأنه لا معنى للدخان إلا أجزاء متفرقة غير متواصلة عديمة النور ، فهذا ما خطر بالبال في تفسير الدخان ، والله أعلم بحقيقة الحال .

(94/680)

البحث الثالث : قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ مشعر بأن تخليق السماء حصل بعد تخليق الأرض ، وقوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات : 30] مشعر بأن تخليق الأرض حصل بعد تخليق السماء وذلك يوجب التناقض ، واختلف العلماء في هذه المسألة ، والجواب المشهور : أن يقال إنه تعالى خلق الأرض في يومين أولاً ثم خلق بعدها السماء ، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض ، وبهذا الطريق يزول التناقض ، واعلم أن هذا الجواب مشكل عندي من وجوه الأول : أنه تعالى بيّن أنه خلق الأرض في يومين ، ثم إنه في اليوم الثالث ﴿ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ وهذه الأحوال لا يمكن إدخالها في الوجود إلا بعد أن صارت الأرض مدحوة لأن خلق الجبال فيها لا يمكن إلا بعد أن صارت الأرض مدحوة منبسطة ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ مفسر بخلق الأشجار والنبات والحيوان فيها ، وذلك لا يمكن إلا بعد صيرورتها منبسطة ، ثم إنه تعالى قال بعد ذلك ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ فهذا يقتضي أنه تعالى خلق السماء بعد خلق الأرض وبعد أن جعلها مدحوة ، وحينئذ يعود السؤال المذكور الثاني : أنه قد دلّت الدلائل الهندسية على أن الأرض كرة ، فهي في أول حدوثها إن قلنا إنها كانت كرة والآن بقيت كرة أيضاً فهي منذ خلقت كانت مدحوة ، وإن قلنا إنها غير كرة ثم جعلت كرة فيلزم أن يقال إنها كانت مدحوة قبل ذلك ثم أزيل عنها هذه

الصفة ، وذلك باطل الثالث : أن الأرض جسم في غاية العظم ، والجسم الذي يكون كذلك فإنه من أول دخوله في الوجود يكون مدحواً ، فيكون القول بأنها ما كانت مدحوة ، ثم صارت مدحوة قول باطل ، والذي جاء في كتب التواريخ أن الأرض خلقت في موضع الصخرة ببيت المقدس ، فهو كلام مشكل لأنه إن كانت المراد أنها على عظمها خلقت في ذلك الموضع ، فهذا قول بتداخل الأجسام الكثيفة وهو محال ، وإن كان المراد منه أنه خلق

(95/680)

أولاً أجزاء صغيرة في ذلك الموضع ثم خلق بقية أجزائها ، وأضيفت إلى تلك الأجزاء التي خلقت أولاً ، فهذا يكون اعترافاً بأن تخليق الأرض وقع متأخراً عن تخليق السماء الرابع : أنه لما حصل تخليق ذات الأرض في يومين وتخليق سائر الأشياء الموجودة في الأرض في يومين آخرين وتخليق السموات في يومين آخرين كان مجموع ذلك ستة أيام ، فإذا حصل دحو الأرض من بعد ذلك فقد حصل هذا الدحو في زمان آخر بعد الأيام الستة ، فحينئذ يقع تخليق السموات والأرض في أكثر من ستة أيام وذلك باطل الخامس : أنه لا نزاع أن قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ كناية عن إيجاد السماء والأرض ، فلو تقدم إيجاد السماء على إيجاد الأرض لكان قوله ﴿ ائتيا طَوْعاً

أَوْكَرْهاً ﴾ يقتضي إيجاد الموجود وأنه محال باطل .

فهذا تمام البحث عن هذا الجواب المشهور ، ونقل الواحدي في "البسيط" عن مقاتل أنه قال : خلق الله السموات قبل الأرض وتأويل قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السماء ﴾ ثم كان قد استوى إلى السماء وهي دخان ، وقال لها قبل أن يخلق الأرض فأضمر فيه كان كما قال تعالى : ﴿ قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : 77] معناه إن يكن سرق ، وقال تعالى : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أهلكناها فَجَاءهَا بَأْسُنَا ﴾ [الأعراف : 4] والمعنى فكان قد جاءها ، هذا ما نقله الواحدي وهو عندي ضعيف ، لأن تقدير الكلام ثم كان قد استوى إلى السماء ، وهذا جمع بين الضدين لأن كلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ تقتضي التأخير ، وكلمة كان تقتضي التقديم والجمع بينهما يفيد التناقض ، وذلك دليل على أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره وقد بينا أن قوله ﴿ ائتيا طَوْعاً أَوْكَرْهاً ﴾ إنما حصل قبل وجودهما ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع حمل قوله ﴿ ائتيا ﴾ على الأمر والتكليف ، فوجب حمله على ما ذكرناه ، بقي على لفظ الآية سؤالات .

(96/680)

السؤال الأول : ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ ؟

الجواب : المقصود منه إظهار كمال القدرة والتقدير : ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما ، كما يقول الجبار لمن تحت يده لتفعلن هذا شئت أو لم تشأ ، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً ، وانتصابهما على الحال بمعنى طائعين أو مكرهين ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا ﴾ على الطوع لا على الكره ، وقيل إنه تعالى ذكر السماء والأرض ثم ذكر الطوع والكره ، فوجب أن يتصرف الطوع إلى السماء والكره إلى الأرض بتخصيص السماء بالطوع لوجوه أحدها : أن السماء في دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف ، تشبه حيواناً مطيعاً لله تعالى بخلاف الأرض فإنها مختلفة الأحوال ، تارة تكون في السكون وأخرى في الحركات المضطربة وثانيها : أن الموجود في السماء ليس لها إلا الطاعة ، قال تعالى : ﴿ يخافون رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : 50] وأما أهل الأرض فليس الأمر في حقهم كذلك وثالثها : السماء موصوفة بكمال الحال في جميع الأمور ، قالوا إنها أفضل الألوان وهي المستنيرة ، وأشكالها أفضل الأشكال وهي المستديرة ، ومكانها أفضل الأمكنة وهو الجو العالي ، وأجرامها أفضل الأجرام وهي الكواكب المتلألئة بخلاف الأرض فإنها مكان الظلمة والكثافة واختلاف الأحوال وتغير الذوات والصفات ، فلا جرم وقع التعبير عن تكون السماء بالطوع وعن تكون الأرض بالكره ، وإذا كان مدار خلق الأرض على الكره كان أهلها موصوفين أبداً بما ويوجب الكره والكرب والقهر والقسر .

السؤال الثاني : ما المراد من قوله ﴿ ائتيا ﴾ ومن قوله ﴿ أتينا ﴾ ؟ الجواب : المراد ائتيا إلى الوجود والحصول وهو كقوله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : 117] وقيل المعنى ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، أي بأرض مدحوة قراراً ومهاداً وأي بسماء مقببة سقفاً لهم ، ومعنى الإتيان الحصول والوقوع على وفق المراد ، كما تقول أتى عمله مرضياً وجاء مقبولاً ، ويجوز أيضاً أن يكون المعنى لتأتي كل واحدة منكم صاحبتها الإتيان الذي تقتضيه الحكمة والتدبير من كون الأرض قراراً للسماء وكون السماء سقفاً للأرض .

السؤال الثالث : هلا قيل طائعين على اللفظ أو طائعات على المعنى ، لأنهما سموات وأرضون ؟ الجواب : لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره قيل طائعين في موضع طائعات نحو قوله ﴿ ساجدين ﴾ [الأعراف : 120] ومنهم من استدل به على كون السموات أحياء وقال الأرض في جوف السموات أقل من الذرة الصغيرة في جوف الجبل الكبير ، فلهذا السبب صارت اللفظة الدالة العقل والحياة غالبة ، إلا أن هذا القول باطل ، لإجماع المتكلمين على فساده .

ثم قال تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات فِي يَوْمَيْنِ ﴾ وقضاء الشيء إنما هو إتمامه والفراغ منه والضمير في قوله ﴿ فَقَضَاهُنَّ ﴾ يجوز أن يرجع إلى السماء على المعنى كما قال : ﴿ طَائِعِينَ ﴾ ونحوه ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 7] ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسراً بسبع سموات والفرق بين النصبين أن أحدهما على الحال والثاني على التمييز .

(98/680)

ذكر أهل الأثر أنه تعالى خلق الأرض في يوم الأحد والإثنين وخلق سائر ما في الأرض في يوم الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السموات وما فيها في يوم الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة ، فإن قيل اليوم عبارة عن النهار والليل وذلك إنما يحصل بسبب طلوع الشمس وغروبها ، وقبل حدوث السموات والشمس والقمر كيف يعقل حصول اليوم ؟ قلنا معناه إنه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدراً بيوم .

ثم قال تعالى : ﴿ وأوحى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ قال مقاتل أمر في كل سماء بما أراد ، وقال قتادة خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها ، وقال السدي خلق في كل سماء خلقها من

الملائكة وما فيها من البحار وجبال البرد ، قال ولله في كل سماء بيت يحج إليه ويطوف به الملائكة كل واحد منها مقابل الكعبة ولو وقعت منه حصاة ما وقعت إلا على الكعبة ، والأقرب أن يقال قد ثبت في علم النحو أنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب ، ولله تعالى على أهل كل سماء تكليف خاص ، فمن الملائكة من هو في القيام من أول خلق العالم إلى قيام القيامة ، ومنهم ركوع لا ينتصبون ومنهم سجود لا يرفعون ، وإذا كان ذلك الأمر مختصاً بأهل ذلك السماء كان ذلك الأمر مختصاً بتلك السماء ، وقوله تعالى : ﴿ وأوحى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ أي وكان قد خص كل سماء بالأمر المضاف إليها كقوله

(99/680)

﴿ وَكَم مّن قَرْيَةٍ أهلكناها فَجَاءهَا بَأْسُنَا ﴾ [الأعرف : 4] والمعنى فكان قد جاءها ، هذا ما نقله الواحدي وهو عندي ضعيف لأن تقدير الكلام ثم كان قد استوى إلى السماء وكان قد أوحى ، وهذا جمع بين الضدين لأن كلمة ثم تقتضي التأخير وكلمة كان تقتضي التقديم فالجمع بينهما تفيد التناقض ، ونظيره قول القائل ضربت اليوم زيداً ثم ضربت عمراً بالأمس ، فكما أن هذا باطل فكذا ما ذكرتموه وإنما يجوز تأويل كلام الله بما لا يؤدي إلى وقوع التناقض والركاكة فيه ، والمختار عند أي يقال خلق السموات مقدم على خلق الأرض ،

بقي أن يقال كيف تأويل هذه الآية ؟ فنقول : الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد ، والدليل عليه قوله ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال كن فيكون ﴾ [آل عمران : 59] فلو كان الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين لكان تقدير الآية أوجده من تراب ثم قال له كن فيكون وهذا محال ، لأنه يلزم أنه تعالى قد قال للشيء الذي وجد كن ثم إنه يكون وهذا محال ، فثبت أن الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد ، بل هو عبارة عن التقدير ، والتقدير حق الله تعالى هو حكمه بأنه سيوجده وقضاؤه بذلك ، وإذا ثبت هذا فنقول قوله ﴿ خَلَقَ الأَرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ معناه أنه قضى بحدوثه في يومين ، وقضاء الله بأنه سيحدث كذا في مدة كذا ، لا يقتضي حدوث ذلك الشيء في الحال ، فقضاء الله تعالى بحدوث الأرض في يومين قد تقدم على إحداث السماء ، ولا يلزم منه تقدم إحداث الأرض على إحدث السماء ، وحينئذٍ يزول السؤال ، فهذا ما وصلت إليه في هذه الموضع المشكل .

ثم قال تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ .

واعلم أن ظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى أمر السماء والأرض بالإتيان فأطاعا وامتثلا وعند هذا حصل في الآية قولان :

القول الأول : أن تجري هذه الآية على ظاهرها فنقول : إن الله تعالى أمرهما بالإتيان فأطاعاه قال القائلون بهذا القول وهذا غير مستبعد ، ألا ترى أنه تعالى أمر الجبال أن تنطق مع داود عليه السلام فقال : ﴿ يا جبال أَوِّبِي مَعَهُ والطير ﴾ [سبأ : 10] والله تعالى تجلى للجبل قال : ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ [الأعراف : 143] والله تعالى أنطق الأيدي والأرجل فقال : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24] وإذا كان كذلك فكيف يستبعد أن يخلق الله في ذات السماء والأرض حياة وعقلاً وفهماً ، ثم يوجه الأمر والتكليف عليهما ، ويتأكد هذا الاحتمال بوجوه الأول : أن الأصل حمل اللفظ على ظاهره إلا إذا منع منه مانع ، وههنا لا مانع ، فوجب إجراؤه على ظاهره الثاني : أنه تعالى أخبر عنهما ، فقال : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ وهذا الجمع جمع ما يعقل ويعلم الثالث : قوله تعالى :

(101/680)

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السموات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ [الأحزاب : 72] وهذا يدل على كونها عارفة بالله ، مخصوصة بتوجيه تكاليف الله عليها ،

والإشكال عليه أن يقال : المراد من قوله ﴿ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ الإتيان إلى الوجود والحدوث والحصول وعلى هذا التقدير فحال توجه هذا الأمر كانت السموات والأرض معدومة ، إذ لو كانت موجودة لصار حاصل هذا الأمر أن يقال : يا موجود كن موجوداً ، وذلك لا يجوز فثبت أنها حال توجه هذا الأمر عليها كانت معدومة ، وإذا كانت معدومة لم تكن فاهمة ولا عارفة للخطاب ، فلم يجز توجيه الأمر عليها ، فإن قال قائل : روى مجاهد عن ابن عباس أنه قال : قال سبحانه للسموات أطلعي شمسك وقمرك ونجومك ، وقال للأرض شققي أنهارك وأخرجي ثمارك ، وكان الله تعالى أودع فيهما هذه الأشياء ثم أمرهما بإبرازها وإظهارها ، فنقول فعلى هذا التقدير لا يكون المراد من قوله ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ حدوثهما في ذاتهما ، بل يصير المراد من هذا الأمر أن يظهرا ما كان مودعاً فيهما ، إلا أن هذا الكلام باطل ، لأنه تعالى قال : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات فِي يَوْمَيْنِ ﴾ والفاء للتعقيب ، وذلك يدل على أن حدوث السموات إنما حصل بعد قوله ﴿ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ فهذا جملة ما يمكن ذكره في هذا البحث .

القول الثاني : أن قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ ليس المراد منه توجيه الأمر والتكليف على السموات والأرض بل المراد منه أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا في ذلك المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمير المطاع ،

ونظيره قول القائل : قال الجدار للوتد لم تشقني ؟ قال الوتد : أسأل من يدقني ، فإن الحجر الذي ورائي ما خلاني ورائي .

(102/680)

واعلم أن هذا عدول عن الظاهر ، وإنما جاز العدول عن الظاهر إذ قام دليل على أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره ، وقد بينا أن قوله ﴿ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ إنما حصل قبل وجودهما ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع حمل قوله ﴿ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ على الأمر والتكليف ، فوجب حمله على ما ذكرنا .

واعلم أن إثبات الأمر والتكليف فيهما مشروط بحصول المأمور فيهما ، وهذا يدل على أنه تعالى أسكن هذه السموات الملائكة ، أو أنه تعالى أمرهم بأشياء ونهاهم عن أشياء ، وليس في الآية ما يدل على أنه إنما خلق الملائكة مع السموات ، أو أنه تعالى خلقهم قبل السموات ، ثم إنه تعالى أسكنهم فيها ، وأيضاً ليس في الآية بيان الشرائع التي أمر الملائكة بها ، وهذه الأسرار لا تليق بعقول البشر ، بل هي أعلى من مصاعد أفهامهم ومرامي أوهامهم ، ثم قال : ﴿ وَزَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وهي النيرات التي خلقها في السموات ، وخص كل واحد بضوء معين ، وسر معين ، وطبيعة معينة ، لايعرفها إلا الله ، ثم قال :

﴿ وَحِفْظاً ﴾ يعني وحفظناها حفظا ، يعني من الشياطين الذين يسترقون السمع ، فأعد لكل شيطان نجماً يرميه به ولا يخطئه ، فمنها ما يحرق ، ومنها ما يقتل ومنها ما يجعله مخبلاً ، وعن ابن عباس أن اليهود سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن خلق السموات والأرض فقال :

" خلق الله تعالى الأرض في يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال والشجر في يومين وخلق في يوم الخميس السماء ، وخلق في يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة ، ثم خلق آدم عليه السلام وأسكنه الجنة " ثم قالت اليهود ثم ماذا يا محمد ؟ قال " ثم استوى على العرش " قالوا : ثم استراح فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم " فنزل قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : 38] .

(103/680)

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل ، قال : ﴿ ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ والعزيز إشارة إلى كمال القدرة ، والعليم إشارة إلى كمال العلم ، وما أحسن هذه الخاتمة ، لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة كاملة وعلم محيط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 87 ﴾ 95.

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) ﴾

تقدم القول في أوائل السور مما يختص به الحواميم ، وأمال الأعمش ﴿ حم ﴾ [فصلت : 1 ، الشورى : 1 ، الدخان : 1 ، الزخرف : 1 ، الجاثية : 1 ، الأحقاف : 1] في كلها . و: ﴿ تنزيل ﴾ خبر الابتداء ، إما على أن يقدر الابتداء ، إما على أن يقدر الابتداء في : ﴿ حم ﴾ على ما تقتضيه بعض الأقوال إذا جعلت اسماً للسورة أو للقرآن أو إشارة إلى حروف المعجم ، وإما على أن يكون التقدير : هذا تنزيل ، ويجوز أن يكون ﴿ تنزيل ﴾ ابتداء وخبره في قوله : ﴿ كتاب فصلت ﴾ على معنى ذو تنزيل . و: ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ صفتا رجاء ورحمة لله تعالى . و: ﴿ فصلت ﴾ معناه بينت آياته ، أي فسرت معانيه ففصل بين حلاله وحرامه وزجره وأمره ووعده ووعيده ، وقيل ﴿ فصلت ﴾ في التنزيل ، أي نزل نجوماً ، لم ينزل مرة واحدة ، وقيل ﴿ فصلت ﴾ بالمواقف وأنواع أواخر الآي ، ولم يكن يرجع إلى قافية ونحوها كالشعر والسجع . و: ﴿ قرآناً ﴾ نصب على الحال عند قوم ، وهي مؤكدة ، لأن هذه الحال ليست مما تنتقل . وقالت فرقة : هو نصب على المصدر ،

وقالت فرقة : ﴿ قرآناً ﴾ توطئة للحال . و: ﴿ عربياً ﴾ حال . وقالت فرقة : ﴿ قرآناً ﴾ نصب على المدح وهو قول ضعيف .

(105/680)

وقوله تعالى : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ قالت فرقة : معناه يعلمون الأشياء ويعقلون الدلائل وينظرون على طريق نظر ، فكأن القرآن فصلت آياته لهؤلاء ، إذ هم أهل الانتفاع بها ، فخصوا بالذكر تشريفاً ، ومن لم ينتفع بالتفصيل فكأنه لم يفصل له . وقالت فرقة : ﴿ يعلمون ﴾ متعلق في المعنى بقوله : ﴿ عربياً ﴾ أي جعلناه بكلام العرب لقوم يعلمون ألفاظه ويتحققون أنها لم يخرج شيء منها عن كلام العرب ، وكأن الآية رادة على من زعم أن في كتاب الله ما ليس في كلام العرب ، فالعلم على هذا التأويل أخص من العلم على التأويل الأول ، والأول أشرف معنى ، وبين أنه ليس في القرآن إلا ما هو من كلام العرب إما من أصل لغتها وإما عربته من لغة غيرها ثم ذكر في القرآن وهو معرب مستعمل .

وقوله : ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ نعت للقرآن ، أي يبشر من آمن بالجنة ، وينذر من كفر بالنار .

والضمير في : ﴿ أكثرهم ﴾ عائد على القوم المذكورين .

وقوله : ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ نفي لسمعهم النافع الذي يعتد به سمعاً ، ثم حكى عنهم

مقالتهم التي باعدوا فيها كل المباعدة وأرادوا أن يؤيسوهم من قبولهم دينهم وهي ﴿ قلوبنا في أكنة ﴾ جمع كنان وهو باب فعال وأفعلة . والكنان : ما يجمع الشيء ويضمه ويحول بينه وبين غيره ، ومنه : الكن ومنه : كنانة النبل ، وبها فسر مجاهد هذه الآية . و" من " في قوله : ﴿ مما ﴾ لابتداء الغاية وكذلك هي في قوله : ﴿ ومن بيننا ﴾ مؤكدة ولابتداء الغاية .

والوقر : الثقل في الأذن الذي يمنع السمع .

وقرأ ابن مصرف : " وِقر " بكسر الواو .

والحجاب : الذي أشاروا إليه : هو مخالفته إياهم ودعوته إلى الله دون أصنامهم ، أي هذا أمر يحجبنا عنك ، وهذه مقالة تحتمل أن تكون معها قرينة الجد في المحاورة وتتضمن المباعدة ، ويحتمل أن تكون معها قرينة الهزل والاستخفاف ، وكذلك قوله : ﴿ فاعمل إننا عاملون ﴾ يحتمل أن يكون القول تهديداً ، ويحتمل أن يكون متاركة محضة .

(106/680)

وقرأ الجمهور : " قل إنما " على الأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش : " قل إنما " على المضي والخبر عنه ، وهذا هو الصدع بالتوحيد والرسالة .

وقوله : ﴿ قل إنما أنا بشر ﴾ قال الحسن : علمه الله تعالى التواضع ، و" إن " في قوله : ﴿

إنما ﴿ رفع على المفعول الذي لم يسم فاعله .

وقوله : ﴿ فاستقيموا ﴾ أي على محجة الهدى وطريق الشرع والتوحيد ، وهذا المعنى مضمن قوله : ﴿ إليه ﴾ . والويل : الحزن والثبور ، وفسره الطبري وغيره في هذه الآية بقبح أهل النار وما يسيل منهم .

وقوله تعالى : ﴿ الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ قال الحسن وقتادة وغيره : هي زكاة المال . وروي : الزكاة قنطرة الإسلام ، من قطعها نجا ، ومن جانبها هلك . واحتج لهذا التأويل بقول أبي بكر في الزكاة وقت الردة . وقال ابن عباس والجمهور : ﴿ الزكاة ﴾ في هذه الآية : لا إله إلا الله التوحيد كما قال موسى لفرعون : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ [النازعات : 18] ويرجح هذا التأويل أن الآية من أول المكي ، وزكاة المال إنما نزلت بالمدينة ، وإنما هذه زكاة القلب والبدن ، أي تطهيره من الشرك والمعاصي ، وقاله مجاهد والربيع . وقال الضحاك ومقاتل : معنى ﴿ الزكاة ﴾ هنا : النفقة في الطاعة ، وأعاد الضمير في قوله : ﴿ هم كافرون ﴾ توكيداً .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8)

ذكر عز وجل حالة الذين آمنوا معادلاً بذلك حالة الكافرين المذكورين ليبين الفرق . وقوله : ﴿ غير ممنون ﴾ قال ابن عباس معناه : غير منقوص . وقالت فرقة معناه : غير مقطوع ، يقال مننت الحبل : إذا قطعته . وقال مجاهد معناه : غير محسوب ، لأن كل محسوب محصور ، فهو معد لأن يمن به ، فيظهر في الآية أنه وصفه بعدم المن والأذى من حيث هو من جهة الله تعالى ، فهو شريف لا من فيه ، وأعطيات البشر هي التي يدخلها المن . وقال السدي : نزلت هذه الآية من المرضى والزمنى ، إذا عجزوا عن إكمال الطاعات كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون ، ثم أمر تعالى نبيه أن يوقفهم موبخاً على كفرهم بخالق الأرض والسماوات ومخترعها ، ووصف صورة خلقها ومدته ، والحكمة في خلقه هذه المخلوقات في مدة ممتدة مع قدرة الله على إيجادها في حين واحد . وهي إظهار القدرة في ذلك حسب شرف الإيجاد أولاً أولاً . قال قوم : وليعلّم عباده التأني في الأمور والمهل ، وقد تقدم القول غير مرة في نظير قوله : ﴿ أئنكم ﴾ .

(108/680)

واختلف رواة الحديث في اليوم الذي ابتدأ الله تعالى فيه خلق الأرض ، فروي عن ابن عباس وغيره : أن أول يوم هو الأحد ، وأن الله تعالى خلق فيه وفي الاثنين : الأرض ، ثم

خلق الجبال ونحوها يوم الثلاثاء . قال ابن عباس فمن هنا قيل : هو يوم ثقيل . ثم خلق الشجر والثمار والأنهار يوم الأربعاء ، ومن هنا قيل : هو يوم راحة وتفكر في هذه التي خلقت فيه . ثم خلق السماوات وما فيها يوم الخميس ويوم الجمعة ، وفي آخر ساعة من يوم الجمعة : خلق آدم . وقال السدي : وسمي يوم الجمعة لاجتماع المخلوقات فيه وتكاملها ، فهذه رواية فيها أحاديث مشهورة . ولما لم يخلق تعالى في يوم السبت شيئاً امتنع فيه بنو إسرائيل عن الشغل . ووقع في كتاب مسلم بن الحجاج : أن أول يوم خلق الله فيه التربة يوم السبت ، ثم رتب المخلوقات على ستة أيام ، وجعل الجمعة عارياً من المخلوقات على ستة أيام إلا من آدم وحده . والظاهر من القصص في طينة آدم أن الجمعة التي خلق فيها آدم قد تقدمتها أيام وجمع كثيرة ، وأن هذه الأيام التي خلق الله فيها هذه المخلوقات هي أول الأيام ، لأن بإيجاد الأرض والسماء والشمس وجد اليوم ، وقد يحتمل أن يجعل تعالى قوله : ﴿ يومين ﴾ على التقدير ، وإن لم تكن الشمس خلقت بعد ، وكأن تفصيل الوقت يعطي أنها الأحد ويوم الاثنين كما ذكر . والأنداد : الأشباه والأمثال ، وهذه إشارة إلى كل ما عبد من الملائكة والأصنام وغير ذلك . قال السدي : أكفاء من الرجال تطيعونهم . والرواسي : هي الجبال الثوابت ، رسا الجبل إذا ثبت .

(109/680)

وقوله تعالى : ﴿ وبارك فيها ﴾ أي جعلها منبتة للطيبات والأطعمة ، وجعلها طهوراً إلى غير ذلك من وجوه البركة . وفي قراءة ابن مسعود : " وقسم فيها أقواتها " . وفي مصحف عثمان رضي الله عنه : " وقدر " واختلف الناس في معنى قوله : ﴿ أقواتها ﴾ فقال السدي : هي أقوات البشر وأرزاقهم ، وأضافها إلى الأرض من حيث هي فيها وعنها . وقال قتادة : هي أقوات الأرض من الجبال والأنهار والأشجار والصخور والمعادن والأشياء التي بها قوام الأرض ومصالحها . وروى ابن عباس رضي الله عنه في هذا المعنى حديثاً مرفوعاً فشبهها بالقوت الذي به قوام الحيوان . وقال مجاهد : أراد ﴿ أقواتها ﴾ من المطر والمياه . وقال عكرمة والضحاك ومجاهد أيضاً : أراد بقوله : ﴿ أقواتها ﴾ خصائصها التي قسمها في البلاد ، فجعل في اليمن أشياء ليست في غيره ، وكذلك في العراق والشام والأندلس وغيرها من الأقطار ليحتاج بعضها إلى بعض ويتقوت من هذه في هذه الملابس والمطعوم ، وهذا نحو القول الأول ، إلا أنه بوجه أعم منه .

وقوله تعالى : ﴿ في أربعة أيام ﴾ يريد باليومين الأولين ، وهذا كما تقول : بنيت جدار داري في يوم وأكملت جميعها في يومين ، أي بالأول .

وقرأ الحسن البصري وأبو جعفر وجمهور الناس : " سواءً " بالنصب على الحال ، أي سواء

هي وما انقضى فيها . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : " سواءٌ " بالرفع ، أي هي سواء . وقرأ الحسن وعيسى وابن أبي إسحاق وعمرو بن عبيد : " سواءٍ " بالخفض على نعت الأيام .

(110/680)

واختلف المتأولون في معنى : ﴿ للسائلين ﴾ فقال قتادة والسدي معناه : سواء لمن سأل عن الأمر واستفهم عن حقيقة وقوعه وأراد العبرة فيه فإنه يجده كما قال عز وجل . وقال ابن زيد وجماعة معناه : مستو مهيأ أمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إليها من البشر ، فعبر عنهم ب " السائلين " بمعنى الطالبين ، لأنهم من شأنهم ولا بد طلب ما ينتفعون به ، فهم في حكم من سأل هذه الأشياء إذ هم أهل حاجة إليها ، ولفظة ﴿ سواء ﴾ تجري مجرى عدل وزور في أن ترد على المفرد والمذكر والمؤنث .

ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11)

﴿ استوى إلى السماء ﴾ معناه بقدرته واختراعه أي إلى خلق السماء وإيجادها .

وقوله تعالى : ﴿ وهي دخان ﴾ روي أنها كانت جسماً رخواً كالدخان أو البخار ، وروي أنه مما أمره الله أن يصعد من الماء ، وهنا لفظ متروك ويدل عليه الظاهر ، وتقديره :

فأوجدها وأتقنها وأكمل أمرها ، وحينئذ قيل لها وللأرض ﴿ ائتيا طوعاً أو كرهاً ﴾ .

وقرأ الجمهور : " إيتيا " من أتى يأتي " قالتا أتينا " على وزن فعلنا ، وذلك بمعنى إيتيا وإرادتي فيكما ، وقرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد : " آيتيا " من آتى يؤتى " قالتا آتينا " على وزن أفعلنا ، وذلك بمعنى أعطيا من أنفسكما من الطاعة ما أردته منكما ، والإشارة بهذا كله إلى تسخيره وما قدره الله من أعمالها .

وقوله : ﴿ أو كرهاً ﴾ فيه محذوف ومقتضب ، والتقدير : ﴿ ائتيا طوعاً ﴾ وإلا أتيتما ﴿ كرهاً ﴾ . وقوله : ﴿ قالتا ﴾ أراد الفرقتين المذكورتين ، وجعل السماوات سماء والأرضين أرضاً ، ونحو هذا قول الشاعر : [الوافر]

ألم يحزنك أن حبال قومي . . . وقومك قد تباينتا انقطاعا

جعلها فرقتين ، وعبر عنها ب ﴿ ائتيا ﴾ .

(111/680)

وقوله : ﴿ طائعين ﴾ لما كانت ممن يقول وهي حالة عقل جرى الضمير في ﴿ طائعين ﴾ ذلك المجرى ، وهذا كقوله : ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ [يوسف : 4] ونحوه .

واختلف الناس في هذه المقالة من السماء والأرض ، فقالت فرقة : نطقت حقيقة ، وجعل

الله تعالى لها حياة وإدراكاً يقتضي نطقها . وقالت فرقة : هذا مجاز ، وإنما المعنى أنها ظهر منها من اختيار الطاعة والخضوع والتذلل ما هو بمنزلة القول ﴿ أتينا طائعين ﴾ والقول الأول أحسن ، لأنه لا شيء يدفعه وإنما العبرة به أتم والقدرة فيه أظهر .

وقوله تعالى : ﴿ فقضاهن ﴾ معناه : صنعهن وأوجدهن ، ومنه قول أبي ذؤيب : [الكامل]

وعليهما مسرودتان قضاهما . . . داود أو صنع السوابغ تبع

وقوله تعالى : ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ قال مجاهد وقتادة : أوحى إلى سكانها وعمرتها من الملائكة وإليها هي في نفسها ما شاء تعالى من الأمور التي بها قوامها وصلاحها . قال السدي وقتادة : ومن الأمور التي هي لغيرها مثل ما فيها من جبال البرد ونحوه ، وأضاف الأمر إليها من حيث هو فيها ، ثم أخبر تعالى أن الكواكب زين بها السماء الدنيا ، وذلك ظاهر اللفظ وهو بحسب ما يقتضيه حسن البصر .

وقوله تعالى : ﴿ وحفظاً ﴾ منصوب بإضمار فعل ، أي وحفظناها حفظاً .

وقوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى جميع ما ذكر ، أو أوجده ، بقدرته وعزته ، وأحكمه بعلمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾

"أَئِنَّكُمْ" بهمزتين الثانية بين بين و "أَأَئِنَّكُمْ" بألف بين همزتين وهو استفهام معناه التوبيخ .

أمره بتوبيخهم والتعجب من فعلهم ، أي لِمَ تكفرون بالله وهو خالق السموات والأرض ؟!

"فِي يَوْمَيْنِ" الأحد والاثنين .

﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ﴾ أي أضداداً وشركاء ﴿ ذَلِكَ رَبُّ العالمين وَجَعَلَ فِيهَا ﴾ أي في الأرض ﴿ رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ يعني الجبال .

وقال وهب : لما خلق الله الأرض مادت على وجه الماء ؛ فقال لجبريل : ثَبِّتها يا جبريل .

فنزل فأمسكها فغلبته الرياح ، قال : يا رب أنت أعلم لقد غُلِبت فيها فثَبَّتَها بالجبال

وأرساها ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ بما خلق فيها من المنافع .

قال السدي : أنبت فيها شجرها .

﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا ﴾ قال السدي والحسن : أرزاق أهلها ومصالحهم .

وقال قتادة ومجاهد : خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها في يوم الثلاثاء والأربعاء .

وقال عكرمة والضحاك : معنى "قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا" أي أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض

بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد .

قال عكرمة : حتى إنه في بعض البلاد ليتبايعون الذهب بالملح مِثلاً بمثل .

وقال مجاهد والضحاك : السابريّ من سابور ، والطيالسة من الرّي ، والحبر اليمانية من اليمن .

﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ يعني في تتمة أربعة أيام .

ومثاله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام ، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً ؛ أي في تتمة خمسة عشر يوماً .

قال معناه ابن الأنباري وغيره .

﴿ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ قال الحسن : المعنى في أربعة أيام مستوية تامة .

الفراء : في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين .

واختاره الطبري .

(113/680)

وقرأ الحسن البصري ويعقوب الحضرمي "سَوَاءٍ لِلسَّائِلِينَ" بالجر .

وعن ابن القعقاع "سَواءٌ" بالرفع ؛ فالنصب على المصدر و"سَوَاءً" بمعنى استواء أي

استوت استواء .

وقيل : على الحال والقطع ؛ والجر على النعت لأيام أو لأربعة أي "فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ" مستوية تامة .

والرفع على الابتداء والخبر "لِلسَّائِلِينَ" أو على تقدير هذه "سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ" .

وقال أهل المعاني : معنى "سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ" ولغير السائلين ؛ أي خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل ، ويعطي من سأل ومن لا يسأل .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ أي عَمَد إلى خلقها وقصد لتسويتها .

والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال ؛ يدل عليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ [البقرة : 29] وقد مضى القول هناك .

وروى أبو صالح عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ يعني صعد أمره إلى السماء ؛ وقاله الحسن .

ومن قال : إنه صفة ذاتية زائدة قال : استوى في الأزل بصفاته .

و "ثُمَّ" ترجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة ، وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس ؛ على ما مضى في "البقرة" عن ابن مسعود وغيره .

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أي جيئا بما خلقت فيكما من المنافع

والمصالح وأخرجاها لخلقي .

قال ابن عباس : قال الله تعالى للسماء : أطلعي شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجري رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شُقِّي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين "قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ" .

وفي الكلام حذف أي أتينا أمرك "طَائِعِينَ" .

وقيل : معنى هذا الأمر التسخير ؛ أي كونا فكانتا كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] فعلى هذا قال ذلك قبل خلقهما .

(114/680)

وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما .

وهو قول الجمهور .

وفي قوله تعالى لهما وجهان : أحدهما أنه قول تكلم به .

الثاني أنها قدرة منه ظهرت لهما فقام مقام الكلام في بلوغ المراد ؛ ذكره الماوردي .

"قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ" فيه أيضاً وجهان : أحدهما أنه ظهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما ، ومنه قول الراجز :

امْتَلأَ الْحَوْضُ وقال قَطْني . . .

مَهْلاً رُوَيْداً قَدْ مَلأَتُ بَطْنِي

يعني ظهر ذلك فيه .

وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد تعالى ؛ قال أبو نصر السكسكي : فنطق من الأرض موضع الكعبة ، ونطق من السماء ما بحِيالها ، فوضع الله تعالى فيه حَرَمه .

وقال : "طَائِعِينَ" ولم يقل طائعتين على اللفظ ولا طائعات على المعنى ؛ لأنهما سموات وأرضون ؛ لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما .

وقيل : لما وصفهن بالقول والإجابة وذلك من صفات من يعقل أجراهما في الكناية مجرى من يعقل ، ومثله ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : 4] وقد تقدّم .

وفي حديث : إن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يا رب لو أن السموات والأرض حين قلت لهما "ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً" عصياك ما كنت صانعاً بهما ؟ قال : كنت آمر دابة من دوابي فتبتلعهما .

قال : يا رب وأين تلك الدابة ؟ قال : في مَرْج من مُرُوجي .

قال : يا رب وأين ذلك المرج ؟ قال : عِلْم من علمي .

ذكره الثعلبي .

وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة "آتَيَا" بالمدّ والفتح .

وكذلك قوله : ﴿ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ على معنى أعطيا الطاعة من أنفسكما "قَالَتَا" أعطينا "طَائِعِينَ" فحذف المفعولين جميعاً .

ويجوز وهو أحسن أن يكون "آتَيْنَا" فاعلنا فحذف مفعول واحد .

ومن قرأ "آتَيْنَا" فالمعنى جئنا بما فينا ؛ على ما تقدّم بيانه في غير ما موضع والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أي أكملهنّ وفرغ منهنّ .

(115/680)

وقيل : أحكمهنّ كما قال :

وعَلَيْهِما مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا . . .

دَاودُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ

﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ سوى الأربعة الأيام التي خلق فيها الأرض ، فوقع خلق السموات والأرض في ستة أيام ؛ كما قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف : 54] على ما تقدّم في "الأعراف" بيانه .

قال مجاهد : ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون .

وعن عبد الله بن سَلام قال : خلق الله الأرض في يومين ، وقدّر فيها أقواتها في يومين ، وخلق السموات في يومين ؛ خلق الأرض في يوم الأحد والاثنين ، وقدّر فيها أقواتها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ، وخلق السموات في يوم الخميس ويوم الجمعة ، وآخر ساعة في يوم الجمعة خلق الله آدم في عَجَل ، وهي التي تقوم فيها الساعة ، وما خلق الله من دابة إلا وهي تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن .

على هذا أهل التفسير ؛ إلا ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ، فقال : " خلق الله التربة يوم السبت " الحديث ، وقد تكلمنا على إسناده في أوّل سورة "الأنعام" .

﴿ وأوحى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ قال قتادة والسّدي : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها ، وخلق في كل سماء خَلْقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البَرَد والثلوج .

وهو قول ابن عباس ؛ قال : ولله في كل سماء بيت تحج إليه وتطوف به الملائكة بحذاء الكعبة ، والذي في السماء الدنيا هو البيت المعمور .

وقيل : أوحى الله في كل سماء ؛ أي أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها .

والإيحاء قد يكون أمراً ؛ لقوله : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ﴾ [المائدة : 111] أي أمرتهم وهو أمر تكوين .

﴿ وَزَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ ﴾ أي بكواكب تضيء .

وقيل : إن في كل سماء كواكب تضيء .

(116/680)

وقيل : بل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا .

﴿ وَحِفْظاً ﴾ أي وحفظناها حفظاً ؛ أي من الشياطين الذين يسترقون السمع .

وهذا الحفظ بالكواكب التي تُرجم بها الشياطين على ما تقدّم في "الحجر" بيانه .

وظاهر هذه الآية يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء .

وقال في آية أخرى : ﴿ أَمِ السمآء بَنَاهَا ﴾ [النازعات : 27] ثم قال : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ وهذا يدل على خلق السماء أوّلاً .

وقال قوم : خلقت الأرض قبل السماء ؛ فأما قوله : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات : 30] فالدَّحْوُ غير الخلق ، فالله خلق الأرض ثم خلق السموات ، ثم دحا الأرض أي مدّها وبسطها ؛ قاله ابن عباس .

وقد مضى هذا المعنى مجوّداً في "البقرة" والحمد لله .

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) ﴾

هذه السورة مكية بلا خلاف ، ومناسبتها لما قبلها ، أنه قال في آخر ما قبلها : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ إلى آخرها ، فضمن وعيداً وتهديداً وتقريعاً لقريش ، فأتبع ذلك التقريع والتوبيخ والتهديد بتوبيخ آخر ، فذكر أنه نزل كتاباً مفصلاً آياته ، بشيراً لمن اتبعه ، ونذيراً لمن أعرض عنه ، وأن أكثر قريش أعرضوا عنه .

ثم ذكر قدرة الإله على إيجاد العالم العلوي والسفلي .

ثم قال : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة ﴾ ، فكان هذا كله مناسباً لآخر سورة المؤمن من عدم انتفاع مكذبي الرسل حين التبس بهم العذاب ، وكذلك قريش حل بصناديدها من القتل والأسر والنهب والسبي ، واستئصال أعداء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما حل بعاد وثمود من استئصالهم .

روي أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ليعظم عليه أمر مخالفته لقومه ، وليقبح عليه فيما بينه وبينه ، وليبعد ما جاء به .

فلما تكلم عتبة ، قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ﴿ حم ﴾ ، ومر في صدرها حتى انتهى إلى قوله : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ ، فأرعد الشيخ ووقف شعره ، فأمسك على فم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيده ، وناشده بالرحم أن يمسك ، وقال حين فارقه : والله لقد سمعت شيئاً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي .

﴿ تنزيل ﴾ ، رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا تنزيل عند الفراء ، أو مبتدأ خبره ﴿ كتاب فصلت ﴾ ، عند الزجاج والحوفي ، وخبر ﴿ حم ﴾ إذا كانت اسماً للسورة ، وكتاب على قول الزجاج بدل من تنزيل .

قيل : أو خبر بعد خبر .

﴿ فصلت آياته ﴾ ، قال السدي : بينت آياته ، أي فسرت معانيه ، ففصل بين حرامه وحلاله ، وزجره وأمره ، ووعده ووعيده .

وقيل : فصلت في التنزيل : أي لم تنزل جملة واحدة .

(118/680)

قال الحسن : بالوعد والوعيد .

وقال سفيان : بالثواب والعقاب .

وقال ابن زيد : بين محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ومن خالفه .

وقيل : فصلت بالمواقف وأنواع ، أو آخر الآي ، ولم يكن يرجع إلى قافية ولا نحوها ، كالشعر والسجع .

وقال أبو عبد الله الرازي : ميزت آياته ، وجعل تفاصيل معان مختلفة ، فبعضها في وصف ذات الله تعالى ، وشرح صفات التنزيه والتقديس ، وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته ، وعجائب أحوال خلقه السموات والكواكب ، وتعاقب الليل والنهار ، وعجائب أحوال النبات والحيوان والإنسان ؛ وبعضها في أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلب ونحو الجوارح ، وبعضها في الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، ودرجات أهل الجنة ودركات أهل النار ؛ وبعضها في المواعظ والنصائح ؛ وبعضها في تهذيب الأخلاق ورياضة النفس ؛ وبعضها في قصص الأولين وتواريخ الماضين .

وبالجملة ، فمن أنصف ، علم أنه ليس في بدء الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم والمباحث المتباينة مثل ما في القرآن .

انتهى .

وقرىء : فصلت ، بفتح الفاء والصاد مخففة ، أي فرقت بين الحق والباطل ؛ أو فصل

بعضها من بعض باختلاف معانيها ، من قوله : ﴿ فصلت العير ﴾ أي انفصلت ، وفصل من البلد : أي انفصل منه ، وانتصب ﴿ قرآناً ﴾ على أنه حال بنفسه ، وهي مؤكدة ، لأنها لا تنتقل ، أو توطئة للحال بعده ، وهي ﴿ عربياً ﴾ ، أو على المصدر ، أي يقرؤه قرآناً عربياً ، أو على الاختصاص والمدح.

ومن جعله حالاً فقيل : ذو الحال آياته ، وقيل : كتاب ، لأنه وصف بقوله : ﴿ فصلت آياته ﴾ ، أو على إضمار فعل تقديره : فصلناه قرآناً ، أو مفعول ثان لفصلت ، أقوال ستة آخرها للأخفش.

(119/680)

و ﴿ لقوم ﴾ متعلق بفصلت ، أي يعلمون الأشياء ، ويعقلون الدلائل ، فكأنه فصل لهؤلاء ، إذ هم ينتفعون به فخصوا بالذكر تشريفاً ، ومن لم ينتفع بالتفصيل فكأنه لم يفصل له ويبعد أن يتعلق بتنزيل لكونه وصف في أحد متعلقيه ، إن كان من الرحمن في موضع الصفة ، أو أبدل منه كتاب ، أو كان خبر التنزيل ، فيكون في ذلك البدل من الموصول ، والإخبار عنه قبل أخذه متعلقه ، وهو لا يجوز ، وقيل : لقوم في موضع الصفة لقوله : ﴿ عربياً ﴾ ، أي كائناً لقوم يعلمون ألفاظه ويتحققون أنه لم يخرج عن نمط كلامهم ، وكأنه رد على من زعم أن في

القرآن ما ليس من كلام العرب .

وانتصب ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ على النعت لقرآناً عربياً ، وقيل : حال من آياته .

وقرأ زيد بن علي : بشير ونذير برفعهما على الصفة لكتاب ، أو على خبر مبتدأ محذوف ، وبشارته بالجنة لمن آمن ، ونذارته بالنار لمن كفر .

﴿ فأعرض أكثرهم ﴾ : أي أكثر أولئك القوم ، أي كانوا من أهل العلم ولكن لم ينظروا النظر التام ، بل أعرضوا ، ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ لإعراضهم عن ما احتوى عليه من الحجج والبراهين ، أو لما لم ينتفع به ولم يقبله جعل كأنه لم يسمعه .

ثم أخبر تعالى عنهم بالمقالة الدالة على امتناع قلوبهم ، والناس من رجوعهم إليه ومن سماعهم لما يتلوه ، وهو قوله تعالى ، حكاية عنهم : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذننا وقر ﴾ ، تقدم الكلام على شبه ذلك في الأنعام .

وقرأ طلحة : وقر بكسر الواو ، وهذه تمثيلات لامتناع قبول الحق ، كأن قلوبهم في غلاف ، كما قالوا : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ وكأن أسماعهم عند ذكر كلام الله بها صمم .

والحجاب : الستر المانع من الإجابة ، وهو خلاف في الدين ، لأنه يعبد الله وهم يعبدون الأصنام ، قال معناه الفراء وغيره .

ويروى أن أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً وقال : يا محمد ، بيننا وبينك حجاب ، استهزاء منه .

وقيل : تمثيل بعدم الإجابة .

وقيل : عبارة عن العداوة .

(120/680)

ومن في ﴿ مما تدعونا ﴾ إليه لابتداء الغاية ، وكذا في ﴿ ومن بيننا ﴾ .

فالمعنى أن الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك ، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب ، لا فراغ فيها ، ولو لم يأت بمن لكان المعنى أن حجاباً حاصل وسط الجهتين ، والمقصود المبالغة بالتباين المفرط ، فلذلك جيء بمن .

وقال الزمخشري : فإن قلت : هلا قيل : على قلوبنا أكنة ، كما قيل : ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ ، ليكون الكلام على نمط واحد ؟ قلت : هو على نمط واحد ، لأنه لا فرق في المعنى بين قولك : ﴿ قلوبنا في أكنة ﴾ ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم ﴾ ولو قيل : إنا جعلنا قلوبهم في أكنة ، لم يختلف المعنى ، وترى المطابيع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني ، وتقول : إن في أبلغ في هذا الموضع من على ، لأنهم قصدوا إفراط عدم القبول ، لحصول قلوبهم في أكنة احتوت عليها احتواء الظرف على المظروف ، فلا يمكن أن يصل إليها شيء .

كما تقول : المال في الكيس ، بخلاف قولك : على المال كيس ، فإنه لا يدل على الحصر ، وعدم الحصول دلالة الوعاء .

وأما في قوله : ﴿ إنا جعلنا ﴾ ، فهو من أخبار الله تعالى ، لا يحتاج إلى مبالغة ، بخلاف قولهم .

وقول الزمخشري : وترى المطابيع ، يعني من العرب وشعرائهم ، ولذلك تلكم الناس في شعر حبيب ، ولم يستحسن بعضهم كثرة صنعة البديع فيه ؛ قالوا : وأحسنه ما جاء من غير تكلف .

﴿ فاعمل إننا عاملون ﴾ قال الكلبي : في هلاكنا إنا عاملون في هلاكك .

وقال مقاتل : اعمل لإلهك الذي أرسلك ، فإننا عاملون لآلهتنا التي نعبدها .

وقال الفراء : اعمل على مقتضى دينك ، ونحن نعمل على مقتضى ديننا ، وذكر الماوردي : اعمل لآخرتك ، فإنا نعمل لدنيانا .

ولما كان القلب محل المعرفة ، والسمع والبصر معينان على تحصيل المعارف ، ذكروا أن هذه الثلاثة محجوبة عن أن يصل إليها مما يلقيه الرسول شيء .

(121/680)

واحتمل قولهم : ﴿ فاعمل إننا عاملون ﴾ ، أي تكون متاركة محضة ، وأن يكون استخفافاً .

﴿ قل إنما ﴾ ، ﴿ يوحى إليّ ﴾ وقرأ الجمهور : قل على الأمر ، وابن وثاب والأعمش : قال فعلاً ماضيا ، وهذا صدع بالتوحيد والرسالة .

وقرأ النخعي والأعمش : يوحى بكسر الحاء ؛ والجمهور : بفتحها ، وأخبر أنه بشر مثلهم لا ملك ، لكنه أوحى إليه دونهم .

وقال الحسن : علمه تعالى التواضع ، وأنه ما أوحى إليه توحيد الله ورفض آلهتكم .

﴿ فاستقيموا إليه ﴾ : أي له بالتوحيد الذي هو رأس الدين والعمل ، ﴿ واستغفروه ﴾ : واسألوه المغفرة ، إذ هي رأس العمل الذي بحصوله تزول التبعات .

وضمن استقيموا معنى التوجه ، فلذلك تعدى بإلى ، أي وجهوا استقامتكم إليه ، ولما كان العقل ناطقاً بأن السعادة مربوطة بأمرين : التعظيم لله والشفقة على خلقه ، ذكر أن الويل والثبور والحزن للمشركين الذين لم يعظموا الله في توحيده ، ونفي الشريك ، ولم يشفقوا على خلقه بإيصال الخير إليهم ، وأضافوا إلى ذلك إنكار البعث .

والظاهر أن الزكاة على ظاهرها من زكاة الأموال ، قاله ابن السائب ، قال : كانوا يحجون ويعتمرون ولا يزكون .

وقال الحسن وقتادة : وقيل : كانت قريش تطعم الحاج وتحرم من آمن منهم .

وقال الحسن وقتادة أيضاً : المعنى لا يؤمنون بالزكاة ، ولا يقرون بها .

وقال مجاهد والربيع : لا يزكون أعمالهم .

وقال ابن عباس والجمهور : الزكاة هنا لا إله إلا الله التوحيد ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ ويرجح هذا التأويل أن الآية من أول المكي ، وزكاة المال إنما نزلت بالمدينة ، قاله ابن عطية ، قال : وإنما هذه زكاة القلب والبدن ، أي تطهير من الشرك والمعاصي ، وقاله مجاهد والربيع .

وقال الضحاك ومقاتل : الزكاة هنا النفقة في الطاعة . انتهى .

وإذا كانت الزكاة المراد بها إخراج المال ، فإنما قرن بالكفر ، لكونها شاقة بإخراج المال الذي هو محبوب الطباع وشقيق الأرواح حثاً عليها .

(122/680)

قال بعض الأدباء :

وقالوا شقيق الروح مالك فاحتفظ . . .

به فأجبت المال خير من الروح

أرى حفظه يفضي بتحسين حالتي . . .

وتضييعه يفضي لتسآل مقبوح

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ ، قال السدي : نزلت في المرضى والزمني إذا عجزوا عن إكمال الطاعات ، كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون .

والممنون : المنقوص ، قاله ابن عباس ، رضي الله عنه .

قال ذو الأصبغ العدواني :

إني لعمرك ما بابي بذي غلق . . .

على الصديق ولا خيري بممنون

وقال مجاهد : غير محسوب ، وقيل : غير مقطوع ، قال الشاعر :

فضل الجواد على الخيل البطاء فلا . . .

يعطى بذلك ممنوناً ولا نزقا

وقيل : لا يمن به لأن أعطيات الله تشريف ، والمن إنما يدخل أعطيات البشر .

وقيل : لا يمن به لأنه إنما بمن التفضيل ، فأما الآخر فحق أداؤه ، نقله الزمخشري ، وفيه دسيسة الاعتزال .

﴿ قل أئنكم لتكفرون ﴾ : استفهام توبيخ وتشنيع عليهم ، يكفر من أوجد العالم سفليه وعلويه ، ووصف صورة خلق ذلك ومدته ، والحكمة في الخلق في مدة هو قادر على أن يوجد ذلك دفعة واحدة .

فذكر تعالى إيجاد ذلك مرتباً ، وتقدم الكلام في الخلق في مدة هو قادر على أن يوجد ذلك دفعة واحدة .

فذكر تعالى إيجاد ذلك مرتب ، وتقدم الكلام في أول ما ابتدىء فيه الخلق ، وما خلق مرتباً .

ومعنى ﴿ في يومين ﴾ : في مقدار يومين .

﴿ وتجعلون له أنداداً ﴾ : أي أشباهاً وأمثالاً من الملائكة والجن والأصنام يعبدونها دونه .

وقال السدي : أكفاء من الرجال يطيعونهم ، وتجعلون معطوف على لتكفرون ، فهو داخل في حيز الاستفهام المقتضي الإنكار والتوبيخ ، ﴿ ذلك ﴾ أي موجد الأرض ومخترعها ، ﴿ رب العالمين ﴾ من الأنداد التي جعلتم له وغيرهم .

﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ : إخبار مستأنف ، وليس من الصلة في شيء ، بل هو معطوف على قوله : ﴿ لتكفرون ﴾ .

﴿ وبارك فيها ﴾ : أكثر فيها خيرها .

(123/680)

﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ : أي أرزاق ساكنيها ومعايشهم ، وأضافهما إلى الأرض من حيث هي فيها وعنها برزت ، قاله السدي .

وقال قتادة : أقواتها من الجبال والأنهار والأشجار والصخور والمعادن ، والأشياء التي بها قوام الأرض ومصالحها .

وقال مجاهد : أقواتها من المطر والمياه .

وقال عكرمة والضحاك ومجاهد أيضاً : خصائصها التي قسمها في البلاد مما خص به كل إقليم ، فيحتاج بعضها إلى بعض في التفوّت من الملابس والمطاعم والنبات .

﴿ في أربعة أيام ﴾ : أي في تمام أربعة أيام باليومين المتقدمين .

وقال الزمخشري ﴿ في أربعة أيام ﴾ ، فذلكة لمدة خلق الله وما فيها ، كأنه قال : كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان .

وقال الزجاج : في تتمة أربعة أيام ، يريد بالتتمة اليومين .

انتهى ، وهذا كما تقول : بنيت جدار بيتي في يوم ، وأكملت جميعه في يومين ، أي بالأول .

وقال أبو عبد الله الرازي : ويفقه من كلام الزمخشري في أربعة أيام فائدة زائدة على قوله في يومين ، لأن قوله في يومين لا يقتضي الاستغراق لذلك العمل .

أما لما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الأشياء ، ثم قال في أربعة أيام سواء ، دل على أن هذه الأيام مستغرقة في تلك الأعمال من غير زيادة ونقصان . انتهى .

ولا فرق بين يومين وأربعة أيام بالنسبة إلى الاستغراق ، فإن كانت أربعة تقتضي الاستغراق ، وكذلك اليومين يقتضيانه ، ومتى كان الظرف معدوداً ، كان العمل في جميعه ، إما على سبيل التعميم ، نحو : سرت يومين ، وقد يكون في بعض كل يوم منها ، نحو : تهجدت ليلتين ، فاحتمل الاستغراق ، واحتمل في بعض كل واحد من الليلتين ؛ وإذا كان كذلك ، احتمل أن يكون وقع الخلق للأرض في بعض كل واحد من اليومين ، واحتمل أن يكون اليومين مستغرقين لخلقها ، فكذلك في أربعة أيام يحتمل الاستغراق ، وأن يكون خلق الأرض والجبال والبركة وتقدير الأقوات وقع في بعض كل يوم من الأربعة ، فما قاله أبو عبد الله الرازي لم تظهر به فائدة زائدة .

وقرأ الجمهور : سواء بالنصب على الحال ؛ وأبو جعفر بالرفع : أي هو سواء ، وزيد بن عليّ والحسن وابن أبي إسحاق وعمرو بن عبيد وعيسى ويعقوب : بالخفض نعتاً لأربعة أيام .

قال قتادة والسدي : معناه سواء لمن سأل عن الأمر واستفهم عن حقيقة وقوعه وأراد العبرة منه ، فإنه يجده كما قال تعالى .

وقال ابن زيد وجماعة : معناه متسوٍ مهيأ .

أمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إليها من البشر ، فعبر بالسائلين عن الطالبين لأنهم من شأنهم ولا بد طلب ما ينتفعون به ، إذ هم بحال حاجة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : بم تعلق قوله : ﴿ للسائلين ﴾ ؟ قلت : بمحذوف ، كأنه قيل هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض وما فيها ، أو يقدر ، أو قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين لها المحتاجين المقتاتين .

انتهى ، وهو راجع لقول المفسرين المتقدمين .

ولما شرح تخليق الأرض وما فيها ، أتبعه بتخليق السماء فقال : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ : أي قصد إليها وتوجه دون إرادة تأثير في غيرها ، والمعنى : إلى خلق السماء .

والظاهر أن المادة التي خلقت منها السماء كانت دخاناً .

(125/680)

وفي أول الكتاب الذي يزعم اليهود أنه التوراة إن عرشه تعالى كان على الماء قبل خلق السموات والأرض ، فأحدث الله في ذلك سخونة ، فارتفع زبد ودخان ، أما الزبد فبقي على وجه الماء ، فخلق الله منه اليبوسة وأحدث منه الأرض ؛ وأما الدخان فارتفع وعاد فخلق الله منه السموات .

وفيه أيضاً أنه خلق السماء من أجزاء مظلمة . انتهى .

وروي أنها كانت جسماً رخواً كالدخان أو البخار .

قال ابن عطية : هنا لفظ متروك يدل عليه الظاهر ، وتقديره : فأوجدها وأتقنها وأكمل أمورها ، وحينئذ ﴿ قال لها وللأرض ائتيا ﴾ .

انتهى ، فجعل ابن عطية هذه المحاورة بين الباري تعالى والأرض والسماء بعد خلق الأرض والسماء ، ورجح قول من ذهب إلى أنهما نطقتا نطقاً حقيقياً ، وجعل الله لهما حياة وإدراكاً يقتضي نطقهما ، بعد أن ذكر أن المفسرين منهم من ذهب إلى أن ذلك مجاز ، وأنه ظهر منهما عن اختيار الطاعة والتذلل والخضوع ما هو بمنزلة القول ، قال : والقول الأول أحسن ، لأنه لا شيء يدفعه ، وأن العبرة فيه أتم ، والقدرة فيه أظهر . انتهى .

وقال الزمخشري : ويعني أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما أنه أراد تكوينهما ، فلم يمتنعا عليه ، ووجدتا كما أرادهما ، وجاءتا في ذلك كالمأمور المطيع ، إذ أورد عليه فعل الآمر فيه .

على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما : ﴿ ائتيا ﴾ ، شئتما ذلك أو أبيتما ، فقالتا : آتينا على الطوع لا على الكره .

والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير ، من غير أن يحقق شيء من الخطاب

والجواب ، ونحوه قول القائل : قال الجدار للوتد : لم تشقني ؟ قال الوتد : سل من يدقني ، فلم يتركني وراء الحجر الذي ورائي .

(126/680)

فإن قلت : لم ذكر السماء مع الأرض وانتظمهما في الأمر بالإتيان ، والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين ؟ قلت : قد خلق جرم الأرض أولاً غير مدحوة ، ثم دحاها بعد خلق السماء ، كما قال : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ فالمعنى : ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ؛ ائت يا أرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك ، وائت يا سماء مقببة سقفاً لهم .

ومعنى الإتيان : الحصول والوقوع ، كما يقول : أتى عمله مرضياً مقبولاً .

ويجوز أن يكون المعنى : لتأت كل واحدة صاحبتها الإتيان الذي أريده وتقتضيه الحكمة ، والتدبير من كون الأرض قراراً للسماء ، وكون السماء سقفاً للأرض ، وينصره قراءة من قرأ : أتيا وأتينا من المواتاة ، وهي الموافقة ، أي لتوات كل واحدة أختها ولتوافقها ، قالتا : وافقنا وساعدنا .

ويحتمل وافقا أمري ومشيئتي ولا تمتنعا .

فإن قلت : ما معنى طوعاً أو كرهاً ؟ قلت : هو مثل للزوم تأثير قدرته فيهما ، وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال ، كما يقول الجبار لمن يحب بلوه : لتفعلن هذا شئت أو أبيت ، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً .

وانتصابهما على الحال بمعنى طائعتين أو مكرهتين .

فإن قلت : هلا قيل طائعتين على اللفظ أو طائعتان على المعنى لأنهما سموات وأرضون ؟

قلت : لما جعلت مخاطبات ومجيبات ، ووصفت بالطوع والكره ، قيل : طائعين في موضع طائعات نحو قوله : ساجدين .

انتهى .

وقرأ الجمهور : ائتيا من الإتيان ، أي ائتيا أمري وإرادتي .

وقرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد : أتيا على وزن فعلا ، قالتا : أتينا على وزن فعلنا ، من آتى يؤتى ، كذا قال ابن عطية ، قال : وذلك بمعنى أعطيا من أنفسكما من الطاعة ما أردته منكما ، والإشارة بهذا كله إلى تسخيرها وما قدره الله من أعمالها . انتهى .

(127/680)

وتقدم في كلام الزمخشري أنه جعل هذه القراءة من المواتاة ، وهي الموافقة ، فيكون وزن آتيا : فاعلاً ، وآتينا : فاعلنا ، وتقدمه إلى ذلك أبو الفضل الرازي قال : آتينا بالمد على فاعلنا من المواتاة ، ومعناه : سارعنا على حذف المفعول منه ، ولا يجوز أن يكون من الإيتاء الذي هو الإعطاء لبعد حذف مفعوله . انتهى .

وقرأ الأعمش : أوكرهاً بضم الكاف ، والأصح أنه لغة في الإكراه على الشيء الموقوع التخيير بينه وبين الطواعية ، والأكثر أن الكره بالضم معناه المشقة .

قال ابن عطية : وقوله قالتا ، أراد الفرقتين المذكورتين : جعل السموات سماء ، والأرضين أرضاً ، وهذا نحو قول الشاعر :

ألم يحزنك أن حبال قومي . . .

وقومك قد تباينتا انقطاعاً

وعبر عنها بتباينتا . انتهى .

هذا وليس كما ذكر ، لأنه إنما تقدم ذكر الأرض مفردة والسماء مفرد لحسن التعبير عنهما بالتثنية ، والبيت هو من وضع الجمع موضع التثنية ، كأنه قال : ألم يحزنك أن حبلى قومي وقومك ؟ ولذلك ثنى في قوله : تباينتا ، وأنث على معنى الحبل ، لأنه لا يريد به الحبل حقيقة ، إنما عنى به الذمة والمودة التي كانت بين قومهما .

والظاهر من هذه الآية أنه خلق الأرض وجعل فيها الرواسي وبارك فيها ، ثم أوجد السماء

من الدخان فسواها سبع سموات ، فيكون خلق الأرض متقدماً على خلق السماء ، ودحو الأرض غير خلقها ، وقد تأخر عن خلق السماء ، وقد أورد على هذا أن جعل الرواسي فيها والبركة .

وتقدير الأقوات لا يمكن إدخالها في الوجود إلا بعد أن صارت الأرض موجودة .

وقوله : ﴿ وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ﴾ مفسر بخلق الأشجار والنبات والحيوان فيها ، ولا يمكن ذلك إلا بعد صيرورتها منبسطة .

ثم قال بعد : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ ، فاقتضى خلق السماء بعد خلق الأرض ودحوها .

(128/680)

وأورد أيضاً أن قوله تعالى للسماء وللأرض : ﴿ ائتيا طوعاً أو كرهاً ﴾ ، كناية عن إيجادهما ، فلو سبق إيجاد الأرض على إيجاد السماء لاقتضى إيجاد الموجود بأمره للأرض بالإيجاد ، وهو محال ، وقد انتهى هذا الإيراد .

ونقل الواحدي في البسيط عن مقاتل أنه قال : خلق الله السماء قبل الأرض ، وتأول قوله : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ قبل أن يخلق الأرض ، فأضمر فيه كان ، كما قال

تعالى : ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ معناه : إن يكن سرق . انتهى .

وقال أبو عبد الله الرازي : فقدر ثم كان قد استوى جمع بين ضدين ، لأن ثم تقتضي التأخر ، وكان تقتضي التقدم ، فالجمع بينهما يفيد التناقض ، ونظيره : ضربت زيداً اليوم ، ثم ضربت عمراً أمس .

فكما أن هذا باطل ، فكذلك ما ذكر يعني من تأويل ثم كان قد استوى ، قال : والمختار عندي أن يقال : خلق السماء مقدم على خلق الأرض .

وتأويل الآية أن الخلق ليس عبارة عن التكوين ، والإيجاد يدل عليه قوله : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ وهذا محال ، لا يقال للشيء الذي وجد كن ، بل الخلق عبارة عن التقدير ، وهو في حقه تعالى حكمه أن سيوجد ، وقضاؤه بذلك بمعنى خلق الأرض في يومين ، وقضاؤه بأن سيحدث كذا ، أي مدة كذا ، لا يقتضي حدوثه ذلك في الحال ، فلا يلزم تقديم إحداث الأرض على إحداث السماء . انتهى .

والذي نقوله : أن الكفار وبخوا وقرعوا بكفرهم بمن صدرت عنه هذه الأشياء جميعها من غير ترتيب زماني ، وأن ثم لترتيب الأخبار لا لترتيب الزمان ، والمهلة كأنه قال : فالذي أخبركم أنه خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ، ثم

أخبركم أنه استوى إلى السماء ، فلا تعرض في الآية لترتيب ، أي ذلك وقع الترتيب الزماني له .

(129/680)

ولما كان خلق السماء أبدع في القدرة من خلق الأرض ، ألف الأخبار فيه بثم ، فصار كقوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ بعد قوله : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ ومن ترتيب الأخبار ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ بعد قوله : ﴿ قل تعالوا أتل ﴾ ويكون قوله تعالى : ﴿ فقال لها وللأرض ﴾ ، بعد إخباره بما أخبر به ، تصويراً لخلقهما على وفق إرادته تعالى ، كقولك : أرأيت الذي أثنيت عليه فقلت إنك عالم صالح ؟ فهذا تصوير لما أثنيت به وتفسير له .

فكذلك أخبر بأنه خلق كيت وكيت ، فحد ذلك إيجاداً لم يتخلف عن إرادته .

ويدل على أنه المقصود الإخبار بوقوع هذه الأشياء من غير ترتيب زماني قوله في الرعد : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ الآية ، ثم قال بعد : ﴿ وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ﴾ الآية .

وظاهر الآية التي نحن فيها جعل الرواسي ، وتقدير الأقوات قبل الاستواء إلى السماء وخلقها ، ولكن المقصود في الآيتين الإخبار بصدور ذلك منه تعالى من غير تعرض لترتيب

زماني ، وما جاء من ذلك مقصوراً على يومين أو أربعة أو ستة إنما المعنى في مقدار ذلك عندكم ، لا أنه كان وقت إيجاد ذلك زمان .

﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ : أي صنعهن وأوجدهن ، كقول ابن أبي ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما . . .

داود أو صنع السوابغ تبع

وعلى هذا انتصب سبع على الحال .

وقال الحوفي : مفعول ثان ، كأنه ضمن قضاهن معنى صيرهن فعداه إلى مفعولين ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً سبع سموات على التمييز .

ويعني بقوله مبهماً ، ليس عائداً على السماء ، لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى ، بخلاف الحال أو المفعول الثاني ، فإنه عائد على السماء على المعنى .

(130/680)

﴿ وأوحي في كل سماء أمرها ﴾ ، قال مجاهد وقتادة : وأوحى إلى سكانها وعمرتها من الملائكة وإليها هي في نفسها ما شاء تعالى من الأمور التي هي قوامها وصلاحها ، وقاله السدي وقتادة : ومن الأمور التي هي بغيرها مثل ما فيها من جبال البرد ونحوها ، وأضاف

الأمر إليها من حيث هو فيها .

وقال الزمخشري : أمرها ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك .

﴿ وحفظاً ﴾ : أي وحفظناها حفظاً من المسترقة بالثواقب ، ويجوز أن يكون مفعولاً له على المعنى ، كأنه قال : وخلقنا المصابيح زينة وحفظاً انتهى .

ولا حاجة إلى هذا التقدير الثاني ، وتكلفه مع ظهور الأول وسهولته ذلك إشارة إلى جميع ما ذكر ، أي أوجده بقدرته وعزه وعلمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(131/680)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

(132/680)

﴿ حم ﴾ إنْ جُعلَ إسماً للسورةِ فهو إما خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ وهو الأظهرُ لما مرَّ مِنْ سرِّه مِراراً أو مبتدأٌ خبرُهُ ﴿ تَنزِيلَ ﴾ وهو عَلى الأولِ خبرٌ بعدَ خبرٍ ، وخبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ إن جُعلَ مسروداً على نمطِ التعديدِ وقولُه تعالى : ﴿ مّنَ الرحمن الرحيم ﴾ متعلقٌ به مؤكدٌ لما

أفاده التنوينُ من الفخامةِ الذاتيةِ بالفخامة الإضافيةِ ، أو خبرٌ آخرُ . أو تنزيلٌ مبتدأٌ لتخصصِه بالصفةِ خبرُهُ ﴿ كِتَابٌ ﴾ وهو على الوجوهِ الأُوَل بدلٌ منه أو خبرٌ آخرُ أو خبرٌ لمحذوفٍ . ونسبةُ التنزيلِ إلى الرحمن الرحيمِ للإيذانِ بأنه مدارٌ للمصالحِ الدينيةِ والدنيويةِ ، واقعٌ بمقتضى الرحمةِ الربانيةِ حسبما ينبىءُ عنه قولُه تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك إلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ ﴿ فُصّلَتْ ءاياته ﴾ ميزتْ بحسبِ النظمِ والمَعنْى وجُعلتْ تفاصيلَ في أساليبَ مختلفةٍ ومعانٍ متغايرةٍ من أحكامٍ وقصصٍ ومواعظَ وأمثالٍ ووعدٍ ووعيد . وقُرِىءَ فُصِلَتْ ، أي فَرَقتْ بينَ الحقّ والباطلِ ، أو فُصلَ بعضُها من بعضٍ باختلافِ الأساليبِ والمعانِي من قولكَ فُصلَ من البلدِ فُصُولاً ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ نصبٌ على المدحِ أو الحاليةِ من كتابٌ لتخصصه بالصفة أو من آياته ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي معانيَهُ لكونه على لسانِهم ، وقيلَ لأهل العلم والنظر ، لأنهم المنتفعونَ به . واللامُ متعلقةٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ أُخْرى لقرآناً ، أي كائناً لقومٍ الخ ، أو بتنزيلٌ على أنَّ منَ الرحمن الرحيمِ ليستْ بصفة له أو بفصّلَتْ ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ صفتانِ أُخريانِ لقرآناً أي بشيراً لأهل الطاعة ونذيراً لأهل المعصية ، أو حالانِ منْ كتابٌ ، أو من آياتِه . وقُرِئَا بالرفع على الوصفية لكتابٌ أو الخبريةِ لمحذوف ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ عنْ تدبره مع كونه على لغتهم ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ سماعَ تفكرٍ وتأملٍ حتى يفهمُوا جلالَة قدرِه فيؤمنُوا به ﴿

وَقَالُواْ ﴾ أي لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم عندَ دعوتِه إيَّاهم إلى الإيمان والعملِ بما في القرآن ﴿ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ ﴾ أي أغطيةٍ متكاثفةٍ ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى ءاذانِنَا وَقْرٌ ﴾ أي صممٌ، وأصلُه الثقلُ. وقُرِئَ بالكسرِ، وقُرِئَ بفتحِ القافِ ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ غليظٌ يمنعنَا عن التواصلِ، ومنْ للدلالةِ على أن الحجابَ مبتدأٌ من الجانبين بحيثُ استوعبَ ما بينهما من المسافةِ المتوسطةِ ولم يبقَ ثمةَ فراغٌ أصلاً وهذه تمثيلاتٌ لنُبوِّ قلوبِهم عنْ إدراكِ الحقِّ وقبولِه ومجِّ أسماعِهم له كأنَّ بها صمماً وامتناعِ مواصلتِهم وموافقتِهم للرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ.

﴿ فاعمل ﴾ أي على دينكَ وقيلَ في إبطالِ أمرنا ﴿ إِنَّنَا عاملون ﴾ أي على دينِنا، وقيل في إبطالِ أمرِك والأولُ هو الأظهرُ فإن قولَه تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَىَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ تلقينٌ للجوابِ عنه أي لستُ منْ جنسٍ مغايرٍ لكم حتى يكونَ بيني وبينكم حجابٌ وتباينٌ مصححٌ لتباينِ الأعمالِ والأديان، كما ينبئُ عنه قولُكم.

(134/680)

"فاعملْ إننَا عاملونَ" بلْ إنما أنا بشرٌ مثلُكم مأمورٌ بما أُمرتم به حيثُ أُخبرْنا جميعاً بالتوحيدِ بخطابِ جامعٍ بيني وبينكم فإن الخطابَ في إلهُكم محكيٌ منتظمٌ لكلٍّ لا أنه خطابٌ منه عليه الصلاةُ والسلامُ للكفرةِ كما في مثلُكم ، وقيلَ المعنى لستُ مَلَكاً ولا جِنياً لا يمكنكم التلقّي منه ولا أدعوكم إلى ما تنبُو عنه العقولُ والأسماعُ وإنما أدعوكُم إلى التوحيدِ والاستقامةِ في العملِ ، وقد تدلُّ عليهما دلائلُ العقلِ وشواهدُ النقلِ . وقيلَ المَعْنى إني لستُ بملَكٍ وإنما أنا بشرٌ مثلُكم وقد أُوحي إليّ دونَكُم فصحَّتْ بالوحي إليَّ وأنا بشرٌ نبوتي وإذا صحَّت نبوتي وجبَ عليكم اتباعِي ، فتأمل . والفاءُ في قولِه تعالى : ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ ﴾ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها من إيحاءِ الوحدانيةِ فإن ذلك موجبٌ لاستقامتِهم إليه تعالى بالتوحيدِ والإخلاصِ في الأعمالِ ﴿ واستغفروه ﴾ مما كنتم عليهِ من سُوءِ العقيدةِ والعملِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ ترهيبٌ وتنفيرٌ لهم عن الشركِ إثر ترغيبِهم في التوحيدِ . وصفَهُم بقولِه تعالى : ﴿ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكاة ﴾ لزيادة التحذيرِ والتخويفِ عن منع الزكاةِ حيثُ جُعلَ من أوصافِ المشركينَ وقُرنَ بالكفر بالآخرة ، حيث قيل ﴿ وَهُم بالأخرة كافرون ﴾ وهو عطفٌ على لا يُؤتون داخلٌ في حيزِ الصلةِ ، واختلافُهما بالفعلية والاسميةِ لما أنَّ عدمَ إيتائِها متجددٌ والكفرُ أمرٌ مستمرٌ . ونُقلَ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه فسرَ لا يُؤتون الزكاةَ بقوله لا يقولون لا إلَه إلا الله فإنها زكاةُ الأنفسِ ، والمعنى لا يطهرون

أنفسَهُم من الشرك بالتوحيد ، وهو مأخوذٌ من قولِه تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ وقال الضحاكُ ومقاتلٌ لا ينفقون في الطاعات ولا يتصدقُون وقال مجاهدٌ لا يزكون أعمالَهُم .

(135/680)

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي لا يُمنُّ به عليهم من المَنِّ وأصله الثقل أو لا يُقطع من مننتُ الحبلَ قطعتُه . وقيل نزلتْ في المَرضى والهَرمى إذا عجزُوا عن الطاعة كُتب لهم الأجرُ كأصحِّ ما كانوا يعملونه .

(136/680)

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ﴾ إنكارٌ وتشنيعٌ لكفرهم وإنَّ واللامُ إما لتأكيد الإنكارِ وتقديمُ الهمزةِ لاقتضائها الصدارةَ لا لإنكارِ التأكيدِ وإما للإشعارِ بأن كفرَهُم من البعد بحيثُ ينكرُ العقلاءُ وقوعَهُ فيحتاجُ إلى التأكيد وإنما علق كفرُهم بالموصول حيثُ قيل : ﴿ بالذى خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ لتفخيم شأنِه تعالى واستعظامِ كفرِهم به أي بالعظيمِ الشأنِ الذي قدَّرَ وجودَها أي حكَم بأنها ستوجدُ في مقدار يومينِ أو في نوبتينِ على أن ما يُوجدُ في كلِّ نوبةٍ

يوجدُ بأسرعِ ما يكونُ وإلا فاليومُ الحقيقيُّ إنما يتحققُ بعدَ وجودِها وتسويةِ السمواتِ وإبداعِ نيرّاتِها وترتيبِ حركاتِها ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ﴾ عطفٌ على تكفرُونَ داخلٌ في حكمِ الإنكارِ والتوبيخِ . وجمعُ الأندادِ باعتبارِ ما هو الواقعُ لا بأن يكونَ مدارُ الإنكارِ هو التعددُ أي وتجعلونَ له أنداداً والحالُ أنه لا يمكنُ أن يكونَ له ندٌّ واحدٌ ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ باعتبارِ اتصافِه بما في حيزِ الصلةِ وما فيه من معنى البعدِ مع قربِ العهدِ بالمشارِ إليه للإيذانِ ببُعدِ منزلتِه في العظمةِ وإفرادُ الكافِ لما مرَّ مِراراً من أنَّ المرادَ ليس تعيينَ المخاطبينَ وهو مبتدأٌ خبرُهُ ما بعدَهُ أي ذلكَ العظيمُ الشأنِ الذي فعلَ ما ذُكرَ ﴿ رَبّ العالمين ﴾ أي خالقُ جميعِ الموجوداتِ ومربيها دونَ الأرضِ خاصَّةً فكيف يتُصورُ أن يكونَ أخسُّ مخلوقاتِه نداً له وقولُه تعالَى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ عطفٌ على خلقَ داخلٌ في حكمِ الصلةِ والجعلُ إبداعيٌّ وحديثُ لزومِ الفصلِ بينهما بجملتينِ خارجتينِ عن حيزِ الصلةِ مدفوعٌ بأن الأُولى متحدةٌ بقولِه تعالى : تكفرونَ فهو بمنزلةِ الإعادةِ له ، والثانيةُ اعتراضيةٌ مقررةٌ لمضمونِ الكلامِ بمنزلةِ التأكيدِ فالفصلُ بهما كلاَ فصلٍ على أن فيه فائدةَ التنبيهِ على أن مجردَ المعطوفِ عليه كافٍ في تحقق

(137/680)

ربوبيتِه للعالمينَ واستحالةِ أنْ يجعلَ له ندٌّ فكيفَ إذا انضمَّ إليه المعطوفاتُ وقيلَ هو عطفٌ على مقدرٍ أي خلقَها وجعلَ الخ وقيلَ هو كلامٌ متسأنفٌ وأيّاً ما كان فالمرادُ تقديرُ الجعلِ لا الجعلُ بالفعلِ . وقولُه تعالى : ﴿ مّن فَوْقِهَا ﴾ متعلقٌ بجعلَ أو بمضمر هو صفةٌ لرواسِي أي كائنةً من فوقها مرتفعةً عليها لتكونَ منافعُها معرضةً لأهلها ويظهرَ للنظّارِ ما فيَها من مراصدِ الاعتبارِ ومطارحِ الأفكارِ ﴿ وبارك فِيهَا ﴾ أي قدرَ أن يكثرَ خيرُها بأن يخلقَ أنواعَ الحيواناتِ التي من جُملتها الإنسانُ وأصنافُ النباتِ التي منها معايشُهم ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ أي حكَم بالفعلِ بأن يوجدَ فيما سيأتي لأهلها من الأنواعِ المختلفةِ أقواتُها المناسبةُ لها على مقدار معينٍ تقتضيه الحكمةُ . وقُرِىءَ وقَسَّم فيَها أقواتَها ﴿ فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ متعلقٌ بحصول الأمورِ المذكورةِ ، لا بتقديرها أي قدرَ حصولَها في يومينِ وإنما قيلَ في أربعة أيامٍ أي تتمةِ أربعةٍ تصريحاً بالفذلكةِ ﴿ سَوَآء ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لمضمرٍ ، هو صفةٌ لأيامٍ أي استوتْ سواءً أيَّ استواءٍ كما ينبىءُ عنه القراءةُ بالجرِّ وقيلَ هو حالٌ من الضميرِ في أقواتها أو في فيَها . وقُرِىءَ بالرفع أي هو سواءٌ ﴿ لّلسَّآئِلِينَ ﴾ متعلقٌ بمحذوف تقديرُه هذا الحصرُ للسائلينَ عن مدةِ خلقِ الأرضِ وما فيها أو بقدَّرَ أي قدَّرَ فيها أقواتَها لأجل السائلينَ أي الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء ﴾

شروعٌ في بيان كيفيةِ التكوينِ إثرَ كيفيةِ التقديرِ ، ولعلَّ تخصيصَ البيانِ بما يتعلقُ بالأرض وأهلِها لما أن بيان اعتنائِه تعالى بأمر المخاطبين وترتيبِ مبادِي معايشِهم قبلَ خلقِهم مما يحملُهم على الإيمان ويزجُرهم عن الكفر والطغيانِ أي ثم قصدَ نحوهَا قصداً سوياً لا يلوِي على غيرِه ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ أي أمرٌ ظلمانيٌّ عبرَ به عن مادتها أو عن الأجزاء المتصغرةِ التي ركبتْ هي منها أو دخانٌ مرتفعٌ من الماءِ كما سيأتي وإنما خصَّ الاستواءَ بالسماءِ مع أن الخطابَ المترتبَ عليه متوجهٌ إليهما معاً حسبما ينطقُ به قولُه تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ﴾ اكتفاءً بذكر تقديرِ ما فيها كأنه قيل فقال لها وللأرض التي قدرَ وجودَ ما فيها : ﴿ ائتيا ﴾ أي كُونا واحدُثا على وجه معينٍ وفي وقت مقدرٍ لكل منكُما وهو عبارةٌ عن تعلق إرادتِه تعالى بوجودهما تعلقاً فعلياً بطريق التمثيلِ بعد تقديرِ أمرِهما من غير أن يكونَ هناك أمرٌ ومأمورٌ كما في قوله تعالى كُنْ وقولُه تعالى : ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ تمثيلٌ لتحتم تأثيرِ قدرتِه تعالى فيهما واستحالةِ امتناعِهما من ذلكَ لا إثباتُ الطوعِ والكرهِ لهما وهما مصدرانِ وقعا موقعَ الحالِ ، أي طائعتينِ أو كارهتينِ . وقولُه تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ أي منقادينِ تمثيلٌ لكمال تأثرهما بالذات عن القدرة الربانيةِ وحصولِهما كما أُمرتا بهِ وتصويرٌ لكونِ وجودِهما كما هما عليه جارياً على مُقتضى الحكمةِ البالغةِ ، فإن الطوعَ منبىءٌ عن ذلكَ والكُرهَ موهمٌ لخلافهِ وإنما قيلَ طائعينَ باعتبارِ كونِهما في معرض الخطابِ

والجوابِ كقوله تعالى : ﴿ ساجدين ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ تفسيرٌ وتفصيلٌ لتكوين السماءِ المجملِ المعبرِ عنه بالأمر وجوابه لا أنه فعلٌ مترتبٌ على تكوينها أي خلقهنَّ خلقاً إبداعياً وأتقنَ أمرَهنَّ حسبما تقتضيهِ الحكمةُ . والضميرُ : إما

(139/680)

للسماء على المَعْنى أو مبهمٌ وسبعَ سمواتٍ حالٌ على الأول تمييزٌ على الثانِي ﴿ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ في وقتٍ مقدرٍ بيومينِ وقد بينَ مقدارُ زمانِ خلقِ الأرضِ وخلقِ ما فيها عند بيانِ تقديرهما فكانَ خلقُ الكلِّ في ستة أيامٍ حسبما نصَّ عليهِ في مواقعَ من التنزيلِ .

﴿ وأوحى فِى كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا ﴾ عطفٌ على (قضاهُنَّ) أي خلقَ في كلٍ منها ما فيها من الملائكة والنيّراتِ وغيرِ ذلك مما لا يعلمُه إلا الله تعالى كما قاله قَتَادةُ والسدّيُ فالوحي عبارةٌ عن التكوينِ كالأمر مقيدٌ بما قُيد به المعطوفُ عليه من الوقت أو أوحى إلى أهل كلَ منَها أَو أمرَهُ وكلَّفهم ما يليقُ بهم من التكاليف فهو بمعناهُ ومطلقٌ عن القيد المذكورِ ، وأياً ما كان فعلى ما قُررَ من التفصيل لا دِلالةَ في الآية الكريمةِ على الترتيب بين إيجادِ الأرضِ وإيجادِ السماءِ وإنما الترتيبُ بين التقديرِ والإيجادِ .

(140/680)

وإما على تقديرِ كونِ الخلقِ وما عُطفَ عليهِ من الأفعالِ الثلاثةِ على معانيها الظاهرة فهيَ وما في سورةِ البقرةِ من قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ثُمَّ استوى إِلَى السماء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ تدلانِ على تقدم خلقِ الأرضِ وما فيها على خلق السماءِ وما فيها ، وعليه إطباقُ أكثرِ أهلِ التفسيرِ وقد رُويَ أن العرشَ العظيمَ كان قبلَ خلقِ السمواتِ والأرضِ على الماء ثم إنه تعالى أحدثَ في الماء اضطراباً فأزبدَ فارتفعَ منه دخانٌ فأما الزبدُ فبقيَ على وجه الماءِ فخلقَ فيه اليُبوسةَ فجعلَه أرضاً واحدةً ثم فتقَها فجعلَها أرَضينَ ، وأما الدخانُ فارتفعَ وعلا فخلقَ منه السمواتِ . ورُويَ أنه تعالَى خلقَ جِرْمَ الأرضِ يومَ الأحدِ ويومَ الاثنينِ ودحاهَا وخلقَ ما فيها يومَ الثلاثاءِ ويومَ الأربعاءِ وخلق السمواتِ وما فيهن يومَ الخميسِ ويومَ الجمعةِ وخلق آدمَ عليه السلامُ في آخرِ ساعةٍ منه وهي الساعةُ التي تقومُ فيها القيامةُ وقيل إن خلقَ جرمِ الأرضِ مقدمٌ على خلقِ السمواتِ لكنْ دحوُها وخلقُ ما فيها مؤخرٌ عنه لقولِه تعالى : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ ولما رُويَ عن الحسنِ رحمه الله من أنه تعالى خلقَ الأرضَ في موضعِ بيتِ المقدسِ كهيئةِ الفِهْرِ عليه دخانٌ ملتزقٌ بهَا ثم أصعدَ الدخانَ وخلقَ منه السمواتِ وأمسك الفهرَ في موضعِها وبسطَ منها الأرضَ وذلك قولُه تعالى : ﴿ كَانَتَا رَتْقاً ففتقناهما ﴾ الآيةَ وليسَ المرادُ بنظمها مع السماءِ في سلكِ الآمرِ بالإتيانِ إنشاءَها وإحداثَها بل إنشاءَ دحوِها وجعْلِها على وجهٍ

خاصَ يليقُ بها من شكلٍ معينٍ ووصفٍ مخصوصٍ كأنه قيلَ ائتيَا على ما ينبغي أنْ تأتيَا عليه ائتِي يا أرضُ مدحوّةً قراراً ومهاداً لأهلكِ وائتِي يا سماءُ مُقبّبةً سقفاً لهم . ومعنى الإتيانِ الحصولُ على ذلك الوجهِ كما تبيءُ عنه قراءةُ آتِيا وآتينَا منَ

(141/680)

المُواتاةِ وهي الموافقةُ . وأنتَ خبيرٌ بأنَّ المذكورَ قبلَ الأمرِ بالإتيانِ ليسَ مجردَ خلقِ جرْمِ الأرضِ حتى يتأتَّى ما ذكرَ بل خلقِ ما فيَها أيضاً من الأمورِ المتأخرةِ عن دحوِها قطعاً ، فالأظهرُ أن يُسلكَ مسلكَ الأولينَ ويُحملَ الأمرُ بالإتيانِ على تكوينِهما متوافقتينِ على الوجهِ المذكورِ وليسَ من ضرورتِه أن يكونَ دحوُهَا مترتباً على ذلك التكوينِ وإنما اللازمُ ترتبُ حصولِ التوافقِ عليه ، ولا ريبَ في أن تكوينَ السماءِ على الوجه اللائقِ بها كافٍ في حصولِه ، ولا يقدحُ في ذلكَ تكوينُ الأرضِ على الوجه المذكورِ قبل ذلك وأن يُجعلَ الأرضُ في قولِه تعالى : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ منصوباً بمضمرٍ قد حُذفَ على شرطية التفسيرِ ويجعلَ ذلكَ إشارةً إلى ذكرِ ما ذُكرَ من بناءِ السماءِ ورفعِ سَمكِها وتسويتِها وغيرَها لا إلى أنفسِها وتحملَ البعديةُ إما على أنه قاصرٌ عن الأولِ في الدلالةِ على القدرةِ القاهرةِ كما قيلَ وإمَّا على أنه أدخلُ في الإلزامِ لما أنَّ المنافعَ المنوطةَ بما في الأرضِ أكثرُ وتعلقَ مصالحِ الناسِ

بذلكَ أظهرُ وإحاطتَهُم بتفاصيلِها أكملُ وليسَ ما رُويَ عنِ الحسنِ رضي الله عنه نصاً في تأخر دحوِ الأرضِ عن خلق السماءِ فإن بسطَ الأرضِ معطوفٌ على إصعاد الدخانِ وخلقِ السماءِ بالواوِ فلا دلالةَ في ذلكَ على الترتيب قطعاً وقد نقلَ الإمامُ الواحديُّ عن مقاتلٍ أن خلقَ السماءِ مقدمٌ على إيجادِ الأرضِ فضلاً عن دَحْوِها فلا بدَّ من حمل الأمرِ بإتيانهما حينئذٍ أيضاً على ما ذكرَ من التوافقِ والمواتاةِ ولا يقدحُ في ذلكَ تقدمُ خلقِ السماء على خلقِ الأرضِ كما لم يقدحْ فيهِ تقدمُ خلقِ الأرضِ على خلقِ السماءِ ، هذا كلُّه على تقدير كونِ كلمةِ ثمَّ للتراخِيِّ الزمانيِّ وأما عَلى تقديرِ كونِها للتراخِي الرتبِي كما جنحَ إليهِ الأكثرونَ فلا دَلالةَ في الآيةِ الكريمةِ على الترتيب كما في الوجهِ

(142/680)

الأولِ وعلى ذلك بُنيَ الكلامُ في تفسيرِ قولِه تعالى :

﴿ هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ الآيةَ وإنما لم يُحملْ الخلقُ هناكَ على معنى التقديرِ كما حُملَ عليه ههانا لتوفيةِ مقامِ الامتنانِ حقَّهُ . ﴿ وَزَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ من الكواكب فإنها كلَّها تُرى متلألئةً عليها كأنَّها فيها والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ لإبرازِ مزيدِ العنايةِ بالأمرِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَحِفْظاً ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لفعلٍ معطوفٍ على زيَّنا أيْ

وحفظناهَا من الآفاتِ أو من المُسترِقة حِفظاً وقيل مفعولٌ لهُ على المَعنْى كأَنَّه قيلَ وخلقنَا المصابيحَ زينةً وحِفْظاً ﴿ ذلك ﴾ الذي ذُكِرَ بتفاصيلِه ﴿ تَقْدِيرُ العزيزِ العليم ﴾ المبالغ في القدرةِ والعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(143/680)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذى خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾

إلى آخر الآيات والكلام فيها كثير ومنه ما ليس بالمشهور ولنبدى بما هو المشهور وبعد التمام نذكر الآخر فنقول : هذا إنكار وتشنيع لكفرهم ، وان واللام إما لتأكيد الإنكار وتقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة لا لانكار التأكيد وأما للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد ، وعلق سبحانه كفرهم بالموصول لتفخيم شأنه تعالى واستعظام كفرهم به عز وجل ، والظاهر أن المراد بالأرض الجسم المعروف ، وقيل : لعل المراد منها ما في جهة السفل من الإجرام الكثيفة واللطيفة من التراب والماء والهواء تجوزاً باستعمالها في لازم المعنى على ما قيل بقرينة المقابلة وحملت على ذلك لئلا يخلو الكلام عن التعرض لمدة خلق ما عدا التراب ، ومن خلقها في يومين أنه سبحانه خلق لها أصلاً مشتركاً

ثم خلق لها ثوراً بها تنوعت إلى أنواع ، واليوم في المشهور عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأفق واريد منه ههنا الوقت مطلقاً لأنه لا يتصور ذلك قبل خلق السماء والكواكب والأرض نفسها ثم إن ذلك الوقت يحتمل أن يكون بمقدار اليوم المعروف ويحتمل أن يكون أقل منه أو أكثر والأقل أنسب بالمقام ، وأياً ما كان فالظاهر أن اليومين ظرفان لخلق الأرض مطلقاً من غير توزيع .

(144/680)

وقال بعض الأجلة : إنه تعالى خلق أصلها ومادها في يوم وصورها وطبقاتها في آخر ، وقال في إرشاد العقل السليم المراد بخلق الأرض تقدير وجودها أي حكم بأنها ستوجد في يومين مثله في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 59] والمراد بكفرهم به تعالى الحادهم في ذاته سبحانه وصفاته عز وجل وخروجهم عن الحق اللازم له جل شأنه على عباده من توحيهده واعتقاد ما يليق بذاته وصفاته جل جلاله فلا ينزهونه تعالى عن صفات الأجسام ولا يثبتون له القدرة التامة والنعوت واللائقة به سبحانه وتعالى ولا يعترفون بإرساله تعالى الرسل وبعثه سبحانه الأموات حتى كأنهم يزعمون انه سبحانه خلق العباد عبثاً وتركهم سدى ، وقوله تعالى :

﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ﴾ عطف على تكفرون داخل معه في حكم الإنكار والتوبيخ ، وجعله حالاً من الضمير ﴿ خُلِقَ ﴾ لا يخفى حاله ، وجمع الأنداد باعتبار ما هو الواقع لا بأن يكون مدار الإنكار هو التعدد أي وتجعلون له أنداداً وأكفاء من الملائكة والجن وغيرهم والحال أنه لا يمكن أن يكون له سبحانه ند واحد ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته في العظمة ، وافراد الكاف لما أن المراد ليس تعيين المخاطبين ، وهو مبتدأ خبره ما بعده أي ذلك العظيم الشأن الذي فعل ما ذكر في مدة يسيرة ﴿ رَبّ العالمين ﴾ أي خالق جميع الموجودات ومربيها دون الأرض خاصة فكيف يتصور أن يكون شيء من مخلوقاته نداً له عز وجل

(145/680)

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ على ما اختاره غير واحد عطف على ﴿ خَلَقَ الأرض ﴾ [فصلت : 9] داخل في حكم الصلة ، ولا ضير في الفصل بينهما بالجملتين المذكورتين لأن الأولى متحدة بقوله تعالى : ﴿ تَكْفُرُونِ ﴾ بمنزلة إعادتها والثانية معارضة مؤكدة لمضمون الكلام فالفصل بهما كلا فصل ، وفيه بلاغة من حيث المعنى لدلالته على أن المعطوف عليه

أي ﴿ خَلَقَ الأرض ﴾ كاف في كونه تعالى رب العالمين وأن لا يجعل له ند فكيف إذا انضمت إليه هذه المعطوفات .

وتعقب بأن الاتحاد لا يخرجه عن كونه فاصلاً مشوشاً للذهن مورثاً للتعقيد فالحق والأقرب أن تجعل الواو اعتراضية وكل من الجملتين معترض ليندفع بالاعتراض الاعتراض أو يجعل ابتداء كلام بناء على أنه يصدر بالواو يقال : هو معطوف على مقدر كخلق ، واختار هذا الأخير صاحب الكشف فقال : أوجه ما ذكر فيه أنه عطف على مقدر بعد ﴿ رَبّ العالمين ﴾ [فصلت : 9] أي خلقها وجعل فيها رواسي فكأنه ساق قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ أولاً رداً عليهم في كفرهم ثم ذكره ثانياً تتميماً للقصة وتأكيداً للإنكار ، وليس سبيل قوله سبحانه : ﴿ ذَلِكَ رَبُّ ﴾ سبيل الاعتراض حتى تجعل الجملة عطفاً على الصلة ويعتذر عن تخلل ﴿ تجعلون ﴾ عطفاً على ﴿ وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ باتحاده بما قبله على أسلوب ﴿ وَصُدَّ سَبِيلِ الله وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد الحرام ﴾ [البقرة : 217] وذلك لأنه مقصود لذاته في هذا المساق وهو ركن للإنكار مثل قوله تعالى : ﴿ الذى خَلَقَ الأرض ﴾ وأكد على ما لا يخفى على ذي بصيرة .

(146/680)

والرواسي الجبال من رسا إذا ثبت ، والمراد بجعلها إبداعها بالفعل ، وفي الإرشاد المراد تقدير الجعل لا الجعل بالفعل ، وقوله تعالى : ﴿ مّن فَوْقِهَا ﴾ متعلق بجعل أو بمحذوف صفة لرواسي أي كائنة من فوقها والضمير للأرض وفي ذلك استخدام على ما قيل في المراد منها لأن الجبال فوق الأرض المعروفة لا فوق جميع الأجسام السفلية والبسائط العنصرية ، وفائدة ﴿ مّن فَوْقِهَا ﴾ الإرشاد إلى أنها جعلت مرتفعة عليها لا تحتها كالأساطين ولا مغروزة فيها كالمسامير لتكون منافعها معرضة لأهلها ويظهر للنظار ما فيها من مراصد الاعتبار ومطارح الأفكار ؛ ولعمري أن في ارتفاعها من الحكم التكوينية ما تدهش منه العقول ، والآية لا تأبى أن يكون في المغمور من الأرض في الماء جبالاً كما لا يخفى والله تعالى أعلم .

﴿ وبارك فِيهَا ﴾ أي كثر خيرها ، وفي الإرشاد قدر سبحانه أن يكثر خيرها بأن يكثر فيها أنواع النباتات وأنواع الحيوانات التي من جملتها الإنسان ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ أي بين كميتها وأقدارها ، وقال في الإرشاد : أي حكم بالفعل بأن يوجد فيما سيأتي لأهلها من الأنواع المختلفة أقواتها المناسبة لها على مقدار معين تقتضيه الحكمة والكلام على تقدير مضاف ، وقيل : لا يحتاج إلى ذلك والإضافة لأدنى ملابسة ، وإليه يشير كلام السدى حيث قال : أضاف الأقوات إليها من حيث هي فيها وعنها برزت ، وفسر مجاهد الأقوات

بالمطر والمياه .

وفي رواية أخرى عنه وإليه ذهب عكرمة .

(147/680)

والضحاك أنها ما خص به كل إقليم من الملابس والمطاعم والنباتات ليكون الناس محتاجين بعضهم لبعض وهو مقتض لعمارة الأرض وانتظام أمور العالم ، ويؤيد هذا قراءة بعضهم ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ ﴿ فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ متعلق بحصول الأمور المذكورة لا بتقديرها على ما في إرشاد العقل السليم ، والكلام على تقدير مضاف أي قدر حصولها في تتمة أربعة أيام ؛ وكان الزجاج يعلقه بقدر كما هو رأي الإمام أبي حنيفة في القيد إذا وقع متعاطفات نحو أكرمت زيداً وضربت عمراً ورأيت خالداً في الدار ، والشافعي يقول : المتعقب للجمل يعود إليها جميعاً لأن الأصل اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في المتعلقات فيكون القيد هنا عائداً إلى جعل الرواسي وما بعده وهو الذي يتبادر إلى فهمي ولا بد من تقدير المضاف الذي سمعت وقد صرح الزجاج بتقديره ولم يقدره الزمخشري وجعل الجار متعلقاً بمحذوف وقع خبراً لمبتدأ محذوف أي كل ذلك من خلق الأرض وما بعده كائن في أربعة أيام على أنه فذلكة أي كلام منقطع أتى به لجمل ما ذكر مفصلاً مأخوذة من فذلكة الحساب وقولهم :

فذلك كذا بعد استقرار الجمع فما نحن فيه الحق فيه أيضاً جملة من العدد بجملة أخرى وجعله كذلك لا يمنع عطف ﴿ فِيهَا رَوَاسِيَ رَوَاسِيَ ﴾ على مقدر لأن الربط المعنوي كاف .

والقول بأن الفذلكة تقتضي التصريح بذكر الجملتين مثل أن يقال : سرت من البصرة إلى واسط في يومين ومن واسط إلى الكوفة في يومين فذلك أربعة أيام وههنا لم ينص إلا على أحد المبلغين غير سديد لأن العلم بالمبلغين في تحقيق الفذلكة كاف على أن المراد أنه جار مجراها وإنما لم يجز الحمل على أن جعل الرواسي وما ذكر عقيبه أو تقدير الأقوات في أربعة أيام لأنه يلزم أن يكون خلق الأرض وما فيها في ستة أيام وقد ذكر بعده أن خلق السموات في يومين فيكون المجموع ثمانية أيام .

(148/680)

وقد تكرر في كتاب الله تعالى أن خلقهما أعني السموات والأرض في ستة أيام وقيدت الأيام الأربعة بقوله تعالى : ﴿ سَوَآءً ﴾ فإنه مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لأيام أي استوت سواء أي استواء كما يدل عليه قراءة زيد بن علي ، والحسن .

وابن أبي إسحق .

وعمرو بن عبيد .

وعيسى .

ويعقوب ﴿ سَوَآء ﴾ بالجر فإنه صريح في الوصفية وبذلك يضعف القول بكونه حالاً من الضمير في ﴿ أقواتها ﴾ مع قلة الحال من المضاف إليه في غير الصور الثلاثة ولزوم تخالف القراءتين في المعنى .

ويعلم من ذلك أنه على قراءة أبي جعفر بالرفع يجعل خبراً لمبتدأ محذوف أي هي سواء وتجعل الجملة صفة لأيام أيضاً لا حالاً من الضمير لدفع التجوز فإنه شائع في مثل ذلك مطرد في عرفي العرب والعجم فتراهم يقولون : فعلته في يومين ويريدون في يوم ونصف مثلاً وسرت أربعة أيام ويريدون ثلاثة ونصفاً مثلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الحج أَشْهُرٌ معلومات ﴾ [البقرة : 197] فإن المراد بالأشهر فيه شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة وليلة النحر وذلك لأن الزائد جعل فرداً مجازاً .

ثم أطلق على المجموع اسم العدد الكامل فالمعنى ههنا في أربعة أيام لا نقصان فيها ولا زيادة وكأنه لذلك أوثر ما في التنزيل على أن يقال : وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين كما قيل أولاً ﴿ خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] وحاصله أنه لو قيل ذلك لكان يجوز أن يراد باليومين الأولين والآخيرين أكثرهما وإنما لم يقل خلق الأرض في يومين كاملين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين كاملين

أو خلق الأرض في يومين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين تلك أربعة سواء لأن ما أورده سبحانه أخصر وأفصح وأحسن طباقاً لما عليه التنزيل من مغاصات القرائح ومصاك الركب ليتميز الفاضل من الناقص والمتقدم من الناكص وترتفع الدرجات وتتضاعف المثوبات .

(149/680)

وقال بعض الأجلة : إن في النظم الجليل دلالة أي مع الاختصار على أن اليومين الأخيرين متصلان باليومين الأولين لتبادره من جعلهما جملة واحدة واتصالهما في الذكر ، وقوله تعالى : ﴿ لّلسَّائِلِينَ ﴾ متعلق بمحذوف وقع خبراً لمبتدأ محذوف أي هذا الحصر في أربعة كائن للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها ، ولا ضير في توالي حذف مبتدأين بناء على ما آثره الزمخشري في الجار والمجرور قبل ، وقيل هو متعلق بقدر السابق أي وقدر فيها أقواتها لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين ، وقيل : متعلق بمقدر هو حال من الأقوات ، والكل لا يستقيم إلا على ما آثره الزجاج دون ما آثره الزمخشري لأن الفذلكة كما يعلم مما سبق لا تكون إلا بعد تمام الجملتين فلا يجوز أن تتوسط بين الجلمة الثانية وبعض متعلقاتها وقيل متعلق بسواء على أنه حال من الضمير والمعنى مستوية مهيأة للمحتاجين أو به على قراءة

الرفع وجعله خبر مبتدأ محذوف أي هو أي أمر هذه المخلوقات ونفعها مستو مهيأ للمحتاجين إليه من البشر وهو كما ترى .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ أي قصد إليها وتوجه دون إرادة تأثير في غيرها من قولهم : استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه لا يلوى على غيره .

وذكر الراغب أن الاستواء متى عدى بعلى فبمعنى الاستيلاء كقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : 5] وإذا عدى بإلى فبمعنى الانتهاء إلى الشيء إما بالذات أو بالتدبير ، وعلى الثاني قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ الآية ، وكلام السلف في الاستواء مشهور .

(150/680)

وقد ذكرنا فيما سلف طرفا منه ويشعر ظاهر كلام البعض أن في الكلام مضافاً محذوفاً أي ثم استوى إلى خلق السماء ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ أمر ظلماني ولعله أريد به مادتها التي منها تركبت وأنا لا أقول بالجواهر الفردة لقوة الأدلة على نفيها ولا يلزم من ذلك محذور أصلا كما لا يخفى على الذكي المنصف ، وقيل : إن عرشه تعالى كان قبل خلق السموات والأرض على الماء فاحدث الله تعالى في الماء سخونة فارتفع زبد ودخان فاما الزبد فبقي على وجه

الماء فخلق الله تعالى فيه اليبوسة وأحدث سبحانه منه الأرض وأما الدحان فارتفع وعلا فخلق الله تعالى منه السموات .

وقيل : كان هناك ياقوتة حمراء فنظر سبحانه إليها بعين الجلال فذابت وصارت ماء فأزبد وارتفع منه دخان فكان ما كان ، وأياً ما كان فليس الدخان كائناً من النار التي هي إحدى العناصر لأنها من توابع الأرض ولم تكن موجودة إذ ذاك على قول كما ستعرف إن شاء الله تعالى ، وعلى القول بالوجود لم يذهب أحد إلى تكون ذلك من تلك النار والحق الذي ينبغي أن لا يلتفت إلى ما سواه أن كرة الناء التي يزعمها الفلاسفة المتقدمون ووافقهم كثير من الناس عليها ليست بموجودة ولا توقف لحدوث الشهب على وجودها كما يظهر لذي ذهن ثاقب .

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا ﴾ بما خلقت فيكما من المنافع فليس المعنى على اتيان ذاتهما وإيجادهما بل اتيان ما فيهما مما ذكر بمعنى إظهاره والأمر للتسخير قيل ولا بد على هذا أن يكون المترتب بعد جعل السموات سبعاً أو مضمون مجموع الجمل المذكورة بعد الفاء وإلا فالأمر بالاتيان بهذا المعنى مترتب على خلق الأرض والسماء .

(151/680)

وقال بعض : الكلام على التقديم والتأخير والأصل ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقضاهن سبع سموات الخ فقال لها وللأرض ائتيا الخ وهو أبعد عن القيل والقال إلا أنه خلاف الظاهر أو كوناً واحدثا على وجه معين وفي وقت مقدر لكل منكما فالمراد اتيان ذاتهما وإيجادهما فالأمر للتكوين على أن خلق وجعل وبارك وقدر بالمعنى الذي حكيناه عن ارشاد العقل السليم ويكون هذا شروعاً في بيان كيفية التكوين أثر بيان كيفية التقدير ، ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وما فيها لما أن بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادىء معايشهم قبل خلقهم ما يحملهم على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان ، وخص الاستواء بالسماء مع أن الخطاب المترتب عليه متوجه إليهما معا اكتفاء بذكر تقدير الأرض وتقدير ما فيها كأنه قيل : فقيل لها وللأرض التي قدر وجودها ووجود ما فيها كوناً واحدثا وهذا الوجه هو الذي قدمه صاحب الإرشاد وذكره غيره احتمالاً وجعل الأمر عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقاً فعلياً بطريق التمثيل من غير أن يكون هناك آمر ومأمور كما قيل في قوله تعالى :

﴿ كُنَّ ﴾ [غافر : 68] وقوله تعالى : ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ تمثيلاً لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذكل لا إثبات الطوع والكره لهما ، وهما مصدران وقعا موقع الحال أي طائعتين أو كارهتين ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ أي منقادين تمثيلاً لكمال تأثرهما عن القدرة الربانية وحصولهما كما أمرا به وتصويراً لكون وجودهما

كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة المبالغة فإن الطوع منبىء عن ذلك والكره موهم لخلافه ، وقيل : ﴿ طَائِعِينَ ﴾ بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء باعتبار كونهما في معرض الخطاب والجواب ولا وجه للتأنيث عند اخبارهم عن أنفسهم لكون التأنيث بحسب اللفظ فقط

(152/680)

﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سماوات فِى يَوْمَيْنِ ﴾ تفسيراً وتفصيلاً لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالأمر وجوابه لا أنه فعل مترتب على تكوينهما أي خلقهن خلقاً ابداعياً وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة في وقتين وضمير ﴿ هُنَّ ﴾ اما للسماء على المعنى لأنه بمعنى السموات ولذا قيل : هو اسم جمع فسبع حال من الضمير وإما مبهم يفسره ما بعده على أنه تمييز فهو له وان تأخر لفظاً ورتبة لجوازه في التمييز نحو ربه رجلاً وهو وجه عربي .

وقال أبو حيان : انتصب ﴿ سَبْعَ ﴾ على الحال وهو حال مقدرة ، وقال بعضهم : بدل من الضمير ، وقيل : مفعول به والتقدير قضى منهن سبع سموات ، وقال الحوفي : على أنه مفعول ثان على تضمين القضاء معنى التصيير ولم يذكر مقدار زمن خلق الأرض وخلق ما فيها اكتفاء بذكره في بيان تقديرهما ، وقوله تعالى : ﴿ وأوحى فِى كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا ﴾ عطفاً

على ﴿ قضاهن ﴾ أي خلق في كل منها ما استعدت له واقتضت الحكمة أن يكون فيها من الملائكة والنيرات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى كما يقتضيه كلام السدى .

(153/680)

وقتادة فالوحي عبارة عن التكوين كالأمر مقيد بما قيد به المعطوف عليه من الوقت أو أوحى إلى أهل كل منها أو أمره وكلفهم ما يليق بهم من التكاليف كما قيل : فالوحي بمعناه المشهور من بين معانيه ومطلق عن القيد المذكور أو مقيد به فيما أرى ، واحتمال التقييد والاطلاق جار في قوله تعالى : ﴿ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ أي من الكواكب وهي فيها وان تفاوتت في الارتفاع والانخفاض على ما يقتضيه الظاهر أو بعضها فيها وبعضها فيما فوقها لكنها لكونها كلها ترى متلألئة عليها صح كوم تزيينها بها ، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَحِفْظاً ﴾ فهو مفعول مطلق لفعل مقدر معطوف على قوله تعالى : ﴿ زَيَّنَّا ﴾ أي وحفظناها حفظاً ، والضمير للسماء وحفظها اما من الآفات أو من الشياطين المسترقة للسمع وتقدم الكلام في ذلك وقيل الضمير للمصابيح وهو خلاف الظاهر ، وجوز كونه مفعولاً لأجله على المعنى أي معطوفاً على

مفعول له يتضمنه الكلام السابق أي زينة وحفظاً ، ولا يخفى أنه تلكف بعيد لا ينبغي القول به مع ظهور الأول وسهولته كما أشار في البحر .

(154/680)

وجعل قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى جميع الذي ذكر بتفاصيله أي ذلك المذكور ﴿ تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ أي البالغ في القدرة والبالغ في العلم ، ثم قال صاحب الإرشاد بعد ما سمعت مما حكى عنه : فعلى هذا لا دلالة في الآية الكريمة على الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء وإنما الترتيب بين التقدير أي تقدير إيجاد الأرض وما فيها وإيجاد السماء وأما على تقدير كون الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظارة فهي تدل على تقدم خلق الأرض وما فيها وعليه اطباق أكثر أهل التفسير ، ولا يخفى عليك ان حمل تلك الأفعال على ما حلمها عليه خلاف الظاهر كما هو مقربة ، وعدم التعرض لخلق الأرض وما فيها بالفعل كما تعرض لخلق السموات كذلك لا يلائم دعوى الاعتناء التي أشار إليها في بيان وجه تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وما فيها على أن خلق ما فيها بالفعل غير ظاهر من قوله تعالى :

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] لا سيما

وقد ذكرت الأرض قبل مستقلة وذكر ما فيها مستقلاً فلا يتبادر من الأرض هنا إلا تلك الأرض المستقلة لا هي مع ما فيها ، وأمر تقدم خلق الأرض وتأخره سيأتي إن شاء الله تعالى الكلام فيه .

وقيل : إن اتيان السماء حدوثها واتيان الأرض أن تصير مدحوة وفيه جمع بين معنيين مجازيين حيث شبه البروز من العدم وبسط الأرض وتمهيدها بالاتيان من مكان آخر وفي صحة الجمع بينهما كلام على أن في كون الدحو مؤخراً عن جعل الرواسي كلاماً أيضاً ستعرفه إن شاء الله تعالى ، وقيل : المراد لتأت كل منكما الأخرى في حدوث ما أريد توليده منكما وأيد بقراءة ابن عباس .

وابن جبير .

(155/680)

ومجاهد ﴿ أَتَيَا وَلَقَدْ ءاتَيْنَا ﴾ على أن ذلك من المواتات بمعنى الموافقة ، قال الجوهري : تقول آتيته على ذلك الأمر مواتاة إذا وافقته وطاوعته لأن المتوافقين يأتي كل منهما صاحبه وجعل ذلك من المجاز المرسل وعلاقته اللزوم ، وقال ابن جنى : هي المسارعة وهو حسن أيضاً ولم يجعله أكثر الأجلة من الايتاء لأنه غير لائح وجعله ابن عطية منه وقدر المفعول أي

أعطيا من أنفسكما من الطاعة ما أردته منكما وما تقدم أحسن وما أسلفناه في أول الأوجه من الكلام يأتي نحوه هنا كما لا يخفى .

واختلف الناس في أمر التقدم والتأخر في خلق كل من السموات وما فيها والأرض وما فيها وذلك للآيات والأحاديث التي ظاهرها التعارض فذهب بعض إلى تقدم خلق الأرض لظاهر هذه الآية حيث ذكر فيها أولاً خلق الأرض وجعل الرواسي فيها وتقدير الأقوات ثم قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السماء ﴾ [فصلت : 11] الخ وأبى أن يكون الأمر بالاتيان للأرض أمر تكوين ، ولظاهر قوله تعالى في آية البقرة : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السماء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ ﴾ [البقرة : 29] وأول آية النازعات أعني قوله تعالى : ﴿ أَأَنتم أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السماء بناها رَفَعَ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضحاها والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا ومرعاها والجبال أرساها متاعا لَّكُمْ ولانعامكم ﴾

(156/680)

[النازعات : 27-33] لما أن ظاهره يدل على تأخر خلق الأرض وما فيها من الماء والمرعى والجبال لأن ذلك إشارة إلى السابق وهو رفع السمك والتسوية ، والأرض منصوب

بمضمر على شريطة التفسير أي ودحا الأرض بعد رفع السماء وتسويتها دحاها الخ بأن الأرض منصوب بمضمر نحو تذكر وتدبر أو اذكر الأرض بعد ذلك لا بمضمر على شريطة التفسير أو به وبعد ذلك إشارة إلى المذكور سابقاً من ذكر خلق السماء لا خلق السماء نفسه ليدل على أنه متأخر في الذكر عن خلق السماء تنبيهاً على أنه قاصر في الأول لكنه تتميم كما تقول جملاً ثم تقول بعد ذلك كيت وكيت وهذا كثير في استعمال العرب والعجم ، وكأن بعد ذلك بهذا المعنى عكسه إذا استعمل لتراخي الرتبة والتعظيم ؛ وقد تستعمل ثم أيضاً بهذا المعنى وكذا الفاء ، وبعضهم يذهب في الجواب إلى ما قاله ابن عباس .

فقد روى الحاكم .

والبيهقي بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

فقال : رأيت أشياء تختلف علي في القرآن قال : هات ما اختلف عليك من ذلك فقال : اسمع الله تعالى يقول : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذى خَلَقَ الأرض حتى بَلَغَ طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 9-11] فبدأ بخلق الأرض في هذه الآية قبل خلق السماء ثم قال سبحانه في الآية الأخرى : ﴿ أَمِ السماء بناها ثُمَّ قَالَ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ [النازعات : 27 30] فبدأ جل شأنه بخلق السماء قبل خلق الأرض .

فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أما خلق الأرض في يومين فإن الأرض خلقت قبل السماء وكانت السماء دخاناً فسواهن سبع سموات في يومين بعد خلق الأرض ، وأما قوله تعالى : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ يقول جعل فيها جبلاً وجعل فيها نهراً وجعل فيها شجراً وجعل فيها بحوراً انتهى ، قال الخفاجي : يعني أن قوله تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا ﴾ بدل أو عطف بيان لدحاها بمعنى بسطها مبين للمراد منه فيكون تأخرها في هذه الآية ليس بمعنى تأخر ذاتها بل بمعنى تأخر خلق ما فيها وتكميله وترتيبه بل خلق التمتع والانتفاع به فإن البعدية كما تكون باعتبار نفس الشيء تكون باعتبار جزئه الأخير وقيده المذكور كما لو قلت : بعثت إليك رسولاً ثم كنت بعثت فلاناً لينظر ما يبلغه فبعت الثاني وإن تقدم لكن ما بعث لأجله متأخر عنه فجعل نفسه متأخراً .

فإن قلت : كيف هذا مع ما رواه ابن جرير .

وغيره وصححوه عن ابن عباس أيضاً أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات والأرض فقال عليه الصلاة والسلام : " خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد والإثنين وخلق الجبال وما فيهن من المنافع يوم الثلاثاء وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب فهذه أربعة فقال تعالى : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذى خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وبارك فِيهَا

وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت : 9 ، 10] وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة "

(158/680)

فإنه يخالف الأول لاقتضائه خلق ما في الأرض من الأشجار والأنهار ونحوها قبل خلق السماء قلت : الظاهر حمله على أنه خلق فيما ذكر مادة ذلك وأصوله إذ لا يتصور العمران والخراب قبل خلق السماء فعطف عليه قرينة لذلك فلا تعارض بين الحديثين كما أنه ليس بين الآيات اختلاف انتهى كلام الخفاجي ، ولا يخفى أن قول ابن عباس السابق نص في أن جعل الجبال في الأرض بعد خلق السماء وهو ظاهر آية النازعات إذ كان بعد ذلك معتبراً في قوله تعالى : ﴿ والجبال أرساها ﴾ [النازعات : 32] وآية حم السجدة ظاهرة في أن جعل الجبال قبل خلق السموات ، ثم إن رواية ابن جرير المذكورة عنه مخالفة لخبر مسلم عن أبي هريرة قال : " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : خلق الله تعالى التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الإثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل " واستدل في "شرح المهذب"

بهذا الخبر على أن السبت أول أيام الأسبوع دون الأحد ونقله عن أصحابه الشافعية وصححه الأسنوي وابن عساكر ، وقال العلامة ابن حجر : هو الذي عليه الأكثرون وهو مذهبنا يعني الشافعية كما في الروضة وأصلها بل قال السهيلي في روضه لم يقل بأن أوله الأحد إلا ابن جرير ، وجرى النووي في موضع على ما يقتضي أن أوله الأحد فقال : في يوم الإثنين سمي به لأنه ثاني الأيام .

وأجيب بأنه جرى في توجيه التسمية المكتفى فيه بأدنى مناسبة على القول الضعيف .

وانتصر القفال من الشافعية لكون أوله الأحد بأن الخبر المذكور تفرد به مسلم وقد تكلم عليه الحفاظ .

على ابن المديني .

والبخاري .

وغيرهما وجعلوه من كلام كعب وأن أبا هريرة إنما سمعه منه ولكن اشتبه على بعض الرواة فجعله مرفوعاً .

(159/680)

وأجيب بأن من حفظ الرفع حجة على من لم يحفظه والثقة لا يرد حديثه بمجرد الظن ولأجل ذلك أعرض مسلم عما قاله أولئك واعتمد الرفع وخرج طريقه في "صحيحه" فوجب قبولها .

وذكر أحمد بن المقري المالكي أن الإمام أحمد رواه أيضاً في مسنده عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ شبك بيدي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم وقال :

" خلق الله تعالى الأرض يوم السبت " الحديث ، وفي "الدر المنثور" عدة أخبار عن ابن عباس ناطقة بأن مبدأ خلق الأرض كان يوم الأحد ، وفيه أيضاً أخرج ابن جرير عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال : "جاء اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد أخبرنا ما خلق الله تعالى من الخلق في هذه الأيام الستة فقال : خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد والإثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء وخلق السموات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات يعني من يوم الجمعة وخلق في أول ساعة الآجال وفي الثانية الآفة وفي الثالثة آدم قالوا : صدقت أن تمت فعرف النبي صلى الله عليه وسلم ما يريدون فغضب فأنزل الله تعالى ﴿ وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون ﴾ "واليهود قاطبة على أن أول الأسبوع يوم الأحد احتجاجاً بما يسمونه التوراة وظاهره الاشتقاق يقتضي ذلك .

ومن ذهب إلى أن الأول السبت قال : لا حجة في ذلك لأن التسمية لم تثبت بأمر من الله تعالى ولا من رسوله صلى الله عليه وسلم فلعل اليهود وضعوا أسماء الأسبوع على ما يعتقدون فأخذتها العرب عنهم ولم يرد في القرآن إلا الجمعة والسبت وليسا من أسماء العدد على أن هذه التسمية لو ثبتت عن العرب لم يكن فيها دليل لأن العرب تسمى خامس الورد ربعاً وتاسعه عشراً وهذا هو الذي أخذ منه ابن عباس قوله الذي كاد ينفرد به أن يوم عاشوراء هو يوم تاسع المحرم وتاسوعاء هو يوم ثامنه ، ولا يخفى أن الجواب الأول خارج عن الانصاف فلأيام الأسبوع عند العرب أسماء أخر فيها ما يدل على ذلك أيضاً ، وهي أول وأهون وجبار ودبار ومؤنس وعروبة وشيار ، ولا يسوغ لمنصف أن يظن أن العرب تبعوا في ذلك اليهود وجاء الإسلام وأقرهم على ذلك ، وليت شعري إذا كانت تلك الأسماء وقعت متابعة لليهود فما الأسماء الصحيحة التي وضعها واضع لغة العرب غير تابع فيها لليهود ، والجواب الثاني خلاف الظاهر جداً .

ونقل الواحدي في البسيط عن مقاتل أن خلق السماء مقدم على إيجاد الأرض فضلاً عن دحوها واختاره الإمام ونسبه بعضهم إلى المحققين من المفسرين وأولوا الآية بأن الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد بل هو عبارة عن التقدير ، والمراد به في حقه تعالى حكمه تعالى أن سيوجد وقضاؤه عز وجل بذلك مثله في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ

ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : 59] ولا بد على هذا من تأويل ﴿ جَعَلَ ﴾ و﴿ بارك ﴾ [فصلت : 10] بنحو ما سمعت عن الإرشاد ، وجوز أن يبقى خلق وكذا ما بعده على ما يتبادر منه ويكون الكلام على إرادة الإرادة كما في قوله تعالى :

(161/680)

﴿ إذا اقتمتم الصلاة ﴾ [المائدة : 6] أي بالذي أراد خلق الأرض في يومين وأراد أن يجعل فيها رواسي وقالوا : إن ثم للتفاوت في الرتبة المنزلة منزلة التراخي الزماني كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البلد : 17] فإن اسم كان ضمير يرجع إلى فاعل ﴿ فَلاَ اقتحم ﴾ [البلد : 11] وهو الإنسان الكافر وقوله سبحانه : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 13-16] تفسير للعقبة ، والترتيب الظاهري يوجب تقديم الايمان عليه لكن ثم هنا للتراخي في الرتبة مجازاً ، وفي "الكشف" أن ما نقله الواحدي لا إشكال فيه ويتعين ﴿ ثُمَّ ﴾ في هذه السورة والسجدة على تراخي الرتبة وهو أوفق لمشهور قواعد الحكماء لكن لا يوافق ما جاء من أن الابتداء من يوم الأحد كان ، وخلق السموات وما فيها من يوم الخميس والجمعة وفي آخر

يوم الجمعة ثم خلق آدم عليه السلام ، وفي "البحر" الذي نقوله : إن الكفار وبخوا وقرعوا بكفرهم بمن صدرت عنه هذه الأشياء جميعها من غير ترتيب زماني وأن ﴿ ثُمَّ ﴾ لترتيب الأخبار لا لترتيب الزمان والمهلة كأنه قال سبحانه بالذي أخبركم أنه خلق الأرض وجعل فيها رواسي وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ثم أخبركم أنه استوى إلى السماء فلا تعرض في الآية لترتيب الوقوع الترتيب الزماني ، ولما كان خلق السماء أبدع في القدرة من خلق الأرض استؤنف الاخبار فيه بثم فهي لترتيب الاخبار كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البلد : 17] بعد قوله سبحانه : ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة ﴾ [البلد : 11] وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ءاتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾ [الأنعام : 154] بعد قوله عز وجل : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ ﴾ [الأنعام : 151] ويكون قوله جل شأن ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ﴾ [فصلت : 11] بعد أخبار تعالى بما أخبر به

(162/680)

تصويراً لخلقهما على وفق إرادته تعالى كقولك أرأيت الذي أثنيت عليه فقلت له إنك عالم صالح فهذا تصوير لما أثنيت به وتفسير له فكذلك أخبر سبحانه بأنه خلق كيت وكيت فأوجد ذلك إيجاداً لم يتخلف عن أرادته انتهى ، وظاهر ما ذكره في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا

﴿ الخ أن القول بعد الإيجاد ، وقال بعض الأجلة يجوز أن يكون ذلك للتمثيل أو التخييل للدلالة على أن السماء والأرض محلاً قدرته تعالى يتصرف فيهما كيف يشاء إيجاداً وإكمالاً ذاتاً وصفة ويكون تمهيداً لقوله سبحانه : ﴿ فَقَضَاهُنَّ ﴾ أي لما كان الخلق بهذه السهولة قضى السموات واحكم خلقها في يومين فيصح هذا القول قبل كونهما وبعده ، وفي أثنائه إذ ليس الغرض دلالة على وقوع .

وذكر في نكتة تقديم خلق الأرض وما فيها في الذكر ههنا وفي سورة البقرة على خلق السموات والعكس في سورة النازعات أنها يجوز أن يكون أن المقام في الأوليين مقام الامتنان وتعداد النعم فمقتضاه تقديم ما هو أقرب النعم إلى المخاطبين والمقام في الثالثة مقام بيان كمال القدرة فمقتضاه تقديم ما هو أدل على كمالها ، وروى عن الحسن أنه تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض ، وذلك قوله تعالى :

(163/680)

﴿ كَانَتَا رتقاً فتفقناهما ﴾ وجعله بعضهم دليلاً على تأخر دحو الأرض عن خلق السماء ، وفي "الإرشاد" أنه ليس نصاً في ذلك فإن بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان

وخلق السماء بالواو فلا دلالة في ذلك على الترتيب قطعاً ، وفي "الكشف" أنه يدل على أن كون السماء دخاناً سابق على دحو الأرض وتسويتها بل ظاهر قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السماء وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : 11] يدل على ذلك ، وإيجاد الجوهرة النورية والنظر إليها بعين الجلال المبطن بالرحمة والجمال وذويها وامتياز لطيفها عن كثيفها وصعود المادة الدخانية اللطيفة وبقاء الكثيف هذا كله سابق على الأيام الستة وثبت في الخبر الصحيح ولا ينافي الآيات واختار بعضهم أن خلق المادة البعيدة للسماء والأرض كان في زمان واحد وهي الجوهرة النورية أو غيرها وكذا فصل مادة كل عن الأخرى وتمييزها عنها أعني الفتق وإخراج الأجزاء اللطيفة وهي المادة القريبة للسموات وإبقاء الكثيفة وهي المادة القريبة للأرض فإن فصل اللطيف عن الكثيف يستلزم فصل الكثيف عنه وبالعكس ، وأما خلق كل على الهيئة التي يشاهد بها فليس في زمان واحد بل خلق السموات سابق في الزمان على خلق الأرض ، ولا ينبغي لأحد أن يرتاب في تأخر خلق الأرض بجميع ما فيها عن خلق السموات كذلك ، ومتى ساغ حمل ﴿ ثُمَّ ﴾ للترتيب في الاخبار هان أمر ما يظن من التعارض في الآيات والاخبار هذا والله تعالى أعلم .

(164/680)

ولبعض المتأخرين في الآية كلام غريب دفع به ما يظن من المنافاة بين الآيات الدالة على أن خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام كقوله تعالى : ﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ [السجدة : 4] وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : 38] وهذه الآية التي يخيل منها أن خلق ذلك في ثمانية أيام وهو أن للشيء حكماً من حيث ذاته ونفسه حكماً من حيث صفاته وإضافاته ونسبه وروابطه واقتضاءاته ومتمماته وسائر ما يضاف إليه ولكل من ذلك أجل معدود وحد محدود يظهره سبحانه في ذلك بالأزمان الخاصة به والأوقات المؤجلة له وهي متفاوتة مختلفة ، والله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما في حد ذاتها في ستة أيام ، وذلك عند نشئها في ذاتها من خلقه سبحانه إياها من البحر الحاصل من ذوبان الياقوتة الحمراء لما نظر إليها جل شأنه بنظر الهيبة فتموج إلى أن حصل منه الزبد وثار الدخان فخلق السماء من الدخان والأرض من الزبد والنجوم من الشعلات المستجنة في زبد البحر والنار والهواء والماء من جسم أكثف من الدخان وألطف من الزبد ، والسماء حقيقة وحدانية في ذاتها ولها صلاحية التعدد والكثرة على حسب بدو شأنها في علم الغيب فتعينها بالسبعة على الجهة الخاصة ووقوع كل سماء في محلها الخاص مترتباً عليها حكم خاص يحتاج إلى جعل غير جعلها في نفسها وهو المسمى

بالقدر وتعيين الحدود التي هي الهندسة الإيجادية ، وهذا لجعل متفرع على الخلق ونحوه غير نحوه قطعاً كما يشعر به قوله تعالى :

(165/680)

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : 2] وقد يسمى بالتسوية وبالقضاء أيضاً كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السماء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ [البقرة : 29] وقوله تعالى هنا : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السماء وَهِيَ دُخَانٌ إلى قَوْلُهُ سبحانه فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ [فصلت : 11 ، 12] وأما تقدير أقوات الأرض وإعطاء البركة وتوليد المتولدات فلها أيام معدودات وحدود محدودات لا تدخل في أيام خلق السموات والأرض لأنها لإيجاد أنفسها ، فالأيام الأربعة المذكورة في الآية إنما هي لجعل الرواسي وتقدير الأقوات وإحداث البركة وليست من لك الستة وكذلك اليومان اللذان لتسوية السماء وقضائها سبع سموات خارجان عنها فليس في الآية التي الكلام فيها سوى أن خلق الأرض كان في يومين وأما خلق السموات وما بينها وبين الأرض فلم يذكر في الآية مدة له وإنما ذكر مدة قضاء السموات وهو غير خلقها ومدة جعل الرواسي وتقدير الأقوات وإحداث البركة وذلك غير خلق الأرض وما بينها وبين السماء فلا تنافي بينها وبين الآيات الدالة على أن خلق السموات

والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ولا يعكر على ذلك ما روى عن الصادق أن الله سبحانه خلق في يوم الأحد والإثنين الأرضين وخلق أقواتها في يوم الثلاثاء وخلق السموات في يوم الأربعاء ويوم الخميس وخلق أقواتها يوم الجمعة وذلك قول الله سبحانه : ﴿ خَلَقَ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الفرقان : 59] لأنه بعد تسليم صحته المذكور فيه أن الأقوات قد خلقت في يومين لا أنها قدرت وبين الخلق والتقدير بون بعيد ؛ فخلق الأقوات عبارة عن إيجاد ذاتياتها وموادها وعللها وأسبابها فإذا وجدت قدرت وفصلت على الأطوار المعلومة فلا إشكال .

(166/680)

والعجب ممن استشكل هذا المقام كيف لم ينظر في مدلولات الألفاظ الإلهية بحسب القواعد القرآنية واللغوية فاحتاج في حله إلى تكلفات أمور خفية وارتكاب توجيهات غير مرضية ، ثم إن هذا البعض ذكر لليوم ما يزيد على ستين إطلاقاً منها المرتبة ونقل هذا عن شيخه ورأيته في بعض الكتب لغيره ، وجواز إرادته في الآية وكذا جوز إرادة غيره من الإطلاقات ، وذكر سر كون خلق السموات والأرض في ستة أيام وأطال الكلام في هذا المقام ، وكان ذلك ضمن رسالة ألفها حين طلبت منه جواباً عما يظن من المنافاة غير ما ذكروه

من الجواب عن ذلك ، ومن وقف على تلك الرسالة منها قعقعة بلا سلاح وأحس بطيران في جو ما يزعمه تحقيقاً بلا جناح فكم فيها من قول لا سند له ومدعى لم يورد دليله ، فعليك بالتأمل التام فيما ذكره المفسرون وما ذكره هذا الرجل من الكلام ولا تك للانصاف مجانباً وللتعصب مصاحباً والله تعالى الموفق .

وما تقدم من حمل قوله تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : 11] على التمثيل هو ما ذهب إليه جماعة من المفسرين ، وقالت طائفة : إنهما نطقتا نطقاً حقيقياً وجعل الله تعالى لهما حياة وإدراكاً ، قال ابن عطية : وهذا أحسن لأنه لا شيء يدفعه وإن العبرة فيه أتم والقدرة فيه أظهر ، ولا يخفى أن المعنى الأول أبلغ ، ومن ذهب إلى أن للجمادات إدراكاً لائقاً بها قال بظاهر الآية ولعلها إحدى أدلته على ذلك .

وذكر بعضهم في قوله سبحانه : ﴿ وأوحى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا ﴾ أنه سبحانه خص كل سماء بما ميزها عن السماء الأخرى من الذاتيات وجعل ذلك وجهاً في جمع السموات وإفراد الأرض .

وقرأ الأعمش ﴿ أَوْكَرْهاً ﴾ بضم الكاف ، قال أبو حيان : والأصح أنها لغة في الإكراه على الشيء ، والأكثر على أن الكره بالضم معناه المشقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾

بعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب المشركين بأنه بشَر يُوحَى إليه فما يملك إلجاءَهم إلى الإيمان أمره عقب ذلك بمعاودة إرشادهم إلى الحق على طريقة الاستفهام عن كفرهم بالله ، مدمِجاً في ذلك تذكيرهم بالأدلة الدالة على أن الله واحد ، بطريقة التوبيخ على إشراكهم به في حين وضوح الدلائل على انفراده بالخلق واتصافه بتمام القدرة والعلم .

فجملة ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ﴾ إلى آخرها استئناف ابتدائي ثان هو جواب ثان عن مضمون قولهم : ﴿ إننا عاملون ﴾ [فصلت : 5] .

وهمزة الاستفهام المفتتح بها الكلام مستعملة في التوبيخ فقوله : ﴿ أَئِنَّكُم لَتَكْفُرُونَ ﴾ كقوله في سورة البقرة (28) ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ .

وفي الافتتاح بالاستفهام وحرفي التوكيد تشويق لتلقي ما بعد ذلك لدلالة ذلك على أن أمراً مُهمّاً سيُلقى إليهم ، وتوكيد الخبر بـ (إنَّ) ولام الابتداء بعد الاستفهام التوبيخي أو التعجيبي استعمال وارد كثيراً في الكلام الفصيح ، ليكون الإنكار لأمر محقق ، وهو هنا مبني على أنهم يحسبون أنهم مهتدون وعلى تجاهلهم الملازمة بين الانفراد بالخلق وبين استحقاق

الإِفراد بالعبادة فأُعلموا بتوكيد أنهم يكفرون ، وبتوبيخهم على ذلك ، فالتوبيخ المفاد من الاستفهام مسلط على تحقيق كفرهم بالله ، وذلك من البلاغة بالمكانة العليا ، واحتمال أن يكون التوكيد مسلطاً على التوبيخ والإِنكار قلب لنظام الكلام .

ومجيء فعل "تكفرون" بصيغة المضارع لإِفادة أن تجدد كفرهم يوماً فيوماً مع سطوع الأدلة التي تقتضي الإِقلاع عنه أمر أحق بالتوبيخ .

(168/680)

ومعنى الكفر به الكفر بانفراده بالإِلهية ، فلما أشركوا معه آلهة كانوا واقعين في إبطال إلهيته لأن التعدد ينافي حقيقة الإِلهية فكأنهم أنكروا وجوده لأنهم لمّا أنكروا صفات ذاته فقد تصوروه على غير كنهه .

وأدمج في هذا الاستدلال بيان ابتداء خلق هذه العوالم ، فمحل الاستدلال هو صلة الموصول ، وأما ما تعلق بها فهو إدماج .

و﴿ الأرض ﴾ : هي الكرة الأرضية بما فيها من يابس وبحار ، أي خلق جِرمها .

واليومان : تثنية يوم ، وهو الحصة التي بين طلوع الشمس من المشرق وطلوعها ثانية .

والمراد : في مدة تساوي يَومين مما عرفَه الناس بعد خَلق الأرض لأن النور والظلمة اللذان

يُقدَّر اليوم بظهورهما على الأرض لم يظهرا إلا بعد خلق الأرض ، وقد تقدم ذلك في سورة الأعراف .

وإنما ابتُدِىء بذكر خلق الأرض لأن آثاره أظهرُ للعيان وهي في متناول الإِنسان ، فلا جرم أن كانت الحجة عليهم بخلق الأرض أسبقَ نهوضاً .

ولأن النعمة بما تحتوي عليه الأرض أقوى وأعمّ فيظهر قبح الكفران بخالقها أوضح وأشنع .

وعطْفُ ﴿ وَتَجْعَلُون لَهُ أندَاداً ﴾ على ﴿ لتكفرون ﴾ تفسيرٌ لكفرهم بالله .

وكان مقتضى الظاهر أن في التفسير لا يعطف فعدل إلى عطفه ليكون مضمونه مستقلاً بذاته .

والأنداد : جمع ندّ بكسر النون وهو المثل .

والمراد : أنداد في الإِلهية .

والتعبير عن الجلالة بالموصول دون الاسم العلم لما تؤذن به الصلة من تعليل التوبيخ ، لأن الذي خلق الأرض هو المستحق للعبادة .

والإشارة بـ ﴿ ذلك رَبُّ العالمين ﴾ إلى "الذي خلق الأرض في يومين" وفي الإشارة نداء على بلادة رأيهم إذ لم يتفطنوا إلى أن الذي خلق الأرض هو رب العالمين لأنه خالق الأرض وما فيها ، ولا إلى أن ربوبيته تقتضي انتفاء الند والشريك ، وإذا كان هو رب العالمين فهو

رب ما دون العالمين من الأجناس التي هي أحط من العقلاء كالحجارة والأخشاب التي منها صُنعِ أصنامهم .

(169/680)

وجملة ﴿ ذلك رَبُّ العالمين ﴾ معترضة بين المعطوفات على الصلة .

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10)

عطف على فعل الصلة لا على معمول الفعل ، فجملة ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رواسي ﴾ الخ صلة ثانية في المعنى ، ولذلك جيء بفعل آخر غير فعل (خلق) لأن هذا الجعل تكوين آخر حصل بعد خلق الأرض وهو خلق أجزاء تتصل بها إما من جنسها كالجبال وإما من غير جنسها كالأقوات ولذلك أعقب بقوله : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ بعد قوله : ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] .

والرواسي : الثوابت ، وهو صفة للجبال لأن الجبال حجارة لا تنتقل بخلاف الرمال والكثبان ، وهي كثيرة في بلاد العرب .

وحذف الموصوف لدلالة الصفة عليه كقوله تعالى : ﴿ ومن آياته الجواري في البحر ﴾ [

الشورى : 32] أي السفن الجواري .

وقد تقدم تفسيره عند قوله تعالى : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ﴾ في سورة الأنبياء (31) .

ووصفُ الرواسي بـ ﴿ مِن فَوْقِهَا ﴾ لاستحضار الصورة الرائعة لمناظر الجبال ، فمنها الجميل المنظر المجلّل بالخضرة أو المكسوّ بالثلوج ، ومنها الرهيب المرأى مثل جبال النار (البراكين) ، والجبال المعدنية السود .

و ﴿ بارك فيها ﴾ جعل فيها البَرَكة .

والبَرَكة : الخير النافع ، وفي الأرض خيرات كثيرة فيها رزق الإنسان وماشيتِه ، وفيها التراب والحجارة والمعادن ، وكلها بركات .

و ﴿ قدَّر ﴾ جعل قَدْراً ، أي مقداراً ، قال تعالى : ﴿ قد جعل اللَّه لكل شيء قدراً ﴾ [الطلاق : 3] .

(170/680)

والمقدار : النصاب المحدود بالنوع أو بالكمية ، فمعنى ﴿ قدر فيها أقواتها ﴾ أنه خلق في الأرض القُوى التي تنشأ منها الأقوات وخلق أصول أجناس الأقوات وأنواعها من الحَبّ

للحبوب ، والكَلأ والكمْأة ، والنّوى للثمار ، والحرارةِ التي يَتأثر بها تولد الحيوان من الدواب والطير ، وما يتولد منه الحيتان ودَوابّ البحار والأنهار .

ومن التقدير : تقدير كل نوع بما يصلح له من الأوقات من حر أو برد أو اعتدال .

وأشار إلى ذلك قوله : ﴿ واللَّه أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ [نوح : 17] ويأتي القول فيه ، وقوله : ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : 81] وقوله : ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴾ [النحل : 80] الآية .

وجمع الأقوات مضافاً إلى ضمير الأرض يفيد العموم ، أي جميع أقواتها وعمومُه باعتبار تعدد المقتاتين ، فللدواب أقوات ، وللطير أقوات ، وللوحوش أقوات ، وللزواحف أقوات ، وللحشرات أقوات ، وجُعل للإنسان جميع تلك الأقوات مما استطاب منها كما أفاده قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ ومضى الكلام عليه في سورة البقرة (29) .

وقوله : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ فذلكة لمجموع مدة خلق الأرض جِرمِها ، وما عليها من رواسي ، وما فيها من القوى ، فدخل في هذه الأربعة الأيام اليومانِ اللذان في قوله : ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] فكأنه قيل : في يَومين آخرين فتلك أربعة أيام ، فقوله في ﴿ أَرْبَعَة أيام ﴾ فذلكة ، وعدل عن ذلك إلى ما في نسج الآية لقصد الإيجاز واعتماداً على ما يأتي بعدُه من قوله : ﴿ فقضاهن سبع سماوات في يومين ﴾ [فصلت : 12] ، فلو كان اليومان

اللذان قضى فيهما خلق السماوات زائدين على ستة أيام انقضت في خلق الأرض وما عليها لصار مجموع الأيام ثمانية ، وذلك ينافي الإِشارة إلى عِدّة أيام الأسبوع ، فإن اليوم السابع يوم فراغ من التكوين .

وحكمة التمديد للخلق أن يقع على صفة كاملة متناسبة .

(171/680)

و ﴿ سواء ﴾ قرأه الجمهور بالنصب على الحال من ﴿ أيام ﴾ أي كاملة لا نقص فيها ولا زيادة .

وقرأه أبو جعفر مرفوعاً على الابتداء بتقدير : هي سواء .

وقرأه يعقوب مجروراً على الوصف ل ﴿ أيام .

وللسائلين ﴾ يتنازعه كل من أفعال ﴿ جعل ﴾ و ﴿ بَارك ﴾ و ﴿ قَدر ﴾ فيكون ﴿ للسائلين ﴾ جمع سائل بمعنى الطالب للمعرفة ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف ، أي بيّنا ذلك للسائلين ويجوز أن يكون ل ﴿ السائلين ﴾ متعلقاً بفعل ﴿ قدر فيها أقواتها ﴾ فيكون المراد بالسائلين الطالبين للقوت .

ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ

(11)

﴿ ثم ﴾ للترتيب الرتبي ، وهي تدل على أن مضمون الجملة المعطوفة أهم مرتبة من مضمون الجملة المعطوف عليها ، فإن خلق السماوات أعظم من خلق الأرض ، وعوالمها أكثر وأعظم ، فجيء بحرف الترتيب الرتبي بعد أن قُضِي حق الاهتمام بذكر خلق الأرض حتى يوفَّى المقتضيان حقَّهما .

وليس هذا بمقتض أن الإرادة تعلقت بخلق السماء بعد تمام خلق الأرض ولا مقتضياً أن خلق السماء وقع بعد خلق الأرض كما سيأتي .

والاستواء : القصد إلى الشيء توًّا لا يعترضه شيء آخر .

وهو تمثيل لتعلق إرادة الله تعالى بإيجاد السماوات ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء ﴾ في سورة البقرة (29) .

وربما كان في قوله : ﴿ فَقَالَ لَهَا وللأرْضِ ائتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ إشارة إلى أنه تعالى توجهت إرادته لخلق السماوات والأرض توجهاً واحداً ثم اختلف زَمن الإرادة التنجيزي بتحقيق ذلك فتعلقت إرادته تنجيزاً بخلق السماء ثم بخلق الأرض ، فعبر عن تعلق الإرادة تنجيزاً لخلق السماء بتوجه الإرادة إلى السماء ، وذلك التوجه عبر عنه بالاستواء .

ويدل لذلك قوله : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ ففعل ﴿ ائتيا ﴾ أمر للتكوين .

والدخان : ما يتصاعد من الوَقود عند التهاب النار فيه .

وقوله : ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ تشبيه بليغ ، أي وهي مثل الدخان ، وقد ورد في الحديث : "أنها كانت عَماء" .

وقيل : أراد بالدخان هنا شيئاً مظلماً ، وهو الموافق لما في "سفر التكوين" من قولها : "وعلى وجه الغمر ظلمة" وهو بعيد عن قول النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن في الوجود من الحوداث إلا العَماءَ ، والعماء : سحابٌ رقيق ، أي رطوبة دقيقة وهو تقريب للعنصر الأصلي الذي خَلق الله منه الموجودات ، وهو الذي يناسب كوْنَ السماء مخلوقة قبل الأرض .

ومعنى : ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ أن أصل السماء هو ذلك الكائن المشبه بالدخان ، أي أن السماء كونت من ذلك الدخان كما تقول : عمَدْتُ إلى هاته النخلة ، وهي نواة ، فاخترت لها أخصب تربة ، فتكون مادة السماء موجودة قبل وجود الأرض .

وقوله : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ﴾ تفريع على فعل ﴿ استوى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ فيكون القول موجهاً إلى السماء والأرض حينئذٍ ، أي قبل خلق السماء لا محالة وقبل خلق

الأرض ، لأنه جعل القولَ لها مقارناً القول للسماء ، وهو قول تكوين .

أي تعلّقِ القدرة بالسماء والأرض ، أي بمادة تكوينهما وهي الدخان لأن السماء تكونت من العماء بجمود شيء منه سمي جلداً فكانت منه السماء وتكوّن مع السماء الماء وتكونت الأرض بيُبْس ظهر في ذلك الماء كما جاء الإِصحاح الأول من "سفر التكوين" من التوراة .

(173/680)

والإِتيان في قوله : ﴿ ائتيا ﴾ أصله : المجيء والإِقبال ولما كان معناه الحقيقي غير مراد لأن السماء والأرض لا يتصور أن يأتيا ، ولا يتصور منهما طواعية أو كراهية إذ ليستا من أهل العقول والإدراكات ، ولا يتصور أن الله يكرههما على ذلك لأنه يقتضي خروجهما عن قدرته بادىء ذي بدء تعينّ الصرف عن المعنى الحقيقي وذلك بأحد وجهين لهما من البلاغة المكانة العليا :

الوجه الأول : أن يكون الإِتيان مستعاراً لقبول التكوين كما استعير للعصيان الإِدبارُ في قوله تعالى:

﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ [النازعات : 22] ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لمسيلمة حين

امتنع من الإِيمان والطاعة في وفد قومه بني حنيفة " لئن أدبرت ليعقرنك اللَّه " وكما يستعار النفور والفرار للعصيان .

فمعنى ﴿ ائتيا ﴾ امتثلا أمر التكوين .

وهذا الامتثال مستعار للقبول وهو من بناء المجاز على المجاز وله مكانة في البلاغة ، والقول على هذا الوجه مستعار لتعلق القدرة بالمقدور كما في قوله : ﴿ أن يقول له كن فيكون ﴾ [يس : 82] .

وقوله : ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ كناية عن عدم البدّ من قبول الأمر وهو تمثيل لتمكن القدرة من إيجادهما على وفق إرادة الله تعالى فكلمة ﴿ طَوْعاً أو كَرْهاً ﴾ جارية مجرى الامثال .

و ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ مصدران وقعا حالين من ضمير ﴿ ائتنا ﴾ أي طائعين أو كارهيْن .

(174/680)

والوجه الثاني : أن تكون جملة ﴿ فَقَالَ لَهَا وِلِلأَرْضِ ائتنا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ مستعملة تمثيلاً لهيئة تعلق قدرة الله تعالى لتكوين السماء والأرض لعظَمة خلْقهما بهيئة صدور الأمر

من آمر مُطاع للعبد المأذون بالحضور لعمل شاق أن يقول له : ائت لهذا العمل طوعاً أو كرهاً ، لتوقع إبائهِ من الإِقدام على ذلك العمل ، وهذا من دون مراعاة مشابهة أجزاء الهيئة المركبة المشبَّهة لأجزاء الهيئة المشبه بها ، فلا قول ولا مقول ، وإنما هو تمثيل ، ويكون ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ على هذا من تمام الهيئة المشبه بها وليس له مقابل في الهيئة المشبهة .

والمقصود على كلا الاعتبارين تصوير عظمة القدرة الإِلهية ونفوذها في المقدورات دَقَّت أو جلَّت .

وأما قوله : ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ فيجوز أن يكون قول السماء والأرض مستعاراً لدلالة سرعة تكونهما لشبههما بسرعة امتثال المأمور المطيع عن طواعية فإنه لا يتردد ولا يتلكَّأ على طريقة المكنية والتخييل من باب قول الراجز الذي لا يعرف تعيينه :

امتَلأَ الحَوْضُ وقال قَطْنِي

وهو كثير ، ويجوز أن يكون تمثيلاً لهيئة تكوّن السماء والأرض عند تعلق قدرة الله تعالى بتكوينهما بهيئة المأمور بعمل تقَبله سريعاً عن طواعية .

وهما اعتباران متقاربان ، إلا أن القول ، والإِتيان ، والطوع ، على الاعتبار الأول تكون مجازات ، وعلى الاعتبار الثاني تكون حقائق وإنما المجاز في التركيب على ما هو معلوم من الفرق بين المجاز المفرد والمجاز المركب في فن البيان .

وإنما جاء قوله : ﴿ طَآئِعِينَ ﴾ بصيغة الجمع لأن لفظ السماء يشتمل على سبع سماوات

كما قال تعالى إثر هذا ﴿ فقضاهن سَبْعَ سموات ﴾ [فصلت : 12] فالامتثالُ صادر عن جَمع ، وأما كونه بصيغة جمع المذكر فلأنَّ السماء والأرضَ ليس لهما تأنيث حقيقي .

(175/680)

وأما كونه بصيغة جمع العقلاء فذلك ترشيح للمكنية المتقدمة مثل قوله تعالى : ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ [يوسف : 4] .

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ

تفريع على قوله : ﴿ فَقَالَ لَهَا وللأرْضِ ائْتِيَا ﴾ [فصلت : 11] .

والقضاء : الإيجاد الإبداعي لأن فيه معنى الإتمام والحكم ، فهو يقتضي الابتكار والإسراع ، كقول أبي ذؤيب الهذلي :

وعليهما مسرودتان قَضاهما

دَاود أو صَنَعُ السوابغِ تُبَّعُ . . .

وضَمير ﴿ فقضاهن ﴾ عائد إلى السماوات على اعتبار تأنيث لفظها ، وهذا تفنن .

وانتصب ﴿ سَبْعَ سموات ﴾ على أنه حال من ضمير "قضاهن" أو عطف بيان له ، وجُوّز أن يكون مفعولاً ثانياً ل "قضاهن" لتضمين "قضاهن" معنى صيرهن ، وهذا كقوله

في سورة البقرة (29) ﴿ فسواهن سبع سماوات ﴾ .

وكان خلق السماوات في يومين قبل أربعة الأيام التي خُلقت فيها الأرض وما فيها .

وقد بيَّنَّا في سورة البقرة أن الأظهر أن خلق السماء كان قبل خلق الأرض وهو المناسب لقواعد علم الهيئة .

وليس في هذه الآية ما يقتضي ذلك .

وإنما كانت مدة خلق السماوات السبع أقصر من مدة خلق الأرض مع أن عوالم السماوات أعظم وأكثر لأن الله خلق السماوات بكيفية أسرع فلعل خلق السماوات كان بانفصال بعضها عن بعض وتفرقع أحجامها بعضها عن خروج بعض آخر منه ، وهو الذي قَرَّبه حكماء اليونان الأقدمون بما سَمَّوه صدور العقول العشرة بعضها عن بعض ، وكانت سرعة انبثاق بعضها عن بعض مَعلولة لأحوال مناسبة لما تركبت به من الجواهر .

وأما خلق الأرض فالأشبه أنه بطريقة التولُّد المبطىء لأنها تكونت من العناصر الطبيعية فكان تولد بعضها عن بعض أيضاً ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ [المدثر : 31] .

(176/680)

وهذه الأيام كانت هي مبدأ الاصطلاح على ترتيب أيام الأسبوع وقد خاض المفسرون في تعيين مبدأ هذه الأيام ، فأما كتب اليهود ففيها أن مبدأ هذه الأيام هو الأحد وأن سادسها هو يوم الجمعة وأن يوم السبت جعله الله خِلواً من الخَلْق ليوافق طقوس دينهم الجاعلة يومَ السبت يوم راحة للناس ودوابّهم اقتداء بإنْهَاءِ خلق العالَمين .

وعلى هذا الاعتبار جرى العرب في تسمية الأيام ابتداء من الأحد الذي هو بمعنى أول أو واحد ، واسمه في العربية القديمة (أَول) وذلك سرى إليهم من تعاليم اليهود أو من تعاليم أسبق كانت هي الأصل الأصيل لاصطلاح الأمتين .

والذي تشهد له الأخبار من السنة أن الله خلق آدم يوم الجمعة وأنه آخر أيام الأسبوع ، وأنه خير أيام الأسبوع وأفضلها ، وأن اليهود والنصارى اختلفوا في تعيين اليوم الأفضل من الأسبوع ، وأن الله هدى إليه المسلمين .

قال النبي فهذا اليوم (أي الجمعة) هو اليوم الذي اختلفوا فيه فَهدانا الله إليه فالناسُ لنا فيه تبع اليهودُ غداً والنصارى بعد غدٍ .

ولا خلاف في أن الله خلق آدم بعد تمام خلق السماء والأرض فتعين أن يكون يومُ خلقه هو اليوم السابع .

وقد رَوى مسلم في صحيحه ﴿ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن الله ابتدأ الخلق يوم السبت " .

وقد ضعّفه البخاري وابن المديني بأنه من كلام كَعب الأحبار حدّث به أبا هريرة وإنما اشتبه على بعض رواةِ سنده فظنه مرفوعاً .

ولهذه تفصيلات ليس وراءها طائل وإنما أَلْمنَا بها هنا لئلا يعروَ التفسير عنها فيقع من يراها في غيرِهِ في حَيْرةٍ وإنما مقصد القرآن العِبرة .

﴿ يَوْمَيْنِ وأوحى فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ .

﴿ وأوحى ﴾ عطف على ﴿ فقضاهن .

(177/680)

والوحي : الكلام الخفي ، ويطلق الوحي على حصول المعرفة في نفس من يراد حصولها عنده دون قولٍ ، ومنه قوله تعالى حكاية عن زكرياء ﴿ فأوحى إليهم ﴾ [مريم : 11] أي أومأ إليهم بما يدل على معنى : سَبحوا بُكرة وعشياً .

وقول أبي دُؤاد :

يَرمُون بالخُطب الطِّوالِ وتارةً

وَحْيَ الملاَحظ خيفةَ الرُّقَباء . . .

ثم يتوسع فيه فيطلق على إلهام الله تعالى المخلوقات لما تتطلبه مما فيه صلاحها كقوله : ﴿

وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ﴾ [النحل : 68] أي جَبَلها على إدراك ذلك وتطلّبه ، ويطلق على تسخير الله تعالى بعض مخلوقاته لقبول أثر قدرته كقوله : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ [الزلزلة : 1] إلى قوله : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ [الزلزلة : 5] .

والوحي في السماء يقع على جميع هذه المعاني من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازاته ، فهو أوحى في السماوات بتقادير نُظُم جاذبيتها ، وتقادير سير كواكبها ، وأوحى فيها بخلق الملائكة فيها ، وأوحى إلى الملائكة بما يتلقونه من الأمر بما يعملون ، قال تعالى : ﴿ وهم بأمره يعملون ﴾ [الأنبياء : 27] وقال : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [الأنبياء : 20] .

و ﴿ أمرها ﴾ بمعنى شأنها ، وهو يصدق بكل ما هو من ملابساتها من سكانها وكواكبها وتماسك جرمها والجاذبية بينها وبين ما يجاورها .

وذلك مقابل قوله في خلق الأرض ﴿ وجعَلَ فِيهَا رواسي مِن فَوْقِهَا وبارك فِيهَا وقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ [فصلت : 10] .

وانتصب أمرها ﴾ على نزع الخافض ، أي بأمرها أو على تضمين أَوحَى معنى قدَّر أو أودَع .

ووقع الالتفات من طريق الغيبة إلى طريق التكلم في قوله : ﴿ وَزَيَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بمصابيح ﴾ تجديداً لنشاط السامعين لطول استعمال طريق الغيبة ابتداءً من قوله : ﴿ بالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] مع إظهار العناية بتخصيص هذا الصنع الذي ينفع الناس ديناً ودُنيا وهو خلق النجوم الدقيقة والشهب بتخصيصه بالذكر من بين عموم ﴿ وأوحى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ ، فما السماء الدنيا إلا من جملة السماوات ، وما النجوم والشُّهُب إلا من جملة أمرها .

والمصابيح : جمع مصباح ، وهو ما يوقد بالنار في الزيت للإضاءة وهو مشتق من الصباح لأنهم يحاولون أن يجعلوه خلفاً عن الصباح .

والمراد بالمصابيح : النجوم ، استعير لها المصابيح لما يبدو من نورها .

وانتصب ﴿ حفظاً ﴾ على أنه مفعول لأجله لفعل محذوف دل عليه فعل ﴿ زَيَّنَّا ﴾ .

والتقدير : وجعلناها حفظاً .

والمراد : حفظاً للسماء من الشياطين المسترقة للسمع .

وتقدم الكلام على نظيره في سورة الصّافات .

﴿ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز ﴾

الإشارة إلى المذكور من قوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رواسي مِن فَوْقِهَا ﴾ [فصلت : 10] إلى

قوله : وَزَيَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بمصابيح وَحِفْظاً ﴾ .

والتقدير : وضْع الشيء على مقدار معيَّن ، وتقدم نظيره في سورة يَس .

وتقدم وجهُ إيثار وصفي ﴿ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ بالذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(179/680)

من فوائد الشيخ محمود غريب فى الآية الكريمة

" وقدر فيها أقواتها "

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وسلام على النبيّ

المصطفى

أما بعد . . . . . .

إذا كان الكائن الحي لا يمكنه أن يعيش بدون: ـــــــــ

الهواء والماء والغذاء

فإن القدر الأعلى قد وزّع هذه الضروريات على الأرض توزيعا عجيبا

. . . . . .

فالهواء لا يستطيع الكائن الحي أن يعيش بدونه . . . . . .لذلك نراه موفورا في كل مكان

والماء رصيد البشرية من الماء محفوظ في البحار والمحيطات .

والماء العذب هو المقدار المتداول بين الطبيعة والكائنات الحية

فقد شق الله تعالى الأنهار لتوصل الماء العذب إلى الأحياء في كل مكان

﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ النمل 61

فإذا وقفت عقبات أمام الأنهار

فإن صاحب الوجود ينقذ عباده في الأماكن العالية التي لا تصلها الأنهار

عن طريق النقل الجوي وهو أسرع أنواع النقل

قال تعالى . . . ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ فاطر 9

ألست معي أن مجّري السّحاب هو منبت النبات هو خالق

الإنسان. . . . . .

والغذاء وصراع الإنسان بحثا عن الغذاء صراع طويل ولكن العجيب

أن النيتروجين الموجود في الهواء بنسبة كبيرة وهو من أهم

العناصر لتكوين النبات وصناعة السّماد الكيماوية .

وهو انتصار كبير على مشكلة الغذاء

ولو تحولت الأبحاث من غزو الفضاء إلى غزو البحار لأكل الناس

من فوقهم ومن تحت أرجلهم

ذلك لان الذي خلق الأرض في يومين قدر فيها أقواتها في أربعة أيام

يا سبحان الله . . . . . عالم عجيب .

الذّرة الصغيرة تحكي صورة المجرة الكبيرة

(180/680)

والكواكب السابحة أكثر من عدد الحصى .

والمادة التي خلقت منها الأرض السّوداء

خلقت منها النجوم المضيئة والإنسان الضعيف على الأرض

يخدمه كلّ شيء في الوجود . . . . .

الشّمس تدفئه . . . . . والقمر

يخدمه . . . . . والغلاف

الهوائي للأرض

يوفر له الهواء . . . . . .

ويحمل إليه الماء . . . . . .

ويشترك في تكوين الغذاء . . . . . .

ثمّ له دور آخر فهو يحمي الإنسان من الشّهب التي تغزو الأرض

من الكواكب الأخرى .

ولولا مقاومة الغلاف الهوائي لأحرقت الأرض ومن

فيها

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

﴾ لقمان 11 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحث للشيخ / محمود غريب ﴾

(181/680)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى طوع)

[الطَّوْع : الانقياد ، وضِدّ الكَره .

قال تعالى : ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾] والطاعة مثله .

لكن أَكثر ما يقال فى الائتمار فيما أُمر .

وقوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ ، أَى أَطيعوا ، أَى لِيَكُنْ منكم طاعة معروفة بلا إِثم .

وهولى طائع ، وطَيِّعٌ ، وطاعٍ ، وطاعٌ ، والجمع : طُوَّعٌ .

وهو يَطُوع لى وطاوعته على كذا ، وأَطاع الله طاعة .

وهو مُطيع ، ومِطْواع ، ومِطواعة ، قال :

*إِذا سُدْتَه سُدْت مِطواعةً * ومهما وكَلْتَ إِليه كفاه*

وهو من ناسٍ مَطاويع .

وهو متطوِّع بكذا : مبترِّع متنفّل .

وهو من المُطَّوِّعة ، أَى من الذين يتطوَّعون بالجهاد .

وقال تعالى فى صفة النبىّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ إِلى قوله : ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ .

والمتطوِّع [من] يتكلّف الطاعة .

, وكلّ متنفّل خير تبرّعا متطوّع .

قال تعالى : ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ .

وقرأَ الكوفيّون غير عاصم : (فَمَنْ يَطَّوَّعْ) .

أَي يَتَطوَّع .

وقوله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ ﴾ أَي تابَعته ، وقيل : سَهّلت له نفسُه وطاوعته .

وقال مجاهد : أَي شجّعته وأَعانته ، وأَجابته إِليه .

وقال الأَخفش : هو مثل طوّقت له ، ومعناه : رخّصت وسهّلت .

والاستطاعة : والإِطاقة ، وربما قالوا : استطاع يَسْطِيع ، يحذفون التاءَ استثقالاً لها مع الطاءِ ، ويكرهون إِدغام التاءِ فيها فتُحرّكَ السّين وهى لا تحرّك أَبدا .

وقرأَ حمزة غير خلاَّد ﴿ فَمَا اسْطَاعُواْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ بالإِدغام ، فجمع بين السّاكنين .

وذكر الأَخفش أَن بعض العرب يقول : اسْتَاع يَسْتِيع فيحذف الطاء استثقالا وهون يريد استطاع يستطيع ، قال : وبعض يقولون : أَسْطاع يُسْطيع بقطع الهمزة وهو يريد أَطاع يُطيع ، ويجعل السّين عِوضاً عن ذهاب حركة العين ، أَى عين الفعل .

ويقال : تطاوَعَ لهذا الأَمر : [تكلّف استطاعته حتى] يستطيعه .

وهو [ضد] معنى قول عمرو بن معد يكرب رضى الله عنه :

*إِذا لم تستطع أَمرًا فَدَعْهُ * وجاوِزْه إِلى ما تستطيع*

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ ، أَى هل يقدر .

وقرأَ الكسائىّ : (هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ) بالتَّاءِ ونصب الباءِ ، أَى هل تستدعى إِجابته فى أَن يُنزل علينا مائدة من السّماءِ ، أَو هل تستطيع سؤال ربّك ، وهو استفعال من قولك : طاع لى يطوع .

وأَصل الاستطاعة الاستطواع .

فلمَّا أُسقطت الواو جُعلت الهاءُ بدلاً منها .

والمُطَّوِّعَة : الذين يتطوَّعون بالجهاد ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ ، أَى المتطوّعين فأَدغم .

والاستطاعة عند المحققين ، اسم للمعانى التى بها يتمكّن الإِنسان ممّا يريده من إِحداث الفعل .

وهى أَربعة أَشياء : بِنْية مخصوصة للفاعل ، وتصوّر للفعل ، ومادّة قابلة للتأثير / وآلة : إِن كان الفعل آليًا ؛ كالكتابة ، فإِنَّ الكاتب يحتاج إِلى هذه الأَربعة فى إِيجاده للكتابة ، ولذلك يقال : فلان غير مستطيع للكتابة إِذا فَقَد واحدا من هذه الأَربعة فصاعدًا .

ويضادّه العجز ، وهو أَلاّ يجد أَحَدَ هذه الأَربعة فصاعدًا .

ومتى وجدها فمستطيع مطلقًا ، ومتى فقدها فعاجز مطلقًا .

ومتى وجد بعضه دون بعض فمستطيع من وجه عاجز من وجه آخر ، ولأَن يوصف بالعجز أَولى .

والاستطاعة أَخصّ من القدرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ فإِنه يحتاج إِلى هذه الأَربعة .

وقوله صلَّى الله عليه وسلم : "الاستطاعة الزَّاد والراحلة" فإِنه بيان لما يُحتاج إِليه من الآلة ، وخصّه بالذِّكر دون الأُخر إِذ كان معلومًا من حيث العقل ومقتضى الشرع أَن التكليف من دون تلك الأُخر لا يصحّ .

قوله : ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ ، الإِشارة بالاستطاعة ههنا إِلى عدم الآلة من المال والظَّهْر .

(183/680)

وقد يقال : فلان لا يستطيع كذا لما يصعب عليه فعله لعدم الرّياضة ، وذلك يرجع إلى افتقاد الآلة وعدم التصّور ، وقد يصحّ معه التَّكليف ولا يصير به الإنسان معذورًا .

وعلى هذا الوجه قال : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ ، وقد حمل على هذه قوله : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَآءِ ﴾ .

وقوله : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ ﴾ قيل : إنَّهم قالوا ذاك قبل أَن قويت معرفتهم بالله .

وقيل : إنَّهم لم يقصدوا قَصْد القدرة ، وإنما قصدوا أَنه : هل تقتضى الحكمة أَن يَفعل ذلك .

وقيل : يستطيع ويُطِيع بمعنى واحد ، ومعناه : هل يجيب ، كقوله : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أَى يُجاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 522.519 ﴾

(184/680)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ .

لا يخفى ما يسبق إلى الذهن من منافاة هذه الحال وصاحبها لأنها جمع مذكور عاقل وصاحبها ضمير تثنية لغير عاقل ولو طابقت صاحبها في التثنية حسب ما يسبق إلى الذهن لقال: أتينا طائعتين.

والجواب عن هذا من وجهين: أحدهما – وهو الأظهر عندي – أن جمعه للسموات والأرض لأن السموات سبع والأرضين كذلك بدليل قوله ﴿ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ فالتثنية لفظية تحتها أربعة عشر فردا ، وأما إتيان الجمع على صيغة جمع العقلاء فلأن العادة في اللغة العربية أنه إذا وصف غير العاقل بصفة تختص بالعاقل أجرى عليه حكمه ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ لما كان السجود في الظاهر من خواص العقلاء أجرى حكمهم على الشمس والقمر والكواكب لوصفها به ، ونظيره ، قوله تعالى: ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ .

فأجرى على الأصنام حكم العقلاء لتنزيل الكفار لها منزلتهم ، ومن هذا المعنى قول قيس بن الملوح:

أسرب القطا هل من يعير جناحه

... البيت .

فإنه لما طلب الإعارة من القطا وهي من خواص العقلاء أجرى على القطا اللفظ المختص

بالعقلاء لذلك ، ووجه تذكير الجمع أن السموات والأرض تأنيثها غير حقيقي .

الوجه الثاني: أن المعنى قالتا أتينا بمن فينا طائعين فيكون فيه تغليب العاقل على غيره والأول أظهر عندي والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 257.256 ﴾

(185/680)

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (14) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (16) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا القدر من العلم موجباً للانقياد لكل خير من الوحدانية وغيرها ، والإقبال على الحق في كل أمر ، فكان المتمادي على إعراضه قبل الوعظ به كأنه جدد إعراضاً غير إعراضه الأول ، قال مفصلاً بعض قوله ﴿ فأعرض أكثرهم ﴾ : ﴿ فإن أعرضوا ﴾ أي استمروا على إعراضهم ، أو أعرض غيرهم عن قبول ما جئتهم به من الذكر بعد هذا البيان الواضح في هذه الآيات التي دلت على الوحدانية والعلم والقدرة وغيرها من صفات الكمال أتم دلالة ﴿ فقل ﴾ أي لهم : إن لكم سلفاً سلكتم طريقهم في العناد ، فإن أبيتم إلا الإصرار ألحقناكم بهم كأمثالهم وهو معنى ﴿ أنذرتكم صاعقة ﴾ ، أي حلول صاعقة مهيأة لمن كشف له الأمر فعاند ، فإن وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه ، قال البغوي وابن الجوزي : والصاعقة المهلكة من كل شيء - انتهى .

(186/680)

والحاصل أنه عذاب شديد الوقع كأنه في شدة وقعه صاعقة .

ولما كان التخويف بما تسهل مشاهدة مثله أوقع في النفس قال : ﴿ مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ أي الذين تنظرون ديارهم وتستعظمون آثارهم ، وعلل إيقاع ذلك بهم بقوله :

﴿ إذا ﴾ ويجوز أن يكون ظرفاً لصاعقة وظرفيته لا تنافي عليته أي حين ﴿ جاءتهم الرسل ﴾ لأن الزمان الطويل يجوز نسبة ما وقع في جزء منه إليه ، ولما كانت الرسل إنما أتت بالفعل في بعض الزمان أدخل الجار فقال : ﴿ من بين أيديهم ﴾ أي من قبلهم لأن النذير الأول نذير لكل من أتى بعده بأنه إن واقع ما واقعه أتاه ما عذب به ﴿ ومن خلفهم ﴾ وهم من أتى إليهم لأنهم لم يكونوا يعلمون إتيانهم ، فالخلف كناية عن الخفاء ، والقدام عن الجلاء ، ولا شك أن الإنسان لما انقاد له من قبله فسمعه منه أقبل مما رآه بعينه ، لأن النفس لا تنقاد لما خالفها إلا بعد جدال وجهاد ، فإذا تطاول الزمن وانقاد له الغير ، سهل عليها الأمر ، وخف عليها الخطب ، وأيضاً الآتي إلى ناس إنما يأتيهم بعد وجودهم وبلوغهم حد التكليف ، فهو بهذا آتٍ إليهم من ورائهم أي بعد وجودهم أو يكون ما بين الأيدي هو من جاءهم لأنهم علموا بمجيئه علم من ينظر من قدامه ، وما خلفهم ما غاب عنهم ممن تقدمهم ، فلم تنقل إليهم أخبارهم إلا على وجوه تحتمل الطعن ، أو المعنى : أتاهم رسولهم الذي هو بإظهار المعجزة كجميع الرسل بالوعظ من كل جانب يخفى عليهم أو يتضح لهم وأعمل فيهم كل حيلة بكل حجة حتى لم يدع لهم شبهة ، ثم بين أن مجيء الرسل ينفي عبادة غير الله وقصر العبادة عليه ، فقال مظهراً مع العبادة الاسم الذي هو أولى بها : ﴿ أن ﴾ أي بأن قولوا لهم ﴿ لا تعبدوا إلا الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال .

ولما كان هذا موضعاً لتشوف السامع إلى خبرهم عند ذلك إجابة بقولهم : ﴿ قالوا ﴾ أي كل منهم : ﴿ لو شاء ربنا ﴾ أي والذي ربانا أحسن تربية وجعلنا من خواصه بما حبانا به من النعم أن يرسل إلينا رسولا ﴿ ملائكة ﴾ فأرسلهم إلينا بما يريده منا لكنه لم ينزل ملائكة فلم يشأ أن يرسل رسولاً ، فتسبب عما قالوه من القياس الاستثنائي الذي استنتجوا فيه من نقيض تاليه نقيض مقدمه ، لما جعلوا بين المقدم والتالي من الملازمة بزعمهم قولهم :

﴿ فإنا بما ﴾ أي بسبب الذي ولما كانوا لم ينكروا مطلق رسالتهم ، إنما أنكروا كونها من الله ، بنوا للمجهول قولهم مغلباً تعالى في الترجمة عنهم للخطاب على الغيبة لأنه أدخل في بيان قلة أدبهم : ﴿ أرسلتم ﴾ أي أيها الرسل ومن كان على مثل حالهم من البشر ﴿ به ﴾ أي على ما تزعمون خاصة لا بغير ما أرسلتم به مما أنزل به ملائكة مثلاً ﴿ كافرون ﴾ لأن قياسنا قد دل على أنه تعالى لم يشأ الإرسال ، فأنتم لستم بمرسل عنه لأنكم بشر لا ملائكة وقد كذبوا في قياسهم الذي لم يأخذوه عن عقل ولا نقل لأنه لا ملازمة بين مشيئة الإرسال إلى الناس كافة أو إلى أمة منهم وبين أن يكون المرسل إليهم كلهم ملائكة .

ولما جمعهم فيما اجتمعوا فيه حتى كأنهم تواصوا به ، فصل ما اختلفوا فيه فقال مسبباً عما مضى من مقالهم : ﴿ فأما عاد ﴾ أي قوم هود عليه الصلاة والسلام ﴿ فاستكبروا ﴾ أي

طلبوا الكبر وأوجدوه ﴿ في الأرض ﴾ أي كلها التي كانوا فيها بالفعل وبقيتها بالقوة ، أو في الكل بالفعل لكونهم ملكوها كلها .

(188/680)

ولما كان الكبر قد يكون بالحق كما على من خالف أمر الله قال : ﴿ بغير الحق ﴾ أي الأمر الذي يطابقه الواقع ، وهو إنكار رسالة البشر ، فإن الواقع إرسالهم ﴿ وقالوا ﴾ أي وضموا إلى استكبارهم على قبول ما جاءهم من الحق أن قالوا متعاظمين على أمر الله بما أتاهم الله من فضله : ﴿ من أشد منا قوة ﴾ فنحن نقدر على دفع ما يأتي من العذاب الذي يهددنا به هود عليه الصلاة والسلام لأنهم كانوا أشد الناس قوى وأعظمهم أجساماً .

ولما كان التقدير أن يقال إنكاراً عليهم : ألم يروا أن الله لو شاء لجعلهم كغيرهم ، عطف عليه قوله : ﴿ أو لم يروا ﴾ أي يعلموا علماً كما هو كالمشاهدة لأنه غريزة في الفطرة الأولى فهو علم ضروري ﴿ أنّ الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ الذي خلقهم ﴾ ولم يكونوا شيئاً ﴿ هو أشد منهم قوة ﴾ ومن علم أن غيره أقوى منه وكان عاقلاً انقاد له فيما ينفعه ولا يضره ، واجتماع قوتهم التي هي شدة البنية وقوته سبحانه التي هي كمال القدرة وهي صفة قائمة بذاته سبحانه إنما هو في الآثار الناشئة عن القوة ، فلذلك جمعاً بأشد .

ولما بين أنهم أوجدوا الكبر ، عطف عليه من غرائزهم ما هو أصل لكل سوء ، فقال مبيناً قرط جهلهم باجترائهم على العظمة التي شأنها قصم الظالم وأخذ الآثم : ﴿ وكانوا ﴾ أي طبعاً لهم ﴿ بآياتنا ﴾ على ما لها من العظمة بنسبتها إلينا ﴿ يجحدون ﴾ أي ينكرون إنكاراً يضمحل عنده كل إنكار عناداً مع علمهم بأنها من عندنا ﴿ فأرسلنا ﴾ بسبب ذلك على ما لنا من العظمة ، ودل على صغارهم وحقارتهم بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ عليهم ﴾ وزاد في تحقيرهم بأن أخبر أنه أهلكهم لأجل ما تعززوا به من قوة أبدانهم ووثاقة خلقهم بما هو من ألطف الأشياء جسماً وهو الهواء فقال : ﴿ ريحاً ﴾ أي عظيمة ﴿ صرصراً ﴾ أي شديدة البرد والصوت والعصوف حتى كانت تجمد البدن ببردها فتكون كأنها تصره – أي تجمعه – في موضع واحد فتمنعه التصرف بقوته ، وتقطع القلب بصوتها ، فتقهر شجاعته ، وتحرق بشدة بردها كل ما مرت عليه .

ولما تقدم في هذا السياق استكبارهم على الوجه المذكور وادعاؤهم أنهم أشد الناس قوة اقتضى الحال تحقيرهم في إهلاكهم ، فذكر الأيام دون الليالي وإن تضمنتها فقال تعالى : ﴿ في أيام ﴾ ولما كان جمع القلة قد يستعار للكثرة حقق أن المراد القلة بوصفه بجمع

السلامة فقال : ﴿ نحسات ﴾ وكان ذلك أدل على هذا المراد من إفراد اليوم كما في القمر لأنه قد يراد به زمان يتم فيه أمر ظاهر ولو طالت مدته ، ويصح للجنس فيشمل مع القليل ما يصلح له جمع الكثرة .

(190/680)

وفيه – مع أنه نذارة – رمز للمنزل عليه هذا الوحي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأعظم بشارة لما أوماً إليه افتتاح السورة باسمي الرحمة ، وقوله تعالى ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ ومن جعل أيام هذا العذاب ثمانية ، أشار إلى الحلم والتأني كما أشار إليه ما تقدم من خلق هذا الوجود في ستة أيام ، وقد كان قادراً على كل من التعذيب والإيجاد في لحظة واحدة ، فأشار ذلك إلى أنه في السنة السادسة من الهجرة يكون الفتح السببي بعمرة الحديبية التي كانت سبب نزول سورة الفتح ، وفي السابعة يكون الاعتمار الذي كان عليهم أشد من وقوع الصارم البتار ، حتى ذهب عمرو بن العاص من أجل ذلك إلى الحبشة لئلا يرى من دخول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ـ رضى الله عنه ـ م ما لا صبر له عليه ، وفي الثامنة يكون الفتح الحقيقي بعشرة آلاف مقاتل أكثرهم دارع لا يُرى منهم إلا الحدق ، حتى خالوا بياض لأمهم السراب ، فظنوا بهم غاية العذاب ، فكانوا رحمة ، وعاد رأوا السحاب فظنوه رحمة فكان

عذاباً ونقمة ، ووصفها بالنحس مبالغة مثل رجل عدل ليدل على أنها كانت قابلة لانفعال الجسد وما كان فيه من القوى بهذه الريح ، وهو مصدر جمع لاختلاف أنواع النحس فيها - هذا على قراءة الجماعة بسكون الحاء ، وأما قراءة ابن عامر والكوفيين بكسر الحاء فهي صفة من فعل بالكسر مثل : فرح فهو فرح ، وأول هذه الأيام الأربعاء في قول يحيى بن سلام ، وقال غيره : وما عذب قوم إلا يوم الأربعاء ﴿ لنذيقهم ﴾ وأضاف الموصوف إلى صفته على المبالغة من وادي رجل عدل فقال : ﴿ عذاب الخزي ﴾ أي الذي يهينهم ويفضحهم ويذلهم بما تعظموا وافتخروا على كلمة الله التي أتتهم بها رسله ، وصف العذاب بالخزي الذي هو للمعذب به مبالغة في إخزائه له ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ ليذلوا عند من تعظموا عليهم في الدار التي اغتروا بها فتعظموا فيها فإن ذلك أدل على القدرة عند من تقيد بالوهم ﴿ ولَعذاب الآخرة ﴾ الذي أعد للمتكبرين ﴿ أخزى ﴾ أي أشد إخزاء

(191/680)

كما قالوا : هو أعطاهم للدراهم وأولادهم للمعروف ، وأكد لإنكارهم له .

ولما انتفت مدافعتهم عن أنفسهم ، نفى دفع غيرهم فقال : ﴿ وهم ﴾ أي أصابهم هذا العذاب وسيصيبهم عذاب الآخرة والحال أنهم ﴿ لا يُنصرون ﴾ أي لا يوجد ولا يتجدد

لهم نصر أبداً بوجه من الوجوه .

ولما أنهى أمر صاعقتهم ، شرع في بيان صاعقة ثمود فقال : ﴿ وأما ثمود ﴾ وهم قوم صالح عليه الصلاة والسلام ﴿ فهديناهم ﴾ أي بينا لهم طريق الهدى من أنا قادرون على البعث وعلى كل شيء فلا شريك لنا ، وكان بيان ذلك بالناقة غاية البيان فأبصروا ذلك بأبصارهم التي هي سبب أبصار بصائرهم غايه الإبصار ، فكرهوا ذلك لما يلزمه من تنكب طريق آبائهم وأقبلوا على لزوم طريق آبائهم : ﴿ فاستحبوا العمى ﴾ اي الضلال الناشئ عن عمى اليصر أو البصيرة أو هما معاً ﴿ على الهدى ﴾ أي أوجدوا من الأفعال والأقوال ما يدل على حب ذلك وعلى طلب حبه فعموا فضلوا ، وقال القشيري : قيل : إنهم آمنوا وصدقوا ثم ارتدوا وكذبوا ، فأجراهم مجرى إخوانهم في الاستئصال .

﴿ فأخذتهم ﴾ أي بسبب ذلك أخذ قسر وهوان ﴿ صاعقة العذاب ﴾ وأبلغ في وصفه بجعله نفس الهون فقال : ﴿ الهون ﴾ أي ذي الهون ، قامت ضمته مقام ما في الهوان من الصيغة فعلم أن المراد أنه المهين المخزي ﴿ بما كانوا ﴾ أي دائماً ﴿ يكسبون ﴾ أي يتجدد تحصيلهم له وعدهم له فائدة ، فالآية من الاحتباك : ذكر الهداية أولاً دليلاً على حذف الضلال ثانياً والعمى ثانياً دليلاً على حذف الإبصار أولاً ، وسره أنه نسب إليه أشرف فعليه ، وأسند إليهم ما لا يرضاه ذو الروح .

ولما أتم الخبر عن الكافرين من الفريقين ، أتبعه الخبر عن مؤمنيهم بشارة لمن اتبع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونذارة لمن صد عنه فقال : ﴿ ونجينا ﴾ أي تنجية عظيمة ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف ولو على أدنى وجوهه من الفريقين ﴿ وكانوا ﴾ أي كوناً عظيماً ﴿ يتقون ﴾ أي يتجدد لهم هذا الوصف في كل حركة وسكون فلا يقدمون على شيء بلا دليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 6 صـ 559 ـ 563 ﴾

(193/680)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) ﴾

اعلم أن الكلام إنما ابتدىء من قوله ﴿ أَنَّمَا إلهكم إله واحد ﴾ [فصلت : 6] واحتج عليه بقوله ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذى خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] وحاصله أن الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة كيف يجوز الكفر به ، وكيف يجوز جعل هذه الأجسام الخسيسة شركاء له في الإلهية ؟ ولما تم تلك الحجة قال : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ

فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صاعقة مّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وبيان ذلك لأن وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه ، فإن بقوا مصرين على الجهل لم يبق حينئذٍ علاج في حقهم إلا إنزال لعذاب عليهم فلهذا السبب قال : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ ﴾ بمعنى أن أعرضوا عن قبول هذه الحجة القاهرة التي ذكرناها وأصروا على الجهل والتقليد ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ ﴾ والإنذار هو : التخويف ، قال المبرد والصاعقة الثائرة المهلكة لأي شيء كان ، وقرىء ﴿ صاعقة مّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ قال صاحب "الكشاف" وهي المرة من الصعق .

ثم قال : ﴿ إِذْ جَاءتْهُمُ الرسل مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ وفيه وجهان الأول : المعنى أن الرسل المبعوثين إليهم أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأتوا بجميع وجوه الحيل فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ، كما حكى الله تعالى عن الشيطان قوله ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [الأعراف : 17] يعني لآتينهم من كل جهة ولأعملن فيهم كل حيلة ، ويقول الرجل : استدرت بفلان من كل جانب فلم تؤثر حيلتي فيه .

(194/680)

السؤال الثاني : المعنى : أن الرسل جاءتهم من قبلهم ومن بعدهم ، فإن قيل : الرسل الذين جاؤا من قبلهم ومن بعدهم ، كيف يمكن وصفهم بأنهم جاؤهم ؟ قلنا : قد جاءهم هود

وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ، وبهذا التقدير فكأن جميع الرسل قد جاؤهم .

ثم قال : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ ﴾ يعني أن الرسل الذي جاؤهم من بين أيديهم ومن خلفهم أمروهم بالتوحيد ونفي الشرك ، قال صاحب "الكشاف" أن في قوله ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ ﴾ بمعنى أي أو مخففة من الثقيلة أصله بأنه لا تعبدوا أي بأن الشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا إلا الله .

ثم حكى الله تعالى عن أولئك الكفار أنهم قالوا ﴿ لَوْ شَاء رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائكة ﴾ يعني أنهم كذبوا أولئك الرسل ، وقالوا الدليل على كونكم كاذبين أنه تعالى لو شاء إرسال الرسالة إلى البشر لجعل رسله من زمرة الملائكة ، لأن إرسال الملائكة إلى الخلق أفضى إلى المقصود من البعثة والرسالة ، ولما ذكروا هذه الشبهة قالوا ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ معناه : فإذا أنتم بشر ولستم بملائكة ، فأنتم لستم برسل ، وإذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا قبول قولكم ، وهو المراد من قوله ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ .

واعلم أنا بالغنا في الجواب عن هذه الشبهات في سورة الأنعام ، وقوله ﴿ أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ ليس بإقرار منهم بكون أولئك الأنبياء رسلاً ، وإنما ذكروه حكاية لكلام الرسل أو على سبيل الاستهزاء ، كما قال فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : 27] .

روي أن أبا جهل قال في ملأ من قريش : التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والسحر والكهانة فكلمه ، ثم أتانا ببيان عن أمره ، فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علماً وما يخفى علي ، فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ لم تشتم آلهتنا وتضللنا ؟ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن تكن بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن ، أي بنات من شئت من قريش ، وإن كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغني به ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت ، فلما فرغ قال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم * تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ إلى قوله ﴿ صاعقة مِّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلم احتبس عنهم قالوا ، لا نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه وقالوا يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت : فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو شعر ولا سحر ولا كهانة ، ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود

أمسكت بفيه وناشدته بالرحم ، ولقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب .

(196/680)

واعلم أنه تعالى لما بيّن كفر قوم عاد وثمود على الإجمال بيّن خاصية كل واحدة من هاتين الطائفتين فقال : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فاستكبروا فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ وهذا الاستكبار فيه وجهان الأول : إظهار النخوة والكبر ، وعدم الالتفات إلى الغير والثاني : الاستعلاء على الغير واستخدامهم ، ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو أنهم قالو ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام وشدة القوة ، ثم إنه تعالى ذكر ما يدل على أنه لا يجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهم ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ يعني أنهم وإن كانوا أقوى من غيرهم ، فالله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ، فإن كانت الزيادة في القوة توجب كون الناقص في طاعة الكامل ، فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم منقادين لله تعالى ، خاضعين لأوامره ونواهيه .

واحتج أصحابنا بهذه الآية على إثبات القدرة لله ، فقالوا القوة لله تعالى ويتأكد هذا بقوله ﴿ الله الذي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ يدل على إثبات القوة لله تعالى ويتأكد هذا بقوله

﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين ﴾ [الذاريات : 58] فإن قيل صيغة أفعل التفضيل إنما تجري بين شيئين لأحدهما مع الآخر نسبة ، لكن قدرة العبد متناهية وقدرة الله لا نهاية لها ، والمتناهي لا نسبة له إلى غير المتناهي ، فما معنى قوله إن الله أشد منهم قوة ؟ قلنا هذا ورد على قانون قولنا الله أكبر .

ثم قال : ﴿ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ والمعنى أنهم كانوا يعرفون أنها حق ولكنهم جحدوا كما يجحد المودع الوديعة .

(197/680)

واعلم أن نظم الكلام أن يقال : أما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وكانوا بآياتنا يجحدون ، وقوله ﴿ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الذى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ واعتراض وقع في البين لتقرير السبب الداعي لهم إلى الاستكبار .

واعلم أنا ذكرنا أن مجامع الخصال الحميدة الإحسان إلى الخلق والتعظيم للخالق ، فقوله ﴿ استكبروا فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ مضاد للإحسان إلى الخلق وقوله ﴿ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ مضاد للتعظيم للخالق ، وإذا كان الأمر كذلك فهم قد بلغوا في الصفات المذمومة الموجبة للهلاك والإبطال إلى الغاية القصوى ، فلهذا المعنى سلّط الله العذاب

عليهم فقال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ وفي الصرصر قولان أحدهما : أنها العاصفة التي تصرصر أن تصوت في هبوبها ، وفي علة هذه التسمية وجوه قيل إن الرياح عند اشتداد هبوبها يسمع منها صوت يشبه صوت الصرصر فسميت هذه الرياح بهذا الاسم وقيل هو من صرير الباب ، وقيل من الصرة والصيحة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِى صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات : 29] والقول الثاني : أنها الباردة التي تحرق ببردها كما تحرق النار بحرها ، وأصلها من الصر وهو البرد قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ [آل عمران : 117] وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الرياح ثمان أربع منها عذاب العاصف والصرصر والعقيم والسموم ، وأربع منها رحمة الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات " وعن ابن عباس أن الله تعالى ما أرسل على عباده من الريح إلا قدر خاتمي ، والمقصود أنه مع قلته أهلك الكل وذلك يدل على كمال قدرته .

وأما قوله ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ نَّحِسَاتٍ ﴾ بسكون الحاء والباقون بكسر الحاء ، قال صاحب "الكشاف" يقال نحس نحساً نقيض سعد سعداً فهو نحس ، وأما نحس فهو إما مخفف نحس أو صفة على فعل أو وصف بمصدر .

المسألة الثانية :

استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون نحساً وبعضها قد يكون سعداً ، وقالوا هذه الآية صريحة في هذا المعنى ، أجاب المتكلمون بأن قالوا ﴿ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ أي ذوات غبار وتراب ثائر لا يكاد يبصر فيه ويتصرف ، وأيضاً قالوا معنى كون هذه الأيام نحسات أن الله أهلكهم فيها ، أجاب المستدل الأول بأن النحسات في وضع اللغة هي المشؤمات لأن السعد يقابله السعد ، والكدر يقابله الصافي ، وأجاب عن السؤال الثاني أن الله تعالى أخبر عن إيقاع ذلك العذاب في تلك الأيام النحسات ، فوجب أن يكون كون تلك الأيام نحسة مغايراً لذلك العذاب الذي وقع فيها .

ثم قال تعالى : ﴿ ولنذيقهم عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا ﴾ أي عذاب الهوان والذل ، والسبب فيه أنهم استكبروا ، فقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الخزي والهوان والذل إليهم .

ثم قال تعالى ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أخزى ﴾ أي أشد إهانة وخزياً ﴿ وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ أي أنهم يقعون في الخزي الشديد ومع ذلك فلا يكون لهم ناصر يدفع ذلك الخزي عنهم .

ولما ذكر الله قصة عاد أتبعه بقصة ثمود فقال : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ ﴾ قال صاحب "الكشاف" قرىء ﴿ ثَمُودُ ﴾ بالرفع والنصب منوناً وغير منون والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء وقرىء بضم الثاء وقوله ﴿ فهديناهم ﴾ أي دللناهم على طريق الخير والشر ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ أي اختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد .

(199/680)

واعلم أن صاحب "الكشاف" ذكر في تفسير الهدى في قوله تعالى : ﴿ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] أن الهدى عبارة عن الدلالة الموصلة إلى البغية ، وهذه الآية تبطل قوله ، لأنها تدل على أن الهدى قد حصل مع أن الإفضاء إلى البغية لم يحصل ، فثبت أن قيد كونه مفضياً إلى البغية غير معتبر في اسم الهدى .

(200/680)

وقد ثبت في هذه الآية سؤال يشعر بذلك إلا أنه لم يذكر جواباً شافياً فتركناه ، قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن الله تعالى قد ينصب الدلائل ويزيح الأعذار والعلل ، إلا أن الإيمان إنما يحصل من العبد لأن قوله ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم ﴾ يدل على أنه تعالى قد نصب لهم الدلائل وقوله ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ يدل على أنهم من عند أنفسهم أتوا بذلك العمى فهذا يدل على أن الكفر والإيمان يحصلان من العبد ، وأقول بل هذه الآية من أدل الدلائل ، على أنهما إنما يحصلان من الله لا من العبد ، وبيانه من وجهين : الأول : أنهم إنما صدر عنهم ذلك العمى ، لأنهم أحبوا تحصيله ، فلما وقع في قلبهم هذه المحبة دون محبة ضده ، فإن حصل ذلك الترجيح لا لمرجح فهو باطل ، وإن كان المرجح هو العبد عاد الطلب ، وإن كان المرجح هو الله فقد حصل المطلوب الثاني : أنه تعالى قال : ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ ومن المعلوم بالضرورة أن أحداً لا يحب العمى والجهل مع العلم بكونه عمى وجهلاً ، بل ما لم يظن في ذلك العمى والجهل كونه تبصرة وعلماً لا يرغب فيه ، فإقدامه على اختيار ذلك الجهل لا بد وأن يكون مسبوقاً بجهل آخر ، فإن كان ذلك الجهل الثاني باختياره أيضاً لزم التسلسل وهو محال ، فلا بد من انتهاء تلك الجهالات إلى جهل يحصل فيه لا باختياره وهو المطلوب ، ولما وصف الله كفرهم قال : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صاعقة العذاب الهون ﴾ و ﴿ صاعقة العذاب ﴾ أي داهية العذاب و ﴿ الهون ﴾ الهوان ، وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ يريد من شركهم وتكذيبهم صالحاً

وعقرهم الناقة ، وشرع صاحب "الكشاف" ههنا في سفاهة عظيمة .

والأولى أن لا يلتفت إليه أنه وإن كان قد سعى سعياً حسناً فيما يتعلق بالألفاظ ، إلا أن المسكين كان بعيداً من المعاني .

(201/680)

ولما ذكر الله الوعيد أردفه بالوعد فقال : ﴿ وَنَجَّيْنَا الذين ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ يعني وكانوا يتقون الأعمال التي كان يأتي بها قوم عاد وثمود ، فإن قيل : كيف يجوز للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود ، مع العلم بأن ذلك لا يقع في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد صرّح الله تعالى بذلك في قوله ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ [الأنفال : 33] وجاء في الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى رفع عن هذه الأمة هذه الأنواع من الآفات قلنا إنهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في استحقاق مثل تلك الصاعقة جوزوا حدوث ما يكون من جنس ذلك ، وإن كان أقل درجة مهم وهذا القدر يكفي في التخويف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 27 صـ 95.99 ﴾

(202/680)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ : يَعْنِي شَدَائِدَ لَا خَيْرَ فِيهَا ، وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْهُ ابْنُ الْقَاسِمِ .

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ " وَإِنَّمَا ذَكَرَ ذَلِكَ مَالِكٌ رَدًّا عَلَى مَنْ يَقُولُ : إنَّ النَّحْسَ الْغُبَارُ ، وَلَوْ كَانَ الْغُبَارُ نَحْسًا لَكَانَ أَقَلَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ نَحْسٍ ، وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ : إنَّهَا مُتَتَابِعَاتٌ لَا يَخْرُجُ مِنْ لَفْظِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ نَحِسَاتٍ ﴾ .

(203/680)

وَإِنَّمَا عُرِفَ التَّتَابُعُ مِنْ قَوْله تَعَالَى : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قِيلَ : إنَّهَا كَانَتْ آخِرَ شَوَّالٍ مِنْ الْأَرْبِعَاءِ إلَى الْأَرْبِعَاءِ ، وَالنَّاسُ يَكْرَهُونَ السَّفَرَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ لِأَجْلِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ ؛ لَقِيت يَوْمًا مَعَ خَالِي الْحُسَيْنَ بْنَ حَفْصٍ رَجُلًا مِنْ

الْكتاب فوَدَّعْنَاهُ بِنيَّةِ السَّفَرِ ، فَلَمَّا فارَقَنَا قَالَ لِي خَالِي : إنَّك لَا تَرَاهُ أَبَدًا لِأَنَّهُ سَافَرَ يَوْمَ أَرْبعَاءٍ لَا يَتَكَرَّرُ ، وكَذَلِكَ كَانَ : مَاتَ فِي سَفَرِهِ ، وَهَذَا مَا لَا أَرَاهُ ، فَإِنَّ يَوْمَ الْأَرْبعَاءِ يَوْمٌ عَجِيبٌ بِمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مِنْ الْخَلْقِ فِيهِ ، وَالتَّرْتِيبِ ؛ فَإِنَّ الْحَدِيثَ ثَابِتٌ ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ يَوْمَ السَّبْتِ التُّرْبَةَ ، وَيَوْمَ الْأَحَدِ الْجِبَالَ ، وَيَوْمَ الِاثْنَيْنِ الشَّجَرَ ، وَيَوْمَ الثُّلَاثَاءِ الْمَكْرُوهَ ، وَيَوْمَ الْأَرْبعَاءِ النُّورَ ﴾ ، وَرُوِيَ : النُّونُ وَفِي الْحَدِيثِ : ﴿ إنَّهُ خَلَقَ يَوْمَ الْأَرْبعَاءِ غُرَّةَ التِّقْنِ ﴾ ، وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ أُتْقِنَ بِهِ الْأَشْيَاءُ يَعْنِي الْمَعَادِنَ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ وَالرَّصَاصِ فَالْيَوْمُ الَّذِي خَلَقَ فِيهِ الْمَكْرُوهَ لَا يَعَافُهُ النَّاسُ ، وَالْيَوْمُ الَّذِي خَلَقَ فِيهِ النُّورَ أَوْ التِّقْنَ يَعَافُونَهُ ، إنَّ هَذَا لَهُوَ الْجَهْلُ الْمُبِينُ .

(204/680)

وَفِي الْمَغَازِي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ دَعَا عَلَى الْأَحْزَابِ مِنْ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ إلَى يَوْمِ الْأَرْبعَاءِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ ، فَاسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ ، وَهِيَ سَاعَةٌ فَاضِلَةٌ ؛ فَالْآثَارُ الصِّحَاحُ دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ هَذَا الْيَوْمِ ، وَكَيْفَ يُدَّعَى فِيهِ تَغْرِيرُ النَّحْسِ بِأَحَادِيثَ لَا أَصْلَ لَهَا ، وَقَدْ صَوَّرَ قَوْمٌ أَيَّامًا مِنْ الْأَشْهُرِ الشَّمْسِيَّةِ ادَّعَوْا فِيهَا الْكَرَامَةَ ؛ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَنْظُرَ إلَيْهَا ، وَلَا

يَشْتَغِلَ بِآلَاتِهَا ، وَاَللَّهُ حَسِيبُهُمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(205/680)

وقال ابن عطية :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) ﴾

المعنى : فإن أعرضت قريش والعرب الذين دعوتهم إلى الله عن هذه الآيات البينة ، فأعلمهم بأنك تحذرهم أن يصيبهم من العذاب الذي أصاب الأمم التي كذبت كما تكذب هي الآن .

وقرأ جمهور الناس : " صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود " وقرأ النخعي وأبو عبد الرحمن وابن محيصن " صعقة مثل صعقة " ، فأما هذه القراءة الأخيرة فبينة المعنى ، لأن الصعقة : الهلاك يكون معها في الأحيان قطعة نار ، فشبهت هنا وقعة العذاب بها ، لأن عاداً لم تعذب إلا بريح ، وإنما هذا تشبيه واستعارة ، وبالوقيعة فسر هنا " الصاعقة " ، قال قتادة وغيره . وخص عاداً وثمود بالذكر لوقوف قريش على بلادها في اليمن وفي الحجر في طريق الشام .

وقوله : ﴿ من بين أيديهم ﴾ أي قد تقدموا في الزمن واتصلت نذارتهم إلى أعمار عاد

وثمود ، وبهذا الاتصال قامت الحجة .

وقوله : ﴿ من خلفهم ﴾ أي جاءهم رسول بعد اكتمال أعمارهم وبعد تقدم وجودهم في الزمن ، فلذلك قال : ﴿ ومن خلفهم ﴾ وجاء من مجموع العبارة إقامة الحجة عليهم في أن الرسالة والنذارة عمَّتهم خبراً ومباشرة ، ولا يتوجه أن يجعل ﴿ ومن خلفهم ﴾ عبارة عما أتى بعدهم في الزمن ، لأن ذلك لا يلحقهم منه تقصير ، وأما الطبري فقال : الضمير في قوله : ﴿ ومن خلفهم ﴾ عائد على الرسل ، والضمير في قوله : ﴿ من بين أيديهم ﴾ على الأمم ، وتابعه الثعلبي ، وهذا غير قوي لأنه يفرق الضمائر ويشعب المعنى . و﴿ أن ﴾ في قوله : ﴿ ألا تعبدوا ﴾ نصب على إسقاط الخافض ، التقدير : " بأن " . و﴿ تعبدوا ﴾ مجزوم على النهي ، ويتوجه أن يكون منصوباً على أن تكون ﴿ لا ﴾ نافية ، وفيه بعد . وكان من تلك الأمم إنكار بعثة البشر واستدعاء الملائكة ، وهذه أيضاً كانت من مقالات قريش .

(206/680)

وقوله : ﴿ فإنا بما أرسلتم به ﴾ ليس على جهة الإقرار بأنهم أرسلوا بشيء ، وإنما معناه على زعمكم ودعواكم . ثم وصف حالة القوم ، وأن عاداً طلبوا التكبر ووضعوا أنفسهم

فيه بغير حق ، بل بالكفر والمعاصي وغوتهم قوتهم وعظم أبدانهم والنعم فقالوا على جهة التقرير : ﴿ من أشد منا قوة ﴾ فعرض الله تعالى موضع النظر بقوله : ﴿ أو لم يروا ﴾ الآية ، وهذا بين في العقل ، فإن للشيء المخترع له المذهب متى شاء هو أقوى منه ، وأخبر تعالى عنهم بجحودهم بآياته المنصوبة للنظر والمنزلة من عنده ، إذ لفظ الآيات يعم ذلك كله في المعنى .

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

روي في الحديث أن الله تعالى أمر خزنة الريح ففتحوا على عاد منها مقدار حلقة الخاتم ، ولو فتحوا مقدار منخر الثور لهلكت الدنيا : وروي أن الريح كانت ترفع العير بأوقارها فتطيرها حتى تطرحها في البحر . وقال جابر بن عبد الله والتيمي : حبس عنهم المطر ثلاثة أعوام ، وإذا أراد الله بقوم شراً حبس عنهم المطر وأرسل عليهم الرياح .

واختلف الناس في الصرصر ، فقال قتادة والسدي والضحاك : هو مأخوذ من الصر ، وهو البرد ، والمعنى : ريحاً باردة لها صوت . وقال مجاهد : صرصر : شديدة السموم . وقال الطبري وجماعة من المفسرين : هو من صر يصر إذا صوت صوتاً يشبه الصاد والراء ، وكذلك يجيء صوت الريح في كثير من الأوقات بحسب ما تلقى .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والأعرج وعيسى والنخعي : بسكون الحاء وهو جمع نحس ، يقال يوم نحس ، فهو مصدر يوصف به أحياناً وعلى الصفة به جمع في هذه الآية ، واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله : ﴿ يوم نحس مستمر ﴾ [القمر : 19] . وقال النخعي : ﴿ نحسات ﴾ وليست ب " نِحِسات " بكسر . وقرأ الباقون وأبو جعفر وشيبة وأبو رجاء وقتادة والجحدري والأعمش : " نِحِسات " بكسر الحاء ، وهي جمع لنحس على وزن حذر ، فهو صفة لليوم مأخوذ من النحس . وقال الطبري : نحس ونحس لغتان ، وليس كذلك ، بل اللغة الواحدة تجمعهما ، أحدهما مصدر ، والآخر من أمثلة اسم الفاعل ، وأنشد الفراء : [البسيط]

أبلغ جذاماً ولخماً أن إخوتهم . . . طيا وبهراء قوم نصرهم نحس

وقالت فرقة : إن " نَحْسات " بالسكون مخفف من " نِحِسات " بالكسر ، والمعنى في هذه اللفظة مشاييم من النحس المعروف ، قاله مجاهد وقتادة والسدي : وقال الضحاك معناه : شديدة ، أي شديدة البرد حتى كان البرد عذاباً لهم . قال أبو علي : وأنشد الأصمعي في النحس بمعنى البرد :

كأن سلافة عرضت بنحس . . . يحيل شفيفها الماء الزلالا

وقال ابن عباس : ﴿ نحسات ﴾ معناه : متتابعات ، وكانت آخر شوال من الأربعاء إلى

الأربعاء وعذاب الخزي في الدنيا هو العذاب بسبب الكفر ومخالفة أمر الله ، ولا خزي أعظم من هذا إلا ما في الآخرة من الخلود في النار .

(208/680)

وقرأ جمهور الناس : " ثمودُ " بغير حرف ، وهذا على إرادة القبيلة . وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وبكر بن حبيب : " ثمودٌ " بالتنوين والإجراء ، وهذا على إرادة الحي ، وبالصرف كان الأعمش يقرأ في جميع القرآن إلا في قوله : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ [الإسراء : 59] لأنه في المصحف بغير ألف . وقرأ ابن أبي إسحاق والأعرج بخلاف ، والأعمش وعاصم " ثمودَ " بالنصب ، وهذا على إضمار فعل يدل عليه قوله : ﴿ فهديناهم ﴾ ، وتقديره عند سيبويه : مهما يكن من شيء فهدينا ثمود هديناهم ، والرفع عنده أوجه ، وروي عن ابن أبي إسحاق والأعمش : " ثموداً " منونة منصوبة ، وروى الفضل عن عاصم الوجهين .

وقوله تعالى : ﴿ فهديناهم ﴾ معناه : بيّنا لهم ، قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد ، وليس الهدى هنا بمعنى الإرشاد ، وهذا كما هي الآن شريعة الإسلام مبينة لليهود والنصارى المختلطين لنا ولكنهم يعرضون ويشتغلون بالصد ، فذلك استحباب العمى على الهدى .

وقوله تعالى : ﴿ فاستحبوا ﴾ عبارة عن تكسبهم في العمى ، وإلا فهو بالاختراع لله تعالى ، ويدلك على أنها إشارة إلى تكسبهم قوله تعالى : ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ العذاب الهون ﴾ وصف بالمصدر ، والمعنى الذي معه هوان وإذلال ، ثم قرن تعالى بذكرهم ذكر من آمن واتقى ونجاته ليبين الفرق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(209/680)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾

يعني كفار قريش عما تدعوهم إليه يا محمد من الإيمان .

﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي خوفتكم هلاكاً مثل هلاك عاد وثمود .

﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ الرسل مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يعني من أرسل إليهم وإلى من قبلهم ﴿ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله ﴾ موضع "أَنْ" نصب بإسقاط الخافض أي ب"أَلاَّ تَعْبُدُوا" و ﴿ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً ﴾ بدل الرسل ﴿ فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ من الإنذار

والتبشير .

قيل : هذا استهزاء منهم .

وقيل : إقرار منهم بإرسالهم ثم بعده جحود وعناد .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فاستكبروا فِي الأرض ﴾ على عباد الله هود ومن آمن معه ﴿ بِغَيْرِ الحق وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهدّدهم بالعذاب ، وقالوا : نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوّتنا .

وذلك أنهم كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم .

وقد مضى في "الأعراف" عن ابن عباس : أن أطولهم كان مائة ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعاً .

فقال الله تعالى ردًّا عليهم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وقدرة ، وإنما يقدر العبد بإقدار الله ، فالله أقدر إذاً .

﴿ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي بمعجزاتنا يكفرون .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ هذا تفسير الصاعقة التي أرسلها عليهم ، أي ريحاً باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب .

ويقال : أصلها صَرَّرَ من الصِّر (وهو البرد) فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل ؛ كقولهم كَبْكَبوا أصله كَبَّبوا ، وتَجَفْجَفَ الثوبُ أصله تجفَّف .

أبو عبيدة : معنى صَرْصَر : شديدة عاصفة .

عكرمة وسعيد بن جبير : شديدة البرد .

وأنشد قُطْرُب قول الحطيئة :

(210/680)

المُطْعِمون إذا هَبّتْ بصَرْصَرةٍ . . .

والحامِلون إذا اسْتُودُوا على النَّاسِ

استودوا : إذا سئلوا الدية .

مجاهد : الشديدة السموم .

وروى معمر عن قتادة قال : باردة .

وقاله عطاء ؛ لأن "صَرْصَراً" مأخوذ من صرّ والصرّ في كلام العرب البرد كما قال :

لها عُذَرٌ كُفْرُون النِّسا . . .

ءِ رُكِّبْنَ في يومِ ريحٍ وصِرْ

وقال السدي : الشديدة الصّوت .

ومنه صَرّ القلمُ والباب يصِرّ صريراً أي صوّت .

ويقال : درهم صَرِّيٌّ وصِرِّيٌّ للذي له صوت إذا نُقِد .

قال ابن السِّكّيت : صَرْصَرْ يجوز أن يكون من الصِّر وهو البرد ، ويجوز أن يكون من صرِير الباب ، ومن الصَّرة وهي الصيحة .

ومنه ﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات : 29] .

وصَرْصَرْ اسم نهر بالعراق .

﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ أي مشؤومات ؛ قاله مجاهد وقتادة .

كنّ آخر شوّال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء وذلك ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ [الحاقة : 7] قال ابن عباس : ما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء .

وقيل ؛ "نَحِسَاتٍ" باردات ؛ حكاه النقاش .

وقيل : متتابعات ؛ عن ابن عباس وعطية .

الضحاك : شِداد .

وقيل : ذات غبار ؛ حكاه ابن عيسى .

ومنه قول الراجز :

قدِ اغْتَدى قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ . . .

لِلصَّيْدِ فِي يَوْمٍ قَليلِ النَّحْسِ

قال الضحاك وغيره : أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين ، ودرّت الرياح عليهم في غير مطر

، وخرج منهم قوم إلى مكة يستسقون بها للعباد ، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه ، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عن بيته الحرام مكة مسلمهم وكافرهم ، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى ، مختلفة أديانهم ، وكلهم مُعظِّم لمكة ، عارف حرمتها ومكانها من الله تعالى .

(211/680)

وقال جابر بن عبد الله التيمي : إذا أراد الله بقوم خيراً أرسل عليهم المطر وحبس عنهم كثرة الرياح ، وإذا أراد الله بقوم شراً حبس عنهم المطر وسلط عليهم كثرة الرياح .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو "نَحْسَاتٍ" بإسكان الحاء على أنه جمع نحس الذي هو مصدر وصف به .

الباقون : "نَحِسَاتٍ" بكسر الحاء أي ذوات نحس .

ومما يدل على أن النحس مصدر قوله : ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر : 19] ولو كان صفة لم يضف اليوم إليه ؛ وبهذا كان يحتج أبو عمرو على قراءته ؛ واختاره أبو حاتم .

واختار أبو عبيد القراءة الثانية وقال : لا تصح حجة أبي عمرو ؛ لأنه أضاف اليوم إلى النحس فأسكن ، وإنما كان يكون حجة لو نوّن اليوم ونعت وأسكن ؛ فقال : "فِي يَوْمٍ

نَحْسٍ" وهذا لم يقرأ به أحد نعلمه .

وقال المهدوي : ولم يسمع في "نَحْسٍ" إلا الإسكان .

قال الجوهري : وقرىء في قوله : "فِي يَوْمِ نَحْسٍ" على الصفة ، والإضافة أكثر وأجود .

وقد نَحِس الشيء بالكسر فهو نحس أيضاً ؛ قال الشاعر :

أبلغ جذاما ولَخْما أنّ إخوتهم . . .

طيًّا وبَهْراء قوم نصرهم نَحِس

ومنه قيل : أيام نَحِسَاتٍ .

﴿ لِّنُذِيقَهُمْ ﴾ أي لكي نذيقهم ﴿ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا ﴾ بالريح العقيم .

﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أخزى ﴾ أي أعظم وأشدّ ﴿ وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ أي بينا لهم الهدى والضلال ؛ عن ابن عباس وغيره .

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وغيرهما "وَأَمَّا ثَمُودَ" بالنصب وقد مضى الكلام فيه في "الأعراف" .

﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان .

وقال أبو العالية : اختاروا العمى على البيان .

السدي : اختاروا المعصية على الطاعة .

﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العذاب الهون ﴾ "الْهُونِ" بالضم الهوان .

وهون بن خُزَيْمة بن مدركة بن إلياس بن مُضَر أخو كنانة وأسد .

وأهانه : استخف به .

والاسم الهوان والمهانة .

(212/680)

وأضيف الصاعقة إلى العذاب ، لأن الصاعقة اسم للمبيد المهلك ، فكأنه قال مهلك العذاب ؛ أي العذاب المهلك .

والهون وإن كان مصدراً فمعناه الإهانة والإهانة عذاب ، فجاز أن يجعل أحدهما وصفاً للآخر ؛ فكأنه قال : صاعقة الهون .

وهو كقولك : عندي علم اليقين ، وعندي العلم اليقين .

ويجوز أن يكون الهون اسماً مثل الدون ؛ يقال ؛ عذاب هون أي مُهين ؛ كما قال : ﴿ مَا لَبِثُواْ فِي العذاب المهين ﴾ [سبأ : 14] .

وقيل : أي صاعقة العذاب ذي الهون .

﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من تكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقة ، على ما تقدّم .

﴿ وَنَجَّيْنَا الذين آمَنُواْ ﴾ يعني صالحاً ومن آمن به ؛ أي ميزناهم عن الكفار ، فلم يحلّ بهم ما حلّ بالكفار ، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمني قومك وكفارهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 15 صـ ﴾

(213/680)

وقال أبو حيان :

﴿ فإن أعرضوا ﴾ :

التفات خرج من ضمير الخطاب في قوله : ﴿ قل أئنكم لتكفرون ﴾ إلى ضمير الغيبة إعراضاً عن خطابهم ، إذ كانوا قد ذكروا بما يقتضي إقبالهم وإيمانهم من الحجج الدالة على الوحدانية والقدرة الباهرة ، ﴿ فقل أنذرتكم ﴾ : أي أعلمتكم ، ﴿ صاعقة ﴾ أي حلول صاعقة .

قال قتادة : عذاباً مثل عذاب عاد وثمود .

وقال الزمخشري : عذاباً شديد الوقع ، كأنه صاعقة .

وقرأ الجمهور : ﴿ صاعقة مثل صاعقة ﴾ ، وابن الزبير ، والسلمي ، والنخعي ، وابن محيصن : بغير ألف فيهما وسكون العين ، وتقدم تفسيرها في أوائل البقرة .

والصعقة : المرة ، يقال : صعقته الصاعقة فصعق ، وهو من باب فعلت بفتح العين ، ففعل بكسرها نحو : خدعته فخدع ، وإذ معمولة لصاعقة لأن معناها العذاب .

﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ ، قال ابن عباس : أي قبلهم وبعدهم ، أي قبل هود وصالح وبعدهما .

وقيل : من أرسل إلى آبائهم ومن أرسل إليهم ؛ فيكون ﴿ من بين أيديهم ﴾ معناه : من قبلهم ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ معناه : الرسل الذين بحضرتهم .

فالضمير في من خلقهم عائد على الرسل ، قاله الضحاك ، وتبعه الفراء ، وسيأتي عن الطبري نحو من هذا القول .

وقال ابن عطية : ﴿ من بين أيديهم ﴾ : أي تقدموا في الزمن واتصلت نذارتهم إلى أعمار عاد وثمود ، وبهذا الاتصال قامت الحجة .

﴿ ومن خلفهم ﴾ : أي جاءهم رسول بعد تقدم وجودهم في الزمن ، وجاء من مجموع العبارة إقامة الحجة عليهم في أن الرسالة والنذارة عمتهم خبر ومباشرة .

انتهى ، وهو شرح كلام ابن عباس .

وقال الزمخشري : ﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ : أي آتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض .

كما حكى الله عن الشيطان : ﴿ لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ أي لآتينهم من كل جهة ، ولأعملن فيهم كل حيلة .

(214/680)

وعن الحسن : أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة ، لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاؤوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما جرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجري عليهم . انتهى .

وقال الطبري : الضمير في قوله : ﴿ ومن خلفهم ﴾ عائد على الرسل ، وفي : ﴿ من بين أيديهم ﴾ عائد على الأمم ، وفيه خروج عن الظاهر في تفريق الضمائر وتعمية المعنى ، إذ يصير التقدير : جاءتهم الرسل من بين أيديهم وجاءتهم من خلف الرسل ، أي من خلف أنفسهم ، وهذا معنى لا يتعقل إلا إن كان الضمير يعود في خلفهم على الرسل لفظاً ، وهو يعود على رسل أخرى معنى ، فكأنه قال : جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلف رسل آخرين ، فيكون كقولهم : عندي درهم ونصفه ، أي ونصف درهم آخر ، وهذا فيه بعد .

وخص بالذكر من الأمم المهلكة عاد وثمود لعلم قريش بحالهما ، ولوقوعهم على بلادهم في اليمن وفي الحجر ، وقال الأفوه الأودي :

أضحوا كقيل بن عنز في عشيرته . . .

إذ أهلكت بالذي سدى لها عاد

أو بعده كقدار حين تابعه . . .

على الغواية أقوام فقد بادوا

﴿ أن لا تعبدوا ﴾ : يصح أن تكون أن تفسيرية ، لأن مجيء الرسل إليهم يتضمن معنى القول ، أي جاءتهم مخاطبة ؛ وأن تكون مخففة من الثقيلة ، أي بأنه لا تعبدوا ، والناصبة للمضارع ، ووصلت بالنهي كما توصل بإلا ، وفي نحو : ﴿ أن طهر ﴾ وكتبت إليه بأن قم ، ولا في هذه إلا وجه للنهي .

ويجوز على بعد أن تكون لا نافية ، وأن ناصبة للفعل ، وقاله الحوفي ولم يذكر غيره .

ومفعول شاء محذوف ، وقدره الزمخشري : لو شاء ربنا إرسال الرسل لأنزل ملائكة .

انتهى .

(215/680)

وتتبعت ما جاء في القرآن وكلام العرب من هذا التركيب فوجدته لا يكون محذوفاً إلا من جنس الجواب ، نحو قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ أي لو شاء جمعهم

على الهدى لجمعهم عليه ، وكذلك : ﴿ لو نشاء لجعناه حطاماً ﴾ ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ ﴿ ولو شاء ربك لآمن ﴾ ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ قال الشاعر :

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد . . .

ولو شاء ربي كنت عمر بن مرثد

وقال الراجز :

واللذ لو شاء لكنت صخراً . . .

أو جبلاً أشم مشمخرا

فعلى هذا الذي تقرر ، لا يكون تقدير المحذوف ما قاله الزمخشري ، وإنما التقدير : لو شاء ربنا إنزال ملائكة بالرسالة منه إلى الإنس لأنزلهم بها إليهم ، وهذا أبلغ في الامتناع من إرسال البشر ، إذ علقوا ذلك بأقوال الملائكة ، وهو لم يشأ ذلك ، فكيف يشاء ذلك في البشر ؟ ﴿ فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ : خطاب لهود وصالح ومن دعا من الأنبياء إلى الإيمان ، وغلب الخطاب على الغيبة ، نحو قولك : أنت وزيد تقومان .

وما مصدرية ، أي بإرسالكم ، وبه توكيد لذلك .

ويجوز أن يكون ما بمعنى الذي ، والضمير في به عائد عليه ، وإذا كفروا بما تضمنه الإرسال ، كان كفراً بالإرسال .

وليس قوله : ﴿ بما أرسلتم ﴾ إقراراً بالإرسال ، بل هو على سبيل التهكم ، أي بما أرسلتم على زعمكم ، كما قال فرعون : ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ ولما بين تعالى كفر عاد وثمود على الإجمال ، فصل بعد ذلك ، فذكر خاصية كل واحدة من الطائفتين .

فقال : ﴿ فأما عاد فاستكبروا ﴾ : أي تعاظموا عن امتثال أمر الله وعن ما جاءتهم به الرسل ، ﴿ بغير الحق ﴾ : أي بغير ما يستحقون .

ولما ذكر لهم هذا الذنب العظيم ، وهو الاستكبار ، وكان فعلاً قلبياً ، ذكر ما ظهر عليهم من الفعل اللساني المعبر عن ما في القلب ، ﴿ وقالوا من أشد منا قوة ﴾ : أي لا أحد أشد منا ، وذلك لما أعطاهم الله من عظم الخلق وشدة البطش .

(216/680)

فرد الله تعالى عليهم بأن الذي أعطاهم ذلك هو أشد منهم قوة ، ومع علمهم بآيات الله ، كانوا يجحدونها ولا يعترفون بها ، كما يجحد المودع الوديعة من طالبها مع معرفته بها .

ولفظه كان في كثير من الاستعمال تشعر بالمداومة ، وعبر بالقوة عن القدرة ، فكما يقال : الله أقدر منهم ، يقال : الله أقوى منهم .

فالقدرتان بينهما قدر مشترك ، وإن تباينت القدرتان بما لكل منهما من الخاصة .

كما يوصف الله تعالى بالعلم ، ويوصف الإنسان بالعلم .

ثم ذكر تعالى ما أصاب به عاداً فقال : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ في الحديث : " أنه تعالى أمر خزنة الريح ففتحوا عليهم قدر حلقة الخاتم ، ولو فتحوا قدر منخر الثور لهلكت الدنيا " وروي أنها كانت تحمل العير بأوقادها ، فترميهم في البحر .

والصرصر ، قال مجاهد : شديدة السموم .

وقال ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي : من الصر ، أي باردة .

وقال السدي أيضاً ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والطبري ، وجماعة : من صرصر إذا صوت .

وقال ابن الكسيت : صرصر ، يجوز أن يكون من الصرة ، وهي الصيحة ، ومنه : ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ وصرصر : نهر بالعراق .

وقرأ الحرميان ، وأبو عمرو ، والنخعي ، وعيسى ، والأعرج نحسات ، بسكون الحاء ، فاحتمل أن يكون مصدراً وصف به وتارة يضاف إليه ، واحتمل أن يكون مخففاً من فعل .

وقال الطبري : نحس ونحس : مقت .

وقال الزمخشري : مخفف نحس ، أو صفة على فعل ، أو وصف بمصدر . انتهى .

وتتبعت ما ذكره التصريفيون مما جاء صفة من فعل اللازم فلم يذكروا فيه فعلاً بسكون العين

، قالوا : يأتي على فعل كفرح وهو فرح ، وعلى أفعل حور فهو أحور ، وعلى فعلان شبع فهو شبعان ، وقد يجيء على فاعل سلم فهو سالم ، وبلى فهو بال .

(217/680)

وقرأ قتادة ، وأبو رجاء ، والجحدري ، وشيبة ، وأبو جعفر ، والأعمش ، وباقي السبعة : بكسر الحاء وهو القياس ، وفعله نحس على فعل بكسر العين ، ونحسات صفة لأيام جمع بألف وتاء ، لأنه جمع صفة لما لا يعقل .

قال مجاهد ، وقتادة ، والسدّي : مشائيم من النحس المعروف .

وقال الضحاك : شديدة البرد ، وحتى كان البرد عذاباً لهم .

وأنشد الأصمعي في النحس بمعنى البرد :

كأن سلافة عرضت بنحس . . .

يخيل شقيقها الماء الزلالا

وقيل : سميت بذلك لأنها ذات غبار ، ومنه قول الراجز :

قد اغتدي قبل طلوع الشمس . . .

للصيد في يوم قليل النحس

يريد : قليل الغبار .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : متتابعات كانت آخر شوال من أربعاء إلى أربعاء .

وقال السدّي : أولها غداة يوم الأحد .

وقال الربيع بن أنس : يوم الجمعة .

وقال يحيى بن سلام : يوم الأحد .

﴿ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴾ : وهو الهلاك .

وقرىء : لتذيقهم بالتاء .

وقال الزمخشري : على الإذاقة للريح ، أو للأيام النحسات .

وأضاف العذاب إلى الخزي إضافة الموصوف إلى صفته لم يأت بلفظة أخرى التي تقتضي المشاركة والتفصيل خبراً عن قوله : ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ ، وهو إسناد مجازي ، أو وصف العذاب بالخزي أبلغ من وصفهم به .

ألا ترى تفاوت ما بين قولك : هو شاعر ، وقوله : له شعر شاعر ؟ وقابل استكبارهم بعذاب الخزي ، وهو الذل والهوان .

وبدأ بقصة عاد ، لأنها أقدم زماناً ، ثم ذكر ثمود فقال : ﴿ وأما ثمود ﴾ .

وقرأ الجمهور : بالرفع ممنوع من الصرف ؛ وابن وثاب ، والأعمش ، وبكر بن حبيب : مصروفاً ، وهي قراءة ابن وثاب ، والأعمش في ثمود بالتنوين في جميع القرآن إلا قوله : ﴿

وآتينا ثمود الناقة ﴾ لأنه في المصحف بغير ألف .

وقرىء : ثمود بالنصب ممنوعاً من الصرف ، والحسن ، وابن أبي إسحاق ، والأعمش : ثموداً منونة منصوبة .

وروى المفضل عن عاصم الوجهين . انتهى .

(218/680)

﴿ فهديناهم ﴾ ، قال ابن عباس ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد : بينا لهم .

قال ابن عطية : وليس الهدى هنا بمعنى الإرشاد .

وقال الفراء ، وتبعه الزمخشري : فهديناهم : فذللناهم على طريق الضلالة والرشد ، كقوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ : فاختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد .

فإن قلت : أليس معنى هديته : حصلت فيه الهدى ، الدليل عليه قولك : هديته فاهتدى بمعنى تحصيل البغية وحصولها ؟ كما تقول : ردعته فارتدع ، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة ؟ قلت : للدلالة على أنه مكنهم وأزاح عللهم ولم يبق لهم عذر ولا علة ، فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها .

انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

وقال سفيان : دعوناهم .

وقال ابن زيد : أعلمناهم الهدى من الضلال .

وقال ابن عطية : فاستحبوا عبارة عن تكسبهم في العمى ، وإلا فهو بالاختراع الله ، ويدلك على أنها إشارة إلى تكسبهم قوله : ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ . انتهى .

والهون : الهوان ، وصف العذاب بالمصدر أو أبدل منه .

.

وقرأ ابن مقسم : عذاب الهوان ، بفتح الهاء وألف بعد الواو .

وقال الزمخشري : ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها (صلى الله عليه وسلم) وكفى به شاهداً إلا هذه ، لكفى بها حجة .

انتهى ، على عادته في سب أهل السنة .

ثم ذكر قريشاً بنجاة من آمن واتقى .

قيل : وكان من نجا من المؤمنين ممن استجاب هود وصالح مائة وعشرة أنفس . انتهى انتهى .

اهـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(219/680)

وقال أبو السعود :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾

(220/680)

متصلٌ بقولِه تعالَى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ ﴾ الخ أي فإنْ أعرضُوا عن التدبرِ فيما ذُكِرَ من عظائمِ الأمورِ الداعيةِ إلى الإيمانِ أو عن الإيمانِ بعد هذا البيانِ ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ أَنذَرْتُكُمْ ﴾ أي أنذركُم وصيغةُ الماضِي للدلالةِ على تحقيقِ الإنذارِ المنبىءِ عن تحقيقِ المنذَرِ به ﴿ صاعقة ﴾ أي عذاباً هائلاً شديدَ الوقعِ كأنه صاعقةٌ ﴿ مِّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وقُرِىءَ صعقةً مثلَ صعقةِ عادٍ وثمودٍ وهي المرةُ من الصعْقِ أو الصَّعَقُ يقالَ صعقَتْهُ الصاعقةُ صعْقاً فصَعِقَ صعْقاً وهو من باب فعلته ففَعِلَ ﴿ إِذْ جَاءتْهُمُ الرسل ﴾ حَالٌ منْ صَاعقةِ عادٍ ولا سَدادَ لجعلِه ظرفاً لأنذرتكُم أو صفةً لصاعقةً لفسادِ المَعنْى وأما جعلُه صفةً لصاعقةِ عادٍ أي الكائنةِ إذْ جاءتْهُم ففيهِ حذفُ الموصولِ مع بعضِ صلتِه ﴿ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ متعلقٌ بجاءتْهم أي من جميعِ جوانبِهم واجتهدُوا بهم من كلِّ جهةٍ أو من جهةِ الزمانِ الماضِي بالإنذارِ عما جَرى فيهِ على الكفارِ ومن جهةِ المستقبل بالتحذيرِ

عما سيحيقُ بهم من عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ وقيلَ المَعْنى جاءتْهم الرسلُ المتقدمونَ وَالمتأخرونَ على تنزيلِ مجيءِ كلامِهم ودعوتِهم إلى الحقِّ منزلةَ مجيءِ أنفسِهم فإنَّ هُوداً وصَالحاً كانا داعيينِ لهُم إلى الإيمانِ بهما وبجميعِ الرسلِ ممن جاءَ من بينِ أيديهم أي من قبلِهم وممن يجيءُ من خلفِهم أي من بعدِهم فكأنَّ الرسلَ قد جاءُوهم وخاطبُوهم بقولِه تعالى : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ الله ﴾ أي بأنْ لا تعبدُوا على أَنَّ أنْ مصدريةٌ أو أن لا تعبدُوا على أنَّها مفسرةٌ ﴿ قَالُواْ لَوْ شَاء رَبُّنَا ﴾ أي إرسالَ الرسلِ لا إنزالَ الملائكةِ كما قيل فإنه عارٍ عن إفادةِ ما أرادُوه منْ نفي رسالةِ البشرِ وقد مرَّ فيما سلفَ ﴿ لاَنزَلَ ملائكة ﴾ أي لأرسلَهُم لكنْ لما كانَ إرسالُهم بطريقِ

(221/680)

الإنزالِ قيل لأنزلَ ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ أي على زعمِكم وفيه ضربُ تهكمٍ بهم ﴿ كافرون ﴾ لِما أنَّكم بشرٌ مثلُنا من غيرِ فضلٍ لكُم علينا . رُوِيَ أنَّ أبا جهلٍ قالَ في ملأٍ من قُريشٍ : قد التبسَ علينا أمرُ محمدٍ فلو التمستُم لنا رجلاً عالماً بالشعرِ والكهانةِ والسحرِ فكلَّمه ثم أتانَا ببيانٍ من أمرِه فقالَ عتبةُ بنُ ربيعةَ واللهِ لقد سمعتُ الشعرَ والكهانةَ والسحرَ وعلمتُ من ذلكَ علماً وما يَخْفي عليَّ فأتاهُ فقالَ أنتَ يا محمدُ خيرٌ أَمْ هاشمٌ أنتَ خيرٌ أمْ

عبدُ المطلبِ أنت خيرٌ أم عبدُ اللَّهِ فيمَ تشتمُ آلهتَنا وتضللنَا فإنْ كنتَ تريدُ الرياسةَ عقدنَا لكَ اللواءَ فكنتَ رئيساً وإن تكُ بكَ الباءةُ زوجناكَ عشرَ نسوةٍ تختارهُنَّ أيَّ بناتِ قريشٍ شئتَ وإنْ كانَ بكَ المالُ جمعنَا لكَ ما تستغِني ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ساكتٌ فلما فرغَ عتبةُ قالَ عليه الصلاةُ والسلامُ : بسم الله الرحمن الرحيمِ حم إلى قولِه تعالى : ﴿ مِّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فأمسكَ عتبةُ على فيهِ عليه الصلاةُ والسلامُ وناشدَهُ بالرحمَ ورجعَ إلى أهلِه ولم يخرجْ إلى قريشٍ فلما احتبسَ عنْهُم قالُوا ما نَرى عتبةَ إلا قدْ صبأَ فانطلقُوا إليه وقالُوا يا عتبةُ ما حبسكَ عَنَّا إلا أنكَ قد صبأتَ فغضبَ ثم قال والله لقد كلَّمتُه فأجابني بشيءٍ والله ما هو بشعرٍ ولا كهانةٍ ولا سحرٍ ولما بلغَ صاعقةَ عادٍ وثمودَ أمسكتُ بفيه وناشدتُه بالرحم أنْ يكفَّ وقد علمتُم أن محمداً إذا قالَ شيئاً لم يكذبْ فخفتُ أن ينزلَ بكُم العذابُ .

(222/680)

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فاستكبروا فِى الأرض ﴾ شروعٌ في حكايةِ ما يخصُّ بكلِّ واحدةٍ من الطائفتينِ من الجنايةِ والعذابِ إثرَ حكايةِ ما يعمُّ الكلَّ من الكفرِ المطلقِ أي فتعظمُوا فيها على أهلِها أو استعلَوا فيها واستولَوا على أهلِها ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ أي بغيرِ استحقاقٍ

للتعظيمِ والولايةِ ﴿ وَقَالُواْ ﴾ مدلين بشدّتهم وقوّتهم ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ حيثُ كانُوا ذوي أجسامٍ طوالٍ وخَلْقٍ عظيمٍ وقد بلغَ من قوتهم أنَّ الرجلَ كان ينزعُ الصخرةَ من الجبلِ فيقتلعها بيدِه ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أي أغفلُوا أو ألم ينظرُوا ولم يعلمُوا علماً جلياً شبيهاً بالمشاهدةِ والعيانِ ﴿ أَنَّ الله الذى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي قدرةً فإنه تعالَى قادرٌ بالذاتِ مقتدرٌ على ما لا يتناهى قويٌّ على ما لا يَقدرُ عليهِ غيرُه مفيضٌ للقُوى والقُدرِ على كُلِّ قوي وقادرٍ وإنما أوردَ في حيزِ الصلةِ خلقَهم دونَ خلقِ السمواتِ والأرضِ لادّعائِهم الشدةَ في القوةِ وفيه ضربٌ من التهكمِ بهم ﴿ وَكَانُواْ بآياتنا ﴾ المنزلةِ على الرُّسلِ ﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ أي ينكرونَها وهم يعرفونَ حقيقتَها وهو عطفٌ على فاستكبرُوا كقولِه تعالَى وقالُوا وما بينَهمَا اعتراضٌ للردِّ على كلمتِهم الشنعاءِ ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ أي باردةً تهلكُ وتحرقُ بشدةِ بردِها من الصِرِّ وهو البردُ الذي يصِرُّ أي يجمعُ ويقبضُ ، أو عاصفةً تصوّتُ في هبوبِها من الصريرِ ﴿ فِى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ جمعُ نَحِسةٍ من نَحِس نَحْساً نقيضُ سَعِدَ سَعْداً . وقُرِىءَ بالسكونِ على التخفيفِ أو على أنه نعتٌ على فَعْلٍ أو وصفٌ بمصدرٍ مبالغةً . قيل كُنَّ آخرَ شوالٍ منَ الأربعاءِ إلى الأربعاءِ وما عذبَ قومٌ إلا في يومِ الأربعاءِ ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخزى فِى الحياة الدنيا ﴾ وقُرِىءَ لتُذيقَهمُ على إسنادِ الإذاقةِ إلى الريحِ أو إلى

الأيامِ وأُضيفَ العذابُ إلى الخزْيِ الذي هُو الذُّلُّ والاستكانةُ على أنه وصفٌ له كما يُعرِبُ عنه قولُه سبحانَهُ ﴿ وَلَعَذَابُ الأخرة أخزى ﴾ وهُو في الحقيقةِ وَصفٌ للمعذَّبِ وَقد وُصفَ به العذابُ للمبالغةِ ﴿ وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ بدفعِ العذابِ عنهم بوجهٍ من الوجوهِ . ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم ﴾ فدللناهُم على الحقِّ بنصبِ الآياتِ التكوينيةِ وإرسالِ الرسلِ وإنزالِ الآياتِ التشريعيةِ وأزحنَا عللَهمُ بالكليةِ وقد مرَّ تحقيقُ مَعنى الهُدى في تفسيرِ قولِه تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وقُرِىءَ ثمودَ بالنصبِ بفعلٍ يفسرُه ما بعدَهُ ومنوناً في الحالينِ وبضمِّ الثاءِ ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ أي اختارُوا الضلالةَ على الهدايةِ ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صاعقة العذاب الهون ﴾ داهيةُ العذابِ وقارعةُ العذابِ والهُونِ الهَوانُ وصفَ به العذابُ مبالغةً أو أُبدلَ منْهُ ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ منَ اختيارِ الضلالةِ ﴿ وَنَجَّيْنَا الذين ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ منْ تلكَ الصاعقةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 8 صـ ﴾

(224/680)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾

متصل بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ ﴾ الخ أي فإن أعرضوا عن التدبر فيما ذكر من عظائم الأمور الداعية إلى الايمان أو عن الايمان بعد هذا البيان ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم : ﴿ أَنذَرْتُكُمْ ﴾ أي أنذركم ، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الإنذار المنبىء عن تحقق المنذر ﴿ صاعقة مّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي عذاباً مثل عذابهم قاله قتادة ، وهو ظاهر على القول بأن الصاعقة تأتي في اللغة بمعنى العذاب ، ومنع ذلك بعضهم وجعل ما ذكر مجازاً ، والمراد عذاباً شديد الوقع كأنه صاعقة مثل صاعقتهم ، وأياً ما كان فالمراد أعلمتكم حلول صاعقة .

وقرأ ابن الزبير .

والسلمي .

وابن محيصن ﴿ صاعقة مّثْلَ صاعقة ﴾ بغير ألف فيهما وسكون العين وهي المرة من الصعق أو الصعق ويقال : صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً بالفتح أي هلك بالصاعقة المصيبة له .

﴿ إِذْ جَاءتْهُمُ الرسل ﴾ أي جاءت عاداً وثمود ففيه إطلاق الجمع على الإثنين وهو شائع وكذا ﴿ الرسل ﴾ وقيل : يحتمل أن يراد ما يعم رسول الرسول ، وجوز في الأول أن يكون

باعتبار أفراد القبيلتين ، وذكروا في ﴿ إِذْ ﴾ أوجها من الإعراب .

الأول : أنه ظرف لأنذرتكم .

الثاني : أنه صفة لصاعقة الأولى ، وأورد عليهما لزوم كون إنذاره عليه الصلاة والسلام والصاعقة التي أنذر بها واقعين في وقت مجيء الرسل عاداً وثمود وليس كذلك .

الثالث : أنه صفة لصاعقة الثانية ، وتعقب بأنه يلزم عليه حذف الموصول مع بعض صلته وهو غير جائز عند البصريين أو وصف المعرفة بالنكرة .

الرابع : واختاره أبو حيان أن معمول لصاعقة عاد وثمود بناء على أن المراد بها العذاب وإلا فهي بالمعنى المعروف جثة لا يتعلق بها الظرف وفيه شيء لا يخفى .

(225/680)

الخامس : واختاره غير واحد أنه حال منها لأنها معرفة بالإضافة ، وبعضهم يجوز كونه حالاً من الأولى أيضاً لتخصصها بالوصف بالمتخصص بالإضافة فتكون الأوجه ستة ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ متعلق بجاءتهم ، والضمير المضاف إليه لعاد وثمود ، والجهتان كناية عن جميع الجهات على ما عرف في مثله أي أتتهم الرسل من جمع جهاتهم ، والمراد بإتيانهم من جميع الجهات بذل الوسع في دعوتهم على طريق الكناية ويجوز

أن يراد بما بين أيديهم الزمن الماضي وبما خلفهم المستقبل وبالعكس واستعير فيه ظرف المكان للزمان والمراد جاؤهم بالإنذار عما جرى على أمثالهم الكفرة في الماضي وبالتحذير عما سيحيق بهم في الآخرة .

وروى هذا عن الحسن ، وجوز كون الضمير المضاف إليه للرسل والمراد جاءتهم الرسل المتقدمون والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم إلى الحق منزلة مجيء أنفسهم فإن هوداً .

وصالحاً كانا داعيين لهم إلى الايمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم وممن يجيء من خلفهم فكأن الرسل قد جاؤهم وخاطبوهم بقوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾

وروى هذا الوجه عن ابن عباس .

والضحاك ، وإليه ذهب الفراء .

ونص بعض الأجلة على أن ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ عليه حال من الرسل لا متعلق بجاءتهم ، وجمع الرسل عليه ظاهر ، وقيل : يحتمل أن يكون كون الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم كناية عن الكثرة كقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [النحل : 112]

وقال الطبري : الضمير في قوله تعالى : ﴿ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ لعاد .

وثمود وفي قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ للرسل وتعقبه في "البحر" بأن فيه خروجاً عن الظاهر في تفريق الضمائر وتعمية المعنى إذ يصير التقدير جاءتهم الرسل من بين أيديهم وجاءتهم من خلف الرسل أي من خلف أنفسهم ، وهذا معنى لا يتعقل إلا أن كان الضمير عائداً في ﴿ مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ على الرسل لفظاً وهو عائد على رسل آخرين معنى فكأنه قيل : جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلف رسل آخرين فيكون كقولهم : عندي درهم ونصفه أي ونصف درهم آخر ، وبعده لا يخفى .

وخص بالذكر من الأمم المهلكة عاد وثمود لعلم قريش بحالهما ولوقوفهم على بلادهم في اليمن والحجر ، و﴿ إن ﴾ يصح أن تكون مفسرة لمجيء الرسل لأنه بالوحي وبالشرائع فيتضمن معنى القول و﴿ لا ﴾ ناهية وأن تكون مصدرية ولا ناهية أيضاً ، والمصدرية قد توصل بالنهي كما توصل بالأمر على كلام فيه ، وجعل الحوفي ﴿ لا ﴾ نافية و﴿ إن ﴾ ناصبة للفعل ، وقيل : إنها المخففة من الثقيلة ومعها ضمير شأن محذوف ، وأورد عليها أنها إنما تقع بعد أفعال اليقين وإن خبر باب أن لا يكون طلباً إلا بتأويل ، وقد يدفع بأنه بتقدير القول وإن مجيء الرسل كالوحي معنى فيكون مثله في وقوع أن بعده لتضمنه ما يفيد اليقين كما أشار إليه الرضى وغيره ، ولا يخفى ما فيه من التكلف المستغني عنه ؛ وعلى احتمال كونا مصدرية وكونها مخففة يكون الكلام بتقدير حرف الجر أي بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿

قَالُواْ لَوْ شَاء رَبُّنَا ﴾ مفعول المشيئة محذوف وقدره الزمخشري إرسال الرسل أي لو شاء ربنا إرسال الرسل ﴿ لأنزَلَ ملائكة ﴾ أي لأرسلهم لكن لما كان إرسالهم بطريق الإنذار قيل : لأنزل ، قيل : ولم يقدر إنزال الملائكة بناء على أن الشائع تقدير مفعول المشيئة بعد لو الشرطية من مضمون الشرط لأنه عار عن إفادة ما أرادوه من نفي إرساله تعالى البشر والشائع غير مطرد ، وقال أبو حيان .

(227/680)

إنما التقدير لو شاء ربنا إنزال ملائكة بالرسالة منه إلى الإنس لأنزلهم بها إليهم ، وهذا أبلغ في الامتناع من أرسال البشر إذ علقوا ذلك بإنزال الملائكة وهو سبحانه لم يشأ ذلك فكيف يشاؤه في البشر وهو وجه حسن .

﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ أي بالذي أرسلتم به على زعمكم ، وفيه ضرب تهكم بهم ﴿ كافرون ﴾ لما أنكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا ، والفاء فاء النتجية السببية فيكون في الكلام إيماء إلى قياس استثنائي أي لكنه لم ينزل ، ويجوز أن تكون تعليلية لشرطيتهم أي إنما قلنا ذلك لأنا منكرون لما أرسلتم به كما ننكر رسالتكم ، و﴿ مَا ﴾ كما أشرنا إليه موصولة ، وكونها مصدرية وضمير ﴿ بِهِ ﴾ لقولهم : ﴿ إِلا إله إِلاَّ الله ﴾ خلاف الظاهر

، أخرج البيهقي في "الدلائل" .

وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : قال أبو جهل والملأ من قريش قد التبس علينا أمر محمد صلى الله عليه وسلم فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره ، فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى عليّ إن كان كذلك فأتاه فقال له يا محمد أنت خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب ؟ فلم يجبه قال : فبم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك ، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك ، وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت لا يتكلم فلما فرغ قال عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فاستكبروا فِى الأرض ﴾ شروع في تفصيل ما لكل واحدة من الطائفتين من الجناية والعذاب ، ولتفرع التفصيل على الإجمال قرن بفاء السببية ، وبدىء بقصة عاد لأنها أقدم زماناً أي فأما عاد فتعظموا في الأرض التي لا ينبغي التعظيم فيها على أهلها ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ أي بغير استحقاق للتعظم .

(228/680)

وقيل : تعظموا عن امتثال أمر الله عز وجل وقبول ما جائتهم به الرسل ﴿ وَقَالُواْ ﴾ اغتراراً بقوتهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ أي لا أشد منا قوة فالاستفهام إنكاري ، وهذا بيان لاستحقاقهم العظمة وجواب الرسل عما خوفوهم به من العذاب ، وكانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل ويرفعها بيده ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ أي أغفلوا ولم ينظروا أو ولم يعلموا علماً جلياً شبيهاً بالمشاهدة والعيان ﴿ إِنَّ اللهَ خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ قدرة فإنه تعالى قادر بالذات مقتدر على ما لا يتناهى قوى على ما لا يقدر عليه غيره عز وجل مفيض للقوة والقدر على كل قوي وقادر ، وفي هذا إيماء إلى أن ما خوفهم به الرسل ليس من عند أنفسهم بناء على قوة منهم وإنما هو من الله تعالى خالق القوى والقدر وهم يعلمون أنه عز وجل أشد قوة منهم ، وتفسير القوة بالقدرة لأنه أحد معانيها كما يشير إليه كلام الراغب .

وزعم بعضهم أن القوة عرض ينزه الله تعالى عنه لكنها مستلزمة للقدرة فلذا عبر عنها بها مشاكلة .

وأورد في حيز الصلة ﴿ خَلْقَهُمْ ﴾ دون خلق السموات والأرض لادعائهم الشدة في القوة ، وفيه ضرب من التهكم بهم ﴿ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي ينكرونها وهم يعرفون حقيتها وهو عطف على ﴿ فاستكبروا ﴾ أو ﴿ قَالُواْ ﴾ فجملة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ الخ مع ما عطف هو عليه اعتراض ، وجوز أن يكون هو وحده اعتراضاً والواو اعتراضية لا

عاطفة .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾ قال مجاهد : شديدة السموم فهو من الصر بفتح الصاد بمعنى الحر ، وقال ابن عباس .

والضحاك وقتادة .

والسدي : باردة تهلك بشدة بردها من الصر بكسر الصاد وهو البرد الذي يصر أي يجمع ظاهر جلد الإنسان ويقبضه ؛ والأول أنسب لديار العرب ، وقال السدي أيضاً .

وأبو عبيدة .

وابن قتيبة .

والطبري .

(229/680)

وجماعة : مصوتة من صر يصر إذا صوت ، وقال ابن السكيت : صرصر يجوز أن يكون من الصرة وهي الصبيحة ومنه ﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِى صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات : 29] وفي الحديث أنه تعالى أمر خزنة الريح ففتحوا عليهم قدر حلقة الخاتم ولو فتحوا قدر منخر الثور لهلكت الدنيا ، وروى أنها كانت تحمل العير بأوقارها فترميهم في البحر ﴿ فِى أَيَّامٍ

نَّحِسَاتٍ ﴾ جمع نحسة بكسر الحاء صفة مشبهة من نحس نحساً كعلم علماً نقيض سعد سعداً .

وقرأ الحرميان .

وأبو عمرو .

والنخعي .

وعيسى والأعرج ﴿ نَّحِسَاتٍ ﴾ بسكون الحاء فاحتمل أن يكون مصدراً وصف به مبالغة ، واحتمل أن يكون صفة مخففاً من فعل كصعب .

وفي "البحر" تتبعت ما ذكره التصريفيون مما جاء صفة من فعل اللازم فلم يذكروا فيه فعلاً بسكون العين وإنما ذكروا فعلاً بالكسر كفرح وأفعل كأحور وفعلان كشبعان وفاعلاً كسالم ، وهو صفة ﴿ أَيَّامٍ ﴾ وجمع بالألف والتاء لأنه صفة لما لا يعقل ، والمراد بها مشائيم عليهم لما أنهم عذبوا فيها ، فاليوم الواحد يوصف بالنحس والسعد بالنسبة إلى شخصية فيقال له سعد بالنسبة إلى من ينعم فيه ، ويقال له نحس بالنسبة إلى من يعذب ، وليس هذا مما يزعمه الناس من خصوصيات الأوقات ، لكن ذكر الكرماني في مناسكه عن ابن عباس أنه قال : الأيام كلها لله تعالى لكنه سبحانه خلق بعضها نحوساً وبعضها سعوداً ، وتفسير ﴿ نَّحِسَاتٍ ﴾ بمشائيم مروى عن مجاهد .

وقتادة .

والسدي .

وقال الضحاك : أي شديدة البرد حتى كأن البرد عذاب لهم ، وأنشد الأصمعي في النحس بمعنى البرد :

كأن سلافه مزجت بنحس . . .

وقيل : نحسات ذوات غبار ، وإليه ذهب الجبائي ومنه قول الراجز :

قد اغتدى قبل طلوع الشمس . . .

للصيد في يوم قليل النحس

يريد قليل الغبار ، وكانت هذه الأيام من آخر شباط وتسمى أيام العجوز ، وكانت فيما روي عن ابن عباس .

ومجاهد .

(230/680)

وقتادة آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء ، وروى ما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء ، وقال السدي : أولها غداة يوم الأحد ، وقال الربيع بن أنس : يوم الجمعة ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخزى فِى الحياة الدنيا ﴾ أضيف العذاب إلى الخزي وهو الذل على قصد وصفه به لقوله تعالى :

﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أخزى ﴾ وهو في الأرض صفة المعذب وإنما وصف به العذاب على الإسناد المجازي للمبالغة ، فإنه يدل على أن ذل الكافر زاد حتى اتصف به عذابه كما قرر في قولهم : شعر شاعر ، وهذا في مقابلة استكبارهم وتعظمهم .

وقرىء ﴿ لتذيقهم ﴾ بالتاء على أن الفاعل ضمير الريح أو الأيام النحسات ﴿ أخزى وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم ﴾ قال ابن عباس .

وقتادة .

والسدي : أي بينا لهم ، وأرادوا بذلك على ما قيل بيان طريقي الضلالة والرشد كما في قوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : 10] وهو أنسب بقوله تعالى : ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ أي فاختاروا الضلالة على الهدى فالظاهر في أنه بين لهم الطريقان فاختاروا أحدهما ، وصرح ابن زيد بذلك فقد حكي عنه أنه قال : أي اعلمناهم الهدى من الضلال ، وفسر غير واحد الهداية هنا بالدلالة أي فدللناهم على الحق بنصب الحجج وإرسال الرسل فاختاروا الضلال ولم يفسروها بالدلالة الموصلة لإباء ظاهر ﴿ فاستحبوا ﴾ الخ عنه .

واستدل المعتزلة بهذه الآية على أن الإيمان باختيار العبد على الاستقلال بناءً على أن قوله

تعالى : ﴿ هديناهم ﴾ دل على نصب الأدلة وإزاحة العلة ، وقوله تعالى : ﴿ استحبوا العمى ﴾ الخ دل على أنهم بأنفسهم آثروا العمى .

(231/680)

والجواب كما في "الكشف" أن في لفظ الاستحباب ما يشعر بأن قدرة الله تعالى هي المؤثرة وأن لقدرة العبد مدخلاً ما فإن المحبة ليست اختيارية بالاتفاق وإيثار العمى حباً وهو الاستحباب من الاختيارية ، فانظر إلى هذه الدقيقة تر العجب العجاب ، وإلى نحوه أشار الإمام الداعي إلى الله تعالى قدس سره ، ومعنى كون المحبة ليست اختيارية أنها بعد حصول ما تتوقف عليه من أمور اختيارية تكون بجذب الطبيعة من غير اختيار للشخص في ميل قلبه وارتباط هواه بمن يحبه ، فهي نفسها غير اختيارية لكنها باعتبار مقدماتها اختيارية ، ولذلك كلفنا بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وفي طوق الحمامة لابن سعيد أن المحبة ميل روحاني طبيعي ، وإليه يشير قوله عز وجل : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : 189] أي يميل فجعل علة ميلها كونها منها ، وهو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام : " الأرواح جنود مجندة " وتكون المحبة لأمور أخر كالحسن والإحسان والكمال ، ولها آثار يطلق عليها محبة كالطاعة والتعظيم ،

وهذه هي التي يكلف بها لأنها اختيارية فاعرفه .

وقرأ ابن وثاب .

والأعمش .

وبكر بن حبيب ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ ﴾ بالرفع مصروفاً .

وقد قرأ الأعمش .

وابن وثاب بصرفه في جميع القرآن إلا في قوله تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة ﴾ [الإسراء : 59] لأنه في المصحف بغير ألف .

وقرأ ابن أبي إسحاق .

وابن هرمز بخلاف عنه .

والمفضل ، قال ابن عطية : والأعمش وعاصم .

وروي عن ابن عباس ﴿ ثمودا ﴾ بالنصب والتنوين ، وروى المفضل عن عاصم الوجهين والمنع عن الصرف للعلمية والتأنيث على إرادة القبيلة ، ومن صرفه جعله اسم رجل ، والنصب على جعله من باب الإضمار على شريطة التفسير ، ويقدر الفعل الناصب بعده لأن أما لا يليها في الغالب إلا اسم .

وقرىء بضم الثاء على أنه جمع ثمد وهو قلة الماء فكأنهم سموا بذلك لأنهم كانوا يسكنون في الرمال بين حضرموت وصنعاء وكانوا قليلي الماء ﴿ الهدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعقة العذاب الهون ﴾ أي الذي وهو صفة للعذاب أو بدل منه ، ووصفه به مصدراً للمبالغة وكذا إضافة صاعقة إلى العذاب فيفيد ذلك أن عذابهم عين الهون وأن له صاعقة ، والمراد بالصاعقة النار الخارجة من السحاب كما هو المعروف ، وسبب حدوثها العادي مشهور في كتب الفلسفة القديمة وقد تكلم في ذلك أهل الفلسفة الجديدة المتداولة اليوم في بلاد الروم وما قرب منها فقالوا في كيفية انفجار الصاعقة : من المعلوم أن انطلاق الكهربائية التي في السحاب وهي قوة مخصوصة في الأجسام نحو قوة الكهرباء التي بها تجذب التبنة ونحوها إليها إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهربائية السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية فتتبجس بينهما شرارة كهربائية فتصعق الأجسام الأرضية ، وتتفاوت قوة الصاعقة باختلاف الاستحالة البخارية فليست في جميع البلاد والفصول واحدة ، وأوضحوا ذلك بكلام طويل من أراده فليرجع إليه في كتبهم ، وقيل : المراد بالصاعقة هنا الصيحة كما ورد في آيات أخر ، ولا مانع من الجمع بينهما .

وقرأ ابن مقسم ﴿ الهوان ﴾ بفتح الهاء وألف بعد الواو ﴿ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

من اختيار الضلالة على الهدى ، وهذا تصريح بما تشعر به الفاء .

﴿ وَنَجَّيْنَا ﴾ من تلك الصاعقة ﴿ الذين ءامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ بسبب إيمانهم واستمرارهم على التقوى ، والمراد بها تقوى الله عز وجل ، وقيل : تقوى الصاعقة والمتقى عذاب الله تعالى متق لله سبحانه وليس بذاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 24 صـ ﴾

(233/680)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ حم ﴾

قد تقدم الكلام على إعرابه ، ومعناه في السورة التي قبل هذه السورة ، فلا نعيده ، وكذلك تقدّم الكلام على معنى : ﴿ تَنزِيلَ ﴾ ، وإعرابه .

قال الزجاج ، والأخفش : تنزيل مرفوع بالابتداء ، وخبره : ﴿ كتاب فُصّلَتْ ﴾ وقال الفراء : يجوز أن يكون على إضمار هذا ، ويجوز أن يقال : كتاب بدل من قوله تنزيل ، و ﴿ مّنَ الرحمن الرحيم ﴾ متعلق بتنزيل ، ومعنى : ﴿ فُصّلَتْ ءاياته ﴾ : بينت ، أو جعلت أساليب مختلفة ، قال قتادة : فصلت ببيان حلاله من حرامه ، وطاعته من معصيته .

وقال الحسن : بالوعد ، والوعيد .

وقال سفيان : بالثواب ، والعقاب ، ولا مانع من الحمل على الكل .

والجملة في محلّ نصب صفة لكتاب .

وقرىء : (فصلت) بالتخفيف ، أي : فرقت بين الحق ، والباطل .

وانتصاب ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً ﴾ على الحال ، أي : فصلت آياته حال كونه قرآناً عربياً .

وقال الأخفش : نصب على المدح .

وقيل : على المصدرية ، أي : يقرؤه قرآناً .

وقيل : مفعول ثانٍ لفصلت .

وقيل : على إضمار فعل يدل عليه فصلت ، أي : فصلناه قرآناً عربياً ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : يعلمون معانيه ، ويفهمونها وهم : أهل اللسان العربي .

قال الضحاك : أي يعلمون أن القرآن منزل من عند الله .

وقال مجاهد : أي يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل ، واللام متعلقة بمحذوف صفة أخرى لقرآن ، أي : كائناً لقوم ، أو متعلق بفصلت ، والأول أولى ، وكذلك ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ صفتان أخريان ل ﴿ قرآناً ﴾ ، أو حالان من كتاب ، والمعنى : بشيراً لأولياء الله ، ونذيراً لأعدائه .

وقرىء : (بشير ونذير) بالرفع على أنهما صفة لكتاب ، أو خبر مبتدأ محذوف ﴿

فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ المراد بالأكثر هنا : الكفار ، أي : فأعرض الكفار عما اشتمل عليه من النذارة ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ سماعاً ينتفعون به لإعراضهم عنه .

(234/680)

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ ﴾ أي : في أغطية مثل الكنانة التي فيها السهام ، فهي لا تفقه ما تقول ، ولا يصل إليها قولك ، والأكنة جمع كنان ، وهو : الغطاء ، قال مجاهد : الكنان للقلب كالجنة للنبل ، وقد تقدّم بيان هذا في البقرة ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أي : صمم ، وأصل الوقر الثقل .

وقرأ طلحة بن مصرف : (وقر) بكسر الواو .

وقرىء بفتح الواو والقاف ، و "من" في ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ لابتداء الغاية ، والمعنى : أن الحجاب ابتدأ منا ، وابتدأ منك ، فالمسافة المتوسطة بين جهتنا ، وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها ، وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق ، ومج أسماعهم له ، وامتناع المواصلة بينهم ، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فاعمل إِنَّنَا عاملون ﴾ أي : اعمل على دينك إننا عاملون على ديننا .

وقال الكلبي : اعمل في هلاكنا ، فإنا عاملون في هلاكك .

وقال مقاتل : اعمل لإلهك الذي أرسلك ، فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها .

وقيل : اعمل لآخرتك ، فإنا عاملون لدنيانا .

ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عن قولهم هذا ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ أي : إنما أنا كواحد منكم لولا الوحي ، ولم أكن من جنس مغاير لكم حتى تكون قلوبكم في أكنة مما أدعوكم إليه ، وفي آذانكم وقر ، ومن بيني ، وبينكم حجاب ، ولم أدعكم إلى ما يخالف العقل ، وإنما أدعوكم إلى التوحيد .

قرأ الجمهور : ﴿ يوحى ﴾ مبنيا للمفعول .

وقرأ الأعمش ، والنخعي مبنياً للفاعل ، أي : يوحي الله إليّ .

قيل : ومعنى الآية : إني لا أقدر على أن أحملكم على الإيمان قسراً ، فإني بشر مثلكم ، ولا امتياز لي عنكم إلاّ أني أوحى إليّ التوحيد ، والأمر به ، فعليّ البلاغ وحده ، فإن قبلتم رشدتم ، وإن أبيتم هلكتم .

وقيل : المعنى : إني لست بملك ، وإنما أنا بشر مثلكم ، وقد أوحي إليّ دونكم ، فصرت بالوحي نبياً ، ووجب عليكم اتباعي .

وقال الحسن في معنى الآية : إن الله سبحانه علم رسوله صلى الله عليه وسلم كيف يتواضع ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ ﴾ عدّاه بإلى لتضمنه معنى : توجهوا ، والمعنى : وجهوا استقامتكم إليه بالطاعة ، ولا تميلوا عن سبيله ﴿ واستغفروه ﴾ لما فرط منكم من الذنوب .

ثم هدّد المشركين ، وتوعدهم ، فقال : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ثم وصفهم بقوله : ﴿ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكواة ﴾ أي : يمنعونها ، ولا يخرجونها إلى الفقراء .

وقال الحسن ، وقتادة : لا يقرّون بوجوبها .

وقال الضحاك ، ومقاتل : لا يتصدقون ، ولا ينفقون في الطاعة .

وقيل : معنى الآية ، لا يشهدون أن لا إله إلاّ الله لأنها زكاة الأنفس ، وتطهيرها .

وقال الفراء : كان المشركون ينفقون النفقات ، ويسقون الحجيج ، ويطعمونهم ، فحرّموا ذلك على من آمن بمحمد ، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿ وَهُمْ بالأخرة هُمْ كافرون ﴾ معطوف على لا يؤتون داخل معه في حيز الصلة ، أي : منكرون للآخرة جاحدون لها ، والمجيء بضمير الفصل لقصد الحصر ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي : غير مقطوع عنهم ، يقال : مننت الحبل : إذا قطعته ، ومنه قول الأصبغ الأودي :

إني لعمرك ما بابي بذي غلق . . . على الصديق ولا خيري بممنون

وقيل : الممنون المنقوص ، قاله قطرب ، وأنشد قول زهير :

فضل الجواد على الخيل البطاء فلا . . . يعطى بذلك ممنوناً ولا نزقاً

قال الجوهري : المنّ القطع ، ويقال : النقص ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ، وقال لبيد :

غبس كواسب لا يمنّ طعامها . . . وقال مجاهد : غير ممنون : غير محسوب .

وقيل : معنى الآية : لا يمن عليهم به لأنه إنما يمنّ بالتفضل ، فأما الأجر ، فحقّ أداؤه .

(236/680)

وقال السدّي : نزلت في المرضى ، والزمنى ، والهرمى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصحّ ما كانوا يعملون فيه .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوبخهم ، ويقرعهم ، فقال : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذى خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ ﴾ أي : لتكفرون بمن شأنه هذا الشأن العظيم ، وقدرته هذه القدرة الباهرة .

قيل : اليومان هما يوم الأحد ، ويوم الاثنين .

وقيل : المراد مقدار يومين ، لأن اليوم الحقيقي إنما يتحقق بعد وجود الأرض ، والسماء .

قرأ الجمهور : ﴿ أئنكم ﴾ بهمزتين الثانية بين بين ، وقرأ ابن كثير بهمزة ، وبعدها ياء

خفيفة ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ﴾ أي : أضداداً ، وشركاء ، والجملة معطوفة على تكفرون داخلة تحت الاستفهام ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الموصول المتصف بما ذكر ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ رَبّ العالمين ﴾ ، ومن جملة العالمين ما تجعلونها أنداداً لله ، فكيف تجعلون بعض مخلوقاته شركاء له في عبادته ، وقوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ معطوف على خلق ، أي : كيف تكفرون بالذي خلق الأرض ، وجعل فيها رواسي ، أي : جبالاً ثوابت من فوقها .

وقيل : جملة ، وجعل فيها رواسي مستأنفة غير معطوفة على خلق لوقوع الفصل بينهما بالأجنبي .

والأوّل أولى لأن الجملة الفاصلة هي مقررة لمضمون ما قبلها ، فكانت بمنزلة التأكيد ، ومعنى ﴿ مّن فَوْقِهَا ﴾ : أنها مرتفعة عليها لأنها من أجزاء الأرض ، وإنما خالفتها باعتبار الارتفاع ، فكانت من هذه الحيثية كالمغايرة لها ﴿ وبارك فِيهَا ﴾ أي : جعلها مباركة كثيرة الخير بما خلق فيها من المنافع للعباد .

قال السدي : أنبت فيها شجرها ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ قال قتادة ، ومجاهد : خلق فيها أنهارها ، وأشجارها ، ودوابها ، وقال الحسن ، وعكرمة ، والضحاك : قدّر فيها أرزاق أهلها ، وما يصلح لمعايشهم من التجارات ، والأشجار ، والمنافع ، جعل في كلّ بلد ما لم يجعله في الأخرى ؛ ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة ، والأسفار من بلد إلى بلد ، ومعنى ﴿ فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أي : في تتمة أربعة أيام باليومين المتقدّمين .

قاله الزجاج ، وغيره .

قال ابن الأنباري : ومثاله قول القائل : خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام ، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً ، أي : في تتمة خمسة عشر يوماً ، فيكون المعنى : أن حصول جميع ما تقدّم من خلق الأرض ، وما بعدها في أربعة أيام .

وانتصاب ﴿ سَوَآء ﴾ على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف هو صفة للأيام ، أي : استوت سواء بمعنى : استواء ، ويجوز أن يكون منتصباً على الحال من الأرض ، أو من الضمائر الراجعة إليها .

قرأ الجمهور بنصب : ﴿ سواء ﴾ ، وقرأ زيد بن علي ، والحسن ، وابن أبي إسحاق ، وعيسى ، ويعقوب ، وعمرو بن عبيد بخفضه على أنه صفة لأيام .

وقرأ أبو جعفر برفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف .

قال الحسن : المعنى في أربعة أيام مستوية تامة ، وقوله : ﴿ لّلسَّآئِلِينَ ﴾ متعلق بسواء ، أي

: مستويات للسائلين ، أو بمحذوف كأنه قيل : هذا الحصر للسائلين في كم خلقت الأرض ، وما فيها ؟ أو متعلق بقدّر ، أي : قدّر فيها أقواتها لأجل الطالبين المحتاجين إليها .

قال الفراء : في الكلام تقديم ، وتأخير ، والمعنى : وقدّر فيها أقواتها سواء للمحتاجين في أربعة أيام ، واختار هذا ابن جرير .

ثم لما ذكر سبحانه خلق الأرض ، وما فيها ذكر كيفية خلقه للسماوات ، فقال : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء ﴾ أي : عمد ، وقصد نحوها قصداً سوياً .

(238/680)

قال الرازي : هو من قولهم : استوى إلى مكان كذا : إذا توجه إليه توجهاً لا يلتفت معه إلى عمل آخر ، وهو من الاستواء الذي هو ضدّ الاعوجاج ، ونظيره قولهم : استقام إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فاستقيموا إِلَيْهِ ﴾ والمعنى : ثم دعاه داعي الحكمة إلى خلق السماوات بعد خلق الأرض ، وما فيها .

قال الحسن : معنى الآية : صعد أمره إلى السماء ﴿ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ الدخان ما ارتفع من لهب النار ، ويستعار لما يرى من بخار الأرض .

قال المفسرون : هذا الدخان هو : بخار الماء ، وخصّ سبحانه الاستواء إلى السماء مع

كون الخطاب المترتب على ذلك متوجهاً إليها ، وإلى الأرض كما يفيده قوله : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ استغناء بما تقدّم من ذكر تقديرها ، وتقدير ما فيها ، ومعنى ائتيا : افعلا ما آمركما به ، وجيئا به ، كما يقال : ائت ما هو الأحسن أي : افعله .

قال الواحدي : قال المفسرون : إن الله سبحانه قال : أما أنت يا سماء ، فاطلعي شمسك ، وقمرك ، ونجومك ، وأما أنت يا أرض ، فشققي أنهارك ، وأخرجي ثمارك ، ونباتك .

قرأ الجمهور : ﴿ ائتيا ﴾ أمراً من الإتيان .

وقرأ ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد : (آتيا) قالتا : آتينا بالمدّ فيهما ، وهو إما من المؤاتاة ، وهي : الموافقة ، أي : لتوافق كلّ منكما الأخرى ، أو من الإيتاء ، وهو : الإعطاء ، فوزنه على الأوّل فاعلاً كقاتلاً ، وعلى الثاني افعلا كأكرما ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ مصدران في موضع الحال ، أي : طائعتين ، أو مكرهتين ، وقرأ الأعمش : (كرهاً) بالضمّ . قال الزجاج : أطيعا طاعة أو تكرهان كرهاً .

(239/680)

قيل : ومعنى هذا الأمر لهما التسخير ، أي : كونا ، فكانتا ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : 40] ، فالكلام من باب التمثيل لتأثير

قدرته ، واستحالة امتناعها ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ أي : أتينا أمرك منقادين ، وجمعهما جمع من يعقل لخطابهما بما يخاطب به العقلاء .

قال القرطبي : قال أكثر أهل العلم : إن الله سبحانه خلق فيهما الكلام ، فتكلمتا كما أراد سبحانه .

وقيل : هو تمثيل لظهور الطاعة منهما ، وتأثير القدرة الربانية فيهما ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ أي : خلقهنّ ، وأحكمهنّ ، وفرغ منهنّ ، كما في قول الشاعر :

وعليهما مسرودتان قضاهما . . . داود إذ صبغ السوابغ تبع

والضمير في : " قضاهنّ " إما راجع إلى السماء على المعنى ؛ لأنها سبع سماوات ، أو مبهم مفسر بسبع سماوات ، وانتصاب ﴿ سبع سماوات ﴾ على التفسير ، أو على البدل من الضمير .

وقيل : إن انتصابه على أنه المفعول الثاني لقضاهنّ ؛ لأنه مضمن معنى صبرهنّ .

وقيل : على الحال ، أي : قضاهنّ حال كونهنّ معدودات بسبع ، ويكون قضى بمعنى : صنع ، وقيل : على التمييز ، ومعنى ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ كما سبق في قوله : ﴿ خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ، فالجملة ستة أيام ، كما في قوله سبحانه :

﴿ خُلِقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [هود : 7] ، وقد تقدّم بيانه في سورة الأعراف .

قال مجاهد : ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدّون .

قال عبد الله بن سلام : خلق الأرض في يوم الأحد ، ويوم الاثنين ، وقدّر فيها أقواتها يوم الثلاثاء ، ويوم الأربعاء ، وخلق السموات في يوم الخميس ، ويوم الجمعة ، وقوله : ﴿ وأوحى فِى كُلّ سَمَاء أَمْرَهَا ﴾ عطف على قضاهنّ .

قال قتادة ، والسدّي : أي خلق فيها شمسها ، وقمرها ، ونجومها ، وأفلاكها ، وما فيها من الملائكة ، والبحار ، والبرد ، والثلوج .

(240/680)

وقيل : المعنى : أوحى فيها ما أراده وما أمر به ، والإيحاء قد يكون بمعنى : الأمر كما في قوله : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى ﴾ [الزلزلة : 5] ، وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ﴾ [المائدة : 111] أي : أمرتهم .

وقد استشكل الجمع بين هذه الآية ، وبين قوله : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ [النازعات : 30] ، فإن ما في هذه الآية من قوله : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء ﴾ مشعر بأن خلقها متأخر عن خلق الأرض ، وظاهره يخالف قوله : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ ، فقيل : إن "ثم" في ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السماء ﴾ ليست للتراخي الزماني بل للتراخي

الرتبي ، فيندفع الإشكال من أصله .

وعلى تقدير أنها للتراخي الزماني ، فالجمع ممكن بأن الأرض خلقها متقدّم على خلق السماء ، ودحوها بمعنى : بسطها ، وهو أمر زائد على مجرّد خلقها ، فهي متقدّمة خلقاً متأخرة دحواً ، وهذا ظاهر ، ولعله يأتي عند تفسيرنا لقوله : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دحاها ﴾ زيادة إيضاح للمقام إن شاء الله : ﴿ وَزَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ أي : بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلألؤ المصابيح ، وانتصاب ﴿ حافظا ﴾ على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف ، أي : وحفظناها حفظاً ، أو على أنه مفعول لأجله على تقدير : وخلقنا المصابيح زينة ، وحفظاً ، والأوّل أولى .

قال أبو حبان : في الوجه الثاني هو : تكلف ، وعدول عن السهل البين ، والمراد بالحفظ : حفظها من الشياطين الذين يسترقون السمع ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم ذكره ﴿ تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ أي : البليغ القدرة الكثير العلم .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ عن التدبر والتفكر في هذه المخلوقات ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ ﴾ أي : فقل لهم يا محمد أنذرتكم خوّفتكم ﴿ صاعقة مِّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ أي : عذاباً مثل عذابهم ، والمراد بالصاعقة : العذاب المهلك من كلّ شيء .

قال المبرد : الصاعقة المرّة المهلكة لأيّ شيء كان .

قرأ الجمهور : ﴿ صاعقة ﴾ في الموضعين بالألف ، وقرأ ابن الزبير ، والنخعي ، والسلمي ، وابن محيصن صعقة في الموضعين ، وقد تقدّم بيان معنى الصاعقة ، والصعقة في البقرة ، وقوله : ﴿ إِذْ جَاءتْهُمُ الرسل ﴾ ظرف لأنذرتكم ، أو لصاعقة ، لأنها بمعنى العذاب ، أي : أنذرتكم العذاب الواقع وقت مجيء الرسل ، أو حال من صاعقة عاد .

وهذا أولى من الوجهين الأولين ، لأن الإنذار لم يقع وقت مجيء الرسل ، فلا يصحّ أن يكون ظرفاً له ، وكذلك الصاعقة لا يصحّ أن يكون الوقت ظرفاً لها ، وقوله : ﴿ مّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ متعلق بجاءتهم ، أي : جاءتهم من جميع جوانبهم .

وقيل : المعنى : جاءتهم الرسل المتقدّمون ، والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم منزلة مجيئهم أنفسهم ، فكأن الرسل قد جاءوهم ، وخاطبوهم بقولهم : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ الله ﴾ أي : بأن لا تعبدوا على أنها المصدرية ، ويجوز أن تكون التفسيرية ، أو المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف .

ثم ذكر سبحانه ما أجابوا به على الرسل ، فقال : ﴿ قَالُواْ لَوْ شَاء رَبُّنَا لأَنزَلَ ملائكة ﴾ أي : لأرسلهم إلينا ، ولم يرسل إلينا بشراً من جنسنا ، ثم صرّحوا بالكفر ، ولم يتلعثموا ، فقالوا : ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافرون ﴾ أي : كافرون بما تزعمونه من أن الله أرسلكم إلينا ، لأنكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا ، فكيف اختصكم برسالته دوننا ، وقد تقدّم دفع هذه

الشبهة الداحضة التي جاءوا بها في غير موضع .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكواة ﴾ قال : لا يشهدون أن لا إله إلاّ الله ، وفي قوله : ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال : غير منقوص .

(242/680)

وأخرج ابن جرير ، والنحاس في ناسخه ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه : أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألته عن خلق السماوات والأرض ، فقال : " خلق الله الأرض في يوم الأحد ، والاثنين ، وخلق الجبال ، وما فيهنّ من منافع يوم الثلاثاء ، وخلق يوم الأربعاء الشجر ، والحجر ، والماء ، والمدائن ، والعمران ، والخراب ، فهذه أربعة أيام ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذى خَلَقَ الأرض فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وبارك فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ﴾ ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم ، والشمس ، والقمر ، والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه ، فخلق من أوّل ساعة من هذه الثلاث الآجال حين يموت من مات ، وفي

الثانية ألقى فيها من كلّ شيء مما ينتفع به ، وفي الثالثة خلق آدم ، وأسكنه الجنة ، وأمر إبليس بالسجود له ، وأخرجه منها في آخر ساعة " قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : " ثم استوى على العرش " قالوا : قد أصبت لو أتممت ، قالوا : ثم استراح ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً ، فنزل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ [ق : 38 ، 39] .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ قال : شق الأنهار ، وغرس الأشجار ، ووضع الجبال ، وأجرى البحار ، وجعل في هذه ما ليس في هذه ، وفي هذه ما ليس في هذه .

(243/680)

وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال : إن الله تعالى خلق يوماً ، فسماه الأحد ، ثم خلق ثانياً ، فسماه الاثنين ، ثم خلق ثالثاً ، فسماه الثلاثاء ، ثم خلق رابعاً ، فسماه الأربعاء ، ثم خلق خامساً ، فسماه الخميس ، وذكر نحو ما تقدّم .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله فرغ من خلقه في ستة أيام ، وذكر نحو ما تقدّم " وأخرج ابن جرير ، عن أبي بكر نحو ما تقدّم عن ابن

عباس .

وأخرج ابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ قال : قال للسماء : أخرجي شمسك ، وقمرك ، ونجومك ، وللأرض شققي أنهارك ، وأخرجي ثمارك ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ، وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ ائتيا ﴾ قال : أعطيا ، وفي قوله : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا ﴾ قال : أعطينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(244/680)

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ .

كتاب خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا كتاب ، والكتاب ، فعال بمعنى مفعول ، أي مكتوب .

وإنما قيل له كتاب ، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : 2122] .

ومكتوب أيضاً في صحف عند الملائكة كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس : 1116] .

وقال تعالى في قراءة النبيي صلى الله عليه وسلم ، لما تضمنته الصحف المكتوب فيها القرآن : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة : 23] .

وقوله تعالى : ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ .

التفصيل ضد الإجمال ، أي فصل الله آيات هذا القرآن ، أي بينها وأوضح فيها ما يحتاج إليه الخلق ، من أمور دينهم ودنياهم .

والمسوغ لحذف الفاعل في قوله تعالى : ﴿ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ هو العلم بأن تفصيل آيات هذا القرآن ، لا يكون إلا من الله وحده .

(245/680)

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تفصيل آيات هذا الكتاب ، جاء موضحاً في آيات أخر ، مبيناً فيها أن الله فصله على علم منه وأن الذي فصله حكيم خبير ، وأنه فصله ليهدي به الناس ويرحمهم ، وأن تفصيله شامل لكل شيء ، وأنه لا شك أنه منزل من الله كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 52] وقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : 1] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ

يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : 37] وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثاً يفترى ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : 111] وقوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الذي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ [الأنعام : 114] والآيات بمثل ذلك كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ .

قوله : قرآناً عربياً قد تكلمنا عليه وعلى الآيات التي بمعناه في القرآن في سورة الزمر ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر : 28] الآية .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي فصلت آياته ، في حال كونه قرآناً عربياً لقوم يعلمون .

(246/680)

وإنما خصهم بذلك ، لأنهم هم المنتفعون بتفصيله ، كما خصهم بتفصيل الآيات في سورة يونس في قوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذلك إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : 5] ، وفي سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الذي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : 9798]

إلى غير ذلك من الآيات .

وقد أوضحنا وجه تخصيص المنتفعين بالأمر المشترك دون غيرهم في سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ [فاطر : 18] وبينا هناك أن تخصيصهم بالإنذار دون غيرهم ، في آية فاطر هذه ، وفي قوله تعالى في يس ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر وَخشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ [يس : 11] وقوله في النازعات : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات : 45] وقوله في الأنعام : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الذين يَخَافُونَ أَن يحشروا إلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام : 51] الآية . مع أن أصل الإنذار عام شامل للمذكورين وغيرهم كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : 1] .

وإنما خص المذكورين بالإنذار ، لأنهم هم المنتفعون به ، لأن من لم ينتفع بالإنذار ، ومن لم ينذر أصلاً سواء في عدم الانتفاع ، كما قال الله تعالى ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ ﴾ [يس : 10] .

وقوله تعالى ، في هذه الآية الكريمة ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ حال بعد حال . وقد قدمنا الكلام عليه وبعض شواهده العربية ، في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى ﴿ لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المؤمنين ﴾ [الكهف : 2] الآية . وبسطنا الكلام عليه في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 2] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس في الكلام على قوله تعالى ﴿ لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ ﴾ [يس : 7] وفي سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأرض يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [الأنعام : 116] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا يسمعون سماع قبول وانتفاع . وقد أوضحنا ذلك بالآيات القرآنية في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء ﴾ [النمل : 80] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ .

ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أن الكفار صرحوا للنبي صلى الله عليه وسلم ، بأنهم لا يستجيبوا له ولا يؤمنون به ، ولا يقبلون منه ما جاءهم به فقالوا له قلوبنا التي نعقل بها

، ونفهم في أكنة ، أي أغطية .

والأكنة ، جمع كنان ، وهو الغطاء والغلاف الذي يغطي الشيء ويمنعه من الوصول إليه .

(248/680)

ويعنون أن تلك الأغطية ، مانعة لهم من فهم ما يدعوهم إليه صلى الله عليه وسلم ، وقالوا إن في آذانهم التي يسمعون بها وقراً أي : ثقلاً وهو الصمم . وأن ذلك الصمم مانع لهم من أن يسمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ن ومما يقول ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] .

وأن من بينهم وبينه حجاباً ، مانعاً لهم من الاتصال والاتفاق ، لأن ذلك الحجاب يحجب كلا منهما عن الآخر ، ويحول بينهم وبين رؤية ما يبديه صلى الله عليه وسلم من الحق .

والله جل وعلا ، ذكر عنهم هذا الكلام في معرض الذم ، مع أنه تعالى صرح بأنه جعل على قلوبهم الأكنة ، وفي آذانهم الوقر ، وجعل بينهم وبين رسوله حجاباً ، عند قراءته القرآن ، قال تعالى في سورة بني إسرائيل : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وفي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الإسراء : 4546] . وقال تعالى في الأنعام : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن

يَفْقَهُوهُ وفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ [الأنعام : 25] وقال تعالى في الكهف : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلى الهدى فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبداً ﴾ [الكهف : 57] .

(249/680)

وهذا الإشكال الذي أشرنا إليه في هذه الآيات قوي ، ووجه كونه مشكلاً ظاهر ، لأنه تعالى ذمهم على دعواهم الأكنة والوقر والحجاب في هذه الآية قوي ، ووجه كونه مشكلاً ظاهر ، لأنه تعالى ذمهم على دعواهم الأكنة والوقر والحجاب في هذه الآية الكريمة من فصلت ، وبين في الآيات الأخرى أن ما ذمهم على ادعائه واقع بهم فعلاً ، وأنه تعالى هو الذي جعله فيهم .

فيقال : فكيف يذمون على قول شيء ، هو حق في نفس الأمر .

والتحقيق في الجواب عن هذا الإشكال ، هو ما ذكرناه مراراً ، من أن الله إنما جعل على قلوبهم الأكنة ، وطبع عليها وختم عليها ن وجعل الوقر في آذانهم ، ونحو ذلك من الموانع من الهدى ، بسبب أنهم بادروا إلى الكفر ، وتكذيب الرسل طائعين مختارين ، فجزاهم الله على ذلك الذنب الأعظم ، طمس البصيرة ، والعمى عن الهدى ، جزاء وفاقاً .

فالأكنة والوقر والحجاب المذكورة إنما جعلها الله عليهم ، مجازاة لكفرهم الأول .

ومن جزاء السيئة ، تمادي صاحبها في الضلال ، ولله الحكمة البالغة في ذلك .

والآيات المصرحة بمعنى هذا كثيرة في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : 155] .

فقول اليهود في هذه الآية ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ كقول كفار مكة : ﴿ قُلُوبُنَا ﴾ ﴿ فِي أَكِنَّةٍ ﴾ لأن الغلف ، جمع أغلف وهو الذي عليه غلاف ، والأكنة جمع كنان ، والغلاف والكنان كلاهما بمعنى الغطاء الساتر .

وقد رد الله على اليهود دعواهم ببل التي هي للإضراب الإبطالي ، في قوله ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : 155] .

فالباء في قوله : بكفرهم سببية ، وهي دالة على أن سبب الطبع على قلوبهم هو كفرهم ، والأكنة والوقر والطبع كلها من باب واحد .

(250/680)

وكقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون : 3] ، والفاء في قوله : فطبع سببية أي ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم بسبب ذلك الكفر .

وقد قدمنا مراراً أنه تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل ، ومن المعلوم أن العلة الشرعية سبب شرعي .

وكذلك الفاء في قوله : ﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون : 3] فهي سببية أيضاً أي فطبع على قلوبهم ، فهم بسبب ذلك الطبع لا يفقهون أي لا يفهمون من براهين الله وحججه شيئاً .

وذلك مما يبين أن الطبع والأكنة يؤول معناهما إلى شيء واحد ، وهو ما ينشأ عن كل منهما من عدم الفهم .

لأنه قال في الطبع ﴿ فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون : 3] .

وقال في الأكنة : ﴿ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الأنعام : 25] أي كراهة أن يفقهوه ، أو لأجل ألا يفقهوه ، كما قدمنا إيضاحه .

وكقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : 5] فبين أن زيغهم الأول ، كان سبباً لإزاغة الله قلوبهم ، وتلك الإزاغة قد تكون بالأكنة والطبع والختم على القلوب .

وكقوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً ﴾ [البقرة : 10] وقوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 110] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : 125] الآية .

وإيضاح هذا الجواب : أن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : 5] يقصدون بذلك إخباره صلى الله عليه وسلم بأنهم لا يؤمنون به بوجه ، ولا يتبعونه بحال ، ولا يقرون بالحق الذي هو كون كفرهم هذا هو الجريمة ، والذنب الذي كان سبباً في الأكنة ، والوقر والحجاب .

فدعواهم كاذبة ، لأن الله جعل لهم قلوباً يفهمون بها ، وآذاناً يسمعون بها ، خلافاً لما زعموا ، ولكنه ، سبب لهم الأكنة ، والوقر والحجاب ، بسبب مبادرتهم إلى الكفر ، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهذا المعنى أوضحه رده تعالى على اليهود في قوله عنهم : ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : 155] .

وقد حاول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة ، الجواب على الإشكال المذكور فقال : فإن قيل إنه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار فقال في معرض الذم ، وذكر أيضاً ما يقرب منه في معرض الذم ، فقال :

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِم ﴾ [البقرة : 88] ثم إنه تعالى ذكر هذه الأشياء الثلاثة بعينها في معنى التقرير والإثبات في سورة الأنعام ، فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا على

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [الأنعام : 25] فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : إنه لم يقل ها هنا إنهم كذبوا في ذلك ، إنما الذي ذمهم عليه ، أنهم قالوا إنا إذاً كنا كذلك ، لم يجز تكليفنا وتوجيه الأمر والنهي علينا ، وهذا الثاني باطل .

أما الأول : فلأنه ليس في الآية ما يدل على أنهم كذبوا فيه . اه منه . والأظهر : هو ما ذكرنا .

قال صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : 5] .

(252/680)

فإن قلت : هل لزيادة : من في قوله : ومن بيننا وبينك حجاب فائدة ؟ قلت : نعم .

لأنه لو قيل : وبيننا وبينك حجاب ، لكان المعنى أن حجاباً حاصل وسط الجهتين .

وأما بزيادة " مِنْ " فالمعنى : أن حجاباً ابتدأ منا وابتدأ منك .

فالمسافة المتوسطة لجهتنا ، وجهتك مستوعبة بالحجاب ، لا فراغ فيها ز انتهى منه .

واستحسن كلامه هذا الفخر الرازي وتعقبه ابن المنير على الزمخشري ، فأوضح سقوطه والحق معه في تعقبه عليه .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : 5] ، وقد

قدمنا تفسيره وإيضاحه بالآيات القرآنية ، في سورة بني إسرائيل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [الإسراء : 45] .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ .

أمر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يقول للناس : ﴿ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ .

والقصر في قوله : ﴿ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ ﴾ إضافي أي لا أقول لكم إني ملكن وإنما أنا رجل من البشر .

وقوله : ﴿ مِّثْلُكُمْ ﴾ في الصفات البشرية ، ولكن الله فضلني بما أوحي إليَّ من توحيده .

كما قال تعالى عن الرسل في سورة إبراهيم : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم : 11] أي كما منَّ علينا بالوحي والرسالة .

(253/680)

وما ذكره الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ذكره في آخر سورة الكهف في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ [الكهف : 110] الآية .

وقد أوضحنا وجه حصر ما أوحي إليه صلى الله عليه وسلم ، في مضمون لا إله إلا الله ، في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء : 108] في سورة بني إسرائيل ، في الكلام على قوله تعالى ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] .

وبينا في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك إنكار المشركين كون الرسل من البشر ، وأنهم ينبغي أن يكونوا من الملائكة ، وما رد الله عليهم به ذلك من الآيات القرآنية ، أوضحنا ذلك في سورة ص ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ص : 4] وفي سورة بني إسرائيل ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا ﴾ [الإسراء : 94] إلى قوله : ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95] .

قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكاة وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ ﴾ .

قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة ، على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، لأنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة ، بأنهم مشركون ، وأنهم كافرون بالآخرة ،

وقد توعدهم بالويل على شركهم وكفرهم بالآخرة وعدم إيتائهم الزكاة ، سواء قلنا إن الزكاة في الآية هي زكاة المال المعروفة ، أو زكاة الأبدان بفعل الطاعات واجتناب المعاصي .

(254/680)

ورجح بعضهم القول الأخير لأن سورة فصلت هذه ، من القرآن النازل بمكة قبل الهجرة ، وزكاة المال المعروفة إنما فرضت بعد الهجرة سنة اثنتين ، كما قدمناه في سورة الأنعام ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ [الأنعام : 141] .

وعلى كل حال ، فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الإسلام .

أعني امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، من كونهم مخاطبين بذلك وأنهم يعذبون على الكفر ، ويعذبون على المعاصي ، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى عنهم مقرراً له :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخآئضين وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين حتى أَتَانَا اليقين ﴾ [المدثر : 4247] .

فصرح تعالى عنهم ، مقرراً له أن من الأسباب التي سلكتهم في سقر ، أي أدخلتهم النار ، عدم الصلاة ، وعدم إطعام المسكين ، وعد ذلك مع الكفر بسبب التكذيب بيوم الدين .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة : 3032] ثم بين سبب ذلك فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بالله العظيم وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين فَلَيْسَ لَهُ اليوم هَا هُنَا حَمِيمٌ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ [الحاقة : 3336] الآية إلى غير ذلك من الآيات .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8)

الأجر جزاء العمل ، وجزاء عمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، هو نعيم الجنة وذلك الجزاء غير ممنون ، أي غير مقطوع ، فالممنون اسم مفعول منه بمعنى قطعه ، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته :

لمعفر فهدٍ تنازع شِلْوَهُ . . . غُبْسٌ كواسِبُ ما يمن طعامها

فقوله : ما يمن طعامها أي ما يقطع ، وقول ذي الأصبع :

إني لعمرك ما بابي بذي غلق . . . على الصديق ولا خيري بمَمْنونِ .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن أجرهم غير ممنون ، نص الله تعالى عليه في آيات أخر من كتابه ، كقوله تعالى في آخر سورة الانشقاق ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [الانشقاق : 25] . وقوله تعالى في سورة التين : ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين : 6] وقوله تعالى في سورة هود ﴿ وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِي الجنة خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108] .

فقوله : غير مجذوذ أي غير مقطوع ، وبه تعلم أن غير مجذوذ وغير ممنون ، معناهما واحد .

وقوله تعالى في ص ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص : 54] أي ماله من انتهاء ولا انقطاع . وقوله في النحل ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ ﴾ [النحل : 96] .

وهذا الذي ذكرنا هو الذي عليه الجمهور خلافاً لمن قال : إن معنى غير ممنون ، غير ممنون عليهم به .

وعليهن فالمن في الآية من جنس المن المذكورن في قوله تعالى : ﴿ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى ﴾ [البقرة : 264] .

ومن قال : إن معنى غير ممنون ، غير منقوص ، محتجاً بأن العرب تطلق الممنون على المنقوص ، قالوا : ومنه قول زهير :

فضل الجياد على الخيل البطاءِ فلا . . . يعطي بذلك مَمْنوناً ولا نَزَقَا

فقوله ممنوناً أي منقوصاً .

وهذا وإن صح لغة ، فالأظهر أنه ليس معنى الآية .

بل معناها : هو ما قدمنا . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ .

(256/680)

الظاهر أن معنى قوله هنا في أربعة أيام : أي في تتمة أربعة أيام .

وتتمة الأربعة حاصلة بيومين فقط ، لأنه تعالى قال : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] ثم قال في أربعة أيام ، أي في تتمة أربعة أيام .

ثم قال : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 12] فتضم اليومين إلى الأربعة السابقة ، فيكون مجموع الأيام التي خلق فيها السماوات والأرض وما بينهما ، ستة أيام .

وهذا التفسير الذي ذكرنا في الآية لا يصح غيره بحال ، لأن الله تعالى صرح في آيات متعددة من كتابه بأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام كقوله في الفرقان : ﴿ الذي

خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش الرحمن فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان : 59] . وقوله تعالى في السجدة ﴿ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ [السجدة : 4] الآية . وقوله تعالى في ق . ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : 38] وقوله تعالى في الأعراف ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ﴾ [الأعراف : 54] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

(257/680)

فلو لم يفسر قوله تعالى ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ بأن معناه في تتمة أربعة أيام ، لكان المعنى أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في ثمانية أيام ، لأن قوله تعالى : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ إذا فسر بأنها أربعة كاملة ثم جمعت مع اليومين اللذين خلقت فيهما الأرض المذكورين في قوله ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] ، واليومين اللذين خلقت فيهما السماوات المذكورين في قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 12] لكان المجموع ثمانية أيام .

وذلك لم يقل به أحد من المسلمين .

والنصوص القرآنية مصرحة بأنها ستة أيام ، فعلم بذلك صحة التفسير الذي ذكرنا وصحة دلالة الآيات القرآنية عليه .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا ﴾ قد قدمنا الكلام على أمثاله من الآيات ، في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : 15] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أي أكثر فيها البركات ، والبركة الخير ، وقوله تعالى ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا ﴾ .

التقدير والخلق في لغة العرب معناهما واحد .

والأقوات جمع قوت ، والمراد بالأقوات أرزاق أهل الأرض ومعايشهم وما يصلحهم .

وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب ، عن آيات الكتاب :

أن آية فصلت هذه ، أعني قوله تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا ﴾ يفهم منها الجمع بين الآيات الدالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كقوله هنا

﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ الأَرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] ثم رتب على ذلك بثم ، قوله ﴿ ثُمَّ اسْتوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : 11] إلى قوله ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 12] مع بعض الآيات الدالة على أن السماء خلقت قبل الأرض ، كقوله تعالى في النازعات : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء بَنَاهَا ﴾ [النازعات : 27] إلى قوله : ﴿ والأَرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات : 30] .

فقلنا في كتابنا المذكور ما نصه : قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأَرض جَمِيعاً ثُمَّ اسْتوى إِلَى السمآء ﴾ [البقرة . 29] الآية ، تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء ، بدليل لفظه ثم التي هي للترتيب والانفصال .

وكذلك آية حم السجدة ، تدل أيضاً على خلق الأرض قبل السماء ، لأنه قال فيها : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذِي خَلَقَ الأَرض فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : 9] إلى أن قال ﴿ ثُمَّ اسْتوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : 11] الآية .

مع أن آية النازعات تدل على أن دحور الأرض بعد خلق السماء ، لأنه قال فيها ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء بَنَاهَا ﴾ [النازعات : 27] ، ثم قال : ﴿ والأَرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات : 30] .

اعلم أولاً أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن الجمع بين آية السجدة وآية النازعات ،

فأجاب بأن الله تعالى خلق الأرض أولاً قبل السماء غير مدحورة ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعاً في يومين ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك .

فاصل خلق الأرض قبل خلق السماء ، ودحزها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك ، بعد خلق السماء .

(259/680)

ويدل لهذا أنه قال : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات : 30] ولم يقل خلقها ثم فسر دحوه إياها بقوله : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ [النازعات : 31] وهذا الجمع الذي جمع به ابن عباس بين هاتين الآيتين واضح لا إشكال فيه . مفهوم من ظاهر القرآن العظيم إلا أنه يرد عليه إشكال من آية البقرة هذه .

وإيضاحه أن ابن عباس جمع بأن خلق الأرض قبل خلق السماء ، ودحوها بما فيها بعد خلق السماء .

وفي هذه الآية التصريح بأن جميع ما في الأرض مخلوق قبل خلق السماء لأنه قال فيها ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً ثُمَّ استوى إِلَى السمآء ﴾ [البقرة : 29] الآية .

وقد مكثت زمناً طويلاً أفكر في حل في الإشكال حتى هداني الله إليه ذات يوم ففهمته من القرآن العظيم .

وإيضاحه : أن هذا الإشكال مرفوع من وجهين ، كل منهما تدل عليه أية من القرآن .

الأول : أن المراد بخلق ما في الأرض جميعاً قبل خلق السماء : الخلق اللغوي الذي هو التقدير لا الخلق بالفعل ، الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود ، والعرب تسمي التقدير خلقاً .

ومنه قول زهير :

ولأنت تَفْري ما خلقت . . . وبعض القوم يخلُقُ ثم لا يَفْري

والدليل على أن المراد بهذا الخلق التقدير ، أنه تعالى نص على ذلك في سورة فصلت .

حيث قال : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا ﴾ [فصلت : 10] ثم قال : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : 11] الآية .

الوجه الثاني : أنه لما خلق الأرض غير مدحورة وهي أصل لكل ، ما فيها كان كل ما فيها كأنه خلق بالفعل لوجود أصله فعلاً .

(260/680)

والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع ، وإن لم يكن موجوداً بالفعل ، قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة ﴾ [الأعراف : 11] الآية ، فقوله ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ [الأعراف : 11] أي بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذي هو أصلكم .

وجمع بعض العلماء بأن معنى قوله ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات : 30] أي مع ذلك ، فلفظة بعد ، بمعنى مع .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم : 13] وعليه فلا إشكال في الآية .

ويستأنس لهذا القول بالقراءة الشاذة وبها قرأ مجاهد ، والأرض مع لك دحاها .

وجمع بعضهم بأوجه ضعيفة . لأنها مبينة على أن خلق السماء قبل الأرض وهو خلاف التحقيق .

منها أن ثم : بمعنى الواو .

ومنها : أنها للترتيب الذكري كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين آمَنُواْ ﴾ [البلد : 17] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَزَيَّنَّا السماء الدنيا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ﴾ الآية .

المصابيح : النجوم .

وما تضمنته هذه الآية من تزيين السماء الدنيا بالنجوم ، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية ،

في سورة الأنعام ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجوم لِتَهْتَدُواْ بِهَا ﴾ [الأنعام : 97] الآية .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَحِفْظاً ﴾ قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الحجر ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [الحجر : 17] الآية .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة ص ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ص : 4] .

(261/680)

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ .

الصرصر : وزنه بالميزان الصرفي فعفل ، وفي معنى الصرصر لعلماء التفسير وجهان معروفان .

أحدهما : أن الريح الصرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب ، التي يسمع لهبوبها صوت شديد ، وعلى هذا فالصرصر من الصرة ، التي هي الصيحة المزعجة .

ومنه قول تعالى ﴿ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات : 29] أي في صيحة ، ومن هذا المعنى صرير الباب والقلم ، أي صوتهما .

الوجه الثاني : أن الصرصر من الصر الذي هو البرد الشديد المحرقن ومنه على أصح التفسيرين قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ [آل عمران : 117] الآية . أي فيها برد شديد محرقن ومنه قول حاتم الطائي :

أوقد فإن الليل ليل قر . . . والريح يا واقد ريح صرُّ

علَّ يرى نارك من يمر . . . إن جلبت ضيفاً فأنت حرُّ

فقوله : ريح صر ، أي باردة شديدة البرد .

والأظهر أن كلا القولين صحيح ، وأن الريح المذكورة . جامعة بين الأمرين ، فهي عاصفة شديدة الهبوب ، باردة شديدة البرد .

وما ذكره جل وعلا من إهلاكه عاداً بهذه الريح الصرصر ، في تلك الأيام النحسات ، أي المشؤومات النكدات ، لأن النحس ضد السعد ، وهو الشؤم جاء موضحاً في آيات من كتاب الله .

وقد بين تعالى في بعضها عدد الأيام والليالي التي أرسل عليهم الريح فيها ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَمَا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى القوم فِيهَا صرعى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ ترى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 68] وقوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ﴾ [الذاريات : 4142] : وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ الناس كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 1920] وقوله تعالى : ﴿ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : 2425] الآية .

وهذه الريح الصرصر هي المراد بصاعقة عاد في قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ ﴾ [فصلت : 13] الآية .

وقرأ هذا الحرف نافع ، وابن كثير ، وأبو عمر ، نَحْسات ، بسكون الحاء ، وعليه فالنحس ، وصف أو مصدر ، نزل منزلة الوصف .

وقرأه ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، نَحِسات بكسر الحاء ووجهه ظاهر .

قد قدمنا أن معنى النحسات : المشؤومات النكدات .

وقال صاحب الدر المنثور : وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عز وجل : ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ [القمر 19 :] . قال :

النحس ، البلاء ، والشدة ، قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت زهير بن أبي سلمى يقول :

سواء عليه أي يوم أتيته . . . أساعة نحس تتقي أم بأسعد

وتفسير النحس بالبلاء والشدة تفسير بالمعنى ، لأن الشؤم بلاء وشدة . ومقابلة زهير النحس بالأسعد في بيته يوضح ذلك ، وهو معلوم .

(263/680)

ويزعم بعض أهل العلم ، أنها من آخر شوال ، وأن أولها يوم الأربعاء وآخرها يوم الأربعاء ، ولا دليل على شيء من ذلك .

وما يذكره بعض أهل العلم من أن يوم النحس المستمر ، هو يوم الأربعاء الأخير من الشهر ، أو يوم الأربعاء مطلقاً ، حتى إن بعض المنتسبين لطلب العلم وكثيراً من العوام صاروا يتشاءمون بيوم الأربعاء الأخير من كل شهر ، حتى إنهم لا يقدمون على السفر ، والتزوج ونحو ذلك فيه ، ظانين أنه يوم نحس وشؤم ، وأن نحسه مستمر على جميع الخلق في جميع الزمن ، لا أصل له ولا معول عليه ، ولا يلتفت إليه ، من عنده علم ، لأن نحس ذلك اليوم مستمر على عاد فقط الذين أهلكهم الله فيه ، فاتصل لهم عذاب البرزخ والآخرة ، بعذاب

الدنيا ، فصار ذلك الشؤم مستمراً عليهم استمراراً لا انقطاع له .

أما غير عاد فليس مؤاخذاً بذنب عاد ، لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

وقد أردنا هنا أن نذكر بعض الروايات التي اغتر بها ، من ظن استمرار نحس ذلك اليوم ، لنبين أنها لا معول عليها .

قال صاحب الدر المنثور : وأخرج ابن أبي حاتم عن زر بن حبيش ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ [القمر : 19] " قال : يوم الأربعاء " .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال لي جبريل أقض باليمين مع الشاهد . وقال : يوم الأربعاء يوم نحس مستمر " .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يوم نحس يوم الأربعاء " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الآيام ، وسئل عن يوم الأربعاء قال : " يوم نحس " ، قالوا كيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : " أغرق فيه الله فرعون وقومه ، وأهلك عاداً وثمود " .

وأخرج وكيع في الغرر وابن مردويه والخطيب بسند ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر " .

فهذه الرويات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه لأن أغلبها ضعيف وما صح معناه منها ، فالمراد بنحسه شؤمه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم .

فالحاصل أن النحس والشؤم إنما منشأة وسببه الكفر والمعاصي .

أما من كان متقياً لله مطيعاً له ، في يوم الأربعاء المذكور فلا نحس ، ولا شؤم فيه عليه . فمن أراد أن يعرف النحس والشؤم والنكد ، والبلاء والشقاء على الحقيقة ، فليتحقق أن ذلك كله في معصية الله وعدم امتثال أمره ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العذاب الهون بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُون ﴾ .

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ المراد بالهدى فيه هدى دلالة والبيان ، والإرشاد ، لا هدى التوفيق والاصطفاء .

والدليل على ذلك قوله تعالى بعده ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ ، لأنها لو كانت هداية توفيق لما انتقل صاحبها عن الهدى إلى العمى .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان ، وآثروه عليه ، وتعرضوه منه .

وهذا المعنى الذي ذكرنا يوضحه قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تتخذوا آبَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ استحبوا الكفر عَلَى الإيمان ﴾ [التوبة : 23] فقوله في آية التوبة هذه : ﴿ إِنِ استحبوا الكفر عَلَى الإيمان ﴾ [التوبة : 23] موافق في المعنى لقوله هنا : فاستحبوا العمى على الهدى .

ونظير ذلك في المعنى قوله تعالى : ﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا عَلَى الآخرة وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [إبراهيم : 3] الآية .

فلفظة استحب في القرآن كثيراً ما تتعدى بعلى ، لأنها في معنى اختار وآثر .

(265/680)

وقد قدمنا في سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الفريقين كالأعمى ﴾ [هود : 24] الآية . أن العمى الكفر ، وأن المراد بالأعمى في آيات عديدة الكافر .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة ، من أن الهدى يأتي في القرآن بمعناه العام ، الذي هو البيان ، والدلالة ، والإرشاد ، لا ينافي أن الهدى قد يطلق في القرآن في بعض المواضع ، على الهدى الخاص الذي هو التوفيق ، والاصطفاء ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90]

فمن إطلاق القرآن الهدى على معناه العام قوله هنا : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ أي بينا لهم طريق الحق وأمرناهم بسلوكها ، وطرق الشر ونهيناهم عن سلوكها على لسان نبينا صالح ، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ أي اختاروا الكفر على الإيمان بعد إيضاح الحق لهم .

ومن إطلاقه على معناه العام قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل ﴾ [الإنسان : 3] بدليل قوله بعده ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 3] ، لأنه لو كان هدى توفيق لما قال : ﴿ وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الإنسان : 17] .

ومن إطلاقه على معناه الخاص قوله تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] .

وقوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم : 17] .

وقوله : ﴿ مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد ﴾ [الكهف : 17] .

وبمعرفة هذين الإطلاقين تتيسر إزالة إشكال قرآني : هو أنه تعالى : أثبت الهدى لنبينا صلى الله عليه وسلم في آية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : 52] ونفاه عنه في آية أخرى وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : 56] .

فيعلم مما ذكرنا : أن الهدى المثبت له صلى الله عليه وسلم ، هو الهدى العام الذي هو البيان ، والدلالة والإرشاد ، وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم فبين لمحجة البيضاء ، حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها هالك .

والهدى المنفي عنه في آية : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : 56] هو الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق ، لأن ذلك بيد الله وحده ، وليس بيده صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الذين لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة : 41] الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل : 37] والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة : 185] الآية ، لا منافاة فيه بين عموم الناس في هذه الآية . وخصوص المتقين في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] لأن الهدى العام للناس هو الهدى العام ، والهدى الخاص بالمتقين ، هو الهدى الخاص كما لا يخفى .

وقد بينا هذا في غير هذا الموضع ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العذاب الهون ﴾ الآية .

الفاء في قوله : فأخذتهم سببية ، أي فاستحبوا العمى على الهدى ، وبسبب ذلك ، أخذتهم صاعقة العذاب الهون .

واعلم أن الله جل وعلا عبر عن الهلاك الذي أهلك به ثمود ، بعبارات مختلفة ، فذكره هنا باسم الصاعقة في قوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العذاب الهون ﴾ وقوله : ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : 13] .

(267/680)

وعبر عنه أيضاً بالصاعقة في سورة الذاريات في قوله تعالى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حتى حِينٍ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الذارايات : 4344] . وعبر عنه بالصيحة في آيات من كتابه ، كقوله تعالى في سورة هود ، في إهلاكه ثمود : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ ﴾ [هود : 6768] وقوله تعالى في الحجر : ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً آمِنِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُصْبِحِينَ ﴾ [الحجر : 8283] وقوله تعالى في القمر : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ [القمر : 31] .

وقوله تعالى في العنكبوت ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة ﴾ [العنكبوت : 40] يعني به

ثمودا المذكورين في قوله قبله : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 38] الآية .

وعبر عنه بالرجفة ، في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُواْ الناقة وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ [الأعراف : 7778] الآية .

وعبر عنه بالتدمير في سورة النمل ، في قوله تعالى : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل : 51] .

وعبر عنه بالطاغية في الحاقة في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ [الحاقة : 5] .

وعبر عنه بالدمدمة في الشمس في قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 14] .

(268/680)

وعبر عنه بالعذاب ، في سورة الشعراء ، في قوله تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ العذاب إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ [الشعراء : 157158] الآية .

ومعنى هذه العبارات كلها راجع إلى شيء واحد ، وهو أن الله أرسل عليهم صيحة أهلكتهم ، والصيحة الصوت المزعج المهلك .

والصاعقة تطلق أيضاً على الصوت المزعج المهلك ، وعلى النار المحرقة ، وعليهما معاً ، ولشدة عظم الصيحة وهولها من فوقهم ، رجفت بهم الأرض من تحتهم ، أي تحركت قوية ، فاجتمع فيها أنها صيحة وصاعقة ورجفة ، وكون ذلك تدميراً واضح .

وقيل لها طاغية ، لأنها واقعة مجاوزة للحد في القوة وشدة الإهلاك .

والطغيان في لغة العرب : مجاوزة الحد .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَآءُ ﴾ [الحاقة : 11] الآية . أي جاوز الحدود التي يبلغها الماء عادة .

واعلم أن التحقيق ، أن المراد بالطاغية في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة : 5] أنها الصيحة التي أهلكهم الله بها ، كما يوضحه قوله بعده : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 6] .

خلافاً لمن زعم أن الطاغية ، مصدر كالعاقبة ، والعافية ، وأن المعنى أنهم أهلكوا بطغيانهم ، أي بكفرهم ، وتكذيبهم نبيهم ، كقوله : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴾ [الشمس : 11] .

وخلافاً لمن زعم أن الطاغية هي أشقاهم ، الذي انبعث فعقر الناقة ، وأنهم أنهم أهلكوا

بسبب فعله وهو عقره الناقة ، وكل هذا خلاف التحقيق .

والصواب إن شاء الله هو ما ذكرنا ، والسياق يدل عليه واختاره غير واحد .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ ﴾ [الشمس : 14] فإنه لا يخالف ما ذكرنا ، لأن معنى دمدم عليهم ربهم بذنبهم ، أي أطلق عليهم العذاب وألبسهم إياه ، بسبب ذنبهم .

قال الزمخشري في معنى دمدم : وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة ، إذا ألبسها الشحم .

(269/680)

وأما إطلاق العذاب عليه في سورة الشعراء فواضح ، فاتضح رجوع معنى الآيات المذكورة إلى شيء واحد .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ صَاعِقَةُ العذاب الهون ﴾ من النعت بالمصدر ، لأن الهون مصدر بمعنى الهوان ، والنعت بالمصدر أسلوب عربي معروف ، أشار إليه في الخلاصة بقوله :

ونعتوا بمصدر كثيرا . . . فالتزموا الإفراد والتذكيرا

وهو موجه بأحد أمرين :

أحدهما : أن يكون على حذف مضاف . أي العذاب ذي الهون .

والثاني : أنه على سبيل المبالغة ، فكأن العذاب لشدة اتصافه بالهوان اللاحق بمن وقع عليه ، صار كأنه نفس الهوان ، كما هو معروف في محله .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت : 17] كالتوكيد في المعنى لقوله ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ [فصلت : 17] لأن كلا منهما سبب لأخذ الصاعقة إياهم ، فالفاء في قوله : فأخذتهم سببية ، والباء في قوله بما كانوا سببية ، والعلم عند الله تعالى .

وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18)

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ، أنه أهلك ثمود بالصاعقة ، ونجى من ذلك إهلاك الذين آمنوا وكانوا يتقون الله ، والمراد بهم صالح ومن آمن معه من قومه .

(270/680)

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة ، جاء مبيناً في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى في سورة هود ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القوي العزيز وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ [هود : 6667]

الآية ، وقوله تعالى في النمل : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعبدوا الله فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل : 45] إلى قوله تعالى في ثمود ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظلموا إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنجَيْنَا الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل : 5253] أي وهم صالح ومن آمن معه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 7 صـ ﴾

(271/680)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13) ﴾

بعد أن قَرَعتهم الحجة التي لا تترك للشك مسرباً إلى النفوس بعدها في أَن الله منفرد بالإلهية لأنه منفرد بإيجاد العوالم كلها .

وكان ثبوت الوحدانية من شأنه أن يزيل الريبة في أن القرآن منزَّل من عند الله لأنهم ما كفروا به إلا لأجل إعلانه بنفي الشريك عن الله تعالى ، فلما استبان ذلك كان الشأن أن يفيئوا إلى تصديق الرسول والإيمان بالقرآن ، وأن يقلعوا عن إعراضهم المحكي عنهم بقوله في أول السورة ﴿ فأعرض أَكْثَرُهُم فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ الرسل مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ ﴾ [فصلت : 4] الخ ، فلذلك جعل استمرارهم على الإعراض بعد تلك

الحجج أمراً مفروضاً كما يُفْرَض المُحال ، فجيء في جانبه بحرف (إنْ) الذي الأصل فيه أن يقع في الموقع الذي لا جزم فيه بحصول الشرط كقوله تعالى : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً إن كنتم قوماً مسرفين ﴾ [الزخرف : 5] في قراءة من قرأ بكسر همزة (إنْ) . فمعنى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ إن استمروا على إعراضهم بعد ما هديتهم بالدلائل البينة وكابروا فيها ، فالفعل مستعمل في معنى الاستمرار كقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ [النساء : 136] .

والإِنذار : التخويف ، وهو هنا تخويف بتوقع عقاب مثل عقاب الذين شابهوهم في الإِعراض خشيةَ أن يحلّ بهم ما حل بأولئك ، بناء على أن المعروف أن تجري أفعال الله على سَنن واحد ، وليس هو وعيداً لأن قريشاً لم تصبهم صاعقة مثلُ صاعقة عاد وثمود ، وإن كانوا قد ساوَوْهما في التكذيب والإِعراض عن الرسل وفي التعللات التي تعللوا بها من قولهم : ﴿ لو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ [المؤمنون : 24] وأمهل الله قريشاً حتى آمن كثير منهم واستأصل كفارهم بعذاب خاص .

وحقيقة الصاعقة : نار تخرج مع البرق تُحرق ما تصيبه ، وتقدم ذكرها في قوله تعالى : ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق ﴾ في سورة البقرة (19) .

وتطلق على الحادثة المبيرة السريعة الإهلاكِ ، ولما أضيفت صاعقة هنا إلى عادٍ وثمود ، وعادٌ لم تهلكهم الصاعقة وإنما أهلكهم الريح وثمودُ أهلكوا بالصاعقة فقد استُعمل الصاعقة هنا في حقيقته ومجازه ، أو هو من عموم المجاوز والمقتضي لذلك على الاعتبارين قصدَ الإِيجاز ، وليقع الإِجمَال ثم التفصيل بعد بقوله : ﴿ فأمَّا عَادٌ ﴾ [فصلت : 15] إلى قوله : ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ [فصلت : 17] .

و ﴿ إذ ﴾ ظرف للماضي ، والمعنى مثل صاعقتهم حين جاءتهم الرسل إلى آخر الآيات .

روى ابن إسحاق في سيرته أن عتبةَ بن ربيعة كلم النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من خلافِ قومه فتلا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ حم تَنزِيلٌ مِنَ الرحمنن الرَّحِيم ﴾ حتى بلغ ﴿ فَقُلْ أنذَرْتُكُمْ صاعقة ﴾ [فصلت : 131] الآية ، فأمسَكَ عتبةُ على فم النبي وقال له : " ناشدتُك الله والرحم "

وضمير جاءتهم ﴾ عائد إلى عاد وثمود باعتبار عدد كل قبيلة منهما .

وجَمْع الرسل هنا من باب إطلاق صيغة الجمع على الاثنين مثل قوله تعالى : ﴿ فقد صغت قلوبكما ﴾ [التحريم : 4] ، والقرينة واضحة وهو استعمالٌ غير عزيز ، وإنما جاءهم رسولان هود وصالح .

وقوله : ﴿ مِن بَيْنِ أَيدِيهم ومِن خَلْفِهم ﴾ تمثيل لحرص رسول كل منهم على هداهم بحيث لا يترك وسيلة يَتوسل بها إلى إبلاغهم الدين إلا توسل بها .

فمُثّل ذلك بالمجيء إلى كل منهم تارة من أمامه وتارة من خلفه لا يترك له جهة ، كما يفعل الحريص على تحصيل أمرٍ أَن يتطلبه ويعيد تطلبه ويستوعب مظانّ وجوده أو مظانّ سماعه ، وهذا التمثيل نظير الذي في قوله تعالى حكاية عن الشيطان ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ [الأعراف : 17] .

(273/680)

وإنما اقتصر في هذه الآية على جهتين ولم تُستوعب الجهات الأربع كما مُثل حال الشيطان في وسوسته لأن المقصود هنا تمثيل الحرص فقط وقد حصل ، والمقصود في الحكاية عن الشيطان تمثيل الحرص مع التلهف تحذيراً منه وإثارة لبُغضه في نفوس الناس .

و﴿ أَلاَّ تعبدوا إلا الله ﴾ تفسيرٍ لجملة ﴿ جَآءَتهُمُ الرُّسُلُ ﴾ لتضمن المجيء معنى الإبلاغ بقرينة كون فاعل المجيء متصفاً بأنهم رسُل ، فتكون (أَنْ) تفسيرية ل ﴿ جاءتهم ﴾ بهذا التأويل كقول الشاعر :

إِنْ تحمِلا حاجة لي خفَّ مَحْمَلُها . . .

تَسْتَوْجِبَا مِنةً عندي بها ويَدا

أَنْ تَقرآنِ على أسماءَ ويحكما . . .

مني السَّلام وأن لا تُشعرا أحدا

إذ فسر الحاجة بأن يقرأ السلام على أسماء لأنه أراد بالحاجة الرسالة ، وهذا جري على رأي الزمخشري والمحققين من عدم اشتراط تقدم جملة فيها معنى القول دون حروفه بل الاكتفاء بتقدم ما أريد به معنى القول ولو لم يكن جملة خلافاً لما أطال به صاحب "مغني اللبيب" من أبحاث لا يرضاها الأريب ، أو لما يتضمنه عنوان ﴿ الرسل ﴾ من إبلاغ رسالة .

﴿ اللهِ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائكة فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾

حكاية جواب عاد وثمود لرسولَيْهم فقد كان جواباً متماثلاً لأنه ناشىء عن تفكير متماثل وهو أن تفكير الأذهان القاصرة من شأنه أن يبنَى على تصورات وهمية وأقيسة تخييلية وسفسطائية ، فإنهم يتصورون صفات الله تعالى وأفعاله على غير كنهها ويقيسونها على أحوال المخلوقات ، ولذلك يتماثل في هذا حال أُهل الجهالة كما قال تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ [الذاريات : 52 ، 53] ، أي بل هم متماثلون في الطغيان ، أي الكفر الشديد فتملي عليهم أوهامهم قضايا متماثلة .

ولكون جوابهم جَرَى في سياق المحاورة أتتْ حكاية قولهم غير معطوفة بأسلوب المقاولة ، كما تقدم قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : 30] فإن قول الرسل لهم : لا تعبدوا إلا الله قد حكي بفعل فيه دلالة على القول ، وهو فعل ﴿ جاءتهم ﴾ كما تقدم آنفاً .

فقولهم : ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلائِكَةً ﴾ يتضمن إبطال رسالة البشر عن الله تعالى .

ومفعول ﴿ شاء ﴾ محذوف دل عليه السياق ، أي لو شاء ربنا أن يرسل إلينا لأنزل ملائكة من السماء مرسَلين إلينا ، وهذا حذف خاص هو غير حذف مفعول فعل المشيئة الشائع في الكلام لأن ذلك فيما إذا كان المحذوف مدلولاً عليه بجواب ﴿ لوْ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ [الأنعام : 149] ، ونكتته الإبهام ثم البيان ، وأما الحذف في الآية فهو للاعتماد على قرينة السياق والإيجاز وهو حذف عزيز لمفعول فعل المشيئة ، ونظيره قول المعري:

وإنْ شئتَ فازعُم أَنَّ مَن فوقَ ظهرها . . .

عَبيدُكَ واستَشْهِدْ إلهَكَ يَشْهَدِ

وتضمن كلامهم قياساً استثنائياً تركيبه : لو شاء ربنا أن يرسل رسولاً لأرسل ملائكة ينزلهم من السماء لكنه لم ينزل إلينا ملائكة فهو لم يشأ أن يرسل إلينا رسولاً .

وهذا إيماء إلى تكذيبهم الرسل ولهذا فرعوا عليه قولهم : ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كافرون ﴾ أي جاحدون رسالتكم وهو أيضاً كناية عن التكذيب .

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً

بعد أن حُكي عن عاد وثمود ما اشترك فيه الأمتان من الكابرة والإصرار على الكفر فصّل هنا بعض ما اختصت به كل أمة منهما من صورة الكفر ، وذكر من ذلك ما له مناسبة لما حلّ بكل أمة منهما من العذاب .

(275/680)

والفاء تفريع على جملة ﴿ قَالُوا لَو شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائكَةً ﴾ [فصلت : 14] المقتضية أنهم رفضوا دعوَة رسوليهم ولم يقبلوا إرشادهما واستدلالهما .

و﴿ أَمَّا ﴾ حرف شرط وتفصيل ، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ في سورة البقرة (26) .

والمعنى : فأما عاد فمنعهم من قبول الهدى استكبارهم .

والاستكبار : المبالغة في الكبر ، أي التعاظم واحتقار الناس ، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل : استجاب ، والتعريف في ﴿ الأَرْض ﴾ للعهد ، أي أرضهم المعهودة .

وإنما ذُكر من مساويهم الاستكبار لأن تكبرهم هو الذين صرفهم عن اتباع رسولهم وعن توقع عقاب الله .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ زيادة تشنيع لاستكبارهم ، فإن الاستكبار لا يكون بحق إذ لا مبرر للكبر بوجه من الوجوه لأن جميع الأمور المغريات بالكبر من العلم والمال والسلطان والقوة وغير ذلك لا تُبلغ الإِنسان مبلغ الخلوّ عن النقص وليس للضعيف الناقص حق في الكبر ولذلك كان الكبر من خصائص الله تعالى .

وهم قد اغترُّوا بقوة أجسامهم وعزة أمتهم وادعوا أنهم لا يغلبهم أحد ، وهو معنى قولهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ فقولهم ذلك هو سبب استكبارهم لأنه أورثهم الاستخفاف بمن عداهم ، فلما جاءهم هود بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك لأنهم اعتادوا العجب بأنفسهم وأحوالهم فكذبوا رسولهم .

فلما كان اغترارهم بقوتهم هو باعثَهم على الكفر وكان قولهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ دليلاً عليه خصّ بالذكر .

وإنما عطف بالواو مع أنه كالبيان لقوله : ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ إشارة إلى استقلاله بكونه مُوجب الإِنكار عليهم ، لأن قولهم ذلك هو بمفرده منكر من القول فذُكر

بالعطف على فعل "استكبروا" لأن شأن العطف أن يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، ويعلم أنه باعثهم على الاستكبار بالسياق .

(276/680)

وجملة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً ﴾ جملة معترضة ، والواو اعتراضية .

والرؤية علمية ، والاستفهام إنكاري ، والمعنى : إنكار عدم علمهم بأن الله أشد منهم قوة حيث أعرضوا عن رسالة رسول ربهم وعن إنذاره إياهم إعراضَ من لا يكترث بعظمة الله تعالى لأنهم لو حسبوا لذلك حسابه لتوقعوا عذابَه فَلأَقْبلوا على النظر في دلائل صدق رسولهم .

وإجراءُ وصف ﴿ الَّذِي خَلَقَهُمْ ﴾ على اسم الجلالة لما في الصلة من الإِيماء إلى وجه الإِنكار عليهم لجهلهم بأن الله أقوى منهم فإن كونهم مخلوقين معلوم لهم بالضرورة ، فكان العلم به كافياً في الدلالة على أنه أشدّ منهم قوة ، وأنه حقيق بأن يحسبوا لغضبه حسابه فينظروا في أدلة صدق رسوله إليهم .

وضمير ﴿ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُم ﴾ ضمير فصل ، وهو مفيد تقوية الحكم بمعنى وضوحه ، وإذا

كان ذلك الحكم محققاً كان عدم علمهم بمقتضاه أشنع وعذرهم في جهله منتفياً .

والقوة حقيقتها : حالة في الجسم يتأتّى بها أن يعمل الأعمال الشاقة ، وتطلق على لازم ذلك من القدرة ووسائل الأعمال ، وقد تقدم بيان إطلاقها في قوله تعالى : ﴿ فخذها بقوة ﴾ في سورة الأعراف (145) ، والمراد بها هنا معناها الحقيقي والكنائي والمجازي ، فهو مستعمل في حقيقته تصريحاً وكناية ، ومجازِه لما عندهم من وسائل تذليل صعَاب الأمور لقوة أجسامهم وقوة عقولهم .

والعرب تضرب المثل بعَادٍ في أصالة آرائهم فيقولون : أحلام عاد ، قال النابغة :

أَحلامُ عادٍ وأجسامٌ مطهرة

من المَعَقَّةِ والآفاتتِ والإِثَمِ . . .

ويقولون في وصف الأشياء التي يقل صنع أمثالها : عاديَّة يقولون : بئر عاديَّة ، وبناءٌ عَاديّ .

(277/680)

ولما كانت القوّة تستلزم سعة القدرة أسند القوة إلى الله تعالى بمعنى أن قدرته تعالى لا يستعصي عليها شيء تتعلق به إرادته تعالى ، وهذا المراد هنا في قوله : ﴿ أَنَّ اللهَ الَّذِي

خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنهم قُوَّةً ﴾ أي هو أوسع قدرة من قدرتهم فإطلاق القوة على قدرة الله تعالى بمعنى كمالِ القدرة ، أي عموم تأثيرها وتعلقها بالممكنات على وفق الإِرادة لا يستعصي على تعلق قدرته شيء ممكنٌ ، وكمالِ غِناه عن التأثّر للغير ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ إن اللَّه قوي شديد العقاب ﴾ في سورة الأنفال (52) .

وجملة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّ الله الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنهم قُوَّةً ﴾ معترضة بين الجمل المتعاطفة ، والواو فيها اعتراضية .

وقوله : ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتنا يَجْحَدُون ﴾ يحتمل أن المراد بالآيات معجزات رسولهم هود فلم يؤمنوا بها وأصروا على العناد ولم يذكر القرآن لهود آيات سوى أنه أنذرهم عذاباً يأتيهم من السماء ، قال تعالى : ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾ [الأحقاف : 24] فذلك من تكذيبهم بأوائل الآيات .

ويحتمل أن المراد بالآيات دلائل الوحدانية التي في دعوة رسولهم وتذكيرُهم بنعم الله عليهم كقوله : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ﴾ [الأعراف : 69] ، وقوله : ﴿ واتقوا الذي أمدّكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ﴾ [الشعراء : 132 ، 134] .

ودل فعل ﴿ كانوا ﴾ على أن التكذيب بالآيات متأصل فيهم .

ودلت صيغة المضارع في قوله : ﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ أن الجحد متكرر فيهم متجدد .

(278/680)

ورتب على ذلك وصف عقابهم بأن الله أرسل عليهم ريحاً فأشارت الفاء إلى أن عقابهم كان مسبباً على حالة كفرهم بصفتها فإن باعث كفرهم كان اغترارهم بقوتهم ، فأهلكهم الله بما لا يترقب الناس الهلاك به فإن الناس يقولون للشيء الذي لا يُؤبه به : هو ريح ، ليريهم أن الله شديد القوة وأنه يضع القوة في الشيء الهيّن مثل الريح ليكون عذاباً وخزياً ، أي تحقيراً كما قال : ﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحياة الدُّنْيَا ﴾ ، وأي خزي أشد من أن تتراماهم الريح في الجوّ كالريش ، وأن تلقِيَهم هلكَى على التراب عن بكرة أبيهم فيشاهدهم المارّون بديارهم جثثاً صرعى قد تقلصت جلودهم وبليت أجسامهم كأنهم أعجاز نخل خاوية .

والريح : تموُّج في الهواء يحدث من تعاكس الحرارة والبرودة ، وتنتقل موجاته كما تنتقل أمواج البحر والريح الذي أصاب عاداً هو الريح الدَّبور ، وهو الذي يهبّ من جهة مغرب الشمس ، سميت دبوراً بفتح الدال وتخفيف الباء لأنها تهبّ من جهة دُبر الكعبة قال النبي صلى الله

عليه وسلم ﴿ نُصِرتُ بالصبا وأهلكتْ عاد بالدبور ﴾ وإنما كانت الريح التي أصابت عاداً بهذه القوة بسبب قوة انضغاط في الهواء غير معتاد فإن الانضغاط يصير الشيء الضعيف قوياً ، كما شوهد في عصرنا أن الأجسام الدقيقة من أجزاء كيمياوية تسمى الذَّرة تصير بالانضغاط قادرة على نسف مدينة كاملة ، وتسمى الطاقة الذَّرية ، وقد نُسف بها جزء عظيم من بلاد اليابان في الحرب العامة .

والصرصر : الريح العاصفة التي يكون لها صرصرة ، أي دويّ في هبوبها من شدة سرعة تنقلها .

وتضعيف عينه للمبالغة في شدتها بين أفراد نوعها كتضعيف كبكب للمبالغة في كَبّ .

وأصله صَرَّ ، أي صاح ، وهو وصف لا يؤنث لفظه لأنه لا يجري إلا على الريح وهي مقدرة التأنيث .

(279/680)

والنحسات بفتح النون وسكون الحاء : جمع نَحس بدون تأنيث لأنه مصدر أو اسم مصدر لفعل نَحِس كعَلِم ، كقوله تعالى : ﴿ في يوم نحس مستمر ﴾ [القمر : 19] .

وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بسكون الحاء .

ويجوز كسر الحاء وبه قرأ البقية على أنه صفة مشبهة من (نَحِس) إذا أصابه النحْس إصابة سوء أو ضر شديد .

وضده البخت في أوهام العامة ، ولا حقيقة للنحس ولا للبخت ولكنهما عارضان للإنسان ، فالنحس يَعرض له من سوء خِلقه مزاجه أو من تفريطه أو من فساد بيئته أو قومِه ، والبخت يعرض من جراء عكس ذلك .

وبعض النوعين أمور اتفاقية وربما كان بعضها جزاءً من الله على عمل خيرٍ أو شر من عباده أو في دينه كما حل بعاد وأهل الجاهلية .

وعامة الأمم يتوهمون النحس والبخت من نوع الطِّيرَة ومن التشاؤم والتيمّن ، ومنه الزجر والعيافة عند العرب في الجاهلية ومنه تَطَلُّع الحدثَان من طوالع الكواكب والأيامِ عند معظم الأمم الجاهلة أو المختلَّة العقيدة .

وكل ذلك أبطله الإسلام ، أي كشف بطلانه ، بما لم يسبقه تعليم من الأديان التي ظهرت قبل الإِسلام .

فمعنى وصف الأيام بالنحسات : أنها أيام سوء شديد أصابهم وهو عذاب الريح ، وهي ثمانية أيام كما جاء في قوله تعالى : ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ [الحاقة : 7] ، فالمراد : أن تلك الأيام بخصوصها كانت نحساً وأن نَحْسها عليهم دون غيرهم من أهل الأرض لأن عاداً هم المقصودون بالعذاب .

وليس المراد أن تلك الأيام من كل عام هي أيام نحس على البشر لأن ذلك لا يستقيم لاقتضائه أن تكون جميع الأمم حلّ بها سوء في تلك الأيام .

ووُصفت تلك الأيام بأنها ﴿ نَّحِسَاتٍ ﴾ لأنها لم يحدث فيها إلا السوء لهم من إصابة آلام الهَشْم المحققِ إفضاؤه إلى الموت ، ومشاهدة الأموات من ذويهم ، وموت أنعامهم ، واقتلاع نخيلهم .

(280/680)

وقد اخترع أهل القصص تسمية أيام ثمانية نصفُها آخر شهر (شُباط) ونصفها شهر (آذار) تكثر فيها الرياح غالباً دَعَوها أيام الحسوم ثم ركبوا على ذلك أنها الموصوفة بحسوم في قوله تعالى في سورة الحاقة (7) ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ فزعموا أنها الأيام الموافقة لأيام الريح التي أصابت عاداً ، ثم ركَّبوا على ذلك أنها أيام نحس من كل عام وكَذَبوا على بعض السلف مثل ابن عباس أكاذيب في ذلك وذلك ضغْث على إبالة ، وتفنن في أوهام الضلالة .

وجُمع ﴿ نّحِسَاتٍ ﴾ بالألف والتاء لأنه صفة لجمعِ غير العاقل وهو ﴿ أَيَّامٍ ﴾ .

واللام في ﴿ لِنُذِيقَهُم ﴾ للتعليل وهي متعلقة بـ (أرسلنا) .

والإِذاقة تخييل لمكنية ، شُبه العذاب بطعام هُيِّىء لهم على وجه التهكم كما سمَّى عمرو بن كلثوم الغارة قِرَى في قوله :

قرينَاكُمْ فعجَّلْنَا قِراكم

قُبيل الصُّبح مِردَاةً طَحُونا . . .

والإِذاقة : تخييل من ملائمات الطعام المشبه به .

والخزي : الذلّ .

وإضافة ﴿ عَذَابَ ﴾ إلى ﴿ الخِزْيِ ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة بدليل مقابلته بقوله : ﴿ ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أخزى ﴾ ، أي أشد إخزاء من إخزاء عذاب الدنيا ، وذلك باعتبار أن الخزي وصف للعذاب من باب الوصف بالمصدر أو اسم المصدر للمبالغة في كون ذلك العذاب مخزياً للذي يعذب به .

ومعنى كون العذاب مخزياً : أنه سببُ خزي فوصْفُ العذاب بأنه خزي بمعنى مُخز من باب المجازِ العقلي ، ويُقدر قبل الإضافة : لنذيقهم عذاباً خزياً ، أي مُخْزياً ، فلما أريدت إضافة الموصوف إلى صفته قيل : ﴿ عذابَ الخزي ﴾ ، للمبالغة أيضاً لأن إضافة الموصوف إلى الصفة مبالغة في الاتصاف حتى جعلت الصفة بمنزلة شخص آخر يضاف إليه الموصوف وهو قريب من محسّنِ التجريد فحصلت مبالغتان في قوله : ﴿ عَذَابَ الخِزْيِ ﴾ مبالغةُ الوصف بالمصدر ، ومبالغة إضافة الموصوف إلى الصفة .

وجملة ﴿ ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أخزى ﴾ احتراس لئلا يحسِب السامعون أن حظ أولئك من العقاب هو عذاب الإهلاك بالريح فعطف عليه الإخبار بأن عذاب الآخرة أخزَى ، أي لهم ولكل من عذّب عذاباً في الدنيا لغضب الله عليه .

وأخْزى : اسم تفضيل جرى على غير قياس ، وقياسه أن يقال : أشد إخزاء ، لأنه لا يقال : خَزاه ، بمعنى أخزاه ، أي أهانه ، ومثل هذا في صوغ اسم التفضيل كثير في الاستعمال .

وجملة ﴿ وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ ﴾ تذييل ، أي لا ينصرهم من يدفع العذاب عنهم ، ولا من يشفع لهم ، ولا من يخرجهم منه بعد مهلة .

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17)

بقية التفصيل الذي في قوله : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ [فصلت : 15] .

ولما كان حال الأمتين واحداً في عدم قبول الإرشاد من جانب الله تعالى كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً ﴾ [فصلت : 14] كان الإخبار عن ثمود بأن الله هَداهم مقتضياً أنه هدَى عاداً مثل ما هدى ثمود وأن عاداً استحبوا العَمى على الهدى

مثل ما استحبت ثمود .

والمعنى : وأما ثمودُ فهديناهم هداية إرشاد برسولنا إليهم وتأييده بآية الناقة التي أخرجها لهم من الأرض .

فالمراد بالهداية هنا : الإرشاد التكليفي ، وهي غير ما في قوله : ﴿ ومن يهد اللَّه فما له من مضل ﴾ [الزمر : 37] فإن تلك الهداية التكوينية لمقابلته بقوله : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر : 33] .

واستحبوا العمى معناه : أحبّوا ، فالسين والتاء للمبالغة مثلهما في قوله : ﴿ فاستكْبُروا في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ ﴾ [فصلت : 15] ، أي كان العمى محبوباً لهم .

والعمى : هنا مستعار للضلال في الرأي ، أي اختاروا الضلال بكسبهم .

(282/680)

وضُمن (استحبوا) معنى : فَضَّلوا ، وَهَيَّأَ لهذا التضمين اقترانُه بالسين والتاء للمبالغة لأن المبالغة في المحبة تستلزم التفضيل على بقية المحبوبات فلذلك عدّي (استحبوا) بحرف ﴿ على ﴾ ، أي رجحوا باختيارهم .

وتعليق ﴿ عَلَى الهدى ﴾ بفعل (استحبوا) لتضمينه معنى : فضّلوا وآثروا .

وفُرِع عليه ﴿ فَأَخَذَتْهُم صاعقة العَذَابِ الهُونِ ﴾ ، وكان العقاب مناسباً للجُرم لأنهم استحبوا الضلال الذي هو مثل العمى ، فمن يستحبه فشأنه أن يحب العمى ، فكان جزاؤهم بالصاعقة لأنها تُعمِي أبصارهم في حين تهلكهم قال تعالى : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ [البقرة : 20] .

والأخذ : مستعار للإصابة المهلكة لأنها اتصال بالمُهلَك يُزيله من الحياة فكأنه أخذ باليد .

والصاعقة : الصيْحة التي تنشأ في كهربائية السحاب الحامل للماء فتنقدح منها نار تهلك ما تصيبه .

وإضافة ﴿ صاعقة ﴾ إلى ﴿ العَذَابِ ﴾ للدلالة على أنها صاعقة تُعَرّف بطريق الإضافة إذ لا يُعرِّفَ بها إلا ما تضاف إليه ، أي صاعقة خارقة لمعتاد الصواعق ، فهي صاعقة مسخرة من الله لعذاب ثمود ، فإن أصل معنى الإضافة أنها بتقدير لام الاختصاص فتعريف المضاف لا طريق له إلا بيان اختصاصه بالمضاف إليه .

و﴿ العذاب ﴾ هو : الإهلاك بالصعق ، ووصف بـ ﴿ الهُونِ ﴾ كما وصف العذاب بالخزي في قوله : ﴿ لنُذيقَهُم عَذَابَ الْخِزي ﴾ [فصلت : 16] ، أي العذاب الذي هو سبب الهُون .

و﴿ الهُون ﴾ : الهوان وهو الذل ، ووجه كونه هَواناً أنه إهلاك فيه مذلة إذ استُؤْصلوا عن بكرة أبيهم وتُركوا صرعى على وجه الأرض كما بيناه في مهلك عاد .

أي أخذتهم الصاعقة بسبب كسبهم في اختيارهم البقاء على الضلال بإعراضهم عن دعوة رسولهم وعن دلالة آياته .

ويعلم من قوله في شأن عاد ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى ﴾ [فصلت : 16] أن لثمود عذاباً في الآخرة لأن الأمتين تماثلتا في الكفر فلم يذكر ذلك هنا اكتفاء بذكره فيما تقدم .

(283/680)

وهذا مُحسِّن الاكتفاء ، وهو محسِّن يرجع إلى الإيجاز .

وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18)

الأظهر أنه عطف على التفصيل في قوله : ﴿ فأمَّا عَاد فاستكبروا ﴾ [فصلت : 15] وما عطف عليه من قوله : ﴿ وأَمَّا ثَمُودُ فهديناهم ﴾ [فصلت : 17] لأن موقع هاته الجملة المتضمنة إنجاءَ المؤمنين من العذاب بعد أن ذُكر عذاب عاد وعذاب ثمود يشير إلى أن المعنى إنجاء الذين آمنوا من قوم عاد وقوم ثَمود ، فمضمون هذه الجملة فيه معنى استثناء من عموم أمتيْ عاد وثمود فيكون لها حكم الاستثناء الوارد بعد جُمل متعاقبة أنه يعود إلى جميعها فإن جملتي التفصيل هما المقصود ، قال تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ [هود : 58] وقال : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا صالحاً

والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ [هود : 66] .

وقد بينا في سورة هود كيف أنجى الله هوداً والذين آمنوا معه ، وصالحا والذين آمنوا معه .

وقوله : ﴿ وكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ ، أي كان سنتهم اتقاء الله والنظرُ فيما ينجي من غضبه وعقابه ، وهو أبلغ في الوصف من أن يقال : والمتقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 25 صـ ﴾

(284/680)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات ﴾

فلا ريب أن الأيام التي أوقع الله سبحانه فيها العقوبة بأعدائه وأعداء رسله كانت أياما نحسات عليهم لأن النحس أصابهم فيها وإن كانت أيام خير لأوليائه المؤمنين فهي نحس على المكذبين سعد المؤمنين وهذا كيوم القيامة فإنه عسير على الكافرين يوم نحس لهم يسير على المؤمنين يوم سعد لهم قال مجاهد أيام نحسات مشائيم وقال الضحاك معناه شديد أي البرد حتى كان البرد عذابا لهم قال أبو علي وأنشد الاصمعي في النحس بمعنى

البرد :

كان سلافة عرضت بنحس . . . يحيل شفيفها الماء الزلالا

وقال ابن عباس نحسات متتابعات وكذلك قوله إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر وكان اليوم نحسا عليهم لإرسال العذاب عليهم أي لا يقلع عنهم كما تقلع مصائب الدنيا عن أهلها بل هذا النحس دائم على هؤلاء المكذبين للرسل ومستمر صفة للنحس لا لليوم ومن ظن أنه صفة لليوم وانه كان يوم أربعاء آخر الشهر وأن هذا اليوم نحس أبدا فقد غلط واخطأ فهم القرآن فان اليوم المذكور بحسب ما يقع فيه وكم لله من نعمة على أوليائه في هذا اليوم وان كان له فيه بلايا ونقم على أعدائه كما يقع ذلك في غيره من الأيام فسعود الأيام ونحوسها إنما هو بسعود الأعمال وموافقتها لمرضاة الرب ونحوس الأعمال مخالفتها لما جاءت به الرسل واليوم الواحد يكون يوم سعد لطائفة ونحس لطائفه كما كان يوم بدر يوم سعد للمؤمنين ويوم نحس على الكافرين فما للكوكب والطالع والقرانات وهذا السعد والنحس وكيف يستنبط علم أحكام النجوم من ذلك ولو كان المؤثر في هذا النحس هو نفس الكوكب والطالع لكان نحسا على العالم فأما أن يقتضي الكوكب كونه نحسا لطائفة سعدا لطائفة فهذا هو المحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفتاح دار السعادة حـ 1 صـ 194﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة فصلت

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

أفلح من عرف " بسم الله " ، وما ربح من بقي عن " بسم الله "

من صحب لسانه " بسم الله " وصحب جنانه " بسم الله " كفى له شفيعا " بسم الله " إلى

من يعيدنا بذكر " بسخم الله "

قوله جل ذكره : (حم تنزيل من الرحمن الرحيم)

بحقي وحياتي ، ومجدي في صفاتي وذاتي . . هذا تنزيلٌ من الرحمن الرحيم .

كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3)

بُيِّنَتْ آياتُه ودلالاتُه .

﴿ وقُرْءَاناً عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ : الدليل منصوبٌ للكافة ولكنَّ الاستبصار به للعالِمين –

دون المُعْرِضين الجاحدين .

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4)

﴿ بَشِيراً ﴾ : لِمَنْ اخترناهم واصطفيناهم .

﴿ وَنَذِيراً ﴾ : لِمَنْ أقميناهم ، وعن شهودِ آياتنا أعميناهم .

﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ عند دعائنا إياهم ، فهم مُثْبَتُون فيما أردناهم ، وعلى ذلك (الوصف) عَلِمْناهم .

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5)

قالوا ذلك على الاستهانة والاستهزاء ، ولو قالوه عن بصيرةٍ لكان ذلك منهم توحيداً ، فمُنُوا بالمَقْتِ لما فقدوا من تحقيق القلب .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6)

(286/680)

إنما أنا بَشَرٌ مثلكم في الصورة والبِنْية ، والذات والخِلقة . والفرقَانُ بيني وبينكم أَنَّه يُوحَى إليَّ أنما إلهكم إله واحد ؛ فالخصوصية مِنْ قِبَله لا مِنْ قِبَلي ، ولقد بَقِيتُ فيكم عمراً ، ولقيتموني جهراً . . فما عثرتم مني على غير صواب ، ولا وجدتم في قولي شوب كذاب . وأمري إليكم أن استقيموا في طاعته ، واستسلموا لأمره . . . وطوبى لِمَن أجاب ، والويلُ

لِمَنْ أصرَّ وعاب ! .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8)

﴿ ءَامِناً ﴾ : شاهدوا ، ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ : لازموا بساط العبودية .

﴿ ءَامَنُواْ ﴾ : شهدوا الحضرة ، ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ : وقفوا بالباب .

﴿ ءَامَنُواْ ﴾ : حضروا ، ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ : بعد ما حضروا لم ينصرفوا .

﴿ لَهُمْ أَجرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ : غير منقوص ؛ فأجرُ النفوسِ الجنةُ ، وأجرُ القلوب الرضا بالله ، وأجرُ الأرواح الاستئناسُ بالله ، وأجرُ الأسرار دوام المشاهدة لله .

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9)

خَلَقَ الزمانَ ولم يكن قبله زمان ، وخَلَقَ المكان ، ولم يكن قبله مكان ؛ فالحقُّ -سبحانه- كان ولا مكان ولا زمان ، فهو عزيزٌ لا يُدْرِكُه المكانُ ، ولا يَمْلِكُه الزمان .

﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ﴾ . . . وكيف يكون الذي لم يكن ثم حصل نِدًّا للذي لم يَزَلْ . . . ولا يزال كما لم يزل ؟ ! ذلك ربُّ العالمين .

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10)

الجبالُ أوتادُ الأرضِ في الصورة ، والأولياءُ أوتادٌ ورواسٍ للأرض في الحقيقة .

﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ : البركةُ الزيادة . . فيأتيهم المطرُ ببركاتِ الأولياء ، ويندفع عنهم البلاء ببركات الأولياء .

﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ : وجعلها مختلفةً في الطَّعْمِ والصورةِ والمقدار . وأرزاقُ القلوبِ والسرائر كما مضى ذكره فيما تقدم .

ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11)

﴿ اسْتَوَى ﴾ أي قَصَدَ ، وقيل فعل فعلاً هو الذي يعلم تعيينه .

ويقال رتَّبَ أقطارها ، وركَّبَ فيها نجومَها وأزهارَها .

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ : هذا على ضرب المَثَل ؛ أي لا يتعسَّر عليه شيءٌ مما خلقه ، فله مِنْ خَلْقِه ما أراده . وقيل بل أحياهما وأعقلهما وأنطقهما فقالتا ذلك . وجعل نفوسَ العابدين أرضاً لطاعته وعبادته ، وجعل قلوبهم فَلَكاً لنجومِ علمه وشموسِ معرفته .

وأوتادُ النفوسِ الخوفُ والرجاءُ ، والرغبةُ والرهبة . وفي القلوب ضياءُ العرفانِ ، وشموس التوحيد ، ونجوم العلوم والعقولِ والنفوسِ . والقلوبُ بيده يُصَرِّفُها على ما أراد من أحكامه .

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)

زَيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح ، وزَيَّنَ وجهَ الأرضِ بمصابيحَ هي قلوب الأحباب ؛ فأهلُ السماء إذا نظروا إلى قلوب الأولياء بالليل فذلك متنزههم كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء استأنسوا برؤية الكواكب .

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13)

أي أخْبِرْ المُكَذِّبين لَكَ أنَّ لكم سَلَفاً . . فإن سلكتم طريقهم في العناد ، وأبيتم إلاَّ الإصرار ألحقناكم بأمثالكم .

(288/680)

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15)

ركنوا إلى قوة نفوسهم فخانتهم قواهم ، واستمكنت منهم بلواهم .

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (16)

فلم يغادر منهم أحداً .

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (18)

قيل إنهم في الابتداء آمنوا وصدّقوا ، ثم ارتدُّوا وكذَّبوا ، فأجراهم مجرى إخوانهم في الاستئصال .

﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ : منهم من نجَّاهم من غير أن رأوا الناس ؛ فعبروا القنطرة ولم يعلموا ، وقومٌ كالبرق الخاطف وهم أعلاهم ، وقومٌ كالراكض . . وهم أيضاً من الأكابر ، وقومٌ على الصراط يسقطون ويردُّهم الملائكة على الصراط . فبعد وبعد . . قومٌ بعد ما دخلوا النار فمنهم من تأخذه إلى كعبيه ثم إلى ركبتيه ثم إلى حَقْوَيه ، فإذا ما بلغت النار القلب قال الحقُّ لها : لا تحرقي قلبه ؛ فإنه محترقٌ فيَّ . وقومٌ يخرجون من النار بعد ما امْتُحِشوا فصاروا حُمَماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 319 . 324 ﴾

(289/680)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman

Bin Mohammed

AL-QAMMASH

34